الفتوحات المكية

للشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين محمد بن علي
بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي "المعروف بابن عربي"
المتوفى سنة ٦٣٨ هـ

ضبطه وصححه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدين

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الفُتُوحَاتُ المَكِّيَّة

للشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدّين محمّد بن علي
بن محمّد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي "المعروف بابن عربي"
المتوفّى سنة ٦٣٨ هـ

ضبطه وصحّحه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدّين

المجلّد الأوّل

منشورات
محمّد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الفتوحات المكية

تأليف

الشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين
محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي
المعروف بابن عربي
المتوفى سنة ٦٣٨هـ

ضبطه وصححه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدين

الجزء الاول

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ترجمة ابن عربي(*)

نسبه

هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي من ولد عبد الله بن حاتم أخي عديّ بن حاتم من قبيلة طيّ مهد النبوغ والتفوق العقلي في جاهليّتها وإسلامها. يكنى أبا بكر ويلقب بمحيي الدين، ويعرف بالحاتمي وبابن عربي لدى أهل المشرق تفريقاً بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي.

مولده ونشأته:

ولد في يوم الاثنين السابع عشر من رمضان عام خمسمائة وستين هجرية الموافق ٢٨ يولية سنة ألف ومائة وخمس وستين ميلادية في مدينة «مرسية» بالأندلس، وهي مدينة أنشأها المسلمون في عهد بني أمية. وكان أبوه علي بن محمد من أئمة الفقه والحديث، ومن أعلام الزهد والتقوى والتصوف. وكان جده أحد قضاة الأندلس وعلمائها، فنشأ نشأة تقيّة ورعة نقيّة من جميع الشوائب الشائبة. وهكذا درج محيي الدين في جو عامر بنور التقوى، فيه سباق حر مشرق نحو الشرفات العليا للإيمان، وفيه عزمات لرجال أقوياء ينشدون نصراً وفوزاً في محاريب الهدى والطاعة.

وانتقل والده إلى إشبيلية، وحاكمها إذ ذاك السلطان محمد بن سعد، وهي عاصمة من عواصم الحضارة والعلم في الأندلس، وفيها شب محيي الدين ودرج. وما كاد لسانه يبين حتى دفع به والده إلى أبي بكر بن خلف عميد الفقهاء، فقرأ عليه القرآن الكريم بالسبع في كتاب «الكافي»، فما أتم العاشرة من عمره حتى كان مبرزاً في القراءات ملهماً في المعاني والإشارات. ثم أسلمه والده إلى طائفة من رجال الحديث والفقه، يذكرهم لنا الإمام شمس الدين بن مسدي في روايته عن محيي الدين فيقول واصفاً متحدثاً عن أساتذته الأول: «كان جميل الجملة والتفصيل، محصلاً لفنون العلم أخص تحصيل، وله في الأدب الشأو الذي لا يلحق، والتقدم الذي لا يسبق، سمع في بلاده في شبابه الباكر من ابن زرقون، والحافظ ابن الجد، وأبي الوليد الحضرمي، والشيخ أبي الحسن بن نصر». ثم لا يذكر لنا التاريخ بعد ذلك شيئاً ذا بال عن شباب محيي الدين، ولا عن شيوخه، ومقدار ما حصل من العلوم والفنون؛

(*) مقتبسة من بحث للدكتور محمد غلاب بعنوان «المعرفة عند محيي الدين بن عربي» ضمن «الكتاب التذكاري لمحيي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده» الصادر عن الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٦٩م.

وإنما هو يحدثنا أنه مرض في شبابه مرضاً شديداً. وفي أثناء شدة الحمى رأى في المنام أنه محوط بعدد ضخم من قوى الشر، مسلحين يريدون الفتك به. وبغتة رأى شخصاً جميلاً قوياً مشرق الوجه، حمل على هذه الأرواح الشريرة ففرّقها شذر مذر، ولم يبق منها أي أثر، فيسأله محيي الدين من أنت؟ فقال له أنا سورة يس.

وعلى أثر هذا استيقظ فرأى والده جالساً إلى وسادته يتلو عند رأسه سورة يس. ثم لم يلبث أن برىء من مرضه، وألقي في روعه أنه معدّ للحياة الروحية، وآمن بوجوب سيره فيها إلى نهايتها ففعل.

وفي طليعة هذا الشباب المزهر بفضل ثروة أسرته تزوج بفتاة تعتبر مثالاً في الكمال الروحي والجمال الظاهري وحسن الخلق، فساهمت معه في تصفية حياته الروحية، بل كانت أحد دوافعه إلى الإمعان فيها.

وفي هذه الأثناء كان يتردد على إحدى مدارس الأندلس التي تعلم سراً مذهب الأمبيذوقلية المحدثة المفعمة بالرموز والتأويلات الموروثة عن الفيثاغورية والأورفيوسية والفطرية الهندية. وكانت هذه المدرسة هي الوحيدة التي تدرس لتلاميذها المبادىء الخفية والتعاليم الرمزية منذ عهد ابن مسرة المتوفى بقرطبة في سنة ٣١٩هـ ـ ٩٣١م والذي لم يعرف المستشرقون مؤلفاته إلاّ عن طريق محيي الدين. وكان أشهر أساتذة تلك المدرسة في ذلك القرن ابن العريف المتوفى في سنة ١١٤١ م فلم يره محيي الدين، ولكنه تتلمذ على منتجاته وعلى رواية تلميذه المباشر وصديق محيي الدين الوفي أبي عبد الله الغزال.

ومما لا ريب فيه أن استعداده الفطري ونشأته في هذه البيئة التقية، واختلافه إلى تلك المدرسة الرمزية، كل ذلك قد تضافر على إبراز هذه الناحية الروحية عنده في سن مبكرة وعلى صورة ناصعة لا تتيسر للكثيرين ممن تشوب حياتهم الأولى شوائب الغرائز والنزوات. فلم يكد يختتم الحلقة الثانية من عمره حتى كان قد انغمس في أنوار الكشف والإلهام، ولم يشارف العشرين حتى أعلن أنه جعل يسير في الطريق الروحاني بخطوات واسعة ثابتة، وأنه بدأ يطلع على أسرار الحياة الصوفية، وأن عدداً من الخفايا الكونية قد تكشف أمامه، وأن حياته منذ ذلك العهد المبكر لم تعد سوى سلسلة من البحث المتواصل عما يحقق الكمال لتلك الاستعدادت الفطرية التي تنير أضواؤها جوانب عقله وقلبه. ولم يزل عاكفاً على ذلك النشاط الروحاني حتى ظفر بأكبر قدر ممكن من الأسرار. ولم تكن آماله في التغلغل إلى تلك الأسرار وبحوثه عن وسائلها الضرورية تقف عند حد، لأنه أيقن منذ نعومة أظفاره بأنه مؤمن بمبادىء عقيدة حقيقية أزلية مرت بجميع الأزمان الكونية، وطافت بكل الأجناس البشرية متممة ما فيها من نقص وقصور، وأنها جمعت كل الروحانيات في الوحدة الفطرية التي تتمثل من حين إلى آخر في صور تنسكية رفيعة تبدو على مسرح الإنسانية ردحاً من الزمن ثم تختفي، ولا يدرك حقيقتها إلا القليلون.

وأكثر من ذلك أنه حين كان لا يزال في قرطبة قد تكشف له من أقطاب العصور البائدة

عدد من حكماء الهند وفارس والإغريق كفيثاغورس، وأمبيذوقليس، وأفلاطون ومن إليهم ممن ألقيت على كواهلهم مسؤولية القطبية الروحية في عصورهم المتعاقبة قبل ظهور الإسلام. وهذا هو السبب في أنه قد شغف بأن يطلع على جميع الدرجات التنسكية في كل الأديان والمذاهب عن طريق أرواح رجالها الحقيقيين بهيئة مباشرة، وبصورة مؤسسة على الشرف العلمي الذي يحمل الباحث النزيه على الاعتماد عليه دون أدنى تردد أو ارتياب.

غير أن هذه السكينة الروحانية التي بدأت لدى هذا الشاب مبكرة والتي كانت ثمارها فيما بعد تتمثل في تلك المعرفة التي أشرنا إليها آنفاً، لم تدم طويلاً على حالة واحدة، إذ أنه لم يلبث أن تبين أول الأمر بالإلهام، ثم عن طريق الكشف الجلي أنه لم يعد له بدّ ـ في تلك البيئة المغربية إذ ذاك ـ من أحد أمرين: إما أن يجاري التيار العام الذي كان يحدق به إحداق السوار بالمعصم، وهو أن يتقيد في جميع أفكاره وتعقلاته وأحاسيسه ومشاعره وحركاته وسكناته بحرفية الدين التي لا روح فيها ولا حياة ولا سرّ ولا رمز ولا تأويل، وبهذا تختفي شخصيته الحقيقية وتفشل رسالته الطبيعية، وهذا شيء لا يستطيعه بأي حال، وإما أن يسير على فطرته وحسب تكوين عقله وقلبه فيصطدم في كل خطوة من خطواته مع أهل الحل والعقد في البلاد. وقد حدث ذلك فعلاً حيث احتدمت بينه وبين بعض الأمراء الموحدين مجادلات عنيفة، وحيكت حوله دسائس قوية اتهمته بإحداث اضطراب في سياسة الدولة.

وإذ ذاك رأى في حالة اليقظة أنه أمام العرش الإلهي المحمول على أعمدة من لهب متفجر، ورأى طائراً جميلاً بديع الصنع يحلق حول العرش ويصدر إليه الأمر بأن يرتحل إلى الشرق وينبئه بأنه سيكون هو مرشده السماوي، وبأن رفيقاً من البشر يدعى فلاناً ينتظره في مدينة فاس، وأن هذا الأخير قد أمر هو أيضاً بهذه الرحلة إلى الشرق، ولكنه يجب ألا يرتحل قبل أن يجيء إليه رفيق من الأندلس، فيفعل ما أمر به ويرتحل بصحبة هذا الرفيق.

وفيما بين سنتي ٥٩٧، ٦٢٠ هـ ١٢٠٠، ١٢٢٣ م يبدأ رحلاته الطويلة المتعددة إلى بلاد الشرق فيتجه في سنة ١٢٠١م إلى مكة فيستقبله فيها شيخ إيراني وقور جليل عريق المحتد ممتاز في العقل والعلم والخلق والصلاح. وفي هذه الأسرة التقية يلتقي بفتاة تدعى «نظاما» وهي ابنة ذلك الشيخ، وقد حبتها السماء بنصيب موفور من المحاسن الجسميّة، والميزات الروحانية الفائقة، فاتخذ منها محيي الدين رمزاً ظاهرياً للحكمة الخالدة، وأنشأ في تصوير هذه الرموز قصائد سجلها في ديوان ألفه في ذلك الحين.

وفي هذه البيئة النقية المختارة له من قبل سطعت مواهبه العقلية والروحية، وتركزت حياته الصوفية، وجعلت تصعد في معارج القدس شيئاً فشيئاً حتى بلغت شأواً عظيماً. ومن ذلك أنه في إحدى طوفاته التأملية والبدنيّة بالكعبة يلتقي من جديد بمرشده السماوي الذي أمره سالفاً بالهجرة من الأندلس والمغرب إلى الأصقاع الشرقية، فيتلقى منه الأمر أيضاً بتأليف كتابه الجامع الخالد «الفتوحات المكية» الذي ضمنه أكثر وأهم آرائه الصوفية والعقلية ومبادئه

الروحية، والذي لا يتطاول إلى قمته في عصره أي كتاب آخر فيما نعلم من إنتاج هذا الصنف من المتنسكين.

وفي سنة ١٢٠٤ م يرتحل إلى الموصل حيث تجتذبه تعاليم الصوفي الكبير علي بن عبد الله بن جامع الذي تلقى لبس الخرقة عن الخضر مباشرة، ثم ألبس محيي الدين إياها بدوره.

وفي سنة ١٢٠٦ م نلتقي به في القاهرة مع فريق من الصوفية الذين يطبقون حياة تنسكية قوية محافظة. وهنا يظهر له رائد سماوي يأمره بإدخال شيء من الكمال على مذهبه، ولكنه لا يكاد يفعل حتى يتنمر له عدد من الفقهاء يحيكون حوله وحول أصحابه شباكاً من الدسائس تهدّد اطمئنانهم بل حياتهم، ولولا نفوذ أحد أصدقائه لوقع في ذلك الخطر، ولكنه لحسن حظه يستطيع أن ينجو بنفسه ويفر إلى مكة في سنة ١٢٠٧ م فيلتقي فيها بأصدقائه القدماء الأوفياء، ويقيم بينهم في هدوء وسكينة نحو ثلاثة أعوام، ثم يرتحل إلى قونية بتركيا حيث يتلقاه أميرها السلجوقي باحتفال بهيج.

وهناك يتزوج بوالدة صدر الدين القونيوي، وهو أحد تلاميذه المفضلين ثم لا يلبث أن يرتحل إلى أرمينيا، ومنها إلى شاطىء الفرات.

وفي سنة ١٢١١ م نلتقي به في بغداد حيث يتصل بالصوفي المعروف شهاب الدين عمر السهروردي.

وفي سنة ١٢١٤ م يعود إلى مكة ولا يكاد يستقر فيها حتى يجد أن عدداً من فقهائها المنافقين الدساسين قد جعلوا يشوهون سمعته ويرمونه بأن قصائده التي نشرها في ديوانه الرمزي منذ ثلاثة عشر عاماً كانت تصور غرامه المادي الواقعي بالفتاة «نظام» ابنة صديقه الشيخ الإيراني التي أشرنا آنفاً إلى أنه اتخذ منها رمزاً نقياً للحكمة الخالدة. وعندما تبيّن هذه التهمة الرخيصة وعرف مصادرها الحقيقية حمل عليها وعلى واضعيها حملة قوية كشفت زيفها للجميع بصورة جعلت القائمين بها يعترفون بأخطائهم ويعتذرون إليه عنها.

وبعد ذلك يرتحل إلى حلب فيقيم بها ردحاً من الزمن معززاً مكرماً من أميرها. وأخيراً يلقي عصا التسيار في دمشق في سنة ١٢٢٣ م حيث كان أميرها أحد تلاميذه المؤمنين بعلمه ونقائه ويظل بها يؤلف ويعلم، ويخرج التلاميذ والمريدين يحوطه الهدوء وتحف به السكينة حتى يتوفى بها في ٢٨ ربيع الثاني من سنة ٦٣٨ هـ الموافق ١٦ نوفمبر من سنة ١٢٤٠ م.

مؤلفاته وشيوخه(*)

قال الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني في كتابه «جامع كرامات الأولياء» ضمن ترجمته للشيخ ابن عربي:

وقد اطلعت له على إجازة أجاز بها الملك المظفر ابن الملك العادل الأيوبي، ذكر فيها كثيراً من مشايخه ومؤلفاته، ولتمام الفائدة أذكرها هنا بحروفها فأقول: قال رضي الله عنه: بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين: أقول وأنا محمد بن عليّ بن العربي الطائي الأندلسي الحاتمي، وهذا لفظي: استخرت الله تعالى، وأجزت السلطان الملك المظفر بهاء الدين غازي، ابن الملك العادل المرحوم إن شاء الله تعالى أبي بكر بن أيوب وأولاده، ولمن أدرك حياتي الرواية عني في جميع ما رويته عن أشياخي، من قراءة وسماع ومناولة وكتاب وإجازة، وجميع ما ألفته وصنفته من ضروب العلم، وما لنا من نثر ونظم على الشرط المعتبر بين أهل هذا الشأن، وتلفظت بالإجازة عند تعبيري هذا الخط، وذلك في غرة محرم سنة ٦٣٢ بمحروسة دمشق وكان قد سألني في استدعائه أن أذكر من أسماء شيوخي ما تيسر لي ذكره منهم، وبعض مسموعاتي، وما تيسر من أسماء مصنفاتي، فأجبت استدعاءه نفعه الله تعالى بالعلم، وجعلنا وإياه من أهله، إنه وليّ كريم.

فمن شيوخنا أبو بكر بن أخلف اللخمي، قرأت عليه القرآن الكريم بالقراءات السبع بكتاب الكافي لأبي عبد الله محمد بن شريح الرعيني في مذاهب القراء السبعة المشهورين، وحدثني عن ابن المؤلف.

ومن شيوخنا في القراءة أبو الحسن شريح بن محمد بن محمد بن شريح الرعيني، عن أبيه المؤلف.

ومن شيوخنا في القرآن أيضاً أبو القاسم عبد الرحمن بن غالب الشراط، من أهل قرطبة، قرأت عليه أيضاً القرآن الكريم بالكتاب المذكور وحدثني أيضاً عن ابن المؤلف أبي الحسن شريح عن أبيه المؤلف محمد بن شريح المقري.

ومن شيوخنا القاضي أبو محمد عبد الله البازلي قاضي مدينة فاس، حدثني بكتاب «التبصرة في مذاهب القراء السبعة» لأبي محمد مكي المقري عن أبي بحر سفيان ابن القاضي، عن المؤلف بجمع تآليف مكي أيضاً، وأجازني إجازة عامة.

(*) انظر جامع كرامات الأولياء (ج١ ص١٦٣ ـ ١٦٩).

ومن شيوخنا القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي حمزة، سمعت عليه كتاب التيسير في مذاهب القراء السبعة لأبي عمرو عثمان بن أبي سعيد الداني المقري، حدثني به عن أبيه عن المؤلف وبجميع تآليف الداني وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا القاضي أبو عبد الله محمد بن سعيد بن دربون، سمعت عليه كتاب البقعي لأبي عمر يوسف بن عبد البر النميري الشاطبي، وحدثني به عن أبي عمران موسى بن أبي بكر ابن المؤلف وبجميع تآليفه مثل الاستذكار، والتمهيد، والاستيعاب، والانتقاء، وأجاز لي إجازة عامة في الروايتين، أجاز لي أن أرويه عنه وجميع تآليفه.

ومن شيوخنا المحدث أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي، حدثني بجميع مصنفاته في الحديث، وعين لي من أسمائها تلقين المبتدي، والأحكام الصغرى والوسطى والكبرى، وكتاب العاقة ونظمه ونثره، وحدثني بكتاب الإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح، عنه.

ومن شيوخنا عبد الصمد بن محمد بن محمد بن أبي الفضل الحرستاني، سمعت عليه صحيح مسلم حدثني به عن الفراوي عن عبد الغفار الجلودي، عن إبراهيم المروزي عن مسلم، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا يونس بن يحيى أبي الحسن العباسي الهاشمي نزل مكة سمعت عليه كتباً كثيرة في الحديث والرقائق، منها كتاب صحيح البخاري.

ومن شيوخنا المكيين أبو شجاع زاهد بن رستم الأصفهاني إمام المقام بالحرم، سمعت عليه كتاب الترمذي لأبي عيسى، حدثني به عن الكرخي عن الخزاعي المحبوبي عن الترمذي، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا البرهان نصر بن أبي الفتوح بن عمر الحصري إمام مقام الحنابلة بالحرم الشريف، سمعت عليه كتباً كثيرة منها السنن لأبي داود السجستاني، حدثني بها، عن أبي جعفر بن عليّ بن السمناني، عن أبي بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب، عن أبي عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمي البصري، عن أبي علي محمد بن أحمد بن عمر اللؤلؤي، عن أبي داود، وأجاز لي إجازة عامة. وحدثني بكتب ابن ثابت الخطيب عن أبي جعفر السمناني.

ومن شيوخنا سالم بن رزق الله الإفريقي، سمعت عليه كتاب المعلم بفوائد مسلم للمازري، حدثني به عنه وبجميع مصنفاته وتآليفه، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا محمد أبو الوليد بن أحمد بن محمد بن سبيل، قرأت عليه كثيراً من تآليفه، وناولني كتاب «نهاية المجتهد وكفاية المقتصد» والأحكام الشريفة من تأليفه.

ومن شيوخنا أبو عبد الله بن العزي الفاخري، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا أبو سعيد عبد الله بن عمر بن أحمد بن منصور الصفا، حدثني بكتب الواحدي كتابة عبد الجبار بن محمد بن أحمد الحواري عنه.

ومن شيوخنا أبو الوابل بن العربي، سمعت عليه سراج المهتدين للقاضي ابن العربي ابن عمه، حدثني به عنه، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا أبو الثناء محمود بن المظفر اللبان، حدثني بكتب ابن خميس عنه.

ومنهم: محمد بن محمد بن محمد البكري، سمعت عليه رسالة القشيري، وحدثني بها عن أبي الأسعد عبد الرحمن بن عبد الواحد بن عبد الكريم بن هوازن القشيري، عن جده عبد الكريم، المؤلف، وأجازني إجازة عامة.

ومنهم: ضياء الدين عبد الوهاب بن علي بن علي بن سكينة شيخ الشيوخ ببغداد، أجازني إجازة عامة، وأخذ عني وأخذت عنه، وسمعت عليه بمدينة باب السلام بحضور ابنه عبد الرزاق.

ومنهم: أبو الخير أحمد بن إسماعيل بن يوسف الطالقاني القزويني، حدثني بتآليف البيهقي وأجازني إجازة عامة.

ومنهم: أبو طاهر أحمد بن محمد بن إبراهيم وأجازني إجازة عامة.

ومنهم: أبو طاهر السلفي الأصبهاني، أجازني إجازة عامة، وهو يروي عن أبي الحسن شريح بن عمرو بن شريح الرعيني المقري، أجازني وكتب إليّ أن أروي عنه كتب عبد الرحمن السلمي، وحدثني عن محمد نصار البيهقي عنه.

ومنهم: جابر بن أيوب الحضرمي، أجازني إجازة عامة، وهو يروي عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني المقري.

وممن أجازني إجازة عامة محمد بن إسماعيل بن محمد القزويني، والحافظ الكبير ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق.

ومنهم: أبو القاسم خلف بن بشكوال.

ومنهم: القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن الشافعي.

ومنهم: يوسف بن الحسن بن أبي النقاب بن الحسين وأخوه أبو العباس أيضاً، وأجازنا أبو القاسم ذاكر بن كامل بن غالب.

ومنهم: محمد بن يوسف بن علي الغزنوي الخفّاف.

ومنهم: أبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر بن حسن بن عمر بن أحمد القرشي المياستي.

ومنهم: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الحافظ، كتب إليّ بالرواية عنه بجميع تآليفه ونظمه ونثره وسمى لنا من كتبه «صفوة الصفوة» و«مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن» وغير ذلك.

ومنهم: أبو بكر بن أبي الفتح الشيخاني.

ومنهم: المبارك بن علي بن الحسين الطباخ.

ومنهم: عبد الرحمن ابن الأستاذ، المعروف بابن علوان.

ومنهم: عبد الجليل الزنجاني.

ومنهم: أبو القاسم هبة الله بن علي بن مسعود بن شداد الموصلي.

ومنهم: أحمد بن أبي منصور.

ومنهم: محمد بن أبي المعالي عبد الله بن موهب بن جامع بن عبدون البغدادي الصوفي يعرف بابن الثناء.

ومنهم: محمد بن أبي بكر الطوسي.

ومنهم: المهذب بن علي بن هبة الله الطيب الضرير.

ومنهم: ركن الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد القاهر الطوسي الخطيب، وأخوه شمس الدين أبو عبد الله.

ومنهم: القرماني ببغداد.

ومنهم: ثابت بن قرة الحاوي، قرأت عليه من كتبه وتآليفه، ووقفها بروايتها بمسجد العمادين الجلادين بالموصل.

ومنهم: عبد العزيز بن الأخضر.

ومنهم: أبو عمر عثمان بن أبي يعلى بن أبي عمر الأبهري الشافعي من أولاد البراء بن عازب.

ومنهم: سعيد بن محمد بن أبي المعالي.

ومنهم: عبد الحميد بن محمد بن علي بن أبي المرشد القزويني.

ومنهم: أبو النجيب القزويني.

ومنهم: محمد بن عبد الرحمن بن عبد الكريم الفاسي، قرأت عليه جميع مصنفاته.

ومنهم: أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسين الرازي.

ومنهم: أحمد بن منصور الجوزي.

ومنهم: أبو محمد بن إسحاق بن يوسف بن علي.

ومنهم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحجري.

ومنهم: أبو الصبر أيوب بن أحمد المقري.

ومنهم: أبو بكر محمد بن عبيد السكسكي.

ومنهم: ابن مالك، حدثني بمقامات الحريري عن مصنفها.

ومنهم: عبد الودود بن سمحون قاضي النبك.

ومنهم: عبد المنعم بن القرشي الخزرجي.

ومنهم: علي بن عبد الواحد بن جامع.

ومنهم: أبو جعفر بن يحيى الورعي.

ومنهم: ابن هذيل.

ومنهم: أبو زيد السهيلي، حدثني بالروض الأنف في شرح السيرة والمعارف والأعلام وجميع تآليفه.

ومنهم: أبو عبيد الله بن الفخار المالقي المحدث.

ومنهم: أبو الحسن بن الصائغ الأنصاري.

ومنهم: عبد الجليل مؤلف المشكل في الحديث وشعب الإيمان.

ومنهم: أبو عبد الله بن المجاهد.

ومنهم: أبو عمران موسى بن عمران المزيلي.

ومنهم: الحاج محمد بن علي ابن أخت أبي الربيع المقومي.

ومنهم: عليّ بن النضر. ولولا خوف الملال وضيق الوقت لذكرنا جميع من سمعنا عليه ولقيناه.

وها أنا أذكر من تآليفي ما تيسّر فإنها كثيرة، وأصغرها جرماً كراسة واحدة، وأكبرها ما يزيد على مائة مجلد وما بينهما.

فمن ذلك كتاب المصباح في الجمع بين الصحاح في الحديث. اختصار مسلم. اختصار البخاري. اختصار الترمذي. اختصار المحلى. الاحتفال فيما كان عليه رسول الله ﷺ من سني الأحوال.

وأما الحقائق في طريق الله تعالى التي هي نتائج الأعمال، فمن ذلك وهو السابع كتاب من تصانيفنا «الجمع والتفصيل في أسرار معاني التنزيل» أفرغ في أربعة وستين مجلداً إلى قوله تعالى في سورة الكهف ﴿وإذْ قال موسى لفتاه لا أبرح﴾ [الكهف: ٧٠]. الجذوة المقتبسة

والخطرة المختلسة. مفتاح السعادة في معرفة الدخول إلى طريق الإرادة. المثلثات الواردة في القرآن العظيم. الأجوبة عن المسائل المنصورة. متابعة القطب. مناهج الارتقا إلى افتضاض أبكار النقا بجنان اللقا، يحوي ثلاثة آلاف مقام في طريق الله تعالى على ثلاثمائة باب، كل باب عشرة مقامات. كنه ما لا بد للمريد منه. المحكم في المحكم وأذان رسول الله ﷺ. الخلاف في آداب الملإ الأعلى. كشف الغين: سرّ أسماء الله الحسنى. شفاء العليل في إيضاح السبيل. عقلة المستوفز جلاء القلوب. التحقيق في الكشف عن سرّ الصديق. الإعلام بإشارات أهل الأوهام والإفهام في شرحه. السراج الوهاج في شرح كلام الحلاج. المنتخب في مآثر العرب. نتائج الأفكار وحدائق الأزهار. الميزان في حقيقة الإنسان. المحجة البيضاء. كنز الأبرار فيما روي عن النبي ﷺ من الأدعية والأذكار. مكافأة الأنوار فيما روي عن النبي ﷺ عن الله تعالى من الأخبار. الأربعين المتقابلة الأحاديث الأربعين في الطول. العين. التدبيرات الإلهية في إصلاح المحاكمة الإنسانية تعشق النفس بالجسم. إنزال الغيوب على سائر القلوب. أسرار قلوب العارفين. مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية. الخلاء. المنهج السديد في شرح أنس المنقطعين. الموعظة الحسنة. البغية. الدرة الفاخرة في ذكر من انتفعت به طريق الآخرة من إنسان وحيوان ونبات ومعدن. المبادي والغايات فيما في حروف المعجم من الآيات. مواقع النجوم. الإنزالات. الموجود. حلية الأبدال. أنوار الفجر. الفتوحات المكية عشرون مجلداً. تاج التراجم. الفحوص. الرصوص. الشواهد. القطب والإمامين. روح القدس. التنزلات الموصلية. إشارات القرآن في العالم والإنسان. القسم الإلهي. الأقسام الإلهية. الجمال والجلال. المقنع في إيضاح السهل المتتنع. شروط أهل الطريق. الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار. عنقاء مغرب. عقائد أهل علم الكلام. الإيجاد والكون. الرسائل. الإشارات في الأسرار. الإلهيات والكتابات. الحجة. إنشاء الجداول والدوائر. الأعلاق في مكارم الأخلاق. روضة العاشقين. الميم والواو والنون. المعارف الإلهية وهو الديوان. المبشرات. الرحلة. العوالي في أسانيد الأحاديث. الأحدية. الهوية الرحمية. الجامع وهو كتاب الجلالة العظيمة. المجد. الديمومية. الجود. القيومية. الإحسان. الفلك والسعادة. الحكمة. العزة. الأزل. النون. الإبداع. الخلق والأمر. القدم. الصادر والوارد. الملك. الوارد والواردات. القدس. الحياة. العلم. المشتبه. الفهوانية. الرقم. العين. المياه. ركن المدائن. المبادي. الزلفة. الرقيم. الدعاء. الإجابة. الرمز. الرتبة. البقاء. القدرة. الحكم والشرائع. الغيب. مفاتيح الغيب الخزائن العلمية. الرياح اللواقح. الريح العقيم. الكنز. التدبير والتفصيل. اللذة والألم. الحق. الحمد. المؤمن والمسلم والمحسن. القدر. الشأن. الوجود. التحويل. الوحي. الإنسان. التركيب. المعراج. الروايح والأنفاس. الملل. الأرواح. النحل. البرزج. الحسن. القسطاس. القلم. اللوح. التحفة والعرافة. المعرفة. الأعراف. زيادة كبد النون. الإسفار في نتائج الأسفار. الأحجار المتفجرة والمتشققة والهابطة. الجبال. الطبق. النمل. العرش.

مراتب الكشف. الأبيض. الكرسي. الفلك المشحون. الهباء. الجسم. الزمان. المكان. الحركة. العالم. الآباء العلويات والأمهات السفليات. النجم والشجر. سجود القلب. الرسالة والنبوة والمعرفة والولاية. الغايات التسعة عشر. الجنة. النار. الحضرة. المناظرة بين الإنسان الكامل. التفضيل بين الملك والبشر. المبشرات الكبرى. محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار. الأولين. العبادة. ما يعول عليه وهو كتاب النصائح. إيجاز اللسان في الترجمة عن القرآن. المعرفة. شرح الأسماء. الذخائر والأعلاق. الوسائل. النكاح المطلق. فصوص الحكم. نائج الأذكار. اختصار السيرة النبوية المحمدية. اللوامح. اللوائح. الاسم والرسم. الفصل والوصل. مراتب العلوم. الوهب. انتقاش النور. النحل. الوجد. الطالب والمجذوب. الأدب. الحال. الشريعة والحقيقة. التحكم والشطح. الحق. المخلوق. الإفراد وذوو الأعداد. الملامية. الخوف والرجاء. الفيض والبسط. الهبة والأنس. اللسانين. التواصي الليلية. الفناء والبقاء. الغيبة والحضور. الصحو والسكر. التجليات. القرب والبعد. المحو والإثبات. الخواطر. الشاهد والمشاهد. الكشف. الولد. التجريد والتفريد. العزة والاجتهاد. اللطائف والعوارف. الرياضة والتجلي. المحق والسحق. التودد والهجوم. التلوين والتمكين. اللمة والهمة. العزة والغيرة. الفتوح والمطالعات. الوقائع. الحرف المعني. التدني والتدلي. الرجعة. الستر والخلوة. النون. الختم والطبع. انتهت، ولعزتها ذكرتها هنا فإنها من أعظم كراماته رضي الله عنه، فلم أخرج بذكرها عن الصدد الذي ألف الكتاب لأجله، وقد رأيت كتاباً مستقلاً في ذكر مؤلفاته وفيه كثير منها لم يذكر هنا في هذه الإجازة، وكانت وفاته رضي الله عنه سنة ٦٣٨.

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2275-4

http://www.al-ilmiyah.com.lb/
e-mail : sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(صلّى الله على سيدنا محمد)

الحمد لله الذي أوجد الأشياء عن عدم وعدمه، وأوقف وجودها على توجّه كلمه، لنحقق بذلك سرّ حدوثها وقدمها من قدمه، ونقف عند هذا التحقيق على ما أعلمنا به من صدق قدمه. فظهر سبحانه وظهر وأظهر وما بطن، ولكنه بطن وأبطن، وأثبت له الاسم الأول وجود عين العبد وقد كان ثبت، وأثبت له الاسم الآخر تقدير الفناء والفقد وقد كان قبل ذلك ثبت، فلولا العصر والمعاصر، والجاهل والخابر، ما عرف أحد معنى اسمه الأول والآخر، ولا الباطن والظاهر، وإن كانت أسماؤه الحسنى، على هذا الطريق الأسنى، ولكن بينها تباين في المنازل، يتبين ذلك عندما تتخذ وسائل لحلول النوازل، فليس عبد الحليم هو عبد الكريم، وليس عبد الغفور هو عبد الشكور، فكل عبد له اسم هو ربّه، وهو جسم ذلك الاسم قلبه، فهو العليم سبحانه الذي علم وعلم، والحاكم الذي حكم وحكم، والقاهر الذي قهر وأقهر، والقادر الذي قدر وكسب ولم يقدر، الباقي الذي لم تقم به صفة البقاء، والمقدس عند المشاهدة عن المواجهة والتلقاء، بل العبد في ذلك الموطن الأنزه لاحق بالتنزيه، لا أنه سبحانه وتعالىٰ في ذلك المقام الأنوه يلحقه التشبيه، فتزول من العبد في تلك الحضرة الجهات، وينعدم عند قيام النظرة به منه الالتفات، أحمده حمد من علم أنه سبحانه علا في صفاته وعلّى، وجلّ في ذاته وجلّى، وأن حجاب العزّة دون سبحاته مسدل، وباب الوقوف على معرفة ذاته مقفل، إن خاطب عبده فهو المسمع السميع، وإن فعل ما أمر بفعله فهو المطاع المطيع، ولما حيرتني هذه الحقيقة، أنشدت على حكم الطريقة للخليقة: [مخلع: البسيط]

الـــرَّبُّ حَـــقٌّ والـــعَـــبْـــدُ حَـــقٌّ يـا لَـيْـتَ شِـعْـري مَـنِ الـمُـكَـلَّـفْ
إنْ قُـــلْـــتَ عَـــبْـــدٌ فـــذاك مَـــيْـــتٌ أَو قُـــلْـــتَ رَبٌّ أَنَّـــى يُـــكَـــلَّـــفْ

فهو سبحانه يطيع نفسه إذا شاء بخلقه، وينصف نفسه مما تعين عليه من واجب حقّه، فليس إلاّ أشباح خاليه، على عروشها خاويه، وفي ترجيع الصدى، سر ما أشرنا إليه لمن اهتدى، وأشكره شكر من تحقق أن بالتكليف ظهر الاسم المعبود، وبوجود حقيقة لا حول ولا قوة إلاّ بالله ظهرت حقيقة الجود، وإلاّ فإذا جعلت الجنة جزاء لما عملت، فأين الجود الإلهيّ الذي عقلت؟ فأنت عن العلم بأنك لذاتك موهوب، وعن العلم بأصل نفسك محجوب، فإذا كان ما تطلب به الجزاء ليس لك، فكيف ترى عملك؟ فاترك الأشياء وخالقها، والمرزوقات ورازقها، فهو سبحانه الواهب الذي لا يملّ، والملك الذي عزّ سلطانه

وجلّ، اللطيف بعباده الخبير، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] والصلاة على سرّ العالم ونكتته، ومطلب العالم وبغيته، السيد الصادق، المدلج إلى ربه الطارق، المخترق به السبع الطرائق، ليريه من أسرى به ما أودع من الآيات والحقائق، فيما أبدع من الخلائق، الذي شاهدته عند إنشائي هذه الخطبة في عالم حقائق المثال، في حضرة الجلال، مكاشفة قلبية، في حضرة غيبية، ولما شهدته ﷺ في ذلك العالم سيداً، معصوم المقاصد محفوظ المشاهد، منصوراً مؤيداً، وجميع الرسل بين يديه مصطفون، وأمته التي هي خير أمة عليه ملتفون، وملائكة التسخير من حول عرش مقامه حافون، والملائكة المولدة من الأعمال بين يديه صافون، والصدّيق على يمينه الأنفس، والفاروق على يساره الأقدس، والختم بين يديه قد حثى، يخبره بحديث الأنثى، وعلي عليه السلام يترجم عن الختم بلسانه، وذو النورين مشتمل برداء حيائه مقبل على شانه، فالتفت السيد الأعلى، والمورد العذب الأحلى، والنور الأكشف الأجلى، فرآني وراء الختم، لاشتراك بيني وبينه في الحكم، فقال له السيد هذا عديلك، وابنك وخليلك، انصب له منبر الطرفاء بين يديّ، ثم أشار إليّ أن قم يا محمد عليه فأثن على من أرسلني وعليّ، فإن فيك شعرة مني، لا صبر لها عني، هي السلطانة في ذاتيتك، فلا ترجع إليّ إلاّ بكليتك، ولا بدّ لها من الرجوع إلى اللقاء، فإنها ليست من عالم الشقاء، فما كان مني بعد بعثي شيء في شيء إلاّ سعد، وكان ممّن شكر في الملأ الأعلى وحمد، فنصب الختم المنبر، في ذلك المشهد الأخطر، وعلى جبهة المنبر مكتوب بالنور الأزهر: هذا هو المقام المحمدي الأطهر، من رقى فيه فقد ورثه، وأرسله الحق حافظاً لحرمة الشريعة وبعثه، ووهبت في ذلك الوقت مواهب الحكم، حتى كأني أوتيت جوامع الكلم، فشكرت الله عزّ وجلّ وصعدت أعلاه، وحصلت في موضع وقوفه ﷺ ومستواه، وبسط لي على الدرجة التي أنا فيها كم قميص أبيض فوقفت عليه، حتى لا أباشر الموضع الذي باشره ﷺ بقدميه، تنزيهاً له وتشريفاً، وتنبيهاً لنا وتعريفاً، أن المقام الذي شاهده من ربه، لا يشاهده الورثة إلاّ من وراء ثوبه، ولولا ذلك لكشفنا ما كشف، وعرفنا ما عرف، ألا ترى من تقفو أثره، لتعلم خبره؟ لا تشاهد من طريق سلوكه ما شهد منه، ولا تعرف كيف تخبر بسلب الأوصاف عنه، فإنه شاهد مثلاً تراباً مستوياً لا صفة له فمشى عليه، وأنت على أثره لا تشاهد إلاّ أثر قدميه، وهنا سرّ خفيّ إن بحثت عليه، وصلت إليه، وهو من أجل أنه إمام، وقد حصل له الأمام، لا يشاهد أثراً ولا يعرفه، فقد كشفت ما لا يكشفه، وهذا المقام قد ظهر، في إنكار موسىٰ صلّى الله على سيدنا وعليه وعلى الخضر، فلما وقفت ذلك الموقف الأسنى، بين يدي من كان من ربه في ليلة إسرائه قاب قوسين أو أدنى، قمت مقنعاً خجلاً، ثم أيّدت بروح القدس فافتتحت مرتجلاً: [الكامل]

يـا مُـنْـزِلَ الآيـاتِ والأنْـبَـاءِ ... أنْـزِلْ عَـلـيَّ مَـعَـالِـمَ الأسْـمَـاءِ
حتّـى أكـونَ لـحَـمْـدِ ذاتـك جـامـعـاً ... بـمَـحَـامِـدِ الـسَّـرّاء والـضَّـرَّاءِ

ثم أشرت إليه ﷺ: [الكامل]

ويكون هذا السَّيِّدُ العَلَمُ الذي جَرَّدْتَهُ من دَوْرَةِ الخُلَفاءِ
وَجَعَلْتَهُ الأَصْلَ الكريمَ وآدم ما بين طِينَةِ خَلْقِهِ والماءِ
وَنَقَلْتَهُ حتَّى اسْتَدار زمانُهُ وَعَطَفْتَ آخِرَهُ على الإبْداءِ
وأَقَمْتَهُ عَبْداً ذليلاً خاضعاً دَهْراً يناجيكم بغار حِراءِ
حتَّى أتاه مُبَشِّراً مِنْ عندكم جبْريلُ المَخْصُوصُ بالإنْبَاءِ
قال السلامُ عليك أنت مُحَمَّدٌ سِرُّ العِبَاد وخَاتَمُ النُّبَآءِ
يا سيدي حَقّاً أقول فقال لي صِدْقاً نطقتَ فأنتَ ظلُّ ردائي
فاحْمد وزِدْ في حَمْد ربِّك جاهداً فلقد وُهِبْتَ حقائق الأشياء
وانْثُرْ لنا من شأن ربِّك ما انْجَلَى لفؤادك المَحْفُوظِ في الظَّلْماءِ
من كلِّ حَقٍّ قائم بحَقِيقَةٍ يأتيكَ مملوكاً بغير شِرَاءِ

ثم شرعت في الكلام، بلسان العلام، فقلت وأشرت إليه، ﷺ، حمدت من أنزل عليك الكتاب المكنون، الذي لا يمسّه إلاّ المطهرون، المنزّل بحسن شيمك، وتنزيهك عن الآفات وتقديسك، فقال في سورة ﴿نٓ﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥)﴾ [سورة القلم: الآيات ١ ـ ٥] ثم غمس قلم الإرادة في مداد العلم وخط بيمين القدرة في اللوح المحفوظ المصون، كل ما كان وما هو كائن وسيكون وما لا يكون، مما لو شاء وهو لا يشاء أن يكون، لكان كيف يكون من قدره المعلوم الموزون، وعلمه الكريم المخزون ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] ذلك الله الواحد الأحد، فتعالىٰ عما أشرك به المشركون، فكان أول اسم كتبه ذلك القلم الأسمى، دون غيره من الأسما، إني أريد أن أخلق من أجلك يا محمد العالم الذي هو ملكك فاخلق جوهرة الما، فخلقتها دون حجاب العزّة الأحمى، وأنا على ما كنت عليه ولا شيء معي في عما، فخلق الماء سبحانه بردة جامدة كالجوهرة في الاستدارة والبياض، وأودع فيها بالقوة ذوات الأجسام وذوات الأعراض، ثم خلق العرش واستوى عليه اسمه الرحمن، ونصب الكرسي وتدلّت إليه القدمان، فنظر بعين الجلال إلى تلك الجوهرة فذابت حياء، وتحلّلت أجزاؤها فسالت ماء، وكان عرشه على ذلك الماء، قبل وجود الأرض والسماء، وليس في الوجود إذ ذاك إلاّ حقائق المستوى عليه والمستوي والاستواء، فأرسل النفس فتموّج الماء من زعزعه وأزبد، وصوت بحمد الحمد المحمود الحق عندما ضرب بساحل العرش فاهتز الساق وقال له: أنا أحمد، فخجل الماء ورجع القهقرى يريد ثبجه، وترك زبده بالساحل الذي أنتجه، فهو مخضة ذلك الماء، الحاوي على أكثر الأشياء، فأنشأ سبحانه من ذلك الزبد الأرض، مستديرة النشء مدحية الطول والعرض، ثم أنشأ الدخان من نار احتكاك الأرض عند فتقها ففتق فيه السموات العلى، وجعله محل الأنوار ومنازل الملأ الأعلى، وقابل بنجومها المزيّنة لها النيرات، ما زيّن به الأرض من أزهار النبات، وتفرّد تعالىٰ لآدم وولديه، بذاته جلت عن التشبيه ويديه، فأقام نشأة جسدية،

وسواها تسويتين تسوية انقضاء أمده، وقبول أبده، وجعل مسكن هذه النشأة نقطة كرة الوجود وأخفى عينها، ثم نبّه عباده عليها بقوله تعالىٰ ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [سورة الرعد: الآية ٢]، فإذا انتقل الإنسان إلى برزخ الدار الحيوان، مارت قبة السماء وانشقت فكانت شعلة نار سيال كالدهان، فمن فهم حقائق الإضافات، عرف ما ذكرنا له من الإشارات، فيعلم قطعاً أنّ قبّة لا تقوم من غير عمد، كما لا يكون والد من غير أن يكون له ولد، فالعمد هو المعنى الماسك، فإن لم ترد أن يكون الإنسان فاجعله قدرة المالك، فتبين أنه لا بدّ من ماسك يمسكها، وهي مملكة فلا بدّ لها من مالك يملكها، ومن مسكت من أجله فهو ماسكها، ومن وجدت له بسببه فهو مالكها، ولما أبصرت حقائق السعداء والأشقياء عند قبض القدرة عليها بين العدم والوجود وهي حالة الإنشاء حسن النهايه، بعين الموافقة والهدايه، وسوء الغاية بعين المخالفة والغوايه، سارعت السعيدة إلى الوجود وظهر من الشقية التثبط والإبايه، ولهذا أخبر الحق عن حالة السعداء فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٦١] يشير إلى تلك السرعه، وقال في الأشقياء: ﴿فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٦] يشير إلى تلك الرجعه، فلولا هبوب تلك النفحات على الأجساد ما ظهر في هذا العالم سالك غيّ ولا رشاد، ولتلك السرعة والتثبط أخبرتنا صلّى الله عليك، أن رحمة الله سبقت غضبه هكذا نسب الراوي إليك، ثم أنشأ سبحانه الحقائق على عدد أسماء حقّه، وأظهر ملائكة التسخير على عدد خلقه، فجعل لكل حقيقة اسماً من أسمائه تعبده وتعلمه، وجعل لكل سرّ حقيقة ملكاً يخدمه ويلزمه، فمن الحقائق من حجبته رؤية نفسه عن اسمه، فخرج عن تكليفه وحكمه، فكان له من الجاحدين، ومنهم من ثبت الله أقدامه واتخذ اسمه إمامه، وحقّق بينه وبينه العلامه، وجعله أمامه، فكان له من الساجدين. ثم استخرج من الأب الأوّل أنوار الأقطاب شموساً تسبح في أفلاك المقامات، واستخرج أنوار النجباء نجوماً تسبح في أفلاك الكرامات، وثبت الأوتاد الأربعة للأربعة الأركان، فانحفظ بهم الثقلان، فأزالوا ميد الأرض وحركتها، فسكنت فازينت بحلي أزهارها وحلل نباتها وأخرجت بركتها، فتنعمت أبصار الخلق بمنظرها البهي، ومشامّهم بريحها العطري وأحناكهم بمطعومها الشهي، ثم أرسل الأبدال السبعة إرسال حكيم عليم، ملوكاً على السبعة الأقاليم، لكل بدل إقليم، ووزر للقطب الإمامين، وجعلهما إمامين على الزمامين، فلما أنشأ العالم على غاية الإتقان، ولم يبق أبدع منه كما قال الإمام أبو حامد في الإمكان، وأبرز جسدك صلّى الله عليك للعيان، أخبر عنك الراوي أنك قلت يوماً في مجلسك: «**إِنَّ اللهَ كَانَ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ بَلْ هُوَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ**». وهكذا هي صلّى الله عليك حقائق الأكوان، فما زادت هذه الحقيقة على جميع الحقائق، إلاّ بكونها سابقة وهنّ لواحق، إذ من ليس مع شيء فليس معه شيء ولو خرجت الحقائق على غير ما كانت عليه في العلم، لانمازت عن الحقيقة المنزّهة بهذا الحكم، فالحقائق الآن في الحكم على ما كانت عليه في العلم، فلنقل كانت ولا شيء معها في وجودها، وهي الآن على ما كانت عليه في علم معبودها، فقد شمل هذا الخبر الذي أطلق على الحق، جميع الخلق،

ولا تعترض بتعدّد الأسباب والمسبّبات، فإنها ترد عليك بوجود الأسماء والصفات، وأن المعاني التي تدل عليها مختلفات، فلولا ما بين البداية والنهاية سبب رابط وكسب صحيح ضابط، ما عرف كل واحد منهما بالآخر، ولا قيل على حكم الأوّل يثبت الآخر، وليس إلاّ الرب والعبد وكفى، وفي هذا غنية لمن أراد معرفة نفسه في الوجود وشفا، ألا ترى أن الخاتمة عين السابقه، وهي كلمة واجبة صادقه. فما للإنسان يتجاهل ويعمى، ويمشي في دجنة ظلماء حيث لا ظل ولا ما، وأنّ أحق ما سمع من النبا، وأتى به هدهد الفهم من سبا، وجود الفلك المحيط، الموجود في العالم المركب والبسيط، المسمّى بالهباء، وأشبه شيء به الماء والهواء، وإن كانا من جملة صوره المفتوحة فيه. ولما كان هذا الفلك أصل الوجود وتجلّى له اسمه النور من حضرة الجود كان الظهور، وقبلت صورتك صلّى الله عليك من ذلك الفلك أول فيض ذلك النور، فظهرت صورة مثلية، مشاهدها عينية، ومشاربها غيبية، وجنتها عدنية، ومعارفها قلمية، وعلومها يمينية، وأسرارها مدادية، وأرواحها لوحية، وطينتها آدمية، فأنت أب لنا في الروحانية، كما كان وأشرت إلى آدم صلّى الله عليه في ذلك الجمع أباً لنا في الجسمية، والعناصر له أم ووالد، كما كانت حقيقة الهباء في الأصل مع الواحد، فلا يكون أمر إلاّ عن أمرين، ولا نتيجة إلاّ عن مقدّمتين، أليس وجودك عن الحق سبحانه وكونه قادراً موقوفاً، وأحكامك عليه من كونه عالماً موصوفاً، واختصاصك بأمر دون غيره مع جوازه عليك عليه من كونه مريداً معروفاً، فلا يصحّ وجود المعدوم عن وحيد العين، فإنه من أين يعقل الأين؟ فلا بدّ أن تكون ذات الشيء أيناً لأمر مّا، لا يعرفه من أصبح عن الكشف على الحقائق أعمى، وفي معرفة الصفة والموصوف، تتبين حقيقة الأين المعروف، وإلاّ فكيف تسأل صلّى الله عليك بأين وتقبل من المسؤول فاء الظرف، ثم تشهد له بالإيمان الصرف؟ وشهادتك حقيقة لا مجاز، ووجوب لا جواز، فلولا معرفتك صلّى الله عليك بحقيقة مّا، ما قبلت قولها مع كونها خرساء في السما، ثم بعد أن أوجد العوالم اللطيفة والكثيفه، ومهد المملكة وهيّأ المرتبة الشريفه، أنزل في أول دورة العذراء الخليفه، ولذلك جعل سبحانه مدتنا في الدنيا سبع آلاف سنه، وتحلّ بنا في آخرها حال فناء بين نوم وسنه، فننتقل إلى البرزخ الجامع للطرائق، وتغلب فيه الحقائق الطيارة على جميع الحقائق، فترجع الدولة للأرواح، وخليفتها في ذلك الوقت طائر له ستمائة جناح، وترى الأشباح، في حكم التبع للأرواح، فيتحول الإنسان في أي صورة شاء، لحقيقة صحّت له عند البعث من القبور في الإنشاء، وذلك موقوف على سوق الجنه، سوق اللطائف والمنه، فانظروا رحمكم الله وأشرت إلى آدم في الزمردة البيضاء، قد أودعها الرحمن في أوّل الآباء، وانظروا إلى النور المبين، وأشرت إلى الأب الثاني الذي سمّانا مسلمين، وانظروا إلى اللجين الأخلص، وأشرت إلى من أبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله كما جاء به النص، وانظروا إلى جمال حمرة ياقوتة النفس، وأشرت إلى من بيع بثمن بخس، وانظروا إلى حمرة الإبريز، وأشرت إلى الخليفة العزيز، وانظروا إلى نور الياقوتة الصفراء في الظلام، وأشرت إلى من فضل بالكلام، فمن سعى إلى هذه الأنوار،

حتى وصل إلى ما يكشفه لك طريقها من الأسرار، فقد عرف المرتبة التي لها وجد، وصحّ له المقام الآليّ وله سجد، فهو الرب والمربوب، والمحب والمحبوب: [الكامل]

انْظُرْ إلى بَدْءِ الوجود وكُنْ به ... فَطِناً تَرَ الجُودَ القديمَ المُحْدِثَا
والشيء مثل الشيء إلاّ أنه ... أبْدَاهُ في عين العوالم مُحْدَثَا
إنْ أقْسَمَ الرائي بأنّ وجودَهُ ... أَزَلاً فبرٌّ صادقٌ لن يَحْنِثَا
أو أقْسَمَ الرائي بأنّ وجودَهُ ... عن فَقْدِهِ أخرَى وكان مُثَلِّثَا

ثم أظهرت أسراراً، وقصصت أخباراً، لا يسع الوقت إيرادها، ولا يعرف أكثر الخلق إيجادها، فتركتها موقوفة على رأس مهيعها، خوفاً من وضع الحكمة في غير موضعها، ثم رددت من ذلك المشهد النوميّ العليّ إلى العالم السفلي، فجعلت ذلك الحمد المقدّس خطبة الكتاب، وأخذت في تتميم صدره، ثم أشرع بعد ذلك في الكلام على ترتيب الأبواب، والحمد لله الغنيّ الوهاب. هذه رسالة كتبت بها: أما بعد فإنه: [الكامل]

لما انْتَهَى للكَعْبَةِ الحَسْنَاءِ ... جسمي وحَصَّلَ رتبةَ الأُمَنَاءِ
وسَعَى وطافَ وثَمَّ عند مقامها ... صلَّى وأثْبَتَهُ من العُتَقَاءِ
من قال هذا الفعلُ فرضٌ واجبٌ ... ذاك المؤمَّلُ خاتمُ النُّبَآءِ
ورأى بها الملأَ الكَرِيمَ وآدماً ... قلبي فكان لهم من القُرَنَاءِ
ولآدَمَ وَلْداً تَقِيًّا طَائِعاً ... ضَخْمَ الدَّسِيعَةِ أكْرَمَ الكُرَمَاءِ
والكلُّ بالبيت المكرم طائفٌ ... وقَدِ اخْتَفَى في الحُلَّةِ السَّوْداءِ
يُزخي ذلاذلَ بُرْدِهِ ليريكَ في ... ذاك التَّبَخْتُرِ نَخْوَةَ الخُيَلاءِ
وأبي على الملأ الكريم مقدّمٌ ... يمشي بأضْعَفِ مشيةِ الزُّمَنَاءِ
والعبد بين يدي أبيه مطرقٌ ... فِعْلَ الأَرِيبِ وجِبْرَئِيلُ إزائي
يُبْدي المعالمَ والمناسكَ خِدْمَةً ... لأبي ليُورِثَها إلى الأبناء
فعجبتُ منهم كيف قال جميعُهم ... بفساد والدنا وسَفْكِ دِمَاءِ
إذْ كان يَحْجُبُهُمْ بظُلْمة طِينِهِ ... عمّا حَوَتْهُ مِنْ سَنَا الأسماء
وبدا بنُورٍ ليس فيه غيرُه ... لكنهم فيه مِنَ الشُّهداء
إن كان والدُنا مَحَلاً جامعاً ... للأولياء معاً وللأعْداء
ورأى المُوَيْهَةَ والنُّوَيْرَةَ جاءتا ... كَرْهاً بغير هَوًى وغير صفاء
فبنَفْسِ ما قامت به أضدادُهُ ... حكموا عليه بغِلْظَةٍ وبَذاءِ
وأتى يقول أنا المُسَبِّحُ والذي ... ما زال يحمدُكم صَبَاحَ مَسَاءِ
وأنا المقدّسُ ذاتُ نور جلالكم ... وأتَوْا في حَقّ أبي بكلّ جَفَاء
لما رَأَوْا جهة الشمال ولم يَرَوْا ... مِنْهُ يَمِينَ القَبْضَةِ البَيْضَاء
ورأوا نفوسهمو عبيداً خُشَّعاً ... ورَأَوْهُ ربّاً طالبَ اسْتِيلاء

لحقيقة جُمِعَتْ له أسماءُ مَنْ   خَصَّ الحَبِيبَ بليلة الإسراء
وَرَأَوْا مُنازِعَهُ اللَّعِينَ بِجُنْدِهِ   يَزْنُو إليه بمُقْلة البَغْضاء
وبذات والدنا منافق ذاته   حظّ العصاة وشهوتا حوّاء
علموا بأن الحَرْبَ حَتْماً واقعٌ   منه بغير تَرَدُّدٍ وإباء
فلذاك ما نَطَقُوا بما نطقوا به   فاعْذُرْهُمُ فَهُمْ مِنَ الصُّلحاء
فُطِرُوا على الخير الأَعَمِّ جِبِلَّةً   لا يعرفون مواقع الشَّحْناء
ومتى رأيت أبي وهم في مجلس   كان الإمامَ وهُمْ من الخُدَمَاء
وأعاد قولهم عليهم ربّنا   عدلاً فأنزلَهُمْ إلى الأعداء
فحرابة الملأ الكريم عقوبة   لمقالهم في أوّل الآباء
أَوَ ما ترى في يوم بَدْرٍ حَزْبَهُمْ   ونبيّنا في نعمةٍ ورخاء
بعَرِيشِهِ مُتَمَلِّقاً مُتَضَرِّعاً   لإلٰهِهِ في نُصْرَةِ الضُّعَفاءِ
لمَّا رأى هذي الحَقَائِقَ كُلَّها   معصومة قلبي من الأهواء
نَادَى فأَسْمَعَ كُلَّ طالبِ حِكْمَةٍ   يَطْوي لها بِشَمْلَةٍ وَجْنَاءِ
طَيَّ الذي يَرْجُو لقاء مُرَاده   فيَجُوبُ كُلَّ مَفَازة بَيْدَاءِ
يا راحلاً يَقِصُ المَهَامِهَ قاصداً   نحوي ليَلْحَقَ رُتْبَةَ السَّمْرَاءِ
قُلْ للذي تلقاه من شُجَرائي   عَنّي مقالةَ أنصحِ النُّصَحَاء
واعْلَمْ بأنك خاسِرٌ في حيرةٍ   لما جَهِلْتَ رسالَتي ونِدَائي
إنّ الذي ما زلتُ أطلبُ شَخْصَهُ   أَلْفَيْتُهُ بالرَّبْوَةِ الخضراء
البَلْدَةِ الزَّهْراءِ بَلْدَةِ تُونُس   الخضرة المزدانة الغرّاء
بمَحَلِّه الأَسْنَى المقدّس تُرْبُهُ   بحلوله ذي القبلة الزَّوْرَاءِ
في عُصْبَةٍ مُخْتَصَّةٍ مختارة   مِنْ صُفْوَةِ النُّجَبَاء والنُّقَبَاء
يمشي بهم في نُورِ عِلْمِ هِدَايَةٍ   من هَدْيِهِ بالسُّنَّةِ البَيْضاء
والذِّكْرُ يُتْلَى والمعارفُ تَنْجَلي   فيه من الإمْسَاء للإمساء
بَدْراً لأَرْبَعَةٍ وعَشْرٍ لا يُرَى   أبداً منوّر ليلة قَمْراء
وابن المرابط فيه واحد شَانِهِ   جَلَّتْ حقائقُه عَنِ الإفشاء
وبَنُوهُ قد حَفُّوا بعَرْش مكانه   فهو الإمام وهم من البُدَلاء
فكأنه وكأنهم في مجلس   بَدْرٌ تَحُفُّ به نُجُومُ سماء
وإذا أتاك بحكمة عُلْوِيَّةٍ   فكأنه يُنْبِي عن العَنْقَاءِ
فلزمته حتى إذا حلّت به   أنثى لها نجلٌ من الغُرَبَاءِ
حَبْرٌ من الأحبار عاشقُ نفسه   سرُّ المَجَانَةِ سَيِّدُ الظُّرَفَاءِ
من عُصْبَةِ النُّظّارِ والفقهاء   لكنه فيهم من الفُضَلاء
وافَى وعندي للتَّنَفُّلِ نِيَّةٌ   في كلّ وقت من دُجَى وضَحَاء

فتركته ورحلتُ عنه وعنده   منني تغيُّرُ غيرة الأدباء
وبدا يخاطبني بأنك خُنْتَني   في عِتْرَتي وصحابتي القُدَماءِ
وأخَذْتَ تائبَنا الذي قامت به   داري ولم تُخْبِرْ به سُجَرَائي
والله يعلمُ نِيَّتي وطَوِيَّتي   في أمر تائبه وصِدْقِ وفائي
فأنا على العهد القديم ملازمٌ   فوِدَادُهُ صافٍ من الأقذاء
ومتى وقعتَ على مفتِّش حكمةٍ   مستورةٍ في الغَضَّةِ الخَوْرَاء
متحيِّرٍ متشوِّفٍ قلنا له   يا طالبَ الأسرار في الإسراء
أسْرِعْ فقد ظَفِرَتْ يداكَ بجامعٍ   لحقائق الأموات والأحياء
نَظَرَ الوُجُودَ فكان تحت نعالهِ   من مُسْتَوَاهُ إلى قَرار السَمَاء
ما فوقه من غاية يَغْنُو لها   إلاّ هو فهو مُصَرِّفُ الأشياء
لَبِسَ الرِّداءَ تَنَزُّهاً وإزارَهُ   لما أراد تَكَوُّنَ الإنشاء
فإذا أراد تَمَتُّعاً بوجوده   من غير ما نَظَرٍ إلى الرُّقَبَاءِ
شال الرِّداءَ فلم يكن متكبِّراً   وإزارَ تعظيم على القُرَنَاء
فبدا وجودٌ لا تقيِّدُهُ لنا   صِفَةٌ ولا اسْمٌ من الأسماء
إن قيل مَنْ هذا ومَنْ تَعْني به   قلنا المُحَقِّقَ آمِرَ الأُمَرَاء
شَمْسَ الحقيقة قُطْبَها وإمامَهَا   سِرَّ العباد وعَالِمَ العُلَمَاء
عبدٌ تسوَّد وجهه من همّه   نورُ البصائر خاتم الخلفاء
سَهْلُ الخلائق طيِّبٌ عَذْبُ الجَنَى   غَوْثُ الخلائق أرْحَمُ الرُّحَمَاء
جَلَّتْ صفاتُ جلالِهِ وجمالِهِ   وبهاءُ عِزَّته عن النُّظَرَاء
يُمْضي المشيئةَ في البنين مُقَسِّماً   بين العبيد الصُّمّ والأُجَرَاء
ما زال سَائِسَ أمَّةٍ كانت به   محفوظةَ الأنحاء والأرجاء
شَزْيٌ إذا نازعته في ملكه   أزيٌّ إذا ما جئته لحباء
صَلْبٌ ولكن لَيِّنٌ لعُفَاتِهِ   كالماء يجري من صفا صَمَّاءِ
يُغْني ويُفْقِرُ من يشاء فأمْرُهُ   مُحْيي الوُلاة ومُهْلِكُ الأعداء
لا أنْسَ إذْ قال الإمام مقالةً   عنها يُقَصِّرُ أخطبُ الخُطَبَاء
كنا بنا ورداءُ وَصْلي جامعٌ   لذواتنا فأنا بحيث ردائي
فانْظُرْ إلى السِّرّ المكتم دُرَّةً   مَجْلُوَّةً في اللُّجّة العَمْيَاء
حتى يَحَارَ الخلقُ في تكييفها   عيناً كحيرة عودة الإبداء
عجباً لها لم تُخْفِهَا أصدافُها   الشمسُ تَنْفي حِنْدِسَ الظَّلْمَاءِ
فإذا أتى بالسِّرّ عَبْدٌ هكذا   قيل اكتبوا عبدي من الأُمَنَاء
إن كان يُبْدي السرّ مستوراً فما   تدري به أرضي فكيف سمائي
لما أتيتُ ببعض وصف جلاله   إذ كان عيني واقفاً بحذائي

قالوا لقد ألحقتهُ بإلٰهنا ... في الذات والأوصاف والأسماء
فبأيّ مَعْنًى تعرفُ الحقَّ الذي ... سَوَّاكَ خلقاً في دُجى الأحشَاء
قلنا صدقتَ وهل عرفتَ محققاً ... من مُوجِدِ الكونِ الأعمِّ سوائي
فإذا مَدَحْتُ فإنما أُثني على ... نَفْسي فنفسي عَيْنُ ذات ثنائي
وإذا أردتُ تَعَرُّفاً بوجوده ... قَسَّمْتُ ما عندي على الغرماء
وعُدِمْتُ من عيني فكان وجودُه ... فظهورُه وَقْفٌ على إخفائي
جَلَّ الإلهُ الحَقُّ أن يبدو لنا ... فَرْداً وعيني ظاهرٌ وبقائي
لو كان ذاك لكان فَرْداً طالباً ... مُتَجَسِّساً متحسِّساً لثَنَائي
هذا محالٌ فليصحَّ وجودُه ... في غيبتي عن عينه وفنائي
فمتى ظهرتُ إليكُمُ أخفيتُه ... إخْفَاءَ عَيْنِ الشمسِ في الأنواء
فالناظرون يَرَوْنَ نَصْبَ عيونهم ... سُحْباً تصرِّفُها يَدُ الأهواء
والشمسُ خلف الغَيْمِ تُبْدي نُورَها ... للسُّحْبِ والأبصار في الظلماء
فيقول قد بَخُلَتْ عليَّ وإنها ... مشغولةٌ بتحلُّلِ الأجزاء
لتَجُودَ بالمطر الغزير على الثَّرَى ... من غير ما نَصَبٍ ولا إعْيَاءِ
وكذاك عند شُرُوقها في نورها ... تَمْحُو طوالع نَجْمِ كلِّ سماء
فإذا مضتْ بعد الغروب بساعة ... ظهرتْ لعينك أَنْجُمُ الجوزاء
هذا لمَيِّتِهَا وذاك لحيِّهَا ... في ذاتها وتقول حُسْنَ رآء
فخفاؤه من أجلنا وظهورُه ... من أجله والرمزُ في الأفياء
كخفائنا من أجله وظهورنا ... من أجلنا فسَنَاهُ عينُ ضيائي
ثم الْتَقَتْ بالعكس رمزاً ثانياً ... جلَّتْ عوارفُه عن الإحصاء
فكأننا سيَّانِ في أعياننا ... كصَفَا الزجاجة في صَفَا الصَّهْباء
فالعلم يشهد مخلصين تألُّفاً ... والعين تعطي واحداً للرائي
فالروحُ ملتذٌّ بمبدع ذاته ... وبذاتِه من جانب الأكْفَاءِ
والحسُّ ملتذٌّ برؤية ربّهِ ... فَانٍ عن الإحساس بالنعماء
فالله أكبرُ والكبيرُ ردائي ... والنور بَذْري والضياءُ ذكائي
والشرق غربي والمغاربُ مشرقي ... والبُعْدُ قُرْبي والدُّنُوُّ تنائي
والنارُ غيبي والجنانُ شهادتي ... وحقائقُ الخلق الجديد إمائي
فإذا أردتُ تنزّهاً في روضتي ... أبصرتُ كلَّ الخلق فيّ مَرَائي
وإذا انصرفتُ أنا الإمام وليس لي ... أحدٌ أخَلِّفُهُ يكون ورائي
فالحمد لله الذي أنا جامعٌ ... لحقائق المنشيّ والإنشاء
هذا قريضي منبئٌ بعجائبٍ ... ضاقت مسالكُها على الفُصَحَاء
فاشكر معي عبد العزيز إلهنا ... ولتشكرا أيضاً إلى العذراء

شَـرْعـاً فـإن الله قـال اشـكـر لـنـا ولـوالـديـك وأنْـتَ عَـيْـنُ قـضـائـي

وبعد حمد الله بحمد الحمد لا بسواه، والصلاة التامة على من أسرى به إلى مستواه، فاعلم أيها العاقل الأديب، الوليّ الحبيب، أن الحكيم إذا نأت به الدار عن قسيمه، وحالت صروف الدهر بينه وبين حميمه، لا بدّ أن يعرفه بكل ما اكتسبه في غيبته، وما حصله من الأمتعة الحكمية في غيبته، ليسر وليّه بما أسداه إليه البرّ الرحيم من لطائفه، ومنحه من عوارفه، وأودعه من حكمه، وأسمعه من كلمه، فكأنّ وليّه ما غاب عنه، بما عرف منه، وإن كان الوليّ أبقاه الله قد أصاب صفاء ودّه بعض كدر لعرض، وظهر منه انقباض عند الوداع لإتمام غرض، فقد غمض وليّه عن ذلك جفن الانتقاد، وجعله من الوليّ أبقاه الله من كريم الاعتقاد، إذ لا يهتم منك، إلاَّ من يسأل عنك، فليهنأ الوليّ أبقاه الله فإن القلب سليم، والودّ كما يعلم بين الجوانح مقيم، وقد علم الوليّ أبقاه الله، أنّ الودّ فيه كان ألياً، لا غرضياً ولا نفسياً، وثبت هذا عنده قديماً عني من غير علّة، ولا فاقة إليه ولاي، ونفور عن الجري على مقاصدي ومذاهبي، لما لاحظ فيها رضي الله عنه من النقص وعذرته في ذلك فإنه أعطاه ذلك مني ظاهر الحال وشاهد النص، فإني سترت عنه وعن بنيه ما كنت عليه في نفسي، بما أظهرته إليهم من سوء حالي وشره حسّي، وربما كنت ألوح لهم أحياناً على طريق التنبيه، فيأبى الله أن يلحظني واحد منهم بعين التنزيه، ولقد قرعت أسماعهم يوماً في بعض المجالس، والوليّ أبقاه الله في صدر ذلك المجلس جالس، بأبيات أنشدتها، وفي كتاب الإسراء لنا أودعتها، وهي: [الوافر]

أنـا الـقـرآنُ والـسَّـبْـعُ الـمـثـانـي ورُوحُ الـرُّوحِ لا رُوحُ الأَوانِـي
فـؤادي عـنـد مـعـلُـومـي مـقـيـمٌ يُـشَـاهِـدُهُ وعِـنْـدَكُـمُ لِـسَـانـي
فـلا تَـنْـظُـرْ بـطَـرْفِـكَ نـحـو جـسـمـي وعَـدِّ عـن الـتَّـنَـعُّـمِ بـالـمَـغَـانـي
وَغُـصْ فـي بـحـر ذاتِ الـذاتِ تُـبْـصِـرْ عـجـائـبَ مـا تـبـدَّت لـلـعَـيَـانِ
وأسـراراً تـراءتْ مُـبْـهَـمَـاتٍ مُـسَـتَّـرَةً بـأرواحِ الـمـعـانـي

فوالله ما أنشدت من هذه القطعة بيتاً، إلاَّ وكأني أسمعه ميتاً، وسبب ذلك حكمة أبغي رضاها، وحاجة في نفس يعقوب قضاها، وما أحسّ بي من ذلك الجمع المكرم، إلاَّ أبو عبد الله بن المرابط كليمهم المبرّز المقدّم، ولكن بعض إحساس، والغالب عليه في أمري الالتباس. وأما الشيخ المسنّ المرحوم جراح فكنت قد تكاشفت معه على نيه، في حضرة عليه، ولم أزل بعد مفارقتي حضرة الوليّ أبقاه الله له ذاكراً، ولأحواله شاكراً، وبمناقبه ناطقاً، ولآدابه عاشقاً، وربما سطرت من ذلك في الكتب ما سارت به الركبان، وشهر في بعض البلدان، وقد وقف الوليّ عليه، ورأى بعض ما لديه، فقد ثبت له الودّ مني قبل سبب يقتضيه، وغرض عاجل أو آجل يثبته في النفس ويمضيه، ثم كان الاجتماع بالوليّ تولاه الله بعد ذلك بأعوام في محلّه الأسنى، وكانت الإقامة معه تسعة أشهر دون أيام في العيش الأرغد الأهنى، عيش روح وشبح، وقد جاد كل واحد منا بذاته على صفيّه وسمح، ولي رفيق وله رفيق،

وكلاهما صديق وصديق، فرفيقه شيخ عاقل محصل ضابط، يعرف بأبي عبد الله بن المرابط، ذو نفس أبية، وأخلاق رضية، وأعمال زكية، وخلال مرضية، يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً، ويذكر الله على أكثر أحيانه سرّاً وإعلاناً، بطل في ميدان المعاملات، فهم لما يرد به صاحب المنازل والمنازلات، منصف في حاله، مفرّق بين حقّه ومحاله. وأما رفيقي فضياء خالص ونور صرف، حبشي اسمه عبد الله بدر لا يلحقه خسف، يعرف الحق لأهله فيؤدّيه، ويوقفه عليهم ولا يعديه، قد نال درجة التمييز، وتخلص عند السبك كالذهب الإبريز، كلامه حق، ووعده صدق، فكنا الأربعة الأركان، التي قام عليها شخص العالم والإنسان، فافترقنا ونحن على هذه الحال، لانحراف قام ببعض هذه المحال، فإني كنت نويت الحج والعمرة، ثم أسرع إلى مجلسه الكريم الكره، فلما وصلت أم القرى، بعد زيارتي الخليل الذي سنّ القرى، وبعد صلاتي بالصخرة والأقصى، وزيارة سيدي سيد ولد آدم ديوان الإحاطة والإحصا، أقام الله في خاطري أن أعرف الوليّ أبَن جواهر العلم التي اقتنيتها في غربتي، فقيدت له هذه الرسالة اليتيمه، التي أوجدها الحق لأعراض الجهل تميمه، ولكل صاحب صفي، ومحقق صوفي، ولحبيبنا الوليّ وأخينا الذكي، وولدنا الرضي، عبد الله بدر الحبشي اليمني، معتق أبي الغنائم ابن أبي الفتوح الحراني، وسمّيتها رسالة الفتوحات المكيّه، في معرفة الأسرار المالكية والملكيه، إذ كان الأغلب فيما أودعت هذه الرسالة ما فتح الله به عليّ عند طوافي ببيته المكرم، أو قعودي مراقباً له بحرمه الشريف المعظم، وجعلتها أبواباً شريفه، وأودعتها المعاني اللطيفه، فإن الإنسان لا تسهل عليه شدائد البدايه، إلاّ إذا عرف شرف الغايه، ولا سيّما إن ذاق من ذلك عذوبة الجنى، ووقع منه بموقع المنى، فإذا حصر الباب البصر، تردّد عليه عين بصيرة الحكيم فنظر فاستخرج اللآلىء والدرر، ويعطيه الباب عند ذلك ما فيه من حكم روحانيه، ونكت ربانيه، على قدر نفوذه وفهمه، وقوّة عزمه ووهمه، واتساع نفسه من أجل غطسه في أعماق بحار علمه: [الكامل]

لَمَّا لزمتُ قَرْعَ بَابِ اللَّهِ ... كُنتُ المُرَاقِبَ لم أكُنْ باللاَّهي
حتى بدتْ للعينِ سُبْحَةُ وَجْهِهِ ... وإلى هَلُمَّ لم تكنْ إلاَّ هِي
فأحطتُ علْماً بالوجود فما لنا ... في قلبنا علمٌ بغير الله
لو يَسْلُكِ الخلقُ الغريبُ مَحَجَّتي ... لم يسألوكَ عن الحقائق ما هي

فلنقدم قبل الشروع في الكلام على أبواب هذا الكتاب باباً في فهرست أبوابه، ثم أتلوه بمقدمة في تمهيد ما يتضمنه هذا الكتاب من العلوم الإلهية الأسرارية، وعلى أثرها يكون الكلام على الأبواب على حسب ترتيبها في باب الفهرست إن شاء الله تعالىٰ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

انتهى الجزء الأول والحمد لله. يتلوه الجزء الثاني إن شاء الله تعالىٰ، وصلّى الله على محمد وعلى آله الطاهرين.

(الجزء الثاني)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

باب في فهرست أبواب الكتاب وليس معدوداً في الأبواب وهو على فصول ستة

الفصل الأول في المعارف

الفصل الثاني في المعاملات

الفصل الثالث في الأحوال

الفصل الرابع في المنازل

الفصل الخامس في المنازلات

الفصل السادس في المقامات

(الجزء الثالث)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[مقدمة الكتاب]

قلنا: وربما وقع عندي أن أجعل في هذا الكتاب أولاً فصلاً في العقائد المؤيّدة بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، ثم رأيت أن ذلك تشغيب على المتأهب الطالب للمزيد، المتعرض لنفحات الجود بأسرار الوجود، فإن المتأهب إذا لزم الخلوة والذكر، وفرغ المحل من الفكر، وقعد فقيراً لا شيء له عند باب ربّه، حينئذ يمنحه الله تعالىٰ ويعطيه من العلم به والأسرار الإلهية والمعارف الربانية التي أثنى الله سبحانه بها على عبده خضر فقال: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢].

وقال: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩] وقال: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٨] قيل للجنيد: بم نلت ما نلت؟ فقال: بجلوسي تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة. وقال أبو يزيد: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، فيحصل لصاحب الهمة في الخلوة مع الله، وبه جلت هبته وعظمت منته، من العلوم ما يغيب عندها كل متكلم على البسيطة، بل كل صاحب نظر وبرهان ليست له هذه الحالة فإنها وراء النظر العقلي إذ كانت العلوم على ثلاث مراتب.

علم العقل: وهو كل علم يحصل لك ضرورة أو عقيب نظر في دليل بشرط العثور على وجه ذلك الدليل وشبهه من جنسه في عالم الفكر الذي يجمع ويختص بهذا الفن من العلوم ولهذا يقولون في النظر منه صحيح ومنه فاسد.

والعلم الثاني: علم الأحوال ولا سبيل إليها إلاَّ بالذوق، فلا يقدر عاقل على أن يحدها ولا يقيم على معرفتها دليلاً، كالعلم بحلاوة العسل ومرارة الصبر ولذة الجماع والعشق والوجد والشوق وما شاكل هذا النوع من العلوم، فهذه علوم من المحال أن يعلمها أحد إلاَّ بأن يتصف بها ويذوقها وشبهها من جنسها في أهل الذوق، كمن يغلب على محل طعمه المرة الصفراء فيجد العسل مراً وليس كذلك، فإن الذي باشر محل الطعم إنما هو المرة الصفراء.

والعلم الثالث: علوم الأسرار وهو العلم الذي فوق طور العقل وهو علم نفث روح القدس في الروع يختص به النبيّ والوليّ وهو نوعان: نوع منه يدرك بالعقل كالعلم الأول من هذه الأقسام لكن هذا العالم به لم يحصل له عن نظر ولكن مرتبة هذا العلم أعطت هذا. والنوع الآخر على ضربين: ضرب منه يلتحق بالعلم الثاني لكن حاله أشرف، والضرب الآخر

من علوم الأخبار وهي التي يدخلها الصدق والكذب إلاً أن يكون المخبر به قد ثبت صدقه عند المخبر وعصمته فيما يخبر به ويقوله، كإخبار الأنبياء صلوات الله عليهم عن الله كإخبارهم بالجنة وما فيها، فقوله «إن ثم جنة» من علم الخبر، وقوله في القيامة: «إن فيها حوضاً أحلى من العسل» من علم الأحوال وهو علم الذوق، وقوله: «كان الله ولا شيء معه»، ومثله من علوم العقل المدركة بالنظر، فهذا الصنف الثالث الذي هو علم الأسرار العالم به يعلم العلوم كلها ويستغرقها وليس صاحب تلك العلوم كذلك، فلا علم أشرف من هذا العلم المحيط الحاوي على جميع المعلومات، وما بقي إلاً أن يكون المخبر به صادقاً عند السامعين له معصوماً هذا شرطه عند العامة. وأما العاقل اللبيب الناصح نفسه فلا يرمي به ولكن يقول هذا جائز عندي أن يكون صدقاً أو كذباً، وكذلك ينبغي لكل عاقل إذا أتاه بهذه العلوم غير المعصوم وإن كان صادقاً في نفس الأمر فيما أخبر به، ولكن كما لا يلزم هذا السامع له صدقه لا يلزمه تكذيبه ولكن يتوقف، وإن صدقه لم يضره لأنه أتى في خبره بما لا تحيله العقول بل بما تجوزه أو تقف عنده، ولا يهد ركناً من أركان الشريعة، ولا يبطل أصلاً من أصولها، فإذا أتى بأمر جوزه العقل وسكت عنه الشارع، فلا ينبغي لنا أن نرده أصلاً ونحن مخيرون في قبوله، فإن كانت حالة المخبر به تقتضي العدالة لم يضرنا قبوله كما نقبل شهادته ونحكم بها في الأموال والأرواح، وإن كان غير عدل في علمنا فننظر فإن كان الذي أخبر به حقاً بوجه ما عندنا من الوجوه المصححة قبلناه، وإلاً تركناه في باب الجائزات ولم نتكلم في قائله بشيء فإنها شهادة مكتوبة نسأل عنها قال تعالىٰ: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ١٩] وأنا أولى من نصح نفسه في ذلك، ولو لم يأت هذا المخبر إلاً بما جاء به المعصوم فهو حاك لنا ما عندنا من رواية عنه فلا فائدة زادها عندنا بخبره، وإنما يأتون رضي الله عنهم بأسرار وحكم من أسرار الشريعة مما هي خارجة عن قوة الفكر والكسب، ولا تنال أبداً إلاً بالمشاهدة والإلهام وما شاكل هذه الطرق، ومن هنا تكون الفائدة بقوله عليه السلام: «**إنْ يَكُنْ في أُمَّتي مُحدَّثُون فَمِنْهُمْ عُمَرُ**» وقوله في أبي بكر في فضله بالسر غيره.

ولو لم يقع الإنكار لهذه العلوم في الوجود لم يفد قول أبي هريرة: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع مني هذا البلعوم. حدثني به الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبيد الله الحجري بسبتة في رمضان عام تسعة وثمانين وخمسمائة بداره، وحدثني به أيضاً أبو الوليد أحمد بن محمد بن العربي بداره بإشبيلية سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة في آخرين كلهم قالوا حدثنا إلاً أبا الوليد بن العربي فإنه قال: سمعت أبا الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني قال: حدثني أبي أبو عبد الله وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن منظور القيسي سماعاً مني عليهما عن أبي ذر سماعاً منهما عليه عن أبي محمد هو عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي الحموي وأبي إسحاق المستملي وأبي الهيثم هو محمد بن مكي بن محمد الكشميهني قالوا: أنبأنا أبو عبد الله هو محمد بن يوسف بن مطر الفربري قال: أنبأنا أبو عبد الله البخاري، وحدثني به أيضاً أبو محمد

يونس بن يحيىٰ بن أبي الحسين بن أبي البركات الهاشمي العباسي بالحرم الشريف المكي تجاه الركن اليماني من الكعبة المعظمة في شهر جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وخمسمائة، عن أبي الوقت عبد الأوّل بن عيسىٰ السجزي الهروي، عن أبي الحسن عبد الرحمن بن المظفر الداودي، عن أبي محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي، عن أبي عبد الله الفربري عن البخاري. وقال البخاري في صحيحه: حدثني إسماعيل قال: حدثني أخي عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة وذكر الحديث، وشرح البلعوم لأبي عبد الله البخاري من رواية أبي ذر خرّجه في كتاب العلم، وذكروا أن البلعوم مجرى الطعام، ولم يفد قول ابن عباس حين قال في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] لو ذكرت تفسيره لرجمتموني، وفي رواية لقلتم إني كافر، حدثني بهذا الحديث أبو عبد الله محمد بن عيشون عن أبي بكر القاضي محمد بن عبد الله بن العربي المعافري عن أبي حامد محمد بن محمد الطوسي الغزالي، ولم يكن لقول الرضي من حفدة علي بن أبي طالب ﷺ معنى إذ قال: [البسيط]

يا رُبَّ جَوْهَرِ علمٍ لو أبوحُ به ... لقيلَ لي أنت ممن يعبُدُ الوثَنَا
ولاستحلَّ رجالٌ مسلِمُونَ دمي ... يرَوْنَ أقبحَ ما يأتُونه حَسَنَا

فهؤلاء كلهم سادات أبرار فيما أحسب واشتهر عنهم قد عرفوا هذا العلم ورتبته ومنزلة أكثر العالم منه وأن الأكثر منكرون له، وينبغي للعاقل العارف أن لا يأخذ عليهم في إنكارهم فإنه في قصة موسىٰ مع خضر مندوحة لهم وحجة للطائفتين، وإن كان إنكار موسىٰ عن نسيان لشرطه ولتعديل الله إياه، وبهذه القصة عينها نحتجّ على المنكرين لكنه لا سبيل إلى خصامهم ولكن نقول كما قال العبد الصالح ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [سورة الكهف: الآية ٧٨].

وصل: ولا يحجبنك أيها الناظر في هذا الصنف من العلم الذي هو العلم النبوي الموروث منهم صلوات الله عليهم إذا وقفت على مسألة من مسائلهم قد ذكرها فيلسوف أو متكلم أو صاحب نظر في أي علم كان، فتقول في هذا القائل الذي هو الصوفي المحقق إنه فيلسوف لكون الفيلسوف قد ذكر تلك المسألة وقال بها واعتقدها وأنه نقلها منهم أو أنه لا دين له، فإنّ الفيلسوف قد قال بها ولا دين له، فلا تفعل يا أخي فهذا القول قول من لا تحصيل له، إذ الفيلسوف ليس كل علمه باطلاً، فعسى تكون تلك المسألة فيما عنده من الحق ولا سيما إن وجدنا الرسول عليه السلام قد قال بها، ولا سيما فيما وضعوه من الحكم والتبري من الشهوات ومكايد النفوس وما تنطوي عليه من سوء الضمائر، فإن كنا لا نعرف الحقائق ينبغي لنا أن نثبت قول الفيلسوف في هذه المسألة المعينة وأنها حق، فإن الرسول ﷺ قد قال بها أو الصاحب أو مالكاً أو الشافعي أو سفيان الثوري، وأما قولك إن قلت سمعها من فيلسوف أو طالعها في كتبهم فإنك ربما تقع في الكذب والجهل، أما الكذب فقولك سمعها أو طالعها وأنت لم تشاهد ذلك منه، وأما الجهل فكونك لا تفرق بين الحق في تلك المسألة والباطل.

وأما قولك إنَّ الفيلسوف لا دين له فلا يدل كونه لا دين له على أن كل ما عنده باطل

وهذا مدرك بأول العقل عند كل عاقل، فقد خرجت باعتراضك على الصوفيّ في مثل هذه المسألة عن العلم والصدق والدين، وانخرطت في سلك أهل الجهل والكذب والبهتان ونقص العقل والدين وفساد النظر والانحراف، أرأيت لو أتاك بها رؤيا رآها هل كنت إلاّ عابرها وتطلب على معانيها، فكذلك خذ ما أتاك به هذا الصوفي واهتد على نفسك قليلاً وفرغ لما أتاك به محلك حتى يبرز لك معناها أحسن من أن تقول يوم القيامة ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٩٧] فكل علم إذا بسطته العبارة حسن وفهم معناه أو قارب وعذب عند السامع الفهم فهو علم العقل النظري لأنه تحت إدراكه، وممّا يستقل به لو نظر إلاّ علم الأسرار فإنه إذا أخذته العبارة سمج واعتاص على الأفهام دركه وخشن، وربما مجّته العقول الضعيفة المتعصبة التي لم تتوفر لتصريف حقيقتها التي جعل الله فيها من النظر والبحث، ولهذا صاحب العلم كثيراً ما يوصله إلى الأفهام بضرب الأمثلة والمخاطبات الشعرية. وأما علوم الأحوال فمتوسطة بين علم الأسرار وعلم العقول. وأكثر ما يؤمن بعلم الأحوال أهل التجارب وهو إلى علم الأسرار أقرب منه إلى العلم النظري العقلي، لكن يقرّب من صنف العلم العقلي الضروري بل هو هو، لكن لما كانت العقول لا تتوصل إليه إلاّ بإخبار من علمه أو شاهده من نبي أو ولي لذلك تميز عن الضروري لكن هو ضروري عند من شاهده، ثم لتعلم أنه إذا حسن عندك وقبلته وآمنت به فأبشر إنك على كشف منه ضرورة وأنت لا تدري لا سبيل إلاّ هذا، إذ لا يثلج الصدر إلاّ بما يقطع بصحته وليس للعقل هنا مدخل لأنه ليس من دركه إلاّ إن أتى بذلك معصوم حينئذ يثلج صدر العاقل، وأما غير المعصوم فلا يلتذ بكلامه إلاّ صاحب ذوق.

فإن قلت: فلخص لي هذه الطريقة التي تدعي أنها الطريقة الشريفة الموصلة السالك عليها إلى الله تعالىٰ وما تنطوي عليه من الحقائق والمقامات بأقرب عبارة وأوجز لفظ وأبلغه حتى أعمل عليه وأصل إلى ما ادعيت أنك توصلت إليه، وبالله أقسم أني لا آخذه منك على وجه التجربة والاختبار وإنما آخذه منك على الصدق، فإني قد حسنت الظن بك إحسان قطع، إذ قد نبهتني على حظ ما أتيت به من العقل، وإن ذلك ممّا يقطع العقل بجوازه وإمكانه أو يقف عنده من غير حكم معين، فشكر الله لك ذلك، وبلغك آمالك، ونفعك ونفع بك فاعلم أن الطريق إلى الله تعالىٰ الذي سلكت عليه الخاصة من المؤمنين الطالبين نجاتهم دون العامة الذين شغلوا أنفسهم بغير ما خلقت له أنه على أربع شعب: بواعث ودواع وأخلاق وحقائق، والذي دعاهم إلى هذه الدواعي والبواعث والأخلاق والحقائق ثلاثة حقوق تفرضت عليهم: حق لله، وحق لأنفسهم، وحق للخلق، فالحق الذي لله تعالىٰ عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. والحق الذي للخلق عليهم كف الأذى كله عنهم ما لم يأمر به شرع من إقامة حد وصنائع المعروف معهم على الاستطاعة والإيثار ما لم ينه عنه شرع فإنه لا سبيل إلى موافقة الغرض إلاّ بلسان الشرع. والحق الذي لأنفسهم عليهم أن لا يسلكوا بها من الطرق إلاّ الطريق التي فيها سعادتها ونجاتها، وإن أبت فلجهل قام بها أو سوء طبع، فإن النفس الأبية إنما

يحملها على إتيان الأخلاق الفاضلة دين أو مروءة، فالجهل يضاد الدين فإن الدين علم من العلوم وسوء الطبع يضادّ المروءة.

ثم نرجع إلى الشعب الأربع فنقول الدواعي خمسة: الهاجس السببيّ ويسمى نفر الخاطر، ثم الإرادة، ثم العزم، ثم الهمة، ثم النية. والبواعث لهذه الدواعي ثلاثة أشياء: رغبة أو رهبة أو تعظيم. والرغبة رغبتان: رغبة في المجاورة ورغبة في المعاينة، وإن شئت قلت: رغبة فيما عنده ورغبة فيه. والرهبة رهبتان: رهبة من العذاب ورهبة من الحجاب، والتعظيم إفراده عنك وجمعك به.

والأخلاق على ثلاثة أنواع: خلق متعد، وخلق غير متعد، وخلق مشترك. فالمتعدي على قسمين: متعد بمنفعة كالجود والفتوّة، ومتعد بدفع مضرّة كالعفو والصفح واحتمال الأذى مع القدرة على الجزاء والتمكّن منه، وغير المتعدي كالورع والزهد والتوكل. وأما المشترك فكالصبر على الأذى من الخلق وبسط الوجه. وأما الحقائق فعلى أربعة: حقائق ترجع إلى الذات المقدسة، وحقائق ترجع إلى الصفات المنزهة وهي النسب، وحقائق ترجع إلى الأفعال وهي كن وأخواتها، وحقائق ترجع إلى المفعولات وهي الأكوان والمكونات، وهذه الحقائق الكونية على ثلاث مراتب: علوية وهي المعقولات، وسفلية وهي المحسوسات، وبرزخية وهي المخيلات. فأما الحقائق الذاتية فكل مشهد يقيّمك الحق فيه من غير تشبيه ولا تكييف لا تسعه العبارة ولا تومي إليه الإشارة. وأما الحقائق الصفاتية فكل مشهد يقيمك الحق فيه تطلع منه على معرفة كونه سبحانه عالماً قادراً مريداً حياً إلى غير ذلك من الأسماء والصفات المختلفة والمتقابلة والمتماثلة. وأما الحقائق الكونية فكل مشهد يقيمك الحق فيه تطلع منه على معرفة الأرواح والبسائط والمركبات والأجسام والاتصال والانفصال. وأما الحقائق الفعلية فكل مشهد يقيمك فيه تطلع منه على معرفة كن وتعلق القدرة بالمقدور بضرب خاص لكون العبد لا فعل له ولا أثر لقدرته الحادثة الموصوف بها.

وجميع ما ذكرناه يسمى الأحوال والمقامات، فالمقام منها كل صفة يجب الرسوخ فيها ولا يصح التنقل عنها كالتوبة، والحال منها كل صفة تكون فيها في وقت دون وقت كالسكر والمحو والغيبة والرضى، أو يكون وجودها مشروطاً بشرط فتنعدم لعدم شرطها كالصبر مع البلاء والشكر مع النعماء وهذه الأمور على قسمين: قسم كماله في ظاهر الإنسان وباطنه كالورع والتوبة، وقسم كماله في باطن الإنسان، ثم إن تبعه الظاهر فلا بأس كالزهد والتوكل، وليس ثم في طريق الله تعالىٰ مقام يكون في الظاهر دون الباطن.

ثم إن هذه المقامات منها ما يتصف به الإنسان في الدنيا والآخرة كالمشاهدة والجلال والجمال والأنس والهيبة والبسط. ومنها ما يتصف به العبد إلى حين موته إلى القيامة إلى أوّل قدم يضعه في الجنة ويزول عنه كالخوف والقبض والحزن والرجاء. ومنها ما يتصف به العبد إلى حين موته كالزهد والتوبة والورع والمجاهدة والرياضة والتخلي والتحلي على طريق القربة. ومنها ما يزول لزوال شرطه ويرجع لرجوع شرطه كالصبر والشكر والورع. فهذا وفقنا

الله وإياك قد بينت لك الطريق مرتب المنازل ظاهر المعاني والحقائق على غاية الإيجاز والبنيان والاستيفاء العام، فإن سلكت وصلت والله سبحانه يرشدنا وإياك.

فصل: ومدار العلم الذي يختص به أهل الله تعالىٰ على سبع مسائل من عرفها لم يعتص عليه شيء من علم الحقائق، وهي معرفة أسماء الله تعالىٰ، ومعرفة التجليات، ومعرفة خطاب الحق عباده بلسان الشرع، ومعرفة كمال الوجود ونقصه، ومعرفة الإنسان من جهة حقائقه، ومعرفة الكشف الخياليّ، ومعرفة العلل والأدوية، وذكرنا هذه المسائل في باب المعرفة من هذا الكتاب فلتنظر هنالك إن شاء الله.

تتمة: ثم نرجع إلى السبب الذي لأجله منعنا المتأهب لتجلي الحق إلى قلبه من النظر في صحة العقائد من جهة علم الكلام، فمن ذلك أن العوام بلا خلاف من كل متشرع صحيح العقل عقائدهم سليمة وأنهم مسلمون، مع أنهم لم يطالعوا شيئاً من علم الكلام ولا عرفوا مذاهب الخصوم، بل أبقاهم الله تعالىٰ على صحة الفطرة وهو العلم بوجود الله تعالىٰ بتلقين الوالد المتشرع أو المربي، وأنهم من معرفة الحق سبحانه وتنزيهه على حكم المعرفة، والتنزيه الوارد في ظاهر القرآن المبين، وهم فيه بحمد الله على صحة وصواب ما لم يتطرّق أحد منهم إلى التأويل، فإن تطرّق أحد منهم إلى التأويل خرج عن حكم العامة والتحق بصنف ما من أصناف أهل النظر والتأويل. وهو على حسب تأويله وعليه يلقى الله تعالىٰ، فإما مصيب وإما مخطىء بالنظر إلى ما يناقض ظاهر ما جاء به الشرع، فالعامة بحمد الله سليمة عقائدهم لأنهم تلقوها كما ذكرناه من ظاهر الكتاب العزيز التلقي الذي يجب القطع به، وذلك أن التواتر من الطرق الموصلة إلى العلم، وليس الغرض من العلم إلاّ القطع على المعلوم أنه على حد ما علمناه من غير ريب ولا شك، والقرآن العزيز قد ثبت عندنا بالتواتر أنه جاء به شخص ادَّعى أنه رسول من عند الله تعالىٰ، وأنه جاء بما يدل على صدقه وهو هذا القرآن، وأنه ما استطاع أحد على معارضته أصلاً، فقد صحّ عندنا بالتواتر أنه رسول الله إلينا، وأنه جاء بهذا القرآن الذي بين أيدينا اليوم وأخبر أنه كلام الله، وثبت هذا كله عندنا تواتراً، فقد ثبت العلم به أنه النبأ الحق والقول الفصل. والأدلة سمعية وعقلية، وإذا حكمنا على أمر بحكم ما فلا شك فيه أنه على ذلك الحكم.

وإذا كان الأمر على ما قلناه فيأخذ المتأهب عقيدته من القرآن العزيز وهو بمنزلة الدليل العقلي في الدلالة، إذ هو الصدق الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢]. فلا يحتاج المتأهب مع ثبوت هذا الأصل إلى أدلة العقول إذ قد حصل الدليل القاطع الذي عليه السيف معلق. والإصفاق عليه محقق عنده، قالت اليهود لمحمد ﷺ: انسب لنا ربك فأنزل الله تعالىٰ عليه سورة الإخلاص ولم يقم لهم من أدلة النظر دليلاً واحداً فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ فأثبت الوجود ﴿أَحَدٌ﴾ فنفى العدد وأثبت الأحدية لله سبحانه ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ فنفى الجسم ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فنفى الوالد والولد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فنفى الصاحبة، كما نفى الشريك بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾

[سورة الأنبياء: الآية ٢٢] فيطلب صاحب الدليل العقلي البرهان على صحة هذه المعاني بالعقل وقد دلّ على صحة هذا اللفظ، فيا ليت شعري هذا الذي يطلب يعرف الله من جهة الدليل، ويكفر من لا ينظر كيف كانت حالته قبل النظر، وفي حال النظر هل هو مسلم أم لا؟ وهل يصلي ويصوم؟ أو ثبت عنده أن محمداً رسول الله إليه أم أن الله موجود؟ فإن كان معتقداً لهذا كله فهذه حالة العوام فليتركهم على ما هم عليه ولا يكفر أحداً، وإن لم يكن معتقداً لهذا إلاّ حتى ينظر ويقرأ علم الكلام فنعوذ بالله من هذا المذهب حيث أدّاه سوء النظر إلى الخروج عن الإيمان.

وعلماء هذا العلم رضي الله عنهم ما وضعوه وصنفوا فيه ما صنفوه ليثبتوا في أنفسهم العلم بالله، وإنما وضعوه إرداعاً للخصوم الذين جحدوا الإله أو الصفات أو بعض الصفات أو الرسالة أو رسالة محمد ﷺ خاصة أو حدوث العالم، أو الإعادة إلى هذه الأجسام بعد الموت أو الحشر والنشر وما يتعلق بهذا الصنف، وكانوا كافرين بالقرآن مكذبين به جاحدين له، فطلب علماء الكلام إقامة الأدلة عليهم على الطريقة التي زعموا أنها أدّتهم إلى إبطال ما ادّعينا صحته خاصة حتى لا يشوشوا على العوام عقائدهم. فمهما برز في ميدان المجادلة بدعيّ برز له أشعريّ أو من كان من أصحاب علم النظر ولم يقتصروا على السيف رغبة منهم وحرصاً على أن يردّوا واحداً إلى الإيمان والانتظام في سلك أمة محمد ﷺ بالبرهان، إذ الذي كان يأتي بالأمر المعجز على صدق دعواه قد فقد وهو الرسول عليه السلام، فالبرهان عندهم قائم مقام تلك المعجزة في حق من عرف، فإن الراجع بالبرهان أصح إسلاماً من الراجع بالسيف، فإن الخوف يمكن أن يحمله على النفاق وصاحب البرهان ليس كذلك. فلهذا رضي الله عنهم وضعوا علم الجوهر والعرض لا غير، ويكفي في المصر منه واحد.

فإذا كان الشخص مؤمناً بالقرآن أنه كلام الله قاطعاً به فليأخذ عقيدته منه من غير تأويل ولا ميل، فنزّه سبحانه نفسه أن يشبهه شيء من المخلوقات أو يشبه شيئاً بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] و﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠]. وأثبت رؤيته في الدار الآخرة بظاهر قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [سورة القيامة. الآية ٢٢و٢٣] و﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ١٥] وانتفت الإحاطة بدركه بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٣] وثبت كونه قادراً بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٢٠] وثبت كونه عالماً بقوله: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] وثبت كونه مريداً بقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة البروج: الآية ١٦] وثبت كونه سميعاً بقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ [سورة المجادلة: الآية ١] وثبت كونه بصيراً بقوله ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [سورة العلق: الآية ١٤] وثبت كونه متكلماً بقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٦٤] وثبت كونه حياً بقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] وثبت إرسال الرسل بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٣] وثبتت رسالة محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٩] وثبت أنه آخر الأنبياء

بقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٠] وثبت أن كل ما سواه خلق له بقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٢] وثبت خلق الجنّ بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] وثبت حشر الأجساد بقوله: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٥] إلى أمثال هذا ممّا تحتاج إليه العقائد من الحشر والنشروالقضاء والقدر والجنة والنار والقبر والميزان والحوض والصراط والحساب والصحف، وكل ما لا بدّ للمعتقد أن يعتقده.

قال تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٨] وأن هذا القرآن معجزته عليه السلام بطلب معارضته والعجز عن ذلك في قوله: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [سورة يونس: الآية ٣٨] ثم قطع أن المعارضة لا تكون أبداً بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٨] وأخبر بعجز من أراد معارضته وإقراره بأن الأمر عظيم فيه فقال: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [سورة المدثر: الآية ١٨] إلى قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾ [سورة المدثر: الآية ٢٤] ففي القرآن العزيز للعاقل غنية كبيرة، ولصاحب الداء العضال دواء وشفاء كما قال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٢] ومقنع شاف لمن عزم على طريق النجاة ورغب في سموّ الدرجات، وترك العلوم التي تورد عليها الشبه والشكوك فيضيع الوقت ويخاف المقت، إذ المنتحل لتلك الطريقة قلما ينجو من التشغيب أو يشتغل برياضة نفسه وتهذيبها، فإنه مستغرق الأوقات في إرداع الخصوم الذين لم يوجد لهم عين، ودفع شبه يمكن إن وقعت للخصم ويمكن إن لم تقع، فقد تقع وقد لا تقع، وإذا وقعت فسيف الشريعة أردع وأقطع.

«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاس حَتَّى يَقولوا لا إله إلاَّ الله وَحَتَّى يُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ» هذا قوله ﷺ. ولم يدفعنا لمجادلتهم إذا حضروا إنما هو الجهاد والسيف إن عاند فيما قيل له، فكيف بخصم متوهم نقطع الزمان بمجادلته وما رأينا له عيناً ولا قال لنا شيئاً، وإنما نحن مع ما وقع لنا في نفوسنا ونتخيل أنا مع غيرنا، ومع هذا فإنهم رضي الله عنهم اجتهدوا وخيراً قصدوا، وإن كان الذي تركوا أوجب عليهم من الذي شغلوا نفوسهم به والله ينفع الكل بقصده.

ولولا التطويل لتكلمت على مقامات العلوم ومراتبها، وأن علم الكلام مع شرفه لا يحتاج إليه أكثر الناس، بل شخص واحد يكفي منه في البلد مثل الطبيب. والفقهاء العلماء بفروع الدين ليسوا كذلك، بل الناس محتاجون إلى الكثرة من علماء الشريعة، وفي الشريعة بحمد الله الغنية والكفاية، ولو مات الإنسان وهو لا يعرف اصطلاح القائلين بعلم النظر مثل الجوهر والعرض والجسم والجسماني والروح والروحاني لم يسأله الله تعالىٰ عن ذلك، وإنما يسأل الله الناس عمّا أوجب عليهم من التكليف خاصة والله يرزقنا الحياء منه.

وصل: يتضمن ما ينبغي أن يعتقد في العموم وهي عقيدة أهل الإسلام مسلمة من غير نظر إلى دليل ولا إلى برهان.

فيا إخوتي المؤمنين، ختم الله لنا ولكم بالحسنى لما سمعت قوله تعالىٰ عن نبيه هود

عليه السلام حين قال لقومه المكذبين به وبرسالته: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [سورة هود: الآية ٥٤] فأشهد عليه السلام قومه مع كونهم مكذبين به على نفسه بالبراءة من الشرك بالله والإقرار بأحديته، لما علم عليه السلام أن الله سبحانه سيوقف عباده بين يديه ويسألهم عمّا هو عالم به لإقامة الحجة لهم أو عليهم حتى يؤدّي كل شاهد شهادته، وقد ورد أن المؤذن يشهد له مدى صوته من رطب ويابس وكل من سمعه ولهذا يدبر الشيطان عند الأذان وله حصاص، وفي رواية وله ضراط، وذلك حتى لا يسمع نداء المؤذن بالشهادة فيلزمه أن يشهد له فيكون بتلك الشهادة له من جملة من يسعى في سعادة المشهود له وهو عدوّ محض ليس له إلينا خير البتة لعنه الله، وإذا كان العدوّ لا بدّ أن يشهد لك بما أشهدته به على نفسك فأحرى أن يشهد لك وليك وحبيبك، ومن هو على دينك وملتك، وأحرى أن تشهده أنت في الدار الدنيا على نفسك بالوحدانية والإيمان.

فيا إخوتي ويا أحبائي رضي الله عنكم، أشهد كم عبد ضعيف مسكين فقير إلى الله تعالىٰ في كل لحظة وطرفة، وهو مؤلف هذا الكتاب ومنشئه، أشهدكم على نفسه بعدأن أشهد الله تعالىٰ وملائكته، ومن حضره من المؤمنين وسمعه أنه يشهد قولاً وعقداً، أن الله تعالىٰ إله واحد، لا ثاني له في ألوهيته منزّه عن الصاحبة والولد، مالك لا شريك له ملك لا وزير له، صانع لا مدبّر معه، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده، بل كل موجود سواه مفتقر إليه تعالىٰ في وجوده، فالعالم كله موجود به، وهو وحده متّصف بالوجود لنفسه، لا افتتاح لوجوده، ولا نهاية لبقائه، بل وجود مطلق غير مقيد قائم بنفسه، ليس بجوهر متحيّز فيقدر له المكان، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء، ولا بجسم فتكون له الجهة والتلقاء، مقدّس عن الجهات والأقطار، مرئيّ بالقلوب والأبصار، إذا شاء استوى على عرشه كما قاله، وعلى المعنى الذي أراده، كما أنّ العرش وما سواه به استوى، وله الآخرة والأولى، ليس له مثل معقول ولا دلّت عليه العقول، لا يحده زمان، ولا يقله مكان، بل كان ولا مكان، وهو على ما عليه كان، خلق المتمكن والمكان، وأنشأ الزمان، وقال أنا الواحد الحي لا يؤوده حفظ المخلوقات، ولا ترجع إليه صفة لم يكن عليها من صنعة المصنوعات، تعالىٰ أن تحله الحوادث أو يحلها، أو تكون بعده أو يكون قبلها، بل يقال كان ولا شيء معه، فإن القبل والبعد من صيغ الزمان الذي أبدعه، فهو القيوم الذي لا ينام، والقهار الذي لا يرام، ليس كمثله شيء، خلق العرش وجعله حد الاستواء، وأنشأ الكرسيّ وأوسعه الأرض والسموات العلى، اخترع اللوح والقلم الأعلى، وأجراه كاتباً بعلمه في خلقه إلى يوم الفصل والقضاء، أبدع العالم كله على غير مثال سبق، وخلق الخلق، وأخلق الذي خلق، أنزل الأرواح في الأشباح أمناء، وجعل هذه الأشباح المنزلة إليها الأرواح في الأرض خلفاء، وسخرّ لنا ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، فلا تتحرّك ذرّة إلاّ إليه وعنه، خلق الكل من غير حاجة إليه، ولا موجب أوجب ذلك عليه، لكن علمه سبق بأن يخلق ما خلق، فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو على كل شيء قدير، أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء

عدداً، يعلم السرّ وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، كيف لا يعلم شيئاً هو خلقه، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، علم الأشياء منها قبل وجودها، ثم أوجدها على حد ما علمها، فلم يزل عالماً بالأشياء، لم يتجدّد له علم عند تجدّد الإنشاء، بعلمه أتقن الأشياء وأحكمها، وبه حكم عليها من شاء وحكمها، علم الكليات على الإطلاق، كما علم الجزئيات بإجماع من أهل النظر الصحيح واتفاق، فهو عالم الغيب والشهادة، فتعالىٰ الله عمّا يشركون، فعّال لما يريد، فهو المريد الكائنات، في عالم الأرض والسموات، لم تتعلق قدرته بشيء حتى أراده، كما أنه لم يرده حتى علمه، إذ يستحيل في العقل أن يريد ما لا يعلم، أو يفعل المختار المتمكن من ترك ذلك الفعل ما لا يريد، كما يستحيل أن توجد نسب هذه الحقائق في غير حيّ، كما يستحيل أن تقوم الصفات بغير ذات موصوفة بها، فما في الوجود طاعة ولا عصيان، ولا ربح ولا خسران، ولا عبد ولا حر، ولا برد ولا حر، ولا حياة ولا موت، ولا حصول ولا فوت، ولا نهار ولا ليل، ولا اعتدال ولا ميل، ولا برّ ولا بحر، ولا شفع ولا وتر، ولا جوهر ولا عرض، ولا صحة ولا مرض، ولا فرح ولا ترح، ولا روح ولا شبح، ولا ظلام ولا ضياء، ولا أرض ولا سماء، ولا تركيب ولا تحليل، ولا كثير ولا قليل، ولا غداة ولا أصيل، ولا بياض ولا سواد، ولا رقاد ولا سهاد، ولا ظاهر ولا باطن، ولا متحرك ولا ساكن، ولا يابس ولا رطب، ولا قشر ولا لب، ولا شيء من هذه النسب المتضادّات منها والمختلفات والمتماثلات إلاّ وهو مراد للحق تعالىٰ.

وكيف لا يكون مراداً له وهو أوجده، فكيف يوجد المختار ما لا يريد، لا رادّ لأمره، ولا معقب لحكمه، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممّن يشاء، ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، ويضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، ما شاء كان وما لم يشأ أن يكون لم يكن، لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يريدوا شيئاً لم يرد الله تعالىٰ أن يريدوه ما أرادوه، أو يفعلوا شيئاً لم يرد الله تعالىٰ إيجاده وأرادوه عندما أراد منهم أن يريدوه ما فعلوه، ولا استطاعوا على ذلك، ولا أقدرهم عليه، فالكفر والإيمان والطاعة والعصيان من مشيئته وحكمه وإرادته، ولم يزل سبحانه موصوفاً بهذه الإرادة أزلاً، والعالم معدوم غير موجود، وإن كان ثابتاً في العلم في عينه، ثم أوجد العالم من غير تفكّر ولا تدبّر عن جهل أو عدم علم، فيعطيه التفكّر والتدبّر علم ما جهل جلّ وعلا عن ذلك، بل أوجده عن العلم السابق، وتعيين الإرادة المنزّهة الأزلية القاضية على العالم بما أوجدته عليه، من زمان ومكان، وأكوان وألوان، فلا مريد في الوجود على الحقيقة سواه، إذ هو القائل سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الإنسان: الآية ٣٠] وأنه سبحانه كما علم فأحكم، وأراد فخصص، وقدّر فأوجد، كذلك سمع ورأى ما تحرك أو سكن، أو نطق في الورى من العالم الأسفل والأعلى، لا يحجب سمعه البعد فهو القريب، ولا يحجب بصره القرب فهو البعيد، يسمع كلام النفس في النفس، وصوت المماسة الخفية عند اللمس، ويرى السواد في الظلماء، والماء في الماء، لا يحجبه الامتزاج ولا الظلمات ولا النور، وهو السميع البصير.

تكلم سبحانه لا عن صمت متقدم، ولا سكوت متوهم، بكلام قديم أزليّ، كسائر صفاته من علمه وإرادته وقدرته، كلّم به موسىٰ عليه السلام، سمّاه التنزيل، والزبور والتوراة والإنجيل، من غير حروف ولا أصوات ولا نغم ولا لغات، بل هو خالق الأصوات والحروف واللغات، فكلامه سبحانه من غير لهاة ولا لسان، كما أن سمعه من غير أصمخة ولا آذان، كما أنّ بصره من غير حدقة ولا أجفان، كما أن إرادته في غير قلب ولا جنان، كما أن علمه من غير اضطرار ولا نظر في برهان، كما أن حياته من غير بخار تجويف قلب حدث عن امتزاج الأركان، كما أن ذاته لا تقبل الزيادة والنقصان، فسبحانه سبحانه، من بعيد دان عظيم السلطان، عميم الإحسان، جسيم الامتنان، كل ما سواه، فهو عن جوده فائض، وفضله وعدله الباسط له والقابض، أكمل صنع العالم وأبدعه، حين أوجده واخترعه، لا شريك له في ملكه، ولا مدبّر معه في ملكه، إن أنعم فنعم فذلك فضله، وإن أبلى فعذب فذلك عدله، لم يتصرّف في ملك غيره فينسب إلى الجور والحيف، ولا يتوجّه عليه لسواه حكم فيتصف بالجزع لذلك والخوف، كل ما سواه تحت سلطان قهره، ومتصرّف عن إرادته وأمره، فهو الملهم نفوس المكلفين التقوى والفجور، وهو المتجاوز عن سيئات من شاء، والآخذ بها من شاء، هنا وفي يوم النشور، لا يحكم عدله في فضله ولا فضله في عدله، أخرج العالم قبضتين، وأوجد لهم منزلتين، فقال هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي، ولم يعترض عليه معترض هناك، إذ لا موجود كان ثم سواه، فالكل تحت تصريف أسمائه، فقبضة تحت أسماء بلائه، وقبضة تحت أسماء آلائه، ولو أراد سبحانه أن يكون العالم كله سعيداً لكان، أو شقياً لما كان من ذلك في شان، لكنه سبحانه لم يرد فكان كما أراد، فمنهم الشقي والسعيد هنا وفي يوم المعاد، فلا سبيل إلى تبديل ما حكم عليه القديم، وقد قال تعالىٰ في الصلاة هي خمس وهي خمسون ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] لتصرّفي في ملكي، وإنفاذ مشيئتي في ملكي، وذلك لحقيقة عميت عنها الأبصار والبصائر، ولم تعثر عليها الأفكار ولا الضمائر إلاّ بوهب، ألا هي وجود رحمانيّ لمن اعتنى الله به من عباده، وسبق له ذلك بحضرة أشهاده، فعلم حين أعلم أن الألوهة أعطت هذا التقسيم، وأنه من رقائق القديم، فسبحان من لا فاعل سواه، ولا موجود لنفسه إلاّ إياه ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] و﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٣] ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩].

الشهادة الثانية: وكما أشهدت الله وملائكته وجميع خلقه وإياكم على نفسي بتوحيده، فكذلك أشهده سبحانه وملائكته وجميع خلقه وإياكم على نفسي بالإيمان بمن اصطفاه واختاره واجتباه من وجوده، ذلك سيدنا محمد ﷺ الذي أرسله إلى جميع الناس كافة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فبلغ ﷺ ما أنزل من ربّه إليه وأدّى أمانته، ونصح أمته، ووقف في حجة وداعه على كل من حضر من أتباعه، فخطب وذكر، وخوّف وحذر، وبشّر وأنذر، ووعد وأوعد، وأمطر وأرعد، وما خصّ بذلك التذكير أحداً من أحد عن إذن الواحد

الصمد، ثم قال: «أَلاَ هَلْ بَلَّغتُ؟» فقالوا: بلغت يا رسول الله، فقال ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». وإني مؤمن بكل ما جاء به ﷺ ممّا علمت وما لم أعلم، فممّا جاء به فقرّر أن الموت عن أجل مسمّى عند الله إذا جاء لا يؤخّر، فأنا مؤمن بهذا إيماناً لا ريب فيه ولا شك، كما آمنت وأقررت أن سؤال فتاني القبر حق، وعذاب القبر حق، وبعث الأجساد من القبور حق، والعرض على الله تعالىٰ حق، والحوض حق، والميزان حق، وتطاير الصحف حق، والصراط حق، والجنة حق، والنار حق، وفريقاً في الجنة وفريقاً في النار حق، وكرب ذلك اليوم حق على طائفة وطائفة أخرى لا يحزنهم الفزع الأكبر وشفاعة الملائكة والنبيين والمؤمنين، وإخراج أرحم الراحمين بعد الشفاعة من النار من شاء حق، وجماعة من أهل الكبائر المؤمنين يدخلون جهنم ثم يخرجون منها بالشفاعة والامتنان حق، والتأبيد للمؤمنين والموحدين في النعيم المقيم في الجنان حق، والتأبيد لأهل النار في النار حق، وكل ما جاءت به الكتب والرسل من عند الله علم أو جهل حق.

فهذه شهادتي على نفسي أمانة عند كل من وصلت إليه أن يؤدّيها إذا سئلها حيثما كان، نفعنا الله وإياكم بهذا الإيمان، وثبتنا عليه عند الانتقال من هذه الدار إلى الدار الحيوان، وأحلنا منها دار الكرامة والرضوان، وحال بيننا وبين دار سرابيلها من القطران، وجعلنا من العصابة التي أخذت الكتب بالإيمان، وممّن انقلب من الحوض وهو ريان، وثقل له الميزان، وثبتت له على الصراط القدمان، إنّه المنعم المحسان، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

فهذه عقيدة العوام من أهل الإسلام أهل التقليد وأهل النظر ملخصة مختصرة ثم أتلوها إن شاء الله بعقيدة الناشية الشادية ضمنتها اختصار الاقتصاد بأوجز عبارة، نبهت فيها على مآخذ الأدلة لهذه الملة، مسجعة الألفاظ، وسميتها برسالة المعلوم من عقائد أهل الرسوم، ليسهل على الطالب حفظها، ثم أتلوها بعقيدة خواص أهل الله، من أهل طريق الله من المحققين أهل الكشف والوجود، وجرّدتها أيضاً في جزء آخر سمّيته المعرفة، وبه انتهت مقدّمة الكتاب. وأما التصريح بعقيدة الخلاصة فما أفردتها على التعيين لما فيها من الغموض، لكن جئت بها مبدّدة في أبواب هذا الكتاب مستوفاة مبينة لكنها كما ذكرنا متفرقة، فمن رزقه الله الفهم فيها يعرف أمرها ويميزها من غيرها فإنه العلم الحق، والقول الصدق، وليس وراءها مرمى، ويستوي فيها البصير والأعمى، تلحق الأباعد بالأداني، وتلحم الأسافل بالأعالي، والله الموفق لا رب غيره.

وصل الناشي ـ والشادي في العقائد:

قال الشادي: اجتمع أربعة نفر من العلماء في قبة أرين تحت خط الاستواء: الواحد مغربيّ، والثاني مشرقيّ، والثالث شاميّ، والرابع يمنيّ، فتجاروا في العلوم، والفرق بين الأسماء والرسوم، فقال كل واحد منهم لصاحبه: لا خير في علم لا يعطي صاحبه سعادة

الأبد، ولا يقدس حامله عن تأثير الأمد، فلنبحث في هذه العلوم التي بين أيدينا عن العلم الذي هو أعزّ ما يطلب وأفضل ما يكتسب، وأسنى ما يدّخر وأعظم ما به يفتخر. فقال المغربيّ: عندي من هذا العلم العلم بالحامل القائم. وقال المشرقيّ: عندي منه العلم بالحامل المحمول اللازم. وقال الشاميّ: عندي من هذا العلم علم الإبداع والتركيب. وقال اليمنيّ: عندي من هذا العلم علم التلخيص والترتيب. ثم قالوا: ليظهر كل واحد منا ما وعاه، وليكشف عن حقيقة ما ادّعاه.

الفصل الأوّل في معرفة الحامل القائم باللسان الغربيّ

قام الإمام المغربيّ وقال: لي التقدّم من أجل مرتبة علمي، فالحكم في الأوليات حكمي. فقال له الحاضرون: تكلم وأوجز وكن البليغ المعجز. فقال: اعلموا أنه ما لم يكن ثم كان، واستوت في حقه الأزمان، أن المكوّن يلزمه في الآن. ثم قال: كل ما لا يستغني عن أمر مّا فحكمه حكم ذلك الأمر، ولكن إذا كان من عالم الخلق والأمر فليصرف الطالب النظر إليه وليعوّل الباحث عليه. ثم قال: من كان الوجود يلزمه فإنه يستحيل عدمه، والكائن ولم يكن يستحيل قدمه، ولو لم يستحل عليه العدم، لصحبه المقابل في القدم، فإن كان المقابل لم يكن، فالعجز في المقابل مستكن، وإن كان كان يستحيل على هذا الآخر كان، ومحال أن يزول بذاته لصحة الشرط وإحكام الربط. ثم قال: وكلّ ما ظهر عينه ولم يوجب حكماً، فكونه ظاهراً محال فإنه لا يفيد علماً. ثم قال: ومن المحال عليه تعمير المواطن، لأن رحلته في الزمن الثاني من زمان وجوده لنفسه وليس بقاطن، ولو جاز أن ينتقل لقام بنفسه واستغنى عن المحل ولا يعدمه ضدّ لاتصافه بالفقد ولا الفاعل، فإن قولك فعل لا شيء لا يقول به عاقل. ثم قال: من توقّف وجوده على فناء شيء فلا وجود له حتى يفنى، فإن وجد فقد فني ذلك الشيء المتوقّف عليه وحصل المعنى، من تقدّمه شيء فقد انحصر دونه وتقيّد ولزمه هذا الوصف ولو تأبّد فقد ثبت العين بلا مين. ثم قال: ولو كان حكم المسند إليه حكم المسند لما تناهى العدد، ولا صحّ وجود من وجد. ثم قال: ولو كان ما أثبتناه يخلى ويملى، لكان يبلى ولا يبلى. ثم قال: ولو كان يقبل التركيب لتحلّل أو التأليف اضمحل، وإذا وقع التماثل سقط التفاضل. ثم قال: ولو كان يستدعي وجوده سواه ليقوم به لم يكن ذلك السوى مستنداً إليه وقد صحّ إليه استناده، فباطل أن يتوقف عليه وجوده وقد قيّده إيجاده، ثم إن وصف الوصف محال، فلا سبيل إلى هذا العقد بحال. ثم قال: الكرة وإن كانت فانية، فليست ذات ناحية، إذا كانت الجهات إليّ، فحكمها عليّ، وأنا منها خارج عنها وقد كان ولا أنا، ففيم التشغيب والعنا. ثم قال: كل من استوطن موطناً جازت عنه رحلته وثبتت نقلته، من حاذى بذاته شيئاً فإن التثليث يحده ويقدره، وهذا يناقض ما كان العقل من قبل يقرّره. ثم قال: لو كان لا يوجد شيء إلاّ عن مستقلين اتفاقاً واختلافاً، لما رأينا في الوجود افتراقاً وائتلافاً، والمقدّر حكمه حكم الواقع، فإذن التقدير هنا للمنازع ليس بنافع. ثم قال: إذا وجد الشيء

في عينه جاز أن يراه ذو العين بعينه المقيّدة بوجهه الظاهر وجفنه، وما ثم علة توجب الرؤية في مذهب أكثر الأشعرية، إلاّ الوجود بالبنية وغير البنية، ولا بدّ من البنية، ولو كانت الرؤية تؤثّر في المرئي لأحلناها، فقد بانت المطالب بأدلتها كما ذكرناها، ثم صلّى وسلم بعدما حمد وقعد، فشكره الحاضرون على إيجازه في العبارة، واستيفائه المعاني في دقيق الإشارة.

الفصل الثاني في معرفة الحامل المحمول اللازم باللسان المشرقيّ

ثم قام المشرقيّ وقال: تكوين الشيء من الشيء ميل وتكوينه لا من شيء اقتدار الأزل، ومن لم يمتنع عنك فقدرتك نافذة فيه ولم تزل. ثم قال: إيجاد أحكام في محكم يثبت بحكمه وجود علم المحكم. ثم قال: والحياة في العالم شرط لازم ووصف قائم. ثم قال: الشيء إذا قبل التقدّم والمناص فلا بدّ من مخصص لوقوع الاختصاص، وهو عين الإرادة في حكم العقل والعادة. ثم قال: ولو أراد المريد بما لم يكن لكان ما لم يكن مراداً بما لم يكن. ثم قال: من المحال أن توجب المعاني أحكامها في غير من قامت به فانتبه. ثم قال: من تحدث في نفسه بما مضى، فذلك الحديث ليس بإرادة به حكم الدليل على الكلام وقضى. ثم قال: القديم لا يقبل الطاري فلا تمارِ ولو أحدث في نفسه ما ليس منها لكان بعدم تلك الصفة ناقصاً عنها، ومن ثبت كماله بالعقل والنص فلا ينسب إليه النقص. ثم قال: لو لم يبصرك ولم يسمعك لجهل كثيراً منك، ونسبة الجهل إليه محال، فلا سبيل إلى نفي هاتين الصفتين عنه بحال، ومن ارتكب القول بنفيهما ارتكب مخوفاً لما يؤدّي إلى كونه مؤوفاً. ثم قال: من ضرورة الحكم أن يوجبه معنى، كما من ضرورة المعنى الذي لا يقوم بنفسه استدعاء مغنى، فيا أيها المجادل كم ذا تتعنى ما ذاك إلاّ لخوفك من العدد، وهذا لا يبطل حقيقة الواحد والأحد، ولو علمت أن العدد هو الأحد، ما شرعت في منازعة أحد، فهذا قد أبنت عن الحامل المحمول العارض واللازم في تقاسيم هذه المعالم ثم قعد.

الفصل الثالث في معرفة الإبداع والتركيب باللسان الشاميّ

ثم قام الشاميّ وقال: إذا تماثلت المحدثات، وكان تعلّق القدرة بها لمجرد الذات، فبأيّ دليل يخرج منها بعض الممكنات. ثم قال: لما كانت الإرادة تتعلق بمرادها حقيقة، ولم تكن القدرة الحادثة مثلها لاختلال في الطريقة، فذلك هو الكسب فكسب العبد وقدر الرب، وتبيين ذلك بالحركة الاختيارية والرعدة الاضطرارية. ثم قال: القدرة من شرطها الإيجاد إذا ساعدها العلم والإرادة فإياك والعادة، كل ما أدّى إلى نقض الألوهة فهو مردود، ومن جعل في الوجود الحادث ما ليس بمراد الله فهو من المعرفة مطرود، وباب التوحيد في وجهه مسدود، وقد يراد الأمر ولا يراد المأمور به وهو الصحيح وهذا غاية التصريح. ثم قال: من وجب على الله أمراً فقد أوجب عليه حد الواجب، وذلك على الله محال في صحيح المذاهب، ومن قال بالوجوب لسبق العلم فقد خرج عن الحكم المعروف عند العلماء في الوجب وهو صحيح الحكم. ثم قال: تكليف ما لا يطاق جائز عقلاً، وقد عاينا ذلك مشاهدة

ونقلاً. ثم قال: من لم يخرج شيء على الحقيقة عن ملكه فلا يتصف بالجور والظلم فيما يجريه من حكمه في ملكه. ثم قال: من هو مختار فلا يجب عليه رعاية الأصلح، وقد ثبت ذلك وصح، التقبيح والتحسين بالشرع والغرض، ومن قال إن الحسن والقبح لذات الحسن والقبيح فهو صاحب جهل عرض. ثم قال: إذا كان وجوب معرفة الله وغير ذلك من شرطه ارتباط الضرر بتركه في المستقبل فلا يصحّ الوجوب بالعقل لأنه لا يعقل. ثم قال: إذا كان العقل يستقل بنفسه في أمر وفي أمر لا يستقل، فلا بدّ من موصل إليه مستقل، فلم تستحل بعثة الرسل، وأنهم أعلم الخلق بالغايات والسبل. ثم قال: لو جاز أن يجيء الكاذب بما جاء به الصادق لانقلبت الحقائق ولتبدلت القدرة بالعجز ولاستند الكذب إلى حضرة العزّ، وهذا كله محال وغاية الضلال، بما ثبت الواحد الأوّل يثبت الثاني في جميع الوجوه والمعاني.

الفصل الرابع في معرفة التخليص والترتيب باللسان اليمني

ثم قام اليمنيّ وقال: من أفسد شيئاً بعدما أنشأه جاز أن يعيده كما بدأه. ثم قال: إذا قامت اللطيفة الروحانية بجزء ما من الإنسان فقد صحَّ عليه اسم الحيوان النائم يرى ما لا يراه اليقظان وهو إلى جانبه لاختلاف مذاهبه، من قامت به الحياة جازت عليه اللذة والألم فما لك لا تلتزم. ثم قال: البدل من الشيء يقوم مقامه، ويوجب له أحكامه. ثم قال: من قدر على إمساك الطير في الهواء وهي أجسام قدر على إمساك جميع الأجرام. ثم قال: قد كملت النشاة واجتمعت أطراف الدائرة قبل حلول الدائرة. ثم قال: إقامة الدين هو المطلوب ولا يصحّ إلاّ بالأمان، فاتخاذ الإمام واجب في كل زمان. ثم قال: إذا تكاملت الشرائط صحّ العقد، ولزم العالم الوفاء بالعهد، وهي الذكورية والبلوغ والعقل والعلم والحرية والورع والنجدة والكفاية ونسب قريش وسلامة حاسة السمع والبصر، وبهذا قال بعض أهل العلم والنظر. ثم قال: إذا تعارض إمامان فالعقد للأكثر أتباعه، وإذا تعذّر خلع إمام ناقص لتحقق وقوع فساد شامل فإبقاء العقد له واجب ولا يجوز إرداعه. قال الشادي: فوفى كل واحد من الأربعة ما اشترط، وانتظم الوجود وارتبط.

وصل - في اعتقاد أهل الاختصاص من أهل الله بين نظر وكشف:

الحمد لله محير العقول في نتائج الهمم، وصلّى الله على محمد وعلى آله وسلم.

مسألة: أما بعد، فإن للعقول حدّاً تقف عنده من حيث ما هي مفكرة لا من حيث ما هي قابلة، فنقول في الأمر الذي يستحيل عقلاً قد لا يستحيل نسبة إلهية، كما نقول فيما يجوز عقلاً قد يستحيل نسبة إلهية.

مسألة: أية مناسبة بين الحق الواجب الوجود بذاته وبين الممكن وإن كان واجباً به عند من يقول بذلك لاقتضاء الذات أو لاقتضاء العلم، ومآخذها الفكرية إنما تقوم صحيحة من البراهين الوجودية، ولا بدّ بين الدليل والمدلول والبرهان والمبرهن عليه من وجه به يكون التعلّق له نسبة إلى الدليل ونسبة إلى المدلول عليه بذلك الدليل، ولولا ذلك الوجه ما وصل

دالٌ إلى مدلول دليله أبداً، فلا يصح أن يجتمع الخلق والحق في وجه أبداً من حيث الذات، لكن من حيث إنّ هذه الذات منعوتة الألوهة فهذا حكم آخر تستقل العقول بإدراكه، وكل ما يستقل العقل بإدراكه عندنا يمكن أن يتقدم العلم به على شهوده، وذات الحق تعالىٰ بائنة عن هذا الحكم فإن شهودها يتقدم على العلم بها بل تشهد ولا تعلم، كما أن الألوهة تعلم ولا تشهد والذات تقابلها، وكم من عاقل ممن يدعي العقل الرصين من العلماء النظار يقول إنه حصل على معرفة الذات من حيث النظر الفكريّ وهو غالط في ذلك، وذلك لأنه متردّد بفكره بين السلب والإثبات، فالإثبات راجع إليه، فإنه ما أثبت للحق الناظر إلاَّ ما هو الناظر عليه من كونه عالماً قادراً مريداً إلى جميع الأسماء، والسلب راجع إلى العدم والنفي، والنفي لا يكون صفة ذاتية لأن الصفات الذاتية للموجودات إنما هي ثبوتية، فما حصل لهذا المفكر المتردّد بين الإثبات والسلب من العلم بالله شيء.

مسألة: أنى للمقيد بمعرفة المطلق وذاته لا تقتضيه، وكيف يمكن أن يصل الممكن إلى معرفة الواجب بالذات؟ وما من وجه للممكن إلاَّ ويجوز عليه العدم والدثور والافتقار فلو جمع بين الواجب بذاته وبين الممكن وجه لجاز على الواجب ما جاز على الممكن من ذلك الوجه من الدثور والافتقار وهذا في حق الواجب محال، فإثبات وجه جامع بين الواجب والممكن محال، فإن وجوه الممكن تابعة له وهو في نفسه يجوز عليه العدم فتوابعه أحرى وأحق بهذا الحكم، وثبت للممكن ما ثبت للواجب بالذات من ذلك الوجه الجامع، وما ثَمَّ شيء ثبت للممكن من حيث ما هو ثابت للواجب بالذات، فوجود وجه جامع بين الممكن والواجب بالذات محال.

مسألة: لكني أقول: إن للألوهة أحكاماً وإن كانت حكماً، وفي صور هذه الأحكام يقع التجلي في الدار الآخرة حيث كان، فإنه قد اختلف في رؤية النبيّ عليه السلام ربّه كما ذكر، وقد جاء حديث النور الأعظم في رفرف الدر والياقوت وغير ذلك.

مسألة: أقول بالحكم الإرادي لكني لا أقول بالاختيار، فإن الخطاب بالاختيار الوارد إنما ورد من حيث النظر إلى الممكن معرّى عن علته وسببيته.

مسألة: فأقول بما أعطاه الكشف الاعتصاميّ «إن الله كان ولا شيء معه»، إلى هنا انتهى لفظه عليه السلام، وما أتى بعد هذا فهو مدرج فيه وهو قولهم: وهو الآن على ما عليه كان؛ يريدون في الحكم. فالآن وكان أمران عائدان علينا إذ بنا ظهرا وأمثالهما وقد انتفت المناسبة والمقول عليه «كان الله ولا شيء معه»، إنما هو الألوهة لا الذات، وكل حكم يثبت في باب العلم الإلهيّ للذات إنما هو للألوهية وهي أحكام نسب وإضافات وسلوب، فالكثرة في النسب لا في العين، وهنا زلّت أقدام من شرّك بين من يقبل التشبيه وبين من لا يقبله عند كلامهم في الصفات، واعتمدوا في ذلك على الأمور الجامعة التي هي الدليل والحقيقة والعلة والشرط وحكموا بها غائباً وشاهداً، فأما شاهداً فقد يسلم وأما غائباً فغير مسلم.

مسألة: بحر العماء برزخ بين الحق والخلق في هذا البحر اتصف الممكن بعالم وقادر

وجميع الأسماء الإلهية التي بأيدينا، واتصف الحق بالتعجب والتبشش والضحك والفرح والمعية وأكثر النعوت الكونية فردّ ما له وخذ ما لك فله النزول ولنا المعراج.

مسألة: من أردت الوصول إليه لم تصل إليه إلاَّ به وبك بك من حيث طلبك، وبه لأنه موضع قصدك فالألوهة تطلب ذلك والذات لا تطلبه.

مسألة: المتوجّه على إيجاد على ما سوى الله تعالىٰ هو الألوهة بأحكامها، ونسبها وإضافاتها وهي التي استدعت الآثار، فإنّ قاهراً بلا مقهور، وقادراً بلا مقدور، صلاحية ووجوداً وقوّة وفعلاً محال.

مسألة: النعت الخاص الأخص التي انفردت به الألوهة كونها قادرة إذ لا قدرة لممكن أصلاً وإنما له التمكّن من قبول تعلّق الأثر الإلهيّ به.

مسألة: الكسب تعلق إرادة الممكن بفعل مّا دون غيره، فيوجده الاقتدار الإلهيّ عند هذا التعلّق فسمّي ذلك كسباً للممكن.

مسألة: الجبر لا يصح عند المحقق لكونه ينافي صحة الفعل للعبد، فإن الجبر حمل الممكن على الفعل مع وجود الإباية من الممكن، فالجماد ليس بمجبور لأنه لا يتصوّر منه فعل ولا له عقل عادي، فالممكن ليس بمجبور لأنه لا يتصوّر منه فعل ولا له عقل محقق مع ظهور الآثار منه.

مسألة: الألوهة تقضي أن يكون في العالم بلاء وعافية، فليس إزالة المنتقم من الوجود بأولى من إزالة الغافر وذي العفو والمنعم، ولو بقي من الأسماء ما لا حكم له لكان معطلاً والتعطيل في الألوهة محال فعدم أثر الأسماء محال.

مسألة: المدرك والمدرَك كل واحد منهما على ضربين: مدرك يعلم وله قوّة التخيّل، ومدرك يعلم وماله قوّة التخيّل، والمدرَك بفتح الراء على ضربين: مدرَك له صورة يعلمه بصورته من ليس له قوّة التخيّل ولا يتصوّره ويعلمه ويتصوّره من له قوّة التخيّل، ومدرَك ما له صورة يعلم فقط.

مسألة: العلم ليس تصوّر المعلوم ولا هو المعنى الذي يتصوّر المعلوم، فإنه ما كل معلوم يتصوّر ولا كل عالم يتصوّر، فإن التصوّر للعالم إنما هو من كونه متخيلاً، والصورة للمعلوم أن تكون على حالة يمسكها الخيال، وثم معلومات لا يمسكها خيال أصلاً فثبت أنها لا صورة لها.

مسألة: لو صحّ الفعل من الممكن لصحّ أن يكون قادراً ولا فعل له فلا قدرة له، فإثبات القدرة للممكن دعوى بلا برهان، وكلامنا في هذا الفصل مع الأشاعرة المثبتين لها مع نفي الفعل عنها.

مسألة: لا يصدر عن الواحد من كل وجه إلاَّ واحد، وهل ثم من هو على هذا الوصف أم لا؟ في ذلك نظر للمنصف، ألا ترى الأشاعرة ما جعلوا الإيجاد للحق إلاَّ من كونه قادراً والاختصاص من كونه مريداً والأحكام من كونه عالماً، وكون الشيء مريداً ما هو عين كونه

قادراً، فليس قولهم بعد هذا أنه واحد من كل وجه صحيحاً في التعلّق العام، وكيف وهم مثبتو الصفات زائدة على الذات قائمة به تعالى، وهكذا القائلون بالنسب والإضافات، وكل فرقة من الفرق ما تخلصت لهم الوحدة من جميع الوجوه إلاَّ أنهم بين ملزم من مذهبه القول بعدمها وبين قائل بها، فإثبات الوحدانية إنما ذلك في الألوهية أي لا إله إلاَّ هو وذلك صحيح مدلول عليه.

مسألة: كون الباري عالماً حياً قادراً إلى سائر الصفات نسب وإضافات له لا أعيان زائدة لما يؤدّي إلى نعتها بالنقص، إذ الكامل بالزائد ناقص بالذات عن كماله بالزائد وهو كامل لذاته، فالزائد بالذات على الذات محال، وبالنسب والإضافة ليس بمحال، وأمّا قول القائل: لا هي هو ولا هي أغيار له فكلام في غاية البعد، فإنه قد دلّ صاحب هذا المذهب على إثبات الزائد وهو الغير بلا شك، إلاَّ أنه أنكر هذا الإطلاق لا غير، ثم تحكم في الحد بأن قال الغيران هما اللذان يجوز مفارقة أحدهما الآخر مكاناً وزماناً ووجوداً وعدماً، وليس هذا بحد للغيرين عند جميع العلماء به.

مسألة: لا يؤثر تعدّد التعلقات من المتعلق في كونه واحداً في نفسه، كما لا يؤثر تقسيم المتكلم به في أحدية الكلام.

مسألة: الصفات الذاتية للموصوف بها وإن تعددت فلا تدل على تعدّد الموصوف في نفسه لكونها مجموع ذاته وإن كانت معقولة في التمييز بعضها من بعض.

مسألة: كل صورة في العالم عرض في الجوهر وهي التي يقع عليها الخلع والسلخ والجوهر واحد. والقسمة في الصورة لا في الجوهر.

مسألة: قول القائل إنما وجد عن المعلول الأول الكثرة وإن كان واحد الاعتبارات ثلاثة وجدت فيه وهي علته ونفسه وإمكانه فنقول لهم: ذلكم يلزمكم في العلة الأولى أعني وجود اعتبارات فيه وهو واحد فلم منعتم أن لا يصدر عنه إلاَّ واحد؟ فإمّا أن تلتزموا صدور الكثرة عن العلة الأولى، أو صدور واحد عن المعلول الأول وأنتم غير قائلين بالأمرين.

مسألة: من وجب له الكمال الذاتي والغنى الذاتي لا يكون علة لشيء لأنه يؤدّي كونه علة توقفه على المعلول، والذات منزهة عن التوقف على شيء فكونها علة محال لكن الألوهة قد تقبل الإضافات، فإن قيل: إنما يطلق الإله على من هو كامل الذات غنيّ الذات لا يريد الإضافة ولا النسب. قلنا: لا مشاحة في اللفظ بخلاف العلة فإنها في أصل وضعها ومن معناها تستدعي معلولاً، فإن أريد بالعلة ما أراد هذا بالإله فمسلم، ولا يبقى نزاع في هذا اللفظ إلاَّ من جهة الشرع هل يمنع أو يبيح أو يسكت؟

مسألة: الألوهة مرتبة للذات لا يستحقها إلاَّ الله فطلبت مستحقها ما هو طلبها، والمألوه يطلبها وهي تطلبه، والذات غنية عن كل شيء، فلو ظهر هذا السر الرابط لما ذكرنا لبطلت الألوهة ولم يبطل كمال الذات، وظهر هنا بمعنى زال كما يقال ظهروا عن البلد أي ارتفعوا عنه وهو قول الإمام: للألوهية سرّ لو ظهر لبطلت الألوهية.

مسألة: العلم لا يتغير بتغيّر المعلوم لكن التعلق يتغير، والتعلق نسبة إلى معلوم مّا مثاله تعلق العلم بأنّ زيداً سيكون فكان، فتعلق العلم بكونه كائناً في الحال وزال تعلق العلم باستئناف كونه ولا يلزم من يغير التعلق تغير العلم، وكذلك لا يلزم من تغير المسموع باستئناف كونه ولا يلزم من تغير التعلق تغير العلم، وكذلك لا يلزم من تغير المسموع والمرئيّ تغير الرؤية والسمع.

مسألة: ثبت أن العلم لا يتغير فالمعلوم أيضاً لا يتغير، فإن معلوم العلم إنما هو نسبة لأمرين معلومين محققين، فالجسم معلوم لا يتغير أبداً والقيام معلوم لا يتغير، ونسبة القيام للجسم هي المعلومة التي ألحق بها التغيير. والنسبة أيضاً لا تتغير، وهذه النسبة الشخصية أيضاً لا تكون لغير هذا الشخص فلا تتغير، وما ثم معلوم أصلاً سوى هذه الأربعة وهي الثلاثة الأمور المحققة: النسبة والمنسوب والمنسوب إليه والنسبة الشخصية، فإن قيل إنما ألحقنا التغير بالمنسوب إليه لكونه رأيناه على حالة ما ثم رأيناه على حالة أخرى، قلنا لما نظرت المنسوب إليه أمراً مّا لم تنظر إليه من حيث حقيقته، فحقيقته غير متغيرة ولا من حيث ما هو منسوب إليه فتلك حقيقة لا تتغير أيضاً، وإنما نظرت إليه من حيث ما هو منسوب إليه حال مّا، فإذن ليس المعلوم الآخر هو المنسوب إليه تلك الحالة التي قلت إنها زالت فإنها لا تفارق منسوبها وإنما هذا منسوب آخر إليه نسبة أخرى، فإذن فلا يتغير علم ولا معلوم، وإنما العلم له تعلقات بالمعلومات أو تعلق بالمعلومات كيف شئت.

مسألة: ليس شيء من العلم التصوّريّ مكتسباً بالنظر الفكريّ، فالعلوم المكتسبة ليست إلاّ نسبة معلوم تصوّريّ إلى معلوم تصوّريّ، والنسبة المطلقة أيضاً من العلم التصوّريّ، فإذا نسبت الاكتساب إلى العلم التصوّريّ فليس ذلك إلاّ من كونك تسمع لفظاً قد اصطلحت عليه طائفة مّا لمعنى مّا يعرفه كل أحد، لكن لا يعرف كل أحد أن ذلك اللفظ يدل عليه، فلذلك يسأل عن المعنى الذي أطلق عليه هذا اللفظ أي معنى هو فيعينه له المسؤول بما يعرفه، فلو لم يكن عند السائل العلم بذلك المعنى من حيث معنويته والدلالة التي توصل بها إلى معرفة مراد ذلك الشخص بذلك الاصطلاح لذلك المعنى ما قبله وما عرف ما يقول، فلا بدّ أن تكون المعاني كلها مركوزة في النفس ثم تنكشف له مع الأناة حالاً بعد حال.

مسألة: وصف العلم بالإحاطة للمعلومات يقضي بتناهيها والتناهي فيها محال فالإحاطة محال، لكن يقال العلم محيط بحقيقة كل معلوم وإلاّ فليس معلوماً بطريق الإحاطة، فإنه مَن علم أمراً ما من وجهٍ ما لا من جميع الوجوه فما أحاط به.

مسألة: رؤية البصيرة علم ورؤية البصر طريق حصول علم، فكون الإله سميعاً بصيراً تعلق تفصيليّ فهما حكمان للعلم، ووقعت التثنية من أجل المتعلق الذي هو المسموع والمبصر.

مسألة: الأزل نعت سلبيّ وهو نفي الأولية، فإذا قلنا أول في حق الألوهة فليس إلاّ المرتبة.

مسألة: دلّت الأشاعرة على حدوث كل ما سوى الله بحدوث المتحيزات وحدوث

أعراضها، وهذا لا يصح حتى يقيموا الدليل على حصر كل ما سوى الله تعالىٰ فيما ذكروه، ونحن نسلم حدوث ما ذكروا حدوثه.

مسألة: كل موجود قائم بنفسه غير متحيز وهو ممكن لا تجري مع وجوده الأزمنة ولا تطلبه الأمكنة.

مسألة: دلالة الأشعريّ في الممكن الأول أنه يجوز تقدمه على زمان وجوده وتأخّره عنه، والزمان عنده في هذه المسألة مقدر لا موجود فالاختصاص دليل على المخصص، فهذه دلالة فاسدة لعدم الزمان فبطل أن يكون هذا دليلاً، فلو قال نسبة الممكنات إلى الوجود أو نسبة الوجود إلى الممكنات نسبة واحدة من حيث ما هي نسبة لا من حيث ما هو ممكن، فاختصاص بعض الممكنات بالوجود دون غيره من الممكنات دليل على أن لها مخصصاً، فهذا هو عين حدوث كل ما سوى الله.

مسألة: قول القائل إنّ الزمان مدة متوهمة تقطعها حركة الفلك خُلْفٌ من الكلام لأنّ المتوهم ليس بوجود محقق وهم ينكرون على الأشاعرة تقدير الزمان في الممكن الأول فحركات الفلك تقطع في لا شيء، فإن قال الآخر إن الزمان حركة الفلك والفلك متحيز فلا تقطع الحركة إلاَّ في متحيز.

مسألة: عجبت من طائفتين كبيرتين الأشاعرة والمجسمة في غلطهم في اللفظ المشترك كيف جعلوه للتشبيه ولا يكون التشبيه إلاَّ بلفظة المثل أو كاف الصفة بين الأمرين في اللسان، وهذا عزيز الوجود في كل ما جعلاه تشبيهاً من آية أو خبر، ثم إن الأشاعرة تخيلت أنها لما تأوّلت قد خرجت من التشبيه وهي ما فارقته إلاَّ أنها انتقلت من التشبيه بالأجسام إلى التشبيه بالمعاني المحدثة المفارقة للنعوت القديمة في الحقيقة والحد فما انتقلوا من التشبيه بالمحدثات أصلاً، ولو قلنا بقولهم لم نعدل مثلاً من الاستواء الذي هو الاستقرار إلى الاستواء الذي هو الاستيلاء كما عدلوا، ولا سيما والعرش مذكور في نسبة هذا الاستواء، ويبطل معنى الاستيلاء مع ذكر السرير، ويستحيل صرفه إلى معنى آخر ينافي الاستقرار، فكنت أقول: إن التشبيه مثلاً إنما وقع بالاستواء، والاستواء معنى لا بالمستوى الذي هو الجسم، والاستواء حقيقة معقولة معنوية تنسب إلى كل ذات بحسب ما تعطيه حقيقة تلك الذات، ولا حاجة لنا إلى التكلف في صرف الاستواء عن ظاهره فهذا غلط بين لا خفاء به، وأما المجسمة فلم يكن ينبغي لهم أن يتجاوزوا باللفظ الوارد إلى أحد محتملاته مع إيمانهم ووقوفهم مع قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١].

مسألة: كما أنه تعالىٰ لم يأمر بالفحشاء كذلك لا يريدها، لكن قضاها وقدرها بيان كونه لا يريدها، لأن كونها فاحشة ليس عينها بل هو حكم الله فيها، وحكم الله في الأشياء غير مخلوق، وما لم يجر عليه الخلق لا يكون مراداً، فإن ألزمناه في الطاعة التزمناه وقلنا الإرادة للطاعة ثبتت سمعاً لا عقلاً فأثبتوها في الفحشاء ونحن قبلناها إيماناً، كما قبلنا وزن الأعمال وصورها مع كونها أعراضاً فلا يقدح ذلك فيما ذهبنا إليه لما اقتضاه الدليل.

مسألة: العدم للممكن المتقدم بالحكم على وجوده ليس بمراد، لكن العدم الذي يقارنه حكماً حال وجوده إذ لو لم يكن الوجود لكان ذلك العدم منسحباً عليه هو مراد حال وجود الممكن لجواز استصحاب العدم له، وعدم الممكن الذي ليس بمراد هو الذي في مقابلة وجود الواجب لذاته، لأن مرتبة الوجود المطلق تقابل العدم المطلق الذي للممكن، إذ ليس له جواز وجود في هذه المرتبة وهذا في وجود الألوهة لا غير.

مسألة: لا يستحيل في العقل وجود قديم ليس بإله فإن لم يكن فمن طريق السمع لا غير.

مسألة: كون المخصص مريد الوجود ممكن مّا ليس تخصيصه لوجوده من حيث هو وجود، لكن من حيث نسبته لممكن ما تجوز نسبته لممكن آخر، فالوجود من حيث الممكن مطلقاً لا من حيث ممكن ما ليس بمراد ولا بواقع أصلاً إلاَّ بممكن ما، وإذا كان بممكن ما فليس هو بمراد من حيث هو لكن من حيث نسبته لممكن ما لا غير.

مسألة: دلّ الدليل على ثبوت السبب المخصّص، ودلّ الدليل مثلاً على التوقيف فيما ينسب إلى هذا المخصص من نفي أو إثبات كما قال لنا بعض النظار في كلام جرى بيني وبينه فكنا نقف كما زعم، لكن دلّ الدليل على ثبوت الرسول من جانب المرسل، فأخذنا النسب الإلهية من الرسول فحكمنا بأنه كذا وليس كذا، فكيف والدليل الواضح على وجوده، وأن وجوده عين ذاته وليس بعلة لذاته لثبوت الافتقار إلى الغير وهو الكامل بكل وجه فهو موجود ووجوده عين ذاته لا غيرها.

مسألة: افتقار الممكن للواجب بالذات والاستغناء الذاتي للواجب دون الممكن يسمّى إلهاً، وتعلقها بنفسها وبحقائق كل محقق وجوداً كان أو عدماً يسمّى علماً، وتعلقها بالممكنات من حيث ما هي الممكنات عليه يسمّى اختياراً، وتعلقها بالممكن من حيث تقدّم العلم قبل كون الممكن يسمّى مشيئة، وتعلقها بتخصيص أحد الجائزين للممكن على التعيّن يسمّى إرادة، وتعلقها بإيجاد الكون يسمّى قدرة، وتعلقها بإسماع المكوّن لكونه يسمّى أمراً وهو على نوعين: بواسطة وبلا واسطة، فبارتفاع الوسائط لا بدّ من نفوذ الأمر، وبالواسطة لا يلزم النفوذ، وليس بأمر في عين الحقيقة إذ لا يقف لأمر وتعلقها بإسماع المكوّن لصرفه عن كونه أو كون ما يمكن أن يصدر منه يسمّى نهياً وصورته في التقسيم صورة الأمر، وتعلقها بتحصيل ما هي عليه هي أو غيرها من الكائنات أو ما في النفس يسمّى أخباراً، فإن تعلقت بالكون على طريق أي شيء يسمّى استفهاماً، فإن تعلقت به على جهة النزول إليه بصيغة الأمر يسمّى دعاء، ومن باب تعلق الأمر إلى هذا يسمّى كلاماً، تعلقها بالكلام من غير اشتراط العلم به يسمّى سمعاً، فإن تعلقت وتبع التعلق الفهم بالمسموع يسمّى فهماً، وتعلقها بكيفية النور وما يحمله من المرئيات يسمّى بصراً ورؤية، وتعلقها بإدراك كل مدرك الذي لا يصح تعلق من هذه التعلقات كلها إلاَّ به يسمّى حياة، والعين في ذلك كله واحدة تعدّدت التعلقات لحقائق المتعلقات والأسماء للمسميات.

مسألة: للعقل نور يدرك به أمور مخصوصة، وللإيمان نور به يدرك كل شيء ما لم يقم مانع، فبنور العقل تصل إلى معرفة الألوهة وما يجب لها ويستحيل وما يجوز منها فلا يستحيل ولا يجب، وبنور الإيمان يدرك العقل معرفة الذات وما نسب الحق إلى نفسه من النعوت.

مسألة: لا يمكن عندنا معرفة كيفية ما ينسب إلى الذوات من الأحكام إلاَّ بعد معرفة الذوات المنسوبة والمنسوب إليها، وحينئذ تعرف كيفية النسبة المخصوصة لتلك الذات المخصوصة كالاستواء والمعية واليد والعين وغير ذلك.

مسألة: الأعيان لا تنقلب والحقائق لا تتبدل، فالنار تحرق بحقيقتها لا بصورتها، فقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٩] خطاب للصورة وهي الجمرات وأجرام الجمرات محرقة بالنار فلما قام النار بها سميت ناراً فتقبل البرد كما قبلت الحرارة.

مسألة: البقاء استمرار الوجود مثلاً على الباقي لا غير ليس بصفة زائدة فيحتاج إلى بقاء ويتسلسل إلا على مذهب الأشاعرة في المحدث فإن البقاء عرض فلا يحتاج إلى بقاء وإنما ذلك في بقاء الحق تعالىٰ.

مسألة: الكلام من حيث ما هو كلام واحد، والقسمة في المتكلم به لا في الكلام، فالأمر والنهي والخبر والاستخبار والطلب واحد في الكلام.

مسألة: الاختلاف في الاسم والمسمّى والتسمية اختلاف في اللفظ، فأما قول من قال: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٧٨] و ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [سورة الأعلىٰ: الآية ١] فكالنهي بالسفر بالمصحف إلى أرض العدوّ، وأما القول في الحجة بأسماء سميتموها على أنّ الاسم هو المسمّى فالمعبود الأشخاص، فنسبة الألوهة عبدوا فلا حجة في أن الاسم هو المسمّى، ولو كان لكان بحكم اللغة والوضع لا بحكم المعنى.

مسألة: وجود الممكنات لكمال مراتب الوجود الذاتي والعرفاني لا غير.

مسألة: كل ممكن منحصر في أحد قسمين في ستر أو تجل فقد وجد الممكن على أقصى غاياته وأكملها فلا أكمل منه، ولو كان الأكمل لا يتناهى لما تصوّر خلق الكمال وقد وجد مطابقاً للحضرة الكمالية فقد كمل.

مسألة: المعلومات منحصرة من حيث ما تدرك به في حس ظاهر وباطن وهو الإدراك النفسيّ والبديهة، وما تركب من ذلك عقلاً إن كان معنى وخيالاً إن كان صورة، فالخيال لا يركب إلاَّ في الصور خاصة، فالعقل يعقل ما يركب الخيال، وليس في قوّة الخيال أن يصوّر بعض ما يركبه العقل، وللاقتدار الإلهيّ سرّ خارج عن هذا كله يقف عنده.

مسألة: الحسن والقبح ذاتيّ للحسن والقبيح، لكن منه ما يدرك حسنه وقبحه بالنظر إلى كمال أو نقص أو غرض أو ملايمة طبع أو منافرته أو وضع، ومنه ما لا يدرك قبحه ولا حسنه إلاَّ من جانب الحق الذي هو الشرع فنقول: هذا قبيح وهذا حسن وهذا من الشرع خبر لا حكم، ولهذا نقول بشرط الزمان والحال والشخص، وإنما شرطنا هذا من أجل من يقول في القتل ابتداء أو قوداً أو حداً، وفي إيلاج الذكر في الفرج سفاحاً ونكاحاً، فمن حيث هو إيلاج

واحد لسنا نقول كذلك فإن الزمان مختلف ولوازم النكاح غير موجودة في السفاح، وزمان تحليل الشيء ليس زمان تحريمه إن لو كان عين المحرم واحداً فالحركة من زيد في زمان ما ليست هي الحركة منه في الزمان الآخر، ولا الحركة التي من عمرو هي الحركة التي من زيد، فالقبيح لا يكون حسناً أبداً، لأن تلك الحركة الموصوفة بالحسن أو القبح لا تعود أبداً، فقد علم الحق ما كان حسناً وما كان قبيحاً ونحن لا نعلم، ثم إنه لا يلزم من الشيء إذا كان قبيحاً أن يكون أثره قبيحاً فقد يكون أثره حسناً، والحسن أيضاً كذلك قد يكون أثره قبيحاً كحسن الصدق وفي مواضع يكون أثره قبيحاً، وكقبح الكذب وفي مواضع يكون أثره حسناً، فتحقق ما نبهناك عليه تجد الحق.

مسألة: لا يلزم من انتفاء الدليل انتفاء المدلول، فعلى هذا لا يصحّ قول الحلوليّ: لو كان الله في شيء كما كان في عيسىٰ لأحيا الموتى.

مسألة: لا يلزم الراضي بالقضاء الرضى بالمقضيّ فالقضاء حكم الله وهو الذي أمرنا بالرضى به، والمقضيّ المحكوم به فلا يلزمنا الرضى به.

مسألة: إن أريد بالاختراع حدوث المعنى المخترع في نفس المخترع وهو حقيقة الاختراع فذلك على الله محال، وإن أريد بالاختراع حدوث المخترع على غير مثال سبقه في الوجود الذي ظهر فيه فقد يوصف الحق على هذا بالاختراع.

مسألة: ارتباط العالم بالله ارتباط ممكن بواجب ومصنوع بصانع، فليس للعالم في الأزل مرتبة فإنها مرتبة الواجب بالذات فهو الله ولا شيء معه، سواء كان العالم موجوداً أو معدوماً، فمن توهم بين الله والعالم بوناً يقدر تقدّم وجود الممكن فيه وتأخره فهو توهم باطل لا حقيقة له، فلهذا نزعنا في الدلالة على حدوث العالم خلاف ما نزعت إليه الأشاعرة وقد ذكرناه في هذا التعليق.

مسألة: لا يلزم من تعلق العلم بالمعلوم حصول المعلوم في نفس العالم ولا مثاله، وإنما العلم يتعلق بالمعلومات على ما هي المعلومات عليه في حيثيتها وجوداً وعدماً، فقول القائل إن بعض المعلومات له في الوجود أربع مراتب ذهنيّ وعينيّ ولفظيّ وخطيّ، فإن أراد بالذهن العلم فغير مسلم، وإن أراد بالذهن الخيال فمسلم، لكن في كل معلوم يتخيل خاصة وفي كل عالم يتخيل، ولكن لا يصحّ هذا إلاّ في الذهنيّ خاصة لأنه يطابق العين في الصورة، واللفظيّ والخطيّ ليسا كذلك، فإن اللفظ والخط موضوعان للدلالة والتفهيم فلا يتنزل من حيث الصورة على الصورة، فإن زيداً اللفظيّ والخطيّ إنما هو زاي وياء ودال رقماً أو لفظاً ماله يمين ولا شمال ولا جهات ولا عين ولا سمع فلهذا قلنا لا يتنزل عليه من حيث الصورة لكن من حيث الدلالة، ولذلك إذا وقعت فيه المشاركة التي تبطل الدلالة افتقرنا إلى النعت والبدل وعطف البيان ولا يدخل في الذهنيّ مشاركة أصلاً فافهم.

مسألة: كنّا حصرنا في كتاب المعرفة الأول ما للعقل من وجوه المعارف في العالم ولم ننبه من أين حصل لنا ذلك الحصر، فاعلم أن للعقل ثلاثمائة وستين وجهاً يقابل كل وجه من

جناب الحق العزيز ثلاثمائة وستين وجهاً يمده كل وجه منها بعلم لا يعطيه الوجه الآخر، فإذا ضربت وجوه العقل في وجوه الأخذ فالخارج من ذلك هي العلوم التي للعقل المسطرة في اللوح المحفوظ الذي هو النفس، وهذا الذي ذكرناه كشفاً إلهياً لا يحيله دليل عقل فيتلقى تسليماً من قائله أعني هذا، كما تلقى من القائل الحكيم الثلاثة الاعتبارات التي للعقل الأول من غير دليل لكن مصادرة فهذا أولى من ذلك، فإن الحكيم يدعي في ذلك النظر فيدخل عليه بما قد ذكرناه في عيون المسائل في مسألة الدرة البيضاء الذي هو العقل الأول، وهذا الذي ذكرناه لا يلزم عليه دخل فإنا ما ادّعيناه نظراً وإنما ادّعيناه تعريفاً، فغاية المنكر أن يقول للقائل: تكذب، ليس له غير ذلك كما يقول له المؤمن به: صدقت؛ فهذا فرقان بيننا وبين القائلين بالاعتبارات الثلاثة وبالله التوفيق.

مسألة: ما من ممكن من عالم الخلق إلاَّ وله وجهان: وجه إلى سببه ووجه إلى الله تعالىٰ، فكل حجاب وظلمة تطرأ عليه فمن سببه، وكل نور وكشف فمن جانب حقه، وكل ممكن من عالم الأمر فلا يتصوّر في حقه حجاب لأنه ليس له إلاَّ وجه واحد فهو النور المحض، ألا لله الدين الخالص.

مسألة: دلّ الدليل العقلي على أن الإيجاد متعلق القدرة وقال الحق عن نفسه إنّ الوجود يقع عن الأمر الإلهي فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فلا بدّ أن ننظر في متعلق الأمر ما هو وما هو متعلق القدرة حتى أجمع بين السمع والعقل فنقول: الامتثال قد وقع بقوله فيكون والمأمور به إنما هو الوجود، فتعلقت الإرادة بتخصيص أحد الممكنين وهو الوجود، وتعلقت القدرة بالممكن فأثرت فيه الإيجاد وهي حالة معقولة بين العدم والوجود، فتعلق الخطاب بالأمر لهذه العين المخصصة بأن تكون فامتثلت فكانت، فلولا ما كان للممكن عين ولا وصف لها بالوجود يتوجه على تلك العين الأمر بالوجود لما وقع الوجود؛ والقائل بتَهَيُّؤ المراد في شرح كن غير مصيب.

مسألة: معقولية الأولية للواجب الوجود بالغير نسبة سلبية عن وجود كون الوجوب المطلق فهو أول لكل مقيد، إذ يستحيل أن يكون له هناك قدم لأنه لا يخلو أن يكون بحيث الوجوب المطلق فيكون إما هو نفسه وهو محال وإما قائماً به وهو محال لوجوه منها أنه قائم بنفسه، ومنها ما يلزم للواجب المطلق لو قام به هذا من الافتقار فيكون إما مقوّماً لذاته وهو محال أو مقوّماً لمرتبته وهو محال.

مسألة: معقولية الأولية للواجب المطلق نسبة وضعية لا يعقل لها العقل سوى استناد الممكن إليه فيكون أولاً بهذا الاعتبار، ولو قدر أن لا وجود لممكن قوّة وفعلاً لانتفت النسبة الأولية إذ لا تجد متعلقاً.

مسألة: أعلم الممكنات لا يعلم موجده إلاَّ من حيث هو، فنفسه علم ومن هو موجود عنه غير ذلك لا يصحّ لأن العلم بالشيء يؤذن بالإحاطة به والفراغ منه وهذا في ذلك الجناب محال فالعلم به محال، ولا يصحّ أن يعلم منه لأنه لا يتبعض فلم يبق العلم إلاَّ بما يكون منه،

وما يكون منه هو أنت فأنت المعلوم، فإن قيل: علمنا بليس هو كذا علم به. قلنا: نعوتك جردته عنها لما يقتضيه الدليل من نفي المشاركة فتميزت أنت عندك عن ذات مجهولة لك من حيث ما هي معلومة لنفسها ما هي تميزت لك لعدم الصفات الثبوتية التي لها في نفسها فافهم ما علمت وقل رب زدني علماً لو علمته لم يكن هو ولو جهلك لم تكن أنت، فبعلمه أوجدك وبعجزك عبدته، فهو هو لهو لا لك، وأنت أنت لأنت وله، فأنت مرتبط به ما هو مرتبط بك، الدائرة مطلقة مرتبطة بالنقطة، النقطة مطلقة ليست مرتبطة بالدائرة، نقطة الدائرة مرتبطة بالدائرة، كذلك الذات مطلقة ليست مرتبطة بك، ألوهية الذات مرتبطة بالمألوه كنقطة الدائرة.

مسألة: متعلق رؤيتنا الحق ذاته سبحانه، ومتعلق علمنا به إثباته إلهاً بالإضافات والسلوب فاختلف المتعلق، فلا يقال في الرؤية إنها مزيد وضوح في العلم لاختلاف المتعلق، وإن كان وجوده عين ماهيته فلا ننكر أن معقولية الذات غير معقولية كونها موجودة.

مسألة أن العدم هو الشرّ المحض: لم يعقل بعض الناس حقيقة هذا الكلام لغموضه وهو قول المحققين من العلماء المتقدمين والمتأخرين، لكن أطلقوا هذه اللفظة ولم يوضحوا معناها، وقد قال لنا بعض سفراء الحق في منازلة في الظلمة والنور: إن الخير في الوجود والشرّ في العدم في كلام طويل علمنا أن الحق تعالىٰ له إطلاق الوجود من غير تقييد وهو الخير المحض الذي لا شرّ فيه، فيقابله إطلاق العدم الذي هو الشر المحض الذي لا خير فيه، فهذا هو معنى قولهم إن العدم هو الشرّ المحض.

مسألة: لا يقال من جهة الحقيقة إن الله جائز أن يوجد أمراً ما وجائز أن لا يوجده، فإن فعله للأشياء ليس بممكن بالنظر إليه ولا بإيجاب موجب، ولكن يقال ذلك الأمر جائز أن يوجد وجائز أن لا يوجد فيفتقر إلى مرجح وهو الله تعالىٰ، وقد تقصينا الشريعة فما رأينا فيها ما يناقض ما قلناه، فالذي نقول في الحق أنه تعالىٰ يجب له كذا ويستحيل عليه كذا، ولا نقول يجوز عليه كذا فهذه عقيدة أهل الاختصاص من أهل الله، وأما عقيدة خلاصة الخاصة في الله تعالىٰ فأمر فوق هذا جعلناه مبدداً في هذا الكتاب لكون أكثر العقول المحجوبة بأفكارها تقصر عن إدراكه لعدم تجريدها.

وقد انتهت مقدمة الكتاب وهي عليه كالعلاوة، فمن شاء كتبها فيه ومن شاء تركها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الثالث والحمد لله.

(الجزء الرابع)

بسم الله الرحمن الرحيم

(الفصل الأول: في المعارف)

الباب الأول

في معرفة الروح الذي أخذت من تفصيل نشأته ما سطرته في هذا الكتاب وما كان بيني وبينه من الأسرار

فمن ذلك نظم: [الخفيف]

قلتُ عندَ الطوافِ كيفَ أَطُوفُ ... وهو عن دَرْكِ سرِّنا مَكْفُوفُ
جَلْمَدٌ غيرُ عَاقِلٍ حركاتي ... قيل أنت المُحيَّرُ المَثْلُوفُ
انظر البيتَ نورُهُ يتلالا ... لقلوبٍ تطهَّرَتْ مكشوفُ
نظَرْتُهُ بالله دونَ حجابٍ ... فبدا سرُّه العليُّ المنيفُ
وتجلَّى لها من أُفُقِ جلالي ... قمرُ الصدقِ ما اعتراه خُسوفُ
لو رأيتَ الوليَّ حين يراه ... قلتَ فِيه مُذلَّةٌ ملْهُوفُ
يَلْثُمُ السرَّ في سوادِ يميني ... أي سِرّ لَوْ أنه معروفُ
جُهِلَتْ ذاتُه فقيلَ كثيفٌ ... عندَ قوم وعندَ قوم لطيفُ
قال لي حين قلت لِمْ جَهِلوهُ ... إنما يَعرفُ الشريفَ الشريفُ
عرفوه فلازموه زماناً ... فتولاَّهُمُ الرحيمُ الرؤوفُ
واستقاموا فما يرى قَطُّ فيهم ... عن طوافٍ بذاتهِ تَخْريفُ
قُمْ فبشِّرْ عني مُجاورَ بيتي ... بأمانٍ ما عندَه تَخْويفُ
إن أَمِتْهُمْ فرَّحْتُهم بلقائي ... أو يعيشوا فالثَّوْبُ منهم نَظيفُ

اعلم أيها الوليّ الحميم، والصفي الكريم، أني لما وصلت إلى مكة البركات، ومعدن السكنات الروحانية والحركات، وكان من شأني فيه ما كان، طفت ببيته العتيق في بعض الأحيان، فبينا أنا أطوف مسبحاً وممجداً ومكبراً ومهللاً، تارة ألثم وأستلم وتارة للملتزم ألتزم، إذ لقيت وأنا عند الحجر الأسود باهت الفتى الفائت، المتكلم الصامت، الذي ليس بحي ولا مائت، المركب البسيط، المحاط المحيط، فعندما أبصرته يطوف بالبيت، طواف الحي بالميت، عرفت حقيقته ومجازه، وعلمت أن الطواف بالبيت كالصلاة على الجنازة، وأنشدت الفتى المذكور ما تسمعه من الأبيات عندما رأيت الحي طائفاً بالأموات شعر: [الطويل]

ولما رأيتُ البيتَ طافَتْ بذاتِهِ ... شُخُوصٌ لهم سِرُّ الشريعةِ غَيْبِيْ

وطافَ به قومٌ هُمُ الشَّرْعُ والحِجَا | وهم كُحْلُ عينِ الكشفِ ما هُمْ بِهِ عُمِيّ
تعجَّبْتُ من مَيْتٍ يطوفُ به حيٌّ | عزيزٌ وحيدُ الدهرِ ما مِثْلُه شَيّ
تَجَلَّى لنا من نور ذاتِ مَجَلِّهِ | وليس من الأملاكِ بلْ هوَ إنسِيّ
تيقَّنْتُ أن الأمرَ غَيْبٌ وأنه | لدى الكشفِ والتحقيقِ حيٌّ ومَرْئيّ

قلت فعندما وقعت مني هذه الأبيات، وألحقت بيته المكرم من جهة ما بجانب الأموات، خطفني مني خطفة قاهر، وقال لي قولة رادع زاجر: انظر إلى سر البيت قبل الفوت تجده زاهياً بالمطيفين والطائفين بأحجاره، ناظراً إليهم من خلف حجبه وأستاره، فرأيته يزهو كما قال، فأفصحت له في المقال، وأنشدته في عالم المثال على الارتجال: [الطويل]

أرى البيتَ يزهو بالمطيفينَ حَولَهُ | وما الزَّهْوُ إلاَّ من حكيم لهُ صُنْعُ
وهذا جمادٌ لا يحسُّ ولا يرى | وليسَ له عقلٌ وليس له سَمْعُ
فقال شُخَيْصٌ هذه طاعةٌ لنا | قَدَ أثبتها طولَ الحياةِ لنا الشَّرْعُ
فقلت لُه هذا بلاغُكَ فاستَمِعْ | مقالةَ من أبدى له الحكمةَ الوضْعُ
رأيتَ جماداً لا حياةَ بذاتِهِ | وليس له ضَرٌّ وليس له نَفْعُ
ولكِنْ لعينِ القلبِ فيه مَناظِرٌ | إذا لم يكن بالعينِ ضَعْفٌ ولا صَدْعُ
يراه عزيزاً إن تجلَّى بذاتِهِ | فليسَ لمخلوقٍ على حَمْلِهِ وُسْعُ
فكنتَ أبا حفصٍ وكنتَ عَلِيَّنا | فمني العطاءُ الجَزْلُ والقَبْضُ والمَنْعُ

وصل: ثم إنه أطلعني على منزلة ذلك الفتى، ونزاهته عن أين ومتى، فلما عرفت منزلته وإنزاله، وعاينتُ مكانته من الوجود وأحواله، قبلت يمينه ومسحت من عرق الوحي جبينه، وقلت له: انظر من طالب مجالستك وراغب في مؤانستك، فأشار إلي إيماء ولغزاً أنه فطر على أن لا يكلم أحداً إلاَّ رمزاً، وأن رمزي إذا علمته، وتحققته وفهمته، علمت أنه لا تدركه فصاحة الفصحاء، ونطقه لا تبلغه بلاغة البلغاء، فقلت له يا أيها البشير، وهذا خير كثير، فعرفني باصطلاحك، وأوقفني على كيفية حركات مفتاحك، فإني أريد مسامرتك وأحب مصاهرتك، فإن عندك الكفؤ والنظير، وهو النازل بذاتك والأمير، ولولا ما كانت لك حقيقة ظاهره، ما تطلعت إليه وجوه ناضرة ناظره، فأشار فعلمت، وجلى لي حقيقة جماله فهيمت، فسقط في يديّ، وغلبني في الحين عليّ، فعندما أفقت من الغشيه، وأرعدت فرائصي من الخشيه، علم أن العلم به قد حصل، وألقى عصا سيره ونزل، فتلا حاله عليّ ما جاءت به الأنباء، وتنزلت به الملائكة الأمناء، إنما يخشى الله من عباده العلماء، فجعلها دليلاً، واتخذها إلى معرفة العلم الحاصل به سبيلاً، فقلت له أطلعني على بعض أسرارك، حتى أكون من جملة أحبارك، فقال: انظر في تفاصيل نشأتي، وفي ترتيب هيأتي، تجد ما سألتني عنه فيّ مرقوماً، فإني لا أكون مكلماً ولا كليماً، فليس علمي بسواي، وليست ذاتي مغايرة لأسمائي، فأنا العلم والمعلوم والعليم، وأنا الحكمة والمحكم والحكيم، ثم قال لي طف على أثري، وانظر إليّ بنور قمري، حتى تأخذ من نشأتي ما تسطره في كتابك، وتمليه على كتابك،

وعرّفني ما أشهدك الحق في طوافك من اللطائف، مما لا يشهده كل طائف، حتى أعرف همتك ومعناك، فأذكرك على ما علمت منك هناك، فقلت أنا أعرفك أيها الشاهد المشهود، ببعض ما أشهدني من أسرار الوجود، المترفلات في غلائل النور، والمتحدات العين من وراء الستور، التي أنشأها الحق حجاباً مرفوعاً وسماء موضوعاً، والفعل بالنظر إلى الذات لطيف، ولعدم دركه على شريف. [السريع]

فـوصْـفُـهُ أَلْـطَـفُ مـن ذاتـه ... وفِـعْـلُـه أَلْـطَـفُ مـنَ وَصْـفِـهِ

وأَوْدَعَ الـكُـلَّ بـذاتـي كـمـا ... أَوْدَعَ مـعـنـى الـشـيء فـي حَـرْفِـهِ

فـالـخـلْـقُ مـطـلـوبٌ لـمعـنًـى كـمـا ... يُـطْـلَـبُ ذاتُ الـمِـسْـك مـن عُـرْفِـهِ

ولولا ما أودع في ما اقتصته حقيقتي، ووصلت إليه طريقتي، لم أجد لمشربه نيلاً، ولا إلى معرفته ميلاً، ولذلك أعود على عند النهاية ولهذا يرجع فخذ البركار في فتح الدائرة عند الوصول إلى غاية وجودها إلى نقطة البداية، فارتبط آخر الأمر بأوله، وانعطف أبده على أزله، فليس إلاَّ وجود مستمر، وشهود ثابت مستقر، وإنما طال الطريق، من أجل رؤية المخلوق، فلو صرف العبد وجهه إلى الذي يليه من غير أن يحل فيه لنظر إلى السالكين إذا وصلوا، بعين بئس والله ما فعلوا، ولو عرفوا من مكانهم ما انتقلوا، لكن حجبوا بشفعية الحقائق، عن وترية الحق الخالق، الذي خلق الله به الأرض والطرائق، فنظروا مدارج الأسماء، وطلبوا معارج الإسراء، وتخيلوها أعظم منزلة تطلب، وأسنى حالة يقصد الحق تعالىٰ فيها ويرغب، فسير بهم على براق الصدق ورفارفه، وحققهم بما عاينوه من آياته ولطائفه، وذلك لما كانت النظرة شمالية، وكانت الفطرة على النشأة الكماليه، تقابل بوجهها في أصل الوضع نقطة الدائرة، فشطر مهجتها من الجانب الأيمن منقبة ومن الجانب الغربي سافره، فلو سفرت عن اليمين، لنالت من أول طرفتها مقام التمكين في مشاهدة التعيين، ويا عجباً لمن هو في أعلى عليين، ويتخيل أنه في أسفل سافلين، أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، فشمالها يمين مديرها، ووقوفها في موضعها الذي وجدت فيه غاية مسيرها، فإذا ثبت عند العاقل ما أشرت إليه وصحّ، وعلم أن إليه المرجع فمن موقفه لم يبرح لكن يتخيل المسكين القرع والفتح، ويقول وهل في مقابلة الضيق والحرج إلاَّ السعة والشرح، ثم يتلو ذلك قرآناً على الخصماء، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٥]، فكما أن الشرح لا يكون إلاَّ بعد الضيق، كذلك المطلوب لا يحصل إلاَّ بعد سلوك الطريق، وغفل المسكين عن تحصيل ما حصل له بالإلهام، مما لا يحصل إلاَّ بالفكر والدليل عند أهل النهى والأفهام، ولقد صدق فيما قال، فإنه ناظر بعين الشمال، فسلموا له حاله، وثبتوا له محاله، وضعفوا منه محاله، وقولوا له عليك بالاستعانة إن أردت الوصول إلى ما منه خرجت لا محالة، واستروا عنه مقام المجاورة، وعظموا له أجر التزاور والمزاورة والموازره، فسيحزن عند الوصول إلى ما منه سار، وسيفرح بما حصل في طريقه من

الأسرار وصار، ولولا ما طلب الرسول ﷺ بالمعراج ما رحل، ولا صعد إلى السماء ولا نزل، وكان يأتيه شأن الملأ الأعلى وآيات ربّه في موضعه، كما زويت له الأرض وهو في مضجعه، ولكنه سرّ إلهيّ لينكره من شاء، لأنه لا يعطيه الإنشاء ويؤمن به من شاء، لأنه جامع للأشياء، فعندما أتيت على هذا العلم الذي لا يبلغه العقل وحده ولا يحصله على الاستيفاء الفهم، قال: لقد أسمعتني سرّاً غريباً، وكشفت لي معنى عجيباً، ما سمعته من وليّ قبلك، ولا رأيت أحداً تممت له هذه الحقائق مثلك، على أنها عندي معلومة، وهي بذاتي مرقومة، ستبدو لك عند رفع ستاراتي، واطلاعك على إشاراتي، ولكن أخبرني ما أشهدك عندما أنزلك بحرمه، وأطلعك على حرمه.

مشاهدة مشهد البيعة الإلهية:

قلت اعلم يا فصيحاً لا يتكلم، وسائلاً عما يعلم، لما وصلت إليه من الإيمان، ونزلت عليه في حضرة الإحسان، أنزلني في حرمه، وأطلعني على حرمه، وقال: إنما أكثرت المناسك، رغبة في التماسك، فإن لم تجدني هنا وجدتني هنا، وإن احتجبت عنك في جمع تجليت لك في منى، مع أني قد أعلمتك في غير ما موقف من مواقفك، وأشرت به إليك غير مرة في بعض لطائفك، أني وإن احتجبت فهو تجلّ لا يعرفه كل عارف، إلاّ من أحاط علماً بما أحطت به من المعارف، ألا تراني أتجلى لهم في القيامة، في غير الصورة التي يعرفونها والعلامة، فينكرون ربوبيتي ومنها يتعوّذون، وبها يتعوّذون ولكن لا يشعرون، ولكنهم يقولون لذلك المنجلي: نعوذ بالله منك وها نحن لربنا منتظرون، فحينئذ أخرج عليهم في الصورة التي لديهم فيقرّون لي بالربوبية، وعلى أنفسهم بالعبودية، فهم لعلامتهم عابدون، وللصورة التي تقرّرت عندهم مشاهدون، فمن قال منهم أنه عبدني فقوله زور وقد باهتني، وكيف يصحّ منه ذلك وعندما تجليت له أنكرني، فمن قيدني بصورة دون صورة، فتخيله عبد وهو الحقيقة الممكنة في قلبه المستورة، فهو يتخيل أنه يعبدني وهو يجحدني، والعارفون ليس في الإمكان خفائي عن أبصارهم، لأنهم غابوا عن الخلق وعن أسرارهم، فلا يظهر لهم عندهم سوائي، ولا يعقلون من الموجودات سوى أسمائي، فكل شيء ظهر لهم وتجلى، قالوا أنت المسبح الأعلى، فليسوا سواء فالناس بين غائب وشاهد، وكلاهما عندهم شيء واحد.

فلما سمعت كلامه، وفهمت إشاراته وأعلامه، جذبني جذبة غيور إليه، وأوقفني بين يديه.

مخاطبات التعليم والألطاف بسر الكعبة من الوجود والطواف:

ومد اليمين فقبلتها، ووصلتني الصورة التي تعشقتها، فتحول لي في صورة الحياة، فتحولتُ له في صورة الممات، فطلبت الصورة تابع الصورة، فقالت لها: لم تحسني السيرة! وقبضت يمينها عنها وقالت لها: ما عرفت لها في عالم الشهادة كنهاً، ثم تحول لي في صورة البصر، فتحولت له في صورة من عمي عن النظر، وذلك بعد انقضاء شوط، وتخيل نقض شرط، فطلبت الصورة تابع الصورة، فقالت لها مثل المقالة المذكورة، ثم تحول لي في

صورة العلم الأعم، فتحوّلت له في صورة الجهل الأتم، فطلبت الصورة تابع الصورة، فقالت لها المقالة المشهورة، ثم تحوّل لي في صورة سماع النداء، فتحوّلت له في صورة الصمم عن الدعاء، فطلبت الصورة تابع الصورة، فأسدل الحق بينهما ستوره، ثم تحوّل لي في صورة الخطاب، فتحوّلت له في صورة الخرس عن الجواب، فطلبت الصورة تابع الصورة، فأرسل الحق بينهما رقوم اللوح وسطوره، ثم تحوّل لي في صورة الإرادة، فتحوّلت له في صورة قصور الحقيقة والعادة، فطلبت الصورة تابع الصورة، فأفاض الحق بينهما ضياءه ونوره، ثم تحوّل لي في صورة القدرة والطاقة، فتحوّلت له في صورة العجز والفاقة، فطلبت الصورة تابع الصورة، فأبدى الحق للعبد تقصيره، فقلت لما رأيت ذلك الإعراض، وما حصل لي تمام الآمال والأغراض، لم أبيت علي ولم تف بعهدي، فقال لي أنت أبيت على نفسك يا عبدي، لو قبلت الحجر في كل شوط أيها الطائف، لقبلت يميني هنا في هذه الصور اللطائف، فإنّ بيتي هناك بمنزلة الذات، وأشواط الطواف بمنزلة السبع الصفات، صفات الكمال لا صفات الجلال، لأنها صفات الاتصال بك والانفصال، فسبعة أشواط لسبع صفات، وبيت قائم يدل على ذات، غير أني أنزلته في فرشي، وقلت للعامّة: هذا عندكم بمنزلة عرشي، وخليفتي في الأرض هو المستوى عليه والمحتوى، فانظر إلى الملك معك طائفاً وإلى جانبك واقفاً، فنظرت إليه فعاد إلى عرشه، وناه علي بسموّ نعشه، فتبسمت جذلاً وقلت مرتجلاً: [السريع]

يا كعبةً طافَ بها المرسَلُونْ … من بعدِ ما طافَ بها المُكْرَمونْ
ثم أتى من بعدِهِمْ عالَمٌ … طافوا بها من بين عالٍ وَدُونْ
أنزلها مثلاً إلى عَرْشِه … ونحنُ حافُونَ لها مكرمون
فإن يَقُلْ أعظمُ حافٍ به … إني أنا خيرٌ فهل تسْمَعونْ
والله ما جاء بنصّ ولا … أتى لنا إلاّ بما لا يَبِينْ
هل ذاكَ إلاّ النُّورُ حفَّتْ به … أنوارُهمْ ونحن ماءٌ مَهِينْ
فانجذب الشيءُ إلى مِثْلِهِ … وكلُّنا عبدٌ لديه مَكِينْ
هلا رأَوْا ما لم يَرَوْا أنهم … طافوا بما طفْنَا وليسوا بِطِينْ
لو جُرِّدَ الألطفُ منا اسْتَوَى … على الذي حَفُّوا به طائفينْ
قُدْسُهُمُو أن يجهلوا حقَّ مَنْ … قد سخَّر الله له العالَمِينْ
كيف لهم وعِلْمُهم أنني … ابْنُ الذي خرُّوا له ساجِدينْ
واعترفوا بعدَ اعتراضٍ على … والِدِنا بكونِهم جاهِلينْ
وأَبْلَسَ الشخصُ الذي قد أَبَى … وكان للفَضْلِ من الجاحِدينْ
قُدْسُهُمُو قُدْسُهُمُو أَنهم … قد عُصِموا من خطأ المُخْطِئينْ

قلت: ثم صرفت عنه وجه قلبي، وأقبلت به على ربي، فقال لي: انتصرت لأبيك، حلت بركتي فيك، اسمع منزلة من أثنيت عليها، وما قدمته من الخير بين يديها، وأين منزلتك

من منازل الملائكة المقرّبين، صلوات الله عليكم وعليهم أجمعين، كعبتي هذه قلب الوجود، وعرشي لهذا القلب جسم محدود، وما وسعني واحد منهما، ولا أخبر عني بالذي أخبرت عنهما، وبيتي الذي وسعني قلبك المقصود، المودع في جسدك المشهود، فالطائفون بقلبك الأسرار، فهم بمنزلة أجسادكم عند طوافها بهذه الأحجار، فالطائفون الحافون بعرشنا المحيط، كالطائفين منك بعالم التخطيط، فكما أنّ الجسم منك في الرتبة دون قلبك البسيط، كذلك هي الكعبة مع العرش المحيط، فالطائفون بالكعبة بمنزلة الطائفين بقلبك لاشتراكهما في القلبية، والطائفون بجسمك كالطائفين بالعرش لاشتراكهما في الصفة الإحاطية، فكما أن عالم الأسرار الطائفين بالقلب الذي وسعني أسنى منزلة من غيرهم وأعلى، كذلك أنتم بنعت الشرف والسيادة على الطائفين بالعرش المحيط أولى، فإنكم الطائفون بقلب وجود العالم، فأنتم بمنزلة أسرار العلماء وهم الطائفون بجسم العالم، فهم بمنزلة الماء والهواء، فكيف تكونون سواء؟ وما وسعني سواكم، وما تجليت في صورة كمال إلاً في معناكم، فاعرفوا قدر ما وهبتكموه من الشرف العالي، وبعد هذا فأنا الكبير المتعالي، لا يحدني الحد، ولا يعرفني السيد ولا العبد، تقدست الألوهة فتنزهت أن تدرك، وفي منزلتها أن تشرك، أنت الأنا، وأنا أنا فلا تطلبني فيك فتعنى، ولا من خارج فما تتهنى، ولا تترك طلبي فتشقى، فاطلبني حتى تلقاني فترقى، ولكن تأدّب في طلبك، واحضر عند شروعك في مذهبك، وميّز بيني وبينك فإنك لا تشهدني وإنما تشهد عينك، فقف في صفة الاشتراك، وإلاً فكن عبداً وقل العجز عن درك الإدراك إدراك، تلحق في ذلك عتيقاً، وتكن المكرم الصديقا، ثم قال لي: اخرج عن حضرتي، فمثلك لا يصلح لخدمتي، فخرجت طريداً، فضج الحاضر فقال ذرني ومن خلقت وحيداً، ثم قال: ردّوه فرددت، وبين يديه من ساعتي وجدت، وكأني ما زلت عن بساط شهوده، وما برحت من حضرة وجوده، فقال: كيف يدخل علي في حضرتي من لا يصلح لخدمتي، لو لم تكن عندك الحرمة التي توجب الخدمة، ما قبلتك الحضرة، ولزمت بك في أول نظرة، وها أنت فيها، وقد رأيت من برهانك وتخفيها، ما يزيدك احتراماً، وعند تجليها احتشاماً.

ثم قال: لِمَ لَمْ تسألني حين أمرت بإخراجك، وردّك على معراجك، وأعرفك صاحب حجة ولسان، ما أسرع ما نسيت أيها الإنسان؟ فقلت: بهرني عظيم مشاهدة ذاتك، وسقط في يدي لقبضك يمين البيعة في تجلياتك، وبقيت أردّد النظر، ما الذي طرأ في الغيب من الخبر، فلو التفت في ذلك الوقت إليّ لعلمت أن مني أتى عليّ، ولكن الحضرة تعطى أن لا يشهد سواها، وأن لا ينظر إلى محيا غير محياها، فقال: صدقت يا محمد، فاثبت في المقام الأوحد، وإياك والعدد، فإن فيه هلاك الأبد. ثم اتفقت مخاطبات وأخبار، أذكرها في باب الحج ومكة مع جملة أسرار.

وصل: فقال النجيّ الوفيّ: يا أكرم وليّ وصفيّ، ما ذكرت لي أمراً إلاً أنا به عالم، وهو بذاتي مسطر قائم. قلت: لقد شوقتني إلى التطلع إليك منك حتى أخبر عنك، فقال نعم

أيها الغريب الوارد، والطالب القاصد، ادخل معي كعبة الحجر، فهو البيت المتعالي عن الحجاب والستر، وهو مدخل العارفين، وفيه راحة الطائفين، فدخلت معه بيت الحجر في الحال، وألقى يده على صدري وقال: أنا السابع في مرتبة الإحاطة بالكون، وبأسرار وجود العين والأين، أوجدني الحق قطعة نور حوّائي ساذجة، وجعلني للكليات ممازجة، فبينا أنا متطلع لما يلقى لديّ أو ينزل عليّ، وإذا بالعلم القلميّ الأعلى، قد نزل بذاتي من منازله العلى، راكباً على جواد قائم على ثلاث قوائم فنكس رأسه إلى ذاتي، فانتشرت الأنوار والظلمات، ونفث في روعي جميع الكائنات، ففتق أرضي وسمائي، وأطلعني على جميع أسمائي، فعرفت نفسي وغيري، وميّزت بين شرّي وخيري، وفصلت ما بين خالقي وحقائقي، ثم انصرف عني ذلك الملك، وقال تعلم أنك حضرت الملك، فتهيأت للنزول وورود الرسول، فتجارت الأملاك إليّ، ودارت الأفلاك عليّ، والكل ليميني مقبلون، وعلى حضرتي مقبلون، وما رأيت ملكاً نزل، ولا ملكاً عن الوقوف بين يدي انتقل، ولحظت في بعض جوانبي فرأيت صورة الأزل، فعلمت أنّ النزول محال، فثبت على ذلك الحال، وأعلمت بعض الخاصة ما شهدت، وأطلعتهم مني على ما وجدت، فأنا الروضة اليانعة، والثمرة الجامعة، فارفع ستوري، واقرأ ما تضمنته سطوري، فما وقفت عليه مني فاجعله في كتابك، وخاطب به جميع أحبابك، فرفعت ستوره، ولحظت مسطوره، فأبدى لعينيّ نوره المودع فيه، ما يتضمنه من العلم المكنون ويحويه، فأول سطر قرأته، وأوّل سرّ من ذلك السطر علمته، ما أذكره الآن في هذا الباب الثاني والله سبحانه يهدي إلى العلم وإلى طريق مستقيم.

الباب الثاني

في معرفة مراتب الحروف والحركات من العالم وما لها من الأسماء الحسنى، ومعرفة الكلمات ومعرفة العلم والعالم والمعلوم

اعلم أن هذا الباب على ثلاثة فصول: الفصل الأول: في معرفة الحروف. الفصل الثاني: في معرفة الحركات التي تتميز بها الكلمات. الفصل الثالث: في معرفة العلم والعالم والمعلوم.

الفصل الأول: في معرفة الحروف ومراتبها والحركات وهي الحروف الصغار وما لها من الأسماء الإلهية:

[نظم: الكامل]

إن الحروفَ أئمةُ الألفاظِ ... شَهِدَتْ بذلك ألسُنُ الحُفَّاظِ
دارتْ بها الأفلاكُ في مَلَكُوتِهِ ... بين النِّيام الخُرْس والأيْقَاظِ
ألحَظْتُها الأسماءَ من مكنونها ... فبدتْ تَعِزُّ لذلك الإلْحَاظِ
وتقول لولا فَيْضُ جُودي ما بَدَتْ ... عندَ الكلام حقائقُ الألْفَاظِ

اعلم أيّدنا الله وإياك أنه لما كان الوجود مطلقاً من غير تقييد يتضمن المكلف وهو الحق تعالىٰ، والمكلفين وهم العالم، والحروف جامعة لما ذكرنا، أردنا أن نبيّن مقام المكلف من هذه الحروف من المكلفين من وجه دقيق محقق، لا يتبدل عند أهل الكشف إذا وقفوا عليه، وهو مستخرج من البسائط التي عنها تركبت هذه الحروف التي تسمى حروف المعجم بالاصطلاح العربي في أسمائها، وإنما سميت حروف المعجم لأنها عجمت على الناظر فيها معناها، ولما كوشفنا على بسائط الحروف وجدناها على أربع مراتب:

(حروف) مرتبتها سبعة أفلاك وهي: الألف والزاي واللام. **(وحروف)** مرتبتها ثمانية أفلاك وهي: النون والصاد والضاد. **(وحروف)** مرتبتها تسعة أفلاك وهي: العين والغين والسين والشين. **(وحروف)** مرتبتها عشرة أفلاك وهي باقي حروف المعجم، وذلك ثمانية عشر حرفاً كل حرف منها مركّب عن عشرة، كما أنّ كل حرف من تلك الحروف منها ما هو عن تسعة أفلاك وعن ثمانية وعن سبعة لا غير كما ذكرناه، فعدد الأفلاك التي عنها وجدت هذه الحروف وهي البسائط التي ذكرناها مائتان وأحد وستون فلكاً.

أما المرتبة السبعية فالزاي واللام منها دون الألف فطبعها الحرارة واليبوسة، **وأمّا** الألف فطبعها الحرارة والرطوبة واليبوسة والبرودة، ترجع مع الحار حارة ومع الرطب رطبة ومع البارد باردة ومع اليابس يابسة على حسب ما تجاوره من العوالم.

وأما المرتبة الثمانية فحروفها حارة يابسة.

وأما المرتبة التسعية فالعين والغين طبعهما البرودة واليبوسة. **وأما** السين والشين فطبعهما الحرارة واليبوسة.

وأما المرتبة العشرية فحروفها حارة يابسة إلاَّ الحاء المهملة والخاء المعجمة فإنهما باردتان يابستان، وإلاَّ الهاء والهمزة فإنهما باردتان رطبتان.

فعدد الأفلاك التي عن حركتها توجد الحرارة مائتا فلك وثلاثة أفلاك، وعدد الأفلاك التي عن حركتها توجد اليبوسة مائتا فلك وأحد وأربعون فلكاً، وعدد الأفلاك التي عن حركتها توجد البرودة خمسة وستون فلكاً، وعدد الأفلاك التي عن حركتها توجد الرطوبة سبعة وعشرون فلكاً مع التوالج والتداخل الذي فيها على حسب ما ذكرناه آنفاً، فسبعة أفلاك توجد عن حركتها العناصر الأول الأربعة، وعنها يوجد حرف الألف خاصة، ومائة وستة وتسعون فلكاً توجد عن حركتها الحرارة واليبوسة خاصة لا يوجد عنها غيرهما البتة، وعن هذه الأفلاك يوجد حرف الباء والجيم والدال والواو والزاي والطاء والياء والكاف واللام والميم والنون والصاد والفاء والضاد والقاف والراء والسين والتاء والثاء والذال والظاء والشين، وثمانية وثمانون فلكاً يوجد عن حركتها البرودة واليبوسة خاصة، وعن هذه الأفلاك يوجد حرف العين والحاء والغين والخاء، وعشرون فلكاً توجد عن حركتها البرودة والرطوبة خاصة، وعن هذه الأفلاك يوجد حرف الهاء والهمزة، وأما لام ألف فممتزج من السبعة والمائة والستة والتسعين إذا كان مثل قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦١] فإن كان مثل قوله

تعالىٰ: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ [سورة الحشر: الآية ١٣] فامتزاجه من المائة والستة والتسعين ومن العشرين وليس في العالم فلك يوجد عنه الحرارة والرطوبة خاصة دون غيرهما.

فإذا نظرت في طبع الهواء عثرت على الحكمة التي منعت أن يكون له فلك مخصوص، كما أنه ما ثَمَّ فلك يوجد عنه واحد من هذه العناصر الأول على انفراد، فالهاء والهمزة يدور بهما الفلك الرابع ويقطع الفلك الأقصى في تسعة آلاف سنة، وأما الحاء والخاء والعين والغين فيدور بها الفلك الثاني ويقطع الفلك الأقصى في إحدى عشرة ألف سنة، وباقي الحروف يدور بها الفلك الأول ويقطع الفلك الأقصى في اثنتي عشرة ألف سنة وهو على منازل في أفلاكها، فمنها ما هو على سطح الفلك، ومنها ما هو في مقعر الفلك، ومنها ما هو بينهما، ولولا التطويل لبيّنا منازلها وحقائقها، ولكن سنلقي من ذلك ما يشفي في الباب الستين من أبواب هذا الكتاب إن ألهمنا الحق ذلك عند كلامنا في معرفة العناصر وسلطان العالم العلويّ على العالم السفليّ، وفي أيّ دورة كان وجود هذا العالم الذي نحن فيه الآن من دورات الفلك الأقصى، وأيّ روحانية تنظرنا فلنقبض العنان حتى نصل إلى موضعه أو يصل موضعه إن شاء الله.

فلنرجع ونقول: إنّ المرتبة السبعية التي لها الزاي والألف واللام جعلناها للحضرة الإلهية المكلفة أي نصيبها من الحروف، وإن المرتبة الثمانية التي هي النون والصاد والضاد جعلناها حظ الإنسان من عالم الحروف، وإن المرتبة التسعية التي هي العين والغين والسين والشين جعلناها حظ الجنّ من عالم الحروف، وأن المرتبة العشرية وهي المرتبة الثانية من المراتب الأربعة التي هي باقي الحروف جعلناها حظ الملائكة من عالم الحروف، وإنما جعلنا هذه الموجودات الأربعة لهذه الأربع مراتب من الحروف على هذا التقسيم لحقائق عسرة المدرك يحتاج ذكرها وبيانها إلى ديوان بنفسه، ولكن قد ذكرناه حتى نتمّه في كتاب المبادي والغايات فيما تحوي عليه حروف المعجم من العجائب والآيات وهو بين أيدينا ما كمل، ولا قيد منه إلاّ أوراق متفرقة يسيرة، ولكن سأذكر منه في هذا الباب لمحة بارق إن شاء الله:

فحصلت الأربعة للجن الناري لحقائق هم عليها وهي التي أدّتهم لقولهم فيما أخبر الحق تعالىٰ عنهم: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧] وفرغت حقائقهم ولم تبق لهم حقيقة خامسة يطلبون بها مرتبة زائدة، وإياك أن تعتقد أن ذلك جائز لهم وهو أن يكون لهم العلو، وما يقابله اللذان تتم بهما الجهات الستة فإن الحقيقة تأبى ذلك على ما قرّرناه في كتاب المبادي والغايات وبيّنا فيه لِمَ اختصوا بالعين والغين والسين والشين دون غيرها من الحروف والمناسبة التي بين هذه الحروف وبينهم، وأنهم موجودون عن الأفلاك التي عنها وجدت هذه الحروف.

وحصل للحضرة الإلهية من هذه الحروف ثلاثة لحقائق هي عليها أيضاً وهي: الذات والصفة والرابط بين الذات والصفة وهي القبول أي بها كان القبول لأن الصفة لها تعلُّق بالموصوف بها وبمتعلقها الحقيقيّ لها، كالعلم يربط نفسه بالعالم به وبالمعلوم، والإرادة تربط

نفسها بالمريد بها وبالمراد لها، والقدرة تربط نفسها بالقادر بها وبالمقدور لها، وكذلك جميع الأوصاف والأسماء وإن كانت نسباً وكانت الحروف التي اختصت بها الألف والزاي واللام تدل على معنى نفي الأولية وهو الأزل، وبسائط هذه الحروف واحدة في العدد، فما أعجب الحقائق لمن وقف عليها فإنه يتنزّه فيما يجهله الغير وتضيق صدور الجهلاء به، وقد تكلمنا أيضاً في المناسبة الجامعة بين هذه الحروف وبين الحضرة الإلهية في الكتاب المذكور.

وكذلك حصل للحضرة الإنسانية من هذه الحروف ثلاثة أيضاً كما حصل للحضرة الإلهية فاتفقا في العدد غير أنها حرف النون والصاد والضاد ففارقت الحضرة الإلهية من جهة موادّها، فإن العبودية لا تشرك الربوبية في الحقائق التي بها يكون إلهاً، كما أن بحقائقه يكون العبد مألوهاً، وبما هو على الصورة اختصّ بثلاثة كهو، فلو وقع الاشتراك في الحقائق لكان إلهاً واحداً أو عبداً واحداً أعني عيناً واحدة وهذا لا يصحّ، فلا بدّ أن تكون الحقائق متباينة ولو نسبت إلى عين واحدة، ولهذا باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم، ولم يقل باينهم بعلمه كما باينوه بعلمهم فإن فلك العلم واحد قديماً في القديم محدثاً في المحدث، واجتمعت الحضرتان في أن كل واحدة منهما معقولة من ثلاث حقائق ذات صفة ورابطة بين الصفة والموصوف بها.

غير أن العبد له ثلاثة أحوال: حالة مع نفسه لا غير وهو الوقت الذي يكون فيه نائم القلب عن كل شيء وحالة مع الله وحالة مع العالم. والباري سبحانه مباين لنا فيما ذكرناه فإن له حالين حال من أجله وحال من أجل خلقه وليس فوقه موجود، فيكون له تعالىٰ وصف تعلّق به، فهذا بحر آخر لو خضنا فيه لجاءت أمور لا يطاق سماعها، وقد ذكرنا المناسبة التي بين النون والصاد والضاد التي للإنسان، وبين الألف والزاي واللام التي هي للحضرة الإلهية في كتاب المبادي والغايات. وإن كانت حروف الحضرة الإلهية عن سبعة أفلاكٰ والإنسانية عن ثمانية أفلاك فإن هذا لا يقدح في المناسبة لتبيّن الإله والمألوه، ثم إنه في نفس النون الرقمية التي هي شطر الفلك من العجائب ما لا يقدر على سماعها إلاّ من شدّ عليه مئزر التسليم، وتحقق بروح الموت الذي لا يتصور ممّن قام به اعتراض ولا تطلع، وكذلك في نفس نقطة النون أوّل دلالة النون الروحانية المعقولة فوق شكل النون السفلية التي هي النصف من الدائرة، والنقطة الموصولة بالنون المرقومة الموضوعة أوّل الشكل التي هي مركز الألف المعقولة التي بها يتميز قطر الدائرة، والنقطة الأخيرة التي ينقطع بها شكل النون وينتهي بها هي رأس هذا الألف المعقولة المتوهمة فنقدر قيامها من رقدتها فترتكز لك على النون، فيظهر من ذلك حرف اللام والنون نصفها زاي مع وجود الألف المذكورة فتكون النون بهذا الاعتبار تعطيك الأزل الإنسانيّ، كما أعطاك الألف والزاي واللام في الحق، غير أنه في الحق ظاهر لأنه بذاته أزليّ لا أول له، ولا مفتتح لوجوده في ذاته بلا ريب ولا شك.

ولبعض المحققين كلام في الإنسان الأزليّ، فنسب الإنسان إلى الأزل فالإنسان خفي فيه الأزل فجهل لأن الأزل ليس ظاهراً في ذاته، وإنما صحّ فيه الأزل لوجه ما من وجوه

وجوده منها أن الموجود يطلق عليه الوجود في أربع مراتب: وجود في الذهن ووجود في العين ووجود في اللفظ ووجود في الرقم، وسيأتي ذكر هذا في هذا الكتاب إن شاء الله.

فمن جهة وجوده على صورته التي وجد عليها في عينه في العلم القديم الأزليّ المتعلق به في حال ثبوته فهو موجود أزلاً أيضاً كأنه بعناية العلم المتعلق به، كالتحيّز للعرض بسبب قيامه بالجوهر فصار متحيزاً بالتبعية فلهذا خفي فيه الأزل، ولحقائقه أيضاً الأزلية المجردة عن الصورة المعينة المعقولة التي تقبل القدم والحدوث على حسب ما شرحنا ذلك في كتاب إنشاء الدوائر والجداول فانظره هناك تجده مستوفى، وسنذكر منه طرفاً في هذا الكتاب في بعض الأبواب إذا مست الحاجة إليه.

وظهور ما ذكرناه من سرّ الأزل في النون هو في الصاد والضاد أتم وأمكن لوجود كمال الدائرة، وكذلك ترجع حقائق الألف والزاي واللام التي للحق إلى حقائق النون والصاد والضاد التي للعبد، ويرجع الحق يتصف هنا بالأسرار التي منعنا عن كشفها في الكتب، ولكن يظهرها العارف بين أهلها في علمه ومشربه، أو مسلم في أكمل درجات التسليم وهي حرام على غير هذين الصنفين، فتحقق ما ذكرناه وتبينه يبدو لك من العجائب التي تبهر العقول حسن جمالها.

وبقي للملائكة باقي حروف المعجم وهي ثمانية عشر حرفاً وهي: الباء والجيم والدال والهاء والواو والحاء والطاء والياء والكاف والميم والفاء والقاف والراء والتاء والثاء والخاء والذال والظاء.

فقلنا: الحضرة الإنسانية كالحضرة الإلهية لا بل هي عينها على ثلاث مراتب: ملك وملكوت وجبروت، وكل واحدة من هذه المراتب تنقسم إلى ثلاث فهي تسعة في العدد، فتأخذ ثلاثة الشهادة فتضربها في الستة المجموعة من الحضرة الإلهية والإنسانية أو في الستة الأيام المقدرة التي فيها وجدت الثلاثة الحقية الثلاثة الخلقية يخرج لك ثمانية عشر وهو وجود الملك، وكذلك تعمل في الحق بهذه المثابة فالحق له تسعة أفلاك للإلقاء، والإنسان له تسعة أفلاك للتلقي فتمتدّ من كل حقيقة من التسعة الحقيّة رقائق إلى التسعة الخلقية، وتنعطف من التسعة الخلقية رقائق على التسعة الحقية فحيثما اجتمعت كان الملك ذلك الاجتماع وحدث هناك، فذلك الأمر الزائد الذي حدث هو الملك، فإن أراد أن يميل بكله نحو التسعة الواحدة جذبته الأخرى فهو يتردّد ما بينهما جبريل ينزل من حضرة الحق على النبيّ عليه السلام، وأن حقيقة الملك لا يصحّ فيها الميل فإنه منشأ الاعتدال بين التسعتين، والميل انحراف ولا انحراف عنده، ولكنه يتردّد بين الحركة المنكوسة والمستقيمة وهو عين الرقيقة، فإن جاءه وهو فاقد فالحركة منكوسة ذاتية وعرضية، وإن جاءه وهو واجد فالحركة مستقيمة عرضية لا ذاتية، وإن رجع عنه وهو فاقد فالحركة ذاتية وعرضية، وإن رجع عنه وهو واجد فالحركة منكوسة عرضية لا ذاتية، وقد تكون الحركة من العارف مستقيمة أبداً، ومن العابد منكوسة

أبداً، وسيأتي الكلام عليها في داخل الكتاب وانحصارها في ثلاث: منكوسة وأفقية ومستقيمة إن شاء الله، فهذه نكت غيبية عجيبة.

ثم أرجع وأقول: إن التسعة هي سبعة وذلك أن عالم الشهادة هو في نفسه برزخ فذلك واحد وله ظاهر فذلك اثنان وله باطن فذلك ثلاثة، ثم عالم الجبروت برزخ في نفسه فذلك واحد وهو الرابع، ثم له ظاهر وهو باطن عالم الشهادة ثم له باطن وهو الخامس، ثم بعد ذلك عالم الملكوت هو في نفسه برزخ وهو السادس، ثم له ظاهر وهو باطن عالم الجبروت وله باطن وهو السابع وما ثَمَّ غير هذا، وهذه صورة السبعية والتسعية فتأخذ الثلاثة وتضربها في السبعة فيكون الخارج أحداً وعشرين فتخرج الثلاثة الإنسانية فتبقى ثمانية عشر وهو مقام الملك وهي الأفلاك التي منها يتلقي الإنسان الموارد، وكذلك تفعل بالثلاثة الحقيّة تضربها أيضاً في السبعة فتكون عند ذلك الأفلاك التي منها يلقي الحق على عبده ما يشاء من الواردات، فإن أخذناها من جانب الحق قلنا أفلاك الإلقاء، وإن أخذناها من جانب الإنسان قلنا أفلاك التلقي، وإن أخذناها منهما معاً جعلنا تسعة الحق للإلقاء والأخرى للتلقي، وباجتماعهما حدث الملك، ولهذا أوجد الحق تسعة أفلاك: السموات السبع والكرسيّ والعرش، وإن شئت قلت فلك الكواكب والفلك الأطلس وهو الصحيح.

تتميم: منعنا في أول هذا الفصل أن يكون للحرارة والرطوبة فلك ولم نذكر السبب فلنذكر منه طرفاً في هذا الباب حتى نستوفيه في داخل الكتاب إن شاء الله تعالىٰ، وسأذكر في هذا الباب بعد هذا التتميم ما يكون من الحروف حاراً رطباً وذلك لأنه دار به فلك غير الفلك الذي ذكرناه في أول الباب.

فاعلم أن الحرارة والرطوبة هي الحياة الطبيعية، فلو كان لها فلك كما لأخواتها في المزجة لانقضت دورة ذلك الفلك وزال سلطانه كما يظهر في الحياة العرضية وكانت تنعدم أو تنتقل وحقيقتها تقضي بأن لا تنعدم فليس لها فلك، ولهذا أبنأنا الباري تعالىٰ أن الدار الآخرة هي الحيوان وأن كل شيء يسبح بحمده، فصار فلك الحياة الأبدية الحياة الأزلية تمدها وليس لها فلك فتنقضي دورته، فالحياة الأزلية ذاتية للحيّ لا يصحّ لها انقضاء. فالحياة الأبدية المعلولة بالحياة الأزلية لا يصحّ لها انقضاء، ألا ترى الأرواح لما كانت حياتها ذاتية لها لم يصحّ فيها موت البتة، ولما كانت الحياة في الأجسام بالعرض قام بها الموت والفناء، فإن حياة الجسم الظاهرة من آثار حياة الروح كنور الشمس الذي في الأرض من الشمس فإذا مضت الشمس تبعها نورها وبقيت الأرض مظلمة، كذلك الروح إذا رحل عن الجسم إلى عالمه الذي جاء منه تبعته الحياة المنتشرة منه في الجسم الحيّ وبقي الجسم في صورة الجماد في رأي العين، فيقال مات فلان وتقول الحقيقة رجع إلى أصله ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥٥] كما رجع أيضاً الروح إلى أصله حتى البعث والنشور يكون من الروح تجل للجسم بطريق العشق، فتلتئم أجزاؤه وتتركب أعضاؤه بحياة لطيفة جداً تحرّك الأعضاء للتأليف اكتسبته من التفات الروح، فإذا استوت البنية وقامت النشأة

الترابية تجلّى له الروح بالرقيقة الإسرافيلية في الصور المحيط فتسري الحياة في أعضائه فيقوم شخصاً سوياً كما كان أول مرة ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٨] ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٩] ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩] ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [سورة يس: الآية ٧٩] فإما شقيّ وإما سعيد.

واعلم أن في امتزاج هذه الأصول عجائب فإن الحرارة والبرودة ضدّان فلا يمتزجان، وإذا لم يمتزجا لم يكن عنهما شيء، وكذلك الرطوبة واليبوسة، وإنما يمتزج ضدّ الضدّ بضدّ الضدّ الآخر فلا يتولّد عنها أبداً إلاّ أربعة لأنها أربعة ولهذا كانت اثنان ضدين لاثنين، فلو لم تكن على هذا لكان التركيب منها أكثر مما تعطيه حقائقها، ولا يصحّ أن يكون التركيب أكثر من أربعة أصول فإن الأربعة هي أصول العدد، فالثلاثة التي في الأربعة مع الأربعة سبعة، والاثنان التي فيها مع هذه السبعة تسعة، والواحد الذي في الأربعة مع هذه التسعة عشرة، وركب ما شئت بعد هذا، وما تجد عدداً يعطيك هذا إلاّ الأربعة، كما لا تجد عدداً تاماً إلاّ الستة لأن فيها النصف والسدس والثلث فامتزجت الحرارة واليبوسة، فكان النار والحرارة والرطوبة، فكان الهواء والبرودة والرطوبة، فكان الماء والبرودة واليبوسة فكان التراب، فانظر في تكوّن الهواء عن الحرارة والرطوبة وهو النفس الذي هو الحياة الحسيّة وهو المحرّك لكل شيء بنفسه للماء والأرض والنار، وبحركته تتحرّك الأشياء لأنه الحياة إذ كانت الحركة أثر الحياة، فهذه الأربعة الأركان المولدة عن الأمهات الأول.

ثم لتعلم أنّ تلك الأمهات الأول تعطي في المركبات حقائقها لا غير من غير امتزاج، فالتسخين عن الحرارة لا يكون عن غيرها، وكذلك التجفيف والتقبض عن اليبوسة، فإذا رأيت النار قد أيبست المحل من الماء فلا تتخيل أن الحرارة جففته فإن النار مركبة من حرارة ويبوسة كما تقدم، فبالحرارة التي فيها تسخن الماء وباليبوسة وقع التجفيف، وكذلك التليين لا يكون إلاّ عن الرطوبة والتبريد عن البرودة، فالحرارة تسخن والبرودة تبرّد والرطوبة تلين واليبوسة تجفف، فهذه الأمهات متنافرة لا تجتمع أبداً إلاّ في الصورة ولكن على حسب ما تعطيه حقائقها، ولا يوجد منها في صورة أبداً واحد لكن يوجد اثنان أما حرارة ويبوسة كما تقدم من تركيبها وأما أن توجد الحرارة وحدها فلا لأنها لا يكون عنها على انفرادها إلاهي.

وصل: فإن الحقائق على قسمين: حقائق توجد مفردات في العقل كالحياة والعلم والنطق والحس، وحقائق توجد بوجود التركيب كالسماء والعالم والإنسان والحجر، فإن قلت: فما السبب الذي جمع هذه الأمهات المتنافرة حتى ظهر من امتزاجها ما ظهر؟ فهنا سرّ عجيب ومركب صعب يحرم كشفه لأنه لا يطاق حمله لأن العقل لا يعقله ولكن الكشف يشهده فلنسكت عنه وربما نشير إليه من بعيد في مواضع من كتابي هذا يتفطن إليه الباحث اللبيب ولكن أقول: أراد المختار سبحانه أن يؤلفها لما سبق في علمه خلق العالم وأنها أصل أكثره أو أصله إن شئت فألفها، ولم تكن موجودة في أعيانها ولكن أوجدها مؤلفة لم يوجدها مفردة ثم جمعها، فإن حقائقها تأبى ذلك، فأوجد الصورة التي هي عبارة

عن تأليف حقيقتين من هذه الحقائق، فصارت كأنها كانت موجودة متفرقة، ثم ألفت فظهرت للتأليف حقيقة لم تكن في وقت الافتراق.

فالحقائق تعطي أن هذه الأمهات لم يكن لها وجود في عينها البتة قبل وجود الصور المركبة عنها، فلما أوجد هذه الصور التي هي الماء والنار والهواء والأرض وجعلها سبحانه يستحيل بعضها إلى بعض فيعود النار هواء والهواء ناراً كما تقلب التاء طاء والسين صاداً لأن الفلك الذي وجدت عنه الأمهات الأول عنها وجدت هذه الحروف، فالفلك الذي وجد عنه الأرض وجد عنه حرف الثاء والتاء وما عدا رأس الجيم ونصف تعريقة اللام ورأس الخاء وثلثا الهاء والدال اليابسة والنون والميم. والفلك الذي وجد عنه الماء وجد عنه حرف الشين والغين والطاء والحاء والضاد ورأس الباء بالنقطة الواحدة ومدة جسد الفاء دون رأسها ورأس القاف وشيء من تعريقه ونصف دائرة الظاء المعجمة الأسفل. والفلك الذي وجد عنه الهواء وجد عنه طرف الهاء الأخير الذي يعقد دائرتها ورأس الفاء وتعريق الخاء على حكم نصف الدائرة ونصف دائرة الظاء المعجمة الأعلى مع قائمته وحرف الذال والعين والزاي والصاد والواو. والفلك الذي وجد عنه النار وجد عنه حرف الهمزة والكاف والباء والسين والراء ورأس الجيم وجسد الياء باثنتين من أسفل دون رأسها ووسط اللام وجسد القاف دون رأسه، وعن حقيقة الألف صدرت هذه الحروف كلها وهو فلكها روحاً وحساً وكذلك ثم موجود خامس هو أصل لهذه الأركان.

وفي هذا خلاف بين أصحاب علم الطبائع عن النظر ذكره الحكيم في الاسطقسات ولم يأت فيه بشيء يقف الناظر عنده، ولم نعرف هذا من حيث قراءتي علم الطبائع على أهله، وإنما دخل به عليّ صاحب لي وهو في يده وكان يشتغل بتحصيل علم الطب فسألني أن أمشيه له من جهة علمنا بهذه الأشياء من جهة الكشف لا من جهة القراءة والنظر، فقرأه علينا فوقفت منه على هذا الخلاف الذي أشرت إليه فمن هناك علمته، ولولا ذلك ما عرفت هل خالف فيه أحد أم لا، فإنه ما عندنا فيه إلاَّ الشيء الحق الذي هو عليه وما عندنا خلاف، فإن الحق تعالىٰ الذي نأخذ العلوم عنه بخلوّ القلب عن الفكر والاستعداد لقبول الواردات هو الذي يعطينا الأمر على أصله من غير إجمال ولا حيرة، فنعرف الحقائق على ما هي عليه سواء كانت المفردات أو الحادثة بحدوث التأليف، أو الحقائق الإلهية لا نمتري في شيء منها فمن هناك هو علمنا، والحق سبحانه معلمنا ورثاً نبوياً محفوظاً معصوماً من الخلل والإجمال والظاهر.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [سورة يس: الآية ٦٩] فإن الشعر محل الإجمال والرموز والألغاز والتورية، أي مارمزنا له شيئاً ولا لغزناه ولا خاطبناه بشيء ونحن نريد شيئاً آخر، ولا أجملنا له الخطاب إن هو إلاَّ ذكر لما شاهده حين جذبناه وغيبناه عنه وأحضرناه بنا عندنا فكنا سمعه وبصره، ثم رددناه إليكم لتهتدوا به في ظلمات الجهل والكون، فكنّا لسانه الذي يخاطبكم به، ثم أنزلنا عليه مذكراً يذكره بما شاهده فهو ذكر له لذلك وقرآن أي جمع أشياء كان شاهدها عندنا مبين، ظاهر له لعلمه بأصل ما شاهده وعاينه في ذلك التقريب الأنزه الأقدس الذي ناله منه ﷺ، ولنا منه من الحظ على قدر صفاء المحل والتهييء والتقوى.

فمن علم أن الطبائع والعالم المركب منها في غاية الافتقار والاحتياج إلى الله تعالىٰ في وجود أعيانها وتأليفها علم أن السبب هو حقائق الحضرة الإلهية الأسماء الحسنى والأوصاف العلى كيف تشاء على حسب ما تعطيه حقائقها، وقد بيّنا هذا الفصل على الاستيفاء في كتاب إنشاء الجداول والدوائر، وسنذكر من ذلك طرفاً في هذا الكتاب، فهذا هو سبب الأسباب القديم الذي لم يزل مؤلف الأمهات ومولد البنات فسبحانه سبحانه خالق الأرض والسموات.

وصل: انتهى الكلام المطلوب في هذا الكتاب على الحروف من جهة المكلف والمكلفين وحظها منهم وحركتها في الأفلاك السداسية المضاعفة، وعيَّنا سني دورتها في تلك الأفلاك وحظها من الطبيعة من حركة تلك الأفلاك ومراتبها الأربعة في المكلف والمكلفين على حسب فهم العامة، ولهذا كانت أفلاك بسائطها على نوعين، فالبسائط التي يقتصر بها على حقائق عامة العقلاء على أربعة: حروف الحق التي عن الأفلاك السبعية، وحروف الإنس عن الثمانية، وحروف الملك عن التسعة، وحروف الجن الناري عن العشرة، وليس ثم قسم زائد عندهم لقصورهم عن إدراك ما ثم لأنهم تحت قهر عقولهم، والمحققون تحت قهر سيدهم الملك الحق سبحانه وتعالىٰ، فلهذا عندهم من الكشف ما ليس عند الغير، فبسائط المحققين على ست مراتب:

مرتبة للمكلف الحق تعالىٰ وهي النون وهي ثنائية فإن الحق لا نعلمه إلاَّ منا وهو معبودنا، ولا يعلم على الكمال إلاَّ بنا فلهذا كان له النون التي هي ثنائية فإن بسائطها اثنان الواو والألف فالألف له والواو لمعناك، وما في الوجود غير الله وأنت إذ أنت الخليفة ولهذا الألف عام والواو ممتزجة كما سيأتي ذكرها في هذا الباب، ودورة هذا الفلك المخصوصة التي بها تقطع الفلك المحيط الكليّ دورة جامعة، تقطع الفلك الكليّ في اثنين وثمانين ألف سنة، وتقطع فلك الواو الفلك الكليّ في عشرة آلاف سنة على ما نذكرها بعد في هذا الباب عند كلامنا على الحروف مفردة وحقائقها وما بقي من المراتب فعلى عدد المكلفين.

وأما المرتبة الثانية فهي للإنسان وهو أكمل المكلفين وجوداً وأعمه وأتمه خلقاً وأقومه، ولها حرف واحد وهي الميم وهي ثلاثية وذلك أن بسائطها ثلاثة: الياء والألف والهمزة وسيأتي ذكرها في داخل الباب إن شاء الله.

وأما المرتبة الثالثة فهي للجن مطلقاً النوري والناري وهي رباعية ولها من الحروف الجيم والواو والكاف والقاف وسيأتي ذكرها.

وأما المرتبة الرابعة فهي للبهائم وهي خماسية لها من الحروف الدال اليابسة والزاي والصاد اليابسة والعين اليابسة والضاد المعجمة والسين اليابسة والذال المعجمة والغين والشين المعجمتان، وسيأتي ذكرها إن شاء الله.

وأما المرتبة الخامسة فهي للنبات وهي سداسية لها من الحروف: الألف والهاء واللام وسيأتي ذكرها إن شاء الله.

وأما المرتبة السادسة فهي للجماد وهي سباعية لها من الحروف الباء والحاء والطاء والياء والفاء والراء والتاء والثاء والخاء والظاء وسيأتي ذكرها إن شاء الله.

والغرض في هذا الكتاب إظهار لمع ولوائح إشارات من أسرار الوجود، ولو فتحنا الكلام على سرائر هذه الحروف وما تقتضيه حقائقها لكلّت اليمين وحفي القلم وجفّ المداد وضاقت القراطيس والألواح ولو كان الرق المنشور فإنها من الكلمات التي قال الله تعالىٰ فيها: ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٩] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٧] وهنا سرّ وإشارة عجيبة لمن تفطن لها وعثر على هذه الكلمات، فلو كانت هذه العلوم نتيجة عن فكر ونظر لانحصر الإنسان في أقرب مدة، ولكنها موارد الحق تعالىٰ تتوالى على قلب العبد وأرواحه البررة تنزل عليهم من عالم غيبه برحمته التي من عنده وعلمه الّذي من لدنه، والحق تعالىٰ وهّاب على الدوام فياض على الاستمرار، والمحل قابل على الدوام فإما يقبل الجهل وإما يقبل العلم، فإن استعد وتهيأ وصفى مرآة قلبه وجلاها حصل له الوهب على الدوام، ويحصل له في اللحظة ما لا يقدر على تقييده في أزمنة لاتساع ذلك الفلك المعقول وضيق هذا الفلك المحسوس، فكيف ينقضي ما لا يتصوّر له نهاية ولا غاية يقف عندها، وقد صرّح بذلك في أمره لرسوله عليه السلام: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٤] والمراد بهذه الزيادة من العلم المتعلق بالإله ليزيد معرفة بتوحيد الكثرة فتزيد رغبته في تحميده، فيزاد فضلاً على تحميده دون انتهاء ولا انقطاع فطلب منه الزيادة، وقد حصل من العلوم والأسرار ما لم يبلغه أحد.

وممّا يؤيد ما ذكرناه من أنه أمر بالزيادة من علم التوحيد لا من غيره أنه كان ﷺ إذا أكل طعاماً قال: «**اللّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَأَطْعِمْنَا خيراً مِنْهُ**»، وإذا شرب لبناً قال: «**اللّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ**» لأنه أمر بطلب الزيادة، فكان يتذكر عند ما يرى اللبن اللبن الذي شربه ليلة الإسراء فقال له جبريل: أصبت الفطرة أصاب الله بك أمتك، والفطرة علم التوحيد التي فطر الله الخلق عليها حين أشهدهم حين قبضهم من ظهورهم: ألست بربكم؟ قالوا بلى، فشاهدوا الربوبية قبل كل شيء، ولهذا تأوّل ﷺ اللبن لما شربه في النوم وناول فضله عمر قيل: ما أوّلته يا رسول الله؟ قال: العلم. فلولا حقيقة مناسبة بين العلم واللبن جامعة ما ظهر بصورته في عالم الخيال، عرف ذلك من عرفه وجهله من جهله، فمن كان يأخذ عن الله لا عن نفسه كيف ينتهي كلامه أبداً، فشتان بين مؤلف يقول: حدثني فلان رحمه الله عن فلان رحمه الله، وبين من يقول: حدثني قلبي عن ربي، وإن كان هذا رفيع القدر فشتان بينه وبين من يقول حدثني ربي عن ربي أي حدثني ربي عن نفسه، وفيه إشارة الأوّل الرب المعتقد والثاني الرب الذي لا يتقيد فهو بواسطة لا بواسطة، وهذا هو العلم الذي يحصل للقلب من المشاهدة الذاتية التي منها يفيض على السر والروح والنفس، فمن كان هذا مشربه كيف يعرف مذهبه فلا تعرفه حتى تعرف الله، وهو لا يعرف تعالىٰ من جميع وجوه المعرفة كذلك هذا لا يعرف، فإن العقل لا يدري أين هو فإن مطلبه الأكوان ولا كون لهذا كما قيل: [الكامل]

ظَهَرتْ لِمَا أبقيت بَعد فنائه فكان بالكون لأنك كنتهُ

فالحمد لله الذي جعلني من أهل الإلقاء والتلقي، فنسأله سبحانه أن يجعلنا وإياكم من أهل التداني والترقي، ثم أرجع وأقول: إن فصول حروف المعجم تزيد على أكثر من خمسمائة فصل وفي كل فصل مراتب كثيرة، فتركنا الكلام عليها حتى نستوفيه في كتاب المبادي والغايات إن شاء الله، ولنقتصر منها على ما لا بدّ من ذكره بعدما نسمي من مراتبها ما يليق بكتابنا هذا وربما نتكلم على بعضها، وبعد ذلك نأخذها حرفاً حرفاً حتى تكمل الحروف كلها إن شاء الله، ثم نتبعها بإشارات من أسرار تعانق اللام بالألف ولزومه إياه وما السبب لهذا التعشق الروحاني بينهما خاصة حتى ظهر ذلك في عالم الكتابة والرقم، فإن في ارتباط اللام بالألف سرّاً لا ينكشف إلاّ لمن أقام الألف من رقدتها وحل اللام من عقدتها، والله يرشدنا وإياكم لعمل صالح يرضاه منا. انتهى الجزء الرابع والحمد لله.

(الجزء الخامس)

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر بعض مراتب الحروف

اعلم وفقنا الله وإياكم أن الحروف أمة من الأمم مخاطبون ومكلفون، وفيهم رسل من جنسهم، ولهم أسماء من حيث هم، ولا يعرف هذا إلاّ أهل الكشف من طريقنا، وعالم الحروف أفصح العالم لساناً وأوضحه بياناً، وهم على أقسام كأقسام العالم المعروف في العرف، فمنهم عالم الجبروت عند أبي طالب المكيّ ونسميه نحن عالم العظمة وهو: الهاء والهمزة. ومنهم العالم الأعلى وهو عالم الملكوت وهو: الحاء والخاء والعين والغين. ومنهم العالم الوسط وهو عالم الجبروت عندنا وعند أكثر أصحابنا وهو: التاء والثاء والجيم والدال والذال والراء والزاي والظاء والكاف واللام والنون والصاد والضاد والقاف والسين والشين والياء الصحيحة. ومنهم العالم الأسفل وهو عالم الملك والشهادة وهو: الباء والميم والواو الصحيحة. ومنهم العالم الممتزج بين عالم الشهادة والعالم الوسط وهو: الفاء. ومنهم عالم الامتزاج بين عالم الجبروت الوسط وبين عالم الملكوت وهو: الكاف والقاف وهو امتزاج المرتبة، ويمازجهم في الصفة الروحانية الطاء والظاء والصاد والضاد. ومنهم عالم الامتزاج بين عالم الجبروت الأعظم وبين الملكوت وهو: الحاء المهملة. ومنهم العالم الذي يشبه العالم منا الذين لا يتصفون بالدخول فينا ولا بالخروج عنا وهو: الألف والياء والواو المعتلتان.

فهؤلاء عوالم ولكل عالم رسول من جنسهم، ولهم شريعة تعبدوا بها، ولهم لطائف وكثائف، وعليهم من الخطاب الأمر ليس عندهم نهي، وفيهم عامة وخاصة وخاصة الخاصة وصفاء خلاصة خاصة الخاصة، فالعامة منهم: الجيم والضاد والخاء والدال والغين والشين. ومنهم خاصة الخاصة وهو: الألف والياء والباء والسين والكاف والطاء والقاف والتاء والواو

والصاد والحاء والنون واللام والغين. ومنهم خلاصة خاصة الخاصة وهو: الباء. ومنهم الخاصة التي فوق العامة بدرجة وهو حروف أوائل السور مثل: الم والمص وهي أربعة عشر حرفاً: الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون. ومنهم حروف صفاء خلاصة خاصة الخاصة وهو: النون والميم والراء والباء والدال والزاي والألف والطاء والياء والواو والهاء والظاء والثاء واللام والفاء والسين. ومنهم العالم المرسل وهو الجيم والحاء والخاء والكاف. ومنهم العالم الذي تعلق بالله وتعلق به الخلق وهو: الألف والدال والذال والراء والزاي والواو وهو عالم التقديس من الحروف الكروبيين. ومنهم العالم الذي غلب عليه التخلق بأوصاف الحق وهو: التاء والثاء والحاء والذال والزاي والظاء المعجمة والنون والضاد المجمة والغين المعجمة والقاف والشين المعجمة والفاء عند أهل الأنوار. ومنهم العالم الذي قد غلب عليهم التحقق وهو الباء والفاء عند أهل الأسرار والجيم. ومنهم العالم الذي قد تحقق بمقام الاتحاد وهو: الألف والحاء والدال والراء والطاء اليابسة والكاف واللام والميم والصاد اليابسة والعين والسين اليابستان والهاء والواو.

إلاَّ أني أقول إنهم على مقامين في الاتحاد: عال وأعلى، فالعالي الألف والكاف والميم والعين والسين، والأعلى ما بقي. ومنهم العالم الممتزج الطبائع وهو: الجيم والهاء والياء واللام والفاء والقاف والخاء والظاء خاصة.

وأجناس عوالم الحروف أربعة: جنس مفرد وهو الألف والكاف واللام والميم والهاء والنون والواو. وجنس ثنائي مثل الدال والذال. وجنس ثلاثيّ مثل الجيم والحاء والخاء. وجنس رباعيّ وهو الباء والتاء والثاء والياء في وسط الكلمة والنون كذلك فهو خماسيّ بهذا الاعتبار، وإن لم تعتبرهما فتكون الباء والتاء والثاء من الجنس الثلاثيّ ويسقط الجنس الرباعيّ

فبهذا قد قصصنا عليك من عالم الحروف ما إن استعملت نفسك في الأمور الموصلة إلى كشف العالم والاطلاع على حقائقه وتحقق قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] فلو كان تسبيح حال كما يزعم بعض علماء النظر لم تكن فائدة في قوله «ولكن لا تفقهون» وصلت إليها ووقفت عليها وكنت قد ذكرت أنه ربما أتكلم على بعضها فنظرت في هؤلاء العالم ما يمكن فيه بسط الكلام أكثر من غيره فوجدناه العالم المختص وهو عالم أوائل السور المجهولة مثل: الم البقرة، والمص، والر يونس، وأخواتها.

فلنتكلم على ﴿الٓمٓ﴾ [سورة البقرة: الآية ١] البقرة التي هي أول سورة مبهمة في القرآن كلاماً مختصراً من طريق الأسرار، وربما ألحق بذلك الآيات التي تليها وإن كان ذلك ليس من الباب، ولكن فعلته عن أمر ربي الذي عهدته فلا أتكلم إلاَّ على طريق الإذن، كما أني سأقف عندما يحد لي، فإن تأليفنا هذا وغيره لا يجري مجرى التواليف، ولا نجري نحن فيه مجرى المؤلفين، فإن كل مؤلف إنما هو تحت اختياره وإن كان مجبوراً في اختياره، أو تحت العلم

الذي يبثه خاصة فيلقي ما يشاء ويمسك ما يشاء، أو يلقي ما يعطيه العلم وتحكم عليه المسألة التي هو بصددها حتى تبرز حقيقتها، ونحن في تواليفنا لسنا كذلك إنما هي قلوب عاكفة على باب الحضرة الإلهية مراقبة لما ينفتح له الباب فقيرة خالية من كل علم، لو سألت في ذلك المقام عن شيء ما سمعت لفقدها إحساسها، فمهما برز لها من وراء ذلك الستر أمر ما بادرت لامتثاله وألفته على حسب ما يحد لها في الأمر، فقد يلقى الشيء إلى ما ليس من جنسه في العادة والنظر الفكري، وما يعطيه العلم الظاهر والمناسبة الظاهرة للعلماء لمناسبة خفية لا يشعر بها إلاَّ أهل الكشف، بل ثم ما هو أغرب عندنا أنه يلقي إلى هذا القلب أشياء يؤمر بإيصالها وهو لا يعلمها في ذلك الوقت لحكمة إلهية غابت عن الخلق، فلهذا لا يتقيد كل شخص يؤلف عن الإلقاء بعلم ذلك الباب الذي يتكلم عليه، ولكن يدرج فيه غيره في علم السامع العاديّ على حسب ما يلقى إليه، ولكنه عندنا قطعاً من نفس ذلك الباب بعينه لكن بوجه لا يعرفه غيرنا مثل الحمامة والغراب اللذين اجتمعا لعرج قام بأرجلهما وقد أذن لي في تقييد ما ألقيه بعد هذا فلا بدّ منه.

وصل: الكلام على هذه الحروف المجهولة المختصة على عدد حروفها بالتكرار، وعلى عدد حروفها بغير تكرار، وعلى جملتها في السور، وعلى إفرادها في ص وق ون، وتثنيتها في طس وطه وأخواتها وجمعها من ثلاثة فصاعداً حتى بلغت خمسة حروف متصلة ومنفصلة ولم تبلغ أكثر، ولم وصل بعضها وقطع بعضها؟ ولمَ كانت السور بالسين ولم تكن بالصاد؟ ولمَ جهل معنى هذه الحروف عند علماء الظاهر وعند كشف أهل الأحوال، إلى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب الجمع والتفصيل في معرفة معاني التنزيل، فلنقل على بركة الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

اعلم أن مبادي السور المجهولة لا يعرف حقيقتها إلاَّ أهل الصور المعقولة، ثم جعل سور القرآن بالسين وهو التعبّد الشرعيّ وهو ظاهر السور الذي فيه العذاب وفيه يقع الجهل بها وباطنه بالصاد وهو مقام الرحمة وليس إلاَّ العلم بحقائقها وهو التوحيد، فجعلها تبارك وتعالىٰ تسعاً وعشرين سورة وهو كمال الصورة ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٩] والتاسع والعشرون القطب الذي به قوام الفلك وهو علة وجوده وهو سورة آل عمران: الم الله، ولولا ذلك ما ثبتت الثمانية والعشرون، وجملتها على تكرار الحروف ثمانية وسبعون حرفاً فالثمانية حقيقة البضع قال عليه السلام: «**الإيمانُ بِضعٌ وَسَبْعُونَ**» وهذه الحروف ثمانية وسبعون حرفاً فلا يكمل عبد أسرار الإيمان حتى يعلم حقائق هذه الحروف في سورها. فإن قلت: إن البضع مجهول في اللسان فإنه من واحد إلى تسعة فمن أين قطعت بالثمانية عليه؟ فإن شئت قلت لك من طريق الكشف وصلت إليه فهو الطريق الذي عليه أسلك، والركن الذي إليه أستند في علومي كلها، وإن شئت أبديت لك منه طرفاً من باب العدد، وإن كان أبو الحكم عبد السلام بن برجان لم يذكره في كتابه من هذا الباب الذي نذكره، وإنما ذكره رحمه الله من جهة علم الفلك وجعله ستراً على كشفه حين قطع بفتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، فكذلك إن شئنا نحن

كشفنا وإن شئنا جعلنا العدد على ذلك حجاباً فنقول: إن البضع الذي في سورة الروم ثمانية وخذ عدد حروف ﴿الٓمٓ﴾ [سورة الروم: الآية ١] بالجزم الصغير فتكون ثمانية فتجمعها إلى ثمانية البضع فتكون ستة عشر فتزيل الواحد الذي للألف للأس فيبقى خمسة عشر فتمسكها عندك ثم ترجع إلى العمل في ذلك بالجمل الكبير وهو الجزم فتضرب ثمانية البضع في أحد وسبعين واجعل ذلك كله سنين يخرج لك في الضرب خمسمائة وثمانية وستون فتضيف إليها الخمسة عشر التي أمرتك أن ترفعها فتصير ثلاثة وثمانين وخمسمائة سنة وهو زمان فتح بيت المقدس على قراءة من قرأ «غَلَبت الرُّومُ» [سورة الروم: الآية ٢] بفتح الغين واللام «سيُغْلَبون» [سورة الروم: الآية ٣] بضم الياء وفتح اللام. وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كان ظهور المسلمين في أخذ حج الكفار وهو فتح بيت المقدس، ولنا في علم العدد من طريق الكشف أسرار عجيبة من طريق ما يقتضيه طبعه، ومن طريق ماله من الحقائق الإلهية وإن طال بنا العمر، فسأفرد لمعرفة العدد كتاباً إن شاء الله.

فلنرجع إلى ما كنا بسبيله فنقول: فلا يكمل عبد الأسرار التي تتضمنها شعب الإيمان إلاَّ إذا علم حقائق هذه الحروف على حسب تكرارها في السور، كما أنه إذا علمها من غير تكرار علم تنبيه الله فيها على حقيقة الإيجاد، وتفرّد القديم سبحانه بصفاته الأزلية فأرسلها في قرآنه أربعة عشر حرفاً مفردة مبهمة، فجعل الثمانية لمعرفة الذات والسبع الصفات منا، وجعل الأربعة للطبائع المؤلفة التي هي الدم والسوداء والصفراء والبلغم فجاءت اثنتي عشرة موجودة وهذا هو الإنسان من هذا الفلك، ومن فلك آخر يتركب من أحد عشر ومن عشرة ومن تسعة ومن ثمانية حتى إلى فلك الاثنين ولا يتحلل إلى الأحدية أبداً فإنها مما انفرد بها الحق فلا تكون لموجود الإله.

ثم إنه سبحانه جعل أولها الألف في الخط والهمزة في اللفظ وآخرها النون، فالألف لوجود الذات على كمالها لأنها غير مفتقرة إلى حركة والنون لوجود الشطر من العالم وهو عالم التركيب وذلك نصف الدائرة الظاهرة لنا من الفلك، والنصف الآخر النون المعقولة عليها التي لو ظهرت للحس وانتقلت من عالم الروح لكانت دائرة محيطة، ولكن أخفى هذه النون الروحانية الذي بها كمال الوجود وجعلت نقطة النون المحسوسة دالة عليها، فالألف كاملة من جميع وجوهها والنون ناقصة، فالشمس كاملة والقمر ناقص لأنه محو فصفة ضوئه معارة وهي الأمانة التي حملها، وعلى قدر محوه وسراره إثباته وظهوره ثلاثة لثلاثة، فثلاثة غروب القمر القلبي الإلهيّ في الحضرة الأحدية، وثلاثة طلوع قمر القلب الإلهيّ في الحضرة الربانية وما بينهما في الخروج والرجوع قدماً بقدم لا يختل أبداً.

ثم جعل سبحانه هذه الحروف على مراتب: منها موصول، ومنها مقطوع، ومنها مفرد ومثنى ومجموع. ثم نبّه أن في كل وصل قطعاً وليس في كل قطع وصل، فكل وصل يدل على فصل وليس كل فصل يدل على وصل، فالوصل والفصل في الجمع وغير الجمع والفصل وحده في عين الفرق، فما أفرده من هذه فإشارة إلى فناء رسم العبد أزلاً، وما ثناه فإشارة إلى وجود رسم العبودية حالاً، وما جمعه فإشارة إلى الأبد بالموارد التي لا تتناهى فالإفراد للبحر الأزليّ، والجمع للبحر الأبديّ، والمثنى للبرزخ المحمديّ الإنسانيّ ﴿مَرَجَ

ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآيات ١٩ ـ ٢١] هل بالبحر الذي أوصله به فأفناه عن الأعيان، أو بالبحر الذي فصله عنه وسماه بالأكوان، أو بالبرزخ الذي استوى عليه الرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يخرج من بحر الأزل اللؤلؤ ومن بحر الأبد المرجان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وله الجواري الروحانية المنشآت من الحقائق الأسمائية في البحر الذاتي الأقدسي كالأعلام ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يسأله العالم العلويّ على علوّه وقدسه، والعالم السفليّ على نزوله وتحسه، كل خطرة في شأن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ كل من عليها فان، وإن لم تنعدم الأعيان، ولكنها رحلة من دنا إلى دان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ سنفرغ منكم إليكم أيها الثقلان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

فهكذا لو اعتبر القرآن ما اختلف اثنان ولا ظهر خصمان، ولا تناطح عنزان، فدبروا آياتكم، ولا تخرجوا عن ذاتكم، فإن كان ولا بدّ فإلى صفاتكم، فإنه إذا سلم العالم من نظركم وتدبيركم، كان على الحقيقة تحت تسخيركم، ولهذا خلق قال تعالىٰ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [سورة الجاثية: الآية ١٣] والله يرشدنا وإياكم إلى ما فيه صلاحنا وسعادتنا في الدنيا والآخرة إنه وليّ كريم.

وصل: الألف من ﴿الٓمٓ﴾ [سورة الروم: الآية ١] إشارة إلى التوحيد، والميم للملك الذي لا يهلك، واللام بينهما واسطة لتكون رابطة بينهما، فانظر إلى السطر الذي يقع عليه الخط من اللام فتجد الألف إليه ينتهي أصلها وتجد الميم منه يبتدىء نشوها، ثم ننزل من أحسن تقويم وهو السطر إلى أسفل سافلين، منتهى تعريق الميم، قال تعالىٰ: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [سورة التين: ٤ ـ ٥] ونزول الألف إلى السطر مثل قوله: ينزل ربنا إلى السماء الدنيا وهو أول عالم التركيب لأنه سماء آدم عليه السلام، ويليه فلك النار فلذلك نزل إلى أول السطر، فإنه نزل من مقام الأحدية إلى مقام إيجاد الخليقة نزول تقديس وتنزيه لا نزول تمثيل وتشبيه، وكانت اللام واسطة وهي نائبة مناب المكوّن والكون، فهي القدرة التي عنها وجد العالم فأشبهت الألف في النزول إلى أول السطر، ولما كانت ممتزجة من المكوّن والكون فإنه لا يتصف بالقدرة على نفسه وإنما هو قادر على خلقه، فكان وجه القدرة مصروفاً إلى الخلق، ولهذا لا يثبت للخالق إلاّ بالخلق، فلا بدّ من تعلقها بهم علواً وسفلاً، ولما كانت حقيقتها لا تتم بالوصول إلى السطر فتكون والألف على مرتبة واحدة طلبت بحقيقتها النزول تحت السطر أو على السطر كما نزل الميم فنزلت إلى إيجاد الميم، ولم يتمكن أن تنزل على صورة الميم فكان لا يوجد عنها أبداً إلاّ الميم، فنزلت نصف دائرة حتى بلغت إلى السطر من غير الجهة التي نزلت منها فصارت نصف فلك محسوس يطلب نصف فلك معقول فكان منهما فلك دائر، فتكوّن العالم كله من أوله إلى آخره في ستة أيام أجناساً من أول يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة، وبقي يوم السبت للانتقالات من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام، والاستحالات من كون إلى كون ثابت على ذلك لا يزول ولا يتغير، ولذلك كان الوالي على هذا اليوم البرد واليبس وهو من الكواكب زحل فصار ﴿الٓمٓ﴾ وحده فلكاً محيطاً من دار به علم الذات والصفات والأفعال والمفعولات.

فمن قرأ ﴿الٓمٓ﴾ بهذه الحقيقة والكشف حضر بالكل للكل مع الكل، فلا يبقى شيء في ذلك الوقت إلاَّ يشهده، لكن منه ما يعلم ومنه ما لا يعلم، فتنزّه الألف عن قيام الحركات بها يدل أن الصفات لا تعقل إلاَّ بالأفعال كما قال عليه السلام: «**كَانَ اللهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ وَهُوَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ**» فلهذا صرفنا الأمر إلى ما يعقل لا إلى ذاته المنزّهة، فإن الإضافة لا تعقل أبداً إلاَّ بالمتضايفين، فإن الأبوّة لا تعقل إلاَّ بالأب والابن وجوداً وتقديراً، وكذلك المالك والخالق والباريء والمصوّر وجميع الأسماء التي تطلب العالم بحقائقها.

وموضع التنبيه من حروف ﴿الٓمٓ﴾ عليها في اتصال اللام الذي هو الصفة بالميم الذي هو أثرها وفعلها، فالألف ذات واحدة لا يصحّ فيها اتصال شيء من الحروف إذا وقعت أولاً في الخط فهي الصراط المستقيم الذي سألته النفس في قولها: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٦] صراط التنزيه والتوحيد، فلما أمّن على دعائها ربها الذي هو الكلمة الذي أمرت بالرجوع إليه في سورة الفجر قبل تعالىٰ تأمينه على دعائها فأظهر الألف من ﴿الٓمٓ﴾ عقيب ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٧] وأخفى آمين لأنه غيب من عالم الملكوت من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الغيب المتحقق الذي يسمونه العامة من الفقهاء الإخلاص، وتسميه الصوفية الحضور، ويسميه المحققون الهمة، ونسميه أنا وأمثالنا العناية.

ولما كانت الألف متحدة في عالم الملكوت والشهادة ظهرت فوقع الفرق بين القديم والمحدث فانظر فيما سطرناه ترى عجباً، وممّا يؤيد ما ذكرناه من وجود الصفة المد الموجود في اللام والميم دون الألف، فإن قال صوفيّ وجدنا الألف مخطوطة والنطق بالهمزة دون الألف فلم لا ينطق بالألف؟ فنقول: وهذا أيضاً مما يعضد ما قلناه فإن الألف لا تقبل الحركة فإن الحرف مجهول ما لم يحرّك فإذا حرّك ميّز بالحركة التي تتعلق به من رفع ونصب وخفض، والذات لا تعلم أبداً علىٰ ما هي عليه، فالألف الدال عليها الذي هو في عالم الحروف خليفة كالإنسان في العالم مجهول أيضاً كالذات لا تقبل الحركة فلما لم تقبلها لم يبق إلاَّ أن تعرف من جهة سلب الأوصاف عنها، ولما لم يمكن النطق بساكن نطقنا باسم الألف لا بالألف فنطقنا بالهمزة بحركة الفتحة فقامت الهمزة مقام المبدع الأول وحركتها صفته العلمية ومحل إيجاده في اتصال الكاف بالنون.

فإن قيل: وجدنا الألف التي في اللام منطوقاً بها ولم نجدها في الألف، قلنا: صدقت لا يقع النطق بها إلاَّ بمتحرك مشبع التحرّك قبلها موصولة به، وإنما كلامنا في الألف المقطوعة التي لا يشبع الحرف الذي قبلها حركته فلا يظهر في النطق، وإن رقمت مثل ألف ﴿إنما المؤمنون﴾ فهذان ألفان بين ميم إنما وبين لام المؤمنين موجودتان خطاً غير ملفوظ بهما نطقاً، وإنما الألف الموصولة التي تقع بعد الحرف مثل لام هاء حاء وشبهها فإنه لولا وجودها ما كان المد لواحد من هذه الحروف، فمدّها هو سرّ الاستمداد الذي وقع به إيجاد الصفات في محل الحروف ولهذا لا يكون المد إلاَّ بالوصل، فإذا وصل الحرف بالألف من اسمه الآخر امتدّ الألف بوجود الحرف الموصول به، ولما وجد الحرف الموصول به افتقر إلى

الصفة الرحمانية فأعطي حركة الفتح التي هي الفتحة، فلما أعطيها طلب منه الشكر عليها فقال: وكيف يكون الشكر عليها؟ فقيل له: أن تعلم السامعين بأن وجودك ووجود صفتك لم يكن بنفسك وإنما كان من ذات القديم تعالىٰ فاذكره عند ذكرك نفسك فقد جعلك بصفة الرحمة خاصة دليلاً عليه ولهذا قال: إن الله خلق آدم على صورة الرحمن فنطقت بالثناء على موجدها فقالت: لام ياء هاء حاء طاء فأظهرت نطقاً ما خفي خطاً لأن الألف التي في طه وحم وطس موجودة نطقاً خفيت خطاً لدلالة الصفة عليها وهي الفتحة صفة افتتاح الوجود.

فإن قال: وكذلك نجد المد في الواو المضموم ما قبلها والياء المكسور ما قبلها فهي أيضاً ثلاث ذوات فكيف يكون هذا وما ثم إلاّ ذات واحدة؟ فنقول نعم أما المد الموجود في الواو المضموم ما قبلها في مثل ﴿ن والقلم﴾ والياء المكسور ما قبلها مثل الياء من ﴿طس﴾ وياء الميم من ﴿حم﴾ فمن حيث أنّ الله تعالىٰ جعلهما حرفي علة وكل علة تستدعي معلولها بحقيقتها، وإذا استدعت ذلك فلا بدّ من سرّ بينهما يقع به الاستمداد والإمداد فلهذا أعطيت المد، وذلك لما أودع الرسول الملكيّ الوحي لو لم يكن بينه وبين الملقى إليه نسبة مّا ما قبل شيئاً لكنه خفي عنه ذلك، فلما حصل له الوحي ومقامه الواو لأنه روحانيّ علويّ والرفع يعطي العلو وهو باب الواو المعتلة فعبرنا عنه بالرسول الملكيّ الروحاني جبريل كان أو غيره من الملائكة، ولما أودع الرسول البشري ما أودع من أسرار التوحيد والشرائع أعطي من الاستمداد والإمداد الذي يمدّ به عالم التركيب وخفي عنه سر الاستمداد ولذلك قال: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم وقال: إنما أنا بشر مثلكم. ولما كان موجوداً في العالم السفليّ عالم الجسم والتركيب أعطيناه الياء المكسور ما قبلها المعتلة وهي من حروف الخفض، فلما كانا علتين لوجود الأسرار الإلهية من توحيد وشرع وهبا سر الاستمداد فلذلك مدتا.

وأما الفرق الذي بينهما وبين الألف فإن الواو والياء قد يسلبان عن هذا المقام فيحركان بجميع الحركات كقوله: ﴿وَوَجَدَكَ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ٧] و﴿وَتُئْوِيٓ﴾ [الأحزاب: ٥١] و﴿لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٢] ﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾ [الأنعام: ٢٦] ﴿يُغْنِيهِ﴾ [سورة عبس: الآية ٣٧] ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٠] وقد يسكنان بالسكون الحي كقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ١٧] ﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٢٦] وشبههما، والألف لا تحرّك أبداً ولا يوجد ما قبلها أبداً إلاّ مفتوحاً، فإذن فلا نسبة بين الألف وبين الواو والياء، فمهما حرّكت الواو والياء فإن ذلك مقامها ومن صفاتها، ومهما ألحقتا بالألف في العلية فذلك ليس من ذاتها، وإنما ذلك من جانب القديم سبحانه لا يحتمل الحركة ولا يقبلها، ولكن ذلك من صفة المقام وحقيقته الذي نزلت به الواو والياء، فمدلول الألف قديم والواو والياء محركتان كانتا أو لا محركتان فهما حادثان، فإذا ثبت هذا فكل ألف أو واو أو ياء ارتقمت أو حصل النطق بها فإنما هي دليل، وكل دليل محدث يستدعي محدثاً، والمحدث لا يحصره الرقم ولا النطق إنما هو غيب ظاهر، وكذلك يس ون فنجده نطقاً وهو ظهوره ولا نجده رقماً وهو غيبه، وهذا سبب حصول العلم بوجود الخالق لا بذاته، وبوجود ليس كمثله شيء لا بذاته. واعلم أيها المتلقي أن كل

ما دخل تحت الحصر فهو مبدع أو مخلوق وهو محلك، فلا تطلب الحق لا من داخل ولا من خارج، إذ الدخول والخروج من صفات الحدوث، فانظر الكل في الكل تجد الكل، فالعرش مجموع والكرسيّ مفروق: [البسيط]

يا طالباً لوجودِ الحقّ يدركه ارجعْ لذاتك فيك الحقُّ فالْتزِمِ

﴿ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ [الحديد: ١٣] فلو لم يرجعوا لوجدوا النور، فلما رجعوا باعتقاد القطع ضرب بينهم بالسور، وإلاَّ لو عرفوا من ناداهم بقوله ارجعوا وراءكم لقالوا أنت مطلوبنا ولم يرجعوا، فكان رجوعهم سبب ضرب السور بينهم فبدت جهنم فكبكبوا فيها هم والغاوون، وبقي الموحدون، يمدون أهل الجنان بالولدان والحور الحسان من حضرة العيان، فالوزير محل صفات الأمير، والصفة التي انفرد بها الأمير وحده هي سرّ التدبير الذي خرجت عنه الصفات، فعلم ما يصدر له من صفته وفعله جملة ولم يعلم ذلك الوزير إلاَّ تفصيلاً وهذا هو الفرق فتأمل ما قلناه تجد الحق إن شاء الله، فإذا تبين هذا وتقرر أن الألف هي ذات الكلمة واللام ذات عين الصفة والميم عين الفعل وسرهم الخفي هو الموجد إياهم.

وصل: فنقول: فقوله «ذلك الكتاب» بعد قوله: «الٓمٓ» إشارة إلى موجود بيد أن فيه بعداً، وسبب البعد لما أشار إلى الكتاب وهو المفروق محل التفصيل، وأدخل حرف اللام في ذلك وهي تؤذن بالبعد في هذا المقام، والإشارة نداء على رأس البعد عند أهل الله، ولأنها أعني اللام من العالم الوسط فهي محل الصفة إذ بالصفة يتميز المحدث من القديم، وخصّ خطاب المفرد بالكاف مفردة لئلا يقع الاشتراك بين المبدعات، وقد أشبعنا القول في هذا الفصل عندما تكلمنا على قوله تعالىٰ ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [سورة طٰه: الآية ١٢] من كتاب الجمع والتفصيل أي اخلع اللام والميم تبق الألف المنزّهة عن الصفات، ثم حال بين الذال الذي هو الكتاب محل الفرق الثاني، وبين اللام التي هي الصفة محل الفرق الأول التي بها يقرأ الكتاب بالألف التي هي محل الجمع لئلا يتوهم الفرق الخطاب من فرق آخر فلا يبلغ إلى حقيقة أبداً، ففصل بالألف بينهما فصار حجاباً بين الذال واللام، فأرادت الذال الوصول إلى اللام فقام لها الألف فقال بي تصل، وأرادت اللام ملاقاة الذال لتؤدّي إليها أمانتها فتعرّض لها أيضاً الألف فقال لها بي تلقاه، فمهما نظرت الوجود جمعاً وتفصيلاً وجدت التوحيد يصحبه لا يفارقه البتة صحبة الواحد الأعداد، فإن الاثنين لا توجد أبداً ما لم تضف إلى الواحد مثله وهو الاثنين، ولا تصحّ الثلاثة ما لم تزد واحداً على الاثنين وهكذا إلى ما لا يتناهى، فالواحد ليس العدد وهو عين العدد أي به ظهر العدد، فالعدد كله واحد لو نقص من الألف واحد انعدم اسم الألف وحقيقته، وبقيت حقيقة أخرى وهي تسعمائة وتسعة وتسعون لو نقص منها واحد لذهب عينها، فمتى انعدم الواحد من شيء عدم، ومتى ثبت وجد ذلك الشيء هكذا التوحيد إن حققته وهو معكم أينما كنتم فقال ذا وهو حرف مبهم فبين ذلك المبهم بقوله الكتاب وهو حقيقة ذا، وساق الكتاب بحرفي التعريف والعهد وهما الألف واللام من آلمٓ غير أنهما هنا من غير الوجه الذي كانتا عليه في آلمٓ فإنهما هناك في محل الجمع وهما هنا في أول باب من

أبواب التفصيل، ولكن من تفصيل سرائر هذه السورة خاصة لا في غيرها من السور، هكذا ترتيب الحقائق في الوجود، فذلك الكتاب هو الكتاب المرقوم لأنّ أمّهات الكتب ثلاثة: الكتاب المسطور، والكتاب المرقوم، والكتاب المجهول، وقد شرحنا معنى الكتاب والكاتب في كتاب التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية في الباب التاسع منه فانظره هناك.

فنقول: إن الذوات وإن اتحد معناها فلا بدّ من معنى به يفرق بين الذاتين يسمى الوصف، فالكتاب المرقوم موصوف بالرقم، والكتاب المسطور موصوف بالتسطير، وهذا الكتاب المجهول الذي سلب عنه الصفة لا يخلو من أحد وجهين: إما أن يكون صفة ولذلك لا يوصف، وإما أن يكون ذاتاً غير موصوفة والكشف يعطي أنه صفة تسمى العلم وقلوب كلمات الحق محله، ألا تراه يقول: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [سورة السجدة: الآية ١و٢] قل أنزله بعلمه. فخاطب الكاف من ذلك بصفة العلم الذي هو اللام المخفوضة بالنزول لأنه يتنزّه عن أن تدرك ذاته، فقال للكاف التي هي الكلمة الإلهية ذلك الكتاب المنزل عليك هو علمي لا علمك لا ريب فيه عند أهل الحقائق، أنزله في معرض الهداية لمن اتقاني وأنت المنزّل فأنت محله، ولا بدّ لكل كتاب من أم وأمه ذلك الكتاب المجهول لا تعرفه أبداً لأنه ليس بصفة لك ولا لأحد ولا ذات، وإن شئت أن تحقق هذا فانظر إلى كيفية حصول العلم في العالم، أو حصول صورة المرئيّ في الرائي فليست وليس غيرها، فانظر إلى درجات حروف لا ريب فيه هدى للمتقين، ومنازلها على حسب ما تذكره بعد الكلام الذي نحن بصدده، وتدبر ما بثثته لك وحلّ عقدة لام الألف من لا ريب تصير ألفان لأن تعريقة اللام ظهرت صورتها في نون المتقين، وذلك لتأخّر الألف عن اللام من اسمه الآخر وهي المعرفة التي تحصل للعبد من نفسه في قوله عليه السلام: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» فقدم معرفة اللام على معرفة الألف فصارت دليلاً عليه ولم يمتزجا حتى يصيرا ذاتاً واحدة، بل بأن كل واحد منهما بذاته ولهذا لا يجتمع الدليل والمدلول، ولكن وجه الدليل هو الرابط وهو موضع اتصال اللام بالألف فاضرب الألفين اا أحدهما في الآخر تصحّ لك في الخارج ألف واحدة أو هذا حقيقة الاتصال، كذلك اضرب المحدث في القديم حسّاً يصحّ في الخارج المحدث ويخفى القديم بخروجه وهذا حقيقة الاتصال والاتحاد ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] وهذا نقيض إشارة الجنيد في قوله للعاطس: إن المحدث إذا قورن بالقديم لم يبق له أثر لاختلاف المقام، ألا ترى كيف اتصل لام الألف من لا ريب فيه من الكرسي فبدت ذاتان لآ جهل سر العقد بينهما ثم فصلهما العرش عند الرجوع إليه والوصول فصارت على هذا الشكل آل فظهرت اللام بحقيقتها لأنه لم يقم بها مقام الاتصال والاتحاد من يردّها على صورته، فأخرجنا نصف الدائرة من اللام التي خفيت في لام الألف إلى عالم التركيب والحس فبقيت ألفان اا في الفرق فضربنا الواحد في الواحد وهو ضرب الشيء في نفسه فصار واحداً آ فلبس الواحد الآخر فكان الواحد رداء وهو الذي ظهر وهو الخليفة المبدع بفتح الدال، وكان الآخر مرتدياً وهو الذي خفي وهو القديم المبدع فلا يعرف المرتدي إلاّ باطن

الرداء وهو الجمع ويصير الرداء على شكل المرتدي، فإن قلت واحد صدقت، وإن قلت ذاتان صدقت عيناً وكشفاً ولله درّ من قال: [الكامل]

رقَّ الزجاجُ ورقَّتِ الخمرُ فتشاكلا فتشابَهَ الأمرُ
فكأنما خمَرٌ ولا قَدَحٌ وكأنما قدحٌ ولا خَمْرُ

وأما ظاهر الرداء فلا يعرف المرتدي أبداً وإنما يعرف باطن ذاته وهو حجابه، فكذلك لا يعلم الحق إلاّ العلم، كما لا يحمده على الحقيقة إلاّ الحمد، وأما أنت فتعلمه بوساطة العلم وهو حجابك فإنك ما تشاهد إلاّ العلم القائم بك وإن كان مطابقاً للمعلوم، وعلمك قائم بك وهو مشهودك ومعبودك، فإياك أن تقول إن جريت على أسلوب الحقائق أنك علمت المعلوم، وإنما علمت العلم والعلم هو العالم بالمعلوم، وبين العلم والمعلوم بحور لا يدرك قعرها، فإن سر التعلّق بينهما مع تباين الحقائق بحر عسير مركبه بل لا تركبه العبارة أصلاً ولا الإشارة، ولكن يدركه الكشف من خلف حجب كثيرة دقيقة لا يحسّ بها أنها على عين بصيرته لرقتها وهي عسيرة المدرك فأحرى من خلقها، فانظر أين هو من يقول إني علمت الشيء من ذلك الشيء محدثاً كان أو قديماً بل ذلك في المحدث، وأما القديم فأبعد وأبعد إذ لا مثل له، فمن أين يتوصل إلى العلم به؟ أو كيف يحصل؟ وسيأتي الكلام على هذه المسألة السنية في الفصل الثالث من هذا الباب، فلا يعرف ظاهر الرداء المرتدي إلاّ من حيث الوجود بشرط أن يكون في مقام الاستسقاء، ثم يزول ويرجع لأنها معرفة علة لا معرفة جذب، وهذه رؤية أصحاب الجنة في الآخرة وهو تجل في وقت دون وقت، وسيأتي الكلام عليه في باب الجنة من هذا الكتاب وهذا هو مقام التفرقة.

وأمّا أهل الحقائق باطن الرداء فلا يزالون مشاهدين أبداً، ومع كونهم مشاهدين فظاهرهم في كرسي الصفات ينعم بموادّ بشرة الباطن نعيم اتصال، وانظر إلى حكمته في كون «ذلك» مبتدأ ولم يكن فاعلاً ولا مفعولاً لما لم يسم فاعله لأنه لا يصحّ أن يكون فاعلاً لقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢] فلو كان فاعلاً لوقع الريب لأن الفاعل إنما هو منزله لا هو، فكيف ينسب إليه ما ليس بصفته؟ لأن مقام الذال أيضاً يمنع ذلك فإنه من الحقائق التي كانت ولا شيء معها، ولهذا لا يتصل بالحروف إذا تقدّم عليها كالألف وأخواته الدال والراء والزاي والواو، ولا يقول فيه أيضاً مفعول لم يسم فاعله لأنه من ضرورته أن يتقدّمه كلمة على بنية مخصوصة محلها النحو والكتاب هنا نفس الفعل والفعل لا يقال فيه فاعل ولا مفعول وهو مرفوع، فلم يبق إلاّ أن يكون مبتدأ، ومعنى مبتدأ لم يعرف غيره من أول وهلة ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] فإن قيل: من ضرورة كل مبتدأ أن يعمل فيه ابتداء، قلنا نعم عمل فيه أمّ الكتاب فهي الابتداء العاملة في الكتاب والعامل في الكل حقاً وخلقاً الله الرب، ولهذا نبّه الله تبارك وتعالىٰ بقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٤] فشرّك ثم قال إليّ المصير فوحّد، فالشكر من مقام التفرقة، فكذلك ينبغي لك أن تشكر الرداء لما كان سبباً موصلاً إلى المرتدي والمصير من الرداء ومنك إلى المرتدي كل على شاكلته يصل فتفهم ما قلناه وفرّق بين مقام الذال والألف، وإن اشتركا في مقام الوحدانية المقدسة قبلية حالاً ومقاماً وبعدية مقاماً لا حالاً.

تنبيه: قال «ذلك» ولم يقل «تلك آيات الكتاب»، فالكتاب للجمع والآيات للتفرقة، وذلك مذكر مفرد وتلك مفرد مؤنث، فأشار تعالىٰ بذلك الكتاب أوّلاً لوجود الجمع أصلاً قبل الفرق، ثم أوجد الفرق في الآيات كما جمع العدد كله في الواحد كما قدّمناه، فإذا أسقطناه انعدمت حقيقة ذلك العدد وما بقي للألف أثر في الوجود، وإذا أبرزناه برزت الألف في الوجود، فانظر إلى هذه القوّة العجيبة التي أعطتها حقيقة الواحد الذي منه ظهرت هذه الكثرة إلى ما لا يتناهى وهو فرد في نفسه ذاتاً واسماً، ثم أوجد الفرق في الآيات قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [سورة الدخان: الآية ٣] ثم قال: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤] فبدأ بالجمع الذي هو كل شيء قال تعالىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٥] في الألواح مقام الفرق، من كل شيء إشارة إلى الجمع ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٥] ردّ إلى الفرق لكل شيء ردّ إلى الجمع، فكل موجود أيّ موجود كان عموماً لا يخلو أن يكون إما في عين الجمع أو في عين الفرق لا غير، ولا سبيل أن يعرى عن هاتين الحقيقتين موجود ولا يجمعها أبداً، فالحق والإنسان في عين الجمع والعالم في عين التفرقة لا يجتمع، كما لا يفترق الحق أبداً كما لا يفترق الإنسان، فالله سبحانه لم يزل في أزله بذاته وصفاته وأسمائه لم يتجدّد عليه حال ولا ثبت له وصف من خلق العالم لم يكن قبل ذلك عليه، بل هو الآن على ما كان عليه قبل وجود الكون كما وصفه ﷺ حين قال: «**كَانَ اللهُ وَلاَ شَيْءَ مَعهُ**» وزيد في قوله: وهو الآن على ما عليه كان، فاندرج في الحديث ما لم يقله ﷺ، ومقصودهم أي الصفة التي وجبت له قبل وجود العالم هو عليها والعالم موجود، وهكذا هي الحقائق عند من أراد أن يقف عليها، فالتذكير في الأصل وهو آدم قوله ذلك، والتأنيث في الفرع وهو حوّاء قوله تلك، وقد أشبعنا القول في هذا الفصل في كتاب الجمع والتفصيل الذي صنفناه في معرفة أسرار التنزيل، فآدم لجميع الصفات وحوّاء لتفريق الذوات، إذ هي محل الفعل والبذر، وكذلك الآيات محل الأحكام والقضايا، وقد جمع الله تعالىٰ معنى ذلك وتلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [سورة ص: الآية ٢٠] فحروف ﴿الٓمٓ﴾ رقماً ثلاثة وهو جماع عالمها، فإن فيها الهمزة وهي من العالم الأعلى، واللام وهي من العالم الوسط، والميم وهي من العالم الأسفل، فقد جمع الم البرزخ والدارين والرابط والحقيقتين وهي على النصف من حروف لفظه من غير تكرار وعلى الثلاث بغير تكرار، وكل واحد منهما ثلث كل ثلاث، وهذه كلها أسرار تتبعناها في كتاب المبادي والغايات، وفي كتاب الجمع والتفصيل، فليكف هذا القدر من الكلام على الم البقرة في هذا الباب بعدما رغبنا في ترك تقييد ما تجلى لنا في الكتاب والكاتب، فلقد تجلّت لنا فيه أمور جسام مهولة رمينا الكراسة من أيدينا عند تجلّيها وفررنا إلى العالم حتى خفّ عنا ذلك، وحينئذ رجعنا إلى التقييد في اليوم الثاني من ذلك التجلّي وقبلت الرغبة فيه وأمسك علينا ورجعنا إلى الكلام على الحروف حرفاً حرفاً كما شرطناه أولاً في هذا الباب رغبة في الإيجاز والاختصار، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الخامس والحمد لله رب العالمين.

(الجزء السادس)

بسم الله الرحمن الرحيم

فمن ذلك حرف الألف: [الرمل]

أَلِفَ الذاتِ تنزَّهتَ فهل لكَ في الأكوان عينٌ ومحلّ
قَال لا غير التفاتي فأنا حرفُ تأبيدٍ تضمَّنتُ الأزَلْ
فأنا العبدُ الضعيفُ المجتبى وأنا من عِزِّ سلطاني وجِلْ

الألف ليس من الحروف عند من شمّ رائحة من الحقائق ولكن قد سمته العامة حرفاً، فإذا قال المحقق إنه حرف فإنما يقول ذلك على سبيل التجوّز في العبارة، ومقام الألف مقام الجمع له من الأسماء اسم الله، وله من الصفات القيومية، وله من أسماء الأفعال: المبدىء والباعث والواسع والحافظ والخالق والبارىء والمصوّر والوهاب والرزاق والفتاح والباسط والمعزّ والمعيد والرافع والمحيي والوالي والجامع والمغني والنافع. وله من أسماء الذات: الله والرب والظاهر والواحد والأول والآخر والصمد والغنيّ والرقيب والمتين والحق. وله من الحروف اللفظية: الهمزة واللام والفاء. وله من البسائط: الزاي والميم والهاء والفاء واللام والهمزة. وله من المراتب كلها. وظهوره في المرتبة السادسة وظاهر سلطانه في النبات. وأخوته في هذه المرتبة: الهاء واللام. وله مجموع عالم الحروف ومراتبها ليس فيها ولا خارجاً عنها نقطة الدائرة ومحيطها ومركب العوالم وبسيطها.

ومن ذلك حرف الهمزة: [الرمل]

همزةٌ تقطع وقتاً وتصِلْ كُلَّ ما جاورها من منفَصِلْ
فهي الدهرُ عظيمٌ قدْرُها جلَّ أن يحصره ضَرْبُ المَثَلْ

الهمزة من الحروف التي من عالم الشهادة والملكوت لها من المخارج أقصى الحلق ليس لها مرتبة في العدد، لها من البسائط: الفاء والميم والزاي والألف والياء. لها من العالم الملكوت. ولها الفلك الرابع ودورة فلكها تسع آلاف سنة. ولها من المراتب الرابعة والسادسة والسابعة، وظهور سلطانها في الجنّ والنبات والجماد، ولها من الحروف الهاء والميم والزاي والهاء في الوقف والتاء بالنطقين من فوق في الوصل والتنوين في القطع. لها من الأسماء ما للألف والواو والياء فأغنى عن التكرار، وتختص من أسماء الصفات بالقهار والقاهر والمقتدر والقويّ والقادر، وطبعها الحرارة واليبوسة وعنصرها النار، واختلفوا هل هي حرف أو نصف حرف في الحروف الرقمية، وأمّا في التلفّظ بها فلا خلاف أنها حرف عند الجميع.

ومن ذلك حرف الهاء: [الكامل]

هاءُ الهويةِ كم تشيرُ لكل ذي إنِّيَّةٍ خَفِيتْ له في الظاهرِ
هلاّ محقْتَ وجودَ رسمِك عندما تبدو لأوله عيونُ الآخرِ

اعلم أن الهاء من حروف الغيب لها من المخارج أقصى الحلق، ولها من العدد الخمسة، ولها من البسائط الألف والهمزة واللام والهاء والميم والزاي، ولها من العالم الملكوت، ولها الفلك الرابع، وزمان حركة فلكها تسع آلاف سنة، ولها من الطبقات الخاصة وخاصة الخاصة، ولها من المراتب السادسة، وظهور سلطانها في النبات، ويوجد منه بآخرها ما كان حاراً رطباً وتحيله بعد ذلك إلى البرودة واليبوسة، ولها من الحركات المستقيمة والمعوجة وهي من حروف الأعراق ولها الامتزاج وهي من الكوامل وهي من عالم الانفراد، وطبعها البرودة واليبس والحرارة والرطوبة مثل عطارد، وعنصرها الأعظم التراب، وعنصرها الأقل الهواء، ولها من الحروف: الألف والهمزة، ولها من الأسماء الذاتية: الله والأول والآخر والماجد والمؤمن والمهيمن والمتكبر والمتين والأحد والملك، ولها من أسماء الصفات: المقتدر والمحصي، ولها من أسماء الأفعال: اللطيف والفتاح والمبدىء والمجيب والمقيت والمصوّر والمذل والمعزّ والمعيد والمحيي والمميت والمنتقم والمقسط والمغني والمانع، ولها غاية الطريق.

ومن ذلك حرف العين المهملة: [الكامل]

عينُ العيونِ حقيقةُ الإيجادِ   فانظرْ إليه بمنزلِ الإشْهادِ
تُبصِرُهُ ينظر نحوَ موجِدِ ذاته   نظرَ السقيمِ محاسنَ العُوَّادِ
لا يلتفِتْ أبداً لغير إلههِ   يرجو ويحذر شيمةَ العُبَّادِ

اعلم أن العين من عالم الشهادة والملكوت، وله من المخارج وسط الحلق، وله من عدد الجمل عقد السبعين، وله من البسائط: الياء والنون والألف والهمزة والواو، وله الفلك الثاني وزمان حركة فلكه إحدى عشرة ألف سنة، وله من طبقات العالم الخاصة وخاصة الخاصة، وله من المراتب الخامسة، وظهور سلطانه في البهائم، ويوجد عنه كل حارّ رطب، وله من الحركات الأفقية وهي المعوجة وهو من حروف الأعراف، وهو من الحروف الخالصة وهو كامل، وهو من عالم الإنس الثنائيّ، وطبعه الحرارة والرطوبة، وله من الحروف: الياء والنون، وله من الأسماء الذاتية: الغنيّ والأول والآخر، وله من أسماء الصفات: القويّ والمحصي والحي، ومن أسماء الأفعال: النصير والنافع والواسع والوهاب والوالي.

ومن ذلك حرف الحاء المهملة: [البسيط]

حاءُ الحواميم سرُّ الله في السُّوَرِ   أخفى حقيقَتَه عن رؤيةِ البشَرِ
فإن ترحَّلْتَ عن كونٍ وعن شبَحٍ   فارحلْ إلى عالَم الأرواحِ والصُّوَرِ
وانظرْ إلى حاملاتِ العرشِ قد نظَرَتْ   إلى حقائقها جاءَتْ على قَدَرِ
تَجِدْ لحائك سلطاناً وعِزَّتُه   أن لا يُدانَى ولا يخشى من الغِيَرِ

اعلم أيها الولي أن الحاء من عالم الغيب، وله من المخارج وسط الحلق، وله من العدد الثمانية، وله من البسائط: الألف والهمزة واللام والهاء والفاء والميم والزاي، وله من العالم

الملكوت، وله الفلك الثاني، وسنيّ حركة فلكه إحدى عشرة ألف سنة وهو من الخاصة وخاصة الخاصة، وله من المراتب السابعة وظهور سلطانه في الجماد، ويوجد عنه ما كان بارداً رطباً وعنصره الماء، وله من الحركات المعوجة وهو من حروف الأعراق، وهو خالص غير ممتزج، وهو كامل يرفع من اتصل به، هو من عالم الإنس الثلاثيّ، وطبعه البرودة والرطوبة، وله من الحروف: الألف والهمزة، وله من أسماء الذات: الله والأوّل والآخر والملك والمؤمن والمهيمن والمتكبر والمجيد والمتين والمتعالي والعزيز، وله من أسماء الصفات: المقتدر والمحصي، وله من أسماء الأفعال: اللطيف والفتاح والمبدىء والمجيب والمقيت والمصوّر والمذل والمعزّ والمعيد والمحيي والمميت والمنتقم والمقسط والمغني والمانع، وله بداية الطريق.

ومن ذلك حرف الغين المنقوطة: [الرجز]

الـغَـيْـنُ مـثـلُ الـعـيـن فـي أحـوالـهِ　　　إلا تَـجَـلِّـيـه الأَطَـمِّ الأخْـطَـرِ
فـي الـغـيـنِ أسـرارُ الـتـجـلِّـي الأقـهـرِ　　　فـاعـرفْ حـقـيـقـةَ فَـيْـضِـه وتَـسَـتُّـرِ
وانـظـرْ إلـيـه مـن سـتـارةِ كَـوْنِـه　　　حَـذَراً على الرَّسْم الـضـعـيـفِ الأحْـقَـرِ

اعلم أيّدك الله بروح منه أن الغين المنقوطة من عالم الشهادة والملكوت، ومخرجه الحلق أدنى ما يكون منه إلى الفم، عدده عندنا تسعمائة وعند أهل الأسرار، وأما عند أهل الأنوار فعدده ألف، كل ذلك في حساب الجمل الكبير، وبسائطه: الياء والنون والألف والهمزة والواو، وفلكه الثاني وسني فلكه في حركته إحدى عشرة ألف سنة يتميز في طبقة العامّة، مرتبته الخامسة، ظهور سلطانه في البهائم، طبعه البرودة والرطوبة، عنصره الماء، يوجد عنه كل ما كان بارداً رطباً، حركته معوجة له الخلق والأحوال والكرامات: خالص كامل مثنى مؤنس، له الإفراد الذاتيّ، له من الحروف: الياء والنون، له من الأسماء الذاتية: الغنيّ والعليّ والله والأول والآخر والواحد، وله من أسماء الصفات: الحيّ والمحصي والقويّ، وله من أسماء الأفعال: النصير والواقي والواسع والوالي والوكيل، وهو ملكوتيّ.

ومن ذلك حرف الخاء المنقوطة: [الرجز]

الـخـاءُ مـهـمـا أقـبـلَـتْ أو أدبـرتْ　　　أعـطـتْـكَ مـن أسـرارهـا وتـأخَّـرَتْ
فـعُـلُـوُّهـا يـهـوى الـكـيـانَ وسـفْـلُـهـا　　　يـهـوى الـمـكـوّنَ حـكـمـةً قـد أظْـهَـرَتْ
أبـدى حـقـيـقـتَـهـا مـخـطَّـطُ ذاتـهـا　　　فـتـدنَّـسـتْ وقـتـاً وثَـمَّ تـطـهَّـرَتْ
فـاعـجـبْ لـهـا مـن جـنـةٍ قـد أُزْلِـفـتْ　　　فـي سـفْـلِـهـا ولـهـيـبَ نـار سـعَّـرَتْ

اعلم أيّدك الله أن الخاء من عالم الغيب والملكوت مخرجه الحلق مما يلي الفم، عدده ستمائة، بسائطه: الألف والهمزة واللام والفاء والهاء والميم والزاي، فلكه الثاني سني فلكه إحدى عشرة ألف سنة، يتميز في العامّة، مرتبته السابعة، ظهور سلطانه في الجماد، طبع رأسه البرودة واليبوسة والحرارة والرطوبة بقية جسده، عنصره الأعظم الهواء والأقلّ التراب،

يوجد عنه كل ما اجتمعت فيه الطبائع الأربع، حركته معوجة، له الأحوال والخلق والكرامات ممتزج كامل يرفع من اتصل به على نفسه، مثلث مؤنس له علامة، له من الحروف: الهمزة والألف، له من الأسماء الذاتية والصفاتية والفعلية كل ما كان في أوله: زاي أو ميم كالملك والمقتدر والمعز، أو هاء كالهادي أو فاء كالفتاح أو لام كاللطيف أو همزة كالأول.

ومن ذلك حرف القاف: [الكامل]

القافُ سرُّ كمالـه في رأسـهِ ... وعلومُ أهل العربِ مبدأُ قُطْرِهِ
والشوقُ يثنيـهِ ويجعلُ غَيْبَهُ ... في شطره وشُهودَهُ في شطْرِهِ
وانظرْ إلى تعريقِـهِ كهلالـه ... وانظرْ إلى شَكْلِ الرُؤيس كَبَدْرِهِ
عجباً لآخرِ نشأةٍ هو مبدأً ... لوجود مبدئه ومَبْدأ عَصْرِهِ

اعلم أيّدنا الله أن القاف من عالم الشهادة والجبروت، مخرجه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك، عدده مائة، بسائطه: الألف والفاء والهمزة واللام، فلكه الثاني سني حركة فلكه إحدى عشرة ألف سنة، يتميّز في الخاصة وخاصة الخاصة، مرتبته الرابعة، ظهور سلطانه في الجن، طبعه الأمّهات الأول، آخره حار يابس وسائره بارد رطب، عنصره الماء والنار، يوجد عنه الإنسان والعنقاء، له الأحوال، حركته ممتزجة، ممتزج مؤنس مثنى، علامته مشتركة، له من الحروف: الألف والفاء، وله من الأسماء على مراتبها كل اسم في أوله حرف من حروف بسائطه، له الذات عند أهل الأسرار، وعند أهل الأنوار الذات والصفات.

ومن ذلك حرف الكاف: [الكامل]

كافُ الرجاءِ يشاهدُ الإجلالا ... من كافِ خوفٍ شاهَدَ الإفضالا
فانظرْ إلى قَبْضٍ وبَسْطٍ فيهما ... يعطيك ذا صدّاً وذاك وِصالا
الله قد جلَّى لذا إجلالَهُ ... ولذاك جلّى من سَناه جَمالا

اعلم أيّدنا الله وإياك أن الكاف من عالم الغيب والجبروت له من المخارج مخرج القاف وقد ذكر إلاّ أنه أسفل منه، عدده عشرون، بسائطه الألف والفاء والهمزة واللام، له الفلك الثاني، حركة فلكه إحدى عشرة ألف سنة، يتميز في الخاصة وخاصة الخاصة، مرتبته الرابعة، ظهور سلطانه في الجن، يوجد عنه كل ما كان حاراً يابساً، عنصره النار، طبعه الحرارة واليبوسة، مقامه البداية، حركته ممتزجة، هو من الأعراق خالص كامل، يرفع من اتصل به عند أهل الأنوار ولا يرفع عند أهل الأسرار، مفرد موحش، له من الحروف ما للقاف، وله من الأسماء كل اسم في أوّله حرف من حروف بسائطه وحروفه.

ومن ذلك حرف الضاد المعجمة: [الكامل]

في الضادِ سرٌّ لو أبوحُ بذكرهِ ... لرأيتَ سرَّ الله في جَبَروتِهِ
فانظرْ إليه واحداً وكمالُه ... من غَيْرِهِ في حضرَتَيْ رَحَمُوتِهِ
وأمامَهُ اللفظُ الذي بوجوده ... أسرى به الرحمنُ من مَلَكُوتِهِ

اعلم أيّدنا الله وإياك أن الضاد المعجمة من حروف الشهادة والجبروت، ومخرجه من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، عدده تسعون عندنا وعند أهل الأنوار ثمانمائة، بسائطه الألف والدال اليابسة والهمزة واللام والفاء، فلكه الثاني، حركة فلكه إحدى عشرة ألف سنة، يتميز في العامّة، له وسط الطريق، مرتبته الخامسة، ظهور سلطانه في البهائم، طبعه البرودة والرطوبة، عنصره الماء، يوجد عنه ما كان بارداً رطباً، حركته ممتزجة، له الخلق والأحوال والكرامات، خالص كامل مثنى مؤنس، علامته الفردانية، له من الحروف: الألف والدال، وله من الأسماء كما أعلمناك في الحرف الذي قبله رغبة في الاختصار والله المعين الهادي.

ومن ذلك حرف الجيم: [الكامل]

الـجـيـمُ يـرفـعُ مـن يـريـد وصَـالَـهُ ... لـمَـشَـاهـدِ الأبـرارِ والأخْـيَـارِ
فـهـو الـعـبـيـدُ الـقِـنُّ إلاَّ أنـه ... مـتـحـقِّـقٌ بـحـقـيـقَـةِ الإيـثـارِ
يـرنـو بـغـايـتـه إلـى مـعْـبُـودِهِ ... وبـبـدْئـهِ يـمـشـي عـلـى الآثـارِ
هـو مـن ثـلاثِ حـقـائـقٍ مـعـلـومـةٍ ... ومـزاجُـه بـرْدٌ ولـفـحُ الـنَّـارِ

اعلم أيّدنا الله وإياك أن الجيم من عالم الشهادة والجبروت، ومخرجه من وسط اللسان بينه وبين الحنك، عدده ثلاثة، بسائطه: الياء والميم والألف والهمزة، فلكه الثاني، سنيه إحدى عشرة ألف سنة، يتميز في العامّة، له وسط الطريق، مرتبته الرابعة، ظهور سلطانه في الجن، جسده بارد يابس، رأسه حار يابس، طبعه البرودة والحرارة واليبوسة، عنصره الأعظم التراب والأقل النار، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته معوجة، له الحقائق والمقامات والمنازلات، ممتزج كامل، يرفع من اتصل به عند أهل الأنوار والأسرار إلاَّ الكوفيون، مثلث مؤنس، علامته الفردانية، له من الحروف: الياء والميم، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الشين المعجمة بالثلاث: [البسيط]

في الشينِ سبعةُ أسرارٍ لـمَنْ عَقَلا ... وكـلُّ مـن نـالـهـا يـومـاً فـقـد وَصَـلاَ
تـعـطـيـكَ ذاتَـك والأجـسـامُ سـاكـنـةٌ ... إذا الأمـيـنُ عـلـى قـلـبِ بـهـا نَـزَلاَ
لـو عـاينَ الناسُ ما تـحـويـه من عَجَبٍ ... رأَوْا هـلالَ امِّـحـاقِ الـشـهـر قـد كـمـلا

اعلم أيّدنا الله نطقاً وفهماً أن الشين من عالم الغيب والجبروت الأوسط منه، مخرجه مخرج الجيم، عدده عندنا ألف وعند أهل الأنوار ثلاثمائة، بسائطه: الياء والنون والألف والهمزة والواو، فلكه الثاني، سني هذا الفلك قد تقدم ذكرها يتميز في العامّة، له وسط الطريق مرتبته الخامسة، سلطانه في البهائم، طبعه بارد رطب، عنصره الماء، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة، كامل خالص مثنى مؤنس، له الذات والصفات والأفعال، له من الحروف الياء والنون، ومن الأسماء على نحو ما تقدّم، له الخلق والأحوال والكرامات.

ومن ذلك حرف الياء: [البسيط]

ياءُ الرسالة حرفٌ في الثرى ظهرا كالواو في العالم العُلْويّ معْتَمَرَا
فهو المُمِدُّ جسوماً ما لها ظُلَلٌ وهو المُمِدُّ قلوباً عانقَتْ صُوَرَا
إذا أراد يناجيكم بحكمته يتلو فيسمع سرُّ الأحرفِ السُّوَرَا

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن الياء من عالم الشهادة والجبروت، مخرجه مخرج الشين، عدده العشرة للأفلاك الاثني عشر وواحد للأفلاك السبعة، بسائطه: الألف والهمزة واللام والفاء والهاء والميم والزاي، فلكه الثاني، سنيه قد ذكرت، يتميز في الخاصة وخاصة الخاصة، له الغاية والمرتبة السابعة، ظهور سلطانه في الجماد، طبعه الأمّهات الأول، عنصره الأعظم النار والأقل الماء، يوجد عنه الحيوان حركته ممتزجة له الحقائق والمقامات والمنازلات، ممتزج كامل رباعيّ مؤنس، له من الحروف الألف والهمزة، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف اللام: [الكامل]

اللامُ للأزَلِ السنيّ الأقْدَسِ ومقَامِهِ الأعلى البهيّ الأنْفَسِ
مهما يَقُمْ تبدي المكوِّن ذاتُه والعالَمَ الكونيَّ مهما يَجْلِسِ
يعطيكَ روحاً من ثلاثِ حقائقٍ يمشي ويَرْفلُ في ثيابِ السُّنْدُسِ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح القدس أن اللام من عالم الشهادة والجبروت، مخرجه من حافة اللسان أدناها إلى منتهى طرفه، عدده في الاثني عشر فلكاً ثلاثون وفي الأفلاك السبعة ثلاثة، بسائطه: الألف والميم والهمزة والفاء والياء، فلكه الثاني، سنيه تقدمت، يتميز في الخاصة وخاصة الخاصة، له الغاية، مرتبته الخامسة، سلطانه في البهائم، طبعه الحرارة والبرودة واليبوسة، عنصره الأعظم النار والأقل التراب، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته مستقيمة وممتزجة، له الأعراف ممتزج كامل مفرد موحش، له من الحروف الألف والميم، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الراء: [الكامل]

راءُ المحبةِ في مقَام وِصَالِهِ أبداً بدارِ نعيمهِ لن يُخْذَلاَ
وقتاً يقول أنا الوحيدَ فلا أرى غيري ووقتاً يا أنا لن يجهلا
لو كان قلبُك عندَ ربكَ هكذا كنتَ المقرَّبَ والحبيبَ الأكْمَلاَ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن الراء من عالم الشهادة والجبروت، ومخرجها من ظهر اللسان وفوق الثنايا، عدده في الاثني عشر فلكاً مائتان وفي الأفلاك السبعة اثنان، بسائطه: الألف والهمزة واللام والفاء والهاء والميم والزاي، فلكه الثاني، سني فلكه معلومة، له الغاية، مرتبته السابعة، ظهور سلطانه في الجماد، يتميز في الخاصة وخاصة الخاصة، طبعه الحرارة واليبوسة، عنصره النار يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة، له الأعراف، خالص ناقص مقدّس مثنى مؤنس، له من الحروف الألف والهمزة، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف النون: [الكامل]

نونُ الوجودِ تدلُّ نقطةُ ذاتها ... في عينها عيناً على معبودِهَا
فوجودُها من جُوْدِهِ ويمينِهِ ... وجميع أكوانِ العُلَى من جُودِهَا
فانظرْ بعينك نصفَ عَيْنِ وجودِها ... من جُودِها تعثُرْ على مَفْقودِهَا

اعلم أيّد الله القلوب بالأرواح أن النون من عالم الملك والجبروت، مخرجه من حافة اللسان وفوق الثنايا، عدده خمسون وخمسة، بسائطه: الواو والألف، فلكه الثاني، سني حركته قد ذكرت، يتميز في الخاصة وخاصة الخاصة، له غاية الطريق، مرتبته المرتبة المنزّهة الثانية، ظهور سلطانه في الحضرة الإلهية، طبعه البرودة واليبوسة، عنصره التراب، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة، له الخلق والأحوال والكرامات، خالص ناقص مفرد موحش، له الذات، له من الحروف الواو، والأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الطاء المهملة: [البسيط]

في الطاءِ خمسةُ أسرار مخبأةٌ ... منها حقيقةُ عينِ المُلْكِ في المَلِكِ
والحقُّ في الخلقِ والأسرارُ نائبةٌ ... والنورُ في النار والإنسانُ في المَلَكِ
فهذه خمسةٌ مهما كَلِفْتَ بها ... علمتَ أن وجودَ الفُلْكِ في الفَلَكِ

اعلم أيّدنا الله به أن الطاء من عالم الملك والجبروت، مخرجه من طرف اللسان وأصول الثنايا، عدده تسعة، بسائطه: الألف والهمزة واللام والفاء والميم والزاي والهاء، فلكه الثاني، سنيه مذكورة، يتميز في الخاصة وخاصة الخاصة، وله غاية الطريق، مرتبته السابعة، سلطانه في الجماد، طبعه البرودة والرطوبة، عنصره الماء، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته مستقيمة عند أهل الأنوار ومعوجة عند أهل الأسرار وعند أهل التحقيق وعندنا معاً وممتزجة، له الأعراف، خالص كامل مثنى مؤنس، له من الحروف الألف والهمزة، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الدال المهملة: [البسيط]

الدالُ من عالَم الكون الذي انتقلا ... عن الكيان فلا عينٌ ولا أَثَرُ
عزَّتْ حقائقُه عن كلِّ ذي بَصَرٍ ... سُبْحانَهُ جلَّ أن يحظى به بَشَرُ
فيه الدوامُ فجودُ الحقِّ منْزِلُهُ ... فيه المثاني ففيه الآيُ والسُّوَرُ

اعلم أيّدنا الله بأسمائه أن الدال من عالم الملك والجبروت، مخرجه مخرج الطاء، عدده أربعة، بسائطه: الألف واللام والهمزة والفاء والميم، فلكه الأول، سني حركته اثنتا عشرة ألف سنة، له غاية الطريق، مرتبته الخامسة، سلطانه في البهائم، طبعه البرودة واليبوسة، عنصره التراب، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة بين أهل الأنوار والأسرار، له الأعراق، خالص ناقص مقدس مثنى مؤنس، له من الحروف الألف واللام، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف التاء باثنتين من فوق:[البسيط]

التاءُ يظهر أحياناً ويستترُ | فحَظُّه من وجود القوم تَلْوينُ
يحوي على الذاتِ والأوصافِ حضْرَتَهُ | وما له في جَنابِ الفعل تَمْكينُ
يبدو فيظهر من أسراره عَجَباً | ومُلْكُهُ اللوحُ والأقلامُ والنُّونُ
الليلُ والشمسُ والأعلى وطارِقُهُ | في ذاته والضحى والشَّرْحُ والتِّينُ

اعلم أيها الوليّ الحميم أن التاء من عالم الغيب والجبروت، مخرجه مخرج الدال والطاء، عدده أربعة وأربعمائة، بسائطه: الألف والهمزة واللام والفاء والهاء والميم والزاي، فلكه الأول، سنيه قد ذكرت، يتميز في خاصة الخاصة، مرتبته السابعة، سلطانه في الجماد، طبعه البرودة واليبوسة، عنصره التراب، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة له الخلق والأحوال والكرامات خالص كامل رباعيّ مؤنس، له الذات والصفات، له من الحروف الألف والهمزة، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الصاد اليابسة [البسيط]

في الصادِ نورٌ لقلبِ بات يَرْقُبُهُ | عند المنام وسِتْرُ السُّهْدِ يَحْجُبُهُ
فنَمْ فإنك تلقَى نورَ سَجْدتِهِ | يُنيرُ صدرَكَ والأسرارُ تَرْقُبُهُ
فذلك النورُ نورُ الشكرِ فارتقبِ الْـ | ـمشكورَ فهو على العادات يَعْقُبُهُ

اعلم أيها الصفي الكريم أن الصاد من عالم الغيب والجبروت، مخرجه مما بين طرفي اللسان وفويق الثنايا السفلى، عدده ستون عندنا وتسعون عند أهل الأنوار، بسائطه: الألف والدال والهمزة واللام والفاء، فلكه الأول، سنيه قد ذكرت، يتميز في الخاصة وخاصة الخاصة، له أول الطريق، مرتبته الخامسة، سلطانه في البهائم، طبعه الحرارة والرطوبة، عنصره الهواء، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة مجهولة، له الأعراف، خالص كامل مثنى مؤنس، له من الحروف: الألف والدال، ومن الأسماء كما تقدم. ثم اعلم أني جعلت سرّ هذا الصاد اليابسة لا ينال إلاّ في النوم لكوني ما نلته، ولا أعطانيه الحق تعالىٰ إلاّ في المنام فلهذا حكمت عليه بذلك، وليست حقيقته ذلك والله يعطيه في النوم واليقظة، ولما وقفت عنده بالتقييد جعلت بعض الأصحاب يقرأ عليّ أسرار الحروف لأصلح ما اختلّ منها عند التقييد لسرعة القلم، فلما وصل بالقراءة إلى هذا الحرف قلت لهم ما اتفق لي فيه وإن النوم ليس لازماً في نيله، ولكن هكذا أخذته فوصفت حالي وانفض الجمع، فلما كان من الغد من يوم السبت قعدنا على سبيل العادة في المجلس بالمسجد الحرام تجاه الركن اليمانيّ من الكعبة المعظمة، وكان يحضر عندنا الشيخ الفقيه المجاور أبو يحيىٰ بكر بن أبي عبد الله الهاشميّ التويتمي الطرابلسيّ رحمه الله فجاء على عادته فلما فرغنا من القراءة قال لي: رأيت البارحة في النوم كأني قاعد وأنت أمامي مستلق على ظهرك تذكر الصاد فأنشدتك مرتجلاً: [المجتث]

الصَّادُ حرفٌ شريفٌ | والصَّادُ في الصَّادِ أَصْدَقْ

فقلت لي في النوم ما دليلك؟ فقلت: [المجتث]

لأنـــهـــا شـــكـــلُ دورٍ ومـــا مـــن الـــدَّوْر أَسْـبَـــقْ

ثم استيقظت. وحكى لي في هذه الرؤيا أني فرحت بجوابه، فلما أكمل ذكره فرحت بهذه المبشرة التي رآها في حقي وبهيئة الاضطجاع وذلك رقاد الأنبياء عليهم السلام وهي حالة المستريح الفارغ من شغله والمتأهب لما يرد عليه من أخبار السماء بالمقابلة، فاعلم أن الصاد حرف من حروف الصدق والصون والصورة، وهو كريّ الشكل قابل لجميع الأشكال، فيه أسرار عجيبة، فتعجبت من كشفه في نومه قرّت عينه على حالتي التي ذكرتها للأصحاب بالأمس في المجلس، فغفرنا له ذلك وأن له عندنا لزلفى وحسن مآب، حرف شريف عظيم أقسم عند ذكره بمقام جوامع الكلم وهو المشهد المحمديّ في أوج الشرف بلسان التمجيد، وتضمنت هذه السورة من أوصاف الأنبياء عليهم السلام، ومن أسرار العالم كله الخفية عجائب وآيات، وهذه الرؤيا فيها من الأسرار على حسب ما في هذه السورة من الأسرار، فهي تدل على خير كثير جسيم يناله الرائي ومن ريئت له وكل من شوهد فيها من الله تعالىٰ، ويحصل لهما من بركات الأنبياء عليهم السلام المذكورين في هذه السورة، ويلحق الأعداء من الكفار ما في هذه السورة من البؤس لا من المؤمنين، نسأل الله لنا ولهم العافية في الدنيا والآخرة، فهذه بشرى حصلت وأسرار أرسلها الحق إلينا على يد هذا الرائي، وذكر لي الرائي صاحبنا أبو يحيىٰ أنه لما استيقظ تمّم على البيتين اللذين أنشدهما لي في النوم قريضاً فسألته أن يرسل إليّ به حتى أقيده في كتابي هذا عقيب هذه الرؤيا وفي هذا الحرف، فإن ذلك القريض من إمداد هذه الحقيقة الروحانية التي رآها في النوم، فأردت أن لا أفصل بينهما، فبعثت معه صاحبنا أبا عبد الله محمد بن خالد الصوفيّ التلمسانيّ فجاءني بها وهي هذه: [المجتث]

الـــصـــادُ حـــرفٌ شـــريـــفٌ والـــصـــادُ فـــي الـــصـــادِ أَصْـــدَقْ
قُـــلْ مـــا الـــدلـــيـــلُ أجِـــدْهُ فـــي داخـــل الـــقـــلـــب مُـــلْـــصَـــقْ
لأنـــهـــا شـــكـــلُ دورٍ ومـــا مـــن الـــدَّوْرِ أَسْـــبَـــقْ
ودلَّ هـــــذا بـــــأنـــــي عـــلـــى الـــطـــريـــقِ مـــوفَّـــقْ
حـــقَّـــقْـــتُ فـــي الله قـــصـــدي والـــحـــقُّ يُـــقْـــصَـــدُ بـــالـــحَـــق
إن كـــان فـــي الـــبـــحـــر عُـــمْـــقٌ فـــســـاحِـــلُ الـــقـــلـــب أعْـــمَـــقْ
إن ضـــاق قـــلـــبُـــك عـــنِّـــي فـــقـــلْـــبُ غـــيـــرِك أضْـــيَـــقْ
دع الـــقَـــرُونَـــةَ واقْـــبَـــلْ مـــن صـــادقٍ يـــتـــصـــدَّقْ
ولا تـــخـــالِـــفْ فـــتـــشـــقَـــى فـــالـــقـــلـــب عـــنـــدي مـــعـــلَّـــقْ
افـــتَـــحْـــه اشـــرَحْـــه وافـــعَـــلْ فِـــعْـــلَ الـــذي قـــد تـــحـــقَّـــقْ
إلـــى مـــتـــى قـــاسِـــيَ الـــقَـــلْـــبِ بـــابُ قـــلـــبِـــكَ مُـــغْـــلَـــقْ
وفـــعْـــلُ غـــيـــرك صـــافٍ ووجـــهُ فِـــعْـــلِـــكَ أزرَقْ

إنــا رَفِــقْــنــا فــرِفْــقــاً فــالــرِّفْــقُ فــي الــرِّفْــق أرفَــقْ
فــإن أتــيــتَ كــسَــوْنَــا كَ ثَــوْبَ لــطــفٍ مــعــتَّــقْ
ولا تــكــنْ كــجــريــرِ إذ ظــلّ يــهــجــو الــفــرزْدَقْ
والْــهــجْ بــمــدحــي فــمــدحِــي مــن مــشــرقِ الــشــمــسِ أَشْــرَقْ
أنــا الــوجــودُ بــذاتــي ولــي الــوجــودُ الــمــحــقَّــقْ
مــن غــيــر قَــيْــدٍ كــعــلــمــي عــلــى الــحــقــيــقــة مــطْــلَــقْ
فــهــل تــرى الــشــاةَ يــومــاً يــكــيــدُهــا فَــرْدُ مَــيْــذَقْ
مــن قــال فــيَّ بــرأي فــقــائــل الــرأي أحــمَــقْ
إن ظــلَّ يــهــذي لــوهــم رأيــتَــه يــتــشــدَّقْ
وكــلٌّ مــن قــال قــولاً فــالــذكــرُ مــن ذاك أصْــدَقْ
أنــا الــمــهــيــمــنُ ذو الــعــرش لا أبــيــدُ وأخــلَــقْ
بــعــثــتُ لــلــخــلــق رُسْــلــي وجــاء أحــمــدُ بــالــحــقْ
فــقــام فــيَّ بــصــدْقٍ وحــيــنَ أرْعَــدَ أبْــرَقْ
مــجــاهــداً فــيَّ الأعــادي ونــاصــحــاً مــا تــفــتَّــقْ
لــو لــم أغــثْــهُــم بــعــبــدي أغــرقــت مــن لــيــس يــغــرَقْ
إن الــســمــواتِ والأر ضَ مــن عــذابــيَ تَــفْــرَقْ
وإن أطــعــتــمْ فــإنــي ألــمُّ مــا يــتــفــرَّقْ
وأجــمــع الــكــلَّ فــي الــخــلْـ ـدِ فــي حــدائــقَ تَــغْــبَــقْ
كــل الــقــلــوب عــلــى ذا وإنــنــي الله أصــفَــقْ
فــقــمــت مــن حــال نــومــي وراحــتــايَ تــصــفِّــقْ

ومن ذلك حرف الزاي: [البسيط]

فـي الـزاي سرٌّ إذا حـقـقـتَ مـعـنـاهُ كـانـت حـقـائـقُ روح الأمـر مـغْـنـاهُ
إذا تـجـلَّـى إلـى قـلـبٍ بـحـكـمـتـهِ عـنـد الـفـنـاء عـن الـتـنـزيـه أغْـنَـاهُ
فليس في أحرفِ الذات النزيهة مَن يـحـقِّـقُ الـعـلـمَ أو يـدريـه إلاَّ هُـو

اعلم أيّدك الله بروح الأزل أن الزاي من عالم الشهادة والجبروت والقهر، مخرجه مخرج الصاد والسين، عدده سبعة، بسائطه: الألف والياء والهمزة واللام والفاء، فلكه الفلك الأول، سني حركته تقدم ذكرها، يتميز في خلاصة خاصة الخاصة، له الغاية مرتبته الخامسة، سلطانه في البهائم طبعه الحرارة واليبوسة، عنصره النار، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة، له الخلق والأحوال والكرامات، خالص ناقص مقدس مثنى مؤنس، له من الحروف الألف والياء، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف السين المهملة: [الرجز]

فـي الـسـيـن أسـرارُ الـوجـود الأربـعُ ولـه الـتَّـحـقُّـقُ والـمـقـامُ الأرْفَـعُ

مِن عالمِ الغيبِ الذي ظهرتْ بهِ   آثارُ كونٍ شمسُها تتبَرْقَعُ

اعلم أن السين من عالم الغيب والجبروت واللطف، مخرجه مخرج الصاد والزاي، عدده عند أهل الأنوار ستون وستة وعندنا ثلاثمائة وثلاثة، بسائطه: الياء والنون والألف والهمزة والواو، فلكه الأول، سنيه مذكورة، يتميز في الخاصة وخاصة الخاصة وخلاصة خاصة الخاصة وصفاء خلاصة خاصة الخاصة، له الغاية، مرتبته الخامسة، ظهور سلطانه في البهائم، طبعه الحرارة واليبوسة عنصره النار، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة له الأعراف، خالص كامل مثنى مؤنس، له من الحروف الياء والنون، ومن الأسماء الإلهية كما تقدم.

ومن ذلك حرف الظاء المعجمة: [البسيط]

في الظاء ستَّة أسرار مُكتَّمَةٌ   خَفِيَّةٌ ما لها في الخلق تَغيينُ
إلاَّ مجازاً إذا جادتْ بفاضلها   يرى لها في ظهور العين تَحْسينُ
يرجو الإلهَ ويخشى عذلَه وإذا   ما غاب عن كونه لم يَبْدُ تكوينُ

اعلم أيها العاقل أن الظاء من عالم الشهادة والجبروت والقهر، مخرجه ممّا بين طرفي اللسان وأطراف الثنايا، عدده ثمانية وثمانمائة عندنا وعند أهل الأنوار تسعمائة، بسائطه: الألف واللام والهمزة والفاء والهاء والميم والزاي، فلكه الأول، سنيه مذكورة، يتميز في خلاصة خاصة الخاصة، له غاية الطريق، مرتبته السابعة، سلطانه في الجماد، طبع دائرته بارد رطب وقائمته حارة رطبة فله الحرارة والبرودة والرطوبة، عنصره الأعظم الماء والأقل الهواء، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة، له الخلق والأحوال والكرامات، ممتزج كامل مثنى مؤنس، له الذات، له من الحروف الألف والهمزة، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الذال المعجمة: [البسيط]

الذالُ ينزل أحياناً على جسدي   كَرْهاً وينزل أحياناً على خَلَدي
طوعاً ويعدم من هذا وذاك فما   يُرَى له أثرُ الزُّلْفى على أحَدِ
هو الإمامُ الذي ما مثلُه أحدٌ   تدعوه أسماؤه بالواحدِ الصَّمَدِ

اعلم أيها الإمام أن الذال من عالم الشهادة والجبروت والقهر، مخرجه مخرج الظاء، عدده سبعمائة وسبعة، بسائطه: الألف واللام والهمزة والفاء والميم، فلكه الأول، سني حركته مذكورة يتميز في العامّة، له وسط الطريق مرتبته الخامسة، سلطانه في البهائم، طبعه الحرارة والرطوبة، عنصره الهواء، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته معوجة ممتزجة، له الخلق والأحوال والكرامات، خالص كامل مقدس مثنى مؤنس، له الذات، وله من الحروف الألف واللام، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الثاء بالثلاثة: [البسيط]

الثاءُ ذاتيَّةُ الأوصاف عاليةٌ   في الوصف والفِعْل والأقلامُ توجِدُهَا
فإن تجلَّتْ بسرِّ الذات واحدةً   يومَ البداية صار الخلقُ يعْبُدُهَا

وإن تـجـلَّـتْ بـسـرِّ الـوصـفِ ثـانـيـةً يـومَ الـتوسُّطِ صار النَّعْتُ يـحْـمَـدُهَـا
وإن تـجـلَّـتْ بـسـرِّ الـفـعـل ثـالـثـةً يـوم الـثـلاثـاء صـار الـكـونُ يُـسْـعِـدُهَـا

اعلم أيها السيد أن الثاء من عالم الغيب والجبروت واللطف، مخرجه مخرج الظاء والذال، عدده خمسة وخمسمائة، بسائطه: الألف والهمزة واللام والفاء والهاء والميم والزاي، له الفلك الأول، سنيه مذكورة يتميز في خلاصة خاصة الخاصة، له غاية الطريق، مرتبته السابعة، سلطانه في الجماد، طبعه البرودة واليبوسة، عنصره التراب، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة، له الخلق والأحوال والكرامات، خالص كامل مربع مؤنس، له الذات والصفات والأفعال، له من الحروف الألف والهمزة، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الفاء: [البسيط]

الـفـاءُ مـن عـالَـم الـتـحـقـيـقِ فـادَّكِـرِ وانـظـرْ إلـى سـرِّهـا يـأتـي عـلـى قَـدَرِ
لـهـا مـع الـيـاء مَـزْجٌ فـي الـوجـود فـمـا تـنـفـكُّ بـالـمـزج عـن حقٍّ وعـن بَـشَـرِ
فـإن قـطـعْـتَ وِصَـالَ الـيـاء دانَ لـهـا مـن أَوْجُـهِ عـالَـمُ الأرواح والـصُّـوَرِ

اعلم أيّد الله القلب الإلهيّ أن الفاء من عالم الشهادة والجبروت والغيب واللطف، مخرجه من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا، عدده ثمانون وثمانية، بسائطه: الألف والهمزة واللام والفاء والهاء والميم والزاي، له الفلك الأول، سنيه قد ذكرت، يتميز في الخلاصة، له غاية الطريق، مرتبته السابعة، سلطانه في الجماد، طبع رأسه الحرارة والرطوبة وسائر جسده بارد رطب فطبعه الحرارة والبرودة والرطوبة، عنصره الأعظم الماء والأقل الهواء، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة، له الحقائق والمقامات والمنازلات عند أهل الأسرار، وله الخلق والأحوال والكرامات عند أهل الأنوار، ممتزج كامل مفرد مثنى مؤنس موحش، له الذات، له من الحروف الألف والهمزة، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الباء بواحدة: [البسيط]

الـبـاءُ لـلـعـارِف الـشِّـبْـلـيِّ مـعـتـبـرٌ وفـي نُـقَـيْـطـتـهـا لـلـقـلـب مُـدَّكَـرُ
سـرُّ الـعـبـوديـة الـعـلـيـاءِ مـازَجَـهـا لـذاك نـابَ مَـنَـابَ الـحـقِّ فـاعـتـبـروا
ألـيـس يـحـذفُ مـن بـسـم حـقـيـقـتـه لأنـــه بـــدلٌ مـــنـــه فـــذا وَزَرُ

اعلم أيها الوالي المتعالي، أن الباء من عالم الملك والشهادة والقهر، مخرجه من الشفتين، عدده اثنان، بسائطه: الألف والهمزة واللام والفاء والهاء والميم والزاي، فلكه الأول، له الحركة المذكورة، يتميز في عين صفاء الخلاصة وفي خاصة الخاصة، له بداية الطريق وغايته، مرتبته السابعة، سلطانه في الجماد، طبعه الحرارة واليبوسة، عنصره النار، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة، له الحقائق والمقامات والمنازلات، خالص كامل مربع مؤنس، له الذات، ومن الحروف الألف والهمزة، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الميم: [البسيط]

المِيمُ كالنون إن حقَّقْتَ سرَّهما ... في غاية الكون عيناً والبداياتِ
والنونُ للحق والميمُ الكريمةُ لي ... بدْءٌ لبدءٍ وغاياتٌ لغاياتِ
فبَرْزَخُ النون روحٌ في معارفِه ... وبرزخُ الميم ربٌّ في البريَّاتِ

اعلم أيّد الله المؤمن أن الميم من عالم الملك والشهادة والقهر، مخرجه مخرج الباء، عدده أربعة وأربعون، بسائطه: الياء والألف والهمزة، فلكه الأول، سنيه ذكرت، يتميز في الخاصة والخلاصة وصفاء الخلاصة، له الغاية، مرتبته الثالثة، ظهور سلطانه في الإنسان، طبعه البرودة واليبوسة، عنصره التراب، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، له الأعراف، خالص كامل مقدس مفرد مؤنس، له من الحروف الياء، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الواو: [مجزوء الخفيف]

واوُ إياك أقدَسُ ... من وجودي وأنفَسُ
فهو روحٌ مكمَّلٌ ... وهو سرٌّ مدَّسُ
حيث ما لاح عينُهُ ... قيل بيتٌ مقدَّسُ
بيتُه السدرةُ العلـ ... ـيَّةُ فينا المؤسَّسُ

الواو من عالم الملك والشهادة والقهر، مخرجه من الشفتين، عدده ستة، بسائطه: الألف والهمزة واللام والفاء، فلكه الأول، سنيه مذكورة يتميز في خاصة الخاصة وفي الخلاصة، له غاية الطريق، مرتبته الرابعة، سلطانه في الجن، طبعه الحرارة والرطوبة، عنصره الهواء، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة، له الأعراق، خالص ناقص مقدّس مفرد موحش، له من الحروف الألف، ومن الأسماء كما تقدم.

فهذه حروف المعجم قد كملت بذكر ما حدّ لنا من الإشارات والتنبيهات لأهل الكشف والخلوات والاطلاع على أسرار الموجودات، فإذا أردت أن يسهل عليك مأخذها في باب العبارة عنها فاعلم اشتراكها في أفلاك البسائط تعلم حقائق الأسماء الممدة لها، فالألف قد تقدم الكلام فيها، وكذلك الهمزة تدخل مع الألف والواو والياء المعتلتين فخرجتا أيضاً عن حكم الحروف بهذا الوجه، فالجيم والزاي واللام والميم والنون بسائطها مختلفة، والدال والذال متماثلة، والصاد والضاد متماثلة، والعين والغين والسين والشين متماثلة، والواو والكاف والقاف متماثلة، والباء والهاء والحاء والطاء والياء والفاء والراء والتاء والثاء والخاء والظاء متماثلة البسائط أيضاً، وكل متماثل البسائط متماثل الأسماء فاعلم، وكنا ذكرنا أن نذكر لام ألف عقيب الحروف الذي هو نظير الجوهر فنذكره في الرقم مفرداً عن الحروف فإنه حرف زائد مركب من ألف ولام ومن همزة ولام.

ذكر لام ألف وألف اللام: [نظم : الرمل]

ألِفُ اللام ولامُ الألفِ ... نهرُ طالوت فلا تَغْتَرِفِ

واشـــربِ الـــنـــهـــرَ إلـــى آخـــرهِ ... وعـــن الـــنَّـــهـــمـــة لا تَـــنْـــحَـــرِفِ
ولـــتـــقُـــمْ مـــا دمـــتَ ريـــانـــاً فـــإنْ ... ظـــمِـــئَـــتْ نـــفـــسُـــك قُـــمْ فـــانـــصَـــرِفِ
واعْـــلَـــمَ أنّ الله قـــد أرســـلَـــهُ ... نـــهْـــرَ بـــلْـــوَى لـــفـــؤادِ الـــمـــشْـــرِفِ
فـــاصـــطـــبِـــرْ بـــالله واحْـــذَرْهُ فَـــقَـــدْ ... يُـــخْـــذَلُ الـــعـــبـــدُ إذا لـــم يَـــقِـــفِ

معرفة لام ألف لا: [نظم: البسيط]

تُـــعـــانـــقُ الألـــفُ الـــعـــلاَّم والـــلامُ ... مـــثـــل الـــحـــبـــيـــبـــيـــن فـــالأعـــوامُ أحـــلامُ
والتفَّتِ السَّاقُ بالساقِ التي عظمَتْ ... فـــجـــاءنـــي مـــنـــهـــمـــا فـــي الـــلَّـــفِّ إعـــلامُ
إن الـــفـــؤادَ إذا مـــعـــنـــاه عـــانَـــقَـــهُ ... بـــدا لـــه فـــيـــه إيـــجـــادٌ وإعْـــدامُ

اعلم أنه لما اصطحب الألف واللام صحب كل واحد منهما ميل وهو الهوى والغرض، والميل لا يكون إلاَّ عن حركة عشقية، فحركة اللام حركة ذاتية، وحركة الألف حركة عرضية، فظهر سلطان اللام على الألف لإحداث الحركة فيه، فكانت اللام في هذا الباب أقوى من الألف لأنها أعشق، فهمتها أكمل وجوداً وأتم فعلاً، والألف أقل عشقاً فهمتها أقل تعلقاً باللام فلم تستطع أن تقيم أودها، فصاحب الهمة له الفعل بالضرورة عند المحققين، هذا حظ الصوفيّ ومقامه ولا يقدر يجاوزه إلى غيره، فإن انتقل إلى مقام المحققين فمعرفة المحقق فوق ذلك، وذلك أنّ الألف ليس ميله من جهة فعل اللام فيه بهمته، وإنما ميله نزوله إلى اللام بالإلطاف لتمكن عشق اللام فيه، ألا تراه قد لوى ساقه بقائمة الألف وانعطف عليه حذراً من الفوت، فميل الألف إليه نزول كنزول الحق إلى السماء الدنيا وهم أهل الليل في الثلث الباقي، وميل اللام معلوم عندهما معلول مضطر لا اختلاف عندنا فيه إلاَّ من جهة الباعث خاصة، فالصوفيّ يجعل ميل اللام ميل الواجدين والمتواجدين لتحققه عندهم بمقام العشق والتعشق وحاله، وميل الألف ميل التواصل والاتحاد ولهذا اشتبها في الشكل هكذا لآ، فأيهما جعلت الألف أو اللام قبل ذلك الجعل، ولذلك اختلف فيه أهل اللسان أي يجعلون حركة اللام أو الهمزة التي تكون على الألف، فطائفة راعت اللفظ فقالت في الأسبق والألف بعد، وطائفة راعت الخط فبأيّ فخذ ابتدأ المخطط فهو اللام، والثاني هو الألف، وهذا كله تعطيه حالة العشق، والصدق في العشق يورث التوجّه في طلب المعشوق، وصدق التوجّه يورث الوصال من المعشوق إلى العاشق، والمحقق يقول باعث الميل المعرفة عندهما وكل واحد على حسب حقيقته، وأما نحن ومن رقى معنا في معالي درج التحقيق الذي ما فوقه درج فلسنا نقول بقولهما، ولكن لنا في المسألة تفصيل وذلك أن تلحظ في أيّ حضرة اجتمعا فإنّ العشق حضرة جزئية من جملة الحضرات، فقول الصوفيّ حق والمعرفة حضرة أيضاً كذلك فقول المحقق حق، ولكن كل واحد منهما قاصر عن التحقيق في هذه المسألة ناظر بعين واحدة، ونحن نقول أول حضرة اجتمعا فيها حضرة الإيجاد وهي لا إلاه ال لا ال لاه، فهذه حضرة الخلق والخالق، وظهرت كلمة لا في النفي مرتين وفي الإثبات مرتين، فلا لا لا و الاه للاه،

فميل الوجود المطلق الذي هو الألف في هذه الحضرة إلى الإيجاد، وميل الموجود المقيد الذي هو اللام إلى الإيجاد عند الإيجاد، ولذلك خرج على الصورة، فكل حقيقة منهما مطلقة في منزلتها فافهم إن كنت تفهم، وإلاَّ فالزم الخلوة وعلق الهمة بالله الرحمن حتى تعلم، فإذا تقيّد بعد ما تعين وجوده وظهر لعينه عينه فإنه: [البسيط]

لـلـحـقِّ حـقٌ ولـلإنـسـان إنـسـانُ ... عـنـد الـوجـود ولـلـقـرآن قـرآنُ

ولـلـعـيـان عـيـانٌ فـي الـشـهـود كـمـا ... عـنـد الـمـنـاجـاة لـلآذان آذانُ

فـانـظرْ إلـيـنـا بـعـين الـجَـمْـع تَـحْـظَ بـنـا ... فـي الـفـرق فـالْـزَمْـهُ فـالـقـرآن فُـرْقَـانُ

فلا بدّ من صفة تقوم به ويكون بها يقابل مثلها أو ضدها من الحضرة الإلهية، وإنما قلت الضد ولم نقتصر على المثل الذي هو الحق الصدق رغبة في إصلاح قلب الصوفيّ، والحاصل في أول درجات التحقيق فمشربهما هذا ولا يعرفان ما فوقه ولا ما نومي إليه حتى يأخذ الله بأيديهما ويشهدهما ما أشهدناه، وسأذكر طرفاً من ذلك في الفصل الثالث من هذا الباب فاطلب عليه هناك إن شاء الله تعالىٰ، فاغطس في بحر القرآن العزيز إن كنت واسع النفس وإلاَّ فاقتصر على مطالعة كتب المفسرين لظاهره، ولا تغطس فتهلك فإنّ بحر القرآن عميق، ولولا الغاطس ما يقصد منه المواضع القريبة من الساحل ما خرج لكم أبداً، فالأنبياء والورثة الحفظة هم الذين يقصدون هذه المواضع رحمة بالعالم، وأما الواقفون الذين وصلوا ومسكوا ولم يردوا ولا انتفع بهم أحد ولا انتفعوا بأحد فقصدوا بل قصد بهم ثبج البحر فغطسوا إلى الأبد لا يخرجون. يرحم الله العباداني شيخ سهل بن عبد الله التستري حيث قال لسهل إلى الأبد حين قال له سهل: أيسجد القلب؟ فقال الشيخ: إلى الأبد، بل صلّى الله على رسول الله حين قيل له ﷺ في دخول العمرة في الحج: **«أَلِعَامِنَا هَذَا أَمْ لِلأَبَدِ؟»** فقال ﷺ: **«بَلْ لأَبَدِ الأَبَدِ»** فهي روحانية باقية في دار الخلد يجدها أهل الجنان في كل سنة مقدرة فيقولون ما هذا فيجابون العمرة في الحج روح ونعيم، ووارد نزيه شريف تشرق به أسارير الوجوه وتزيد به حسناً وجمالاً.

فإذا غطست وفقك الله في بحر القرآن فاطلب وابحث على صدفتي هاتين الياقوتتين الألف واللام، وصدفتهما هي الكلمة أو الآية التي تحملهما، فإن كانت كلمة فعلية على طبقاتها نسبتهما من ذلك المقام، وإن كانت كلمة أسمائية على طبقاتها نسبتهما من ذلك المقام، وإن كانت كلمة ذاتية نسبتها من ذلك كما أشار عليه السلام، وإن لم تكن في الحرف أعوذ برضاك من سخطك برضاك، ميل الألف من سخطك، ميل اللام كلمة أسمائية وبمعافاتك ميل الألف من عقوبتك ميل اللام كلمة فعلية، وبك ميل الألف منك ميل اللام كلمة ذاتية، فانظر ما أعجب سر النبوّة وما أعلاه، وما أدنى مرماه وما أقصاه، فمن تكلم على حرفي لام ألف من غير أن ينظر في الحضرة التي هو فيها فليس بكامل، هيهات لا يستوي أبداً، لام ألف لا خوف عليهم ولام ألف ولا هم يحزنون، كما لا يستوي لام ألف لا التي للنفي ولام ألف التي للإيجاب، كما لا يستوي لام ألف النفي ولام ألف النفي والتبرئة، ولام ألف النهي فترفع بالنفي وتنصب بالتبرئة وتجزم بالنهي، ولام ألف لام التعريف والألف التي

من أصل الكلمة مثل قوله: الأعراف والأدبار والأبصار والأقلام، كما لا يستوي لام ألف لام التوكيد والألف الأصلية مثل قوله تعالىٰ ﴿وَلَأَوْضَعُواْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٧] و ﴿وَلِأُتِمَّ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٠] فتحقق ما ذكرناه لك، وأقم ألفك من رقدتها، وحلّ لامك من عقدتها، وفي عقد اللام بالألف سرّ لا يظهر، ولا أقدر على بسط العبارة في مقامات لام ألف كما وردت في القرآن إلاَّ لو كان السامع يسمعه مني كما يسمعه من الذي أنزل عليه لو عبر عنه، ومع هذا فالغرض في هذا الكتاب الإيجاز، وقد طال الباب واتسع الكلام فيه على طريق الإجمال لكثرة المراتب وكثرة الحروف، ولم نذكر في هذا الباب معرفة المناسبة التي بين الحروف حتى يصحّ اتصال بعضها مع بعض، ولا ذكرنا اجتماع حرفين معاً إلاَّ لام ألف خاصة من جهة ما، وهذا الباب يتضمن ثلاثة آلاف مسألة وخمسمائة مسألة وأربعين مسألة على عدد الاتصالات بوجه مّا لكل اتصال علم يخصّه، وتحت كل مسألة من هذه المسائل مسائل تتشعب كثيرة، فإن كل حرف يصطحب مع جميع الحروف كلها من جهة رفعه ونصبه وخفضه وسكونه وذاته وحروف العلة الثلاثة، فمن أراد أن يتشفى منها فليطالع تفسير القرآن الذي سميناه الجمع والتفصيل، وسنوفي الغرض في هذه الحروف إن شاء الله في كتاب المبادي والغايات لنا وهو بين أيدينا، فلتكف هذه الإشارة في لام ألف، والحمد لله المفضل.

معرفة ألف اللام آل: [نظم: الرمل]

أَلِفُ اللامِ لِعِرفانِ الذواتْ ... ولإحياءِ العظامِ النَّخِراتْ
تنظمُ الشَّمْلَ إذا ما ظهرتْ ... بمحيَّاها وما تُبْقي شَتَاتْ
وتَفي بالعهدِ صدقاً ولها ... حالُ تعظيمِ وجودِ الحَضَرَاتْ

اعلم أن لام ألف بعد حلّها ونقض شكلها وإبراز أسرارها وفنائها عن اسمها ورسمها تظهر في حضرة الجنس والعهد والتعريف والتعظيم، وذلك لما كان الألف حظ الحق، واللام حظ الإنسان، صار الألف واللام للجنس، فإذا ذكرت الألف واللام ذكرت جميع الكون ومكوّنه، فإن فنيت عن الحق بالخليقة وذكرت الألف واللام كان الألف واللام الحق والخلق، وهذا هو الجنس عندنا، فقائمة اللام للحق تعالىٰ، ونصف دائرة اللام المحسوس الذي يبقى بعدما يأخذ الألف قائمته هو شكل النون للخلق، ونصف الدائرة الروحاني الغائب للملكوت، والألف التي تبرز قطر الدائرة للأمر وهو كن، وهذه كلها أنواع وفصول للجنس الأعم الذي ما فوقه جنس، وهو حقيقة الحقائق التائهة القديمة في القديم لا في ذاتها، والمحدثة في المحدث لا في ذاتها، وهي بالنظر إليها لا موجودة ولا معدومة، وإذا لم تكن موجودة لا تتصف بالقدم ولا بالحدوث، كما سيأتي ذكرها في الباب السادس من هذا الكتاب، ولها ما شاكلها من جهة قبولها للصور لا من جهة قبولها للحدوث والقدم، فإن الذي يشبهها موجود، وكل موجود إما محدث وهو الخلق، وإما محدث اسم فاعل وهو الخالق، ولما كانت تقبل القدم والحدوث كان الحق يتجلى لعباده على ما شاءه من صفاته، ولهذا السبب ينكره قوم في

الدار الآخرة لأنه تعالىٰ تجلى لهم في غير الصورة والصفة التي عرفوها منه، وقد تقدم طرف منه في الباب الأول من هذا الكتاب، فيتجلى للعارفين على قلوبهم وعلى ذواتهم في الآخرة عموماً، فهذا وجه من وجوه الشبه.

وعلى التحقيق الذي لا خفاء به عندنا أن حقائقها هي المتجلية للصنفين في الدارين لمن عقل أو فهم من الله تعالىٰ المرئيّ في الدنيا بالقلوب والأبصار، مع أنه سبحانه منبىء عن عجز العباد عن درك كنهه فقال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٣] لطيف بعباده بتجليه لهم على قدر طاقتهم، خبير بضعفهم عن حمل تجليه الأقدس على ما تعطيه الألوهة، إذ لا طاقة للمحدث على حمل جمال القديم، كما لا طاقة للأنهار بحمل البحار، فإن البحار تفني أعيانها سواء وردت عليه أو ورد عليها أعني البحر لا يبقي لها أثراً يشهد ولا يميز، فاعرف ما ذكرناه وتحقق.

وأعلى ما يشبهها من المحدثات الهباء الذي خلق فيه صور العالم ثم النور أنزل منه في الشبه بها، فإن النور صوره في الهباء كما أن الهباء صوره فيها، وأنزل شبهاً من النور بها الهواء، وأنزل منه الماء، وأنزل منه المعادن، وأنزل منه الخشب وأمثاله إلى أن تنتهي إلى شيء لا يقبل إلاّ صورة واحدة إن وجدته فتفهم هذا حتى يأتي بابه من هذا الكتاب إن شاء الله.

فهذه الحقيقة التائهة التي تتضمن الحقائق التائهات هي الجنس الأعم التي تستحق الألف واللام الحمل عليه بذاتها، وكذلك عهدهما بجريان حقيقتيهما على علم ما وقع فيه العهد بين الموجودين، فعلى أيّ موجودين دخلتا لأمر كان بينهما من جهة كل واحد منهما بالنظر إلى أمر ثالث كانتا لعهد ذلك الأمر الثالث الذي يعرفانه وعلى حقيقتهما الألف لأخذ العهد واللام لمن أخذ عليه، وكذلك تعريفهما وتخصيصهما إنما يخصصان شيئاً من جنسه على التعيين ليحصلا العلم به عند من يريد المخبر أن يعلمه إياه، فعلى أيّ حالة كان المخصص والمخصص، والشيء الذي بسببه ظهرت هاتان الحقيقتان انقلبتا في صورة حقائقهما وهذا هو الاشتراك الذاتي، فإن كان الاشتراك في الصفة ونريد أن نميز الأعظم منهما للمخاطب فتكونا عند ذلك للتعظيم في الوصف الذي تدخل، فالألف واللام يقبلان كل صورة وحقيقة لأنهما موجودان جامعان لجميع الحقائق، فأيّ شيء برز أبرزا له الحقيقة التي عندهما منه فقابلاه بها، فدلالتهما على الشيء لذاتهما لا أنهما اكتسبا من الشيء الذي دخلتا عليه، ومثل ذلك أهلك الناس الدينار والدرهم، رأيت الرجل أمس، أحببت الرجال دون النساء، هويت السمان، ويكفي هذا القدر فقد طال الباب. انتهى الجزء السادس والحمد لله.

(الجزء السابع)

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان بعض الأسباب أعني تفسير الألفاظ التي ذكرت في الحروف من بسائط ومراتب وتقديس وإفراد وتركيب وأنس ووحشة وغير ذلك.

فاعلم أوّلاً أن هذه الحروف لما كانت مثل العالم المكلف الإنسانيّ المشاركة له في الخطاب لا في التكليف دون غيره من العالم لقبولها جميع الحقائق كالإنسان وسائر العالم ليس كذلك، فمنهم القطب كما منا وهو الألف، ومقام القطب منا الحياة القيومية، هذا هو المقام الخاص به فإنه سار بهمته في جميع العالم، كذلك الألف من كل وجه من وجه روحانيته التي ندركها نحن ولا يدركها غيرنا، ومن حيث سريانه نفساً من أقصى المخارج الذي هو منبعث النفس إلى آخر المنافس ويمتدّ في الهواء الخارج وأنت ساكت وهو الذي يسمّى الصدى، فتلك قيومية الألف لا أنه واقف، ومن حيث رقمه فإن جميع الحروف تنحل إليه وتتركب منه، ولا ينحل هو إليها كما ينحل هو أيضاً إلى روحانيته وهي النقطة تقديراً، وإن كان الواحد لا ينحل فقد عرفناك ما لأجله كان الألف قطباً، وهكذا تعمل فيما نذكره لك بعد هذا إن أردت أن تعرف حقيقته.

(والإمامان) الواو والياء المعتلتان اللذان هما حرفا المد واللين لا الصحيحتان. (والأوتاد) أربعة: الألف والواو والياء والنون الذين هم علامات الإعراب. (والأبدال) سبعة: الألف والواو والياء والنون وتاء الضمير وكافه وهاؤه، فالألف ألف رجلان، والواو واو العمرون، والياء ياء العمرين، والنون نون يفعلون، وسر النسبة بيننا وبينهم في مرتبة الأبدال كما بيّنا في القطب أن التاء إذا غابت من قمت تركت بدلها فقال المتكلم: قام زيد فنابت بنفسها مناب الحروف التي هي اسم هذا الشخص المخبر عنه، ولو كان الاسم مركباً من ألف حرف ناب الضمير مناب تلك الحروف لقوّة حروف الضمائر وتمكنها واتساع فلكها، فلو سميت رجلاً: يا دار مية بالعلياء فالسند. فقد نابت التاء أو الكاف أو الهاء مناب جملة هذه الحروف في الدلالة وتركته بدلها أو جاءت بدلاً منها كيفما شئت، وإنما صحّ لها هذا لكونها تعلم ذلك ولا يعلمه من هي بدل منه أو هو بدل عنها، فلهذا استحقت هي وأخواتها مقام الأبدال، ومدرك من أين علم هذا موقوف على الكشف فابحث عليه بالخلوة والذكر والهمة، وإياك أن تتوهم تكرار هذه الحروف في المقامات إنها شيء واحد له وجوه إنما هي مثل الأشخاص الإنسانية، فليس زيد بن علي هو عين أخيه زيد بن علي الثاني وإن كانا قد اشتركا في البنوّة والإنسانية ووالدهما واحد، ولكن بالضرورة نعلم أن الأخ الواحد ليس عين الأخ الثاني، فكما يفرّق البصر بينهما والعلم كذلك يفرّق العلم بينهما في الحروف عند أهل الكشف من جهة الكشف، وعند النازلين عن هذه الدرجة من جهة المقام التي هي بدل عن حروفه.

ويزيد صاحب الكشف على العالم من جهة المقام بأمر آخر لا يعرفه صاحب علم المقام المذكور، وهو مثلاً قلت إذا كرّرته بدلاً من اسم بعينه فتقول لشخص بعينه قلت كذا وقلت كذا فالتاء عند صاحب الكشف التي في قلت الأوّل غير التاء التي في قلت الثاني لأن عين المخاطب تتجدّد في كل نفس ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق: الآية ١٥] فهذا شأن الحق في العالم مع أحدية الجوهر، وكذلك الحركة الروحانية التي عنها أوجد الحق تعالىٰ

التاء الأولى غير الحركة التي أوجد عنها التاء الأخرى بالغاً ما بلغت فيختلف معناها بالضرورة، فصاحب علم المقام يتفطن لاختلاف علم المعنى ولا يتفطن لاختلاف التاء أو أيّ حرف ضميراً كان أو غير ضمير، فإنه صاحب رقم ولفظ لا غير، كما تقول الأشاعرة في الأعراض سواء، فالناس مجمعون معهم على ذلك في الحركة خاصة، ولا يصلون إلى علم ذلك في غير الحركة، فلهذا أنكروه ولم يقولوا به ونسبوا القائل بذلك إلى الهوس وإنكار الحس، وحجبوا عن إدراك ضعف عقولهم وفساد محلّ نظرهم وقصورهم عن التصرّف في المعاني، فلو حصل لهم الأول عن كشف حقيقيّ من معدنه لانسحبت تلك الحقيقة على جميع الأعراض حكماً عاماً لا يختص بعرض دون عرض، وإن اختلفت أجناس الأعراض فلا بدّ من حقيقة جامعة وحقيقة فاصلة، وهكذا هذه المسألة التي ذكرناها في حق من قال بما قلناه فيها ومن أنكره، فليس المطلوب عند المحققين الصور المحسوسة لفظاً ورقماً، وإنما المطلوب المعاني التي تضمنها هذا الرقم أو هذا اللفظ، وحقيقة اللفظة والمرقوم عينها، فإن الناظر في الصور إنما هو روحانيّ، فلا يقدر أن يخرج عن جنسه، فلا تحجب بأن ترى الميت لا يطلب الخبز لعدم السرّ الروحانيّ منه ويطلبه الحيّ لوجود الروح فيه فتقول نراه يطلب غير جنسه.

فاعلم أن في الخبز والماء وجميع المطاعم والمشارب والملابس والمجالس أرواحاً لطيفة غريبة هي سرّ حياته وعلمه وتسبيحه ربّه وعلوّ منزلته في حضرة مشاهدة خالقه، وتلك الأرواح أمانة عند هذه الصور المحسوسة يؤدّونها إلى هذا الروح المودع في الشبح، ألا ترى إلى بعضهم كيف يوصل أمانته إليه الذي هو سرّ الحياة، فإذا أدّى إليه أمانته خرج إما من الطريق الذي دخل منه فيسمّى قيئاً وقلساً، وإما من طريق آخر فيسمّى عذرة وبولاً، فما أعطاه الاسم الأوّل إلاّ السرّ الذي أدّاه إلى الروح، وبقي باسم آخر يطلبه من أجله صاحب الخضروات والمدبرين أسباب الاستحالات، هكذا يتقلب في أطوار الوجود، فيعرى ويكتسي ويدور بدور الأكرة كالدولاب إلى أن يشاء الله العليم الحكيم، فالروح معذور في تعشّقه بهذه المحسوسات فإنه عاين مطلوبه فيها فهي في منزل محبوبه: [الوافر]

أمرُّ على الديار ديارِ سلمى ... أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حبُّ الديار مَضَى بقلبي ... ولكنْ حبُّ من سَكَنَ الديارا

وقال أبو إسحاق الزوالي رحمه الله: [البسيط]

يا دارُ إنَّ غزالاً فيك تيّمني ... لله درُّك ما تحويه يا دارُ
لو كنت أُشكو إليها حبَّ ساكنها ... إذن رأيتُ بناءَ الدار يَنْهارُ

فافهموا فهمنا الله وإياكم سرائر كلمه، وأطلعنا وإياكم على خفيّات غيوب حكمه. أما قولنا الذي ذكرناه بعد كل حرف فأريد أن أبيّنه لكم حتى تعرفوا منه ما لا ينفركم عما لا تعلمون، فأقل درجات الطريق التسليم فيما لا تعلمه، وأعلاه القطع بصدقه، وما عدا هذين المقامين فحرمان، كما أن المتصف بهذين المقامين سعيد. قال أبو يزيد البسطاميّ لأبي

موسىٰ: يا أبا موسىٰ إذا لقيت مؤمناً بكلام أهل هذه الطريقة قل له يدعو لك فإنه مجاب الدعوة. وقال رويم: من قعد مع الصوفية وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله نور الإيمان من قلبه.

شرح: فمن ذلك قولنا حرف كذا باسمه كما سقته هو من عالم الغيب، فاعلم أن العالم على بعض تقاسيمه على قسمين بالنظر إلى حقيقة ما معلومة عندنا. **قسم يسمّى عالم الغيب**: وهو كل ما غاب عن الحسّ، ولم تجر العادة بأن يدرك الحس له وهو من الحروف: السين والصاد والكاف والخاء المعجمة والتاء باثنتين من فوق والفاء والشين والهاء والثاء بالثلاث والحاء، وهذه حروف الرحمة والألطاف والرأفة والحنان والسكينة والوقار والنزول والتواضع، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٣] وفيهم نزل أيضاً على الرقيقة المحمدية التي تمتد إليهم منه من كونه أوتي جوامع الكلم أتى إليهم بها رسولهم فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٤] وفيهم: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٦٠] وفيهم: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٢] وفيهم: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [سورة طٰه: الآية ١٠٨] وهذا القبيل من الحروف هو أيضاً الذي نقول فيه إنه من اللطف لما ذكرناه، فهذا من جملة المعاني التي نطلق عليه منه عالم الغيب واللطف. **والقسم الآخر يسمّى عالم الشهادة والقهر**: وهو كل عالم من عالمي الحروف جرت العادة عندهم أن يدركوه بحواسهم وهو ما بقي من الحروف، وفيهم قوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٤] وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٣] وقوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٦٤] فهذا عالم الملك والسلطان والقهر والشدّة والجهاد والمصادمة والمقارعة. ومن روحانية هذه الحروف يكون لصاحب الوحي الغت والغط وصلصلة الجرس ورشح الجبين، ولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [سورة المزمل: الآية ١] و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [سورة المدثر: الآية ١] كما أنه في حروف عالم الغيب نزل به الروح الأمين على قلبك ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [سورة القيامة: الآية ١٦] و ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٤] ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٤].

وأما قولنا والملك والجبروت أو الملكوت فقد تقدّم ذكره في أول هذا الباب عند قولنا ذكر مراتب الحروف. وأما قولنا مخرجه كذا فمعلوم عند القرّاء، وفائدته عندنا أن تعرف أفلاكه، فإن الفلك الذي جعله الله سبباً لوجود حرف مّا ليس هو الفلك الذي وجد عنه حرف غيره، وإن توحّد الفلك فليست الدورة واحدة بالنظر إلى تقدير مّا تفرضه أنت في شيء تقتضي حقيقته ذلك الفرض، ويكون في الفلك أمر يتميز عندك عن نفس الفلك تجعله علامة في موضع الفرض وترصده، فإذا عادت العلامة إلى حدّ الفرض الأوّل فقد انتهت الدورة وابتدأت أخرى، قال عليه السلام: «**إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَهُ اللَّهُ**» وسيأتي بيان هذا الحديث في الباب الحادي عشر من هذا الكتاب. وأما قولنا عدده كذا وكذا أو كذا دون كذا

فهو الذي يسميه بعض الناس الجزم الكبير والجزم الصغير، وقد يسمونه الجمل عوضاً من الجزم، وله سرّ عجيب في أفلاك الدراري وفي أفلاك البروج وأسماؤها معلومة عند الناس، فيجعلون الجزم الكبير لفلك البروج، ويطرحون ما اجتمع من العدد ثمانية وعشرين ثمانية وعشرين، والجزم الصغير لأفلاك الدراري وطرح عدده تسعة تسعة بطريقة ليس هذا الكتاب موضعها وعلم ليس هو مطلوبنا، وفائدة الأعداد عندنا في طريقنا الذي تكمل به سعادتنا أن المحقق والمريد إذا أخذ حرفاً من هذه أضاف الجزم الصغير إلى الجزم الكبير، مثل أن يضيف إلى القاف الذي هو مائة بالكبير وواحد بالصغير، فيجعل أبداً عدد الجزم الصغير وهو من واحد إلى تسعة فيردّه إلى ذاته، فإن كان واحداً الذي هو حرف الألف بالجزمين والقاف والشين والياء عندنا وعند غيرنا بدل الشين الغين المعجمة بالجزم الصغير فيجعل ذلك الواحد لطيفته المطلوبة منه بأيّ جزم كان.

فإن كان الألف حتى إلى الطاء التي هي بسائط الأعداد فهي مشتركة بين الكبير والصغير في الجزمين، فمن حيث كونها للجزم الصغير ردّها إليك، ومن حيث كونها للجزم الكبير ردّها إلى الواردات المطلوبة لك، فتطلب في الألف التي هي الواحد ياء العشرة وقاف المائة وشين الألف أو غينه على الخلاف، وتمّت مراتب العدد، وانتهى المحيط، ورجع الدور على بدئه، فليس إلاّ أربع نقط: شرق وغرب واستواء وحضيض، أربعة أرباع والأربعة عدد محيط لأنها مجموع البسائط، كما أن هذه العقد مجموع المركبات العددية.

وإن كان اثنان الذي هو الباء بالجزمين والكاف والراء بالجزم الصغير جعلت الباء منك حالك وقابلت بها عالم الغيب والشهادة فوقفت على أسرارها من كونها غيباً وشهادة لا غير، وهي الذات والصفات في الإلهيات، والعلة والمعلول في الطبيعيات لا في العقليات، والشرط والمشروط في العقليات والشرعيات لا في الطبيعيات لكن في الإلهيات.

وإن كان ثلاثة الذي هو الجيم بالجزمين واللام والسين المهملة عند قوم والشين المعجمة عند قوم بالجزم الصغير جعلت الجيم منك عالمك، وقابلت به عالم الملك من كونه ملكاً، وعالم الجبروت من كونه جبروتاً، وعالم الملكوت من كونه ملكوتاً، وبما في الجيم من العدد الصغير يبرز منك وبما فيه، وفي اللام والسين أو الشين من العدد الكبير تبرز وجوه من المطلوب ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٠] والله يضاعف لمن يشاء على حسب الاستعداد، وأقل درجاته الذي يشمل العامة العشر المذكور، والتضعيف موقوف على الاستعداد، وفيه تفاضل رجال الأعمال وكل عالم في طريقه على ذلك، وليس غرضنا في هذا الكتاب ما يعطي الله الحروف من الحقائق إذا تحققت بحقائقها، وإنما غرضنا أن نسوق ما يعطي الله لمنشئها لفظاً أو خطاً إذا تحقق بحقائق هذه الحروف وكوشف على أسرارها فاعلموا ذلك.

وإن كان أربعة الذي هو الدال بالجزمين والميم والتاء بالصغير جعلت الدال منك قواعدك وقابلت بها الذات والصفات والأفعال والروابط، وبما في الدال من العدد بالصغير

يبرز عن أسرار قبولك وبما فيه، وفي الميم والتاء بالكبير تبرز وجوه من المطلوب المقابل والكمال فيها والأكمل بحسب الاستعداد.

وإن كان خمسة الذي هو الهاء بالجزمين والنون والثاء بالصغير جعلت الهاء منك مملكتك في مواطن الحروف ومقارعة الأبطال وقابلت بها الأرواح الخمسة: الحيوانيّ، والخياليّ، والفكريّ، والعقليّ، والقدسيّ. وبما في الهاء من الصغير تبرز من أسرار قبولك وبما فيه، وفي النون والثاء من الكبير تبرز وجوه من المطلوب المقابل والكامل والأكمل أثر حاصل عن الاستعداد.

وإن كان ستة الذي هو الواو بالجزمين والصاد أو السين على الخلاف والخاء بالصغير جعلت الواو منك جهاتك المعلومة وقابلت بها نفيها عن الحق بوجه وإثباتها بوجه وهو علم الصورة، وبما في الواو من أسرار القبول بارز بالصغير وبما فيه، وفي الصاد أو السين والخاء بالكبير تبرز وجوه من المطلوب المقابل، وفي هذا التجلي يعلم المكاشف أسرار الاستواء ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٤] وكل آية أو خبر تثبت له جل وعلا الجهة والتحديد والمقدار والكمال والأكمل فيه على قدر الاستعداد والتأهّب.

وإن كان سبعة وهو الزاي بالجزمين والعين والذال بالصغير جعلت الذي منك صفاتك وقابلت بها صفاته، وبما في الزاي من الصغير يبرز من أسرار قبولك وبما فيه وفي العين والذال من الكبير تبرز وجوه من المطلوب المقابل، وفي هذا التجلي يعلم المكاشف أسرار المسبعات كلها حيث وقعت، والكمال والأكمل فيه على قدر الاستعداد والتأهّب.

وإن كان ثمانية الذي هو الحاء بالجزمين والفاء في قول والصاد في قول والضاد في قول والظاء في قول جعلت الحاء منك ذاتك بما فيها وقابلت بها الحضرة الإلهية مقابلة الصورة صورة المرآة، وبما في الحاء من الصغير يبرز من أسرار قبولك، وبما فيه وفي الفاء والظاء أو الضاد من الكبير تبرز وجوه من المطلوب المقابل، وفي هذا التجلي يعلم المكاشف أسرار أبواب الجنة الثمانية وفتحها لمن شاء الله هنا، وكل حضرة مثمنة في الوجود والكمال والأكمل بحسب الاستعداد.

وإن كان تسعة وهو الطاء بالجزمين والضاد أو الصاد في قول وفي المئين الظاء أو الغين في قول بالجزم الصغير جعلت الطاء منك مراتبك في الوجود التي أنت عليها في وقت نظرك في هذا التجلي وقابلت بها مراتب الحضرة وهو الأبد لها ولك وبما في الطاء من الصغير يبرز من أسرار القبول وبما فيه وفي الضاد أو الصاد والغين أو الظاء من الكبير تبرز وجوه من المطلوب المقابل، وفي هذا التجلي يعلم المكاشف أسرار المنازل والمقامات الروحانية وأسرار الأحدية والكامل والأكمل على حسب الاستعداد، فهذا وجه من الوجوه التي سقنا عدد الحرف من أجله فاعمل عليه، وإن كان ثم وجوه أخر فليتك لو عملت على هذا وهو المفتاح الأوّل، ومن هنا تنفتح لك أسرار الأعداد وأرواحها ومنازلها، فإنّ العدد سرّ من أسرار

الله في الوجود ظهر في الحضرة الإلهية بالقوّة فقال ﷺ: **«إِنَّ للَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مِائَةً إِلاَّ وَاحِداً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»**. وقال: **«إِنَّ للَّهِ سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ»** إلى غير ذلك، وظهر في العالم بالفعل وانسحبت معه القوّة فهو في العالم بالقوّة والفعل، وغرضنا إن مدّ الله في العمر وتراخى الأجل أن نضع في خواص العدد موضوعاً لم نسبق إليه في علمي نبدي فيه من أسرار الأعداد ما تعطيه حقائقه في الحضرة الإلهية، وفي العالم والروابط ما تغتبط به الأسرار وتنال به السعادة في دار القرار.

وأمّا قولنا بسائطه فلسنا نريد بسائط شكل الحرف مثلاً الذي هو ص، وإنما نريد بسائط اللفظ الذي هو الكلمة الدالة عليه وهو الاسم أو التسمية وهو قولك صاد فبسائط هذه اللفظة نريد، وأمّا بسائط الشكل فليس له بسائط من الحروف ولكن له النقص والتمام والزيادة مثل الراء والزاي نصف النون والواو نصف القاف والكاف أربعة أخماس الطاء وأربعة أسداس الظاء والدال خمسي الطاء والياء ذالان واللام يزيد على الألف بالنون وعلى النون بالألف وشبه هذا. وأما بسائط أشكال الحروف، إنما ذلك من النقط خاصة، فعلى قدر نقطه بسائطه، وعلى قدر مرتبة الحرف في العالم من جهة ذاته أو من نعت هو عليه في الحال علوّ منازل نقطه وأفلاكها ونزولها، فالأفلاك التي عنها وجدت بسائط ذلك الحرف المذكور باجتماعها وحركاتها كلها وجد اللفظ به عندنا، وتلك الأفلاك تقطع في فلك أقصى على حسب اتساعها. وأما قولنا فلكه وسني حركة فلكه فنريد به الفلك الذي عنه وجد العضو الذي فيه مخرجه، فإن الرأس من الإنسان أوجده الله تعالىٰ عند حركة مخصوصة من فلك مخصوص من أفلاك مخصوصة، والعنق عن الفلك الذي يلي هذا الفلك المذكور، والصدر عن الفلك الرابع من هذا الفلك الأول المذكور، فكل ما يوجد في الرأس من المعاني والأرواح والأسرار والحروف والعروق، وكل ما في الرأس من هيئة ومعنى عن ذلك الفلك ودورته اثنتا عشرة ألف سنة ودورة فلك العنق وما فيه من هيئة ومعنى، والحروف الحلقية من جملتها إحدى عشرة ألف سنة، ودورة فلك الصدر على حكم ما ذكرناه تسع آلاف سنة وطبعه وعنصره وما يوجد عنه راجع إلى حقيقة ذلك الفلك.

وأما قولنا يتميز في طبقة كذا فاعلموا أن عالم الحروف على طبقات بالنسبة إلى الحضرة الإلهية والقرب منها مثلنا وتعرف ذلك فيهم بما أذكره لك، وذلك أن الحضرة الإلهية التي للحروف عندنا في الشاهد إنما هي في عالم الرقم خط المصحف وفي الكلام التلاوة وإن كانت سارية في الكلام كله تلاوة أو غيرها فهذا ليس هو عشك أن تعرف أن كل لافظ بلفظة إلى الآباد أنه قرآن ولكنه في الوجود بمنزلة حكم الإباحة في شرعنا، وفتح هذا الباب يؤدّي إلى تطويل عظيم فإن مجاله رحب، فعدلنا إلى أمر جزئيّ من وجه صغر فلكه المرقوم وهو المكتوب والملفوظ به خاصة.

واعلم أن الأمور عندنا من باب الكشف إذا ظهر منها في الوجود ما ظهر أن الأول أشرف من الثاني وهكذا على التتابع حتى إلى النصف، ومن النصف يقع التفاضل مثل الأول

حتى إلى الآخر، والآخر والأول أشرف ما ظهر، ثم يتفاضلان على حسب ما وضعا له وعلى حسب المقام، فالأشرف منها أبداً يقدم في الموضع الأشرف، وتبيين هذا أنّ ليلة خمسة عشر في الشرف بمنزلة ليلة ثلاثة عشر وهكذا حتى إلى ليلة طلوع الهلال من أول الشهر وطلوعه من آخر الشهر، وليلة المحاق المطلق لليلة الإبدار المطلق فافهم، فنظرنا كيف ترتب مقام رقم القرآن عندنا؟ وبماذا بدئت به السور من الحروف وبماذا ختمت؟ وبماذا اختصت السور المجهولة في العلم النظريّ المعلومة بالعلم اللدنيّ من الحروف؟ ونظرنا إلى تكرار بسم الله الرحمن الرحيم، ونظرنا في الحروف التي لم تختص بالبداية ولا بالختام، ولا ببسم الله الرحمن الرحيم، وطلبنا من الله تعالىٰ أن يعلمنا بهذا الاختصاص الإلهيّ الذي حصل لهذه الحروف هل هو اختصاص اعتنائيّ من غير شيء كاختصاص الأنبياء بالنبوّة والأشياء الأول كلها، أو هو اختصاص نالته من طريق الاكتساب؟ فكشف لنا عن ذلك كشف إلهام فرأيناه على الوجهين معاً في حق قوم عناية وفي حق قوم جزاء لما كان منهم في أول الوضع والكل لنا ولهم وللعالم عناية من الله تعالىٰ، فلما وقفنا على ذلك جعلنا الحروف التي لم تثبت أولاً ولا آخراً على مراتب الأولية كما نذكره عامة الحروف ليس لها من هذا الاختصاص القرآنيّ حظ وهم: الجيم والضاد والخاء والذال والغين والشين، وجعلنا الطبقة الأولى من الخواص حروف السور المجهولة وهم: الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون، وأعني بهذا صورة اشتراكهم في اللفظ والرقم، فاشتراكها في الرقم اشتراكها في الصورة والاشتراك اللفظيّ إطلاق اسم واحد عليها مثل زيد وزيد آخر فقد اشتركا في الصورة والاسم. وأمّا المقرّر عندنا والمعلوم أن الصاد من المص ومن كهيعص ومن ص ليس كل واحد منهن عين الآخر منهن، ويختلف باختلاف أحكام السورة وأحوالها ومنازلها، وهكذا جميع هذه الحروف على هذه المرتبة وهذه تعمها لفظاً وخطاً.

وأما الطبقة الثانية من الخاصة وهم خاصة الخاصة فكل حرف وقع في أوّل سورة من القرآن مجهولة وغير مجهولة وهو حرف الألف والياء والباء والسين والكاف والطاء والقاف والتاء والواو والصاد والحاء والنون واللام والهاء والعين.

وأما الطبقة الثالثة من الخواص وهم الخلاصة فهم الحروف الواقعة في أواخر السور مثل النون والميم والراء والباء والدال والزاي والألف والطاء والياء والواو والهاء والظاء والثاء واللام والفاء والسين. وإن كان الألف فيما يرى خطاً ولفظاً في ركزاً ولزاماً ومن اهتدى فما أعطانا الكشف إلاّ الذي قبل ذلك الألف فوقفنا عنده وسميناه آخراً كما شهدنا هناك وأثبتنا الألف كما رأينا هنا ولكن في فصل آخر لا في هذا الفصل، فإنا لا نزيد في التقييد في هذه الفصول على ما نشاهده بل ربما نرغب في نقص شيء منها مخافة التطويل، فنسعف في ذلك من جهة الرقم واللفظ ونعطي لفظاً يعمّ تلك المعاني التي كثرت ألفاظها فنلقيه فلا يخلّ بشيء من الإلقاء ولا ننقص، ولا يظهر لذلك الطول الأول عين فينقضي المرغوب لله الحمد.

وأمّا الطبقة الرابعة من الخواص وهم صفاء الخلاصة وهم حروف بسم الله الرحمن الرحيم وما ذكرت إلاّ حيث ذكرها رسول الله ﷺ على حد ما ذكرها الله به بالوجهين من الوحي وهو وحي القرآن وهو الوحي الأول، فإنّ عندنا من طريق الكشف أن الفرقان حصل عند رسول الله ﷺ قرآناً مجملاً غير مفصل الآيات والسور ولهذا كان عليه السلام يعجل به حين كان ينزل عليه به جبريل عليه السلام بالفرقان فقيل له: ولا تعجل بالقرآن الذي عندك فتلقيه مجملاً فلا يفهم عنك من قبل أن يقضى إليك وحيه فرقاناً مفصلاً، وقل ربِّ زدني علماً بتفصيل ما أجملته فيّ من المعاني، وقد أشار من باب الأسرار فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ﴾ [سورة الدخان: الآية ٣] ولم يقل بعضه، ثم قال: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤] وهذا هو وحي الفرقان وهو الوجه الآخر من الوجهين، وسيأتي الكلام على بسم الله الرحمن الرحيم في بابه الذي أفردت له في هذا الكتاب. واعلموا أن بسملة سورة براءة هي التي في النمل فإن الحق تعالىٰ إذا وهب شيئاً لم يرجع فيه ولا يردّه إلى العدم، فلما خرجت رحمة براءة وهي البسملة حكم التبريّ من أهلها برفع الرحمة عنهم فوقف الملك بها لا يدري أين يضعها لأن كل أمة من الأمم الإنسانية قد أخذت رحمتها بإيمانها بنبيها فقال: أعطوا هذه البسملة للبهائم التي آمنت بسليمان عليه السلام وهي لا يلزمها إيمان إلاّ برسولها، فلما عرفت قدر سليمان وآمنت به أعطيت من الرحمة الإنسانية حظاً وهو بسم الله الرحمن الرحيم الذي سلب عن المشركين وفي هذه السورة الجساسة.

وأما الطبقة الخامسة وهي عين صفاء الخلاصة فذلك حرف الباء فإنه الحرف المقدم لأنه أول البسملة في كل سورة والسورة التي لم يكن فيها بسملة ابتدئت بالباء فقال تعالىٰ: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١] قال لنا بعض الإسرائيليين من أحبارهم: ما لكم في التوحيد حظ لأن سور كتابكم بالباء، فأجبته: ولا أنتم فإن أول التوراة باء فأفحم، ولا يتمكن إلاّ هذا فإن الألف لا يبتدأ بها أصلاً، فما وقع من هذه الحروف في مبادي السور قلنا فيه له بداية الطريق، وما وقع آخراً قلنا له غاية الطريق، وإن كان من العامة قلنا له وسط الطريق لأن القرآن هو الصراط المستقيم.

وأمّا قولنا مرتبته الثانية حتى إلى السابعة فنريد بذلك بسائط هذه الحروف المشتركة في الأعداد، فالنون بسائطه اثنان في الألوهية، والميم بسائطه ثلاثة في الإنسان، والجيم والواو والكاف والقاف بسائطه أربعة في الجن، والذال والزاي والصاد والعين والضاد والسين والذال والغين والشين بسائطه خمسة في البهائم، والألف والهاء واللام بسائطه ستة في النبات، والباء والحاء والطاء والياء والفاء والراء والتاء والثاء والخاء والظاء بسائطه سبعة في الجماد. وأمّا قولنا حركته معوجة أو مستقيمة أو منكوسة أو ممتزجة أو أفقية فأريد بالمستقيمة كل حرف حرّك همتك إلى جانب الحق خاصة من جهة السلب إن كنت عالماً، ومن جهة ما يشهد إن كنت مشاهداً، والمنكوسة كل حرف حرّك الهمة إلى الكون وأسراره، والمعوجة وهي الأفقية كل حرف حرّك الهمة إلى تعلق المكوّن بالمكوّن، والممتزجة كل

حرف حرّك الهمة إلى معرفة أمرين مما ذكرت لك فصاعداً وتظهر في الرقم في الألف والميم المعرق والحاء والنون وما أشبه هؤلاء. وأما قولنا له الأعراف والخلق والأحوال والكرامات أو الحقائق والمقامات والمنازلات فاعلموا أن الشيء لا يعرف إلاّ بوجهه أي بحقيقته، فكل ما لا يعرف الشيء إلاّ به فذلك وجهه، فنقط الحرف وجهه الذي يعرف به، والنقط على قسمين: نقط فوق الحرف ونقط تحته، فإذا لم يكن للشيء ما يعرف به عرف بنفسه مشاهدة وبضده نقلاً وهي الحروف اليابسة، فإذا دار الفلك أي فلك المعارف حدثت عنه الحروف المنقوطة من فوق، وإذا دار فلك الأعمال حدثت عنه الحروف المنقوطة من أسفل، وإذا دار فلك المشاهدة حدثت عنه الحروف اليابسة غير المنقوطة، ففلك المعارف يعطي الخلق والأحوال والكرامات، وفلك الأعمال يعطي الحقائق والمقامات والمنازلات، وفلك المشاهدة يعطي البراءة من هذا كله، قيل لأبي يزيد: كيف أصبحت؟ قال: لا صباح لي ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة وأنا لا صفة لي، وهذا مقام الأعراف. وأما قولنا خالص أو ممتزج فالخالص الحرف الموجود عن عنصر واحد، والممتزج الموجود عن عنصرين فصاعداً.

وأمّا قولنا كامل أو ناقص فالكامل هو الحرف الذي وجد عن تمام دورة فلكه، والناقص الذي وجد عن بعض دورة فلكه، وطرأت على الفلك علة أوقفته فنقص عمّا كان يعطيه كمال دورته كالدودة في عالم الحيوان التي ما عندها سوى حاسة اللمس فغذاؤها من لمسها كالواو مع القاف، والزاي مع النون.

وأمّا قولنا يرفع من اتصل به نريد كل حرف إذا وقعت على سرّه ورزقت التحقق به والاتحاد تميزت في العالم العلويّ.

وأمّا قولنا مقدس أي عن التعلق بغيره فلا يتصل في الخط بحرف آخر وتتصل الحروف به فهو منزّه الذات تمدّها ستة أفلاك عالية الأوج عنها وجدت الجهات هذه الستة الأحرف بحر عظيم لا يدرك قعره فلا يعرف حقيقتها إلاّ الله وهي مفاتح الغيب، وندرك من باب الكشف أثرها المنوط بها وهي: الألف والواو والدال والذال والراء والزاي. وأما قولنا مفرد ومثنى ومثلث ومربع ومؤنس وموحش فنريد بالمفرد إلى المربع ما نذكره وذلك أن من الأفلاك التي عنها توجد هذه الحروف ما له دورة واحدة فذلك قولنا مفرد ودورتان فذلك المثنى هكذا إلى المربع.

وأما المؤنس والموحش فالدورة تأنس بأختها الشيء يألف شكله قال تعالىٰ: ﴿لِتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [سورة الروم: الآية ٢١] ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [سورة الروم: الآية ٢١] فالعارف يألف الحال ويأنس به، نودي عليه السلام في ليلة إسرائه في استيحاشه بلغة أبي بكر فأنس بصوت أبي بكر. خلق رسول الله ﷺ وأبو بكر من طينة واحدة فسبق محمد ﷺ وصلّى أبو بكر ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٠] فكان كلامهما كلامه سبحانه، فلم يعد المرتبة وعدي الخطاب إلى المرتبة الأخرى

فقال كأنه مبتدىء وهو عاطف على هذا الكلام ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] فأرسلها فمن الناس من قطعها ومنهم من وصلها، في هذا مقام الإثبات وبقاء الرسم وظهور العين وسلطان الحقائق وتمشية العدل من باب الفضل والطول والموحش محو لا محق صاحب علة ترتقي فتحقق ما ذكرناه.

وأمّا قولنا له الذات والصفات والأفعال على حسب الوجوه فأيّ حرف له وجه واحد كان له من هذه الحضرات حضرة واحدة أي شيء واحد على حسب علوّه ونزوله وكذلك إذا تعدّدت الوجوه.

وأما قولنا له من الحروف فإنما أعني الحقائق المتممة لذاته من جهة مّا.

وأمّا قولنا له من الأسماء فنريد به الأسماء الإلهية التي هي الحقائق القديمة التي عنها ظهرت حقائق بسائط ذلك الحرف لا غير، ولها منافع كثيرة عالية الشأن عند العارفين إذا أرادوا التحقق بها حرّكوا الوجود من أوله إلى آخره، فهي لهم هنا خصوص وفي الآخرة عموم، بها يقول المؤمن في الجنة للشيء يريده كن فيكون. فهذه نبذ من معاني عالم الحروف قليلة على أوجز ما يمكن وأخصره، وفيها تنبيه لأصحاب الروائح والذوق. انتهى الجزء السابع والحمد لله.

(الجزء الثامن)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الفصل الثاني
في معرفة الحركات التي تتميز بها الكلمات
وهي الحروف الصغار:

[نظم: الخفيف]

حـركـاتُ الـحـروف سـتٌّ ومـنـهـا   أظـهـر الله مـثـلَـهـا الـكـلـمـاتِ
هـي رفـعٌ وثُـمَّ نـصـبٌ وخـفـضٌ   حـركـاتٌ لـلأحـرف الـمُـعْـرَبَـاتِ
وهـي فـتـحٌ وثـم ضـمٌّ وكـسـرٌ   حـركـاتٌ لـلأحـرف الـثـابـتـاتِ
وأصـولُ الـكـلام حـذفٌ فـمـوتٌ   أو سـكـونٌ يـكـون عـن حَـرَكَـاتِ
هـذه حـالـةُ الـعـوالـم فـانـظـرْ   لـحـيـاةٍ غـريـبـةٍ فـي مَـوَاتِ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أنا كنا شرطنا أن نتكلم في الحركات في فصل الحروف لم أطلق عليها الحروف الصغار، ثم إنه رأينا أنه لا فائدة في امتزاج عالم الحركات بعالم الحروف إلاَّ بعد نظام الحروف وضم بعضها إلى بعض، فتكون كلمة عند ذلك من الكلم وانتظامها ينظر إلى قوله تعالىٰ في خلقنا: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] وهو ورود الحركات على هذه الحروف بعد تسويتها، فتقوم نشأة أخرى تسمى كلمة كما يسمى الشخص الواحد منا إنساناً، فكهذا انتشأ عالم الكلمات والألفاظ من عالم الحروف، فالحروف للكلمات موادّ كالماء والتراب والنار والهواء لإقامة نشأة أجسامنا، ثم نفخ الروح فيه

الأمريّ فكان إنساناً، كما قبلت الرياح عند استعدادها نفخ الروح الأمريّ فكان جاناً، كما قبلت الأنوار عند استعدادها نفخ الروح فكانت الملائكة، ومن الكلم ما يشبه الإنسان وهو أكثرها، ومنها ما يشبه الملائكة والجن وكلاهما جن وهو أقلها كالباء الخافضة واللام الخافضة والمؤكدة، وواو القسم وبائه وتائه، وواو العطف وفائه، والقاف من ق، والشين من ش، والعين من ع، إذا أمرت بها من الوقاية والوشي والوعي، وما عدا هذا الصنف المفرد فهو أشبه شيء بالإنسان، وإن كان المفرد يشبه باطن الإنسان فإنّ باطن الإنسان جانّ في الحقيقة، فلما كان عالم الحركات لا يوجد إلاَّ بعد وجود الذوات المتحرّكة بها وهي الكلمات المنشآت من الحروف أخرنا الكلام عليها عن فصل الحروف إلى فصل الألفاظ.

ولما كانت الكلمات التي أردنا أن نذكرها في هذا الباب عن جملة الألفاظ أردنا أن نتكلم في الألفاظ على الإطلاق وحصر عالمها ونسبة هذه الحركات منها بعدما نتكلم أولاً على الحركات على الإطلاق، ثم بعد ذلك نتكلم على الحركات المختصة بالكلمات التي هي حركات اللسان وعلاماتها التي هي حركات الخط، ثم بعد ذلك نتكلم على الكلمات التي توهم التشبيه كما ذكرناه، ولعلك تقول هذا العالم المفرد من الحروف الذي قبل الحركة دون تركيب كباء الخفض وشبهه من المفردات كنت تلحقه بالحروف لانفراده فإن هذا هو باب التركيب وهو الكلمات، قلنا ما نفخ في باء الخفض الروح وأمثاله من مفردات من الحروف أرواح الحركات ليقوموا بأنفسهم كما قام عالم الحروف وحده دون الحركات وإنما نفخ فيه الروح من أجل غيره فهو مركب، ولذلك لا يعطي ذلك حتى يضاف إلى غيره فيقال بالله وتالله ووالله لأعبدنّ، وسأعبد ﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٣] وما أشبه ذلك، ولا معنى له إذا أفردته غير معنى نفسه.

وهذه الحقائق التي تكون عن التركيب توجد بوجوده وتعدم بعدمه، فإن الحيوان حقيقته لا توجد أبداً إلاَّ عند تألف حقائق مفردة معقولة في ذواتها وهي الجسمية والتغذية والحسّ، فإذا تألف الجسم والغذاء والحسّ ظهرت حقيقة الحيوان ليس هي الجسم وحده ولا الغذاء وحده ولا الحسّ وحده، فإذا أسقطت حقيقة الحسّ وألفت الجسم والغذاء قلت نبات حقيقة ليست الأولى. ولما كانت الحروف المفردة التي ذكرناها مؤثرة في هذا التركيب الآخر اللفظيّ الذي ركبناه لإبراز حقائق لا تعقل عند السامع إلاَّ بها لهذا شبهناها لكم للتوصل بالعالم الروحانيّ كالجنّ، ألا ترى الإنسان يتصرف بين أربع حقائق: حقيقة ذاتية، وحقيقة ربانية، وحقيقة شيطانية، وحقائق ملكية، وسيأتي ذكر هذه الحقائق مستوفى في باب المعرفة للخواطر من هذا الكتاب، وهذا في عالم الكلمات دخول حرف من هذه الحروف على عالم الكلمات فتحدث فيه ما تعطيه حقيقتها، فافهم هذا فهمنا الله وإياكم سرائر كلمه.

نكتة وإشارة: قال رسول الله ﷺ: «**أوتيتُ جَوَامِعَ الكَلِم**» وقال تعالىٰ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧١] وقال: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [سورة التحريم: الآية ١٢] ويقال: قطع الأمير يد السارق، وضرب الأمير اللص، فمن ألقي عن أمره شيء فهو

ألقاه، فكان الملقي محمد عليه السلام ألقي عن الله كلمات العالم بأسره من غير استثناء شيء منه البتة، فمنه ما ألقاه بنفسه كأرواح الملائكة وأكثر العالم العلويّ، ومنه أيضاً ما ألقاه عن أمره فيحدث الشيء عن وسائط كبرّة الزراعة ما تصل إلى أن تجري في أعضائك روحاً مسبحاً وممجداً إلاّ بعد أدوار كثيرة وانتقالات في عالم، وتنقلب في كل عالم من جنسه على شكل أشخاصه، فرجع الكل في ذلك إلى من أوتي جوامع الكلم، فنفخ الحقيقة الإسرافيلية من المحمدية المضافة إلى الحق نفخها كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ [سورة النمل: الآية ٨٧] بالنون وقرىء بالياء وضمها وفتح الفاء، والنافخ إنما هو إسرافيل عليه السلام، والله قد أضاف النفخ إلى نفسه، فالنفخ من إسرافيل والقبول من الصور، وسرّ الحق بينهما هو المعنى بين النافخ والقابل كالرابط من الحروف بين الكلمتين، وذلك هو سرّ الفعل الأقدس الأنزه الذي لا يطلع عليه النافخ ولا القابل، فعلى النافخ أن ينفخ وعلى النار أن تتقد والسراج أن ينطفىء، والاتقاد والانطفاء بالسرّ الإلهي فنفخ فيها فتكون طائراً بإذن الله.

قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٨] والنفخ واحد والنافخ واحد، والخلاف في المنفوخ فيه بحكم الاستعداد وقد خفي السرّ الإلهيّ بينهما في كل حالة، فتفطنوا يا إخواننا لهذا الأمر الإلهيّ واعلموا أن الله عزيز حكيم لا يتوصل أحد إلى معرفة كنه الألوهة أبداً، ولا ينبغي لها أن تدرك عزت وتعالت علوّاً كبيراً، فالعالم كله من أوله إلى آخره مقيد بعضه ببعضه، عابد بعضه بعضاً، معرفتهم منهم إليهم، وحقائقهم منبعثة عنهم بالسرّ الإلهيّ الذي لا يدركونه وعائدة عليهم، فسبحان من لا يجارى في سلطانه، ولا يدانى في إحسانه، لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم.

فبعد فهم جوامع الكلم الذي هو العلم الإحاطيّ، والنور الإلهيّ، الذي اختصّ به سرّ الوجود وعمد القبة وساق العرش وسبب ثبوت كل ثابت محمد ﷺ فاعلموا وفقكم الله أن جوامع الكلم من عالم الحروف ثلاثة: ذات غنية قائمة بنفسها، وذات فقيرة إلى هذه الغنية غير قائمة بنفسها ولكن يرجع منها إلى الذات الغنية وصف تتصف به يطلبها بذاته فإنه ليس من ذاتها إلاّ بمصاحبة هذه الذات لها، فقد صحّ أيضاً من وجه الفقر للذات الغنية القائمة بنفسها كما صحّ للأخرى، وذات ثالثة رابطة بين ذاتين غنيتين أو ذاتين فقيرتين أو ذات فقيرة وذات غنية وهذه الذات الرابطة فقيرة لوجود هاتين الذاتين ولا بدّ فقد قام الفقر والحاجة بجميع الذوات من حيث افتقار بعضها إلى بعض وإن اختلفت الوجوه حتى لا يصحّ الغنى على الإطلاق إلاّ لله تعالىٰ الغنيّ الحميد من حيث ذاته، فلنسمّ الغنية ذاتاً والذات الفقيرة حدثاً والذات الثالثة رابطة فنقول: الكلم محصور في ثلاث حقائق: ذات وحدث ورابطة، وهذه الثلاثة جوامع الكلم فيدخل تحت جنس الذات أنواع كثيرة من الذوات، وكذلك تحت جنس كلمة الحدث والرابط، ولا نحتاج إلى تفصيل هذه الأنواع ومساقها في هذا الكتاب، وقد اتسع القول في هذه الأنواع في تفسير القرآن لنا، وإن شئت أن تقيس على ما ذكرناه فانظر في

كلام النحويين وتقسيمهم الكلم، وفي الاسم والفعل والحرف، وكذلك المنطقيين فالاسم عندهم هو الذات عندنا، والفعل عندهم هو الحدث عندنا، والحرف عندهم هو الرابطة عندنا، وبعض الأحداث عندهم بل كلها أسماء كالقيام والقعود والضرب، وجعلوا الفعل كل كلمة مقيدة بزمان معين، ونحن إنما قصدنا بالكلمات الجري على الحقائق بما هي عليه، فجعلنا القيام وقام ويقوم وقم حدثاً، وفصلنا بينهم بالزمان المبهم والمعين، وقد تفطن لذلك الزجاجيّ فقال: والحدث الذي هو القيام مثلاً هو المصدر يريد هو الذي صدر من المحدث وهو اسم الفعل يريد أن القيام هذه الكلمة اسم لهذه الحركة المخصوصة من هذا المتحرّك الذي بها سمي قائماً، فتلك الهيئة التي سميت قياماً بالنظر إلى حال وجودها، وقام بالنظر إلى حال انقضائها وعدمها، ويقوم وقم بالنظر إلى توهّم وقوعها، ولا توجد أبداً إلاّ في متحرّك فهي غير قائمة بنفسها. ثم قال: والفعل يريد لفظة قام ويقوم لا نفس الفعل الصادر من المتحرك قائماً مثلاً مشتق منه الهاء تعود على لفظة اسم الفعل الذي هو القيام مأخوذ يعني قام ويقوم من القيام، لأن النكرة عنده قبل المعرفة، والمبهم نكرة والمختص معرفة، والقيام مجهول الزمان، وقام مختص الزمان ولو دخلت عليه أن، ويقوم مختص الزمان ولو دخلت عليه لم، وهذا مذهب من يقول بالتحليل أنه فرع عن التركيب، وأن المركب وجد مركباً، وعلى مذهب من يقول بالتفريق وأن التركيب طارىء وهو الذي يعضد في باب النقل أكثر، فإن الأظهر أن المعرفة قبل النكرة، وأن لفظة زيد إنما وضعت لشخص معين، ثم طرأ التنكير بكونه شورك في تلك اللفظة فاحتيج إلى التعريف بالنعت والبدل وشبه ذلك، فالمعرفة أسبق من النكرة عند المحققين وإن كان لهٰؤلئك وجه ولكن هذا أليق.

وأمّا نحن ومن جرى مجرانا ورقي مرقانا الأشمخ فغرضنا أمر آخر ليس هو قول أحدهما مطلقاً إلاّ بنسب وإضافات ونظر إلى وجوه ما يطول ذكرها، ولا تمسّ الحاجة إليها في هذا الكتاب إذ قد ذكرناها في غيره من تواليفنا، فلنبين أن الحركات على قسمين: حركة جسمانية وحركة روحانية، والحركة الجسمانية لها أنواع كثيرة سيأتي ذكرها في داخل الكتاب، وكذلك الروحانية ولا نحتاج منها في هذا الكتاب إلاّ إلى حركات الكلام لفظاً وخطاً، فالحركات الرقمية كالأجسام، والحركات اللفظية لها كالأرواح، والمتحركات على قسمين: متمكن ومتلوّن، فالمتلوّن كل متحرّك تحرّك بجميع الحركات أو ببعضها فالمتحرّك بجميعها كالدال من زيد والمتحرك ببعضها كالأسماء التي لا تنصرف في حال كونها لا تنصرف فإنها قد تنصرف في التنكير والإضافة كالدال من أحمد، والمتمكن كل متحرّك ثبت على حركة واحدة ولم ينتقل عنها كالأسماء المبنية مثل هؤلاء وحذام، وكحروف الأسماء المعربة التي قبل حرف الإعراب منها كالزاي والياء من زيد وشبهه.

واعلم أن أفلاك الحركات هي أفلاك الحروف التي تلك الحركات عليها لفظاً وخطاً فانظره هناك، ولها بسائط وأحوال ومقامات كما كان للحروف نذكرها في كتاب المبادي المخصوص بعلم الحروف إن شاء الله، وكما ثبت التلوين والتمكين للذات كذلك ثبت

للحدث والرابط ولكن في الرفع والنصب وحذف الوصف وحذف الرسم، ويكون تلوين تركيب الرابط لأمرين بالموافقة والاستعارة والاضطرار، فبالموافقة وهو الاتباع هذا أبنم، ورأيت أبنماً، وعجبت من أبنم، وبالاستعارة حركة النقل كحركة الدال من قد أفلح في قراءة من نقل، وبالاضطرار التحريك لالتقاء الساكنين، وقد تكون حركة الاتباع الموافق في التركيب الذاتيّ وإن كان أصل الحروف كلها التمكين وهو البناء مثل الفطرة فينا، وهنا أسرار لمن تفطن ولكن الوالدان ينقلان عن الفطرة المقيدة لا الفطرة المطلقة، كذلك الحروف متمكنة في مقامها لا تختل ثابتة مبنية كلها ساكنة في حالها، فأراد اللافظ أن يوصل إلى السامع ما في نفسه فافتقر إلى التلوين فحرك الفلك الذي عنه توجد الحركات عند أبي طالب وعند غيره هو المتقدم واللفظ أو الرقم عن ذلك الفلك وهذا موضع طلب لمريدي معاينة الحقائق.

وأما نحن فلا نقول بقول أبي طالب ونقتصر ولا بقول الآخر ونقتصر، فإن كل واحد منهما قال حقاً من جهة ما ولم يتمم فأقول: إن الحقائق الأول الإلهية تتوجه على الأفلاك العلوية بالوجه الذي تتوجه به على محال آثارها عند غير أبي طالب المكيّ وتقبل كل حقيقة على مرتبتها، ولما كانت تلك الأفلاك في اللطافة أقرب عند غير أبي طالب إلى الحقائق كان قبولها أسبق لعدم الشغل وصفاء المحل من كدورات العلائق فإنه نزيه فلهذا جعلها السبب المؤثر، ولو عرف هذا القائل أن تلك الحقائق الأول إنما توجهت على ما يناسبها في اللطافة وهو أنفاس الإنسان فتحرك الفلك العلويّ الذي يناسبه عالم الأنفاس وهذا مذهب أبي طالب، ثم يحرّك ذلك الفلك العلويّ العضو المطلوب بالغرض المطلوب بتلك المناسبة التي بينهما، فإن الفلك العلويّ وإن لطف فهو في أول درج الكثافة وآخر درج اللطافة بخلاف عالم أنفاسنا واجتمعت المذاهب فإن الخلاف لا يصحّ عندنا ولا في طريقنا لكنه كاشف، واكشف فتفهم ما أشرنا إليه وتحققه فإنه سرّ عجيب من أكبر الأسرار الإلهية، وقد أشار إليه أبو طالب في كتاب القوت له.

ثم نرجع ونقول: فافتقر المتكلم إلى التلوين ليبلغ إلى مقصده فوجد عالم الحروف والحركات قابلاً لما يريده منها لعلمها أنها لا تزول عن حالها ولا تبطل حقيقتها فيتخيل المتكلم أنه قد غيّر الحرف وما غيره، برهان ذلك أن تفني نظرك في دال زيد من حيث هو دال وانظر فيه من حيث تقدّمه قام مثلاً وتفرغ إليه أو أي فعل لفظي كان ليحدث به عنه فلا يصحّ لك إلاّ الرفع فيه خاصة فما زال عن بنائه الذي وجد عليه، ومن تخيل أن دال الفاعل هو دال المفعول أو دال المجرور فقد خلط واعتقد أن الكلمة الأولى هي عين الثانية لا مثلها، ومن اعتقد هذا في الوجود فقد بعد عن الصواب، وربما يأتي من هذا الفصل في الألفاظ شيء إن قدر وألهمناه، فقد تبين لك أن الأصل الثبوت لكل شيء، ألا ترى العبد حقيقة ثبوته وتمكنه إنما هو في العبودة، فإن اتصف يوماً ما بوصف ربانيّ فلا تقل هو معار عنده، ولكن انظر إلى الحقيقة التي قبلت ذلك الوصف منه تجدها ثابتة في ذلك الوصف كلما ظهر عينها تحلت بتلك الحلية، فإياك أن تقول قد خرج هذا عن طوره بوصف ربه فإن الله تعالىٰ ما نزع وصفه

وأعطاه إياه وإنما وقع الشبه في اللفظ والمعنى معاً عند غير المحقق، فيقول هذا هو هذا وقد علمنا أن هذا ليس هذا، وهذا ينبغي لهذا ولا ينبغي لهذا، فليكن عند من لا ينبغي له عارية وأمانة، وهذا قصور وكلام من عمي عن إدراك الحقائق، فإن هذا ولا بدّ ينبغي له هذا فليس الرب هو العبد وإن قيل في الله سبحانه إنه عالم وقيل في العبد إنه عالم، وكذلك الحيّ والمريد والسميع والبصير وسائر الصفات والإدراكات، فإياك أن تجعل حياة الحق هي حياة العبد في الحد فتلزمك المحالات، فإذا جعلت حياة الرب على ما تستحقه الربوبية وحياة العبد على ما يستحقه الكون فقد انبغى للعبد أن يكون حياً، ولو لم ينبغ له ذلك لم يصحّ أن يكون الحق آمراً ولا قاهراً إلاّ لنفسه، ويتنزّه تعالىٰ أن يكون مأموراً أو مقهوراً، فإذا ثبت أن يكون المأمور والمقهور أمراً آخر وعيناً أخرى فلا بدّ أن يكون حياً عالماً مريداً متمكناً ممّا يراد به هكذا تعطي الحقائق، فثمّ على هذا حرف لا يقبل سوى حركته كالهاء من هذا، وثم حرف يقبل الحركتين والثلاث من جهة صورته الجسمية والروحية كالهاء في الضمير له ولها وبه كما تقبل أنت بنفسك الخجل وبصورتك حمرته، وتقبل بنفسك الوجل وبصورتك صفرته، والثوب يقبل الألوان المختلفة وما بقي الكشف إلاّ عن الحقيقة التي تقبل الأعراض هل هي واحدة أو شأنها شأن الأعراض في العدم والوجود؟ وهذا مبحث للنظّار.

وأما نحن فلا نحتاج إليه ولا نلتفت فإنه بحر عميق يحال المريد على معرفته من باب الكشف عليه، فإنه بالنظر إلى الكشف يسير، وبالنظر إلى العقل عسير. ثم أرجع وأقول إن الحرف إذا قامت به حقيقة الفاعلية بتفريغ الفعل على البنية المخصوصة في اللسان تقول قال الله، وإذا قامت به حقيقة تطلبه يسمّى عندها منصوباً بالفعل أو مفعولاً كيف شئت، وذلك بأن تطلب منه العون أو تقصده كما طلب مني القيام بما كلفني، فمن أجل أنه لم يعطني إلاّ بعد سؤالي فكان سؤالي أو حالي القائم مقام سؤالي بوعده جعله يعطيني، قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم: الآية ٤٧] فسؤالي إياه من أمره إياي به، وإعطاؤه إياي من طلبي منه فتقول: دعوت الله فنصبت حرف الهاء وقد كانت مرفوعة فعلمنا بالحركات أن الحقائق قد اختلفت، بهذا ثبت الاصطلاح في لحن بعض الناس، وهذا إذا كان المتكلم به غيرنا، وأما المتكلم فالحقائق يعلم أولاً ويجريها في أفلاكها على ما تقتضيه بالنظر إلى أفلاك مخصوصة، وكل متكلم بهذه المثابة وإن لم يعلم بهذا التفصيل وهو عالم به من حيث لا يعلم أنه عالم به، وذلك أن الأشياء المتلفظ بها إما لفظ يدل على معنى وهو مقام الباحث في اللفظ ما مدلوله ليرى ما قصد به المتكلم من المعاني، وإما معنى يدل عليه بلفظ ما وهو المخبر عمّا تحقق وأضر بنا عن اللحن فإن أفلاكه غير هذه الأفلاك، وإسقاط الحركات من الخط في حق قوم دون قوم مّا سببه ومن أين هو هذا كله في كتاب المبادي إذ كان القصد بهذا الكتاب الإيجاز والاختصار جهد الطاقة. ولو اطلعتم على الحقائق كما اطلعنا عليها وعلى عالم الأرواح والمعاني لرأيتم كل حقيقة وروح ومعنى على مرتبته فافهم والزم.

قد ذكرنا من بعض ما تعطيه حقائق الحركات ما يليق بهذا الكتاب فلنقبض العنان

ولنرجع إلى معرفة الكلمات التي ذكرناها مثل كلمة الاستواء والأين وفي وكان والضحك والفرح والتبشبش والتعجب والملل والمعية والعين واليد والقدم والوجه والصورة والتحوّل والغضب والحياء والصلاة والفراغ، وما ورد في الكتاب العزيز والحديث من هذه الألفاظ التي توهم التشبيه والتجسيم، وغير ذلك مما لا يليق بالله تعالىٰ في النظر الفكريّ عند العقل خاصة فنقول: لما كان القرآن منزلاً على لسان العرب ففيه ما في اللسان العربي، ولما كانت الأعراب لا تعقل ما لا يعقل إلاً حتى ينزل لها في التوصيل بما تعقله لذلك جاءت هذه الكلمات على هذا الحد كما قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٩] ولما كانت الملوك عند العرب تجلس عبدها المقرّب المكرّم منها بهذا القدر في المساحة فعقلت من هذا الخطاب قرب محمد ﷺ من ربه ولا تبالي بما فهمت من ذلك سوى القرب، فالبرهان العقلي ينفي الحد والمسافة حتى يأتي الكلام في تنزيه الباري عما تعطيه هذه الألفاظ من التشبيه في الباب الثالث الذي يلي هذا الباب، ولما كانت الألفاظ عند العرب على أربعة أقسام: ألفاظ متباينة وهي الأسماء التي لم تتعد مسماها كالبحر والمفتاح والمقصان. وألفاظ متواطئة وهي كل لفظة قد تووطىء عليها أن تطلق على آحاد نوع مّا من الأنواع كالرجل والمرأة. وألفاظ مشتركة وهي كل لفظ على صيغة واحدة يطلق على معان مختلفة كالعين والمشتري والإنسان. وألفاظ مترادفة وهي ألفاظ مختلفة الصيغ تطلق على معنى واحد كالأسد والهزبر والغضنفر وكالسيف والحسام والصارم وكالخمر والرحيق والصهباء والخندريس. هذه هي الأمهات مثل البرودة والحرارة واليبوسة والرطوبة في الطبائع. وثَم ألفاظ متشابهة ومستعارة ومنقولة وغير ذلك وكلها ترجع إلى هذه الأمهات بالاصطلاح، فإن المشتبه وإن قلت فيه إنه قبيل خامس من قبائل الألفاظ مثل النور يطلق على المعلوم وعلى العلم لشبه العلم به من كشف عين البصيرة به المعلوم كالنور مع البصر في كشف المرئيّ المحسوس، فلما كان هذا الشبه صحيحاً سمي العلم نوراً ويلحق بالألفاظ المشتركة، فإذن لا ينفك لفظ من هذه الأمهات وهذا هو حد كل ناظر في هذا الباب، وأما نحن فنقول بهذا معهم وعندنا زوائد من باب الاطلاع على الحقائق من جهة لم يطلعوا عليها علمنا منها أن الألفاظ كلها متباينة وإن اشتركت في النطق، ومن جهة أخرى أيضاً كلها مشتركة وإن تباينت في النطق، وقد أشرنا إلى شيء من هذا فيما تقدم من هذا الباب في آخر فصل الحروف.

فإذا تبين هذا فاعلم أيها الوليّ الحميم أن المحقق الواقف العارف بما تقتضيه الحضرة الإلهية من التقديس والتنزيه ونفي المماثلة والتشبيه لا يحجبه ما نطقت به الآيات والأخبار في حق الحق تعالىٰ من أدوات التقييد بالزمان والجهة والمكان كقوله عليه السلام: أين الله؟ فأشارت إلى السماء فأثبت لها الإيمان، فسأل ﷺ بالظرفية عما لا يجوز عليه المكان في النظر العقليّ والرسول أعلم بالله، والله أعلم بنفسه، وقال في الظاهر: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة الملك: الآية ١٦] بالفاء. وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٠] و﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] ﴿مَا يَكُونُ

مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] ويفرح بتوبة عبده ويعجب من الشاب ليست له صبوة، وما أشبه ذلك من الأدوات اللفظية.

وقد تقرّر بالبرهان العقليّ خلقه الأزمان والأمكنة والجهات والألفاظ والحروف والأدوات والمتكلم بها والمخاطبين من المحدثات كل ذلك خلق لله تعالىٰ، فيعرف المحقق قطعاً أنها مصروفة إلى غير الوجه الذي يعطيك التشبيه والتمثيل، وأن الحقيقة لا تقبل ذلك أصلاً، ولكن تتفاضل العلماء السالمة عقائدهم من التجسيم، فإن المشبهة والمجسمة قد يطلق عليهم علماء من حيث علمهم بأمور غير هذا، فتفاضل العلماء في هذا الصرف عن هذا الوجه الذي لا يليق بالحق تعالىٰ فطائفة لم تشبه ولم تجسم، وصرفت علم ذلك الذي ورد في كلام الله ورسله إلى الله تعالىٰ، ولم تدخل لها قدم في باب التأويل، وقنعت بمجرّد الإيمان بما يعلمه الله في هذه الألفاظ والحروف من غير تأويل ولا صرف إلى وجه من وجوه التنزيه بل قالت لا أدري جملة واحدة، ولكني أحيل إبقاءه على وجه التشبيه لقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] لا لما يعطيه النظر العقلي. وعلى هذا فضلاء المحدثين من أهل الظاهر السالمة عقائدهم من التشبيه والتعطيل، وطائفة أخرى من المنزهة عدلت بهذه الكلمات عن الوجه الذي لا يليق بالله تعالىٰ في النظر العقلي عدلت إلى وجه مّا من وجوه التنزيه على التعيين مما يجوز في النظر العقلي أن يتصف به الحق تعالىٰ بل هو متصف به ولا بد، وما بقي النظر إلاّ في أن هذه الكلمة هل المراد بها ذلك الوجه أم لا؟ ولا يقدح ذلك التأويل في ألوهته وربما عدلوا بها إلى وجهين وثلاثة وأكثر على حسب ما تعطيه الكلمة في وضع اللسان، ولكن من الوجوه المنزهة لا غير، فإذا لم يعرفوا من ذلك الخبر أو الآية عند التأويل في اللسان إلاّ وجهاً واحداً قصروا الخبر على ذلك الوجه النزيه وقالوا هذا هو ليس إلاّ في علمنا وفهمنا، وإذا وجدوا له مصرفين فصاعداً صرفوا الخبر أو الآية إلى تلك المصارف، وقالت طائفة من هؤلاء يحتمل أن يريد كذا ويحتمل أن يريد كذا وتعدد وجوه التنزيه ثم تقول والله أعلم أيّ ذلك أراد، وطائفة أخرى تقوّي عندها وجه ما من تلك الوجوه النزيهة بقرينة ما قطعت لتلك القرينة بذلك الوجه على الخبر وقصرته عليه ولم تعرّج على باقي الوجوه في ذلك الخبر وإن كانت كلها تقتضي التنزيه، وطائفة من المنزهة أيضاً وهي العالية وهم من أصحابنا فرّغوا قلوبهم من الفكر والنظر وأخلوها إذ كان المتقدمون من الطوائف المتقدمة المتأوّلة أهل فكر ونظر وبحث، فقامت هذه الطائفة المباركة الموفقة والكل موفقون بحمد الله وقالت حصل في نفوسنا تعظيم الحق جلّ جلاله بحيث لا نقدر أن نصل إلى معرفة ما جاءنا من عنده بدقيق فكر ونظر، فأشبهت في هذا العقد المحدثين السالمة عقائدهم حيث لم ينظروا ولا تأوّلوا ولا صرفوا بل قالوا ما فهمنا فقال أصحابنا بقولهم، ثم انتقلوا عن مرتبة هؤلاء بأن قالوا لنا أن نسلك طريقة أخرى في فهم هذه الكلمات وذلك بأن نفرّغ قلوبنا من النظر الفكريّ ونجلس مع الحق تعالىٰ بالذكر على بساط الأدب والمراقبة والحضور والتهيؤ لقبول ما يرد علينا منه تعالىٰ حتى يكون الحق تعالىٰ يتولى تعليمنا على الكشف والتحقيق لما سمعته يقول:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] ويقول: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩] ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] فعندما توجهت قلوبهم وهممهم إلى الله تعالىٰ ولجأت إليه وألقت عنها ما استمسك به الغير من دعوى البحث والنظر ونتائج العقول كانت عقولهم سليمة وقلوبهم مطهرة فارغة، فعندما كان منهم هذا الاستعداد تجلى الحق لهم معلماً فأطلعتهم تلك المشاهدة على معاني هذه الأخبار والكلمات دفعة واحدة، وهذا ضرب من ضروب المكاشفة، فإنهم إذا عاينوا بعيون القلوب من نزهته العلماء المتقدم ذكرهم بالإدراك الفكريّ لم يصحّ لهم عند هذا الكشف والمعاينة أن يجهلوا خبراً من هذه الأخبار التي توهم، ولا أن يبقوا ذلك الخبر منسحباً على ما فيه من الاحتمالات النزيهة من غير تعيين، بل يعرفون الكلمة والمعنى النزيه الذي سيقت له فيقصروها على ما أريدت له، وإن جاء في خبر آخر ذلك اللفظ عينه فله وجه آخر من تلك الوجوه المقدسة معين عند هذا المشاهد، هذا حال طائفة منا.

وطائفة أخرى منا أيضاً ليس لهم هذا التحلي ولكن لهم الإلقاء والإلهام واللقاء والكتابة، وهم معصومون فيما يلقى إليهم بعلامة عندهم لا يعرفها سواهم فيخبرون بما خوطبوا به وما ألهموا به وما ألقي إليهم أو كتب، فقد تقرّر عند جميع المحققين الذين سلموا الخبر لقائله ولم ينظروا ولا شبهوا ولا عطلوا، والمحققين الذين بحثوا واجتهدوا ونظروا على طبقاتهم أيضاً، والمحققين الذين كوشفوا وعاينوا، والمحققين الذين خوطبوا وألهموا أن الحق تعالىٰ لا تدخل عليه تلك الأدوات المقيدة بالتحديد والتشبيه على حد ما نعقله في المحدثات ولكن تدخل عليه بما فيها من معنى التنزيه والتقديس على طبقات العلماء والمحققين في ذلك لما فيه وتقتضيه ذاته من التنزيه، وإذا تقرّر هذا فقد تبين أنها أدوات التوصيل إلى إفهام المخاطبين وكل عالم على حسب فهمه فيها وقوّة نفوذه وبصيرته، فعقيدة التكليف هينة الخطب فطر العالم عليها، ولو بقيت المشبهة مع ما فطرت عليه ما كفرت ولا جسمت وإن كان ما أرادوا التجسيم وإنما قصدوا إثبات الوجود، لكن لقصور أفهامهم ما ثبت لهم إلاّ بهذا التخيّل فلهم النجاة.

وإذ قد ثبت هذا عند المحققين مع تفاضل رتبهم في درج التحقيق فلنقل إن الحقائق أعطت لمن وقف عليها أن لا يتقيد وجود الحق مع وجود العالم بقبلية ولا معية ولا بعدية زمانية، فإن التقدم الزمانيّ والمكانيّ في حق الله ترمي به الحقائق في وجه القائل به على التحديد، اللهم إلاّ إن قال به من باب التوصيل كما قاله الرسول ﷺ ونطق به الكتاب، إذ ليس كل أحد يقوى على كشف هذه الحقائق، فلم يبق لنا أن نقول إلاّ أن الحق تعالىٰ موجود بذاته لذاته مطلق الوجود غير مقيد بغيره ولا معلول عن شيء ولا علة لشيء، بل هو خالق المعلولات والعلل، والملك القدوس الذي لم يزل، وأن العالم موجود بالله تعالىٰ لا بنفسه ولا لنفسه مقيد الوجود بوجود الحق في ذاته، فلا يصحّ وجود العالم البتة إلاّ بوجود الحق، وإذا انتفى الزمان عن وجود الحق وعن وجود مبدأ العالم فقد وجد العالم في غير زمان، فلا

نقول من جهة ما هو الأمر عليه إن الله موجود قبل العالم، إذ قد ثبت أن القبل من صيغ الزمان ولا زمان، ولا أن العالم موجود بعد وجود الحق إذ لا بعدية، ولا مع وجود الحق فإن الحق هو الذي أوجده وهو فاعله ومخترعه ولم يكن شيئاً، ولكن كما قلنا الحق موجود بذاته والعالم موجود به، فإن سأل سائل ذو وهم متى كان وجود العالم من وجود الحق؟ قلنا: متى سؤال زمانيّ والزمان من عالم النسب وهو مخلوق لله تعالىٰ لأن عالم النسب له خلق التقدير لا خلق الإيجاد فهذا سؤال باطل فانظر كيف تسأل، فإياك أن تحجبك أدوات التوصيل عن تحقيق هذه المعاني في نفسك وتحصيلها فلم يبق إلاَّ وجود صرف خالص لا عن عدم وهو وجود الحق تعالىٰ ووجود عن عدم عين الموجود نفسه وهو وجود العالم ولا بينية بين الوجودين ولا امتداد إلاَّ التوهّم المقدر الذي يحيله العلم ولا يبقى منه شيئاً ولكن وجود مطلق ومقيد وجود فاعل ووجود منفعل، هكذا أعطت الحقائق والسلام.

مسألة: سألني وارد الوقت عن إطلاق الاختراع على الحق تعالىٰ فقلت له: علم الحق بنفسه عين علمه بالعالم إذ لم يزل العالم مشهوداً له تعالىٰ وإن اتصف بالعدم ولم يكن العالم مشهوداً لنفسه إذ لم يكن موجوداً، وهذا بحر هلك فيه الناظرون الذين عدموا الكشف وبنسبة لم تزل موجودة، فعلمه لم يزل موجوداً، وعلمه بنفسه علمه بالعالم، فعلمه بالعالم لم يزل موجوداً، فعلم العالم في حال عدمه وأوجده على صورته في علمه، وسيأتي بيان هذا في آخر الكتاب، وهو سرّ القدر الذي خفي عن أكثر المحققين، وعلى هذا لا يصحّ في العالم الاختراع ولكن يطلق عليه الاختراع بوجه ما لا من جهة ما تعطيه حقيقة الاختراع فإن ذلك يؤدّي إلى نقص في الجناب الإلهي، فالاختراع لا يصحّ إلاَّ في حق العبد وذلك أن المخترع على الحقيقة لا يكون مخترعاً إلاَّ حتى يخترع مثال ما يريد إبرازه في الوجود في نفسه أولاً، ثم بعد ذلك تبرزه القوّة العملية إلى الوجود الحسيّ على شكل ما يعلم له مثل ومتى لم يخترع الشيء في نفسه أولاً، وإلاَّ فليس بمخترع حقيقة، فإنك إذا قدرت أن شخصاً علمك ترتيب شكل ما ظهر في الوجود له مثل فعلمته ثم أبرزته أنت للوجود كما علمته فلست أنت في نفس الأمر وعند نفسك بمخترع له، وإنما المخترع له من اخترع مثاله في نفسه ثم علمكه، وإن نسب الناس الاختراع لك فيه من حيث إنهم لم يشاهدوا ذلك الشيء من غيرك، فارجع أنت إلى ما تعرفه من نفسك ولا تلتفت إلى من لا يعلم ذلك منك، فإن الحق سبحانه ما دبر العالم تدبير من يحصل ما ليس عنده ولا فكر فيه ولا يجوز عليه ذلك ولا اخترع في نفسه شيئاً لم يكن عليه ولا قال في نفسه هل نعمله كذا وكذا، هذا كله ما لا يجوز عليه، فإن المخترع للشيء يأخذ أجزاء موجودة متفرقة في الموجودات فيؤلفها في ذهنه وهمه تأليفاً لم يسبق إليه في علمه وإن سبق فلا يبالي، فإنه في ذلك بمنزلة الأوّل الذي لم يسبقه أحد إليه كما تفعله الشعراء والكتاب الفصحاء في اختراع المعاني المبتكرة، فثم اختراع قد سبق إليه فيتخيل السامع أنه سرقه، فلا ينبغي للمخترع أن ينظر إلى أحد إلاَّ إلى ما حدث عنده خاصة إن أراد أن يلتذ ويستمتع بلذة الاختراع، ومهما نظر المخترع لأمر ما إلى من سبقه فيه بعدما اخترعه

ربما هلك وتفطرت كبده، وأكثر العلماء بالاختراع البلغاء والمهندسون، ومن أصحاب الصنائع النجارون والبناؤون فهؤلاء أكثر الناس اختراعاً وأذكاهم فطرة وأشدّهم تصرفاً لعقولهم، فقد صحّت حقيقة الاختراع لمن استخرج بالفكر ما لم يكن يعلم قبل ذلك ولا علمه غيره بالقوّة أو بالقوّة والفعل إن كان من العلوم التي غايتها العمل، والباري سبحانه لم يزل عالماً بالعالم أزلاً ولم يكن على حالة لم يكن فيها بالعالم غير عالم، فما اخترع في نفسه شيئاً لم يكن يعلمه، فإذ قد ثبت عند العلماء بالله قدم علمه، فقد ثبت كونه مخترعاً لنا بالفعل لا أنه اخترع مثالنا في نفسه الذي هو صورة علمه بنا إذ كان وجودنا على حدّ ما كنا في علمه، ولو لم يكن كذلك لخرجنا إلى الوجود على حدّ ما لم يعلمه وما لا يعلمه لا يريده وما لا يريده ولا يعلمه لا يوجده، فنكون إذن موجودين بأنفسنا أو بالاتفاق، وإذا كان هذا فلا يصحّ وجودنا عن عدم، وقد دلّ البرهان على وجودنا عن عدم وعلى أنه علمنا وأراد وجودنا وأوجدنا على الصورة الثابتة في علمه بنا ونحن معدومون في أعياننا، فلا اختراع في المثال فلم يبق إلاّ الاختراع في الفعل وهو صحيح لعدم المثال الموجود في العين، فتحقق ما ذكرناه وقل بعد ذلك ما شئت، فإن شئت وصفته بالاختراع وعدم المثال، وإن شئت نفيت هذا عنه نفيته ولكن بعد وقوفك على ما أعلمتك به.

الفصل الثالث في العلم والعالم والمعلوم من الباب الثاني

[نظم: السريع]:

الـعـلـمُ والـمَـعْـلُـومُ والـعـالـمُ ثـلاثـةٌ حُـكْـمُـهُـمُـو واحـدُ
وإنْ تَـشَـا أحـكـامُـهُـم مـثـلُـهـم ثـلاثـةٌ أثْـبَـتَـهَـا الـشَّـاهـدُ
وصـاحـبُ الـغَـيْـب يُـرَى واحـداً لـيـس عـلـيـه فـي الـعُـلَـى زائـدُ

اعلم أيّدك الله أن العلم تحصيل القلب أمراً مّا على حدّ ما هو عليه ذلك في نفسه، معدوماً كان ذلك الأمر أو موجوداً. فالعلم هو الصفة التي توجب التحصيل من القلب، والعالم هو القلب، والمعلوم هو ذلك الأمر المحصل، وتصوّر حقيقة العلم عسير جدّاً، ولكن أمهد لتحصيل العلم ما يتبين به إن شاء الله تعالى، فاعلموا أن القلب مرآة مصقولة كلها وجه لا تصدأ أبداً، فإن أطلق يوماً عليها أنها صدئت كما قال عليه السلام: «**إِنَّ القُلوبَ لَتَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الحَدِيدُ**» الحديث وفيه أن جلاءها ذكر الله وتلاوة القرآن، ولكن من كونه الذكر الحكيم فليس المراد بهذا الصدأ أنه طخاء طلع على وجه القلب، ولكنه لما تعلق واشتغل بعلم الأسباب عن العلم بالله كان تعلقه بغير الله صدأ على وجه القلب لأنه المانع من تجلي الحق إلى هذا القلب، لأن الحضرة الإلهية متجلاة على الدوام لا يتصوّر في حقّها حجاب عنا، فلما لم يقبلها هذا القلب من جهة الخطاب الشرعيّ المحمود لأنه قبل غيرها عبر عن قبول ذلك الغير بالصدأ والكن والقفل والعمى والران وغير ذلك، وإلاّ فالحق يعطيك أن العلم عنده ولكن بغير الله في علمه وهو بالله في نفس الأمر عند العلماء بالله، ومما يؤيد ما قلناه

قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥] فكانت في أكنة مما يدعوها الرسول إليه خاصة لا أنها في كن، ولكن تعلقت بغير ما تدعى إليه فعميت عن إدراك ما دعيت إليه فلا تبصر شيئاً، والقلوب أبداً لم تزل مفطورة على الجلاء مصقولة صافية، فكل قلب تجلت فيه الحضرة الإلهية من حيث هي ياقوت أحمر الذي هو التجلي الذاتيّ فذلك قلب المشاهد المكمل العالم الذي لا أحد فوقه في تجلّ من التجلّيات، ودونه تجلّي الصفات، ودونهما تجلّي الأفعال، ولكن من كونها من الحضرة الإلهية ومن لم تتجلّ له من كونها من الحضرة الإلهية فذلك هو القلب الغافل عن الله تعالىٰ المطرود من قرب الله تعالىٰ، فانظر وفقك الله في القلب على حدّ ما ذكرناه وانظر هل تجعله العلم فلا يصحّ، وإن قلت الصقالة الذاتية له فلا سبيل ولكن هي سبب، كما أن ظهور المعلوم للقلب سبب، وإن قلت السبب الذي يحصل المعلوم في القلب فلا سبيل، وإن قلت المثال المنطبع في النفس من المعلوم وهو تصوّر المعلوم فلا سبيل، فإن قيل لك فما هو العلم؟ فقل: درك المدرك على ما هو عليه في نفسه إذا كان دركه غير ممتنع، وأما ما يمتنع دركه فالعلم به هو لا دركه كما قال الصديق: العجز عن درك الإدراك إدراك، فجعل العلم بالله هو لا دركه، فاعلم ذلك ولكن لا دركه من جهة كسب العقل كما يعلمه غيره، ولكن دركه من جوده وكرمه ووهبه كما يعرفه العارفون أهل الشهود لا من قوة العقل من حيث نظره.

تتميم: ولما ثبت أن العلم بأمر مّا لا يكون إلاّ بمعرفة قد تقدّمت قبل هذه المعرفة بأمر آخر يكون بين المعروفين مناسبة لا بدّ من ذلك، وقد ثبت أنه لا مناسبة بين الله تعالىٰ وبين خلقه من جهة المناسبة التي بين الأشياء وهي مناسبة الجنس أو النوع أو الشخص، فليس لنا علم متقدّم بشيء فندرك به ذات الحق لما بينهما من المناسبة، مثال ذلك علمنا بطبيعة الأفلاك التي هي طبيعة خامسة لم نعلمها أصلاً لولا ما سبق علمنا بالأمّهات الأربع، فلما رأينا الأفلاك خارجة عن هذه الطبائع بحكم ليس هو في هذه الأمهات علمنا أن ثَم طبيعة خامسة من جهة الحركة العلوية التي في الأثير والهواء والسفلية التي في الماء والتراب والمناسبة بين الأفلاك والأمهات الجوهرية التي هي جنس جامع للكل والنوعية فإنها نوع كما أن هذه نوع لجنس واحد، وكذلك الشخصية، ولو لم يكن هذا التناسب لما علمنا من الطبائع علم طبيعة الفلك، وليس بين الباري والعالم مناسبة من هذه الوجوه، فلا يعلم بعلم سابق بغيره أبداً كما يزعم بعضهم من استدلال الشاهد على الغائب بالعلم والإرادة والكلام وغير ذلك، ثم يقدسه بعدما قد حمله على نفسه وقاسه بها.

ثم إنه ممّا يؤيّد ما ذهبنا إليه من علمنا بالله تعالىٰ أن العلم يترتب بحسب المعلوم، وينفصل في ذاته بحسب انفصال المعلوم عن غيره، والشيء الذي به ينفصل المعلوم إما أن يكون ذاتاً كالعقل من جهة جوهريته وكالنفس، وإما أن يكون ذاتاً من جهة طبعه كالحرارة والإحراق للنار، فكما انفصل العقل عن النفس من جهة جوهريته كذلك انفصل النار عن غيره بما ذكرناه، وأما أن ينفصل عنه بذاته لكن بما هو محمول فيه إما بالحال كجلوس الجالس

وكتابة الكاتب، وإما بالهيئة كسواد الأسود وبياض الأبيض، وهذا حصر مدارك العقل عند العقلاء، فلا يوجد معلوم قطعاً للعقل من حيث ما هو خارج عما وصفنا إلاً بأن نعلم ما انفصل به عن غيره إما من جهة جوهره أو طبعه أو حاله أو هيئته، ولا يدرك العقل شيئاً لا توجد فيه هذه الأشياء البتة، وهذه الأشياء لا توجد في الله تعالىٰ، فلا يعلمه العقل أصلاً من حيث هو ناظر وباحث، وكيف يعلمه العقل من حيث نظره وبرهانه الذي يستند إليه الحسّ أو الضرورة أو التجربة، والباري تعالىٰ غير مدرك بهذه الأصول التي يرجع إليها العقل في برهانه، وحينئذ يصحّ له البرهان الوجوديّ، فكيف يدّعي العاقل أنه قد علم ربّه من جهة الدليل وأن الباري معلوم له، ولو نظر إلى المفعولات الصناعية والطبيعية والتكوينية والانبعاثية والإبداعية ورأى جهل كل واحد منها بفاعله لعلم أن الله تعالىٰ لا يعلم بالدليل أبداً لكن يعلم أنه موجود وأن العالم مفتقر إليه افتقاراً ذاتياً لا محيص له عنه البتة، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] فمن أراد أن يعرف لُباب التوحيد فلينظر في الآيات الواردة في التوحيد من الكتاب العزيز الذي وحّد بها نفسه، فلا أحد أعرف من الشيء بنفسه، فلتنظر بما وصف نفسه وتسأل الله تعالىٰ أن يفهمك ذلك فستقف على علم إلهي لا يبلغ إليه عقل بفكره أبد الآباد، وسأورد من هذه الآيات في الباب الذي يلي هذا الباب شيئاً يسيراً والله يرزقنا الفهم عنه آمين، ويجعلنا من العالمين الذين يعقلون آياته.

الباب الثالث

في تنزيه الحق تعالىٰ عمّا في طيّ الكلمات التي أطلقها عليه سبحانه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من التشبيه والتجسيم تعالىٰ الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً

نظم: [السريع]

فـي نـظـرِ الـعـبـد إلـى ربِّـهِ — فـي قُـدْسِ الأَيْـد وتَـنـزيـهـهِ
وعـلـوهِ عـن أدواتٍ أتـتْ — تـلـحـق بـالـكـيـفِ وتـشـبـيـهـهِ
دلالـةٌ تـحـكـم قـطـعـاً عـلـى — مـنـزلـةِ الـعـبـد وتَـنـزيـهـهِ
وصـحـةِ الـعـلـمِ وإثـبـاتِـه — وطـرحِ بِـدْعِـيٍّ وتَـمـويـهـهِ

اعلم أيّدك الله أن جميع المعلومات علوها وسفلها حاملها العقل الذي يأخذ عن الله تعالىٰ بغير واسطة، فلم يخف عنه شيء من علم الكون الأعلى والأسفل، ومن وهبه وجوده تكون معرفة النفس الأشياء ومن تجليه إليها ونوره وفيضه الأقدس، فالعقل مستفيد من الحق تعالىٰ مفيد للنفس، والنفس مستفيدة من العقل، وعنها يكون الفعل، وهذا سار في جميع ما تعلق به علم العقل بالأشياء التي هي دونه، وإنما قيّدنا بالتي هي دونه من أجل ما ذكرناه من الإفادة وتحفظ في نظرك من قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] وهو العالم فاعرف السبب واعلم أن العالم المهيم لا يستفيد من العقل الأول شيئاً وليس له على المهيمين سلطان بل هم وإياه في مرتبة واحدة، كالأفراد منا الخارجين عن حكم القطب وإن كان القطب واحداً

من الأفراد، لكن خصّص العقل بالإفادة كما خصّص القطب من بين الأفراد بالتولية، وهو سار في جميع ما تعلّق به علم العقل إلاّ علم تجريد التوحيد خاصة فإنه يخالف سائر المعلومات من جميع الوجوه، إذ لا مناسبة بين الله تعالىٰ وبين خلقه البتة، وإن أطلقت المناسبة يوماً ما عليه كما أطلقها الإمام أبو حامد الغزاليّ في كتبه وغيره فبضرب من التكلف ومرمى بعيد عن الحقائق، وإلاّ فأيّ نسبة بين المحدث والقديم؟ أم كيف يشبه من لا يقبل المثل من يقبل المثل؟ هذا محال كما قال أبو العباس بن العريف الصنهاجيّ في محاسن المجالس التي تعزى إليه: ليس بينه وبين العباد نسب إلاّ العناية، ولا سبب إلاّ الحكم، ولا وقت غير الأزل، وما بقي فعمى وتلبيس. وفي رواية فعلم بدل من قوله فعمى، فانظر ما أحسن هذا الكلام وما أتم هذه المعرفة بالله وما أقدس هذه المشاهدة نفعه الله بما قال.

فالعلم بالله عزيز عن إدراك العقل والنفس إلاّ من حيث إنه موجود تعالىٰ وتقدّس، وكل ما يتلفظ به في حق المخلوقات أو يتوهم في المركبات وغيرها فالله سبحانه في نظر العقل السليم من حيث فكره وعصمته، بخلاف ذلك لا يجوز عليه ذلك التوهم ولا يجري عليه ذلك اللفظ عقلاً من الوجه الذي تقبله المخلوقات، فإن أطلق عليه فعلى وجه التقريب على الإفهام لثبوت الوجود عند السامع لا لثبوت الحقيقة التي هو الحق عليها فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ولكن يجب علينا شرعاً من أجل قوله تعالىٰ لنبيه ﷺ فاعلم أنه لا إله إلاّ الله يقول: اعلم من أخباري الموافق لنظرك ليصحّ لك الإيمان علماً كما صحّ لك العلم من غير إيمان الذي هو قبل التعريف فأمره، فمن أجل هذا الأمر على نظر بعض الناس ورأيه فيه نظرنا من أين نتوصل إلى معرفته فنظرنا على حكم الإنصاف وما أعطاه العقل الكامل بعد جدّه واجتهاده الممكن منه، فلم نصل إلى المعرفة به سبحانه إلاّ بالعجز عن معرفته لأنا طلبنا أن نعرفه كما نطلب معرفة الأشياء كلها من جهة الحقيقة التي هي المعلومات عليها، فلما عرفنا أن ثم موجوداً ليس له مثل ولا يتصوّر في الذهن ولا يدرك فكيف يضبطه العقل؟ هذا ما لا يجوز مع ثبوت العلم بوجوده، فنحن نعلم أنه موجود واحد في ألوهته، وهذا هو العلم الذي طلب منا غير عالمين بحقيقة ذاته التي يعرف سبحانه نفسه عليها وهو العلم بعدم العلم الذي طلب منا لما كان تعالىٰ لا يشبه شيئاً من المخلوقات في نظر العقل ولا يشبهه شيء منها، كان الواجب علينا أولاً لما قيل لنا فاعلموا أنه لا إله إلاّ الله أن نعلم ما العلم وقد علمناه فقد علمنا ما يجب علينا من علم العلم أوّلاً. انتهى الجزء الثامن والحمد لله.

(الجزء التاسع)

بسم الله الرحمن الرحيم

فلنقل إنه لما كانت أمهات المطالب أربعة وهي: هل، وما، وكيف، ولم، فهل ولم مطلبان روحانيان بسيطان يصحبهما ما هو، فهل ولم هما الأصلان الصحيحان للبسائط لأن في ما هو ضرب من التركيب خاصة، وليس في هذه المطالب الأربعة مطلب ينبغي أن يسأل به

عن الله تعالىٰ من جهة ما تعطيه الحقيقة، إذ لا يصحّ أن يعرف من علم التوحيد إلاّ نفي ما يوجد فيما سواه سبحانه ولهذا قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] و ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية: ١٨٠] فالعلم بالسلب هو العلم بالله سبحانه، كما لم يجز أن نقول في الأرواح كيف وتقدست عن ذلك لأن حقائقها تخالف هذه العبارة، كذلك ما ينطلق على الأرواح من الأدوات التي بها يسأل عنها لا يجوز أن يطلق على الله تعالىٰ، ولا ينبغي للمحقق الموحد الذي يحترم حضرة مبدعه ومخترعه أن يطلق عليه هذه الألفاظ فإذن لا يعلم بهذه المطالب أبداً.

وصل: ثم إنا نظرنا أيضاً في جميع ما سوى الحق تعالىٰ فوجدناه على قسمين: قسم يدرك بذاته وهو المحسوس والكثيف، وقسم يدرك بفعله وهو المعقول واللطيف، فارتفع المعقول عن المحسوس بهذه المنزلة وهي التنزّه أن يدرك بذاته وإنما يدرك بفعله، ولما كانت هذه أوصاف المخلوقين تقدس الحق تعالىٰ عن أن يدرك بذاته كالمحسوس أو بفعله كاللطيف أو المعقول لأنه سبحانه ليس بينه وبين خلقه مناسبة أصلاً، لأن ذاته غير مدركة لنا فتشبه المحسوس، ولا فعلها كفعل اللطيف فيشبه اللطيف، لأن فعل الحق تعالىٰ إبداع الشيء لا من شيء، واللطيف الروحاني فعل الشيء من الأشياء، فأيّ مناسبة بينهما؟ فإذا امتنعت المشابهة في الفعل فأحرى أن تمتنع المشابهة في الذات، وإن شئت أن تحقق شيئاً من هذا الفصل فانظر إلى مفعول هذا الفعل على حسب أصناف المفعولات، مثل المفعول الصناعيّ كالقميص والكرسيّ فوجدناه لا يعرف صانعه إلاّ أنه يدل بنفسه على وجود صانعه وعلى علمه بصنعته، وكذلك المفعول التكوينيّ الذي هو الفلك والكواكب لا يعرفون مكوّنهم ولا المركب لهم وهو النفس الكلية المحيطة بهم، وكذلك المفعول الطبيعيّ كالموالد من المعادن والنبات والحيوان الذين يفعلون طبيعة من المفعول التكوينيّ ليس لهم وقوف على الفاعل لهم الذي هو الفلك والكواكب، فليس العلم بالأفلاك ما تراه من جرمها وما يدركه الحسّ منها، وأين جرم الشمس في نفسها منها في عين الرائي لها منا، وإنما العلم بالأفلاك من جهة روحها ومعناها الذي أوجده الله تعالىٰ لها عن النفس الكلية المحيطة التي هي سبب الأفلاك وما فيها، وكذلك المفعول الانبعاثيّ الذي هو النفس الكلية المنبعثة من العقل انبعاث الصورة الدحية من الحقيقة الجبرئيلية فإنها لا تعرف الذي انبعثت عنه أصلاً لأنها تحت حيطته وهو المحيط بها لأنها خاطر من خواطره، فكيف تعلم ما هو فوقها وما ليس فيها منه إلاّ ما فيها، فلا تعلم منه إلاّ ما هي عليه فنفسها علمت لا سببهما، وكذلك المفعول الإبداعيّ الذي هو الحقيقة المحمدية عندنا، والعقل الأول عند غيرنا، وهو القلم الأعلى الذي أبدعه الله تعالىٰ من غير شيء هو أعجز وأمنع عن إدراك فاعله من كل مفعول تقدم ذكره، إذ بين كل مفعول وفاعله مما تقدم ذكره ضرب من ضروب المناسبة والمشاكلة، فلا بدّ أن يعلم منه قدر ما بينهما من المناسبة، إما من جهة الجوهرية أو غير ذلك، ولا مناسبة بين المبدع الأول والحق تعالىٰ، فهو أعجز عن معرفته بفاعله من غيره من مفعولي الأسباب، إذ وقد عجز المفعول الذي يشبه

سببه الفاعل له من وجوه عن إدراكه والعلم به، فافهم هذا وتحققه فإنه نافع جداً في باب التوحيد والعجز عن تعلق العلم المحدث بالله تعالىٰ.

وصل: يؤيّد ما ذكرناه أن الإنسان إنما يدرك المعلومات كلها بإحدى القوىٰ الخمس:

القوّة الحسيّة وهي على خمس: الشم والطعم واللمس والسمع والبصر، فالبصر يدرك الألوان والمتلونات والأشخاص على حد معلوم من القرب والبعد، فالذي يدرك منه على ميل غير الذي يدرك منه على ميلين، والذي يدرك منه على عشرين باعاً غير الذي يدرك منه على ميل، والذي يدرك منه ويده في يده يقابله غير الذي يدرك منه على عشرين باعاً، فالذي يدرك منه على ميلين شخص لا يدري هل هو إنسان أو شجرة، وعلى ميل يعرف أنه إنسان، وعلى عشرين باعاً أنه أبيض أو أسود، وعلى المقابلة أنه أزرق أو أكحل، وهكذا سائر الحواس في مدركاتها من القرب والبعد، والباري سبحانه ليس بمحسوس أي ليس بمدرك بالحسّ عندنا في وقت طلبنا المعرفة به فلم نعلمه من طريق الحسّ.

وأما القوّة الخيالية فإنها لا تضبط إلاّ ما أعطاها الحسّ، إما على صورة ما أعطاها، وإما على صورة ما أعطاه الفكر من حمله بعض المحسوسات على بعض، وإلى هنا انتهت طريقة أهل الفكر في معرفة الحق فهو لسانهم ليس لساننا وإن كان حقاً ولكن ننسبه إليهم فإنه نقل عنهم فلم تبرح هذه القوّة كيفما كان إدراكها عن الحسّ البتة، وقد بطل تعلق الحسّ بالله عندنا فقد بطل تعلق الخيال به.

وأما القوّة المفكرة فلا يفكر الإنسان أبداً إلاّ في أشياء موجودة عنده تلقاها من جهة الحواس وأوائل العقل، ومن الفكر فيها في خزانة الخيال يحصل له علم بأمر آخر بينه وبين هذه الأشياء التي فكّر فيها مناسبة، ولا مناسبة بين الله وبين خلقه، فإذن لا يصحّ العلم به من جهة الفكر، ولهذا منعت العلماء من الفكر في ذات الله تعالىٰ.

وأما القوّة العقلية فلا يصحّ أن يدركه العقل، فإن العقل لا يقبل إلاّ ما علمه بديهة أو ما أعطاه الفكر، وقد بطل إدراك الفكر له فقد بطل إدراك العقل له من طريق الفكر ولكن مما هو عقل، إنما حدّه أن يعقل ويضبط ما حصل عنده، فقد يهبه الحق المعرفة به فيعقلها لأنه عقل لا من طريق الفكر هذا ما لا نمنعه، فإن هذه المعرفة التي يهبها الحق تعالىٰ لمن شاء من عباده لا يستقل العقل بإدراكها ولكن يقبلها، فلا يقوم عليها دليل ولا برهان لأنها وراء طور مدارك العقل، ثم هذه الأوصاف الذاتية لا تمكن العبارة عنها لأنها خارجة عن التمثيل والقياس فإنه ليس كمثله شيء، فكل عقل لم يكشف له من هذه المعرفة شيء يسأل عقلاً آخر قد كشف له منها ليس في قوّة ذلك العقل المسؤول العبارة عنها ولا تمكن، ولذلك قال الصديق: العجز عن درك الإدراك إدراك، ولهذا الكلام مرتبتان فافهم، فمن طلب الله بعقله من طريق فكره ونظره فهو تائه وإنما حسبه التهيؤ لقبول ما يهبه الله من ذلك فافهم.

وأما القوة الذاكرة فلا سبيل أن تدرك العلم بالله فإنها إنما تذكر ما كان العقل قبل علمه ثم غفل أو نسي وهو لم يعلمه فلا سبيل للقوّة الذاكرة إليه، وانحصرت مدارك الإنسان بما هو

إنسان وما تعطيه ذاته وله فيه كسب وما بقي إلاّ تهيؤ العقل لقبول ما يهبه الحق من معرفته جلّ وتعالىٰ، فلا يعرف أبداً من جهة الدليل إلاّ معرفة الوجود وأنه الواحد المعبود لا غير، فإن الإنسان المدرك لا يتمكن له أن يدرك شيئاً أبداً إلاّ ومثله موجود فيه، ولولا ذلك ما أدركه البتة ولا عرفه، فإذا لم يعرف شيئاً إلاّ وفيه مثل ذلك الشيء المعروف فما عرف إلاّ ما يشبهه ويشاكله، والباري تعالىٰ لا يشبه شيئاً، ولا في شيء مثله فلا يعرف أبداً، ومما يؤيد ما ذكرناه أن الأشياء الطبيعية لا تقبل الغذاء إلاّ من مُشاكلها، فأما ما لا يشاكلها فلا تقبل الغذاء منه قطعاً، مثال ذلك أن الموالد من المعادن والنبات والحيوان مركبة من الطبائع الأربع، والموالد لا تقبل الغذاء إلاّ منها وذلك لأن فيها نصيباً منها، ولو رام أحد من الخلق على أن يجعل غذاء جسمه المركب من هذه الطبائع من شيء كائن عن غير هذه الطبائع أو ما تركب عنها لم يستطع، فكما لا يمكن لشيء من الأجسام الطبيعية أن تقبل غذاء إلاّ من شيء هو من الطبائع التي هي منها، كذلك لا يمكن لأحد أن يعلم شيئاً ليس فيه مثله البتة، ألا ترى النفس لا تقبل من العقل إلاّ ما تشاركه فيه وتشاكله، وما لم تشاركه فيه لا تعلمه منه أبداً، وليس من الله في أحد شيء، ولا يجوز ذلك عليه بوجه من الوجوه فلا يعرفه أحد من نفسه وفكره.

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ احْتَجَبَ عَنِ العُقُولِ كَمَا احْتَجَبَ عَنِ الأَبْصَارِ، وإِنَّ المَلأَ الأَعْلَى يَطْلُبُونَهُ كَمَا تَطْلُبُونَهُ أَنْتُم**» فأخبر عليه السلام بأن العقل لم يدركه بفكره ولا بعين بصيرته كما لم يدركه البصر، وهذا هو الذي أشرنا إليه فيما تقدم من بابنا، فلله الحمد على ما ألهم، وأن علمنا ما لم نكن نعلم ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١١٣] هكذا فليكن التنزيه ونفي المماثلة والتشبيه، وما ضلَّ من ضل من المشبهة إلاّ بالتأويل، وحمل ما وردت به الآيات والأخبار على ما يسبق منها إلى الأفهام من غير نظر فيما يجب لله تعالىٰ من التنزيه، فقادهم ذلك إلى الجهل المحض والكفر الصراح، ولو طلبوا السلامة وتركوا الأخبار والآيات على ما جاءت من غير عدول منهم فيها إلى شيء البتة ويكلون علم ذلك إلى الله تعالىٰ ولرسوله ويقولون لا ندري وكان يكفيهم قول الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فمتى جاءهم حديث فيه تشبيه فقد أشبه الله شيئاً وهو قد نفى الشبه عن نفسه سبحانه، فما بقي إلاّ أن ذلك الخبر له وجه من وجوه التنزيه يعرفه الله تعالىٰ، وجيء به لفهم العربيّ الذي نزل القرآن بلسانه وما تجد لفظة في خبر ولا آية جملة واحدة تكون نصاً في التشبيه أبداً، وإنما تجدها عند العرب تحتمل وجوهاً: منها ما يؤدّي إلى التشبيه، ومنها ما يؤدّي إلى التنزيه، فحمل المتأوّل ذلك اللفظ على الوجه الذي يؤدّي إلى التشبيه جور منه على ذلك اللفظ، إذ لم يوف حقّه بما يعطيه وضعه في اللسان وتعدّ على الله تعالىٰ حيث حمل عليه سبحانه ما لا يليق بالله تعالىٰ، ونحن نورد إن شاء الله تعالىٰ بعض أحاديث وردت في التشبيه وإنها ليست بنص فيه، فللّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين، فمن ذلك قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الله نظر العقل بما يقتضيه الوضع من الحقيقة والمجاز الجارحة تستحيل على الله تعالىٰ، الأصبع لفظ مشترك يطلق على الجارحة ويطلق على النعمة، قال الراعي: [الطويل]

ضعيفُ العصا بادي العُروقِ ترى لهُ عليها إذا ما أَمْحَلَ الناسُ أُصْبُعَا

يقول: ترى له عليها أثراً حسناً من النعمة بحسن النظر عليها، تقول العرب: ما أحسن أصبع فلان على ماله أي أثره فيه تريد به نموّ ماله لحسن تصرّفه فيه أسرع التقليب ما قلبته الأصابع لصغر حجمها وكمال القدرة فيها، فحركتها أسرع من حركة اليد وغيره، ولما كان تقليب الله قلوب العباد أسرع شيء أفصح ﷺ للعرب في دعائه بما تعقل، ولأن التقليب لا يكون إلاَّ باليد عندنا فلذلك جعل التقليب بالأصابع لأن الأصابع من اليد في اليد، والسرعة في الأصابع أمكن، فكان عليه السلام يقول في دعائه: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ**» وتقليب الله تعالىٰ القلوب هو ما يخلق فيها من الهمّ بالحسن والهم بالسوء، فلما كان الإنسان يحس بترادف الخواطر المتعارضة عليه في قلبه الذي هو عبارة عن تقليب الحق القلب وهذا لا يقدر الإنسان يدفع علمه عن نفسه لذلك كان عليه السلام يقول: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ**».

وفي هذا الحديث أن إحدى أزواجه قالت له: أو تخاف يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**قَلْبُ المُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ**» يشير ﷺ إلى سرعة التقليب من الإيمان إلى الكفر وما تحتهما، قال تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] وهذا الإلهام هو التقليب والأصابع للسرعة والأثنينية لها خاطر الحسن وخاطر القبيح، فإذا فهم من الأصابع ما ذكرته وفهمت منه الجارحة وفهمت منه النعمة والأثر الحسن فبأيّ وجه تلحقه بالجارحة، وهذه الوجوه المنزّهة تطلبه، فإما نسكت ونكل علم ذلك إلى الله تعالىٰ وإلى من عرفه الحق ذلك من رسول مرسل أو وليّ ملهم بشرط نفي الجارحة ولا بدّ، وإما إن أدركنا فضول وغلب علينا إلاَّ أن نردّ بذلك على بدعيّ مجسم مشبه، فليس بفضول، بل يجب على العالم عند ذلك تبيين ما في ذلك اللفظ من وجوه التنزيه حتى تدحض به حجة المجسم المخذول، تاب الله علينا وعليه ورزقه الإسلام، فإن تكلمنا على تلك الكلمة التي توهم التشبيه ولا بدّ فالعدول بشرحها إلى الوجه الذي يليق بالله سبحانه أولى، هذا حظ العقل في الوضع.

نفث روح في روع: الأصبعان سرّ الكمال الذاتي الذي إذا انكشف إلى الأبصار يوم القيامة يأخذ الإنسان أباه إذا كان كافراً ويرمي به في النار ولا يجد لذلك ألماً ولا عليه شفقة بسرّ هذين الأصبعين المتحد معناهما المثنى لفظهما، خلقت الجنة والنار، وظهر اسم المنوّر، والمظلم، والمنعم، والمنتقم، فلا تتخيلهما اثنين من عشرة، ولا بدّ من الإشارة إلى هذا السرّ في هذا الباب في كلتا يديه يمين وهذه معرفة الكشف، فإن لأهل الجنة نعيمين: نعيماً بالجنة ونعيماً بعذاب أهل النار في النار. وكذلك أهل النار لهم عذابان وكلا الفريقين يرون الله رؤية الأسماء كما كانوا في الدنيا سواء، وفي القبضتين اللتين جاءتا عن الرسول ﷺ في حق الحق سرّ ما أشرنا إليه ومعناه: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤] القبضة واليمين. قال تعالىٰ: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٧] نظر العقل بما يقتضيه الوضع أنه منع أولاً سبحانه أن يقدر قدره لما يسبق

إلى العقول الضعيفة من التشبيه والتجسيم عند ورود الآيات والأخبار التي تعطى من وجه ما من وجوهها ذلك. ثم قال بعد هذا التنزيه الذي لا يعقله إلاَّ العالمون والأرض جميعاً قبضته عرفنا من وضع اللسان العربي أن يقال فلان في قبضتي يريد أنه تحت حكمي وإن كان ليس في يدي منه شيء البتة، ولكن أمري فيه ماض وحكمي عليه قاض، مثل حكمي على ما ملكته يدي حسّاً وقبضت عليه، وكذلك أقول مالي في قبضتي أي في ملكي وإني متمكن في التصرّف فيه أي لا يمنع نفسه مني، فإذا صرّفته ففي وقت تصرفي فيه كان أمكن لي أن أقول هو في قبضتي لتصرّفي فيه، وإن كان عبيدي هم المتصرّفون فيه عن إذني فلما استحالت الجارحة على الله تعالىٰ عدل العقل إلى روح القبضة ومعناها وفائدتها وهو ملك ما قبضت عليه في الحال، وإن لم يكن لها أعني للقابض فيما قبض عليه شيء ولكن هو في ملك القبضة قطعاً فهكذا العالم في قبضة الحق تعالىٰ، والأرض في الدار الآخرة تعيين بعض الأملاك كما تقول: خادمي في قبضتي، وإن كان خادمي من جملة من في قبضتي فإنما ذكرته اختصاصاً لوقوع نازلة ما، واليمين عندنا محل التصريف المطلق القويّ، فإن اليسار لا يقوى قوّة اليمين، فكنى باليمين عن التمكّن من الطيّ، فهي إشارة إلى تمكّن القدرة من الفعل، فوصل إلى أفهام العرب بألفاظ تعرفها وتسرع بالتلقي لها، قال الشاعر: [الوافر]

إذا ما رايةٌ رفعَتْ لمجدٍ تلقّاها عَرَابةُ باليمينِ

وليس للمجد راية محسوسة فلا تتلقاها جارحة يمين فكأنه يقول: لو ظهر للمجد راية محسوسة لما كان محلها أو حاملها إلاَّ يمين عرابة الأوسيّ أي صفة المجد به قائمة وفيه كاملة، فلم تزل العرب تطلق ألفاظ الجوارح على ما لا يقبل الجارحة لاشتراك بينهما من طريق المعنى.

نفث روح في روع: إذا تجلى الحق لسرّ عبد ملّكه جميع الأسرار وألحقه بالأحرار وكان له التصرّف الذاتيّ من جهة اليمين، فإن شرف الشمال بغيره وشرف اليمين بذاته، ثم أنزل شرف اليمين بالخطاب وشرف الشمال بالتجلّي شرف الإنسان بمعرفته بحقيقته وإطلاعه عليها وهو اليسار وكلتا يديه من حيث هو شمال، كما أن كلتي يدي الحق يمين أرجع إلى معنى الاتحاد كلتا يدي العبد يمين، أرجع إلى التوحيد إحدى يديه يمين والأخرى شمال، فتارة أكون في الجمع وجمع الجمع، وتارة أكون في الفرق وفي فرق الفرق على حكم التجلّي والوارد: [البسيط]

يوماً يمانٍ إذا لاقيتَ ذا يَمَنٍ وإن لقيتَ معدِّياً فعدناني

ومن ذلك التعجب والضحك والفرح والغضب، التعجب إنما يقع من موجود لا يعلم ذلك المتعجب منه ثم يعلمه فيتعجب منه ويلحق به الضحك وهذا محال على الله تعالىٰ فإنه ما خرج شيء عن علمه، فمتى وقع في الوجود شيء يمكن التعجب منه عندنا حمل ذلك التعجب والضحك على من لا يجوز عليه التعجب ولا الضحك، لأن الأمر الواقع متعجب منه عندنا، كالشاب ليست له صبوة فهذا أمر يتعجب منه فحل عند الله تعالىٰ محل ما يتعجب منه عندنا، وقد يخرج الضحك والفرح إلى القبول والرضى، فإن من فعلت له فعلاً أظهر لك من

أجله الضحك والفرح فقد قبل ذلك الفعل ورضي به، فضحكه وفرحه تعالىٰ قبوله ورضاه عنا، كما أن غضبه تعالىٰ منزّه عن غليان دم القلب طلباً للانتصار لأنه سبحانه يتقدس عن الجسمية والعرض، فذلك قد يرجع إلى أن يفعل فعل من غضب ممن يجوز عليه الغضب وهو انتقامه سبحانه من الجبارين والمخالفين لأمره والمتعدّين حدوده، قال تعالىٰ: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٠] أي جازاه جزاء المغضوب عليه، فالمجازي يكون غاضباً فظهور الفعل أطلق الاسم.

(التبشش): من باب الفرح، ورد في الخبر أن الله يتبشش للرجل يوطىء المساجد للصلاة والذكر الحديث لما حجب العالم بالأكوان واشتغلوا بغير الله عن الله فصاروا بهذا الفعل في حال غيبة عن الله، فلما وردوا عليه سبحانه بنوع من أنواع الحضور أسدل إليهم سبحانه في قلوبهم من لذة نعيم محاضرته ومناجاته ومشاهدته ما تحبب بها إلى قلوبهم، فإنّ النبيّ عليه السلام يقول: «**أَحِبّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ**» فكنى بالتبشش عن هذا الفعل منه لأنه إظهار سرور بقدومكم عليه، فإنه من يسرّ بقدومك عليه فعلامة سروره إظهار البر بجانبك والتحبّب وإرسال ما عنده من نعم عليك، فلما ظهرت هذه الأشياء من الله إلى العبيد النازلين به سمّاه تبششاً.

(النسيان): قال الله تعالىٰ: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٧] الباري تعالىٰ لا يجوز عليه النسيان ولكنه تعالىٰ لما عذبهم عذاب الأبد ولم تنلهم رحمته تعالىٰ صاروا كأنهم منسيون عنده، وهو كأنه ناسٍ لهم أي هذا فعل الناسي ومن لا يتذكر ما هم فيه من أليم العذاب وذلك لأنهم في حياتهم الدنيا نسوا الله فجازاهم بفعلهم ففعلهم أعاده عليهم للمناسبة، وقد يكون نسيهم أخرهم ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي أخّروا أمر الله فلم يعملوا به، أخّرهم الله في النار حين أخرج منها من أدخله فيها من غيرهم، ويقرب من هذا الباب اتصاف الحق بالمكر والاستهزاء والسخرية، قال تعالىٰ: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٩] وقال: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٤] وقال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥].

(النفس): قال ﷺ: «**لا تَسُبُّوا الرِّيحَ فَإِنَّهَا مِنْ نَفَسِ الرَّحْمٰنِ**». وقوله عليه السلام: «**إِنِّي لأَجِدُ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ يَأْتِينِي مِن قِبَلِ اليَمَنِ**» وهذا كله من التنفيس كأنه يقول: لا تسبوا الريح فإنها ممّا ينفس بها الرحمن عن عباده. وقال عليه السلام: «**نُصِرتُ بِالصَّبَا**» وكذلك يقول: «**إِنِّي لأَجِدُ نَفَسَ**» أي تنفيس الرحمن عني للكرب الذي كان فيه من تكذيب قومه إياه وردّهم أمر الله من قبل اليمن فكان الأنصار نفس الله بهم عن نبيه ﷺ ما كان أكربه من المكذبين، فإن الله تعالىٰ منزّه عن النفس الذي هو الهواء الخارج من المتنفس تعالىٰ الله عمّا نسب إليه الظالمون من ذلك علوّاً كبيراً.

(الصورة): تطلق على الأمر وعلى المعلوم عند الناس وعلى غير ذلك، ورد في الحديث إضافة الصورة إلى الله في الصحيح وغيره مثل حديث عكرمة قال عليه السلام: «**رَأَيْتُ رَبِّي فِي صُورَةِ شَابٍّ**» الحديث هذا حال من النبي ﷺ وهو في كلام العرب معلوم متعارف، وكذلك قوله عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**» اعلم أن المثلية الواردة في

القرآن لغوية لا عقلية، لأن المثلية العقلية تستحيل على الله تعالىٰ زيد الأسد شدّة زيد زهير شعراً إذا وصفت موجوداً بصفة أو صفتين ثم وصفت غيره بتلك الصفة، وإن كان بينهما تباين من جهة حقائق أخر ولكنهما مشتركان في روح تلك الصفة ومعناها، فكل واحد منهما على صورة الآخر في تلك الصفة خاصة، فافهم وتنبّه وانظر كونك دليلاً عليه سبحانه، وهل وصفته بصفة كمال إلاّ منك فتفطن فإذا دخلت من باب التعرية عن المناظرة سلبت النقائص التي تجوز عليك عنه وإن كانت لم تقم قط به، ولكن المجسم والمشبه لما أضافها إليه سلبت أنت تلك الإضافة، ولو لم يتوهم هذا لما فعلت شيئاً من هذا السلب فاعلم، وإن كان للصورة هنا مداخل كثيرة أضربنا عن ذكرها رغبة فيما قصدناه في هذا الكتاب من حذف التطويل والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(الذراع): ورد في الخبر عن النبي ﷺ: «**إِنَّ ضِرْسَ الكَافِرِ فِي النَّارِ مِثْلُ أُحُدٍ وَكَثَافَةَ جِلْدِهِ أَرْبَعُونَ ذِرَاعاً بِذِرَاعِ الجَبَّارِ**» هذه إضافة تشريف مقدار جعله الله تعالىٰ إضافة إليه، كما تقول هذا الشيء كذا وكذا ذراعاً بذراع الملك تريد الذراع الأكبر الذي جعله الملك وإن كان مثلاً ذراع الملك الذي هو الجارحة مثل أذرع الناس، والذراع الذي جعله مقداراً يزيد على ذراع الجارحة بنصفه أو ثلثه، فليس هو إذن ذراعه على حقيقته وإنما هو مقدار نصبه ثم أضيف إلى جاعله فاعلم والجبار في اللسان الملك العظيم وهكذا.

(القدم): يضع الجبار فيها قدمه القدم الجارحة ويقال لفلان في هذا الأمر قدم أي ثبوت، والقدم جماعة من الخلق فتكون القدم إضافة، وقد يكون الجبار ملكاً وتكون هذه القدم لهذا الملك إذ الجارحة تستحيل على الله تعالىٰ وجلّ.

(والاستواء): أيضاً ينطلق على الاستقرار والقصود والاستيلاء والاستقرار من صفات الأجسام، فلا يجوز على الله تعالىٰ إلاّ إذا كان على وجه الثبوت والقصد هو الإرادة وهي من صفات الكمال قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩] أي قصد واستوى على العرش أي استولى: [الرجز]

قَدِ استوى بِشْرٌ على العراقِ   من غير سيفٍ ودم مُهراقِ

والأخبار والآيات كثيرة منها صحيح وسقيم، وما منها خبر إلاّ وله وجه من وجوه التنزيه، وإن أردت أن يقرب ذلك عليك فاعمد إلى اللفظة التي توهم التشبيه وخذ فائدتها وروحها أو ما يكون عنها فاجعله في حق الحق تفز بدرجة التنزيه حين حاز غيرك درك التشبيه فهكذا فافعل وطهر ثوبك، ويكفي هذا القدر من هذه الأخبار فقد طال الباب، نفث الروح الأقدس في الروع الأنفس بما تقدم من الألفاظ، لما تعجب المتعجب ممن خرج على صورته، وخالفه في سريرته، ففرح بوجوده، وضحك من شهوده، وغضب لتوليه، وتبشبش لتدليه، ونسي ظاهره، وتنفّس فأطلق مواخره، وثبت على ملكه، وتحكم بالتقدير على ملكه، فكان ما أراد، وإلى الله المعاد، فهذه أرواح مجرده، تنتظرها أشباح مسنده، فإذا بلغ الميقات، وانقضت الأوقات، ومارت السماء وكوّرت الشمس، وبدّلت الأرض، وانكدرت

النجوم، وانتقلت الأمور، وظهرت الآخره، وحشر الإنسان وغيره في الحافره، حينئذ تحمد الأشباح، وتتنسم الأرواح، ويتجلى الفتاح، ويتقد المصباح، وتشعشع الراح، ويظهر الودّ الصراح، ويزول الإلحاح، ويرفرف الجناح، ويكون الابتنا بالضراح، من أول الليل إلى الإصباح، فما أسناها من منزله، وما أشهاها إلى النفوس من حالة مكمله، متَّعنا الله بها.

الباب الرابع

في سبب بدء العالم ومراتب الأسماء الحسنى من العالم كله

[نظم: السريع]

فــي سَـبَـبِ الـبـدْءِ وأحـكـامـهِ وغـايـةِ الـصُّـنـعِ وإحـكـامِـهِ
والـفـرقِ مـا بـيـن رعـاةِ الـعُـلـى فـي نَـشْـئـه وبـيـنَ حُـكَّـامِـهِ
دلائـلٌ دلـت عـلـى صـانـعٍ قـد قـهـر الـكـلَّ بـأحْـكَـامِـهِ

قد وقف الصفيّ الوليّ أبقاه الله على سبب بدء العالم في كتابنا المسمّى بعنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب، وفي كتابنا المسمّى بإنشاء الدوائر الذي ألفنا بعضه بمنزله الكريم في وقت زيارتنا إياه سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ونحن نريد الحج، فقيد له منه خديمه عبد الجبار أعلى الله قدره القدر الذي كنت سطرته منه ورحلت به معي إلى مكة زادها الله تشريفاً في السنة المذكورة لأتممه بها، فشغلنا هذا الكتاب عنه وعن غيره بسبب الأمر الإلٰهيّ الذي ورد علينا في تقييده، مع رغبة بعض الإخوان والفقراء في ذلك حرصاً منهم على مزيد العلم، ورغبة في أن تعود عليهم بركات هذا البيت المبارك الشريف محل البركات والهدى والآيات البينات، وأن نعرف أيضاً في هذا الموضوع الصفي الكريم أبا محمد عبد العزيز رضي الله عنه ما تعطيه مكة من البركات وأنها خير وسيلة عبادية وأشرف منزلة جمادية ترابية، عسى تنهض به همة الشوق إليه، وتنزل به رغبة المزيد عليه، فقد قيل لمن أوتي جوامع الكلم وكان من ربّه في مشاهدة العين أدنى من قاب قوسين، ومع هذا التقريب الأكمل والحظ الأوفر الأجزل أنزل عليه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٤].

ومن شرط العالم المشاهد صاحب المقامات الغيبية والمشاهد أن يعلم أن للأمكنة في القلوب اللطيفة تأثيراً، ولو وجد القلب في أي موضع كان الوجود الأعم فوجوده بمكة أسنى وأتم، فكما تتفاضل المنازل الروحانية، كذلك تتفاضل المنازل الجسمانية، وإلاّ فهل الدر مثل الحجر إلاّ عند صاحب الحال، وأما المكمل صاحب المقام فإنه يميز بينهما كما ميّز بينهما الحق، هل ساوى الحق بين دار بناؤها لبن التراب والتبن ودار بناؤها لبن العسجد واللجين، فالحكيم الواصل من أعطى كل ذي حق حقه، فذلك واحد عصره وصاحب وقته، وكثير بين مدينة يكون أكثر عمارتها الشهوات، وبين مدينة يكون أكثر عمارتها الآيات البينات، أليس قد جمع معي صفيي أبقاه الله أن وجود قلوبنا في بعض المواطن أكثر من بعض.

وقد كان رضي الله عنه يترك الخلوة في بيوت المنارة المحروسة الكائنة بشرقيّ تونس

بساحل البحر وينزل إلى الرابطة التي في وسط المقابر بقرب المنارة من جهة بابها وهي تعزى إلى الخضر فسألته عن ذلك فقال: إن قلبي أجده هنالك أكثر منه في المنارة، وقد وجدت فيها أنا أيضاً ما قاله الشيخ، وقد علم وليي أبقاه الله أن ذلك من أجل من يعمر ذلك الموضع، إمّا في الحال من الملائكة المكرّمين، أو من الجن الصادقين، وإما من همة من كان يعمره وفقد كبيت أبي يزيد الذي يسمّى بيت الأبرار، وكزاوية الجنيد بالشونيزية، وكمغارة ابن أدهم بالتعن، وما كان من أماكن الصالحين الذين فنوا عن هذه الدار وبقيت آثارهم في أماكنهم تنفعل لها القلوب اللطيفة، ولهذا يرجع تفاضل المساجد في وجود القلب لا في تضاعف الأجر، فقد تجد قلبك في مسجد أكثر مما تجده في غيره من المساجد، وذلك ليس للتراب ولكن لمجالسة الأتراب أو هممهم، ومن لا يجد الفرق في وجود قلبه بين السوق والمساجد فهو صاحب حال لا صاحب مقام، ولا أشك كشفاً وعلماً أنه وإن عمرت الملائكة جميع الأرض مع تفاضلهم في المعارف والرتب فإن أعلاهم رتبة وأعظمهم علماً ومعرفة عمرة المسجد الحرام، وعلى قدر جلساتك يكون وجودك، فإنه لهمم الجلساء في قلب الجليس لهم تأثيراً وهممهم على قدر مراتبهم وإن كان من جهة الهمم، فقد طاف بهذا البيت مائة ألف نبيّ وأربعة وعشرون ألف نبي سوى الأولياء، وما من نبي ولا وليّ إلاّ وله همة متعلقة بهذا البيت وهذا البلد الحرام لأنه البيت الذي اصطفاه الله على سائر البيوت، وله سرّ الأوّلية في المعابد كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٦] من كل مخوف، إلى غير ذلك من الآيات، فلو رحل الصفي أبقاه الله إلى هذا البلد الحرام الشريف لوجد من المعارف والزيادات ما لم يكن رآه قبل ذلك ولا خطر له بالبال، وقد علم رضي الله عنه أن النفس تحشر على صورة علمها، والجسم على صورة عمله، وصورة العلم والعمل بمكة أتمّ مما في سواها، ولو دخلها صاحب قلب ساعة واحدة لكان له ذلك، فكيف إن جاور بها وأقام وأتى فيها بجميع الفرائض والقواعد؟ فلا شك أن مشهده بها يكون أتمّ وأجلى، ومورده أصفى وأعذب وأحلى، وإذ وصفيي أبقاه الله قد أخبرني أنه يحسّ بالزيادة والنقص على حسب الأماكن والأمزجة، ويعلم أن ذلك راجع أيضاً إلى حقيقة الساكن به أو همته كما ذكرنا، ولا شك عندنا أن معرفة هذا الفن أعني معرفة الأماكن والإحساس بالزيادة والنقص من تمام تمكن معرفة العارف وعلوّ مقامه وإشرافه على الأشياء وقوّة ميزه، فالله يكتب لوليي فيها أثراً حسناً ويهبه فيها خيراً طيباً إنه المليّ بذلك والقادر عليه.

اعلم وفقنا الله وإياك وجميع المسلمين أن أكثر العلماء بالله من أهل الكشف والحقائق ليس عندهم علم بسبب بدء العالم إلاّ تعلق العلم القديم بإيجاده، فكوّن ما علم أنه سيكوّنه، وهنا ينتهي أكثر الناس. وأمّا نحن ومن أطلعه الله على ما أطلعنا عليه فقد وقفنا على أمور أخر غير هذا، وذلك أنك إذا نظرت العالم مفصلاً بحقائقه ونسبه وجدته محصور الحقائق والنسب معلوم المنازل والرتب متناهي الأجناس بين متماثل ومختلف، فإذا وقفت على هذا الأمر

علمت أن لهذا سرّاً لطيفاً وأمراً عجيباً، لا تدرك حقيقته بدقيق فكر ولا نظر، بل بعلم موهوب من علوم الكشف ونتائج المجاهدات المصاحبة للهمم، فإن مجاهدة بغير همة غير منتجة شيئاً ولا مؤثرة في العلم، لكن تؤثر في الحال من رقّة وصفاء يجده صاحب المجاهدة، فاعلم علمك الله سرائر الحكم ووهبك من جوامع الكلم أن الأسماء الحسنى التي تبلغ فوق أسماء الإحصاء عدداً وتنزل دون أسماء الإحصاء سعادة هي المؤثرة في هذا العالم وهي المفاتح الأول التي لا يعلمها إلاّ هو، وأن لكل حقيقة اسماً ما يخصّها من الأسماء، وأعني بالحقيقة حقيقة تجمع جنساً من الحقائق، رب تلك الحقيقة ذلك الاسم وتلك الحقيقة عابدته وتحت تكليفه ليس غير ذلك، وإن جمع لك شيء مّا أشياء كثيرة فليس الأمر على ما توهمته، فإنك إن نظرت إلى ذلك الشيء وجدت له من الوجوه ما يقابل به تلك الأسماء التي تدل عليها وهي الحقائق التي ذكرناها، مثال ذلك ما ثبت لك في العلم الذي في ظاهر العقول وتحت حكمها في حق موجود ما فرد لا ينقسم مثل الجوهر الفرد الجزء الذي لا ينقسم، فإن فيه حقائق متعددة تطلب أسماء إلٰهية على عددها، فحقيقة إيجاده يطلب الاسم القادر، ووجه أحكامه يطلب الاسم العالم، ووجه اختصاصه يطلب الاسم المريد، ووجه ظهوره يطلب الاسم البصير والرائي إلى غير ذلك، فهذا وإن كان فرداً فله هذه الوجوه وغيرها مما لم نذكرها، ولكل وجه وجوه متعددة تطلب من الأسماء بحسبها، وتلك الوجوه هي الحقائق عندنا الثواني والوقوف عليها عسير، وتحصيلها من طريق الكشف أعسر.

واعلم أن الأسماء قد نتركها على كثرتها إذا لحظنا وجوه الطالبين لها من العالم، وإذا لم نلحظ ذلك فلنرجع ونلحظ أمّهات المطالب التي لا غنى لنا عنها، فنعرف أن الأسماء التي الأمّهات موقوفة عليها هي أيضاً أمّهات الأسماء، فيسهل النظر ويكمل الغرض ويتيسر التعدي من هذه الأمّهات إلى البنات كما يتيسّر ردّ البنات إلى الأمّهات، فإذا نظرت الأشياء كلها المعلومة في العالم العلويّ والسفليّ تجد الأسماء السبعة المعبر عنها بالصفات عند أصحاب علم الكلام تتضمنها، وقد ذكرنا هذا في كتابنا الذي سميناه إنشاء الدوائر، وليس غرضنا في هذا الكتاب في هذه الأمهات السبعة المعبر عنها بالصفات، ولكن قصدنا الأمهات التي لا بدّ لإيجاد العالم منها، كما أنا لا نحتاج في دلائل العقول من معرفة الحق سبحانه إلاّ كونه موجوداً عالماً مريداً قادراً حيّاً لا غير، وما زاد على هذا فإنما يقتضيه التكليف، فمجيء الرسول عليه السلام جعلنا نعرفه متكلماً، والتكليف جعلنا نعرفه سميعاً بصيراً، إلى غير ذلك من الأسماء. فالذي نحتاج إليه من معرفة الأسماء لوجود العالم وهي أرباب الأسماء وما عداها فسدنة لها، كما أن بعض هذه الأرباب سدنة لبعضها، فأمهات الأسماء الحيّ العالم المريد القادر القائل الجواد المقسط، وهذه الأسماء بنات الاسمين المدبر والمفصل، فالحيّ يثبت فهمك بعد وجودك وقبله، والعالم يثبت أحكامك في وجودك وقبل وجودك يثبت تقديرك، والمريد يثبت اختصاصك، والقادر يثبت عدمك، والقائل يثبت قدمك، والجواد يثبت إيجادك، والمقسط يثبت مرتبتك، والمرتبة آخر منازل الوجود.

فهذه حقائق لا بدّ من وجودها، فلا بدّ من أسمائها التي هي أربابها، فالحيّ رب الأرباب والمربوبين وهو الإمام، ويليه في الرتبة العالم، ويلي العالم المريد، ويلي المريد القائل، ويلي القائل القادر، ويلي القادر الجواد، وآخرهم المقسط فإنه رب المراتب وهي آخر منازل الوجود، وما بقي من الأسماء فتحت طاعة هؤلاء الأسماء الأئمة الأرباب، وكان سبب توجّه هؤلاء الأسماء إلى الاسم الله في إيجاد العالم بقية الأسماء مع حقائقها أيضاً، على أن أئمة الأسماء من غير نظر إلى العالم إنما هي أربعة لا غير اسمه الحيّ والمتكلم والسميع والبصير، فإنه إذا سمع كلامه ورأى ذاته فقد كمل وجوده في ذاته من غير نظر إلى العالم، ونحن لا نريد من الأسماء إلاّ ما يقوم بها وجود العالم، فكثرت علينا الأسماء فعدلنا إلى أربابها فدخلنا عليهم في حضراتهم فما وجدنا غير هؤلاء الذين ذكرناهم وأبرزناهم على حسب ما شاهدناهم، فكان سبب توجّه أرباب الأسماء إلى الاسم الله في إيجاد أعياننا بقية الأسماء، فأول من قام لطلب هذا العالم الاسم المدبّر والمفصل عن سؤال الاسم الملك، فعندما توجّه على الشيء الذي عنه وجد المثال في نفس العالم من غير عدم متقدم، ولكن تقدم مرتبة لا تقدم وجود كتقدم طلوع الشمس على أول النهار وإن كان أول النهار مقارناً لطلوع الشمس، ولكن قد تبين أن العلة في وجود أول النهار طلوع الشمس وقد قارنه في الوجود فهكذا هو هذا الأمر، فلما دبر العالم وفصله هذان الاسمان من غير جهل متقدم به أو عدم علم وانتشأت صورة المثال في نفس العالم تعلق اسمه العالم إذ ذاك بذلك المثال، كما تعلق بالصورة التي أخذ منها وإن كانت غير مرئية لأنها غير موجودة كما سنذكره في باب مم وجد العالم. فأول أسماء العالم هذان الاسمان، والاسم المدبر هو الذي حقّق وقت الإيجاد المقدر فتعلق به المريد على حد ما أبرزه المدبر ودبره، وما عملا شيئاً من نشء هذا المثال إلاّ بمشاركة بقية الأسماء لكن من وراء حجاب هذين الاسمين ولهذا صحّت لهما الإمامة، والآخرون لا يشعرون بذلك حتى بدت صورة المثال فرأوا ما فيه من الحقائق المناسبة لهم تجذبهم للتعشّق بها فصار كل اسم يتعشق بحقيقته التي في المثال ولكن لا يقدر على التأثير فيها، إذ لا تعطى الحضرة التي تجلى فيها هذا المثال، فأدّاهم ذلك التعشّق والحب إلى الطلب والسعي والرغبة في إيجاد صورة عين ذلك المثال ليظهر سلطانهم ويصحّ على الحقيقة وجودهم، فلا شيء أعظم هماً من عزيز لا يجد عزيزاً يقهره حتى يذل تحت قهره فيصحّ سلطان عزّه، أو غني لا يجد من يفتقر إلى غناه، وهكذا جميع هذه الأسماء فلجأت إلى أربابها الأئمة السبعة التي ذكرناها ترغب إليها في إيجاد عين هذا المثال الذي شاهدوه في ذات العالم به وهو المعبر عنه بالعالم، وربما يقول القائل: يا أيها المحقق وكيف ترى الأسماء هذا المثال ولا يراه إلاّ الاسم البصير خاصة لا غيره، وكل اسم على حقيقة ليس الاسم الآخر عليها؟

قلنا له: لتعلم وفقك الله أن كل اسم إلٰهيّ يتضمن جميع الأسماء كلها، وأن كل اسم ينعت بجميع الأسماء في أفقه، فكل اسم فهو حيّ قادر سميع بصير متكلم في أفقه وفي

علمه، وإلاّ فكيف يصحّ أن يكون رباً لعابده؟ هيهات هيهات، غير أن ثَمَّ لطيفة لا يشعر بها وذلك أنك تعلم قطعاً في حبوب البرّ وأمثاله أن كل برة فيها من الحقائق ما في أختها، كما تعلم أيضاً أن هذه الحبة ليست عين هذه الحبة الأخرى، وإن كانتا تحويان على حقائق متماثلة فإنهما مثلان، فابحث عن هذه الحقيقة التي تجعلك تفرق بين هاتين الحبتين وتقول إن هذه ليست عين هذه، وهذا سار في جميع المتماثلات من حيث ما تماثلوا به، كذلك الأسماء كل اسم جامع لما جمعت الأسماء من الحقائق، ثم تعلم على القطع أن هذا الاسم ليس هو هذا الآخر بتلك اللطيفة التي بها فرّقت بين حبوب البرّ وكل متماثل، فابحث عن هذا المعنى حتى تعرفه بالذكر لا بالفكر، غير أني أريد أن أوقفك على حقيقة ما ذكرها أحد من المتقدمين وربما ما أطلع عليها فربما خصّصت بها، ولا أدري هل تعطى لغيري بعدي أم لا من الحضرة التي أعطيتها؟ فإن استقرأها أو فهمها من كتابي فأنا المعلم له، وأمّا المتقدمون فلم يجدوها وذلك أن كل اسم كما قررنا بجميع حقائق الأسماء ويحتوي عليها مع وجود اللطيفة التي وقع لك التمييز بها بين المثلين، وذلك أن الاسم المنعم والاسم المعذب اللذين هما الظاهر والباطن كل اسم من هذين الاسمين يتضمن ما تحويه سدنته من أولهم إلى آخرهم، غير أن أرباب الأسماء ومن سواهم من الأسماء على ثلاث مراتب: منها ما يلحق بدرجات أرباب الأسماء، ومنها ما ينفرد بدرجة فمنها ما ينفرد بدرجة المنعم وبدرجة المعذب، فهذه أسماء العالم محصورة والله المستعان، فلما لجأت الأسماء كلها إلى هؤلاء الأئمة ولجأت الأئمة إلى الاسم الله لجأ الاسم الله إلى الذات من حيث غناها عن الأسماء سائلاً في إسعاف ما سألته الأسماء فيه فأنعم المحسان الجواد بذلك وقال قل للأئمة يتعلقون بإبراز العالم على حسب ما تعطيه حقائقهم، فخرج إليهم الاسم الله وأخبرهم الخبر فانقلبوا مسرعين فرحين مبتهجين ولم يزالوا كذلك فنظروا إلى الحضرة التي أذكرها في الباب السادس من هذا الكتاب فأوجدوا العالم كما سنذكره فيما يأتي من الأبواب بعد هذا إن شاء الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس

في معرفة أسرار بسم الله الرحمٰن الرحيم
والفاتحة من وجه مّا لا من جميع الوجوه

[نظم: السريع]

بَسْمَلَةُ الأسماء ذو منظرينْ ... ما بين إبقاءٍ وإفناءِ عَيْنْ
إلاّ بمن قالت لمن حين ما ... خافت على النمل من الحَطْمَتَيْنْ
فقال من أضحكه قولُها ... هل أثَرٌ يُطلب من بعد عَيْنْ
يا نفسُ يا نفسُ استقيمي فقد ... عاينتِ من نملتنا القبضتَيْنْ
وهكذا في الحمد فاستَثْنِها ... إن شئتَ أن تنعمَ بالجنَّتَيْنْ
إحداهما من عَسْجَدٍ مشرقٍ ... جملتُها وأختُها من لُجَيْنْ

يا أمّ قرآنِ العُلى هل ترَيْ من جهة الفُرقان للفِرْقتينْ
أنت لنا السبعُ المثاني التي خُصَّ بها سيِّدُنا دون مَيْنْ
فأنتِ مفتاحُ الهدى للنهى وخُصَّ من عاداك بالفِرْقَتينْ

لما أردنا أن نفتتح معرفة الوجود وابتداء العالم الذي هو عندنا المصحف الكبير الذي تلاه الحق علينا تلاوة حال كما أن القرآن تلاوة قول عندنا، فالعالم حروف مخطوطة مرقومة في رق الوجود المنشور، ولا تزال الكتابة فيه دائمة أبداً لا تنتهي، ولما افتتح الله تعالىٰ كتابه العزيز بفاتحة الكتاب، وهذا كتاب أعني العالم الذي نتكلم عليه، أردنا أن نفتتح بالكلام على أسرار الفاتحة وبسم الله فاتحة الفاتحة وهي آية أولى منها أو ملازمة لها، كالعلاوة على الخلاف المعلوم بين العلماء، فلا بدّ من الكلام على البسملة، وربما يقع الكلام على بعض آية من سورة البقرة آيتين أو ثلاث خاصة تبرّكاً بكلام الحق سبحانه ثم نسوق الأبواب إن شاء الله تعالىٰ.

فأقول: إنه لما قدمنا أن الأسماء الإلهية سبب وجود العالم وأنها المسلطة عليه والمؤثرة لذلك، كان بسم الله الرحمٰن الرحيم عندنا خبر ابتداء مضمر، وهو ابتداء العالم وظهوره، كأنه يقول ظهور العالم بسم الله الرحمٰن الرحيم أي باسم الله الرحمن الرحيم، ظهر العالم واختص الثلاثة الأسماء لأن الحقائق تعطي ذلك، فالله هو الاسم الجامع للأسماء كلها، والرحمن صفة عامة، فهو رحمن الدنيا والآخرة، بها رحم كل شيء من العالم في الدنيا، ولما كانت الرحمة في الآخرة لا تختص إلاَّ بقبضة السعادة فإنها تنفرد عن أختها، وكانت في الدنيا ممتزجة يولد كافراً ويموت مؤمناً، أي ينشأ كافراً في عالم الشهادة وبالعكس وتارة وتارة، وبعض العالم تميز بإحدى القبضتين بإخبار صادق، فجاء الاسم الرحيم مختصاً بالدار الآخرة لكل من آمن، وتمّ العالم بهذه الثلاثة الأسماء جملة في الاسم الله، وتفصيلاً في الاسمين الرحمن الرحيم، فتحقق ما ذكرناه، فإني أريد أن أدخل إلى ما في طيّ البسملة والفاتحة من بعض الأسرار كما شرطناه فلنبين ونقول:

بسم بالباء ظهر الوجود وبالنقطة تميز العابد من المعبود، قيل للشبلي رضي الله عنه: أنت الشبلي؟ فقال: أنا النقطة التي تحت الباء، وهو قولنا النقطة للتميز، وهو وجود العبد بما تقتضيه حقيقة العبودية، وكان الشيخ أبو مدين رحمه الله يقول: ما رأيت شيئاً إلاَّ رأيت الباء عليه مكتوبة، فالباء المصاحبة للموجودات من حضرة الحق في مقام الجمع والوجود أي بي قام كل شيء وظهر وهي من عالم الشهادة، هذه الباء بدل من همزة الوصل التي كانت في الاسم قبل دخول الباء واحتيج إليها إذ لا ينطق بساكن فجلبت الهمزة المعبر عنها بالقدرة محرّكة عبارة عن الوجود ليتوصل بها إلى النطق الذي هو الإيجاد من إبداع وخلق بالساكن الذي هو العدم، وهو أوان وجود المحدث بعد أن لم يكن وهو السين فدخل في الملك بالميم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] فصارت الباء بدلاً من همزة الوصل أعني القدرة الأزلية، وصارت حركة الباء لحركة الهمزة الذي هو الإيجاد، ووقع الفرق بين

الباء والألف الواصلة، فإن الألف تعطي الذات والباء تعطي الصفة، ولذلك كانت لعين الإيجاد أحق من الألف بالنقطة التي تحتها وهي الموجودات، فصار في الباء الأنواع الثلاثة: شكل الباء والنقطة والحركة العوالم الثلاثة، فكما في العالم الوسط توهّم ما كذلك في نقطة الباء، فالباء ملكوتية والنقطة جبروتية والحركة شهادية ملكية، والألف المحذوفة التي هي بدل منها هي حقيقة القائم بالكل تعالىٰ، واحتجب رحمة منه بالنقطة التي تحت الباء، وعلى هذا الحد تأخذ كل مسألة في هذا الباب مستوفاة بطريق الإيجاز، فبسم، والم واحد، ثم وجدنا الألف من بسم قد ظهرت في ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [سورة العلق: الآية ١] و ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا﴾ [سورة هود: الآية ٤١] بين الباء والسين ولم تظهر بين السين والميم، فلو لم تظهر في باسم السفينة ما جرت السفينة، ولو لم تظهر في اقرأ باسم ربك ما علم المثل حقيقته ولا رأى صورته، فتيقظ من سنة الغفلة وانتبه، فلما كثر استعمالها في أوائل السور حذفت لوجود المثل مقامه في الخطاب وهو الباء فصار المثل مرآة للسين فصار السين مثالاً، وعلى هذا الترتيب نظام التركيب، وإنما لم تظهر بين السين والميم وهو محل التغيير، وصفات الأفعال أن لو ظهرت لزال السين والميم إذ ليسوا بصفة لازمة للقديم مثل الباء فكان خفاؤه عنهم رحمة بهم إذ كان سبب بقاء وجودهم ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١] وهو الرسول، فهذه الباء والسين والميم العالم كله.

ثم عمل الباء في الميم الخفض من طريق الشبه بالحدوث، إذ الميم مقام الملك وهو العبودية وخفضتها الباء عرفتها بنفسها وأوقفتها على حقيقتها، فمهما وجدت الباء وجدت الميم في مقام الإسلام، فإن زالت الباء يوماً ما لسبب طارىء وهو ترقي الميم إلى مقام الإيمان فتح في عالم الجبروت بسبّح وأشباهه فأمر بتنزيه المحل لتجلي المثل فقيل له ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلى: الآية ١] الذي هو مغذيك بالموادّ الإلهية، فهو ربك بفتح الميم وجاءت الألف ظاهرة وزالت الباء لأن الأمر توجه عليها بالتسبيح ولا طاقة لها على ذلك، والباء محدثة مثلها والمحدث من باب الحقائق لا فعل له ولا بدّ لها من امتثال الأمر، فلا بدّ من ظهور الألف الذي هو الفاعل القديم، فلما ظهر فعلت القدرة في الميم التسبيح فسبح كما أمر، وقيل له الأعلى لأنه مع الباء في الأسفل وفي هذا المقام في الوسط، ولا يسبح المسبح مثله ولا من هو دونه فلا بد أن يكون المسبح أعلى، ولو كنّا في تفسير سورة ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلى: الآية ١] لأظهرنا أسرارها فلا يزال في هذا المقام حتى يتنزّه في نفسه، فإن من ينزّهه منزّه فإنه منزّه عن تنزيهه، فلا بدّ من هذا التنزيه أن يعود على المنزّه ويكون هو الأعلى، فإن الحق من باب الحقيقة لا يصحّ عليه الأعلى، فإنه من أسماء الإضافة وضرب من وجوه المناسبة، فليس بأعلى ولا أسفل ولا أوسط، تنزّه عن ذلك وتعالىٰ علوّاً كبيراً، بل نسبة الأعلى والأوسط والأسفل إليه نسبة واحدة، فإذا تنزّه خرج عن حد الأمر وخرق حجاب السمع وحصل المقام الأعلى، فارتفع الميم بمشاهدة القديم، فحصل له الثناء التام بـ ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٧٨] فكما أن الاسم عين المسمّى كذلك العبد عين المولى من تواضع لله رفعه الله.

وفي الصحيح من الأخبار أن الحق يد العبد ورجله ولسانه وسمعه وبصره، لو لم يقبل الخفض من الباء في باسم ما حصل له الرفع في النهاية في تبارك اسم. ثم اعلم أن كل حرف من بسم مثلث على طبقات العوالم، فاسم الباء باء وألف وهمزة، واسم السين سين وياء ونون، واسم الميم ميم وياء وميم والياء مثل الباء وهي حقيقة العبد في باب النداء، فما أشرف هذا الموجود كيف انحصر في عابد ومعبود، فهذا شرف مطلق لا يقابله ضد، لأن ما سوى وجود الحق تعالىٰ ووجود العبد عدم محض لا عين له، ثم إنه سكن السين من بسم تحت ذلّ الافتقار والفاقة كسكوننا تحت طاعة الرسول لما قال: من يطع الرسول فقد أطاع الله فسكنت السين من بسم لتتلقى من الباء الحق اليقين، فلو تحركت قبل أن تسكن لاستبدّت بنفسها وخيف عليها من الدعوى وهي سين مقدسة فسكنت، فلما تلقت من الباء الحقيقة المطلوبة أعطيت الحركة فلم تتحرك في بعض المواطن إلاَّ بعد ذهاب الباء، إذ كان كلام التلميذ بحضور الشيخ في أمر ما سوء أدب إلاَّ أن يأمره فامتثال الأمر هو الأدب، فقال عند مفارقة الباء يخاطب أهل الدعوى تائهاً بما حصل له في المقام الأعلى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٦] ثم تحرك لمن أطاعه بالرحمة واللين فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٣] يريد حضرة الباء، فإن الجنة حضرة الرسول عليه السلام، وكثيب الرؤية حضرة الحق، فاصدق وسلم تكشف وتلحق، فهذه الحضرة هي التي تنقله إلى الألف المرادة، فكما أنه ينقلك الرسول إلى الله كذلك تنقلك حضرته التي هي الجنة إلى الكثيب الذي هو حضرة الحق. ثم اعلم أن التنوين في بسم لتحقيق العبودة وإشارات التبعيض، فلما ظهر منه التنوين اصطفاه الحق المبين بإضافة التشريف والتمكين فقال بسم الله فحذف التنوين العبديّ لإضافته إلى المنزل الإلهيّ، ولما كان تنوين تخلق لهذا صحّ له هذا التحقق وإلاَّ فالسكون أولى به فاعلم. انتهى الجزء التاسع.

(الجزء العاشر)

بسم الله الرحمٰن الرحيم

وصل: قوله (الله) من (بسم الله).

ينبغي لك أيها المسترشد أن تعرف أولاً ما تحصل في هذه الكلمة الكريمة من الحروف وحينئذ يقع الكلام عليها إن شاء الله وحروفها ا ل ل ا ه و. فأول ما أقول كلاماً مجملاً مرموزاً ثم نأخذ في تبيينه ليسهل قبوله على عالم التركيب، وذلك أن العبد تعلق بالألف تعلق من اضطرّ والتجأ فأظهرته اللام الأولى ظهوراً ورثه الفوز من العدم والنجاة، فلما صحّ ظهوره وانتشر في الوجود نوره وصحّ تعلّقه بالمسمّى وبطل تخلّقه بالأسماء أفنته اللام الثانية بشهود الألف التي بعدها فناء لم تبق منه باقية، وذلك عسى ينكشف له المعمي، ثم جاءت الواو بعد الهاء لتمكن المراد وبقيت الهاء لوجوده آخراً عند محو العباد من أجل العناد فذلك أوان الأجل المسمّى، وهذا هو المقام الذي تضمحل فيه أحوال السائرين وتنعدم فيه مقامات السالكين

حتى يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل لا غير يثبت لظهوره ولا ظلام يبقى لنوره، فإن لم تكن تره اعرف حقيقة إن لم تكن تكن أنت، إذ كانت التاء من الحروف الزوائد في الأفعال المضارعة للذوات وهي العبودية، يقول بعض السادة وقد سمع عاطساً يقول الحمد لله فقال له ذلك السيد أتمّها كما قال الله رب العالمين، فقال العاطس: يا سيدنا ومن العالم حتى يذكر مع الله؟ فقال له: الآن قله يا أخي فإن المحدث إذا قرن بالقديم لم يبق له أثر، وهذا هو مقام الوصلة وحال وله أهل الفناء عن أنفسهم، وأما لو فني عن فنائه لما قال الحمد لله لأن في قوله الحمد أثبت العبد الذي هو المعبر عنه بالرداء عند بعضهم وبالثوب عند آخرين، ولو قال رب العالمين لكان أرفع من المقام الذي كان فيه فذلك مقام الوارثين ولا مقام أعلى منه لأنه شهود لا يتحرك معه لسان ولا يضطرب معه جنان، أهل هذا المقام في أحوالهم فاغرة أفواههم استولت عليهم أنوار الذات وبدت عليهم رسوم الصفات، هم عرائس الله المخبأون عنده المحجوبون لديه الذين لا يعرفهم سواه كما لا يعرفون سواه، توجهم بتاج البهاء وإكليل السناء، وأقعدهم على منابر الفناء عن القرب في بساط الإنس ومناجاة الديمومية بلسان القيومية، أورثهم ذلك قوله على صلاتهم دائمون وبشهادتهم قائمون، فلم تزل القوّة الإلهية تمدّهم بالمشاهدة فيبرزون بالصفات في موضع القدمين، فلا وله إلاّ من حيث الاقتداء، ولا ذكر إلاّ إقامة سنة أو فرض، لا يحيدون عن سواء السبيل فهم بالحق، وإن خاطبوا الخلق وعاشروهم فليسوا معهم، وإن رأوهم لم يروهم إذ لا يرون منهم إلاّ كونهم من جملة أفعال الله، فهم يشاهدون الصنعة والصانع مقاماً عمرياً، كما يقعد أحدكم مع نجار يصنع تابوتاً فيشاهد الصنعة والصانع ولا تحجبه الصنعة عن الصانع إلاّ إن شغل قلبه حسن الصنعة، فإن الدنيا كما قال عليه السلام حلوة خضرة وهي من خضراء الدمن جارية حسناء في منبت سوء من أحسن إليها وأحبها أساءت إليه وحرمت عليه أخراه ولقد أحسن القائل: [الطويل]

إذا امْتَحَنَ الدنيا لبيبٌ تكشَّفَتْ … له عن عدوٍّ في ثياب صديقِ

فهذه الطائفة الأمناء الصديقون إذا أيّدهم الله بالقوّة الإلهية وأمدّهم فهم معه بهذه النسبة على وجه المثال، وهذا أعلى مقام يرقى فيه، وأشرف غاية ينتهي إليها هذه الغاية القصوى، إذ لا غاية إلاّ من حيث التوحيد لا من حيث الموارد والواردات، وهو المستوى إذ لا استواء إلاّ الرفيق الأعلى، فهنيئاً لهذه العصابة بما نالوه من حقائق المشاهدة، وهنيئاً لنا على التصديق والتسليم لهم بالموافقة والمساعدة، مرّ بنا جواد اللسان في حلبة الكلام، فلنرجع إلى ما كنّا بسبيله والسلام. فأقول: همزة هذا الاسم المحذوفة بالإضافة تحقيق اتصال الوحدانية وتمحيق انفصال الغيرة، فالألف واللام الملصقة كما تقدم لتحقيق المتصل ومحق المنفصل والألف الموجودة في اللام الثانية لمحو آثار الغير المتحصل والواو التي بعد الهاء ليس لها في الخط أثر، ومعناها في الوجود بهاء الهوية قد انتشر أبداها في عالم الملك بذاتها فقال: هو الله الذي لا إله إلاّ هو، فبدأ بالهوية وختم، وملكها الأمر في الوجود والعدم، وجعلها دالة على الحدوث والقدم، وهو آخر ذكر الذاكرين وأعلاه، فرجع العجز على الصدر فلاحت ليلة

القدر، ووقف بوجودها أهل العناية والتأييد على حقائق التوحيد، فالوجود في نقطة دائرة هذا الاسم ساكن، وقد اشتمل عليه بحقيقته اشتمال الأماكن على المتمكن الساكن ولله المثل الأعلى: [الكامل]

والله قـد ضَـرَب الأقـلَّ لـنـورهِ مـثـلاً مـن الـمِـشْـكَـاة والـنِّـبْـرَاسِ

فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٤] أحاط بكل شيء علماً، وصيّر الكل اسماً ومسمّى، وأرسله مكشوفاً ومعمى.

حل المقفل وتفصيل المجمل:

يقول العبد: الله؛ فيثبت أولاً وآخراً، وينفى باللامين باطناً وظاهراً، لزمت اللام الثانية الهاء بوساطة الألف العلمية ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] الثلاثة اللام ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] فالألف سادس في حق الهاء رابع في حق اللام ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٥] العرش ظلّ الله العرش اللام الثانية وما حواه اللام الأولى بطريق الملك، واللامان هما الظاهر والباطن من باب الأسماء ظهرتا بين ألف الأول وألف الآخر وهو مقام الاتصال لأن النهاية تنعطف على البداية وتتصل بها اتصال اتحاد، ثم خرجت الهاء بواوها الباطنة مخرج الانفصال، والجزء المتصل بين اللام والهاء هو السرّ الذي به تقع المشاهدة بين العبد والسيد وذلك مركز الألف العلمية وهو مقام الاضمحلال، ثم جعل تعالىٰ في الخط المتصل جزءاً بين اللامين للاتصال بين اللام الأولى التي هي عالم الملك وبين اللام الثانية التي هي عالم الملكوت، وهو مركز العالم الأوسط عالم الجبروت مقام النفس، ولا بدّ من خطوط فارغة بين كل حرفين، فتلك مقامات فناء رسوم السالكين من حضرة إلى حضرة.

تتميم: الألف الأولى التي هي ألف الهمزة منقطعة واللام الثانية ألفها متصل بها قطعت الألف في أوائل الخطوط لقوله عليه السلام: «**كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيءَ مَعَهُ**» فلهذا قطعت وتنزّه من الحروف من أشبهها في عدم الاتصال بما بعدها، والحروف التي أشبهتها على عدد الحقائق العامة العالية التي هي الأمهات، وكذلك إذا كانت آخر الحروف تقطع الاتصال من البعدية الرقمية فكان انقطاع الألف تنبيهاً لما ذكرناه، وكذلك إخوته فالألف للحق وأشباه الألف للخلق وذلك د ذ ر ز وفي جميع الحقائق جسم متغذ حساس ناطق وما عداه ممن له لغة، وانحصرت حقائق العالم الكلية، فلما أراد وجود اللام الثانية وهي أول موجود في المعنى وإن تأخرت في الخط فإن معرفة الجسم تتقدم على معرفة الروح شاهداً، وكذلك الخط شاهداً، وهي عالم الملكوت أوجدها بقدرته، وهي الهمزة التي في الاسم إذا ابتدأت به معرى من الإضافة وهي لا تفارق الألف، فلما أوجدت هذه الألف اللام الثانية جعلها رئيسة فطلبت مرؤوساً تكون عليه بالطبع، فأوجد لها عالم الشهادة الذي هو اللام الأولى، فلما نظرت إليه أشرق وأنار ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٩] وهو الجزء الذي بين اللامين أمر سبحانه اللام الثانية أن تمدّ الأولى بما أمدّها به تعالىٰ من جود ذاته، وأن تكون

دليلها إليه، فطلبت منه معنى تصرفه في جميع أمورها يكون لها كالوزير فتلقي إليه ما تريده فيلقيه على عالم اللام الأولى، فأوجد لها الجزء المتصل باللامين المعبر عنه بالكتاب الأوسط وهو العالم الجبروتي، وليست له ذات قائمة مثل اللامين فإنه بمنزلة عالم الخيال عندنا، فألقت اللام الثانية إلى ذلك الجزء وارتقم فيه ما أريد منها ووجهت به إلى اللام الأولى فامتثلت الطاعة حتى قالت بلى، فلما رأت اللام الأولى الأمر قد أتاها من قبل اللام الثانية بوساطة الجزء الذي هو الشرع صارت مشاهدة لما يرد عليها من ذلك الجزء راغبة له في أن يوصلها إلى صاحب الأمر لتشاهده، فلما صرفت الهمة إلى ذلك الجزء واشتغلت بمشاهدته احتجبت عن الألف التي تقدمتها ﴿ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا﴾ [سورة الحديد: الآية ١٣] ولو لم تصرف الهمة إلى ذلك الجزء لتلقت الأمر من الألف الأولى بلا واسطة ولكن لا يمكن لسر عظيم فإنها ألف الذات والثانية ألف العلم.

إشارة: ألا ترى أن اللام الثانية لما كانت مرادة مجتباة منزّهة عن الوسائط كيف اتصلت بألف الوحدانية اتصالاً شافياً حتى صار وجودها نطقاً يدل على الألف دلالة صحيحة؟ وإن كانت الذات خفيت فإن لفظك باللام يحقق الاتصال، ويدلك عليها من عرف نفسه عرف ربه من عرف اللام الثانية عرف الألف، فجعل نفسك دليلاً عليك، ثم جعل كونك دليلاً عليك دليلاً عليه في حق من بعد، وقدم معرفة العبد بنفسه على معرفته بربه، ثم بعد ذلك يفنيه عن معرفته بنفسه لما كان المراد منه أن يعرف ربه، ألا ترى تعانق اللام الألف وكيف يوجد اللام في النطق قبل الألف، وفي هذا تنبيه لمن أدرك فهذه اللام الملكوتية تتلقى من ألف الوحدانية بغير واسطة فتورده على الجزء الجبروتي ليؤدّيه إلى لام الشهادة والملك هكذا الأمر ما دام التركيب والحجاب، فلما حصلت الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية أراد تعالىٰ، كما قدم الألف منزّهة عن الاتصال من كل الوجوه بالحروف أراد أن يجعل الانتهاء نظير الابتداء، فلا يصحّ بقاء للعبد أولاً وآخراً، فأوجد الهاء مفردة بواو هويتها، فإنْ توهم متوهم أن الهاء ملصقة إلى اللام فليست كذلك وإنما هي بعد الألف التي بعد اللام، والألف لا يتصل بها في البعدية شيء من الحروف، فالهاء بعد اللام مقطوعة عن كل شيء، فذلك الاتصال باللام في الخط ليس باتصال فالهاء واحدة والألف واحدة، فاضرب الواحد في مثله يكن واحداً فصحّ انفصال الخلق عن الحق فبقي الحق، وإذا صحّ تخلق اللام الملكية لما توررده عليها لام الملكوت، فلا تزال تضمحل عن صفاتها وتفنى عن رسومها إلى أن تحصل في مقام الفناء عن نفسها، فإذا فنيت عن ذاتها فني الجزء لفنائها، واتّحدت اللامان لفظاً ينطق بها اللسان مشدّدة للإدغام الذي حدث فصارت موجودة بين ألفين اشتملا عليها وأحاطا بها فأعطتنا الحكمة الموهوبة لما سمعنا لفظ الناطق بلا بين ألفين علمنا علم الضرورة أن المحدث فني بظهور القديم فبقي ألفان أولى وأخرى، وزال الظاهر والباطن بزوال اللامين بكلمة النفي، فضربنا الألف في الألف ضَرب الواحد في الواحد فخرجت لك الهاء، فلما ظهرت زال حكم الأول والآخر الذي جعلته الواسطة كما زال حكم الظاهر والباطن، فقيل عند ذلك: كان الله ولا شيء معه. ثم

أصل هذا الضمير الذي هو الهاء الرفع ولا بدّ، فإن انفتح أو انخفض فتلك صفة تعود على من فتحه أو خفضه فهي عائدة على العامل الذي قبل في اللفظ.

تكملة: ثم أوجد سبحانه الحركات والحروف والمخارج تنبيهاً منه سبحانه وتعالىٰ أن الذوات تتميز بالصفات والمقامات، فجعل الحركات نظير الصفات، وجعل الحروف نظير الموصوف، وجعل المخارج نظير المقامات والمعارج، فأعطى لهذا الاسم من الحروف على عموم وجوهه من وصل وقطع ء ا ل ه و همزة وألفاً ولاماً وهاء وواواً، فالهمزة أولاً والهاء آخراً ومخرجهما واحد مما يلي القلب، ثم جعل بين الهمزة والهاء حرف اللام ومخرجه اللسان ترجمان القلب، فوقعت النسبة بين اللامين والهمزة والهاء كما وقعت النسبة بين القلب الذي هو محل الكلام وبين اللسان المترجم عنه. قال الأخطل: [الكامل]

إن الـكـلام لَـفـي الـفـؤادِ وإنـمـا جُـعِـلَ الـلـسـانُ عـلـى الـفـؤاد دلـيـلا

فلما كانت اللام من اللسان جعلها تنظر إليه لا إلى نفسها فأفناها عنها وهي الحنك الأسفل، فلما نظرت إليه لا إلى ذاتها علت وارتفعت إلى الحنك الأعلى واشتدّ اللسان بها في الحنك اشتداد التمكّن علوها وارتفاعها بمشاهدته، وخرجت الواو من الشفتين إلى الوجود الظاهر مخبرة دالة عليه، وذلك مقام باطن النبوّة وهي الشعرة التي فينا من الرسول ﷺ وفي ذلك يكون الورث، فخرج من هذا الوصل أن الهمزة والألف والهاء من عالم الملكوت واللام من عالم الجبروت والواو من عالم الملك.

وصل: قوله ﴿الرحمٰن﴾ من البسملة.

الكلام على هذا الاسم في هذا الباب من وجهين: من وجه الذات ومن وجه الصفة، فمن أعربه بدلاً جعله ذاتاً، ومن أعربه نعتاً جعله صفة، والصفات ست، ومن شرط هذه الصفات الحياة فظهرت السبعة، وجميع هذه الصفات للذات وهي الألف الموجودة بين الميم والنون من الرحمن، ويتركب الكلام على هذا الاسم من الخبر الثابت عن النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**» من حيث إعادة الضمير على الله، ويؤيّد هذا النظر الرواية الأخرى وهي قوله عليه السلام: «**عَلَىٰ صُورَةِ الرَّحْمٰنِ**» وهذه الرواية وإن لم تصحّ من طريق أهل النقل فهي صحيحة من طريق الكشف فأقول: إن الألف واللام والراء للعلم، والإرادة والقدرة والحاء والميم والنون مدلول الكلام والسمع والبصر، وصفة الشرط التي هي الحياة مستصحبة لجميع هذه الصفات، ثم الألف التي بين الميم والنون مدلول الموصوف، وإنما حذفت خطاً لدلالة الصفات عليها دلالة ضرورية من حيث قيام الصفة بالموصوف، فتجلت للعالم الصفات، ولذلك لم يعرفوا من الإلٰه غيرها ولا يعرفونها. ثم الذي يدل على وجود الألف ولا بدّ ما ذكرناه وزيادة وهي إشباع فتحة الميم وذلك إشارة إلٰهية إلى بسط الرحمة على العالم، فلا يكون أبداً ما قبل الألف إلاّ مفتوحاً، فتدل الفتحة على الألف في مثل هذا الموطن وهو محل وجود الروح الذي له مقام البسط لمحل التجلي، ولهذا ذكر أهل عالم التركيب في وضع الخطوط في حروف العلة الياء المكسور ما قبلها، إذ قد توجد الياء الصحيحة ولا كسر قبلها،

وكذلك الواو المضموم ما قبلها، ولما ذكروا الألف لم يقولوا المفتوح ما قبلها إذ لا توجد إلاَّ والفتح في الحرف الذي قبلها بخلاف الواو والياء فالاعتدال للألف لازم أبداً، فالجاهل إذا لم يعلم في الوجود منزّهاً عن جميع النقائص إلاَّ الله تعالىٰ نسي الروح القدسي الأعلى. فقال: ما في الوجود إلاَّ الله، فلما سُئل في التفصيل لم يوجد لديه تحصيل، وإنما خصّصوا الواو بالمضموم ما قبلها والياء بالمكسور ما قبلها لما ذكرناه، فصحّت المفارقة بين الألف وبين الواو والياء، فالألف للذات والواو العلية للصفات والياء العلية للأفعال، الألف للروح والعقل صفته وهو الفتحة، والواو النفس والقبض صفتها وهو الضمة والياء الجسم ووجود الفعل صفته وهو الخفض، فإن انفتح ما قبل الواو والياء فذلك راجع إلى حال المخاطب، ولما كانتا غيراً ولا بدّ اختلفت عليهما الصفات، ولما كانت الألف لا تقبل الحركات اتحدت بمدلولها فلم يختلف عليها شيء البتة وسمّيت حروف العلة لما نذكره، فألف الذات علة لوجود الصفة، وواو الصفة علة لوجود الفعل، وياء الفعل علة لوجود ما يصدر عنه في عالم الشهادة من حركة وسكون فلهذا سمّيت عللاً، ثم أوجد النون من هذا الاسم نصف دائرة في الشكل، والنصف الآخر محصور معقول في النقطة التي تدل على النون الغيبية الذي هو نصف الدائرة، ويحسب الناس النقطة أنها دليل على النون المحسوسة، ثم أوجد مقدم الحاء مما يلي الألف المحذوفة في الرقم إشارة إلى مشاهدتها ولذلك سكنت ولو كان مقدمها إلى الراء لتحركت، فالألف الأولى للعلم واللام للإرادة والراء للقدرة وهي صفة الإيجاد، فوجدنا الألف لها الحركة من كونها همزة والراء لها الحركة واللام ساكنة، فاتحدت الإرادة بالقدرة كما اتحد العلم، والإرادة بالقدرة إذا وصلت الرحمن بالله فأدغمت لام الإرادة في راء القدرة بعدما قلبت راء وشدّت لتحقيق الإيجاد الذي هو الحاء وجود الكلمة ساكنة وإنما سكنت لأنها لا تنقسم والحركة منقسمة، فلما كانت الحاء ساكنة سكوناً حسياً ورأيناها مجاورة الراء راء القدرة عرفنا أنها الكلمة وتثمينها.

تنبيه: أشار من أعربه بدلاً من قوله (الله) إلى مقام الجمع واتحاد الصفات وهو مقام من روى خلق آدم على صورته، وذلك وجود العبد في مقام الحق حد الخلافة، والخلافة تستدعي الملك بالضرورة، والملك ينقسم قسمين: قسم راجع لذاته وقسم راجع لغيره، والواحد من الأقسام يصلح في هذا المقام على حد ما رتبناه، فإن البدل في الموضع يحل محل المبدل منه مثل قولنا: جاءني أخوك زيد، فزيد بدل من أخيك بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة فإن زيداً هو أخوك وأخاك هو زيد بلا شك، وهذا مقام من اعتقد خلافه فما وقف على حقيقة ولا وحد قط موجده. وأما من أعربه نعتاً فإنه أشار إلى مقام التفرقة في الصفة وهو مقام من روى خلق آدم على صورة الرحمٰن وهذا مقام الوراثة، ولا تقع إلاَّ بين غيرين مقام الحجاب بمغيب الواحد وظهور الثاني وهو المعبر عنه بالمثل وفيما قررنا دليل على ما أضمرنا فافهم.

ثم أظهر من النون الشطر الأسفل وهو الشطر الظاهر لنا من الفلك الدائر من نصف

الدائرة ومركز العالم في الوسط من الخط الذي يمتد من طرف الشطر إلى الطرف الثاني، والشطر الثاني المستور في النقطة هو الشطر الغائب عنا من تحت نقيض الخط بالإضافة إلينا إذ كانت رؤيتنا من حيث الفعل في جهة، فالشطر الموجود في الخط هو المشرق والشطر المجموع في النقطة هو المغرب وهو مطلع وجود الأسرار، فالمشرق وهو الظاهر المركب ينقسم والمغرب وهو الباطن البسيط لا ينقسم، وفيه أقول: [المتدارك]

عجباً للظاهر ينقسِمُ ولباطنه لا ينقسِمُ
فالظاهر شمسٌ في حَمَلٍ والباطنُ في أسدٍ جَلِمُ
حقِّقْ وانظرْ معنى سَتَرَتْ من تحتِ كنائفها الظُّلَمُ
إن كان خَفِي هو ذاك بدا عجباً والله هما القَسَمُ
فافزعْ للشمس ودَعْ قمراً في الوَتْرِ يلوحُ وينعَدِمُ
واخلَعْ نعلَيْ قدَمَيْ كُوني علمي شَفْعٌ يكنِ الكَلِمِ

ولذلك يتعلق العلم بالمعلومات، والإرادة الواحدة بالمرادات، والقدرة الواحدة بالمقدورات، فتقع القسمة والتعداد في المقدورات والمعلومات والمرادات وهو الشطر الموجود في الرقم، ويقع الاتحاد والتنزّه عن الأوصاف الباطنية من علم وقدرة وإرادة وفي هذا إشارة فافهم. ولما كانت الحاء ثمانية وهو وجود كمال الذات ولذلك عبرنا عنه بالكلمة والروح، فكذلك النون خامسة في العشرات إذ يتقدمها الميم الذي هو رابع، فالنون جسماني محل إيجاد موادّ الروح والعقل والنفس ووجود الفعل وهذا كله مستودع في النون وهي كلية الإنسان الظاهرة ولهذا ظهرت.

تتمة: وإنما فصل بين الميم والنون بالألف (مان) إذ الميم ملكوتية لما جعلناها للروح والنون ملكية والنقطة جبروتية لوجود سر سلب الدعوى كأنه يقول: أي يا روح الذي هو الميم لم نصطفك من حيث أنت لكن عناية سبقت لك في وجود علمي ولو شئت لاطلعت على نقطة العقل ونون الإنسانية دون واسطة وجودك، فاعرف نفسك واعلم أن هذا اختصاص بك مني من حيث أنا لا من حيث أنت فصحت الاصطفائية فلا تجلي لغيره أبداً، فالحمد لله على ما أولى. فتنبّه يا مسكين في وجود الميم دائرة على صورة الجسم مع التقدم كيف أشار به إلى التنزّه عن الانقسام وانقسام الدائرة لا يتناهى، فانقسام روح الميم بمعلوماته لا يتناهى وهو في ذاته لا ينقسم، ثم انظر الميم إذا انفصل وحده كيف ظهرت منه مادة التعريق لما نزل إلى وجود الفعل في عالم الخطاب والتكليف فصارت المادة في حق الغير لا في حق نفسه، إذ الدائرة تدل عليه خاصة فما زاد فليس في حقّه إذ قد ثبتت ذاته فلم يبق إلاً أن يكون في حق غيره، فلما نظر العبد إلى المادّة مدّ تعريقاً وهذا هو وجود التحقيق. ثم اعلم أن الجزء المتصل بين الميم والنون هو مركز ألف الذات وخفيت الألف ليقع الاتصال بين الميم والنون بطريق المادّة وهو الجزء المتصل، ولو ظهرت الألف لما صحّ التعريق للميم لأن الألف حالت بينهما، وفي هذا تنبيه على قوله ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ﴾ [سورة النبأ: الآية

٣٧] وجود الألف المرادة هذا على من أعربه مبتدأ، ولا يصح من طريق التركيب، والصحيح أن يعرب بدلاً من الرب فتبقى الألف هنا عبارة عن الروح والحق قائم بالجميع والميم السموات والنون الأرض، وإذا ظهرت الألف بين الميم والنون فإن الاتصال بالميم لا بالنون فلا تأخذ النون صفة أبداً من غير واسطة لقطعها، ودلّ اتصالها بالميم على الأخذ بلا واسطة، والعدم الذي صحَّ به القطع فيه يفني النون ويبقي الميم محجوباً عن سرّ قدمه بالنقطة التي في وسطه التي هي جوف دائرته بالنظر إلى ذاته بعد أن لم تكن فيما ظهر له.

سؤال وجوابه: قيل: فكيف عرفت سرّ قدمه ولم يعرفه هو وهو أحق بمعرفة نفسه منك إن نظرت إلى ظاهرك، أو هل العالم بسرّ القدم فيه هو المعنى الموجود فيك المتكلم فيه وهو ميم الروح فقد وقف على سرّ قدمه؟ الجواب عن ذلك أن الذي علم منا سرّ القدم هو الذي حجبناه هناك فمن الوجه الذي أثبتنا له العلم غير الوجه الذي أثبتنا له منه عدم العلم، ونقول: إنما حصل له ذلك علماً لا عيناً وهذا موجود، فليس من شرط من عَلِم شيئاً أن يراه والرؤية للمعلوم أتم من العلم به من وجه وأوضح في المعرفة به، فكل عين علم وليس كل علم عيناً إذ ليس من شرط من علم أن ثم مكة رآها وإذا رآها قطعنا أنه يعلمها ولا أريد الاسم فللعين درجة على العلم معلومة كما قيل: [الوافر]

ولـكـنْ لـلـعـيـانِ لـطـيـفُ مـعـنًـى ... لـذا سـأل الـمـعـايـنـةَ الـكـلـيـمُ

بل أقول: إن حقيقة سرّ القدم الذي هو حق اليقين لأنه لا يعاين فلم يشاهده لرجوعه لذات موجده ولو علم ذات موجده لكان نقصاً في حقّه، فغاية كماله في معرفة نفسه بوجودها بعد أن لم تكن عيناً، هذا فصل عجيب إن تدبرته وقفت على عجائب فافهم.

تكملة: اتصلت اللام بالراء اتصال اتحاد نطقاً من حيث كونهما صفتين باطنتين فسهل عليهما الاتحاد ووجدت الحاء التي هي الكلمة المعبر عنها بالمقدور للراء منفصلة عن الراء التي هي القدرة ليتميز المقدور من القدرة، ولئلاً تتوهم الحاء المقدورة أنها صفة ذات القدرة فوقع الفرق بين القديم والمحدث فافهم يرحمك الله. ثم لتعلم أن رحمن هو الاسم وهو للذات والألف واللام اللذان للتعريف هما الصفات ولذلك يقال رحمان مع زوالهما كما يقال ذات ولا تسمّى صفة معهما، انظر في اسم مسيلمة الكذاب تسمّى برحمان ولم يهد إلى الألف واللام لأن الذات محل الدعوى عند كل أحد وبالصفات يفتضح المدعي، فرحمان مقام الجمع وهو مقام الجهل أشرف ما يرتقى إليه في طريق الله الجهل به تعالىٰ ومعرفته الجهل به فإنها حقيقة العبودية قال تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٧] فجردك ومما يؤيّد هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٥] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢١] فبحقيقة الاستخلاف سلب مسيلمة وإبليس والدجال وكان من حالهم ما علم، فلو استحقوه ذاتاً ما سلبوه البتة، ولكن إن نظرت بعين التنفيذ والقبول الكلي لا بعين الأمر وجدت المخالف طائعاً والمعوج مستقيماً والكل داخل في الرق شاؤوا أم أبوا، فأما إبليس ومسيلمة فصرّحا بالعبودية والدجال أبى، فتأمل

من أين تكلم كل واحد منهم، وما الحقائق التي لاحت لهم حتى أوجبت لهم هذه الأحوال.

تتمة: لما نطقنا بقوله: ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ لم يظهر للألف واللام وجود فصار الاتصال من الذات للذات، والله والرحمن اسمان للذات فرجع على نفسه بنفسه ولهذا قال ﷺ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**» لما انتهى إلى الذات لم ير غيراً وقد قال أعوذ بك ولا بدّ من مستعاذ منه فكشف له عنه فقال منك ومنك هو، والدليل عليه أعوذ ولا يصحّ أن يفصل فإنه في الذات ولا يجوز التفصيل فيها، فتبين من هذا أن كلمة الله هي العبد فكما أن لفظة الله للذات دليل كذلك العبد الجامع الكلي، فالعبد هو كلمة الجلالة، قال بعض المحققين: في حال ما أنا الله، وقالها أيضاً بعض الصوفية من مقامين مختلين، وشتان بين مقام المعنى ومقام الحرف الذي وجد له، فقابل تعالىٰ الحرف بالحرف أعوذ برضاك من سخطك، وقابل المعنى بالمعنى وأعوذ بك منك وهذا غاية المعرفة.

خاتمة: ولعلك تفرق بين الله وبين الرحمن لما تعرض لك في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٧٢] ولم يقولوا وما الله ولما ﴿قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٠] ولهذا كان النعت أولى من البدل عند قوم وعند آخرين البدل أولى لقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] فجعلها للذات، ولم تنكر العرب كلمة الله فإنهم القائلون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] فعلموه، ولما كان الرحمن يعطي الاشتقاق من الرحمة وهي صفة موجودة فيهم خافوا أن يكون المعبود الذي يدلهم عليه من جنسهم فأنكروا وقالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٠] لما لم يكن من شرط كل كلام أن يفهم معناه ولهذا قال: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] لما كان اللفظان راجعين إلى ذات واحدة وذلك حقيقة العبد والباري منزّه عن إدراك التوهّم والعلم المحيط به جلّ عن ذلك.

وصل: في قوله ﴿الرحيم﴾ من البسملة.

الرحيم صفة محمد ﷺ قال تعالىٰ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨] وبه كمال الوجود، وبالرحيم تمت البسملة وبتمامها تمّ العالم خلقاً وإبداعاً، وكان عليه السلام مبتدأ وجود العالم عقلاً ونفساً متى كنت نبياً قال وآدم بين الماء والطين فبه بدىء الوجود باطناً وبه ختم المقام ظاهراً في عالم التخطيط فقال: لا رسول بعدي ولا نبي. فالرحيم هو محمد ﷺ، وبسم هو أبونا آدم، وأعني في مقام ابتداء الأمر ونهايته، وذلك أن آدم عليه السلام هو حامل الأسماء قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] ومحمد ﷺ حامل معاني تلك الأسماء التي حملها آدم عليهما السلام وهي الكلم، قال ﷺ: «**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ**» ومن أثنى على نفسه أمكن وأتمّ ممّن أثنى عليه كيحيىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، ومن حصلَ له الذات فالأسماء تحت حكمه، وليس من حصل الأسماء أن يكون المسمّى محصلاً عنده، وبهذا فضلت الصحابة علينا فإنهم حصلوا الذات وحصلنا الاسم، ولما راعينا الاسم مراعاتهم الذات ضوعف لنا الأجر، ولحسرة الغيبة التي لم تكن لهم فكان

تضعيف على تضعيف، فنحن الإخوان وهم الأصحاب وهو ﷺ إلينا بالأشواق، وما أفرحه بلقاء واحد منّا، وكيف لا يفرح وقد ورد عليه من كان بالأشواق إليه فهل تقاس كرامته به وبرّه وتحفيه، وللعامل منّا أجر خمسين ممّن يعمل بعمل أصحابه لا من أعيانهم لكن من أمثالهم فذلك قوله: بل منكم فجدوا واجتهدوا حتى يعرفوا أنهم خلفوا بعدهم رجالاً لو أدركوه ما سبقوهم إليه، ومن هنا تقع المجازاة والله المستعان.

تنبيه: ثم لتعلم أن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أربعة ألفاظ لها أربعة معان فتلك ثمانية وهم حملة العرش المحيط وهم من العرش وهنا هم الحملة من وجه والعرش من وجه، فانظر واستخرج من ذاتك لذاتك.

تنبيه: ثم وجدنا ميم (بسم) الذي هو آدم عليه السلام معرقاً، ووجدنا ميم (الرحيم) معرقاً الذي هو محمد ﷺ تسليماً فعلمنا أن مادّة ميم آدم عليه السلام لوجود عالم التركيب إذ لم يكن مبعوثاً، وعلمنا أن مادّة ميم محمد ﷺ لوجود الخطاب عموماً كما كان آدم عندنا عموماً فلهذا امتدا.

إنباه: قال سيدنا الذي لا ينطق عن الهوى: «**إِنْ صَلُحَتْ أُمَّتِي فَلَهَا يَوْمٌ وَإِنْ فَسَدَتْ فَلَهَا نِصْفُ يَوْم**» واليوم رباني فإن أيام الرب كل يوم من ألف سنة ممّا نعد بخلاف أيام الله وأيام ذي المعارج فإن هذه الأيام أكبر فلكاً من أيام الرب، وسيأتي إن شاء الله ذكرها في داخل الكتاب في معرفة الأزمان وصلاح الأمّة بنظرها إليه ﷺ وفسادها بإعراضها عنه، فوجدنا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يتضمن ألف معنى كل معنى لا يحصل إلاّ بعد انقضاء حول، ولا بدّ من حصول هذه المعاني التي تضمنها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ لأنه ما ظهر إلاّ ليعطي معناه، فلا بدّ من كمال ألف سنة لهذه الأمة وهي في أول دورة الميزان ومدتها ستة آلاف سنة روحانية محققة، ولهذا ظهر فيها من العلوم الإلٰهية ما لم يظهر في غيرها من الأمم، فإن الدورة التي انقضت كانت ترابية فغاية علمهم بالطبائع والإلٰهيون فيهم غرباء قليلون جداً يكاد لا يظهر لهم عين، ثم إن المتألّه منهم ممتزج بالطبيعة ولا بدّ والمتألّه منّا صرف خالص لا سبيل لحكم الطبع عليه.

مفتاح: ثم وجدنا في (الله)وفي (الرحمٰن) ألفين ألف الذات وألف العلم، ألف الذات خفية وألف العلم ظاهرة لتجلي الصفة على العالم، ثم أيضاً خفيت في (الله) ولم تظهر لرفع الالتباس في الخط بين (الله) و(اللاه)، ووجدنا في (بسم) الذي هو آدم عليه السلام ألفاً واحدة خفيت لظهور الباء، ووجدنا في (الرحيم) الذي هو محمد ﷺ ألفاً واحدة ظاهرة وهي ألف العلم، ونفس سيدنا محمد ﷺ الذات فخفيت في آدم عليه السلام الألف لأنه لم يكن مرسلاً إلى أحد فلم يحتج إلى ظهور الصفة، وظهرت في سيدنا محمد ﷺ لكونه مرسلاً فطلب التأييد فأعطي الألف فظهر بها، ثم وجدنا الباء من (بسم) قد عملت في ميم الرحيم فكان عمل آدم في محمد ﷺ وجود التركيب، وفي (الله) عمل سبب داع، وفي (الرحمن) عمل بسبب مدعوّ، ولما رأينا أن النهاية أشرف من البداية قلنا من عرف نفسه عرف ربّه، والاسم

سلم إلى المسمّى، ولما علمنا أن روح (الرحيم) عمل في روح (بسم) لكونه نبياً وآدم بين الماء والطين ولولاهما ما كان سمّي آدم علمنا أن (بسم) هو (الرحيم) إذ لا يعمل شيء إلاَّ من نفسه لا من غيره، فانعدمت النهاية والبداية والشرك والتوحيد وظهر عزّ الاتحاد سلطانه، فمحمد للجمع وآدم للتفريق.

إيضاح: الدليل على أن الألف في قوله الرحيم ألف العلم قوله: ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] وفي ألف باسم: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] فالألف الألف ولا أدنى من ذلك باطن التوحيد ولا أكثر يريد ظاهره، ثم خفيت الألف في آدم من باسم لأنه أول موجود ولم يكن له منازع يدعي مقامه، فدل بذاته من أول وهلة على وجود موجده لما كان مفتتح وجودنا وذلك لما نظر في وجوده تعرض له أمران: هل أوجده موجود لا أول له؟ أو هل أوجد هو نفسه؟ ومحال أن يوجد هو نفسه لأنه لا يخلو أن يوجد نفسه وهو موجود أو يوجدها وهو معدوم، فإن كان موجوداً فما الذي أوجد، وإن كان معدوماً فكيف يصحّ منه إيجاد وهو عدم، فلم يبق إلاَّ أن يوجده غيره وهو الألف ولذلك كانت السين ساكنة وهو العدم والميم متحركة وهو أوان الإيجاب، فلما دلّ عليه من أول وهلة خفيت الألف لقوّة الدلالة وظهرت في الرحيم لضعف الدلالة لمحمد ﷺ لوجود المنازع فأيّده بالألف فصار الرحيم محمداً والألف منه الحق المؤيّد له من اسمه الظاهر، قال تعالىٰ: ﴿فَأَصْبَحُوا ظَٰهِرِينَ﴾ [سورة الصف: الآية ١٤] فقال: قولوا لا إلٰه إلاَّ الله وإني رسوله فمن آمن بلفظه لم يخرج من رِق الشرك وهومن أهل الجنة، ومن آمن بمعناه انتظم في سلك التوحيد فصحّت له الجنة الثامنة وكان ممن آمن بنفسه فلم يكن في ميزان غيره، إذ قد وقعت السوية واتحدت الاصطفائية جمعاً واختلفت رسالة ووجدنا (بسم) ذا نقطة و(الرحمن) كذلك و(الرحيم) ذا نقطتين و(الله) مصمت فلم توجد في الله لما كان الذات ووجدت فيما بقي لكونهم محل الصفات، فاتحدت في (بسم) آدم لكونه فرداً غير مرسل، واتحدت في (الرحمن) لأنه آدم وهو المستوي على عرش الكائنات المركبات.

وبقي الكلام على نقطتي (الرحيم) مع ظهور الألف فالياء الليالي العشر والنقطتان الشفع والألف الوتر والاسم بكليته والفجر ومعناه الباطن الجبروتي والليل إذا يسري وهو الغيب الملكوتي، وترتيب النقطتين الواحدة مما تلي الميم والثانية مما تلي الألف والميم وجود العالم الذي بعث إليهم، والنقطة التي تليه أبو بكر رضي الله عنه، والنقطة التي تلي الألف محمد ﷺ وقد تقببت الياء عليهما كالغار ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٠] فإنه واقف مع صدقه، ومحمد عليه السلام واقف مع الحق في الحال الذي هو عليه في ذلك الوقت، فهو الحكيم كفعله يوم بدر في الدعاء والإلحاح وأبو بكر عن ذلك صاح، فإن الحكيم يوفي المواطن حقّها، ولما لم يصحّ اجتماع صادقين معاً لذلك لم يقم أبو بكر في حال النبي ﷺ وثبت مع صدقه به، فلو فقد النبي ﷺ في ذلك الموطن وحضره أبو بكر لقام في ذلك المقام الذي أقيم فيه رسول الله ﷺ لأنه ليس ثم أعلى منه

يحجبه عن ذلك فهو صادق ذلك الوقت وحكيمه وما سواه تحت حكمه، فلما نظرت نقطة أبي بكر إلى الطالبين أسف عليه فأظهر الشدة وغلب الصدق وقال لا تحزن لأثر ذلك الأسف إن الله معنا كما أخبرتنا، وإن جعل منازع أن محمداً هو القائل لم نبال لما كان مقامه ﷺ الجمع والتفرقة معاً وعلم من أبي بكر الأسف ونظر إلى الألف فتأيّد وعلم أن أمره مستمرّ إلى يوم القيامة قال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٠] وهذا أشرف مقام ينتهي إليه تقدم الله عليك ما رأيت شيئاً إلاَّ رأيت الله قبله شهود بكري وراثة محمدية، وخاطب الناس بمن عرف نفسه عرف ربّه وهو قوله تعالىٰ يخبر عن ربّه تعالىٰ ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٦٢] والمقالة عندنا إنما كانت لأبي بكر رضي الله عنه، ويؤيّدنا قول النبيّ ﷺ: **«لَوْ كُنتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً»** فالنبيّ ﷺ ليس بمصاحب وبعضهم أصحاب بعض وهم له أنصار وأعوان، فافهم إشارتنا تهد إلى سواء السبيل.

لطيفة: النقطتان الرحيمية موضع القدمين وهو أحد خلع النعلين الأمر والنهي، والألف الليلة المباركة وهي غيب محمد ﷺ ثم فرّق فيه إلى الأمر والنهي وهو قوله فيها: ﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤] وهو الكرسي والحاء العرش والميم ما حواه والألف حد المستوى والراء صريف القلم والنون الدواة التي في اللام، فكتب ما كان وما يكون في قرطاس لوح الرحيم وهو اللوح المحفوظ المعبر عنه بكل شيء في الكتاب العزيز من باب الإشارة والتنبيه قال تعالىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٥] وهو اللوح المحفوظ ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٥] وهو اللوح المحفوظ الجامع ذلك عبارة عن النبيّ ﷺ في قوله: **«أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِم مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً»**. وهما نقطتا الأمر والنهي لكل شيء غيب محمد الألف المشار إليه بالليلة المباركة فالألف للعلم وهو المستوى واللام للإرادة وهو النون أعني الدواة والراء للقدرة وهو القلم والحاء للعرش والياء للكرسيّ ورأس الميم للسماء وتعريقه للأرض، فهذه سبعة أنجم: نجم منها يسبح في فلك الجسم، ونجم في فلك النفس الناطقة، ونجم في فلك سر النفس وهو الصديقية ونجم في فلك القلب، ونجم في فلك العقل، ونجم في فلك الروح، فحل ما قفلنا وفيما قرّرنا مفتاح لما أضمرنا فاطلب تجد إن شاء الله فـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وإن تعدد فهو واحد إذا حقق من وجه ما.

وصل في أسرار أمّ القرآن من طريق خاص: وهي فاتحة الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم والكافية والبسملة آية منها وهي تتضمن الرب والعبد ولنا في تقسيمها قريض منه: [البسيط]

للنيِّرين طلوعٌ بالفؤاد فما ... في سورةِ الحمدِ يبدو ثالثٌ لهمَا
فالبدرُ محوٌ وشمسُ الذات مشرقةٌ ... لولا الشروقُ لقد ألفيتَهُ عَدَمَا
هذي النجومُ بأفقِ الشرقِ طالعةٌ ... والبدرُ للمغرب العقليّ قد لَزِمَا
فإن تبدَّى فلا نجمٌ ولا قمرٌ ... يلوح في الفَلَكِ العلويّ مرتَسِمَا

فهي فاتحة الكتاب، لأن الكتاب عبارة من باب الإشارة عن المبدع الأول، فالكتاب

يتضمن الفاتحة وغيرها لأنها منه، وإنما صحّ لها اسم الفاتحة من حيث إنها أول ما افتتح بها كتاب الوجود وهي عبارة عن المثل المنزّه في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] بأن تكون الكاف عين الصفة، فلما أوجد المثل الذي هو الفاتحة أوجد بعده الكتاب وجعله مفتاحاً له فتأمل وهي أم القرآن، لأن الأمّ محل الإيجاد والموجود فيها هو القرآن والموجد الفاعل في الأمّ، فالأمّ هي الجامعة الكلية، وهي أمّ الكتاب الذي عنده في قوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٩] فانظر عيسىٰ ومريم عليهما السلام وفاعل الإيجاد يخرج لك عكس ما بدا لحسّك، فالأمّ عيسىٰ والابن الذي هو الكتاب العندي أو القرآن مريم عليها السلام فافهم، وكذلك الروح ازدوج مع النفس بواسطة العقل فصارت النفس محل الإيجاد حسّاً، والروح ما أتاها إلاّ من النفس فالنفس الأب، فهذه النفس هو الكتاب المرقوم لنفوذ الخط، فظهر في الابن ما خط القلم في الأمّ وهو القرآن الخارج على عالم الشهادة، والأمّ أيضاً عبارة عن وجود المثل محل الأسرار، فهو الرق المنشور الذي أودع فيه الكتاب المسطور المودعة فيه تلك الأسرار الإلهية، فالكتاب هنا أعلى من الفاتحة إذ الفاتحة دليل الكتاب ومدلولها، وشرف الدليل بحسب ما يدل عليه، أرأيت لو كان مفتاحاً لضدّ الكتاب المعلوم إن لو فرض له ضد حقر الدليل لحقارة المدلول، ولهذا أشار النبي ﷺ أن لا يسافر بالمصحف إلى أرض العدو لدلالة تلك الحروف على كلام الله تعالىٰ، إذ قد سمّاها الحق كلام الله والحروف الذي فيه أمثالها وأمثال الكلمات إذا لم يقصد بها الدلالة على كلام الله يسافر بها إلى أرض العدو ويدخل بها مواضع النجاسات وأشباهها والكشف وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الصفات ظهرت في الوجود في واحد وواحد فحضرة تفرد وحضرة تجمع، فمن البسملة إلى الدين إفراد، وكذلك من اهدنا إلى الضالين.

وقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] تشمل قال الله تعالىٰ: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل» فلك السؤال ومنه العطاء، كما أن له السؤال بالأمر والنهي ولك الامتثال. «يقول العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول الله: حمدني عبدي: يقول العبد: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يقول الله: أثنى عليّ عبدي. يقول العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يقول الله: مجدني عبدي. ومرة قال: فوّض إليّ عبدي هذا إفراد إلهي. وفي رواية يقول العبد: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يقول الله: ذكرني عبدي. ثم قال: يقول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقول الله: هذه بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل فما هي العطاء وإياك في الموضعين ملحق بالإفراد الإلهي. يقول العبد: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فهؤلاء لعبدي» ـ هذا هو الإفراد العبدي المألوه ـ «ولعبدي ما سأل» سأل مألوه مّا إلهاً فلم تبق إلاّ حضرتان فصحّ المثاني فظهرت في الحق وجوداً وفي العبد الكلي إيجاداً فوصف نفسه بها ولا موجود سواه في العماء، ثم وصف بها عبده حين استخلفه ولذلك خرّوا له ساجدين لتمكن الصورة، ووقع الفرق من موضع القدمين إلى يوم القيامة

والقرآن العظيم الجمع والوجود وهو إفراده عنك وجمعك به وليس سوى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وحسب والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

واقعة: أرسل رسول الله ﷺ عثمان رضي الله عنه إليّ آمراً بالكلام في المنام بعدما وقعت شفاعتي على جماعتي ونجا الكل من أسر الهلاك وقرب المنبر الأسنى وصعدت عليه عن الإذن العالي المحمدي الأسمى بالاقتصار على لفظة الحمد لله خاصة ونزل التأييد ورسول الله ﷺ عن يمين المنبر قاعد فقال العبد بعدما أنشد وحمد وأثنى وبسمل: حقيقة الحمد هي العبد المقدس المنزّه لله إشارة إلى الذات الأزلية وهو مقام انفصال وجود العبد من وجود الإله ثم غيبه عن وجوده بوجوده الأزلي وأوصله به فقال لله فاللام الداخلة على قوله الله الخافضة له هي حقيقة المألوه في باب التواضع والذلة وهي من حروف المعاني لا من حروف الهجاء، ثم قدمها سبحانه على اسم نفسه تشريفاً لها وتهمماً وتنزيهاً لمعرفتها بنفسها وتصديقاً لتقديم النبيّ ﷺ إياها في قوله: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» فقدم معرفة النفس على معرفة الرب، ثم عملت في الاسم الله لتحقيق الاتصال وتمكينها من المقام، ولما كانت في مقام الوصلة ربما توهّم أن الحمد غير اللام فخفض العبد اتباعاً لحركة اللام فقرىء الحمد لله بخفض الدال فكان لفظة الحمد بدلاً من اللام بدل شيء من شيء وهما لعين واحدة، فالحمد هو وجود اللام واللام هي الحمد، فإذا كانا شيئاً واحداً كان الحمد في مقام الوصلة مع الله لأنه عين اللام، فكان معنى كما كانت اللام لفظاً ومعنى، ثم حقيقة الخفض فيها إثبات العبودية، ثم أحياناً يفنيها عن نفسها فناء كلياً ليرفعها إلى المقام الأعلى في الأوّلية، ثم يبقي حقيقتها في الآخرية فيقول: الحمد لله برفع اللام اتباعاً لحركة الدال، وهذا مما يؤيد أن الحمد اللام وهو المعبر عنه بالرداء والثوب إذ كان هو محل الصفات وافتراق الجمع، فغاية معرفة العباد أن تصل إليه إن وصلت والحق وراء ذلك كله أو قل ومع ذلك كله، فلما رفعها بالفناء عنها ابتداء أراد أن يعرفها مع فنائها أنها ما برحت من مقامها فجعلها عاملة وجعل رفعها عارضاً في حق الحق، فأبقى الهاء مكسورة تدل على وجود اللام في مقام خفض العبودة، ولهذا شدت اللام الوسطى بلفظة لا أي ذات الحق ليست ذات العبد وإنما هي حقيقة المثل لتجلي الصورة، ثم الهاء تعود على اللام لما هي معمولها، فلو كانت الهاء كناية عن ذات الحق لم تعمل فيها اللام بل هو العامل في كل شيء، فإذا كانت اللام هي نفس الحمد والهاء معمول اللام فالهاء هي اللام وقد كانت اللام هي الحمد فالهاء الحمد بلا مزيد، وقد قلنا إنّ اللام المشددة لنفي الجمع المتحد موضع الفصل، فخرج من مضمون هذا الكلام أن الحمد هو قوله لله، وأن قوله لله هو قوله الحمد، فغاية العبد أن حمد نفسه الذي رأى في المرآة إذ لا طاقة للمحدث على حمل القديم فأحدث المثل على الصورة وصار الموحد مرآة، فلما تجلت صورة المثل في مرآة الذات قال لها حين أبصرت الذات فعطست فميزت نفسها احمدي من رأيت فحمدت نفسها فقالت: الحمد لله، فقال لها: يرحمك ربك يا آدم لهذا خلقتك فسبقت رحمته غضبه، ولهذا قال عقيب قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٢ ـ ٣] فقدم الرحمة، ثم

قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٧] فأخّر غضبه فسبقت الرحمة الغضب في أول افتتاح الوجود فسبقت الرحمة إلى آدم قبل العقوبة على أكل الشجرة ثم رحم بعد ذلك فجاءت رحمتان بينهما غضب فتطلب الرحمتان أن تمتزجا لأنهما مثلان فانضمت هذه إلى هذه فانعدم الغضب بينهما كما قال بعضهم في يسرين بينهما عسر: [الهزج]

إذا ضاقَ عليك الأمـ ـرُ فكِّرْ في أَلَمْ نَشْرَحْ
فعُسْرٌ بين يُسْرينِ إذا ذكَّرْتَهُ فافْرَحْ

فالرحمة عبارة عن الموجود الأول المعبر عنه بالمطلوب، والمغضوب عليهم النفس الأمّارة، والضالون عالم التركيب ما دامت هي مغضوبة عليها، إذ الباري منزّه عن أن ينزّه إذ لا غير ولا موجود إلاً هو، ولهذا أشار ﷺ بقوله: «**الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخِيهِ**» لوجود الصورة على كمالها، إذ هي محل المعرفة وهي الموصلة، ولو أوجده على غير تلك الصورة لكان جماداً، فالحمد لله الذي منَّ على العارفين به الواقفين معه بموادّ العناية أزلاً وأبداً.

تنبيه: اللام تفني الرسم كما أن الباء تبقيه، ولهذا قال أبو العباس بن العريف: العلماء لي والعارفون بي؛ فأثبت المقام الأعلى للام فإنه قال في كلامه والعارفون بالهمم، ثم قال في حق اللام والحق وراء ذلك كله، ثم زاد تنبيهاً على ذلك ولم يقنع بهذا وحده فقال: والهمم للوصول والهمة للعارفين البائيين، وقال في العلماء اللاميين: وإنما يتبين الحق عند اضمحلال الرسم وهذا هو مقام اللام فناء الرسم، فالحمد لله أعلى من الحمد بالله، فإن الحمد بالله يبقيك والحمد للّه يفنيك، فإذا قال العالم الحمد لله أي لا حامد لله إلاً هو فأحرى أن لا يكون ثم محمود سواه، وتقول العامة الحمد لله أي لا محمود إلاً الله وهي الحامدة فاشتركا في صورة اللفظ، فالعلماء أفنت الحامدين المخلوقين والمحمودين، والعامة أفنت المحمودين من الخلق خاصة، وأمّا العارفون فلا يتمكن لهم أن يقولوا الحمد لله إلاً مثل العامة وإنما مقامهم الحمد بالله لبقاء نفوسهم عندهم فتحقق هذا الفصل فإنه من لباب المعرفة.

وصل - في قوله ﴿رب العالمين الرحمن الرحيم﴾:

أثبت بقوله عندنا وفي قلوبنا رب العالمين حضرة الربوبية، وهذا مقام العارف ورسوخ قدم النفس وهو موضع الصفة، فإن قولنا لله ذاتية المشهد عالية المحتد، ثم أتبعه بقوله رب العالمين أي مربيهم ومغذيهم، والعالمين عبارة عن كل ما سوى الله، والتربية تنقسم قسمين: تربية بواسطة وبغير واسطة، فأمّا الكلمة فلا يتصوّر واسطة في حقّه البتة، وأمّا من دونه فلا بدّ من الواسطة، ثم تنقسم التربية قسمين: التي بالواسطة خاصة قسم محمود وقسم مذموم، ومن القديم تعالىٰ إلى النفس والنفس داخلة في الحد ما ثم إلاً محدود خاصة، وأمّا المذموم والمحمود فمن النفس إلى عالم الحسّ فكانت النفس محلاً قابلاً لوجود التغيير والتطهير، فنقول: إن الله تعالىٰ لما أوجد الكلمة المعبّر عنها بالروح الكلي إيجاد إبداع أوجدها في مقام الجهل ومحل السلب أي أعماه عن رؤية نفسه فبقي لا يعرف من أين صدر ولا كيف صدر، وكان الغذاء فيه الذي هو سبب حياته وبقائه وهو لا يعلم، فحرّك الله همّته لطلب ما عنده وهو

لا يدري أنه عنده فأخذ في الرحلة بهمّته فأشهده الحق تعالىٰ ذاته فسكن وعرف أن الذي طلب لم يزل موصوفاً، قال إبراهيم بن مسعود الألبيري: [السريع]

قـد يـرحـلُ الـمـرءُ لـمـطـلـوبِـهِ والـسـبـبُ الـمـطـلـوبُ فـي الـرَّاحـلِ

وعلم ما أودع الله فيه من الأسرار والحكم وتحقق عنده حدوثه وعرف ذاته معرفة إحاطية، فكانت تلك المعرفة له غذاء معيناً يتقوّت به وتدوم حياته إلى غير نهاية، فقال له عند ذلك التجلّي الأقدس: ما اسمي عندك؟ فقال: أنت ربي، فلم يعرفه إلاَّ في حضرة الربوبية، وتفرد القديم بالألوهية فإنه لا يعرفه إلاَّ هو فقال له سبحانه: أنت مربوبي وأنا ربك أعطيتك أسمائي وصفاتي، فمن رآك رآني، ومن أطاعك أطاعني، ومن علمك علمني، ومن جهلك جهلني، فغاية من دونك أن يتوصلوا إلى معرفة نفوسهم منك، وغاية معرفتهم بك العلم بوجودك لا بكيفيتك، كذلك أنت معي لا تتعدّى معرفة نفسك ولا ترى غيرك ولا يحصل لك العلم بي إلاَّ من حيث الوجود، ولو أحطت علماً بي لكنت أنت أنا ولكنت محاطاً لك وكانت أنيتي أنيتك وليست أنيتك أنيتي، فأمدك بالأسرار الإلهية وأربيك بها فتجدها مجعولة فيك فتعرفها، وقد حجبتك عن معرفة كيفية إمدادي لك بها إذ لا طاقة لك بحمل مشاهدتها، إذ لو عرفتها لا تحدث الأنية واتحاد الأنية محال، فمشاهدتك لذلك محال، هل ترجع أنية المركب أنية البسيط لا سبيل إلى قلب الحقائق، فاعلم أن من دونك في حكم التبعية لك كما أنت في حكم التبعية لي، فأنت ثوبي وأنت ردائي وأنت غطائي.

فقال له الروح: ربي سمعتك تذكر أن لي ملكاً فأين هو؟ فاستخرج له النفس منه وهي المفعول عن الانبعاث فقال هذا بعضي وأنا كله، كما أنا منك ولست مني، قال صدقت يا روحي، قال بك نطقت يا ربي إنك ربيتني وحجبت عني سرّ الإمداد والتربية وانفردت أنت به فاجعل إمدادي محجوباً عن هذا الملك حتى يجهلني كما جهلتك، فخلق في النفس صفة القبول والافتقار، ووزر العقل إلى الروح المقدس.

ثم أطلع الروح على النفس فقال لها من أنا؟ قالت: ربي بك حياتي وبك بقائي، فتاه الروح بملكه وقام فيه مقام ربه فيه وتخيل أن ذلك هو نفس الإمداد فأراد الحق أن يعرفه أن الأمر على خلاف ما تخيل وأنه لو أعطاه سرّ الإمداد كما سأل لما انفردت الألوهية عنه بشيء ولاتحدت الأنية، فلما أراد ذلك خلق الهوى في مقابلته وخلق الشهوة في مقابلة العقل ووزرها للهوى وجعل في النفس صورة القبول لجميع الواردات عموماً، فحصلت النفس بين ربين قويين لهما وزيران عظيمان، وما زال هذا يناديها وهذا يناديها والكل من عند الله قال تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] وكلاً نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، ولهذا كانت النفس محل التغيير والتطهير.

قال تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] في أثر قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٧] فإن أجابت منادي الهوى كان التغيير، وإن أجابت منادي الروح كان التطهير شرعاً وتوحيداً، فلما رأى الروح ينادي ولا يسمع مجيباً فقال ما منع ملكي من

إجابتي؟ قال له الوزير: في مقابلتك ملك مطاع عظيم السلطان يسمّى الهوى عطيته معجلة له الدنيا بحذافيرها فبسط لها حضرته ودعاها فأجابته فرجع الروح بالشكوى إلى الله تعالىٰ فثبتت عبوديته وذلك كان المراد وتنزلت الأرباب والمربوبون كل واحد على حسب مقامه وقدره، فعالم الشهادة المنفصل ربهم عالم الخطاب، وعالم الشهادة المتصل ربهم عالم الجبروت، وعالم الجبروت ربهم عالم الملكوت، وعالم الملكوت ربهم الكلمة، والكلمة ربها رب الكل الواحد الصمد، وقد أشبعنا القول في هذا الفصل في كتابنا المسمّى بالتدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، فأضربنا عن تتميم هذا الفصل هنا مخافة التطويل، وكذلك ذكرناه أيضاً في تفسير القرآن، فسبحان من تفرد بتربية عباده وحجب من حجب منهم بالوسائط، وخرج من هذا الفصل لمن عرف روحه ومعناه أن الرب هو الله سبحانه وأن العالمين هو المثل الكليّ، ولذلك أوجده في العالمين على ثمانية أحرف عرشاً واستوى عليه باللطف والتربية والحنان والرحمة الرحمانية المؤكدة بالرحيمية لتميز الدار الحيوان لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فعم بالرحمان وخصّ بالرحيم، فالرحمان في عالمه بالوسائط وغيرها، والرحيم في كلماته بلا واسطة لوجود الاختصاص وشرف العناية، فافهم وإلا سلم تسلم.

وصل - في قوله تعالىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

يريد يوم الجزاء وحضرة الملك من مقام التفرقة وهي جمع فإنه لا تقع التفرقة إلاّ في الجمع قال: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤] فهي مقام الجمع وقد قبلت سلطان التفرقة فهي مقام التفرقة، فافترق الجمع إلى أمر ونهي، خطاباً وسخط ورضى، إرادة وطاعة وعصيان فعل مألوه، ووعد ووعيد فعل إله، والملك في هذا اليوم من حقّت له الشفاعة واختصّ بها ولم يقل نفسي وقال أمتي، والملك في وجودنا المطلوب للقيامة المعجلة التي تظهر في طريق التصوّف هو الروح القدسيّ، ويوم القيامة وقت إيجاده الجزاء أو طولب به إن كانت عقوبة لا بدّ من ذلك، فإن كانت الطاعة فجنات من نخيل وأعناب، وإن كانت المعصية الكفرانية فجهنم من أغلال وعذاب، ومن مقام الدعوى في الصورتين فنفرض الكلام في هذه الآية على حد الملك وما ينبغي له، وهل ترتقي النفس من يوم الدين إلى الفناء عنه فأقول: إن الملك من صحّ له الملك بطريق الملك وسجد له الملك وهو الروح فلما نازعه الهوى واستعان بالنفس عليه عزم الروح على قتل الهوى واستعدّ فلما برز الروح بجنود التوحيد والملأ الأعلى وبرز الهوى وكذلك بجنود الأماني والغرور والملأ الأسفل قال الروح للهوى: مني إليك فإن ظفرت بك فالقوم لي وإن ظفرت أنت وهزمتني فالملك لك ولا يهلك القوم بيننا، برز الروح والهوى فقتله الروح بسيف العدم وظفر بالنفس بعد إباية منها وجهد كبير فأسلمت تحت سيفه فسلمت وأسلمت وتطهرت وتقدست وآمنت الحواس لإيمانها ودخلوا في رق الانقياد وأذعنوا وسلبت عنهم أردية الدعاوى الفاسدة واتحدت كلمتهم وصار الروح والنفس كالشيء الواحد وصحّ له اسم الملك حقيقة فقال له ملك يوم الدين فردّه إلى مقامه ونقله من افتراق الشرع إلى جمع التوحيد والملك على الحقيقة هو الحق تعالىٰ المالك

للكل ومصرّفه وهو الشفيع لنفسه عامة وخاصة، خاصة في الدنيا وعامة في الآخرة من وجه ما ولذلك قدم على قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لتأنس أفئدة المحجوبين عن رؤية رب العالمين ألا تراه يقول يوم الدين شفعت الملائكة والنبيون وشفع المؤمنون وبقي أرحم الراحمين، ولم يقل وبقي الجبار ولا القهار ليقع التأنيس قبل إيجاد الفعل في قلوبهم، فمن عرف المعنى في هذا الوجود صحّ له الاختصاص في مقام أرحم، ومن جهلها في هذا الوجود دخل في العامة في الحشر الأكبر فتجلى في مقام الراحمين، فعاد الفرق جمعاً والفتق رتقاً والشفع وتراً بشفاعة أرحم الراحمين من جهنم ظاهر السور إلى جنة باطنة، فإذا وقع الجدار وانهدم السور وامتزجت الأنهار والتقت البحران وعدم البرزخ صار العذاب نعيماً وجهنم جنة، فلا عذاب ولا عقاب إلاّ نعيم وأمان بمشاهدة العيان، وترنّم أطيار بألحان، على المقاصير والأفنان، ولثم الحور والولدان، وعدم مالك وبقي رضوان، وصارت جهنم تتنعم في حظائر الجنان، واتضحّ سرّ إبليس فيهم فإذا هو ومن سجد له سيان، فإنهما ما تصرّفا إلاّ عن قضاء سابق وقدر لاحق، لا محيص لهما عنه فلا بدّ لهما منه، وحاج آدم موسىٰ.

وصل: في قوله جل ثنائه وتقدس: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ .

لما ثبت وجوده بالحمد لله، وغذاؤه برب العالمين، واصطفاؤه بالرحمن الرحيم، وتمجيده بملك يوم الدين، أراد تأكيد تكرار الشكر والثناء رغبة في المزيد فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ وهذا مقام الشكر أي لك نقرّ بالعبودية ونؤوي وحدك لا شريك لك وإليك نؤوي في الاستعانة لا إلى غيرك على من أنزلتهم مني منزلتي منك، فأنا أمدّهم بك لا بنفسي، فأنت الممد لا أنا، وأثبت له بهذه الآية نفي الشريك، فالياء من إياك العبد الكليّ قد انحصرت ما بين ألفين ألفي توحيد حتى لا يكون لها موضع دعوى برؤية غير فأحاط بها التوحيد، والكاف ضمير الحق فالكاف والألفان شيء واحد فهم مدلول الذات، ثم كان نعبد صفة فعل الياء بالضمير الذي فيه، والعبد فعل الحق فلم يبق في الوجود إلاّ الحضرة الإلهية خاصة، غير أنه في قوله ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ في حق نفسه للإبداع الأوّل حيث لا يتصوّر غيره، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ في حق غيره للخلق المشتق منه وهو محل سرّ الخلافة، ففي ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ سجدت الملائكة وأبى من استكبر.

وصل: في قوله تعالىٰ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

فلما قال له: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ قال له: وما عبادتي؟ قال: ثبوت التوحيد في الجمع والتفرقة، فلما استقرّ عند النفس أنّ النجاة في التوحيد الذي هو الصراط المستقيم وهو شهود الذات بفنائها أو بقائها إن غفلت قالت: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فتعرض لها بقولها المستقيم صراطان معوج وهو صراط الدعوى ومستقيم وهو التوحيد، فلم يكن لها ميز بين الصراطين إلاّ بحسب السالكين عليهما، فرأت ربّها سالكاً للمستقيم فعرفته به، ونظرت نفسها فوجدت بينها وبين ربّها الذي هو الروح مقاربة في اللطافة، ونظرت إلى

المعوج عند عالم التركيب فذلك قولها ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا عالمها المتصل بها المركب مغضوب عليه والمنفصل عنها ضالون عنها بنظرهم إلى المتصل المغضوب عليه فوقفت على رأس الصراطين ورأت غاية المعوج الهلاك وغاية المستقيم النجاة، وعلمت أن عالمها يتبعها حيث سلكت، فلما أرادت السلوك على المستقيم وأن تعتكف في حضرة ربّها وأن ذلك لها ومن نفسها بقولها إياك نعبد عجزت وقصر بها فطلبت الاستعانة بقولها ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فنبهها ربّها على اهدنا فتقيظت فقالت ﴿ٱهْدِنَا﴾ فوصفت ما رأت بقولها ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي هو معرفة ذاتك، قال صاحب المواقف: لا تأثير للعلم وقال أنت لها هلكت فيه ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وقرىء في الشاذ صراط من أنعم عليه إشارة إلى الروح القدسيّ وتفسير الكل من أنعم الله عليه من رسول ونبي ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ليس كذلك ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يقول تعالىٰ: فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل، فأجابها وأقام معوجها وأوضح صراطها ورفع بساطها يقول ربها أثر تمام دعائها آمين فحصلت الإجابة بالأمن تأمين الملائكة وصار تأمين الروح تابعاً له اتباع الأجناد بل أطوع لكون الإرادة متحدة وصحّ لها النطق فسمّاها النفس الناطقة وهي عرش الروح والعقل صورة الاستواء، فافهم وإلاً فسلم تسلم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فصول تأنيس وقواعد تأسيس: نظر الجمال بعين الوصال.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٦ ـ ٧] إيجاز البيان فيه يا محمد إن الذين كفروا ستروا محبتهم فيّ عنهم فسواء عليهم أأنذرتهم بوعيدك الذي أرسلتك به أم لم تنذرهم لا يؤمنون بكلامك فإنهم لا يعقلون غيري، وأنت تنذرهم بخلقي وهم ما عقلوه ولا شاهدوه، وكيف يؤمنون بك وقد ختمت على قلوبهم فلم أجعل فيها متسعاً لغيري، وعلى سمعهم فلا يسمعون كلاماً في العالم إلاً مني، وعلى أبصارهم غشاوة من بهائي عند مشاهدتي فلا يبصرون سواي، ولهم عذاب عظيم عندي أردّهم بعد هذا المشهد السنيّ إلى إنذارك وأحجبهم عني كما فعلت بك بعد قاب قوسين أو أدنى قرباً أنزلتك إلى من يكذبك ويرد ما جئت به إليه مني في وجهك وتسمع فيّ ما يضيق له صدرك، فأين ذلك الشرح الذي شاهدته في إسرائك فهكذا أمنائي على خلقي الذين أخفيتهم رضاي عنهم فلا أسخط عليهم أبداً.

بسط ما أوجزناه في هذا الباب:

انظر كيف أخفى سبحانه أولياءه في صفة أعدائه وذلك لما أبدع الأمناء من اسمه اللطيف وتجلى لهم في اسمه الجميل فأحبّوه تعالىٰ والغيرة من صفات المحبة في المحبوب، والمحب بوجهين مختلفين فستروا محبته غيرة منهم عليه كالشبلي وأمثاله، وسترهم بهذه الغيرة عن أن يعرفوا فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ستروا ما بدا لهم في مشاهدتهم من أسرار الوصلة فقال لا بدّ أن أحجبكم عن ذاتي بصفاتي فتأهبوا لذلك فما استعدوا فأنذرتهم على ألسنة أنبيائي الرسل في ذلك العالم فما عرفوا لأنهم في

عين الجمع وخاطبهم من عين التفرقة وهم ما عرفوا عالم التفصيل فلم يستعدوا وكان الحب قد استولى على قلوبهم سلطانه غيرة من الحق عليهم في ذلك الوقت، فأخبر نبيه ﷺ روحاً وقرآناً بالسبب الذي أصمهم عن إجابة ما دعاهم إليه فقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلم يسعها غيره ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ فلا يسمعون سوى كلامه على ألسنة العالم فيشهدونه في العالم متكلماً بلغاتهم ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ من سناه إذ هو النور وبهائه إذ له الجلال والهيبة، يريد الصفة التي تجلّى لهم فيها المتقدمة، فأبقاهم غرقى في بحور اللذات بمشاهدة الذات فقال لهم: لا بدّ لكم من عذاب عظيم، فما فهموا ما العذاب لاتحاد الصفة عندهم فأوجد لهم عالم الكون والفساد، وحينئذ علمهم جميع الأسماء وأنزلهم على العرش الرحمانيّ وفيه عذابهم وقد كانوا مخبوئين عنده في خزائن غيوبه، فلما أبصرتهم الملائكة خرّت سجوداً لهم فعلموهم الأسماء، فأمّا أبو يزيد فلم يستطع الاستواء ولا أطاق العذاب فصعق من حينه فقال تعالىٰ ردّوا عليّ حبيبي فإنه لا صبر له عني، فحجب بالشوق والمخاطبة وبقي الكفار فنزلوا من العرش إلى الكرسيّ فبدت لهم القدمان فنزلوا عليهما في الثلث للباقي من ليلة هذه النشأة الجسمية إلى سماء الدنيا النفسيّ، فخاطبوا أهل الثقل الذين لا يقدرون على العروج هل من داع فيستجاب له؟ هل من تائب فيتاب عليه؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ حتى ينصدع الفجر، فإذ انصدع ظهر الروح العقلي النوري فرجعوا من حيث جاؤوا، وقال ﷺ: «**مَنْ كَانَ مُوَاصِلاً فَلْيُواصِلْ حَتَىٰ السَّحَرِ فَذٰلِكَ أَوَانُ بُعْثِرَ مَا فِي القُبُورِ**» فكل عبد لم يحذر مكر الله فهو مخدوع فافهم.

فـصـل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [سورة البقرة: الآيات ٨ ـ ١٠].

أبدع الله المبدعات وتجلّى بلسان الأحدية في الربوبية فقال: ألست بربكم؟ والمخاطب في غاية الصفاء فقال بلى فكان كمثل الصدا فإنهم أجابوه به، فإن الوجود المحدث خيال منصوب وهذا الإشهاد كان إشهاد رحمة لأنه ما قال لهم وحدي إبقاءً عليهم لما علم من أنهم يشركون به بما فيهم من الحظ الطبيعي، وبما فيهم من قبول الاقتدار الإلٰهيّ وما يعلمه إلاّ قليل، فلما برزت صور العالم من العلم الأزليّ إلى العين الأبديّ من وراء ستارة الغيرة والعزّة بعدما أسرج السرج وأنار بيت الوجود وبقي هو في ظلمة الغيوب، فشوهدت الصور متحركة ناطقة بلغات مختلفات والصور تنبعث من الظلمة، فإذا انقضى زمانها عادت إلى الظلمة وهكذا حتى السحر، فأراد الفطن أن يقف على حقيقة ما شاهده بصره فإن للحسّ أغاليط فقرب من الستارة فرأى نطقها غيباً فيها فعلم أنّ ثم سرّاً عجيباً فوقف عليه من نفسه فعرفه وعرف الرسول وما جاء به من وظائف التكليف.

فأوّل وظيفة كلمة التوحيد فأقرّ الكل بها فما جحد أحد الصانع، واختلفت عباراتهم عليه فابتلاهم بأن خاطبهم بلسان الشرك شهادة الرسول فوقع الإنكار باختصاص الجنس فتفرق

أهل الإنكار على طريقين: فمنهم من نظر في الظواهر فلم ير تفضيلاً في شيء ظاهر فأنكر، ومنهم من نظر باطناً عقلاً فرأى الاشتراك في المعقولات ونسي الاختصاص فأنكر فأرسله بالسيف فقذف في قلوبهم الرعب من الموت وداخلهم الشك على قدر نظرهم، فمنهم من استمر على نفي كلمة الإشراك قطعاً فذلك كافر، ومنهم من استمر عليها مشاهدة فذلك عالم بالله، ومنهم من استمر على ثبتها نظراً فذلك عارف بالله، ومنهم من استمر على ثبتها اعتقاداً فتلك العامة، ومنهم من خاف القتل فلفظ ولم يعتقد فنادى عليه لسان الحق فقال ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ ظاهراً ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ باطناً ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ بلزوم الدعوى وبجهلهم القائم بهم بأن الله لا يعلم وإني أردّ أعمالهم عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ اليوم بذلك ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك مما جاءهم به رسولي ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ شكاً وحجاباً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يوم القيامة وهم فيه ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠] مما حققنا لديهم ولم تسبق لهم عناية في اللوح القاضي.

وصل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١ ـ ١٢].

لما أكمل الوجود بثمانية برز في ميدان التنعم فارس الدعوى فلم يكن في جيش ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ [سورة البقرة: الآية ٨] من يبرز إليه فملك الكل وصبوا إليه وإلى دينه باطناً فعوقبوا بطلب الإقرار وإلاً قتلوا فأقرّوا لفظاً فحصل لهم العذاب الأليم دنيا وآخرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أرض الأشباح قالوا من خيالهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١] فقال الله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ عندنا وعندهم إذ لم يستمتعوا بها على ما يريدون ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ باتحاد الأشياء ولو شعروا ما آمنوا ولا كفروا.

وصـــــل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣].

وذلك أنهم لما انتظموا في سلك الأغيار أتاهم النداء أن يقفوا على منازل الشهداء فسمعوا الخطاب في الأينية ﴿ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ فحجبوا عن أخذ العهد بعهد الحسّ والداعي الجنسيّ وأصمّهم ذلك وأعمى أبصارهم وأغطش ليل جهالتهم فقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ لما عدل بهم عن طريق التقديس ووقفوا مع الهوى قال الله لنا: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الأحلام لما ملكتهم الأهواء وحجبوا عن الالتذاذ بسماع وقع الرذاذ على الأفلاذ بالطور ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ليتميز العالي ممن هو دونه، وإلاً فأية فائدة لقوله لشيء إذا أراده أن ﴿يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ذلك الشيء إلاّ إيجاد الأشياء على أحسن قانون، فسبحان من انفرد بالإيجاد والاختراع والإتقان والإبداع.

وصل في دعوى المدعين: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤].

الإيمان في هذا المقام على خمسة أقسام: إيمان تقليد، وإيمان علم، وإيمان عين، وإيمان حق، وإيمان حقيقة، فالتقليد للعوام، والعلم لأصحاب الدليل، والعين لأهل المشاهدة، والحق للعارفين، والحقيقة للواقفين، وحقيقة الحقيقة وهو السادس للعلماء المرسلين أصلاً ووراثة منع كشفها فلا سبيل إلى إيضاحها، فكانت صفات الدعاوى إذا لقوا هؤلاء الخمسة قالوا آمنا، فالقلب للعوامّ وسرّ القلب لأصحاب الدليل، والروح لأهل المشاهدة، وسرّ الروح للعارفين، وسرّ السرّ للواقفين، والسرّ الأعظم لأهل الغيرة والحجاب، والمنافقون تعرّوا عن الإيمان وانتظموا في الإسلام، وإيمانهم ما جاوز خزانة خيالهم فاتخذوا أصناماً في ذواتهم أقاموها مقام آلهتهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا باستيلاء الغفلة عليهم وخلوّ المحل عن مراتب الإيمان ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ فوقع عليهم العذاب من قولهم له إلى شياطينهم في حال الخلوة، فلما قامت الأضداد عندهم وعاملوا الحق والباطل عاملوا الحق بستر الباطل وعاملوا الباطل بإفشاء الحق فصحّ لهم النفاق، ولو خاطبوا ذاتهم في ذاتهم ما صحّ عليهم هذا ولكانوا من أهل الحقائق فأوقع الله الجواب على الاستهزاء فقال: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ وهو استهزاؤهم عجباً، كيف قالوا إنا معكم وهم عدم لو عاينوا إيمان الحقيقة لعاينوا الخالق في الخليقة ولا خلوا ولا نطقوا ولا صمتوا، بل كانوا يقومون مقام من شاهد وهو روح جاء مع صاحب المادة فلينظر الإنسان حقيقة اللقاء فإنه مؤذن بافتراق متقدّم، ثم اجتمعوا بصفة لم يعرفوها بل ظهر لهم منها ظاهر حسن فتأدّبوا معها ولم يطيقوا أكثر من ذلك فقالوا آمنا، ثم نكسوا على رؤوسهم في الخلوة مع الشيطنة وهي البعد مثل اللقاء فقالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بالصفة التي لقينا، فتدبر هذه الآية من حقيقة الحقيقة عند طلوع الفجر وزوال الشك بزوال الستارة ورفع الموانع يلح لك السرّ في سبحان والنساء والشمس فتجد الذين لقوا كمثل الذين لقوا فتصمت وإن تكلمت هلكت، وهذه حقيقة الحقيقة التي منع كشفها إلاّ لمن شمّ منها رائحة ذوقاً فلا بأس، فانظر وتدبر ترشد إن شاء الله. تمّ الجزء العاشر.

(الجزء الحادي عشر)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب السادس

في معرفة بدء الخلق الروحانيّ، ومن هو أوّل موجود فيه، وممّ وجد، وفيم وجد، وعلى أيّ مثال وجد، ولم وجد وما غايته؟ ومعرفة أفلاك العالم الأكبر والأصغر:

[نظم: الكامل]

انظُرْ إلى هذا الوجودِ المُحْكَمِ ... ووجودُنا مثلُ الرداء المُعْلَمِ
وانظرْ إلى خُلَفائه في مُلْكِهِمْ ... من مفصحٍ طَلْقِ اللسان وأعْجَمِ

ما منهُمُو أحدٌ يحب إلٰهَهُ إلاّ ويمزجه بحبِّ الدِّرهَم
فيقالُ هذا عبدُ معرفةٍ وذا عبدُ الجِنان وذا عُبَيْدُ جهنَّم
إلاّ القليلُ من القليلِ فإنهمْ سكْرَى به من غير حِسٍّ توَهُّم
فهُمُو عبيدُ الله لا يدري بهمْ أحدٌ سواه لا عبيدُ المنْعِم
فأفادهم لما أراد رجوعَهُمْ لقصورهم من كل علم مُبْهَم
عَلِمَ المقدَّمَ في البسائط وحدَه وأساسُه ذو عنه لم يَتَصرَّم
وحقيقةَ الظرف الذي ستَرَتْه عن أمثاله ومِثَاله لم يُكْتَم
والعلمَ بالسبب الذي وُجدَتْ له عينُ العوالم في الطراز الأقْدَم
ونهايةَ الأمرِ الذي لا غايةٌ تُدْرَى له فيه العظيم الأعظم
وعلومَ أفلاك الوجود كبيرِهِ وصغيرهِ الأعلى الذي لم يُذْمَم
هذي علومٌ مَنْ تحقَّقَ كشفها يهدي القلوبَ إلى السبيل الأقْوَم
فالحمدُ لله الذي أنا جامعٌ لعلومها ولعلم ما لم يُعْلَم

إيجاز البيان بضرب من الإجمال بدء الخلق الهباء، وأوّل موجود فيه الحقيقة المحمدية الرحمانية ولا أين يحصرها لعدم التحيّز، وممّ وجد وجد من الحقيقة المعلومة التي لا تتصف بالوجود ولا بالعدم وفيم وجد في الهباء، وعلى أي مثال وجد الصورة المعلومة في نفس الحق ولم وجد لإظهار الحقائق الإلٰهية وما غايته التخليص من المزجة، فيعرف كل عالم حظّه من منشئه من غير امتزاج، فغايته إظهار حقائقه ومعرفة أفلاك الأكبر من العالم وهو ما عدا الإنسان في اصطلاح الجماعة والعالم الأصغر يعني الإنسان روح العالم وعلته وسببه وأفلاكه مقاماته وحركاته وتفصيل طبقاته، فهذا جميع ما يتضمنه هذا الباب، فكما أن الإنسان عالم صغير من طريق الجسم كذلك هو أيضاً حقير من طريق الحدوث وصحّ له التألّه لأنه خليفة الله في العالم والعالم مسخّر له مألوه، كما أن الإنسان مألوه لله تعالىٰ. واعلم أن أكمل نشأة الإنسان إنما هي في الدنيا، وأما الآخرة فكل إنسان من الفرقتين على النصف في الحال لا في العلم، فإن كل فرقة عالمة بنقيض حالها، فليس الإنسان إلاّ المؤمن والكافر معاً، سعادة وشقاء، نعيم وعذاب، منعم ومعذب، ولهذا معرفة الدنيا أتم وتجلي الآخرة أعلى، فافهم وحل هذا القفل ولنا رمز لمن تفطن وهو لفظه بشيع شنيع ومعناه بديع: [المجتث]

روحُ الوجود الكبيرُ هذا الوجودُ الصغيرُ
لولاه ما قال إني أنا الكبيرُ القديرُ
لا يحجبنْكَ حدوثي ولا الفنا والنُّشورُ
فإنني إن تأمّلـ ـتني المحيط الكبير
فللقديم بذاتي وللجديد ظهورُ
والله فردٌ قديمٌ لا يعتريه قُصورُ
والكونُ خلقٌ جديدٌ في قبضَتَيْه أسيرُ

فـجـاء مـن هـذا أنـي | أنـا الـوجـودُ الـحـقـيـرُ
وأن كـلَّ وجـودِ | عـلـى وجـودي يـدورُ
فـلا كـلَـيـلـيَ لـيـلٌ | ولا كـنـورَي نـورُ
فـمـن يـقـل فـيَّ عـبـدٌ | أنـا الـعـبـيـدُ الـفـقـيـرُ
أو قـال إنـي وجـودٌ | أنـا الـوجـودُ الـخـبـيـرُ
فـصـحـنـي مَـلْـكـاً تَـجِـدْنـي | أو سُـوقـةً مـا تَـجُـورُ
فـيـا جَـهـولاً بـقـدري | أنـت الـعـلـيـمُ الـبـصـيـرُ
بـلِّـغ وجـوديَ عـنـي | والـقـولُ صـدقٌ وزورُ
وقـلْ لـقـومـك إنـي | أنـا الـرحـيـمُ الـغَـفـورُ
وقـلْ بـأنَّ عـذابـي | هـو الـعـذابُ الـمُـبـيـرُ
وقـلْ بـأنـي ضـعـيـفٌ | لا أسـتـطـيـع أسـيـرُ
فـكـيـف يـنـعـم شـخـصٌ | عـلـى يـديَّ يَـبُـورُ

بسط الباب وبيانه ومن الله التأييد والعون:

اعلموا أن المعلومات أربعة: الحق تعالىٰ وهو الموصوف بالوجود المطلق لأنه سبحانه ليس معلولاً لشيء ولا علة بل هو موجود بذاته، والعلم به عبارة عن العلم بوجوده، ووجوده ليس غير ذاته مع أنه غير معلوم الذات، لكن يعلم ما ينسب إليه من الصفات، أعني صفات المعاني وهي صفات الكمال، وأما العلم بحقيقة الذات فممنوع لا تعلم بدليل ولا ببرهان عقليّ ولا يأخذها حد، فإنه سبحانه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، فكيف يعرف من يشبه الأشياء من لا يشبهه شيء ولا يشبه شيئاً، فمعرفتك به إنما هي أنه ليس كمثله شيء، ويحذركم الله نفسه، وقد ورد المنع من الشرع في التفكر في ذات الله.

ومعلوم ثان: وهو الحقيقة الكلية التي هي للحق وللعالم لا تتصف بالوجود ولا بالعدم ولا بالحدوث ولا بالقدم، هي في القديم إذا وصف بها قديمة، وفي المحدث إذا وصف بها محدثة، لا تعلم المعلومات قديمها وحديثها حتى تعلم هذه الحقيقة، ولا توجد هذه الحقيقة حتى توجد الأشياء الموصوفة بها، فإن وجد شيء عن غير عدم متقدم كوجود الحق وصفاته قيل فيها موجود قديم لاتصاف الحق بها، وإن وجد شيء عن عدم كوجود ما سوى الله وهو المحدث الموجود بغيره قيل فيها محدثة وهي في كل موجود بحقيقتها فإنها لا تقبل التجزي، فما فيها كل ولا بعض، ولا يتوصل إلى معرفتها مجردة عن الصورة بدليل ولا ببرهان، فمن هذه الحقيقة وجد العالم بوساطة الحق تعالىٰ وليست بموجودة، فيكون الحق قد أوجدنا من موجود قديم فيثبت لنا القدم، وكذلك لتعلم أيضاً أن هذه الحقيقة لا تتصف بالتقدم على العالم ولا العالم بالتأخر عنها ولكنها أصل الموجودات عموماً، وهي أصل الجوهر وفلك الحياة والحق المخلوق به وغير ذلك، وهي الفلك المحيط المعقول، فإن قلت إنها العالم صدقت، أو إنها ليست العالم صدقت، أو إنها الحق أو ليست الحق صدقت، تقبل هذا كله

وتتعدد بتعدد أشخاص العالم، وتتنزّه بتنزيه الحق، وإن أردت مثالها حتى يقرب إلى فهمك فانظر في العودية في الخشبة والكرسيّ والمحبرة والمنبر والتابوت، وكذلك التربيع وأمثاله في الأشكال، في كل مربع مثلاً من بيت وتابوت وورقة، والتربيع والعودية بحقيقتها في كل شخص من هذه الأشخاص، وكذلك الألوان بياض الثوب والجوهر والكاغد والدقيق والدهان من غير أن تتصف البياضية المعقولة في الثوب بأنها جزء منها فيه، بل حقيقتها ظهرت في الثوب ظهورها في الكاغد، وكذلك العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر وجميع الأشياء كلها، فقد بيّنت لك هذا المعلوم، وقد بسطنا القول فيه كثيراً في كتابنا الموسوم بإنشاء الجداول والدوائر.

ومعلوم ثالث: وهو العالم كله الأملاك والأفلاك وما تحويه من العوالم والهواء والأرض وما فيهما من العالم وهو الملك الأكبر.

ومعلوم رابع: وهو الإنسان الخليفة الذي جعله الله في هذا العالم المقهور تحت تسخيره قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [سورة الجاثية: الآية ١٣] فمن علم هذه المعلومات فما بقي له معلوم أصلاً يطلبه، فمنها ما لا نعلم إلاَّ وجوده وهو الحق تعالىٰ وتعلم أفعاله وصفاته بضرب من الأمثلة، ومنها ما لا يعلم إلاَّ بالمثال كالعلم بالحقيقة الكلية، ومنها ما يعلم بهذين الوجهين وبالماهية والكيفية وهو العالم والإنسان.

وصل: كان الله ولا شيء معه ثم أدرج فيه وهو الآن على ما عليه كان لم يرجع إليه من إيجاده العالم صفة لم يكن عليها بل كان موصوفاً لنفسه، ومسمّى قبل خلقه بالأسماء التي يدعونه بها خلقه، فلما أراد وجود العالم وبدأه على حدّ ما علمه بعلمه بنفسه انفعل عن تلك الإرادة المقدّسة بضرب تجلّ من تجليات التنزيه إلى الحقيقة الكلية انفعل عنها حقيقة تسمى الهباء هي بمنزلة طرح البناء الجص ليفتح فيها ما شاء من الأشكال والصور، وهذا هو أول موجود في العالم، وقد ذكره عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وسهل بن عبد الله رحمه الله وغيرهما من أهل التحقيق أهل الكشف والوجود، ثم إنه سبحانه تجلّى بنوره إلى ذلك الهباء ويسمّونه أصحاب الأفكار الهيولى الكل والعالم كله فيه بالقوّة والصلاحية فقبل منه تعالىٰ كل شيء في ذلك الهباء على حسب قوّته واستعداده كما تقبل زوايا البيت نور السراج، وعلى قدر قربه من ذلك النور يشتدّ ضوؤه وقبوله.

قال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] فشبه نوره بالمصباح فلم يكن أقرب إليه قبولاً في ذلك الهباء إلاَّ حقيقة محمد ﷺ المسمّاة بالعقل، فكان سيد العالم بأسره، وأول ظاهر في الوجود، فكان وجوده من ذلك النور الإلهيّ ومن الهباء ومن الحقيقة الكلية، وفي الهباء وجد عينه وعين العالم من تجليه، وأقرب الناس إليه علي بن أبي طالب وأسرار الأنبياء أجمعين. وأما المثال الذي عليه وجد العالم كله من غير تفصيل فهو العلم القائم بنفس الحق تعالىٰ، فإنه سبحانه علمنا بعلمه بنفسه وأوجدنا على حدّ ما علمنا، ونحن على هذا الشكل المعين في علمه، ولو لم يكن الأمر كذلك لأخذنا هذا الشكل

بالاتفاق لا عن قصد لأنه لا يعلمه، وما يتمكن أن تخرج صورة في الوجود بحكم الاتفاق، فلولا أن هذا الشكل المعين معلوم لله سبحانه ومراد له ما أوجدنا عليه ولم يأخذ هذا الشكل من غيره، إذ قد ثبت أنه كان ولا شيء معه، فلم يبق إلاَّ أن يكون ما برز عليه في نفسه من الصورة فعلمه بنفسه علمه بنا أزلاً لا عن عدم فعلمه بنا كذلك، فمثالنا الذي هو عين علمه بنا قديم بقدم الحق لأنه صفة له، ولا تقوم بنفسه الحوادث جلّ الله عن ذلك.

وأمّا قولنا: ولم وجد وما غايته؟ يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فصرّح بالسبب الذي لأجله أوجدنا، وهكذا العالم كله، وخصصنا والجنّ بالذكر، والجن هنا كل مستتر من ملك وغيره، وقد قال تعالىٰ في حق السموات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] وكذلك قال: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] وذلك لما كان عرضاً، وأمّا لو كان أمراً لأطاعوا وحملوها، فإنه لا تتصوّر منهم معصية جبلوا على ذلك، والجن الناري والإنس ما جبلا على ذلك، وكذلك من الإنس أصحاب الأفكار من أهل النظر والأدلة المقصورة على الحواس والضرورات والبديهيات يقولون: لا بدّ أن يكون المكلف عاقلاً بحيث يفهم ما يخاطب به وصدقوا، وكذلك هو الأمر عندنا العالم كله عاقل حي ناطق من جهة الكشف بخرق العادة التي الناس عليها أعني حصول العلم بهذا عندنا غير أنهم قالوا هذا جماد لا يعقل ووقفوا عندما أعطاهم بصرهم، والأمر، عندنا بخلاف ذلك، فإذا جاء عن نبيّ أن حجراً كلمه أو كتف شاة أو جذع نخلة أو بهيمة يقولون خلق الله فيه الحياة والعلم في ذلك الوقت والأمر عندنا ليس كذلك بل سرّ الحياة في جميع العالم، وأن كل من يسمع المؤذن من رطب ويابس يشهد له ولا يشهد إلاَّ من علم، هذا عن كشف عندنا لا عن استنباط من نظر بما يقتضيه ظاهر خبر ولا غير ذلك، ومن أراد أن يقف عليه فليسلك طريق الرجال وليلزم الخلوة والذكر فإن الله سيطلعه على هذا كله عيناً فيعلم أن الناس في عماية عن إدراك هذه الحقائق، فأوجد العالم سبحانه ليظهر سلطان الأسماء، فإن قدرة بلا مقدور وجوداً بلا عطاء، ورازقاً بلا مرزوق، ومغيثاً بلا مغاث، ورحيماً بلا مرحوم، حقائق معطلة التأثير، وجعل العالم في الدنيا ممتزجاً مزج القبضتين في العجنة، ثم فصل الأشخاص منها فدخل من هذه في هذه من كل قبضة في أختها فجهلت الأحوال، وفي هذا تفاضلت العلماء في استخراج الخبيث من الطيب والطيب من الخبيث، وغايته التخليص من هذه المزجة وتمييز القبضتين حتى تنفرد هذه بعالمها وهذه بعالمها كما قال الله تعالىٰ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٣٧] فمن بقي فيه شيء من المزجة حتى مات عليها لم يحشر يوم القيامة من الآمنين، ولكنه منهم من يتخلص من المزجة في الحساب، ومنهم من لا يتخلص منها إلاَّ في جهنم، فإذا تخلص أخرج فهؤلاء هم أهل الشفاعة، وأمّا من تميز هنا في إحدى القبضتين انقلب إلى الدار الآخرة بحقيقته من قبره إلى نعيم أو إلى عذاب وجحيم فإنه قد تخلص، فهذا غاية العالم، وهاتان حقيقتان راجعتان إلى صفة هو

الحق عليها في ذاته، ومن هنا قلنا يرونه أهل النار معذباً وأهل الجنة منعماً، وهذا سرّ شريف ربما تقف عليه في الدار الآخرة عند المشاهدة إن شاء الله وقد نالها المحققون في هذه الدار.

وأمّا قولنا في هذا الباب ومعرفة أفلاك العالم الأكبر والأصغر الذي هو الإنسان فأعني به عوالم كلياته وأجناسه وأمراؤه الذين لهم التأثير في غيرهم وجعلتها مقابلة هذا نسخة من هذا، وقد ضربنا لها دوائر على صور الأفلاك وترتيبها في كتاب إنشاء الدوائر والجداول الذي بدأنا وضعه بتونس بمحل الإمام أبي محمد عبد العزيز وليّنا وصفينا رحمه الله فلنلق منه في هذا الباب ما يليق بهذا المختصر فنقول: إن العوالم أربعة: العالم الأعلى وهو عالم البقاء، ثم عالم الاستحالة وهو عالم الفناء، ثم عالم التعمير وهو عالم البقاء والفناء، ثم عالم النسب، وهذه العوالم في موطنين في العالم الأكبر وهو ما خرج عن الإنسان وفي العالم الأصغر وهو الإنسان.

فأمّا العالم الأعلى: فالحقيقة المحمدية وفلكها الحياة نظيرها من الإنسان اللطيفة والروح القدسيّ، ومنهم العرش المحيط ونظيره من الإنسان الجسم، ومن ذلك الكرسيّ ونظيره من الإنسان النفس، ومن ذلك البيت المعمور ونظيره من الإنسان القلب، ومن ذلك الملائكة ونظيرها من الإنسان الأرواح التي فيه والقوىٰ، ومن ذلك زحل وفلكه نظيره من الإنسان القوّة العلمية والنفس، ومن ذلك المشتري وفلكه نظيرهما القوّة الذاكرة ومؤخر الدماغ، ومن ذلك الأحمر وفلكه نظيرهما القوّة العاقلة واليافوخ، ومن ذلك الشمس وفلكها نظيرهما القوّة المفكرة ووسط الدماغ ثم الزهرة وفلكها نظيرهما القوّة الوهمية والروح الحيوانيّ، ثم الكاتب وفلكه نظيرهما القوّة الخيالية ومقدم الدماغ ثم القمر وفلكه نظيرهما القوّة الحسيّة والجوارح التي تحسّ، فهذه طبقات العالم الأعلى ونظائره من الإنسان.

وأمّا عالم الاستحالة: فمن ذلك كرة الأثير وروحها الحرارة واليبوسة وهي كرة النار ونظيرها الصفراء وروحها القوّة الهاضمة، ومن ذلك الهواء وروحه الحرارة والرطوبة ونظيره الدم وروحه القوّة الجاذبة، ومن ذلك الماء وروحه البرودة والرطوبة نظيره البلغم وروحه القوّة الدافعة، ومن ذلك التراب وروحه البرودة واليبوسة نظيره السوداء وروحها القوّة الماسكة، وأما الأرض فسبع طباق: أرض سوداء، وأرض غبراء، وأرض حمراء، وأرض صفراء، وأرض بيضاء، وأرض زرقاء، وأرض خضراء، نظير هذه السبعة من الإنسان في جسمه: الجلد والشحم واللحم والعروق والعصب والعضلات والعظام.

وأما عالم التعمير: فمنهم الروحانيون نظيرهم القوىٰ التي في الإنسان، ومنهم عالم الحيوان نظيره ما يحسّ من الإنسان، ومنهم عالم النبات نظيره ما ينمو من الإنسان، ومن ذلك عالم الجماد نظيره ما لا يحسّ من الإنسان.

وأما عالم الذهب: فمنهم العرض نظيره الأسود والأبيض، والألوان والأكوان، ثم الكيف نظيره الأحوال مثل الصحيح والسقيم، ثم الكم نظيره الساق أطول من الذراع، ثم الأين نظيره العنق مكان للرأس. والساق مكان للفخذ، ثم الزمان نظيره حركت رأسي وقت تحريك يدي، ثم الإضافة نظيرها هذا أبي فأنا ابنه، ثم الوضع نظيره لغتي ولحني، ثم أن

يفعل نظيره أكلت، ثم أن ينفعل نظيره شبعت، ومنهم اختلاف الصور في الأمهات كالفيل والحمار والأسد والصرصر نظير هذا القوّة الإنسانية التي تقبل الصور المعنوية من مذموم ومحمود، هذا فطن فهو فيل، هذا بليد فهو حمار، هذا شجاع فهو أسد، هذا جبان فهو صرصر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع
في معرفة بدء الجسوم الإنسانية وهو آخر جنس موجود من العالم الكبير وآخر صنف من المولدات

[نظم: الكامل]

نـشـأتْ حـقـيـقـةُ بـاطـنِ الإنـسـان ... مـلـكـاً قـويـاً ظـاهـرَ الـسُّـلـطـانِ
ثـم اسـتـوتْ فـي عـرشِ آدمَ ذَاتُـهُ ... مـثـلَ اسـتـواءِ الـعـرش بـالـرحـمـانِ
فبدتْ حقيقةُ جسمِه في عينِها ... وبـهـا انـتـهـى مـلـكُ الـوجـودِ الـثـانـي
وبـدت مـعـارفُ لـفـظِه فـي عـلـمـه ... عـنـدَ الـكـرام وحـامـل الـشـنـآنِ
فـتـصـاغَـرَتْ لـعـلـومـه أحـلامُـهـم ... وتـكـبَّـر الـمـلـعـونُ مـن شـيـطـانِ
بـاؤوا بـقـربِ الله فـي مَـلَـكُـوتـه ... إلاَّ الـشُّـوَيْـطِـنُ بـاء بـالـخـسـرانِ

اعلم أيّدك الله أنه لما مضى من عمر العالم الطبيعيّ المقيد بالزمان المحصور بالمكان إحدى وسبعون ألف سنة من السنين المعروفة في الدنيا وهذه المدة أحد عشر يوماً من أيام غير هذا الاسم، ومن أيام ذي المعارج يوم وخمسا يوم، وفي هذه الأيام يقع التفاضل قال تعالىٰ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [سورة المعارج: الآية ٤] وقال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج: الآية ٤٧] فأصغر الأيام هي التي نعدها حركة الفلك المحيط الذي يظهر في يومه الليل والنهار فأقصر يوم عند العرب وهو هذا لأكبر فلك، وذلك لحكمه على ما في جوفه من الأفلاك إذ كانت حركة مّا دونه في الليل والنهار حركة قسرية له قهر بها سائر الأفلاك التي يحيط بها، ولكل فلك حركة طبيعية تكون له مع الحركة القسرية، فكل فلك دونه ذو حركتين في وقت واحد، حركة طبيعية وحركة قسرية، ولكل حركة طبيعية في كل فلك يوم مخصوص يعد مقداره بالأيام الحادثة عن الفلك المحيط المعبّر عنها بقوله: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج: الآية ٤٧] وكلها تقطع في الفلك المحيط، فكلما قطعته على الكمال كان يوماً لها ويدور الدور، فأصغر الأيام منها هو ثمانية وعشرون يوماً مما تعدون، وهو مقدار قطع حركة القمر في الفلك المحيط، ونصب الله هذه الكواكب السبعة في السموات ليدرك البصر قطع فلكها في الفلك المحيط لنعلم عدد السنين والحساب، قال تعالىٰ: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [سورة يونس: الآية ٥] ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٢] ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [سورة يس: الآية ٣٨] فلكل كوكب منها يوم مقدّر يفضل بعضها على بعض على قدر سرعة حركاتها الطبيعية أو صغر أفلاكها وكبرها.

فاعلم أن الله تعالىٰ لما خلق القلم واللوح وسمّاهما العقل والروح وأعطى الروح صفتين صفة علمية وصفة عملية وجعل العقل لها معلماً ومفيداً إفادة مشاهدة حالية كما تستفيد من صورة السكين القطع من غير نطق يكون منه في ذلك، وخلق تعالىٰ جوهراً دون النفس الذي هو الروح المذكور سماء الهباء، وهذه الاسمية له نقلناها من كلام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وأمّا الهباء فمذكور في اللسان العربيّ، قال تعالىٰ: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [سورة الواقعة: الآية ٦] كذلك لما رآها عليّ بن أبي طالب أعني هذه الجوهرة منبثة في جميع الصور الطبيعية كلها وأنها لا تخلو صورة منها إذ لا تكون صورة إلاَّ في هذه الجوهرة سمّاها هباء، وهي مع كل صورة بحقيقتها لا تنقسم ولا تتجزأ ولا تتصف بالنقص، بل هي كالبياض الموجود في كل أبيض بذاته وحقيقته، ولا يقال قد نقص من البياض قدر ما حصل منه في هذا الأبيض فهذا مثل حال هذه الجوهرة، وعين الله سبحانه بين هذا الروح الموصوف بالصفتين وبين الهباء أربع مراتب، وجعل كل مرتبة منزلاً لأربعة أملاك، وجعل هؤلاء الأملاك كالولاة على ما أحدثه سبحانه دونهم من العالم من عليين إلى أسفل سافلين، ووهب كل ملك من هؤلاء الملائكة علم ما يريد إمضاءه في العالم.

فأوّل شيء أوجده الله في الأعيان مما يتعلق به علم هؤلاء الملائكة وتدبيرهم الجسم الكليّ، وأوّل شكل فتح في هذا الجسم الشكل الكريّ المستدير إذ كان أفضل الأشكال، ثم نزل سبحانه بالإيجاد والخلق إلى تمام الصنعة وجعل جميع ما خلقه تعالىٰ مملكة لهؤلاء الملائكة، وولاهم أمورها في الدنيا والآخرة، وعصمهم عن المخالفة فيما أمرهم به فأخبرنا سبحانه أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. ولما انتهى خلق المولدات من الجمادات والنبات والحيوان بانتهاء إحدى وسبعين ألف سنة من سنيّ الدنيا مما نعد ورتب العالم ترتيباً حكيماً، ولم يجمع سبحانه لشيء مما خلقه من أوّل موجود إلى آخر مولود وهو الحيوان بين يديه تعالىٰ إلاَّ للإنسان وهي هذه النشأة البدنية الترابية، بل خلق كل ما سواها إما عن أمر إلهيّ أو عن يد واحدة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فهذا عن أمر إلهيّ. وورد في الخبر أنّ الله عزّ وجلّ خلق جنة عدن بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده وخلق آدم الذي هو الإنسان بيديه فقال تعالىٰ لإبليس على جهة التشريف لآدم عليه السلام: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص: الآية ٧٥].

ولما خلق الله الفلك الأدنى الذي هو الأول المذكور آنفاً قسمه اثني عشر قسماً سمّاها قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [سورة البروج: الآية ١] فجعل كل قسم برجاً، وجعل تلك الأقسام ترجع إلى أربعة في الطبيعة، ثم كرّر كل واحد من الأربعة في ثلاثة مواضع منه، وجعل هذه الأقسام كالمنازل والمناهل التي ينزل فيها المسافرون ويسير فيها السائرون في حال سيرهم وسفرهم لينزل في هذه الأقسام عند سير الكواكب فيها وسياجتهم ما يحدث الله في جوف هذا الفلك من الكواكب التي تقطع بسيرها في هذه البروج ليحدث الله عند قطعها وسيرها ما شاء أن يحدث من العالم الطبيعي والعنصري، وجعلها علامات على أثر حركة فلك البروج

فاعلم. فقسم من هذه الأربعة طبيعته الحرارة واليبوسة، والثاني البرودة واليبوسة، والثالث الحرارة والرطوبة، والرابع البرودة والرطوبة، وجعل الخامس والتاسع من هذه الأقسام مثل الأول، وجعل السادس والعاشر مثل الثاني، وجعل السابع والحادي عشر مثل الثالث، وجعل الثامن والثاني عشر مثل الرابع أعني في الطبيعة فحصر الأجسام الطبيعية بخلاف والأجسام العنصرية بلا خلاف في هذه الأربعة التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، ومع كونها أربعاً أمّهات فإنّ الله جعل اثنين منها أصلاً في وجود الاثنين الآخرين، فانفعلت اليبوسة عن الحرارة والرطوبة عن البرودة، فالرطوبة واليبوسة موجودتان عن سببين هما الحرارة والبرودة ولهذا ذكر الله في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٩] لأن المسبب يلزم من كونه مسبباً وجود السبب أو منفعلاً وجود الفاعل كيف شئت فقل ولا يلزم من وجود السبب وجود المسبب.

ولما خلق الله هذا الفلك الأوّل دار دورة غير معلومة الانتهاء إلاَّ لله تعالىٰ لأنه ليس فوقه شيء محدود من الأجرام يقطع فيه فإنه أوّل الأجرام الشفافة فتتعدّد الحركات وتتميز ولا كان قد خلق الله في جوفه شيئاً فتتميز الحركات وتنتهي عند من يكون في جوفه، ولو كان لم تتميز أيضاً لأنه أطلس لا كوكب فيه متشابه الأجزاء، فلا يعرف مقدار الحركة الواحدة منه ولا تتعين، فلو كان فيه جزء مخالف لسائر أجزائه عدّ به حركاته بلا شك، ولكن علم الله قدرها وانتهاءها وكرورها فحدث عن تلك الحركة اليوم ولم يكن، ثمّ ليل ولا نهار في هذا اليوم، ثم استمرّت حركات هذا الفلك فخلق الله ملائكة خمسة وثلاثين ملكاً أضافهم إلى ما ذكرنا من الأملاك الستة عشر فكان الجميع أحداً وخمسين ملكاً، من جملة هؤلاء الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، ثم خلق تسعمائة ملك وأربعاً وسبعين وأضافهم إلى ما ذكرناه من الأملاك وأوحى إليهم وأمرهم بما يجري على أيديهم في خلقه فقالوا: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٤] وقال فيهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦] فهؤلاء من الملائكة هم الولاة خاصة، وخلق الله ملائكة هم عمّار السموات والأرض لعبادته، فما في السماء والأرض موضع إلاَّ وفيه ملك، ولا يزال الحق يخلق من أنفاس العالم ملائكة ما داموا متنفسين.

ولما انتهى من حركات هذا الفلك الأول ومدته أربع وخمسون ألف سنة مما تعدون خلق الله الدار الدنيا وجعل لها أمداً معلوماً تنتهي إليه وتنقضي صورتها وتستحيل من كونها داراً لنا وقبولها صورة مخصوصة وهي التي نشاهدها اليوم إلى أن تبدّل الأرض غير الأرض والسموات. ولما انقضى من مدّ حركة هذا الفلك ثلاث وستون ألف سنة مما تعدون خلق الله الدار الآخرة الجنة والنار اللتين أعدّهما الله لعباده السعداء والأشقياء، فكان بين خلق الدنيا وخلق الآخرة تسع آلاف سنة مما تعدون، ولهذا سميت آخرة لتأخّر خلقها عن خلق الدنيا، وسميت الدنيا الأولى لأنها خلقت قبلها، قال تعالىٰ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ٤] يخاطب نبيه ﷺ ولم يجعل للآخرة مدة ينتهي إليها بقاؤها فلها البقاء الدائم،

وجعل سقف الجنة هذا الفلك وهو العرش عندهم الذي لا تتعين حركته ولا تتميز فحركته دائمة لا تنقضي، وما من خلق ذكرناه خلق إلاّ وتعلق القصد الثاني منه وجود الإنسان الذي هو الخليفة في العالم، وإنما قلت القصد الثاني إذ كان القصد الأوّل معرفة الحق وعبادته التي لها خلق العالم كله، فما من شيء إلاّ وهو يسبح بحمده، ومعنى القصد الثاني والأول التعلق الإراديّ لا حدوث الإرادة لأنّ الإرادة لله صفة قديمة أزلية اتصفت بها ذاته كسائر صفاته.

ولما خلق الله هذه الأفلاك والسموات وأوحى في كل سماء أمرها ورتّب فيها أنوارها وسرجها وعمرها بملائكته وحرّكها تعالىٰ فتحرّكت طائعة لله آتية إليه طلباً للكمال في العبودية التي تليق بها لأنه تعالىٰ دعاها ودعا الأرض ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] لأمر حد لهما ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] فهما آتيتان أبداً، فلا تزالان متحرّكتين، غير أنّ حركة الأرض خفية عندنا، وحركتها حول الوسط لأنها أكر، فأمّا السماء فأتت طائعة عند أمر الله لها بالإتيان، وأما الأرض فأتت طائعة لما علمت نفسها مقهورة وأنه لا بدّ أن يؤتى بها بقوله أو كرهاً فكانت المرادة بقوله تعالىٰ أو كرهاً فأتت طائعة كرهاً ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] وقد كان خلق الأرض ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٠] من أجل المولدات فجعلها خزانة لأقواتهم، وقد ذكرنا ترتيب نشء العالم في كتاب عقلة المستوفز فكان من تقدير أقواتها وجود الماء والهواء والنار وما في ذلك من البخارات والسحب والبروق والرعود والآثار العلوية ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] وخلق الجان من النار والطير والدواب البرية والبحرية والحشرات من عفونات الأرض ليصفو الهواء لنا من بخارات العفونات التي لو خالطت الهواء الذي أودع الله حياة هذا الإنسان والحيوان وعافيته فيه لكان سقيماً مريضاً معلولاً، فصفّى له الجوّ سبحانه لطفاً منه بتكوين هذه المعفنات فقلّت الأسقام والعلل، ولما استوت المملكة وتهيأت وما عرف أحد من هؤلاء المخلوقات كلها من أي جنس يكون هذا الخليفة الذي مهد الله هذه المملكة لوجوده.

فلما وصل الوقت المعين في علمه لإيجاد هذا الخليفة بعد أن مضى من عمر الدنيا سبع عشرة ألف سنة، ومن عمر الآخرة الذي لا نهاية له في الدوام ثمان آلاف سنة أمر الله بعض ملائكته أن يأتيه بقبضة من كل أجناس تربة الأرض فأتاه بها في خبر طويل معلوم عند الناس فأخذها سبحانه وخمّرها بيديه فهو قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص: الآية ٧٥] وكان الحق قد أودع عند كل ملك من الملائكة الذين ذكرناهم وديعة لآدم وقال لهم: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [سورة ص: الآية ٧١] وهذه الودائع التي بأيديكم له فإذا خلقته فليؤدّ إليه كل واحد منكم ما عنده مما أمنتكم عليه، ثم إذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فلما خمّر الحق تعالىٰ بيديه طينة آدم حتى تغيّر ريحها وهو المسنون وذلك الجزء الهوائيّ الذي في النشأة جعل ظهره محلاً للأشقياء والسعداء من ذريته فأودع فيه ما كان في قبضتيه، فإنه سبحانه أخبرنا أن في قبضة يمينه السعداء وفي قبضة اليد الأخرى الأشقياء وكلتا يدي ربي يمين

مباركة، وقال: هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، وأودع الكل طينة آدم وجمع فيه الأضداد بحكم المجاورة وأنشأه على الحركة المستقيمة وذلك في دولة السنبلة وجعله ذا جهات ست الفوق وهو ما يلي رأسه، والتحت يقابله وهو ما يلي رجليه، واليمين وهو ما يلي جانبه الأقوى، والشمال يقابله وهو ما يلي جانبه الأضعف، والأمام وهو ما يلي الوجه، ويقابله الخلف وهو ما يلي القفا، وصوّره وعدله وسوّاه ثم نفخ فيه من روحه المضاف إليه فحدث عند هذا النفخ فيه بسريانه في أجزائه أركان الأخلاط التي هي الصفراء والسوداء والدم والبلغم، فكانت الصفراء عن الركن الناريّ الذي أنشأه الله منه في قوله تعالىٰ: ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ١٤] وكانت السوداء عن التراب وهو قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٩] وكان الدم من الهواء وهو قوله: ﴿مَّسْنُونٍ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٨] وكان البلغم من الماء الذي عجن به التراب فصار طيناً ثم أحدث فيه القوّة الجاذبة التي بها يجذب الحيوان الأغذية، ثم القوّة الماسكة وبها يمسك ما يتغذى به الحيوان، ثم القوّة الهاضمة وبها يهضم الغذاء، ثم القوّة الدافعة وبها يدفع الفضلات عن نفسه من عرق وبخار ورياح وبراز وأمثال ذلك، وأمّا سريان الأبخرة وتقسيم الدم في العروق من الكبد وما يخلصه كل جزء من الحيوان فبالقوّة الجاذبة لا الدافعة، فحظ القوّة الدافعة ما نخرجه كما قلنا من الفضلات لا غير، ثم أحدث فيه القوّة الغاذية والمنمية والحاسية والخيالية والوهمية والحافظة والذاكرة، وهذا كله في الإنسان بما هو حيوان لا بما هو إنسان فقط، غير أن هذه القوىٰ الأربعة قوّة الخيال والوهم والحفظ والذكر هي في الإنسان أقوى منها في الحيوان، ثم خصّ آدم الذي هو الإنسان بالقوّة المصوّرة والمفكرة والعاقلة فتميز عن الحيوان وجعل هذه القوىٰ كلها في هذا الجسم آلات للنفس الناطقة لتصل بذلك إلى جميع منافعها المحسوسة والمعنوية، ثم أنشأه خلقاً آخر وهو الإنسانية فجلعه درّاكاً بهذه القوىٰ حياً عالماً قادراً مريداً متكلماً سميعاً بصيراً على حدّ معلوم معتاد في اكتسابه ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤].

ثم إنه سبحانه ما سمّى نفسه باسم من الأسماء إلاّ وجعل للإنسان من التخلق بذلك الاسم حظاً منه يظهر به في العالم على قدر ما يليق به، ولذلك تأوّل بعضهم قوله عليه السلام: «**إن اللّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**» على هذا المعنى وأنزله خليفة عنه في أرضه إذ كانت الأرض من عالم التغيير والاستحالات بخلاف العالم الأعلى، فيحدث فيهم من الأحكام بحسب ما يحدث في العالم الأرضي من التغيير، فيظهر لذلك حكم جميع الأسماء الإلهية فلذلك كان خليفة في الأرض دون السماء والجنة، ثم كان من أمره ما كان من علم الأسماء وسجود الملائكة وإباية إبليس يأتي ذكر ذلك كله في موضعه إن شاء الله، فإن هذا الباب مخصوص بابتداء الجسوم الإنسانية وهي أربعة أنواع: جسم آدم، وجسم حوّاء، وجسم عيسىٰ، وأجسام بني آدم، وكل جسم من هذه الأربعة نشؤه يخالف نشء الآخر في السببية مع الاجتماع في الصورة الجسمانية والروحانية، وإنما سقنا هذا ونبهنا عليه لئلا يتوهم الضعيف العقل أن القدرة الإلهية أو أن

الحقائق لا تعطى أن تكون هذه النشأة الإنسانية إلاّ عن سبب واحد يعطي بذاته هذا النشء، فرذ الله هذه الشبهة بأن أظهر هذا النشء الإنسانيّ في آدم بطريق لم يظهر به جسم حوّاء، وأظهر جسم حوّاء بطريق لم يظهر جسم ولد آدم، وأظهر جسم أولاد آدم بطريق لم يظهر به جسم عيسىٰ عليه السلام، وينطلق على كل واحد من هؤلاء اسم الإنسان بالحد والحقيقة، ذلك ليعلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٧٥] ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الحج: الآية ٦] .

ثم إن الله قد جمع هذه الأربعة الأنواع من الخلق في آية من القرآن في سورة الحجرات فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم﴾ يريد آدم ﴿مِّن ذَكَرٍ﴾ يريد حوّاء ﴿وَأُنثَىٰ﴾ يريد عيسىٰ، ومن المجموع ﴿مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ يريد بني آدم بطريق النكاح والتوالد، فهذه الآية من جوامع الكلم وفصل الخطاب الذي أوتي محمد ﷺ.

ولما ظهر جسم آدم كما ذكرناه ولم تكن فيه شهوة نكاح وكان قد سبق في علم الحق إيجاد التوالد والتناسل والنكاح في هذه الدار إنما هو لبقاء النوع فاستخرج من ضلع آدم من القصيرى حوّاء فقصرت بذلك عن درجة الرجل كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٨] فما تلحق بهم أبداً وكانت من الضلع للانحناء الذي في الضلوع لتحنو بذلك على ولدها وزوجها، فحنوّ الرجل على المرأة حنوّه على نفسه لأنها جزء منه، وحنوّ المرأة على الرجل لكونها خلقت من الضلع والضلع فيه انحناء وانعطاف.

وعمر الله الموضع من آدم الذي خرجت منه حوّاء بالشهوة إليها إذ لا يبقى في الوجود خلاء، فلما عمره بالهواء حنّ إليها حنينه إلى نفسه لأنها جزء منه، وحنّت إليه لكونه موطنها الذي نشأت فيه، فحب حوّاء حب الموطن، وحب آدم حب نفسه، ولذلك يظهر حب الرجل للمرأة إذ كانت عينه، وأعطيت المرأة القوّة المعبر عنها بالحياء في محبة الرجل فقويت على الإخفاء لأن الموطن لا يتحد بها اتحاد آدم بها، فصوّر في ذلك الضلع جميع ما صوّره وخلقه في جسم آدم، فكان نشء جسم آدم في صورته كنشء الفاخوريّ فيما ينشئه من الطين والطبخ، وكان نشء جسم حوّاء نشء النجار فيما ينحته من الصور في الخشب، فلما نحتها في الضلع وأقام صورتها وسوّاها وعدلها نفخ فيها من روحه فقامت حية ناطقة أنثى ليجعلها محلاً للزراعة والحرث لوجود الإنبات الذي هو التناسل، فسكن إليها وسكنت إليه، وكانت لباساً له وكان لباساً لها، قال تعالىٰ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧] وسرت الشهوة منه في جميع أجزائه فطلبها فلما تغشاها وألقى الماء في الرحم ودار بتلك النطفة من الماء دم الحيض الذي كتبه الله على النساء تكوّن في ذلك الجسم جسم ثالث على غير ما تكوّن منه جسم آدم وجسم حوّاء فهذا هو الجسم الثالث، فتوّلاه الله بالنشء في الرحم حالاً بعد حال بالانتقال من ماء إلى نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظم ثم كسا العظم لحماً، فلما أتمّ نشأته الحيوانية أنشأه خلقاً آخر فنفخ فيه الروح الإنساني ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] ولولا طول الأمر لبيّنا تكوينه في الرحم حالاً بعد حال، ومن يتولى

ذلك من الملائكة الموكلين بإنشاء الصور في الأرحام إلى حين الخروج، ولكن كان الغرض الإعلام بأن الأجسام الإنسانية وإن كانت واحدة في الحد والحقيقة والصور الحسيّة والمعنوية فإن أسباب تأليفها مختلفة لئلا يتخيل أن ذلك لذات السبب تعالىٰ الله، بل ذلك راجع إلى فاعل مختار يفعل ما يشاء كيف يشاء من غير تحجير ولا قصور على أمر دون أمر ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦].

ولما قال أهل الطبيعة أن ماء المرأة لا يتكوّن منه شيء وأن الجنين الكائن في الرحم إنما هو من ماء الرجل لذلك جعلنا تكوين جسم عيسىٰ تكويناً آخر وإن كان تدبيره في الرحم تدبير أجسام البنين، فإن كان من ماء المرأة إذ تمثل لها الروح بشراً سوياً، أو كان عن نفخ بغير ماء، فعلى كل وجه هو جسم رابع مغاير في النشء غيره من أجسام النوع ولذلك قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ أي صفة نشء عيسىٰ ﴿عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٩] الضمير يعود على آدم، ووقع الشبه في خلقه من غير أب أي صفة نشئه صفة نشء آدم إلاَّ أن آدم خلقه من تراب ثم قال له كن، ثم إن عيسىٰ على ما قيل لم يلبث في بطن مريم لبث البنين المعتاد لأنه أسرع إليه التكوين لما أراد الله أن يجعله آية ويردّ به على الطبيعيين حيث حكموا على الطبيعة بما أعطتهم من العادة لا بما تقتضيه مما أودع الله فيها من الأسرار والتكوينات العجيبة، ولقد أنصف بعض حذاق هذا الشأن الطبيعة فقال: لا نعلم منها إلاَّ ما أعطتنا خاصة وفيها ما لا نعلم، فهذا قد ذكرنا ابتداء الجسوم الإنسانية وأنها أربعة أجسام مختلفة النشء كما قررنا وأنه آخر المولدات، فهو نظير العقل الأوّل وبه ارتبط لأن الوجود دائرة، فكان ابتداء الدائرة وجود العقل الأول الذي ورد في الخبر أنه أول ما خلق الله العقل فهو أول الأجناس وانتهى الخلق إلى الجنس الإنساني فكملت الدائرة، واتصل الإنسان بالعقل كما يتصل آخر الدائرة بأولها فكانت دائرة، وما بين طرفي الدائرة جميع ما خلق الله من أجناس العالم بين العقل الأول الذي هو القلم أيضاً وبين الإنسان الذي هو الموجود الآخر، ولما كانت الخطوط الخارجة من النقطة التي في وسط الدائرة إلى المحيط الذي وجد عنها تخرج على السواء لكل جزء من المحيط، كذلك نسبة الحق تعالىٰ إلى جميع الموجودات نسبة واحدة، فلا يقع هناك تغيير البتة كانت الأشياء كلها ناظرة إليه وقابلة منه ما يهبها نظر أجزاء المحيط إلى النقطة، وأقام سبحانه هذه الصورة الإنسانية بالحركة المستقيمة صورة العمد الذي للخيمة فجعله لقبة هذه السموات، فهو سبحانه يمسكها أن تزول بسببه فعبرنا عنه بالعمد، فإذا فنيت هذه الصورة ولم يبق منها على وجه الأرض أحد متنفس وانشقت السماء فهي يومئذ واهية لأن العمد زال وهو الإنسان.

ولما انتقلت العمارة إلى الدار الآخرة بانتقال الإنسان إليها وخربت الدنيا بانتقاله عنها علمنا قطعاً أن الإنسان هو العين المقصودة لله من العالم وأنه الخليفة حقاً، وأنه محل ظهور الأسماء الإلهية، وهو الجامع لحقائق العالم كله من ملك وفلك وروح وجسم وطبيعة وجماد ونبات وحيوان إلى ما خصّ به من علم الأسماء الإلهية مع صغر حجمه وجرمه، وإنما قال الله فيه بأن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس لكون الإنسان متولداً عن السماء

والأرض فهما له كالأبوين فرفع الله مقدارهما ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فلم يرد في الجرمية، فإن ذلك معلوم حسّاً، غير أن الله تعالىٰ ابتلاه ببلاء ما ابتلى به أحداً من خلقه، إمّا لأن يسعده أو يشقيه على حسب ما يوفقه إلى استعماله، فكان البلاء الذي ابتلاه به أن خلق فيه قوّة تسمّى الفكر، وجعل هذه القوّة خادمة لقوّة أخرى تسمّى العقل، وجبر العقل مع سيادته على الفكر أن يأخذ منه ما يعطيه ولم يجعل للفكر مجالاً إلاّ في القوّة الخيالية، وجعل سبحانه القوّة الخيالية محلاً جامعاً لما تعطيها القوّة الحساسة، وجعل له قوّة يقال لها المصوّرة فلا يحصل في القوّة الخيالية إلاّ ما أعطاه الحسّ أو أعطته القوّة المصوّرة، ومادة المصوّرة من المحسوسات فتركب صوراً لم يوجد لها عين، لكن أجزاؤها كلها موجودة حسّاً، وذلك لأن العقل خلق ساذجاً ليس عنده من العلوم النظرية شيء، وقيل للفكر ميّز بين الحق والباطل الذي في هذه القوّة الخيالية فينظر بحسب ما يقع له فقد يحصل في شبهة وقد يحصل في دليل عن غير علم منه بذلك، ولكن في زعمه أنه عالم بصور الشبه من الأدلة وأنه قد حصل على علم، ولم ينظر إلى قصور المواد التي استند إليها في اقتناء العلوم فيقبلها العقل منه ويحكم بها فيكون جهله أكثر من علمه بما لا يتقارب.

ثم إن الله كلف هذا العقل معرفته سبحانه ليرجع إليه فيها لا إلى غيره، ففهم العقل نقيض ما أراد به الحق بقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ [سورة الروم: الآية ٨] ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٢١] فاستند إلى الفكر وجعله إماماً يقتدى به، وغفل عن الحق في مراده بالتفكّر أنه خاطبه أن يتفكر، فيرى أن علمه بالله لا سبيل إليه إلاّ بتعريف الله، فيكشف له عن الأمر على ما هو عليه، فلم يفهم كل عقل هذا الفهم إلاّ عقول خاصة الله من أنبيائه وأوليائه، يا ليت شعري هل بأفكارهم قالوا بلى حين أشهدهم على أنفسهم في قبضة الذرية من ظهر آدم؟ لا والله بل عناية إشهاده إياهم ذلك عند أخذه إياهم عنهم من ظهورهم ولما رجعوا إلى الأخذ عن قواهم المفكرة في معرفة الله لم يجتمعوا قط على حكم واحد في معرفة الله، وذهب كل طائفة إلى مذهب، وكثرت القالة في الجناب الإلهيّ الأحمى، واجترؤوا غاية الجراءة على الله، وهذا كله من الابتلاء الذي ذكرناه من خلقه الفكر في الإنسان وأهل الله افتقروا إليه فيما كلفهم من الإيمان به في معرفته، وعلموا أن المراد منهم رجوعهم إليه في ذلك، وفي كل حال فمنهم القائل سبحان من لم يجعل سبيلاً إلى معرفته إلاّ العجز عن معرفته، ومنهم من قال العجز عن درك الإدراك إدراك. وقال ﷺ: «**لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ**». وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٠] فرجعوا إلى الله في المعرفة به وتركوا الفكر في مرتبته ووفوه حقّه لم ينقلوه إلى ما لا ينبغي له التفكّر فيه، وقد ورد النهي عن التفكّر في ذات الله والله يقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٨] فوهبهم الله من معرفته ما وهبهم وأشهدهم من مخلوقاته ومظاهره ما أشهدهم، فعلموا أنه ما يستحيل عقلاً من طريق الفكر لا يستحيل نسبة إلهية، كما سنورد من ذلك طرفاً في باب الأرض المخلوقة من بقية طينة آدم وغيرها، فالذي ينبغي للعاقل أن يدين الله به في نفسه أن يعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] من ممكن ومحال، ولا كل محال نافذ

الاقتدار واسع العطاء ليس لإيجاده تكرار، بل أمثال تحدث في جوهر أوجده وشاء بقاه ولو شاء أفناه مع الأنفاس، لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم.

الباب الثامن

في معرفة الأرض التي خلقت من بقية خميرة طينة آدم عليه السلام وهي أرض الحقيقة وذكر بعض ما فيها من الغرائب والعجائب

[نظم: الكامل]

يـا أخـتُ بـل يـا عـمـتـي الـمـعـقـولَـهْ … أنـتِ الأمـيـمـةُ عـنـدنـا الـمـجـهـولَـهْ
نـظـر الـبـنـونُ إلـيـكِ أخـتَ أبـيـهـمُـو … فـتـنـافـسـوا عـن هِـمَّـةٍ مـغْـلـولَـهْ
إلا الـقـلـيـلُ مـن الـبـنـيـن فـإنـهـمْ … عـطـفـوا عـلـيـكِ بـأنـفـسٍ مـجـبـولَـهْ
يـا عـمـتـي قُـلْ كـيـف أظـهـر سـرَّهُ … فـيـكِ الأخـيُّ مـحـقـقـاً تـنـزيـلَـهْ
حـتـى بـدا مـن مـثـل ذاتِـك عـالـمٌ … قـد يـرتـضـي ربُّ الـورى تَـوْكـيـلَـهْ
أنـتِ الإمـامـةُ والإمـامُ أخـوك والـ … ـمـأمـومُ أمـثـالٌ لـه مَـسْـلـولَـهْ

اعلم أن الله تعالىٰ لما خلق آدم عليه السلام الذي هو أول جسم إنسانيّ تكوّن وجعله أصلاً لوجود الأجسام الإنسانية وفضلت من خميرة طينته فضلة خلق منها النخلة فهي أخت لآدم عليه السلام وهي لنا عمة، وسمّاها الشرع عمة وشبهها بالمؤمن، ولها أسرار عجيبة دون سائر النبات، وفضل من الطينة بعد خلق النخلة قدر السمسمة في الخفاء فمدّ الله في تلك الفضلة أرضاً واسعة الفضاء إذا جعل العرش وما حواه والكرسيّ والسموات والأرضون وما تحت الثرى والجنات كلها والنار في هذه الأرض كان الجميع فيها كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، وفيها من العجائب والغرائب ما لا يقدر قدره ويبهر العقول أمره، وفي كل نفس خلق الله فيها عوالم يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

وفي هذه الأرض ظهرت عظمة الله وعظمت عند المشاهد لها قدرته، وكثير من المحالات العقلية التي قام الدليل الصحيح العقليّ على إحالتها هي موجودة في هذه الأرض، وهي مسرح عيون العارفين العلماء بالله وفيها يجولون، وخلق الله من جملة عوالمها عالماً على صورنا إذا أبصرهم العارف يشاهد نفسه فيها، وقد أشار إلى مثل ذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنه فيما روي عنه في حديث هذه الكعبة وأنها بيت واحد من أربعة عشر بيتاً، وأنّ في كل أرض من السبع الأرضين خلقاً مثلنا حتى أن فيهم ابن عباس مثلي، وصدقت هذه الرواية عند أهل الكشف، فلنرجع إلى ذكر هذه الأرض واتساعها وكثرة عالمها المخلوقين فيها ومنها، ويقع للعارفين فيها تجليات إلهية.

أخبر بعض العارفين بأمر أعرفه شهوداً قال: دخلت فيها يوماً مجلساً يسمّى مجلس الرحمة لم أر مجلساً قط أعجب منه، فبينا أنا فيه إذ ظهر لي تجلّ إلهيّ لم يأخذني عني بل أبقاني معي وهذا من خاصية هذه الأرض، فإن التجليات الواردة على العارفين في هذه الدار

في هذه الهياكل تأخذهم عنهم وتفنيهم عن شهودهم من الأنبياء والأولياء وكل من وقع له ذلك، وكذلك عالم السموات العلى، والكرسيّ الأزهى، وعالم العرش المحيط الأعلى، إذا وقع لهم تجلّ إلهيّ أخذهم عنهم وصعقوا، وهذه الأرض إذا حصل فيها صاحب الكشف العارف ووقع له تجلّ لم يفنه عن شهوده ولا اختطفه عن وجوده وجمع له بين الرؤية والكلام، قال: واتفق لي في هذا المجلس أمور وأسرار لا يسعني ذكرها لغموض معانيها وعدم وصول الإدراكات قبل أن يشهد مثل هذه المشاهد لها، وفيها من البساتين والجنات والحيوان والمعادن ما لا يعلم قدر ذلك إلاَّ الله تعالىٰ، وكل ما فيها من هذا كله حيّ ناطق كحياة كل حيّ ناطق ما هو مثل ما هي الأشياء في الدنيا وهي باقية لا تفنى ولا تتبدّل ولا يموت عالمها، وليست تقبل هذه الأرض شيئاً من الأجسام الطبيعية الطينية البشرية سوى عالمها أو عالم الأرواح منا بالخاصية، وإذا دخلها العارفون إنما يدخلونها بأرواحهم لا بأجسامهم فيتركون هياكلهم في هذه الأرض الدنيا ويتجرّدون، وفي تلك الأرض صور عجيبة النشء بديعة الخلق قائمون على أفواه السكك المشرفة على هذا العالم الذي نحن فيه من الأرض والسماء والجنة والنار، فإذا أراد واحد منا الدخول لتلك الأرض من العارفين من أيّ نوع كان من إنس أو جنّ أو ملك أو أهل الجنة بشرط المعرفة وتجرّد عن هيكله، وجد تلك الصور على أفواه السكك قائمين موكلين بها قد نصبهم الله سبحانه لذلك الشغل، فيبادر واحد منهم إلى هذا الداخل فيخلع عليه حلة على قدر مقامه ويأخذ بيده ويجول به في تلك الأرض ويتبوّأ منها حيث يشاء، ويعتبر في مصنوعات الله، ولا يمرّ بحجر ولا شجر ولا مدر ولا شيء ويريد أن يكلمه إلاَّ كلمه كما يكلم الرجل صاحبه، ولهم لغات مختلفة، وتعطي هذه الأرض بالخاصية لكل من دخلها الفهم بجميع ما فيها من الألسنة، فإذا قضى منها وطره وأراد الرجوع إلى موضعه مشى معه رفيقه إلى أن يوصله إلى الموضع الذي دخل منه يوادعه ويخلع عنه تلك الحلة التي كساه وينصرف عنه، وقد حصل علوماً جمة ودلائل وزاد في علمه بالله ما لم يكن عنده مشاهدة، وما رأيت الفهم ينفد أسرع مما ينفد إذا حصل في هذه الأرض.

وقد ظهر عندنا في هذه الدار وهذه النشأة ما يعضد هذا القول، فمن ذلك ما شاهدناه ولا أذكره، ومنها ما حدّثني أوحد الدين حامد بن أبي الفخر الكرماني وفقه الله قال: كنت أخدم شيخاً وأنا شابّ فمرض الشيخ وكان في محارة وقد أخذه البطن، فلما وصلنا تكريت قلت له يا سيدي اتركني اطلب لك دواء ممسكاً من صاحب مارستان سنجار من السبيل، فلما رأى احتراقي قال لي: رح إليه، قال: فرحت إلى صاحب السبيل وهو في خيمته جالس ورجاله بين يديه قائمون والشمعة بين يديه وكان لا يعرفني ولا أعرفه فرآني واقفاً بين الجماعة فقام إليّ وأخذ بيدي وأكرمني وسألني ما حاجتك فذكرت له حال الشيخ فاستحضر الدواء وأعطاني إياه وخرج معي في خدمتي والخادم بالشمعة بين يديه فخفت أن يراه الشيخ فيحرج فحلفت عليه أن يرجع فرجع فجئت الشيخ وأعطيته الدواء وذكرت له كرامة الأمير صاحب السبيل بي، فتبسم الشيخ وقال لي: يا ولدي إني أشفقت عليك لما رأيت من احتراقك من

أجلي فأذنت لك فلما مشيت خفت أن يخجلك الأمير بعدم إقباله عليك فتجردت عن هيكلي هذا ودخلت في هيكل ذلك الأمير وقعدت في موضعه، فلما جئت أكرمتك وفعلت معك ما رأيت ثم عدت إلى هيكلي هذا ولا حاجة لي في هذا الدواء وما أستعمله، فهذا شخص قد ظهر في صورة غيره فكيف أهل تلك الأرض؟

قال لي بعض العارفين: لما دخلت هذه الأرض رأيت فيها أرضاً كلها مسك عطر لو شمّه أحد منا في هذه الدنيا لهلك لقوّة رائحته تمتدّ ما شاء الله أن تمتدّ، ودخلت في هذه الأرض أرضاً من الذهب الأحمر اللين فيها أشجار كلها ذهب وثمرها ذهب فيأخذ التفاحة أو غيرها من الثمر فيأكلها فيجد من لذة طعمها وحسن رائحتها ونعمتها ما لا يصفها واصف تقصر فاكهة الجنة عنها فكيف فاكهة الدنيا، والجسم والشكل والصورة ذهب، والصورة والشكل كصورة الثمرة وشكلها عندنا وتختلف في الطعم، وفي الثمرة من النقش البديع والزينة الحسنة ما لا تتوهمه نفس، فأحرى أن تشهده عين، ورأيت من كبر ثمرها بحيث لو جعلت الثمرة بين السماء والأرض لحجبت أهل الأرض عن رؤية السماء، ولو جعلت على الأرض لفضلت عليها أضعافاً، وإذا قبض عليها الذي يريد أكلها بهذه اليد المعهودة في القدر عمّها بقبضته لنعمتها ألطف من الهواء يطبق عليها يده مع هذا العظم، وهذا مما تحيله العقول هنا في نظرها، ولما شاهدها ذو النون المصري نطق بما حكي عنه من إيراد الكبير على الصغير من غير أن يصغر الكبير أو يكبر الصغير أو يوسع الضيق أو يضيق الواسع، فالعظم في التفاحة على ما ذكرته باق، والقبض عليها باليد الصغيرة والإحاطة بها موجود، والكيفية مشهودة مجهولة لا يعرفها إلاّ الله، وهذا العلم مما انفرد الحق به، واليوم الواحد الزماني عندنا هو عدة سنين عندهم، وأزمنة تلك الأرض مختلفة.

قال: ودخلت فيها أرضاً من فضة بيضاء في الصورة ذات شجر وأنهار وثمر شهي كل ذلك فضة، وأجسام أهلها منها كلها فضة، وكذلك كل أرض شجرها وثمرها وأنهارها وبحارها وخلقها من جنسها، فإذا تنوولت وأكلت وجد فيها من الطعم والروائح والنعمة مثل سائر المأكولات، غير أن اللذة لا توصف ولا تحكى، ودخلت فيها أرضاً من الكافور الأبيض وهي في أماكن منها أشد حرارة من النار يخوضها الإنسان ولا تحرقه، وأماكن منها معتدلة، وأماكن باردة، وكل أرض من هذه الأرضين التي هي أماكن في هذه الأرض الكبيرة لو جعلت السماء فيها لكانت كحلقة في فلاة بالنسبة إليها، وما في جميع أراضيها أحسن عندي ولا أوفق لمزاجي من أرض الزعفران، وما رأيت عالماً من عالم كل أرض أبسط نفوساً منهم ولا أكثر بشاشة بالوارد عليهم يتلقونه بالترحيب والتأهيل، ومن عجائب مطعوماتها أنه أي شيء أكلت منها إذا قطعت من الثمر قطعة نبتت في زمان قطعك إياها مكانها ما سد تلك الثلمة أو تقطف بيدك ثمرة من ثمرها فزمان قطفك إياها يتكوّن مثلها بحيث لا يشعر بها إلاّ الفطن فلا يظهر فيها نقص أصلاً، وإذا نظرت إلى نسائها ترى أن النساء الكائنين في الجنة من الحور بالنسبة إليهن كنسائنا من البشر بالنسبة إلى الحور في الجنان، وأمّا مجامعتهن فلا يشبه لذتها لذة،

وأهلها أعشق الخلق فيمن يرد عليهم، وليس عندهم تكليف بل هم مجبولون على تعظيم الحق وجلاله تعالىٰ، لو راموا خلاف ذلك ما استطاعوا، وأما أبنيتهم فمنها ما يحدث عن هممهم، ومنها ما يحدث كما تبنى عندنا من اتخاذ الآلات وحسن الصنعة، ثم إن بحارها لا يمتزج بعضها ببعض كما قال تعالىٰ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ١٩، ٢٠] فتعاين منتهى بحر الذهب تصطفق أمواجه ويباشره بالمجاورة بحر الحديد فلا يدخل من واحد في الآخر شيء، وماؤهم ألطف من الهواء في الحركة والسيلان وهو من الصفاء بحيث أن لا يخفى عنك من دوابه ولا من الأرض التي يجري البحر عليها شيء، فإذا أردت أن تشرب منه وجدت له من اللذة ما لا تجده لمشروب أصلاً، وخلقها ينبتون فيها كسائر النباتات من غير تناسل، بل يتكوّنون من أرضها تكوّن الحشرات عندنا، ولا ينعقد من مائهم في نكاحهم ولد وإن نكاحهم إنما هو لمجرّد الشهوة والنعيم، وأما مراكبهم فتعظم وتصغر بحسب ما يريده الراكب، وإذا سافروا من بلد إلى بلد فإنهم يسافرون برّاً وبحراً، وسرعة مشيهم في البرّ والبحر أسرع من إدراك البصر للمبصر، وخلقها متفاوتون في الأحوال، ففيهم من تغلب عليهم الشهوات، وفيهم من يغلب عليهم تعظيم جناب الحق، ورأيت فيها ألواناً لا أعرفها في ألوان الدنيا، ورأيت فيها معادن تشبه الذهب وما هي بذهب ولا نحاس، وأحجاراً من اللآلىء ينفذها البصر لصفائها شفافة من اليواقيت الحمر، ومن أعجب ما فيها إدراك الألوان في الأجسام السفلية التي هي كالهواء، ويتعلق الإدراك بألوانها كما يتعلق بالألوان التي في الأجسام الكثيفة، وعلى أبواب مدائنها عقود من الأحجار الياقوتية كل حجر منها يزيد على الخمسمائة ذراع، وعلوّ الباب في الهواء عظيم وعليه معلق من الأسلحة والعدد ما لو اجتمع ملك الأرض كلها ما وفى بها، وعندهم ظلمة ونور من غير شمس تتعاقب، وبتعاقبهما يعرفون الزمان، وظلمتهم لا تحجب البصر عن مدركه كما لا يحجبه النور، ويغزو بعضهم بعضاً من غير شحناء ولا عداوة ولا فساد بنية، وإذا سافروا في البحر وغرقوا لا يعدو عليهم الماء كما يعدو علينا بل يمشون فيه كمشي دوابه حتى يلحقوا بالساحل، وتحل بتلك الأرض زلازل لو حلّت بنا لانقلبت الأرض وهلك ما كان عليها.

وقال: لقد كنت يوماً مع جماعة منهم في حديث وجاءت زلزلة شديدة بحيث أني رأيت الأبنية تتحرك كلها تحركاً لا يقدر البصر يتمكن من رؤيتها لسرعة الحركة مروراً وكروراً وما عندنا خبر وكأنا على الأرض قطعة منها إلى أن فرغت الزلزلة، فلما فرغت وسكنت الأرض أخذت الجماعة بيدي وعزتني في ابنة لي اسمها فاطمة فقلت للجماعة إني تركتها في عافية عند والدتها قالوا صدقت ولكن هذه الأرض ما تزلزل بنا وعندنا أحد إلاً مات ذلك الشخص أو مات له أحد، وإن هذه الزلزلة لموت ابنتك فانظر في أمرها، فقعدت معهم ما شاء الله وصاحبي ينتظرني، فلما أردت فراقهم مشوا معي إلى فم السكة وأخذوا خلعتهم وجئت إلى بيتي فلقيت صاحبي فقال لي: إن فاطمة تنازع فدخلت عليها فقضت وكنت بمكة مجاوراً فجهزناها ودفناها بالمعلى، فهذا من أعجب ما أخبرت عن تلك الأرض، ورأيت بها كعبة

يطوف بها أهلها غير مكسوّة وتكون أكبر من البيت الذي بمكة ذات أركان أربعة تكلمهم إذا طافوا بها وتحييهم وتفيدهم علوماً لم تكن عندهم، ورأيت في هذه الأرض بحراً من تراب يجري مثل ما يجري الماء، ورأيت حجارة صغاراً وكباراً يجري بعضها إلى بعض كما يجري الحديد إلى المغناطيس، فتتألف هذه الحجارة ولا تنفصل بعضها من بعض بطبعها إلاَّ إن فصلها فاصل مثل ما يفصل الحديد عن المغناطيس ليس في قوّته أن يمتنع فإذا ترك وطبعه جرت بعضها إلى بعض على مقدار من المساحة مخصوص، فتضم هذه الحجارة بعضها إلى بعض فينشأ منها صورة سفينة، ورأيت منها مركباً صغيراً وشينبين فإذا التأمت السفينة من تلك الحجارة رموا بها في بحر التراب وركبوا فيها وسافروا حيث يشتهون من البلاد، غير أن قاع السفينة من رمل أو تراب يلصق بعضه ببعض لصوق الخاصية، فمما رأيت فيما رأيت أعجب من جريان هذه السفن في ذلك البحر وصورة الإنشاء في المراكب سواء، غير أن لهم في جناحي السفينة مما يلي مؤخرها أسطوانتين عظيمتين تعلو المركب أكثر من القامة، وأرض المركب من جهة مؤخره ما بين الأسطوانتين مفتوح متساو مع البحر، ولا يدخل فيه من رمل ذلك البحر شيء أصلاً بالخاصية وهذا شكله:

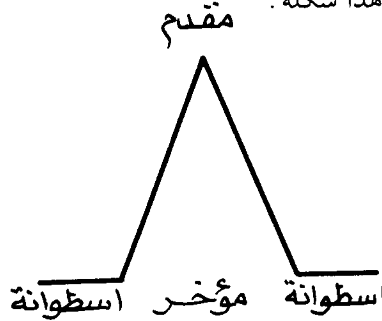

وفي هذه الأرض مدائن تسمّى مدائن النور لا يدخلها من العارفين إلاَّ كل مصطفى مختار، وهي ثلاث عشرة مدينة، وهي على سطح واحد وبنيانها عجيب، وذلك أنهم عمدوا إلى موضع في هذه الأرض فبنوا فيه مدينة صغيرة لها أسوار عظيمة يسير الراكب فيها إذا أراد أن يدور بها مسيرة ثلاثة أعوام، فلما أقاموها جعلوها خزانة لمنافعهم ومصالحهم وعددهم، وأقاموا على بعد من جوانبها أبراجاً تعلو على أبراج المدينة بما دار بها، ومدوا البناء بالحجارة حتى صار للمدينة كالسقف للبيت، وجعلوا ذلك السقف أرضاً بنوا عليه مدينة أعظم من التي بنوا أولاً، وعمروها واتخذوها مسكناً فضاقت عنهم، فبنوا عليها مدينة أخرى أكبر منها، وما زال يكثر عمارها وهم يصعدون بالبنيان طبقة فوق طبقة حتى بلغت ثلاث عشرة مدينة، ثم أني غبت عنهم مدة ثم دخلت إليهم مرة أخرى فوجدتهم قد زادوا مدينتين واحدة فوق أخرى، ولهم ملوك فيهم لطف وحنان صحبت منهم جماعة منهم التالي وهو التابع بمنزلة القيل في حمير، ولم أر ملكاً أكثر منه ذكراً لله قد شغله ذكر الله عن تدبير ملكه انتفعت به، وكان كثير المجالسة لي، ومنهم ذو العرف وهو ملك عظيم لم أر في ملوك الأرض أكثر من تأتي إليه الرسل من الملوك منه وهو كثير الحركة هين لين يصل إليه كل أحد يتلطف في النزول، لكنه

إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، أعطاه الله من القوّة ما شاء، ورأيت لبحرها ملكاً منيع الحمى يدعى السابح هو قليل المجالسة مع من يقصد إليه وما له ذلك الالتفات إلى أحد غير أنه مع ما يخطر له لا مع ما يراد منه، ويجاوره سلطان عظيم اسمه السابق إذا دخل عليه الوافد قام إليه من مجلسه وبش في وجهه وأظهر السرور بقدومه وقام له بجميع ما يحتاج إليه من قبل أن يسأله عن شيء، فقلت له في ذلك فقال لي: أكره أن أرى في وجه السائل ذلّة السؤال لمخلوق غيره أن يذل أحد لغير الله، وما كل أحد يقف مع الله على قدم التوحيد، وإن أكثر الوجوه مصروفة إلى الأسباب الموضوعة مع الحجاب عن الله، فهذا يجعلني أن أبادر إلى ما ترى من كرامة الوافد.

قال: ودخلت على ملك آخر يدعى القائم بأمر الله لا يلتفت إلى الوافد عليه لاستيلاء عظمة الحق على قلبه فلا يشعر بالوافد، وما يفد عليه من يفد من العارفين إلاّ لينظروا إلى حاله التي هو عليها، تراه واقفاً قد عقد يديه إلى صدره عقد العبد الذليل الجاني مطرقاً إلى موضع قدميه لا تتحرّك منه شعرة ولا يضطرب منه مفصل كما قيل في قوم هذه حالتهم مع سلطانهم: [البسيط]

كأنما الطيرُ منهم فوقَ أرْؤسهم لا خوفَ ظلم ولكن خوفَ إجلالِ

يتعلم العارفون منه حال المراقبة، قال: ورأيت ملكاً يدعى بالرادع مهيب المنظر لطيف المخبر شديد الغيرة دائم الفكرة فيما كلف النظر فيه، إذا رأى أحداً يخرج من طريق الحق ردّه إلى الحق، قال: صحبته وانتفعت به وجالست من ملوكهم كثيراً ورأيت منهم من العجائب مما يرجع إلى ما عندهم من تعظيم الله ما لو سطرناه لأعيى الكاتب والسامع، فاقتصرنا على هذا القدر من عجائب هذه الأرض ومدائنها لا تحصى كثرة، ومدائنها أكثر من ضياعها، وجميع من يملكها من الملوك ثمانية عشر سلطاناً، منهم من ذكرنا، ومنهم من سكتنا عنه، ولكل سلطان سيرة وأحكام ليست لغيره.

قال: وحضرت يوماً في ديوانهم لأرى ترتيبهم، فما رأيت أن الملك منهم هو الذي يقوم برزق رعيته بلغوا ما بلغوا، فرأيتهم إذا استوى الطعام وقف خلق لا يحصى عددهم كثرة يسمونهم الجباة وهم رسل أهل كل بيت فيعطيه الأمين من المطبخ على قدر عائلته ويأخذه الجابي وينصرف، وأمّا الذي يقسمه عليهم شخص واحد لا غير له من الأيدي على قدر الجباة، فيغرف في الزمن الواحد لكل شخص طعامه في وعائه وينصرف وما فضل من ذلك يرفع إلى خزانة، فإذا فرغ منهم ذلك القاسم دخل الخزانة وأخذ ما فضل وخرج به إلى الصعاليك الذين على باب دار الملك فيلقيه إليهم فيأكلوه، وهكذا في كل يوم. ولكل ملك شخص حسن الهيئة هو على الخزانة يدعونه الخازن بيده جميع ما يملكه ذلك الملك، ومن شرعهم أنه إذا ولاّه ليس له عزله، ورأيت فيهم شخصاً أعجبتني حركاته وهو جالس إلى جانب الملك وكنت على يمين الملك فسألته ما منزلة هذا عندكم؟ فتبسم وقال: أعجبك؟ قلت له: نعم، قال: هذا المعمار الذي يبني لنا المساكن والمدن وجميع ما تراه من آثار

عمله، ورأيت في سوق صيارفهم أنه لا ينتقد لهم سكتهم إلاَّ واحد في المدينة كلها وفيما تحت يد ذلك الملك من المدن.

قال: وهكذا رأيت سيرتهم في كل أمر لا يقوم به إلاَّ واحد لكن له وزعة وأهل هذه الأرض أعرف الناس بالله، وكل ما أحاله العقل بدليله عندنا وجدناه في هذه الأرض ممكناً قد وقع و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠] فعلمنا أن العقول قاصرة، وأن الله قادر على جمع الضدين، ووجود الجسم في مكانين، وقيام العرض بنفسه وانتقاله، وقيام المعنى بالمعنى، وكل حديث وآية وردت عندنا مما صرفها العقل عن ظاهرها وجدناها على ظاهرها في هذه الأرض، وكل جسد يتشكل فيه الروحانيّ من ملك وجن، وكل صورة يرى الإنسان فيها نفسه في النوم، فمن أجساد هذه الأرض لها من هذه الأرض موضع مخصوص، ولهم رقائق ممتدة إلى جميع العالم وعلى كل رقيقة أمين، فإذا عاين ذلك الأمين روحاً من الأرواح قد استعد لصورة من هذه الصور التي بيده كساه إياها كصورة دحية لجبريل، وسبب ذلك أن هذه الأرض مدّها الحق تعالىٰ في البرزخ وعيّن منها موضعاً لهذه الأجساد التي تلبسها الروحانيات وتنتقل إليها النفوس عند النوم وبعد الموت فنحن من بعض عالمها، ومن هذه الأرض طرف يدخل في الجنة يسمّى السوق، ونحن نبين لك مثال صورة امتداد الطرف الذي يلي العالم من هذه الأرض، وذلك أن الإنسان إذا نظر إلى السراج أو الشمس والقمر ثم حال بأهداب أجفانه بين الناظر والجسم المستنير يبصر من ذلك الجسم المستنير إلى عينيه شبه الخطوط من النور تتصل من السراج إلى عينيه متعددة، فإذا رفع تلك الأهداب من مقابلة الناظر قليلاً قليلاً يرى تلك الخطوط الممتدة تنقبض إلى الجسم المستنير، فالجسم المستنير مثال للموضع المعين من هذه الأرض لتلك الصور والناظر مثال العالم، وامتداد تلك الخطوط كصور الأجساد التي تنتقل إليها في النوم وبعد الموت وفي سوق الجنة والتي تلبسها الأرواح، وقصدك إلى رؤية تلك الخطوط بذلك الفعل من إرسال الأهداب الحائلة بين الناظر والجسم النير مثال الاستعداد، وانبعاث تلك الخطوط عند هذه الحال انبعاث الصور عند الاستعداد، وانقباض الخطوط إلى الجسم النير عند رفع الحائل رجوع الصور إلى تلك الأرض عند زوال الاستعداد، وليس بعد هذا البيان بيان، وقد بسطنا القول في عجائب هذه الأرض وما يتعلق بها من المعارف في كتاب كبير لنا فيها خاصة. انتهى الجزء الحادي عشر.

(الجزء الثاني عشر)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب التاسع في معرفة وجود الأرواح المارجية النارية

[نظم: الخفيف]

مَـرَجَ الـنـارَ والـنـبـاتَ فـقـامـت ... صـورةُ الـجـنِّ بـرزخـاً بـيـن شـيـئَـيْـنْ

بـيـن روحٍ مـجـسَّـمٍ ذي مـكـانٍ ... فـي حـضـيـضٍ وبـيـن روحٍ بـلا أيْـنْ

فالذي قابلَ التجسُّمَ منها طلب القوتَ للتغذي بلا مَيْنْ
والذي قابلَ الملائكَ منها قبل القلبَ بالتشكل في العَيْنْ
ولهذا يطيع وقتاً ويعصي ويجازى مخالفوهم بنارَيْنْ

قال الله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ١٥] وورد في الحديث الصحيح: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ المَلائِكَةَ مِنْ نُورٍ، وَخَلَقَ اللَّهُ الجَان مِنْ نَارٍ، وَخَلَقَ الإِنْسَانَ مِمَّا قِيلَ لَكُمْ**» فأما قوله عليه السلام في خلق الإنسان مما قيل لكم ولم يقل مثل ما قال في خلق الملائكة والجانّ طلباً للاختصار فإنه أوتي جوامع الكلم وهذا منها، فإن الملائكة لم يختلف أصل خلقها ولا الجانّ، وأمّا الإنسان اختلف خلقه على أربعة أنواع من الخلق، فخلق آدم لا يشبه خلق حوّاء، وخلق حوّاء لا يشبه خلق سائر بني آدم، وخلق عيسىٰ عليه السلام لا يشبه خلق من ذكرنا، فقصد رسول الله ﷺ الاختصار، وأحال على ما وصل إلينا من تفصيل خلق الإنسان، فآدم من طين، وحوّاء من ضلع، وعيسىٰ من نفخ روح، وبنو آدم من ماء مهين.

ولما أنشأ الله الأركان الأربعة وعلا الدخان إلى مقعر فلك الكواكب الثابتة، وفتق في ذلك الدخان سبع سموات ميّز بعضها عن بعض، وأوحى في كل سماء أمرها بعدما قدّر في الأرض أقواتها وذلك كله في أربعة أيام ثم قال للسموات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي أجيبا إذا دعيتما لما يراد منكما مما أمنتما عليه أن تبرزاه ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] فجعل سبحانه بين السماء والأرض التحاماً معنوياً وتوجّهاً لما يريد سبحانه أن يوجده في هذه الأرض من المولدات من معدن ونبات وحيوان، وجعل الأرض كالأهل، وجعل السماء كالبعل والسماء تلقي إلى الأرض من الأمر الذي أوحى الله فيها كما يلقي الرجل الماء بالجماع في المرأة، وتبرز الأرض عند الإلقاء ما خبأه الحق فيها من التكوينات على طبقاتها، فكان من ذلك أن الهواء لما اشتعل وحمي اتقد مثل السراج وهو اشتعال النار ذلك اللهب الذي هو احتراق الهواء وهو المارج، وإنما سمّي مارجاً لأنه نار مختلط بهواء وهو الهواء المشتعل فإن المرج الاختلاط، ومنه سمّي المرج مرجاً لاختلاط النبات فيه، فهو من عنصرين هواء ونار أعني الجان، كما كان آدم من عنصرين ماء وتراب عجن به فحدث له اسم الطين، كما حدث لامتزاج النار بالهواء اسم المارج، ففتح سبحانه في ذلك المارج صورة الجان فبما فيه من الهواء يتشكل في أيّ صورة شاء، وبما فيه من النار سخف وعظم لطفه، وكان فيه طلب القهر والاستكبار والعزة، فإن النار أرفع الأركان مكاناً، وله سلطان على إحالة الأشياء التي تقتضيها الطبيعة وهو السبب الموجب لكونه استكبر عن السجود لآدم عندما أمره الله عزّ وجلّ بتأويل أدّاه أن يقول أنا خير منه يعني بحكم الأصل الذي فضل الله به بين الأركان الأربعة، وما علم أن سلطان الماء الذي خلق منه آدم أقوى منه فإنه يذهبه، وأن التراب أثبت منه للبرد واليبس، فلآدم القوّة والثبوت لغلبة الركنين اللذين أوجده الله منهما وإن كان فيه بقية الأركان، ولكن ليس لها ذلك السلطان وهو الهواء والنار كما في الجان من بقية الأركان ولذا سمّي مارجاً،

ولكن ليس لها في نشأته ذلك السلطان، وأعطى آدم التواضع للطينية بالطبع، فإن تكبر فلأمر يعرض له يقبله بما فيه من النارية كما يقبل اختلاف الصور في خياله وفي أحواله من الهوائية، وأعطي الجان التكبر بالطبع للنارية فإن تواضع فلأمر يعرض له يقبله بما فيه من الترابية، كما يقبل الثبات على الإغواء إن كان شيطاناً، والثبات على الطاعات إن لم يكن شيطاناً.

وقد أخبر النبي ﷺ لما تلا سورة الرحمن على أصحابه قال: إني تلوتها على الجن فكانوا أحسن استماعاً لها منكم فكانوا يقولون: ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب إذ قلت: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ثابتين عليه ما تزلزلوا عندما كان يقول لهم عليه السلام في تلاوته: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وذلك بما فيه من الترابية وبما فيه من المائية ذهبت بحمية النارية، فمنهم الطائع والعاصي مثلنا، ولهم التشكل في الصور كالملائكة، وأخذ الله بأبصارنا عنهم فلا نراهم إلاَّ إذا شاء الله أن يكشف لبعض عباده فيراهم، ولما كانوا من عالم السخافة واللطف قبلوا التشكيل فيما يريدونه من الصور الحسيّة، فالصورة الأصلية التي ينسب إليها الروحانيّ إنما هي أوّل صورة قبل عند ما أوجده الله، ثم تختلف عليه الصور بحسب ما يريد أن يدخل فيها، ولو كشف الله عن أبصارنا حتى نرى ما تصوّره القوّة المصوّرة التي وكّلها الله بالتصوير في خيال المتخيل منا لرأيت مع الأناة الإنسان في صور مختلفة لا يشبه بعضها بعضاً، ولما نفخ الروح في اللهب وهو كثير الاضطراب لسخافته وزاده النفخ اضطراباً وغلب الهواء عليه وعدم قراره على حالة واحدة ظهر عالم الجانّ على تلك الصورة، وكما وقع التناسل في البشر بإلقاء الماء في الرحم فكانت الذرية والتوالد في هذا الصنف البشريّ الآدمي، كذلك وقع التناسل في الجان بإلقاء الهواء في رحم الأنثى منهم فكانت الذرية والتوالد في صنف الجان، وكان وجودهم بالقوس وهو ناريّ، هكذا ذكر الوارد حفظه الله، فكان بين خلق الجان وخلق آدم ستون ألف سنة، وكان ينبغي على ما يزعم بعض الناس أن ينقطع التوالد من الجان بعد انقضاء أربعة آلاف سنة، وينقضي التوالد من البشر بعد انقضاء سبعة آلاف سنة، ولم يقع الأمر على ذلك بل الأمر راجع إلى ما يريده الله، فالتوالد في الجن إلى اليوم باق وكذلك فينا، فتحقق بهذا كم لآدم من السنين وكم بقي إلى انقضاء الدنيا وفناء البشر عن ظهرها وانقلابهم إلى الدار الآخرة، وليس هذا بمذهب الراسخين في العلم، وإنما قال به شرذمة لا يعتد بقولها، فالملائكة أرواح منفوخة في أنوار، والجان أرواح منفوخة في رياح، والأناسيّ أرواح منفوخة في أشباح، ويقال إنه لم يفصل عن الموجود الأوّل من الجان أنثى كما فصلت حوّاء من آدم.

قال بعضهم: إن الله خلق للموجود الأول من الجان فرجاً في نفسه فنكح بعضه ببعضه فولد مثل ذرية آدم ذكراناً وأناثاً، ثم نكح بعضهم بعضاً فكان خلقه خنثى، ولذلك هم الجان من عالم البرزخ لهم شبه بالبشر وشبه بالملائكة كالخنثى يشبه الذكر ويشبه الأنثى، وقد روينا فيما رويناه من الأخبار عن بعض أئمة الدين أنه رأى رجلاً ومعه ولدان وكان خنثى الواحد من ظهره والآخر من بطنه نكح فولد له ونكح فولد وسمّي خنثى من الانخناث وهو الاسترخاء

والرخاوة عدم القوّة والشدّة فلم تقو فيه قوّة الذكورية فيكون ذكراً ولم تقو فيه قوّة الأنوثة فيكون أنثى فاسترخى عن هاتين القوّتين فسمّي خنثى والله أعلم.

ولما غلب على الجان عنصر الهواء والنار لذلك كان غذاؤهم ما يحمله الهواء مما في العظام من الدسم فإن الله جاعل لهم فيها رزقاً فإنا نشاهد جوهر العظم وما يحمله من اللحم لا ينتقص منه شيء فعلمنا قطعاً أن الله جاعل لهم فيها رزقاً، ولهذا قال النبي ﷺ في العظام: «**إِنَّها زَادُ إِخْوَانِكُمْ مِنَ الْجِنِّ**». وفي حديث: «**إِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَهُمْ فِيهَا رِزْقاً**» وأخبرني بعض المكاشفين أنه رأى الجن يأتون إلى العظم فيشمونه كما تشم السباع ثم يرجعون وقد أخذوا رزقهم وغذاؤهم في ذلك الشم فسبحان اللطيف الخبير.

وأما اجتماع بعضهم ببعض عند النكاح فالتواء مثل ما تبصر الدخان الخارج من الأتون أو من فرن الفخار يدخل بعضه في بعضه فيلتذّ كل واحد من الشخصين بذلك التداخل ويكون ما يلقونه كلقاح النخلة بمجرد الرائحة كغذائهم سواء، وهم قبائل وعشائر، وقد ذكر أنهم محصورون في إثنتي عشرة قبيلة أصولاً ثم يتفرعون إلى أفخاذ وتقع بينهم حروب عظيمة، وبعض الزوابع قد يكون عين حربهم، فإن الزوبعة تقابل ريحين تمنع كل واحدة صاحبتها أن تخترقها فيؤدي ذلك المنع إلى الدور المشهود في الغبرة في الحسّ التي آثارها تقابل الريحين المتضادين فمثل ذلك يكون حربهم وما كل زوبعة حربهم، وحديث عمرو الجني حمد الله مشهورة مروية وقتله في الزوبعة التي أبصرت فانقشعت عنه وهو على الموت فما لبث أن مات وكان عبداً صالحاً من الجان، ولو كان هذا الكتاب مبناه على إيراد أخبار وحكايات لذكرنا منها طرفاً، وإنما هذا كتاب علم المعاني فلينظر حكاياتهم في تواريخ الأدب وأشعارهم.

ثم نرجع ونقول: وإن هذا العالم الروحانيّ إذا تشكل وظهر في صورة حسّية يقيده البصر بحيث لا يقدر أن يخرج عن تلك الصورة ما دام البصر ينظر إليه بالخاصية ولكن من الإنسان فإذا قيّده ولم يبرح ناظراً إليه وليس له موضع يتوارى فيه أظهر له هذا الروحانيّ صورة جعلها عليه كالستر ثم يخيل له مشي تلك الصورة إلى جهة مخصوصة فيتبعها بصره، فإذا أتبعها بصره خرج الروحانيّ عن تقييده فغاب عنه، وبمغيبه تزول تلك الصورة عن نظر الناظر الذي أتبعها بصره فإنها للروحانيّ كالنور مع السراج المنتشر في الزوايا نوره فإذا غاب جسم السراج فقد ذلك النور فهكذا هذه الصورة، فمن يعرف هذا ويحب تقييده لا يتبع الصورة بصره، وهذا من الأسرار الإلهية التي لا تعرف إلاَّ بتعريف الله، وليست الصورة غير عين الروحاني بل هي عينه ولو كانت في ألف مكان أو في كل مكان ومختلفة الأشكال، وإذا اتفق قتل صورة من تلك الصور وماتت في ظاهر الأمر انتقل ذلك الروحانيّ من الحياة الدنيا إلى البرزخ كما ننتقل نحن بالموت ولا يبقى له في عالم الدنيا حديث مثلنا سواء، وتسمّى تلك الصور المحسوسة التي تظهر فيها الروحانيات أجساداً وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ [سورة ص: الآية ٣٤] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨].

والفرق بين الجان والملائكة وإن اشتركوا في الروحانية أن الجان غذاؤهم ما تحمله الأجسام الطبيعية من المطاعم والملائكة ليست كذلك، ولهذا ذكر الله في قصة ضيف إبراهيم الخليل: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [سورة هود: الآية ٧٠] يعني إلى العجل الحنيذ أي لا يأكلون منه وخاف، وحين جاء وقت إنشاء عالم الجان توجه من الأمناء الذين في الفلك الأول من الملائكة ثلاثة ثم أخذوا من نوّابهم من السماء الثانية ما يحتاجون إليه منهم في هذا النشء، ثم نزلوا إلى السموات فأخذوا من النواب اثنين من السماء الثانية والسادسة من هناك، ونزلوا إلى الأركان فهيؤوا المحل واتبعتهم ثلاثة أخر من الأمناء وأخذوا من الثانية ما يحتاجون إليه من نوابهم، ثم نزلوا إلى السماء الثالثة والخامسة من هناك فأخذوا ملكين، ومرّوا بالسماء السادسة فأخذوا نائباً آخر من الملائكة ونزلوا إلى الأركان ليكملوا التسوية فنزلت الستة الباقية وأخذت ما بقي من النواب في السماء الثانية وفي السموات فاجتمع الكل على تسوية هذه النشأة بإذن العليم الحكيم، فلما تمّت نشأته واستقامت بنيته توجّه الروح من عالم الأمر فنفخ في تلك الصورة روحاً سرت فيه بوجودها الحياة فقام ناطقاً بالحمد والثناء لمن أوجده جبلة جبل عليها وفي نفسه عزة وعظمة لا يعرف سببها ولا على من يعتز بها، إذ لم يكن ثم مخلوق آخر من عالم الطبائع سواه فبقي عابداً لربّه مصرّاً على عزّته متواضعاً لربوبية موجده بما يعرض له مما هو عليه في نشأته إلى أن خلق آدم، فلما رأى الجان صورته غلب على واحد منهم اسمه الحارث بغض تلك النشأة وتجهم وجهه لرؤية تلك الصورة الآدمية وظهر ذلك منه لجنسه فعتبوه لذلك لما رأوه عليه من الغم والحزن لها، فلما كان من أمر آدم ما كان أظهر الحارث ما كان يجد في نفسه منه وأبى عن امتثال أمر خالقه بالسجود لآدم واستكبر على آدم بنشأته وافتخر بأصله وغاب عنه سرّ قوّة الماء الذي جعل الله منه كل شيء حيّ، ومنه كانت حياة الجان وهم لا يشعرون، وتأمّل إن كنت من أهل الفهم قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [سورة هود: الآية ٧] فحيي العرش وما حوى عليه من المخلوقات ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] فجاء بالنكرة ولا يسبح إلاّ حيّ.

ورد في الحديث الحسن عن رسول الله ﷺ: «**أَنَّ المَلائِكَةَ قَالَتْ يَا رَبِّ - في حديث طويل - هَلْ خَلَقْتَ شَيْئاً أَشَدَّ مِنَ النَّارِ؟ قَالَ نعم المَاءَ**»، فَجَعَلَ المَاءَ أَقْوَىٰ مِنَ النَّارِ فلو كان عنصر الهواء في نشأة الجان غير مشتعل بالنار لكان الجان أقوى من بني آدم، فإن الهواء أقوى من الماء، فإن الملائكة قالت في هذا الحديث: «**يَا رَبِّ فَهَلْ خَلَقْتَ شَيْئاً أَشَدَّ مِنَ المَاءِ؟ قَالَ: نَعم الهَوَاءَ، ثُمَّ قالَتْ: يَا رَبِّ فَهَلْ خَلَقْتَ شَيْئاً أَشَدَّ مِنَ الهَوَاءِ؟ قَالَ: نَعم ابْنَ آدَمَ**» الحديث. فجعل النشأة الإنسانية أقوى من الهواء، وجعل الماء أقوى من النار وهو العنصر الأعظم في الإنسان، كما أن النار العنصر الأعظم في الجان، ولهذا قال في الشيطان: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء: الآية ٧٦] فلم ينسب إليه من القوّة شيئاً، ولم يردّ على العزيز في قوله ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [سورة يوسف: الآية ٢٨] ولا أكذبه مع ضعف عقل المرأة عن عقل الرجل، فإن النساء ناقصات عقل، فما ظنك

بقوّة الرجل، وسبب ذلك أن النشأة الإنسانية تعطي التؤدة في الأمور والأناة والفكر والتدبير لغلبة العنصرين الماء والتراب على مزاجه فيكون وافر العقل، لأن التراب يثبطه ويمسكه والماء يلينه ويسهله، والجان ليس كذلك، فإنه ليس لعقله ما يمسكه عليه ذلك الإمساك الذي للإنسان، ولهذا يقال فلان خفيف العقل وسخيف العقل إذا كان ضعيف الرأي هلباجة، وهذا هو نعت الجان وبه ضلّ عن طريق الهدى لخفة عقله وعدم تثبته في نظره فقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [سورة ص: الآية ٧٦] فجمع بين الجهل وسوء الأدب لخفته، فمن عصى من الجان كان شيطاناً أي مبعوداً من رحمة الله.

وكان أول من سمّي شيطاناً من الجن الحارث فأبلسه الله أي طرده من رحمته وطرد الرحمة عنه، ومنه تفرّعت الشياطين بأجمعها، فمن آمن منهم مثل هامة بن الهام بن لاقيس بن إبليس التحق بالمؤمنين من الجن، ومن بقي على كفره كان شيطاناً، وهي مسألة خلاف بين علماء الشريعة، فقال بعضهم: إن الشيطان لا يسلم أبداً، وتأوّل قوله عليه السلام في شيطانه وهو القرين الموكل به إن الله أعانه عليه فأسلم، روي برفع الميم وفتحها أيضاً، فتأوّل هذا القائل الرفع بأنه قال فأسلم منه أي ليس له عليّ سبيل وهكذا تأوّله المخالف، وتأوّل الفتح فيه على الانقياد قال: فمعناه انقاد مع كونه عدواً فهو بعينه لا يأمرني إلاّ بخير جبراً من الله وعصمة لرسول الله ﷺ، وقال المخالف معنى فأسلم بالفتح أي آمن بالله كما يسلم الكافر عندنا فيرجع مؤمناً وهو الأولى والأوجه، وأكثر الناس يزعمون أنه أول الجن بمنزلة آدم من الناس، وليس كذلك عندنا بل هو واحد من الجن، وأن الأول فيهم بمنزلة آدم في البشر إنما هو غيره ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [سورة الكهف: الآية ٥٠] أي من هذا الصنف من المخلوقين كما كان قابيل من البشر وكتبه الله شقياً فهو أول الأشقياء من البشر، وإبليس أول الأشقياء من الجن، وعذاب الشياطين من الجن في جهنم أكثر ما يكون بالزمهرير لا بالحرور وقد يعذب بالنار، وبنو آدم أكثر عذابهم بالنار، ووقفت يوماً على مخبول العقل من الأولياء وعيناه تدمعان وهو يقول للناس: لا تقفوا مع قوله تعالىٰ ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ [سورة ص: الآية ٨٥] لإبليس فقط بل انظروا في إشارته سبحانه لكم بقوله لإبليس جهنم منك فإنه مخلوق من النار فيعود لعنه الله إلى أصله وإن عذب به فعذاب الفخار بالنار أشد فتحفظوا، فما نظر هذا الوليّ من ذكر جهنم إلاّ النار خاصة، وغفل عن أن جهنم اسم لحرورها وزمهريرها وبجملتها سميت جهنم لأنها كريهة المنظر، والجهام السحاب الذي قد هرق ماءه والغيث رحمة الله، فلما أزال الله الغيث من السحاب بإنزاله أطلق عليه اسم الجهام لزوال الرحمة الذي هو الغيث منه، كذلك الرحمة أزالها الله من جهنم فكانت كريهة المنظر والمخبر، وسميت أيضاً جهنم لبعد قعرها، يقال ركية جهنام إذا كانت بعيدة القعر، نسألة الله العظيم لنا وللمؤمنين الأمن منها، ويكفي هذا القدر من هذا الباب.

الباب العاشر

في معرفة دورة الملك وأول منفصل فيها عن أول موجود، وآخر منفصل فيها عن آخر منفصل عنه، وبماذا عمر الموضع المنفصل عنه منهما، وتمهيد الله هذه المملكة حتى جاء مليكها، وما مرتبة العالم الذي بين عيسىٰ ومحمد عليهما السلام وهو زمان الفترة

[نظم : البسيط]

المـلـك لـولا وجود الـمـلـك ما عُـرفا ... ولـم تـكـن صـفـةٌ مـمـا بـه وُصِـفَـا
فـدَوْرَةُ الـمـلـك بـرهـانٌ عـلـيـه لـذا ... قـد الـتـقَـتْ طـرفـاهـا هـكـذا كُـشِـفَـا
فـكـان آخـرُهـا كـمـثـل أولـهـا ... وكـان أولُـهـا عـن سـابـقٍ سَـلَـفَـا
وعـنـدمـا كـمـلـتْ بـالـخـتـم قـام بـهـا ... مـلـيـكـهـا سـيِّـداً لله مـعـتَـرِفَـا
أعـطـاه خـالـقُـه فـضـلاً مـعـارفـهـا ... ومـا يـكـون ومـا قـد كـان وانـصَـرَفَـا

اعلم أيّدك الله أنه ورد في الخبر أن النبي ﷺ قال: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ**» بالراء، وفي رواية بالزاي وهو التبجح بالباطل. وفي صحيح مسلم: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» فثبتت له السيادة والشرف على أبناء جنسه من البشر. وقال عليه السلام: « **كُنْتُ نَبِيّاً وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ** »يريد على علم بذلك فأخبره الله تعالىٰ بمرتبته وهو روح قبل إيجاده الأجسام الإنسانية كما أخذ الميثاق على بني آدم قبل إيجاده أجسامهم، وألحقنا الله تعالىٰ بأنبيائه بأن جعلنا شهداء على أممهم معهم حين يبعث من كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وهم الرسل، فكانت الأنبياء في العالم نوّابه ﷺ من آدم إلى آخر الرسل عليهم السلام. وقد أبان ﷺ عن هذا المقام بأمور منها قوله ﷺ: «**وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَيّاً مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي**». وقوله في نزول عيسىٰ ابن مريم في آخر الزمان أنه يؤمنا أي يحكم فينا بسنة نبينا عليه السلام ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، ولو كان محمد ﷺ قد بعث في زمان آدم لكانت الأنبياء وجميع الناس تحت حكم شريعته إلى يوم القيامة حسّاً، ولهذا لم يبعث عامة إلاّ هو خاصة، فهو الملك والسيد وكل رسول سواه فبعث إلى قوم مخصوصين، فلم تعم رسالة أحد من الرسل سوى رسالته ﷺ، فمن زمان آدم عليه السلام إلى زمان بعث محمد ﷺ إلى يوم القيامة ملكه وتقدمه في الآخرة على جميع الرسل وسيادته فمنصوص على ذلك في الصحيح عنه، فروحانيته ﷺ موجودة، وروحانية كل نبي ورسول، فكان الإمداد يأتي إليهم من تلك الروح الطاهرة بما يظهرون به من الشرائع والعلوم في زمان وجودهم رسلاً وتشريعه الشرائع كعلي ومعاذ وغيرهما في زمان وجودهم ووجوده ﷺ، وكإلياس وخضر عليهما السلام، وعيسىٰ عليه السلام في زمان ظهوره في آخر الزمان حاكماً بشرع محمد ﷺ في أمته المقرر في الظاهر، لكن لما لم يتقدم في عالم الحسّ وجود عينه ﷺ أولاً نسب كل شرع إلى من بعث به وهو في الحقيقة شرع محمد ﷺ وإن كان مفقود العين من حيث لا يعلم ذلك كما هو مفقود العين الآن، وفي زمان نزول عيسىٰ عليه السلام والحكم بشرعه، وأمّا نسخ الله بشرعه جميع الشرائع فلا يخرج هذا النسخ ما تقدم من الشرائع أن يكون من شرعه، فإن الله قد أشهدنا في

شرعه الظاهر المنزل به ﷺ في القرآن والسنة النسخ مع إجماعنا واتفاقنا على أن ذلك المنسوخ شرعه الذي بعث به إلينا فنسخ بالمتأخر المتقدم، فكان تنبيهاً لنا هذا النسخ الموجود في القرآن والسنّة، على أن نسخه لجميع الشرائع المتقدمة لا يخرجها عن كونها شرعاً له، وكان نزول عيسىٰ عليه السلام في آخر الزمان حاكماً بغير شرعه أو بعضه الذي كان عليه في زمان رسالته، وحكمه بالشرع المحمدي المقرر اليوم دليلاً على أنه لا حكم لأحد اليوم من الأنبياء عليهم السلام مع وجود ما قرره ﷺ في شرعه، ويدخل في ذلك ما همّ عليه أهل الذمة من أهل الكتاب ما داموا يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، فإن حكم الشرع على الأحوال فخرج من هذا المجموع كله أنه ملك وسيد على جميع بني آدم، وأن جميع من تقدمه كان ملكاً له وتبعاً والحاكمون فيه نوّاب عنه.

فإن قيل: فقوله ﷺ: «**لاَ تُفَضِّلُونِي**» فالجواب: نحن ما فضلناه بل الله فضله فإن ذلك ليس لنا وإن كان قد ورد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[سورة الأنعام: الآية ٩٠] لما ذكر الأنبياء عليهم السلام فهو صحيح فإنه قال فبهداهم وهداهم من الله وهو شرعه ﷺ أي الزم شرعك الذي ظهر به نوّابك من إقامة الدين ولا تتفرقوا فيه فلم يقل فبهم اقتده. وفي قوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [سورة الشورى: الآية ١٣] تنبيه على أحدية الشرائع. وقوله: ﴿ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٣] وهو الدين فهو مأمور باتباع الدين، فإن الدين إنما هو من الله لا من غيره. وانظروا في قوله عليه السلام: «**لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حياً مَا وَسِعَهُ إلاَّ أَنْ يَتْبَعَنِي**» فأضاف الاتباع إليه وأمر هو ﷺ باتباع الدين وهدى الأنبياء لا بهم، فإن الإمام الأعظم إذا حضر لا يبقى لنائب من نوّابه حكم إلا له، فإذا غاب حكم النوّاب بمراسمه فهو الحاكم غيباً وشهادة. وما أوردنا هذه الأخبار والتنبيهات إلاَّ تأنيساً لمن لا يعرف هذه المرتبة من كشفه ولا أطلعه الله على ذلك من نفسه، وأمّا أهل الله فهم على ما نحن عليه فيه قد قامت لهم شواهد التحقيق على ذلك من عند ربهم في نفوسهم، وإن كان يتصوّر على جميع ما أوردناه في ذلك احتمالات كثيرة فذلك راجع إلى ما تعطيه الألفاظ من القوّة في أصل وضعها لا ما هو عليه الأمر في نفسه عند أهل الأذواق الذين يأخذون العلم عن الله كالخضر وأمثاله، فإن الإنسان ينطق بالكلام يريد به معنى واحداً مثلاً من المعاني التي يتضمنها ذلك الكلام، فإذا فسّر بغير مقصود المتكلم من تلك المعاني فإنما فسّر المفسّر بعض ما تعطيه قوّة اللفظ وإن كان لم يصب مقصود المتكلم، ألا ترى الصحابة كيف شقّ عليهم قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٢] فأتى به نكرة فقالوا: وأينا لم يلبس إيمانه بظلم فهؤلاء الصحابة وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ما عرفوا مقصود الحق من الآية، والذي نظروه سائغ في الكلمة غير منكور، فقال لهم النبيّ ﷺ: ليس الأمر كما ظننتم وإنما أراد الله بالظلم هنا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بنيّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم. فقوّة الكلمة تعم كل ظلم، وقصد المتكلم إنما هو ظلم معين مخصوص، فكذلك ما أوردناه من الأخبار في أن بني آدم سوقة وملك لهذا السيد محمد ﷺ هو المقصود من طريق الكشف، كما كان

الظلم هناك المقصود من المتكلم به الشرك خاصة، ولذلك تتقوّى التفاسير في الكلام بقرائن الأحوال، فإنها المميزة للمعاني المقصودة للمتكلم، فكيف من عنده الكشف الإلهيّ والعلم اللدنيّ الربانيّ، فينبغي للعاقل المنصف أن يسلم لهؤلاء القوم ما يخبرون به، فإن صدقوا في ذلك فذلك الظن بهم وأنصفوا بالتسليم حيث لم يرد المسلم ما هو حق في نفس الأمر، وإن لم يصدقوا لم يضر المسلم بل انتفعوا حيث تركوا الخوض فيما ليس لهم به قطع، وردّوا علم ذلك إلى الله تعالىٰ فوفوا الربوبية حقها إذ كان ما قاله أولياء الله ممكناً فالتسليم أولى بكل وجه.

وهذا الذي نزعنا إليه من دورة الملك قال به غيرنا كالإمام أبي القاسم بن قسي في خلعه وهو روايتنا عن ابنه عنه وهو من سادات القوم، وكان شيخه الذي كشف له على يديه من أكبر شيوخ المغرب يقال له ابن خليل من أهل لبله، فنحن ما نعتمد في كل ما نذكره إلاّ على ما يلقي الله عندنا من ذلك لا على ما تحتمله الألفاظ من الوجوه، وقد تكون جميع المحتملات في بعض الكلام مقصودة للمتكلم فنقول بها كلها، فدورة الملك عبارة عما مهد الله من آدم إلى زمان محمد ﷺ من الترتيبات في هذه النشأة الإنسانية بما ظهر من الأحكام الإلهية فيها فكانوا خلفاء الخليفة السيد.

فأول موجود ظهر من الأجسام الإنسانية كان آدم عليه السلام وهو الأب الأول من هذا الجنس، وسائر الآباء من الأجناس يأتي بعد هذا الباب إن شاء الله، وهو أول من ظهر بحكم الله من هذا الجنس ولكن كما قرّرناه، ثم فصل عنه أباً ثانياً لنا سمّاه أمّاً فصح لهذا الأب الأول الدرجة عليها لكونه أصلاً لها فختم النواب من دورة الملك بمثل ما به بدأ لينبه على أن الفصل بيد الله، وأن ذلك الأمر ما اقتضاه الأب الأوّل لذاته، فأوجد عيسىٰ عن مريم فتنزلت مريم منزلة آدم وتنزل عيسىٰ منزلة حوّاء، فكما وجدت أنثى من ذكر وجد ذكر من أنثى، فختم بمثل ما به بدأ في إيجاد ابن من غير أب كما كانت حوّاء من غير أم، فكان عيسىٰ وحوّاء أخوان، وكان آدم ومريم أبوان لهما ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٩] فأوقع التشبيه في عدم الأبوة الذكرانية من أجل أنه نصبه دليلاً لعيسىٰ في براءة أمّه ولم يوقع التشبيه بحوّاء، وإن كان الأمر عليه لكون المرأة محل التهمة لوجود الحمل إذ كانت محلاً موضوعاً للولادة، وليس الرجل بمحل لذلك، والمقصود من الأدلة ارتفاع الشكوك، وفي حوّاء من آدم لا يقع الالتباس لكون آدم ليس محلاً لما صدر عنه من الولادة، وهذا لا يكون دليلاً إلاّ عند من ثبت عنده وجود آدم وتكوينه والتكوين منه، وكما لا يعهد ابن من غير أب كذلك لا يعهد من غير أمّ، فالمثل من طريق المعنى أن عيسىٰ كحوّاء، ولكن لما كان الدخل يتطرق في ذلك من المنكر لكون الأنثى كما قلنا محلاً لما صدر عنها ولذلك كانت التهمة، كان التشبيه بآدم لحصول براءة مريم مما يمكن في العادة، فظهور عيسىٰ من مريم من غير أب كظهور حوّاء من آدم من غير أم وهو الأب الثاني، ولما انفصلت حوّاء من آدم عمر موضعها منه بالشهوة النكاحية إليها التي وقع بها الغشيان لظهور التناسل والتوالد، وكان الهواء الخارج الذي عمر موضعه جسم حوّاء عند خروجها إذ لا خلاء في العالم فطلب ذلك الجزء الهوائي موضعه الذي أخذته حوّاء بشخصيتها فحرك آدم

لطلب موضعه فوجده معموراً بحوّاء فوقع عليها فلما تغشاها حملت منه فجاءت بالذرية، فبقي ذلك سنة جارية في الحيوان من بني آدم وغيره بالطبع.

لكن الإنسان هو الكلمة الجامعة ونسخة العالم، فكل ما في العالم جزء منه وليس الإنسان بجزء لواحد من العالم، وكان سبب هذا الفصل وإيجاد هذا المنفصل الأول طلب الإنس بالمشاكل في الجنس الذي هو النوع الأخص، وليكون في عالم الأجسام بهذا الالتحام الطبيعيّ الإنسانيّ الكامل بالصورة الذي أراده الله ما يشبه القلم الأعلى واللوح المحفوظ الذي يعبر عنه بالعقل الأول والنفس الكل، وإذا قلت القلم الأعلى فتفطن للإشارة التي تتضمن الكاتب وقصد الكتابة فيقوم معك معنى قول الشارع: إن الله خلق آدم على صورته، ثم عبارة الشارع في الكتاب العزيز في إيجاد الأشياء عن كن فأتى بحرفين اللذين هما بمنزلة المقدّمتين وما يكون عند كن بالنتيجة، وهذان الحرفان هما الظاهران، والثالث الذي هو الرابط بين المقدمتين خفي في كن وهو الواو المحذوف لالتقاء الساكنين، كذلك إذا التقى الرجل والمرأة لم يبق للقلم عين ظاهرة، فكان إلقاؤه النطفة في الرحم غيباً لأنه سرّ ولهذا عبّر عن النكاح بالسرّ في اللسان قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٥] وكذلك عند الإلقاء يسكنان عن الحركة، ويمكن إخفاء القلم كما خفي الحرف الثالث الذي هو الواو من كن للساكنين وكان الواو لأن له العلو لأنه متولد عن الرفع وهو إشباع الضمة وهو من حروف العلة، وهذا الذي ذكرناه إنما هو إذا كان الملك عبارة عن الأناسيّ خاصة.

فإن نظرنا إلى سيادته على جميع ما سوى الحق كما ذهب إليه بعض الناس للحديث المروي: «**إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: لَوْلاَكَ يَا مُحَمَّدُ مَا خَلَقْتُ سَمَاءَ وَلاَ أَرْضاً وَلاَ جَنَّةً وَلاَ نَاراً**» وذكر خلق كل ما سوى الله فيكون أول منفصل فيها النفس الكلية عن أول موجود وهو العقل الأول، وآخر منفصل فيها حوّاء عن آخر موجود آدم، فإن الإنسان آخر موجود من أجناس العالم فإنه ما ثم إلاّ ستة أجناس وكل جنس تحته أنواع وتحت الأنواع أنواع، فالجنس الأول الملك، والثاني الجان، والثالث المعدن، والرابع النبات، والخامس الحيوان، وانتهى الملك وتمهد واستوى، وكان الجنس السادس جنس الإنسان وهو الخليفة على هذه المملكة، وإنما وجد آخراً ليكون إماماً بالفعل حقيقة لا بالصلاحية والقوّة، فعندما وجد عينه لم يوجد إلاّ والياً سلطاناً ملحوظاً، ثم جعل له نوّاباً حين تأخرت نشأة جسده، فأول نائب كان له وخليفة آدم عليه السلام ثم ولد واتصل النسل وعين في كل زمان خلفاء إلى أن وصل زمان نشأة الجسم الطاهر محمد ﷺ فظهر مثل الشمس الباهرة فاندرج كل نور في نوره الساطع وغاب كل حكم في حكمه وانقادت جميع الشرائع إليه وظهرت سيادته التي كانت باطنة، فهو ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] فإنه قال: «**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ**» وقال عن ربّه: «**ضَرَبَ بِيَدِهِ بَيْنَ كَتِفَيَّ فَوَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَعَلِمْتُ عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ**» فحصل له التخلق والنسب الإلهيّ من قوله تعالىٰ عن نفسه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وجاءت هذه الآية في سورة الحديد الذي فيه بأس شديد ومنافع للناس،

فلذلك بعث بالسيف وأرسل رحمة للعالمين، وكل منفصل عن شيء فقد كان عامراً لما عنه انفصل، وقد قلنا أنه لا خلاء في العالم، فعمر موضع انفصاله بظلّه إذ كان انفصاله إلى النور وهو للظهور، فلما قابل النور بذاته امتدّ ظلّه فعمر موضع انفصاله فلم يفقده من انفصل عنه فكان مشهوداً لمن انفصل إليه ومشهوداً لمن انفصل عنه وهو المعنى الذي أراده القائل بقوله: شهدتك موجوداً بكل مكان فمن أسرار العالم أنه ما من شيء يحدث إلاّ وله ظل يسجد لله ليقوم بعبادة ربّه على كل حال، سواء كان ذلك الأمر الحادث مطيعاً أو عاصياً، فإن كان من أهل الموافقة كان هو وظلّه على السواء، وإن كان مخالفاً ناب ظلّه منابه في الطاعة لله، قال الله تعالىٰ: ﴿وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [سورة الرعد: الآية ١٥] السلطان ظلّ الله في الأرض إذ كان ظهوره بجميع صور الأسماء الإلهية التي لها الأثر في عالم الدنيا، والعرش ظلّ الله في الآخرة، فالظلالات أبداً تابعة للصورة المنبعثة عنها حسّاً ومعنى، فالحسّ قاصر لا يقوى قوّة الظل المعنوي للصورة المعنوية لأنه يستدعي نوراً مقيداً لما في الحسّ من التقييد والضيق وعدم الاتساع، ولهذا نبهنا على الظل المعنوي بما جاء في الشرع من أن السلطان ظل الله في الأرض، فقد بان لك أن بالظلالات عمرت الأماكن، فهنا قد ذكرنا طرفاً مما يليق بهذا الباب، ولم نمعن فيه مخافة التطويل، وفيما أوردناه كفاية لمن تنبه إن كان ذا فهم سليم وتذكرة لمن شاهد وعلم واشتغل بما هو أعلى أو غفل بما هو أنزل فيرجع إلى ما ذكرناه عندما ينظر في هذا الباب.

فصل: وأما مرتبة العالم الذي بين عيسىٰ عليه السلام ومحمد ﷺ وهم أهل الفترة فهم على مراتب مختلفة بحسب ما يتجلى لهم من الأسماء عن علم منهم بذلك وعن غير علم، فمنهم من وحّد الله بما تجلى لقلبه عند فكره وهو صاحب الدليل، فهو على نور من ربه ممتزج يكون من أجل فكره، فهذا يبعث أمة وحده كقس بن ساعدة وأمثاله، فإنه ذكر في خطبته ما يدل على ذلك فإنه ذكر المخلوقات واعتباره فيها وهذا هو الفكر، ومنهم من وحّد الله بنور وجده في قلبه لا يقدر على دفعه من غير فكرة، ولا روية ولا نظر ولا استدلال، فهم على نور من ربهم خالص غير ممتزج بكون فهؤلاء يحشرون أحفياء أبرياء، ومنهم من ألقي في نفسه وأطلع من كشفه لشدة نوره وصفاء سرّه لخلوص يقينه على منزلة محمد ﷺ وسيادته وعموم رسالته باطناً من زمان آدم إلى وقت هذا المكاشف فآمن به في عالم الغيب على شهادة منه وبينة من ربه وهو قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [سورة هود: الآية ١٧] يشهد له في قلبه بصدق ما كوشف به، فهذا يحشر يوم القيامة في ضغائن خلقه وفي باطنية محمد ﷺ، ومنهم من تبع ملة حق ممن تقدمه كمن تهوّد أو تنصر، أو اتبع ملة إبراهيم أو من كان من الأنبياء لما علم واعلم أنهم رسل من عند الله يدعون إلى الحق لطائفة مخصوصة فتبعهم وآمن بهم وسلك سننهم فحرّم على نفسه ما حرّمه ذلك الرسول وتعبد نفسه مع الله بشريعته وإن كان ذلك ليس بواجب عليه إذ لم يكن ذلك الرسول مبعوثاً إليه، فهذا يحشر مع من تبعه يوم القيامة ويتميز في زمرته في ظاهريته، إذ كان شرع ذلك النبيّ قد تقرر في الظاهر، ومنهم من طالع في كتب الأنبياء شرف محمد ﷺ ودينه وثواب من اتبعه فآمن به

وصدق على علم، وإن لم يدخل في شرع نبيّ ممن تقدم وأتى مكارم الأخلاق فهذا أيضاً يحشر في المؤمنين بمحمد ﷺ لا في العاملين ولكن في ظاهريته ﷺ، ومنهم من آمن بنبيه وأدرك نبوّة محمد ﷺ فآمن به فله أجران وهؤلاء كلهم سعداء عند الله، ومنهم من عطل فلم يقرّ بوجود عن نظر قاصر ذلك القصور هو بالنظر إليه غاية قوّته لضعف في مزاجه عن قوّة غيره، ومنهم من عطل لا عن نظر بل عن تقليد فذلك شقيّ مطلق، ومنهم من أشرك عن نظر أخطأ فيه طريق الحق مع بذل المجهود الذي تعطيه قوّته، ومنهم من أشرك لا عن استقصاء نظر فذلك شقيّ، ومنهم من أشرك عن تقليد فذلك شقيّ، ومنهم من عطل بعدما أثبت عن نظر بلغ فيه أقصى القوّة التي هو عليها لضعفها، ومنهم من عطل بعدما أثبت لا عن استقصاء في النظر أو تقليد فذلك شقيّ، فهذه كلها مراتب أهل الفترة الذين ذكرناهم في هذا الباب.

الباب الحادي عشر
في معرفة آبائنا العلويات وأمّهاتنا السفليات

[نظم: البسيط]

أنــا ابــنُ آبــاءِ أرواحٍ مــطــهَّــرةٍ ... وأمــهــاتِ نــفــوسٍ عــنــصــريَّــاتِ
مـا بـيـن روحٍ وجسـم كـان مـظـهـرُنـا ... عـن اجـتـمـاعٍ بـتـعـنـيـقٍ ولـذَّاتِ
مـا كـنـتُ عـن واحـدٍ حـتـى أوحّـدَهُ ... بـل عـن جـمـاعـة آبـاءٍ وأمّـاتِ
هـم لـلإلـه إذا حـقَّـقْـتَ شـأنَـهُـمُـو ... كـصـانـعٍ صـنـعَ الأشـيـا بـآلاتِ
فـنـسـبـةُ الـصـنـع لـلـنـجـار لـيـس لـهـا ... كـذاك أوجَـدَنَـا ربُّ الـبـريَّـاتِ
فـيـصـدق الـشـخـصُ في توحيد موجِدِه ... ويـصـدق الـشـخـصُ في إثبات عِلاَّتِ
فـإن نـظـرت إلـى الآلات طـال بـنـا ... إسـنـادُ عَـنْـعَـنَـةٍ حـتـى إلـى الـذَّاتِ
وإن نـظـرت إلـيـه وهـو يـوجِـدُنـا ... قـلـنـا بـوحـدتـه لا بـالـجـمـاعـاتِ
إنـي وُلـدت وحـيـدَ الـعـيـن مـنـفـرداً ... والـنـاس كـلُّـهُـمُـو أولادُ عَـلاَّتِ

اعلم أيّدك الله أنه لما كان المقصود من هذا العالم الإنسان وهو الإمام لذلك أضفنا الآباء والأمّهات إليه فقلنا آباؤنا العلويات وأمهاتنا السفليات، فكل مؤثر أب وكل مؤثر فيه أمّ، هذا هو الضابط لهذا الباب، والمتولد بينهما من ذلك الأثر يسمّى ابناً ومولداً، وكذلك المعاني في إنتاج العلوم إنما هو بمقدمتين تنكح إحداهما الأخرى بالمفرد الواحد الذي يتكرر فيهما وهو الرابط وهو النكاح والنتيجة التي تصدر بينهما هي المطلوبة، فالأرواح كلها آباء والطبيعة أمّ لما كانت محل الاستحالات.

وتتوجه هذه الأرواح على هذه الأركان التي هي العناصر القابلة للتغيير والاستحالة تظهر فيها المولدات وهي المعادن والنبات والحيوان والجان والإنسان أكملها، وكذلك جاء شرعنا أكمل الشرائع حيث جرى مجرى الحقائق الكلية، فأوتي جوامع الكلم، واقتصر على أربع نسوة وحرّم ما زاد على ذلك بطريق النكاح الموقوف عى العقد، فلم يدخل في ذلك ملك

اليمين، وأباح ملك اليمين في مقابلة الأمر الخامس الذي ذهب إليه بعض العلماء، كذلك الأركان من عالم الطبيعة أربعة، وبنكاح العالم العلوي لهذه الأربعة يوجد الله ما يتولد فيها.

واختلفوا في ذلك على ستة مذاهب: (فطائفة) زعمت أن كل واحد من هذه الأربعة أصل في نفسه. وقالت طائفة: ركن النار هو الأصل فما كثف منه كان هواء، وما كثف من الهواء كان ماء، وما كثف من الماء كان تراباً. وقالت طائفة: ركن الهواء هو الأصل فما سخف منه كان ناراً، وما كثف منه كان ماء. وقالت طائفة: ركن الماء هو الأصل. وقالت طائفة: ركن التراب هو الأصل. وقالت طائفة: الأصل أمر خامس ليس واحداً من هذه الأربعة وهذا هو الذي جعلناه بمنزلة ملك اليمين، فعمت شريعتنا في النكاح أتم المذاهب ليندرج فيها جميع المذاهب، وهذا المذهب بالأصل الخامس هو الصحيح عندنا وهو المسمّى بالطبيعة، فإن الطبيعة معقول واحد عنها ظهر ركن النار وجميع الأركان، فيقال ركن النار من الطبيعة ما هو عينها، ولا يصحّ أن يكون المجموع الذي هو عين الأربعة، فإن بعض الأركان منافر للآخر بالكلية، وبعضها منافر لغيره بأمر واحد كالنار والماء متنافران من جميع الوجوه والهواء والتراب كذلك، ولهذا رتّبها الله في الوجود ترتيباً حكمياً لأجل الاستحالات، فلو جعل المنافر مجاور المنافرة لما استحال إليه وتعطلت الحكمة، فجعل الهواء يلي ركن النار والجامع بينهما الحرارة، وجعل الماء يلي الهواء والجامع بينهما الرطوبة، وجعل التراب يلي الماء والجامع بينهما البرودة، فالمحيل أب والمستحيل أمّ والاستحالة نكاح، والذي استحال إليها ابن فالمتكلم أب والسامع أمّ والتكلم نكاح، والموجود من ذلك في فهم السامع ابن، فكل أب علوي فإنه مؤثر، وكل أمّ سفلية فإنها مؤثر فيها، وكل نسبة بينهما معينة نكاح وتوجه، وكل نتيجة ابن، ومن هنا يفهم قول المتكلم لمن يريد قيامه قم فيقوم المراد بالقيام عن أثر لفظة قم، فإن لم يقم السامع وهو أمّ بلا شك فهو عقيم، وإذا كان عقيماً فليس بأمّ في تلك الحالة وهذا الباب إنما يختص بالأمّهات، فأول الآباء العلوية معلوم، وأول الأمّهات السفلية شيئية المعدوم الممكن، وأول نكاح القصد بالأمر، وأول ابن وجود عين تلك الشيئية التي ذكرنا، فهذا أب ساري الأبوة، وتلك أمّ سارية الأمومة، وذلك النكاح سار في كل شيء، والنتيجة دائمة لا تنقطع في حق كل ظاهر العين، فهذا يسمّى عندنا النكاح الساري في جميع الذراري، يقول الله تعالىٰ في الدليل على ما قلناه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] ولنا فيه كتاب شريف منيع الحمى البصير فيه أعمى فكيف من حلّ به العمى، فلو رأيت تفصيل هذا المقام وتوجهات هذه الأسماء الإلهية الأعلام لرأيت أمراً عظيماً، وشاهدت مقاماً هائلاً جسيماً، فلقد تنزّه العارفون بالله وبصنعه الجميل بأولى.

وبعد أن أشرت إلى فهمك الثاقب ونظرك الصائب بالأب الأول الساري وهو الاسم الجامع الأعظم الذي تتبعه جميع الأسماء في رفعه ونصبه وخفضه الساري حكمه، والأمّ الأوّلية الآخرية السارية في نسبة الأنوثة في جميع الأبناء، فلنشرع في الآباء الذين هم أسباب موضوعة بالوضع الإلهيّ والأمّهات واتصالهما بالنكاح المعنوي والحسّي المشروع حتى يكون

الأبناء أبناء حلال، إلى أن أصل إلى التناسل الإنساني وهو آخر نوع تكوّن وأوّل مبدع بالقصد تعين فنقول: إن العقل الأول الذي هو أول مبدع خلق وهو القلم الأعلى ولم يكن ثم محدث سواه وكان مؤثراً فيه بما أحدث الله فيه من انبعاث اللوح المحفوظ عنه كانبعاث حوّاء من آدم في عالم الأجرام ليكون ذلك اللوح موضعاً ومحلاً لما يكتب فيه هذا القلم الأعلى الإلهي، وتخطيط الحروف الموضوعة للدلالة على ما جعلها الحق تعالىٰ أدلة عليه، فكان اللوح المحفوظ أول موجود انبعاثي، وقد ورد في الشرع أن أول ما خلق الله القلم ثم خلق اللوح وقال للقلم: اكتب، قال القلم: وما أكتب؟ قال الله له: اكتب وأنا أملي عليك، فخط القلم في اللوح ما يملي عليه الحق وهو علمه في خلقه الذي يخلق إلى يوم القيامة، فكان بين القلم واللوح نكاح معنوي معقول وأثر حسّي مشهود، ومن هنا كان العمل بالحروف المرقومة عندنا، وكان ما أودع في اللوح من الأثر مثل الماء الذافق الحاصل في رحم الأنثى، وما ظهر من تلك الكتابة من المعاني المودعة في تلك الحروف الجرمية بمنزلة أرواح الأولاد المودعة في أجسامهم فافهم ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[سورة الأحزاب: الآية ٤] وجعل الحق في هذا اللوح العاقل عن الله ما أوحى به إليه المسبح بحمده الذي لا يفقه تسبيحه إلاَّ من أعلمه الله به وفتح سمعه لما يورده كما فتح سمع رسول الله ﷺ ومن حضر من أصحابه لإدراك تسبيح الحصى في كفّه الطاهرة الطيبة ﷺ، وإنما قلنا فتح سمعه إذ كان الحصى ما زال مذ خلقه الله مسبحاً بحمد موجده فكان خرق العادة في الإدراك السمعيّ لا فيه، ثم أوجد فيه صفتين: صفة علم وصفة عمل، فبصفة العمل تظهر صور العالم عنه كما تظهر صورة التابوت للعين عند عمل النجار، فبها يعطي الصور، والصور على قسمين: صور ظاهرة حسّية وهي الأجرام وما يتصل بها حسّاً كالأشكال والألوان والأكوان، وصور باطنة معنوية غير محسوسة وهي ما فيها من العلوم والمعارف والإرادات، وبتينك الصفتين ظهر ما ظهر من الصور، فالصفة العلامة أب فإنها المؤثرة، والصفة العاملة أمّ فإنها المؤثر فيها، وعنها ظهرت الصور التي ذكرناها، فإن النجار المهندس إذا كان عالماً ولا يحسن العمل فيلقي ما عنده على سمع من يحسن عمل النجارة وهذا الإلقاء نكاح، فكلام المهندس أب وقبول السامع أمّ، ثم يصير علم السامع أباً وجوارحه أمّاً، وإن شئت قلت: فالمهندس أب والصانع الذي هو النجار أم من حيث ما هو مصغ لما يلقي إليه المهندس، فإذا أثر فيه فقد أنزل ما في قوّته في نفس النجار، والصورة التي ظهرت للنجار في باطنه مما ألقى إليه المهندس وحصلت في وجود خياله قائمة ظاهرة له بمنزلة الولد الذي ولد له فهمه من المهندس ثم عمل النجار فهو أب في الخشب الذي هو أمّ النجارة بالآلات التي يقع بها النكاح، وإنزال الماء الذي هو أثر كل ضربة بالقدوم أو قطع بالمنشار وكل قطع وفصل وجمع في القطع المنجورة لإنشاء الصورة، فظهر التابوت الذي هو بمنزلة الولد المولود الخارج للحسّ فهكذا فلتفهم الحقائق في ترتيب الآباء والأمّهات والأبناء وكيفية الإنتاج، فكل أب ليس عنده صفة العمل فليس هو أب من ذلك الوجه حتى أنه لو كان عالماً ومنع آلة التوصيل بالكلام أو الإشارة ليقع الإفهام وهو غير عامل لم يكن

أباً من جميع الوجوه وكان أمّاً لما حصل في نفسه من العلوم، غير أن الجنين لم يخلق فيه الروح في بطن أمّه أو مات في بطن أمّه فأحالته طبيعة الأمّ إلى أن تصرف ولم يظهر له عين فافهم.

وبعد أن عرفت الأب الثاني من الممكنات وأنه أمّ ثانية للقلم الأعلى كان مما ألقي إليها من الإلقاء الأقدس الروحانيّ الطبيعة والهباء، فكان أول أمّ ولدت توأمين، فأول ما ألقت الطبيعة ثم تبعتها بالهباء فالطبيعة والهباء أخ وأخت لأب واحد وأمّ واحدة، فأنكح الطبيعة الهباء فولد بينهما صورة الجسم الكلي وهو أول جسم ظهر فكان الطبيعة الأب فإن لها الأثر وكان الهباء الأمّ فإن فيها ظهر الأثر وكانت النتيجة الجسم، ثم نزل التوالد في العالم إلى التراب على ترتيب مخصوص ذكرناه في كتابنا المسمّى بعقلة المستوفز وفيه طول لا يسعه هذا الباب فإن الغرض الاختصار، ونحن لا نقول بالمركز وإنما نقول بنهاية الأركان وأن الأعظم يجذب الأصغر، ولهذا نرى البخار والنار يطلبان العلو والحجر وما أشبهه يطلب السفل، فاختلفت الجهات وذلك على الاستقامة من الاثنين أعني طالب العلو والسفل، فإن القائل بالمركز يقول إنه أمر معقول دقيق تطلبه الأركان، ولولا التراب لدار به الماء، ولولا الماء لدار به الهواء، ولولا الهواء لدار به النار، ولو كان كما قال لكنا نرى البخار يطلب السفل والحسّ يشهد بخلاف ذلك، وقد بيّنا هذا الفصل في كتاب المركز لنا وهو جزء لطيف، فإذا ذكرناه في بعض كتبنا إنما نسوقه على جهة مثال النقطة من الأكرة التي عنها يحدث المحيط لما لنا في ذلك من الغرض المتعلق بالمعارف الإلهية والنسب لكون الخطوط الخارجة من النقطة إلى المحيط على السواء لتساوي النسب حتى لا يقع هناك تفاضل، فإنه لو وقع تفاضل أدّى إلى نقص المفضول والأمر ليس كذلك، وجعلناه محل العنصر الأعظم تنبيهاً على أن الأعظم يحكم على الأقل، وذكرناه مشاراً إليه في عقلة المستوفز.

ولما أدار الله هذه الأفلاك العلوية وأوجد الأيام بالفلك الأول وعينه بالفلك الثاني الذي فيه الكواكب الثابتة للأبصار ثم أوجد الأركان تراباً وماء وهواء وناراً ثم سوّى السموات سبعاً طباقاً وفتقها أي فصل كل سماء على حدة بعدما كانت رتقاً إذ كانت دخاناً، وفتق الأرض إلى سبع أرضين سماء أولى لأرض أولى وثانية لثانية إلى سبع، وخلق الجواري الخنس خمسة في كل سماء كوكب وخلق القمر وخلق أيضاً الشمس فحدث الليل والنهار بخلق الشمس في اليوم وقد كان اليوم موجوداً فجعل النصف من هذا اليوم لأهل الأرض نهاراً وهو من طلوع الشمس إلى غروبها وجعل النصف الآخر منه ليلاً وهو من غروب الشمس إلى طلوعها واليوم عبارة عن المجموع، ولهذا خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، فإن الأيام كانت موجودة بوجود حركة فلك البروج وهي الأيام المعروفة عندنا لا غير، فما قال الله خلق العرش والكرسي وإنما قال خلق السموات والأرض في ستة أيام، فإذا دار فلك البروج دورة واحدة فذلك هو اليوم الذي خلق الله فيه السموات والأرض، ثم أحدث الله الليل والنهار عند وجود الشمس لا الأيام، وأمّا ما يطرأ فيها من الزيادة والنقصان أعني في الليل والنهار لا في الساعات فإنها أربع وعشرون ساعة وذلك لحلول الشمس في منطقة البروج وهي حمائلية

بالنسبة إلينا فيها ميل، فيطول النهار إذا كانت الشمس في المنازل العالية حيث كانت، وإذا حلت الشمس في المنازل النازلة قصر النهار حيث كانت، وإنما قلنا حيث كانت فإنه إذا طال الليل عندنا طال النهار عند غيرنا، فتكون الشمس في المنازل العالية بالنسبة إليهم، وفي المنازل النازلة بالنسبة إلينا، فإذا قصر النهار عندنا طال الليل عندهم لما ذكرناه، واليوم هو اليوم بعينه أربع وعشرون ساعة لا يزيد ولا ينقص ولا يطول ولا يقصر في موضع الاعتدال، فهذا هو حقيقة اليوم.

ثم قد نسمي النهار وحده يوماً بحكم الاصطلاح فافهم، وقد جعل الله هذا الزمان الذي هو الليل والنهار يوماً والزمان هو اليوم والليل والنهار موجودان في الزمان جعلهما أباً وأمّاً لما يحدث الله فيهما كما قال يغشى الليل النهار كمثل قوله في آدم. فلما تغشاها حملت، فإذا غشي الليل النهار كان الليل أباً وكان النهار أمّاً، وصار كل ما يحدث الله في النهار بمنزلة الأولاد التي تلد المرأة، وإذا غشي النهار الليل كان النهار أباً وكان الليل أمّاً وكان كل ما يحدث الله من الشؤون في الليل بمنزلة الأولاد التي تلد الأمّ، وقد بيّنا هذا الفصل في كتاب الشأن لنا تكلمنا فيه على قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وسيأتي إن شاء الله في هذا الكتاب إن ذكرنا الله به من معرفة الأيام طرفاً شافياً. وكذلك قال تعالىٰ أيضاً: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٣] فزاد بياناً في التناكح، وأبان سبحانه بقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٧] أن الليل أم له، وأن النهار متولد عنه، كما ينسلخ المولود من أمّه إذا خرج منها، والحية من جلدها فيظهر مولداً في عالم آخر غير العالم الذي يحويه الليل والأب هو اليوم الذي ذكرناه، وقد بيّنا ذلك في كتاب الزمان لنا ومعرفة الدهر، فهذا الليل والنهار أبوان بوجه وأمّان بوجه، وما يحدث الله فيهما في عالم الأركان من المولدات عند تصريفهما يسمّون أولاد الليل والنهار كما قرّرناه.

ولما أنشأ الله أجرام العالم كله القابل للتكوين فيه جعل من حدّ ما يلي مقعر السماء الدنيا إلى باطن الأرض عالم الطبيعة والاستحالات وظهور الأعيان التي تحدث عند الاستحالات وجعلها بمنزلة الأم، وجعل من مقعر فلك السماء الدنيا إلى آخر الأفلاك بمنزلة الأب، وقدّر فيها منازل وزينها بالأنوار الثابتة والسابحة، فالسابحة تقطع في الثابتة، والثابتة والسابحة تقطع في الفلك المحيط بتقدير العزيز، بدليل أنه رئي في بعض الأهرام التي بديار مصر مكتوباً بقلم يذكر في ذلك تاريخ الأهرام أنها بنيت والنسر في الأسد، ولا شك أنه الآن في الجدي كذا ندركه، فدل على أن الكواكب الثابتة تقطع في فلك البروج الأطلس والله يقول في القمر: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٩] وقال في الكواكب: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٤٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ [سورة يس: الآية ٣٨] وقد قرىء لا مستقرّ لها وليس بين القراءتين تنافر، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [سورة يس: الآية ٣٨] ينظر إلى قوله في القمر أنه قدّره منازل، وقال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٤٠] أي في شيء مستدير، وجعل لهذه

الأنوار المسمّاة بالكواكب أشعة متصلة بالأركان تقوم اتصالاتها بها مقام نكاح الآباء للأمّهات فيحدث الله تعالىٰ عند اتصال تلك الشعاعات النورية في الأركان الأربعة من عالم الطبيعة ما يتكوّن فيها مما نشاهده حسّاً، فهذه الأركان لها بمنزلة الأربعة النسوة في شرعنا.

وكما لا يكون نكاح شرعي عندنا حلالاً إلاّ بعقد شرعي كذلك أوحى في كل سماء أمرها، فكان من ذلك الوحي تنزل الأمر بينهنّ كما قال تعالىٰ: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] يعني الأمر الإلهيّ وفي تفسير هذا التنزّل أسرار عظيمة تقرب مما نشير إليه في هذا الباب. وقد روي عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: لو فسرتها لقلتم إني كافر. وفي رواية: لرجمتموني، وإنها من أسرار آي القرآن. قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ثم قال: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ ثم تمّم وأبان فقال: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] وهو الذي أشرنا إليه بصفة العمل الذي ذكرناه آنفاً من إيجاد الله صفة العلم والعمل في الأب الثاني، فإن القدرة للإيجاد وهو العمل، ثم تمّم في الأخبار فقال: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] وقد أشرنا إليه بصفة العلم التي أعطاها الله للأب الثاني الذي هو النفس الكلية المنبعثة فهو العليم سبحانه بما يوجد القدير على إيجاد ما يريد إيجاده لا مانع له، فجعل الأمر يتنزل بين السماء والأرض كالولد يظهر بين الأبوين.

وأمّا اتصال الأشعة النورية الكوكبية عن الحركة الفلكية السماوية بالأركان الأربعة التي هي أم المولدات في الحين الواحد للكل معاً جعله الحق مثالاً للعارفين في نكاح أهل الجنة في الجنة جميع نسائهم وجواريهم في الآن الواحد نكاحاً حسيّاً، كما أن هذه الاتصالات حسّيّة، فينكح الرجل في الجنة جميع من عنده من المنكوحات إذا اشتهى ذلك في الآن الواحد نكاحاً جسمياً محسوساً بإيلاج ووجود لذة خاصة بكل امرأة من غير تقدّم ولا تأخر، وهذا هو النعيم الدائم والاقتدار الإلهيّ، والعقل يعجز عن إدراك هذه الحقيقة من حيث فكره، وإنما يدرك هذا بقوّة أخرى إلهية في قلب من يشاء من عباده، كما أن الإنسان في الجنة في سوق الصور إذا اشتهى صورة دخل فيها كما تشكل الروح هنا عندنا وإن كان جسماً ولكن أعطاه الله هذه القدرة على ذلك والله على كل شيء قدير. وحديث سوق الجنة ذكره أبو عيسىٰ الترمذيّ في مصنفه فانظره هناك، فإذا اتصلت الأشعة النورية في الأركان الأربعة ظهرت المولدات عن هذا النكاح الذي قدره العزيز العليم، فصارت المولدات بين آباء وهي الأفلاك والأنوار العلوية، وبين أمّهات وهي الأركان الطبيعية السفلية، وصارت الأشعة المتصلة من الأنوار بالأركان كالنكاح وحركات الأفلاك، وسباحات الأنوار بمنزلة حركات المجامع، وكأن حركات الأركان بمنزلة المخاض للمرأة لاستخراج الزبد الذي يخرج بالمخض وهو ما يظهر من المولدات في هذه الأركان للعين من صورة المعادن والنبات والحيوان ونوع الجن والإنس، فسبحان القادر على ما يشاء لا إله إلاّ هو رب كل شيء ومليكه.

قال تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٤] فقد تبين لك أيها الوليّ آباؤك وأمّهاتك من هم إلى أقرب أب لك وهو الذي ظهر عينك به وأمّك كذلك القريبة إليك إلى

الأب الأول وهو الجدّ الأعلى إلى ما بينهما من الآباء والأمّهات، فشكرهم الذي يسرّون به ويفرحون بالثناء عليهم هو أن تنسبهم إلى مالكهم وموحدهم وتسلب الفعل عنهم وتلحقه بمستحقه الذي هو خالق كل شيء، فإذا فعلت ذلك فقد أدخلت سروراً على آبائك بفعلك ذلك، وإدخال هذا السرور عليهم هو عين برّك بهم وشكرك إياهم، وإذا لم تفعل هذا ونسيت الله بهم فما شكرتهم ولا امتثلت أمر الله في شكرهم فإنه قال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي﴾ فقدّم نفسه ليعرّفك أنه السبب الأول والأولى، ثم عطف وقال: ﴿وَلِوَالِدَيْكَ﴾ وهي الأسباب التي أوجدك الله عندها لتنسبها إليه سبحانه، ويكون لها عليك فضل التقدّم بالوجود خاصة لا فضل التأثير لأنه في الحقيقة لا أثر لها وإن كانت أسباباً لوجود الآثار، فبهذا القدر صحّ لها الفضل وطلب منك الشكر وأنزلها الحق لك وعندك منزلته في التقدّم عليك لا في الأثر ليكون الثناء بالتقدم والتأثير لله تعالىٰ وبالتقدّم والتوقف للوالدين ولكن على ما شرطناه، فلا تشرك بعبادة ربك أحداً فإذا أثنيت على الله تعالىٰ وقلت ربنا ورب آبائنا العلويات وأمّهاتنا السفليات فلا فرق بين أن أقولها أنا أو يقولها جميع بني آدم من البشر، فلم يخاطب شخصاً بعينه حتى يسوق آباءه وأمّهاته من آدم وحوّاء إلى زمانه، وإنما القصد هذا النشء الإنسانيّ، فكنت مترجماً عن كل مولود بهذا التحميد من عالم الأركان وعالم الطبيعة والإنسان، ثم ترتقي في النيابة عن كل مولد بين مؤثر ومؤثر فيه، فتحمده بكل لسان وتتوجّه إليه بكل وجه، فيكون الجزاء لنا من عند الله من ذلك المقام الكلي كما قال لي بعض مشيختي: إذا قلت السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أو قلت السلام عليكم إذا سلمت في طريقك على أحد فأحضر في قلبك كل صالح لله من عباده في الأرض والسماء وميت وحيّ، فإنه من ذلك المقام يردّ عليك فلا يبقى ملك مقرّب ولا روح مطهر يبلغه سلامك إلاّ ويردّ عليك وهو دعاء فيستجاب فيك فتفلح، ومن لم يبلغه سلامك من عباد الله المهيمين في جلاله المشتغلين به المستفرغين فيه وأنت قد سلمت عليهم بهذا الشمول فإنّ الله ينوب عنهم في الردّ عليك، وكفى بهذا شرفاً في حقك حيث يسلم عليك الحق، فليته لم تسمع أحداً ممن سلمت عليه حتى ينوب عن الجميع في الردّ عليك فإنه بك أشرف.

قال تعالىٰ تشريفاً في حق يحيىٰ عليه السلام: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٥] وهذا سلام فضيلة وإخبار، فكيف سلام واجب ناب الحق مناب من أجاب عنه؟ وجزاء الفرائض أعظم من جزاء الفضائل في حق من قيل فيه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ فيجمع له بين الفضيلتين. وقد وردت صلاة الله علينا ابتداء وما وصل إليّ هل ورد السلام ابتداء كما وردت الصلاة أم لا؟ فمن روى في ذلك شيئاً وتحققه فقد جعلت أمانة في عنقه أن يلحقه في هذا الموضع إلى جانب صلاة الله علينا في هذا الباب ليكون بشرى للمؤمنين وشرفاً لكتابي هذا، والله المعين والموفق لا رب غيره.

وأما الآباء الطبيعيون والأمّهات فلم نذكرهم فلنذكر الأمر الكلي من ذلك وهم أبوان وأمان، فالأبوان هما الفاعلان والأمان هما المنفعلان، وما يحدث عنهما هو المنفعل عنهما، فالحرارة والبرودة فاعلان، والرطوبة واليبوسة منفعلان، فنكحت الحرارة اليبوسة فأنتجا ركن

النار، ونكحت الحرارة الرطوبة فأنتجا ركن الهواء، ثم نكح البرودة الرطوبة فأنتجا ركن الماء، ونكح البرودة اليبوسة فأنتجا ركن التراب، فحصلت في الأبناء حقائق الآباء والأمهات، فكانت النار حارّة يابسة فحرارتها من جهة الأب ويبوستها من جهة الأم، وكان الهواء حاراً رطباً فحرارته من جهة الأب ورطوبته من جهة الأم، وكان الماء بارداً رطباً فبرودته من جهة الأب ورطوبته من جهة الأمّ، وكانت الأرض باردة يابسة فبرودتها من جهة الأب ويبوستها من جهة الأم، فالحرارة والبرودة من العلم والرطوبة واليبوسة من الإرادة، هذا حدّ تعلقها في وجودها من العلم الإلهيّ وما يتولد عنهما من القدرة، ثم يقع التوالد في هذه الأركان من كونها أمّهات لآباء الأنوار العلوية لا من كونها آباء، وإن كانت الأبوّة فيها موجودة فقد عرفناك أنّ الأبوّة والبنوّة من الإضافات والنسب، فالأب ابن لأب هو ابن له، والابن أب لابن هو أب له، وكذلك باب النسب فانظر فيه والله الموفق لا رب غيره.

ولما كانت اليبوسة منفعلة عن الحرارة وكانت الرطوبة منفعلة عن البرودة قلنا في الرطوبة واليبوسة أنهما منفعلتان وجعلناهما بمنزلة الأم للأركان. ولما كانت الحرارة والبرودة فاعلين جعلناهما بمنزلة الأب للأركان. ولما كانت الصنعة تستدعي صانعاً ولا بدّ والمنفعل يطلب الفاعل بذاته فإنه منفعل لذاته، ولو لم يكن منفعلاً لذاته لما قبل الانفعال والأثر كان مؤثراً فيه، بخلاف الفاعل فإنه يفعل بالاختيار إن شاء فعل فيسمّى فاعلاً وإن شاء ترك وليس ذلك للمنفعل، ولهذه الحقيقة ذكر تعالىٰ وهو من فصاحة القرآن وإيجازه ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٩] فذكر المنفعل ولم يذكر ولا حار ولا بارد لما كانت الرطوبة واليبوسة عند العلماء بالطبيعة تطلب الحرارة والبرودة اللتين هما منفعلتان عنهما، كما تطلب الصنعة الصانع لذلك ذكرهما دون ذكر الأصل وإن كان الكل في الكتاب المبين، فلقد جاء الله سيدنا محمداً ﷺ بعلوم ما نالها أحد سواه كما قال: «**فَعَلِمْتُ عِلْمَ الأَوَّلِينَ والآخرِينَ**» في حديث الضرب باليد، فالعلم الإلهيّ هو أصل العلوم كلها وإليه ترجع، وقد استوفينا ما يستحقه هذا الباب على غاية الإيجاز والاختصار، فإن الطول فيه إنما هو بذكر الكيفيات، وأما الأصول فقد ذكرناها ومهدناها ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤] انتهى الجزء الثاني عشر.

(الجزء الثالث عشر)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الثاني عشر

في معرفة دورة فلك سيدنا محمد ﷺ وهي دورة السيادة وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلقه الله تعالىٰ

[نظم: الطويل]

ألا بِأَبي من كان مَلْكاً وسيداً ... وآدمُ بين الماء والطين واقفُ

فـذَاك الـرسـولُ الأبـطـحـيُّ مـحـمـدٌ ... لـه فـي الـعـلـى مـجـدٌ تـلـيـدٌ وطـارفُ
أتـى بـزمـان الـسَّـعْـدِ فـي آخـر الـمـدى ... وكـانـت لـه فـي كـل عـصـر مَـوَاقِـفُ
أتـى لانـكـسـار الـدهـر يَـجْـبُـر صَـدْعَـهُ ... فـأثـنـتْ عـلـيـه ألـسـنٌ وعَـوَارِفُ
إذا رام أمـــراً لا يـــكـــون خِـــلافُـــه ... وليس لـذاك الأمر في الكون صَارِفُ

اعلم أيّدك الله أنه لما خلق الأرواح المحصورة المدبِرة للأجسام بالزمان عند وجود حركة الفلك لتعيين المدّة المعلومة عند الله، وكان عند أول خلق الزمان بحركته خلق الروح المدبرة روح محمد ﷺ ثم صدرت الأرواح عند الحركات فكان لها وجود في عالم الغيب دون عالم الشهادة، وأعلمه الله بنبوّته وبشّره بها، وآدم لم يكن إلاَّ كما قال بين الماء والطين، وانتهى الزمان بالاسم الباطن في حق محمد ﷺ إلى وجود جسمه وارتباط الروح به، انتقل حكم الزمان في جريانه إلى الاسم الظاهر، فظهر محمد ﷺ بذاته جسماً وروحاً، فكان الحكم له باطناً أولاً في جميع ما ظهر من الشرائع على أيدي الأنبياء والرسل سلام الله عليهم أجمعين، ثم صار الحكم له ظاهراً فنسخ كل شرع أبرزه الاسم الباطن بحكم الاسم الظاهر لبيان اختلاف حكم الاسمين وإن كان المشرّع واحداً وهو صاحب الشرع فإنه قال: كنت نبياً، وما قال كنت إنساناً ولا كنت موجوداً، وليست النبوّة إلاَّ بالشرع المقرّر عليه من عند الله، فأخبر أنه صاحب النبوّة قبل وجود الأنبياء الذين هم نوّابه في هذه الدنيا، كما قررناه فيما تقدم من أبواب هذا الكتاب، فكانت استدارته انتهاء دورته بالاسم الباطن، وابتداء دورة أخرى بالاسم الظاهر فقال: استدار كهيئته يوم خلقه الله في نسبة الحكم لنا ظاهراً كما كان في الدورة الأولى منسوباً إلينا باطناً أي إلى محمد، وفي الظاهر منسوباً إلى من نسب إليه من شرع إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وجميع الأنبياء والرسل، وفي الأنبياء من الزمان أربعة حرم: هود وصالح وشعيب سلام الله عليهم ومحمد ﷺ، وعينها من الزمان ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر، ولما كانت العرب تنسأ في الشهور فتردّ المحرم منها حلالاً والحلال منها حراماً وجاء محمد ﷺ فردّ الزمان إلى أصله الذي حكم الله به عند خلقه فعين الحرم من الشهور على حد ما خلقها الله عليه فلهذا قال في اللسان الظاهر: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلقه الله كذلك استدار الزمان، فأظهر محمداً ﷺ كما ذكرناه جسماً وروحاً بالاسم الظاهر حسّاً، فنسخ من شرعه المتقدم ما أراد الله أن ينسخ منه، وأبقى ما أراد الله أن يبقي منه وذلك من الأحكام خاصة لا من الأصول.

ولما كان ظهوره بالميزان وهو العدل في الكون وهو معتدل لأن طبعه الحرارة والرطوبة كان من حكم الآخرة، فإن حركة الميزان متصلة بالآخرة إلى دخول الجنة والنار، ولهذا كان العلم في هذه الأمّة أكثر مما كان في الأوائل، وأعطي محمد ﷺ علم الأولين والآخرين لأن حقيقة الميزان تعطي ذلك، وكان الكشف أسرع في هذه الأمّة مما كان في غيرها لغلبة البرد واليبس على سائر الأمم قبلنا وإن كانوا أذكياء وعلماء، فآحاد منهم معينون بخلاف ما هم الناس اليوم عليه، ألا ترى هذه الأمّة قد ترجمت جميع علوم الأمم، ولو لم يكن المترجم

عالماً بالمعنى الذي دلَّ عليه لفظ المتكلم به لما صحَّ أن يكون هذا مترجماً، ولا كان ينطلق على ذلك اسم الترجمة، فقد علمت هذه الأمّة علم من تقدم واختصت بعلوم لم تكن للمتقدمين، ولهذا أشار ﷺ بقوله: «**فَعَلِمْتُ عِلْمَ الأَوَّلِينَ**» وهم الذين تقدموه، ثم قال: «**والآخِرِينَ**» وهو علم ما لم يكن عند المتقدمين وهو ما تعلمه أمّته من بعده إلى يوم القيامة، فقد أخبر أن عندنا علوماً لم تكن قبل، فهذه شهادة من النبيّ ﷺ لنا وهو الصادق بذلك، فقد ثبتت له ﷺ السيادة في العلم في الدنيا وثبتت له أيضاً السيادة في الحكم حيث قال: «**لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حياً مَا وَسِعَهُ إلاَّ أَنْ يَتبِعَنِي**» ويبين ذلك عند نزول عيسىٰ عليه السلام وحكمه فينا بالقرآن، فصحّت له السيادة في الدنيا بكل وجه ومعنى.

ثم أثبت السيادة له على سائر الناس يوم القيامة بفتحه باب الشفاعة، ولا يكون ذلك لنبيّ يوم القيامة إلاَّ له ﷺ، فقد شفع ﷺ في الرسل والأنبياء أن تشفع نعم وفي الملائكة فأذن الله تعالىٰ عند شفاعته في ذلك لجميع من له شفاعة من ملك ورسول ونبيّ ومؤمن أن يشفع، فهو ﷺ أول شافع بإذن الله وأرحم الراحمين آخر شافع يوم القيامة، فيشفع الرحيم عند المنتقم أن يخرج من النار من لم يعمل خيراً قط فيخرجهم المنعم المتفضل، وأيّ شرف أعظم من دائرة تدار يكون آخرها أرحم الراحمين وآخر الدائرة متصل بأولها، فأيّ شرف أعظم من شرف محمد ﷺ حيث كان ابتداء هذه الدائرة حيث اتصل بها آخرها لكمالها، فبه سبحانه ابتدأت الأشياء، وبه كملت، وما أعظم شرف المؤمن حيث تلت شفاعته بشفاعة أرحم الراحمين، فالمؤمن بين الله وبين الأنبياء، فإن العلم في حق المخلوق وإن كان له الشرف التام الذي لا تجهل مكانته، ولكن لا يعطى السعادة في القرب الإلهيّ إلاَّ بالإيمان، فنور الإيمان في المخلوق أشرف من نور العلم الذي لا إيمان معه، فإذا كان الإيمان يحصل عنه العلم فنور ذلك العلم المولد من نور الإيمان أعلى، وبه يمتاز على المؤمن الذي ليس بعالم، فيرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين درجات على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم ويزيد العلم بالله، فإن رسول الله ﷺ يقول لأصحابه: أنتم أعلم بمصالح دنياكم، فلا فلك أوسع من فلك محمد ﷺ فإن له الإحاطة وهي لمن خصّه الله بها من أمته بحكم التبعية، فلنا الإحاطة بسائر الأمم ولذلك كنا شهداء على الناس، فأعطاه الله من وحي أمر السموات ما لم يعط غيره في طالع مولده، فمن الأمر المخصوص بالسماء الأولى من هناك لم يبدل حرف من القرآن ولا كلمة، ولو ألقى الشيطان في تلاوته ما ليس منها بنقص أو زيادة لنسخ الله ذلك وهذا عصمة، ومن ذلك الثبات ما نسخت شريعته بغيرها، بل ثبتت محفوظة واستقرّت بكل عين ملحوظة، ولذلك تستشهد بها كل طائفة.

ومن الأمر المخصوص بالسماء الثانية من هناك أيضاً خصّ بعلم الأولين والآخرين والتؤدة والرحمة والرفق ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] وما أظهر في وقت غلظة على أحد إلاَّ عن أمر إلهي حين قيل له: ﴿ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٣] فأمر به لما لم يقتض طبعه ذلك وإن كان بشراً يغضب لنفسه ويرضى لنفسه فقد

قدم لذلك دواء نافعاً يكون في ذلك الغضب رحمة من حيث لا يشعر بها في حال الغضب، فكان يدل بغضبه مثل دالته برضاه، وذلك لأسرار عرفناها ويعرفها أهل الله منّا، فصحّت له السيادة على العالم من هذا الباب، فإن غير أمته قيل فيهم ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٥] فأضلّهم الله على علم وتولى الله فينا حفظ ذكره فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩] لأنه سمع العبد وبصره ولسانه ويده واستحفظ كتابه غير هذه الأمّة فحرّفوه، ومن الأمر المخصوص من وحي السماء الثالثة من هناك أيضاً السيف الذي بعثه به والخلافة، واختصّ بقتال الملائكة معه منها أيضاً، فإن ملائكة هذه السماء قاتلت معه يوم بدر، ومن هذه السماء أيضاً بعث من قوم ليس لهم همة إلاّ في قرى الأضياف ونحر الجزر والحروب الدائمة وسفك الدماء وبهذا يتمدحون ويمدحون قيل في بعضهم: [الطويل]

ضَرُوبٌ بنصل السيف سُوْقَ سمانها ... إذا عدموا زاداً فإنكَ عاقِرُ

وقال الآخر منهم يمدح قومه: [الكامل]

لا يبعدَنْ قومي الذين هُمُو ... سمُّ العداة وآفةُ الجزْرِ
النازلون بكل معتركٍ ... والطيبون معاقدَ الأُزْرِ

فمدحهم بالكرم والشجاعة والعفة، يقول عنترة بن شدّاد في حفظ الجار في أهله: [الكامل]

وأغضُّ طَرْفي ما بدَتْ لي جارتي ... حتى يواري جارتي مَأْواهَا

ولا خفاء عند كل أحد بفضل العرب على العجم بالكرم والحماسة والوفا وإن كان في العجم كرماء وشجعان ولكن آحاد، كما أن في العرب جبناء وبخلاء ولكن آحاد، وإنما الكلام في الغالب لا في النادر وهذا ما لا ينكره أحد، فهذا مما أوحى الله في هذه السماء، فهذا كله من الأمر الذي يتنزل بين السماء والأرض لمن فهم، ولو ذكرنا على التفصيل ما في كل سماء من الأمر الذي أوحى الله سبحانه فيها لأبرزنا من ذلك عجائب ربما كان ينكرها بعض من ينظر في ذلك العلم من طريق الرصد والتسيير من أهل التعاليم، ويحار المنصف منهم فيه إذا سمعه، ومن الوحي المأمور به في السماء الرابعة نسخه بشريعته جميع الشرائع وظهور دينه على جميع الأديان عند كل رسول ممن تقدمه، وفي كل كتاب منزل، فلم يبق لدين من الأديان حكم عند الله إلاّ ما قرّر منه فبتقريره ثبت فهو من شرعه وعموم رسالته، وإن كان بقي من ذلك حكم فليس هو من حكم الله إلاّ في أهل الجزية خاصة، وإنما قلنا ليس هو حكم الله لأنه سمّاه باطلاً فهو على من اتبعه لا له فهذا أعني بظهور دينه على جميع الأديان كما قال النابغة في مدحه: [الطويل]

ألم تَرَ أن الله أعطاك سُورةً ... ترى كلَّ ملْكٍ دونها يتذَبْذَبُ
بأنك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ ... إذا طلعَتْ لم يبدُ منهنَّ كوكبُ

وهذه منزلة محمد ﷺ، ومنزلة ما جاء به من الشرع من الأنبياء وشرائعهم سلام الله

عليهم أجمعين، فإن أنوار الكواكب اندرجت في نور الشمس، فالنهار لنا والليل وحده لأهل الكتب إذا أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وقد بسطنا في التنزلات الموصلية من أمر كل سماء ما إذا وقفت عليه عرفت بعض ما في ذلك، ومن الوحي المأمور به في السماء الخامسة من هناك المختص بمحمد ﷺ أنه ما ورد قط عن نبيّ من الأنبياء أنه حبّب إليه النساء إلاّ محمد ﷺ وإن كانوا قد رزقوا منهن كثيراً كسليمان عليه السلام وغيره، ولكن كلامنا في كونه حبّب إليه وذلك أنه ﷺ كان نبياً وآدم بين الماء والطين كما قررناه وعلى الوجه الذي شرحناه، فكان منقطعاً إلى ربه لا ينظر معه إلى كون من الأكوان لشغله بالله عنه، فإن النبي مشغول بالتلقي من الله ومراعاة الأدب فلا يتفرغ إلى شيء دونه فحبّب الله إليه النساء فأحبهن عناية من الله بهن، فكان ﷺ يحبهن بكون الله حببهن إليه. خرّج مسلم في صحيحه في أبواب الإيمان: أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ نَعْلِي حَسَناً وَثَوْبِي حَسَناً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**» ومن هذه السماء حب الطيب، وكان من سنته النكاح لا التبتل، وجعل النكاح عبادة للسرّ الإلهيّ الذي أودع فيه وليس إلاّ في النساء وذلك ظهور الأعيان للثلاثة الأحكام التي تقدم ذكرها في الإنتاج عن المقدمتين والرابط الذي جعله علة الإنتاج، فهذا الفضل وما شاكله مما اختصّ به محمد ﷺ وزاد فيه بنكاح الهبة كما جعل في أمته، فيما يبين لها من النكاح لمن لا شيء له من الأعواض بما يحفظه من القرآن خاصة لا أنه يعلمها، وهذا وإن لم يقو قوّة الهبة ففيه اتساع للأمّة، وليس في الوسع استيفاء ما أوحى الله من الأمر في كل سماء، ومن الأمر الموحى في السماء السادسة إعجاز القرآن.

والذي أعطيه ﷺ من جوامع الكلم من هذه السماء تنزل إليه ولم يعط ذلك نبيّ قبله، وقد قال: «**أُعْطِيتُ سِتّاً لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي**»، وكل ذلك أوحى في السموات من قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية: ١٢] فجعل في كل سماء ما يصلح تنفيذه في الأرض في هذا الخلق، فكان من ذلك أن بعث وحده إلى الناس كافة فعمّت رسالته، وهذا مما أوحى الله به في السماء الرابعة ونصر بالرعب وهو مما أوحى الله به في السماء الثالثة من هناك. ومنها ما حلّل الله له من الغنائم وجعلت له الأرض مسجداً وطهوراً من السماء الثانية من هناك أوتيت جوامع الكلم من أمر وحي السماء السادسة، ومن أمر هذه السماء ما خصّه الله به من إعطائه إياه مفاتيح خزائن الأرض، ومن الوحي المأمور به في السماء السابعة من هناك وهي السماء الدنيا التي تلينا كون الله خصّه بصورة الكمال فكملت به الشرائع وكان خاتم النبيين ولم يكن ذلك لغيره ﷺ، فبهذا وأمثاله انفرد بالسيادة الجامعة للسيادات كلها والشرف المحيط الأعم ﷺ، فهذا قد نبهنا على ما حصل له في مولده من بعض ما أوحى الله به في كل سماء من أمره.

وقوله الزمان ولم يقل الدهر ولا غيره ينبّه على وجود الميزان، فإنه ما خرج عن الحروف التي في الميزان بذكر الزمان، وجعل ياء الميزان مما يلي الزاي وخفّف الزاي وعددها في الزمان إشعاراً بأن في هذه الزاي حرفاً مدغماً فكان أوّل وجود الزمان في الميزان

للعدل الروحاني، وفي الاسم الباطن لمحمد ﷺ بقوله: «**كُنْتُ نَبِيّاً وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ والطِّينِ**» ثم استدار بعد انقضاء دورة الزمان التي هي ثمانية وسبعون ألف سنة، ثم ابتدأت دورة أخرى من الزمان بالاسم الظاهر فظهر فيها جسم محمد ﷺ، وظهرت شريعته على التعيين والتصريح لا بالكناية، واتصل الحكم بالآخرة فقال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٤٧] وقيل لنا: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٩] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٧] .

فبالميزان أوحى في كل سماء أمرها، وبه قدّر في الأرض أقواتها ونصبه الحق في العالم في كل شيء، فميزان معنوي وميزان حسّي لا يخطىء أبداً، فدخل الميزان في الكلام وفي جميع الصنائع المحسوسة وكذلك في المعاني، إذ كان أصل وجود الأجسام والأجرام وما تحمله من المعاني عند حكم الميزان، وكان وجود الميزان وما فوق الزمان عن الوزن الإلهيّ الذي يطلبه الاسم الحكيم، ويظهره الحكم العدل لا إله إلاّ هو. وعن الميزان ظهر العقرب وما أوحى الله فيه من الأمر الإلهيّ، والقوس والجدي والدلو والحوت والحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة، وانتهت الدورة الزمانية إلى الميزان لتكرار الدور، فظهر محمد ﷺ وكان له في كل جزء من أجزاء الزمان حكم اجتمع فيه بظهوره ﷺ، وهذه الأسماء أسماء ملائكة خلقهم الله وهم الاثنا عشر ملكاً، وجعل لهم الله مراتب في الفلك المحيط، وجعل بيد كل ملك ما شاء أن يجعله مما يبرزه فيمن هو دونهم إلى الأرض حكمة، فكانت روحانية محمد ﷺ تكتسب عند كل حركة من الزمان أخلاقاً بحسب ما أودع الله في تلك الحركات من الأمور الإلهية، فما زالت تكتسب هذه الصفات الروحانية قبل وجود تركيبها إلى أن ظهرت صورة جسمه في عالم الدنيا بما جبله الله عليه من الأخلاق المحمودة فقيل فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: الآية ٤] فكان ذا خلق لم يكن ذا تخلق.

ولما كانت الأخلاق تختلف أحكامها باختلاف المحل الذي ينبغي أن يقابل بها احتاج صاحب الخلق إلى علم يكون عليه حتى يصرف في ذلك المحل الخلق الذي يليق به عن أمر الله فيكون قربة إلى الله، فلذلك تنزلت الشرائع لتبين للناس محال أحكام الأخلاق التي جبل الإنسان عليها فقال الله في مثل ذلك: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] لوجود التأفيف في خلقه، فأبان عن المحل الذي لا ينبغي أن يظهر فيه حكم هذا الخلق، ثم بيّن المحل الذي ينبغي أن يظهر فيه هذا الخلق فقال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٧] وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٧٥] فأبان عن المحل الذي ينبغي أن لا يظهر فيه خلق الخوف ثم قال لهم ﴿ وَخَافُونِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٧٥] فأبان لهم حيث ينبغي أن يظهر حكم هذه الصفة، وكذلك الحسد والحرص وجميع في هذه النشأة الطبيعية الظاهر حكم روحانيتها فيها قد أبان الله لنا حيث نظهرها وحيث نمنعها، فإنه من المحال إزالتها عن هذه النشأة إلاّ بزوالها لأنها عينها والشيء لا يفارق نفسه، قال ﷺ: «**لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَينِ**» وقال: «**زَادَكَ الله حِرْصاً ولا تَعُدْ**».

وإنما قلنا الظاهر حكم روحانيتها فيها تحرّرنا بذلك من أجل أهل الكشف والعلماء الراسخين في العلم من المحققين العالمين، فإنّ المسمّى بالجماد والنبات عندنا لهم أرواح بطنت عن إدراك غير أهل الكشف إياها في العادة لا يحسّ بها مثل ما يحسّها من الحيوان، فالكل عند أهل الكشف حيوان ناطق بل حيّ ناطق، غير أنّ هذا المزاج الخاص يسمّى إنساناً لا غير بالصورة، ووقع التفاضل بين الخلائق في المزاج فإنه لا بدّ في كل ممتزج من مزاج خاص لا يكون إلاّ له به يتميز عن غيره كما يجتمع مع غيره في أمر فلا يكون عين ما يقع به الافتراق والتميز عين ما يقع به الاشتراك وعدم التميز فاعلم ذلك وتحققه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] وشيء نكرة ولا يسبح إلاّ حيّ عاقل عالم بمسبحه، وقد ورد أنّ المؤذن يشهد له مدى صوته من رطب ويابس والشرائع والنبوّات من هذا القبيل مشحونة، ونحن زدنا مع الإيمان بالأخبار الكشف فقد سمعنا الأحجار تذكر الله رؤية عين بلسان نطق تسمعه آذاننا منها وتخاطبنا مخاطبة العارفين بجلال الله مما ليس يدركه كل إنسان، فكل جنس من خلق الله أمّة من الأمم فطرهم الله على عبادة تخصّهم أوحى بها إليهم في نفوسهم فرسولهم من ذواتهم إعلام من الله بإلهام خاص جبلهم عليه، كعلم بعض الحيوانات بأشياء يقصر عن إدراكها المهندس النحرير، وعلمهم على الإطلاق بمنافعهم فيما يتناولونه من الحشائش والمآكل وتجنب ما يضرّهم من ذلك كل ذلك في فطرتهم، كذلك المسمّى جماداً ونباتاً أخذ الله بأبصارنا وأسماعنا عمّا هم عليه من النطق، ولا تقوم الساعة حتى تكلم الرجل فخذه بما فعله أهله جعل الجهلاء من الحكماء هذا إذا صحّ إيمانهم به من باب العلم بالاختلاج يريدون به علم الزجر، وإن كان علم الزجر علماً صحيحاً في نفس الأمر وأنه من أسرار الله، ولكن ليس هو مقصود الشارع في هذا الكلام، فكان له ﷺ الكشف الأتم فيرى ما لا نرى، ولقد نبّه عليه السلام على أمر عمل عليه أهل الله فوجدوه صحيحاً قوله: **«لَوْلاَ تَزْيِيدٌ فِي حَدِيثِكُمْ وَتَمْرِيجٌ فِي قُلوبِكُمْ لَرَأَيْتُمْ مَا أَرَىٰ وَلَسَمِعْتُمْ مَا أَسْمَعُ»** فخصّ برتبة الكمال في جميع أموره. ومنها الكمال في العبودية فكان عبداً صرفاً لم يقم بذاته ربانية على أحد وهي التي أوجبت له السيادة وهي الدليل على شرفه على الدوام، وقد قالت عائشة: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ أَحْيَانِهِ» ولنا منه ميراث وافر وهو أمر يختص بباطن الإنسان. وقوله وقد يظهر خلاف ذلك بأفعاله مع تحققه بالمقام فيلتبس على من لا معرفة له بالأحوال، فقد بينّا في هذا الباب ما مست الحاجة إليه والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث عشر
في معرفة حملة العرش

[نظم: البسيط]

العرشُ واللَّهِ بالرحمن محمولُ وحاملوه وهذا القولُ مَعْقولُ

وأيُّ حَوْلٍ لمخلوقٍ ومقدرةٌ لولاه جاء به عقلٌ وتنزيلُ

جـسـم وروحٌ وأقـواتٌ ومـرتـبـةٌ ما ثَمَّ غيرُ الذي رتَّبْتَ تفصيلُ
فـذا هـو الـعـرشُ إن حـقَّقْتَ سورتَـه والمستوي باسمه الرحمنُ مأمولُ
وهـم ثـمـانـيـةٌ والله يـعـلـمـهـم واليوم أربعةٌ ما فيه تعليلُ
محمدٌ ثم رضوانٌ ومالكُهم وآدمٌ وخليلٌ ثم جبريلُ
والحِقْ بميكالَ إسرافيلَ ليس هنا سوى ثمانيةٍ غُرٌّ بهاليلِ

اعلم أيّد الله الوليّ الحميم، أنّ العرش في لسان العرب يطلق ويراد به الملك، يقال ثلّ عرش الملك إذا دخل في ملكه خلل ويطلق ويراد به السرير، فإذا كان العرش عبارة عن الملك فتكون حَمَلته هم القائمون به، وإذا كان العرش السرير فتكون حملته ما يقوم عليه من القوائم أو من يحمله على كواهلهم، والعدد يدخل في حملة العرش، وقد جعل الرسول حكمهم في الدنيا أربعة وفي القيامة ثمانية فتلا رسول الله ﷺ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة: الآية ١٧] ثم قال: وهم اليوم أربعة يعني في يوم الدنيا. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ يعني يوم الآخرة.

روينا عن ابن مسرّة الجبلي من أكبر أهل الطريق علماً وحالاً وكشفاً: العرش المحمول هو الملك وهو محصور في جسم وروح وغذاء ومرتبة، فآدم وإسرافيل للصور، وجبريل ومحمد للأرواح، وميكائيل وإبراهيم للأرزاق، ومالك ورضوان للوعد والوعيد، وليس في الملك إلاّ ما ذكروا والأغذية التي هي الأرزاق حسية ومعنوية، فالذي نذكر في هذا الباب الطريقة الواحدة التي هي بمعنى الملك لما يتعلق به من الفائدة في الطريق، وتكون حملته عبارة عن القائمين بتدبيره، فتدبر صورة عنصرية أو صورة نورية وروحاً مدبراً لصورة عنصرية، وروحاً مدبراً مسخراً لصورة نورية، وغذاء لصورة عنصرية، وغذاء علوم ومعارف لأرواح، ومرتبة حسّية من سعادة بدخول الجنة، ومرتبة حسّية من شقاوة بدخول جهنم، ومرتبة روحية علمية. فمبنى هذا الباب على أربع مسائل: المسألة الأولى: الصورة. والمسألة الثانية: الروح. والمسألة الثالثة: الغذاء. والمسألة الرابعة: المرتبة وهي الغاية. وكل مسألة منها تنقسم قسمين، فتكون ثمانية وهم حملة عرش الملك، أي إذا ظهرت الثمانية قام الملك وظهر واستوى عليه مليكه.

المسألة الأولى الصورة: وهي تنقسم قسمين: صورة جسمية عنصرية تتضمن صورة جسدية خيالية، والقسم الآخر صورة جسمية نورية. فلنبتدىء بالجسم النوري فنقول: إن أول جسم خلقه الله أجسام الأرواح الملكية المهيمة في جلال الله. ومنهم العقل الأول والنفس الكل وإليها انتهت الأجسام النورية المخلوقة من نور الجلال، وما ثم ملك من هؤلاء الملائكة من وجد بواسطة غيره إلاّ النفس التي دون العقل، وكل ملك خلق بعد هؤلاء فداخلون تحت حكم الطبيعة فهم من جنس أفلاكها التي خلقوا منها وهم عمارها، وكذلك ملائكة العناصر، وآخر صنف من الأملاك الملائكة المخلوقون من أعمال العباد وأنفاسهم، فلنذكر ذلك صنفاً صنفاً في هذا الباب إن شاء الله تعالى.

اعلم أن الله تعالىٰ كان قبل أن يخلق الخلق ولا قبلية زمان، وإنما ذلك عبارة للتوصيل تدل على نسبة يحصل بها المقصود في نفس السامع كان جلّ وتعالىٰ في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء، وهو أول مظهر إلهيّ ظهر فيه سرى فيه النور الذاتي كما ظهر في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] فلما انصبغ ذلك العماء بالنور فتح فيه صور الملائكة المهيمين الذين هم فوق عالم الأجسام الطبيعية ولا عرش ولا مخلوق تقدمهم، فلما أوجدهم تجلّى لهم فصار لهم من ذلك التجلي غيباً كان ذلك الغيب روحاً لهم أي لتلك الصور، وتجلّى لهم في اسمه الجميل فهاموا في جلال جماله فهم لا يفيقون، فلما شاء أن يخلق عالم التدوين والتسطير عيّن واحداً من هؤلاء الملائكة الكروبيين وهو أول ملك ظهر من ملائكة ذلك النور سمّاه العقل والقلم، وتجلّى له في مجلى التعليم الوهبي بما يريد إيجاده من خلقه لا إلى غاية وحدّ فقبل بذاته علم ما يكون، وما للحق من الأسماء الإلهية الطالبة صدور هذا العالم الخلقي، فاشتق من هذا العقل موجوداً آخر سمّاه اللوح، وأمر القلم أن يتدلى إليه ويودع فيه جميع ما يكون إلى يوم القيامة لا غير، وجعل لهذا القلم ثلاثمائة وستين سناً في قلميته أي من كونه قلماً ومن كونه عقلاً ثلاثمائة وستين تجلّياً أو رقيقة كل سن أو رقيقة تغترف من ثلاثمائة وستين صنفاً من العلوم الإجمالية فيفصلها في اللوح، فهذا حصر ما في العالم من العلوم إلى يوم القيامة، فعلمها اللوح حين أودعه إياها القلم فكان من ذلك علم الطبيعة، وهو أوّل علم حصل في هذا اللوح من علوم ما يريد الله خلقه، فكانت الطبيعة دون النفس وذلك كله في عالم النور الخالص، ثم أوجد سبحانه الظلمة المحضة التي هي في مقابلة هذا النور بمنزلة العدم المطلق المقابل للوجود المطلق، فعندما أوجدها أفاض عليها النور إفاضة ذاتية بمساعدة الطبيعة فَلأَمَ شعثها ذلك النور، فظهر الجسم المعبر عنه بالعرش فاستوى عليه الاسم الرحمن بالاسم الظاهر، فذلك أوّل ما ظهر من عالم الخلق، وخلق من ذلك النور الممتزج الذي هو مثل ضوء السحر الملائكة الحافين بالسرير وهو قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٥] فليس لهم شغل إلاّ كونهم حافين من حول العرش يسبحون بحمده، وقد بيّنا خلق العالم في كتاب سميناه عقلة المستوفز، وإنما نأخذ منه في هذا الباب رؤوس الأشياء.

ثم أوجد الكرسي في جوف هذا العرش وجعل فيه ملائكة من جنس طبيعته، فكل فلك أصل لما خلق فيه من عماره كالعناصر فيما خلق منها من عمارها، كما خلق آدم من تراب وعمّر به وببنيه الأرض، وقسم في هذا الكرسي الكريم الكلمة إلى خبر وحكم وهما القدمان اللتان تدلّتا له من العرش كماورد في الخبر النبوي. ثم خلق في جوف الكرسي الأفلاك فلكاً في جوف فلك، وخلق في كل فلك عالماً منه يعمرونه سمّاهم ملائكة يعني رسلاً وزيّنها بالكواكب، وأوحى في كل سماء أمرها إلى أن خلق صور المولدات.

ولما أكمل الله هذه الصور النورية بلا أرواح تكون غيباً لهذه الصور، تجلّى لكل صنف من الصور بحسب ما هي عليه، فتكوّن عن الصور وعن هذا التجلّي أرواح الصور وهي

المسألة الثانية، فخلق الأرواح وأمرها بتدبير الصور وجعلها غير منقسمة بل ذاتاً واحدة وميّز بعضها عن بعض فتميزت، وكان ميّزها بحسب قبول الصور من ذلك التجلي، وليست الصور بأينيات لهذه الأرواح على الحقيقة، إلاَّ أن هذه الصور لها كالملك في حق الصور العنصرية وكالمظاهر في حق الصور كلها، ثم أحدث الله الصور الجسدية الخيالية بتجلّ آخر بين اللطائف والصور، تتجلّى في تلك الصور الجسدية الصور النورية والنارية ظاهرة للعين، وتتجلّى الصور الحسّية حاملة للصور المعنوية في هذه الصور الجسدية في النوم وبعد الموت وقبل البعث وهو البرزخ الصوري وهو قرن من نور أعلاه واسع وأسفله ضيق، فإن أعلاه السماء وأسفله الأرض، وهذه الأجساد الصورية التي يظهر فيها الجن والملائكة وباطن الإنسان وهي الظاهرة في النوم، وصور سوق الجنة وهي هذه الصور التي تعمّر الأرض التي تقدم الكلام عليها في بابها، ثم إن الله تعالىٰ جعل لهذه الصور ولهذه الأرواح غذاء وهو **المسألة الثالثة** يكون بذلك الغذاء بقاؤهم وهو رزق حسيّ ومعنويّ، فالمعنويّ منه غذاء العلوم والتجليات والأحوال والغذاء المحسوس معلوم وهو ما تحمله صور المطعومات والمشروبات من المعاني الروحانية أعني القوىٰ فذلك هو الغذاء فالغذاء كله معنوي على ما قلناه، وإن كان في صور محسوسة فتتغذى كل صورة نورية كانت أو حيوانية أو جسدية بما يناسبها وتفصيل ذلك يطول.

ثم إن الله جعل لكل عالم مرتبة في السعادة والشقاء ومنزلة وتفاصيلها لا تنحصر، فسعادتها بحسبها، فمنها سعادة غرضية، ومنها سعادة كمالية، ومنها سعادة ملائمة، ومنها سعادة وضعية أعني شرعية، والشقاوة مثل ذلك في التقسيم بما لا يوافق الغرض ولا الكمال ولا المزاج وهو غير الملائم ولا الشرع وذلك كله محسوس ومعقول، فالمحسوس منه ما يتعلق بدار الشقاء من الآلام في الدنيا والآخرة، ويتعلق بدار السعادة من اللذات في الدنيا والآخرة، ومنه خالص وممتزج، فالخالص يتعلق بالدار الآخرة، والممتزج يتعلق بالدار الدنيا، فيظهر السعيد بصورة الشقي والشقي بصورة السعيد وفي الآخرة يمتازون، وقد يظهر الشقي في الدنيا بشقاوته ويتصل بشقاء الآخرة، وكذلك السعيد ولكنهم مجهولون وفي الآخرة يمتازون ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٥٩] فهنالك تلحق المراتب بأهلها لحوقاً لا ينخرم ولا يتبدل، فقد بان لك معنى الثمانية التي هي مجموع الملك المعبَّر عنه بالعرش، وهذه هي **المسألة الرابعة**، فقد بان لك معنى الثمانية، وهذه الثمانية للنسب الثمانية التي يوصف بها الحق وهي: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، وإدراك المطعوم والمشموم والملموس بالصفة اللائقة به، فإن لهذا الإدراك بها تعلّقاً كإدراك السمع بالمسموعات والبصر بالمبصرات، ولهذا انحصر الملك في ثمانية، فالظاهر منها في الدنيا أربعة: الصورة والغذاء والمرتبتان، ويوم القيامة تظهر الثمانية بجميعها للعيان وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [سورة الحاقة: الآية ١٧] فقال ﷺ: «**وَهُمُ الْيَوْمَ أَرْبَعَةٌ**» هذا في تفسير العرش بالملك.

وأما العرش الذي هو السرير فإن لله ملائكة يحملونه على كواهلهم هم اليوم أربعة وغداً يكونون ثمانية لأجل الحمل إلى أرض الحشر. وورد في صور هؤلاء الأربعة الحمَلة ما يقاربه قول ابن مسرّة: فقيل الواحد على صورة الإنسان، والثاني على صورة الأسد، والثالث على صورة النسر، والرابع على صورة الثور، وهو الذي رآه السامري فتخيّل أنه إله موسىٰ فصنع لقومه العجل وقال: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٨٨] القصة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع عشر

في معرفة أسرار الأنبياء أعني أنبياء الأولياء وأقطاب الأمم المكملين من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ،وأن القطب واحد منذ خلقه الله لم يمت وأين مسكنه

[نظم: الرمل]

أنبياءُ الأولياءِ الورَثَةْ ... عرّف الله بهم مَنْ بعثَهْ
ثم في رَوْعِ إمامٍ واحدٍ ... سرُّ هذا الأمر روحٌ نفثَهْ
ثم لما عَقَدَ الله له ... وسرى في خَلْقه ما نكثَهْ
وتلقَّته على عِزَّته ... مِنَّةً منه قلوبُ الورثَهْ
موضِعُ القطب الذي يسْكُنُه ... ليس يدريه سوى من ورِثَهْ

اعلم أيّدك الله أن النبيّ هو الذي يأتيه الملك بالوحي من عند الله، يتضمن ذلك الوحي شريعة يتعبده بها في نفسه، فإن بعث بها إلى غيره كان رسولاً، ويأتيه الملك على حالتين: إما ينزل بها على قلبه على اختلاف أحوال في ذلك التنزّل، وإمّا على صورة جسدية من خارج يلقي ما جاء به إليه على أذنه فيسمع، أو يلقيها على بصره فيبصره، فيحصل له من النظر مثل ما يحصل له من السمع سواء، وكذلك سائر القوىٰ الحسّاسة، وهذا باب قد أغلق برسول الله ﷺ، فلا سبيل أن يتعبّد الله أحداً بشريعة ناسخة لهذه الشريعة المحمدية، وأن عيسىٰ عليه السلام إذا نزل ما يحكم إلاّ بشريعة محمد ﷺ وهو خاتم الأولياء فإنه من شرف محمد ﷺ أن ختم الله ولاية أمته، والولاية مطلقة بنبي رسول مكرم ختم به مقام الولاية، فله يوم القيامة حشران: يحشر مع الرسل رسولاً، ويحشر معنا ولياً تابعاً محمداً ﷺ كرّمه الله تعالىٰ وإلياس بهذا المقام على سائر الأنبياء.

وأمّا حالة أنبياء الأولياء في هذه الأمّة فهو كل شخص أقامه الحق في تجلّ من تجلياته وأقام له مظهر محمد ﷺ ومظهر جبريل عليه السلام، فأسمعه ذلك المظهر الروحانيّ خطاب الأحكام المشروعة لمظهر محمد ﷺ حتى إذا فرغ من خطابه وفزع عن قلب هذا الوليّ عقل صاحب هذا المشهد جميع ما تضمنه ذلك الخطاب من الأحكام المشروعة الظاهرة في هذه الأمّة المحمدية، فيأخذها هذا الوليّ كما أخذها المظهر المحمدي للحضور الذي حصل له في هذه الحضرة مما أمر به ذلك المظهر المحمدي من التبليغ لهذه الأمّة فيرد إلى نفسه، وقد

وعى ما خاطب الروح به مظهر محمد ﷺ وعلم صحته علم يقين بل عين يقين، فأخذ حكم هذا النبيّ وعمل به على بينة من ربه.

فربّ حديث ضعيف قد ترك العمل به لضعف طريقه من أجل وضّاع كان في رواته يكون صحيحاً في نفس الأمر، ويكون هذا الواضع مما صدق في هذا الحديث ولم يضعه، وإنما ردّه المحدث لعدم الثقة بقوله في نقله، وذلك إذا انفرد به ذلك الواضع أو كان مدار الحديث عليه، وأما إذا شاركه فيه ثقة سمعه معه قبل ذلك الحديث من طريق ذلك الثقة، وهذا وليّ قد سمعه من الروح يلقيه على حقيقة محمد ﷺ، كما سمع الصحابة في حديث جبريل عليه السلام مع محمد ﷺ في الإسلام والإيمان والإحسان في تصديقه إياه، وإذا سمعه من الروح الملقي فهو فيه مثل الصاحب الذي سمعه من فم رسول الله ﷺ علماً لا يشك فيه، بخلاف التابع فإنه يقبله على طريق غلبة الظن لارتفاع التهمة المؤثّرة في الصدق. ورب حديث يكون صحيحاً من طريق رواته يحصل لهذا المكاشف الذي قد عاين هذا المظهر فسأل النبيّ ﷺ عن هذا الحديث الصحيح فأنكره وقال له لم أقله ولا حكمت به فيعلم ضعفه فيترك العمل به عن بينة من ربّه، وإن كان قد عمل به أهل النقل لصحة طريقه، وهو في نفس الأمر ليس كذلك، وقد ذكر مثل هذا مسلم في صدر كتابه الصحيح، وقد يعرف هذا المكاشف من وضع ذلك الحديث الصحيح طريقه في زعمهم، إمّا أن يسمّى له أو تقام له صورة الشخص فهؤلاء هم أنبياء الأولياء ولا يتفردون قط بشريعة ولا يكون لهم خطاب بها إلاّ بتعريف أن هذا هو شرع محمد ﷺ، أو يشاهد المنزل عليه بذلك الحكم في حضرة التمثّل الخارج عن ذاته والداخل المعبر عنه بالمبشرات في حق النائم.

غير أن الوليّ يشترك مع النبيّ في إدراك ما تدركه العامّة في النوم في حال اليقظة سواء، وقد أثبت هذا المقام للأولياء أهل طريقنا وإتيان هذا وهو الفعل بالهمة والعلم من غير معلم من المخلوقين غير الله، وهو علم الخضر، فإن آتاه الله العلم بهذه الشريعة التي تعبده بها على لسان رسول الله ﷺ بارتفاع الوسائط أعني الفقهاء وعلماء الرسوم كان من العلم اللدني ولم يكن من أنبياء هذه الأمّة، فلا يكون من يكون من الأولياء وارث نبيّ إلاّ على هذه الحالة الخاصة من مشاهدة الملك عند الإلقاء على حقيقة الرسول فافهم.

فهؤلاء هم أنبياء الأولياء، وتستوي الجماعة كلها في الدعاء إلى الله على بصيرة كما أمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ أن يقول: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] وهم أهل هذا المقام، فهم في هذه الأمّة مثل الأنبياء في بني إسرائيل على مرتبة تعبّد هارون بشريعة موسىٰ عليهما السلام مع كونه نبياً، فإن الله قد شهد بنبوّته وصرّح بها في القرآن، فمثل هؤلاء يحفظون الشريعة الصحيحة التي لا شك فيها على أنفسهم وعلى هذه الأمّة ممن اتبعهم فهم أعلم الناس بالشرع، غير أن الفقهاء لا يسلمون لهم ذلك، وهؤلاء لا يلزمهم إقامة الدليل على صدقهم بل يجب عليهم الكتم لمقامهم، ولا يردون على علماء الرسوم فيما ثبت عندهم مع علمهم بأن ذلك خطأ في نفس الأمر، فحكمهم حكم المجتهد الذي ليس له أن يحكم في

المسألة بغير ما أدّاه إليه اجتهاده وأعطاه دليله، وليس له أن يخطىء المخالف له في حكمه، فإن الشارع قد قرّر ذلك الحكم في حقّه، فالأدب يقتضي له أن لا يخطىء ما قرره الشارع حكماً، ودليله وكشفه يحكم عليه باتباع حكم ما ظهر له وشاهده.

وقد ورد الخبر عن النبي ﷺ أن علماء هذه الأمّة أنبياء بني إسرائيل يعني المنزلة التي أشرنا إليها، فإن أنبياء بني إسرائيل كانت تحفظ عليهم شرائع رسلهم وتقوم بها فيهم، وكذلك علماء هذه الأمّة وأئمتها يحفظون عليها أحكام رسولها ﷺ كعلماء الصحابة ومن نزل عنهم من التابعين وأتباع التابعين كالثوري وابن عيينة وابن سيرين والحسن ومالك وابن أبي رباح وأبي حنيفة، ومن نزل عنهم كالشافعيّ وابن حنبل، ومن جرى مجرى هؤلاء إلى هلم جراً في حفظ الأحكام. وطائفة أخرى من علماء هذه الأمّة يحفظون عليها أحوال الرسول ﷺ وأسرار علومه: كعليّ وابن عباس وسلمان وأبي هريرة وحذيفة. ومن التابعين: كالحسن البصري ومالك بن دينار وبنان الحمّال وأيوب السختيانيّ. ومن نزل عنهم بالزمان: كشيبان الراعي وفرج الأسود المعمر والفضيل بن عياض وذي النون المصري ومن نزل عنهم: كالجنيد والتستري، ومن جرى مجرى هؤلاء من السادة في حفظ الحال النبوي والعلم اللدني والسر الإلهيّ، فأسرار حفظة الحكم موقوفة في الكرسي عند القدمين إذ لم يكن لهم حال نبويّ يعطي سرّاً إلهيّاً ولا علماً لدنيّاً، وأسرار حفّاظ الحال النبويّ والعلم اللدني من علماء حفّاظ الحكم وغيرهم موقوفة عند العرش ولا موقوفة، ومنها ما لها مقام، ومنها ما لا مقام لها، وذلك مقام لها تتميز به، فإن ترك العلامة بين أصحاب العلامات علامة محققة غير محكوم عليها بتقييد وهي أسنى العلامات، ولا يكون ذلك إلاّ للمتمكن الكامل في الورث المحمدي.

وأما أقطاب الأمم المكملين في غير هذه الأمّة ممن تقدمَنا بالزمان فجماعة ذكرت لي أسماؤهم باللسان العربي لما أشهدتهم ورأيتهم في حضرة برزخية وأنا بمدينة قرطبة في مشهد أقدس، فكان منهم: المفرق، ومداوي الكلوم، والبكاء، والمرتفع، والشفاء، والماحق، والعاقب، والمنحور، وشحر الماء، وعنصر الحياة، والشريد، والراجع، والصانع، والطيار، والسالم، والخليفة، والمقسوم، والحيّ، والرامي، والواسع، والبحر، والملصق، والهادي، والمصلح، والباقي. فهؤلاء المكملون الذين سمّوا لنا من آدم عليه السلام إلى زمان محمد ﷺ.

وأما القطب الواحد فهو روح محمد ﷺ وهو الممدّ لجميع الأنبياء والرسل سلام الله عليهم أجمعين، والأقطاب من حين النشء الإنساني إلى يوم القيامة. قيل له ﷺ: متى كنت نبياً؟ فقال ﷺ: **«وآدمُ بَيْنَ الماء والطِّين»**. وكان اسمه مداوي الكلوم فإنه بجراحات الهوى خبير، والرأي والدنيا والشيطان والنفس بكل لسان نبوي أو رسالي أو لسان الولاية، وكان له نظر إلى موضع ولادة جسمه بمكة وإلى الشام، ثم صرف الآن نظره إلى أرض كثيرة الحر واليبس لا يصل إليها أحد من بني آدم بجسده إلاّ أنه قد رآها بعض الناس من مكة في مكانه من غير نقلة زويت له الأرض فرآها، وقد أخذنا نحن عنه علوماً جمّة بمآخذ مختلفة.

ولهذا الروح المحمدي مظاهر في العالم أكمل مظهره في قطب الزمان، وفي الأفراد. وفي ختم الولاية المحمدي، وختم الولاية العامّة الذي هو عيسىٰ عليه السلام وهو المعبر عنه بمسكنه. وسأذكر فيما بعد هذا الباب إن شاء الله ما له من كونه مداوي الكلوم من الأسرار وما انتشر عنه من العلوم، ثم ظهر هذا السرّ بعد ظهور حال مداوي الكلوم في شخص آخر اسمه المستسلم للقضاء والقدر، ثم انتقل الحكم منه إلى مظهر الحق، ثم انتقل من مظهر الحق إلى الهائج، ثم انتقل من الهائج إلى شخص يسمّى واضع الحكم وأظنه لقمان والله أعلم فإنه كان في زمان داود وما أنا منه على يقين أنه لقمان، ثم انتقل من واضع الحكم إلى الكاسب، ثم انتقل من الكاسب إلى جامع الحكم، وما عرفت لمن انتقل الأمر من بعده. وسأذكر في هذا الكتاب إذا جاءت أسماء هؤلاء ما اختصوا به من العلوم، ونذكر لكل واحد منهم مسألة إن شاء الله، ويجري ذلك على لساني فما أدري ما يفعل الله بي، ويكفي هذا القدر من هذا الباب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الثالث عشر.

(الجزء الرابع عشر)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الخامس عشر

في معرفة الأنفاس ومعرفة أقطابها المحققين بها وأسرارهم، هي:

[نظم: المديد]

عَالَمُ الأنفاسِ من نفسِي ... وهمُ الأعلَوْنَ في القُدُسِ
مُصْطَفاهم سيِّدٌ لَسِنٌ ... وخَبُيه يأتيه في الجَرَسِ
قلتُ للبوّاب حين رأى ... ما أقاسيه من الحَرَسِ
قال ما تبغيه يا ولدي ... قلتُ قربَ السيِّدِ النَّدِسِ
مَنْ شفيعي للإمام عَسَى ... خطرةٌ منه لمُختلِسِ
قال ما يعطي عَوَارِفَه ... لغنيٍّ غيرِ مُبْتَئِسِ

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ يَأْتِينِي مِنْ قِبَلِ اليَمَنِ**». قيل: إن الأنصار نفس الله بهم عن نبيه ﷺ ما كان فيه من مقاساة الكفار المشركين، والأنفاس روائح القرب الإلهيّ، فلما تنسمت مشامّ العارفين عرف هذه الأنفاس وتوفرت الدواعي منهم إلى طلب محقق ثابت القدم في ذلك المقام ينبئهم بما في طيّ ذلك المقام الأقدس وما جاءت به هذه الأنفاس من العرف الأنفس من الأسرار والعلوم بعد البحث بالهمم والتعرّض لنفحات الكرم عرّفوا بشخص إلهيّ عنده السرّ الذي يطلبونه والعلم الذي يريدون تحصيله وأقامه الحق فيهم قطباً يدور عليه فلكهم، وأما ما يقوم به ملكهم يقال له مداوي الكلوم فانتشر عنه فيهم من العلم والحكم والأسرار ما لا يحصرها كتاب، وأوّل سرّ أطلع عليه الدهر الأوّل الذي عنه تكوّنت الدهور، وأوّل فعل أعطي

فعل ما تقتضيه روحانية السماء السابعة سماء كيوان، فكان يصير الحديد فضة بالتدبير والصنعة، ويصير الحديد ذهباً بالخاصيّة وهو سرّ عجيب، ولم يطلب على هذا رغبة في المال ولكن رغبة في حسن المآل ليقف من ذلك على رتبة الكمال وأنه مكتسب في التكوين.

فإن المرتبة الأولى من عقد الأبخرة المعدنية بالحركات الفلكية والحرارة الطبيعية زئبقاً وكبريتاً، وكل متكوّن في المعدن فإنه يطلب الغاية الذي هو الكمال وهو الذهب، لكن تطرأ عليه في المعدن علل وأمراض من يبس مفرط أو رطوبة مفرطة أو حرارة أو برودة تخرجه عن الاعتدال فيؤثر فيه ذلك المرض صورة تسمّى الحديد أو النحاس أو الأسرب أو غير ذلك من المعادن، فأعطي هذا الحكيم معرفة العقاقير والأدوية المزيل استعمالها، تلك العلة الطارئة على شخصية هذا الطالب درجة الكمال من المعدنيات وهي الذهب فأزالها فصحّ ومشى حتى لحق بدرجة الكمال، ولكن لا يقوى في الكمالية قوّة الصحيح الذي ما دخل جسمه مرض، فإن الجسد الذي يدخله المرض بعيدٌ أن يتخلص وينقى الخلوص الذي لا يشوبه كدر وهو الخلاص الأصلي كيحيىٰ في الأنبياء وآدم عليهما السلام، ولم يكن الغرض إلاَّ درجة الكمال الإنساني في العبودية فإن الله خلقه ﴿ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين: الآية ٤] ثم ردّه ﴿ إِلَىٰٓ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [سورة التين: الآية ٥] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [سورة التين: الآية ٦] فأبقوا على الصحة الأصلية، وذلك أنه في طبيعته اكتسب علل الأعراض وأمراض الأغراض، فأراد هذا الحكيم أن يردّه إلى أحسن تقويم الذي خلقه الله عليه، فهذا كان قصد الشخص العاقل بمعرفة هذه الصنعة المسمّاة بالكيمياء، وليست سوى معرفة المقادير والأوزان، فإن الإنسان لما خلقه الله وهو آدم أصل هذه النشأة الإنسانية والصورة الجسمية الطبيعية العنصرية ركب جسده من حار وبارد ورطب ويابس، بل من بارد يابس، وبارد رطب، وحار رطب، وحار يابس، وهي الأخلاط الأربعة السوداء والبلغم والدم والصفراء كما هي في جسم العالم الكبير النار والهواء والماء والتراب، فخلق الله جسم آدم من طين وهو مزج الماء بالتراب، ثم نفخ فيه نفساً وروحاً.

ولقد ورد في النبوّة الأولى في بعض الكتب المنزلة على نبي في بني إسرائيل ما أذكر نصّه الآن فإن الحاجة مسّت إلى ذكره، فإن أصدق الأخبار ما روي عن الله تعالىٰ، فروينا عن مسلمة بن وضاح مسنداً إليه وكان من أهل قرطبة فقال: قال الله في بعض ما أنزله على أنبياء بني إسرائيل: إني خلقت يعني آدم من تراب وماء، ونفخت فيه نفساً وروحاً فسوّيت جسده من قبل التراب ورطوبته من الماء وحرارته من النفس وبرودته من الروح، قال: ثم جعلت في الجسد بعد هذا أربعة أنواع أخر لا تقوم واحدة منهن إلاَّ بالأخرى وهي: المرّتان والدم والبلغم، ثم أسكنت بعضهن في بعض، فجعلت مسكن اليبوسة في المرة السوداء، ومسكن الحرارة في المرّة الصفراء، ومسكن الرطوبة في الدم، ومسكن البرودة في البلغم، ثم قال جلّ ثناؤه: فأي جسد اعتدلت فيه هذه الأخلاط كملت صحته واعتدلت بنيته، فإن زادت واحدة منهنّ على الأخرى وقهرتهن دخل السقم على الجسد بقدر ما زادت، وإذا كانت ناقصة

ضعفت عن مقاومتهن فدخل السقم بغلبتهن إياها وضعفها عن مقاومتهن، فعلم الطب أن يزيد في الناقص أو ينقص من الزائد، طلب الاعتدال ـ في كلام طويل عن الله تعالىٰ ذكرناه في الموعظة الحسنة، فكان هذا الإمام من أعلم الناس بهذا النشء الطبيعيّ، وما للعالم العلوي فيه من الآثار المودعة في أنوار الكواكب وسباحتها وهو الأمر الذي أوحى الله في السموات وفي اقتراناتها وهبوطها وصعودها وأوجها وحضيضها قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢]. وقال في الأرض: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٠] وكان لهذا الشخص فيما ذكرناه مجال رحب وباع متسع وقدم راسخة، لكن ما تعدت قوّته في النظر الفلك السابع من باب الذوق والحال، لكن حصل له ما في الفلك المكوكب والأطلس بالكشف والاطلاع وكان الغالب عليه قلب الأعيان في زعمه، والأعيان لا تنقلب عندنا جملة واحدة، فكان هذا الشخص لا يبرح يسبح بروحانيته من حيث رصده وفكره مع المقابل في درجه ودقائقه، وكان عنده من أسرار إحياء الموات عجائب، وكان مما خصّه الله به أنه ما حلّ بموضع قد أجدب إلاَّ أوجد الله فيه الخصب والبركة، كما روينا عن رسول الله ﷺ في خضر رضي الله عنه وقد سئل عن اسمه بخضر فقال ﷺ: «**مَا قَعَدَ عَلَىٰ فَرْوَةٍ إِلاَّ اهْتَزَّتْ تَحْتَهُ خَضْرَاءَ**» وكان هذا الإمام له تلميذ كبير في المعرفة الذاتية وعلم القوّة، وكان يتلطف بأصحابه في التنبيه عليه ويستر عن عامة أصحابه ذلك خوفاً عليه منهم ولذلك سمّي مداوي الكلوم، كما استكتم يعقوب يوسف عليهما السلام حذراً عليه من إخوته، وكان يشغل عامّة أصحابه بعلم التدبير، ومثل ذلك مما يشاكل هذا الفن من تركيب الأرواح في الأجساد وتحليل الأجساد وتأليفها بخلع صورة عنها أو خلع صورة عليها ليقفوا من ذلك على صنعة الله العليم الحكيم.

وعن هذا القطب خرج علم العالم وكونه إنساناً كبيراً، وأن الإنسان مختصره في الجرمية مضاهيه في المعنى، فأخبرني الروح الذي أخذت منه ما أودعته في هذا الكتاب أنه جمع أصحابه يوماً في دسكرة وقام فيهم خطيباً وكانت عليه مهابة فقال: افهموا عني ما أرمزه لكم في مقامي هذا وفكروا فيه واستخرجوا كنزه واتساع زمانه في أيّ عالم هو وإني لكم ناصح، وما كل ما يدرى يذاع، فإنه لكل علم أهل يختص بهم، وما يتمكن الانفراد ولا يسع الوقت، فلا بدّ أن يكون في الجمع فطر مختلفة وأذهان غير مؤتلفة، والمقصود من الجماعة واحد إياه أقصد بكلامي وبيده مفتاح رمزي، ولكل مقام مقال، ولكل علم رجال، ولكل وارد حال، فافهموا عني ما أقول وعوا ما تسمعون، فبنور النور أقسمت، وبروح الحياة وحياة الروح آليت أني عنكم لمنقلب من حيث جئت، وراجع إلى الأصل الذي عنه وجدت، فقد طال مكثي في هذه الظلمة، وضاق نفسي بترادف هذه الغمة، وإني سألت الرحلة عنكم وقد أذن لي في الرحيل فاثبتوا على كلامي فتعقلون ما أقول بعد انقضاء سنين عينها وذكر عددها، فلا تبرحوا حتى آتيكم بعد هذه المدّة، وإن برحتم فلتسرعوا إلى هذا المجلس الكرّة، وإن لطف مغناه وغلب على الحرف معناه فالحقيقة الحقيقة، والطريقة الطريقة، فقد اشتركت الجنة والدنيا في اللبن والبناء، وإن كانت الواحدة من طين وتبن والأخرى من عسجد ولجين، هذا

ما كان من وصيته لبنيه، وهذه مسألة عظيمة رمزها وراح، فمن عرفها استراح.

ولقد دخلت يوماً بقرطبة على قاضيها أبي الوليد بن رشد وكان يرغب في لقائي لما سمع وبلغه ما فتح الله به عليّ في خلوتي فكان يظهر التعجّب مما سمع، فبعثني والدي إليه في حاجة قصداً منه حتى يجتمع بي فإنه كان من أصدقائه وأنا صبيّ ما بقل وجهي ولا طرّ شاربي، فعندما دخلت عليه قام من مكانه إليّ محبة وإعظاماً فعانقني وقال لي: نعم، قلت له: نعم، فزاد فرحه بي لفهمي عنه، ثم إني استشعرت بما أفرحه من ذلك فقلت له لا، فانقبض وتغيّر لونه وشكّ فيما عنده وقال: كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهيّ هل هو ما أعطاه لنا النظر؟ قلت له: نعم لا وبين نعم ولا تطير الأرواح من موادّها والأعناق من أجسادها، فاصفرّ لونه وأخذه الأفكل وقعد يحوقل وعرف ما أشرت به إليه وهو عين هذه المسألة التي ذكرها هذا القطب الإمام أعني مداوي الكلوم، وطلب بعد ذلك من أبي الاجتماع بنا ليعرض ما عنده علينا هل هو يوافق أو يخالف؟ فإنه كان من أرباب الفكر والنظر العقلي، فشكر الله تعالىٰ الذي كان في زمان رأى فيه من دخل خلوته جاهلاً وخرج مثل هذا الخروج من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة وقال: هذه حالة أثبتناها وما رأينا لها أرباباً، فالحمد لله الذي أنا في زمان فيه واحد من أربابها الفاتحين مغالق أبوابها، والحمد لله الذي خصّني برؤيته، ثم أردت الاجتماع به مرة ثانية فأقيم لي رحمه الله في الواقعة في صورة ضرب بيني وبينه فيها حجاب رقيق أنظر إليه منه ولا يبصرني ولا يعرف مكاني وقد شغل بنفسه عني، فقلت: إنه غير مراد لما نحن عليه فما اجتمعت به حتى درج وذلك سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة مراكش ونقل إلى قرطبة وبها قبره، ولما جعل التابوت الذي فيه جسده على الدابة جعلت تواليفه تعادله من الجانب الآخر وأنا واقف ومعي الفقيه الأديب أبو الحسين محمد بن جبير كاتب السيد أبي سعيد وصاحبي أبو الحكم عمرو بن السراج الناسخ، فالتفت أبو الحكم إلينا وقال: ألا تنظرون إلى من يعادل الإمام ابن رشد في مركوبه هذا الإمام وهذه أعماله يعني تواليفه، فقال له ابن جبير: يا ولدي نعم ما نظرت لا فُضَّ فوك. فقيدتها عندي موعظة وتذكرة، رحم الله جميعهم، وما بقي من تلك الجماعة غيري وقلنا في ذلك: [الكامل]

هــذا الإمــامُ وهــذه أعــمــالُــهُ يـا لـيـتَ شـعـري هـل أتَـتْ آمـالُـهُ

وكان هذا القطب مداوي الكلوم قد أظهر سرّ حركة الفلك، وأنه لو كان على غير هذا الشكل الذي أوجده الله عليه لم يصحّ أن يتكوّن شيء في الوجود الذي تحت حيطته وبين الحكمة الإلهية في ذلك ليري الألباب علم الله في الأشياء وأنه بكل شيء عليم، لا إله إلاّ هو العليم الحكيم.

وفي معرفة الذات والصفات علم ما أشار إليه هذا القطب، فلو تحرّك غير المستدير لما عمر الخلاء بحركته، وكانت أحياز كثيرة تبقى في الخلاء، فكان لا يتكوّن عن تلك الحركة تمام أمر، وكان ينقص منه قدر ما نقص من عمارة تلك الأحياز بالحركة، وذلك بمشيئة الله تعالىٰ وحكمته الجارية في وضع الأسباب، وأخبر هذا القطب أنّ العالم موجود ما بين

المحيط والنقطة على مراتبهم وصغر أفلاكهم وعظمها، وأن الأقرب إلى المحيط أوسع من الذي في جوفه، فيومه أكبر، ومكانه أفسح، ولسانه أفصح، وهو إلى التحقق بالقوّة والصفاء أقرب، وما انحطّ إلى العناصر نزل عن هذه الدرجة حتى إلى كرة الأرض، وكل جزء في كل محيط يقابل ما فوقه وما تحته بذاته، لا يزيد واحد على الآخر شيء، وإن اتسع الواحد وضاق الآخر، وهذا من إيراد الكبير على الصغير، والواسع على الضيق، من غير أن يوسع الضيق أو يضيق الواسع، والكل ينظر إلى النقطة بذواتهم، والنقطة مع صغرها تنظر إلى كل جزء من المحيط بها بذاتها، فالمختصر المحيط، والمختصر منه النقطة وبالعكس فانظر. ولما انحطّ الأمر إلى العناصر حتى انتهى إلى الأرض كثر عكره مثل الماء في الحب والزيت، وكل مائع في الدن ينزل إلى أسفله عكره ويصفو أعلاه، والمعنى في ذلك ما يجده عالم الطبيعة من الحجب المانعة عن إدراك الأنوار من العلوم والتجليات بكدورات الشهوات والشبهات الشرعية، وعدم الورع في اللسان والنظر والسماع والمطعم والمشرب والملبس والمركب والمنكح، وكدورات الشهوات بالانكباب عليها والاستفراغ فيها وإن كانت حلالاً، وإنما لم يمنع نيل الشهوات في الآخرة، وهي أعظم من شهوات الدنيا من التجلّي، لأن التجلّي هناك على الأبصار، وليست الأبصار بمحل للشهوات، والتجلّي هنا في الدنيا إنما هو على البصائر والبواطن دون الظاهر، والبواطن محل الشهوات، ولا يجتمع التجلّي والشهوة في محل واحد، فلهذا جنح العارفون والزهّاد في هذه الدنيا إلى التقليل من نيل شهواتها والشغل بكسب حطامها.

وهذا الإمام هو الذي أعلم أصحابه أن ثَمّ رجالاً سبعة يقال لهم الأبدال يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة لكل بدل إقليم، وإليهم تنظر روحانيات السموات السبع، ولكل شخص منهم قوّة من روحانيات الأنبياء الكائنين في هذه السموات وهم: إبراهيم الخليل، يليه موسىٰ، يليه هارون، يتلوه إدريس، يتلوه يوسف، يتلوه عيسىٰ، يتلوه آدم سلام الله عليهم أجمعين. وأمّا يحيىٰ فله تردّد بين عيسىٰ وبين هارون فينزل على قلوب هؤلاء الأبدال السبعة من حقائق هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، وتنظر إليهم هذه الكواكب السبعة بما أودع الله تعالىٰ في سباحتها في أفلاكها، وبما أودع الله في حركات هذه السموات السبع من الأسرار والعلوم والآثار العلوية والسفلية، قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] فلهم في قلوبهم في كل ساعة وفي كل يوم بحسب ما يعطيه صاحب تلك الساعة وسلطان ذلك اليوم.

فكل أمر علمي يكون في يوم الأحد فمن مادّة إدريس عليه السلام، وكل أثر علوي يكون في ذلك اليوم في عنصر الهواء والنار فمن سباحة الشمس ونظرها المودع من الله تعالىٰ فيها، وما يكون من أثر في عنصر الماء والتراب في ذلك اليوم فمن حركة الفلك الرابع وموضع هذا الشخص الذي يحفظه من الأقاليم الإقليم الرابع، فممّا يحصل لهذا الشخص المخصوص من الأبدال بهذا الإقليم من العلوم علم أسرار الروحانيات، وعلم النور والضياء، وعلم البرق والشعاع، وعلم كل جسم مستنير، ولماذا استنار؟ وما المزاج الذي أعطاه هذا القبول مثل الحباحب من الحيوان، وكأصول شجر التين من النبات، وكحجر المهى

والياقوت، وبعض لحوم الحيوان، وعلم الكمال في المعدن والنبات والحيوان والإنسان والملك، وعلم الحركة المستقيمة حيثما ظهرت في حيوان أو نبات، وعلم معالم التأسيس وأنفاس الأنوار، وعلم خلع الأرواح المدبرات وإيضاح الأمور المبهمات، وحل المشكل من المسائل الغامضة، وعلم النغمات الفلكية والدولابية، وأصوات آلات الطرب من الأوتار وغيرها، وعلم المناسبة بينها وبين طبائع الحيوان وما للنبات منها، وعلم ما إليه تنتهي المعاني الروحانية والروائح العطرية، وما المزاج الذي عطرها؟ ولماذا ترجع؟ وكيف ينقلها الهواء إلى الإدراك الشميّ، وهل هو جوهر أو عرض؟ كل ذلك يناله ويعلمه صاحب ذلك الإقليم في ذلك اليوم وفي سائر الأيام في ساعات حكم حركة ذلك الفلك، وحكم ما فيه من الكواكب، وما فيه من روحانية النبيّ، هكذا إلى تمام دورة الجمعة.

وكل أمر علمي يكون في يوم الاثنين فمن روحانية آدم عليه السلام، وكل أثر علوي في عنصر الهواء والنار فمن سباحة القمر، وكل أثر سفلي في عنصر الماء والتراب فمن حركة فلك السماء الدنيا، ولهذا الشخص الإقليم السابع، فما يحصل لهذا البدل من العلوم في نفسه في يوم الاثنين وفي كل ساعة من ساعات أيام الجمعة مما يكون لهذا الفلك حكم فيها علم السعادة والشقاء، وعلم الأسماء وما لها من الخواص، وعلم المدّ والجزر والربو والنقص.

وكل أمر علمي يكون في يوم الثلاثاء فمن روحانية هارون عليه السلام، وكل أثر علوي في عنصر النار والهواء فمن روحانية الأحمر، وكل أثر سفلي في ركن الماء والتراب فمن حركة الفلك الخامس، ولهذا البدل من الأقاليم الإقليم الثالث، فما يعطيه من العلوم في هذا اليوم وفي ساعاته من الأيام علم تدبير الملك وسياسته، وعلم الحمية والحماية، وترتيب الجيوش والقتال، ومكايد الحروب، وعلم القرابين، وذبح الحيوان، وعلم أسرار أيام النحر وسريانه في سائر البقاع، وعلم الهدى والضلال، وتميّز الشبهة من الدليل.

وكل أمر علمي يكون في يوم الأربعاء فمن روحانية عيسىٰ عليه السلام وهو يوم النور، وكان له نظر إلينا في دخولنا في هذا الطريق التي نحن اليوم عليها، وكل أثر في عنصر النار والهواء، فمن روحانية سباحة الكاتب في فلكه، وكل أثر سفلي في ركن الماء والتراب فمن حركة فلك السماء الثانية، وللبدل صاحب هذا اليوم الإقليم السادس، ومما يحصل له من العلوم في هذا اليوم وفي ساعته من الأيام علم الأوهام والإلهام، والوحي والآراء، والأقيسة، والرؤيا، والعبادة، والاختراع الصناعي والعطردة، وعلم الغلط الذي يعلق بعين الفهم، وعلم التعاليم، وعلم الكتابة، والآداب والزجر، والكهانة، والسحر، والطلسمات، والعزائم.

وكل أمر علمي يكون في يوم الخميس فمن روحانية موسىٰ عليه السلام، وكل أثر علوي في ركن النار والهواء فمن سباحة المشتري، وكل أثر سفلي في عنصر الماء والتراب فمن حركة فلكه، ولهذا البدل من الأقاليم الإقليم الثاني، ومما يحصل له من العلوم في هذا اليوم وفي ساعاته من الأيام علم النبات والنواميس، وعلم أسباب الخير ومكارم الأخلاق، وعلم القربات، وعلم قبول الأعمال وأين ينتهي بصاحبها.

وكل أمر علمي يكون في يوم الجمعة يكون لهذا الشخص الذي يحفظ الله به الإقليم الخامس فمن روحانية يوسف عليه السلام، وكل أثر علوي يكون في ركن النار والهواء فمن نظر كوكب الزهرة، وكل أثر سفلي في ركن الماء والأرض فمن حركة فلك الزهرة وهو من الأمر الذي أوحى الله في كل سماء، وهذه الآثار هي الأمر الإلهيّ الذي يتنزل بين السماء والأرض، وهو في كل ما يتولد بينهما بين السماء بما ينزل منها، وبين الأرض بما تقبل من هذا النزول، كما يقبل رحم الأنثى الماء من الرجل للتكوين، والهواء الرطب من الطير، قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] والقدرة ما لها تعلق إلاّ بالإيجاد، فعلمنا أنّ المقصود بهذا التنزّل إنما هو التكوين، ومما يحصل له من العلوم في هذا اليوم وفي ساعاته من الأيام علم التصوير من حضرة الجمال والإنس وعلم الأحوال.

وكل أمر علمي يكون في يوم السبت لهذا البدل الذي له حفظ الإقليم الأوّل فمن روحانية إبراهيم الخليل عليه السلام وما يكون فيه من أثر علويّ في ركن النار والهواء، فمن حركة كوكب كيوان في فلكه، وما كان من أثر في العالم السفلي ركن الأرض والماء، فمن حركة فلكه يقول تعالىٰ في الكواكب السيارة: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٣] وقال تعالىٰ: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٦] فخلقها للاهتداء بها، ومما يحصل له من العلوم في هذا اليوم وفي ساعاته من باقي الأيام ليلاً ونهاراً علم النبات والتمكين، وعلم الدوام والبقاء، وعلم هذا الإمام بمقامات هؤلاء الأبدال وهجيراهم، وقال: إن مقام الأوّل وهجيره ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وسبب ذلك كون الأوّلية له، إذ لو تقدّم له مثل لما صحّت له الأوّلية، فذكره مناسب لمقامه ومقام الشخص الثاني في هجيره ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٩] وهو مقام العلم الإلهيّ وتعلقه لا ينتهي وهو الثاني من الأوصاف، فإن أوّل الأوصاف الحياة ويليه العلم، وهجير الشخص الثالث ومقامه ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢١] وهي المرتبة الثالثة، فإن الآيات الأول هي الأسماء الإلهيّة، والآيات الثواني في الآفاق والآيات التي تلي الثواني في أنفسنا، قال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] فلهذا اختصّ بهذا الهجير الثالث من الأبدال.

ومقام الرابع في هجيره: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [سورة النبأ: الآية ٤٠] وهو الركن الرابع من الأركان الذي يطلب المركز عند من يقول به، فليس لنقطة الأكرة أقرب من الأرض، وتلك النقطة كانت سبب وجود المحيط، فهو يطلب القرب من الله موجد الأشياء ولا يحصل إلاّ بالتواضع ولا أنزل في التواضع من الأرض وهي منابع العلوم وتفجر الأنهار، وكل ما ينزل من المعصرات فإنما هو من بخارات الرطوبات التي تصعد من الأرض فمنها تتفجّر العيون والأنهار، ومنها تخرج البخارات إلى الجوّ فتستحيل ماء فينزل غيثاً، فلهذا اختصّ الرابع بالرابع من الأركان.

ومقام الخامس: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٣] ولا يسأل إلاّ المولود فإنه في مقام الطفولة من الطفل وهو الندا، قال تعالىٰ: ﴿أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ

أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [سورة النحل: الآية ٧٨] فلا يعلم حتى يسأل، فالولد في المرتبة الخامسة لأن أمّهاته أربعة وهن الأركان فكان هو العين الخامسة، فلهذا كان السؤال هجير البدل الخامس من بين الأبدال.

وأمّا مقام السادس فهجيره: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة غافر: الآية ٤٤] وهي المرتبة السادسة فكانت للسادس وإنما كانت السادسة له لأنه في المرتبة الخامسة كما ذكرنا يسأل وقد كان لا يعلم فعندما سأل علم ولما علم تحقّق بعلمه بربّه ففوّض أمره إليه لأنه علم أن أمره ليس بيده منه شيء و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة الحج: الآية ١٤] فقال: قد علمت أن الله لما ملكني أمري وهو يفعل ما يريد علمت أن التفويض في ذلك أرجح لي فلذلك أتخذه هجيراً.

ومقام السابع: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] وذلك أن لها الرتبة السابعة، وكان أيضاً تكوين آدم المعبر عنه بالإنسان في الرتبة السابعة، فإنه عن عقل، ثم نفس، ثم هباء، ثم فلك، ثم فاعلان، ثم منفعلان، فهذه ستة. ثم تكوّن الإنسان الذي هو آدم في الرتبة السابعة. ولما كان وجود الإنسان في السنبلة ولها من الزمان في الدلالة سبعة آلاف سنة فوجد الإنسان في الرتبة السابعة من المدة، فما حمل الأمانة إلاّ من تحقّق بالسبعة وكان هذا هو السابع من الأبدال فلذلك اتخذ هجيراه هذه الآية.

فهذا قد بينّا لك مراتب الأبدال، وأخبرت أنّ هذا القطب الذي هو مداوي الكلوم كان في زمان حبسه في هيكله وولايته في العالم، إذا وقف وقف لوقفته سبعون قبيلة كلهم قد ظهرت فيهم المعارف الإلهية وأسرار الوجود، وكان أبداً لا يتعدى كلامه السبعة، ومكث زماناً طويلاً في أصحابه، وكان يعين في زمانه من أصحابه شخصاً فاضلاً كان أقرب الناس إليه مجلساً كان اسمه المستسلم، فلما درج هذا الإمام ولي مقامه في القطبية المستسلم وكان غالب علمه علم الزمان وهو علم شريف منه يعرف الأزل ومنه ظهر قوله عليه السلام: «**كَانَ اللّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ**» . وهذا علم لا يعلمه إلاّ الأفراد من الرجال وهو المعبّر عنه بالدهر الأول ودهر الدهور، وعن هذا الأزل وجد الزمان وبه تسمّى الله بالدهر وهو قوله عليه السلام: «**لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللّهَ هُوَ الدَّهْرُ**» والحديث صحيح ثابت، ومن حصل له علم الدهر لم يقف في شيء ينسبه إلى الحق فإنّ له الاتساع الأعظم.

ومن هذا العلم تعدّدت المقالات في الإله، ومنه اختلفت العقائد، وهذا العلم يقبلها كلها ولا يردّ منها شيئاً، وهو العلم العامّ، وهو الظرف الإلهيّ، وأسراره عجيبة ما له عين موجودة، وهو في كل شيء حاكم يقبل الحق نسبته، ويقبل الكون نسبته، هو سلطان الأسماء كلها المعينة والمغيبة عنّا، فكان لهذا الإمام فيه اليد البيضاء، وكان له من علمه بدهر الدهور علم حكمة الدنيا في لعبها بأهلها ولم سمّي لعباً والله أوجده، وكثيراً ما ينسب اللعب إلى الزمان فيقال: لعب الزمان بأهله، وهو متعلق السابقة، وهو الحاكم في العاقبة، وكان هذا الإمام يذمّ الكسب ولا يقول به مع معرفته بحكمته، ولكن كان يرقي بذلك همم أصحابه عن التعلّق بالوسائط، أخبرت أنه ما مات حتى علم من أسرار الحق في خلقه ستة وثلاثين ألف علم

وخمسمائة علم من العلوم العلوية خاصة، ومات رحمه الله وولي بعده شخص فاضل اسمه مظهر الحق عاش مائة وخمسين سنة ومات، وولي بعده الهائج وكان كبير الشأن ظهر بالسيف عاش مائة وأربعين سنة مات مقتولاً في غزاة. كان الغالب على حاله من الأسماء الإلهيّة القهار.

ولما قتل ولّي بعده شخص يقال له لقمان والله أعلم وكان يلقب واضع الحكم. عاش مائة وعشرين سنة، كان عارفاً بالترتيب والعلوم الرياضية والطبيعية والإلهيّة، وكان كثير الوصية لأصحابه، فإن كان هو لقمان فقد ذكر الله لنا ما كان يوصي به ابنه ممّا يدل على رتبته في العلم بالله وتحريضه على القصد والاعتدال في الأشياء في عموم الأحوال. ولما مات رحمه الله وكان في زمان داود عليه السلام وُلّي بعده شخص اسمه الكاسب وكانت له قدم راسخة في علم المناسبات بين العالمين، والمناسبة الإلهيّة التي وجد لها العالم على هذه الصورة التي هو عليها كان هذا الإمام إذا أراد إظهار أثر ما في الوجود نظر في نفسه إلى المؤثر فيه من العالم العلوي نظرة مخصوصة على وزن معلوم، فيظهر ذلك الأثر من غير مباشرة ولا حيلة طبيعية، وكان يقول: إن الله أودع العلم كله في الأفلاك، وجعل الإنسان مجموع رقائق العالم كله، فمن الإنسان إلى كل شيء في العالم، رقيقة ممتدّة من تلك الرقيقة، يكون من ذلك الشيء في الإنسان ما أودع الله عند ذلك الشيء من الأمور التي أمنه الله عليها ليؤديها إلى هذا الإنسان، وبتلك الرقيقة يحرّك الإنسان العارف ذلك الشيء لما يريده، فما من شيء في العالم إلاّ وله أثر في الإنسان وللإنسان أثر فيه، فكان لهذا كشف هذه الرقائق ومعرفتها وهي مثل أشعة النور، عاش هذا الإمام ثمانين سنة، ولما مات ورثه شخص يسمّى جامع الحكم عاش مائة وعشرين سنة له كلام عظيم في أسرار الأبدال والشيخ والتلميذ، وكان يقول بالأسباب، وكان قد أُعطي أسرار النبات، وكان له في كل علم يختص بأهل هذا الطريق قدم، وفيما ذكرناه في هذا الباب غنية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس عشر

في معرفة المنازل السفلية والعلوم الكونية، ومبدأ معرفة الله منها، ومعرفة الأوتاد والأبدال، ومن تولاهم من الأرواح العلوية وترتيب أفلاكها

[نظم: البسيط]

عِلْمُ الكشائف أعلامٌ مرتَّبةٌ ... هي الدليلُ على المطلوب للرُّسُلِ
وهي التي حجبتْ أسرارَ ذي عَمَهٍ ... وهي التي كشفت معالمَ السُّبُلِ
لها من العالَم العلويِّ سبْعَتُهُ ... من الهلال وخذ علواً إلى زُحَلِ
لولا الذي أوجد الأوتادَ أربعةً ... رسى بها الأرض فاتَّزَتْ من المَيَلِ
لما استقرَّ عليها من يكون بها ... فاعجَبْ به مثلاً ناهيك من مَثَلِ

اعلم أيّدك الله أنا قد ذكرنا في الباب الذي قبل هذا منازل الأبدال ومقاماتهم، ومن تولاهم من الأرواح العلوية وترتيب أفلاكها، وما للنيرات فيهم من الآثار وما لهم من

الأقاليم، فلنذكر في هذا الباب ما بقي مما ترجمت عليه المنازل السفلية هنا عبارة عن الجهات الأربع التي يأتي منها الشيطان إلى الإنسان وسمّيناها سفلية لأن الشيطان من عالم السفل، فلا يأتي إلى الإنسان إلاً من المنازل التي تناسبه وهي: اليمين والشمال والخلف والأمام. قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧] ويستعين على الإنسان بالطبع فإنه المساعد له فيما يدعوه إليه من اتباع الشهوات، فأمر الإنسان أن يقاتله من هذه الجهات، وأن يحصن هذه الجهات بما أمره الشرع أن يحصنها به حتى لا يجد الشيطان إلى الدخول إليه منها سبيلاً، فإن جاءك من بين يديك وطردته لاحت لك من العلوم علوم النور منة من الله عليك وجزاء حيث آثرت جناب الله على هواك، وعلوم النور على قسمين: علوم كشف وعلوم برهان بصحيح فكر، فيحصل له من طريق البرهان ما يرد به الشبه المضلة القادحة في وجود الحق وتوحيده وأسمائه وأفعاله، فبالبرهان يرد على المعطلة، ويدل على إثبات وجود الإله وبه يرد على أهل الشرك: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٦] ويدل على توحيد الإله من كونه إلهاً، وبه يرد على من ينفي أحكام الأسماء الإلهية وصحة آثارها في الكون، ويدل على إثباتها بالبرهان السمعي من طريق الإطلاق، وبالبرهان العقلي من طريق المعاني، وبه يرد على نفاة الأفعال من الفلاسفة، ويدل على أنه سبحانه فاعل، وأن المفعولات مرادة له سمعاً وعقلاً.

وأما علوم الكشف فهو ما يحصل له من المعارف الإلهيّة في التجليات في المظاهر وإن جاءك من خلفك وهو ما يدعوك إليه أن تقول على الله ما لا تعلم وتدعي النبوّة والرسالة وأن الله قد أوحى إليك، وذلك أن الشيطان إنما ينظر في كل ملة كل صفة علّق الشارع المذمة عليها في تلك الأمّة فيأمرك بها، وكل صفة علّق المحمدة عليها نهاك عنها هذا على الإطلاق، والملك على النقيض منه يأمرك بالمحمود منها وينهاك عن المذموم، فإذا طردته من خلفك لاحت لك علوم الصدق ومنازله وأين ينتهي بصاحبه كما قال تعالىٰ: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٥] إلاً أن ذلك صدقهم هو الذي أقعدهم ذلك المقعد ﴿عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٥] فإن الاقتدار يناسب الصدق فإن معناه القوي يقال رمح صدق أي صلب قوي، ولما كانت القوّة صفة هذا الصادق حيث قوي على نفسه فلم يتزين بما ليس له والتزم الحق في أقواله وأحواله وأفعاله وصدق فيها أقعده الحق ﴿عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٥] أي أطلعه على القوّة الإلهيّة التي أعطته القوّة في صدقه الذي كان عليه، فإن الملك هو الشديد أيضاً فهو مناسب للمقتدر، قال قيس بن الخطيم يصف طعنة: [الطويل]

ملَكْتُ بها كفي فأنْهَرْتُ فتْقَها ... يرى قائمٌ من دونها ما وراءَها

أي شددت كفي بها، يقال: ملكت العجين إذا شددت عجنه، فيحصل لك إذا خالفته في هذا الأمر الذي جاءك به علم تعلق الاقتدار الإلهيّ بالإيجاد وهي مسألة خلاف بين أهل الحقائق من أصحابنا، ويحصل لك علم العصمة والحفظ الإلهيّ حتى لا يؤثر فيك وهمك ولا غيرك فتكون خالصاً لربّك، وإن جاءك من جهة اليمين فقويت عليه ودفعته فإنه إذا جاءك من

هذه الجهة الموصوفة بالقوّة فإنه يأتي إليك ليضعف إيمانك ويقينك ويلقي عليك شبهاً في أدلتك ومكاشفاتك، فإنه له في كل كشف يطلعك الحق عليه أمراً من عالم الخيال ينصبه لك مشابهاً لحالك الذي أنت به في وقتك، فإن لم يكن لك علم قوي بما تميّز به بين الحق وما يخيله لك فتكون موسوي المقام، وإلاّ التبس عليك الأمر كما خيلت السحرة للعامّة أن الحبال والعصيّ حيات ولم تكن كذلك.

وقد كان موسىٰ عليه السلام لما ألقى عصاه فكانت ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٢٠] خاف منها على نفسه على مجرى العادة، وإنما قدم الله بين يديه معرفة هذا قبل جمع السحرة ليكون على يقين من الله أنها آية وأنها لا تضره، وكان خوفه الثاني عندما ألقت السحرة الحبال والعصي فصارت حيات في أبصار الحاضرين على الأمّة لئلا يلتبس عليهم الأمر، فلا يفرقون بين الخيال والحقيقة، أو بين ما هو من عند الله وبين ما ليس من عند الله، فاختلف تعلق الخوفين فإنه عليه السلام على بينة من ربّه قويّ الجأش بما تقدم له إذ قيل له في الإلقاء الأوّل: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٢١] أي ترجع عصاً كما كانت في عينك، فأخفى تعالىٰ العصا في روحانية الحية البرزخية فتلقفت جميع حيات السحرة المتخيلة في عيون الحاضرين، فلم يبق لتلك الحبال والعصيّ عين ظاهرة في أعينهم وهي ظهور حجته على حججهم في صور حبال وعصيّ، فأبصرت السحرة والناس حبال السحرة وعصيهم التي ألقوها حبالاً وعصياً، فهذا كان تلقفها لا أنها انعدمت الحبال والعصيّ، إذ لو انعدمت لدخل عليهم التلبيس في عصا موسىٰ وكانت الشبهة تدخل عليهم، فلما رأى الناس الحبال حبالاً علموا أنها مكيدة طبيعية يعضدها قوّة كيدية روحانية فتلقفت عصا موسىٰ صور الحيات من الحبال والعصي، كما يبطل كلام الخصم إذا كان على غير حق أن يكون حجة لا أن ما أتى به ينعدم بل يبقى محفوظاً معقولاً عند السامعين ويزول عندهم كونه حجة، فلما علمت السحرة قدر ما جاء به موسىٰ من قوّة الحجة وأنه خارج عمّا جاؤوا به وتحققت شفوف ما جاء به على ما جاؤوا به ورأوا خوفه علموا أن ذلك من عند الله ولو كان من عنده لم يخف لأنه يعلم ما يجري، فآيته عند السحرة خوفه، وآيته عند الناس تلقف عصاه فآمنت السحرة، قيل: كانوا ثمانين ألف ساحر، وعلموا أن أعظم الآيات في هذا الموطن تلقف هذه الصور من أعين الناظرين وإبقاء صورة حيّة عصا موسىٰ في أعينهم والحال عندهم واحدة، فعلموا صدق موسىٰ فيما يدعوهم إليه، وأن هذا الذي أتى به خارج عن الصور والحيل المعلومة في السحر، فهو أمر إلهيّ ليس لموسىٰ عليه السلام فيه تعمُّل، فصدقوا برسالته على بصيرة، واختاروا عذاب فرعون على عذاب الله، وآثروا الآخرة على الدنيا، وعلموا من علمهم بذلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] وأن الحقائق لا تتبدل، وأن عصا موسىٰ مبطونة في صورة الحية عن أعين الجميع وعن الذي ألقاها بخوفه الذي شهدوا منه، فهذه فائدة العلم.

وإن جاءك الشيطان من جهة الشمال بشبهات التعطيل أو وجود الشريك لله تعالىٰ في

ألوهيته فطردته فإن الله يقوّيك على ذلك بدلائل التوحيد وعلم النظر، فإن الخلف للمعطلة ودفعهم بضرورة العلم الذي يعلم به وجود الباري، فالخلف للتعطيل، والشمال للشرك، واليمين للضعف، ومن بين أيديهم التشكيك في الحواس، ومن هنا دخل التلبيس على السوفسطائية حيث أدخل لهم الغلط في الحواس وهي التي يستند إليها أهل النظر في صحة أدلتهم وإلى البديهيات في العلم الإلهيّ وغيره، فلما أظهر لهم الغلط في ذلك قالوا ما ثَمَّ علم أصلاً يوثق به، فإن قيل لهم: فهذا علم بأنه ما ثَمَّ علم فما مستندكم وأنتم غير قائلين به؟ قالوا: وكذلك نقول إن قولنا هذا ليس بعلم وهو من جملة الأغاليط، يقال لهم: فقد علمتم أن قولكم هذا ليس بعلم، وقولكم إن هذا أيضاً من جملة الأغاليط إثبات ما نفيتموه، فأدخل عليهم الشبه فيما يستندون إليه في تركيب مقدماتهم في الأدلة ويرجعون إليه فيها ولهذا عصمنا الله من ذلك، فلم يجعل للحسّ غلطاً جملة واحدة، وأن الذي يدركه الحسّ حق فإنه موصل ما هو حاكم بل شاهد، وإنما العقل هو الحاكم والغلط منسوب إلى الحاكم في الحكم، ومعلوم عند القائلين بغلط الحسّ، وغير القائلين به أن العقل يغلط إذا كان النظر فاسداً أعني نظر الفكر، فإن النظر ينقسم إلى صحيح وفاسد فهذا هو من بين أيديهم.

ثم لتعلم أن الإنسان قد جعله الحق قسمين في ترتيب مدينة بدنه، وجعل القلب بين القسمين منه كالفاصل بين الشيئين، فجعل في القسم الأعلى الذي هو الرأس جميع القوىٰ الحسيّة والروحانية، وما جعل في النصف الآخر من القوىٰ الحسّاسة إلاّ حاسة اللمس، فيدرك الخشن واللين والحار والبارد والرطب واليابس بروحه الحساس من حيث هذه القوّة الخاصة السارية في جميع بدنه لا غير ذلك. وأمّا من القوىٰ الطبيعية المتعلقة بتدبير البدن فالقوّة الجاذبة وبها تجذب النفس الحيوانية ما به صلاح العضو من الكبد والقلب، والقوّة الماسكة وبها تمسك ما جذبته الجاذبة على العضو حتى يأخذ منه ما فيه منافعه. فإن قلت: فإذا كان المقصود المنفعة فمن أين دخل المرض على الجسد؟ فاعلم أن المرض من الزيادة على ما يستحقه من الغذاء أو النقص مما يستحقه فهذه القوّة ما عندها ميزان الاستحقاق، فإذا جذبت زائداً على ما يحتاج إليه البدن أو نقصت عنه كان المرض فإن حقيقتها الجذب ما حقيقتها الميزان، فإذا أخذته على الوزن الصحيح فذلك لها بحكم الاتفاق، ومن قوّة أخرى لا بحكم القصد وذلك ليعلم المحدث نقصه و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة الحج: الآية ١٤] وكذلك فيه أيضاً القوّة الدافعة وبها يعرق البدن، فإن الطبيعة ما هي دافعة بمقدار مخصوص لأنها تجهل الميزان وهي محكومة لأمر آخر من فضول تطرأ في المزاج تعطيها القوّة الشهوانية، وكذلك أيضاً هذا كله سار في جميع البدن علواً وسفلاً.

وأما سائر القوىٰ فمحلها النصف الأعلى وهو النصف الأشرف محل وجود الحياتين: حياة الدم وحياة النفس، فأيّ عضو مات من هذه الأعضاء زالت عنه القوىٰ التي كانت فيه من المشروط وجودها بوجود الحياة، وما لم يمت العضو وطرأ على محل قوّة ما خلل فإن حكمها يفسد ويتخبط ولا يعطي علماً صحيحاً، كمحل الخيال إذا طرأت فيه علة فالخيال لا

يبطل، وإنما يبطل قبول الصحة فيما يراه علماً، وكذلك العقل وكل قوّة روحانية. وأما القوىٰ الحسيّة فهي أيضاً موجودة لكن تطرأ حجب بينها وبين مدركاتها في العضو القائمة به من ماء ينزل في العين وغير ذلك.

وأما القوىٰ ففي محالها ما زالت ولا برحت ولكن الحجب طرأت فمنعت، فالأعمى يشاهد الحجاب ويراه وهو الظلمة التي يجدها فهي ظلمة الحجاب فمشهده الحجاب، وكذلك ذائق العسل والسكر إذا وجده مراً فالمباشر للعضو القائم به قوّة الذوق إنما هو المرة الصفراء فلذلك أدرك المرارة، فالحسّ يقول: أدركت مرارة، والحاكم إن أخطأ يقول: هذا السكر مرّ، وإن أصاب عرف العلة فلم يحكم على السكر بالمرارة وعرف ما أدركت القوّة وعرف أن الحسّ الذي هو الشاهد مصيب على كل حال، وأن القاضي يخطىء ويصيب.

فصل: وأما معرفة الحق من هذا المنزل فاعلم أن الكون لا تعلق له بعلم الذات أصلاً وإنما متعلقه العلم بالمرتبة وهو مسمّى الله فهو الدليل المحفوظ الأركان الساد على معرفة الإله، وما يجب أن يكون عليه سبحانه من أسماء الأفعال ونعوت الجلال، وبأية حقيقة يصدر الكون من هذه الذات المنعوتة بهذه المرتبة المجهولة العين والكيف، وعندنا لا خلاف في أنها لا تعلم بل يطلق عليها نعوت تنزيه صفات الحدث، وأن القدم لها والأزل الذي يطلق لوجودها إنما هي أسماء تدل على سلوب من نفي الأولية وما يليق بالحدوث، وهذا يخالفنا فيه جماعة من المتكلمين الأشاعرة، ويتخيلون أنهم قد علموا من الحق صفة نفسية ثبوتية، وهيهات أنّى لهم بذلك، وأخذت طائفة ممن شاهدناهم من المتكلمين كأبي عبد الله الكتانيّ، وأبي العباس الأشقر، والضرير السلاوي صاحب الأرجوزة في علم الكلام على أبي سعيد الخراز، وأبي حامد وأمثالهما في قولهم: لا يعرف الله إلاّ الله. وإنما اختلف أصحابنا في رؤية الله تعالىٰ إذا رأيناه في الدار الآخرة بالأبصار ما الذي نرى؟ وكلامهم فيه معلوم عند أصحابنا، وقد أوردنا تحقيق ذلك في هذا الكتاب مفرّقاً في أبواب منازله وغيرها بطريق الإيماء لا بالتصريح فإنه مجال ضيق تقف العقول فيه لمناقضته أدلتها، فهو المرئي سبحانه على الوجه الذي قاله وقاله رسول الله ﷺ وعلى ما أراده من ذلك، فإن الناظرين فيما قاله وأوحى به إلينا اختلفوا في تأويله، وليس بعض الوجوه بأولى من بعض، فتركنا الخوض في ذلك إذ الخلاف فيه لا يرتفع من العالم بكلامنا ولا بما نورده فيه.

فصل: وأما حديث الأوتاد الذي يتعلق معرفتهم بهذا الباب فاعلم أن الأوتاد الذي يحفظ الله بهم العالم أربعة لا خامس لهم وهم أخصّ من الأبدال، والإمامان أخصّ منهم، والقطب هو أخصّ الجماعة، والأبدال في هذا الطريق لفظ مشترك، يطلقون الأبدال على من تبدلت أوصافه المذمومة بالمحمودة، ويطلقونه على عدد خاص وهم أربعون عند بعضهم لصفة يجتمعون فيها، ومنهم من قال عددهم سبعة، والذين قالوا سبعة منّا من جعل السبعة الأبدال خارجين عن الأوتاد متميزين، ومنا من قال: إن الأوتاد الأربعة من الأبدال فالأبدال سبعة، ومن هذه السبعة أربعة هم: الأوتاد، واثنان هما الإمامان، وواحد هو: القطب، وهذه

الجملة هم الأبدال. وقالوا: سمّوا أبدالاً لكونهم إذا مات واحد منهم كان الآخر بدله، ويؤخذ من الأربعين واحد، وتكمل الأربعون بواحد من الثلاثمائة، وتكمل الثلاثمائة بواحد من صالحي المؤمنين، وقيل: سمّوا أبدالاً لأنهم أعطوا من القوّة أن يتركوا بدلهم حيث يريدون لأمر يقوم في نفوسهم على علم منهم، فإن لم يكن على علم منهم فليس من أصحاب هذا المقام، فقد يكون من صلحاء الأمّة، وقد يكون من الأفراد، وهؤلاء الأوتاد الأربعة لهم مثل ما للأبدال الذين ذكرناهم في الباب قبل هذا روحانية إلهيّة، وروحانية آلية، فمنهم من هو على قلب آدم، والآخر على قلب إبراهيم، والآخر على قلب عيسىٰ، والآخر على قلب محمد عليهم السلام. فمنهم من تمده روحانية إسرافيل، وآخر روحانية ميكائيل، وآخر روحانية جبريل، وآخر روحانية عزرائيل، ولكل وتد ركن من أركان البيت، فالذي على قلب آدم عليه السلام له الركن الشامي، والذي على قلب إبراهيم له الركن العراقيّ، والذي على قلب عيسىٰ عليه السلام له الركن اليمانيّ، والذي على قلب محمد ﷺ له ركن الحجر الأسود وهو لنا بحمد الله.

وكان بعض الأركان في زماننا الربيع بن محمود الماردينيّ الحطاب، فلما مات خلفه شخص آخر، وكان الشيخ أبو علي الهواريّ قد أطلعه الله عليهم في كشفه قبل أن يعرفهم وتحقق صورهم فما مات حتى أبصر منهم ثلاثة في عالم الحس: أبصر ربيعاً الماردينيّ، وأبصر الآخر وهو رجل فارسيّ، وأبصرنا ولازمنا إلى أن مات سنة تسع وتسعين وخمسمائة، أخبرني بذلك وقال لي: ما أبصرت الرابع وهو رجل حبشيّ.

واعلم أن هؤلاء الأوتاد يحوون على علوم جمة كثيرة، فالذي لا بدّ لهم من العلم به وبه يكونون أوتاداً فما زاد من العلوم، فمنهم من له خمسة عشر علماً، ومنهم من له ولا بدّ ثمانية عشر علماً، ومنهم من له أحد وعشرون علماً، ومنهم من له أربعة وعشرون علماً، فإن أصناف العدد كثيرة، هذا العدد من أصناف العلوم لكل واحد منهم لا بدّ له منه، وقد يكون الواحد أو كلهم يجمع أو يجمعون علم الجماعة وزيادة، ولكن الخاص لكل واحد منهم ما ذكرنا من العدد فهو شرط فيه، وقد لا يكون له ولا لواحد منهم علم زائد لا من الذي عند أصحابه ولا مما ليس عندهم، فمنهم من له الوجه وهو قوله تعالىٰ عن إبليس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧] ولكل جهة وتد يشفع يوم القيامة فيمن دخل عليه إبليس من جهته. فالذي له الوجه له من العلوم علم الاصطلام، والوجد، والشوق، والعشق، وغامضات المسائل، وعلم النظر، وعلم الرياضة، وعلم الطبيعة، والعلم الإلهيّ، وعلم الميزان، وعلم الأنوار، وعلم السبحات الوجهية، وعلم المشاهدة، وعلم الفناء، وعلم تسخير الأرواح، وعلم استنزال الروحانيات العلى، وعلم الحركة، وعلم إبليس، وعلم المجاهدة، وعلم الحشر، وعلم النشر، وعلم موازين الأعمال، وعلم جهنم، وعلم الصراط.

والذي له الشمال له علم الأسرار، وعلم الغيوب، وعلم الكنوز، وعلم النبات، وعلم المعدن، وعلم الحيوان، وعلم خفيات الأمور، وعلم المياه، وعلم التكوين، وعلم التلوين،

وعلم الرسوخ، وعلم الثبات، وعلم المقام، وعلم القدم، وعلم الفصول المقومة، وعلم الأعيان، وعلم السكون، وعلم الدنيا، وعلم الجنة، وعلم الخلود، وعلم التقلبات.

والذي له اليمين له علم البرازخ، وعلم الأرواح البرزخية، وعلم منطق الطير، وعلم لسان الرياح، وعلم التنزّل، وعلم الاستحالات، وعلم الزجر، وعلم مشاهدة الذات، وعلم تحريك النفوس، وعلم الميل، وعلم المعراج، وعلم الرسالة، وعلم الكلام، وعلم الأنفاس، وعلم الأحوال، وعلم السماع، وعلم الحيرة، وعلم الهوى.

والذي له الخلف له علم الحياة، وعلم الأحوال المتعلقة بالعقائد، وعلم النفس، وعلم التجلي، وعلم المنصات، وعلم النكاح، وعلم الرحمة، وعلم التعاطف، وعلم التودّد، وعلم الذوق، وعلم الشرب، وعلم الري، وعلم جواهر القرآن، وعلم درر الفرقان، وعلم النفس الأمّارة.

فكل شخص كما ذكرنا لا بدّ له من هذه العلوم، فما زاد على ذلك فذلك من الاختصاص الإلهيّ، فهذا قد بيّنا مراتب الأوتاد، وكنّا في الباب الذي قبله بيّنا ما يختص به الأبدال، وبيّنا في فصل المنازل من هذا الكتاب ما يختص به القطب والإمامان مستوفى الأصول في باب يخصّه وهو السبعون ومائتان من أبواب هذا الكتاب. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع عشر
في معرفة انتقال العلوم الكونية ونبذ من العلوم الإلهيّة الممدّة الأصلية

[نظم: الوافر]

علومُ الكونِ تَنْتقِلُ انتقالا ... وعلمُ الوجهِ لا يرجو زَوَالا
فنُثْبتها ونَنْفيها جميعاً ... ونَقْطع نَجْدَها حالاً فحالا
إلهي كيف يَعْلمكم سواكم ... ومِثْلُكَ من تَبَارك أو تَعَالىٰ
إلهي كيف يعلمكم سواكم ... وهل غَيْرٌ يكون لكم مثالا
ومن طلبَ الطريقَ بلا دليلٍ ... إلهيٌّ لقد طلب المُحَالا
إلهي كيفَ تهواكم قلوبٌ ... وما ترجو التألُّفَ والوصالا
إلهي كيف يعرفكم سواكم ... وهل شيءٌ سواكم لا ولا لا
إلهي كيف تبصركم عيونٌ ... ولستَ النَّيِّراتِ ولا الظِلالا
إلهي لا أرى نفسي سواكم ... وكيف أرى المحالَ أو الضَّلالا
إلهي أنت أنت وأنّ أنّي ... ليطلبَ من أَنَايَتِك النَّوَالا
لفقرٍ قام عندي من وجودي ... تولَّدَ من غناك فكان حالا
وأَطْلَعني ليظهرني إليه ... ولم يَرَني سواه فكنتُ آلا
ومن قَصَد السرابَ يريد ماءً ... يرى عينَ الحياةِ به زلالا
أنا الكون الذي لا شيءَ مثلي ... ومن أنا مثله قَبِلَ المثالا

وذا مـن أعـجـب الأشـيـاء فـانـظُـرْ عـسـاك تـرى مُـمـاثِـلَـهُ اسـتـحـالا
فـمـا فـي الـكـون غـيـرُ وجـودِ فَـرْدٍ تـنـزّه أن يـقـاوم أو يُـنـالا

اعلم أيّدك الله أن كل ما في العالم منتقل من حال إلى حال، فعالم الزمان في كل زمان منتقل، وعالم الأنفاس في كل نفس، وعالم التجلّي في كل تجلّ، والعلة في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وأيّده بقوله تعالىٰ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] وكل إنسان يجد من نفسه تنوّع الخواطر في قلبه في حركاته وسكناته، فما من تقلب يكون في العالم الأعلى والأسفل إلاّ وهو عن توجه إلهيّ بتجلّ خاص لتلك العين، فيكون استناده من ذلك التجلّي بحسب ما تعطيه حقيقته. واعلم أن المعارف الكونية منها علوم مأخوذة من الأكوان ومعلوماتها أكوان، وعلوم تؤخذ من الأكوان ومعلوماتها نسب والنسب ليست بأكوان، وعلوم تؤخذ من الأكوان ومعلومها ذات الحق، وعلوم تؤخذ من الحق ومعلومها الأكوان، وعلوم تؤخذ من النسب ومعلومها الأكوان، وهذه كلها تسمّى العلوم الكونية، وهي تنتقل بانتقال معلوماتها في أحوالها، وصورة انتقالها أيضاً أن الإنسان يطلب ابتداء معرفة كون من الأكوان أو يتخذ دليلاً على مطلوبه كوناً من الأكوان، فإذا حصل له ذلك المطلوب لاح له وجه الحق فيه ولم يكن ذلك الوجه مطلوباً له فتعلق به هذا الطالب وترك قصده الأول وانتقل العلم يطلب ما يعطيه ذلك الوجه، فمنهم من يعرف ذلك، ومنهم من هو حاله هذا ولا يعرف ما انتقل عنه ولا ما انتقل إليه، حتى أن بعض أهل الطريق زلّ فقال: إذا رأيتم الرجل يقيم على حال واحدة أربعين يوماً فاعلموا أنه مرائياً، عجباً وهل تعطي الحقائق أن يبقي أحد نفسين أو زمانين على حال واحدة فتكون الألوهية معطلة الفعل في حقّه هذا ما لا يتصوّر، إلاّ أن هذا العارف لم يعرف ما يراد بالانتقال بكون الانتقال كان في الأمثال، فكان ينتقل مع الأنفاس من الشيء إلى مثله، فالتبست عليه الصورة بكونه ما تغيّر عليه من الشخص حاله الأوّل في تخيله، كما يقال: فلان ما زال اليوم ماشياً وما قعد، ولا شك أن المشي حركات كثيرة متعددة، وكل حركة ما هي عين الأخرى بل هي مثلها، وعلمك ينتقل بانتقالها فيقول: ما تغيّر عليه الحال وكم تغيرت عليه من الأحوال.

فصل: وأمّا انتقالات العلوم الإلهية فهو الاسترسال الذي ذهب إليه أبو المعالي إمام الحرمين والتعلقات التي ذهب إليها محمد بن عمر بن الخطيب الرازي. وأمّا أهل القدم الراسخة من أهل طريقنا فلا يقولون هنا بالانتقالات، فإن الأشياء عند الحق مشهودة معلومة الأعيان والأحوال على صورها التي تكون عليها. ومنها إذا وجدت أعيانها إلى ما لا يتناهى فلا يحدث تعلق على مذهب ابن الخطيب ولا يكون استرسال على مذهب إمام الحرمين رضي الله عن جميعهم، والدليل العقلي الصحيح يعطي ما ذهبنا إليه، وهذا الذي ذكره أهل الله ووافقناهم عليه يعطيه الكشف من المقام الذي وراء طور العقل فصدق الجميع وكل قوّة أعطت بحسبها، فإذا أوجد الله الأعيان فإنما أوجدها لها لا له وهي على حالاتها بأماكنها وأزمنتها على اختلاف أمكنتها وأزمنتها، فيكشف لها عن أعيانها وأحوالها شيئاً بعد شيء إلى

ما لا يتناهى على التتالي والتتابع، فالأمر بالنسبة إلى الله واحد كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحِۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٠] والكثرة في نفس المعدودات، وهذا الأمر قد حصل لنا في وقت فلم يختل علينا فيه، وكان الأمر في الكثرة واحداً عندنا ما غاب ولا زال، وهكذا شهده كل من ذاق هذا فهم في المثال كشخص واحد له أحوال مختلفة وقد صوّرت له صورة في كل حال يكون عليها هكذا كل شخص، وجعل بينك وبين هذه الصور حجاب فكشف لك عنها وأنت من جملة من له فيها صورة فأدركت جميع ما فيها عند رفع الحجاب بالنظرة الواحدة، فالحق سبحانه ما عدل بها عن صورها في ذلك الطبق، بل كشف لها عنها وألبسها حالة الوجود لها فعاينت نفسها على ما تكون عليه أبداً، وليس في حق نظرة الحق زمان ماض ولا مستقبل، بل الأمور كلها معلومة له في مراتبها بتعداد صورها فيها، ومراتبها لا توصف بالتناهي ولا تنحصر ولا حدّ لها تقف عنده، فهكذا هو إدراك الحق تعالىٰ للعالم ولجميع الممكنات في حال عدمها ووجودها، فعليها تنوّعت الأحوال في خيالها لا في علمها، فاستفادت من كشفها لذلك علماً لم يكن عندها لا حالة لم تكن عليها، فتحقق هذا فإنها مسألة خفية غامضة تتعلق بسرّ القدر القليل من أصحابنا من يعثر عليها.

وأمّا تعلق علمنا بالله تعالىٰ فعلى قسمين: معرّفة بالذات الإلهية وهي موقوفة على الشهود والرؤية لكنها رؤية من غير إحاطة، ومعرّفة بكونه إلهاً وهي موقوفة على أمرين أو أحدهما وهو الوهب والأمر الآخر النظر والاستدلال وهذه هي المعرفة المكتسبة. وأمّا العلم بكونه مختاراً فإن الاختيار يعارضه أحدية المشيئة، فنسبته إلى الحق إذا وصف به إنما ذلك من حيث ما هو الممكن عليه لا من حيث ما هو الحق عليه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [سورة السجدة: الآية ١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [سورة الزمر: الآية ١٩]، وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩]، وما أحسن ما تمّم به هذه الآية ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] وهنا نبّه على سرّ القدر وبه كانت الحجة البالغة لله على خلقه وهذا هو الذي يليق بجناب الحق والذي يرجع إلى الكون ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [سورة السجدة: الآية ١٣] فما شئنا ولكن استدراك للتوصيل، فإن الممكن قابل للهداية والضلالة من حيث حقيقته فهو موضع الانقسام وعليه يرد التقسيم، وفي نفس الأمر ليس لله فيه إلاّ أمر واحد وهو معلوم عند الله من جهة حال الممكن.

مسألة: ظاهر معقول الاختراع عدم المثال في الشاهد كيف يصحّ الاختراع في أمر لم يزل مشهوداً له تعالىٰ معلوماً كما قرّرناه في علم الله بالأشياء في كتاب المعرفة بالله.

مسألة: الأسماء الإلهية نسب وإضافات ترجع إلى عين واحدة، إذ لا يصحّ هناك كثرة بوجود أعيان فيه كما زعم من لا علم له بالله من بعض النظار ولو كانت الصفات أعياناً زائدة وما هو إله إلاّ بها لكانت الألوهية معلولة بها، فلا يخلو أن تكون هي عين الإله، فالشيء لا يكون علة لنفسه أو لا تكون، فالله لا يكون معلولاً لعلة ليست عينه، فإن العلة متقدّمة على المعلول بالرتبة، فيلزم من ذلك افتقار الإله من كونه معلولاً لهذه الأعيان الزائدة التي هي علة له وهو

محال، ثم إنّ الشيء المعلول لا يكون له علتان وهذه كثيرة ولا يكون إلهاً إلاّ بها، فبطل أن تكون الأسماء والصفات أعياناً زائدة على ذاته، تعالىٰ الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

مسألة: الصورة في المرآة جسد برزخي كالصورة التي يراها النائم إذا وافقت الصورة الخارجة وكذلك الميت والمكاشف، وصورة المرآة أصدق ما يعطيه البرزخ إذا كانت المرآة على شكل خاص ومقدار جرم خاص، فإن لم تكن كذلك لم تصدق في كل ما تعطيه بل تصدق في البعض. واعلم أن أشكال المرائي تختلف فتختلف الصور، فلو كان النظر بالانعكاس إلى المرئيات كما يراه بعضهم لأدركها الرائي على ما هي عليه من كبر جرمها وصغره، ونحن نبصر في الجسم الصقيل الصغير الصورة المرئية الكبيرة في نفسها صغيرة، وكذلك الجسم الكبير الصقيل يكبر الصورة في عين الرائي ويخرجها عن حدّها، وكذلك العريض والطويل والمتموّج، فإذن ليست الانعكاسات تعطي ذلك، فلم يتمكن أن نقول إلاّ أن الجسم الصقيل أحد الأمور التي تعطي صور البرزخ ولهذا لا تتعلق الرؤية فيها إلاّ بالمحسوسات، فإن الخيال لا يمسك إلاّ ما له صورة محسوسة أو مركب من أجزاء محسوسة تركبها القوّة المصوّرة فتعطي صورة لم يكن لها في الحسّ وجود أصلاً لكن أجزاء ما تركبت منه محسوسة لهذا الرائي بلا شك.

مسألة: أكمل نشأة ظهرت في الموجودات الإنسان عند الجميع، لأن الإنسان الكامل وجد على الصورة لا الإنسان الحيوان، والصورة لها الكمال، ولكن لا يلزم من هذا أن يكون هو الأفضل عند الله فهو أكمل بالمجموع، فإن قالوا: يقول الله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧] ومعلوم أنه لا يريد أكبر في الجرم ولكن يريد في المعنى، قلنا له: صدقت ولكن من قال إنها أكبر منه في الروحانية بل معنى السموات والأرض من حيث ما يدل عليه كل واحدة منهما من طريق المعنى المنفرد من النظم الخاص لأجرامهما أكبر في المعنى من جسم الإنسان لا من كل الإنسان، ولهذا يصدر عن حركات السموات والأرض أعيان المولدات والتكوينات، والإنسان من حيث جرمه من المولدات، ولا يصدر من الإنسان هذا وطبيعة العناصر من ذلك، فلهذا كانا أكبر من خلق الإنسان إذ هما له كالأبوين، وهو من الأمر الذي يتنزل بين السماء والأرض، ونحن إنما ننظر في الإنسان الكامل فنقول: إنه أكمل، وأمّا أفضل عند الله فذلك لله تعالىٰ وحده فإن المخلوق لا يعلم ما في نفس الخالق إلاّ بإعلامه إياه.

مسألة: ليس للحق صفة نفسية ثبوتية إلاّ واحدة لا يجوز أن يكون له اثنتان فصاعداً، إذ لو كان لكانت ذاته مركبة منهما أو منهنّ، والتركيب في حقّه محال فإثبات صفة زائدة ثبوتية على واحدة محال.

مسألة: لما كانت الصفات نسباً وإضافات والنسب أمور عدمية وما ثم إلاّ ذات واحدة من جميع الوجوه لذلك جاز أن يكون العباد مرحومين في آخر الأمر، ولا يسرمد عليهم عدم الرحمة إلى ما لا نهاية له إذ لا مكره له على ذلك، والأسماء والصفات ليست أعياناً توجب حكماً عليه

في الأشياء، فلا مانع من شمول الرحمة للجميع، ولا سيما وقد ورد سبقها للغضب، فإذا انتهى الغضب إليها كان الحكم لها فكان الأمر على ما قلناه، لذلك قال تعالىٰ: ﴿لَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سورة الرعد: الآية ٣١] فكان حكم هذه المشيئة في الدنيا بالتكليف، وأمّا في الآخرة فالحكم لقوله: ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] فمن يقدر أن يدل على أنه لم يرد إلاَّ تسرمد العذاب على أهل النار ولا بدّ أو على واحد في العالم كله حتى يكون حكم الاسم المعذب والمبلي والمنتقم وأمثاله صحيحاً، والاسم المبلي وأمثاله نسبة وإضافة لا عين موجودة، وكيف تكون الذات الموجودة تحت حكم ما ليس بموجود؟ فكل ما ذكر من قوله: ﴿لَوْ يَشَآءُ﴾ ﴿وَلَئِن شِئْنَا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٦] لأجل هذا الأصل فله الإطلاق، وما ثم نص يرجع إليه لا يتطرّق إليه احتمال في تسرمد العذاب كما لنا في تسرمد النعيم فلم يبق إلاَّ الجواز وأنه رحمن الدنيا والآخرة، فإذا فهمت ما أشرنا إليه قلَّ تشعيبك بل زال بالكلية.

مسألة: إطلاق الجواز على الله تعالىٰ سوء أدب مع الله، ويحصل المقصود بإطلاق الجواز على الممكن وهو الأليق إذ لم يرد به شرع ولا دلّ عليه عقل فافهم، وهذا القدر كاف فإنّ العلم إلهيّ أوسع من أن يستقصى، والله يقول الحق وهو يهدي سبيل.

الباب الثامن عشر

في معرفة علم المتهجدين وما يتعلق به من المسائل ومقداره في مراتب العلوم وما يظهر منه من العلوم في الوجود

[نظم: البسيط]

عِلْمُ التَّهَجُّدِ عِلْمُ الغيبِ ليس له ... في منزلِ العينِ إحساسٌ ولا نَظَرُ
إن التنزُّلَ يعطيه وإنَّ له ... في عينه سوراً تعلو به صُوَرُ
فإن دعاه إلى المعراج خالِقُه ... بدتْ له بين أعلام العلى سُوَرُ
فكل منزلةٍ تعطيه منزلةً ... إذا تحكَّم في أجفانه السَّهَرُ
ما لم يَنَمْ هذه في الليل حالتُه ... أو يُدْرِكَ الفجرَ في آفاقه البَصَرُ
نوافِجُ الزهر لا تعطيك رائحةً ... ما لم يَجُدْ بالنسيم اللّيِّنِ السَّحَرُ
إن الملوكَ وإن جلَّتْ مناصِبُها ... لها مع السُّوقَةِ الأسرارُ والسَّمَرُ

اعلم أيّدك الله أن المتهجدين ليس لهم اسم خاص إلهيّ يعطيهم التهجّد ويقيمهم فيه، كما لمن يقوم الليل كله، فإن قائم الليل كله له اسم إلهيّ يدعوه إليه ويحرّكه، فإن التهجّد عبارة عمّن يقوم وينام ويقوم وينام ويقوم، فمن لم يقطع الليل في مناجاة ربّه هكذا فليس بمتهجّد، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٩] وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [سورة المزمل: الآية ٢٠] وله علم خاص من جانب الحق، غير أن هذه الحالة لما لم نجد في الأسماء الإلهية من تستند إليه ولم نر أقرب نسبة إليها من الاسم الحق فاستندت إلى الاسم الحق وقبلها هذا الاسم، فكل علم يأتي به المتهجّد

إنما هو من الاسم الحق، فإن النبيّ ﷺ قال لمن يصوم الدهر ويقوم الليل: «**إنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقّاً فَصُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ**» فجمع له بين القيام والنوم لأداء حق النفس من أجل العين، ولأداء حق النفس من جانب الله، ولا تؤدّى الحقوق إلاّ بالاسم الحق ومنه لا من غيره، فلهذا استند المتهجّدون لهذا الاسم.

ثم إنه للمتهجّد أمر آخر لا يعلمه كل أحد وذلك أنه لا يجني ثمرة مناجاة التهجّد ويحصل علومه إلاّ من كانت صلاة الليل له نافلة، وأمّا من كانت فريضته من الصلاة ناقصة فإنها تكمل من نوافله، فإن استغرقت الفرائض نوافل العبد المتهجّد لم يبق له نافلة وليس بمتهجّد ولا صاحب نافلة، فهذا لا يحصل له حال النوافل ولا علومها ولا تجلياتها، فاعلم ذلك. فنوم المتهجّد لحقّ عينه وقيامه لحقّ ربّه، فيكون ما يعطيه الحق من العلم والتجلّي في نومه ثمرة قيامه، وما يعطيه من النشاط والقوّة وتجليهما وعلومهما في قيامه ثمرة نومه، وهكذا جميع أعمال العبد مما افترض عليه، فتتداخل علوم المتهجّدين كتداخل ضفيرة الشعر وهي من العلوم المعشوقة للنفوس حيث تلتف هذا الالتفاف فيظهر لهذا الالتفاف أسرار العالم الأعلى والأسفل، والأسماء الدالة على الأفعال والتنزيه وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [سورة القيامة: الآية ٢٩] أي اجتمع أمر الدنيا بأمر الآخرة، وما ثم إلاّ دنيا وآخرة وهو المقام المحمود الذي ينتجه التهجّد، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٩] وعسى من الله واجبة، والمقام المحمود هو الذي له عواقب الثناء أي إليه يرجع كل ثناء.

وأما قدر علم التهجّد فهو عزيز المقدار وذلك أنه لما لم يكن له اسم إلهيّ يستند إليه كسائر الآثار عرف من حيث الجملة أن ثم أمراً غاب عنه أصحاب الآثار والآثار فطلب ما هو فأدّاه النظر إلى أن يستكشف عن الأسماء الإلهيّة هل لها أعيان؟ أو هل هي نسب حتى يرى رجوع الآثار؟ هل ترجع إلى أمر وجوديّ أو عدمي؟ فلما نظر رأى أنه ليس الأسماء أعياناً موجودة وإنما هي نسب، فرأى مستند الآثار إلى أمر عدمي فقال المتهجّد: قصارى الأمر أن يكون رجوعي إلى أمر عدمي، فأمعن النظر في ذلك ورأى نفسه مولداً من قيام ونوم، ورأى النوم رجوع النفس إلى ذاتها ما تطلبه، ورأى القيام حق الله عليه، فلما كانت ذاته مركبة من هذين الأمرين نظر إلى الحق من حيث ذات الحق فلاح له أن الحق إذا انفرد بذاته لذاته لم يكن العالم، وإذا توجّه إلى العالم ظهر عين العالم لذلك التوجّه فرأى أن العالم كله موجود عن ذلك التوجّه المختلف النسب، ورأى المتهجّد ذاته مركبة من نظر الحق لنفسه دون العالم وهو حالة النوم للنائم ومن نظره إلى العالم وهو حالة القيام لأداء حق الحق عليه، فعلم أن سبب وجود عينه أشرف الأسباب حيث استند من وجه إلى الذات معرّاة عن نسب الأسماء التي تطلب العالم إليه، فتحقق أن وجوده أعظم الوجود، وأن علمه أسنى العلوم، وحصل له مطلوبه، وهو كان غرضه وكان سبب ذلك انكساره وفقره فقال في قضاء وطره من ذلك متمثلاً: [المديد]

رُبَّ لـيـل بِـتُّـه مـا أتـى فَـجْـرُه حـتـى انـقـضـى وَطَـري
مـن مـقـام كـنـتُ أعـشـقـه بـحـديـثٍ طـيِّـبِ الـخَـبَـرِ

وقال في الأسماء: [المديد]

لـم أجـدْ لـلاسـم مـدلـولا غـيـر مـن قـد كـان مَـفْـعُـولا
ثـم أعـطَـتْـنـا حـقـيـقَـتُـه كـونُـه لـلـعـقـل مـعـقـولا
فـتـلـفَّـظْـنـا بـه أدبـاً واعـتـقـدنـا الأمـرَ مـجـهـولا

وكان قدر علمه في العلوم قدر معلومه وهو الذات في المعلومات، فيتعلق بعلم التهجّد علم جميع الأسماء كلها، وأحقها به الاسم القيوم الذي ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] وهو العبد في حال مناجاته فيعلم الأسماء على التفصيل أي كل اسم جاء علم ما يحوي عليه من الأسرار الوجودية وغير الوجودية على حسب ما تعطيه حقيقة ذلك الاسم، ومما يتعلق بهذه الحالة من العلوم علم البرزخ، وعلم التجلّي الإلهيّ في الصور، وعلم سوق الجنة، وعلم تعبير الرؤيا لا نفس الرؤيا من جهة من يراها وإنما هي من جانب من ترى له، فقد يكون الرائي هو الذي رآها لنفسه، وقد يراها له غيره، والعابر لها هو الذي له جزء من أجزاء النبوّة حيث علم ما أريد بتلك الصورة ومن هو صاحب ذلك المقام.

واعلم أن المقام المحمود الذي للمتهجّد يكون لصاحبه دعاء معين وهو قول الله تعالىٰ لنبيه ﷺ يأمره به: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٠] يعني لهذا المقام فإنه موقف خاص بمحمد يحمد الله فيه بمحامد لا يعرفها إلاً إذا دخل ذلك المقام ﴿وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٠] أي إذا انتقل عنه إلى غيره من المقامات، والمواقف أن تكون العناية به معه في خروجه منه كما كانت معه في دخوله إليه ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٠] من أجل المنازعين فيه، فإن المقام الشريف لا يزال صاحبه محسوداً. ولما كانت النفوس لا تصل إليه رجعت تطلب وجهاً من وجوه القدح فيه تعظيماً لحالهم التي هم عليها حتى لا ينسب النقص إليهم عن هذا المقام الشريف، فطلب صاحب هذا المقام النصرة بالحجة التي هي السلطان على الجاحدين شرف هذه المرتبة ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨١]. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع عشر

في سبب نقص العلوم وزيادتها وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] وقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْزَعُهُ مِنْ صُدُورِ العُلَمَاءِ وَلٰكِنْ يَقْبِضُهُ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ»

[نظم: الطويل]

تَـجَلّـي وجودِ الحقِّ في فَلَك النَّفْسِ دليلٌ على ما في العلوم من النَّقْصِ
وإن غـابَ عـن ذاك الـتـجـلّـي بـنـفـسـه فـهـل مـدركٌ إياه بـالـبحث والـفَـحْـصِ

وإن ظهرتْ للعلم في النفس كَثْرةٌ ... فقد ثبت السِّتْرُ المحقَّقُ بالنَّصِّ
ولم يَبْدُ من شمس الوجود ونورها ... على عالم الأرواح شيء سوى القُرْصِ
وليست تنالُ العينُ في غير مَظْهَرِ ... ولو هلك الإنسانُ من شدّة الحِرْصِ
ولا ريب في قولي الذي قد بَثَثْتُهُ ... وما هو بالزور المُمَوَّه والخَرْصِ

اعلم أيّدك الله أن كل حيوان وكل موصوف بإدراك فإنه في كل نفس في علم جديد من حيث ذلك الإدراك، لكن الشخص المدرك قد لا يكون ممن يجعل باله أن ذلك علم فهذا هو في نفس الأمر علم، فاتصاف العلوم بالنقص في حق العالم هو أن الإدراك قد حيل بينه وبين أشياء كثيرة مما كان يدركها لو لم يقم به هذا المانع كمن طرأ عليه العمى أو الصمم أو غير ذلك. ولما كانت العلوم تعلو وتتضع بحسب المعلوم لذلك تعلقت الهمم بالعلوم الشريفة العالية التي إذا اتّصف بها الإنسان زكت نفسه وعظمت مرتبته، فأعلاها مرتبة العلم بالله، وأعلى الطرق إلى العلم بالله علم التجليات ودونها علم النظر، وليس دون النظر علم إلهيّ، وإنما هي عقائد في عموم الخلق لا علوم، وهذه العلوم هي التي أمر الله نبيه عليه السلام بطلب الزيادة منها قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٤] أي زدني من كلامك ما نزيد به علماً بك، فإنه قد زاد هنا من العلم العلم بشرف التأنّي عند الوحي أدباً مع المعلم الذي أتاه به من قبل ربه، ولهذا أردف هذه الآية بقوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [سورة طٰه: الآية ١١١] أي ذلّت فأراد علوم التجلّي، والتجلّي أشرف الطرق إلى تحصيل العلوم وهي علوم الأذواق.

واعلم أن للزيادة والنقص باباً آخر نذكره أيضاً إن شاء الله، وذلك أن الله جعل لكل شيء ونفس الإنسان من جملة الأشياء ظاهراً وباطناً، فهي تدرك بالظاهر أموراً تسمّى عيناً، وتدرك بالباطن أموراً تسمّى علماً، والحق سبحانه هو الظاهر والباطن فبه وقع الإدراك، فإنه ليس في قدرة كل ما سوى الله أن يدرك شيئاً بنفسه، وإنما أدركه بما جعل الله فيه وتجلّى الحق لكل من تجلّى له من أيّ عالم كان من عالم الغيب أو الشهادة إنما هو من الاسم الظاهر.

وأمّا الاسم الباطن فمن حقيقة هذه النسبة أنه لا يقع فيها تجلّ أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، إذ كان التجلّي عبارة عن ظهوره لمن تجلّى له في ذلك المجلّى وهو الاسم الظاهر، فإن معقولية النسب لا تتبدّل وإن لم يكن لها وجود عينيّ، لكن لها الوجود العقليّ فهي معقولة، فإذا تجلّى الحق إما منّة أو إجابة لسؤال فيه فتجلّى لظاهر النفس وقع الإدراك بالحسّ في الصورة في برزخ التمثّل فوقعت الزيادة عند المتجلّي له في علوم الأحكام إن كان من علماء الشريعة، وفي علوم موازين المعاني إن كان منطقياً، وفي علوم ميزان الكلام إن كان نحوياً، وكذلك صاحب كل علم من علوم الأكوان وغير الأكوان تقع له الزيادة في نفسه من علمه الذي هو بصدده، فأهل هذه الطريقة يعلمون أنّ هذه الزيادة إنما كانت من ذلك التجلّي الإلهيّ لهؤلاء الأصناف، فإنهم لا يقدرون على إنكار ما كشف لهم، وغير العارفين يحسّون بالزيادة وينسبون ذلك إلى أفكارهم، وغير هذين يجدون من الزيادة ولا يعلمون أنهم استزادوا

شيئاً، فهم في المثل ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة الجمعة: الآية ٥] وهي هذه الزيادة وأصلها، والعجب من الذين نسبوا ذلك إلى أفكارهم وما علم أنّ فكره ونظره وبحثه في مسألة من المسائل هو من زيادة العلوم في نفسه من ذلك التجلّي الذي ذكرناه، فالناظر مشغول بمتعلق نظره وبغاية مطلبه فيحجب عن علم الحال فهو في مزيد علم وهو لا يشعر، وإذا وقع التجلّي أيضاً بالاسم الظاهر لباطن النفس وقع الإدراك بالبصيرة في عالم الحقائق والمعاني المجرّدة عن الموادّ وهي المعبر عنها بالنصوص، إذ النص ما لا إشكال فيه ولا احتمال بوجه من الوجوه وليس ذلك إلاّ في المعاني، فيكون صاحب المعاني مستريحاً من تعب الفكر فتقع الزيادة له عند التجلّي في العلوم الإلهيّة وعلوم الأسرار وعلوم الباطن وما يتعلق بالآخرة، وهذا مخصوص بأهل طريقنا فهذا سبب الزيادة.

أمّا سبب نقصها فأمران: إمّا سوء في المزاج في أصل النشء، أو فساد عارض في القوّة الموصلة إلى ذلك وهذا لا ينجبر كما قال الخضر في الغلام إنه طبع كافراً فهذا في أصل النشء.

وأمّا الأمر العارض فقد يزول إن كان في القوّة بالطب، وإن كان في النفس فشغله حب الرياسة واتباع الشهوات عن اقتناء العلوم التي فيها شرفه وسعادته، فهذا أيضاً قد يزول بداعي الحق من قلبه فيرجع إلى الفكر الصحيح فيعلم أن الدنيا منزل من منازل المسافر وأنها جسر يعبر، وأن الإنسان إذا لم تتحلّ نفسه هنا بالعلوم ومكارم الأخلاق وصفات الملأ الأعلى من الطهارة والتنزّه عن الشهوات الطبيعية الصارفة عن النظر الصحيح واقتناء العلوم الإلهية فيأخذ في الشروع في ذلك فهذا أيضاً سبب نقص العلوم، ولا أعني بالعلوم التي يكون النقص منها عيباً في الإنسان إلاّ العلوم الإلهية، وإلاّ فالحقيقة تعطي أنه ما ثم نقص قط وأن الإنسان في زيادة علم أبداً دائماً من جهة ما تعطيه حواسه وتقلبات أحواله في نفسه وخواطره فهو في مزيد علوم لكن لا منفعة فيها، والظن، والشك، والنظر، والجهل، والغفلة، والنسيان، كل هذا وأمثاله لا يكون معها العلم بما أنت فيه بحكم الظن أو الشك أو النظر أو الجهل أو الغفلة أو النسيان.

وأمّا نقص علوم التجلّي وزيادتها فالإنسان على إحدى حالتين: خروج الأنبياء بالتبليغ أو الأولياء بحكم الوراثة النبوية، كما قيل لأبي يزيد حين خلع عليه خلع النيابة وقال له: اخرج إلى خلقي بصفتي فمن رآك رآني فلم يسعه إلاّ امتثال أمر ربّه فخطا خطوة إلى نفسه من ربّه فغشي عليه فإذا النداء: ردّوا عليّ حبيبي فلا صبر له عني فإنه كان مستهلكاً في الحق كأبي عقال المغربي فردّ إلى مقام الاستهلاك فيه الأرواح الموكلة به المؤيّدة له لما أمر بالخروج فردّ إلى الحق وخلعت عليه خلع الذلّة والافتقار والانكسار فطاب عيشه ورأى ربّه فزاد أنسه واستراح من حمل الأمانة المعارة التي لا بدّ له أن تؤخذ منه.

والإنسان من وقت رقيه في سلم المعراج يكون له تجلّ إلهيّ بحسب سلم معراجه، فإنه لكل شخص من أهل الله سلم يخصّه لا يرقى فيه غيره، ولو رقي أحد في سلم أحد لكانت

النبوّة مكتسبة، فإن كل سلم يعطي لذاته مرتبة خاصة لكل من رقي فيه، وكانت العلماء ترقى في سلم الأنبياء فتنال النبوّة برقيها فيه والأمر ليس كذلك، وكان يزول الاتساع الإلهيّ بتكرار الأمر، وقد ثبت عندنا أنه لا تكرار في ذلك الجناب، غير أنّ عدد درج المعالي كلها الأنبياء والأولياء والمؤمنون والرسل على السواء لا يزيد سلم على سلم درجة واحدة، فالدرجة الأولى الإسلام وهو الانقياد، وآخر الدرج الفناء في العروض والبقاء في الخروج وبينهما ما بقي وهو الإيمان، والإحسان، والعلم، والتقديس، والتنزيه، والغنى، والفقر، والذلّة، والعزّة، والتلوين، والتمكين في التلوين، والفناء إن كنت خارجاً، والبقاء إن كنت داخلاً إليه، وفي كل درج في خروجك عنه ينقص من باطنك بقدر ما يزيد في ظاهرك من علوم التجلّي إلى أن تنتهي إلى آخر درج، فإن كنت خارجاً ووصلت إلى آخر درج ظهر بذاته في ظاهرك على قدرك وكنت له مظهراً في خلقه ولم يبق في باطنك منه شيء أصلاً وزالت عنك تجليات الباطن جملة واحدة، فإذا دعاك إلى الدخول إليه فهي أوّل درج يتجلّى لك في باطنك بقدر ما ينقص من ذلك التجلّي في ظاهرك إلى أن تنتهي إلى آخر درج، فيظهر على باطنك بذاته ولا يبقى في ظاهرك تجلّ أصلاً، وسبب ذلك أن لا يزال العبد والرب معاً في كمال وجود كل واحد لنفسه فلا يزال العبد عبداً والرب رباً مع هذه الزيادة والنقص، فهذا هو سبب زيادة علوم التجليات ونقصها في الظاهر والباطن وسبب ذلك التركيب، ولهذا كان جميع ما خلقه الله وأوجده في عينه مركباً له ظاهر وله باطن، والذي نسمعه من البسائط إنما هي أمور معقولة لا وجود لها في أعيانها، فكل موجود سوى الله تعالىٰ مركب، هذا أعطانا الكشف الصحيح الذي لا مرية فيه وهو الموجب لاستصحاب الافتقار له فإنه وصف ذاتيّ له، فإن فهمت فقد أوضحنا لك المنهاج ونصبنا لك المعراج، فاسلك واعرج تبصر وتشاهد ما بيّناه لك ولما عينّا لك درج المعارج ما أبقينا لك في النصيحة التي أمرنا بها رسول الله ﷺ فإنه لو وصفنا لك الثمرات والنتائج ولم نعين لك الطريق إليها لشوّقناك إلى أمر عظيم لا تعرف الطريق الموصل إليه، فوالذي نفسي بيده إنه لهو المعراج، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب العشرون

في العلم العيسويّ ومن أين جاء، وإلى أين ينتهي، وكيفيته، وهل تعلق بطول العالم أو بعرضه أو بهما؟

[نظم: مجزوء الخفيف]

عِـلْـمُ عـيـسـىٰ هـو الـذي ... جَـهِـلَ الـخـلـقُ قَـدْرَهْ
كـان يُـحْـيـي بـه الـذي ... كـانـت الأرضُ قَـبْـرَهْ
قـاوَمَ الـنَّـفْـخَ أُذْنُ مَـنْ ... غـاب فـيـه وأمـرُهْ
أنَّ لاهـوتَـه الـذي ... كـان فـي الـغـيـب صِـهْـرُهْ

هــــو روحٌ مــــمــــثَّــــلٌ أظــــهــــر الله سِــــرَّهْ
جــاء مــن غَــيْــبِ حَــضْــرةٍ قــد مــحــا الله بَــــذْرَهْ
صــار خــلــقــاً مــن بــعــدمــا كــان روحــاً فــغــرَّهْ
وانــتــهــى فــيــه أمــرُه فــحــبــاه وسَــرَّهْ
مــن يــكــن مــثــلــه فــقــد عــظَّــم الله أجْــرَهْ

اعلم أيّدك الله أن العلم العيسوي هو علم الحروف، ولهذا أعطي النفخ وهو الهواء الخارج من تجويف القلب الذي هو روح الحياة، فإذا انقطع الهواء في طريق خروجه إلى فم الجسد سمّي مواضع انقطاعه حروفاً فظهرت أعيان الحروف، فلما تألفت ظهرت الحياة الحسّيّة في المعاني، وهو أوّل ما ظهر من الحضرة الإلهيّة للعالم، ولم يكن للأعيان في حال عدمها شيء من النسب إلاّ السمع، فكانت الأعيان مستعدة في ذواتها في حال عدمها لقبول الأمر الإلهيّ إذا ورد عليها بالوجود، فلما أراد بها الوجود قال لها: ﴿كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فتكوّنت وظهرت في أعيانها، فكان الكلام الإلهيّ أوّل شيء أدركته من الله تعالىٰ بالكلام الذي يليق به سبحانه، فأوّل كلمة تركبت كلمة ﴿كُن﴾ وهي مركبة من ثلاثة أحرف: كاف وواو ونون، وكل حرف من ثلاثة فظهرت التسعة التي جذرها الثلاثة وهي أول الأفراد، وانتهت بسائط العدد بوجود التسعة من ﴿كن﴾ فظهر بكن عين المعدود والعدد، ومن هنا كان أصل تركيب المقدمات من ثلاثة وإن كانت في الظاهر أربعة، فإن الواحد يتكرّر في المقدّمتين فهي ثلاثة، وعن الفرد وجد الكون لا عن الواحد، وقد عرّفنا الحق أن سبب الحياة في صور المولدات إنما هو النفخ الإلهيّ في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] وهو النفس الذي أحيى الله به الإيمان فأظهره. قال ﷺ: **«إِنَّ نَفَسَ الرَّحْمَنِ يَأْتِينِي مِنْ قِبَلِ اليَمَنِ»** فحييت بذلك النفس الرحماني صورة الإيمان في قلوب المؤمنين وصورة الأحكام المشروعة، فأعطى عيسىٰ علم هذا النفخ الإلهيّ ونسبته، فكان ينفخ في الصورة الكائنة في القبر أو في صورة الطائر الذي أنشأه من الطين فيقوم حيّاً بالإذن الإلهيّ الساري في تلك النفخة وفي ذلك الهواء، ولولا سريان الإذن الإلهيّ فيه لما حصلت حياة في صورة أصلاً، فمن نفس الرحمن جاء العلم العيسوي إلى عيسىٰ فكان يحيي الموتى بنفخه عليه السلام، وكان انتهاؤه إلى الصور المنفوخ فيها وذلك هو الحظ الذي لكل موجود من الله وبه يصل إليه إذا صارت إليه الأمور كلها.

وإذا تحلّل الإنسان في معراجه إلى ربّه وأخذ كل كون منه في طريقه ما يناسبه لم يبق منه إلاّ هذا السر الذي عنده من الله فلا يراه إلاّ به ولا يسمع كلامه إلاّ به فإنه يتعالى ويتقدّس أن يدرك إلاّ به، وإذا رجع الشخص من هذا المشهد وتركبت صورته التي كانت تحللت في عروجه وردّ العالم إليه جميع ما كان أخذه منه مما يناسبه فإن كل عالم لا يتعدّى جنسه، فاجتمع الكل على هذا السرّ الإلهيّ واشتمل عليه، وبه سبحت الصورة بحمده وحمدت ربّها إذ لا يحمده سواه، ولو حمدته الصورة من حيث هي لا من حيث

هذا السرّ لم يظهر الفضل الإلهيّ ولا الامتنان على هذه الصورة، وقد ثبت الامتنان له على جميع الخلائق، فثبت أن الذي كان من المخلوق لله من التعظيم والثناء إنما كان من ذلك السرّ الإلهيّ ففي كل شيء من روحه وليس شيء فيه فالحق هو الذي حمد نفسه وسبح نفسه، وما كان من خير إلهيّ لهذه الصورة عند ذلك التحميد والتسبيح فمن باب المنة لا من باب الاستحقاق الكونيّ، فإن جعل الحق له استحقاقاً فمن حيث إنه أوجب ذلك على نفسه، فالكلمات عن الحروف، والحروف عن الهواء، والهواء عن النفس الرحماني، وبالأسماء تظهر الآثار في الأكوان، وإليها ينتهي العلم العيسوي. ثم إن الإنسان بهذه الكلمات يجعل الحضرة الرحمانية تعطيه من نفسها ما تقوم به حياة ما يسأل فيه بتلك الكلمات فيصير الأمر دورياً دائماً.

واعلم أن حياة الأرواح حياة ذاتية ولهذا يكون كل ذي روح حيّ بروحه، ولما علم بذلك السامريّ حين أبصر جبريل وعلم أن روحه عين ذاته وأن حياته ذاتية فلا يطأ موضعاً إلاّ حيي ذلك الموضع بمباشرة تلك الصورة الممثلة إياه، فأخذ من أثره قبضة وذلك قوله تعالىٰ فيما أخبر به عنه أنه قال ذلك: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [سورة طٰه: الآية ٩٦] فلما صاغ العجل وصوّره نبذ فيه تلك القبض فخار العجل. ولما كان عيسىٰ عليه السلام روحاً كما سمّاه الله وكما أنشأه روحاً في صورة إنسان ثابتة أنشأ جبريل في صورة أعرابي غير ثابتة كان يحيي الموتى بمجرّد النفخ، ثم إنه أيّده بروح القدس، فهو روح مؤيّد بروح طاهرة من دنس الأكوان، والأصل في هذا كله الحيّ الأزليّ عين الحياة الأبدية، وإنما ميّز الطرفين أعني الأزل والأبد وجود العالم وحدوثه الحيّ، وهذا العلم هو المتعلق بطول العالم أعني العالم الروحانيّ وهو عالم المعاني والأمر، ويتعلق بعرض العالم وهو عالم الخلق والطبيعة والأجسام والكل لله ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤] ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٥] ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤] وهذا كان علم الحسين بن منصور رحمه الله. فإذا سمعت أحداً من أهل طريقنا يتكلم في الحروف فيقول: إن الحرف الفلاني طوله كذا ذراعاً أو شبراً وعرضه كذا كالحلاج وغيره فإنه يريد بالطول فعله في عالم الأرواح وبالعرض فعله في عالم الأجسام، ذلك المقدار المذكور الذي يميّزه به، وهذا الاصطلاح من وضع الحلاّج، فمن علم من المحققين حقيقة ﴿كن﴾ فقد علم العلم العلويّ، ومن أوجد بهمته شيئاً من الكائنات فما هو من هذا العلم.

ولما كانت التسعة ظهرت في حقيقة هذه الثلاثة الأحرف ظهر عنها من المعدودات التسعة الأفلاك، وبحركات مجموع التسعة الأفلاك وتسيير كواكبها وجدت الدنيا وما فيها، كما أنها أيضاً تخرب بحركاتها وبحركة الأعلى من هذه التسعة وجدت الجنة بما فيها، وعند حركة ذلك الأعلى يتكوّن جميع ما في الجنة، وبحركة الثاني الذي يلي الأعلى

وجدت النار بما فيها والقيامة والبعث والحشر والنشر، وبما ذكرناه كانت الدنيا ممتزجة نعيم ممزوج بعذاب، وبما ذكرناه أيضاً كانت الجنة نعيماً كلها، والنار عذاباً كلها، وزال ذلك المزج في أهلها، فنشأة الآخرة لا تقبل مزاج نشأة الدنيا، وهذا هو الفرقان بين نشأة الدنيا والآخرة، إلا أن نشأة النار أعني أهلها إذا انتهى فيهم الغضب الإلهيّ وأمدّه ولحق بالرحمة التي سبقته في المدى يرجع الحكم لها فيهم وصورتها صورتها لا تتبدّل ولو تبدّلت تعذبوا فيحكم عليهم أولاً بإذن الله، وتوليته حركة الفلك الثاني من الأعلى بما يظهر فيهم من العذاب في كل محل قابل للعذاب، وإنما قلنا في كل محل قابل للعذاب لأجل من فيها ممن لا يقبل العذاب، فإذا انقضت مدّتها وهي خمس وأربعون ألف سنة تكون في هذه المدة عذاباً على أهلها يتعذّبون فيها عذاباً متصلاً لا يفتر ثلاثة وعشرين ألف سنة، ثم يرسل الرحمن عليهم نومة يغيبون فيها عن الإحساس وهو قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٧٤].

وقوله عليه السلام في أهل النار الذين هم أهلها: لا يموتون فيها ولا يحيون، يريد حالهم في هذه الأوقات التي يغيبون فيها عن إحساسهم مثل الذي يغشى عليه من أهل العذاب في الدنيا من شدّة الجزع وقوّة الآلام المفرطة فيمكثون كذلك تسع عشرة ألف سنة ثم يفيقون من غشيتهم وقد بدّل الله جلودهم جلوداً غيرها فيعذبون فيها خمسة عشر ألف سنة ثم يغشى عليهم فيمكثون في غشيتهم إحدى عشرة ألف سنة ثم يفيقون وقد بدّل الله جلودهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب فيجدون العذاب الأليم سبعة آلاف سنة، ثم يغشى عليهم ثلاثة آلاف سنة ثم يفيقون فيرزقهم الله لذة وراحة مثل الذي ينام على تعب ويستيقظ، وهذا من رحمته التي سبقت غضبه ووسعت كل شيء، فيكون لها حكم عند ذلك حكم التأبيد من الاسم الواسع الذي به وسع كل شيء رحمة وعلماً فلا يجدون ألماً ويدوم لهم ذلك ويستغنمونه ويقولون نسينا فلا نسأل حذراً أن نذكر بنفوسنا وقد قال الله لنا: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٠٨] فيسكتون وهم فيها مبلسون، ولا يبقى عليهم من العذاب إلاّ الخوف من رجوع العذاب عليهم، فهذا القدر من العذاب هو الذي يسرمد عليهم وهو الخوف وهو عذاب نفسيّ لا حسيّ، وقد يذهلون عنه في أوقات، فنعيمهم الراحة من العذاب الحسيّ بما يجعل الله في قلوبهم من أنه ذو رحمة واسعة، يقول الله تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٣٤] ومن هذه الحقيقة يقولون نسينا إذا لم يحسّوا بالآلام، وكذلك قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٧] ﴿وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ١٢٦] أي تترك في جهنم إذ كان النسيان الترك وبالهمز التأخر، فأهل النار حظّهم من النعيم عدم وقوع العذاب، وحظّهم من العذاب توقعه، فإنه لا أمان لهم بطريق الأغبار عن الله، ويحجبون عن خوف التوقّع في أوقات، فوقتاً يحجبون عنه عشرة آلاف سنة، ووقتاً ألفي سنة، ووقتاً ستة آلاف سنة، ولا يخرجون عن هذا المقدار المذكور متى ما كان،

لا بدّ أن يكون هذا القدر لهم من الزمان، وإذا أراد الله أن ينعمهم من اسمه الرحمن ينظرون في حالهم التي هم عليها في الوقت وخروجهم مما كانوا فيه من العذاب فينعمون بذلك القدر من النظر، فوقتاً يدوم لهم هذا النظر ألف سنة، ووقتاً تسعة آلاف سنة، ووقتاً خمسة آلاف سنة فيزيد وينقص، فلا تزال حالهم هذه دائماً في جهنم إذ هم أهلها، وهذا الذي ذكرناه كله من العلم العيسوي الموروث من المقام المحمدي، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الحادي والعشرون

في معرفة ثلاثة علوم كونية وتوالج بعضها في بعض

[نظم: البسيط]

عِلْمُ التَّوالُجِ عِلمُ الفكر يصْحَبُه ... علم النتائج فانْسُبه إلى النَّظَرِ
هي الأدلةُ إن حقَّقْتَ صورتَها ... مثل الدلالة في الأنثى مع الذكرِ
على الذي أوْقَفَ الإيجادَ أجمَعَه ... على حقيقة كُنْ في عالم الصُّوَرِ
والواو لولا سكونُ النون أظهرها ... في العين قائمةً تمشي على قَدَرِ
فاعلم بأن وجود الكون في فَلَكٍ ... وفي توجُّهه في جوهر البَشَرِ

اعلم أيّدك الله أن هذا هو علم التوالد والتناسل وهو من علوم الأكوان، وأصله من العلم الإلهيّ، فلنبين لك أولاً صورته في الأكوان وبعد ذلك نظهره لك في العلم الإلهيّ، فإن كل علم أصله من العلم الإلهيّ، إذ كان كل ما سوى الله من الله، قال الله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [سورة الجاثية: الآية ١٣] فهذا علم التوالج سار في كل شيء وهو علم الالتحام والنكاح، ومنه حسيّ ومعنويّ وإلهيّ. فاعلم أنك إذا أردت أن تعلم حقيقة هذا فلتنظره أولاً في عالم الحسّ، ثم في عالم الطبيعة، ثم في المعاني الروحانية، ثم في العلم الإلهيّ.

فأمّا في الحسّ: فاعلم أنه إذا شاء الله أن يظهر شخصاً بين اثنين ذانك الاثنان هما ينتجانه، ولا يصحّ أن يظهر عنهما ثالث ما لم يقم بهما حكم ثالث وهو أن يفضي أحدهما إلى الآخر بالجماع، فإذا اجتمعا على وجه مخصوص وشرط مخصوص وهو أن يكون المحل قابلاً للولادة لا يفسد البذر إذا قبله ويكون البذر يقبل فتح الصورة فيه هذا هو الشرط الخاص. وأمّا الوجه المخصوص: فهو أن يكون التقاء الفرجين وإنزال الماء أو الريح عن شهوة فلا بدّ من ظهور ثالث وهو المسمّى ولداً والاثنان يسميان والدين وظهور الثالث يسمّى ولادة واجتماعهما يسمّى نكاحاً وسفاحاً وهذا أمر محسوس واقع في الحيوان، وإنما قلنا بوجه مخصوص وشرط مخصوص فإنه ما يكون عن كل ذكر وأنثى يجتمعان بنكاح ولد ولا بدّ إلاَّ بحصول ما ذكرناه، وسنبينه في المعاني بأوضح من هذا إذ المطلوب ذلك.

وأمّا في الطبيعة: فإن السماء إذا أمطرت الماء وقبلت الأرض الماء وربت وهو حملها

فأنبتت من كل زوج بهيج وكذلك لقاح النخل والشجر ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٤٩] لأجل التوالد.

وأمّا في المعاني: فهو أن تعلم أن الأشياء على قسمين: مفردات ومركبات، وأن العلم بالمفرد يتقدّم على العلم بالمركب، والعلم بالمفرد يقتنص بالحدّ، والعلم بالمركب يقتنص بالبرهان، فإذا أردت أن تعلم وجود العالم هل هو عن سبب أو لا فلتعمد إلى مفردين أو ما هو في حكم المفردين مثل المقدّمة الشرطية، ثم تجعل أحد المفردين موضوعاً مبتدأ أو تحمل المفرد الآخر عليه على طريق الإخبار به عنه فتقول: كل حادث، فهذا المسمّى مبتدأ فإنه الذي بدأت به، وموضوعاً أوّل فإنه الموضوع الأول الذي وضعته لتحمل عليه ما تخبر به عنه، وهو مفرد فإن الاسم المضاف في حكم المفرد، ولا بدّ أن تعلم بالحدّ معنى الحدوث ومعنى كل الذي أضفته إليه وجعلته له كالسور لما يحيط به فإن (كل) تقتضي الحصر بالوضع في اللسان، فإذا علمت الحادث حينئذ حملت عليه مفرداً آخر وهو قولك فله سبب فأخبرت به عنه، فلا بدّ أن تعلم أيضاً معنى السبب ومعقوليته في الوضع، وهذا هو العلم بالمفردات المقتنصة بالحد، فقام من هذين المفردين صورة مركبة كما قامت صورة الإنسان من حيوانية ونطق فقلت فيه حيوان ناطق، فتركيب المفردين بحمل أحدهما على الآخر لا ينتج شيئاً وإنما هي دعوى يفتقر مدعيها إلى دليل على صحتها حتى يصدق الخبر عن الموضوع بما أخبر به عنه فيؤخذ منا ذلك مسلماً إذا كان في دعوى خاصة على طريق ضرب المثال مخافة التطويل، وليس كتابي هذا بمحل لميزان المعاني، وإنما ذلك موقوف على علم المنطق، فإنه لا بدّ أن يكون كل مفرد معلوماً، وأن يكون ما يخبر به عن المفرد الموضوع معلوماً أيضاً، إمّا ببرهان حسيّ، أو بديهيّ، أو نظريّ يرجع إليهما، ثم تطلب مقدمة أخرى تعمل فيها ما عملت في الأولى، ولا بدّ أن يكون أحد المفردين مذكوراً في المقدمتين، فهي أربعة في صورة التركيب، وهي ثلاثة في المعنى لما نذكره إن شاء الله، وإن لم يكن كذلك فإنه لا ينتج أصلاً فتقول في هذه المسألة التي مثلنا بها في المقدّمة الأخرى والعالم حادث وتطلب فيه من العلم بحدّ المفرد فيها ما طلبته في المقدمة الأولى من معرفة العالم ما هو وحمل الحدوث عليه بقولك حادث، وقد كان هذا الحادث الذي هو محمول في هذه المقدّمة موضوعاً في الأولى حين حملت عليه السبب فتكرّر الحادث في المقدّمتين وهو الرابط بينهما، فإذا ارتبطا سمّي ذلك الارتباط وجه الدليل، وسمّي اجتماعهما دليلاً وبرهاناً، فينتج بالضرورة أن حدوث العالم له سبب، فالعلة الحدوث والحكم السبب، فالحكم أعمّ من العلة، فإنه يشترط في هذا العلم أن يكون الحكم أعمّ من العلة أو مساوياً لها، وإن لم يكن كذلك فإنه لا يصدق هذا في الأمور العقلية.

وأمّا مأخذها في الشرعيات فإذا أردت أن تعلم مثلاً أن النبيذ حرام بهذه الطريقة فتقول كل مسكر حرام والنبيذ مسكر فهو حرام، وتعتبر في ذلك ما اعتبرت في الأمور

العقلية كما مثلت لك، فالحكم التحريم والعلة الإسكار، فالحكم أعمّ من العلة الموجبة للتحريم، فإن التحريم قد يكون له سبب آخر غير السكر في أمر آخر كالتحريم في الغصب والسرقة والجناية، وكل ذلك علل في وجود التحريم في المحرّم، فلهذا الوجه المخصوص صدق، فقد بان لك بالتقريب ميزان المعاني، وأن النتائج إنما ظهرت بالتوالج الذي في المقدّمتين اللذين هما كالأبوين في الحسّ، وأن المقدّمتين مركبة من ثلاثة أو ما هو في حكم الثلاثة، فإنه قد يكون للجملة معنى الواحد في الإضافة والشرط، فلم تظهر نتيجة إلاّ من الفردية، إذ لو كان الشفع ولا يصحبه الواحد صحبة خاصة ما صحّ أن يوجد عن الشفع شيء أبداً، فبطل الشريك في وجود العالم وثبت الفعل للواحد، وأنه بوجوده ظهرت الموجودات عن الموجودات، فتبين لك أن أفعال العباد وإن ظهرت منهم أنه لولا الله ما ظهر لهم فعل أصلاً، فجمع هذا الميزان بين إضافة الأعمال إلى العباد بالصورة وإيجاد تلك الأفعال لله تعالىٰ وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] أي وخلق ما تعملون فنسب العمل إليهم وإيجاده لله تعالىٰ، والخلق قد يكون بمعنى الإيجاد، ويكون بمعنى التقدير، كما أنه قد يكون بمعنى الفعل مثل قوله تعالىٰ: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [سورة الكهف: الآية ٥١] ويكون بمعنى المخلوق مثل قوله ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [سورة لقمان: الآية ١١].

وأمّا هذا التوالج في العلم الإلهيّ والتوالد فاعلم أن ذات الحق تعالىٰ لم يظهر عنها شيء أصلاً من كونها ذاتاً غير منسوب إليها أمر آخر، وهو أن ينسب إلى هذه الذات أنها قادرة على الإيجاد عند أهل السنة أهل الحق، أو ينسب إليها كونها علة، وليس هذا مذهب أهل الحق ولا يصحّ، وهذا مما لا يحتاج إليه، ولكن كان الغرض في سياقه من أجل مخالفي أهل الحق لنقرر عنده أنه ما نسب وجود العالم لهذه الذات من كونها ذاتاً وإنما نسبوا العالم لها بالوجود من كونها علة، فلهذا أوردنا مقالتهم، ومع هذه النسبة وهي كونه قادراً لا بدّ من أمر ثالث وهو إرادة الإيجاد لهذه العين المقصودة بأن توجد، ولا بدّ من التوجّه بالقصد إلى إيجادها بالقدرة عقلاً وبالقول شرعاً بأن تتكوّن، فما وجد الخلق إلاّ عن الفردية لا عن الأحدية، لأن أحديته لا تقبل الثاني لأنها ليست أحدية عدد، فكان ظهور العالم في العلم الإلهيّ عن ثلاث حقائق معقولة، فسرى ذلك في توالد الكون بعضه عن بعض لكون الأصل على هذه الصورة.

ويكفي هذا القدر من هذا الباب فقد حصل المقصود بهذا التنبيه، فإن هذا الفنّ في مثل طريق أهل الله لا يحتمل أكثر من هذا، فإنه ليس من علوم الفكر هذا الكتاب، وإنما هو من علوم التلقي والتدلي، فلا يحتاج فيه إلى ميزان آخر غير هذا وإن كان له به ارتباط فإنه لا يخلو عنه جملة واحدة، ولكن بعد تصحيح المقدمات من العلم بمفرداتها بالحدّ الذي لا يمنع والمقدّمات بالبرهان الذي لا يدفع بقول الله في هذا الباب: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ

لَفَسَدَتَاۚ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٢] فهذا مما كنّا بصدده في هذا الباب وهذه الآية وأمثالها أحوجتنا إلى ذكر هذا الفن، ومن باب الكشف لم يشتغل أهل الله بهذا الفنّ من العلوم لتضييع الوقت، وعمر الإنسان عزيز ينبغي أن لا يقطعه الإنسان إلاّ في مجالسة ربّه والحديث معه على ما شرعه له، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الخامس عشر والحمد لله.

(الجزء السادس عشر)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثاني والعشرون

في معرفة علم منزل المنازل وترتيب جميع العلوم الكونية

[نظم: الكامل]

عجباً لأقوال النفوس السَّامِيَهْ ... إن المنازل في المنازلِ سارِيَهْ
كيف العروجُ من الحضيض إلى العُلَى ... إلاَّ بقَهْرِ الحضرة المتعالِيَهْ
فصناعةُ التحليل في معراجها ... نحو اللطائفِ والأمور السّامِيَهْ
وصناعةُ التركيب عند رجوعِها ... بِسَنَا الوجود إلى ظلام الهَاوِيَهْ

اعلم أيّدك الله أنه لما كان العلم المنسوب إلى الله لا يقبل الكثرة ولا الترتيب فإنه غير مكتسب ولا مستفاد، بل علمه عين ذاته كسائر ما ينسب إليه من الصفات وما سمّي به من الأسماء، وعلوم ما سوى الله لا بدّ أن تكون مرتبة محصورة، سواء كانت علوم وهب أو علوم كسب، فإنها لا تخلو من هذا الترتيب الذي نذكره وهو علم المفرد أولاً، ثم علم التركيب، ثم علم المركب ولا رابع لها، فإن كان من المفردات التي لا تقبل التركيب علمه مفرداً وكذلك ما بقي، فإن كل معلوم لا بدّ أن يكون مفرداً أو مركباً، والمركب يستدعي بالضرورة تقدم علم التركيب وحينئذ يكون علم المركب، فهذا قد علمت ترتيب جميع العلوم الكونية، فلنبين لك حصر المنازل في هذا المنزل وهي كثيرة لا تحصى، ولنقتصر منها على ما يتعلق بما يختص به شرعنا ويمتاز به، لا بالمنازل التي يقع فيها الاشتراك بيننا وبين غيرنا من سائر علوم الملل والنحل وجملتها تسعة عشر مرتبة أمّهات، ومنها ما يتفرع إلى منازل، ومنها ما لا يتفرع، فلنذكر أسماء هذه المراتب ولنجعل لها اسم المنازل، فإنه كذا عرّفنا بها في الحضرة الإلهية، والأدب أولى فلنذكر ألقاب هذه المنازل وصفات أربابها وأقطابها المتحققين بها وأحوالهم وما لكل حال من هذه الأحوال من الوصف، ثم بعد ذلك نذكر إن شاء الله كل صنف من هذه التسعة عشر، ونذكر بعض ما يشتمل عليه من أمّهات المنازل لا من المنازل، فإنه ثم منزل يشتمل على ما يزيد على المائة من منازل العلامات والدلالات على أنوار جلية ويشتمل على آلاف، وأقل من منازل الغايات الحاوية على الأسرار الخفية والخواص الجلية، ثم نتلو ما ذكرنا بما يضاهي هذا العدد لهذه المنازل من الموجودات قديمها وحديثها، ثم نذكر ما يتعلق ببعض معاني هذا المنزل على التقريب والاختصار إن شاء الله تعالى.

ذكر ألقابها وصفات أقطابها: فمن ذلك: منازل الثناء والمدح هو لأرباب الكشوفات والفتح، ومنازل الرموز والألغاز لأهل الحقيقة والمجاز، ومنازل الدعاء لأهل الإشارات والبعد، ومنازل الأفعال لأهل الأحوال والاتصال، ومنازل الابتداء لأهل الهواجس والإيماء، ومنازل التنزيه لأهل التوجيه في المناظرات والاستنباط، ومنازل التقريب للغرباء المتألهين، ومنازل التوقّع لأصحاب البراقع من أجل السبحات، ومنازل البركات لأهل الحركات، ومنازل الأقسام لأهل التدبير من الروحانيين، ومنازل الدهر لأهل الذوق، ومنازل الآنية لأهل المشاهدة بالأبصار، ومنازل اللام والألف للالتفاف الحاصل بالتخلق بالأخلاق الإلهية ولأهل السر الذي لا ينكشف، ومنازل التقرير لأهل العلم بالكيمياء الطبيعية والروحانية، ومنازل فناء الأكوان للضغائن المخدّرات، ومنازل الألفة لأهل الأمان من أهل الغرف، ومنازل الوعيد للمتمسكين بقائمة العرش الأمجد، ومنازل الاستخبار لأهل غامضات الأسرار، ومنازل الأمر للمتحققين بحقائق سره فيهم.

وأمّا صفاتهم: فأهل المدح: لهم الزهو، وأهل الرموز: لهم النجاة من الاعتراض، وأمّا المتألهون: فلهم التيه بالتخلق، وأمّا أهل الأحوال والاتصال: فلهم الحصول على العين، وأمّا أهل الإشارة: فلهم الحيرة عند التبليغ، وأمّا أهل الاستنباط: فلهم الغلط والإصابة وليسوا بمعصومين، وأمّا الغرباء: فلهم الانكسار، وأمّا أهل البراقع: فلهم الخوف، وأمّا أهل الحركة: فلهم مشاهدة الأسباب، والمدبرون: لهم الفكر، والممكنون: لهم الحدود، وأهل المشاهد: لهم الجحد، وأهل الكتم: لهم السلامة، وأهل العلم: لهم الحكم على المعلوم، وأهل الستر: منتظرون رفعه، وأهل الأمن: في موطن الخوف من المكر، وأهل القيام: لهم القعود، وأهل الإلهام: لهم التحكم، وأهل التحقيق: لهم ثلاثة أثواب: ثوب إيمان وكفر ونفاق.

وأمّا ذكر أحوالهم: فاعلم أن الله تعالىٰ قد هيّأ المنازل للنازل، ووطأ المعاقل للعاقل، وزوى المراحل للراحل، وأعلى المعالم للعالم، وفصل المقاسم للقاسم، وأعدّ القواصم للقاصم، وبيّن العواصم للعاصم، ورفع القواعد للقاعد، ورتّب المراصد للراصد، وسخّر المراكب للراكب، وقرّب المذاهب للذاهب، وسطر المحامد للحامد، وسهّل المقاصد للقاصد، وأنشأ المعارف للعارف، وثبت المواقف للواقف، ووعر المسالك للسالك، وعيّن المناسك للناسك، وأخرس المشاهد للشاهد، وأحرس الفراقد للراقد.

ذكر صفات أحوالهم: فإنه سبحانه جعل النازل مقدّراً، والعاقل مفكراً، والراحل مشمراً، والعالم مشاهداً، والقاسم مكابداً، والقاصم مجاهداً، والعاصم مساعداً، والقاعد عارفاً، والراصد واقفاً، والراكب محمولاً، والذاهب معلولاً، والحامد مسؤولاً، والقاصد مقبولاً، والعارف مبخوتاً، والواقف مبهوتاً، والسالك مردوداً، والناسك مبعوداً، والشاهد محكماً، والراقد مسلماً.

فهذا قد ذكرنا صفات هؤلاء التسعة عشر صنفاً في أحوالهم. فلنذكر ما يتضمن كل

صنف من أمّهات المنازل، وكل منزل من هذه الأمّهات يتضمن أربعة أصناف من المنازل: الصنف الأوّل: يسمّى منازل الدلالات. والصنف الآخر: يسمّى منازل الحدود. والصنف الثالث: يسمّى منازل الخواص. والصنف الرابع: يسمّى منازل الأسرار. ولا تحصى كثرة فلنقتصر على التسعة عشر، ولنذكر أعداد ما تنطوي عليه من الأمّهات، وهذا أوّلها منزل المدح له منزل الفتح فتح السرين، ومنزل المفاتيح الأول ولنا فيه جزء سمّيناه مفاتيح الغيوب، ومنزل العجائب، ومنزل تسخير الأرواح البرزخية، ومنزل الأرواح العلوية، ولنا في بعض معانيه من النظم قولنا: [مخلع البسيط]

مَنَازِلُ المَدْحِ والتباهي ... منازلٌ ما لها تَنَاهِي
لا تطلبَنْ في السُّموِّ مدحاً ... مدائحُ القوم في الثرى هِي
من ظمئَتْ نفسُه جهاداً ... يشرب من أعذب المياهِ

نقول: ليس مدح العبد أن يتصف بأوصاف سيده فإنه سوء أدب، وللسيد أن يتصف بأوصاف عبده تواضعاً، فللسيد النزول لأنه لا يحكم عليه، فنزوله إلى أوصاف عبده تفضل منه على عبده حتى يبسطه، فإن جلال السيد أعظم في قلب العبد من أن يدل عليه لولا تنزله إليه، وليس للعبد أن يتصف بأوصاف سيده لا في حضرته ولا عند إخوانه من العبيد وإن ولاّه عليهم كما قال عليه السلام: «**أنا سَيّدُ وَلَدِ آدمَ ولاَ فَخْر**» وقال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا﴾ أي نملكها ملكاً ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة القصص: الآية ٨٣] فإن الأرض قد جعلها الله ذلولاً، والعبد هو الذليل، والذلّة لا تقتضي العلوّ، فمن جاوز قدره هلك. يقال: ما هلك امرؤ عرف قدره. وقوله: ما لها تناهي، يقول: إنه ليس للعبد في عبوديته نهاية يصل إليها ثم يرجع رباً، كما أنه ليس للرب حد ينتهي إليه ثم يعود عبداً، فالرب رب إلى غير نهاية، والعبد عبد إلى غير نهاية، فلذا قال مدائح القوم في الثرى: هي وهو أذلّ من وجه الأرض. وقال: لا يعرف لذة الماء إلاّ الظمآن، يقول: لا يعرف لذّة الاتصاف بالعبودية إلاّ من ذاق الآلام عند اتصافه بالربوبية واحتياج الخلق إليه مثل سليمان حين طلب أن يجعل الله أرزاق العباد على يديه حسّاً فجمع ما حضره من الأقوات في ذلك الوقت فخرجت دابة من دواب البحر فطلبت قوتها فقال لها: خذي من هذا قدر قوتك في كل يوم فأكلته حتى أتت على آخره فقالت: زدني فما وفيت برزقي فإن الله يعطيني كل يوم مثل هذا عشر مرات وغيري من الدواب أعظم مني وأكثر رزقاً، فتاب سليمان عليه السلام إلى ربّه وعلم أنه ليس في وسع المخلوق ما ينبغي للخالق تعالىٰ، فإنه طلب من الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فاستقال من سؤاله حين رأى ذلك واجتمعت الدواب عليه تطلب أرزاقها من جميع الجهات فضاق لذلك ذرعاً فلما قبل الله سؤاله وأقاله وجد من اللذة لذلك ما لا يقدر قدره.

منزل الرموز: فاعلم وفّقك الله أنه وإن كان منزلاً فإنه يحتوي على منازل: منها منزل الوحدانية، ومنزل العقل الأول، والعرش الأعظم، والصدا والإتيان من العماء إلى العرش، وعلم التمثّل، ومنزل القلوب والحجاب، ومنزل الاستواء الفهواني، والألوهية السارية،

واستمداد الكهان والدهر، والمنازل التي لا ثبات لها ولا ثبات لأحد فيها، ومنزل البرازخ والإلهية والزيادة والغيرة، ومنزل الفقد والوجدان، ومنزل رفع الشكوك والجود المخزون، ومنزل القهر والخسف، ومنزل الأرض الواسعة. ولما دخلت هذا المنزل وأنا بتونس وقعت مني صيحة ما لي بها علم أنها وقعت مني غير أنه ما بقي أحد ممن سمعها إلاَّ سقط مغشياً عليه، ومن كان على سطح الدار من نساء الجيران مستشرفاً علينا غشي عليه، ومنهنّ من سقط من السطوح إلى صحن الدار على علوّها وما أصابه بأس، وكنت أول من أفاق، وكنا في صلاة خلف إمام فما رأيت أحداً إلاَّ صاعقاً فبعد حين أفاقوا فقلت: ما شأنكم؟ فقالوا: أنت ما شأنك؟ لقد صحت صيحة أثرت ما ترى في الجماعة، فقلت: والله ما عندي خبر أني صحت. ومنزل الآيات الغربية والحكم الإلهية، ومنزل الاستعداد والزينة، والأمر الذي مسك الله به الأفلاك السماوية، ومنزل الذكر والسلب وفي هذه المنازل قلت: [مخلع البسيط]

مــنــازلُ الــكــون فــي الــوجــودِ ... مــنــازلٌ كــلُّــهــا رُمُــوزُ
مــنــازلٌ لــلــعــقــول فــيــهــا ... دلائــلٌ كــلــهــا تَــجُــوزُ
لــمــا أتــى الــطــالــبــون قــصــداً ... لــنــيــل شــيء فــذاك جُــوزوا
فــيــا عــبــيــد الــكــيــان حُــوزوا ... هــذا الــذي ســاقَــكــم وجــوزوا

الرمز واللغز هو الكلام الذي يعطي ظاهره ما لم يقصده قائله، وكذلك منزل العالم في الوجود ما أوجده الله لعينه وإنما أوجده الله لنفسه فاشتغل العالم بغير ما وجد له فخالف قصد موجده، ولهذا يقول جماعة من العلماء العارفين وهم أحسن حالاً ممن دونهم: إن الله أوجدنا لنا. والمحقق والعبد لا يقول ذلك بل يقول: إنما أوجدنا له لا لحاجة منه إليّ فأنا لغز ربي ورمزه، ومن عرف أشعار الألغاز عرف ما أردناه. وأمّا قوله لما أتى الطالبون قصداً لنيل شيء بذاك جوزوا من المجازات يقول: من طلب الله لأمر فهو لما طلب ولا ينال منه غير ذلك. وقوله: فيا عبيد الكيان يقول: من عبد الله لشيء فذلك الشيء معبوده وربه والله بريء منه وهو لما عبده. وقوله: حوزوا أي خذوا ما جئتم له أي بسببه، وجوزوا: أي روحوا عنّا فإنكم ما جئتم إلينا ولا بسببنا.

منزل الدعاء: هذا المنزل يحتوي على منازل: منها منزل الأنس بالشبيه، ومنزل التغذي، ومنزل مكة والطائف والحجب، ومنزل المقاصير والابتلاء، ومنزل الجمع والتفرقة والمنع، ومنزل النواشي والتقديس وفي هذا المنزل قلت: [الكامل]

لــتَــأيُّــهِ الــرحــمــن فــيــك مَــنَــازلُ ... فــأجِــبْ نــداءَ الــحــق طــوعــاً يــا فُــلُ
رفــعــتْ إلــيــكَ الــمــرسلاتُ أكــفَّــهــا ... تــرجــو الــنَّــوالَ فــلا يــخــيــب الــسائِــلُ
أنــت الــذي قــال الــدلــيــلُ بــفــضــلــهِ ... ولــنــا عــلــيــه شــواهــدٌ ودلائــلُ
لــولا اختــصــاصُــك بــالــحــقيقة ما زَهَــتْ ... بــنــزولــك الأعــلــى لــديــه مــنــازلُ

يقول: إن نداء الحق عباده إنما هو لسان المرسلات تطلب اسماً من أسمائه، وذلك العبد في ذلك الوقت تحت سلطانها، والمرسلات لطائف الخلق ترفع أكفها إلى من هي في

يديه من الأسماء لتجود به على من يطلبها من الأسماء، والمسؤول أبداً إنما هو من له المهيمنية على الأسماء كالعليم الذي له التقدّم على الخبير، والحسيب والمحصي والمفضل ولهذا قال: أنت الذي قال الدليل بفضله والحقيقة التي اختصّ بها أحاطته بما تحته في الرتبة من الأسماء الإلهيّة، إذ القادر في الرتبة دون المريد، والعالم في الرتبة فوق المريد، والحيّ فوق الكل، فالمنازل التي تحت إحاطة الاسم الجامع تفتخر بنزوله إليها إجابة لسؤالها.

منزل الأفعال: وهو يشتمل على منازل: منها منزل الفضل والإلهام، ومنزل الإسراء الروحاني، ومنزل التلطف، ومنزل الهلاك، وفي هذه المنازل أقول: [الكامل]

لـلـمـنـازل الأفـعـال بَـرْقٌ لامـع ... ورياحُـهـا تُـزْجي الـسـحـاب زَعَـازعُ
وسـهـامُـهـا فـي الـعـالـمـيـن نـوافـذٌ ... وسـيـوفُـهـا فـي الـكـائـنـات قَـوَاطِـعُ
ألـقَـتْ إلـى الـعـز الـمـحـقَّـق أمـرَهـا ... فـالـعـيـنُ تـبـصـر والـتَّـنَـاولُ شـاسـعُ

الناس في أفعال العباد على قسمين: طائفة ترى الأفعال من العباد، وطائفة ترى الأفعال من الله، وكل طائفة يبدو لها مع اعتقادها ذلك شبه البرق اللامع في ذلك يعطيها آن للذي نفي عنه ذلك الفعل نسبة ما، وكل طائفة لها سحاب يحول بينها وبين نسبة الفعل لمن نفته عنه. وقوله في رياحها: إنها شديدة أي الأسباب، والأدلة التي قامت لكل طائفة على نسبة الأفعال لمن نسبتها إليه قوية بالنظر إليه، ووصف سهامها بالنفوذ في نفوس الذين يعتقدون ذلك وكذلك سيوفها فيهم قواطع. وقوله: إنها ألقت إلى العزّ أي احتمت بحمى مانع يمنع المخالف أن يؤثر فيه، فيبقى على هذا كل أحد على ما هي إرادة الله فيه قال تعالى: ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٨] وقوله: فالعين تبصر يقول: الحسّ يشهد أن الفعل للعبد والإنسان يجد ذلك من نفسه بما له فيه من الاختيار. وقوله: التناول شاسع أي ونسبته إلى غير ما يعطيه الحسّ والنفس بعيد المتناول إلاّ أنه لا بدّ فيه من برق لامع يعطي نسبة في ذلك الفعل لمن نفي عنه لا يقدر على جحدها.

منزل الابتداء: ويشتمل على منازل: منها منزل الغلظة والسبحات، ومنزل التنزلات والعلم بالتوحيد الإلهيّ، ومنزل الرحموت، ومنزل الحق والفزع وفي هذا المنزل أقول: [الكامل]

لـلابـتـداء شـواهـدٌ ودلائـلُ ... ولـه إذا حـطَّ الـركـابَ مَـنَـازلُ
يـحـوي عـلـى عـيـن الـحـوادث حُـكْـمُـهُ ... ويـمـدُّه الله الـكـريـمُ الـفـاعـلُ
مـا بـيـنـه نـسـبٌ وبـيـن إلـهـه ... إلاّ الـتـعـلُّـقُ والـوجـودُ الـحـاصـلُ
لا تـسـمـعـنَّ مـقـالـةً مـن جـاهـلٍ ... مَـبْـنَـى الـوجـود حـقـائـقٌ وأبـاطِـلُ
مـبـنـى الـوجـود حـقـائـقٌ مـشـهـودةٌ ... وسوى الـوجـودِ هو الـمـحـالُ الـبـاطِـلُ

يقول: لابتداء الأكوان شواهد فيها أنها لم تكن لأنفسها ثم كانت وله الضمير يعود على الابتداء إذا حطّ الركاب أي إذا تتبعته من أين جاء وجدته من عند من أوجده ولذلك كان له البقاء، قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٦] فإذا حططت عنده عرفت منزلته منه

الذي كان فيها إذ لم يكن لنفسه وتلك منزل الأولية الإلهية في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] ومن هذه الأولية صدر ابتداء الكون ومنه تستمد الحوادث كلها وهو الحاكم فيها وهي الجارية على حكمه ونفي النسب عنه، فإن أولية الحق تمدّ أولية العبد، وليس لأولية الكون إمداد لشيء، فما ثم نسب إلاَّ العناية، ولا سبب إلاَّ الحكم، ولا وقت غير الأزل، هذا مذهب القوم، وما بقي مما لم يدخل تحت حصر هذه الثلاثة فعمى وتلبيس، هكذا صرَّح به صاحب محاسن المجالس، وقول من قال: مبنى الوجود حقائق وأباطل ليس بصحيح، فإن الباطل هو العدم وهو صحيح، فإن الوجود المستفاد في حكم العدم والوجود الحق من كان وجوده لنفسه وكل عدم وجد فما وجد إلاَّ من وجود كان موصوفاً به لغيره لا لنفسه، والذي استفاد هو الوجود لعينه. وأمّا المحال الباطل فهو الذي لا وجود له لا لنفسه ولا من غيره.

منزل التنزيه: هذا المنزل يشتمل على منازل: منها منزل الشكر، ومنزل البأس، ومنزل النشر، ومنزل النصر والجمع، ومنزل الربح والخسران والاستحالات، ولنا في هذا: [الكامل]

لِمنازِلِ التنزيه والتَّقْديسِ ... سرٌّ مقولٌ حُكْمُه معقولُ
عِلْمٌ يعودُ على المنزَّه حُكْمُه ... فردوسُ قُدْسٍ روضُه مَطْلولُ
فَمُنزِّه الحقِّ المبين مجوِّزٌ ... ما قاله فمُرامُه تَضْليلُ

يقول: المنزّه على الحقيقة من هو نزيه لنفسه، وإنما ينزّه من يجوز عليه ما ينزّه عنه وهو المخلوق فلهذا يعود التنزيه على المنزّه، قال ﷺ: «**إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ**» فمن كان عمله التنزيه عاد عليه تنزيهه فكان محله منزّهاً عن أن يقوم به اعتقاد ما لا ينبغي أن يكون الحق عليه ومن هنا قال: من قال سبحاني تعظيماً لجلال الله تعالىٰ ولهذا قال: روضه مطلول وهو نزول التنزيه إلى محل العبد المنزّه خالقه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

منزل التقريب: هذا المنزل يشتمل على منزلين: منزل خرق العوائد، ومنزل أحدية كن وفيه أنشدت: [الكامل]

لمنازِلِ التَّقْريب شرطٌ يُعْلَمُ ... ولها على ذات الكيان تَحَكُّمُ
فإذا أتى شَرْطُ القيامة واستوى ... جبَّارُها خضع الوجودُ ويَخْدُمُ
هيهاتَ لا تجني النفوس ثمارها ... إلاَّ التي فعلت وأنت مُجَسَّمُ

يقول: إن التقريب من صفات المحدثات لأنها تقبل التقريب وضدّه والحق هو القريب، وإن كان قد وصف نفسه بأنه يتقرب والمصدر منه التقريب والتقرّب. ولما قال شرط يعلم وهو قبول التأثير قال: ولا يعرف وينكشف الأمر عموماً إلاَّ في الآخرة، وقال: والنفوس ما لها جني إلاَّ ما غرسته في حياتها الدنيا من خير أو شرّ فلها التقريب من أعمالها: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [سورة الزلزلة: الآية ٧ ـ ٨].

منزل التوقع: وهذا المنزل أيضاً يشتمل على منزلين: منزل الطريق الإلهيّ، ومنزل السمع وفيه نظمت: [الكامل]

ظهرتْ منازلُ للتوقّع باديَهْ ... وقطوفُها ليد المقرب دانِيَهْ
فاقطفْ مِنَ أغصان الدنوّ ثمارَها ... لا تقطفنَّ من الغصون العَادِيَهْ
لا تخرجَنَّ عن اعتدالك والزَمَنْ ... وسطَ الطريق تَرَ الحقائقَ بادِيَهْ

يقول: ما يتوقعه الإنسان قد ظهر لأنه ما يتوقع شيئاً إلاّ وله ظهور عنده في باطنه، فقد برز غيبه الذي يستحقه إلى باطن من يتوقعه، ثم إنه يتوقع ظهوره في عالم الشهادة فيكون أقرب في التناول وهو قوله: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة: الآية ٢٣] أي قريبة ليد القاطف: يقول: احفظ طريق الاعتدال لا تنحرف عنه، والاعتدال هنا ملازمتك حقيقتك لا تخرج عنها كما خرج المتكبرون، ومن كان برزخاً بين الطرفين كان له الاستشراف عليهما فإذا مال إلى أحدهما غاب عن الآخر.

منزل البركات: وهو أيضاً يشتمل على منزلين: على منزل الجمع والتفرقة، ومنزل الخصام البرزخي وهو منزل الملك والقهر وفيه قلت: [الكامل]

لمنازل البَركاتِ نورٌ يسطعُ ... وله بحبَّات القلوب تَوَقُّعُ
فيها المَزيدُ لكل طالب مَشْهَدٍ ... ولها إلى نفس الوجود تطلُّعُ
فإذا تحقَّق سرُّ طالبِ حكمةٍ ... بحقائق البركات شدَّ المَطْلَعُ
فالحمد لله الذي في كونه ... أعيانُه مشهودةٌ تتسمَّعُ

البركات: الزيادة وهي من نتائج الشكر، وما سمّى الحق نفسه تعالىٰ بالاسم الشاكر والشكور إلاّ لنزيد في العمل الذي شرع لنا أن نعمل به، كما يزيد الحق النعم بالشكر منّا، فكل نفس متطلعة للزيادة يقول: وإذا تحقق طالب الحكم الزيادة انفرد بأمور يجهد أن لا يشاركه فيها أحد لتكون الزيادة من ذلك النوع، وصاحب هذا المقام تكون حاله المراقبة للحال الذي يطلبه.

منزل الأقسام والإيلاء: وهذا المنزل يشتمل على منازل: منها منزل الفهوانيات الرحمانية، ومنزل المقاسم الروحانية، ومنزل الرقوم، ومنزل مساقط النور، ومنزل الشعراء، ومنزل المراتب الروحانية، ومنزل النفس الكلية، ومنزل القطب، ومنزل انفهاق الأنوار على عالم الغيب، ومنزل مراتب النفس الناطقة، ومنزل اختلاف الطرق، ومنزل المودّة، ومنزل علوم الإلهام، ومنزل النفوس الحيوانية، ومنزل الصلاة الوسطى، وفي هذا قلت: [السريع]

منازلُ الأقسام في العَرْضِ ... أحكامُها في عالَم الأرضِ
تجري بأفلاك السُّعودِ على ... من قام بالسُّنَّة والفَرْضِ
وعِلْمُها وَقْفٌ على عينها ... وحُكْمُها في الطول والعَرْضِ

يقول: القسم نتيجة التهمة، والحق يعامل الخلق من حيث ما هم عليه لا من حيث ما هو عليه، ولهذا لم يولّ الحق تعالىٰ للملائكة لأنهم ليسوا من عالم التهمة، وليس لمخلوق أن يقسم بمخلوق وهو مذهبنا، وإن أقسم بمخلوق عندنا فهو عاص، ولا كفارة عليه إذا حنث وعليه التوبة مما وقع فيه لا غير، وإنما أقسم الحق بنفسه حين أقسم بذكر المخلوقات، وحذف الاسم يدل على ذلك إظهار الاسم في مواضع من الكتاب العزيز مثل قوله: ﴿فَوَرَبِّ

﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢٣] ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَرِقِ وَٱلْمَغَرِبِ﴾ [سورة المعارج: الآية ٤٠] فكان ذلك إعلاماً في المواضع التي لم يجر للاسم ذكر ظاهر أنه غيب هنالك لأمر أراده سبحانه في ذلك يعرفه من عرّفه الحق ذلك من نبيّ ووليّ ملهم، فإن القسَم دليل على تعظيم المقسم به، ولا شك أنه قد ذكر في القسم من يبصر ومن لا يبصر، فدخل في ذلك الرفيع والوضيع والمرضيّ عنه، والمغضوب عليه، والمحبوب والممقوت، والمؤمن والكافر، والموجود والمعدوم، ولا يعرف منازل الأقسام إلاَّ من عرف عالم الغيب، فيغلب على الظنّ أن الاسم الإلهيّ هنا مضمر، وقد عرّفناك أن عالم الغيب هو الطول وعالم الشهادة هو العرض.

منزل الإنيَّة: ويشتمل على منازل: منها منزل سليمان عليه السلام دون غيره من الأنبياء، ومنزل الستر الكامل، ومنزل اختلاف المخلوقات، ومنزل الروح، ومنزل العلوم، وفيه أقول: [الكامل]

إنِّيَّةٌ قُدسيَّةٌ مشهودةٌ ... لوجودها عند الرجال مَنَازِلُ
تفني الكيانَ إذا تجلَّت صورةً ... في سورةٍ أعلامُها تَتَفاضَلُ
وتريكَ فيك وجودَها بنعوتها ... خلفَ الظلالِ وَجُودُها لك شامِلُ

يقول: إن الحقيقة الإلهية المعنوية بنعوت التنزيه إذا شوهدت تفنى كل عين سواها وإن تفاضلت مشاهدها في الشخص الواحد بحسب أحواله وفي الأشخاص لاختلاف أحوالهم لما أعطت الحقيقة أنه لا يشهد الشاهد منّا إلاَّ نفسه، كما لا تشهد هي منّا إلاَّ نفسها، فكل حقيقة للأخرى مرآة المؤمن مرآة أخيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١].

منزل الدهور: يحتوي هذا المنزل على منازل: منها منزل السابقة، ومنزل العزّة، ومنزل روحانيات الأفلاك، ومنزل الأمر الإلهيّ، ومنزل الولادة، ومنزل الموازنة، ومنزل البشارة باللقاء، وفيه أقول: [الكامل]

ومِن المنازل ما يكون مُقَدَّرُهُ ... مثلُ الزمان فإنه متوهَّمُ
دلَّتْ عليه الدائراتُ بدورها ... وله التصرُّفُ والمقامُ الأعْظَمُ

يقول: لما كان الأزل أمراً متوهماً في حق الحق كان الزمان أيضاً في حق الحق أمراً متوهماً أي مدة متوهمة تقطعها حركات الأفلاك فإن الأزل كالزمان للخلق فافهم.

منزل لام الألف: هذا منزل الالتفاف والغالب عليه الائتلاف لا الاختلاف، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [سورة القيامة: الآيتان: ٢٩، ٣٠] وهو يحتوي على منازل منها منزل مجمع البحرين وجمع الأمرين، ومنزل التشريف المحمديّ الذي إلى جانب المنزل الصمديّ وفيه أقول: [البسيط]

منازلُ اللام في التَّحْقيق والألف ... عند اللقاء انفصالٌ حَالَ وَصْلِهِمَا
هما الدليلُ على من قال إن أنا ... سرُّ الوجود وإني عَيْنُه فَهُمَا
نِعْمَ الدليلان إذ دلاَّ بحالهما ... لا كالذي دلَّ بالأقوال فانصَرَمَا

يقول: وإن ارتبط اللام بالألف وانعقد وصارا عيناً واحدة وهو ظاهر في المزدوج من الحروف في المقام الثامن والعشرين بين الواو والياء اللذين لهما الصحة والاعتلال، فلما في الألف من العلة، ولما في اللام من الصحة، وقعت المناسبة بينه وبين هذين الحرفين، فيلي الصحيح منه حرف الصحة، ويلي المعتل منه حرف العلة، فيداه مبسوطة بالرحمة مقبوضة بنقيضها، وليس للام الألف صورة في نظم المفرد بل هو غيب فيها ورتبة على حالها بين الواو والياء، وقد استناب في مكانه الزاي والحاء والطاء اليابسة فله في غيبه الرتبة السابعة والثامنة والتاسعة، فله منزلة القمر بين البدر والهلال، فلم تزل تصحبه رتبة البرزخية في غيبته وظهوره فهو الرابع والعشرون، إذ كانت له السبعة بالزاي والثمانية بالحاء والتسعة بالطاء واليوم أربع وعشرون ساعة، ففي أيّ ساعة عملت به فيها أنجح عملك على ميزان العمل بالوضع لأنه في حروف الرقم لا في حروف الطبع لأنه ليس له في حروف الطبع إلاَّ اللام وهو من حروف اللسان برزخ بين الحلق والشفتين، والألف ليست من حروف الطبع فما ناب إلاَّ مناب حرف واحد وهو اللام الذي عنه تولد الألف إذا أشبعت حركته فإن لم تشبع ظهرت الهمزة، ولهذا جعل الألف بعض العلماء نصف حرف والهمزة نصف حرف في الرقم الوضعي لا في اللفظ الطبعي.

ثم نرجع فنقول: إن انعقد اللام بالألف كما قلنا وصارا عيناً واحدة فإن فخذيه يدلان على أنهما اثنان، ثم العبارة باسمه تدل على أنه اثنان فهو اسم مركّب من اسمين لعينين العين الواحدة اللام والأخرى الألف، ولكن لما ظهرا في الشكل على صورة واحدة لم يفرق الناظر بينهما ولم يتميز له أيّ الفخذين هو اللام حتى يكون الآخر الألف فاختلف الكتاب فيه، فمنهم من راعى التلفّظ، ومنهم من راعى ما يبتدىء به مخططه فيجعله أوّلاً فاجتمعا في تقديم اللام على الألف لأنّ الألف هنا تولد عن اللام بلا شك، وكذلك الهمزة تتلو اللام في مثل قوله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ [سورة الحشر: الآية ١٣] وأمثاله، وهذا الحرف أعني لام ألف هو حرف الالتباس في الأفعال، فلم يتخلص الفعل الظاهر على يد المخلوق لمن هو؟ إن قلت: هو لله صدقت، وإن قلت: هو للمخلوق صدقت، ولولا ذلك ما صحَّ التكليف، وإضافة العمل من الله للعبد، يقول ﷺ: «**إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ**» ويقول الله: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٥] ﴿اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٠] والله يقول الحق فكذلك أي الفخذين جعلت اللام أو الألف صدقت وإن اختلف العمل في وضع الشكل عند العلماء به للتحقّق بالصورة، وكل من دلَّ على أن الفعل للواحد من الفخذين دون الآخر فذلك غير صحيح وصاحبه ينقطع ولا يثبت وإن غيّره من أهل ذلك الشأن يخالفه في ذلك، ويدلّ في زعمه والقول معه كالقول مع مخالفه ويتعارض الأمر ويشكل إلاَّ على من نوّر الله بصيرته وهداه إلى سواء السبيل.

منزل التقرير: وهو يشتمل على منازل: منها منزل تعداد النعم، ومنزل رفع الضرر، ومنزل الشرك المطلق، وفي ذلك أقول: [الوافر]

تقرَّرَتِ المنازلُ بالسكونِ ... ورجَّحَتِ الظُّهورَ على الكُمونِ
ودلَّتْ بالعيانِ على عُيُونِ ... مفجَّرةٍ من الماء المَعينِ
ودلَّتْ بالبروق سَحَابُ مزن ... إذا لمعت على النور المُبينِ

اعلم أيّدك الله أنه يقول: الثبوت يقرّر المنازل، فمن ثبت ثبت وظهر لكل عين على حقيقتها، ألا ترى ما تعطيك سرعة الحركة من الشبه فيحكم الناظر على الشيء بخلاف ما هو عليه ذلك الشيء، فيقول في النار الذي في الجمرة أو في رأس الفتيلة إذا أسرع بحركته عرضاً إنه خط مستطيل أو يديره بسرعة فيرى دائرة نار في الهواء وسبب ذلك عدم الثبوت، وإذا ثبتت المنازل دلّت على ما تحوي عليه من العلوم الإلهية.

منزل المشاهدة: وهو منزل واحد هو منزل فناء الكون فيه يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل، وفيه أقول: [مجزوء الرمل]

في فَنَاءِ الكون مَنْزِلْ ... روحُه فينا تَنَزَّلْ
إنه ليلةُ قَدْري ... ما له نورٌ ولا ظِلّ
هو عينُ النور صِرْفاً ... ما له عنه تَنَقُّلْ
فأنا الإمام حقاً ... مَلِكٌ في الصَّدْر أوَّلْ
عنده مفتاحُ أمري ... فيولِّيكم ويَعزِلْ
سَمْهَرِيَّاتي طوالٌ ... لست بالسِّماك الأعْزَلْ
فالمقامُ الحقُّ فيكم ... دائمٌ لا يتبدَّلْ
وهو القاهرُ منه ... وهو الإمام الأعْدَلْ
ليس بالنور الممثَّلْ ... بل من المَهَاة أكْمَلْ
وأنا منه يقيناً ... بمكان السرِّ الأفْضَلْ
فبعَيْن العَيْن أسمو ... وبأمر الأمر أنْزِلْ

يقول: حالة الفناء لا نور ولا ظل مثل ليلة القدر، ثم قال: وذلك هو الضوء الحقيقي والظل الحقيقي، فإنه الأصل الذي لا ضدّ له، والأنوار تقابلها الظلم وهذا لا يقابله شيء. وقوله: أنا الإمام يعني شهوده للحق من الوجه الخاص الذي منه إليّ، وهو الصدر الأول، ومن هذا المقام يقع التفصيل والكثرة والعدد في الصور، وجعل السمهريات كناية عن تأثير القيومية في العالم ولها الثبوت ولذا قال: لا تتبدّل، وله القهر والعدل لا يقبل التشبيه فبشهود الذات أعلو وبالأمر الإلهيّ أنزل إماماً في العالم.

منزل الألفة: هو منزل واحد وفيه أقول: [السريع]

منازلُ الألفة مألوفَةْ ... وهي بهذا النَّعت معروفَةْ
فقُلْ لمن عرَّس فيها أقِمْ ... فإنها بالأمن مخفوفَةْ
وهي على الاثنين موقوفَةْ ... وعن عذاب الوِتْر مصروفَةْ

هذا منزل الأعراس والسرور والأفراح، وهو ممّا امتنّ الله به على نبيه محمد ﷺ فقال:

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ يريد عليك ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٣] يريد على مودتك وإجابتك وتصديقك.

منزل الاستخبار: وهو يشتمل على منازل: منها منزل المنازعة الروحانية، ومنزل حلية السعداء كيف تظهر على الأشقياء وبالعكس، ومنزل الكون قبل الإنسان، وفيه أقول: [الوافر]

إذا استفْهَمْتُ عن أحباب قلبي ... أحالوني على استفهام لفْظِي
منازلُهم بلفظك ليس إلاَّ ... فيا شؤمي لذاك وسوءِ حظِّي
وعَظْتُ النفسَ لا تنظُرْ إليهم ... فما التفَتَتْ بخاطرها لوعْظِي
لفَظْتُهُمُو عسى أحظى بكونٍ ... فكانوا عَيْنَ كوني عَيْنَ لفْظِي

وقال: [الطويل]

ومن عجبٍ أني أحنّ إليهِمُو ... وأسأل عنهم من أرى وهُمُو مَعِي
وترصدهُمْ عيني وهم في سوادِها ... ويشتاقُهم قلبي وهم بين أضْلُعِي

يقول: إنهم في لساني إذا سألت عنهم، وفي سواد عينيّ إذا نظرت إليهم، وفي قلبي إذا فكرت فيهم واشتقت إليهم، فهم معي في كل حال أكون عليها، فهم عيني ولست عينهم إذ لم يكن عندهم مني ما عندي منهم.

منزل الوعيد: وهو منزل واحد محوي على الجور والاستمساك بالكون، وفيه قلت: [الكامل]

إن الوعيدَ لَمَنْزلان هما لمن ... ترك السلوكَ على الطريق الأقْوَم
فإذا تحقَّقَ بالكمال وجودُه ... ومشى على حكم العُلُوِّ الأقْدَمَ
عادا نعيماً عنده فنعيمُه ... في النار وهي نعيمُ كل مكرَّمِ

منزل روحانيّ وهو عذاب النفوس، ومنزل جسمانيّ وهو العذاب المحسوس، ولا يكون إلاَّ لمن حاد عن الطريق المشروع في ظاهره وباطنه، فإذا وفق للاستقامة وسبقت له العناية عصم من ذلك وتنعم بنار المجاهدة لجنّة المشاهدة.

منزل الأمر: وهو يشتمل على منازل: منزل الأرواح البرزخية، ومنزل التعليم، ومنزل السرى، ومنزل السبب، ومنزل التمائم، ومنزل القطب والإمامين، ولنا فيه: [البسيط]

منازلُ الأمر فَهْوَانيَّةُ الذات ... بها تَحَصَّلُ أفراحي ولذّاتي
فليتني قائمٌ فيها مدى عُمُري ... ولا أزول إلى وقت المُلاقاةِ
فقُرَّةُ العين للمختار كان له ... إذا تبرَّزُ في صدر المناجاةِ

الأمر الإلهيّ من صفة الكلام وهو مسدود دون الأولياء من جهة التشريع، وما في الحضرة الإلهيّة أمر تكليفيّ، إلاَّ أن يكون مشروعاً، فما بقي للوليّ إلاَّ سماع أمرها، إذا أمرت الأنبياء فيكون للوليّ عند سماعه ذلك لذة سارية في وجوده، لكن يبقى للأولياء المناجاة الإلهيّة التي لا أمر فيها سمراً وحديثاً، فكل من قال من أهل الكشف إنه مأمور بأمر إلهيّ في حركاته وسكناته مخالف لأمر شرعيّ محمديّ تكليفيّ فقد التبس عليه الأمر وإن كان صادقاً

فيما قال إنه سمع، وإنما يمكن إن ظهر له تجلّ إلهيّ في صورة تنبيه ﷺ فخاطبه نبيه أو أقيم في سماع خطاب نبيّه، وذلك أن الرسول موصل أمر الحق تعالىٰ الذي أمر الله به عباده، فقد يمكن أن يسمع من الحق في حضرة ما ذلك الأمر الذي قد جاءه به أولاً رسوله ﷺ فيقول: أمرني الحق، وإنما هو في حقّه تعريف بأنه قد أمر وانقطع هذا السبب بمحمد ﷺ، وما عدا الأوامر من الله المشروعة فللأولياء في ذلك القدم الراسخة، فهذا قد أتينا على التسعة عشر صنفاً من المنازل، فلنذكر أخصّ صفات كل منزل فنقول:

وصل: أخصّ صفات منزل المدح تعلّق العلم بما لا يتناهى، وأخصّ صفات منزل الرموز تعلّق العلم بخواص الأعداد والأسماء وهي الكلمات والحروف وفيه علم السيمياء، وأخصّ صفات منزل الدعاء علوم الإشارة والتحلية، وأخصّ صفات منزل الأفعال علم الآن، وأخصّ صفات منزل الابتداء علم المبدأ والمعاد ومعرفة الأوليات من كل شيء، وأخصّ صفات التنزيه علم السلخ والخلع، وأخصّ صفات التقريب علم الدلالات، وأخصّ صفات منزل التوقّع علم النسب والإضافات، وأخصّ صفات منزل البركات علم الأسباب والشروط والعلل والأدلة والحقيقة، وأخصّ صفات الأقسام علوم العظمة، وأخصّ صفات منزل الدهر علم الأزل وديمومة الباري وجوداً، وأخصّ صفات منزل الأنية علم الذات، وأخصّ صفات منزل لام ألف علم نسبة الكون إلى المكوّن، وأخصّ صفات منزل التقرير علم الحضور، وأخصّ صفات منزل فناء الكون علم قلب الأعيان، وأخصّ صفات منزل الألفة علم الالتحام، وأخصّ صفات منزل الوعيد علم المواطن، وأخصّ صفات منزل الاستفهام علم ليس كمثله شيء، وأخصّ صفات منزل الأمر علم العبودة.

وصل: اعلم أنه لكل منزل من هذه المنازل التسعة عشر صنف من الممكنات، فمنهم صنف الملائكة وهم صنف واحد وإن اختلفت أحوالهم. وعلم الأجسام ثمانية عشر: الأفلاك أحد عشر نوعاً، والأركان أربعة، والمولدات ثلاثة، ولها وجه آخر يقابلها من الممكنات في الحضرة الإلهية الجوهر للذات وهو الأول. الثاني: الإعراض وهي للصفات. الثالث: الزمان وهو للأزل. الرابع: المكان وهو للاستواء أو النعوت. الخامس: الإضافات للإضافات. السادس: الأوضاع للفهوانية. السابع: الكميات للأسماء. الثامن: الكيفيات للتجليات. التاسع: التأثيرات للجود. العاشر: الانفعالات للظهور في صور الاعتقادات. الحادي عشر: الخاصية وهي للأحدية. الثاني عشر: الحيرة وهي للوصف بالنزول والفرح والقرض وأشباه ذلك. الثالث عشر: حياة الكائنات للحيّ. الرابع عشر: المعرفة للعلم. الخامس عشر: الهواجس للإرادة. السادس عشر: الإبصار للبصير. السابع عشر: السمع للسميع. الثامن عشر: الإنسان للكمال. التاسع عشر: الأنوار والظلم للنور.

وصل ـ في نظائر المنازل التسعة عشر:

نظائرها من القرآن حروف الهجاء التي في أول السور وهي أربعة عشر حرفاً في خمس مراتب: أحدية وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية. ونظائرها من النار الخزنة تسعة عشر ملكاً

نظائرها في التأثير اثنا عشر برجاً. والسبعة الدراري نظائرها من القرآن حروف البسملة ونظائرها من الرجال النقباء اثنا عشر والأبدال السبعة وهؤلاء السبعة منهم الأوتاد أربعة والإمامان اثنان والقطب واحد، والنظائر لهذه المنازل من الحضرة الإلهية من الأكوان كثير.

وصل: اعلم أن منزل المنازل عبارة عن المنزل الذي يجمع جميع المنازل التي تظهر في عالم الدنيا من العرش إلى الثرى وهو المسمّى بالإمام المبين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة يس: الآية ١٢] فقوله أحصيناه دليل على أنه ما أودع فيه إلاّ علوماً متناهية، فنظرنا هل ينحصر لأحد عددها فخرجت عن الحصر مع كونها متناهية لأنه ليس فيه إلاّ ما كان من يوم خلق الله العالم إلى أن ينقضي حال الدنيا وتنتقل العمارة إلى الآخرة، فسألنا من أثق به من العلماء بالله هل تنحصر أمّهات هذه العلوم التي يحويها هذا الإمام المبين؟ فقال نعم فأخبرني الثقة الأمين الصادق الصاحب وعاهدني أني لا أذكر اسمه أن أمّهات العلوم التي تتضمن كل أمّ منه ما لا يحصى كثرة تبلغ بالعدد إلى مائة ألف نوع من العلوم وتسعة وعشرين ألف نوع وستمائة نوع وكل نوع يحتوي على علوم جمة ويعبر عنها بالمنازل، فسألت هذا الثقة هل نالها أحد من خلق الله وأحاط بها علماً؟ قال: لا، ثم قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [سورة المدثر: الآية ٣١] وإذا كانت الجنود لا يعلمها إلاّ هو وليس للحق منازع يحتاج هؤلاء الجنود إلى مقابلته فقال لي: لا تعجب فورب السماء والأرض لقد ثم ما هو أعجب؟ فقلت: ما هو؟ فقال لي: الذي ذكر الله في حق امرأتين من نساء رسول الله ﷺ ثم تلا: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [سورة التحريم: الآية ٤]. فهذا أعجب من ذكر الجنود، فأسرار الله عجيبة، فلما قال لي ذلك سألت الله أن يطلعني على فائدة هذه المسألة وما هذه العظمة التي جعل الله نفسه في مقابلتها وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة فأخبرت بها فما سررت بشيء سروري بمعرفة ذلك، وعلمت لمن استندتا ومن يقوّيهما، ولولا ما ذكر الله نفسه في النصرة ما استطاعت الملائكة والمؤمنون مقاومتهما، وعلمت أنهما حصل لهما من العلم بالله والتأثير في العالم ما أعطاهما هذه القوّة، وهذا من العلم الذي كهيئة المكنون، فشكرت الله على ما أولى، فما أظنّ أن أحداً من خلق الله استند إلى ما استند هاتان المرأتان، يقول لوط عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [سورة هود: الآية ٨٠] وكان عنده الركن الشديد ولم يكن يعرفه، فإن النبيّ ﷺ قد شهد له بذلك فقال: «**يرحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد**»، وعرفتاه عائشة وحفصة، فلو علم الناس علم ما كانتا عليه لعرفوا معنى هذه الآية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والعشرون
في معرفة الأقطاب المصونين وأسرار صونهم

[نظم: الخفيف]

إن لله حـــكـــمـــةً أخـــفـــاهـــا   فـي وجـودي فـلـيـس عـيـنٌ تـراهَـا

خلقَ الجسمَ دارَ لهوٍ وأنسٍ فبناها وَجُودُه سوَّاهَا
ثم لما تعدَّلتْ واستقامَتْ جاء روحٌ من عنده أحياهَا
ثم لما تحقَّق الحقُّ علماً حبُّه وانقيادُه لهواهَا
قال للموت خُذْ إليك عُبَيْدِي فدعاه له بما أخلاهَا
وتجلَّى له فقال إلهي أين أنسى فقال ما تنساهَا
كيف أنسى داراً جعلتَ قواها من قواكم فهي التي لا تُضاهَى
يا إلهي وسيدي واعتمادي ما عَشِقْنَا منها سوى معناهَا
أعْلَمْتنا بما تريدون منّا بلسان الرسول من أعلاهَا
فقطعنا أيامَنا في سرورٍ بك يا سيدي فما أحلاهَا
قال ردّوا عليه دارَ هواهُ صدَقَ الروحُ إنه يهواهَا
فرُدِدْنَا مخلَّدين سُكارَى طرباً دائماً إلى سُكْنَاهَا
وبناها على اعتدالِ قواها وتجلَّى لها بما قوَّاهَا

اعلم أيّدك الله أن هذا الباب يتضمن ذكر عباد الله المسمّين بالملامية، وهم الرجال الذين حلّوا من الولاية في أقصى درجاتها وما فوقهم إلاَّ درجة النبوّة، وهذا يسمّى مقام القربة في الولاية وآيتهم من القرآن: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٧٢] ينبّه بنعوت نساء الجنة وحورها على نفوس رجال الله الذين اقتطعهم إليه وصانهم وحبسهم في خيام صون الغيرة الإلهية في زوايا الكون أن تمتدّ إليهم عين فتشغلهم، لا والله ما يشغلهم نظر الخلق إليهم، لكنه ليس في وسع الخلق أن يقوموا بما لهذه الطائفة من الحق عليهم لعلوّ منصبها فتقف العباد في أمر لا يصلون إليه أبداً، فحبس ظواهرهم في خيمات العادات والعبادات من الأعمال الظاهرة والمثابرة على الفرائض منها والنوافل، فلا يعرفون بخرق عادة فلا يعظمون، ولا يشار إليهم بالصلاح الذي في عرف العامّة مع كونهم لا يكون منهم فساد فهم الأخفياء الأبرياء الأمناء في العالم الغامضون في الناس فيهم، قال رسول الله ﷺ عن ربّه عزّ وجلّ: «**إنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَائِي عِنْدِي لَمُؤمِنٌ خَفِيفُ الحَاذِ ذُو حَظٍّ مِنْ صَلاةٍ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ وَالعَلاَنِيَةِ وَكَانَ غَامِضاً فِي النَّاسِ**» يريد أنهم لا يعرفون بين الناس بكبير عبادة ولا ينتهكون المحارم سرّاً وعلناً.

قال بعض الرجال في صفتهم لما سُئِل عن العارف قال: مسوّد الوجه في الدنيا والآخرة، فإن كان أراد ما ذكرناه من أحوال هذه الطائفة فإنه يريد باسوداد الوجه استفراغ أوقاته كلها في الدنيا والآخرة في تجلّيات الحق له، ولا يرى الإنسان عندنا في مرآة الحق إذا تجلّى له غير نفسه ومقامه وهو كون من الأكوان والكون في نور الحق ظلمة فلا يشهد إلاَّ سواده فإن وجه الشيء حقيقته وذاته، ولا يدوم التجلّي إلاَّ لهذه الطائفة على الخصوص، فهم مع الحق في الدنيا والآخرة على ما ذكرناه من دوام التجلّي وهم الأفراد. وأمّا إن أراد بالتسويد من السيادة وأراد بالوجه حقيقة الإنسان أي له السيادة في الدنيا والآخرة فيمكن، ولا يكون

ذلك إلاَّ للرسل خاصة فإنه كمالهم وهو في الأولياء نقص، لأن الرسل مضطرّون في الظهور لأجل التشريع، والأولياء ليس لهم ذلك، ألا ترى الله سبحانه لما أكمل الدين كيف أمره في السورة التي نعى الله إليه فيها نفسه فأنزل عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجًا فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾ [سورة النصر: الآية ١ ـ ٣] أي أشغل نفسك بتنزيه ربّك والثناء عليه بما هو أهله، فاقتطعه بهذا الأمر من العالم لما كمل ما أريد منه من تبليغ الرسالة، وطلب بالاستغفار أن يستره عن خلقه في حجاب صونه لينفرد به دون خلقه دائماً، فإنه كان في زمان التبليغ والإرشاد وشغله بأداء الرسالة، فإن له وقتاً لا يسعه فيه غير ربّه، وسائر أوقاته فيما أمر به من النظر في أمور الخلق، فردّه إلى ذلك الوقت الواحد الذي كان يختلسه من أوقات شغله بالخلق وإن كان عن أمر الحق، ثم قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ أي يرجع الحق إليك رجوعاً مستصحباً لا يكون للخلق عندك فيه دخول بوجه من الوجوه. ولما تلا رسول الله ﷺ هذه السورة بكى أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه وحده دون من كان في ذلك المجلس وعلم أن الله تعالىٰ قد نعى إلى رسول الله ﷺ نفسه وهو كان أعلم الناس به، وأخذ الحاضرون يتعجبون من بكائه ولا يعرفون سبب ذلك.

والأولياء الأكابر إذا تُركوا وأنفسهم لم يختر أحد منهم الظهور أصلاً لأنهم علموا أن الله ما خلقهم لهم ولا لأحد من خلقه بالتعلّق من القصد الأول، وإنما خلقهم له سبحانه فشغلوا أنفسهم بما خلقوا له، فإن أظهرهم الحق عن غير اختيار منهم بأن يجعل في قلوب الخلق تعظيمهم فذلك إليه سبحانه ما لهم فيه تعمل، وإن سترهم فلم يجعل لهم في قلوب الناس قدراً يعظمونهم من أجله فذلك إليه تعالىٰ، فهم لا اختيار لهم مع اختيار الحق فإن خيرهم ولا بدّ فيختارون الستر عن الخلق والانقطاع إلى الله. ولما كان حالهم ستر مرتبتهم عن نفوسهم فكيف عن غيرهم، تعين علينا أن نبين منازل صونهم:

فمن منازل صونهم أداء الفرائض في الجماعات، والدخول مع الناس في كل بلد بزي ذلك البلد ولا يوطن مكاناً في المسجد، وتختلف أماكنه في المسجد الذي تقام فيه الجمعة حتى تضيع عينه في غمار الناس، وإذا كلّم الناس فيكلمهم ويرى الحق رقيباً عليه في كلامه، وإذا سمع كلام الناس سمع كذلك، ويقلّل من مجالسة الناس إلاَّ من جيرانه حتى لا يشعر به، ويقضي حاجة الصغير والأرملة، ويلاعب أولاده وأهله بما يرضي الله تعالىٰ، ويمزح ولا يقول إلاَّ حقاً، وإن عرف في موضع انتقل عنه إلى غيره فإن لم يتمكن له الانتقال استقضى من يعرفه وألحّ عليهم في حوائج الناس حتى يرغبوا عنه، وإن كان عنده مقام التحوّل في الصور تحوّل كما كان للروحاني التشكّل في صور بني آدم فلا يعرف أنه ملك، وكذلك كان قضيب البان، وهذا كله ما لم يرد الحق إظهاره ولا شهرته من حيث لا يشعر.

ثم إن هذه الطائفة إنما نالوا هذه المرتبة عند الله لأنهم صانوا قلوبهم أن يدخلها غير الله، أو تتعلق بكون من الأكوان سوى الله، فليس لهم جلوس إلاَّ مع الله، ولا حديث إلاَّ مع الله، فهم بالله قائمون، وفي الله ناظرون، وإلى الله راحلون ومنقلبون، وعن الله ناطقون، ومن

الله آخذون، وعلى الله متوكلون، وعند الله قاطنون، فما لهم معروف سواه، ولا مشهود إلاَّ إياه، صانوا نفوسهم عن نفوسهم، فلا تعرفهم نفوسهم، فهم في غيابات الغيب محجوبون، هم ضغائن الحق المستخلصون، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق مشي ستر وأكل حجاب، فهذه حالة هذه الطائفة المذكورة في هذا الباب.

تتمة شريفة لهذا الباب: قلنا: ومن هذه الحضرة بعثت الرسل سلام الله عليهم أجمعين مشرّعين، ووجد معهم هؤلاء تابعين لهم قائمين بأمرهم من عين واحدة، أخذ عنها الأنبياء والرسل ما شرعوا، وأخذ عنها الأولياء: ما اتبعوهم فيه، فهم التابعون على بصيرة، العالمون بمن اتبعوه وفيما اتبعوه، وهم العارفون بمنازل الرسل ومناهج السبل من الله ومقاديرهم عند الله تعالىٰ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء السادس عشر والحمد لله.

(الجزء السابع عشر)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الباب الرابع والعشرون

في معرفة جاءت عن العلوم الكونية وما تتضمنه من العجائب ومن حصّلها من العالم ومراتب أقطابهم وأسرار الاشتراك بين شريعتين، والقلوب المتعشقة بعالم الأنفاس وبالأنفاس وأصلها وإلى كم تنتهي منازلها

[نظم: الطويل]

تعجَّبْتُ من مَلْكٍ يعود بنا مَلْكاً ... ومن مالكٍ أضحى لمملوكه مُلْكَا
فذلك مَلْكُ المُلْكِ إن كنت ناظماً ... من اللؤلؤ المنثور من علمنا سِلْكَا
فخُذْ عن وجود الحق علماً مقدّساً ... ليأخذ ذاك العلمَ من شاءه عَنْكَا
فإن كنتَ مثلي في العلوم فقد تَرَى ... بأن الذي في كونه نسخة مِنْكَا
فهل في العلى شيءٌ يقاوم أمْرَكُمْ ... وقد فتكَتْ أسيافُكم في الورى فَتْكَا
فلو كنتَ تدري يا حبيبي وجودَه ... ومن أنت كنتَ السيِّدَ العلمَ المَلْكَا
وكان إلهُ الخلق يأتيك ضعفَ ما ... أتيتَ إليه إن تحقَّقْتَه مِلْكَا

اعلم أيّدك الله أن الله يقول: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠] فإذا علمت هذا علمت أن الله رب كل شيء ومليكه، فكل ما سوى الله تعالىٰ مربوب لهذا الرب، وملك لهذا الملك الحق سبحانه، ولا معنى لكون العالم ملك الله تعالىٰ إلاَّ تصرّفه فيه على ما يشاء من غير تحجير، وأنه محل تأثير الملك سيّده جلّ علاه، فتنوّع الحالات التي هو العالم عليها هو تصرّف الحق فيه على حكم ما يريده، ثم إنه لما رأينا الله تعالىٰ يقول: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] فأشرك نفسه مع عبده في الوجوب عليه، وإن كان هو الذي أوجب على نفسه ما أوجب، فكلامه صدق ووعده حق، كما يوجب الإنسان بالنذر على

نفسه ابتداء ما لم يوجبه الحق عليه، فأوجب الله عليه الوفاء بنذره الذي أوجبه على نفسه، فأمره بالوفاء بنذره، ثم رأيناه تعالىٰ لا يستجيب إلاَّ بعد دعاء العبد إياه كما شرع، كما أن العبد لا يكون مجيباً للحق حتى يدعوه الحق إلى ما يدعوه إليه، قال تعالىٰ: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] فصار للعبد والعالم الذي هو ملك لله سبحانه تصرّف إلهيّ في الجانب الأحمى بما تقتضيه حقيقة العالم بالطلب الذاتيّ، وتصريف آخر بما يقتضيه وضع الشريعة، فلما كان الأمر على ما ذكرناه من كون الحق يجيب أمر العبد إذا دعاه وسأله، كما أن العبد يجيب أمر الله إذا أمره وهو قوله: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٠] فشرك في القضية.

ولما كان الحق يقتضي بذاته أن يتذلّل له سواء شرع لعباده أعمالاً أو لم يشرع، كذلك يقتضي ببقاء وجود عينه حفظ الحق إياه، سواء شرع الحق ما شرعه أو لم يشرع. ثم لما شرع للعبد أعمالاً إذا عملها شرع لنفسه أن يجازي هذا العبد على فعل ما كلفه به، فصار الجناب العالي ملكاً لهذا الملك الذي هو العالم بما ظهر من أثر العبد فيه من العطاء عند السؤال، فانطلق عليه صفة يعبر عنها ملك الملك، فهو سبحانه مالك وملك بما يأمر به عباده، وهو سبحانه ملك بما يأمره به العبد فيقول: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥١] كما قال له الحق: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [سورة طه: الآية ١٤] فيسمي ما كان من جانب الحق للعبد أمراً، ويسمي ما كان من جانب العبد للحق دعاء أدباً إلهياً وإنما هو على الحقيقة أمر، فإن الحد يشمل الأمرين معاً، وأول من اصطلح على هذا الاسم في علمي محمد بن علي الترمذيّ الحكيم وما سمعنا هذا اللفظ عن أحد سواه، وربما تقدمه غيره بهذا الاصطلاح، وما وصل إلينا إلاَّ أن الأمر صحيح، ومسألة الوجوب على الله عقلاً مسألة خلاف بين أهل النظر من المتكلمين، فمن قائل بذلك وغير قائل بها. وأمّا الوجوب الشرعيّ فلا ينكره إلاَّ من ليس بمؤمن بما جاء من عند الله.

واعلم أن المتضايفين لا بدّ أن يحدث لكل أحد من المتضايفين اسم تعطيه الإضافة، فإذا قلت: زيد فهو إنسان بلا شك لا يعقل منه غير هذا، فإذا قلت: عمرو فهو إنسان لا يعقل منه غير هذا، فإذا قلت: زيد بن عمرو أو زيد عبد عمرو فلا شك أنه قد حدث لزيد البنوّة إذ كان ابن عمرو، وحدث لعمرو اسم الأبوة إذ كان أباً لزيد، فبنوّة زيد أعطت الأبوّة لعمرو والأبوّة لعمرو أعطت البنوّة لزيد، فكل واحد من المتضايفين أحدث لصاحبه معنى لم يكن يوصف به قبل الإضافة، وكذلك زيد عبد عمرو فأعطت العبودة أن يكون زيد مملوكاً وعمرو مالكاً، فقد أحدثت مملوكية زيد اسم المالك لعمرو، وأحدث ملك عمرو لزيد مملوكية زيد، فقيل فيه مملوك، وقيل في عمرو مالك، ولم يكن لكل واحد منهما معقولية هذين الاسمين قبل أن توجد الإضافة، فالحق حق والإنسان إنسان. فإذا قلت: الإنسان أو الناس عبيد الله. قلت: إنّ الله ملك الناس لا بدّ من ذلك، فلو قدرت ارتفاع وجود العالم من الذهن جملة واحدة من كونه ملكاً لم يرتفع وجود الحق لارتفاع العالم وارتفع وجود معنى الملك عن الحق ضرورة، ولما كان وجود العالم مرتبطاً بوجود الحق فعلاً وصلاحية لهذا كان اسم الملك لله

تعالىٰ أزلاً، وإن كان عين العالم معدوماً في العين لكن معقوليته موجودة مرتبطة باسم المالك فهو مملوك لله تعالىٰ وجوداً وتقديراً، قوّة وفعلاً، فإن فهمت وإلاً فافهم.

وليس بين الحق والعالم بون يعقل أصلاً إلاً التمييز بالحقائق، فالله ولا شيء معه سبحانه ولم يزل كذلك ولا يزال كذلك لا شيء معه فمعيته معنا كما يستحق جلاله وكما ينبغي لجلاله، ولولا ما نسب لنفسه أنه معنا لم يقتض العقل أن يطلق عليه معنى المعية، كما لا يفهم منها العقل السليم حين أطلقها الحق على نفسه ما يفهم من معية العالم بعضه مع بعض لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١]، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٤٦] لموسىٰ وهارون، فنقول: إن الحق معنا على حدّ ما قاله وبالمعنى الذي أراده، ولا نقول: إنا مع الحق فإنه ما ورد والعقل لا يعطيه فما لنا وجه عقليّ ولا شرعيّ يطلق به أننا مع الحق.

وأمّا من نفى عنه إطلاق الأينية من أهل الإسلام فهو ناقص الإيمان، فإن العقل ينفي عنه معقولية الأينية، والشرع الثابت في السنة لا في الكتاب قد أثبت إطلاق لفظ الأينية على الله فلا تتعدى ولا يقاس عليها وتطلق في الموضع الذي أطلقها الشارع، قال رسول الله ﷺ للسوداء التي ضربها سيدها: «**أَيْنَ اللَّهُ؟ فَأَشَارَتْ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَقَبِلَ إِشَارَتَهَا وَقَالَ: أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**» فالسائل بالأينية أعلم الناس بالله تعالىٰ وهو رسول الله ﷺ، وتأوّل بعض علماء الرسوم إشارتها إلى السماء وقبول النبيّ ﷺ ذلك منها لما كانت الآلهة التي تعبد في الأرض وهذا تأويل جاهل بالأمر غير عالم، وقد علمنا أنّ العرب كانت تعبد كوكباً في السماء يسمّى الشعرى سنه لهم أبو كبشة وتعتقد فيها أنها رب الأرباب هكذا وقفت على مناجاتهم إياها، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٤٩] فلو لم يعبد كوكب في السماء لساغ هذا التأويل لهذا المتأوّل، وهذا أبو كبشة الذي كان شرع عبادة الشعرى هو من أجداد رسول الله ﷺ لأمّه، ولذلك كانت العرب تنسب رسول الله ﷺ إليه فتقول: ما فعل ابن أبي كبشة حيث أحدث عبادة إله واحد كما أحدث جدّه عبادة الشعرى.

ومن أقطاب هذا المقام ممن كان قبلنا محمد بن علي الترمذي الحكيم، ومن شيوخنا أبو مدين رحمه الله وكان يعرف في العالم العلوي بأبي النجا وبه يسمّونه الروحانيون، وكان يقول رضي الله عنه: سورتي من القرآن ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [سورة الملك: الآية ١] ومن أجل هذا كنا نقول فيه إنه أحد الإمامين لأن هذا هو مقام الإمام، ثم نقول: ولما كان الحق تعالىٰ مجيباً لعبده المضطر فيما يدعوه به ويسأله منه صار كالمتصرّف، فلهذا كان يشير أبو مدين بقوله: فكان يقول فيه ملك الملك. وأمّا صحة هذه الإضافة لتحقق العبد في كل نفس أنه ملك لله تعالىٰ من غير أن يتخلّل هذا الحال دعوى تناقضه، فإذا كان بهذه المثابة حينئذ يصدق عليه أنه ملك عنده، فإن شابته رائحة من الدعوى وذلك بأن يدعي لنفسه ملكاً عرياً عن حضوره في تمليك الله إياه ذلك الأمر الذي سمّاه ملكاً له، وملكاً لم يكن في هذا المقام ولا صحّ له أن يقول في الحق إنه ملك الملك، وإن كان كذلك في نفس الأمر فقد أخرج هذا

نفسه بدعواه بجهله أنه ملك لله وغفلته في أمر ما، فيحتاج صاحب هذا المقام إلى ميزان عظيم لا يبرح بيده ونصب عينه.

وصل: وأمّا أسرار الاشتراك بين الشريعتين فمثل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [سورة طه: الآية ١٤] وهذا مقام ختم الأولياء، ومن رجاله اليوم خضر وإلياس، وهو تقرير الثاني ما أثبته الأوّل من الوجه الذي أثبته مع مغايرة الزمان ليصحّ المتقدم والمتأخر، وقد لا يتغير المكان ولا الحال فيقع الخطاب بالتكليف للثاني من عين ما وقع للأوّل ولما كان الوجه الذي جمعهما لا يتقيد بالزمان، والأخذ منه أيضاً لا يتقيد بالزمان، جاز الاشتراك في الشريعة من شخصين، إلاّ أن العبارة يختلف زمانها ولسانها، إلاّ أن ينطقا في آن واحد بلسان واحد كموسىٰ وهارون لما قيل لهما: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٤٣] ومع هذا كله فقد قيل لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [سورة طه: الآية ٤٤] فأتى بالنكرة في قوله قولاً ولا سيّما وموسىٰ يقول: ﴿هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ [سورة القصص: الآية ٣٤] يعني هارون، فقد يمكن أن يختلفا في العبارة في مجلس واحد فقد جمعهما مقام واحد وهو البعث في زمان واحد إلى شخص واحد برسالة واحدة، وإن كان قد منع وجود مثل هذا جماعة من أصحابنا وشيوخنا كأبي طالب المكّي ومن قال بقوله وإليه نذهب وبه أقول وهو الصحيح عندنا، فإن الله تعالىٰ لا يكرّر تجلياً على شخص واحد، ولا يشرّك فيه بين شخصين للتوسّع الإلهي، وإنما الأمثال والأشباه توهم الرائي والسامع للتشابه الذي يعسر فصله إلاّ على أهل الكشف والقائلين من المتكلمين أن العرض لا يبقى زمانين. ومن الاتساع الإلهي أن الله أعطى كل شيء خلقه، وميّز كل شيء في العالم بأمر ذلك الأمر هو الذي ميّزه عن غيره وهو أحدية كل شيء فما اجتمع اثنان في مزاج واحد، قال أبو العتاهية: [المتقارب]

وفــي كــل شــيءٍ لــه آيــةٌ   تــدلُّ عــلــى أنــه واحِــدُ

وليست سوى أحدية كل شيء، فما اجتمع قط اثنان فيما يقع به الامتياز، ولو وقع الاشتراك فيه ما امتازت وقد امتازت عقلاً وكشفاً، ومن هذا المنزل في هذا الباب تعرف إيراد الكبير على الصغير، والواسع على الضيق، من غير أن يضيق الواسع ويوسع الضيق أي لا يغير شيء عن حاله، لكن لا على الوجه الذي يذهب إليه أهل النظر من المتكلمين والحكماء في ذلك، فإنهم يذهبون إلى اجتماعهما في الحد والحقيقة لا في الجرمية، فإن كبر الشيء وصغره لا يؤثر في الحقيقة الجامعة لهما، ومن هذا الباب أيضاً قال أبو سعيد الخراز: ما عرف الله إلاّ بجمعه بين الضدّين ثم تلا: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] يريد من وجه واحد لا من نسب مختلفة كما يراه أهل النظر من علماء الرسوم.

واعلم أنه لا بدّ من نزول عيسىٰ عليه السلام، ولا بدّ من حكمه فينا بشريعة محمد ﷺ يوحي الله بها إليه من كونه نبياً، فإن النبيّ لا يأخذ الشرع من غير مرسله فيأتيه الملك مخبراً بشرع محمد الذي جاء به ﷺ وقد يلهمه إلهاماً، فلا يحكم في الأشياء بتحليل وتحريم إلاّ بما كان يحكم به رسول الله ﷺ لو كان حاضراً، ويرتفع اجتهاد المجتهدين بنزوله عليه السلام،

ولا يحكم فينا بشرعه الذي كان عليه في أوان رسالته ودولته، فيما هو عالم بها من حيث الوحي الإلهي إليه بها هو رسول ونبيّ، وبما هو الشرع الذي كان عليه محمد ﷺ هو تابع له فيه، وقد يكون له من الاطلاع على روح محمد ﷺ كشفاً بحيث أن يأخذ عنه ما شرع الله له أن يحكم به في أمّته ﷺ، فيكون عيسىٰ عليه السلام صاحباً وتابعاً من هذا الوجه، وهو عليه السلام من هذا الوجه خاتم الأولياء، فكان من شرف النبيّ ﷺ أن ختم الأولياء في أمّته نبي رسول مكرم هو عيسىٰ عليه السلام وهو أفضل هذه الأمّة المحمدية، وقد نبّه عليه الترمذي الحكيم في كتاب ختم الأولياء له، وشهد له بالفضيلة على أبي بكر الصديق وغيره، فإنه وإن كان ولياً في هذه الأمّة والملّة المحمدية فهو نبيّ ورسول في نفس الأمر، فله يوم القيامة حشران: يحشر في جماعة الأنبياء والرسل بلواء النبوّة والرسالة وأصحابه تابعون له فيكون متبوعاً كسائر الرسل، ويحشر أيضاً معنا ولياً في جماعة أولياء هذه الأمّة تحت لواء محمد ﷺ تابعاً له مقدماً على جميع الأولياء من عهد آدم إلى آخر وليّ يكون في العالم، فجمع الله له بين الولاية والنبوّة ظاهراً، وما في الرسل يوم القيامة من يتبعه رسول إلاّ محمد ﷺ فإنه يحشر يوم القيامة في أتباعه عيسىٰ وإلياس عليهما السلام، وإن كان كل من في الموقف من آدم فمن دونه تحت لوائه ﷺ فذلك لواؤه العام، وكلامنا في اللواء الخاص بأمّته ﷺ وللولاية المحمدية المخصوصة بهذا الشرع المنزّل على محمد ﷺ ختم خاص هو في الرتبة دون عيسىٰ عليه السلام لكونه رسولاً وقد ولد في زماننا ورأيته أيضاً واجتمعت به، ورأيت العلامة الختمية التي فيه، فلا وليّ بعده إلاّ وهو راجع إليه، كما أنه لا نبيّ بعد محمد ﷺ إلاّ وهو راجع إليه كعيسىٰ إذا نزل، فنسبة كل وليّ يكون بعد هذا الختم إلى يوم القيامة نسبة كل نبيّ يكون بعد محمد ﷺ في النبوّة كإلياس وعيسىٰ والخضر في هذه الأمّة. وبعد أن بينت لك مقام عيسىٰ عليه السلام إذا نزل فقل ما شئت، إن شئت قلت: شريعتين لعين واحدة، وإن شئت قلت: شريعة واحدة.

وصل: وأمّا القلوب المتعشقة بالأنفاس فإنه لما كانت خزائن الأرواح الحيوانية تعشقت بالأنفاس الرحمانية للمناسبة قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ يَأْتِينِي مِنْ قِبَلِ اليَمَنِ»** ألا وإن الروح الحيواني نفس، وأن أصل هذه الأنفاس عند القلوب المتعشق بها النفس الرحماني الذي من قبل اليمن لمن أخرج عن وطنه وحيل بينه وبين مسكنه وسكنه ففيها تفريج الكرب ودفع النوب، وقال ﷺ: **«إِنَّ للَّهِ نَفَحَاتٍ فَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَبِّكُمْ»** وتنتهي منازل هذه الأنفاس في العدد إلى ثلاثمائة نفس وثلاثين نفساً في كل منزل من منازلها التي جملتها الخارج من ضرب ثلاثمائة وثلاثين في ثلاثمائة وثلاثين فما خرج فهو عدد الأنفاس التي تكون من الحق من اسمه الرحمن في العالم البشري، والذي أتحققه أنّ لها منازل تزيد على هذا المقدار مائتين منزلاً في حضرة الفهوانية خاصة، فإذا ضربت ثلاثمائة وثلاثين في خمسمائة وثلاثين فما خرج لك بعد الضرب فهو عدد الأنفاس الرحمانية في العالم الإنساني كل نفس منها علم إلهيّ مستقل عن تجلّ إلهيّ خاص لهذه المنازل لا يكون لغيرها، فمن شمّ من هذه الأنفاس رائحة

عرف مقدارها، وما رأيت من أهلها من هو معروف عند الناس، وأكثر ما يكونون من بلاد الأندلس، واجتمعت بواحد منهم بالبيت المقدس وبمكة فسألته يوماً في مسألة فقال لي: هل تشم شيئاً؟ فعلمت أنه من أهل ذلك المقام، وخدمني مدة وكان لي عم أخو والدي شقيقه اسمه عبد الله بن محمد بن العربي كان له هذا المقام حسّاً ومعنى شاهدنا ذلك منه قبل رجوعنا لهذا الطريق في زمان جاهليتي، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والعشرون

في معرفة وتد مخصوص معمر، وأسرار الأقطاب المختصين بأربعة أصناف من العلوم، وسرّ المنزل والمنازل ومن دخله من العالم

[نظم: البسيط]

إن الأمـورَ لـهـا حـدٌّ ومُـطَّـلَـعُ ... مـن بـعـد ظَـهْـرٍ وبطـنٍ فيه تـجـتـمِـعُ
في الـواحـدِ الـعـيـن سرٌّ ليس يـعـلـمـه ... إلاّ مـراتـبُ أعـدادٍ بـهـا تَـقَـعُ
هـو الـذي أبـرز الأعـدادَ أجـمـعـهـا ... وهـو الـذي مـا لـه في الـعـدِّ متَّـسَـعُ
مَـجَـالُـه ضـيِّـقٌ رحـبٌ فـصـورتـه ... كـنـاظـر في مـراءٍ حـيـن يـنـطَـبِـعُ
فـمـا تـكـثَّـر إذ أعـطـت مـراتـبُـه ... تـكـثـراً فـهـو بـالـتَّـنْـزيـه يـمـتَـنِـعُ
كـذلـك الـحـقُّ إن حـقَّـقْـتَ صـورتَـه ... بـنـفـسـه وبـكـم تـعـلـو وتـتَّـضِـعُ

اعلم أيها الوليّ الحميم أيّدك الله أنّ هذا الوتد هو خضر صاحب موسىٰ عليه السلام أطال الله عمره إلى الآن، وقد رأينا من رآه واتفق لنا في شأنه أمر عجيب، وذلك أن شيخنا أبا العباس العريبي رحمه الله جرت بيني وبينه مسألة في حق شخص كان قد بشر بظهوره رسول الله ﷺ فقال لي: هو فلان ابن فلان وسمّى لي شخصاً أعرفه باسمه وما رأيته ولكن رأيت ابن عمته فربما توقفت فيه ولم آخذ بالقبول أعني قوله فيه لكوني على بصيرة في أمره، ولا شكّ أن الشيخ رجع سهمه عليه فتأذّى في باطنه ولم أشعر بذلك فإني كنت في بداية أمري فانصرفت عنه إلى منزلي فكنت في الطريق فلقيني شخص لا أعرفه فسلم عليّ ابتداء سلام محبّ مشفق وقال لي: يا محمد صدق الشيخ أبا العباس فيما ذكر لك عن فلان وسمّى لنا الشخص الذي ذكره أبو العباس العريبي فقلت له: نعم وعلمت ما أراد ورجعت من حيني إلى الشيخ لأعرّفه بما جرى فعندما دخلت عليه قال لي: يا أبا عبد الله أحتاج معك إذا ذكرت لك مسألة يقف خاطرك عن قبولها إلى الخضر يتعرض إليك يقول لك صدق فلاناً فيما ذكره لك ومن أين يتفق لك هذا في كل مسألة تسمعها مني فتتوقف، فقلت: إن باب التوبة مفتوح، فقال: وقبول التوبة واقع، فعلمت أن ذلك الرجل كان الخضر، ولا شك أني استفهمت الشيخ عنه أهو هو؟ قال: نعم هو الخضر.

ثم اتفق لي مرة أخرى أني كنت بمرسى تونس بالحفرة في مركب في البحر فأخذني وجع في بطني وأهل المركب قد ناموا فقمت إلى جانب السفينة وتطلعت إلى البحر فرأيت

شخصاً على بعد في ضوء القمر وكانت ليلة البدر وهو يأتي على وجه الماء حتى وصل إليّ فوقف معي ورفع قدمه الواحدة واعتمد على الأخرى فرأيت باطنها وما أصابها بلل ثم اعتمد عليها ورفع الأخرى فكانت كذلك، ثم تكلم معي بكلام كان عنده ثم سلم وانصرف يطلب المنارة محرساً على شاطىء البحر على تل بيننا وبينه مسافة تزيد على ميلين فقطع تلك المسافة في خطوتين أو ثلاثة فسمعت صوته وهو على ظهر المنارة يسبح الله تعالىٰ، وربما مشى إلى شيخنا جراح بن خميس الكتاني وكان من سادات القوم مرابطاً بمرسى عيدون وكنت جئت من عنده بالأمس من ليلتي تلك، فلما جئت المدينة لقيت رجلاً صالحاً فقال لي: كيف كانت ليلتك البارحة في المركب مع الخضر؟ ما قال لك وما قلت له؟ فلما كان بعد ذلك التاريخ خرجت إلى السياحة بساحل البحر المحيط ومعي رجل ينكر خرق العوائد للصالحين، فدخلت مسجداً خراباً منقطعاً لأصلي فيه أنا وصاحبي صلاة الظهر، فإذا بجماعة من السائحين المنقطعين دخلوا علينا يريدون ما نريده من الصلاة في ذلك المسجد وفيهم ذلك الرجل الذي كلمني على البحر الذي قيل لي إنه الخضر، وفيهم رجل كبير القدر أكبر منه منزلة، وكان بيني وبين ذلك الرجل اجتماع قبل ذلك ومودّة، فقمت فسلمت عليه فسلّم عليّ وفرح بي وتقدم بنا يصلي، فلما فرغنا من الصلاة خرج الإمام وخرجت خلفه وهو يريد باب المسجد وكان الباب في الجانب الغربي يشرف على البحر المحيط بموضع يسمّى بكة فقمت أتحدث معه على باب المسجد وإذا بذلك الرجل الذي قلت إنه الخضر قد أخذ حصيراً صغيراً كان في محراب المسجد فبسطه في الهواء على قدر علو سبعة أذرع من الأرض ووقف على الحصير في الهواء يتنفل، فقلت لصاحبي: أما تنظر إلى هذا وما فعل؟ فقال لي: سر إليه وسله، فتركت صاحبي واقفاً وجئت إليه، فلما فرغ من صلاته سلمت عليه وأنشدته لنفسي: [الكامل]

شُغْلُ المُحِبِّ عن الهواء يَسَّرَهْ ... في حبِّ من خلق الهواءَ وسخَّرَهْ
العارفون عقولُهم معقولةٌ ... عن كل كون ترتضيه مطهَّرَهْ
فهُمُو لديه مكْرَمون وفي الورى ... أحوالُهم مجهولةٌ ومُستَّرَهْ

فقال لي: يا فلان ما فعلت ما رأيت إلاّ في حق هذا المنكر، وأشار إلى صاحبي الذي كان ينكر خرق العوائد وهو قاعد في صحن المسجد ينظر إليه ليعلم أن الله يفعل ما يشاء مع من يشاء، فرددت وجهي إلى المنكر وقلت له: ما تقول؟ فقال: ما بعد العين ما يقال، ثم رجعت إلى صاحبي وهو ينتظرني بباب المسجد فتحدثت معه ساعة وقلت له: من هذا الرجل الذي صلّى في الهواء وما ذكرت له ما اتفق لي معه قبل ذلك، فقال لي: هذا الخضر، فسكت وانصرفت الجماعة وانصرفنا نريد روطة موضع مقصود يقصده الصلحاء من المنقطعين وهو بمقربة من بشكنصار على ساحل البحر المحيط، فهذا ما جرى لنا مع هذا الوتد نفعنا الله برؤيته، وله من العلم اللدني ومن الرحمة بالعالم ما يليق بمن هو على رتبته وقد أثنى الله عليه. واجتمع به رجل من شيوخنا وهو علي بن عبد الله بن جامع من أصحاب علي المتوكل وأبي عبد الله قضيب البان كان يسكن بالمقلى خارج الموصل في بستان له، وكان الخضر قد

ألبسه الخرقة بحضور قضيب البان، وألبسنيها الشيخ بالموضع الذي ألبسه فيه الخضر من بستانه، وبصورة الحال التي جرت له معه في إلباسه إياها، وقد كنت لبست خرقة الخضر بطريق أبعد من هذا من يد صاحبنا تقيّ الدين عبد الرحمن بن علي بن ميمون بن أب الوزري، ولبسها هو من يد صدر الدين شيخ الشيوخ بالديار المصرية وهو ابن حمويه، وكان جده قد لبسها من يد الخضر، ومن ذلك الوقت قلت بلباس الخرقة، وألبستها الناس لما رأيت الخضر قد اعتبرها، وكنت قبل ذلك لا أقول بالخرقة المعروفة الآن، فإن الخرقة عندنا إنما هي عبارة عن الصحبة والأدب والتخلّق، ولهذا لا يوجد لباسها متصلاً برسول الله ﷺ، ولكن توجد صحبة وأدباً وهو المعبر عنه بلباس التقوى، فجرت عادة أصحاب الأحوال إذا رأوا أحداً من أصحابهم عنده نقص في أمر ما وأرادوا أن يكملوا له حاله يتّحد به هذا الشيخ فإذا اتّحد به أخذ ذلك الثوب الذي عليه في حال ذلك الحال ونزعه وأفرغه على الرجل الذي يريد تكملة حاله فيسري فيه ذلك الحال فيكمل له ذلك، فذلك هو اللباس المعروف عندنا والمنقول عن المحققين من شيوخنا.

ثم اعلم أن رجال الله على أربع مراتب: رجال لهم الظاهر، ورجال لهم الباطن، ورجال لهم الحد، ورجال لهم المطلع. فإن الله سبحانه لما أغلق دون الخلق باب النبوّة والرسالة أبقى لهم باب الفهم عن الله فيما أوحى به إلى نبيه ﷺ في كتابه العزيز، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: إن الوحي قد انقطع بعد رسول الله ﷺ وما بقي بأيدينا إلاّ أن يرزق الله عبداً فهماً في هذا القرآن، وقد أجمع أصحابنا أهل الكشف على صحة خبر عن النبيّ ﷺ أنه قال في آي القرآن: «**إِنَّهُ مَا مِنْ آيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ وَحَدٌّ وَمَطْلَعٌ**» ولكل مرتبة من هذه المراتب رجال، ولكل طائفة من هؤلاء الطوائف قطب، وعلى ذلك القطب يدور فلك ذلك الكشف، دخلت على شيخنا أبي محمد عبد الله الشكاز من أهل باغة باغرناطة سنة خمس وتسعين وخمسمائة وهومن أكبر من لقيته في هذا الطريق لم أر في طريقه مثله في الاجتهاد فقال لي: الرجال أربعة ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢٣] وهم رجال الظاهر. ﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٧] وهم رجال الباطن جلساء الحق تعالىٰ ولهم المشورة. ورجال الأعراف وهم رجال الحد قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٤٦] أهل الشم والتمييز والسراح عن الأوصاف فلا صفة لهم كان منهم أبو يزيد البسطامي. ورجال إذا دعاهم الحق إليه يأتونه رجالاً لسرعة الإجابة لا يركبون: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾ [سورة الحج: الآية ٢٧] وهم رجال المطلع.

فرجال الظاهر هم الذين لهم التصرّف في عالم الملك والشهادة، وهم الذين كان يشير إليهم الشيخ محمد بن قائد الأواني، وهو المقام الذي تركه الشيخ العاقل أبو السعود بن الشبل البغدادي أدباً مع الله. أخبرني أبو البدر التماشكي البغدادي رحمه الله قال: لما اجتمع محمد بن قائد الأواني وكان من الأفراد بأبي السعود هذا قال له: يا أبا السعود إن الله قسّم

المملكة بيني وبينك فلم لا تتصرّف فيها كما أتصرّف أنا؟ فقال له أبو السعود: يا ابن قائد وهبتك سهمي نحن تركنا الحق يتصرّف لنا وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٩] فامتثل أمر الله. فقال لي أبو البدر: قال لي أبو السعود: إني أعطيت التصرّف في العالم منذ خمس عشرة سنة من تاريخ قوله فتركته وما ظهر عليّ منه شيء.

وأما رجال الباطن فهم الذين لهم التصرّف في عالم الغيب والملكوت فيستنزلون الأرواح العلوية بهممهم فيما يريدونه، وأعني أرواح الكواكب لا أرواح الملائكة، وإنما كان ذلك لمانع إلهيّ قويّ يقتضيه مقام الأملاك أخبر الله به في قول جبريل عليه السلام لمحمد ﷺ فقال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [سورة مريم: الآية ٦٤] ومن كان تنزله بأمر ربه لا تؤثر فيه الخاصية ولا ينزل بها، نعم أرواح الكواكب تستنزل بالأسماء والبخورات وأشباه ذلك لأنه تنزل معنوي ولمن يشاهد فيه صوراً خياليّ، فإن ذات الكواكب لا تبرح من السماء مكانها، ولكن قد جعل الله لمطارح شعاعاتها في عالم الكون والفساد تأثيرات معتادة عند العارفين بذلك، كالريّ عند شرب الماء، والشبع عند الأكل، ونبات الحبة عند دخول الفصل بنزول المطر والصحو، حكمة أودعها العليم الحكيم جلّ وعزّ، فيفتح لهؤلاء الرجال في باطن الكتب المنزلة والصحف المطهرة وكلام العالم كله ونظم الحروف والأسماء من جهة معانيها ما لا يكون لغيرهم اختصاصاً إلهياً.

وأما رجال الحد فهم الذين لهم التصرّف في عالم الأرواح النارية عالم البرزخ والجبروت فإنه تحت الجبر، ألا تراه مقهوراً تحت سلطان ذوات الأذناب وهم طائفة منهم من الشهب الثواقب فما قهرهم إلاّ بجنسهم، فعند هؤلاء الرجال استنزال أرواحها وإحضارها وهم رجال الأعراف، والأعراف سور حاجز بين الجنة والنار برزخ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، فهو حد بين دار السعداء ودار الأشقياء، دار أهل الرؤية ودار الحجاب، وهؤلاء الرجال أسعد الناس بمعرفة هذا السور، ولهم شهود الخطوط المتوهمة بين كل نقيضين مثل قوله: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٠] فلا يتعدون الحدود وهم رجال الرحمة التي وسعت كل شيء، فلهم في كل حضرة دخول واستشراف، وهم العارفون بالصفات التي يقع بها الامتياز لكل موجود عن غيره من الموجودات العقلية والحسيّة.

وأمّا رجال المطلع فهم الذين لهم التصرّف في الأسماء الإلهية فيستنزلون بها منها ما شاء الله وهذا ليس لغيرهم، ويستنزلون بها كل ما هو تحت تصريف الرجال الثلاثة: رجال الحد، والباطن، والظاهر، وهم أعظم الرجال، وهم الملامية هذا في قوّتهم، وما يظهر عليهم من ذلك شيء منهم أبو السعود وغيره فهم والعامة في ظهور العجز وظاهر العوائد سواء، وكان لأبي السعود في هؤلاء الرجال تميّز بل كان من أكبرهم، وسمعه أبو البدر على ما حدثنا مشافهة يقول: إنّ من رجال الله من يتكلم على الخاطر وما هو مع الخاطر، أي لا علم له بصاحبه ولا يقصد التعريف به، ولما وصف لنا عمر البزاز وأبو البدر وغيرهما حال

هذا الشيخ رأيناه يجري مع أحوال هذا الصنف العالي من رجال الله، قال لي أبو البدر: كان كثيراً ما ينشد بيتاً لم نسمع منه غيره وهو: [الطويل]

وأثْبَتَ في مستنقع الموتِ رجلهَ ... وقال لها من دون أَخْمَصِك الحَشْرُ

وكان يقول: ما هو إلاَّ الصلوات الخمس وانتظار الموت، وتحت هذا الكلام علم كبير، وكان يقول: الرجل مع الله تعالىٰ كساعي الطير، فم مشغول وقدم تسعى، وهذا كله أكبر حالات الرجال مع الله، إذ الكبير من الرجال من يعامل كل موطن بما يستحقه، وموطن هذه الدنيا لا يمكن أن يعامله المحقق إلاَّ بما ذكره هذا الشيخ، فإذا ظهر في هذه الدار من رجل خلاف هذه المعاملة علم أن ثم نفساً ولا بدّ إلاَّ أن يكون مأموراً بما ظهر منه وهم الرسل والأنبياء عليهم السلام، وقد يكون بعض الورثة لهم أمر في وقت بذلك وهو مكر خفي فإنه انفصال عن مقام العبودية التي خلق الإنسان لها.

وأما سرّ المنزل والمنازل فهو ظهور الحق بالتجلّي في صور كل ما سواه، فلولا تجليه لكل شيء ما ظهرت شيئية ذلك الشيء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فقوله: إذا أردناه هو التوجّه الإلهيّ لإيجاد ذلك الشيء، ثم قال: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ فنفس سماع ذلك الشيء خطاب الحق تكون ذلك الشيء فهو بمنزلة سريان الواحد في منازل العدد، فتظهر الأعداد إلى ما لا يتناهى بوجود الواحد في هذه المنازل، ولولا وجود عينه فيها ما ظهرت أعيان الأعداد ولا كان لها اسم، ولو ظهر الواحد باسمه في هذه المنزلة ما ظهر لذلك العدد عين فلا تجتمع عينه واسمه معاً أبداً، فيقال: اثنان ثلاثة أربعة خمسة إلى ما لا يتناهى، وكل ما أسقطت واحداً من عدد معين زال اسم ذلك العدد وزالت حقيقته، فالواحد بذاته يحفظ وجود أعيان الأعداد وباسمه يعدمها، كذلك إذا قلت: القديم فني المحدث، وإذا قلت: الله فني العالم، وإذا أخليت العالم من حفظ الله لم يكن للعالم وجود وفني، وإذا سرى حفظ الله في العالم بقي العالم موجوداً، فبظهوره وتجليه يكون العالم باقياً، وعلى هذه الطريقة أصحابنا، وهي طريقة النبوّة والمتكلمون من الأشاعرة أيضاً عليها، وهم القائلون بانعدام الأعراض لأنفسها، وبهذا يصحّ افتقار العالم إلى الله في بقائه في كل نفس، ولا يزال الله خلاقاً على الدوام، وغيرهم من أهل النظر لا يصحّ لهم هذا المقام. وأخبرني جماعة من أهل النظر من علماء الرسوم أن طائفة من الحكماء عثروا على هذا ورأيته مذهباً لابن السيد البطليوسي في كتاب ألفه في هذا الفن، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والعشرون

في معرفة أقطاب الرموز وتلويحات من أسرارهم وعلومهم في الطريق

[نظم: الوافر]

ألا إن الرموزَ دليلُ صِدْقٍ ... على المعنى المغيَّب في الفؤادِ

وإن العالمين له رُمُوزٌ ... وألغازٌ ليُدعَى بالعبادِ

ولولا اللُّغْزُ كان القولُ كفراً … وأدّى العالمينَ إلى العِنَادِ
فهم بالرَّمْز قد حسبوا فقالوا … بإهراقِ الدماء وبالفَسَادِ
فكيف بنا لَوَ انَّ الأمر يبدو … بلا سترٍ يكون له اسْتِنَادي
لقام بنا الشقاءُ هنا يقيناً … وعند البَعْث في يوم التَّنَادي
ولكنَّ الغفورَ أقام ستراً … ليسعدنا على رغم الأعادي

اعلم أيها الوليّ الحميم أيّدك الله بروح القدس وفهمك أن الرموز والألغاز ليست مرادة لأنفسها، وإنما هي مرادة لما رمزت له ولما ألغز فيها، ومواضعها من القرآن آيات الاعتبار كلها، والتنبيه على ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٣] فالأمثال ما جاءت مطلوبة لأنفسها، وإنما جاءت ليعلم منها ما ضربت له وما نصبت من أجله مثلاً، مثل قوله تعالىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ [سورة الرعد: الآية ١٧] فجعله كالباطل كما قال: ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨١] ثم قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ضربه مثلاً للحق ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [سورة الرعد: الآية ١٧] وقال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢] أي تعجبوا وجوزوا واعبروا إلى ما أردته بهذا التعريف و ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣] من عبرت الوادي إذا جزته. وكذلك الإشارة والإيماء قال تعالىٰ لنبيه زكريا: ﴿ إِنَّ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤١] أي بالإشارة، وكذلك: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [سورة مريم: الآية ٢٩] في قصة مريم لما نذرت للرحمن أن تمسك عن الكلام، ولهذا العلم رجال كبير قدرهم من أسرارهم سرّ الأزل والأبد والحال والخيال والرؤيا والبرازخ، وأمثال هذه من النسب الإلهية، ومن علومهم خواص العلم بالحروف والأسماء والخواص المركبة والمفردة من كل شيء من العالم الطبيعيّ وهي الطبيعة المجهولة.

فأمّا علم سرّ الأزل: فاعلم أن الأزل عبارة عن نفي الأولية لمن يوصف به وهو وصف لله تعالىٰ من كونه إلهاً، وإذا انتفت الأولية عنه تعالىٰ من كونه إلهاً فهو المسمّى بكل اسم سمّى به نفسه أزلاً من كونه متكلماً، فهو العالم، الحيّ، المريد، القادر، السميع، البصير، المتكلم، الخالق، البارىء، المصوّر، الملك، لم يزل مسمّى بهذه الأسماء، وانتفت عنه أولية التقييد، فسمع المسموع وأبصر المبصر إلى غير ذلك وأعيان المسموعات منّا والمبصرات معدومة غير موجودة وهو يراها أزلاً كما يعلمها أزلاً ويميّزها ويفصلها أزلاً، ولا عين لها في الوجود النفسي العيني، بل هي أعيان ثابتة في رتبة الإمكان، فالإمكانية لها أزلاً كما هي لها حالاً وأبداً، لم تكن قط واجبة لنفسها ثم عادت ممكنة ولا محالاً ثم عادت ممكنة، بل كان الوجوب الوجودي الذاتي لله تعالىٰ أزلاً، كذلك وجوب الإمكان للعالم أزلاً، فالله في مرتبته بأسمائه الحسنى يسمّى منعوتاً موصوفاً بها، فعين نسبة الأوّل له نسبة الآخر، والظاهر والباطن لا يقال هو أول بنسبة كذا ولا آخر بنسبة كذا، فإن الممكن مرتبط بواجب

الوجود في وجوده وعدمه ارتباط افتقار إليه في وجوده، فإن أوجده لم يزل في إمكانه، وإن عدم لم يزل عن إمكانه، فكما لم يدخل على الممكن في وجود عينه بعد أن كان معدوماً صفة تزيله عن إمكانه، كذلك لم يدخل على الخالق الواجب الوجود في إيجاده العالم وصف يزيله عن وجوب وجوده لنفسه، فلا يعقل الحق إلاً هكذا، ولا يعقل الممكن إلاً هكذا، فإن فهمت علمت معنى الحدوث ومعنى القدم فقل بعد ذلك ما شئت، فأولية العالم وآخريته أمر إضافي إن كان له آخر، أمّا في الوجود فله آخر في كل زمان فرد وانتهاء عند أرباب الكشف، ووافقتهم الحسبانية على ذلك كما وافقتهم الأشاعرة، على أن العرض لا يبقى زمانين، فالأول من العالم بالنسبة إلى ما يخلق بعده، والآخر من العالم بالنسبة إلى ما خلق قبله، وليس كذلك معقولية الاسم الله بالأول والآخر والظاهر والباطن، فإن العالم يتعدد والحق واحد لا يتعدد، ولا يصحّ أن يكون أولاً لنا، فإن رتبته لا تناسب رتبتنا، ولا تقبل رتبتنا أوليته، ولو قبلت رتبتنا أوليته لاستحال علينا اسم الأولية، بل كان ينطلق علينا اسم الثاني لأوليته، ولسنا بثان له تعالىٰ عن ذلك فليس هو بأول لنا فلهذا كان عين أوليته عين آخريته، وهذا المدرك عزيز المنال يتعذر تصوّره على من لا أنسة له بالعلوم الإلهية التي يعطيها التجلّي والنظر الصحيح، وإليه كان يشير أبو سعيد الخراز بقوله: عرفت الله بجمعه بين الضدين ثم يتلو ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] فقد أبنت لك عن سرّ الأزل وأنه نعت سلبي. وأما سرّ الأبد فهو نفي الآخرية، فكما أن الممكن انتفت عنه الآخرية شرعاً من حيث الجملة إذ الجنة والإقامة فيها إلى غير نهاية، كذلك الأولية بالنسبة إلى ترتيب الموجودات الزمانية معقولة موجودة، فالعالم بذلك الاعتبار الإلهيّ لا يقال فيه أول ولا آخر، وبالاعتبار الثاني هو أول وآخر بنسبتين مختلفتين بخلاف ذلك في إطلاقها على الحق عند العلماء بالله.

وأما سرّ الحال فهو الديمومة وما لها أول ولا آخر، وهو عين وجود كل موجود، فقد عرفتك ببعض ما يعلمه رجال الرموز من الأسرار وسكت عن كثير فإن بابه واسع، وعلم الرؤيا والبرزخ والنسب الإلهية من هذا القبيل والكلام فيها يطول. وأما علومهم في الحروف والأسماء فاعلم أن الحروف لها خواص وهي على ثلاثة أضرب: منها حروف رقمية ولفظية ومستحضرة، وأعني بالمستحضرة الحروف التي يستحضرها الإنسان في وهمه وخياله ويصوّرها، فإما أن يستحضر الحروف الرقمية أو الحروف اللفظية، وما ثم للحروف رتبة أخرى فيفعل بالاستحضار كما يفعل بالكتاب أو التلفظ، فأما حروف التلفظ فلا تكون إلاّ أسماء فذلك خواص الأسماء. وأما المرقومة فقد لا تكون أسماء، واختلف أصحاب هذا العلم في الحرف الواحد هل يفعل أم لا؟ فرأيت منهم من منع من ذلك جماعة، ولا شك أني لما خضت معهم في مثل هذا أوقفتهم على غلطهم في ذلك الذي ذهبوا إليه وإصابتهم وما نقصهم من العبارة عن ذلك، ومنهم من أثبت الفعل للحرف الواحد وهؤلاء أيضاً مثل الذين منعوا مخطئون ومصيبون، ورأيت منهم جماعة وأعلمتهم بموضع الغلط والإصابة فاعترفوا كما اعترف الآخرون، وقلت للطائفتين: جربوا ما عرفتم من ذلك على ما بيناه لكم، فجرّبوه

فوجدوا الأمر كما ذكرناه ففرحوا بذلك، ولولا أني آليت عقداً أن لا يظهر مني أثر عن حرف لأريتهم من ذلك عجباً.

فاعلم أن الحرف الواحد سواء كان مرقوماً أو متلفظاً به إذا عرى القاصد للعمل به عن استحضاره في الرقم أو في اللفظ خيالاً لم يعمل وإذا كان معه الاستحضار عمل، فإنه مركب من استحضار ونطق أو رقم، وغاب عن الطائفتين صورة الاستحضار مع الحرف الواحد، فمن اتفق له الاستحضار مع الحرف الواحد ورأى العمل غفل عن الاستحضار ونسب العمل للحرف الواحد، ومن اتفق له التلفظ أو الرقم بالحرف الواحد دون استحضار فلم يعمل الحرف شيئاً قال بمنع ذلك، وما واحد منهم تفطن لمعنى الاستحضار، وهذه حروف الأمثال المركبة كالواوين وغيرهما، فلما نبهناهم على مثل هذا جربوا ذلك فوجدوه صحيحاً وهو علم ممقوت عقلاً وشرعاً. فأما الحروف اللفظية فإن لها مراتب في العمل وبعض الحروف أعم عملاً من بعض وأكثر، فالواو أعم الحروف عملاً لأن فيها قوّة الحروف كلها، والهاء أقل الحروف عملاً، وما بين هذين الحرفين من الحروف تعمل بحسب مراتبها على ما قرّرناه في كتاب المبادي والغايات فيما تتضمنه حروف المعجم من العجائب والآيات، وهذا العلم يسمّى علم الأولياء وبه تظهر أعيان الكائنات، ألا ترى تنبيه الحق على ذلك بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فظهر الكون عن الحروف، ومن هنا جعله الترمذيّ علم الأولياء، ومن هنا منع من منع أن يعمل الحرف الواحد فإنه رأي مع الاقتدار الإلهيّ لم يأت في الإيجاد حرف واحد وإنما أتى بثلاثة أحرف: حرف غيبي وحرفين ظاهرين إذا كان الكائن واحداً فإن زاد على واحد ظهرت ثلاثة أحرف، فهذه علوم هؤلاء الرجال المذكورين في هذا الباب، وعمل أكثر رجال هذا العلم لذلك جدولاً وأخطؤوا فيه وما صحّ، فلا أدري أبالقصد عملوا ذلك حتى يتركوا الناس في عماية من هذا العلم؟ أم جهلوا ذلك؟ وجرى فيه المتأخر على سنن المتقدّم، وبه قال تلميذ جعفر الصادق وغيره، وهذا هو الجدول في طبائع الحروف:

حار	بارد	يابس	رطب
ا	ب	ج	د
هـ	و	ز	ح
ط	ي	ك	ل
م	ن	س	ع
ف	ص	ق	ر
ش	ت	ث	خ
ذ	ض	ظ	غ

فكل حرف منها وقع في جدول الحرارة فهو حار وما وقع منها في جدول البرودة فهو بارد، وكذلك اليبوسة والرطوبة، ولم نر هذا الترتيب يصيب في كل عمل بل يعمل بالاتفاق كأعداد الوفق. واعلم أنّ هذه الحروف لم تكن لها هذه الخاصية من كونها حروفاً وإنما كان لها من كونها أشكالاً، فلما كانت ذوات أشكال كانت الخاصية للشكل ولهذا يختلف عملها باختلاف الأقلام لأن الأشكال تختلف، فأمّا الرقمية فأشكالها محسوسة بالبصر، فإذا وجدت أعيانها وصحبتها أرواحها وحياتها الذاتية كانت الخاصية لذلك الحرف لشكله وتركيبه مع روحه، وكذلك إن كان الشكل مركباً من حرفين أو ثلاثة أو أكثر كان للشكل روح آخر ليس الروح الذي كان للحرف على انفراده فإن ذلك الروح يذهب وتبقى حياة الحرف معه، فإن الشكل لا يدبره سوى روح واحد، وينتقل روح ذلك الحرف الواحد إلى البرزخ مع الأرواح، فإن موت

الشكل زواله بالمحو، وهذا الشكل الآخر المركب من حرفين أو ثلاثة أو ما كان ليس هو عين الحرف الأوّل الذي لم يكن مركباً أنّ عمراً ليس هو عين زيد وإن كان مثله.

وأمّا الحروف اللفظية فإنها تتشكل في الهواء ولهذا تتصل بالسمع على صورة ما نطق بها المتكلم، فإذا تشكلت في الهواء قامت بها أرواحها، وهذه الحروف لا يزال الهواء يمسك عليها شكلها، وإن انقضى عملها فإن عملها إنما يكون في أوّل ما تتشكل في الهواء، ثم بعد ذلك تلتحق بسائر الأمم، فيكون شغلها تسبيح ربها وتصعد علواً ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٠] وهو عين شكل الكلمة من حيث ما هي شكل مسبح لله تعالىٰ، ولو كانت كلمة كفر فإن ذلك يعود وباله على المتكلم بها لا عليها، ولهذا قال الشارع: إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما لا يظنّ أن تبلغ ما بلغت فيهوي بها في النار سبعين خريفاً، فجعل العقوبة للمتلفظ بها بسببها وما تعرّض إليها، فهذا كلام الله سبحانه يعظم ويمجد ويقدّس المكتوب في المصاحف ويقرأ على جهة القربة إلى الله، وفيه جميع ما قالت اليهود والنصارى في حق الله من الكفر والسب وهي كلمات كفر عاد وبالها على قائلها، وبقيت الكلمات على بابها تتولى يوم القيامة عذاب أصحابها أو نعيمهم، وهذه الحروف الهوائية اللفظية لا يدركها موت بعد وجودها بخلاف الحروف الرقمية، وذلك لأن شكل الحرف الرقمي، والكلمة الرقمية تقبل التغيير والزوال لأنه في محل يقبل ذلك، والأشكال اللفظية في محل لا يقبل ذلك ولهذا كان لها البقاء، فالجوّ كله مملوء من كلام العالم يراه صاحب الكشف صوراً قائمة.

وأمّا الحروف المستحضرة فإنها باقية إذ كان وجود أشكالها في البرزخ لا في الحسّ وفعلها أقوى من فعل سائر الحروف، ولكن إذا استحكم سلطان استحضارها واتحد المستحضر لها ولم يبق فيه متسع لغيرها ويعلم ما هي خاصيتها حتى يستحضرها من أجل ذلك فيرى أثرها فهذا شبيه الفعل بالهمة وإن لم يعلم ما تعطيه فإنه يقع الفعل في الوجود ولا علم له به، وكذلك سائر أشكال الحروف في كل مرتبة، وهذا الفعل بالحرف المستحضر يعبر عنه بعض من لا علم له بالهمة وبالصدق وليس كذلك، وإن كانت الهمة روحاً للحرف المستحضر لا عين الشكل المستحضر، وهذه الحضرة تعم الحروف كلها لفظيها ورقميها، فإذا علمت خواص الأشكال وقع الفعل بها علماً لكاتبها أو المتلفظ بها، وإن لم يعين ما هي مرتبطة به من الانفعالات لا يعلم ذلك، وقد رأينا من قرأ آية من القرآن وما عنده خبر فرأى أثراً غريباً حدث وكان ذا فطنة فرجع في تلاوته من قريب لينظر ذلك الأثر بأية آية يختص فجعل يقرأ وينظر فمرّ بالآية التي لها ذلك الأثر فرأى الفعل فتعدّاها فلم ير ذلك الأثر فعاود ذلك مراراً حتى تحققه فاتخذها لذلك الانفعال ورجع كلما أراد أن يرى ذلك الانفعال تلا تلك الآية فظهر له ذلك الأثر وهو علم شريف في نفسه إلاّ أن السلامة منه عزيزة، فالأولى ترك طلبه فإنه من العلم الذي اختصّ الله به أولياءه على الجملة وإن كان عند بعض الناس منه قليل ولكن من غير الطريق الذي يناله الصالحون، ولهذا يشقى به من هو عنده ولا يسعد، فالله يجعلنا من العلماء بالله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والعشرون

في معرفة أقطاب «صل فقد نويت وصالك» وهو من منزل العالم النوراني

[نظم: الوافر]

ولولا النورُ ما اتَّصلت عيونٌ بعين المبصرات ولا رأتْها
ولولا الحقُّ ما اتصلت عقولٌ بأعيانِ الأمورِ فأدركَتْها
إذا سُئلتْ عقولٌ عن ذواتٍ تُعدُّ مغايراتٍ أنكرتْهَا
وقالت ما علمنا غيرَ ذاتٍ تمدُّ ذواتِ خلق أظهرتْهَا
هي المعنى ونحن لها حروفٌ فمهما عيَّنَتْ أمراً عَنَتْهَا

اعلم أيها الوليّ الحميم تولاك الله بعنايته أن الله تعالىٰ يقول في كتابه العزيز: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] فقدم محبته إياهم على محبتهم إياه. وقال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] فقدم إجابته لنا إذا دعوناه على إجابتنا له إذا دعانا، وجعل الاستجابة من العبيد لأنها أبلغ من الإجابة، فإنه لا مانع له من الإجابة سبحانه فلا فائدة للتأكيد، وللإنسان موانع من الإجابة لما دعاه الله إليه وهي: الهوى، والنفس، والشيطان، والدنيا، فلذلك أمر بالاستجابة، فإنّ الاستفعال أشد في المبالغة من الإفعال، وأين الاستخراج من الإخراج؟ ولهذا يطلب الكون من الله العون في أفعاله، ويستحيل على الله أن يستعين بمخلوق، قال تعالىٰ تعليماً لنا أن نقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] من هذا الباب، فلهذا قال في هذا الباب: صل فقد نويت وصالك، فقد قدم الإرادة منه لذلك فقال: صل، فإذا تعملت في الوصلة فذلك عين وصلته بك فلذلك جعلها نية لا عملاً، قال رسول الله ﷺ: **«يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: مَنْ تَقَرَّب إِليَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً»** وهذا قرب مخصوص يرجع إلى ما تتقرّب إليه سبحانه به من الأعمال والأحوال، فإن القرب العامّ قوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] فضاعف القرب بالذراع، فإنّ الذراع ضعف للشبرأي قوله: صل هو قرب ثم تقريب إليه شبراً فتبدّى لك أنك ما تقرّبت إليه إلاّ به لأنه لولا ما دعاك وبيّن لك طريق القربة وأخذ بناصيتك فيها ما تمكن لك أن تعرف الطريق التي تقرّب منه ما هي، ولو عرفتها لم يكن لك حول ولا قوّة إلاّ به.

ولما كان القرب بالسلوك والسفر إليه لذلك كان من صفته النور لنهتدي به في الطريق كما قال تعالىٰ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٧] وهو السلوك الظاهر بالأعمال البدنية والبحر وهو السلوك الباطن المعنوي بالأعمال النفسية، فأصحاب هذا الباب معارفهم مكتسبة لا موهوبة، وأكلهم من تحت أقدامهم أي من كسبهم لها واجتهادهم في تحصيلها، ولولا ما أرادهم الحق لذلك ما وفقهم ولا استعملهم حين طرد غيرهم بالمعنى ودعاهم بالأمر، فحرمهم الوصول بحرمانه إياهم استعمال الأسباب التي جعلها طريقاً إلى

الوصول من حضرة القرب ولذلك بشرهم فقال: صل فقد نويت وصالك، فسبقت لهم العناية فسلكوا وهم الذين أمرهم الله بلباس النعلين في الصلاة إذ كان القاعد لا يلبس النعلين وإنما وضعت للماشي فيها، فدلّ أن المصلي يمشي في صلاته ومناجاة ربّه في الآيات التي يناجيه فيها منزلاً منزلاً كل آية منزل وحال فقال لهم: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣١] قال الصاحب: لما نزلت هذه الآية أمرنا فيها بالصلاة في النعلين، فكان ذلك تنبيهاً من الله تعالىٰ للمصلي أنه يمشي على منازل ما يتلوه في صلاته من سور القرآن إذ كانت السور هي المنازل لغة، قال النابغة: [الطويل]

ألـم تَـرَ أن الله أعـطـاك سـورةً تـرى كـل مَـلْـكٍ دونـهـا يـتـذَبْـذَبُ

أراد منزلة، وقيل لموسىٰ عليه السلام: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [سورة طه: الآية ١٢] أي قد وصلت المنزل، فإنه كلّمه الله بغير واسطة بكلامه سبحانه بلا ترجمان، ولذلك أكّده في التعريف لنا بالصدر فقال تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [سورة النساء: الآية ١٦٤] ومن وصل إلى المنزل خلع نعليه فبانت رتبة المصلي بالنعلين، وما معنى المناجاة في الصلاة وأنها ليست بمعنى الكلام الذي حصل لموسىٰ عليه السلام، فإنه قال في المصلي يناجي والمناجاة فعل فاعلين فلا بدّ من لباس النعلين، إذ كان المصلي متردّداً بين حقيقتين، والتردّد بين أمرين يعطي المشي بينهما بالمعنى دلّ عليه باللفظ لباس النعلين، ودلّ عليه قول الله تعالىٰ بترجمة النبيّ ﷺ عنه: «**قَسمتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**» ثم قال: «**يقول العبد: الحمد لله رب العالمين**»، فوصفه أن العبد مع نفسه في قوله الحمد لله رب العالمين يسمع خالقه ومناجيه، ثم يرحل العبد من منزل قوله إلى منزل سمعه ليسمع ما يجيبه الحق تعالىٰ على قوله وهذا هو السفر فلهذا لبس نعليه ليسلك بهما الطريق الذي بين هذين المنزلين، فإذا رحل إلى منزل سمعه سمع الحق يقول له: «حمدني عبدي»، فيرحل من منزل سمعه إلى منزل قوله فيقول: الرحمن الرحيم، فإذا فرغ رحل إلى منزل سمعه فإذا نزل سمع الحق تعالىٰ يقول له: «**أثنى عليّ عبدي**» فلا يزال متردّداً في مناجاته قولاً، ثم له رحلة أخرى من حال قيامه في الصلاة إلى حال ركوعه فيرحل من صفة القيومية إلى صفة العظمة فيقول: سبحان ربي العظيم وبحمده، ثم يرفع وهو رحلته من مقام التعظيم إلى مقام النيابة فيقول: سمع الله لمن حمده، قال النبيّ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ قَالَ عَلَىٰ لِسَانِ عَبْدِهِ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ فَقُولُوا: رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ**» فلهذا جعلنا الرفع من الركوع نيابة عن الحق ورجوعاً إلى القيومية، فإذا سجد اندرجت العظمة في الرفعة الإلهية فيقول الساجد: سبحان ربي الأعلى وبحمده، فإنّ السجود يناقض العلوّ، فإذا خلص العلوّ لله ثم رفع رأسه من السجود واستوى جالساً وهوقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] فيقول: رب اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني واجبرني وعافني واعف عني، فهذه كلها منازل ومناهل في الصلاة فعلاً، فهو مسافر من حال إلى حال، فمن كان حاله السفر دائماً كيف لا يقال له: البس نعليك أي استعن في سيرك بالكتاب والسنّة وهي زينة كل مسجد، فإن أحوال الصلاة وما يطرأ فيها من

كلام الله وما يتعرض في ذلك من الشبه في غوامض الآيات المتلوّة وكون الإنسان في الصلاة يجعل الله في قبلته فيجده، فهذه كلها بمنزلة الشوك والوعر الذي يكون بالطريق ولا سيما طريق التكليف، فأمر بلباس النعلين ليتقي بهما ما ذكرناه من الأذى لقدمي السالك اللتين هما عبارة عن ظاهره وباطنه، فلهذا جعلناهما الكتاب والسنّة.

وأمّا نعلا موسىٰ عليه السلام فليستا هذه فإنه قال له ربّه: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ [سورة طه: الآية ١٢] فروينا أنهما كانتا من جلد حمار ميت فجمعت ثلاثة أشياء: الشيء الواحد الجلد وهو ظاهر الأمر أي لا تقف مع الظاهر في كل الأحوال. والثاني: البلادة فإنها منسوبة إلى الحمار. والثالث: كونه ميتاً غير مذكى والموت الجهل، وإذا كنت ميتاً لا تعقل ما تقول ولا ما يقال لك، والمناجي لا بدّ أن يكون بصفة من يعقل ما يقول ويقال له، فيكون حيّ القلب فطناً بمواقع الكلام، غوّاصاً على المعاني التي يقصدها من يناجيه بها، فإذا فرغ من صلاته سلم على من حضر سلام القادم من عند ربّه إلى قومه بما أتحفه به، فقد نبهتك على سرّ لباس النعلين في الصلاة في ظاهر الأمر، وما المراد بهما عند أهل طريق الله تعالىٰ من العارفين.

قال ﷺ: «**الصَّلاةُ نُورٌ وَالنورُ يُهْتَدَىٰ بِهِ**» واسم الصلاة مأخوذة من المصلي وهو المتأخر الذي يلي السابق في الحلبة، ولهذا ترجم هذا الباب بالوصلة وجعله من عالم النور، ولأهل هذا المشهد نور خلع النعلين، ونور لباس النعلين، فهم المحمديون الموسويون المخاطبون من شجر الخلاف بلسان النور المشبه بالمصباح وهو نور ظاهر يمدّه نور باطن في زيت من شجرة زيتونة مباركة في خط الاعتدال، منزّهة عن تأثير الجهات، كما كان الكلام لموسىٰ عليه السلام من شجرة فهو نور على نور، أي نور من نور، فأبدل حرف من بعلى لما يفهم به من قرينة الحال وقد تكون على على بابها، فإن نور السراج الظاهر يعلو حسّاً على نور الزيت الباطن وهو الممد للمصباح، فلولا رطوبة الدهن تمدّ المصباح لم يكن للمصباح ذلك الدوام، وكذلك إمداد التقوى للعلم العرفانيّ الحاصل منها في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] وقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩] لا يقطع ذلك العلم الإلهيّ، فنور الزيت باطن في الزيت محمول فيه يسري منه معنى لطيف في رقيقة من رقائق الغيب لبقاء نور المصباح، ولأقطاب هذا المقام أسرار منها: سرّ الإمداد، وسرّ النكاح، وسرّ الجوارح، وسرّ الغيرة، وسرّ العنين، وهو الذي لا يقوم بالنكاح، وسرّ دائرة الزمهرير، وسرّ وجود الحق في السراب، وسرّ الحجب الإلهية، وسرّ نطق الطير والحيوان، وسرّ البلوغ، وسرّ الصدّيقين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والعشرون

في معرفة أقطاب ألم تر كيف

[نظم: البسيط]

العِلْمُ بالكيف مجهولٌ ومعلومُ ... لكنه بوجود الحق مَوْسُومُ

فظاهرُ الكون تكييفٌ وباطنُه ... علمٌ يشار إليه فهو مكتومُ
من أعجَب الأمر أن الجهلَ من صفتي ... بما لنا فهو في التحقيق مَعْلومُ
وكيف أُدركُ من بالعجز أُدركُهُ ... وكيف أَجْهَلُه والجهلُ مَعْدومُ
قد حِرْتُ فيه وفي أمري ولست أنا ... سواه فالخلق ظَلاَّمٌ ومظلومُ
إن قُلْتُ إني يقول الآن منه أنا ... أو قلتُ إنك قال الآن مفهومُ
فالحمدُ لله لا أبغي به بدلاً ... وإنما الرزقُ بالتقدير مَقْسُومُ

اعلم أن أمهات المطالب أربعة وهي: هل: سؤال عن الوجود، وما هو: سؤال عن الحقيقة التي يعبر عنها بالماهية، وكيف: وهو سؤال عن الحال، ولم: وهو سؤال عن العلة والسبب. واختلف الناس فيما يصحّ منها أن يسأل بها عن الحق واتفقوا على كلمة (هل) فإنه يتصوّر أن يسأل بها عن الحق، واختلفوا فيما بقي فمنهم من منع ومنهم من أجاز، فالذي منع وهم الفلاسفة وجماعة من الطائفة منعوا ذلك عقلاً، ومنهم من منع ذلك شرعاً. فأما صورة منعهم عقلاً أنهم قالوا في مطلب ما أنه سؤال عن الماهية فهو سؤال عن الحد، والحق سبحانه لا حدّ له، إذ كان الحد مركباً من جنس وفصل، وهذا ممنوع في حق الحق، لأن ذاته غير مركبة من أمر يقع فيه الاشتراك فيكون به في الجنس، وأمر يقع به الامتياز وما ثم إلاَّ الله والخلق، ولا مناسبة بين الله والعالم، ولا الصانع والمصنوع، فلا مشاركة فلا جنس فلا فصل، والذي أجاز ذلك عقلاً ومنعه شرعاً قال: لا أقول: إن الحد مركب من جنس وفصل، بل أقول: إن السؤال بما يطلب به العلم بحقيقة المسؤول عنه، ولا بدّ لكل معلوم أو مذكور من حقيقة يكون في نفسه عليها، سواء كان على حقيقة يقع له فيها الاشتراك، أو يكون على حقيقة لا يقع له فيها الاشتراك، فالسؤال بما يتصوّر، ولكن ما ورد به الشرع فمنعنا من السؤال به عن الحق لقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١].

وأما منعهم الكيفية وهو السؤال بكيف فانقسموا أيضاً قسمين: فمن قائل: بأنه سبحانه ماله كيفية لأن الحال أمر معقول زائد على كونه ذاتاً، وإذا قام بذاته أمر وجوديّ زائد على ذاته أدّى إلى وجود واجبي الوجود لذاتهما أزلاً، وقد قام الدليل على إحالة ذلك وأنه لا واجب إلاَّ هو لذاته فاستحالت الكيفية عقلاً. ومن قائل: إن له كيفية ولكن لا تعلم فهي ممنوعة شرعاً لا عقلاً لأنها خارجة عن الكيفيات المعقولة عندنا فلا تعلم وقد قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يعني في كل ما ينسب إليه مما نسبه إلى نفسه، يقول: هو على ما تنسبه إلى الحق، وإن وقع الاشتراك في اللفظ فالمعنى مختلف. وأما السؤال بلم فممنوع أيضاً لأن أفعال الله تعالىٰ لا تعلل لأن العلة موجبة للفعل، فيكون الحق داخلاً تحت موجب أوجب عليه هذا الفعل زائد على ذاته وأبطل غيره إطلاق لم على فعله شرعاً بأن قال: لا ينسب إليه ما لم ينسب إلى نفسه، فهذا معنى قولي شرعاً لا أنه ورد النهي من الله عن كل ما ذكرنا منعه شرعاً، وهذا كله كلام مدخول لا يقع التخليص منه بالصحة والفساد إلاَّ بعد طول عظيم.

هذا قد ذكرنا طريقة من منع. وأما من أجاز السؤال عنه بهذه المطالب من العلماء فهم

أهل الشرع منهم، وسبب إجازتهم لذلك أن قالوا: ما حجر الشرع علينا حجرناه، وما أوجب علينا أن نخوض فيه خضنا فيه طاعة أيضاً، وما لم يرد فيه تحجير ولا وجوب فهو عافية، إن شئنا تكلمنا فيه وإن شئنا سكتنا عنه، وهو سبحانه ما نهى فرعون على لسان موسىٰ عليه السلام عن سؤاله بقوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢٣] بل أجاب بما يليق به الجواب عن ذاك الجناب العالي، وإن كان وقع الجواب غير مطابق للسؤال فذلك راجع لاصطلاح من اصطلح، على أنه لا يسأل بذلك إلاّ عن الماهية المركبة، واصطلح على أن الجواب بالأثر لا يكون جواباً لمن سأل بما، وهذا الاصطلاح لا يلزم الخصم فلم يمنع إطلاق هذا السؤال بهذه الصيغة عليه إذ كانت الألفاظ لا تطلب لأنفسها وإنما تطلب لما تدل عليه من المعاني التي وضعت لها فإنها بحكم الوضع، وما كل طائفة وضعتها بإزاء ما وضعتها الأخرى، فيكون الخلاف في عبارة لا في حقيقة، ولا يعتبر الخلاف إلاّ في المعاني.

وأما إجازتهم الكيفية فمثل إجازتهم السؤال بما ويحتجون في ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] وقوله: إن الله عيناً وأعيناً ويداً، وأن بيده الميزان يخفض ويرفع وهذه كلها كيفيات وإن كانت مجهولة لعدم الشبه في ذلك. وأمّا إجازتهم السؤال بلم وهو سؤال عن العلة فلقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فهذه لام العلة والسبب، فإن ذلك في جواب من سأل: لم خلق الله الجن والإنس؟ فقال الله لهذا السائل: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ أي لعبادتي، فمن ادّعى التحجير في إطلاق هذه العبارات فعليه بالدليل، فيقال للجميع من المتشرّعين المجوّزين والمانعين كلكم قال؛ وما أصاب وما من شيء قلتموه من منع وجواز إلاّ وعليكم فيه دخل، والأولى التوقّف عن الحكم بالمنع أو بالجواز هذا مع المتشرّعين، وأما غير المتشرعين من الحكماء فالخوض معهم في ذلك لا يجوز إلاّ إن أباح الشرع ذلك أو أوجبه، وأما إن لم يرد في الخوض فيه معهم نطق من الشارع فلا سبيل إلى الخوض فيه معهم فعلاً، ويتوقف في الحكم في ذلك، فلا يحكم على من خاض فيه أنه مصيب ولا مخطىء، وكذلك فيمن ترك الخوض، إذ لا حكم إلاّ للشرع فيما يجوز أن يتلفظ به أو لا يتلفظ به يكون ذلك طاعة أو غير طاعة، فهذا يا وليّ قد فصلنا لك مآخذ الناس في هذه المطالب.

وأما العلم النافع في ذلك أن نقول: كما أنه سبحانه لا يشبه شيئاً كذلك لا تشبهه الأشياء، وقد قام الدليل العقليّ والشرعيّ على نفي التشبيه وإثبات التنزيه من طريق المعنى وما بقي الأمر إلاّ في إطلاق اللفظ عليه سبحانه الذي أباح لنا إطلاقه عليه في القرآن أو على لسان رسوله، فأما إطلاقه عليه فلا يخلو إما أن يكون العبد مأموراً بذلك الإطلاق فيكون إطلاقه طاعة فرضاً ويكون المتلفظ به مأجوراً مطيعاً مثل قوله في تكبيرة الإحرام: الله أكبر، وهي لفظة وزنها يقتضي المفاضلة وهو سبحانه لا يفاضل. وإما أن يكون مخيراً فيكون بحسب ما يقصده المتلفظ وبحسب حكم الله فيه. وإذا أطلقناه فلا يخلو الإنسان إما أن يطلقه ويصحب نفسه في ذاك الإطلاق المعنى المفهوم منه في الوضع بذلك اللسان، أو لا يطلقه إلاّ تعبداً

شرعياً على مراد الله فيه من غير أن يتصوّر المعنى الذي وضع له في ذلك اللسان كالفارسيّ الذي لا يعلم اللسان العربي وهو يتلو القرآن ولا يعقل معناه وله أجر التلاوة، كذلك العربيّ فيما تشابه من القرآن والسنّة يتلوه أو يذكر به ربّه تعبّداً شرعياً على مراد الله فيه من غير ميل إلى جانب بعينه مخصص، فإن التنزيه ونفي التشبيه يطلبه إن وقف بوهمه عند التلاوة لهذه الآيات، فالأسلم والأولى في حق العبد أن يردّ علم ذلك إلى الله في إرادته إطلاق تلك الألفاظ عليه إلاّ إن أطلعه الله على ذلك، وما المراد بتلك الألفاظ من نبيّ أو وليّ محدث ملهم على بينة من ربّه فيما يلهم فيه أو يحدث فذلك مباح له، بل واجب عليه أن يعتقد المفهوم منه الذي أخبر به في إلهامه أو في حديثه، وليعلم أن الآيات المتشابهات إنما نزلت ابتلاءً من الله لعباده، ثم بالغ سبحانه في نصيحة عباده في ذلك ونهاهم أن يتبعوا المتشابه بالحكم أي لا يحكموا عليه بشيء فإن تأويله لا يعلمه إلاّ الله. وأما الراسخون في العلم إن علموه فبإعلام الله لا بفكرهم واجتهادهم، فإن الأمر أعظم أن تستقل العقول بإدراكه من غير إخبار إلهيّ فالتسليم أولى والحمد لله رب العالمين.

وأما قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [سورة الفيل: الآية ١] وأطلق النظر على الكيفيات فإن المراد بذلك بالضرورة المكيفات لا التكييف، فإن التكييف راجع إلى حالة معقولة لها نسبة إلى المكيف وهو الله تعالىٰ، وما أحد شاهد تعلق القدرة الإلهية بالأشياء عند إيجادها، قال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الكهف: الآية ٥١] فالكيفيات المذكورة التي أمرنا بالنظر إليها لا فيها إنما ذلك لنتخذها عبرة ودلالة على أن لها من كيفها أي صيّرها ذات كيفيات وهي الهيئات التي تكون عليها المخلوقات المكيفات فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. . . . وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [سورة الغاشية: الآيتان ١٧و١٩] وغير ذلك، ولا يصحّ أن تنظر إلاّ حتى تكون موجودة فننظر إليها وكيف اختلفت هيئاتها، ولو أراد بالكيف حالة الإيجاد لم يقل انظر إليها فإنها ليست بموجودة، فعلمنا أن الكيف المطلوب منّا في رؤية الأشياء ما هو ما يتوهم من لا علم له بذلك، ألا تراه سبحانه لما أراد النظر الذي هو الفكر قرنه بحرف في ولم يصحبه لفظ كيف فقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٥] المعنى: أن يفكروا في ذلك فيعلموا أنها لم تقم بأنفسها وإنما أقامها غيرها، وهذا النظر لا يلزم منه وجود الأعيان مثل النظر الذي تقدم، وإنما الإنسان كلّف أن ينظر بفكره في ذلك لا بعينه، ومن الملكوت ما هو غيب وما هو شهادة، فما أمرنا قط بحرف في إلا في المخلوقات لا في الله لنستدل بذلك عليه أنه لا يشبهها، إذ لو أشبهها لجاز عليه ما يجوز عليها من حيث ما أشبهها وكان يؤدّي ذلك إلى أحد محظورين: إما أن يشبهها من جميع الوجوه وهو محال لما ذكرناه، أو يشبهها من بعض الوجوه ولا يشبهها من بعض الوجوه، فتكون ذاته مركبة من أمرين، والتركيب في ذات الحق محال فالتشبيه محال، والذي يليق بهذا الباب من الكلام يتعذّر إيراده مجموعاً في باب واحد لما يسبق إلى الأوهام الضعيفة من ذلك لما فيه من الغموض ولكن جعلناه مبدّداً في أبواب هذا الكتاب، فاجعل بالك منه في أبواب الكتاب تعثر على مجموع هذا الباب ولا سيّما

حيثما وقع لك مسألة تجلّ إلهيّ، فهناك قف وانظر تجد ما ذكرته لك مما يليق بهذا الباب والقرآن مشحون بالكيفية، فإن الكيفيات أحوال والأحوال منها ذاتية للمكيف ومنها غير ذاتية، والذاتية حكمها حكم المكيف سواء كان المكيف يستدعي مكيفاً في كيفيته أو كان لا يستدعي مكيفاً لتكييفه بل كيفيته عين ذاته وذاته لا تستدعي غيرها لأنها لنفسها هي فكيفيته كذلك لأنها عينه لا غيره ولا زائد عليه فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والعشرون

في معرفة سرّ سلمان الذي ألحقه بأهل البيت والأقطاب الذين ورثه منهم ومعرفة أسرارهم

[نظم: البسيط]

العبدُ مرتبطٌ بالرب ليس له ... عنه انفصالٌ يرى فعلاً وتقديرَا
والابنُ أُنزِلَ منه في العُلى درجاً ... قد حرَّر الشرعُ فيه العلمَ تحريرا
فالابنُ ينظر في أموال والده ... إذ كان وارثُه شحاً وتقتيرا
والابنُ يطمع في تحصيل رُتْبته ... وإن يراه مع الأموات مقبورا
والعبدُ قيمتُه من مال سيِّده ... إليه يرجع مختاراً ومجبورا
والعبد مقداره في جاه سيده ... فلا يزال بستر العزّ مستورا
الذلُّ يصحبه في نفسه أبداً ... فلا يزال مع الأنفاس مقهورا
والابنُ في نفسه من أجل والده ... عزٌّ فيطلب توقيراً وتعزيرا

اعلم أيّدك الله أنا روينا من حديث جعفر بن محمد الصادق عن أبيه محمد بن عليّ عن أبيه عليّ بن الحسين عن أبيه الحسين بن عليّ عن أبيه عليّ بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَوْلَى القَوْمِ مِنهُمْ**» وخرّج الترمذيّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَهْلُ القُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ**» وقال تعالىٰ في حق المختصين من عباده: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٢] فكل عبد إلهيّ توجه لأحد عليه حق من المخلوقين فقد نقص من عبوديته لله بقدر ذلك الحق فإن ذلك المخلوق يطلبه بحقّه وله عليه سلطان به، فلا يكون عبداً محضاً خالصاً لله، وهذا هو الذي رجح عند المنقطعين إلى الله انقطاعهم عن الخلق ولزومهم السياحات والبراري والسواحل والفرار من الناس والخروج عن ملك الحيوان فإنهم يريدون الحرية من جميع الأكوان، ولقيت منهم جماعة كبيرة في أيام سياحتي، ومن الزمان الذي حصل لي فيه هذا المقام ما ملكت حيواناً أصلاً بل ولا الثوب الذي ألبسه فإني لا ألبسه إلاّ عارية لشخص معين أذن لي في التصرّف فيه، والزمان الذي أتملك الشيء فيه أخرج عنه في ذلك الوقت إما بالهبة أو بالعتق إن كان ممن يعتق، وهذا حصل لي لما أردت التحقّق بعبودية الاختصاص لله قيل لي: لا يصحّ لك ذلك حتى لا يقوم لأحد عليك حجة، قلت: ولا لله إن شاء الله، قيل لي: وكيف يصحّ لك أن لا يقوم لله عليك حجة؟ قلت: إنما تقام الحجج على

المنكرين لا على المعترفين، وعلى أهل الدعاوى وأصحاب الحظوظ لا على من قال ما لي حق ولا حظ، ولما كان رسول الله ﷺ عبداً محضاً قد طهّره الله وأهل بيته تطهيراً وأذهب عنهم الرجس وهو كل ما يشينهم فإن الرجس هو القذر عند العرب هكذا حكى الفرّاء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٣] فلا يضاف إليهم إلاّ مطهر ولا بدّ فإن المضاف إليهم هو الذي يشبههم، فما يضيفون لأنفسهم إلاّ من له حكم الطهارة والتقديس، فهذه شهادة من النبيّ ﷺ لسلمان الفارسيّ بالطهارة والحفظ الإلهيّ والعصمة حيث قال فيه رسول الله ﷺ: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ**» وشهد الله لهم بالتطهير وذهاب الرجس عنهم.

وإذا كان لا ينضاف إليهم إلاّ مطهر مقدس وحصلت له العناية الإلهيّة بمجرد الإضافة فما ظنّك بأهل البيت في نفوسهم فهم المطهرون بل هم عين الطهارة، فهذه الآية تدل على أن الله قد شرك أهل البيت مع رسول الله ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢] وأي وسخ وقذر أقذر من الذنوب وأوسخ؟ فطهّر الله سبحانه نبيه ﷺ بالمغفرة فما هو ذنب بالنسبة إلينا لو وقع منه ﷺ لكان ذنباً في الصورة لا في المعنى، لأن الذم لا يلحق به على ذلك من الله ولا منا شرعاً، فلو كان حكمه حكم الذنب لصحبه ما يصحب الذنب من المذمّة ولم يصدق قوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فدخل الشرفاء أولاد فاطمة كلهم ومن هو من أهل البيت مثل سلمان الفارسي إلى يوم القيامة في حكم هذه الآية من الغفران، فهم المطهرون اختصاصاً من الله وعناية بهم لشرف محمد ﷺ وعناية الله به، ولا يظهر حكم هذا الشرف لأهل البيت إلاّ في الدار الآخرة فإنهم يحشرون مغفوراً لهم. وأما في الدنيا فمن أتى منهم حدّاً أقيم عليه كالتائب إذا بلغ الحاكم أمره وقد زنى أو سرق أو شرب أقيم عليه الحدّ مع تحقق المغفرة كماعز وأمثاله ولا يجوز ذمّه، وينبغي لكل مسلم مؤمن بالله بما أنزله أن يصدق الله تعالىٰ في قوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فيعتقد في جميع ما يصدر من أهل البيت أن الله قد عفا عنهم فيه، فلا ينبغي لمسلم أن يلحق المذمّة بهم ولا ما يشنأ أعراض من قد شهد الله بتطهيره وذهاب الرجس عنه لا بعمل عملوه ولا بخير قدموه بل سابق عناية من الله بهم ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢١].

وإذا صحّ الخبر الوارد في سلمان الفارسي فله هذه الدرجة فإنه لو كان سلمان على أمر يشنؤه ظاهر الشرع وتلحق المذمّة بعامله لكان مضافاً إلى أهل البيت من لم يذهب عنه الرجس، فيكون لأهل البيت من ذلك بقدر ما أضيف إليهم وهم المطهرون بالنص فسلمان منهم بلا شك، فأرجو أن يكون عقب علي وسلمان تلحقهم هذه العناية كما لحقت أولاد الحسن والحسين وعقبهم وموالي أهل البيت فإن رحمة الله واسعة يا ولي. وإذا كانت منزلة مخلوق عند الله بهذه المثابة أن يشرف المضاف إليهم بشرفهم وشرفهم ليس لأنفسهم وإنما الله تعالىٰ هو الذي اجتباهم وكساهم حلة الشرف، كيف يا وليّ بمن أضيف إلى من له الحمد

والمجد والشرف لنفسه وذاته فهو المجيد سبحانه وتعالىٰ، فالمضاف إليه من عباده الذين هم عباده وهم الذين لا سلطان لمخلوق عليهم في الآخرة، قال تعالىٰ لإبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ فأضافهم إليه: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٢] وما تجد في القرآن عباداً مضافين إليه سبحانه إلاّ السعداء خاصة، وجاء اللفظ في غيرهم بالعباد فما ظنّك بالمعصومين المحفوظين منهم القائمين بحدود سيدهم الواقفين عند مراسمه فشرفهم أعلى وأتمّ، وهؤلاء هم أقطاب هذا المقام، ومن هؤلاء الأقطاب ورث سلمان شرف مقام أهل البيت، فكان رضي الله عنه من أعلم الناس بما لله على عباده من الحقوق وما لأنفسهم والخلق عليهم من الحقوق وأقواهم على أدائها، وفيه قال رسول الله ﷺ: **«لَوْ كَانَ الإِيمَانُ بِالثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسٍ»** وأشار إلى سلمان الفارسي وفي تخصيص النبيّ ﷺ ذكر الثريا دون غيرها من الكواكب إشارة بديعة لمثبتي الصفات السبعة لأنها سبعة كواكب فافهم، فسرّ سلمان الذي ألحقه بأهل البيت ما أعطاه النبي ﷺ من أداء كتابته وفي هذا فقه عجيب فهو عتيقه ﷺ ومولى القوم منهم والكل موالي الحق ورحمته وسعت كل شيء وكل شيء عبده ومولاه.

وبعد أن تبين لك منزلة أهل البيت عند الله وأنه لا ينبغي لمسلم أن يذمّهم بما يقع منهم أصلاً فإنّ الله طهّرهم، فليعلم الذامّ لهم أنّ ذلك راجع إليه ولو ظلموه فذلك الظلم هو في زعمه ظلم لا في نفس الأمر وإن حكم عليه ظاهر الشرع بأدائه، بل حكم ظلمهم إيانا في نفس الأمر يشبه جري المقادير علينا في ماله ونفسه بغرق أو بحرق وغير ذلك من الأمور المهلكة فيحترق أو يموت له أحد أحبائه أو يصاب في نفسه وهذا كله مما لا يوافق غرضه، ولا يجوز له أن يذمّ قدر الله ولا قضاءه، بل ينبغي له أن يقابل ذلك كله بالتسليم والرضى، وإن نزل عن هذه المرتبة فبالصبر، وإن ارتفع عن تلك المرتبة فبالشكر، فإن في طيّ ذلك نعماً من الله لهذا المصاب وليس وراء ما ذكرناه خير، فإنه ما وراءه ليس إلاّ الضجر والسخط وعدم الرضى وسوء الأدب مع الله، فكذا ينبغي أن يقابل المسلم جميع ما يطرأ عليه من أهل البيت في ماله ونفسه وعرضه وأهله وذويه، فيقابل ذلك كله بالرضى والتسليم والصبر، ولا يلحق المذمّة بهم أصلاً، وإن توجهت عليهم الأحكام المقرّرة شرعاً فذلك لا يقدح في هذا بل يجريه مجرى المقادير، وإنما منعنا تعليق الذمّ بهم إذ ميّزهم الله عنّا بما ليس لنا معهم فيه قدم.

وأما أداء الحقوق المشروعة فهذا رسول الله ﷺ كان يقترض من اليهود، وإذا طالبوه بحقوقهم أدّاها على أحسن ما يمكن، وإن تطاول اليهوديّ عليه بالقول يقول: دعوه إن لصاحب الحق مقالاً. وقال ﷺ في قصة: **«لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ قَطَعْتُ يَدَهَا»** فوضع الأحكام لله يضعها كيف يشاء وعلى أيّ حال يشاء، فهذه حقوق الله، ومع هذا لم يذمّهم الله وإنما كلامنا في حقوقنا وما لنا أن نطالبهم به فنحن مخيّرون إن شئنا أخذنا وإن شئنا تركنا والترك أفضل عموماً فكيف في أهل البيت؟ وليس لنا ذمّ أحد فكيف بأهل البيت؟ فإنا إذا نزلنا عن طلب حقوقنا وعفونا عنهم في ذلك أي فيما أصابوه منّا كانت لنا بذلك عند الله اليد العظمى والمكانة الزلفى، فإنّ النبي ﷺ ما طلب منّا عن أمر الله ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [سورة

الشورى: الآية ٢٣] وفيه سرّ صلة الأرحام، ومن لم يقبل سؤال نبيه فيما سأله فيه مما هو قادر عليه بأيّ وجه يلقاه غداً أو يرجو شفاعته وهو ما أسعف نبيه ﷺ فيما طلب منه من المودّة في قرابته فكيف بأهل بيته فهم أخص القرابة؟ ثم إنه جاء بلفظ المودّة وهو الثبوت على المحبة، فإنه من ثبت ودّه في أمر استصحبه في كل حال، وإذا استصحبته المودّة في كل حال لم يؤاخذ أهل البيت بما يطرأ منهم في حقّه مما له أن يطالبهم به فيتركه ترك محبة وإيثاراً لنفسه لا عليها، قال المحب الصادق: وكل ما يفعل المحبوب محبوب وجاء باسم الحب فكيف حال المودّة، ومن البشرى ورود اسم الودود لله تعالىٰ، ولا معنى لثبوتها إلاً حصول أثرها بالفعل في الدار الآخرة وفي النار لكل طائفة بما تقتضيه حكمة الله فيهم، وقال الآخر في المعنى: [الوافر]

أحبُّ لحبها السودانَ حتى ... أحبُّ لحبها سُوْدَ الكلابِ

ولنا في هذا المعنى: [الوافر]

أحبُّ لحبِّك الحُبْشَانَ طراً ... وأعشقُ لاسمك البدرَ المنيرا

قيل: كانت الكلاب السود تناوشه وهو يتحبّب إليها، فهذا فعل المحب في حب من لا تسعده محبته عند الله ولا تورثه القربة من الله، فهل هذا إلاً من صدق الحب وثبوت الودّ في النفس، فلو صحّت محبتك لله ولرسوله أحببت أهل بيت رسول الله ﷺ ورأيت كل ما يصدر منهم في حقّك مما لا يوافق طبعك ولا غرضك أنه جمال تتنعم بوقوعه منهم، فتعلم عند ذلك أن لك عناية عند الله الذي أحببتهم من أجله حيث ذكرك من يحبه وخطرت على باله وهم أهل بيت رسوله ﷺ، فتشكر الله تعالىٰ على هذه النعمة فإنهم ذكروك بألسنة طاهرة بتطهير الله طهارة لم يبلغها علمك، وإذا رأيناك على ضدّ هذه الحالة مع أهل البيت الذي أنت محتاج إليهم ولرسول الله ﷺ حيث هداك الله به فكيف أثق أنا بودّك الذي تزعم به أنك شديد الحب في والرعاية لحقوقي أو لجانبي وأنت في حق أهل نبيك بهذه المثابة من الوقوع فيهم، والله ما ذاك إلاً من نقص إيمانك ومن مكر الله بك واستدراجه إياك من حيث لا تعلم، وصورة المكر أن تقول وتعتقد أنك في ذلك تذب عن دين الله وشرعه، وتقول في طلب حقّك إنك ما طلبت إلاً ما أباح الله لك طلبه ويندرج الذمّ في ذلك الطلب المشروع والبغض والمقت وإيثارك نفسك على أهل البيت وأنت لا تشعر بذلك، والدواء الشافي من هذا الداء العضال أن لا ترى لنفسك معهم حقاً وتنزل عن حقك لئلا يندرج في طلبه ما ذكرته لك وما أنت من حكام المسلمين حتى يتعين عليك إقامة حد أو إنصاف مظلوم أو ردّ حق إلى أهله، فإن كنت حاكماً ولا بدّ فاسع في استنزال صاحب الحق عن حقّه إذا كان المحكوم عليه من أهل البيت، فإن أبى حينئذ يتعين عليك إمضاء حكم الشرع فيه، فلو كشف الله لك يا وليّ عن منازلهم عند الله في الآخرة لوددت أن تكون مولى من مواليهم فالله يلهمنا رشد أنفسنا، فانظر ما أشرف منزلة سلمان رضي الله عن جميعهم.

ولما بيّنت لك أقطاب هذا المقام وأنهم عبيد الله المصطفون الأخيار، فاعلم أن أسرارهم التي أطلعنا الله عليها تجهلها العامة بل أكثر الخاصة التي ليس لها هذا المقام والخضر منهم رضي

الله عنه وهو من أكبرهم، وقد شهد الله له أنه آتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً اتبعه فيه كليم الله موسىٰ عليه السلام الذي قال فيه ﷺ: «**لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حياً مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتبعَنِي**».

فمن أسرارهم ما قد ذكرناه من العلم بمنزلة أهل البيت، وما قد نبّه الله على علوّ رتبتهم في ذلك، ومن أسرارهم علم المكر الذي مكر الله بعباده في بغضهم مع دعواهم حبّ رسول الله ﷺ وسؤاله المودّة في القربى وهو ﷺ من جملة أهل البيت، فما فعل أكثر الناس ما سألهم فيه رسول الله ﷺ عن أمر الله فعصوا الله ورسوله وما أحبّوا من قرابته إلاّ من رأوا منه الإحسان، فأغراضهم أحبّوا بنفوسهم تعشقوا ومن أسرارهم الاطلاع على صحة ما شرع الله لهم في هذه الشريعة المحمدية من حيث لا تعلم العلماء بها، فإن الفقهاء والمحدّثين الذين أخذوا علمهم ميتاً عن ميت إنما المتأخر منهم هو فيه على غلبة ظن إذ كان النقل شهادة والتواتر عزيز، ثم إنهم إذا عثروا على أمور تفيد العلم بطريق التواتر لم يكن ذلك اللفظ المنقول بالتواتر نصاً فيما حكموا به فإن النصوص عزيزة فيأخذون من ذلك اللفظ بقدر قوّة فهمهم فيه ولهذا اختلفوا، وقد يمكن أن يكون لذلك اللفظ في ذلك الأمر نصّ آخر يعارضه ولم يصل إليهم وما لم يصل إليهم ما تعبدوا به ولا يعرفون بأيّ وجه من وجوه الاحتمالات التي في قوّة هذا اللفظ كان يحكم رسول الله ﷺ المشرّع فأخذه أهل الله عن رسول الله ﷺ في الكشف على الأمر الجلي والنص الصريح في الحكم، أو عن الله بالبينة التي هم عليها من ربّهم والبصيرة التي بها دعوا الخلق إلى الله عليها كما قال الله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [سورة هود: الآية ١٧] وقال: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] فلم يفرد نفسه بالبصيرة وشهد لهم بالاتباع في الحكم فلا يتبعونه إلاّ على بصيرة وهم عباد الله أهل هذا المقام. ومن أسرارهم أيضاً إصابة أهل العقائد فيما اعتقدوه في الجناب الإلهيّ وما تجلّى لهم حتى اعتقدوا ذلك، ومن أين تصوّر الخلاف مع الاتفاق على السبب الموجب الذي استندوا إليه فإنه ما اختلف فيه اثنان، وإنما وقع الخلاف فيما هو ذلك السبب وبماذا يسمّى ذلك السبب، فمن قائل: هو الطبيعة، ومن قائل: هو الدهر، ومن قائل: غير ذلك، فاتفق الكلّ في إثباته ووجوب وجوده، وهل هذا الخلاف يضرّهم مع هذا الاستناد أم لا؟ هذا كله من علوم أهل هذا المقام. انتهى الجزء السابع عشر.

(الجزء الثامن عشر)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الباب الثلاثون

في معرفة الطبقة الأولى والثانية من الأقطاب الركبان

[نظم: الرمل]

إن لله عـــبـــاداً ركـــبـــوا نُـجُـبَ الأعـمـال فـي الـلـيـل الـبـهـيـمْ

وتـرقَّـتْ هـمـمُ الـذلِّ بـهـم　　لـعـزيـز جـلَّ مـن فَـرْدٍ عـلـيـمْ
فـاجـتـبـاهـم وتـجـلـى لَـهُـمُـو　　وتـلـقَّـاهـم بـكـاسـات الـنَّـديـمْ
مـن يـكـن ذا رفـعـةٍ فـي ذلَّـةٍ　　إنـه يـعـرف مـقـدارَ الـعـظـيـمْ
رتْـبَـةُ الـحـادث إن حـقَّـقْـتَـهـا　　إنـمـا يـظـهـر فـيـهـا بـالـقـديـمْ
إن لله عـلـومـاً جـمَّـةً　　فـي رسـول ونـبـيٍّ وقَـسِـيـمْ
لـطـفَـتْ ذاتـاً فـمـا يـدركـهـا　　عـالَـمُ الأنـفـاسِ أنـفـاسِ الـنَّـسـيـمْ

اعلم أيّدك الله أن أصحاب النجب في العرف هم الركبان، قال الشاعر: [البسيط]

فـليـتَ لـي بـهِـمُـو قـومـاً إذا ركـبـوا　　شـدّوا الإغـارة فـرسـانـاً ورُكْـبَـانَـا

الفرسان ركّاب الخيل، والركبان ركاب الإبل، فالأفراس في المعروف تركبها جميع الطوائف من عجم وعرب، والهجن لا يستعملها إلاّ العرب، والعرب أرباب الفصاحة والحماسة والكرم، ولما كانت هذه الصفات غالبة على هذه الطائفة سمّيناهم بالركبان، فمنهم من يركب نجب الهمم، ومنهم من يركب نجب الأعمال، فلذلك جعلناهم طبقتين: أولى وثانية، وهؤلاء أصحاب الركبان هم الأفراد في هذه الطريقة فإنهم رضي الله عنهم على طبقات: فمنهم الأقطاب، ومنهم الأئمة، ومنهم الأوتاد، ومنهم الأبدال، ومنهم النقباء، ومنهم النجباء، ومنهم الرجبيون، ومنهم الأفراد، وما منهم طائفة إلاّ وقد رأيت منهم وعاشرتهم ببلاد المغرب وببلاد الحجاز والشرق، فهذا الباب مختصّ بالأفراد وهي طائفة خارجة عن حكم القطب وحدها ليس للقطب فيهم تصرّف، ولهم من الأعداد من الثلاثة إلى ما فوقها من الأفراد ليس لهم ولا لغيرهم فيما دون الفرد الأوّل الذي هو الثلاثة قدم، فإن الأحدية وهو الواحد لذات الحق والاثنان للمرتبة وهو توحيد الألوهية، والثلاثة أوّل وجود الكون عن الله، فالأفراد في الملائكة الملائكة المهيمون في جمال الله وجلاله الخارجون عن الأملاك المسخّرة والمدبّرة اللذين هما في عالم التدوين والتسطير، وهم من القلم والعقل إلى ما دون ذلك، والأفراد من الإنس مثل المهيمة من الأملاك، فأوّل الأفراد الثلاثة وقد قال ﷺ: «**الثَّلاثَةُ رَكْبٌ**» فأول الركب الثلاثة إلى ما فوق ذلك، ولهم من الحضرات الإلهية الحضرة الفردانية وفيها يتميزون، ومن الأسماء الإلهية الفرد والمواد الواردة على قلوبهم من المقام الذي تردّ منه على الأملاك المهيمة ولهذا يجهل مقامهم وما يأتون به مثل ما أنكر موسىٰ عليه السلام على خضر مع شهادة الله فيه لموسىٰ عليه السلام وتعريفه بمنزلته وتزكية الله إياه وأخذه العهد عليه إذ أراد صحبته، ولما علم الخضر أن موسىٰ عليه السلام ليس له ذوق في المقام الذي هو الخضر عليه، كما أن الخضر ليس له ذوق فيما هو موسىٰ عليه من العلم الذي علّمه الله إلاّ أن مقام الخضر لا يعطي الاعتراض على أحد من خلق الله لمشاهدة خاصة هو عليها، ومقام موسىٰ والرسل يعطي الاعتراض من حيث هم رسل لا غير في كل ما يرونه خارجاً عمّا أرسلوا به. ودليل ما ذهبنا إليه في هذا قول الخضر لموسىٰ عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٨] فلو كان الخضر نبياً لما قال له ما لم تحط به

خبراً، فالذي فعله لم يكن من مقام النبوّة وقال له في انفراد كل واحد منهما بمقامه الذي هو عليه، قال الخضر لموسىٰ عليه السلام: يا موسىٰ أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، وافترقا وتميزا بالإنكار، فالإنكار ليس من شأن الأفراد فإنّ لهم الأولية في الأمور فهم ينكر عليهم ولا ينكرون.

قال الجنيد: لا يبلغ أحد درج الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق بأنه زنديق وذلك لأنهم يعلمون من الله ما لا يعلمه غيرهم وهم أصحاب العلم الذي كان يقول فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين يضرب بيده إلى صدره ويتنهد: إن ههنا لعلوماً جمّة لو وجدت لها حملة، فإنه كان من الأفراد ولم يسمع هذا من غيره في زمانه إلاّ أبي هريرة ذكر مثل هذا، خرّج البخاري في صحيحه عنه أنه قال: حملت عن النبي ﷺ جرابين: أما الواحد فبثثته فيكم، وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم. البلعوم مجرى الطعام، فأبو هريرة ذكر أنه حمله عن رسول الله ﷺ فكان فيه ناقلاً عن غير ذوق ولكنه علم لكونه سمعه من رسول الله ﷺ، ونحن إنما نتكلم فيمن أعطي عين الفهم في كلام الله تعالىٰ في نفسه وذلك علم الأفراد، وكان من الأفراد عبد الله بن العباس البحر كان يلقب به لاتساع علمه فكان يقول في قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] لو ذكرت تفسيره لرجمتموني. وفي رواية: لقلتم إني كافر. وإلى هذا العلم كان يشير عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب زين العابدين عليهم الصلاة والسلام بقوله فلا أدري هل هما من قيله أو تمثل بهما: [البسيط]

يا رُبَّ جَوْهَر علمٍ لو أبوحُ به لقيل لي أنت ممن يعبد الوَثَنَا
ولاستحلَّ رجالٌ مسلمون دمي يرَوْن أقبحَ ما يأتونه حَسَنَا

فنبّه بقوله «يعبد الوثنا» على مقصوده ينظر إليه تأويل قوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**» بإعادة الضمير على الله تعالىٰ وهو من بعض محتملاته بالله. يا أخي أنصفني فيما أقوله لك، لا شكّ أنك قد أجمعت معي على أنه كل ما صحّ عن رسول الله ﷺ من الأخبار في كل ما وصف به فيها ربه تعالىٰ من الفرح والضحك والتعجب والتبشبش والغضب والتردّد والكراهة والمحبة والشوق أن ذلك وأمثاله يجب الإيمان به والتصديق، فلوهبت نفحات من هذه الحضرة الإلهية كشفاً وتجلياً وتعريفاً إلهياً على قلوب الأولياء بحيث أن يعلموا بإعلام الله وشاهدوا بإشهاد الله من هذه الأمور المعبر عنها بهذه الألفاظ على لسان الرسول، وقد وقع الإيمان مني ومنك بهذا كله إذا أتى بمثله هذا الوليّ في حق الله تعالىٰ ألست تزندقه كما قال الجنيد، ألست تقول: إن هذا مشبه هذا عابد وثن؟ كيف وصف الحق بما وصف به المخلوق؟ ما فعلت عبدة الأوثان أكثر من هذا كما قال عليّ بن الحسين، ألست كنت تقتله أو تفتي بقتله كما قال ابن عباس؟ فبأيّ شيء آمنت وسلمت لما سمعت ذلك من رسول الله ﷺ في حق الله من الأمور التي تحيلها الأدلة العقلية ومنعت من تأويلها، والأشعري تأوّلها على وجوه من التنزيه في زعمه فأين الإنصاف؟ فهلا قلت: القدرة واسعة أن تعطي لهذا الوليّ ما أعطت

للنبيّ من علوم الأسرار، فإن ذلك ليس من خصائص النبوّة، ولا حجر الشارع على أمّته هذا الباب، ولا تكلم فيه بشيء، بل قال: إن يكن في أمّتي محدّثون فعمر منهم، فقد أثبت النبيّ ﷺ أن ثَم من يحدّث ممن ليس بنبي وقد يحدث بمثل هذا فإنه خارج عن تشريع الأحكام من الحلال والحرام، فإن ذلك أعني التشريع من خصائص النبوّة وليس الاطلاع على غوامض العلوم الإلهية من خصائص نبوّة التشريع بل هي سارية في عباد الله من رسول وولي وتابع ومتبوع، يا وليّ فأين الإنصاف منك؟ أليس هذا موجوداً في الفقهاء وأصحاب الأفكار الذين هم فراعنة الأولياء ودجاجلة عباد الله الصالحين، والله يقول لمن عمل منّا بما شرع الله له: إن الله يعلمه ويتولى تعليمه بعلوم أنتجتها أعماله، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] وقال: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩].

ومن أقطاب هذا المقام عمر بن الخطاب وأحمد بن حنبل ولهذا قال ﷺ في عمر بن الخطاب يذكر ما أعطاه الله من القوّة «**يَا عُمَرُ مَا لَقِيَكَ الشَّيطَانُ فِي فَجٍّ إلاَّ سَلَكَ فَجّاً غَيرَ فَجِّكَ**» فدلّ على عصمته بشهادة المعصوم، وقد علمنا أن الشيطان ما يسلك قط بنا إلاّ إلى الباطل وهو غير فجّ عمر بن الخطاب فما كان عمر يسلك إلاّ فجاج الحق بالنص، فكان ممّن لا تأخذه في الله لومة لائم في جميع مسالكه وللحق صولة، ولما كان الحق صعب المرام قوياً حمله على النفوس لا تحمله ولا تقبله بل تمجّه وتردّه لهذا قال ﷺ: «**مَا تَرَكَ الْحَقُّ لِعُمَرَ مِنْ صَدِيقٍ**» وصدق ﷺ يعني في الظاهر والباطن، أمّا في الظاهر: فلعدم الإنصاف وحب الرياسة وخروج الإنسان عن عبوديته واشتغاله بما لا يعنيه وعدم تفرغه لما دعي إليه من شغله بنفسه وعيبه عن عيوب الناس. وأمّا في الباطن: فما ترك الحق لعمر في قلبه من صديق فما كان له تعلّق إلاّ بالله.

ثم الطامة الكبرى أنك إذا قلت لواحد من هذه الطائفة المنكرة اشتغل بنفسك يقول لك: إنما أقوم حماية لدين الله وغيرة له والغيرة لله من الإيمان وأمثال هذا، ولا يسكن ولا ينظر هل ذلك من قبيل الإمكان أم لا؟ أعني أن يكون الله قد عرّف ولياً من أوليائه بما يجريه في خلقه كالخضر ويعلمه علوماً من لدنه تكون العبارة عنها بهذه الصيغ التي ينطق بها الرسول ﷺ كما قال الخضر: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] وآمن هذا المنكر بها على زعمه إذ جاء بها رسول الله ﷺ فوالله لو كان مؤمناً بها ما أنكرها على هذا الوليّ لأن الشارع ما أنكر إطلاقها في جناب الحق من استواء ونزول ومعية وضحك وفرح وتبشبش وتعجّب وأمثال ذلك، وما ورد عنه ﷺ قط أنه حجرها على أحد من عباد الله بل أخبر عن الله أنه يقول لنا: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١]، ففتح لنا وندبنا إلى التأسّي به ﷺ وقال: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] وهذا من اتباعه والتأسّي به. فمن التأسّي به إذا ورد علينا من الحق سبحانه وارد حق فعلمنا من لدنه علماً فيه رحمة حبانا الله بها وعناية حيث كنا في ذلك على بينة من ربنا ويتلوها شاهد منّا وهو اتباعنا سنته، وما شرع لنا لم نخلّ بشيء منها ولا ارتكبنا مخالفة بتحليل ما حرّم الله أو تحريم ما

أحلّ، فنطلب لذلك المعلوم الذي علمناه من جانب الحق أمثال هذه العبارات النبوية لنفصح بها عن ذلك ولا سيّما إذا سئلنا عن شيء من ذلك، لأن الله أخبر عمّن هذه صفته أنه يدعو إلى الله على بصيرة، فمن التأسّي المأمور به برسول الله ﷺ أن نطلق على تلك المعاني هذه الألفاظ النبوية إذ لو كان في العبارة عنها ما هو أفصح منها لأطلقها ﷺ فإنه المأمور بتبيين ما أنزل به علينا ولا نعدل إلى غيرها لما نريده من البيان مع التحقّق بليس كمثله شيء، فإنا إذا عدلنا إلى عبارة غيرها ادّعينا بذلك أنا أعلم بحق الله وأنزه من رسول الله ﷺ، وهذا أسوأ ما يكون من الأدب. ثم إن المعنى لا بدّ أن يختل عند السامع إذ كان ذلك اللفظ الذي خالفت به لفظ من كان أفصح الناس وهو رسول الله ﷺ والقرآن لا يدل على ذلك المعنى بحكم المطابقة، فشرع لنا التأسيّ وغاب هذا المنكر المكفر من أتى بمثل هذا عن النظر في هذا كله وذلك لأمرين أو لأحدهما إن كان عالماً فلحسد قام به قال تعالىٰ: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٩] وإن كان جاهلاً فهو بالنبوّة أجهل.

يا وليّ لقينا من أقطاب هذا المقام بجبل أبي قبيس بمكة في يوم واحد ما يزيد على السبعين رجلاً وليس لهذه الطبقة تلميذ في طريقهم أصلاً ولا يسلكون أحداً بطريق التربية لكن لهم الوصية والنصيحة ونشر العلم فمن وفق أخذ به. ويقال: إن أبا السعود بن الشبل كان منهم وما لقيته ولا رأيته ولكن شممت له رائحة طيبة ونفساً عطرياً، وبلغني أن عبد القادر الجيلي وكان عدلاً قطب وقته شهد لمحمد بن قائد الأواني بهذا المقام كذا نقل إليّ والعهدة على الناقل، فإن ابن قائد زعم أنه ما رأى هناك أمامه سوى قدم نبيه وهذا لا يكون إلاّ لأفراد الوقت، فإن لم يكن من الأفراد فلا بدّ أن يرى قدم قطب وقته أمامه زائداً على قدم نبيه إن كان أماماً، وإن كان وتداً فيرى أمامه ثلاثة أقدام، وإن كان بدلاً يرى أربعة أقدام وهكذا، إلاّ أنه لا بدّ أن يكون في حضرة الأتباع مقاماً، فإذا لم يقم في حضرات الأتباع وعدل به عن يمين الطريق بين المخدع وبين الطريق فإنه لا يبصر قدماً أمامه وذلك هو طريق الوجه الخاص الذي من الحق إلى كل موجود، ومن ذلك الوجه الخاص تنكشف للأولياء هذه العلوم التي تنكر عليهم ويزندقون بها ويزندقهم بها، ويكفرهم من يؤمن بها إذا جاءته عن الرسل وهي العلوم عينها وهي التي ذكرناها آنفاً.

ولأصحاب هذا المقام التصريف والتصرّف في العالم، فالطبقة الأولى من هؤلاء تركت التصرّف لله في خلقه مع التمكّن وتولية الحق لهم إياه تمكناً لا أمراً لكن عرضاً فلبسوا الستر ودخلوا في سرادقات الغيب واستتروا بحجب العوائد ولزموا العبودة والافتقار وهم الفتيان الظرفاء الملامتية الأخفياء الأبرياء، وكان أبو السعود منهم كان رحمه الله ممّن امتثل أمر الله في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [سورة المزمل: الآية ٩] فالوكيل له التصرّف، فلو أمر امتثل الأمر هذا من شأنهم. وأمّا عبد القادر فالظاهر من حاله أنه كان مأموراً بالتصرّف فلهذا ظهر عليه هذا هو الظنّ بأمثاله. وأمّا محمد الأواني فكان يذكر أن الله أعطاه التصرّف فقبله، فكان يتصرّف ولم يكن مأموراً فابتلي فنقصه من المعرفة القدر الذي علا أبو السعود به عليه فنطق أبو السعود

بلسان الطبقة الأولى من طائفة الركبان وسميناهم أقطاباً لثبوتهم، ولأن هذا المقام أعني مقام العبودة يدور عليهم، لم أرد بقطبيتهم أن لهم جماعة تحت أمرهم يكونون رؤساء عليهم، وأقطاباً لهم هم أجلّ من ذلك وأعلى، فلا رياسة أصلاً لهم في نفوسهم لتحققهم بعبوديتهم، ولم يكن لهم أمر إلهيّ بالتقدّم، فما ورد عليهم فيلزمهم طاعته لما هم عليه من التحقق أيضاً بالعبودية فيكونون قائمين به في مقام العبودية بامتثال أمر سيدهم. وأمّا مع التخيير والعرض أو طلب تحصيل المقام فإنه لا يظهر به إلاّ من لم يتحقق بالعبودة التي خلق لها، فهذا يا وليّ قد عرفتك في هذا الباب بمقاماتهم، وبقي التعريف بأصولهم وتعيين أحوال الأقطاب المدبرين من الطبقة الثانية منهم نذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل لا رب غيره.

الباب الحادي والثلاثون
في معرفة أصول الركبان

[نظم: الرمل]

حَـدَبَ الـدهـرُ عـلـيـنـا وحَـنَـا ... ومـضـى فـي حُـكْـمـه ومـا وَنَـى
وعـشـقـنـاه فـغـنَّـيـنـا عـسـى ... يـطـرب الـدهـرُ بـإيـقـاع الـغُـنَـا
نـحـن حـكَّـمْـنـاكَ فـي أنـفـسـنـا ... فـاحـكـم أن شـئـت عـلـيـنـا أو لـنَـا
ولـقـد كـان لـه الـحـكـمُ ومـا ... كـان ذاك الـحـكـمُ لـلـدهـر بِـنَـا
فـشـفـيـعـي هـو دهـري والـذي ... صـرَّف الـدهـرَ كـذا صـرَّفَـنَـا
فـركـبـنـا نـطـلـب الأصـلَ الـذي ... جـعـل الـسـرَّ لـديـنـا عَـلَـنَـا
فـلـنـا مـنـه الـذي حـرَّكـنـا ... ولـه مـنّـا الـذي سـكَّـنَـنَـا
حـركـاتُ الـدهـر فـيـنـا شـهـدتْ ... أنـه قـال لـه مـا سَـكَـنَـا
فـأنـا الـعـبدُ الـذلـيـلُ الـمـجـتـبـى ... وأنـا حـقٌّ ومـا الـحـقُّ أنَـا

اعلم أيّدك الله أن الأصول التي اعتمد عليها الركبان كثيرة منها التبري من الحركة إذا أقيموا فيها فلهذا ركبوا، فهم الساكنون على مراكبهم المتحرّكون بتحريك مراكبهم، فهم يقطعون ما أمروا بقطعه بغيرهم لا بهم، فيصلون مستريحين ممّا تعطيه مشقة الحركة، متبرّئين من الدعوى التي تعطيها الحركة، حتى لو افتخروا بقطع المسافات البعيدة في الزمان القليل لكان ذلك الفخر راجعاً للمركب الذي قطع بهم تلك المسافة لا لهم فلهم التبرّي وما لهم الدعوى فهجيرهم: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، وآيتهم: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] يقال لهم: وما قطعتم هذه المسافات حين قطعتموها ولكن الركاب قطعتها فهم المحمولون، فليس للعبد صولة إلا بسلطان سيده وله الذلّة والعجز والمهانة والضعف من نفسه.

ولما رأوا أن الله قد نبّه بقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٣] فأخلصه له

علموا أن الحركة فيها الدعوى، وأن السكون لا تشوبه دعوى فإنه نفي الحركة فقالوا: إن الله قد أمرنا بقطع هذه المسافة المعنوية وجوب هذه المفاوز المهلكة إليه، فإن نحن قطعناها بنفوسنا لم نأمن على نفوسنا من أن نتمدّح بذلك في حضرة الاتصال فإنها مجبولة على الرعونة وطلب التقدم وحب الفخر، فنكون من أهل النقص في ذلك المقام بقدر ما ينبغي أن نحترم به ذلك الجلال الأعظم فلنتخذ ركاباً نقطع به، فإن أرادت الافتخار يكون الافتخار للركاب لا للنفوس فاتخذت من لا حول ولا قوّة إلاّ بالله نجباً لما كانت النجب أصبر عن الماء والعلف من الأفراس وغيرها، والطريق معطشة جدبة يهلك فيها من المراكب من ليس له مرتبة النجب، فلهذا اتخذوها نجباً دون غيرها ممّا يصحّ أن يركب ولا يصحّ أن يقطع ذلك ﴿الحمد لله﴾ فإنّ هذا الذكر من خصائص الوصول، ولا سبحان الله فإنه من خصائص التجلّي، ولا لا إله إلاّ الله فإنه من خصائص الدعاوى، ولا الله أكبر فإنه من خصائص المفاضلة، فتعين لا حول ولا قوّة إلاّ بالله فإنه من خصائص الأعمال فعلاً وقولاً ظاهراً وباطناً، لأنهم بالأعمال أمروا والسفر عمل قلباً وبدناً ومعنى وحسّاً، وذلك مخصوص بلا حول ولا قوّة إلاّ بالله فإنه بها يقولون: لا إله إلاّ الله، وبها نقول: سبحان الله، وغير ذلك من جميع الأقوال والأعمال. ولما كان السكون عدم الحركة والعدم أصلهم لأنه قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ يريد موجوداً فاختاروا السكون على الحركة وهو الإقامة على الأصل فنبّه سبحانه وتعالىٰ في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٣] أنّ الخلق سلموا له العدم وادّعوا له في الوجود، فمن باب الحقائق عرّى الحق خلقه في هذه الآية عن إضافة ما ادّعوه لأنفسهم بقوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي ما ثبت والثبوت أمر وجودي عقليّ لا عينيّ بل نسبيّ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٣] يسمع دعواكم في نسبة ما هو له وقد نسبتموه إليكم عليم بأن الأمر على خلاف ما ادعيتموه.

ومن أصولهم التوحيد بلسان بي يتكلم وبي يسمع وبي يبصر وهذا مقام لا يحصل إلاّ عن فروع الأعمال وهي النوافل، فإن هذه الفروع تنتج المحبة الإلهية والمحبة تورث العبد أن يكون بهذه الصفة فتكون هذه الصفة أصلاً لهذا الصنف من العباد فيما يعلمونه ويحكمون به من أحكام الخضر وعلمه، فهو أصل مكتسب وهو للخضر أصل عناية إلهية بالرحمة التي آتاه الله، وعن تلك الرحمة كان له هذا العلم الذي طلب موسىٰ عليه السلام أن يعلمه منه، فإن تفطنت لهذا الأمر الذي أوردناه عرفت قدر ولاية هذه الملة المحمدية والأمّة ومنزلتها. وأن ثمرة زهرة فروع أصلها المشروع لها في العامّة هي أصل الخضر الذي امتن الله تعالىٰ على عبده موسىٰ عليه السلام بلقائه وأدّبه به فأنتج للمحمديّ فرع فرع فرع أصله ما هو أصل للخضر، ومثل موسىٰ عليه السلام يطلب منه أن يعلمه مما هو عليه من العلم، فانظر منزلة هذا العارف المحمديّ أين تميزت؟ فكيف لك بما ينتجه الأصل الذي ترجع إليه هذه الفروع؟ قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ الْمُتَقَرِّبُونَ بِأَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِم**» فهذا هو الأصل أداء الفرض. ثم قال: «**وَلاَ يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ**

بِالنَّوافِلِ» وهو ما زاد على الفرائض ولكن من جنسها حتى تكون الفرائض أصلاً لها مثل نوافل الخيرات من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج، وذكر، فهذا هو الفرع الأقرب إلى الأصل.

ثم ينتج له هذا العمل الذي هو نافلة محبة الله إياه وهي محبة خاصة جزاء ليست هي محبة الامتنان، فإن محبة الامتنان الأصلية اشترك فيها جميع أهل السعادة عند الله تعالىٰ وهي التي أعطت لهؤلاء التقرّب إلى الله بنوافل الخيرات. ثم إن هذه المحبة وهي الفرع الثاني الذي هو بمنزلة الزهرة أنتجت له أن يكون الحق سمعه وبصره ويده إلى غير ذلك، وهذا هو الفرع الثالث وهو بمنزلة الثمرة التي تعقد عند الزهرة فعند ذلك يكون العبد يسمع بالحق، وينطق به، ويبصر به، ويبطش به، ويدرك به، وهذا وحي خاص إلهيّ أعطاه هذا المقام، ليس للملك فيه وساطة من الله ولهذا قال الخضر لموسىٰ عليه السلام: ﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ فإن وحي الرسل إنما هو بالملك بين الله وبين رسوله، فلا خير له بهذا الذوق في عين إمضاء الحكم في عالم الشهادة، فما تعوّد الإرسال لتشريع الأحكام الإلهية في عالم الشهادة إلاّ بواسطة الروح الذي ينزل به على قلبه أو في تمثّله لم يعرف الرسول الشريعة إلاّ على هذا الوصف لا غير الشريعة، فإن الرسول له قرب أداء الفرض والمحبة عليها من الله وما تنتج له تلك المحبة، وله قرب النوافل ومحبتها وما يعطيه محبتها ولكن من العلم بالله لا من علم التشريع وإمضاء الحكم في عالم الشهادة، فلم يحط به خبراً من هذا القبيل، فهذا القدر هو الذي اختصّ به خضر دون موسىٰ عليه السلام، ومن هذا الباب يحكم المحمديّ الذي لم يتقدّم له علم بالشريعة بوساطة النقل وقراءة الفقه والحديث ومعرفة الأحكام الشرعية، فينطق صاحب هذا المقام بعلم الحكم للشروع على ما هو عليه في الشرع المنزل من هذه الحضرة وليس من الرسل وإنما هو تعريف إلهيّ وعصمة يعطيها هذا المقام ليس للرسالة فيه مدخل فهذا معنى قوله: ﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ فإن الرسول لا يأخذ هذا الحكم إلاّ بنزول الروح الأمين على قلبه أو بمثال في شاهده يتمثل له الملك رجلاً.

ولما كانت النبوّة قد منعت والرسالة كذلك بعد رسول الله ﷺ كان التعريف لهذا الشخص بما هو الشرع المحمديّ عليه في عالم الشهادة، فلو كان في زمان التشريع كما كان زمان موسىٰ لظهر الحكم من هذا الوليّ كما ظهر من الخضر من غير وساطة ملك بل من حضرة القرب، فالرسول والنبيّ لهما حضرة القرب مثل ما لهذا وليس له التشريع منها بل التشريع لا يكون له إلا بوساطة الملك الروح وما بقي إلاّ إذا حصل للنبيّ المتأخر من شرع المتقدّم ما هو شرع له هل يحصل ذلك بواسطة الروح كسائر شرعه أو يحصل له كما حصل للخضر ولهذا الوليّ منّا من حضرة الوحي، فمذهبي أنه لا يحصل له إلاّ كما يحصل ما يختص به من الشرائع ذلك الرسول ولهذا يصدق الثقة العدل في قوله: ﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ وما يعرف له منازع ولا مخالف فيما ذكرناه من أهل طريقنا ولا وقفنا عليه.

غير أنه إن خالفنا فيه أحد من أهل طريقنا فلا يتصوّر فيه خلاف لنا إلاّ من أحد رجلين، إما رجل من أهل الله التبس عليه الأمر وجعل التعريف الإلهيّ حكماً فأجاز أن يكون النبيّ أو

الرسول كذلك ولكن في هذه الأمّة. وأمّا في الزمان الأوّل فهو حكم لصاحبه ولا بدّ وهو تعريف للرسول بوساطة الملك أنّ هذا شرع لغيره، قال تعالىٰ لما ذكر الأنبياء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠] وما ذكر له هداهم إلاّ بالوحي بوساطة الروح. والرجل الآخر رجل قاس الحكم على الأخبار، وأمّا غير ذلك فلا يكون، ومع هذا فلم يصل إلينا عن أحد منهم خلاف فيما ذكرناه ولا وفاق.

ومن أصول هذه الطبقة أيضاً أنه يتكلم بما به يسمع ولا يقول بذلك سواهم من حيث الذوق، لكن قد يقول بذلك من يقول به من حيث الدليل العقليّ، فهؤلاء يأخذونه عن تجلّ إلهيّ، وغيرهم يأخذه عن نظر صحيح موافق للأمر على ما هو عليه وهو الحق ووقوع الاختلاف في الطريق، فهذا الطريق غير هذا الطريق وإن اتفقا في المنزل وهو الغاية فهو السميع لنفسه البصير لنفسه العالم لنفسه، وهكذا كل ما تسميه به أو تصفه أو تنعته إن كنت ممّن يسيء الأدب مع الله حيث يطلق لفظ صفة على ما نسب إليه أو لفظ نعت فإنه ما أطلق على ذلك إلاّ لفظ اسم فقال: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ [سورة الأعلىٰ: الآية ١] و ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٧٨] و ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٠] وقال في حق المشركين: ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٣]، وما قال صفوهم ولا انعتوهم بل قال: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] فنزّه نفسه عن الوصف لفظاً ومعنى، إن كنت من أهل الأدب والتفطن فهذا معنى قولي إن كنت ممّن يسيء الأدب مع الله، والمخالف لنا يقول: إنه يعلم بعلم ويقدر بقدرة ويبصر ببصر، وهكذا جميع ما يتسمّى به إلاّ صفات التنزيه فإنه لا يتكلم فيها بهذا النوع كالغني وأشباهه إلاّ بعضهم فإنه جعل ذلك كله معاني قائمة بذات الله لا هي هو ولا هي غيره ولكن هي أعيان زائدة على ذاته. والأستاذ أبو إسحاق جعل السبعة أصولاً لا أعياناً زائدة على ذاته اتصفت بها ذاته، وجعل كل اسم بحسب ما تعطيه دلالته، فجعل صفات التنزيه كلها في جدول الاسم الحيّ، وجعل الخبير، والحسيب، والعليم، والمحصي وأخواته في جدول العلم، وجعل الاسم الشكور في جدول الكلام، وهكذا ألحق الكل كل صفة من السبعة ما يليق بها من الأسماء بالمعنى كالخالق والرازق للقدرة وغير ذلك على هذا الأسلوب، هذا مذهب الأستاذ.

وأجمع المتكلمون من الأشاعرة على أن ثَمَّ أموراً زائدة على الذات ونصبوا على ذلك أدلة، ثم إنهم مع إجماعهم على الزائد لم يجدوا دليلاً قاطعاً، على أن هذا الزائد على الذات هل هو عين واحدة لها أحكام مختلفة وإن كان زائداً لا بدّ من ذلك، أو هل هذا الزائد أعيان متعدّدة لم يقل حاذقوهم في ذلك شيئاً بل قال بعضهم: يمكن أن يكون الأمر في نفسه يرجع إلى عين واحدة، ويمكن أن يرجع إلى أعيان مختلفة إلاّ أنه زائد ولا بدّ ولا فائدة جاء بها هذا المتكلم إلاّ عدم التحكّم، فإنّ الذات إذا قبلت عيناً واحدة زائدة جاز أن تقبل عيوناً كثيرة زائدة على ذاتها فتكون القدماء لا يحصون كثرة وهو مذهب أبي بكر بن الطيب، والخلاف في ذلك يطول، وليس طريقنا على هذا بني أعني في الردّ عليهم ومنازعتهم، لكن طريقنا تبيين مآخذ

كل طائفة ومن أين انتحلته في نحلتها وما تجلى لها، وهل يؤثر ذلك في سعادتها أو لا يؤثر؟ هذا حظ أهل طريق الله من العلم بالله، فلا نشتغل بالردّ على أحد من خلق الله بل ربما نقيم لهم العذر في ذلك للاتساع الإلهيّ، فإنّ الله أقام العذر فيمن يدعو مع الله إلهاً آخر ببرهان يرى أنه دليل في زعمه فقال عزّ من قائل: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧] ومن أصولهم الأدب مع الله تعالىٰ فلا يسمونه إلاّ بما سمّى به نفسه، ولا يضيفون إليه إلاّ ما أضافه إلى نفسه، كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ وقال في السيئة: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٩] ثم قال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] قال ذلك في الأمرين إذا جمعتهما لا تقل من الله فراغ اللفظ.

واعلم أن لجمع الأمر حقيقة تخالف حقيقة كل مفرد إذا انفرد، ولم يجتمع مع غيره كسواد المداد بين العفص والزاج، ففصّل سبحانه بين ما يكون منه وبين ما يكون من عنده، يقول تعالىٰ في حق طائفة مخصوصة: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [سورة طه: الآية ٧٣] ببنية المفاضلة ولا مناسبة. وقال في حق طائفة أخرى معينة صفتها: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [سورة القصص: الآية ٦٠] فما هو عنده ما هو عين ما هو منه ولا عين هويته فبين الطائفتين ما بين المنزلتين كما قيل لواحد: ما تركت لأهلك؟ قال: الله ورسوله. وقيل للآخر فقال: نصف مالي، فقال: بينكما ما بين كلمتيكما يعني في المنزلة، فإذا أخذ العبد من كل ما سواه جعله في الله خير وأبقى. وإذا أخذه من وجه من العالم يقتضي الحجاب والبعد والذم جعله فيما عند الله خير وأبقى. فميّز المراتب.

ثم إنه سبحانه عرّفنا بأهل الأدب ومنزلتهم من العلم به فقال عن إبراهيم خليله إنه قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٧٨ ـ ٧٩] ولم يقل يجوّعني ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ ولم يقل أمرضني ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٨٠] فأضاف الشفاء إليه والمرض لنفسه وإن كان الكل من عنده، ولكنه تعالىٰ هو أدّب رسله إذ كان المرض لا تقبله النفوس بخلاف الموت فإن الفضلاء من العقلاء العارفين يطلبون الموت للتخلص من هذا الحبس، وتطلبه الأنبياء للقاء الله الذي يتضمنه وكذلك أهل الله، ولذلك ما خيّر نبيّ في الموت إلاّ اختاره لأن فيه لقاء الله فهو نعمة منه عليه ومنّة، والمرض شغل شاغل عن أداء ما أوجب الله على العبد أداءه من حقوق الله لإحساسه بالألم وهو في محل التكليف، وما يحسّ بالألم إلاّ الروح الحيوانيّ فيشغل الروح المدبر لجسده عمّا دعي إليه في هذه الدنيا فلهذا أضاف المرض إليه والشفاء والموت للحق، كما فعل صاحب موسىٰ عليه السلام في إضافة خرق السفينة إليه إذ جعل خرقها عيباً، وأضاف قتل الغلام إليه وإلى ربه لما فيه من الرحمة بأبويه وما ساءهما من ذلك أضافه إليه، وأضاف إقامة الجدار إلى ربّه لما فيه من الصلاح والخير فقال تعالىٰ عن عبده خضر في خرق السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [سورة الكهف: الآية ٧٩] تنزيهاً أن يضيف إلى الجناب العالي ما ظاهره ذمّ في العرف والعادة، وقال في إقامة الجدار لما جعل إقامته رحمة باليتيمين لما يصيبانه من الخير الذي هو الكنز ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ يخبر موسىٰ عليه السلام ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] وقال

لموسىٰ في حق الغلام: إنه طبع كافراً والكفر صفة مذمومة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧] وأراد أن يخبره بأن الله يبدّل أبويه ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٨١] فأراد أن يضيف ما كان في المسألة من العيب في نظر موسىٰ عليه السلام حيث جعله نكراً من المنكر وجعله نفساً زاكية قتلت بغير نفس قال: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ [سورة الكهف: الآية ٨١] فأتى بنون الجمع فإن في قتله أمرين: أمر يؤدّي إلى الخير، وأمر إلى غير ذلك في نظر موسىٰ وفي مستقر العادة، فما كان من خير في هذا الفعل فهو لله من حيث ضمير النون، وما كان فيه من نكر في ظاهر الأمر وفي نظر موسىٰ عليه السلام في ذلك الوقت كان للخضر من حيث ضمير النون، فنون الجمع لها وجهان لما فيها من الجمع: وجه إلى الخير به أضاف الأمر إلى الله، ووجه إلى العيب به أضاف العيب إلى نفسه.

وجاء بهذه المسألة والواقعة في الوسط لا في الطرف بين السفينة والجدار ليكون ما فيها من عيب من جهة السفينة وما فيها من خير من جهة الجدار، فلو كانت مسألة الغلام في الطرف ابتداء أو انتهاء لم تعط الحكمة أن يكون كل وجه مخلصاً من غير أن يشوبه شيء من الخير أو ضدّه، فلو كان أوّلاً وكانت السفينة وسط لم يصل ما في مسألة الغلام من الخير الذي له ولأبويه حتى يمر على حضرة مصيبة ظاهراً وهي السفينة وحينئذ يتصل بالخير الذي في الجدار ولو كان الجدار وسطاً وتأخر حديث الغلام لم يصل عيب السفينة إلى الاتصال بعيب الغلام حتى يمر بخير ما في الجدار فيمر بغير المناسب، ومن شأن الحضرات أن تقلب أعيان الأشياء أعني صفاتها إذا مرّت بها، فكانت مسألة الغلام وسطاً فيلي وجه العيب جهة السفينة، ويلي جهة الخير جهة الجدار واستقامت الحكمة. فإن قلت: فلِمَ جمع بين الله وبين نفسه في ضمير النون أعني نون فأردنا، وقال ﷺ لما سمع بعض الخطباء وقد جمع بين الله تعالىٰ ورسول الله ﷺ في ضمير واحد في قوله: ومن يعصهما: **«بئس الخطيب أنت»**، فاعلم أنه من الباب الذي قررناه وهو أنه لا يضاف إلى الحق إلاّ ما أضافه الحق إلى نفسه أو أمر به رسوله أو من آتاه علماً من لدنه كالخضر المنصوص عليه فهذا من ذلك الباب، فلما كان هذا الخطيب عرياً من العلم اللدنيّ ولم يكن رسول الله ﷺ تقدّم إليه في إباحة مثل هذا لهذا ذمّه وقال: بئس الخطيب أنت، فإنه كان ينبغي له أن لا يجمع بين الحق والخلق في ضمير واحد إلاّ بإذن إلهيّ من رسول أو علم لدنيّ، ولم يكن واحد من هذين الأمرين عنده فلهذا ذمّه رسول الله ﷺ.

وقد قال رسول الله ﷺ في حديث رويناه عنه في خطبة خطبها فذكر الله تعالىٰ فيها وذكر نفسه ﷺ ثم جمع بين ربّه تعالىٰ وبين نفسه فيها في ضمير واحد فقال: **«مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَلاَ يَضُرُّ إِلاَّ نَفْسَهُ وَلاَ يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئاً»**، وما ينطق ﷺ عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٤] وكذا قال الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] يعني جميع ما فعله من الأعمال وجميع ما قال من الأقوال في العبارة لموسىٰ عليه السلام عن ذلك فافهم فبهذا قد أبنت لك عن أصولهم ما فيه كفاية، فالركبان هم

المرادون المجذوبون المصونة أسرارهم في البيض، فلا يتخللها هواء مثل القاصرات الطرف من الحور المقصورات في الخيام كأنهنّ بيْض مكنون، ومن صفاتهم أنهم لا يكشفون وجوههم عند النوم ولا ينامون إلاَّ على ظهورهم لهم التلقي لا يتحركون إلاَّ عن أمر إلهيّ، ولا يسكنون إلاَّ كذلك بإرادة إرادتهم ما يراد بهم.

ولما كان السكون أمراً عدمياً لذلك قرنّا به الإرادة دون الأمر، ولما كان التحرّك أمراً وجودياً لذلك قرنّا به الأمر الإلهيّ إن فهمت، وهم رضي الله عنهم لا يزاحمون ولا يزاحمون، أكثر ما يجري على ألسنتهم ما شاء الله سخّرت لهم السحاب لهم القدم الراسخة في علم الغيوب، لهم في كل ليلة معراج روحانيّ، بل في كل نومة من ليل أو نهار لهم استشراف على بواطن العالم، فرأوا ملكوت السموات والأرض، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٥] وقال في حق رسول الله ﷺ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] وهو عين إسرائه، والعلماء ورثة الأنبياء أحوالهم الكتمان لو قطعوا إرباً إرباً ما عرف ما عندهم لهذا قال خضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ فالكتمان من أصولهم إلاَّ أن يؤمروا بالإفشاء والإعلان، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والثلاثون

في معرفة الأقطاب المدبرين أصحاب الركاب من الطبقة الثانية

[نظم: البسيط]

إن التدبُّرَ معشوقٌ لصاحبه ... به تعشَّقَتِ الأسماءُ والدُّوَلُ
عليه عند الذي يقضي سوالِفَهُ ... في كل ما يقتضيه كونه العملُ
به ترتُّب ما في الكون من عَجَبٍ ... فكلُّ كون له في عِلمه أَجَلُ

لقيت من هؤلاء الطبقة جماعة بإشبيلية من بلاد الأندلس منهم أبو يحيىٰ الصنهاجي الضرير كان يسكن بمسجد الزبيدي صحبته إلى أن مات ودفن بجبل عال كثير الرياح بالشرق، فكل الناس شقّ عليهم طلوع الجبل لطوله وكثرة رياحه فسكن الله الريح فلم تهب من الوقت الذي وضعناه في الجبل، وأخذ الناس في حفر قبره وقطع حجره إلى أن فرغنا منه وواريناه في روضته وانصرفنا، فعند انصرافنا هبت الريح على عادتها فتعجب الناس من ذلك. ومنهم أيضاً صالح البربري، وأبو عبد الله الشرفي وأبو الحجاج يوسف الشبربلي. فأمّا صالح فساح أربعين سنة ولزم بإشبيلية مسجد الرطند إلى أربعين سنة على التجريد بالحالة التي كان عليها في سياحته. وأمّا أبو عبد الله الشرفي فكان صاحب خطوة بقي نحواً من خمسين سنة ما أسرج له سراجاً في بيته رأيت له عجائب. وأما أبو الحجاج الشبربلي من قرية يقال لها شبربل بشرق إشبيلية كان ممّن يمشي على الماء وتعاشره الأرواح، وما من واحد من هؤلاء إلاَّ وعاشرته معاشرة مودّة وامتزاج ومحبة منهم فينا، وقد ذكرناهم مع أشياخنا في الدرّة الفاخرة عند ذكرنا

من انتفعت به في طريق الآخرة، فكان هؤلاء الأربعة من أهل هذا المقام وهم من أكابر الأولياء الملامية، جعل بأيديهم علم التدبير والتفصيل فلهم الاسم المدبّر المفصّل وهجيرهم يدبر الأمر يفصّل الآيات، هم العرائس أهل المنصات، فلهم الآيات المعتادة وغير المعتادة، فالعالم كله عندهم آيات بينات، والعامة ليست الآيات عندهم إلاّ التي هي عندهم غير معتادة، فتلك تنبّههم إلى تعظيم الله.

والله قد جعل الآيات المعتادة لأصناف مختلفين من عباده، فمنها للعقلاء مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَٰحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٤] فثمّ آيات للعقلاء كلها معتادة، وآيات للموقنين، وآيات لأولي الألباب وآيات لأولي النهى، وآيات للسامعين وهم أهل الفهم عن الله، وآيات للعالمين وآيات للعاملين، وآيات للمؤمنين، وآيات للمتفكرين، وآيات لأهل التذكّر. فهؤلاء كلهم أصناف نعتهم الله بنعوت مختلفة. وآيات مختلفات كلها ذكرها لنا في القرآن إذا بحثت عليها وتدبرتها علمت أنها آيات ودلالات على أمور مختلفة ترجع إلى عين واحدة غفل عن ذلك أكثر الناس ولهذا عدّد الأصناف، فإن من الآيات المذكورة المعتادة ما يدرك الناس دلالتها من كونهم ناساً وجنّاً وملائكة، وهي التي وصف بإدراكها العالَم بفتح اللام، ومن الآيات ما تغمض بحيث لا يدركها إلاّ من له التفكّر السليم، ومن الآيات ما هي دلالتها مشروطة بأولي الألباب وهم العقلاء الناظرون في لب الأمور لا في قشورها فهم الباحثون عن المعاني وإن كانت الألباب والنهى العقول فلم يكتف سبحانه بلفظة العقل حتى ذكر الآيات لأولي الألباب، فما كل عاقل ينظر في لب الأمور بواطنها فإن أهل الظاهر لهم عقول بلا شك وليسوا بأولي الألباب، ولا شك أن العصاة لهم عقول ولكن ليسوا بأولي نهى فاختلفت صفاتهم، إذ كانت كل صفة تعطي صنفاً من العلم لا يحصل إلاّ لمن حاله تلك الصفة، فما ذكرها الله سدى، وكثر الله ذكر الآيات في القرآن العزيز، ففي مواضع أردفها وتلا بعضها بعضاً وأردف صفة العارفين بها، وفي مواضع أفردها فمثل إرداف بعضها على بعض مساقها في سورة الروم فلا يزال يقول تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [سورة الروم: الآية ٢٠] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [سورة الروم: الآية ٢١] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [سورة الروم: الآية ٢٢] فيتلوها جميع الناس ولا يتنبه لها إلاّ الأصناف الذين ذكرهم في كل آية خاصة، فكان تلك الآيات في حق أولئك أنزلت آيات وفي حق غيرهم لمجرّد التلاوة ليؤجروا عليها.

ولما قرأت هذه السورة وأنا في مقام هذه الطبقة ووصلت إلى قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [سورة الروم: الآية ٢٣] تعجبت كل العجب من حسن نظم القرآن وجمعه، ولماذا قدّم ما كان ينبغي في النظر العقلي في ظاهر الأمر أن يكون على غير هذا النظم، فإن النهار لابتغاء الفضل والليل للمنام كما قال في القصص: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [سورة القصص: الآية ٧٣] فأعاد الضمير على الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا

مِن فَضْلِهِۦ﴾ [سورة القصص: الآية ٧٣] يريد في النهار فأضمر، وإن كان الضميران يعودان على المعنى المقصود فقد يعمل الصانع بالليل ويبيع ويشتري بالليل كما أنه ينام أيضاً ويسكن بالنهار، ولكن الغالب في الأمور هو المعتبر، فلاح لي من خلف ستارة هذه الآية وحسن العبارة عنها الرافعة سترها وهو قوله: ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أمر زائد على ما يفهم منه في العموم بقرائن الأحوال في ابتغاء الفضل للنهار والمنام لليل ما نذكره، وهو أن الله نبّه بهذه الآية على أن نشأة الآخرة الحسيّة لا تشبه هذه النشأة الدنياوية وأنها ليست بعينها بل تركيب آخر ومزاج آخر كما وردت به الشرائع والتعريفات النبوية في مزاج تلك الدار، وإن كانت هذه الجواهر عينها بلا شك فإنها التي تبعثر في القبور وتنشر، ولكن يختلف التركيب والمزاج بأعراض وصفات تليق بتلك الدار لا تليق بهذه الدار، وإن كانت الصورة واحدة في العين والسمع والأنف والفم واليدين والرجلين بكمال النشأة، ولكن الاختلاف بيِّن، فمنه ما يشعر به ويحسّ ومنه ما لا يشعر به.

ولما كانت صورة الإنشاء في الدار الآخرة على صورة هذه النشأة لم يشعر بما أشرنا إليه، ولما كان الحكم يختلف عرفنا أن المزاج اختلف فهذا الفرق بين حظ الحسّ والعقل فقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ولم يذكر اليقظة وهي من جملة الآيات فذكر المنام دون اليقظة في حال الدنيا، فدلّ على أن اليقظة لا تكون إلاّ عند الموت، وأن الإنسان نائم أبداً ما لم يمت، فذكر أنه في منام بالليل والنهار في يقظته ونومه. وفي الخبر: «**النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا**» ألا ترى أنه لم يأت بالباء في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ [سورة الروم: الآية ٢٣] واكتفى بباء الليل ليحقق بهذه المشاركة أنه يريد المنام في حال اليقظة المعتادة فحذفها ممّا يقوّي الوجه الذي أبرزناه في هذه الآية، فالمنام هو ما يكون فيه النائم في حال نومه، فإذا استيقظ يقول: رأيت كذا وكذا، فدلّ أن الإنسان في منام ما دام في هذه النشأة في الدنيا إلى أن يموت، فلم يعتبر الحق اليقظة المعتادة عندنا في العموم، بل جعل الإنسان في منام في نومه ويقظته، كما أوردناه في الخبر النبوي من قوله ﷺ: «**النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا**» فوصفهم بالنوم في الحياة الدنيا، والعامة لا تعرف النوم في المعتاد إلاّ ما جرت به العادة أن يسمّى نوماً، فنبّه النبي ﷺ بل صرّح أن الإنسان في منام ما دام في الحياة الدنيا حتى ينتبه في الآخرة، والموت أوّل أحوال الآخرة، فصدقه الله بما جاء به في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ﴾ وهو النوم العادي والنهار وهو هذا المنام الذي صرّح به رسول الله ﷺ، ولهذا جعل الدنيا عبرة جسراً يعبر أي تعبر كما تعبر الرؤيا التي يراها الإنسان في نومه.

فكما أن الذي يراه الرائي في حال نومه ما هو مراد لنفسه إنما هو مراد لغيره فيعبر من تلك الصورة المرئية في حال النوم إلى معناها المراد بها في عالم اليقظة إذا استيقظ من نومه، كذلك حال الإنسان في الدنيا ما هو مطلوب للدنيا، فكل ما يراه من حال وقول وعمل في الدنيا إنما هو مطلوب للآخرة، فهناك يعبر ويظهر له ما رآه في الدنيا، كما يظهر له في الدنيا إذا استيقظ ما رآه في المنام، فالدنيا جسر يعبر ولا يعمر، كالإنسان في حال ما يراه في نومه

يعبر ولا يعمر، فإنه إذا استيقظ لا يجد شيئاً مما رآه من خير يراه أو شرّ، وديار وبناء وسفر وأحوال حسنة أو سيئة فلا بدّ أن يعبر له العارف بالعبارة ما رآه فيقول له: تدل رؤياك لكذا على كذا، فكذلك الحياة الدنيا منام إذا انتقل إلى الآخرة بالموت لم ينتقل معه شيء ممّا كان في يده وفي حسّه من دار وأهل ومال، كما كان حين استيقظ من نومه لم ير شيئاً في يده ممّا كان له حاصلاً في رؤياه في حال نومه فلهذا قال تعالىٰ: إننا في منام بالليل والنهار وفي الآخرة تكون اليقظة وهناك تعبر الرؤيا، فمن نوّر الله عين بصيرته وعبّر رؤياه هنا قبل الموت أفلح ويكون فيها مثل من رأى رؤيا ثم رأى في رؤياه أنه استيقظ فيقص ما رآه وهو في النوم على حاله على بعض الناس الذين يراهم في نومه فيقول: رأيت كذا وكذا فيفسره ويعبره له ذلك الشخص بما يراه في علمه بذلك، فإذا استيقظ حينئذ يظهر له، أنه لم يزل في منام في حال الرؤيا وفي حال التعبير لها وهو أصحّ التعبير، وكذلك الفطن اللبيب في هذه الدار مع كونه في منامه يرى أنه استيقظ فيعبر رؤياه في منامه لينتبه ويزدجر ويسلك الطريق الأسدّ، فإذا استيقظ بالموت حمد رؤياه وفرح بمنامه وأثمرت له رؤياه خيراً، فلهذه الحقيقة ما ذكر الله في هذه الآية اليقظة وذكر المنام وأضافه إلينا بالليل والنهار، وكان ابتغاء الفضل فيه في حق من رأى في نومه أنه استيقظ في نومه فيعبر رؤياه وهي حالة الدنيا والله يلهمنا رشد أنفسنا، هذا من قوله تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] فهذا تفصيل آيات المنام بالليل والنهار والابتغاء من الفضل وجعله آيات لقوم يسمعون أي يفهمون كما قال، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون أراد الفهم عن الله وقال فيهم: ﴿صُمٌّ﴾ مع كونهم يسمعون ﴿بُكْمٌ﴾ مع كونهم يتكلمون ﴿عُمْيٌ﴾ مع كونهم يبصرون ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧١] فنبهتك على ما أراد بالسمع والكلام والبصر هنا.

فهذه الطبقة الركبانية الثانية مآخذهم للأشياء على هذا الحدّ الذي ذكرناه في هذه الآية، وإنما ذكرنا هذا المأخذ لنعرّفك بطريقتهم فتتبين لك منزلتهم من غيرهم، فلطائفهم بالآيات المنصوبة المعتادة وغير المعتادة قائمة ناظرة إلى نفوس العالم، ناظرة إلى الوجوه العرضية التي إليها يتوجهون بسبب أغراضهم، ناظرة إلى الحدود الإلهية فيما إليه يتوجهون، لا يغفلون عن النظر في ذلك طرفة عين، فغفلتهم التي تقتضيها جبلتهم إنما متعلقها منهم عمّا ضمن لهم، فهم متيقظون فيما طلب منهم، غافلون عمّا ضمن لهم حتى لا يخرجون عن حكم الغفلة فإنها من جبلة الإنسان، وغير هذه الطائفة صرفتها الغفلة عمّا يراد منها، فإن كان الذي يقع إليه التوجّه طاعة نظروا في دقائق تحصيلها ونظروا إلى الأمر الإلهي الذي يناسبها والاسم الإلهي الذي له السلطان عليها فيفصل لهم الأمر الإلهيّ الآية التي يطلبونها، فإن كانت الآية معتادة مثل اختلاف الليل والنهار وتسخير السحاب وغير ذلك من الآيات المعتادة التي لا خبر لنفوس العامة بكونها حتى يفقدوها، فإذا فقدوها حينئذ خرجوا للاستسقاء وعرفوا في ذلك الوقت موضع دلالتها وقدرها وأنهم كانوا في آية وهم لا يشعرون، فإذا جاءتهم وأمطروا عادوا إلى غفلتهم هذا حال العامّة كما قال الله فيهم معجلاً في هذه الدار: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ

وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة يونس: الآية ٢٢] ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٦٥] و﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة يونس: الآية ٢٣] يقول الله لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة يونس: الآية ٢٣] وهكذا يقولون في النار: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٢٧] قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٢٨] كما عاد أصحاب الفلك إلى شركهم وبغيهم بعد إخلاصهم لله.

فإذا نظرت هذه الطائفة إلى هذه الآيات أرسلوها مع أمرها الإلهيّ إلى حيث دعاها، وإن كانت الآية غير معتادة نظروا أيّ اسم إلهيّ يطلبها فإن طلبها القهار وأخواته فهي آية رهبة وزجر ووعيد أرسلوها على النفوس، وإن طلبها أعني تلك الآية الاسم اللطيف وأخواته فهي آية رغبة أرسلوها على الأرواح فأشرق لها نور شعشعانيّ على النفوس، فجنحت بذلك النفوس إلى بارئها فرزقت التوفيق والهداية، وأعطيت التلذّذ بالأعمال، فقامت فيها بنشاط، وتعرّت فيها من ملابس الكسل، وتبغض إليها معاشرة البطالين وصحبة الغافلين اللاهين عن ذكر الله، ويكرهون الملأ والجلوة، ويؤثرون الانفراد والخلوة، ولهذه الطبقة الثانية حقيقة ليلة القدر وكشفها وسرّها ومعناها، ولهم فيها حكم إلهيّ اختصّوا به وهي حظهم من الزمان، فانظر ما أشرف إذ حباهم الله من الزمان بأشرفه، فإنها خير من ألف شهر، فيه زمان رمضان، ويوم الجمعة، ويوم عاشوراء، ويوم عرفة، وليلة القدر، فكأنه قال: فتضاعف خيرها ثلاثاً وثمانين ضعفاً وثلث ضعف لأنها ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر وقد تكون الأربعة الأشهر ممّا يكون فيها ليلة القدر فيكون التضعيف في كل ليلة قدر أربعة وثمانين ضعفاً، فانظر ما في هذا الزمان من الخير وبأيّ زمان خصّت هذه الطائفة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الثامن عشر والحمد لله.

(الجزء التاسع عشر)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثالث والثلاثون

في معرفة أقطاب النيات وأسرارهم وكيفية أصولهم ويقال لهم النياتيون

[نظم: البسيط]

الروحُ للجسم والنيّاتُ للعمل ... تحيا بها كحياة الأرض بالمَطَرِ
فتبصر الزهرَ والأشجارَ بارزةً ... وكلَّ ما تُخرج الأشجارُ من ثَمرِ
كذاك تَخرجُ من أعمالنا صُوَرٌ ... لها روائحُ من نَتْنٍ ومن عَطِرِ
لولا الشريعةُ كان المِسْكُ يخجلُ مِنْ ... أعرافها هكذا يقضي به نَظَري

إذْ كـان مُـسْـتَـنَـدُ الـتـكـويـن أجْـمَـعُـهُ لـه فـلا فـرق بـيـن الـنَّـفْـع والـضَّـرَرِ
فـالـزَمْ شـريـعـتَـه تـنـعَـمْ بـهـا سـوراً تـحـلـهـا صُـوَرٌ تـزهـو عـلـى سُـررِ
مـثـل الـمـلـوك تـراهـا فـي أسـرَّتـهـا أو كـالـعـرائـس مـعـشـوقـيـن لـلـبَـصَـرِ

روينا من حديث رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ وَإِنَّمَا لامْرِىءٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيه**» رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

اعلم أن لمراعاة النيّات رجالاً على حال مخصوص ونعت خاص أذكرهم إن شاء الله وأذكر أحوالهم، والنيّة لجميع الحركات والسكنات في المكلفين للأعمال كالمطر لما تنبته الأرض، فالنيّة من حيث ذاتها واحدة وتختلف بالمتعلق وهو المنويّ فتكون النتيجة بحسب المتعلق به لا بحسبها، فإن حظّ النيّة إنما هو القصد للفعل أو تركه، وكون ذلك الفعل حسناً أو قبيحاً وخيراً أو شرّاً ما هو من أثر النيّة وإنما هو من أمر عارض عرض ميّزه الشارع وعينه للمكلف، فليس للنيّة أثر البتة من هذا الوجه خاصة كالماء إنما منزلته أن ينزل أو يسيح في الأرض، وكون الأرض الميتة تحيا به أو ينهدم بيت العجوز الفقيرة بنزوله ليس ذلك له فتخرج الزهرة الطيبة الريح والمنتنة والثمرة الطيبة والخبيثة من خبث مزاج البقعة أو طيبها أو من خبث البزرة أو طيبها، قال تعالىٰ: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٤] فليس للنيّة في ذلك إلاّ الإمداد كما قال تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦] يعني المثل المضروب به في القرآن أي بسببه وهو من القرآن.

فكما كان الماء سبباً في ظهور هذه الروائح المختلفة والطعوم المختلفة كذلك هي النيّات سبب في الأعمال الصالحة وغير الصالحة، ومعلوم أن القرآن مهداة كله ولكن بالتأويل في المثل المضروب: ضلّ من ضلّ وبه اهتدى من اهتدى، فهو من كونه مثلاً لم تتغير حقيقته، وإنما العيب وقع في عين الفهم، كذلك النيّة أعطت حقيقتها وهو تعلّقها بالمنويّ، وكون ذلك المنويّ حسناً أو قبيحاً ليس لها وإنما ذلك لصاحب الحكم فيه بالحسن والقبح، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي بينّا له طريق السعادة والشقاء، ثم قال: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [سورة الإنسان: الآية ٣] هذا راجع للمخاطب المكلف، فإن نوى الخير أثمر خيراً، وإن نوى الشرّ أثمر شرّاً، فما أتى عليه إلاّ من المحل من طيبه أو خبثه، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [سورة النحل: الآية ٩] أي هذا أوجبته على نفسي، كأنّ الله يقول: الذي يلزم جانب الحق منكم أن يبين لكم السبيل الموصل إلى سعادتكم وقد فعلت فإنكم لا تعرفونه إلاّ بإعلامي لكم به وتبييني، وسبب ذلك أنه سبق في العلم أن طريق سعادة العباد إنما هو في سبب خاص، وسبب شقائهم أيضاً إنما هو في طريق خاص، وليس إلاّ العدول عن طريق السعادة وهو الإيمان بالله وبما جاء من عند الله ممّا ألزمنا فيه الإيمان به.

ولما كان العالم في حال جهل بما في علم الله من تعيين تلك الطريق تعين الإعلام به

بصفة الكلام فلا بدّ من الرسول، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٥] ولا نوجب على الله إلاّ ما أوجبه على نفسه، وقد أوجب التعريف على نفسه بقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [سورة النحل: الآية ٩] مثل قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم: الآية ٤٧] وقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] وعلى الحقيقة إنما وجب ذلك على النسبة لا على نفسه، فإنه يتعالى أن يجب عليه من أجل حد الواجب الشرعيّ فكأنه لما تعلّق العلم الإلهيّ أزلاً بتعيين الطريق التي فيها سعادتنا ولم يكن للعلم بما هو علم صورة التبليغ وكان التبليغ من صفة الكلام تعين التبليغ على نسبة كونه متكلماً بتعريف الطريق التي فيها سعادة العباد التي عينها العلم، فأبان الكلام الإلهيّ بترجمته عن العلم ما عيّنه من ذلك فكان الوجوب على النسبة فإنها نسب مختلفة، وكذلك سائر النسب الإلهية من إرادة وقدرة وغير ذلك.

وقد بينّا محاضرة الأسماء الإلهية ومحاورتها ومجاراتها في حلبة المناظرة على إيجاد هذا العالم الذي هو عبارة عن كل ما سوى الله في كتاب عنقا مغرب بوّبنا عليه محاضرة أزلية على نشأة أبدية وكذلك في كتاب إنشاء الجداول والدوائر لنا، فقد علمت كيف تعلق الوجوب الإلهيّ على الحضرة الإلهية إن كنت فطناً لعلم النسب، وعلى هذا يخرج قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [سورة مريم: الآية ٨٥] وكيف يحشر إليه من هو جليسه وفي قبضته، سمع أبو يزيد البسطامي قارئاً يقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ فبكى حتى ضرب الدمع المنبر، بل روي أنه طار الدم من عينيه حتى ضرب المنبر وصاح وقال: يا عجباً كيف يحشر إليه من هو جليسه؟ فلما جاء زماننا سئلنا عن ذلك فقلت: ليس العجب إلاّ من قول أبي يزيد، فاعلموا إنما كان ذلك لأن المتقي جليس الجبار فيتقي سطوته والاسم الرحمن ما له سطوة من كونه الرحمن إنما الرحمن يعطي اللين واللطف والعفو والمغفرة فلذلك يحشر إليه من الاسم الجبار الذي يعطي السطوة والهيبة فإنه جليس المتقين في الدنيا من كونهم متقين، وعلى هذا الأسلوب تأخذ الأسماء الإلهية كلها وكذا تجدها حيث وردت في ألسنة النبوّات إذا قصدت حقيقة الاسم وتميّزه من غيره فإن له دلالتين: دلالة على المسمّى به، ودلالة على حقيقته التي بها يتميز عن اسم آخر فافهم.

واعلم أن هؤلاء الرجال إنما كان سبب اشتغالهم بمعرفة النية كونهم نظروا إلى الكلمة وفيها فعلموا أنها ما ألفت حروفها وجمعت إلاّ لظهور نشأة قائمة تدل على المعنى الذي جمعت له في الإصلاح، فإذا تلفظ بها المتكلم فإن السامع يكون همّه في فهم المعنى الذي جاءت له فإن بذلك تقع الفائدة، ولهذا وجدت في ذلك اللسان على هذا الوضع الخاص، ولهذا لا يقول هؤلاء الرجال بالسماع المقيد بالنغمات لعلوّ همتهم ويقولون بالسماع المطلق، فإن السماع المطلق لا يؤثر فيهم إلاّ فهم المعاني وهو السماع الروحانيّ الإلهيّ وهو سماع الأكابر، والسماع المقيّد إنما يؤثر في أصحابه النغم وهو السماع الطبيعي، فإذا ادَّعى من ادَّعى أنه يسمع في السماع المقيّد بالألحان المعنى ويقول: لولا المعنى ما تحرّكت، ويدعي أنه قد

خرج عن حكم الطبيعة في ذلك يعني في السبب المحرك فهو غير صادق، وقد رأينا من ادَّعى ذلك من المتشيخين المتطفلين على الطريقة، فصاحب هذه الدعوى إذا لم يكن صادقاً يكون سريع الفضيحة، وذلك أن هذا المدعي إذا حضر مجلس السماع فاجعل بالك منه، فإذا أخذ القوّال في القول بتلك النغمات المحركة بالطبع للمزاج القابل أيضاً وسرت الأحوال في النفوس الحيوانية فحركت الهياكل حركة دورية لحكم استدارة الفلك وهو أعني الدور ممّا يدلك على أن السماع طبيعيّ لأن اللطيفة الإنسانية ما هي عن الفلك وإنما هي عن الروح المنفوخ منه وهي غير متحيزة فهي فوق الفلك، فما لها في الجسم تحريك دوريّ ولا غير دوريّ، وإنما ذلك للروح الحيوانيّ الذي هو تحت الطبيعة والفلك، فلا تكن جاهلاً بنشأتك ولا بمن يحركك، فإذا تحرك هذا المدعي وأخذه الحال ودار أو قفز إلى جهة فوق من غير دور وقد غاب عن إحساسه بنفسه وبالمجلس الذي هو فيه، فإذا فرغ من حاله ورجع إلى إحساسه فاسأله ما الذي حركه فيقول: إن القوال قال كذا وكذا ففهمت منه معنى كذا وكذا، فذلك المعنى حركني فقل له: ما حرّكك سوى حسن النغمة والفهم إنما وقع لك في حكم التبعية فالطبع حكم على حيوانيتك، فلا فرق بينك وبين الجمل في تأثير النغمة فيك، فيعزّ عليه مثل هذا الكلام ويثقل ويقول لك ما عرفتني وما عرفت ما حركني فاسكت عنه ساعة فإن صاحب هذه الدعوى تكون الغفلة مستولية عليه، ثم خذ معه في الكلام الذي يعطي ذلك المعنى فقل له: ما أحسن قول الله تعالىٰ حيث يقول واتل عليه آية من كتاب الله تتضمن ذلك المعنى الذي كان حرّكه من صوت المغني وحقّقه عنده حتى يتحققه فيأخذ معك فيه ويتكلم، ولا يأخذه لذلك حال ولا حركة ولا فناء ولكن يستحسنه ويقول: لقد تتضمن هذه الآية معنى جليلاً من المعرفة بالله فما أشدّ فضيحته في دعواه، فقل له: يا أخي هذا المعنى بعينه هو الذي ذكرت لي أنه حرّكك في السماع البارحة لما جاء به القوّال في شعره بنغمته الطيبة فلأيّ معنى سرى فيك الحال البارحة، وهذا المعنى موجود فيما قد صغته لك وسقته بكلام الحق تعالىٰ الذي هو أعلى وأصدق، وما رأيتك تهتز مع الاستحسان وحصول الفهم وكنت البارحة يتخبطك الشيطان من المس كما قال الله تعالىٰ، وحجبك عن عين الفهم السماع الطبيعي فما حصل لك في سماعك إلاّ الجهل بك، فمن لا يفرق بين فهمه وحركته كيف يرجى فلاحه، فالسماع من عين الفهم هو السماع الإلهيّ، وإذا ورد على صاحبه وكان قوياً لما يرد به من الإجمال فغاية فعله في الجسم أن يضجعه لا غير ويغيبه عن إحساسه ولا يصدر منه حركة أصلاً بوجه من الوجوه، سواء كان من الرجال الأكابر أو الصغار، وهذا حكم الوارد الإلهيّ القويّ، وهو الفارق بينه وبين حكم الوارد الطبيعيّ، فإنّ الوارد الطبيعيّ كما قلنا يحرّكه الحركة الدورية والهيمان والتخبّط فعل المجنون، وإنما يضجعه الوارد الإلهيّ لسبب أذكره لك وذلك أن نشأة الإنسان مخلوقة من تراب قال تعالىٰ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ [سورة طه: الآية ٥٥] وإن كان فيه من جميع العناصر ولكن العنصر الأعظم التراب، قال عزّ وجلّ فيه أيضاً: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٩]

والإنسان في قعوده وقيامه بعد عن أصله الأعظم الذي منه نشأ من أكثر جهاته، فإنّ قعوده وقيامه وركوعه فروع.

فإذا جاءه الوارد الإلهي وللوارد الإلهيّ صفة القيومية وهي في الإنسان من حيث جسميته بحكم العرض وروحه المدبّر هو الذي كان يقيمه ويقعده، فإذا اشتغل الروح الإنساني المدبّر عن تدبيره بما يتلقاه من الوارد الإلهيّ من العلوم الإلهية لم يبق للجسم من يحفظ عليه قيامه ولا قعوده فرجع إلى أصله وهو لصوقه بالأرض المعبر عنه بالاضطجاع، ولو كان على سرير فإنّ السرير هو المانع له من وصوله إلى التراب، فإذا فرغ روحه من ذلك التلقي وصدر الوارد إلى ربه رجع الروح إلى تدبير جسده فأقامه من ضجعته، هذا سبب اضطجاع الأنبياء على ظهورهم عند نزول الوحي عليهم، وما سمع قط عن نبيّ أنه تخبط عند نزول الوحي، هذا مع وجود الواسطة في الوحي وهو الملك، فكيف إذا كان الوارد برفع الوسائط لا يصحّ أن يكون منه قط غيبة عن إحساسه ولا يتغير عن حاله الذي هو عليه، فإنّ الوارد الإلهيّ برفع الوسائط الروحانية يسري في كلية الإنسان ويأخذ كل عضو بل كل جوهر فرد فيه حظه من ذلك الوارد الإلهيّ من لطيف وكثيف، ولا يشعر بذلك جليسه، ولا يتغير عليه من حاله الذي هو عليه من جليسه شيء إن كان يأكل بقي على أكله في حاله أو شربه أو حديثه الذي هو في حديثه فإن ذلك الوارد يعم وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فمن كانت أينيته في ذلك الوقت حالة الأكل أو الشرب أو الحديث أو اللعب أو ما كان بقي على حاله.

فلما رأت هذه الطائفة الجليلة هذا الفرق بين الواردات الطبيعية والروحانية والإلهيّة، ورأت أن الالتباس قد طرأ على من يزعم أنه في نفسه من رجال الله تعالىٰ أنفوا أن يتصفوا بالجهل والتخليط فإنه محل الوجود الطبيعي، فارتقت همتهم إلى الاشتغال بالنيّات إذ كان الله قد قال لهم: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ﴾ [سورة البينة: الآية ٥] والإخلاص النيّة ولهذا قيدها بقوله له ولم يقل مخلصين وهو من الاستخلاص فإن الإنسان قد يخلص نيّته للشيطان ويسمّى مخلصاً فلا يكون في عمله لله شيء، وقد يخلص للشركة وقد يخلص لله فلهذا قال تعالىٰ: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة البينة: الآية ٥] لا لغيره ولا لحكم الشركة، فشغلوا نفوسهم بالأصل في قبول الأعمال ونيل السعادات وموافقة الطلب الإلهيّ منهم فيما كلفهم به من الأعمال الخالصة له وهو المعبّر عنه بالنيّة، فنسبوا إليها لغلبة شغلهم بها وتحققوا أن الأعمال ليست مطلوبة لأنفسها وإنما هي من حيث ما قصد بها وهو النيّة في العمل كالمعنى في الكلمة، فإنّ الكلمة ما هي مطلوبة لنفسها وإنما هي لما تضمنته. فانظر يا أخي ما أدق نظر هؤلاء الرجال، وهذا هو المعبر عنه في الطريق بمحاسبة النفس وقد قال رسول الله ﷺ: «**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا**».

ولقيت من هؤلاء الرجال اثنين: أبو عبد الله بن المجاهد، وأبو عبد الله بن قسوم بإشبيلية كان هذا مقامهم وكانوا من أقطاب الرجال النياتيين. ولما شرعنا في هذا المقام تأسّياً

بهما وبأصحابهما وامتثالاً لأمر رسول الله ﷺ الواجب امتثاله في أمره حاسبوا أنفسكم، وكان أشياخنا يحاسبون أنفسهم على ما يتكلمون به وما يفعلونه ويقيدونه في دفتر، فإذا كان بعد صلاة العشاء وخلوا في بيوتهم حاسبوا أنفسهم وأحضروا دفترهم ونظروا فيما صدر منهم في يومهم من قول وعمل، وقابلوا كل عمل بما يستحقه، إن استحق استغفاراً استغفروا، وإن استحق توبة تابوا، وإن استحق شكراً شكروا، إلى أن يفرغ ما كان منهم في ذلك اليوم وبعد ذلك ينامون، فزدنا عليهم في هذا الباب بتقييد الخواطر، فكنا نقيد ما تحدثنا به نفوسنا وما تهم به زائداً على كلامنا وأفعالنا، وكنت أحاسب نفسي مثلهم في ذلك الوقت وأحضر الدفتر وأطالبها بجميع ما خطر لها وما حدثت به نفسها، وما ظهر للحسّ من ذلك من قول وعمل، وما نوته في ذلك الخاطر والحديث فقلّت الخواطر والفضول إلاَّ فيما يعني، فهذا فائدة هذا الباب، وفائدة الاشتغال بالنية، وما في الطريق ما يغفل عنه أكثر من هذا الباب، فإن ذلك راجع إلى مراعاة الأنفاس وهي عزيزة.

وبعد أن عرفتك بأصول هذه الطائفة وما هو سبب شغلهم بذلك وأنه لهم أمر شرعي وما لهم في ذلك من الأسرار والعلوم، فاعلم أيضاً مقامهم في ذلك وما لهم، فهذه الطائفة على قلب يونس عليه السلام فإنه لما ذهب مغاضباً وظنّ أن الله لا يضيق عليه لما عهده من سعة رحمة الله فيه وما نظر ذلك الاتساع الإلهيّ الرحماني في حق غيره فتناله أمّته واقتصر به على نفسه والغضب ظلمة القلب فأثرت لعلوّ منصبه في ظاهره فأسكن في ظلمة بطن الحوت ما شاء الله لينبّهه الله على حالته حين كان جنيناً في بطن أمّه من كان يدبّره فيه، وهل كان في ذلك الموطن يتصوّر منه أن يغاضب أو يغاضب، بل كان في كنف الله لا يعرف سوى ربّه، فردّه إلى هذه الحالة في بطن الحوت تعليماً له بالفعل لا بالقول، فنادى في الظلمات أن لا إله إلاَّ أنت عذراً عن أمّته في هذا التوحيد، أي تفعل ما تريد وتبسط رحمتك على من تشاء ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٧] مشتق من الظلمة أي ظلمتي عادت عليّ ما أنت ظلمتني، بل ما كان في باطني سرى إلى ظاهري، وانتقل النور إلى باطني فاستنار فأزال ظلمة المغاضبة وانتشر فيه نور التوحيد وانبسطت الرحمة فسرى ذلك النور في ظاهره مثل ما سرت ظلمة الغضب فاستجاب له ربه فنجاه من الغم فقذفه الحوت من بطنه مولوداً على الفطرة السليمة، فلم يولد أحد من ولد آدم ولادتين سوى يونس عليه السلام فخرج ضعيفاً كالطفل كما قال: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٤٥] وربّاه باليقطين فإن ورقه ناعم ولا ينزل عليه ذباب، فإن الطفل لضعفه لا يستطيع أن يزيل الذباب عن نفسه، فغطاه بشجرة خاصيتها أن لا يقربها ذباب مع نعمة ورقها، فإن ورق اليقطين مثل القطن في النعمة بخلاف سائر ورق الأشجار كلها فإن فيها خشونة، وأنشأه الله عزّ وجلّ نشأة أخرى.

ولما رأت هذه الطائفة أن يونس عليه السلام ما أتى عليه إلاَّ من باطنه من الصفة التي قامت به ومن قصده شغلوا نفوسهم بتمحيص النيّات والقصد في حركاتهم كلها حتى لا ينوون إلاَّ ما أمرهم الله به أن ينووه ويقصدوه، وهذا غاية ما يقدر عليه رجال الله، وهذه الطائفة في

الرجال قليلون فإنه مقام ضيق جداً يحتاج صاحبه إلى حضور دائم، وأكبر من كان فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيه في حرب اليمامة: فما هو إلاَّ أن رأيت أن الله عزّ وجلّ قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق، لمعرفة عمر باشتغال أبي بكر بباطنه، فإذا صدرت منه حركة في ظاهره فما تصدر إلاَّ من إله وهو عزيز، ولهذا كان من يفهم المقامات من المتقدمين من أهل الكتاب إذا سمعوا أو يقال لهم إنّ رسول الله ﷺ يقول كذا وكذا يقولون هذا كلام ما خرج إلاَّ من إله أي هو كلام إلهيّ ما هو كلام مخلوق، فانظر ما أحسن العلم، وفي أيّ مقام ثبتت هذه الطائفة، وبأيّ قائمة استمسكت جعلنا الله منهم، فجلّ أعمالهم في الباطن مساكن السائحين منهم الغيران والكهوف وفي الأمصار ما بناه غيرهم من عباد الله تعالىٰ لا يضعون لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، وهكذا كان رسول الله ﷺ إلى أن انتقل إلى ربّه ما بنى قط مسكناً لنفسه، وسبب ذلك أنهم رأوا الدنيا جسراً منصوباً من خشب على نهر عظيم وهم عابرون فيه راحلون عنه، فهل رأيتم أحداً بنى منزلاً على جسر خشب؟ لا والله ولا سيّما وقد عرف أن الأمطار تنزل، وأن النهر يعظم بالسيول التي تأتي، وأن الجسور تنقطع، فكل من بنى على جسر فإنما يعرّض به للتلف، فلو أن عمار الدنيا يكشف الله عن بصيرتهم حتى يروها جسراً ويروا النهر الذي بنيت عليه أنه خطر قوي ما بنوا الذي بنوا عليه من القصور المشيدة، فلم يكن لهم عيون يبصرون بها أن الدنيا قنطرة خشب على نهر عظيم خرّار، ولا كان لهم سمع يسمعون به قول الرسول العالم بما أوحى الله إليه به أن الدنيا قنطرة فلا بالإيمان عملوا ولا على الرؤية والكشف حصلوا، فهم كما قال الله فيهم: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٧١] ثم تاب الله عليهم في حال سماعهم من الرسول ﷺ حين قال لهم: «**إِنَّ الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ وَأَشْباهُ ذٰلِكَ فَلاَ تَشْغَلُوا نُفُوسَكُمْ بِعَمَارَتِها وانْهَضُوا**» فما فرغ من قوله ﷺ حتى رجع كثير منهم إلى عماهم وصممهم مع كونهم مسلمين مؤمنين، فأخبر الله تعالىٰ نبيه بقوله: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾ [سورة المائدة: الآية ٧١] بعد التوبة، يقول: ما نفع القول فيهم.

يا وليّ لو فرضنا أن الدنيا باقية ألسنا نبصر رحلتنا عنها جيلاً بعد جيل؟ فمن أحوال هذه الطائفة مراعاتهم لقلوبهم وأسرارهم متعلقة بالله من حيث معرفة نفوسهم ولا اجتماع لهم بالنهار مع الغافلين بل حركتهم ليلية ونظرهم في الغيب الغالب عليهم مقام الحزن، فإن الحزن إذا فقد من القلب خرب، فالعارف يأكل الحلوى والعسل، والمحقق الكبير يأكل الحنظل فهو كثير التنغيص لا يلتذ بنعمة أبداً ما دام في هذه الدار لشغله بما كلفه الله من الشكر عليها لقيت منهم بدنيسر عمر الفرقوي، وبمدينة فاس: عبد الله السماد، والعارفون بالنظر إلى هؤلاء كالأطفال الذين لا عقول لهم يفرحون ويلتذون بخشخاشة فما ظنك بالمريدين؟ فما ظنك بالعامة لهم القدم الراسخة في التوحيد ولهم المشافهة في الفهوانية يقدمون النفي على الإثبات لأن التنزيه شأنهم كلفظة لا إله إلاَّ الله وهي أفضل كلمة جاءت بها الرسل والأنبياء توحيدهم كوني عقلي ليسوا من اللهو في شيء لهم الحضور التام على الدوام وفي جميع الأفعال،

اختصوا بعلم الحياة والأحياء لهم اليد البيضاء، فيعلمون من الحيوان ما لا يعلمه سواهم، ولا سيما من كل حيوان يمشي على بطنه لقربه من أصله الذي عنه تكوّن، فإن كل حيوان يبعد عن أصله ينقص من معرفته بأصله على قدر ما بعد منه، ألا ترى المريض الذي لا يقدر على القيام والقعود ويبقى طريحاً لضعفه وهو رجوعه إلى أصله تراه فقيراً إلى ربه مسكيناً ظاهر الضعف والحاجة بلسان الحال والمقال، وذلك أن أصله حكم عليه لما قرب منه يقول الله ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [سورة الروم: الآية ٥٤] وقال: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء: الآية ٢٨] فإذا استوى قائماً وبَعُد عن أصله تَفَرْعَنَ وتجبر وادّعى القوّة وقال: أنا، فالرجل من كان مع الله في حال قيامه وصحته كحاله في اضطجاعه من المرض والضعف وهو عزيز لهم البحث الشديد في النظر في أفعالهم وأفعال غيرهم معهم من أجل النيّات التي بها يتوجهون وإليها ينسبون لشدة بحثهم عنها حتى تخلص لهم الأعمال ويخلصوها من غيرهم، ولهذا قيل فيهم النياتيون كما قيل الملامية والصوفية لأحوال خاصة هم عليها، فلهم معرفة الهاجس والهمة والعزم والإرادة والقصد، وهذه كلها أحوال مقدمة للنية، والنية هي التي تكون منه عند مباشرة أفعاله، وهي المعتبرة في الشرع الإلهيّ ففيها يبحثون وهي متعلق الإخلاص، وكان عالمنا الإمام سهل بن عبد الله يدقق في هذا الشأن وهو الذي نبّه على نقر الخاطر ويقول: إن النيّة هو ذلك الهاجس وأنه السبب الأول في حدوث الهم والعزم والإرادة والقصد فكان يعتمد عليه وهو الصحيح عندنا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والثلاثون

في معرفة شخص تحقق في منزل الأنفاس فعاين منها أموراً أذكرها إن شاء الله

[نظم: البسيط]

إن الـمـحـقَّـقَ بـالأنـفـاس رحـمـانُ ... فـالـعـرشُ فـي حـقـه إن كـان إنـسـانُ
وإن تـوجَّـهَ نـحـو الـعـيـن يـطـلـبـهـا ... لـه الـعَـمَـاءُ وإحـسـانٌ فـإحـسـانُ
مـقـامُـه بـاطـنُ الأعـراف يـسـكُـنُـهُ ... يـزوره فـيـه أنـصـارٌ وأعـوانُ
لـه مـن الـلـيـل إن حـقّـقْـتَ آخـره ... كـمـا لـه مـن وجـودِ الـعـيـن إنـسـانُ
إن لاح ظـاهِـرُه تـقـولُ قـرآنٌ ... أو لاح بـاطِـنُـه تـقـول فُـرْقَـانُ
قـد جـمـع الله فـيـه كـلَّ مـنْـقَـبَـةٍ ... فـهـو الـكـمـالُ الـذي مـا فـيـه نُـقْـصَـانُ

اعلم أيّدك الله بروح القدس أنّ المعلومات مختلفة لأنفسها، وأن الإدراكات التي تدرك بها المعلومات مختلفة أيضاً لأنفسها كالمعلومات، ولكن من حيث أنفسها وذواتها لا من حيث كونها إدراكات، وإن كانت مسألة خلاف عند أرباب النظر، وقد جعل الله لكل حقيقة مما يجوز أن يعلم إدراكاً خاصاً عادة لا حقيقة أعني محلها، وجعل المدرك بهذه الإدراكات لهذه المدركات عيناً واحدة وهي ستة أشياء: سمع، وبصر، وشم، ولمس، وطعم، وعقل، وإدراك، جميعها للأشياء ما عدا العقل ضروري، ولكن الأشياء التي ارتبطت بها عادة لا

تخطىء أبداً، وقد غلط في هذا جماعة من العقلاء ونسبوا الغلط للحسّ وليس كذلك وإنما الغلط للحاكم.

وأمّا إدراك العقل المعقولات فهو على قسمين: منه ضروري مثل سائر الإدراكات، ومنه ما ليس بضروري بل يفتقر في علمه إلى أدوات ست: منها الحواس الخمس التي ذكرناها. ومنها القوّة المفكرة ولا يخلو معلوم يصحّ أن يعلمه مخلوق أن يكون مدركاً بأحد هذه الإدراكات، وإنما قلنا إن جماعة غلطت في إدراك الحواس فنسبت إليها الأغاليط وذلك أنهم رأوا إذا كانوا في سفينة تجري بهم مع الساحل رأوا الساحل يجري بجري السفينة، فقد أعطاهم البصر ما ليس بحقيقة ولا معلوم أصلاً، فإنهم عالمون علماً ضرورياً أن الساحل لم يتحرك من مكانه ولا يقدرون على إنكار ما شاهدوه من التحرّك، وكذلك إذا طعموا سكراً أو عسلاً فوجدوه مرّاً وهو حلو فعلموا ضرورة أن حاسة الطعم غلطت عندهم ونقلت ما ليس بصحيح والأمر عندنا ليس كذلك، ولكن القصور والغلط وقع من الحاكم الذي هو العقل لا من الحواس، فإن الحواس إدراكها لما تعطيه حقيقتها ضروري، كما أن العقل فيما يدركه بالضرورة لا يخطىء وفيما يدركه بالحواس أو بالفكر قد يغلط فما غلط حسّ قط ولا ما هو إدراكه ضروري، فلا شك أن الحسّ رأى تحرّكاً بلا شك ووجد طعماً مرّاً بلا شك، فأدرك البصر التحرّك بذاته، وأدرك الطعم قوّة المرارة بذاته وجاء عقل فحكم أن الساحل متحرك وأن السكر مرّ، وجاء عقل آخر وقال: إن الخلط الصفراوي قام بمحل الطعم فأدرك المرارة وحال ذلك الخلط بين قوّة الطعم وبين السكر، فإذن فما ذاق الطعم إلاّ مرارة الصفراء، فقد أجمع العقلان من الشخصين على أنه أدرك المرارة بلا شك، واختلف العقلان فيما هو المدرك للطعم فبان أن العقل غلط لا الحسّ، فلا ينسب الغلط أبداً في الحقيقة إلاّ للحاكم لا للشاهد.

وعندي في هذه المسألة أمر آخر يخالف ما ادّعوه وهو أن الحلاوة التي في الحلو وغير ذلك من المطعومات ليس هو في المطعوم لأمر إذا بحثت عليه وجدت صحة ما ذهبنا إليه، وكذا الحكم في سائر الإدراكات، ولو كان في العادة فوق العقل مدرك آخر يحكم على العقل ويأخذ عنه كما يحكم العقل على الحسّ لغلط أيضاً ذلك المدرك الحاكم فيما هو للعقل ضروري، وكان يقول: إن العقل غلط فيما هو له ضروريّ، فإذا تقرر هذا وعرفت كيف رتب الله المدركات والإدراكات وأن ذلك الارتباط أمر عادي فاعلم أن لله عباداً آخرين خرق لهم العادة في إدراكهم العلوم، فمنهم من جعل له إدراك ما يدرك بجميع القوىٰ من المعقولات والمحسوسات بقوّة البصر خاصة وآخر بقوّة السمع وهكذا بجميع القوىٰ، ثم بأمور عرضية خلاف القوىٰ من ضرب وحركة وسكون وغير ذلك. قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ بِيَدِهِ بَيْنَ كَتِفَيَّ فَوَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَعَلِمْتُ عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ**» فدخل في هذا العلم كل معلوم معقول ومحسوس مما يدركه المخلوق، فهذا علم حاصل لا عن قوّة من القوىٰ الحسيّة والمعنوية فلهذا قلنا: إن ثم سبباً آخر خلاف هذه القوىٰ تدرك به المعلومات.

وإنما قلنا قد تدرك العلوم بغير قواها المعتادة فحكمنا على هذه الإدراكات لمدركاتها

المعتادة بالعادة من أجل المتفرّس، فينظر صاحب الفراسة في الشخص فيعلم ما يكون منه أو ما خطر له في باطنه أو ما فعل وكذلك الزاجر وأشباهه، وإنما جئنا بهذا كله تأنيساً لما نريد أن ننسبه إلى أهل الله من الأنبياء والأولياء فيما يدركونه من العلوم على غير الطرق المعتادة، فإذا أدركوها نسبوا إلى تلك الصفة التي أدركوا بها المعلومات فيقولون: فلان صاحب نظر أي بالنظر يدرك جميع المعلومات وهذا ذقته مع رسول الله ﷺ، وفلان صاحب سمع، وفلان صاحب طعم وصاحب نفس وأنفاس يعني الشمّ، وصاحب لمس، وفلان صاحب معنى وهذا خارج عن هؤلاء بل هو كما يقال في العامة: صاحب فكر صحيح، فمن الناس من أعطي النظر إلى آخر القوىٰ على قدر ما أعطي وهو له عادة إذا استمر ذلك عليه لأنه مشتق من العود أي يعود ذلك عليه في كل نظرة أو في كل شمّ ما ثم غير ذلك، وكذلك أيضاً لتعلم أن الأسماء الإلهية مثل هذا وأن كل اسم يعطي حقيقة خاصة، ففي قوّته أن يعطي كل واحد من الأسماء الإلهية ما تعطيه جميع الأسماء قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] وكذلك لو ذكر كل اسم لقال فيه: إنّ له الأسماء الحسنى وذلك لأحدية المسمّى فاعلم ذلك، فمن الناس من يختص به الاسم الله فتكون معارفه إلهية، ومنهم من يختص به الاسم الرحمن فتكون معارفه رحمانية كما كانت في القوىٰ الكونية يقال فيها: معارف هذا الشخص نظرية وفي حق آخر سمعية فهو من عالم النظر وعالم السمع وعالم الأنفاس، هكذا تنسب معارفه في الإلهيات إلى الاسم الإلهيّ الذي فتح له فيه فتندرج فيه حقائق الأسماء كلها.

فإذا علمت هذا أيضاً فاعلم أن الذي يختص بهذا الباب من الأسماء الإلهية لهذا الشخص المعين الاسم الرحمن، والذي يختص به من القوىٰ فينسب إليها قوّة الشم ومتعلقها الروائح وهي الأنفاس فهو من عالم الأنفاس في نسبة القوىٰ، ومن الرحمانيين في مراتب الأسماء فنقول: إن هذا الشخص المعين في هذا الباب سواء كان زيداً أو عمراً معرفته رحمانية، فكل أمر ينسب إلى الاسم الرحمن في كتاب أو سنة فإنه ينسب إلى هذا الشخص، فإنّ هذا الاسم هو الممدّ له وليس لاسم إلهيّ عليه حكم إلاّ بوساطة هذا الاسم على أيّ وجه كان ولهذا نقول: إن الله سبحانه قد أبطن في مواضع رحمته في عذابه ونقمته كالمريض الذي جعل في عذابه بالمرض رحمته به فيما يكفر عنه من الذنوب فهذه رحمة في نقمة، وكذلك من انتقم منه في إقامة الحدّ من قتل أو ضرب فهو عذاب حاضر فيه رحمة باطنة بها ارتفعت عنه المطالبة في الدار الآخرة كما أنه في نعمته في الدنيا من الاسم المنعم أبطن نقمته فهو ينعم الآن بما به يتعذب لبطون العذاب فيه في الدار الآخرة أو في زمان التوبة، فإنّ الإنسان إذا تاب ونظر وفكر فيما تلذّذ به من المحرّمات تعود تلك الصور المستحضرة عليه عذاباً، وكان قبل التوبة حين يستحضرها في ذهنه يلتذّ بها غاية اللذة، فسبحان من أبطن رحمته في عذابه، وعذابه في رحمته، ونعمته في نقمته، ونقمته في نعمته، فالمبطون أبداً هو روح العين الظاهرة أيّ شيء كان فهذا الشخص لما كانت معرفته رحمانية وكان الاسم الرحمن استوى على

العرش فقال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] كانت همة هذا الشخص عرشية، فكما كان العرش للرحمن كانت الهمة لهذه المعرفة محلاً لاستوائها، فقيل: همته عرشية، ومقام هذا الشخص باطن الأعراف وهو السور الذي بين أهل السعادة والشقاوة للأعراف رجال سيذكرون وهم الذين لم تقيدهم صفة كأبي يزيد وغيره، وإنما كان مقامه باطن الأعراف لأن معرفته رحمانية وهمته عرشية فإن العرش مستوى الرحمن، كذلك باطن الأعراف فيه الرحمة كما أن ظاهره فيه العذاب، فهذا الشخص له رحمة بالموجودات كلها بالعصاة والكفار وغيرهم.

قال تعالىٰ لسيد هذا المقام وهو محمد ﷺ حين دعا على رعل وذكوان وعصية بالعذاب والانتقام فقال: عليك بفلان وفلان وذكر ما كان منهم قال الله له: إن الله ما بعثك سبّاباً ولا لعّاناً ولكن بعثك رحمة فنهي عن الدعاء عليهم وسبّهم وما يكرهون وأنزل الله عزّ وجلّ عليه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٧] فعمّ العالم أي لترحمهم وتدعوني لهم لا عليهم، فيكون عوض قوله لعنهم الله تاب الله عليهم وهداهم كما قال حين جرحوه: اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون، يريد من كذبه من غير أهل الكتاب والمقلدة من أهل الكتاب لا غيرهم، فلهذا قلنا في حق هذا الشخص صاحب هذا المقام إنه رحيم بالعصاة والكفار، فإذا كان حاكماً هذا الشخص وأقام الحدّ أو كان ممّن تتعين عليه شهادة في إقامة حدّ فشهد به أو أقامه فلا يقيمه إلاَّ من باب الرحمة، ومن الاسم الرحمن في حق المحدود والمشهود عليه لا من باب الانتقام، وطلب التشفي لا يقتضيه مقام هذا الاسم فلا يعطيه حاله هذا الشخص.

قال تعالىٰ في قصة إبراهيم: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [سورة مريم: الآية ٤٥] ومن كان هذا مقامه ومعرفته وهذا الاسم الرحمن ينظر إليه فيعاين من الأسرار ذوقاً ما بين نسبة الاستواء إلى العرش وما بين نسبة الأين إلى العماء هل هما على حدّ واحد أو يختلف ويعلم ما للحق من نعوت الجلال واللطف معاً بين العماء والاستواء إذ قد كان في العماء ولا عرش فيوصف بالاستواء عليه. ثم خلق العرش واستوى عليه بالاسم الرحمن، وللعرش حدّ يتميز به من العماء الذي هو الاسم الرب، وللعماء حدّ يتميز به عن العرش، ولا بدّ من انتقال من صفة إلى صفة، فما كان نعته تعالىٰ بين العماء والعرش أو بأيّ نسبة ظهر بينهما إذ قد تميز كل واحد منهما عن صاحبه بحدّه وحقيقته كما يتميز العماء الذي فوقه الهواء وتحته الهواء وهو السحاب الرقيق الذي يحمله الهواء الذي تحته وفوقه عن العماء الذي ما فوقه هواء وما تحته هواء فهو عماء غير محمول، فيعلم السامع أن العماء الذي جعل للرب أينية أنه عماء غير محمول، ثم جاء قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٠] فهل هذا الغمام هو راجع إلى ذلك العماء فيكون العماء حاملاً للعرش ويكون العرش مستوى الرحمن فتجمع القيامة بين العماء والعرش، أو هو هذا المقام المقصود الذي

فوقه هواء وتحته هواء؟ فصاحب هذا المقام يعطى علم ذلك كله، ثم إنّ صاحب هذا المقام يعطى أيضاً من العلوم الإلهية من هذا النوع بالاسم الرحمن نزول الرب إلى سماء الدنيا من العرش يكون هذا النزول أو من العماء فإن العماء إنما ورد حين وقع السؤال عن الاسم الرب فقيل له: أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ فقال: كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء، فاسم (كان) المضمر هو ربنا، وقال: ينزل ربنا إلى السماء؛ فيدلك هذا على أن نزوله إلى السماء الدنيا من ذلك العماء كما كان استواؤه على العرش من ذلك العماء، فنسبته إلى السماء الدنيا كنسبته إلى العرش لا فرق، فما فارق العرش في نزوله إلى السماء الدنيا، ولا فارق العماء في نزوله إلى العرش ولا إلى السماء الدنيا.

ولما أخبر النبيّ ﷺ أنّ الله يقول في هذا النزول إلى السماء الدنيا: «**هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأجيبه؟**» فهذا كله من باب رحمته ولطفه، وهذا حقيقة الاسم الرحمن الذي استوى على العرش فنزلت هذه الصفة مع الاسم الرب إلى السماء الدنيا فهو ما أعلمناك به أن كل اسم إلهيّ يتضمن حكم جميع الأسماء الإلهيّة من حيث إن المسمّى واحد، فيعلم صاحب هذا المقام من هذا النزول الربانيّ السماويّ ما يختص بالاسم الرحمن منه الذي قال به: فهل من تائب؟ هل من مستغفر؟ فإن الرحمن يطلب هذا القول بلا شك، فهذا حظ ما يعلم صاحب هذا المقام من هذا النزول بلا واسطة، ويعلم نزول الرب من العماء إلى السماء بوساطة الاسم الرحمن لأنه ليس للاسم الرب على صاحب هذا المقام سلطان، فإنه كما قلنا الاسم الرحمن فلا يعلم من الاسم الرب ولا غيره أمراً إلاّ بالاسم الرحمن، فيعلم عند ذلك بإعلام الرحمن إياه ما أراد الحق بنزوله من العماء إلى السماء على هذا الوجه هي معرفته.

ثم ممّا يختص بعلمه صاحب هذا المقام بوساطة الاسم الرحمن علم قول الله: ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن، فأتى بياء الإضافة في السعة والعبودية فلم يأخذ من الله إلاّ قدر ما تعطيه الياء خاصة، ويتضمن هذا علمين: علماً بما فيه من العناية بعبده المؤمن فيأخذه من الاسم الرحمن بذاته، وعلماً بما فيه من سرّ الإضافة بحرف الياء فيأخذه من الله بترجمة الاسم الرحمن فيعلم أن للسعة هنا المراد بها الصورة التي خلق الإنسان عليها كأنه يقول: ما ظهرت أسمائي كلها إلاّ في النشأة الإنسانية، قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] أي الأسماء الإلهية التي وجدت عنها الأكوان كلها ولم تعطها الملائكة. وقال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**» وإن كان الضمير عندنا متوجهاً أن يعود على آدم فيكون فيه ردّ على بعض النظار من أهل الأفكار، ويتوجه أن يعود على الله لتخلقه بجميع الأسماء الإلهية، فعلمت أن هذه السعة إنما قبلها العبد المؤمن لكونه على الصورة، كما قبلت المرآة صورة الرائي دون غيرها مما لا صقالة فيه ولا صفاء، ولم يكن هذا للسماء لكونها شفافة ولا للأرض لكونها غير مصقولة، فدل على أن خلق الإنسان وإن كان

عن حركات فلكية هي أبوه، وعن عناصر قابلة وهي أمّه، فإن له من جانب الحق أمراً ما هو في آبائه ولا في أمّهاته، من ذلك الأمر وسع جلال الله تعالىٰ إذ لو كان ذلك من قبل أبيه الذي هو السماء أو أمّه التي هي الأرض أو منهما لكان السماء والأرض أولى بأن يسعا الحق ممّن تولد عنهما ولا سيما والله تعالىٰ يقول: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧] يريد في المعنى لا في الجرمية، ومع هذا فاختص الإنسان بأمر أعطاه هذه السعة التي ضاق عنها السماء والأرض، فلم تكن له هذه السعة إلاّ من حيث أمر آخر من الله فضل به على السماء والأرض، فكل واحد من العالم فاضل مفضول، فقد فضّل كل واحد من العالم من فضله لحكمة الافتقار والنقص الذي هو عليه كل ما سوى الله، فإنّ الإنسان إذا زها بهذه السعة وافتخر على الأرض والسماء جاءه قوله تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ وإذا زهت السماء والأرض بهذه الآية على الإنسان جاء قوله: ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي، فأزال عنه هذا العلم ذلك الزهو والفخر وعنهما، وافتقر الكل إلى ربه وانحجب عن زهوه ونفسه. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يدل على أن بعض الناس يعلم ذلك. وعلم هذا من علمه منا من الاسم الرحمن الذي هو له وبه تحقق فسل به خبيراً فرحمه عندما زها بعلم ما فضل به على السماء والأرض وعلم من ذلك أنه ما حصل له من الاسم الرحمن إلاّ قدر ما كشف له مما فيه دواؤه، فإن ذلك الأمر الذي به فضّل السماء والأرض هذا العبد هو أيضاً من الاسم الرحمن ما جاد به على هذا العبد ولا تقول إنّ هذا طعن في كونه نسخة من العالم بل هو على الحقيقة نسخة جامعة باعتبار أنّ فيه شيئاً من السماء بوجه ما، ومن الأرض بوجه ما، ومن كل شيء بوجه ما لا من جميع الوجوه. فإن الإنسان على الحقيقة من جملة المخلوقات لا يقال فيه إنه سماء ولا أرض ولا عرش ولكن يقال فيه: إنه يشبه السماء من وجه كذا، والأرض من وجه كذا، والعرش من وجه كذا، وعنصر النار من وجه كذا، وركن الهواء من وجه كذا، والماء والأرض وكل شيء في العالم، فبهذا الاعتبار يكون نسخة وله اسم الإنسان كما للسماء اسم السماء.

ومن علوم صاحب هذا المقام نزول القرآن فرقاناً لا قرآناً، فإذا علمه قرآناً فليس من الاسم الرحمن وإنما الاسم الرحمن ترجم له عن اسم آخر إلهيّ يتضمنه الاسم الرحمن، وأنه نزل في ليلة مباركة وهي ليلة القدر، فعرف بنزوله مقادير الأشياء وأوزانها وعرف بقدره منها، كما نزل الرب تعالىٰ في الثلث الباقي من الليل، فالليل محل النزول الزمانيّ للحق وصفته التي هي القرآن، وكان الثلث الباقي من الليل في نزول الرب غيب محمد ﷺ وغيب هذا النوع الإنسانيّ، فإن الغيب ستر والليل ستر، وسمّي هذا الباقي من الليل الثلث لأن هذه النشأة الإنسانية لها البقاء دائماً في دار الخلود، فإنّ الثلثين الأوّلين ذهبا بوجود الثلث الباقي أو الآخر من الليل فيه نزل الحق فأوجب له البقاء أيضاً وهو ليل لا يعقبه صباح أبداً فلا يذهب لكن ينتقل من حال إلى حال ومن دار إلى دار، كما ينتقل الليل من مكان إلى مكان أمام الشمس،

وإنما يفرّ أمامها لئلاّ تذهب عينه إذ كان النور ينافي الظلمة وتنافيه، غير أن سلطان النور أقوى فالنور ينفر الظلمة والظلمة لا تنفر النور، وإنما هو النور ينتقل فتظهر الظلمة في الموضع الذي لا عين للنور فيه.

ألا ترى الحق تسمّى بالنور ولم يتّسم بالظلمة إذ كان النور وجوداً والظلمة عدماً، وإذ كان النور لا تغالبه الظلمة بل النور الغالب، كذلك الحق لا يغالبه الخلق بل الحق الغالب فسمّى نفسه نوراً فتذهب السماء وهو الثلث الأوّل من الليل، وتذهب الأرض وهو الثلث الثاني من الليل، ويبقى الإنسان في الدار الآخرة أبد الآبدين إلى غير نهاية وهو الثلث الباقي من الليل وهو الولد عن هذين الأبوين السماء والأرض، فنزل القرآن في الليلة المباركة في الثلث الآخر منها وهو الإنسان الكامل ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤] فتميز عن أبويه بالبقاء ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [سورة الشعراء: الآيتان: ١٩٣، ١٩٤] هو محمد ﷺ، ألا ترى الشارع كيف قال في ولد الزنى إنه شرّ الثلاثة، وكذلك ولد الحلال خير الثلاثة من هذا الوجه خاصة، فإن الماء الذي خلق منه الولد من الرجل والمرأة أراد الخروج وهو الماء الذي تكوّن منه الولد وهو الأمر الثالث فحرّك لما أراد الخروج الأبوين للنكاح ليخرج وكان تحريكه لهما على غير وجه مرضيّ شرعاً يسمّى سفاحاً فقيل فيه إنه شرّ الثلاثة أي هو سبب الحركة التي بها انطلق عليهم اسم الشرّ فجعله ثلاثة أثلاث: الأبوان ثلثان والولد ثالث. كذلك قسّم الليل على ثلاثة أثلاث: ثلثان ذاهبان وهما السماء والأرض، وثلث باق وهو الإنسان، وفيه ظهرت صورة الرحمن وفيه نزل القرآن.

وإنما سميت السماء والأرض ليلاً لأن الظلمة لها من ذاتها والإضاءة فيها من غيرها من الأجسام المستنيرة التي هي الشمس وأمثالها، فإذا زالت الشمس أظلمت السماء والأرض، فهذا يا أخي قد استفدت علوماً لم تكن تعرفها قبل هذا وهي علوم هذا الشخص المحقق بمنزل الأنفاس، وكل ما أدركه هذا الشخص فإنما أدركه من الروائح بالقوّة الشميّة لا غير، وقد رأينا منهم جماعة بإشبيلية وبمكة وبالبيت المقدس وفاوضناهم في ذلك مفاوضة حال لا مفاوضة نطق، كما أني فاوضت طائفة أخرى من أصحاب النظر البصريّ بالبصر فكنت أسأل وأجاب ونسأل ونجيب بمجرّد النظر ليس بيننا كلام معتاد ولا اصطلاح بالنظر أصلاً، لكن كنت إذا نظرت إليه علمت جميع ما يريده مني، وإذا نظر إليّ علم جميع ما نريده منه، فيكون نظره إليّ سؤالاً أو جواباً ونظري إليه كذلك، فنحصل علوماً جمّة بيننا من غير كلام، ويكفي هذا القدر من بعض علم هذا الشخص فإن علومه كثيرة أحطنا بها، فمن أراد أن يعرف مما ذكرناه شيئاً فليعلم الفرق بين في في قوله: كان في عماء، وبين استوى في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] ولم يقل في كما قال في السماء وفي الليل، ويتبين لك في كل ما ذكرناه مقام جمع الجمع، ومقام الجمع، ومقام التفرقة، ومقام تمييز المراتب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء التاسع عشر.

(الجزء العشرون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الخامس والثلاثون

في معرفة هذا الشخص المحقق في منزل الأنفاس وأسراره بعد موته رضي الله عنه

[نظم: البسيط]

العبدُ من كان في حال الحياة به ... كحالِه بعد موتِ الجسم والرُّوحِ
والعبدُ من كان في حال الحِجَابِ به ... نوراً كإشراق ذات الأرض من يُوحِ
فحالةُ الموت لا دعوى تصاحِبُها ... كما الحياةُ لها الدَّعوَى بتَصْريحِ
في حقِّ قومٍ وفي قومٍ تكون لهم ... تلك الدَّعَاوَى بإيماء وتَلْويحِ
فإن فهمتَ الذي قلناه قمتَ به ... وزناً تنزَّه عن نَقْصٍ وتَرْجيحِ
وكنتَ ممّن تزكّيه حقائقُه ... ولا سبيلَ إلى طعنٍ وتجريحِ
وإن جهلتَ الذي قلناه جئتَ إلى ... دار السؤال بصدر غَيْرِ مَشْرُوحِ

اعلم أيّدك الله بروح القدس أن هذا الشخص المحقق في منزل الأنفاس أيّ شخص كان فإن حاله بعد موته يخالف سائر أحوال الموتى، فلنذكر أوّلاً حصر مآخذ أهل الله العلوم من الله كما قرّرناه في الباب قبل هذا، ولنذكر ما لهم وآثار تلك المآخذ في ذواتهم فلنقل: اعلم يا أخي أن علم أهل الله المأخوذ من الكشف أنه على صورة الإيمان سواء، فكل ما يقبله الإيمان عليه يكون كشف أهل الله فإنه حق كله والمخبر به وهو النبيّ ﷺ مخبر به عن كشف صحيح، وذوات العلماء بالله تعالىٰ تكون على صفة الشيء الذي تأخذ منه العلم بالله أي شيء كان.

واعلم أن الصفات على نوعين: صفات نفسية وصفات معنوية، فالصفات المعنوية في الموصوف هي التي إذا رفعتها عن الذات الموصوفة بها لم ترتفع الذات التي كانت موصوفة بها، والصفات النفسية هي التي إذا رفعتها عن الموصوف بها ارتفع الموصوف بها ولم يبق له عين في الوجود العينيّ ولا في الوجود العقليّ حيث ما رفعتها، ثم إنه ما من صفة نفسية للموصوف التي هي ليست بشيء زائد على ذاته إلاّ ولها صفة نفسية بها يمتاز بعضها عن بعض، فإنه قد تكون ذات الموصوف مركبة من صفتين نفسيتين إلى ما فوق ذلك وهي الحدود الذاتية، وهنا باب مغلق لو فتحناه لظهر ما يذهب بالعقول ويزيل الثقة بالمعلوم، وربما كان يؤول الأمر في ذلك إلى أن يكون السبب الأوّل من صفات نفس الممكنات، كما أنك إذا جعلت السبب شرطاً في وجود المشروط ورفعت الشرط ارتفع المشروط بلا شك ولا يلزم العكس فهذا يطرد ولا ينعكس، فتركناه مقفلاً لمن يجد مفتاحه فيفتحه.

وإذا كان الأمر عندنا وعند كل عاقل بهذه المثابة فقد علمت أن الصفات معان لا تقوم

بأنفسها وما لها ظهور إلاّ في عين الموصوف، والصفات النفسية معان وهي عين الموصوف والمعاني لا تقوم بأنفسها فكيف تكون هي عين الموصوف لا غيره فيوصف الشيء بنفسه وصار قائماً بنفسه من حقيقته ألا يقوم بنفسه؟ فإن كل موصوف هو مجموع صفاته النفسية والصفات لا تقوم بأنفسها، وما ثم ذات غيرها تجمعها وتظهر، وقد نبهتك على أمر عظيم لتعرف لماذا يرجع علم العقلاء من حيث أفكارهم، ويتبين لك أن العلم الصحيح لا يعطيه الفكر ولا ما قررته العقلاء من حيث أفكارهم، وأن العلم الصحيح إنما هو ما يقذفه الله في قلب العالم وهو نور إلهيّ يختصّ به من يشاء من عباده من ملك ورسول ونبيّ ووليّ ومؤمن، ومن لا كشف له لا علم له، ولهذا جاءت الرسل والتعريف الإلهيّ بما تحيله العقول فتضطر إلى التأويل في بعضها لتقبله، وتضطر إلى التسليم والعجز في أمور لا تقبل التأويل أصلاً، وغايته أن يقول له وجه لا يعلمه إلاّ الله لا تبلغه عقولنا، وهذا كله تأنيس للنفس لا علم حتى لا تردّ شيئاً مما جاءت به النبوّة، هذا حال المؤمن العاقل، وأمّا غير المؤمن فلا يقبل شيئاً من ذلك.

وقد وردت أخبار كثيرة مما تحيلها العقول: منها في الجناب العالي، ومنها في الحقائق وانقلاب الأعيان، فأمّا التي في الجناب العالي فما وصف الحق به نفسه في كتابه وعلى لسان رسله ممّا يجب الإيمان به ولا يقبله العقل بدليله على ظاهره إلاّ إن تأوّله بتأويل بعيد، فإيمانه إنما هو بتأويله لا بالخبر ولم يكن له كشف إلهيّ كما كان للنبيّ فيعرف مراد الحق في ذلك الخبر، فوصف نفسه سبحانه بالظرفية الزمانية والمكانية، ووصفه بذلك رسوله ﷺ وجميع الرسل وكلهم على لسان واحد في ذلك لأنهم يتكلمون عن إله واحد، والعقلاء أصحاب الأفكار اختلفت مقالاتهم في الله تعالىٰ على قدر نظرهم، فالإله الذي يعبد بالعقل مجرّداً عن الإيمان كأنه بل هو إله موضوع بحسب ما أعطاه نظر ذلك العقل، فاختلفت حقيقته بالنظر إلى كل عقل وتقابلت العقول، وكل طائفة من أهل العقول تجهل الأخرى بالله وإن كانوا من النظار الإسلاميين المتأولين، فكل طائفة تكفر الأخرى، والرسل صلوات الله عليهم من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ ما نقل عنهم اختلاف فيما ينسبونه إلى الله من النعوت، بل كلهم على لسان واحد في ذلك، والكتب التي جاؤوا بها كلها تنطق في حق الله بلسان واحد، ما اختلف منهم اثنان يصدق بعضهم بعضاً مع طول الأزمان وعدم الاجتماع وما بينهم من الفرق المنازعين لهم من العقلاء ما اختل نظامهم، وكذلك المؤمنون بهم على بصيرة المسلمون، المسلمون الذين لم يدخلوا نفوسهم في تأويل فهم أحد رجلين: إمّا رجل آمن وسلم وجعل علم ذلك إليه إلى أن مات وهو المقلّد. وإمّا رجل عمل بما علم من فروع الأحكام واعتقد الإيمان بما جاءت به الرسل والكتب، فكشف الله عن بصيرته وصيّره ذا بصيرة في شأنه كما فعل بنبيه ورسوله ﷺ وأهل عنايته، فكاشف وأبصر ودعا إلى الله عزّ وجلّ على بصيرة كما قال الله تعالىٰ في حق نبيه ﷺ مخبراً له: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] وهؤلاء هم العلماء بالله العارفون وإن لم يكونوا رسلاً ولا أنبياء فهم على بينة

من ربهم في علمهم به وبما جاء من عنده، وكذلك وصف نفسه بكثير من صفات المخلوقين من المجيء والإتيان والتجلّي للأشياء والحدود والحجب والوجه والعين والأعين واليدين والرضى والكراهة والغضب والفرح والتبشبش، وكل خبر صحيح ورد في كتاب وسنّة. والأخبار أكثر من أن تحصى ممّا لا يقبلها إلاّ مؤمن بها من غير تأويل أو بعض أرباب النظر من المؤمنين بتأويل اضطره إليه إيمانه، فانظر مرتبة المؤمن ما أعزّها ومرتبة أهل الكشف ما أعظمها حيث ألحقت أصحابها بالرسل والأنبياء عليهم السلام فيما خصّوا به من العلم الإلهي لأن العلماء ورثة الأنبياء، وما ورثوا ديناراً ولا درهماً بل ورثوا العلم، يقول ﷺ: «**إنّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُوَرِّثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَة**» فمن كان عنده شيء من هذه الدنيا فليوقفه صدقة على من يراه من الأقربين إلى الله فهو النسب الحقيقي أو يزهد فيه ولا يترك شيئاً يورث عنه إن أراد أن يلحق بهم ولا يرث أحداً، فالحمد لله الذي أعطانا من هذا المقام الحظ الوافر، فهذا بعض ما ورد علينا من الله عزّ وجلّ في الله تعالىٰ من الأوصاف.

وأمّا في قلب الحقائق فلا خلاف بين العقلاء في أنه لا يكون، ودلّ دليل العقل القاصر من جهة فكره ونظره لا من جهة إيمانه وقبوله إذ لا أعقل من الرسل وأهل الله أنّ الأعيان لا تنقلب حقيقة في نفسها، وأن الصفات والأعراض في مذهب من يقول إنها أعيان موجودة لا تقوم بأنفسها، ولا بدّ لها من محل قائم بنفسه أو غير قائم بنفسه لكنه في قائم بنفسه ولا بدّ، ومثال الأول: السواد مثلاً أو أي لون كان لا يقوم إلاّ بمحل يقال فيه لقيام السواد به أسود، ومثال الثاني: كالسواد المشرق مثلاً، فالسواد هو المشرق فإنه نعت له فهذا معنى قولي أو غير قائم بنفسه لكنه في قائم بنفسه، وهذه مسألة خلاف بين النظار هل يقوم المعنى بالمعنى؟ فمن قائل به ومانع من ذلك، وقد ثبت أن جميع الأعمال كلها أعراض وأنها تفنى ولا بقاء لها، وأنه ليس لها عين موجودة بعد ذهابها ولا توصف بالانتقال، وأن الموت إمّا عرض موجود في الميت في مذهب بعض النظار، وإمّا نسبة افتراق بعد اجتماع، وكذا جميع الأكوان في مذهب بعضهم وهو الصحيح الذي يقتضيه الدليل، وعلى كل حال فإنه لا يقوم بنفسه.

ووردت الأخبار النبوية بما يناقض هذا كله، مع كوننا مجمعين على أن الأعمال أعراض أو نسب، فقال الشارع وهو الصادق صاحب العلم الصحيح والكشف الصريح: «**إن المَوْتَ يُجاء به يوم القيامة في صورة كَبشٍ أَمْلَحَ يعرفه الناس ولا يُنكره أحدٌ فيُذبح بين الجنة والنار**». روي أن يحيىٰ عليه السلام هو الذي يضجعه ويذبحه بشفرة تكون في يده والناس ينظرون إليه. وورد أيضاً في الخبر أن عمل الإنسان يدخل معه في قبره في صورة حسنة أو قبيحة فيسأله صاحبه فيقول: أنا عملك. وأن مانع الزكاة يأتيه ماله شجاعاً أقرع له زبيبتان، وأمثال هذا في الشرع لا تحصى كثرة. فأمّا المؤمنون فيؤمنون بهذا كله من غير تأويل. وأمّا أهل النظر من أهل الإيمان وغيرهم فيقولون: حملُ هذا على ظاهره محال عقلاً، وله تأويل فيتأولونه بحسب ما يعطيهم نظرهم فيه. ثم يقولون أهل الإيمان منهم عقيب تأويلهم والله أعلم يعني في ذلك التأويل الخاص الذي ذهب إليه: هل هو المراد لله أم لا؟ وأمّا حمله على

ظاهره فمحال عندهم جملة واحدة، والإيمان إنما يتعلق بلفظ الشارع به خاصة، هذا هو اعتقاد أهل الأفكار.

وبعد أن بينّا لك هذه الأمور ومراتب الناس فيها فإنها من هذا الباب الذي نحن بصدده فاعلم أنه ما ثم إلا ذوات أوجدها الله تعالىٰ فضلاً منه عليها قائمة بأنفسها، وكل ما وصفت به فنسب وإضافات بينها وبين الحق من حيث ما وصفت، فإذا أوجد الموجد قيل فيه إنه قادر على الإيجاد ولولا ذاك ما أوجد، وإذا خصّص الممكن بأمر دون غيره ممّا يجوز أن يقوم به قيل مريد، ولولا ذلك ما خصّصه بهذا دون غيره، وسبب هذا كله إنما تعطيه حقيقة الممكن، فالممكنات أعطت هذه النسب فافهم إن كنت ذا لبّ ونظر إلهيّ وكشف رحماني، وقد قرّرنا في الباب الذي قبل هذا أن مآخذ العلوم من طرق مختلفة وهي: السمع والبصر والشم واللمس والطعم والعقل من حيث ضرورياته وهو ما يدركه بنفسه من غير قوّة أخرى، ومن حيث فكره الصحيح أيضاً ممّا يرجع إلى طرق الحواس أو الضروريات والبديهيات لا غير فذلك يسمّى علماً.

والأمور العارضة الحاصل عنها العلوم أيضاً ترجع إلى هذه الأصول لا تنفك عنها، وإنما سميت عوارض من أجل أن العادة في إدراك الألوان أن اللمس لا يدركها وإنما يدركها البصر، فإذا أدركها الأكمه باللمس وقد رأينا ذلك فقد عرض لحاسة اللمس ما ليس من حقيقتها في العادة أن تدركه، وكذلك سائر الطرق إذا عرض لها درك ما ليس من شأنها في العادة أن يدرك بها يقال فيه عرض لها، وإنما فعل الله هذا تنبيهاً لنا أنه ما ثم حقيقة كما يزعم أهل النظر لا ينفذ فيها الاقتدار الإلهيّ بل تلك الحقيقة إنما هي بجعل الله لها على تلك الصورة، وأنها ما أدركت الأشياء المربوط إدراكها بها من كونها بصراً ولا غير ذلك يقول الله بل بجعلنا فيدرك جميع العلوم كلها بحقيقة واحدة من هذه الحقائق إذا شاء الحق، فلهذا قلنا: عرض لها إدراك ما لم تجر العادة بإدراكها إياه، فتعلم قطعاً أنه عزّ وجل قد يكون ممّا يعرض لها أن تعلم وترى من ليس كمثله شيء، وإن كانت الإدراكات لم تدرك شيئاً قط إلاّ ومثله أشياء كثيرة من جميع المدركات.

ولم ينف سبحانه عن إدراكه قوّة من القوىٰ التي خلقها إلاّ البصر فقال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٣] فمنع ذلك شرعاً، وما قال: لا يدركه السمع ولا العقل ولا غيرهما من القوىٰ الموصوف بها الإنسان، كما لم يقل أيضاً إن غير البصر يدركه بل ترك الأمر مبهماً وأظهر العوارض التي تعرض لهذه القوىٰ في معرض التنبيه أنه ربما وضع ذلك في رؤيتنا من ليس كمثله شيء كما رأينا أول مرئيّ، وسمعنا أول مسموع، وشممنا أول مشموم، وطعمنا أول مطعوم، ولمسنا أول ملموس، وعقلنا أول معقول، ممّا لم يكن له مثل عندنا وإن كان له أمثال في نفس الأمر، ولكن في أولية الإدراك سرّ عجيب في نفي المماثلة له، فقد أدرك المدرك من لا مثل له عنده فيقيسه عليه، وكون ذلك المدرك يقبل لذاته المثل أو لا يقبله حكم آخر زائد على كونه مدركاً لا يحتاج إليه في الإدراك إن كنت ذا فطنة، بل نقول: إن

التوسّع الإلهيّ يقتضي أن لا مثل في الأعيان الموجودة وأن المثلية أمر معقول متوهم، فإنه لو كانت المثلية صحيحة ما امتاز شيء عن شيء ممّا يقال هو مثله، فذلك الذي امتاز به الشيء عن الشيء هو عين ذلك الشيء، وما لم يمتز به عن غيره فما هو إلاً عين واحدة.

فإن قلت: رأيناه مفترقاً مفارقاً ينفصل هذا عن هذا مع كونه يماثله في الحدّ والحقيقة يقال لك: أنت الغالط، فإن الذي وقع به الانفصال هو المعبّر عنه بأنه تلك العين، وما لم يقع به الانفصال هو الذي توهمت أنه مثل، وهذا من أغمض مسائل هذا الباب، فما ثم مثل أصلاً ولا يقدر على إنكار الأمثال ولكن بالحدود لا غير، ولهذا نطلق المثلية من حيث الحقيقة الجامعة المعقولة لا الموجودة، فالأمثال معقولة لا موجودة، فنقول في الإنسان إنه حيوان ناطق بلا شك، وإن زيداً ليس هو عين عمرو من حيث صورته، وهو عين عمرو من حيث إنسانيته لا غيره أصلاً، وإذا لم يكن غيره في إنسانيته فليس مثله بل هو هو، فإنّ حقيقة الإنسانية لا تتبعض بل هي في كل إنسان بعينها لا بجزئيتها فلا مثل لها، وهكذا جميع الحقائق كلها، فلم تصحّ المثلية إذا جعلتها غير عين المثل، فزيد ليس مثل عمرو من حيث إنسانيته بل هو هو، وليس زيد مثل عمرو في صورته فإن الفرقان بينهما ظاهر، ولولا الفارق لالتبس زيد بعمرو ولم تكن معرفة بالأشياء، فما أدرك المدرك أي شيء أدرك إلاً من: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وذلك لأن الأصل الذي نرجع إليه في وجودنا وهو الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فلا يكون ما يوجد عنه إلاً على حقيقة أنه لا مثل له، فإنه كيف يخلق ما لا تعطيه صفته وحقيقته لا تقبل المثل، فلا بدّ أن يكون كل جوهر فرد في العالم لا يقبل المثل إن كنت ذا فطنة ولب، فإنه ليس في الإله حقيقة تقبل المثل، فلو كان قبول المثل موجوداً في العالم لاستند في وجوده من ذلك الوجه إلى غير حقيقة إلهيّة، وما ثم موجد إلاً الله ولا مثل له، فما في الوجود شيء له مثل، بل كل موجود متميّز عن غيره بحقيقة هو عليها في ذاته، وهذا هو الذي يعطيه الكشف والعلم الإلهيّ الحق، فإذا أطلقت المثل على الأشياء كما قد تقرر فاعلم أني أطلق ذلك عرفاً قال تعالىٰ: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٨] أي كما انطلق عليكم اسم الأمة كذلك ينطلق اسم أمّة على كل دابة وطائر يطير بجناحيه، وكما أن كل أمّة وكل عين في الوجود ما سوى الحق تفتقر في إيجادها إلى موجد نقول بتلك النسبة في كل واحد: إنه مثل للآخر في الافتقار إلى الله، وبهذا يصحّ قطعاً أن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] بزيادة الكاف أو بفرض المثل، فإنك إذا عرفت أن كل محدث لا يقبل المثلية كما قررناه لك فالحق أولى بهذه الصفة، فلم تبق المثلية الواردة في القرآن وغيره إلاً في الافتقار إلى الله الموجد أعيان الأشياء.

ثم أرجع وأقول: إن كل واحد من أهل الله لا يخلو أن يكون قد جعل الله علم هذا الشخص بالأشياء في جميع القوىٰ أو في قوّة بعينها كما قررنا، إمّا في الشم وهو صاحب علم الأنفاس، وإمّا في النظر فيقال هو صاحب نظر، وإمّا في الضرب وهو من باب اللمس بطريق خاص ولذلك كنى عن ذلك بوجود برد الأنامل، فينسب صاحب تلك الصفة التي بها تحصل

العلوم إليها فيقال: هو صاحب كذا، كما قررنا أن الصفة هي عين الموصوف في هذا الباب أعني الصفة النفسية، فكما رجع المعنى الذي يقال فيه إنه لا يقوم بنفسه صورة قائمة بنفسها رجعت الصورة التي هي هذا العالم معنى لتحقّقه بذلك المعنى وتألّفه به كما تألّفت هذه المعاني فصار من تأليفها ذات قائمة بنفسها يقال فيها جسم وإنسان وفرس ونبات فافهم، فيصير صاحب علم الذوق ذوقاً، وصاحب علم الشم شماً، ومعنى ذلك أنه يفعل في غيره ما يفعل الذوق فيه إن كان صاحب ذوق، أو ما فعل الشم فيه إن كان صاحب شم، فقد التحق في الحكم بمعناه وصار هو في نفسه معنى يدرك به المدرك الأشياء كما يدرك الرائي بالنظر في المرآة الأشياء التي لا يدركها في تلك الحالة إلاّ بالمرآة.

كان للشيخ أبي مدين ولد صغير من سوداء وكان أبو مدين صاحب نظر فكان هذا الصبي وهو ابن سبع سنين ينظر ويقول: أرى في البحر في موضع صفته كذا وكذا سفناً وقد جرى فيها كذا وكذا، فإذا كان بعد أيام وتجيء تلك السفن إلى بجاية مدينة هذا الصبي التي كان فيها يوجد الأمر على ما قاله الصبي فيقال للصبي: بماذا ترى؟ فيقول: بعيني، ثم يقول: لا إنما أراه بقلبي، ثم يقول: لا إنما أراه بوالدي إذا كان حاضراً ونظرت إليه رأيت هذا الذي أخبركم به، وإذا غاب عني لا أرى شيئاً من ذلك. ورد في الخبر الصحيح عن الله تعالىٰ في العبد الذي يتقرّب إلى الله بالنوافل حتى يحبه يقول: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ**» الحديث، فبه يسمع ويبصر ويتكلم ويبطش ويسعى، فهذا معنى قولنا: يرجع المحقق بمثل صورة معنى ما تحقق به، فكان ينظر بأبيه كما ينظر الإنسان بعينه في المرآة فافهم، وهكذا كل صاحب طريق من طرق هذه القوىٰ، وقد يجمع الكل واحد فيرى بكل قوّة، ويسمع بكل قوّة، ويشم بكل قوّة، وهو أتم الجماعة.

وأمّا أحوالهم بعد موتهم فعلى قدر ما كانوا عليه في الدنيا من التفرّغ لأمر ما معين أو أمور مختلفة على قدر ما تحققوا به في التفرّغ له وهم في الآخرة على قدر أحوالهم في الدنيا، فمن كان في الدنيا عبداً محضاً كان في الآخرة ملكاً محضاً، ومن كان في الدنيا يتّصف بالملك ولو في جوارحه أنها ملك له نقص من ملكه في الآخرة بقدر ما استوفاه في الدنيا، ولو أقام العدل في ذلك وصرفه فيما أوجب الله عليه أن يصرفه فيه شرعاً وهو يرى أنه مالك لذلك لغفلة طرأت منه فإن وبال ذلك يعود عليه ويؤثر فيه، فلا أعزّ في الآخرة ممّن بلغ في الدنيا غاية الذلّ في جناب الحق والحقيقة، ولا أذل في الآخرة ممّن بلغ في الدنيا غاية العزّة في نفسه ولو كان مصفوعاً في الدنيا، ولا أريد بعزّ الدنيا أن يكون فيها ملكاً إلاّ أن يكون صفته في نفسه العزّة وكذلك الذلّة. وأمّا أن يكون في ظاهر الأمر ملكاً أو غير ذلك فما نبالي في أي مقام وفي أي حال أقام الحق عبده في ظاهره، وإنما المعتبر في ذلك حاله في نفسه.

ذكر عبد الكريم بن هوازن القشيري في بعض كتبه وغيره عن رجل من الناس أنه دفن رجلاً من الصالحين فلما جعله في قبره نزع الكفن عن خدّه ووضع خدّه على التراب ففتح الميت عينيه وقال له: يا هذا أتذللني بين يدي من أعزّني؟ فتعجب من ذلك وخرج من القبر.

ورأيت أنا مثل هذا لعبد الله صاحبي الحبشي في قبره ورآه غاسله وقد هاب أن يغسله في حديث طويل ففتح عينيه في المغتسل وقال له: اغسل. فمن أحوالهم بعد الموت أنهم أحياء بالحياة النفسية التي بها يسبح كل شيء، ومن كانت له همة بمعبده في حال عبادته في حياته بحيث أن يكون يحفظها من الداخل فيها حتى لا يتغير عليه الحال إن كان صاحب نفس، فإذا مات ودخل أحد بعده معبده ففعل فيه ما لا يليق بصاحبه الذي كان يعمره ظهرت فيه آية، وهذا قد رويناه في حكاية عن أبي يزيد البسطامي كان له بيت يتعبد فيه يسمّى بيت الأبرار، فلما مات أبو يزيد بقي البيت محفوظاً محترماً لا يُفعل فيه إلاّ ما يليق بالمساجد، فاتفق أنه جاء رجل فبات فيه قيل: وكان جنباً احترقت عليه ثيابه من غير نار معهودة ففرّ من البيت فما كان يدخله أحد فيفعل فيه ما لا يليق إلاّ رأى آية فيبقى أثر مثل هذا الشخص بعد موته يفعل مثل ما كان يفعله في حياته سواء، وقد قال بعضهم وكان محباً في الصلاة: يا رب إن كنت أذنت لأحد أن يصلي في قبره فاجعلني ذلك فرؤي وهو يصلي في قبره. وقد مرّ رسول الله ﷺ ليلة إسرائه بقبر موسىٰ عليه السلام فرآه وهو يصلي في قبره ثم عرج به إلى السماء وذكر الإسراء وما جرى له فيه مع الأنبياء ورأى موسىٰ في السماء السادسة وقد رآه وهو يصلي في قبره. فمن أحوال هذا الشخص بعد موته مثل هذه الأشياء لا فرق في حقّه بين حياته وموته، فإنه كان في زمان حياته في الدنيا في صورة الميت حاله الموت فجعله الله في حال موته كمن حاله الحياة جزاء وفاقاً.

ومن صفات صاحب هذا المقام في موته إذا نظر الناظر إلى وجهه وهو ميت يقول فيه حيّ، وإذا نظر إلى مجس عروقه يقول فيه ميت فيحار الناظر فيه فإن الله جمع له بين الحياة والموت في حال حياته وموته، وقد رأيت ذلك لوالدي رحمه الله يكاد أنّا ما دفناه إلاّ على شك ممّا كان عليه في وجهه من صورة الأحياء. وممّا كان من سكون عروقه وانقطاع نفسه من صورة الأموات وكان قبل أن يموت بخمسة عشر يوماً أخبرني بموته وأنه يموت يوم الأربعاء وكذلك كان، فلما كان يوم موته وكان مريضاً شديد المرض استوى قاعداً غير مستند وقال لي: يا ولدي اليوم يكون الرحيل واللقاء، فقلت له: كتب الله سلامتك في سفرك هذا وبارك لك في لقائك، ففرح بذلك وقال لي: جزاك الله يا ولدي عني خيراً كل ما كنت أسمعه منك تقوله ولا أعرفه وربما كنت أنكر بعضه هوذا أنا أشهده، ثم ظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده من غير سوء له نور يتلألأ فشعر بها الوالد، ثم إن تلك اللمعة انتشرت على وجهه إلى أن عمّت بدنه فقبلته وودعته وخرجت من عنده وقلت له: أنا أسير إلى المسجد الجامع إلى أن يأتيني نعيك، فقال لي: رح ولا تترك أحداً يدخل عليّ، وجمع أهله وبناته فلما جاء الظهر جاءني نعيه فجئت إليه فوجدته على حالة يشك الناظر فيه بين الحياة والموت، وعلى تلك الحالة دفناه وكان له مشهد عظيم، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، فصاحب هذا المقام حياته وموته سواء، وكل ما قدّمناه في هذا الباب من العلم هو علم صاحب هذا المقام فإنه من علم الأنفاس ولهذا ذكرنا ما ذكرنا من ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والثلاثون
في معرفة العيسويين وأقطابهم وأصولهم

[نظم: المديد]

كـلُّ مـن أحـيـا حـقـيـقـتَـه ... وشـفـى مـن عِـلَّـة الـحُـجُـبِ
فـهـو عـيـسـىٰ لا يُـنـاط بـه ... عـنـدنـا شـيءٌ مـن الـرِّيَـبِ
فـلـقـد أعـطـت سَـجِـيَّـتُـه ... رتـبـةً تـسـمـو عـلـى الـرُّتَـبِ
بـنـعـوتِ الـقـدس تـعـرفـه ... فـي صـريـح الـوحـي والـكُـتُـبِ
لـم يَـنَـلْـهـا غـيـرُ وارثـه ... صـفـةً فـي سـالـف الـحِـقَـبِ
فـسَـرَتْ فـي الـكـون هِـمَّـتُـه ... فـي أعـاجـيـم وفـي عَـرَبِ
فـبـهـا تـحـيـا نـفـوسُـهُـمُـو ... وبـهـا إزَّالـةُ الـنُّـوَبِ

اعلم أيّدك الله أنه لما كان شرع محمد ﷺ تضمن جميع الشرائع المتقدّمة وأنه ما بقي لها حكم في هذه الدنيا إلاَّ ما قررته الشريعة المحمدية فبتقريرها ثبتت، فتعبدنا بها نفوسنا من حيث إن محمداً ﷺ قرّرها لا من حيث إن النبيّ المخصوص بها في وقته قرّرها، فلهذا أوتي رسول الله ﷺ جوامع الكلم، فإذا عمل المحمدي وجميع العالم المكلف اليوم من الإنس والجنّ محمدي ليس في العالم اليوم شرع إلهيّ سوى هذا الشرع المحمدي، فلا يخلو هذا العامل من هذه الأمّة أن يصادف في عمله فيما يفتح له منه في قلبه وطريقه ويتحقق به طريقة من طرق نبيّ من الأنبياء المتقدّمين ممّا تتضمنه هذه الشريعة وقرّرت طريقته وصحبتها نتيجته، فإذا فتح له في ذلك فإنه ينتسب إلى صاحب تلك الشريعة فيقال فيه: عيسوي، أو موسوي، أو إبراهيمي، وذلك لتحقيق ما تميّز له من المعارف وظهر له من المقام من جملة ما هو تحت حيطة شريعة محمد ﷺ فيتميز بتلك النسبة أو بذلك النسب من غيره ليعرف أنه ما ورث من محمد ﷺ إلاَّ ما لو كان موسىٰ أو غيره من الأنبياء حياً واتبعه ما ورث إلاَّ ذلك منه. ولما تقدّمت شرائعهم قبل هذه الشريعة جعلنا هذا العارف وارثاً إذ كان الورث للآخر من الأوّل، فلو لم يكن لذلك الأوّل شرع مقرّر قبل تقرير محمد ﷺ لساوينا الأنبياء والرسل، إذ جمعنا زمان شريعة محمد ﷺ كما يساوينا اليوم وإلياس والخضر وعيسىٰ إذا نزل فإن الوقت يحكم عليه، إذ لا نبوّة تشريع بعد محمد ﷺ.

ولا يقال في أحد من أهل هذه الطريقة إنه محمدي إلاَّ لشخصين: إمّا شخص اختصّ بميراث علم من حكم لم يكن في شرع قبله فيقال فيه محمديّ. وإمّا شخص جمع المقامات ثم خرج عنها إلى لا مقام كأبي يزيد وأمثاله فهذا أيضاً يقال فيه محمدي، وما عدا هذين الشخصين فينسب إلى نبيّ من الأنبياء، ولهذا ورد في الخبر: أنّ العلماء ورثة الأنبياء ولم يقل ورثة نبيّ خاص، والمخاطب بهذا علماء هذه الأمّة، وقد ورد أيضاً بهذا اللفظ قوله ﷺ: «**عُلَمَاءُ هٰذِهِ الأُمَّةِ أَنبِيَاءُ سَائِرِ الأُمَمِ**» وفي رواية: «**كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ**» فالعيسويون الأول هم

الحواريون أتباع عيسىٰ، فمن أدرك منهم إلى الآن شرع محمد ﷺ وآمن به واتبعه واتفق أن يكون قد حصل له من هذه الشريعة ما كان قبل هذا شرعاً لعيسىٰ عليه السلام، فيرث من عيسىٰ عليه السلام ما ورثه من غير حجاب، ثم يرث من عيسىٰ عليه السلام في شريعة محمد ﷺ ميراث تابع من تابع لا من متبوع وبينهما في الذوق فرقان، ولهذا قال رسول الله ﷺ في مثل هذا الشخص: إن له الأجر مرتين، كذلك له ميراثان وفتحان وذوقان مختلفان ولا ينسب فيهما إلاَّ إلى ذلك النبي عليه السلام، فهؤلاء هم العيسويون الثواني وأصولهم توحيد التجريد من طريق المثال، لأن وجود عيسىٰ عليه السلام لم يكن عن ذكر بشريّ وإنما كان عن تمثّل روح في صورة بشر، ولهذا غلب على أمّة عيسىٰ ابن مريم دون سائر الأمم القول بالصورة، فيصوّرون في كنائسهم مثلاً ويتعبدون في أنفسهم بالتوجّه إليها، فإن أصل نبيهم عليه السلام كان عن تمثّل فسرت تلك الحقيقة في أمته إلى الآن.

ولما جاء شرع محمد ﷺ ونهى عن الصور وهو ﷺ قد حوى على حقيقة عيسىٰ وانطوى شرعه في شرعه فشرع لنا ﷺ أن نعبد الله كأنّا نراه فأدخله لنا في الخيال وهذا هو معنى التصوير، إلاَّ أنه نهى عنه في الحسّ أن يظهر في هذه الأمّة بصورة حسيّة. ثم إن هذا الشرع الخاص الذي هو: اعبد الله كأنك تراه، ما قاله محمد ﷺ لنا بلا واسطة بل قاله لجبريل عليه السلام وهو الذي تمثّل لمريم بشراً سوياً عند إيجاد عيسىٰ عليه السلام، فكان كما قيل في المثل السائر: إياكِ أعني فاسمعي يا جارة فكنّا نحن المرادين بذلك القول، ولهذا جاء في آخر الحديث: «**هٰذَا جِبْرِيلُ أَرَادَ أَنْ تَعْلَمُوا إِذْ لَمْ تَسْأَلُوا**». وفي رواية: «**جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُم**». وفي رواية: «**أَتَاكُمْ يُعَلِّمكُمْ دِينَكُم**». فما خرجت الروايات عن كوننا المقصودين بالتعليم.

ثم لتعلم أن الذي لنا من غير شرع عيسىٰ عليه السلام قوله: «**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» فهذا من أصولهم. وكان شيخنا أبو العباس العريبي رحمه الله عيسوياً في نهايته، وهي كانت بدايتنا أعني نهاية شيخنا في هذا الطريق كانت عيسوية، ثم نقلنا إلى الفتح الموسوي الشمسي، ثم بعد ذلك نقلنا إلى هود عليه السلام، ثم بعد ذلك نقلنا إلى جميع النبيين عليهم السلام، ثم بعد ذلك نقلنا إلى محمد ﷺ، هكذا كان أمرنا في هذا الطريق ثبّته الله علينا ولا حاد بنا عن سواء السبيل، فأعطانا الله من أجل هذه النشأة التي أنشأنا الله عليها في هذا الطريق وجه الحق في كل شيء، فليس في العالم عندنا في نظرنا شيء موجود إلاَّ ولنا فيه شهود عين حق نعظمه منه، فلا نرمي بشيء من العالم الوجودي، وفي زماننا اليوم جماعة من أصحاب عيسىٰ عليه السلام ويونس عليه السلام يحيون وهم منقطعون عن الناس، فأمّا القوم الذين هم من قوم يونس فرأيت أثر قدم واحد منهم بالساحل كان صاحبه قد سبقني بقليل فشبرت قدمه في الأرض فوجدت طول قدمه ثلاثة أشبار ونصفاً وربعاً بشبري، وأخبرني صاحبي أبو عبد الله بن خرز الطنجي أنه اجتمع به في حكاية وجاءني بكلام من عنده مما يتفق في الأندلس في سنة خمس وثمانين وخمسمائة وهي السنة التي كنا فيها وما يتفق في سنة ست وثمانين مع الإفرنج فكان كما قال ما غادر حرفاً.

وأمّا الذي في الزمان من أصحاب عيسىٰ فهو ما رويناه من حديث عربشاه بن محمد بن أبي المعالي العلوي النوقي الخبوشاني كتابة قال: حدّثنا محمد بن الحسن بن سهل العباسي الطوسي، أنا أبو المحاسن عليّ بن أبي الفضل الفارمدي، أنا أحمد بن الحسين بن عليّ قال: حدّثنا أبو عبد الله الحافظ، ثنا أبو عمرو عثمان بن أحمد بن السماك ببغداد إملاء، ثنا يحيىٰ بن أبي طالب، ثنا عبد الرحمن بن إبراهيم الراسبي، ثنا مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال: كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص وهو بالقادسية أن وجه نضلة بن معاوية الأنصاري إلى حلوان العراق فليغز على ضواحيها، قال: فوجه سعد نضلة في ثلاثمائة فارس فخرجوا حتى أتوا حلوان العراق وأغاروا على ضواحيها وأصابوا غنيمة وسبياً فأقبلوا يسوقون الغنيمة والسبيَ حتى رهقت بهم العصر وكادت الشمس أن تغرب، فألجأ نضلة السبي والغنيمة إلى سفح الجبل ثم قام فأذّن فقال: الله أكبر الله أكبر، قال: ومجيب من الجبل يجيبه: كبرت كبيراً يا نضلة، ثم قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، فقال: كلمة الإخلاص يا نضلة، وقال: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال: هو الدين وهو الذي بشرنا به عيسىٰ ابن مريم عليهما السلام وعلى رأس أمّته تقوم الساعة، ثم قال: حيّ على الصلاة، قال: طوبى لمن مشى إليها وواظب عليها، ثم قال: حيّ على الفلاح، قال: قد أفلح من أجاب محمداً ﷺ وهو البقاء لأمّته، قال: الله أكبر الله أكبر، قال: كبرت كبيراً، قال: لا إله إلاّ الله، قال: أخلصت الإخلاص يا نضلة فحرّم الله جسدك على النار، قال: فلما فرغ من أذانه قمنا فقلنا: من أنت يرحمك الله؟ أملك أنت؟ أم ساكن من الجنّ؟ أم من عباد الله؟ أسمعتنا صوتك فأرنا شخصك فإنا وفد الله ووفد رسول الله ﷺ ووفد عمر بن الخطاب، قال: فانفلق الجبل عن هامة كالرحى أبيض الرأس واللحية عليه طمران من صوف فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقلنا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا زريب بن برثملا وصي العبد الصالح عيسىٰ ابن مريم عليهما السلام أسكنني هذا الجبل ودعا لي بطول البقاء إلى نزوله من السماء فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويتبرأ مما نحلته النصارى، ما فعل النبيّ ﷺ؟ قلنا: قبض فبكى بكاء طويلاً حتى خضب لحيته بالدموع ثم قال: فمن قام فيكم بعده؟ قلنا: أبو بكر، قال: ما فعل؟ قلنا: قبض، قال: فمن قام فيكم بعده؟ قلنا: عمر، قال: إذا فاتني لقاء محمد ﷺ فأقرؤوا عمر مني السلام وقولوا: يا عمر سدّد وقارب فقد دنا الأمر وأخبروه بهذه الخصال التي أخبركم بها: يا عمر إذا ظهرت هذه الخصال في أمّة محمد ﷺ فالهرب الهرب: إذا استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، وانتسبوا في غير مناسبهم، وانتموا إلى غير مواليهم، ولم يرحم كبيرهم صغيرهم، ولم يوقر صغيرهم كبيرهم، وترك الأمر بالمعروف فلم يؤمر به، وترك النهي عن المنكر فلم ينه عنه، وتعلم عالمهم العلم ليجلب به الدنانير والدراهم، وكان المطر قيظاً، والولد غيظاً، وطولوا المنابر، وفضضوا المصاحف، وزخرفوا المساجد، وأظهروا الرشى، وشيّدوا البناء، واتبعوا الهوى، وباعوا الدين بالدنيا، واستخفوا الدماء، وتقطعت الأرحام، وبيع الحكم، وأكل

الربا، وصار التسلط فخراً، والغنى عزّاً، وخرج الرجل من بيته فقام إليه من هو خير منه، وركبت النساء السروج. قال: ثم غاب عنا. فكتب بذلك نضلة إلى سعد وكتب سعد إلى عمر، فكتب عمر: ائت أنت ومن معك من المهاجرين والأنصار حتى تنزل هذا الجبل فإذا لقيته فأقرئه مني السلام فإن رسول الله ﷺ قال: إن بعض أوصياء عيسىٰ ابن مريم عليه السلام نزل بذلك الجبل بناحية العراق، فنزل سعد في أربعة آلاف من المهاجرين والأنصار حتى نزل الجبل أربعين يوماً ينادي بالأذان في وقت كل صلاة فلم يجده.

لم يتابع الراسبي على قوله عن مالك بن أنس، والمعروف في هذا الحديث مالك بن الأزهر عن نافع وابن الأزهر مجهول، قال أبو عبد الله الحاكم: لم يسمع بذكر ابن الأزهر في غير هذا الحديث، والسؤال عن النبي ﷺ وعن أبي بكر هو من حديث ابن لهيعة عن ابن الأزهر، قلنا: هذا الحديث وإن تكلم في طريقه فهو صحيح عند أمثالنا كشفاً. وقوله: في زخرفة المساجد وتفضيض المصاحف ليسا على طريق الذمّ وإنما هما دلالة على اقتراب الساعة وفساد الزمان، كدلالة نزول عيسىٰ عليه السلام، وخروج المهدي، وطلوع الشمس من مغربها، معلوم كل ذلك أنه ليس على طريق الذمّ وإنما الدلالات على الشيء قد تكون مذمومة ومحمودة، هذا الوصي العيسوي ابن برثملا لم يزل في ذلك الجبل يتعبّد لا يعاشر أحداً، وقد بعث رسول الله ﷺ أترى ذلك الراهب بقي على أحكام النصارى؟ لا والله فإنّ شريعة محمد ﷺ ناسخة، يقول ﷺ: «**لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَيّاً مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي**» وهذا عيسىٰ إذا نزل ما يؤمنا إلاّ منا أي بسنتنا، ولا يحكم فينا إلاّ بشرعنا، فهذا الراهب ممّن هو على بينة من ربّه، علّمه ربّه من عنده ما افترضه عليه من شرع نبينا ﷺ على الطريق التي اعتادها من الله، وهذا عندنا ذوق محقق، فإنا أخذنا كثيراً من أحكام محمد ﷺ المقررة في شرعه عند علماء الرسوم، وما كان عندنا منها علم فأخذناها من هذا الطريق ووجدناها عند علماء الرسوم كما هي عندنا، ومن تلك الطريق نصحّح الأحاديث النبوية ونردّها أيضاً إذا أعلمنا أنها واهية الطرق غير صحيحة عن رسول الله ﷺ، وإن قرّر الشارع حكم المجتهد وإن أخطأ، ولكن أهل هذه الطريقة ما يأخذون إلاّ بما حكم به رسول الله ﷺ، وهذا الوصي من الأفراد، وطريقه في مأخذ العلوم طريق الخضر صاحب موسىٰ عليه السلام فهو على شرعنا، وإن اختلف الطريق الموصل إلى العلم الصحيح فإنّ ذلك لا يقدح في العلم، قال رسول الله ﷺ فيمن أعطي الولاية من غير مسألة: إنّ الله يعينه عليها وإن الله يبعث إليه ملكاً يسدّده يريد عصمته من الغلط فيما يحكم به، قال الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] وقال عليه السلام: «**إِنْ يَكُنْ فِي أُمّتِي مُحَدَّثونَ فَمِنْهُمْ عُمَرُ**».

ثم إنه قد ثبت عندنا أنّ النبيّ ﷺ نهى عن قتل الرهبان الذين اعتزلوا الخلق وانفردوا بربهم فقال: «**ذَروهُمْ وَمَا انْقَطَعُوا إِلَيْهِ**»، فأتى بلفظ مجمل ولم يأمرنا بأن ندعوهم لعلمه ﷺ أنهم على بينة من ربهم، وقد أمر ﷺ بالتبليغ، وأمرنا أن يبلغ الشاهد الغائب، فلولا ما علم رسول الله ﷺ أنّ الله يتولى تعليمهم مثل ما تولّى تعليم الخضر وغيره ما كان كلامه هذا ولا

قرّره على شرع منسوخ عنده في هذه الملة وهو الصادق في دعواه ﷺ أنه بعث إلى الناس كافّة كما ذكر الله تعالىٰ فيه، فعمت رسالته جميع الخلق، وروح هذا التعريف أنه كل من أدركه زمانه وبلغت إليه دعوته لم يتعبده الله إلاّ بشرعه، فإنا نعلم قطعاً أنه ﷺ ما شافَهَ جميع الناس بالخطاب في زمانه فما هو إلاّ الوجه الذي ذكرنا، وهذا الراهب من العيسويين الذين ورثوا عيسىٰ عليه السلام إلى زمان بعثة محمد ﷺ فلما بعث محمد ﷺ تعبّد الله هذا الراهب بشرعه ﷺ وعلمه من لدنه علماً بالرحمة التي آتاه من عنده، كان ورثه أيضاً حالة عيسوية من محمد ﷺ فلم يزل عيسوياً في الشريعتين.

ألا ترى هذا الراهب قد أخبر بنزول عيسىٰ عليه السلام وأخبر أنه إذا نزل يقتل الخنزير ويكسر الصليب، أتراه بقي على تحليل لحم الخنزير؟ فلم يزل هذا الراهب عيسوياً في الشريعتين فله الأجر مرتين: أجر اتباعه نبيه، وأجر اتباعه محمداً ﷺ، وهو في انتظار عيسىٰ إلى أن ينزل، وهؤلاء الصحابة قد رأوه مع نضلة، وما سألوه عن حاله في الإسلام والإيمان ولا بما يتعبد نفسه من الشرائع لأنّ النبيّ ﷺ ما أمرهم بسؤال مثله، فعلمنا قطعاً أنّ النبيّ ﷺ لا يقرّ أحداً على الشرك، وعلم أن لله عباداً يتولى الحق تعليمهم من لدنه علم ما أنزله على محمد ﷺ رحمة منه وفضلاً ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٣] ولو كان ممّن يؤدّي الجزية لقلنا إن الشرع المحمدي قد قرّر له دينه ما دام يعطي الجزية، وهذه مسألة دقيقة في عموم رسالته، وأنه بظهوره لم يبق شرع إلاّ ما شرعه، ومما شرع تقريرهم على شرعهم ما داموا يعطون الجزية إذا كانوا من أهل الكتاب، وكم لله تعالىٰ من هؤلاء العباد في الأرض، فأصل العيسويين كما قررناه تجريد التوحيد من الصور الظاهرة في الأمّة العيسوية، والمثل التي لهم في الكنائس من أجل أنهم على شريعة محمد ﷺ، ولكن الروحانية الحالية التي هم عليها عيسوية في النصارى وموسوية في اليهود من مشكاة محمد ﷺ من قوله ﷺ: «**اعْبدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» والله في قبلة المصلي، وأن العبد إذا صلّى استقبل ربّه، ومن كل ما ورد في الله من أمثال هذه النسب.

وليس للعيسوي من هذه الأمّة من الكرامات المشي في الهواء ولكن لهم المشي على الماء، والمحمدي يمشي في الهواء بحكم التبعية فإن النبيّ ﷺ ليلة أسري به وكان محمولاً قال في عيسىٰ عليه السلام: «**لَو ازْدَادَ يَقِيناً لَمَشَى فِي الهَوَاءِ**» ولا شك أن عيسىٰ عليه السلام أقوى في اليقين منّا بما لا يتقارب فإنه من أولي العزم من الرسل، ونحن نمشي في الهواء بلا شك، وقد رأينا خلقاً كثيراً ممّن يمشي في الهواء في حال مشيهم في الهواء، فعلمنا قطعاً أن مشينا في الهواء إنما هو بحكم صدق التبعية لا بزيادة اليقين على يقين عيسىٰ عليه السلام، قد علم كل منّا مشربه بحكم التبعية لمحمد ﷺ من الوجه الخاص الذي له هذا المقام لا من قوّة اليقين كما قلنا الذي كنّا نفضل به عيسىٰ عليه السلام حاشى لله أن نقول بهذا، كما أن أمّة عيسىٰ يمشون على الماء بحكم التبعية لا بمساواة يقينهم يقين عيسىٰ عليه السلام، فنحن مع الرسل في خرق العوائد الذين اختصوا بها من الله، وظهر أمثالها علينا بحكم التبعية كما مثلناه

في كتاب اليقين لنا أن لمماليك الخواص الذين يمسكون نعال أستاذيهم من الأمراء إذا دخلوا على السلطان وبقي بعض الأمراء خارج الباب حين لم يؤذن لهم في الدخول أترى المماليك الداخلين مع أستاذيهم أرفع منصباً من الأمراء الذين ما أذن لهم؟ فهل دخلوا إلاً بحكم التبعية لأستاذيهم؟ بل كل شخص على رتبته، فالأمراء متميزون على الأمراء، والمماليك متميزون على المماليك في جنسهم، كذلك نحن مع الأنبياء فيما يكون للأتباع من خرق العوائد. ثم إن النبيّ ﷺ ما مشى في الهواء إلاً محمولاً على البراق كالراكب وعلى الرفرف كالمحمول في المحفة، فأظهر البراق والرفرف صورة المقام الذي هو عليه في نفسه بأنه محمول في نفسه ونسبة أيضاً إلهية من قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] ومن قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ [سورة الحاقة: الآية ١٧] فالعرش محمول فهذا حمل كرامة بالحاملين، وحال راحة ومجد وعزّ للمحمولين، وقد قرّرنا لك في غير موضع أن المحمول أعلى من غير المحمول في هذا المقام وأمثاله، وأنه لا حول ولا قوّة إلاً بالله ممّا اختصّ به الحملة وإن كان جميع الخلق محمولين، ولكن لم يكشف ذلك الحمل لكل أحد، وإن كان الحمل على مراتب حمل عن عجز وحمل عن حقيقة كحمل الأثقال وحمل عن شرف ومجد، فالعناية بهذه الطائفة أن يكونوا محمولين ظاهراً كما هو الأمر في نفسه باطناً لتبريهم من الدعوى كما قررناه في بابه.

وللعيسويين همة فعالة ودعاء مقبول وكلمة مسموعة، ومن علامة العيسويين إذا أردت أن تعرفهم فتنظر كل شخص فيه رحمة بالعالم وشفقة عليه كان من كان، وعلى أي دين كان، وبأية نحلة ظهر، وتسليم لله فيهم لا ينطقون بما تضيق الصدور له في حق الخلق أجمعين عند خطابهم عباد الله، ومن علامتهم أنهم ينظرون من كل شيء أحسنه ولا يجري على ألسنتهم إلاً الخير، واشتركت في ذلك الطبقة الأولى والثانية، فالأولى: مثل ما روي عن عيسىٰ عليه السلام أنه رأى خنزيراً فقال له: انج بسلام، فقيل له في ذلك فقال: أعوّد لساني قول الخير. وأمّا الثانية: فإنّ النبيّ ﷺ قال في الميتة حين مرّ عليها: ما أحسن بياض أسنانها، وقال من كان معه: ما أنتن ريحها. وأن النبيّ ﷺ وإن كان قد أمر بقتل الحيات على وجه خاص وأخبر أن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية ومع هذا فإنه كان بالغار في منى وقد نزلت عليه سورة والمرسلات، وبالمرسلات يعرف الغار إلى الآن دخلته تبركاً فخرجت حية وابتدر الصحابة إلى قتلها فأعجزهم فقال رسول الله ﷺ: «**إنّ اللّه وَقَاها شرَّكُم كَما وَقَاكُمْ شرَّهَا**». فسمّاه شرّاً مع كونه مأموراً به مثل قوله تعالىٰ في القصاص: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٠] فسمّى القصاص سيئة وندب إلى العفو فما وقعت عينه ﷺ إلاً على أحسن ما كان في الميتة، فهكذا أولياء الله لا ينظرون من كل منظور إلاً أحسن ما فيه وهم العمي عن مساوي الخلق لا عن المساوي لأنهم مأمورون باجتنابها، كما هم صمّ عن سماع الفحشاء، كما هم البكم عن التلفظ بالسوء من القول وإن كان مباحاً في بعض المواطن، هكذا عرفناهم فسبحان من اصطفاهم واجتباهم وهداهم إلى صراط مستقيم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾[سورة الأنعام: الآية ٩٠].

فهذا مقام عيسىٰ عليه السلام في محمد ﷺ لأنه تقدّمه بالزمان ونقلت عنه هذه الأحوال، قال تعالىٰ لنبيه ﷺ حين ذكر في القرآن من ذكر من النبيين وعيسىٰ في جملة من ذكر عليهم السلام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ وإن كان مقام الرسالة يقتضي تبيين الحسن من القبيح ليعلم كما قال تعالىٰ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٤] فإن بيَّن السوء في حق شخص فبوحي من الله كما قال في شخص: بئس ابن العشيرة والخضر قتل الغلام وقال فيه طبع كافراً و أخبر لو تركه بما يكون منه من السوء في حق أبويه وقال: ما فعلت ذلك عن أمري. فالذي للرجال من ذواتهم القول الحسن والنظر إلى الحسن والإصغاء بالسمع إلى الحسن، فإن ظهر منهم وقتاً ما خلاف هذا من نبيّ أو وليّ مرجوم فذلك عن أمر إلهيّ ما هو لسانهم، فهذا قد ذكرنا من أحوال العيسويين ما يسره الله على لساني، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والثلاثون

في معرفة الأقطاب العيسويين وأسرارهم

فاعلم أيّدك الله بروح القدس أن: [البسيط]

القطبُ من ثبتَتْ في الأمر أقدامُهْ ... والعيسويُّ الذي يُبْديه قدَّامُهْ
والعيسويُّ الذي يوماً له رفِعَتْ ... بين النبيين في الأشهاد أعلامُهْ
وجاءه من أبيه كلُّ رائحةٍ ... كالمسك في شمّها بالوحي أعلامُهْ
له الحياةُ فيحيي من يشاء بها ... فلا يموتُ ولا تفنيه أيامُهْ
فلو تراه وقد جاءته آيتُه ... تسعى لتَظْهَرَ في الأكوان أحكامُهْ
مواجهاً بلسان أنت قلتَ لهم ... بأنك الله وهو الله علاَّمُهْ
جوابه قيل ما قد قيل فاعْفُ ولا ... تنظُرْ لجرمِ الذي أرداه إجرامُهْ
صلّى عليه إلهُ الخلق من رجلٍ ... أعطى وأعطى الذي أعطاه إكرامُهْ

اعلم أيّدك الله بروح القدس أنا قد عرفناك أنّ العيسوي من الأقطاب هو الذي جمع له الميراثان: الميراث الروحاني الذي يقع به الانفعال، والميراث المحمدي، ولكن من ذوق عيسىٰ عليه السلام لا بدّ من ذلك، وقد بيّنا مقاماتهم وأحوالهم، فلنذكر في هذا الباب نبذاً من أسرارهم، فمنها: أنهم إذا أرادوا أن يعطوا حالاً من الأحوال التي هم عليها وهي تحت سلطانهم لما يرون في ذلك الشخص من الاستعداد إمّا بالكشف وإمّا بالتعريف الإلهيّ، فيلمسون ذلك الشخص، أو يعانقونه، أو يقبلونه، أو يعطونه ثوباً من لباسهم، أو يقولون له: ابسط ثوبك ثم يغرفون له ممّا يريدون أن يعطوه، والحاضر ينظر أنهم يغرفون في الهواء ويجعلونه في ثوبه على قدر ما يحدّ لهم من الغرفات ثم يقولون له: ضم ثوبك مجموع الأطراف إلى صدرك أو البسه على قدر الحال التي يحبّون أن يهبوه إياها، فأيّ شيء فعلوا من ذلك سرى ذلك الحال في ذلك الشخص المأمور المراد به من وقته لا يتأخر، وقد رأينا ذلك

لبعض شيوخنا جاء لأقوام من العامة فيقول لي: هذا شخص عنده استعداد فيقرب منه فإذا لمسه أو ضرّبه بصدره في ظهره قاصداً أن يهبه ما أراد سرى فيه ذلك الحال من ساعته وخرج ممّا كان فيه وانقطع إلى ربّه، وكان أيضاً له هذه الحال مكي الواسطي المدفون بمكة تلميذ أزدشير كان إذا أخذه الحال يقول لمن يكون حاضراً معه: عانقني أو تعرف الحاضر أمره، فإذا رآه متلبساً بحاله عانقه فيسري ذلك الحال في هذا الشخص ويتلبس به.

شكى جابر بن عبد الله لرسول الله ﷺ أنه لا يثبت على ظهر الفرس فضرب في صدره بيده فما سقط عن ظهر فرس بعد. ونخس رسول الله ﷺ مركوباً كان تحت بعض أصحابه بطيئاً يمشي به في آخر الناس فلما نخسه لم يقدر صاحبه على إمساكه وكان يتقدّم على جميع الركاب. وركب رسول الله ﷺ فرساً بطيئاً لأبي طلحة يوم أغير على سرح رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ في حق ذلك الفرس: إن وجدناه لبحراً، فما سبق بعد ذلك. وشكى لرسول الله ﷺ أبو هريرة أنه ينسى ما يسمعه من رسول الله ﷺ فقال له: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ابْسطْ رِدَاءَكَ فَبَسَطَ أَبُو هُرَيْرَةَ رِدَاءَهُ فَاغْتَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَرْفَةً مِنَ الهَوَاءِ أَوْ ثَلَاثَ غَرفَاتٍ وَأَلْقَاهَا فِي رِدَاءِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ لَهُ: ضُمّ رِدَاءَكَ إِلَى صَدْرِكَ فَضَمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ فَمَا نَسِيَ بَعْدَ ذٰلِكَ شَيْئاً يَسْمَعُهُ**». وهذا كله من هذا المقام. فانظر في سرّ هذا الأمر أنه ما ظهر شيء من ذلك إلاّ بحركة محسوسة لإثبات الأسباب التي وضعها الله ليعلم أن الأمر الإلهيّ لا ينخرم وأنه في نفسه على هذا الحدّ، فيعرف العارف من ذلك نسب الأسماء الإلهية وما ارتبط بها من وجود الكائنات، وأنّ ذلك تقتضيه الحضرة الإلهية لذاتها، فتصرف العالم المحقق بهذه الأمور والتنبيهات الإلهية على أنّ الحكمة فيما ظهر وأنّ ذلك لا يتبدّل، وأنّ الأسباب لا ترفع أبداً، وكل من زعم أنه رفع سبباً بغير سبب فما عنده علم لا بما رفع به ولا بما رفع، فلم يمنح عبد شيئاً أفضل من العلم والعمل به، وهذه أحوال الأدباء من عباد الله تعالىٰ.

ومن أسرارهم أيضاً أنهم يتكلمون في فصول البلاغة في النطق ويعلمون إعجاز القرآن ولم يعلم منهم ولا حصل لهم من العلم بلسان العرب، والتحقّق به على الطريقة المعهودة من قراءة كتب الأدب ما يعلم أنهم حصل لهم ذلك من هذه الجهة، بل كان ذلك لهم من الهبات الإلهية بطريق خاص يعرفونه من نفوسهم إذا أعطوا العبارة عن الذي يرد عليهم في بواطنهم من الحقائق وهم أميون، وإن أحسنوا الكتابة من طريق النقش ولكن هم عوام الناس، فينطقون بما هو خارج في المعتاد عن قوتهم إذ لم يكونوا من العرب، وإن كانوا من العرب فلم يكونوا إلاّ بالنسب لا باللسان فيعرف الإعجاز فيه منه، فمن هنالك يعرف إعجاز القرآن وذلك قول الحق. قيل لي في بعض الوقائع: أتعرف ما هو إعجاز القرآن؟ قلت: لا. قال: كونه إخباراً عن حق التزم الحق يكن كلامك معجزاً، فإن المعارض للقرآن أوّل ما يكذب فيه أنه يجعله من الله وليس من الله فيقول على الله ما لا يعلم فلا يثمر ولا يثبت، فإن الباطل زهوق لا ثبات له. ثم يخبر في كلامه عن أمور مناسبة للسورة التي يريد معارضتها بأمور تناسبها في الألفاظ ممّا لم يقع ولا كانت فهي باطل والباطل عدم والعدم لا يقاوم الوجود، والقرآن إخبار عن أمر وجودي حق في نفس الأمر،

فلا بدّ أن يعجز المعارض عن الإتيان بمثله، فمن التزم الحق في أفعاله وأقواله وأحواله فقد امتاز عن أهل زمانه وعن كل من لم يسلك مسلكه فأعجز من أراد التصوّر على مقامه من غير حق.

ومن أسرارهم أيضاً علم الطبائع وتأليفها وتحليلها ومنافع العقاقير يعلم ذلك منها كشفاً. خرج شيخنا أبو عبد الله الغزال كان بالمرية رحمه الله في حال سلوكه من مجلس شيخه أبي العباس بن العريف وكان ابن العريف أديب زمانه فهو بالأحرش بطريق الصماد حية إذ رأى أعشاب ذلك المرج كلها تخاطبه بمنافعها فتقول له الشجرة أو النجم: خذني فإني أنفع لكذا وأدفع من المضار كذا حتى ذهل وبقي حائراً من نداء كل شجرة منها تحبباً له وتقرّباً منه، فرجع إلى الشيخ وعرّفه بذلك فقال له الشيخ: ما لهذا خدمتنا أين كان منك الضارّ النافع حين قالت لك الأشجار أنها نافعة ضارة، فقال: يا سيدي التوبة، قال له الشيخ: إن الله فتنك واختبرك فإني ما دللتك إلاّ على الله لا على غيره، فمن صدق توبتك أن ترجع إلى ذلك الموضع فلا تكلمك تلك الأشجار التي كلمتك إن كنت صادقاً في توبتك، فرجع أبو عبد الله الغزال إلى الموضع فما سمع شيئاً ممّا كان قد سمعه، فسجد لله شكراً ورجع إلى الشيخ فعرفه فقال الشيخ: الحمد لله الذي اختارك لنفسه ولم يدفعك إلى كون مثلك من أكوانه تشرف به وهو على الحقيقة يشرف بك، فانظر همته رضي الله عنه.

وإذا علم أسرار الطبائع ووقف على حقائقها علم من الأسماء الإلهية التي علمها الله آدم عليه السلام نصفها وهي علوم عجيبة، لما أطلعنا الله عليها من هذه الطريقة رأينا أمراً هائلاً، وعلمنا من سرّ الله في خلقه، وكيف سرّ الاقتدار الإلهي في كل شيء، فلا شيء ينفع إلاّ به، ولا يضر إلاّ به، ولا ينطق إلاّ به، ولا يتحرك إلاّ به، وحجب العالم بالصور فنسبوا كل ذلك إلى أنفسهم وإلى الأشياء والله يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] وكلامه حق وهو خبر، ومثل هذه الأخبار لا يدخلها النسخ، فلا فقر إلاّ إلى الله، ففي هذه الآية تسمّى الله بكل شيء يفتقر إليه، ومن هذا الباب يكون الفقير من يفتقر إلى كل شيء ولا يفتقر إليه شيء، فيتناول الأسباب على أوضاعها الحكمية لا يخل بشيء منها، وهذا الذوق عزيز ما رأينا أحداً عليه فيمن رأيناه، ولا نقل إلينا سماعاً لا في المتقدّم ولا في المتأخر، لكن رأينا ونقل إلينا عن جماعة إثبات الأسباب وليس من هذا الباب، فإن الذي نذكره ونطلبه سريان الألوهية في الأسباب أو تجليات الحق خلف حجاب الأسباب في أعيان الأسباب أو سريان الأسباب في الألوهية، هذا هو الذي لم نجد له ذائقاً إلاّ قول الله تعالىٰ، فهي الآية اليتيمة في القرآن لا يعرف قدرها إذ لا قيمة لها، وكل ما لا قيمة له ثبت بالضرورة أنه مجهول القدر ولو اعتقدت فيه النفاسة.

ومن أسرارهم أيضاً معرفة النشأتين في الدنيا، وهي النشأة الطبيعية والنشأة الروحانية وما أصلهما، ومعرفة النشأتين في الدار الآخرة الطبيعية والروحانية وما أصلهما، ومعرفة النشأتين: نشأة الدنيا ونشأة الآخرة فهي ستة علوم لا بدّ من معرفتها.

ومن أسرارهم أنه ما منهم شخص كمل له هذا المقام إلاّ ويوهب ستمائة قوّة إلهية ورثها من جدّه الأقرب لأبيه فيفعل بها بحسب ما تعطيه، فإن شاء أخفاها وإن شاء أظهرها، والإخفاء أعلى، فإن العبودة إنما تأخذ من القوىٰ ما تستعين بها على أداء حق أوامر سيدها لثبوت حكم عبوديتها، وكل قوّة تخرجه عن هذا الباب بالقصد فليس هو مطلوباً لرجال الله فإنهم لا يزاحمون ذا القوّة المتين، فإنّ الله ما طلب منهم أن يطلبوا العون منه إلاّ في عبادته، لا أن يظهروا بها ملوكاً أرباباً كما زعمت طائفة من أهل الكتاب ممّن اتخذوا عيسىٰ رباً قالوا: إن محمداً يطلب منّا أن نعبده كما عبدنا عيسىٰ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦٤]. ومن أسرارهم أيضاً أنهم لا يتعدّون في معارجهم من حيث أبيهم السماء الثانية إلاّ أن يتوجهوا إلى الجدّ الأقرب، فربما ينتهي بعضهم إلى السدرة المنتهى وهي المرتبة التي تنتهي إليها أعمال العباد لا تتعداها، ومن هناك يقبلها الحق وهي برزخها إلى يوم القيامة الذي يموت فيه صاحب ذلك العمل، ويكفي هذا القدر من علم أسرار هذه الجماعة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء العشرون.

(الجزء الحادي والعشرون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الثامن والثلاثون

في معرفة من اطلع على المقام المحمديّ ولم ينله من الأقطاب

[نظم: الكامل]

بيـن النبـوّة والولايـة فـارقٌ ... لكنْ لهـا الشـرفُ الأتـمُّ الأعْظَمُ
يعنو لها الفلكُ المحيطُ بسرِّه ... وكذلك القلمُ العليُّ الأفخَمُ
إن النبـوّةَ والرسالة كانتا ... وقد انتهت ولها السبيلُ الأقوَمُ
وأقام بيتاً للولاية مُحْكَماً ... في ذاته فله البقاءُ الأدْوَمُ
لا تطلبَنْهُ نهايةً يسعى لها ... فيكون عند بلوغه يتهَدَّمُ
صفةُ الدوام لذاته نَفْسِيَّةٌ ... فهو الوليُّ فقَهْرُه متحكِّمُ
يأوي إليه نبيُّه ورسولُه ... والعالمُ الأعلى ومن هو أقدَمُ

ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدِ انْقَطَعَتْ فَلاَ رَسُولَ بَعْدِي وَلاَ نَبِيَّ**» الحديث بكماله. فهذا الحديث من أشد ما جرعت الأولياء مرارته فإنه قاطع للوصلة بين الإنسان وبين عبوديته. وإذا انقطعت الوصلة بين الإنسان وبين عبوديته من أكمل الوجوه انقطعت الوصلة بين الإنسان وبين الله، فإن العبد على قدر ما يخرج به عن عبوديته ينقصه من تقريبه من سيده لأنه يزاحمه في أسمائه، وأقل المزاحمة الاسمية، فأبقى علينا اسم الولي وهو

من أسمائه سبحانه، وكان هذا الاسم قد نزعه من رسوله وخلع عليه وسمّاه بالعبد والرسول ولا يليق بالله أن يسمّى بالرسول، فهذا الاسم من خصائص العبودية التي لا تصح أن تكون للرب، وسبب إطلاق هذا الاسم وجود الرسالة والرسالة قد انقطعت فارتفع حكم هذا الاسم بارتفاعها من حيث نسبتها بها من الله.

ولما علم رسول الله ﷺ أن في أمّته من يجرع مثل هذا الكأس وعلم ما يطرأ عليهم في نفوسهم من الألم لذلك رحمهم فجعل لهم نصيباً ليكونوا بذلك عبيد العبيد فقال للصحابة: «**لِيُبْلِغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ**» فأمرهم بالتبليغ، كما أمره الله بالتبليغ لينطلق عليهم أسماء الرسل التي هي مخصوصة بالعبيد، وقال ﷺ: «**رَحِمَ اللَّهُ امْرأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا**» يعني حرفاً حرفاً، وهذا لا يكون إلاَّ لمن بلغ الوحي من قرآن أو سنة بلفظه الذي جاء به، وهذا لا يكون إلاَّ لنقلة الوحي من المقرئين والمحدثين ليس للفقهاء ولا لمن نقل الحديث على المعنى كما يراه سفيان الثوريّ وغيره نصيب ولا حظ فيه، فإن الناقل على المعنى إنما نقل إلينا فهمه في ذلك الحديث النبويّ، ومن نقل إلينا فهمه فإنما هو رسول نفسه ولا يحشر يوم القيامة فيمن بلغ الوحي كما سمعه وأدّى الرسالة، كما يحشر المقرىء والمحدث الناقل لفظ الرسول عينه في صف الرسل عليهم السلام، فالصحابة إذا نقلوا الوحي على لفظه فهم رسل رسول الله ﷺ والتابعون رسل الصحابة وهكذا الأمر جيلاً بعد جيل إلى يوم القيامة، فإن شئنا قلنا في المبلغ إلينا إنه رسول الله، وإن شئنا أضفناه لمن بلغ عنه، وإنما جوّزنا حذف الوسائط لأن رسول الله كان يخبره جبريل عليه السلام وملك من الملائكة، ولا نقول فيه رسول جبريل وإنما نقول فيه رسول الله كما قال الله تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٩] وقال عزّ وجلّ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٠] مع قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [سورة الشعراء: الآيتان ١٩٣، ١٩٤] ومع هذا فما أضافه الله إلاَّ إلى نفسه، فهذا القدر بقي لهم من العبودية وهو خير عظيم امتنّ به عليهم ومهما لم ينقله الشخص بسنده متصلاً غير منقطع فليس له هذا المقام ولا شمّ له رائحة، وكان من الأولياء المزاحمين الحق في الاسم الوليّ، فنقصه من عبوديته بقدر هذا الاسم، فلهذا اسم المحدث بفتح الدال أولى به من اسم الوليّ، فإن مقام الرسالة لا يناله أحد بعد رسول الله ﷺ إلاَّ بقدر ما بيّناه فهو الذي أبقاه الحق تعالىٰ علينا. ومن هنا تعرف مقام شرف العبودية وشرف المحدثين نقلة الوحي بالرواية، ولهذا اشتدّ علينا غلق هذا الباب، وعلمنا أن الله قد طردنا من حال العبودية الاختصاصية التي كان ينبغي لنا أن نكون عليها. وأمّا النبوّة فقد بيّناها لك فيما تقدم في باب معرفة الأفراد وهم أصحاب الركاب.

ثم إنه تعالىٰ من باب طردنا من العبودة ومقامها قال تعالىٰ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين. ومن نحن حتى تقع القسمة بيننا وبينه وهو السيد الفاعل المحرك الذي يقوّلنا

في قولنا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] وأمثال ذلك ممّا أضافه إلينا، وقد علمنا أن نواصينا بيده في قيامنا وركوعنا وسجودنا وجلوسنا وفي نطقنا. يقول العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٢] يقول الله: حمدني عبدي تفضّلاً منه، فإنه من قوّله بهذه اللفظة وما قدّره حتى يقول السيد: قال عبدي، وقلت له: هذا حجاب مسدل فينبغي للعبد أن يعرف أن لله مكراً خفياً في عباده، وكل أحد يمكر به على قدر علمه بربّه، فيأخذ هذا التكريم الإلهي ابتداء من الله مدرجاً في نعمة، فإذا صلّى وتلا وقال: الحمد لله يقولها حكاية من حيث ما هو مأمور بها لتصحّ عبوديته في صلاته، ولا ينتظر الجواب ولا يقول ليجاب بل يشتغل بما كلّفه سيده به من العمل حتى يكون ذلك الجواب والإنعام من السيد لا من كونه قال: فإن القائل على الحقيقة خالق القول فيه فنسلم من هذا المكر وإن كان منزلة رفيعة ولكن بالنظر إلى من هو في غير هذه المنزلة ممّن نزل عنها، فما ورثنا من رسول الله ﷺ من هذا المقام الذي أغلق بابه دوننا إلاّ ما ذكرناه من عناية الحق بمن كشف له عن ذلك ورزقه علم نقل الوحي بالرواية من كتاب وسنة، فما أشرف مقام أهل الرواية من المقرئين والمحدثين جعلنا الله ممّن اختص بنقله من قرآن وسنّة، فإن أهل القرآن هم أهل الله وخاصته، والحديث مثل القرآن بالنص فإنه ﷺ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: الآيتان ٣، ٤].

وممّن تحقق بهذا المقام معنا أبو يزيد البسطامي كشف له منه بعد السؤال والتضرّع قدر خرق الإبرة فأراد أن يضع قدمه فيه فاحترق فعلم أنه لا ينال ذوقاً وهو كمال العبودة، وقد حصل لنا منه ﷺ شعرة وهذا كثير لمن عرف فما عند الخلق منه إلاّ ظلّه، ولما أطلعني الله عليه لم يكن عن سؤال وإنما كان عن عناية من الله، ثم إنه أيّدني فيه بالأدب رزقاً من لدنه وعناية من الله بي فلم يصدر مني هناك ما صدر من أبي يزيد بل اطلعت عليه وجاء الأمر بالرقي في سلمه فعلمت أنّ ذلك خطاب ابتلاء وأمر ابتلاء لا خطاب تشريف، على أنه قد يكون بعض الابتلاء تشريفاً فتوقفت وسألت الحجاب فعلم ما أردت فوضع الحجاب بيني وبين المقام وشكر لي ذلك فمنحني منه الشعرة التي ذكرناها اختصاصاً إلهياً، فشكرت الله على الاختصاص بتلك الشعرة غير طالب بالشكر الزيادة، وكيف أطلب الزيادة من ذلك وأنا أسأل الحجاب الذي هو من كمال العبودية؟ فسرت فيّ العبودة وظهر سلطانها وحيل بيني وبين مرتبة السيادة لله الحمد على ذلك وكم طلبت إليها وما أجبت، فحدا إن شاء الله أكون في الآخرة عبداً محضاً خالصاً، ولو ملكني جميع العالم ما ملكت منه إلاّ عبوديته خاصة، حتى يقوم بذاتي جميع عبودية العالم، وللناس في هذا مراتب.

فالذي ينبغي للعبد أن لا يزيد على هذا الاسم غيره، فإن أطلق الله ألسنة الخلق عليه بأنه وليّ الله ورأى أن الله قد أطلق عليه اسماً أطلقه تعالىٰ على نفسه فلا يسمعه ممّن يسميه به إلاّ على أنه بمعنى المفعول لا بمعنى الفاعل حتى يشم فيه رائحة العبودية، فإن بنية فعيل قد تكون بمعنى الفاعل، وإنما قلنا هذا من أجل ما أمرنا أن نتخذه سبحانه وكيلاً فيما هو له ممّا نحن

مستخلفون فيه، فإن في مثل هذا مكراً خفياً فتحفظ منه، ويكفي من التنبيه الإلهيّ العاصم من المكر كونك مأموراً بذلك فامتثل أمره واتخذه وكيلاً لا تدعي الملك فإنّ الله تولاّك فإنه قال: ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٩٦] واسم الصالح من خصائص العبودية ولهذا وصف محمد ﷺ نفسه بالصلاح فإنه ادَّعى حالة لا تكون إلاَّ للعبيد الكمَّل، فمنهم من شهد له بها الحق عزّ وجلّ بشرى من الله فقال في عبده يحيىٰ عليه السلام: ﴿ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١١٢]. وقال في نبيه عيسىٰ عليه السلام: ﴿ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٦]. وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٠]. من أجل الثلاثة الأمور التي صدرت منه في الدنيا وهي قوله عن زوجته سارة إنها أخته بتأويل. وقوله: ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [سورة الصافات: الآية ٨٩]، اعتذاراً. وقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٣] إقامة حجة، فبهذه الثلاثة يعتذر يوم القيامة للناس إذا سألوه أن يسأل ربه فتح باب الشفاعة فلهذا ذكر صلاحه في الآخرة إذ لم يؤاخذه بذلك كما قال الله تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢]. وقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٣] فقدم البشرى قبل العتاب، وهذه الآية عندنا بشرى خاصة ما فيها عتاب بل هو استفهام لمن أنصف وأعطى أهل العلم حقّهم.

وأما سليمان وأمثاله عليهم السلام فأخبرنا الحق أنه قال: ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [سورة النمل: الآية ١٩] وإن كانوا صالحين في نفس الأمر عند الله فهم بين سائل في الصلاح ومشهود له به مع كونه نعتاً عبودياً لا يليق بالله، فما ظنك بالاسم الوليّ الذي قد تسمى الله به بمعنى الفاعل، فينبغي أن لا ينطلق ذلك الاسم على العبد وإن أطلقه الحق عليه فذلك إليه تعالىٰ، ويلزم الإنسان عبوديته، وما يختص به من الأسماء التي لم تنطلق قط على الحق لفظاً فيما أنزله على نبيه ﷺ، فلما أنزل الله تعالىٰ على عبده محمد ﷺ هذه الآية ليعرف الناس بها فكأن الله حكى عن نبيّه ﷺ ما لا بدّ له أن يقوله ويتلفظ به فجعله تعالىٰ قرآناً يتلى، إذ كان ذلك من خصائص العبيد في نفس الأمر فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٩٦] فشهد له بالصلاح إذا كان الحق حاكياً في هذه الآية، وإن كان آمراً فيكون من المشهودين لهم بالصلاح، فعرفنا أن الله تولاّه وأخبرنا أن الله يتولّى الصالحين، فشهد لنفسه بالصلاح بالوجه الذي ذكرناه ولم ينقل ذلك عن غيره بل نقل ما يقاربه من قول عيسىٰ عليه السلام: ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [سورة مريم: الآيات ٣٠ ـ ٣٣] يقول الله تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] أي فكذلك أنت فكان من فضله نيل مثل هذا المقام، فاحفظ يا وليّ نفسك في التخلّق بأسماء الله الحسنى فإن العلماء لم يختلفوا في التخلّق بها، فإذا وفقت للتخلّق بها فلا تغب في ذلك عن شهود آثارها فيك ولتكن فيها ومعها

بحكم النيابة عنها فتكون مثل اسم الرسول، لا تشارك الحق في إطلاق اسم عليك من أسمائه بذلك المعنى والزم الأدب ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والثلاثون
في معرفة المنزل الذي يحط إليه الوليّ إذا طرده الحق تعالىٰ من جواره

[نظم: الوافر]

إذا حطَّ الوليُّ فليس إلاَّ عُروجٌ وارتقاءٌ في عُلُوٍّ
فإن الحقَّ لا تقْيِيدَ فيه ففي عين النَّوَى عينُ الدنوِّ
فحال المجتبى في كل حالٍ سُموٌّ في سموٍّ في سُمُوِّ
فلا حكمٌ عليه بكل وجهٍ ولا تأثيرَ فيه للعُلُوِّ

اعلم أيّدك الله بروح منه أن الله تعالىٰ يقول لإبليس: اسجد لآدم، فظهر الأمر فيه وقال لآدم وحوّاء: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٩] فظهر النهي فيهما، والتكليف مقسم بين أمر ونهي وهما محمولان على الوجوب حتى تخرجهما عن مقام الوجوب قرينة حال وإن كان مذهبنا فيهما التوقيف فتعين امتثال الأمر والنهي، وهذا أول أمر ظهر في العالم الطبيعيّ، وأول نهي، وقد أعلمناك أن الخاطر الأول وأن جميع الأوليات لا تكون إلاَّ ربانية ولهذا تصدق ولا تخطىء أبداً ويقطع به صاحبه فسلطانه قوي. ولما كان هذا أول أمر ونهي لذلك وقعت العقوبة عند المخالفة ولم يمهل.

فإذا جاءت الأوامر بالوسائط لم تقو قوّة الأول وهي الأوامر الواردة إلينا على ألسنة الرسل وهي على قسمين: إما ثوان وهو ما يلقي الله إلى نبيه في نفسه من غير واسطة الملك فيصل إلينا الأمر الإلهيّ وقد جاز على حضرة كونية فاكتسب منها حالة لم يكن عليها، فإنّ الأسماء الإلهية تلقته في هذه الحضرة الكونية فشاركته بأحكامها في حكمه، وإما أن ينزل عليه بذلك الأمر الملك فيكون الأمر الإلهي قد جاز على حضرتين من الكون جبريل وأي ملك كان وأي نبيّ كان، فيكون فعله وأثره في القوّة دون الأول والثاني، فلذلك لم تقع المؤاخذة معجلة، فإما إمهال إلى الآخرة وإما غفران فلا يؤاخذ بذلك أبداً، وفعل الله ذلك رحمة بعباده.

كما أنه تعالىٰ خصّ النهي بآدم وحوّاء، والنهي ليس بتكليف عمليّ فإنه يتضمن أمراً عدمياً وهو لا تفعل، ومن حقيقة الممكن أنه لا يفعل فكأنه قيل له: لا تفارق أصلك والأمر ليس كذلك فإنه يتضمن أمراً وجودياً وهو أن يفعل فكأنه قيل له: اخرج عن أصلك فالأمر أشق على النفس من النهي إذ كلّف الخروج عن أصله، فلو أن إبليس لما عصى ولم يسجد لم يقل ما قال من التكبّر والفضلية التي نسبها إلى نفسه على غيره فخرج عن عبوديته بقدر ذلك فحلّت به عقوبة الله وكانت العقوبة لآدم وحوّاء لما تكلفا الخروج عن أصلهما وهو الترك وهو أمر عدميّ بالأكل وهو أمر وجوديّ، فشرّك الله بين إبليس وآدم وحوّاء في ضمير واحد وهو

كان أشدّ العقوبة على آدم فقيل لهم: اهبطوا بضمير الجماعة، ولم يكن الهبوط عقوبة لآدم وحوّاء وإنما كان عقوبة لإبليس، فإن آدم أهبط لصدق الوعد بأن يجعل في الأرض خليفة بعدما تاب عليه واجتباه وتلقى الكلمات من ربّه بالاعتراف، فاعترافه عليه السلام في مقابلة كلام إبليس: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢] فعرّفنا الحق بمقام الاعتراف عند الله وما ينتجه من السعادة لنتخذه طريقاً في مخالفتنا، وعرّفنا بدعوى إبليس ومقالته لنحذر من مثلها عند مخالفتنا، وأهبطت حوّاء للتناسل، وأهبط إبليس للإغواء، فكان هبوط آدم وحوّاء هبوط كرامة، وهبوط إبليس هبوط خذلان وعقوبة واكتساب أوزار، فإنّ معصيته كانت لا تقتضي تأبيد الشقاء فإنه لم يشرك بل افتخر بما خلقه الله عليه وكتبه شقياً ودار الشقاء مخصوصة بأهل الشرك فأنزله الله إلى الأرض ليسنّ الشرك بالوسوسة في قلوب العباد، فإذا أشركوا وتبرأ إبليس من المشرك ومن الشرك لم ينفعه تبريه منه فإنه هو الذي قال له اكفر كما أخبر الله تعالىٰ، فحار عليه وزر كل مشرك في العالم وإن كان موحداً، فإنه من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، فإن الشخص الطبيعيّ كإبليس وبني آدم لا بدّ أن يتصوّر في نفسه مثال ما يريد أن يبرزه.

فما سنّ الشرك ووسوس به حتى تصوّره في نفسه على الصورة التي إذا حصلت في نفس المشرك زالت عنه صورة التوحيد، فإذا تصوّرها في نفسه بهذه الصورة فقد خرج التوحيد عن تصوّره في نفسه ضرورة، فإن الشريك متصوّر له في نفسه إلى جانب الحق الذي في نفسه متخيلاً، أعني من العلم بوجوده فما تركه في نفسه وحده، فكان إبليس مشركاً في نفسه بلا شك ولا ريب، ولا بدّ أن يحفظ في نفسه بقاء صورة الشريك ليمدّ بها المشركين مع الأنفاس، فإنه خائف منهم أن تزول عنهم صفة الشرك فيوحدوا الله فيسعدوا، فلا يزال إبليس يحفظ صورة الشرك في نفسه ويراقب بها قلوب المشركين الكائنين في الوقت شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، ويردّ بها الموحّدين في المستقبل إلى الشرك ممّن ليس بمشرك، فلا ينفك إبليس دائماً على الشرك، فبذلك أشقاه الله لأنه لا يقدر أن يتصوّر التوحيد نفساً واحداً لملازمته هذه الصفة وحرصه على بقائها في نفس المشرك، فإنها لو ذهبت من نفسه لم يجد المشرك من يحدّثه في نفسه بالشرك فيذهب الشرك عنه ويكون إبليس لا يتصوّر الشريك لأنه قد زالت عن نفسه صورة الشريك فيكون لا يعلم أن ذلك المشرك قد زال عن إشراكه، فدلّ أن الشريك يستصحب إبليس دائماً، فهو أوّل مشرك بالله وأوّل من سنّ الشرك، وهو أشقى العالمين، فلذلك يطمع في الرحمة من عين المنة، ولهذا قلنا: إن العقوبة في حق آدم إنما كانت في جمعه مع إبليس في الضمير حيث خاطبهم الحق بالهبوط بالكلام الذي يليق بجلاله.

ولكن لا بدّ أن يكون في الكلام الصفة التي يقتضيها لفظ الضمير فإن صورة اللفظ يطلب المعنى الخاص، وهذه طريقة لم تجعل العلماء بالها من ذلك، وإنما ذكرنا مسألة آدم تأنيساً لأهل الله تعالىٰ إذا زلّوا فحطّوا عن مقامهم أن ذلك الانحطاط لا يقضي بشقائهم ولا بدّ

بل يكون هبوطهم كهبوط آدم، فإن الله لا يتحيّز ولا يتقيد، وإذا كان الأمر على هذا الحدّ وكان الله بهذه الصفة من عدم التقييد فيكون عين هبوط الوليّ عند الزلة، وما قام به من الذلّة والحياء والانكسار فيها عين الترقي إلى أعلى ممّا كان فيه لأن علوه بالمعرفة والحال، وقد يزيد من العلم بالله ما لم يكن عنده ومن الحال وهو الذلّة والانكسار ما لم يكن عليهما، وهذا هو عين الترقّي إلى مقام أشرف، فإذا فقد الإنسان هذه الحالة في زلته ولم يندم ولا انكسر ولا ذلّ ولا خاف مقام ربّه فليس من أهل هذه الطريقة بل ذلك جليس إبليس بل إبليس أحسن حالاً منه لأنه يقول لمن يطيعه في الكفر: ﴿ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الحشر: الآية ١٦].

ونحن إنما نتكلم على زلاّت أهل الله إذا وقعت منهم قال تعالىٰ: ﴿ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٥] وقال رسول الله ﷺ: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**» وإنما الإنسان الوليّ إذا كان في المقام الذي كان والحال التي كان عليها ملتذاً بها فلذّته إنما كانت بحاله فإن الله يتعالىٰ أن يلتذ به، فلما زلّ وعرته حالة الذلّة والانكسار زالت ضرورة الحالة التي كان يلتذ بوجودها وهي حالة الطاعة والموافقة فلما فقدها تخيل أنه انحط من عين الله، وإنما تلك الحالة لما زالت عنه انحط عنها إذ كانت حالة تقتضي الرفعة، وهو الآن في معراج الذلة والندم والافتقار والانكسار والاعتراف والأدب مع الله تعالىٰ والحياء منه، فهو يترقى في هذا المعراج فيجد هذا العبد في غاية هذا المعراج حالة أشرف من الحالة التي كان عليها، فعند ذلك يعلم أنه ما انحط وأنه ترقى من حيث لا يشعر أنه في ترق، وأخفى الله ذلك عن أوليائه لئلاّ يجترؤوا عليه في المخالفات، كما أخفى الاستدراج فيمن أشقاه الله فقال: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٢] فهم كما قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿ وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٤] كذلك أخفى سبحانه تقريبه وعنايته فيمن أسعده الله بما شغله الله به من البكاء على ذنبه ومشاهدته زلته ونظره إليها في كتابه وذهل عن أن ذلك الندم يعطيه الترقي عند الله، فإنه ما بشرّه بقبول التوبة فهو متحقق وقوع الزلّة حاكم عليه الانكسار والحياء ممّا وقع فيه وإن لم يؤاخذه الله بذلك الذنب فكان الاستدراج حاصلاً في الخير والشرّ وفي السعداء والأشقياء.

ولقيت بمدينة فاس رجلاً عليه كآبة كأنه يخدم في الأتون فسألت أبا العباس الحصار وكان من كبار الشيوخ عنه فإني رأيته يجالسه ويحن إليه فقال لي: هذا رجل كان في مقام فانحط عنه فكان في هذا المقام، وكان من الحياء والانكسار بحالة أوجبت عليه السكوت عن كلام الخلق، فما زلت ألاطفه بمثل هذه الأدوية وأزيل عنه مرض تلك الزلة بمثل هذا العلاج وكان قد مكّنني من نفسه، فلم أزل به حتى سرى ذلك الدواء في أعضائه فأطلق محياه وفتح له في عين قلبه باب إلى قبوله ومع هذا فكان الحياء يستلزمه. وكذلك ينبغي أن تكون زلاّت الأكابر غالباً نزولهم إلى المباحات لا غير وفي حكم النادر تقع منهم الكبائر، قيل لأبي يزيد البسطامي رضي الله عنه: أيعصي العارف؟ فقال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً يريد أن معصيتهم بحكم القدر النافذ فيهم لا أنهم يقصدون انتهاك حرمات الله، هم بحمد الله إذا كانوا أولياء عند

الله تعالىٰ وجلّ معصومون في هذا المقام فلا تصدر منهم معصية أصلاً انتهاكاً لحرمة الله كمعاصي الغير، فإن الإيمان المكتوب في القلوب يمنع من ذلك، فمنهم من يعصي غفلة، ومنهم من يخالف على حضور عن كشف إلهيّ قد عرّفه الله فيه ما قدره عليه قبل وقوعه فهو على بصيرة من أمره وبينة من ربّه وهذه الحالة بمنزلة البشرى في قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢] فقد أعلمه بالذنوب الواقعة المغفورة فلا حكم لها ولا لسلطانها فيه، فإنه إذا جاء وقت ظهورها يكون في صحبتها الاسم الغفار فتنزل بالعبد ويحجب الغفار حكمها فتكون بمنزلة من يلقى في النار ولا يحترق كإبراهيم عليه السلام فكان في النار ولا حكم لها فيه بالحجاب الذي هو المانع، كذلك زلة العارف صاحب مقام الكشف للأقدار تجل به النازلة وحكمها بمعزل عنها فلا تؤثر في مقامه، بخلاف من تحلّ فيه وهو على غير بينة ولا بصيرة بما قدر عليه، فهذا يستلزمه الحياء والندم والذلّة وذلك ليس كذلك، وهنا أسرار إلهية لا يسعنا التعبير عنها.

وبعد أن فهمناك مراتبهم في هذا المقام وفرقنا لك بين معصية العارفين وبين معاصي العامّة من علماء الرسوم ومقلديهم، فاعلم أنه حكي عن بعضهم أنه قال: اقعد على البساط يريد بساط العبادة، وإياك والانبساط أي التزم ما تعطيه حقيقة العبودة من حيث إنها مكلفة بأمور حدّها له سيدها، فإنه لولا تلك الأمور لاقتضى مقامها الإدلال والفخر والزهو من أجل مقام من هو عبد له ومنزلته كما زها يوماً عتبة الغلام وافتخر فقيل له: ما هذا الزهو الذي نراه في شمائلك ممّا لم يكن يعرف قبل ذلك منك؟ فقال: وكيف لا أزهو وقد أصبح لي مولى وأصبحت له عبداً فما قبض العبيد من الإدلال وأن يكونوا في الدنيا مثل ما هم في الآخرة إلاّ التكليف فهم في شغل بأوامر سيدهم إلى أن يفرغوا منها، فإذا لم يبق لهم شغل قاموا في مقام الإدلال الذي تقتضيه العبودية وذلك لا يكون إلاّ في الدار الآخرة، فإن التكليف لهم مع الأنفاس في الدار الدنيا، فكل صاحب إدلال في هذه الدار فقد نقص من المعرفة بالله على قدر إدلاله، ولا يبلغ درجة غيره ممّن ليس له إدلال أبداً فإنه فاتته أنفاس كثيرة في حال إدلاله غاب عمّا يجب عليه فيها من التكليف الذي يناقض الاشتغال به الإدلال، فليست الدنيا بدار إدلال، ألا ترى عبد القادر الجيلي مع إدلاله لما حضرته الوفاة وبقي عليه من أنفاسه في هذه الدار ذلك القدر الزماني وضع خدّه في الأرض واعترف بأن الذي هو فيه الآن هو الحق الذي ينبغي أن يكون العبد عليه في هذه الدار، وسبب ذلك أنه كان في أوقات صاحب إدلال لما كان الحق يعرفه به من حوادث الأكوان، وعصم الله أبا السعود تلميذه من ذلك الإدلال فلازم العبودية المكلفة مع الأنفاس إلى حين موته، فما حكي أنه تغيّر عليه الحال عند موته كما تغيّر على شيخه عبد القادر، وحكى لنا الثقة عندنا قال: سمعته يقول: طريق عبد القادر في طرق الأولياء غريب، وطريقنا في طرق عبد القادر غريب، رضي الله عن جميعهم ونفعنا بهم، والله يعصمنا من المخالفات وإن كانت قدّرت علينا، فالله أسأل أن يجعلنا في ارتكابها على بصيرة حتى يكون لنا بها ارتقاء درجات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأربعون

في معرفة منزل مجاور لعلم جزئي من علوم الكون وترتيبه وغرائبه وأقطابه

نظم يتضمن ما ترجمنا عليه: [الطويل]

مجاورُ علمِ الكونِ علمٌ إلهيٌّ ... يقول الذي يُغطّاه كَشْفٌ حقيقيٌّ
وما هوَ من عِلْم البَرازخِ خالِصٌ ... وما هو علويٌّ وما هو سُفْلِيٌّ
له في العُلَى وجهٌ غريبٌ محقَّقٌ ... وفي السفل وجهٌ بالحقائق عُلْويٌّ
وليس الذي يدريه مَلْكٌ مخلَّصٌ ... ولا هو جنيٌّ ولا هو إنْسِيٌّ
ولكنها الأعيانُ لما تألَّفَتْ ... بدا لك شكلٌ مستفاد كِيَانيٌّ
فقل فيه ما تهواه يقبَلْه أصلُه ... فلستَ تراه وهو للعين مرئيٌّ
فما هو محكومٌ وليس بحاكم ... فما هو غيبيٌّ وما هو حِسِّيٌّ
تنزَّه عن حصر الجهات ضياؤه ... فلا هو شرقيٌّ ولا هو غربيٌّ
فسبحانَ من أخفى عن العين ذاتَه ... ويسري مثالٌ منه فينا اتِّصاليٌّ
نراه إذا كنّا وما هو عينُه ... ولكنه كشفٌ صحيحٌ خياليٌّ
تجلّى لرأي العين في كل صورة ... فذلك مقصودي بقولي مثاليٌّ

اعلم أيّدك الله بروح القدس أن هذا المنزل منزل الكمال وهو مجاور منزل الجلال والجمال، هو من أجل المنازل والنازل فيه أتم نازل. اعلم أن خرق العوائد على ثلاثة أقسام: قسم منها يرجع إلى ما يدركه البصر أو بعض القوىٰ على حسب ما يظهر لتلك القوّة ممّا ارتبطت في العادة بإدراكه وهو في نفسه على غير ما أدركته تلك القوّة مثل قوله تعالىٰ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٦٦] وهذا القسم داخل تحت قدرة البشر وهو على قسمين: منه ما يرجع إلى قوّة نفسية، ومنه ما يرجع إلى خواص أسماء إذا تلفظ بتلك الأسماء ظهرت تلك الصور في عين الرائي أو في سمعه خيالاً، وما ثم في نفس الأمر أعني في المحسوس شيء من صورة مرئية ولا مسموعة وهو فعل الساحر وهو على علم أنه ما ثمّ شيء ممّا وقع في الأعين والأسماع. والقسم الآخر الذي هو قوّة نفسية يكون عنها فيما تراه العين أو أيّ إدراك كان ما كان من الأمر الذي ظهر عن خواص الأسماء، والفرق بينهما أن الذي يفعله بطريق الأسماء وهو الساحر يعلم أنه ما ثمّ شيء من خارج وإنما لها سلطان على خيال الحاضرين فتخطف أبصار الناظرين فيرى صوراً في خياله كما يرى النائم في نومه، وما ثمَّ في الخارج شيء ممّا يدركه، وهذا القسم الآخر الذي للقوّة النفسية منهم من يعلم أنه ما ثم شيء في الخارج، ومنهم من لا يعلم ذلك فيعتقد أن الأمر كما رآه.

ذكر أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب مقامات الأولياء في باب الكرامات منه أن عليماً الأسود وكان من أكابر أهل الطريق أن بعض الصالحين اجتمع به في قصة أدّته إلى أن ضرب عليم الأسود إلى أسطوانة كانت قائمة في المسجد من رخام فإذا هي كلها ذهب فنظر إليها

الرجل أسطوانة ذهب فتعجب فقال له: يا هذا إن الأعيان لا تنقلب ولكن هكذا تراها لحقيقتك بربك وهي غير ذلك، فخرج من كلامه فيما يظهر لمن لا علم له بالأشياء ببادي الرأي أو من أول نظر أن الأسطوانة حجر كما كانت وليست ذهباً إلاَّ في عين الرائي، ثم إن الرجل أبصرها بعد ذلك حجراً كما كانت أول مرة، قال تعالىٰ في عصا موسىٰ عليه السلام: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ [سورة طٰه: الآية ١٧ . ١٨] ثم قال: ﴿ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ . . . فَأَلْقَىٰهَا ﴾ [سورة طٰه: الآيتان ١٩ و٢٠] من يده في الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٢٠] فلما خاف موسىٰ عليه السلام منها على مجرى العادة في النفوس أنها تخاف من الحيات إذا فاجأتها لما قرن الله بها من الضرر لبني آدم وما علم موسىٰ مراد الله في ذلك ولو علمه ما خاف فقال الله تعالىٰ له: ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [سورة طٰه: الآية ٢١] أي ترجع عصا كما كانت أو ترجع تراها عصا كما كانت، فالآية محتملة فإن الضمير الذي في قوله عزّ وجلّ: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ إذا لم تكن عصا في حال كونها في نظر موسىٰ حية لم يجد الضمير على من يعود، كما أن الإنسان إذا عوّدك أمراً ما وهو أنه كان يحسن إليك ثم أساء إليك فتقول له: قد تغيرت سيرتك معي ما أنت هو ذاك الذي كان يحسن إليّ ومعلوم أنه هو، فيقال له: سيعود معك إلى سيرته الأولى من الإحسان إليك وهو في صورته ما تغيّر ولكن تغيّر عليك فعله معك.

وقدّم الله هذا لموسىٰ عليه السلام توطئة لما سبق في علمه سبحانه أن السحرة تظهر لعينه مثل هذا فيكون عنده علم من ذلك حتى لا يذهل ولا يخاف إذا وقع منهم عند إلقائهم حبالهم وعصيهم، وخيّل إلى موسىٰ أنها تسعى يقول له: فلا تخف إذا رأيت ذلك منهم يقوّي جأشه، فلما وقع من السحرة ما وقع ممّا ذكر الله لنا في كتابه وامتلأ الوادي من حبالهم وعصيهم ورآها موسىٰ فيما خيّل له حيات تسعى ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [سورة طٰه: الآية ٦٧] فلم يكن نسبة الخوف إليه في هذا الوقت نسبة الخوف الأول، فإنّ الخوف الأول كان من الحية فولّى مدبراً ولم يعقب حتى أخبره الله تعالىٰ، وكان هذا الخوف الآخر الذي ظهر منه للسحرة على الحاضرين لئلا تظهر عليه السحرة بالحجة فيلتبس الأمر على الناس ولهذا قال الله له: ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [سورة طٰه: الآية ٦٨] ولما ظهر للسحرة خوف موسىٰ ممّا رآه وما علموا متعلق هذا الخوف أي شيء هو علموا أنه ليس عند موسىٰ من علم السحر شيء فإن الساحر لا يخاف ممّا يفعله لعلمه أنه لا حقيقة له من خارج وأنه ليس كما يظهر لأعين الناظرين، فأمر الله موسىٰ أن يلقي عصاه وأخبر أنها تلقف ما صنعوا، فلما ألقى موسىٰ عصاه فكانت حية علمت السحرة بأجمعها مما علمت من خوف موسىٰ أنه لو كان ذلك منه وكان ساحراً ما خاف ورأوا عصاه حية حقيقة علموا عند ذلك أنه أمر غيب من الله الذي يدعوهم إلى الإيمان به وما عنده من علم السحر خبر، فتلقفت تلك الحيّة جميع ما كان في الوادي من الحبال والعصيّ أي تلقفت صور الحيّات منها فبدت حبالاً وعصياً كما هي وأخذ الله بأبصارهم عن ذلك فإنّ الله يقول: ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ﴾ [سورة طٰه: ٦٩] وما صنعوا الحبال ولا العصيّ وإنما

صنعوا في أعين الناظرين صور الحيات وهي التي تلقفت عصا موسىٰ فتنبّه لما ذكرت لك، فإن المفسرين ذهلوا عن هذا الإدراك في أخبار الله تعالىٰ فإنه ما قال تلقف حبالهم وعصيهم فكانت الآية عند السحرة خوف موسىٰ وأخذ صور الحيات من الحبال والعصيّ، وعلموا أن الذي جاء به موسىٰ من عند الله، فآمنوا بما جاء به موسىٰ عن آخرهم وخرّوا سجداً عند هذه الآية وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [سورة طه: ٧٠] حتى يرتفع الالتباس، فإنهم لو وقفوا على العالمين لقال فرعون: أنا رب العالمين إياي عنوا، فزادوا رب موسىٰ وهرون أي الذي يدعو إليه موسىٰ وهرون فارتفع الإشكال فتوعدهم فرعون بالعذاب فآثروا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة وكان من كلامهم ما قصّ الله علينا.

وأمّا العامة فنسبوا ما جاء به موسىٰ إلى أنه من قبيل ما جاءت به السحرة إلاّ أنه أقوى منهم وأعلم بالسحر بالتلقف الذي ظهر من حية عصا موسىٰ عليه السلام فقالوا: هذا سحر عظيم، ولم تكن آية موسىٰ عند السحرة إلاّ خوفه وأخذ صور الحيات من الحبال والعصيّ خاصة، فمثل هذا خارج عن قوّة النفس وعن خواص الأسماء لوجود الخوف الذي ظهر من موسىٰ في أول مرة فكان الفعل من الله، ولما واقع السحرة اللبس على أعين الناظرين بتصيير الحبال والعصيّ حيات في نظرهم أراد الحق أن يأتيهم من بابهم الذي يعرفونه كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٩] فإن الله يراعي في الأمور المناسبات، فجعل العصا حية كحيات عصيهم في عموم الناس، ولبس على السحرة بما أظهر من خوف موسىٰ فتخيّلوا أنه خاف من الحيات وكان موسىٰ في نفس الأمر غير خائف من الحيات لما تقدّم له في ذلك من الله في الفعل الأول حين قال له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [سورة طه: ٢١] فنهاه عن الخوف منها وأعلمه أن ذلك آية له، فكان خوفه الثاني على الناس لئلا يلتبس عليهم الدليل والشبهة والسحرة تظنّ أنه خاف من الحيات فلبس الله عليهم خوفه كما لبسوا على الناس، وهذا غاية الاستقصاء الإلهيّ في المناسبات في هذا الموطن لأن السحرة لو علمت أن خوف موسىٰ من الغلبة بالحجة لما سارعت إلى الإيمان.

ثم إنه كان لحية موسىٰ التلقف ولم يكن لحياتهم تلقف ولا أثر لأنها حبال وعصيّ في نفس الأمر، فهذا المنزل الذي ذكرناه في هذا الباب أنه مجاور لعلم جزئيّ من علوم الكون هو هذا العلم الجزئي علم المعجزات لأنه ليس عن قوّة نفسية ولا عن خواص أسماء، فإن موسىٰ عليه السلام لو كان انفعال العصا حية عن قوّة همية أو عن أسماء أعطيها ما ولّى مدبراً ولم يعقب خوفاً، فعلمنا أن ثَمَّ أموراً تختصّ بجانب الحق في علمه لا يعرفها من ظهرت على يده تلك الصورة، فهذا المنزل مجاور لما جاءت به الأنبياء من كونه ليس عن حيلة ولم يكن مثل معجزات الأنبياء عليهم السلام لأن الأنبياء لا علم لهم بذلك، وهؤلاء ظهر ذلك عنهم بهمتهم أو قوّة نفسهم أو صدقهم قل كيف شئت، فلهذا اختصّت باسم الكرامات ولم تسمَّ معجزات ولا سمّيت سحراً، فإن المعجزة ما يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها إمّا صرفاً وإمّا أن تكون

ليست من مقدورات البشر العدم قوّة النفس وخواص الأسماء وتظهر على أيديهم، وأن السحر هو الذي يظهر فيه وجه إلى الحق وهو في نفس الأمر ليس حقاً مشتق من السحر الزماني وهو اختلاط الضوء والظلمة، فما هو بليل لما خالطه من ضوء الصبح، وهو ليس بنهار لعدم طلوع الشمس للأبصار، فكذلك هذا الذي يسمّى سحْراً ما هو باطل محقق فيكون عدماً فإن العين أدركت أمراً ما لا تشك فيه، وما هو حق محض فيكون له وجود في عينه فإنه ليس في نفسه كما تشهده العين ويظنه الرائي، وكرامات الأولياء ليست من قبيل السحر فإن لها حقيقة في نفسها وجودية وليست بمعجزة فإنه على علم وعن قوّة همة.

وأمّا قول عليم لحقيقتك بربك تراها ذهباً فإن الأعيان لا تنقلب وذلك لما رآه قد عظم ذلك الأمر عندما رآه فقال له: العلم بك أشرف ممّا رأيت فاتصف بالعلم فإنه أعظم من كون الأسطوانة كانت ذهباً في نفس الأمر، فأعلمه أن الأعيان لا تنقلب وهو صحيح في نفس الأمر أي أن الحجرية لم ترجع ذهباً فإن حقيقة الحجرية قبلها هذا الجوهر كما قبل الجسم الحرارة فقيل فيه إنه حار، فإذا أراد الله أن يكسو هذا الجوهر صورة الذهب خلع عنه صورة الحجر وكساه صورة الذهب فظهر الجوهر أو الجسم الذي كان حجراً ذهباً، كما خلع عن الجسم الحار الحرارة وكساه البرد فصار بارداً، فما انقلبت عين الحرارة برودة، والجسم البارد بعينه هو الذي كان حارّاً فما انقلبت الأعيان كذلك حكاية عليم الجوهر الذي قبل صورة الذهب عند الضرب هو الذي كان قد قبل صورة الحجر، والجوهر هو الجوهر بعينه فالحجر ما عاد ذهباً، ولا الذهب عاد حجراً، كما أن الجوهر الهيولاني قبل صورة الماء فقيل هو ماء بلا شك، فإذا جعلته في القدر وأغليتها على النار إلى أن يصعد بخاراً فتعلم قطعاً أن صورة الماء زالت عنه وقبل صورة البخار فصار يطلب الصعود لعنصره الأعظم كما كان، إذ قامت به صورة الماء يطلب عنصره الأعظم فيأخذ سفلاً، فهذا معنى قول عليم في هذا المنزل المختص بالأولياء.

والهمة المجاورة لعلم المعجزة أن الأعيان لا تنقلب، وقوله لحقيقتك بربك أي إذا اطلعت إلى حقيقتك وجدت نفسك عبداً محضاً عاجزاً ميتاً ضعيفاً عدماً لا وجود لك كمثل هذا الجوهر ما لم يلبس الصور لم يظهر له عين في الوجود، فهذا العبد يلبس صور الأسماء الإلهية فتظهر بها عينه، فأول اسم يلبسه الوجود فيظهر موجوداً لنفسه حتى يقبل جميع ما يمكن أن يقبله الموجود من حيث ما هو موجود فيقبل جميع ما يخلع عليه الحق من الأسماء الإلهية فيتصف عند ذلك بالحي، والقادر، والعليم، والمريد، والسميع، والبصير، والمتكلم، والشَّكور، والرحيم، والخالق، والمصوّر، وجميع الأسماء. كما اتصف هذا الجسم بالحجر، والذهب، والفضة، والنحاس، والماء، والهواء، ولم تزل حقيقة الجسمية عن كل واحد مع وجود هذه الصفات، كذلك لا يزول عن الإنسان حقيقة كونه عبداً إنساناً مع وجود هذه الأسماء الإلهية فيه، فهذا معنى قوله:

لحقيقتك بربك أي لارتباط حقيقتك بربك، فلا تخلو عن صورة إلهية تظهر فيها كذلك هذا الجسم لا يخلو عن صورة يظهر فيها.

وكما تتنوّع أنت بصور الأسماء الإلهية فينطلق عليك بحسب كل صورة اسم غير الاسم الآخر، كذلك ينطلق على هذا الجوهر اسم الحجرية والذهبية للوصف لا لعينه، فقد تبينت فيما ذكرناه الثلاثة الأقسام في خرق العوائد وهي: المعجزات، والكرامات، والسحر، وما ثم خرق عادة أكثر من هذا، ولست أعني بالكرامات إلاَّ ما ظهر عن قوّة الهمة لا أني أريد بهذا الاصطلاح في هذا الموضع التقريب الإلهيّ لهذ الشخص فإنه قد يكون ذلك استدراجاً ومكراً، وإنما أطلقت عليه اسم الكرامة لأنه الغالب والمكر فيه قليل جدّاً، فهذا المنزل مجاور آيات الأنبياء عليهم السلام، وهو العلم الجزئي من علوم الكون لا يجاور السحر، فإن كرامة الوليّ وخرق العادة له إنما كانت باتباع الرسول، والجري على سنته فكأنها من آيات ذلك النبيّ إذ باتباعه ظهرت للمتحقق بالاتباع فلهذا جاورته فأقطاب هذا المنزل كل وليّ ظهر عليه خرق عادة عن غير همته فيكون إلى النبوّة أقرب ممّن ظهر عنه خرق العادة بهمته، والأنبياء هم العبيد على أصلهم، فكذلك أقطاب هذا المنزل، فكلما قربت أحوالك من أحوال الأنبياء عليهم السلام كنت في العبودة أمكن وكانت لك الحجة ولم يكن للشيطان عليك سلطان كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٢] وقال: ﴿يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [سورة الجن: الآية ٢٧] فلا أثر للشيطان فيهم فكذلك من قرب منهم، ولما عاينت هذا المشهد قلت القصيدة التي أوّلها: [الطويل]

تنزَّلت الأملاكُ ليلاً على قلبي | ودارتْ عليه مثل دائرة القلبِ
حذاراً من الْقاءِ اللعين إذا يرى | نزولَ علوم الغيبِ عيناً على القلبِ
وذلك حِفْظُ الله في مثل طورنا | وعصمتُه في المرسلين بلا رَيْبِ

القصيدة بكمالها وهي مذكورة في أول الباب الثلاثين وثلاثمائة من هذا الكتاب، وترتيب هذا الباب هو ما ذكرناه من مراتب خرق العوائد، وأمّا ما فيه من الغرائب فإلحاق البشر بالروحانيين في التمثّل، وإلحاق الروحانيين بالبشر في الصورة، وظهور صورة عنهم شبيه الصورة التي يتمثلون بها قال تعالىٰ: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٧] يسمّى روحاً مثل ما هو جبريل روح فيحيي الموتى كما يحيي جبريل. قال ابن عباس: ما وطىء جبريل عليه السلام قط موضعاً من الأرض إلاَّ حيي ذلك الموضع، ولهذا أخذ السامريّ قبضة من أثره حين عرفه لما جاء لموسىٰ وقد علم أن وطأته يحيا بها ما وطئه من الأشياء فقبض قبضة من أثر الرسول فرمى بها في العجل الذي صنعه فحيي ذلك العجل، وكان ذلك إلقاء من الشيطان في نفس السامريّ، لأن الشيطان يعلم منزلة الأرواح فوجد السامريّ في نفسه هذه القوّة وما علم بأنها من إلقاء إبليس فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [سورة طٰه: الآية ٩٦] وفعل ذلك إبليس من حرصه على إضلاله بما يعتقده من

الشريك لله تعالىٰ، فخرج عيسىٰ على صورة جبريل في المعنى والاسم والصورة الممثلة فالتحق البشر بالروحانيّ والتحق الروحاني بصورة البشر في نازلة واحدة. ويكفي هذا القدر من هذا الباب فإنه باب واسع لمريم وآسية، ولحقائق الرسل عليهم السلام فيه مجال رحب فإنه منزل الكمال من حصله ساد على أبناء جنسه وظهر حاكماً على صاحب الجلال والجمال، وهو من مقامات أبي يزيد البسطامي والأفراد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الحادي والعشرون.

(الجزء الثاني والعشرون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الحادي والأربعون

في معرفة أهل الليل واختلاف طبقاتهم وتباينهم في مراتبهم وأسرار أقطابهم

[نظم: الطويل]

ألا إن أهلَ الليل أهلُ تَنَزُّلِ ... وأهلُ معاريج وأهلُ تنقُّلِ
فمن صاعدٍ نحو المَقَام بهمَّةٍ ... ومن نازلٍ يبغي اللحوقَ بأسفَلِ
بحكم التَّداني والتدلِّي هما وعن ... وجود الترقِّي والتلقِّي بمعزلِ
فإن قلتَ فيهم إنهم خيرُ عُصْبَةٍ ... صدقتَ فقد حلوا بأكرم مَنْزِلِ
وإن قلتَ فيهم إنهم شرُّ فتيةٍ ... صدقتَ فليسوا بالنبيِّ ولا الولِي
فهم لا هُمُو ليسوا بهم وبغيرهم ... ولكنهم في مَعْقلٍ متَزَلْزِلِ
عزيز الحمى بين المشاهد والنهى ... وبين جنوبٍ في الهبوب وشَمْألِ
فما منهُمُو إلاَّ إمامٌ مسَوَّدٌ ... إذا أصبحوا نالوا المنى بالتأمُّلِ
لهم نظرةٌ لا يعرف الغيرُ حكْمَها ... لهم سطوةٌ في كل تاج مكلَّلِ

اعلم أيّدك الله بروح منه أن الله جعل الليل لأهله مثل الغيب لنفسه، فكما لا يشهد أحد فعل الله في خلقه لحجاب الغيب الذي أرسله دونهم كذلك لا يشهد أحد فعل أهل الليل مع الله في عبادتهم لحجاب ظلمة الليل التي أرسلها الله دونهم، فهم خير عصبة في حق الله، وهم شرّ فتية في حق أنفسهم، ليسوا بأنبياء تشريع لما ورد من غلق باب النبوّة، ولا يقال في واحد منهم عندهم إنه وليّ لما فيه من المشاركة مع اسم الله، فيقال فيهم أولياء ولا يقولون ذلك عن أنفسهم وإن بشّروا، فجعل الليل لباساً لأهله يلبسونه فيسترهم هذا اللباس عن أعين الأغيار يتمتعون في خلواتهم الليلية بحبيبهم فيناجونه من غير رقيب لأنه جعل النوم في أعين الرقباء سباتاً أي راحة لأهل الليل إلهية كما هو راحة للناس طبيعية، فإذا نام الناس استراح هؤلاء مع ربهم وخلوا به حسّاً ومعنى فيما يسألونه من قبول توبة وإجابة دعوة ومغفرة حوبة وغير ذلك.

فنوم الناس راحة لهم، وأنّ الله تعالىٰ ينزل إليهم بالليل إلى السماء الدنيا فلا يبقى بينه

وبينهم حجاب فلكي، ونزوله إليهم رحمة بهم ويتجلّى من سماء الدنيا عليهم كما ورد في الخبر فيقول: كذب من ادّعى محبتي فإذا جنّه الليل نام عني. أليس كل محب يطلب الخلوة بحبيبه؟ ها أنا ذا قد تجليت لعبادي هل من داع فأستجيب له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ حتى ينصدع الفجر، فأهل الليل هم الفائزون بهذه الحظوة في هذه الخلوة وهذه المسامرة في محاريبهم، فهم قائمون يتلون كلامه ويفتحون أسماعهم لما يقول لهم في كلامه إذا قال: يا أيها الناس. يصغون ويقولون: نحن الناس ما تريد منا يا ربنا في ندائك هذا؟ فيقول لهم عزّ وجلّ على لسانهم بتلاوتهم كلامه الذي أنزله: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة الحج: الآية ١] يا أيها الناس، يقولون: لبيك ربنا، يقول لهم: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢] فيقولون: يا ربنا خاطبتنا فسمعنا وفهمتنا ففهمنا، فيا ربنا وفقنا واستعملنا فيما طلبته منّا من عبادتك وتقواك إذ لا حول لنا ولا قوّة إلاّ بك، ومن نحن حتى تنزل إلينا من علوّ جلالك وتنادينا وتسألنا وتطلب منّا. يا أيها الناس، يقولون: لبيك ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [سورة لقمان: الآية ٣٣] فيقولون: يا ربنا أسمعتنا فسمعنا وأعلمتنا فعلمنا فاعصمنا وتعطف علينا، فالمنصور من نصرته والمؤيد من أيدته، والمخذول من خذلته. يا أيها الإنسان، فيقول الإنسان منهم: لبيك يا رب ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٦] فيقول: كرمك يا رب، فيقول: صدقت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٢] فيقولون: لبيك ربنا ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٢] ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٠] يقولون: وأي قول لنا إلاّ ما تقوّلنا وهل لمخلوق حول أو قوّة إلاّ بك فاجعل نطقنا ذكرك وقولنا تلاوة كتابك. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٥] فيقولون: لبيك ربنا، فيقول تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٥] فيقولون: ربنا أغريتنا بأنفسنا لما جعلتها محلاً لإيمانك فقلت: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢١] وقلت: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] والآيات ليست مطلوبة إلاّ لما تدل عليه وأنت مدلولها، فكأنك تقول في قولك: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي الزمونا وثابروا علينا وألظوا بنا. ثم قلت: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٥] أي حار وتلف حين طلبنا بفكره فأراد أن يدخلنا تحت حكم نظره وعقله ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٥] بما عرفتكم به مني في كتابي وعلى لسان رسولي فعرفتموني بما وصفت لكم به نفسي فما عرفتموني إلاّ بي فلم تضلوا، فكانت لكم هدايتي وتقريبي نوراً تمشون به على صراطنا المستقيم، فلا يزال دأب أهل الليل هكذا مع الله في كل آية يقرؤونها في صلاتهم وفي كل ذكر يذكرونه به حتى ينصدع الفجر.

قال محمد بن عبد الجبار النفري وكان من أهل الليل: أوقفني الحق في موقف العلم، وذكر رضي الله عنه ما قال له الحق في موقفه ذلك فكان من جملة ما قال له في ذلك

الموقف: يا عبدي الليل لي لا للقرآن يتلى الليل لي لا للمحمدة والثناء يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٧] فاجعل الليل لي كما هو لي، فإن في الليل نزولي فلا أراك في النهار في معاشك فإذا جاء الليل وطلبتك ونزلت إليك وجدتك نائماً في راحتك وفي عالم حياتك وما ثم إلاَّ ليل ونهار، فلا في النهار وجدتك وقد جعلته لك ولم أنزل فيه إليك وسلمته لك، وجعلت الليل لي فنزلت إليك فيه لأناجيك وأسامرك وأقضي حوائجك فوجدتك قد نمت عني وأسأت الأدب معي مع دعواك محبتي وإيثار جنابي، فقم بين يديّ وسلني حتى أعطيك مسألتك، وما طلبتك لتتلو القرآن فتقف مع معانيه فإن معانيه تفرقك عني، فآية تمشي بك في جنتي وما أعددت لأوليائي فيها، فأين أنا إذا كنت أنت في جنتي مع الحور المقصورات في الخيام ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [سورة الرحمٰن: ٥٨] ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية: ٥٤] تسقى من رحيق مختوم ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ [سورة المطففين: الآية ٢٧] وآية توقفك مع ملائكتي وهم يدخلون عليك من كل باب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٤] وآية تستشرف بك على جهنم فتعاين ما أعددت فيها لمن عصاني وأشرك بي ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [سورة الواقعة: الآيات ٤٢ ـ ٤٤] ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [سورة الهمزة: الآيات ٤ ـ ٨] أي مسلطة ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ [سورة الهمزة: الآية ٩] أين أنا يا عبدي إذا تلوت هذه الآية وأنت بخاطرك وهمتك في الجنة تارة وفي جهنم تارة، ثم تتلو آية فتمشي بك في: ﴿ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [سورة القارعة: الآيات ١ ـ ٥] ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [سورة الحج: الآية ٢] وترى في ذلك اليوم من هذه الآية: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [سورة عبس: الآيات ٣٤ ـ ٣٧] وترى العرش في ذلك اليوم تحمله ثمانية أملاك وفي ذلك اليوم تعرضون فأين أنا والليل لي، فها أنت يا عبدي في النهار في معاشك وفي الليل فيما تعطيه تلاوتك من جنة ونار وعرض، فأنت بين آخرة ودنيا وبرزخ، فما تركت لي وقتاً تخلو بي فيه إلاَّ جعلته لنفسك والليل لي يا عبدي لا للمحمدة والثناء. ثم تتلو آية: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [سورة النساء: الآية ٦٩]. فتشاهدهم في تلاوتك وتفكر في مقاماتهم وأحوالهم وما أعطيت: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] فوقفت بالثناء والمحمدة مع كل طائفة أثنيت عليهم في كتابي، فأين أنا وأين خلوتك بي؟ ما عرفني ولا عرف مقدار قولي الليل لي، وما عرف لماذا نزلت إليك بالليل إلاَّ العارف المحقق الذي لقيه بعض إخوانه فقال له: يا أخي اذكرني في خلوتك بربك، فأجابه ذلك العبد فقال: إذا ذكرتك فلست معه في خلوة، فمثل ذلك عرف قدر نزولي إلى السماء الدنيا بالليل ولماذا نزلت ولمن

طلبت، فأنا أتلو كتابي عليه بلسانه وهو يسمع فتلك مسامرتي وذلك العبد هو الملتذ بكلامي، فإذا وقف مع معانيه فقد خرج عني بفكره وتأمله، فالذي ينبغي له أن يصغي إليّ ويخلي سمعه لكلامي حتى أكون أنا في تلك التلاوة كما تلوت عليه وأسمعته أكون أنا الذي أشرح له كلامي وأترجم له عن معناه فتلك مسامرتي معه، فيأخذ العلم مني لا من فكره واعتباره، فلا يبالي بذكر جنة ولا نار، ولا حساب ولا عرض، ولا دنيا ولا آخرة، فإنه ما نظرها بعقله ولا بحث عن الآية بفكره، وإنما ألقى السمع لما أقوله له وهو شهيد حاضر معي أتولى تعليمه بنفسي فأقول له: يا عبدي أردت بهذه الآية كذا وكذا، وبهذه الآية الأخرى كذا وكذا، هكذا إلى أن ينصدع الفجر فيحصل من العلوم على يقين ما لم يكن عنده فإنه مني سمع القرآن، ومني سمع شرحه وتفسير معانيه، وما أردت بذلك الكلام وبتلك الآية والسورة فيكون حسن الأدب معي في استماعه وإصاخته، فإن طالبته بالمسامرة في ذلك فيجيبني بحضور ومشاهدة يعرض عليّ جميع ما كلمته به وعلمته إياه، فإن كان أخذه على الاستيفاء وإلاّ فنجبر له ما نقصه من ذلك فيكون لي لا له ولا لمخلوق، فمثل هذا العبد هو لي والليل بيني وبينه، فإذا انصدع الفجر استويت على عرشي، أدبر الأمر أفصل الآيات، ويمشي عبدي إلى معاشه وإلى محادثة إخوانه، وقد فتحت بيني وبينه باباً في خلقي ينظر إليّ منه وانظر إليه منه والخلق لا يشعرون، فأحدثه على ألسنتهم وهم لا يعرفون، ويأخذ مني على بصيرة وهم لا يعلمون، فيحسبون أنه يكلمهم وما يكلم سواي، ويظنون أنه يجيبهم وما يجيب إلاّ إياي كما قال بعض أصحاب هذه الصفة: [الكامل]

يا مؤنسي بالليل إن هَجَعَ الورى ومحدِّثي من بينهم بنَهَاري

وإذ قد أبنت لك عن أهل الليل كيف ينبغي أن يكونوا في ليلهم؟ فإن كنت منهم فقد علمتك الأدب الخاص بأهل الله وكيف ينبغي لهم أن يكونوا مع الله. واعلم أنه تختلف طبقاتهم في ذلك، فالزاهد حاله مع الله في ليله من مقام زهده، والمتوكل حاله مع الله من مقام توكله، وكذلك صاحب كل مقام، ولكل مقام لسان هو الترجمان الإلهي، فهم متباينون في المراتب بحسب الأحوال والمقامات، وأقطاب أهل الليل هم أصحاب المعاني المجرّدة عن الموادّ المحسوسة والخيالية، فهم واقفون مع الحق بالحق على الحق من غير حد ولا نهاية ووجود ضد، ومن أهل الليل من يكون صاحب عروج وارتقاء ودنوّ، فيتلقاه الحق في الطريق وهو نازل إلى السماء الدنيا فيتدلى إليه فيضع كنفه عليه، وكل همة من كل صاحب معراج يتلقاها الحق في ذلك النزول حيث وجدها، فمن الهمم من يلقاها الحق في السماء الدنيا، ومنها من يلقاها في الثانية وفيما بينهما، وفي الثالثة وفيما بينهما، وفي الرابعة وفيما بينهما، وفي الخامسة وفيما بينهما، وفي السادسة وفيما بينهما، وفي السابعة وفيما بينهما، وفي الكرسي وفيما بينهما، وفي العرش في أوّل النزول وفيما بينهما وهو مستوى الرحمن، فيعطي لتلك الهمة من المعاني والمعارف والأسرار بحسب المنزل الذي لقيته فيه، ثم تنزل معه إلى السماء الدنيا فتقف الهمم بين يديه ويستشرف الحق على من بقي من الهمم من أهل الليل في

محاريبهم وما عرجت، فيلقي إليهم الحق تعالىٰ بحسب ما يسألونه في صلاتهم ودعائهم وهم في بيوتهم وفي محاريبهم، فتسمع تلك الهمم التي لقيته في طريقها ما يكون منه جلّ جلاله إلى أولئك العبيد فيستفيدون علوماً لم تكن عندهم، فإنه قد يخطر لأولئك الذين ما صعدت هممهم من السؤال للحق في المعارف والأسرار ما لم يكن في قوّة هذه الهمم أن تسألها لقصورها عنها، فإذا سمعوا الجواب من الحق الذي يجيب به أولئك القوم الذين في محاريبهم وما اخترقت هممهم سماء ولا فلكاً فيحصل لهم من العلم بالله بقدر ما سأل عنه أولئك الأقوام.

وثم همم أُخَر ارتقت فوق العرش إلى مرتبة النفس فقد تجد الحق هناك وجود تنزيه ما هو وجودها له، مثل وجودها له في عالم المساحة والمقدار فيشاهدون مقاماً أنزه ومنزلاً أقدس وبينية لا يحدها التقدير ولا يأخذها التصوير، فبينيتها بينية تمييز علوم ومراتب فهوم، ومن الهمم من يلقاه في العقل الأول، ومن الهمم ما تلقاه في المقربين من الأرواح المهيمة، ومن الهمم ما تلقاه في العماء، ومن الهمم من تلقاه في الأرض المخلوقة من بقية طينة آدم عليه السلام، فإذا لقيته هذه الهمم في هذه المراتب أعطاها على قدر تعطشها من المقام الذي بعثها على الترقي إلى هذه المراتب وينزلون معه إلى السماء الدنيا، وعلى الحقيقة هو ينزلهم إلى السماء الدنيا وينزل معهم فيستفيدون من العلوم التي يهبها الحق لتلك الهمم التي ما تعدّت العرش هكذا كل ليلة.

ثم تنزل هذه الهمم وقد عرفت ما أكرمها به الحق فاجتمعت بالهمم التي ما برحت من مكانها فوجدتها على طبقات: فمنهم من وجد عندهم من العلوم التي لم تتقيد بترق وكان الحق أقرب إليها من حبل الوريد حين كان مع أولئك في العماء وفي السماء الدنيا وما بينهما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فهو مع كل همّة حيث كانت، ويجدون همماً أرضية قد تقدست عن الأينية وعن مراتب العقول فلم تتقيد بحضرة فتنال من العلوم التي تليق بهذه الصفة التي وهبهم الحق منها ما حصلوا عليه من المعارف ما يبهت أولئك الهمم وهي من علوم الإطلاق الخارجة عن الحصر الأينيّ الفلكي وعن الحصر الروحانيّ العقليّ، فهم مع كونهم في ظلمة الطبيعة على نور أضاءت به تلك الظلمة لوجود المشاهدة، وهؤلاء هم الذين يعرفون أن إدراك الأشياء المرئية إنما هو من اجتماع نور البصر مع نور الجسم المستنير شمساً كان أو سراجاً أو ما كان فتظهر المبصرات، فلو فقد الجسم المستنير ما ظهر شيء، ولو فقد البصر ما أضاء شيء مما يدركه البصر مع النور الخارج أصلاً.

ألا ترى صاحب الكشف إذا أظلم الليل وانغلق عليه باب بيته ويكون معه في تلك الظلمة شخص آخر وقد تساويا في عدم الكشف للمبصرات فيكون أحدهما ممن يكشف له في أوقات فيتجلى له نور يجتمع ذلك النور مع نور البصر فيدرك ما في ذلك البيت المظلم مما أراد الله أن يكشف له منه كله أو بعضه يراه مثل ما يراه بالنهار أو بالسراج، ورفيقه الذي هو معه لا يرى إلاّ الظلمة غير ذلك لا يراه، فإن ذلك النور ما تجلّى له حتى يجتمع بنور بصره

فينفر حجاب الظلمة، فلو لم يكن الأمر كما ذكرناه لكان صاحب هذا الكشف مثل صاحبه لا يدرك شيئاً، أو يكون رفيقه مثله يدرك الأشياء فيكون: إمّا من أهل الكشف مثله أو يدركه بنور العلم، فإن المكاشف يدركه بنور الخيال كما يدركه النائم ورفيقه إلى جانبه مستيقظ لا يرى شيئاً كذلك صاحب الكشف. ولو سألت صاحب الكشف: هل ترى ظلمة في حال كشفك؟ لقال: لا بل يقول: أنارت البقعة حتى قلت: إن الشمس ما غابت فأدركت المبصرات كما أدركها نهاراً، وهذه المسألة ما رأيت أحداً نبّه عليها إلاّ إن كان، وما وصل إليّ فالكون كله في أصله مظلم فلا يرى إلاّ بالنورين، فإنه يحدث هذا الأمر ونظيره الذي يؤيده إيجاد العالم فإنه من حيث ذاته عدم ولا يكتسب الوجود إلاّ من كونه قابلاً، وذلك لإمكانه واقتدار الحق المخصص المرجح وجوده على عدمه، فلو زال القبول من الممكن لكان كالمحال لا يقبل الإيجاد، وقد اشترك المحال والممكن قبل الترجيح بالوجود في العدم، كما أنه مع قبوله لو لم يكن اقتدار الحق ما وجد عين هذا المعدوم الذي هو الممكن، فلم تظهر الأعيان المعدومة للوجود إلاّ بكونها قابلة وهو مثل نور البصر، وكون الحق قادراً وهو مثل نور الجسم النير، فظهرت الأعيان كما ظهرت المبصرات بالنورين، فكما أنّ الممكن لا يزال قابلاً والحق مقتدراً ومريداً فينحفظ على الممكن إبقاء الوجود إذ له من ذاته العدم، كذلك الباصر لا يزال نور بصره في بصره والشمس متجلية في نورها فتحفظ الإبصار المتعلق بالمبصرات وهي من ذاتها أعني المبصرات غير منورة بل هي مظلمة، فاعقل إن كنت تعقل، فهذا الأمر أصل ضلال العقلاء وهم لا يشعرون لما لم يعقلوه، وهو سرّ من أسرار الله تعالىٰ جهله أهل النظر.

ومن هذه المسألة يتبين لك قدم الحق وحدوث الخلق لكن على غير الوجه الذي يعقله أهل الكلام وعلى غير الوجه الذي تعقله الحكماء باللقب لا بالحقيقة، فإن الحكماء على الحقيقة هم أهل الله الرسل والأنبياء والأولياء، إلاّ أن الحكماء باللقب أقرب إلى العلم من غيرهم حيث لم يعقلوا الله إلاّ إلهاً، وأهل الكلام من النظار ليس كذلك، فأقطاب أهل الليل من يكون الليل في حقّهم كالنهار كشفاً وشغلاً، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآيتان ١٣٧، ١٣٨] أي تعلمون منهم في الصباح ما تعلمون منهم في الليل، إذ كان ليلاً عند غيرهم ممّن ليس له مقام الكشف بالليل كما لصاحب النور فالليل والصباح عنده سواء، فهذا معنى قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فإن ادّعت لك نفسك أنك من أهل الليل فانظر هل لها قدم وكشف فيما ذكرت لك؟ فهو المحك والمعيار، ولكل ليل في القرآن أمور وعلوم لا يعرفها إلاّ أهل الليل خاصة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والأربعون

في معرفة الفتوّة والفتيان ومنازلهم وطبقاتهم وأسرار أقطابهم

[نظم: الطويل]

وفتيانِ صدقٍ لا ملالةَ عندهم لهم قَدَمٌ في كل فَضلٍ ومكْرُمَهْ

مقسَّمَةٌ أحوالُهم في جليسهم ... فهم بين توقيرٍ لقوم ومَرْحَمَهْ
وإن جاء كفؤ آثروه ببرِّهم ... ولا تلْحَقُ الفتيانَ في ذاك مَنْدمَهْ
لهم من خفايا العلم كل شَعِيرةٍ ... وما هو موسومٌ لديهم بِسِمْسِمَهْ
كنَجْل قَسِيٍّ والذي كان قبله ... ومن كان منهم ممَّن الله أعْلَمَهْ
بذلك حازوا السَّبْقَ في كل حلبةٍ ... فليس يجيبون السَّفيهَ بلفظِ مَهْ
بمَيْمَنَةٍ خُصُّوا تعالىٰ مقامُها ... وليس لها ضدٌّ يسمى بمَشْأَمَهْ
فكلتا يدَيْ ربي يمينٌ كريمةٌ ... وإنَّ كريمَ القوم من كان أكْرَمَهْ
إذا خلع المولى على أهله ترَى ... ملابسَهُم بين الملابس مُعْلَمَهْ

اعلم أن للفتوّة مقام القوّة، وما خلق الله من الطبيعة أقوى من الهواء، وخلق الإنسان أقوى من الهواء إذا كان مؤمناً، كذا ورد في الخبر النبوي عن الله تعالىٰ مع الملائكة لما خلق الأرض وجعلت تميد الحديث بكماله وفي آخره: «**يَا رَبِّ فَهَلْ خَلَقْتَ شَيْئاً أَشَدَّ مِنَ الرِّيحِ؟ قال: نَعَم المُؤْمِنُ يَتَصَدَّقُ بِيَمِينِهِ مَا تَعْرِفُ بِذٰلِكَ شِمَالُهُ**». وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٨] فنعت الرزاق بالقوّة لوجود الكفران بالمنعم من المرزوقين فهو يرزقهم مع كفرهم به، ولا يمنع عنهم الرزق والإنعام والإحسان بكفرهم، مع أن الكفر بالنعم سبب مانع يمنع النعمة، فلا يرزق الكافر مع وجود الكفر منه لما رزقه إلاّ من له القوّة فلهذا نعته بذي القوّة المتين، فإن المتانة في القوّة تضاعفها، فما اكتفى سبحانه بالقوّة حتى وصف نفسه بأنه المتين فيها، إذ كانت القوّة لها طبقات في التمكن من القوي، فوصف نفسه بالمتانة وهذه صفة أهل الفتوّة، فإن الفتوّة ليس فيها شيء من الضعف إذ هي حالة بين الطفولة والكهولة وهو عمر الإنسان من زمان بلوغه إلى تمام الأربعين من ولادته، يقول الله تعالىٰ في هذا المقام: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وذلك حال الفتوّة، وفيها يسمّى فتى وما قرن معها شيئاً من الضعف، ثم قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [سورة الروم: الآية ٥٤] يعني ضعف الكهولة إلى آخر العمر، وشيبة يعني وقاراً أي سكوناً لضعفه عن الحركة، فإن الوقار من الوقر وهو الثقل فقرن مع هذا الضعف الثاني الشيبة التي هي الوقار، فإن الطفل وإن كان ضعيفاً فإنه متحرك جداً. اختلف في حركته هل هي من الطبيعة أو من الروح؟.

روي أن إبراهيم عليه السلام لما رأى الشيب قال: يا رب ما هذا؟ قال: الوقار، قال: اللهم زدني وقاراً، فهذا حال الفتوّة ومقامها، وأصحابها يسمّون الفتيان وهم الذين حازوا مكارم الأخلاق أجمعها، ولا يتمكن لأحد أن يكون حاله مكارم الأخلاق ما لم يعلم المحالّ التي يصرفها فيها ويظهر بها، فالفتيان أهل علم وافر وقد أفردنا لها باباً في داخل هذا الكتاب حين تكلمنا على المقامات والأحوال، فمن ادّعى الفتوّة وليس عنده علم بما ذكرناه فدعواه كاذبة وهو سريع الفضيحة، فلا ينبغي يسمّى فتى إلاّ من علم مقادير الأكوان ومقدار الحضرة الإلهية فيعامل كل موجود على قدره من المعاملة، ويقدم من ينبغي أن يقدم، ويؤخر ما ينبغي

أن يؤخر، وتفاصيل هذا المقام وحكم الطائفة فيه استوفيناه في رسالة الأخلاق التي كتبنا بها للفخر محمد بن عمر بن خطيب الري رحمه الله فلنذكر منها في هذا الباب الأصل الذي ينبغي أن يعوّل عليه، وذلك أنه ليس في وسع الإنسان أن يسع العالم بمكارم أخلاقه إذ كان العالم كله واقفاً مع غرضه أو إرادته لا مع ما ينبغي، فلما اختلفت الأغراض والإرادات وطلب كل صاحب غرض أو إرادة من الفتى أن يعامله بحسب غرضه وإرادته، والأغراض متضادة فيكون غرض زيد في عمرو أن يعادي خالداً، ويكون غرض خالد في زيد أن يعادي عمراً، أو غرضه أن يواليه ويحبه ويودّه، فإن تفتى مع عمرو عادى خالداً وذمّه خالد وأثنى عليه زيد بالفتوّة وكريم الخلق، وإن لم يعاد خالداً ووالاه وأحبه أثنى عليه خالد وذمّه زيد.

فلما رأينا أن الأمر على هذا الحد وأنه لا يعمّ ولم يتمكن عقلاً ولا عادة أن يقوم الإنسان في هذه الدنيا أو حيث كان في مقام يرضي المتضادّين انبغى للفتى أن يترك هوى نفسه ويرجع إلى خالقه الذي هو مولاه وسيده ويقول: أنا عبد، وينبغي للعبد أن يكون بحكم سيده لا بحكم نفسه ولا بحكم غير سيده يتبع مراضيه ويقف عند حدوده ومراسمه، ولا يكن ممّن جعل مع سيده شريكاً في عبوديته، فيكون مع سيده بحسب ما يحد له ويتصرّف فيما يرسم له ولا يبالي وافق أغراض العالم أو خالفهم، فإن وافق ما وافق منها فذلك راجع إلى سيده فخرج له توقيع من ديوان سيده على يدي رسول قام الدليل له والعلم بأنه خرج إليه من عند سيده وأن ذلك التوقيع توقيع سيده فقام له إجلالاً وأخذ توقيع سيده ومع التوقيع مشافهة فشافه العبيد بما أمره السيد أن يشافههم به، وذلك هو الشرع المقرّر والتوقيع هو الكتاب المنزل المسمّى قرآناً، والرسول هو جبريل عليه السلام، وحاجب الباب الذي يصل إليه الرسول الملكي من عند الله بالتوقيع والمشافهة هو النبي المبشر محمد ﷺ أو أيّ نبيّ كان من الأنبياء في زمان بعثتهم، فلزم العبيد مراسم سيدهم التي ضمنها توقيعه والتي جاءت بها المشافهة فلم يكن لهم في نفوسهم ملك ولا تدبير، فمن وقف عند حدود سيده وامتثل مراسيمه ولم يخالفه في شيء مما جاءه به على حد ما رسم له من غير زيادة بقياس أو رأي ولا نقصان بتأويل فعامل جنسه من الناس بما أمر أن يعاملهم به من مؤمن وكافر وعاصٍ ووليّ ومنافق، وما ثم إلاّ هؤلاء الأصناف الأربعة، وكل صنف من هؤلاء على طبقات: فالمؤمن منه طائع وعاص ووليّ ونبيّ ورسول وملك وحيوان ونبات ومعدن، والكافر منه مشرك وغير مشرك، والمنافق منه ينقص في الظاهر عن درك الكافر، فإن المنافق له الدرك الأسفل من النار، والكافر له الأعلى والأسفل، وأمّا العاصي فينقص في الظاهر عن درجة المؤمن المطيع بقدر معصيته.

فهذا الواقف عند مراسم سيده هو الفتى، فكل إنسان لا بدّ أن يكون جليساً لأكبر منه أو أصغر منه أو مكافئاً له إمّا في السنّ وإما في الرتبة، أو فيهما، فالفتى من وقر الكبير في العلم أو في السن، والفتى من رحم الصغير في العلم أو في السن، والفتى من آثر المكافىء في السن أو في العلم، ولست أعني بقولي في العلم إلاّ المرتبة خاصة فأتينا بالعلم لشرفه، فإن الملك قد يكون صغيراً في السن صغيراً في العلم، ويكون شخص من رعيته كبيراً في السن

كبيراً في العلم، فإن عرف الملك قدر ما رسم له الحق في شرعه من توقير الكبير وشرف العلم عامله الملك بذلك، وإن لم يفعل فيكون الملك سيىء الملكة، فينبغي للفتى أن يعرف شرف المرتبة التي هي السلطنة وأنه نائب الله في عباده وخليفته في بلاده فيعامل من أقامه الله فيها، وإن لم يجر الحق على يده بما ينبغي للمرتبة من السمع والطاعة في المنشط والمكره على حد ما رسم له سيده وما هو عليه مما أقام الله ذلك السلطان فيه من الأخلاق المحمودة أو المذمومة في الجور والعدل، فينبغي للفتى أن يوفي السلطان حقه الذي أوجبه الله له عليه، ولا يطلب منه حقه الذي جعله الله له قبل السلطان مما له أن يسامحه فيه إن منعه منه فتوة عليه ورحمة به وتعظيماً لمنزلته إذ كان له أن يطلبه به يوم القيامة، فالفتى من لا خصم له لأنه فيما عليه يؤديه وفيما له يتركه فليس له خصم، فالفتى من لا تصدر منه حركة عبثاً جملة واحدة، ومعنى هذا أن الله سمعه يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [سورة ص: الآية ٢٧] وهذه الحركة الصادرة من الفتى مما بينهما وكذلك حركة كل متحرك خلقه الله بين السماء والأرض فما هي عبث فإن الخالق حكيم.

فالفتى من يتحرّك أو يسكن لحكمة في نفسه، ومن كان هذا حاله في حركاته فلا تكون حركته عبثاً لا في يده ولا في رجله ولا شمّه ولا أكله ولا لمسه ولا سمعه ولا بصره ولا باطنه، فيعلم كل نفس فيه وما ينبغي له وما حكم سيده فيه، ومثل هذا لا يكون عبثاً، وإذا كانت الحركة من غيره فلا ينظرها عبثاً، فإن الله خلقها أي قدّرها وإذا قدّرها فما تكون عبثاً ولا باطلاً، فيكون حاضراً مع هذا عند وقوعها في العالم، فإن فتح له بالعلم في الحكمة فيها فبخ على بخ وهو صاحب عناية، وإن لم يفتح له في العلم بالحكمة فيها فيكفيه حضوره في نفسه أنها حركة مقدرة منسوبة إلى الله، وأن لله فيها سرّاً يعلمه الله فيؤديه هذا القدر من العلم إلى الأدب الإلهي، وهذا لا يكون إلاّ للفتيان أصحاب القوّة الحاكمين على طبائع النفوس والعادات، ولا يكون في هذا المقام من هذه الطائفة إلاّ الملامية فإن الله قد ولاهم على نفوسهم وأيّدهم بروح منه عليها، فلهم التصريف التام والكلمة الماضية والحكم الغالب، فهم السلاطين في صور العبيد يعرفهم الملأ الأعلى، فليس أحد مما سوى الإنس والجان إلاّ ويقول بفضله إلاّ بعض الثقلين فإن الحسد يمنعهم من ذلك، فطبقات الفتيان هو ما ذكرناه من يعلم منهم علم الله في الحركات، ومن لا يعلم علم الله في ذلك على التعيين، وإن علم أن ثمّ أمراً لم يطلعه الله عليه، وأمّا منزلتهم فهو الذي قلنا في أول الباب في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [سورة الروم: الآية ٥٤] وينظر إلى هذا الإيجاد من الحقائق الإلهية الآية الأخرى وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٨] فهم يعاملون الخلق بالإحسان إليهم مع إساءتهم لهم، كإعطاء الله الرزق للمرزوقين الكافرين بالله ونعمه فلهم القوّة العظمى على نفوسهم حيث لم يغلبهم هواهم ولا ما جبلت النفس عليه من حب الثناء والشكر والاعتراف، قال تعالىٰ حاكياً سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم فأطلق الله على ألسنتهم فتوة إبراهيم بلسانهم لما كانت الفتوة بهذه المثابة لأنه قام في الله حق القيام، ولما أحالهم على

الكبير من الأصنام على نية طلب السلامة منهم فإنه قال لهم: ﴿فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٣] يريد توبيخهم ولهذا رجعوا إلى أنفسهم وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٣] في كل حال وإنما سمي ذلك كذباً لإضافة الفعل في عالم الألفاظ إلى كبيرهم، والكبير الله على الحقيقة والله هو الفاعل المكسر للأصنام بيد إبراهيم فإنه يده التي يبطش بها كذا أخبر عن نفسه، فكسر هذه الأصنام التي زعموا أنها آلهة لهم، ألا ترى المشركين يقولون فيهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] فاعترفوا أن ثَمَّ إلهاً كبيراً أكبر من هؤلاء كما هو أحسن الخالقين وأرحم الراحمين.

فهذا الذي قاله إبراهيم عليه السلام صحيح في عقد إبراهيم عليه السلام، وإنما أخطأ المشركون حيث لم يفهموا عن إبراهيم ما أراد بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٣] فكان قصد إبراهيم بكبيرهم الله تعالىٰ وإقامة الحجة عليهم وهو موجود في الاعتقادين وكونهم آلهة ذلك على زعمهم والوقف عليه حسن عندنا تام، وابتدأ إبراهيم بقوله هذا قولي، فالخبر محذوف يدل عليه مساق القصة: ﴿فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٣] فهم يخبرونكم ولو نطقت الأصنام في ذلك الوقت لنسبت الفعل إلى الله لا إلى إبراهيم، فإنه مقرر عند أهل الكشف من أهل طريقنا أن الجماد والنبات والحيوان قد فطرهم الله على معرفته وتسبيحه بحمده فلا يرون فاعلاً إلاّ الله، ومن كان هذا في فطرته كيف ينسب الفعل لغير الله؟ فكان إبراهيم على بيّنة من ربه في الأصنام أنهم لو نطقوا لأضافوا الفعل إلى الله لأنه ما قال لهم سلوهم إلاّ في معرض الدلالة سواء نطقوا أو سكتوا، فإن لم ينطقوا يقول لهم: لم تعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنكم من الله شيئاً ولا عن نفسه، ولو نطقوا لقالوا: إن الله قطعنا قطعاً لا يتمكن في الدلالة أن تقول الأصنام غير هذا، فإنها لو قالت: الصنم الكبير فعل ذلك بنا لكذبت ويكون تقريراً من الله بكفرهم ورداً على إبراهيم عليه السلام، فإن الكبير ما قطعهم جذاذاً، ولو قالوا في إبراهيم إنه قطعنا لصدقوا في الإضافة إلى إبراهيم ولم تلزم الدلالة بنطقهم على وحدانية الله ببقاء الكبير، فيبطل كون إبراهيم قصد الدلالة فلم تقع ولم يصدق ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٣] فكانت له الدلالة في نطقهم لو نطقوا كما قررنا وفي عدم نطقهم لو لم ينطقوا. ومثل هذا ينبغي أن يكون قصد الأنبياء عليهم السلام، فهم العلماء صلوات الله عليهم ولهذا رجعوا إلى أنفسهم فقالوا: إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون فقال الله لمثل هؤلاء: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٥] فكان من فتوته أن باع نفسه في حق أحدية خالقه لا في حق خالقه، لأن الشريك ما ينفي وجود الخالق وإنما يتوجّه على نفي الأحدية، فلا يقوم في هذا المقام إلاّ من له القطبية في الفتوة بحيث يدور عليه مقامها.

ومن الفتوة قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٠] فأطلق عليه باللسان العبراني معنى يعبر عنه في اللسان العربي بالفتى وكان في خدمة موسىٰ عليه السلام، وكان موسىٰ في ذلك الوقت حاجب الباب فإنه الشارع في تلك الأمّة ورسولها، ولكل أمّة باب

خاص إلهي شارعهم هو حاجب ذلك الباب الذي يدخلون منه على الله تعالىٰ، ومحمد ﷺ هو حاجب الحجاب لعموم رسالته دون سائر الأنبياء عليهم السلام، فهم حجبته ﷺ من آدم عليه السلام إلى آخر نبيّ ورسول، وإنما قلنا إنهم حجبته لقوله ﷺ: «**آدمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي**» فهم نوابه في عالم الخلق، وهو روح مجرّد عارف بذلك قبل نشأة جسمه، قيل له: مَتَى كُنْتَ نَبِيّاً؟ فَقَالَ: «**كُنْتُ نَبِيّاً وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ والطِّينِ**» أي لم يوجد آدم بعد إلى أن وصل زمان ظهور جسده المطهر ﷺ، فلم يبق حكم لنائب من نوابه من سائر الحجاب الإلهيين وهم الرسل والأنبياء عليهم السلام إلاَّ عنت وجوههم لقيومية مقامه إذ كان حاجب الحجاب، فقرّر من شرعهم ما شاءه بإذن سيده ومرسله ورفع من شرعهم ما أمر برفعه ونسخه، فربما قال من لا علم له بهذا الأمر: إنّ موسىٰ عليه السلام كان مستقلاً مثل محمد بشرعه فقال رسول الله ﷺ: «**لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حياً مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتبعَنِي**» وصدق ﷺ فالفتى أبداً في منزل التسخير كما قال عليه السلام: «**خَادِمِ القَوْمِ سَيِّدُهُمْ**» فمن كانت خدمته سيادته كان عبداً محضاً خالصاً.

وتفضل الفتيان بعضهم على بعض بحسب المتفتى عليه من المنزلة عند الله بوجه ومن الضعف بوجه، فأعلاهم من تفتى على الأضعف من ذلك الوجه، وأعلاهم أيضاً من تفتى على الأعلى عند الله من ذلك الوجه الآخر، فالمتفتي على الأضعف كصاحب السفرة وهو الشخص الذي أمره شيخه أن يقرب السفرة إلى الأضياف فأبطأ عليهم من أجل النمل الذي كان فيها فلم ير من الفتوة أن ينفض النمل من السفرة، فإن من الفتوة أن يصرفها في الحيوان فوقف إلى أن خرجت النمل من السفرة من ذاتها من غير أن يكون لهذا الشخص في إخراج النمل تعمل قهري، فإن الفتيان لهم الفتوة وليس لهم القهر إلاَّ على نفوسهم خاصة، ومن لا قوّة له لا فتوة له، كما أنه من لا قدرة له لا حلم له، فقال له الشيخ: لقد دققت فهذه مراعاة الأضعف لكنه ما تفتى مع الأضياف حيث أبطأ عن المبادرة إلى كرامتهم.

فلهذا ربطنا في أول الباب أنه لا يتمكن لأحد إرسال المكارم في العموم لاختلاف الأغراض، فينظر الفتى في حق الشخصين المختلفي الأغراض اللذين إذا أرضى الواحد منهما أسخط الآخر، وصورة نظره في حق الشخصين أيهما أقرب إلى حكم الوقت والحال في الشرع فالذي هو أقرب إلى حكم الوقت والحال في الشرع صرف الفتوة معه، فإن اتسع الوقت إلى أن يتفتى مع الآخر بوجه يرضي الله فعل أيضاً، وإن لم يتسع فقدر في المقام حقّه وكان من الفتيان بلا شك، وإن كان في رتبة الفعل بالهمة والفعل بالحس فعل الفتوة مع الواحد حسّاً ومع الآخر بالهمة.

دخل رجل على شيخنا أبي العباس العريبي وأنا عنده فتفاوضا في إيصال معروف فقال الرجل: يا سيدنا الأقربون أولى بالمعروف، فقال الشيخ من غير توقف: إلى الله. وأخبرني أبو عبد الله محمد بن القاسم بن عبد الكريم التميمي الفاسي قال مخبراً عن أبي عبد الله الدقاق كان بمدينة فاس وتذاكروا الفعل بالهمة فقال أبو عبد الله الدقاق: فزت بواحدة ما لي فيها شريك ما اغتبت أحداً قط ولا اغتبت أحد بحضرتي قط، فهذا من الفعل بالهمة حيث

تفتى على من عادته أن يغتاب فيكتسب الأوزار أن لا يقدر على الغيبة في مجلسه بحضوره من غير أن يكون من الشيخ نهي له عن ذلك. وتفتى أيضاً على الذي يذكر بما يكره بحضوره بأنه لا يذكر في فيه بما يكره وكان سيد وقته في هذا الباب، خرّج مناقبه شيخنا أبو عبد الله بن عبد الكريم المذكور آنفاً في كتاب المستفاد في ذكر الصالحين والعباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، فقد علمت على الحقيقة أن الفتى من بذل وسعه واستطاعته في معاملة الخلق على الوجه الذي يرضي الحق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والأربعون

في معرفة جماعة من أقطاب الورعين وعامة ذلك المقام

[نظم: الوافر]

أنــا خَــتْــمُ الــولايــة دون شــكٍّ ... لــوَرْث الــهــاشــمــيِّ مع الــمــســيــحِ
كــمــا أنــي أبــو بــكــرٍ عــتــيــقٌ ... أجــاهِــدُ كــلَّ ذي جــســم وروحِ
بــأَرْمــاحٍ مــثــقَّــفَــةٍ طــوالٍ ... وتــرجــمــةٍ بــقــرآنٍ فــصــيــحِ
أشــدُّ عــلــى كــتــيــبــة كــلِّ عــقــلٍ ... تــنــازعــنــي عــلــى الــوَحْــي الــصَّــريــحِ
لــيَ الــورعُ الــذي يــســمــو اعــتــلاءً ... عــلــى الأحــوال بــالــنــبــأ الــصــحــيــحِ
وســاعــدنــي عــلــيــه رجــالُ صِــدْقٍ ... مــن الــورِعــيــنَ مــن أهــل الــفُــتُــوحِ
يــوالــون الــوجــوبَ وكــلَّ نَــدْبٍ ... ويــســتــثــنــون ســلــطــنــةَ الــمُــبــيــحِ

الكلام على الورع وأهله وتركه يرد في داخل الكتاب في ذكر المقامات والأحوال منه إن شاء الله تعالىٰ، والذي يتعلق بهذا الباب الكلام على معرفة طائفة من أقطابه وعموم مقامه. فاعلم أن أبا عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي كان من عامة هذا المقام، وأبا يزيد البسطامي وشيخنا أبا مدين في زماننا كانا من خاصته، فأعلى أقطاب الورعين اجتناب الاشتراك في إطلاق اللفظ إذ كان الورع اجتناب المحرمات وكل ما فيه شبهة من جانب المحرّم فيجتنب لذلك الشبه وهو المعبر عنه بالشبهات أي الشيء الذي له شبه بما جاء النص الصريح بتحريمه من كتاب أو سنّة أو إجماع بالحال الذي يوجب له هذا الاسم مثل أكل لحم الخنزير لمن ليس له حال الاضطرار فهو عليه حرام فلهذا قلنا بالحال الذي يوجب له هذا الاسم، كما أن المضطرّ ليس بمخاطب بالتحريم، فأكل لحم الخنزير في حق من حاله الاضطرار هو له حلال بلا خلاف.

ولما كان التحريم معناه المنع من الالتباس به ورأوا أن لذلك أحوالاً وأنه ما ثم في الوضع شيء محرّم لعينه لهذا قيده الشارع بالأحوال وقد انسحب عليه التحريم للحال فما هو محرّم لعينه أولى بالاجتناب فلا بدّ من اجتنابه باطناً علماً، وقد يحل هذا المحرّم لعينه في ظاهر الحال ما يلزمه وهذا هو التحريم الذي لا يحل أبداً من حيث معناه، ولا يصحّ أن تجيء آية شرعية تحله وهو الاتصاف بأوصاف الحق تعالىٰ التي بها يكون إلهاً، فواجب شرعاً وعقلاً اجتناب هذه الأسماء الإلهية معنى، وإن أطلقت لفظاً فينبغي أن لا تطلق لفظاً على أحد إلاّ

تلاوة، فيكون الذي يطلقها تالياً حاكياً كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨] فسمّاه عزيزاً رؤوفاً رحيماً، فنسميه بتسمية الله إياه ونعتقد أنه ﷺ في نفسه مع ربه عبد ذليل خاشع أوّاه منيب، فإطلاق الألفاظ التي تطلق على الحق من الوجه الصحيح الذي يليق بالجناب الإلهيّ لا ينبغي أن تطلق على أحد من خلق الله إلاّ حيث أطلقها الحق لا غير، وإن أباح ذلك فالورع ما هو مع المباح ولا سيما في هذه المسألة خاصة فلا يطلقها مع كون ذلك قد أبيح له، فإذا أطلقها على من أطلقها عليه الحق أو الرسول ﷺ فيكون هذا المطلق تالياً أو مترجماً ناقلاً عن رسول الله ﷺ في ذلك الإطلاق.

ثم من الورع عند هؤلاء الرجال أن ينزلوا إلى ما اختصت به الأنبياء والرسل من الإطلاق فيتورّعوا أن يطلقوا عليهم أو على أحد ممّن ليس بنبيّ ولا رسول اللفظ الذي اختصّوا به، فيطلقون على الرسل الذين ليسوا برسل الله لفظ الورثة والمترجمين فيقولون: وصل من السلطان الفلاني إلى السلطان الفلاني ترجمان يقول كذا وكذا فلم يطلقوا على المرسل ولا على المرسل إليه اسم الملك ورعاً وأدباً مع الله وأطلقوا عليه اسم السلطان فإن الملك من أسماء الله فاجتنبوا هذا اللفظ أدباً وحرمة وورعاً وقالوا: السلطان إذ كان هذا اللفظ لم يرد في أسماء الله، وأطلقوا على الرسول الذي جاء من عنده اسم الترجمان ولم يطلقوا عليه اسم الرسول لأنه قد أطلق على رسول الله ﷺ فجعلوه من خصائص النبوّة والرسالة الإلهية أدباً مع رسل الله عليهم السلام، وإن كان هذا اللفظ قد أبيح لهم ولم ينهوا عنه ولكن لم يوجب عليهم فكان لزوم الأدب أولى مع من عرفنا الله أنه أعظم منّا منزلة عنده وهذا لا يعرفه إلاّ الأدباء الورعون.

ثم إنّ لهؤلاء مرتبة أخرى في الورع وهي أنهم رضي الله عنهم يجتنبون كل أمر تقع فيه المزاحمة بين الأكوان ويطلبون طريقاً لا يشاركهم فيها من ليس من جنسهم ولا من مقامهم، فلا يزاحمون أحداً في شيء ممّا يتحققون به في نفوسهم ويتصفون به ويحبون من الله أن يدعوا به في الدنيا والآخرة وهو ما يكونون عليه من الأخلاق الإلهية، فيكونون مع تحققهم بمعانيها وظهور أحكامها على ظواهرهم من الرحمة بعباد الله والتلطّف بهم والإحسان إليهم والتوكّل على الله والقيام بحدود الله، ويظهرون في العالم أن جميع ما يرى عليهم أنّ ذلك فعل الله لا فعلهم، وبيد الله لا بيدهم، وأن المثني عليه بذلك الفعل إنما ينبغي أن يتعلق ذلك الثناء بفاعله وفاعله هو الله جلّ جلاله لا نحن، فيتبرّؤون من أفعالهم الحسنة غاية التبرّي ومن الأوصاف المستحسنة كذلك، وكل وصف مذموم شرعاً وعرفاً يضيفونه إلى أنفسهم أدباً مع الله تعالىٰ وورعاً شافياً كما قال الخضر في العيب: ﴿فَأَرَدتُّ﴾ [سورة الكهف: الآية ٧٩] وفي الخير: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] وكما قال الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٨٠] ولم يقل أمرضني، وكما قال تعالىٰ في معرض التعليم لنا: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٩]. هذا وإن كان الحق في هذا الخبر يحكي قولهم ولكن فيه تنبيه في التعليم. وكما قال عليه السلام في دعائه وهو ممّا يؤيد ما ذهبنا إليه في التنبيه في هذه الآية

فقال: «**وَالخَيْرُ كُلُّه بِيَدَيْكَ**» فأكّد بكل وهي كلمة تقتضي الإحاطة في اللسان وقال: «**والشَّرُّ لَيسِ إِلَيكَ**» وإن كان لم يؤكده واكتفى بالألف واللام ونفى إضافة الشرّ أدباً مع الله وحقيقة، وهذه المسألة من أغمض المسائل الإلهية عند أهل الله خاصة، وأمّا أهل النظر فقد اعتمدت كل طائفة منهم على ما اقتضاه دليلها في زعمها، وهؤلاء الرجال الغالب عليهم فهم مقاصد الشرع فجروا معه على مقصده وذلك من بركة الورع والاحترام الذي احترموا به الجناب الإلهي حقيقة لا مجازاً، فتح الله لهم بأدبهم عين الفهم في كتبه وفيما جاءت به رسله ممّا لا تستقل العقول بإدراكه وما تستقل، لكن أخذوه عن الله لا عن نظرهم، ففهموا من ذلك كله بهذه العناية ما لم يفهم من لم يتصف بهذه الصفة ولم يكن له هذا المقام.

ولما كان هذا حال الورعين سلكوا في أمورهم وحركاتهم مسالك العامّة فلم يظهر عليهم ما يتميزون به عنهم واستتروا بالأسباب الموضوعة في العالم التي لا يقع الثناء بها على من تلبس بها، فلم ينطبق على هؤلاء الرجال في العموم اسم صلاح يخرجهم عن صلاح العامّة، ولا توكل ولا زهد، ولا ورع، ولا شيء مما يقع عليه اسم ثناء خاص يخرجون به عن العامّة ويشار إليهم فيه، مع أنهم أهل ورع، وتوكل، وزهد، وخلق حسن، وقناعة، وسخاء، وإيثار. فأمثال هذا كله اجتنب رجال الله من هؤلاء الطبقة فسمّوا ورعين في اصطلاح أهل الله لأن الورع الاجتناب وتدبّر، ما أحسن قول من أوتي جوامع الكلم ﷺ كيف قال في هذا المقام يعلم رجاله كيف يكونون فيه: «**دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يُرِيبُكَ**» وقال: «**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ المُفْتُونَ**» فأحالهم على قلوبهم لما علم ما فيها من سرّ الله الحاوية عليه في تحصيل هذا المقام، ففي القلوب عصمة إلهية لا يشعر بها إلاّ أهل المراقبة وفيه ستر لهم، فإنّ هؤلاء الرجال لو سألوا وعرف منهم البحث والتفتيش في مثل هذا عند الناس وعند العلماء الذين سئلوا في ذلك بالضرورة كان يشار إليهم ويعتقد فيهم الدين الخالص كبشر الحافي وغيره وهو من أقطاب هذا المقام عرف به وسلم له.

حكي أن أخت بشر الحافي سألت أحد أئمة الدين في الغزل الذي تغزله في ضوء مشاعل الظاهرية إذا مرّوا بها ليلاً وهي على سطحها فعرفت بهذا السؤال أنها من أهل الورع، ولو عملت على حديث: «**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ**» لعلمت أنها ما سألت حتى رابها فكانت تدع ذلك الغزل أو لا تغزل بعد ذلك وتترك الغزل، فأفتاها الإمام المسؤول وهو أحمد بن حنبل وأثنى عليها بذلك حتى نقل إلينا وسطر في الكتب فأعطانا ﷺ الميزان في قلوبنا ليكون مقامنا مستوراً عن الأغيار خالصاً لله مخلصاً لا يعلمه إلاّ الله ثم صاحبه وهو قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] فكل دين وقع فيه ضرب من الاشتراك المحمود أو المذموم فما هو بالدين الخالص الذي لله إن كان الذي وقع به الاشتراك محموداً كمسألة أخت بشر الحافي، وإن وقع الاشتراك بالمذموم فليس بدين أصلاً فإنه ليس ثمَّ دين إلهي يتعلق به لسان ذم.

فلما رأى رجال هذا المقام مراعاة النبيّ ﷺ ما يحصل في قلب العبد ممّا قاله وما أحال به لإنسان على نفسه باجتنابه طلباً للتستر تعملوا في تحصيل ذلك وسلكوا عليه وعلموا أن النجاة

المطلوبة من الشارع لنا إنما هي في ستر المقام، فأعطاهم العمل على هذا والتحقق به الحقيقة الإلهية التي استندوا إليها في ذلك وهو اجتنابه التجلي منه سبحانه لعموم عباده في الدنيا فاقتدوا بربهم في احتجابه عن خلقه، فعلم هؤلاء الرجال أن هذه الدار دار ستر، وأن الله ما اكتفى في التعريف بالدين حتى نعته بالخالص، فطلبوا طريقاً لا يشوبهم فيها شيء من الاشتراك حتى يعاملوا الموطن بما يستحقه أدباً وحكمة وشرعاً واقتداء، فاستتروا عن الخلق بحسن الورع الذي لا يشعر به وهو ظاهر الدين والعلم المعهود، فإنهم لو سلكوا غير المعهود في الظاهر في العموم من الدين لتميزوا وجاء الأمر على خلاف ما قصدوه فكانت أسماؤهم أسماء العامّة، فهؤلاء الرجال يحمدهم الله وتحمدهم الأسماء الإلهية القدسية، ويحمدهم الملائكة، ويحمدهم الأنبياء والرسل، ويحمدهم الحيوان والنبات والجماد وكل شيء يسبح بحمد الله.

وأمّا الثقلان فيجهلونهم إلاّ أهل التعريف الإلهي فإنهم يحمدونهم ولا يظهرونهم. وأمّا غير أهل التعريف الإلهي من الثقلين فهم فيهم مثل ما هم في حق العامة يذكرونهم بحسب أغراضهم فيهم لا غير فلهم المقام المجهول في العامة.

أمّا ثناء الله عليهم فلتعملهم استخلاصهم لله فخلصوا له دينه فأثنى عليهم حيث لم يملكهم كون ولا حكم على عبوديتهم رب غير الله. وأمّا ثناء الأسماء الإلهية عليهم فكونهم تلقوها وعلموا تأثيرها وما أثروا بها في كون من الأكوان، فيذكرون بذلك الأمر الذي هو لذلك الاسم الإلهي فيكون حجاباً على ذلك الاسم، فلما لم يفعلوا ذلك وأضافوا الأثر الصادر على أيديهم للاسم الإلهي الذي هو صاحب الأثر على الحقيقة حمدتهم الأسماء الإلهية بأجمعها. وأمّا ثناء الملائكة فلأنهم ما زاحموهم فيما نسبوه إلى أنفسهم بالنسبة لا بالفعل في قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] فقال هؤلاء الرجال: لا حول ولا قوّة إلاّ بك، فلم يدّعوا في شيء ممّا هم عليه من تعظيم الله ونسبوا ذلك إلى الله فأثنت عليهم الملائكة، فإنها مع هذه الحال لم تجرح الملائكة وتأدّبت معها حيث لم تتعرض للطعن عليها بما صدر منها في حق أبيها آدم عليه السلام، واعتذرت عن الملائكة لإيثارهم جناب الحق وإصابتهم العلم فإنه وقع ما قالوه في بني آدم لا شك من الفساد وسفك الدماء ولهذا سر معلوم. وأمّا ثناء الأنبياء والرسل عليهم السلام فلكونهم سلموا لهم ما ادّعوه أنه لهم من النبوّة والرسالة وآمنوا بهم وما توقفوا مع كونهم على أحوالهم من أجزاء النبوّة قد اتصفوا بها، ولكن مع هذا لم يتسموا بأنبياء ولا برسل وأخلصوا في اتباع آثارهم قدماً بقدم كما روي عن الإمام أحمد بن حنبل المتبع المقتدي سيد وقته في تركه أكل البطيخ لأنه ما ثبت عنده كيف كان يأكله رسول الله ﷺ، فدلّ ذلك على قوّة اتباعه كيفيات أحوال الرسول ﷺ في حركاته وسكناته وجميع أفعاله وأحواله، وإنما عرف هذا منه لأنه كان في مقام الوراثة في التبليغ والإرشاد بالقول والعمل والحال لأن ذلك أمكن في نفس السامع فهو وأمثاله حفاظ الشريعة على هذه الأمّة. وأمّا ثناء الحيوان والنبات والجماد عليهم فإن هؤلاء الأصناف عرفوا الحركات التي تسمّى عبثاً من التي لا تسمّى عبثاً، فكل من تحرّك فيهم بحركة تكون عبثاً عند

المتحرك بها لا عند المحرك يعلم الناظر منهم المشاهد لتلك الحركة العبثية أنه صاحب غفلة عن الله، ورأت هذه الطائفة أنها لا تتحرك في حيوان ولا نبات ولا جماد بحركة تكون عبثاً، ويلحق بهذا الباب صيد الملوك ومن لا حاجة له بذلك إلاً للفرجة واللهو واللعب فأثنى من ذكرناه من هؤلاء الأصناف على هذه الطائفة فالله يقول: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ بإمهالكم حيث لم يؤاخذكم سريعاً بما رددتم من ذلك ﴿غَفُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] حيث ستر عنكم تسبيح هؤلاء فلم تفقهوه. وقال تعالىٰ في حال من مات ممقوتاً عند الله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [سورة الدخان: الآية ٢٩] فوصف السماء والأرض بالبكاء على أهل الله، ولا يشك مؤمن في كل شيء أنه مسبح وكل مسبح حيّ عقلاً.

وورد أن العصفور يأتي يوم القيامة فيقول: يا رب سل هذا لم قتلني عبثاً؟ وكذلك من يقطع شجرة لغير منفعة أو ينقل حجراً لغير فائدة تعوْد على أحد من خلق الله، فلما أعطى الله هذه المعارف لهؤلاء الأصناف لذلك وصفتها بالثناء على هؤلاء الرجال وعرفت ذلك منهم كشفاً حسياً مثل ما كان للصحابة سماع تسبيح الحصا وتسبيح الطعام لأنهم ليس بينهم وبين الحركة العبثية دخول بل يجتنبون ذلك جملة واحدة، ولما جهل أكثر الثقلين هذه العلوم لذلك لا يعرفون مراتب هؤلاء الرجال فلا يمدحونهم ولا يتعرّضون إليهم، ولهذا أخبر تعالىٰ أن كل شيء في العالم يسجد لله تعالىٰ من غير تبعيض إلاً الناس فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ ولم يبعض ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨] فبعض، فإن فهمت ما ذكرناه لك من صفة أصحاب هذا المقام وسلكت طريقهم كنت من المفلحين الفائزين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الثالث والعشرون.

(الجزء الرابع والعشرون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الرابع والأربعون
في البهاليل وأئمتهم في البهللة

[نظم: المتقارب]

إذا كـنـتَ فـي طـاعـةٍ راغـبـاً فـلا تـكـسُـهـا حُـلَّـةَ الآجـلِ
وكـن كـالـبـهـالـيـل فـي حـالـهـم مـع الـوقـت يَـجْـرون كـالـعـاقِـلِ
وحَـوْصِـلْ مـن الـسـنـبـل الـحـاصـل ولا تـــصـــبـــرنَّ إلـــى قـــابِـــلِ
فـحَـوْصَـلَـةُ الـرزق قـد هُـيِّـئـت لـيـحـصـل مـا لـيـس بـالـحـاصـلِ
ولا تـبـكـيـنَّ عـلـى فـائـتٍ يـفُـتْـكَ الـذي هـو فـي الـعـاجـلِ
وسـوفَ فـلا تـلـتـفِـتْ حـكْـمَـهـا ولا الـسِّـيـنُ وارحَـلْ مـع الـراحـلِ

عســاك إذا كنــت ذا عَــزْمــةٍ ومــتَّ حــصــلــت عــلــى طــائــلِ
وقــل لــلــذي لــم يــزل وانــيــاً تــخــبَّــطــتَ فــي شِــرْكــةِ الــحــابِــلِ
ومــا ظَــفــرتْ كــفُّــكــم بــالــذي تــريــدُ فــيــا خَــيْــبَــةَ الــســائــلِ
فــلــو كــان فــعــلُــك فــي أمــره كــفــعــل الــفــتــى الــحَــذر الــواجِــلِ
لــمــيَّــزْتَ بــيــنــي وبــيــن الــذي يــجــلــي لــك الــحــقَّ كــالــبــاطــلِ

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [سورة الحج: الآية ٢] وذلك أن الله قوماً كانت عقولهم محجوبة بما كانوا عليه من الأعمال التي كلفهم الحق تعالىٰ في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ التصرّف فيها شرعاً وشرعها لهم، ولم يكن لهم علم بأن الله تعالىٰ الحق فجأة لمن خلا به في سرّه وأطاعه في أمره وهيأ قلبه لنوره من حيث لا يشعر، ففجأه الحق على غفلة منه بذلك وعدم علم واستعداد لهائل أمر، فذهب بعقله في الذاهبين وأبقى تعالىٰ ذلك الأمر الذي فجأه مشهوداً له فهام فيه ومضى معه فبقي في عالم شهادته بروحه الحيواني يأكل ويشرب ويتصرّف في ضروراته الحيوانية تصرّف الحيوان المفطور على العلم بمنافعه المحسوسة ومضارّه من غير تدبير ولا روية ولا فكر، ينطق بالحكمة ولا علم له بها، ولا يقصد نفعك بها لتتعظ وتتذكر أن الأمور ليست بيدك وأنك عبد مصرف بتصريف حكيم، وسقط التكليف عن هؤلاء إذ ليس لهم عقول يقبلون بها ولا يفقهون بها ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٩٨] ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٩٩] أي القليل ممّا يجري الله على ألسنتهم من الحكم والمواعظ، وهؤلاء هم الذين يسمّون عقلاء المجانين، يريدون بذلك أن جنونهم ما كان سببه فساد مزاج عن أمر كوني من غذاء أو جوع أو غير ذلك، وإنما كان عن تجلّ إلهيّ لقلوبهم، وفجأة من فجآت الحق فجأتهم فذهبت بعقولهم فعقولهم محبوسة عنده منعمة بشهوده عاكفة في حضرته متنزهة في جماله، فهم أصحاب عقول بلا عقول، وعرفوا في الظاهر بالمجانين أي المستورين عن تدبير عقولهم فلهذا سمّوا عقلاء المجانين.

قيل لأبي السعود بن الشبل البغداديّ عاقل زمانه: ما تقول في عقلاء المجانين من أهل الله؟ فقال رضي الله عنه: هو ملاح والعقلاء منهم أملح، قيل له: فبماذا نعرف مجانين الحق من غيرهم؟ فقال: مجانين الحق تظهر عليهم آثار القدرة، والعقلاء يشهد الحق بشهودهم، أخبرني بذلك عنه صاحبه أبو البدر التماسكيّ رحمه الله وكان ثقة ضابطاً عارفاً بما ينقل لا يجعل فاء مكان واو، فقال الشيخ: من شاهد ما شاهدوا وأبقى عليه عقله فذلك أحسن وأمكن فإنه قد أقيم وأعطي من القوّة قريباً ممّا أعطيت الرسل وإن تغيّروا في وقت الفجآت، فقد علمنا أن رسول الله ﷺ لما فجأه الوحي جئث منه رعباً فأتى خديجة ترجف بوادره فقال: زمّلوني زمّلوني وذلك من تجلّي ملك فكيف به بتجلّي ملك؟ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٣] وكان رسول الله ﷺ إذا جاءه الوحي ونزل الروح الأمين به على قلبه أخذ عن حسّه وسجى ورغا كما يرغو البعير حتى ينفصل عنه وقد وعى ما جاءه به فيلقيه على الحاضرين ويبلغه للسامعين، فمواجده ﷺ من تجلّيات ربّه على

قلبه أعظم سطوة من نزول ملك ووارد في الوقت الذي لم يكن يسعه فيه غير ربّه، ولكن كان منتظراً مستعداً لذلك الهول، ومع هذا يؤخذ عن نفسه، فلولا أنه رسول مطلوب بتبليغ الرسالة وسياسة الأمّة لذهب الله بعقول الرسل لعظيم ما يشاهدونه، فمكّنهم الله القويّ المتين من القوّة بحيث يتمكّنون من قبول ما يرد عليهم من الحق ويوصلونه إلى الناس ويعملون به.

فاعلم أن الناس في هذا المقام على إحدى ثلاث مراتب: منهم من يكون وارده أعظم من القوّة التي يكون في نفسه عليها فيحكم الوارد عليه فيغلب عليه الحال فيكون بحكمه يصرّفه الحال ولا تدبير له في نفسه ما دام في ذلك الحال، فإن استمرّ عليه إلى آخر عمره فذلك المسمّى في هذه الطريقة بالجنون كأبي عقال المغربي. ومنهم من يمسك عقله هناك ويبقى عليه عقل حيوانيته فيأكل ويشرب ويتصرّف من غير تدبير ولا روية فهؤلاء يسمّون عقلاء المجانين لتناولهم العيش الطبيعي كسائر الحيوانات، وأمّا مثل أبي عقال فمجنون مأخوذ عنه بالكلية ولهذا ما أكل وما شرب من حين أخذ إلى أن مات وذلك في مدّة أربع سنين بمكة فهو مجنون أي مستور مطلق عن عالم حسّه. ومنهم من لا يدوم له حكم ذلك الوارد فيزول عنه الحال فيرجع إلى الناس بعقله فيدبر أمره ويعقل ما يقول ويقال له ويتصرّف عن تدبير وروية مثل كل إنسان وذلك هو النبي وأصحاب الأحوال من الأولياء. ومنهم من يكون وارده وتجليه مساوياً لقوّته فلا يرى عليه أثر من ذلك حاكم لكن يشعر عندما يبصر أن ثم أمراً ما طرأ عليه شعوراً خفياً فإنه لا بدّ لهذا أن يصغي إليه أي إلى ذلك الوارد حتى يأخذ عنه ما جاءه به من عند الحق، فحاله كحال جليسك الذي يكون معك في حديث فيأتي شخص آخر في أمر من عند الملك إليه فيترك الحديث معك ويصغي إلى ما يقول له ذلك الشخص، فإذا أوصل إليه ما عنده رجع إليك فحادثك، فلو لم تبصره عينك ورأيته يصغي إلى أمر شعرت أن ثم أمراً شغله عنك في ذلك، كرجل يحدثك فأخذته فكرة في أمر فصرف حسّه إليه في خياله فجمدت عينه ونظره وأنت تحدّثه فتنظر إليه غير قابل حديثك فتشعر أن باطنه متفكر في أمر آخر خلاف ما أنت عليه.

ومنهم من تكون قوّته أقوى من الوارد فإذا أتاه الوارد وهو معك في حديث لم تشعر به، وهو يأخذ من الوارد ما يلقى إليه ويأخذ عنك ما تحدّثه به أو يحدّثك به. وما ثم أمر رابع في واردات الحق على قلوب أهل هذه الطريقة وهي مسألة غلط فيها بعض أهل الطريق في الفرق بين النبيّ والوليّ فقالوا: الأنبياء يصرفون الأحوال والأولياء تصرّفهم الأحوال، فالأنبياء مالكون أحوالهم، والأولياء مملوكون لأحوالهم، والأمر إنما هو كما فصلناه لك، وقد بيّنا لك لماذا يردّ الرسول ويحفظ عليه عقله مع كونه يؤخذ ولا بدّ عن حسّه في وقت وارد الحق على قلبه بالوحي المنزّل فافهم ذلك وتحققه.

وقد لقينا جماعة منهم وعاشرناهم واقتبسنا من فوائدهم، ولقد كنت واقفاً على واحد منهم والناس قد اجتمعوا عليه وهو ينظر إليهم وهو يقول لهم: أطيعوا الله يا مساكين فإنكم من طين خلقتم وأخاف عليكم أن تطبخ النار هذه الأواني فتردّها فخاراً، فهل رأيتم قط آنية من طين تكون فخاراً من غير أن تطبخها نار؟ يا مساكين لا يغرنّكم إبليس بكونه يدخل النار معكم

وتقولون الله يقول: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة ص: الآية ٨٥] إبليس خلقه الله من نار فهو يرجع إلى أصله، وأنتم من طين تتحكم النار في مفاصلكم، يا مساكين انظروا إلى إشارة الحق في خطابه لإبليس بقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ [سورة ص: الآية ٨٥] وهنا قف ولا تقرأ ما بعدها فقال له: جهنم منك وهو قوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ١٥] فمن دخل بيته وجاء إلى داره واجتمع بأهله ما هو مثل الغريب الوارد عليه فهو رجع إلى ما به افتخر قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢] فسروره رجوعه إلى أصله، وأنتم يا مناحيس تتفخر بالنار طينتكم، فلا تسمعوا من إبليس ولا تطيعوا واهربوا إلى محل النور تسعدوا، يا مساكين أنتم عمي ما تبصرون الذي أبصره أنا، تقولون: سقف هذا المسجد ما يمسكه إلاّ هذه الأسطوانات أنتم تبصرونها أسطوانات من رخام وأنا أبصرها رجالاً يذكرون الله ويمجدونه بالرجال تقوم السموات فكيف هذا المسجد ما أدري إما أنا هو الأعمى لا أبصر الأسطوانات حجارة، وإما أنتم هم العمي لا تبصرون هذه الأسطوانات رجالاً، والله يا إخوتي ما أدري لا والله أنتم هم العمي، ثم استشهدني دون الجماعة فقال: يا شاب ألست أقول الحق؟ قلت: بلى، ثم جلست إلى جانبه فجعل يضحك وقال: يا ناس الأستاه المنتنة تصفر بعضها لبعض وهذا الشاب منتن مثلي هذه المناسبة جعلته يجلس إلى جانبي ويصدقني، أنتم الساعة تحسبونه عاقلاً وأنا مجنون هو أجنّ مني بكثير، وإنما أنتم كما أعماكم الله عن رؤية هذه الأسطوانات رجالاً أعماكم أيضاً عن جنون هذا الشاب، ثم أخذ بيدي وقال: قم امش بنا عن هؤلاء، فخرجت معه فلما فارق الناس ترك يدي من يده وانصرف عني، وهو من أكبر من لقيته من المعتوهين، كنت إذا سألته: ما الذي ذهب بعقلك؟ يقول لي: أنت هو المجنون حقاً ولو كان لي عقل كنت تقول لي؛ ما الذي ذهب بعقلك؟ أين عقلي حتى يخاطبك قد أخذه معه ما أدري ما يفعل به وتركني هنا في جملة الدواب آكل وأشرب وهو يدبرني، قلت له: فمن يركبك إذا كنت دابة؟ قال: أنا دابة وحشية لا أركب، ففهمت أنه يريد خروجه عن عالم الإنس وأنه في مفاوز المعرفة فلا حكم للإنس عليه، وكذلك كان محفوظاً من أذى الصبيان وغيرهم كثير السكوت مبهوتاً دائم الاعتبار يلازم المسجد ويصلي في أوقات، فربما كنت أسأله عندما أراه يصلي أقول له: أراك تصلي، يقول لي: لا والله إنما أراه يقيمني ويقعدني ما أدري ما يريد بي، أقول له: فهل تنوي في صلاتك هذه أداء ما افترض الله عليك؟ فيقول لي: أي شيء تكون النية؟ أقول له: القصد بهذه الأعمال القربة إليه، فيضحك ويقول: أنا أقول له أراه يقيمني ويقعدني فكيف أنوي القربة إلى من هو معي وأنا أشهده ولا يغيب عني هذا كلام المجانين ما عندكم عقول، ثم لتعلم أنّ هؤلاء البهاليل كبهلول وسعدون من المتقدّمين وأبي وهب الفاضل وأمثالهم منهم المسرور ومنهم المحزون وهم في ذلك بحسب الوارد الأوّل الذي ذهب بعقولهم، فإن كان وارد قهر قبضهم كيعقوب الكوراني كان بالجسر الأبيض رأيته وكان على هذا القدم. وكذلك مسعود الحبشي رأيته بدمشق ممتزجاً بين القبض والبسط الغالب عليه البهت، وإن كان وارد لطف بسطهم رأيت من هذا الصنف جماعة

كأبي الحجاج الغليريّ وأبي الحسن عليّ السلاوي والناس لا يعرفون ما ذهب بعقولهم شغلهم ما تجلى لهم عن تدبير نفوسهم فسخّر الله لهم الخلق فهم مشتغلون بمصالحهم عن طيب نفس، فأشهى ما إلى الناس أن يأكل واحد من هؤلاء عنده، أو يقبل منه ثوباً تسخيراً إلهياً، فجمع الله لهم بين الراحتين حيث يأكلون ما يشتهون ولا يحاسبون ولا يسألون، وجعل لهم القبول في قلوب الخلق والمحبة والعطف عليهم واستراحوا من التكليف، ولهم عند الله ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٣٠] في مدّة أعمارهم التي ذهبت بغير عمل، لأنه سبحانه هو الذي أخذهم إليه فحفظ عليهم نتائج الأعمال التي لو لم يذهب بعقولهم لعملوها من الخير، كمن بات نائماً على وضوء وفي نفسه أن يقوم من الليل يصلي فيأخذ الله بروحه فينام حتى يصبح، فإن الله يكتب له أجر من قام ليله لأنه الذي حبسه عنده في حال نومه، فالمخاطب بالتكليف منهم وهو روحهم غائب في شهود الحق الذي ظهر سلطانه فيهم، فما لهم أذن واعية لحفظ السماع من خارج وتعقل ما جاء به، ولقد ذقت هذا المقام ومرّ عليّ وقت أؤدّي فيه الصلوات الخمس إماماً بالجماعة على ما قيل لي بإتمام الركوع والسجود وجميع أحوال الصلاة من أفعال وأقوال وأنا في هذا كله لا علم لي بذلك لا بالجماعة ولا بالمحل ولا بالحال ولا بشيء من عالم الحسّ لشهود غلب عليّ غبت فيه عني وعن غيري، وأخبرت أني كنت إذا دخل وقت الصلاة أقيم الصلاة وأصلي بالناس فكان حالي كالحركات الواقعة من النائم ولا علم له بذلك، فعلمت أنّ الله حفظ عليّ وقتي ولم يجر على لساني ذنب كما فعل بالشبليّ في ولهه، لكنه كان الشبليّ يردّ في أوقات الصلوات على ما روي عنه، فلا أدري هل كان يعقل ردّه أو كان مثل ما كنت فيه فإنّ الراوي ما فصل، فلما قيل للجنيد عنه قال: الحمد لله الذي لم يجر عليه لسان ذنب إلاّ أني كنت في أوقات في حال غيبتي أشاهد ذاتي في النور الأعم والتجلّي الأعظم بالعرش العظيم يصلي بها وأنا عري عن الحركة بمعزل عن نفسي وأشاهدها بين يديه راكعة وساجدة، وأنا أعلم أني أنا ذلك الراكع والساجد كرؤية النائم واليد في ناصيتي، وكنت أتعجب من ذلك وأعلم أن ذلك ليس غيري ولا هو أنا، ومن هناك عرفت المكلف والتكليف، والمكلف اسم فاعل واسم مفعول، فقد أبنت لك حالة المأخوذين عنهم من المجانين الإلهيين إبانة ذائق بشهود حاصل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والأربعون
في معرفة من عاد بعد ما وصل ومن جعله يعود

[نظم: الطويل]

وجـودُك عـن تـدبـيـرِ أمـرِ مـحـقَّـقِ ... وتـفـصـيـلِ آيـاتٍ لَـوَ انَّـكَ تـعْـقِـلُ
فـيـا أيـهـا الإنـسـانُ مَـا غـرَّ ذاتـكـم ... بـربٍّ يـرى الأشـيـاءَ تـعـلـو وتَـسْـفُـلُ
فـإن كـنـتَ ذا عـقـلٍ وفَـهْـمٍ وفـطـنـةٍ ... علمتَ الذي قد كنتَ بالأمس تجْهَلُ
وذلـك إن تـدري بـأنـكَ قـابـلٌ ... لـقـربٍ وبُـعـدٍ بـالـذي أنـت تـعـمَـلُ

فخَفْ ربَّ تدبير وتفصيلِ مُجْمَلِ فذاك الذي بالعبد أولى وأَجْمَلُ
إذا كان هذا حالَك اليومَ دائباً لعلَّ بشاراتٍ بسعدك تَحْصَلُ
فإنّ جلال الحقّ يَعْظُم قدْرُه وفي الخلق يقضي ما يشاء ويفْصِلُ
إذا أخذ المولى قلوبَ عباده إليه ويقضي ما يشاء ويَعْدِلُ
فمن شاء أبقاه لديه مكرَّماً وردَّ الذي قد شا لِمَا كان يأمَلُ
وذاك نبيٌّ أو رسولٌ ووارثٌ وما ثَمَّ إلاَّ هؤلاء فأجمِلُوا
ولم يبقَ إلاَّ واحدٌ وهو وارثٌ والاثنان قد راحا فما لك تعدِلُ
فسبحانَ من خصَّ الوليَّ براحة ليغبطه فيها الذي هو أفْضَلُ

قال رسول الله ﷺ: «**العُلَماءُ وَرَثَةُ الأَنْبِياءِ، وإِنَّ الأَنْبِياءَ مَا وَرَّثُوا دِيناراً وَلاَ دِرْهَماً وَرَّثُوا العِلْمَ**»، ولما كانت حالته ﷺ في ابتداء أمره ﷺ أن الله تعالىٰ وفّقه لعبادته بملة إبراهيم الخليل عليه السلام فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه عناية من الله سبحانه به ﷺ إلى أن فجأه الحق فجاءه الملك فسلّم عليه بالرسالة وعرّفه بنبوّته، فلما تقرّرت عنده أرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فبلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ودعا إلى الله عزّ وجلّ على بصيرة، فالوارث الكامل من الأولياء منّا من انقطع إلى الله بشريعة رسول الله ﷺ إلى أن فتح الله له في قلبه في فهم ما أنزل الله عزّ وجلّ على نبيه ورسوله محمد ﷺ بتجلّ إلهيّ في باطنه، فرزقه الفهم في كتابه عزّ وجلّ، وجعله من المحدّثين في هذه الأمّة، فقام له هذا مقام الملك الذي جاء إلى رسول الله ﷺ، ثم ردّه الله إلى الخلق يرشدهم إلى صلاح قلوبهم مع الله ويفرّق لهم بين الخواطر المحمودة والمذمومة ويبيّن لهم مقاصد الشرع.

وما ثبت من الأحكام عن رسول الله ﷺ وما لم يثبت بإعلام من الله آتاه رحمة من عنده وعلّمه من لدنه علماً فيرقي هممهم إلى طلب الأنفس بالمقام الأقدس ويرغبهم فيما عند الله، كما فعل رسول الله ﷺ في تبليغ رسالته، غير أنّ الوارث لا يحدث شريعة ولا ينسخ حكماً مقرراً لكن يبين، فإنه على بينة من ربّه وبصيرة في علمه، ويتلوه شاهد منه بصدق اتباعه، وهو الذي أشركه الله تعالىٰ مع رسوله ﷺ في الصفة التي يدعو بها إلى الله فأخبر وقال: ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] وهم الورثة فهم يدعون إلى الله على بصيرة، وكذلك شركهم مع الأنبياء عليهم السلام في المحنة وما ابتلوا به فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقٍّ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢١] وهم الورثة فشرك بينهم في البلاء كما شرك بينهم في الدعوة إلى الله، فكان شيخنا أبو مدين رضي الله عنه كثيراً ما يقول: من علامات صدق المريد في إرادته فراره عن الخلق، وهذه حالة الرسول ﷺ في خروجه وانقطاعه عن الناس في غار حرّاء للتحنث. ثم يقول: ومن علامات صدق فراره عن الخلق وجوده للحق، فما زال رسول الله ﷺ يتحنث في انقطاعه حتى فجأه الحق.

ثم قال: ومن علامات صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخلق، يريد حالة بعثه ﷺ بالرسالة إلى الناس ويعني في حق الورثة بالإرشاد وحفظ الشريعة عليهم، فأراد الشيخ بهذا صفة الكمال في الورث النبويّ، فإنّ لله عباداً إذا فجأهم الحق أخذهم إليه ولم يردّهم إلى العالم وشغلهم به وقد وقع هذا كثيراً، ولكن كمال الورث النبويّ الرسالي في الرجوع إلى الخلق، فإن اعترضك هنا قول أبي سليمان الدارانيّ: لو وصلوا ما رجعوا إنما ذلك فيمن رجع إلى شهواته الطبيعية ولذاته وما تاب منه إلى الله. وأمّا الرجوع إلى الله تعالىٰ بالإرشاد فلا يقول: لو لاح لهم بارقة من الحقيقة ما رجعوا إلى ما تابوا إلى الله منه ولو رأوا وجه الحق فيه فإنّ موطن التكليف والأدب يمنعهم من ذلك.

وأمّا قول الآخر من أكابر الرجال لما قيل له: فلان يزعم أنه وصل، فقال: إلى سقر، فإنه يريد بهذا أنه من زعم أن الله محدود يوصل إليه وهو القائل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] أو ثم أمر إذا وصل إليه سقطت عنه الأعمال المشروعة وأنه غير مخاطب بها مع وجود عقل التكليف عنده، وأن ذلك الوصول أعطاه ذلك، فهو هذا الذي قال فيه الشيخ إلى سقر أي هذا لا يصحّ بل الوصول إلى الله بقطع كل ما دونه حتى يكون الإنسان يأخذ عن ربه فهذا لا تمنعه الطائفة بلا خلاف، وكان شيخنا أبو يعقوب يوسف بن يخلف الكوميّ يقول: بيننا وبين الحق المطلوب عقبة كؤود ونحن في أسفل العقبة من جهة الطبيعة، فلا نزال نصعد في تلك العقبة حتى نصل إلى أعلاها، فإذا استشرفنا على ما وراءها من هناك لم نرجع فإن وراءها ما لا يمكن الرجوع عنه وهو قول أبي سليمان الدارانيّ: لو وصلوا ما رجعوا يريد إلى رأس العقبة، فمن رجع من الناس إنما رجع من قبل الوصول إلى رأس العقبة والإشراف على ما وراءها، فالسبب الموجب للرجوع مع هذا إنما هو طلب الكمال ولكن لا ينزل بل يدعوهم من مقامه ذلك وهو قوله: على بصيرة فيشهد فيعرف المدعوّ على شهود محقق، والذي لم يردّ ما له وجه إلى العالم فيبقى هناك واقفاً وهو أيضاً المسمّى بالواقف فإنه ما وراء تلك العقبة تكليف ولا ينحدر منها إلاّ من مات إلاّ أنه منهم أعني من الواقفين من يكون مستهلكاً فيما يشاهده هنالك وقد وجد منهم جماعة وقد دامت هذه الحالة على أبي يزيد البسطاميّ وهذا كان حال أبي عقال المغربيّ وغيره.

واعلم أنه بعدما أعلمتك ما معنى الوصول إلى الله أن الواصلين على مراتب: منهم من يكون وصوله إلى اسم ذاتيّ لا يدل على الله تعالىٰ من حيث هو دليل على الذات كالأسماء الأعلام عندنا لا تدل على معنى آخر مع ذلك يعقل، فهذا يكون حاله الاستهلاك كالملائكة المهيمين في جلال الله تعالىٰ والملائكة الكروبيين فلا يعرفون سواه ولا يعرفهم سواه سبحانه. ومنهم من يصل إلى الله من حيث الاسم الذي أوصله إلى الله، أو من حيث الاسم الذي يتجلّى له من الله ويأخذه من الاسم الذي أوصله إليه سبحانه. ثم إن هذين الرجلين المذكورين أو الشخصين فإنه قد يكون منهم النساء إذا وصلوا، فإن كان وصولهم من حيث الاسم الذي أوصلهم فشاهدوه فكان لهم عين يقين، فلا يخلو ذلك الاسم إمّا أن يطلب صفة فعل كخالق

وبارىء، أو صفة صفة كالشكور والحسيب، أو صفة تنزيه كالغنيّ، فيكون بحسب ما تعطيه حقيقة ذلك الاسم، ومن ثم يكون مشربه، وذوقه، وريّه، ووجوده لا يتعدّاه فيكون الغالب عليه عندنا في حاله ما تعطيه حقيقة ذلك الاسم الإلهيّ فتضيفه إليه وبه تدعوه فتقول: عبد الشكور، وعبد الباري، وعبد الغنيّ، وعبد الجليل، وعبد الرزاق، وإن كان وصولهم إلى اسم غير الاسم الذي أوصلهم فإنه يأتي بعلم غريب لا يعطيه حاله بحسب ما تعطيه حقيقة ذلك الاسم فيتكلم بغرائب العلم في ذلك المقام، وقد يكون في ذلك العلم ما ينكره عليه من لا علم له بطريق القوم، ويرى الناس أن علمه فوق حاله وهو عندنا أعلى من الذي وصل إلى مشاهدة الاسم الذي أوصله، فإن هذا لا يأتي بعلم غريب لا يناسب حاله، فيرى الناس أن علمه تحت حاله ودونه. يقول أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه: العارف فوق ما يقول والعالم تحت ما يقول، فبهذا قد حصرنا لك مراتب الواصلين، فمنهم من يعود، ومنهم من لا يعود.

ثم إن الراجعين على قسمين: منهم من يرجع اختياراً كأبي مدين، ومنهم من يرجع اضطراراً مجبوراً كأبي يزيد لما خلع عليه الحق الصفات التي بها ينبغي أن يكون وارثاً وراثة إرشاد وهداية خطا خطوة من عنده فغشي عليه فإذا النداء: ردّوا عليّ حبيبي فلا صبر له عني. فمثل هذا لا يرغب في الخروج إلى الناس وهو صاحب حال. وأمّا العالي من الرجال وهم الأكابر وهم الذين ورثوا من رسول الله ﷺ عبوديته فإن أمروا بالتبليغ فيحتالون في ستر مقامهم عن أعين الناس ليظهروا عند الناس بما لا يعلمون في العادة أنهم من أهل الاختصاص الإلهيّ، فيجمعون بين الدعوة إلى الله وبين ستر المقام، فيدعونهم بقراءة الحديث وكتب الرقائق وحكايات كلام المشايخ حتى لا تعرفهم العامّة، إلاّ أنهم نقلة لا أنهم يتكلمون عن أحوالهم من مقام القربة، هذا إذا كانوا مأمورين ولا بدّ، وإن لم يكونوا مأمورين بذلك فهم مع العامّة التي لم تزل مستورة الحال لا يعتقد فيهم خير ولا شرّ.

ثم إن من الرجال الواصلين من لا يكشف لهم عن العلم بالأسماء الإلهية التي تدبرهم، ولكن لهم نظر إلى الأعمال المشروعة التي يسلكون بها وهي ثمانية: يد، ورجل، وبطن، ولسان، وسمع، وبصر، وفرج، وقلب، ما ثم غير ذلك فهؤلاء يفتح لهم عند وصولهم في عالم المناسبات فينظرون فيما يفتح لهم عند الوصول إلى الباب الذي قرعوه، فعندما يفتح لهم يعرفون فيما يتجلّى لهم من الغيب أي باب ذلك الباب الذي فتح لهم، فإن كان المشهود لهم يطلب اليد بمناسبة تظهر لهم كان صاحب يد، وإن كان يطلب البصر بمناسبة كان صاحب بصر وهكذا جميع الأعضاء، ومن ذلك الجنس تكون كراماته إن كان ولياً ومعجزاته إن كان نبياً، ومن ذلك الجنس تكون منازله ومعارفه كما أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ فيمن يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يركع ركعتين لا يحدّث نفسه فيهما بشيء: «**فُتِحَتْ لَهُ الثَّمَانِيَةُ الأَبْوابُ مِنَ الجَنَّةِ يَدْخلُ مِنْ أَيِّها شَاءَ**» كذلك هذا الشخص يفتح له من أعمال أعضائه إذا كملت طهارته وصفا سرّه، أيّ شيء كان مما تعطيه أعمال أعضائه المكلفة، وقد بينّا هذه المراتب العملية على الأعضاء في كتاب مواقع النجوم.

ثم إن الله سبحانه يمدّهم من الأنوار بما يناسبهم وهي ثمانية من حضرة النور: فمنهم من يكون إمداده من نور البرق وهو المشهد الذاتي وهو على ضربين: خلب وغير خلب، فإن لم ينتج مثل صفات التنزيه فهو البرق الخلب، وإن أنتج ولا ينتج إلاّ أمراً واحداً لأنه ليس لله صفة نفسية سوى واحدة هي عين ذاته لا يصحّ أن تكون اثنان، فإن اتفق أن يحصل له من هذا النور البرقيّ في بعض كشف تعريف إلهيّ لا يكون برق خلب. ومنهم من يكون إمداده من حضرة النور نور الشمس. ومنهم من يكون إمداده من نور البدر. ومنهم من يكون إمداده من نور القمر. ومنهم من يكون إمداده من نور الهلال. ومنهم من يكون إمداده من نور السراج. ومنهم من يكون إمداده من نور النجوم. ومنهم من يكون إمداده من نور النار، وما ثم نور أكثر. وقد ذكرنا مراتب هذه الأنوار في مواقع النجوم أيضاً، فيكون إدراكهم على قدر مراتب أنوارهم، فتتميز المراتب بتمييز الأنوار، وتتميز الرجال بتمييز المراتب.

ومن الرجال الواصلين من ليس لهم معرفة بهذا المقام ولا بالأسماء الإلهية ولكن لهم وصول إلى حقائق الأنبياء ولطائفهم، فإذا وصلوا فتح لهم باب من لطائف الأنبياء على قدر ما كانوا عليه من الأعمال في وقت الفتح، فمنهم من يتجلّى له حقيقة موسىٰ عليه السلام فيكون موسويّ المشهد. ومنهم من يتجلّى له لطيفة عيسىٰ وهكذا سائر الرسل فينسب إلى ذلك الرسول بالوراثة، ولكن من حيث شريعة محمد ﷺ المقرّرة من شرع ذلك النبيّ الذي تجلّى له، فيجد هذا الواصل أنه كان محققاً في عمله الموجب لفتحه من جهة ظاهره أو باطنه شرع نبيّ متقدّم مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [سورة طٰه: الآية ١٤] فإنّ ذلك من شرع موسىٰ وقرّره الشارع لنا، فيمن خرج عنه وقت الصلاة بنوم أو نسيان فهؤلاء يأخذون من لطائف الأنبياء عليهم السلام ولقينا منهم جماعة وليس لهؤلاء في الأنوار، ولا في الأعضاء، ولا في الأسماء الإلهية ذوق ولا شرب ولا شرب، ومن الواصلين أيضاً إلى الله تعالىٰ الوصول الذي بيّناه من يجمع الله له الجميع. ومنهم من يكون له من ذلك مرتبتان وأكثر على قدر رزقه الذي قسّمه الله له منه، وكل إنسان من هؤلاء إذا ردّ إلى الخلق بالإرشاد والهداية لا يتعدّى ذوقه في أي مرتبة كان، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والأربعون

في معرفة العلم القليل ومن حصله من الصالحين

[نظم: الكامل]

العلمُ بالأشياء علمٌ واحدٌ ... والكُثْرُ في المعلوم لا في ذاتِهِ
والأشعريُ يرى ويزعمُ أنهُ ... متعدِّدٌ في ذاته وصفاتِهِ
إن الحقيقةَ قد أبتْ ما قالهُ ... ولَوَ انّه من فكره وهِبَاتِهِ
الحقُ أبلَجُ لا خفاءَ بأنه ... متوحّدٌ في عينه وسِماتِهِ

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٥] فكان شيخنا أبو

مدين يقول إذا سمع من يتلو هذه الآية: القليل أعطيناه ما هو لنا بل هو معار عندنا، والكثير منه لم نصل إليه فنحن الجاهلون على الدوام. وقال من هذا الباب خضر لموسىٰ عليه السلام لما رأى الطائر الذي وقع على حرف السفينة ونقر في البحر بمنقاره: أتدري ما يقول هذا الطائر في نقره في الماء؟ قال موسىٰ عليه السلام: لا أدري. قال: يا موسىٰ يقول هذا الطائر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلاّ ما نقص من هذا البحر منقاري، والمراد المعلومات بذلك لا العلم، فإن العلم لو تعدّد أدّى أن يدخل في الوجود ما لا يتناهى وهو محال فإنّ المعلومات لا نهاية لها، فلو كان لكل معلوم علم لزم ما قلناه، ومعلوم أن الله يعلم ما لا يتناهى فعلمه واحد، فلا بدّ أن يكون للعلم عين واحدة لأنه لا يتعلق بالمعلوم حتى يكون موجوداً، وما هو ذلك العلم؟ هل هو ذات العالم أو أمر زائد؟ في ذلك خلاف بين النظار في علم الحق سبحانه، ومعلوم أنّ علم الله متعلق بما لا يتناهى فبطل أن يكون لكل معلوم علم، وسواء زعمت أن العلم عين ذات العالم أو صفة زائدة على ذاته، إلاّ أن تكون ممّن يقول في الصفات أنها نسب، وإن كنت ممّن يقول: إنّ العلم نسبة خاصة فالنسب لا تتصف بالوجود نعم ولا بالعدم كالأحوال، فيمكن على هذا أن يكون لكل معلوم علم، وقد علمنا أن المعلومات لا تتناهى، فالنسب لا تتناهى ولا يلزم من ذلك محال، كحدوث التعلقات عند ابن الخطيب، والاسترسال عند إمام الحرمين.

وبعد أن فهمت ما قررناه في هذه المسألة فقل بعد ذلك ما شئت من نسبة الكثرة للعلم والقلة، فما وصف الله العلم بالقلة إلاّ العلم الذي أعطى الله عباده وهو قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ أي أعطيتم فجعله هبة. وقال في حق عبده خضر: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] وقال: علّم القرآن. فهذا كله يدلّك على أنه نسبة لأن الواحد في ذاته لا يتصف بالقلة ولا بالكثرة لأنه لا يتعدد وبهذا نقول: إن الواحد ليس بعدد وإن كان العدد منه ينشأ، ألا ترى أن العالم وإن استند إلى الله ولم يلزم أن يكون الله من العالم كذلك الواحد، وإن نشأ منه العدد فإنه لا يكون بهذا من العدد، فالوحدة للواحد نعت نفسي لا يقبل العدد وإن أضيف إليه، فإن كان العلم نسبة فإطلاق القلة والكثرة عليه إطلاق حقيقي، وإن كان غير ذلك فإطلاق القلة والكثرة عليه إطلاق مجازي، وكلام العرب مبني على الحقيقة والمجاز عند الناس وإن كنا قد خالفناهم في هذه المسألة بالنظر إلى القرآن فإنا ننفي أن يكون في القرآن مجاز بل في كلام العرب، وليس هذا موضع شرح هذه المسألة، والذي يتعلق بهذا الباب علم الوهب لا علم الكسب، فإنه لو أراد الله العلم المكتسب لم يقل: ﴿أُوتِيتُم﴾ بل كان يقول: أوتيتم الطريق إلى تحصيله لا هو، وكان يقول في خضر: وعلمناه طريق اكتساب العلوم لم يقل شيئاً من هذا، ونحن نعلم أن ثم علماً اكتسبناه من أفكارنا ومن حواسنا، وثم علماً لم نكتسبه بشيء من عندنا بل هبة من الله عزّ وجلّ أنزله في قلوبنا وعلى أسرارنا فوجدناه من غير سبب ظاهر وهي مسألة دقيقة، فإنّ أكثر الناس يتخيّلون أنّ العلوم الحاصلة عن التقوى علوم وهب وليست كذلك، وإنما هي علوم مكتسبة بالتقوى، فإنّ التقوى جعلها الله طريقاً إلى حصول هذا العلم فقال:

﴿إن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩] وقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] كما جعل الفكر الصحيح سبباً لحصول العلم لكن بترتيب المقدمات، كما جعل البصر سبباً لحصول العلم بالمبصرات.

والعلم الوهبي لا يحصل عن سبب بل من لدنه سبحانه، فاعلم ذلك حتى لا تختلط عليك حقائق الأسماء الإلهية، فإنّ الوهّاب هو الذي تكون أعطياته على هذا الحدّ، بخلاف الاسم الإلهيّ الكريم والجواد والسخيّ فإنه من لا يعرف حقائق الأمور لا يعرف حقائق الأسماء الإلهية، ومن لا يعرف حقائق الأسماء الإلهية لا يعرف تنزيل الثناء على الوجه اللائق به فلهذا نبّهتك لتنتبه ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٥] فالنبوّات كلها علوم وهبية لأن النبوّة ليست مكتسبة، فالشرائع كلها من علوم الوهب عند أهل الإسلام الذين هم أهله، وأريد بالاكتساب في العلوم ما يكون للعبد فيه تعمل، كما أن الوهب ما ليس للعبد فيه تعمل، وإنما قلنا هذا من أجل الاستعدادات التي جعلت العالم يقبل هذا العلم الوهبي والكسبي فإنه لا بدّ من الاستعداد، فإن وجد بعض الاستعدادات ممّا يتعمّل الإنسان في تحصيلها كان العلم الحاصل عنها مكتسباً كمن عمل بما علم، فأورثه الله علم ما لم يكن يعلم وأشباه ذلك، فالشرائع كلها علوم وهبية، وممّن حصل علوم وهب ممّا ليس بشرع جماعة قليلة من الأولياء منهم الخضر على التعيين فإنه قال: ﴿مِّن لَّدُنۡهُ﴾ [سورة الكهف: الآية ٢] والذي عرفناه من الأنبياء عليهم السلام آدم وإلياس وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ وإدريس وإسماعيل وإن كان قد حصله جميع الأنبياء عليهم السلام، ولكن ما ذكرنا منهم إلاَّ من حصل لنا التعريف به وسمّوا لنا من الوجه الذي نأخذ عن الله تعالىٰ منه، فلهذا سمّينا هؤلاء ولم نذكر غيرهم.

فأمّا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فليس بنص في الوهب ولكن له وجهان: وجه يطلبه أوتيتم، ووجه يطلبه قليلاً من الاستقلال، أي ما أعطيتم من العلم إلاَّ ما تستقلون بحمله وما لا تطيقونه ما أعطيناكموه فإنكم ما تستقلون به، فيدخل في هذا العطاء علوم النظر فإنها علوم تستقل العقول بإدراكها واختلف أصحابنا في العلم المحدث هل يتعلق بما لا يتناهى من المعلومات أم لا؟ فمن منع أن تعرف ذات الله منع من ذلك، ومن لم يمنع من ذلك لم يمنع حصوله، ولكن ما نقل إلينا أنه حصل لأحد في الدنيا وما أدري في الآخرة ما يكون، فإنا قد علمنا أن محمداً ﷺ قد علم علم الأوّلين والآخرين وقد قال ﷺ عن نفسه: إنه يحمد الله غداً يوم القيامة بمحامد عندما يطلب من الله عزّ وجلّ فتح باب الشفاعة أخبر أنّ الله تعالىٰ يعلمه إياها في ذلك الوقت لا يعلمها الآن، فلو علمها غيره لم يصدق قوله: «**عَلِمْتُ عِلْمَ الأَوَّلِينَ والآخِرينَ**» وهو ﷺ الصادق في قوله، فحصل من هذا أنّ أحداً لم يتعلق علمه بما لا يتناهى، ولهذا ما تكلم الناس إلاَّ في إمكانه هل يمكن أم لا؟ وما كل ممكن واقع، ووقوع الممكنات من المسائل المغلقة، وكيف يكون؟ ثم ممكن ولا يقع وهو المعقول عندنا في كل وقت، فإن ترجيح أحد الممكنين أو الممكنات يمنع من وقوع ما ليس بمرجح في الحال، فإن كان الذي لم يقع في الوجود من الممكنات مرجحاً عدم وقوعه في الوجود

فيكون عدمه مرجحاً فقد وقع الممكن، فإنه لا يلزم فيه من حيث الإمكان إلاّ اتصافه بكونه مرجحاً سواء ترجح عدمه أو وجوده، وإذا كان كذلك فقد وقع كل ممكن بلا شك وإن لم تتناه الممكنات فإن الترجيح ينسحب عليها وهي مسألة دقيقة، فإن الممكنات وإن كانت لا تتناهى وهي معدومة فإنها عندنا مشهودة للحق عزّ وجلّ من كونه يرى، فإنا لا نعلّل الرؤية بالوجود، وإنما نعلّل الرؤية للأشياء بكون المرئيّ مستعداً لقبول تعلّق الرؤية به سواء كان معدوماً أو موجوداً، وكل ممكن مستعدّ للرؤية، فالممكنات وإن لم تتناه فهي مرئية لله عزّ وجلّ لا من حيث نسبة العلم بل من نسبة أخرى تسمى رؤية كانت ما كانت، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [سورة العلق: الآية ١٤] ولم يقل هنا: ألم يعلم بأن الله يعلم، وقال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [سورة القمر: الآية ١٤] أي بحيث نراها. وقال أيضاً لموسىٰ وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٤٦] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الرابع والعشرون.

(الجزء الخامس والعشرون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب السابع والأربعون

في معرفة أسرار وصف المنازل السفلية ومقاماتها، وكيف يرتاح العارف عند ذكره بدايته فيحنّ إليها مع علوّ مقامه، وما السرّ الذي يتجلّى له حتى يدعوه إلى ذلك؟

[نظم: الطويل]

ولـمـا رأيـتُ الـحـقَّ بـالأول اتَّـصَـفْ ... أتـيـتُ إلـى بـحـر الـبـدايـة أَغْـتـرِفْ
بـلـذَّة ظـمـآن لأشـربَ شُـرْبَـةً ... فـيشـهـدني في غـايـة الحال أعترِفْ
فـيـا بـردَهـا مـن شُـربـة مُـسْـتَـلَـذَّة ... عـلـى كَـبِـدٍ حرَّاء فـاعـمـل لـهـا وقِفْ
فـإن لـذاك الـشُّـرب فـي الـقـلـب لَـذَّةً ... ترى ربّها في الوقت بالعجب يتَّصِفْ
ولا يـحـجـبَـنْـهُ عُـجْـبُـه عـن شـهـوده ... ولا ما يرى فيه من الزهو والصَّلَفْ
فـإن لـه فـيـمـن تـقـدّم أُسْـوَةً ... فـمـا خـلـف إلاَّ ومـثـل لـهـا سَـلَـفْ
وراثَـةُ مـخـتـار ونَـعْـتُ مـحـقَّـق ... بـأسـماءِ حقٍّ بـالـحـقـيـقـة مكْـتَـنَـفْ
وإن نـهـايـاتِ الـرجـال بـدايـةٌ ... لقوم أتوا من بعدهم ما لهم خَلَفْ
كـمـثـل رسـول الله فـي طَـوْره فـمـا ... لـه خَـلَـفٌ بـل عـنـده الأمر قد وقَفْ

اعلم أن العالم لما كان أكريّ الشكل لهذا حنّ الإنسان في نهايته إلى بدايته، فكان خروجنا من العدم إلى الوجود به سبحانه وإليه نرجع كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] وقال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨١] وقال: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٨] ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٢] ألا

تراك إذا بدأت وضع دائرة فإنك عندما تبتدىء بها لا تزال تديرها إلى أن تنتهي إلى أولها وحينئذ تكون دائرة، ولو لم يكن الأمر كذلك لكنا إذا خرجنا من عنده خطاً مستقيماً لم نرجع إليه ولم يكن يصدق قوله وهو الصادق: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٥] وكل أمر وكل موجود فهو دائرة يعود إلى ما كان منه بدؤه، وأنّ الله تعالىٰ قد عيّن لكل موجود مرتبته في علمه. فمن الموجودات من خلقت في مراتبها ووقفت ولم تبرح فلم يكن لها بداية ولا نهاية بل يقال: وجدت فإن البدء ما تعقل حقيقته إلاّ بظهور ما يكون بعده مما ينتقل إليه وهذا ما انتقل، فعين بدئه هو عين وجوده لا غير، ومن الموجودات ما كان وجودها أولاً في مراتبها ثم نزل بها إلى عالم طبيعتها، وهي الأجسام المولدة من العناصر ولا كلها بل أجسام الثقلين، وأقام الله لها في تلك المرتبة المعينة لها التي أنزلت منها على غير علم منها بها داعياً يدعو كل شخص إليها، فلا يزال يرتقي بالأعمال الصالحة حتى يصل إليها أو يطلبها بالأعمال التي لا يرتضيها الحق، فداعي الحق إذا قام بقلب العبد إنما يدعوه من مقامه الذي تكون غايته إليه إذا سلك، ولما كان كل وارد ملذوذاً لذيذاً فإنه جديد غريب لطيف لهذا يحنّ إليه دائماً ومن ذلك حبّ الأوطان، قال ابن الروميّ: [الطويل]

وحبَّبَ أوطانَ الرجال إليهمُو ... مآربُ قضَّاها الشبابُ هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتْهُمُو ... عهودَ الصبى فيها فحنّوا لذلكا

ولما لم يتمكن للتائب أن يرد عليه وارد التوبة إلاّ حتى ينتبه من سنة الغفلة فيعرف ما هو فيه من الأعمال التي مآلها إلى هلاكه وعطبه، خاف ورأى أنه في أسر هواه وأنه مقتول بسيف أعماله القبيحة، فقال له حاجب الباب: قد رسم الملك أنك إذا أقلعت عن هذه المخالفات ورجعت إليه ووقفت عند حدوده ومراسمه أنه يعطيك الأمان من عقابه ويحسن إليك، ويكون من جملة إحسانه أن كلّ قبيح أتيته تردّ صورته حسنة ثم أعطاه التوقيع الإلهيّ فإذا فيه مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [سورة الفرقان: ٦٨-٦٩ - ٧٠] ولما قرأ وحشي هذا التوقيع قال: ومن لي بأن أوفق إلى العمل الصالح الذي اشترطه علينا في التبديل؟ فجاء في الجواب توقيع آخر فيه مكتوب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [سورة النساء: الآية ٤٨] فقال وحشيّ: ما أدري هل أنا ممّن شاء أن يغفر له أم لا؟ فجاء في الجواب توقيع ثالث فيه مكتوب: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٥٣] فلما قرأ وحشي هذا التوقيع قال الآن فأسلم.

رجعنا إلى التوقيع الأول فنقول: فلما قرأ هذا التوقيع الصادق الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢] قال له حاجب

الباب وهو الشارع: إن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، فلما ورد عليه هذا الأمان عقيب ذلك الخوف الشديد وجد للأمان حلاوة ولذّة لم يكن يعرفها قبل ذلك، وقد قيل في ذلك أحلى من الأمن عند الخائف الوجل، فعندما يحصل له طعم هذه اللذة وشرع في الأعمال الصالحة وتطهر محله واستعدّ لمجالسة الملك فإنه يقول: أنا جليس من ذكرني وتقوّت معرفته به سبحانه وعلم ما يستحقه جلاله وعلم قدر من عصاه استحيا كلّ الحياء وذهبت لذته التي وجدها عند ورود وارد توبته عليه واطلع ورأى الحضرة الإلهية تطالبه بالأدب والشكر على ما أولاه من النعم، فيكثر همّه وغمّه وتنتفي لذاته، ولهذا ترى العلماء بالله لا يرون في نومهم ما يراه المريدون أصحاب البدايات من الأنوار، فإنّ المبتدىء يستحضر مستحسنات أعماله وأحواله فيرى نتائجها، والعالمون ينامون على رؤية تقصير وتفريط لما يستحقه الجناب العالي، فلا يرى في النوم إلاّ ما يهمهم من ظلمات ورعد وبرق وكل أمر مخوف فإن النوم تابع للحسّ.

ولما كانت النفس بطبعها تحبّ الأمور الملذوذة وقد فقدت لذة التوبة في حال معرفتها ونهايتها لذلك حنت إلى بدايتها من أجل ما اقترن بذلك الموطن من اللذة مع علوّ مقامه، ويكون هذا الحنان استراحة لهمّه وغمّه الذي أعطته معرفته بالله، فهو مثل الذي يلتذّ بالأمانيّ، فهذا سبب حنين أصحاب النهايات إلى بدايتهم.

وأمّا المنازل السفلية فهي ما تعطيه الأعمال البدنية من المقامات العلوية كالصلاة والجهاد والصوم وكلّ عمل حسيّ، وما تعطيه أيضاً الأعمال النفسية وهي الرياضات من تحمّل الأذى والصبر عليه والرضى بالقليل من ملذوذات النفوس والقناعة بالموجود وإن لم تكن به الكفاية وحبس النفس عن الشكوى، فإنّ كلّ عمل من هذه الأعمال الرياضية والمجاهدات له نتائج مخصوصة، ولكلّ عمل حال ومقام، وقد أبان عن بعض ذلك الشارع ليستدلّ بما ذكره على ما سكت عنه من حيث اختلاف النتائج لاختلاف الصفات، وتعريفاً بأن النوافل من كلّ عبادة مفروضة صفتها من صفة فريضتها ولهذا تكمل له منها إذا كانت فريضته ناقصة. ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَوّلُ مَا يُنْظَرُ فِيهِ مِنْ عَمَلِ العَبْدِ الصَّلاَةُ فَيَقُولُ اللَّهُ: انظُروا فِي صَلاَةِ عَبْدِي أَتمَّها أَمْ نَقصَهَا؟ فَإِنْ كَانَتْ تَامَّة كُتِبَتْ لَهُ تَامَّةً، وَإِنْ كَانَ انتقصَ مِنهَا شَيْئاً قَالَ: انظُروا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطوعٌ قَالَ: أَكْمِلوا لِعَبْدِيَ فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطوُّعِهِ، ثُمَّ تُؤْخَذُ الأَعْمَالُ عَلَى ذَاكم**».

وأمّا الحديث الآخر في صفات العبادات فإنه ورد في الصحيح أنّ رسول الله ﷺ قال: «**الصلاَةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِياءٌ، والقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعُ نَفْسِهِ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُها**» فجعل النور للصلاة، والبرهان للصدقة وهي الزكاة، والضياء للصوم والحج وهو المعبر عنه بالصبر لما فيها من المشقة للجوع والعطش وما يتعلق بأفعال

الحج ، وجعل لا إله إلاً الله في خبر آخر لا يزنها شيء، ونوافل كل فريضة من هذه الفرائض من جنسها فصفتها كصفتها، ثم أدخل في قوله: كلّ الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها وهو الذي باعها من الله قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١١] أو موبقها وهو الذي اشترى ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٥] فعمّ بقوله: (كل الناس يغدو فبائع نفسه) جميع أحكام الشريعة نافلتها وفريضتها ومباحها ومكروهها، فما من عبادة شرعها الله تعالىٰ لعباده إلاً وهي مرتبطة باسم إلهيّ أو حقيقة إلهية، من ذلك الاسم يعطيه في عبادته تلك ما يعطيه في الدنيا في قلبه من منازله وعلومه ومعارفه، وفي أحواله من كراماته وآياته، وفي آخرته في جناته في درجاته ورؤية خالقه في الكثيب في جنة عدن خاصة في مراتبه، وقد قال الله عزّ وجلّ في المصلي إنه يناجيه وهو نور فيناجيه الله تعالىٰ من اسمه النور لا من اسم آخر، فكما أنّ النور ينفر كل ظلمة كذلك الصلاة تقطع كل شغل، بخلاف سائر الأعمال فإنها لا تعم ترك كلّ ما سواها مثل الصلاة فلهذا كانت نوراً يبشره الله بذلك أنه إذا ناجاه من اسمه النور انفرد به وأزال كلّ كون بشهوده عند مناجاته، ثم شرعها في المناجاة سرّاً وجهراً ليجمع له فيها بين الذكرين: ذكر السرّ وهو الذكر في نفسه، وذكر العلانية وهو الذكر في الملأ، العبد في صلاته يذكر الله في ملأ الملائكة ومن حضر من الموجودات السامعين وهو ما يجهر به من القراءة في الصلاة، قال الله تعالىٰ في الخبر الثابت عنه: «**إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُ**» قد يريد بذلك الملائكة المقرّبين الكروبيين خاصة الذين اختصّهم لحضرته، فلهذا الفضل شرع لهم في الصلاة الجهر بالقراءة والسرّ، فكلّ عبد صلّى ولم تزل عنه صلاته كل شيء دونها فما صلّى وما هي نور في حقّه، وكل من أسرّ القراءة في نفسه ولم يشاهد ذكر الله له في نفسه فما أسرّ، فإنه وإن أسرّ في الظاهر وأحضر في نفسه ما أحضره من الأكوان من أهل وولد وأصحاب من عالم الدنيا وعالم الآخرة وأحضر الملائكة في خاطره فما أسرّ في قراءته ولا كان ممّن ذكر الله في نفسه لعدم المناسبة، فإنّ الله إذا ذكر العبد في نفسه لم يطلع أحد من المخلوقين على ما في نفس الباري من ذكره عبده، كذلك ينبغي أن يكون العبد فيما أسرّه، فإنه ما يناجي في صلاته إلاً ربّه في حال قراءته وتسبيحاته ودعائه، وكذلك إذا ذكره في ملأ في ظاهره وفي باطنه، فأما في ظاهره فبيّن، وأما في باطنه فما يحضر معه في نفسه من المخلوقين وهو ما يجهر به من القراءة في الصلاة والتسبيحات والدعاء.

ثم إنه ليس في العبادات ما يلحق العبد بمقامات المقرّبين وهو أعلى مقام أولياء الله من ملك ورسول ونبيّ ووليّ ومؤمن إلاً الصلاة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [سورة العلق: الآية ١٩]. فإنّ الله في هذه الحالة يباهي به المقرّبين من ملائكته وذلك أنه يقول لهم: يا ملائكتي أنا قرّبتكم ابتداء وجعلتكم من خواص ملائكتي، وهذا عبدي جعلت بينه وبين مقام القربة حجباً كثيرة وموانع عظيمة من أغراض نفسية وشهوات حسيّة وتدبير أهل ومال وولد وخدم وأصحاب وأهوال عظام فقطع كل ذلك وجاهد حتى سجد واقترب فكان من المقرّبين،

فانظروا ما خصصتكم به يا ملائكتي من شرف المقام حيث ما ابتليتكم بهذه الموانع ولا كلفتكم مشاقها، فاعرفوا قدر هذا العبد وراعوا له حق ما قاساه في طريقه من أجلي، فيقول الملائكة يا ربنا لو كنّا ممّن يتنعم بالجنان وتكون محلاً لإقامتنا ألست كنت تعيّن لنا فيه منازل تقتضيها أعمالنا، ربنا نحن نسألك أن تهبها لهذا العبد فيعطيه الله ما سألته فيه الملائكة، فانظروا ما أشرف الصلاة وأفضل ما فيها ذكر الله من الأقوال والسجود من الأفعال، ومن أقوالها: سمع الله لمن حمده فإنه من أفضل أحوال العبد في الصلاة للنيابة عن الحق، فإنّ الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] الظاهر للتحريم والتحليل الذي فيها ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] يعني فيها من أفعالها.

وينبغي للمحقق أنه لا يذكر الله إلاّ بالأذكار الواردة في القرآن حتى يكون في ذكره تالياً، فيجمع بين الذكر والتلاوة معاً في لفظ واحد فيحصل على أجر التالين والذاكرين أعني الفضيلة، فيكون فتحه في ذلك من ذلك القبيل، وعلمه، وسرّه، وحاله، ومقامه، ومنزله، وإذا ذكره من غير أن يقصد الذكر الوارد في القرآن فهو ذاكر لا غير، فينقصه من الفضيلة على قدر ما نقصه من القصد ولو كان ذلك الذكر من القرآن غير أنه لم يقصده، وقد ثبت أن الأعمال بالنيّات وإنما لامرىء ما نوى، فينبغي لك إذا قلت: لا إله إلاّ الله أن تقصد بذلك التهليل الوارد في القرآن مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة محمد: الآية ١٩] وكذلك التسبيح والتكبير والتحميد، وأنت تعلم أنّ أنفاس الإنسان نفيسة والنفس إذا مضى لا يعود، فينبغي لك أن تخرجه في الأنفس والأعز، فهذا قد نبهتك على نسبة النورية من الصلاة، وأما اقتران البرهان بالصدقة فهو أن الله تعالىٰ جبل الإنسان على الشحّ وقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [سورة المعارج: الآية ١٩] يعني في أصل نشأته ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [سورة المعارج: الآيتان ٢٠ ـ ٢١] وقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ [سورة الحشر: الآية ٩] فنسب الشحّ لنفس الإنسان، وأصل ذلك أنه استفاد وجوده من الله، ففطر على الاستفادة لا على الإفادة، فما تعطي حقيقته أن يتصدّق، فإذا تصدّق كانت صدقته برهاناً، على أنه قد وقي شحّ نفسه الذي جبله الله عليه فلذلك قال: الصدقة برهان.

ولما كانت الشمس ضياء يكشف به كل ما تنبسط عليه لمن كان له بصر، فإنّ الكشف إنما يكون بضياء النور لا بالنور، فإن النور ما له سوى تنفير الظلمة وبالضياء يقع الكشف، وأن النور حجاب كما هي الظلمة حجاب، قال رسول الله ﷺ في حق ربّه تعالىٰ: «**حِجَابُهُ النُورُ**». وقال: «**إِنَّ للَّهِ سَبْعِينَ حِجَاباً مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ أَوْ سَبْعِينَ أَلْفاً**». وقيل له ﷺ: «أَرَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فقال ﷺ: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**». فجعل الصبر الذي هو الضوء والحج ضياء، أي يكشف به إذا كنت متلبساً به ما تعطيه حقيقة الضوء من إدراك الأشياء، قال رسول الله ﷺ عن ربّه تعالىٰ إنه قال: «**كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدَمَ لَهُ إلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا**

أجزي بهِ». وقال ﷺ لرجل: «**عَلَيكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لاَ مِثْلَ لَهُ**». وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فالصوم صفة صمدانية وهو التنزّه عن التغذي وحقيقة المخلوق التغذي، فما أراد العبد أن يتصف بما ليس من حقيقته أن يتصف به وكان اتصافه به شرعاً لقوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٣] قال الله له: الصوم لي لا لك أي أنا هو الذي لا ينبغي لي أن أطعم وأشرب، وإذا كان بهذه المثابة وكان سبب دخولك فيه كوني شرعته لك فأنا أجزي به، كأنه يقول: وأنا جزاؤه لأن صفة التنزّه عن الطعام والشراب تطلبني وقد تلبست بها وما هي حقيقتك وما هي لك وأنت متصف بها في حال صومك فهي تدخلك عليّ فإن الصبر حبس النفس وقد حبستها بأمري عمّا تعطيه حقيقتها من الطعام والشراب فلهذا قال: «**لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ**» وتلك الفرحة لروحه الحيوانيّ لا غير، «**وَفَرْحَة عِندَ لِقَاء ربّه**» وتلك الفرحة لنفسه الناطقة أي لطيفته الربانية، فأورثه الصوم لقاء الله وهو المشاهدة، فكان الصوم أتمّ من الصلاة لأنه أنتج لقاء الله ومشاهدته.

والصلاة مناجاة لا مشاهدة والحجاب يصحبها فإنّ الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١]. وكذلك: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾ [سورة النساء: الآية ١٦٤]، ولذلك طلب الرؤية، فقرن الكلام بالحجاب، والمناجاة مكالمة يقول الله: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل. يقول العبد: الحمد لله ربّ العالمين، يقول الله: حمدني عبدي**». والصوم لا ينقسم فهو لله لا للعبد بل للعبد أجره من حيث ما هو لله، وهنا سرّ شريف فقلنا: إن المشاهدة والمناجاة لا يجتمعان فإن المشاهدة للبهت والكلام للفهم، فأنت في حال الكلام مع ما يتكلم به لا مع المتكلم أيّ شيء كان فافهم القرآن تفهم الفرقان، فبهذا قد حصل لك الفرق بين الصلاة والصوم والصدقة. وأمّا قولنا: إنّ الله جزاء الصائم للقائه ربّه في الفرح به الذي قرنه به فسّر ذلك في قوله في سورة يوسف: ﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ [سورة يوسف: الآية ٧٥].

وأمّا الحج فلما فيه من الصبر وهو حبس الإنسان نفسه عن النكاح ولبس المخيط والصفرة كما حبس الإنسان نفسه عن الطعام في الصوم والشراب والنكاح، ولما لم يعم الحج مسك الإنسان نفسه عن الطعام والشراب إلاّ عن النكاح والغيبة لذلك تأخر في القواعد التي بني الإسلام عليها فكان حكمه حكم للصائم، والمصلي حال صومه وصلاته في التنزّه عن مباشرة السكن وذلك التنزّه، يقول الله: هو لي لا لك حيث كان. ولما كان النكاح سبباً لظهور المولدات من ذلك أعطاه الله إذ تركه من أجله بدله: كن، في الآخرة ولأوليائه في الدنيا بسم الله لمن أراد الله أن يظهر على يده أثراً فيقول العبد في الآخرة للشيء يريده: كنْ فيكون ذلك الشيء، وليس قوله إلاّ من كونه حاجاً أو صائماً، ولهذا شرك بين الحج والصوم في لفظة الصبر فقال: والصبر ضياء هذا وإن لم يكن فيه صوم

واجب، فإن ترك الطعام فيه لشغله بالدعاء في ذلك اليوم من الظهر وهو السنة في ذلك اليوم في ذلك الموضع للحاج خاصة فالمشتغل فيه لا شك أن الجوع جوع العادة يلزمه، والطائفة تسمّي الجوع في الموتات الأربعة: الموت الأبيض وهو مناسب للضياء فإنّ لأهل الله أربع موتات: موت أبيض وهو الجوع، وموت أحمر وهو مخالفة النفس في هواها، وموت أخضر وهو طرح الرقاع في اللباس بعضها على بعض، وموت أسود وهو تحمّل أذى الخلق بل مطلق الأذى. وإنّما سمّيت لبس المرقعات موتاً أخضر لأن حالته حالة الأرض في اختلاف النبات فيه والأزهار فأشبه اختلاف الرقاع. وأما الموت الأسود لاحتمال الأذى فإن في ذلك غمّ النفس والغمّ ظلمة النفس والظلمة تشبه في الألوان السواد. والموت الأحمر مخالفة النفس شبيه بحمرة الدم فإنه من خالف هواه فقد ذبح نفسه، وسيأتي إن شاء الله في هذا الكتاب أبواب مفردات في شهادة التوحيد، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وهي قواعد الإسلام التي بني عليها، ومن أراد أن يعرف من أسرار الصلاة شيئاً وما تنتج كل صلاة من المعارف ومالها من الأرواح النبوية والحركات الفلكية فلينظر في كتابنا المسمّى بالتنزلات الموصلية وهذا القدر في هذا الباب كاف في المقصود، ولنذكر بعض أسرار من المعارف كما ترجمنا عليه بطريق الإيجاز.

فصل، بل وصل ـ سرّ إلهيّ:

قالت الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٦٤] وهكذا كل موجود ما عدا الثقلين، وإن كان الثقلان أيضاً مخلوقين في مقامهما، غير أن الثقلين لهما في علم الله مقامات معينة مقدّرة عنده غيّبت عنهما إليها ينتهي كل شخص منهما بانتهاء أنفاسه، فآخر نفس هو مقامه المعلوم الذي يموت عليه ولهذا دعوا إلى السلوك، فسلكوا علواً بإجابة الدعوة المشروعة، وسفلاً بإجابة الأمر الإراديّ من حيث لا يعلمون إلاّ بعد وقوع المراد، فكلّ شخص من الثقلين ينتهي في سلوكه إلى المقام المعلوم الذي خلق له ومنهم شقي وسعيد، وكل موجود سواهما فمخلوق في مقامه فلم ينزل عنه فلم يؤمر بسلوك إليه لأنه فيه من ملك وحيوان ونبات ومعدن، فهو سعيد عند الله لا شقاء يناله، فقد دخل الثقلان في قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ عند الله، ولا يتمكن لمخلوق من العالم أن يكون له علم بمقامه إلاّ بتعريف إلهيّ لا بكونه فيه، فإن كل ما سوّى الله ممكن، ومن شأن الممكن أن لا يقبل مقاماً معيناً لذاته وإنما ذلك لمرجحه بحسب ما سبق في علمه به.

والمعلوم هو الذي أعطاه العلم به ولا يعلم هو ما يكون عليه، وهذا هو سرّ القدر المتحكم في الخلق، إذ كان علم المرجح لا يقبل التغيير لاستحالة عدم القديم وعلمه بتعيين المقامات قديم فلذلك لا ينعدم، وهذه المسألة من أغمض المسائل العقلية، وممّا يدلّك على أن علمه سبحانه بالأشياء ليس زائداً على ذاته بل ذاته هي المتعلقة من كونها علماً بالمعلومات

على ما هي المعلومات عليه خلافاً لبعض النظار فإن ذلك يؤدّي إلى نقص الذات عن درجة الكمال، ويؤدّي إلى أن تكون الذات قد حكم عليها أمر زائد أوجب لها ذلك الزائد حكماً يقتضيه ويبطل كون الذات تفعل ما تشاء وتختار ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦] فتحقق هذه المسألة وتفرّغ إليها فإنها غامضة جداً في مسائل الحيرة لا يهتدي إليها عقل على الحقيقة من حيث فكره بل بكشف إلهيّ نبويّ.

ثم نرجع ونقول: إن جماعة من أصحابنا غلطت في هذه المسألة لعدم الكشف فقالت بطريق القوّة والفكر الفاسد: إن الكامل من بني آدم أفضل من الملائكة عند الله مطلقاً، ولم تقيد صنفاً ولا مرتبة من المراتب التي تقع عليها الفضلية لمن هو فيها على غيره، ثم علّلت فقالت: إن لبني آدم الترّقي مع الأنفاس وليس للملائكة هذا فإنها خلقت في مقامها، وما علمت الجماعة القائلة بهذا هذه الحقيقة التي نبّهنا عليها، والصحيح الترّقي أن لنا وللملائكة ولغيرهم وهو لازم للكل دنيا وبرزخاً وآخرة، هذا لكل متصف بالموت في العلم، ألا ترى الملائكة مع كونها لها مقامات معلومة لا تتعداها وما حرمت مزيد العلم فإن الله قد عرفنا أنه علّمهم الأسماء على لسان آدم عليه السلام، فزادهم علماً إلهياً لم يكن عندهم بالأسماء الإلهية، فسبحوه وقدّسوه بها، فساوتنا الملائكة في الترّقي بالعلم لا بالعمل كما لا نترقّى نحن بأعمال الآخرة لزوال التكليف، فنحن وإياهم على السواء في ذلك في الآخرة، فما ارتقينا نحن في الدنيا إلى المقام الذي قبضنا عليه وهو المقام الذي خلق فيه غيرنا ابتداء لشرفنا على غيرنا وإنما كان ذلك ليبلونا لا غير، فلم يفهم القائلون بذلك ما أراده الله مع وجود النصوص في القرآن مثل قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة هود: الآية ٧] ولا يقال كونهم خلقوا على الصورة أدّى إلى ذلك الابتلاء، فإن الجان شاركونا في هذه المرتبة وليس لهم حظّ في الصورة فاعلم والله الموفق.

وصل ـ سرّ إلهيّ:

نهاية الدائرة مجاورة لبدايتها وهي تطلب النقطة لذاتها والنقطة لا تطلبها، فصحّ نهاية أهل الترقّي من العالم، وصحّ افتقار العالم إلى الله وغنى الله عن العالم، وتبيّن أنه كل جزء من العالم يمكن أن يكون سبباً في وجود عالم آخر مثله لا أكمل منه إلى ما لا يتناهى، فإن محيط الدائرة نقط متجاورة في أحياز متجاورة ليس بين حيّزين حيّز ثالث، ولا بين النقطتين المفروضتين أو الموجودتين فيهما نقطة ثالثة لأنه لا حيّز بينهما، فكل نقطة يمكن أن يكوّن عنها محيط، وذلك المحيط الآخر حكمه حكم المحيط الأول إلى ما لا نهاية له، والنهاية في العالم حاصلة، والغاية من العالم غير حاصلة، فلا تزال الآخرة دائمة التكوين عن العالم، فإنهم يقولون في الجنان للشيء يريدونه: كن فيكون، فلا يتوهمون أمراً ما ولا يخطر لهم خاطر في تكوين أمر ما إلاّ ويتكوّن بين أيديهم، وكذلك أهل النار لا يخطر لهم خاطر خوف من عذاب أكبر ممّا هم فيه إلاّ تكوّن فيهم، أو لهم ذلك العذاب وهو عين حصول الخاطر،

فإن الدار الآخرة تقتضي تكوين العالم عن العالم لكن حسّاً وبمجرد حصول الخاطر والهم والإرادة والتمني والشهوة كل ذلك محسوس وليس ذلك في الدنيا أعني من الفعل بالهمة لكل أحد، وقد كان ذلك في الدنيا لغير الوليّ كصاحب العين والغرانية بإفريقية، ولكن ما يكون بسرعة تكوين الشيء بالهمة في الدار الآخرة، وهذا في الدار الدنيا نادر شاذ كقضيب البان وغيره، وهو في الدار الآخرة للجميع، فصدق قول الإمام أبي حامد: ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم لأنه ليس أكمل من الصورة التي خلق عليها الإنسان الكامل، فلو كان لكان في العالم ما هو أكمل من الصورة التي هي الحضرة الإلهية.

وصل ـ سرّ إلهيّ:

كل خط يخرج من النقطة إلى المحيط مساوٍ لصاحبه وينتهي إلى نقطة من المحيط، والنقطة في ذاتها ما تعددت ولا تزيدت مع كثرة الخطوط الخارجة منها إلى المحيط وهي تقابل كل نقطة من المحيط بذاتها، إذ لو كان ما تقابل به نقطة من المحيط غير ما تقابل به نقطة أخرى لانقسمت ولم يصحّ أن تكون واحدة وهي واحدة، فما قابلت النقط كلها على كثرتها إلاَّ بذاتها، فقد ظهرت الكثرة عن الواحد العين ولم يتكثر هو في ذاته، فبطل قول من قال: إنه لا يصدر عن الواحد إلاَّ واحد، فذلك الخط الخارج من النقطة إلى النقطة الواحدة من المحيط هو الوجه الحاصل الذي لكل موجود من خالقه سبحانه وهو قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠]. فالإرادة هنا هو ذلك الخط الذي فرضناه خارجاً من نقطة الدائرة إلى المحيط، وهو التوجّه الإلهيّ الذي عيّن تلك النقطة في المحيط بالإيجاد، لأن ذلك المحيط هو عين دائرة الممكنات، والنقطة التي في الوسط المعينة لنقطة الدائرة المحيطة هي الواجب الوجود لنفسه، وتلك الدائرة المفروضة دائرة أجناس الممكنات وهي محصورة في جوهر متحيّز وجوهر غير متحيّز، وأكوان وألوان، والذي لا ينحصر وجود الأنواع والأشخاص وهو ما يحدث من كل نقطة من كل دائرة من الدوائر فإنه يحدث فيها دوائر الأنواع، وعن دوائر الأنواع دوائر أنواع وأشخاص فاعلم ذلك، والأصل النقطة الأولى لهذا كله، وذلك الخط المتصل من النقطة إلى النقطة المعينة من محيطها يمتد منها إلى ما يتولد عنها من النقط في نصف الدائرة الخارجة عنها، وعن ذلك النصف تخرج دوائر كاملة، وعلّة ذلك الامتياز بين الواجب الوجود لنفسه وبين الممكن، فلا يتمكن أن يظهر عن الممكن الذي هو دائرة الأجناس دائرة كاملة فإنها كانت تدخل بالمشاركة فيما وقع به الامتياز وذلك محال، فتكوين دائرة كاملة من الأجناس محال ليتبين نقص الممكن عن كمال الواجب الوجود لنفسه، وصورة الأمر فيها هكذا صورة شكل الأجناس والأنواع من غير قصد للحصر، إذ للأنواع أنواع حتى ينتهي إلى النوع الأخير كما ينتهي إلى جنس الأجناس:

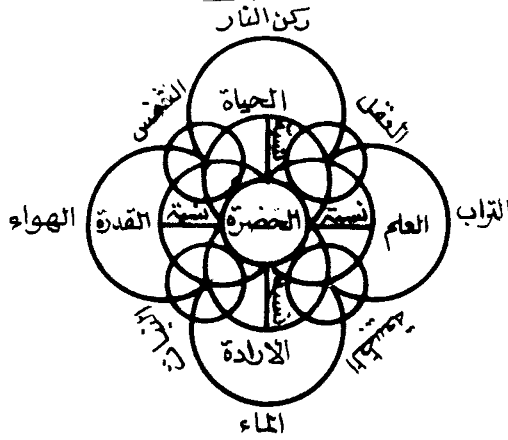

واعلم أن لنفوس الثقلين ونفوس الحيوان قوّتين: قوّة علمية وقوّة عملية عند أهل الكشف، وقد ظهر ذلك في العموم من الحيوان كالنحل والعناكب والطيور التي تتخذ الأوكار وغيرهم من الحيوانات، ولنفوس الثقلين دون سائر الحيوان قوّة ثالثة ليست للحيوان ولا للنفس الكلية وهي القوّة المفكرة، فيكتسب بعض العلوم من الفكر هذا النوع الإنسانيّ، ويشارك سائر العالم في أخذ العلوم من الفيض الإلهيّ وبعض علومها كالحيوان بالفطرة، كتلقي الطفل ثدي أمّه للرّضاعة وقبوله للبن، وليس لغير الإنسان اكتساب علوم تبقى معه من طريق فكر، فالفكر من الإنسان بمنزلة الحقيقة الإلهية المنصوص عليها بقوله تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] وقوله تعالىٰ في الخبر الصحيح عنه: «**مَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ**». وليس للعقل الأول هذه الحقيقة ولا للنفس الكلية، فهذا أيضاً مما اختصّ به الإنسان من الصورة التي لم يخلق غيره عليها، ونحن نعلم أن الإنسان الكامل موجود على الصورة، ونحن نقطع أنه ما أوجد الله غير الإنسان على ذلك، فإنه ما ورد وقوع ذلك ولا عدم وقوعه لا على لسان نبيّ ولا في كتاب منزل، وإن غلط في ذلك جماعة فإنهم لم يستندوا فيه إلى تعريف إلهيّ وإنما يحتجون بالخبر، وليس في الخبر ما يدل على أنّ غير الإنسان الكامل ما خلق على الصورة ويمكن صحة ذلك ويمكن عدم صحته.

وصل ـ سرّ إلهيّ:

الطبيعة بين النفس والهباء. وهو رأي الإمام أبي حامد، ولا يمكن أن تكون مرتبتها إلاّ هنالك، فكل جسم قبل الهباء إلى آخر موجود من الأجسام فهو طبيعيّ، وكل ما تولد من الأجسام الطبيعية من الأمور والقوىٰ والأرواح الجزئية والملائكة والأنوار فللطبيعة فيها حكم إلهيّ قد جعله الله تعالىٰ وقدّره، فحكم الطبيعة من الهباء إلى ما دونه، وحكم النفس الكلية من الطبيعة فما دونها وما فوق النفس، فلا حكم للطبيعة ولا للنفس فيه، وفيما ذكرناه خلاف كثير بين أصحاب النظر من غير طريقنا من الحكماء، فإن المتكلم لا حظّ له في هذا العلم من كونه متكلماً بخلاف الحكيم، فإن الحكيم عبارة عمّن جمع العلم الإلهيّ والطبيعيّ والرياضيّ والمنطقيّ، وما ثم إلاّ هذه الأربع المراتب من العلوم، وتختلف الطريق في تحصيلها بين الفكر والوهب وهو الفيض الإلهيّ، وعليه طريقة أصحابنا ليس لهم في الفكر دخول لما

يتطرّق إليه من الفساد والصحة فيه مظنونة فلا يوثق بما يعطيه، وأعني بأصحابنا أصحاب القلوب والمشاهدات والمكاشفات، لا العباد ولا الزهاد ولا مطلق الصوفية إلاَّ أهل الحقائق والتحقيق منهم، ولهذا يقال في علوم النبوّة والولاية أنها وراء طور العقل ليس للعقل فيها دخول بفكر، لكن له القبول خاصة عند السليم العقل الذي لم يغلب عليه شبهة خيالية فكرية يكون من ذلك فساد نظره وعلوم الأسرار كثيرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والأربعون

في معرفة إنما كان كذا لكذا وهو إثبات العلة والسبب

[نظم: الخفيف]

إنـمـا كـان هـكـذا لـكـذا ... عِـلْـمُ مـن حـاز رُتْـبَـةَ الـحِـكَـم

لا تـعـلِّـلْ وجـودَ خـالـقـنـا ... فـيـكُـنْ سَـيْـركـم إلـى الـعَـدَم

وهـو الأولُ الـذي مـا لـه ... أولٌ فـي الـحـدوث والـقِـدَم

أوّلُ مسألة من هذا الباب: ما السبب الموجب لوجود العالم حتى يقال فيه: إنما وجد العالم لكذا، وذلك الأمر المتوقف عليه صحة وجوده، إمّا أن تكون علة فتطلب معلولها لذاتها، وإذا كان هذا فهل يصحّ أن يكون للمعلول علتان فما زاد أو لا يصحّ؟ وذلك في النظر العقلي لا في الوضعيات، وإذا تعدّدت العلل فهل تعدّدها يرجع إلى أعيان وجودية؟ أو هل هي نسب لأمر واحد؟ وثم أمور يتوقف صحة وجودها على شرط يتقدّمها أو شروط، ويجمع ذلك كله اسم السبب، وللشرط حكم وللعلة حكم، فهل العالم في افتقاره إلى السبب الموجب لوجوده افتقار المعلول إلى العلة؟ أو افتقار المشروط إلى الشرط؟ وأيهما كان لم يكن الآخر، فإن العلة تطلب المعلول لذاتها والشرط لا يطلب المشروط لذاته، فالعلم مشروط بالحياة، ولا يلزم من وجود الحياة وجود العلم، وليس كون العالم عالماً كذلك، فإن العلم علة في كون العالم عالماً، فلو ارتفع العلم ارتفع كونه عالماً فهو من هذا الوجه يشبه الشرط، إذ لو ارتفعت الحياة ارتفع العلم، ولو ارتفع كونه عالماً ارتفع العلم فتميز عن الشرط، إذ لو ارتفع العلم لم يلزم ارتفاع الحياة، فهاتان مرتبتان معقولتان قد تميزتا تسمّى الواحدة علة وتسمّى الأخرى شرطاً.

فهل نسبة العالم في وجوده إلى الحق نسبة المعلول أو نسبة المشروط؟ محال أن تكون نسبة المشروط على المذهبين، فإنا لا نقول في المشروط يكون ولا بدّ، وإنما نقول: إذا كان فلا بدّ من وجود شرطه المصحّح لوجوده، ونقول في العالم على مذهب المتكلم الأشعري أنه لا بدّ من كونه لأن العلم سبق بكونه ومحال وقوع خلاف المعلوم، وهذا لا يقال في المشروط، وعلى مذهب المخالف وهم الحكماء فلا بدّ من كونه لأنّ الله اقتضى وجود العالم لذاته، فلا بدّ من كونه ما دام موصوفاً بذاته بخلاف الشرط، فلا فرق إذن بين المتكلم

الأشعري والحكيم في وجوب وجود العالم بالغير، فلنسمّ تعلق العلم بكون العالم أزلاً علة، كما يسمّي الحكيم الذات علة ولا فرق، ولا يلزم مساوقة المعلول علته في جميع المراتب، فالعلة متقدمة على معلولها بالمرتبة بلا شك، سواء كان ذلك سبق العلم أو ذات الحق، ولا يعقل بين الواجب الوجود لنفسه وبين الممكن بون زماني ولا تقدير زماني، لأن كلامنا في أول موجود ممكن والزمان من جملة الممكنات، فإن كان أمراً وجودياً فالحكم فيه كسائر الحكم في الممكنات، وإن لم يكن أمراً وجودياً وكان نسبة فحدثت النسبة بحدوث الموجود المعلول حدوثاً عقلياً لا حدوثاً وجودياً، وإذا لم يعقل بين الحق والخلق بون زماني فلم يبق إلاّ الرتبة، فلا يصحّ أن يكون أبداً الخلق في رتبة الحق، كما لا يصحّ أن يكون المعلول في رتبة العلة من حيث ما هو معلول عنها، فالذي هرب منه المتكلم في زعمه وشنع به على الحكيم القائل بالعلة يلزمه في سبق العلم بكون المعلوم لأن سبق العلم يطلب كون المعلوم لذاته، ولا بدّ ولا يعقل بينهما بون مقدر، فهذا قد نبّهناك على بعض ما ينبغي في هذه المسألة فالعالم لم يبرح في رتبة إمكانه سواء كان معدوماً أو موجوداً، والحق تعالىٰ لم يبرح في مرتبة وجوب وجوده لنفسه سواء كان العالم أو لم يكن، فلو دخل العالم في الوجوب النفسي لزم قدم العالم ومساوقته في هذه الرتبة لواجب الوجود لنفسه وهو الله ولم يدخل بل بقي على إمكانه وافتقاره إلى موجده وسببه وهو الله تعالىٰ، فلم يبق معقول البينية بين الحق والخلق إلاّ التمييز بالصفة النفسية فبهذا نفرق بين الحق والخلق فافهم.

وأمّا قولنا: هل يكون في العقل للأمر المعلول علتان؟ فلا يصحّ أن يكون للمعلول العقلي علتان، بل إن كان معلولاً فعن علة واحدة لأنه لا فائدة للعلة إلاّ أن يكون لها أثر في المعلول. وأمّا إن اتفق أن يكون من شرط المعلول أن يكون على صفة بها يقبل أن يكون معلولاً لهذه العلة ولا يمكن أن يكون هذا علة لذلك المعلول نفسه، إلاّ أن يكون ذلك المعلول بتلك الصفة النفسية فلا بدّ منها، ولا يلزم من هذا أن تكون تلك الصفة النفسية علة له فإنها صفة نفسية والشيء لا يكون علة لنفسه فإنه يؤدي إلى أن تكون العلة عين المعلول فيكون الشيء متقدماً على نفسه بالرتبة وهذا محال، فكون الشيء علة لنفسه محال، فإن العالم لو لم يكن في نفسه على صفة يقبل الاتصاف بالوجود والعدم على السواء لم يصحّ أن يكون معلولاً لعلته المرجحة له أحد الجائزين بالنظر إلى نفسه، فإنّ المحال لا يقبل صفة الإيجاد فلا يكون الحق علة له، فبطل أن يكون كونه ممكناً علة له، وبطل أن يكون للشيء علتان، فإنّ الأثر للعلة في المعلول إنما كان وجوده، فما حكم العلة الأخرى فيه؟ إن كان وجوده فقد حصل من إحداهما فلم يبق للآخر أثر، فإن قيل باجتماعهما كان المعلول عن ذلك الاجتماع فكان عنهما. قلنا: فكل واحد منهما إذا انفرد لا يكون علة ولا يصحّ عليه اسم العلية وقد صحّ، فبطل أن يكونه كونه علة متوقفاً على أمر آخر، فإن قال: وما المانع أن تكون العلة بالاجتماع؟ قلنا: إنما يكون الشيء علة لنفسه لهذا المعلول عنه لا لغيره فيكون معلولاً لذلك الغير لأن

ذلك الغير كسبه العلية وكل مكتسب لا يكون صفة نفسية، ولو قلنا باجتماعهما كان علة، فلا يخلو ذلك الاجتماع أن يكون أمراً زائداً على نفس كل واحد منهما أو هو عينهما لا جائز أن يكون عينهما فإنا نعقل عين كل واحد منهما ولا اجتماع، فلا بدّ أن يكون زائداً فذلك الزائد لا بدّ أن يكون وجوداً أو عدماً، لا وجوداً ولا عدماً، أو وجوداً و عدماً معاً، فهذا القسم الرابع محال بالبديهة، ومحال أن يكون وجوداً للتسلسل اللازم له بما يلزمه من ملزومه أو الدور فيكون علة لمن هو معلول له وهذا محال، ومحال أن يكون عدماً لأن العدم نفي محض ولا يتصف النفي المحض بالأثر، ومحال أن يكون لا وجود ولا عدم كالنسب إذ لا حقيقة للنسب في الوجود فإنها أمور إضافية تحدث ولا يكون ما يحدث علة لما هو عنه حادث فبطل أن يكون للشيء علتان في العقل.

وأما في الوضعيات فقد يعتبر الشرع أموراً تكون بالمجموع سبباً في ترتيب الحكم هذا لا يمنع، فإذ وقد علمت هذا فهو أدلّ دليل على توحيد الله تعالىٰ كونه علة في وجود العالم، غير أن إطلاق هذا اللفظ عليه لم يرد به الشرع فلا نطلقه عليه ولا ندعوه به، فهذا توحيد ذاتيّ ينتفي معه الشريك بلا شك، قال الله عزّ وجلّ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٢] ومعنى هذا لم يوجدا، يعني العالم العلويّ وهو السماء، والسفليّ وهو الأرض، فحقق هذه المسألة في ذهنك فإنها نافعة في نفي الشريك ونفي التحديد عن الله تعالىٰ، فلا حدّ لذاته ولا شريك له في ملكه لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم. [مجزوء الخفيف]

إنـمـا عـلَّـلـوا الـذي ... عَـلَّـلـوهُ لـكَـوْنِـهِ
هـو مـعـلـولُ عِـلْـمِـه ... لـيـس مـعـلـولَ عَـيْـنـهِ
فـانـظـروا مـا نَـصَـصْـتُـه ... فـهـو مـن سـرِّ بَـيْـنـهِ
فُـصِـلَ الأمـرُ نـفـسُـه ... عـن سـواه بـبَـيْـنـهِ
فـيَّ سـرٌّ مـحـقَّـقٌ ... أنـنـي سـرُّ عَـوْنـهِ
فـلـبِـسْـتُ الـرداءَ مـن ... طـلـبـي عَـيْـنَ صَـوْنِـهِ

مسألة أخرى: إنما كان كذا لكذا، إنما انقسم العالم إلى شقيّ وسعيد للأسماء الإلهية، فإن الرتبة الإلهية تطلب لذاتها أن يكون في العالم بلاء وعافية، ولا يلزم من ذلك دوام شيء من ذلك إلاّ أن يشاء الله فقد كان ولا عالم وهو مسمّى بهذه الأسماء، فالأمر في هذا مثل الشرط والمشروط ما هو مثل العلة والمعلول، فلا يصحّ المشروط ما لم يصحّ وجود الشرط وقد يكون الشرط وإن لم يقع المشروط، فلما رأينا البلاء والعافية قلنا: لا بدّ لهما من شرط وهو كون الحق إلهاً يسمّى بالمبلي والمعذب والمنعم، وكما أن كل ممكن قابل لأحد الحكمين أعني الضدّين هو قابل أيضاً لانتفاء أحد الضدّين، فالعالم كله ممكن، فجائز أن ينتفي عنه أحد الحكمين، فلا يلزم الخلود في الدار الآخرة في العذاب ولا في النعيم بل ذلك

كله ممكن، فإن ورد الخبر الإلهيّ الذي يفيد العلم بالنص الذي لا يحتمل التأويل بخلود العالم في أحد الحكمين أو بوقوع كل حكم في جزء من العالم معين وخلود ذلك الجزء فيه إلى ما لا يتناهى قبلناه وقلنا به، وما ورد من الشارع أن العالم الذي هو في جهنم الذين هم أهلها ولا يخرجون منها أن بقاءهم فيها لوجود العذاب، فكما ارتفع حكم العذاب عن ممكن ما وهم أهل الجنة، كذلك يجوز أن يرتفع عن أهل النار وجود العذاب مع كونهم في النار لقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٧]. وقال: «**سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي**» ولا يلزم من وجود الشرط وجود المشروط فيكون الله إلهاً بجميع أسمائه ولا عذاب في العالم ولا ألم، لأنه ليس ارتفاعه عن ممكن ما بأولى من ارتفاعه عن جميع الممكنات، فلم يبق بأيدينا من طريق العقل دليل على وجود العذاب دائماً ولا غيره، فليس إلاّ النصوص المتواترة أو الكشف الذي لا يدخله شبهة، فليس للعقل ردّه إذا وَرد من الصادق النص الصريح أو الكشف الواضح.

مسألة أخرى من هذا الباب: إنما صحّت الصورة لآدم لخلقه باليدين فاجتمع فيه حقائق العالم بأسره والعالم يطلب الأسماء الإلهية فقد اجتمع فيه الأسماء الإلهية، ولهذا خصّ آدم عليه السلام بعلم الأسماء كلها التي لها توجّه إلى العالم، ولم يكن ذلك العلم أعطاه الله للملائكة وهم العالم الأعلى الأشرف، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ ولم يقل بعضها، وقال: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] ولم يقل عرضها، فدلّ على أنه عرض المسمين لا الأسماء. وقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنّي أَسأَلُكَ بِكُلِّ اسْم سَمَّيتَ بِهِ نَفسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحداً مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرتَ بِهِ فِي عِلْم غَيبِكَ**». فإن كان هذا الدعاء دعاء به قبل نزول سورة البقرة عليه فلا معارضة بين الخبر والآية عند من يقول: بأن الأسماء هنا هي الأسماء الإلهية، فإنه ﷺ لم يكن له علم بما خصّ الله به آدم على الملائكة كما قال ﷺ: «**مَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إنْ أَتبعُ إلاَّ مَا يُوحَى بِهِ إِلَيَّ**» وإن كان دعا به بعد نزول سورة البقرة، فيكون يريد قوله كلها الأسماء الإلهية التي تطلب الآثار في العالم وما تعبد به من أسماء التنزيه والتقديس، وكذلك قوله ﷺ في حديث الشفاعة: «**فَأَحْمدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ يُعَلِّمُنِيها اللَّهُ لاَ أَعْلَمُهَا الآن**» مع قوله في حديث الضربة: «**فَعَلِمْتُ عِلْمَ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ**» ومن علّم الأولين علّم الأسماء التي علّمها الله آدم، وربما يكون من علم الآخرين علم هذه المحامد التي يحمد بها ربّه يوم القيامة.

مسألة أخرى من هذا الباب: إنما كانت الخلافة لآدم عليه السلام دون غيره من أجناس العالم لكون الله تعالىٰ خلقه على صورته، فالخليفة لا بدّ أن يظهر فيما استخلف عليه بصورة مستخلفه وإلاّ فليس بخليفة له فيهم، فأعطاه الأمر والنهي وسمّاه بالخليفة، وجعل البيعة له بالسمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر، وأمر الله سبحانه عباده بالطاعة لله ولرسوله والطاعة لأولي الأمر منهم، فجمع رسول الله ﷺ بين الرسالة والخلافة كداود عليه

السلام، فإنّ الله نصّ على خلافته عن الله بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦] وأجمل خلافة آدم عليه السلام وما كل رسول خليفة، فمن أمر ونهى وعاقب وعفا وأمر الله بطاعته وجمعت له هذه الصفات كان خليفة، ومن بلغ أمر الله ونهيه ولم يكن له من نفسه إذن من الله تعالىٰ أن يأمر وينهي فهو رسول يبلغ رسالات ربّه، وبهذا بان لك الفرقان بين الرسول والخليفة، ولهذا جاء بالألف واللام في قوله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] وقال عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩] أي فيما أمركم به على لسان رسوله ﷺ ممّا قال فيه ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ وهو كل أمر جاء في كتاب الله تعالىٰ. ثم قال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩] ففصّل أمر طاعة الله من طاعة رسوله ﷺ، فلو كان يعني بذلك ما بلغ إلينا من أمر الله تعالىٰ لم تكن.

ثم فائدة زائدة فلا بدّ أن يوليه رتبة الأمر والنهي فيأمر وينهى، فنحن مأمورون بطاعة رسول الله ﷺ عن الله بأمره وقال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] وطاعتنا له فيما أمر به ﷺ ونهى عنه ممّا لم يقل هو من عند الله فيكون قرآناً، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [سورة الحشر: الآية ٧] فأضاف النهي إليه ﷺ فأتى بالألف واللام في الرسول يريد بهما التعريف والعهد أي الرسول الذي استخلفناه عنّا فجعلنا له أن يأمر وينهى زائداً على تبليغ أمرنا ونهينا إلى عبادنا. ثم قال تعالىٰ في الآية عينها ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩] أي إذا ولي عليكم خليفة عن رسولي أو وليتموه من عندكم كما شرع لكم فاسمعوا له وأطيعوا ولو كان عبداً حبشياً مجدّع الأطراف فإن في طاعتكم إياه طاعة رسول الله ﷺ، ولهذا لم يستأنف في أولي الأمر أطيعوا واكتفى بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ ولم يكتف بقوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ عن قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ ففصّل لكونه تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] واستأنف القول بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فهذا دليل على أنه تعالىٰ قد شرع له ﷺ أن يأمر وينهى، وليس لأولي الأمر أن يشرعوا شريعة إنما لهم الأمر والنهي فيما هو مباح لهم ولنا، فإذا أمرونا بمباح أو نهونا عن مباح وأطعناهم في ذلك أجرنا في ذلك أجر من أطاع الله فيما أوجبه عليه من أمر ونهي، وهذا من كرم الله بنا ولا يشعر بذلك أهل الغفلة منّا.

مسألة أخرى من هذا الباب: إنما أُمرت الملائكة والخلق أجمعون بالسجود وجعل معه القربة فقال: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [سورة العلق: الآية ١٩] وقال ﷺ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنَ اللَّهِ فِي سُجُودِهِ**» ليعلموا أنّ الحق في نسبة الفوق إليه من قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٨] و﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [سورة النحل: الآية ٥٠] كنسبة التحت إليه، فإن السجود طلب السفل بوجهه، كما أن القيام يطلب الفوق إذا رفع وجهه بالدعاء ويديه، وقد جعل الله السجود حالة القرب من الله، فلم يقيده سبحانه الفوق عن التحت ولا التحت عن الفوق، فإنه خالق الفوق والتحت، كما لم يقيده الاستواء على العرش عن النزول إلى السماء الدنيا، ولم يقيده النزول إلى السماء الدنيا عن الاستواء على العرش، كما لم يقيده سبحانه الاستواء والنزول عن

أن يكون معنا أينما كنّا كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] بالمعنى الذي يليق به، وعلى الوجه الذي أراده، كما قال أيضاً: «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي» كما قال عنه هود عليه السلام: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] وقال تعالىٰ أيضاً في حق الميت: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] فنسب القرب إليه من الميت. وقال أيضاً عزّ وجلّ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] يعني الإنسان مع قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١].

مسألة دورية من هذا الباب وهذه صورتها:

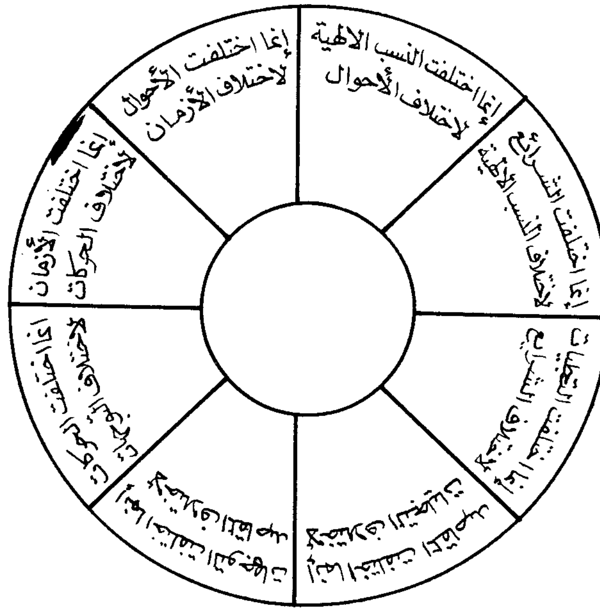

إنما قلنا: اختلفت الشرائع لاختلاف النسب الإلهية، لأنه لو كانت النسبة الإلهية لتحليل أمر ما في الشرع كالنسبة لتحريم ذلك الأمر عينه في الشرع لما صحّ تغيير الحكم وقد ثبت تغيير الحكم، ولما صحّ أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٨] وقد صحّ أن لكل أمّة شرعة ومنهاجاً، جاءها بذلك نبيّها ورسولها فنسخ وأثبت، فعلمنا بالقطع أن نسبته تعالىٰ فيما شرعه إلى محمد ﷺ خلاف نسبته إلى نبيّ آخر، وإلاّ لو كانت النسبة واحدة من كل وجه وهي الموجبة للتشريع الخاص لكان الشرع واحداً من كل وجه، فإن قيل: فلم اختلفت النسب الإلهية؟ قلنا: لاختلاف الأحوال، فمن حاله المرض يدعو: يا معافي، ويا شافي. ومن حاله الجوع يقول: يا رزاق. ومن حاله الغرق يقول: يا مغيث. فاختلفت النسب لاختلاف الأحوال وهو قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[سورة الرحمٰن: الآية ٣١]. وقوله ﷺ لما وصف ربّه تعالىٰ بيده الميزان

يخفض ويرفع فلحالة الوزن قيل فيه الخافض الرافع فظهرت هذه النسب، فهكذا في اختلاف أحوال الخلق. وقولنا: إنما اختلفت الأحوال لاختلاف الأزمان فإن اختلاف أحوال الخلق سببها اختلاف الأزمان عليها، فحالها في زمان الربيع يخالف حالها في زمان الصيف، وحالها في زمان الصيف يخالف حالها في زمان الخريف، وحالها في زمان الخريف يخالف حالها في زمان الشتاء، وحالها في زمان الشتاء يخالف حالها في زمان الربيع.

يقول بعض العلماء بما تفعله الأزمان في الأجسام الطبيعية: تعرّضوا لهواء زمان الربيع فإنه يفعل في أبدانكم ما يفعل في أشجاركم. وتحفظوا من هواء زمان الخريف فإنه يفعل في أبدانكم كما يفعل في أشجاركم، وقد نصّ الله تعالىٰ على أننا من جملة نبات الأرض فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [سورة نوح: الآية ١٧] أراد فنبتم نباتاً لأن مصدر أنبتكم إنما هو إنباتاً كما قال في نسبة التكوين إلى نفس المأمور به فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فجعل التكوين إليه كذلك نسب ظهور النبات إلى النبات فافهم فلذلك قلنا: إنما اختلفت الأحوال لاختلاف الأزمان. وأما قولنا: إنما اختلفت الأزمان لاختلاف الحركات فأعني بالحركات الحركات الفلكية، فإنه باختلاف الحركات الفلكية حدث زمان الليل والنهار وتعينت السنون والشهور والفصول وهذه المعبر عنها بالأزمان.

وقولنا: اختلفت الحركات لاختلاف التوجهات أريد بذلك توجّه الحق عليها بالإيجاد لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ﴾ فلو كان التوجّه واحداً عليها لما اختلفت الحركات وهي مختلفة، فدلّ أن التوجّه الذي حرّك القمر في فلكه ما هو التوجّه الذي حرّك الشمس ولا غيرها من الكواكب والأفلاك، ولو لم يكن الأمر كذلك لكانت السرعة أو الإبطاء في الكل على السواء، قال تعالىٰ: ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٣] فلكل حركة توجّه إلهيّ أي تعلّق خاص من كونه مريداً. وقولنا: إنما اختلفت التوجّهات لاختلاف المقاصد، فلو كان قصد الحركة القمرية بذلك التوجّه عين قصد الحركة الشمسية بذلك التوجّه لم يتميز أثر عن أثر، والآثار بلا شك مختلفة، فالتوجهات مختلفة لاختلاف المقاصد، فتوجهه بالرضى عن زيد غير توجهه بالغضب على عمرو، فإنه قصد تعذيب عمرو وقصد تنعيم زيد، فاختلفت المقاصد.

وقولنا: إنما اختلفت المقاصد لاختلاف التجليات، فإن التجليات لو كانت في صورة واحدة من جميع الوجوه لم يصحّ أن يكون لها سوى قصد واحد وقد ثبت اختلاف القصد، فلا بدّ أن يكون لكل قصد خاص تجلّ خاص ما هو عين التجلّي للآخر، فإن الاتساع الإلهيّ يعطي أن لا يتكرّر شيء في الوجود وهو الذي عوّلت عليه الطائفة والناس ﴿فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [سورة ق: الآية ١٥].

يقول الشيخ أبو طالب المكيّ صاحب قوت القلوب وغيره من رجال الله عزّ وجلّ: إن الله سبحانه ما تجلّى قط في صورة واحدة لشخصين ولا في صورة واحدة مرّتين، ولهذا اختلفت الآثار في العالم وكنى عنها بالرضى والغضب. وقولنا: إنما اختلفت التجلّيات

لاختلاف الشرائع، فإن كل شريعة طريق موصلة إليه سبحانه وهي مختلفة، فلا بدّ أن تختلف التجلّيات كما تختلف العطايا، ألا تراه عزّ وجلّ إذا تجلّى لهذه الأمّة في القيامة وفيها منافقوها وقد اختلف نظرهم في الشريعة فصار كل مجتهد على شرع خاص هو طريقه إلى الله، ولهذا اختلفت المذاهب، وكل شرع في شريعة واحدة، والله قد قرّر ذلك على لسان رسوله ﷺ عندنا فاختلفت التجليات بلا شك، فإن كل طائفة قد اعتقدت في الله أمراً ما إن تجلّى لها في خلافه أنكرته، فإذا تحوّل لها في العلامة التي قد قرّرتها تلك الطائفة مع الله في نفسها أقرّت به، فإذا تجلّى للأشعريّ في صورة اعتقاد من يخالفه في عقده في الله وتجلّى للمخالف في صورة اعتقاد الأشعريّ مثلاً أنكره كل واحد من الطائفتين كما ورد، وهكذا في جميع الطوائف، فإذا تجلّى لكل طائفة في صورة اعتقادها فيه تعالىٰ وهي العلامة التي ذكرها مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أقرّوا له بأنه ربّهم وهو هو لم يكن غيره، فاختلفت التجليات لاختلاف الشرائع.

وقولنا: إنما اختلفت الشرائع لاختلاف النسب الإلهية قد تقدّم ودار الدور، فكل شيء أخذته من هذه المسائل صلح أن يكون أولاً وآخراً ووسطاً، وهكذا كل أمر دوريّ يقبل كل جزء منه بالفرض الأولية والآخرية وما بينهما، وقد ذكرنا مثل هذا الشكل الدوريّ في التدبيرات الإلهية مضاهياً لقول المتقدّم إذ قال: العالم بستان سياجه الدولة، الدولة سلطان تحجبه السنّة، السنّة سياسة يسوسها الملك، الملك راع يعضده الجيش، الجيش أعوان يكفلهم المال، المال رزق يجمعه الرعية، الرعية عبيد تَعبدهم العدل، العدل مألوف فيه صلاح العالم، العالم بستان، ودار الدور، ويكفي هذا القدر من الإيماء إلى العلل والأسباب مخافة التطويل، فإن هذا الباب واسع جدّاً إذ كان العالم كله مرتبطاً بعضه ببعض، أسباب ومسببات وعلل ومعلولات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الخامس والعشرون.

(الجزء السادس والعشرون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب التاسع والأربعون

في معرفة قوله ﷺ:

«إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن» ومعرفة هذا المنزل ورجاله

[نظم: المديد]

نَـفَـسُ الـرحـمـن لـيـس لـه ... فـي سـوى الـرحـمـنِ مـسْـتَـنَـدُ
حُـكْـمُـه فـي كـل طـائـفـةٍ ... مـا لـهـا رُكْـنٌ ولا سَـنَـدُ
يـا مَـنِ الأكـوانُ مـنـزلُـه ... وهـو لا روحٌ ولا جـسَـدُ

مـا لــه حــدٌ يــعــيّــنُــه وهــو الــمــطــلــوب والــصَّــمَــدُ
فــجــمــيــعُ الــخــلــق يــطــلــبــه ثــم لــم يــظــفــر بــه أحــدُ
أحــدٌ مــا مــثــلــه أحَــدٌ بــكــمــال الــنَّــعْــت مــنــفَــرِدُ

اعلم يا وليّ أن لله عباداً من حيث اسمه الرحمن وهو قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٣] يقول تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [سورة مريم: الآية ٨٥] ولله عباد يأتي إليهم الرحمن من اسمه الرب فإن الله يقول: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] فكماله من الاسم الله الأسماء الحسنى، كذلك له من الاسم الرحمن الأسماء الحسنى، قال رسول الله ﷺ: «**يَنزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيَا**» وقال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [سورة الفجر: الآية ٢٢] فثمَّ إتيان عام مثل هذا وهو الإتيان للفصل والقضاء، وثم إتيان خاص بالرحمة لمن اعتنى به من عباده، قال رسول الله ﷺ لما اشتدّ كربه من المنازعين: «**إِنِّي لأَجِدُ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ مِنْ قِبَلِ اليَمَنِ**» وهو ما مشى إلى اليمن، لكن النفس أدركه من قبل اليمن، وما أدركه حتى أتاه فجاء بالتنفيس من الشدّة والضيق الذي كان فيه بالأنصار رضي الله عن جميعهم، فتقدم إليه النفس في باطنه وقلبه مبشّراً بما يظهره الله من نصرة الدين وإقامته على أيدي الأنصار.

ولقد جرى لنا في حديث الأنصار ما نذكره إن شاء الله، وذلك أنه عندنا بدمشق رجل من أهل الفضل والأدب والدين يقال له يحيىٰ بن الأخفش من أهل مراكش كان أبوه يدرس العربية بها فكتب إليّ يوماً من منزله بدمشق وأنا بها يقول لي في كتابه: يا وليّ رأيت رسول الله ﷺ البارحة بجامع دمشق وقد نزل بمقصورة الخطابة إلى جانب خزانة المصحف المنسوب إلى عثمان رضي الله عنه والناس يهرعون إليه ويدخلون عليه يبايعونه فبقيت واقفاً حتى خفّ الناس فدخلت عليه وأخذت يده فقال لي: هل تعرف محمداً؟ قلت له: يا رسول الله من محمد؟ فقال له: ابن العربي، قال: فقلت له: نعم أعرفه، ففال له رسول الله ﷺ: إنّا قد أمرناه بأمر فقل له: يقول لك رسول الله: انهض لما أمرت به واصحبه أنت فإنك تنتفع بصحبته وقل له: يقول لك رسول الله امتدح الأنصار ولتعين منهم سعد بن عبادة ولا بدّ ثم استدعي بحسان بن ثابت، فقال له رسول الله ﷺ: يا حسان حفِّظه بيتاً يوصله إلى محمد بن العربي يبني عليه وينسج على منواله في العروض والرويّ. فقال حسان: يا يحيىٰ خذ إليك وأنشدني بيتاً وهو: [الكامل]

شَغَفَ السهادُ بمقلتي ومزاري فعلى الدموع مُعَوَّلي ومُشَاري

وما زال يردّده عليّ حتى حفظته. ثم قال لي رسول الله ﷺ: إذا مدح الأنصار فاكتبه بخط بيّن واحمله ليلة الخميس إلى تربة هذا الذي تسمونها قبر الست فستجد عندها شخصاً اسمه حامد فادفع إليه المديح، فلما أخبرني بذلك هذا الرائي وفّقه الله عملت القصيدة من وقتي من غير فكرة ولا روية ولا تثبط ودفعت القصيدة إليه، فكتب إليّ أنه لما جاء قبر الست وصل إليه بعد العشاء الآخرة قال: فرأيت رجلاً عند القبر فقال لي ابتداء: أنت يحيىٰ الذي

جاء من عند فلان وسمّاني؟ قال: فقلت له: نعم، قال: فأين القصيد الذي مدح به الأنصار عن أمر رسول الله ﷺ؟ فقلت: هوذا عندي فناولته إياه فقرب من الشمعة ليقرأ القصيدة فلم أره يخبر ذلك الخط، فقلت له: تأمرني أنشدك إياها؟ قال: نعم فأنشدته إياها، وهذا نص القصيدة: [الكامل]

قال ابنُ ثابتِ الذي فخرتْ به ... فِقَرُ الكلام ونَشْأَةُ الأشعارِ
شَغَفَ السهادُ بمقلتي ومزاري ... فعلى الدموع مُعَوَّلي ومُشَاري

وكانت أمي تنسب إلى الأنصار فقلت:

فلذا جعلتُ رويَّةَ الراء التي ... هي من حروف الردِّ والتِّكْرارِ
فأقول مبتدئاً لطاعة أحمدٍ ... في مَدْحِ قوم سادةٍ أبرارِ
إني امرؤٌ من جملةِ الأنصار ... فإذا مدَحْتُهُمُو مدَحْتُ نِجاري
بسيوفهم قام الهدى وبهم عَلَتْ ... أنواره في رأس كل مَنارِ
قاموا بنَصْر الهاشميِّ محمدٍ ... المصطفى المختارِ من مختارِ
صحبوا النبيَّ بنيَّةٍ وعزائم ... فازوا بهنَّ حميدةَ الآثارِ
باعوا نفوسَهُمُو لنصرة دينه ... ولذاك ما صحبوه بالإيثارِ
عنهم كَنَى المختار بالنفس الذي ... يأتيه من يَمَنٍ مع الأقدارِ
سعدٌ سليلُ عُبَادة فخرتْ به ... يوم السَّقيفة جُمْلَةُ الأنصارِ
لله آسادٌ لكل كريهةٍ ... نزلت بدين الله والأخيارِ
عَزُّوا بدين الله في إعزازهم ... دينَ الهدى بالعسكرِ الجرَّارِ
فيهم عَلا يومَ القيامة مشهدي ... وبهم ترى يومَ الورود فَخَاري
لو أنني صغْتُ الكلام قلائداً ... في مدحهم ما كنت بالمِكْثارِ
كَرِشُ النبيّ وعيبةٌ لرسوله ... لحقت بهم أعداؤه بتَبَارِ
رهبانُ ليلاً يقرؤون كلامه ... آسادُ غابٍ في الوغى بنَهَارِ

وقصة الرؤيا طويلة، فاقتصرت من ذلك على ما نحتاج إليه في هذا الباب من ذكر الأنصار. ثم نرجع فنقول: فما جاءت الأنصار إلاَّ بعد أن نفّس الله عن نبيّه بما بشّره به فلقيته الأنصار في حال اتساع وانشراح وسرور، وتلقاها ﷺ تلقي الغنيّ بربّه فكان معها والمهاجرين عوناً على إقامة دين الله كما أمرهم الله، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٥] ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٠] ولها آثار وتحكم في خلقه، وهي المتوجهة من الله تعالىٰ على إيجاد الممكنات وما تحوي عليه من المعاني التي لا نهاية لها، والله من حيث ذاته غنيّ عن العالمين، وإنما عرّفنا الله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] ليعلمنا أنه سبحانه ما أوجدنا إلاَّ لنا لا لنفسه، وما خلقنا لعبادته إلاَّ ليعود ثواب ذلك العمل وفضله إلينا، ولذلك ما خصّ بهذا الخطاب إلاَّ الثقلين فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] ولا نشك أنّ كل ما خلق من

الملائكة وغيرهم من العالم ما خلقهم إلاّ مسبّحين بحمده، وما خصّ بهذه الصفة غير الثقلين أعني صفة العبادة وهي الذلّة، فما خلقهم حين خلقهم أولاً وإنما خلقهم ليذلّوا وخلق ما سواهم أذلا في أصل خلقهم، فما جعل العلة في سوى الثقلين الذلّة كما جعلها فينا، وذلك أنه ما تكبّر أحد من خلق الله على أمر الله غير الثقلين، ولا عصى الله أحد من خلق الله سوى الثقلين، فأمر إبليس فعصى، ونهى آدم عليه السلام أن يقرب الشجرة فكان من أمره ما قال الله لنا في كتابه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ١٢١].

وأمّا الملائكة فقد شهد لهم الله بأنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦] ردّاً على من تكلم بما لا ينبغي في حق الملكين ببابل من المفسرين بما لا يليق بهم ولا يعطيه ظاهر الآية، لكن الإنسان يجترىء على الله تعالىٰ فيقول فيه ما لا يليق بجلاله فكيف لا يقول في الملائكة؟ فكما كذب الإنسان ربّه في أمور فيكون هذا القائل قد كذّب ربّه في قوله في حق الملائكة: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ وفي صحيح الخبر عن رسول الله ﷺ عن الله عزّ وجلّ: «**يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ ذٰلِكَ، وَشَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ ذٰلِكَ**» الحديث، فلا أحد أصبر على أذى من الله، كذا ورد أيضاً في الخبر وهو سبحانه يرزقهم ويحسن إليهم وهم في حقّه بهذه الصفة.

فاعلم أن السبب الموجب لتكبر الثقلين دون سائر الموجودات أنّ سائر المخلوقات توجّه على إيجادهم من الأسماء الإلهية أسماء الجبروت والكبرياء والعظمة والقهر والعزّة، فخرجوا أذلاء تحت هذا القهر الإلهيّ، وتعرّف إليهم حين أوجدهم بهذه الأسماء، فلم يتمكن لمن خلق بهذه المنابة أن يرفع رأسه ولا أن يجد في نفسه طعماً للكبرياء على أحد من خلق الله فكيف على من خلقه؟ وقد أشهده أنه في قبضته وتحت قهره، وشهدوا كشفاً نواصيهم ونواصي كل دابة بيده في القرآن العزيز: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] ثم قال متمماً: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] والأخذ بالناصية عند العرب إذلال، هذا هو المقرّر عرفاً عندنا، فمن كان حاله في شهود نظره إلى ربّه أخذ النواصي بيده ويرى ناصيته من جملة النواصي كيف يتصوّر منه عزّاً وكبرياء على خالقه مع هذا الكشف.

وأمّا الثقلان فخلقهم بأسماء اللطف والحنان والرأفة والرحمة والتنزّل الإلهيّ، فعندما خرجوا لم يروا عظمة ولا عزّاً ولا كبرياء، ورأوا نفوسهم مستندة في وجودها إلى رحمة وعطف وتنزّل، ولم يبد الله لهم من جلاله ولا كبريائه ولا عظمته في خروجهم إلى الدنيا شيئاً يشغلهم عن نفوسهم، ألا تراهم في الأخذ الذي عرض لهم من ظهورهم حين قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] هل قال أحد منهم: نعم؟ لا والله بل ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] فأقرّوا له بالربوبية لأنهم في قبضة الأخذ محصورون، فلو شهدوا أنّ نواصيهم بيد الله شهادة عين أو إيمان كشهادة عين كشهادة الأخذ ما عصوا الله طرفة عين وكانوا مثل سائر المخلوقات ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٠] فلما ظهروا عن هذه الأسماء الرحمانية قالوا: يا ربنا لم خلقتنا؟ قال: لتعبدون أي لتكونوا أذلاء بين يديّ،

فلم يروا صفة قهر ولا جناب عزّة تذلّهم ولا سيّما وقد قال لهم: لتذلّوا إليّ، فأضاف فعل الإذلال إليهم فزادوا بذلك كبراً، فلو قال لهم: ما خلقتكم إلاّ لأذلّكم لفرقوا وخافوا فإنها كلمة قهر، فكانوا يبادرون إلى الذلّة من نفوسهم خوفاً من هذه الكلمة كما قال للسموات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] فلو لم يقل كرهاً فإنها كلمة قهر حيثما أتت، فلهذا قلنا: ما أوجد كل ما عدا الثقلين ولا خاطبهم إلاّ بصفة القهر والجبروت.

فلما قال للثقلين عن السبب الذي لأجله أوجدهم وخلقهم نظروا إلى الأسماء التي وجدوا عنها فما رأوا اسماً إلهياً منها يقتضي أخذهم وعقوبتهم إن عصوا أمره ونهيه وتكبّروا على أمره فلم يطيعوه وعصوه ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ١٢١] وهو أول الناس، وعصى إبليس ربّه فسرت المخالفة من هذين الأصلين في جميع الثقلين، يقول النبي ﷺ عن آدم لما جحد ونسي ما وهبه لداود من عمره: «**فَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ إلاّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ فَعَصَمَهُ**». ولكن من التكبّر على الله لا من تكبّر بعضهم على بعض وعلى سائر المخلوقين، فما عصم أحد من ذلك ابتداء فإن الله قد شاء أن يتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، ولكن إذا اعتنى الله بعبده ففي الحالة الثانية يرزقه التوفيق والعناية فيلزم ما خلق له من العبادة فيلحق بسائر المخلوقات، وهو عزيز الوجود، وأين العبد الذي هو في نفسه مع أنفاسه عبد لله دائماً، فلا يدل أحد من الثقلين إلاّ عن قهر يجده فهو في ذلّه مجبور، فإذا وجد ذلك حينئذ يلتفت إلى الأسماء التي عنها وجد وهي أسماء الرحمة فيطلبها لتزيل عنه ما هو فيه من الضيق والحرج الذي ما اعتاده فيحنّ إلى جهتها ويعرف أنّ لها قوّة وسلطاناً فتنفس عنه ما يجده من ذلك، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ**» فأشار إلى الاسم الذي خلق به الثقلين وقرن معه جهة القوّة فقال: من قبل اليمن، والقبل الناحية والجهة، واليمن من اليمين وهو القوّة، قال الشاعر: [الوافر]

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لمجد تلقّاها عَرَابةُ باليمينِ

أراد بالقوّة، فإن اليمين محل القوّة ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٧] وكذلك كان لما نظر إليه الاسم الرحمن الذي عنه وجد كان النصر على أيدي الأنصار، وكذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة مريم: الآية ٨٥] فإن المتقي هو الحذر الخائف الوجل، ولا يكون أحد يشهد الرحمن الرحيم الرؤوف ويتقيه، وإنما مشهود المتقي السريع الحساب، الشديد العقاب، المتكبر الجبار، فيتقي ويخاف فيؤمنه الله تعالىٰ بأن يحشره إلى الرحمن فيأمن سطوة الجبار القهار، ولهذا قال تعالىٰ فينا: إن رحمته سبقت غضبه، لأنه بالرحمة أوجدنا لم يوجدنا بصفة القهر، وكذلك تأخّرت المعصية فتأخّر الغضب عن الرحمة في الثقلين، فالله يجعل حكمهما في الآخرة كذلك ولو كانت بعد حين. ألا ترى الله تعالىٰ إذا ذكر أسماءه لنا يبتدىء بأسماء الرحمة ويؤخّر أسماء الكبرياء لأنا لا نعرفها، فإذا قدم لنا أسماء الرحمة عرفناها وحننا إليها، عند ذلك يتبعها أسماء الكبرياء لنأخذها بحكم التبعية فقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٢] فهذا نعت يعم الجميع

وليس واحدته بأولى من الآخر، ثم ابتدأ فقال: ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فعرفنا الرحمن ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٢] لأنا عنه وجدنا، ثم قال بعد ذلك: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ابتداء ليجعله فصلاً بين الرحمن الرحيم وبين العزيز الجبار المتكبر فقال: ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ وهذا كله من نعوت الرحمن، ثم جاء وقال: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٣] فقبلنا هذه النعوت بعد أن آنسنا بأسماء اللطف والحنان، وأسماء الاشتراك التي لها وجه إلى الرحمة ووجه إلى الكبرياء وهو الله والملك، فلما جاء بأسماء العظمة والمحل قد تأنس بترادف الأسماء الكثيرة الموجبة الرحمة قبلنا أسماء العظمة لما رأينا أسماء الرحمة قد قبلتها حيث كانت نعوتاً لها فقبلناها ضمناً تبعاً لأسمائنا.

ثم إنه لما علم الخلق أن صاحب القلب والعلم بالله وبمواقع خطابه إذا سمع مثل أسماء العظمة لا بدّ أن تؤثر فيه أثر خوف وقبض نعتها بعد ذلك وأردفها بأسماء لا تختص بالرحمة على الإطلاق ولا تعرى عن العظمة على الإطلاق فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٤] وهذا كله تعليم من الله عباده وتنزل إليهم، فمنازل أصحاب هذا الباب هي هذه الأسماء المذكورة وحضراتها، ولهذا قدّم سبحانه في كتابه: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في كل سورة، إذ كانت السور تحوي على أمور مخوفة تطلب أسماء العظمة والاقتدار، فقدّم أسماء الرحمة تأنيساً وبشرى، ولهذا قالوا في سورة التوبة إنها والأنفال سورة واحدة حيث لم يفصل بينهما بالبسملة، وفي ذلك خلاف منقول بين علماء هذا الشأن من الصحابة.

ولما علم الله تعالىٰ ما يجري من الخلاف في هذه الأمّة في حذف البسملة من سورة براءة، فمن ذهب إلى أنها سورة مستقلة وكان القرآن عنده مائة وثلاث عشرة سورة فيحتاج إلى مائة وثلاث عشرة بسملة أظهر لهم في سورة النمل بسملة ليكمل العدد وجاء بها كما جاء بها في أوائل السور بعينها، فإن لغة سليمان عليه السلام لم تكن عربية وإنما كانت أخرى، فما كتب لغة هذا اللفظ في كتابه وإنما كتب لفظة بلغته تقتضي معناها باللسان العربيّ إذا عبّر عنها ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وأتى بها محذوفة الألف كما جاءت في أوائل السور ليعلم أن المقصود بها هو المقصود بها في أوائل السور ولم يعمل ذلك في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا﴾ [سورة هود: الآية ٤١] و ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [سورة العلق: الآية ١] فأثبت الألف هناك ليفرّق ما بين اسم البسملة وغيرها، ولهذا تتضمن سورة التوبة من صفات الرحمة والتنزّل الإلهيّ كثيراً، فإن فيها شراء الله نفوس المؤمنين منهم بأن لهم الجنة، وأيّ تنزل أعظم من أن يشتري السيد ملكه من عبده، وهل يكون في الرحمة أبلغ من هذا؟ فلا بدّ أن تكون التوبة والأنفال سورة واحدة، أو تكون بسملة النمل السليمانية لسورة التوبة، ثم انظر في اسمها سورة التوبة والتوبة تطلب الرحمة ما تطلب التبرّي، وإن ابتدأ عزّ وجلّ بالتبرّي فقد ختم بآية لم يأت بها ولا وجدت إلاّ عند من جعل الله شهادته شهادة رجلين، فإن كنت تعقل علمت ما في هذه السورة من الرحمة المدرجة ولا سيّما في قوله تعالىٰ ﴿وَمِنۡهُم﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٩] ﴿وَمِنۡهُم﴾ [سورة التوبة: الآية: ٥٠]

وذلك كله رحمة بنا لنحذر الوقوع فيه والاتصاف بتلك الصفات، فإن القرآن علينا نزل، فلم تتضمن سورة من القرآن في حقّنا رحمة أعظم من هذه السورة لأنه كثر من الأمور التي ينبغي أن يتقيها المؤمن ويجتنبها، فلو لم يعرّفنا الحق تعالىٰ بها ربما وقعنا فيها ولا نشعر فهي سورة رحمة للمؤمنين. وإذ وقد عرفناك بمنازله، فاعلم أن رجاله هم كل من كان حاله من أهل الله حال من أحاطت به الأسماء الجبروتية من جميع عالمه العلويّ والسفليّ فيقع منه اللجأ والتضرّع إلى أسماء الرحمة، فيتجلى له الاسم الرحمن الذي له الأسماء الحسنى، والذي به على العرش استوى، فيهبه الاقتدار الإلهيّ، فيمحو به آثار الأسماء القهرية فيتسع له المجال فينشرح الصدر ويجري النفس ويسري فيه روح الحياة، وتأتي إليه وفود الأسماء الرحمانية والحقائق الإلهية بالتهاني والبشائر، فمن كانت هذه حالته ويعرفها ذوقاً من نفسه وهو من رجال هذا المقام فلا يغالط نفسه، وكل إنسان أعلم بحاله ولا ينفعك أن تنزل نفسك عند الناس منزلة ليست لك في نفس الأمر، وقد نصحتك وأبنت لك عن طريق القوم فلا تكن من الجاهلين بما عرّفناك به ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٩] فإن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخمسون

في معرفة رجال الحيرة والعجز

[نظم: البسيط]

مـن قـالَ يَـعـلـمُ أن الله خـالـقُـه ... ولـم يَـحِـزْ كـان بـرهـانـاً بـأن جـهـلاَ

لا يـعـلـم الـلَّـهَ إلاَّ الـلَّـهُ فـانـتـبـهـوا ... فـلـيـس حـاضـرُكـم مـثـل الـذي غَـفَـلاَ

الـعـجـزُ عـن دَرَك الإدراك مـعـرفـةٌ ... كـذا هـو الـحـكـم فـيـه عـنـد من عَـقَـلاَ

هـو الإلـهُ فـلا تُـحْـصَـى مـحـامِـدُه ... هـو الـنـزيـه فـلا تَـضْـرِبْ لـه مَـثَـلا

اعلم أيّدك الله بروح منه أنّ سبب الحيرة في علمنا بالله طلبنا معرفة ذاته جلّ وتعالىٰ بأحد الطريقين: إمّا بطريق الأدلة العقلية، وإمّا بطريق تسمى المشاهدة، فالدليل العقليّ يمنع من المشاهدة، والدليل السمعيّ قد أومأ إليها وما صرّح، والدليل العقليّ قد منع من إدراك حقيقة ذاته من طريق الصفة الثبوتية النفسية التي هو سبحانه في نفسه عليها، وما أدرك العقل بنظره إلاّ صفات السلوب لا غير وسمّى هذا معرفة، والشارع قد نسب إلى نفسه أموراً وصف نفسه بها تحيلها الأدلة العقلية إلاّ بتأويل بعيد يمكن أن يكون مقصوداً للشارع ويمكن أن لا يكون، وقد لزمه الإيمان والتصديق بما وصف به نفسه لقيام الأدلة عنده بصدق هذه الأخبار عنه أنه أخبر بها عن نفسه في كتبه أو على ألسنة رسله، فتعارض هذه الأمور مع طلبه معرفة ذاته تعالىٰ أو الجمع بين الدليلين المتعارضين أوقعهم في الحيرة، فرجال الحيرة هم الذين نظروا في هذه الدلائل واستقصوها غاية الاستقصاء إلى أن أدّاهم ذلك النظر إلى العجز والحيرة فيه من نبيّ أو صديق. قال ﷺ: **«اللَّهُمَّ زِدْنِي فِيكَ تَحَيُّراً»** فإنه كلما زاده الحق علماً

به زاده ذلك العلم حيرة ولا سيّما أهل الكشف لاختلاف الصور عليهم عند الشهود، فهم أعظم حيرة من أصحاب النظر في الأدلة بما لا يتقارب. قال النبي ﷺ بعدما بذل جهده في الثناء على خالقه بما أوحى به إليه: «**لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**».

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في هذا المقام وكان من رجاله: العجز عن درك الإدراك إدراك، أي إذا علمت أن ثم من لا يعلم ذلك هو العلم بالله تعالىٰ فكان الدليل على العلم به عدم العلم به، والله قد أمرنا بالعلم بتوحيده وما أمرنا بالعلم بذاته بل نهى عن ذلك بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٨] ونهى رسول الله ﷺ عن التفكر في ذات الله تعالىٰ، إذ من ليس كمثله شيء كيف يوصل إلى معرفة ذاته فقال الله تعالىٰ آمراً بالعلم بتوحيده: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة محمد: الآية ١٩] فالمعرفة به من كونه إلهاً، والمعرفة بما ينبغي للإله أن يكون عليه من الصفات التي يمتاز بها عن من ليس بإله وعن المألوه هي المأمور بها شرعاً، فلا يعرف الله إلاّ الله، فقامت الأدلة العقلية القاطعة على أنه إله واحد عند أهل النظر وأهل الكشف فلا إله إلاّ هو.

ثم بعد هذا الدليل العقليّ على توحيده والعلم الضروريّ العقلي بوجوده رأينا أهل طريق الله تعالىٰ من رسول ونبيّ ووليّ قد جاؤوا بأمور من المعرفة بنعوت الإله في طريقهم أحالتها الأدلة العقلية وجاءت بصحتها الألفاظ النبوية والأخبار الإلهية، فبحث أهل الطريق عن هذه المعاني ليحصلوا منها على أمر يتميزون به عن أهل النظر الذين وقفوا حيث بلغت بهم أفكارهم مع تحققهم صدق الأخبار فقالوا: نعلم أن ثمَّ طوراً آخر وراء طور إدراك العقل الذي يستقل به وهو للأنبياء وكبار الأولياء به يقبلون هذه الأمور الواردة عليهم في الجناب الإلهيّ، فعملت هذه الطائفة في تحصيل ذلك بطريق الخلوات والأذكار المشروعة لصفاء القلوب وطهارتها من دنس الفكر، إذ كان المفكر لا يفكر إلاّ في المحدثات لا في ذات الحق، وما ينبغي أن يكون عليه في نفسه الذي هو مسمّى الله ولم يجد صفة إثبات نفسية فأخذ ينظر في كل صفة يمكن أن يقبلها المحدث الممكن يسلبها عن الله لئلا يلزمه حكم تلك الصفة كما لزمت الممكن الحادث، مثل ما فعل بعض النظار من المتكلمين في أمور أثبتوها وطردوها شاهداً وغائباً، ويستحيل على ذات الحق أن تجتمع مع الممكن في صفة، فإنّ كل صفة يتصف بها الممكن يزول وجودها بزوال الموصوف بها أو تزول هي مع بقاء الممكن كصفات المعاني والأولى كصفات النفس.

ثم إن كل صفة منها ممكنة، فإذا طردوها شاهداً وغائباً فقد وصفوا واجب الوجود لنفسه بما هو ممكن لنفسه، والواجب الوجود لنفسه لا يقبل ما يمكن أن يكون ويمكن أن لا يكون، فإذا بطل الاتصاف به من حيث حقيقة ذلك الوصف لم يبق إلاّ الاشتراك في اللفظ، إذ قد بطل الاشتراك في الحدّ والحقيقة، فلا يجمع صفة الحق وصفة العبد حدّ واحد أصلاً، فإذن بطل طرد ما قالوه وطردوه شاهداً وغائباً، فلم يكن قولنا في الله إنه عالم على حدّ ما نقول في الممكن الحادث إنه عالم من طريق حدّ العلم وحقيقته، فإن نسبة العلم إلى الله

تخالف نسبة العلم إلى الخلق الممكن، ولو كان عين العلم القديم هو عين العلم المحدث لجمعهما حد واحد ذاتيّ أعني العلمين، واستحال عليه ما يستحيل على مثله من حيث ذاته، ووجدنا الأمر على خلاف ذلك، فتعلمت هذه الطائفة في تحصيل شيء مما وردت به الأخبار الإلهية من جانب الحق، وشرعت في صقالة قلوبها بالأذكار وتلاوة القرآن، وتفريغ المحل من النظر في الممكنات، والحضور والمراقبة مع طهارة الظاهر بالوقوف عند الحدود المشروعة من غض البصر عن الأمور التي نهي أن ينظر إليها من العورات وغيرها، وإرساله في الأشياء التي تعطيه الاعتبار والاستبصار، وكذلك سمعه، ولسانه، ويده، ورجله، وبطنه، وفرجه، وقلبه، وما ثم في ظاهره سوى هذه السبعة والقلب ثامنها.

ويزيل التفكّر عن نفسه جملة واحدة فإنه مفرّق لهمّه، ويعتكف على مراقبة قلبه عند باب ربّه عسى الله أن يفتح له الباب إليه، ويعلم ما لم يكن يعلم ممّا علمته الرسل وأهل الله ممّا لم تستقل العقول بإدراكه وإحالته، فإذا فتح الله لصاحب هذا القلب هذا الباب حصل له تجلٍّ إلهيّ أعطاه ذلك التجلّي بحسب ما يكون حكمه، فينسب إلى الله منه أمراً لم يكن قبل ذلك يجرأ على نسبته إلى الله سبحانه ولا يصفه به إلاّ قدر ما جاءت به الأنباء الإلهية فيأخذها تقليداً، والآن يأخذ ذلك كشفاً موافقاً مؤيداً عنده لما نطقت به الكتب المنزّلة وجاء على ألسنة الرسل عليهم السلام، فكان يطلقها إيماناً حاكياً من غير تحقيق لمعانيها ولا يزيد عليها، والآن يطلق في نفسه عليه تعالىٰ ذلك علماً محققاً من أجل ذلك الأمر الذي تجلّى له، فيكون بحسب ما يعطيه ذلك الأمر ويعرف معنى ما يطلقه وما حقيقة ذلك، فيتخيل في أول تجلٍّ أنه قد بلغ المقصود وحاز الأمر وأنه ليس وراء ذلك شيء يطلب سوى دوام ذلك، فيقوم له تجلٍّ آخر بحكم آخر ما هو ذلك الأول، والمتجلي واحد لا يشك فيه فيكون حكمه فيه حكم الأول، ثم تتوالى عليه التجلّيات باختلاف أحكامها فيه، فيعلم عند ذلك أن الأمر ما له نهاية يوقف عندها ويعلم أن الأنية الإلهية ما أدركها، وأن الهوية لا يصحّ أن تتجلّى له، وأنها روح كل تجلٍّ فيزيد حيرة لكن فيها لذة وهي أعظم من حيرة أصحاب الأفكار بما لا يتقارب، فإن أصحاب الأفكار ما برحوا بأفكارهم في الأكوان فلهم أن يحاروا ويعجزوا وهؤلاء ارتفعوا عن الأكوان وما بقي لهم شهود إلاّ فيه فهو مشهودهم والأمر بهذه المثابة، فكانت حيرتهم باختلاف التجليات أشد من حيرة النظار في معارضات الدلالات عليه، فقوله ﷺ أو قول من يقول من هذا المقام: «**زِدْنِي فِيكَ تَحَيُّراً**» طلب لتوالي التجليات عليه، فهذا الفرق بين حيرة أهل الله وحيرة أهل النظر، فصاحب العقل ينشد: [المتقارب]

وفـــي كـــلِّ شـــيء لـــه آيـــةٌ تـــدلُّ عـــلـــى أنـــه واحِـــدُ

وصاحب التجلّي ينشد قولنا في ذلك: [المتقارب]

وفـــي كـــلِّ شـــيء لـــه آيـــةٌ تـــدلُّ عـــلـــى أنـــه عَـــيْـــنُـــهُ

فبينهما ما بين كلمتيهما، فما في الوجود إلاّ الله، ولا يعرف الله إلاّ الله، ومن هذه الحقيقة قال من قال: أنا الله، كأبي يزيد، وسبحاني كغيره من رجال الله المتقدّمين وهي من

بعض تخريجات أقوالهم رضي الله عنهم، فمن وصل إلى الحيرة من الفريقين فقد وصل.

غير أن أصحابنا اليوم يجدون غاية الألم حيث لا يقدرون يرسلون ما ينبغي أن يرسل عليه سبحانه كما أرسلت الأنبياء عليهم السلام فما أعظم تلك التجليات، وإنما منعهم أن يطلقوا عليه ما أطلقت الكتب المنزّلة والرسل عليهم السلام عدم إنصاف السامعين من الفقهاء وأولي الأمر لما يسارعون إليه في تكفير من يأتي بمثل ما جاءت به الأنبياء عليهم السلام في جنب الله وتركوا معنى قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١] كما قال له ﷺ ربّه عزّ وجلّ عند ذكره الأنبياء والرسل عليهم السلام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠] فأغلق الفقهاء هذا الباب من أجل المدّعين الكاذبين في دعواهم ونعم ما فعلوا، وما على الصادقين في هذا من ضرر، لأنّ الكلام والعبارة عن مثل هذا ما هو ضربة لازب، وفي ما ورد عن رسول الله ﷺ في ذلك كفاية لهم فيوردونها يستريحون إليها من تعجّب وفرح وضحك وتبشّش ونزول ومعية ومحبة وشوق وما أشبه ذلك ممّا لو انفرد بالعبارة عنه الوليّ كفر وربما قتل، وأكثر علماء الرسوم عدموا علم ذلك ذوقاً وشرباً، فأنكروا مثل هذا من العارفين حسداً من عند أنفسهم، إذ لو استحال إطلاق مثل هذا على الله تعالىٰ ما أطلقه على نفسه ولا أطلقته رسله عليهم السلام عليه، ومنعهم الحسد أن يعلموا أنّ ذلك ردّ على كتاب الله وتحجير على رحمة الله أن تنال بعض عباد الله وأكثر العامّة تابعون للفقهاء في هذا الإنكار تقليداً لهم لا بل بحمد الله أقل العامة.

وأمّا الملوك فالغالب عليهم عدم الوصول إلى مشاهدة هذه الحقائق لشغلهم بما دفعوا إليه، فساعدوا علماء الرسوم فيما ذهبوا إليه إلاَّ القليل منهم فإنهم اتهموا علماء الرسوم في ذلك لما رأوه من انكبابهم على حطام الدنيا وهم في غنى عنه، وحب الجاه والرياسة، وتمشية أغراض الملوك فيما لا يجوز، وبقي العلماء بالله تحت ذلّ العجز والحصر معهم كرسول كذبه قومه وما آمن به واحد منهم، ولم يزل رسول الله ﷺ يحرس حتى نزل: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٧] فانظر ما يقاسيه في نفسه العالِم بالله، فسبحان من أعمى بصائرهم حيث أسلموا وسلّموا وآمنوا بما به كفروا، فالله يجعلنا ممّن عرف الرجال بالحق لا ممّن عرف الحق بالرجال، والحمد لله رب العالمين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الحادي والخمسون

في معرفة رجال من أهل الورع قد تحققوا بمنزل نفس الرحمن

[نظم: مجزوء الكامل]

يـا مَـنْ تـحـقـق بـالـنَّـفَـسْ ... إن الـكـلامَ لـفـي الـقَـبَـسْ
وكـذا الـهـبـاتُ مـن الـعـلـو ... م لـدى الـمـحـقِّـق فـي الـبَـلَـسْ
لله قـومٌ مـا لـهـم ... فـي نـفـس نـفـسـهِـمُ نَـفَـسْ
وهـم الـذيـن هـمـو هُـمُ ... أهـلُ الـمـشـاهـد فـي الـغَـلَـسْ

فهمُ الخلائفُ في الغيو ... بِ وفي الشهادة كالعَسَسْ
أعلى الإلهُ مقامَهم ... في سورةٍ تُتلَى عَبَسْ
فيها لطائفُ سرِّهم ... فابحَثْ ولا تَكُ تختَلِسْ
من كان ذا علم بها ... في حاله لم يَبْتَئِسْ

اعلم أيّدك الله بروح القدس أن رجال هذا الباب هم الزهاد الذين كان الورع سبب زهدهم، وذلك أن القوم تورّعوا في المكاسب على أشد ما يكون من عزائم الشريعة، فكلما حاك له في نفوسهم شيء تركوه عملاً على قوله ﷺ: «**دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يُرِيبُكَ**» وقوله: «**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ**». وقال بعضهم: ما رأيت أسهل عليّ من الورع، كل ما حاك له في نفسي شيء تركته إلى أن جعل الله لهم علامات يعرفون بها الحلال من الحرام في المطاعم وغيرها إلى أن ارتقوا عن العلامات إلى خرق العوائد عندهم في الشيء المتورّع فيه فيستعملونه، فيظنّ من لا علم له بذلك أنه أتى حراماً وليس كذلك، فاتسع عليهم ذلك الضيق والحرج، وقد ذقنا هذا من نفوسنا، وزال عنهم ما كانوا يجدونه في نفوسهم من البحث والتفتيش عن ذلك، وهذه العلامة وهذا الحال التي ارتقوا إليها لا تكون أبداً إلاّ من نفس الرحمن، رحمهم بذلك الرحمن لما رآهم فيه من التعب والضيق والحرج، وتهمة الناس في مكاسبهم وما يؤدّيهم إليه هذا الفعل من سوء الظنّ بعباد الله، فنفس الرحمن عنهم بما جعل لهم من العلامات في الشيء وفي حق قوم بالمقام الذي ارتقوا إليه الذي ذكرناه، فيأكلون طيباً ويستعملون طيباً ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [سورة النور: الآية ٢٦] واستراحوا إذ كانوا على بينة من ربهم في مطاعمهم ومشاربهم.

وأدّاهم التحقق بالورع إلى الزهد في الكسب، إذ كان مبنى اكتسابهم الورع ليأكلوا ممّا يعلمون أن ذلك حلال لهم استعماله، ثم عملوا على ذلك الورع في المنطق من أجل الغيبة والكلام فيما يخوض الإنسان فيه من الفضول، فرأوا أن السبب الموجب لذلك مجالسة الناس ومعاشرتهم، وربما قدروا على مسك نفوسهم عن الكلام بما لا ينبغي، لكن بعضهم أو أكثرهم عجز أن يمنع الناس بحضوره عن الكلام بالفضول وما لا يعنيهم، فأدّاهم أيضاً هذا الحرج إلى الزهد في الناس، فآثروا العزلة والانقطاع عن الناس باتخاذ الخلوات وغلق بابهم عن قصد الناس إليهم، وآخرون بالسياحة في الجبال والشعاب والسواحل وبطون الأودية، فنفس الله عنهم من اسمه الرحمن بوجوه مختلفة من الأنس به، أعطاهم ذلك نفس الرحمن، فأسمعهم أذكار الأحجار، وخرير المياه، وهبوب الرياح، ومناطق الطير، وتسبيح كل أمة من المخلوقات ومحادثتهم معه وسلامهم عليه، فأنس بهم من وحشته وعاد في جماعة وخلق، ما لهم كلام إلاّ في تسبيح أو تعظيم أو ذكر آلاء إلهية أو تعريف بما ينبغي وهو جليس لهم ويسمع جوارحه، وكل جزء فيه يكلمه بما أنعم الله عليه به فتغمره النعم فيزيد في العبادة.

ومنهم من ينفس عنه بالأنس بالوحوش رأينا ذلك فتغدو عليه وتروح مستأنسة به وتكلمه بما يزيده حرصاً على عبادة ربّه. ومنهم من يجالسه الروحانيون من الجان ولكن هو دون

الجماعة في الرتبة إذا لم يكن له حال سوى هذا لأنهم قريب من الإنس في الفضول، والكيس من الناس من يهرب منهم كما يهرب من الناس، فإن مجالستهم رديئة جداً قليل أن تنتج خيراً لأن أصلهم نار والنار كثيرة الحركة، ومن كثرت حركته كان الفضول أسرع إليه في كل شيء، فهم أشد فتنة على جليسهم من الناس، فإنهم قد اجتمعوا مع الناس في كشف عورات الناس التي ينبغي للعاقل أن لا يطلع عليها، غير أن الإنس لا تؤثر مجالسة الإنسان إياهم تكبّراً، ومجالسة الجن ليست كذلك فإنهم بالطبع يؤثرون في جليسهم التكبّر على الناس وعلى كل عبد لله، وكل عبد لله رأى لنفسه شفوفاً على غيره تكبّراً فإنه يمقته الله في نفسه من حيث لا يشعر وهذا من المكر الخفيّ، وعين مقت الله إياه هو ما يجده من التكبّر على من ليس له مثل هذا ويتخيل أنه في الحاصل وهو في الفائت.

ثم اعلم أن الجان هم أجهل العالم الطبيعيّ بالله، ويتخيل جليسهم بما يخبرونه به من حوادث الأكوان وما يجري في العالم ممّا يحصل لهم من استراق السمع من الملأ الأعلى، فيظنّ جليسهم أن ذلك كرامة الله به وهيهات لما ظنّوا، ولهذا ما ترى أحداً قط جالسهم فحصل عنده منهم علم بالله جملة واحدة، غاية الرجل الذي تعتني به أرواح الجنّ أن يمنحوه من علم خواص النبات والأحجار والأسماء والحروف وهو علم السيمياء فلم يكتسب منهم إلاّ العلم الذي ذمّته ألسنة الشرائع. ومن ادّعى صحبتهم وهو صادق في دعواه فاسألوه عن مسألة في العلم الإلهيّ ما تجد عنده من ذلك ذوقاً أصلاً، فرجال الله يفرّون من صحبتهم أشد فراراً منهم من الناس، فإنه لا بدّ أن تحصل صحبتهم في نفس من يصحبهم تكبّراً على الغير بالطبع وازدراء بمن ليس له في صحبتهم قدم، وقد رأينا جماعة ممّن صحبوهم حقيقة وظهرت لهم براهين على صحة ما ادّعوه من صحبتهم وكانوا أهل جد واجتهاد وعبادة ولكن لم يكن عندهم من جهتهم شمة من العلم بالله، ورأينا فيهم عزّة وتكبّراً، فما زلنا بهم حتى حلنا بينهم وبين صحبتهم لإنصافهم وطلبهم الأنفس، كما أيضاً رأينا ضد ذلك منهم فما أفلح ولا يفلح من هذه صفته إذا كان صادقاً، وأمّا الكاذب فلا نشتغل به، ومنهم من نفس الرحمن عنه بمجالسة الملائكة، ونعم الجلساء هم هم أنوار خالصة لا فضول عندهم وعندهم العلم الإلهيّ الذي لا مرية فيه فيرى جليسهم في مزيد علم بالله دائماً مع الأنفاس، فمن ادّعى مجالسة الملأ الأعلى ولم يستفد في نفسه علماً بربّه فليس بصحيح الدعوى وإنما هو صاحب خيال فاسد. ومنهم من ينفس الرحمن عنه بأنس بالله في باطنه وتجليات دائمة معنويات فلا يزال في كل نفس صاحب علم بحال جديد بالله وأنس جديد.

ومنهم من ينفس الرحمن عنه ذلك الضيق بمشاهدته عالم الخيال يستصحبه ذلك دائماً كما يستصحب الرؤيا النائم فيخاطِب ويخاطَب، ولا يزال في صور دائماً في لذة وفي نكاح إن جاءته شهوة جماع ولا تكليف عليه ما دام في تلك الحال لغيبته عن إحساسه في الشاهد فينكح ويلتذّ ويولد له في عالم الخيال أولاد، فمنهم من يبقى له ذلك في عالمه، ومنهم من يخرج ولده إلى عالم الشهادة وهو خيال على أصله مشهود للحسّ وهذا من الأسرار الإلهية العجيبة،

ولا يحصل ذلك إلاَّ للأكابر من الرجال. وما من طبقة ذكرناها إلاَّ وقد رأينا منهم جماعة من رجال ونساء بإشبيلية وتلمسان وبمكة وبمواضع كثيرة وكانت لهم براهين تشهد بصحة ما يقولونه. وأما نحن فلا نحتاج مع أحد منهم لبرهان فيما يدعيه فإن الله قد جعل لكل صنف علامة يعرف بها، فإذا رأينا تلك العلامة عرفنا صدق صاحبها من حيث لا يشعر، وكم رأينا ممّن يدعي ذلك كاذباً أو صاحب خيال فاسد، فإن علمنا منه أنه يرجع نصحناه، وإن رأيناه عاشقاً لحاله محجوباً بخياله الفاسد تركناه.

وأصدق من رأينا في هذا الباب من النساء فاطمة بنت ابن المثنى بإشبيلية خدمتها وهي بنت خمس وتسعين سنة، وشمس أم الفقراء بمرشانة، وأم الزهرا بإشبيلية أيضاً، وكلبهار بمكة تدعى ست غزالة. ومن الرجال: أبو العباس بن المنذر من أهل إشبيلية، وأبو الحجاج الشبر بلي من قرية بشرف إشبيلية تسمى شبربل، ويوسف بن صخر بقرطبة، وهذا قد أعربنا لك عن أحوال رجال هذا الباب وما أنتج لهم الزهد في الناس وما وجدوه من نفس الرحمن لذلك، وعلى هذا الحد تكون أعمال الجوارح كلها يجمعها ترك الفضول في كل عضو بما يستحقه ظاهراً وباطناً، فأولها الجوارح وأعلاها في الباطن الفكر فلا يتفكر فيما لا يعنيه فإن ذلك يؤديه إلى الهوس والأماني وعدم المسابقة بحضور النية في أداء العبادات، فإن الإنسان لا يخلو فكره في أحد أمرين: إمّا فيما عنده من الدنيا، وإمّا فيما ليس عنده منها، فإن فكر فيما عنده فليس له دواء عند الطائفة إلاَّ الخروج عنه والزهد فيه، صرّح بذلك أبو حامد وغيره. وإن فكر فيما ليس عنده فهو عند الطائفة عديم العقل أخرق لا دواء له إلاَّ المداومة على الذكر ومجالسة أهل الله الذين الغالب على ظواهرهم المراقبة والحياء من الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والخمسون

في معرفة السبب الذي يهرب منه المكاشف إلى عالم الشهادة إذا أبصره

[نظم: الرمل]

كُلُّ مَن خافَ على هيكلِهِ ... لم يَرَ الحقَّ جِهاراً علَنَا

فتراه عندما يشهَدُه ... راجعاً للكون يبغي البَدَنَا

وترى الشُّجْعَانَ قُدْماً طُلَّباً ... للذي يحذر منه الجُبَنَا

اعلم أيّدك الله بروح منه أن النفوس الإنسانية قد جبلها الله على الجزع في أصل نشأتها، فالشجاعة والإقدام لها أمر عرضي، والجزع في الإنسان أقوى منه في الحيوانات إلاَّ الصرصر، تقول العرب: أجبن من صرصر وسبب قوّته في الإنسان العقل والفكر الذي ميّزه الله بهما على سائر الحيوان، وما يشجع الإنسان إلاَّ القوّة الوهمية، كما أنه أيضاً بهذه القوّة يزيد جبناً وجزعاً في مواضع مخصوصة، فإن الوهم سلطان قوي، وسبب ذلك أن اللطيفة الإنسانية متولدة بين الروح الإلهيّ الذي هو النفس الرحماني، وبين الجسم المسوّى المعدّل

من الأركان المعدّلة من الطبيعة التي جعلها الله مقهورة تحت النفس الكلية، كما جعل الأركان مقهورة تحت حكم سلطان الأفلاك.

ثم إن الجسم الحيوانيّ مقهور تحت سلطان الأركان التي هي العناصر، فهو مقهور لمقهور عن مقهور، وهو النفس عن مقهور وهو العقل فهو في الدرجة الخامسة من القهر من وجه فهو أضعف الضعفاء، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ فالضعف أصله، ثم جعل له قوّة عارضة وهو قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ ثم ردّه إلى أصله من الضعف فقال عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [سورة الروم: الآية ٥٤] فهذا الضعف الأخير إنما أعدّه لإقامة النشأة الآخرة عليه كما قامت نشأة الدنيا على الضعف ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٦٢] وإنما كان هذا ليلازم ذاته الذلّة والافتقار وطلب المعونة والحاجة إلى خالقه، ومع هذا كله يذهل عن أصله ويتيه بما عرض له من القوّة، فيدعي ويقول: أنا، ويمني نفسه بمقابلة الأهوال العظام، فإذا قرصه برغوث أظهر الجزع لوجود الألم وبادر لإزالة ذلك الضرر ولم يقرّ به قرار حتى يجده فيقتله، وما عسى أن يكون البرغوث حتى يعتني به هذا الاعتناء ويزلزله عن مضجعه ولا يأخذه نوم، فأين تلك الدعوى والإقدام على الأهوال العظام وقد فضحته قرصة برغوث أو بعوضة؟ هذا أصله ذلك ليعلم أن إقدامه على الأهوال العظام إنما هو بغيره لا بنفسه وهو ما يؤيده الله به من ذلك كما قال: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٨٧] أي قوّيناه ولهذا شرع: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] في كل ركعة، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

ولما علم الإنسان أنه لولا وجود الله عزّ وجلّ لم يظهر له عين في الوجود، وأن أصله لم يكن شيئاً مذكوراً، قال تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: الآية ٩] فللوجود لذة وحلاوة وهو الخير، ولتوهم العدم العيني ألم شديد عظيم في النفوس لا يعرف قدر ذلك إلاّ العلماء، ولكن كل نفس تجزع من العدم إن تلحق به كما هو حالها، فمهما رأت أمراً تتوهم فيه أنه يلحقها بعدم عينها أو بما يقاربه هربت منه وارتاعت وخافت على عينها وبما كانت أيضاً عن الروح الإلهيّ الذي هو نفس الرحمن، ولهذا كنى عنه بالنفخ لمناسبة النفس فقال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] وكذا جعل عيسىٰ بنفخ في صورة طينية ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٩] فما ظهرت الأرواح إلاّ من الأنفاس، غير أن للمحل الذي تمرّ به أثراً فيها بلا شك، ألا ترى الريح إذا مرّت على شيء نتن جاءت ريح منتنة إلى مشمك؟ وإذا مرّت بشيء عطر جاءت بريح طيبة؟ لذلك اختلفت أرواح الناس، فروح طيبة لجسد طيب ما أشركت قط ولا كانت محلاً لسفساف الأخلاق كأرواح الأنبياء والأولياء والملائكة، وروح خبيث لجسد خبيث لم تزل مشركة محلاً لسفساف الأخلاق، وذلك إنما كان لغلبة بعض الطبائع أعني الأخلاط على بعض في أصل نشأة الجسد التي هي سبب طيب الروح ووجود مكارم الأخلاق وسفسافها وخبث الروح فصحّة الأرواح وعافيتها مكارم أخلاقها التي اكتسبتها من نشأة بدنها العنصري، فجاءت بكل طيب ومليح، ومرض الأرواح

سفساف الأخلاق ومذمومها التي اكتسبتها أيضاً من نشأة بدنها العنصري فجاءت بكل خبيث وقبيح. ألا ترى الشمس إذا أفاضت نورها على جسم الزجاج الأخضر ظهر النور في الحائط أو في الجسم الذي تطرح الشعاع عليه أخضر، وإن كان الزجاج أحمر طرح الشعاع أحمر في رأي العين فانصبغ في الناظر بلون المحل وذلك للطافته يقبل الأشياء بسرعة.

ولما كان الهواء من أقوى الأشياء وكان الروح نفساً وهو شبيه بالهواء كانت القوّة له فكان أصل نشأة الأرواح من هذه القوّة، واكتسبت الضعف من المزاج الطبيعيّ البدنيّ، فإنه ما ظهر لها عين إلاّ بعد أثر المزاج الطبيعيّ فيها، فخرجت ضعيفة لأنها إلى الجسم أقرب في ظهور عينها، فإذا قبلت القوّة إنما تقبلها من أصلها الذي هو النفس الرحمانيّ المعبر عنه بالروح المنفوخ منه المضاف إلى الله، فهي قابلة للقوّة كما هي قابلة للضعف، وكلاهما بحكم الأصل، وهي إلى البدن أقرب لأنها أحدث عهداً به فغلب ضعفها على قوّتها، فلو تجرّدت عن المادّة ظهرت قوّتها الأصلية التي لها من النفخ الإلهيّ ولم يكن شيء أشد تكبّراً منها، فألزمها الله الصورة الطبيعية دائماً في الدنيا وفي البرزخ في النوم، وبعد الموت فلا ترى نفسها أبداً مجرّدة عن المادة، وفي الآخرة لا تزال في أجسادها يبعثها الله من صور البرزخ في الأجساد التي أنشأها لها يوم القيامة وبها تدخل الجنة والنار ذلك ليلزمها الضعف الطبيعيّ فلا تزال فقيرة أبداً. ألا تراها في أوقات غفلتها عن نفسها كيف يكون منها التهجم والإقدام على المقام الإلهيّ فتدعي الربوبية كفرعون؟ وتقول في غلبة ذلك الحال عليها: أنا الله وسبحاني كما قال ذلك بعض العارفين وذلك لغلبة الحال عليه، ولهذا لم يصدر مثل هذا اللفظ من رسول ولا نبيّ ولا وليّ كامل في علمه وحضوره ولزومه باب المقام الذي له وأدبه، ومراعاة المادّة التي هو فيها وبها ظهر فهو ردم ملآن بضعفه وفقره مع شهوده أصله علماً وحالاً وكشفاً، وعلمه بأصله ومقام خلافته من وجه آخر لو كان حالاً له لادّعى الألوهة، فإن الأمر الخارج في النفخ من النافخ له من حكمه بقدر ذلك، فلو ادّعاه ما ادّعى محالاً وبذلك القدر الذي فيه من القوّة الإلهية التي أظهرها النفخ توجّه عليه التكليف فإنه عين المكلف وأضيفت الأفعال إليه وقيل له قل: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، فإنه أصلك الذي إليه ترجع، فصدقت المعتزلة في إضافة الأفعال إلى العباد من وجه بدليل شرعيّ، وصدق المخالف في إضافة الأفعال كلها إلى الله تعالىٰ من وجه بدليل شرعيّ أيضاً وعقليّ وقالت بالكسب في أفعال العباد للعباد بقوله تعالىٰ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٤] وقال في المصوّرين على لسان رسوله ﷺ: «**أَيْنَ مَنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي**» فأضاف الخلق إلى العباد.

وقال في عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٠] فنسب الخلق إليه عليه السلام وهو إيجاده صورة الطائر في الطين ثم أمره أن ينفخ فيه فقامت تلك الصورة التي صوّرها عيسىٰ عليه السلام طائراً حياً. وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٩] يعني الأمر الذي أمره الله به من خلقه صورة الطائر والنفخ وإبراء الأكمه والأبرص وإحيائه الميت فأخبر أن عيسىٰ عليه السلام لم ينبعث إلى ذلك من نفسه وإنما كان عن أمر الله ليكون ذلك،

وإحياء الموتى من آياته على ما يدّعيه، فلولا أن الإنسان من حيث حقيقته من ذلك النفس الرحمانيّ ما صحّ ولا ثبت أن يكون عن نفخه طائر يطير بجناحيه ولما كانت حقيقة الإنسان هكذا خوّفه الله بما ذكر من صفة المتكبرين ومآلهم واسوداد وجوههم، كل ذلك دواء للأرواح لتقف مع ضعف مزاجها الأقرب في ظهور عينها، فالإنسان ابن أمّه حقيقة بلا شك، فالروح ابن طبيعة بدنه وهي أمّه التي أرضعته ونشأ في بطنها وتغذّى بدمها فحكمه حكمها فلا يستغني عن غذاء في بقاء هيكله.

تتميم: فلما كان الغالب هذا على الإنسان رجعنا إلى المكاشف الذي يهرب إلى عالم الشهادة عندما يرى ما يهوله في كشفه مثل صاحبنا أحمد العصاد الحريري رحمه الله فإنه كان إذا أخذ سريع الرجوع إلى حسّه باهتزاز واضطراب فكنت أعتبه وأقول له في ذلك فيقول: أخاف وأجبن من عدم عيني لما أراه، ولو علم المسكين أنه لو فارق الموادّ رجع النفس إلى مستقره وهو عينه ورجع كل شيء إلى أصله ولكن لو كان ذلك لانعدمت الفائدة في حق العبد فيما يظهر وليس الأمر كذلك ولذلك قلنا وهو عينه أي عين العبد، فالبقاء الذي أراده الحق أولى به بوجود هذا الهيكل العنصريّ في الدنيا الطبيعيّ في الآخرة، والذي يثبت هنالك أعني عند الوارد إنما يثبت إذا دخل عبداً، كما أن الذي لا يثبت إنما دخل وفي نفسه شيء من الربوبية فخاف من زوالها هناك فهرب إلى الوجود الذي ظهرت فيه ربانيته ولهذا تكون فائدته قليلة، والثابت يدخل عبداً قابلاً بهمة محترقة إلى أصله ليهبه من عوارفه ما عوّده، فإذا خرج خرج نوراً يستضاء به، فمثل الداخل إلى ذلك الجناب العالي بربوبيته مثل من يدخل بسراج موقود، ومثل الذي يدخل بعبوديته مثل من يدخل بفتيلة لا ضوء فيها أو بقبضة حشيش فيها نار غير مشتعلة، فإذا دخلا بهذه المثابة هبّ عليهما نفس من الرحمن فطفىء لذلك الهبوب السراج واشتعل الحشيش فخرج صاحب السراج في ظلمة وخرج صاحب الحشيش في نور يستضاء به.

فانظر ما أعطاه الاستعداد، فكل هارب من هناك إنما يخاف على سراجه أن ينطفىء فهو يخاف على ربوبيته أن تزول فيفرّ إلى محل ظهورها ولكن ما يخرج إلاَّ وقد طفىء سراجه، ولو خرج به موقداً كما دخل ولم يؤثر فيه ذلك الهبوب لادّعى الربوبية حقاً، ولكن من عصمة الله له كان ذلك، ومن دخل عبداً لا يخاف، وإذا اشتعلت فتيلته هنالك عرف من أشعلها ورأى المنَّة له سبحانه في ذلك فخرج عبداً منوّراً كما قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] يعني عبداً فكان في خروجه إلى أمّته ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٦] كما دخل عبداً ذليلاً عارفاً بما دخل وعلى من دخل، فمن وفّقه الله تعالىٰ ولزم عبوديته في جميع أحواله وإن عرف أصليه فيرجح الأصل الأقرب إليه جانب أمّه فإنه ابن أمّه بلا شك، ألا ترى إلى السنّة في تلقين الميت عند حصوله في قبره يقال له: يا عبد الله، ويا ابن أمة الله، فينسب إلى أمّه ستراً من الله عليها، فأضيف إلى أمّه لأنها أحق به لظهور نشأته ووجود عينه، فهو لأبيه ابن فراش، وهو ابن لأمّه حقيقة، فافهم ما أعطيناك من المعرفة بك في هذا الباب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والخمسون

في معرفة ما يلقي المريد على نفسه من الأعمال قبل وجود الشيخ

[نظم: الهزج]

إذا لـــم تَـــلْـــقَ أســـتـــاذا ... فـــكـــن فـــي نَـــعْـــتِ مـــن لاذا
وقـــطِّـــعَ نَـــفْـــسَـــه والـــلـــيـــ ... ـلَ أفـــلاذاً فـــأفـــلاذا
وتـــســـبـــيـــحـــاً وقـــرآنـــاً ... فـــأشْـــهَـــدَهُ بـــمـــن حـــاذَى
وأضْـــعَـــفَـــهُ وأحـــيـــاه ... فـــلـــمـــا لـــم يَـــقُـــلْ مـــاذا
فـــكـــان لـــه الـــذي يـــبـــغـــيـــ ... ـه تـــلـــمـــيـــذاً وأســـتـــاذا
وجـــاءتـــه مـــعـــارِفُـــه ... زُرافـــاتٍ وأفـــذاذا
فـــهـــذا قـــد أبَـــنْـــتُ لـــه ... فـــلا يـــنـــفـــكُّ عـــن هـــذا

اعلم أيّدك الله ونورك أنه أول ما يجب على الداخل في هذه الطريقة الإلهية المشروعة طلب الأستاذ حتى يجده، وليعمل في هذه المدّة التي يطلب فيها الأستاذ الأعمال التي أذكرها له وهي أن يلزم نفسه تسعة أشياء فإنها بسائط الأعداد، فيكون له في التوحيد إذا عمل عليها قدم راسخة، ولهذا جعل الله الأفلاك تسعة أفلاك، فانظر ما ظهر من الحكمة الإلهية في حركات هذه التسعة فاجعل منها أربعة في ظاهرك وخمسة في باطنك.

فالتي في ظاهرك: الجوع، والسهر، والصمت، والعزلة، فاثنان فاعلان وهما: الجوع والعزلة، واثنان منفعلان وهما: السهر والصمت، وأعني بالصمت ترك كلام الناس والاشتغال بذكر القلب ونطق النفس عن نطق اللسان إلاّ فيما أوجب الله عليه مثل قراءة أمّ القرآن أو ما تيسّر من القرآن في الصلاة والتكبير فيها، وما شرع من التسبيح والأذكار والدعاء والتشهّد والصلاة على رسول الله ﷺ إلى أن تسلم منها فتتفرّع لذكر القلب بصمت اللسان، فالجوع يتضمن السهر، والصمت تتضمنه العزلة. وأما الخمسة الباطنة فهي: الصدق، والتوكّل، والصبر، والعزيمة، واليقين، فهذه التسعة أمّهات الخير تتضمن الخير كله والطريقة مجموعة فيها فالزمها حتى تجد الشيخ.

وصل شارح: وأنا أذكر لك من شأن كل واحدة من هذه الخصال ما يحرّضك على العمل بها والدؤوب عليها والله ينفعنا وإياك ويجعلنا من أهل عنايته. ولنبتدىء بالظاهرة أوّلاً ولنقل: أمّا العزلة وهي رأس الأربعة المعتبرة التي ذكرناها عند الطائفة أخبرني أخي في الله تعالىٰ عبد المجيد بن سلمة خطيب مرشانة الزيتون من أعمال إشبيلية من بلاد الأندلس وكان من أهل الجدّ والاجتهاد في العبادة فأخبرني سنة ست وثمانين وخمسمائة قال: كنت بمنزلي بمرشانة ليلة من الليالي فقمت إلى حزبي من الليل فبينما أنا واقف في مصلاي وباب الدار وباب البيت عليّ مغلق وإذا بشخص قد دخل عليّ وسلّم وما أدري كيف دخل. فجزعت منه وأوجزت في صلاتي فلما سلمت قال لي: يا عبد المجيد من تأنّس بالله لم يجزع، ثم نفض

الثوب الذي كان تحتي أصلي عليه ورمى به وبسط تحتي حصيراً صغيراً كان عنده وقال لي: صلّ على هذا، قال: ثم أخذني وخرج بي من الدار، ثم من البلد، ومشى بي في أرض لا أعرفها وما كنت أدري أين أنا من أرض الله، فذكرنا الله تعالىٰ في تلك الأماكن ثم ردّني إلى بيتي حيث كنت قال؛ فقلت له: يا أخي بماذا يكون الأبدال أبدالاً؟ فقال لي: بالأربعة التي ذكرها أبو طالب في القوت ثم سمّاها لي: الجوع، والسهر، والصمت، والعزلة قلباً، ثم قال لي عبد المجيد: هذا هو الحصير فصليت عليه وهذا الرجل كان من أكابرهم يقال له معاذ بن أشرس.

فأمّا العزلة فهي أن يعتزل المريد كل صفة مذمومة وكل خلق دنيء هذه عزلته في حاله. وأمّا في قلبه فهو أن يعتزل بقلبه عن التعلّق بأحد من خلق الله من أهل، ومال، وولد، وصاحب، وكل ما يحول بينه وبين ذكر ربّه بقلبه حتى عن خواطره، ولا يكن له همّ إلاّ واحد وهو تعلّقه بالله. وأما في حسّه فعزلته في ابتداء حاله الانقطاع عن الناس وعن المألوفات إمّا في بيته وإمّا بالسياحة في أرض الله، فإن كان في مدينة فبحيث لا يعرف، وإن لم يكن في مدينة فيلزم السواحل والجبال والأماكن البعيدة من الناس، فإن أنست به الوحوش وتألفت به وأنطقها الله في حقّه فكلمته أو لم تكلمه فليعتزل عن الوحوش والحيوانات ويرغب إلى الله تعالىٰ في أن لا يشغله بسواه وليثابر على الذكر الخفيّ، وإن كان من حفاظ القرآن فيكون له منه حزب في كل ليلة يقوم به في صلاته لئلا ينساه ولا يكثر الأوراد ولا الحركات وليردّ اشتغاله إلى قلبه دائماً هكذا يكون دأبه وديدنه. وأما الصمت فهو أن لا يتكلم مع مخلوق من الوحوش والحشرات التي لزمته في سياحته أو في موضع عزلته، وإن ظهر له أحد من الجن أو من الملأ الأعلى فيغمض عينه عنهم ولا يشغل نفسه بالحديث معهم وإن كلّموه، فإن تفرض عليه الجواب أجاب بقدر أداء الفرض بغير مزيد، وإن لم يتفرض عليه سكت عنهم واشتغل بنفسه، فإنهم إذا رأوه على هذه الحالة اجتنبوه ولم يتعرضوا له واحتجبوا عنه فإنهم قد علموا أنه من شغل مشغولاً بالله عن شغله به عاقبه الله أشد عقوبة.

وأمّا صمته في نفسه عن حديث نفسه فلا يحدث نفسه بشيء ممّا يرجو تحصيله من الله فيما انقطع إليه فإنه تضييع للوقت فيما ليس بحاصل فإنه من الأمانيّ، وإذا عوّد نفسه بحديث نفسه حال بينه وبين ذكر الله في قلبه، فإنّ القلب لا يتسع للحديث والذكر معاً فيفوته السبب المطلوب منه في عزلته وصمته وهو ذكر الله تعالىٰ الذي تتجلّى به مرآة قلبه فيحصل له تجلّي ربه. وأمّا الجوع فهو التقليل من الطعام فلا يتناول منه إلاّ قدر ما يقيم صلبه لعبادة ربّه في صلاة فريضته، فإن التنفّل في الصلاة قاعداً بما يجده من الضعف لقلة الغذاء أنفع وأفضل وأقوى في تحصيل مراده من الله من القوّة التي تحصل له من الغذاء لأداء النوافل قائماً، فإن الشبع داع إلى الفضول، فإن البطن إذا شبع طغت الجوارح وتصرفت في الفضول من الحركة والنظر والسماع والكلام وهذه كلها قواطع له عن المقصود.

وأمّا السهر فإنّ الجوع يولده لقلة الرطوبة والأبخرة الجالبة للنوم ولا سيما شرب الماء فإنه نوم كله وشهوته كاذبة، وفائدة السهر التيقظ للاشتغال مع الله بما هو بصدده دائماً، فإنه إذا نام

انتقل إلى عالم البرزخ بحسب ما نام عليه لا يزيد فيفوته خير كثير ممّا لا يعلمه إلاّ في حال السهر، وأنه إذا التزم ذلك سرى السهر إلى عين القلب وانجلى عين البصيرة بملازمة الذكر فيرى من الخير ما شاء الله تعالىٰ، وفي حصول هذه الأربعة التي هي أساس المعرفة لأهل الله وقد اعتنى بها الحارث بن أسد المحاسبي أكثر من غيره وهي: معرفة الله، ومعرفة النفس، ومعرفة الدنيا، ومعرفة الشيطان، وقد ذكر بعضهم معرفة الهوى بدلاً من معرفة الله وأنشدوا في ذلك: [الكامل]

إنـي بُـلِـيـتُ بـأربـعٍ يـرمـيـنـنـي ... بـالـنـبـل مـن قـوسٍ لـهـا تَـوْتِـيـرُ
إبـلـيـسُ والـدنـيـا ونفْـسـي والـهـوى ... يـا ربُّ أنـت عـلـى الـخـلاصِ قـديـرُ

وقال الآخر: [الكامل]

إبـلـيـسُ والـدنـيـا ونـفـسـي والـهـوى ... كيف الخلاصُ وكلُّهم أعدائي

وأمّا الخمسة الباطنة فإنه حدثتني المرأة الصالحة مريم بنت محمد بن عبدون بن عبد الرحمن البجائي قالت: رأيت في منامي شخصاً كان يتعاهدني في وقائعي وما رأيت له شخصاً قط في عالم الحسّ فقال لها: تقصدين الطريق؟ قالت: فقلت له: إي والله أقصد الطريق ولكن لا أدري بماذا قالت، فقال لي بخمسة وهي: التوكل، واليقين، والصبر، والعزيمة، والصدق، فعرضت رؤياها عليّ فقلت لها: هذا مذهب القوم، وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالىٰ في داخل الكتاب فإنّ لها أبواباً تخصّها، وكذلك الأربعة التي ذكرناها لها أيضاً أبواب تخصّها في الفصل الثاني من فصول هذا الكتاب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء السادس والعشرون.

(الجزء السابع والعشرون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع والخمسون
في معرفة الإشارات

[نظم: الكامل]

عـلـم الإشـارة تـقـريـبٌ وإبـعـادُ ... وسَـيْـرُهـا فـيـك تـأويـبٌ وإسـئـادُ
فـابـحـثْ عـلـيـه فـإنّ الله صـيَّـرَهُ ... لـمـن يـقـوم بـه إفْـكٌ وإلْـحـادُ
تـنـبـيـهُ عِـصْـمـةِ مـن قـال الإلـه لـه ... كُـنْ فـاسـتـوى كـائـنـاً والـقـومُ أشْـهَـادُ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن الإشارة عند أهل طريق الله تؤذن بالبعد أو حضور الغير، قال بعض الشيوخ في محاسن المجالس: الإشارة نداء على رأس البعد وبوح بعين العلة، يريد أن ذلك تصريح بحصول المرض فإن العلة مرض وهو قولنا أو حضور الغير، ولا يريد بالعلة هنا السبب التي اصطلح عليها العقلاء من أهل النظر، وصورة المرض فيها أنّ المشير غاب عنه وجه الحق في ذلك الغير، ومن غاب عنه وجه الحق في الأشياء تمكنت منه

الدعوى والدعوى عين المرض، وقد ثبت عند المحققين أنه ما في الوجود إلاّ الله، ونحن وإن كنّا موجودين فإنما كان وجودنا به، ومن كان وجوده بغيره فهو في حكم العدم، والإشارة قد ثبتت وظهر حكمها فلا بدّ من بيان ما هو المراد بها.

فاعلم أن الله عزّ وجلّ لما خلق الخلق خلق الإنسان أطواراً فمنا العالم والجاهل، ومنّا المنصف والمعاند، ومنّا القاهر ومنّا المقهور، ومنّا الحاكم ومنّا المحكوم، ومنّا المتحكم ومنّا المتحكم فيه، ومنّا الرئيس والمرؤوس، ومنّا الأمير والمأمور، ومنّا الملك والسوقة، ومنّا الحاسد والمحسود، وما خلق الله أشق ولا أشدّ من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته العارفين به من طريق الوهب الإلهيّ الذين منحهم أسراره في خلقه، وفهمهم معاني كتابه وإشارات خطابه، فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل عليهم السلام.

ولما كان الأمر في الوجود الواقع على ما سبق به العلم القديم كما ذكرناه عدل أصحابنا إلى الإشارات كما عدلت مريم عليها السلام من أجل أهل الإفك والإلحاد إلى الإشارة، فكلامهم رضي الله عنهم في شرح كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إشارات وإن كان ذلك حقيقة وتفسيراً لمعانيه النافعة، ورد ذلك كله إلى نفوسهم مع تقريرهم إياه في العموم وفيما نزل فيه، كما يعلمه أهل اللسان الذين نزل ذلك الكتاب بلسانهم فعمّ به سبحانه عندهم الوجهين كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] يعني الآيات المنزّلة في الآفاق وفي أنفسهم، فكل آية منزّلة لها وجهان: وجه يرونه في نفوسهم، ووجه آخر يرونه فيما خرج عنهم، فيسمّون ما يرونه في نفوسهم إشارة ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك ولا يقولون في ذلك إنه تفسير وقاية لشرهم وتشنيعهم في ذلك بالكفر عليه وذلك لجهلهم بمواقع خطاب الحق واقتدوا في ذلك بسنن الهدى، فإنّ الله كان قادراً على تنصيص ما تأوّله أهل الله في كتابه، ومع ذلك فما فعل بل أدرج في تلك الكلمات الإلهية التي نزلت بلسان العامّة علوم معاني الاختصاص التي فهمها عباده حين فتح لهم فيها بعين الفهم الذي رزقهم.

ولو كان علماء الرسوم ينصفون لاعتبروا في نفوسهم إذا نظروا في الآية بالعين الظاهرة التي يسلمونها فيما بينهم فيرون أنهم يتفاضلون في ذلك ويعلو بعضهم على بعض في الكلام في معنى تلك الآية، ويقرّ القاصر بفضل غير القاصر فيها وكلهم في مجرى واحد، ومع هذا الفضل المشهود لهم فيما بينهم في ذلك ينكرون على أهل الله إذا جاؤوا بشيء ممّا يغمض عن إدراكهم، وذلك لأنهم يعتقدون فيهم أنهم ليسوا بعلماء وأن العلم لا يحصل إلاّ بالقلم المعتاد في العرف، وصدقوا فإن أصحابنا ما حصل لهم ذلك العلم إلاّ بالتعلّم وهو الإعلام الرحمانيّ الربانيّ، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: الآيات ١ ـ ٥] فإنه القائل: ﴿أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٧٨] وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: ٣ ـ ٤] فهو سبحانه معلم الإنسان، فلا نشك أنّ أهل الله هم ورثة الرسل عليهم السلام والله يقول

في حق الرسول: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٣] وقال في حق عيسىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٨] وقال في حق خضر صاحب موسىٰ عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٩٦] فصدق علماء الرسوم عندنا فيما قالوا إن العلم لا يكون إلاَّ بالتعلّم، وأخطؤوا في اعتقادهم أنّ الله لا يعلم من ليس بنبيّ ولا رسول يقول الله: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩] وهي العلم وجاء بمن وهي نكرة ولكن علماء الرسوم لما آثروا الدنيا على الآخرة وآثروا جانب الخلق على جانب الحق وتعوّدوا أخذ العلم من الكتب ومن أفواه الرجال الذين من جنسهم ورأوا في زعمهم أنهم من أهل الله بما علموا وامتازوا به عن العامة حجبهم ذلك عن أن يعلموا أنّ لله عباداً تولى الله تعليمهم في سرائرهم بما أنزله في كتبه وعلى ألسنة رسله وهو العلم الصحيح عن العالم المعلم الذي لا يشك مؤمن في كمال علمه ولا غير مؤمن، فإنّ الذين قالوا: إنّ الله لا يعلم الجزئيات ما أرادوا نفي العلم عنه بها وإنما قصدوا بذلك أنه تعالىٰ لا يتجدد له علم بشيء بل علمها مندرجة في علمه بالكليات فأثبتوا له العلم سبحانه مع كونهم غير مؤمنين، وقصدوا تنزيهه سبحانه في ذلك وإن أخطؤوا في التعبير عن ذلك، فتولى الله بعنايته لبعض عباده تعليمهم بنفسه بإلهامه وإفهامه إياهم ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] في أثر قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٧] فبيّن لها الفجور من التقوى إلهاماً من الله لها لتجتنب الفجور وتعمل بالتقوى كما كان أصل ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [سورة السجدة: الآية ٢] من الله على أنبيائه كان تنزيل الفهم من الله على قلوب بعض المؤمنين به، فالأنبياء عليهم السلام ما قالت على الله ما لم يقل لها ولا أخرجت ذلك من نفوسها ولا من أفكارها ولا تعملت فيه بل جاءت به من عند الله كما قال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢] وقال فيه إنه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢].

وإذا كان الأصل المتكلم فيه من عند الله لا من فكر الإنسان ورؤيته وعلماء الرسوم يعلمون ذلك فينبغي أن يكون أهل الله العاملون به أحق بشرحه وبيان ما أنزل الله فيه من علماء الرسوم، فيكون شرحه أيضاً تنزيلاً من عند الله على قلوب أهل الله كما كان الأصل، وكذا قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في هذا الباب ما هو إلاَّ فهم يؤتيه الله من شاء من عباده في هذا القرآن، فجعل ذلك عطاء من الله يعبر عن ذلك العطاء بالفهم عن الله، فأهل الله أولى به من غيرهم، فلما رأى أهل الله أن الله قد جعل الدولة في الحياة الدنيا لأهل الظاهر من علماء الرسوم وأعطاهم التحكّم في الخلق بما يفتون به وألحقهم بالذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٧] وهم في إنكارهم على أهل الله ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٤] سلم أهل الله لهم أحوالهم لأنهم علموا من أين تكلموا وصانوا عنهم أنفسهم بتسميتهم الحقائق إشارات فإن علماء الرسوم لا ينكرون الإشارات، فإذا كان في غد يوم القيامة يكون الأمر في الكل كما قال القائل: [الرجز]

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ   أَفَرَسٌ تحتَكَ أم حمارُ

كما يتميز المحقق من أهل الله من المدّعي في الأهلية غداً يوم القيامة قال بعضهم: [الوافر]

إذا اشتبكت دموعٌ في خدودٍ تبيَّنَ من بكى ممّن تباكى

أين عالم الرسوم من قول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه حين أخبر عن نفسه أنه لو تكلم في الفاتحة من القرآن لحمل منها سبعين وقراً هل هذا إلاّ من الفهم الذي أعطاه الله في القرآن، فاسم الفقيه أولى بهذه الطائفة من صاحب علم الرسوم، فإن الله يقول فيهم ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٢] فأقامهم مقام الرسول في التفقه في الدين والإنذار وهو الذي يدعو إلى الله على بصيرة كما يدعو رسول الله ﷺ على بصيرة لا على غلبة ظنّ كما يحكم عالم الرسوم، فشتان بين من هو فيما يفتي به ويقوله على بصيرة منه في دعائه إلى الله وهو على بينة من ربه، وبين من يفتي في دين الله بغلبة ظنّه.

ثم إن من شأن عالم الرسوم في الذب عن نفسه أنه يجهل من يقول: فهمني ربي ويرى أنه أفضل منه وأنه صاحب العلم إذ يقول من هو من أهل الله: إن الله ألقى في سرّي مراده بهذا الحكم في هذه الآية، أو يقول: رأيت رسول الله ﷺ في واقعتي فأعلمني بصحة هذا الخبر المروي عنه وبحكمه عنده. قال أبو يزيد البسطاميّ رضي الله عنه في هذا المقام وصحته يخاطب علماء الرسوم: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحيّ الذي لا يموت. يقول أمثالنا: حدثني قلبي عن ربي، وأنتم تقولون: حدثني فلان وأين هو؟ قالوا: مات عن فلان، وأين هو؟ قالوا: مات. وكان الشيخ أبو مدين رحمه الله إذا قيل له: قال فلان عن فلان عن فلان يقول: ما نريد نأكل قديداً هاتوا ائتوني بلحم طريّ يرفع همم أصحابه، هذا قول فلان أيّ شيء قلت أنت ما خصّك الله به من عطاياه من علمه اللدني أي حدثوا عن ربكم واتركوا فلاناً وفلاناً فإن أولئك أكلوه لحماً طرياً، والواهب لم يمت وهو أقرب إليكم من حبل الوريد والفيض الإلهيّ والمبشرات ما سدّ بابها وهي من أجزاء النبوّة والطريق واضحة والباب مفتوح والعمل مشروع والله يهرول لتلقي من أتى إليه يسعى ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ و ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] فمن كان معك بهذه المثابة من القرب مع دعواك العلم بذلك والإيمان به لم تترك الأخذ عنه والحديث معه وتأخذ عن غيره ولا تأخذ عنه، فتكون حديث عهد بربك يكون المطر فوق رتبتك حيث برز إليه رسول الله ﷺ بنفسه حين نزل وحسر عن رأسه حتى أصابه الماء فقيل له في ذلك فقال: إنه حديث عهد بربّه تعليماً لنا وتنبيهاً.

ثم لتعلم أن أصحابنا ما اصطلحوا على ما جاؤوا به في شرح كتاب الله بالإشارة دون غيرها من الألفاظ إلاّ بتعليم إلهيّ جهله علماء الرسوم، وذلك أن الإشارة لا تكون إلاّ بقصد المشير بذلك أنه يشير لا من جهة المشار إليه، وإذا سألتهم عن شرح مرادهم بالإشارة أجروها عند السائل من علماء الرسوم مجرى الغالب، مثال ذلك الإنسان يكون في أمر ضاق به صدره

وهو مفكر فيه فينادي رجل رجلاً آخر اسمه فرج فيقول: يا فرج فيسمعه هذا الشخص الذي ضاق صدره فيستبشر ويقول: جاء فرج الله إن شاء الله يعني من هذا الضيق الذي هو فيه وينشرح صدره كما فعل رسول الله ﷺ في مصالحة المشركين لما صدّوه عن البيت فجاء رجل من المشركين اسمه سهيل فقال رسول الله ﷺ: **«سهل الأمر»** أخذه فألاً، فكان كما تفاءل به رسول الله ﷺ فانتظم الأمر على يد سهيل، وما كان أبوه قصد ذلك حين سمّاه به وإنما جعله له اسماً علَماً يعرف به من غيره وإن كان ما قصد أبوه تحسين اسم ابنه إلاَّ لخير. ولما رأى أهل الله أنه قد اعتبر الإشارة استعملوها فيما بينهم ولكنهم بيّنوا معناها ومحلها ووقتها فلا يستعملونها فيما بينهم ولا في أنفسهم إلاَّ عند مجالسة من ليس من جنسهم أو لأمر يقوم في نفوسهم، واصطلح أهل الله على ألفاظ لا يعرفها سواهم إلاَّ منهم، وسلكوا طريقة فيها لا يعرفها غيرهم، كما سلكت العرب في كلامها من التشبيهات والاستعارات ليفهم بعضهم عن بعض، فإذا خلوا بأبناء جنسهم تكلموا بما هو الأمر عليه بالنص الصريح، وإذا حضر معهم من ليس منهم تكلموا بينهم بالألفاظ التي اصطلحوا عليها، فلا يعرف الجليس الأجنبي ما هم فيه ولا ما يقولون.

ومن أعجب الأشياء في هذه الطريقة ولا يوجد إلاَّ فيها أنه ما من طائفة تحمل علماً من المنطقيين والنحاة وأهل الهندسة والحساب والتعاليم والمتكلمين والفلاسفة إلاَّ ولهم اصطلاح لا يعلمه الدخيل فيهم إلاَّ بتوقيف من الشيخ أو من أهله لا بدّ من ذلك إلاَّ أهل هذه الطريقة خاصة إذا دخلها المريد الصادق وبهذا يعرف صدقه عندهم وما عنده خبر بما اصطلحوا عليه، فإذا فتح الله له عين فهمه وأخذ عن ربه في أول ذوقه وما يكون عنده خبر بما اصطلحوا عليه ولم يعلم أن قوماً من أهل الله اصطلحوا على ألفاظ مخصوصة، فإذا قعد معهم وتكلموا باصطلاحهم على تلك الألفاظ التي لا يعرفها سواهم أو من أخذها عنهم فهم هذا المريد الصادق جميع ما يتكلمون به حتى كأنه الواضع لذلك الاصطلاح ويشاركهم في الكلام بها معهم ولا يستغرب ذلك من نفسه بل يجد علم ذلك ضرورياً لا يقدر على دفعه وكأنه ما زال يعلمه ولا يدري كيف حصل له، والدخيل من غير هذه الطائفة لا يجد ذلك إلاَّ بموقف، فهذا معنى الإشارة عند القوم ولا يتكلمون بها إلاَّ عند حضور الغير أو في تآليفهم ومصنفاتهم لا غير، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والخمسون
في معرفة الخواطر الشيطانية

[نظم: الهزج]

لَـوَ أنَّ الله يُـفْـهِـمُـنـا الـــذي فـيـهـا مـن الـحِـكَـمِ
رأيــتُ الأمــرَ يَـعــلــو عــن مـجـال الـفـكـر والـهِـمَـمِ
يَـدِقُّ فـلـيـس تُـظْـهِـره إلـيـك جـوامـعُ الـكَـلِـمِ

الخواطر أربعة لا خامس لها: خاطر رباني، وخاطر ملكي، وخاطر نفسي، وخاطر شيطاني، ولا خامس هناك. وقد ذكرنا معرفة الخواطر في هذا الكتاب وفي بعض كتبنا، فلنذكر في هذا الباب الخاطر الشيطاني خاصة.

اعلم أن الشياطين قسمان: قسم معنويّ وقسم حسيّ، ثم القسم الحسيّ من ذلك على قسمين: شيطانيّ إنسيّ وشيطانيّ جني. يقول الله عزّ وجلّ: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٢] فجعلهم أهل افتراء على الله. وحدث فيما بينهما في الإنسان شيطان معنوي وذلك أن شيطان الجنّ والإنس إذا ألقى من ألقى منهم في قلب الإنسان أمراً ما يبعده عن الله به، فقد يلقي أمراً خاصاً وهو خصوص مسألة بعينها، وقد يلقي أمراً عامّاً ويتركه، فإن كان أمراً عامّاً فتح له في ذلك طريقاً إلى أمور لا يفطن لها الجنيّ ولا الإنسيّ تتفقه فيه النفس وتستنبط من تلك الشبه أموراً إذا تكلم بها تعلم إبليس الغواية، فتلك الوجوه التي تتفتح له في ذلك الأسلوب العام الذي ألقاه إليه أولاً شيطان الإنس أو شيطان الجنّ تسمى الشياطين المعنوية، لأن كل واحد من شياطين الإنس والجنّ يجهلون ذلك وما قصدوه على التعيين، وإنما أرادوا بالقصد الأوّل فتح هذا الباب عليه لأنهم علموا أن في قوّته وفطنته أن يدقق النظر فيه، فينقدح له من المعاني المهلكة ما لا يقدر على ردّها بعد ذلك، وسبب ذلك الأصل الأول فإنه اتخذه أصلاً صحيحاً وعوّل عليه فلا يزال التفقّه فيه يسرقه حتى خرج به عن ذلك الأصل وعلى هذا جرى أهل البدع والأهواء، فإن الشياطين ألقت إليهم أصلاً صحيحاً لا يشكون فيه، ثم طرأت عليهم التلبيسات من عدم الفهم حتى ضلّوا فينسب ذلك إلى الشيطان بحكم الأصل، ولو علموا أنّ الشيطان في تلك المسائل تلميذ له يتعلم منه، وأكثر ما ظهر ذلك في الشيعة ولا سيما في الإمامية منهم، فدخلت عليهم شياطين الجنّ أولاً بحب أهل البيت واستفراغ الحب فيهم، ورأوا أن ذلك من أسنى القربات إلى الله وكذلك هو لو وقفوا ولا يزيدون عليه إلاّ أنهم تعدّوا من حبّ أهل البيت إلى طريقين: منهم من تعدّى إلى بغض الصحابة وسبّهم حيث لم يقدموهم وتخيّلوا أن أهل البيت أولى بهذه المناصب الدنيوية فكان منهم ما قد عرف واستفاض، وطائفة زادت إلى سبّ الصحابة القدح في رسول الله ﷺ وفي جبريل عليه السلام وفي الله جلّ جلاله حيث لم ينصوا على رتبتهم وتقديمهم في الخلافة للناس حتى أنشد بعضهم: ما كان من بعث الأمين أميناً وهذا كله واقع من أصل صحيح وهو حب أهل البيت أنتج في نظرهم فاسداً فضلّوا وأضلّوا. فانظر ما أدّى إليه الغلوّ في الدين. أخرجهم عن الحد فانعكس أمرهم إلى الضد قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٧٧].

وطائفة ألقت إليهم الشياطين أصلاً صحيحاً لا يشكون فيه أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا**»، ثم تركتهم بعدما حببت إليهم العمل على هذا، فجعل بعض الناس لحرصه على الخير يتفقه لكونه يريد تحصيل أجور من عمل بها، فإذا سنّ

سنّة حسنة يخاف إذا نسبها إلى نفسه لا تقبل منه فيضع لأجل قبولها حديثاً عن رسول الله ﷺ في ذلك ويتأوّل أن ذلك داخل في حكم قوله: من سنّ سنّة حسنة فأجاز الكذب على رسول الله ﷺ وأن يقول عليه ﷺ ما لم يقله ولا فاه به لسانه ويرى أن ذلك خير فإن الأصول تعضده، فإذا أخطر له الملك قوله ﷺ: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» وأخطر له أيضاً قوله ﷺ: «**لَيسَ كَذِبٌ عَلَيَّ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» يتأوّل ذلك كله بإلقاء الشيطان في خاطره فيقول له: إنما ذلك إذا دعا إلى ضلالة وأنا ما سننت إلاّ خيراً فهو مأجور بالضرورة من كونه سنّ سنّة حسنة، ومأزور من كونه كذب على رسول الله ﷺ وقال عنه إنه صرّح بما لم يقله ﷺ وكذلك إن كان من أهل الخلوات والرياضات واستعجل الرياسة من قبل أن يفتح الله عليه باباً من أبواب عبوديته فيلزم طريق الصدق ولا يقف مع رسول الله ﷺ مثل ما وقف الأول، وأنه يجري إلى الافتراء على الله فينسب ذلك الذي سنّه إلى الله تعالىٰ ويتأوّل أنه لا فاعل إلاّ الله وأنه تعالىٰ المنطق عباده ويصير من وقته لذلك أشعرياً مجبوراً ويقول هذا كله خير فإني ما قصدت إلاّ أن أعضد تلك السنّة الحسنة، فلم أر أشد في تقويتها من أني أسندها إلى الله تعالىٰ كما هي في نفس الأمر خلق لله تعالىٰ أجراها الله على لساني، هذا كله يحدث به نفسه لا يقول ذلك لأحد، فإذا كان مع الناس يريهم أن ذلك جاءه من عند الله كما يجيء لأولياء الله على تلك الطريق، فإذا أخطر له الملك قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٣] يتأوّل ذلك مع نفسه ويقول: ما أنا مخاطب بهذه الآية وإنما خوطب بها أهل الدعوى الذين ينسبون الفعل إلى أنفسهم فإنه قال: افترى فنسب فعل الافتراء إلى هذا القائل، وأنا أقول: إن الأفعال كلها لله تعالىٰ لا إليّ فهو الذي قال على لساني ألا ترى النبيّ ﷺ قال في الصلاة إن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده فكذلك هذا، ثم قال: أو قال أوحي إليّ فأضاف القول إليه وكذلك قوله إليّ ومن أنا حتى أقول إليّ إذ الله هو المتكلم وهو السميع، ثم قال: سأنزل مثل ما أنزل الله، وما أقول أنا ذلك بل الإنزال كله من الله، فإذا تفقه في نفسه في هذا كله افترى على الله كذباً وزيّن له سوء عمله فرآه حسناً. فهذا أصل صحيح لهاتين الطائفتين قد ألقاه الشيطان إليهما وتركه عندهما وبقي يتفقّه في ذلك فقهاً نفسياً.

فإن لم يكن الإنسان على بصيرة وتمييز من خواطره حتى يفرق بين إلقاء الشيطان وإن كان خيراً، وبين إلقاء الملك والنفس ويميز بينهما ميزاً صحيحاً وإلاّ فلا يفعل فإنه لا يفلح أبداً فإن الشيطان لا يأتي إلى كل طائفة إلاّ بما هو الغالب عليها، وليس غرضه من الصالحين إلاّ أن يجهلوه في الأخذ عنه، فإذا جهلوه ونسبوا ذلك إلى الله ولم يعرفوا على أي طريق وصل إليهم كأنه قنع منهم بهذا القدر من الجهل وعرف أنهم تحت سلطانه فلا يزال يستدرجه في خيريته حتى يتمكن منه في تصديق خواطره وأنها من الله فيسلخه من دينه كما تنسلخ الحية من جلدها. ألا ترى صورة الجلد المسلوخ منها على صورة الحية؟ كذلك هذا الأمر.

جاء إبليس إلى عيسىٰ عليه السلام في صورة شخص شيخ في ظاهر الحسّ لأن الشيطان ليس له إلى باطن الأنبياء عليهم السلام من سبيل، فخواطر الأنبياء عليهم السلام كلها إما ربانية أو ملكية أو نفسية لا حظّ للشيطان في قلوبهم، ومن يحفظ من الأولياء في علم الله يكون بهذه المثابة في العصمة ممّا يلقي لا في العصمة من وصوله إليه، فالوليّ المعتنى به على علامة من الله فيما يلقي إليه الشيطان، وسبب ذلك أنه ليس بمشرع والأنبياء مشرعون فلذلك عصمت بواطنهم فقال لعيسىٰ عليه السلام: يا عيسىٰ قل لا إله إلاّ الله ورضي منه أن يطيع أمره في هذا القدر، فقال عيسىٰ عليه السلام: أقولها لا لقولك لا إله إلاّ الله فرجع خاسئاً.

ومن هنا تعلم الفرق بين العلم بالشيء وبين الإيمان به، وأن السعادة في الإيمان وهو أن تقول ما تعلمه. وما قلته لقول رسولك الأول الذي هو موسىٰ عليه السلام لقول هذا الرسول الثاني الذي هو محمد ﷺ لا لعلمك ولا للقول الأول، فحينئذ لك يشهد بالإيمان ومآلك السعادة، وإذ قلت ذلك لا لقوله وأظهرت أنك قلت ذلك لقوله كنت منافقاً قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٤] يريد أهل الكتاب حيث قالوا ما قالوه لأمر نبيهم عيسىٰ أو موسىٰ أو من كان من أهل الإيمان بذلك من الكتب المتقدمة ولهذا قال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ثم قال لهم: آمنوا بأنبيائي قولوا لا إله إلاّ الله لقول محمد ﷺ لا لعلمكم بذلك ولا لإيمانكم بنبيكم الأول فتجمعوا بين الإيمانين فيكون لكم أجران فيقنع الشيطان من الإنسان أن يلبس عليه بهذا القدر، فلا يفرق بين ما هو من عند الله من حيث ما هو من عند الله، ولا بين طريق الملك والنفس والشيطان، فالله يجعل لك علامة تعرف بها مراتب خواطرك، وممّا تعرف به الخواطر الشيطانية وإن كانت في الطاعة بعدم الثبوت على الأمر الواحد وسرعة الاستبدال من خاطر بأمر ما إلى خاطر بأمر آخر فإنه حريص وهو مخلوق من لهب النار ولهب النار سريع الحركة، فأصل إبليس عدم البقاء على حالة واحدة في أصل نشأته فهو بحكم أصله، والإنسان له الثبوت فإنه من التراب فله البرد واليبس فهو ثابت في شغله، وكذلك الخواطر النفسية ثابتة ما لم يزلزلها الملك أو الشيطان.

ومتعلق أصل الخواطر الشيطانية إنما هو المحظور فعلاً كان أو تركاً، ثم يليه المكروه فعلاً كان أو تركاً، فالأول في العامة والثاني في العباد من العامة، وقد يتعلق بالمباح في حق المبتدي من أهل طريق الله، ويأتي بالمندوب في حق المتوسطين من أهل الله أصحاب السماع، فإنه يستدرج كل طائفة من حيث ما هو الغالب عليها، فإنه عالم بمواقع المكر والاستدراج، ويأتي العارفين بالواجبات فلا يزال بهم حتى نووا مع الله فعل أمر ما من الطاعات، وهو في نفس الأمر عهد يعهده مع الله، فإذا استوثق منه في ذلك وعزم وما بقي إلاّ الفعل أقام له عبادة أخرى أفضل منها شرعاً، فيرى العارف أن يقطع زمانه بالأولى فيترك الأول ويشرع في الثاني فيفرح إبليس حيث جعله ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، والعارف لا خبر له بذلك، فلو عرف من أول أن ذلك من الشيطان عرف كيف يرده وكيف يأخذه كما فعل عيسىٰ عليه السلام، وكل متمكن من أهل الله من ورثة الأنبياء فيراها مع كونها حسنة هي خواطر شيطانية.

وكذا جاء للمنافق من أهل الكتاب قال له: ألم تعلم أن نبيك قد بشّر بهذا الرجل وقد علمت أنه هو والنبوة تجمعهما فقل له: إنك رسول الله لقول نبيّك لا لقوله ولا فرق بينهما، فيقول المنافق عند ذلك: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [سورة المنافقون: الآية ١] فأكذبهم الله فقال تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ على ما قرّرهم الشيطان فقال الله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [سورة المنافقون: الآية ١] في أنهم قالوا ذلك لقولك لا في قولهم إنك رسول الله، ولو أراد ذلك كان نفياً لرسالته ﷺ، فقد أعلمتك بمداخل الشيطان إلى نفوس العالم لتحذره وتسأل الله أن يعطيك علامة تعرفه بها، وقد أعطاك الله في العامة ميزان الشريعة، وميّز لك بين فرائضه ومندوباته ومباحه ومحظوره ومكروهه، ونصّ على ذلك في كتابه وعلى لسان رسوله.

فإذا خطر لك خاطر في محظور أو مكروه فتعلم أنه من الشيطان بلا شك، وإذا خطر لك خاطر في مباح فتعلم أنه من النفس بلا شك، فخاطر الشيطان بالمحظور والمكروه اجتنبه فعلاً كان أو تركاً، والمباح أنت مخيّر فيه، فإن غلب عليك طلب الأرباح فاجتنب المباح واشتغل بالواجب أو المندوب، غير أنك إذا تصرّفت في المباح فتصرف فيه على حضور أنه مباح، وأن الشارع لولا ما أباحه لك ما تصرّفت فيه فتكون مأجوراً في مباحك لا من حيث كونه مباحاً إلاّ من حيث إيمانك به أنه شرع من عند الله، فإن الحكم لا ينتقل بعد موت رسول الله ﷺ، فإن الحكم هو عين الشرع وقد سدّ ذلك الباب، فالمباح مباح لا يكون واجباً ولا محظوراً أبداً، وكذلك كل واحد من الأحكام، وإن خطر لك خاطر في فرض فقم إليه بلا شك فإنه من الملك، وإذا خطر لك خاطر في مندوب فاحفظ أول الخاطر فإنه قد يكون من إبليس فاثبت عليه، فإذا خطر لك أن تتركه لمندوب آخر هو أعلى منه وأولى فلا تعدل عن الأول واثبت عليه واحفظ الثاني وافعل الأول ولا بدّ، فإذا فرغت منه اشرع في الثاني فافعله أيضاً فإن الشيطان يرجع خاسئاً بلا شك حيث لم يتفق له مقصوده، وبهذا الدواء يذهب مرض الشيطان من نفسك، وتكون عمريّ المقام ما يلقاك الشيطان في فج إلاّ سلك فجاً غير فجك إذا عاملته بمثل هذا فحافظ على ما نبهتك عليه فإن الله قد أثنى على الذين ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٦١] ويكفي هذا القدر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والخمسون

في معرفة الاستقراء وصحته من سقمه

[نظم: الوافر]

لـلاسـتـقـراءِ حـدٌّ فـي الـمـعـانـي ... يـلازمـه الـقـويُّ مـن الـرجـالِ

لـه حُـكْـمٌ ولا يـعـطـيـك عـلـمـاً ... فـصـورتُـه كـمـنـزلـة الـظِّـلالِ

مـزاحَـمَـةُ الـدلـيـل يـقـوم فـيـهـا ... وأيـن الـعـيـنُ مـن شـخـص الـمـثـالِ

مُـنَـازلَـةُ الـظـنـون وإنَّ مـنـهـا ... لـمُـغْـطـيـك الـنـزولَ إلـى سَـفَـالِ

فلا تحكُمْ بالاستقراء قطعاً ... فما عَيْنُ الغزالةِ كالغزالِ
وإن ظَهَرَتْ بالاستقرا علومٌ ... فما حكم التَّضمُّر كالهزالِ

خرّج مسلم في صحيحه أن الله يقول: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، وبقي أرحم الراحمين. فسمّى نفسه عزّ وجلّ: ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٦٤]. وقال: إنه ﴿خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٥]. وقال في الصحيح: «**أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي خَيْراً**». فإذا استقرأنا الوجود أن الكرام الأصول لا يصدر منهم إلاّ مكارم الأخلاق من الإحسان للمحسن، والتجاوز عن المسيء، والعفو عن الزلّة، وإقالة العثرة، وقبول المعذرة، والصفح عن الجاني، وأمثال هذا ممّا هو من مكارم الأخلاق واستقرأنا ذلك فوجدناه لا يخطىء يقول شاعر العرب في ذلك: إن الجياد على أعراقها تجري. والحق أولى بصفة مكارم الأخلاق من المخلوقين، فهنا تكون صحة الاستقراء في الإلهيات، وأما سقم الاستقراء فلا يصحّ في العقائد فإن مبناها على الأدلة الواضحة، فإنه لو استقرأنا كل من ظهرت منه صنعة وجدناه جسماً ونقول: إن العالم صنعة الحق وفعله، وقد تتبعنا الصناع فما وجدنا صانعاً إلاّ ذا جسم، فالحق جسم تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً.

وتتبعنا الأدلة في المحدثات فما وجدنا عالماً لنفسه، وإنما الدليل يعطي أن لا يكون عالم إلاّ بصفة زائدة على ذاته تسمى علماً، وحكمها فيمن قامت به أن يكون عالماً وقد علمنا أن الحق عالم، فلا بدّ أن يكون له علم ويكون ذلك العلم صفة زائدة على ذاته قائمة به، كلا بل هو الله العالم الحيّ القادر القاهر الخبير كل ذلك لنفسه لا بأمر زائد على ذاته، إذ لو كان ذلك بأمر زائد على نفسه وهي صفات كما لا يكون كمال الذات إلاّ بها فيكون كماله بزائد على ذاته وتتصف ذاته بالنقص إذا لم يقم به هذا الزائد، فهذا من الاستقراء وهذا الذي دعا المتكلمين أن يقولوا في صفات الحق لا هي هو ولا هي غيره، وفيما ذكرناه ضرب من الاستقراء الذي لا يليق بالجناب العالي، ثم إنه لما استشعر القائلون بالزائد سلكوا في العبارة عن ذلك مسلكاً آخر فقالوا: ما عقلناه بالاستقراء وإنما قلنا: أعطى الدليل أنه لا يكون عالم إلاّ من قام به العلم، ولا بدّ أن يكون أمراً زائداً على ذات العالم لأنه من صفات المعاني يقدر رفعه مع بقاء الذات، فلما أعطاه الدليل ذلك طردناه شاهداً وغائباً يعني في الحق والخلق، وهذا هرب منهم وعدول عن عين الصواب، ثم إنهم أكّدوا ذلك بقولهم: ما ذكرناه عنهم أن صفاته لا هي هو ولا هي غيره، وحدّوا الغيرين بحدّ يمنعه غيرهم، وإذا سألتهم: هل هي أمر زائد؟ اعترفوا بأنها أمر زائد وهذا هو عين الاستقراء، فلهذا قلنا: إن الاستقراء في العلم بالله لا يصحّ، وإن الاستقراء على الحقيقة لا يفيد علماً وإنما أثبتناه في مكارم الأخلاق شرعاً وعرفاً لا عقلاً، فإن العقل يدل عليه سبحانه أنه فعّال لما يريد لا يقاس بالمخلوق ولا يقاس المخلوق عليه. وإنما الأدلة الشرعية أتت بأمور تقرّر عندنا منها أنه يعامل عباده بالإحسان وعلى قدر ظنّهم به، قال تعالىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٤٧] في الطرفين للوازم قرّرها الشارع.

قال رسول الله ﷺ في شأن النائم عن الصلاة إذا استيقظ أو الناسي إذا تذكر وقد خرج وقت الصلاة فيصليها هل يثبتها دائماً في كل يوم في ذلك الوقت؟ فلما سُئِل رسول الله ﷺ عن ذلك قال رسول الله ﷺ: «**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَنْهَاكُمْ عَنِ الرِّبَا وَيَأْخُذَه مِنْكُمْ**» فبيّن أنه سبحانه ما يحمد خُلقاً من مكارم الأخلاق إلاّ والحق تعالىٰ أولى به بأن يعامل به خلقه، ولا يذم شيئاً من سفساف الأخلاق إلاّ وكان الجناب الإلهي أبعد منه، ففي مثل هذا الفن يسوغ الاستقراء بهذه الدلالات الشرعية وأما غير ذلك فلا يكون، فقد أبنت لك صحة الاستقراء من سقمه في المعاملات، وأما الاستقراء في التجليات فرأينا أن الهيولى الصناعية تقبل بعض الصور لا كلها، فوجدنا الخشب يقبل صورة الكرسي والمنبر والتخت والباب ولم نره يقبل صورة القميص ولا الرداء ولا السراويل، ورأينا الشقة تقبل ذلك ولا تقبل صورة السكين والسيف، ثم رأينا الماء يقبل صورة لون الأوعية وما يتجلى فيها من المتلونات فيتصف بالزرقة والبياض والحمرة. سُئِل الجنيد رحمه الله عن المعرفة والعارف فقال: لون الماء لون إنائه.

ثم استقرأنا عالم الأركان كلها والأفلاك فوجدنا كل ركن منها وكل فلك يقبل صوراً مخصوصة وبعضها أكثر قبولاً من بعض. ثم نظرنا في الهيولى الكل فوجدناها تقبل جميع صور الأجسام والأشكال، فنظرنا في الأمور فرأيناها كلما لطفت قبلت الصور الكثيرة، فنظرنا في الأرواح فوجدناها أقبل للتشكّل في الصور من سائر ما ذكرناه، ثم نظرنا في الخيال فوجدناه يقبل ما له صورة ويصوّر ما ليست له صورة فكان أوسع من الأرواح في التنوّع في الصور، ثم جئنا إلى الغيب في التجليات فوجدنا الأمر أوسع ممّا ذكرناه ورأيناه قد جعل ذلك أسماء كل اسم منها يقبل صوراً لا نهاية لها في التجليات، وعلمنا أن الحق وراء ذلك كله ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٣] فجاء في عدم الإدراك بالاسم اللطيف إذ كانت اللطافة مما ينبو الحسّ عن إدراكها فتعقل ولا تشهد فتسمى في وصفه الذي تنزّه أن يدرك فيه باللطيف الخبير أي تلطف عن إدراك المحدثات، ومع هذا فإنه يعلم ويعقل أن ثَم أمراً يستند إليه فأتى بالاسم الخبير على وزن فعيل وفعيل يرد بمعنى المفعول، كقتيل بمعنى مقتول، وجريح بمعنى مجروح وهو المراد هنا والأوجه، وقد يرد بمعنى الفاعل كعليم بمعنى عالم، وقد يكون أيضاً هو المراد هنا ولكنه يبعد، فإن دلالة مساق الآية لا تعطي ذلك فإن مساقها في إدراك الأبصار لا في إدراك البصائر، فإن الله قد ندبنا إلى التوصّل بالعلم به فقال: فاعلم أنه لا إله إلاّ الله، ولا يعلم حتى ننظر في الأدلة فيؤدّينا النظر فيها إلى العلم به على قدر ما تعطينا القوّة في ذلك، فلهذا رجحنا خبير هنا بمعنى المفعول أي إن الله يعلم ويعقل ولا تدركه الأبصار، فهذا القدر مما يتعلق بهذا الباب من الاستقراء.

وأما كونه لا يفيد العلم في هذا الموطن فإنه ما من أصل ذكرناه يقبل صوراً ما إلاّ يجوز بل يقع، وقد وقع أنه يتكرر في تلك الصور مراتب عديدة، وهذا قد ورد في الأخبار أن جبريل عليه السلام نزل مراراً على صورة دحية الكلبي، ولما لم يصحّ عندنا

في التجلي الإلهي أن يتكرر تجلّ إلهيّ لشخص واحد مرتين ولا يظهر في صورة واحدة لشخصين علمنا أن الاستقراء لا يفيد علماً، فإن جناب التجلّي لا يقبل التكرار، فخرج عن حكم الاستقراء من وجه عدم التكرار، ولحق به من حيث التحوّل في الصور، وقد ورد التحوّل في حديث مسلم في حديث الشفاعة من كتاب الإيمان، فلا يعوّل على الاستقراء في شيء من الأشياء لا في الأحوال ولا في المقامات ولا في المنازل ولا في المنازلات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والخمسون

في معرفة تحصيل علم الإلهام بنوع ما من أنواع الاستدلال ومعرفة النفس

[نظم: البسيط]

لا تحكمنَّ بإلهام تَجِدْهُ فقد ... يكون في غير ما يرضاه واهِبُهُ
واجعل شريعتَك المُثْلى مصحَّحَةً ... فإنها ثَمَرٌ يجنيه كاسِبُهُ
له الإساءةُ والحسنى معاً فكما ... تَغْلَى طرائقُه تَرْدَى مذاهبُهُ
فاحذره إنَّ له في كل طائفة ... حكماً إذا جُهِلَتْ فينا مكاسِبُهُ
لا تطلبنَّ من الإلهام صورتَه ... فإن وسواسَ إبليسٍ يصاحِبُهُ
في شكله وعلى ترتيب صورته ... وإن تميَّز فالمعنى يقاربُهُ

قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: ٧ ـ ٨] من قوله أيضاً ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٠] فجعل النفس محلاً قابلاً لما تلهمه من الفجور والتقوى، فتميز الفجور فتجتنبه. والتقوى فتسلك طريقه، ومن وجه آخر تطلبه الآية وهو أنه بما ألهمها عراها أن يكون لها في الفجور والتقوى كسب أو تعمل وإنما هي محل لظهور الفعل فجوراً كان أو تقوى شرعاً، فهي برزخ وسط بين هذين الحكمين، ولم ينسب سبحانه إلى نفسه خاطر المباح ولا إلهامه فيها به، وسبب ذلك أن المباح ذاتيّ لها، فبنفس ما خلق عينها ظهر عين المباح، فهو من صفاتها النفسية التي لا تعقل النفس إلاّ به فهو على الحقيقة أعني خاطر المباح نعت خاص كالضحك للإنسان، وإن لم يكن من الفصول المقوّمة فهو حد لازم رسميّ، فإن من خاصية النفس دفع المضار واستجلاب المنافع، وهذا لا يوجد في أقسام أحكام الشرع إلاّ في قسم المباح خاصة فإنه الذي يستوي فعله وتركه فلا أجر فيه ولا وزر شرعاً وهو قوله: ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ من التسوية وهو الاعتدال في الشيء ﴿فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٧] يمتن بذلك على الإنسان، وما في أقسام أحكام الشريعة قسم يقتضي العدل ويعطي الاعتدال إلاّ قسم المباح فهي تطلبه بذاتها وخاصيتها، فلذلك لم يصفها بأنها ملهمة فيه، وما ذكر سبحانه من الملهم لها بالفجور والتقوى فأضمر الفاعل فالظاهر أن الضمير المضمر يعود على المضمر في سوّاها وهو الله تعالىٰ.

ومن نظر في قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِلْمَلَكِ فِي الإِنْسَانِ لَمَّةً وَلِلشيطَانِ لَمَّةً**». يعني

بالطاعة وهي التقوى والمعصية وهي الفجور فيكون الضمير في ألهمها للملك في التقوى وللشيطان في الفجور، ولم يجمعهما في ضمير واحد لبعد المناسبة بينهما وكل بقضاء الله وقدره، ولا يصحّ أن يقال في هذا الموضع: إن الله هو الملهم بالتقوى وإن الشيطان هو الملهم بالفجور لما في هذا من الجهل وسوء الأدب لما في ذلك من غلبة أحد الخاطرين والفجور أغلب من التقوى. وأيضاً لقوله تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٩] فإنه في تلك الآية ظاهر الاسم والسيئة فيها ما هي شرعاً فتكون فجوراً وإنما هي ممّا يسوءه ولا يوافق غرضه وهو في الظاهر قولهم: فإنهم كانوا يتطيرون به ﷺ أعني الكافرين فأمره سبحانه أن يقول: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي ما يحدث فيهم من الكوائن، يقول الله عنهم أنهم يقولون ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] أي ما يسوءهم ﴿مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] وهو قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٧] فالفاعل في ألهمها مضمر، فإن كان الله هنا في الضمير هو الملهم بالتقوى والشيطان هو الملهم بالفجور فقد جمع الله والشيطان ضمير واحد وهذا غاية في سوء الأدب مع الله، وما أحسن ما جاء بالواو العاطفة في قوله: ﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٧] فتعالى الله الملك القدوس أن يجتمع مع المطرود من رحمة الله في ضمير مع احتمال الأمر في ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ: «**بِئْسَ الخَطِيبُ أَنْتَ**» لما سمعه قد جمع بين الله تعالىٰ ورسوله ﷺ في ضمير واحد فقال: ومن يعصهما وما قال ذلك رسول الله ﷺ إذ جمع بين الله وبين نفسه في ضمير واحد إلاّ بوحي من الله وهو قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [سورة النجم: الآية ٣] ونحن يلزمنا ملازمة الأدب فيما لم نؤمر به ولا نهينا عنه، كما فعل رسول الله ﷺفي قوله: «**بِئْسَ الخَطِيبُ أَنْتَ**».

وكذلك لا يترجح أن ننسب الإلهام بالفجور إلى الله، فلم يبق بعد هذا الاستقصاء أن يكون الضمير في ألهمها بالفجور إلاّ الشيطان وبالواو بالتقوى إلاّ الملك، فمقابلة مخلوق بمخلوق أولى من مقابلة مخلوق بخالق. وفي قول رسول الله ﷺ: **بِئْسَ الخَطِيبِ** كفاية لمن أنار الله بصيرته فقد أعلمك برتبة نفسك وأنها ليست بأمارة بالسوء من حيث ذاتها، وإنما ينسب إليها ذلك من حيث إنها قابلة لإلهام الشيطان بالفجور ولجهلها بالحكم المشروع في ذلك كنفس أمرت صاحبها بارتكاب أمر لم تعلم تحريمه في الشرع، أو قامت عندها شبهة بإباحة ذلك فيراه من مذهبه التحريم فيقول: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [سورة يوسف: الآية ٥٣] كشرب النبيذ بين محلله ومحرّمه، ونكاح الربيبة التي لم يجتمع فيها الشرطان، ومثل هذا في الشريعة كثير، وكلا المذهبين شرع مقرّر صحيح إذا كانا عن اجتهاد، مع أن أحدهما أخطأ دليل الشارع الذي حكم به في تلك المسألة أو لو حكم فيها، والمجتهدان مأجوران، وقد يكون في المسألة أحد المجتهدين مصيباً، وقد يكون كل واحد منهما مخطئاً، فإن الحكم في تلك المسألة شرعاً ليس بمنحصر. ثم إن قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ فما هو

حكم الله عليها بذلك، وإنما الله حكى ما قالته امرأة العزيز في مجلس العزيز، وهل أصابت في هذه الإضافة أو لم تصب هذا حكم آخر مسكوت عنه، بل الذي هو لها أنها لوّامة نفسها إذا قبلت من الشيطان ما يأمرها به، فهذا الإخبار عن النفس أنها أمارة بالسوء، ما هو حكم الله عليها ولا من قول يوسف عليه السلام، فبطل التمسّك بهذه الآية لما دلّ عليه الظاهر، والدليل إذا دخله الاحتمال سقط الاحتجاج به.

وأما قوله تعالىٰ في هذا المقام: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٠] فهو إبانة عن حقيقة صحيحة بما هو الأمر عليه في نفسه من أنه لا حول ولا قوّة إلاَّ بالله. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٠] أي ممنوعاً يقول: إن الله يعطي على الدوام والمحال تقبل على قدر حقائق استعداداتها، كما تقول: إن الشمس تنبسط أنوارها على الموجودات وما تبخل بنورها على أحد وتقبل المحال ذلك النور على قدر استعدادها وكل محل يضيف الأثر إلى الشمس ويغفل عن استعداده، فالشخص المبرود يلتذ بحرارتها، والجسم المحرور يتألم بحرارتها، والنور من حيث ذاته واحد، وكل واحد من الشخصين يتألم بما به يتنعم صاحبه، فلو كان ذلك للنور وحده لأعطى حقيقة واحدة وكذلك أعطى ما في قوّته غير أنه للقابل حكم في ذلك ولا بدّ، فإن النتيجة لا تكون إلاَّ عن مقدمتين فيسود وجه القصار الذي يبيض الثوب، فإن استعداد الثوب تعطي الشمس فيه التبيض، ووجه القصار تعطي الشمس فيه السواد، وكذلك النفخة الواحدة من النافخ وهي الهواء تطفىء السراج وتشعل النار الذي في الحشيش والهواء في نفسه واحد، فترد الآية من كتاب الله واحدة العين على الأسماع، فسامع يفهم منها أمراً واحداً، وسامع آخر لا يفهم منها ذلك الأمر ويفهم منها أمراً آخر، وآخر يفهم منها أموراً كثيرة، ولهذا يستشهد كل واحد من الناظرين فيها بها لاختلاف استعداد الأفهام.

وهكذا في التجليات الإلهية، فالمتجلي من حيث هو في نفسه واحد العين، واختلفت التجليات أعني صورها بحسب استعدادات المتجلي لهم، وكذلك في العطايا الإلهية سواء، فإذا فهمت هذا علمت أن عطاء الله ليس بممنوع إلاَّ أنك تحب أن يعطيك ما لا يقبله استعدادك وتنسب المنع إليه فيما طلبته منه ولم تجعل بالك إلى الاستعداد فقد يستعد الشخص للسؤال وما عنده استعداد لقبول ما سأل فيه، فلو أعطيه بدلاً من المنع ويقول: إن الله على كل شيء قدير ويصدق في ذلك ولكنك تغفل عن ترتيب الحكمة الإلهية في العالم وما تعطيه حقائق الأشياء والكل من عند الله فمنعه عطاء وعطاؤه منع، ولكن بقي لك أن تعلم لكذا ومن كذا، فقد عرفتك بالنفس وأنها المحرّكة للجوارح بما يغلب عليها، إما من ذاتها أو ممّا تقبله من الملك أو الشيطان فيما يلهمها به، فعلم الإلهام هو أن تعلم أن الله ألهمك بما أوقره في نفسك، ولكن بقي عليك أن تنظر على يدي من ألهمك وعلى أيّ طريق جاءك ذلك الإلهام من ملك أو شيطان، وما يخرج من قبيل الأمر والنهي المشروع فهو العلم اللدنيّ ما هو الإلهام، فالعلم بالطاعة إلهاميّ، والعلم بنتائج الطاعة لدنيّ، ففرّق ما بين العلم اللدني

والإلهام، فالإلهام عارض طارىء يزول ويجيء غيره، والعلم اللدنيّ ثابت لا يبرح، فمنه ما يكون في أصل الخلقة والجبلة كعلم الحيوانات والأطفال الصغار ببعض منافعهم ومضارّهم فهو علم ضروريّ لا إلهام.

وأما قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٨] فإنه يريد في أصل نشأتها فطرها الله على ذلك، والإلهام هو ما يلهمه العبد من الأمور التي لم يكن يعرفها قبل ذلك، والعلم اللدنيّ الذي لا يكون في أصل الخلقة فهو العلم الذي تنتجه الأعمال، فيرحم الله بعض عباده بأن يوفقه لعمل صالح فيعمل به فيورثه الله من ذلك علماً من لدنه لم يكن يعلمه قبل ذلك، ولا يلزم من العلم اللدنيّ أن يكون في مادّة، والإلهام لا يكون إلاّ في موادّ، والعلم يصيب ولا بدّ، والإلهام قد يصيب وقد يخطىء، فالمصيب منه يسمّى علم الإلهام، وما يخطىء منه يسمّى إلهاماً لا علماً أي لا علم إلهام، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والخمسون

في معرفة أسرار أهل الإلهام المستدلين ومعرفة علم إلهيّ فاض على القلب ففرّق خواطره وشتتها

[نظم: الوافر]

إذا أعـطـاكَ بـالإلـهـام عـلـمـاً ... تـحـقّـقُـه فـأنـت بـه سـعـيـدُ
كـمـثـل الـنـحـلِ مـخـتـلـفُ الـمـعـاني ... قـويٌّ فـي مـبـانـيـه سَـديـدُ
فـتـلـقـى طـيـبـاً عـن طِـيْـبِ أصـلٍ ... وأنـت لـحـالـهـا أبـداً شـهـيـدُ
وفـي الأشـجـار والـشُّـمِّ الـرواسـي ... لـهـا مـن فـعـلـهـا قَـصْـرٌ مَـشِـيـدُ
فـلا تُـعْـجِـزْكَ لـلـعـلـيـاء نَـحْـلٌ ... وأنـت الـسـيِّـدُ الـنَّـدْبُ الـجَـلِـيـدُ
فـمـنـك الـقـصـدُ خـيـراً واخـتـيـاراً ... كـمـالُـكَ فـي مـنـازلـك الـقُـصُـودُ
فـحـقِّـقْ والْـتَـمِـسْ عـلـمـاً وحـيـداً ... كـمـثـلـك أنـك الـخـلـقُ الـجـديـدُ

اعلم أيّدك الله بروح منه أن الله عزّ وجلّ أمرنا بالعلم بوحدانيته في ألوهيته، غير أن النفوس لما سمعت ذلك منه مع كونها قد نظرت بفكرها ودلّت على وجود الحق بالأدلة العقلية بل بضرورة العقل بعلم وجود الباري تعالىٰ، ثم دلّت على توحيد هذا الموجود الذي خلقها، وأنه من المحال أن يوجد واجباً الوجود لنفسه ولا ينبغي أن يكون إلاّ واحداً، ثم استدلوا على ما ينبغي أن يكون عليه من هو واجب الوجود لنفسه من النسب التي ظهر عنه بها ما ظهر من الممكنات ودلّ على إمكان الرسالة، ثم جاء الرسول وأظهر من الدلائل على صدقه أنه رسول من الله إلينا، فعرفنا بالأدلة العقلية أنه رسول الله فلم نشك، وقام لنا الدليل العقليّ على صدق ما يخبر به فيما ينسب إليه ورآه قد أتى في أخباره عنه تعالىٰ بنسب وأمور كان الدليل العقليّ يحيلها ويرمي بها، فتوقف العقل وأتهم معرفته وقدح في دليله هذا الإنباء الإلهيّ بما ينسبه لنفسه ولا يقدر على تكذيب المخبر.

ثم كان من بعض ما قال له هذا الشارع: اعرف ربك، وهذا العاقل لو لم يعلم ربّه الذي هو الأصل المعوّل عليه ما صدق هذا الرسول، فلا بدّ أن يكون العلم الذي طلب منه الرسول أن يعلم به ربّه غير العلم الذي أعطاه دليله وهو أن يتعمل في تحصيل علم من الله بالله، يقبل به على بصيرة هذه الأمور التي نسبها الله إلى نفسه ووصف نفسه بها التي أحالها العقل بدليله فانقدح له بتصديقه الرسول أن ثم وراء العقل وما يعطيه بفكره أمراً آخر يعطي من العلم بالله ما لا تعطيه الأدلة العقلية بل يحيله قولاً واحداً، فإذا علمه بهذه القوّة التي عرف أنها وراء طور العقل هل يبقى له الحكم فيما كان يحيله العقل من حيث فكره أولاً على ما كان عليه أم لا يبقى، فإن لم يبق له الحكم بأن ذلك محال فلا بدّ أن يعثر على الوجه الذي وقع له منه الغلط بلا شك، وأن ذلك الذي اتخذه دليلاً على إحالة ذلك على الله لم يكن دليلاً في نفس الأمر، وإذا كان هذا فما ذلك الأمر مما هو وراء طور العقل، فإن العقل قد يصيب وقد يخطىء، وإن بقي للعقل بعد كشفه وتحقيقه لصحة هذا الأمر الذي نسبه الله لنفسه ووصف به نفسه وقبلته عقول الأنبياء وقبله عقل هذا المكاشف بلا شك ولا ريب، ومع هذا فإنه يحكم على الله بأن ذلك الأمر محال عقلاً من حيث فكره لا من حيث قبوله، وحينئذ يصحّ أن يكون ذلك المقام وراء طور العقل من جهة أخذه عن الفكر لا من جهة أخذه عن الله.

هذا ومن أعجب الأمور عندنا أن يكون الإنسان يقلّد فكره ونظره وهو محدث مثله، وقوّة من قوى الإنسان التي خلقها الله فيه وجعل تلك القوّة خديمة للعقل ويقلدها العقل فيما تعطيه هذه القوّة ويعلم أنها لا تتعدى مرتبتها وأنها تعجز في نفسها عن أن يكون لها حكم قوّة أخرى، مثل القوّة الحافظة والمصوّرة والمتخيلة، والقوىٰ التي هي الحواس من لمس وطعم وشم وسمع وبصر، ومع هذا القصور كله يقلدها العقل في معرفة ربّه، ولا يقلد ربه فيما يخبر به عن نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، فهذا من أعجب ما طرأ في العالم من الغلط، وكل صاحب فكر تحت حكم هذا الغلط بلا شك إلاً من نوّر الله بصيرته فعرف أن الله قد أعطى كل شيء خلقه فأعطى السمع خلقه فلا يتعدى إدراكه، وجعل العقل فقيراً إليه يستمد منه معرفة الأصوات وتقطيع الحروف وتغيير الألفاظ وتنوّع اللغات، فيفرّق بين صوت الطير، وهبوب الرياح، وصرير الباب، وخرير الماء، وصياح الإنسان، ويعار الشاة، وثؤاج الكباش، وخوار البقر، ورغاء الإبل، وما أشبه هذه الأصوات كلها، وليس في قوّة العقل من حيث ذاته إدراك شيء من هذا ما لم يوصله إليه السمع، وكذلك القوّة البصرية جعل الله العقل فقيراً إليها فيما توصله إليه من المبصرات، فلا يعرف الخضرة ولا الصفرة ولا الزرقة ولا البياض ولا السواد ولا ما بينهما من الألوان ما لم ينعم البصر على العقل بها، وهكذا جميع القوىٰ المعروفة بالحواس، ثم إن الخيال فقير إلى هذه الحواس، فلا يتخيل أصلاً إلاً ما تعطيه هذه القوىٰ، ثم إن القوة الحافظة إن لم تمسك على الخيال ما حصل عنده من هذه القوىٰ لا يبقى في الخيال منها شيء فهو فقير إلى الحواس وإلى القوّة الحافظة.

ثم إن القوّة الحافظة قد تطرأ عليها موانع تحول بينها وبين الخيال فيفوت الخيال أمور

كثيرة من أجل ما طرأ على القوّة الحافظة من الضعف لوجود المانع فافتقر إلى القوّة المذكرة فتذكره ما غاب عنه فهي معينة للقوّة الحافظة على ذلك. ثم إن القوّة المفكرة إذا جاءت إلى الخيال افتقرت إلى القوّة المصوّرة لتركب بها ممّا ضبطه الخيال من الأمور صورة دليل على أمر ما، وبرهان تستبد فيه إلى المحسوسات أو الضرورات وهي أمور مركوزة في الجبلة، فإذا تصوّر الفكر ذلك الدليل حينئذ يأخذه العقل منه فيحكم به على المدلول، وما من قوّة إلاّ ولها موانع وأغاليط فيحتاج إلى فصلها من الصحيح الثابت، فانظر يا أخي ما أفقر العقل حيث لا يعرف شيئاً ممّا ذكرناه إلاّ بوساطة هذه القوىٰ وفيها من العلل ما فيها، فإذا اتفق للعقل أن يحصل شيئاً من هذه الأمور بهذه الطرق ثم أخبره الله بأمر ما توقف في قبوله وقال: إن الفكر يردّه، فما أجهل هذ العقل بقدر ربّه كيف قلّد فكره وجرّح ربه، فقد علمنا أن العقل ما عنده شيء من حيث نفسه، وأن الذي يكتسبه من العلوم إنما هو من كونه عنده صفة القبول، فإذا كان بهذه المثابة فقبوله من ربه لما يخبر به عن نفسه تعالىٰ أولى من قبوله من فكره، وقد عرف أن فكره مقلد لخياله، وأن خياله مقلد لحواسه، ومع تقليده فهو غير قويّ على إمساك ما عنده ما لم تساعده على ذلك القوّة الحافظة والمذكرة، ومع هذه المعرفة بأن القوىٰ لا تتعدى خلقها وما تعطيه حقيقتها وأنه بالنظر إلى ذاته لا علم عنده إلاّ الضروريات التي فطر عليها لا يقبل قول من يقول له: إن ثم قوّة أخرى وراءك تعطيك خلاف ما أعطتك القوّة المفكرة نالها أهل الله من الملائكة والأنبياء والأولياء ونطقت بها الكتب المنزلة فاقبل منها هذه الأخبار الإلهية فتقليد الحق أولى، وقد رأيت عقول الأنبياء على كثرتهم والأولياء قد قبلتها وآمنت بها وصدقتها، ورأت أن تقليدها ربها في معرفة نفسه أولى من تقليد أفكارها. فما لك أيها العاقل المنكر لها لا تقبلها ممّن جاء بها ولا سيما عقول تقول إنها في محل الإيمان بالله ورسله وكتبه.

ولما رأت عقول أهل الإيمان بالله تعالىٰ أن الله قد طلب منها أن تعرفه بعد أن عرفته بأدلتها النظرية، علمت أن ثم علماً آخر بالله لا تصل إليه من طريق الفكر، فاستعملت الرياضات والخلوات والمجاهدات وقطع العلائق والانفراد والجلوس مع الله بتفريغ المحل وتقديس القلب عن شوائب الأفكار إذ كان متعلق الأفكار الأكوان، واتخذت هذه الطريقة من الأنبياء والرسل، وسمعت أن الحق جلّ جلاله ينزل إلى عباده ويستعطفهم، فعلمت أن الطريق إليه من جهته أقرب إليه من الطريق من فكرها ولا سيّما أهل الإيمان، وقد سمعت قوله تعالىٰ: مَنْ أتاني يسعى أتيته هرولة. وأن قلبه وسع جلال الله وعظمته، فتوجه إليه بكله وانقطع من كل ما يأخذ عنه من هذه القوىٰ، فعند هذا التوجّه أفاض الله عليه من نوره علماً إلهياً عرّفه بأن الله تعالىٰ من طريق المشاهدة والتجلي لا يقبله كون ولا يردّه ولذلك قال: إن في ذلك يشير إلى العلم بالله من حيث المشاهدة لذكرى لمن كان له قلب ولم يقل غير ذلك فإن القلب معلوم بالتقليب في الأحوال دائماً فهو لا يبقى على حالة واحدة، فكذلك التجليات الإلهية، فمن لم يشهد التجليات بقلبه ينكرها فإن العقل يقيد وغيره من القوىٰ إلاّ القلب فإنه

لا يتقيد وهو سريع التقلّب في كل حال، ولذا قال الشارع: إن القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء فهو يتقلب بتقلب التجليات والعقل ليس كذلك، فالقلب هو القوّة التي وراء طور العقل، فلو أراد الحق في هذه الآية بالقلب أنه العقل ما قال لمن كان له قلب فإن كل إنسان له عقل، وما كل إنسان يعطى هذه القوّة التي وراء طور العقل المسمّاة قلباً في هذه الآية فلذلك قال: لمن كان له قلب، فالتقليب في القلب نظير التحوّل الإلهيّ في الصور، فلا تكون معرفة الحق من الحق إلاّ بالقلب لا بالعقل، ثم يقبلها العقل من القلب كما يقبل من الفكر، فلا يسعه سبحانه إلاّ أن يقلب ما عندك، ومعنى قلب ما عندك هو أنك علقت المعرفة به عزّ وجلّ وضبطت عندك في علمك أمراً ما، وأعلى أمر ضبطته في علمك به أنه لا ينضبط سبحانه ولا يتقيد ولا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، فلا ينضبط مضبوط لتميزه عمّا ينضبط، فقد انضبط ما لا ينضبط مثل قولك: العجز عن درك الإدراك إدراك.

والحق إنما وسعه القلب، ومعنى ذلك أن لا يحكم على الحق تعالىٰ بأنه لا يقبل ولا يقبل، فإن ذات الحق وأنيته مجهولة عند الكون، ولا سيما وقد أخبر جلّ جلاله عن نفسه بالنقيضين في الكتاب والسنّة، فشبّه في موضع ونزّه في موضع بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وشبّه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فتفرّقت خواطر التشبيه وتشتتت خواطر التنزيه، فإن المنزّه على الحقيقة قد قيّده وحصره في تنزيهه وأخلى عنه التشبيه، والمشبه أيضاً قيّده وحصره في التشبيه وأخلى عنه التنزيه والحق في الجمع بالقول بحكم الطائفتين، فلا ينزّه تنزيهاً يخرج عن التشبيه، ولا يشبه تشبيهاً يخرج عن التنزيه، فلا تطلق ولا تقيد لتميزه عن التقييد، ولو تميّز بقيد في إطلاقه ولو تقيّد في إطلاقه لم يكن هو، فهو المقيد بما قيّد به نفسه من صفات الجلال، وهو المطلق بما سمّى به نفسه من أسماء الكمال، وهو الواحد الحق الجليّ الخفيّ لا إله إلاّ هو العليّ العظيم.

وصل: وأمّا أسرار أهل الإلهام المستدلين فلا تتجاوز سدرة المنتهى فإن إليها تنتهي أعمال بني آدم ونهاية كل أمر إلى ما منه بدأ، فإن قال لك عارف ممّن لا علم له بهذا الأمر: إن الكرسيّ موضع القدمين، فقل له ذلك عالم الخلق والأمر والتكليف إنما انقسم من السدرة فإنه قطع أربع مراتب والسدرة هي المرتبة الخامسة، فنزل من قلم، إلى لوح، إلى عرش، إلى كرسيّ، إلى سدرة، فظهر الواجب من القلم، والمندوب من اللوح، والمحظور من العرش، والمكروه من الكرسيّ، والمباح من السدرة، والمباح قسم النفس وإليها تنتهي نفوس عالم السعادة، ولأصولها وهي الزقوم تنتهي نفوس أهل الشقاء، وقد بينّاها في كتاب التنزّلات الوصلية في باب يوم الاثنين.

وإذا ظهرت قسمة الأحكام من السدرة فإذا صعدت الأعمال التي لا تخلو من أحد هذه الأحكام لا بدّ أن تكون نهايتها إلى الموضع الذي منه ظهرت، إذ لا تعرف من كونها منقسمة إلى السدرة، ثم يكون من العقل الذي هو القلم نظر إلى الأعمال المفروضة فيمدّها بحسب ما يرى فيها، ويكون من اللوح نظر إلى الأعمال المندوب إليها فيمدّها بحسب ما يرى فيها،

ويكون من العرش نظر إلى المحظورات وهو مستوى الرحمن فلا ينظرها إلاَّ بعين الرحمة، ولهذا يكون مآل أصحابها إلى الرحمة، ويكون من الكرسيّ نظر إلى الأعمال المكروهة فينظر إليها بحسب ما يرى فيها وهو تحت حيطة العرش، والعرش مستوى الرحمن، والكرسي موضع القدمين، فيسرع العفو والتجاوز عن أصحاب المكروه من الأعمال، ولهذا يؤجر تاركها ولا يؤاخذ فاعلها فـ ﴿كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [سورة المطففين: الآية ١٨] ويدخل فيهم العصاة أهل الكبائر والصغائر، وأما ﴿كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [سورة المطففين: الآية ٧]. وفيه أصول السدرة التي هي شجرة الزقوم، فهناك تنتهي أعمال الفجار في أسفل سافلين، فإن رحمهم الرحمن من عرش الرحمانية بالنظرة التي ذكرناها جعل لهم نعيماً في منزلهم فلا يموتون فيه ولا يحيون فهم في نعيم النار دائمون مؤبدون كنعيم النائم بالرؤيا التي يراها في حال نومه من السرور، وربما يكون في فراشه مريضاً ذا بؤس وفقر ويرى نفسه في المنام ذا سلطان ونعمة وملك، فإن نظرت إلى النائم من حيث ما يراه في منامه ويلتذ به قلت إنه في نعيم وصدقت، وإن نظرت إليه من حيث ما تراه في فراشه الخشن ومرضه وبؤسه وفقره وكلومه قلت: إنه في عذاب هكذا يكون أهل النار ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [سورة الأعلىٰ: الآية ١٣] أي لا يستيقظ أبداً من نومته، فتلك الرحمة التي يرحم الله بها أهل النار الذين هم أهلها وأمثالها، كالمحرور منهم يتنعم بالزمهرير، والمقرور منهم يجعل في الحرور، وقد يكون عذابهم توهم وقوع العذاب بهم وذلك كله بعد قوله: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٧٥] ذلك زمان عذابهم وأخذهم بجرائمهم قبل أن تلحقهم الرحمة التي سبقت الغضب الإلهيّ، فإذا اطلع أهل الجنان في هذه الحالة على أهل النار ورأوا منازلهم في النار وما أعد الله فيها وما هي عليه من قبح المنظر قالوا معذبون، وإذا كوشفوا على الحسن المعنويّ الإلهيّ في خلق ذلك المسمّى قبحاً ورأوا ما هم فيه في نومتهم وعلموا أحوال أمزجتهم قالوا منعمون، فسبحان القادر على ما يشاء لا إله إلاَّ هو العزيز الحكيم، فقد فهمت قول الله تعالىٰ: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ وقول رسول الله ﷺ: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لاَ يَمُوتُونَ فِيها وَلاَ يَحْيَوْنَ**»، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والخمسون
في معرفة الزمان الموجود والمقدّر

[نظم: البسيط]

إنّ الزمانَ إذا حقّقْتَ حاصِلَهُ ... محقّقٌ فهو بالأوهام معلُومُ
مثلُ الطبيعة في التأثير قوّتُه ... والعينُ منها ومنه فيه معدومُ
به تعيَّنَتِ الأشيا وليس له ... عينٌ يكون عليه منه تَحْكيمُ
العقلُ يعجز عن إدراك صورَته ... لذا نقول بأن الدَّهْرَ مَوْهُومُ
لولا التنزُّهُ ما سمّى الإلهُ به ... وجودَه فله في القلب تعظيمُ

أصلُ الزمانِ إذا أنْصَفْتَ من أزلٍ فحكمُه أزليٌّ وهو محكومُ
مثلُ الخلاءِ امتدادٌ ما له طَرَفٌ في غير جسمٍ بوهمٍ فيه تَجسيمُ

اعلم أوّلاً أن الله تعالىٰ هو الأول الذي لا أولية لشيء قبله، ولا أوليّة لشيء يكون قائماً به أو غير قائم به معه، فهو الواحد سبحانه في أوليته، فلا شيء واجب الوجود لنفسه إلاّ هو، فهو الغنيّ بذاته على الإطلاق عن العالمين، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] بالدليل العقليّ والشرعيّ، فوجود العالم لا يخلو إما أن يكون وجوده عن الله لنفسه سبحانه أو لأمر زائد ما هو نفسه، إذ لو كان نفسه لم يكن زائداً، ولو كان نفسه أيضاً لكان مركباً في نفسه، وكانت الأولية لذلك الأمر الزائد، وقد فرضنا أنه لا أولية لشيء معه ولا قبله، فإذا لم يكن ذلك الأمر الزائد نفسه فلا يخلو إما أن يكون وجوداً أو لا وجوداً، محال أن يكون لا وجود فإن لا وجود لا يصحّ أن يكون له أثر إيجاد فيما هو موصوف بأن لا وجود وهو العالم، فليس أحدهما بأولى بتأثير الإيجاد من الآخر إذ كلاهما أن لا وجود، فإن لا وجود لا أثر له لأنه عدم، ومحال أن يكون وجوداً فإنه لا يخلو عند ذلك إما أن يكون وجوده لنفسه أو لا يكون، محال أن يكون وجوده لنفسه فإنه قد قام الدليل على إحالة أن يكون في الوجود اثنان واجبا الوجود لأنفسهما فلم يبق إلاّ أن يكون وجوده بغيره، ولا معنى لإمكان العالم إلاّ أن وجوده بغيره فهو العالم إذن أو من العالم، ولو كان وجود العالم عن الله لنسبة ما لولاها ما وجد العالم تسمّى تلك النسبة إرادة أو مشيئة أو علماً أو ما شئت ممّا يطلبه وجود الممكن، فيكون الحق تعالىٰ بلا شك لا يفعل شيئاً إلاّ بتلك النسبة، ولا معنى للافتقار إلاّ هذا وهو محال على الله، فإن الله له الغنى على الإطلاق فهو كما قال: ﴿غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

فإن قيل: إنّ المراد بالنسبة عين ذاته. قلنا: فالشيء لا يكون مفتقراً إلى نفسه فإنه غني لنفسه، فيكون الشيء الواحد فقيراً من حيث ما هو غني كل ذلك لنفسه وهو محال وقد نفينا الأمر الزائد، فاقتضى ذلك أن يكون وجود العالم من حيث ما هو موجود بغيره مرتبطاً بالواجب الوجود لنفسه وإن عين الممكن محل تأثير الواجب الوجود لنفسه بالإيجاد ولا يعقل إلاّ هكذا، فمشيئته وإرادته وعلمه وقدرته ذاته تعالىٰ الله أن يتكثر في ذاته ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤] بل له الوحدة المطلقة وهو الواحد الأحد ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٢، ٣] فيكون مقدّمة ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيكون نتيجة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٤] فيكون به وجود العالم نتيجة عن مقدمتين عن الحق والكفؤ تعالىٰ الله، وبهذا وصف نفسه سبحانه في كتابه لما سئل النبيّ ﷺ عن صفة ربه فنزلت سورة الإخلاص، تخلصت من الاشتراك مع غيره تعالىٰ الله في تلك النعوت المقدسة والأوصاف، فما من شيء نفاه في هذه السورة ولا أثبته إلاّ وذلك المنفيّ أو المثبت مقالة في الله لبعض الناس.

وبعد أن بينّا لك ما ينبغي أن يكون عليه من نحن مفتقرون إليه وهو الله سبحانه، فلنبين ما بوّبنا عليه. فاعلم أن نسبة الأزل إلى الله نسبة الزمان إلينا، ونسبة لأزل نعت سلبيّ لا عين له، فلا يكون عن هذه الحقيقة وجود، فيكون الزمان للممكن نسبة متوهمة الوجود لا

موجودة، لأن كلّ شيء تفرضه يصحّ عنه السؤال بمتى ومتى سؤال عن زمان، فلا بدّ أن يكون الزمان أمراً متوهماً لا وجوداً، ولهذا أطلقه الحق على نفسه في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٠] و﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [سورة الروم: الآية ٤] وفي السنّة تقرير قول السائل: أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ ولو كان الزمان أمراً وجودياً في نفسه ما صحّ تنزيه الحق عن التقييد، إذ كان حكم الزمان يقيده، فعرفنا أن هذه الصيغ ما تحتها أمر وجوديّ. ثم نقول: إن لفظة الزمان اختل الناس في معقولها ومدلولها، فالحكماء تطلقه بإزاء أمور مختلفة وأكثرهم على أنه مدّة متوهمة تقطعها حركات الأفلاك، والمتكلمون يطلقونه بإزاء أمر آخر وهو مقارنة حادث لحادث يسأل عنه بمتى والعرب تطلقه وتريد به الليل والنهار وهو مطلوبنا في هذا الباب، والليل والنهار فصلا اليوم، فمن طلوع الشمس إلى غروبها يسمّى نهاراً، ومن غروب الشمس إلى طلوعها يسمّى ليلاً، وهذه العين المفصلة تسمى يوماً، وأظهر هذا اليوم وجود الحركة الكبرى، وما في الوجود العينيّ إلاّ وجود المتحرّك لا غير وما هو عين الزمان، فرجع محصول ذلك إلى أن الزمان أمر متوهم لا حقيقة له.

وإذا تقرّر هذا فاليوم المعقول المقدر هو المعبر عنه بالزمان الموجود، وبه تظهر الجمعات والشهور والسنون والدهور وتسمّى أيام، وتقدّر بهذا اليوم الأصغر المعتاد الذي فصّله الليل والنهار، فالزمان المقدّر هو ما زاد على هذا اليوم الأصغر الذي تقدّر به سائر الأيام الكبار، فيقال: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة السجدة: الآية ٥] وقال: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [سورة المعارج: الآية ٤]. وقال عليه السلام في أيام الدجال: «**يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ**» فقد يكون هذا لشدة الهول فرفع الإشكال، ظاهر إتمام الحديث في قول عائشة: «**فَكَيفَ يُفعَلُ فِي الصَّلاةِ فِي ذٰلِكَ اليَوْم؟ قالَ: يقْدرُ لَهَا**» فلولا أنّ الأمر في حركات الأفلاك على ما هو عليه باق ما اختلّ ما صحّ أن يقدر لذلك بالساعات التي يعمل صورتها أهل هذا العلم، فيعلمون بها الأوقات في أيام الغيم إذ لا ظهور للشمس، فيكون في أول خروج الدجال تكثر الغيوم وتتوالى بحيث أن يستوي في رأي العين وجود الليل والنهار وهو من الأشكال الغريبة التي تحدث في آخر الزمان، فيحول ذلك الغيم المتراكم بيننا وبين السماء والحركات كما هي، فتظهر الحركات في الصنائع العملية التي عملها أهل صنعة العلماء بالهيئة ومجاري النجوم فيقدرون بها الليل والنهار وساعات الصلوات بلا شك، ولو كان ذلك اليوم الذي هو كسنة يوماً واحداً لم يلزمنا أن نقدر للصلوات، فإنا ننتظر زوال الشمس فما لم تزل لا نصلي الظهر المشروع، ولو أقامت لا تزول ما مقداره عشرون ألف سنة لم يكلفنا الله غير ذلك.

فلما قرّر الشارع العبادة بالتقدير عرفنا أن حركات الأفلاك على بابها لم يختل نظامها، فقد أعلمتك ما هو الزمان وما معنى نسبة الوجود إليه ونسبة التقدير، فالأيام كثيرة ومنها كبير وصغير، فأصغرها الزمن الفرد وعليه يخرج كل يوم هو في شأن، فسمّى الزمن الفرد يوماً لأن الشأن يحدث فيه فهو أصغر الأزمان وأدقّها ولا حدّ لأكبرها يوقف عنده وبينهما أيام متوسطة

أولها اليوم المعلوم في العرف وتفصله الساعات والساعات تفصلها الدرج والدرج تفصله الدقائق وهكذا إلى ما لا يتناهى عند بعض الناس. فإنهم يفصلون الدقائق إلى ثوان، فلما دخلها حكم العدد كان حكمها العدد والعدد لا يتناهى فالتفصيل في ذلك لا ينتهي، وبعض الناس يقولون بالتناهي في ذلك وينظرونه من حيث المعدود، وهم الذين يثبتون أن للزمان عيناً موجودة، وكل ما دخل في الوجود فهو متناه بلا شك، والمخالف يقول المعدود من كونه يعد ما دخل في الوجود فلا يوصف بالتناهي، فإن العدد لا يتصف بالتناهي، وبهذا يحتج منكر الجوهر الفرد، وأن الجسم ينقسم إلى ما لا نهاية له في العقل، وهي مسألة خلاف بين أهل النظر، حدثت من عدم الإنصاف والبحث عن مدلول الألفاظ، وقد ورد في الخبر الصحيح أن من أسماء الله الدهر ومعقولية الدهر معلومة نذكر ذلك إن شاء الله تعالىٰ في هذا الكتاب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء السابع والعشرون.

(الجزء الثامن والعشرون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الستون

في معرفة العناصر وسلطان العالم العلويّ على العالم السفليّ، وفي أي دورة كان وجود هذا العالم الإنسانيّ من دورات الفلك الأقصى وأية روحانية لنا

[نظم: الكامل]

إن الـعـنـاصـرَ أمّـهـاتٌ أربـعٌ ... وهـي الـبـنـاتُ لـعـالـم الأفـلاكِ
عـنـهـا تـولَّـدْنـا فـكـان وجـودُنـا ... فـي عـالـم الأركـان والأمـلاكِ
جـعـل الإلـهُ غـذاءنـا بـسـنـابـلٍ ... مـن حُـكْـم سـنـبـلـةٍ بـلا إشـراكِ
وكـذاك ضـاعـفَ أجـرنـا بـسـنـابـلٍ ... سـبـع بـقـولٍ لـيـس مـن أفَّـاكِ
وزمـانُـنـا سـبـعٌ مـن الآلاف جـا ... بـتَـكَـرُّرِ الأضـواءِ والأحْـلاكِ
فـانـظرْ بـعـقـلـك سـبعةٌ في سبعةٍ ... مـن سـبـعـةٍ لـيـسـوا مـن الأمـلاكِ
وانظرْ بفكرك في تَنَاسُب حُكْمِها ... واضـربْ بـسـيـفٍ صـارم بَـتَّـاكِ

أراد بالأملاك الأوّل من الملائكة جمع ملك، وأراد بالأملاك الثاني من الملوك جمع ملك، يقول: هم مسخرون والمسخر لا يستحق اسم الملك، والسبعة المذكورة هي السبعة الدراري في السبعة الأفلاك الموجودة من السبعة الأيام التي هي أيام الجمعة وهي للحركة التي فوق السموات وهي حركة اليوم للفلك الأقصى.

اعلم أن كل شيء من الأكوان لا بدّ أن يكون استناده إلى حقائق إلهية، فكل علم مدرج في العلم الإلهيّ ومنه تفرّعت العلوم كلها وهي منحصرة في أربع مراتب، وكل مرتبة تنقسم إلى أنواع معلومة محصورة عند العلماء وهو: العلم المنطقيّ، والعلم الرياضيّ، والعلم الطبيعيّ، والعلم الإلهيّ. والعالم يطلب من الحقائق الإلهية أربع نسب: الحياة والعلم

والإرادة والقدرة، إذا ثبتت هذه الأربع النسب للواجب الوجود صحّ أنه الموجد للعالم بلا شك، فالحياة والعلم أصلان في النسب والإرادة والقدرة دونهما، والأصل الحياة فإنها الشرط في وجود العلم، والعلم له عموم التعلّق فإنه يتعلق بالواجب الوجود وبالممكن وبالمحال، والإرادة دونه في التعلّق فإنه لا تعلّق لها إلاّ بالممكن في ترجيحه بإحدى الحالتين من الوجود والعدم، فكأن الإرادة تطلبها الحياة فهي كالمنفعلة عنها فإنها أعمّ تعلّقاً من القدرة والقدرة أخصّ تعلقاً فإنها تتعلق بإيجاد الممكن لا بإعدامه، فكأنها كالمنفعلة عن العلم لأنها من الإرادة بمنزلة العلم من الحياة، فلما تميزت المراتب في هذه النسب الإلهية تميز الفاعل عن المنفعل خرج العالم على هذه الصورة فاعلاً ومنفعلاً، فالعالم بالنسبة إلى الله من حيث الجملة منفعل محدث وبالنظر إلى نفسه فمنه فاعل ومنفعل، فأوجد الله سبحانه العقل الأول من نسبة الحياة، وأوجد النفس من نسبة العلم، فكان العقل شرطاً في وجود النفس، كالحياة شرط في وجود العلم، وكان المنفعلان عن العقل والنفس الهباء والجسم الكل، فهذه الأربعة أصل ظهور الصور في العالم.

غير أن بين النفس والهباء مرتبة الطبيعة وهي على أربع حقائق: منها اثنان فاعلان واثنان منفعلان وكلها في رتبة الانفعال بالنظر إلى من صدرت عنه، فكانت الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، فاليبوسة منفعلة عن الحرارة، والرطوبة منفعلة عن البرودة، فالحرارة من العقل والعقل عن الحياة، ولذلك طبع الحياة في الأجسام العنصرية الحرارة والبرودة من النفس والنفس من العلم، ولهذا يوصف العلم إذا استقر ببرد اليقين وبالثلج، ومنه قوله ﷺ حين وجد برد الأنامل بين ثدييه فعلم علم الأولين والآخرين. ولما انفعلت اليبوسة والرطوبة عن الحرارة والبرودة طلبت الإرادة اليبوسة لأنها في مرتبتها، وطلبت القدرة الرطوبة لأنها في مرتبتها، ولما كانت القدرة ما لها تعلق إلاّ بالإيجاد خاصة كان الأحق بها طبع الحياة وهي الحرارة والرطوبة في الأجسام، وظهرت الصور والأشكال في الهباء والجسم الكل فظهرت السماء والأرض مرتوقة غير متميزة.

ثم إن الله تعالىٰ توجّه إلى فتق هذا الرتق ليميز أعيانها وكان الأصل الماء في وجودها ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] ولحياته وصف بالتسبيح فنظم الله أولاً هذه الطبائع الأربع نظماً مخصوصاً فضم الحرارة إلى اليبوسة فكانت النار البسيطة المعقولة فظهر حكمها في جسم العرش الذي هو الفلك الأقصى، والجسم الكل في ثلاثة أماكن: منها المكان الواحد سمّاه حملاً، والمكان الثاني وهو الخامس من الأمكنة المقدرة فيه سمّاه أسداً، والمكان الثالث وهو التاسع من الأمكنة المقدرة فيه سمّاه قوساً، ثم ضمّ البرودة إلى اليبوسة وأظهر سلطانهما في ثلاثة أمكنة من هذا الفلك وهو التراب البسيط المعقول، فسمّى المكان الواحد ثوراً، والآخر سنبلة، والثالث جدْياً. ثم ضمّ الحرارة إلى الرطوبة فكان الهواء البسيط وأظهر حكمه في ثلاثة أمكنة من هذا الفلك الأقصى: سمّى المكان الواحد الجوزاء، والآخر الميزان، والثالث الدالي. ثم ضمّ البرودة إلى الرطوبة فكان

الماء البسيط وأظهر حكمه في ثلاثة أمكنة من الفلك الأقصى: سمّى المكان الواحد السرطان، وسمّى الآخر بالعقرب، وسمّى الثالث بالحوت، فهذا تقسيم فلك البروج على اثني عشر قسماً مفروضة تعينها الكواكب الثمانية والعشرون وذلك بتقدير العزيز العليم.

فلما أحكم صنعتها وترتيبها وأدارها فظهر الوجود مرتوقاً فأراد الحق فتقه ففصل بين السماء والأرض كما قال تعالىٰ: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] أي ميّز بعضها عن بعض، فأخذت السماء علواً دخاناً فحدث فيما بين السماء والأرض ركنان من المركبات: الركن الواحد الماء المركب ممّا يلي الأرض لأنه بارد رطب فلم يكن له قوّة الصعود فبقي على الأرض تمسكه بما فيها من اليبوسة عليها، والآخر النار وهي أكرة الأثير ممّا يلي السماء لأنه حار يابس فلم يكن له طبع النزول إلى الأرض فبقي ممّا يلي السماء من أجل حرارته واليبوسة تمسكه هناك، وحدث ما بين النار والماء ركن الهواء من حرارة النار ورطوبة الماء فلا يستطيع أن يلحق بالنار فإن ثقل الرطوبة يمنعه أن يكون بحيث النار وإن طلبت الرطوبة تنزله إلى أن يكون بحيث الماء تمنعه الحرارة من النزول، فلما تمانعا لم يبق إلاّ أن يكون بين الماء والنار لأنهما يتجاذبانه على السواء فذلك المسمّى هواء. فقد بان لك مراتب العناصر وماهيتها ومن أين ظهرت وأصل الطبيعة.

ولما دارت الأفلاك ومخضت الأركان بما حملته ممّا ألقت فيها في هذا النكاح المعنوي، وظهرت المولدات من كل ركن بحسب ما يقتضيه حقيقة ذلك الركن فظهرت أمم العالم وظهرت الحركة المنكوسة والحركة الأفقية، فلما انتهى الحكم إلى السنبلة ظهرت النشأة الإنسانية بتقدير العزيز العليم، فأنشأ الله عزّ وجلّ الإنسان من حيث جسمه خلقاً سوياً وأعطاه الحركة المستقيمة، وجعل الله لها من الولاية في العالم العنصري سبعة آلاف سنة، وينتقل الحكم إلى الميزان وهو زمان القيامة، وفيه يضع الله ﴿الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٤٧]. ولما لم يكن الحكم له بما أودع الله فيه من العدل في الدنيا شرع الموازين فلم يعمل بها إلاّ القليل من الناس وهم النبيون خاصة ومن كان محفوظاً من الأولياء. ولما كانت القيامة محل سلطان الميزان لم تظلم نفس شيئاً قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ يعني من العمل ﴿أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

ولما كان للعذراء السبعة من الأعداد كانت لها السبعة والسبعون والسبعمائة من الأعداد في تضاعف الأجور وضرب الأمثال في الصدقات فقال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦١] إلى سبعة آلاف، إلى سبعين ألفاً، إلى سبعمائة ألف، إلى ما لا نهاية له، ولكن من حساب السبعة. وإنما كانت الفروض المقدّرة في الفلك الأطلس اثني عشر فرضاً لأن منتهى أسماء العدد إلى اثني عشر اسماً وهو من الواحد إلى العشرة إلى المائة، وهو الحادي عشر إلى الألف، وهو الثاني عشر وليس وراءه مرتبة أخرى، ويكون التركيب فيها

بالتضعيف إلى ما لا نهاية له بهذه الأسماء خاصة، ويدخل الناس الجنة والنار وذلك في أول الحادية إحدى عشرة درجة من الجوزاء، وتستقرّ كل طائفة في دارها ولا يبقى في النار من يخرج بشفاعة ولا بعناية إلهية، ويذبح الموت بين الجنة والنار، ويرجع الحكم في أهل الجنة بحسب ما يعطيه الأمر الإلهيّ الذي أودع الله في حركات الفلك الأقصى، وبه يقع التكوين في الجنة بحسب ما تعطيه نشأة الدار الآخرة فإنّ الحكم أبداً في القوابل، فإن الحركة واحدة وآثارها تختلف بحسب القوابل، وسبب ذلك حتى لا يستقل أحد من الخلق بفعل ولا بأمر دون مشاركة فيتميّز بذلك فعل الله الذي يفعل لا بمشاركة من فعل المخلوق، فالمخلوق أبداً في محل الافتقار والعجز والله الغنيّ العزيز.

ويكون الحكم في أهل النار بحسب ما يعطيه الأمر الإلهيّ، الذي أودعه الله تعالىٰ في حركات الفلك الأقصى، وفي الكواكب الثابتة، وفي سباحة الدراريّ السبعة المطموسة الأنوار فهي كواكب لكنها ليست بثواقب، فالحكم في النار خلاف الحكم في الجنة، فيقرب حكم النار من حكم الدنيا، فليس بعذاب خالص ولا بنعيم خالص، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٧٤] فلم يخلصه إلى أحد الوجهين، وكذلك قال ﷺ: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لاَ يَمُوتُونَ فِيهَا وَلاَ يَحْيَوْنَ**».

وقد قدّمنا في الباب الذي قبل هذا صورة النعيم والعذاب، وسبب ذلك أنه بقي ما أودع الله عليهم في الأفلاك وحركات الكواكب من الأمر الإلهيّ، وتغيّر منه على قدر ما تغيّر من صور الأفلاك بالتبديل، ومن الكواكب بالطمس والانتثار، فاختلف حكمها بزيادة ونقص لأن التغيير وقع في الصور لا في الذوات.

واعلم أن الله تعالىٰ لما تسمّى بالملك رتّب العالم ترتيب المملكة، فجعل له خواص من عباده وهم الملائكة المهيمة جلساء الحق تعالىٰ بالذكر ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٩] ثم اتخذ حاجباً من الكروبيين واحداً أعطاه علمه في خلقه وهو علم مفصل في إجمال فعلمه سبحانه كان فيه مجلى له وسمّى ذلك الملك نوناً فلا يزال معتكفاً في حضرة علمه عزّ وجلّ وهو رأس الديوان الإلهيّ والحق من كونه عليماً لا يحتجب عنه. ثم عيّن من ملائكته ملكاً آخر دونه في المرتبة سمّاه القلم وجعل منزلته دون النون واتخذه كاتباً فيعلمه الله سبحانه من علمه ما شاءه في خلقه بوساطة النون ولكن من العلم الإجماليّ. وممّا يحوي عليه العلم الإجماليّ علم التفصيل وهو من بعض علوم الإجمال لأن العلوم لها مراتب من جملتها علم التفصيل، فما عند القلم الإلهيّ من مراتب العلوم المجملة إلاّ علم التفصيل مطلقاً وبعض العلوم المفصلة لا غير، واتخذ هذا الملك كاتب ديوانه وتجلّى له من اسمه القادر فأمده من هذا التجلي الإلهي وجعل نظره إلى جهة عالم التدوين والتسطير فخلق له لوحاً وأمره أن يكتب فيه جميع ما شاء سبحانه أن يجريه في خلقه إلى يوم القيامة خاصة وأنزله منه منزلة التلميذ من الأستاذ، فتوجهت عليه هنا الإرادة الإلهية فخصصت له هذا القدر من العلوم المفصلة، وله تجليان من الحق بلا

واسطة، وليس للنون سوى تجلّ واحد في مقام أشرف، فإنه لا يدلّ تعدّد التجليات ولا كثرتها على الأشرفية وإنما الأشرف من له المقام الأعم، فأمر الله النون أن يمدّ القلم بثلاثمائة وستين علماً من علوم الإجمال تحت كل علم تفاصيل ولكن معينة منحصرة لم يعطه غيرها، يتضمن كل علم إجمالي من تلك العلوم ثلاثمائة وستين علماً من علوم التفصيل، فإذا ضربت ثلاثمائة وستين في مثلها فما خرج لك فهو مقدار علم الله تعالىٰ في خلقه إلى يوم القيامة خاصة، ليس عند اللوح من العلم الذي كتبه فيه هذا القلم أكثر من هذا لا يزيد ولا ينقص.

ولهذه الحقيقة الإلٰهية جعل الله الفلك الأقصى ثلاثمائة وستين درجة، وكل درجة مجملة لما تحوي عليه من تفصيل الدقائق والثواني والثوالث إلى ما شاء الله سبحانه ممّا يظهره في خلقه إلى يوم القيامة، وسمّى هذا القلم الكاتب، ثم إن الله سبحانه وتعالىٰ أمر أن يولى على عالم الخلق اثني عشر والياً يكون مقرّهم في الفلك الأقصى منافي بروج، فقسم الفلك الأقصى اثني عشر قسماً جعل كل قسم منها برجاً لسكنى هؤلاء الولاة مثل أبراج سور المدينة فأنزلهم الله إليها فنزلوا فيها كل وال على تخت في برجه، ورفع الله الحجاب الذي بينهم وبين اللوح المحفوظ فرأوا فيه مسطراً أسماءهم ومراتبهم وما شاء الحق أن يجريه على أيديهم في عالم الخلق إلى يوم القيامة، فارتقم ذلك كله في نفوسهم وعلّموه علماً محفوظاً لا يتبدّل ولا يتغيّر، ثم جعل الله لكل واحد من هؤلاء الولاة حاجبين ينفذان أوامرهم إلى نوابهم، وجعل بين كل حاجبين سفيراً يمشي بينهما بما يلقي إليه كل واحد منهما، وعيّن الله لهؤلاء الذين جعلهم الله حجاباً لهؤلاء الولاة في الفلك الثاني منازل يسكنونها وأنزلهم إليها وهي الثمانية والعشرون منزلة التي تسمى المنازل التي ذكرها الله في كتابه فقال: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٩] يعني في سيره ينزل كل ليلة منزلة منها إلى أن ينتهي إلى آخرها، ثم يدور دورة أخرى لتعلموا بسيره، وسير الشمس فيها والخنس عدد السنين والحساب، وكل شيء فصّله الحق لنا تفصيلاً، فأسكن في هذه المنازل هذه الملائكة وهم حجاب أولئك الولاة الذين في الفلك الأقصى.

ثم إن الله تعالىٰ أمر هؤلاء الولاة أن يجعلوا نوّاباً لهم ونقباء في السموات السبع في كل سماء نقيباً كالحاجب لهم ينظر في مصالح العالم العنصريّ بما يلقون إليهم هؤلاء الولاة ويأمرونهم به وهو قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] فجعل الله أجسام هذه الكواكب النقباء أجساماً نيرة مستديرة ونفخ فيها أرواحها، وأنزلها في السموات السبع في كل سماء واحد منهم وقال لهم: قد جعلتكم تستخرجون ما عند هؤلاء الاثني عشر والياً بوساطة الحجاب الذين هم ثمانية وعشرون، كما يأخذ أولئك الولاة عن اللوح المحفوظ، ثم جعل الله لكل نقيب من هؤلاء السبعة النقباء فلكاً يسبح فيه هو له كالجواد للراكب، وهكذا الحجاب لهم أفلاك يسبحون فيها إذ كان لهم التصرّف في حوادث العالم والاستشراف عليه، ولهم سدنة وأعوان يزيدون على الألف، وأعطاهم الله مراكب سمّاها أفلاكاً فهم أيضاً يسبحون فيها وهي تدور بهم على المملكة في كل يوم مرة فلا يفوتهم من المملكة شيء أصلاً

من ملك السموات والأرض، فيدور الولاة وهؤلاء الحجاب والنقباء والسدنة كلهم في خدمة هؤلاء الولاة، والكل مسخّرون في حقّنا إذ كنّا المقصود من العالم، قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [سورة الجاثية: الآية ١٣].

وأنزل الله في التوراة: يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي. وهكذا ينبغي أن يكون الملك يستشرف كل يوم على أحوال أهل ملكه يقول تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] لأنه ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] بلسان حال ولسان مقال ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ حفظ العالم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] فما له شغل إلاَّ بها، يقول تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة السجدة: الآية ٥] ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] ولولا وجود الملك لما سمّي الملك ملكاً، فحفظه لملكه حفظه لبقاء اسم الملك عليه وإن كان كما قال: و ﴿ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] فما جاء باسم الملك فإن أسماء الإضافة لا تكون إلاَّ بالمضاف، فكل سلطان لا ينظر في أحوال رعيته ولا يمشي بالعدل فيهم ولا يعاملهم بالإحسان الذي يليق بهم فقد عزل نفسه في نفس الأمر.

ويقول الفقهاء إن الحاكم إذا فسق أو جار فقد انعزل شرعاً، ولكن عندنا انعزل شرعاً فيما فسق فيه خاصة لأنه ما حكم بما شرع له أن يحكم به فقد أثبتهم رسول الله ﷺ ولاة مع جورهم فقال عليه الصلاة والسلام: «**فَإِنْ عَدَلُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ وَإِنْ جَارُوا فَلَكُمْ وَعَلَيهِمْ**» ونهى أن نخرج يداً من طاعة، وما خصّ بذلك والياً من وال، فلذلك زدنا في عزله شرعاً إنما ذلك فيما فسق فيه، فالملك مأمور أن يحفظ نفسه من الخروج ممّا حدّ له من الأحكام في رعاياه وفي نفسه فإنه وال على نفسه: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**» فالإنسان راع على نفسه فما زاد ولذلك قال ﷺ: «**إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلِعَيْنِكَ عَلَيكَ حَقّاً**» الحديث، فمن لم يف لمن بايعه بما بايعه عليه فقد عزل نفسه وليس بملك وإن كان حاكماً، فما كل حاكم يكون سلطاناً، فإن السلطان من تكون له الحجة لا عليه، ولهذا جعل الله الأفلاك تدور علينا كل يوم دورة لتنظر الولاة ما تدعو حاجة الخلق إليهم فيسدّون الخلل وينفذون أحكام الله تعالىٰ من كونه مريداً في خلقه لا من كونه آمراً، فينفذون أحكامه التي أمرهم سبحانه أن ينفذوها فيهم وهو القضاء والقدر في أزمان مختلفة، فكل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس، وكل صغير وكبير مستطر في اللوح المحفوظ، فما فيه إلاَّ ما يقع، ولا ينفذ هؤلاء الولاة في العالم إلاَّ ما فيه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٢] ومع هذا كله فإن الله له مع كل واحد من المملكة أمر خاص في نفسه يعلمه الولاة والحجاب والنقباء فهم لا يفقدون مشاهدة ذلك الوجه ذلك ليعلموا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] وأنه رقيب ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٣] و﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٤].

ولما جعل الله زمان هذه الأمور بأيدي هؤلاء الجماعة من الملائكة وأقعد من أقعد منهم في برجه ومسكنه الذي فيه تخت ملكه، وأنزل من أنزل من الحجاب والنقباء إلى منازلهم في

سمواتهم، وجعل في كل سماء ملائكة مسخرة تحت أيدي هؤلاء الولاة، وجعل تسخيرهم على طبقات: فمنهم أهل العروج بالليل والنهار من الحق إلينا ومنا إلى الحق في كل صباح ومساء وما يقولون إلاّ خيراً في حقنا. ومنهم المستغفرون لمن في الأرض. ومنهم المستغفرون للمؤمنين لغلبة الغيرة الإلٰهية عليهم كما غلبت الرحمة على المستغفرين لمن في الأرض. ومنهم الموكلون بالإلهام وهم الموصلون العلوم إلى القلوب. ومنهم الموكلون بالأرحام. ومنهم الموكلون بتصوير ما يكوّن الله في الأرحام. ومنهم الموكلون بنفخ الأرواح. ومنهم الموكلون بالأرزاق. ومنهم الموكلون بالأمطار ولذلك قالوا: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٦٤].

وما من حادث يحدث الله في العالم إلاّ وقد وكّل الله بإجرائه ملائكة ولكن بأمر هؤلاء الولاة من الملائكة، كما منهم أيضاً: الصافات، والزاجرات، والتاليات، والمقسمات، والمرسلات، والناشرات، والنازعات، والناشطات، والسابقات، والسابحات، والملقيات، والمدبرات. ومع هذا فما يزالون تحت سلطان هؤلاء الولاة إلاّ الأرواح المهيمة فهم خصائص الله، ومن دونهم فإنهم ينفذون أوامر الله في خلقه. ثم إن العامة ما تشاهد إلاّ منازلهم، والخاصة يشهدونهم في منازلهم، كما أيضاً تشاهد العامة أجرام الكواكب ولا تشاهد أعيان الحجاب ولا النقباء.

وجعل الله في العالم العنصريّ خلقاً من جنسهم، فمنهم الرسل والخلفاء والسلاطين والملوك وولاة أمور العالم. وجعل الله بين أرواح هؤلاء الذي جعلهم الله ولاة في الأرض من أهلها بينهم وبين هؤلاء الولاة في الأفلاك مناسبات ورقائق تمتدّ إليهم من هؤلاء الولاة بالعدل، مطهرة من الشوائب مقدسة عن العيوب، فتقبل أرواح هؤلاء الولاة الأرضيين منهم بحسب استعداداتهم، فمن كان استعداده قوياً حسناً قبل ذلك الأمر على صورته طاهراً مطهراً، فكان والي عدل وإمام فضل، ومن كان استعداده رديئاً قبل ذلك الأمر الظاهر وردّه إلى شكله من الرداءة والقبح فكان والي جور ونائب ظلم وبخل فلا يلومنّ إلاّ نفسه.

فقد أبنت لك سلطنة العالم العلويّ على العالم السفليّ، وكيف رتّب الله ملكه هذا الترتيب العجيب، وما ذكرنا من ذلك إلاّ الأمهات لا غير، يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ وقال: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢]. ويكفي هذا القدر من هذا الباب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وفي كتاب التنزلات الموصلية ذكرنا حديث هؤلاء الولاة والنوّاب والحجاب وما ولاّهم الله عليه من التأثير في العالم العنصريّ الروحاني من ذلك ما تعرضنا لما تعطيه من الطبيعة والأمور البدنية، وتكلمنا فيها على ما ذكرناه مفصلاً في باب يوم الأحد وهو باب الإمام، وبيّنا ما بيد كل نائب من السبعة النقباء في باب يوم الأحد وسائر الأيام إلى يوم السبت، وبيّنا مقامات أرواح الأنبياء عليهم السلام في ذلك، وجعلنا هذه الألقاب الروحانية لأرواح الأنبياء عليهم السلام، وبيّنا مراتبهم في الرؤية والحجاب يوم القيامة، وما يتكلمون به في أتباعهم من

أهل السعادة والشقاء وذلك منه في باب يوم الاثنين بلسان آدم وترجمة القمر، وجاء بديعاً في شأنه، والله المؤيد والموفق لا رب غيره.

الباب الحادي والستون
في معرفة جهنم وأعظم المخلوقات فيها عذاباً ومعرفة بعض العالم العلوي

[نظم: الكامل]

إن السماءَ تعودُ رَتْقاً مثل ما ... كانت وأنجمُها يزول ضياؤُهَا
هذا ليُنصفك المقيمُ بأرضها ... وعليه قام عمادُها وبناؤهَا
فأَشَدُّ خلق الله آلاماً بها ... من كان منها خَلْقُه فسماؤهَا
تكسوه حلَّةَ ناره من نورها ... فلذاك يَعْظُم في النفوس بلاؤهَا

اعلم عصمنا الله وإياك أن جهنم من أعظم المخلوقات وهي سجن الله في الآخرة يسجن فيه المعطلة والمشركون وهي لهاتين الطائفتين دار مقامة، والكافرون والمنافقون وأهل الكبائر من المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨] ثم يخرج بالشفاعة ممّن ذكرنا وبالامتنان الإلهيّ من جاء النص الإلهي فيه، وسمّيت جهنم لبعد قعرها، يقال: بئر جهنام إذا كانت بعيدة القعر وهي تحوي على حرور وزمهرير، ففيها البرد على أقصى درجاته، والحرور على أقصى درجاته، وبين أعلاها وقعرها خمس وسبعون مائة من السنين.

واختلف الناس في خلقها هل خلقت بعد أم لم تخلق؟ والخلاف مشهور فيها، وكل واحد من الطائفتين يحتج فيما ذهب إليه بما يراه حجة عنده، وكذلك اختلفوا في الجنة، وأما عندنا وعند أصحابنا أهل الكشف والتعريف فهما مخلوقتان غير مخلوقتين، فأما قولنا مخلوقة فكرجل أراد أن يبني داراً فأقام حيطانها كلها الحاوية عليها خاصة فيقال: قد بنى داراً فإذا دخلها لم ير إلاّ سوراً دائراً على فضاء وساحة، ثم بعد ذلك ينشىء بيوتها على أغراض الساكنين فيها من بيوت وغرف وسراديب ومهالك ومخازن، وما ينبغي أن يكون فيها ممّا يريده الساكن أن يجعل فيها من الآلات التي تستعمل في عذاب الداخل فيها وهي دار حرورها هواء محترق لا جمر لها سوى بني آدم والأحجار المتخذة آلهة والجنّ لهبها. قال تعالىٰ: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤] وقال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٩٨] وقال تعالىٰ: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٩٤، ٩٥].

وتحدث فيها الآلات بحدوث أعمال الجنّ والإنس الذين يدخلونها، وأوجدها الله بطالع الثور ولذلك كان خلقها في الصورة صورة الجاموس سواء، هذا الذي يعوّل عليه عندنا، وبهذه الصورة رآها أبو الحكم بن برجان في كشفه، وقد تمثل لبعض الناس من أهل الكشف في صورة حية فيتخيل أن تلك الصورة هي التي خلقها الله عليها كأبي القاسم بن قسي

وأمثاله. ولما خلقها الله تعالىٰ كان زحل في الثور وكانت الشمس والأحمر في القوس وكان سائر الدراري في الجدي، وخلقها الله تعالىٰ من تجلي قوله في حديث مسلم: «**جِعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، وَظَمِئْتُ فَلَمْ تَسْقِنِي، ومَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي**». وهذا أعظم نزول نزله الحق إلى عباده في اللطف بهم، فمن هذه الحقيقة خلقت جهنم أعاذنا الله وإياكم منها، فلذلك تجبرت على الجبابرة، وقصمت المتكبرين، وجميع ما يخلق فيها من الآلام التي يجدها الداخلون فيها.

فمن صفة الغضب الإلهيّ ولا يكون ذلك إلاَّ عند دخول الخلق فيها من الجنّ والإنس متى دخلوها، وأما إذا لم يكن فيها أحد من أهلها فلا ألم فيها في نفسها ولا في نفس ملائكتها، بل هي ومن فيها من زبانيتها في رحمة الله منغمسون ملتذون ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٠] يقول تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٨١] أي ينزل بكم غضبي فأضاف الغضب إليه، وإذا نزل بهم كانوا محلاً له، وجهنم إنما هي مكان لهم وهم النازلون فيها وهم محل الغضب وهو النازل بهم، فإن الغضب هنا هو عين الألم، فمن لا معرفة له ممّن يدعي طريقتنا ويريد أن يأخذ الأمر بالتمثيل والقوّة والمناسبة في الصفات فيقول: إن جهنم مخلوقة من القهر الإلهيّ، وإن الاسم القاهر هو ربها والمتجلي لها، ولو كان الأمر كما قاله لشغلها ذلك بنفسها عمّا وجدت له من التسلّط على الجبابرة ولم يتمكن لها أن تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [سورة ق: الآية ٣٠] ولا أن تقول: أكل بعضي بعضاً. فنزول الحق برحمته إليها التي وسعت كل شيء، وحنانه وسع لها المجال في الدعوى والتسلّط على من تجبّر على من أحسن إليها هذا الإحسان وجميع ما تفعله بالكفار من باب شكر المنعم حيث أنعم عليها فما تعرف منه سبحانه إلاَّ النعمة المطلقة التي لا يشوبها ما يقابلها، فالناس غالطون في شأن خلقها.

ومن أعجب ما روينا عن رسول الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ كان قاعداً مع أصحابه في المسجد فسمعوا هدة عظيمة فارتاعوا فقال رسول الله ﷺ: «**أتعرفُونَ مَا هٰذِهِ الهدَّةُ؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**حَجَرٌ أُلْقِيَ مِنْ أَعْلَى جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً الآنَ وَصَلَ إِلَى قَعْرِهَا فَكَانَ وُصُولُهُ إِلَى قَعْرِهَا وَسُقُوطُهُ فِيهَا هٰذِهِ الهِدَّة**» فما فرغ من كلامه ﷺ إلاَّ والصراخ في دار منافق من المنافقين قد مات وكان عمره سبعين سنة فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُ أَكْبَرُ**» فعلم علماء الصحابة أن هذا الحجر هو ذاك المنافق وأنه منذ خلقه الله يهوي في نار جهنم وبلغ عمره سبعين سنة فلما مات حصل في قعرها. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٥] فكان سماعهم تلك الهدة التي أسمعهم الله ليعتبروا. فانظر ما أعجب كلام النبوّة وما ألطف تعريفه، وما أحسن إشارته، وما أعذب كلامه ﷺ.

ولقد سألت الله أن يمثل لي من شأنها ما شاء فمثل لي حالة خصامهم فيها وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [سورة ص: الآية ٦٤] وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الشعراء: ٩٦، ٩٧] لضلالهم وآلهتهم ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٩٨، ٩٩] وهم أهل النار الذين هم أهلها الذين

يقول الله فيهم: ﴿وَامْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٥٩] يريد بالمجرمين أهل النار الذين يعمرونها ولا يخرجون منها، يمتازون عن الذين يخرجون منها بشفاعة الشافعين وسابق العناية الإلهية في الموحدين، فهذا مثل لي في وقت منها فما شبهت خصامهم فيها إلاَّ كخصام أصحاب الخلاف في مناظرتهم إذا استدل أحدهم فإذا رأيت ذلك تذكرت الحالة التي أطلعني الله عليها، ورأيت الرحمة كلها في التسليم والتلقي من النبوّة والوقوف عند الكتاب والسنّة.

ولقد عمي الناس عن قوله ﷺ **«عند نبيّ لا ينبغي تنازع»** وحضور حديثه ﷺ كحضوره لا ينبغي أن يكون عند إيراده تنازع ولا يرفع السامع صوته عند سرد الحديث النبويّ فإن الله يقول: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [سورة الحجرات: الآية ٢] ولا فرق عند أهل الله بين صوت النبي أو حكاية قوله، فما لنا إلاَّ التهيؤ لقبول ما يرد به المحدث من كلام النبوّة من غير جدال، سواء كان ذلك الحديث جواباً عن سؤال أو ابتداء كلام، فالوقوف عند كلامه في المسألة أو في النازلة واجب، فمتى ما قيل قال الله أو قال رسول الله ﷺ ينبغي أن يقبل ويتأدّب السامع ولا يرفع صوته على صوت المحدّث إذا قال ما قال الله أو سرد الحديث عن رسول الله ﷺ، يقول الله تعالىٰ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] وما تلاه إلاَّ رسول الله ﷺ وما سمعه السامع إلاَّ منه، ثم إذا شاركه السمع في حال كلامه فهو ليس بسامع، فإنه من الآداب التي أدّب الله نبيه ﷺ قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] والله يقول: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ وتوعد على ذلك بحبط العمل من حيث لا يشعر الإنسان، فإنه يتخيل في ردّه وخصامه أنه يذب عن دين الله وهذا من مكر الله الذي قال فيه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٢] وقال: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٥٠]. فالعاقل المؤمن الناصح نفسه إذا سمع من يقول: قال الله تعالىٰ، أو قال رسول الله ﷺ فلينصت، ويصغ، ويتأدّب، ويتفهم ما قال الله أو ما قال رسوله ﷺ، يقول الله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٤] فأوقع الترجي مع هذه الصفة وما قطع بالرحمة فكيف حال من خاصم ورفع صوته وداخل التالي وسارد الحديث النبويّ في الكلام، وأرجو أن يكون الترجي الإلهيّ واجباً كما يراه العلماء.

ولما عاينت هذا المحل رأيت عجباً، وفي هذه الرؤية رأيت اعتماد الماء على الهواء وهو من أعجب الأشياء في عمارة الأحياز وأن جوهرين لا يكونان في حيّز واحد وأن الحيّز لن يشغله، وفي هذه الرؤية علمت إبطال التوالد وأن المحرك للأشياء هو الله تعالىٰ، وأن السبب لا أثر له في الفعل جملة واحدة، وفي هذه الرؤية علمت أن الألطف أقوى من الأكثف، فإنّ الهواء ألطف من الماء بلا شك وقد منعه ولم يقاومه الماء في القوّة ومنعه من النزول، فإني رأيت نفسي في الهواء والماء فوقي ويمنعه الهواء من النزول إلى الأرض، وفي هذه الرؤية علمت علوماً جمة كثيرة، وفي هذه الرؤية رأيت من دركات أهل النار من كونها جهنم لا من كونها ناراً ما شاء الله أن يطلعني منها، ورأيت فيها موضعاً يسمّى المظلمة نزلت في درجة نحو خمسة أدراج ورأيت

مهالكها ثم زجّ بي في الماء علواً فاخترقته وقد رأيت عجباً وعلمت في أحوال مخاصمتهم حيث يختصمون في الجحيم، وأن ذلك الخصام هو نفس عذابهم في تلك الحال، وأن عذابهم في جهنم ما هو من جهنم وإنما جهنم دار سكناهم وسجنهم والله يخلق الآلام فيهم متى شاء، فعذابهم من الله وهم محل له، وخلق الله لجهنم سبعة أبواب لكل باب جزء من العالم ومن العذاب مقسوم، وهذه الأبواب السبعة مفتحة وفيها باب ثامن مغلق لا يفتح وهو باب الحجاب عن رؤية الله تعالىٰ، وعلى كل باب ملك من الملائكة ملائكة السموات السبع عرفت أسماءهم هنالك وذهبت عن حفظي إلاّ إسماعيل فهو بقي على ذكري.

وأمّا الكواكب كلها فهي في جهنم مظلمة الأجرام عظيمة الخلق، وكذلك الشمس والقمر والطلوع والغروب لهما في جهنم دائماً، فشمسها شارقة لا مشرقة، والتكوينات عن سيرها بحسب ما يليق بتلك الدار من الكائنات وما تغير فيها من الصور في التبديل والانتثار ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [سورة غافر: الآية ٤٦] والحالة مستمرة، ففي البرزخ يكون العرض، وفي الدار الآخرة يكون الدخول، فذوات الكواكب فيها صورتها صورة الكسوف عندنا سواء، غير أن وزن تلك الحركات في تلك الدار خلاف ميزانها اليوم، فإن كسوفها ما ينجلي وهو كسوف في ذاتها لا في أعيننا، والهواء فيها فيه تطفيف فيحول بين الأبصار وبين إدراك الأنوار كلها، فتبصر الأعين الكواكب المنتثرة غير نيرة الأجرام كما يعلم قطعاً أن الشمس هنا في ذاتها نيرة، وأن الحجاب القمري هو الذي منع البصر أن يدركها أو يدرك نور القمر أو ما كان مكسوفاً، ولهذا في زمان كسوف شيء منها في موضع يكون في موضع آخر أكثر من ذلك، وفي موضع آخر لا يكون منه شيء، فلما اختلفت الأبصار في إدراك ذلك لاختلاف الأماكن علمنا قطعاً أن ثم أمراً عارضاً عرض في الطريق حال بين البصر وبينها، أو بين نورها كالقمر يحول بينك وبين إدراك جرم الشمس، وظل الأرض يحول بينك وبين نور القمر لا بينك وبين جرمه مثل ما حال القمر بينك وبين جرم الشمس، وذلك بحسب ما يكون منك ويكون منه، وهكذا سائر الكواكب ولكن أكثر الناس لا يعلمون، كما أن أكثر الناس لا يؤمنون.

فإن ذلك الكسوف كله على اختلاف أنواعه خشوع من المكسوف عن تجلٍّ إلهيّ حصل له وحدّ جهنم بعد الفراغ من الحساب ودخول أهل الجنة الجنة من مقعر فلك الكواكب الثابتة إلى أسفل سافلين، فهذا كله يزيد في جهنم ممّا هو الآن ليس مخلوقاً فيها، ولكن ذلك معدّ حتى يظهر، إلاّ الأماكن التي قد عيّنها الله من الأرض فإنها ترجع إلى الجنة يوم القيامة مثل الروضة التي بين منبر رسول الله ﷺ وبين قبره ﷺ، وكل مكان عيّنه الشارع وكل نهر فإن ذلك كله يصير إلى الجنة، وما بقي فيعود ناراً كله وهو من جهنم، ولهذا كان يقول عبد الله بن عمر إذا رأى البحر يقول: يا بحر متى تعود ناراً وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [سورة التكوير: الآية ٦] أي أجّجت ناراً من سجرت التنور إذا أوقدته وكان ابن عمر يكره الوضوء بماء البحر ويقول: التيمّم أعجب إليّ منه ولو كشف الله عن أبصار الخلق اليوم لرأوه يتأجج

ناراً، ولكن الله يظهر ما يشاء ويخفي ما يشاء ليعلم أن الله على كل شيء قدير ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢].

وأكثر ما يجري هذا لأهل الورع، فيرى الطعام الحرام صاحب الورع المحفوظ خنزيراً أو عذرة والشراب خمراً لا يشك فيما يراه ويراه جليسه قرصة خبز طيبة ويرى الشراب ماء عذباً، فيا ليت شعري من هو صاحب الحسّ الصحيح من صاحب الخيال؟ هل الذي أدرك الحكم الشرعيّ صورة؟ أو هل الذي أدرك المحسوس في العادة على حاله؟ وهذا ممّا يقوي مذهب المعتزلة في أن القبيح قبيح لنفسه والحسن حسن لنفسه، وأن الإدراك الصحيح إنما هو لمن أدرك الشراب الحرام خمراً، فلولا أنه قبيح لنفسه ما صحّ هذا الكشف لصاحبه، ولو كان فعله عين تعلّق الخطاب بالحرمة والقبح ما ظهر ذلك الطعام خنزيراً، فإن الفعل ما وقع من المكلف، فإن الله أظهر له صورته وأنه قبيح حتى لا يقدم على أكله وهذا بعينه يتصوّر فيمن يدركه طعاماً على حاله في العادة ولكن هذا أحق في الشرع، فعلم قطعاً أن الذي يراه طعاماً على عادته قد حيل بينه وبين حقيقة حكم الشرع فيه بالقبح، ولو كان الشيء قبيحاً بالقبح الوضعيّ لم يصدق قول الشارع في الإخبار عنه أنه قبيح أو حسن، فإنه خبر بالشيء على خلاف ما هو عليه، فإن الأحكام أخبار بلا شك عند كل عاقل عارف بالكلام، فإن الله أخبرنا أن هذا حرام وهذا حلال، ولذا قال تعالىٰ في ذم من قال عن الله ما لم يقل: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [سورة النحل: الآية ١١٦] فإنه ألحق الحكم بالخبر لأنه خبر بلا شك، إلاّ أنه ليس في قوّة البشر في أكثر الأشياء إدراك قبح الأشياء ولا حسنها، فإذا عرّفنا الحق بها عرفناها، ومنها ما يدرك قبحه عقلاً في عرفنا مثل الكذب وكفر المنعم، وحسنه عقلاً مثل الصدق وشكر المنعم، وكون الإثم يتعلق ببعض أنواع الصدق والأجر يتعلق ببعض أنواع الكذب فذلك لله يعطي الأجر على ما شاءه من قبح وحسن. ولا يدل ذلك على حسن الشيء ولا قبحه كالكذب في نجاة مؤمن من هلاك يؤجر عليه الإنسان، وإن كان الكذب قبيحاً في ذاته والصدق كالغيبة يأثم بها الإنسان، وإن كان الصدق حسناً في ذاته فذاك أمر شرعيّ يعطي فضله من شاء ويمنعه من شاء كما قال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٥].

واعلم أن أشد الخلق عذاباً في النار إبليس الذي سنّ الشرك وكل مخالفة، وسبب ذلك أنه مخلوق من النار فعذابه بما خلق منه، ألا ترى النفس به تكون حياة الجسم الحساس فإذا منع بالشنق أو الخنق خروج ذلك النفس العكس راجعاً إلى القلب فأحرقه من ساعته فهلك لحينه، فبالنفس كانت حياته وبه كان هلاكه، وهلاكه على الحقيقة بالنفس من كونه متنفساً لا من كونه ذا نفس، ولا من كونه متنفساً فقط بل من كونه يجذب بالقوّة الجاذبة نفس الهواء البارد إلى قلبه ويخرج بالقوّة الدافعة النفس الحار المحرق من قلبه، فسبب هذه الأحوال بها تكون حياته، فإن الذي يرمى في النار هو متنفس، ولكن لا يخلو من أحد الوجهين: إمّا أنه لا يتنفس في النار فتكون حالته حالة المشنوق الذي يخنق بالحبل فيقتله نفسه. وإمّا أن يتنفس فيجذب بالقوّة

الجاذبة هواء نارياً محرقاً إذا وصل إلى قلبه أحرقه، فلهذا قلنا في سبب الحياة هذه الأمور كلها، فعذاب إبليس في جهنم بما فيها من الزمهرير فإنه يقابل النار الذي هو أصل نشأة إبليس فيكون عذابه بالزمهرير، وبما هو نار مركبة فيه من ركن الهواء والماء والتراب فلا بدّ أن يتعذب بالنار على قدر مخصوص، وعامّة عذابه بما يناقض ما هو الغالب عليه في أصل خلقه، والنار ناران: نار حسيّة وهي المسلطة على إحساسه وحيوانيته وظاهر جسمه وباطنه، ونار معنوية وهي التي تطلع على الأفئدة وبها يتعذب روح المدبر لهيكله الذي أمر فعصى، فمخالفته عذبته وهي عين جهله بمن استكبر عليه، فلا عذاب على الأرواح أشدّ من الجهل فإنه غبن كله ولهذا سمّي يوم التغابن يريد يوم عذاب النفوس فيقول: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٥٦] وهو يوم الحسرة، يقول يوم الكشف من حسرت عن الشيء إذا كشفت عنه فكأنه يقول: يا ليتني حسرت عن هذا الأمر في الدنيا فأكون على بصيرة من أمري فيغتبن في نفسه والتغابن يدرك في ذلك اليوم الكل الطائع والعاصي، فالطائع يقول: يا ليتني بذلت جهدي ووفيت حق استطاعتي وتدبرت كلام ربي فعملت بمقتضاه مع كونه سعيداً. والمخالف يقول: يا ليتني لم أخالف ربي فيما أمرني به ونهاني فذلك يوم التغابن. وسيأتي هذا في باب يوم القيامة إن شاء الله.

ولما أعلمناك بمرتبة النفس والتنفس إنما جئنا به لتعلم أن جهنم لما اختص بآلام أهلها صفة الغضب الإلهيّ واختص بوجودها التنزّل الرحمانيّ الإلهيّ، وجاء في الخبر الصحيح نفس الرحمن مشعراً بصفة الغضب فكان التنفّس ملحقاً صفة الغضب بمن حلّ به، ولهذا لما أتى نفس الرحمن من قبل اليمن حلّ الغضب الإلهيّ بالكفار بالقتل والسيف الذي أوقعت بهم الأنصار، فنفس الله بذلك عن دينه ونبيه ﷺ، فإن ذا الغضب إذا وجد على من يرسل غضبه تنفس عنه ما يجده من ألم الغضب وأكمل الصورة في محمد ﷺ فقام به على الكفار لأجل ردّهم كلمة الله صفة الغضب، فنفس الرحمن عنه بما أمره به من السيف، ونفس عنه بأصحابه وأنصاره فوجد الراحة فإنه وجد حيث يرسل غضبه، فافهم من هذا آلام أهل النار والصورة الحجابية المحمدية على الغضب الإلهيّ على أعداء الله، وأن الآلام أرسلت على الأعداء فقامت بهم، ونفس الله عن دينه وهو أمره وكلامه وهو عين علمه في خلقه وعلمه ذاته جلّ وتعالىٰ.

وقد بيّنا لك أمر جهنم من حيث ما هي دار، فلنبين إن شاء الله في الباب الذي يلي هذا الباب مراتب أهل النار. ثم اعلم أن الله قد جعل فيها مائة درك في مقابلة درج الجنة، ولكل درك قوم مخصوصون لهم من الغضب الإلهي الحال بهم آلام مخصوصة وأن المتولي عذابهم من الولاة الذين ذكرناهم في الباب قبل هذا من هذا الكتاب: القائم، والإقليد، والحامد، والنائب، والسادن، والجابر، فهؤلاء الأملاك من الولاة هم الذين يرسلون عليهم العذاب بإذن الله تعالىٰ ومالك هو الخازن. وأمّا بقية الولاة مع هؤلاء الذين ذكرناهم وهم: الحائر، والسائق، والماتح، والعادل، والدائم، والحافظ، فإن جميعهم يكونون مع أهل الجنان وخازن الجنان رضوان، وأمدادهم إلى أهل النار مثل أمدادهم إلى أهل الجنة، فإنهم يمدونهم

بحقائقهم وحقائقهم لا تختلف فيقبل كل طائفة من أهل الدارين منهم بحسب ما تعطيهم نشأتهم، فيقع العذاب بما به يقع النعيم من أجل المحل كما قلنا في المبرود: إنه يتنعم بحرّ الشمس والمحرور يتعذب بحر الشمس، فنفس ما وقع به النعيم به عينه وقع به الألم عند الآخر، فالله ينشئنا نشأة النعماء كما قال تعالىٰ في حق الأبرار: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [سورة المطففين: الآية ٢٤] أي هم في خلقهم على هذه الصفة، ونشأة أهل النار تخالف نشأة أهل الجنان، فإن نشأة الجنة إنما هو من الحق سبحانه على أيدي الولاة خاصة، ونشأة أهل النار على أيدي الولاة والحجاب والنقباء والسدنة على كثرتهم فإنه لا يحصي عددهم إلاّ الله، ولكل ملك منهم في هذه النشأة الدنياوية، ونشأة النار ونشأة أهلها حكم سخره الله في ذلك، فهم كالفعلة في المملكة وإنشاء الدار المبنية، وسيأتي إن شاء الله ذكر الجنة وما فيها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والستون
في مراتب أهل النار

[نظم: البسيط]

مـراتـبُ الـنـار بـالأعـمـال تـمـتـازُ ... وليس فـيـهـا اخـتـصـاصـاتٌ وإنْـجـازُ
بـوزن أفـعـال قـد جـاء الـعـذابُ لـه ... بُشْرَى وإن عُذِّبوا فيهـا بـمـا حـازوا
لا يـخـرجـون مـن الـنـار ولـو خـرجـوا ... تـعـذَّبـوا فـلـهـم ذلٌّ وإعـزازُ
فـذلُّـهـم كـونُـهـم فـي الـنـار مـا بـرحـوا ... وعـزُّهـم مـا لـهـم حـدٌّ إذا جـازوا
فـي قـولـنـا إن تـأمَّـلْـتُـمْ لـذي نَـظَـرٍ ... مـحـقَّـقٍ فـي عـلـوم الـوهـب إعـجـازُ
فـيـه اخـتـصـارٌ بـديـعٌ لـفـظُـه حَـسَـنٌ ... فـيـه لـطـائـفُ آيـات وإيـجـازُ
قـال الـجـلـيـلُ لأهـل الـحق بـيـنـهُـمُـو ... يـا أيـهـا الـمـجـرمـون الـيـوم فـامـتـازوا
مـثـل الـمـلـوك تـراهـم فـي نـعـيـمِـهِـمُ ... ولِـبْـسُـهـم عـنـد أهـل الـكـشـف أَخْـزَازُ
ومـن جُـسـومِـهـمُـو فـي الـنـار تـحـسـبـهـم ... كـأنـهـم مـثـل مـا قـد قـال أَعـجـازُ

قولنا: بوزن أفعال أريد قوله تعالىٰ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ [سورة النبأ: الآية ٢٣] وهو من أوزان جمع القلة، فإن أوزان جمع القلة أربعة أفعل مثل أكلب، وأفعال مثل أحقاب، وفعلة مثل فتية، وأفعلة مثل أحمرة، وجمع ذلك بعض الأدباء في بيت من الشعر فقال:

بـأفـعـل وبـأفـعـال وأفـعـلـة ... وفـعـلـة يـجـمـع الأدنـى مـن الـعـدد

يقول الله تعالىٰ من كرمه لإبليس وعموم رحمته حين قال له: ﴿أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ﴾ [سورة الإسراء: ٦٢، ٦٣، ٦٤] فما جاء إبليس إلاّ بأمر الله تعالىٰ، فهو أمر إلهيّ يتضمن وعيداً وتهديداً، وكان ابتلاء شديداً في حقّنا ليريه تعالىٰ أن في

ذريته من ليس لإبليس عليه سلطان ولا قوّة. ثم إنّ الذين خذلهم الله من العباد جعلهم طائفتين: طائفة لا تضرّهم الذنوب التي وقعت منهم وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٨] فلا تمسهم النار بما تاب الله عليهم واستغفار الملأ الأعلى لهم ودعائه لهذه الطائفة. وطائفة أخرى أخذهم الله بذنوبهم، والذين أخذهم الله بذنوبهم قسّمهم بقسمين: قسم أخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين وهم أهل الكبائر من المؤمنين وبالعناية الإلهية وهم أهل التوحيد بالنظر العقليّ. وقسم آخر أبقاهم الله في النار وهذا القسم هم أهل النار الذين هم أهلها وهم المجرمون خاصة الذين يقول الله فيهم: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٥٩] أي المستحقون بأن يكونوا أهلاً لسكنى هذه الدار التي هي جهنم يعمرونها ممّن يخرج منها إلى الدار الآخرة التي هي الجنة وهؤلاء المجرمون أربع طوائف كلها في النار لا يخرجون منها وهم المتكبرون على الله كفرعون وأمثاله ممّن ادّعى الربوبية لنفسه ونفاها عن الله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [سورة القصص: الآية ٣٨] وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [سورة النازعات: الآية ٢٤] يريد أنه ما في السماء إله غيري، وكذلك نمرود وغيره. والطائفة الثانية: المشركون وهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٦] فقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٥]. والطائفة الثالثة: المعطلة وهم الذين نفوا الإله جملة واحدة، فلم يثبتوا إلهاً للعالم ولا من العالم. والطائفة الرابعة: المنافقون وهم الذين أظهروا الإسلام من إحدى هؤلاء الطوائف الثلاثة للقهر الذي حكم عليهم فخافوا على دمائهم وأموالهم وذراريهم وهم في نفوسهم على ما هم عليه من اعتقاد هؤلاء الطوائف الثلاث.

فهؤلاء أربعة أصناف هم الذين هم أهل النار لا يخرجون منها من جن وإنس. وإنما كانوا أربعة لأن الله تعالىٰ ذكر عن إبليس أنه يأتينا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا. فيأتي للمشرك من بين يديه، ويأتي للمعطل من خلفه ويأتي إلى المتكبر من عن يمينه، ويأتي إلى المنافق من عن شماله وهو الجانب الأضعف فإنه أضعف الطوائف، كما أن الشمال أضعف من اليمين، وجعل المتكبر من اليمين لأنه محل القوّة فتكبر لقوّته التي أحسّها من نفسه، وجاء للمشرك من بين يديه فإنه رأى إذ كان بين يديه جهة عينية فأثبت وجود الله ولم يقدر على إنكاره فجعله إبليس يشرك مع الله في ألوهيته، وجاء للمعطل من خلفه فإن الخلف ما هو محل النظر فقال له ما ثم شيء أي ما في الوجود إله.

ثم قال الله تعالىٰ في جهنم ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٤] فهذه أربع مراتب لهم من كل باب من أبواب جهنم جزء مقسوم وهي منازل عذابهم فإذا ضربت الأربعة التي هي المراتب التي دخل عليهم منها إبليس في السبعة الأبواب كان الخارج ثمانية وعشرين منزلاً، وكذلك جعل الله المنازل التي قدّرها الله للإنسان المفرد وهو القمر وغيره من السيارة الخنس الكنس تسير فيها وتنزلها لإيجاد الكائنات، فيكون عند هذا السير ما يتكون من الأفعال في العالم العنصريّ، فإن هذه السيارة قد انحصرت في أربع طبائع

مضروبة في ذواتها وهن سبعة فخرج منها منازلها الثمانية والعشرون ذلك بـ ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [سورة يس: الآية ٣٨] كما قال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٤٠].

وكان ممّا ظهر عن هذا التسيير الإلهيّ في هذه الثمانية والعشرين وجود ثمانية وعشرين حرفاً ألّف الله الكلمات منها وظهر الكفر في العالم والإيمان بأن تكلم كل شخص بما في نفسه من إيمان وكفر وكذب وصدق، لتقوم الحجة لله على عباده ظاهراً بما تلفظوا به، ووكّل بهم ملائكة يكتبون ما تلفظوا به، قال تعالىٰ: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [سورة الانفطار: الآية ١١] وقال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق: الآية ١٨] فجعل منازل النار ثمانية وعشرين منزلاً، وجهنم كلها مائة درك من أعلاها إلى أسفلها نظائر درج الجنة التي ينزل فيها السعداء، وفي كل درك من هذه الدركات ثمانية وعشرون منزلاً، فإذا ضربت ثمانية وعشرين في مائة كان الخارج من ذلك ألفين وثمانمائة منزل، فهي الثمانية والعشرون مائة فما برحت الثمانية والعشرون تصحبنا وهذه منازل النار فلكل طائفة من الأربع سبعمائة نوع من العذاب وهم أربع طوائف فالمجموع ثمان وعشرون مائة نوع من العذاب، كما لأهل الجنة سواء من الثواب يبيّن ذلك في صدقاتهم ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦١] فالمجموع سبعمائة وهم أربعة طوائف: رسل وأنبياء وأولياء ومؤمنون، فلكل متصدق من هؤلاء الأربعة سبعمائة ضعف من النعيم في عملهم، فانظر ما أعجب القرآن في بيانه الشافي وموازنته في خلقه في الدارين الجنة والنار لإقامة العدل على السواء في باب جزاء النعيم وجزاء العذاب، فبهذا القدر يقع الاشتراك بين أهل الجنة وأهل النار للتساوي في عدد الدرج والدرك، ويقع الامتياز بأمر آخر وذلك أن النار امتازت عن الجنة بأنه ليس في النار دركات اختصاص إلهيّ ولا عذاب اختصاص إلهيّ من الله، فإن الله ما عرّفنا قط أنه اختصّ بنقمته من يشاء كما أخبرنا أنه يختص برحمته من يشاء وبفضله، فالجنة في نعيمها مخالف لميزان عذاب أهل النار، فأهل النار معذبون بأعمالهم لا غير، وأهل الجنة ينعمون بأعمالهم وبغير أعمالهم في جنات الاختصاص.

فلأهل السعادة ثلاث جنات: جنة أعمال، وجنة اختصاص، وجنة ميراث، وذلك أنه ما من شخص من الجنّ والإنس إلاّ وله في الجنة موضع وفي النار موضع وذلك لإمكانه الأصليّ، فإنه قبل كونه يمكن أن يكون له البقاء في العدم أو يوجد، فمن هذه الحقيقة له قبول النعيم وقبول العذاب، فالجنة تطلب الجميع والجميع يطلبها، والنار تطلب الجميع والجميع يطلبها، فإن الله يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة النحل: الآية ٩] أي أنتم قابلون لذلك، ولكن حقّت الكلمة وسبق العلم ونفذت المشيئة فلا رادّ لأمره ولا معقب لحكمه، فينزل أهل الجنة في الجنة على أعمالهم ولهم جنات الميراث وهي التي كانت لأهل النار لو دخلوا الجنة ولهم جنات الاختصاص، يقول الله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٣] فهذه الجنة التي حصلت لهم بطريق الورث من أهل النار الذين هم أهلها، إذ لم يكن في علم الله أن يدخلوها، ولم يقل في أهل النار أنهم يرثون من النار أماكن

أهل الجنة لو دخلوا النار، وهذا من سبق الرحمة بعموم فضله سبحانه، فما نزل من نزل في النار من أهلها إلاَّ بأعمالهم ولهذا يبقى فيها أماكن خالية وهي الأماكن التي لو دخلها أهل الجنة عمروها فيخلق الله خلقاً يعمرونها على مزاج لودخلوا به الجنة تعذبوا وهو قوله ﷺ: «**فَيَضَعُ الجَبَّارُ فِيها قدَمَهُ فَتَقُولُ قَط قَط**» أي حسبي حسبي، فإنه تعالىٰ يقول لها: هل امتلأت؟ فتقول: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [سورة ق: الآية ٣٠] فإنه قال للجنة والنار: لكل واحدة منكما ملؤها، فما اشترط لهما إلاَّ أن يملأهما خلقاً، وما اشترط عذاب من يملأها بهم ولا نعيمهم، وأن الجنة أوسع من النار بلا شك فإن عرضها السموات والأرض فما ظنك بطولها؟ فهي للنار كمحيط الدائرة ممّا يحوي عليه.

وفي التنزلات الموصلية رسمناها وبيّناها على ما هي عليه في نفسها في باب يوم الاثنين، والنار عرضها قدر الخط الذي يميز قطري دائرة فلك الكواكب الثابتة فأين هذا الضيق من تلك السعة؟ وسبب هذا الاتساع جنات الاختصاص الإلهيّ فورد في الخبر: «**أَنَّهُ يَبْقَى أَيْضاً فِي الجَنَّةِ أَمَاكِنُ مَا فِيها أَحَدٌ فَيَخْلُقُ اللَّهُ خَلْقاً لِلنَّعِيمِ يَعْمُرُهَا بِهِمْ**» وهو أن يضع الرحمن فيها قدمه وليس ذلك إلاَّ في جنات الاختصاص ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ [سورة غافر: الآية ١٢] ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧٤].

فمن كرمه أنه تعالىٰ ما أنزل أهل النار إلاَّ على أعمالهم خاصة. وأمّا قوله تعالىٰ: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [سورة النحل: الآية ٨٨] فذلك لطائفة مخصوصة وهم الأئمة المضلون يقول تعالىٰ: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ١٣] وهم الذين أضلوا العباد، وأدخلوا عليهم الشبه المضلة فحادوا بها عن سواء السبيل، فضلّوا وأضلّوا وقالوا لهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ١٢] يقول الله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ١٢] في هذا القول بل هم حاملون خطاياهم، والذين أضلوهم يحملون أيضاً خطاياهم وخطايا هؤلاء مع خطاياهم، ولا ينقص هؤلاء من خطاياهم من شيء يقول ﷺ: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَلَهُ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا**» دون أن ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً، فهو قوله: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٠] فهؤلاء قيل فيهم: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [سورة النحل: الآية ٨٨] فما أنزلوا من النار إلاَّ منازل استحقاق، بخلاف الجنة فإن أهل الجنة أنزلوا فيها منازل استحقاق مثل الكفار في النار بأعمالهم، وأنزلوا أيضاً منازل وراثة ومنازل اختصاص وليس ذلك في أهل النار، ولا بدّ لأهل النار من فضل الله ورحمته في نفس النار بعد انقضاء مدّة موازنة أزمان العمل، فيفقدون الإحساس بالآلام في نفس النار لأنهم ليسوا بخارجين من النار أبداً فلا يموتون فيها ولا يحيون، فتتخدّر جوارحهم بإزالة الروح الحساس منها.

وثم طائفة يعطيهم الله بعد انقضاء موازنة المدد بين العذاب والعمل نعيماً خيالياً مثل ما يراه النائم وجلده كما قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم﴾ [سورة النساء: الآية ٥٦] هو كما قلنا خدرها، فزمان النضج والتبديل يفقدون الآلام لأنه إذا انقضى زمان الإنضاج خمدت النار في

حقهم فيكونون في النار كالأمّة التي دخلتها وليست من أهلها، فأماتهم الله فيها إماتة فلا يحسّون بما تفعله النار في أبدانهم، الحديث بكماله ذكره مسلم في صحيحه وهذا من فضل الله ورحمته.

وأما أبواب جهنم فقد ذكر الله من صفات أصحابها بعض ما ذكر، ولكن من هؤلاء الأربع الطوائف الذين هم أهلها ومن خرج بالشفاعة أو العناية ممّن دخلها، فقد جاء ببعض ما وصف الله به من دخلها من الأسباب الموجبة لذلك وهي: باب الجحيم، وباب سقر، وباب السعير، وباب الحطمة، وباب لظى، وباب الحامية، وباب الهاوية، وسميت الأبواب بصفات ما وراءها ممّا أعدّت له، ووصف الداخلون فيها بما ذكر الله تعالىٰ في مثل قوله في لظى: إنها ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ [سورة المعارج: ١٧، ١٨] وقال ما يقول أهل سقر: إذا قيل لهم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [سورة المدثر: ٤٢ ـ ٤٦] وقال في أهل الجحيم: إنه يكذب بيوم الدين ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [سورة المطففين: الآية ١٢] فوصفه بالإثم والإعتداء، ثم قال فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [سورة المطففين: ١٦، ١٧]. وهكذا في الحطمة والسعير، وغير ذلك مما جاء به القرآن أو السنّة، فهذا قد ذكرنا الأمهات والطبقات.

وأما مناسبات الأعمال لهذه المنازل فكثيرة جداً يطول الشرح فيها، ولو شرعنا في ذلك طال علينا المدى، فإن المجال رحب ولكن الأعمال مذكورة والعذاب عليها مذكور، فمتى وقفت على شيء من ذلك وكنت على نور من ربك وبينة فإن الله يطلعك عليه بكرمه. والذي شرطنا في هذا الباب وترجمنا عليه إنما كان ذكر المراتب وقد ذكرناها وبيّناها ونبهنا على مواضع يجول فيها نظر الناظر من كتابي هذا من الآيات التي استشهدنا بها في هذا الباب من أوله من أمر الله إبليس بما ذكر له فهل له من امتثال ذلك الأمر الإلهيّ أمر يعود عليه منه من حيث ما هو ممتثل أم لا؟ وأشباه هذه التنبيهات إن وفقت لذلك عثرت على علوم جمة إلهية ممّا يختص بأهل الشقاء والنار، وهذا القدر في هذا الباب كاف، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والستون
في معرفة بقاء الناس في البرزخ بين الدنيا والبعث

[نظم: البسيط]

بين القيامة والدنيا لذي نَظَرِ ... مراتبٌ برزخياتٌ لها سُوَرُ
تحوي على حكم ما قد كان صاحبُها ... قبل الممات عليه اليوم فاعتبِرُوا
لها على الكل أقدامٌ وسلطنةٌ ... تبدي العجائبَ لا تُبقي ولا تَذَرُ
لها مجالٌ رحيبٌ في الوجود بلا ... تقيُّدٍ وهي لا عينٌ ولا أثرُ
تقول للحق كنْ والحقُّ خالِقُها ... فكيف يخرج عن أحكامها بَشَرُ

فيها العلومُ وفيها كلُّ قاصمةٍ فيها الدلائلُ والإعجازُ والعبَرُ
لولا الخيالُ لكنا اليومَ في عدم ولا انقضى غرضٌ فينا ولا وطَرُ
كأنّ سلطانَها إن كنت تعقلها الشرعُ جاء به والعقلُ والنَّظَرُ
من الحروف لها كافُ الصفاتِ فما تنفكُّ عن صور إلاّ أتت صُوَرُ

قولنا: كأنّ سلطانها برفع سلطانها أي سلطان الخيال هو عين كأنّ، وهو معنى قوله ﷺ: «اعبُدِ الله كأنَّكَ تَرَاهُ» فهي خبر وسلطانها مبتدأ، تقدير الكلام سلطان حضرة الخيال من الألفاظ هو كأن.

اعلم أن البرزخ عبارة عن أمر فاصل بين أمرين لا يكون متطرفاً أبداً كالخط الفاصل بين الظل والشمس، وكقوله تعالىٰ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: ١٩-٢٠] ومعنى لا يبغيان أي لا يختلط أحدهما بالآخر، وإن عجز الحسّ عن الفصل بينهما، والعقل يقضي أن بينهما حاجزاً يفصل بينهما فذلك الحاجز المعقول هو البرزخ، فإن أدرك بالحسّ فهو أحد الأمرين ما هو البرزخ، وكل أمرين يفتقران إذا تجاورا إلى برزخ ليس هو عين أحدهما وفيه قوّة كل واحد منهما. ولما كان البرزخ أمراً فاصلاً بين معلوم وغير معلوم، وبين معدوم وموجود، وبين منفيّ ومثبت، وبين معقول وغير معقول، سميّ برزخاً اصطلاحاً وهو معقول في نفسه وليس إلاّ الخيال، فإنك إذا أدركته وكنت عاقلاً تعلم أنك أدركت شيئاً وجودياً وقع بصرك عليه، وتعلم قطعاً بدليل أنه ما ثم شيء رأساً وأصلاً، فما هو هذا الذي أثبت له شيئية وجودية ونفيتها عنه في حال إثباتك إياها؟ فالخيال لا موجود ولا معدوم ولا معلوم ولا مجهول ولا منفيّ ولا مثبت، كما يدرك الإنسان صورته في المرآة يعلم قطعاً أنه أدرك صورته بوجه، ويعلم قطعاً أنه ما أدرك صورته بوجه لما يرى فيها من الدقة إذا كان جرم المرآة صغيراً ويعلم أن صورته أكبر من التي رأى بما لا يتقارب. وإذا كان جرم المرآة كبيراً فيرى صورته في غاية الكبر ويقطع أن صورته أصغر ممّا رأى ولا يقدر أن ينكر أنه رأى صورته، ويعلم أنه ليس في المرآة صورته ولا هي بينه وبين المرآة، ولا هو انعكاس شعاع البصرة إلى الصورة المرئية فيها من خارج سواء كانت صورته أو غيرها، إذ لو كان كذلك لأدرك الصورة على قدرها وما هي عليه. وفي رؤيتها في السيف من الطول أو العرض يتبين لك ما ذكرنا، مع علمه أنه رأى صورته بلا شك فليس بصادق ولا كاذب في قوله إنه رأى صورته ما رأى صورته.

فما تلك الصورة المرئية وأين محلها وما شأنها؟ فهي منفية ثابتة موجودة معدومة معلومة مجهولة، أظهر الله سبحانه هذه الحقيقة لعبده ضرب مثال ليعلم ويتحقق أنه إذا عجز وحار في درك حقيقة هذا وهو من العالم ولم يحصل عنده علم بحقيقته فهو بخالقها أعجز وأجهل وأشدّ حيرة، ونبّهه بذلك أن تجليات الحق له أرق وألطف معنى من هذا الذي قد حارت العقول فيه وعجزت عن إدراك حقيقته إلى أن بلغ عجزها أن تقول: هل لهذا ماهية أو لا ماهية له؟ فإنها لا تلحقه بالعدم المحض وقد أدرك البصر شيئاً ما، ولا بالوجود المحض وقد علمت أنه ما ثم

شيء ولا بالإمكان المحض، وإلى مثل هذه الحقيقة يصير الإنسان في نومه وبعد موته، فيرى الأعراض صوراً قائمة بنفسها تخاطبه ويخاطبها أجساداً لا يشك فيها، والمكاشف يرى في يقظته ما يراه النائم في حال نومه والميت بعد موته، كما يرى في الآخرة صور الأعمال توزن مع كونها أعراضاً، ويرى الموت كبشاً أملح يذبح والموت نسبة مفارقة عن اجتماع فسبحان من يجهل فلا يعلم ويعلم فلا يجهل ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨]. ومن الناس من يدرك هذا المتخيل بعين الحسّ. ومن الناس من يدركه بعين الخيال وأعني في حال اليقظة. وأمّا في النوم فبعين الخيال قطعاً.

فإذا أراد الإنسان أن يفرّق في حال يقظته حيث كان في الدنيا أو يوم القيامة فلينظر إلى المتخيّل وليقيده بنظره، فإن اختلفت عليه أكوان المنظور إليه لاختلافه في التكوينات وهو لا ينكر أنه ذلك بعينه ولا يقيده النظر عن اختلاف التكوينات فيه كالناظر إلى الحرباء في اختلاف الألوان عليها فذلك عين الخيال بلا شك ما هو عين الحسّ، فأدركت الخيال بعين الخيال لا بعين الحسّ، وقليل من يتفطن إلى هذا ممّن يدعي كشف الأرواح النارية والنورية إذا تمثلت لعينه صوراً مدركة لا يدري بما أدركها هل بعين الخيال أو بعين الحسّ؟ وكلاهما أعني الإدراكين بحاسة العين، فإنها تعطي الإدراك بعين الخيال وبعين الحسّ وهو علم دقيق أعني العلم بالفصل بين العينين وبين حاسة العين وعين الحسّ، وإذا أدركت العين المتخيّل ولم تغفل عنه ورأته لا تختلف عليه التكوينات ولا رأته في مواضع مختلفات معاً في حال واحدة والذات واحدة لا يشك فيها ولا انتقلت ولا تحوّلت في أكوان مختلفة فتعلم أنها محسوسة لا متخيلة، وأنه أدركها بعين الحسّ لا بعين الخيال، ومن هنا يعرف إدراك الإنسان في المنام ربّه تعالىٰ وهو منزَّه عن الصورة والمثال وضبط الإدراك إياه وتقييده، ومن هنا تعرف ما ورد في الخبر الصحيح من كون الباري يتجلى في أدنى صورة من التي رأوه فيها، وفي تحوّله في صورة يعرفونها وقد كانوا أنكروه وتعوّذوا منه فيعلم بأي عين تراه، فقد أعلمتك أن الخيال يدرك بنفسه نريد بعين الخيال أو يدرك بالبصر، وما الصحيح في ذلك حتى نعتمد عليه ولنا في ذلك: [المجتث]

إذا تــجـلّــى حــبـيـبـي ... بـــأيِّ عـــيـــنٍ أراهُ
بـعـيـنـه لا بـعـيـنـي ... فـــمـــا يـــراه ســـواهُ

تنزيهاً لمقامه، وتصديقاً بكلامه فإنه القائل: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٣] ولم يخص داراً من دار، بل أرسلها آية مطلقة، ومسألة معينة محققة، فلا يدركه سواه، فبعينه سبحانه أراه، وفي الخبر الصحيح: «كُنْتُ بَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ» فتيقظ أيها الغافل النائم عن مثل هذا وانتبه، فلقد فتحت عليك باباً من المعارف لا تصل إليه الأفكار لكن تصل إلى قبوله العقول، إمّا بالعناية الإلهية أو بجلاء القلوب بالذكر والتلاوة، فيقبل العقل ما يعطيه التجلي، ويعلم أن ذلك خارج عن قوّة نفسه من حيث فكره، وأن فكره لا يعطيه ذلك أبداً،

فيشكر الله تعالىٰ الذي أنشأه نشأة يقبل بها مثل هذا وهي نشأة الرسل والأنبياء وأهل العناية من الأولياء، وذلك ليعلم أن قبوله أشرف من فكره، فتحقق يا أخي بعد هذا من يتجلّى لك من خلف هذا الباب فهي مسألة عظيمة حارت فيها الألباب.

ثم إن الشارع وهو الصادق سمّى هذا الباب الذي هو الحضرة البرزخية التي ننتقل إليها بعد الموت ونشهد نفوسنا فيها بالصور والناقور، والصور هنا جمع صورة بالصاد فينفخ في الصور وينقر في الناقور وهو هو بعينه. واختلفت عليه الأسماء لاختلاف الأحوال والصفات، واختلفت الصفات فاختلفت الأسماء، فصارت أسماؤه كهو يحار فيها من عادته يفلي الحقائق ولا يرمي منها بشيء، فإنه لا يتحقق له أن النقر أصل في وجود اسم الناقور، أو الناقور أصل في وجود اسم النقر، كمسألة النحويّ: هل الفعل مشتق من المصدر أو المصدر مشتق من الفعل؟ ثم فارق مسألة النحويّ بشيء آخر حتى لا يشبه مسألة النحويّ في الاشتقاق بقوله: ﴿نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٠١] ولم يقل في المنفوخ فيه، فهل كونه صوراً أصل في وجود النفخ؟ أو وجود نفخ أصل في وجود اسم الصور.

ولما ذكر الله تعديل صورة الإنسان قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] وقال في عيسىٰ عليه السلام قبل خلق صورته: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٩١] فظهرت الصورة فوقعت الحيرة ما هو الأصل؟ هل الصورة في وجود النفخ أو النفخ في وجود الصورة؟ فهذا من ذلك القبيل ولا سيّما وجبريل عليه السلام في الوقت المذكور في حال التمثّل بالبشر ومريم قد تخيّلت أنه بشر فهل أدركته بالبصر الحسيّ أو بعين الخيال فتكون ممّن أدرك الخيال بالخيال؟ وإذا كان هذا فينفتح عليك ما هو أعظم وهو: هل في قوّة الخيال أن يعطي صورة حسيّة حقيقة فلا يكون للحسّ فضل على الخيال لأنّ الحسّ يعطي الصور للخيال، فكيف يكون المؤثّر فيه مؤثراً فيمن هو مؤثّر فيه؟ فما هو مؤثر فيما هو مؤثر فيه وهذا محال عقلاً، فتفطن لهذه الكنوز، فإن كنت حصلتها ما يكون في العالم أغنى منك إلاّ من يساويك في ذلك.

واعلم أن رسول الله ﷺ لما سئل عن الصور ما هو؟ فقال ﷺ: **«هُوَ قَرْنٌ مِنْ نُورٍ أَلْقِمَهُ إِسْرَافِيلُ»** فأخبر أن شكله شكل القرن فوصف بالسعة والضيق، فإن القرن واسع ضيق، وهو عندنا على خلاف ما يتخيله أهل النظر في الفرق بين ما هو أعلى القرن وأسفله، ونذكره إن شاء الله بعد هذا في هذا الباب. فاعلم أن سعة هذا القرن في غاية السعة لا شيء من الأكوان أوسع منه، وذلك أنه يحكم بحقيقته على كل شيء وعلى ما ليس بشيء، ويتصوّر العدم المحض والمحال والواجب والإمكان، ويجعل الوجود عدماً والعدم وجوداً، وفيه يقول النبيّ ﷺ أي من حضرة هذا: **«اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ وَاللَّهُ فِي قِبْلَةِ المُصَلِّي»** أي تخيله في قبلتك وأنت تواجهه لتراقبه وتستحي منه وتلزم الأدب معه في صلاتك، فإنك إن لم تفعل هذا أسأت الأدب.

فلولا أن الشارع علم أن عندك حقيقة تسمى الخيال لها هذا الحكم ما قال لك: **«كَأَنَّكَ تَرَاهُ بِبَصَرِكَ»** فإنّ الدليل العقليّ يمنع من كان فإنه يحيل بدليله التشبيه والبصر فما أدرك شيئاً سوى الجدار، فعلمنا أنّ الشارع خاطبك أن تتخيل أنك تواجه الحق في قبلتك المشروع لك استقبالها

والله يقول: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥] ووجه الشيء حقيقته وعينه، فقد صوّر الخيال من يستحيل عليه بالدليل العقليّ الصورة والتصوّر فلهذا كان واسعاً. وأما ما فيه من الضيق فإنه ليس في وسع الخيال أن يقبل أمراً من الأمور الحسيّة والمعنوية والنسب والإضافة وجلال الله وذاته إلاّ بالصورة، ولو رام أن يدرك شيئاً من غير صورة لم تعط حقيقته ذلك لأنه عين الوهم لا غيره. فمن هنا هو ضيق في غاية الضيق فإنه لا يجرّد المعاني عن المواد أصلاً، ولهذا كان الحسّ أقرب شيء إليه، فإنه من الحسّ أخذ الصور وفي الصور الحسيّة يجلي المعاني فهذا من ضيقه، وإنما كان هذا حتى لا يتصف بعدم التقييد بإطلاق الوجود وبالفعال لما يريد إلاّ الله تعالىٰ وحده: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فالخيال أوسع المعلومات.

ومع هذه السعة العظيمة التي يحكم بها على كل شيء قد عجز أن يقبل المعاني مجردة عن الموادّ كما هي في ذاتها، فيرى العلم في صورة لبن أو عسل وخمر ولؤلؤ، ويرى الإسلام في صورة قبة وعمد، ويرى القرآن في صورة سمن وعسل، ويرى الدين في صورة قيد، ويرى الحق في صورة إنسان وفي صورة نور، فهو الواسع الضيق، والله واسع على الإطلاق، عليم بما أوجد الله عليه خلقه كما قال تعالىٰ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] أي بين الأمور على ما هي عليه بإعطاء كل شيء خلقه.

وأمّا كون القرن من نور فإنّ النور سبب الكشف والظهور إذ لولا النور ما أدرك البصر شيئاً، فجعل الله هذا الخيال نوراً يدرك به تصوير كل شيء أيّ أمر كان كما ذكرناه، فنوره ينفذ في العدم المحض فيصوّره وجوداً، فالخيال أحق باسم النور من جميع المخلوقات الموصوفة بالنورية، فنوره لا يشبه الأنوار وبه تدرك التجليات، وهو نور عين الخيال لا نور عين الحسّ فافهم فإنه ينفعك معرفة كونه نوراً فتعلم الإصابة فيه ممّن لا يعلم ذلك وهو الذي يقول: هذا خيال فاسد وذلك لعدم معرفة هذا القائل بإدراك النور الخياليّ الذي أعطاه الله تعالىٰ، كما أن هذا القائل يخطىء الحسّ في بعض مدركاته وإدراكه صحيح والحكم لغيره لا إليه، فالحاكم أخطأ لا الحسّ، كذلك الخيال أدرك بنوره ما أدرك وما له حكم وإنما الحكم لغيره وهو العقل فلا ينسب إليه الخطأ فإنه ما ثم خيال فاسد قط بل هو صحيح كله.

وأمّا أصحابنا فغلطوا في هذا القرن، فأكثر العقلاء جعل أضيقه المركز وأعلاه الفلك الأعلى الذي لا فلك فوقه، وأن الصور التي يحوي عليها صور العالم، فجعلوا واسع القرن الأعلى وضيقه الأسفل من العالم، وليس الأمر كما زعموا بل لما كان الخيال كما قلنا يصوّر الحق فمن دونه من العالم حتى العدم كان أعلاه الضيق وأسفله الواسع وهكذا خلقه الله. فأوّل ما خلق منه الضيق، وآخر ما خلق منه ما اتسع وهو الذي يلي رأس الحيوان، ولا شك أن حضرة الأفعال والأكوان أوسع ولهذا لا يكون للعارف اتساع في العلم إلاّ بقدر ما يعلمه من العالم.

ثم إنه إذا أراد أن ينتقل إلى العلم بأحدية الله تعالىٰ لا يزال يرقى من السعة إلى الضيق قليلاً قليلاً فتقل علومه، كلما رقي في العلم بذات الحق كشفاً إلى أن لا يبقى له معلوم إلاّ الحق وحده وهو أضيق ما في القرن فضيقه هو الأعلى على الحقيقة وفيه الشرف التام، وهو

الأوّل الذي نظهر منه إذا أنبته الله في رأس الحيوان، فلا يزال يصعد على صورته من الضيق وأسفله يتسع وهو لا يتغير عن حاله فهو المخلوق الأول. ألا ترى الحق سبحانه أول ما خلق القلم أو قل العقل كما قال فما خلق إلاّ واحداً ثم أنشأ الخلق من ذلك الواحد فاتسع العالم، وكذلك العدد منشؤه من الواحد، ثم الذي يقبل الثاني لا من الواحد الوجود، ثم يقبل التضعيف والتركيب في المراتب فيتسع اتساعاً عظيماً إلى ما لا يتناهى، فإذا انتهيت فيه من الاتساع إلى حد ما من الآلاف وغيرها ثم تطلب الواحد الذي نشأ منه العدد لا تزال في ذلك تقلّل العدد ويزول عنك ذلك الاتساع الذي كنت فيه حتى تنتهي إلى الاثنين التي بوجودها ظهر العدد إذ كان الواحد أولاً لها، فالواحد أضيق الأشياء وليس بالنظر إلى ذاته بعدد في نفسه ولكن بما هو اثنان أو ثلاثة أو أربعة فلا يجمع بين اسمه وعينه أبداً فاعلم ذلك. والناس في وصف الصور بالقرن على خلاف ما ذكرناه وبعدما قرّرناه، فلتعلم أن الله سبحانه إذا قبض الأرواح من هذه الأجسام الطبيعية حيث كانت والعنصرية أودعها صوراً جسدية في مجموع هذا القرن النوريّ فجميع ما يدركه الإنسان بعد الموت في البرزخ من الأمور إنما يدركه بعين الصورة التي هو فيها في القرن وبنورها وهو إدراك حقيقي.

ومن الصور هنالك ما هي مقيدة عن التصرّف. ومنها ما هي مطلقة كأرواح الأنبياء كلهم وأرواح الشهداء. ومنها ما يكون لها نظر إلى عالم الدنيا في هذه الدار. ومنها ما يتجلى للنائم في حضرة الخيال التي هي فيه وهو الذي تصدق رؤياه أبداً وكل رؤيا صادقة ولا تخطىء، فإذا أخطأت الرؤيا فالرؤيا ما أخطأت، ولكن العابر الذي يعبرها هو المخطىء حيث لم يعرف ما المراد بتلك الصورة. ألا تراه ﷺ ما قال لأبي بكر حين عبر رؤيا الشخص المذكور: أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً. وكذلك قال في الرجل الذي رأى في النوم ضربت عنقه فوقع رأسه فجعل الرأس يتدهده وهو يكلمه فذكر له رسول الله أن الشيطان يلعب به، فعلم رسول الله ﷺ صورة ما رآه وما قال له خيالك فاسد فإنه رأى حقاً ولكن أخطأ في التأويل فأخبره ﷺ بحقيقة ما رآه ذلك النائم.

وكذلك قوم فرعون يعرضون على النار في تلك الصور غدوة وعشية ولا يدخلونها فإنهم محبوسون في ذلك القرن وفي تلك الصورة ويوم القيامة يدخلون أشدّ العذاب، وهو العذاب المحسوس لا المتخيل الذي كان لهم في حال موتهم بالعرض، فتدرك بعين الخيال الصورة الخيالية والصور المحسوسة معاً، فيدرك المتخيل الذي هو الإنسان بعين خياله وقتاً ما هو متخيل كقوله ﷺ: **«مُثُلَتْ لِيَ الجَنَّةُ فِي عَرْضِ الحَائِطِ»** فأدرك ذلك بعين حسّه، وإنما قلنا بعين حسّه لأنه تقدّم حين رأى الجنة ليأخذ قطفاً منها، وتأخّر حين رأى النار وهو في صلاته، ونحن نعرف أن عنده من القوّة بحيث أنه لو أدرك ذلك بعين خياله لا بعين حسّه ما أثر في جسمه تقدّماً ولا تأخّراً، فإنا نجد ذلك وما نحن في قوّته ولا في طبقته ﷺ. وكل إنسان في البرزخ مرهون بكسبه محبوس في صور أعماله إلى أن يبعث يوم القيامة من تلك الصور في النشأة الآخرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الثامن والعشرون.

(الجزء التاسع والعشرون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع والستون
في معرفة القيامة ومنازلها وكيفية البعث

[نظم: البسيط]

يومُ المعارج من خمسين ألف سَنَهْ ... يطير عن كل نَوَّامٍ به وسَنَهْ
والأرضُ من حذرٍ عليه ساهرةٌ ... لا تأخذَنها لما يقضي الإله سِنَهْ
فكن غريباً ولا تَرْكَنْ لطائفةٍ ... من الخوارج أهلِ الألسن اللَّسِنَهْ
وإن رأيتَ امرأً يسعى لمفسدةٍ ... فخذْ على يده تُجزَى به حَسَنَهْ
ولتعتصم حذراً بالكهف من رجلٍ ... تريك فتنَتُه يوماً كمِثْل سَنَهْ
قد مدَّ خطوتَه في غير طاعته ... ولم يزل في هواه خالعاً رَسَنَهْ

اعلم أنه إنّما سمّي هذا اليوم يوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم لربّ العالمين في النشأة الآخرة التي ذكرناها في البرزخ في الباب الذي قبل هذا الباب، ولقيامهم أيضاً إذا جاء الحق للفصل والقضاء والملك صفاً صفاً. قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة المطففين: الآية ٦] أي من أجل ربّ العالمين حين يأتي، وجاء بالاسم الربّ إذ كان الربّ المالك، فله صفة القهر وله صفة الرحمة، ولم يأت بالاسم الرحمن لأنه لا بدّ من الغضب في ذلك اليوم كما سيرد في هذا الباب، ولا بدّ من الحساب والإتيان بجهنم والموازين، وهذه كلها ليست من صفات الرحمة المطلقة التي يطلبها الاسم الرحمن، غير أنه سبحانه أتى باسم إلهيّ تكون الرحمة فيه أغلب وهو الاسم الربّ فإنه من الإصلاح والتربية، فتقوى ما في المالك والسيد من فضل الرحمة على ما فيه من صفة القهر، فتسبق رحمته غضبه، ويكثر التجاوز عن سيئات أكثر الناس، فأول ما أبين وأقول ما قال الله في ذلك اليوم من امتداد الأرض وقبض السماء وسقوطها على الأرض ومجيء الملائكة ومجيء الرب في ذلك اليوم، وأين يكون الخلق حين تمدّ الأرض وتبدّل صورتها وتجيء جهنم وما يكون من شأنها. ثم أسوق حديث مواقف القيامة في خمسين ألف سنة، وحديث الشفاعة.

اعلم يا أخي أن الناس إذا قاموا من قبورهم على ما سنورده إن شاء الله وأراد الله أن يبدّل الأرض غير الأرض وتمدّ الأرض بإذن الله ويكون الجسر دون الظلمة، فيكون الخلق عليه عندما يبدّل الله الأرض كيف يشاء إمّا بالصورة وإمّا بأرض أخرى ما نيم عليها تسمّى الساهرة فيمدّها سبحانه مدّ الأديم يقول تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [سورة الانشقاق: الآية ٣] ويزيد في سعتها ما شاء أضعاف ما كانت من أحد وعشرين جزءاً إلى تسعة وتسعين جزءاً حتى لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

ثم إنه سبحانه يقبض السماء إليه فيطويها بيمينه كطيّ السجلّ للكتب، ثم يرميها على الأرض التي مدّها واهية وهو قوله: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ [سورة الحاقة: الآية ١٦] ويرد الخلق إلى الأرض التي مدّها فيقفون منتظرين ما يصنع الله بهم، فإذا وهت السماء نزلت ملائكتها على أرجائها فيرى أهل الأرض خلقاً عظيماً أضعاف ما هم عليه عدداً، فيتخيلون أنّ الله نزل فيهم لما يرون من عظم المملكة ممّا لم يشاهدوه من قبل فيقولون: أفيكم ربنا؟ فتقول الملائكة: سبحانه ربنا ليس فينا وهو آت، فتصطف الملائكة صفاً مستديراً على نواحي الأرض محيطين بالعالم الإنس والجن وهؤلاء هم عمّار السماء الدنيا.

ثم ينزل أهل السماء الثانية بعدما يقبضها الله أيضاً ويرمي بكوكبها في النار وهو المسمّى كاتباً وهم أكثر عدداً من السماء الأولى فتقول الخلائق: أفيكم ربنا؟ فتفزع الملائكة من قولهم فيقولون: سبحان ربنا ليس هو فينا وهو آت، فيفعلون فعل الأولين من الملائكة يصطفون خلفهم صفاً ثانياً مستديراً.

ثم ينزل أهل السماء الثالثة ويرمي بكوكبها المسمّى الزهرة في النار ويقبضها الله بيمينه فتقول الخلائق: أفيكم ربنا؟ فتقول الملائكة: سبحان ربنا ليس هو فينا وهو آت، فلا يزال الأمر هكذا سماء بعد سماء حتى ينزل أهل السماء السابعة فيرون خلقاً أكثر من جميع من نزل فتقول الخلائق: أفيكم ربنا؟ فتقول الملائكة: سبحان ربنا قد جاء ربنا ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٠٨] فيأتي الله في ظلل من الغمام والملائكة وعلى المجنبة اليسرى جهنم ويكون إتيانه إتيان الملك فإنه يقول: ملك يوم الدين وهو ذلك اليوم فسمّي بالملك، ويصطف الملائكة عليهم السلام سبعة صفوف محيطة بالخلائق، فإذا أبصر الناس جهنم لها فوران وتغيظ على الجبابرة المتكبرين فيفرّون الخلق بأجمعهم منها لعظيم ما يرونه خوفاً وفزعاً وهو الفزع الأكبر إلاّ الطائفة التي لا يحزنهم الفزع الأكبر فتتلقاهم الملائكة ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٣] فهم الآمنون مع النبيين على أنفسهم، غير أنّ النبيين تفزع على أممها للشفقة التي جبلهم الله عليها للخلق فيقولون في ذلك اليوم: سلم سلم وكان الله قد أمر أن تنصب للآمنين من خلقه منابر من نور متفاضلة بحسب منازلهم في الموقف فيجلسون عليها آمنين مبشرين وذلك قبل مجيء الربّ تعالىٰ.

فإذا فرّ الناس خوفاً من جهنم وفرقاً لعظيم ما يرون من الهول في ذلك اليوم يجدون الملائكة صفوفاً لا يتجاوزونهم فتطردهم الملائكة وزعة الملك الحق سبحانه وتعالىٰ إلى المحشر وتناديهم أنبياؤهم: ارجعوا ارجعوا، فينادي بعضهم بعضاً فهو قول الله تعالىٰ فيما يقول رسول الله ﷺ: «**إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِي يَوْمَ تُوَلّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِمٍ**» والرسل تقول: اللهمّ سلم سلم ويخافون أشد الخوف على أممهم، والأمم يخافون على أنفسهم، والمطهرون المحفوظون الذين ما تدنست بواطنهم بالشبه المضلة ولا ظواهرهم أيضاً بالمخالفات الشرعية آمنون يغبطهم النبيون في الذي هم عليه من الأمن لما هم النبيون عليه من الخوف على أممهم، فينادي مناد من قبل الله يسمعه أهل الموقف لا يدرون أو لا

أدري هل ذلك نداء الحق سبحانه بنفسه أو نداء عن أمره سبحانه؟ يقول في ذلك النداء: يا أهل الموقف ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم فإنه قال لنا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٦] تعليماً له وتنبيهاً ليقول كرمك. ولقد سمعت شيخنا الشنختة يقول يوماً وهو يبكي: يا قوم لا تفعلوا بكرمه أخرجنا ولم نكن شيئاً، وعلمنا ما لم نكن نعلم، وامتن علينا ابتداء بالإيمان به وبكتبه ورسله ونحن لا نعقل، أفتراه يعذبنا بعد أن عقلنا وآمنا، حاشى كرمه سبحانه من ذلك، فأبكاني بكاء فرح وبكى الحاضرون.

ثم نرجع ونقول: فيقول الحق في ذلك النداء: أين الذين كانت ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [سورة السجدة: الآية ١٦] فيؤتى بهم إلى الجنة، ثم يسمعون من قبل الحق نداء ثانياً لا أدري هل ذلك نداء الحق بنفسه أو نداء عن أمر الحق أين الذين كانوا ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [سورة النور: الآية ٣٧] وتلك الزيادة كما قلنا من جنات الاختصاص فيؤمر بهم إلى الجنة. ثم يسمعون نداء ثالثاً لا أدري هل هو نداء الحق بنفسه أو نداء عن أمر الحق، يا أهل الموقف ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم أين الذين ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢٣] ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢٤] فيؤمر بهم إلى الجنة، فبعد هذا النداء يخرج عنق من النار، فإذا أشرف على الخلائق وله عينان ولسان فصيح يقول: يا أهل الموقف إني وكّلت منكم بثلاث كما كان النداء الأوّل ثلاث مرّات لثلاث طوائف من أهل السعادة، وهذا كله قبل الحساب والناس وقوف قد ألجمهم العرق واشتدّ الخوف وتصدّعت القلوب لهول المطلع فيقول ذلك العنق المستشرف من النار عليهم: إني وكّلت بكل جبار عنيد، فيلقطهم من بين الصفوف كما يلقط الطائر حب السمسم، فإذا لم يترك أحداً منهم في الموقف نادى نداء ثانياً: يا أهل الموقف إني وكّلت بمن آذى الله ورسوله فيلقطهم كما يلقط الطائر حب السمسم من بين الخلائق، فإذا لم يترك منهم أحد نادى ثالثة: يا أهل الموقف إني وكّلت بمن ذهب يخلق كخلق الله فيلقط أهل التصاوير وهم الذين يصوّرون صوراً في الكنائس لتعبد تلك الصور والذين يصوّرون الأصنام وهو قوله تعالىٰ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٥] فكانوا ينحتون لهم الأخشاب والأحجار ليعبدوها من دون الله فهؤلاء هم المصوّرون، فيلقطهم من بين الصفوف كما يلقط الطير حب السمسم، فإذا أخذهم الله عن آخرهم بقي الناس وفيهم المصوّرون الذين لا يقصدون بتصويرهم ما قصدها أولئك من عباداتها حتى يسألوا عنها لينفخوا فيها أرواحاً تحيا بها وليسوا بنافخين كما ورد في الخبر في المصوّرين، فيقفون ما شاء الله ينتظرون ما فعل الله بهم والعرق قد ألجمهم.

فحدثنا شيخنا القصار بمكة سنة تسع وتسعين وخمسمائة تجاه الركن اليمانيّ من الكعبة المعظمة وهو يونس بن يحيىٰ بن الحسين بن أبي البركات الهاشميّ العباسيّ من لفظه وأنا أسمع قال: حدّثنا أبو الفضل محمد بن عمر بن يوسف الأرمويّ قال: حدّثنا أبو بكر

محمد بن عليّ بن محمد بن موسىٰ بن جعفر المعروف بابن الخياط المغربيّ قال: قرىء على أبي سهل محمود بن عمر بن إسحاق العكبري وأنا أسمع قيل له: حدثكم رضي الله عنكم أبو بكر محمد بن الحسن النقاش؟ فقال: نعم حدثنا أبو بكر قال: حدثنا أبو بكر أحمد بن الحسين بن عليّ الطبريّ المروزي قال: حدثنا محمد بن حميد الرازيّ أبو عبد الله قال: حدثنا سلمة بن صالح قال: أنا القاسم بن الحكم عن سلام الطويل عن غياث بن المسيب عن عبد الرحمن بن غنم وزيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود قال: كنت جالساً عند عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وعنده عبد الله بن عباس رضي الله عنه وحوله عدة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال عليّ رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ فِي القِيَامَةِ لَخَمْسِينَ مَوْقِفاً كُلُّ مَوْقِفٍ أَلْفُ سَنَةٍ، فَأَوَّلُ مَوْقِفٍ إِذَا خَرَجَ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ يَقُومُونَ عَلَى أَبْوَابِ قُبُورِهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ عُرَاةً حفاةً جياعاً عطاشاً، فَمَنْ خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ مُؤْمِناً بِرَبِّهِ مُؤْمِناً بِنَبِيِّهِ مُؤْمِناً بِجَنَّتِهِ وَنَارِه مُؤْمِناً بِالبَعْثِ وَالقِيَامَةِ مُؤمِناً بِالقَضَاءِ والقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ مُصَدِّقاً بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ نَجَا وَفَازَ وَغَنِمَ وَسَعِدَ، وَمَنْ شَكَّ فِي شَيْءٍ مِنْ هٰذَا بَقِيَ فِي جُوعِهِ وَعَطَشِهِ وَغَمِّهِ وَكَرْبِهِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ ثُمَّ يُسَاقُونَ مِنْ ذٰلِكَ المقام إِلَى المَحْشَرِ فَيَقِفُونَ عَلَى أَرْجُلِهِمْ أَلْفَ عَامٍ فِي سُرَادِقَاتِ النِّيرانِ فِي حَرِّ الشَّمْسِ وَالنَّارُ عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَالنَّارُ عَنْ شَمَائِلِهِمْ والنَّارُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَالنَّارُ مِنْ خَلْفِهِمْ والشَّمْسُ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمْ وَلاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلّ العَرْشِ فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شَاهِداً لَهُ بَالإِخْلاصِ مُقِرّاً بِنَبِيِّهِ ﷺ بَرِيئاً مِنَ الشِّرْكِ وَمِنَ السِّحْرِ وَبَرِيئاً مِنْ إِهْرَاقِ دِمَاءِ المُسْلِمِينَ نَاصِحاً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ مُحِبّاً لِمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مُبْغِضاً لِمَنْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ اسْتَظَلَّ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِ الرَّحْمٰنِ وَنَجا مِنْ غَمِّهِ، وَمَنْ حَادَ عَنْ ذٰلِكَ وَوَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنْ هذهِ الذُّنوبِ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ تَغَيَّرَ قَلْبُهُ أَوْ شَكَّ فِي شَيْءٍ مِنْ دِينِهِ بَقِيَ أَلْفَ سَنَةٍ فِي الحَرِّ والهَمِّ وَالعَذَابِ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ، ثُمَّ يُسَاقُ الخَلْقُ إِلَى النُّورِ والظُّلْمَةِ فَيُقِيمُونَ فِي تِلْكَ الظُّلْمَةِ أَلْفَ عَامٍ فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَمْ يُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً وَلَمْ يَدْخُلْ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ النِّفَاقِ وَلَمْ يَشُكَّ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَأَعْطَى الحَقَّ مِنْ نَفْسِهِ وَقَالَ الحَقَّ وَأَنْصَفَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ وَأَطَاعَ اللَّهَ فِي السِّرِّ والعَلاَنِيَةِ وَرَضِيَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَنِعَ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ خَرَجَ مِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى النُّورِ فِي مِقْدَارِ طَرْفَةِ العَيْنِ مُبَيَّضاً وَجْهُهُ قَدْ نَجَا مِنَ الغُمومِ كُلِّها، وَمَنْ خَالَفَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا بَقِيَ فِي الغَمِّ والهَمِّ أَلْفَ سَنَةٍ ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا مُسْوداً وَجْهُهُ وَهُوَ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ يَفْعَلُ بِهِ مَا يَشَاءُ**».

ثم يساق الخلق إلى سرادقات الحساب وهي عشر سرادقات يقفون في كل سرادق منها ألف سنة فيسأل ابن آدم عند أول سرادق منها عن المحارم فإن لم يكن وقع في شيء منها جاز إلى السرادق الثاني فيسأل عن الأهواء فإن كان نجا منها جاز إلى السرادق الثالث. فيسأل عن عقوق الوالدين فإن لم يكن عاقاً جاز إلى السرادق الرابع فيسأل عن حقوق من فوّض الله إليه أمورهم وعن تعليمهم القرآن وعن أمر دينهم وتأديبهم فإن كان قد فعل جاز إلى السرادق الخامس فيسأل عمّا ملكت يمينه فإن كان محسناً إليهم جاز إلى السرادق السادس فيسأل عن حق قرابته فإن كان قد أدّى حقوقهم جاز إلى السرادق السابع فيسأل عن صلة الرحم فإن كان

وصولاً لرحمه جاز إلى السرادق الثامن فيسأل عن الحسد فإن كان لم يكن حاسداً جاز إلى السرادق التاسع فيسأل عن المكر فإن لم يكن مكر بأحد جاز إلى السرادق العاشر فيسأل عن الخديعة فإن لم يكن خدع أحداً نجا ونزل في ظل عرش الله تعالىٰ قارة عينه فرحاً قلبه ضاحكاً فوه، وإن كان قد وقع في شيء من هذه الخصال بقي في كل موقف منها ألف عام جائعاً عطشاناً حزناً مغموماً مهموماً لا ينفعه شفاعة شافع.

ثم يحشرون إلى أخذ كتبهم بأيمانهم وشمائلهم فيحبسون عند ذلك في خمسة عشر موقفاً كل موقف منها ألف سنة: فيسألون في أول موقف منها عن الصدقات وما فرض الله عليهم في أموالهم فمن أدّاها كاملة جاز إلى الموقف الثاني فيسأل عن قول الحق والعفو عن الناس فمن عفا عفا الله عنه وجاز إلى الموقف الثالث فيسأل عن الأمر بالمعروف فإن كان آمراً بالمعروف جاز إلى الموقف الرابع فيسأل عن النهي عن المنكر فإن كان ناهياً عن المنكر جاز إلى الموقف الخامس فيسأل عن حسن الخلق فإن كان حسن الخلق جاز إلى الموقف السادس فيسأل عن الحب في الله والبغض في الله فإن كان محباً في الله مبغضاً في الله جاز إلى الموقف السابع فيسأل عن مال الحرام فإن لم يكن أخذ شيئاً جاز إلى الموقف الثامن فيسأل عن شرب الخمر فإن لم يكن شرب من الخمر شيئاً جاز إلى الموقف التاسع فيسأل عن الفروج الحرام فإن لم يكن أتاها جاز إلى الموقف العاشر فيسأل عن قول الزور فإن لم يكن قاله جاز إلى الموقف الحادي عشر فيسأل عن الأيمان الكاذبة فإن لم يكن حلفها جاز إلى الموقف الثاني عشر فيسأل عن أكل الربا فإن لم يكن أكله جاز إلى الموقف الثالث عشر فيسأل عن قذف المحصنات فإن لم يكن قذف المحصنات أو افترى على أحد جاز إلى الموقف الرابع عشر فيسأل عن شهادة الزور فإن لم يكن شهدها جاز إلى الموقف الخامس عشر فيسأل عن البهتان فإن لم يكن بهت مسلماً مرّ فنزل تحت لواء الحمد وأعطي كتابه بيمينه ونجا من غمّ الكتاب وهوله وحوسب حساباً يسيراً. وإن كان قد وقع في شيء من هذه الذنوب ثم خرج من الدنيا غير تائب من ذلك بقي في كل موقف من هذه الخمسة عشر موقفاً ألف سنة في الغم والهول والهم والحزن والجوع والعطش حتى يقضي الله عزّ وجلّ فيه بما يشاء.

ثم يقام الناس في قراءة كتبهم ألف عام فمن كان سخياً قد قدم ما له ليوم فقره وحاجته وفاقته قرأ كتابه وهوّن عليه قراءته وكسي من ثياب الجنة وتوّج من تيجان الجنة وأقعد تحت ظل عرش الرحمن آمناً مطمئناً، وإن كان بخيلاً لم يقدم ماله ليوم فقره وفاقته أعطي كتابه بشماله ويقطع له من مقطعات النيران يقاوم على رؤوس الخلائق ألف عام في الجوع والعطش والعري والهمّ والغم والحزن والفضيحة حتى يقضي الله عزّ وجلّ فيه بما يشاء.

ثم يحشر الناس إلى الميزان فيقومون عند الميزان ألف عام فمن رجح ميزانه بحسناته فاز ونجا في طرفة عين، ومن خف ميزانه من حسناته وثقلت سيئاته حبس عند الميزان ألف عام في الغم والهمّ والحزن والعذاب والجوع والعطش حتى يقضي الله فيه بما يشاء.

ثم يدعى بالخلق إلى الموقف بين يدي الله في اثني عشر موقفاً كل موقف منها مقدار

ألف عام: فيسأل في أول موقف عن عتق الرقاب فإن كان أعتق رقبة أعتق الله رقبته من النار وجاز إلى الموقف الثاني فيسأل عن القرآن وحقّه وقراءته فإن جاء بذلك تاماً جاز إلى الموقف الثالث فيسأل عن الجهاد فإن كان جاهد في سبيل الله محتسباً جاز إلى الموقف الرابع فيسأل عن الغيبة فإن لم يكن اغتاب جاز إلى الموقف الخامس فيسأل عن النميمة فإن لم يكن نماماً جاز إلى الموقف السادس فيسأل عن الكذب فإن لم يكن كذاباً جاز إلى الموقف السابع فيسأل عن طلب العلم فإن كان طلب العلم وعمل به جاز إلى الموقف الثامن فيسأل عن العجب فإن لم يكن معجباً بنفسه في دينه ودنياه أو في شيء من عمله جاز إلى الموقف التاسع فيسأل عن التكبّر فإن لم يكن تكبّر على أحد جاز إلى الموقف العاشر فيسأل عن القنوط من رحمة الله فإن لم يكن قنط من رحمة الله جاز إلى الموقف الحادي عشر فيسأل عن الأمن من مكر الله فإن لم يكن أمن من مكر الله جاز إلى الموقف الثاني عشر فيسأل عن حق جاره فإن كان أدّى حق جاره أقيم بين يدي الله تعالىٰ قريراً عينه فرحاً قلبه مبيضاً وجهه كاسياً ضاحكاً مستبشراً فيرحب به ربه ويبشره برضاه عنه فيفرح عند ذلك فرحاً لا يعلمه أحد إلاَّ الله، فإن لم يأت بواحدة منهنّ تامة ومات غير تائب حبس عند كل موقف ألف عام حتى يقضي الله عزّ وجلّ فيه بما يشاء.

ثم يؤمر بالخلائق إلى الصراط فينتهون إلى الصراط وقد ضربت عليه الجسور على جهنم أدق من الشعر وأحد من السيف، وقد غابت الجسور في جهنم مقدار أربعين ألف عام ولهيب جهنم بجانبها يلتهب وعليها حسك وكلاليب وخطاطيف وهي سبعة جسور يحشر العباد كلهم عليها، وعلى كل جسر منها عقبة مسيرة ثلاثة آلاف عام: ألف عام صعود، وألف عام استواء، وألف عام هبوط، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [سورة الفجر: الآية ١٤] يعني على تلك الجسور وملائكة يرصدون الخلق عليها ليسأل العبد عن الإيمان بالله، فإن جاء به مؤمناً مخلصاً لا شك فيه ولا زيغ جاز إلى الجسر الثاني فيسأل عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الجسر الثالث فيسأل عن الزكاة فإن جاء بها تامّة جاز إلى الجسر الرابع فيسأل عن الصيام فإن جاء به تامّاً جاز إلى الجسر الخامس فيسأل عن حجة الإسلام فإن جاء بها تامّة جاز إلى الجسر السادس فيسأل عن الطهر فإن جاء به تامّاً جاز إلى الجسر السابع فيسأل عن المظالم فإن كان لم يظلم أحداً جاز إلى الجنة، وإن كان قصر في واحدة منهنّ حبس على كل جسر منها ألف سنة حتى يقضي الله عزّ وجلّ فيه بما يشاء.» وذكر الحديث إلى آخره. وسيأتي بقية الحديث إن شاء الله في باب الجنة فإنه يختص بالجنة، ولم نذكر النشأة الأخرى التي يحشر فيها الإنسان في باب البرزخ لأنها نشأة محسوسة غير خيالية والقيامة أمر محقق موجود حسيّ مثل ما هو الإنسان في الدنيا فلذلك أخرنا ذكرها إلى هذا الباب.

وصل: اعلم أن الناس اختلفوا في الإعادة من المؤمنين القائلين بحشر الأجسام، ولم نتعرض لمذهب من يحمل الإعادة والنشأة الآخرة على أمور عقلية غير محسوسة فإن ذلك على خلاف ما هو الأمر عليه لأنه جهل أن ثم نشأتين: نشأة الأجسام ونشأة الأرواح وهي النشأة المعنوية، فأثبتوا المعنوية ولم يثبتوا المحسوسة، ونحن نقول بما قاله هذا المخالف من

إثبات النشأة الروحانية المعنوية لا بما خالف فيه وأن عين موت الإنسان هو قيامته لكن القيامة الصغرى، فإنّ النبيّ ﷺ يقول: «**مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ**» وأن الحشر جمع النفوس الجزئية إلى النفس الكلية، هذا كله أقول به كما يقول المخالف. وإلى هنا ينتهي حديثه في القيامة.

ويختلف في ذلك بعينه من يقول بالتناسخ ومن لا يقول به وكلهم عقلاء أصحاب نظر، ويحتجون في ذلك كله بظواهر آيات من الكتاب وأخبار من السنّة إن أوردناها وتكلمنا عليها طال الباب في الخوض معهم في تحقيق ما قالوه، وما منهم من نحل نحلة في ذلك إلاّ وله وجه حق صحيح وأن القائل به فهم بعض مراد الشارع ونقصه علم ما فهمه غيره من إثبات الحشر المحسوس في الأجسام المحسوسة، والميزان المحسوس، والصراط المحسوس، والنار والجنة المحسوستان، كل ذلك حق وأعظم في القدرة، وفي علم الطبيعة بقاء الأجسام الطبيعية في الدارين إلى غير مدّة متناهية بل مستمرّة الوجود، وأن الناس ما عرفوا من أمر الطبيعة إلاّ قدر ما أطلعهم الحق عليه من ذلك ممّا ظهر لهم في مدد حركات الأفلاك والكواكب السبعة، ولهذا جعلوا العمر الطبيعيّ مائة وعشرين سنة الذي اقتضاه هذا الحكم، فإذا زاد الإنسان على هذه المدّة وقع في العمر المجهول وإن كان من الطبيعة ولم يخرج عنها، ولكن ليس في قوّة علمه أن يقطع عليه بوقت مخصوص، فكما زاد على العمر الطبيعيّ سنة وأكثر جاز أن يزيد على ذلك آلافاً من السنين، وجاز أن يمتدّ عمره دائماً.

ولولا أن الشرع عرّف بانقضاء مدة هذه الدار وأن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٥٧] وعرّف بالإعادة، وعرّف بالدار الآخرة، وعرّف بأنّ الإقامة فيها في النشأة الآخرة إلى غير نهاية ما عرفنا ذلك وما خرجنا في كل حال من موت، وإقامة، وبعث أخرويّ، ونشأة أخرى، وجنان، ونعيم، ونار، وعذاب، بأكل محسوس، وشرب محسوس، ونكاح محسوس، ولباس على المجرى الطبيعيّ، فعلم الله أوسع وأتمّ، والجمع بين العقل والحسّ والمعقول والمحسوس أعظم في القدرة وأتمّ في الكمال الإلهيّ ليستمر له سبحانه في كل صنف من الممكنات حكم ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٩٤] ويثبت حكم الاسم الظاهر والباطن في كل صنف، فإن فهمت فقد وفقت، وتعلم أن العلم الذي أطلع عليه النبيون والمؤمنون من قبل الحق أعم تعلقاً من علم المنفردين بما تقتضيه العقول مجرّدة عن الفيض الإلهيّ، فالأولى بكل ناصح نفسه الرجوع إلى ما قالته الأنبياء والرسل على الوجهين المعقول والمحسوس إذ لا دليل للعقل يحيل ما جاءت به الشرائع على تأويل مثبتي المحسوس من ذلك والمعقول، فالإمكان باق حكمه والمرجح موجود فبماذا يحيل، وما أحسن قول القائل: [الكامل]

زعم المنجِّمُ والطبيبُ كلاهما ... لا تُبْعث الأجسامُ قلت إليكُمَا
إن صحَّ قولُكما فلستُ بخاسر ... أو صحَّ قولي فالخَسَارُ عليكُمَا

فقوله: فالخسار عليكما يريد حيث لم يؤمنوا بظاهر ما جاءتهم به الرسل عليهم السلام، وقوله: فلست بخاسر فإني مؤمن أيضاً بالأمور المعنوية المعقولة مثلكم وزدنا عليكم بأمر آخر لم

تؤمنوا أنتم به ولم يرد القائل به أنه يشك بقوله: إن صحّ، وإنما ذلك على مذهبك أيها المخاطب، وهذا يستعمل مثله كثير، فتدبر كلامي هذا وألزم الإيمان نفسك تربح وتسعد إن شاء الله تعالىٰ.

وبعد أن تقرّر هذا فاعلم أن الخلاف الذي وقع بين المؤمنين القائلين في ذلك بالحسّ والمحسوس إنما هو راجع إلى كيفية الإعادة، فمنهم من ذهب إلى أن الإعادة تكون في الناس مثل ما بدأهم بنكاح وتناسل وابتداء خلق من طين ونفخ كما جرى من خلق آدم وحوّاء وسائر البنين من نكاح واجتماع إلى آخر مولود في العالم البشريّ الإنسانيّ، وكل ذلك في زمان صغير ومدّة قصيرة على حسب ما يقدّره الحق تعالىٰ، هكذا زعم الشيخ أبو القاسم بن قسيّ في خلع النعلين له في قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩] فلا أدري هل هو مذهبه أو هل قصد شرح المتكلم به وهو خلف الله الذي جاء بذلك الكلام وكان من الأميين؟ ومنهم من قال بالخبر المروي أنّ السماء تمطر مطراً شبه المني تمخض به الأرض فتنشأ منه النشأة الآخرة.

وأمّا قوله تعالىٰ عندنا: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩] هو قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٦٢] وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٤] وقد علمنا أن النشأة الأولى أوجدها الله تعالىٰ على غير مثال سبق، فهكذا النشأة الآخرة يوجدها الله تعالىٰ على غير مثال سبق مع كونها محسوسة بلا شك. وقد ذكر رسول الله ﷺ من صفة نشأة أهل الجنة والنار ما يخالف ما هي عليه هذه النشأة الدنيا، فعلمنا أن ذلك راجع إلى عدم مثال سابق ينشئها عليه وهو أعظم في القدرة. وأمّا قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [سورة الروم: الآية ٢٧] فلا يقدح فيما قلنا، فإنه لو كانت النشأة الأولى عن اختراع فكر وتدبّر ونظر إلى أن خلق أمراً فكانت إعادته إلى أن يخلق خلقاً آخر ممّا يقارب ذلك ويزيد عليه أقرب للاختراع والاستحضار في حق من يستفيد الأمور بفكره والله منزّه عن ذلك ومتعال عنه عُلواً كَبِيراً فهو الذي يفيد العالم ولا يستفيد، ولا يتجدّد له علم بشيء، بل هو عالم بتفصيل ما لا يتناهى بعلم كليّ فعلم التفصيل في عين الإجمال، وهكذا ينبغي لجلاله أن يكون فينشىء الله النشأة الآخرة على عجب الذنب الذي يبقى من هذه النشأة الدنيا وهو أصلها فعليه تركب النشأة الآخرة.

فأمّا أبو حامد فرأى أن العجب المذكور في الخبر أنه النفس وعليها تنشأ النشأة الآخرة. وقال غيره مثل أبي زيد الرقراقي: هو جوهر فرد يبقى من هذه النشأة الدنيا لا يتغير عليه تنشأ النشأة الأخرى، وكل ذلك محتمل ولا يقدح في شيء من الأصول، بل كلها توجيهات معقولة يحتمل كل توجيه منها أن يكون مقصوداً، والذي وقع لي به الكشف الذي لا أشك فيه أن المراد بعجب الذنب هو ما تقوم عليه النشأة وهو لا يبلى أي لا يقبل البلى، فإذا أنشأ الله النشأة الآخرة وسوّاها وعدّلها وإن كانت هي الجواهر بأعيانها فإن الذوات الخارجة إلى الوجود من العدم لا تنعدم أعيانها بعد وجودها، ولكن تختلف فيها الصور بالامتزاجات، والامتزاجات التي تعطي هذه الصور أعراض تعرض لها بـ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [سورة يس: الآية ٣٨] فإذا

تهيأت هذه الصور كانت كالحشيش المحرق وهو الاستعداد لقبول الأرواح كاستعداد الحشيش بالنارية التي فيه لقبول الاشتعال والصور البرزخية كالسرج مشتعلة بالأرواح التي فيها فينفخ إسرافيل نفخة واحدة فتمر تلك النفخة على تلك الصور البرزخية فتطفئها وتمر النفخة التي تليها وهي الأخرى إلى الصورة المستعدة للاشتعال وهي النشأة الأخرى فتشتعل بأرواحها، فإذا هم قيام ينظرون فتقوم تلك الصور أحياء ناطقة بما ينطقها الله به، فمن ناطق بالحمد لله، ومن ناطق يقول: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [سورة يس: الآية ٥٢] ومن ناطق يقول سبحان من أحيانا بعدما أماتنا ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [سورة الملك: الآية ١٥] وكل ناطق ينطق بحسب علمه وما كان عليه ونسي حاله في البرزخ ويتخيل أن ذلك الذي كان فيه منام كما تخيله المستيقظ وقد كان حين مات وانتقل إلى البرزخ كان كالمستيقظ هناك، وأن الحياة الدنيا كانت له كالمنام، وفي الآخرة يعتقد في أمر الدنيا والبرزخ أنه منام في منام، وأن اليقظة الصحيحة هي التي هو عليها في الدار الآخرة، وهو في ذلك الحال يقول: إن الإنسان في الدنيا كان في منام، ثم انتقل بالموت إلى البرزخ فكان في ذلك بمنزلة من يرى في المنام أنه استيقظ من النوم، ثم بعد ذلك في النشأة الآخرة هي اليقظة التي لا نوم فيها ولا نوم بعدها لأهل السعادة لكن لأهل النار وفيها راحتهم كما قدمنا.

وقال رسول الله ﷺ: **«النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهوا»**، فالدنيا بالنسبة إلى البرزخ نوم ومنام، فإن البرزخ أقرب إلى الأمر الحق فهو أولى باليقظة، والبرزخ بالنظر إلى النشأة الأخرى يوم القيامة منام فاعلم ذلك، فإذا قام الناس، ومدت الأرض، وانشقت السماء، وانكدرت النجوم، وكوّرت الشمس، وخسف القمر، وحشر الوحوش، وسجّرت البحار، وزوجت النفوس بأبدانها، ونزلت الملائكة على أرجائها أعني أرجاء السموات، وأتى ربنا في ظلل من الغمام، ونادى المنادي: يا أهل السعادة فأخذ منهم الثلاث الطوائف الذين ذكرناهم وخرج العنق من النار فقبض الثلاث الطوائف الذين ذكرناهم، وماج الناس، واشتد الحرّ، وألجم الناس العرق، وعظم الخطب، وجلّ الأمر، وكان البهت فلا تسمع إلاَّ همساً وجيء بجهنم وطال الوقوف بالناس ولم يعلموا ما يريد الحق بهم فقال رسول الله ﷺ: فيقول الناس بعضهم لبعض: تعالوا ننطلق إلى أبينا آدم فنسأله أن يسأل الله لنا أن يريحنا ممّا نحن فيه فقد طال وقوفنا فيأتون إلى آدم فيطلبون منه ذلك فيقول آدم: إن الله قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وذكر خطيئته فيستحي من ربه أن يسأله، فيأتون إلى نوح بمثل ذلك فيقول لهم مثل ما قال آدم ويذكر دعوته على قومه، وقوله: ولا يلدوا إلاَّ فاجراً كفاراً فموضع المؤاخذة عليه قوله: ولا يلدوا إلاَّ فاجراً كفاراً لا نفس دعائه عليهم من كونه دعاء.

ثم يأتون إلى إبراهيم عليه السلام بمثل ذلك فيقولون له مثل مقالتهم لمن تقدم فيقول كما قال من تقدم ويذكر كذباته الثلاث. ثم يأتون إلى موسىٰ وعيسىٰ ويقولون لكل واحد من الرسل مثل ما قالوه لآدم فيجيبونهم مثل جواب آدم، فيأتون إلى محمد ﷺ وهو سيد الناس

يوم القيامة فيقولون له مثل ما قالوا للأنبياء فيقول محمد ﷺ: أنا لها وهو المقام المحمود الذي وعده الله به يوم القيامة، فيأتي ويسجد ويحمد الله بمحامد يلهمه الله تعالىٰ إياها في ذلك الوقت لم يكن يعلمها قبل ذلك، ثم يشفع إلى ربه أن يفتح باب الشفاعة للخلق فيفتح الله ذلك الباب فيأذن في الشفاعة للملائكة والرسل والأنبياء والمؤمنين، فبهذا يكون سيد الناس يوم القيامة فإنه شفع عند الله أن تشفع الملائكة والرسل، ومع هذا تأدّب ﷺ وقال: أنا سيد الناس ولم يقل سيد الخلائق، فتدخل الملائكة في ذلك مع ظهور سلطانه في ذلك اليوم على الجميع وذلك أنه ﷺ جمع له بين مقامات الأنبياء عليهم السلام كلهم ولم يكن ظهر له على الملائكة ما ظهر لآدم عليه السلام عليهم من اختصاصه بعلم الأسماء كلها، فإذا كان في ذلك اليوم افتقر إليه الجميع من الملائكة والناس من آدم فمن دونه في فتح باب الشفاعة وإظهار ماله من الجاه عند الله، إذ كان القهر الإلهي والجبروت الأعظم قد أخرس الجميع، وكان هذا المقام مثل مقام آدم عليه السلام وأعظم في يوم اشتدّت الحاجة فيه مع ما ذكر من الغضب الإلهيّ الذي تجلّى فيه الحق في ذلك اليوم، ولم تظهر مثل هذه الصفة فيما جرى من قضية آدم، فدل بالمجموع على عظيم قدره ﷺ حيث أقدم مع هذه الصفة الغضبية الإلهية على مناجاة الحق فيما سأل فيه فأجابه الحق سبحانه، فعلقت الموازين، ونشرت الصحف، ونصب الصراط، وبدىء بالشفاعة، فأول ما شفعت الملائكة ثم النبيون ثم المؤمنون وبقي أرحم الراحمين.

وهنا تفصيل عظيم يطول الكلام فيه فإنه مقام عظيم. غير أن الحق يتجلى في ذلك اليوم فيقول: لتتبع كل أمّة ما كانت تعبد حتى تبقى هذه الأمّة وفيها منافقوها، فيتجلى لهم الحق في أدنى صورة من الصور التي كان تجلى لهم فيها قبل ذلك فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك ها نحن منتظرون حتى يأتينا ربنا، فيقول لهم جلّ وتعالىٰ: هل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها؟ فيقولون: نعم فيتحوّل لهم في الصورة التي عرفوه فيها بتلك العلامة فيقولون: أنت ربنا فيأمرهم بالسجود فلا يبقى من كان يسجد لله إلاّ سجد، ومن كان يسجد اتقاء ورياء جعل الله ظهره طبقة نحاس كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه وذلك قوله: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ [سورة القلم: الآية ٤٢] ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾ [سورة القلم: الآية ٤٣] يعني في الدنيا، والساق التي كشفت لهم عبارة عن أمر عظيم من أهوال يوم القيامة تقول العرب: كشفت الحرب عن ساقها إذا اشتدّت الحرب وعظم أمرها، وكذلك ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [سورة القيامة: الآية ٢٩] أي دخلت الأهوال والأمور العظام بعضها في بعض يوم القيامة، فإذا وقعت الشفاعة ولم يبق في النار مؤمن شرعيّ أصلاً ولا من عمل عملاً مشروعاً من حيث ما هو مشروع بلسان نبيّ ولو ﴿كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٤٧] فما فوق ذلك في الصغر إلاّ خرج بشفاعة النبيين والمؤمنين.

وبقي أهل التوحيد الذين علموا التوحيد بالأدلة العقلية ولم يشركوا بالله شيئاً ولا آمنوا إيماناً شرعياً ولم يعملوا خيراً قط من حيث ما اتبعوا فيه نبياً من الأنبياء، فلم يكن عندهم ذرّة من إيمان فما دونها فيخرجهم أرحم الراحمين، وما عملوا خيراً قط يعني مشروعاً من حيث ما

هو مشروع ولا خير أعظم من الإيمان وما عملوه. وهذا حديث عثمان بن عفان في الصحيح لمسلم بن الحجاج: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ** - ولم يقل يؤمن - **أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ الله دَخَلَ الجَنَّةَ**» ولا قال يقول بل أفرد العلم. ففي هؤلاء تسبق عناية الله في النار، فإن النار بذاتها لا تقبل تخليد موحد لله بأيّ وجه كان، وأتمّ وجوهه الإيمان عن علم، فجمع بين العلم والإيمان، فإن قلت: فإن إبليس يعلم أن الله واحد. قلنا: صدقت ولكنه أوّل من سنّ الشرك فعليه إثم المشركين، وإثمهم أنهم لا يخرجون من النار، هذا إذا ثبت أنه مات موحداً، وما يدريك لعله مات مشركاً لشبهة طرأت عليه في نظره. وقد تقدّم الكلام على هذه المسألة فيما مضى من الأبواب فإبليس ليس بخارج من النار، فالله يعلم أيّ ذلك كان، وهنا علوم كثيرة وفيها طول يخرجنا عن المقصود من الاختصار إيرادها، ولكن مع هذا فلا بدّ أن نذكر نبذة من كل موطن مشهور من مواطن القيامة كالعرض وأخذ الكتب والميزان والصراط والأعراف وذبح الموت والمأدبة التي تكون في ميدان الجنة فهذه سبعة مواطن لا غير وهي أمّهات للسبعة الأبواب التي للنار والسبعة الأبواب التي للجنة، فإنّ الباب الثامن هو لجنة الرؤية وهو الباب المغلق الذي في النار وهو باب الحجاب فلا يفتح أبداً فإن أهل النار محجوبون عن ربهم:

الأول وهو العرض: اعلم أنه قد ورد في الخبر أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [سورة الانشقاق: الآية ٨] فقال: **ذٰلِكَ العَرْضُ يَا عَائِشَةُ مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ**» وهو مثل عرض الجيش أعني عرض الأعمال لأنها زيّ أهل الموقف والله الملك ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٤١] كما يعرف الأجناد هنا بزيهم.

الثاني الكتب: قال تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٤] وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [سورة الحاقة: الآية ١٩] وهو المؤمن السعيد ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [سورة الحاقة: الآية ٢٥] وهو المنافق، فإن الكافر لا كتاب له فالمنافق سلب عنه الإيمان وما أخذ منه الإسلام فقيل في المنافق ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الحاقة: الآية ٣٣] فيدخل فيه المعطل والمشرك والمتكبر على الله ولم يتعرض للإسلام، فإن المنافق ينقاد ظاهراً ليحفظ ماله وأهله ودمه ويكون في باطنه واحداً من هؤلاء الثلاثة. وإنما قلنا إن هذه الآية تعم الثلاثة فإن قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ معناه لا يصدق بالله، والذين لا يصدقون بالله هم طائفتان: طائفة لا تصدق بوجود الله وهم المعطلة، وطائفة لا تصدق بتوحيد الله وهم المشركون. وقوله ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ في هذه الآية يدخل فيها المتكبر على الله فإنه لو اعتقد عظمة الله التي يستحقها من يسمى بالله لم يتكبر عليه، وهؤلاء الثلاثة مع هذا المنافق الذي تميز عنهم بخصوص وصف هم أهل النار الذين هم أهلها ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [سورة الانشقاق: الآية ١٠] فهم: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨٧] فإذا كان يوم القيامة قيل له: خذه من وراء ظهرك أي من الموضع الذي نبذته فيه في حياتك الدنيا فهو كتابهم المنزّل عليهم لا كتاب الأعمال، فإنه حين نبذه وراء ظهره ﴿ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [سورة الانشقاق: الآية ١٤] أي تيقن قال الشاعر: فقلت لهم

ظنّوا بألفي مدجج. أي تيقنوا. ورد في الصحيح: «**يَقُول الله لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَظَنَنْتَ أَنَّك مُلاقِيّ**» **وقال تعالى**: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢٣].

الثالث الموازين: فتوضع الموازين لوزن الأعمال فيجعل فيها الكتب بما عملوا، وآخر ما يوضع في الميزان قول الإنسان: الحمد لله، ولهذا قال ﷺ: «**الحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ المِيزَانَ**» فإنه يلقى في الميزان جميع أعمال العباد إلاّ كلمة لا إله إلاّ الله فيبقى من ملئه تحميدة فتجعل فيمتلىء بها، فإن كفة ميزان كل أحد بقدر عمله من غير زيادة ولا نقصان، وكل ذكر وعمل يدخل الميزان إلاّ لا إله إلاّ الله كما قلنا، وسبب ذلك أن كل عمل خير له مقابل من ضدّه فيجعل هذا الخير في موازنته، ولا يقابل لا إله إلاّ الله إلاّ الشرك، ولا يجتمع توحيد وشرك في ميزان أحد، لأنه إن قال: لا إله إلاّ الله معتقداً لها فما أشرك، وإن أشرك فما اعتقد لا إله إلاّ الله، فلما لم يصحّ الجمع بينهما لم يكن لكلمة لا إله إلاّ الله من يعادلها في الكفة الأخرى ولا يرجحها شيء فلهذا لا تدخل الميزان. وأمّا المشركون ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٥] أي لا قدر لهم ولا يوزن لهم عمل ولا من هو من أمثالهم ممّن كذب بلقاء الله وكفر بآياته، فإن أعمال خير المشرك محبوطة فلا يكون لشرّهم ما يوازنه ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾.

وأما صاحب السجلات فإنه شخص لم يعمل خيراً قط إلاّ أنه تلفظ يوماً بكلمة لا إله إلاّ الله مخلصاً فتوضع له في مقابلة التسعة والتسعين سجلاً من أعمال الشرّ كل سجل منها كما بين المغرب والمشرق وذلك لأنه ما له عمل خير غيرها، فترجح كفتها بالجميع وتطيش السجلات فيتعجب من ذلك ولا يدخل الموازين إلاّ أعمال الجوارح شرّها وخيرها: السمع والبصر واللسان واليد والبطن والفرج والرجل. وأما الأعمال الباطنة فلا تدخل الميزان المحسوس لكن يقام فيها العدل وهو الميزان الحكمي المعنوي محسوس لمحسوس ومعنى لمعنى يقابل كل شيء بمثله، فلهذا توزن الأعمال من حيث ما هي مكتوبة.

الرابع الصراط: وهو الصراط المشروع الذي كان هنا معنى ينصب هنالك حسّاً محسوساً يقول الله لنا: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣] ولما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية خطّ خطاً وخطّ عن جنبتيه خطوطاً هكذا: ||||/|||| وهذا هو صراط التوحيد ولوازمه وحقوقه. قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ وحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ**» أراد بقوله: وحسابهم على الله أنه لا يعلم أنهم قالوها معتقدين لها إلاّ الله، فالمشرك لا قدم له على صراط التوحيد وله قدم على صراط الوجود، والمعطل لا قدم له على صراط الوجود فالمشرك ما وحّد الله هنا فهو من الموقف إلى النار مع المعطلة ومن هو من أهل النار الذين هم أهلها إلاّ المنافقين فلا بدّ لهم أن ينظروا إلى الجنة وما فيها من النعيم فيطمعون فذلك نصيبهم من نعيم الجنان ثم يصرفون إلى النار وهذا من عدل الله فقوبلوا بأعمالهم، والطائفة التي لا تخلد في النار إنما تمسك وتسأل وتعذب على الصراط،

والصراط على متن جهنم غائب فيها والكلاليب التي فيه بها يمسكهم الله عليه.

ولما كان الصراط في النار وما ثم طريق إلى الجنة إلاَّ عليه قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٧١] ومن عرف معنى هذا القول عرف مكان جهنم ما هو، ولو قاله النبي ﷺ لما سُئِل عنه لقلته فما سكت عنه وقال في الجواب في علم الله إلاَّ بأمر إلهيّ فإنه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [سورة النجم: الآية ٣] وما هو من أمور الدنيا فسكوتنا عنه هو الأدب، وقد أتى في صفة الصراط أنه أدق من الشعر وأحدّ من السيف، وكذا هو علم الشريعة في الدنيا لا يعلم وجه الحق في المسألة عند الله ولا من هو المصيب من المجتهدين بعينه، ولذلك تعبدنا بغلبات الظنون بعد بذل المجهود في طلب الدليل لا في المتواتر ولا في خبر الواحد الصحيح المعلوم، فإن المتواتر وإن أفاد العلم فإن العلم المستفاد من التواتر إنما هو عين هذا اللفظ أو العلم أن رسول الله ﷺ قاله أو عمل به، ومطلوبنا بالعلم ما يفهم من ذلك القول والعمل حتى يحكم في المسألة على القطع، وهذا لا يوصل إليه إلاَّ بالنص الصريح المتواتر، وهذا لا يوجد إلاَّ نادراً مثل قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦] في كونها عشرة خاصة فحكمها بالشرع أحدّ من السيف وأدقّ من الشعر في الدنيا، فالمصيب للحكم واحد لا بعينه، والكل مصيب للأجر، فالشرع هنا هو الصراط المستقيم، ولا يزال في كل ركعة من الصلاة يقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٦] فهو أحدّ من السيف وأدق من الشعر، فظهوره في الآخرة محسوس أبين وأوضح من ظهوره في الدنيا إلاَّ لمن دعا إلى الله على بصيرة كالرسول وأتباعه، فألحقهم الله بدرجة الأنبياء في الدعاء إلى الله على بصيرة أي على علم وكشف. وقد ورد في الخبر: «**إِنَّ الصِّرَاطَ يَظْهَرُ يَوْمَ القِيَامَةِ مَتْنُهُ لِلأَبْصَارِ عَلَى قَدْرِ نُورِ المارّينَ عَلَيْهِ فَيَكُونُ دَقِيقاً فِي حَقِّ قَوْمٍ وَعَرِيضاً فِي حَقِّ آخَرِينَ**» يصدق هذا الخبر قوله تعالىٰ: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ والسعي مشي وما ثم طريق إلاَّ الصراط. وإنما قال ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [سورة التحريم: الآية ٨] لأن المؤمن في الآخرة لا شمال له، كما أن أهل النار لا يمين لهم، هذا بعض أحوال ما يكون على الصراط.

وأمّا الكلاليب والخطاطيف والحسك كما ذكرنا هي من صور أعمال بني آدم تمسكهم أعمالهم تلك على الصراط فلا ينتهضون إلى الجنة ولا يقعون في النار حتى تدركهم الشفاعة والعناية الإلهية كما قررنا، فمن تجاوز هنا تجاوز الله عنه هناك، ومن أنظر معسراً أنظره الله، ومن عفا عفا الله عنه، ومن استقصى حقّه هنا من عباده استقصى الله حقّه منه هناك، ومن شدّد على هذه الأمة شدّد الله عليه، وإنما هي أعمالكم تردّ عليكم فالتزموا مكارم الأخلاق فإن الله غداً يعاملكم بما عاملتم به عباده كان ما كان وكانوا ما كانوا.

الخامس الأعراف: وأما الأعراف فسور بين الجنة والنار باطنه فيه الرحمة وهو ما يلي الجنة منه، وظاهره من قبله العذاب وهو ما يلي النار منه يكون عليه من تساوت كفتا ميزانه، فهم ينظرون إلى النار وينظرون إلى الجنة وما لهم رجحان بما يدخلهم أحد الدارين، فإذا دعوا إلى السجود وهو الذي يبقى يوم القيامة من التكليف فيسجدون فيرجح ميزان حسناتهم

فيدخلون الجنة وقد كانوا ينظرون إلى النار بما لهم من السيئات، وينظرون إلى الجنة بما لهم من الحسنات، ويرون رحمة الله فيطمعون وسبب طمعهم أيضاً أنهم من أهل لا إله إلاّ الله ولا يرونها في ميزانهم ويعلمون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [سورة النساء: الآية ٤٠] ولو جاءت ذرة لإحدى الكفتين لرجحت بها لأنهما في غاية الاعتدال، فيطمعون في كرم الله وعدله، وأنه لا بدّ أن يكون لكلمة لا إله إلاّ الله عناية بصاحبها يظهر لها أثر عليهم، يقول عزّ وجلّ فيهم: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٤٦] كما نادوا أيضاً: ﴿وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٤٧] والظلم هنا الشرك لا غير.

السادس: ذبح الموت: الموت وإن كان نسبة فإن الله يظهره يوم القيامة في صورة كبش أملح وينادي: يا أهل الجنة فيشرئبون، وينادي: يا أهل النار فيشرئبون وليس في النار في ذلك الوقت إلاّ أهلها الذين هم أهلها، فيقال للفريقين: أتعرفون هذا وهو بين الجنة والنار؟ فيقولون: هو الموت، ويأتي يحيىٰ عليه السلام وبيده الشفرة فيضجعه ويذبحه، وينادي مناد: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، وذلك هو يوم الحسرة. فأمّا أهل الجنة إذا رأوا الموت سرّوا برؤيته سروراً عظيماً ويقولون له: بارك الله لنا فيك لقد خلصتنا من نكد الدنيا وكنت خير وارد علينا وخير تحفة أهداها الحق إلينا، فإنّ النبيّ ﷺ يقول: «**المَوْتُ تُحْفَةُ المُؤْمِنِ**» وأمّا أهل النار إذا أبصروه يفرقون منه ويقولون له: لقد كنت شرّ وارد علينا حلت بيننا وبين ما كنّا فيه من الخير والدعة، ثم يقولون له: عسى تميتنا فنستريح ممّا نحن فيه، وإنما سمّي يوم الحسرة لأنه حسر للجميع أي ظهر عن صفة الخلود الدائم للطائفتين ثم تغلق أبواب النار غلقاً لا فتح بعده وتنطبق النار على أهلها ويدخل بعضها في بعض ليعظم انضغاط أهلها فيها ويرجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها وترى الناس والشياطين فيها كقطع اللحم في القدر إذ كان تحتها النار العظيمة تغلي كغلي الحميم فتدور بمن فيها علواً وسفلاً ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩٧] بتبديل الجلود.

السابع المأدبة: وهي مأدبة الملك لأهل الجنة، وفي ذلك الوقت يجتمع أهل النار في مندبة، فأهل الجنة في المآدب وأهل النار في المنادب وطعامهم في تلك المأدبة زيادة كبد النون وأرض الميدان درمكة بيضاء مثل القرصة ويخرج من الثور الطحال لأهل النار فيأكل أهل الجنة من زيادة كبد النون وهو حيوان بحريّ مائيّ فهو من عنصر الحياة المناسبة للجنة والكبد بيت الدم وهو بيت الحياة والحياة حارة رطبة، وبخار ذلك الدم هو النفس المعبر عنه بالروح الحيوانيّ الذي به حياة البدن فهو بشارة لأهل الجنة ببقاء الحياة عليهم، وأما الطحال في جسم الحيوان فهو بيت الأوساخ فإن فيه تجتمع أوساخ البدن وهو ما يعطيه الكبد من الدم الفاسد فيعطى لأهل النار يأكلونه وهو من الثور والثور حيوان ترابيّ طبعه البرد واليبس وجهنم على صورة الجاموس والطحال من الثور لغذاء أهل النار أشدّ مناسبة فيما في الطحال من الدمية لا يموت أهل النار وبما فيه من أوساخ البدن، ومن الدم الفاسد المؤلم لا يحيون ولا

ينعمون فيورثهم أكله سقماً ومرضاً، ثم يدخل أهل الجنة الجنة فما هم منها بمخرجين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء التاسع والعشرون.

(الجزء الثلاثون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الخامس والستون

في معرفة الجنة ومنازلها ودرجاتها وما يتعلق بهذا الباب

[نظم: البسيط]

مراتبُ الجنَّة المَحْسُوسَةِ انقسمَتْ ... إلى منازلَ والأعمالُ تطلبُهَا
فكل ذي عمل تجري ركائبُه ... به إليها ورُسْلُ الله تحجبُهَا
وجنَّةُ الاختصاصات التي انْفَهَقَتْ ... للمكرمين جنانُ الوِرْث تعْقُبُهَا
نورُ الكواكب كنا نستضيء بها ... ونورُنا اليوم في عَدْنٍ مُكَوْكِبُهَا
لو أن غيرَ صراط العرش مركبُنا ... لزال عند ورود الشَّرْع مركبُهَا
فصالحُ العمل المشروع يُظهرها ... نوراً ومن ذاته الإجلالُ يكسبُهَا

اعلم أيّدنا الله وإياك أن الجنة جنتان: جنة محسوسة وجنة معنوية، والعقل يعقلهما معاً، كما أن العالم عالمان: عالم لطيف وعالم كثيف، وعالم غيب وعالم شهادة، والنفس الناطقة المخاطبة المكلفة لها نعيم بما تحمله من العلوم والمعارف من طريق نظرها وفكرها وما وصلت إليه من ذلك بالأدلة العقلية، ونعيم بما تحمله من اللذات والشهوات ممّا يناله بالنفس الحيوانية من طريق قواها الحسيّة من أكل وشرب ونكاح ولباس وروائح ونغمات طيبة تتعلق بها الأسماع، وجمال حسيّ في صورة حسنة معشوقة يعطيها البصر في نساء كاعبات ووجوه حسان وألوان متنوّعة وأشجار وأنهار، كل ذلك تنقله الحواس إلى النفس الناطقة فتلتذّ به من جهة طبيعتها، ولو لم يلتذ به إلاّ الروح الحساس الحيوانيّ لا النفس الناطقة لكان الحيوان يلتذّ بالوجه الجميل من المرأة المستحسنة والغلام الحسن الوجه والألوان والمصاغ، فلما لم نر شيئاً من الحيوان يلتذ بشيء من ذلك علمنا قطعاً أن النفس الناطقة هي التي تلتذ بجميع ما تعطيه القوّة الحسيّة ممّا تشاركها في إدراكها الحيوانات وممّا لا تشاركها فيه.

واعلم أن الله خلق هذه الجنة المحسوسة بطالع الأسد الذي هو الإقليد وبرجه هو الأسد، وخلق الجنة المعنوية التي هي روح هذه الجنة المحسوسة من الفرح الإلهيّ من صفة الكمال والابتهاج والسرور، فكانت الجنة المحسوسة كالجسم، والجنة المعقولة كالروح وقواه، ولهذا سمّاها الحق تعالىٰ الدار الحيوان لحياتها، فأهلها يتنعمون فيها حسّاً ومعنى، فالمعنى الذي هو اللطيفة الإنسانية، والجنة أيضاً أشد تنعماً بأهلها الداخلين فيها ولهذا تطلب ملأها من الساكنين، وقد ورد في خبر عن النبي ﷺ: «**إِنَّ الجَنَّةَ اشْتَاقَتْ إِلَى بِلَالٍ وَعَلِيٍّ وَعَمَّارٍ وسَلْمَانَ**» فوصفها بالشوق إلى هؤلاء، وما أحسن موافقة هذه الأسماء لما في شوقها

من المعاني، فإن الشوق من المشتاق فيه ضرب ألم لطلب اللقاء، وبلال من أبلّ الرجل من مرضه واستبلّ ويقال: بلّ الرجل من دائه وبلال معناه، وسلمان من السلامة من الآلام والأمراض، وعمار أي بعمارتها بأهلها يزول ألمها فإنّ الله سبحانه يتجلى لعباده فيها، فعليّ يعلو بذلك التجلي شأنها على النار التي هي أختها حيث فازت بدرجة التجلي والرؤية إذ كانت النار دار حجاب، فانظر في موافقة هذه الأسماء الأربعة لصورة حال الجنة حين وصفها بالشوق إلى هؤلاء الأصحاب من المؤمنين.

والناس على أربع مراتب في هذه المسألة: فمنهم من يشتهي ويشتهى وهم الأكابر من رجال الله من رسول ونبيّ ووليّ كامل. ومنهم من يشتهى ولا يشتهي وهم أصحاب الأحوال من رجال الله المهيمون في جلال الله الذين غلب معناهم على حسّهم وهم دون الطبقة الأولى فإنهم أصحاب أحوال. ومنهم من يشتهي ولا يشتهى وهم عصاة المؤمنين. ومنهم من لا يشتهي ولا يشتهى وهم المكذبون بيوم الدين والقائلون بنفي الجنة المحسوسة، ولا خامس لهؤلاء الأربعة الأصناف. واعلم أن الجنات ثلاث جنات: جنة اختصاص إلهي وهي التي يدخلها الأطفال الذين لم يبلغوا حدّ العمل، وحدّهم من أوّل ما يولد إلى أن يستهل صارخاً إلى انقضاء ستة أعوام، ويعطي الله من شاء من عباده من جنات الاختصاص ما شاء، ومن أهلها: المجانين الذين ما عقلوا، ومن أهلها: أهل التوحيد العلميّ، ومن أهلها: أهل الفترات ومن لم تصل إليهم دعوة رسول. والجنة الثانية: جنة ميراث ينالها كل من دخل الجنة ممّن ذكرنا ومن المؤمنين وهي الأماكن التي كانت معينة لأهل النار لو دخلوها. والجنة الثالثة: جنة الأعمال وهي التي ينزل الناس فيها بأعمالهم، فمن كان أفضل من غيره في وجود التفاضل كان له من الجنة أكثر، وسواء كان الفاضل دون المفضول أو لم يكن غير أنه فضله في هذا المقام بهذه الحالة، فما من عمل من الأعمال إلاّ وله جنة، ويقع التفاضل فيها بين أصحابها بحسب ما تقتضي أحوالهم. ورد في الحديث الصحيح عن النبيّ ﷺ أنه قال لبلال: «**يَا بِلاَلُ بِمَ سَبَقْتَنِي إِلَى الجَنَّةِ فَمَا وَطِئْتُ مِنْهَا مَوْضِعاً إِلاَّ سَمِعْتُ خَشْخَشَتَكَ أَمَامِي؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَحْدَثْتُ قَطّ إِلاَّ تَوَضَّأْتُ، وَلاَ تَوَضَّأْتُ إِلاَّ صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ. فقال رسول الله ﷺ: بِهِمَا**» فعلمنا أنها كانت جنة مخصوصة بهذا العمل، فكان رسول الله ﷺ يقول لبلال بم نلت أن تكون مطرقاً بين يديّ تحجبني من أين لك هذه المسابقة إلى هذه المرتبة، فلما ذكر له ذلك قال له ﷺ: «**بِهِمَا**» فما من فريضة ولا نافلة ولا فعل خير ولا ترك محرّم ومكروه إلاّ وله جنة مخصوصة ونعيم خاص يناله من دخلها.

والتفاضل على مراتب: فمنها بالسنّ ولكن في الطاعة والإسلام، فيفضل الكبير السنّ على الصغير السنّ إذا كانا على مرتبة واحدة من العمل بالسنّ فإنه أقدم منه فيه، ويفضل أيضاً بالزمان فإن العمل في رمضان وفي يوم الجمعة وفي ليلة القدر وفي عشر ذي الحجة وفي عاشوراء أعظم من سائر الأزمان وكل زمان عينه الشارع، وتقع المفاضلة بالمكان كالمصلي في المسجد الحرام أفضل من صلاة المصلي في مسجد المدينة، وكذلك الصلاة في مسجد

المدينة أفضل من الصلاة في المسجد الأقصى، وهكذا فضّل الصلاة في المسجد الأقصى على سائر المساجد، ويتفاضلون أيضاً بالأحوال فإن الصلاة في الجماعة في الفريضة أفضل من صلاة الشخص وحده وأشباه هذا، ويتفاضلون بالأعمال فإن الصلاة أفضل من إماطة الأذى، وقد فضّل الله الأعمال بعضها على بعض، ويتفاضلون أيضاً في نفس العمل الواحد كالمتصدّق على رحمه فيكون صاحب صلة رحم وصدقة، والمتصدّق على غير رحمه دونه في الأجر، وكذلك من أهدى هدية لشريف من أهل البيت أفضل ممّن أهدى لغير شريف أو برّه أو أحسن إليه.

ووجوه المفاضلة كثيرة في الشرع وإن كانت محصورة ولكن أريتك منها أنموذجاً تعرف به ما قصدناه بالمفاضلة والرسل عليهم السلام، إنما ظهر فضلها في الجنة على غيرها بجنة الاختصاص. وأما بالعمل فهم في جنات الأعمال بحسب الأحوال كما ذكرنا، وكل من فضل غيره ممّن ليس في مقامه فمن جنات الاختصاص لا من جنات الأعمال، ومن الناس من يجمع في الزمن الواحد أعمالاً كثيرة فيصرف سمعه فيما ينبغي في زمان تصريفه بصره، في زمان تصريفه يده، في زمان صومه، في زمان صدقته، في زمان صلاته، في زمان ذكره، في زمان نيته من فعل وترك، فيؤجر في الزمن الواحد من وجوه كثيرة فيفضل غيره ممّن ليس له ذلك، ولذلك لما ذكر رسول الله ﷺ الثمانية الأبواب من الجنة أن يدخل من أيها شاء قال أبو بكر: يا رسول الله وما على الإنسان أن يدخل من الأبواب كلها، قال رسول الله ﷺ: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ يَا أَبَا بَكْرٍ**» فأراد أبو بكر بذلك القول ما ذكرنا أن يكون الإنسان في زمان واحد في أعمال كثيرة تعم أبواب الجنة.

ومن هنا أيضاً تعرف النشأة الآخرة، فكما لا تشبه الجنة الدنيا في أحوالها كلها وإن اجتمعت في الأسماء كذلك نشأة الإنسان في الآخرة لا تشبه نشأة الدنيا وإن اجتمعتا في الأسماء والصورة الشخصية، فإن الروحانية على نشأة الآخرة أغلب من الحسيّة، وقد ذقناه في هذه الدار الدنيا مع كثافة هذه النشأة، فيكون الإنسان بعينه في أماكن كثيرة، وأمّا عامة الناس فيدركون ذلك في المنام. ولقد رأيت رؤيا لنفسي في هذا النوع وأخذتها بشرى من الله فإنها مطابقة لحديث نبويّ عن رسول الله ﷺ حين ضرب لنا مثله في الأنبياء عليهم السلام فقال ﷺ: «**مَثَلِي فِي الأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى حَائِطاً فَأَكْمَلَهُ إلاَّ لَبِنَةً وَاحِدَةً فَكُنْتُ أَنَا تِلْكَ اللَّبِنَةَ فَلاَ رَسُولَ بَعْدِي وَلاَ نَبِيَّ**» فشبه النبوّة بالحائط، والأنبياء باللبن التي قام بها هذا الحائط، وهو تشبيه في غاية الحسن، فإنّ مسمّى الحائط هنا المشار إليه لم يصحّ ظهوره إلاّ باللبن، فكان ﷺ خاتم النبيين، فكنت بمكة سنة تسع وتسعين وخمسمائة أرى فيما يرى النائم الكعبة مبنية بلبن فضة وذهب لبنة فضة ولبنة ذهب وقد كملت بالبناء وما بقي فيها شيء وأنا أنظر إليها وإلى حسنها، فالتفت إلى الوجه الذي بين الركن اليمانيّ والشاميّ هو إلى الركن الشاميّ أقرب فوجدت موضع لبنتين: لبنة فضة ولبنة ذهب ينقص من الحائط في الصفين في الصف الأعلى ينقص لبنة ذهب، وفي الصف الذي يليه ينقص لبنة فضة، فرأيت نفسي قد انطبعت في موضع

تلك اللبنتين فكنت أنا عين تينك اللبنتين وكمل الحائط ولم يبق في الكعبة شيء ينقص وأنا واقف أنظر وأعلم أني واقف وأعلم أني عين تينك اللبنتين لا أشك في ذلك وأنهما عين ذاتي، واستيقظت فشكرت الله تعالىٰ وقلت متأوّلاً أني في الأتباع في صنفي كرسول الله ﷺ في الأنبياء عليهم السلام، وعسى أن أكون ممّن ختم الله الولاية بي ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٢٠] وذكرت حديث النبيّ ﷺ في ضربه المثل بالحائط وأنه كان تلك اللبنة فقصصت رؤياي على بعض علماء هذا الشأن بمكة من أهل توزر فأخبرني في تأويلها بما وقع لي وما سميت له الرائي من هو، فالله أسأل أن يتمّها عليّ بكرمه، فإن الاختصاص الإلهيّ لا يقبل التحجير ولا الموازنة ولا العمل وإن ذلك من فضل الله ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧٤].

واعلم أن جنة الأعمال مائة درجة لا غير، كما أن النار مائة درك، غير أن كل درجة تنقسم إلى منازل، فلنذكر من منازلها ما يكون لهذه الأمّة المحمدية وما تفضل به على سائر الأمم فإنها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٠] بشهادة الحق في القرآن وتعريفه، وهذه المائة درجة في كل جنة من الثمان الجنات وصورتها جنة في جنة وأعلاها جنة عدن وهي قصبة الجنة فيها الكثيب الذي يكون اجتماع الناس فيه لرؤية الحق تعالىٰ، وهي أعلى جنة في الجنات هي في الجنات بمنزلة دار الملك يدور عليها ثمانية أسوار بين كل سورين جنة، فالتي تلي جنة عدن إنما هي جنة الفردوس وهي أوسط الجنات التي دون جنة عدن وأفضلها، ثم جنة الخلد، ثم جنة النعيم، ثم جنة المأوى، ثم دار السلام، ثم دار المقامة، وأمّا الوسيلة فهي أعلى درجة في جنة عدن وهي لرسول الله ﷺ حصلت له بدعاء أمّته فعل ذلك الحق سبحانه حكمة أخفاها فإنا بسببه نلنا السعادة من الله وبه كنّا ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وبه ختم الله بنا الأمم كما ختم به النبيين وهو ﷺ بشّر كما أمر أن يقول، ولنا وجه خاص إلى الله عزّ وجلّ نناجيه منه ويناجينا، وهكذا كل مخلوق له وجه خاص إلى ربّه، فأمرنا عن أمر الله أن ندعو له بالوسيلة حتى ينزل فيها وينالها بدعاء أمّته، فافهم هذا الفضل العظيم، وهذا من باب الغيرة الإلهية إن فهمت، فلقد كرّم الله هذا النبيّ وهذه الأمّة فتحوي درجات الجنة من الدرج فيها على خمسة آلاف درج ومائة درج وخمسة أدراج لا غير، وقد تزيد على هذا العدد بلا شك، ولكن ذكرنا منها ما اتفق عليه أهل الكشف ممّا يجري مجرى الأنواع من الأجناس، والذي اختصّت به هذه الأمّة المحمدية على سائر الأمم من هذه الأدراج اثنا عشر درجاً لا غير لا يشاركها فيها أحد من الأمم، كما فضل ﷺ غيره من الرسل في الآخرة بالوسيلة وفتح باب الشفاعة، وفي الدنيا بست لم يعطها نبيّ قبله كما ورد في الحديث الصحيح من حديث مسلم بن الحجاج فذكر منها عموم رسالته وتحليل الغنائم والنصر بالرعب وجعلت له الأرض كلها مسجداً وجعلت تربتها له طهوراً وأعطي مفاتيح خزائن الأرض.

ثم اعلم أن أهل الجنة أربعة أصناف: الرسل وهم الأنبياء، والأولياء وهم أتباع الرسل

على بصيرة وبيّنة من ربّهم، والمؤمنون وهم المصدّقون بهم عليهم السلام، والعلماء بتوحيد الله أنه لا إله إلاّ هو من حيث الأدلة العقلية، قال الله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] وهؤلاء هم الذين أريده بالعلماء وفيهم يقول الله تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [سورة المجادلة: الآية ١١] والطريق الموصلة إلى العلم بالله طريقان لا ثالث لهما، ومن وحّد الله من غير هذين الطريقين فهو مقلد في توحيده.

الطريق الواحدة: طريق الكشف: وهو علم ضروريّ يحصل عند الكشف يجده الإنسان في نفسه لا يقبل معه شبهة ولا يقدر على دفعه، ولا يعرف لذلك دليلاً يستند إليه سوى ما يجده في نفسه، إلاّ أن بعضهم قال: يعطى الدليل والمدلول في كشفه فإنه ما لا يعرف إلاّ بالدليل فلا بدّ أن يكشف له عن الدليل، وكان يقول بهذه المقالة صاحبنا أبو عبد الله بن الكتانيّ بمدينة فاس سمعت ذلك منه وأخبر عن حاله وصدق وأخطأ في أن الأمر لا يكون إلاّ كذلك، فإن غيره يجد ذلك في نفسه ذوقاً من غير أن يكشف له عن الدليل. وأما أن يحصل له عن تجلٍّ إلهيّ يحصل له وهم الرسل والأنبياء وبعض الأولياء.

والطريق الثاني: طريق الفكر والاستدلال بالبرهان العقليّ: وهذا الطريق دون الطريق الأوّل، فإن صاحب النظر في الدليل قد تدخل عليه الشبه القادحة في دليله فيتكلف الكشف عنها والبحث عن وجه الحق في الأمر المطلوب. وما ثم طريق ثالث. فهؤلاء هم أولو العلم الذين شهدوا بتوحيد الله.

ولفحول هذه الطبقة من العلماء بتوحيد الله دلالة ونظر زيادة علم على التوحيد بتوحيد في الذات بأدلة قطعية لا يعطاها كل أهل الكشف بل بعضهم قد يعطاها، وهؤلاء الأربع الطوائف يتميزون في جنات عدن عند رؤية الحق في الكثيب الأبيض وهم فيه على أربعة مقامات: طائفة منهم أصحاب منابر وهي الطبقة العليا الرسل والأنبياء. والطائفة الثانية: هم الأولياء ورثة الأنبياء قولاً وعملاً وحالاً وهم على بيّنة من ربهم وهم أصحاب الأسرة والعرش. والطبقة الثالثة: العلماء بالله من طريق النظر البرهانيّ العقليّ وهم أصحاب الكراسي. والطبقة الرابعة: وهم المؤمنون المقلدون في توحيدهم ولهم المراتب وهم في الحشر مقدّمون على أصحاب النظر العقليّ وهم في الكثيب عند النظر يتقدمون على المقلدين، فإذا أراد الله أن يتجلى لعباده في الزور العام نادى منادي الحق في الجنات كلها: يا أهل الجنان حيّ على المنة العظمى والمكانة الزلفى والمنظر الأعلى، هلموا إلى زيارة ربكم في جنة عدن، فيبادرون إلى جنة عدن فيدخلونها، وكل طائفة قد عرفت مرتبتها ومنزلتها فيجلسون ثم يؤمر بالموائد فتنصب بين أيديهم موائد اختصاص ما رأوا مثلها ولا تخيّلوه في حياتهم ولا في جناتهم جنات الأعمال، وكذلك الطعام ما ذاقوا مثله في منازلهم، وكذلك ما تناولوه من الشراب، فإذا فرغوا من ذلك خلعت عليهم من الخلع ما لم يلبسوا مثلها فيما تقدم، ومصداق ذلك قوله ﷺ في الجنة: «**فِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى**

قَلْبِ بَشَرٍ» فإذا فرغوا من ذلك قاموا إلى كثيب من المسك الأبيض فأخذوا منازلهم فيه على قدر علمهم بالله لا على قدر عملهم، فإنّ العمل مخصوص بنعيم الجنان لا بمشاهدة الرحمن، فبينا هم على ذلك إذا بنور قد بهرهم فيخرّون سجداً فيسري ذلك النور في أبصارهم ظاهراً وفي بصائرهم باطناً وفي أجزاء أبدانهم كلها، وفي لطائف نفوسهم، فيرجع كل شخص منهم عيناً كله وسمعاً كله، فيرى بذاته كلها لا تقيده الجهات، ويسمع بذاته كلها فهذا يعطيهم ذلك النور، فبه يطيقون المشاهدة والرؤية وهي أتم من المشاهدة، فيأتيهم رسول من الله يقول لهم: تأهّبوا لرؤية ربكم جلّ جلاله فها هو يتجلى لكم، فيتأهبون فيتجلى الحق جلّ جلاله وبينه وبين خلقه ثلاثة حجب: حجاب العزّة، وحجاب الكبرياء، وحجاب العظمة، فلا يستطيعون نظراً إلى تلك الحجب، فيقول الله جلّ جلاله لأعظم الحجبة عنده: ارفعوا الحجب بيني وبين عبادي حتى يروني فترفع الحجب فيتجلى لهم الحق جلّ جلاله خلف حجاب واحد في اسمه الجميل اللطيف إلى أبصارهم وكلهم بصر واحد فينفهق عليهم نور يسري في ذواتهم فيكونون به سمعاً كلهم وقد أبهتهم جمال الرب وأشرقت ذواتهم بنور ذلك الجمال الأقدس.

قال رسول الله ﷺ من حديث النقاش في مواقف القيامة وهذا تمامه: **فيقول الله جلّ جلاله: سلام عليكم عبادي ومرحباً بكم حياكم الله، سلام عليكم من الرحمن الرحيم، الحيّ القيوم، طبتم فادخلوها خالدين، طابت لكم الجنة، فطيبوا أنفسهم بالنعيم المقيم، والثواب من الكريم، والخلود الدائم، أنتم المؤمنون الآمنون، وأنا الله المؤمن المهيمن، شققت لكم اسماً من أسمائي** ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٤٩] **أنتم أوليائي وجيراني وأصفيائي وخاصتي وأهل محبتي وفي داري، سلام عليكم يا معشر عبادي المسلمين، أنتم المسلمون وأنا السلام، وداري دار السلام، سأريكم وجهي كما سمعتم كلامي، فإذا تجليت لكم وكشفت عن وجهي الحجب فاحمدوني وادخلوا إلى داري غير محجوبين عني بسلام آمنين، فردّوا عليّ واجلسوا حولي حتى تنظروا لي وتروني من قريب، فأتحفكم بتحفي، وأجيزكم بجوائزي، وأخصّكم بنوري، وأغشيكم بجمالي، وأهب لكم من ملكي، وأفاكهكم بضحكي، وأغلفكم بيدي، وأشمكم روحي، أنا ربكم الذي كنتم تعبدوني ولم تروني وتحبوني وتخافوني، وعزّتي وجلالي وعلوّي وكبريائي وبهائي وسناي إني عنكم راض وأحبكم وأحب ما تحبون، ولكم عندي ما تشتهي أنفسكم وتلذّ أعينكم، ولكم عندي ما تدّعون وما شئتم وكل ما شئتم أشاء، فاسألوني ولا تحتشموا ولا تستحيوا ولا تستوحشوا، وإني أنا الله الجواد الغنيّ المليّ الوفيّ الصادق، وهذه داري قد أسكنتكموها، وجنتي قد أبحتكموها، ونفسي قد أريتكموها، وهذه يدي ذات الندى والطل مبسوطة ممتدّة عليكم لا أقبضها عنكم وأنا أنظر إليكم لا أصرف بصري عنكم، فاسألوني ما شئتم واشتهيتم فقد آنستكم بنفسي وأنا لكم جليس وأنيس، فلا حاجة ولا فاقة بعد هذا ولا بؤس ولا مسكنة ولا ضعف ولا هرم ولا سخط ولا حرج ولا تحويل أبداً سرمداً، نعيمكم نعيم الأبد، وأنتم الآمنون المقيمون الماكثون المكرمون المنعمون، وأنتم السادة الأشراف الذين أطعتموني واجتنبتم**

محارمي، فارفعوا إليّ حوائجكم أقضها لكم وكرامة ونعمة، قال: فيقولون: ربنا ما كان هذا أملنا ولا أمنيتنا، ولكن حاجتنا إليك النظر إلى وجهك الكريم أبداً أبداً، ورضى نفسك عنّا، فيقول لهم العليّ الأعلى مالك الملك السخيّ الكريم تبارك وتعالىٰ: فهذا وجهي بارز لكم أبداً سرمداً فانظروا إليه وأبشروا فإن نفسي عنكم راضية، فتمتعوا وقوموا إلى أزواجكم فعانقوا وانكحوا وإلى ولائذكم ففاكهوا، وإلى غرفكم فادخلوا، وإلى بساتينكم فتنزهوا، وإلى دوابكم فاركبوا، وإلى فرشكم فاتكئوا، وإلى جواريكم وسراريكم في الجنان فاستأنسوا، وإلى هداياكم من ربكم فأقبلوا، وإلى كسوتكم فالبسوا، وإلى مجالسكم فتحدثوا، ثم قيلوا قائلة لا نوم فيها ولا غائلة في ظل ظليل وأمن مقيل ومجاورة الجليل، ثم روحوا إلى نهر الكوثر والكافور والماء المطهر والتسنيم والسلسبيل والزنجبيل فاغتسلوا وتنعموا ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٩] **ثم روحوا فاتكئوا على الرفارف الخضر، والعبقريّ الحسان، والفرش المرفوعة في الظل الممدود والماء المسكوب والفاكهة الكثيرة** ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٣٣] ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [سورة يس: ٥٥ - ٥٨] **ثم تلا هذه الآية:** ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٢٤]. إلى هنا انتهى حديث أبي بكر النقاش الذي أسندناه في باب القيامة قبل هذا في حديث المواقف.

ثم إن الحق تعالىٰ بعد هذا الخطاب يرفع الحجاب ويتجلى لعباده فيخرّون سجداً فيقول لهم: ارفعوا رؤوسكم فليس هذا موطن سجود، يا عبادي ما دعوتكم إلاّ لتنعموا بمشاهدتي فيمسكهم في ذلك ما شاء الله فيقول لهم: هل بقي لكم شيء بعد هذا؟ فيقولون: يا ربنا وأيّ شيء بقي وقد نجيتنا من النار، وأدخلتنا دار رضوانك، وأنزلتنا بجوارك، وخلعت علينا ملابس كرمك، وأريتنا وجهك؟ فيقول الحق جلّ جلاله: بقي لكم، فيقولون: يا ربنا وما ذاك الذي بقي؟ فيقول: دوام رضاي عنكم فلا أسخط عليكم أبداً، فما أحلاها من كلمة، وما ألذها من بشرى، فبدأ سبحانه بالكلام خلقنا فقال: ﴿ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فأوّل شيء كان لنا منه السماع فختم بما به بدأ فقال هذه المقالة فختم بالسماع وهو هذه البشرى، وتتفاضل الناس في رؤيته سبحانه ويتفاوتون فيها تفاوتاً عظيماً على قدر علمهم، فمنهم ومنهم، ثم يقول سبحانه لملائكته: ردّوهم إلى قصورهم، فلا يهتدون لأمرين: لما طرأ عليهم من سكر الرؤية ولما زادهم من الخير في طريقهم فلم يعرفوها، فلولا أن الملائكة تدل بهم ما عرفوا منازلهم، فإذا وصلوا إلى منازلهم تلقاهم أهلهم من الحور والولدان فيرون جميع ملكهم قد كسي بهاء وجمالاً ونوراً من وجوههم أفاضوه إفاضة ذاتية على ملكهم فيقولون لهم: لقد زدتم نوراً وبهاء وجمالاً ما تركناكم عليه، فيقول لهم أهلهم: وكذا كم أنتم قد زدتم من البهاء والجمال ما لم يكن فيكم عند مفارقتكم إيانا فينعم بعضهم ببعض.

واعلم أنّ الراحة والرحمة مطلقة في الجنة كلها، وإن كانت الرحمة ليست بأمر وجوديّ

وإنما هي عبارة عن الأمر الذي يلتذّ ويتنعم به المرحوم وذلك هو الأمر الوجودي، فكل من في الجنة متنعم وكل ما فيها نعيم، فحركتهم ما فيها نصب، وأعمالهم ما فيها لغوب إلاّ راحة النوم ما عندهم لأنهم ما ينامون فما عندهم من نعيم النوم شيء، ونعيم النوم هو الذي يتنعم به أهل النار خاصة، فراحة النوم محلها جهنم، ومن رحمة الله بأهل النار في أيام عذابهم خمود النار عنهم ثم تسعر بعد ذلك عليهم فيخف عنهم بذلك من آلام العذاب على قدر ما خبت النار، قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩٧] وهذا يدلك أن النار محسوسة بلا شك، فإن النار ما تتصف بهذا الوصف إلاّ من كون قيامها بالأجسام، لأن حقيقة النار لا تقبل هذا الوصف من حيث ذاتها ولا الزيادة ولا النقص، وإنما هو الجسم المحرق بالنار هو الذي يسجر بالنارية. وإن حملنا هذه الآية على الوجه الآخر قلنا: قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩٧] يعني النار المسلطة على أجسامهم ﴿زِدْنَٰهُمْ﴾ يعني المعذبين ﴿سَعِيرًا﴾ فإنه لم يقل زدناها، ومعنى ذلك أنّ العذاب ينقلب إلى بواطنهم وهو أشد العذاب الحسيّ يشغلهم عن العذاب المعنويّ، فإذا خبت النار في ظواهرهم ووجدوا الراحة من حيث حسّهم سلّط الله عليهم في بواطنهم التفكّر فيما كانوا فرّطوا فيه من الأمور التي لو عملوا بها لنالوا السعادة، وتسلّط عليهم الوهم بسلطانه فيتوهمون عذاباً أشد ممّا كانوا فيه، فيكون عذابهم بذلك التوهّم في نفوسهم أشدّ من حلول العذاب المقرون بتسلّط النار المحسوسة على أجسامهم، وتلك النار التي أعطاها الوهم هي النار التي تطلع على الأفئدة وهي التي قلنا فيها: [البسيط]

النارُ ناران نارٌ كلُّها لهَبٌ ... ونارُ معنًى على الأرواح تَطَّلِعُ
وهي التي ما لها سفْعٌ ولا لهبٌ ... لكنْ لها ألمٌ في القلب ينْطَبِعُ

وكذلك أهل الجنة يعطيهم الله من الأماني والنعيم المتوهّم فوق ما هم عليه، فما هو إلاّ أن الشخص منهم يتوهم ذلك أو يتمناه، فيكون فيه بحسب ما يتوهمه إن تمناه معنى كان معنى، أو توهمه حسّاً كان محسوساً، أيّ ذلك كان وذلك النعيم من جنات الاختصاص ونعيمها وهو جزاء لمن كان يتوهم هنا ويتمنى أن لو قدر وتمكن أن يكون ممّن لا يعصي الله طرفة عين، وأن يكون من أهل طاعته، وأن يلحق بالصالحين من عباده، ولكن قصرت به العناية في الدنيا، فيعطى هذا التمني في الجنة فيكون له ما تمناه وتوهمه وأراحه الله في الدنيا من تلك الأعمال الشاقة ولحق في الآخرة بأصحاب تلك الأعمال في الدرجات العلى، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في الرجل الذي لا قوّة له ولا مال له فيرى ربّ المال الموفق يتصدق ويعطي في فك الرقاب ويوسّع على الناس ويصل الرحم ويبني المساجد ويعمل أعمالاً لا يمكن أن يصل إليها إلاّ ربّ المال. ويرى أيضاً من هو أجلد منه على العبادات التي ليس في قوّة جسمه أن يقوم بها ويتمنى أنه لو كان له مثل صاحبه من المال والقوّة لعمل مثل عمله، قال ﷺ: «**فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ**» ومعنى ذلك أنه يعطى في الجنة مثل ذلك التمنّي من النعيم الذي أنتجته تلك الأعمال فيكون له ما تمنّى وهو أقوى في اللذة والتنعم ممّا لو وجده في

الجنة قبل هذا التمني، فلما انفعل عن تمنيه كان النعيم به أعلى، فمن جنات الاختصاص ما يخلق الله له من همته وتمنيه، فهو اختصاص عن عمل معقول متوهم وتمنّ لم يكن له وجود ثمرة في الدنيا وهو الذي عنينا بالاختصاص في قولنا: [السريع]

مراتبُ الجنة مقسومةٌ ... ما بين أعمالٍ وبين اختصاصْ
فيا أولي الألباب سبقاً على ... نُجُبٍ من أعمالكم لا مَنَاصْ
إنَّ بلى لم تُغْطِ أطفالَنا ... من أثَرِ الأعمال غيرَ الخلاصْ
لأنه لم يَكُ شرعاً لهم ... فهو اختصاصٌ ما لديه انتقاصْ

فأردنا بالاختصاص الثاني ما لا يكون عن تمنّ ولا توهم، وأردنا بالاختصاص الأول ما يكون عن تمنّ وتوهّم الذي هو جزاء عن تمنّ وتوهّم في الدنيا. وأمّا الأمانيّ المذمومة فهي التي لا يكون لها ثمرة ولكن صاحبها يتنعم بها في الحال كما قيل: [الطويل]

أمانيّ إن تحصَلْ تكُنْ أحسنَ المنى ... وإلاَّ فقد عشنا بها زمناً رَغْدَا

ولكن تكون حسرة في المآل. وفيها قال الله تعالىٰ: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٤] وفيها يقال: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٢٤] لأنه لا مفاضلة بين الخير والشر، فما كان خير أصحاب الجنة أفضل وأحسن إلاَّ من كونه واقعاً وجودياً محسوساً فهو أفضل من الخير الذي كان الكافر يتوهمه في الدنيا ويظنّ أنه يصل إليه بكفره لجهله، فلهذا قال فيه: ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٥] فأتى بنية المفاضلة وهي أفعل من كذا، فافهم هذا المعنى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والستون

في معرفة سرّ الشريعة ظاهراً وباطناً وأيّ اسم إلهيّ أوجدها

[نظم: الكامل]

طلب الجليلُ من الجليل جلالاً ... فأبى الجليلُ يشاهد الإجلالا
لما رأى عزَّ الإله وَجُودَهُ ... عبد الإلهَ يصاحبُ الإدلالا
وقد اطمأنَّ بنفسه متعزِّزاً ... متجبِّراً متكبِّراً مختالا
أنهى إليه شريعةً معصومةً ... فأذلَّه سلطانُها إذلالا
نادى العبيدُ بفاقةٍ وبذلةٍ ... يا من تبارك جدُّهُ وتعالىٰ

قال الله عزّ وجلّ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٥] فاعلم أن الأسماء الإلهية لسان حال تعطيها الحقائق، فاجعل بالك لما تسمع ولا تتوهم الكثرة ولا الاجتماع الوجوديّ. وإنما أورد في هذا الباب ترتيب حقائق معقولة كثيرة من جهة النسب لا من جهة وجود عينيّ، فإن ذات الحق واحدة من حيث ما هي ذات.

ثم إنه لما علمنا من وجودنا وافتقارنا وإمكاننا أنه لا بدّ لنا من مرجح نستند إليه وأنّ ذلك المستند لا بدّ أن يطلب وجودنا منه نسباً مختلفة، كنى الشارع عنها بالأسماء الحسنى، فسمّي بها من كونه متكلماً في مرتبة وجوبية وجوده الإلهيّ الذي لا يصحّ أن يشارك فيه فإنه إله واحد لا إله غيره، فأقول بعد هذا التقرير في ابتداء هذا الأمر والتأثير والترجيح في العالم الممكن: أن الأسماء اجتمعت بحضرة المسمّى ونظرت في حقائقها ومعانيها، فطلبت ظهور أحكامها حتى تتميز أعيانها بآثارها فإن الخالق الذي هو المقدّر، والعالم والمدبّر، والمفصّل والباري، والمصوّر، والرزاق، والمحيي، والمميت، والوارث، والشكور، وجميع الأسماء الإلهية نظروا في ذواتهم ولم يروا مخلوقاً ولا مدبراً ولا مفصلاً ولا مصوّراً ولا مرزوقاً فقالوا: كيف العمل حتى تظهر هذه الأعيان التي تظهر أحكامنا فيها فيظهر سلطاننا؟ فلجأت الأسماء الإلهية التي تطلبها بعض حقائق العالم بعد ظهور عينه إلى الاسم الباري فقالوا له: عسى توجد هذه الأعيان لتظهر أحكامنا ويثبت سلطاننا، إذ الحضرة التي نحن فيها لا تقبل تأثيرنا، فقال الباري: ذلك راجع إلى الاسم القادر فإني تحت حيطته، وكان أصل هذا أن الممكنات في حال عدمها سألت الأسماء الإلهية سؤال حال ذلّة وافتقار وقالت لها: إن العدم قد أعمانا عن إدراك بعضنا بعضاً وعن معرفة ما يجب لكم من الحق علينا، فلو أنكم أظهرتم أعياننا وكسوتمونا حلة الوجود أنعمتم علينا بذلك وقمنا بما ينبغي لكم من الإجلال والتعظيم، وأنتم أيضاً كانت السلطنة تصحّ لكم في ظهورنا بالفعل، واليوم أنتم علينا سلاطين بالقوّة والصلاحية، فهذا الذي نطلبه منكم هو في حقكم أكثر منه في حقنا.

فقالت الأسماء: إنّ هذا الذي ذكرته الممكنات صحيح فتحرّكوا في طلب ذلك، فلما لجؤوا إلى الاسم القادر قال القادر: أنا تحت حيطة المريد فلا أوجد عيناً منكم إلاّ باختصاصه، ولا يمكنني الممكن من نفسه إلاّ أن يأتيه أمر الآمر من ربه، فإذا أمره بالتكوين وقال له: كن مكّنني من نفسه وتعلّقت بإيجاده فكوّنته من حينه، فالجؤوا إلى الاسم المريد عسى أنه يرجح ويخصّص جانب الوجود على جانب العدم، فحينئذ نجتمع أنا والآمر والمتكلم ونوجدكم، فلجؤوا إلى الاسم المريد فقالوا له: إن الاسم القادر سألناه في إيجاد أعياننا فأوقف أمر ذلك عليك فما ترسم؟ فقال المريد: صدق القادر ولكن ما عندي خبر ما حكم الاسم العالم فيكم هل سبق علمه بإيجادكم فنخصّص أو لم يسبق فإنا تحت حيطة الاسم العالم فسيروا إليه، واذكروا له قضيتكم، فساروا إلى الاسم العالم وذكروا ما قاله الاسم المريد فقال العالم: صدق المريد وقد سبق علمي بإيجادكم ولكن الأدب أولى فإن لنا حضرة مهيمنة علينا وهي الاسم الله فلا بدّ من حضورنا عنده فإنها حضرة الجمع، فاجتمعت الأسماء كلها في حضرة الله فقال: ما بالكم فذكروا له الخبر فقال: أنا اسم جامع لحقائقكم وإني دليل على مسمّى وهو ذات مقدّسة له نعوت الكمال والتنزيه فقفوا حتى أدخل على مدلولي، فدخل على مدلوله فقال له ما قالته الممكنات وما تحاورت فيه الأسماء فقال: اخرج وقل لكل واحد من الأسماء يتعلق بما تقتضيه حقيقته في الممكنات فإني الواحد لنفسي من حيث نفسي

والممكنات إنما تطلب مرتبتي وتطلبها مرتبتي والأسماء إلهية كلها للمرتبة لا لي إلاّ الواحد خاصة فهو اسم خصيص بي لا يشاركني في حقيقته من كل وجه أحد لا من الأسماء ولا من المراتب ولا من الممكنات، فخرج الاسم الله ومعه الاسم المتكلم يترجم عنه للممكنات والأسماء فذكر لهم ما ذكره المسمّى فتعلق العالم والمريد والقائل والقادر فظهر الممكن الأول من الممكنات بتخصيص المريد وحكم العالم، فلما ظهرت الأعيان والآثار في الأكوان وتسلّط بعضها على بعض وقهر بعضها بعضاً بحسب ما تستند إليه من الأسماء فأدّى إلى منازعة وخصام فقالوا: إنا نخاف علينا أن يفسد نظامنا ونلحق بالعدم الذي كنّا فيه، فنبهت الممكنات الأسماء بما ألقى إليها الاسم العليم والمدبر وقالوا: أنتم أيها الأسماء لو كان حكمكم على ميزان معلوم وحدّ مرسوم بإمام ترجعون إليه يحفظ علينا وجودنا ونحفظ عليكم تأثيراتكم فينا لكان أصلح لنا ولكم فالجؤوا إلى الله عسى يقدّم من يحدّ لكم حدّاً تقفون عنده وإلاّ هلكنا وتعطلتم، فقالوا: هذا عين المصلحة وعين الرأي ففعلوا ذلك فقالوا: إن الاسم المدبر هو ينهي أمركم فانهوا إلى المدبر الأمر، فقال: أنا لها فدخل وخرج بأمر الحق إلى الاسم الرب وقال له: افعل ما تقتضيه المصلحة في بقاء أعيان هذه الممكنات فاتخذ وزيرين يعينانه على ما أمر به الوزير الواحد الاسم المدبّر والوزير الآخر المفصل، قال تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] الذي هو الإمام فانظر ما أحكم كلام الله تعالىٰ حيث جاء بلفظ مطابق للحال الذي ينبغي أن يكون الأمر عليه، فحدّ الاسم الرب لهم الحدود ووضع لهم المراسم لإصلاح المملكة وليبلوهم أيهم أحسن عملاً.

وجعل الله ذلك على قسمين: قسم يسمّى سياسة حكمية ألقاها في فطر نفوس الأكابر من الناس فحدّوا حدوداً ووضعوا نواميس بقوّة وجدوها في نفوسهم كل مدينة وجهة وإقليم بحسب ما يقتضيه مزاج تلك الناحية وطباعهم لعلمهم بما تعطيه الحكمة، فانحفظت بذلك أموال الناس ودماؤهم وأهلوهم وأرحامهم وأنسابهم وسمّوها نواميس ومعناها أسباب خير لأنّ الناموس في العرف الإصطلاحيّ هو الذي يأتي بالخير والجاسوس يستعمل في الشرّ، فهذه هي النواميس الحكمية التي وضعها العقلاء عن إلهام من الله من حيث لا يشعرون لمصالح العالم ونظمه وارتباطه في مواضع لم يكن عندهم شرع إلهيّ منزّل، ولا علم لواضع هذه النواميس بأن هذه الأمور مقرّبة إلى الله ولا تورث جنة ولا ناراً ولا شيئاً من أسباب الآخرة، ولا علموا أن ثم آخرة وبعثاً محسوساً بعد الموت في أجسام طبيعية وداراً فيها أكل وشرب ولباس ونكاح وفرح، وداراً فيها عذاب وآلام، فإن وجود ذلك ممكن وعدمه ممكن، ولا دليل لهم في ترجيح أحد الممكنين بل رهبانية ابتدعوها، فلهذا كان مبنى نواميسهم ومصالحهم على إبقاء الصلاح في هذه الدار، ثم انفردوا في نفوسهم بالعلوم الإلهية من توحيد الله وما ينبغي لجلاله من التعظيم والتقديس وصفات التنزيه وعدم المثل والشبيه ونبّه من يدري ومن علم ذلك من لا يدري، وحرّضوا الناس على النظر الصحيح وأعلموهم أن للعقول من حيث أفكارها حدّاً تقف عنده لا تتجاوزه، وأن لله على قلوب بعض عباده فيضاً إلهياً يعلمهم

فيه من لدنه علماً ولم يبعد ذلك عندهم، وأن الله قد أودع في العالم العلويّ أموراً استدلّوا عليها بوجود آثارها في العالم العنصريّ وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] فبحثوا عن حقائق نفوسهم لما رأوا أن الصورة الجسدية إذا ماتت ما نقص من أعضائها شيء فعلموا أن المدرك والمحرّك لهذا الجسد إنما هو أمر آخر زائد عليه، فبحثوا عن ذلك الأمر الزائد فعرفوا نفوسهم، ثم رأوا أنه يعلم بعدما كان يجهل، فعلموا أنها وإن كانت أشرف من أجسادها فإن الفقر والفاقة يصحبها فاعتلوا بالنظر من شيء إلى شيء، وكلما وصلوا إلى شيء رأوه مفتقراً إلى شيء آخر حتى انتهى بهم النظر إلى شيء لا يفتقر إلى شيء ولا مثله شيء ولا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، فوقفوا عنده وقالوا: هذا هو الأول، وينبغي أن يكون واحداً لذاته من حيث ذاته، وأن أوّليته لا تقبل الثاني ولا أحديته لأنه لا شبه له ولا مناسب، فوحدوه توحيد وجود.

ثم لما رأوا أن الممكنات لأنفسها لا تترجح لذاتها علموا أن هذا الواحد أفادها الوجود فافتقرت إليه وعظمته بأن سلبت عنه جميع ما تصف ذواتها به فهذا حد العقل، فبينا هم كذلك إذ قام شخص من جنسهم لم يكن عندهم من المكانة في العلم بحيث أن يعتقدوا فيه أنه ذو فكر صحيح ونظر صائب فقال لهم: أنا رسول الله إليكم فقالوا: الإنصاف أولى، انظروا في نفس دعواه هل ادّعى ما هو ممكن أو ادّعى ما هو محال؟ فقالوا: إنه قد ثبت عندنا بالدليل أن لله فيضاً إلهياً يجوز أن يمنحه من يشاء كما أفاض ذلك على أرواح هذه الأفلاك وهذه العقول والكل قد اشتركوا في الإمكان، وليس بعض الممكنات بأولى من بعض فيما هو ممكن، فما بقي لنا نظر إلاّ في صدق هذا المدّعي أو كذبه، ولا نقدم على شيء من هذين الحكمين بغير دليل فإنه سوء أدب مع علمنا، فقالوا: هل لك دليل على صدق ما تدعيه؟ فجاءهم بالدلائل فنظروا في دلالته وفي أدلته ونظروا أن هذا الشخص ما عنده خبر مما تنتجه الأفكار ولا عرف منه، فعلموا أن الذي أوحى في كل سماء أمرها كان ممّا أوحاه في كل سماء وجود هذا الشخص وما جاء به، فأسرعوا إليه بالإيمان به وصدقوه، وعلموا أن الله قد أطلعه على ما أودعه في العالم العلويّ من المعارف ما لم تصل إليه أفكارهم، ثم أعطاه من المعرفة بالله ما لم يكن عندهم، ورأوا نزوله في المعارف بالله إلى العامي الضعيف الرأي بما يصلح لعقله من ذلك، وإلى الكبير العقل الصحيح النظر بما يصلح لعقله من ذلك، فعلموا أن الرجل عنده من الفيض الإلهيّ ما هو وراء طور العقل، وأن الله قد أعطاه من العلم به والقدرة عليه ما لم يعطه إياهم، فقالوا بفضله وتقدمه عليهم وآمنوا به وصدّقوه واتبعوه، فعين لهم الأفعال المقرّبة إلى الله تعالىٰ، وأعلمهم بما خلق الله من الممكنات فيما غاب عنهم وما يكون منه سبحانه فيهم في المستقبل، وجاءهم بالبعث والنشور والحشر والجنة والنار.

ثم إنه تتابعت الرسل على اختلاف الأزمان واختلاف الأحوال، وكل واحد منهم يصدق صاحبه، ما اختلفوا قط في الأصول التي استندوا إليها وعبّروا عنها وإن اختلفت الأحكام،

فتنزلت الشرائع، ونزلت الأحكام، وكان الحكم بحسب الزمان والحال كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٨] فاتفقت أصولهم من غير خلاف في شيء من ذلك، وفرقوا في هذه السياسات النبوية المشروعة من عند الله بينها وبين ما وضعت الحكماء من السياسات الحكمية التي اقتضاها نظرهم، وعلموا أن هذا الأمر أتم وأنه من عند الله بلا شك، فقبلوا ما أعلمهم به من الغيوب وآمنوا بالرسل وما عاند أحد منهم إلاَّ من لم ينصح نفسه في علمه واتبع هواه وطلب الرياسة على أبناء جنسه وجهل نفسه وقدره وجهل ربه، فكان أصل وضع الشريعة في العالم وسببها طلب صلاح العالم ومعرفة ما جهل من الله ممّا لا يقبله العقل أي لا يستقل به العقل من حيث نظره، فنزلت بهذه المعرفة الكتب المنزّلة، ونطقت بها ألسنة الرسل والأنبياء عليهم السلام، فعلمت العقلاء عند ذلك أنها نقصها من العلم بالله أمور تممتها لهم الرسل، ولا أعني بالعقلاء المتكلمين اليوم في الحكمة وإنما أعني بالعقلاء من كان على طريقتهم من الشغل بنفسه والرياضات والمجاهدات والخلوات والتهيؤ لواردات ما يأتيهم في قلوبهم عند صفائها من العالم العلوي الموحى في السماوات العلى فهؤلائك أعني بالعقلاء. فإن أصحاب اللقلقة والكلام والجدل الذين استعملوا أفكارهم في مواد الألفاظ التي صدرت عن الأوائل وغابوا عن الأمر الذي أخذها عنه أولئك الرجال.

وأمّا أمثال هؤلاء الذين عندنا اليوم لا قدّر لهم عند كل عاقل فإنهم يستهزئون بالدين ويستخفون بعباد الله ولا يعظم عندهم إلاَّ من هو معهم على مدرجتهم، قد استولى على قلوبهم حب الدنيا وطلب الجاه والرياسة، فأذلّهم الله كما أذلّوا العلم وحقّرهم وصغّرهم وألجأهم إلى أبواب الملوك والولاة من الجهال فأذلتهم الملوك والولاة، فأمثال هؤلاء لا يعتبر قولهم، فإن قلوبهم قد ختم الله عليها ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٢٣] مع الدعوى العريضة أنهم أفضل العالم عند نفوسهم. فالفقيه المفتي في دين الله مع قلة ورعه بكل وجه أحسن حالاً من هؤلاء، فإن صاحب الإيمان مع كونه أخذه تقليداً هو أحسن حالاً من هؤلاء العقلاء على زعمهم، وحاشى العاقل أن يكون بمثل هذه الصفة، وقد أدركنا ممّن كان على حالهم قليلاً وكانوا أعرف الناس بمقدار الرسل ومن أعظمهم تبعاً لسنن الرسول ﷺ وأشدّهم محافظة على سننه عارفين بما ينبغي لجلال الحق من التعظيم، عالمين بما خصّ الله عباده من النبيين وأتباعهم من الأولياء من العلم بالله من جهة الفيض الإلهيّ الاختصاصيّ الخارج عن التعلّم المعتاد من الدرس والاجتهاد ما لا يقدر العقل من حيث فكره أن يصل إليه، ولقد سمعت واحداً من أكابرهم وقد رأى ممّا فتح الله به عليّ من العلم به سبحانه من غير نظر ولا قراءة بل من خلوة خلوت بها مع الله ولم أكن من أهل الطلب فقال: الحمد لله الذي أنا في زمان رأيت فيه من آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٥] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والستون

في معرفة لا إله إلاّ الله محمد رسول الله وهو الإيمان

[نظم: الخفيف]

شهد الله لم يزلْ أزلاً ... أنه لا إله إلاّ هو الله
ثم أملاكُه بذا شَهِدَتْ ... أنه لا إله إلاّ هو الله
وأولو العلم كلُّهم شهدوا ... أنه لا إله إلاّ هو الله
ثم قال الرسولُ قولوا معي ... إنه لا إله إلاّ هو الله
أفْضَلُ ما قلتُه وقال به ... مَنْ قبلنا لا إله إلاّ هو الله
ما عدا الإنس كلهم شهدوا ... أنه لا إله إلاّ هو الله

قال الله جلّ ثناؤه في كتابه العزيز ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩] وقال رسول الله ﷺ: **«الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ»** الحديث، فقال سبحانه: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ لم يقل: وأولو الإيمان فإن شهادته بالتوحيد لنفسه ما هي عن خبر فيكون إيماناً، ولهذا الشاهد فيما يشهد به لا يكون إلاّ عن علم وإلاّ فلا تصحّ شهادته. ثم إنه عزّ وجلّ عطف الملائكة وأولي العلم على نفسه بالواو وهو حرف يعطي الاشتراك، ولا اشتراك هنا إلاّ في الشهادة قطعاً، ثم أضافهم إلى العلم لا إلى الإيمان، فعلمنا أنه أراد من حصل له التوحيد من طريق العلم النظريّ أو الضروريّ لا من طريق الخبر كأنه يقول: وشهدت الملائكة بتوحيدي بالعلم الضروريّ من التجلي الذي أفادهم العلم وقام لهم مقام النظر الصحيح في الأدلة فشهدت لي بالتوحيد كما شهدت لنفسي، وأولو العلم بالنظر العقليّ الذي جعلته في عبادي، ثم جاء بالإيمان بعد ذلك في الرتبة الثانية من العلماء وهو الذي يعوّل عليه في السعادة فإن الله به أمر وسميناه علماً لكون المخبر هو الله فقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة محمد: الآية ١٩] وقال تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٥٢] حين قسّم المراتب في آخر سورة إبراهيم من القرآن العزيز.

وقال رسول الله ﷺ في الصحيح: **«مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ»** ولم يقل هنا يؤمن فإن الإيمان موقوف على الخبر وقد قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٥] وقد علمنا أن لله عباداً كانوا في فترات وهم موحدون علماً، وما كانت دعوة الرسل قبل رسول الله ﷺ عامّة فيلزم أهل كل زمان الإيمان، فعمّ بهذا الكلام جميع العلماء بتوحيد الله المؤمن منهم من حيث ما هو عالم به من جهة الخبر الصدق الذي يفيد العلم لا من جهة الإيمان وغير المؤمن، فالإيمان لا يصحّ وجوده إلاّ بعد مجيء الرسول، والرسول لا يثبت حتى يعلم الناظر العاقل أن ثم إلهاً وأن ذاك الإله واحد لا بدّ من ذلك لأن الرسول من جنس من أرسل إليهم، فلا يختص واحد من الجنس دون غيره إلاّ لعدم المعارض

وهو الشريك، فلا بدّ أن يكون عالماً بتوحيد من أرسله وهو الله تعالىٰ، ولا بدّ أن يتقدّمه العلم بأن هذا الإله هو على صفة يمكن أن يبعث رسولاً بنسبة خاصة ما هي ذاته، وحينئذ ينظر في صدق دعوى هذا الرسول أنه رسول من عند الله لإمكان ذلك عنده، وهذه في العلم مراتب معقولة يتوقف العلم ببعضها على بعض، وليس هذا كله حظ المؤمن فإن مرتبة الإيمان وهو التصديق بأن هذا رسول من عند الله لا تكون إلاّ بعد حصول هذا العلم الذي ذكرناه.

فإذا جاءت الدلالات على صدقه بأنه رسول الله لا بتوحيد مرسله حينئذ تتأهب العقلاء أولو الألباب والأحلام والنهى لما يورده في رسالته هذا الرسول، فأول شيء قال في رسالته: إن الله الذي أرسلني يقول لكم: قولوا: لا إله إلاّ الله، فعلم أولو الألباب أن العالم بتوحيد الله لا يلزمه أن يتلفظ به، فلما سمع من الرسول الأمر بالتلفظ به وأن ذلك ليس من مدلول دليل العلم بتوحيد الله تلفظ به هذا العالم الموحد إيماناً وتصديقاً بهذا الرسول، فإذا قال العالم: لا إله إلاّ الله لقول رسول الله ﷺ له قل: لا إله إلاّ الله عن أمر الله سمّي مؤمناً، فإن الرسول أوجب عليه أن يقولها وقد كان في نفسه عالماً بها ومخيّراً في نفسه في التلفظ بها وعدم التلفظ بها، فهذه مرتبة العالم بتوحيد الله من حيث الدليل، فمن مات وهو يعلم أنه لا إله إلاّ الله دخل الجنة بلا شك ولا ريب وهو من السعداء.

فأمّا من كان في الفترات فيبعثه الله أمّة وحده كقس بن ساعدة لا تابع لأنه ليس بمؤمن ولا هو متبوع لأنه ليس برسول من عند الله بل هو عالم بالله وبما علم من الكوائن الحادثة في العالم بأي وجه علمها، وليس لمخلوق أن يشرع ما لم يأذن به الله ولا أن يوجب وقوع ممكن من عالم الغيب يجوز خلافه في دليله على جهة القربة إلى الله إلاّ بوحي من الله وإخبار، وهنا نكت لمن له قلب وفطنة لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] وقوله أنه أودع اللوح المحفوظ جميع ما يجريه في خلقه إلى يوم القيامة.

وممّا أوحى الله في سمواته وأودعه في لوحه بعثة الرسل، فتؤخذ من اللوح كشفاً واطلاعاً، وتؤخذ من السماء نظراً واختباراً، وعلمهم ببعثة الرسل علمهم بما يجيئون به من القربات إلى الله وبأزمانهم وأمكنتهم وحلاهم، وما يكون من الناس بعد الموت، وما يكون منهم في البعث والحشر، ومآلهم إلى السعادة والشقاء من جنة ونار، وأنّ الله جعل بروج الفلك ومنازله وسباحة كواكبه أدلة على حكم ما يجريه الله في العالم الطبيعيّ والعنصريّ من حرّ وبرد ويبس ورطوبة، في حار وبارد ورطب ويابس، فمنها ما يقتضي وجود الأجسام في حركات معلومة، ومنها ما يقتضي وجود الأرواح، ومنها ما يقتضي بقاء مدّة السموات وهو العلم الذي أشار إليه أبو طالب المكيّ من أن الفلك يدور بأنفاس العالم، ومع رؤيتهم لذلك كله هم فيه متفاضلون بعضهم على بعض: فمنهم الكامل المحقق المدقق، ومنهم من ينزل عن درجته بالتفاضل في النزول.

وقد رأينا جماعة من أصحاب خط الرمل والعلماء بتقادير حركات الأفلاك وتسيير كواكبها والاقترانات ومقاديرها ومنازل اقتراناتها، وما يحدث الله عند ذلك من الحكم في

خلقه كالأسباب المعتادة في العامة التي لا يجهلها أحد ولا يكفر القائل بها، فهذه أيضاً معتادة عند العلماء بها، فإنها تعطي بحسب تأليف طباعها ممّا لا يعطيه حالها في غير اقترانها بغيرها، فيخبرون بأمور جزئية تقع على حدّ ما أخبروا به، وإن كان ذلك الأمر واقعاً بحكم الاتفاق بالنظر إليه وإن كان علماً في نفس الأمر فإن الناظر فيه ما هو على يقين، وإن قطع به في نفسه لغموض الأمر فما يصحّ أن يكون مع الإنصاف على يقين من نفسه أنه ما فاتته دقيقة في نظره ولا فات لمن مهّد له السبيل قبله من غير نبيّ يخبر عن الله فإن المتأخر على حساب المتقدّم يعتمد، فلما رأينا ذلك علمنا أن لله أسراراً في خلقه، ومن حصل في هذه المرتبة من العلم لم يكن أحد أقوى في الإيمان منه بما جاءت به الرسل، وما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله إلاّ من يدعو إلى الله على بصيرة كالرسول وأتباعه، وأن كلامنا في المفاضلة إنما هو بين هؤلاء وبين المؤمنين أهل التقليد لا بين الرسل وأولياء الله وخاصته الذين تولّى الله تعليمهم فآتاهم رحمة من عنده وعلمهم من لدنه علماً، فهم فيما علموه بحكم القطع لا بحكم الاتفاق، يقول رسول الله ﷺ في علم الخط: «**إنَّ نَبياً مِنَ الأَنْبيَاءِ بعثَ بِهِ قِيلَ هُوَ إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلاَم فَأَوْحَى اللَّهُ إلَيْهِ فِي تِلْكَ الأَشْكَالِ الّتي أَقَامَهَا اللَّهُ لَهُ مَقَامَ الملكِ لِغَيْرِهِ**» وكما يجيء الملك من غير قصد من النبيّ لمجيئه، كذلك يجيء شكل الخط من غير قصد الضارب صاحب الخط إليه، وهذه هي الأمّهات خاصة. ثم شرع له أن يشرع وهي السنّة التي يرى الرسول أن يضعها في العالم وأصلها الوحي، كذلك ما يولد صاحب الخط عن الأمّهات من الأولاد وأولاد الأولاد، فتفصح له تلك الأشكال عن الأمر المطلوب على ما هو عليه، والضمير فيه كالنية في العمل فلا يخطىء، قال عليه السلام في العلماء العالمين بالخط: «**فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ ـ يَعْنِي خَطَّ ذٰلِكَ النَّبِيِّ ـ فَذَاكَ يَقُولُ: فَقَدْ أَصَابَ الحَقّ**» فهذا مثل من يدعو إلى الله على بصيرة من اتباع الرسل، فقوله: فإن وافق فما جعله علماً عنده لكونه لا يقطع به، وإن كان علماً في نفس الأمر فهذا الفرق بين هؤلاء وبين من يدعو إلى الله على بصيرة ومن هو على بينة من ربه. فأعلم العلماء بالله بعد ملائكة الله رسل الله وأولياؤه، ثم العلماء بالأدلة ومن دونهم، وإن وافق العلم في نفس الأمر فليس هو عند نفسه بعالم للتردّد الإمكانيّ الذي يجده في نفسه المنصف فما هو مؤمن إلاّ بما جاء في كتاب الله على التعيين وما جاء عن رسوله على الجملة لا على التفصيل إلاّ ما حصل له من ذلك تواتراً، ولهذا قيل للمؤمنين ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٦] فقد بانت لك مراتب الخلق في العلم بالله.

فإذا جاء الرسول وبين يديه العلماء بالله وغير العلماء بالله وقال للجميع: قولوا: لا إله إلاّ الله، علمنا على القطع أنه ﷺ في ذلك القول معلم لمن لا علم له بتوحيد الله من المشركين، وعلمنا أنه في ذلك القول أيضاً معلم للعلماء بالله وتوحيده أن التلفّظ به واجب، وأنه العاصم لهم من سفك دمائهم وأخذ أموالهم وسبي ذراريهم، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ وَحِسَابهِمْ عَلَى اللَّهِ**»، ولم يقل حتى يعلموا فإن فيهم العلماء، فالحكم هنا للقول

لا للعلم والحكم ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [سورة الطارق: الآية ٩] في هذا للعلم لا للقول، فقالها هنا العالم والمؤمن والمنافق الذي ليس بعالم ولا مؤمن، فإذا قالوا هذه الكلمة عصموا دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها في الدنيا والآخرة وحسابهم على الله في الآخرة من أجل المنافق، ومن ترتب عليه حق لأحد فلم يؤخذ منه، وأمّا في الدنيا فمن أجل الحدود الموضوعة فإن قول: لا إله إلاّالله لا يسقطها في الدنيا ولا في الآخرة، وأما حسابهم على الله في الآخرة يوم يجمع الله الرسل فيقول: ماذا أجبتم؟ فيعلمون بقرينة الحال أنه سؤال واستفهام عن إجابتهم بالقلوب فيقولون: لا علم لنا أي لم نطلع على القلوب ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٩] تأكيد وتأييد لما ذكرنا.

ثم قال ﷺ من اسمه الملك بني الإسلام على خمس، فصيّره ملكاً شهادة أن لا إله إلاّ الله وهي القلب، وأن محمداً رسول الله حاجب الباب، وإقام الصلاة المجنبة اليمنى، وإيتاء الزكاة المجنبة اليسرى، وصيام رمضان التقدمة، والحج الساقة، وربما كانت الصلاة التقدمة لكونها نوراً فهي تحجب الملك، وقد ورد في الخبر أن حجابه النور وتكون الزكاة الميمنة لأنها إنفاق يحتاج إلى قوّة لإخراج ما كان يملكه عن ملكه، ويكون الحج الميسرة لما فيه من الإنفاق والقرابين حيث تجتمع بالزكاة في الصدقة والهدية وكلاهما من أعمال الأيدي، ويكون الصوم في الساقة فإن الخلف نظير الإمام وهو ضياء، فإن الصبر ضياء يريد الصوم والضياء من النور فهو أولى بالساقة للموازنة، فإن الآخر يمشي على أثر الأوّل، وهكذا يكون الإيمان الإلهيّ يوم القيامة، فيأتي الإيمان يوم القيامة في صورة ملك على هذه الصفة، فأهل لا إله إلاّ الله في القلب، وأهل الصلاة في التقدمة، وأهل الزكاة وهي الصدقة في الميمنة، وأهل الحج في الميسرة، وأهل الصيام في الساقة، جعلنا الله ممّن قام بناء بيته على هذه القواعد، فكان بيته الإيمان، وحدّه من القِبلة الصلاة، ومن الشمال الصوم، ومن الغرب صدقة السرّ، ومن الشرق الحج، فلقد سعد ساكنه.

واعلم أن لا إله إلاّ الله كلمة نفي وإثبات وهي أفضل كلمة قالتها الأنبياء، قال رسول الله ﷺ: «**أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ**» فيه إشارة لدعاء العارفين بالله، وأفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: «**لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**» وهو حديث صحيح رواية ومعنى، فالنفي لا بدّ أن يرد على ثابت فينفيه فإنه إن ورد النفي على ما ليس بثابت وهو النفي أثبته لأن ورود النفي على نفي إثبات كما أن عدم العدم وجود فما نفى هذا النافي بقوله لا إله أخبرونا فقد استفهمناكم، والمثبت أيضاً هل حكمه حكم النفي من أنه لا يثبت إلاّ المنفي؟ أو حكمه حكم آخر يتميز به عن حكم النفي؟ فأيّ شيء نفي هذا النافي، وأيّ شيء أثبت هذا المثبت هذا كله لا بدّ من تحقيقه إن شاء الله.

فاعلم أن النفي ورد على أعيان من المخلوقات لما وصفت بالألوهية ونسبت إليها قيل فيها آلهة، ولهذا تعجب من تعجب من المشركين لما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله الواحد فأخبرنا الله عنه أنه قال: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٥] فسمّوها

آلهة وهي ليست بهذه الصفة، فورد حكم النفي على هذه النسبة الثابتة عندهم إليها لا في نفس الأمر لا على نفي الألوهية، لأنه لو نفى النفي لكان عين الإثبات لما زعمه المشرك فكأنه يقول للمشرك: هذا القول الذي قلت لا يصحّ أي ما هو الإمر كما زعمت ولا بدّ من إله، وقد انتفت الكثرة عن الآلهة بحرف الإيجاب الذي هو قوله إلاّ، وأوجبوا هذه النسبة إلى المذكور بعد حرف الإيجاب وهو مسمّى الله فقالوا: لا إله إلاّ الله فلم تثبت نسبة الألوهة لله بإثبات المثبت لأنه سبحانه إله لنفسه، فأثبت المثبت بقوله: إلاّ الله هذا الأمر في نفس من لم يكن يعتقد انفراده سبحانه بهذا الوصف، فإنّ ثبت الثبت محال وليس نفي المنفي بمحال، فعلى الحقيقة ما عبد المشرك إلاّ الله لأنه لو لم يعتقد الألوهة في الشريك ما عبده ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] ولذلك غار الحق لهذا الوصف فعاقبهم في الدنيا إذ لم يحترموه ورزقهم وسمع دعاءهم وأجابهم إذا سألوا إلههم في زعمهم لعلمه سبحانه أنهم ما لجؤوا إلاّ لهذه المرتبة وإن أخطؤوا في النسبة فشقوا في الآخرة شقاء الأبد حيث نبههم الرسول على توحيد من تجب له هذه النسبة لم ينظروا ولا نصحوا نفوسهم، ولهذا كانت دلالة كل رسول بحسب ما كان الغالب على أهل زمانه لتقوم عليهم الحجة لكون ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] فعمت هذه الكلمة مرتبة العدم والوجود، فلم تبق مرتبة إلاّ وهي داخلة تحت النفي والإثبات فلها الشمول، فمن قائل: لا إله إلاّ الله بنفسه، ومن قائل: لا إله إلاّ الله بنعته، ومن قائل: لا إله إلاّ الله بربّه، ومن قائل: لا إله إلاّ الله بنعت ربه، ومن قائل: لا إله إلاّ الله بحاله، ومن قائل: لا إله إلاّ الله بحكمه وهو المؤمن خاصة والخمسة الباقون ما لهم في الإيمان مدخل.

أما من قال: لا إله إلاّ الله بنفسه فهو الذي قالها من تجليه لنفسه فرأى استفادة وجوده من غيره فأعطته رؤية نفسه أن يقول: لا إله إلاّ الله وهو التوحيد الذاتيّ الذي أشارت إليه طائفة من المحققين.

وأما القائل: لا إله إلاّ الله بنعته فهو الذي وحده بعلمه إن نعته العلم بتوحيد الله وأحديته فنطقه علمه، والفرق بينه وبين الأول أن الأول عن شهود وهذا الثاني عن وجود، والوجود قد يكون عن شهود وقد لا يكون. وأما القائل: لا إله إلاّ الله بربه فهو الذي رأى أن الحق عين الوجود لا أمر آخر، وأن اتصاف الممكنات بالوجود هو ظهور الحق لنفسه بأعيانها، وذلك أن استفادتها الوجود لها من الله إنما هو من حيث وجوده، فإن الوجود المستفاد وهو الظاهر وهو عين الحكم به على هذه الأعيان فقال: لا إله إلاّ الله بربه.

وأما القائل: لا إله إلاّ الله بنعت ربه فإنه رأى أن الحق سبحانه من حيث أحديته وذاته ما هو مسمّى الله والرب فإنه لا يقبل الإضافة ورأى أن مسمّى الرب يقتضي المربوب ومسمّى الله يطلب المألوه، ورأى أنهم لما استفادوا منه الوجود ثبت له اسم الرب إذ كان المربوب يطلبه، فالمربوب أصل في ثبوت الاسم الرب، ووجود الحق أصل في وجود الممكنات، ورأى أن لا إله إلاّ الله تطلبه عين الذات فقال: لا إله إلاّ الله بنعت الرب الذي نعته به المربوب، فالعلم

بنا أصل في علمنا به، يقول عليه السلام: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» فوجودنا موقوف على وجوده، والعلم به موقوف على العلم بنا، فهو أصل في وجه ونحن أصل في وجه.

وأمّا القائل: لا إله إلاّ الله بحاله فهو الذي يستند في أموره إلى غير الله، فإذا لم يتفق له حصول ما طلب تحصيله ممّن استند إليه وسدّت الأبواب في وجهه من جميع الجهات رجع إلى الله اضطراراً فقال: لا إله إلاّ الله بحاله، وهؤلاء الأصناف كلهم لا يتصفون بالإيمان لأنه ما فيهم من قالها عن تقليد. وأما من قال: لا إله إلاّ الله بحكمه فهو الذي قالها لقول الشارع حيث أوجب عليه أن يقولها وحكم عليه أن يقولها ولولا هذا الحكم ما قالها على جهة القربة إلى الله، وربما لو قالها قالها معلماً أو معلماً.

دخلت على شيخنا أبي العباس العريبيّ من أهل العليا وكان مستهتراً بذكر الاسم (الله) لا يزيد عليه شيئاً فقلت له: يا سيدي لم لا تقول: لا إله إلاّ الله؟ فقال لي: يا ولدي الأنفاس بيد الله ما هي بيدي فأخاف أن يقبض الله روحي عندما أقول لا إله فأقبض في وحشة النفي. وسألت شيخاً آخر عن ذلك فقال لي: ما رأت عيني ولا سمعت أذني من يقول: أنا الله غير الله فلم أجد من أنفي فأقول كما سمعته يقول: الله الله، وإنما تعبدنا بهذا الاسم في التوحيد لأنه الاسم الجامع المنعوت بجميع الأسماء الإلهية، وما نقل أنه وقعت من أحد من المعبودين فيه مشاركة بخلاف غيره من الأسماء مثل إله وغيره، وبهذا القدر من القول إذا قيل لقول الشارع يثبت الإيمان، وإنما قال الشارع: حتى يقولوا لا إله إلاّ الله ولم يقل محمد رسول الله لتضمن هذه الشهادة بالتوحيد الشهادة بالرسالة فإن القائل: لا إله إلاّ الله لا يكون مؤمناً إلاّ إذا قالها لقول رسول الله ﷺ فإذا قالها لقوله فهو عين إثبات رسالته، فلما تضمنت هذه الكلمة الخاصة الشهادة بالرسالة لهذا لم يقل قولوا محمد رسول الله وقال في غير القول وهو الإيمان والإيمان معنى من المعاني ما هو ممّا يدرك بالحسّ، فقرن بالإيمان بالله الايمان به وبما جاء به يعني من عنده ممّا له أن يشرعه من غير نقل عن الله، فقال في حديث ابن عمر لما ذكر الإيمان بالله وبالصلاة والزكاة والحج والصوم وكل هذا جاء من عند الله قال في حديث ابن عمر: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إلاّ الله وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ**» من أجل المنافق المقلد فإنه يقولها من غير إيمان بقلبه ولا اعتقاد، والجاحد المنافق يقولها لا لقوله مع علمه بأنه رسول الله من كتابه لا من دليله العقليّ.

واعلم أن التلفّظ بشهادة الرسالة المقرونة بشهادة التوحيد فيه سرّ إلهيّ عرفنا به الحق سبحانه وهو أن الإله الواحد الذي جاء بوصفه ونعته الشارع ما هو التوحيد الإلهيّ الذي أدركه العقل فإنّ ذلك لا يقبل اقتران الشهادة بالرسالة مع الشهادة بالتوحيد، فهذا التوحيد من حيث ما يعلمه الشارع ما هو التوحيد من حيث ما أثبته النظر العقليّ، وإذا كان الإله الذي دعانا الشرع إلى عبادته وتوحيده إنما هو في رتبة كونه إلهاً لا في ذاته صحّ أن تنعته بما نعته به من النزول والاستواء والمعية والتردّد والتدبّر وما أشبه ذلك من الصفات التي لا يقبلها توحيد العقل المحض المجرّد عن الشرع، فهذا المعبود ينبغي أن تقرن شهادة الرسول برسالته بشهادة

توحيد مرسله ولهذا يضاف إليه فيقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله أشهد أنّ محمداً رسول الله كل يوم ثلاثين مرّة في أذان الخمس الصلوات وفي الإقامة، والمتلفظون بهذه الشهادة الرسالية التفصيل فيهم كالتفصيل في شهادة التوحيد، فلنمش بها على ذلك الأسلوب من المراتب وفي الإيمان بالله وبرسوله الإيمان بكل ما جاء به من عند الله ومن عنده ممّا سنّه وشرعه، ويدخل فيما سنّه الإيمان بسنّة من سنّ سنّة حسنة فاستمرّ الشرع وحدوث العبادة المرغب فيها ممّا لا ينسخ حكماً ثابتاً إلى يوم القيامة، وهذا الحكم خاص بهذه الأمّة وأعني بالحكم تسميتها سنّة تشريفاً لهذه الأمّة، وكانت في حق غيرهم من الأمم السالفة تسمّى رهبانية، قال تعالىٰ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٧] فمن قال بدعة في هذه الأمّة ممّا سمّاها الشارع سنّة فما أصاب السنّة إلاّ أن يكون ما بلغه ذلك والاتباع أولى من الابتداع، والفرق بين الاتباع والابتداع معقول، ولهذا جنح الشارع إلى تسميتها سنّة وما سمّاها بدعة لأن الابتداع إظهار أمر على غير مثال هذا أصله، ولهذا قال الحق تعالىٰ عن نفسه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٧] أي موجدها على غير مثال سبق، فلو شرع الإنسان اليوم أمراً لا أصل له في الشرع لكان ذلك إبداعاً ولم يكن يسوغ لنا الأخذ به، فعدل الشارع عن لفظ الابتداع إلى لفظ السنّة إذ كانت السنّة مشروعة، وقد شرع الله لمحمد ﷺ الاقتداء بهدي الأنبياء عليهم السلام، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الثلاثون.

(الجزء الحادي والثلاثون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثامن والستون

في أسرار الطهارة

[نظم: الطويل]

تَبَصَّرْ ترى سرَّ الطهارة واضحاً يسيراً على أهل التَّيَقُّظ والذَّكَا
فكم طاهرٍ لم يتَّصِفْ بطهارة إذا جانَبَ البحرَ اللَّدُنِيَّ واحتمَى
ولو غاصَ في البحر الأجاج حياتَه ولم يَفْنَ عن بحر الحقيقة ما زَكَا
إذا استجْمَرَ الإنسانُ وتراً فقد مشى على السنَّة المثلى حليفاً لمن مضى
فإن شفَعَ استجْمَارهُ عاد خاسراً وفارق من يهواه من باطن الرَّدَا
وإن غسل الكفَّين وتراً ولم يَزَلْ بخيلاً بما يهوى على فطرة الأولَى
فما غُسلتْ كفٌّ خضيبٌ ومعصمٌ إذا لم يَلُحْ سيفُ التوكل مُنْتَضَى
إذا صحَّ غسلُ الوجه صحَّ حَيَاؤه وصحَّ له رفعُ الستور متى يَشَا
وإن لم يمَسَّ الماءُ لمسةَ رأسه ولا وقفت كفاه في ساحة القَفَا
فما انفكَّ من رقِّ العبودية التي تسخِّرها الأغيارُ في منزل التَّوَى
وإن لم يَرَ الكرسيَّ في غسل رجله تناقَصَ معنى الطهر للحين وانتَفَى

إذ مضْمَضَ الإنسانُ فاه ولم يكن ... بريئاً من الدعوى وفيّاً بما ادَّعى
ومُسْتَنْشقٍ ما شمَّ ريحَ اتصاله ... ومستَنْثرٍ أودى به كِبْرُه الرَّدَى
صماخاه ما تنفكُّ تطهر إن صغا ... إلى أحسن الأقوال واكْتَفَّ واقتفى
وإن لبس الجُرْمُوقَ وهو مسافرٌ ... على طُهره يمسح وفي سرِّه خَفَا
ثلاثةُ أيام وإن كان حاضراً ... بمنزله فالمَسْحُ يومٌ بلا قَضَا
وفي المَسْح سرٌّ لا أبوح بذكره ... ولو قُطِّعتْ مني المفاصل والكُلَى
ويتلوه مسحٌ في الجبائر بيِّنٌ ... لكل مريد لم يرد ظاهرَ الدُّنَا
وإن عدم الماءَ القُراحَ فإنه ... تيَمُّمُه يكفيه من طيِّب الثَّرَى
ويوتِرُه وجهاً وكفاً فإن أبى ... وصيَّره شفعاً فنِعْمَ الذي أتى
إذا أجْنَبَ الإنسانُ عمَّ طهورُه ... كما عمَّت اللذاتُ أجزاءَه العُلَى
ألم ترَ أن الله نَبَّه خلقَه ... بإخراجه بين الترائب والمَطَا
فذاك الذي أجنَى عليه طهورُه ... ولو غاب بالذات النزيهة ما جنَا
فإن نسيَ الإنسانُ ركناً فإنه ... يعيد ويقضي ما تضمَّن واحتَوَى
وإن لم يكن ركناً وعطَّل سُنَّةً ... فلم يأنس الزُّلْفَى وما بلغ المُنَى
وذلك في كل العبادات شائعٌ ... وليس جهولٌ بالأمور كمن دَرَى
فهذا طهورُ العارفين فإن تكن ... مِنَ أحزابهم تحظى بتقريبه مصطفَى
إذا كان هذا ظاهرَ الأمر فالذي ... توارى عن الأبصار أعظمُ مُنْتَشَا

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أنه لما كانت الطهارة النظافة علمنا أنها صفة تنزيه، وهي معنوية وحسيّة، طهارة قلب وطهارة أعضاء معينة، فالمعنوية طهارة النفس من سفساف الأخلاق ومذمومها، وطهارة العقل من دنس الأفكار والشبه، وطهارة السرّ من النظر إلى الأغيار وطهارة الأعضاء. فاعلم أن لكل عضو طهارة معنوية ذكرناها في كتاب التنزلات الموصلية في أبواب الطهارة منه، وطهارة الحسّ من الأمور المستقذرة التي تستخبثها النفوس طبعاً وعادة وهاتان الطهارتان مشروعتان، فالطهارة الحسيّة الظاهرة نوعان: النوع الواحد قد ذكرناه وهو النظافة، والنوع الآخر أفعال معينة مخصوصة في محال معينة مخصوصة لأحوال موجبة مخصوصة لا يزاد فيها ولا ينقص منها شرعاً، ولهذه الطهارة المذكورة ثلاثة أسماء شرعاً: وضوء وغسل وتيمم، وتكون هذه الطهارة بثلاثة أشياء: اثنان مجمع عليهما وواحد مختلف فيه، فالمجمع عليهما الماء المطلق والتراب سواء فارق الأرض أو لم يفارقها، والواحد المختلف فيه في الوضوء خاصة نبيذ التمر وما فارق الأرض ممّا ينطلق عليه اسم الأرض إذا كان في الأرض فإنه مختلف فيه ما عدا التراب كما ذكرنا، وهذه الطهارة قد تكون عبادة مستقلة كما قال ﷺ فِيهَا« **نُورٌ عَلَى نُورٍ**» وقد تكون شرطاً في صحة عبادة مشروعة مخصوصة لا تصحّ تلك العبادة شرعاً إلاّ بوجودها أو الأفضلية، فالأوّل كالوضوء على الوضوء نور على نور، والثاني لرفع المانع عن فعل العبادة التي لا تصحّ إلاّ بهذه الطهارة

واستباحة فعلها وهو الأصل في تشريعها، وممّا تقع به هذه الطهارة ما يكون رافعاً للمانع مبيحاً للفعل معاً وهو الماء بلا خلاف، ونبيذ التمر في الوضوء بخلاف، ومنه ما تقع به الإباحة للفعل المعين في الوقت المفروض وقوعه، ولا يرفع المانع بخلاف وهو التراب وعندي أنه يرفع المانع في الوقت، ولا بدّ وكون الشارع حكم بالطهارة إذا وجد الماء حكم آخر منه كما عاد حكم المانع بعدما كان ارتفع، وما عدا التراب ممّا فارق الأرض بخلاف قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١١] وزاي الرجز هنا بدل من السين على قراءة من قرأ الزراط بالزاي وهي لغة قرأ ابن كثير بها أعني بالسين وحمزة بالزاي وباقي القرّاء بالصاد، سمعت شيخاً وكنت أقرأ عليه القرآن يقال له محمد بن خلف بن صاف اللخمي بمسجده المعروف به بقوس الحنية بإشبيلية من بلاد الأندلس سنة ثمان وسبعين وخمسمائة فقرأت السراط بالسين لابن كثير فقال لي: سأل بعض ناقلي اللغة بعض الأعراب كيف تقولون صقر أو سقر؟ فقال له: ما أدري ما تقول ولكنني أظنك تسأل عن الزقر فقال: فزادني لغة ثالثة ما كنت أعرفها. قال الفراء: الرجس القذر ولا شك أن الماء يزيل القذر والطهور الشرعي يذهب قدر الشيطان، قال تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [سورة المدثر: الآية ٤] قال امرؤ القيس: [الطويل]

وإن كنتِ قد ساءتكِ مني خليقةٌ ... فسُلّي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ

فكنى بالثوب عن الود والوصلة. وقال رسول الله ﷺ في خبر عن ربّه سبحانه: «**مَا وَسِعَنِي أَرْضِي وَلاَ سَمَائِي وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي المُؤْمِنِ**» ومن أسمائه سبحانه المؤمن فمن تخلق به فقد طهر قلبه لأن القلب محمل الإيمان وكانت السعة الإلهية والتجلّي الربانيّ.

(والطهارة عامة): وهي الغسل للفناء الذي عمّ ذاته لوجود اللذة بالكون عند الجماع أريها السهى وتريني القمر. **(وخاصة)**: وهي الوضوء المخصّص بعض الأعضاء بالاغتسال والمسح، وهو تنبيه على مقامات معلومة وتجليات شريفة منها: القوّة والكلام والأنفاس والصدق والتواضع والحياء والسماع والثبات، فهذه أعضاء الوضوء وهي مقامات شريفة لها نتائج في القرب إلى الله، وهذه الطاهرة الروحانية بأحد أمرين: إما بسرّ الحياة أو بأصل النشء في الأب الذي هو أصل الأبناء وهو الأرض والتراب وليس إلاَّ النظر والتفكر في ذاتك لتعرف من أوجدك فإنه أحالك عليك في قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢١] وفي قول رسوله ﷺ: « «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**». أحالك عليك بالتفصيل وأخفاك عنك بالإجمال لتنظر وتستدل فقال في التفصيل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٢] وهو آدم عليه السلام هنا ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [سورة

المؤمنون: الآية ١٣] وهي نشأة الأبناء في الأرحام مساقط النطف ومواقع النجوم فكنى عن ذلك بالقرار المكين ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] وقد تمّ البدن على التفصيل، فإن اللحم يتضمن العروق والأعصاب. [المتقارب]

وفي كلِّ طَوْرٍ له آيةٌ تدلُّ على أنني مفتقِرْ

ثم أجمل خلق النفس الناطقة الذي هو بها إنسان في هذه الآية فقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] عرّفك بذلك أن المزاج لا أثر له في لطيفتك وإن لم يكن نصاً لكن هو ظاهر وأبين منه قوله: ﴿فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٧] وهو ما ذكره في التفصيل من التقلب في الأطوار فقال: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [سورة الانفطار: الآية: ٨] فقرنه بالمشيئة، فالظاهر أنه لو اقتضى المزاج روحاً خاصاً معيناً ما قال: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ﴾ وأيّ حرف نكرة مثل حرف ما فإنه حرف يقع على كل شيء، فأبان لك أن المزاج لا يطلب صورة بعينها ولكن بعد حصولها تحتاج إلى هذا المزاج وترجع به فإنه بما فيه من القوىٰ التي لا تدبره إلاّ بها فإنه بقواه لها كالآلات لصانع النجارة أو البناء مثلاً إذا هيئت وأتقنت وفرغ منها تطلب بذاتها وحالها صانعاً يعمل بها ما صنعت له وما تعين زيداً ولا عمراً ولا خالداً ولا واحداً بعينه، فإذا جاء من جاء من أهل الصنعة مكنته الآلة من نفسها تمكيناً ذاتياً لا تتصف بالاختيار فيه فجعل يعمل بها صنعته بصرف كل آلة لما هيئت له، فمنها مكملة وهي المخلقة يعني التامّة الخلقة، ومنها غير مكملة وهي غير المخلقة فينقص العامل من العمل على قدر ما نقص من جودة الآلة، ذلك ليعلم أن الكمال الذاتي لله سبحانه، فبيّن لك الحق مرتبة جسدك وروحكم لتنظر وتفتكر فتعتبر أن الله ما خلقك سدى وإن طال المدى.

وأمّا القصد الذي هو النية شرط في صحة هذا النظر بخلاف قال تعالىٰ: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٦] أي اقصدوا التراب الذي ما فيه ما يمنع من استعماله في هذه العبادة من نجاسة، ولم يقل ذلك في طهارة الماء فإنه أحال على الماء المطلق لا المضاف فإن الماء المضاف مقيّد بما أضيف إليه عند العرب، فإذا قلت للعربيّ: أعطني ماء جاء إليك بالماء الذي هو غير مضاف ما يفهم العرب منه غير ذلك، وما أرسل رسول ولا أنزل كتاب إلاّ بلسان قومه، يقول رسول الله ﷺ: **«إنّما أُنزلَ القرْآنُ بِلِسَانِي لسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»** يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣] فلهذا لم يقل بالقصد في الماء لأنه سرّ الحياة فيعطي الحياة بذاته سواء قصد أم لم يقصد، بخلاف التراب فإنه إن لم يقصد الصعيد الطيب فليس بنافع لأنه جسد كثيف لا يسري فروحه القصد فإن القصد معنى روحانيّ، فافتقر المتيمم للقصد الخاص في التراب أو الأرض بخلاف أيضاً ولم يفتقر المتوضيء بالماء بخلاف فقال: ﴿فَٱغْسِلُواْ﴾ ولم يقل: تيمموا ماء طيباً، فإن قالوا: إنما

الأعمال بالنيات وهي القصد والوضوء عمل قلنا: سلمنا ما تقول ونحن نقول به ولكن النية هنا متعلقها العمل لا الماء، والماء ما هو العمل، والقصد هنالك للصعيد، فيفتقر الوضوء بهذا الحديث للنية من حيث ما هو عمل لا من حيث ما هو عمل بماء، فالماء هنا تابع للعمل والعمل هو المقصود بالنية، وهنالك القصد للصعيد الطيب والعمل به تبع يحتاج إلى نية أخرى عند الشروع في الفعل، كما يفتقر العمل بالماء في الوضوء والغسل وجميع الأعمال المشروعة إلى الإخلاص المأمور به وهو النية بخلاف، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة البينة: الآية ٥] وفي هذه الآية نظر، وهذه مسألة ما حققها الفقهاء على الطريقة التي سلكنا فيها وفي تحقيقها فافهم.

ولم يقل في الماء تيمموا الماء فيفتقر إلى روح من النية والماء في نفسه روح فإنه يعطي الحياة من ذاته، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] فإن كل شيء يسبح بحمد الله ولا يسبح إلاّ حيّ، فالماء أصل الحياة في الأشياء، ولهذا وقع الخلاف بين علماء الشريعة في النيّة في الوضوء هل هي شرط في صحته أو ليست بشرط في صحته والسرّ ما ذكرناه. فإن قيل: إن الإمام الذي لا يرى النية في الوضوء يراها في غسل الجنابة وكلا العبادتين بالماء وهو سرّ الحياة فيهما، قلنا: لما كانت الجنابة ماء وقد اعتبر الشرع الطهارة منها لدنس حكميّ فيها لامتزاج ماء الجنابة بما في الأخلاط وكون الجنابة ماء مستحيلاً من دم فشاركت الماء في سرّ الحياة فتمانعا فلم يقو الماء وحده على إزالة حكم الجنابة لما ذكرنا فافتقر إلى روح مؤيد له عند الاغتسال فاحتاج إلى مساعدة النية، فاجتمع حكم النية وهي روح معنويّ وحكم الماء فأزالا بالغسل حكم الجنابة بلا شك كأبي حنيفة ومن قال بقوله في هذه المسألة ومن راعى كون ماء الجنابة لا يقوى قوّة الماء المطلق لأنه ماء استحال من دم كماء الجنابة إلى ممازجته بالأخلاط ومفارقته إياه بالكثافة واللونية، قال: قد ضعف ماء الجنابة عن مقاومة الماء المطلق فلم يفتقر عنده إلى نية كالحسن بن حي والمخالف لهما من العلماء ما تفطنوا لما رأياه هذان الإمامان ومن ذهب مذهبهما، فاجهل بالك لما بينته لك ورجح ما شئت.

وصل: وبعد أن تحققت هذا فاعلم أن الماء ماءان ماء ملطف مقطر في غاية الصفاء والتخليص وهو ماء الغيث فإنه ماء مستحيل من أبخرة كثيفة قد أزال التقطير ما كان تعلق به من الكثافة، وذلك هو العلم الشرعي اللدني فإنه عن رياضة ومجاهدة وتخليص، فطهر به ذاتك لمناجاة ربك، والماء الآخر ما لم يبلغ في اللطافة هذا المبلغ وهو ماء العيون والأنهار فإنه ينبع من الأحجار ممتزجاً بحسب البقعة التي ينبع بها ويجري عليها فيختلف طعمه، فمنه عذب فرات، ومنه ملح أجاج، ومنه مرّ زعاق، وماء الغيث على حالة واحدة ماء نمير خالص سلسال سائغ شرابه، وهذه علوم الأفكار الصحيحة والعقول، فإن علوم العقل المستفادة من الفكر يشوبها التغيّر لأنها بحسب مزاج المتفكّر من العقلاء لأنه لا ينظر إلاّ في موادّ محسوسة كونية في الخيال، وعلى مثل هذا تقوم براهينها فتختلف مقالاتهم في الشيء الواحد، أو

تختلف مقالة الناظر الواحد في الشيء الواحد في أزمان مختلفة لاختلاف الأمزجة والتخليط والأمشاج الذي في نشأتهم، فاختلفت أقاويلهم في الشيء الواحد وفي الأصول التي يبنون عليها فروعهم، والعلم اللدني الإلهيّ المشروع ذو طعم واحد وإن اختلفت مطاعمه، فما اختلفت في الطيب فطيب وأطيب فهو خالص ما شابه كدر لأنه تخلص من حكم المزاج الطبيعي وتأثير المنابيع فيه، فكانت الأنبياء والأولياء وكل مخبر عن الله على قول واحد في الله إن لم يزد فلا ينقص ولا تخالف يصدق بعضهم بعضاً، كما لم يختلف ماء السماء حال النزول، فليكن اعتمادك وطهورك في قلبك بمثل هذا العلم، وليس إلاَّ العلم بالشرع المشبه بماء الغيث، وإن لم تفعل فما نصحت نفسك وتكون في ذاتك وطهورك بحسب ما تكون البقعة التي نبع منها ذلك الماء، فإن فرقت بين عذبه وملحه فاعلم أنك سليم الحاسة، وهذه مسألة لم أجد أحداً نبّه عليها، فإن آكل السكر بالحلاوة في السكر كذلك وفي مرارة الصبر ليس بصحيح ولا يقتضيه الدليل العقلي وقد نبهناك إن تنبهت، فانظر ثم يا وليي استدرك استعمال علوم الشريعة في ذاتك وعلوم الأولياء والعقلاء الذين أخذوها عن الله بالرياضات والخلوات والمجاهدات والاعتزال عن فضول الجوارح وخواطر النفوس، وإن لم تفرّق بين هذه المياه فاعلم أنك سيء المزاج قد غلب عليك خلط من أخلاطك فما لنا فيك من حيلة إلاَّ أن يتدارك الله برحمته نفسك، فإذا استعملت من ماء هذه العلوم في طهارتك ما دللتك عليه وهو العلم المشروع، طهرت صفاتك وروحانيتك به كما طهرت أعضاءك بالماء ونظفتها، فأوّل طهارتك غسل يديك قبل إدخالهما في الإناء عند قيامك من نوم الليل بلا خلاف ووجوب غسلهما من نوم النهار بخلاف، واليد محل القوّة والتصريف فطهورهما بعلم لا حول في اليسرى ولا قوّة إلاَّ بالله العليّ العظيم في اليمنى، واليدان محل القبض والإمساك بخلاً وشحاً فطهرهما بالبسط والإنفاق كرماً وجوداً وسخاء.

ونوم الليل غفلتك عن علم عالم غيبك، ونوم النهار غفلتك عن علم عالم شهادتك، فهذا عين تخلقك وتحققك بعالم الغيب والشهادة من الأسماء الحسنى المضافة، ثم بعد هذا الاستنجاء والاستجمار والجمع بينهما أفضل من الإفراد فهما طهارتان نور في نور مرغب فيهما سنّة وقرآناً، فإن استنجيت وهو استعمال الماء في طهارة السوأتين لما قام بهما من الأذى وهما محل الستر والصوم كما هما محل إخراج الخبث والأذى القائم بباطنك وهو ما تعلق بباطنك من الأفكار الرديئة والشبه المضلة كما ورد في الصحيح: «إن الشيطان يأتي إلى الإنسان في قلبه فيقول له: من خلق كذا ومن خلق كذا حتى يقول فمن خلق الله» فطهارة هذا القلب من هذا الأذى ما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستعاذة والانتهاء وهما عورتان أي مائلتان إلى ما يوسوس به نفسه من الأمور القادحة في الدين أصلاً وفرعاً فإن الدبر هو الأصل في الأذى فإنه ما وجد إلا لهذا والفرجان الآخران في الرجل والمرأة فرعان عن هذا الأصل ففيهما وجه إلى الخير ووجه إلى الشرّ وهو النكاح والسفاح، ألا ترى النجاسة إذا وردت على الماء القليل أثرت فيه فلم يستعمل وإذا ورد الماء على النجاسة أذهب حكمها،

كذلك الشبه إذا وردت على القلوب الضعيفة الإيمان الضعيفة الرأي أثرت فيها، وإذا وردت على البحر استهلكت فيه، كذلك القلوب القوية المؤيدة بالعلم وروح القدس، كذلك الشبه إذا جاء بها شيطان الإنس والجنّ إلى المتضلّع من العلم الإلهيّ الريان منه قلب عينها وعرف كيف يردّ نحاسها ذهباً وقزديرها فضة بإكسير العلم اللدنيّ الذي عنده من عناية الرحمة الإلهية التي أتاه الله بها وعرف وجه الحق منها وآثر فيها، فهذا سرّ الاستنجاء الروحانيّ.

فإن استجمر هذا المتوضىء ولم يستنج فاعلم أن ذلك طهور المقلد فإن الجمرة الجماعة ويد الله مع الجماعة، ولا يأكل الذئب إلا القاصية وهي التي بعدت عن الجماعة وخرجت عنها وذلك مخالفة الإجماع، والاستجمار معناه جمع أحجار أقلها ثلاثة إلى ما فوقها من الأوتار لأن الوتر هو الله فلا يزال الوتر مشهودك، والوتر طلب الثأر وهو هنا ما ألقاه الشيطان من الشبه في إيمانك فتجمع الأحجار للإنقاء من ذلك الخبث القائم بالعضو، فالمقلد إذا وجد شبهة في نفسه هرب إلى الجماعة أهل السنّة فإنّ يد الله كما جاء مع الجماعة ويد الله تأييده وقوّته، وقد نهى رسول الله ﷺ عن مفارقة الجماعة، ولهذا قام الإجماع في الدلالة على الحكم المشروع مقام النص من الكتاب أو السنّة المتواترة التي تفيد العلم فهذا يكون استجمارك في هذه الطهارة.

ثم مضمض بالذكر الحسن لتزيل به الذكر القبيح من النميمة والغيبة والجهر بالسوء من القول، فلتكن مضمضتك بالتلاوة وذكر الله وإصلاح ذات البين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٨] وقال: ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [سورة القلم: الآية ١١] وقال: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٤] وما أشبه ذلك، فهذه طهارة فيك، وقد فتحت لك الباب فأجر في وضوئك وغسلك وتيممك في أعضائك على هذا الأسلوب فهو الذي طلبه الحق منك، وقد استوفينا الكلام على هذه الطهارة في التنزلات الموصلية فانظرها هنالك نثراً ونظماً وقد رميت بك على الطريق، ولتصرف هذه الطهارة بكمالها في كل مكلف منك، فإن كل مكلف منك مأمور بجميع العبادات كلها من طهور وصلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد وغير ذلك من الأعمال المشروعة ، وكل مكلف فيك تصرفه في هذه العبادات بحسب ما تطلبه حقيقة ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [سورة الطلاق :الآية٧] وقد﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[سورة طه: الآية٥٠] أي بين كيف تستعمله فيها وهم ثمانية أصناف لا يزيدون لكن قد ينقصون في بعض الأشخاص وهم: العين والأذن واللسان واليد والبطن والفرج والرجل والقلب لا زائد في الإنسان عليهم، لكن قد ينقصون في بعض أشخاص هذا النوع الإنساني كالأكمة والأخرس والأصم وأصحاب العاهات، فمن بقي من هؤلاء المكلفين منك فالخطاب يترتب عليه.

ومن خطاب الشارع تعلم جميع ما يتعلق بكل عضو من هؤلاء الأعضاء من التكاليف وهم كالآلة للنفس المخاطبة المكلفة بتدبير هذا البدن وأنت المسؤول عنهم في إقامة العدل

فيهم، فلقد كان رسول الله ﷺ إذا انقطع شسع نعله خلع الأخرى حتى يعدل بين رجليه ولا يمشي في نعل واحد، وقد بيناها بكمالها وما لها من الأنوار والكرامات والمنازل والأسرار والتجليات في كتابنا المسمّى مواقع النجوم ما سبقنا في علمنا في هذا الطريق إلى ترتيبه أصلاً وقيدناه في أحد عشر يوماً في شهر رمضان بمدينة المرية سنة خمس وتسعين وخمسمائة يغني عن الأستاذ بل الأستاذ محتاج إليه فإن الأستاذين فيهم العالي والأعلى، وهذا الكتاب على أعلى مقام يكون الأستاذ عليه ليس وراءه مقام في هذه الشريعة التي تعبدنا بها، فمن حصل لديه فليعتمد بتوفيق الله عليه فإنه عظيم المنفعة، وما جعلني أن أعرفك بمنزلته إلاَّ أني رأيت الحق في النوم مرّتين وهو يقول لي: انصح عبادي وهذا من أكبر نصيحة نصحتك بها والله الموفق وبيده الهداية وليس لنا من الأمر شيء. ولقد صدق الكذوب إبليس رسول الله ﷺ حين اجتمع به فقال له رسول الله ﷺ: ما عندك؟ فقال إبليس: لتعلم يا رسول الله أن الله خلقك للهداية وما بيدك من الهداية شيء، وأن الله خلقني للغواية وما بيدي من الغواية شيء لم يزده على ذلك وانصرف، وحالت الملائكة بينه وبين رسول الله ﷺ.

وصل: وبعد أن نبهتك على ما نبهتك عليه ممّا تقع لك به الفائدة فاعلم أن الله خاطب الإنسان بجملته، وما خصّ ظاهره من باطنه ولا باطنه من ظاهره، فتوفرت دواعي الناس أكثرهم إلى معرفة أحكام الشرع في ظواهرهم، وغفلوا عن الأحكام المشروعة في بواطنهم إلاَّ القليل وهم أهل طريق الله فإنهم بحثوا في ذلك ظاهراً وباطناً، فما من حكم قرّروه شرعاً في ظواهرهم إلاَّ ورأوا أن ذلك الحكم له نسبة إلى بواطنهم أخذوا على ذلك جميع أحكام الشرائع فعبدوا الله بما شرع لهم ظاهراً وباطناً، ففازوا حين خسر الأكثرون، ونبغت طائفة ثالثة ضلّت وأضلت فأخذت الأحكام الشرعية وصرفتها في بواطنهم وما تركت من حكم الشريعة في الظواهر شيئاً تسمى الباطنية وهم في ذلك على مذاهب مختلفة، وقد ذكر الإمام أبو حامد في كتاب المستظهري له في الردّ عليهم شيئاً من مذاهبهم وبين خطأهم فيها، والسعادة إنما هي مع أهل الظاهر وهم في الطرف والنقيض من أهل الباطن، والسعادة كل السعادة مع الطائفة التي جمعت بين الظاهر والباطن وهم العلماء بالله وبأحكامه، وكان في نفسي إن أخّر الله في عمري أن أضع كتاباً كبيراً أقرّر فيه مسائل الشرع كلها كما وردت في أماكنها الظاهرة وأقرّرها، فإذا استوفينا المسألة المشروعة في ظاهر الحكم جعلنا إلى جانبها حكمها في باطن الإنسان فيسري حكم الشرع في الظاهر والباطن، فإن أهل طريق الله وإن كان هذا غرضهم ومقصدهم ولكن ما كل أحد منهم يفتح الله له في الفهم حتى يعرف ميزان ذلك الحكم في باطنه، فقصدنا في هذا الكتاب إلى الأمر العام من العبادات وهي الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والتلفظ بلا إله إلاَّ الله محمد رسول الله، فاعتنيت بهذه الخمسة لكونها من قواعد الإسلام التي بني الإسلام عليها وهي كالأركان للبيت.

فالإيمان هو عين البيت ومجموعه وباب البيت الذي يدخل منه إليه، وهذا الباب له مصراعان وهما: التلفظ بالشهادتين. وأركان البيت أربعة وهي: الصلاة والزكاة والصيام

والحج، فجردنا العناية في إقامة هذا البيت لنسكن فيه ويقيناً من زمهرير نفس جهنم وحرورها. قال النبي ﷺ: **«اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضاً، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَس في الشِّتَاءِ وَنَفَس فِي الصَّيْفِ، فَمَا كَانَ مِنْ سَموم وَحَرُورٍ فَهُوَ مِنْ نَفَسِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ بَرْدٍ وَزَمْهَرِيرٍ فَهُوَ مِنْ نَفَسِهَا»**. فاتخذ الناس البيوت لتقيهم حرّ الشمس وبرد الهواء، فينبغي للعاقل أن يقيم لنفسه بيتاً يكنه يوم القيامة من هذين النفسين في ذلك اليوم لأن جهنم في ذلك اليوم تأتي بنفسها تسعى إلى الموقف تفور تكاد تميز من الغيظ على أعداء الله، فمن كان في مثل هذا البيت وقاه الله من شرّها وسطوتها. ولما كانت الطهارة شرطاً في صحة الصلاة أفردنا لها باباً قدّمناه بين يدي باب الصلاة، ثم يتلوها الزكاة، ثم الصوم، ثم الحج، ويكفي في هذا الكتاب هذا القدر من العبادات، فأتتبع أمهات مسائل كل باب منها وأقرّرها بالحكم الكلي باسمها في الظاهر، ثم أنتقل إلى حكم تلك المسألة عينها في الباطن إلى أن أفرغ منها والله يؤيد ويعين.

بيان وإيضاح: فأوّل ذلك تسميتها طهارة، وقد ذكرنا ذلك في أوّل الباب ظاهراً وباطناً، فلنشرع إن شاء الله في أحكامها وهو أن ننظر في وجوبها وعلى من تجب ومتى تجب، وفي أفعالها وفيما به تفعل، وفي نواقضها، وفي صفة الأشياء التي تفعل من أجلها كما فعلته علماء الشريعة وقرّرته في كتبها، وقد انحصر في هذا أمر الطهارة ولننظر ذلك ظاهراً وباطناً، وإنما نومىء إليه ظاهراً حتى لا يفتقر الناظر فيها إلى كتب الفقهاء فيغنيه ما ذكرناه، ولا نتعرّض للأدلة التي للعلماء على ثبوت هذا الحكم من كتاب أو سنّة أو إجماع أو قياس في مذهب من يقول به لطرد علة جامعة يراها بين المنطوق عليه والمسكوت عنه، لا أتعرض إلى أصول الفقه في ذلك ولا إلى الأدلة إذ العامّة ليس منصبها النظر في الدليل، فنحن نذكر أمهات فروع الأحكام ومذاهب الناس فيها من وجوب وغير وجوب.

وصل: نقول أوّلاً: أجمع المسلمون قاطبة من غير مخالف على وجوب الطهارة على كل من لزمته الصلاة إذا دخل وقتها، وأنها تجب على البالغ حدّ الحلم العاقل، واختلف الناس هل من شرط وجوبها الإسلام أم لا؟ هذا حكم الظاهر، فأمّا الباطن في ذلك وهي الطهارة الباطنة فنقول: إن باطن الصلاة وروحها إنما هو مناجاة الحق تعالىٰ حيث قال: **«قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ»** الحديث، فذكر المناجاة، يقول العبد: كذا، فيقول الله: كذا فمتى أراد العبد مناجاة ربه في أيّ فعل كان تعينت عليه طهارة قلبه من كل شيء يخرجه عن مناجاة ربه في ذلك الفعل، ومتى لم يتصف بهذه الطهارة في وقت مناجاته فما ناجاه وقد أساء الأدب فهو بالطرد أحق، وسأذكر في أفعالها تقاسيم هذه الطهارة في الحكم إن شاء الله.

وأمّا قول العلماء: أنها تجب على البالغ العاقل بالإجماع واختلفوا في الإسلام، فكذلك عندنا تجب هذه الطهارة على العاقل وهو الذي يعقل عن الله أمره ونهيه وما يلقيه الله في سرّه ويفرّق بين خواطر قلبه فيما هو من الله أو من نفسه أو من لمة الملك أو من لمة

الشيطان وذلك هو الإنسان، فإذا بلغ في المعرفة والتمييز إلى هذا الحدّ وعقل عن الله ما يريد منه وسمع قول الله تعالىٰ: وسعني قلب عبدي، وجب عليه عند ذلك استعمال هذه الطهارة في قلبه وفي كل عضو يتعلق به على الحدّ المشروع، فإن طهارة البصر مثلاً في الباطن هو النظر في الأشياء بحكم الاعتبار وعينه، فلا يرسل بصره عبثاً، ولا يكون مثل هذا إلاّ لمن تحقق باستعمال الطهارة المشروعة في محلها كلها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [سورة النور: الآية ٤٤] فجعلها للأبصار والاعتبار إنما هو للبصائر، فذكر الأبصار لأنها الأسباب المؤدّية إلى الباطن ما يعتبر فيه عين البصيرة وهكذا جميع الأعضاء كلها.

وأمّا قول العلماء في هذه الطهارة: هل من شرط وجوبها الإسلام؟ فهو قولهم: هل الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؟ وأنّ المنافق إذا توضأ هل أدّى واجباً أم لا؟ وهي مسألة خلاف تعم جميع الأحكام المشروعة، فمذهبنا أن جميع الناس كافة من مؤمن وكافر ومنافق مكلفون مخاطبون بأصول الشريعة وفروعها، وأنهم مؤاخذون يوم القيامة بالأصول وبالفروع، ولهذا كان المنافق في الدرك الأسفل من النار وهو باطن النار، وأن المنافق معذب بالنار التي تطلع على الأفئدة إذ أتى في الدنيا بصورة ظاهر الحكم المشروع من التلفظ بالشهادة وإظهار تصديق الرسل والأعمال الظاهرة وما عندهم في بواطنهم من الإيمان مثقال ذرة، فبهذا القدر تميزوا من الكفار وقيل فيهم إنهم منافقون، قال تعالىٰ: ﴿أَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٠] فذكر الدار، فالمنافقون يعذبون في أسفل جهنم، والكافرون لهم عذاب في الأعلى والأسفل، فإن الله قد رتب مراتب وطبقات للعذاب في نار جهنم لأعمال مخصوصة بأعضاء مخصوصة على ميزان معلوم لا يتعداه، فالمؤمن ليس للنار اطلاع على محل إيمانه البتة فما له نصيب في النار التي تطلع على الأفئدة وإن خرج عنه هناك، فإن عنايته سارية في محله من الإنسان، وإنما يخرج عنه ليحميه ويردّ عنه من عذاب الله ما شاء الله كما خرج عنه في الدنيا إذا أوقع المعصية، قال رسول الله ﷺ في المؤمن يشرب الخمر ويسرق ويزني أنه لا يفعل شيئاً من ذلك وهو مؤمن حال فعله وقال: «**إِنَّ الإِيمانَ يَخْرُجُ عَنْهُ فِي ذٰلِكَ الوَقْتِ حَالُ الفِعْلِ**» وتأوّل الناس هذا الحديث على غير وجهه لأنهم ما فهموا مقصود الشارع، وفسّروا الإيمان بالأعمال فقالوا: إنه أراد العمل فأبان النبيّ ﷺ مراده بذلك في الحديث الآخر فقال ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا زَنَى خَرَجَ عَنْهُ الإِيمَانُ حَتَّى يَصِيرَ عَلَيهِ كَالظُّلَّةِ فَإِذَا أَقْلَعَ رَجِعَ إِلَيهِ الإِيمَانُ**».

فاعلم أن الحكمة الإلهية في ذلك أن العبد إذا شرع في المخالفة التي هو بها مؤمن أنها مخالفة ومعصية فقد عرض نفسه بفعله إياها لنزول عذاب الله عليه وإيقاع العقوبة به، وأن ذلك الفعل يستدعي وقوع البلاء به من الله فيخرج عنه إيمانه الذي في قلبه حتى يكون عليه مثل الظلة، فإذا نزل البلاء من الله يطلبه تلقاه إيمانه فيردّه عنه، فإن الإيمان لا يقاومه شيء ويمنعه من الوصول إليه رحمة من الله، وما بعد بيان رسول الله ﷺ بيان، ولهذا قلنا: إن العبد المؤمن لا يخلص له أبداً معصية لا تكون مشوبة بطاعة وهي كونه مؤمناً بها أنها معصية فهو

من الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فقال الله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٢] والتوبة الرجوع فمعناه أن يرجع عليهم بالرحمة فإنه تعالىٰ تمّم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ وقال العلماء إن (عسى) من الله واجبة فإنه لا مانع له.

ثم نرجع ونقول: إنّه لما كان الإيمان عين طهارة الباطن لم يتمكن أن يتصوّر الخلاف فيه كما تصوّر في الطهارة الظاهرة إلاَّ بوجه دقيق يكون حكم الظاهر فيه في الباطن حكم الباطن في طهارة الظاهر، فنقول من ذلك الوجه: هل من شرط طهارة الباطن بالإيمان التلفظ به فينطق اللسان بما يعتقده القلب من ذلك أم لا؟ فيكون في عالم الغيب إذا لم يظهر بما يعتقده في الباطن منافقاً كمنافق الظاهر في عالم الشهادة، فإن المؤمن يعتقد وجوب الصلاة مثلاً ولا يصلي ولا يتطهر، كما أن المنافق يصلي ويتطهر ولا يؤمن بوجوبها عليه بقلبه ولا يعتقده أو لا يفعله لقول ذلك الرسول الذي شرعه له، فهذا معنى ذلك إذا حققت النظر فيه حتى يسري الحكم في الظاهر والباطن على صورة ما هو في الظاهر من الخلاف والإجماع فاعلم ذلك.

وصل: وأما أفعال هذه الطهارة فقد ورد بها الكتاب والسنّة وبيّن فرضها من سننها من استحباب أفعال فيها، ولهذه الطهارة شروط وأركان وصفات وعدد وحدود معينة في محالها. فمن شروطها النية وهي القصد بفعلها على جهة القربة إلى الله تعالىٰ عند الشروع في الفعل، فمن الناس من ذهب إلى أنها شرط في صحة ذلك الفعل الذي لا يصحّ إلاَّ بوجودها وما لا يتوصل إلى الواجب إلاَّ به فهو واجب ولا بدّ وهو مذهبنا، وبه نقول في الطهارة الظاهرة والباطنة، وهي عندنا في الباطن آكد وأوجب لأن النية من صفات الباطن أيضاً، فحكمها في طهارة الباطن أقوى لأنها تحكم في موضع سلطانها والظاهر غريب عنها، فلهذا لم يختلف في علمنا في الباطن واختلف في ذلك في الظاهر، وقد تقدّم من الكلام في النية طرف يغني، وذهب آخرون إلى أنها ليست بشرط صحة، وأغنى ما ذكرناه في طهارة الوضوء بالماء.

وصل: اختلف علماء الشريعة في غسل اليد قبل إدخالها في الإناء الذي نريد الوضوء منه على أربعة أقوال: فمن قائل: إن غسلهما سنّة بإطلاق. ومن قائل: إن ذلك مستحب لمن يشك في طهارة يده. ومن قائل: إن غسل اليد واجب على القائم من النوم في الإناء الذي يريد الوضوء منه. ومن قائل: إن ذلك واجب على المنتبه من نوم الليل خاصة، وهذا حصر مذاهب العلماء في علمي في هذه المسألة، ولكل قائل حجة من الاستدلال يدل بها على قوله، وليس كتابنا هذا موضع إيراد أدلتهم. وتتميم حكم هذه المسألة في الباطن غسل اليد هو طهارتها بما كلفه الشارع فيها بتركه وذلك على قسمين: منه ما هو واجب، ومنه ما هو مندوب إليه، والواجب عندنا والفرض على السواء لفظان متواردان على معنى واحد، فلا فرق عندنا إذا قلت: أوجب أو فرض. ثم نقول: فالواجب إذا كانت اليد على شيء يحكم الشرع فيه عليها أنها غاصبة أو بكونه مسروقاً أو بكونه وقعت فيه خيانة وكل ما لم يجوّز لها الشارع أن تتصرف فيه، والفروق في هذه الأحوال بينة فواجب طهارتها عن هذا كله، وسيرد بماذا تطهر في موضعه إن شاء الله فواجبة عليها هذه الطهارة.

وأمّا الطهارة المندوب إليها فهي ترك ما في اليد من الدنيا ممّا هو مباح له إمساكه، فندبه الشرع إلى إخراجه عن يده رغبة فيما عند الله وذلك هو الزهد وهي تجارة فإنّ لها عوضاً عند الله على ما تركته والترك أعلى من الإمساك، وهذه مسألة إجماع في كل ملة ونحلة شرعاً وعقلاً، فإن الناس مجمعون على أن الزهد في الدنيا وترك جمع حطامها والخروج عمّا بيده منها أولى عند كل عاقل، هذا هو المندوب إليه في طهر اليد وهو السنّة. وأما المذهب في الاستحباب في طهارة اليد عند الشاك في طهارتها فهو الخروج عن المال الذي في يده لشبهة قامت له فيه قدحت في حلّه فليس له إمساكه، وهذا هو الورع ما هو الزهد وإن كان له وجه إلى الحل فالمستحب تركه ولا بدّ فإن مراعاة الحرمة أولى، فإنك في إمساكه مسؤول، وفي تركه للشبهة التي قامت عندك فيه غير مسؤول بل أنت إلى المثوبة على ذلك أقرب، وهذا في الطهارة المندوب إليها أولى، والاستحباب في الترك للمباح أولى.

وأمّا اختلافهم في وجوب غسلها من النوم مطلقاً وفيمن قيد ذلك بنوم الليل، فاعلم أن الليل غيب لأنه محل الستر ولذلك جعل ﴿ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾ [سورة النبأ: الآية ١٠] و﴿ٱلنَّهَارَ﴾ شهادة لأنه محل الظهور والحركة ولذلك جعله ﴿مَعَاشًا﴾ [سورة النبأ: الآية ١١] لابتغاء الفضل، يعني طلب الرزق هنا من وجهه، فالفضل المبتغى فيه من الزيادة ومن الشرف وهو زيادة الفضائل فإنه يجمع ما ليس له برزق فهو فضول لأنه يجمعه لوارثه أو لغيره، فإن رزق الإنسان ما هو ما يجمعه وإنما هو ما يتغذى به. فاعلم أن النائم في عالم الغيب بلا شك، وإذا كان النوم بالليل فهو غيب في غيب فيكون حكمه أقوى، والنوم بالنهار غيب في شهادة فيكون حكمه أضعف، ألا تراه جعل ﴿ٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٧] فهو راحة بلا شك وهو بالليل أقوى فإنه فيه أشدّ استغراقاً من نوم النهار والغيب أصل فالليل أصل والشهادة فرع فالنهار فرع ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٧] فالنهار مسلوخ من الليل، فالليل لما كان يستر الأشياء ولا يبيّن حقائق صورها للأبصار أشبه الجهل فإنّ الجهل بالشيء لا يبيّن حكمه، فمن جهل الشرع في شيء لم يعلم حكمه فيه، ولما كان النائم في حال نومه لا يعلم شيئاً من أمور الظاهر في عالم الشهادة في حق الناس كان النوم جهلاً محضاً إلاّ في حق من تنام عينه ولا ينام قلبه كرسول الله ﷺ ومن شاء الله من ورثته في الحال.

ولما كان النهار يوضح الأشياء ويبيّن صور ذواتها ويظهر للمتقي ما يتقي من الأمور المضرّة وما لا يتقيه أشبه العلم فإن العلم هو المبين حكم الشرع في الأشياء. ولما كان النائم بالنهار متصفاً بالجهل لأجل نومه لأن النوم من أضداد العلم ربما مدّ يده وهو لا علم له أو رجله فيفسد شيئاً ممّا لو كان مستيقظاً لم يتعرّض إلى فساده أوجب عليه الشرع الطهارة بالعلم من نوم الجهل إذا استيقظ فيعلم بيقظته حكم الشرع في ذلك، فإنه ما كان يدري في حال نوم جهالته حيث جالت يده هل فيما أبيح له ملكه أو في ما لم يبح له ملكه كالمغصوب وأمثاله كما ذكرنا، كما راعى المخالف قوله: أين باتت يده واشتركا في النوم، وإنما ذكر الشارع المبيت لأن غالب النوم فيه وهو أبداً يراعي الأغلب، فجعل هذا الحكم في نوم الليل ومراعاة

النوم أولى من مراعاة نوم الليل ويقول مراعي نوم الليل لذكرالمبيت، فإنه لما كان الإنسان إذا نام بالنهار قد يكون هناك إنسان أو جماعة إذا رأوا النائم يتحرك بيده أو برجله فتؤدّيه حركته تلك إلى كسر جرّة أو غيرها، أو صبيّ صغير رضيع تحصل يده على فمه فتؤذيه أو يمسك عنه خروج النفس فيموت وقد رأينا ذلك فيكون المستيقظ الحاضر يمنع من ذلك بإزالة الطفل القريب منه أو الجرّة أو ما كان من أجل ضوء النهار الذي كشفه به ويقظته، كذلك العالم مع الجاهل إذا رآه يتصرّف بما لا علم له به بحكم الشرع فيه نبّهه، أو حال الشرع بينه وبين ذلك الفعل، فوجب غسل اليد عندنا ولا بدّ باطناً على الغافل وهو النائم بالنهار الجاهل وهو النائم بالليل. وأما اعتبارنا بالطهارة قبل إدخالها في الإناء فإنه بالعلم والعمل خوطبنا فالعلم الماء والعمل الغسل وبهما تحصل الطهارة، فغسلها قبل إدخالها في إناء الوضوء هو ما يقرّره في نفسه من القصد الجميل في ذلك الفعل إلى جناب الحق الذي فيه سعادته عند الشروع في الفعل على التفصيل، فهذا معنى غسل اليد قبل إدخالها في إناء الوضوء في طهارة الباطن.

وصل: المضمضة والاستنشاق: اختلف علماء الشريعة فيهما على ثلاثة أقوال: فمن قائل: إنهما سنتان. ومن قائل: إنهما فرض. ومن قائل: إن المضمضة سنّة والاستنشاق فرض، هذا حكمهما في الظاهر قد نقلناه. فأما حكمهما في الباطن: فمنهما ما هو فرض. ومنهما ما هو سنّة. فأما المضمضة فالفرض منها التلفظ بلا إله إلاّ الله فإنّ بها يتطهر لسانك من الشرك وصدرك فإنّ حروفها من الصدر واللسان، وكذلك في كل فرض أوجب الله عليك التلفظ به ممّا لا ينوب فيه عنك غيرك فيسقط عنك كفرض الكفاية، كرجل أبصر أعمى على بعدٍ يريد السقوط في حفرة يتأذى بالسقوط فيها أو يهلك فيتعين عليه فرضاً أن ينادي به يحذره من السقوط بما يفهم عنه لكونه لا يلحقه، فإن سبقه إنسان إلى ذلك سقط عنه ذلك الفرض الذي كان تعين عليه، فإن تكلم به فهو خير له وليس بفرض عليه، فإذا تمضمض في باطنه بهذا وأمثاله فقد أصاب خيراً وقال خيراً، وهو حسن القول وصدق اللسان، طهور من الكذب، والجهر بالقول الحسن، طهور من الجهر بالسوء من القول وإن كان جزاء بقوله إلاّ من ظلم ولكن السكوت عنه أفضل.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طهور من نقيضيهما، فمثل هذا فرض المضمضة وسننها، وكذلك الاستنشاق فاعلم أن الاستنشاق في الباطن لما كان الأنف في عرف العرب محل العزّة والكبرياء ولهذا تقول العرب في دعائها: أرغم الله أنفه، وقد اتفق هذا على رغم أنفه، والرغام: التراب أي حطك الله من كبريائك وعزّك إلى مقام الذلّة والصغار فكنى عنه بالتراب فإن الأرض سمّاها الله ذلولاً على المبالغة، فإن أذلّ الأذلاء من وطئه الذليل، والعبيد أذلاء وهم يطؤون الأرض بالمشي عليها في مناكبها فلهذا سمّاها ببنية المبالغة ولا يندفع هذا ولا تزول الكبرياء من الباطن إلاّ باستعمال أحكام العبودية والذلّة والافتقار، ولهذا شرع الاستنثار في الاستنشاق فقيل له: اجعل في أنفك ماء ثم استنثر، والماء هنا علمك بعبوديتك إذا استعملته في محل كبريائك خرج الكبرياء من محله وهو الاستنثار ومنه فرض واستعماله

في الباطن بلا شك ،وأما كونه سنة فمعناه أنك لو تركته صح وضوءك ، ومحله في هذا القدر أنك لو تركت معاملتك لعبدك أو لمن هو تحت أمرك وهنا سر خفي يتضمنه رب أعطني كذا، أو لمن هو دونك بالتواضع وأظهرت العزة وحكم الرياسة لمصلحة تراها أباحها لك الشارع فلم تستنشق جاز حكم طهارتك دون استعمال هذا الفعل ، وإن كان استعمالها أفضل فهذا موضع سقوط فرضها فلهذا قلنا قد يكون سنة وقد يكون فرضاً لعلمنا أنه لو أجمع أهل مدينة على ترك سنة وجب قتالهم ولو تركها واحد لم يقتل فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يغير على مدينة إذا جاءها ليلاً حتى يصبح فإن سمع أذاناً أمسك وإلاً أغار، وكان يتلو إذا لم يسمع أذاناً إنّا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٧٧] وما من حكم من أحكام فرائض الشريعة وسننها واستحباباتها إلاً ولها في الباطن حكم أو أزيد على قدر ما يفتح للعبد في ذلك فرضاً كان أو سنّة أو مستحباً لا بدّ من ذلك، وحد ذلك في سائر العبادات المشروعة كلها، وبهذا يتميز حكم الظاهر من الباطن، فإن الظاهر يسري في الباطن وليس في الباطن أمر مشروع يسري في الظاهر بل هو عليه مقصور، فإن الباطن معان كلها، والظاهر أفعال محسوسة، فينتقل من المحسوس إلى المعنى ولا ينتقل من المعنى إلى الحسّ.

باب التحديد في غسل الوجه

لا خلاف أن غسل الوجه فرض وحكمه في الباطن المراقبة، والحياء من الله مطلقاً، وذلك أن لا تتعدّى حدود الله تعالىٰ. واختلف علماء الرسوم في تحديد غسل الوجه في الوضوء في ثلاثة مواضع: منها البياض الذي بين العذار والأذن. والثاني: ما سدل من اللحية. والثالث: غسل اللحية. فأمّا البياض المذكور فمن قائل: إنه من الوجه. ومن قائل: إنه ليس من الوجه. وأمّا ما انسدل من اللحية فمن قائل: بوجوب إمرار الماء عليه. ومن قائل: بأن ذلك لا يجب. وأمّا تخليل اللحية فمن قائل: بوجوب تخليلها. ومن قائل: أنه لا يجب.

وصل في حكم ما ذكرناه في الباطن: أما غسل الوجه مطلقاً من غير نظر إلى تحديد الأمر في ذلك فإن منه ما هو فرض ومنه ما ليس بفرض. فأما الفرض فالحياء من الله أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك. وأما السنّة منه الحياء من الله أن تكشف عورتك في خلوتك فالله أولى أن تستحيي منه مع علمك أنه ما من جزء فيك إلاً وهو يراه منك، ولكن حكمه في أفعالك من حيث أنت مكلف ما ذكرناه وقد ورد به الخبر. وكذلك النظر إلى عورة امرأتك وإن كان قد أبيح لك ذلك ولكن استعمال الحياء فيها أفضل وأولى، فيسقط الفرض فيه أعني في الحياء في مثل قوله: ﴿لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٣] فما يتعين منه فهو فرض عليك، وما لا يتعين عليك فهو سنّة واستحباب، فإن شئت فعلته وهو أولى، وإن شئت لم تفعله فيراقب الإنسان أفعاله، وترك أفعاله ظاهراً وباطناً، ويراقب آثار ربّه في قلبه فإن وجه قلبه هو المعتبر، ووجه الإنسان وكل شيء حقيقته وذاته وعينه، يقال: وجه الشيء، ووجه

المسألة، ووجه الحكم، ويريد بهذا الوجه حقيقة المسمّى وعينه وذاته، قال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [سورة القيامة: ٢٢، ٢٣] و ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [سورة القيامة: ٢٤، ٢٥] والوجوه التي هي في مقدم الإنسان ليست توصف بالظنون وإنما الظنّ لحقيقة الإنسان، فالحياء خير كله، والحياء من الإيمان، والحياء لا يأتي إلاّ بخير.

وأما البياض الذي بين العذار والأذن وهو الحدّ الفاصل بين الوجه والأذن فهو الحد بين ما كلف الإنسان من العمل في وجهه والعمل في سمعه، فالعمل في ذلك إدخال الحد في المحدود، فالأولى بالإنسان أن يصرف حياءه في سمعه كما صرفه في بصره، فكما أنه من الحياء غض البصر عن محارم الله قال تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [سورة النور: الآية ٣٠] ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [سورة النور: الآية ٣١] باطن هاتين الآيتين خطاب النفس، والعقل كذلك يلزمه الحياء من الله أن يسمع ما لا يحل له سماعه من غيبة وسوء قول من متكلم بما لا ينبغي ولا يحل له التلفظ به، فإن ذلك البياض بين العذار والأذن وهو محل الشبهة، وصورة الشبهة في ذلك أن يقول: إنما أصغيت إليه لأردّ عليه وعن الشخص الذي اغتيب وهذا من فقه النفس، فقوله هذا هو من العذار فإنه من العذر أي الإنسان إذا عوتب في ذلك يعتذر بما ذكرناه وأمثاله ويقول: إنما أصغيت لأحقق سماعي قوله حتى أنهاه عن ذلك على يقين، فكنى عنه بالعذار، ويكون فيمن لا عذار له موضع العذار، فمن رأى وجوب ذلك عليه غسله بما قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي بيّن لهم الحسن من ذلك من القبيح ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة الزمر: الآية ١٨] أي عقلوا ما أردنا وهو من لب الشيء المصون بالقشر، ومن لم ير وجوب ذلك عليه إن شاء غسل وإن شاء ترك، كمن يسمع ممّن لا يقدر على ردّ الكلام في وجهه من ذي سلطان يخاف من تعديه عليه، فإن قدر على القيام من مجلسه انصرف فذلك غسله إن شاء، وإن ترجح عنده الجلوس لأمر يراه مظنوناً عنده جلس ولم يبرح، وهذا عند من لا يرى وجوب ذلك عليه.

وأما غسل ما انسدل من اللحية وتخليلها فهي الأمور العوارض، فإن اللحية شيء يعرض في الوجه ما هي من الوجه، ولا تؤخذ في حدّه مثل ما يعرض لك في ذاتك من المسائل الخارجة عن ذاتك فأنت فيها بحكم ذلك العارض، فإن تعين عليك طهارة نفسك من ذلك العارض فهو اعتبار قول من يقول بوجوب غسل ذلك، وإن لم يتعين عليك طهارته فطهرته استحباباً أو تركته لكونه ما تعين عليك ولكن هو نقص في الجملة، فهذا قول من يقول: ليس بواجب وهو مذهب الآخرين، وقد بينا لك فيما تقدم من مثل هذا الباب أن حكم الباطن في هذه الأمور بخلاف حكم الظاهر فيما فيه وجه إلى الفرضية ووجه إلى السنّة والاستحباب، فالفرض لا بدّ من العمل به فعلاً كان أو تركاً، وغير الفرض فيه أن تنزله في الامتثال منزلة الفرض وهو أولى فعلاً وتركاً، وذلك سار في سائر العبادات.

باب في غسل اليدين والذراعين في الوضوء إلى المرافق

أجمع العلماء بالشريعة على غسل اليدين والذراعين في الوضوء بالماء، واختلفوا في إدخال المرافق في الغسل، ومذهبنا الخروج إلى محل الإجماع في الفعل، فإن الإجماع في الحكم لا يتصوّر، فمن قائل: بوجوب إدخالها في الغسل. ومن قائل: بترك الوجوب، ولا خلاف عند القائلين بترك الوجوب في استحباب إدخالها في الغسل.

وصل حكم الباطن في ذلك: أقول بعد تقرير حكم الظاهر الذي تعبدنا الله: إن غسل اليدين والذراعين وهما المعصمان، فغسل اليدين بالكرم والجود والسخاء والإيثار والهبات وأداء الأمانات وهو الذي لا يصحّ عنده الإيثار كما يغسلهما أيضاً مع الذراعين بالاعتصام إلى المرافق بالتوكل والاعتضاد فإن المؤمن كثير بأخيه: «فإن رسول الله ﷺ كان إذا غسل ذراعيه في الوضوء يجوز المرفقين حتى يشرع في العضد» وإن هذا وأشباهه من نعوت اليدين، والخلاف في حد اليدين أكثره إلى الآباط وأقله إلى الفصل الذي يسمّى منه الذراع، فبقي إدخال المرافق والمرافق في الباطن هي رؤية الأسباب التي يرتفق بها العبد وتأنس بها نفسه، فإن الإنسان في أصل خلقه ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [سورة المعارج: الآية ١٩] يخاف الفقر الذي تعطيه حقيقته من حيث إمكانه، فيجنح إلى ما يرتفق به ويميل إليه، فمن رأى إدخال المرافق في غسله واجباً رأى أن الأسباب إنما وضعها الله حكمة منه في خلقه لما علم من ضعف يقينهم، فيريد أن لا يعطل حكمة الله لا على طريق الاعتماد عليها فإن ذلك يقدح في اعتماده على الله، ومن رأى أنه لا يوجبها في الغسل رأى سكون النفس إلى الأسباب أنه لا يخلص له مقام الاعتماد على الله حالاً مع وجود رؤية الأسباب، وكل من يقول إنها لا تجب يستحب إدخالها في الغسل، كذلك رؤية الأسباب مستحبة عند الجميع وإن اختلفت أحكامهم فيها فإن الله ربط الحكمة بوجودها.

باب في مسح الرأس

اتفق علماء الشريعة على أن مسحه من فرائض الوضوء واختلفوا في القدر الواجب منه، فمن قائل: بوجوب مسحه كله. ومن قائل: بوجوب مسح بعضه. واختلفوا في حد البعض، فمن قائل: بوجوب الثلث. ومن قائل: بوجوب الثلثين. ومن قائل: بالربع. ومن قائل: لا حد للبعض. وتكلم بعض هؤلاء في حد القدر الذي يمسح به من اليد، فمن قائل: أن مسحه بأقل من ثلاثة أصابع لم يجزه. ومن قائل: لا حد للبعض لا في الممسوح ولا فيما يمسح به، وأصل هذا الخلاف وجود الباء في قوله تعالىٰ: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦].

وصل حكم المسح في الباطن: فأما حكم مسح الرأس في الباطن اعتباراً فإن الرأس من الرياسة وهي العلوّ والارتفاع، ومنه رئيس القوم أي سيدهم الذي له الرياسة عليهم، ولما كان أعلى ما في البدن في ظاهر العين وجميع البدن تحته سمّي رأساً إذ كان الرئيس فوق المرؤوس بالمرتبة وله جهة فوق، وقد وصف الله نفسه بالفوقية لشرفها قال تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن

فَوْقِهِمْ﴾ [سورة النحل: الآية ٥٠] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٨] فكان الرأس أقرب عضو في البدن إلى الحق لمناسبة الفوق، ثم له شرف آخر بالمعنى الذي رأس به على أجزاء البدن كلها وهو كونه محلاً جامعاً حاملاً لجميع القوىٰ كلها المحسوسة والمعقولة المعنوية. فلما كانت له أيضاً هذه الرياسة من هذه الجهة سمّي رأساً.

ثم إن العقل الذي جعله الله أشرف ما في الإنسان جعل محله أعلى ما في الرأس وهو اليافوخ فجعله مما يلي جهة الفوقية. ولما كان الرأس محلاً لجميع القوىٰ الظاهرة والباطنة، ولكل قوّة منها حكم وسلطان وفخر يورثه ذلك عزّة على غيره كقصر الملك على سائر دور السوقة وجعله الله محال هذه القوىٰ من الرأس مختلفة حتى عمّت الرأس كله أعلاه ووسطه ومقدّمه ومؤخّره، وكل قوّة كما ذكرنا لها عزّة وسلطان وكبرياء في نفسها ورياسة، فوجب أن يمسحه كله وهو اعتبار من يقول بوجوب مسح الرأس كله لهذه الرياسة السارية فيه كله من جهة حمله لهذه القوىٰ المختلفة الأماكن فيه بالتواضع والإقناع لله، فيكون لكل قوّة إذا عمّ المسح مسح مخصوص من مناسبة دعواها فيردعها بما يخصّها من المسح فيعم بالمسح جميع الرأس، ومن يرى أن للرأس رأساً عليه كما أن الولاة من جهة السلطان يرجع أمرهم إليه فإنه الذي ولاهم رأى كل والٍ أن فوقه وال عليه هو أعلى منه له سلطان على سلطانه، كالقوّة المصوّرة لها سلطان على القوّة الخيالية فهي رئيسة عليها وإن كانت لها رياسة أعني القوّة الخيالية، فمن رأى هذا من العلماء قال بمسح بعض الرأس وهو التهمم بالأعلى.

ثم اختلف أصحابنا في هذا البعض، فكل عارف قال بحسب ما أعطاه الله من الإدراك في مراتب هذه القوىٰ فهو بحسب ما يراه ويعتبره، فأخذ يمسح في هذه العبادة وهي التذلّل وإزالة الكبرياء والشموخ بالتواضع والعبودية لأنه في طهارة العبادة يطلب الوصلة بربّه لأن المصلي في مقام مناجاة ربه وهي الوصلة المطلوبة بالطهارة، والعزيز الرئيس إذا دخل على من ولاّه تلك العزّة والرياسة نزل عن رياسته وذلّه عن عزّه بعزّ من دخل عليه وهو سيده الذي أوجده فيقف بين يديه وقوف غيره من العبيد الذين أنزلوا نفوسهم بطلب الأجرة منزلة الأجانب، فوقف هذا العبد في محل الإذلال لا بصفة الإدلال بالدال اليابسة، فمن غلب على خاطره رياسة بعض القوىٰ على غيرها وجب عليه مسح ذلك البعض من أجل الوصلة التي يطلبها بهذه العبادة، ولهذا لم يشرع مسح الرأس في التيمم لأن وضع التراب على الرأس من علامة الفراق وهو المصيبة العظمى، إذ كان الفاقد حبيبه بالموت يضع التراب على رأسه، فلما كان المطلوب بهذه العبادة الوصلة لا الفرقة لهذا لم يشرع مسح الرأس في التيمم، فامسح على حدّ ما ذكرناه لك ونبهناك عليه، وتفصيل رياسات القوىٰ معلوم عند الطائفة لا أحتاج إلى ذكره. وأمّا التبعيض في اليد التي يمسح بها واختلافهم في ذلك فاعمل فيه كما تعمل في الممسوح سواء، فإن المزيل لهذه الرياسة أسباب مختلفة في القدرة على ذلك ومحل ذلك اليد، فمن مزيل بصفة القهر، ومن مزيل بسياسة وترغيب، كما يمسح الإنسان بيده رأس اليتيم جبراً لانكساره بلطف وحنان، فلهذا ترجع بعضية اليد في المسح وكليته فاعلم ذلك.

ولما كان الموجب لهذا الخلاف عند العلماء وجود الباء في قوله: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦] فمن جعلها للتبعيض بعض المسح، ومن جعلها زائدة للتوكيد في المسح عمّ بالمسح جميع الرأس، وأن الباء في هذا الموضع هو وجود القدرة الحادثة، فلا يخلو إما أن يكون لها أثر في المقدور فتصحّ البعضية وهو قول المعتزليّ وغيره، وإمّا أن لا يكون لها أثر في المقدور بوجه من الوجوه فهي زائدة كما يقول الأشعريّ، فيسقط حكمها فتعمّ القدرة القديمة مسح الرأس كله لم تبعض مسحه القدرة الحادثة، ويكون حدّ مراعاة التوكيد من كونها زائدة للتوكيد هو الاكتساب الذي قالت به الأشاعرة وهو قوله تعالىٰ في غير موضع من كتابه بإضافة الكسب والعمل إلى المخلوق، فلهذا جعلوا زيادتها لمعنى يسمّى التوكيد، ألا ترى العرب تقابل الزائد بالزائد في كلامها؟ تريد بذلك التوكيد، وتجيب به القائل إذا أكّد قوله يقول القائل: إن زيداً قائم، أو يقول: ما زيد قائماً. فيقول السامع في جواب: إن زيداً قائم، ما زيد قائماً. وفي جواب ما إن زيداً قائم، فيثبت ما نفاه القائل أو ينفي ما أثبته القائل، فإن أكّد القائل إيجابه فقال: إن زيداً لقائم فأدخل اللام لتأكيد ثبوت القيام أدخل المجيب الباء في مقابلة اللام لتأكيد نفي ما أثبته القائل فيقول: ما زيد بقائم، ويسمّى مثل هذا زائداً لأن الكلام يستقل دونه، ولكن إذا قصد المتكلم خلاف التبعيض وأتى بذلك الحرف للتأكيد، فإن قصد التبعيض لم يكن زائداً ذلك الحرف جملة واحدة والصورة واحدة في الظاهر ولكن تختلف في المعنى، والمراعاة إنما هي لقصد المتكلم الواضع لتلك الصورة.

فإذا جهلنا المعنى الذي لأجله خلق سبحانه لتمكن من فعل بعض الأعمال نجد ذلك من نفوسنا ولا ننكره وهي الحركة الاختيارية، كما جعل سبحانه فينا المانع من بعض الأفعال الظاهرة فينا، ونجد ذلك من نفوسنا كحركة المرتعش الذي لا اختيار للمرتعش فيها لم ندر لما يرجع ذلك لتمكن الذي نجده من نفوسنا هل يرجع إلى أن يكون للقدرة الحادثة فينا أثر في تلك العين الموجودة عن تمكننا أو عن الإرادة المخلوقة فينا، فيكون التمكن أثر الإرادة لا أثر القدرة الحادثة، من هنا منشأ الخلاف بين أصحاب النظر في هذه المسألة، وعليه ينبني كون الإنسان مكلفاً لعين التمكن الذي يجده من نفسه ولا يحقق بعقله لما ذا يرجع ذلك التمكن هل لكونه قادراً أو لكونه مختاراً وإن كان مجبوراً في اختياره؟ ولكن بذلك القدر من التمكن الذي يجده من نفسه يصحّ أن يكون مكلفاً ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧] فقد أعطاها أمراً وجودياً، ولا يقال: أعطاها لا شيء، وما رأينا شيئاً أعطاها بلا خلاف إلاّ التمكّن الذي هو وسعها ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦].

وما يدرى لماذا يرجع هذا التمكن وهذا الوسع هل لأحدهما أعني الإرادة أو القدرة أو لأمر زائد عليهما أو لهما؟ ولا يعرف ذلك إلاّ بالكشف، ولا يتمكن لنا إظهار الحق في هذه المسألة، لأن ذلك لا يرفع الخلاف من العالم فيه كما ارتفع عندنا الخلاف فيها بالكشف، وكيف يرتفع الخلاف من العالم والمسألة معقولة؟ وكل مسألة معقولة لا بدّ من الخلاف فيها

لاختلاف الفطر في النظر، فقد عرفت مسح الرأس ما هو في هذه الطريقة وبقي من حكمه المسح على العمامة وما في ذلك من الحكم.

وصل في المسح على العمامة: فمن علماء الشريعة من أجاز المسح على العمامة ومنع من ذلك جماعة، فالذي منع لأنه خلاف مدلول الآية فإنه لا يفهم من الرأس العمامة فإن تغطية الرأس أمر عارض والمجيز ذلك لأجل ورود الخبر الوارد في مسلم وهو حديث قد تكلم فيه وقال فيه أبو عمر بن عبد البر إنَّه معلول.

وصل مسح العمامة في الباطن: وأما حكم المسح على العمامة في الباطن فاعلم أن الأمور العوارض لا يعارض بها الأصول ولا تقدح فيها، فالذي ينبغي لك أن تنظر ما السبب الموجب لطرد ذلك العارض، فلا يخلو إما أن يكون مما يستغنى عنه أو يكون مما يحصل الضرر بفقده فلا يستغنى عنه، فإن استغني عنه فلا حكم له في إزالة حكم الأصل، وإن لم يستغن عنه وحصل الضرر بفقده كان حكمه حكم الأصل وناب منابه، وإن بقي من الأصل جزء ما ينبغي أن يراعى ذلك الجزء الذي بقي ولا بد ويبقى ما بقي من الأصل ينوب عنه هذا الأمر العارض الذي يحصل الضرر بفقده، هذا مذهبنا فيه، ولهذا ورد في الحديث الذي ذكرنا أنه معلول عند بعض علماء هذا الشأن أن المسح وقع على الناصية والعمامة معاً، فقد مسّ الماء الشعر، فقد حصل حكم الأصل في مذهب من يقول بمسح بعض الرأس، فلو لبس العمامة للزينة لم يجز له المسح عليها، بخلاف المريض الذي يشدّ العمامة على رأسه لمرضه، فما ورد ما يقاوم نص القرآن في هذه المسألة.

إيضاح: فإذا عرض لأهل هذه الطريقة عارض يقدح في الأصل كفعل السبب للمتجرد عن الأسباب أو التبختر والرياسة في الحرب فإن كلامنا في مسح الرأس وله التواضع والتكبّر ضرب المثل به أولى ليصل فهم السامع إلى المقصود ممّا يريده في هذه العبادة، فإن أثر ذلك الزهو إظهار الكبر في عبودية الإنسان، فنسيان كبرياء ربّه عليه وعزّته سبحانه وحجبه عن ذلك فلا يفعل ويطرح الكبرياء عن نفسه ولا بدّ، ولا يجوز له التكبّر في ذلك الموطن لقدحه في الأصل وإن لم يؤثر في نفسه، بل ذلك أمر ظاهر في عين العدوّ، وهو في نفسه في ذلّته وافتقاره جاز له صورة التكبّر في الظاهر لقرينة الحال بحكم الموطن فإنه لم يؤثر في الأصل، هكذا حكم المسح على العمامة عندنا فاعلم ذلك، فقد علمت حكم المسح على العمامة في الباطن ما هو، وكذلك المسح ببعض اليد على العمامة، وهو إن قدح أخذك للسبب في اعتمادك على الله بقلبك فلا تأخذه ولا تستعمله ما لم يؤدّ إلى ما هو أعظم منه في البعد عن الله، وإن لم يؤثر في الاعتماد عليه فامسح ببعض يدك ولا حرج عليك، فإن طرح السبب من اليد بعض أفعال اليد لأن مجموع اليد في المعنى أمور كثيرة فإنها تتصرّف تصرّفات كثيرة مختلفات المعاني في الأمور المشروعة والأحكام فإن لها القبض والبسط والاعتدال، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ وهو كناية عن البخل ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [سورة

الإسراء: الآية ٢٩] وهو كناية عن السرف، وكذلك مدح قوماً بمثل هذا فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٧] وهو العدل في الإنفاق، وكذلك قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٥] وهو هنا البخل، فنسب ذلك كله إلى الأيدي، فلهذا قلنا لها أفعال كثيرة، ولولا وجود الكثرة ما صحّت البعضية لأن الواحد لا يتبعض.

وصل في توقيت المسح على الرأس: بقي من تحقيق هذه المسألة التوقيت في المسح على الرأس هل في تكراره فضيلة أم لا؟ فمن الناس من قال: إنه لا فضيلة فيه. ومنهم من قال: إن فيه فضيلة، وهذا يستحب في جميع أفعال الوضوء في جملة أعضائه سواء، غير أنه يقوى في بعض الأعضاء، ويضعف في بعض الأعضاء أعني التكرار، ولا خلاف في وجوب الواحدة إذا عمّت العضو، فأمّا مذهبنا في الأصل فلا تكرار في العالم للاتساع الإلهيّ فنمنع هذا اللفظ ولا نمنع وجود الأمثال بالتشابه الصوريّ، فنعلم قطعاً أن الحركات يشبه بعضها بعضاً في الصورة، وإن كانت كل واحدة منها ليست عين الأخرى، فمذهبنا أن ننظر حكم الشارع في ذلك، فإن عدد بالأمثال عددنا بالأمثال كما تقول عقيب الصلاة: سبحان الله ثلاثاً وثلاثين، فمثل هذا لا نمنعه، فقد يقع التعدّد في عمل الوضوء تأكيداً لإزالة حكم الغفلات السريعة الحكم في الإنسان فعلى هذا يكون في التكرار فضيلة، فإن تيقن بالحضور فلا فضيلة، فإن الفضل هو الزائد وما زاد هذا المتوضىء حكماً بوجود غفلة أو سهو فيكرر فلم تصح الزيادة، ولكن الصحيح عندنا أن التكرار فيه فضيلة لأنه نور على قدر ما حدّه الشارع المبين للأحكام، وقد ورد في الكتاب والسنّة في تشبيه نور الله بالمصباح في الزجاجة في المشكاة الآية بكمالها، وقال في آخرها: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] أي ورد في نور على نور كالدليلين والثلاثة على المدلول الواحد وقال رسول الله ﷺ في الوضوء على الوضوء ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ ولا فرق بين ورود الوضوء على الوضوء وبين ورود الغرفة الثانية الواردة على الأولى في الوضوء، وتكرار العمل من العامل يوجب تكرار الثواب والتجلي، فأما في الأعضاء كلها فالثابت التكرار، وما كان الخلاف إلاّ في الرأس والأذنين والرجلين، وقد أومأنا إلى ما ينبغي في ذلك.

باب مسح الأذنين وتجديد الماء لهما

اختلف الناس في مسح الأذنين وتجديد الماء لهما، فمن قائل: إنَّه سنّة. ومن قائل: إنه فرض. ومن قائل: بتجديد الماء لهما. ومن قائل: لا يجدد لهما الماء. وهل تفرد بالمسح وحدها أو تمسح مع الرأس خاصة؟ أو تمسح مع الوجه خاصة؟ أو يمسح ما أقبل منهما مع الوجه وما أدبر منهما مع الرأس؟ ولكل حالة من هذه الأحوال قائل بها.

وصل في حكمهما في الباطن: فأما حكمهما في الباطن: فإنه عضو مستقل يجب تجديد الماء له فيمسح باستماع القول الأحسن ولا بدّ، ويقع التفاضل في الأحسن فثم حسن

وأحسن، وأعلاه حسناً ذكر الله بالقرآن، فيجمع بين الحسنين، فليس أعلى من سماع ذكر الله من القرآن مثل كل آية لا يكون مدلولها إلاَّ الله، هذا أعني بذكر الله من القرآن، وما كل آي القرآن يتضمن ذكر الله فإن فيه الأحكام المشروعة، وفيه قصص الفراعنة وحكايات أقوالهم وكفرهم، وإن كان فيه الأجر العظيم من حيث ما هو قرآن بالإصغاء إلى القارىء إذا قرأه أو بإصغاء الإنسان إلى نفسه إذا تلاه، ولكن ذكر الله في القرآن أحسن وأتمّ من حكاية قول الكافر في الله ما لا ينبغي له في القرآن أيضاً. وأما ما أقبل من ظاهر الأذن وما أدبر فهو ما ظهر من حكم ذلك الذكر من القرآن وما بطن، وما أسرّ منه وما أعلن، وما فهم منه وما جهل، فسلم كلمات المتشابه في حق الله إلى الله فهي ممّا أدبر من باطن الأذن، فتسلم إلى مراد الله تعالىٰ فيها حين تسمعها الأذن تتلى، وما علم كالآيات المحكمات في حق الله وما تدل عليه من الأكوان فهي ممّا أقبل من ظاهر الأذن فيعلم مراد الله بها، فيكون الحكم بحسب ما تعلق به العلم، فاعمل بحسب ما أشرنا به إليك في هذا التفصيل، والأولى أن يكون حكم الأذنين حكم المضمضة والاستنشاق والاستنثار.

باب غسل الرجلين

اعلم أن صورتها في توقيت الغسل بالأعداد صورة الرأس وقد ذكرنا ذلك، اتفق العلماء على أن الرجلين من أعضاء الوضوء، واختلفوا في صورة طهارتها هل ذلك بالغسل أو بالمسح أو بالتخيير بينهما؟ فأيّ شيء فعل منهما فقد سقط عنه الآخر وأدّى الواجب هذا إذا لم يكن عليهما خف، ومذهبنا التخيير والجمع أولى، وما من قول إلاَّ وبه قائل، فالمسح بظاهر الكتاب والغسل بالسنّة ومحتمل الآية بالعدول عن الظاهر منها.

وصل حكم الرجلين في الباطن: وأما حكم ذلك في الباطن فاعلم أن السعي إلى الجماعات وكثرة الخطى إلى المساجد والثبات يوم الزحف ممّا تطهر به الأقدام، فلتكن طهارتك رجليك بما ذكرناه وأمثاله، ولا تمش بالنميمة بين الناس ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [سورة لقمان: الآية ١٨] ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٩] ومن هذا ما هو فرض أعني من هذه الأفعال بمنزلة المرة الواحدة في غسل عضو الوضوء الرجل وغيره ومنه ما هو سنّة وهو ما زاد على الفرض وهو مشيك، فيما ندبك الشرع إلى السعي فيه وما أوجبه عليك، فالواجب عليك نقل الأقدام إلى مصلاك والمندوب والمستحب والسنّة وما شئت فقل من ذلك مثل نقل الأقدام إلى المساجد من قرب وبعد، فإن ذلك ليس بواجب، وإن كان الواجب من ذلك عند بعض الناس مسجداً لا بعينه وجماعة لا بعينها، فعلى هذا يكون غسل رجليك في الباطن من طريق المعنى.

واعلم أن الغسل يتضمن المسح بوجه، فمن غسل فقد اندرج المسح فيه كاندراج نور الكواكب في نور الشمس، ومن مسح فلم يغسل إلاَّ في مذهب من يرى وينقل عن العرب أن المسح لغة في الغسل فيكون من الألفاظ المترادفة، والصحيح في المعنى في حكم الباطن أن

يستعمل المسح فيما يقتضي الخصوص من الأعمال والغسل فيما يقتضي العموم هذه هي الطريقة المثلى، ولهذا ذهبنا إلى التخيير بحسب الوقت فإنه قد يكون يسعى إلى فضيلة خاصة في حاجة معينة لشخص بعينه فذلك بمنزلة المسح، وقد يسعى إلى الملك في حاجة تعم جميع الرعايا، أو حاجات فيدخل ذلك الشخص في هذا العموم، فهذا بمنزلة الغسل الذي اندرج فيه المسح.

بيان وإتمام: وأما القراءة في قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦] بفتح اللام وكسرها من أجل حرف الواو على أن يكون عطفاً على الممسوح بالخفض وعلى المغسول بالفتح، فمذهبنا أن الفتح في اللام لا يخرجه عن الممسوح، فإن هذه الواو قد تكون واو مع، وواو المعية تنصب تقول: قام زيد وعمراً واستوى الماء والخشبةَ، وما أنت وقصعةً من ثريد، ومررت بزيد وعمراً تريد مع عمرو، وكذلك من قرأ: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بفتح اللام فحجة من يقول بالمسح في هذه الآية أقوى لأنه يشارك القائل بالغسل في الدلالة التي اعتبرها وهي فتح اللام ولم يشاركه من يقول بالغسل في خفض اللام، فمن أصحابنا من يرجح الخاص على العام، ومنهم من يرجح العام على الخاص كل ذلك مطلقاً، ومذهبنا نحن على غير ذلك إنما نمشي مع الحق بحكم الحال، فنعمّم حيث عمّم، ونخصّص حيث خصّص، ولا نحدث حكماً فإنه من أحدث حكماً فقد أحدث في نفسه ربوبية، ومن أحدث في نفسه ربوبية فقد انتقص من عبوديته بقدر تلك المسألة، وإذا انتقص من عبوديته بقدر ذلك ينقص من تجلي الحق له، وإذا انتقص من تجلي الحق له انتقص علمه بربه، وإذا انتقص علمه بربّه جهل منه سبحانه وتعالىٰ بقدر ما نقصه، فإن ظهر لذلك الذي نقصه حكم في العالم أو في عالمه لم يعرفه فلهذا كان مذهبنا أن لا نحدث حكماً جملة واحدة.

باب في ترتيب أفعال الوضوء

اختلف العلماء في ترتيب أفعال الوضوء على ما ورد في نسق الآية، فمن قائل: بوجوب الترتيب. ومن قائل: بعدم وجوبه، وهذا في الأفعال المفروضة. وأمّا في ترتيب الأفعال المفروضة مع الأفعال المسنونة فاختلافهم في ذلك بين سنّة واستحباب.

وصل في حكم ذلك في الباطن: وأما حكم ذلك في الباطن فلا ترتيب، إنما تفعل من ذلك بحسب ما تعين عليك في الوقت، فإن تعين عليك ما يناسب رأسك فعلت به وبدأت به وكذلك ما بقي، وسواء كان ذلك في السنن من الأفعال أو في الفرائض فالحكم للوقت.

باب في الموالاة في الوضوء

فمن قائل: إن الموالاة فرض مع الذكر وعدم العذر ساقط مع النسيان ومع الذكر عند العذر ما لم يتفاحش التفاوت. ومن قائل: إن الموالاة ليست بواجبة وهذا كله من حقيقة في نسق الآية فقد يعطف بالواو في الأشياء المتلاحقة على الفور، وقد يعطف بها الأشياء المتراخية، وقد يعطف بها ويكون الفعلان معاً وهذا لا يسوغ في الوضوء إلاّ أن ينغمس في نهر أو يصب عليه أشخاص الماء في حال واحدة لكل عضو.

وصل الموالاة في الباطن: ومذهبنا في حكم الموالاة في الباطن أنها ليست بواجبة وذلك مثل الترتيب سواء، فإنا نفعل من ذلك بحسب ما يقتضيه الوقت، وقد ذكرنا نظير هذه المسألة في رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار، فأعمالنا في هذه الطريق بحسب حكم الوقت وما يعطي، فإن الإنسان قد كتبت عليه الغفلات فلا يتمكن له مع ذلك الموالاة ولكن ساعة وساعة، فليس في مقدور البشر مراقبة الله في السرّ والعلن مع الأنفاس، فالموالاة على العموم لا تحصل إلاَّ أن يبذل المجهود من نفسه في الاستحضار والمراقبة في جميع أفعاله، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [سورة المعارج: الآية ٢٣] والمراد بها أنهم كلما جاء وقتها فعلوها وإن كان بين الصلاتين أمور، فلهذا حصل الدوام في فعل خاص مربوط بأوقات متباينة، وأما مع استصحاب الأنفاس فذلك من خصائص الملأ الأعلى الذين ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٠] فهذه هي الموالاة وإن حصلت لبعض رجال الله فنادرة الوقوع. وأما قول عائشة: «كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه» فإن كانت نقلته عن رسول الله ﷺ فلا نشك فيه، وإن كانت أرادت بذلك أن أفعاله الظاهرة كلها ما وقع منه مباح قط وأنه لم يزل في واجب أو مندوب فذلك ممكن وهو ظاهر من مرتبته، فإنه معلم أمّته بحركاته وسكناته للاقتداء فهو ذاكر على الدوام، وأمّا باطنه عليه السلام فلا علم لها به إلاَّ بإخباره ﷺ، ومع هذا يتصوّر تحصيله عندنا مع التصرّف في المباح مع حضوره فيه أنه مباح، وكذا إذا أحضر حكم الشرع في جميع حركاته وسكناته بهذه المثابة فيكون ممّن حصل الموالاة في عبادته. انتهى الجزء الحادي والثلاثون.

(الجزء الثاني والثلاثون)

بسم الله الرحمن الرحيم

باب في المسح على الخفين

أما المسح على الخفين فاختلف علماء الشريعة فيه، فمن قائل: بجوازه على الإطلاق. ومن قائل: بمنع جوازه على الإطلاق كابن عباس ورواية عن مالك. ومن قائل: بجواز المسح عليهما في السفر دون الحضر.

وصل في حكم الباطن فيه: فأما حكم الباطن في المسح على الخفين فاعلم أنه أمر يعرض للشخص يشق على من عرض له انتزاعه كما يشق انتزاع الخف على لابسه، فانتقل حكم الطهارة إليه فمسح عليه، ولما كانت الطهارة تنزيهاً وكان الحق هو الذي يقصده المنزّه بالتنزيه كما قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] والعزّة المنع فذكر أنه امتنعت ذاته أن تكون محلاً لما وصفه به الملحدون، فالحق منزّه الذات لنفسه ما تنزّه بتنزيه عبده إياه، فتنزيه العلماء بالله الحق سبحانه إنما هو علم لا عمل، إذ لو كان التنزيه من الحق الههم عملاً لكان الله الذي هو المنزّه سبحانه محلاً لأثر هذا العمل، فتفطن لهذه الإشارة فإنها في غاية اللطف والحسن، فهو سبحانه لا يقبل تنزيه عباده من حيث إنهم

عاملون فإنه لا يرى التنزيه عملاً إلاّ الجاهل من العباد، فإن العالم نراه علماً، وإذا تكلم به إنما تكلم به على جهة التعريف ممّا هو الأمر عليه في نفسه الذي هو قوله وذكره، فأثر عمله إنما هو في علمه بتنزيه خالقه، فأخرجه بالقول والذكر من القوّة إلى الفعل، فربما أثر ذلك في نفوس السامعين ممّن كان لا يعتقد في الله أنه بذلك النعت من التنزيه فالعبد حجاب على الحق، فإن ظاهر الآثار إنما تدرك في العموم وتنسب للأسباب التي وضعها الحق ولهذا يقول العبد: فعلت وصنعت وصمت وصليت، ويضيف إلى نفسه جميع أفعاله كلها لحجابه عن خالقها فيه ومنه ومجريها، فكما صار الخفّ حجاباً بين المتوضىء وبين إيصال الوضوء إلى الرجل وانتقل حكم الطهارة إلى الخف كذلك تنزيه الإنسان خالقه وهو الطهارة والتقديس لما لم يتمكن في نفس الأمر إيصال أثر ذلك التنزيه إلى الحق لأنه منزّه لذاته، انتقل حكم أثر ذلك التنزيه إلى الإنسان المنزّه الذي هو حجاب على خالقه، من حيث أن للتنزيه العمليّ أثراً في المنزّه وقبله الإنسان كما قبل الخف الطهارة بالمسح المشروع، فيكون العبد هو الذي نزّه نفسه عن الجهل الذي قام بنفس الجاهل الذي نسب إلى الحق ما لا يليق به ولا تقبله ذاته، يقول الله في الخبر الصحيح: إنه رجل العبد التي يسعى بها والحسّ إنما يبصر العبد يسعى برجله فلما لبس الخف وهو عين ذات العبد انتقل حكم الطهارة إليه إنما هي أعمالكم تردّ عليكم، فمتعلق الحكم الخف.

ومن هذا الباب كان جواز المسح على الإطلاق سفراً وحضراً، فالحضر منه هو التنزيه الذي يعود عليك فتقول: سبحاني في هذه الحالة كما نقل عن رجال الله فكان مشهد من قال: سبحاني هذا المقام الذي ذكرناه، والسفر هو التنزيه الذي ينتقل من تلفظك به في التعليم إلى سمع المتعلم السامع فيؤثر في نفس السامع حصول ذلك العلم فتطهر محله من الجهل الذي كان عليه في تلك المسألة هذا القدر من انتقاله من العالم المعلم إلى المتعلم، يسمّى سفراً لأنه أسفر له بهذا التعليم بما هو الأمر عليه فطهر محله.

ومن هذا الباب أيضاً أن لباس الخف وما في معناه من جرموق وجورب ممّا يلبس ويستر حدّ الوضوء من الرجل عرفاً وعادة، ولما كان من أسماء الرجل في اللسان القدم كان هذا ممّا يقوي القدمية في القدم إذ كان القدم يقال في اللسان بالاشتراك إذ هو عبارة عن الثبوت، يقال: لفلان في هذا الأمر سابقة قدم يريد أن له أساساً ثابتاً قديماً في هذا الأمر، كما يقال في الرجل بالاشتراك أيضاً أعني إطلاق هذه اللفظة في اللسان يقال: رجل من جراد أي قطعة وجماعة من جراد، فإذا قال قائل: إنّ الرجل يسخن بالخف يعلم قطعاً أنه يريد العضو الخاص المعروف، فقرائن الأحوال ودلالات الألفاظ بالصفات تعين ما كان مبهماً بالاشتراك، فانتقل حكم الطهارة إلى الخف بعدما كان متعلقها الرجل، ولكن إذا كان ملبوساً فيطهر ممّا يمكن أن يتعلق به ممّا يمنع من ذلك حكماً وعيناً، وكذلك لما نسب القدم إلى الله تعالىٰ في حديث يضع الجبار فيها قدمه ربما وقع في نفس بعض العقلاء أن نسبة القدم إلى الله تعالىٰ ما هو على حدّ ما ينسب إلى الإنسان أو لكل ذي رجل وقدم، وأن المراد به مثلاً أمر آخر،

وغفلوا عن أقدام المتجسدين من الأرواح، فأزال الله سبحانه هذا التوهّم من القائل به بما نسب إلى نفسه من الهرولة التي هي الإسراع في المشي مع تقدّم وصف القدم، فألحق بمن يمشي على رجلين لا بمن يمشي على البطن مع التحقق بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] لا بدّ من ذلك فلا نصفه ولا ننسب إليه إلاّ ما نسبه إلى نفسه أو وصف نفسه به، فما نسب الهرولة إليه إلاّ ليعلم أنه أراد القدم الذي يقبل صفة السعي وحكمه على ما يليق بجلاله لأنه المجهول الذي لا يعرف ولا يقال هو النكرة التي لا تتعرّف، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٠] وما نقول أراد بنسبة القدم ما عينته المنزّهة على زعمها واقتصرت عليه فجاء بالهرولة لإثبات القدمية وأقامه مقام الخف للقدم في إزالة الاشتراك المتوهم فانتقل التنزيه إلى الهرولة من القدم، وقد كان القائل بالتنزيه مشتغلاً بتنزيه القدم، فلما جاءت بالهرولة انتقل التنزيه إليها، كما انتقل حكم طهارة القدم إلى الخف فنزّه العبد ربّه عن الهرولة المعتادة في العرف وأنها على حسب ما يليق بجلاله سبحانه فإنه لا يقدر أن لا يصفه بها إذ كان الحق أعلم بنفسه وقد أثبت لنفسه هذه الصفة، فمن ردّ نسبتها إليه فليس بمؤمن، ولكن الذي يجب عليه أن يردّ العلم بها إلى الله أعني علم النسبة. وأمّا معقولية الهرولة فما خاطب أهل اللسان إلاّ بما يعقلونه، فالهرولة معقولة وصورة النسبة مجهولة، وكذلك جميع ما وصف به نفسه ممّا توصف به المحدثات، وليس الغرض ممّا ذكرنا إلاّ جواز انتقال الطهارة من محل إلى محل آخر بضرب من المناسبة والشبه، وإنما قلنا الجواز لا بالوجوب فإن الوجوب يناقض الجواز، ولصاحب الخف أن يجرّد خفّه ويغسل رجليه شرعاً أو يمسحها بالماء على ما يقتضيه مذهبه في ذلك ولا مانع له من ذلك، وكذلك هذا العاقل قد يبقى على تنزيهه للقدم ولا ينتقل إلى الهرولة ويزيلها عن هذه القدم بحكم ما يسبق إلى الفهم، إذ أبين أن القدم ما تشبه نسبتها إلى الحق نسبة أقدامنا إلينا من كل الوجوه، فلهذا لم يتعلق الوجوب بالمسح وكان حكمه الجواز.

وصل: وأمّا من أجازه سفراً ومنعه في الحضر فذلك إذا كان التنزيه عملاً فلا أثر له إلاّ في المتعلم السامع القابل، فيسافر التنزيه من العالم المعلم إلى المتعلم على راحلة التلفظ والكلام بعبارة أو إشارة من المعلم إلى المتعلم.

وصل: وأمّا من منع جوازه على الإطلاق فإن حقيقة التنزيه إنما هي لله سبحانه فإنه المنزّه لذاته والعبد لا يكون منزّهاً أبداً ولا يصحّ، وإن تنزّه عن شيء ما لم يتنزّه عن شيء آخر فمن حقيقته أنه لا يقبل التنزيه على الإطلاق، وإذا كان بهذه الصفة لا يجوز تنزيهه فإنه خلاف العلم، والأمور العارضة لا أثر لها في الحقائق، فإن قبول العبد لآثار التنزيه يدل على عدم التنزيه عن قبول الآثار فيه، فهذا وجه منع جواز المسح على الخف وما في معناه على الإطلاق إن فهمت.

وصل وتتميم: وأمّا الإشارة بالخفين فإن المراد بهما النشأتان: نشأة الجسم، ونشأة الروح، ولكل نشأة ما يليق بها من الطهارة فافهم.

باب تحديد محل المسح من الخف وما في معناه

اختلف علماء الشريعة في تحديد المسح على الخف، فمن قائل: إن القدر الواجب من ذلك مسح أعلى الخف وما زاد على ذلك فمستحب وهو مسح أسفل الخف، يقول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح أعلى الخف. ومن قائل: بوجوب مسح ظهورهما وبطونهما. ومن قائل: بوجوب مسح ظهورهما فقط ولا يستحب صاحب هذا القول مسح بطونهما. ومن قائل: إن الواجب مسح باطن الخف ومسح الأعلى مستحب وهو قول أشهب.

وصل في حكم الباطن في ذلك: اعلم أن التنزيه المعبر عنه هنا بطهارة المسح متعلقه إمّا الحق كما قدمنا، وإمّا العبد الذي نزّهه، والقسمة منحصرة فما ثم إلاّ عبد ورب وخالق ومخلوق، ولنا في هذه المسألة لفظة أعلى وأسفل، وصفة العلو لله تعالىٰ لأنه رفيع الدرجات لذاته قال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلىٰ: الآية ١] وما في القرآن أقرب نسبة إلى مسح أعلى الخف من هذه الآية. والسفل لنا، وكذلك أيضاً ظاهر الخف وباطنه أعني هاتين اللفظتين قد يكون الحق له حكم الظاهر والباطن، وقد يكون حكم الظاهر له في خرق العوائد، وحكم الباطن له في نفس العوائد وهي أكثر الآيات الدالة على الله ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٥] فتارة يعلق التنزيه بالأعلى سبحانه وتعالىٰ حقيقة وهو حد الواجب من ذلك. ويستحب إطلاق التنزيه على العبد من حيث إن عمله لذلك يعود عليه، وهذا على مذهب من يرى أن الواجب مسح أعلى الخف ويستحب مسح أسفله.

وتارة يعلق التنزيه بالحق سبحانه ظاهراً وباطناً، وهو الذي لا يرى في الوجود إلاّ الله لغلبة سلطان المشاهدة والتجليات عليه فيرى الحق ظاهراً وباطناً. فلا يقع منه تنزيه إلاّ على الحق سبحانه، والتنزيه نسبة عدمية لا وجودية، وهو الذي يوجب مسح ظهور الخفين وبطونهما، وتارة يعلق التنزيه بالله تعالىٰ لكماله في ذاته، ولا يستحب تنزيه الخلق للنقص الذاتيّ الذي هو له فيقع في الكذب إن نزّهه، فيرى أنه لو تنزّه الممكن يوماً ما من جهة ما لصفة كمال هو عليها لكان من حيث تلك الصفة غنياً عن الله ومقاوماً له، ومحال على الخلق أن يكونوا على صفة يكون لهم بها الغنى عن الله فإنهم من جميع الوجوه فقراء إلى الله ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] فمنع من استحباب مسح أسفل الخف وقال: ما ثم منزّه إلاّ الله العليّ الظاهر إلى عباده بنعوت الجلال، وهذا كما قلنا مذهب من يرى مسح أعلى الخف ولا يستحب مسح أسفله.

وتارة يعلّق التنزيه أعني وجوبه من اسمه الباطن ويقول: إن الباطن محل يبعد العثور على ما يستحقه من نعوت الجلال لبطونه، فيكون الواجب تنزيه الحق في اسمه الباطن من أثر الحجاب الذي حكم عليه أن يكون باطناً لا يدرك، والله أعلى وأجل أن يحوطه حجاب، فوجب تنزيهه من حيث اسمه الباطن، فهذا وجه من أوجب مسح الباطن من الخف كأشهب، واستحبّ مسح أعلاه وهو الاسم الظاهر فيقول: واستحبّ تنزيه الحق في اسمه الظاهر وهو

تجليه في الصورة لعباده فينزّهه عن التقييد بها، ولكن التنزيه الذي لا يخرجه عن العلم أنه عيّن تلك الصورة فإنه أعلم بنفسه من العقل به ومن كل عالم سواه به، وقد قال عن نفسه إنه هو الذي يتجلّى لعباده في تلك الصورة كما ذكره مسلم في صحيحه، فيكون تنزيهه عند ذلك أنه لا يتقيد بصورة أي لا تقيده صورة بل يتجلّى في أيّ صورة يظهر بها لعباده، ومن هذه الحقيقة التي هو عليها في نفسه ذكر لنا في خلقنا بعد تسويتنا وتعديلنا في أيّ صورة ما شاء ركبنا، كما إنه في أي صورة شاء تجلّى لعباده، وهنا سرّ إلهيّ نبّهك عليه لتعرفه به، فنزّهه صاحب هذا المذهب في ظهوره استحباباً عن دوام التجلّي في تلك الصورة بالإقامة فيها في عينك فافهم فهذا حكم الباطن في تحديد المحل.

باب في نوع محل المسح وهو ما يستر به الرجل من خف أو جورب

اعلم أن القائلين بالمسح على الخفين متفقون على المسح عليهما بلا شك، واختلفوا في المسح على الجوربين، فمن قائل: بالمنع على الإطلاق. ومن قائل: بالجواز على الإطلاق. ومن قائل: بالجواز إذا كان على صفة خاصة. فأما أن يكون من الكثافة والثخانة بحيث أن لا يصل ماء المسح إلى الرجل أو يكون مبطناً بجلد يجوز المشي فيه أي يمكن المشي فيه.

وصل حكمه في الباطن: فأما حكم الباطن في ذلك فقد تقدّم في الخف وبقي حكم الجورب، فالمقرّر أن الجورب مثل الخفّ في الصفة الحجابية فإن العبد حجاب دون خالقه، ولهذا ورد: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**». فإنه الدليل عليه، والدليل والمدلول وإن ارتبطا بالوجه الخاص فهما ضدّان لا يجتمعان، وقد قلنا فيما تقدم أن الخف هو أدلّ على الرجل في إزالة الاشتراك من لفظة الرجل التي تطلق عليه وكذلك الهرولة وقد مضى ذلك، إلاَّ أن الجورب وإن ستر الرجل لا يقوى قوّة الخف للتخلّل الذي فيه، فإن الماء ينفذ ويتخلل مسامه سريعاً، والخف ليس كذلك، وحكمه في الباطن أن من العباد عباد الله من يكون في الدلالة على الله أقوى من غيره فهو بمنزلة الجورب، كما ثبت في الأثر عن الله في صفة أولياء الله: حدثني غير واحد عمّن حدّثه يبلغ به النبيّ ﷺ : أَنَّهُ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَوْلِياءُ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ**» ذكره الحافظ أبو نعيم في كتاب حلية الأولياء له، وذلك لما قلناه ممّا يرى عليهم من قوّة الدلالة على الله تعالىٰ من الاستهتار بذكره سبحانه، وما هم عليه من الذلّة والطاعة والافتقار مع الأنفاس إلى الله، فإذا أراد الناس أن ينزهوهم لم يتمكن لهم تنزيههم إلاَّ بتنزيه الله، فإنهم ما يذكرونهم إلاَّ بالله لما تعطيهم أحوالهم الصادقة مع الله، فإن كان الخف مبطناً بجلد فهو الملامي الذي يستر نفسه، وحاله مع الله عن العالم السفليّ أن يدركوا مرتبة ولايته عند الله كما يستتر الجورب عن الأرض أن تدركه وتصيبه بالجلد الذي حال بين الأرض وبينه، وهو الصفة التي استتر بها هذا الملامي من المباحات عن العالم الأسفل المحجوب فلم يدركوا منه إلاَّ تلك الصفة التي لم يتميز بها عن

عامّة المؤمنين وهو من خلف تلك الصفة في مقام الولاية مع الله، وبقي أعلى الجورب من جانب الأعلى مع الله سبحانه بلا حائل بينه وبين ربّه عزّ وجلّ، وقد فتحت لك باب الاعتبار شرعاً وهو الجواز من الصورة التي ظهر حكمها في الحسّ إلى ما يناسبه في ذاتك، أو في جناب الحق ممّا يدلّ على الحق، وهذا معنى الاعتبار فإنه من عبرت الوادي إذا قطعته وجزته.

باب في صفة الممسوح عليه

أجمع من يقول بجواز المسح على جواز المسح على الخف الصحيح واختلفوا في المخرق، فمن قائل: بجوازه إذا كان الخرق يسيراً من غير حدّ. ومن قائل: بتحديد الخرق اليسير بثلاثة أصابع. ومن قائل: بجوازه ما دام ينطلق عليه اسم الخف وإن تفاحش خرقه وهو الأوجه عندي. ومن قائل: بمنع المسح إذا كان الخرق في مقدّم الخف وإن كان يسيراً، والذي أقول به إن هذه المسألة لا أصل لها ولا نص فيها في كتاب ولا سنّة فكان الأوْلى إهمالها وأن لا نشتغل بها، وأن الحق في ذلك إذ وقد وقع في ذلك من الخلاف بين علماء الشريعة ما أحوجنا إلى الكلام فيها، وأن الحق في ذلك عندنا إنما هو مع من قال يجوز ما دام يسمّى خفاً.

وصل في حكم الباطن في ذلك: وهو أن نقول: إنما سمّي الخف خفاً من الخفاء لأنه يستر الرجل مطلقاً، فإذا انخرق وظهر من الرجل شيء مسح على ما ظهر منه ومسح على الخف وذلك ما دام يسمّى خفاً لا بدّ من هذا الشرط، وفيه سرّ عجيب للفطن المصيب أن الخافي هو الظاهر أيضاً يقول امرؤ القيس: خفاهنّ من أنفاقهنّ. أي أبرزهنّ وأظهرهنّ. وإنما قلنا بمسح ما ظهر لأنا قد أمرنا في كتاب الله بمسح الأرجل فإذا ظهر مسحناه. وأمّا في الباطن فظاهر الشريعة ستر على حقيقة حكم التوحيد بنسبة كل شيء إلى الله، فالطهارة في الشريعة متعلقها وهي أن يصحبها التوحيد بأن تراها حكم الله في خلقه لا حكم المخلوق مثل السياسات الحكمية، فالشرع حكم الله لا حكم العقل كما يراه بعضهم، فطهارة الشريعة رؤيتها من الله الواحد الحق، ولهذا لا ينبغي لنا أن نطعن في حكم مجتهد، لأن الشرع الذي هو حكم الله قد قرّر ذلك الحكم فهو شرع الله بتقريره إياه، وهي مسألة يقع في محظورها أصحاب المذاهب كلهم لعدم استحضارهم لما نبهنا عليه مع كونهم عالمين به ولكنهم غفلوا عن استحضاره فأساؤوا الأدب مع الله في ذلك حين فاز بذلك الأدباء من عباد الله، فمن خطأ مجتهداً بعينه فقد خطأ الحق فيما قرّره حكماً، فإذا انخرق الشرع فظهر في مسألة ما حكم من أحكام التوحيد ممّا تزيل حكم الشرع مطلقاً انتقل الحكم لطهارة ذلك التوحيد المؤثر في إزالة حكم الشريعة، كمن ينسب الأفعال كلها إلى الله من جميع الوجوه فلا يبالي فيما يظهر عليه من مخالفة أو موافقة، فمثل هذا التوحيد يجب التنزيه منه لظهور هذا الأثر فإنه خرق للشريعة ورفع لحكم الله. ، كما لا يجوز المسح مع زوال اسم الخف، فإن كان الخرق يبقي اسم

الخف عليه كان الحكم كما قرّرناه من المسح على الخف ومسح ما ظهر من الرجل وهو أن يبين في ذلك التوحيد المعين في هذه المسألة الوجه المشروع وهو أن نقول؛ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] فالأعمال خلق لله مع كونها منسوبة إلينا فلم ينسبها من جميع الوجوه فلم يؤثر في المسح ويكون الحكم في ذلك كما قررناه، وأهل طريقنا اختلفوا في هذه المسألة اختلافاً كثيراً على صورة ما اختلف فيه أهل المسح على الخف سواء، فأما من حدّه بثلاثة أصابع فراعى ظهور التوحيد في ثلاث منازل وهو حكم الشرع في الإنسان في معناه وفي حسّه وفي خياله، فإذا عمّ التوحيد هذه الثلاثة لم يجز الأخذ به، وانتقل إلى مسح الرجل أو غسله كما ينتقل تنزيه الإنسان نفسه عن مثل هذا التوحيد حيث أزال حكم الشرع منه فحكم حكم من زال عنه اسم الخف.

باب في توقيت المسح

اختلف في ذلك، فمن قائل: بالتوقيت فيه ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ويوماً وليلة للمقيم. ومن قائل: بأن لا توقيت وليمسح ما بدا له ما لم يقم مانع كالجنابة.

وصل حكمه في الباطن: فأمّا الحكم في ذلك في الباطن على مذهب القائل بالتوقيت، فقد قرّرنا في المسح على الخف في باب العالم والمتعلم أن ذلك سفر حيث انتقل الأمر من المعلم إلى المتعلم، وقد كان رسول الله ﷺ إذا علّم الناس شرائعهم كرّر الكلمة ثلاث مرات حتى تفهم عنه لأنه مأمور بالبيان والإبلاغ، هذا معنى مسح المسافر ثلاثاً. وأما توقيت الحاضر بيوم وليلة فإنه ليس له في نفسه إلاّ قيام ذلك الأمر فيعلمه فلا يعيد عليه لنفسه لأنه قد ظهر له وهو من نفسه على يقين وما هو على يقين من قبول غيره لذلك عند التعليم فيكرّره ثلاث مرّات ليتيقن أن قد فهم عنه، ومن لم يقل بالتحديد نظر إلى فطر المتعلمين، فمنهم من يفهم بأوّل مرّة، ومنهم من لا يفهم إلاّ بعد تفصيل وتكرار المرّة بعد المرّة حتى يفهم، فلا يوقت عدداً بعينه في حال تعليمه غيره الذي هو بمنزلة السفر، ولا ينظره في نفسه الذي هو بمنزلة الحضر، فإنه في نفسه قد يمكن أن يتصوّر فيما ظهر له أنه ربما يكون شبهة فيحقق النظر فيه مراراً فلا توقيت. وأما حكم الجنابة في إزالة الخف فالجنابة هي الغربة والجنيب الغريب، فإذا وقع في القلب أمر غريب يقدح في الشرع جرّد النظر في ذلك بالعقل دون الاستدلال بالشرع، مثل أن يخطر له خاطر البرهميّ المنكر للشريعة فلا يقبل دليل الشرع على إبطال هذا القول الذي خطر له فإنه محل النزاع، فلا بدّ أن ينزع من الاستدلال بالشرع إلى الاستدلال بما تعطيه أدلة النظر، وسواء وقع ذلك له كالحضر أو لغيره كالسفر، كما أن الجنب سواء كان مسافراً أو حاضراً لا بدّ من إزالة الخف.

باب في شرط المسح على الخفين

فمن قائل: إن من شرط المسح أن يكون الرجلان طاهرتين بطهر الوضوء. ومن قائل: إنه ليس من شرطه إلاّ طهارتهما من النجاسة وبه أقول والقول الأوّل أحوط. وبقي شرط آخر

أن لا يكون خف على خف، فمن قائل: بجواز المسح عليهما وبه أقول. ومن قائل: بالمنع وهكذا حكم الجرموق.

وصل في حكم الباطن في ذلك: وأما حكم الباطن في ذلك فإن الطهر المعقول في الباطن هو التنزيه كما قرّرناه عقلاً وشرعاً، وهذه الطهارة الخاصة للرجلين طهارة شرعية وقد وصف نفسه تعالىٰ بأنّ له الهرولة لمن أقبل إليه يسعى والسعي والهرولة من صفات الأرجل، فمن نزّه الحق عن الهرولة فقد أكذب الحق فيما وصف به نفسه، وإن كان العقل لا يقبل من حيث دليله هذه النسبة إليه تعالىٰ والإيمان يقبلها وينفي التشبيه بقوله تعالىٰ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وبالدليل النظريّ، ولا تتأوّل الهرولة الإلهية بتضعيف الإقبال الإلٰهيّ على العبد وتأكيده ولا غير ذلك من ضروب التأويلات المنزّهة، وإنما تأوّل ذلك من تأوّله من العقلاء بتضاعف الإقبال الإلهيّ بجزيل الثواب على العبد إذا أتى إلى ربّه يسعى بالعبادات التي فيها المشي، كالسعي إلى المساجد، والسعي في الطواف، وإلى الطواف، وإلى الحج، وإلى عيادة المرضى، وإلى قضاء حوائج الناس، وتشييع الجنائز، وكل عبادة فيها سعي قرب محلها أو بعد، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الجمعة: الآية ٩] فطهر الوضوء وصف الحق بأنه يهرول، والطهر الذي هو النظافة هو تنزيه الحق أن لا يرفع عنه ما وصف به نفسه.

وأمّا ما لم يصف به نفسه ممّا هو من نعوت الممكنات فتنزيهه عن أن يوصف بشيء من ذلك هو للعقل، فالعقل تحت حكم الشرع إذا نطق الشرع في صفات الحق بما نطق، فليس له ردّ ذلك إن كان مؤمناً، ويكون المنطوق والموصوف بتلك الصفة قابلاً أي جائز القبول أو مجهول القبول، فيلزم العقل قبول الوصف المشروع وإن جهل قبول الموصوف له. ولهذا ذهبنا في طهر الرجلين إلى الطهر اللغويّ الذي هو النظافة والتنزيه من النجاسة، فلا يلزمنا شيء ممّا يتفرّع من هذه المسألة من المسائل على مذهب القائلين بطهر الوضوء. وأمّا إذا لبس خفاً على خف فهو وصف الحق نفسه بالهرولة فإن الهرولة صفة للسعي والسعي صفة للرجل، فقد يكون السعي بهرولة وقد لا يكون، وإذا كان هذا فالهرولة من صفات السعي، فبين الهرولة وبين القدم أمر آخر وهو السعي فهو كالخف على الخف، وقد تقدّم الكلام عليه فافهم.

باب في معرفة ناقض طهارة المسح على الخف

الاتفاق على أن نواقضها نواقض الوضوء كلها، وسيأتي بابه في هذا الباب فيما بعد. اختلف العلماء في نزع الخف هل هو ناقض للطهارة أم لا؟ فمن قائل: إنّ الطهارة تبطل ويستأنف الوضوء. ومن قائل: تبطل طهارة القدمين خاصة فيغسلهما ولا بدّ على ما تقدّم من الاختلاف في الموالاة. ومن قائل: لا يؤثر نزع الخف في طهارة القدم وبه أقول وإن استأنف الوضوء فهو أحوط ولا يؤثر في طهارته كلها إلاّ أن يحدث ما ينقض كما سيأتي.

وصل في حكم الباطن في ذلك: أمّا حكم الباطن فيمن قال تبطل الطهارة كلها فهو سريان التنزيه في الموصوف، فإذا قبل تنزيهاً بعينه قبل سائر ما يعقل فيه التنزيه، كذلك إن بطل تنزيه ما في حق الموصوف سرى البطلان في النعوت كلها نعوت التنزيه، ومن قال: تبطل طهارة الرجل خاصة هو أن يزيل الشرع عن الحق وصفاً ما على التعيين فلا يلزم منه إزالة كل وصف يقتضي التشبيه فإن الله سبحانه نزّه نفسه أن يلد وما نزّه نفسه عن أن يتردّد في الأمر يريد فعله، ولا نزّه نفسه عن التدبّر، ولا نزّه نفسه عن الغضب، ومن قائل بأنه على طهره وإن نزع الخف لا حكم له ولا تأثير في الطهارة التي كان موصوفاً بها في حال لبسه خفّه، يقول: وإن نزّه الحق نفسه عن أن يلد فالوصف له باق فإنه قال: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٤] فأبقى الأمر على حكمه بقوله تعالىٰ: ﴿لَّوْ أَرَادَ﴾ وهذا مثل قوله تعالىٰ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٨] وقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] وهذا ردّ على من يقول: إن الإله لذاته أوجد الممكن لا لنسبة إرادة ولا سبق علم، والصحيح ما قاله الشارع، وإن لم تكن تلك النسبة أمراً وجودياً زائداً فاعلم ذلك.

أبواب المياه

قد تقدم الكلام في أوّل الباب في الفرق بين ماء الغيث وماء العيون وبيّنا من ذلك ما فيه غنية، فلنذكر في هذه الأبواب حكم ما نزعت إليه علماء الشريعة في الظاهر بما يناسبه من طهارة الباطن.

باب في مطلق المياه

أجمع العلماء على أن جميع المياه طاهرة في نفسها مطهرة غيرها إلاّ ماء البحر فإن فيه خلافاً، وكذلك أيضاً اتفقوا على أن ما يغيّر الماء ممّا لا ينفك عنه غالباً أنه لا يسلب عنه صفة التطهير إلاّ الماء الآجن، فإن ابن سيرين خالف فيه والذي أذهب إليه أن كل ما ينطلق عليه اسم الماء مطلقاً فإنه طاهر مطهر سواء كان ماء البحر أو الآجن، واتفقوا أيضاً على أن الماء الذي غيّرت النجاسة لونه أو طعمه أو ريحه أو كل هذه الأوصاف أنه لا تجوز به الطهارة، فإن لم يتغير الماء ولا واحد من أوصافه بقي على أصله من الطهارة والتطهير ولم يؤثر ما وقع فيه من النجاسة، إلاّ أني أعرف في هذه المسألة خلافاً في قليل الماء يقع فيه قليل النجاسة بحيث أن لا يتغير من أوصافه شيء.

وصل حكم الباطن في ذلك: فأمّا حكم الباطن فيما ذكرناه فاعلم أن الماء هو الحياة التي تحيا بها القلوب فيحصل به الطهارة لكل قلب من الجهل، قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٢] هذا ضرب مثل في الكفر والإيمان والعلم والجهل. وأمّا ماء البحر الذي وقع فيه الخلاف الشاذ فكونه مخلوقاً من صفة الغضب والغضب يكون عنه الطرد والبعد في حق المغضوب عليه والطهارة مؤدّية إلى القرب والوصلة، فهذا سبب الخلاف في الباطن. وأمّا

العلة في الظاهر فتغير الطعم، فمن رأى أن الغضب لله يؤدي إلى القرب من الله والوصلة به رأى الوضوء بماء البحر وإليه أذهب، ومن اتسع في علم التوحيد ولم يلزم الأدب الشرعيّ فلم يغضب لله ولا لنفسه لم ير الوضوء بماء البحر لأنه مخلوق من الغضب فيخاف أن يؤثر فيه غضباً فتقوم به صفة الغضب وحاله لا تعطي ذلك، فإن التوحيد يمنعه من الغضب لأنه في نظره ما ثم من يغضب عليه لأحدية العين عنده في جميع الأفعال المنسوبة إلى العالم، إذ لو كان عنده مغضوب عليه لم يكن توحيد، فإن موجب الغضب إنما هو الفعل ولا فاعل إلاّ الله، وهذه المسألة من أشكل المسائل عند القوم وإن كانت عندنا هينة الخطب لمعرفتنا بمواضع الأدب الإلٰهيّ الذي شرعه لنا. ثم التخلّق بالأخلاق الإلهية ومنها: الغضب الذي وصف به نفسه في كتابه فقال تعالىٰ: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [سورة النساء: الآية ٩٣] وقوله في آية اللعان: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ﴾ [سورة النور: الآية ٩] وقد جاءت السنّة بأن الله يغضب يوم القيامة غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، فهذا الذي لا يغضب لا يرى إلاّ الله فيحكم عليه حاله وهذا مقام الحيرة، فالويل له إن غضب هنا، والويل له إن لم يغضب في الآخرة، فهو محجوج بكل حال دنيا وآخرة، والغضب لله أسلم وأنجى وأحسن بالإنسان فإنّ فيه لزوم الأدب المشروع.

ولما كان الغضب في أصل جبلة الإنسان كالجبن والحرص والشره بين الحق له مصارف إذا وقع من العبد واتصف به وللتسليم محال ومواضع قد شرعت التزم بها الأدباء حالاً وغاب عنها أصحاب الأحوال، ولعدم التسليم محال ومواضع قد شرعت، فالأديب هو الواقف من غير حكم حتى يحكم الشارع الحق ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٨٧] فإذا حكم وقف الأديب حيث حكم لا يزيد ولا ينقص، والغضب صفة باطنة في الإنسان قد يكون لها أثر في الظاهر وقد لا يكون، فإن الحال أغلب والأحوال يعلو بعضها على بعض في القهر والغلبة على من قامت بهم، فإن جمع بين وجود الرحمة على المغضوب عليه في قلبه وحكم الغضب لله في حسّه وظاهره فإن أهل طريق الله نظروا أيّ الطريقين أعلى وأحق، فمنا من قال: بأنّ الغضب القائم بالنفس أعلى، ومنّا من قال: وجود الرحمة في القلب وإرسال حكم الغضب لله في الظاهر أعلى وليس بيد العبد فيه شيء، وإنما العبد مصرّف فهو بحسب ما يقام فيه ويرد به، وما للإنسان في تركه وعدم تركه للشيء فعل، بل هو مجبور في اختياره إذا كان مؤمناً فإنا قيدنا الغضب أن يكون لله. وأما الغضب لغير الله فالطبع البشريّ يقتضي الغضب والرضى، يقول رسول الله ﷺ: **«إِنَّمَا أَنَا بَشرٌ أَغْضَبُ كَمَا يغضب البَشَرُ وَأَرْضَى كَمَا يَرْضَى البَشَرُ»** الحديث، وقد عملنا به حالاً وخلقاً لله الحمد على ذلك.

وأما حكم الماء الآجن في الباطن دون غيره مما يغير الماء مما لا ينفك عنه غالباً فاعلم أن الله سبحانه ما نزه الماء عن شيء يتغير به مما لا ينفك عنه غالباً إلا الماء الآجن فقال تعالى في صفة أهل الجنة الموصوفة بالطهارة: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ [سورة محمد: الآية ١٥] يقال: أسن الماء وأجن إذا تغيّر وهو الماء المخزون في الصهاريج وكل ماء مخزون يتغير

بطول المكث، فإذا عرض للعلم الذي به حياة القلوب من المزاج الطبيعيّ أمر أثر فيه كالعلم بأن الله رحيم، فإذا رأى رحمته بعباد الله كما يراها من نفسه من الرقة والشفقة التي يجد ألمها في نفسه فيطلب العبد إزالة ذلك الألم الذي يجده في نفسه برحمة هذا الذي أدركته الرحمة عليه من المخلوقين، قام له قيام الرقة به وحمل ذلك على رحمة الله، فتغيرت عنده رحمة الله بالقياس على رحمته، فلم ينبغ له أن يطهر نفسه لعبادة ربّه بمثل هذه الرحمة الإلهية وقد تغيّرت عنده، وعلة ذلك أن الحق ما وصف نفسه بالرقة في رحمته، فالحق يقول لك هنا: لا تجعل طبيعتك حاكمة على حياتك الإلهية، ومن يرى الوضوء بالماء الآجن لم يفرّق فإن الحق قد وصف نفسه في مواضع بما يقتضيه الطبع البشريّ، فيجري الكل مجرى واحداً، والأولى ما ذكرناه أوّلاً أن لا نزيد على حكم الله شيئاً فيما ذكر عن نفسه.

وأما حكم الباطن في العلم القليل إذا وردت عليه الشبه المضلة وأثرت فيه التغيّر فإنه لا يجوز له استعمال ذلك العلم فإنه غير واثق به وإن كان عارفاً بأن لذلك العلم وجهاً إلى الحق ولكن ليس في قوّته لضعف علمه معرفة تعيين ذلك الوجه، فيعدل عند ذلك إلى العلم الذي يستهلك الشبه وهو العلم الذي يأخذه عن الإيمان من طريق الشرع والعمل به، فإنه العلم الواسع الذي لا يقبل الشبه لأنه يقلب عينها بالوجه الحق الذي تحمله فيصرفها في موضعها فتكون علماً بعدما كانت بكونها شبهة جهلاً، فإنّ نور الإيمان تندرج فيه أنوار العلوم اندراج أنوار الكواكب في نور الشمس، وطريقه واضحة أيضاً في رجوع الشبه علماً لأنه يزيل حكمها ويريه نور الإيمان وجه الحق فيها فيراها عدماً والعدم لا أثر له ولا تأثير في الوجود فاعلم ذلك. واعلم أن نور الإيمان هنا عبارة عن أمر الشرع أي الزم ما قلت لك وأمرتك به سواء وجدت عليه دليلاً عقلياً أو لم تجد، كالإيمان في الجناب الإلهيّ بالهرولة والضحك والتبشّش والتعجّب من غير تكييف ولا تشبيه مع معقولية ذلك من اللسان لكن نجهل النسبة لاستنادنا إلى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وهي أعني هذه الآية أصل في التنزيه لأهله وأصل في التشبيه لأهله.

باب في الماء تخالطه النجاسة ولم تغيّر أحد أوصافه

اختلف علماء الشريعة في الماء تخالطه النجاسة ولم تغيّر أحد أوصافه، فمن قائل: إنه طاهر مطهر سواء كان قليلاً أو كثيراً وبه أقول إلاّ أني أقول: إنه مطهر غير طاهر في نفسه لأنا نعلم قطعاً أن النجاسة خالطته لكن الشرع عفا عنها ولا أعرف هذا القول لأحد وهو معقول، وما عندنا من الشرع دليل أنه طاهر في نفسه لكنه طهور، وإن احتجّوا علينا بأن رسول الله ﷺقال: «**خَلَقَ اللَّهُ المَاءَ طَهُوراً لاَ يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ**» قلنا: ما قال إنه طاهر في نفسه، وإنما قال فيه: إنه طهور والطهور هو الماء والتراب الذي يطهر غيره، فإنا كما قلنا نعلم قطعاً أن الماء حامل النجاسة عقلاً، ولكن الشارع ما جعل لها أثراً في طهارة الإنسان به ولا سمّاه نجساً، فقد يريد الشارع التعريف بحقيقة الأمر وهو أن الماء في نفسه طاهر بكل وجه أبداً لم

يحكم عليه بنجاسة أي أن النجاسة ليست بصفة له وإنما أجزاء النجس تجاور أجزاءه، فلما عسر الفصل بين أجزاء البول مثلاً وبين أجزاء الماء وكثرت أجزاء النجاسة على أجزاء الماء فغيّرت أحد أوصافه منع من الوضوء به شرعاً على الحدّ المعتبر في الشرع.

وإذا غلبت أجزاء الماء على أجزاء النجاسة فلم يتغيّر أحد أوصافه لم يعتبرها الشارع ولا جعل لها حكماً في الطهارة بها، فإنا نعلم قطعاً أنّ المتطهر استعمل الماء والنجاسة معاً في طهارته الشرعية، والحكم للشرع في استعمال الأشياء لا للعقل، ولم يرد شرع قط بأنه طاهر ليست فيه نجاسة إلاً باعتبار ما ذكرناه من عدم تداخل الجواهر وهو أمر معقول فما بقي إلاً تجاورها، فاعتبر الشرع تلك المجاورة في موضع ولم يعتبرها في موضع، فلذلك لم يجز الطهارة به في الموضع الذي اعتبرها، وأجاز الطهارة به في الموضع الذي لم يعتبرها ولم يقل فيه إنه ليس فيه نجاسة، فالحكم في الماء على ما ذكرناه على أربع مراتب: إذا خالطته النجاسة أو لم تخالطه حكم بأنه طاهر مطهر، وحكم بأنه طاهر غير مطهر، وحكم بأنه غير مطهر ولا طاهر، وحكم بأنه مطهر غير طاهر. فالطاهر المطهر هو الماء الذي لم تخالطه نجاسة. والطاهر غير المطهر هو الماء الذي يخالطه ما ليس بنجس بحيث أن يزيل عنه اسم الماء المطلق مثل ماء الزعفران وغيره. وحكم بأنه غير طاهر ولا مطهر وهو الماء الذي غيّرت النجاسة أحد أوصافه وصاحب هذا الحكم يردّ الحديث الذي احتجّ به علينا فإن الشارع قال: لا ينجسه شيء فكيف اعتبره هذا المحتج به هنا ولم يعتبره في الوجه الذي ذهبنا إليه في أنه مطهر غير طاهر ويلزمه ذلك ضرورة وليس عنده دليل شرعيّ يردّه. والحكم الرابع مطهر غير طاهر وهو الفصل الذي نحن بسبيله فإنه الماء الذي خالطته النجاسة ولم تغيّر أحد أوصافه.

ومن قائل: بالفرق بين القليل والكثير فقالوا: إن كان كثيراً لم ينجس، وإن كان قليلاً كان نجساً ولم يحد فيه حداً بل قال: بأنه ينجس ولو لم يتغير أحد أوصافه. ثم اختلف هؤلاء في الحدّ بين القليل والكثير والخلاف في نفس الحد مشهور في المذاهب لا في نص الشرع الصحيح، فإن الأحاديث في ذلك قد تكلم فيها مثل حديث القلتين وحديث الأربعين قلة، ثم الخلاف بينهم في حد القلة، ويتفرّع على هذا الباب مسائل كثيرة، مثل ورود الماء على النجاسة، وورود النجاسة على الماء، والبول في الماء الدائم وغير ذلك، وللناس في ذلك مذاهب كثيرة ليس هذا الكتاب موضعها، فإنا ما قصدنا استقصاء جميع ما يتعلق من الأحكام بهذه الطهارة من جهة تفريع المسائل، وإنما القصد الأمّهات منها لأجل الاعتبار فيها بحكم الباطن، فجرّدنا في هذا الباب نحواً من ثمانين باباً نذكرها إن شاء الله كلها باباً باباً، وهكذا أفعل إن شاء الله في سائر العبادات التي عزمنا على ذكرها في هذا الكتاب من صلاة وزكاة وصيام وحج، والله المؤيد لا رب غيره.

وصل في حكم الباطن: وأما حكم الباطن فيما ذكرناه في هذا الباب وهو الماء الذي تخالطه النجاسة ولم تغيّر أحد أوصافه فهو العلم الإلهيّ الذي يقتضي التنزيه عن صفات

البشر، فإذا خالطه من علم الصفات التي تتوهم منها المناسبة بينه وبين خلقه فوقع في نفس العالم به من ذلك نوع تشويش فاستهلك ذلك القدر من العلم بالصفات التي يقع بها الاشتراك في العلم الذي يقتضي التنزيه من جهة دليل العقل ومن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] في دليل السمع فيبقى العلم بالله على أصله من طهارة التنزيه عقلاً وشرعاً، مع كوننا نصفه بمثل هذه الصفات التي توهم التشبيه فإنه ما غيّرت أوصافه تعالىٰ، فيثبت كل ذلك له مع تحقق ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وأما حكم القليل والكثير في ذلك واختلاف الناس في النجاسة إن كان الماء قليلاً فالقلة والكثرة في الماء الطهور هو راجع إلى الأدلة الحاصلة عند العالم بالله، فإن كان صاحب دليل واحد وطرأت عليه في علمه بتنزيه الحق في أيّ وجه كان شبهة أثرت في دليله زال كونه علماً كما زال كون هذا الماء طاهراً مطهراً وإن كان صاحب أدلة كثيرة على مدلول واحد فإن الشبهة تستهلك فيه، فإنها إذا قدحت في دليل منها لم يلتفت إليها واعتمد على باقي أدلته فلم تؤثر هذه الشبهة في علمه وإنما أثرت في دليل خاص لا في جميع أدلته، فهذا معنى الكثرة في الماء الذي لا تغيّر النجاسة حكمه. وأمّا من قال بترك الحدّ في ذلك وأن الماء يفسد فإنه يعتبر أحدية العين لا أحدية الدليل فيقول: إن العلم تقدح فيه هذه الشبهة في زمان تصوّره إياها والزمان دقيق، فربما مات في ذلك الزمان وهو غير مستحضر سائر الأدلة لضيق الزمان فيفسد عنده، وفي هذا الباب تفريع كثير لا يحتاج إلى إيراده وهذا القدر قد وقع به الاكتفاء في المطلوب.

باب الماء يخالطه شيء طاهر ممّا ينفك عنه غالباً متى غيّر أحد أوصافه الثلاثة

أما الماء الذي يخالطه شيء طاهر ممّا ينفك عنه غالباً متى غيّر أحد أوصافه الثلاثة فإنه طاهر غير مطهر عند الجميع إلاّ بعض الأئمة فإنه عنده مطهر ما لم يكن التغيّر عن طبخ.

وصل حكم الباطن: فأما حكم الباطن في ذلك فهو أن العلم بالله من حيث العقل الذي حصل له من طريق الفكر إذا خالطه وصف شرعيّ ممّا جاء الشرع به فإن ذلك العلم بالله طاهر في نفسه غير مطهر لما دلّ عليه من صفة التشبيه كقولهم في صفة كلام الله إنه كسلسلة على صفوان فأتى بكاف الصفة والشرع كله ظاهر مقبول ما جاء به فلم يقدر العقل ينفك عن دليله في نفي التشبيه، وسلّم للشرع ما جاء به من غير تأويل، ومن رأى أنه مطهر على أصله ما لم يطبخ فأراد بالطبخ الأمر الطبيعيّ وهو أن يأخذ ذلك الوصف من الشارع الذي هو مخبر عن الله وأخذه عن فهمه ونظره بضرب قياس على نفسه من حيث إمكانه وطبيعته فهو طاهر غير مطهر فاعلم ذلك.

باب في الماء المستعمل في الطهارة

الماء المستعمل في الطهارة اختلف فيه علماء الشريعة على ثلاثة مذاهب، فمن قائل: لا تجوز الطهارة به. ومن قائل: تجوز الطهارة به وبه أقول. ومن قائل: بكراهة الطهارة به ولا يجوز التيمم بجوده. وقول رابع شاذ وهو أنه نجس.

وصل حكم الباطن في ذلك: فأمّا حكم الباطن فيه فاعلم أن سبب هذا الخلاف هو أنه لا يخلو أن ينطلق على ذلك الماء اسم الماء المطلق أو لا ينطلق، فمن رأى أنه ينطلق قال بجواز الطهارة به. ومن رأى أنه قد أثّر في إطلاقه استعماله لم يجز ذلك أو كرهه على قدر ما يقوى عنده. وأمّا من قال بنجاسته فقول غير معتبر وإن كان القائل به من المعتبرين وهو أبو يوسف، فاعلم أن العلم بتوحيد الله هو الطهور على الإطلاق فإذا استعملته في أحدية الأفعال ثم بعد هذا الاستعمال رددته إلى توحيد الذات اختلف العلماء بالله بمثل هذا الاختلاف في الماء المستعمل، فمن العارفين من قال: إن هذا التوحيد لا يقبل الحق من حيث ذاته فلا يستعمل بعد ذلك في العلم بالذات، ومن العارفين من قال يقبله لأنا ما أثبتنا عيناً زائدة والنسب ليست بأمر وجوديّ فتؤثر في توحيد الذات فبقي العلم بالتوحيد على أصله من الطهارة. وأما من قال: بأنه نجس فإن التوحيد المطلق لا ينبغي إلاّ لله تعالىٰ، فإذا استعملت هذا التوحيد في أحدية كل أحد التي بها يقع له التمييز عن غيره فقد صار لها حكم الكون الممكن فهذا معنى النجاسة، فلا ينبغي أن ينسب إلى الله مثل هذا التوحيد لأن تمييزه في أحديته عن خلقه ليس عن اشتراك كما تتميز الممكنات بعضها عن بعض بخصوص وصفها وهي أحديتها.

باب في طهارة أسآر المسلمين وبهيمة الأنعام

اتفق العلماء بالشريعة على طهارة أسآر المسلمين وبهيمة الأنعام واختلفوا فيما عدا ذلك، فمن قائل: بطهارة كل حيوان، ومن قائل: استثنى واختلف أهل الاستثناء خلافاً كثيراً.

وصل حكم الباطن في ذلك: فأما حكم الباطن في ذلك فإن سؤر المؤمن وكل حيوان فهو طاهر، فإن الإيمان والحياة عين الطهارة في الحيّ والمؤمن، إذ بالحياة كان التسبيح من الحيّ لله تعالىٰ، وإذ بالإيمان كان قبول ما يرد به الشرع ممّا يحيله العقل أو لا يحيله من المؤمن بلا شك، وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» فما بقي للعبد من العلم بعد معرفته بنفسه الذي هو سؤره وكل حيوان فإنه مشارك للإنسان المؤمن في الدلالة، فسؤره مثل ذلك بذلك القدر ممّا بقي يعرف ربّه. وأمّا أصحاب الخلاف في الاستثناء فما نظروا في المؤمن ولا في الحيوان من كونه حيواناً ولا مؤمناً فهو بحسب ما نظر فيه هذا المستثنى ويجري معه الحكم والتفصيل فيه يطول، وإنما اشترطنا المؤمن دون الإنسان وحده إذ كان الإيمان يعطي من المعرفة بالله ما يعطيه الحيوان والإنسان وزيادة ممّا لا يدركه الإنسان من حيث إنسانيته ولا حيوانيته بل من كونه مؤمناً، فلهذا قلنا سؤر المؤمن فإنه أتم في المعرفة.

باب في الطهارة بالأسآر

اختلف العلماء بالشريعة في الطهارة بالأسآر على خمسة أقوال، فمن قائل: إنها طاهرة بإطلاق وبه نقول. ومن قائل: إنه لا يجوز للرجل أن يتطهر بسؤر المرأة. ومن قائل: إنه يجوز للرجل أن يتطهر بسؤر المرأة ما لم تكن جنباً أو حائضاً. ومن قائل: لا يجوز لكل

واحد منهما أن يتطهر بفضل طهور صاحبه ولكن يشرعان معاً. ومن قائل: إنه لا يجوز أصلاً. ومن قائل: يجوز للرجل أن يتطهر بسؤر المرأة ما لم تخل به.

وصل حكم الباطن في ذلك: فأما حكم الباطن في ذلك فاعلم أن الرجل يزيد على المرأة درجة فإذا اتخذا دليلاً على العلم بالله من حيث ما هما رجل وامرأة لا غير، فمن رأى أن لزيادة الدرجة في الدلالة فضلاً على من ليس لها تلك الدرجة نقصه من العلم بذلك القدر، فمن لم يجز الطهارة بذلك. قال: إنما يدل من كونه رجلاً وامرأة أي من كونهما فاعلاً ومنفعلاً على علم خاص في الإله، وهو العلم بالمؤثر والمؤثر فيه، وهذا يوجد في كل فاعل ومنفعل، فلا يجوز أن يوجد مثل هذا في العلم بالله ولا يتطهر به القلب من الجهل بالله، ومن أجازه قال: جلّ المعرفة بالله أن يكون خالقنا وخالق الممكنات كلها، وإذا ثبت افتقارنا إليه وغناه عنّا فلا نبالي بما فاتنا من العلم به، فهذان قولان بالجواز وبعدم الجواز، وبهذا الاعتبار نأخذ ما بقي من الأقسام مثل الشروع معاً، غير أن في الشروع معاً زيادة في المعرفة وهي عدم التقييد بالزمان وهو حال الوقوف على وجه الدليل، وهو أيضاً كالنظر في دلالتهما من حيث ما يشتركان فيه وليس إلاّ الإنسانية، ومثل طهارة المرأة بفضل الرجل فإنه يعطى في الدلالة ما تعطى المرأة وزيادة، ومثل طهور الرجل بفضل المرأة ما لم تكن جنباً بالتغرّب عن موطن الأنوثة وهو منفعل فقد اشترك مع الأنثى التي انفعلت عنه فإنه منفعل عن موجده، ومن تغرّب عن موطن الأنوثة من تشبيهها بالرجل فإن ذلك يقدح في أنوثتها أو حائضاً وهي صفة تمنع من مناجاة الحق في الصلاة، والمطلوب من العلم بالله القربة، والحال في الحيض البعد من الله من حيث تناجيه، فالمعرفة بهذه الصفة تكون معرفة حجابية من الاسم البعيد. وأما قول القائل: ما لم تخل به فإن لم تخل به جازت الطهارة وإن خلت به لم تجز، فاعلم أن العالم بالله كما يعلم أن ذاته منفعلة في وجود عينها عن الله، ولا يعرف أنه يرضي الله ويغضبه بأفعاله إذ قد وقع التكليف، فما عرفه معرفة تامة فقد خلي بالمعرفة وهذا يقدح في طهارة تلك المعرفة، وإذا عثر على أن له أثراً في ذلك الجناب مثل قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِّ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] فأعطى الدعاء من الداعي في نفس المدعو الإجابة، ولا معنى للانفعال إلاّ مثل هذا فهذا حقيقة قوله ما لم تخل به.

باب الوضوء بنبيذ التمر

اختلف علماء الشريعة في الوضوء بنبيذ التمر، فأجاز الوضوء به بعضهم، ومنع به الوضوء أكثر العلماء، وبالمنع أقول لعدم صحة الخبر النبويّ فيه الذي اتخذوه دليلاً، ولو صحّ الحديث لم يكن قوله نصاً في الوضوء به فإنه قال ﷺ: «**فِيهِ تَمْرَةٌ طَيِّبَةٌ وَمَاءٌ طَهُورٌ**» أي جمع النبيذ بين التمر والماء فسمّي نبيذاً فكان الماء طهوراً قبل الامتزاج، وإن صحّ قوله فيه شراب طهور لم يكن نصاً في الوضوء به ولا بد، فقد يمكن أن يطهر به الثوب من النجاسة فإنّ الله ما شرع لنا في الطهارة للصلاة عند عدم الماء إلاّ التيمم بالتراب خاصة.

وصل حكم الباطن في ذلك: وأما حكم الباطن في ذلك فإن الواقف في معرفته بالله على الدليل المشروع الذي هو فرع في الدلالة عن الدليل العقلي الذي هو الأصل، وليس عند صاحب الدليل المشروع علم بما ثبت به كون الشرع دليلاً في العلم بالإله فضعف في الدلالة وإن سمّاه ماء طهوراً وتمرة طيبة فذلك لامتزاج الدليلين، والمقلد لا يقدر على الفصل بين الدليلين، فمن حيث يتضمن ذلك الامتزاج الدليل العقليّ يجوز الأخذ به في الدلالة فيجيز الوضوء بنبيذ التمر، ومن حيث الجهل بما فيه من تضمنه الدلالة العقلية لا يجوز الأخذ به وهو على غير بصيرة في ثبوت هذا الفرع فلم يجز الوضوء بنبيذ التمر فإنه سمّاه شراباً وأزال عنه اسم الماء، فافهم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

أبواب نواقض الوضوء

حكم ذلك في الباطن أعني ناقض الوضوء أنه كل ما يقدح في الأدلة العقلية والأدلة الشرعية في المعرفة بالله. أما في العقلية فمن الشبه الواردة. وأما في الشرعية فمن ضعف الطريق الموصل إليها وهو عدم الثقة بالرواة أو غرائب المتون فإن ذلك ممّا يضعف به الخبر، فكل ما يخرجك عن العلم بالله وبتوحيده وبأسمائه الحسنى وما يجب لله أن يكون عليه وما يجوز وما يستحيل عليه عقلاً إلاّ أن يرد به خبر متواتر في كتاب أو سنّة فإن ذلك كله ناقض لطهارة القلب بمعرفة الله وتوحيده وأسمائه، فلنذكرها مفصلة كما وردت في الوضوء الظاهر إن شاء الله.

باب انتقاض الوضوء بما يخرج من الجسد من النجس

اختلف علماء الشريعة في انتقاض الوضوء بما يخرج من الجسد من النجس على ثلاثة مذاهب، فاعتبر قوم في ذلك الخارج وحده من أيّ موضع خرج وعلى أيّ وجه خرج وبين هؤلاء اختلاف في أمور، واعتبر قوم المخرجين القبل والدبر من أيّ شيء خرج وعلى أيّ وجه خرج من صحة ومرض، واعتبر آخرون الخارج والمخرج وصفة الخروج وبه أقول.

وصل حكم الباطن في ذلك: فأمّا حكم هذه المذاهب في المعاني في الباطن فمن اعتبر الخارج وحده وهو الذي ينظر في اللفظ الخارج من الإنسان فهو الذي يؤثر في طهارة إيمانه مثل أن يقول في يمينه: برئت من الإسلام إن كان كذا وكذا، أو ما كان إلاّ كذا وكذا، فإن هذا وإن صدق في يمينه وبر ولم يحنث فإنه لا يرجع إلى الإسلام سالماً، كذا قال ﷺ. ومثل من يتكلم بالكلمة من سخط الله ليضحك بها الناس ما يظنّ أن تبلغ ما بلغت فيهوي بها في النار سبعين خريفاً ولا يراعى من خرجت منه من مؤمن وكافر، ومن اعتبر المخرجين فهو المنافق والمرتاب فكل ما خرج منهما لا ينفعهما في الآخرة، فإن الخارج قد يكون نجساً كالكفر من التلفظ به، وقد يكون غير نجس كالإيمان، وما كان مثل هذا من المخرجين المنافق والمرتاب، لأن المخرجين خبيثان لم ينفع ما ليس بنجس كظهور الإيمان وما في القلب منه شيء وهو قوله تعالىٰ عنهم حيث قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ وهو كخروج الطاهر أعني الذي ليس

بنجس ﴿وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [سورة النساء: الآية ١٥٠] وهو كخروج ما هو نجس فقال تعالىٰ فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٥١] حقاً فآثر في الطهارة، وأمّا من اعتبر الخارج والمخرجين وصفة الخروج فقد عرفت الخارج والمخرجين وما بقي إلاّ صفة الخروج، فصفة الخروج في الطهارة كالخروج على صفة المرض كالمقلد في الكفر أو الصحة وهو العالم بالحق الصحيح ويجحده فلا يؤمن، قال تعالىٰ في مثل هؤلاء الذين عرفوا الحق وجحدوا بما دلّهم عليه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ ثم ذكر العلة فقال: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة النمل: الآية ١٤]. انتهى الجزء الثاني والثلاثون.

(الجزء الثالث والثلاثون)

بسم الله الرحمن الرحيم

باب حكم النوم في نقض الوضوء

اختلف العلماء في النوم على ثلاثة مذاهب، فمن قائل: إنه حدث فأوجبوا الوضوء في قليله وكثيره. ومن قائل: إنه ليس بحدث فلم يوجب منه وضوء إلاّ إن تيقن بالحدث، فالناقض للوضوء هو الحدث لا النوم، وإن شك في الحدث فالشك غير مؤثر في الطهارة فإن الشرع لم يعتبر الشك في هذا الموضع وبه أقول. ومن قائل: بالفرق بين النوم القليل الخفيف كالسّنة فلم يوجب منه وضوء، وبين الكثير المستثقل فأوجب منه الوضوء.

وصل حكمه في الباطن: اعلم أن القلب له حالة غفلة فذلك النوم القليل وحالة موت ونوم عن التيقظ والانتباه لما كلّفه الله به من النظر والاستدلال والذكر والتذكّر، وهاتان الحالتان مزيلتان طهارة القلب التي هي العلم بالله، ولنا في ذلك ما ينبّه الغافل والسالك: [مجزوء الكامل]

يا نائماً كم ذا الرُّقَا ... دُ وأنت تُدْعَى فانتبِهْ
كان الإلهُ يقوم عنـ ... ـك بما دعا لو نمْتَ بِهْ
لكنَّ قلبك غافلٌ ... عمّا دعاك ومنتَبِهْ
في عالم الكونِ الذي ... يُزديك مهما مِتَّ بِهْ
فانظرْ لنفسك قبل سيـ ... ـرك إنَّ زادك مُشتَبِهْ

باب الحكم في لمس النساء

اختلف علماء الشريعة في لمس النساء باليد أو بغير ذلك من الأعضاء الحسّاسة، فمن قائل: إنه من لمس امرأته دون حجاب أو قبلها على غير حجاب فعليه الوضوء سواء التذّ أو لم يلتذّ، واختلف قول صاحب هذا المذهب في الملموس، فمرّة سوّى بينهما في إيجاب الوضوء، ومرّة فرّق بينهما، وفرّق أيضاً صاحب هذا القول بين أن يلمس ذوات المحارم والزوجة. ومن قائل: بإيجاب الوضوء من اللمس إذا قارنته اللذة، وعند أصحاب هذا القول

تفصيل كثير. ومن قائل: بأن لمس النساء لا ينقض الوضوء وبه أقول، والاحتياط أن يتوضأ للخلاف الذي في هذه المسألة اللامس والملموس.

وصل حكم اللمس في الباطن: فأمّا حكم اللمس في القلب فالنساء عبارة وكناية عن الشهوات، فإذا لمست الشهوة القلب ولمسها والتبس بها والتبست به وحالت بينه وبين ما يجب عليه من مراقبة الله فيها فقد انتقض وضوءه، وإن لم تحل بينه وبين مراقبة الله فيها فهو على طهارته فإن طهارة القلب الحضور مع الله، ولا يبالي في متعلق الشهوة من حرام أو حلال إذا اعتقد التحريم في الحرام والتحليل في الحلال فلا تؤثر في طهارته، فإذا اعتقد التحريم في الحلال المنصوص عليه بالحل أو التحليل المنصوص عليه بالتحريم من أجل الشهوة بالنظر إلى الرجوع في ذلك إلى قول إمام يرى ذلك مع علمه أن الشارع قرّر حكم المجتهد وقرّر قبول عمل القلب له إذا عمل به وقد كان قبل الشهوة يعرف ذلك القول ولا يعمل عليه ولا يقول به، وإنما رجع إليه بسبب لمس الشهوة قلبه، فمثل هذا تؤثر في طهارته، فعليه الوضوء بلا خلاف عند أهل القلوب، وأمّا في الظاهر فلنا في هذه المسألة نظر وقد تصدّعنا فيها مع علماء الرسوم.

باب في لمس الذكر

اختلف العلماء فيه على ثلاثة مذاهب، فمن قائل: لا وضوء عليه وبه أقول والاحتياط الوضوء في كل مسألة مختلف فيها، فإن الاحتياط النزوح إلى موطن الإجماع والاتفاق مهما قدر على ذلك. ومن قائل: فيه الوضوء وقوم فرّقوا بين مسّه بحال لذة أو باطن اليد وبين من مسّه بظاهر كفّه ولغير لذّة وفصلوا في ذلك.

وصل حكم ذلك في الباطن: اعلم أن الله ما جعل سبب إيجاد الكائنات الممكنات سبحانه وتعالىٰ إلاّ الإرادة والأمر الإلهيّ، ولأجل هذا أخذ من أخذ الإرادة في حدّ الأمر، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فأتى في الإرادة والأمر ولم يذكر معنى ثالثاً يسمّى القدرة فيخرّج قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الحشر: الآية ٦] على أنه عين قوله للأشياء ﴿كُن﴾ إذا أراد تكوينها، ولا شك أن اليد محل القدرة، ولما كان النكاح سبب ظهور المولدات فمن نسب القدرة إليه في إيجاد العين الممكنة التي ظهرت وهو مسّ الذكر باليد فلا يخلو إمّا أن يغفل عن الاقتدار الإلهيّ في قول: ﴿كُن﴾ أو لا يغفل، فإن غفل انتقضت طهارته حيث نسب وجود الولد للنكاح، وإن لم يغفل بقي على طهارته.

باب الوضوء ممّا مسّت النار

اختلف أصحاب رسول الله ﷺ في الوضوء ممّا مسّت النار وما عدا الصدر الأوّل فلم يختلفوا في أنّ ذلك لا يوجب الوضوء إلاّ في لحوم الإبل، وبالوضوء من لحوم الإبل أقول تعبّداً وهو عبادة مستقلة مع كونه ما انتقضت طهارته بأكل لحوم الإبل، فالصلاة بالوضوء

المتقدّم جائزة وهو عاص إن لم يتوضأ من لحوم الإبل، وهذا القول ما قال به أحد فيما أعلم قبلنا وإن نوى فيه رفع المانع فهو أحوط، واختلف الأئمة في الوضوء من لحوم الإبل، فمن قائل: بإيجاب الوضوء منه. ومن قائل: لا يجب.

وصل حكم الباطن في ذلك: النار الذي يجد الإنسان في نفسه وهي التي تنضج كبده هي ممّا يجري عليه من الأمور التي لا توافق غرضه الطبيعيّ، فإن تلقاها بالتسليم والرضى أو الصبر مع الله فيها كما تسمّى الله تعالىٰ بالصبور لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٧] وأمهلهم ولم يؤاخذهم، وقول رسول الله ﷺ: «**لَيسَ شَخصٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى مِنَ الله حِلْماً منه**» وإذا كان العبد بهذه المثابة لم تؤثر في طهارته فإن تسخط وأثر فيه ولا سيما لحوم الإبل فإن الشارع سمّاها شياطين، فتلك لمة الشيطان في القلب فانتقضت طهارته لأن محل اللمة القلب كما يطهر منها بلمة الملك، وإنما لحوم الإبل بلمة الشيطان لأن الشيطان خلق من مارج من نار، والمارج لهب النار، والشارع كما قلنا سمّى الإبل شياطين ونهى عن الصلاة في معاطنها وما علّل إلاَّ بكونها شياطين وهم البعداء، والصلاة حال قربة ومناجاة، فاعتبرنا في الباطن حكم الوضوء من لحوم الإبل ونقض الطهارة بهذا، ولو كانت لمته بخير فإنه أضمر في ذلك الخير شرّاً لا يتفطن له إلاَّ العالم المحقق العارف بالأمور الإلهية كيف ترد على القلوب.

باب الضحك في الصلاة من نواقض الوضوء

اعلم أن الضحك في الصلاة أوجب منه الوضوء بعضهم ومنعه بعضهم وبالمنع أقول.

وصل حكم الباطن فيه: إنّ الإنسان في صلاته تختلف عليه الأحوال مع الله في تلاوته إذا كان من أهل الله ممّن يتدبر القرآن، فآية تحزنه فيبكي، وآية تسرّه فيضحك، وآية تبهته فلا يضحك ولا يبكي، وآية تفيده علماً، وآية تجعله مستغفراً وداعياً فطهارته باقية على أصلها، وقد رأينا من أحواله دائماً الضحك في صلاة وغير صلاة كالسلاويّ وأمثاله نفعنا الله به، وكأبي يزيد طيفور بن عيسىٰ بن شروشان البسطامي روى عنه أبو موسىٰ الديبلي أنه قال: ضحكت زماناً وبكيت زماناً وأنا اليوم لا أضحك ولا أبكي. وأمّا إذا غفل عن تلاوته وتدبّرها ومناجاة ربّه بزكائه ولهوه وأمثال ذلك ممّا يخرجه عن الحضور مع الله في صلاته، فهذا ضحكه في الباطن في الصلاة في مذهب من يقول بنقض طهارته، ومن هذه حاله فقد انتقضت طهارته ووجب عليه استئناف طهارة قلبه مرة أخرى.

باب الوضوء من حمل الميت

قالت به طائفة من العلماء، ومنع أكثر العلماء من ذلك وبالمنع أقول.

وصل حكم الباطن فيه: أمّا حكم الباطن في ذلك فإنه يتعلق بعلم المناسبة، فلا يجتمع شيء مع شيء إلاَّ لمناسبة بينهما. قال أبو حامد الغزاليّ: رأى بعض أهل هذا الشأن بالحرم غراباً وحمامة ورأى أن المناسبة بينهما تبعد فتعجب وما عرف سبب أنس كل واحد منهما

بصاحبه فأشار إليهما فدرجا فإذا بكل واحد منهما عرج فعرف أن العرج جمع بينهما، وكان رجل من التجار يقول لشيخنا أبي مدين: أريد منك إذا رأيت فقيراً يحتاج إلى شيء تعرّفني حتى يكون ذلك على يديّ، فجاءه يوماً فقير عريان يحتاج إلى ثوب وكان مقام الشيخ وحاله في ذلك عدم الاعتماد على غير الله في جميع أموره في حق نفسه وفي حق غيره، فإن الشيوخ قد أجمعوا على أنه من صحّ توكله في نفسه صحّ توكله في غيره، فتذكر أبو مدين رغبة التاجر فخرج مع الفقير إلى دكان التاجر ليأخذ منه ثوباً فماشاه إنسان أنكره الشيخ فسأله عن دينه فإذا هو مشرك، فعرف المناسبة وتاب إلى الله من ذلك الخاطر، فالتفت فإذا بالرجل قد فارقه ولم يعرف حيث ذهب، فلما أخبرت بحكايته وأنا أعرف بلادنا ما في بلاد الإسلام منها دينان أصلاً فعلمت أن الله أرسل إليه من خاطره ذلك شخصاً ينبهه، فإن الله علمنا منه أن يخلق من أنفاس العالم خلقاً، فكذلك من هذا الباب من حمل ميتاً فلمناسبة بينهما وهو الموت فإما موت عن الأكوان وإما موت عن الحق، فالميت عن الحق يتوضأ، والميت عن الأكوان باق على وضوئه.

باب نقض الوضوء من زوال العقل

اتفق علماء الشريعة أن زوال العقل ينقض الطهارة.

وصل حكم الباطن فيه: أن العقل إذا كان المزيل لحكمه في الإلهيات النص المتواتر من الشرع الذي لا يدخله احتمال ولا إشكال فيه فهو على أكمل الطهارة، لأن طهارة الإيمان مع وجود النص تعطي العلم الحق والكشف، وإذا زال عقله بشبهة فقد انتقضت طهارته، ويستأنف النظر في دليل آخر أو في إزالة تلك الشبهة.

أبواب الأفعال التي تشترط هذه الطهارة في فعلها

اتفق العلماء على أن الوضوء شرط من شروط الصلاة، واختلفوا هل هو شرط صحة أو شرط وجوب؟ وأعني بالوضوء الطهارة المشروعة وهي عندنا شرط وجوب، والطهارة عندنا عبادة مستقلة، وقد تكون شرطاً في عبادة أخرى شرط صحة أو شرط وجوب، وقد تكون مستحبة وسنّة في عبادة أخرى.

وصل حكم الباطن في ذلك: طهارة القلب شرط في مناجاة الحق أو مشاهدته شرط وجوب وشرط صحة معاً، وسبب ذلك أننا في موطن التكليف ويطلب الإيمان منّا بالله وبما جاء من عنده وبالرسول والرسل، وهذه إشارة أن الأمر ليس بمقصور إلاّ أنه عال وأعلى ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف: الآية ٧٦] ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥] ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [سورة يوسف: الآية ٧٦] وتارة يكون العلم شرطاً في صحة الإيمان وشرط وجوب فيه، وتارة يكون الإيمان شرطاً في صحة علم الكشف وشرط وجوب فيه، إلاّ أن الإيمان فيه طهارة للقلب من الحجاب، والعلم طهارة للقلب من الجهل والشك والنفاق، فطهر قلبك بالطهارتين، تسم بذلك في العالمين، وتحوز به علم القبضتين، فإن الله قد أوجب

الإيمان علينا بنفسه ومن نفسه أسماؤه ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٥] مع علمنا بأن الله فضّل بعضهم على بعض رسلاً وأنبياء، ثم نهانا أن نفضل بين الأنبياء قياساً أو نظراً فإن العبد لا يحكم على الله بشيء.

باب الطهارة لصلاة الجنائز ولسجود التلاوة

اختلف أهل العلم رضي الله عنهم في الطهارة للصلاة على الجنائز ولسجود التلاوة، فمن قائل: إنها شرط من شروطها. ومن قائل: ليست بشرط وبه أقول.

وصل في حكم الباطن في ذلك: أما حكم الباطن في ذلك كله فإنا نقول: كل عمل مشروع لا تتقدّمه طهارة الإيمان لا يصحّ ذلك العمل بفقده فيجب وجود الإيمان في كل عمل مشروع، فمن قال: لا يجب الوضوء لصلاة الجنازة وسجود التلاوة لم ير استحضار للموتى والسجود للتلاوة لا في الإيمان في الدعاء، واكتفى بالإيمان الأصليّ عن استحضاره عند الشروع في الفعل، وهذا سبب عدم الإجابة، ومن رأى أن الطهارة شرط كانت الإجابة ولا بدّ فيما يدعو نية.

باب الطهارة لمس المصحف

اختلف أهل العلم في الطهارة هل هي شرط في مس المصحف أم لا؟ فأوجبها قوم ومنعها قوم، وبالمنع أقول إلاّ أن فعلها بالطهارة أفضل أعني مس المصحف.

وصل في حكم الباطن في ذلك: هل يحترم الدليل لاحترام المدلول؟ فعندنا نعم يحترم الدليل لاحترام المدلول، وعند غيرنا لا يلزم فإن الدليل يضادّ المدلول فلا يجتمعان، فإن احترم الدليل فلأمر آخر لا لكونه دليلاً على محترم، والمصحف دليل على كلام الله وقد أمرنا باحترامه ومسّه على الطهارة من احترامه، فاعلم أنا قد نأخذ العالم دليلاً على الله ونذهل عمّا يتضمن مسمّى العالم من محمود ومذموم، وقد نأخذ فرعون وأمثاله من المتكبرين دليلاً على وجود الصانع لأنه صنعة واتفق أن عينته في الدلالة على الخصوص ولا يجب احترامه بل يجب مقته وعدم حرمته، وقد نأخذ موسىٰ عليه السلام من حيث إنه صنعته دليلاً على وجود الصانع، واتفق أن عينته في الدلالة على الخصوص، وقد وجب علينا احترامه وتعظيمه من وجه آخر لا من وجه كونه دليلاً، فلهذا عظمنا المصحف لكون الشارع أمرنا باحترامه وتعظيمه لا لكونه دليلاً، ثم له حرمة أخرى لكونه دليلاً وبه نعلّل احترامه في وقت ما فإنه نقول فيه إنه كلام الله وإنّ كنّا نحن الكاتبين له بأيدينا.

باب إيجاب الوضوء على الجنب عند إرادة النوم أو معاودة الجماع أو الأكل أو الشرب

اختلف علماء الشريعة فيما ذكرناه في هذه الترجمة، فمن قائل: بإيجابه. ومن قائل: باستحبابه وبه أقول.

وصل حكم الباطن في ذلك: وأما حكم الباطن في ذلك إحضار النية للذي انتقضت طهارته الشرعية لشهوة أغفلته عن رؤية الحق عند استحكامها، فإذا أراد أن ينام نوى في النوم

إعطاء حق العين فتلك طهارة الجنب إذا أراد أن ينام، فإن الجنابة نقضت طهارته وهي الغربة عن موطن الإيمان الذي كان يجب عليه الحضور معه لولا استحكام سلطان الشهوة الذي أفناه عن نفسه وعن كل ما سواه، وكذلك إذا أراد أن يعاود الجماع ينوي الولد المؤمن لكثرة أتباع رسول الله ﷺ وليكثر الذاكرين الله بهذا الجماع، وكذلك إذا أراد أن يأكل أو يشرب ينوي إعطاء النفس حقّها وهذه النيّة فيما ذكرناه هي طهارة لكل ذلك.

باب الوضوء للطواف

اعلم أن الوضوء للطواف اشترطه قوم ولم يشترطه قوم وبه أقول وإن كان الطواف بالطهارة أفضل.

وصل حكم الباطن في ذلك: وذلك أنه من رأى أن الطواف بالبيت لكونه منسوباً إلى الله كالعرش المنسوب إلى استواء الرحمن ورأى الملائكة حافّين به وهم المطهرون الكرام البررة اشترط الوضوء في الطواف بكعبة قلبه الذي وسع الحق جلّ جلاله يقول تعالىٰ: ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي، وهو نزوله في تجليه تعالىٰ إلى قلب عبده، وقد بيّناه في مواقع النجوم في منزل التنزّل الذاتيّ من فلك القلب، ومن رأى أن الحق لا يتقيد بما أضاف إليه وإنما قصد بذلك التشريف منفعة المكلف لم يشترط الطهارة للطواف. وأما في القلب فعدم اشتراط الطهارة في وقت نظر العقل في إثبات الشرع في المعرفة الأولى إمّا ابتداء وإمّا إذا نزل إليها بالتعليم لمن أراد أن يعرف الله بالأدلة النظرية.

باب الوضوء لقراءة القرآن

اختلف العلماء في الوضوء لقراءة القرآن، فمن قائل: إنه تجوز قراءة القرآن لمن هو على غير طهارة وبه أقول. ومن قائل: لا يجوز أن يقرأ القرآن إلاّ على وضوء وهو الأفضل بلا خلاف، وكذلك كل ما ذكرناه ممّا يجوز فعله عندنا وعند غيرنا على غير وضوء أن الأفضل أن لا يفعل شيئاً من ذلك إلاّ على وضوء.

وصل حكم الباطن في ذلك: أما حكم الباطن في ذلك فإن قارىء القرآن نائب الحق سبحانه في الترجمة عنه بكلامه ومن صفاته سبحانه القدّوس ومعناه الطاهر، فينبغي للعبد إذا ناب مناب الحق في كلامه بتلاوته أن يكون مقدّساً أي طاهراً في ظاهره بالوضوء المشروع، وفي باطنه بالإيمان والحضور والتدبّر وشبه ذلك، وأن يقدّم تلاوة الحق عليه ابتداء ثم يتلوه مترجماً عن الحق ما تلاه عليه وكلّمه به، فإما يترجم في تلاوته تلك للحاضر عنده ليذكره، وإما أن يترجم بلسانه ليسمعه فيحصل الآخر للسمع كما لو كان المصحف بيده يتلو فيه أخذ البصر حقّه من النظر إلى كلام الله من حيث ما هو مكتوب، كما أخذه السمع من حيث ما هو اللسان ناطق به مصوّت، وكذلك لو ألقى المصحف في حجره ومشى بيده على الحروف لأخذت هذه الأعضاء حظّها من ذلك، وهكذا كان يتلو شيخنا أبو عبد الله ابن المجاهد، وأبو عبد الله ابن قيسوم، وأبو الحجاج الشبربلي لم أر من أشياخنا من يحافظ على مثل هذه التلاوة إلاّ هؤلاء الثلاثة.

أبواب الاغتسال
أحكام طهارة الغسل

هذا الغسل المشروع في هذا الباب هو تعميم الطهارة بالماء لجميع ظاهر البدن بغير خلاف، وفيما يمكن إيصال الماء إليه من البدن وإن لم يكن ظاهراً بخلاف كداخل الفم وما أشبهه، وسيأتي ذكره وذكر أسباب هذه الطهارة. ومنها: واجب وسنّة ومستحب.

الاعتبار في ذلك: فأمّا اعتبار هذه الطهارة تعميم طهارة النفس من كل ما أمرت بالطهارة منه وبه من الأعمال ظاهراً مما يتعلق بالأعضاء وباطناً بما يتعلق بالنفس من مصارف صفاتها لا من صفاتها، وإنما قلنا من مصارف صفاتها فإن صفاتها لازمة لها في أصل خلقتها لا تنفك عنها، حتى أن بعض أصحابنا قد جعلها عين ذاتها وأنها صفات نفسية لها كالحرص والبخل والنميمة وكل وصف مذموم، فمتعلق الذم الذي أمرنا بالطهارة منه ما هو عين الصفة وإنما هو عين المصرف، فالإنسان لا يتطهر من الحرص وإنما يتطهر من صرف الحرص على جمع حطام الدنيا وحرامها، فيتطهر بالحرص عينه على حكم ما تطهر منه بالمصرف أيضاً، وهو أن يتطهر بالحرص على طلب العلم وتحصيل أسباب الخير والأعمال الصالحة، والحرص على جمع أسباب سعادته، فإن عين الحرص ما يتمكن زواله، فالحرص بوجه تكون سعادة الحريص بالحرص، وبوجه تكون شقاوة الحريص، فلهذا قلنا بالمصرف لا بعين الصفة، وعلى هذا نأخذ جميع الصفات التي علّق الذم بها إنما علّق الذم بمصارفها لا بأعيانها، فعموم طهارة الباطن والظاهر في هذا الاغتسال إنما متعلقه مصارف الصفات، ولا يعلم مصارف الصفات إلاّ من يعلم مكارم الأخلاق فيتطهر بها، ويعلم سفساف الأخلاق فيتطهر منها، وما خفي منها ممّا لا يدركه يتلقاه من الشارع وهو كل عمل يرضي الله فيتطهر به من كل عمل لا يرضيه فيتطهر منه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧] ولهذا سقنا في هذا الكتاب أبواباً متقابلة كالتوبة وتركها والورع وتركه والزهد وتركه ممّا سيأتي أبوابه إن شاء الله تعالىٰ وهي كثيرة.

وهذه الطهارة أيضاً واجبة كالتطهير بإيتاء الزكاة مثلاً فهو غسل واجب، وكإعطائها للفقراء من ذوي الأرحام وهو مندوب إليه، وكتخصيص أهل الدين منهم دون غيرهم من ذوي الأرحام وهو مستحب، وهكذا يسري حكم هذه الطهارة في جميع باطن الإنسان وظاهره من العلم، والجهل، والكفر، والإيمان، والشرك، والتوحيد، والإثبات، والتعطيل، وهكذا في الأعمال كلها المشروعة يطهرها بالموافقة من المخالفة، فهذا معنى الاغتسال الواجب منه وغير الواجب، وسأورد من تفصيل مسائل هذه الطهارة ما يجري مجرى الأمهات على حسب ما يذكر منها في ظاهر حكم الشرع في الاغتسال بالماء، وإنما تفريع هذه الطهارة لا يحصى ولا يسعه كتاب لو ذكرناها مسألة مسألة، وقد أعطينا فيها وبيّنا طريقة الأخذ بها فخذها على ذلك الأنموذج إن أردت أن تكون من عباد الله الذين اختصهم لخدمته واصطنعهم لنفسه

ورضي عنهم فرضوا عنه، جعلنا الله من العلماء العمال، ولا حال بيننا وبين الاستعمال بما يرضيه سبحانه من الأعمال في الأقوال والأفعال والأحوال.

فأما الاغتسالات المشروعة: فمنها ما اتفق على وجوبه. ومنها ما اختلف في وجوبه. ومنها ما اتفق على استحبابه وهي اغتسالات كثيرة كالغسل من التقاء الختانين، والغسل من إنزال الماء الدافق على علم، والغسل من إنزاله على غير علم كالذي يجد الماء ولا يذكر احتلاماً، والغسل من إنزال الماء الدافق على غير وجه الالتذاذ، والغسل من الحيض، وغسل المستحاضة عند الصلوات، وغسل يوم الجمعة، والغسل لصلاة الجمعة، والغسل عند الإسلام، والغسل للإحرام، والاغتسال لدخول مكة، والاغتسال للوقوف بعرفة، والاغتسال من غسل الميت. وأما الاعتبارات في هذه الأغسال فأنا أذكرها قبل ذكر تفصيل أمهات المسائل المشروعة في الاغتسال بالماء واعتباراتها فمن ذلك:

باب الاغتسال من غسل الميت

لما كان الميت شرع غسله وهو لا فعل له إذ كان غيره المكلف بغسله تنبيهاً لغاسله أن يكون بين يدي ربه في تطهيره بتوفيقه واستعماله في طاعته وما يجري عليه من أفعال خالقه به وفيه كالميت بين يدي غاسله، فلا يرى غسله بهذا الاعتبار بغسله للميت وإنما يرى أن الله هو مطهره، ويرى نفسه كالآلة يفعل بها الله ذلك الفعل، كما يرى الغاسل الماء آلة في تحصيل غسل الميت، إذ لولا الماء ما صحّ اسم الغاسل لهذا الذي يغسله، والماء لا يتصوّر منه الدعوى في أنه غسل الميت، فإن الماء ما تحرّك إليه ولا قصد غسله وإنما قصد بالماء غسل الميت غاسله، كذلك الغاسل لا يرى في قصده أنه قصد غسل الميت بالماء وإنما يرى نفسه مع الماء آلتين قصد الله بهما غسل هذا الميت، فالله المطهر لا هو ولا الماء، ولكن الله طهّر الميت بالغاسل وبالماء، فمثل هذا لا يغتسل من غسل الميت، فهذا اعتبار من يرى أنه لا يجب الغسل من غسل الميت. وأمّا من غسل ميتاً وغاب في غسله عن أن الله هو مطهره وادّعى ذلك الفعل لنفسه وأضافه إليها ورأى أنه لولاه ما طهر هذا الميت وجب عليه أن يغتسل ويتطهر من هذه الدعوى بالتوجّه والحضور مع الله في المستأنف والتذكّر لما غفل عنه من تطهير الله هذا الميت على يده، فمن اعتبر هذا أوجب الاغتسال من غسل الميت، وأما حكم الاغتسال من غسل الميت بالماء في ظاهر حكم الشرع فليس مذهبي القول بوجوبه ولكن إن اغتسل من ذلك فهو أولى وأفضل بلا خلاف.

باب الاغتسال للوقوف بعرفة

لما كان الوقوف بعرفة بصفة الذلّ والافتقار والدعاء والابتهال بالتعرّي من لباس المخيط والموضع الذي يقف فيه الحاج يسمّى عرفة علمنا اعتبار أن ذلك موقف العلماء العارفين بالله فإن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٨] وقال: ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة المائدة: الآية ٨٣] وسيأتي الكلام إن شاء الله على هذا

النوع في باب الحج من هذا الكتاب. ولما رأى هذا المعتبر العالم تجرّده عن المخيط اعتبر في تأليف الأدلة وتركيبها لحصول المعرفة بالله من طريق النظر الفكري بتركيب المقدمات وتأليفها، فتظهر من ذلك صورة المعرفة بربه، كالخائط الذي يؤلف قطع القميص بعضها إلى بعض فتظهر صورة القميص، قيل له بتجريده المخيط حصل المعرفة بربك أو العلم بالله من التجلي الإلهيّ أو الربانيّ واطرح عنك في هذا الموقف وهذا اليوم النظر العقلي بتأليف المقدمات واشتغل اليوم بتحصيل المعرفة بربك من الامتنان الإلهيّ والوهب الربانيّ من الواهب الذي يعطي لينعم، فإنه الذي يقذف في نفسك العلم به على كل حال، سواء نظرت في تأليف المقدمات أو لم تنظر، فعامله سبحانه بالتجريد فإنه أولى بك، ولا تلتفت إلى تأليفك المقدمات النظرية في العلم بالله فإن ذلك ظلمة في المعرفة لا يراها إلا البصير، إذ لا مناسبة بين ما تؤلفه من ذلك وبين ما تستحقه ذاته جلّ وتعالىٰ علوّاً كبيراً، ومن كان يطلب منه هذه الحالة في ذلك الموقف الكريم والمشهد الخطير العظيم كيف لا يغتسل ويتطهر في باطنه وقلبه عن التعلّق في معرفته بربه بغيره فيزيل عنه قذر مشاهدة الأغيار ودرنها بعلم الحق بالحق دون علمه بنفسه، إذ لا دليل عليه إلاّ هو لأن المعرفة تتعدى إلى مفعول واحد وأنت في عرفة والعلم يتعدّى إلى مفعولين، ولهذا يحصل لصاحب هذا المشهد عند العلمين إذا خرج من عرفة يريد المزدلفة وهي جمع يحصل له علم آخر يكون معلومه الله كما كان معلومه في عرفات الرب تعالىٰ، وهذا المفعول الواحد الحاصل لك في هذا اليوم هو علمك بربك لا بنفسك فتعرف الحق بالحق، فيكون الحق الذي اغتسلت به يعطي تلك المعرفة به، ويكون المغتسل منه اسم مفعول عين نفسك في دعواها في معرفة ربها بنفسها من طريق التعمل في تحصيلها، وأين الدليل من الدليل؟ هيهات وعزّته ما تعرفه إن عرفته إلاّ به فافهم فهذا غسلك للوقوف بعرفة إن وفقت له والله المؤيد والملهم.

باب الاغتسال لدخول مكة زادها الله تشريفاً

اعلم أن دخول مكة هو القدوم على الله في حضرته، فلا بدّ من تجديد طهارة لقلبك ممّا اكتسبه من الغفلات من زمان إحرامك من الميقات ظاهراً بالماء وباطناً بالعلم والحضور، فطهارة الظاهر الاغتسال بالماء عبادة وتنظيفاً، وطهارة الباطن وهو القلب بالتبرّي طلباً للولاء فإنه لا ولاء للحق إلاّ بالبراءة من الخلق حيث كان نظرك إليهم بنفسك لا بالله، فمن كان حاله الحضور الدائم مع الله لم يغتسل لدخول مكة إلاّ الغسل الظاهر بالماء لإقامة السنّة، وأما الباطن فلا إلاّ عند رؤية البيت فإنه يتطهر باطناً بحياء خاص لمشاهدة بيته الخاص كذا والطواف به الذين هم الطائفون كالحافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم، إذ كان بيت الله بلا واسطة منذ خلق الله الدنيا ما جرت عليه يد مخلوق بكسب، وليكن الاسم الإلهيّ الذي يتطهر به الاسم الأوّل من الأسماء الحسنى فإنه من نعوت البيت فتحصل المناسبة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٦] أي جعلت فيه البركة لعبادي

والهدى، فمن رأى البيت ولم يجد عنده زيادة إلهية فما نال من بركة البيت شيئاً لأن البركة الزيادة فما أضافه الحق فدلّ على أن قصده غير صحيح، فإن تعجيل الطعام للضيف سنّة، فليجعل اغتساله أولاً لا يجعله ثانياً لما تقدمه من غسل الإحرام فإنه طهارة خاص تليق بمشاهدة البيت والطواف به لا مناسبة بينه وبين الاغتسال للإحرام إلاّ من وجه ما، فإذا زعم أنه تطهّر بهذا الطهر وفرغ من طوافه يتفقد باطنه فإن الله ما جعل البركة فيه والهدى وهو البيان أي يتبين له ذلك الذي زاده ربه من العلم به، فما جعلت البركة في البيت إلاّ أن يكون يعطي خازنه للطائف به القادم عليه من خلع البركة والقرب والعناية والبيان الذي هو الهدى في الأمور المشكلة في الأحوال والمسائل المبهمات الإلهية في العلم بالله ما يليق بمثل ذلك البيت المصطفى محل يمين الحق المبايع المقبل المسجود عليه، فإن هذا البيت خزانة الله من البركات والهدى.

وقد نبّه الشارع إشارة بذكر الكنز الذي فيه، وأي كنز أعظم ممّا ذكر الله من البركة والهدى حيث جعلهما عين البيت فكنزه من أضيف إليه وهو الله فلينظر الطائف القادم إذا فرغ من طوافه إلى قلبه فإن وجد زيادة من معرفة ربّه وبياناً في معرفته لم تكن عنده فيعلم عند ذلك صحة اغتساله لدخول مكة، وإن لم يجد شيئاً من ذلك فيعلم أنه ما تطهر وما قدم على ربه ولا طاف ببيته فإنه من المحال أن ينزل أحد على كريم غني ويدخل بيته ولا يضيفه، فإذا لم يجد الزيادة فما زاد على غسله بالماء وقدومه على الأحجار المبنية فهو صاحب عناء وخيبة في قلبه وما له سوى أجر الأعمال الظاهرة في الآخرة في الجنان وهو الحاصل لعامة المؤمنين، فإن جاور جاور الأحجار لا العين، وإن رجع إلى بلده رجع بخفي حنين، جعلنا الله من أصحاب القلوب أهل الله وخاصته آمين بعزّته، فإن اعترف المصاب بعدم الزيادة وما رزىء به كان له أجر المصاب من الأجور في الآخرة وحرم المعرفة في العاجل.

باب الاغتسال للإحرام

اعتباره تطهير الجوارح ممّا لا يجوز للمحرم أن يفعله، وتطهير الباطن من كل ما خلف وراءه، فكما تركه حسّاً من أهل ومال وولد وقدم على بيت الله بظاهره فلا يلتفت بقلبه إلاّ إلى ما توجّه إليه، ويمنع أن يدخل قلبه أو يخطر له شيء ممّا خلفه وراءه بالتوبة والرجوع إلى الله، ولهذا سمّي غسل الإحرام لما يحرم عليه ظاهراً وباطناً، فإن لم تكن هذه حالته فليس بمحرم باطناً، فإن البواب قد نام وغفل وبقي الباب بلا حافظ، فلم تجد خواطر النفوس ولا خواطر الشياطين من يمنعها من الدخول إلى قلبه فهو يقول: لبيك بلسانه ويتخيل أنه يجيب نداء ربه بالقدوم عليه وهو يجيب نداء خاطر نفسه أو شيطانه الذي يناديه في قلبه: يا فلان، فيقول: لبيك، فيقول له الخاطر بحسب ما بعثه به صاحبه من نفس أو شيطان وما جاءه به من غير ما شرع له من الإقبال عليه في تلك الحالة، فيقول له صاحب ذلك الخاطر عند قوله: لبيك اللهم لبيك أهلاً وسهلاً لبيت من يعطيك الحرمان والخيبة والخسران المبين ويفرح بأن جعله إلهاً ولباه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بلسان الباطن والحال وما تقدم من النية ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ

﴿أَفَضۡتُمۡ فِيهِ﴾ من وجودكم بقلوبكم إلى ما خلفتموه حسّاً وراء ظهوركم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة النور: الآية ١٤] فيغفر الله لهم ما حدّثوا به أنفسهم وما أخطر لهم الشيطان في تلك الحالة بعناية التلبية الظاهرة لا غير، وما أعطاهم في قلوبهم ما أعطاه لأهل الاغتسال الباطن من المحرمين.

باب الاغتسال عند الإسلام وهو سنّة بل فرض

الاغتسال عند الإسلام مشروع وقد ورد به الخبر النبويّ. وأما اعتباره في الباطن فإن الإسلام الانقياد، فإذا أظهر الإنسان انقياد الظاهر كان مسلماً ظاهراً فيجب عليه الانقياد بباطنه حتى يكون مسلماً باطناً كما كان ظاهراً، فهو هنا تطهير الباطن عند الإسلام بالإيمان، قال تعالىٰ في حق طائفة قالت آمنا: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٤] وهو الطهارة الباطنة النافعة المنجية من التخليد في النار.

باب الاغتسال لصلاة الجمعة

اعتباره في الباطن طهارة القلب لاجتماعه بربه واجتماع همّته عليه لمناجاته برفع الحجاب عن قلبه ولهذا قال: من يرى أن الجمعة تصحّ بالاثنين وتقام وبه أقول: يقول تعالىٰ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين الحديث. وما ذكر ثالثاً يقول العبد كذا فأقول له كذا، فلا بدّ من طلب منه هذه الحالة أن يتطهر لها طهراً خاصاً، بل أقول: إن لكل حالة للعبد مع الله تعالىٰ طهارة خاصة، فإنه مقام وصلة، ولهذا شرعت الجمعة ركعتين: فالأولى من العبد لله بما يقول. والثانية من الله للعبد بما يخبر به في إجابته قول عبده، أو يخبر به الملأ الأعلى بحسب ما يفوه به العبد في صلاته، غير أنه في صلاة الجمعة بمقتضى ما شرع له أن يجهر بالقراءة ولا بدّ فيقول الله للملأ الأعلى: حمدني عبدي أو ما قال من إجابة وثناء وتفويض وتمجيد.

باب الاغتسال ليوم الجمعة

الاعتبار الطهارة بالأزل للزمان اليوميّ من السبعة الأيام التي هي أيام الجمعة، فإن الله قد شرّع حقاً واجباً على كل عبد أن يغتسل في كل سبعة أيام، فغسل يوم الجمعة لليوم لا للصلاة، فكانت الطهارة لصلاة الجمعة طهارة الحال، وهذه طهارة الزمان، فإن العلماء اختلفوا، فمن قائل: إن الغسل إنما هو ليوم الجمعة وهو مذهبنا، فإن أوقعه قبل صلاة الجمعة ونوى أيضاً الاغتسال لصلاة الجمعة فهو أفضل. ومن قائل: إنه لصلاة الجمعة في يوم الجمعة وهو الأفضل بلا خلاف حتى لو تركه قبل الصلاة وجب عليه أن يغتسل ما لم تغرب الشمس. ولما قلنا إن جمع العبد على الحق في هذا اليوم الزمانيّ كانت نسبة هذا اليوم إلى جناب الحق ما يدخل الأزل من التقديرات الزمانية فيه بتعيين توجهات الحق لإيجاد الكائنات في الأزمان المختلفات التي يصحبها القبل والبعد والآن ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ [سورة الروم: الآية ٤] فاعلم ذلك فإنه دقيق جدّاً، فمن اغتسل لصلاة الجمعة فقد جمع بين الغسل للحال والزمان، ومن اغتسل ليوم الجمعة بعد الصلاة فقد أفرد وهو قدح في مسمّى الجمعة فالأظهر أنه مشروع في يوم الجمعة ولصلاة الجمعة وهو الأوجه وما يبعد أن يكون مقصود الشارع به ذلك.

باب غسل المستحاضة

وسيرد ونبين فيه مذهبنا. وأما اعتباره فالاستحاضة مرض والعبد مأمور بتصحيح عبادته لا يدخلها شيء من المرض، فمهما اعتلّ في عبادة ما من عباداته تطهر من تلك العلة وأزالها حتى يعبد الله عبداً خالصاً محضاً لا تشوبه علة ولا مرض في عبادته ولا عبودته.

باب الاغتسال من الحيض

الحيض ركضة شيطان فيجب الاغتسال منه، قال تعالىٰ: إنه ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٠] فيجب تطهير القلب من لمة الشيطان إذا نزلت به ومسّه في باطنه وتطهيرها بلمة الملك، والقصة البيضاء هي العلامة أو من بعض العلامات على عناية الله بهذا القلب حيث طرد عنه وأزال ركضة الشيطان فيستعمل لمة الملك عند ذلك وهو تطهير القلب، وإن كنيت عن ذلك بالأصبعين وكلاهما رحمة فإنه أضافهما إلى الرحمن، فلولا رحم الله عبده بتلك اللمة الشيطانية ما حصل له ثواب مخالفته بالتبديل في العدول عنه إلى العمل بلمة الملك فله أجران، فلهذا قلنا إنه أضافهما إلى الاسم الرحمن، فإذا أزاغه جاهد نفسه أن لا يفعل ما أماله إليه فجوزي أجر المجاهد، فإن عمل وتاب أثر الفعل بعد مجاهدة فساعد الشيطان عليه القدر السابق بالفعل فوقع منه الفعل ورأى أن ذلك من الشيطان مؤمناً بذلك مصدّقاً كما قال موسىٰ عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة القصص: الآية ١٥] وتاب عقيب وقوع الفعل وأعني بالتوبة هنا الندم فإنه معظم أركان التوبة وقد ورد أن الندم توبة كان له أجر شهيد لوقوع الفعل منه والشهيد حيّ ليس بميت، وأي حياة أعظم أو أكمل من حياة القلوب مع الله في أي فعل كان، فإن الحضور مع الإيمان عند وقوع المخالفة يردّ ذلك العمل حياً بحياة الحضور يستغفر له إلى يوم القيامة، فهذا من عناية الاسم الرحمن الذي أضاف الأصبعين إليه، فالشيطان يسعى في تضعيف الخير للعبد وهو لا يشعر، فإن الحرص أعماه ويحوز الوبال وإثم تلك المعصية عليه، وهذا من مكر الله تعالىٰ بإبليس، فإنه لو علم أن الله يسعد العبد بتلك اللمة من الشيطان سعادة خاصة ما ألقى إليه شيئاً من ذلك، وهذا المكر الإلهيّ الذي مكر به في حق إبليس ما رأيت أحداً نبّه عليه، ولولا علمي بإبليس ومعرفتي بجهله وحرصه على التحريض على المخالفة ما نبهت على هذا لعلمي بأنه لولا هذا المانع لاجتنب لمة المخالفة، فهذا هو الذي حملني على ذكرها لأن الشيطان لا يقف عندها لحجابه بحرصه على شقاوة العبد وجهله بأن الله يتوب على هذا العبد الخاص، فإن كل ممكور به إنما يمكر الله به من حيث لا يشعر، وقد يشعر بذلك المكر غير الممكور به.

باب الاغتسال من المنيّ الخارج على غير وجه اللذة

اختلف فيه، فمن قائل: بوجوبه. ومن قائل: لا يجب عليه غسل وبه أقول.

وصل حكم الباطن فيه: اعتبار الجنابة الغربة والغربة لا تكون إلاّ بمفارقة الوطن وموطن الإنسان عبوديته، فإذا فارق موطنه ودخل في حدود الربوبية فاتصف بوصف من أوصاف

السيادة على أبناء موطنه وأمثاله ولم يجد لذة لذلك فما وفى صفة السيادة حقّها، فإن الكامل لذة كماله لا تقارنها لذّة أصلاً، والابتهاج الكماليّ لا يشبهه ابتهاج، فلما لم يوف الصفة حقّها تعيّن عليه الاغتسال وهو الاعتراف بما قصر به في حق تلك الصفة الإلهية، فمن هنا أوجب الغسل من أوجبه على من خرج منه المنيّ في اليقظة من غير التذاذ، ومن رأى أن صفة الكمال التي تنبغي للواجب الوجود بنفسه إذا اتّصف بها العبد في غربته لم يكن لها حكم فيه لأنه ليس بمحل لها لم يوجب عليه غسلاً.

باب الاغتسال من الماء يجده النائم إذا هو استيقظ ولا يذكر احتلاماً

في مثل هذا بقي حكم قوله ﷺ: «**إِنَّمَا المَاءُ مِنَ المَاءِ**» فهو مخصص ما هو منسوخ كما يراه بعضهم.

وصل اعتباره في الباطن: العارف يجد قبضاً أو بسطاً في حال من الأحوال لا يعرف سببه، وهو أمر خطر عند أهل الطريق، فيعلم أن ذلك لغفلة منه عن مراقبة قلبه في وارداته وقلة نفوذ بصيرته في مناسبة حاله مع الأمر الذي أورثه تلك الصفة، فيتعين عليه التسليم لموارد القضاء حتى يرى ما ينتج له ذلك في المستقبل، فإذا عرفه وجب عليه الاغتسال بالحضور التام مع الحق في علم المناسبات حتى لا يجهل ما يرد عليه من الحق من واردات التقديس، وما الاسم الذي جاءه بذلك، وما الاسم الذي جيء به من عنده، وما الاسم الإلهيّ الذي هو في الحال حاكم عليه وهو الذي استدعى ذلك الوارد فهذه ثلاثة: الاسم المستدعي، والاسم المستدعى منه، والاسم الوارد به، فإن الحق من حيث ذاته لا سبيل لمناسبة تربطنا به أو تربطه بنا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فبأسمائه نتعلق، وبها نتخلق، وبها نتحقق، والله الموفق.

باب الاغتسال من التقاء الختانين من غير إنزال

قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا الْتَقَى الخِتَانُ الخِتَانَ فَقَدْ وَجَبَ الغُسْلُ**» واختلف العلماء في هذه المسألة، فمن قائل: بأنه يجب الغسل من التقاء الختانين. ومن قائل: بأنه لا يجب الغسل من التقاء الختانين وبه أقول.

وصل: الاعتبار في ذلك إذا جاوز العبد حدّه ودخل في حدود الربوبية وأدخل ربّه في الحدّ معه بما وصفه به ممّا هو من صفات الممكنات فقد وجب عليه الطهر من ذلك، فإن تنزيه العبد أن لا يخرج عن إمكانه ولا يدخل الواجب لنفسه في إمكانه، فلا يقول: يجوز أن يفعل الله كذا، أو يجوز أن لا يفعله، فإن ذلك يطلب المرجح والحق له الوجوب على الإطلاق، والذي ينبغي أن يقال: يجوز أن توجد الحركة من المتحرّك ويجوز أن لا توجد فيفتقر إلى المرجح، فإذا كان العالم بالله تعالىٰ بهذه المثابة وجب عليه الاغتسال وهو الطهر من هذا العلم بالعلم الذي لا يدخله تحت الجواز، وسترد هذه المسألة إن شاء الله.

باب الاغتسال من الجنابة على وجه اللذة

قد قرّرنا أنّ الجنابة هي الغربة، وهي هنا غربة العبد عن موطنه الذي يستحقه، وليس إلاّ العبودية أو تغريب صفة ربانية عن موطنها فيتصف بها أو يصف بها ممكناً من الممكنات فيجب الطهر في هذه المسألة بلا خلاف. واعلم أن هذا الغسل الواحد المذكور في هذا الباب يتفرّع منه مائة وخمسون حالاً يجب الاغتسال على العبد في قلبه من كل حال منها، ونحن نذكر لك أعيانها كلها إن شاء الله تعالىٰ في عشرة فصول كل فصل منها يتضمن خمسة عشر حالاً لتعرف كيف تلقاها إذا وردت على قلب العبد لأنه لا بدّ من ورودها على كل قلب من العوام والخصوص، والله المؤيّد والملهم لا قوّة إلاّ به، فمن ذلك:

الفصل الأوّل: الجبروت والألوهية والعزّة والمهيمنية والإيمان والقيام والشوق والولاء والظلمة والسحر وعموم الرحمة وخصوصها والسلامة والطهارة والملك.

الفصل الثاني: الكبرياء والستر والصورة والخلق والبراءة والإخلاص والإقرار والبرا والنصيحة والحب والقهر والهبة والرزق والفتوح والعلم.

الفصل الثالث: البسط والقبض والإعزاز ورفع الدرج وخفض الميزان والشرك والإنصاف والطاعة والرضى والقناعة والإذلال والأصوات والرؤية والقضاء والعدالة.

الفصل الرابع: اللطف والاختبار ورفع الستور والعظمة والحلم والشكر والاعتلاء والمحافظة والتقدير والزيادة والحدود والهوى والمنازعة والولاية والتمليك.

الفصل الخامس: الرحم وإدخال السرور والقطيعة والخداع والاستدراج والحسبان والجلالة والكرم والمراقبة والإجابة والاتساع والحكمة والوداد والبعث والشرف.

الفصل السادس: الشهادة والحق المحلوف به والوكالة والقوّة والصلابة في كل شيء والنصرة والثناء والإحصاء والابتداء والإعادة والصدقة والقول والعفو والأمر والنهي.

الفصل السابع: الأخلاق والمال والجاه والزيادة والإيمان والحياة والموت والإحياء والقيومية والوجدان والاستشراف والوحدة والصمداني والقدرة والاقتدار.

الفصل الثامن: التقديم والتأخير والدار الأولى والآخرة والاختفاء وإشالة الحجب والإحسان والرجوع والانتقام والصفح والحجر والنكاح والرياء والاختلاق والبهت.

الفصل التاسع: الرأفة وملك الملك والكرامات والآجال والتعالي والمغالطة والجمع والاستغناء والتعدّي والكفاية والسخاء والكذب والتكذيب والسياسة والنواميس.

الفصل العاشر: المنع والهداية والانتفاع والضرر والنور والابتداع والبقاء والتوارث والرشد والإيناس والأذى والامتنان والحماسة والمقاومة والجاسوس.

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن جميع ما ذكرنا في هذه الفصول وما تتضمنه كل حالة منها ممّا لم نذكره مخافة التطويل يجب على الإنسان طهارة باطنه وقلبه منه في مذهب أهل الله وخاصته من أهل الكشف بلا خلاف بين أهل الأذواق في ذلك، ولكن يحتاج المتطهر من أكثرها إلى علم غزير في كيفية الطهارة ممّا ذكرنا، وقد يكون بعضها طهور البعض، ثم نرجع

إلى مقصودنا من إيراد الأحكام المشروعة في هذه الطهارة التي هي الاغتسال بالماء واعتباراتها وأحكامها في الباطن فأقول: قد ذكرنا في الوضوء على من تجب طهارته ومتى يكون وجوبها فلا نحتاج إلى ذكر ما يشترك فيه الطهارتان.

باب التدلّك باليد في الغسل في جميع البدن

اختلف الناس من علماء الشريعة في التدلّك باليد في جميع الجسد، فمن قائل: إن ذلك شرط في كمال الطهارة. ومن قائل: ليس بشرط، وأمّا مذهبنا فإيصال الماء إلى الجسد حتى يعمّه بأي شيء كان يمكن إيصاله.

وصل: حكم ذلك في الباطن الاستقصاء في طهارة الباطن لما فيها من الخفاء الذي تضمره النفوس من حب المحمدة عند الناس بما يظهر عنها من الخير، فبأيّ وجه أمكن إزالة هذه الصفة، وكل مانع يمنع من عموم طهارة الباطن فلم تحصل الطهارة.

باب النية في الغسل

اختلف العلماء في شرط النية في الغسل، فمن العلماء من اشترطها وبه أقول. ومنهم من لم يشترطها.

وصل اعتبارها في الباطن: لا بدّ من شرطها في طهارة الباطن فإنها روح العمل وحياته والنية من عمل الباطن فلا بدّ منها، وقد تقدّم الكلام عليها في أول الباب ظاهراً وباطناً.

باب المضمضة والاستنشاق في الغسل

اختلف العلماء علماء الشريعة في المضمضة والاستنشاق في الغسل، فمن قائل: بوجوبها. ومن قائل: بعدم وجوبها. والذي نذهب إليه في ذلك أن الغسل لما كان يتضمن الوضوء كان حكمها من حيث إنه متوضىء في اغتساله لا من حيث إنه مغتسل، فإنه ما ورد: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَا تَمَضْمَضَ وَلاَ اسْتَنْشَقَ فِي غُسْلِهِ إِلاَّ فِي الوُضُوءِ فِيهِ وما رأيت أحداً نبّه على مثل هذا في اختلافهم في ذلك، فالحكم فيها عندي راجع إلى حكم الوضوء، والوضوء عندنا لا بدّ منه في الاغتسال من الجنابة، وعندنا في هذه المسألة نظر في حالتين: الحالة الواحدة فيمن جامع ولم ينزل فعليه وضوءان في اغتساله، فإن جامع وأنزل فعليه وضوء واحد، إلاّ أن مذهبنا أن التقاء الختانين دون إنزال لا يوجب الغسل ويوجب الوضوء، وبه قال أبو سعيد الخدريّ وغيره من الصحابة والأعمش، وقد تقدّم الكلام في شرط الترتيب والفور في الوضوء واعتباره.

باب في ناقض هذه الطهارة التي هي الغسل

فناقضها الجنابة والحيض والاستحاضة والتقاء الختانين فالحيض بلا خلاف، وكذلك إنزال الماء على وجه اللذّة في اليقظة بلا خلاف، وما عدا هذين بخلاف، فإنّ بعض الناس من المتقدّمين لا يرى على المرأة غسلاً إذا وجدت الماء من الاحتلام مع وجود اللذة.

باب في إيجاب الطهر من الوطء

فمن قائل: بوجوبه أنزل أو لم ينزل إذا التقى الختانان. ومن قائل: بوجوبه مع إنزال الماء وبه أقول. وبإنزال الماء من غير وطء وبه قال جماعة من أهل الظاهر أنه يجب الطهر من الإنزال فقط.

وصل في اعتباره في الباطن: الوطء توجّه المؤثر على المؤثر فيه بضرب من الوهب، فلا يخلو المؤثر فيه أن يكون حاضراً عارفاً بخصوص ذلك المؤثر من الأسماء الإلـهية فلا يجب عليه الطهر أو لا يكون فيجب عليه الطهر، وقد يعطي ذلك المؤثر نومة القلب، ثم لا يخلو هذا الاسم الإلهيّ أن يؤثر علم كون من الأكوان أو علماً يتعلق بالله، وعلى الحالتين فإن رأى نفسه موطأ ولم يأخذ بالله كالصدقة تقع بيد الرحمن وإن أخذها السائل والله المعطي فيكون سبحانه المعطي والآخذ فلا طهارة عليه في الباطن، فإن بالحق تكون طهارة الأشياء، فإن غاب عن هذا الشهود ورأى نفسه أنه هو الآخذ ما أنزله الله على قلبه من العلوم وجبت عليه الطهارة من رؤية نفسه، وكذلك إذا وطيء غيره بمسألة يعلمه إياها بالحال أو بالقول، فإن كان عن حضور فلا طهارة عليه فإنه ما زال على طهارته، وإن رأى نفسه في تعليمه غيره بالحال أو بالقول وجبت عليه الطهارة من رؤية نفسه لا بدّ من ذلك، فإن رجال الله في هذه الطريق بالله يتحركون وبه يسكنون عن مشاهدة وكشف وعامتهم عن حضور اعتقاد وإيمان بما ورد بأن الأمر بيده وأن نواصي عباده وكل دابة بيده.

باب في الصفة المعتبرة في كون خروج المنيّ موجباً للاغتسال

اختلفت العلماء في الصفة المعتبرة في كون خروج المنيّ موجباً للاغتسال، فمن قائل: باعتبار اللذة. ومن قائل: بنفس الخروج سواء كان عن لذة أو بغير لذة.

وصل: الاعتبار في هذا الباب اللذة من الملتذ بها. إمّا أن تكون نفسية أو إلهية، فإن كانت نفسية طبيعية فقد وجب الغسل، وإن كانت غير نفسية فلا يخلو ذلك العلم الذي هو بمنزلة الجنابة، إمّا أن يتعلق بالله أو يتعلق بكون من الأكوان، فإن تعلّق بالله ولذته غير نفسية فلا طهر عليه، وإن تعلق بالأكوان فعليه الطهر سواء التذّ أو لم يلتذّ. ومعنى قولنا: اللذة الإلهية أعني لذة الكمال لا لذة الوارد، ولذة الكمال في العبد أن يكون عبداً محضاً لا يتصف بالغربة عن موطنه في باطنه، ولو خلع عليه الحق من صفات السيادة ما شاء من حضرته لا يخرجه ذلك عن موطنه، وإذا كان كذلك فما هو ذو جنابة إذ لا غربة عنده فإنه ما برح في موطنه، وهو غاية الكمال والطهارة معرفة للنقص.

باب في دخول الجنب المسجد

فمن قائل: بالمنع بإطلاق. ومن قائل: بالمنع إلاّ لعابر فيه غير مقيم. ومن قائل: بإباحة ذلك للجميع وبه أقول.

وصل: الاعتبار في ذلك العارف من كونه عارفاً لا يبرح عند الله دائماً في الحديث:

«جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِداً» ولا ينفك الجنب أن يكون في الأرض، وإذا كان في الأرض فهو في المسجد العام المشروع الذي لا يتقيد بشروط المساجد المعلومة بالعرف، ثم إن العارف بل العالم كله علوه وسفله لا تصحّ في حاله الإقامة له فهو عابر أبداً مع الأنفاس، فالعلماء بالله يشاهدون هذا العبور، وغير العلماء بالله يتخيلون أنهم مقيمون، والوجود على خلاف ذلك فإن الإله الموجد في كل نفس موجد يفعل فلا يعطل نفساً واحداً تتصف منه بالإقامة كما قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وقال تعالىٰ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] وقال بيده الميزان يخفض ويرفع، ومن قال بالمنع من ذلك غلب عليه رؤية نفسه أنه ليس بمحل طاهر حيث لم يتخلق بالأسماء الإلهية، ولو تخلق بها ولم يفن عن تخلّقه عنده فما تخلّق بها، وعندنا أن المتخلّق بالأسماء مهما فني عن تخلّقه بها فليس بمتخلّق، فإن المعنى بكونه متخلّقاً بها أي تقوم به كما يقوم الخلوق بالمتخلّق به، وقد يخلقه غيره فيكون عند ذلك مخلّقاً بالأخلاق الإلهية، وذلك أن العبد مأمور والحق لا يأمر نفسه، فالتخلّق امتثال أمر الله بقوّة الله وعونه، فمن الأدب أن يرى المتخلّق كونه متخلّقاً مكلفاً وإن كان الحق سمعه وبصره، أليس الحق قد أثبت عين عبده بالضمير في سمعه وبصره؟ فأين يذهب هذا العبد والعين موجودة وغايته أن يكون صورة في هيولى الوجود المطلق مقيدة وليس له بعد هذا مرتبة إلاّ العدم والعدم لا يقبل الصورة فافهم. انتهى الجزء الثالث والثلاثون.

(الجزء الرابع والثلاثون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

باب مس الجنب المصحف

اختلف علماء الشريعة في مسّ الجنب المصحف، فذهب قوم إلى إجازة مسّ الجنب المصحف، ومنع قوم من ذلك.

وصل في اعتبار ذلك: العالم كله كلمات الله في الوجود، قال الله تعالىٰ في حق عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧١] وقال تعالىٰ: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٧] وقال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٠] والكلم جمع كلمة، ويقول تعالىٰ للشيء إذا أراده ﴿كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فيكسو ذلك الشيء التكوين فيكون، فالوجود فيه رق منشور، والعالم فيه كتاب مسطور بل هو مرقوم لأن له وجهين: وجه يطلب العلوّ والأسماء الإلهية، ووجه يطلب السفل وهو الطبيعة، فلهذا رجحنا اسم المرقوم على المسطور، فكل وجه من المرقوم مسطور، وفي ذلك أقول: [البسيط]

إن الكيانَ عجيبٌ في تقلُّبه — فيه لناظره نَقْشٌ وتَخْبيرُ
انظر إليه ترى ما فيه من بِدَعٍ — إذ كلُّ وجهٍ من المرقوم مَسْطورُ

إن الـوجـودَ لَـسِـرٌّ حـار نـاظِـرُه   الـكـونُ مُـرْتَـقَـمٌ والـرقُّ مـنـشـورُ

فالأمر كما قلنا رق منشور والأعيان فيه كتاب مسطور، فهو كلمات الله التي لا تنفد، فبيته معمور، وسقفه مرفوع، وحرمه ممنوع، وأمره مسموع، فأين يذهب هذا العبد وهو من جملة حروف هذا المصحف ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٤٠، ٤١] فيكشف ما تدعون، هل تدعون الشريك لعينه؟ لا والله إلاَّ لكونه في اعتقادكم إلهاً، فالله دعوتم لا تلك الصورة، ولهذا أجيب دعاؤكم، والصورة لا تضرّ ولا تنفع، انظر في قوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْۚ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٣] فإن سموهم بهم فهم عينهم فلا يقولون في معبودهم حجر ولا شجر ولا كوكب ينحته بيده ثم يعبده فما عبد جوهره والصورة من عمله وإن سموهم بالإله عرفت أن الإله عبدوا هذا تحقيق الأمر في نفسه، وقد أشارت الآية الواردة في القرآن إلى ما ذهبنا إليه بقوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] فهو عندنا بمعنى حكم، وعند من لا علم له من علماء الرسوم بالحقائق بمعنى أمر، وبين المعنيين في التحقيق بون بعيد، وفي قول محمد ﷺ معلماً لنا: «**اعْبدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**». وفي حديث جبريل معه ﷺ حين سأله عن الإحسان بحضور جماعة من الصحابة ما هو؟ فقال ﷺ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» فجاء بكأنّ وقد علمت أن الخيال خزانة المحسوسات وأن الحق ليس بمحسوس لنا وما نعقل منه إلاَّ وجوده، فجاء بكأنّ لندخله تحت قوّة البصر فنلحقه بالوهم بالمحسوسات فقربنا من هؤلاء الذين عبدوه فيما نحتوه فتدبر ما أشرنا إليه فإن الأمر لا يكون إلاَّ كما قرّره الشارع، فقرّر في موضع ما أنكره في موضع آخر، فالعالم منّا أن يقرر ما قرّره الحق في الموضع الذي قرّره الحق، ولينكر ما أنكره الحق في الموضع الذي أنكره الحق، فما ثم إلاَّ الإيمان الصرف فلا تأخذ من سلطان عقلك إلاَّ القبول، فانظر ما أشرف حرف التمثيل الذي هو كأنّ: [البسيط]

كـأنَّ سـلـطـانَـنـا فـانـظـرْ لـه خـبـراً   فـإنـه خـبـرٌ عـنـهـا مـع الـخَـبَـرِ
كـأنَّ حـرفٌ لـه فـي الـكـون سَـلْـطَـنـةٌ   إن كنت تـعـلـم أن الـعـلـم فـي الـنَّـظَـرِ
هـو الإمـامُ الـذي فـيـه نـصـرِّفـه   ولا يـقـاومـه خـلـقٌ مـن الـبـشَـرِ

ولا شك أن أهل الله جعلوا القلب كالمصحف الذي يحوي على كلام الله، كما أن القلب قد وسع الحق جلّ جلاله حين ضاق عنه السماء والأرض، فكما أمرنا بتنزيه القلب عن أن يكون فيه دنس من دخول الأغيار فيه، ورأينا أن المصحف قد حوى على كلام الله وهو صفته والصفة لا تفارق الموصوف، فمن نزّه الصفة نزّه الموصوف، ومن راعى الدليل على أمر ما فقد راعى المدلول الذي هو ذلك الأمر، فعلى كلا المذهبين ينبغي أن ينزّه المصحف أن يمسّه جنب، وقد نهينا أن نسافر بالقرآن إلى أرض العدوّ، فسمّي المصحف قرآناً لظهوره فيه، وما نهى حملة القرآن عن السفر إلى أرض العدوّ، وإن كان القرآن في أجوافهم محفوظاً مثل ما هو في المصحف وذلك لبطونه فيهم، ألا ترى النبيّ ﷺ كان لا يحجزه شيء عن قراءة القرآن ليس الجنابة لظهور القرآن عند القراءة بالحروف التي ينطق بها التي أخبرنا الحق أنها

كلامه تعالىٰ فقال لنبيه ﷺ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] فتلاه عليه رسول الله ﷺ، فلا ينبغي للجنب وهو الغريب عمّا يستحقه الحق، فإن البعد بالحقائق والحدود ما يكون فيه قرب أبداً، وبعد المسافة قد يقرب صاحبها من صاحبه الذي يريد قربه، فكما لا يكون الرب عبداً كذلك لا يكون العبد رباً لأنه لنفسه هو عبد، كما أنّ الرب لذاته هو رب فلا يتصف العبد بشيء من صفات الحق بالمعنى الذي اتصف بها الحق ولا الحق يتصف بما هو حقيقة للعبد، فالجنب لا يمسّ المصحف أبداً بهذا الاعتبار، ولا ينبغي أن يقرأه في هذه الحال، وينبغي للعبد أن لا تظهر عليه إلاّ العبادة المحضة فإنه جنب كله فلا يمسّ المصحف، فإن تخلق فحينئذ تكون يد الحق تمسّ المصحف فإنه قال عن نفسه في العبد إذا أحبّه أنه يده التي يبطش بها، فانظر في هذا القرب المفرط وهذا الاتحاد أين هو من بعد الحقائق؟ والله ما عرف الله إلاّ الله، فلا تتعب نفسك يا صاحب النظر، ودر مع الحق كيفما دار، وخذ منه ما يعرّفك به من نفسه ولا تقس فتفتلس لا بل تبتئس، وتعلم أن يد الحق طاهرة على أصلها مقدّسة كطهارة الماء المستعمل في العبادة، فتنبّه لما عرّفتك به في هذا الفصل.

باب قراءة القرآن للجنب

اختلف علماء الشريعة في ذلك، فمن الناس من منع قراءة القرآن للجنب بحدّ وبغير حدّ، ومن الناس من أجاز ذلك. وأما الوارث عندي فلا يقرأ القرآن جنباً اقتداء بمن ورثه ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١] ولم يكن يحجزه عن قراءة القرآن شيء ليس الجنابة، ولكن الغالب عندي من قرينة الحال أنه كره أن يذكر الله تالياً إلاّ على طهارة كاملة فإنه تيمم لردّ السلام وقال: **«إني كرهت أن أذكر الله إلاّ على طهر»**، أو قال: على طهارة. ومن الناس من أجاز للجنب قراءة القرآن بحدّ وبغير حدّ، وبه أقول بغير حدّ أيضاً ولكن أكرهه اقتداء برسول الله ﷺ.

وصل الاعتبار في ذلك: المقتدي بأفعال رسول الله ﷺ يمنع من قراءة القرآن في الجنابة بغير حدّ، وقد أعلمناك أن الجنابة هي الغربة، والغربة نزوح الشخص عن موطنه الذي ربي فيه وولد فيه، فمن اغترب عن موطنه حرم عليه الاتصاف بالأسماء الإلهية في حال غربته، قال تعالىٰ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤٩] كما كان عند نفسه في زعمه فإنه تغرّب عن موطنه فهو صاحب دعوى، والذي أقول في هذه المسألة لأهل التحقيق: إن القرآن ما سمّي قرآناً إلاّ لحقيقة الجمعية التي فيه، فإنه يجمع ما أخبر الحق به عن نفسه وما أخبر به عن مخلوقاته وعباده ممّا حكاه عنهم، فلا يخلو هذا الجنب في تلاوته إذا أراد أن يتلو إما أن ينظر ويحضر في أن الحق يترجم لنا بكلامه ما قال عباده، أو ينظر فيه من حيث المترجم عنه، فإن نظر من حيث المترجم عنه فيتلو وبالأوّل فلا يتلو حتى يتطهر في باطنه، وصورة طهارة باطنه أن يكون الحق لسانه الذي يتكلم به كما كان الحق يده في مس المصحف فيكون الحق إذ ذاك هو يتلو كلامه لا العبد الجنب، ثم إنه للعارف فيما يتلوه الحق

عليه من صفات ذاته ممّا لا يخبر به عن أحد من خلقه ومن كونه كلّم عبده بهذا القرآن، فليس المقصود من ذلك التعريف إلاّ قبوله، وقبوله لا يكون إلاّ بالقلب، فإذا قبله الإيمان لم يمتنع من التلفظ به فإن القرآن في حقّنا نزل، ولهذا هو محدث الإتيان، والنزول قديم من كونه صفة المتكلم به وهو الله، وإنما قول من قال عن رسول الله ﷺ إنه لا يحجزه عن قراءة القرآن شيء ليس الجنابة فما هو قول رسول الله ﷺ وإنما هو قول الراوي وما هو معه في كل أحيانه، فالحاصل منه أن يقول: ما سمعته يقرأ القرآن في حال جنابته أي ما جهر به، ولا يلزم قارىء القرآن الجهر به إلاّ فيما شرع الجهر به، كتلقين المتعلم وكصلاة الجهر، والنهي ما صحّ عن رسول الله ﷺ في ذلك وما ورد والخير لا يمنع منه.

باب الحكم في الدماء

اعلم أن الدماء ثلاثة: دم حيض، ودم استحاضة، ودم نفاس، وهذه كلها مخصوصة بالمرأة لا حكم للرجل فيها، فليكن الاعتبار في ذلك للنفس فإن الغالب عليها التأنيث، فإن الله قال فيها: النفس اللوّامة والمطمئنة فأنّثها، ولا حظّ للقلب في هذه الدماء ولا للروح فنقول: إن أهل الطريق من المتقدمين وجماعة من غيرهم ممّن اشترك مع أهل الله في الرياضات والمجاهدات من العقلاء قد أجمعوا على أن الكذب حيض النفوس، فليكن الصدق على هذا طهارة النفس من هذا الحيض، فدم الحيض ما خرج على وجه الصحة، ودم الاستحاضة ما خرج على وجه المرض فإنه خرج لعلة ولهذا حكم ولهذا حكم، فاعتباره أن حيض النفس وهو الكذب وهو كما قلنا دم يخرج على وجه الصحة فهو الكذب على الله الذي يقول الله تعالىٰ فيه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٣] وقول رسرل الله ﷺ: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» فقوله متعمداً هو خروجه على وجه الصحة، وأما صاحب الشبهة فلا، فهذا يكذب ويعرف أنه يكذب، وصاحب الشبهة يقول: إنه صادق عند نفسه وهو كاذب في نفس الأمر.

وأما اعتبار دم الاستحاضة وهو الكذب لعلة فلا يمنع من الصلاة ولا من الوطء، وهذا يدلّك على أنه ليس بأذى، فإن الحيض هو أذى، فيتأذى الرجل بالنكاح في دم الحيض ولا يتأذى به في دم الاستحاضة وإن كان عن مرض، فإن هذا الكذب وإن كان يدل على الباطل وهو العدم فإن له رتبة في الوجود وهو التلفظ به، وكان المراد به دفع مضرة عمّا ينبغي دفعها بذلك الكذب، أو استجلاب منفعة مشروعة ممّا ينبغي أن يظهر مثل هذا فيها وبسببها، فيكون قربة إلى الله، حتى لو صدق في هذا الموطن كان بعداً عن الله، ألا ترى المستحاضة لا تمتنع من الصلاة مع سيلان دمها، وأما دم النفاس فهو عين دم الحيض، فإذا زاد على قدر زمان الحيض أو خرج عن تلك الصفة التي لدم الحيض خرج عن حكم الحيض، والعناية بدم النفاس أوجه من العناية بدم الحيض من غير نفاس، فإن الله ما أمسكه في الرحم ثم أرسله إلاّ ليزلق به سبيل خروج الولد رفقاً بأمّه، فيسهل على المرأة به خروج الولد، وخروج الولد هو

النشء الطاهر الخارج على فطرة الله وإلاَّقرار بربوبيته التي كانت له في قبض الذر، فكان الدم النفاس بهذا القصد خصوص وصف كالمعين لبقاء ذكر الله بإبقاء الذاكر من جهة وصف خاص، ولدم النفاس زمان ومدّة في الشرع كما لدم الحيض، ودم الاستحاضة ما له مدة يوقف عندها.

باب في أكثر أيام الحيض وأقلها وأقل أيام الطهر

اختلف العلماء في هذا فمن قائل: أكثر أيام الحيض خمسة عشر يوماً ومن قائل: أكثرها عشرة أيام. ومن قائل: أكثر أيام الحيض سبعة عشر يوماً، وأما أقل أيام الحيض فمن قائل: لا حدّ له في الأيام وبه أقول فإن أقل الحيض عندنا دفعة. ومن قائل: أقلّه يوم وليلة. ومن قائل: أقلّه ثلاثة أيام. وأمّا أقلّ أيام الطهر فمن قائل: عشرة أيام. ومن قائل: ثمانية أيام. ومن قائل: خمسة عشر. ومن قائل: سبعة عشر. ومن قائل: ساعة، وبه أقول ولا حدّ لأكثره.

وصل اعتبار هذا الباب: زمان كذب النفس النية فيمتد بامتداد ما نوته حتى يطهر بالتوبة من ذلك، فلا حدّ لأكثره ولا لأقله، وكذلك زمان الطهر لا حدّ له جملة واحدة فإنه لا حدّ للصدق غير أنه تحكم عليه المواطن الشرعية بالحمد والذمّ وأصله الحمد، كما أن الكذب تحكم عليه المواطن بالحمد والذمّ وأصله الذمّ، فالواجب عليه أن يصدق دائماً إلاَّ أن يحكم الحال، والواجب عليه ترك الكذب دائماً إلاَّ أن يحكم عليه حال ما وهو الكذب للعلة فأشبه دم الاستحاضة.

باب في دم النفاس في أقله وأكثره

اختلف العلماء في هذه المسألة، فمن قائل: لا حدّ لأقله وبه أقول. ومن قائل: حدّه خمسة وعشرون يوماً. ومن قائل: حدّه أحد عشر يوماً. ومن قائل: عشرون يوماً. وأما أكثر زمانه فمن قائل: ستون يوماً. ومن قائل: سبعة عشر يوماً. ومن قائل: أربعون يوماً. ومن قائل: للذكر ثلاثون يوماً، وللأنثى أربعون يوماً، والأولى أن يرجع في ذلك إلى أحوال النساء فإنه ما ثبتت فيه سنّة يرجع إليها.

وصل اعتباره في الباطن: لا حدّ للنية من الزمان كما قلنا في اعتبار دم الحيض فإن دم الحيض هو عين دم النفاس وقد اعتبرناه فإن النبيّ ﷺ قال للحائض: «**أُنفِسْتِ**» بهذا اللفظ.

باب في الدم تراه الحامل

اختلف فيه هل هو دم حيض أو هو دم استحاضة؟ وحكم كل قائل فيه بحكم ما ذهب إليه.

وصل اعتبار حكمه في الباطن: الحامل صفة النفس إذا امتلأت بالأمر الذي تجده فتبديه على غير وجهه وهو الكذب، وقد يكون ذلك عن عادة اعتادها كما قال بعضهم: [البسيط]

لا يكذب المرءُ إلاَّ من مَهَانَتِهِ ... أو عادةِ السُّوء أو من قلَّة الأدبِ

أمّا قوله: من مهانته فإن الملوك لا تكذب. وقوله: من قلّة الأدب لما جاء في الخبر أن الشخص إذا كذب الكذبة تباعد منه الملك ثلاثين ميلاً من نتن ما جاء به، فالكاذب فيما لا يجوز له الكذب فيه أساء الأدب مع الملك، فإن الملائكة تتأذّى ممّا يتأذّى منه بنو آدم، والإنسان يتأذّى بالنتن كذلك الملك لقرب الشبه بين نشء الملك ونشء روح الإنسان.

باب في الصفرة والكدرة هل هي حيض أم ليس بحيض

اختلف العلماء في الصفرة والكدرة هل هي حيض أم لا؟ فمن قائل: إنها حيض في أيام الحيض. ومن قائل: لا تكون حيضاً إلاّ بأثر الدم ومن قائل: ليست حيضاً وبه أقول.

وصل اعتباره في الباطن: الكذب بشبهة ليس صاحبه ممّن تعمد الكذب والأولى تركه إذا عرف أن ذلك شبهة فإنها ما سمّيت شبهة إلاّ لكونها تشبه الحق من وجه وتشبه الباطل من وجه، فالأولى ترك مثل هذا إلاّ أن يقترن معها دفع مضرة أو حصول منفعة دينية أو دنياوية، بخلاف الكذب المحض الذي هو لعينه وهذا لا يقع فيه عاقل أصلاً. وأما الكذب الذي هو بمنزلة دم الاستحاضة فيعتبر فيه صلاح الدين لصلاح الدنيا.

باب فيما يمنع دم الحيض في زمانه

اعلم أن الحيض في زمانه يمنع من الصلاة والصيام والوطء والطواف.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: الكذب في المناجاة، وهو أن تكون في الصلاة بظاهرك، وتكون مع غير الله في باطنك من محرّم وغيره واعتباره في الصوم، فالصوم هو الإمساك، وأنت ما مسكت نفسك عن الكذب كالحائض لا تمسك عن الأكل والشرب وهو الكذب الواجب إتيانه شرعاً وهو محمود، واعتباره في الطواف بالبيت وهو المشبه بأفضل الأشكال وهو الدور فهو كذب إلى غير نهاية فهو الإصرار على الكذب واعتباره في الجماع، أما الجماع فقصد المؤمن به كون الولد، والمقدّمات إذا كانت كاذبة خرجت النتيجة عن أصل فاسد وقد تصدق النتيجة وقد تكون مثل مقدماتها، فالأذى يعود على فاعل الجماع، يقول في زمان الكذب: لا تحضر الله تعالىٰ بخاطرك فإنه سوء أدب مع الله وقلّة حياء منه وجراءة عليه، وكيف ينبغي للعبد أن يجرأ على سيده ولا يستحيي منه مع علمه وتحققه أنه يراه، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[سورة العلق: الآية ١٤].

باب في مباشرة الحائض

اختلف العلماء في صورة مباشرة الحائض، فقال قوم: يستباح من الحائض ما فوق الإزار. وقال قوم: لا يجتنب من الحائض إلاّ موضع الدم خاصة وبه أقول.

وصل اعتباره في الباطن: قلنا: إن الحيض كذب النفوس. قيل لرسول الله ﷺ: «**أَيَزْنِي المُؤْمِنُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: أَيَشْرَبُ المُؤْمِنُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: أَيَسْرِقُ المُؤْمِنُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ لَهُ: أَيَكْذِبُ المُؤْمِنُ؟ قَالَ: لاَ**» فإذا رأت نفسك نفساً أخرى تفعل ما لا ينبغي فأكّد أن تجتنب من أفعالها الكذب على الله وعلى رسوله، والراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه،

ومن عوّد نفسه الكذب على الناس يستدرجه الطبع حتى يكذب على الله فإن الطبع يسرقه، يقول تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [سورة الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦] فتوعد عباده أشدّ الوعيد إذا هم افتروا على الله الكذب، وهذا الحكم سار في كل من كذب على الله، وقد ورد فيمن يكذب في حلمه أنه يكلف أن يعقد بين شعيرتين من نار لمناسبة ما جاء به من تأليف ما لا يصحّ ائتلافه فلم يأتلف في نفس الأمر، وكذلك لا يقدر أن يعقد تلك الشعيرتين أبداً، وهذا تكليف ما لا يطاق، فما عذّبه الله يوم القيامة إلاّ بفعله لا بغير ذلك.

باب وطء الحائض قبل الاغتسال وبعد الطهر المحقق

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] بسكون الطاء وضم الهاء مخففاً، وقرىء بفتح الطاء والهاء مشدّداً. فمن قائل: بجوازه على قراءة من خفف. ومن قائل: بعدم جوازه على قراءة من شدّد وهو محتمل وبالأوّل أقول. ومن قائل: أن ذلك جائز إذا طهرت لأكثر أمد الحيض في مذهبه. ومن قائل: أن ذلك جائز إذا غسلت فرجها بالماء وبه أقول أيضاً.

وصل اعتباره في الباطن: ما يلقيه المعلم من العلم في نفس المتعلم إذا كان حديث عهد بصفة الدعوى الكاذبة لرعونة نفسه، فله أن يلقي إليه من العلم المتعلق بالتكوين ما يؤدّيه إلى استعمال غسل واحد فرد بنيّتين فيكون له الأجر مرّتين وإن لم يتب من تلك الدعوى إلاّ أنه غير قائل بها في الحال فهو طاهر المحل بالغفلة في ذلك الوقت، فإن خطر له خاطر الرجوع عن تلك الدعوى فهو بمنزلة المرأة تغسل فرجها بعد رؤية الطهر وإن لم تغتسل فإن تاب من الدعوى بالعمل بذلك الخاطر كان كالاغتسال للمرأة بعد الطهر.

باب من أتى امرأته وهي حائض هل يكفِّر

فمن قائل: لا كفارة عليه وبه أقول. ومن قائل: عليه الكفارة.

وصل اعتباره في الباطن: العالم يعطي الحكمة غير أهلها فلا شك أنه قد ظلمها فمن رأى أن لهذا الفعل كفارة فكفارته أن ينظر من فيه أهلية لعلم من العلوم النافعة عند الله الدينية وهو متعطش لذلك فيبادر من نفسه إلى تعليمه وتبريد غلة عطشه فيضع في محلها وعند أهلها فيكون ذلك كفارة لما فرط في الأوّل، ومن لم يرَ لذلك كفارة قال: يتوب ويستغفر الله وليس عليه طلب تعليم غيره على جهة الكفارة.

باب حكم طهارة المستحاضة

اختلف علماء الشريعة في طهر المستحاضة ما حكمها؟ فمن قائل: ليس عليها سوى طهر واحد إذا عرفت أن حيضتها انقضت ولا شيء عليها لا وضوء ولا غسل وحكمها حكم غير المستحاضة وبه أقول. وقسم آخر ممّن يقول: إنه ما عليها سوى طهر واحد أن عليها الوضوء لكل صلاة وهو أحوط. ومن قائل: إنها تغتسل لكل صلاة. ومن قائل: إنها تجمع بين الصلاتين بغسل واحد.

وصل اعتبار الباطن في ذلك: في مذهبنا أنه ليس على المستحاضة من كونها مستحاضة

طهر، كذلك النفس إذا كذبت لمصلحة مشروعة أوجب الشرع عليها فيها الكذب أو أباحه لا بل يكون عاصياً إن صدق في تلك الحالة فلا توبة عليها من تلك الكذبة، فكما أن دم الاستحاضة ليس عين دم الحيض وإن اشتركا في الدمية والمحل كذلك الكذب المشروع إباحته الحلال ليس عين الكذب المحرّم وقوعه منه وإن اشتركا في كونه كذباً وهو الإخبار بما ليس الأمر عليه في نفسه، فمن رأى التوبة من كون إطلاق اسم الكذب عليه بالحقيقة وإن كان مباحاً أو واجباً كحبيب العجميّ في حديثه مع الحسن البصريّ لما طلبه الحجاج للقتل والحكاية مشهورة قال بالتوبة منه كما قال بغسل المستحاضة للاشتراك في اسم الحيض، فإن الاستحاضة استفعال من الحيض.

باب في وطء المستحاضة

اختلف علماء الشريعة فيه على ثلاثة أقوال: قول بجوازه وبه أقول. وقول بعدم جوازه. وقول بعدم جوازه إلاّ أن يطول ذلك بها.

وصل اعتباره في الباطن: لا يمتنع تعليم من تعلّم منه أنه لا يكذب إلاّ لسبب مشروع وعلة مشروعة، فإن ذلك لا يقدح في عدالته بل هو نص في عدالته، وقد وقع مثل هذا من الأكابر الكمل من الرجال.

أبواب التيمم

التيمم القصد إلى الأرض الطيبة كان ذلك الأرض ما كان ممّا يسمّى أرضاً تراباً كان أو رملاً أو حجراً أو زرنيخاً، فإن فارق الأرض شيء من هذا كله وأمثاله لم يجز التيمم بما فارق الأرض من ذلك إلاّ التراب خاصة لورود النص فيه وفي الأرض سواء فارقَ الأرض أو لم يفارق.

وصل اعتباره في الباطن: القصد إلى الأرض من كونها ذلولاً وهو القصد إلى العبودية مطلقاً لأن العبودية هي الذلّة والعبادة منها، فطهارة العبد إنما تكون باستيفاء ما يجب أن يكون العبد عليه من الذلّة والافتقار والوقوف عند مراسم سيده وحدوده وامتثال أوامره، فإن فارق النظر من كونه أرضاً فلا يتيمم إلاّ بالتراب من ذلك لأنه من تراب خلق من نحن أبناؤه، وبما بقي فيه من الفقر والفاقة من قول العرب: تربت يد الرجل إذا افتقر. ثم إن التراب أسفل العناصر، فوقوف العبد مع حقيقته من حيث نشأته طهوره من كل حدث يخرجه من هذا المقام وهذا لا يكون إلاّ بعدم وجدان الماء والماء العلم، فإن بالعلم حياة القلوب كما بالماء حياة الأرض، فكأنه حالة المقلد في العلم بالله، والمقلد عندنا في العلم بالله هو الذي قلّد عقله في نظره في معرفته بالله من حيث الفكر، فكما أنه إذا وجد المتيمم الماء أو قدر على استعماله بطل التيمم كذلك إذا جاء الشرع بأمر ما من العلم الإلهيّ بطل تقليد العقل لنظره في العلم بالله في تلك المسألة، ولا سيما إذا لم يوافقه في دليله كان الرجوع بدليل العقل إلى الشرع، فهو ذو شرع وعقل معاً في هذه المسألة فاعلم ذلك.

باب كون التيمم بدلاً من الوضوء باتفاق ومن الكبرى بخلاف

اتفق العلماء بالشريعة أن التيمم بدل من الطهارة الصغرى واختلفوا في الكبرى، ونحن لا نقول فيها أنها بدل من شيء، وإنما نقول إنها طهارة مشروعة مخصوصة بشروط اعتبرها الشرع، فإنه ما ورد شرع من النبي ﷺ ولا من الكتاب العزيز أن التيمم بدل، فلا فرق بين التيمم وبين كل طهارة مشروعة، وإنما قلنا مشروعة لأنها ليست بطهارة لغوية، وسيأتي التفصيل في فصول هذا الباب إن شاء الله تعالىٰ، فمن قائل: إن هذه الطهارة أعني طهارة التراب بدل من الكبرى. ومن قائل: إنها لا تكون بدلاً من الكبرى وإنما نسب لفظة الصغرى والكبرى للطهارة لعموم الطهارة في الاغتسال لجميع البدن وخصوصها ببعض الأعضاء في الوضوء، فالحدث الأصغر هو الموجب للوضوء، والحدث الأكبر هو كل حدث يوجب الاغتسال.

وصل اعتباره في الباطن: أن كل حدث يقدح في الإيمان يجب منه الاغتسال بالماء الذي هو تجديد الإيمان بالعلم إن كان من أهل النظر في الأدلة العقلية، فيؤمن عن دليل عقلي، فهو كواجد الماء القادر على استعماله وإن لم يكن من أهل النظر في الأدلة وكان مقلداً لزمته الطهارة بالإيمان من ذلك الحدث الذي أزال عنه الإيمان بالسيف أو حسن الظنّ، فهو المتيمم بالتراب عند فقد الماء أو عدم القدرة على استعمال الماء، وهذا على مذهب من يرى أن التيمم بدل أيضاً من الطهارة الكبرى فيرى التيمم للجنب. وأما على مذهب من يرى أن الجنب لا يتيمم كابن مسعود وغيره هو الذي لا يرى التقليد في الإيمان بل لا بدّ من معرفة الله وما يجب له ويجوز ويستحيل بالدليل النظري، وقال به جماعة من المتكلمين.

وأما كونه أعني التيمم بدلاً من الطهارة الصغرى فهو أن يقدح له حدث في مسألة معينة لا في الإيمان لعدم النص من الكتاب أو السنّة أو الإجماع في ذلك، فكما جاز له التيمم في هذه الطهارة الصغرى على البدل جاز له القياس في الحكم في تلك المسألة لعلة جامعة بين هذه المسألة التي لا حكم فيها منطوقاً به، وبين مسألة أخرى منطوق الحكم فيها من كتاب أو سنّة أو إجماع، ومذهبنا في قولنا أن التيمم ليس بدلاً بل هو طهارة مشروعة مخصوصة معينة لحال مخصوص شرعها الذي شرع استعمال الماء لهذه العبادة المخصوصة وهو الله تعالىٰ ورسوله ﷺ، فما هي بدل وإنما هو عن استخراج الحكم في تلك المسألة من نص ورد في الكتاب أو في السنّة يدخل الحكم في هذه المسألة في مجمل ذلك الكلام وهو الفقه في الدين، قال تعالىٰ: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٢] ولا يحتاج إلى قياس في ذلك.

مثال ذلك: رجل ضرب أباه بعصا أو بما كان فقال أهل القياس: لا نص عندنا في هذه المسألة ولكن لما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] قلنا: فإذا ورد النهي عن التأفيف وهو قليل فالضرب بالعصا أشدّ، فكان تنبيهاً من الشارع بالأدنى على الأعلى، فلا بدّ من القياس عليه، فإن التأفيف والضرب بالعصا يجمعهما الأذى، فقسنا الضرب بالعصا المسكوت عنه على التأفيف المنطوق به وقلنا نحن: ليس لنا التحكم على

الشارع في شيء ممّا يجوز أن يكلف به ولا التحكم ولا سيما في مثل هذا لو لم يرد في نطق الشرع غير هذا لم يلزمنا هذا القياس ولا قلنا به ولا ألحقناه بالتأفيف وإنما حكمنا بما ورد وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] فأجمل الخطاب فاستخرجنا من هذا المجمل الحكم في كل ما ليس بإحسان، والضرب بالعصا ما هو من الإحسان المأمور به من الشرع في معاملتنا لآبائنا، فما حكمنا إلاّ بالنص وما احتجنا إلى قياس فإن الدين قد كمل ولا تجوز الزيادة فيه كما لم يجز النقص منه، فمن ضرب أباه بالعصا فما أحسن إليه، ومن لم يحسن لأبيه فقد عصى ما أمره الله به أن يعامل به أبويه، ومن ردّ كلام أبويه وفعل ما لا يرضي أبويه ممّا هو مباح له تركه فقد عقهما، وقد ثبت أن عقوق الوالدين من الكبائر فلهذا قلنا: إنّ الطهارة بالتراب وهو التيمم ليس بدلاً بل هي مشروعة كما شرع الماء ولها وصف خاص في العمل، فإنه بين أنا لا نعمل به إلاّ في الوجوه والأيدي، والوضوء والغسل ليسا كذلك، وينبغي للبدل أن يحل محل المبدل منه، وهذا ما حلّ محل المبدل منه في الفعل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

باب فيمن تجوز له هذه الطهارة

اتفق علماء الشريعة على أن التيمم يجوز للمريض والمسافر إذا عدما الماء، وعندنا أو عدم استعمال الماء مع وجوده لمرض قام به يخاف أن يزيد به المرض أو يموت لورود النص في ذلك.

وصل اعتباره في الباطن: المسافر صاحب النظر في الدليل فإنه مسافر بفكره في منازل مقدماته وطريق ترتيبها حتى ينتج له الحكم في المسألة المطلوبة، والمريض هو الذي لا تعطي فطرته النظر في الأدلة لما يعلم من سوء فطرته وقصوره عن بلوغ المقصود من النظر، بل الواجب أن يزجر عن النظر ويؤمر بالإيمان تقليداً، وقد قلنا فيما قبل إن المقلد في الإيمان كالمتيمم بالتراب لأن التراب لا يكون في الطهارة أعني النظافة مثل الماء ولكن نسميه طهوراً شرعاً أعني التراب خاصة، بخلاف الماء فإني أسميه طهوراً شرعاً وعقلاً، فصاحب النظر وإن آمن أوّلاً تقليداً فإنه يريد البحث عن الأدلة والنظر فيما آمن به لا على الشك ليحصل له العلم بالدليل الذي نظر فيه فيخرج من التقليد إلى العلم، أو يعمل على ما قلّد فيه، فينتج له ذلك العمل العلم بالله فيفرق به بين الحق والباطل عن بصيرة صحيحة لا تقليد فيها وهو علم الكشف، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩] وهو عين ما قلناه. وقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] وقال: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: ١ ـ ٤] وقال: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] وقد ورد أن العلماء ورثة الأنبياء فسمّاهم علماء، وأن الأنبياء ما ورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورّثوا العلم، والأخذ للعلم بالمجاهدة والأعمال أيضاً سفر، فكما سافر العقل بنظره الفكري في العالم سافر العامل بعمله واجتمعا في النتيجة، وزاد صاحب

العمل أنه على بصيرة فيما علم لا يدخله شبهة، وصاحب النظر ما يخلو عن شبهة تدخل عليه في دليله، فصاحب العمل أولى باسم العالم من صاحب النظر، وسيأتي الكلام فيما يجوز من السفر وفيما لا يجوز في صلاة المسافر من هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ.

باب في المريض يجد الماء ويخاف من استعماله

اختلف العلماء بالشريعة في المريض يجد الماء ويخاف من استعماله، فمن قائل: بجواز التيمم له وبه أقول ولا إعادة عليه. ومن قائل: لا يتيمم مع وجود الماء سواء في ذلك المريض والخائف. ومن قائل في حقهما: يتيمم ويعيد الصلاة إذا وجد الماء. ومن قائل: يتيمم وإن وجد الماء قبل خروج الوقت توضأ وأعاد، وإن وجده بعد خروج الوقت لا إعادة عليه.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: المريض هو الذي لا تعطى فطرته النظر وأنه مرض مزمن مع وجود الأدلة إلاً أنه يخاف عليه من الهلاك والخروج عن الدين إن نظر فيها لقصوره، وقد رأينا جماعة منهم خرجوا عن الدين بالنظر لما كانت فطرتهم معلولة وهم يزعمون أنهم في ذلك على علم صحيح فهم كما قال الله: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٤] فيأخذ مثل هذا إن أراد النجاة العقائد تقليداً كما أخذ الأحكام، وليقلد أهل الحديث دون غيرهم، وهذا تقليد الحديث النبويّ في الله على علم الله فيه من غير تأويل فيه فتنزيه معين ولا تشبيه وعلى هذا أكثر العامة وهم لا يشعرون، فهذا هو المريض الذي يجد الماء ويخاف من استعماله في الاعتبار.

باب الحاضر يعدم الماء ما حكمه

فمن قائل: بجواز التيمم له، وبه أقول. ومن قائل: لا يجوز التيمم للحاضر الصحيح إذا عدم الماء.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: الحاضر هو المقيم على عقده الذي ربط عليه من آبائه ومربيه ثم عقل ورجع إلى نفسه واستقل هل يبقى على عقده ذلك أو ينظر في الدليل حتى يعرف الحق؟ فمن قائل: يكفيه ما ربّاه عليه أبواه أو مربيه ويشتغل بالعمل فإن النظر قد يخرجه إلى الحيرة فلا يؤمن عليه فهو الذي قال بالتيمم عند عدم الماء، وقد قدمنا أن الماء هو العلم للاشتراك في الحياة به، فإن هذا الحاضر الدليل معدوم عنده على الحقيقة فإنه لا يرى مناسبة بين الله وبين خلقه، فلا يكون الخلق دليلاً ساداً على معرفة ذات الحق فبقاؤه عنده على تقليده أولى. ومن قال: لا يجوز له التيمم وإن عدم الماء يقول: لا يقلد وإن لم ينظر في الدليل فإن الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب لزمته واستحال رجوعها عنه ولا يدري كيف حصل ولا كيف هو، فهو علم ضروريّ عنده، فقد خرج عن حكم ما يعطيه التقليد مع كونه ليس بناظر ولا صاحب دليل، وعلى هذا أكثر الناس في عقائدهم، فعدم الماء في حق هذا الحاضر هو عدم الأمان على نفسه أن يوقعه النظر في شبهة تخرجه عن الإيمان.

باب في الذي يجد الماء ويمنعه من الخروج إليه خوف عدوّ

اختلف العلماء فيمن هذه حالته، فمن قائل: يجوز له التيمم وبه أقول. ومن قائل: لا يتيمم.

وصل اعتباره في الباطن: الخوف من البحث عن الدليل لينظر فيه ليؤديه إلى العلم بالمدلول جهل بعين الدليل أنه دليل فلا بدّ من أحد الأمرين: إما أن يقلد أحداً في أن هذا دليل على أمر ما يعينه له، أو يفتقر إلى نظر وفكر فيما ينبغي أن يتخذه دليلاً على معرفة الله، فإن كان الأوّل فليبق على تقليده في معرفة الله وهو الذي يقال له تيمم. ومن قال: لا يجوز له التيمم قال: إن هذا الخوف لا يلزمه أن لا ينظر فلينظر ولا بدّ.

باب الخائف من البرد في استعمال الماء

اختلف العلماء فيمن هذه حاله، فمن قائل: بجواز التيمم إذا غلب على ظنّه أنه يمرض إن استعمل الماء. ومن قائل: لا يجوز له التيمم، وبالأوّل أقول.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: الصوفيّ ابن وقته فإن كان وقته الصحة فهو غير مريض أو غير شديد المرض فلا يتيمم فإن الوهم لا ينبغي أن يقضي على العلم، والخوف هنا قد يكون وهماً فلا يبقى مع تقليده ولينظر في الأدلة ولا بدّ. ومن قال: لا يجوز له التيمم وإن كان وقته الخوف فليس بصحيح فإن الخوف علة ومرض فليبق على تقليده ولا بدّ.

باب النية في طهارة التيمم

اختلف العلماء في النية في طهارة التيمم، فمن قائل: إنها تحتاج إلى نية. ومن قائل: لا تحتاج إلى نية، بالأوّل أقول، فإن الله قال لنا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة البينة: الآية ٥] والتيمم عبادة والإخلاص عين النيةُ.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: إذا كان العقد عن علم ضروري أو عن حسن ظن بعالم أو بوالد فلا يحتاج إلى نية، فإن شرط النية أن توجد منه عند الشروع في الفعل مقارنة للشروع، ومن كانت عقيدته بهذه المثابة فما هو صاحب فعل حتى يفتقر إلى نية، فإن إرادة الحق تعالىٰ الذي هو الخالق لذلك الفعل كافية في الباب، فإنه لا يوجد شيئاً إلاَّ عن تعلّق إرادة منه سبحانه لإيجاده ولا يكوّنه إلاَّ بها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] وهذا فعل يوجده في العبد، فلا بدّ من حكم ما ذكر فيه، فكان مذهب زفر في هذه المسألة أوجه في باطن الأمر من مذهب الجماعة إلاَّ أن يكون كافر أسلم فهذا يفتقر إلى نية لأنه ما استصحبه شيء من القربة إلى الله بهذا الشرع الخاص المسمّى إسلاماً ولا كان عنده قبل إسلامه، بل كان يرى أن ذلك كفر والدخول فيه يبعد عن الله.

باب من لم يجد الماء هل يشترط فيه الطلب أم لا يشترط

اختلف العلماء فيمن هذه صفته، فمن قائل: يشترط الطلب ولا بد. ومن قائل: لا يشترط الطلب وبه أقول.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: لا يلزم المقلد البحث عن دليل من قلّد في الفروع ولا في الأصل، وإنما الذي يتعين على المقلد إذا لم يعلم السؤال عن الحكم في الواقعة لمن يعلم أنه يعلم من أهل الذكر فيفتيه قال تعالىٰ: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٣] ومن رأى أنه يشترط طلب الماء فهو الذي يطلب من المسؤول دليله على ما أفتاه به في مسألته هل هو من الكتاب أو السنّة؟ أو يطلب منه أن يقول له: هذا حكم الله أو حكم رسوله أخذ به، وإن قال له: هذا رأيي كما يقول أصحاب الرأي في كتبهم فإنه يحرم عليه اتباعه فيه فإن الله ما تعبده إلاَّ بما شرع له في كتاب أو سنّة، وما تعبد الله أحداً برأي أحد.

باب اشتراط دخول الوقت في هذه الطهارة

اختلف أهل العلم رضي الله عنهم في اشتراط دخول الوقت في هذه الطهارة، فمن قائل به، وبه أقول. ومن قائل: بعدم هذا الشرط فيها.

وصل اعتباره في الباطن: الوقت هو عندنا إذا تعين تعلق خطاب الشرع بالمكلف فيما كلفه به ظاهراً وباطناً، فهو في الباطن تجلّ إلهيّ يرد على القلب فجأة يسمّى الهجوم في الطريق.

باب في حدّ الأيدي التي ذكر الله عزّ وجلّ في هذه الطهارة

فإن الله يقول: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦] فاختلف أهل العلم رضوان الله عليهم في حد الأيدي في هذه الطهارة، فمن قائل: حدّها مثل حدّها في الوضوء. ومن قائل: هو مسح الكف فقط. ومن قائل: أن الاستحباب إلى المرفقين والفرض الكفان. ومن قائل: أن الفرض إلى المناكب، والذي أقول به: أن أقلّ ما يسمّى يداً في لغة العرب يجب فما زاد على أقل مسمّى اليد إلى غايته فذلك له وهو مستحب عندي.

وصل اعتبار الباطن في ذلك: لما كان التراب والأرض أصل نشأة الإنسان وهو تحقيق عبوديته وذلّته ثم عرض له عارض الدعوى بكون الرسول قال فيه ﷺ: «**إِنَّهُ مَخلُوقٌ عَلَى الصُّورَةِ**» وذلك عندنا لاستعداده الذي خلقه الله عليه من قبوله للتخلّق بالأسماء الإلهية على ما تعطيه حقيقته، فإن في مفهوم الصورة والضمير خلافاً، فما هو نص في الباب فاعتزّ لهذه النسبة وعلا وتكبّر، فأمر بطهارة نفسه من هذا التكبّر بالأرض وبالتراب وهو حقيقة عبوديته، فتطهر بنظره في أصل خلقه ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ [سورة الطارق: الآية ٥] كما قال تعالىٰ فيمن هذه صفته في معرض الدواء لهذا الخاطر الذي أورثه التكبّر ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [سورة الطارق: الآية ٥] وهم البنون ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [سورة الطارق: الآية ٦] وهو الماء المهين فإنه من جملة ما ادّعاه الاقتدار والعطاء وهو مجبول على العجز والبخل، وهذه الصفات من صفات الأيدي فقيل له عند هذه الدعوى ورؤية نفسه في الاقتدار الظاهر منه والجود والكرم والعطاء: طهر نفسك من هذه الصفات ينظرك ما جبلت عليه من الضعف والبخل يقول تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ [سورة

الحشر: الآية ٩] وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [سورة المعارج: الآية ٢١] وإذا نظر في هذا الأصل زكّت نفسه وتطهر من الدعوى.

باب في عدد الضربات على الصعيد للمتيمم

اختلف العلماء رضي الله عنهم في عدد الضربات على الصعيد للمتيمم، فمن قائل: واحدة. ومن قائل: اثنتين، والذين قالوا اثنتين منهم من قال: ضربة للوجه وضربة لليدين، ومنهم من قال: ضربتان لليدين وضربتان للوجه، ومذهبنا من ضرب واحدة أجزأت عنه، ومن ضرب اثنتين لا جناح عليه، وحديث الضربة الواحدة أثبت فهو أحب إليّ.

وصل اعتبار الباطن في ذلك: التوجّه إلى ما تكون به هذه الطهارة، فمن غلب التوحيد في الأفعال قال: بالضربة الواحدة، ومن غلب حكمة السبب الذي وضعه الله ونسب سبحانه الفعل إليه مع تعريته عنه مثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] فأثبت ونفى قال: بالضربتين، ومن رأى ذلك في كل فعل قال: بالضربتين لكل عضو، والله أعلم.

باب في إيصال التراب إلى أعضاء المتيمم

اختلف العلماء رضي الله عنهم في ذلك، فمن قائل: بوجوبه. ومن قائل: بأنه لا يجب، وإنما يجب إيصال اليد إلى عضو المتيمم بعد ضربه الأرض بيده أو التراب والظاهر الإيصال لقوله منه.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: إذا قلنا بتطهير النفس بالذلّة التي هي أصلها من العزّة التي ادّعتها حين اكتسبتها لم يجب الإيصال، فإن الذلّة لو نقلناها إلى محل العزّة لامتنع حصول الذلّة في ذلك المحل، لأن الذي في المحل أقوى في الدفع من الذي جاء يذهبه، ولو شاركه في المحل لاجتمع الضدّان، ولم يكن أحدهما أولى بالإزالة من الآخر، وإنما الصحيح في ذلك أن النفس مصروفة الوجه إلى حضرة العزّ، فاكتست من نور العزّة ما أدّاها إلى ما ادّعته فقيل لها: اصرف وجهك إلى ذلّتك وضعفك الذي خلقت منه فإن بقيت عليك أنوار هذه العزّة فأنت أنت، فقام عندها أنه ربما يبقى عليها ذلك، فلما صرفت وجهها إلى ذلّتها وضعفها زالت عنها أنوار العزّة بالذات فافتقرت إلى بارئها وذلّت تحت سلطانه فلهذا قال من قال: إنه لا يجب إيصال التراب إلى عضو التيمم. ومن قال: إن كلمة من هنا للتبعيض وإنه لا بدّ من إيصال التراب إلى العضو قال: إن الصفة لا تقوم بنفسها فلا بدّ لها ممّن تقوم به وليس إلاّ حقيقة الإنسان، فلا بدّ أن تكون صفته الذلّة وحينئذ تصحّ طهارته، وهو قول من يقول: بوجوب إيصال التراب إلى عضو التيمم.

باب فيما يصنع به هذه الطهارة

اختلف العلماء فيما عدا التراب، فمن قائل: لا يجوز التيمم إلاّ بالتراب الخالص. ومن قائل: يجوز بكل ما صعد على وجه الأرض من رمل وحصى وتراب. ومن قائل بمثل هذا وزاد: وما تولد من الأرض من نورة وزرنيخ وجص وطين ورخام. ومن قائل: باشتراط كون

التراب على وجه الأرض. ومن قائل: بغبار الثوب واللبن. وأمّا مذهبنا فإنه يجوز التيمم بكل ما يكون في الأرض ممّا ينطلق عليه اسم الأرض، فإذا فارق الأرض لم يجز من ذلك إلاّ لتراب خاصة.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: قد تقدم أنه قد زال عنه بالانتقال اسم الأرض وسمّي زرنيخاً أو حجراً أو رملاً أو تراباً، ولما ورد النص باسم التراب في التيمم فوجدنا هذا الاسم يستصحبه مع الأرض ومع مفارقة الأرض ولم نجد غيره، كذلك أوجبنا التيمم بالتراب سواء فارق الأرض أو لم يفارق، والأحكام الشرعية تابعة للأسماء والأحوال، وينتقل الحكم بانتقال الاسم أو الحال.

باب في ناقض هذه الطهارة

اتفق العلماء رضي الله عنهم أنه ينقضها كل ما ينقض الوضوء والطهر، واختلفوا في أمرين: الأمر الواحد إذا أراد المتيمم صلاة مفروضة بالتيمم الذي صلّى به غيرها، فمن قائل: إن إرادة الصلاة الثانية تنقضها. ومن قائل: لا تنقضها وبه أقول والأولى عندي أن يتيمم ولا بدّ، لأن مذهبنا أن التيمم ليس بدلاً من الوضوء وإنما هو طهارة أخرى عيّنها الشارع بشرط خاص لا على وجه البدل، وقد قلنا: إن الحكم يتبع الحال وينتقل الحكم بانتقال الأحوال والأسماء.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: كما لا يتكرر التجلّي كذلك لا تتكرر هذه الطهارة بل لكل تجلّ طهارة، فلكل صلاة تيمم، ومن نظر إلى التجلّي نفسه من حيث ما هو تجلّ لا من حيث ما هو تجلّ في كذا قال: يصلي بالتيمم الواحد ما شاء كالمتوضىء لا فرق وهو قولنا [الكامل]:

حتى بدَتْ للعين سُبْحَةُ وجهِهِ وإلى هَلُمَّ فلم تكن إلاّ هِيْ

باب في وجود الماء لمن حاله التيمم

فمن قائل: إن وجود الماء ينقضها. ومن قائل: إن الناقض لها هو الحدث.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: قلنا: المقلد يقوم له دليل في مسألة خاصة من الإلهيات يناقض ما أعطاه تقليده للشرع، فلا يخرجه ذلك الدليل عن تقليده وإنما يخرجه عن تقليده دليل العقل الذي ثبت به الشرع عنده لا هذا الدليل الخاص، فإذا ظهر له نفس الحدث فيما كان يعتقده في تقليده في تلك المسألة يعلم لذلك أن الشارع لم يكن مقصوده هذا الظاهر في هذه المسألة، وقد نبّهه على ذلك وجود هذا الدليل الطارىء الذي هو بمنزلة وجود الماء، فهكذا هي المسألة إذا حققتها.

باب في أن جميع ما يفعل بالوضوء يستباح بهذه الطهارة

اختلف العلماء رضي الله عنهم هل يستباح بها أكثر من صلاة واحدة فقط؟ فمن قائل: يستباح وهو مذهبنا والأولى عندنا أنه لا يستباح. ومن قائل: لا يستباح على خلاف يتفرّع في ذلك.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: قد تقدم في تكرار التجلّي. وقد انتهى الكلام في أمّهات مسائل التيمم على الإيجاز والاختصار وما ذهبت العلماء في ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

انتهى الجزء الأول من الفتوحات المكية، ويليه الجزء الثاني
أوله: أبواب الطهارة من النجس

فهرس محتويات
الجزء الأول
من
الفتوحات المكية

فهرس المحتويات

دار الكتب العلمية
BEIRUT

الفُتُوحَاتُ المَكِّيَّة

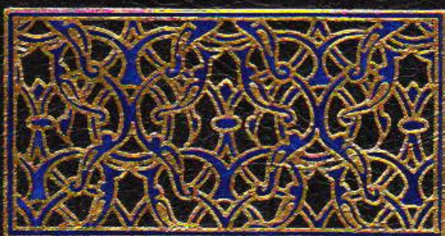

للشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدّين محمّد بن علي
بن محمّد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي "المعروف بابن عربي"
المتوفى سنة ٦٣٨ هـ

ضبطه وصححه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدّين

المجلد الثاني

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الفتوحات المكية

تأليف

الشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين
محمد بن علي بن محمّد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي
المعروف بابن عربي
المتوفى سنة ٦٣٨هـ

ضبطه وصحّحه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدّين

الجزء الثاني

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أبواب الطهارة من النجس

اعلم أن الطهارة طهارتان: طهارة غير معقولة المعنى وهي الطهارة من الحدث المانع من الصلاة. وطهارة من النجس وهي معقولة المعنى فإن معناها النظافة. وهل هي شرط في صحة الصلاة كطهارة المحدث من الحدث أم هي غير شرط؟ فمن قائل: إن الطهارة من النجس فرض مطلق وليست شرطاً في صحة الصلاة. ومن قائل: إنها واجبة كالطهارة من الحدث التي هي شرط في صحة الصلاة. ومن قائل: إنها سنّة مؤكدة. ومن قائل: إن إزالتها فرض مع الذكر ساقط مع النسيان.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: اعلم أن الطهارة في طريقنا طهارتان: طهارة غير معقولة المعنى وهي الطهارة من الحدث والحدث وصف نفسي للعبد فكيف يمكن أن يتطهر الشيء من حقيقته؟ فإنه لو تطهر من حقيقته انتفت عينه، وإذا انتفت عينه فمن يكون مكلفاً بالعبادة؟ وما ثم إلاَّ الله. فلهذا قلنا: إن الطهارة من الحدث غير معقولة المعنى، فصورة الطهارة من الحدث عندنا أن يكون الحق سمعك وبصرك وكلك في جميع عباداتك فأثبتك ونفاك، فتكون أنت من حيث ذاتك، ويكون هو من حيث تصرفاتك وإدراكاتك، فأنت مكلف من حيث وجود عينك محل للخطاب وهو العامل بك من حيث أنه لا فعل لك، إذ الحدث لا أثر له في عين الفعل ولكن له حكم في الفعل، إذ كان ما كلفه الحق من حركة وسكون لا يعمله الحق إلاَّ بوجود المتحرّك والساكن إذ ليس إذ لم يكن العبد موجوداً لا لحق والحق تعالىٰ عن الحركة والسكون، أو يكون محلاً لتأثيره في نفسه، فلا بدّ من حدوث العبد حتى يكون محلاً لأثر الحق، فمن كونه حدثاً وجبت الطهارة على العبد منه، فإنّ الصلاة التي هي عين الفعل الظاهر فيه لا يصحّ أن تكون منه لأنه لا أثر له بل هو سبب من حيث عينيته لظهور الأثر الإلهيّ فيه، فبالطهارة من نظر الفعل لحدثه صحّت الأفعال أنها لغيره مع وجود العين لصحة الفعل الذي لا تقبله ذات الحق، وليست هكذا الطهارة من النجس، فإن النجس هو سفساف الأخلاق وهي معقولة المعنى فإنها النظافة، فالطهارة من النجاسات هي الطهارة بمكارم الأخلاق، وإزالة سفسافها من النفوس فهي طهارة النفوس، وسواء قصدت بذلك العبادة أو لم تقصد، فإن قصدت العبادة ففضل على فضل ونور على نور، وإن لم تقصد ففضل لا غير، فإن مكارم الأخلاق مطلوبة لذاتها، وأعلى منزلتها استعمالها عبادة بالطهارة من النجاسات، وإزالة النجاسات من النفوس التي قلنا هي الأخلاق المذمومة فرض عندنا ما هي شرط في صحة العبادة، فإن الله قد جعلها عبادة مستقلة مطلوبة لذاتها، فهي كسائر الواجبات فرض مع

الذكر ساقطة مع النسيان، فمتى ما تذكرها وجبت كالصلاة المفروضة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [سورة طه: الآية ١٤] ثم نذكر الكلام في الأحكام المتعلقة بأعيانها فنقول:

باب في تعداد أنواع النجاسات

اتفق العلماء رضي الله عنهم من أعيانها على أربع: على ميتة الحيوان ذي الدم الذي ليس بمائي. وعلى لحم الخنزير بأي سبب اتفق أن تذهب حياته. وعلى الدم نفسه من الحيوان الذي ليس بمائي انفصل من الحيّ. أو من الميت إذا كان مسفوحاً أعني كثيراً. وعلى بول ابن آدم ورجيعه إلاَّ الرضيع، واختلفوا في غير ذلك.

وصل اعتبار الباطن في ميتة الحيوان ذي الدم البريّ: اعلم أن الموت موتان: موت أصليّ لا عن حياة متقدّمة في الموصوف بالموت وهو قوله تعالىٰ: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨] فهذا هو الموت الأصليّ وهو العدم الذي للممكن إذ كان معلوم العين لله ولا وجود له في نفسه، ثم قال تعالىٰ: ﴿فَأَحۡيَٰكُمۡۖ﴾ وموت عارض وهو الذي يطرأ على الحيّ فيزيل حياته وهو قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ وهذا الموت العارض هو المطلوب في هذه المسألة. ثم زاد وصفاً آخر فقال: ذي الدم الذي له دم سائل يقول أي الحيوان الذي له روح سائل أي سار في جميع أجزائه لا يريد من هي حياته عين نفسه التي هي لجميع الموجودات، ثم زاد وصفاً آخر فقال: الذي ليس بمائي يريد الحيوان البريّ أي الذي في البرّ ما هو حيوان البحر إذ البحر عبارة عن العلم فيقول: لا أريد بالحيوان الموجود في علم الله فإن في ذلك يقع الخلاف، وإنما أريد الحيوان الذي ظهرت عينه وكانت حياته بالهواء، فبهذه الشروط كلها ثبتت نجاسته بلا خلاف، فإذا زال شرط منها لم يكن المطلوب بالاتفاق، فإذا كانت حياة العبد عارضة لا ذاتية فينبغي أن لا يزهو بها ولا يدعي، فلما ادّعى وقال: أنا وغاب عن شهود من أحياه عرض له الموت العارض أي هذا أصلك فردّه إلى أصله، ولكن غير طاهر بسبب الدعوى ونسيان من أحياه، ثم إنا نظرنا في السبب الموجب لهذه الدعوى قال: كونه برّياً، فقلنا: ما معنى كونه برّياً؟ فقال: حياته من الهواء، فعلمنا أن الهوى هو الذي أرداه كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [سورة النازعات: الآية ٤٠] فكل متردّد بين هواءين لا بدّ من هلاكه كما قال صاحبنا بوزيد عبد الرحمن الفازازي رحمه الله: [السريع]

هـوًى صـحـيـحٌ وهـواءٌ عـلـيـلْ ... صـلاحُ حـالـي بـهـمـا مـسـتـحـيـلْ

أنشدنيها لنفسه بتلمسان سنة تسعين وخمسمائة، فكل عبد اجتمعت فيه هذه الشروط اتفق العلماء على أنه نجس. وأمّا اعتبار لحم الخنزير فإنّ لحمه مسرى الحياة الدمية، فإنّ اللحم دم جامد وصفة الخنزيرية وهي التولع بالقاذورات التي تستخبثها النفوس وهي مذام الأخلاق إذا ذهبت الحياة من ذلك اللحم كان نجساً، وذلك إذا اتفق أن يكون صاحب الخلق المذموم يغيب عن حكم الشرع فيه الذي هو روحه كان في حقّه ميتة، قال تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ

سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٠] فقال مثلها ولم يقيد من وجه كذا فألحقها بمذام الأخلاق، ثم قال فيمن لم يفعلها ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٠] فنبّه على أن ترك الجزاء على السيئة من مكارم الأخلاق ولهذا قلنا بأي شيء ذهبت حياته إذ كانت التذكية لا تؤثر فيه طهارة، وقد قال رسول الله ﷺ في الرجل الذي طلب القصاص من قاتل من هو وليّه فطلب منه رسول الله ﷺ أن يعفو عنه أو يقبل الدية فأبى فقال: خذه فأخذه فلما قفى قال رسول الله ﷺ: «أما إِنَّهُ إِنْ قَتَلَهُ كَانَ مِثْلَهُ» يريد قوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٠] فبلغ ذلك القول الرجل فرجع إلى النبيّ ﷺ وخلى عن قتله. وينبني على هذا مسألة القبح والحسن وهي مسألة كبيرة خاض الناس فيها، وليس هذا الباب موضع الكشف عن حقيقة ذلك وإن كنّا قد ذكرناها في هذا الكتاب.

والثالث من النجاسات المتفق عليها الدم نفسه من الحيوان البرّي إذا انفصل عن الحيّ أو عن الميت وكان كثيراً أعني بحيث أن يتفاحش، فقد أعلمناك أن الحيوان البريّ هو العين الموجودة لنفسها ما هي الموجود في علم الله كحيوان البحر وأن حياتها بالهواء وأن الدم هو الأصل الذي يخرج من حرارته ذلك البخار الذي تكون منه حياة ذلك الحيوان وهو الروح الحيوانيّ، فلما كان الدم أصلاً في هذه النجاسة كان هو أولى بحكم النجاسة ممّا تولد عنه، فالذي أورث العبد الدعوى هو العزّة التي فطر الإنسان عليها حيث كان مجموع العالم ومضاهياً لجميع الموجودات على الإطلاق، فلما غاب عن العناية الإلهية به في ذلك والموت الأصلي الذي نبّه الله عليه في قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨] وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: الآية ٩] وقوله: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [سورة الإنسان: الآية ١] لذلك اتفق العلماء على نجاسته إذا تفاحش أي كثرت منه الغفلة عن هذا المقام، فإن لم يتفاحش لم يقع عليه الاتفاق في هذا الحكم.

الرابع: بول ابن آدم ورجيعه اعتباره. اعلم أنه من شرفت مرتبته وعلت منزلته كبرت صغيرته، ومن كان وضيع المنزلة خسيس المرتبة صغرت كبيرته، والإنسان شريف المنزلة رفيع المرتبة نائب الحق ومعلم الملائكة، فينبغي أن يطهر من عاشره ويقدس من خالطه، فلما غفل عن حقيقته اشتغل بطبيعته فصاحبته الأشياء الطاهرة من المشارب والمطاعم أخذ طيبها بطبيعته لا بحقيقته، وأخرج خبيثها بطبيعته لا بحقيقته، فكان طيبها نجساً وهو الدم، وكان خبيثها نجساً وهو البول والرجيع، وكان الأولى أن لا يكسبه خبث الروائح فإنه من عالم الأنفاس فكانت نجاسته من حيث طبيعته وكذلك هي من كل حيوان، غير أن حقائق الحيوانات وأرواحها ليست في علو الشرف والمنزلة مثل حقيقة الإنسان فكانت زلته كبيرة، فاتفقوا بلا خلاف على نجاسته من مثل هذا، واختلفوا في سائر أبوال الحيوانات ورجيعها وإن كان الكل من الطبيعة، فمن راعى الطبيعة قال بنجاسة الكل، ومن راعى منزلة الشرف والانحطاط قال بنجاسة بول الإنسان ورجيعه، ولم يعف عنه لعظم منزلته وعفى عمّن هو دونه من الحيوانات، فقد أبنت لك عن سبب الاتفاق والاختلاف والحمد لله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

باب في ميتة الحيوان الذي لا دم له وفي ميتة الحيوان البحري

اختلف العلماء في هاتين الميتتين، فمن قائل: إنها طاهرة وبه أقول. ومن قائل: بطهارة ميتة البحر ونجاسة ميتة البر التي لا دم لها إلاَّ ما وقع الاتفاق على طهارتها لكونها ليست ميتة كدود الخل وما يتولد في المطعومات. ومن قائل: بنجاسة ميتة البر والبحر إلاَّ ما لا دم له.

وصل اعتباره في الباطن: قد أعلمناك فيما تقدّم آنفاً من هذه الطهارة اعتبار الدم، فمن قائل: بطهارة ميتة الحيوان الذي لا دم له فهو البراءة من الدعوى لأن الحياة المتولدة من الدم فيها تقع الدعوى لا في الحياة التي لجميع الموجودات التي يكون بها التسبيح لله بحمده، فإن تلك الحياة طاهرة على الأصل لأنها عن الله من غير سبب يحجبها عن الله. ومن قال بطهارة ميتة البحر وإن كان ذا دم فإنه في علم الله، ولا حكم على الأشياء في علم الله وإنما تتعلق بها الأحكام إذا ظهرت في أعيانها وهو بروزها من العلم إلى الوجود الحسّي، وعلى مثل هذا تعتبر بقية ما اختلفوا فيه من ذلك في هذه المسألة. انتهى الجزء الرابع والثلاثون.

(الجزء الخامس والثلاثون)

بسم الله الرحمن الرحيم

باب الحكم في أجزاء ما اتفقوا عليه أنه ميتة

اختلف العلماء رضي الله عنهم في أجزاء ما اتفقوا عليه أنه ميتة مع اتفاقهم على أن اللحم من أجزاء الميتة ميتة، وقد بيّنا اعتبار اللحم في لحم الخنزير، واختلفوا في العظام والشعر، فمن قائل: إنهما ميتة. ومن قائل: إنهما ليستا بميتة وبه أقول. ومن قائل: إن العظم ميتة وإن الشعر ليس بميتة.

وصل اعتبار الباطن في ذلك: لما كان الموت المعتبر في هذه المسألة هو الطارىء المزيل للحياة التي كانت في هذا المحل نظرنا إلى مسمّى الحياة، فمن جعل الحياة النمو قال: إنهما ميتة. ومن جعل الحياة الإحساس قال: إنهما ليستا بميتة. ومن فرّق قال: إن العظم يحسّ فهو ميتة، والشعر لا يحسّ فليس بميتة، فمن رأى نموّه بالغذاء وحسّه بالروح الحيوانيّ فهما ميتة، سواء عبّر بالحياة عن النموّ أو عن الحسّ، ومن كان يرى نموّه بربه لا بالغذاء وإدراكه المحسوسات بربه لا بالحواس لم يلتفت إلى الواسطة لفنائه بشهود الأصل الذي هو خالقه، وإن رأى أن الحق سمعه وبصره وهو عين حسّه لم يصح عنده أنه ميتة أصلاً، وسواء كانت الحياة عبارة عن النموّ أو عن الحسّ.

باب الانتفاع بجلود الميتة

فمن قائل: بالانتفاع بها أصلاً دبغت أم لم تدبغ. ومن قائل: بالفرق بين أن تدبغ وبين أن لا تدبغ، وفي طهارتها خلاف. فمن قائل: إن الدباغ مطهر لها. ومن قائل: إن الدباغ لا يطهرها ولكن تستعمل في اليابسات. ثم إن الذين ذهبوا إلى أن الدباغ مطهر اتفقوا على أنه

مطهر لما تعمل فيه الذكاة يعني المباح الأكل من الحيوان. واختلفوا فيما لا تعمل فيه الذكاة، فمن قائل: إن الدباغ لا يطهر إلاّ ما تعمل فيه الذكاة فقط وإن الدباغ بدل من الذكاة في إفادة الطهارة. ومن قائل: إن الدباغ يعمل في طهارة ميتات الحيوانات ما عدا الخنزير. ومن قائل: بأن الدباغ يطهر جميع ميتات الحيوان الخنزير وغيره، والذي أذهب إليه وأقول به: إن الانتفاع جائز بجلود الميتات كلها، وإن الدباغ يطهرها كلها لا أحاشي شيئاً من ميتات الحيوان.

وصل الاعتبار في ذلك في الباطن: قد عرّفناك مسمّى الميتة، فالانتفاع لا يحرم بجلدها وهو استعمال الظاهر، فمن أخذ في الأحكام بالظاهر من غير تأويل ولا عدول عن ظاهر الحكم الذي يدل عليه اللفظ فلا مانع له من ذلك، ولا حجة علينا لمن يقول بما يدل عليه بعض الألفاظ من التشبيه فنقول: ما وقفت مع الظاهر فإنه ما جاء الظاهر بالتشبيه لأن المثل وكاف الصفة ليست في الظاهر، فما ذلك الخطأ في المسألة إلاّ من التأويل واللفظ إذا كان بهذه النسبة مع اللفظ الصريح الذي لا يحتمل التأويل كان إذا قرنته به بمنزلة الميتة من الحيّ، فلما لم نجد من الشارع مانعاً من الانتفاع بقيتا على الأصل وهو قوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩] ولم يفصل طاهراً من غير طاهر فلا نحكم بطهارته، وإن انتفعنا به إلا إذا دبغ فهو إذ ذاك طاهر، واعتباره أن اللفظ الوارد من الشارع المحتمل فنحكم بظاهره ولا نقطع به أن ذلك هو المراد، فإذا اتفق أن نجد نصاً آخر في ذلك المحكوم به يرفع الاحتمال الذي أعطاه ذلك اللفظ الآخر طهر ذلك اللفظ الأوّل من ذلك الاحتمال وكان له هذا الخبر الثاني كالدباغ لهذا الجلد، فجمعنا بين الطهارة له في نفسه وهو صرفه بالخبر الثاني إلى أحد محتملاته على القطع وانتفعنا به مثل ما كنّا ننتفع به قبل أن يكون طاهراً من حيث انتفاعنا به لا من حيث انتفاعنا به من وجه خاص، فإنه قد يكون ذلك الخبر يصرفه عن الظاهر الذي كنّا نستعمله فيه إلى أمر آخر من محتملاته، فلهذا قلنا من حيث ما هو منتفع به لا من حيث ما هو منتفع به في وجه خاص إذ كان غيرنا لا يرى الانتفاع به أصلاً.

باب في دم الحيوان البحريّ وفي القليل من دم الحيوان البريّ

اختلف العلماء رضي الله عنهم في دم الحيوان البحريّ، وفي القليل من دم الحيوان البريّ، فمن قائل: دم السمك طاهر. ومن قائل: إنه نجس على أصل الدماء. ومن قائل: إن القليل من الدماء والكثير واحد في الحكم. ومن قائل: إن القليل معفوّ عنه، والذي أذهب إليه أن التحريم ينسحب على كل دم مسفوح من أيّ حيوان كان ويحرم أكله. وأما كونه نجاسة فلا أحكم بنجاسة المحرّمات إلاّ أن ينص الشارع على نجاستها على الإطلاق، أو يقف على القدر الذي نصّ على نجاسته، وليس النص بالاجتناب نصاً في كل حال فيفتقر إلى قرينة ولا بدّ، فما كلّ محرّم نجس، وإن اجتنبناه فما اجتنبناه لنجاسته، فإن كونه نجاسة حكم شرعيّ، وقد يكون غير مستقذر عقلاً ولا مستخبث.

وصل اعتباره في الباطن: الحكم على الشيء الذي يقتضيه لنفسه لا يشترط فيه وجود

عينه ولا تقدير وجود عينه، فسواء كان معدوم العين أو موجوداً الحكم فيه على السواء، سواء كان بطهارته أو عدم طهارته، فلا يؤثر كونه في علم الله أو كونه موجوداً في عينه، ألا ترى إلى الممكن قد رجح المرجح وجوده على عدمه أو عدمه على وجوده ومع ذلك ما زال عن حكم الإمكان عليه وأن الإمكان واجب له لذاته، كما أنّ الإحالة للمحال واجبة له لذاته، كما أن الوجوب للواجب واجب له لذاته، فينسحب معقول الوجوب على الواجب لنفسه، وكذلك حكم الممكن والمحال لا يتغير حكمه وإن اختلفت المراتب.

باب حكم أبوال الحيوانات كلها وبول الرضيع من الإنسان

اختلف أهل العلم في أبوال الحيوانات كلها وأرواثها ما عدا الإنسان إلاّ بول الرضيع، فمن قائل: إنها كلها نجسة. ومن قائل: بطهارتها كلها على الإطلاق. ومن قائل: إن حكمها حكم لحومها، فما كان منها أكله حلالاً كان بوله وروثه طاهراً، وما كان منها أكله حراماً كان بوله وروثه نجساً، وما كان منها لحمه مكروهاً أكله كان بوله وروثه مكروهاً.

وصل اعتباره في الباطن: الطهارة في الأشياء أصل والنجاسة أمر عارض، فنحن مع الأصل ما لم يأت ذلك العارض وهذا مذهبنا، فالعبد طاهر الأصل في عبوديته لأنه مخلوق على الفطرة وهي الإقرار بالعبودية للرب سبحانه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] قال رسول الله ﷺ في هذه الآية: «**إِنَّ اللَّه لَمَّا خَلَقَ آدَمَ قَبَضَ عَلَى ظَهْرِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ كَأَمْثَالِ الذَّرِّ فَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ**» وكذلك العلم طاهر في تعلّقه بمعلومه، فمهما عرض تحجير من الحق في أمر ما وعلم ما وقفنا عنده وكذلك الحياة لذاتها طاهرة مطهرة، وكل ما سوى الله حيّ فكل ما سوى الله طاهر بالأصل، فباسمه القدّوس خلق العالم كله، وإنما قلنا: كل ما سوى الله حيّ فإنه ما من شيء والشيء أنكر النكرات إلاّ وهو يسبح بحمد الله، ولا يكون التسبيح إلاّ من حيّ، وإن كان الله قد أخذ بأسماعنا عن تسبيح الجمادات والنبات والحيوان الذي لا يعقل، كما أخذ بأبصارنا عن إدراك حياة الجماد والنبات إلاّ لمن خرق الله له العادة كرسول الله ﷺ ومن حضر من أصحابه حين أسمعهم الله تسبيح الحصى، فما كان خرق العادة في تسبيح الحصى، وإنما انخرقت العادة في تعلّق أسماعهم به، وقد سمعنا بحمد الله في بدء أمرنا تسبيح حجر ونطقه بذكر الله، فمن الموجودات ما هي حيّ بحياتين: حياة مدركة بالحسّ وحياة غير مدركة بالحسّ، ومنها ما هو حيّ بحياة واحدة غير مدركة بالحسّ عادة، ومنها ما هو حيّ بثلاثة أنواع من الحياة وهو الإنسان خاصة: فإنه حيّ بالحياة الأصلية التي لا يدركها بالحسّ عادة، وهو أيضاً حيّ بحياة روحه الحيوانيّ وهو الذي يكون به الحسّ، وهو حيّ أيضاً بنفسه الناطقة فالعالم كله طاهر، فإن عرض له عارض إلهيّ يقال له نجاسة حكمنا بنجاسة ذلك المحل على الحدّ المقدر شرعاً خاصة في عين تلك النسبة الخاصة، فالنجاسة في الأشياء عوارض نسب، وأعظم النجاسات الشرك بالله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ

فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَاۚ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٨] فالمشرك نجس العين، فإذا آمن فهو طاهر العين أي عين الشرك وعين الإيمان فافهم فإنه ما يصدر عن القدوس إلاَّ مقدس، ولذا قلنا في النجاسة إنها عوارض نسب، والنسب أمور عدمية، فلا أصل للنجاسة في العين إذ الأعيان طاهرة بالأصل الظاهرة منه، وهنا أسرار لا يمكن ذكرها إلاَّ شفاهاً لأهلها فإن الكتاب يقع في يد أهله وغير أهله، فمن فهم ما أشرنا إليه فقد حصل على كنز عظيم ينفق منه ما بقيت الدنيا والآخرة أي إلى ما لا يتناهى وجوده، والله المؤيّد معلم الإنسان البيان.

باب حكم قليل النجاسات

اختلف أهل العلم في قليل النجاسات، فمن قائل: إن قليلها وكثيرها سواء. ومن قائل: إن قليلها معفوّ عنه وهؤلاء اختلفوا في حدّ القليل. ومن قائل: إن القليل والكثير سواء إلاَّ الدم، وقد تقدم الكلام في الدم، وعندنا أن القليل والكثير سواء إلاَّ ما لا يمكن الانفكاك عنه، ولا يعتبر في ذلك منع وقوع الصلاة بها أو وقوعها فإن ذلك حكم آخر، والتفصيل في ذلك قد ورد في الشرع فيوقف عنده ولا يتعدى فإنه لا يلزم من كونه نجاسة عدم صحة الصلاة بها، فقد يعفو الشرع عن بعض ذلك في موضع وقد لا يعفو في موضع، وللأحوال في ذلك تأثير، فقد أزال رسول الله ﷺ نعله في الصلاة من دم حلمة أصاب نعله ولم يبطل صلاته ولا أعاد ما صلّى به.

وصل اعتباره في الباطن: أما اعتباره في الباطن فمذام الأخلاق والجهالات وإساءة الظنون في بعض المواطن قليل ذلك وكثيره سواء، وفي ذلك حكايات وأقوال لأهل الله، والتفصيل الوارد في الخلاف في الظاهر يعتبر بحسبه فإنه قد تقدّم في الفصول قبل هذا كيف تؤخذ وجوه الاعتبار فيه في الباطن؟

باب حكم المنيّ

اختلف علماء الشريعة في المنيّ هل هو طاهر أو نجس؟ فمن قائل: بطهارته. ومن قائل: بنجاسته.

وصل اعتباره في الباطن: التكوين منه طبيعيّ ومنه غير طبيعيّ، وبينهما فرقان إن شئنا اعتبرنا وإن شئنا لم نعتبره، فإن التكوين الطبيعيّ لا فرق عندنا بينه وبين التكوين غير الطبيعيّ، فإنّ التكوين الطبيعيّ من حيث الوجه الخاص المعلوم عند أهل الله المنصوص عليه في القرآن صادر عن حضرة التقديس والاسم القدّوس، ومن غير ذلك الوجه الخاص فهو صادر عن مثله، وهو الذي أيضاً نقول فيه عالم الخلق وعالم الأمر، فكل موجود عند سبب مخلوق ممّا سوى الله هو عالم الخلق، وكل ما لم يوجد عند سبب مخلوق فهو عالم الأمر، والكل على الحقيقة عالم الأمر، إلاَّ أنا لا يمكننا رفع الأسباب من العالم فإن الله قد وضعها ولا سبيل إلى رفع ما وضعه الله، فأقول: إنه من احتجب بنفسه عن ربّه فليس بطاهر، ولما كان خروج المنيّ غالباً يستغرق لذته الإنسان بل الحيوان كله حتى يفنى عن ربّه إلاَّ عن حكم الخارج منه

وهو المنيّ كان المنيّ غير طاهر، ولهذا أمرنا بالتطهير منه أي التطهير العام لجميع أجزاء البدن لأنه ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [سورة الطارق: الآية ٧] ومن راعى أن الحق ما تولّى التكوين الطبيعيّ إلاّ به حكم بطهارته لأن الحال اختلف فيه فإنه دم مقصور قصرته المثانة فتغير عن الدمية فتغير الحكم وهو أولى، فالمنيّ عندنا طاهر إلاّ أن يخالطه شيء نجس لا يتمكن تخليصه منه، وحينئذ نحكم به أنه نجس بما طرأ عليه كما كان أصله وعينه دماً، فلو بقي على صورته في أصله من الدمية إذا خرج حكمنا بنجاسته شرعاً.

باب في المحال التي تزال عنها النجاسة

أما المحال التي تزال عنها النجاسة شرعاً فهي ثلاثة: الثياب والأبدان أبدان المكلفين والمساجد.

وصل اعتباره في الباطن: فالثياب الباطنة الصفات فإن لباس الباطن صفاته، يقول امرؤ القيس لعنيزة: [الطويل]

وإن كنت قد ساءتْكِ مني خَليقةٌ فسلّي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ

أراد ما لبسه من ثياب مودتها في قلبه، يقول الله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٦] وهو موجّه عندي لقرائن الأحوال مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٧] سواء إن تفطنت لما أراد هنا بالتقوى واعتبار الأبدان القلوب والأرواح فاعلم، واعتبار المساجد مواطن المناجاة وأحوالها الإلهية.

باب في ذكر ما تزال به هذه النجاسات من هذه المحال

اتفق العلماء بالشريعة على أن الماء الطاهر المطهر يزيلها من هذه المحال الثلاثة، وعندنا كل ما يزيل عينها فهو مزيل من تراب وحجر ومائع، ويعتبر اللون في بقاء عينها إن كانت ذات لون يدركه البصر، ولا يعتبر بقاء الرائحة مع ذهاب العين لعلم عندنا آخر.

وصل الاعتبار في ذلك: إن العلم الذي أنتجته التقوى في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] وقوله: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩] فذلك العلم هو المزيل المطهر، هذه المحال الثلاثة التي ذكرناها وهي في الباطن الصفات والقلوب والأحوال التي قلنا إنها الثياب والأبدان والمساجد، واتفق العلماء أيضاً أن الحجارة تزيلها من المخرجين وهو المعبر عنه في الشرع بالاستجمار، ولا يصحّ عندي الاستجمار بحجر واحد فإنه نقيض ما سمّي به الاستجمار فإن الجمرة الجماعة وأقل الجماعة اثنان، والاعتبار هنا في محل الاتفاق أن الحجارة لما أوقع الله النسبة بينها وبين القلوب في أمور منها: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٤] والقسوة ممّا ينبغي أن يتطهر منها كانت ما كانت فإنها من نجاسات القلوب المأخوذ بها والمعفو عنها ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٤] وهي من القلوب العلوم الغزيرة الواسعة المحيطة بأكثر المعلومات، وتفجرها خروجها على ألسنة العلماء للتعليم في الفنون المختلفة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا

يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٤] وهي القلوب التي تغلب عليها الأحوال فتخرج في الظاهر على ألسنة أصحابها بقدر ما يشقق منها وبقدر العلم الذي فيها فينتفع بها الناس. ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٤] وهبوط القلوب المشبهة بالحجارة في هبوطها هو نزولها من عزّتها إلى عبوديتها ونظرها في عجزها وقصورها بالأصالة.

وقد قلنا إن الماء هو المطهر المزيل للنجاسات من هذه المحال، فالأحجار التي هي منابع هذا الماء حكمها في إزالة النجاسة من المخرجين حكم ما خرج منها وهو العلم في الاعتبار، كما أن الخشية ممّا يتطهر بها فإن الخشية من خصائص العلماء بالله المرضيين عنهم المطلوب منهم الرضى عن الله قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٨] وقال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [سورة البينة. الآية ٨] والعلم طاهر مطهر ولا سيّما العلم الذي هو تنتجه التقوى، فإن غيره من العلوم وإن كان طاهراً مطهراً فما هو في القوّة مثل هذا العلم الذي نشير إليه، فالخشية المنعوت بها الأحجار هي التي أدّتها إلى الهبوط وهو التواضع من الرفعة التي أعطاها الله، فإنه لما وصفها بالهبوط علمنا أن الأحجار التي في الجبال يريد والجبال الأوتاد التي سكن الله بها ميد الأرض فلما جعلها أوتاداً أورثها ذلك فخراً لعلوّ منصبها فنزلت هذه الأحجار هابطة من خشية الله لما سمعت الله يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأٓخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة القصص: الآية ٨٣] والإرادة من صفات القلوب فنزلت من علوها وإن كان بربها هابطة من خشية الله حذراً أن لا يكون لها حظ في الدار الآخرة التي تنتقل إليها وأعني بالدار الآخرة هنا دار سعادتها، فإن في الآخرة منزل شقاوة ومنزل سعادة فكانت لهذا طاهرة مطهرة.

وأما اختصاص تطهيرها المخرجين واعتبر المخرجين اللذين هما مخرج الكثيف وهو الرجيع واللطيف وهو البول، فاعلم أن للحق سبحانه في القلوب تجليين: التجلي الأول في الكثائف وهو تجليه في الصور التي تدركها الأبصار والخيال مثل رؤية الحق في النوم فأراه في صورة تشبه الصور المدركة بالحسّ وقد قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فيزيل هذا العلم من قلبك تقيد الحق بهذه الصور التي تجلّى لك فيها في حال نومك أو في حال تخيلك في عبادتك إذ قال لك رسوله ﷺ عنه تعالى لا عن هواه، فإنه ﷺ ما ينطق عن الهوى: «**اعْبدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» فجاء بكأنّ وهي تعطي الحقائق، فإن رسول الله ﷺ لما قال لمن قال: أنا مؤمن حقاً «**فما حقيقة إيمانك؟**» فقال: كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً فأتى بكأنّ والرؤية، وقال له رسول الله ﷺ: «**عرفت فالزم**» فشهد له بالمعرفة، وهذا هو التجلّي الآخر، فإن تجلي الخيال ألطف من تجلّي الحسّ بما لا يتقارب، ولهذا يسرع إليه التقلّب من حال إلى حال كما هو باطن الإنسان هنا، كذلك يكون ظاهره في النشأة الآخرة، وقد ورد أن في الجنة سوقاً لا يباع فيه ولا يشترى لكنه مجلّى الصور، فمن اشتهى صورة دخل فيها كالذي هو باطن الإنسان اليوم، فإذا جعل العابد معبوده بحيث يراه كأنه أنزله من قلبه منزلة من يراه ببصره من غير أن يكون هناك صورة من خارج كما كانت في تجلّي المنام، فإذا حدّده هذا

التخيّل والحق لا حدّ له سبحانه يتقيد به فطهره علم الخشية وهو الحجر الذي ذكرناه من تقييد الحدود فطهر القلب إنما هو بالخشية من مثل هذا التشبيه والتقييد إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فهذا اعتبار اتفاق العلماء بأن الحجارة تطهر المخرجين، واختلفوا فيما عدا ما ذكرناه من الاتفاق عليه من المائعات والجامدات التي تزيل النجاسات من المحال التي ذكرناها، فمن قائل: إن كل مائع وجامد في أي موضع كان إذا كان طاهراً فإنه يزيل عين النجاسة وبه أقول. ومن قائل: بالمنع على الإطلاق إلاّ ما وقع عليه الاتفاق من الماء والاستجمار وقد ذكرناهما.

باب منه

اختلفوا في الاستجمار بالعظم والروث اليابس، فمنع من ذلك قوم وأجازوا الاستجمار بغير ذلك ممّا ينقي، واستثنى من ذلك قوم ما هو مطعوم ذو حرمة كالخبز، وقد جاء في العظم أنه طعام إخواننا من الجن، واستثنت طائفة أن لا يستجمر بما في استعماله سرف كالذهب والياقوت، أما تقييدهم بأن في ذلك سرفاً فليس بشيء، فلو علّلوه بأمر آخر يعقل كان أحسن، ولكن ينبغي أن ينظر في مثل هذا، فإن كان الذهب مسكوكاً وعليه اسم الله أو اسم من الأسماء المجهولة عنده من طريق لسان أصحابها خوفاً من أن يكون ذلك من أسماء الله بذلك اللسان أو يكون عليه صورة فيجتنب الاستجمار به لأجل هذا لا لكونه ذهباً ولا ياقوتاً، وقوم قصروا الانقاء على الأحجار فقط، وقوم أجازوا الاستجمار بالعظم دون الروث وإن كان مكروهاً عندهم. ومن قائل: بجواز الاستجمار بكل طاهر ونجس، انفرد به الطبري دون الجماعة.

وصل في اعتبار ما ذكرناه في الباطن: إذا صحّ الإنقاء من الأخلاق المذمومة والجهالات بأي شيء صحّ بخلق حسن أو بخلق آخر سفساف، وبعلم شريف لشرف معلومه، أو بعلم دون ذلك ممّا لا أثر له في المحل إلاّ الإنقاء جاز استعماله في إزالة هذه النجاسة، وإلى هذا منزع الطبري فيما شذّ فيه دون الجماعة، ومن راعى في الإزالة ما يزال به لا ما يزال وتتبع الشرع وما فصله في ذلك المشرع فهو على حسب ما يفهم من الشارع في تفقهه في دين الله، فإن فطر الناس مختلفة في الفهم عن الله وهو محل الاجتهاد، فلا يزيل عين النجاسة إلاّ بالذي يغلب على فهمه من مقصود الشارع ما هو وهو الأولى، وهذا يسري في الحكم الظاهر والباطن سواء فأغنى عن التفصيل.

باب في الصفة التي بها تزال هذه النجاسات

وهي غسل ومسح ونضح وصب وهو صب الماء على النجاسة كما ورد في الحديث لما بال الأعرابيّ في المسجد فصاح به الناس فقال رسول الله ﷺ: «**لاَ تُزْرِمُوهُ**» حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْ بَوْلِهِ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ دَعَا بِذَنُوبٍ مِنْ مَاءٍ فَصَبَّهُ عَلَيْهِ فهذه حالة لا تسمّى غسلاً ولا مسحاً ولا نضحاً، فلهذا زدنا الصب، ولم يأت بهذه اللفظة العلماء، وأدخلوا هذا الفعل تحت الغسل فاكتفوا بلفظ الغسل عن الصب، فرأينا أن الإفصاح به بلفظ الصب أولى لأن الراوي

ذكره بلفظ الصب ولم يسمه غسلاً، واعلم أنه ما اختلفت هذه المراتب إلاَّ لاختلاف النجاسات تخفيفاً عن هذه الأمّة، فإن المقصود زوال عينها الموجود المعين أو المتوهم، فبأي شيء زال الوهم أو العين من هذه الصفات استعملت في إزالته، واستعمال الأعمّ منها يدخل فيه الأخص، فيغني عن استعمال الأخص إن فهمت كالغسل فإنه أعمّها فيغني عن الكل، والشارع قد صبّ وغسل ومسح ونضح وهو الرش، وقد وردت في ذلك كله أخبار محلها كتب الفقه.

وصل اعتبار الباطن في ذلك: إن الخلق المذموم إن وجدنا صفة إذا استعملناها أزالت جميع الأخلاق المذمومة استعملناها فهي كالغسل الذي يعم جميع الصفات المزيلة لأعيان النجاسات وتوهمها وهو الأولى والأيسر، وإن تعذر ذلك فينظر في كل خلق مذموم، وينظر إلى الصفة المزيلة لعينه فيستعملها في إزالة ذلك الخلق لا غير، هذا هو ربط هذا الباب، وفي هذا الباب اختلاف كثير في المسح والنضح والعدد ليس هذا موضعه إلاَّ إن فتح الله ويؤخر في الأجل فنعمل كتاباً في اعتبارات أحكام الشرع كلها في جميع الصور واختلاف العلماء فيه ليجمع بين الطريقتين ونظهر حكمة الشرع في النشأتين والصورتين أعني الظاهر والباطن ليكون كتاباً جامعاً لأهل الظاهر وأهل الاعتبار في الباطن والموازين الباحثين عن النسب والله المؤيد لا رب غيره.

باب في آداب الاستنجاء ودخول الخلاء

وقد وردت في ذلك أخبار كثيرة وأوامر مثل النهي عن الاستنجاء باليمين، ومسّ الذكر باليمين عند البول، وعدم الكلام على الحاجة، والتعوّذ عند دخول الخلاء وهي كثيرة جدّاً، فمن قائل: بأنها كلها محمولة على الندب وعليه جماعة الفقهاء، وأمّا في الاعتبار فهي كلها واجبة، فإن الباطن ما حكمه في أوامر الحق حكم الظاهر، فإن الله ما ينظر من الإنسان إلاَّ إلى قلبه، فيجب على العبد أن لا يزال قلبه طاهراً أبداً لأنه محل نظر الله منه، والشرع ينظر إلى ظاهر الإنسان ويراعيه في الدار الدنيا دار التكليف أكثر من باطنه وفي الآخرة بالعكس، هنالك ﴿تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [سورة الطارق: الآية ٩] وهنا يراعي الشرع أيضاً الباطن في أفعال مخصوصة أوجب الشرع عليه فعلها، وأفعال مخصوصة ندبه الشرع إليها، وأفعال مخصوصة خيّره الشرع بين فعلها وتركها، وأفعال مخصوصة حرّم الشرع عليه فعلها، وأفعال مخصوصة كره الشرع له فعلها، والحكم في الترك كذلك. واختلفوا من هذه الآداب في استقبال القبلة بالغائط والبول واستدبارها فكانوا فيها على ثلاثة مذاهب: فمن قائل: إلى أنه لا يجوز استقبال القبلة لغائط أو بول أصلاً في أي موضع كان. ومن قائل: إنه يجوز ذلك بإطلاق وبه أقول والتنزّه عن ذلك أولى وأفضل. ومن قائل: إنه يجوز ذلك في الكنف المبنية ولا يجوز في الصحارى، ولكل قائل حجة من خبر يستند إليه ذكر ذلك علماء الشريعة في كتبهم.

وصل اعتبار الباطن في ذلك: لما أخبر النبي ﷺ أن الله في قبلة المصلي وأن العبد إذا صلّى واجه ربه، فمن فهم من ذلك أن القبلة المعلومة إليها نسب كون الله أو نسب إليها في

حال صلاة المصلي خاصة، فمن فهم أن المراد القبلة بتلك النسبة لم يجز استقبال القبلة عند الحاجة لسوء الأدب، ومن فهم أن المراد حال المصلي أجاز استقبال القبلة عند الحاجة فإنه غير مصلّ الصلاة المخصوصة بالصفة المعلومة، ومن رأى روح الصلاة وهو الحضور مع الله دائماً ومناجاته كانت جميع أفعاله صلاة فلم يقل بالمنع من استقبال القبلة عند الحاجة فإنه في روح الصلاة لا ينفك دائماً، وهم أهل الحضور مع الله على الدوام والمشار إليهم بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [سورة المعارج: الآية ٢٣] اعتباراً، فأمّا من لم يخطر له خاطر الحضور مع الله إلاّ في وقت الحاجة فذلك خاطر شيطاني لا يعوّل عليه ويجتنب استقبال القبلة، ولا بدّ عندنا من هذه حالته فإنه من عمل الشيطان، وقد أمرنا باجتناب عمل الشيطان في قوله: إنه ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٠] وأما من يرى الاستقبال في الكنف المبنية دون الصحارى فإن الكنف المبنية والمدن حال الجمعية فتشبه جمعية الأسماء الإلهية، فما من شيء إلاّ وهو مرتبط بحقيقة إلهية به كانت معقوليته، فإنّ المعدوم مرتبط بالتنزيه، فلا يخلو صاحب هذا الحال عن مشاهدة ربّه من حيث تلك الحقيقة، فإنّ البناء والمدن دلتاه على ذلك فجاز له أن يستقبل القبلة وأن يكون بحكم الوطن. وأما في الصحراء فهو وحده فلا مانع له من ترك استقبال القبلة بالحاجة فيتأدّب ولا يستقبل احتراماً لقول الشارع فإنه ما في الصحراء حالة تقيده لرؤية حقيقة إلهية إلاّ اختياره، ولا ينبغي للعبد أن يكون له اختيار مع سيده، قال تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [سورة القصص: الآية ٦٨] فما اختار المدن والكنف المبنية ما كان لهم الخيرة فيما لم يختره لهم فليس لهم أن يختاروا بل يقفون عند المراسم الشرعية فإن الشارع هو الله تعالىٰ، فيستعمل بهذا النظر جميع الأخبار الواردة في استقبال القبلة بالحاجة واستدبارها والنهي عن ذينك، فقد أثبتنا في هذا الباب من فصول الطهارة ما يجري مجرى الأصول، والقول الجامع في الطهارة هو أن نقول: الطهارة من الإنسان المعقولة المعنى بما يزيلها أي شيء كان من البراهين جدلية كانت أو وجودية، فإن الغرض إزالتها لا بما تزال ما لم يكن الذي تزال به يؤثر نجاسة في المحل فإذن ما زالت النجاسة. وأمّا التي هي غير معقولة المعنى فطهارتها موقوفة على ما ينص الله تعالىٰ في ذلك أو رسوله فيزيلها بذلك، فإن شاء الحق عرفك بمعناه ونسبته فتكون إزالتها في حقك عن علم محقق، وإذ لم يكن ذلك فهو المسمّى بالتعبّد وهو المعنى المطلق في جميع التكاليف وهو العلة الجامعة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الخامس والثلاثون.

(الجزء السادس والثلاثون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب التاسع والستون في معرفة أسرار الصلاة وعمومها

[نظم: الطويل]

وكم من مُصَلٍّ ما له من صلاتهِ ... سوى رؤيةِ المِحْراب والكدِّ والعَنَا

وآخَرُ يحظى بالمناجاة دائماً وإن كان قد صلّى الفريضةَ وابتَدَى
وكيف وسرُّ الحق كان إمامَه وإن كان مأموماً فقد بلغ المَدَى
فتحريمُها التكبيرُ إن كنت كابراً وإلاّ فحِلُّ المرء أو حُرْمُه سَوَا
وتحليلُها التسليمُ إن كنتَ تابعاً لرجعته العلياء في ليلة السُّرَى
وما بين هذين المقامين غايةٌ وأسرارُ غيب ما تُحَسُّ وما تُرَى
فمن نام عن وقت الصلاة فإنه وحيدٌ فريدُ الدهر قطبٌ قد استَوَى
وإن حلَّ سهوٌ في الصلاة وغَفْلَةٌ وذكّره الرحمنُ يجْبُر ما سَهَا
وإن كان في ركب إلى العين قاصداً فشَطْرُ صلاة الفرض ينْقُصُ ما عَدَا
صلاةُ انفجار الصبح حقاً ومغربٌ لَسِرٌّ خفيٌّ في الصباح وفي المَسَا
وحافِظْ على الشَّفْع الكريم لوَتْره تَفُزْ بالذي فاز الحَضَارِمَةُ الأولَى
وبين صلاة الفذِّ والجمع سبعةٌ وعشرون إن كان المصلّي على طوَى
ولا تنسَ يومَ العيد واشهَدْ صلاته لدى مطلع الشمس المنيرة والسَّنَا
وبادر لتهجير العَرُوبة رائحاً تَحُزْ قَصَبَ السباق في حلبة العُلَى
وإن حلَّ خَسْفُ النيِّرين فإنه حجابُ وجود النفس دونك يا فَتَى
ومن كان يستسقي يُحَوِّلْ رداءه تحوَّلْ عن الأحوال علَّك تُرْتَضَى
فهذي عبادات المراد تخلَّصت وأن ليس للإنسان غيرُ الذي سَعَى

اعلم أيدك الله بروح القدس أن مسمّى الصلاة يضاف إلى ثلاثة وإلى رابع ثلاثة بمعنيين: بمعنى شامل وبمعنى غير شامل، فتضاف الصلاة إلى الحق بالمعنى الشامل، والمعنى الشامل هو الرحمة، فإن الله وصف نفسه بالرحيم ووصف عباده بها فقال: أرحم الراحمين. وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] فوصف نفسه بأنه يصلي أي يرحمكم بأن: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٤٣] يقول: من الضلالة إلى الهدى، ومن الشقاوة إلى السعادة، وتضاف الصلاة إلى الملائكة بمعنى الرحمة والاستغفار والدعاء للمؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ فصلاة الملائكة ما ذكرناها قال الله عزّ وجلّ في حق الملائكة: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يقولون: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [سورة غافر: الآية ٧] ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [سورة غافر: الآية ٩] اللهم استجب فينا صالح دعاء الملائكة، وتضاف الصلاة إلى البشر بمعنى الرحمة والدعاء والأفعال المخصوصة المعلومة شرعاً على ما سنذكره، فجمع البشر هذه الثلاث المراتب المسمّاة صلاة قال تعالىٰ آمراً لنا: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٣] وتضاف الصلاة إلى كل ما سوى الله من جميع المخلوقات ملك وإنسان وحيوان ونبات ومعدن بحسب ما فرضت عليه وعيّنت له، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [سورة النور: الآية ٤١] فأضاف الصلاة إلى الكل والتسبيح في لسان العرب الصلاة، قال

عبد الله بن عمر وهو من العرب وكان لا يتنفل في السفر فقيل له في ذلك فقال: لو كنت مسبحاً أتممت. وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] وقال خطاباً لمحمد صاحب الكشف حيث يرى ما لا نرى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨] فانظر إلى فقه عبد الله بن عمر رضي الله عنه لما تحقق أن الله يريد التخفيف عن عبيده بوضع شطر الصلاة عنهم لم ير أن يتنفل موافقة لمقصود الحق في ذلك فهذا تفقه روحانيّ. وأمّا من تنفل في السفر فرأى أن مقصود الحق إسقاط الفرضية لا إسقاط الصلاة التي يتطوّع الإنسان، فلو أتم المسافر لكان الغرض منها ركعتين والباقي نافلة، فإن الله ما فرض عليه إلاَّ ركعتين على لسان رسول الله ﷺ، فلما لم ير هذا المتنفل إلاَّ إسقاط الفرضية عنه لا التطوّع بالصلاة تنفل في السفر، وكان رسول الله ﷺ يتنفل في السفر على الراحلة فعلم القائل بهذا أن الغرض هو الذي قصد إسقاطه عنه واقتدى برسول الله ﷺ في التنفل في السفر، فإن الله قال لنا: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١].

فاعلم أن الصلوات المشروعة فرضاً وسنناً مؤكدة بين النافلة والفريضة ثمانية، كما أن الأعضاء المكلفة من الإنسان ثمانية، لأن الذات مع نسبها المعبر عنها بالصفات ثمانية، فهذه الثمانية هي: الذات والحياة والعلم والإرادة والكلام والقدرة والسمع والبصر، والإنسان المكلف ذات حية عالمة مريدة متكلمة قادرة سميعة بصيرة. وأما الأعضاء المكلفة أعني التي يفعل الإنسان بها ما كلّف أن يفعله أو يتركه فهي ثمانية: الأذن والعين واللسان واليد والبطن والفرج والرجل والقلب.

وأما الصلوات الثمانية المشروع الفعل بها فرضاً وسنّة مؤكدة فالصلوات الخمس والوتر من الليل والجمعة والعيدان والكسوف والاستسقاء والاستخارة والصلاة على الجنائز. وأما الصلاة على رسول الله ﷺ فدخلت في الدعاء، فإن رسول الله ﷺ قد علمنا كيف نصلي عليه أي كيف ندعو له، وقد أمرنا أن ندعو له بالوسيلة والمقام المحمود، ونحن إن شاء الله نذكر في هذا الباب فصول هذه الصلوات كلها مكملة بشروطها، وما أتتبع ما تحوي عليه من التفاصيل فإن ذلك يطول، وإنما أقصد إلى ذكر فصول تجري مجرى الأمهات كما عملنا في الطهارة إلى أن نستوفيها إن شاء الله. والصلاة وقعت في الرتبة الثانية من قواعد الإيمان التي بني الإسلام عليها في الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَالحَجِّ**» فعلم الصحابة أنه ﷺ راعى الترتيب لما يدخل الواو من الاحتمال، ولهذا لما قال بعض رواة هذا الحديث من الصحابة لما سرده فقال: والحج وصوم رمضان أنكر عليه وقال له: وصوم رمضان والحج فقدمه، وعلمنا أنه أراد الترتيب، ونبّه على أن لا ننقل عنه ﷺ إلاَّ عين ما تلفظ به، فإنه من العلماء من يرى نقل الحديث المتلفظ به من النبي ﷺ على المعنى، فالصلاة ثانية في القواعد مشتقة من المصلي في الخيل وهو الذي يلي السابق في الحلبة، والسابق في القواعد الشهادة

والمصلّي هي الصلاة، وجعل الزكاة تلي الصلاة لأن الزكاة التطهير فناسبت الصلاة، فإن الصلاة لا يقبلها الله بغير طهور، والزكاة تطهير الأموال، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٩] يعني النفس التي سوّاها يريد قد أفلح من طهرها بامتثال أوامر الله.

ومن شرط الصلاة: طهارة الثياب والأبدان والبقعة التي توقع الصلاة عليها وفيها كانت ما كانت، وجعل الصوم يلي الزكاة لما شرع الله في صوم رمضان عند انقضائه من زكاة الفطر فلم يبق الحج إلاّ أن يكون آخراً، وقد ذكرنا الشهادة التوحيدية وذكرنا من الصلاة الطهارة التي لا تصحّ الصلاة إلاّ بها، فلنذكر الطهارة إن شاء الله بهذا الباب ولنبدأ بالصلاة المفروضة وما يلزمها ويتبعها من اللوازم والشروط والأركان في أفعالها وأقوالها، ثم بعد ذلك أشرع في ذكر الصلوات التي تطلبها الأحوال، ومن الله نسأل التأييد والعون.

فصل في الأوقات: ولا أعني بالكلام هنا في الأوقات أوقات الصلوات فقط، وإنما أريد الوقت من حيث ما هو وقت سواء كان لعبادة أو غير عبادة، فإذا عرّفناك بمعناه واعتباره حينئذ نشرع في ذكر الأوقات المشروعة للعبادات فنقول: الوقت عبارة عن التقدير في الأمر الذي لا يقبل وجود عين ما يقدّر وهو الفرض كما تقدّر، أو نفرض في الشكل الكريّ أولاً أو وسطاً أو نهاية، وهو في نفسه وعينه لا يقبل الأولية بالفعل ولا الوسط ولا الآخرية، فيجعل له من ذلك ما نجعله بحكم الفرض فيه والتقدير، فالوقت فرض مقدّر في الزمان لما كان الزمان مستديراً كما خلقه الله في ابتدائه فهو كالأكرة، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَهُ اللَّهُ**» فذكر أن الله خلقه مستديراً والأوقات فيه مقدّرة، فلما خلق الله الفلك الأطلس ودار لم يتعين اليوم ولا ظهر له عين فإنه مثل ماء الكوز في النهر قبل أن يكون في الكوز، فلما فرض فيه الاثني عشر فرضاً ووقتت معينة وسمّاها بروجاً في ذلك الفلك وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ لعلوها علينا ﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [سورة البروج: الآية ١] وهي هذه الفروض الموقتة، ووقف شخص يدور عليه هذا الفلك، وجعل لهذا الشخص بصر عاين بها تلك الفروض بعلامات جعلت له فيها فتميز عنده بعضها عن بعض بتلك العلامات المجعولة دلالات عليها، فجعل عينه في فرض منها أعني في العلامة، ثم دار الفلك بتلك العلامة المفروضة التي جعل عينه عليها هذا الناظر وغابت عنه، وما برح واقفاً في موضعه ذلك حتى انتهت إليه تلك العلامة، فعلم عند ذلك أن الفلك قد دار دورة واحدة بالنسبة إلى هذا الناظر لا بالنسبة إلى الفلك فسمينا تلك الدورة يوماً.

ثم بعد ذلك خلق الله في السماء الرابعة من السبع السموات كوكباً نيراً عظيم الجرم سمّاه باللسان العربي شمساً، فطلع له به في نظره ذلك الفلك من خلف حجاب الأرض الذي هذا الناظر عليها فسمّى ذلك المطلع مشرقاً والطلوع شروقاً لكون ذلك الكوكب المنير طلع منه وأضاء به الجو الذي هذا الناظر فيه، فما زال يتبع بصره حركة ذلك الكوكب إلى أن قارنه فسمّى تلك المقارنة استواء. ثم أخذ الكوكب نازلاً عن استوائه عند هذا الناظر يطلب جهة اليمين منه لا بالنظر إلى الكوكب في نفسه كما قلنا فسمّى أول انفصاله في عين الناظر عن

الاستواء زوالاً ودلوكاً، ثم ما زال هذا الناظر يتبعه بصره إلى أن غاب جرم ذلك الكوكب فسمّي مغيبه غروباً، والموضع الذي رأى بصره أنه غاب فيه مغرباً، وأظلم عليه الجو فسمّى مدة استنارة الجو من مشرق ذلك الكوكب إلى مغربه نهاراً لاتساع النور فيه مأخوذ من النهر الذي هو اتساع الماء في المسيل الذي يجري فيه، فما زال الناظر في ظلمة إلى أن طلع الكوكب المسمّى شمساً من الموضع الذي سمّاه مشرقاً في عين الناظر من موضع آخر متصل بذلك الموضع الذي شرقت منه أمس المسمّى درجة فسمّي مدة تلك الظلمة التي بقي فيها من وقت غروب الشمس إلى طلوعها ليلاً، فكان اليوم مجموع الليل والنهار معاً، وسمّي المواضع التي يطلع منها هذا الكوكب كل يوم درجاً.

ثم نظر إلى هذا الكوكب النيّر المسمّى شمساً ينتقل في تلك الفروض المقدّرة في الفلك المحيط درجة درجة حتى يقطع ذلك بشروق تسمّى أياماً، فكلما أكمل قطع فرض من تلك الفروض شرع في قطع فرض آخر إلى أن أكمل الاثني عشر فرضاً بالقطع. ثم شرع يبتدىء كرة أخرى في قطع تلك الفروض فسمّى ابتداء قطع كل فرض إلى انتهاء قطع ذلك الفرض شهراً، وسمّى قطع تلك الفروض كلها سنة، فتبين لك أن الليل والنهار واليوم والشهر والسنة هي هذه المعبر عنها بالأوقات، وتدق إلى مسمّى الساعات ودونها وأن ذلك كله لا وجود له في عينه وأنه نسب وإضافات، وأن الموجود إنما هو عين الفلك والكوكب لا عين الوقت والزمان، وأنها مقدرات فيها أعني الأوقات.

وتبين لك أن الزمان عبارة عن الأمر المتوهم الذي فرضت فيه هذه الأوقات، فالوقت فرض متوهم في عين موجودة وهو الفلك، والكوكب يقطع حركة ذلك الفلك والكوكب بالفرض المفروض فيه في أمر متوهم لا وجود له يسمّى الزمان، وقد أبنت لك حقيقة الزمان الذي جعله الله ظرفاً للكائنات المتحيزات الداخلة تحت هذا الفلك الموقت فيه المفروض في عينه تعيين الأوقات ليقال: خلق كذا وظهر كذا في وقت كذا ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٢] سبحانه لا إله إلاّ هو الحكيم القدير.

وبعد أن علمت ما معنى الزمان والوقت فاعتبره أي جزء واقطعه إلى معرفة الأزل الذي تنعت به خالقك وتجعله له كالزمان لك، وإذا كان الزمان لك بهذه النسبة أمراً نسبياً لا حقيقة له في عينه وأنت محدود مخلوق فالأزل أبعد، وأبعد أن يكون حدّاً لوجود الله في قولك وقول من قال: إن الله تكلم في الأزل، وقال في الأزل، وقدّر في أزله كذا وكذا، ويتوهم بالوهم فيه أنه امتداد كما تتوهم امتداد الزمان في حقك فهذا من حكم الوهم لا من حكم العقل والنظر الصحيح، فإن مدلول لفظة الأزل إنما هو عبارة عن نفي الأوّلية لله تعالىٰ أي: لا أوّل لوجوده بل هو عين الأوّل سبحانه لا بأولية تحكم عليه فيكون تحت إحاطتها ومعلولاً عنها، وفرّق بين ما يعطيه وهمك وعقلك، وأكثر من هذا البسط في هذه المسألة ما يكون، فالحق سبحانه يقدّر الأشياء أزلاً ولا يقال يوجد أزلاً فإنه محال من وجهين: فإن كونه موجداً إنما هو بأن يوجد، ولا يوجد ما هو موجود، وإنما يوجد ما لم يكن موصوفاً لنفسه بالوجود وهو

المعدوم، فمحال أن يتصف الموجود الذي كان معدوماً بأنه موجود أزلاً، فإنه موجود عن موجود أوجده، والأزل عبارة عن نفي الأولية عن الموصوف به، فمن المحال أن يكون العالم أزلي الوجود، ووجوده مستفاد من موجده وهو الله تعالىٰ. والوجه الآخر من المحال الذي يقال في العالم أنه موجود أزلاً لأن معقول الأزل نفي الأوّلية والحق هو الموصوف به، فيستحيل وصف وجود العالم بالأزل لأنه راجع إلى قولك: العالم مستفيد الوجود من الله غير مستفيد الوجود من الله، لأن الأوّلية قد انتفت عنه بكونه أزلاً، فيستحيل على العالم أن يتصف بهذا الوصف السلبيّ الذي هو الأزل، ولا يستحيل الموصوف به وهو الحق أن يقال: خلق الخلق أزلاً بمعنى قدّر فإن التقدير راجع إلى العلم، وإنما يستحيل إذا كان خلق بمعنى أوجد فإن الفعل لا يكون أزلاً، فقد ثبت لك التقدير في الأزل كما ثبت لك التقدير في الزمان، وأن الزمان متوهم لا وجود له، وكذلك الأزل وصف سلبيّ لا وجود له فإنه ما هو عين الله وما ثم إلاّ الله، وما هو أمر وجوديّ يكون غير الحق ويكون الحق مظروفاً له، فيحصره من كونه ظرفاً كما يحصرنا الزمان من كونه ظرفاً لنا على الوجه الذي ذكرناه فافهم، وبعد أن عرّفتك معنى الأوقات فلنرجع ونبيّن المراد بأوقات العبادات ومن العبادات أوقات الصلوات.

فصل في أوقات الصلوات: فنقول: أوقات الصلاة منها معين وغير معين، فغير المعين وقت تذكر الناسي واستيقاظ النائم فإن وقته عندما يتذكر إن كان ناسياً، أو يستيقظ إن كان نائماً، والوقت المعين على قسمين: قسم مخلص وقسم مشترك، فالمخلص وسط الوقت الموسّع في الصلوات كلها وآخر وقت الصبح وأول وقت الظهر فإنه لا يقع فيما ذكرناه اشتراك لصلاة أخرى كما يقع في أواخر الصلوات الأربع. والمشترك هو الوقت الذي بين الصلاتين كالظهر والعصر وغيرهما بالخلاف المذكور المعلوم في ذلك عند علمائنا من علماء الشريعة نذكر ذلك في موضعه إن شاء الله عند كلامنا في أوقات الصلوات كلها صلاة صلاة على التفصيل.

اعتباره: قلنا المصلي هو الثاني من السابق في الحلبة وأن الصلاة ثانية في المرتبة من شهادة التوحيد وقد قال الحق سبحانه: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين. فجعله في حال الصلاة ثانياً له في القسمة الإلهية فقال في الصلاة مطلقاً وما قيّد فرضاً من تطوّع. وقد قلنا: إن الوقت منه معين وهو في الاعتبار الفرض، وغير معين وهو في الاعتبار التطوّع، فالعارف الذي هو على صلاته دائم وفي مناجاته بين يدي ربه قائم في حركاته وسكناته، فما عنده وقت معين ولا غير معين بل هو صاحب الوقت، ومن ليس له هذا المشهد فهو بحسب ما يذكره ربه من الحضور معه، غير أن العارف الدائم الحضور إذا لم يفرّق بين الأوقات بما يجده من المزيد والفضل بين ما هو مفروض من ذلك الحضور وبين ما تطوّع به من نفسه فهو ناقص المقام كامل الحال لاستصحابه الحضور الدائم، فإن الحضور من الأحوال لا الحضور من وجه كذا، فإن الحضور من وجه كذا للكمل من الرجال، فالأول من أهل الحضور لا فرق عنده بين الوجوه لأنه مستغرق في الحال كاللذة المجهولة عند الإنسان التي لا يعرف سببها.

والثاني من أهل الحضور وهو الكامل الدائم الحضور بحكم الوجوه كالواجد للذة بما هي لذة فهو ملتذ دائماً، وبما هي لذّة عن طعم علم، أو طعم جماع أو طعم شيء ملائم للمزاج يعلم الذائق ذلك ما بينهنّ من التمييز والفرقان، فإن أسماء الحق تعالىٰ تختلف على قلوب الأولياء بفنون المعارف مع الآيات والأنفاس، فيجد في كل نفس وزمان علماً لم يكن عنده بربه من حيث ما يعطيه ذلك النفس والزمان من تجلّي ذلك الاسم الخاص به.

ولما قسمنا الأوقات إلى مخلص ومشترك فاعلم أن الوقت في هذا الطريق هو ما أنت به في حالك أيّ شيء كنت به من حسن وسيىء ومعرفة وجهل فلا يرتبط، وكذلك الأوقات الزمانية بحسب ما يحدث الله فيها في حق كل شخص، فالمخلص من الأوقات كل اسم إذا ورد عليك لم يقع في حكمه اشتراك، والمشترك كل اسم له وجهان فصاعداً، فالأوّل كالحيّ فإنه مخلص للحياة، وكذلك العالم مخلص للعلم. والثاني الذي هو المشترك نظير الوقت المشترك كالاسم الحكيم فإن له وجهاً إلى العالم ووجهاً إلى المدبر، فإن للاسم الحكيم حكمين: حكماً على مواضع الأمور وحكم وضعها في مواضعها بالفعل، فكم من عالم لا يضع الشيء في موضعه، وكم واضع للأشياء في مواضعها بحكم الاتفاق لا عن علم، فالحكيم هو العالم بمواضع الأمور ووضعها في أماكنها على بصيرة، فمن كان وقته الحكمة كان في الوقت المشترك، ومن كان في اسم لا يدل إلاّ على أمر واحد كالقادر وأمثاله كان في الوقت المخلص، فهذه أوقات العارفين في صلواتهم المعنوية على مثال أوقاتهم الظاهرة في صلواتهم البدنية.

فصل في وقت صلاة الظهر: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٣] أي مفروضة في وقت معين، سواء كان موسعاً أو مضيقاً فإنه معين ولا بدّ بقوله موقوتاً، فمن أخرج صلاة مفروضة عن وقتها المعين له كان ما كان من ناس أو متذكر فإنه لا يقضيها أبداً ولا تبرأ ذمّته فإنه ما صلّى الصلاة المشروعة إذ كان الوقت من شروط صحة تلك الصلاة، فليكثر النوافل بعد التوبة، ولا قضاء عليه عندنا لخروج وقتها الذي هو شرط في صحتها، ووقت الناسي والنائم وقت تذكره واستيقاظه من نومه وهو مؤدّ ولا بدّ لا يسمّى قاضياً على الاعتبار الذي يراه الفقهاء لا على ما تعطيه اللغة، فإن القاضي والمؤدّي لا فرق بينهما في اللسان، فكل مؤدّ للصلاة فقد قضى ما عليه فهو قاض بأدائه ما تعين عليه أداؤه من الله فلنقل.

أمّا وقت صلاة الظهر فاتفق العلماء بالشريعة أن وقت الظهر الذي لا تجوز قبله هو الزوال، واختلفوا منها في موضعين في آخر وقتها الموسع وفي وقتها المرغب فيه. فأمّا آخر وقتها الموسّع فمن قائل: هو أن يكون ظل كل شيء مثله، ومن أصحاب هذا القول من يقول: إن ذلك المثل الذي هو آخر وقت الظهر هو أوّل وقت العصر، ومن قائل منهم: إنه آخر وقت الظهر خاصة، فإن أوّل وقت العصر إنما هو المثلان، وأن ما بين المثل والمثلين لا يصلح لصلاة الظهر. وأمّا وقتها المرغب فيه، فمن قائل: أوّل الوقت للمنفرد أفضل. ومن

قائل: أوّل الوقت أفضل للمنفرد والجماعات إلاّ في شدّة الحرّ. ومن قائل: أوّل الوقت أفضل بإطلاق في انفراد وجماعة وحرّ وبرد، ولكل قائل استدلال ليس هذا موضعه اعتباره الاستواء هو وقوف العبد المربوب في محل النظر من غير ترجيح فيما يعمل أي بأي نية يقصد العبادة هل يعتبر بذلك أداء ما يلزمه من حق العبودية وكونه مربوباً؟ أو يعتبر ما يلزمه بذلك من أداء حق سيده وربه؟ فهو في حال الاستواء من غير ترجيح، فإذا زالت الشمس ترجح عند ذلك الزوال عنده أن يعبده لما تستحقه الربوبية على العبودية من الإنعام على هذا العبد من وقت الطلوع إلى وقت الاستواء فيعبده شكراً لهذه النعمة، وإن نظر إلى زوالها بعين المفارقة لطلب الغروب عنه وإسدال الحجاب دونه عبده ذلّة وفقراً وانكساراً وطلباً للمشاهدة، فلا يزال يرقبها إلى الغروب، ومن الغروب يرقب آثارها بصلاة المغرب، والتنفّل بعدها إلى مغيب الشفق فيغيب أثرها فيبقى في ظلمة الليل سائلاً باكياً متضرّعاً يراعي نجوم الليل لاستنارتها بنور الشمس ويسأل ويتضرّع إلى طلوع الفجر فيرى آثار المجيء وقبول دعائه فيعبده شكراً على ذلك وهو يشاهد آثار القبول فيؤدّي فرض الصبح، ولا يزال مراقباً بالذكر إلى أن تنجلي طالعة فإذا ابيضت وزال عنها التغيّر الذي يحول بين البصر وبين بياضها من حجب أبخرة الأرض وهي الأنفاس الطبيعية قام إجلالاً على قدم الشكر إلى حد الاستواء، فلا يزال في عبادة الفرح والشكر إلى أن تزول فيرجع إلى عبادة الصبر والإفتقار وتوقّع المفارقة ما دام حياً فهو بين عبادتين، وذلك أنه لما سمع الرسول ﷺ يقول: «**تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ**» فاعتبر ذلك في عبادته في صلواته المفروضة والتطوّع شكراً وفقراً بين نعمة وبلاء وشدّة ورخاء، فإن المؤمن من استوى خوفه ورجاؤه فهو يدعو به خوفاً من حد الزوال إلى الغروب الشفقي وطمعاً بقية ليلته إلى طلوع الفجر إلى طلوع الشمس إلى حدّ الاستواء طمعاً أن لا يكون حجاب بعد ذلك، هكذا هي عبادات العارفين فافهم.

فأما آخر الوقت الموسع فهو آخر أحكام الاسم الإلهي المخصوص بذلك الوقت وهو الاسم الظاهر، كما أن أول الزوال حكم الاسم الإلهي الأول في الظهور الخاص بالعبادة المشروعة إلى أن يكون ظل كل شيء مثله وهو آخر الوقت، كذلك حكم الاسم الإلهيّ إذا قام به هذا العبد في عبادته الخاصة به في هذا الوقت واستوفاه بحيث أن يكون إذا قابله به كان مثله أي لم يبق في الاسم الإلهي حكم يختص به بهذا الوقت إلاّ وأثره ظاهر في هذا العبد، فقد انقضى حكم هذا الاسم الإلهي في هذا العبد، فخرج وقت الظهر ودخل وقت العصر وهو حكم اسم آخر بين الاسمين فرقان متوهم لا ينقسم معقول غير موجود وهو برزخ بينهما، قال رسول الله ﷺ في الحديث الثابت عنه: «**لاَ يَخْرُجُ وَقْتُ صَلاَةٍ حَتَّى يَدْخُلَ وَقْتُ الأُخْرَى**». يعني في الأربع الصلوات لدليل آخر، فإنه إذا خرج وقت الصبح لم يدخل وقت الظهر حتى تزول الشمس بخلاف الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح فاعلم ذلك، فإن اليوم أربع وعشرون ساعة وهو أربعة أرباع كل ربع ست ساعات، فمن طلوع الشمس إلى الظهر ربع اليوم ست ساعات وليس بمحل لصلاة مفروضة بحكم التعيين، وإنما قلنا بحكم التعيين من

أجل الناسي والنائم، فإن الوقت ما عين إيقاع الصلاة في ذلك الوقت وإنما عينه للناسي تذكره وللنائم تيقظه شرعاً، فسواء كان في ذلك الوقت أو في غيره، فلهذا حررنا القول في ذلك وقلنا بحكم التعيين، فإن مذهبي في كل ما أورده أني لا أقصد لفظة بعينها دون غيرها ممّا يدل على معناها إلاّ لمعنى، ولا أزيد حرفاً إلاّ لمعنى، فما في كلامي بالنظر إلى قصدي حشو، وإن تخيّله الناظر فالغلط عنده في قصدي لا عندي، وكان من زوال الشمس إلى طلوعها من اليوم الثاني وقتاً مستصحباً لصلوات معينة مفروضة فيها متى وقعت وقعت في وقتها المعين لها.

كذلك الإنسان مقسم على أربعة أرباع الثلاثة الأرباع منه متعبدة لله بأعمال مخصوصة كالثلاثة الأرباع من اليوم، فأرباع الإنسان ظاهره وباطنه الذي هو قلبه ولطيفته التي هي روحه المخاطب منه وطبيعته، فظاهره وقلبه وروحه لا ينفك عن عبادة أصلاً تتعلق به، فإما أن يطيع وإما أن يعصي، والربع الواحد طبيعته وهو مثل زمان طلوع الشمس إلى الزوال من اليوم فهو يتصرف بطبعه مباحاً له ذلك لا حرج عليه إلاّ إن شاء أن يلحقها بسائر أرباعه في العبادات، فيعمل المباح له عمله من كونه مباحاً شرعاً ويحضر مع الإيمان به كالمصلي من طلوع الشمس وإضاءتها إلى أول الزوال أعني الاستواء فلا يمنع من ذلك وهو ليس بوقت وجوب لشيء من الصلوات الخمس معين فافهم.

وأما اعتبار الوقت المرغب فيه على ما ذكرناه من الاختلاف، واتفق الكل على الأولية أو الأكثر واختلفوا في الأحوال، فاعلم أن الأول أفضل الأشياء وأعلاها لأنه لا يكون عن شيء بل تكون الأشياء عنه، فلو كان عن شيء لم تصحّ له الأولية على الإطلاق، فكذلك العبد يسعى في أن يعبد ربه من حيث أولية ربّه لا من حيث أولية عينه فإن أولية عينه عن أوليات كثيرة قبله وأعني بذلك الأسباب، فهو سبحانه السبب الأول الذي لا سبب لأوليته، فإذا عبده العارف في تلك الأولية المنزّهة عن أن يتقدمها أولية انسحبت عبادة هذا العارف من هناك على عبادة كل مخلوق خلقه الله من أول المخلوقات إلى حين وجوده وهي الأولية المؤثرة في إيجاد الكائنات، فقد عبده في الوقت المرغب فيه سواء عبده بصفة خاصة من أعضائه المكلفة كصلاة الفذ المنفرد، أو عبده بجميع أعضائه كصلاة الجماعة، أو في زمان الحرّ أي في شدة خوفه ومجاهدته وحرقة اشتياقه ووجده وولهه وكلفه، أو في برد أي في حال علمه وثلج يقينه وبرده على أي حالة كان فالأولية أفضل له فإن الله يقول آمراً **سارعوا** و ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢١] وأثنى على من هذه حالته فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٦١] فالمبادرة إلى أول الأوقات في العبادات هو الأحوط والمطلوب من العباد في حال التكليف. ولهذا الاحتراز والاحتياط يحمل الأمر الإلهي إذا ورد معرى عن قرائن الأحوال التي يفهم منها الندب أو الإباحة على الوجوب، ويحمل النهي كذلك على الحظر إذا تعرى عن قرينة حال تعطيك الكراهة.

ولا تتوقف عن حمل الأمر والنهي على ما قلناه إلاّ بقرينة حال تخرجهما عن حكم

الوجوب في الأمر وحكم الحظر في النهي، فقد بان لك يا أخي اعتبار الأوقات مطلقاً واعتبار الوقت المرغب فيه بعد أن عرفناك بمذاهب علماء الشريعة فيه للجمع بين العبادتين الظاهرة في حسّك والباطنة في عقلك فتكون من أهل الجمع والوجود، فإنك إذا طلبت الطريق إلى الله من حيث ما شرّعه الله كان الحق الذي هو المشرع غايتك، وإذا طلبته من حيث ما تعطيه نفسك من الصفاء والالتحاق بعالمها من التنزّه عن الحكم الطبيعي عليها كان غايتها الالتحاق بعالم الروحاني خاصة، ومن هناك تنشأ لها شرايع الأرواح تسلك عليها وبها حتى يكون الحق غايتها، هذا إن فسح الله له في الأجل وإن مات فلن يدرك ذلك أبداً، وقد أفردنا لهذه الطريقة خلوة مطلقة غير مقيدة في جزء يعمل عليها المؤمن فيزيد إيماناً ويعمل بها وعليها غير المؤمن من كافر ومعطل ومشرك ومنافق، فإذا وفى العمل عليها وبها كما شرطناه وقررناه فإنه يحصل له العلم بما هو الأمر عليه في نفسه ويكون ذلك سبب إيمانه بوجود الله إن كان معطلاً، وبتوحيد الله إن كان مشركاً، وبحصول إيمانه إن كان كافراً، وبإخلاصه إن كان منافقاً أو مرتاباً، فمن دخل تلك الخلوة وعمل بتلك الشرائط كما قررنا أثمرت له ما ذكرنا، وما سبقني إليها أحد في علمي إلاّ إن كان وما وصل إليّ فإن الله لا تحجير عليه ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩] فإني أعلم أن أحداً من أهل الطريق ما يجهلها إن كان صاحب كشف تام، ولكن ما ذكروها ولا رأيت أحداً منهم نبّه عليها إلاّ الخلوات المقيدة، ولولا ما سألني فيها أخونا وولينا أبو العباس أحمد بن علي بن ميمون بن آب التوزري ثم المصري المعروف بالقسطلاني المجاور الآن بمكة ما خطر لنا الإبانة عنها، فربما اتفق لمن تقدمنا مثل هذا فلم ينبهوا عليها لعدم السائل.

فصل بل وصل في وقت صلاة العصر: اختلف علماء الشريعة في أول وقتها مع آخر وقت صلاة الظهر وفي آخر وقت صلاة العصر، فمن قائل: إن أول وقت العصر هو بعينه آخر وقت الظهر وهو إذا صار ظل كل شيء مثله، واختلف القائلون بهذا القول، فمن قائل: إن ذلك الوقت مشترك للصلاتين معاً ومقداره أن يصلي فيه أربع ركعات إن كان مقيماً أو ركعتين إن كان مقصراً. ومن قائل: آخر وقت الظهر هو الآن الذي هو أول وقت العصر وهو زمان لا ينقسم، جاء الحديث الثابت في إمامة جبريل عليه السلام بالنبي ﷺ: «أَنَّهُ صَلَّى الظُّهْرَ فِي اليَوْمِ الثَّانِي فِي الوَقْتِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ العَصْرَ فِي اليَوْمِ الأَوَّلِ» وفي الحديث الثابت الآخر: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**آخِرُ وَقْتِ الظُّهرِ مَا لَمْ يَدْخُلْ وَقْتُ العَصْرِ**» وحديث آخر ثابت: «**لاَ يَخْرُجُ وَقْتُ صَلاَةٍ حَتَّى يَدْخُلَ وَقْتُ صَلاَةٍ أُخْرَى**». فالحديث الأول يعطي الاشتراك في الوقت، والحديثان الآخران يعطي الزمان الذي لا ينقسم فيرفع الاشتراك، والقول هنا أقوى من الفعل لأن الفعل يعسر الوقوف على تحقيق الوقت به وهو من قول الصاحب على ما أعطاه نظره، وقول النبي ﷺ يخالف ما قال الصاحب وحكم به على فعل صلاة جبريل عليه السلام بالنبي ﷺ، فيكون كلام رسول الله ﷺ مفسراً للفعل الذي فسّره الراوي، والأخذ بقول رسول الله ﷺ هو الذي أمرنا الله أن نأخذ به، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾

[سورة الحشر: الآية ٧] فكان ينبغي في هذه المسألة وأمثالها أن لا يتصور خلاف ولكن الله جعل هذا الخلاف رحمة لعباده واتساعاً فيما كلفهم به من عبادته، لكن فقهاء زماننا حجروا وضيّقوا على الناس المقلدين للعلماء ما وسّع الشرع عليهم فقالوا للمقلّد: إذا كان حنفي المذهب لا تطلب رخصة الشافعي فيما نزل بك، وكذلك لكل واحد منهم، وهذا من أعظم الرزايا في الدين والحرج والله يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨].

والشرع قد قرّر حكم المجتهد له في نفسه ولمن قلّده، فأبوا فقهاء زماننا ذلك وزعموا أن ذلك يؤدي إلى التلاعب بالدين وهذا غاية الجهل منهم، فليس الأمر والله كما زعموا مع إقرارهم على أنفسهم أنهم ليسوا بمجتهدين ولا حصلوا في رتبة الاجتهاد ولا نقلوا عن أئمتهم أنهم سلكوا هذا المسلك، فأكذبوا أنفسهم في قولهم إنهم ما عندهم استعداد الاجتهاد، والذي حجروه على المقلدين ما يكون إلاّ بالاجتهاد نعوذ بالله من العمى والخذلان، فما أرسل الله رسوله ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٧] وأي رحمة أعظم من تنفيس هذا الكرب المهم والخطب الملم.

وأما آخر وقت العصر، فمن قائل: إن آخر وقتها أن يصير ظل كل شيء مثليه. ومن قائل: إن آخر وقتها ما لم تصفر الشمس. ومن قائل: إن آخر وقتها قبل أن تغرب الشمس بركعة، وبه أقول الاعتبار قد تقدم الاعتبار في الوقت المشترك بالأسماء الإلهية في حق المتخلق بها من أهل الله وغير المشترك فليؤخذ في كل الصلوات مطلقاً، وما بقي من الاعتبار في هذا الفصل إلاّ الاعتبار في الآن الذي لا ينقسم وفي الاصفرار، أما اعتبار الآن الفاصل بين الوقتين فهو المعنى الفاصل بين الاسمين اللذين لا يفهم من كل واحد منهما اشتراك، فظهر حكم كل اسم منهما على الانفراد وهو حد الواقف عندنا، فإن الإنسان السالك إذا انتقل من مقام قد احتكمه وحصله تخلقاً وذوقاً وخلقاً إلى مقام آخر يريد تحصيله أيضاً يوقف بين المقامين وقفة يخرج حكم تلك الوقفة عن حكم المقامين عن حكم المقام الذي انتقل عنه، وعن حكم المقام الذي يريد الانتقال إليه يعرف في تلك الوقفة بين المقامين وهو كالآن بين الزمانين آداب المقام الذي ينتقل إليه، وما ينبغي أن يعامل به الحق، فإذا أبين له عنه دخل في حكم المقام الذي انتقل إليه على علم، فإن المقامات في هذا الطريق كأنواع الأعمال في الشريعة مثل الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك، فكما أن لكل نوع من هذه الأعمال علم يخصّه، كذلك لكل مقام آداب ومعاملة تخصّه، وقد بيّن ذلك محمد بن عبد الجبار النفري في كتابه الذي سمّاه بالمواقف والقول وقفت على أكثره وهو كتاب شريف يحوي على علوم آداب المقامات، يقول في ترجمة الموقف اسم الموقف يقول في انتقاله إلى موقف العلم مثلاً وهو من جملة مواقفه في ذلك الكتاب فقال: موقف العلم، ثم قال: أوقفني في موقف العلم وقال لي: يا عبدي لا تأتمر للعلم ولا خلقتك لتدل على سواي، ثم قال: قال لي الليل لي لا للقرآن يتلى الليل لي لا للمحمدة والثناء إلى أن ينتهي إلى جميع ما يوقفه الحق عليه، فإذا عرف حينئذ يدخل إلى ذلك المقام وهو يعرف كيف يتأدّب مع الحق في ذلك المقام،

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَنِي فَحَسَّنَ أَدَبِي**» فهذا هو الآن الذي بين الصلاتين، فأهل الأذواق من أهل الله يوقفون فيه فيعطون آداب الصلاة التي ينبغي أن يعامل الله بها في ذلك اليوم الخاص، هكذا في صلوات كل يوم مع الله في مقام العلم، فهذا هو الآن الذي بين الصلاتين.

وأمّا اعتبار الاصفرار في أنه الحد الآخر وقت العصر فاعلم أولاً أن الاصفرار تغيير يطرأ في عين الناظر فيحكم به أنه في نور الشمس من أبخرة الأرض الحائلة بين البصر وبين إدراك خالص نور الشمس، فاعتباره ما يطرأ في نفس العبد في حكم الاسم الإلهيّ الحق من الخواطر النفسية العرضية في نفس ذلك الحكم فينسبه إلى الحق بوجه غير مخلص، وينسبه إلى نفسه بوجه غير مخلص، ويقع مثل هذا في الطريق من الأديب ومن غير الأديب. فأمّا وقوعه من الأديب فهو الذي يعرف أن النور في نفسه لم يصفرّ ولا تغير، وهو أن يعلم أن الحكم للاسم الإلهيّ مخلص لا حكم للنفس معه، وإنما هو ذلك الحكم ربما تعلق عنده اسم عيب عرفاً أو شرعاً، فينزّه جناب الحق تعالىٰ عن ذلك الحكم بأن ينسبه إليه ولكن بمشيئة الله ويقول: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٨٠] هذا هو العيب عرفاً فأضاف المرض إلى نفسه إذ كان عيباً عنده، وأضاف الشفاء إلى ربه إذ كان حسناً، ومع هذا القصد فإن الظاهر في اللفظ إزالة حكم الاسم الإلهيّ الذي أمرضه، فلما علم الخليل عليه السلام هذا القدر نادى ذلك الاسم الذي أمرضه بقوله: ﴿وَالَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ الدِّينِ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٨٢] يقول: إنه أخطأ وإن كان قصد الأدب حيث نسب المرض لنفسه وما نسبه إلى حكم الاسم إلهيّ الذي أمرضه وما قصد إلاّ الأدب معه حتى لا يضيف ما هو عيب عندهم عرفاً إلى حكم الاسم الإلهي.

فيفهم من هذا الاعتراف أن الحكم كان للاسم الإلهي وهو كان مقصود الاسم، فجمع هذا العارف بين أدبين في هذه المسألة بين أدب نسبة المرض إلى نفسه، وبين الأدب في التعريف أن ذلك المرض حكم ذلك الاسم الإلهيّ من غير تصريح لكن بالتضمين والإجمال في قوله: ﴿وَالَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ الدِّينِ﴾ ولم يسم الخطيئة ما هي يوم الدين، يقول: يوم الجزاء، وهكذا في قوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا الشَّيْطَـٰنُ﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٣] وهو قول يوشع فتى موسىٰ لموسىٰ عليهما السلام، وفي الحقيقة ما أنساه إلاّ اسم إلهيّ حكم عليه بذلك فأضافه إلى الشيطان أدباً مع ذلك الاسم الإلهي الذي أنساه أن يعرّف موسىٰ عليه السلام بحياة الحوت لما أراد الله من تمام ما سبق به العلم الإلهيّ من زيادة الأقدام التي قدّر له أن يقطع بها تلك المسافة ويجاوز بها المكان الذي كان فيه خضر ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٤] أي يتبعان الأثر إلى أن عادا إلى المكان فوجداه، تنبيهاً من الله وتأديباً لما جاوزه من الحدّ في إضافته العلم إلى نفسه بأنه أعلم من في الأرض في زمانه، فلو كان عالماً لعلم دلالة الحق التي هي عين اتخاذ الحوت سرباً وما علم ذلك وقد علمه يوشع ونساه الله التعريف بذلك ليظهر لموسىٰ تجاوزه الحدّ في دعواه ولم يردّ ذلك إلى الله في علمه في خلقه القصة إلى آخرها وفيها ما يتعلق باعتبار الصفرة التي دخلت على نور الشمس في قوله في قتل

الغلام: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ [سورة الكهف: الآية ٨١] فجعل الضمير يعود على الاسم الإلهيّ وعليه على الاسم الإلهيّ بما كان في ذلك القتل من الرحمة بالأبوين وبالغلام وعليه بقتل ﴿نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [سورة الكهف: الآية ٧٤] فظاهره جور فشرّك في الضمير بينه وبين الله فدخل في نسبة الفعل إلى الله في الظاهر اصفرار أي تغيير باشتراك اسم الخضر في الضمير معه مع قصد الأدب، ثم قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] أي الحق علمني الأدب معه.

فهذا قد أبنت لك اعتبار الآن واصفرار الشمس فأطرده حيث وجدت معنى الآن الفاصل بين الزمانين، والصفرة التي دخل على النور الخالص من اسمه النور سبحانه مثل قوله تعالىٰ بأنه ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ فلما لم يطلق على نفسه اسم النور المطلق الذي لا يقبل الإضافة وقال: ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] ليعلمنا ما أراد بالنور هنا، فأثر حكم التعليم والإعلام في النور المطلق الإضافة فقيدته عن إطلاقه بالسموات والأرض فلما أضافه نزل عن درجة النور المطلق في الصفة فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي صفة نوره يعني المضاف إلى السموات والأرض ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ إلى أن ذكر المصباح ومادّته وأين صفة نور السراج وإن كان بهذه المثابة من صفة النور الذي أشرقت به السموات والأرض، فعلمنا سبحانه في هذه الآية الأدب في النظر في أسمائه إذا أطلقناها عليه بالإضافة كيف نفعل، وإذا أطلقناها عليه بغير الإضافة كيف نفعل مثل قوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ فأضاف النور هنا إلى نفسه لا إلى غيره، وجعل النور المضاف إلى السموات والأرض هادياً إلى معرفة نوره المطلق، كما جعل المصباح هادياً إلى نوره المقيد بالإضافة، وتمّم ذلك بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] ثم نهانا عن مثل هذا فقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٧٤] والله اسم جامع لجميع الأسماء الإلهية محيط بمعانيها كلها، وضرب الأمثال يخصّ اسماً واحداً معيناً، فإن ضربنا الأمثال لله وهو اسم جامع شامل فما طبقنا المثال على الممثل، فإن المثال خاص والممثل به مطلق، فوقع الجهل بلا شك فنهينا أن نضرب المثل من هذا الوجه إلاّ أن نعين اسماً خاصاً ينطبق المثل عليه، فحينئذ يصحّ ضرب المثل لذلك الاسم الخاص كما فعل الله في هذه الآية فقال: «لله» وما ضرب المثل للاسم ﴿ٱللَّهِ﴾ وإنما عيّن سبحانه اسماً آخر وهو قوله ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ فضرب المثل بالمصباح لذلك الاسم النور المضاف أي هكذا فافعلوا، ولا تضربوا الأمثال لله فإني ما ضربتها، فافهموا فهمنا الله وإياكم مواقع خطابه وجعلنا ممّن تأدّب بما عرفناه من آدابه إنه اللطيف بأحبابه.

فصل بل وصل في وقت صلاة المغرب الشاهد: اختلف علماؤنا في وقت صلاة المغرب هل لها وقت موسع كسائر الصلوات أم لا؟ فمن قائل: إن وقتها واحد غير موسّع. ومن قائل: إن وقتها موسّع وهو ما بين غروب الشمس إلى مغيب الشفق وبه أقول: اعتبار الباطن في ذلك: اعلم أنه إنما وقع الاختلاف لما كانت صلاة المغرب وتراً والوتر أحديّ الأصل، فينبغي أن يكون لها وقت واحد من أجل المناسبة في الوترية، ولذلك ورد في إمامة جبريل عليه السلام برسول الله ﷺ أنه صلّى المغرب في اليومين في وقت واحد في أوّل

فرض الصلوات، لأن الملك أقرب إلى الوترية من البشر، والمغرب وتر صلاة النهار كما أخبرنا رسول الله ﷺ وذلك قبل أن يزيدنا الله وتر صلاة الليل أن الله قد زادكم صلاة إلى صلاتكم وذكر صلاة الوتر فأوتروا يا أهل القرآن، فشبهها بالفرائض وأمر بها، ولهذا جعلها من جعلها واجبة دون الفرض وفوق السنّة وأثم من تركها ونعم ما نظر وتفقه.

ولما رأى النبيّ ﷺ أن الله قد شرّع وتر صلاة الليل وزاده إلى الصلاة المفروضة وفيها المغرب وهو وتر صلاة النهار وقال: «**إِنَّ اللَّهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ**» فقيد المغرب بوترية صلاة النهار، وقيد الوتر بوترية صلاة الليل، وقال: «**إِنَّ اللَّهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ**» يعني يحب الوتر لنفسه، فشرع لنا وترين ليكون شفعاً، لأن الوترية في حق المخلوق محال، قال تعالىٰ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٤٩] حتى لا تنبغي الأحدية إلاَّ لله.

ولما رأى رسول الله ﷺ أن الله قد شرع وتر صلاة الليل ليشفع به وتر صلاة النهار لينفرد سبحانه بحقيقة الوترية التي لا تقبل الشفعية فإنه ما ثم في نفس الأمر إله آخر يشفع وترية الحق تعالىٰ كما شفعت وترية صلاة الليل وترية صلاة النهار فكان ممّا قال فيه: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٤٩] فخلق وترين فكان كل واحد منهما يشفع وترية صاحبه ولهذا لم يلحقها رسول الله ﷺ بصلاة النافلة بل قال: «**زَادَكُمْ صَلاةً إِلَى صَلاتِكُمْ**» يعني الفرائض ثم أمر بها أمّته. فلما سُئِل رسول الله ﷺ بعد إمامة جبريل عليه السلام به ﷺ عن وقت الصلاة صلّى بالناس يومين صلّى في اليوم الأول في أول الأوقات وصلّى في اليوم الثاني في آخر الأوقات الصلوات الخمس كلها وفيها المغرب ثم قال للسائل: «**الوقت ما بين هذين**» فجعل للمغرب وقتين كسائر الصلوات وألحقها بالصلاة الشفعية وإن كانت وتراً ولكنها وتر مفيد شفعية وتر صلاة الليل فوسّع وقتها كسائر الصلوات، وهو الذي ينبغي أن يعوّل عليه فإنه متأخر عن إمامة جبريل فوجب الأخذ به، فإن الصحابة كانت تأخذ بالأحدث فالأحدث من فعل رسول الله ﷺ، وإن كان ﷺ كان يثابر على الصلاة في أول الأوقات فلا يدل ذلك على أن الصلاة ما لها وقتان وما بينهما فقد أبان عن ذلك وصرّح به وما عليه ﷺ إلاَّ البلاغ والبيان، وقد فعل ﷺ، فهذا اعتبار وتعليل، يهدي إلى الحق وإلى سواء السبيل.

فصل بل وصل في وقت صلاة العشاء الآخرة: اختلفت علماء الشريعة في وقتها في موضعين: في أول وقتها وآخر وقتها، فمن قائل: أن أول وقتها مغيب حمرة الشفق وبه أقول. ومن قائل: أن أول وقتها مغيب البياض الذي يكون بعد الحمرة. والشفق شفقان وهو سبب الخلاف، فالشفق الأول صادق والبياض الذي بعده هو الشفق الثاني تقع فيه الشبهة فإنه قد يشبه أن يكون شبه الفجر الكاذب الذي هو ذنب السرحان وهو المستطيل وجعله الشارع من الليل، ولا يجوز بظهوره صلاة الصبح، ولا يمنع مريد الصوم من الأكل، ويشبه أن يكون شبيه الفجر المستطير الذي يصلى بظهوره صلاة الصبح، ولا يجوز للصائم أن يأكل بظهوره، إلاَّ أن الأظهر عندي أنه شبيه الفجر المستطير الذي يصلي بظهوره الصبح وذلك لاتصاله بالحمرة إلى طلوع الشمس لا ينقطع بظلمة كما ينقطع الفجر الكاذب، كذلك البياض الذي في

أول الليل متصل بالحمرة فإذا غابت الحمرة بقي البياض، فلو كانت بين البياض والحمرة ظلمة قليلة كما يكون بين الفجر المستطيل وحمرة إسفار الصبح كنّا نلحقها بالفجر الكاذب ونلغي حكمها، فكان والله أعلم أن الذي يراعي مغيب البياض في أول وقت العشاء أوجه، ولكن إذا ثبت أن الشارع صلّى في البياض بعد مغيب الشفق الأحمر فنقف عنده فللشارع أن يعتبر البياض والحمرة التي تكون في أول الليل بخلاف ما نعتبرها في آخر الليل، وإن كان ذلك عن آثار الشمس في غروبها وطلوعها. وأمّا قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [سورة التكوير: الآية ١٨] فالأوجه عندي في تفسيره أنه الفجر المستطيل لانقطاعه كما ينقطع نفس المتنفس ثم بعد ذلك تتصل أنفاسه. وأمّا آخر وقتها، فمن قائل: أنه ثلث الليل. ومن قائل: أنه إلى نصف الليل ومن قائل: أنه إلى طلوع الفجر وبه أقول، ولقد رأيت قولاً ولا أدري من قاله ولا أين رأيته أن آخر وقت صلاة العشاء ما لم تنم ولو سهرت إلى طلوع الفجر.

الاعتبار في الباطن في ذلك الاعتبار في أول وقت هذه الصلاة وآخره: اعلم أن العالم قد قسمه الحق على ثلاث مراتب، وقسّم الحق أوقات الصلوات على ثلاث مراتب، فجعل عالم الشهادة وهو عالم الحسّ والظهور هو بمنزلة صلاة النهار، فأناجي الحق بما يعطيه عالم الشهادة والحسّ من الدلالة عليه وما ينظر إليه من الأسماء وقد قال رسول الله ﷺ في مثل هذا: «**إِنَّ اللَّهَ قَالَ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**» يعني في الصلاة، فناب العبد هنا مناب الحق وهذا من الاسم الظاهر، فكأن الحق ظهر بصورة هذا القائل سمع الله لمن حمده، وكذلك قوله تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ في حق الأعرابيّ: ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] وهو ما سمع إلاّ الأصوات والحروف من فم النبيّ ﷺ، وقال الله: إن ذلك كلامي وأضافه إلى نفسه، فكأن الحق ظهر في عالم الشهادة بصورة التالي لكلامه فافهم، وجعل عالم الغيب وهو عالم العقل وهو بمنزلة صلاة العشاء، وصلاة الليل من مغيب الشفق إلى طلوع الفجر، فيناجي المصلي ربّه في تلك الصلاة بما يعطيه عالم الغيب والعقل والفكر من الأدلة والبراهين عليه سبحانه وتعالىٰ، وهو خصوص دلالة الخصوص معرفة يعرفها أهل الليل وهي صلاة المحبين أهل الأسرار وغوامض العلوم المكتنفين بالحجب، فيعطيهم من العلوم ما يليق بهذا الوقت وفي هذا العالم وهو وقت معارج الأنبياء والرسل والأرواح البشرية لرؤية الآيات الإلهية المثالية والتقريب الروحانيّ وهو وقت نزول الحق من مقام الاستواء إلى السماء الأقرب إلينا للمستغفرين والتائبين والسائلين والداعين فهو وقت شريف، ومن صلّى هذه الصلاة في جماعة فكأنما قام نصف ليله، وفي هذا الحديث رائحة لمن يقول: إن آخر وقتها إلى نصف الليل.

وجعل سبحانه عالم التخيّل والبرزخ الذي هو تنزّل المعاني في الصور الحسيّة فليست من عالم الغيب لما لبسته من الصور الحسيّة، وليست من عالم الشهادة لأنها معاني مجرّدة وأن ظهورها بتلك الصور أمر عارض عرض للمدرك لها لا للمعنى في نفسه، كالعلم في صورة اللبن والدين في صورة القيد، والإيمان في صورة العروة هو من أوقات الصلوات وقت المغرب ووقت صلاة الصبح فإنهما وقتان ما هما من الليل ولا من النهار، فهما برزخان بينهما

من الطرفين لكون زمان الليل والنهار دورياً ولهذا قال تعالىٰ: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [سورة الزمر: الآية ٥] من كوّر العمامة فيخفي كل واحد منهما بظهور الآخر كما قال: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤] أي يغطيه، وكذلك النهار يغشي الليل فيناجي المصلي ربه في هذا الوقت بما يعطيه عالم البرزخ من الدلالات على الله في التجليات وتنوّعاتها والتحوّل في الصور كما ورد في الأخبار الصحاح، غير أن برزخية صلاة المغرب هو خروج العبد من عالم الشهادة إلى عالم الغيب فيمرّ بهذا البرزخ الوتري فيقف منه على أسرار قبول عالم الغيب لعالم الشهادة وهو بمنزلة الحسّ الذي يعطي للخيال صورة فيأخذها الخيال بقوّة الفكر فيلحقها بالمعقولات، لأن الخيال قد لطف صورتها التي كانت لها في الحسّ من الكثافة فتروحنت بوساطة هذا البرزخ وسببه وتر صلاة المغرب فإن الفعل للوتر فهو الذي لطف صورتها على الحقيقة ليقبلها عالم الغيب والعقل، لأن العقل لا يقبل صور الكثيف والغيب لا يقبل الشهادة، فلا بدّ أن يلطف البرزخ صورتها حتى يقبلها عالم الغيب، وكذلك برزخ الفجر وهو خروج عالم الغيب إلى عالم الشهادةِ والحسّ فلا بد أن يمر ببرزخ الخيال وهو وقت صلاة الصبح من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فما هو من عالم الغيب ولا من عالم الشهادة، فيأخذ البرزخ الذي هو الخيال المعبّر عنه بوقت الفجر إلى طلوع الشمس المعاني المجرّدة المعقولة التي لها الليل فيكثفها الخيال في برزخه، فإذا كساها كثافة من تخيّله بعد لطافتها حينئذ وقعت المناسبة بينها وبين عالم الحسّ، فتظهر صورة كثيفة في الحسّ بعدما كانت صورة روحانية لطيفة غيبية، فهذا من أثر البرزخ يردّ المعقول محسوساً في آخر الليل، ويردّ المحسوس معقولاً في أول الليل، مثاله أن لصورة الدار في العقل صورة لطيفة معقولة إذا نظر إليها الخيال صوّرها بقوّته وفصلها وكثفها عن لطافتها في العقل.

ثم صرف الجوارح في بنائها بجمع اللبن والطين والجص وجميع ما تخيّله البناء المهندس فأقامها في الحسّ صورة كثيفة يشهدها البصر بعدما كانت معقولة لطيفة تتشكل في أيّ صورة شاءت، فزالت عنها في الحسّ تلك القوّة بما حصل لها من التقييد، فتبقى النهار كله مقيدة بتلك الصورة على قدر طول النهار، فإن كان النهار لا انقضاء له كيوم الدار الآخرة فتكون الصورة لا ينتهي أمدها، وإن كان النهار ينقضي كيوم الدنيا وأيامها متفاضلة فيوم من أربع وعشرين ساعة، ويوم من شهر، ويوم من سنة، ويوم من ثلاثين سنة، ودون ذلك، وفوق ذلك، فتبقى الصورة مقيدة بتلك المدّة طول يومها وهو المعبر عنه بعمرها إلى الأجل المسمّى إلى أن يجيء وقت المغرب فيلطف البرزخ صورتها وينقلها من عالم الحسّ ويؤدّيها إلى عالم العقل، فترجع إلى لطافتها من حيث جاءت، هكذا حركة هذا الدولاب الدائر، فإن فهمت وعقلت هذه المعاني التي أوضحنا لك أسرارها علمت علم الدنيا وعلم الموت وعلم الآخرة والأزمنة المختصة بكل محل وأحكامها، والله يفهمنا وإياك حكمه، ويجعلنا ممّن ثبت في معرفته قدمه، فالليل ثلاثة أثلاث، والإنسان ثلاثة عوالم: عالم الحسّ وهو الثلث الأول، وعالم خياله وهو الثاني، وعالم معناه وهو الثلث الآخر من ليل نشأته وفيه ينزل الحق وهو

قوله: وسعني قلب عبدي. وقوله: إن الله لا ينظر إلى صوركم وهو الثلث الأول، ولا إلى أعمالكم وهو الثلث الثاني، ولكن ينظر إلى قلوبكم وهو الثلث الآخر، فقد عمّ الليل كله، فمن قال: إن آخر الوقت الثلث الأول فباعتبار ثلث الحسّ، ومن قال: آخره إلى نصف الليل وهو وسط الثلث الثاني فباعتبار الثلث الثاني وهو عالم خياله لأنه محل العمل في التلطيف أو التكثيف، ومن قال: إلى طلوع الفجر فباعتبار عالم المعنى من الإنسان وكل قائل بحسب ما ظهر له، وقد وقع الإجماع بطلوع الفجر أنه يخرج وقت صلاة العشاء، فالظاهر أن آخر الوقت إلى طلوع الفجر لمحل الإجماع والاتفاق على خروج الوقت بطلوع الفجر، وبقولنا يقول ابن عباس: إن آخر وقتها إلى طلوع الفجر.

فصل بل وصل في وقت صلاة الصبح: اتفق الجميع على أن أول وقت الصبح طلوع الفجر وآخره طلوع الشمس واختلفوا في وقتها المختار، فمن قائل: إن الإسفار بها أفضل. ومن قائل: إن التغليس بها أفضل وبه أقول.

الاعتبار في الباطن في ذلك: اعلم أنه من غلب على فهمه من قوله ﷺ وقول الله تعالىٰ في رؤية الله أن ذلك راجع إلى العلم والعقل لا إلى البصر، وبه قال جماعة من العقلاء النظار من أهل السنّة فهم بمنزلة من يرى التغليس، ومن غلب على فهمه ممّا ورد في الشرع من الرؤية أن ذلك بالبصر وأنه لا يقدح في الجناب الإلهيّ وأن الجهة لا تقيد البصر وإنما تقيد الجارحة فهو بمنزلة من يرى الإسفار بصلاة الصبح بحيث أن يبقى لطلوع الشمس قدر ركعة أو يسلم مع ظهور حاجب الشمس، والعجب من هذا أن الذي ذهب إلى أن الرؤية الواردة في الشرع محمولة على العلم لا على البصر يرى الإسفار بالصبح، وأن الأكثر من الذين يرون أن الرؤية الواردة في الشرع يوم القيامة محمولة على البصر لا على العلم يرون التغليس بالصبح فهذا أحسن وجه في اعتبار هذا الوقت وأعمّه وأعلاه، وله اعتبارات غير هذا ولكن يجمعها كلها ما ذكرناه، ولا يجمع تلك الاعتبارات التي تركناها حقيقة هذا الاعتبار الذي ذكرناه فلهذا اقتصرنا عليه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء السادس والثلاثون.

(الجزء السابع والثلاثون)

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل بل وصل في أوقات الضرورة والعذر: فقوم أثبتوها وقوم نفوها والخلاف مشهور بينهم في ذلك اعتبار الباطن في ذلك من نسب الأفعال إلى الله نفاها، ومن أثبت الفعل للعبد كسباً أو خلقاً بأيّ وجه كان من هذين أثبتها.

فصل بل وصل في أوقات الضرورة عند مثبتيها: اتفق العلماء بالشريعة على أنها لأربع: للحائض تطهر في هذه الأوقات أو تحيض في هذه الأوقات وهي لم تصل، والمسافر يذكر الصلوات في هذه الأوقات وهو حاضر أو الحاضر يذكرها فيها وهو مسافر، والصبي يحتلم فيها، والكافر يسلم. واختلفوا في المغمى عليه، فمن قائل: هو كالحائض لا يقضي الصلاة. ومن قائل: يقضي فيما دون الخمس. الاعتبار في الحائض تطهر في وقت الضرورة، التائب

من الكذب لضرورة، والطاهر تحيض، الصادق يكذب للضرورة، اعتبار الباطن في ذلك المسافر والحاضر المسافر بفكره أو بذكره يذكر ما فاته في وقت سفره في حصوله في المقام لنقص يشاهده فيه يعلم أنه نسي ذلك في وقت سفره، والحاضر يعني صاحب المقام يذكر في حال سفره ما فاته في وقت إقامته من الأدب مع الحق كقولهم: اقعد على البساط، وإياك والانبساط، لخلل يراه في سفره فيعلم أن ذلك من آثار ما فاته من الأدب في مقامه قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٢] ولم يكن قبل ذلك أصابه نصب ليتذكر دلالة الحوت، اعتباره في الصبي يبلغ فيها العبد يكون تحت الحجر فإذا كان الحق سمعه وبصره ويده وقواه وجوارحه كما ورد فقد خرج عن الحجر، فإذا أدركه هذا الحال وهو في حكم اسم إلهيّ لماذا يكون الحكم فيه هل للاسم الذي كان تحت حكمه أو للاسم الذي انتقل إليه فإن الوقت مشترك، وكذلك الاعتبار في الكافر يسلم في وقت الضرورة والكافر هو صاحب الستر والغيرة تغلب عليه، والغيرة على الحق لا تصحّ وفي الحق تصحّ وللحق تصحّ، ويغلب عليه أن لا غير ولا سيما إن عرف معنى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] وما ثم إلاَّ هذه الأحوال وهو الكل إذ هو عينها، فمن يغار أو ممن يغار أو على من يغار أو فيمن يغار أخبروني أخبروني إنني حرت في الله فما أصنعه؟ وأمّا اعتبار المغمى عليه فهو صاحب الحال ما حكمه إذا أفاق في هذا الوقت؟ أو أخذه الحال في هذا الوقت؟ هو مع الاسم المهيمن على ذلك الوقت الحاكم فيه.

فصل بل وصل في الأوقات المنهي عن الصلاة فيها: الأوقات المنهي عن الصلاة فيها هي بالاتفاق والاختلاف خمسة أوقات: وقت طلوع الشمس، ووقت غروبها، ووقت الاستواء، وبعد صلاة الصبح، وبعد صلاة العصر، اعتبار ذلك في الباطن ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٠] الشمس الحق والصلاة المناجاة، فإذا تجلّى الحق كان البهت والفناء فلم يصحّ الكلام ولا المناجاة فإن هذا المقام الإلهيّ يعطي أنه تعالىٰ إذا أشهدك لم يكلمك وإذا كلمك لم يشهدك إلاَّ أن يكون التجلّي في الصورة عند ذلك تجمع بين الكلام والمشاهدة، وإذا غاب المشاهد عن نفسه لم تصحّ المناجاة لأن رسول الله ﷺ يقول: «**اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» بلا شك، وقد علمت أن العبد غائب عند الشهود لاستيلاء المشهود عليه فلا مناجاة، وفي وقت الاستواء يغيب عنك ظلّك فيك وظلّك حقيقتك والنور قد صف بك من جميع الجهات وغمرك، فلا يتعين لك أمر تسجد له إلاَّ وعينه من خلفك كما هو من أمامك، ومن عن يمينك وشمالك وفوقك، فلا يجذبك من جميع جهاتك لأنك نور من جميع جهاتك، والصلاة نور فاندرجت الأنوار في الأنوار، والصلاة لا تصلى لها، وأما بعد الصبح إلى طلوع الشمس فهو وقت خروجك من عالم البرزخ إلى عالم الشهادة، والصلاة لم يفرض وقتها إلاَّ في الحسّ لا في البرزخ، وكذلك بعد صلاة العصر فإن السفل بضم الحبيب يغني عن مخاطبته لسريان اللذة في ذلك الضم.

فصل في الصلوات التي لا تجوز في هذه الأوقات المنهيّ عن الصلاة فيها: فمن قائل:

هي الصلاة كلها بإطلاق. ومن قائل: هي ما عدا المفروض من سنّة أو نفل. ومن قائل: هي النفل دون السنن. ومن قائل: هي النفل فقط بعد الصبح والعصر، والنفل والسنن معاً عند الطلوع والغروب. وأما عندنا فإن هذه الأوقات هي الفرائض للنائم والناسي يتذكر أو يستيقظ فيها، ولقضاء النوافل إذا شغل عنها أن يصليها في الوقت الذي كان عينه لها اعتبار الباطن في ذلك المناجاة الإلهية بين الله وبين عبده على أربعة أقسام: مناجاة من حيث إنه يراك، ومناجاة من حيث إنك تراه، ومناجاة من حيث إنه يراك وتراه، ومناجاة لبعض أهل النظر في الاعتقادات بالأدلة من حيث إنك لا تراه علماً في اعتقاد، ولا تراه بصراً في اعتقاد، ولا يراك بصراً في اعتقاد، ولا علماً في اعتقاد من نفي عنه العلم بالجزئيات، لكن تراه علماً لاندراج الجزء في الكل، وهذا ما هو اعتقادنا ولا اعتقاد أهل السنّة بل هو سبحانه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣١] وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [سورة العلق: الآية ١٤] وقال النبي ﷺ في الخبر الصحيح عنه: «**إِنَّهُ يَرَاكَ**». وقد نبهناك على مأخذ الاعتبارات في هذه الأقسام وأنت تعرف قسمك منها، ومن عرف قسمه فمن هناك يثبت مناجاته أو يحيلها.

فصول بل وصول الأذان والإقامة: الأذان: الإعلام بدخول الوقت والدعاء للاجتماع إلى الصلاة في المساجد. والإقامة: الدعاء إلى المناجاة الإلهية الاعتبار في الباطن في ذلك الأذان الإعلام بالتجلّي الإلهيّ لتتطهر الذوات لمشاهدته، والإقامة: للقيام لتجليه إذا ورد يوم يقوم الناس لرب العالمين.

فصل بل وصل في صفات الأذان: اعلم أن الأذان على أربع صفات، الصفة الأولى: تثنية التكبير وتربيع الشهادتين وباقيه مثنى، وبعض القائلين بهذه الصفة يرون الترجيع في الشهادتين وذلك أن يثني الشهادتين أوّلاً خفياً، ثم يثنيها مرة ثانية مرفوع الصوت بها، وهذا الأذان أذان أهل المدينة. الصفة الثانية: تربيع التكبير الأول والشهادتين وتثنية باقي الأذان وهذا أذان أهل مكة. الصفة الثالثة: تربيع التكبير الأول وتثنية باقي الأذان وهذا أذان أهل الكوفة. الصفة الرابعة: تربيع التكبير الأول وتثليث الشهادتين وتثليث الحيعلتين يبتدىء بالشهادة إلى أن يصل إلى حيّ على الفلاح ثم يعيد ذلك على هذه الصفة ثانية ثم يعيدها أيضاً على تلك الصورة ثالثة الأربع الكلمات نسقاً ثلاث مرات وهذا أذان أهل البصرة. اعتبار الباطن في ذلك تثنية التكبير للكبير والأكبر، وتربيعه للكبير والأكبر، ولمن تكبّر نفساً وحسّاً مشروعاً كان ذلك التكبّر كحديث أبي دجانة أو غير مشروع والتربيع في الشهادتين للأوّل والآخر والظاهر والباطن وتثنية ما بقي لك وله تعالىٰ، وتثليث الأربع الكلمات على نسق واحد في كل مرة وهو كما قلنا مذهب البصريين إعلام بالمرّة الواحدة: لعالم الشهادة، وبالثانية: لعالم الجبروت، وبالثالثة: لعالم الملكوت. وعند أبي طالب المكيّ: الثانية: لعالم الملكوت. والثالثة: لعالم الجبروت تحقيق ذلك هو أن الإنسان إذا نظر بعين بصره وعين بصيرته إلى الأسباب التي وضعها الله تعالىٰ شعائر وإعلاماً لما يريد تكوينه وخلقه من الأشياء لما سبق في علمه أن يربط الوجود بعضه ببعضه.

ودلّ الدليل على توقف وجود بعضه على وجود بعضه، وسمع ثناء الحق تعالىٰ على من عظم شعائر الله، وأن ذلك التعظيم لها من تقوى القلوب في قوله تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٢] قال عند ذلك: الله أكبر، يقول: وإن كانت عظيمة في نفسها بما تدل عليه وعظيمة من حيث إن الله أمر بتعظيمها فموجدها وخالقها الآمر بتعظيمها أكبر منها، وهذه هي أكبر للمفاضلة وهي أفعل من، فلما أتمّها كوشف هذا الإنسان الناطق بها على حقارة الأسباب في أنفسها لأنفسها، وافتقارها إلى موجدها لإمكانها افتقار المسببات على السواء، ورآها عيناً وكشفاً عند كشف الغطاء عن بصره ناطقة بتسبيح خالقها وتعظيمه فإنه القائل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] تسبيح نطق يليق بذلك الشيء لا تسبيح حال ولهذا قال: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] لاختلاف ما يسبحون به إلاّ لمن سمعه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] حيث لم يؤاخذ ولم يعجل عقوبة من قال إنه تسبيح حال غفوراً ساتراً نطقهم عن أن تتعلق به الأسماع إلاّ لمن خرق الله له العادة، فقد ورد: أن الحصى سبّح بحضور من حضر من الصحابة في كف رسول الله ﷺ وما زال الحصى مسبحاً وما خرق اسم العادة إلاّ في إسماع السامعين ذلك بتعلقها بالمسموع وما قال: ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ إلاّ في معرض الردّ على من يقول: إنه تسبيح حال فإن البكاء قد تبدى في الدلالة فيما يقول بتسبيح الحال فقد أكذب الله في قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ﴾ وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٠] يعني خيراً له ممن يعظم شعائر الله إذا جعلنا خير بمعنى أفعل من ليميز بين تعظيم الشعائر وتعظيم حرمات الله، فإن حرمة الله ذاتية فهو يقتضي التعظيم لذاته، بخلاف الأسباب المعظمة فإن الناظر في الدليل ما هو الدليل له مطلوب لذاته فينتقل عنه ويفارقه إلى مدلوله، فلهذا العالم دليل على الله لأنا نعبر منه إليه تعالىٰ، ولا نبغي أن نتخذ الحق دليلاً على العالم فكنا نجوز منه إلى العالم وهذا لا يصحّ، فما أعلى كلام النبوّة حيث قال: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ [سورة الغاشية: الآية ١٧] إلى كذا وعدد المخلوقات لتتخذ أدلة عليه لا ليوقف معها.

فهذا الفرق بين حرمات الله وشعائر الله فنقول ثاني مرّة: الله أكبر تعظيماً لحرمة الله لا بمعنى المفاضلة وذلك معروف في اللسان فمعناه الله الكبير لا أفعل من فهو الكبير واضع الأسباب، وأمرنا بتعظيمها ومن لا عظمة له ذاتية لنفسه فعظمته عرض في حكم الزوال، فالكبير على الإطلاق من غير تقييد ولا مفاضلة هو الله، فهذه التكبيرة الثانية المشروعة في الأذان وأنها لهاتين الصورتين، فإن ربع التكبير فيكون تثنية التكبيرة الواحدة على الحدّ الذي ذكرناه حسّاً وعقلاً أي كما كبره اللسان بلفظ المفاضلة كذلك كبره عقلاً كأنه يقول: الله أكبر باللسان كما هو أكبر بالعقل، أي هو أكبر بدليل الحسّ ودليل العقل، ثم يثني التكبيرة الأخرى أيضاً حسّاً وعقلاً فيقول: الله أكبر أي هو الكبير لا بطريق المفاضلة حسّاً الله أكبر أي هو الكبير لا بطريق المفاضلة عقلاً حرمة وشرعاً، فهذا مشهد من ربع التكبير في الأذان الذي هو الإعلام بالإعلان.

ثم قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله أشهد أن لا إله إلاّ الله خفياً يسمع نفسه وهو بمنزلة من يتصور الدليل أولاً في نفسه، ثم بعد ذلك يتلفظ به وينطق معلناً في مقابلة خصمه أو ليعلم غيره مساق ذلك الدليل، وذلك أن يشهد هذا المؤذن في هذه الشهادة أنه يرى الأسباب المحجوبة عن المعرفة بالله التي أعطيت قوّة النطق وحجبت عن إدراك الأمر في نفسه بالجهل، أو عن إدراك ما ينبغي لجلال الله من إضافة الكل إليه بحجاب الغفلة فيقول الجاهل: أنا ربكم الأعلى أو المستخف وهو ضرب من الجهل، أو يقول: ما علمت لكم من إله غيري وقد يمكن أن يكون كاذباً عند نفسه عالماً بأنه كاذب لكنه استخف قومه فأطاعوه، ويقول: أنا أنعمت على فلان أنا وليت فلاناً أنا علمت فلاناً العلم الذي عنده والقرآن ولولا أنا ما علم شيئاً ممّا علمه وسمع الله يقول: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٧] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[سورة البقرة: الآية ٢١]. وهي الأسباب التي وجدتم عندها. ثم قال لمن يرى أنا وجدنا بالأسباب لا عندها: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢] أنه أوجد الأسباب وأوجدكم عندها لا بها فيقول عند ذلك: أشهد أن لا إله إلاّ الله أي لا خالق إلاّ الله، فينفي ألوهية كل من ادعاها لنفسه من دون الله وأثبتها لمستحقها لو ادعاها مع الله كالمشرك فشهد بذلك لله عقلاً وشرعاً وحسّاً، ومعنى هذا كله مع نفسه كمتصور الدليل أولاً.

ثم يرفع بها صوته ليسمع غيره من متعلم ومدّع وجاهل وغافل عن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: ١، ٢] وأمثاله مثل: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: ٣، ٤] فقطع حكم الأسباب فهذا معنى الشهادة وتثنيتها وتربيعها، وكذلك قوله: أشهد أن محمداً رسول الله وهو أنه لما تشهد بالتوحيد بما أعطاه الدليل شهد به علماً لا على طريق القربة لأن الإنسان من حيث عقله لا يعلم أن التلفظ بذلك وأن النظر في معرفة ذلك يقرب من الله، وإنما حظّه أن يعلم أن نفسه تشرف بصفة العلم على من يجهل ذلك، وأن التصريح به وبكل دليل على مثل هذا العلم على جهة تعليم من لا يعلم وإرداع المعاند تشريفاً لهذا النفس على نفس من ليس له ذلك لأنه لا حكم للعقل في اتخاذ شيء قربة إلى الله، فجاء الرسول من عند الله فأخبره أن يقول ذلك وأن ينظر في ذلك إن يخفيه في نفسه ويسره، وفي التعليم والإرداع للغير إذا أعلن به أن يكون ذلك على طريق القربة إلى الله، فيكون مع كونه علماً عبادة فيقول العالم المؤمن إذا أذن أو قال مثل ما يقول المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله علماً وعبادة، ويقولها العاميّ تقليداً وتعبداً، والتثنية في هذه الشهادة الرسالية والتربيع والحكم فيها على حكم شهادة التوحيد سواء في المراتب التي ذكرناها سواء، فإن ثلث كأذان البصريين الأربع الكلمات على نسق واحد في كل مرة فهو أن يقولها في المرة الأولى علماً وفي المرّة الثانية تعليماً لأنه معلن، وفي المرّة الثالثة عبادة فهي كلها علم وتعليم وعبادة فافهم.

وما خالف البصريون الكوفيين والحجازيين والمدنيين إلاّ في هذا، أعني التثليث والنسق

وكل سنّة، والإنسان مخيّر يؤذن بأي صفة شاء من ذلك كله وهو مذهبنا كالروايات المختلفة في صلاة الكسوف وغير ذلك.

ثم إن الله شرّع لنا في الأذان بعد الشهادتين أن نقول: حيّ على الصلاة مثنى ندعو بالواحدة نفسي وندعو بالثانية غيري ومعناه أقبلوا على مناجاة ربكم فتطهروا وائتوا المساجد بالمرّة الواحدة، ومن كان في المسجد يقول له في المرة الثانية حين يثنيها: طهروا قلوبكم واحضروا بين يدي ربكم فإنكم في بيته قصدتموه من أجل مناجاته.

وكذلك قوله: حيّ على الفلاح بالاعتبارين أيضاً والتفسيرين في المرتين، يقول للخارج والكائن في المسجد ولنفسه ولغيره: اقبلوا على ما ينجيكم فعله من عذابه بنعيمه ومن حجابه بتجليه ورؤيته، واقبلوا بالثانية من حيّ على الفلاح على ما يبقيكم في نعيمكم ولذة مشاهدتكم. ثم يقول: الله أكبر الله أكبر لنفسه ولغيره ولمن هو ينتظر الصلاة كالحاضر في المسجد ومن هو خارج في أشغاله يقول: الله أكبر ممّا أنتم فيه أي الله أولى بالتكبير من الذي يمنعكم من الإقبال الذي أمرناكم به على الصلاة وعلى الفوز والبقاء في الحيعلتين، وإنما لم يربع الثاني فإنه ليس مثل الأول، فإن الثاني أعني التكبير والحيعلتين إنما المقصود بذلك القربة والعقل لا يستقل بإدراكها فهي للشرع خاصة، فلهذا لم يربع الحيعلتين ولا التكبير الثاني، وثنى لكونه خاطب نفسه وغيره والكائن في المسجد وغير الكائن، ثم قال: لا إله إلاّ الله فختم الأذان بالتوحيد المطلق لما كان الأذان يتضمن أموراً كثيرة فيها أفعال منسوبة إلى العبد، فربما يقع في نفس المدّعو أنه ما دعي إلى أن يفعلها إلاّ والفعل له حقيقة والداعي أيضاً كذلك، فيخاف عليه أن يضيف الفعل إلى نفسه خلقاً كما يراه بعضهم.

وما جعله الله دليلاً عليه من جملة الأدلة على توحيده إلاّ انفراده بالخلق مثل قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٧] فهي ألوهية خفية في نفس كل إنسان وهو الشرك الخفي المعفو عنه، فختم الأذان بالتوحيد من غير تثنية ولا تثليث ولا تربيع، وهذا هو التوحيد المطلق الذي جاءت به الأنبياء من عند الله عن الله، وهي أفضل كلمة قالها رسول الله ﷺ والنبيون من قبله، فيتنبّه السامعون كلهم أنه لا إله إلاّ الله فوحد لطلبه التوحيد على الإطلاق وما زاد على التوحيد في كل أذان مشروع من الأربعة مذاهب في ذلك.

وأمّا التثويب في أذان صلاة الصبح وهو قولهم: الصلاة خير من النوم، من الناس من يراه من الأذان المشروع فيعتبره، ومن الناس من يراه من فعل عمر فلا يعتبره ولا يقول به. وأما مذهبنا فإنا نقول به شرعاً وإن كان من فعل عمر، فإن الشارع قرّره بقوله: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً**» ولا شك أنها سنّة حسنة ينبغي أن تعتبر شرعاً، وهي بهذا الاعتبار من الأذان المسنون إلاّ في مذهب من يقول: إن المسنون هو الذي فعل في زمان النبي ﷺ وعرّفه وقرّره، أو يكون هو الذي سنّه ﷺ فيكون حاصله عند صاحب هذا القول أنه لا يسمّى سنّة إلاّ ما كان بهذه الصفة فما هو خلاف يعتبر ولا يقدح. وأما من زاد: حيّ على خير العمل فإن كان فعل في زمان رسول الله ﷺ كما روي أن ذلك دعا به في غزوة الخندق إذ كان الناس يحفرون

الخندق فجاء وقت الصلاة وهي خير موضوع كما ورد في الحديث فنادى المنادي: أهل الخندق حيّ على خير العمل، فما أخطأ من جعلها في الأذان بل اقتدى إن صحّ هذا الخبر أو سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها، وما كرهها من كرهها إلاّ تعصباً فما أنصف القائل بها، نعوذ بالله من غوائل النفوس.

فصل بل وصل في حكم الأذان: فمن قائل: إنه واجب. ومن قائل: إنه سنّة مؤكدة. والقائل بوجوبه منهم من يراه فرضاً على الأعيان. ومنهم من يراه فرض كفاية. ومن قائل: إن الأذان فرض على مساجد الجماعات وهو مذهب مالك، وفي رواية عنه أنه سنّة مؤكدة ولم يره على المنفرد لا فرض ولا سنّة. ومن قائل: إنه هو واجب على الأعيان. ومن قائل: إنه واجب على الأعيان على الجماعات سفراً وحضراً. ومن قائل: سفراً لا غير. ومن قائل: إنه سنّة للمنفرد والجماعة إلاّ أنه آكد في حق الجماعة، واتفق الجميع على أنه سنّة مؤكدة، وفرض على المصر، وبه كان يقول شيخنا أبو عبد الله بن العاص الدلال بإشبيلية سمعته من لفظه غير مرة وكان يقول: إذا اجتمع أهل مصر على ترك الأذان أو ترك سنّة وجب غزوهم واحتجّ بالحديث الثابت: «**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا غَزَا قَوْماً صَبَّحَهُمْ فَإِنْ سَمِعَ نِدَاءً لَمْ يُغِرْ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ نِدَاءً أَغَارَ**» الاعتبار في الباطن في ذلك حق كل نفس أن تدعو نفسها وغيرها إلى طاعة الله بعد وضع الشريعة، قال رسول الله ﷺ لمالك بن الحويرث ولصاحبه: «**إِذَا كُنْتُمَا فِي سَفَرٍ فَأَذِّنَا وَأَقِيمَا**» الحديث، والإنسان مسافر مع الأنفاس منذ خلقه الله دنيا وآخرة لا يصحّ له أن يكون مقيماً أبداً، ولو أقام زائداً على نفس واحد لتعطل فعل الإله في حقه، فالحق سبحانه في كل نفس في الخلق في شأن، وهو أثره في كل عين موجودة بكيفية خاصة أشهدنا الله دقيقها وجليلها فما أعزّ صاحبها عند الله، فمن فاته مراعاة أنفاسه في الدنيا والآخرة لقد فاته خير كثير.

فصل بل وصل في وقت الأذان: اتفق العلماء على أنه لا يؤذن للصلاة قبل دخول وقتها ما عدا الصبح فإن فيه خلافاً، فمن قائل: بجواز ذلك أنه يؤذن لها قبل الفجر. ومن قائل: بالمنع وبه أقول، فإن الأذان قبل الوقت إنما هو عندي ذكر بصورة الأذان ما هو الأذان على جهة الإعلام بدخول وقت الصلاة، فقد كان بلال يؤذن بليل وكان رسول الله ﷺ يقول: «**لاَ يَمْنَعَكُم أَذَانُ بِلالٍ عَنِ الأَكْلِ والشُّرْبِ**» يعني في رمضان ولمن يريد الصوم فإنه يؤذن بليل: «**فَكُلُوا واشْرَبُوا حَتَّى يُؤَذِّنَ ابنُ أُمِّ مَكْتوم**» وكان رجلاً أعمى فكان لا يؤذن حتى يقال له أصبحت أصبحت. فالمؤذن عندي لا يجبُ إلاّ بعد دخول الوقت، ومن قائل لا بدّ للصبح من أذانين. أذان قبل الوقت وأذان بعده. وقال أبو محمد بن حزم: لا بدّ للصبح من أذان بعد الوقت.

اعتبار الباطن في ذلك: دعاء النفوس إلى الله من الله في نفس الأمر، ودعاؤها من الأكوان بالنظر إلى الغافلين أو الجهلاء الذين هم تحت حكم الأسماء الإلهية، أو التصريف الإلهيّ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٩٥] فلهذا قلنا في نفس الأمر. فاعلم أن للوقت

سلطاناً لا يحكم فيه غيره، فلا بدّ أن يتعين عند المحكوم عليه سلطان الوقت وهو الاسم الإلهيّ الخاص بذلك الوقت، فلا يمكن أن يدعى لها بطريق الوجوب إلاّ بعد دخول الوقت، فعند ذلك يكون ممّن دعا إلى الله على بصيرة فإنه دعاء خاص في كل وقت بما يليق بذلك الوقت، فإن دعا في غير وقته وقع الإنسان في الجهل، فإنه يدعوه بما يخرجه عن سلطان حكمه الذي يرتقبه السامع في نفسه، فلا بدّ من الدعاء له بعد دخول وقته حتى يتعين من هو صاحب الوقت من هذه الأسماء الإلهية.

انظر هل يصحّ منك الشكر قبل دخول حكم الاسم المنعم؟ فإذا كان وقتك النعمة ودخل وقتها بوجودها عندك دعيت إلى شكر المنعم، وإنما دخل الخلاف في الصبح لجهل السامع بمقصود الشارع بذلك الذكر فإنه دعاء لصاحب الوقت بخلاف سائر الصلوات، فإن الليل لما كان محلاً للنوم ونام الناس شرع النداء الآخر الذي هو الأول لإيقاظ النائمين، فهو دعاء للانتباه والاستعداد لإيقاع صلاة الصبح في أوّل الوقت فهو نداء تحضيض وتحريض، وجعل بصورة الأذان المشروع للصلاة أي من أجل الصلاة دعوناكم لتتذكروها فتتأهبوا لها فإذا دخل وقتها وجب الإعلام بدخول الوقت لجهل السامعين بدخول أول الوقت فإنه يخفى على أكثر الناس ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة الأعراف، الآية: ١٨٧]، فيعلمون بالأذان المشروع لدخول الوقت أن الوقت قد دخل، وكذلك الحكم في الإعتبار الغافل عن حكم الاسم الإلهيّ فيه ينبّهه الداعي من نومة الغفلة بأنه تحت حكم اسم إلهيّ يصرّفه وأنه لا حول ولا قوّة له إلاّ به، فإذا انتبه من نوم غفلته وتذكّر بعقله عرف عند ذلك أي اسم هو صاحب الوقت فأذعن له بحسب ما تقتضيه حقيقة ذلك الاسم الإلهيّ في حق هذا الشخص، قال تعالىٰ: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٥٢] وقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٥].

وإنما ذهبنا إلى أن الأذان قبل الصبح هو ذكر ونداء بصورة الأذان ما هو الأذان المشروع بالإعلام لدخول الوقت أن النبي ﷺ قال: «**إنّ بلالاً يُنادِي بِلَيْلٍ**» ولم يقل يؤذن، وكذا قال في ابن أم مكتوم ينادي لموضع الشبهة فإنه كان أعمى فكان لا ينادي حتى يقال له: أصبحت أصبحت أي قاربت الصباح. قال الراوي: وكان بين نداء بلال ونداء ابن أم مكتوم قدر ما ينزل هذا ويصعد هذا فسمّاه نداء لهذا الاحتمال أعني أذان ابن أم مكتوم، فإن الفصاحة في لسان العرب تطابق الألفاظ في سبق لما قال في بلال: «**إنَّهُ يُنَادِي بِلَيْلٍ**» ويؤيّد ما ذهبنا إليه حديث ابن عمر: إن بلالاً أذّن قبل طلوع الفجر فسمّاه ابن عمر أذاناً لما عرف من قرينة الحال فأمره رسول الله ﷺ أن يرجع فينادي: ألا إن العبد نام ليعرف الناس أن وقت الصلاة ما دخل، فإن الأذان المشروع إنما هو لدخول وقت الصلاة، فلما عرف من بلال أنه قصد الأذان وأن السامعين ربما أوقعوا الصلاة في غير وقتها أمره أن يعرّف الناس أنه قد غلط في أذانه، ولهذا يكون من المؤذنين بالليل الدعاء والتذكير وتلاوة آيات من القرآن والمواعظ وإنشاد الشعر المزهد في الدنيا المذكر الموت والدار الآخرة ليعلم الناس إذا سمعوا الأذان منهم أنهم يريدون بذلك ذكر الله كما تقدم، وأنه لإيقاظ النائمين لا لدخول الوقت، ويكون لدخول

الوقت مؤذن خاص يعرف بصوته، وكذا هو في الاعتبار لتنوّع الأحوال على أهل الله لا بدّ لهم من علامات يفرقون بها بين الأحوال التي تعطيها الأسماء الإلهية فافهم.

فصول في الشروط في هذه العبادة: قال بعض العلماء: وهي ثمانية شروط وعددها فقال إن منها: هل من شرط من أذّن أن يكون هو الذي يقيم أم لا؟ الثاني: هل من شرط الأذان أن لا يتكلم المؤذن في أثنائه أم لا؟ الثالث: هل من شرطه أن يكون المؤذن على طهارة أم لا؟ الرابع: هل من شرطه أن يتوجه المؤذن إلى القبلة أم لا؟ الخامس: هل من شرطه أن يكون المؤذن قائماً أم لا يكون؟ السادس: هل يكره الأذان للراكب أم ليس يكره؟ السابع: هل من شرطه البلوغ أم لا؟ الثامن: هل من شرطه أن لا يأخذ أجراً على الأذان أم يأخذ الأجر؟

اختلف علماء الشريعة في هذه الشروط وأدلتهم ما بين قياس ومعارضة أخبار بين صحيح وسقيم، ومذهبنا أن الأذان يصحّ بوجودها وعدمها والعمل بها أولى إن اتفق ولا يمنع من ذلك مانع، وأما الاعتبار في ذلك في الشروط كلها التي ذكرناها فاعلم أن الداعي قد يكون الاسم الإلهيّ الذي يدعو به الحق إلى الحق وهو عين الداعي الذي يقوم به بين يدي الحق في أي شيء دعا إليه من الأحوال، وقد يكون غيره من الأسماء، فلا يشترط من أذن فهو يقيم فإن فيه حرجاً الداعي إلى الحق قد يتكلم في أثناء دعائه إلى الحق لحال يطلبه بذلك لا يجوز له التأخّر عنه، إما لأدب إلهيّ أو لفرض تعين عليه، وقد لا يتكلم ما لم يقدح في فهم السامع ما يخرجه عن أن يكون داعياً له، وهذا اعتبار الشرط الثاني الداعي قد يدعو بحاله وهو طهارته وهو أفضل، وقد يدعو بما ليس هو عليه في حاله وهو خير بكل وجه كما قال الحسن بن أبي الحسن البصري وكان من أهل طريق الله العلية منهم: لو لم يعظ أحد أحداً حتى يعظ نفسه ما وعظ أحد أحداً أبداً، ولفاعل المنكر أن ينهى عن المنكر وإن لم يفعل اجتمع عليه إثمان فاعلم ذلك، وهذا هو اعتبار الشرط الثالث الداعي إن قصد بدعائه وجه الله فهو أولى، وإن قصد بذلك دنيا فلا يمنعه ذلك من الدعاء إلى الله والأول أفضل، ويرجى للآخر أن ينتفع بدعوته سامع فيدعو له فيسعد بدعائه، فهذا بمنزلة استقبال القبلة بالأذان وهو الشرط الرابع الداعي إن كان قائماً بحقوق ما يدعو إليه فهو أولى من قعوده عن ذلك في دعائه وهذا اعتبار الشرط الخامس الداعي هل يكون في دعائه حاضراً مع عبوديته وذلته أو يكون في حال نظره لعزّة نفسه وتكبّرها وعجبها وهو الذي يؤذن راكباً وحضوره مع ذلّته أولى وهو اعتبار الشرط السادس الداعي هل ينبغي له أن يدعو قبل بلوغه إلى المعرفة بمن يدعو إليه كدعاء المقلد أو لا يدعو حتى يعرف من يدعو إليه وهو اشتراط البلوغ في الأذان، وهذا اعتبار الشرط السابع الداعي إلى الله هل من شرطه أن لا يأخذ أجراً على دعائه فهو عندنا أفضل أنه لا يأخذ وإن أخذ جاز له ذلك، فإن مقام الدعوة إلى الله يقتضي الأجرة فإنه ما من نبيّ دعا قومه إلاّ قيل له: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة هود: الآية ٢٩] فأثبت الأجرة على دعائه وسألها من الله لا من المدعو، حتى أنّ رسول الله ﷺ ما سأل منّا في الأجر على تبليغ الدعاء ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [سورة الشورى: الآية ٢٣] وهو حب أهل البيت وقرابته ﷺ وأن يكرموا من أجله كانوا ما كانوا.

وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ كِتَابُ اللَّهِ**» في حديث الذي رقى اللديغ بفاتحة الكتاب واستراح فقال رسول الله ﷺ: «**اضْرِبُوا لِي فِيهَا بِسَهْم**» يعني في الغنم التي أخذوها أجراً على ذلك، فالإنسان الداعي بوعظه وتذكيره عباد الله إن أخذ أجراً فله ذلك فإنه في عمل يقتضي الأجر بشهادة كل رسول، وإن ترك أخذه من الناس وسأله من الله فله ذلك، وسبب ترك الرسل لذلك وسؤالهم من الله الأجر كون الله هو الذي استعملهم في التبليغ فكان الأجر عليه تعالىٰ لا على المدعو، وإنما أخذ الراقي الأجر من اللديغ لأن اللديغ استعمله في ذلك، ولذلك قال النبي ﷺ: «**اضْرِبُوا لِي بِسَهْم**» لأن الرسول عليه السلام هو الذي أفاد الراقي ما رقى به ذلك اللديغ. وينظر إلى قريب منّ هذا حديث بريرة في قوله: «**هُوَ لَهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا هَدِيَّةٌ**» لأنها بلغت محلها وهذا هو الشرط الثامن. واعلم أن هذا الأجر أجر تفضل إلهيّ عيّنه السيد لعبده، فإن العبد لا ينبغي له استحقاق الأجر على سيده فيما يستعمله فيه فإنه ملكه وعين ماله، ولكن تفضل سيده عليه بأن عيّن له على عمله أجراً وسرّه خلقه على الصورة فإن عبيدنا إخواننا فافهم. وأما العلماء بالله عزّ وجلّ فأجرهم مشاهدة سيدهم إذا رجعوا إليه من التبليغ الذي أمرهم به فإنهم حزنوا لمفارقة ذلك المشهد الأقدس ومشاهدة الأكوان فوعدهم بأنهم إذا رجعوا إليه كان لهم المزيد في المشاهدة فأخبروا الناس أن أجرهم على الله.

فصل بل وصل فيمن يقول مثل ما يقول من يسمع الأذان: واختلف علماء الشريعة في ذلك، فمن قائل: إنه يقول مثل ما يقول المؤذن كلمة بكلمة إلى آخر النداء. ومن قائل: إنه يقول مثل ما يقول المؤذن إلاّ إذا جاء بالحيعلتين فإن السامع يقول: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله وبالقول الأول أقول فإنه أولى، إلاّ أن يثبت عن رسول الله ﷺ ذكر الحوقلة في ذلك فأنا أقول به، ولا أشترط أن يمشي السامع مع المؤذن في كل كلمة، ولكن إن شاء قال مثل ما يقول المؤذن في أثر كل كلمة، وإن شاء إذا فرغ يقول مثله، وذلك في المؤذن الذي يؤذن للإعلام في المنارة أو على باب المسجد أو في نفس المسجد ابتداء عند دخول الوقت من قبل أن يعلم من في المسجد أن وقت الصلاة دخل فهذا هو المؤذن الذي شرع له الأذان. وأما المؤذنون في المسجد بين الجماعة الذين يسمعون الأذان فهم ذاكرون الله بصورة الأذان فلا يجب على السامع أن يقول مثله فإن ذلك عندنا بمنزلة السامع يقول مثل ما قال المؤذن ولم يشرع لنا ولا أمرنا أن نقول مثل ما يقول السامع إذا قال ما يقول المؤذن.

اعتبار ذلك في الباطن: قال تعالىٰ فيما يقوله الرسول ﷺ: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] والمؤذن داع إلى الله بلا شك ثم قال: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ وهو غير النبيّ يدعو بمثل دعوة النبيّ عليه السلام عباد الله إلى توحيد الله والعمل بطاعته، وهو بمنزلة السامع للمؤذن الذي أمره الشارع أن يقول مثل ما يقول المؤذن لا يزيد على ذلك ولا ينقص، كذلك ينبغي للداعي إلى الله أن يدعو بشرعه المنزّل المنطوق به حاكياً لا يزيد على دعاء رسول الله ﷺ وهو قوله ﷺ: «**نَضَّرَ اللَّهُ امْرءاً سَمِعَ مِنِّي كَلِمَةً فَوَعَاهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**». وهذه مسألة اختلف الناس فيها أعني في هذا الخبر في نقله على

المعنى، والصحيح عندي أن ذلك لا يجوز جملة واحدة إلاً أن يبين الناقل أنه نقل على المعنى، فإن الناقل على المعنى إنما ينقل إلينا فهمه من كلام رسول الله ﷺ، وما تعبدنا الله بفهم غيرنا إلاّ بشرط في الأخبار بالاتفاق وفي القرآن بخلاف في حق الأعجميّ الذي لا يفهم اللسان العربيّ، فإن هذا الناقل على المعنى ربما لو نقل إلينا عين لفظه ﷺ ربما فهمنا مثل ما فهم أو أكثر أو أقل أو نقيض ما فهم، فالأولى نقل الحديث كما ننقل القرآن، فالداعي إلى الله لا يزيد على ما جاء به رسول الله ﷺ من الأخبار بالأمور المغيبة إلاّ إن أطلعه الله على شيء من الغيب ممّا علمه الله، فله أن يدعو به مما لا يكون مزيلاً لما قرّره الشرع بالتواتر عندنا أي على طريق يفيد العلم لا بدّ من هذا، فعلى هذا الحد يكون الاعتبار في القول مثل ما يقول المؤذن حتى لو قال السامع: سبحان الله عند قول المؤذن: الله أكبر لم يمتثل أمر رسول الله ﷺ، ومن لم يمتثل أمر رسول الله ﷺ لم يمتثل أمر الله فإن الله يقول: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩] وقال: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] وأمرنا رسول الله ﷺ أن نقول مثل ما يقول المؤذن وإن كان قال هذا السامع خيراً، وكذلك لو قال الله الكبير لم يقل مثله إلاً إن قال المؤذن الله الكبير وفيه خلاف في حق المؤذن بهذا اللفظ، فمن أجاز ذلك أوجب على السامع أن يقول مثله، فلو قال السامع: الله أكبر فقد قال الأذان المشروع المنصوص عليه المنقول بالتواتر، وبين قول الإنسان: الله الكبير، وقوله: الله أكبر فرقان عظيم، فإذن لا ينبغي أن تنقل الأخبار إلاّ كما تلفّظ بها قائلها إلاّ في مواضع الضرورة وذلك في الترجمة لمن ليس من أهل ذلك اللسان، فأمّا في القرآن فينبغي أن ينقل المسطور ويقرّر لفظه كما ورد، وبعد ذلك يترجم عنه حتى يخرج من الخلاف ويكون في الترجمة مفسراً لا تالياً، وأمّا في غير القرآن فله أن يترجم على المعنى بأقرب لفظ يكون بحكم المطابقة على المعنى كما كان في الخبر النبويّ.

فصل بل وصل في الإقامة: للإقامة حكم وصفة، أمّا حكمها فاختلف الناس فيه فقوم قالوا: إنها سنّة مؤكدة في حق الأعيان والجماعات أكثر من الأذان. وقوم قالوا: هي فرض وهو مذهب بعض أهل الظاهر، فإن أرادوا أنها فرض من فروض الصلاة تبطل الصلاة بسقوطها، وإن لم يقولوا ذلك صحّت الصلاة ويكون عاصياً بتركها، على أني رأيت لبعضهم أن الصلاة فتبطل بتركها. ومن قائل: إنه من تركها عامداً بطلت صلاته وهو مذهب ابن كنانة، اعتبار ذلك في الحكم الإقامة لأجل الله فرض لا بدّ منه، والإقامة لما أمرنا الله أن أقيم له فنحن فيه بحسب قرائن الأحوال، فإذا أعطت قرينة الحال أن ذلك الأمر على الوجوب أوجبناها مثل قوله: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [سورة الشورى: الآية ١٣] ومثل قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٧] ومثل قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٩] فهذا هو حد الواجب، فإن رجحت الوزن في القضاء فهو أفضل فإنك قد امتثلت أمر الله، فإنه ما رجح الميزان حتى اتصف بالإقامة التي هي حدّ الواجب ثم رجح، والذي يخسر الميزان ما بلغ بالوزن حد الإقامة حتى يحصل الواجب مثل ما فعل المرجح فما حمدنا المرجح إلاّ

لحصول إقامة الوزن لا للترجيح، ثم أثنينا عليه ثناء آخر بالترجيح، فالمرجح محمود من وجهين فاعلم، وحمده من جهة الإقامة أعلى لأنه الحمد الوجوبيّ، فحمد الترجيح نافلة إلاّ فيمن يحمل الأمر في ذلك على الوجوب وهو قوله ﷺ في القاضي ما عليه: «**إذا وَزَنْتَ فَأَرْجِحْ**» فأمره بالرجحان وأكّد في ذلك قولاً وفعلاً. وإذا لم يكن الأمر على الوجوب لقرينة حال كانت الإقامة بحسب ذلك فهذا اعتبار حكم الإقامة بوجه ينفع في دين الله، من وقف على هذا الكتاب وعمل بما قرّرناه فيه فإنه ما قرّرنا فيه أمراً غير مشروع لله الحمد، وإن كنّا لم نتعرّض لذكر الأدلة مخافة التطويل فما خرجنا بحمد الله عن الكتاب والسنّة فيه كما قال الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنّة.

وأمّا صفة الإقامة: فعند قوم التكبير الذي في أولها مثنى وما بقي فيها فرد والتكبير الذي بعد الإقامة مثنى وعند قوم مثل ذلك إلاّ الإقامة فإنها مثنى، وقوم خيّروا بين التثنية والإفراد، وقوم قالوا بالتثنية في الكل وتربيع التكبير الأول مع الاتفاق في توحيد التهليل الآخر.

الاعتبار: أمّا من ثنى أي من زاد على الواحدة فللمراتب التي ذكرناها في الأذان على السواء، ولم نعدل لاعتبار آخر لأنها جاءت في ظاهر الشريعة بلفظ الأذان لا بلفظ آخر إلاّ الإقامة فانفردت بها الإقامة عن الأذان وهي قوله: قد قامت الصلاة فهو إخبار عن ماض والصلاة مستقبلة فهي بشرى من الله لعباده لمن جاء إلى المسجد ينتظر الصلاة، أو كان في الطريق يأتي إليها، أو كان في حال الوضوء بسببها، أو كان في حال القصد إلى الوضوء قبل الشروع فيه ليصلي بذلك الوضوء فيموت في بعض هذه المواطن كلها فله أجر من صلاّها، وإن كانت ما وقعت منه فجاء بلفظ الماضي لتحقق الحصول، فإذا حصلت بالفعل فله أجر الحصول بالفعل، وأجر الحصول الذي يحصل لمن مات في هذه المواطن قبل أن يدخل في الصلاة، وقد ورد في الخبر: «**إنَّ الإنْسَانَ فِي صَلاَةٍ مَا دَامَ يَنْتَظِرُ الصَّلاَةَ**» فلهذا جاء بلفظ الماضي وهو الحاصل في قوله: قد قامت الصلاة، وإقامة الصلاة تمام نشأتها وكمالها أي هي لكم قائمة النشأة كاملة الهيئة على حسب ما شرعت، فإذا دخلتم فيها وأجرتم الأجر الثاني فقد يكون مثل الأول في إقامة نشأتها وقد لا يكون، فإن المصلي قد يأتي بها خداجاً غير كاملة فتكتب له خداجاً من حيث فعله بخلاف ما تكتب له قبل الفعل، فانظر ما أعظم فضل الله على عباده وسبب ذلك قول الله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] فإنه لو أثابه عليها قبل وقوعه بحسب علمه به فيها من إخداجها ربما قال العبد: لو أحييتني حتى أؤدّيها لأقمت نشأتها على أكمل الوجوه، فأعطى الله جلّ وعزّ سبحانه عبده ذلك الثواب على أكمل الأداء، لله الحمد والمنة على ذلك.

فصل بل وصل في القبلة: اتفق المسلمون على أن التوّجه إلى القبلة أعني الكعبة شرط من شروط صحة الصلاة، لولا أن الإجماع سبقني في هذه المسألة لم أقل به أنه شرط فإن قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥] نزلت بعده وهي آية محكمة غير منسوخة، ولكن انعقد الإجماع على هذا وعلى قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾

محكماً في الحائر الذي جهل القبلة فيصلي حيث يغلب على ظنه باجتهاده بلا خلاف، وإن ظهر له بعد ذلك أنه صلّى لغير القبلة لم يعد بخلاف في ذلك بخلاف من لم يجد سبيلاً إلى الطهارة، فإنه قد وقع الخلاف فيه هل يصلي أم لا؟ ثم إنه لا خلاف أن الإنسان إذا عاين البيت أن الفرض عليه هو استقبال عينه، وأمّا إذا لم ير البيت فاختلف علماؤنا في موضعين من هذه المسألة: الموضع الواحد هل الفرض هو العين أو الجهة؟ والموضع الثاني: هل فرضه الإصابة أو الاجتهاد؟ أعني إصابة العين أو الجهة عند من أوجب العين. فمن قائل: أن الفرض هو العين. ومن قائل: أن الفرض هو الجهة وبالجهة أقول لا بالعين فإن في ذلك حرجاً والله يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] وأعني بالجهة إذا غابت الكعبة عن الأبصار والصف الطويل قد صحّت صلاتهم مع القطع بأنّ الكل منهم ما استقبلوا العين هذا معقول الاعتبار التحديد في القبلة إخراج العبد عن اختياره، فإن أصله وأصل كل ما سوى الله الاضطرار والإجبار حتى اختيار العبد هو مجبور في اختياره، ومع أن الله فاعل مختار فإن ذلك من أجل قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ [سورة القصص: الآية ٦٨] وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٦] ولا يفعل إلاّ ما سبق به علمه وتبدّل العلم محال يقول تعالىٰ: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] وقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] وما رأيت أحداً تفطن لهذا القول الإلهي، فإن معناه في غاية البيان ولشدة وضوحه خفي، وقد نبهنا عليه في هذا الكتاب وبيّناه فإنه سرّ القدر من وقف على هذه المسألة لم يعترض على الله في كل ما يقضيه ويجريه على عباده وفيهم ومنهم ولهذا قال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٣] فلو كنت عاقلاً تفهم عن الله كفتك هذه الآية في المقصود.

ثم نرجع إلى اعتبار ما كنّا بصدده فنقول: إن الصلاة دخول على الحق وجاء في الخبر الصحيح: «**إِنَّ الصَّلاَةَ نُورٌ وَالإِنْسَانُ ذو بَصَرٍ فِي بَاطِنِهِ كَمَا هُوَ فِي ظَاهِرِهِ**» فلا بدّ له من الكشف في صلاته، فمن جملة ما يكشفه في صلاته كونه مجبوراً في اختياره الذي ينسبه إليه، فشرع له في هذا الموطن وفي العبادات كلها التحديد في الأشياء حتى يكون في تصرفاته بحكم الاضطرار وهو أصل يشمل كل موجود، ولا أحاشي موجوداً من موجود لمن كان ذا بصر حديد ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [سورة ق: الآية ٣٧] حتى في حكم المباح هو فيه غير مختار، لأنه من المحال أن يحكم عليه بحكم غير الإباحة من وجوب أو ندب أو حظر أو كراهة، فلهذا شرع له استقبال البيت إذا أبصره حين صلاته، واستقبال جهته إذا غاب عنه، وفرضه في اجتهاده بالغيبة إصابة الاجتهاد لا إصابة العين، وذلك لو كان فرضه إصابة العين فإن العبد مأمور بأن يستقبل ربه بقلبه في صلاته بل في جميع حركاته وسكناته لا يرى إلاّ الله. وقد علمنا أن ذات الحق وعينه يستحيل على المخلوق معرفتها، فمن المحال استقبال عين ذاته بقلبه، أي من المحال أن يعلم العاقل ربه من حيث عينه، وإنما يعلمه من حيث جهة الممكن في افتقاره إليه وتميّزه عنه بأنه لا يتصف بصفات المحدثات على الوجه الذي يتصف به

المحدث الممكن لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فلا يعرفه إلاّ بالسلوب وهذا سبب قولنا بالجهة لا بالعين، والإصابة إصابة الاجتهاد لا إصابة العين، ولهذا كان المجتهد مأجوراً على كل حال، ولا سيما والاجتهاد في مذهبنا في الأصول كما هو في فروع الأحكام لا فرق.

وأما قول رسول الله ﷺ في المجتهد إنه مصيب ومخطىء فمعناه عندنا في هذه المسألة وأمثالها أن المجتهد في الإصابة ما هي إصابة العين أو إصابة الجهة أن المصيب من قال: إصابة الجهة، والمخطىء من قال: إصابة العين، فإن إصابة الجهة في غير الغيم المتراكم ليلاً أو نهاراً في البراري لا يقع إلاّ بحكم الاتفاق، فأحرى إصابة العين لا بحكم العلم، وما تعبدنا الله بالأرصاد ولا بالهندسة المنبئة على الأرصاد المستنبط منها أطوال البلاد وعروضها، فإنا بكل وجه إذا أخذنا نفوسنا بها على غير يقين فتبين أن الفرض على المكلف الاجتهاد لا الإصابة، فلا إعادة على من صلّى، ولم يصب الجهة إذا تبين له ذلك بعدما صلّى، كذلك الاعتبار في الباطن إذا وفى الناظر النظر حقه أصاب العجز عن الإدراك فاعتقده وما ثم إلاّ العجز، فالحق عند اعتقاد كل معتقد بعد اجتهاده، يقول تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧] فافهم كما هو عند ظن عبده به إلاّ أن المراتب تتفاضل، والله أوسع وأجل وأعظم أن ينحصر في صفة تضبطه، فيكون عند واحد من عباده ولا يكون عند الآخر، يأبى الاتساع الإلهيّ ذلك فإن الله يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥] ووجه كل شيء حقيقته وذاته، فإنه سبحانه لو كان عند واحد أو مع واحد ولا يكون عند آخر ولا معه كان الذي ليس هو عنده ولا معه يعبد وهمه لا ربه والله يقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[سورة الإسراء: الآية ٢٣] أي حكم ومن أجله عبدت الآلهة، فلم يكن المقصود بعبادة كل عابد إلاّ الله، فما عبد شيء لعينه إلاّ الله، وإنما أخطأ المشرك حيث نصّب لنفسه عبادة بطريق خاص لم يشرع له من جانب الحق فشقي لذلك، فإنهم قالوا في الشركاء: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] فاعترفوا به، وما يتصوّر في العالم من أدنى من له مسكة من عقل التعطيل على الإطلاق، وإنما معتقدوا التعطيل إنما هو يعطل صفة ما اعتقدها المثبت، فمن استقبل عين البيت إن كان يبصره أو الجهة إن غاب عنه بوجهه واستقبل ربه في قبلته كما شرع له في قلبه وحسّه في خياله إن ضعف عن تعليق العلم به من حيث ما يقتضيه جلاله، فإن المصلي وإن واجه الحق في قبلته كما ورد في النص فإنه كما قال؛ من ورائه محيط، فهو السابق والهادي فهو سبحانه الذي نواصي الكل بيده الهادي إلى صراط مستقيم والذي يسوق المجرمين ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [سورة مريم: الآية ٨٦] وإليه يرجع الأمر كله ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣].

فصل بل وصل في الصلاة في داخل البيت: فمن قائل: بمنع الصلاة في داخل الكعبة على الإطلاق. ومن قائل: بإجازة ذلك على الإطلاق، ومن العلماء من فرّق في ذلك بين

النفل والفرض وكل له مستند في ذلك يستند إليه اعتبار ذلك في الباطن وبعد تقرير الحكم في الظاهر الذي شرع لنا وتعبدنا به، ولم نمنع من الاعتبار بعد هذا التقرير فنقول: هذه حالة من كان الحق سمعه، وبصره، ولسانه، ويده، ورجله، لكن في حال إجالة كل جارحة فيما خلقت له هكذا قيد الصادق في خبره، وفي ذلك ذكرى لمن كان له قلب.

ولما كانت هذه الحالة الواردة من الشارع في الخبر الصحيح عنه وتأيّد الكشف بذلك الخبر عند السامع حالة النوافل ونتيجتها لهذا تنفل في الكعبة رسول الله ﷺ لما دخلها كما ورد، وكان يصلي الفريضة خارج البيت، كما كان يتنفل على الراحلة حيث توجهت به ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥] وقد علمنا أن الأمر في نفسه قد يكون كما نراه ونشهده، وهذا هو الذي أعطى مشاهدة هذا المقام فهو يراه سمع غيره كما يراه سمع نفسه، فالكرامة التي حصلت لهذا الشخص إنما هي الكشف والاطلاع لا أنه لم يكن الحق سمعه ثم كان إلاَّ أن يتعالى الله عن العوارض الطارئة، وهذه المسألة من أعزّ المسائل الإلهية، فمن استصحب هذا الحكم في الظاهر أجاز الصلاة كلها فرضها ونفلها داخل الكعبة، فإن كل ما سوى الله لا يمكنه الخروج عن قبضة الحق فهو موجدهم بل وجودهم ومنه استفادوا الوجود، وليس الوجود خلاف الحق ولا خارجاً عنه يعطيهم منه هذا محال بل هو الوجود وبه ظهرت الأعيان، يقول القائل بحضرة رسول الله ﷺ مرتجزاً وهو يسمع: [الرجز]

والـلّـهِ لـولا الـلـهُ مـا اهـتـديـنـا ... ولا تـصـدَّقـنـا ولا صـلّـيـنـا

ورسول الله ﷺ يعجبه ذلك ويصدقه في قوله فنحن به سبحانه وله كما ورد في الخبر الصحيح، فإذا نظرنا إلى ذواتنا وإمكاننا فقد خرجنا عنه وإمكاننا يطلبنا بالنظر والافتقار إليه فإنه الموجد أعياننا بجوده من وجوده وهو اعتبار قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٩] فتفسيره من كل جهة خرجت مصلياً فاستقبل المسجد الحرام، وفي الإشارة من حيث خرجت إلى الوجود أي من زمان خروجك من العدم إلى الوجود، وفي الاعتبار يقول: بأي وجه خرجت من الحق إلى إمكانك ومشاهدة ذاتك ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يقول: فارجع بالنظر والاستقبال مفتقراً مضطراً إلى ما منه خرجت فإنه لا أين لك غيره فانظر فيه تجده محيطاً بك مع كونه مستقبلك فقد جمع بين الإطلاق والتقييد، فأنت تظن أنك خرجت عنه وما استقبلت إلاَّ هو وهو من ورائك محيط. وحيثما كنتم من الأسماء الإلهية والأحوال فولّوا وجوهكم ذواتكم شطره أي لا تعرضوا عنه، ووجه الشيء عينه وذاته، فإن الإعراض عن الحق وقوع في العدم وهو الشر الخالص، كما أن الوجود هو الخير الخالص، والحق هو الوجود، والخلق هوالعدم، قال لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. فقال رسول الله ﷺ في هذا القول إنه أصدق بيت قالته العرب، ولا شك أن الباطل عبارة عن العدم.

وأما حكم هذه الآية في الظاهر أن صلاة الفرض تجوز داخل الكعبة إذ لم يرد نهي في ذلك ولا منع، وقد ورد وثبت: حيثما أدركتك الصلاة فصلّ، إلاَّ الأماكن التي خصّصها

الدليل الشرعي من ذلك لا لأعيانها وإنما ذلك لوصف قام بها فيخرج بنصّه ذلك القدر لذلك الوصف. وقوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ أي وإذ خرجت من الكعبة أو من غيرها وأردت الصلاة ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي لا تستقبل بوجهك في صلاتك جهة أخرى لا تكون الكعبة فيها، فقبلتك فيها ما استقبلت منها، وكذلك إذا خرجت منها ما قبلتك إلاّ ما يواجهك منه سواء أبصرتها أو غابت عن بصرك، وليس في وسعك أن تستقبل ذاتها كلها بذاتها لكبرها وصغر ذاتك جرماً، فالصلاة في داخلها كالصلاة خارجاً عنها ولا فرق، فقد استقبلت منها وأنت في داخلها ما استقبلت، ولا تتعرض بالوهم لما استدبرت منها إذا كنت فيها، فإن الاستدبار في حكم الصلاة ما ورد وإنما ورد الاستقبال، وما نحن مع المكلف إلاّ بحسب ما نطق به من الحكم، فلا يقتضي عندنا الأمر بالشيء النهي عن ضدّه فإنه ما تعرّض في النطق لذلك، فإذا تعرّض ونطق به قبلناه، فإذا لم تعمل بما أمرك الله به فقد عصيته، ولو كان الأمر بالشيء نهياً عن ضدّه لكان على الإنسان خطيئتين أو خطايا كثيرة بقدر ما لذلك المأمور به من الأضداد وهذا لا قائل به، فإنما يؤاخذ الإنسان بترك ما أمر بفعله أو فعل ما أمر بتركه لا غير، فهو ذو وزر واحد وسيئة واحدة فلا يجزى إلاّ مثلها، وقد أخذت المسألة حقّها ظاهراً وباطناً حقاً وخلقاً شرعاً واعتباراً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فصل بل وصل في ستر العورة: اتفق العلماء على أن ستر العورة فرض بلا خلاف، وعلى الإطلاق أعني في الصلاة وفي غيرها، وسأذكر حدّها في الرجل والمرأة. اعتبار ذلك في الباطن: وجب على كل عاقل ستر السرّ الإلهيّ الذي إذا كشفه أدّى كشفه من ليس بعالم ولا عاقل إلى عدم احترام الجناب الإلهيّ الأعزّ الأحمى، فإن حقيقة العورة الميل ولهذا قال من قال: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ١٣] أي مائلة تريد السقوط لما استنفروا فأكذبهم الله عند بغيه بقوله: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ١٣] يعني بهذا القول ممّا دعوتهم إليه، ومنه الأعور فإن نظره مال إلى جهة واحدة، وكذلك ينبغي أن يستر العالم عن الجاهل أسرار الحق في مثل قوله ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] وقوله: كنت سمعه وبصره ولسانه. فإن الجاهل إذا سمع ذلك أدّاه إلى فهم محظور من حلول أو تحديد، فينبغي أن يستر ما تعطف الحق به على قلوب العلماء ومال عزّ وجلّ سبحانه وتقدّس بخطابه ممّا يقتضيه جلاله من الغنى على الإطلاق عن العالمين إلى قوله تعالىٰ على لسان رسوله ﷺ: «**جعتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، مَرِضتُ فَلَمْ تعُدْني، ظَمِئْتُ فَلَمْ تَسْقِنِي**»، فليستر علم هذا عن الجاهل ولا يزيد على ما فسّره به قائله سبحانه شيئاً كما ستره الحق بقوله: أما إن فلاناً مرض فلو عدته وجدتني عنده، وهذا أشكل من الأوّل، لكنه أعطى في هذا التفسير للعلماء بالله علماً آخر به تعالىٰ لم يكن عندهم وذلك أنه في الأول جعل نفسه سبحانه عين المريض والجائع، وفي تفسيره تعالىٰ جعل نفسه عائد المريض بكونه عنده، فإن من عاد مريضاً فهو عنده، وأين هذا من جعله نفسه عين المريض، وكل قول من ذلك حق، ولكل حق حقيقة. وأما الستر الذي

في ذلك للعامي أن يقال له في قوله: لوجدتني عنده أن حال المريض أبداً الافتقار والاضطرار إلى من بيده الشفاء وليس إلاّ الله فالغالب عليه ذكر الله مع الأنات في دفع ما نزل به بخلاف الأصحاء وهو سبحانه قد قال: أنا جليس من ذكرني، وهذا وجه صحيح ويقنع العامي به ويبقى العالم بما يعلمه من ذلك على علمه، فهذا هو سرّ الميل الإلهيّ عن نظر العامي.

فصل بل وصل في ستر العورة في الصلاة: اختلف العلماء هل هي شرط في صحة الصلاة أم لا؟ فمن قائل: إن ستر العورة من سنن الصلاة. ومن قائل: إنها من فروض الصلاة. وأما اعتبار ذلك في النفس فقد أعلمناك ما مفهوم العورة آنفاً. وفي هذه المسألة لما ثبت أن المصلي يناجي ربّه وأن الصلاة قد قسّمها الله نصفين بينه وبين عبده، فمن غلب أن الحق هو المصلي بأفعال عبده أعني الأفعال الظاهرة من العبد في الصلاة كما ثبت أن الله قال على لسان عبده في الصلاة: سمع الله لمن حمده عند الرفع من الركوع والعبد هو القائل بلا شك وقال: فأجره حتى يسمع كلام الله والرسول ﷺ هو التالي بلا شك قال: إن ستر العورة من فروض الصلاة أي مثل هذا لا يظهر في العامّة يريد معناه وسرّه الذي يعرفه العالم بل يؤمن به العاميّ كما جاء ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٣] ومن رأى أن لا مرتبة في هذه المسألة بين العالم والعاميّ وأنه ما فيها إلاّ ما ورد النص به ولو أدّى عند السامع إلى ما أدّاه إذا لم يخرج عن مقتضى اللسان في ذلك وإن تفاضلت درجاتهم كان ستر العورة عنده من سنن الصلاة لا من فروضها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فصل بل وصل في حدّ العورة: فمن قائل: إن العورة في الرجال هي السوأتان. ومن قائل: هي من الرجال من السرّة إلى الركبة وهي عندنا السوأتان فقط، الاعتبار في ذلك في النفس ما يذم ويكره ويخبث من الإنسان هو العورة على الحقيقة، والسوأتان محل لما ذكرناه فهو بمنزلة الحرام، وما عدا السوأتين ممّا يجاوزهما من السرّة علواً ومن الركبة سفلاً هو بمنزلة الشبهات، فينبغي أن يتقى فإن الراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

فصل بل وصل في حدّ العورة من المرأة: فمن قائل: إنها كلها عورة ما خلا الوجه والكفين. ومن قائل بذلك وزاد: إن قدميها ليستا بعورة. ومن قائل: إنها كلها عورة. وأما مذهبنا فليست العورة في المرأة أيضاً إلاّ السوأتين كما قال تعالىٰ: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٢] فسوّى بين آدم وحوّاء في ستر السوأتين وهما العورتان، وإن أمرت المرأة بالستر فهو مذهبنا، لكن لا من كونها عورة وإنما ذلك حكم مشروع ورد بالستر ولا يلزم أن يستر الشيء لكونه عورة، اعتبار ذلك في النفس المرأة هي النفس والخواطر النفسية كلها عورة، فمن استثنى الوجه والكفين والقدمين، فلأنّ الوجه محل العلم لأن المسألة إذا لم تعرف وجهها فما علمتها، وإذا استتر عنك وجه الشيء فما علمته وأنت مأمور بالعلم بالشيء، فأنت مأمور بالكشف عن وجه ما أنت مأمور بالعلم به، فلا يستر الوجه من كونه عورة فإنه ليس بعورة، وأمّا اليدان وهما الكفان بهما محل الجود والعطاء وأنت مأمور بالسؤال فلا بدّ للمعطي أن يمدّ يده بما يعطي فلا يستر كفّه فإنه المالك للنعمة التي تطلبها منه،

فلا بدّ أن تتناولها إذا جاد عليك بها والجود والكرم مأمور بهما شرعاً، وقد ورد: «**إِنَّ اليَدَ العُلْيَا خَيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفلى**» فعمّ يد السائل والمعطي، فلا بدّ للمعطي أن يناول وللسائل أن يتناول. وأمّا القدمان فلا يجب سترهما وأنهما ليستا بعورة لأنهما الحاملتان للبدن كله ونقلاته من مكان إلى مكان، ومن كان حكمه التصريف فيتعذر ستره واحتجابه فلا بدّ أن يظهر ويبرز ضرورة فيبعد أن يكون عورة تستر.

فصل بل وصل في اللباس في الصلاة: اتفق العلماء على أنه يجزي الرجل من اللباس في الصلاة الثوب الواحد، اعتباره في النفس الموحّد في الصلاة هو الذي لا يرى نفسه فيها بل يرى أن الحق يقيمه ويقعده وهو كالميت بين يدي الغاسل، فهذا معنى الثوب الواحد.

فصل بل وصل في الرجل يصلي مكشوف الظهر والبطن: فذهب قوم إلى جواز صلاته، وذهب قوم إلى أن لا تجوز صلاته اعتبار النفس في ذلك الظاهر والباطن وهو عمل القلب في الصلاة وعمل الجوارح، فالرجل المصلي إذا انكشف له ظاهر أمره في صلاته وباطنه لم ير نفسه مصلياً وإنما رأى نفسه يصلي بها، فهذا بمنزلة من قال بإبطال صلاته، فإن صاحب هذا الكشف على هذا النظر بطلت إضافة الصلاة إليه مع وقوع الصلاة منه، ومن حصل له هذا الكشف وقال: لا يمكن أن يكون الأمر إلاّ هكذا، وبهذا القدر من الفعل يسمّى مصلياً قال بجواز صلاته.

فصل بل وصل فيما يجزىء المرأة من اللباس في الصلاة: اتفق الجمهور على الدرع والخمار، فإن صلّت مكشوفة فمن قائل: تعيد في الوقت وبعده. ومن قائل: تعيد في الوقت. وأمّا المرأة المملوكة فمن قائل: أنها تصلي مكشوفة الرأس والقدمين. ومن قائل: بوجوب تغطية رأسها. ومن قائل: باستحباب تغطية رأسها، اعتبار النفس في ذلك لا فرق بين المملوكة والحرّة فإن الكل ملك لله فلا حريّة عن الله، فإذا أضيفت الحريّة إلى الخلق فهو خروجهم عن رق الغير لا عن رق الحق، أي ليس لمخلوق على قلربهم سبيل ولا حكم، فهذا معنى الحريّة في الطريق، وقد تقدم الكلام في الثوب الواحد وبقي الاعتبار في تغطية الرأس هنا. واعلم أن المرأة لما كانت في الاعتبار النفس والرأس من الرياسة والنفس تحب الظهور في العالم برياستها لحجابها عن رياسة سيدها عليها وطلب شفوفها على أمثالها ولهذا قيل: آخر ما يخرج من قلوب الصدّيقين حب الرياسة أمرت النفس أن تغطي رأسها أي تستر رياستها فإنها في الصلاة بين يدي ربها، ولا شك أن الرئيس بين يدي الملك في محل الافتقار، فإذا خرج إلى من هو دونه أظهر رياسته عليه، فلهذا أمرت النفس المملوكة أن تغطي رأسها في الصلاة.

فصل بل وصل في لباس المحرم في الصلاة: فمن قائل: بجواز صلاته وهو مذهبنا وإن كنت أكره له ذلك. ومن قائل: لا تجوز. ومن قائل: باستحباب الإعادة في الوقت وهو عندنا عاص بلباس ما لا يحل له وإن جازت صلاته فإنه عندنا من الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً. اعتبار النفس في ذلك ما في كل موطن يرزق الإنسان العصمة في أحواله والتوفيق في

جميع أموره فهو فيما يوفق فيه موفق، وفيما يخذل فيه مخذول في الوقت الواحد كالذاكر لله بقلبه ولسانه وهو يضرب بيده في تلك الحالة من يأثم بضربه، ومن حرم عليه ضربه فلا يقدح ذلك في ذكره كما لا يرفع ذلك الذكر إثمه أو حكم أنه أتى حراماً فإن الذكر لا يحلله، ولهذا عندنا تصح الصلاة في الدار المغصوبة فهو مأثوم من وجه مأجور من وجه.

فصل بل وصل في الطهارة من النجاسة في الصلاة: فمن قائل: إنها من فروض الصلاة وأنها لا تصحّ إلاّ بإزالتها. ومن قائل: إنها سنّة وقد مضى الكلام فيها في الطهارة. ومن قائل: إن إزالة النجاسة فرض على الإطلاق، ومن هذا مذهبه لا يلزم منه أن يقول إن إزالتها شرط في صحة الصلاة بل يكون مصلياً صحيح الصلاة وعاصياً من حمله النجاسة في الصلاة.

اعتبار ذلك في النفس: النجاسة عند من يرى إزالتها فرضاً تقتضي البعد عن الله والصلاة تقضي بالقرب للمناجاة، فمن غلب القرب على البعد أزال حكمها، ومن غلب البعد على القرب لم تصحّ عنده الصلاة، والأولى أن يقال: إن العبد متنوّع الأحوال وأنه بكلّه لله، وأنه بما كان منه لله فإن الله ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [سورة النساء: الآية ٤٠] فصلاته مقبولة سواء صلّى بالنجاسة أو لم يصلّ، والأولى إزالتها بلا خلاف قلَّ ذلك أو كثر، ومنزلها أن الإنسان لا يحضر مع الله في كل حال لما جبل عليه من الغفلة والضيق، فاعلم ذلك وبالله التوفيق.

فصل بل وصل في المواضع التي يصلى فيها: فمن الناس من ذهب إلى إجازة الصلاة في كل موضع لا تكون فيه نجاسة. ومنهم من استثنى من ذلك سبعة مواضع: المزبلة، والمجزرة، والمقبرة، وقارعة الطريق، والحمام، ومعاطن الإبل، وفوق ظهر الكعبة. ومنهم من استثنى من ذلك المقبرة، والحمام. ومنهم من استثنى المقبرة فقط. ومنهم من كره الصلاة في هذه المواضع المنهي عنها وإن لم يبطلها.

اعتبار النفس في ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] والمصلي يناجي ربّه وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [سورة المعارج: الآية ٢٣] وقول عائشة رضي الله عنها في رسول الله ﷺ على ما علمت من أحواله: «أَنَّهُ كَانَ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحيَانِهِ» وليس للأماكن أثر في حجاب القلب عن ربّه إلاّ لأصحاب الأحوال، وإنما الأثر في ذلك للغفلة أو للجهل في العموم أو للحال في أصحاب الأحوال. وأمّا ذكر هذه الأماكن المنهيّ عنها فإنها كلها تناقض الطهارة، وقد تقدّم الكلام في الطهارة من النجس واعتباره وما بقي من هذه السبعة إلاّ الصلاة فوق ظهر البيت وذلك أنك مأمور بالاستقبال إليه في الصلاة وأنت في هذه الحالة لا فيه ولا مستقبله فلم تصلّ الصلاة المشروعة فإن شطر المسجد الحرام لا يواجهك، ومن أجاز ذلك حمل في الاعتبار الوجه على الذات، ولا شك أنك بذاتك ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٩] فإنك على ظهره والأرض كلها مسجد.

فصل بل وصل في البيع والكنائس: اختلف الناس في البيع والكنائس أعني في الصلاة فيها، فكرهها قوم وأجازها قوم، وفرّق قوم بين أن تكون فيها صور أم لا تكون.

اعتبار النفس في ذلك: هل يناجي الحق شخصان من مرتبة واحدة ذلك عندنا لا يصحّ

للتوسّع الإلهيّ، قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٨] تفسيراً أو إشارة، فإن صلينا في مثل هذه الأماكن فمن شرعنا لا من شرعهم فافهم والله الملهم.

فصل بل وصل في الصلاة على الطنافس وغير ذلك ممّا يقعد عليه: اتفق العلماء على الصلاة على الأرض، واختلفوا في الصلاة على الطنفسة وغير ذلك ممّا يقعد عليه على الأرض، فالجمهور على إباحة السجود على الحصير وما يشبهه ممّا تنبته الأرض والكراهة في السجود على غير ذلك.

الاعتبار في النفس في ذلك: لما قال الحق تعالىٰ: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي بنصفين» فأثبتك في الصلاة وما نفاك، وله الوصف الأعلى الأنزه، ولك الوصف الأنزل الأدنى، فكل نزول منك إلى أرض عبوديتك أو لوازمها فإنه قادح فيما أمرت بتعميمه فإنه سمّاك عبداً في الصلاة والعبودة هي الذلّة، وقال تعالىٰ في وصف الأرض أنه جعلها لنا ذلولاً فنمشي في مناكبها فهي تحت أقدامنا، وهذا غاية الذلّة من يكون يطؤها الذليل، ولما كانت بهذه المنزلة من الذلّة أمرنا أن نضع عليها أشرف ما عندنا في ظاهرنا وهو الوجه وأن نمرّغه في التراب، فعل ذلك جبراً لانكسار الأرض بوطء الذليل عليها الذي هو العبد، فاجتمع بالسجود وجه العبد ووجه الأرض فانجبر كسرها فإن الله عند المنكسرة قلوبهم، فكان العبد في ذلك المقام بتلك الحالة أقرب إلى الله سبحانه من سائر أحوال الصلاة، لأنه سعى في حق الغير لا في حق نفسه، وهو جبر انكسار الأرض من ذلّتها تحت وطء الذليل لها، فتنبّه لما أشرت إليك فإن الشرع ما ترك شيئاً إلاّ وقد أشار إليه إيماء علمه من علمه وجهله من جهله، ولهذا لم يعلم أسرار هذه الأمور إلاّ أهل الكشف والوجود، فإن جميع العالم يخاطبونهم ويعرفونهم بحقائقهم، ولقد أخبرني أبو العباس الحريريّ بمصر سنة ثلاث وستمائة عن أبي عبد الله القرياقيّ أنه كان يمشي معه في سويقة وردان وكان قد اشترى قصرية صغيرة لابن صغير كان عنده ليبول فيها فضمهم منزل والقصرية عنده جديدة ومعهم رجال صالحون، فأرادوا أكل شيء فطلبوا إداماً يأتدمون به فاتفق رأيهم على أن يشتروا قطارة السكر فقالوا: هذه القصرية ما مسّها قذر وهي جديدة على حالها فملؤوها قطارة وقعدوا يأكلون إلى أن فرغوا وانصرف الناس ومشى صاحب القصرية بها مع أبي العباس، قال أبو العباس: فوالله لقد سمعت بأذني هذه وسمع معي الشيخ أبو عبد الله القرياقيّ القصرية وهي تقول: بعد أن أكل فيّ أولياء الله أكون وعاء للقذر؟ والله لا كان ذلك، وانتفضت من يده وسقطت على الأرض فتكسرت، قال أبو العباس: فأخذنا من كلامها حال، فلما قال لي ذلك قلت له: إنكم غبتم عن وجه موعظة القصرية إياكم ليس الأمر كما زعمتم، وكم من قصرية أكل فيها من هو خير منكم وبعد ذلك استعملت في القذر، وإنما قالت لكم: يا إخواني لا ينبغي لكم بعد أن جعل الله قلوبكم أوعية لمعرفته وتجليه أن تجعلوها وعاء للأغيار، وما نهاكم الله أن تكون قلوبكم وعاء له ثم تكسرت أي هكذا فكونوا مع الله، فقال لي: ما جعلنا بالنا لما نبهتنا عليه.

فصل بل وصل في اشتمال الصلاة على أقوال وأفعال: أمّا الشروط المشترطة في الصلاة فمنها أقوال، ومنها أفعال. أما الأفعال: فجميع الأفعال المباحة التي ليست أفعال الصلاة إلاّ قتل الحية والعقرب في الصلاة فإنهم اختلفوا في ذلك واتفقوا على أن الفعل الخفيف لا يبطل الصلاة.

الاعتبار في النفس في ذلك: عقرب الهوى وحيّة الشهوة تخطر للمناجي ربّه فهل يقتلهما أو يصرفهما في مصرفهما الذي عيّن لهما الشارع لما علّم العارف أن قتلهما محال فيهوى ما عند الله بهواه ويشتهي دوام مناجاته بشهوته فيرى بأن لا يقتلهما من هذا مذهبه، ويرى قتلهما من يرى أنهما قد حالا بينه وبين مناجاته ربه. وأما الأقوال فإنها أيضاً التي ليست من أقوال الصلاة، فلم تختلف العلماء في أنها تفسد الصلاة عمداً إلاّ أن العلماء اختلفوا من ذلك في موضعين: الموضع الواحد: إذا تكلم ساهياً. والموضع الآخر: إذا تكلم عامداً لإصلاح الصلاة. ومن قائل وهو قول شاذ: إن من تكلم في الصلاة عامداً لإحياء نفس أو أمر كبير أنه يبني على ما مضى من صلاته ولا يفسدها ذلك وهو مذهب الأوزاعيّ. ومن قائل: إن الكلام عمداً لإصلاح الصلاة لا يفسدها. ومن قائل: إن الكلام يفسدها كيف كان إلاّ مع النسيان. ومن قائل: إن الكلام يفسدها مع النسيان ومع غير النسيان.

الاعتبار: المصلي يناجي ربّه فإذا ناجى غيره من أجله ما زال من مناجاة ربّه، وإذا ناجى غيره لا من أجل ربّه فقد خرج عن صلاته، والنسيان في مناجاة الحق غير معتبر إلاّ من غلب من أصحابنا على المناجي مشاهدة الحجاب، فإن الله لا يناجي عبده إلاّ من وراء حجاب كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١] وأقرب الحجب الصورة التي يقع فيها التجلي هذا أقرب الحجب فإنه ما هو الصورة ولا غيرها، فمن شغلته الصورة عن نسبة ما هو الصورة أو شغله ما هو الصورة عن نسبة هو الصورة فهو الناسي في الحالتين، فيكون حكمه في الاعتبار كحكمه في الظاهر من الخلاف الواقع بين العلماء فافهم.

فصل بل وصل في النية في الصلاة: فمن قائل: إنها شرط في صحة الصلاة، بل قد اتفق العلماء عليها إلاّ من شذّ.

اعتبار النفس في ذلك: قد يقصد العبد مناجاة ربّه وقد يأتيه الأمر بغتة، فإن موسىٰ مشى ليقبس ناراً فكلمه ربّه ولم يكن له قصد في ذلك، والأصل في العبادات كلها أنها من الله ابتداء لا مقصودة للمكلفين إلاّ ما شذّ من ذلك كآية الحجاب وغيرها في حق عمر بن الخطاب، وإنما يمنع القصد في الباطن المعتبر لأن الحقيقة تعطي أن ما ثم شيء خارج عن الحق أو تخلّى الحق عنه حتى يقصده في أمر يكون فيه بل هو في نسبة الكل إليه نسبة واحدة، فإلى أين أقصد وهو معي حيث كنت وعلى أيّ حال كنت، فما بقي القصد جهة القربة إلى الله، وإنما متعلق القصد حال مخصوص مع الله قصدته عن حال مخصوص مع الله خرجت منه به إليه والأحوال مختلفة، فمن راعى اختلاف الأحوال قال بوجوب النية، وعلى هذا النحو تنوّعت

الشرائع وجاءت، ومن راعى الحضور ولم ينظر إلى الأحوال كان صاحب حال فلم يعرف النية فإنه في العين قال تعالىٰ في حق من هذا حاله من باب الإشارة لا التفسير: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [سورة التكوير: الآية ٢٦] ومثله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٤٦]. انتهى الجزء السابع والثلاثون.

(الجزء الثامن والثلاثون)

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل بل وصل في نية الإمام والمأموم: اختلف علماء الشريعة في نية الإمام والمأموم هل من شرط نية المأموم أن توافق نية الإمام في الصلاة أعني في تعيين الصلاة وفي الوجوب؟ فمن قائل: إنه يجب. ومن قائل: إنه لا يجب، ولكل قائل حجة ليس هذا موضعها.

اعتبار النفس في ذلك: الصحيح أنه لا يجب لأنه أمر غيبي، ولا يكون الائتمام إلاً بما يتعلق به الحسّ من سماع أو مشاهدة، ولهذا فصّل الشارع ما أجمله في الائتمام، فذكر الأفعال المدركة بالحسّ بأي حسّ أدركها وما ذكر النية فإنها من عمل القلب فإنه تكليف ما لا يوصل إلى معرفته، ومن علم أن الاتساع الإلهيّ يحيل أن يكرر الحق التجلّي لشخص أو يتجلى لشخصين في صورة واحدة علم أن نية المأموم لا ترتبط بنية الإمام إلاً في الصلاة من كونها ذات أفعال ولكل امرىء ما نواه، فإن القصد بالتجلي الامتنان من المتجلي على المتجلى له، والقصد من المتجلى له العلم والالتذاذ بذلك التجلي.

فصل بل وصل في حكم الأحوال في الصلاة: اعلم أن الصلاة تشتمل على أقوال وأفعال ويكون حكمها بحسب الأحوال، فإن جميع العبادات تنبني على الأحوال وهي المعتبرة للشارع، فيكون الحكم يتوجه على المكلف من جهة الحال التي يكون عليها والأسماء تابعة للأحوال، ولهذا يراعيها الشارع في الحكم على المكلف، قيل لمالك بن أنس: ما تقول في خنزير الماء؟ فأفتى بتحريمه، فقيل له: أليس هو من سمك البحر؟ فقال رضي الله عنه: أنتم سميتموه خنزيراً ما زادهم على ذلك. كذلك الخمر المحرم شربها إذا تخللت زال عنها اسم الخمر لزوال الحال الذي أوجب له اسم الخمر فسمّي خلاً لحال آخر طرأ عليه، والجوهر عين الجوهر، فانتقل الحكم من التحرّم إلى الحل، والظاهر والباطن في هذا على السواء في الحكم فإن الاعتبار إنما هو من الشرع لمن عقل عنه.

فصل بل وصل في التكبير في الصلاة: اختلف علماء الشريعة في التكبير في الصلاة على ثلاثة مذاهب: فمن ذاهب إلى أنه كله واجب في الصلاة. ومن ذاهب إلى أنه كله ليس بواجب نقيض الأول. ومن ذاهب إلى أنه ليس بواجب إلاً تكبيرة الإحرام فقط.

اعتبار النفس في ذلك: تكبير الله واجب على كل حال، ولكن من شرطه مشاهدة الإنسان نفسه، فإن لم يشاهد إلاً الله ولم ير لغير الله عيناً فلا يجب التكبير لأنه مأثم على من، فإن الله لا يجب عليه شيء، وأن التكبير لا يعقل إلاً بوجود الأغيار أو تقدير وجود الأغيار، ثم إن القائلين لا مشهود لهم إلاً الله شاهداً ومشهوداً وشهادة، وأعمّ من هذه الحالة في الفناء

ما يكون، فإن شاهده من حيث أسمائه الإلهية الحسنى أوجب التكبير من حيث نسبها أي من نسب بعضها لبعض، فإن الاسم الحيّ له مهيمنية على جميع الأسماء، والاسم العالم أعمّ في التعلّق من الاسم المريد والقادر، فالتكبير لا بدّ منه، فإن حقائق الأسماء تطلبه لتفاضلها، وإن نظر في الأسماء الإلهية من حيث ما تجتمع فيه وهو المسمّى بها فإنها موضوعة عن المتكلم للدلالة على عين المسمّى، وإن كان لها حقائق في نفوسها ممّا يكون متعلقه التنزيه أو الأغيار لم ير التكبير، ومن فرّق بين الصلاة وغيرها من العبادات رأى وجوب تكبيرة الإحرام فقط ينبّه بها نفسه أنها ممنوعة محجور عليها التصرّف، فيما يخرجها عن هذه العبادة المختصة المسمّاة صلاة، وقد انحصرت المذاهب في الاعتبار والحمد لله.

فصل بل وصل في لفظ التكبير في الصلاة: اختلف علماء الشريعة في صفة لفظ التكبير في الصلاة، فمن قائل: لا يجزىء إلاّ لفظة الله أكبر. ومن قائل: يجزىء بغير الصيغة ولكن فيه لا بدّ من حروف التكبير وهي الكاف والباء والراء. ومن قائل: يجوز التكبير على المعنى كالأجل والأعظم، ومذهبنا في ذلك أن اتباع السنّة أولى فإن رسول الله ﷺ يقول: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**» وما نقل إلينا قط إلاّ هذا اللفظ: الله أكبر تواتر ذلك عندنا.

الاعتبار في ذلك: ما عيّن الشرع لفظاً في عبادة نطقية دون غيره من الألفاظ ممّا في معناه إلاّ وقد أراد ما يمتاز به ذلك اللفظ من طريق المعنى عند العلماء بالله عمّا يقع فيه الاشتراك، فالأولى بنا مراعاة الاقتداء ومراعاة المعنى الذي يقع به الامتياز علمنا ذلك المعنى أو جهلناه، فإن علمناه فوجب أن لا نعدل عنه، وإن لم نعلمه فنأتي به على علم الذي شرّعه فيه ولا نتحكم بسياق لفظ آخر، والله قد أمر نبيّه ﷺ بطلب الزيادة فقال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] والعالم إذا كان حكيماً لا يعدل إلى أمر دون غيره ممّا يقارب معناه إلاّ لخصوص وصف فيعتبر ذلك ولا يعدل عنه فعلاً كان أو قولاً، فإنه لا بدّ لمن يعدل عنه أن يحرم فائدة ذلك الاختصاص ويتصف بالمخالفة بلا شك.

فصل بل وصل في التوجيه في الصلاة: فمن قائل بوجوبه، ومن قائل بعدم وجوبه، وصورته أن يقول بعد التكبير: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٩] ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٢] الحديث. ومن قائل: له أن يسبح وإن لم يقل هذا اللفظ بعينه. ومن قائل: يجمع بينهما بين التسبيح والتوجيه. وأمّا الذي أذهب إليه فهو التوجيه في صلاة الليل في التهجّد لا في الفرائض، وأما في الفرائض فينبغي أن يقول بين التكبير والقراءة في نفسه لا يسمع غيره إذا كبّر: اللهمّ باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهمّ نقّني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهمّ اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد، هذا هو الذي اختاره وبه وردت السنّة، ومذهبنا الوقوف عندها والعمل بها وإن لم نوجب ذلك إذ لم يوجبه الله ولكن الاتباع أولى.

الاعتبار في ذلك: عند أهل الله التوجيه في حال من حال إلى حال من الله بالله إلى الله

مع الله في الله لله على الله من الله ابتداء بالله إعانة وتأييد إلى الله غاية وانتهاء مع الله صحبة ومراقبة في الله رغبة لله قربة من أجله على الله توكلاً واعتماداً. ثم يعتبر ألفاظ ما ورد في التوجيه، وكذلك تعتبر ما ذكرناه من الدعاء بين التكبير والقراءة والماء الحياة، فإنه جعل من الماء كل شيء حيّ أي ممّا تحيي به قلبي بذكرك وجوارحي بطاعتك حتى لا تتصرف إلاّ فيها، فإنها شاهد مصدق يوم القيامة لمن تشهد عليه أو له كما ورد في القرآن العزيز من شهادة الجوارح، واعتبر البرد من برد اليقين كبرد الأنامل الوارد في الخبر الصحيح، فحصل به من العلم على يقين فيه فيبرد به ما يجده العبد المصطفى من حرارة الشوق إلى المراتب العلى عند المسبّح الأعلى من العلم بالله، والثلج من ثلج القلب الذي هو سروره بما أكرمه الله به من تجلّيه وشهوده.

فصل بل وصل في سكتات المصلي في الصلاة: وهي بعدما يكبر تكبيرة الإحرام وقبل الشروع في القراءة هذه السكتة الأولى، وأما السكتة الثانية فعند الفراغ من قراءة الفاتحة، وأما السكتة الثالثة فبعد الفراغ من القراءة وقبل الركوع سوى السكتات التي هي الوقوف على كل آية ليتراذ إليه نفسه أو ليتدبّر فيما قرأ، وهذه السكتة الثالثة إنما هي لمن يقرأ قرآناً سوى الفاتحة بعد الفاتحة، فإن اكتفى بالفاتحة فما هما إلاّ سكتتان فاعلم.

اعتبار أهل الله في ذلك: من الناس من أنكر سكتات الإمام، ومنهم من استحبها، ولا شك أن السكتات هي السنّة، فأما اعتبارها فالله يقول: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي بنصفين. وقال ﷺ: «**اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»، فالمصلي يتأهب لمناجاة ربّه ويجعله نصب عينيه في قبلته، وكذلك هو الأمر في نفسه لكن من غير تحديد ولا تشبيه بل كما يليق بجلاله، فإن المصلي يواجه ربه في قبلته، كذا ورد عن الصادق صلّى الله عليه وسلّم، والمناجاة مفاعلة، والمفاعلة فعل فاعلين في بعض المواطن هذا منها، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين فالله عند هذا القول من العبد سميع، فينبغي للعبد إذا فرغ من الآية أن يلقي السمع وهو شهيد فيسكت حتى يرى ما يقول له الحق جلّ جلاله في ذلك أدباً مع الحق لا ينبغي له أن يداخله في الكلام فإن ذلك من الأدب في المحاورات، والحق أحق أن يتأدب معه فيقول الله: حمدني عبدي، فمن عبيد الله من يسمع ذلك القول بسمعه، فإن لم تسمعه بسمعك فاسمعه إيماناً به فإنه أخبر بذلك، وهكذا يقول لك في كل آية بحسب ما تقتضيه تلك الآية، فمن الأدب الإصغاء لما يقوله القائل لك من ناجيته، فإذا داخلته في كلامه أي في حال ما يكلمك فقد أسأت الأدب، هذا عام في كل متكلم مع من يكلمه، فالأمر بين سامع ومتكلم لتحصيل الفائدة، واعلم أنه من لا أدب له لا تتخذه الملوك جليساً ولا سميراً ولا أنيساً.

فصل بل وصل في البسملة في افتتاح القراءة في الصلاة: اختلف علماء الشريعة في قراءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في افتتاح القراءة في الصلاة، فمن قائل: بالمنع سرّاً وجهراً لا في أمّ القرآن ولا في غيرها من السور وذلك في المكتوبة وأجازها في النافلة. ومن قائل: تقرأ مع أمّ القرآن في كل ركعة سرّاً. ومن قائل: يقرأ بها ولا بدّ في الجهر جهراً وفي

السرّ سرّاً، والذي أقول به أن التعوّذ بالله من الشيطان الرجيم عند افتتاح قراءة القرآن في صلاة وفي غيرها فرض للأمر الإلهيّ الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٨] وقراءة البسملة في القراءة في الصلاة فرضاً كانت الصلاة أو نفلاً في الفاتحة والسورة أولى من تركها، فإن الفرض على المصلي أن يقرأ ما تيسّر من القرآن، وقد عيّن الله الذي أراد من القرآن في الصلاة وهو الذي تيسّر فقد عرف بعدما نكر وذلك هو الفاتحة، فإن تيسّر له قراءة البسملة قرأها، وإن لم تتيسر قراءتها في الفاتحة وغيرها فلا حرج. وأما الفاتحة فلا بدّ منها في الصلاة، وإن لم يقرأ الفاتحة فما هي الصلاة التي قسمها الحق بينه وبين عبده، والبسملة عندنا آية من القرآن حيثما وردت من القرآن وهي آية إلاّ في سورة النمل في كتاب سليمان فإنها جزء من آية ما هي آية كاملة والله أعلم.

الاعتبار عند أهل الله في ذلك: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٨] ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢١] والقرآن كلام الله. وقد ورد: «**إِذَا اسْتَطْعَمَ الإِمَام مَنْ خَلْفَهُ فَلْيُطْعِمْهُ**» فسمّاه طعاماً فناسب الأكل، فلهذا أتينا بآيات الأكل في الاعتبار، ومن قرأ القرآن معتقداً أنه كلام الله فقد سمّى الله متكلماً وإن كان هذا الاسم ما ورد فافهم فهمنا الله وإياك مواقع خطابه.

فصل بل وصل القراءة في الصلاة وما يقرأ به من القرآن فيها: من الناس من أوجب القراءة في الصلاة وعليه الأكثر، ومن الناس من لم ير وجوب القراءة، ومن الناس من أوجبها في بعض الصلاة ولم يوجبها في بعض، والذي أذهب إليه وجوب قراءة فاتحة الكتاب في الصلاة وإن تركها لم تجزه صلاته. ثم اختلفوا أيضاً فيما يقرأ به من القرآن في الصلاة، فمنهم من أوجب قراءة أمّ القرآن في الصلاة إن حفظها وبه أقول وما عداها من القرآن ما فيه توقيت، ومن هؤلاء من أوجبها في كل ركعة، ومنهم من أوجبها في أكثر الصلاة، ومنهم من أوجبها في نصف الصلاة، ومنهم من أوجبها في ركعة من الصلاة، ومنهم من أوجب قراءة القرآن أي آية اتفقت، ومن هؤلاء من حدّ ثلاث آيات من قصار الآي وآية واحدة من طوال الآي كآية الدين وهذا في الركعتين الأوليين، وأمّا في الركعتين الأخريين فاستحبّ قوم التسبيح دون القراءة، واتفق الجمهور وهم الأكثرون على استحباب القراءة في الصلاة كلها وبه أقول.

اعتبار أهل الله في ذلك: المصلي يناجي ربه والمناجاة كلام، والقرآن كلام الله، والعبد قاصر أن يعرف من نفسه ما ينبغي أن يكلم به ربه في وقت مناجاته التي دعاه إليها في صلاته، فعلمه ربه كيف يناجيه وبماذا يناجيه به لما قال: «**قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ**». ثم قال: «**يَقُولُ العَبْدُ: الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ**» فَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ الحَقِّ يَتَضَمَّنُ تَعْلِيمَ العَبْدِ مَا يُنَاجِيَهُ بِهِ، «**فَيَقُولُ اللَّهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي**» الحديث. فما ذكر في حق المصلي إذا ناجاه أن يناجيه بغير كلامه. ثم إنه تعالىٰ عين له من كلامه أمّ القرآن إذ كان لا ينبغي أن يناجي إلاّ بكلامه وبالجامع من كلامه، والأمّ هي الجامعة وهي أمّ القرآن. وبعد أن علمنا كيف نناجيه سبحانه وبماذا نناجيه؟ فالعالم العاقل الأديب مع الله إذا دخل في الصلاة أن لا يناجيه إلاّ بقراءة أم القرآن،

فكان هذا الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ الذي رواه عن ربه تعالىٰ مفسّراً لما تيسر من القرآن، وإذا ورد أمر مجمل من الشارع، ثم ذكر الشارع وجهاً خاصاً ممّا يكون تفسيراً لذلك المجمل كان الواجب عند الأدباء من العلماء أن لا يتعدّوا في تفسير ذلك المجمل ما فسّره به قائله وهو الله تعالىٰ وأن يقفوا عنده، وشرع المناجاة بالكلام الإلهيّ في حال القيام في الصلاة خاصة دون غيره من الأحوال، لوجود صفة القيومة من كون العبد قائماً في الصلاة، والله قائم على كل نفس بما كسبت.

وهنا علم كبير في قيام العبد بكلام الرب وما له حديث إلاّ مع ربّه بكلام ربّه ما دام قائماً، فلمن يترجم؟ وعمن يترجم؟ ومن هو المترجم؟ وما تكسب النفس التي هو قائم عليها؟ ومن هو العبد حتى يقول السيد جلّ جلاله يقول العبد كذا فيقول الله كذا لولا العناية الإلهية والتفضّل الرباني. فإن قيل: قد فهمنا ما أشرت به من صفة القيام والرفع من الركوع قيام ولا قراءة فيه. قلنا: الرفع من الركوع إنما شرع للفصل بينه وبين السجود فلا يسجد إلاّ من قيام، فلو سجد من ركوع لكان خضوعاً من خضوع، ولا يصحّ خضوع من خضوع لأنه عين الخروج عمّا يوصف بالدخول فيه، فإن التواضع لا يكون إلاّ من رفعة، فإن المهين النفس إذا ظهر منه التواضع فيما يرى فليس بتواضع وإنما ذلك مهانة نفس، فيكون لا خضوع مثل عدم العدم هو عين الوجود، فلهذا فصل بين السجدتين برفع ليفصل بين السجدتين حتى تتميز كل واحدة منهما بالفاصل الذي فصل بينهما فيعلم أن ثم أمراً آخر وإن اشتركتا في الصورة مثل قوله: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥] كما لا نشك في حقيقة كلمة لا إله إلاّ الله من حيث ما هي لا إله إلاّ الله، وقد ظهرت بالصورة في ستة وثلاثين موضعاً من القرآن، ويعلم صاحب الذوق أن حكمها يختلف في الطعم باختلاف الموضع الذي ظهرت فيه، فإن كنت تفهم كتشابه ركعات الصلاة في الصورة ولكل ركعة طعم ومذاق ما هو للأخرى كانت ما كانت، ولا شكّ إذا فصّل بين المثلين بالنقيض تميزا.

ومن الآداب مع الملوك إذا حيّوا حيّوا بالانحناء وهو الركوع، أو بوضع الوجه على الأرض وهو السجود تعظيماً لهم، وإذا توجهوا أو أثني عليهم قام المثني أو المكلم لهم بين أيديهم لا يكلمهم جالساً ولا في غير حال من أحوال القيام، هذا هو الأدب المعروف ممّن هو دون الملك مع الملك فكيف بمن هو عبد له لا يقبل الحرية؟

وأما القرآن فلما كان المعقول في اللسان المعروف من إطلاق هذا اللفظ الجامع والصلاة حالة يجتمع العبد فيها على سيّده كما هي حالة أيضاً جامعة بين الله وبين عبده حيث قسّمها الله بينه وبين عبده في الصلاة وقعت المناسبة بين القرآن وبين الصلاة فلم ينبغ أن يقرأ فيها بغير القرآن، ولما كان القيام يشبه الألف من الحروف الرقمية وهو أصل الحروف اللفظية وعنه ظهرت جميع الحروف بانقطاعه في مخارجها من الصدر إلى الشفتين فهو الجامع لأعيان الحروف، وأعيان الحروف مراتبه ومنازله في خروجه وسفره من القلب الذي هو عالم الغيب إلى الشهادة كان القيام جامعاً لأنواع الهيئات وأصولها من ركوع وسجود وجلوس، وإن كان

الجلوس له من وجه شبه بالقيام لأنه نصف قيام، فكانت قراءة القرآن من كونها جمعاً في القيام أولى، فإن القيام هو الحركة المستقيمة، والاستقامة هي المطلوبة من الله أن يوفق لها العبد، فالعبد يقول: اهدنا الصراط المستقيم لكون الله تعالىٰ قال له: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [سورة هود: الآية ١١٢] فتعين بما ذكرناه في مجموعه وجوب قراءة أمّ القرآن في الصلاة في ركعة إذ كانت أقل ما ينطلق عليه اسم صلاة شرعاً وهي الوتر، وقد أوتر رسول الله ﷺ بواحدة أو ترجيحها على غيرها من آي القرآن، وإذا كان المتعين على المصلي في القيام قراءة أمّ القرآن إما بالوجوب وإما بالأولوية فلنبين في ذلك صورة قراءة العلماء بالله لها في مناجاتهم في الصلاة.

وصل في وصف هذه الحال: اعلم أن المصلي لما كان ثانياً كما قرّرناه في الاشتقاق، وأن كونه ثانياً ليس بأمر حقيقيّ وإنما كان ذلك بالإضافة إلى شهادة التوحيد في الإيمان فتلك تثنية الإيمان أي ظهوره في موطنين: في موطن الشهادة وموطن الصلاة كما نثلثه مع الزكاة فما زاد ولهذا ذكر الله الزيادة في الإيمان فقال: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٤] وهو عين واحدة، والكثرة إنما هي في ظهوره في المواطن كالواحد المظهر للأعداد المكثر لها وهو في نفسه لايتكثر، ألا تراه إذا خلت مرتبة عنه لم يبق لتلك المرتبة حكم ولا عين؟ وفي معنى هذا يقول الله فيمن قال: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [سورة النساء: الآية ١٥٠] فنفى عنهم الإيمان كله إذ نفوه من مرتبة واحدة، فهم أولى باسم الكفر الذي هو الستر، فإن الكافر الأصلي هو الذي استتر عنه الحق، وهذا عرف الإيمان وستره فإنه قال: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ فهو أولى باسم الكفر من الذي لم يعرفه.

ولما لم تكن أوّلية الحق تقبل الثاني قال الله: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، فذكر نفسه وذكر العبد، وما ذكر الأوّلية هنا لا له ولا لعبده، بل ذكر البين له بالضمير ولعبده بالصريح، وهو الحدّ الذي ينبغي أن يتميز به العبد من ربه، إلاّ أنه تعالىٰ قدّم نفسه في البينية فقال: بيني. ثم أخر عن هذا التقدم بينية عبده فقال: وبين عبدي، فأضافه إليه تعالىٰ ليعرفه أنه عبد له لا لهواه، فإنه القائل: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٣] فكان عنده عبداً لهواه، وهو في نفس الأمر عبد ربه سبحانه، فالعبد ما له إرادة مع سيده بل هو بحكم ما يراد به، فالحق سبحانه هو الواجب الوجود لذاته، والعبد هو الذي منه استفاد الوجود فإن أصله العدم، فالحق يعطيه التقدّم في هذه المرتبة إذ البينية لا تعقل إلاّ بين أمرين، والأمران هنا: الرب والعبد.

ثم إن الحق جعل في مقابلة تقديم نفسه من قوله (بيني) تقديم العبد في القول على قول الحق فقال سبحانه: يقول العبد: الحمد لله رب العالمين، فقدم قول العبد ثم قال: فيقول الله، فجاء بقوله بعد قول العبد، وذلك ليتبين لنا أن له الأمر من قبل في قوله بيني، فقدّم ومن بعد في قوله: فيقول الله فهو الأول الآخر، فأثبت للعبد الأولية في القول ليعلم أن الأولية الإلهية في قوله بيني لا تقتضي قبول الثاني، فهذا الذي قد تخيّل أنه ثان قد رجع أولاً في القول في المناجاة، فعرّفناك أن المقصود التعريف بالمراتب لا التركيب المولد فإنه لم يلد

سبحانه في قوله: وبين عبدي، ولم يولد في قوله: فيقول الله حمدني عبدي، ولو أن العقل يدركه حقيقة بنظره ودليله ويعرف ذاته لكان مولداً عن عقله بنظره، فلم يولد سبحانه للعقول كما لم يولد في الوجود، ولم يلد بإيجاده الخلق لأن وجود الخلق لا مناسبة بينه وبين وجود الحق، والمناسبة تعقل بين الوالد والولد، إذ كل مقدمة لا تنتج غير مناسبها ولا مناسبة بين الله وبين خلقه إلاّ افتقار الخلق إليه في إيجادهم وهو الغني عن العالمين.

فكما ثبت أن أولية الحق لا تقبل الثاني كذلك أولية العبد في القول لا يكون الحق ثانياً لها، إذ ليست بأولية عدد إذ كان الذي في مقابلة العبد هو الحق فإنه الذي يناجيه وما تعرض لذكر الغير، فمن كان في صلاته يشهد الغير معرى عن شهود الحق فيه أو شهوده في الحق أو شهود صدوره عن الحق وهو قول أبي بكر الصديق: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله قبله، فما هو بمصلّ من ليست حالته ما ذكرناه من أنواع المشاهدة، وإذا لم يكن مصلياً لم يكن مناجياً، والحق لا يناجى بالألفاظ في هذه الحالة وإنما يناجى بالحضور معه، فيكون القائل: الحمد لله رب العالمين إذا لم يكن حاضراً مع الله لسان العبد لا عينه وحقيقته، فيقول الحق عند ذلك: حمدني لسان عبدي لا عبدي المفروضة عليه مناجاتي، وإذا حضر القائل في قوله: يقول الله: حمدني عبدي جبر له ما مضى بفضل الله، فإن العبد إذا حضر تضمن حضوره حضور اللسان وسائر الجوارح لأن العين تجمعهم، وإذا لم يحضر عينه لم تقم عنه جارحة من جوارحه ولا عن غير نفسها.

ولما تقدم نداء الحق عبده في الإقامة حيّ على الصلاة لهذا ابتدأ العبد بتكبيرة الإحرام، فإن بقي على إحرامه إلى آخر صلاته وصدق في أنه أحرم ووفى وفى الله له فإنه قال: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢٤] وقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٠] فإنه لا مكره له، وإن لم يف العبد في صلاته بإحرامه وأحضر أهله أو دكانه وما كان من أغراضه معه فأمره إلى الله يفعل معه ما يقتضيه علمه فيه فقال العبد اقتداء في تكبيرة الإحرام: الله أكبر لما خصّص حالاً من الأحوال سمّاها صلاة قال: الله أكبر أن يقيد ربي حال من الأحوال بل هو في كل الأحوال لا بل هو كل الأحوال، بل الأحوال كلها بيده لم يخرج عنه حال من الأحوال، فكبّره عن مثل هذا الحكم الوهم لا لحكم العقل، فإن للوهم حكماً في الإنسان كما للعقل حكماً فيه، وجعلها تكبيرة إحرام أي تكبيرة منع يقول: تكبير لا يشاركه في مثل هذا الكبرياء كون من الأكوان، وعلى الحقيقة التي أخبرنا بها كيف يشاركه من هو عينه إذ قال له إنه سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله فالشيء لا يشارك نفسه فإنه ما ثم إلاّ واحد فهو المكبّر والكبير وهو الكبرياء ليس غيره يتعالىٰ ويتنزّه ويتقدّس أن يكون متكبّراً بكبرياء ما هو عينه، فإذا قام العارف بين يدي الله بهذه الصفة ولم ير في وقوفه ولا في تكبيره غير ربّه وأصغى إلى نداء ربّه إذ قال له: حيّ على الصلاة في الإقامة أي أقبل على مناجاتي وقد قال له: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [سورة المدثر: الآية ٤] فإن المصلي في هذا المقام يخلع على الحق حلل الثناء يطلب بذلك البركة فيها، فإنه قد علم أن الله يرد عليه عمله كما يقول الشخص عندنا لأهل

الدين: البس لي هذا الثوب على طريق البركة ثم يخلعه اللابس عليه، يقول الحق لما ذكرناه أثنى علي عبدي أي خلع علي حلل الثناء، والحق سبحانه على الحقيقة المثني على نفسه بلسان عبده، كما أخبرنا أنه قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فانظر ما أشرف مرتبة المصلي كيف وصفه الحق بأنه يخلع حلل الثناء على سيّده، وأين المصلي الذي تكون هذه حالته؟ هيهات بل الناس استنابوا ألسنتهم لسوء أدبهم وعدم علمهم بمن دعاهم وبما دعوا له من طلب الثناء فلم يجيبوا إلاً بظواهرهم وراحوا بقلوبهم إلى أغراضهم، فهم المصلون الساهون في صلاتهم لا عن صلاتهم للحالة الظاهرة من الإجابة لندائه، ولكونهم أقاموا ظواهرهم نواباً عنهم بين يدي القبلة عن أمر الله، فلما دعاهم الحق إلى هذا المقام وجاء العالم بالله وكبّر تكبيرة الإحرام كما ذكرناه ولم ير نفسه أهلاً لمناجاة ربّه إلاً بعد تجديد طهارة لقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ والثوب في الاعتبار القلب، قال العربي: فسلي ثيابي من ثيابك تنسل. وقيل في تفسير قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أنه أمر بتقصير ثيابه، يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هذا المعنى: [المجتث]

تــقــصــيــرُك الــثــوبَ حَــقًّــا أنــقَــى وأبــقَــى وأتــقَــى

ولا شك أن العبد فرض عليه رؤية تقصيره في طاعة ربه فإنه يقصر بذاته عمّا يجب لجلال ربّه من التعظيم، فهو تنبيه إلهيّ على أن يطهر العبد قلبه، إذ كان ثوب ربّه الذي وسعه في قوله: «وسعني قلب عبدي» فمثل هذا الثوب هو المأمور بتطهيره في هذا المقام. ثم إن العارف رأى أن طهر قلبه لمناجاة ربّه إذا طهره بنفسه لا بربّه زاده دنساً إلى دنسه، كمن يزيل النجاسة من ثوبه ببوله لكونه مائعاً، وأن التطهير المطلوب هنا إنما هو البراء من نفسه ورد الأمر كله إلى الله فإن الله يقول: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] ولهذا لا يصحّ عندنا أن يناجيه في الصلاة بغير كلامه لأنه لا يليق أن يكون في الصلاة شيء من كلام الناس، وكذا ورد في الخبر: «**إِنَّ الصَّلاَةَ لاَ يَصِحُّ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ**» الحديث. ثم أيّد هذا القول بما أمر به حين نزل قوله تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٧٤] قال ﷺ لنا: «**اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ**» ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلىٰ: الآية ١] قال ﷺ لنا: «**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**». فعمنا القرآن في أحوالنا من قيام وركوع وسجود.

فما ذكره المصلي في شيء من صلاته إلاً بما شرّعه له على لسان رسول الله ﷺ وعرفنا أنه ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية٣ ـ ٤] وإن لم نسم كل كلام إلهيّ قرآناً مع علمنا أنه كلام الله، فالقرآن كلام الله، وما كل كلام الله قرآن، فالكل كلامه، فلا نناجيه في شيء من الصلاة إلاً بكلامه، كذلك التطهير الذي أمر به سبحانه في قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فيقول العارف في صلاته بين تكبيرة الإحرام وقراءة فاتحة الكتاب امتثالاً لهذا الأمر: اللهم باعد بيني وبين خطاياي ـ وهي النجاسات المتعلقة بثوبه ـ كما باعدت بين المشرق والمغرب، والسبب في ذلك أن العبد العالم إذا دعاه الحق إلى مناجاته فقد خصّه بمحل القربة

منه، فإذا أشهده خطاياه في موطن القرب وهي في ذاتها في كل البعد من تلك المكانة كان العبد في محل البعد عمّا طلب الحق منه من القرب، فدعا الله قبل الشروع في المناجاة أن يحول بينه وبين مشاهدة خطاياه أن تظهر له في قلبه في هذا الموطن الذي هو موطن القربة، ولذلك قال بعضهم في حد التوبة: إن تنسى ذنبك فإن ذكر الجفا في موطن الصفا جفا، وما رأيت فيمن رأيت أحداً تحقّق بهذا المقام ذوقاً إلاّ بعض الملوك في مقامه مع الخلق، فلا يريد أن يظهر له شيء من خطاياه بتخيّل أو تذكّر كما باعدت بين المشرق والمغرب، وفي هذا التشبيه علم عزيز غزير، ولكنه أراد هنا البعد بين الضدين، إذ كان الضدان لا يجتمعان، والعلم الذي نبهنا عليه مبطون في هذين الضدين إذ يجتمعان في حكم ما كالبياض والسواد يجتمعان في اللون كالمحدث وغير المحدث في الوصف بالوجوب، فالمشرق وإن بعد عن المغرب حسّاً فإنه يشاهد كل واحد صاحبه على التقابل، وهو بُعد حسّي بالموضعين، وبُعد معنوي بالشروق والغروب، فإن الغروب يضاد الشروق، ومحل الشروق الذي هو المشرق بعيد جداً من محل الغروب الذي هو المغرب، ولم يقل: كما باعدت بين السواد والبياض فإن اللونية تجمع بينهما، فانظر ما أحكم هذا التعليم وما أحقّه وأدقه، وتأدّب مع الله حيث طلب البعد من خطاياه وما طلب إسقاطها عنه حتى لا يكون في ذلك الموطن في حظ نفسه يسعى ويطلب فيكون بمنزلة من وجه الملك فيه ليدخل عليه، فلما دخل عليه طلب منه ابتداء ما يصلح لنفسه فهذا سيىء الأدب، وإنما ينبغي له أن يطلب من الحق ما يليق ممّا تطلبه تلك الحالة من التأهب لمناجاة سيده، فطلب البعد من الخطايا ما طلب الإسقاط.

وصل فيه ومنه: ثم قال: اللهم نقّني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس؛ وذلك لما قال له عزّ وجلّ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [سورة المدثر: الآية ٤] فجاء في دعائه بلفظ الثوب إعلاماً للحق لقوله: حتى تعلم، وهذا غاية الأدب حيث يترك علمه لإيمانه، أي ما دعوتك إلاّ بما أمرتني به أن أفعله من تطهير الثوب لمناجاتك، فلتكن أنت يا رب المتولي لذلك التطهير فإنه لا حول لي ولا قوّة إلاّ بك، وكل وصف لا يليق بجلالك فهو خطية من تخطيت وهو أن يتجاوز العبد حدّه فيخطو في غير محله ويجول في غير ميدانه فهو كالماشي في الأرض المغصوبة، فإذا خطأ العبد في غير ما أمره به سيّده سمّي مخطئاً وخاطئاً وسمّيت تلك الفعلة والحركة خطيئة، فالعبد عبد والرب رب.

وصل لبقية الدعاء: ثم يقول: اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد؛ أي تولّ أنت سبحانك غسل خطاياي، فأضاف الغسل إليه يقول: فإنك قد شرعت لي أن أقول: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، وشرعت لي أن أقول إذا قلت: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ أقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] أي على عبادتك، فإن لم تتولني بقوّتك ومعونتك فيما أمرتني به من تطهير ذاتي لمناجاتك فكيف أناجيك في حالة جعلتها دنساً وأنت القائل: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] فاغسل خطاياي بالماء أي أحي قلبي بأن تبدّل سيئاته حسنات بالتوبة والعمل الصالح، فهذه الحياة هنا على هذا الحال بورود الماء على النجاسة

والدنس تطهير أي ما كان دنساً صار نقياً، وما كان نجساً صار طاهراً، فإن دنسه ونجاسته لم تكن لذاته، وإنما كان بحكم شرعي انفرد به هذا الموطن، فلما اجتمع بالماء لورود الماء عليه كان للاجتماع حكم آخر سمّى به نقاء وطهارة، فعاد القبيح حسناً والسيئة حسنة، فمثل هذا الفعل هو المطلوب لا إزالة العين بل إزالة الحكم فإن العين موجودة في الجمع بينها وبين الماء.

وقوله: (والثلج) يقال في الرجل إذا سرّ قلبه بأمر ما: ثلج فؤاد الرجل أي هو في أمر يسرّ به فيقول: يا رب إنك إذا فعلت مثل هذا الغسل سرّ قلبي حيث تطهر لما يرضيك بما يرضيك فينقلب غمّه سروراً. وقوله: والبرد هو ما ينطفي من جمرة الاحتراق الذي قام بالقلب من كونه حين دعاه ربّه لمناجاته على حالة لا يصلح أن يقف بها بين يدي ربّه فيحب ما يطفي تلك النار فجاء بلفظ البرد من البرد، وفي رواية: بالماء البارد فهو المستعمل في كلام العرب، كذا رويناه عنهم، قال شاعرهم: [الطويل]

وعطِّلْ قَلُوصي في الرِّكابِ فإنها ... سَتُبْرِدُ أكباداً وتبكي بَوَاكِيَا

يقول: إن من الناس من كان في نفسه من حياتي حرقة ونار حسداً وعداوة إذا رأوا قلوصي معطلة عرفوا بموتي، فبرد عنهم ما كانوا يجدونه بحياتي من النار، وأبكت أوليائي الذين كانوا يحبون حياتي، فانتقلت صفات هؤلاء إلى هؤلاء، وهؤلاء إلى هؤلاء، كما انتقل ذلّ الأولياء وتعبهم ونصبهم ومكابدتهم وكدّهم في الدنيا في طاعة ربهم إلى الأشقياء من الجبابرة في النار، وانتقل سرور الجبابرة وراحة أهل الثروة في الدنيا إلى أهل السعادة أهل الجنة في الآخرة، فالذي ذكر هذا الشاعر في شعره هي حالة كل موجود، إذ كل موجود لا بدّ له من عدو ووليّ، قال تعالىٰ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ [سورة الممتحنة: الآية ١] فجعلهم أعداء له، كما قال في جزائه إياهم: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢٨] فإذا كان لله أعداء فكيف بأجناس العالم؟ وكذلك الولاية لله أولياء ولكل موجود، فالعالم بالله المشغول به من يقول: ما ثم إلاّ الله وأنا فيفنى الكل في جناب الحق وهو الأولى وهو الوليّ حقاً إذ كانت هذه الحالة سارية حقاً وخلقاً، فإن الله عدو للكافرين كما هو وليّ للمؤمنين فهم عبيده أعداؤه فكيف حال عبيده بعضهم مع بعض بما فيهم من التنافس والتحاسد؟ فإذا سأل العارف من الله هذا التطهير بعد تكبيرة الإحرام عند ذلك يشرع في التوجيه.

وصل متمّم لأكمل صلاة في التوجيه: وإنما ذكرنا هذا لأن العالم بالله يعمد إلى أكمل الصلوات عند الله في حالاتها من أقوال وأفعال وإن لم يكن بطريق الوجوب، ولكن أولياء الله أولى بصورة الكمال في العبادات لأنهم يناجون من له الكمال المحقّق بما يجب له، فإن ذلك واجب عليهم أوجبته معرفتهم وشهودهم ابتداء التوجيه فيقول العبد: وجهت وجهي فأضاف العبد الوجه إلى نفسه عن شرع أبدله فيه أدباً مع الله بحضوره مع الحق في أنه لسانه الذي يتكلم به ودعاه إلى هذه الإضافة قوله تعالىٰ: بيني وبين عبدي فأثبته، وإنما هو بالحقيقة مضاف إلى سيده، فإن العبد الأديب العارف هو وجه سيده، إذ لا ينبغي أن يضاف إلى العبد شيء فهو المضاف ولا يضاف إليه، فإذا أضاف السيد نفسه إليه فهو على جهة التشريف

والتعريف مثل قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٦] ومثل ذلك وأضاف فعل التوجيه إلى نفسه لعلمه أن الله قد أضاف العمل إلى العبد فقال: يقول العبد: الحمد لله، والقول عمل من الأعمال، فالعالم لا يزال أبداً يجري مع الحق على مقاصده كما قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣، ٤] فعرفه بالمواطن، وكيف يكون فيها ولو تركه مع نفسه لعاد إلى العدم الذي خرج منه فأعطاه الوجود ولوازمه وظهر فيه سبحانه بنفسه بما أظهر من الأفعال به، وجعل للعبد أولاً معلوماً وجودياً وآخراً معلوماً في الوجود معقولاً في التقدير، وظاهراً ما ظهر منه له، وباطناً بما خفي عنه منه، فلما حدّه بهذه الحدود وعراه عنها وقال له: ما أنت هو بل ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] فأبقى العبد في حال وجوده على إمكانه ما برح منه ولا يصح أن يبرح وأضاف الأفعال إليه لحصول الطمأنينة بأن الدعوى لا تصح فيها فإنه قال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] وقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٧] فلهذا أضاف العالم التوجيه إلى نفسه ووجه الشيء ذاته وحقيقته، أي نصبت ذاتي قائمة كما أمرتني، ثم قال: ﴿لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٩] وهو قوله: ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] أي الذي ميّز ظاهري من باطني، وغيبي من شهادتي، وفصل بين القوىٰ الروحانية في ذاتي كما فصل السموات بعضها من بعض، فأوحى في كل سماء بما جعل في كل قوّة من قوىٰ سمواتي، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ ففصل بين جوارحي فجعل للعين حكماً، وللأذن حكماً، ولسائر الجوارح حكماً حكماً وهو قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٠] وهو ما يتغذى به العقل الإنسانيّ من العلوم التي تعطيه الحواس بما يركبه الفكر من ذلك لمعرفة الله ومعرفة ما أمر الله بالمعرفة به، فهذا وما يناسبه ينظر العالم في الله بالتوجيه بقوله: ﴿ فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وهو بحر واسع لو شرعنا فيما يحصل للعارف في نفسه الذي يوجب عليه أن يقول: ﴿ فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ما وسعه كتاب ولكلّت الألسن عن تعبير سماء واحدة منه ثم قال: ﴿حَنِيفًا﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٩] أي مائلاً، والحنف الميل يقول: مائلاً إلى جناب الحق من إمكاني إلى وجوب وجودي بربي فيصحّ لي التنزّه عن العدم فأبقى في الخير المحض فهذا معنى قوله حنيفاً. ثم قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾ في هذا الميل ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٩] يقول: ما ملت بأمري كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] وإنما الحق علمني كيف أتوجه إليه وبماذا أتوجه إليه وممّاذا أتوجه إليه وعلى أية حالة أكون في التوجّه إليه. هذا كله لا بدّ أن يعرفه العلماء بالله في التوجيه وإن لم يكونوا بهذه المثابة فما هم أهل توجيه وإن أتوا بهذا اللفظ، فنفى عن نفسه الشرك.

والعبد وإن أضاف الفعل إلى نفسه فما هو شريك في الفعل وإنما هو منفرد بما يصحّ أن يكون له منفرداً من ذلك الفعل، ويكون الحق منفرداً بما يصحّ أن يكون به منفرداً من ذلك الفعل، فالعبد لا يشاركه سيّده في عبوديته، فإن السيد لا يكون عبداً والعبد لا يكون سيداً لمن هو له عبد من حيث ما هو عبد له. ثم قال: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ [سورة الأنعام:

الآية ١٦٢] فأضاف الكل إلى نفسه فإنه ما ظهرت هذه الأفعال ولا يصحّ أن تظهر إلاَّ بوجوب العبد، إذ يستحيل على الحق إضافة هذه الأشياء إليه بغير حكم الإيجاد فتضاف إلى الحق من حيث إيجاد أعيانها كما تضاف إلى العبد من كونه محلاً لظهور أعيانها فيه فهو المصلي، كما أن المحرّك هو المتحرّك ما هو المحرّك فهو المتحرّك حقيقة، ولا يصحّ أن يكون الحق هو المتحرّك، كما لا يصحّ أن يكون المتحرّك هو المحرّك لنفسه لكونه نراه ساكناً، فاعلم ذلك حتى تعرف ما تضيفه إلى نفسك ممّا لا يصحّ أن تضيفه إلى ربك عقلاً، وتضيف إلى ربّك ما لا يصحّ أن تضيفه إلى نفسك شرعاً ﴿وَنُسُكِي﴾ هنا معناه عبادتي أي إن صلاتي وعبادتي يقول: ذلّتي ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي وحالة حياتي وحالة موتي، ثم قال: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي لله أي إيجاد ذلك كله لله لا لي، أي ظهور ذلك فيّ من أجل الله لا من أجل ما يعود عليّ في ذلك من الخير فإن الله يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فجعل العلة ترجع إلى جنابه لا إليّ، فلم يكن القصد الأوّل الخير لنا وإنما كان الإيثار في ذلك لجناب الحق الذي ينبغي له الإيثار، فكان تعليماً لنا من الحق وتنبيهاً وهو قول رابعة: أليس هو أهلاً للعبادة؟ فالعالم من عبد الله لله، وغير العالم يعبده لما يرجوه من الله من حظوظ نفسه في تلك العبادة، فلهذا شرع لنا أن نقول: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي سيد العالمين ومالكهم ومصلحهم لما شرع لهم وبين حتى لا يتركهم في حيرة كما قال تعالىٰ في معرض الامتنان على عبده: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ٧] أي حائراً فبيّن لك طريق الهدى من طريق الضلالة، فطريق الهدى هنا هو معرفة ما خلقك من أجله حتى تكون عبادتك على ذلك فتكون على بينة من ربك، ثم قال: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٣] أي لا إله في هذا الموضع مقصود بهذه العبادة إلاَّ الله الذي خلقني من أجلها أي لا أشرك فيها نفسي بما يخطر له من الثواب الذي وعده الله لمن هذه صفته، وقد ذهب بعضهم إلى الحضور مع الثواب في حال هذه العبادة وكفر من لم يقل به وهذا ليس بشيء وهو من أكابر المتكلمين غير أنه لم يكن من العلماء بالله من طريق الأذواق، بل كان من أهل النظر الأكابر منهم وردّ على العدوية فيما قالته.

ولا يعتبر عندنا ما يخالفنا فيه علماء الرسوم إلاَّ في نقل الأحكام المشروعة، فإن فيها يتساوى الجميع ويعتبر فيها المخالف بالقدح في الطريق الموصل أو في المفهوم باللسان العربي، وأمّا في غير هذا فلا يعتبر إلاَّ مخالفة الجنس، وهذا سار في كل صنف من العلماء بعلم خاص. وقوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ يعود على الجملة كلها وعلى كل جزء جزء منها بحسب ما يليق بذلك الجزء فلا يحتاج إلى ذكره مفصلاً إذ قد حصل التنبيه على ما فيه ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [سورة ق: الآية ٣٧] ثم قال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي من المنقادين لأوامره في قوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٣].

ثم قال: اللهم أنت الملك، وذلك أن الله تعالىٰ لما دعاه إلى القيام بين يديه وذلك أنه لا ينبغي أن يدعو إلى هذه الصفة إلاَّ الملوك فخصّ هذا الاسم في التوجيه دون غيره، ولهذا

شرع التكتيف في الصلاة في حال الوقوف لأنه موطن وقوف العبد بين يدي الملك، ثم يقول بالوصف الأخص: لا إله إلاّ أنت ولم يقل لا ملك إلاّ أنت أدباً مع الله، فإن الله قد أثبت الملوك في الأرض في قوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٢٠] ونفى أن يكون في العالم إله سواه لا بالحقيقة ولا بحكم الجعل، فقال العبد في التوجيه: لا إله إلاّ أنت، ولو قال: لا ملك إلاّ أنت لكان نافياً لما أثبته الحق، وما أثبته الحق لا يلحقه الانتفاء، كما أنه إذا نفى شيئاً لا يمكن إثباته أصلاً، فإن كان لفظ هذا التوجيه نقلاً عن الحق وهو من كلام الله فهو تصديق لما أثبته ونفاه، وإن كان من لفظ النبيّ ﷺ فهو من مقام الأدب مع الله حيث لم ينف ما أثبته الله، وإن كان لا ملك إلاّ الله ولكن الله قد أثبت الملوك فهذا معنى لا إله إلاّ أنت عقيب قوله: أنت الملك فإنه يظهر فيه عدم المناسبة، فلما كانت الألوهية تتضمن الملك ولا يتضمن الملك الألوهية أتى بلفظ يدل معناه على وجود الملك الذي سمّاه، وإن لم يظهر له لفظ فالإله ملك وليس كل ملك إلهاً.

ثم يقول: أنت ربي وأنا عبدك، فقدّم ربه وأخّر نفسه وأضافها إلى ربه بحرف الخطاب لأنه بين يديه. وانظر ما في هذا الكلام من الأدب يقول له: أنت ربي وأنا عبدك الذي قسمت الصلاة بينك وبينه، فمن حيث هذه العبودية الخاصة وقفت بين يديك وهي حالة مناجاة لا حالة أخرى، فإن أحوال العبد تتنوّع بتنوّع ما يدعوه السيد إليه وإن كان عبداً في كل حالة، ثم يقول: ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت يقول في هذا الكلام لما قال قبل التوجيه ذلك الدعاء الذي قدّمناه بعد التكبير من سؤاله البعد بينه وبين خطاياه يقول: ظلمت نفسي بما اكتسبت من الخطايا واعترفت بين يديك بها قبل مناجاتك فاغفر لي ذنوبي أي فاستر ذنوبي من أجلي إنه لا يقدر على سترها إلاّ أنت فلا تراني فتأتيني فأكون بها مذنباً ولا أراها فتحلو لي فآتيها فأكون بها مذنباً وهو قوله: باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، يقول: إذا سترتها عني بهذا البعد لم أشهدها حتى أكون متفرّغاً لقبول ما دعوتني إليه، فإنك إن أشهدتني ذنوبي ولم تسترها عني منعني الحياء والدهش عند رؤيتها أن أعقل ما تريده مني ممّا دعوتني إليه، فلم يذكر أيضاً إسقاطها عني حتى لا يكون يسعى في حظ نفسه، وأن المطلوب سترها في تلك الحال، ولهذا العالم بالله مع توبته لا يزال متى ذكر ذنبه أثرت في نفسه وحشة المخالفة وإن لم يؤاخذ به فإن الحال تعطي ذلك.

ثم يقول: واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلاّ أنت، هو بمنزلة قوله في الدعاء: اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد أي وفقني لاستعمال مكارم الأخلاق في هذا الموطن ممّا يستحق أن أعاملك بها من الأدب في مناجاتك والأخذ عنك والفهم لما تورده عليّ في كلامك، وفهم ما أناجيك به أنا من كلامك، هذا كله من أحسن الأخلاق وفي أفعالي بهيئات وقوفي بين يديك ظاهراً وباطناً كما شرعت لي فلا يهدي لأحسن الأخلاق إلاّ أنت، أي أنت الموفق لهذه لا قوّة لي على إتيان ذلك، ولا تعيينه إلاّ بقوّتك وبتعريفك، إذ هذا ممّا

لا يدرك بالاجتهاد، بل بما تشرعه وتبيّنه لما كان قدرك مجهولاً، وما ينبغي لجلالك غير معلوم، ولا نقيس معاملتنا معك بمعاملة العبيد مع الملوك فإنك قلت: ليس كمثلك شيء فالأدب الذي يخصّنا في معاملتك ما نعلمه إلاّ منك.

ثم قال: واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلاّ أنت، ابتداء بالتعليم فتعرّفني ما لا ينبغي أن يعامل به جلالك، وثانية أيضاً بالاستعمال في ترك ما لايحسن بقدرك إذ بيدك الأمر كله، فقد تعلم العبد ولا تستعمله فيما علمته، فاصرف عني سيىء الأخلاق بالعلم والاستعمال. ثم يقول: لبيك وسعديك أي إجابة لك ومساعدة لما دعوتني إليه بقولك على لسان حاجب الباب: حيّ على الصلاة ها أنا قد جئت مجيباً دعاءك لبيك ومساعدة لما تريده مني على نفسي بالقبول. ثم يقول: والخير كله بيديك لما كان هو الخير المحض فإنه الوجود الخالص المحض الذي لم يكن عن عدم ولا إمكان عدم ولا شبهة عدم كان الخير كله بيديه. ثم يقول: والشر ليس إليك، يقول: ولا يضاف الشر إليك والشرّ المحض هو العدم أي لا يضاف إليك عدم الخير ولا ينبغي لجلالك، وأتى بالألف واللام لشمول أنواع الشرّ أي الشرّ المطلق والشرّ المقيد بالصور الخاصة، هذا كله ليس إليك أي ما سميته شرّاً أو هو شرّ لا ينبغي أن يضاف إليك أدباً وحقيقة.

وأقوى ما يحتج به المخالف في هذه المسألة قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [سورة المدثر: الآية ٣١] وقوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٣] فاعلم أن مطلق الضلالة الحيرة والجهل بالأمر وبطريق الحق المستقيم، فقوله: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ أي من عرفه بطريق الضلالة فإنه يضل فيها، ومن عرفه بطريق الهداية فإنه يهتدي فيها، مثل قوله في الهداية: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] و: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩١] ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٤] فالعقل السليم يهتدي به عندما يسمع مثل هذا من الحق ولذا قال: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] وقوله ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] وقوله: ومن أتاني يسعى أتيته هرولة. وأمثال هذه. فإن العقل السليم يحار في مثل هذه الأخبار ويتيه، فهذا معنى يضلّ أي يحير العقول بمثل هذه الخطابات الصادرة من الله على ألسنة الرسل الصادقة المجهولة الكيفية، ولا يتمكن للعقل أن يهتدي إلى ما قصده الحق بذلك ممّا لا يليق بالمفهوم.

ثم يرى العقل أنه سبحانه ما خاطبنا إلاّ لنفهم عنه، والمفهوم من هذه الأمور يستحيل عليه سبحانه من كل وجه يفهمه العبد بضرب من التشبيه المحدث، أمّا من طريق المعنى المحدث أو من طريق الحسّ، ولا يتمكن للعقل أن لا يقبل هذا الخطاب فيحار فثم حيرة يخرج عنها العبد ويتمكن له الخروج منها بالعناية الإلهية، وثم حيرة لا يتمكن له الخروج عنها بمجرد ما أعطى الله للعقل من أقسام القوّة التي أيّده الله بها فيحار الدال في المدلول لعزّة الدليل، ثم يجيء الشرع بعد هذا في أمور قد حكم العقل بدليله على إحالتها فيثبت الشرع

ألفاظاً تدل على وجوب ما أحاله فيقبل ذلك إيماناً ولا يدري ما هو، فهذا هو الحائر المسمّى ضالاً. وقد روي أنه قال: زدني فيك تحيّراً أي أنزل إليّ نزولاً يحيله العقل من جميع وجوهه ليعرف عجزه عن إدراك ما ينبغي لك ولجلالك من النعوت.

وأمّا الشقاء والسعادة المعبر بهما عن الأمور التي تتألم بها النفوس وتتنعم فذلك مطلب عام للنفوس من حيث الحسّ والمحسوس، وهذا الذي نحن بصدده أمر آخر يرجع إلى معرفة الحقائق، ثم يقول: أنا بك وإليك أي بك ابتداء لا بنفسي وهو قولنا: إن الإنسان موجود بغيره. وقوله: وإليك أي وإليك يرجع عين وجودي فما أنا هو أنت هو فإنه ما استفدت منك إلاّ الوجود وأنت عين الوجود، وأنا على أصل ذاتي من العدم ما تغير عليّ حكم ولا حال في إمكاني لا أبرح. ثم يقول: تباركت أي البركة والزيادة لك لا لي يقول: أنت الوجود لك، ثم كسوتنيه ولم أكن، فكانت البركة والزيادة في الوجود حيث ظهر بنسبتين فظهر بي وهو وجودك ونسب إليك وهو عينك. ثم يقول: وتعاليت أي فإنك تتعالىٰ أن تظهر بغيرك فلا يكون الوجود المنسوب إليك غير هويتك، هذا معنى قوله: تباركت وتعاليت.

ثم يقول: أستغفرك وأتوب إليك، يقول: أطلب التستر منك في اتصافي بالوجود لئلا أغيب عن حقيقتي فأدعي الوجود وهو ليس أنا بل هو أنت، وما أنا أنت، فأنا أنا على ما أنا عليه لذاتي، وأنت أنت على ما أنت عليه لذاتك، ومني فلك الظهور فيّ بما وصفتني به من الوجود، وما لي ظهور فيك بما أنا عليه في حقيقتي من الإمكان. ثم يقول: وأتوب إليك أي وأرجع إليك من حيث ما وصفت به من الوجود، إذ كنت أنت هو عين الوجود والموصوف به أنا فرجوعه إليك هو قولي: وأتوب إليك. وفرغ ما يقوله العبد من الدعاء والتوجيه بين التكبير والقراءة، فلنشرع إن شاء الله تعالىٰ في قراءة الفاتحة بلسان العلماء بالله في حال الصلاة لا في حال غيره.

وصل في اعتبار قراءة فاتحة الكتاب في الصلاة: اعلم أن العالم بالله إذا فرغ من الذي ذكرناه يشرع في القراءة على حدّ ما أمره الله به عند قراءة القرآن من التعوّذ لكونه قارئاً لا لكونه مصلياً، ولما أعلمتك أن الله يقول عند قراءة العبد القرآن كذا جواباً على حكم الآية التي يقرأها، فينبغي للإنسان إذا قرأ الآية أن يستحضر في نفسه ما تعطيه تلك الآية على قدر فهمه، فإن الجواب يكون مطابقاً لما استحضرته من معاني تلك الآية، ولهذا ورد في الجواب أدنى مراتب العامة مجملاً، إذ العامي والعجمي الذي لا علم له بمعنى ما يقرأ يكون قول الله له ما ورد في الخبر، فإن فصلت في الاستحضار فصل الله لك الجواب، فلا يفوتنك هذا القدر في القراءة فإن به تتميز مراتب العلماء بالله والناس في صلاتهم، فإذا فرغ الإنسان من التوجيه فليقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هذا نص القرآن، وقد ورد في السنّة الصحيحة: «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم**» قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٨] فالعارف إذا تعوّذ ينظر في الحال الذي أوجب له التعوّذ، وينظر في حقيقة ما يتعوّذ به، وينظر في ما ينبغي أن يعاذ به فيتعوّذ بحسب ذلك، فمن غلب عليه في

حاله أن كل شيء يستعاذ منه بيد سيده، وأن كل ما يستعاذ به بيد سيده، وأنه في نفسه عبد محل التصريف والتقليب فعاذ من سيده بسيده وهو قوله ﷺ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**» وهذه استعاذة التوحيد فيستعيذ به من الاتحاد، قال تعالىٰ: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤٩] وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [سورة غافر: الآية ٣٥] وقال: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قصمته**»، ومن نزل عن هذه الدرجة في الاستعاذة استعاذ ممّا لا يلائم بما يلائم فعلاً كان أو صفة. هذه قضية كلية والحال يعين القضايا والحكم يكون بحسبها.

ورد في الخبر: «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ**» أي بما يرضيك ممّا يسخطك، فقد خرج العبد هنا عن حظ نفسه بإقامة حرمة محبوبه فهذا لله، ثم الذي لنفسه من هذا الباب قوله: «**وبمعافاتك من عقوبتك**» فهذا في حظ نفسه، وأي المرتبتين أعلى في ذلك نظر، فمن نظر إلى ما يقتضيه جلال الله من أنه لا يبلغ ممكن أي ليس في حقيقة الممكن قبول ما ينبغي لجلال الله من التعظيم وأن ذلك محال في نفس الأمر لم ير إلاَّ أن يكون في حظ نفسه فإن ذلك عائد عليه، ومن نظر في قوله: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] قال: ما يلزمني من حق ربي إلاَّ ما تبلغه قوّتي، فأنا لا أعمل إلاَّ في حق ربي لا في حق نفسي، فشرع الشارع الاستعاذتين في هذين الشخصين، ومن رأى أن وجوده هو وجود ربه إذ لم يكن له من حيث هو وجود قال: «**أعوذ بك منك**» وهي المرتبة الثالثة، وثبت في هذه المرتبة عين العبد، فالقارىء للقرآن إذا تعوّذ عند قراءة القرآن علمه المكلف وهو الله تعالىٰ كيف يستعيذ؟ وبمن يستعيذ؟ وممّن يستعيذ؟ فقال له: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ فأعطاه الاسم الجامع وذكر له القرآن، وما خصّ آية من آية لذلك لم يخص اسماً من اسم بل أتى بالاسم الله، فالقارىء ينظر في حقيقة ما يقرأ وينظر فيما ينبغي أن يستعاذ منه في تلك الآية. فيذكره في استعاذته، وينظر فيما ينبغي أن يستعاذ به من أسماء الله أي اسم كان فيعينه بالذكر في استعاذته.

ولما كان قارىء القرآن جليس الله من كون القرآن ذكراً والذاكر جليس الله، ثم زاد أنه في الصلاة حال مناجاة الله فهو أيضاً في حال قرب على قرب كنور على نور، كان الأولى أن يستعيذ هنا بالله وتكون استعاذته من الشيطان لأنه البعيد، يقال: بئر شطون إذا كانت بعيدة القعر، والبعد يقابل القرب، فتكون استعاذته في حال قربه ممّا يبعده عن تلك الحالة فلم يكن أولى من اسم الشيطان، ثم نعته بالرجيم وهو فعيل، فأمّا بمعنى المفعول فيكون معناه من الشيطان المرجوم يعني بالشهب وهي الأنوار المحرقة، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا﴾ يعني الكواكب ﴿رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [سورة الملك: الآية ٥] والصلاة نور ورجمه الله بالأنوار فكانت الصلاة ممّا تعطى بعد الشيطان من العبد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] بسبب ما وصفت به من الإحرام وإن كان بمعنى الفاعل، فهو لما يرجم به قلب العبد من الخواطر المذمومة واللمات السيئة والوسوسة، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا

قام يصلي من الليل وكبّر تكبيرة الإحرام قال: الله أكبر كبيراً، الله أكبر كبيراً، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، والحمد لله كثيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه، ونفثه، وهمزه، قال ابن عباس: همزه ما يوسوسه في الصلاة، ونفثه الشعر، ونفخه الذي يلقيه من الشبه في الصلاة يعني السهو، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إِنَّ سُجُودَ السَّهْوِ تَرْغِيمٌ لِلشَّيْطَانِ**» فوجب على المصلي أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم بخالص من قلبه يطلب بذلك عصمة ربه.

ولما لم يعرف المصلي بما يأتيه الشيطان من الخواطر السيئة في صلاته والوسوسة لم يتمكن أن يعين له ما يدفعها به فجاء بالاسم الله الجامع لمعاني الأسماء، إذ كان في قوّة هذا الاسم حقيقة كل اسم دافع في مقابلة كل خاطر ينبغي أن يدفع، فهكذا ينبغي للمصلي أن يكون حاله في استعاذته إن وفقه الله، ثم يقول بعد الاستعاذة: بسم الله الرحمن الرحيم فإذا قالها يقول الله: يذكرني عبدي. فينبغي على هذا أن يكون العامل في بسم الله الرحمن الرحيم أذكر فتتعلق الباء بهذا الفعل إن صحّ هذا الخبر، وإن لم يصحّ فيكون الفعل اقرأ بسم الله فإنه ظاهر في اقرأ باسم ربك هذا يتكلفه لقولهم: إنّ المصادر لا تعمل عمل الأفعال إلاّ إذا تقدمت، وأما إذا تأخرت فتضعف عن العمل، وهذا عندنا غير مرضي في التعليل لأنه تحكم من النحوي فإن العرب لا تعقل ولا تعلل، فيكون تعلق البسملة عندي بقوله: الحمد لله بأسمائه فإن الله لا يحمد إلاّ بأسمائه، غير ذلك لا يكون ولا ينبغي أن نتكلف في القرآن محذوفاً إلاّ لضرورة وما هنا ضرورة، فإن صحّ قول رسول الله ﷺ عن الله تبارك وتعالىٰ أن العبد إذا قال: بسم الله الرحمن الرحيم في مناجاته في الصلاة يقول الله: يذكرني عبدي فلا نزاع، هكذا روى هذا الخبر عبد الله بن زياد بن سمعان عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ صَلَّى صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ القُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ ثَلاَثَ غير تمام**» فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: قَسَمْت الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ يَقُولُ عَبْدِي إِذَا افْتَتَحَ الصَّلاَةَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ فَيَذْكُرُنِي عَبْدِي، يَقُولُ العَبْدُ: الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، قَالَ اللَّهُ: حَمدَنِي عَبْدِي**». وسيأتي الحديث مفصلاً في كل كلمة إن شاء الله تعالىٰ كما ذكرت ألفاظ التوجيه إلى آخر الفاتحة.

وذكر مسلم هذا الحديث من حديث سفيان بن عيينة عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة ولم يذكر البسملة فيه، فإذا قال العالم بالله: بسم الله الرحمن الرحيم علّق الباء بما في الحمد من معنى الفعل كما قلنا يقول: لا يثنى على الله إلاّ بأسمائه الحسنى فذكر من ذلك ثلاثة أسماء الاسم الله لكونه جامعاً غير مشتق فينعت ولا ينعت به فإنه للأسماء كالذات للصفات فذكره أوّلاً من حيث إنه دليل على الذات كالأسماء الأعلام كلها في اللسان وإن لم يقو قوّة الإعلام لأنه وصف للمرتبة كاسم السلطان فلما لم يدل إلاّ على الذات المجرّدة على الإطلاق من حيث ما هي لنفسها من غير نسب لم يتوهم في هذا الاسم اشتقاق ولهذا سميت بالبسملة وهو

الاسم مع الله أي قولك: بسم الله خاصة مثل العبدلة وهو قولك: عبد الله، وكذلك الحوقلة وهو الحول والقوّة مع الله.

ثم قال: إن العبد قال بعد بسم الله الرحمن الرحيم من حيث ما هو أعني الرحمن الرحيم من الأسماء المركبة كمثل بعلبك ورام هرمز فسمّاه به من حيث ما هو اسم له لا من حيث المرحومين ولا من حيث تعلق الرحمة بهم بل من حيث ما هي صفة له جلّ جلاله، فإنه ليس لغير الله ذكر في البسملة أصلاً، ومهما ورد اسم إلهيّ لا يتقدمه كون يطلب الاسم، ولا يتأخر كون يطلبه الاسم في الآية، فإن ذلك الاسم ينظر فيه العارف من حيث دلالته على الذات المسمّاة به لا من حيث الصفة المعقولة منه، ولا من حيث الاشتقاق الذي يطلبه الكون، بخلاف الاسم الإلهيّ إذا ورد في أثر كون أو في أثره كون أو بين كونين، فإنه إذا ورد الكون في أثره فذلك الكون نتيجته وبه يتعلق وإياه يطلب، فإنه صادر عنه إذا تدبرته وجدته مثل قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ١ ـ ٣] وإذا تقدّم الكون وجاء الاسم الإلهيّ في أثره فإنه الأوّل والآخر كان على العكس من الأوّل مثل: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ فأظهر التقوى ما يتقى منه وهو الاسم الله، وفي الأوّل أظهر الاسم الإلهيّ عين الإنسان، وكذلك: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] أظهر التعليم الاسم الإلهيّ وهو الله، فإذا وقع الكون بين اسمين إلهيين كان الكون للأوّل بحكم النتيجة، وللآخر بحكم المقدّمة مثل وقوع العالمين بين الاسم الرب والرحمن في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٢، ٣] ومثل قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ فوقع ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾ بين اسمين تقدّمه الاسم الله وتأخر عنه الاسم الله بمعنيين مختلفين، فأثر فيه الاسم الأوّل طلب التعليم، وقبل التعليم بالاسم الثاني، وكذلك إذا وقع الاسم الإلهيّ بين اسم إلهيّ يتقدّمه وبين كون يتأخر عنه مثل الاسم الرب بين الله والعالمين في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في آخر الزمر، أو بين كون يتقدّمه واسم إلهيّ يتأخر عنه مثل قوله: ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ مَٰلِكِ﴾ [سورة الفاتحة: ٢ ـ ٤] فالرحمن الرحيم تقدّمه كلمة العالمين وتأخر عنه ملك يوم الدين فأظهر عين العالمين الرحمن الرحيم لافتقارهم إلى الرحمتين: الرحمة العامة والخاصة والواجبة والامتنانية، وطلب ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ليظهر من كونه ملكاً سلطان الرحمن الرحيم، فإن الرحمة من جانب الملك هي رحمة عزّة وامتنان مع استغناء بخلاف رحمة غير الملك كرحمة الأم بولدها للشفقة الطبيعية فتدفع الأم بالرحمة على ولدها ما تجده من الألم بسببه في نفسها فنفسها رحمته، ولنفسها سعت واحتجبت عن علم ذلك بولدها، فالمنة لولدها عليها بالسببية لا لها، ووقعت الرحمة بالولد تبعاً بخلاف رحمة الملك فإنها عن عزّ وغنى عن هذا المرحوم الخاص من رعاياه.

وكذلك إذا وقع الاسم الإلهيّ بين اسمين إلهيين مثل قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٤] فوقع الاسم الخالق بين الاسم الله والاسم البارىء، وكذلك الاسم

البارىء بين الخالق والمصوّر وهذا كثير فالخالق صفة لله وموصوف للباري، فعلى هذا الأسلوب تجري تلاوة العارفين في الكتابين في القرآن وكتاب العالم بأسره، فإنه كتاب مسطور ورقه المنشور الذي هو فيه الوجود، وكذلك تجري أذكارهم، وهكذا في الأكوان إذا وقع كون بين كونين يكون للأوّل إبناً وللثاني بعده أباً في الذي يفهم من ذلك كان ما كان، فلهذا قال الله في قول العبد: بسم الله الرحمن الرحيم: ذكرني عبدي، وما قيد هذا الذكر بشيء لاختلاف أحوال الذاكرين أعني البواعث لذكرهم، فذاكر تبعثه الرغبة، وذاكر تبعثه الرهبة، وذاكر يبعثه التعظيم والإجلال، فأجاب الحق على أدنى مراتب العالم وهو الذي يتلو بلسانه ولا يفهم بقلبه لأنه لم يتدبر ما قاله إذا كان التالي عالماً باللسان ولا ما ذكره، فإن تدبر تلاوته أو ذكره كانت إجابة الحق له بحسب ما حصل في نفسه من العلم بما تلاه فتدبر ما نصصناه لك.

ثم قال: قال الله تعالىٰ: فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين في الصلاة، يقول الله: حمدني عبدي، فيقول العارف: الحمد لله أي عواقب الثناء ترجع إلى الله، ومعنى عواقب الثناء أي كل ثناء يثنى به على كون من الأكوان دون الله فعاقبته ترجع إلى الله بطريقين: الطريق الواحدة الثناء على الكون إنما هو بما يكون عليه ذلك الكون من الصفات المحمودة التي توجب الثناء عليه، أو بما يكون منه من الآثار المحمودة التي هي نتائج عن الصفات المحمودة القائمة به، وعلى أيّ وجه كان فإن ذلك الثناء راجع إلى الله، إذ كان الله هو الموجد لتلك الصفات والآثار لا لذلك الكون، فرجعت عاقبة الثناء إلى الله، والطريق الأخرى أن ينظر العارف فيرى أن وجود الممكنات المستفاد إنما هو عين ظهور الحق فيها فهو متعلق الثناء لا الأكوان.

ثم إنه ينظر في موضع اللام من قوله لله فيرى أن الحامد عين المحمود لا غيره فهو الحامد المحمود، وينفي الحمد عن الكون من كونه حامداً ونفى كون الكون محموداً، فالكون من وجه محمود لا حامد، ومن وجه لا حامد ولا محمود. فأما كونه غير حامد فقد بيناه فإن الحمد فعل والأفعال لله، وأما كونه غير محمود فإنما يحمد المحمود بما هو له لا لغيره والكون لا شيء له فما هو محمود أصلاً، كما ورد في مثل هذا المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي زور فيحضر العارف في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جميع ما ذكرناه وما يعطيه الاسم الرب من الثبات، والإصلاح، والتربية، والملك، والسيادة، هذه الخمسة يطلبها الاسم الرب ويحضر ما يعطيه العالم من الدلالة عليه تعالىٰ، فلا يكون جواب الله في قوله: حمدني عبدي إلاّ لمن حمده بأدنى المراتب، لأنه لكرمه يعتبر الأضعف الذي لم يجعل الله له حظاً في العلم به تعالىٰ رحمة به، لعلمه أن العالم يعلم من سؤاله أو قراءته ما حضر معه في تلك القراءة من المعاني فيجيبه الله على ما وقع له ويدخل في إجمال ما خاطب به عبده العامي القليل العلم أو الأعجمي الذي لا علم له بمدلول ما يقرأه فافهم والله الملهم.

ثم قال عن الله: يقول العبد: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يقول الله: أثنى عليّ عبدي يعني بصفة الرحمة لاشتقاق هذين الاسمين منها ولم يقل فيما ذا لعموم رحمته، ولأنّ العاميّ ما

يعرف من رحمة الله به إلاّ إذا أعطاه ما يلائمه في غرضه وإن ضرّه أو ما يلائم طبعه ولو كان فيه شقاؤه، والعارف ليس كذلك، فإن الرحمة الإلهية قد تأتي إلى العبد في الصورة المكروهة، كشرب الدواء الكريه الطعم والرائحة للمريض والشفاء فيه مبطون، فإذا قال العارف: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أحضر في نفسه مدلول هذا القول من حيث ما هو الحق موصوفاً به، ومن حيث ما يطلبه المرحوم لعلمه بذلك كله، ويحضر في قلبه أيضاً عموم رحمته الواحدة المقسمة على خلقه في الدار الدنيا إنسهم، وجنهم، ومطيعهم، وعاصيهم، وكافرهم، ومؤمنهم، وقد شملت الجميع، ورأى أن هذه الرحمة الواحدة لو لم تعط حقيقتها من الله أن يرزق بها عباده من جماد، ونبات، وحيوان، وإنس، وجانّ، ولم يحجبها عن كافر، ومؤمن، ومطيع، وعاصي، عرف أن ذاتها من كونها رحمة تقتضي ذلك. ثم جاء الوحي من أثر هذه الرحمة الواحدة بأن هذه الرحمة الواحدة السارية في العالم التي اقتضت حقيقتها أن تجعل الأم تعطف على ولدها في جميع الحيوان وهي واحدة من مائة رحمة، وقد ادّخر سبحانه لعباده في الدار الآخرة تسعاً وتسعين رحمة، فإذا كان يوم القيامة ونفذ في العالم حكمه وقضاؤه وقدره بهذه الرحمة الواحدة وفرغ الحساب ونزل الناس منازلهم من الدارين أضاف سبحانه هذه الرحمة إلى التسع والتسعين رحمة فكانت مائة، فأرسلها على عباده مطلقة في الدارين فسرت الرحمة فوسعت كل شيء، فمنهم من وسعته بحكم الوجوب، ومنهم من وسعته بحكم الامتنان فوسعت كل شيء في موطنه وفي عين شيئيته، فتنعم المحرور بالزمهرير والمقرور بالسعير، ولو جاء لكل واحد من هذين حال الاعتدال لتعذب، فإذا اطلع أهل الجنان على أهل النار زادهم نعيماً إلى نعيمهم فوزهم، ولو اطلع أهل النار على أهل الجنان لتعذبوا بالاعتدال لما هم فيه من الانحراف، ولهذا قابلهم بالنقيض من عموم المائة رحمة، وقد كان الحكم في الدنيا بالرحمة الدنيا ما قد علمتم، وهي الآن أعني في الآخرة من جملة المائة فما ظنك؟ وكفى.

فبمثل هذا النظر يقول العارف في الصلاة: الرحمن الرحيم، ومن هنا يعرف ما يجيبه الحق به من هذا نظره. ثم قال الله: يقول العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يقول الله: مجدني عبدي. وفي رواية: فوّض إليّ عبدي، هذا جواب عام ورد عام كما قرّرنا ما المراد به؟ فإذا قال العارف: ملك يوم الدين لم يقتصر على الدار الآخرة بيوم الدين ورأى أنّ الرحمن الرحيم لا يفارقان ملك يوم الدين فإنه صفة لهما فيكون الجزاء دنيا وآخرة، وكذلك ظهر بما شرع من إقامة الحدود وظهور الفساد ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٤١] وهذا هو عين الجزاء. فيوم الدنيا أيضاً يوم الجزاء، والله ملك يوم الدين، فيرى العارف أن الكفارات سارية في الدنيا، وأن الإنسان في الدار الدنيا لا يسلم من أمر يضيق به صدره ويؤلمه حسّاً وعقلاً حتى قرصة البرغوث والعثرة فالآلام محدودة مؤقتة، ورحمة الله تعالىٰ غير مؤقتة فإنها وسعت كل شيء، فمنها ما تنال وتحكم من طريق الامتنان وهو أصل الأخذ لها الامتنان، ومنها ما يؤخذ من طريق الوجوب الإلهيّ في قوله:

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] وقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] فالناس يأخذونها جزاء، وبعض المخلوقات من المكلفين تنالهم امتناناً حيث كانوا فافهم.

فكل ألم في الدنيا والآخرة فإنه مكفر لأمور قد وقعت محدودة مؤقتة، وهو جزاء لمن يتألم به من صغير وكبير بشرط تعقل التألم لا بطريق الإحساس بالتألم دون تعقله، وهذا المدرك لا يدركه إلاَّ من كشف له، فالرضيع لا يتعقل التألم مع الإحساس به إلاَّ أن أباه وأمّه وأمثالهما من محبيه وغير محبيه يتألم ويتعقل التألم لما يرى في الرضيع من الأمراض النازلة به فيكون ذلك كفارة لمتعقل الألم، فإن زاد ذلك العاقل الترحم به كان مع التكفير عنه مأجوراً إذ في كل كبد رطبة أجر وكل كبد فإنها رطبة لأنها بيت الدم والدم حار رطب طبع الحياة. وأمّا الصغير إذا تعقّل التألم وطلب النفور عن الأسباب الموجبة للألم واجتنبها فإن له كفارة فيها لما صدر منه ممّا آلم به غيره من حيوان أو شخص آخر من جنسه أو إباية عمّا تدعوه إليه أمّه أو أبوه، أو سائل يسأله أمراً ما فأبى عليه فتألم السائل حيث لم يقض حاجته هذا الصغير، فإذا تألم الصغير كان ذلك الألم القائم به جزاء مكفراً لما آلم به ذلك السائل بإبايته عمّا التمسه منه في سؤاله، أو كان قد أذى حيواناً من ضرب كلب بحجر أو قتل برغوث وقملة أو وطيء نملة برجله فقتلها أو كل ما جرى منه بقصد وبغير قصد، وسرّ هذا الأمر عجيب سار في الموجودات حتى الإنسان يتألم بوجود الغيم ويضيق صدره به فإنه كفارة لأمور أتاها قد نسيها أو يعلمها، فهذا كله يراه أهل الكشف محققاً في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فيقول الله: فوّض إليّ عبدي أو مجدني عبدي أو كلاهما، إلاَّ أن التمجيد راجع إلى جناب الحق من حيث ما تقتضيه ذاته، ومن حيث ما تقتضي نسبة العالم إليه، والتفويض من حيث ما تقتضي نسبة العالم إليه لا غير فإنه وكيل لهم بالوكالة المفوّضة، ففي حق قوم يقول: مجدني عبدي، وفي المقصد وفي حق قوم يقول: فوّض إليّ عبدي، وفي المقصد أيضاً: فإن العبد قد يجمع بين المقصدين فيجمع الله له في الرد بين التمجيد والتفويض، فهذا النصف كله مخلص لجناب الله ليس للعبد فيه اشتراك.

ثم قال الله: يقول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقول الله: هذه بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فهذه الآية تتضمن سائلاً ومسؤولاً مخاطباً وهو الكاف من إياك فيهما، ونعبد ونستعين هما للعبد فإنه العابد والمستعين، فإذا قال العبد: إياك وحد الحق بحرف الخطاب فجعله مواجهاً لا على جهة التحديد، ولكن امتثالاً لقول الشارع لمثل ذلك السائل في معرض التعليم حين سأله عن الإحسان فقال له ﷺ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» فلا بدّ أن تواجهه بحرف الخطاب وهو الكاف أو حرف التاء المنصوبة في المذكر المخفوضة في المؤنث، فأنى قد أنّث الخطاب من حيث الذات، وهذا مشهد خيالي فهو برزخي، وجاءت هذه الآية برزخية وقع فيها الاشتراك بين الحق وبين عبده، وما مضى من الفاتحة مخلص لله، وما بقي منها مخلص للعبد، وهذه التي نحن فيها مشتركة وإنما وحده ولم يجمعه لأن المعبود

واحد، وجمع نفسه بنون الجمع في العبادة والعون المطلوب، لأن العابدين من العبد كثيرون، وكل واحد من العابدين يطلب العون، والمقصود بالعبادات واحد، فعلى العين عبادة، وعلى السمع والبصر واللسان واليد والبطن والفرج والرجل والقلب فلهذا قال: ﴿نَعۡبُدُ﴾ ﴿نَسۡتَعِينُ﴾ بالنون وأن العالم نظر إلى تفاصيل عالمه، وأن الصلاة قد عمّ حكمها جميع حالاته ظاهراً وباطناً لم ينفرد بذلك جزء عن آخر، فإنه يقف بكله، ويركع بكله، ويجلس بكله، فجميع عالمه قد اجتمع على عبادة ربه وطلب المعونة منه على عبادته، فجاء بنون الجماعة في ﴿نَعۡبُدُ﴾ ﴿نَسۡتَعِينُ﴾ فترجم اللسان عن الجماعة كما يتكلم الواحد عن الوفد بحضورهم بين يدي الملك، فعلم العبد من الحق لما أنزل عليه هذه الآية بإفراده نفسه أن لا يعبد إلاّ إياه ولما قيد العبد بالنون أنه يريد منه أن يعبده بكله ظاهراً وباطناً من قوىٰ وجوارح ويستعين على ذلك الحد، ومتى لم يكن المصلي بهذه المثابة من جمع عالمه على عبادة ربّه كان كاذباً في قراءته إذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فإن الله ينظر إليه فيراه متلفتاً في صلاته أو مشغولاً بخاطره في دكانه أو تجارته وهو مع هذا يقول: نعبد ويكذب فيقول الله له: كذبت في كنايتك بجمعيتك على عبادتي، ألم تلتفت ببصرك إلى غير قبلتك؟ ألم تصغ بسمعك إلى حديث الحاضرين؟ ألم تعقل بقلبك ما تحدثوا به؟ فأين صدقك في قولك ﴿نَعۡبُدُ﴾ بنون الجمع فيحضر العارف هذا كله في خاطره فيستحيي أن يقول في مناجاته في صلاته ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لئلا يقال له: كذبت، فلا بدّ أن يجتمع من هذه حالته على عبادة ربه حتى يقول له الحق صدقت إذا تلاقى جمعيتك عليّ في عبادتك إياي وطلب معونتي.

روينا في هذا الباب على ما حدثنا به شيخنا المقري أبو بكر محمد بن خلف بن صاف اللخمي عن بعض المعلمين من الصالحين أن شخصاً صبياً صغيراً كان يقرأ عليه القرآن فرآه مصفرّ اللون فسأله عن حاله فقيل له: إنه يقوم الليل بالقرآن كله، فقال له: يا ولدي أخبرت أنك تقوم الليل بالقرآن كله، فقال: هو ما قيل لك، فقال: يا ولدي إذا كان في هذه الليلة فاحضرني في قبلتك واقرأ عليّ القرآن في صلاتك ولا تغفل عني، فقال الشاب؛ نعم، فلما أصبح قال له: هل فعلت ما أمرتك به؟ قال؛ نعم يا أستاذ، قال: وهل ختمت القرآن البارحة؟ قال؛ لا ما قدرت على أكثر من نصف القرآن، قال: يا ولدي هذا حسن إذا كان في هذه الليلة فاجعل من شئت من أصحاب رسول الله ﷺ أمامك الذين سمعوا القرآن من رسول الله ﷺ واقرأ عليه واحذر فإنهم سمعوه من رسول الله ﷺ فلا تزلّ في تلاوتك، فقال: إن شاء الله يا أستاذ كذلك أفعل، فلما أصبح سأله الأستاذ عن ليلته فقال: يا أستاذ ما قدرت على أكثر من ربع القرآن، فقال: يا ولدي اتل هذه الليلة على رسول الله ﷺ الذي أنزل عليه القرآن واعرف بين يدي من تتلوه، فقال: نعم، فلما أصبح قال: يا أستاذ ما قدرت طول ليلتي على أكثر من جزء من القرآن أو ما يقاربه، فقال: يا ولدي إذا كان هذه الليلة فلتكن تقرأ القرآن بين يدي جبريل الذي نزل به على قلب محمد ﷺ فاحذر واعرف قدر من تقرأ عليه، فلما أصبح قال: يا أستاذ ما قدرت على أكثر من كذا وذكر آيات قليلة من القرآن، قال: يا ولدي إذا كان هذه

الليلة تب إلى الله وتأهب واعلم أن المصلي يناجي ربه وأنك واقف بين يديه تتلو عليه كلامه فانظر حظك من القرآن وحظه وتدبر ما تقرأه فليس المراد جمع الحروف ولا تأليفها لا حكاية الأقوال، وإنما المراد بالقراءة التدبير لمعاني ما تتلوه فلا تكن جاهلاً فلما أصبح انتظر الأستاذ الشاب فلم يجيء إليه، فبعث من يسأل عن شأنه فقيل له: إنه أصبح مريضاً يعاد، فجاء إليه الأستاذ فلما أبصره الشاب بكى وقال: يا أستاذ جزاك الله عني خيراً ما عرفت أني كاذب إلاّ البارحة لما قمت في مصلاي وأحضرت الحق تعالىٰ وأنا بين يديه أتلو عليه كتابه فلما استفتحت الفاتحة ووصلت إلى قوله: إياك نعبد نظرت إلى نفسي فلم أرها تصدق في قولها فاستحييت أن أقول بين يديه إياك نعبد وهو يعلم أني أكذب في مقالتي، فإني رأيت نفسي لاهية بخواطرها عن عبادته فبقيت أردّد القراءة من أول الفاتحة إلى قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ولا أقدر أن أقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ إنه ما خلصت لي فبقيت أستحيي أن أكذب بين يديه تعالىٰ فيمقتني، فما ركعت حتى طلع الفجر وقد رضت كبدي وما أنا إلاّ راحل إليه على حالة لا أرضاها من نفسي، فما انقضت ثالثة حتى مات الشاب، فلما دفن أتى الأستاذ إلى قبره فسأله عن حاله فسمع صوت الشاب من قبره وهو يقول له: يا أستاذ: [مجزوء المديد]

أنا حيٌّ عند حَيّ ... لم يحاسبني بشَيّ

قال: فرجع الأستاذ إلى بيته ولزم فراشه مريضاً ممّا أثر فيه حال الفتى فلحق به.

فمن قرأ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ على قراءة الشاب فقد قرأ، ثم قال الله: يقول العبد: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فيقول الله: هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال العارف: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ أحضر الاسم الإلهيّ الهادي وسأله أن يهديه الصراط المستقيم أن يبيّنه له ويوفقه إلى المشي عليه وهو صراط التوحيدين: توحيد الذات وتوحيد المرتبة وهي الألوهية بلوازمها من الأحكام المشروعة التي هي حق الإسلام في قوله ﷺ: **«إلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»** فيحضر في نفسه الصراط المستقيم الذي هو عليه الرب من حيث ما يقود الماشي عليه إلى سعادته، أخبر الله تعالىٰ عن هود أنه قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] فإن العارف إذا مشى على ذلك الصراط الذي عليه الرب تعالىٰ على شهود منه كان الحق أمامه وكان العبد تابعاً للحق على ذلك الصراط مجبوراً، وكيف لا يكون تابعاً مجبوراً وناصيته بيد ربّه يجرّه إليه فإن الله يقول: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فدخل في حكم هذه الآية جميع ما دبّ علواً وسفلاً دخول ذلة وعبودية، والناس في ذلك بين مكاشف يرى اليد في الناصية أو مؤمن، فكل دابة دخلت عموماً ما عدا الإنس والجنّ فإنه ما دخل من الثقلين إلاّ الصالحون منهم خاصة، ولو دخل جميع الثقلين لكان جميعهم على طريق مستقيم صراط الله من كونه رباً يقول تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤].

وقال في حق الثقلين خاصة على طريق الوعيد والتخويف حيث لم يجعلوا نواصيهم

بيده وهو أن يتركوا إرادتهم لإرادته فيما أمر به ونهى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] ولهذا قال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يريد الذين وفقهم الله وهم العالمون كلهم أجمعهم والصالحون من الإنس مثل الرسل والأنبياء والأولياء وصالحي المؤمنين، ومن الجانّ كذلك، فلم يجعل الصراط المستقيم إلاَّ لمن أنعم الله عليه من نبي وصديق وشهيد وصالح، وكل دابة هو آخذ بناصيتها، فإذا حضر العارف في هذه القراءة جعل ناصيته بيد ربّه في غيب هويته، ومن شذ شذّ إلى النار وهم الذين استثنى الله تعالىٰ بقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أي إلاَّ من غضب الله عليهم لما دعاهم بقوله: حيّ على الصلاة فلم يجيبوا ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فاستثنى بالعطف من حار وهم أحسن حالاً من المغضوب عليهم، فمن لم يعرف ربه أنه ربه وأشرك معه في ألوهيته من لا يستحق أن يكون إلهاً كان من المغضوب عليهم، فإذا أحضر العبد مثل هذا وأشباهه في نفسه عند تلاوته قالت الملائكة: آمين، وقال باطن الإنسان الذي هو روحه المشارك للملائكة في نشأتهم وطهارتهم: آمين أي أمنا بالخير لما كان، والتالي الداعي اللسان ثم يصغي إلى قلبه فيسمع تلاوة روحه فاتحة الكتاب مطابقة لتلاوة لسانه فيقول اللسان مؤمّناً على دعائه أي دعاء روحه بالتلاوة من قوله: اهدنا فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة في الصفة موافقة طهارة وتقديس ذوات كرام بررة أجابه الحق عقيب قوله آمين باللسانين، فإن ارتقى يكون الحق لسانه إلى تلاوة الحق كلامه، فإذا قال: آمين، قالت الأسماء الإلهية: آمين، والأسماء التي ظهرت من تخلق هذا العبد بها آمين، فمن وافق تأمين أسمائه أسماء خالقه كان حقاً كله، فهذا قد أبنت لك أسلوب القراءة في الصلاة فاجر عليها على قدر اتساع باعك وسرعة حركتك وأنت أبصر، فما منا إلاَّ من له مقام معلوم، ومنا الصافون والمسبحون.

فصل بل وصل في قراءة القرآن في الركوع: وأمّا قراءة القرآن في الركوع، فمن قائل بالمنع. ومن قائل بالجواز، والذي اتفقوا عليه التسبيح في الركوع واختلفوا هل فيه قول محدود أم لا؟ فمن قائل: لا حدّ في ذلك. ومن قائل بالحدّ في ذلك وهو أن يقول في ركوعه: سبحان ربي العظيم ثلاثاً. وفي السجود: سبحان ربي الأعلى ثلاثاً. والقائل بهذا منهم من يرى وجوبه وأن الصلاة تبطل بتركه وأدناه ثلاث مرات، ومنهم من لا يقول بوجوبه وهم عامة العلماء. ومن قائل: ينبغي للإمام أن يقولها خمساً حتى يدرك من وراءه أن يقولها ثلاثاً، فأقول في باب الإسرار: لما كان المصلي في وقوفه بين يدي ربّه في الصلاة له نسبة إلى القيومية، ثم انتقل عنها إلى حالة الركوع الذي هو الخضوع وكذلك السجود لم تنبغ أن تكون هذه الصفة لله فشرع النبي ﷺ على ما فهم من كلام الله لما نزل عليه: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٧٤] قال رسول الله ﷺ: «**اجْعَلُوها فِي رُكُوعِكُمْ**». ثم نزل قوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلىٰ: الآية ١] قال رسول الله ﷺ: «**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**» فاقترن بهما أمر الله بقوله: ﴿سَبِّحْ﴾ فأمر وأمر رسول الله ﷺ لنا بمكانها من الصلاة يقول: «**نَزِّهُوا عَظَمَةَ رَبِّكُم عَنِ الخُضُوعِ فَإِنَّ الخُضُوعَ إِنَّمَا هُوَ للَّهِ لاَ بِاللَّهِ**» فإنه يستحيل أن

تقوم به صفة الخضوع، وأضافه إلى الاسم الرب لأنه يستدعي المربوب وهو من الأمّهات الثلاث وهو اسم كثير الدور والظهور في القرآن أكثر من باقي الأسماء، فإن أمهات الأسماء في القرآن ثلاثة: الله، والرحمن، والرب.

ثم إنّ هذا الاسم لما تعلق التسبيح به لم يتعلق به مطلقاً من حيث ما يستحق لنفسه، وإنما تعلق به مضافاً إلى نفس المسبح فقال: سبحان ربي العظيم، وإنما تعلق به مضافاً في حق كل مسبّح لأن العلم به من كل عالم يتفاضل فيعتقد فيه شخص خلاف ما يعتقد فيه غيره، فكل شخص يسبّح ربه الذي اعتقده رباً، وكم شخص ما يعتقد في الرب ما يعتقده غيره، ويرى أن ذلك المعتقد الآخر فيما نسبه إلى ربه ممّا يستحيل عند هذا أن تكون له تلك الصفة ويكفر من أجلها، فلو سبّحه مطلقاً باعتقاد كل معتقد لسبّح هذا الشخص من لا يعتقد أنه ينزّه، فلهذا أضافه كل مسبّح لما يقتضيه اعتقاده، وحظ العارف أن يسبحه بلسان كل مسبّح وينظر في عظمة الله وتنزيهها عن قيام الخضوع بها وعلوّه عن السجود، فإنّ العبد في سجوده يطلب أصل نشأة هيكله وهو الماء والتراب ويطلب بقيامه أصل روحه فإن الله يقول فيهم: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٩] وصارت حالة الركوع برزخاً متوسطاً بين القيام والسجود بمنزلة الوجود المستفاد للممكن برزخاً بين الواجب الوجود لنفسه وبين الممكن لنفسه، فالممكن عدم لنفسه فإن العدم لا يستفاد فإنه ما ثم من يفيده، والواجب الوجود وجوده لنفسه، وظهرت حالة برزخية وهي وجود العبد بمنزلة الركوع، فلا يقال في هذا الوجود المستفاد هو عين الممكن ولا هو غير الممكن، ولا يقال فيه هو عين الحق ولا هو غير الحق، فله نسبتان يعرفهما العارف، فيخطر للعارف في حال الركوع الحال البرزخي الفاصل بين الأمرين وهو المعنى المعقول الذي به يتميز الرب من العبد، وهو أيضاً المعنى المعقول الذي به يتصف العبد بأوصاف الرب، ويتصف الرب بأوصاف المربوب لا بالصفات فإنه وصف لا صفة، وإنما قلنا وصف لا صفة فإن الصفة يعقل منها أمر زائد وعين زائدة على عين الموصوف، والوصف قد يكون عين الموصوف بنسبة خاصة ما لها عين موجودة فافهم.

فصل بل وصل في الدعاء في الركوع: اختلفوا في الدعاء بعد اتفاقهم على جواز الثناء على الله فيه ووجوبه في مذهب من يراه شرطاً في صحة الصلاة، فمنهم من كره الدعاء في الركوع. ومنهم من أجازه وبه أقول. واختلفوا في الدعاء في الصلاة، فمنهم من قال: لا يجوز أن يدعي في الصلاة بغير ألفاظ القرآن. ومنهم من أجاز ذلك فأقول: لما كانت الصلاة معناها الدعاء صحّ أن يكون الدعاء جزءاً من أجزائها، ويكون من باب تسمية الكل باسم الجزء. وأما من يكره الدعاء في الركوع فإن الحالة البرزخية لها وجهان: وجه إلى الحق، ووجه إلى الخلق، فمن كان مشهده من الركوع الوجه الذي يطلب الحق كره الدعاء في الركوع ولم يحرّمه لأن صفة القيومية قد يتصف بها الكون، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [سورة النساء: الآية ٣٤] ومن رجح الوجه الذي يطلب الخلق من الركوع قال: يجوز الدعاء في الركوع وبه جاءت السنّة وهو مذهب البخاري رحمه الله. وكذلك من رجح أن لا يدعي في

الصلاة بغير ألفاظ القرآن فإنه نظر إلى أن الله تعالىٰ قد شرع الأدعية في القرآن، فالعدول عنها إلى ألفاظ من كلام الناس من مخالفة النفس التي جبلت عليها حتى لا توافق ربها وهو الأدب الصحيح، فإني كما لم أناجه في الصلاة إلاَّ بكلامه كذلك لا ندعوه إلاَّ بما أنزل علينا وشرعه لنا في القرآن أو في السنّة ممّا شرع أن يقال في الصلاة، ومن أطلق الدعاء في الصلاة بأي نوع كان غلب على قلبه أنه ما ثم إلاَّ الله ولا متكلم إلاَّ الله إما بفعل يفعله كما ورد أن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده يعني في الصلاة أو أمر آخر.

فصل بل وصل في التشهد في الصلاة: اختلف العلماء في وجوب التشهد في الصلاة والمختار منه، فمن قائل: بوجوبه. ومن قائل: لا يجب، فأقول: لما كان التشهّد على الحقيقة معناه الاستحضار فإنه تفعل من الشهود وهو الحضور، والإنسان مأمور بالحضور في صلاته فلا بدّ من التشهّد وهو الأولى والأوجه. ولما كان الشاهد مخاطباً بالعلم بما يشهد به بخلاف الحاكم لم يصحّ الحضور ولا الاستحضار من غير علم المتشهد بمن يريد شهوده، فلا يحضر معه من الحق إلاَّ قدر ما يعلمه منه وما خوطب بأكثر من ذلك. واختلفت مقالات الناس في الإله، وإذا اختلفت المقالات فلا بدّ للعاقل إذا انفرد في علمه بربه أن يكون على مقالة من هذه المقالات التي أنتجها النظر وهي مختلفة، فالسليم العقل من يترك ما أعطاه نظره في الله ونظر غيره من أصحاب المقالات بالنظر الفكريّ، ويرجع إلى ما قالته الأنبياء عليهم السلام وما نطق به القرآن فيعتقده ويحضر معه في صلاته وفي حركاته وسكناته، فهو أولى به من أن يحضر مع الله تعالىٰ بفكره، وقد يطرأ لبعض الناس في هذا غلط، وذلك أنه يرى أن الإنسان ما يثبت عنده الشرع إلاَّ حتى يثبت عنده بالعقل وجود الإله وتوحيده وإمكان بعثة الرسل وتشريع الشرائع، فيرجح بهذا أن يحضر مع الحق في صلاته بهذا العلم وليس الأمر كذلك، فإنه وإن كان نظره هو الصحيح في إثبات وجود الحق وتوحيده وإمكان التشريع وتصديق الشارع بالدلالات التي أتى بها فيعلم أن الشارع قد وصف لنا نفسه بأمور لو وقفنا مع العقل دونه ما قبلناها. ثم إنا رأينا أن تلك الأوصاف التي جاءت من الشارع في حق الله ومعرفته تطلبها أفعال العبادات وهي أقرب مناسبة إليها من المعرفة التي تعطيها الأدلة النظرية التي تستقل بها، فرأينا أن نحضر مع الحق في تشهدنا وصلاتنا بالمعرفة الإلهية التي استفدناها من الشارع في القرآن والسنّة المتواترة أولى من الحضور معه بمقالات العقول، ثم ننظر فيما ورد من التشهد في الصلاة حتى نجري على ذلك الأسلوب كما فعلنا في التوجيه والقراءة وما يقال في الركوع والسجود. انتهى الجزء الثامن والثلاثون.

(الجزء التاسع والثلاثون)

بسم الله الرحمن الرحيم

فنقول: من ذلك (تشهد عمر رضي الله عنه) وهو: التحيات لله الزاكيات لله السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلاَّ

الله وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، أخذت به طائفة. (وأما تشهد عبد الله بن مسعود) وهو: التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أخذ به الأكثر من الناس لثبوت نقله. (وأمّا تشهد ابن عباس) وهو: التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله سلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، أخذت به طائفة.

وكلها أحاديث مروية عن رسول الله ﷺ. فالعارف إذا تشهد بهذا التشهد فإما أن يكون في حال قبض وهيبة وجلال عن اسم إلهيّ، وإما أن يكون في حال أنس وجمال وبسط عن اسم إلهيّ، وإما أن يكون في حال مراقبة وحضور لموازنة ذاته بما كلفته من العبادات في الصلاة، فيعمر كل قوّة من قوىٰ نفسه في صلاته، وكل جارحة من جوارح جسمه في صلاته بما يليق بها ممّا طلبه الحق منه من الهيئات أن يكون عليها في صلاته بالنظر إلى كل جارحة وقوّة فيعمرها سواء كان في حال هيبة أو أنس وهو أكمل الأحوال.

فانحصر الأمر في ثلاثة مقامات: مقام جلال، ومقام جمال، ومقام كمال، فيتشهد بلسان الكمال وهو الأول للسالك فيقول: التحيات لله أي تحيات كل محيّ ومحيّ بها في جميع العالم، والنسب الإلهية كلها لله أي من أجل الله الاسم الجامع الذي يجمع حقائقها، وذلك لأن كل تحية في العالم إنما هي مرتبطة بحقيقة إلهية كانت ما كانت، فمتى ما لم يجمع الإنسان بنيته وقلبه كما جمع بلفظة التحيات بقوّته من الحقائق الإلهية كلها إلاّ الحقيقة الواحدة المشروعة له في تحيته من حيث ما هو مقيد بها من جهة شرعه خاصة لم يستبر لنفسه في كمال صلاته. وقوله: الزاكيات لله، يقول: التحيات المطهرات الناميات أي التي ينمي خيرها على قائلها من الحقائق الإلهية التي أوجدت تلك التحيات بحسب ما تعطيه أسماؤها. ثم يقول: السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته بالألف واللام التي للجنس لا التي للعهد فيكون سلامه على النبيّ ﷺ مثل تحياته للشمول والعموم أي بكل سلام، وهذا يؤذن بأنّ العبد قد انتقل من مشاهدة ربّه من حيث الإطلاق أو أمر ما من الأمور التي كان فيها في سجوده إلى مشاهدة الحق في النبيّ ﷺ، فلما قدم عليه بالحضور سلّم عليه مخاطباً مواجهة بالنبوّة لم يسلم عليه بالرسالة، فإن النبوّة في حق ذات النبيّ أعمّ وأشرف، فإنه يدخل فيها ما اختص به في نفسه وما أمر بتبليغه لأمته الذي هو منه رسول، فعم وعرف ما ينبغي أن يخاطب به رسول الله ﷺ في ذلك الحضور وأيه به من غير حرف نداء يؤذن ببعد لما هو عليه من حال قربه ولهذا جاء بحرف الخطاب، ثم عطف بعد السلام عليه بالرحمة الإلهية لشمولها الامتنان والوجوب فأضافها إلى الله لما رزقه ﷺ من السلامة من كل ما يشنوه في مقامه ذلك، وعطف بالبركات المضافة إلى الهواية والبركات هي الزيادة، وقد أمر أن يقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٤] فكأن هذا المصلي في هذه التحيات يقول له: سلام عليك ورحمته تقتضي الزيادات عندك من العلم بالله الذي هو أشرف الحالات عند الله كما جاء بالزاكيات في

التحيات فناسب بين الزكاة والبركة، ولهذا جعل الله تعالىٰ البركة في الزكاة التي هي الصدقات لارتباطها بها، لأن الصدقة إخراج ما كان في اليد وهي الزكاة ولا تبقى في الوجود خلاء فيعوّضه الله ويملأ يديه من الخير العلمي وغيره من الثواب المحسوس في دار الكرامة ما لا يقدر قدره في مقابلة ما أخرجه.

ثم يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فسلّم على نفسه بشمول السلام وأجناسه كما سلّم على النبي ﷺ يقول تعالىٰ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [سورة النور: الآية ٦١] والدخول في كل حال من أحوال الصلاة كالبيوت في الدار الجامعة تحية من عند الله مباركة طيبة، فجعلك رسولاً من عنده إلى نفسك بهذه التحية المباركة لما فيها من زوائد الخير الطيبة فإنها حصلت له ذوقاً فاستطابها، كما أنها طيبة الأعراف بسيرانها من نفس الرحمن، وجاء بنون الجمع في قوله: السلام علينا يؤذن أنه مبلغ سلامه لكل جزء فيه ممّا هو مخاطب بعبادة خاصة، وإنما سلم عليهم لكونه جاء قادماً من عند ربه لغيبته عن نفسه حين دعاه الحق إلى مناجاته، فكبّر تكبيرة الإحرام فمنعته هذه الحالة أن ينظر إلى غير من دعاه إليه، فلهذا سلّم على نفسه بنون الجماعة، وذلك إذا كان هذا العبد قد دخل إلى بيت قلبه، ونزّه الحق أن يكون حالاً فيه وإن وسعه كما قال الله لما يقتضيه جلال الله من عدم المناسبة بين ذاته تعالىٰ وبين خلقه ورأى بيت قلبه خالياً من كل ما سوى الله والحق لا يسلم عليه فإنه هو السلام وقد نهوا عن ذلك لأنهم كانوا يقولون: السلام على الله في التشهد، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**لاَ تَقُولُوا السَّلاَمُ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلاَمُ**» فلما دخل بيته ولم ير فيه أحداً أو نزّه الحق أن يحوي عليه بيت قلبه فما بقي له أن يشهد سوى عالمه المكلف وليس سوى نفسه، وقد أمره الله إذا دخل بيتاً خالياً من كل أحد أن يسلم على نفسه في قوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ فيكون العبد هنا مترجماً عن الحق في سلامه لأنه قال: تحية من عند الله مباركة، كما جاء في: سمع الله لمن حمده، فكذلك يقولها في الصلاة نيابة عن الحق جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه لأنه ما ثم من حدث له حال دخول أو خروج فيكون السلام منه أو عليه، فدلّ على أنه تجلّ خاص ولا بدّ، فافهم إن أردت أن تكون من أهل هذا المقام في الصلاة.

ثم عطف من غير إظهار لفظ السلام على عباد الله الصالحين فشمل بالألف واللام ليصيب سلامه كل عبد صالح لله في السموات والأرض، ولا ينوي من الصالحين ما هو المعهود في العرف ما ثم إلاّ صالح فإن الله يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] فكل شيء ينزّه ربه فهو إذن صالح، هذا من علوم الإيمان والكشف، فانو بالصالحين الذين استعملوا فيما صلحوا له وليس سوى التسبيح، فإن الله أخبر عنهم أنهم بهذه الصفة فلم يبق كافر ولا مؤمن إلاّ وقد شملت تفاصيله هذه الآية: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٦] لأنهم لا يسمعون ولا يشهدون، ولهذا لم يذكر لفظة السلام في هذا العطف واكتفى بالواو تنبيهاً، فإنه يدخل فيه من يستحق السلام عليه بطريق الوجوب، ومن لا يستحق

ذلك بطريق الوجوب فسرّ حتى لا يتميز المستحق من غير المستحق رحمة منه بعباده ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة القصص: الآية ١٦].

ولم يعطف السلام الذي سلّم به على نفسه على السلام الذي سلّم به على النبي ﷺ بل جعله مبتدأ، فإن النبوّة أعني نبوّة التشريع طور آخر متميز عن طور الاتباع، فإنه لو عطف عليه لفظ السلام على نفسه لسلم على نفسه أيضاً من جهة النبوّة للواو الذي يعطي الاشتراك، وباب النبوّة قد سدّه كما سدّ باب الرسالة، وأعني نبوّة التشريع، وما بقي بأيدينا إلاّ الوراثة إلى يوم القيامة، يقول رسول الله ﷺ: «**إنَّ الرِّسَالَة والنبوّة قَدِ انْقَطَعَتْ فَلاَ رَسُولَ بَعْدِي وَلاَ نَبِيَّ**». فعيّن بهذا أنه لا مناسبة بيننا وبين الرسل في هذا المقام، فحصل له الأولية ﷺ على التعيين، وحصل له الآخرية ﷺ لا على التعيين. فدخل بالسلام الثاني بحرف العطف في عباد الله الصالحين فإنه من الصالحين بلا شك من كل وجه فهو في المرتبة التي لا تنبغي لنا فابتدأنا بالسلام علينا في طورنا من غير عطف.

واعلم أنه لم نقف على رواية عن رسول الله ﷺ في تشهّده الذي كان ﷺ يتشهد به بلسانه في تشهده في الصلاة في قولنا: السلام عليك أيها النبيّ هل كان يقوله بهذا اللفظ أو يقوله بغير هذا اللفظ مثل عيسىٰ عليه السلام إذ قال: ﴿وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٣٣] أو لا يقول شيئاً من ذلك ويكتفي بقولنا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإن كان قال مثل ما علمنا أن نقول من ذلك فله وجهان: أحدهما: أن يكون المسلم عليه هو الحق وهو نائب مترجم عنه تعالىٰ في ذلك كما جاء في: سمع الله لمن حمده. والوجه الآخر: أن يقوم في دعائه في تلك الحالة في مقام غير مقام النبوّة ثم يخاطب نفسه من حيث المقام الذي أقيم فيه نفسه أيضاً من كونه ﷺ نبياً ويحضره من أجل كاف الخطاب فيقول ﷺ بلسانه للمقام الذي أحضره فيه أي أحضر نفسه فيه: السلام عليك أيها النبيّ فعل الأجنبيّ. ثم يقول: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله. فأمّا معنى الشهادة فقد تقدّم في أوّل التشهّد، وهذا التوحيد هنا إنما هو توحيد ما يقتضيه عمل الصلاة عموماً وما يقتضيه حال كل مصل في صلاته خصوصاً، فإنّ أحوال المصلين تختلف في الصلاة بلا شك من كل وجه من وجوه الأحكام، ومن وجوه المقامات، ومن وجوه الأذواق.

فمن وجوه الأحكام: فإن صلاة الحنفي تخالف صلاة المالكي والشافعي في بعض الأحكام. ومن وجوه المقامات: فإن صلاة المتوكل تخالف صلاة الزاهد. ومن وجوه الأذواق: فإن صلاة الراضي تخالف صلاة الشكور، وصلاة الصاحي تخالف صلاة السكران في الطريق الذوقي، فإن الصحو والسكر هو من علوم الأذواق.

ثم عطف الشهادة بالعبودية لله والرسالة على شهادة التوحيد ليعلم أنه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] فإنه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [سورة النجم: الآية ٣] وما عليه إلاّ البلاغ والإبلاغ لا يكون إلاّ حال مبلغ من مبلغ عنه إلى مبلغ إليه وهو العطف بواو

الاشتراك يؤذن بالقرب الإلهيّ من السيد بما فيه من العبودية لله، وبالقرب من المرسل بما فيه من ذكر الرسالة المضافة إلى الهوية التي هي غيب لمن أرسلوا إليهم. وللرسول من حيث إن الروح الأمين جاء بها إليه من عند ربّه فهو أقرب سنداً منّا إلى المرسل، وتلقاها رسول الله ﷺ من الروح بربه لا بنفسه كما يتلقى العارفون ما يأتيهم من ربهم على ألسنة العالم وحركاتهم بربهم لا بأنفسهم، فإنه من يرى ربه في نفسه يراه في غيره بلا شك، كما يقول أهل الله في حال المتوكل: من صحّ توكّله في نفسه صحّ توكله في غيره. وإنما قلنا: تلقاها بربه لا بنفسه إذ لو تلقى المتلقي أمر ربه ووحيه بنفسه دون ربه لاحترق في موضعه من سطوات أنوار الروح الأمين، ألا تراه مع القوّة الإلهية التي أيّده الله بها كيف جاء إلى بيت خديجة ترجف بوادره يقول: زمّلوني زمّلوني دثروني لاضطراب مفاصله وتخلّل النور الروحاني مسالك ذاته، فكان يسمع لها قضيض، فبدأ في الشهادة حين عطفها باسمه محمداً لما جمع فيه من المحامد أي بها استحق العطف بحرف التشريك ثم قال: عبد الله فذكره بعبودية الاختصاص ليعلم بحريته عن كل ما سوى الله وخلوص عبوديته لله ليس فيه شقص لكون من الأكوان، ثم عطف بالرسالة على العبودية وعلى الله بالهوية فزاده في العبودية اختصاصين وهما: النبوّة والرسالة، وذكر الرسالة دون النبوّة لتضمنها إياها، فلو ذكر النبوّة وحدها كان يبقى علينا ذكر اختصاصه بالرسالة فيحتاج إلى ذكرها حتى نعلم بخصوص أوصافه ونفرق بينه وبين من ليس له منزلة الرسالة من عباد الله النبيين، فهذا تشهد لسان الكمال.

التشهد بلسان الجمال: وأما تشهد لسان الجمال فهو تشهد عبد الله بن مسعود الذي ذكرناه وهو على هذا الحدّ إلاّ ما اختصّ به، فما أذكره وهو أن يقول صاحب هذا المقام بلسانه والصلوات والطيبات، فأتى بالصلوات لعموم ما تدل عليه في الرحموتيات والدعاء وأنواعه من الأحوال وكلها صلاة ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] وعطف عليها الطيبات من باب عطف النعوت فهي نعت معطوف للصلوات وعليها ليطيب بها نفساً، واختصّ أيضاً في هذا التشهد بإضافة العبودية إلى الهوية لا إلى الله وهو مقام شريف في حق رسول الله ﷺ حيث أخبر أنه ﷺ في حال نظره في ربه من حيث ما تستحقه ذاته التي لا يحاط بها علماً بل لا تعرف أصلاً بالصفة الثبوتية وليست سوى واحدة لا يصحّ أن تكون اثنتين، لأن الفصل المقوم في حق ذاته يستحيل، فلا مناسبة بين الله وبين خلقه، فإنه من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] كيف يصحّ أن يشبه شيئاً أو يشبهه شيء؟ وهذا بخلاف اللسان الأوّل، فإن الإضافة بالعبودية كانت إلى الله لا إلى الهوية، وهو أن ينظر فيه من حيث ما يطلبه الممكن ويليق وهو دون ما تشهد به ابن مسعود.

التشهد بلسان الجلال: أمّا التشهد بلسان الجلال فزاد على ما احتوى عليه التشهدان أن نعت التحيات بالمباركات أي التحيات التي يكون معها البركات وأسقط الزاكيات وكذلك أسقطها ابن مسعود فإنهما راعيا الاشتراك في الزيادة، وراعى عمر ما في الزكاة من التقديس مع وجود الزيادة التي تشترك فيها مع البركة، فاكتفى بالزاكيات لذلك، وأنكر الزاكيات في

التشهد جماعة من علماء الرسوم ممّن لا علم له بعلوم الأذواق ومواقع اختلاف خطاب رسول الله ﷺ، ولم يأت في هذا اللسان في نعت التحيات بحرف عطف، وقال فيه سلام بالتنكير وهو تشهد ابن عباس، وذلك أنه راعى خصوص حال كل مصلّ، فإن أسماء الله مثل الممكنات لا نهاية لها، وكل ممكن له خصوص وصف فله من الله اسم خاص به من ذلك الاسم خصّ بالوصف الذي يتميز به عن كل ممكن، وهذا من أشرف علوم أهل الله، وهو مذكور في قوله في دعائه ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ بِكُلِّ اسم سَمَّيتَ بِهِ نَفسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْم غَيْبِكَ**» وأما أسماء الإحصاء فتسعة وتسعون، مائة إلاّ واحد، ولم يصحّ في تعيينها على الجملة نص ولا روي عن النبي ﷺ أنه قال هي هذه، فما جاء ابن عباس بتنكير السلام إلاّ ليأخذ كل مصلّ من الاسم الذي يلقى إليه ويناجي الحق فيه وهو المسلم على نبيّ الله منا ﷺ وعلينا وعلى عباد الله الصالحين، وكذلك اختص بعدم تكرار لفظ الشهادة فتركها فلم يشهد له بعبودية ولا رسالة بشهادة مستأنفة، بل شهادته بالتوحيد أغنت، واكتفى بالواو لما فيها من قوّة الاشتراك وذلك مثل قوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] ولم يعطف بذكر الشهادة تشريفاً لهم، وإن كان قد فصّلهم عن شهادته لنفسه بذكره لا إله إلاّ هو وأسقط هنا لفظ العبودية لتضمن الرسالة إياها.

فصل بل وصل في الصلاة على رسول الله ﷺ في التشهد في الصلاة: اختلفوا في الصلاة على النبيّ ﷺ في التشهد، فمن قائل: إنها فرض وبه أقول. ومن قائل: إنها ليست بفرض. وكذلك اختلفوا في التعوّذ من الأربع المأمور بها في التشهد وهو أن يتعوّذ من عذاب القبر، ومن عذاب جهنم، ومن فتنة المسيح الدجال، ومن فتنة المحيا والممات. فمن قائل: بوجوبها. ومن قائل: بمنع وجوبها وبوجوبها أقول، ولو لم يأمر بالتعوّذ منها لكان الاقتداء برسول الله ﷺ أولى، إذ كان التعوّذ منها من فعله لقوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١] وقوله ﷺ: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**» فكيف وقد انضاف إلى فعله أمره أمته بذلك، فالصلاة على النبيّ في الصلاة وغيرها دعاء من العبد المصلي لمحمد ﷺ بظهر الغيب، وقد ورد في الصحيح عنه ﷺ: «**أَنَّهُ مَنْ دَعَا بِظَهرِ الغَيبِ قَالَ لَهُ المَلَكُ: وَلَكَ بِمثْلِهِ**» وفي رواية: «**ولك بمثليه**» فشرع ذلك رسول الله ﷺ وأمر بها الله في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٦] ليعود هذا الخير من الملك على المصلى عليه من أمّته ﷺ، وأمر بالسلام عليه بقوله: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ فأكّده بالمصدر، فقد يحتمل أن يريد بذلك السلام المذكور في التشهّد، ويحتمل أن يريد به السلام من الصلاة أي إذا فرغتم من الصلاة على النبيّ ﷺ فسلّموا من صلاتكم تسليماً، وبهذا الاحتمال تعلق من رأى وجوبها في الصلاة.

وأمّا الاستعاذة من عذاب القبر فإن القبر أوّل منزل من منازل الآخرة فيسأل الله أن لا يتلقاه في أوّل قدم يضعه في الآخرة في قبره عذاب ربه. وأمّا الاستعاذة من عذاب جهنم فإنها

الاستعاذة من البعد، فإن جهنم معناه البعيدة القعر والمصلي في حال القربة وهو قريب من الانفصال من هذه الحالة المقرّبة فاستعاذ بالله أن لا يكون انفصاله إلى حال تبعده من الله بل إلى قرب من حالة دينية أخرى. وأما الاستعاذة من فتنة المسيح الدجال فلما يظهره في دعواه الألوهية وما يخيله من الأمور الخارقة للعادة من إحياء الموتى وغير ذلك ممّا ثبتت الروايات بنقله وجعل ذلك آيات له على صدق دعواه وهي مسألة في غاية الإشكال لأنها تقدح فيما قرّره أهل الكلام في العلم بالنبوّات فيبطل بهذه الفتنة كل دليل قرّروه، وأي فتنة أعظم من فتنة تقدح في الدليل الذي أوجب السعادة، للعباد، فالله يجعلنا من أهل الكشف والوجود، ويجمع بنا بين الطرفين المعقول والمشهود. وأما فتنة المحيا والممات: ففتنة المحيا ففتنة الدجال وكل ما يفتن الإنسان عن دينه الذي فيه سعادته. وأما الممات: فمنها ما يكون في حال النزع والسياق من رؤية الشياطين الذين يتصوّرون له على صورة ما سلف من آبائه وأقاربه وإخوانه فيقولون له: مت نصرانياً أو يهودياً أو مجوسياً أو معطلاً ليحولوا بينه وبين الإسلام. ومنها ما يكون في حال سؤاله في القبر وهي حين يقول الملك له: ما تقول في هذا الرجل؟ ويشير إلى النبي ﷺ، فإذا لم ير الميت تعظيم الملك للرسول ﷺ لأنّ المراد الفتنة ليتميز الصادق الإيمان من الكافر والمرتاب، فأما المؤمن يقول: هو محمد رسول الله ﷺ جاءنا بالبينات والهدى فآمنا وصدّقنا. وأما المنافق أو المرتاب وهو الذي يشك في نبوّة النبيّ ﷺ أنها من عند الله ويجعل ذلك من القوىٰ الروحانية وغيرها، ثم يرى عدم تعظيم الملك للرسول بهذا السؤال وهو قولهم: ما تقول في هذا الرجل ولم يقولوا: ما تقول في رسول الله ﷺ؟ فيقول المرتاب: لو كان لهذا القدر الذي كان يدعيه في رسالته لم يكن هذا الملك يكني عنه بمثل هذه الكناية فيقول عند ذلك: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلت مثل ما قالوه، فيشقى بذلك شقاء عظيماً لم يكن يتخيله، فهذا من فتنة الممات والقبر فاعلم ذلك، وقد فرغ التشهد على التقريب والاختصار.

فصل بل وصل في التسليم من الصلاة: اختلفوا في التسليم من الصلاة، فمنهم من قال بوجوبه وبه أقول. ومنهم من قال: ليس بواجب التسليم من الصلاة. واختلف القائلون بوجوبه. فمن قائل: الواجب من ذلك على المنفرد والإمام تسليمة واحدة. ومنهم من قال: اثنتين. ومن قائل: أن الإمام يسلم واحدة والمأموم يسلم اثنتين. وقد قيل عن صاحب هذا القول: إن المأموم يسلم ثلاثاً: الواحدة للتحليل، والثانية للإمام، والثالثة لمن هو عن يمينه، والذي يقتضيه النظر إذا لم يكن هناك نص يوقف عنده لا في التوقيت ولا في التحجير أن يزاد على الثالثة تسليمة رابعة للمأموم إن كان على يساره أحد، وللإمام تسليمتان أو ثلاثة من أجل التحليل إن كان الناس عن يمينه ويساره، فإن لم يكن عن يساره أحد فيسلم اثنتين واحدة للتحليل والثانية لمن هو عن يمينه، والثابت عن رسول الله ﷺ أنه كان يسلم تسليمتين، وما في الحديث ما يقتضي أن الخروج من الصلاة يكون بعد التسليم.

واعلم أن السلام لا يصحّ من المصلي إلاّ أن يكون المصلي في حال صلاته مناجياً ربه

غائباً عن كل ما سوى الله من الأكوان والحاضرين معه، فإذا أراد الخروج من الصلاة والانتقال من تلك الحالة إلى حالة مشاهدة الأكوان والجماعة سلم عليهم سلام القادم لغيبته عنهم في صلاته عند ربه، فإن كان المصلي لم يزل مع الأكوان والجماعة إن كان في جماعة فكيف يسلم عليهم من هذه حالته فإنه ما برح عندهم؟ فهلا استحيى هذا المصلي حيث يرى بسلامه من صلاته أنه كان عند الله في تلك الحالة؟ فسلام العارف من الصلاة لانتقاله من حال إلى حال فيسلم تسليمتين: تسليمة على من ينتقل عنه، وتسليمة على من قدم عليه إلاَّ أن يكون عند الله في صلاته فلا يسلم على من انتقل عنه لأن الله هو السلام فلا يسلم عليه.

فصل بل وصل فيما يقول الذي يرفع رأسه من الركوع وفي الركوع: يقول العارف الجامع لأكمل الصلوات: إذا رفع رأسه من الركوع سمع الله لمن حمده نيابة عن ربه سبحانه ومترجماً عنه فإنه من كلام ربه تبارك وتعالىٰ، ثم يسكت ثم يقول يردّ على نفسه بلسانه: اللهم ربنا ولك الحمد وذلك أنه ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ: «**إِذَا قَالَ الإِمَامُ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَه فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ**» فإن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فلهذا يستحب للمنفرد أن يسكت سكتة يفصل بها بين قوله: سمع الله لمن حمده، وبين قوله: اللهم ربنا ولك الحمد ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ. كما أنه يقول في حال ركوعه بعد قوله فيه: سبحان ربي العظيم وبحمده ثلاث مرات إن كان منفرداً أو مأموماً، وإن كان إماماً فإنه يقولها خمس مرات ليدرك المأموم أنه يقولها ثلاثاً، ثم يقول بعد هذا التسبيح: اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت، خشع لك سمعي، وبصري، ومخي، وعظمي، وعصبي.

اعلم أن العبد إذا ركع فقد أعلمتك أنه في حال برزخيّ بين القيام والسجود، فيقول العارف بعد تسبيحه ربه بالتعظيم كما أوردناه يقول: اللهم لك ركعت أي من أجل عزّك وعلوّك في كبريائك خضعت تعظيماً لك يقول لقيوميتك التي لا تنبغي إلاَّ لك فإني لما قمت بين يديك لم أقم إلاَّ امتثالاً لأمرك حيث قلت: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٨] فقمت، وأنا أخضع في ركوعي من خاطر ربما خطر لي في حال قيامي أني قمت لنفسي فأعترف بين يديك بركوعي أني لك ركعت وبك آمنت، يقول: بسببك أي بتأييدك صدّقت لا بحولي ولا بقوّتي أي لا حول لي ولا قوّة إلاَّ بك، إذ كانت القلوب بيدك التي هي محل الإيمان، ولك أسلمت أي من أجلك كان انقيادي، ولولاك ما تغيرت أحوالي معك في عباداتي فإنك الذي شرعت لي ذلك على لسان رسولك فعلاً وقولاً ﷺ، فصلّى وذكر ثم أمرنا فقال: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**» وأنت القائل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [سورة النجم: الآية ٣] فعلمنا أنه مأمور بأن يأمرنا فذلك أمرك لا أمره فإنك القائل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠].

ثم يقول: خشع لك سمعي فيما كلمتني به في حال مناجاتي إياك بكلامك. ثم يقول: وبصري بواو التشريك. وما ثم إلاَّ الخشوع فكأنه يقول: وخشع لك بصري حياء منك لعلمي

بأنك تراني في حال ركوعي بين يديك، فإنك في قبلتي كما أخبرني رسولك ﷺ فأمرني أن أجعلك مشهوداً في صلاتي كأني أراك، بل يا ربي وإن مثلت في نفسي أني أراك فما أقدر أن أنكر علمي أنك تراني، وما سبب الحياء مني إلاَّ علمي بأنك تراني لا بأني أراك، فإنه لا يعزب عنك مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض، يا من يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، ويقول: ومخي، وعظمي، وعصبي، فإنك جعلت في كل ما ذكرت قوّة يكون بها قوام نشأتي وثبات هيكلي لتحصل نفسي بهذه القوىٰ لبقاء هذه الصورة المكلفة ما أمرتها به أن تحصله من المعرفة بك، فربما خطر لمخي وعظمي وعصبي الموصوفين بالخشوع لك لما كانت أسباباً لما ذكرناه فيدركها لذلك عجب وزهو، فوجب على كل واحدة من هؤلاء أن يخشع لك بتبرّيه من الحول والقوّة في السببية بأنك أنت الذي تحفظ عليّ قوام نشأتي لتحصيل معارفي، فإذا رفع العارف رأسه من الركوع يقول نيابة عن ربّه سمع نفسه خطاب ربه: سمع الله لمن حمده في قوله في حال ركوعه: سبحان ربي العظيم، وكل حمد وثناء حمده به وأثنى عليه به من أول شروعه في صلاته ثم يرد بربه على ربه بحضور نفسه من كونها بربه بتأييده إياها في حولها وقوّتها فيقول: اللهم ربنا فيحذف حرف النداء لأن المصلي في حال قرب والندا يؤذن بالبعد وأبقى المنادي وهو لبقاء نفسه في جواب ربه فيقول: لك الحمد أي الثناء التام بما هو لك ومنك، فلا حامد ولا محمود إلاَّ أنت، ولك عواقب كل مثن في العالم وكل مثنى عليه وهو قوله: ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد يقول كل جزء من العالم العلويّ والسفليّ وما بينهما وما في الإمكان من الممكنات ممّا توجده ويبقى في العدم عيناً ثابتة كل جزء منه معلوم بحكم الوجود والتقدير له ثناء خاص عليك من حيث عينه وإفراده وجمعه بغيره في قليل الجمع وكثيره: أحمدك بلسانه وبلسان كل حامد من حمدك لنفسك وحمد من سواك لك، فيكون لهذا الحامد بهذه الألسنة جميع ما يستدعيه من التجلي الإلهي ومن الأجور المحسوسة لأجل طبيعته وتركيبه، فإنه حمده لساناً وقلباً ظاهراً وباطناً. وقوله: أحق ما قال العبد أي أوجب ما يقوله عبد مثلي ولي أمثال لسيد مثلك ولا مثل لك وكلنا لك عبد يقول: أنوب عن أمثالي وهم جميع الممكنات موجودها ومعدومها ممن يقول بك في علمه عن حضور، وممّن يقول بنفسه عن غيبة، فأنوب عنهم في حمدك لمعرفتي بك التي منحتني وجهلهم بما ينبغي لجلالك لا مانع لما أعطيت من الاستعداد لقبول تجلّ مخصوص وعلوم مخصوصة، ولا معطي لما منعت وإذا لم تعط استعداداً عاماً فما ثم سيد غيرك يعطي ما لم تعطه أنت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ أي من كان له حظ في الدنيا من سلطان وجاه ومال وتحكم بغيرك في علمه لا في نفس الأمر لم ينفعه ذلك عندك في الآخرة عند كشف الغطاء.

فصل بل وصل في السجود في الصلاة: فإذا سجد وسبّح بربّه الأعلى وبحمده كما تقدّم يقول في سجوده بعد تسبيحه: اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين، اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي

سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، وأمامي نوراً؛ وخلفي نوراً، وفوقي نوراً وتحتي نوراً، واجعل لي نوراً، واجعلني نوراً، يقول العارف: سجد وجهي أي حقيقتي، فإن وجه الشيء حقيقته للذي خلقه أي قدّره من اسمه المدبر، وأوجده من اسمه القادر البارىء المصور، وشق سمعه بما أسمعه في ﴿ كُن﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٧] وأخذ الميثاق ثم التكليف، وبصره بما أدركه ليعتبر في المبصرات فإن ذلك في حق هذه النشأة وأمثالها كما فطر السموات والأرض وفتقهما بعد رتقهما ليتميزا، فيظهر المؤثر والمؤثر فيه لوجود التكوين ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] إثباتاً للأعيان ليصحّ قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣] ثم دعا بالنور في كل عضو نور السموات والأرض الذي مثله بالمصباح في الزجاجة، مقام الصفا في المشكاة، مقام الستر من الأهواء، فلم تصبه مقالات القائلين فيه بأفكارهم الموقد بالزيت المضيء بالمقاربة وهو حكم الإمداد من الشجرة وهي الممد لا شرقية ولا غربية في مقام الاعتدال لا تميل عن عرض إلى شرق فيحاط بها علماً، ولا إلى غرب فلا تعلم رتبتها، نور على نور وجود على وجود، وجود جود عيني على وجود مفتقر، ثم دعا بجعل النور في كل عضو والنفور هو النور، وكل عضو فله دعوى بما خلقه الله عليه من القوّة التي ركبها فيه وفطره عليها.

ولما علم ذلك رسول الله ﷺ دعا أن يجعل الله فيه علماً وهدى منفر الظلمة دعوى كل مدع من عالمه هذا ربط هذا الدعاء وآخر ما قال: اجعلني نوراً يقول: اجعلني أنت فإنه نور السموات والأرض، فهناك قال الحق تعالىٰ: كنت سمعه وبصره ورجله ويده ولسانه عندما يسمع ويبصر ويتكلم ويبطش ويسعى، يقول: اجعلني نوراً يهتدي بي كل من رآني في ظلمات بر ظاهره وبحر نفسه وباطنه، فأعطاه القرآن وأعطانا الفهم فيه، فإن هذه المنحة من أعلى المنح في رتبة هي أسنى المراتب، ومعناه غيبني عني وكن أنت بوجودي فيرى بصري كل شيء بك ويسمع سمعي كل مسموع بك فإن نور كل عضو إدراكه، وهكذا جميع ما فصله ولكن بنور يقع به التمييز بين الأنوار ولذلك نكره في كل عضو وفي نفسه وذاته، فيتميز نور الشمال من نور اليمين، ونور الفوق من نور التحت، وكذلك أنوار القوىٰ والجوار، ثم أقمني بعد هذا في عين الجمع والوجود فتتحد الأنوار بأحدية العين، فإن لم أكن هناك فبجعلك إياي نوراً، وإن كنت هناك فبجعلك في نوراً أهتدي به في ظلمات كوني.

فصل بل وصل فيما يقول المصلي بين السجدتين في الصلاة من الدعاء: يقول المصلي إذا جلس بين السجدتين في الصلاة: اللهم اغفر لي وارحمني وارزقني واجبرني واهدني وعافني واعف عني، يقول العارف: استرني واستر من أجلي، استرني من المخالفات حتى لا تعرف مكاني فتقصدني نفسك عني، إذ قد قلت إن سبحاتك محرقة أعيان كل موصوف بالوجود وإن كان وجودك، ولكن كما أثر في الممكن صفة الوجود ولم يكن بالوجود موصوفاً، كذلك أثر نسبته إلى الممكن إن قيل فيه بوجود وإن كان مقيداً بالحدوث حادث، ولكن الحضرة الإلهية موصوفة بالغيرة على وجودها من أجل دعوى هذا المدعي، فلو لم

تصدر منه الدعوى لما تسلط عليه، فلا بدّ إذا ارتفعت الحجب أن تحرق سبحات ما أدركه البصر من الخلق يعني الطبيعي، فإن عالم الأمر أنوار قلما يحترق بل يندرج في النور الأعظم، فإن عالم الأمر ما عنده دعوى فيحترق عالم الخلق فيصير رماداً فما ألحقه بالعدم فبقي رماداً لا دعوى له، فإذن ما أعدمت سوى الدعوى بإحالة العين التي أعطى استعدادها الدعوى إلى عين ما لها دعوى.

وقوله: وارحمني برحمة الوجوب التي لا تحصل إلاّ بعد رحمة الامتنان بما أعطيتني من التوفيق لتحصيل رحمة الوجوب حتى أكون كل شيء وسعته رحمتك، فيطلب العارف رحمة الامتنان في عين الوجوب بالتوفيق للعمل الصالح الموجب لرحمة الاختصاص فيريد أخذها من عين المنة التي يطلبها إبليس وأشياعه من الجن والإنس مع وصف هذا العارف بالعصمة والحفظ عن المخالفة والخذلان الموجب للحرمان. ثم يقول: وارزقني يعني من غذاء المعارف الذي يحيا به قلبي كما رزقتني من غذاء الجسوم بما أبقيت به جسدي الطبيعي وهيكلي. ثم يقول: واجبرني الجبر لا يكون إلاّ بعد كسر وهو المهيض في اللسان والمهيض هو المكسور بعد جبر وهو كسر العارفين، فإن العبد مكسور في الأصل بإمكانه فجبره إنما هو بأن ألحقه بالوجوب ولكن بغيره، فلما أوجده بهذا الجبر كسرته المعرفة بنفسه وبربه فردته إلى إمكانه، فهذا كسر بعد جبر، والجبر لا يكون إلاّ عن كسر، فلهذا قلنا: هو المهيض في اللسان، كما أيضاً يقول: واجبرني يعني أوقفني على جبري في اختياري، فإن العبد مجبور في اختياره ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة التكوير: الآية ٢٩] يقول الله: أنا مع المنكسرة قلوبهم من أجلي، ثم يقول: واهدني بين لي ما نتقي ووفقني للبيان في الترجمة عنك لعبادتك بما تهبني من جوامع الكلم ليصح ورثي من رسولك ﷺ فإنه قال ﷺ: **«أُعْطِيتُ سِتّاً لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي»** وَذَكَرَ مِنها فَقَالَ: **«وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ»** ثم يقول: وعافني من أمراض القلوب التي هي أغراضها لا من أمراض الجسوم فإنك في غاية القرب عند من أمرضت جسمه، فإنك قلت لي في الخبر الصحيح الذي بلغه إلي رسولك ﷺ عنك أنك قلت: مرضت فلم تعدني، فأقول لك: وكيف تمرض وأنت رب العالمين، فقال ﷺ: **«إِنَّكَ تَقُولُ مجيباً لي إِنَّ عَبْدِي فُلاناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَما إِنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ وَمَنْ أَنْتَ عِنْدَهُ سُبْحَانَكَ فَمَا شَقِيَ وَمَا أَمْرَضْتَ عَبْدَكَ إِلاَّ لِتَعُودَهُ وَتَكُونَ عِنْدَهُ، فمن أراد أن يجدك فَلْيَعُدِ المرضى سبحانك تسبيحاً لا ينبغي إلاَّ لك»**، ثم يقول: واعف عني، يقول: كثر خيرك لي وقلّل بلاءك عني أي قلّل ما ينبغي أن يقلّل وكثّر ما ينبغي أن يكثر، وليس إلاّ عفوك عن خطيئتي التي طلبت منك أن تسترني عنها حتى لا تصيبني فأتصف بها، والعفو من الأضداد يطلق بإزاء الكثرة والقلة فنب عني يا رب فإني لا أستطيع التحرّك إلى ما أمرتني بعمله لزمانتي مع إرادة التحرّك.

فصل بل وصل في القنوت في الصلاة: اختلفوا في القنوت، فمن قائل: إنه مستحب في صلاة الصبح. ومن قائل: إنه سنّة. ومن قائل: إنه لا يجوز القنوت في صلاة الصبح وإنما

موضعه الوتر. ومن قائل: يقنت في كل صلاة. ومن قائل: لا قنوت إلاّ في رمضان. ومن قائل: لا قنوت إلاّ في النصف الآخر من رمضان. ومن قائل: في النصف الأوّل من رمضان وهو دعاء يدعو به المصلي، ومنهم من يراه قبل الركوع، ومنهم من يراه بعد الركوع، ومن الناس من لا يرى القنوت إلاّ في حال الشدة وبه أقول وهو مستحب عندي، وقد روي في صفة قنوت الوتر دعاء خاص، وقد روي في قنوت الصبح دعاء خاص لم يثبت، فليدع من يرى القنوت بأيّ شيء شاء بحسب حاله غير أنه يجتنب السب واللعنة في القنوت، وليدع بخير الدنيا والآخرة وما يزلف عند الله مثل ما ثبت في قنوت الوتر من قوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ إِنَّكَ تَقْضِي وَلاَ يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لاَ يُذَلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلاَ يَضِلُّ مَنْ هَدَيْتَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ**».

فهذا تعليم من النبي ﷺ كيف ندعو الله في قنوتنا وفي كل دعاء. فالعارف ينظر فيما علم أن يدعو به أو بما يشبهه فهو يطلب من الله أن يهديه فيمن هداه، فإن وقف مع صفة اللفظ فهو يطلب في المستقبل أن يكون في الماضين، والمستقبل لا يكون في الماضي إلاّ أن يجمعهما وجه فينظر العارف فيجد أن الجامع بين الماضي والمستقبل إنما هو العدم، إذ كان الوجود لا يصحّ إلاّ للحال، والوجود لا يكون إلاّ لله، فإن وجود الحال وجود ذاتيّ لا يصحّ فيه العدم وله الدوام وبهذا وصفه أهل العربية فقالوا في تقسيم الأفعال: إن فعل الحال يسمّى الدائم وهوموجود بين طرفي عدم لا يمكن فيهما وجود أصلاً وهو الماضي والمستقبل، وهو عين العبد فهو الموصوف بالعدم فقيده بالماضي وهو العدم وبالمستقبل وهو عدم، فاهدني للمستقبل وهديت للماضي والعدم لا يقع فيه تمييز فلهذا شرع له أن يقول: اهدني فيمن هديت وأمثاله، فإذا حصلت الهداية وهي عين وجود الحال والحال ظرف محقق ولهذا جاء بفي فقال فيمن، والعدم لا يكون ظرفاً لأن المعدوم لا شيء، والعدم عبارة عن لا شيء ولا شيء لا يكون ظرفاً لغير شيء، فالمفهوم من قوله: اهدني فيمن هديت وأمثاله بقوّة ما تعطيه في أي إذا كسوتني وجود الهداية والتولّي، وما وقع السؤال فيه فليكن في الحال الذي له الدوام، فلا يوصف بالماضي فيلحق بالعدم، ولا بالمستقبل ولا يكون له وجود والحق منزّه عن التقييد في أفعاله بالزمان، والعبد الذي هو المخلوق في الماضي موصوف بليس، وفي المستقبل موصوف بليس، وفي حال اتصافه بالوجود من حيث ذاته موصوف بليس، فكما أن ليس له حقيقة لا ينفك عنها بل هي عينه كذلك أيس الذي هو الوجود هو للحق سبحانه حقيقة لا يوصف بنقيضه بل الوجود عينه، وإن سلب عن نفسه الفعل وأضافه إلى السبب فإن ذلك غير مؤثر في وجوده للحق لما تحققنا من أن العبد عدم والعدم لا ينسب إليه شيء وفي ذلك قلنا: [الوافر]

تقول بهم وتَغتبُهم وماذا ... بتحقيقي فقُلْ لي ما أقولُ
أقولُ بهم وهل علموا بأني ... أقول بهم فقُلْ لي ما تقولُ
إذا عبدٌ تحقَّق إذ يقولُ ... بأني قائلٌ وهو المَقُولُ

أأعْتِبُ مثله والعدلُ نعتي فقل بي ما تقول وما نقولُ

يقول الله على لسان فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [سورة النازعات: الآية ٢٤] وهو سبحانه الأعلى حقيقة فإنّ الله هو ربنا الأعلى ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [سورة النازعات: ٢٥، ٢٦] العبرة في ذلك للعالم، فإن الله وصف العلماء بالخشية فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٨] فيعتبر العالم كما أخبر الله من أين أخذ فرعون وهذه صفة الحق ظهرت بلسان فرعون، فعلم أنه ما قالها نيابة عن الحق كما يقول المصلي: سمع الله لمن حمده، فلما غاب عن النيابة في ذلك القول طلبت الصفة موصوفها فرجعت إلى الحق جلّ جلاله وبقي فرعون معرّى عنها على أنه ما لبسها قط عند نفسه، فإن الله قد طبع على كل قلب متكبر جبار أن يدخله كبرياء، إذ لا ينبغي ذلك الوصف إلاً لمن لا يتقيد فهو الأعلى عن التقييد، فكان الجزاء لفرعون لغيبته عن هذا المقام أن ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ أي أوقفه على تقييده أنه ليس له هذا الوصف، فالأولى للماضي وهي كلمة: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [سورة القصص: الآية ٣٨] والآخرة للمستقبل وهي كلمة: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ وهما عندنا أن الله أخذه نكال الآخرة والأولى. في الأولى: فاطلع بما أعلمه الله في أخذه ذلك عن الإطلاق الذي ادّعاه بالتقييد الذي هو النكال فإن النكل في اللسان هو القيد، ولما رأينا الله قد عبّر بالنكال عرفنا أن النقيض هو الذي سلبه وهو الإطلاق، ففي موطن يقول سبحانه: ﴿ادْعُونِي﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠] وفي موطن يعرّفنا بأنه قد قضى القضية، وما يبدّل القول لديه وما سبق العلم به فهو كائن ولا ينجي حذر من قدر، وفي ذلك قلت بيتين فيهما رمز حسن وهما: [الطويل]

إذا قلتُ يا أَللَّهُ قال لما تدعو وإن أنا لم أَدْعُ يقول ألا تدعُو

فقد فاز باللَّذات من كان أخرساً وخُصِّصَ بالراحات من لا له سَمْعُ

فينبغي للعبد إذا قرأ القرآن أو تكلم بما تكلم به أو كلّمه غيره أو سمع من سمع بأي لسان كان يتكلم فإنه ليس في العالم صمت أصلاً فإن الصمت عدم والكلام على الدوام، إذ فائدة الكلام الإفهام بالمقاصد للسامعين والأحوال مفهمة وهي الكلام ولا يخلو موجود أن يكون على حال ما، فحاله هو عين كلامه لأنه المفهم الذي ينظر إليه ما هو عليه في وقته، فلا لسان أفصح من لسان الأحوال، وقرائن الأحوال تفيد العلوم التي تجيء بطريق العبارات، والعبارات من جملة الأحوال عندنا، فانطلق في الاصطلاح اسم الكلام على العبارات، والعارفون بالله عندهم الوجود كله كلمات الله لا تنفد أبداً، فافهم ما ينبغي للعبد أن يعرف من ذلك إذا سمع كلاماً أو تكلم هو أن يفرّق ما بين ما هو العبد فيه نائب عن الله وما هو الله فيه مترجم عن العبد ويميز ذلك بالصفة، فإن الصفة تطلب موصوفها فإنه لا يقبلها إلاً من هي له، فإذا تضمن الكلام صفة لا تنبغي إلاً للعبد فالعبد صاحبها وإن وصف الحق بها نفسه، وإذا تضمن الكلام صفة لا تنبغي إلاً لله فالله صاحبها، وإن وصف العبد بها نفسه فهكذا تعتبر الكلام كله ممّن وقع سواء كان بالعبارات أو بالأحوال فهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ وهو العالم. وقوله في ذا

إشارة إلى ما تقدّم في القصة والذي تقدّم في القصة قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ و ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ أي هذه الدعوى أوجبت هذا الأخذ، وأن الصفة طلبت موصوفها وهو الله وبقي فرعون عرياً عنها فلم يكن له من يحميه عن الأخذ، يقول الله عن نفسه: جعت فلم تطعمني نيابة عن عبد جاع فلم تطعمه فطلبت الصفة موصوفها وهو العبد فهكذا فهم العارفون الحقائق.

فصول بل وصول في أفعال الصلاة

فصل بل وصل في رفع الأيدي في الصلاة: اختلف العلماء في رفع الأيدي في الصلاة أعني في حكمها، وفي المواضع التي يرفعها فيها، وفي حدّ الرفع فيها إلى أين ينتهي بها، فأمّا الحكم: فمن قائل: إن رفع اليدين سنّة في الصلاة. ومن قائل: إنه فرض وهؤلاء انقسموا أقساماً: فمنهم من أوجب ذلك في تكبيرة الإحرام فقط. ومنهم من أوجب ذلك في الاستفتاح وعند الانحطاط إلى الركوع وعند الرفع من الركوع. ومنهم من أوجب ذلك في هذين الموضعين وعند السجود. وأما المواضع التي ترفع فيها الأيدي في الصلاة فمن قائل: عند تكبيرة الإحرام فقط. ومن قائل: عند تكبيرة الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع. ومن قائل: يرفعها عند السجود وعند الرفع من السجود وهو حديث وائل بن حجر. ومن قائل: إذا قام من الركعتين وهو رواية مالك بن الحويرث عن النبيّ ﷺ، وأما أنا فرأيت رسول الله ﷺ في رؤيا مبشّرة فأمرني أن أرفع يدي في الصلاة عند تكبيرة الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع. وأمّا الحدّ الذي ترفع إليه اليدان: فمن قائل: إلى المنكبين. ومن قائل: إلى الأذنين. ومن قائل: إلى الصدر، ولكل قائل حديث مرويّ أثبتها إلى المنكبين، وحديث الأذنين أثبت من حديث الصدر، والذي أذهب إليه في هذه المسألة أن الأحاديث المروية في ذلك إنما هي في حكاية فعله ﷺ. ما روي أنه أمر بذلك وقد قال: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**» ومعلوم أنّ الصلاة تحوي على فرائض وسنن، فلا يفهم من هذا الحديث أن أفعال الصلاة فرض جميعها لمعارضة الإجماع لهذا المفهوم، فلنصلها ونرفع أيدينا في علم الشارع من غير تعيين فرض أو سنّة، كما أحرم علي بن أبي طالب بإحرام النبيّ ﷺ حين لم يعلم بما أحرم وأقرّه على ذلك رسول الله ﷺ وما أنكر عليه، فنرفع أيدينا في الصلاة على حكم الشرع فيها فنقبلها على ذلك الحكم.

وأمّا الحدّ فمذهبي فيه أنه بفعله يقتضي التخيير، فإن الأحاديث وردت بحدود مختلفة فعلية، فأية حالة فعل المصلي أجزأته فرضاً كان أو سنّة والأولى الرفع إلى الأذنين، ولكن ينبغي أن يكون رفعهما على الصدر إلى حذو المنكبين إلى الأذنين فيجمع بين الثلاثة الأحوال، وكذلك المواضع تعمّها كلها عند تكبيرة الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع وعند السجود وعند الرفع من السجود وعند القيام من الركعتين فإنّ ذلك لا يضرّه فإنه قد ورد، وما ورد أن ذلك يبطل الصلاة فما ورد ما يعارض ذلك، وغاية المفهوم من حديث ابن مسعود والبراء بن عازب أنه كان عليه السلام يرفع يديه عند الإحرام مرّة واحدة لا يزيد

عليها أي أنه رفع مرّة واحدة لم يصنع ذلك مرّتين عند الإحرام، ويحتمل أن يريدا بقولهما لا يزيد عليها أي لا يرفعهما مرّة أخرى في باقي الصلاة فما هو نص، وقد ثبتت الزيادة برفعه عند الركوع وعند الرفع منه وغير ذلك، والزيادة من العدل الثقة مقبولة فالأولى رفعهما في جميع المواطن التي جاءت الرواية بالرفع فيها.

وأما اعتبار العارف في ذلك فإن رفع الأيدي يؤذن بأن الذي حصل فيها قد سقط عند رفعها فكان الحق يقول له معلماً: إذا وقفت بين يديّ فقف فقيراً محتاجاً لا تملك شيئاً وكل شيء ملكتك إياه فارم به وقف صفر اليدين واجعله خلف ظهرك فإني في قبلتك، ولهذا يستقبل بكفيه قبلته قائمة ليعلم أنه صفر اليدين مما كان فيهما، ثم إنه إذا حطهما رجعت بطون الأكف تنظر إلى خلف وهو موضع ما رمته من يدها، ثم إن الله يعطيه في كل حال من الأحوال أحوال الصلاة ما يقتضيه جزاء ذلك الفعل، فإذا ملكه تركه وأعلم الحق برفع يديه أنه قد تركه في الموضع الذي ينبغي له أن يتركه، وقد توجّه طالباً فقيراً صفر اليدين إلى الوهب الإلهيّ فيعطيه أيضاً فيرفع يديه وهي خالية، هكذا في جميع المواطن التي علمه رسول الله ﷺ أن يرفع فيها يديه، وقد يرفعها من باب الحول والقوّة إذ كانت محل القدرة الأيدي فيرفع يديه إلى الله معترفاً أن الاقتدار لك لا لي، وأن يديّ خالية من الاقتدار، فمن رفعها إلى الصدر اعتبر كون الحق في قبلته، ومن رفعها إلى الأذنين اعتبر كون الحق فوقه من قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٨] في كل خفض ورفع يفعل ذلك يقول بذلك الرفع من يديه أن لا حول لي ولا قوّة في كل خفض ورفع، وأن القوّة لك لا إله إلاّ أنت. انتهى الجزء التاسع والثلاثون.

(الجزء الأربعون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فصل بل وصل في الركوع وفي الاعتدال من الركوع: اختلف العلماء في الركوع وفي الاعتدال من الركوع. فمن قائل: إنه غير واجب. ومن قائل: بوجوبه.

الاعتبار في ذلك الخضوع واجب في كل حال إلى الله تعالىٰ باطناً وظاهراً، فإذا اتفق أن يقام العبد في موطن يكون الأولى فيه ظهور عزّة الإيمان وجبروته وعظمته لعزّ المؤمن وعظمته وجبروته، فيظهر في المؤمن من الأنفة والجبروت ما يناقض الخضوع، ففي ذلك الموطن لا يكون الخضوع واجباً بل ربما الأولى إظهار صفة ما يقتضيه ذلك الموطن، قال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] هذا موطن يجب أن تكون المعاملة فيه كما ذكر. وقال في الموطن الآخر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٣]. فهو من باب إظهار عزّة الإيمان بعزّ المؤمن، وثبت أن رسول الله ﷺ قال في غزوة وقد تراءى الجمعان: «**مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السَّيفَ بِحَقِّهِ؟ فَأَخَذَهُ أَبو دُجَانَةَ فَمَشَى بِهِ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ خُيَلاءَ مُظْهِر الإِعْجَابِ والتَّبَخْتُرِ فَقَالَ رَسُولُ**

الله ﷺ: **«هٰذِهِ مِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إلاَّ فِي هٰذَا المَوْطِنِ»**، فإذا علمت أن للمواطن أحكاماً فافعل بمقتضاها تكن حكيماً، ثبت أن رسول الله ﷺ قال للرجل الذي علمه فروض الصلاة: **«ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكعاً وَارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ وَاقِفاً»** فالواجب اعتقاد كونه فرضاً.

فصل بل وصل في هيئة الجلوس: فمن قائل: يفضي بأليتيه إلى الأرض وينصب رجله اليمنى ويثني اليسرى والرجل والمرأة في ذلك على السواء. وقال آخرون: ينصب الرجل اليمنى ويقعد على اليسرى، وفرّق آخرون بين الجلسة الوسطى والآخرة فقال في الوسطى: ينصب اليمنى ويقعد على اليسرى، وقال في الجلسة الآخرة: يفضي بأليته إلى الأرض وينصب رجله اليمنى ويثني اليسرى، وكل قائل له مستند إلى حديث فما فعل من ذلك أجزأه.

الاعتبار في ذلك: الجلوس في الصلاة جلوس العبد بين يدي السيد وليس له أن يجلس إلاَّ أن يأمره سيده وقد أمر المصلي بالجلوس في الصلاة، وقال رسول الله ﷺ: **«إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ أَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ»** فأحسن الحالات في الجلوس في الصلاة هو الجلوس الذي يكون فيه أقرب إلى الوقوف بين يدي سيده، هذا إذا كان حال العارف حال ما ينبغي أن يكون عليه العبد من حيث ما هو عبد، وإن كان العارف في محل النظر في أصل معرفته بنفسه ليعرف ربه فالأولى في جلوسه أن يفضي بأليته إلى الأرض في آخر جلوسه ولا بدّ فإنه أقرب إلى النظر في ذاته، بخلاف الجلسة الوسطى فإن جلوسه فيها عارض عرض له من الحق أجلسه أي ردّه في النظر إلى نفسه لمعرفة يريد تحصيلها فيكون كالمستوفز لأنه مدعوّ إلى الوقوف وهي الركعة الثالثة، والطمأنينة في الركوع والسجود وأحوال الانتقالات كلها في أحوال الصلاة المراد بها الثبات لتحقيق ما يتجلى له فيها، لأنه إذا أسرع بأدنى ما ينطلق عليه اسم راكع يفوته علم كبير لا يناله إلاَّ من ثبت، فلهذا أمر بالطمأنينة في هذه المواطن فإن العجلة من الشيطان إلاَّ في خمس وهي مذكورة في بابها، فالمسارعات إلى الخيرات مشروع بعد الثبات والاطمئنان في الخير الذي أنت فيه فلا مناقضة بين الطمأنينة والمسارعة.

فصل بل وصل في الجلسة الوسطى والأخيرة: اختلف العلماء في الجلسة الوسطى والأخيرة، فقائل في الوسطى إنها سنّة وليست بفرض، وشذّ قوم فقالوا: إنها فرض، والأصل الذي أعتمد عليه في أفعال الصلاة كلها أن لا تحمل أفعاله ﷺ على الوجوب حتى يدل الدليل على ذلك، وأمّا الجلسة الأخيرة فبعكس الوسطى والأكثرون أنها فرض، وشذّ قوم فقالوا: إنها ليست بفرض. ومن قائل: إن الجلستين سنّة وهو أضعف الأقوال، وبقي الجلوس في وتر من الصلاة يذكر بعد هذا إن شاء الله في فصله.

الاعتبار في ذلك: أمّا الجلسة الوسطى فإنها كما قلنا عارض عرض لأجل القيام بعدها إلى الركعة الثالثة والعارض لا يتنزل منزلة الفرض، ولهذا سجد من سها عنه، وفرّق بينه وبين الركن إذا فاته ولم يقترن بالجلسة الوسطى أمر فيحمل على الوجوب، وإنما هو أمر عارض عرض للمصلي في مناجاته من التجليات البرزخيات دعاه أن يسلم عليه لما شرع فيه من التحيات، فلما رأى أن ذلك المقام يدعوه إلى التحية تعين عليه أن يجلس له كما يفرض عليه

في الجلسة الآخرة التي هي فرض، والحكمة في ذلك المشهودة أن أصل الصلاة يقتضي الشفعية للقسمة المذكورة فيها بين الله وبين العبد، فأقلها ركعتان إلاَّ الوتر فإن له خصوص وصف أذكره في الوتر إذا جاء إن شاء الله، ولما ثبت عين الشفع بوجود الركعتين فتميز الرب من العبد فقد حصل المقصود فلا بدّ من الجلوس كما يكون في صلاة الصبح، وفي الصلاة الليلية مثنى مثنى، وفي صلاة السفر. وقول الراوي في أوّل فرض الصلاة إنها فرضت ركعتين ثم زيد في صلاة الحضر وأقرّت في السفر على الأصل فلما عرض لهذا الشفع في الصلاة الثلاثية والرباعية أن الشيئين إذا تألّفا صحّ على كل واحد منهما اسم الشيئين، ومن الناس من قال: كانا شيئاً واحداً، وقد تألّف بوجود الركعتين الأوليين نسبة شيئية الصلاة للعبد، ونفى نسبة شيئية الصلاة للرب فإنه قال عن نفسه: إنه يصلي علينا، فكانت الركعتان في الرباعية لهذا، ولما أراد أن يفصل بين الشيئيتين الأوليين والأخريين ليتميزا فصل بينهما بالجلسة وهذا هو العارض الذي عرض له حتى جلس، فإن فاته سجد له ولم يأت به كما يأتي بالركن إذا فاته.

وأمّا وقوع الجلوس بعد الثنتين في المغرب فلأمر آخر خلاف هذا وما هي بجلسة وسطى لأنه ليس بعدها ركعتان فهي في الثلثين وفي الرباعية في النصف، وذلك أن ينبّه بأن الشيئين إذا تألفا كانا شيئاً واحداً، فذلك الواحد هو عين الركعة الثالثة من المغرب، يشير بأن هاتين الركعتين المقسمتين بين عبد ورب هي في المعنى واحدة، لأن المعنى الواحد يتضمن الثاني من جميع وجوهه وليس الآخر كذلك، لأن الآخر يتضمنه من وجه ولا يتضمنه من وجه، فمن الوجه الذي يتضمنه ظهرت للرباعية ركعتان بعد الجلسة الوسطى الركعة الواحدة للواحد لتضمنه معنى الآخر، والأخرى للآخر لتضمنه معنى الأول، ويبقى الوجه الواحد الذي لا أخ له بمنزلة الوتر الذي زادنا الله إلى صلاتنا وهو ركعة واحدة لا ثاني لها، وهو الوجه الذي ينفرد به الحق عنا من حيث ذاته، وصورة ذلك في المعارف أن العبد يطلب الواجب الوجود لنفسه لأنه ممكن فلا بدّ له من مرجح، فالعبد يتضمن الرب بوجوده بلا شك، فركعة المغرب اكتفي بها لأنها تتضمن الثانية، ووجود الواجب لنفسه له وجه لتضمن الممكن وهو وجه كونه إلهاً قادراً مريداً، فقد تكون ركعة المغرب إلهية من هذا الوجه، وله سبحانه وجه أيضاً إلى نفسه لا يتضمن وجود الممكن جملة واحدة وهو الغنى الذي له على الإطلاق، فهو بالنظر إليه سبحانه لا يلزم من النظر فيه من حكم ذاته وجود العالم، ولا بدّ إلاَّ أن ننظر فيه من حيث ما يطلبه الممكن، فتظهر النسب عند ذلك وكونه قادراً فيطلب المقدور ومريداً فيطلب المراد.

فالوتر المفروض المراد له هو الوجه الذي للحق من حيث ما لا يطلب الأكوان ولا تطلبه الأكوان إذا لم ننظر في ذواتها، قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] والعالمون هنا هو الدلالات على الله فهو يقول في هذه الآية إنه غنيّ عن الدلالات عليه، فرفع أن يكون بينه وبين العالم نسبة ووجه يربطه بالعالم من حيث ذلك الوجه

الذي هو منه غنيّ عن العالمين وهو الذي تسميه أهل النظر وجه الدليل، يقول الحق: ما ثم دليل عليّ فيكون له وجه يربطني به فأكون مقيداً به وأنا الغنيّ العزيز الذي لا تقيدني الوجوه ولا تدل عليّ أدلة المحدثات، فدليل الحق على الحق وجود الحق في عين وجود الممكن للممكن من حيث ما هو وجوده وجود عين الحق لا من حيث إنه موجود عن الحق أو مفتقر إلى الحق، فإن الممكن لا يفتقر إلاّ لأمر ممكن، يعني أنه يمكن أن يحصل له ويمكن أن لا يحصل، والافتقار إلى الممكن من الممكن محال، والافتقار إلى الواجب بنفسه من الممكن في غير ممكن محال، فلا افتقار لممكن ولا لواجب أصلاً، فالواجب الوجود غنيّ على الإطلاق، والممكن ليس بفقير لممكن على الإطلاق ولا لغير ممكن. فإن تحصيل ما ليس بممكن لممكن محال، فالحق لا يحصل منه في العبد شيء ولا للعبد منه شيء، فالظاهر من الممكنات وأعيانها وجود الحق والممكنات باقية على أصلها من الإمكان لا تبرح أبداً، فمعنى الاستفادة هي دلالة الحق بوجوده عليها لا دلالتها عليه فإنها لا تدل عليه أبداً، فالناظر في هذه المسألة يتوهم أن الكون دليل على الله لكونه ينظر في نفسه فيستدل، وما علم أن كونه ينظر راجع إلى حكم كونه متصفاً بالوجود، فالوجود هو الناظر وهو الحق، فلو لم تتصف ذاته بالوجود فبماذا كان ينظر؟ فما نظر إلاّ الحق في الحق فأنتج له الحق نفسه فقال: عرفت الله بالله وهو مذهب الجماعة إذا ضربت الواحد في الواحد كان الخارج واحداً فافهم.

فصل بل وصل في التكتيف في الصلاة: اختلف العلماء في وضع إحدى اليدين على الأخرى في الصلاة، فكرهها قوم في الفرض وأجازها في النفل، ورأى قوم أنها من سنن الصلاة، وهذا الفعل مرويّ عن رسول الله ﷺ، كما روي في صفة صلاته أيضاً أنه لم يفعل ذلك، وقد ثبت أيضاً أن الناس كانوا يؤمرون بذلك.

اعتبار ذلك عند أهل الله: تختلف أحوال المصلي بين يدي ربّه عزّ وجلّ في قيامه بحسب اختلاف ما يناجيه به، فإن اقتضى ما يناجيه به التكتيف تكتف، وإن اقتضى السدل وهو إرسال اليدين أرسلهما، كما أنه إذا اقتضت الآية الاستغفار استغفر، وإذا اقتضت الدعاء سأل، وإذا اقتضت تعظيم الجناب العالي عظم، وإذا اقتضت السرور سرّ، وإذا اقتضت الخشوع خشع، فهو بحسب ما يناجيه به، فلذلك ما ينبغي أن يقيد المصلي في مناجاته بصفة خاصة، ولهذا قال بالتخيير في هذه المسألة من قال وكل هذه الهيئات جائزة وحسنة.

فصل بل وصل في الانتهاض من وتر صلاته: ذهبت طائفة أن المصلي إذا كان في وتر من صلاته أن لا ينهض حتى يستوي قاعداً واختار آخرون أن لا يقعد وإن انتهض من سجوده نفسه.

اعتبار أهل الله في ذلك المصلي بحسب ما يدعوه الحق إليه: فإن دعاه وهو في حال سجوده إلى القعود قعد ثم ينهض، وإن دعاه إلى النهوض نهض فهو بحسب ما يلقى إليه في نفسه، وقد تقدّم الكلام في الجلوس في الصلاة قبل هذا فالتجر على ذلك الاعتبار. وأما الجلوس بين السجدتين فهو ليجمع في سجوده بين السجود عن قيام والسجود عن قعود، فمن السجود عن الجلوس يقف منه على أسرار نزول الحق من العرش الذي استوى عليه سبحانه

بالاسم الرحمن إلى السماء الدنيا، فيكون العبد في حال جلوسه بين السجدتين يناجي الرحمن من حيث إنه استوى على العرش، وفي سجوده من جلوسه يناجي الحق بالاسم الرب من حيث نزوله إلى عباده في الثلث الباقي من الليل، فيتجلى له من هذه الأحوال ما يكون له به مزيد علوم ممّا تعطيه ما تتضمنه هذه الأحوال من الذكر والدعاء والهيئات كل على حسب شربه.

فصل بل وصل فيما يضع في الأرض إذا هوى إلى السجود: اختلف الناس فيما يضع المصلي في الأرض إذا هوى إلى السجود، هل يضع يديه قبل ركبتيه أم لا؟ فذهب طائفة إلى وضع اليدين قبل الركبتين، وذهب قوم إلى وضع الركبتين قبل اليدين.

اعتبار أهل الله في ذلك: اليدان محل الاقتدار والركبتان محل الاعتماد، فمن اعتمد على ربه مع الاقتدار الذي يجده من نفسه كالحلم مع القدرة قال بوضع الركبتين قبل اليدين، ومن رأى أن اليدين محل العطاء والكرم ورأى قوله تعالىٰ: ﴿فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ [سورة المجادلة: الآية ١٢] قدّم اليدين على الركبتين. ثم إن المعطي لا يخلو من إحدى حالتين: إما أن يعطي وهو صحيح شحيح يخشى الفقر ويأمل الحياة، وإما أن يعطي وهو من الثقة بالله والاعتماد على الله بحيث أن لا يخطر له الفقر والحاجة ببال لعلمه بأن الله أعلم بمصالحه، فمن كانت هذه حالته قدّم ركبتيه على يديه، ومن كانت حركاته الشحّ يجاهد نفسه خشي الفقر وبذل المجهود من نفسه في العطاء قدّم يديه على ركبتيه، والساجد أي حال قدّم من هاتين الحالتين فإن الأخرى تحصل له في سجوده ولا بدّ، فمن اعتمد وتوكّل حصل له صفة الجود والإيثار وجميع مراتب الكرم والعطاء، ومن أعطى الله عن جبن وفزع أثمر له ذلك العطاء بهذه الحال التوكل والاعتماد على الله، والذي رجح الشارع تقديم اليدين.

فصل بل وصل في السجود على سبعة أعظم: اتفق العلماء رضي الله عنهم على أنه من سجد على الوجه واليدين والركبتين وأطراف القدمين فقد تمّ سجوده، واختلفوا إذا سجد على وجهه ونقصه عضو من تلك الأعضاء هل تبطل صلاته أم لا؟ فمن قائل: تبطل. ومن قائل: لا تبطل. ولم يختلفوا أنّ من سجد على جبهته وأنفه فقد سجد على وجهه، واختلفوا فيمن سجد على جبهته دون أنفه أو على أنفه دون جبهته، فمن قائل: إن من سجد على جبهته دون أنفه جاز، وإن سجد على أنفه دون جبهته لم يجز. ومن قائل: إنه يجوز أن يسجد على أنفه دون جبهته وعلى جبهته دون أنفه. ومن قائل: إنه لا يجوز إلاّ أن يسجد عليهما معاً.

والاعتبار في ذلك: السبع الصفات ترجع إليها جميع الأسماء الإلهية وتتضمنها وهي: الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والكلام، والسمع، والبصر، فلو نقص منها صفة أو نسبة على الاختلاف الذي ينافي كونها نسباً أو صفات فقد بطل الجميع أي لم يصحّ كون الحق إلهاً، وهذا اعتبار الذي لا يجيز الصلاة إلاّ بالسجود على السبعة الأعضاء فإنها للحضرة الإلهية بمنزلة الأعضاء لهذا الساجد، والذي يقول: إن الوجه لا بدّ منه بالاتفاق كالحياة من هذه الصفات التي هي شرط في وجود ما بقي من الصفات السبع أو النسب على الاختلاف الذي بيّنا فمن عالم يقول: إن السمع والبصر راجعان إلى العلم وإن العلم يغني عنهما، وإنهما

للعلم مرتبتان عينهما المسموع والمبصر، فهما من العلم تعلق خاص، قال بجواز الصلاة إذا نقص عضو من هذه الأعضاء مع سجود الوجه كالحياة.

ولما كانت الحياة تقتضي الشرف والعزّة لنفسها على سائر الصفات والأسماء لكون هذه الصفات في وجودها مشروطة بوجود الحياة، وكانت العزّة والحياة مرتبطتين كالشيء الواحد مثل ارتباط الجبهة والأنف في كونهما عظماً واحداً وإن كانت الصورة مختلفة فمن قال: إن المقصود الوجه وأدنى ما ينطلق عليه اسم الوجه يقع به الاجتزاء أجاز السجود على الأنف دون الجبهة وعلى الجبهة دون الأنف كالذي يرى أن الذات هي المطلوبة الجامعة، ومن نظر إلى صورة الأنف وصورة الجبهة ونظر إلى الأولى باسم الوجه فغلب الجبهة وأن الأنف وإن كان مع الجبهة عظماً واحداً لم يجز السجود على الأنف دون الجبهة لأنه ليس بعظم خالص بل هو للعضلية أقرب منه إلى العظمية فتميز عن الجبهة فكانت الجبهة المعتبرة في السجود كذلك الحياة هي المعتبرة في الصفات، وأن العزّة وإن كانت لها بالإحاطة فإن العلم له الإحاطة أيضاً فاشتركا فلم ير للعزّة أثراً في هذا الأمر. ومن قال: لا بدّ أن يكون وجه الحق منيع الحمى عزيزاً لا يغالب قال بالسجود على الجبهة والأنف معاً. ولما كان الأنف في الحسّ محل التنفس والتنفس هو الحياة الحيوانية كانت نسبته إلى الحياة أقرب النسب، وبوجود هذه السبعة تمّ نظام العالم وكان مألوهاً مربوباً، ولم يبق في الإمكان حقيقة إمكانية تطلب أمراً زائداً على هذه السبعة، فليس في الإمكان أبدع من هذا العالم لأنه ليس في الوجود أكمل من الحق، وكماله في ألوهته بهذه الصفات المنسوبة إليه سبحانه، فلو انعدمت صفة واحدة من هذه الصفة أو نسبة لم تصحّ المرتبة التي أوجدت العالم ولم يكن للعالم وجود وقد وجد، فالمرتبة موجودة، فالكمال حاصل والارتباط معقول، ولو ارتفع السبب لارتفع المسبّب، ولو زال المسبّب من العقل لم يجد السبب، من يظهر فيه أثره فيزول كونه سبباً وكونه سبباً إنما هو لذاته فينعدم السبب لانعدام المسبّب من كونه سبباً لا غير لا من حيث العين المنسوب إليها السببية فإن الله غنيّ عن العالمين من ذاته، وكلامنا إنما هو من كونه إلهاً، فكلامنا في المرتبة لا في العين، كما نتكلم في السلطان من كونه سلطاناً لا من كونه إنساناً، ولا فائدة في الكلام إلاّ في حقائق المراتب لأن بها يعقل التفاضل بين الأعيان، يقول أبو طالب المكيّ رحمه الله: إن الأفلاك تدور بأنفاس العالم وإذا أعطى الأمر ما في قوّته بحيث لا يبقى عنده شيء يعطيه هلك من كونه معطياً، والمعتبر في بقاء العالم إنما هو عين جوهره الذي أظهرت كونه صورة ما، فالصور لا يلزم من انعدام شيء منها انعدام العالم من حيث جوهريته إلاّ أن لا تكون الصورة أصلاً فيعدم العالم من حيث جوهره لانعدام جميع الصور، ويتعلق بهذا الباب مسائل من الإلهيات كثيرة.

فصل بل وصل في الإقعاء: أريد أن أعطي أصلاً في هذه المسألة يسري في جميع مسائلِ الشرع فنقول: إن الشارع إذا أتى بلفظ ما فإنه يحمل ذلك اللفظ على ما هو المفهوم منه بالمصطلح عليه في لغة العرب، إلى أن يخصّص الشارع ذلك اللفظ بوصف خاص يخرجه

بذلك الوصف عن مفهوم اللسان المصطلح عليه، فإذا عيّن الشارع ما أراده بذلك اللفظ صار ذلك الوصف بذلك اللفظ أصلاً، فمتى ورد اللفظ به من الشارع فإنه يحمل على المفهوم منه في الشرع حتى يدل دليل آخر من الشرع أو من قرائن الأحوال أنه يريد بذلك اللفظ المفهوم منه في اللغة أو أمراً آخر بعينه أيضاً، هذا مطرد في جميع ما يتلفظ به الشارع، ومثاله لفظة الوضوء والصلاة والصيام والحج والزكاة وأمثال هذا، ثم نرجع إلى ما نحن بسبيله فأقول: إن الإقعاء المفهوم منه في اللغة إقعاء الكلب والقرد، وصفته أن يجلس الرجل على أليتيه يفضي بهما إلى الأرض في الصلاة ناصباً فخذيه فهذه صفة الإقعاء إقعاء الكلب والسبع، ولا خلاف أذكر بين العلماء أن هذه الهيئة ليست من صفات الصلاة، وقد ورد النهي عن الإقعاء في الصلاة فنحن نحمله على الإقعاء المعروف في اللسان، فإن خصّصه الشرع بهيئة مخصوصة تخرجه عن المفهوم منه في اللسان منطوق بها وقفنا عندها، ونعلم أن تلك الهيئة هي التي نهي عنها فقالت طائفة: إن الإقعاء المنهيّ عنه هو أن يجعل أليتيه على عقبيه بين السجدتين وأن يجلس على صدور قدميه. وروي عن ابن عمر أنه كان يفعل ذلك لأنه كان يشتكي قدميه. والثابت عن ابن عمر أن قعود الرجل على صدور قدميه ليس من سنّة الصلاة. وكان ابن عباس يقول: الإقعاء على القدمين في السجود على هذه الصفة هي سنّة نبيكم ﷺ.

الاعتبار في ذلك: هيئة الإقعاء هيئة المستوفز المحتفز، وهكذا ينبغي أن يكون العبد مع الله في أحواله، ولهذا قال ابن عباس: الإقعاء سنّة نبيكم ﷺ، فإن العبد ينبغي أن يكون على هيئة الاحتفاز من أجل ورود أوامر سيده عليه لا يغفل مراقباً لها، حتى إذا وردت عليه وجدته متهيئاً لقبول ما جاءته به فسارع إلى امتثالها، ولهذه الحالة أثنى على من هذه صفته بقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٦١] فيهم. قال: ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٢] وكل من يطلب المسارعة في الأمور يكون حاله اليقظة والحضور والانتباه والاستيفاز والاحتفاز فاعلم ذلك، فيخرج النهي عن الإقعاء في الصلاة أن لا يفعل من حيث التشبه بالكلاب والسباع في ذلك، وليفعل ذلك من حيث أنه مشروع على الهيئة المعقولة المنقولة في الموطن المنقولة إلينا فإنه من صفة الإقعاء اللغويّ أن تكون يداه في الأرض كما يقعى الكلب، وليس هذا في الهيئة المشروعة في الإقعاء فهذا قد ذكرنا من أفعال الصلاة وأقوالها ما يجري مجرى الأصول لما يتفرع منها.

فصل بل وصل في ذكر الأحوال في الصلاة: وبعد أن ذكرنا أكثر الأقوال والأفعال في الصلاة، فلننتقل إلى الأحوال مثل صلاة الجماعة وحكمها وشروط الإمامة ومن أولى بالتقديم، وأحكام الإمام الخاصة به، ومقام الإمام من المأموم وأحكامهم الخاصة بهم، وما يتبع المأموم فيه الإمام ممّا ليس يتبعه فيه وصفة الاتباع، وما يحمله الإمام عن المأموم والأشياء التي بها إذا فسدت صلاة الإمام تعدّت إلى المأموم على حسب ما فصلته الأئمة من علماء الشريعة واختلاف العلماء في ذلك، ونذكر اعتبارات ذلك كله عند العلماء بالله بحسب ما يقتضيه الطريق إلى الله في أعمال القلوب والأسرار، فإن هذا الطريق عند أصحاب الذوق ما

هو طريق نقل، فلنذكر أوّلاً قبل ذكر هذه الأحوال حديثين ممّا يتعلق بأقوال الصلاة وأفعالها التي في الفصل قبل هذا فهما كالخاتمة له، وإنما جعلتهما في فصل الأحوال لحاجة في نفس يعقوب قضاها ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٦٨] الحديث الواحد في تعليم النبيّ ﷺ الصلاة للرجل الذي سأله أن يعلمه كيف يصلي. والحديث الثاني في صفة صلاة رسول الله ﷺ تسليماً.

أما الحديث الأول: فهو حديث البخاري عن أبي هريرة وذكر حديث الرجل الذي دخل المسجد وصلّى فقال له رسول الله ﷺ: «**ارجعْ فصلِّ فإنّك لَم تُصلِّ، فَقالَ الرَّجُلُ: علِّمْنِي يا رَسُولَ اللّهِ، فَقالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: إذَا قُمتَ إلَى الصَّلاةِ فَأَسْبغِ الوُضُوءَ، ثُمّ اسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ فَكَبِّرْ، ثُمّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمّ ارْكَعْ حَتّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعاً، ثُمّ ارْفَعْ حَتّى تَسْتَوِيَ قَائِماً، ثُمّ اسْجُدْ حَتّى تَطْمَئِنَّ سَاجِداً، ثُمّ اجْلِسْ حَتّى تَطْمَئِنَّ جَالِساً، ثُمّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلاتِكَ كُلِّها**» وله في طريق أخرى: «**ثُمّ ارْفَعْ حَتّى تَسْتَوِي قَائِماً**» يعني من السجدة الثانية. وقال عليّ بن عبد العزيز عن رفاعة بن رافع في هذا الحديث أن الرجل قال للنبيّ ﷺ: لا أَدْرِي مَا عِبْتَ عَلَيَّ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّهُ لاَ تَتِمّ صَلاةُ أَحَدِكُمْ حَتّى يُسْبِغَ الوُضُوءَ كَمَا أَمَرَه اللّهُ، وَيَغْسِلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ إلَى المِرْفَقَيْنِ، وَيَمْسَحَ بِرَأْسِهِ وَرِجْلَيْهِ إلَى الكَعْبَيْنِ، ثُمّ يُكَبِّرُ اللّهَ وَيَحْمَدُهُ وَيُمَجِّدُهُ وَيَقْرَأُ مِنَ القُرْآنِ مَا أَذِنَ اللّهُ لَهُ فِيهِ وَتَيَسّرَ، ثُمّ يُكَبِّرُ وَيَرْكَعُ فَيَضَعُ كَفّيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ حَتّى تَطْمَئِنَّ مَفَاصِلُهُ وَتَسْتَرْخِي، ثُمّ يَقُولُ: سَمِعَ اللّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ وَيَسْتَوِي قَائِماً حَتّى يَأْخُذَ كُلُّ عَظْمٍ مَأْخَذَهُ وَيُقِيمُ صُلْبَهُ، ثُمّ يُكَبِّرُ فَيَسْجُدُ وَيُمَكِّن وَجْهَهُ مِنَ الأَرْضِ حَتّى تَطْمَئِنَّ مَفَاصِلُهُ وَتَسْتَرْخِي، ثُمّ يُكَبِّرُ فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ وَيَسْتَوِي قَاعِداً عَلَى مَقْعَدَتِهِ وَيُقِيمُ صُلْبَه**» فوصف الصلاة هكذا حتى فرغ ثم قال: «**لاَ تَتِمّ صَلاةُ أَحَدِكُمْ حَتّى يَفْعَلَ ذَلِكَ**». خرّجه النسائيّ وهذا أبين. وقال النسائيّ في طريق آخر عن رفاعة أيضاً: «**فَإذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ تَمّتْ صَلاتُكَ، وَإنِ انْتَقَصْتَ مِنْهَا شَيْئاً انْتُقِصَ مِنْ صَلاتِكَ وَلَمْ تَذْهَبْ كُلُّهَا**» وقال في أوّله: «**إذَا قُمْتَ إلَى الصَّلاةِ فَتَوَضّأْ كَمَا أَمَرَكَ اللّهُ ثُمّ تَشَهَّدْ فَأَقِمْ ثُمّ كَبِّرْ**» قال أبو عمر بن عبد البر: هذا حديث ثابت.

الحديث الثاني: وأما الحديث الثاني فهو الذي خرّجه أبو داود في صفة صلاة رسول الله ﷺ عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سمعت أبا حميد الساعديّ في عشرة من أصحاب النبيّ ﷺ منهم أبو قتادة قال أبو حميد: أنا أعلمكم بصلاة رسول الله ﷺ قالوا: فلم فوالله ما كنت بأكثرنا له تبعاً ولا أقدمنا له صحبة، قال: بلى، قالوا: فأعرض، قال: «كَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ إذَا قَامَ إلَى الصَّلاةِ يَرْفَعُ يَدَيْهِ حَتّى يُحَاذِيَ بِهِمَا مَنْكِبَيْهِ، ثُمّ يُكَبِّرُ حَتّى يَقِرَّ كُلُّ عَظْمٍ فِي مَوْضِعِهِ مُعْتَدِلاً، ثُمّ يَقْرَأُ ثُمّ يُكَبِّرُ وَيَرْفَعُ يَدَيْهِ حَتّى يُحَاذِيَ بِهِمَا مَنْكِبَيْهِ، ثُمّ يَرْكَعُ وَيَضَعُ رَاحَتَيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمّ يَعْتَدِلُ فلا يَنْصِبُ رَأْسَهُ وَلاَ يَقْنَعُ، ثُمّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَيَقُولُ: سَمِعَ اللّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، ثُمّ يَرْفَعُ يَدَيْهِ حَتّى يُحَاذِيَ مَنْكِبَيْهِ مُعْتَدِلاً، ثُمّ يَقُولُ: اللّهُ أَكْبَرُ، ثُمّ يَهْوِي إلَى الأَرْضِ فَيُجَافِي يَدَيْهِ عَنْ جَنْبَيْهِ، ثُمّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَيَثْنِي رِجْلَهُ اليُسْرَى فَيَقْعُدُ عَلَيْها وَيَفْتَحُ أَصَابِعَ رِجْلَيْهِ إذَا سَجَدَ وَيَسْجُدُ، ثُمّ يَقُولُ: اللّهُ أَكْبَر، ثُمّ يَرْفَعُ وَيَثْنِي رِجْلَهُ اليُسْرَى وَيَقْعُدُ عَلَيْهَا حَتّى

يَرْجِعَ كُلُّ عُضْوٍ إِلَى مَوْضِعِهِ، ثُمَّ يَصْنَعُ فِي الأُخْرَى مِثْلَ ذَلكَ، ثُمَّ إِذَا قَامَ مِنَ الرَّكْعَتَيْنِ كَبَّرَ وَيَرْفَعُ يَدَيْهِ حَتَّى يُحَاذِيَ بِهِمَا مَنْكِبَيْهِ كَمَا كَبَّرَ عِنْدَ افْتِتاحِ الصَّلاَةِ، ثُمَّ يَصْنَعُ ذَلكَ فِي بَقِيَّةِ صَلاَتِهِ حَتَّى إِذَا كَانَت السَّجْدَةُ الَّتِي فِيهَا التَّسْلِيمُ أَخَّرَ رِجْلَهُ اليُسْرَى وَقَعَدَ مُتَوَرِّكاً عَلَى شِقِّهِ الأَيْسَرِ» قالوا: صدقت هكذا كان يصلي ﷺ. وقال أبو عيسىٰ محمد بن سورة الترمذي في هذا الحديث: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلاةِ اعْتَدَلَ قَائِماً وَرَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى يُحَاذِيَ بِهِمَا مَنْكِبَيْهِ وَقَالَ فِي الرَّفْعِ مِنَ الرُّكُوعِ اعْتَدَلَ حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عَظْمٍ مُعْتَدِلاً وَكَذَلِكَ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ وَزَادَ فِي آخِرِهِ: ثُمَّ سَلَّمَ». وقال: هذا حديث حسن صحيح، وهذا ابتداء فصول الأحوال إن شاء الله نذكرها فصلاً فصلاً.

فصول الأحوال

فصل بل وصل في ذكر ما وقع من الاختلاف في صلاة الجماعة: واختلفوا في صلاة الجماعة هل هي واجبة على من سمع النداء أم ليست بواجبة فمن قائل: إنها سنّة. ومن قائل: إنها فرض على الكفاية. ومن قائل: إنها فرض متعين على كل مكلف.

الاعتبار في ذلك: لما شرع الله للمصلي أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] بنون الجمع دلّ على أنه مطلوب بكل جزء منه بالصلاة معاً في حال واحد، ولهذا سمّيت التكبيرة الأولى تكبيرة الإحرام أي يحرم على العبد في صلاته أن يتصرّف بعضو من أعضائه فيما ليس من الصلاة، وكل ما أبيح له من الفعل فيها فهو من الصلاة، ولكن لا من صلاة كل مصلّ إلاّ لمصلٍّ عرض له في صلاته من ذلك شيء ففعله وهي أمور منصوصة عليها، وكل فعل يجوز أن يفعل في الصلاة فهو صلاة لأن الشارع عينها فلا تبطل الصلاة بفعل شيء منها، فحضور جماعة العبد مع الله تعالىٰ في الصلاة واجب بلا شك، فعلى كل عضو من أعضائه في الصلاة صلاة، وأقل ما ينطلق عليه اسم الجماعة اثنان يقول الله: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين. ووصف نفسه بأنه يصلي علينا، وقد أدخل نفسه مع العبد في الصلاة، وكل يصلي مع ربّه بلا شك فهو في جماعة بلا شك ويكون الحق إماماً والعبد مأموماً لأنه هو الذي يقيمه ويقعده، ويكون العبد إماماً في المناجاة، فإن الله جعل ابتداء القول إليه فما ثم مصلّ فذاً، فإن غاب عن الحضور مع الله في هذه الصلاة فقد انفرد في هذه العبادة بنفسه دون ربه، وهذا هو الفذ في الاعتبار وهو على هذا، وإن كان في جماعة من عالمه فهو في حكم الفذ، والفذ الآخر أن يفرد الصلاة للرب لغلبة مشاهدته إياه وفنائه عن نفسه، فلا يشهد نفسه مصلياً مع شهود وقوع الصلاة منه بربه فهذا أيضاً يلحق بصلاة الفذ، فإذا كوشف العبد على كل جزء منه في صلاته أنه مسبّح بحمد ربّه في صلاته وكل جزء فإن عن نفسه بشهوده فهو من حيث ما هو مجموع في جماعة فله أجر الجماعة وله أجر الفذّ بكل جزء منه بالغاً ما بلغت أجزاؤه، فإن شئت قلت: إنه صلّى فذاً، وإن شئت قلت: إنه صلّى في جماعة والحق الإمام.

ثم إن من العارفين من يقيمه الحق في مقام الإمامة ويكون الحق مأموماً وذلك مثل

قوله ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**» فهو يجري معك ما دمت تجري معه وهو قوله تعالىٰ من هذا الباب: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] وقوله: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**». فهذا معنى الإمام والمأموم، فهو سبحانه قدمك في هذا الموضع وأمثاله، ومثل: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] ومثل إمامته بك ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى﴾ [البقرة: ١٨٦] في دعائه إياهم ثم يدعونه اقتداء بدعائه فيجيبهم بإجابتهم إياه، فانظر ما أكرم هذا الرب مع الغنى المطلق الذي وصف به نفسه كيف ربط نفسه بعبده في جميع ما أمره به من العبادة، ذلك هو الفضل المبين.

فصل بل وصل فيمن صلَّى وحده ثم أدرك الجماعة أو صلَّى في جماعة ثم إنه أدرك جماعة أخرى: اعلم أنه من صلَّى ثم أتى المسجد فلا يخلو من أحد وجهين، إمّا أن صلَّى منفرداً أو في جماعة، فإن كان صلَّى منفرداً يعيد معهم كل الصلوات إلاَّ المغرب فقط، وقالت طائفة: يعيد إلاَّ المغرب والعصر، وقالت طائفة: إلاَّ المغرب والصبح. ومن قائل: إلاَّ الصبح والعصر، وقالت طائفة: يعيد الصلوات كلها. وأما إذا صلَّى في جماعة فهل يعيد في جماعة أخرى، فمن قائل: يعيد. ومن قائل: لا يعيد، وأما مذهبنا في مثل هذه المسألة أن الجماعة فرض إذا قدر عليها فإن لم يقدر عليها فيصلي منفرداً، فإن أدرك الجماعة ولو كان صلَّى في جماعة فإنه يصلي مع الجماعة إذا أدركها إجابة لندائه في الإقامة حيّ على الصلاة وهي له نافلة في الحالتين، وله أجر الجماعة إذا لم يقدر عليها.

وصل في اعتبار ذلك في النفس: لما عيّن الشارع المناجاة للصلاة وقال رسول الله ﷺ الحديث وفيه: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ**» إعلاماً بأنه من أهل مشاهدة الحق فيها على وجه أتم من مشاهدة الأتباع في قوله في الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، وما خصّ عبادة من عبادة والله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] وهم الذين يكثرون الرجوع إليه سبحانه في كل حال يرضيه، ولا حال أشرف من الصلاة لجمعها بين الشهود والمناجاة، وقال: ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] والطهارة من شروط الصلاة، والمحب يتمنى ويشتهي أنه لا يزال في مشاهدة محبوبه على الدوام ومناجاته، فكيف إذا دعاه الحبيب إلى ذلك بقوله: حيّ على الصلاة، قد قامت الصلاة، فبالضرورة يبادر ويسابق إلى ما دعاه ليلتذّ بشهوده ومناجاته، فيرى من هذا حاله إعادة الصلوات في الجماعة متى أقيمت ودعي إليها وإن كان قد صلَّى منفرداً أو في جماعة، وقد بيّنا معنى الفذ والجماعة في الفصل الذي قبل هذا.

وأمّا من ذهب إلى أنه لا يعيد الصلاة فهم العارفون، كما أن الذين يرون الإعادة هم المحبون، وذلك أن العارفين علموا أن الإعادة محال، وأن التجلي الذي كان له في صلاته غير التجلي الذي يكون له في الصلاة الأخرى إلى ما لا يتناهى، فلما استحال عنده التكرار والإعادة للاتساع الإلهي لم تصحّ عنده الإعادة، فالمحب يصلي معيداً وهو لا يعلم، والعارف يصلّي لا على جهة الإعادة وهو يعرف، فالعلم أشرف المقامات، والحب أشرف الأحوال، والجامع بين المقامين المحبة والمعرفة يقول بالإعادة للتجلي وبعدم الإعادة للمتجلي له، فله

الأوّلية في كل صلاة فرضاً كانت أو نفلاً. وأمّا من لا يرى إعادة المغرب فإن المغرب وترية العبد والوتر الليلي وترية الحق، فإن وتر الليل ركعة واحدة، والأحدية له تعالىٰ وجلّ ووترية المغرب ثلاث ركعات فجمع بين الشفع والوتر وهو أوّل الأفراد، وأن الله وتر يحب الوتر. فلا يرى العبد ربّه من حيث شفعيته وإنما يراه من حيث وترية الفردية، ولله وترية الفردية في كونه إلهاً، ووترية الأحدية من كونه ذاتاً.

وإذا رأى العبد ربه من حيث وتريته الإلهية الفردية من تلك الوترية الإلهية الفردية يرى وترية الذات الأحدية لا من جهة وترية العبد الفردية فلم ير الله إلاّ بالله، فلو أعاد المغرب لصارت وترية العبد شفعاً فلم يكن يرى ربه وتراً أبداً فقال بترك الإعادة للمغرب دون غيره من الصلوات. ومن قال: بإعادة المغرب قال: يعيدها بوترية الفردانية الإلهية لا بوتريته فتبقى وتريته على فرديتها لا تصير شفعاً بإعادة صلاة المغرب، فإن الحق متميز عن الخلق بلا شك من كل وجه. وأمّا من لم ير إعادة الصبح فإن الصبح الأوّل عين الفرض، وكذلك العصر والصبح الثاني والعصر الثاني هما نافلة، والإنسان في أداء الفرض عبد محض عبودية اضطرار، وهو في النفل عبد اختيار وعبودية الاضطرار أشرف في حقّه من عبودية الاختيار لأن له في عبودية الاختيار الامتنان بالاسترقاق، قال تعالىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَـٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٧].

ولما شبه الحق رؤية العباد إياه برؤيتهم الشمس صار للشمس عندهم مزيد رتبة ولا سيما للمحبين لكون الحبيب ضرب برؤيتها المثل في رؤيته في التشبيه، فهم إذا رأوها كأنهم يرون الله لأن رؤيتهم إياها تذكرهم ما وعدهم الله به من رؤيته، فيريدون أن لا تطلع الشمس عليهم إلاّ وهم موصوفون بعبودية الاضطرار، ولا تغرب عليهم الشمس إلاّ وهم أيضاً في عبودية الاضطرار، كما يريدون رؤية الله في حال الاضطرار والعبودية المحضة، فإن لذتها أتمّ وأحلى، كما أن رؤيتها أعمّ وأجلى، ولتكون الشمس في غروبها وطلوعها تقول لربها: تركناهم عبيد اضطرار وأتيناهم وهم عبيد اضطرار، كما تقول الملائكة الذين يعرجون في صلاة الصبح وصلاة العصر فيسألهم الحق جلّ جلاله وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون، فلا تنصرف عنهم الملائكة الذين كانوا معهم ولا تأتيهم الملائكة الأخر إلاّ عند شروعهم في الصلاة، سواء قاموا إليها في أول الوقت أو في آخره، كل إنسان لا تنصرف عنه ملائكته إلاّ كما قلنا، ولهذا عند أهل الإيمان وأهل الكشف أن المصلي إذا أراد أن يكبّر تكبيرة الإحرام في صلاة الصبح والعصر يقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، لأنهم في ذلك الوقت تنصرف عنهم الملائكة الذين كانوا فيهم، وترد عليهم الملائكة الذين يأتون إليهم، وهم عند إتيانهم يسلمون على العبد وعند انصرافهم يسلمون أيضاً، والله قد أمرنا بقوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٦] فوجب على كل مؤمن عند حق إيمانه وحقيقته أن يرد في ذلك الوقت السلام عليهم وإلاّ فهو طعن في إيمانه إن حضر مع هذا الخبر وتذكره في ذلك الوقت.

وأما صاحب الكشف فهو على علم عين والمؤمن على بصيرة، ومن استثنى العصر دون الصبح رأى أنه لا يستقبل الغيب إلاّ بعبودية الاضطرار لأنّ الغيب الأصل وهو هوية الحق ولا يفارق الغيب الهوية، قال: والصبح خروج من الغيب إلى الشهادة فلا أبالي بالشهادة على أية حالة كنت من العبودية من اضطرار أو اختيار، لأن الفرض الوقوف في العبودية، وأن الشهادة محل الدعوى لأنه محل الحركة والمعاش ورؤية الأغيار وحجابيات الأفعال، ومن استثنى الصبح دون العصر قال: أريد أن استقبل الاسم الظاهر بعبودية الاضطرار ولا أبالي باستقبال الليل بأي عبودية استقبلته بعبودية الاضطرار ولا بعبودية الاختيار، ولهذا تنفّل بعد العصر رسول الله ﷺ وما تنفل بعد الصبح فقط، وذلك أن هذا الذي مذهبه التنفل بعد العصر إن شاء يقول الليل له الغيب وله الاسم الباطن وله من القوّة بحيث أنه يجعلني مضطراً شئت أم أبيت، وليس النهار كذلك فإن استقبلته بعبودية الاختيار فهو يحكم عليّ سلطانه ويردّني مضطرّاً، فكل طائفة راعت أمراً ما في الاعتبار في الصلوات التي لا ترى إعادتها إذا صلتها، وقد تقدّم معرفة المنفرد والجماعة.

فصل بل وصل فيمن أولى بالإمامة: قال رسول الله ﷺ: «**يَؤُمُّ القَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ**» فقالت طائفة: أفقههم لا أقرأهم، فهذه مسألة خلاف بين أصحاب هذا القول وبين رسول الله ﷺ، فإني سألت القائلين بهذا المذهب هل بلغكم هذا الحديث؟ فاعترفوا فقالوا: رويناه وعلمناه وبقول رسول الله ﷺ أقول ولا حجة للقائلين بخلاف ما قاله ولا سيما رسول الله ﷺ يقول في هذا الحديث: «**فَإِنْ كَانُوا فِي القِرَاءَةِ سَواءَ فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ**». ففرّق بين الفقيه والقارىء، وأعطى الإمامة للقارىء ما لم يتساويا في القراءة، فإن تساويا لم يكن أحدهما أولى بالإمامة من الآخر، فوجب تقديم العالم الأعلم بالسنّة وهو الأفقه، ثم قال عليه السلام: «**فَإِنْ كَانُوا فِي العِلْمِ بِالسُّنَّةِ سَواءَ فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الهِجْرَةِ سَواءَ فَأَقْدَمُهُمْ إِسْلاماً، وَلاَ يَؤُمُّ الرَّجُلُ فِي سُلْطَانِهِ وَلاَ يُقْعَدُ فِي بَيْتِهِ عَلى تَكْرِمَتِهِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**» وهو حديث متفق على صحته وبه قال أبو حنيفة، وهو الصحيح الذي يعوّل عليه وأمّا تأويل المخالف للنص بأن الأقرأ كان في ذلك الزمان الأفقه فقد ردّ هذا التأويل قوله ﷺ: «**فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ**».

واعلم أن كلام الله لا ينبغي أن يقدّم عليه شيء أصلاً بوجه من الوجوه، فإن الخاص إن تقدّمه من هو دونه فليس بخاص، وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته، وهم الذين يقرؤون حروفه من عجم وعرب، وقد صحّت لهم الأهلية الإلهية والخصوصية، فإذا انضاف إلى ذلك المعرفة بمعانيه فهو فضل في الأهلية والخصوصية لا من حيث القرآن بل من حيث العلم بمعانيه، فإن انضاف إلى ذينك إلى حفظه والعلم بمعانيه العمل به فنور على نور على نور، فالقارىء مالك البستان، والعالم كالعارف بأنواع فواكه البستان وتطعيمه ومنافع فواكهه، والعامل كالآكل من البستان، فمن حفظ القرآن وعلمه وعمل به كان كصاحب البستان علم ما في بستانه وما يصلحه وما يفسده وأكل منه، ومثل العالم العامل الذي لا يحفظ القرآن كمثل العالم بأنواع الفواكه وتطعيماتها وغراستها والآكل الفاكهة من بستان غيره، ومثل العامل كمثل

الآكل من بستان غيره فصاحب البستان أفضل الجماعة الذين لا بستان لهم فإن الباقي يفتقرون إليه.

وصل في اعتبار ذلك: الأحق بالإمامة من كان الحق سمعه وبصره ويده ولسانه وسائر قواه، فإن كانوا في هذه الحالة سواء فأعلمهم بما تستحقه الربوبية، فإن كانوا في العلم بذلك سواء فأعرفهم بالعبودية ولوازمها، وليس وراء معرفة العبودية حال يرتضي يقوم مقامه أو يكون فوقه لأنهم لذلك خلقوا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] والإمامة على الحقيقة إنما هي لله الحق تعالىٰ جلّ جلاله، وأصحاب هذه الأحوال إنما هم نوّابه وخلفاؤه، ولهذا وصفهم بصفاته بل جعل عينه عين صفاتهم فهو الإمام لا هم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [سورة الفتح: الآية ١٠] وقال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] وقال: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩] أي أصحاب الأمر، وأصحاب الأمر على الحقيقة هم الذين لا يقف لأمرهم شيء لأنهم بالله يأمرون كما به يسمعون كما به يبصرون، فإذا قالوا لشيء كن فإنه يكون لأنهم به يتكلمون فهذا معنى: ﴿وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩] في الاعتبار، ولهذا كانت طاعة السلطان واجبة، فإن السلطان بمنزلة أمر الله المشروع من أطاعه نجا ومن عصاه هلك.

فصل بل وصل في إمامة الصبي غير البالغ: إذا كان قارئاً اختلفوا في إمامة الصبي غير البالغ إذا كان قارئاً، فأجاز ذلك قوم مطلقاً، ومنع من ذلك قوم مطلقاً، وأجازه قوم في النفل دون الفريضة، اعتبار الأمر في ذلك يقال: صبا فلان إلى كذا إذا مال إليه لما كان الصبي يميل إلى حكم الطبيعة ونيل أغراضه سمّي صبياً أي مائلاً إلى شهواته، وهو غير البالغ حد العقل الذي يوجب التكليف، وكانت الطبيعة في الرتبة دون العقل فلم يصحّ لها التقدم ولا لمن مال إليها، وإن كان مائلاً إليها بحق فإن لها مقام التأخر فلا بدّ أن يتأخر، والمتأخر لا يكون إماماً مقدماً فإنه نقيض حكم ما هو فيه، فمن راعى هذا الاعتبار لم يجز إمامة الصبي وإن كان قارئاً، ومن راعى كونه حاملاً للقرآن جعل الإمامة للقرآن لا للصبي، وكانت إمامة الصبي في حكم التبعية لأجل القرآن فأجاز إمامة الصبي قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٢] يعني حكم الإمامة، وقالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٢٩] وهو مقام الإمامة مع تسميته صبياً، ومن جعل عبودية الصبي عبودية اختيار لسقوط التكليف عنه ورأى أن النافلة عبادة اختيار أجاز صلاة الصبي إماماً في النفل دون الفرض للمناسبة في الاختيار.

فصل بل وصل في إمامة الفاسق: فردّها قوم بإطلاق، وأجازها قوم بإطلاق، وفرّق قوم بين الفاسق المقطوع بفسقه وبين المظنون فسقه، فلم يجيزوا الإمامة للمقطوع بفسقه وأن المصلي وراءه يعيد، واستحبوا الإعادة لمن صلّى خلف المظنون فسقه في الوقت، وفرّقوا أيضاً بين من يكون فسقه بتأويل وبين من يكون بغير تأويل، فأجازوا الصلاة خلف المتأوّل

ولم يجيزوها لغير المتأول، وبالإجازة على الإطلاق أقول: فإن المؤمن ليس بفاسق أصلاً إذ لا يقاوم الإيمان شيء مع وجوده في محل العاصي.

الاعتبار في ذلك: الفاسق مَن خرج عن أصله الحقيقي وهو كونه عبداً لأنه لهذا خلق، فإنه لا بدّ أن يكون عبداً لله أو عبداً لهواه فما برح من الرق، فلم يبق خروجه إلاً عن الإضافة التي أمر أن ينضاف إليها فتجوز إمامته لأنّ الموفق من عباد الله يأثم بهذا الفاسق فإنه يراه قائماً بعبوديته في حق هواه الذي فيه شقاؤه، فيتعلم منه استيفاء حق العبودية التي أمره الله أن يكون بها عبداً له فيقول: أنا أولى بهذه الصفة في حق الله من هذا العبد في حق هواه، فلما رأينا أولياء الله يأتمون به وينفعهم ذلك عند الله ويكون هذا الاقتداء سبباً في نجاتهم صحّت إمامته، وقد صلّى عبد الله بن عمر خلف الحجاج وكان من الفساق بلا خلاف المتأولين بخلاف، فكل من آمن بالله وقال بتوحيد لله في ألوهته فالله أجل أن يسمي هذا فاسقاً حقيقة مطلقاً وإن سمّي لغة لخروجه عن أمر معين وإن قلّ، والمعاصي لا تؤثر في الإمامة ما دام لا يسمّى كافراً.

وأمّا الفسق المظنون فبعيد من المؤمن إساءة الظنّ بحيث أن يعتقد فسوق زيد بالظنّ لا يقع في ذلك مؤمن مرضي الإيمان عند الله، وهذا كله في الأحوال الظاهرة. وأمّا الباطنة فذلك إلى الله أو من أعلمه الله، ثم يرتقي العارف بالنظر في الفسوق ممّا يذمّه الشرع إلى ما تعطيه اللغة ولكن في الاعتبار لا في الحكم الظاهر، وهو إذا خرج الإنسان عن إنسانيته بخروجه عن حكم طبيعته عليه إلى عالم تقديسه من الأرواح العلا فهل تصحّ له إمامة هنالك أم لا؟ فمن أصحابنا من قال: تصحّ إمامته بالعالم الأعلى على الإطلاق وهو مذهبنا، ومن أصحابنا من قال: لا يؤمّ إذا خرج عن حكم طبيعته إلاّ بالأرواح المفارقة للأجسام الطبيعية من الجنّ والإنس، وسبب اختلافهم أن كل صاحب كشف أخبر عمّا رأى في كشفه في ذلك الوقت، والمكاشف قد يطلع وقتاً على الأمر من جميع جهاته، وقد يطلع على بعض وجوهه ويستر الله عنه ما شاء من وجوه ذلك الأمر، فيحكم المكاشف على الكل فيكون صحيح الكشف مخطئاً في تعميم الحكم، ثم يرى أنه من حيث روحه من جملة الأرواح الملكية فيقول: وإن خرجت عن طبيعتي فلم أخرج عن ملكيتي لما فيّ من عالم الأمر، فيطلب النفوذ والخروج أيضاً عن روحه كما خرج عن طبيعته، فيخرج بسرّه الرباني فتقوم له الأسماء الإلهية فيؤم بها نحو خالقه وهو يقدمها، فكل اسم له حقيقة وهذا العبد مجموع تلك الحقائق كلها فتصحّ له الإمامة في ذلك الموطن مع خروجه عن طبيعته وروحه، وما من موطن يخرج عنه إلاّ ويلحقه فيه ذم من طائفة لأن تلك الطائفة ترى في هذا العبد أنه متعبد بمجموعه وهو الصحيح فتسميه فاسقاً ولكن يعذر فإن السلوك يعطي التحليل حتى ينتهي فإذا انتهى يتركب طوراً بعد طور كما يتحلل حتى يكمل فيزول عنه اسم الفسوق في كل عالم، فهذا اعتبار إمامة الفاسق.

فصل بل وصل في إمامة المرأة: فمن الناس من أجاز إمامة المرأة على الإطلاق بالرجال

والنساء وبه أقول: ومنهم من منع إمامتها على الإطلاق. ومنهم من أجاز إمامتها بالنساء دون الرجال.

الاعتبار في ذلك: شهد رسول الله ﷺ لبعض النساء بالكمال كما شهد لبعض الرجال وإن كانوا أكثر من النساء في الكمال وهو النبوّة والنبوّة إمامة فصحّت إمامة المرأة والأصل إجازة إمامتها، فمن ادّعى منع ذلك من غير دليل فلا يسمع له، ولا نص للمانع في ذلك وحجته في منع ذلك يدخل معه فيها ويشرك فتسقط الحجة فيبقى الأصل بإجازة إمامتها. اعلم أن الإنسان عالم في نفسه كبير من جهة المعنى وإن كان صغير الحجم ولهذا يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] بنون الجمع، وجعل جوارحه وقواه الظاهرة والباطنة منقادة لما يحكم فيها المقدمون عليها وهو: العقل، والنفس، والهوى، وكل واحد منهم قد يؤم بالجماعة في وقت ما، فالطاعات كلها المقرّبة للعقل والمباحات للنفس والمخالفات للهوى وقد قيل للعقل: إذا سئمت النفس من اتباعك في الأمور المقربة واقتدائها بك في وقت إمامتك وتقدمت هي في المباحات وأمت بك فاتبعها وصل خلفها حافظاً لها لئلا يخدعها الهوى، فإن الهوى يتبعها في ذلك الحال عسى يوقع بها في محظور، ففي مثل هذا الموطن تجوز إمامة النفس وهي إمامة المرأة، وإمامة العقل بمنزلة إمامة الرجل المسلم البالغ العالم الولد الحلال، وإمامة الهوى بمنزلة إمامة المنافق والكافر والفاسق، وإمامة النفس بمنزلة إمامة المرأة.

فصل بل وصل في إمامة ولد الزنى: اختلفوا في إمامة ولد الزنى، فمن مجيز إمامته، ومن مانع من ذلك.

الاعتبار في ذلك: ولد الزنى هو العلم الصحيح عن قصد فاسد غير مرضيّ عند الله فهو نتيجة صادقة عن مقدّمة فاسدة، فالإنسان وإن طلب العلم لغير الله فحصوله أولى من الجهل، فإنه إذا حصل قد يرزق صاحبه التوفيق فيعلم كيف يعبد ربّه فتجوز إمامة ولد الزنى وهو الاقتداء بفتوى العالم الذي ابتغى بعلمه الرياء والسمعة ليقال. فأصل طلبه غير مشروع، وحصول عينه في وجود هذا الشخص فضيلة.

فصل بل وصل في إمامة الأعرابي: اختلفوا في إمامة الأعرابي، فمن مجيز إمامته، ومن مانع من ذلك.

الاعتبار في ذلك: الجاهل بما ينبغي للإمام أن يعلمه لا يصلح للإمامة لأن الإمام يقتدى به وهو لا يعلم ولا يتعلم، فلا تجوز إمامة من هذه صفته لأنه لا يعلم ما يجب عليه ممّا لا يجب، فالمقتدى به ضال وليس هو بمنزلة صلاة المفترض خلف المتنفل، فإن الإمام إذا تنفل وخالف المأموم في نيته فما خالفه فيما هو فرض في الصلاة نافلة كانت أو فريضة لأنها تشتمل على فروض وسنن، فأركانها فروض كلها وسننها كذلك في النافلة والفريضة، فما فعل المتنفل الذي هو الإمام في صلاته إلاّ ما تفرض عليه أن يفعله من أركان صلاته من ركوع وسجود وغير ذلك وكذلك سننها، والمفترض مقتد به في هذه الأفعال التي هي فرض عليهما فعلها، فما اقتدى الذي نوى الفرض خلف المتنفل إلاّ بما هو فرض على المتنفل فاعلم ذلك.

فصل بل وصل في إمامة الأعمى: فمن مجيزٍ إمامة الأعمى، ومن مانع إمامته والله أعلم.

اعتبار ذلك: الأعمى هو الحائر الذي هو في محل النظر لم يترجح عنده شيء وليس بواقف فيكون شاكاً والأصل حكم الفطرة التي ولد عليها فهو مؤمن في حال نظره وحيرته ما لم يقف أو يرجح فتجوز إمامته بأصل الفطرة لاستنابة رسول الله ﷺ ابن أم مكتوم على المدينة يصلي بالناس وهو أعمى.

فصل بل وصل في إمامة المفضول: اختلف العلماء في إمامة المفضول، فمنهم من أجازها، ومنهم من منع من ذلك. صلّى رسول الله ﷺ خلف عبد الرحمن بن عوف بلا خلاف وقضى ما فاته وقال: أحسنتم.

اعتبار ذلك: الفاضل يصلي خلف المفضول ليرقي همته ويرغبه في طلب الأنفس والأعلى سياسة وحسن تربية فإنه داع إلى الله تعالىٰ على بصيرة أن الله يفتح للكبير بصدق توجه الصغير، فالصغير مفيد الكبير وإمامه من حيث لا يشعر وكم من مريد صادق وقعت له واقعة وهو معتنى به فعرضها على الشيخ وقد كان الشيخ ما عنده معنى تلك الواقعة، وقد استفرغت همّة المريد وقطعت أن واقعته لا يعرف حل إشكالها إلاّ هذا الشيخ ففتح الله على ذلك الشيخ فيها بهمة ذلك المريد وصدقه فيه عناية من الله بالمريد، وينتفع الشيخ تبعاً وإن كان الشيخ أعلى منه في المقام، ولكن ليس من شرط كل مقام إذا دخله الإنسان ذوقاً أن يحيط بجميع ما يتضمنه من جهة التفصيل، فإنا نعلم قطعاً أنا نجتمع مع الأنبياء عليهم السلام في مقامات وبيننا وبينهم في العلم بأسرارها بون بعيد يكون عندهم ما ليس عندنا وإن شملهم المقام، فهذه إمامة المفضول فافهم ولا تغالط نفسك فتقول: أنا شيخ هذا فأنا أعلم منه بما تطلبه التربية، وقد لا تكون أعلم منه بما تنتجه، وقد رأينا ذلك معاينة في حق أشخاص والحمد لله. انتهى الجزء الأربعون.

(الجزء الحادي والأربعون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فصل بل وصل في حكم الإمام إذا فرغ من قراءة الفاتحة هل يقول آمين أم لا يقولها:

اختلف العلماء في ذلك، فمن قائل: يؤمن. ومن قائل: لا يؤمن.

وصل في الاعتبار في ذلك: إن جعل الإنسان نفسه أجنبية عنه فإنه يخاطبها مخاطبة الأجنبي يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] وهذا يجده كل إنسان ذوقاً تقتضيه نشأته، ورسول الله ﷺ يقول للإنسان المكلف: «**إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقّاً**» فأضاف النفس إليه والشيء لا يضاف إلى ذاته، فجعل النفس غير الإنسان وأوجب لها عليه حقاً تطلبه منه، فإن كان هو التالي فلا لنفسه عند فراغ الفاتحة آمين، وإن كانت النفس التالية فلا بدّ أن يقول هو آمين والإنسان واحد العين كثير بالقوىٰ ويؤيده قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾

[سورة فاطر: الآية ٣٢] وبادرني عبدي بنفسه في القاتل نفسه فمن كان هذا مشهده قال: يؤمن الإمام والمنفرد. ومن رأى أن الإمام عين واحدة أو يرى أنه قال بربه في قوله: بي يسمع وبي يبصر وبي يتكلم، وقد كان الشيخ أبو مدين ببجاية يقول: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الباء عليه مكتوبة يشير إلى هذا المقام وهي تسمّى بيا الإضافة مثل قوله أيضاً، فمن كان مشهده هذا يقول: لا يؤمن الإمام والتأمين أولى بكل وجه فإن المكلف مأمور إذا دعا أن يبدأ بنفسه، وقوله آمين دعاء يقول: اللهم أمنا بالخير وبما قصدناك فيه والإنسان بحكم حاله ومشهده، وفي الحديث الثابت: «**إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا**» والحديث الآخر: «**فَإِذَا قَالَ الإِمَامُ: وَلاَ الضَّالِّينَ، فَقُولُوا: آمِين**».

فصل بل وصل متى يكبر الإمام: فمن قائل: بعد تمام الإقامة واستواء الصفوف. ومن قائل: قبل أن يتم الإقامة. ومن قائل: بعد قول المؤذن: قد قامت الصلاة، وبالتخيير أقول في ذلك.

الاعتبار: الإقامة للقيام بين يدي الله تعالىٰ فإنه يقول: حيّ على الصلاة، واستواء الصفوف مثل صفوف الملائكة عند الله تعالىٰ الذين أقسم بهم في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ [سورة الصافات: الآية ١] وهي إشارة إلى إقامة العدل فإن الإنسان بروحه ملك مدبر لما ولاّه الله عليه من هذه النشأة الذي أشار إليه بالبلد الأمين لكونه أماً جامعة مثل مكة التي هي أم القرى والفاتحة أم الكتاب، فلا بدّ من فروض الأحكام لإقامة العدل في العبادات التي خوطب بها جماعة الجوارح، فاجتماع الهم على ذلك واجب ظاهراً وباطناً، فمن رأى مثل هذا يكبّر بعد الإقامة واستواء الصفوف كأنه يقول: الله أكبر من أن يتقيد تكبيره بمثل هذه الصفة لإحاطته إطلاقاً بكل حال ووجه، فإنه أعطى كل شيء خلقه فإنه على صراط مستقيم، فلما كلّف عباده بالمشي على صراط خاص عينه لهم كان من عدل إليه سعد، ومن عدل عنه شقي، ومن راعى المسارعة إلى الخيرات والسباق إلى المناجاة كبَّر عند سماعه حيّ على الصلاة في الإقامة إلاّ أن يكون هو المقيم فلا يتمكن له حتى يفرغ من لا إلٰه إلاّ الله وحينئذ يكبّر، وإنما قلنا يبادر بالتكبير الإقامة وهو قول المؤذن: قد قامت الصلاة ليصدق المؤذن في قوله: قد قامت الصلاة لأنه جاء بلفظ الفعل الماضي فيبني صلاته على قاعدة صدق فيفوز في الثواب بـ ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٤، ٥٥] أي في ستور من علوم جارية واسعة، كلما قلت هذا جاء غيره لأن النهر جار على الدوام بالأمثال.

واعلم أن أول إقامة الصلاة تكبيرة الإحرام كعجب الذنب من إقامة النشأة، فإذا قال المؤذن: قد قامت الصلاة قبل تكبيرة الإمام لم يصدق وتجوز في الكلام وعلم الأذواق والأسرار لا يحمل التجوّز في الكلام فإنه على الحقيقة والكشف يعمل وروح الإنسان ما هو بيده، فلو قبض الإمام وقد قال المؤذن: قد قامت الصلاة ولم يكبّر الإمام لعلمنا أنه قبض مكذباً ولا ينفعه هنا قوله ﷺ: «**إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي صَلاَةٍ مَا دَامَ يَنْتَظِرُ الصَّلاَةَ**» ونحن في هذا الموطن بحكم الصلاة المنتظرة بالألف واللام، ولا نشك أن العارفين في حركاتهم وسكناتهم في صلاة ومناجاة، ولكن المطلوب منه في هذه الحالة الصلاة المشروع لنا إقامة نشأتها من

تكبيرة الإحرام إلى التسليم وما بينهما ترتيب أعضاء نشأتها حتى تقوم خلقاً سوياً يشهدها ببصره من أنشأها، ولا سيما من أنشأها بربه فإنها تخرج من أكمل النشآت ليس للنفس فيها حظ، فهذه صلاة إلهية لا كونية، ومن جعل الإقامة من المؤذن أو من نفسه من نفس إقامة نشأة الصلاة كبّر بعد الإقامة وتكون الصلاة مشتركة في نشأتها إلاّ في حق المقيم بنفسه لا بالمؤذن، فإنه لا فرق في أول إنشاء صورة الصلاة عنده من الإقامة إلاّ أن يكون المقيم الذي هو المؤذن والإمام يتصرفان بربهما على قدم فنائهما عن أنفسهما، فقد تكون نشأة الصلاة نشأة إلهية ولكن لا تقوى في الصورة قوّة الواحد لأن مزاج كل واحد من الشخصين يفارق الآخر والحق ما يتجلى إلاّ بحسب القابل.

اعلم أن العبد يقيم سرّه بين يدي ربّه في كل حال فهو مصلّ في كل حال، ففي أي وقت كبَّر من هذه الأوقات التي وقع فيها الخلاف بين علماء الرسوم فقد أصاب فإن الصلاة قد قامت، فإن الله قرّر حكم المجتهد شرعاً منه كلفنا به، ويخرج قوله: حيّ على الصلاة في الإقامة خطاباً للجوارح لتصرفها في غير تلك الأفعال الخاصة بهذه الحالة، وخطاباً للروح بل للكل بالخروج من حال هو فيه إلى حال أخرى أي أقبل عليها، وإن كنت في صلاة فتكون مـــــن: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [سورة المعارج: ٢٣ ـ ٣٤].

فصل بل وصل في الفتح على الإمام: اختلف العلماء في الفتح على الإمام فمن قائل: بالفتح عليه. ومن قائل: لا يفتح عليه ويركع حيث ارتج عليه. ومن قائل: لا يفتح عليه إلاّ إذا استطعم. ومن قائل: لا يفتح عليه إلاّ في الفاتحة وصاحب هذا القول يقول: من فتح عليه في السورة فقد بطلت صلاة الفاتح.

وصل الاعتبار: من قال بالخاطر الأوّل قال: لا يفتح على الإمام وكذلك من قال بالوقت ومن قال بمراعاة الأنفاس. وأما من قال بما سبقت به السابقة في أوّل الشروع وراعى ذلك الخاطر وجعل الحكم له فإن نوى عندما شرع قراءة سورة أو آيات معلومات ثم ارتجّ عليه فله أن يتم ما نوى، فيستطعم المأموم فيطعم المأموم ويفتح عليه إذا ارتجّ عليه. وقد سأل النبيّ ﷺ عن أبيّ حين أرتج عليه يقول له: «**لِمَ لَمْ تَفتَحْ عَلَيّ؟**» لأن أبياً كان حافظاً للقرآن، فراعى القصد الأوّل بالقراءة فأراد تمامه، والإرتاج على العبد في الصلاة من أدلّ دليل على وجود عين العبد، وأعني بوجود عينه ثبوته لأن ذلك ليس من صفات الحق، فإن صلّى بربه فينبغي للمصلي أن يكون مع الحق بحسب الوقت، فلا ينظر إلى ماض ولا إلى مستقبل، فلا يستفتح ولا يفتح عليه ولكن يركع حيث انتهى به ربه من كلامه فذلك الّذي تيسّر له من القرآن، قال تعالىٰ: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [سورة المزمل: الآية ٢٠] وقد فعل فلا ينبغي أن يكون لمخلوق في الصلاة أثر ينسب إليه وهو مذهب عليّ بن أبي طالب والجواز مذهب ابن عمر.

فصل بل وصل في موضع الإمام: اختلف العلماء في موضع الإمام، فمن قائل: بأنه يجوز أن يكون أرفع من موضع المأمومين. ومن قائل: بالمنع من ذلك، وقوم استحبّوا من ذلك اليسير، ومذهبنا أيّ شيء كان من ذلك جاز، وارتفاع موضع الإمام أولى لأجل الاقتداء به على التعيين.

وصل الاعتبار في ذلك: المناسبات في الأمور أولى من عدم المناسبات، ومرتبة الإمامة على من مرتبة المأموم، فينبغي أن يكون في تلك المرتبة الأفضل والأعلى، وينبغي أن يكون في موضعه أرفع لأنه في مقام الاقتداء به، فلا بدّ أن يكون له الشرف على المأموم فإنه موضع للمأموم ولهذا سمّي إماماً فله حالتان وحالتان، فالحالتان الأوليان أن يكون إماماً مأموماً معاً في حال واحدة فيقتدي بأضعف المأمومين في صلاته فهو مأموم، ويقتدي به المأموم في ركوعه وسجوده وجميع أفعاله فهو إمام. والحالتان الأخريان: حالة يسمّى بها مصلياً فهو مع ربه في هذه الحالة وهو إمام لغيره فله حالة أخرى فمن راعى كونه مصلياً منع أن يكون له شفوف على المصلين وإن كثروا فإنهم أئمة بعضهم لبعض من الإمام إلى آخر الصفوف، ومن راعى كونه إماماً كان أولى أن يكون موضعه أرفع من المأموم فهو بحسب مشهده.

فصل بل وصل في نية الإمام الإمامة: اختلف العلماء هل يجب للإمام أن ينوي الإمامة أم لا؟ فمن قائل: بوجوبها. ومن قائل: بأنها لا تجب وبه أقول وإن نوى فهو أولى.

وصل الاعتبار: ينبغي للمصلي أن يكون له شغل بربه لا بغير ربه، فإن الصلاة قسّمها الله بينه وبين المصلي فليس له أن ينوي الإمامة، ومن رأى أن قوله تعالىٰ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين من غير نظر إلى التفصيل الوارد بعد هذا القول في قراءة أمّ القرآن أدخل حكم رعاية المأموم في هذا القول أي المصلي إذا كان إماماً أو مأموماً فإن الصلاة مقسومة بيني وبين عبدي نصفين فينوي التوجّه إليّ، وينوي التوجّه إلى القبلة، وينوي القربة بهذه العبادة إليّ، وينوي الإمامة بالمأمومين، وينوي المأموم بهذه العبادة القربة إليّ، وينوي الائتمام بالإمام، وكل مصلّ بحسب ما يقع له ويشهده الحق في مناجاته.

فصل بل وصل في مقام المأموم من الإمام: لا يخلو المأموم إمّا أن يكون واحداً أو اثنين أو أكثر من اثنين، ولا يخلو إما أن يكون رجلاً أو رجلين أو امرأة أو صبياً، فأما المأموم إذا كان رجلاً بالغاً واحداً فإنه يقيمه عن يمينه، فإن كان صبياً أقامه عن يمينه مثل الرجل وقيل عن يساره ليمتاز حكم الصبي من حكم الرجل، فإن كان رجلين أقام أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره وإن شاء أقامهما خلفه، وإن كان رجلاً وصبياً فحكمهما مثل حكم الرجلين، فإن كان امرأة كانت خلف الإمام إذا انفردت، فإن كان معها رجل واحد فالرجل عن يمين الإمام والمرأة خلفه، وإن كان أكثر من واحد مع وجود المرأة أقام الرجال خلفه والمرأة أو النساء خلف الرجال.

وصل الاعتبار: ورد في الأخبار الندب إلى التخلق بأخلاق الله، قال عليه السلام: **«مَا كَانَ اللَّهُ لِيَنْهَاكُمْ عَنِ الرِّبَا وَيَأْخُذَهُ مِنْكُمْ»** وما من وصف وصف الحق به نفسه إلاّ وقد ندبنا إلى

الاتصاف به، وهذا معنى التخلق والاقتداء والائتمام وهذه الإمامة عينها، فالإمام على الحقيقة هو الله تعالىٰ والمأموم المخلوقون، فلا يخلو الإمام أن ينظر نفسه واحداً من حيث أحديته وهو ما يختص به ويتميز عن كل من سواه مع الحق، أو ينظر نفسه مع الحق من حيث شفعيته، أو ينظر مع الحق من حيث فرديته وهو الثلاثة أعني ثالث اثنين، أو ينظر نفسه من حيث إنه لم يكمل كما كمل غيره، أو ينظر نفسه مع الحق من كونه مائلاً إلى طبيعته وهو الصبي من صبا إذا مال، أو ينظر نفسه مع الحق من كونه مائلاً إلى طبيعته لا من حيث عقله فيكون بمنزلة المرأة، فلا يخلو إمّا أن يستحضر عقله مع طبيعته والحق تعالىٰ في هذه الأحوال كلها إمام، فاليمين للقوّة وكلتا يديه يمين للقربة وإسقاط الحول والقوّة والخلف للاقتداء والاتباع، فانظر أيها المصلي بأي حال حضرت في صلاتك ممّا ذكرناه، فقم به في المقام الذي بيّناه من الإمام تكن قد أتيت بالصلاة المشروعة، ولكن مشهودك الحق وإمامك من حيث ما وصفه الشارع لا من حيث ما دلّ عليه دليل العقل حتى تكون ذا دين في عقلك وعقدك عملك، وإن لم تفعل انتقص من عبادتك على قدر ما أدخلت فيها من عقلك من حيث فكرك ونظرك.

فصل بل وصل في الصفوف

وصل فيمن صلّى خلف الصف وحده: أجمع العلماء على أن الصف الأوّل مرغب فيه وكذلك التراص وتسوية الصف إلاّ من شذّ في ذلك فقال: من قدر على الصف الأول ولم يصلّ فيه بطلت صلاته، وكذلك التراص وتسوية الصفوف إذا لم يوجد بطلت الصلاة، ولما ثبت الأمر بذلك حمله بعض الناس على الندب وحمله بعض على الوجوب وهو الذي ذكرناه من أنه تبطل الصلاة بعدم هذه الصفة، والذي أقول به إن الصلاة صحيحة وهم عصاة، أمّا الصف الأوّل فورد الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ في المسابقة إليه، ثم إنه قال فيه: ثم لم يجدوا إلاّ أن يستهموا عليه لاستهموا عليه يريد الاقتراع، وأما التسوية فإنهم دعوا إلى حال واحدة مع الحق وهي الصلاة، فساوى في هذه الدعوة بين عباده فلتكن صفتهم فيها إذا أقبلوا إلى ما دعاهم إليه تسوية الصفوف، لأن الداعي ما دعا الجماعة إلاّ ليناجيهم من حيث إنهم جماعة على السواء لا يخصّ واحد دون آخر فيجب أن يكونوا على السواء، والاعتدال في الصف لا يتأخر واحد من الصف ولا يتقدّم بشيء منه يؤدّي إلى اعوجاجه فإنهم يناجون من هذه الحيثية، وينبغي أن تكون الصور الباطنة والهمم من المصلين متساوية في نسبة التوجّه إلى الله تعالىٰ والإخلاص له في تلك العبادة التي دعاهم إليها من حيث ما هم مصلون، وأن الله لما اصطفى منهم واحداً سمّاه إماماً ليناجيه عن الجماعة بما يحب أن يهبه للجماعة، وجعله كالترجمان بين يديه وبين أيديهم مقبلاً على ربهم، فيجب على الجماعة السكوت والإنصات والانتظار لما يرد عليهم من سيدهم بوساطة ذلك الإمام، ولهذا جاء في حديث جابر: «إنّ قراءة الإمام كافية عن الجماعة» فإنه الذي قدّمه الحق للمناجاة، فلما كان الإمام هو المقصود

في النيابة عن الجماعة وأمر الشرع أن يأتموا به في كل ما يفعله ممّا شرع له فعله وجب عليهم الإنصات والاقتداء بكل ما يفعله الإمام في صلاته.

وأما التراص في الصف فهو أن لا يكون بين الإنسان وبين الذي يليه خلل من أوّل الصف إلى آخره، وسبب ذلك أن الشياطين تسدّ ذلك الخلل بأنفسها وهم في محل القربة من الله تعالىٰ، فينبغي أن يكونوا في القرب بعضهم من بعض بحيث أن لا يبقى بينهم خلل يؤدّي إلى بعد كل واحد من صاحبه، فتكون المعاملة فيما بينهم من أجل الخلل نقيض ما دعوا إليه من صفة القربة فيتخلل تلك الخلل والفرج البعداء من الله لمناسبة البعد الذي بين الرجلين في الصف في الصلاة فينقصهم من رحمة القرب الذي للمصلي في الصف بقدر الخلل وبمرتبة ذلك الشيطان من البعد عن الله، فإذا لزقت المناكب بعضها ببعض انسدّ الخلل ولم تجد صفة البعد عن الله محلاً تقوم به لأن الشيطان الذي هو محل البعد عن الله ليس هناك، وإنما تفرح الشياطين بخلل الصف وتدخل فيه لما ترى من شمول الرحمة التي يعطي الله للمصلين فتزاحمهم في تلك الفرج لينالهم من تلك الرحمة شيء بحكم المجاورة من عين المنّة لمعرفتهم بأنهم البعداء عن الله وما هم هؤلاء الشياطين الذين يوسوسون في الصلاة فإن أولئك محلهم القلوب، فهم على أبواب القلوب مع الملائكة تلقي إلى النفس وتنكت في القلب ما يشغله عمّا دعي إليه.

ومن جملة ما تلقي إليه أن لا يسدّ الخلل الذي بينه وبين صاحبه لوجهين: الوجه الواحد: ليتصف بالمخالفة فيؤدّيه إلى البعد عن الله فإن الشيطان إنما كان بعده عن الله لمخالفته لأمر الله. والوجه الثاني: في حق أصحابهم من الشياطين ليتخللوا ذلك الخلل فتصيبهم رحمة المصلين فيناجي الإمام ربه ويناجيه، ولهذا شرع كناية الجمع في مناجاة الصلاة، وأن لا يخصّ الإمام نفسه في الدعاء دونهم فإنه لسان الجماعة، فالمكاشف يشهد هذا كله ويأخذ عن الله ممّا يعطيه بوساطة هذا الإمام ما يأتي به الله، وسواء كان ذلك الإمام قد وفى حق ما دعي إليه من الحضور مع الله أم لا فيتلقاه كل من هذه صفته من الله فيسعد الإمام بمثل هذا المأموم.

وأمّا غير المكاشف وغير الحاضر في الصلاة بقلبه إذا اجتمع هو والإمام في عدم الحضور كان الإمام من الأئمة المضلين، فإن حضر الجماعة مع الله ما عدا الإمام كان الإمام ضالاً وحده وإن سعد فبمن خلفه، وإن حضر الإمام وحده ولم تحضر قلوب الجماعة في تلك الصلاة شفع الإمام في الجماعة كلها فإنه العين المقصودة من الجماعة فقد حصل المقصود، ولهذا ينبغي أن يختار للإمامة أهل الدين والخير والمشتغلين بالله وإن كانوا قليلين من العلم فهم أولى بالإمامة من العلماء الغافلين، لأن المراد من المصلي الحضور مع الله فلا يحتاج من العلم المصلي من حيث ما هو مصلّ إلاً أن يعرف أنه بين يدي ربه يناجيه بما يسّر الله له من تلاوة كتابه لا غير ذلك، فلا يبالي بما نقصه من العلم في حال صلاته، حتى أن المصلي لو أحضر في مناجاته مبايعة ومسائل طلاق ونكاح لم يكن بينه وبين الغافل عن صلاته فرق، وإنما يكون مع الله من حيث ما هو بين يديه في عبادة خاصة دعاه إليها يحرم عليه فيها

في باطنه ما حرم عليه في ظاهره، فكما لا ينبغي أن يلتفت بوجهه التفاتاً يخرجه عن القبلة، كذلك لا ينظر بقلبه إلى غير من يناجيه وهو الله، وكما لا يشتغل بلسانه بسوى كلام ربه أو ذكره الذي شرع له لا يصحّ فيها شيء من كلام الناس، كذلك يحرم عليه في باطنه كلامه النفسيّ مع من يشاريه أو يبايعه أو يتحدّث معه في باطنه في نفس صلاته من أهل وولد وإخوان وسلطان سواء، فلهذا لا يشترط في الإمام كثرة العلم وإنما الغرض ما يليق بهذه الحالة، فإن اتفق أن يكون من هذه حالته من الدين والمراقبة والحياء من الله كثير العلم راسخاً سيداً كان الأولى بالتقدّم فإنه الأفضل ممّن ليس له ذلك.

فالصفوف إنما شرعت في الصلاة ليتذكر الإنسان بها وقوفه بين يدي الله يوم القيامة في ذلك الموطن المهول، والشفعاء من الأنبياء والمؤمنين والملائكة بمنزلة الأئمة في الصلاة يتقدّمون الصفوف، فكم شخص يكون هنا مأموماً من أهل الصفوف يكون غداً إماماً أمام الصفوف، ويكون إمامه الذي كان في الدنيا يصلي به مأموماً غداً، فيا لها من حسرة وصفوفهم في الصلاة كصفوف الملائكة عند الله كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [سورة الفجر: الآية ٢٢] وقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [سورة النبأ: الآية ٣٨] وهو الإمام النائب عن الجماعة، وأمرنا الحق أن نصف في الصلاة كما تصف الملائكة يتراصون في الصف، وإن كانت الملائكة لا يلزم من خلل صفها لو اتفق أن يدخلها خلل أعني ملائكة السماء دخول الشياطين لأن السماء ليست بمحل للشياطين ولا بمكان، وإنما يتراصون لتناسب الأنوار حتى يتصل بعضها ببعض فتتنزل متصلة إلى صفوف المصلين فتعمهم تلك الأنوار، فإن كان في صف للمصلين خلل دخلت فيه الشياطين أحرقتهم تلك الأنوار، وكذلك يكونون في الكثيب في الزورالعام يصفون كما يصفون في الصلاة فمن دخله خلل في صفه هنا وكان قادراً على سدّه بنفسه فلم يفعل حرم هنالك في ذلك الموطن بركته، وإن لم يقدر على سدّه عمته البركة هناك، وكل مصلّ بين رجلين فإنه ينضم إلى أحدهما ثم يجذب الآخر إليه فإن انجذب إليه كان وإلاّ كان الإثم على ذلك، ويكون الواحد الذي ينضم إليه هو الذي يلي جانب الإمام ولا بدّ، فإن كان في الصف الأوّل نقص وهو يراه وهو قادر على الوصول إليه ولا يمشي إلى الصف الأوّل حتى يتمّه أعني يسدّ الخلل الذي فيه لم ينفعه تراصه في الصف الذي هو فيه جملة واحدة فإنه ما تعين عليه إلاّ الأوّل فاعلم.

فصل بل وصل في المصلي خلف الصف وحده: اختلف الناس فيه، فمن قائل بصحة صلاته. ومن قائل بأنها لا تصح، والذي أذهب إليه في حكم من هذه حالته فإنه لا يخلو إما أن يجد سبيلاً إلى الدخول في الصف أو لا يجد، فإن لم يجد فليشر إلى رجل من أهل الصف أن يختلج إليه، فإن لم يختلج إليه لجهله بما له في ذلك عند الله من الأجر فإن صلاة هذا الرجل صحيحة فإنه قد اتقى الله ما استطاع ولا يستطيع في هذه الحالة أكثر من هذا، فإن قدر على شيء ممّا ذكرناه ولم يفعل فصلاته فاسدة، فإنّ النبيّ عليه السلام أمر من كان صلّى خلف الصف وحده أن يعيد وهو حديث وابصة بن معبد.

اعتبار ذلك في النفس: القربات إلى الله لا تعلم إلاّ من عند الله ليس للعقل فيها حكم بوجه من الوجوه، فإذا شرع الشارع القربات فهي على حدّ ما شرع، وما منع من ذلك أن يكون قربة فليس للعقل أن يجعلها قربة. ثم نرجع إلى مسألتنا فلا يخلو هذا المصلي وحده خلف الصف مع القدرة على ما قلناه، إمّا أن يكون من أهل الاجتهاد ويكون حكمه بإجازة ذلك الفعل وصحة صلاته عن اجتهاد أو لا يكون عن اجتهاد، فإن كان عن اجتهاد فالصلاة صحيحة، وإن لم يكن عن اجتهاد وكان مقلداً لمجتهد في ذلك بعد سؤاله إياه فصلاته صحيحة، وإن فعل ذلك لا عن اجتهاد ولا عن سؤال فصلاته فاسدة وهكذا في جميع القربات المشروعة، كما صحّت صلاة الإمام بين يدي الجماعة في غير صف صحّت صلاة من هو خلف الصف وحده، فإن لطيفة الإنسان واحدة العين، ولا تصف صفوف الجوارح عند الصلاة، ولا ينبغي أن يكون إمامها فإنها لا تقبل الجهة فما صلت إلاّ وحدها، وظاهر الإنسان جماعة فهو في نفسه صف وحده، فإن كل جزء منه مكلف بالعبادة والصلاة ولا ينفصل بعضه عن بعضه فهو صف وحده، فإن اشتغل ببعض جوارحه فيما ليس من الصلاة كان له ذلك الاشتغال في صف ذاته كالخلل الداخل في الصف، فبطريق الاعتبار ما صلّى الإنسان من حيث جملته إلاّ في صف، ومن حيث لطيفته وحده، فإنها لا تقبل الصفوف لعدم التحيّز، وهذا على مذهب من يقول إنها غير متحيزة. وأمّا من قال بتحيّزها التحقت بجملة ذات المصلي، فما صلّى من هو في صف ومن هو في غير صف إلاّ في صف من ذاته، وبهذا أجاز من أجاز الصلاة خلف الصف وحده، وقد بيّنا مذهبنا في ذلك بطريقة تعضدها أصول الشرع.

فصل بل وصل في الرجل أو المكلف يريد الصلاة فيسمع الإقامة هل يسرع في المشي إلى المسجد مخافة أن يفوته جزء من الصلاة أم لا؟: فمن قائل: لا يجوز الإسراع بل يأتي وعليه السكينة والوقار وبه أقول. ومن قائل: يجوز الإسراع حرصاً على الخير وأكره له ذلك.

وصل اعتبار ذلك: المسارعة إلى الخيرات مشروعة والسكينة مشروعة والوقار والجمع بينهما أن تكون المسارعة بالتأهب المعتاد قبل دخول وقتها فيأتيها بسكينة ووقار فيجمع بين المسارعة والسكينة، وإنما أمر العبد بالمسارعة إلى الخيرات لتصرفه في المباحات لا غير، فمن كانت حالته أن لا يتصرف في مباح فهو في خير على كل حال، ولذلك ورد ما يدل على الحالين معاً فقيل: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٣] وهي العبادة هنا من سارع إليها فقد سارع إلى المغفرة، وقال في الحالة الأخرى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٦١] فجعل المسارعة فيها وفي الأولى إليها فإنها ما هي نائبة عنه، وهنا وجه أيضاً وذلك أن المغفرة لا تصحّ إلاّ بعد حصول فعل الخير الموجب لها، فنحن نسارع في الخيرات إلى المغفرة فكان المسارع فيه غير المسارع إليه، فالعبد إذا كان تصرفه في غير المباح فلا بدّ أن يكون في مندوب أو واجب، فإن كان في مندوب واستشعر بحصول وقت واجب سارع إليه في مندوبه بإقامة أسبابه التي لا يصحّ ذلك الواجب إلاّ بها، ومعنى المسارعة هنا المبادرة إلى الأفعال التي هي شرط في صحة ذلك الواجب.

فمن رأى الجماعة واجبة ومن قال بإتمام الصف ووجوبه وهو في خير فإنه آت إلى الصلاة مثلاً فيسمع الإقامة فأمره الشارع أن يأتي إليه وعليه وقار وسكينة، وسبب ذلك أن الحق لا يتقيد بالأحوال، وأن الآتي إلى الصلاة في صلاة ما دام يأتي إليها أو ينتظرها فنفس الإسراع المشروع قد حصل، وأما الإسراع بالحركة فإنه يقتضي سوء الأدب وتقييد الحق ولهذا قال رسول الله ﷺ للذي دبّ وهو راكع حتى دخل الصف وهو أبو بكرة: «**زَادَكَ اللَّهُ حِرْصاً وَلاَ تَعُدْ**» يعني إلى إسراع الحركة، وما قال له زادك الله إسراعاً فإن الحرص أوجب له الإسراع فنبهه رسول الله ﷺ على أن الحرص على الخير هو المطلوب وهو الإسراع المطلوب لله من العبد لا حركة الإقدام فإن ذلك يؤذن بتحديد الله والله مع العبد حيث كان. وقد وقع لك التفريط أولاً بتأخرك فهنالك كان ينبغي لك الإسراع بالتأهّب، كما حكي عن بعضهم أنه ما دخل عليه منذ أربعين سنة وقت صلاة إلاّ وهو في المسجد. وحكي عن آخر أنه بقي كذا سنة ما فاتته تكبيرة الإحرام مع الإمام.

وقوله: بوقار يشير أن العبد ينبغي له أن يعامل الله في نفسه بما يستحقه من الجلال والهيبة والحياء، فإن هذه الأحوال تؤثر ثقلاً في الجوارح وتثبت الموازنة حركته مع الله أن يقع منه كما أمره الله بخضوع وخشوع وهو السكينة المطلوبة كما قال: لو خشع قلبه لخشعت جوارحه يعني لسرى ذلك في جوارحه فإن السرعة بالإقدام لا تكون إلاّ ممّن همّته متعلقة بالجهة التي يسارع إليها من أجل الله لا بالله، وينبغي للعبد أن تكون همته متعلقة بالله فيكون المشهود له الحق تعالىٰ، ومن كان بهذه المثابة كانت حالته الهيبة والسكون ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [سورة طه: الآية ١٠٨] قال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ هذا مع الاسم الرحمن فكيف بمن لا يعرف أي اسم إلهي يمشي إليه أو يمشي به، فمن كان حاله في الوقت ما يمشي إليه ويقصده أجاز الإسراع، ومن كان حاله مشاهدة من يقصد به قال: لا يجوز فإنه تضييع للوقت، والشارع إنما يراعي وارد الوقت، ووقت الآتي إلى الصلاة مشاهدة المقصود بها، فشرع له السكينة والوقار في الإتيان دون سرعة الأقدام إعظاماً لحرمة الوقت واستيفاء لحقه.

فصل بل وصل متى ينبغي للمأموم أن يقوم إلى الصلاة إذا كان في المسجد ينتظر الصلاة؟: فمن قائل: في أول الإقامة. ومن قائل: عند قوله: حيّ على الصلاة. ومن قائل: عند قوله: حيّ على الفلاح. ومن قائل: حتى يرى الإمام وهو الأولى عندي. ومن قائل: لا توقيت في ذلك، وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «**لاَ تَقُومُوا حَتَّى تَرَوْنِي**» فإن صحّ هذا الحديث وجب العمل به ولا يعدل عنه. وأمّا مذهبنا في ذلك إن لم يصحّ هذا الحديث المسارعة في أول الإقامة، ثم إن عندنا ولو صحّ الحديث فإن هذا الحديث عندي إذا صحّ فحكم النبي عليه السلام في هذه المسألة في الانتظار إليه ولا نقوم حتى نراه كما أمر ما هو كحالنا اليوم، فإن زمان وجود النبي كان الأمر جائزاً أن ينسخ وأن يتجدد حكم آخر، فكان ينبغي أن لا يقوموا لقول المؤذن حتى يروا النبي ﷺ خرج إلى الصلاة، فيعلمون عند ذلك أنه ما حدث أمر برفع

حكم ما دعوا إليه بخلاف اليوم فإنّ حكم القيام إلى الصلاة باق فيقوم إذا سمع المؤذن يقيم مسارعاً، وإن اتفق أن يغلط المؤذن بأن يسمع حسّاً فيتخيل أنه الإمام فيقيم والإمام ما خرج فما على من قام بأس في ذلك بل له أجر الإسراع إلى الخير ويرجع إلى مكانه إلى أن يخرج الإمام فإنه على يقين من بقاء حكم الصلاة.

الاعتبار: المقيم للصلاة هو حاجب الحق الذي يدعو الخلق إلى الدخول على الله بهذه الحالة والصفة التي دعاهم وشرع لهم أن يدخلوا عليه فيها فيسارعون في القيام بأدب وسكون كما ذكرنا وحضور لما يستقبلونه، واستحضار لما ينادونه به من قراءة وذكر وتكبير وتسبيح ودعاء معين عينه لهم لا يتعدونه في تلك الحالة، فإذا فرغوا منها بالسلام دعوا بما شاؤوا ولكن ممّا يرضي الله لا يدعون على مسلم ولا بقطيعة رحم.

فصل بل وصل فيمن أحرم خلف الصف خوفاً أن يفوته الركوع مع الإمام ثم دبّ وهو راكع حتى دخل في الصف: فمن الناس من كرهه. ومنهم من أجازه. ومنهم من فرّق بين المنفرد والجماعة في ذلك فكرهه للمنفرد وأجازه للجماعة.

وصل الاعتبار: الركوع هو الخضوع لله تعالىٰ والمبادرة إليه أولى، غير أن مشيه راكعاً حتى يدخل في الصف هو الذي ينبغي أن يكون متعلق الكراهة أو الجواز، فمن رأى سدّ الخلل واجباً أو الصلاة خلف الصف لا تجزىء مشى على حاله حتى يدخل في الصف، فإن الشارع ما أبطل صلاة أبي بكرة بذلك ودعا له ونهاه أن لا يعود فعلم أنه نهي كراهة. فإن قالوا: قضية في عين. قلنا: ونهيه أن لا يعود قضية في عين لأنه المخاطب أن لا يعود ولم ينه غيره عن ذلك، ولكن بقرينة الحال علمنا أن المراد بذلك المصلي كان من كان أن يكون في حال صلاته على حد ما أمر به، فكل ما هو من تمام الصلاة جاز التعمل إلى تحصيله في الصلاة ويتعلق بهذا مسائل على هذه القاعدة.

فصل بل وصل فيما يتبع فيه المأموم الإمام: لا خلاف بين العلماء في وجوب اتباعه فيما نص الشارع عليه من أقوال وأفعال، واختلفوا في قوله: سمع الله لمن حمده، فمن الناس من قال: بأنه لا يجب عليه أن يقولها مع الإمام. ومنهم من أجاز له أن يقولها والأول أولى عندي للحديث الوارد.

وصل الاعتبار: لما أنزل الإمام نائباً عن الحق في حق من يقتدي به صحّ له أن يقول: سمع الله لمن حمده فهو ترجمان عن الحق للمأمومين يعرفهم بأنّ الله يقول ذلك حين حمدوه في تلاوتهم وتسبيحهم في ركوعهم فهو مخبر عمّن استخلفه، ولو أقام الله الإمام مقامه في الحال لقال: سمعت لمن حمدني، فأثبت بقوله: سمع الله لمن حمده عين العبد. واعلم أنه ما عبده إلاً من كونه إلهاً لا من حيث ذاته خلافاً لقول رابعة العدوية. فإن قيل: فما تصنع في مثل قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [سورة المجادلة: الآية ١] وهو كلام الله لعبده عليه السلام، ولم يقل: سمعت يريد ما ذكرنا وما يدريك لعل قوله: سمع الله لمن حمده مثل

هذا ولا سيما والنبي عليه السلام يقول: إن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، قلنا: أما الآية فقد تكون تعريفاً من جبريل الروح الأمين بأمر الله أن يقول له مثل هذا أي قل له يا جبريل: قد سمع الله، كما قيل لمحمد: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٦] وهو بشر فإن الحق لا يكون بشراً، وهكذا جميع ما في كلام الله من مثل هذا، فإن أضفته ولا بدّ إلى الحق فليكن الكلام لله من مرتبة خاصة إخباراً عن مرتبة أخرى خاصة إن شئت عبرت عنها بالذات وإن شئت عبرت عنها باسم إلهي فيقول الحق من كونه متكلماً: يا محمد قد سمع الله، فيريد بالله هنا الاسم السميع أو العليم على مذهب من يرى أن سمعه علمه، والأول على من يرى أن سمعه حقيقة أخرى لا يقال هي هو ولا هي غيره، وعلى الذي قيل الأول من يرى أن سمعه ذاته وهكذا سائر ما ينسب إليه من الصفات، فللمأموم أن يقول: سمع الله لمن حمده على هذا التفسير كله وإن ورد ذلك في حق الإمام، فما ورد المنع منه في حق المأموم ولا في الحق المنفرد، ولا سيما والإنسان إمام جماعة ذاته، وما من جزء فيه إلاّ وهو حامد لله، فيعرف لسانه سائر ذاته بأن الله قد سمع لمن حمده، ولا سيما من كشف له عن تسبيح كل شيء بحمده.

الفصل الآخر في الائتمام: الائتمام لا يصحّ إلاّ مع العلم من المأموم فيما يأتم به من أفعال الإمام ظاهراً وباطناً والعامّة بل أكثر الناس لا يعلمون من الإمام إلاّ الحركات الظاهرة من قيام وركوع ورفع وسجود وجلوس وتكبير وتسليم، والنية غيب من عمل القلب لا يطلع عليها المأموم، فما كلفه الله أن يأتم به فيما لا يعلمه منه ولهذا قال عليه السلام: «**إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّروا وَلاَ تُكَبِّروا حَتَّى يُكَبِّرَ، وَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا ولاَ تَرْكَعُوا حَتَّى يَرْكَعَ، وإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ، وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا وَلاَ تَسْجُدُوا حَتَّى يَسْجُدَ**» وما تعرض للنية ولا لما غاب عن علم المأموم فذكر الأفعال الظاهرة التي يتعلق بإدراكها الحسّ، ولا سيما وقد ثبت أن الصلاة الواحدة لا تقام في اليوم مرتين، وأن أحد الصلاتين من المصلي وحده ثم يدرك الجماعة فيصلي معها أنها له نافلة فقد خالف الإمام في النية بالنص، ثم إن للمأموم بهذا الحديث أن يقول: سمع الله لمن حمده، ثم يقول: ربنا ولك الحمد للائتمام بإمامه فإنه قد ثبت أن النبي ﷺ قال في صلاته وهو إمام: «**سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ**».

الفصل الآخر في الائتمام بصلاة القاعد: اتفق العلماء من أصحاب المذاهب وغيرهم أنه ليس للصحيح أن يصلي قاعداً فرضاً إذا كان منفرداً أو إماماً، واختلفوا في المأموم إذا كان صحيحاً فصلّى خلف إمام مريض يصلي ذلك الإمام المريض قاعداً على ثلاثة أقوال: فمن قائل: إنه يصلي خلفه قاعداً وبه أقول. ومن قائل: إنهم يصلون خلفه قياماً. ومن قائل: لا تجوز إمامته إذا صلّى قاعداً. وأماإن صلّوا خلفه قياماً أو قعوداً بطلت صلاتهم. وقد ذكر بعض رواة مالك عن مالك قال: لا يؤم الناس أحد قاعداً فإن أمّهم قاعداً بطلت صلاتهم وصلاته فإن النبي ﷺ قال: «**لاَ يَؤُمَّنَّ أَحَدٌ بَعْدِي قَاعِداً**» وهذا الحديث ضعيف جداً لأنّ في

طريقه جابر بن يزيد الجعفي وليس بحجة ومع ضعفه فالحديث مرسل والصحيح الثابت إمامة القاعد.

وصل الاعتبار في ذلك: الإمام على الحقيقة من نواصي الخلق بيده، فلا يخلو المصلي المأموم أن يرى الإمام نائباً عن الحق كما جعله ﷺ أو يراه مأموماً مثله، فإن رآه إماماً فله الائتمام به على أي حال كان، وإن رآه مأموماً مثله جعل الحق إمامه وصلّى قاعداً لأمره ﷺ بذلك، فإن هذا هو إمامه شرعاً، ومن جعل الحق في قبلته وواجهه غاب عنه إمامه بلا شك، وقد اختلفت حالة الإمام بالمرض من حال المأموم والمأموم إذا كان مريضاً صلّى خلف القائم للعذر وقد مضى اعتبار النيّة في الإمام والمأموم، وقد أمر الإمام أن يقتدي بصلاة المريض في التخفيف به ولا يشقّ عليه وكل واحد منهما قد أمر بالاقتداء بالآخر وعيّن الشارع فيما ذا، فلا ينبغي العدول عمّا عيّنه الشارع من ذلك لمن أراد اتباع السنّة والوقوف عند حكم الله ورسوله، وإذا كان الإمام على الحقيقة هو الله وهو سبحانه لا يغفل عن حالات عبده في حركاته وسكناته ولا يشغله عن مراقبته شيء فإنه قال عن نفسه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٢] فينبغي للمأموم الذي هو العبد أن يقتدي به في المراقبة والحضور فلا يغفل عن سيده في صلاته ولا يشغله شيء عن مراقبته في صلاته حتى يصحّ له أن يكون مؤتماً به في مثل هذا الوصف من المراقبة وعدم الغفلة فاعلم ذلك.

فصل بل وصل في وقت تكبيرة الإحرام للمأموم: فمن قائل: يكبّر بعد فراغ الإمام من تكبيرة الإحرام استحساناً وإن كبّر معه أجزأه. ومن قائل: لا يجزيه أن يكبّر معه وبالأول أقول أن يكبّر بعد الفراغ لا يجزيه غير ذلك. ومن قائل: لا يجزيه أن يكبّر قبل الإمام. ومن قائل: إن كبّر قبل الإمام أجزأه. ومن قائل: إن كبّر مع تكبير الإمام وفرغ بفراغ الإمام أجزأه، وإن فرغ المأموم من تكبيره قبل فراغ الإمام لم يجزه الإحرام للمأموم، أما أن يعتبر فيه كونه مصلياً فقط فيجزي قبل الإمام ومعه وبعده، وإن اعتبر كونه مصلياً ومأموماً لم يجزه أن يكبّر قبل الإمام فإن النبيّ ﷺ يقول: «**وَلاَ تُكَبِّرُوا حَتَّى يُكَبِّرَ**» فنهى، فإن علم أنه نهي كراهة أجزأه قبل الإمام ومعه، وإن علم أنه نهي تحريم لم يجزه.

وصل الاعتبار في ذلك: ورد في الخبر: «**أن العبد يقول في حال من الأحوال: الله أكبر، فيقول الله: أنا أكبر، يقول العبد: لا إله إلاّ أنت، يقول: لا إله إلاّ أنا، يقول العبد: لا إله إلاّ الله له الملك وله الحمد، يقول الله: لا إله إلاّ أنا لي الملك ولي الحمد يصدق عبده**».
ومن هنا كان اسمه المؤمن وأمثاله، فإذا كان الحق لا يقول شيئاً من ذلك حتى يقول العبد فالعبد أولى بالاتباع، فليس للمأموم أن يسبق إمامه بشيء من أفعال الصلاة ولا من أقوالها حتى في قراءة الفاتحة ليس له أن يشرع فيها إذا جهر بها حتى يفرغ منها أو يتبع سكتات الإمام فيها فيقرأ ما فرغ الإمام منها في سكتة الإمام، وفي صلاة السرّ يقرأها بحسب ما يغلب على ظنّه إلاّ في الصلاة بعد الجلسة الوسطى فإنه يقرأها ابتداء.

فصل بل وصل فيمن رفع رأسه قبل الإمام: فمن قائل: إنه أساء ويرجع وصحت صلاته. ومن قائل: صلاته تبطل.

وصل الاعتبار: الإمام الحق والقيومية صفته، فلا يجوز للمأموم أن يرفع قبل إمامه وأن صلاته تبطل فإنه في حال لا يصحّ فيها أن يكون مأموماً لمثله ولا للحق، فإن قيومية الحق به في رفعه من الركوع تسبق قيوميته، إذ كل ما يقام فيه العبد إنما هو عن صفة إلهية ظلّها هو الذي يظهر في العبد والظل تبع بلا شك، والعبد ظل لقول السلطان ظل الله في الأرض، وإنما ورد هذا في الرفع لأن طلب العلو بل العلو له سبحانه بالاستحقاق، وإنما الذي ينبغي للمأموم الاقتداء بالإمام في كل خفض ورفع، فأما الخفض فربما تطلب النفس فيه للتخيّل الفاسد الذي يطرأ من الجاهل، فاعلم أن الحق وصف نفسه بالنزول فيسبق المأموم بخفضه نزول الحق إليه قبل نزوله وهويه إلى السجود، فلا ينحط إلى السجود حتى يسبقه إمامه فإنه إن لم يكن يجد الحق في سجوده فلمن ينزل هذا العبد المصلي وينحط بفعله ذلك فلا ينحط إلاّ للإله الذي وصف نفسه بالنزول من علوه إلى عبده فيقول العبد: يا رب هذه صفتي فأنا أحق بها وإنما ضرورة الدعوى رفعتني عن مقام الانحطاط لكونك أخبرت أنك خلقتني على الصورة فشمخت نفسي على من نزل عن هذه الدرجة التي خصصتني بها ثم مننت عليّ بأن نزلت إليّ، فمن كان هذا مشهده ومشربه اقتدى بالإمام في جميع الأحوال والأحكام.

فصل بل وصل فيما يحمله الإمام عن المأموم: اتفق علماؤنا على أنه لا يحمل الإمام عن المأموم شيئاً من فرائض الصلاة ما عدا القراءة فإنهم اختلفوا في ذلك. فمن قائل: إن المأموم يقرأ مع الإمام فيما أسرّ به ولا يقرأ معه فيما جهر به. ومن قائل: لا يقرأ معه أصلاً. ومن قائل: يقرأ معه فيما أسرّ أم الكتاب وغيرها وفيما جهر أم الكتاب فقط وبه أقول. وبعضهم فرّق في الجهر بين من يسمع قراءة الإمام وبين من لا يسمع فأوجب على المأموم القراءة إذا لم يسمع ونهاه عنها إذا سمع، والذي أذهب إليه بعد وجوب قراءة الفاتحة على كل مصلّ من إمام وغير إمام أنه إن قرأ في نفسه كان أفضل إلاّ أن يكون بحيث يسمع الإمام، فالإنصات والاستماع لقراءة الإمام واجب لأمر الله الوارد في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٤] وما خصّ حال صلاة من غيرها والقرآن مقطوع به عند الجميع، وإذا لم يسمع إن لم يقرأ المأموم أعني غير الفاتحة أجزأته صلاته إلاّ فاتحة الكتاب كما قلنا فإنه لا بدّ منها لكل مصلّ، فإن الله قسّم الصلاة بينه وبين عبده وما ذكر إلاّ الفاتحة لا غير، فمن لم يقرأها فما صلّى الصلاة المشروعة التي قسّمها الله بينه وبين عبده ولكن يتبع المأموم بقراءة الفاتحة سكتات الإمام فيجمع بين الآية والخبر، وإن لم يسكت الإمام ويكره له ذلك فليقرأها المأموم في نفسه بحيث أن لا يسمعه الإمام آية آية حتى يفرغ منها ولا يجهر على الإمام بقراءته.

وصل الاعتبار في ذلك: لما احتوت الصلاة على أركان وهي فروض الأعيان لم تجز فيها نفس عن نفس شيئاً، وكل ما ليس بفرض ويجبره سجود السهو فإن الإمام يحمله عن

المأموم، ومعناه أن المأموم إذا نقصه أو زاد لم يسجد لسهوه وذلك أن الفروض حقوق الله فحق الله أحق بالقضاء، وما عدا الفروض وإن كانت حقاً من حيث ما هي مشروعة وهي على قسمين: منها ما جعل لها بدل وهو سجود السهو وهي الأفعال التي للشرع بها اعتناء من حيث ما فيها من الإنعام الذي يقرب من إنعام الفرائض بالشبه ولهذا جعل لها بدل، ومنها ما هي حقوق للعبد ممّا رغب فيها، فإن شاء عمل بها وإن شاء تركها وما جعل لها بدل، فإن عمل بها كان له ثواب، وإن لم يفعلها لم يكن عليه حرج، ولم يحصل له ذلك الثواب الذي يحصل من فعلها كرفع الأيدي في كل خفض ورفع عمداً، فإن كان في نفسه الرفع أو من مذهبه لما اقتضاه دليله فلم يفعل نسياناً وسهواً فإنه يسجد لسهوه لا لرفع اليدين، فإنّ السجود ما شرعه الله إلاّ للسهو هنا لا للمسهو عنه، بدليل أنه لو تركه عمداً أو عن اجتهاد لم يسجد له، بخلاف ما جعل له بدل وليس بفرض فإن الصلاة تبطل بتركه عمداً أو بفعل ما لم يشرع له فعله عمداً، وفرق بين الجلسة الوسطى وبين جلسة الاستراحة والجلسة التي بين السجدتين في كل ركعة والجلسة الأخيرة، وحكم ذلك كله مختلف، واعتباره في العماء وفي العرش وفي السماء الدنيا وفي الأرض عند جلوس العبد في مجلسه، فالعماء للجلوس بين السجدتين، والعرش للجلسة الأخيرة، والسماء للجلسة الوسطى، ومع جلوسي في الأرض حيث كنت من مجالسي لجلوس الاستراحة، وأما من جلس في وتر من صلاته فما حكمه حكم الجلسة الوسطى فإنه لم يشرع له تركها، وجلسة الاستراحة شرع له فعلها، فلو تعمد جلوس الاستراحة فقد تعمد ما شرع له ولم تبطل صلاته، وإن جلس في وتر من صلاته ناسياً وهو يريد القيام سجد لسهوه لا لجلوسه وله أجر الجلوس وأجر ما سها عنه لسجود السهو الذي هو ترغيم للشيطان، وله أجر من أنكى في عدوّ الله وفي عدوّه فإن الله يقول: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٠] والشيطان من الكفار لقول الله فيه: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٤] وسيأتي ما يليق بهذا كله في السهو من هذا الباب إن شاء الله تعالىٰ.

فصل بل وصل في ارتباط صلاة المأموم بصلاة الإمام في الصحة والبطلان: اختلف العلماء هل صحة انعقاد صلاة المأموم مرتبطة وبه أقول وإن اقتدى به فيما أمر أن يقتدي به فيه بصحة صلاة الإمام أو لا؟ فمن الناس من رأى أنها مرتبطة. ومنهم من لم ير أنها مرتبطة، ولهذا اختلفوا في الإمام إذا صلّى وهو جنب وعلموا بذلك بعد الصلاة، فمن يرى الارتباط قال: صلاتهم فاسدة، ومن لم ير الارتباط قال: صلاتهم صحيحة وهو الذي أذهب إليه. وفرّق قوم بين أن يكون الإمام عالماً بجنابته أو ناسياً فقالوا: إن كان عالماً فسدت صلاتهم، وإن كان ناسياً لم تفسد صلاتهم.

وصل الاعتبار في ذلك: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] وما في وسع الإنسان أن يعلم ما في نفس غيره ولا يحيط علماً بأحوال غيره، فكل مصلّ إنما هو على حسب حاله مع الله، ولهذا ما أمره الشرع في الائتمام بإمامه إلاّ فيما يشاهده من الإمام من رفع

وخفض، فإن كوشف بحال الإمام كان حكمه بحسب كشفه، فإذا علم أن الإمام على غير طهارة فليس له أن يقتدي به من وقت علمه وصحّ له ما مضى من صلاته معه قبل علمه، ولا اعتبار في ذلك لنسيان الإمام أو عمده، فإن الإمام عنده من وقت علمه في غير صلاة شرعاً، وما أمره الله أن يرتبط أعني أن يقتدي إلاّ بالمصلي، فإن كان الإمام ناسياً لجنابته أو حدثه فهو مصلّ شرعاً، وصلاة المأموم صحيحة شرعاً وائتمامه بمن هو مصلّ شرعاً، وإن علم المأموم أن الإمام على غير طهارة فإن تمكّن للمأموم أن يعلمه بحدثه في نفس صلاته أعلمه بحيث أن لا تبطل صلاة المأموم بذلك الإعلام فإن الله يقول: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٣٣] وإن لم يتمكن صلّى لنفسه، فإذا فرغ من صلاته أعلمه بحدثه سواء فرغ الإمام أو لم يفرغ، فإن تذكر الإمام أو قلّده تتطهر، وإن لم يتذكر ولم يقلده فهو بحسب ما يقتضيه علمه ومذهبه في ذلك وصلاة المأموم صحيحة. انتهى الجزء الحادي والأربعون بانتهاء السفر السادس من هذه النسخة والحمد لله.

[السفر السابع]

(الجزء الثاني والأربعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل في فصول الجمعة

فصل بل وصل في الخلاف في وجوبها: اختلف العلماء في وجوب الجمعة. فمن قائل: إنها من فروض الأعيان. ومن قائل: إنها من فروض الكفاية. ومن قائل: إنها سنّة.

وصل في الاعتبار: ليس لهذه الصلاة قدم في توحيد الذات ولا نتيجة في حال العالم بها العامل لكن لها العلم بأحدية الكثرة، وكذلك من يرى أن الذات اقتضت لنفسها وجود العالم فلا ينتج هذا العلم ما يرد من الله على قلب العبد ولا في تجليه في هذه الصلاة، وذلك أنها مبنية في وجودها وحقيقتها على الزائد على الواحد فهي من حضرة الأسماء الإلهية، فإن وقوعها لا يصحّ من المنفرد بخلاف الصلوات كلها فإنها تصحّ من المنفرد، وكل صلاة ما عدا الجمعة تعطي ما تعطي الجمعة من حيث ما هي صلاة من تكبيرة الإحرام إلى التسليم منها، وتعطي ما لا تعطيه الجمعة من العلم بأحدية الحق التي لها الغنى على الإطلاق، ومن العلم برجوع النسب أو الصفات إلى عين واحدة فاعلم ذلك.

وصل في فصل فيمن تجب عليه الجمعة: اتفق العلماء على أنها تجب على من تجب عليه الصلوات المفروضة، ثم زادوا أربعة شروط: اثنان متفق عليهما واثنان مختلف فيهما، فالمتفق عليهما: الذكورة والصحة وأنها لا تجب على المرأة والمريض، والاثنان المختلف فيهما: المسافر والعبد، فمن قائل: إن الجمعة تجب على المسافر وبه أقول وتجب على العبد فللعبد أن يتأهب فإن منعه سيّده فيكون السيد من الذين يصدّون عن سبيل الله، ومن قائل: إنه

لا تجب عليهما وقد ورد خبر متكلم فيه أن الجمعة واجبة إلاَّ على أربعة: عبد مملوك، أو امرأة، أو صبيّ، أو مريض. وفي رواية أخرى: إلاَّ خمسة وذكر المسافر.

وصل في اعتبار ذلك: لما كان من شرطها ما زاد على الواحد وأنها لا تصحّ بوجود الواحد، فاعلم أن العقل قد علم أن الله أحدية ذاتية لا نسبة بينها وبين طلب الممكنات وقد ذكرناها والعاقل يعلمها، فمن المحال أن يعقل العقل وجود العالم من هذه الأحدية، فوجب عليه بصلاة الجمعة أن يرجع إلى النظر فيما يطلبه الممكن من وجود من له هذه الأحدية فنظر فيه من كونه إلهاً يطلب المألوه، فهذه معرفة أخرى لا تصحَ إلاَّ بالجماعة وهو تركيب الأدلة وترتيبها فوجبت صلاة الجمعة على العقل الموصوف به العاقل، ولما كانت المرأة ناقصة عقل ودين فالعقل الذي نقص منها هو عقل هذه الأحدية الذاتية، فوجبت الجمعة على الرجل وهو الجمع بين العلم بتلك الأحدية وبين العلم بكونه إلهاً، ونقص عقل المرأة عن علم تلك الأحدية فلم يجب عليها أن تجمع بينها وبين العلم بالله من كونه إلهاً.

وأما العبد الذي يسقط عنه وجوب الجمعة عند من يقول به وهو العبد المستحضر لجبر الله له في اختياره فإن الحقيقة تعطي أن العبد مجبور في اختياره، فلما لم يتمكن له أن يجمع بين الحرية والعبودة لم تجب عليه الجمعة، وكل من ذكرناه ونذكر أنه لا تجب عليه الجمعة أنه إذا حضرها صلاّها، كذلك إذا حضرت مواطن الاعتبارات المانعة للمذكورين من الوجوب أنها لا تجب عليه فإن فني عنها بحال يخالفها وجبت الجمعة أي وجب عليه علم ما لم يكن يجب عليه علمه كمريم وآسية اللتين حصل لهما درجة الكمال فتعين عليهما علم الأحدية الذاتية، وعلم الأحدية الإلهية التي هي أحدية الكثرة.

وأمّا المريض وهو الذي لا يقول بالأسباب ولا يعلم حكمتها فلم يحصل له مقام الصحة حيث فاته من العلم بالله قدر ما تعطيه حكم الأسباب، ومن لم يعط حاله هذا العلم ويقدح في تجريده ويخاف عليه لم يجب عليه أن يجمع بين العلم بحكم الأسباب وبين العلم بتجريد التوحيد عنها.

وأمّا المسافر فإن حاله يقتضي أن لا تجب عليه الجمعة فإنه ما بين ابتداء الغاية وانتهاء الغاية فهو بين من وإلى فلا تعطي حالته أن يجمع بين من وإلى التي تطلبها لا من التي هي في إلى إلى إلى أخرى، فإن إلى تلك غابت فيها من، ولولا إلى الأخرى ما عرفت أن في نفس إلى الأولى من، فما نهاية إلاَّ ولها بداية ولا ينعكس، فلا تجب عليه الجمعة من حيث ما هو عين من الأولى، والذي نقول بو-جوبها عليه إنما هو مع من التي تتضمنها إلى الأولى وإلى الثانية والثالثة وكذا إلى ما لا نهاية له، فلولا المنازل في الطريق والمقامات ما عقل لمن غاية، فإلى تطلب من ومن لا تطلب إلى.

وأما الصبي فهو المائل إلى طبيعته لا يعرف غيرها. ولا يصحّ كونه صبياً إلاَّ بهذه الصفة، فمن المحال أن يرفع رأسه إلى معرفة حقيقته التي يصحّ له بالعلم بها الجمعة، فلهذا اعتبرنا أن الصبيّ لا تجب عليه الجمعة.

وصل في فصل شروط الجمعة: اتفق العلماء على أنها شروط الصلاة المفروضة المتقدّمة وقد ذكرناها ما عدا الوقت والأذان فإنهم اختلفوا في ذلك، وكذلك اختلفوا في الشروط المختصّة بها وسأذكرها.

وصل في فصل الوقت: فمن قائل: إن وقتها وقت الزوال يعني وقت صلاة الظهر. ومن قائل: إن وقتها قبل الزوال، وأنا أقول بالتخيير بين الوقتين.

وصل الاعتبار في ذلك: قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٥] فأمرنا بالنظر إليه والنظر إليه معرفته ولكن من حيث إنه مدّ الظل وهو إظهاره وجود عينك، فما نظرت إليه من حيث أحدية ذاته في هذا المقام، وإنما نظرت إليه من حيث أحدية فعله في إيجادك في الدلالة وهو صلاة الجمعة فإنها لا تجوز للمنفرد، فإن من شرطها ما زاد على الواحد، فمن راعى هذه المعرفة الإلهية قال بصلاتها قبل الزوال لأنه مأمور بالنظر إلى ربه في هذه الحال، والمصلي يناجي ربه ويواجهه في قبلته، والضمير في عليه يطلبه أقرب مذكور وهو الظل ويطلبه الاسم الرب وإعادته على الرب أوجه، فإنه بالشمس ضرب الله المثل في رؤيته يوم القيامة فقال على لسان نبيه ﷺ: «**تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ بِالظَّهِيرَةِ**» أي وقت الظهر، وأراد عند الاستواء بقبض الظل في الشخص في ذلك الوقت لعموم النور ذات الرائي وهو حال فنائه عن رؤية نفسه في مشاهدة ربه. ثم قال: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٦] وهو عند الاستواء، ثم عاد إلى مدّه بدلوك الشمس وهو بعد الزوال، فعرفه بعد المشاهدة كما عرفه الأول قبل المشاهدة والحال الحال قال: إن وقت صلاة الجمعة بعد الزوال لأنه في هذا الوقت ثبتت له المعرفة بربه من حيث مدّه الظل، وهنا تكون إعادة الضمير من عليه على الرب أوجه فإنه عند الطلوع يعاين مدّ الظل فينظر ما السبب في مدّه فيرى ذاته حائلة بين الظل والشمس فينظر إلى الشمس فيعرف من مدّه ظلّه ما للشمس في ذلك من الأثر، فكان الظلّ على الشمس دليلاً في النظر، وكان الشمس على مدّ الظل دليلاً في الأثر، ومن لم يتنبه لهذه المعرفة إلاّ وهو في حد الاستواء.

ثم بعد ذلك بدلوك الشمس عاين امتداد الظل من ذاته قليلاً قليلاً، جعل الشمس على مدّ الظل دليلاً فكان دلوكها نظير مدّ الظل، وكان الظلّ كذات الشمس، فيكون الدلوك من الشمس بمنزلة المدّ من الظل، فالمؤثر في المدّ إنما هو دلوك الشمس، والمظهر للظلّ إنما هو عين الشمس بوجودك، فقام وجودك في هذه المسألة مقام الألوهة لذات الحق لكونه ما أوجد العالم من كونه ذاتاً وإنما أوجده من كونه إلهاً، فانظر يا وليّ مقام ذاتك من حيث وجودك تر ما أشرف نسبته، فوجودك وجود الحق إذ الله ما خلق شيئاً إلاّ بالحق، وبميل الشمس عنك يمتدّ ظلّك فهي معرفة تنزيه جعل ذلك دليلاً لتعتقده، فإن الشمس تبعد عنك وكلما بعدت عنك نبهتك أنك لست مثله ولا هو مثلك إلاّ أن يحجبك عن رؤيتها، فهو التنزيه المطلق الذي ينبغي لذات الحق، كما أنه في طلوعها وطلبها إياك بالإنقاء إلى الاستواء تشمر ظلّك شيئاً بعد شيء لتعلمك أن بظهورها في علوّها تمحوك وتفنيك إلى أن لا تبقي منك شيئاً

من الظل خارجاً عنك وهو نفي الآثار بسببك، ولهذا لم تشرع الصلاة عند الاستواء لفناء الظل، فلمن ذا الذي يصلي أو إلى من تواجه في صلاتك والشمس على رأسك؟ ولذا قال في أهل المدينة: وما كان على خطها شرّقوا يعني في التوجه إلى القبلة في الصلاة، ولا تغرّبوا أي راقبوا الشمس من حيث ما هي شارقة فإنها تطلع فتفنيكم عنكم فلا يبقى لكم مقام ولا أثر، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ١٣] فنبّه عليه السلام أن ذلك هو المقام الأشرف بخلاف الدلوك، فإن الدلوك يمكن أن ينظر الإنسان فيه إلى امتداد ظلّه، ويمكن أن ينظر إلى تنزيه الحق في ميله عنه، بخلاف الشروق في الدلالة فقال ﷺ: «**شَرِّقُوا وَلاَ تُغَرِّبُوا**»، أي خذوا معرفتكم بالله من هذا الدليل فإنه أرفع للاحتمال من الغروب.

وبعد أن تبين هذا فمن صلّى قبل الزوال الجمعة أصاب، ومن صلاّها بعد الزوال أصاب، والذي أذهب إليه أن صلاتها قبل الزوال أولى لأنه وقت لم يشرع فيه فرض، فينبغي أن يتوجه إلى الحق سبحانه بالفرضية في جميع الأوقات، فكانت صلاتها قبل الزوال أولى، وإن كان قد يتفق أن يكون ذلك وقت أداء فرض صلاة في حق الناسي والنائم إذا تذكرا ولكن بحكم التبعية يكون ذلك، فإن المعتبر إنما هو التذكّر أو اليقظة في أي وقت كان، بخلاف صلاة الجمعة إذا جعلناها قبل الزوال فتعين لها الوقت كما تعينت أوقات الصلوات المفروضات، وأن الله قد أشار إلى نعيم مشاهدته ومصاحبته من غير تخصيص ولا تقييد فقال: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٤] وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فاعلم ذلك.

وصل في فصل ـ الأذان للجمعة: قال تعالىٰ: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الجمعة: الآية ٩] ومن وقت النداء يكون الثواب من البدنة إلى البيضة وهو حين يشرع الخطيب في خطبته، ومن جاء من وقت طلوع الشمس إلى وقت النداء فله من الأجر بحسب بكوره وهي مسألة خلاف، فالبدنة من وقت تعيين السعي، فأما الأذان فإن جمهور العلماء اتفقوا على أن وقته هو إذا جلس الإمام على المنبر، واختلفوا هل يؤذن بين يدي الإمام مؤذن واحد فقط أو أكثر من واحد؟ فمن قائل: لا يؤذن بين يدي الإمام إلاّ واحد فقط وهو الذي يحرم به البيع والشراء. وقال آخرون: بل يؤذن اثنان فقط. وقال آخرون: يؤذن ثلاثة، ولكل قائل حجة واستناد إلى أثر، والذي أذهب إليه في هذه المسألة أن الأذان لصلاة الجمعة كالأذان للصلوات المفروضة كلها، وقد تقدّم الكلام على الأذان في الصلوات قبل هذا إلاّ أنه لا يجوز أن يؤذن اثنان ولا جماعة معاً بل واحد بعد واحد فإن ذلك خلاف السنّة.

وصل الاعتبار في ذلك: الأذان الإعلام وهو دعاء الحق عباده لمعرفته من حيث ما هو إله الناس وربنا ورب آبائنا، وهو قوله ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» فذكره بالإضافة وما قال ذلك مطلقاً فإن الحق سبحانه لا يعين لفظاً ولا يقيد أمراً إلاّ وقد أراد من عباده أن ينظروا فيه من حيث ما خصّصه وأفرده لتلك الحالة أو عيّنه بتلك العبارة، ومتى لم ينظر الناظر في

هذه الأمور بهذه العين فقد غاب عن الصواب المطلوب. ولما كانت الجمعة لا تصحّ إلاّ بالجماعة علمنا أن الأذان الذي هو الإعلام بالإعلان للإتيان والسعي إلى هذا التجلي الخاص لا بدّ أن يعطي ما لا يعطي المنفرد وقد بيّنا ذلك، وما بقي إلاّ اختلاف مقامات الناظرين في ذلك بين مؤذن واحد واثنين وثلاثة، ولا توقيت عندنا في ذلك إلاّ أنه لا بدّ من أذان والواحد أدناه فإن زاد جاز ولكن واحد بعد واحد، فأما الأذان الواحد فيراه من يرى صلاة الجمعة من حيث ما هي صلاة فقط، ومن يرى الاثنين فيرى كونها صلاة في جماعة فلا تجزي للمنفرد، ومن رأى الثلاثة في الأذان لها فلكونها صلاة في جماعة ليوم خاص وحالة مخصوصة لا تكون في سائر الأيام بخلاف الصلوات المفروضة في كل يوم، فمن اعتبر هذه الأحوال الثلاثة قال بثلاثة مؤذنين فيقول الأول: حيّ على الصلاة، ويقول الثاني: حيّ على الصلاة في الجماعة، ويقول الثالث: حيّ على الصلاة في الجماعة في هذا اليوم، فأعلم كل مؤذن بحالة لم يعلم بها الآخر واعتبر العلماء ذلك ولو انفرد واحد جاز.

وصل في فصل الشروط المختصة بيوم الجمعة في الوجوب والصحة: فمن جملة شروطها الجماعة، واختلفوا في مقدار الجماعة، فمن قائل: واحد مع الإمام وبه أقول حضراً وسفراً عندي. ومن قائل: اثنان سوى الإمام. ومن قائل: ثلاثة دون الإمام. ومن قائل: أربعون. ومن قائل: ثلاثون. ومن قائل: اثنا عشر. ومنهم من لا يشترط عدداً. ولكن رأى أنه يجوز بما دون الأربعين ولا يجوز بالثلاثة والأربع، وهذا الشرط من شروط الوجوب والصحة أي به تجب الجمعة وتصحّ.

وصل الاعتبار في ذلك: أما الواحد مع الإمام فهو حظ من يعرف أحدية الحق من أحدية نفسه فيتخذ أحدية نفسه على أحدية ربه دليل قال الشاعر: [المتقارب]

وفــــي كــــلِّ شــــيء لــــه آيــــةٌ تــــدلُّ عــــلــــى أنــــه واحِــــدُ

وآية كل شيء عنده أحديته، إذ كان كل موجود لا بدّ أن يمتاز عن غيره بأحدية لا تكون لغيره، وتلك الأحدية هي على الحقيقة حقيقة أنيته وهويته، فيعلم من ذلك أن ربّه على خصوص وصف في هويته لا يمكن أن يكون ذلك لسواه. وأما من قال اثنان فهو الذي يعرف توحيده من النظر في شفعيته، فيرى كل ما سوى الحق لا يصحّ له الانفراد بنفسه وأنه مفتقر إلى غيره فهو مركب من عينه ومن اتصافه بالوجود المستفاد الذي لم يكن له من حيث عينه. وأما من قال بالثلاثة وهو أول الأفراد فهو الذي يرى أن المقدمتين لا تنتج إلاّ برابط فهي أربعة في الصورة وثلاثة في المعنى، فيرى أنه ما عرف الحق إلاّ من معرفته بالثلاثة، فاستدل بالفرد على الواحد وهو أقرب في النسبة من الاستدلال بالشفع على الأحدية. وأما من قال بالأربعين فاعتبر الميقات الموسويّ الذي أنتج له معرفة كلام الحق من حيث ما قد علمتم من قصته المذكورة في القرآن، وكذلك أيضاً من حصلت له معرفة ربه من إخلاصه أربعين صباحاً وهي الخلوة المعروفة في طريق القوم فإنهم يتخذونها لتحصيل معرفة الله بما يحصل لهم فيها من الإخلاص مع الله من المشوب.

وأما من قال بالثلاثين فنظر إلى الميقات الأول الموسويّ وعلم أن ذلك هو حدّ المعرفة إلاّ أنه طرأ أمر أخلّ به فزاد عشراً جبراً لذلك الخلل فهو بالمعنى ثلاثون، فمن سلم ميقاته من ذلك الخلل فإن مطلوبه من العلم بالله يحصل بالثلاثين، قال تعالىٰ: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٢] ومن هذا الحدّ لما جرى من نساء رسول الله ﷺ ما جرى أدّاه ذلك إلى الانفراد مع الله وهجرهم فآلى من نسائه شهراً لعلمه أن المقصود يحصل بهذا التوقيت، فلما فرغ الشهر ناجاه الحق بآية التخيير فخيّر نساءه، فإنه كان المطلوب بذلك التوقيت ما فتح له به، فإن الحق يجري مع العبد في فتحه على حسب قصده، والسبب الذي أدّاه إلى الانفراد به، فمن أدّاه إلى الانفراد به إطلاق الأمر إليه فكانت نتيجته في خلوته مطلقة فيرى سريانه في الإلهية سريان الوجود الإلهيّ في الموجودات وهو أتم الكشف الكيانيّ وأعلاه، ومن هنا شرع التخلق بالأسماء الإلهية، وإلاّ فأيّ نسبة بين الممكن والواجب الوجود لنفسه؟

وأما من قال بالاثنتي عشر فاعتبر نهاية الإنسان ومرتبته العلوية وهي اثنا عشر واعتبر أيضاً أسماء الأعداد البسائط دون المركبات وهي اثنا عشر من واحد إلى تسعة والعقد ثلاثة وهي العشر والمئون والآلاف فهذه اثنا عشر، وبعد هذا ما ثم عدد إلاّ مركب في هذه الأصول فهي جمعية البسائط فاعلم ذلك. وأما من لم يشترط عدداً وقال بدون الأربعين وفوق الأربعة التي هي عشر الأربعين فإن الأربعين قامت من ضرب الأربعة في العشرة فهي عشر الأربعين فكما أنه نزل عن الأربعين ارتفع عن الأربعة ولم يقف عندها فيقول: لا تصحّ المعرفة بالله إلاّ بالزائد على الأربعة وأقل ذلك الخمسة وهي المرتبة من الفردية، والمرتبة الأولى هي الثلاثة وهي للعبد فإنها هي التي نتجت عنها معرفة الحق فيمن قال: تجوز الجمعة بالثلاثة، ويرى صاحب هذا القول أعني الذي يقول بالزائد على الأربعة أن الفردية الثانية هي للحق وهو ما حصل للعبد من العلم بفرديته الثلاثية، فكان الحاصل فردية الحق لا أحديته لأنّ أحديته لا يصحّ أن ينتجها شيء بخلاف الفردية، ولما كان أول الأفراد للعبد من أجلّ الدلالة فإن المعرفة بنفس العبد مقدّمة على معرفة العبد بربه، والدليل يناسب المدلول بالوجه الرابط بين الدليل والمدلول فلا ينتج الفرد إلاّ الفرد، فأول فرد يلقاه بعد الثلاثة فردية الخمسة فجعلها للحق أي لمعرفة الحق في الرتبة الخامسة، فما زاد إلى ما لا يتناهى من الأفراد فقد بان لك في الاعتبار منازل التوقيت فيما تقوم به صلاة الجمعة من اختلاف الأحوال.

وصل في فصل الشرط الثاني وهو الاستيطان: اتفق كل من قال من العلماء أن الجمعة لا تجب على المسافر على الاستيطان، واختلفوا فاشترط بعضهم المصر والسلطان ولم يشترطه بعضهم لكن اشترط الاستيطان في قرية أو ما في معناها.

وصل الاعتبار في ذلك: أهل طريق الله على نوعين: منهم من يتغير عليه الحال مع الأنفاس على علم منهم بذلك في قلوبهم وهم الأكابر من أهل الله فهم مسافرون على الدوام فمن المحال عليهم الاستيطان، وهم في ذلك على نظرين: فمن كان نظره ثبوته في مقام

مراعاة الأنفاس وذوق تغيّرها وتنوّعات التجليات دائماً مع كل نفس كنى عن ثبوته في هذه الحال بالاستيطان وهو في الحقيقة مقيم لا مقيم من وجهين مختلفين فإن لا مقام مقام جعل استيطان من شرط صحة صلاة الجمعة ووجوبها وإن كان مسافراً في استيطانه كسفر صاحب السفينة كما قال بعضهم في سير الإنسان في عمره: [الطويل]

فسَيْرُك يا هذا كسيرِ سفينةٍ ... بقَوْمٍ جُلُوسٍ والقِلاعُ تَطِيرُ

ومن كان من رجال الله دون هذه المرتبة وأقامهم الحق في مقام واحد فيما يرونه في نفوسهم وإن كان محالاً في نفس الأمر ﴿هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق: الآية ١٥] فهم بهذا الاعتبار من أهل الاستيطان فيقيمون الجمعة ويرون أن ذلك من شروط الصحة والوجوب، ومن كان نظره في انتقاله في الأحوال والمشاهد ويرى أن الإقامة محال على حال واحد ذوقاً وأن سفره مثل سفر صاحب السفينة فيما يظهر له والأمر في نفسه بخلاف ذلك لم يشترط الاستيطان وقال بصحة الجمعة ووجوبها بمجرّد العدد لا بالاستيطان.

وصل في فصل جمعتين في مصر واحد: اختلف علماؤنا هل يقام جمعتان في مصر واحد أم لا يقام؟ فمن قائل: بجواز ذلك. ومن قائل: بأنه لا يجوز، وبالجواز أقول إلاّ أن فيه ما لا يثلج الصدر به والأولى أن لا. وكذلك اشترط بعضهم المصر ولم يشترطه بعضهم وبعدم هذا الشرط أقول. وكذلك اشترط بعضهم أن يكون المسجد ذا سقف ولم يره بعضهم ولم يأت في شيء من هذه الأمور كلها نص من كتاب ولا سنّة، فإذا صحّت الجماعة وجبت الجمعة لا غير.

وصل الاعتبار في ذلك: المصر الواحد ذات الإنسان في الاعتبار فإنه مدينة في نفسه بل هو جميع العالم، وذات الإنسان تنقسم إلى قسمين: إلى لطيف وإلى كثيف، فإن اتفق أن يختلف التجلي على الإنسان فيتجلى له في الاسم الظاهر حسّاً أو تمثلاً، وفي الاسم الباطن معنى وتنزلها فإنه مأمور في هذه الحال بقبول التجليين، قيل لأبي سعيد الخراز: بم عرفت الله؟ قال: بجمعه بين الضدّين ثم تلا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣]. فجاز عنده إقامة جمعتين في مصر واحد وأكثر من جمعتين، فقد يشهد الحق في كل اسم عنده من أسمائه، ولكل اسم منه عالم ليس للاسم الآخر، فيقام في ذات الإنسان جمعات كثيرة لاختلاف عوالمه في نفسه، ولكل اسم حكم وسلطنة في عالمه وجماعته والمصر واحد، فهذا قد حصل له المصر والسلطان والإقامة والسفر في حال واحد وعين واحدة وهو مسمّى الإنسان، وهو عالم صغير الجرم كبير المعنى، ومن كان نظره في مثل هذه التجليات المتنوعة في الأسماء الإلهية والأعيان الكونية وأن الحق هو الأول من عين ما هو آخر من عين ما هو ظاهر من عين ما هو باطن إلى سائر الأسماء كانت ما كانت لاتساع الأمر في نفسه بتنوّع معاني هذه الأسماء الإلهية والأعيان الكونية، وأنها وإن تعددت بالنسب فهي عين واحدة وجوداً منع أن يقام جمعتان في المصر الواحد، وكل عارف من أهل الله يعمل بحسب وقته ونظره ولهذا قالوا: إن الصوفي ابن وقته.

وصل في فصل الخطبة: اختلف علماء الشريعة في خطبة يوم الجمعة هل هي شرط في صحة الصلاة وركن من أركانها أم لا؟ فذهب الأكثرون إلى أنها شرط وركن، وقال قوم: إنها ليست بفرض وبه أقول وفي النفس من ذلك شيء، فإن رسول الله ﷺ ما نصّ على وجوبها ولا على خلافه بل نقل بالتواتر أنه لم يزل يخطب فيها، والوجوب حكم وتركه حكم، ولا ينبغي لنا أن نشرع وجوبها ولا غير وجوبها فإن ذلك شرع لم يأذن به الله، فمذهبنا المحقق التوقيف في الحكم عليها مع العمل بها ولا بدّ فإن رسول الله ﷺ لم يزل يصليها بخطبة كما لم يزل يصلي العيدين بخطبة، مع اجتماعنا على أنّ صلاة العيدين ليست من الفروض ولا خطبتها وما جاء عيد قط إلاّ وصلّى ﷺ صلاة العيد وخطب.

وصل الاعتبار في ذلك: الخطبة شرعت للموعظة، والخطيب داعي الحق وحاجب بابه ونائبه في قلب العبد يرده إلى الله ليتأهب لمناجاته، ولذلك قدمها في صلاة الجمعة حتى جعلتها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فيما روي عنها أن الخطبة في صلاة الجمعة بدل من الركعتين، فإن صلاة الجمعة ركعتان كصلاة المسافر فسنّها قبل الصلاة لما ذكرناه من قصد التأهب للمناجاة كما سنّ النافلة من أجل الفريضة ابتداء لأجل الذكرى والتأهّب فإن عناية الشرع إنما هي بما فرض، فسنّ النافلة ابتداء في جميع الصلوات المفروضة، ألا تراه حين فرض عليه قيام الليل كان يفتتحه بركعتين خفيفتين قبل الشروع في قيام الليل؟ كل ذلك ليتنبّه القلب لمناجاة من دعاه إليه بما افترض عليه ومشاهدته ومراقبته، فإن الفريضة هي المطلوبة منه وهو المطلوب بها، فمن رأى أن الانتباه أصل في الطريق كالهروي وغيره قال بوجوب الخطبة كالوضوء للصلاة منبّه، ومن رأى أن المقصود هو الصلاة وأن الإقامة فيها هو عين الانتباه لمن كان خفيف النوم جعل الخطبة سنّة راتبة ينبغي أن تفعل وإن لم ينص عليها ولكن ثابر عليها، فهكذا الانتباه قبل المناجاة للمناجاة أولى من أن يكون الانتباه في عين المناجاة فربما أثرت في مناجاته نومته المتقدمة، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الجمعة: الآية ٩] فيحتمل أن يريد هنا بالذكر الخطبة فإنه مأمور بالإنصات في حال الخطبة ليسمع ما يقول، ألا ترى ما قيل في حق المؤذنين أنهم أطول الناس أعناقاً؟ والعنق مجرى النفس وامتداده للإسماع برفع الصوت به كنى عنه بطول العنق، ولما أشهدني الحق الأذان بنفسي رأيت لكل كلمة من الخبر المقيد بالحسّ مدّ البصر في كل كلمة، فالمؤذنون أفضل جماعة دعت إلى الله عن أمر الله ورسوله، ولولا رفق الرسول ﷺ بأمته لأذن فإنه لو أذن وتخلّف عن إجابته من سمعه إذا قال: حيّ على الصلاة كان عاصياً فكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً وإنما قلنا إنه يريد هنا بالسعي إلى ذكر الله الخطبة لأن الصلاة بذاتها ﴿تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ وهو ما ظهر من المخالفة ﴿وَٱلۡمُنكَرِ﴾ وهو ما تنكره القلوب ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] ما فيها يعني القول فيها أشرف أفعال المكلف في الصلاة فإنها تشتمل على أفعال وأقوال، وقد روينا عن بعض العلماء أنه تأوّل ذكر الله الذي يسعى إليه هو الخطبة.

وصل في فصل ـ اختلاف القائلين بوجوب الخطبة في المجزي منها ما حدّه: فمنهم من قال: أدنى ما ينطلق عليه اسم خطبة شرعية. ومن قائل: لا بدّ من خطبتين. ومن قائل: أقل ما ينطلق عليه اسم خطبة لغة في لسان العرب، والقائل بالخطبتين يرى أنه لا بدّ أن يجلس الخطيب بينهما يعني بين الخطبتين ويكون في كل واحدة منهما قائماً يحمد الله في أولها ويصلي على النبيّ ﷺ ويوصي بتقوى الله ويقرأ شيئاً من القرآن في الأولى ويدعو في الثانية.

وصل الاعتبار في ذلك: اعتبار درجات المنبر المقامات والترقي فيها الترقي في مقامات السلوك إلى الله تعالىٰ حتى يكون الداعي على بصيرة، كما يعاين ببصره الخطيب الجماعة ببصره وإن كان أعمى، فهو بمنزلة الداعي على غير بصيرة وهو المقلد. وأما الخطبة: فالخطبة الأولى يذكر فيها ما يليق بالله من الثناء والتحريض على الأمور المقرّبة من الله بالدلائل من كتاب الله. والخطبة الثانية بما يعطيه الدعاء والالتجاء من الذلّة والافتقار والسؤال والتضرّع في التوفيق والهداية لما ذكره وأمر به في الخطبة وقيامه في حال خطبته. أمّا في الأولى فبحكم النيابة عن الحق فيما نذر به وأوعد ووعد فهو قيام حق بدعوة صدق. وأما القيام في الثانية فقيام عبد بين يدي سيد كريم يسأل منه الإعانة فيما قال الله على لسانه في الخطبة الأولى من الوصايا. وأمّا الجلسة بين الخطبتين ليفصل بين المقام الذي تقتضيه النيابة عن الحق تعالىٰ فيما وعظ به عباده على لسان هذا الخطيب وبين المقام الذي يقتضيه مقام السؤال والرغبة في الهداية إلى الصراط المستقيم.

ولما لم يرد نص من الشارع بإيجاب الخطبة ولا بما يقال فيها إلاّ مجرد فعله لم يصحّ عندنا أن نقول يخطب شرعاً ولا لغة إلاّ أنا ننظر ما فعل فنفعل مثله على طريق التأسّي لا على طريق الوجوب ويقبله الله على ما يعلمه من ذلك، قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١] وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] فنحن مأمورون باتباعه فيما سنّ وفرض، فنجازى من الله تعالىٰ فيما فرض جزاء فرضين: فرض الاتباع وفرض الفعل الذي وقع فيه الاتباع، ونجازى فيما سنّ ولم يفرضه جزاء فرض واحد وسنّة فرض الاتباع وسنّة الفعل الذي لم يوجبه، فإن حوى ذلك الفعل على فرائض جوزينا جزاء الفريضة بما فيه من الفرائض كنافلة الصلاة ونافلة الحج فإنها عبادة تحوي على أركان وسنن ونوافل صدقة التطّوع ما فيها شيء من الفرائض، فنجازى في كل عمل بحسب ما يقتضيه ذلك العمل ممّا وعد الله للعامل به من الخير، ولا بدّ من فرضية الاتباع فاعلم ذلك.

فالعارف يحمل درجات المنبر على الترقي في الأسماء الإلهية بالتخلق، وفيها درج عال كالقادر والعالم، ودرج دونه كالمقتدر وحتى نعلم. وكان لمنبر رسول الله ﷺ ثلاث أدراج، وكذلك الأسماء على ثلاث مراتب لكل درج مرتبة، فأسماء تدل على الذات لا تدل على أمر آخر، وأسماء تدل على صفات تنزيه، وأسماء تدل على صفات أفعال، وما ثم مرتبة رابعة، وكل هذه الأسماء قد ظهرت في العالم، فأسماء الذات يتعلق بها ولا يتخلق، وأسماء صفات

التنزيه يقدس بها جناب الحق تعالىٰ ويتخلق بها العبد بحسب ما تعطيه ممّا يليق به، فكما أن العبد يقدس جلال الله أن تقوم به صفات الحدوث، كذلك يقدس العبد بهذه الأسماء في التخلق بها نفسه أن تقوم به صفات القدم والغنى المطلق، وأسماء صفات الأفعال يوحد العبد بها ربه فلا يشرك في فعله تعالىٰ أحداً من خلقه، وما في الحضرة الإلهية سوى ما ذكرناه، ولا في الإنسان سوى ما ذكرناه، ولا في الإمكان سوى ما ذكرناه، فالعبد لا يكون رباً لمن هو عبد له، والرب لا يكون عبداً تعالىٰ الله، فليس في الإمكان أبدع من هذا العالم لكماله في الدلالة عليه واستيعابه ما نسب الحق إلى نفسه وإلى العالم. فإن قلت: فقول رسول الله ﷺ في دعائه بالأسماء الإلهية حين قال أو استأثرت به في علم غيبك فلعله يدل على أمر آخر قلنا لا بدّ أن يدل ذلك الاسم: إما على الله، وإما على ما سوى الله، وإما على الله وعلى ما سوى الله بوجهين واعتبارين، وما ثم قسم ثالث، وكل هذه الأقسام قد حصلت في هذه الأسماء التي بأيدينا من جهة معانيها، فإن الذي يدل من ذلك الاسم الذي لم نعرفه على الله إما أن يدل على صفة تنزيه وقد وجدت عندنا، وإما على صفة فعل وقد وجدت، وإما على صفة يعقل معناها في المحدثات كالفرح والتعجب، فغاية الأمر أن يكون العالم في الدلالة، كما أن في الإمكان مثل هذا العالم ممّا لا يتناهى، فقد انحصر الأمر فيما قد وجد من العالم من جهة الحقائق فاعلم ذلك.

وصل في فصل الإنصات يوم الجمعة عند الخطبة: اختلف الناس في الإنصات يوم الجمعة والإمام يخطب على ثلاثة أقوال: فمن قائل: إنّ الإنصات واجب على كل حال وإنه حكم لازم من أحكام الخطبة. ومن قائل: إن الكلام جائز في حال الخطبة إلاّ حين قراءة القرآن فيها. ومن قائل: بالتفريق في ذلك بين من يسمع الخطبة وبين من لا يسمعها، فإن سمع أنصت، وإن لم يسمع جاز له أن يسبح أو يتكلم في مسألة من العلم، والجمهور على أنه إن تكلم لم تفسد صلاته. وروي عن ابن وهب أنه قال: من لغا فصلاته ظهر أربع. وأمّا القائلون بوجوب الإنصات وهم الجمهور فانقسموا ثلاثة أقسام: قسم أجازوا التشميت وردّ السلام في وقت الخطبة وبه قال الأوزاعيّ والثوريّ. ومنهم من لم يجز ردّ السلام ولا التشميت. وبعضهم فرّق فقال بردّ السلام ولا يشمت.

وصل الاعتبار في ذلك: إنما شرع الوعظ والتذكير للإصغاء إلى ما يقول الواعظ والمذكر وهو الخطيب الداعي إلى الله والإنصات له في حال كلامه ليرى ما يجري الله على لسان عبده، فالخطيب نائب الحق فكأنّ الحق هو المكلم عباده فوجب الإنصات والإصغاء إلا فيما أمر به مثل ردّ السلام وتشميت العاطس إذا حمد الله، فمن رأى أن الحق هو المتكلم وجب عليه الإنصات ولكن مع السماع ولا سيما عند قراءة القرآن في الخطبة، فإن لم يسمع فينبغي له في تلك الحال أن يكون مشغولاً بما هو الخطيب به مشتغل من ذكر الله والثناء عليه ووعظ نفسه وزجره إياها وتقريره نعم الله على نفسه وقراءة القرآن، ولكن كل ما وقع من هذا كله فليكن كما قال: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [سورة طه: الآية ١٠٨] فهكذا

يكون ذكره، ولا يسمع الخطبة لبعده عن الخطيب أو لصمم قام بسمعه فالإنسان واعظ نفسه.

وصل في فصل من جاء يوم الجمعة والإمام يخطب هل يركع أم لا؟: اختلف العلماء فيمن هذه حاله، فمن قائل: يركع وبه أقول. ومن قائل: لا يركع.

وصل الاعتبار في ذلك: الركوع الخضوع لله وهو واجب أبداً على العالم كله ما دام ذاكراً لله لم يغفل، وكل ما سوى الجنّ والإنس فهو ذاكر لله مسبّح بحمده، فإن ذكر الله الذاكر منّا ولم يخشع قلبه ولا خضع عند ذكره إياه فلم يحترم الجناب الإلهيّ ولم يأت بما ينبغي له من التعظيم وأول ما يمقته جوارحه وجميع أجزاء بدنه، ومعلوم قطعاً أن الآتي إلى الجمعة سيحضر بدخول المسجد ورؤية الخطيب وقصده الصلاة أنه ذاكر لله، وقد أمره الله على لسان الترجمان رسول الله ﷺ الذي قال تعالىٰ في حق من أطاعه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] وقد أمر بتحية المسجد قبل أن يجلس، وما ورد نهي برفع هذا الأمر غير أنه إذا ركع لا يجهر بتكبير ولا بقراءة بل يسرّ ذلك جهد الطاقة، ولا يسرّه ولا يزيد على التحية شيئاً، ولا سيّما إن كان بحيث يسمع الإمام والداخل والإمام يخطب قد أبيح له أن يسلم وما خطأه أحد في ذلك، ولم يؤمر الداخل بالسلام وإنما الأمر تعلق برد السلام لا بابتداء السلام، فالركوع عند دخول السلام أولى أن يجوز له لورود الأمر بالصلاة للداخل قبل أن يجلس والصلاة خير موضوع، ولكن لا يزيد على الركعتين شيئاً، فإن قدر أن لا يقعد فلا ركوع عليه، فإن أراد الجلوس ركع ولا بدّ فإنه إذا أنصف الإنسان ما ثم ما يعارض الراكع إذا دخل المسجد.

وصل في فصل ما يقرأ به الإمام في صلاة الجمعة: اختلف الناس في ذلك، فمن قائل: إن صلاة الجمعة كسائر الصلوات لا يعين فيها قراءة سورة بعينها بل يقرأ بما تيسّر. ومن الناس من اقتصر على ما قرأ به رسول الله ﷺ فيها غالباً ممّا قد ثبتت به الرواية عنه وهي صورة الجمعة في الركعة الأولى والمنافقين في الثانية، وقد قرأ سورة الغاشية بدلاً من المنافقين، وقد قرأ في الأولى: بـ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [سورة الأعلىٰ: الآية ١] وفي الثانية بالغاشية، والذي أقول به: أن لا توقيت والاتباع أولى.

وصل الاعتبار في ذلك: المناجى هو الله والمناجي اسم فاعل هو العبد، والقرآن كلام الله وكل كلامه طيب، والفاتحة لا بدّ منها، والسورة منزل من المنازل من مائة وثلاثة عشر منزلاً عند الله، والقرآن قد ثبت في الأخبار تفاضل سوره وآيه بعضه على بعض في حق القارىء بالنسبة لما لنا فيه من الأجر، وقد ورد أن آية الكرسيّ سيدة آي القرآن لأنه ليس في القرآن آية يذكر الله فيها بين مضمر وظاهر في ستة عشر موضعاً منها إلاّ آية الكرسيّ هذا في الآيات، وجاء في السور أنّ سورة ﴿يسٓ﴾ تعدل قراءتها قراءة القرآن عشر مرات وقراءة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ تجادل عن قاريها في قبره، وسورة ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ﴾ تعدل نصف القرآن و﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ربع القرآن، وكذلك ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ وسورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، ولكل واحدة من التي ذكرناها في المفاضلة معنى معقول، وأن الزهراوين البقرة

وآل عمران يأتيان يوم القيامة ولهما عينان ولسانان وشفتان يشهدان لمن قرأهما بحق، والأخبار النبويّة في ذلك كثير. وأما ما نعلمه من طريق الكشف فلا يتمكن لي أن أذكره، إلاّ أن سورة ﴿صٓ﴾ منبع الأنوار عاينت ذلك مشاهدة. فيا أيها الإمام في صلاة الجمعة إن قصدت المناسبة فاقرأ فيها سورة الجمعة، وما ثبت أنه قرأ به رسول الله ﷺ فالله يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الاحزاب: الآية ٢١] واقرأ بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ تنزّه الحق عمّا يظهر في هذه العبادة من الأفعال من حيث أنه قال لنا عن نفسه أنه يصلّي علينا فنسبّحه عن التخيّل الذي يتخيله الوهم من الإنسان من قوله يصلي بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ و ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ مناسبتان لما تتضمنه الخطبة من الوعد والوعيد، فتكون القراءة في صلاة الجمعة تناسب ما ذكر به الإمام في الخطبة فيجمع بين الاقتداء والتناسب.

وصل في فصل الغسل يوم الجمعة: غسل الجمعة واجب على كل محتلم عندنا وهو لليوم، وإن اغتسل فيه للصلاة فهو أفضل. أما الغسل يوم الجمعة فالجماعة على أنه سنّة، وقوم قالوا: إنه فرض وبه أقول. والقائلون بوجوبه منهم من قال: إنه واجب لليوم وهو قولنا، وإن اغتسل قبل الصلاة للصلاة فهو أفضل. ومنهم من قال: إنه واجب قبل صلاة الجمعة.

وصل الاعتبار في ذلك: الطهارة العامة لباطن الإنسان الذي هو قلبه بالحياة الباطنة للمعرفة بالله التي فيها وبها حياة القلوب من حيث ما تعطيها صلاة الجمعة من جهة أنه سبحانه واضع لهذه العبادة الخاصة بهذه الصورة، فإنه من أعظم الهداية التي هدى الله إليها هذه الأمة خاصة فإنه اليوم الذي اختلفوا فيه فهدى الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، وذلك أن الله اصطفى من كل جنس نوعاً ومن كل نوع شخصاً واختاره عناية منه بذلك المختار أو عناية بالغير بسببه، وقد يختار من الجنس النوعين والثلاثة، وقد يختار من النوع الشخصين والثلاثة والأكثر، فاختار من النوع الإنسانيّ المؤمنين، واختار من المؤمنين الأولياء، واختار من الأولياء الأنبياء، واختار من الأنبياء الرسل، وفضل الرسل بعضهم على بعض، ولولا ورود النهي من الرسول ﷺ في قوله: «**لاَ تُفَضِّلُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ**» لعينت من هو أفضل الرسل، لكن أعلمنا الله أنه فضل بعضهم على بعض، فمن وجد نصاً متواتراً فليقف عنده أو كشفاً محققاً عنده، ومن كان عنده الخبر الواحد الصحيح فليحكم به إن تعلّق حكمه بأفعال الدنيا، وإن كان حكمه في الآخرة فلا يجعله في عقده على التعيين وليقل: إن كان هذا عن الرسول في نفس الأمر كما وصل إلينا فأنا مؤمن به وبكل ما هو من عند رسول الله ﷺ وعن الله ممّا علمت وممّا لم أعلم، فإنه لا ينبغي أن يجعل في العقائد إلاّ ما يقطع به إن كان من النقل، فما ثبت بالتواتر وإن كان من العقل فما ثبت بالدليل العقليّ ما لم يقدح فيه نص متواتر، فإن قدح فيه نص متواتر لا يمكن الجمع بينهما اعتقد النص وترك الدليل، والسبب في ذلك أن الإيمان بالأمور الواردة على لسان الشرع لا يلزم منها أن يكون الأمر الوارد في نفسه على ما يعطيه الإيمان، فيعلم العاقل أنّ الله قد أراد من المكلف أن يؤمن بما جاء به هذا النص المتواتر الذي

أفاده التواتر أنّ النبيّ ﷺ قاله، وإن خالف دليل العقل فيبقى على علمه من حيث ما هو علم ويعلم أنّ الله لم يرد به بوجود هذا النص أن يعلق الإيمان بذلك المعلوم لا أنه يزول عن علمه ويؤمن بهذا النص على مراد الله به، فإن أعلمه الحق في كشفه ما هو المراد بذلك النص القادح في معلومه آمن به في موضعه الذي عيّنه الحق له بالنظر إلى من هو المخصوص بذلك الخطاب، ومثل هذا الكشف يحرم علينا إظهاره في العامة لما يؤدّي إليه من التشويش، فلنشكر الله على ما منحه فهذه مقدمة نافعة في الطريق.

ولما اختصّ الله من الشهور شهر رمضان وسمّاه باسمه تعالىٰ فإنّ من أسماء الله رمضان، كذلك اختصّ الله من أيام الأسبوع يوم العروبة وهو يوم الجمعة وعرف الأمم أن الله يوماً اختصّه من هذه السبعة الأيام وشرّفه على سائر أيام الأسبوع، ولهذا يغلط من يفضل بينه وبين يوم عرفة ويوم عاشوراء، فإن فضل ذلك يرجع إلى مجموع أيام السنة لا إلى أيام الأسبوع، ولهذا قد يكون يوم عرفة يوم الجمعة، ويوم عاشوراء يوم الجمعة، ويوم الجمعة لا يتبدّل لا يكون أبداً يوم السبت ولا غيره، ففضل يوم الجمعة ذاتي لعينه، وفضل يوم عرفة وعاشوراء لأمور عرضت إذا وجدت في أي يوم كان من أيام الأسبوع كان الفضل لذلك اليوم لهذه الأحوال العوارض، فتدخل مفاضلة عرفة وعاشوراء في المفاضلة بين الأسباب العارضة الموجبة للفضل في ذلك النوع.

كما أن رمضان إنما فضّله على سائر الشهور في الشهور القمرية لا في الشهور الشمسية، فإن أفضل الشهور الشمسية يوم تكون الشمس في برج شرفها، وقد يأتي شهر رمضان في كل شهور السنة الشمسية، فيشرف ذلك الشهر الشمسيّ على سائر شهور الشمس بكون رمضان كان فيه وكونه فيه أمر عرض له في سيره، فلا يفاضل يوم الجمعة بيوم عرفة ولا غيره، ولهذا شرع الغسل فيه لليوم لا لنفس الصلاة، فإن اتفق أن يغتسل في ذلك اليوم لصلاة الجمعة فلا خلاف بيننا أنه أفضل بلا شك وأرفع للخلاف الواقع بين العلماء، فلما ذكر الله شرف هذا اليوم للأمم ولم يعينه وكّلهم الله في العلم به لاجتهادهم فاختلفوا فيه فقالت النصارى: أفضل الأيام والله أعلم هو يوم الأحد لأنه يوم الشمس، وهو أول يوم خلق الله فيه السموات والأرض وما بينهما، فما ابتدأ فيه الخلق إلاّ لشرفه على سائر الأيام فاتخذته عيداً وقالت: هذا هو اليوم الذي أراده الله ولم يقل لهم نبيهم في ذلك شيئاً ولا علم لنا هل أعلم الله نبيهم بذلك أم لا؟ فإنه ما ورد بذلك خبر. وقالت اليهود: بل ذلك يوم السبت فإن الله فرغ من الخلق في يوم العروبة واستراح يوم السبت واستلقى على ظهره ووضع إحدى رجليه على الأخرى وقال: أنا الملك، قال الله تعالىٰ في مقابلة هذا الكلام وأمثاله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩١] وتزعم اليهود أن هذا ممّا نزل في التوراة فلا نصدقهم في ذلك ولا نكذبهم، فقالت اليهود: يوم السبت هو اليوم الذي أراده الله بأنه أفضل أيام الأسبوع، فاختلفت اليهود والنصارى، وجاءت هذه الأمّة فجاء جبريل إلى محمد ﷺ بيوم الجمعة في صورة مرآة مجلوّة فيها نكتة فقال له: هذا يوم الجمعة وهذه النكتة ساعة فيه لا يوافقها عبد

مسلم وهو يصلي إلاّ غفر الله له، فقول النبي ﷺ: «**فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ أَهْلُ الكِتَابِ**» هو هذا التعريف الإلهيّ بالمرآة، وأضاف الهداية إلى الله وسبب فضله أنه اليوم الذي خلق الله فيه هذه النشأة الإنسانية التي خلق المخلوقات من يوم الأحد إلى يوم الخميس من أجلها فلا بدّ أن يكون أفضل الأوقات، وكان خلقه في تلك الساعة التي ظهرت نكتة في المرآة، ولما ظهرت نكتة في المرآة دلّ ضرب المثل أنها لا تنتقل، كما لا تنتقل تلك النكتة التي في المرآة فهي ساعة معينة في علم الله، فإن راعينا ضرب ذلك المثل في الحسّ ولا بدّ قلنا إن الساعة لا تنتقل كما لا تنتقل في الحسّ، وإن راعينا ضرب المثل بها في الخيال ولا نخرجه بالحمل إلى الحسّ قلنا: تنتقل الساعة في اليوم، فإن حكم الخيال للانتقال في الصورة لأنه ليس هو بمحسوس فينضبط، وإنما هو معنى في صورة جسدية خيالية تشبه صورة حسيّة.

وكما أن المعنى الواحد ينتقل في صور ألفاظ كثيرة ولغات مختلفة في زمان واحد أشبه الخيال فتنتقل الساعة في يوم الجمعة، وكلا الأمرين سائغ في ذلك، ولا يعرف ذلك إلاّ بإعلام الله، وهذه الساعة في يوم الجمعة كليلة القدر في السنة سواء، قال تعالىٰ في هذا اليوم أعني في شأنه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٣] هذه الآية نزلت في الاختلاف في هذا اليوم، فغسل يوم الجمعة من هذا الاختلاف حتى يكون على يقين في طهارته بما كشف الله عن بصيرته وهو علم الساعة التي في هذا اليوم فإن اليوم كان مبهماً، ثم إن الله عرفنا به على لسان رسوله وبقي الإبهام في الساعة التي فيه، فمن علمها في كل جمعة إن كانت تنتقل أو علمها في وقتها المعين إن كانت لا تنتقل فقد صحّ غسله يوم الجمعة من هذا الجهل الذي كان فيه بها، ولهذا ينبغي أن يكون الغسل لليوم فإنه أعم.

وصل في فصل وجوب الجمعة على من خارج المصر: اختلف الناس في وجوب الجمعة على من خارج المصر، فمن قائل: لا تجب الجمعة على من خارج المصر. ومن قائل: إنها تجب على من هو خارج المصر. واختلفوا في قدر المسافة فمنهم من قال: مسيرة يوم وهو قول شاذ. ومنهم من قال: ثلاثة أميال. ومنهم من قال: أن يكون على مسافة يسمع منها النداء غالباً، والذي أقول به إذا كان الإنسان على مسافة بحيث إنه إذا سمع النداء يقوم للطهارة فيتطهر ثم يخرج إلى المسجد ويمشي بالسكينة والوقار فإذا وصل وأدرك الصلاة وجبت عليه الجمعة، فإن علم أنه لا يلحق الصلاة فلا تجب عليه لأنه ليس بمأمور بالسعي إليها إلاّ بعد النداء وأما قبل النداء فلا.

وصل الاعتبار في ذلك: الخارج عن الموطن الذي تعطيه معرفة الحق من حيث ما هو آمر بها من دليل من عرف نفسه عرف ربه وهو الارتباط بالمعرفتين، فلا يخلو أن يكون خروجه إلى معرفة ربه من حيث ما هو واجب الوجود، أو يكون خارجاً إلى حضرة الحيرة

والوقوف أو الكثرة فإن كان خارجاً إلي حكم معرفة كونه واجب الوجود لنفسه لا تجب عليه الجمعة، وإن كان خروجه إلى ما سوى هذا وجبت عليه الجمعة بلا شك.

وصل في فصل الساعات التي وردت في فضل الرواح إلى الجمعة: فمن قائل: هي الساعات المعروفة من أوّل النهار. ومن قائل: هي أجزاء ساعة واحدة قبل الزوال وبعده، والذي أقول به أنها أجزاء من وقت النداء الأوّل إلى أن يبتدىء الإمام بالخطبة، ومن بكر قبل ذلك فله من الأجر بحسب بكوره ممّا يزيد على البدنة ممّا لم يوقته الشارع.

وصل الاعتبار في ذلك: السعي سعيان: سعي مندوب إليه وهو من أوّل النهار إلى وقت النداء، وسعي واجب وهو من وقت النداء إلى أن يدرك الإمام راكعاً من الركعة الثانية، والأجر الموقت للساعي إلى أول الخطبة، وما بعد ذلك فأجر غير موقت لأنه لم يرد في ذلك شرع، فأمّا الأجر الموقت فهو من بدنة إلى بيضة وبينهما بقرة وهي تلي البدنة ويليها كبش وتلي الكبش دجاجة والبيضة تأتي بعد الدجاجة آخراً وليس بعدها أجر مؤقت، ولما كانت البيضة من الدجاجة وفيها تتكوّن الدجاجة وما في معناه من الحيوان الذي يبيض لهذا قرن البيضة مع الحيوان في توقيت القربة وقصد من الحيوانات في التمثيل ما يؤكل لحمه دائماً غالباً ممّا لا خلاف في أكله، وبه تعظم قوّة الحياة في الشخص المتغذي، فكأنّ المتقرّب به تقرّب بحياته، والتقريب بالنفس إلى الله أسنى القربات، ألا ترى الشهداء في سبيل الله لما تقربوا بأنفسهم إلى الله في قتال أعداء الله كانت لهم الحياة الدائمة والرزق الدائم والفرح بما أعطاهم الله؟ فلا يقال في الشهداء أموات لنهي الله عن ذلك لأن الله أخذ بأبصار الخلق عن إدراك حياتهم، كما أخذ بأبصارهم عن إدراك الملائكة والجن مع معرفتنا أنهم معنا حضور، ولا نعتقد أيضاً في الشهداء أنهم أموات بقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٩] وخبر الله صدق، فثبتت لهم الحياة لما قصدوا القربة إلى الله بنفوسهم.

حكي عن بعض شباب الصالحين أنه كان بمنى يوم النحر وكان فقيراً متجرداً لا يقدر على شيء من الدنيا، فنظر إلى الناس يتقرّبون إلى الله بنحر بدنهم وبالبقر والغنم وما قدروا عليه من الحيوان فقال الشاب: إلهي إن الناس قد تقرّبوا إليك في هذا اليوم بما وصلت أيديهم إليه ممّا أنعمت به عليهم، وما لعبدك المسكين شيء يتقرّب به إليك في هذا اليوم سوى نفسه فاقبلها، فما فرغ من كلامه حتى فارق الدنيا فقبضه الله قبض الشهداء سبيل الله، ولنا بيت من قصيدة في هذا المعنى: [الطويل]

وأهدَى من القُرْبان نفساً مَعِيبةً　　　وهل رِيءَ خَلْقٌ بالعُيوب تقَرَّبَا

وفي مثل هذا يقول بعضهم وقد رأى بمنى مثل ما رآه هذا الشاب من الحاج فأنشد: [البسيط]

تُهدى الأضاحي وأُهدي مهجتي وَدَمِي

وصل في فصل البيع وقت النداء للصلاة من يوم الجمعة: اختلفوا في البيع في وقت النداء، فمن قائل: يفسخ. ومن قائل: لا يفسخ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ

لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ [سورة الجمعة: الآية ٩] فأمر بترك البيع في هذا الوقت. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١١] وقال عليه السلام في الجهاد: «**إِنَّهُ جِهَادُ النَّفْسِ وَهُوَ الْجِهَادُ الأَكْبَرُ**» وقال تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٣] ولا أكفر من النفوس بنعم الله، ولا يلي الإنسان أقرب إليه من نفسه، وجهاد النفس أعظم من جهاد العدو لأن الإنسان لا يخرج إلى جهاد العدو إلاّ بعد جهاده لنفسه، وجهاد العدو قد يقع من العبد للرياء والسمعة والحمية، وجهاد النفس أمر باطن لا يطلع عليه إلاّ الله كالصوم في الأعمال، وأحق بيع النفس من الله إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فيترك جميع أغراضه ومراداته ويأتي إلى مثل هذا السوق فيبيع من الله نفسه، ومثل هذا البيع لا يفسخ، هذا مذهب من يقول: بعدم الفسخ، ومن يقول بالفسخ اعتباره هو أن يقول جميع أفعال العبادات أضافها إلى العباد إلاّ عبادتين: العبادة الواحدة: الصوم فأضافه إلى نفسه، والعلة في ذلك أنها صفة صمدانية سلبية لا تنبغي إلاّ لله من حيث ذاته لا من حيث كونه إلهاً، وكل ما عدا ذات الحق فإنه متغذ بالغذاء الذي يليق به ممّا يكون في استعماله بقاء ذلك المتغذي. والعبادة الثانية الصلاة فإنه قال: «**قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي**» فدل هذا الحديث على صحة ما يملكه العبد، فإنه أضاف نصف الصلاة إلى نفسه تعالىٰ وأضاف نصفها إلى عبده، فهو وإن كان عبده فهو مالك لما أضافه الله إليه، فهو بالنظر إلى ما أضافه إليه في الصلاة غير مملوك فقال بفسخ البيع، ومعنى فسخ البيع أنه لا يضيف إلى الله في هذه الحالة ما هو مضاف إليه، فإن في ذلك منازعة الحق حيث أضاف أمراً إليك فرددته أنت عليه وهذا سوء أدب، فأي مصلّ ردّ على الله هذا النصف الثاني الذي أضافه إلى العبد وملكه إياه في حال الصلاة فهو بيع مفسوخ، ولهذا قال تعالىٰ في هذا الحال: ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ [سورة الجمعة: الآية ٩] يقول: مرادي منكم في هذه الحال أن يكون نصف الصلاة لكم، فالموفق هو الذي يتأدّب مع الله في كل حال.

وصل بل فصل في آداب الجمعة: اعلم أن آداب الجمعة ثلاثة وهو: الطيب، والسواك، والزينة وهو اللباس الحسن ولا خلاف فيه بين أحد من العلماء.

وصل الاعتبار في ذلك: أمّا الطيب: فهو علم الأنفاس الرحمانية وهو كل ما يرد من الحق ممّا تطيب به المعاملة بين الله وبين عبده في الحال والقول والفعل.

وأمّا السواك: فهو كل شيء يتطهر به لسان القلب من الذكر القرآني وهو أتم الطهارة، وكل ما يرضي الله فإنه تنبعث ممّن هذه أوصافه روائح طيبة إلهية يشمّها أهل الروائح من المكاشفين، قال رسول الله ﷺ في السواك: «**إِنَّهُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ وَمَرْضَاةٌ لِلربِّ**» وأن السواك يرفع الحجب بين الله وبين عبده فيشاهده فإنه يتضمن صفتين عظيمتين: الطهور ورضى الله، وقد أشار إلى هذا المعنى الخبر في قوله ﷺ: «**صَلاةٌ بِسِوَاكٍ خَيرٌ مِنْ سَبْعِينَ صَلاةٍ بِغَيرِ سِوَاكٍ**» وفي سواك إشارة للمصلين بربهم لا بأنفسهم، وقد ورد: «**إِنَّ للَّهِ سَبْعِينَ حِجَاباً**» فناسب بين ما ذكرته لك وبين هذه الأخبار تبصر عجائب.

وأما اللباس الحسن فهو التقوى، قال تعالىٰ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٦] أي هو خير لباس، وقال: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣١] ولا تقوى أقوى من الصلاة فإن المصلي مناجٍ مشاهد ولهذا قال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٣] وقال لعبده قل: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] فقد أقام الصبر والصلاة مقام نفسه في المعونة، فكل مصلّ يتحدث في صلاته مع غير الله في قلبه فما هو المصلي الذي يناجي ربّه ولا يشاهده، فإن حال المناجاة والشهود لا يجرأ أحد من المخلوقات يقرب من عبد تكون حالته هذه خوفاً من الله، وهذا المصلي قليل فهو مصلّ بصورته الظاهرة من قيام وركوع وسجود غير مصلّ بباطنه الذي هو المطلوب منه، ولكن نرجو في هذا الموطن أن يشفع ظاهره في باطنه كما يشفع في بعض الأحوال باطنه في ظاهره، وسبب ذلك أن الحركات الظاهرة إن لم يكن لها في الباطن حضور تثبت به وتظهر عنها وإلاّ فما تكون ولا يظهر لها وجود، فذلك القدر من الحضور المرعيّ شرعاً هو من الباطن فيتأيّد مع الفعل الظاهر، فيقوى على ما يقع للمصلي من الوسوسة في الصلاة، فلا يكون لها تأثير في نقص نشأة الصلاة عناية من الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحج: الآية ٦٥] ولما كان اللباس الحسن من الزينة التي أمر بها العبد في الصلاة لم يكن أحسن زينة يلبسها العبد في مناجاة ربه من زينته بالعبودية، والزينة الأخرى الزينة بربه في قوله: كنت سمعه وبصره ويده ورجله ولسانه فأثبت العبد بالضمير وزيّنه به تعالىٰ في عباداته كلها. انتهى الجزء الثاني والأربعون.

(الجزء الثالث والأربعون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصول بل فصول ـ صلاة السفر والجمع والقصر:

السفر يؤثر في الصلاة القصر باتفاق وفي الجمع باختلاف. أما القصر: فإن العلماء اتفقوا على جواز قصر الصلاة للمسافر إلاّ عائشة فإنها قالت: لا يجوز القصر إلاّ للخائف لقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ۚ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠١] وقالوا: إن النبي ﷺ إنما قصر لأنه كان خائفاً، واختلفوا من ذلك في خمسة مواضع أنا أذكرها إن شاء الله.

وصل الاعتبار في ذلك: قد بيّنا لك في هذا الباب أن السفر حال لازم لكل ما سوى الله في الحقائق الإلهية، بل لكل من يتصف بالوجود وهو سفر الأكابر من الرجال تخلقاً بقوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وحديث النزول إلى السماء الدنيا كل ليلة في الثلث الباقي من الليل وهو الادّلاج عند العرب بتشديد الدال، فسفر الأكابر من الرجال بالعلم والتحقق، وسفر في الأسماء الإلهية بالتخلق وهو سفر حاله نازل عن الحال الأول، وسفر ثالث في الأكوان بالاعتبار وهو حال دون الحالين، وسفر جامع لهذه الأسفار كلها في أحوالها وهو أعظم أسفار الكون، والأوّل أعظم الأسفار وأجلها، فإذا دعا الحق المسافر للصلاة قصر عن صلاة المقيم لموضع الفرق، فكما تميّز المقيم من

المسافر وحال الإقامة من حال السفر تميّز حكم صلاة المقيم من حكم صلاة المسافر. وأمّا قول عائشة وهو قول الله في الخوف فإن العبد مطلوب في كل نفس بمراقبة الحق في حكمه تعالىٰ في ذلك النفس بما شرع له تعالىٰ فيه خاصة، وما كل أحد يقدر على مراعاة هذا المقام مع الحق فلا يزال في خوف دائماً، فالعارف إذا حصل فيه وخاف أن يلتبس عليه مناجاة الحق في الأنفاس اقتصر من المناجاة على ما يختص بذلك النفس، فكان الخوف سبباً للقصر وهو قول الله تعالىٰ الذي ذهبت إليه عائشة، وسيأتي تحقيق ما أومأنا إليه فيما بعد. ولما قلنا إن العلماء اختلفوا من ذلك في خمسة مواضع تعين علينا أن نذكرها واعتباراتها موضعاً موضعاً إن شاء الله تعالىٰ، كما جرت عادتنا في عبادات هذا الكتاب.

وصل في فصل ـ الموضع الأول من الخمسة: وهو حكم القصر، اختلف علماء الشريعة في ذلك على أربعة أقوال: فمن قائل: إن القصر للمسافر فرض متعين وبه أقول. ومن قائل: إن القصر والإتمام كليهما فرض مخيّر له كالخيار في واجب الكفارة. ومن قائل: إن القصر سنّة. ومن قائل: إن القصر رخصة والإتمام أفضل.

وصل الاعتبار في ذلك: من رأى أن التمكين في التلوين إقامة قال الإتمام أفضل، ومن راعى التلوين مع الأنفاس سواء كان مشعوراً به أو غير مشعور به قال: إن القصر فرض متعين، ومن راعى التلوين والتمكين خيره في القصر والإتمام بحسب صاحب الوقت وحاكمه، فإن كان صاحب الوقت التلوين بالحال والتمكين بالعلم قصر، وإن كان صاحب الوقت التمكين بالحال والتلوين بالعلم أتم، ومن لم يراع التلوين ولا التمكين وكان بحكم الطريق لا بحكم السالك فيه قال: إن القصر سنّة.

وصل في فصل ـ الموضع الثاني من الخمسة المواضع: وهي المسافة التي يجوز فيها القصر. اختلف العلماء في ذلك، فمن قائل: في أربعة برد. ومن قائل: مسافة ثلاثة أيام. ومن قائل: في كل سفر قريباً كان أو بعيداً وبه أقول فإني أعتبر فيها مسمّى السفر باللسان.

وصل الاعتبار في ذلك: البريد اثنا عشر ميلاً، ولما كانت المسافة تطلب المقدار بذاتها والعدد يلزم المقادير وكانت مراتب العدد اثنتي عشرة مرتبة لا يزاد عليها ولا ينقص وهي: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة، مائة ألف، هذه بسائط الأعداد وما زاد عليها فمركب منها، فإذا مشى الإنسان في طريق الله في الأربعة الأركان التي قامت منها نشأته وهي أخلاطه يقطع كل ركن بهذه الاثني عشرة، وأما الأكابر فيقطعونها في الأربعة الأسماء الإلهية التي هي أمهات الأسماء كلها، وعليها توقف وجود العالم وهو الحيّ العالم المريد القادر لا غير، وبهذه الأسماء يثبت كونه إلهاً، فإذا نظر العبد في هذه الأربعة مع الأربعة التي له كانت ثمانية ونظر إلى نفسه وعقله فكانت العشرة، ونظر إلى توحيد ذاته وتوحيد ألوهيته كانت اثنتي عشرة وتمّ البريد، فنظر هذا أيضاً في الأربع المراتب وهو قوله: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، حقاً وخلقاً، وصرّف في كل حال من هذه الأحوال الاثني عشر تثبت بذلك أربعة برد فيقصر لها الصلاة. وأما الثلاثة الأيام فيوم كما قال

أبو يزيد حين سئل عن الزهد فقال: هو هين ما كنت زاهداً سوى ثلاثة أيام، اليوم الواحد: زهدت في الدنيا. واليوم الثاني: زهدت في الآخرة. واليوم الثالث: زهدت في كل ما سوى الله. ومن كانت هذه حاله قصر صلاته فإنه قد سافر أكمل الأسفار بلا خلاف وأما القصر في مسافة ينطلق عليها اسم سفر ولا بدّ في اللسان ولا يراعي البعد ولا القرب فهو الذي يراعي عالمه المكلفين، فمن سافر منهم قصر، فإذا سافر الإنسان ببصره للاعتبار قصر، وإن سافر بسمعه أيضاً قصر، وإن سافر بفكره في المعقولات قصر، وصورة قصره قصور نظره على ما يعطيه حاله في وقته، فإن أعطاه الكل كان بحسبه، وإن أعطاه البعض كان بحسبه، وهذا هو مذهب الجماعة وعليه عوّلوا.

وصل في فصل ـ الموضع الثالث من الخمسة المواضع: وهو اختلافهم في نوع السفر الذي تقصر فيه الصلاة، فمن قائل: إن ذلك مقصور على سفر الطاعات والأفعال المقرّبة إلى الله. ومن قائل بهذا أو بالسفر المباح أي ذلك كان. ومن قائل: بكل سفر ممّا يسمّى سفراً قربة كان أو مباحاً أو معصية وبه أقول.

وصل الاعتبار في ذلك: قال تعالىٰ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٥] هذا في الأعيان وقال في الأعيان وفي الأحوال وقال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] وقال: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٣] وقال: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] فهذه الآيات كلها وأمثالها تدل على سفر الإنسان إلى الله فيقصر، فإن الله هو الغاية لكل مسافر، سواء سافر منه أو من كون نفسه أو كون من الأكوان، وفيه أو في أسماء ربه، والحق سبحانه غاية الطرق قصدت الطرق أو لم تقصد، فما هو غاية قصد السالك؟ فإن السالك مقيد القصد ولا بد، والله لا يتقيد إلاّ بالإطلاق فإن الإطلاق تقييد، فلهذا أمرنا بالتقصير في كل ما ينطلق عليه اسم سفر قربة كان أو مباحاً أو معصية، ومن راعى أو كان مشهده قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ١٥] وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣] لم ير التقصير إلاّ في سفر الطاعة أو في سفر الطاعة والمباح، لأن الصلاة قربة إلى الله سعادية والمذهب الأول أولى، فإن المعصية لم يثبت كونها معصية عند هذا المسافر فيها إلاّ بكونه مؤمناً أو على مذهب خاص بالمؤمن بها أنها معصية، فهو ممّن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وهو مسافر، فلأيّ معنى نراعي حكم المعصية فنقول بأنه لا يقصر بكونه سافر في غير ما يرضي الله، وغاب صاحب هذا القول عن حكم الإيمان بهذه المعصية من هذا المسافر أنه مؤمن بأنها معصية فهو في طاعة، فإنه قد أرضى الرب سبحانه من كونه مؤمناً بأنها معصية، والإيمان في حكمه أقوى من الفعل المعين المسمّى معصية، فما يمنعه أن يحكم له بجواز القصر وهو مسافر بإيمانه بها في طاعة أيضاً، والحسنة بعشر والسيئة واحد ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٥] فكيف إن كانوا مائتين والمعصية في عشرين، والآيات التي احتج بها من تعيين الصراط والحجة إنما ذلك فيمن ليس بمؤمن ومن ليس بمؤمن، فما هو

مخاطب بتمام ولا قصر لأن الصلاة لا تجب عليه إلاَّ بعد الإيمان، وإن كان مخاطباً بالجملة فمذهبنا أولى في هذه المسألة.

وصل في فصل ـ الموضع الرابع من الخمسة المواضع: وهو الموضع الذي منه يبدأ المسافر بالقصر، قال بعض العلماء: لا يقصر حتى يخرج من بيوت القرية، ولا يتم حتى يدخل أول بيوتها. ومن قائل: لا يقصر إذا كانت قرية جامعة حتى يكون منها بنحو ثلاثة أميال.

وصل الاعتبار في ذلك: الإنسان جسم وروح، فما دام روح الإنسان مستوطناً في جسمه وعالم حسّه يجري بحكم طبيعته فهو مقيم غير مسافر فيتم صلاته، فإذا سافر الروح عن جسمه وتركه وراء بحال فناء فقد غاب عنه في أول قدم، وإذا غاب عنه فسنته القصر في الصلاة، ومعنى القصر هنا ما يختص به الروح من حكم الصلاة من كونه روحاً لا من كونه مدبراً لجسم، فإنه في هذه الحال غائب عن جسمه، فلا يبقى عليه من حكم الصلاة إلاَّ ما يختص به، ومن راعى كون جسميته ذات ثلاث شعب وهو ما يحويه من الطول والعرض والعمق وهو سار في كل مسمّى بالجسم إلاَّ في مذهب المتكلمين فإن الجسم عندهم طول بلا عرض يعني أقل جسم، وفي مذهب غيرهم ثمانية جواهر هي أقل الأجسام، فإنه جمع بين الطول من كونه جوهرين، والعرض من كونه أربعة جواهر وهو السطح والعمق من كونه ثمانية جواهر وهو سطحان وأربعة خطوط، وسواء كان عند هذا الروح جسمه الخاص به أو انتقل عن جسمه في غيبته المدبر له إلى جسم آخر طبيعي يشاهده فما زال من حكم الجسمية، فلا يقصر حتى يغيب عنها بالكلية ويتجرد عن مشاهدة الجسمية ويبقى روحاً، فحينئذ يبتدىء بصلاته الخاصة به وهو القصر، فهذا اعتبار صاحب الثلاثة الأيام.

والقرية الجامعة وهي الجسمية الشاملة لجسمه ولجسم غيره فإن من أصحابنا من يقول إنه من انتقل في غيبته من صورة حسّه إلى صورة محسوسه فلا يسمى غائباً، كانت تلك الصورة ما كانت روحانية أو أسمائية أو معنوية أو جسمية، مهما تجلّت له في الصور الجسمية فهو مقيم في الجسم، فوجب عليه الإتمام في الصلاة التي يدخلها القصر والإتمام وهي الرباعية، فإن الثنائية وهي الصبح لا يدخلها القصر، فإن الركعة الواحدة لوحدانية الحق والركعة الثانية لوحدانية العبد فلا بدّ من مصلّ ومصلى له فلا قصر في صلاة الصبح. وأما الثلاثية وهي المغرب فإن الركعتين اللتين يجهر فيهما فهما شفعية الإنسان وكونهما يجهر فيهما بالقراءة لأنهما نصبتا دليلاً على الحق، والدليل لا يكون إلاَّ علانية ظاهراً معلوماً، ودليل بغير مدلول لا يصحّ، فكانت الركعة الثالثة لوجود المدلول وهو الحق، وكانت القراءة فيها سرّاً لكونه غيباً، فلا سبيل إلى القصر في المغرب فإنه دليل على العبد وشفعيته وعلى الحق وأحديته، فلم يبق القصر إلاَّ في الرباعية لوجود الشفعيتين فيها، فألحقت بالصبح لحكم الأحدية في جناب الحق وجناب العبد وهو قول من قال: [المتقارب]

وفــي كــل شــيء لــه آيــةٌ تــدلُ عــلــى أنــه واحِــدُ

فما قال اثنان ولا قال شيئان، فاعتبر أحدية كل شيء من كونه شيئاً ومن كونه آية على أحدية الحق حتى لا يعرف الواحد إلاّ بالواحد، ولهذا كان يقول الحسن بن هانىء شاعر وقته: وددت أن هذا البيت الواحد لي بجميع شعري ثم عمل في معناه وما جاء مثله ولا أعطى من حسن مساق المعنى ما أعطاه هذا البيت، وخرج عن علمي في هذا الوقت ما عمله الحسن ولو كان في حفظي في هذا الوقت لسقته في هذا الموضع حتى يعرف فضل هذا البيت وإنه في الكلام المعجز، وما أظن وقع لقائله وهو أبو العتاهية إلاّ بحكم الاتفاق.

وصل في فصل ـ الموضع الخامس من الخمسة المواضع: وهو اختلافهم في الزمان الذي يجوز للمسافر إذا أقام فيه في بلد أن يقصر. حكى أبو عمر بن عبد البر في هذه المسألة أحد عشر قولاً ما حضرتني في هذا الوقت فلينظرها في كتبه من أراد أن يقف عليها، فلنذكر منها ما تيسر على ذكري، فمن قائل: إذا أزمع المسافر على إقامة أربعة أيام أتم، وقال غيره: خمسة عشر يوماً، وقال غيره: عشرين يوماً، وقال غيره: إذا أزمع على أكثر من أربعة أيام، والأولى عندي في هذه المسألة أن ينظر في مدة إقامة النبي ﷺ بمكة إلى أن رجع إلى المدينة فإنه كان يقصر في تلك المدة.

وصل في الاعتبار في ذلك: إذا قام السالك في المقام بنية الإقامة فيه أتم من نفسين إلى عشرين نفساً، فإن يوم العارف نفسه المكمل الإلهي وإن كان في كل نفس يطلب الترقي فيمسكه الله فيه فلا يعطيه حكمه ما مشى به في أنفاسه ولم يشعر بها إلاّ أن نيّته الرحلة في كل نفس، فهو يقصر دائماً عمره كله، فهو بمنزلة من يتعرّض للفتح فلا يفتح له ويجمع له إلى أن يموت فيرى عند موته ما أخفي له فيه من قرّة أعين فيعلم عند ذلك أنه كان مسافراً ولم يشعر لكونه ما فتح له في حياته الأولى ولا شاهد ما شاهد غيره من السائرين إلى الله.

وصل في فصول ـ الجمع بين الصلاتين: اتفق العلماء كلهم على الجمع بين الظهر والعصر في أول الظهر يوم عرفة بعرفة، وعلى الجمع بين المغرب والعشاء بتأخير المغرب إلى وقت العشاء بالمزدلفة، واختلفوا فيما عدا هذين المكانين، فذهب أكثر الناس إلى الجمع بينهما في المواضع التي يجوز الجمع والأحوال، ومنع بعضهم ذلك بإطلاق فيما عدا موضع الاتفاق. وأما الذي أذهب إليه فإن الأوقات قد ثبتت بلا خلاف فلا نخرج صلاة عن وقتها إلاّ بنص غير محتمل، إذ لا ينبغي أن يخرج عن أصل ثابت بأمر محتمل، هذا لا يقول به من شم رائحة من العلم، وكل حديث ورد في ذلك فمحتمل وتكلم فيه مع احتماله أو صحيح لكنه ليس بنص. وأما إن أخّر صلاة الظهر إلى الوقت المشترك فجمع على هذا الحد وكذلك في المغرب مع العشاء فقد صلّى كل صلاة في وقتها وهو الصحيح الذي يعوّل عليه، فإن الحديث الثابت الذي هو نص هو حديث أنس: «أَنَّ النَّبِيَ ﷺ كَانَ فِي سَفَرِهِ إِذَا ارْتَحَلَ قَبْلَ أَنْ تَزِيغَ الشَّمْسُ أَخَّرَ الظُّهْرَ حَتَّىٰ يُصَلِّيَهَا مَعَ الْعَصْرِ»فهو محتمل كما ذكرناه، وإذا ارتحل بعد أن تزيغ الشمس صلّى الظهر وحده ثم ركب ولم يكن يقدم العصر إليها لأنه ليس وقتها باتفاق، فيقوى بهذا احتمال التأخير أنه صلّى الظهر في آخر وقتها وأوقع بعضها في الوقت المشترك وهو الذي

يصلح لإيقاع الصلاتين معاً إلاَّ أنه لا يتسع فيصلي من الظهر ثلاث ركعات فيه أو ما نقص عن ذلك، ويصلي من العصر فيه بقدر ما أبقى من الوقت المشترك، وهذا هو الأولى والأحوط.

وصل الاعتبار في ذلك: الجمع في المعرفة بلا خلاف في توحيد الله في ألوهته وهو أن لا إله إلاَّ هو، ولا يعرف هذا إلاَّ بعد معرفة المألوه، فهو الجمع بين المعرفتين بالاتفاق وهذا هو جمع عرفة، وأما جمع المزدلفة فهو موضع القربة وهو موضع جمع فحكم اسم الموضع على من حلّ فيه بالجمع، ألا ترى قول رسول الله ﷺ: «**لاَ يُؤَمَّنَّ الرَّجُلُ فِي سُلْطَانِهِ وَلاَ يُقْعَد فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إلاَّ بِإِذْنِهِ**» فجعل الحكم والإمامة لصاحب المنزل، وهذا المنزل يسمّى جمعاً فالإمامة له والحكم، فجمع فيه بين الصلاتين لما تعطيه حقيقته بالاتفاق أيضاً، وجمع النبيّ ﷺ في هاتين بين التقدم والتأخر ولا واسطة بينهما في هذا الموضع حتى تكمل مراتب الأشياء لأجل أهل القياس، فإن الله قد علم من عباده أنهم بعد رسول الله ﷺ يتخذون القياس أصلاً فيما لا يجدون فيه نصاً من كتاب ولا سنّة ولا إجماع، فوفق رسول الله ﷺ إلى الجمع في هذا اليوم بتقديم صلاة العصر وتأخير صلاة المغرب ليقيس مثبتو القياس التأخير لهذا التأخير والتقديم لهذا التقديم، وقد قرّر الشارع حكم المجتهد أنه حكم مشروع، فإثبات المجتهد القياس أصلاً في الشرع بما أعطاه دليله ونظره واجتهاده حكم شرعيّ لا ينبغي يردّ عليه من ليس القياس من مذهبه وإن كان لا يقول به، فإن الشارع قد قرّره حكماً في حق من أعطاه اجتهاده ذلك، فمن تعرّض للردّ عليه فقد تعرّض للردّ على حكم قد أثبته الشارع، وكذلك صاحب القياس إن ردّ على حكم الظاهريّ في استمساكه بالظاهر الذي أعطاه اجتهاده فقد ردّ أيضاً حكماً قرّره الشارع، فليلزم كل مجتهد ما أدّاه إليه اجتهاده ولا يتعرّض إلى تخطئة من خالفه فإن ذلك سوء أدب مع الشارع، ولا ينبغي لعلماء الشريعة أن يسيئوا الأدب مع الشرع فيما قرّره.

وصل في فصل ـ صورة الجمع: اختلف القائلون في صورة الجمع في السفر، فمنهم من رأى أن تؤخّر الصلاة الأولى وتصلّى مع الثانية. ومنهم من رأى أن تقدّم الأخرى إلى الأولى إن شاء، وأن يؤخّر الأولى إلى الآخرة إن شاء، فمن راعى تأخير الأولى فاعتباره المعرفة بالله، فإن الله كان ولا شيء معه، وأن العالم متأخر عن وجود الحق بالوجود، فإن وجوده مستفاد من وجود الحق، فلما أردنا المعرفة به من كونه إلهاً للعالم أخّرناه في المعرفة إلى وقت معرفتنا بنا، فلما عرفنا أنفسنا عرفنا ربنا، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» فصلينا الأولى في وقت الثانية، ومن راعى الوجود في الاعتبار قدم الآخرة إلى الأولى وجعل وجود عين العبد هو وجود الحق، فالحق العالم بالله، فعلمه من الله وعلم الله بالله، ومن راعى الأمرين معاً في الاعتبار قدّم إن شاء وأخّر إن شاء، ولكل طريقة طائفة، والكامل منّا من عرف كل طريقة وكل طائفة وكان فيها خارجاً عنها وهم الأكابر من الرجال.

فصل: ومن الفصول المبيحة للجمع السفر بالاتفاق من القائلين به، واختلفوا في الجمع في الحضر وفي شروط السفر المبيح له، فمنهم من جعل السفر نفسه مبيحاً للجمع أيّ سفر

كان وبأيّ صفة كان. ومنهم من اشترط فيه ضرباً من السير ونوعاً من أنواع السفر في الحديث إذا عجل به السير فجعل العلة في الجمع التعجِيل. وأما النوع فقد تقدم من سفر القربة والمباح والمعصية.

وصل في الاعتبار في ذلك: لا يصحّ الجمع بين الصلاتين إلاّ فيما ذكرناه في عرفة وجمع. وأما السفر على الحقيقة وهو سفر الأنفاس فلا يصحّ فيه الجمع إذا كان الجمع عبارة عن إخراج إحدى الصلاتين عن وقتها وما قال به في طريقنا بالاعتبار إلاّ من لا معرفة له بالذوق في ذلك، ولو جعل صاحب هذا القول باله من حركاته الظاهرة ونظره وسمعه وجوارحه لرآها في كل زمان تتغير وما عنده خبر لغفلته عن نفسه، ولهذا قال الله لنا: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢١].

وصل في فصل ـ الجمع في الحضر لغير عذر: قال ابن عباس في جمع النبيّ ﷺ بين الصلاتين من غير عذر إنه أراد أن لا يحرج أمّته، وهو موافق لقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] وقوله عليه السلام: «**دِينُ اللّهِ يُسْرٌ**» وقال به جماعة من أهل الظاهر وقال ما عداهم لا يجوز الجمع لغير عذر مبيح للجمع.

وصل الاعتبار في ذلك: الجمع لأهل الحجاب رفق بهم في التكليف وجائز لهم لرفع الحرج، فإن الحرج في العبادة هو تضعيف التكليف، فإن العمل في نفسه كلفة، فإذا انضافت إليه المشقة كان تكليفاً على تكليف، وأما أهل المشاهدة فلا جمع عندهم إلاّ بجمع وعرفة وما عدا ذينك فلا.

وصل في فصل ـ الجمع في الحضر بعذر المطر: فأجازه بعضهم ليلاً كان أو نهاراً، ومنعه بعضهم في النهار وأجازه في الليل. وأجازه بعضهم في الطين دون المطر في الليل، والذي أذهب إليه أن المصلي إذا كان مذهبه أن الصلاة لا تصحّ إلاّ في الجماعة وما عنده جماعة إلاّ في المسجد فإنه يجمع بين الصلاتين ليلاً ونهاراً إذا كان في جماعة، وإن كان مذهبه جواز صلاة الفذ مع وجود الجماعة فلا يجوز له الجمع إلا إن كان في المسجد، وجمع الإمام على أي مذهب كان ذلك الإمام إذا كان الإمام مجتهداً لا مقلداً إلاّ أن اليوم تقليد ذلك المجتهد في جميع نوازله كما هم عليه عامّة الفقهاء في عصرنا هذا.

وصل الاعتبار في ذلك: الجمع للمقيم جائز فإنه محجوب عن شهود سفره، فإنه مسافر من حيث لا يشعر في كل نفس باختلاف الأحوال والخواطر، وحديث النفس والحركات الظاهرة والباطنة، فإذا انضاف إلى ذلك عذر المطر وهو العلم المنزل فهو علم ظاهر الشريعة الذي جاء بالجمع جاز له الجمع لما دلّ عليه هذا العلم المشروع فينبغي أن لا يعدل عنه، فمن راعى الحرج أضاف الطين إليه وأجاز ذلك في صلاة الليل، ومن لم يراع الحرج أجاز ذلك ليلاً ونهاراً ولم يجزه في الطين.

وصل في فصل ـ الجمع في الحضر للمريض: فمنهم من أباح له الجمع. ومنهم من منع وبالأول أقول لحديث ابن عباس الصحيح وقد تقدم ذكره.

وصل الاعتبار في ذلك: الكسل مرض النفس فلا يجوز الجمع لمن كان مرضه الكسل وما في معناه، فإن كان مرضه استيلاء الأحوال عليه بحيث إنه يخاف أن يغلب عليه الحال كما يخاف المريض أن يغمى عليه جاز له الجمع، فإن الحال مرض والمقال صحة، فالجهلاء من أهل طريقنا يقولون بشرف الحال على العلم لجهلهم بالحال ما هو، فالأحوال يستعيذ منها الأكابر من الرجال في هذه الدار وهي من أعظم الحجب، ولهذا جعلت الطائفة الأحوال مواهب والمقامات مكاسب والدنيا عند الأكابر دار كسب لا دار حال، فإن الكسب يعليك درجة، والحال يخسر صاحبه وقته فلا يرتقي به بل هو من بعض نتائج مقامه استعجله في الدنيا، ولهذا كانت الأحوال مواهب ولو كانت مكاسب لوقع بها الترقي، فشرف الحال في الآخرة لا في الدنيا، وشرف العلم والمقام في الدنيا والآخرة، أمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ بطلب الزيادة من العلم فقال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] ولم يأمره بطلب الزيادة من الحال، فلو عرف هذا القائل شرف العلم وكان عنده منه ذوق صحيح لوافق الحق تعالىٰ في الذي شرّف العلماء به، ولما كان مطروداً من هذه الصفة التي وصف الحق بها نفسه والخواص من ملائكته وعباده ولم يبلغ تلك الدرجة، أخذ يحامي عن نفسه بأن جعل الحال أشرف من العلم وهو بحمد الله عريّ عن العلم والحال. وأما أصحاب الأحوال الإلهية الصحيحة رضي الله عنهم فهم عالمون بشرف العلم على الحال ومطلوبهم العلم، فإن الحال يحول بينهم وبين ما خلقوا له فيتبرّؤون منه، وممّا يدلك على ذلك أن أصحاب الحال وإن سرّ به فتراه عند الموت يتبرأ منه ويزول عنه ويتمنى أنه لم يكن صاحب حال، فالحال ليس بأمر مقرّب إلى الله، والدنيا محل أسباب التقريب، والآخرة محل القربة، فيجعل كل صفة تحكم في موضعها، فالحال حكمه في الآخرة، والعلم حكمه في الدنيا والآخرة وفي كل موطن لأنّ شرفه هو الأتم.

وصل في فصول ـ صلاة الخوف: أجمع الناس على أن صلاة الخوف جائزة، واختلفوا في صورتها بحسب اختلاف الروايات الواردة فيها من صلاته ﷺ إياها إلاّ أبا يوسف فإنه شذّ عن الجماعة فقال: لا تجوز صلاة الخوف على صورة ما صلاّها رسول الله ﷺ بإمام واحد إلاّ لرسول الله ﷺ فإن ذلك خاص به، وإنما تصلّى صلاة الخوف بإمامين كل إمام يصلي ركعتين بطائفة ما دامت تحرس الأخرى، والذي أذهب إليه أن الإمام مخيّر في الصور التي ثبتت عن رسول الله ﷺ فبأيّ صورة صلاّها أجزأته صلاته وصحّت صلاة الجماعة إلاّ الرواية التي فيها الانتظار بالسلام فإن عندي فيها نظراً لكون الإمام يصير فيها تبعاً تابعاً وقد نصبه الله متبوعاً، وسبب توقفي في ذلك دون جزم من طريق المعنى، فإن النبيّ ﷺ أمر الإمام أن يصلي بصلاة المريض وأضعف الجماعة، والتأويل الذي يحتمله اقتداء أبي بكر بصلاة رسول الله ﷺ ذكره الطحاوي أن أبا بكر كان هو الإمام في صلاته بالناس وفيهم رسول الله ﷺ، قال الراوي: فكان الناس يقتدون بأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان أبو بكر يقتدي بصلاة رسول الله ﷺ، فقال: معنى الاقتداء هنا أنه كان يخفف لأجل مرض

رسول الله ﷺ، وهذا التأويل ليس ببعيد، فقد يكون الإمام في هذه الحالة إماماً مؤتماً وبلفظ الإمامة وردت الرواية عن الصاحب فلهذا لم يترجح عندي نظر في رواية الانتظار، والاختلاف في صور صلاة الخوف معلوم مسطور في كتب الحديث.

وصل الاعتبار في ذلك: الحق يكون مع العبد بحسب حال العبد: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي خَيراً**» فأيّ شيء كان حال العبد كان الحق معه بحسبه يعامله به، قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] إن ذكر العبد ربه في نفسه ذكره الله في نفسه، وإن ذكر العبد ربه في ملأ ذكره الله في ملأ، فالعبد ينزل في هذه المسألة منزلة إمام، والحالة الأخرى أن يكون حال العبد مع الله على صورة ما يكون حال الحق مع العبد مثل قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] فأهل طريق الله على ما تقضي به الحقائق في هذه المسألة أن حب العبد لولا ما أحبه الله أولاً ما رزقه محبته ولا وفقه إليها ولا استعمله فيها، وهكذا جميع ما يكون فيه العبد من الأمور المقرّبة إلى الله عزّ وجلّ، فهذا المقام يحذر أهل الله من الغفلة فيه فلهذا شبهناه بصلاة الخوف.

وصل في فصل ـ صلاة الخائف عند المسايفة: فمن الناس من قال: لا يصلي. ومن الناس من قال: يصلي بعينيه إيماء، والذي أذهب إليه أنه مأمور في ذلك الوقت بالصلاة على قدر ما يمكنه أن يفعله منها، وذلك أن كل حال ما عدا حال المسايفة فهو استعداد للجهاد والقتال ما هو عين الجهاد ولا عين القتال، فإذا وقعت المسايفة ذلك هو عين الجهاد والقتال الذي أمر الله عباده بالثبات فيه والاستعانة بالصبر والصلاة فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٥] ثم توعد من لم يثبت فقال: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ يعني إن قتل في تلك الحالة ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٦] وقال في تلك الحالة: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾ وهو حبس النفس عن الفرار في تلك الحال ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٥] فأمره بالصلاة وأنها من المأمور المعينة له على خذلان العدو فجعلها من أفعال الجهاد فوجبت الصلاة. والفرار في تلك الحال من الكبائر فأمره الله بالصبر وهو الثبات في تلك الحال، والصلاة فوجبت عليه كما وجب الصبر فيصليها على قدر الإمكان فالله يقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦] وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] وقد كان رسول الله ﷺ يوتر على الراحلة يومي إيماء مع الأمان، فأحرى إيقاع الفرض مع الخوف، ووجود الأمن والبشرى أنها من أسباب النصر فيصلي على قدر استطاعته في ذلك الوقت وعلى تلك الحال بحيث أن لا يترك القتال ولا يتوانى فيه فذلك استطاعة الوقت فإن المكلف بحكم وقته، وسواء كان على طهارة أو على غير طهارة، والمخالف لهذا ما حقق النظر في أمر الله ولا ما أراده الله برفع الحرج عن المكلف في دين الله في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨].

وبعد هذا فإني أقول: لا يخلو هذا المكلف إذا كان في هذا الموطن على هذه الحال إما

أن يكون مجتهداً أو مقلداً، فإن كان من أهل الاجتهاد فلا كلام فإنه يعمل بحسب ما يقتضيه دليله ويحرم عليه مخالفة دليله، وإن كان مقلداً فالأولى به عندنا أن يقلد من قال بجواز الصلاة في حال المسايفة وعلى غير طهارة فيها فإن القرآن يعضده، ولا حجة للمقلد في التخلّف عن تقليد من يقول بالصلاة فإنه أبرأ لذمته وأولى في حقّه، ويكون ممّن ذكر الله على كل أحيانه اقتداء برسول الله ﷺ في الصحيح عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه وما خصّت حالاً من حال.

وصل الاعتبار في ذلك: حال المسايفة هو حال العبد مع الشيطان في وسواسه وحين توسوس إليه نفسه والله في تلك الحالة أقرب إليه من حبل الوريد فهو مع قربه في حرب عظيم، فإذا نظر العبد في هذه الحال إلى هذا القرب الإلهي منه فإنه يصلي ولا بدّ من هذه حالته، ولو قطع الصلاة كلها في محاربته فإنه إنما يحاربه بالله فإنه يؤدي الأركان الظاهرة كما شرعت بالقدر الذي هو فيه من الحضور مع الله في باطنه في صلاته، كما يؤدي المجاهد الصلاة حال المسايفة بباطنه كما شرعت بالقدر الذي يستطيعه من الإيماء بعينيه والتكبير بلسانه في جهاد عدوه في ظاهره، فإن وسوسة الشيطان في ذلك الوقت لم تخرجه عما كلفه الله من أداء ما افترضه عليه، وطهارته في وقت الوسوسة عين محاربته كإسباغ الوضوء على المكاره، وإن أخطر له الشيطان إذا رأى عزمه في الجهاد في الله أن يقاتل ليقال رغبة منه وحرصاً أن يحبط عمل هذا العبد وكان قد أخلص النية أولاً عند شروعه في القتال أنه يقاتل ذاباً عن دين الله لتكون ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٠] و ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٠] والكافر هنا هو المشرك من جهة الشريك خاصة، وإنما قلنا هذا لأن أهل الله يعرفون ما أشرت به إليهم في هذا القول فلا يبالي بهذا الخاطر، فإن الأصل الذي بني عليه صحيح والأساس قوي وهو النية في أول الشروع، فإن عرض الشيطان له بترك ذلك العمل الذي قد شرع فيه على صحة ووسوس إليه أنه فاسد بما خطر له من الرياء فيرد عليه بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٣٣] فتدفع بهذه الآية الشبهة التي ألقاها إليك من ترك العمل.

وصل في فصل صلاة المريض: أجمع العلماء على أن المريض إذا بقي عليه عقل التكليف أنه مخاطب بأداء الصلاة وأنه يسقط عنه منها ما لا يستطيعه من قيام وركوع وسجود، واختلفوا فيمن استطاع أن يصلي جالساً، وفي هيئة الجلوس، وفي هيئة الذي لا يقدر على الجلوس ولا على القيام. فأمّا المصلي جالساً فقال قوم: هو الذي لا يستطيع القيام أصلاً. وقال قوم: هو الذي يشق عليه القيام من المرض. وأمّا صفة الجلوس فقال قوم: يجلس متربعاً في الجلوس الذي هو بدل من القيام، وكره ابن مسعود الجلوس متربعاً. وأمّا الذي لا يقدر على القيام ولا على الجلوس فقوم قالوا: يصلي مضطجعاً. وقوم قالوا: يصلي كيف تيسّر له. وقوم قالوا: يصلي ورجلاه إلى القبلة. وقوم قالوا: يصلي على جنب من لا يستطيع الجلوس، فإن لم يستطع على جنب صلّى مستلقياً ورجلاه إلى القبلة، والذي أذهب إليه

وأقول به أن الله قد رفع عن المسلم المكلف الحرج في دين الله وأمره أن يتقي الله ما استطاع فليصل المريض على قدر استطاعته وكما تيسّر له، ورفع الحرج عنه الذي يضر به في الزيادة من مرضه ولا يترك الصلاة أصلاً، ولو سقط عن استطاعته الإتيان بجميع الأركان وجميع الشروط المصححة لصلاة الصحيح فإن خطاب الشارع إنما يكلفه على حاله الذي يقدر عليه، فإن الله ما كلف نفساً إلاّ وسعها وما آتاها، وخفّف عنها أكثر من هذا بقوله تعالىٰ: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ متصلاً بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧] فكأنه يقول: وإن أعطاها وفعلته بمشقة هي عسر في حق المكلف فكان اليسر قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] فما أشدّ رفقه بعباده.

وصل الاعتبار في ذلك: الأمراض ثلاثة أنواع: بدنية ونفسية وعقلية لا رابع لها. فالبدنية: هي التي كنّا بصددها وهي التي يعرفها علماء الرسوم. والأمراض النفسية: الهموم المشتملة على أداء حق لله وجب عليها. والأمراض العقلية: الشبه المضلة القادحة في الأدلة وفي الإيمان تحول بين العقل من العاقل وبين صحة الإيمان.

فأمّا الأمراض النفسية مع وجود الإيمان: فإن الإيمان في هذا المؤمن للنفس بمنزلة وجود العقل للمريض المرض البدني فيؤدّي صلاته في مناجاة ربه ومشاهدته كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يجهز الجيش في الصلاة، فإن المؤمن الصادق ما له حديث إلاّ مع ربه، ولا يناجي أحداً من عباد الله دون أن يرى في ذلك مناجاة ربه بحسب ما يليق، فصاحب مرض النفس المؤمن يناجي ربه من حيث إيمانه في عين همومه فيكون شغله منه فيه به فلا يبرح في همّه وإيمانه بالله يقول له: همّك هو الله ونظرك فيه إنما هو بالله، فإن الله هو الوجود والموجود وهو المعبود في كل معبود وفي كل شيء، وهو وجود كل شيء، وهو المقصود من كل شيء، وهو المترجم عنه كل شيء، وهو الظاهر عند ظهور كل شيء، وهو الباطن عند فقد كل شيء شيئاً، وهو الأول من كل شيء، وهو الآخر من كل شيء، فلا تفوت المؤمن عبادة الله في كل وجه وعلى كل حال، فإن الأمراض النفسية لا تقدح في الإيمان، وأمّا الأمراض العقلية فهي القادحة في الإيمان، والإيمان له تعلقان: تعلق بوجود الحق وتعلق بتوحيد الحق.

وأمّا الإيمان بأحدية الحق من حيث ذاته فذلك من مدارك النظر العقلي عند أهل النظر، وعندنا من وجه أفكارنا. وأما من جهة الذكر والكشف فلا، وكذلك توحيد الحق يدرك بالإيمان ويدرك بالنظر، ولم تتعرض شريعة لأحدية الذات بطريق التنصيص عليها وإن كانت ترد مجملة فلهذا لا تدخل في سلك الإيمان، فإن كان المرض العقلي قد حال بينك وبين صحة الإيمان بوجود الحق فقد حال بينك وبين العلم الضروري، فإن العلم بوجود الصانع عند ظهور الصنعة للناظر ضروري، وإن لم يعلم حقيقة الصانع ولا ماهيته ولا ما يجب أن يكون عليه، ويجوز ويستحيل إلاّ بعد نظر فكري وإخبار إلهي نبويّ فهذا مرض لا طب فيه، ومن فقد العلم الضروريّ كان بمنزلة المريض الذي قد استفرغ المرض نفسه بحيث لا يعلم أنه

مريض ولا ما هو فيه فيرتفع عنه خطاب الشرع لأنه لا عقل له، وأما إذا كان معه الإيمان أو العلم الضروريّ بوجود الحق الخالق نفى المرض المزيل لصحة التوحيد بأن يقلد فيكون مؤمناً أو ينظر ويستدل فيكون عالماً، فإن حصل عن نظر واستدلال فمرضه أن إلا يقبل من الشارع ما جاء به من صفات الحق القادحة في أحدية الذات مع صحة توحيد الإله عقلاً وشرعاً صلّى وأقام عبادته مع هذا المرض فإنه نافعه إذ عقله فيه من المرض بحيث أن لا يستطيع إلاّ هذا القدر الذي ذكرناه من توحيد الله تعالىٰ، فإن المؤمن الصحيح الإيمان هو الذي يعبد الله الذي وصفه الشارع، والمؤمن المريض في إيمانه هو الذي يعبد الله الذي دلّ عليه العقل لا غير، وقد نبهتك على أمر يتضمن عذر كل من اعتذر، وإذا صحَّ التوحيد فهو المطلوب من كل موجود، فكيف إذا انضاف إلى ذلك أداء العبادات المشروعة في الحركات الخارجة والداخلة.

وصل في فصل ـ الأسباب التي تفسد الصلاة وتقتضي الإعادة: فاتفقوا على أنه كل من أخلّ بشرط من شروط صحة الصلاة عمداً أو نسياناً وجبت عليه الإعادة كاستقبال القبلة والطهارة بذلك، أقول: إلاّ أني أزيد في العمد من غير عذر.

الاعتبار: شروط السعادة التوحيد أعني عدم الخلود في النار، وشروط النجاة من كل مقام مهلك من مقام الآخرة ما لا تصحّ النجاة منه إلا بوجوده من غير نظر إلى الرحمة التي وسعت كل، فإن قلب العارف أوسع من رحمة الله، وإن كان وجوده من رحمة الله فإن رحمة الله يستحيل أن تسع الله، فإنّ الله لا يتصف بأنه مرحوم، وقلب العارف بالله يسع الحق كما قال: وسعني قلب عبدي المؤمن، فرحمة الله وسعت كل شيء، وقلب العبد العارف يسع الحق والرحمة التي وسعت كل شيء ويسع كل شيء فهو الواسع المطلق، والعلة في ذلك كون الوجود وجود الحق، فتنبّه يا غافل عن درك هذه المعاقل.

وصل في فصل ـ الحدث الذي يقطع الصلاة هل يقتضي الإعادة أم يبني على ما مضى من صلاته: فذهب الأكثرون إلى أنه لا يبني لا في الحدث ولا في غيره ممّا يقطع الصلاة إلاّ في الرعاف فقط. ومنهم من قال: ولا في الرعاف أيضاً. ومن قائل: يبني في الأحداث كلها، والذي أقول به أن كل حدث يقطع الصلاة فلا يخلو إما أن يكون من الأحداث التي تنتقض معه الطهارة، أو يكون من الأحداث التي تقطع الصلاة ولا تنتقض به الطهارة، فإن كان ممّا يؤثر في الطهارة فإنه لا يبني، وإن لم يؤثر فإنه يبني، ولكن بشرط أن لا يزيد على ما لا بدّ من فعله في إزالة ذلك السبب القاطع للصلاة، فإن زاد لم يبن وأعاد.

وصل الاعتبار في ذلك: القاطع للمناجاة والحائل بينك وبين المشاهدة هل يؤثر في الدار الآخرة عند الرؤية بحيث أن يكون كالفواق بين الحلبتين أو لا يؤثر وتتصل الرؤية والمشاهدة؟ فإن كان القاطع حدثاً وهو لا يؤثر في الإيمان فإنه لا يكون ثمرة لما تقدّم له قبل هذا الحدث من المناجاة المشروعة فهو بمنزلة الذي لا يبني، وإن كان القاطع رؤية سبب واستناد إليه فإنه يجني ثمرة ما تقدم له من المناجاة قبل طروء هذا القاطع السببيّ، وهو بمنزلة الذي يبني بلا شك.

وصل في فصل ـ المصلي: إلى سترة أو إلى غير سترة فيمرّ بين يديه شيء هل يقطع الصلاة عليه أو لا يقطع؟ فمن قائل: لا يقطع الصلاة شيء: ومن قائل: يقطعها المرأة والكلب والحمار إذا مرّ بين يديه أو بينه وبين سترته، والذي أقول به: إن المار مأثوم وإن المصلي مأمور بأن يحول بينه وبين المرور ويدفعه ما استطاع، فإن لم يفعل ولم يدفعه فالمصلي مأثوم والصلاة صحيحة بكل وجه، والحدّ الذي يلزمه دفعه عنه هو حد موضع جبهته في سجوده من الأرض، فإذا حال بينه وبين موضع سجوده فذلك المأمور بأن يدفعه ويقاتله، وما زاد على ذلك فلا يلزم المصلي دفعه ولا قتاله، والإثم يتعلق بالمار في القدر الذي يسمّى بين يديه عند العرب إذ لم يحد الشارع في ذلك شيئاً.

الاعتبار في ذلك: الحق قبلة العبد، فمن مرّ بين الله وبين عبده بنفسه لا بربه فوباله يجور عليه، وللمصلي الذي هو المناجي أن ينبهه ويردّه عن رؤية نفسه في ذلك فإنه مأمور بالنصيحة لله ولرسوله ولعامّة المسلمين ولأئمتهم ولكافة الناس أجمعين، فإن تعين عليه موضع النصيحة ولم ينصح كان آثماً، والمناجي على حاله صحيح المناجاة على كل حال وإن كان مأثوماً، فإن كان المار خاطراً يخطر له في حال صلاته بينه وبين ربّه، فإن كان في صلاة صحيحة بقلبه فمن المحال أن يمرّ به خلاف ما هو به بحسب الآية التي يكون فيها أو الذكر، وأما غير ذلك فلا يجد منفذاً. وأما إن كان ساهياً عن نفسه ومرّت الخواطر فلا يخلو في أول العقد والاستحضار إن كان حاضراً مع ربّه، فلا يبالي بما خطر له وصلاته صحيحة فإنه حاضر مع نفسه أنه مناج ربّه، فإن كان ممّن يناجي ربّه في كل شيء في حال صلاته كعمر بن الخطاب، أو يرى أن كل شيء صادر عن الحق في حال مناجاته بينه وبين ربّه كأبي بكر فصلاته في باطنه صحيحة، وذلك الصادر لا يخلو من أن يكون ذا إرادة أو لا يكون، فإن لم يكن فلا شيء عليه، وإن كان ذا إرادة فلا يخلو إما أن يكون مجبوراً في مروره بين يديه في عين اختياره عنده أو لا يكون إلاّ مختاراً، فالمختار يأثم والمجبور ليس بآثم.

وصل في فصل ـ النفخ في الصلاة: فقوم كرهوه، وقوم أوجبوا منه الإعادة، وقوم فرّقوا بين أن يسمع أو لا يسمع. فاعلم أن ذلك راجع إلى أنه كلام أو ليس بكلام وهو غير حسن بلا خلاف.

وصل الاعتبار في ذلك: عيسىٰ عليه السلام حاضر مع ربّه في كل حال ولم يقطع نفخه الروح في الطائر حضوره مع ربه، ونفخه وقع بإذنه، وكيف يؤذن له فيما يحجبه عن حضوره مع ربّه وهو مطلوب هو، وكل مخلوق أن لا يزال الحق بين أعينهم وفي سرائرهم كما لا يزال بعينه وهو المراقبة في الطرفين، فمن اعتبر النفخ بدلاً من ﴿كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] جعله كلاماً، ومن اعتبره لا بمعنى ﴿كُن﴾ وإنما اعتبره سبباً لم يجعله كلاماً ويجعل قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٠] معمولاً لقوله: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ [آل عمران: الآية ٤٩] لا لقوله: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٠].

وصل في فصل ـ الضحك في الصلاة: اتفقوا على أنه يقطع الصلاة، واختلفوا في

التبسّم. فمن قائل: هو بمنزلة الضحك فقال: يقطع الصلاة. ومن قائل: لا يلحق بالضحك فلا يقطع الصلاة.

وصل الاعتبار في ذلك: الضحك للمناجي يقدح في الهيبة والأدب وغير الأديب لا يناجي، فإن تبسم لا يخلو إما أن يتبسم من أجل ضحك ربه في نازلة تقع كمثل عجوز موسىٰ عليه السلام وقصة هناد، فمن الأدب أن يتبسم العبد في مثل هذه النوازل لضحك الحق. وأما إن كان في نازلة تعطي التبسم لنفسه فتبسم فإنه سيىء الأدب فلا يصلح للحضور ويحال بينه وبين الحضور فيستأنف التوبة والعمل فهو بمنزلة من يقول: إن التبسم يقطع الصلاة.

وصل في فصل ـ صلاة الحاقن: فمن قائل: تبطل صلاته ويعيد. ومن قائل: بالكراهة، والذي أذهب إليه أن النهي لا يدل على فساد المنهي وإنما يدل على تأثيم فاعله فقط، فتكون صلاة الحاقن جائزة وهو مأثوم كالمصلي في الدار المغصوبة.

وصل الاعتبار في ذلك: الخبيث السريرة في حال الصلاة المفكر في سوء يفعله أو يوقعه بأحد إذا فرغ من صلاته مع كونه مؤمناً فالصلاة صحيحة وهو ممن حدث نفسه بسوء وقد عفي عن ذلك ما لم يعمل أو يتكلم به.

وصل في فصل ـ المصلي يردّ السلام على من يسلم عليه: فرخصت فيه طائفة وبه أقول فإنه ذكر الله، وهو من الأذكار المشروعة في التشهد في الصلاة فله أصل يرجع إليه، والدعاء في الصلاة جائز، وفيه ذكر الناس مثل قول المصلي: اغفر لي ولوالديّ. ومنع ذلك قوم بالقول وأجازوه بالإشارة، ومنعه آخرون على الإطلاق، وأجاز قوم أن يردّه في نفسه، وقال قوم: يردّ إذا فرغ من الصلاة.

وصل الاعتبار في ذلك: قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٦] فجاء بالفاء فلا يجوز التأخير ولم يخص صلاة من غيرها، فكل ذكر لله مشروع بدعاء أو غيره معين كتشميت العاطس وردّ السلام فإنه يجوز التلفظ به في الصلاة وغيرها إذا لم يكن واجباً، فكيف والوجوب مقرون بردّ السلام وتشميت العاطس إذا حمد الله. انتهى الجزء الثالث والأربعون.

(الجزء الرابع والأربعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل في فصل ـ القضاء

اتفق المسلمون على وجوبه على الناسي والنائم، واختلفوا في العامد والمغمى عليه، والذي أذهب إليه أن الناسي والنائم وجب على كل واحد منهما أداء الصلاة التي نام عنها أو نسيها، فإن أراد الفقهاء بالقضاء وجوب الصلاة عليه كما يريدون بالأداء فبه أقول، وإن أرادوا به الفرقان بين من أدّاها في الوقت المعلوم المخاطب به اليقظان الذي يعصي العامد لتركها فيه وبين أدائها في وقت تذكر الناسي ويقظة النائم بالقضاء فلا بأس، وإن أرادوا بالقضاء خلاف ما ذكرناه وأنه غير مؤدّ للصلاة وأنه صلاّها في غير وقتها على خلاف صورة ما ذكرناه فلا أقول

به، فإن الناسي والنائم غير مخاطب بتلك الصلاة في حال نسيانه ونومه وما ذلك وقتاً في حقهما فإن الله ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] ولولا أن الشارع جعل للناسي وللنائم وقتاً عند الذكرى واليقظة لسقطت تلك الصلاة عنهما مع خروج الوقت المعلوم لها عند المتيقظين الذاكرين كما تسقط عن المغمى عليه.

وصل الاعتبار في ذلك: الناسي هو العارف بأنه ما في الوجود إلاَّ الله وصفاته وأفعاله وأنه عين الوجود، فيلزم صاحب هذا المقام من المعرفة بالله من الأدب مع الله مع ما تقتضيه هذه المعرفة وأساء الأدب مع الله الذي تعطيه هذه المعرفة لم يؤاخذ به، بل إن كان له ذكر مقرر في حق من ليست له هذه المعرفة وهو معلوم مذكور في هذا الكتاب وفي علم طريق الله، فإذا نسي هذا العارف هذه المعرفة فهو عند الله بحسب ما ذكره وقرّره في حق ذلك إن خيراً فخير أو إن شراً فشرّ، فإن الناسي قد يكون سبب نسيانه استفراغه في شغل محرّم، أو في شغل مباح، أو في شغل مندوب، فيكون مأجوراً في نسيانه من حيث ذلك المندوب لا من حيث النسيان، ويكون مأثوماً من حيث ذلك المحرم، ويكون معرى عن الأجر والوزر من حيث ذلك المباح، فإذا تذكر هذا الناسي معرفته عاملها بما يقتضيه أدبها وتعيّن عليه فيما مضى من أحكامها وآدابها في حال نسيانه في حركاته وسكناته أن يحضرها في نفسه على الحد الذي يقتضيه معرفته فيها، فإذا أحضرها أحضر في نفسه ما ينبغي لها من الآداب فذلك وقتها، فإن لم يفعل آخذه الله بما كان فيها في حال نسيانه من سوء الأدب بسبب عدم استحضارها في وقت الذكرى فإن الله يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [سورة طه: الآية ١٤].

وأما اعتبار النائم العارف هذه المعرفة فهو الذي حجبه النظر في طبيعته وما لها من الحكم فيه من غير نظر إلى مكوّنها وهو ضرب خاص من النسيان لأنه تارك للعمل أو غير موجود منه العمل المطلوب في تلك الحالة، فإن كان نظره الذي هو نوّمه في حكم طبيعته من حيث ما تقتضيه حقيقتها لذاتها غير ذاكر ولا مشاهد لموجد عينها لم يؤاخذه الله بما نقصه من الأدب الذي يطلب به الحاضر مع معرفته، فمتى استيقظ هذا النائم أحضر الحق في نفسه موجداً لعين تلك الطبيعة مع تقرير حكمها التابع لوجود عينها كالأحوال، فيتأدّب بالحضور الذي يليق بتلك المسألة مع الله، فيكون بمنزلة من لم ينم في ذلك الاستحضار، فإن لم يفعل عوقب من كونه لم يستحضره لا من كونه كان قد نام عنها، فإن كانت الأسباب الموجبة لنومه أموراً كان حظه فيها على حكم وجه الشرع لها فيتعلق الإثم به من حيث ذلك السبب وحكم الشرع لا من حكم نومه، أو يتعلق به الأجر إن كان حكم الشرع فيه الأجر من حيث ذلك السبب لا من حيث نومه سواء، فهكذا ينبغي أن يكون نوم العارفين ونسيانهم في هذا الاعتبار في المعرفة بالله، فإن خطاب الشرع إذا تعلق بالظاهر كان اعتباره في الباطن، وإذا تعلق خطاب الشرع بالباطن كان اعتباره في الظاهر، فالعالم لا يزال ناظراً إلى الشارع بمن علّق الحكم فيما جاء به في هذه المسألة الخاصة، هل بالظاهر مثل الحركات أو بالباطن مثل النية والحسد والغل وتمني الخير للمؤمنين والظنّ الحسن والظنّ القبيح، فحيث ما علق الشارع خطاب اللسان الظاهر به كان الاعتبار في مقابله أو

في مقابل الحكم كالظنّ الحسن يقابله الظنّ القبيح، ويقابله الفعل الحسن في الظاهر، هذه مقابلة الموطن كفعل الخير مع الذميّ من كونه مقراً بربه غير عارف بما ينبغي له.

وصل في فصل ـ العامد والمغمى عليه: اختلف العلماء فيه، فمن قائل: إن العامد يجب عليه القضاء. ومن قائل: لا يجب عليه القضاء وبه أقول وما اختلف فيه أحد أنه آثم. وأما المغمى عليه، فمن قائل: لا قضاء عليه وبه أقول. ومن قائل: بوجوب القضاء وهو الأحسن عندي فإنه إن لم تكتب له في نفس الأمر فريضة كتبت له نافلة فهو الأحوط، فالقائلون بوجوب القضاء منهم من اشترط القضاء في عدد معلوم فقالوا: يقضي في الخمس فما دونها.

وصل الاعتبار في ذلك: أما العامد في ترك ما أمره الله به فلا قضاء عليه فإنه ممّن أضلّه الله على علم، فينبغي أن يسلم إسلاماً جديداً فإنه مجاهر، وهذا لا يمكن أن يقع ممّن أخذ علمه بالله عن ذوق وكشف، وإنما يقع هذا ممّن أخذ علمه بالله عن دليل ونظر فيقول: الحركات والسكنات كلها بيد الله، فما جعل في نفسي أداء ما أمرني بأدائه يقول: وعلى الحقيقة فهو الآمر والسامع والمخاطب فهو على بصيرة، والمخاطب تشقيه وتحول بينه وبين سعادته فتضرّه في الآخرة وإن التذّ بها في الدنيا ولا يضر الله شيء، وهذه مجاهرة بحق لا تنفع، فلو كان عن ذوق وكشف منعته هيبة الجلال وعظيم المقام وسلطان الحال الذوقيّ أن يكون مثل هذا ويترك أداء حق الله على صحو فهو بمنزلة من يسبّ السلطان لعدم نظره إليه، فإذا فاجأه حكمت الهيبة على قلبه فسارع إلى أمره فمثل هذا العلم لا ينفعه فإنه عن دليل كأعمى يمشي بعصا لا عن بصيرة، كمن يقتدي ببصره في طريقه. وأما اعتبار المغمى عليه فهو صاحب الحال الذي أفناه الجلال أو هيّمه الجمال فلا يعقل، فيكون الحق متوليه في تلك الغيبة في حسّه بما شاء أن يجريه عليه، وقد أقمت أنا في هذه الحالة مدّة ولم أخلّ بشيء من حركات الصلاة الظاهرة بالجماعة على أتم ما يمكن إماماً ولا علم لي بشيء من هذا كله، فلما أفقت ورددت إلى حسّي في عالم الشهادة أعلمني الحاضرون أنه ما فاتني شيء ممّا توجّه عليّ من التكليف كما يتوجّه على العاقل الذاكر، ومن أهل طريقنا من لا تكون له هذه الحالة وهي حالة شريفة حيث لم يجر عليه لسان ذنب.

وحكي عن الشبليّ أنه كان يأخذه الوله ويردّ في أوقات الصلوات فإذا فرغ من الصلاة أخذه الوله فقال الجنيد حين قيل له عنه: الحمد لله الذي لم يجر عليه لسان ذنب، فقد يمكن أن يكون الشبليّ في ذلك الوقت يصلي به وهو غير عالم بذلك، وحكم الناس الحاضرون عليه بأنه مردود لما رأوه من أدائه الصلاة مثل ما اتفق لنا فقالوا بصورة الظاهر منه وهو في نفس الأمر لا علم له، ومنهم من يرد وليس كلامنا إلاّ فيمن أخذ عن نفسه في وقت أداء فرض عليه في الظاهر، وأمّا في غير ذلك الوقت فما هي مسألتنا. وأما الذين اشترطوا الخمس فما دونها لأنّ كل صلاة من الخمس أصل مغايرة للأخرى في الوقت وبعض الصفات، فإذا انقضت الخمس كان ما بعد الخمس بصفة كل واحدة منهنّ فاعتبرهنّ لكونهنّ أصولاً، وما

قصر هذا الفقيه في مثل هذا فإنها حكمة بالغة لمن عرف الحقائق من هذا الطريق، ومن عرف أن الحقيقة تقتضي أن لا تكرار لم يقل بذلك وهو الأصل الأوّل والعارف بحسب ما يفتح عليه في وقته.

وصل في فصل ـ صفة القضاء: القضاء نوعان: قضاء لجملة الصلاة وقضاء لبعضها. أما قضاء الجملة فله صفة وشرط ووقت. فأما الصفة: فهي بعينها صفة الأداء فيما في نفس الصلاة من الأعراض، فإن اختلفت الأحوال مثل أن يذكر صلاة نسيها في حال سفره في حال حضره وبالعكس فهذا معنى اختلاف الأحوال، فمن قائل: يقضي مثل الذي عليه ولا يراعي وقت الذكر. ومن قائل: يقضي أربعاً أبداً سفرية كانت أو حضرية. ومن قائل: يقضي أبداً فرض الحال أعني وقت الذكر، فإن كان في سفر والذي نسيها حضرية قضاها سفرية وبالعكس وبه أقول فإن ذلك وقتها عندنا.

وصل الاعتبار في ذلك: من رأى أن الحال له حكم في المقام قال بقولنا. ومن رأى أن الحال لا حكم لها لأن الدنيا ليست بقوّة للحال عمل بحكم المقام فأدّى مثل ما عليه. ومن رأى أن المقام الذي هو فيه الأصل الذي يعتمد عليه ولا حكم لمقام آخر مع تداخل المقامات بعضها على بعض كالورع والزهد يجمعهما الترك والتسليم والتفويض والتوكل يجمع ذلك كله عدم الاعتراض في المقدور والرضى بحكم الله في وارد الوقت فيعمل بالأتم الأعم وهو الذي يقضي أربعاً أبداً، والشارع إنما يعتبر الأحوال وعليها تتوجه الأحكام والذوات محال للأحوال تبعاً. فزيد المختار الميتة عليه حرام، وإذا اتصف زيد المختار بالاضطرار فالميتة له حلال وهو زيد بعينه، وإنما اختلفت الأحوال فاختلفت الأحكام، فلهذا يقضي الحضرية سفرية إذا كان حاله السفر في وقت الذكر، ويقضي السفرية حضرية إذا كان حاله الحضر في وقت الذكر.

وصل في الشرط: وأما شرطه الذي اختلف فيه فهو الترتيب، واختلفوا في وجوب ترتيب القضاء في المنسيات من الصلاة مع الصلاة الحاضرة في وقت الذكر وترتيب المنسيات بعضها مع بعض إذا كانت أكثر من واحدة، فذهب قوم إلى أن الترتيب واجب فيها في الخمس صلوات فما دونها وأنه يبدأ بالمنسيات وإن فات وقت الحاضرة حتى لو ذكرها وهو في نفس الصلاة الحاضرة فسدت عليه الصلاة التي هو فيها مع الذكرى، وقال بعضهم بمثل هذا القول إلاّ أنهم رأوا وجوب الترتيب مع اتساع وقت الحاضرة، واتفق هؤلاء على سقوط وجوب الترتيب مع النسيان. وقال آخر: لا يجب الترتيب ولكن إن كان في وقت الحاضرة اتساع فالترتيب حسن.

وصل الاعتبار في هذا الشرط: الحكم عند المحققين للوقت لا لغيره، وذكر المنسي له الوقت فالحكم له ولا اتساع للوقت عندنا فإنه زمن فرد، وإنما الاتساع في بعض الأوقات المشروعة للأحكام، واتساع الأوقات عند العارفين إنما هو مثلاً من كونها صلاة أو هيئة مخصوصة في عبادة، فتلك الهيئة وذلك الاسم يصحبها دائماً في وقتها، وفي تكرار تلك الصورة في أوقات متعدّدة، فمن هنالك يقولون باتساع الوقت وهو أوقات، ومن لم يكن من

العارفين صاحب نفس قال باتساع الوقت وهم أهل الشرب والريّ، والأوّل أعرف بالحقائق وأكشف لدقائق الأمور، فإن التجليات والأحوال تختلف مع الأنفاس، وما يعلم ذلك إلاّ القليل من العلماء بالله من أهل الله، فإن الحسّ والطبع يحجبان العقل عمّا تعطيه مرتبته من النظر في دقائق الأمور ولطائفها وبسائطها.

وصل تنبيه: هذه المسألة ما ثم أصل يرجع إليه فيها فإن أوقات الصلوات المنسيات مختلفة، ولا يكون الترتيب في القضاء إلاّ في الوقت الواحد الذي يكون بعينه وقتاً للصلاتين معاً، وهذا يتصوّر في مذهب من يقول بالجمع بين الصلاتين فيكون له أصل يرجع إليه في نظره.

وصل في فصل ـ القضاء الثاني الذي هو قضاء بعض الصلاة: فلهذا الفوات سببان: الواحد: النسيان. والثاني: ما يفوت المأموم من صلاة الإمام.

اعتبار السببين: أمّا النسيان فيعلم ما يقتضيه المقام الذي هو فيه ممّا ينبغي أن يعامله به، فينسى بعض الوجوه ممّا يقدح فيما ينتجه من المنازل والكرامات. والسبب الثاني: هو أن يكون للإمام الذي هو الشرع المتبع فيه قول وحكم فما وصل إليه، فإذا أخذ في تحصيل المقام وأكمله على حدّ ما علمه رأى نقصاً في نتيجته فطلب علم السبب فوجد نفسه قد ترك منه ما ينبغي له أن يستعمله ولم يكن له علم بذلك، فعثر على حديث نبويّ أو آية من كتاب الله تعالىٰ فاته العمل بذلك فعمل على ذلك فصحّ له نتائج المقام، فهذا بمنزلة ما فاته من صلاة الإمام كأبي يزيد البسطامي أوحشه السراج ليلة وكان حاله الورع فقال لأصحابه: إني أجد في السراج وحشة، فقالوا: يا سيدنا استعرنا قارورة من البقال لنسوق فيها الدهن مرة واحدة فسقناه فيها مرتين، فقال: عرفوا البقال وأرضوه، ففعلوا وزالت الوحشة، وكان رضي الله عنه في حال كان وقته التجريد وعدم الادخار فقال يوماً لأصحابه: فقدت قلبي فاطلبوا البيت فوجدوا فيه معلاق عنب فقال: رجع بيتنا بيت البقالين فتصدقوا به فوجد قلبه. واتفق لشيخنا أبي مدين وكان وقته التجريد وعدم الادخار فنسي في جيبه ديناراً وكان كثيراً ما يرتب منقطعاً في جبل الكواكب وكانت هناك غزالة تأتي إليه فتدرّ عليه فيكون ذلك قوّته، فلما جاء إلى الجبل جاءت الغزالة وهو محتاج إلى الطعام فمدّ يده على عادته إليها ليشرب من لبنها فنفرت عنه وما زالت تنطحه بقرونها وكلما مدّ يده إليها نفرت منه ففكر في سبب ذلك فتذكر الدينار فأخرجه من جيبه ورمى به في موضع فقده ولا يجده فجاءت إليه الغزالة وآنست به ودرّت عليه.

وصل في فصل ـ المأموم يفوته بعض الصلاة مع الإمام: إذا دخل الإنسان والإمام قد هوى إلى الركوع فقال قوم: إذا أدرك الإمام ولم يرفع رأسه من الركوع وركع معه فهو مدرك للركعة وليس عليه قضاؤها، وهؤلاء اختلفوا في شرط هذا الداخل هل من شرط هذا الداخل أن يكبر تكبيرتين تكبيرة للإحرام وتكبيرة للركوع أو تجزيه تكبيرة الركوع؟ وإن كانت تجزيه فهل من شرطها أن ينوي بها تكبيرة الإحرام أم ليس ذلك من شرطها؟ فقال بعضهم: تكفيه

تكبيرة واحدة إذا نوى بها تكبيرة الإحرام. وقال قوم: لا بدّ من تكبيرتين. وقال قوم: تجزيه تكبيرة واحدة وإن لم ينو بها تكبيرة الافتتاح. وأما القول الثاني: فذهب قوم إلى أنه إذا رفع الإمام فقد فاتته الركعة ما لم يدركه قائماً قاله أبو هريرة. وقول ثالث وهو إذا انتهى الداخل إلى الصف الأخير وقد رفع الإمام رأسه ولم يرفع بعضهم فأدرك ذلك أنه يجزيه لأن بعضهم أئمة لبعض، والذي أذهب إليه في ذلك أنه من راعى الركعة اللغوية قال: من أدركه في حال الانحناء، ومن راعى الركعة الشرعية وهي القيام والانحناء والسجود قال: إنه لم يدركه إذا لم يدركه قائماً في حال تكبيره ودخوله في الصلاة أعني هذا الداخل ومراعاة الركعة الشرعية أولى، غير أن الشرع أيضاً قد سمّى الانحناء ركوعاً كما هو في اللغة في قوله ﷺ حين نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٧٤] قال: اجعلوها في ركوعكم يريد وقت الانحناء. وبالجملة فهي مسألة فيها نظر، وكل ناظر بحسب ما أعطاه دليله الذي أدّاه إليه اجتهاده، ومذهبنا في هذه المسألة ما كملته على ما هو عندي لما فيه من الطول، وما نعبد الله الناس بنظريّ فهو حكم يخصني أعطانيه دليلي.

وصل الاعتبار في ذلك: إمام العلماء بالله هو الحق سبحانه، فإذا نزل إليهم في ألطافه الخفية بأوصاف البشرية من الفرح بهم والضحك لهم والتبشّش لقدومهم عليه يريدون مناجاته في بيته يا عبدي يا عبدي إن شردت عني دعوتك إليّ بالحال، وهو عبارة عن دخول وقت الصلاة بالقول وهو عبارة عن الأذان، يا عبدي وإن عصيتني سترت عليك بأن سترتك عن أعين من وليته إقامة حدودي فيك وفي أمثالك فلم أواخذك وتحببت إليك بالنعم وجررت على خطيئتك ذيل الكرم فمحا آثارها كرمي ودعتك إليّ بالقدوم على نعمي، فإن رجعت إليّ قبلتك على ما كان منك من يفعل معك ذلك مع غناه عنك وفقرك إليه غيري فهذا من الحق بمنزلة الركوع من العبد، فإذا فات المصلي أن يدرك من الحق مثل هذا كما فاته أن يسمع قول الحق في صلاته حمدني عبدي وأثنى عليّ عبدي ومجّدني عبدي وفوّض إليّ عبدي بسمعه لا بإيمانه، وتملق العبد لمولاه وتحبّب إليه وعرف أنه ما نزل إليه سبحانه هذا النزول إلاّ لسرّ خفي أبطنه فيه، فينزّهه العبد عن كل ما نزل فيه إليه بأن يقول: سبحانك ليس كمثلك شيء.

ولهذا أمر العبد بالتنزيه في الركوع ليقابل بذلك نزول الحق إليه بمثل ما ذكرناه من كونه سبحانه يصلي علينا فينزلنا في صلاته علينا على ثلاث مراتب: المرتبة الواحدة: أن يجعلنا في صلاته علينا كالوطاء الذي نصلي عليه. والثانية: أن يصلي علينا صلاتنا على الجنازة. والثالثة: كالصلاة على النبي ﷺ، ولكل نوع طائفة معينة لها حال معين، فإنه سبحانه قد ذكر أنه يصلي علينا فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] كما قال فجمع بينه وبين ملائكته في الصلاة على نبيه فقال: هوالذي يصلي عليكم وملائكته يصلون على النبيّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بصلاتنا عليه ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٦] وقد أمره بالجزاء فقال: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٣] فما أعجب القرآن لمن تدبر آياته وتذكر.

فينبغي للعبد أن يكون بين يدي الحق عند صلاته عليه كالجنازة ميتاً لا حراك له ولا دعوى وهو في قبلة ربّه، فإن وافق ركوع العبد نزول الحق إليه بمثل قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٤] فقد أدرك الركعة، ومن لم يقابل نزول الحق بركوعه عند هذا النزول الإلهيّ بالاسم الكريم إليه فما أدرك الركعة لغوية كانت أو شرعية، فإن اعتباره في إدراكه قائماً قبل أن يركع يعني قبل أن ينحني فهو قيامه بمصالح عباده ونظره لهم في قيامه بهم، فإنه القائم على كل نفس بما كسبت بعين الرحمة فيرزقهم ويحسن إليهم وهم به مشركون وكافرون، وقل عن الأدباء ما شئت ويدعوهم وهم عنه معرضون، وعلى هواهم الذي اتخذوه إلهاً مقبلون، وكذلك في السجود في مذهب من يرى الركعة المعتبرة للشرع أنها القيام من قيامه والانحناء من حنوّه على عباده باسمه الحنّان بما ذكرناه، والسجود الإلهيّ وهو أعظم النزول الإلهيّ الذي أنزل الحق فيه نفسه منزلة عبده وهو قوله: مرضت فلم تعدني، وجعت فلم تطعمني، وظمئت فلم تسقني، وأكثر من هذا النزول الإلهيّ فلا يكون، ثم فسّر ذلك بأنّ فلاناً مرض وفلاناً جاع وفلاناً ظمىء فأنزل نفسه منازلهم في أحوالهم وأضاف ذلك إليه في كنايته عن نفسه بهذه الأحوال، فمن أدرك ذلك كله من الحق في صلاته فقد أدرك الركعة الإلهية من حيث إنّ الحق إمامه فيقابله العبد بما يستحق هذا الإنعام الإلهيّ من الشكر بالثناء بأوصاف السلب والتنزيه والكبرياء والعلوّ والعظمة والجبروت، فهذه هي الركعة المشروعة، والخلاف في هذه المسألة يؤول إلى اختلاف العلماء في الأخذ ببعض دلالة الأسماء أو بكلها، فقد يسمّى بعض الركعة ركعة كما يسمّى كلها بجميع أجزائها ركعة، كما يقال في أمر النبيّ ﷺ في غسل الذكر فمن غسل رأس ذكره أجزأه فإنه ينطلق عليه اسم الذكر فيقال في اللسان فيمن غسل رأس ذكره إنه غسل ذكره وإن لم يعمه كغسل اسم اليد.

وصل في فصل مما يتعلق بهذا الباب: إذا سها المأموم عن اتباع الإمام في الركوع حتى يسجد فقال قوم: إذا فاته إدراك الركوع معه فقد فاتته الركعة ووجب عليه قضاؤها. وقال قوم: يعتد بالركعة إذا أمكنه أن يتم من الركوع قبل أن يقوم الإمام إلى الركعة الثانية. وقال قوم: يتبعه ويعتدّ بالركعة ما لم يرفع الإمام رأسه من الانحناء من الركعة الثانية. وهذه الأقوال المختلفة تنبني عندي على مفهومهم من قوله ﷺ: «**إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ فَلَا تَخْتَلِفُوا عَلَيْهِ**» الحديث، فهل من شرط المأموم أن يقارن فعله فعل الإمام أو ليس من شرطه؟ وهل هذا شرط في جميع أجزاء الركعة المشروعة الثلاثة وهو: القيام والانحناء والسجود؟ أم إنما هو شرط في بعضها؟ وإذا كان الإمام في فعل جزء من أجزاء الركعة والمأموم في جزء آخر وقد قال: «**لَا تَخْتَلِفُوا عَلَيْهِ**» فهو اختلاف عليه، وهذا الحديث إذا حققه الإنسان مع أحاديث أخر معلومة في هذه المسألة عينها فإنه يبدو له أنّ كل قول في هذه المسألة ممّا حكيناه له متعلق فجميع أقوالهم مشروعة وإن اختلفت فالحمد لله الذي جعل في الأمر سعة.

وصل الاعتبار في ذلك: سهو العبد عن اتباع الحق فيما أمره به ونهاه عنه أو فيما ينبغي أن يتأدّب به معه في مقابلة إنعامه وإحسانه شكراً مؤثّر في إبطال ما فاته من علم ما كان يحصل

له من تجليه في ذلك القدر الذي فاته، واختلف أصحابنا في هذه المسألة على ما نذكره فقال قوم: إذا فاتتك نظرة واحدة من الحق في وقتك وقد كنت تشهده قبل ذلك مستصحباً من وقت معرفتك به الذوقية وكان ما فاتك منه في نظرة وقتك أكثر ممّا نلته ممّا تقدّم إلى وقتك، وأنا أذكر ما السبب في ذلك وهو أن كل نظرة تكون من العبد إلى الحق في تجليه له تتضمن معرفة كل نظرة ولذتها ممّا تقدّمتها وتزيد على ذلك بما تعطيه حقيقة نظرة الوقت فقد فاته خير كثير فعليه قضاء ما فات ليحصل له هذا العلم، ووقع لهم في هذا غلط كبير من حيث لا يشعرون، وذلك أن المصلي إذا فاته مع الإمام ما فاته فما أدرك فهي أوّل صلاته ويتم على ما هي الصلاة المشروعة وما عندنا قاض إلاّ إذا كان القضاء بمعنى الأداء فهو صحيح، وأمّا غلط أصحابنا فإنّ الذي تقدّم هذه النظرة الوقتية من نظرات التجلّي فهي هنا بحكم التبعية لهذه النظرة وكل نظرة في وقتها في عين سلطانها، وأين تصرف الشيء في ملكه من تصرّفه في ملك غيره فافهم.

ثم نرجع ونقول: وقال قوم من أصحابنا بأنّ هذا التجلّي الذي هو فيه يتضمن ما فاته وما ناله فيعتدّ بما أدركه فإنه يناله فيه، والذي أذهب إليه هو ما ذكرناه من أن إدراك الأمر بحكم التضمّن ما هو مثل إدراكه بحكم التصريح ومشاهدة العين، فإن الواحد الذي هو سلطان الوقت هو إدراك تفصيليّ عينيّ له ذوق خاص، والآخر المضمن إدراك إجماليّ غير عينيّ فله ذوق آخر متميز عن ذوقه في وقته، أين الرؤية لصاحب الورث الموسويّ منا؟ وإن كان من مشكاة محمد ﷺ من الرؤية المحمدية من المحمديّ الخالص مع كونها تتضمن الرؤية الموسوية لكنها هنا تبع وفي زمان سلطانها شيء آخر، فتتفاضل الورثة في الميراث بحكم طبقاتهم، فمن الورثة من يحوز المال كله والوارث النصف والربع والثمن والثلث والسدس إلى غير ذلك، فالجامع بين الإدراكين كل إدراك في مقامه لا يساوي ولا يماثل المدرك لأحدهما دون الآخر من الطرفين، فإن الذائق العسل على حدة، ثم يذوقه في شراب التفاح مثلاً فقد أدركه ذوقاً في الحالين، ولكن يجد فرقاناً بين الذوقين بلا شك، وأين حكمه عسلاً من حكمه شراباً أو شراب تفاح؟

وصل في فصل ـ إتيان المأموم بما فاته من الصلاة مع الإمام هل هو قضاء أو أداء على اصطلاح الفقهاء؟: فإن قلت: فهل إتيان المأموم بما فاته من الصلاة مع الإمام قضاء أو في الظاهر؟ قلنا في الجواب: إن الشرع المقرّر فيه ثلاث مذاهب: مذهب أن ما يأتي به بعد سلام الإمام فهو قضاء، وأن ما أدرك مع الإمام ليس هو أوّل صلاته. ومذهب آخر: أن الذي يأتي به بعد سلام الإمام فهو أداء، وأن ما أدركه مع الإمام هو أوّل صلاته وبه أقول. ومذهب ثالث فرّق بين الأقوال والأفعال فقال: يقضي في الأقوال يعني في القراءة ويكون مؤدّياً في الأفعال، فمن أدرك ركعة من صلاة المغرب على المذهب الأوّل أعني مذهب القضاء قام إذا سلم الإمام إلى ركعتين يقرأ فيهما بأمّ القرآن وسورة ولا يجلس بينهما. وعلى المذهب الثاني: يقوم إلى ركعة واحدة يقرأ فيها بأمّ القرآن وسورة يجهر فيها ويجلس ثم يقوم إلى ركعة يقرأ فيها بأمّ

القرآن سرّاً فقط. وعلى المذهب الثالث: يقوم إلى ركعة يقرأ فيها بأمّ القرآن وسورة ثم يجلس ثم يقوم إلى ركعة ثانية يقرأ فيها بأمّ القرآن وسورة. وهذه المذاهب الثلاثة قد وردت في الحديث. ورد في الخبر: «**فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا**» والإتمام يقتضي أن يكون ما أدركه هو أوّل صلاته، وفي رواية: «**فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَاقْضُوا**» والقضاء يوجب أن يكون ما أدرك فهو آخر صلاته، ومن استعمل الحديثين أعني الروايتين وجمع بين القضاء والأداء فقال: يقضي في الأقوال ويكون مؤدّياً في الأفعال كما بيّناه قبل.

وصل اعتبار هذا الفصل: من اعتبر الحكم للاسم الإلهيّ الذي هو سلطان الوقت وصاحبه فلا يخلو إن كان هو عين ذلك الاسم الذي له حكم تلك الصلاة كلها من أولها إلى آخرها في حق الإمام والمأموم فإنه مؤدّ بلا شك، فإنّ ذلك الاسم لا ينفصل عن حكم وقته بسلام الإمام بل حتى يسلم وينفصل كل من كان في حكم الإمام فإن تلك الحالة من ذلك الاسم تستصحب لهذا الذي فاته ما فاته ولو أدركه في آخر جلوس في صلاته، ومن اعتبر الحكم للاسم الذي يعطي الركوع وهو غير الاسم الذي يعطي القيام والقراءة وكل حركة في الصلاة لها اسم إلهيّ مخصوص وإن شاركه اسم آخر أو أسماء أخر إلهية قال: القضاء ومن اعتبر حكم الاشتراك بين الأسماء في الصلاة وأنّ لكل اسم فيها نصيباً قال: يؤدّي في كذا ويقضي في كذا أي يأخذ من تجلي الاسم الفلانيّ ما يعطيه من المعارف، ومن الاسم الآخر ما يعطيه من العلوم، وبالذوق في ذلك تتميز الأشياء عند العارفين ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [سورة الطارق: الآية ١١ ـ ١٣] وليس جهول بالأمور كمن درى فألق سمعك واحضر بكلك عسى أن تكون من أهل التحصيل فتكون من المفلحين.

وصل في فصل ـ حكم سجود السهو: اختلفوا في سجود السهو هل هو فرض أو سنّة؟ فمن قائل: إنه سنّة. ومن قائل: إنه فرض لكن ليس هو من شرط صحة الصلاة. وفرّق مالك بين سجود السهو في الأفعال وبين السجود للسهو في الأقوال وبين الزيادة والنقصان فقال: سجود السهو الذي يكون للأفعال الناقصة واجب وهو عنده من شروط الصلاة.

وصل في اعتبار هذا الفصل: لما كان السهو سببه الشك أو النسيان والمطلوب اليقين فلا يعبد الله إلاّ من كان على بيّنة من ربّه أزكاها وأعدلها وأقواها الإيمان الذي يجده المؤمن بربه في نفسه ممّا لا يقدر على دفعه ودونه في القوّة والطهارة ما هو مبناه على الأدلة النظرية، فإن انضاف إلى المؤمن أو إلى صاحب النظر الكشف كان أقوى من كل واحد من الاثنين على انفراد بلا شك وهذا لا يدخله سهو في صلاته، وصاحب النظر وحده هو الذي يدخله السهو، وكذلك المؤمن المتزلزل فسجود السهو عليه فرض واجب، وهو أنه يرجع في النظر إلى نفسه وفقره وإمكانه وعجزه ليستدل بذلك على معبوده وغناه ووجوب وجوده ونفوذ اقتداره، فإن في ذلك العلم ترغيماً للشيطان الذي ألقى إليه الشك في علمه أو عبادته. ولما كانت الصلاة مناجاة الحق وشهوده وقد قيل له: اعبد الله كأنك تراه. وقيل له: إن الله في قبلة المصلي فإذا توجه في صلاته وقيد الحق بجهة الاستقبال كما قيل له إلاّ أنه أخلاه عن الإحاطة به، ومثله

كالشخص القائم ينظر إليه ويناجيه في قبلته فقد سها عمّا يجب للإله من الإحاطة به والإطلاق عن التقييد، وهو الذي أيضاً سمّاه الشرع بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فينبغي لمن هذه حالته أن يسجد لسهوه وهو أن يرد ذلك التشبيه والتخيّل والتصوير إلى نفسه وهو السجود ويقول: سبحان ربي الأعلى ثلاثاً: واحدة لحسّه، والثانية لخياله، والثالثة لعقله، فينزّهه عن أن يكون مدركاً لحسّه فيتقيد به أو لقيد خياله أو بقيد عقله فذلك ترغيم للشيطان.

وصل في فصل ـ في مواضع سجود السهو: فمن قائل: إن موضعه أبداً قبل السلام. ومن قائل: بعد السلام أبداً. ومن قائل: إن كان النقصان فقبل السلام وإن كان لزيادة فبعد السلام. ومن قائل: يسجد قبل السلام في المواضع التي سجد لها رسول الله ﷺ قبل السلام، ويسجد بعد السلام في المواضع التي سجد فيها رسول الله ﷺ بعد السلام، فما كان من سجود في غير تلك المواضع فإنه يسجد قبل السلام. ومن قائل: لا يسجد للسهو إلاّ في المواضع الخمسة التي سجد فيها رسول الله ﷺ فقط، وأمّا غير ذلك فإن كان فرضاً أتى به، وإن كان ندباً لم يكن عليه شيء، والذي أقول به وأذهب إليه أن المواضع التي سجد فيها رسول الله ﷺ يسجد فيها، فما سجد له قبل السلام يسجد له قبل السلام، وما سجد له بعد السلام يسجد له بعد السلام، وأما غير ذلك ممّا سها فيه المصلي فهو مخيّر إن شاء سجد لذلك قبل السلام وإن شاء سجد له بعد السلام.

وصل اعتبار هذا الفصل: قال الله تعالىٰ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [سورة الروم: الآية ٤] فإن قدّم نظره لله على نظره لنفسه فيما سها فيه كان كمن سجد قبل السلام وهو مقام الصديق ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله قبله، وإن قدّم نظره في نفسه على نظره في ربّه كما قال ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» كان كمن سجد بعد السلام وهو مقام من قال: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله بعده وهو مقام أصحاب الأدلة العقلية على وجود الصانع، أي ما رأيت شيئاً إلاّ وكان لي دليلاً على الله فهو يتقلب في الأدلة دائماً. وأمّا الزيادة والنقصان فهو للعقل ما نقصه من حيث فكره من علمه بربه ممّا لا يستقل بدركه ممّا وصفه به الشارع بعد ذلك، ولم يكن العقل يدل على أن ذلك الوصف يستحقه جلال الله بل كان يحيله عليه معنى وإطلاقاً. وأما الزيادة فما يحكم به الخيال على ربه من التقييد والتحديد من غير اعتقاد تنزيه فيما قيده به وحدّده، فهذا سهو الزيادة وذاك سهو النقصان، فإن الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فليس كمثله شيء من هذه الآية هو دليل العقل، وهو السميع البصير هو دليل السمع، فجمع معتقد هذا بين الدليلين: السمعيّ والعقلي. وأما المواضع التي سجد فيها رسول الله ﷺ فهي خمسة: ١ـ شكّ فسجد. ٢ـ وقام من اثنتين ولم يجلس فسجد. ٣ـ وسلم من اثنتين فسجد. ٤ـ وسلم من ثلاث فسجد. ٥ـ وصلّى خمساً ساهياً فسجد. واختلف الناس في سجوده هل سجد للزيادة والنقصان أو لسهوه؟ فمن قائل: لسهوه. ومن قائل: للزيادة والنقصان، والذي أقول به: أنه سجد لهما السجدة واحدة لسهوه. والثانية للزيادة والنقصان، فكان للنقص إتماماً وكان للزيادة خيراً نور على نور.

وصل في فصل ـ الأفعال والأقوال التي يسجد لها القائلون بسجود السهو: اتفق العلماء على أن السجود يكون عن سنن الصلاة دون الفرائض ودون الرغائب، فالرغائب لا شيء عندهم فيها إذا سها عنها المصلي في الصلاة ما لم تكن أكثر من رغبة واحدة مثل ما يرى مالك أنه لا يجب سجود من نسيان تكبيرة واحدة ويجب بأكثر من واحدة. وأما الفرائض فلا يجزي عنها إلاّ الإتيان بها وجبرها إذا كان السهو عنها ممّا لا يوجب إعادة الصلاة بأسرها. وأما سجود السهو للزيادة فإنه يقع عند الزيادة في الفرائض والسنن جميعاً، فهذه الجملة لا خلاف بينهم فيها، وكل ما يقول فيه علماء الشريعة مستحب فذلك هو المرغب فيه وما عداه فهو سنّة أو فرض، والسنّة والرغيبة عندهم من باب الندب، ويختلف عندهم بالأقل والأكثر في تأكيد الأمر بها وذلك بحسب قرائن أحوال تلك العبادة، حتى أن بعضهم يرى في بعض السنن ما إذا تركت عمداً إن كانت فعلاً أو فعلت عمداً إن كانت تركاً أن حكمها في الإثم حكم الواجب، مثل لو ترك الإنسان الوتر أو الفجر دائماً كان آثماً، فأما الجلسة الوسطى فاتفقوا على سجود السهو لتركها، واختلفوا في الجلسة الوسطى هل هي فرض أو سنّة؟ واختلفوا هل يرجع الإمام إذ سبّح به إليها أو ليس يرجع؟ وإن رجع متى يرجع؟ فقال الأكثر: يرجع ما لم يستو قائماً. وقال قوم: يرجع ما لم تنعقد الركعة التي قام إليها. وقال قوم: يرجع إن فارق الأرض قيد شبر، وإذا رجع عند الذين لا يرون رجوعه فالأكثر على أن صلاته جائزة. وقال قوم: تبطل.

وصل الاعتبار في هذا الفصل: فروض العبادات الحضور مع الحق عند الشروع فيها، وسنن العبادات حضور المكلف فيها من حيث ما هو مكلف، والرغائب فيها حضور فنائه فيها بتولي الحق أحكامها في جميع أفعالها، فمن سها عن الفرائض لم تصحّ العبادة ولم تجبر إلاّ بها لا بسجود السهو، وقد بينت لك ما معنى اعتبار سجود السهو، ومن سها عن السنن سجد لها سجود السهو، ومن سها عن الرغائب فهو مخيّر إن شاء سجد وإن شاء لم يسجد. وأما الجلسة الوسطى فقد تكلمنا في اعتبارها في فصل واحد مع السجدة الآخرة فيما تقدّم، فأما سجود السهو لها فإن السجدة الأولى لسهوه والأخرى للنقص والجلوس لجبر عينها، فأشبهت الفرائض التي تجبر بعينها لا بسجود السهو.

وصل في فصل ـ صفة سجود السهو: فقال قوم: إذا كانت بعد السلام فيتشهد فيها ويسلم منها. وقال قوم: إذا كانت قبل السلام يتشهد لها فقط وأن السلام من الصلاة هو سلام منها. وقال قوم ممّن يرى القبلية للنقصان والبعدية للزيادة أنه لا يتشهد للتي قبل السلام، وقد ثبت عن النبيّ ﷺ أنه سلم من سجود السهو بعد السلام ولم يثبت التشهد في السهو وإن كان قد روي.

وصل الاعتبار في هذا الفصل: أمّا قبل السلام فالسلام من الصلاة، والتشهد يغني عن تكراره مثل الطواف والسعي أعني طواف القدوم للقارن، فإن العمرة تطلب طوافاً وسعياً. والحج يطلب مثل ذلك، وفي مذهب من يرى أنه يجزىء من ذلك طواف واحد وسعي واحد، ومن لا يرى ذلك ويرى أن الواجب عليه طوافان وسعيان يرى التشهّد والسلام، ولكن

صاحب هذا المذهب لا يصحّ أن يقول بالفرق بين الزيادة والنقصان، كما أن صاحب المذهب الأول لا يصحّ أن يقول بالسجود بعد السلام، إنما وقع الترغيم للشيطان في ذلك لكونه شرع للسهو السجود دون غيره من أفعال الصلوات لكونه أمر بالسجود فلم يسجد، والسهو أغلبه إنما يقع من الشيطان فلا يجبر إلاّ بصفة لا يتمكن للشيطان أن يدنو من العبد إذا كان موصوفاً بها فشرع له السجود لسهوه، فإنه ثبت في الخبر أن الإنسان إذا سجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول: أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار، فالإنسان في حال سجوده محفوظ من الشيطان أن يقربه، ولو اقترب منه الشيطان في سجود سهوه لسها في سجود سهوه في حال سجوده وكان يتسلسل الأمر، ولهذا لم يرد شرع فيمن سها في سجود سهوه ولو وقع فليس من الشيطان، وإذا لم يكن من الشيطان فلا يكون ترغيماً له إلاّ إذا كان السهو من فعله، فالسهو لا يلزم أن يكون ولا بدّ من فعل الشيطان، وإنما سببه غيبوبة المصلي عن عبادته فنفس غيبته عنها يكون عنها السهو، وأسباب الغيبة عن عقل المصلي نفسه في أيّ جزء هو من صلاته كثيرة، فمنها شيطانية، ومنها غلب مشاهدته عليه تقتضيها آية من كتاب الله في توحيد أو حكم من أحكام الدين أو جنة أو نار أو ما يستلزم إحداهما، فإذا كانت من الشيطان كان سجود السهو له ترغيماً على ترغيم من كونه سجوداً ومن كونه ما أثر وسواسه فيه بما جبر عليه سجوده لسهوه، ولهذا يستحب لكل مصلّ أن يسجد بعد كل صلاة سجدتي السهو، إذ كان الإنسان لا يخلو أن يغيب لحظة في نفس صلاته عن كونه مصلياً، فما زاد فيكون في ذلك ترغيم للشيطان، وهو مذهب الترمذي الحكيم، ورأيت جماعة الزيدية تقول به في حق المأمومين ورأيتهم يفعلون ذلك واستحسنته منهم، وإن اختلفت المقاصد فهو ترغيم للشيطان على كل حال.

قال ابن المنذر في هذه المسألة: اختلف العلماء فيها على ستة أقوال: فمن قائل: لا تشهد فيها ولا تسليم وبه قال أنس والحسن وعطاء. ومن قائل: فيه تشهُّد وتسليم وبالقولين أقول غير أني أقول: إن التشهّد والتسليم فيها ولا بدّ إلاّ أنه إذا كان السجود قبل السلام اكتفى بتشهّد الصلاة والسلام منها عن تشهّد السهو والسلام منه كالقارن وإذا كان بعد السلام تشهّد وسلم. ومن قائل: فيها تشهّد دون تسليم وهو قول الحكم وحماد والنخعي. ومن قائل: فيها تسليم وليس فيها تشهّد وهو قول ابن سيرين. ومن قائل: إن شاء تشهّد وسلم وإن شاء لم يفعل قاله عطاء. ومن قائل: إن سجد قبل السلام لم يتشهد وإن سجد بعد السلام تشهّد وهو قول ابن حنبل، قال ابن المنذر: قد ثبت أنه ﷺ كبّر فيها أربع تكبيرات وأنه سلم وفي ثبوت التشهّد نظر. انتهى الجزء الرابع والأربعون.

(الجزء الخامس والأربعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل في فصل ـ سجود السهو لمن هو: اتفق العلماء على أن سجود السهو إنما هو

للإمام وللمنفرد، واختلفوا في المأموم يسهو هل عليه سجود أم لا؟ فالجماعة أنه لا سجود عليه ويحمل عنه الإمام، وقال مكحول: يسجد المأموم لسهوه وبه أقول فإنه ما رأينا أن الشارع فرّق بين الإمام والمأموم حين ذكر سجود السهو وإنما ذكر المصلي خاصة ولم يخص حالاً من حال.

الاعتبار في هذا الفصل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٤] و﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٨] و﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [سورة المدثر: الآية ٣٨] فإذا بحثت عن كشف هذا المعنى علمت أن الإمام لا يحمل سهو المأموم، وأن مكحولاً كحل عينه في هذه المسألة بكحل الإصابة فانجلى عين بصيرته، والله الموفق لا رب غيره.

وصل في فصل ـ المأموم يفوته بعض الصلاة، وعلى الإمام سجود سهو متى يسجد المأموم: اختلف العلماء فيمن هذه حاله، فمن قائل: يسجد مع الإمام ثم يقوم لقضاء ما عليه وسواء سجد الإمام قبل السلام أو بعده. ومن قائل: يقضي ثم يسجد. ومن قائل: إذا سجدهما قبل التسليم سجدهما معه، وإذا سجد بعد التسليم سجدهما بعد أن يقضي. ومن قائل: يسجدهما مع الإمام ثم يسجدهما ثانية بعد القضاء، والذي أقول به لا يخلو المأموم أن يعلم ما سهى فيه الإمام أو لا يعلم، فإن لم يعلم فلا يخلو الإمام إما أن يسجدهما قبل السلام فيسجدهما معه، فإذا سلم الإمام قام لقضاء ما عليه، وإن سجدهما الإمام بعد السلام فلا يتبعه ويقوم لقضاء ما عليه ولا سجود عليه لسهو الإمام، وإن سجد هذا المأموم بعد القضاء فهو أحوط، بل استحب لكل مصلّ أن يسجدهما بعد القضاء كل صلاة يصليها دائماً منفرداً أو خلف إمام بعد السلام، وإن علم المأموم بسهو الإمام فلا يخلو إما أن يكون سهوه فيما فات هذا المأموم أو فيما أدرك معه من الصلاة، فإن كان فيما فاته فلا يتبعه في سجوده ولو سجد قبل السلام، وإن كان يعلم أن سهو الإمام فيما أدرك معه من الصلاة، فإن سجد قبل السلام اتبعه وإن سجد بعد السلام يقضي ما فاته ثم يسجد إلاَّ أن يكون سهو الإمام فيما سهى فيه رسول الله ﷺ ممّا أدركه معه هذا الداخل فإنه يتبع الإمام في سجوده قبل السلام وبعده وحينئذ يقوم لقضاء ما عليه.

وصل الاعتبار في هذا الفصل: يلزم الائتمام بالإمام ما دام يسمّى إماماً، فإذا زال عنه اسم الإمام لم يلزم اتباعه، وإمامة الرسول لا ترتفع، فالاتباع لازم ومحبة الله لمن اتبعه لازمة بلا شك، يقول الله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١] وقيل له قل: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] وإذا أحب الله عبده كان جميع قواه وجوارحه، وهو لا يتصرّف إلاَّ بقواه وجوارحه فلا يتصرف إلاَّ بالله، فيكون محفوظ التصرّف في حركاته وسكناته. ثم لتعلم أنه من جهة اتصافه بها تكليف المكلف فقد زال عنه إما بالكلية وإما بالتعليق عند جميع الفقهاء، وعندنا ليس كذلك لأنه ما ثم حال ولا صفة في مكلف تخرج عن حكم الشرع ممّن غلب عليه الحال أو الجنون أو النسيان أو النوم أو الذي لم يبلغ حدّ الحلم، فلم يخرج أحد من هؤلاء عن حكم الشرع، فإنه قد شرع لكل صاحب حال

وصفة حكماً إما بالإحاطة أو غير ذلك من أحكام الشرع، لأنه لا يخلو عن حكم مشروع لصاحب تلك الحال فما ثم إلاً مكلف، فما ارتفع التكليف فإن هؤلاء الذين تقول فيهم الفقهاء قد ارتفع عنهم خطاب الشرع لم يرتفع، فإن الشرع قد أباح له التصرّف فيما يقتضيه طبعه كالحيوان ولا حرج عليه في ذلك، فكيف يقال: زال عنه حكم الشرع والشرع قد حكم له بالإباحة، كما حكم للعاقل البالغ بالإباحة فيما أباح له، فإن الحكم في الأشياء للشرع لا للعقل، والشرع هو حكم الله في الأشياء، وما ثم شيء خرج عن حكم الله فيه بأمر ما، هذا نظر أهل الله لأنهم لا يزالون في كل نفس حاضرين مع الله، وأحكام الشرع وإن تعلقت بالأعيان فإنها مبنية على الأحوال، فما خوطبت عين بأمر ما إلاً لحال هي عليه، لأجل ذلك الحال خوطب بما خوطب به لا لعينه، فإن العين لا تزال باقية والأحوال تتغير، فيتغير حكم الشرع على العين لتغيّر الحال، فحال الطفولة والإغماء والجنون وغلبة الحال والفناء والسكر والمرض للشرع فيها أحكام كما لحال الرجولة والإفاقة والصحة والبقاء والصحو وعدم غلبة الحال للشرع فيها أحكام، فحكم الشرع سار في جميع الأحوال لمن عقل سريان الحق في وجود الأعيان.

وصل في فصل ـ التسبيح والتصفيق من المأمومين لسهو الإمام: فقال قوم: التسبيح للرجال والنساء. وقال آخرون: التسبيح للرجال والتصفيق للنساء، وبه أقول وإليه أذهب للخبر الوارد فيه.

وصل الاعتبار في هذا: من اعتبر الإنسانية ألحق النساء بالرجال كما ألحقهن رسول الله ﷺ بالرجال في الكمال ومن اعتبر الذكورة والأنوثة وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٨] وغلب الفاعل على المنفعل فرق بين الرجال والنساء فجعل التسبيح للرجال والتصفيق للنساء، فإن كلام المرأة يثير الشهوة بالطبع ولا سيما إن كان في كلامها خضوع وانكسار، وفي خيال السامع أنها أنثى، وفي قلبه مرض والله قد نهاهن عن الخضوع في القول فقال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٢] ففي هذه الآية إباحة كلام النساء الرجال على وصف خاص، ولا شك أن المصلي في حال مناجاة ربّه، فإذا سبحت المرأة به حيف عليه الميل الطبيعي الخيالي إليها، فهو مع التصفيق لا يؤمن عليه فكيف مع الكلام؟ فالعارف هنا مع ما يعتبره مع الحق في مناجاته، فإما أن يناجيه بعقله، وإما بنفسه وطبعه وهو بحسب قوته، فإن كان صحيحاً قوياً فلا يبالي بما وقعت المناجاة فيستوي عنده الرجال والنساء، وإن عرف نفسه أن فيها بقية من ذاتها وعندها مرض فرّق بين عقله وطبعه حتى يتخلص، هكذا هو نظر أهل الله في نفوسهم.

وصل في فصل ـ سجود السهو لموضع الشك: اختلف العلماء فيمن شك في صلاته فلم يدر كم صلّى واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً، فمن العلماء من قال: يبني على اليقين وهو الأقل ولا يجزيه التحري ويسجد. ومنهم من قال: إن كان أول أمره فسدت صلاته، وإن تكرر ذلك منه تحرى وعمل على غلبة الظن ثم يسجد سجدتين بعد السلام. وقال قوم: إنه

ليس عليه إذا شكّ لا رجوع إلى يقين ولا تحرّ وإنما عليه السجود فقط إذا شكّ، والذي أذهب إليه في هذه المسألة هذا القول الأخير، وإن كان البنيان على اليقين أحوط.

وصل في اعتبار هذا الفصل: الخاطر الأول إذا عرفه الإنسان اعتمد عليه، والشك هو التردّد بين أمرين أو أمور من غير ترجيح، وغلبة الظن الميل بالترجيح لأحد المشكوكين من غير قطع، وليس له رجوع لا إلى يقين ولا إلى غلبة ظن، فإن الحكم لصاحب الوقت وهو الشك، وكما يلزم المحذور فيما نقص من فعل العبادة كذلك يلزم في الزيادة فإنه شرع لم يأذن به الله، والسجود إنما خوطب به الشاك، فلو أن الذي يبني على يقين يزول عنه الشك كان حكمه حكم من لم يشك، وأما في الزيادة في تلك العبادة فالذي شرع ذلك العمل هو الذي شرع السجود للشك فما خوطب بالسجود من تيقن ولا من غلب على ظنّه، فمن شكّ في دليل عقله في معرفة ربه وفي دليل سمعه المعارض دليل عقله في معرفة ربه فلم يثق بأحد الدليلين لأنه لم يترجح عنده أحد الدليلين، فإنه لا يقدر أن يرفع عن نفسه صدق الخبر المتواتر الذي عارضه دليل عقله في علمه بما ينبغي لجلال الله من التنزيه في دليل عقله، ولم يقدر أن يدفع عن نفسه لإيمانه ما وصف الحق نفسه بما ينبغي له عند هذا المؤمن لورود النص المتواتر به، فلولا أنه ابتغى له ما ورد به الخبر النبوي الذي يوجب القطع وتعارض الدليلان ولم يجد وجهاً للترجيح ولا للجمع فهذا هو الشاك، فليسجد سجدتي السهو إذا سهى عن العمل بالإيمان من غير نظر في الدليلين، ويفرغ المحل ويخليه وهو القلب، ويحليه بصدق التوجّه وهو السجود لهذا الموصوف بالنقيضين، والسجود محل القربة من الله ومحل بعد الشيطان منه فإنه يعتزل من العبد في حال سجوده، وهو في حال سجوده صاحب شبهة فلا بدّ بعمله على الإيمان أن ينقدح لمن هذه الصفة صفته في قلبه علم بالله لم يكن عنده يرفع عنه الشك بأن يعطيه ذلك العلم، إما الجمع بين الدليلين وإما الترجيح بالعثور على فساد ما يناقض الإيمان من أحد الدليلين ويعثر على الشبهة التي أوجبت التعارض، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ هنا بسجدتي السهو ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] هنا الجمع بين الدليلين المتعارضين أو الترجيح أو إبطال أحد الدليلين.

وصل في فصل ـ ما هو من الصلاة فرض على الأعيان وما ليست بفرض على الأعيان:

اعلم أن من الصلاة ما هي فرض على الأعيان وهي ما تكلمنا فيها فيما مضى من هذا الباب. ومنها ما ليست بفرض على الأعيان. فأما التي ليست بفرض على الأعيان فمنها ما هي سنة. ومنها ما هي فرض على الكفاية. ومنها ما هي نفل، والذي أذهب إليه أنه ما ثم فرض إلاّ الصلوات الخمس وما عداها ينبغي أن يسمّى صلاة تطوّع كما سمّاها رسول الله ﷺ. وفي الخبر الوارد في حديث الأعرابي نظر عندي إذ قال الأعرابي: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «**لاَ إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ**» يحتمل قوله ﷺ: «**لاَ إلاَّ أَنْ تطوع**» بصلاة فتلزمك لزوم الفرائض، فإن قوله: «هل عليّ غيرها» يعني من عند الله ألزمنيها ابتداء، والصلاة إذا تطوعت بها مثل النذر ألزمك الله الإتيان بها بإلزامك نفسك إياها. ثم إن هذه صلاة التطوّع للشرع فيها أحوال مختلفة

أدّى ذلك الاختلاف إلى أن يجعل لها أسماء مختلفة لتعرف بها، وجملتها فيما أحسب عشرة: الوتر، وركعتا الفجر، والنفل، وتحية المسجد، وقيام رمضان، والكسوف، والاستسقاء، والعيدان، وسجود القرآن عند من يجعله صلاة، فإذا فرغنا من هذه العشرة واعتباراتها سقنا صلاة الجنائز وصلاة الاستخارة وغير ذلك ممّا يسمّى في الشرع صلاة، وإن لم يكن فيها ركوع ولا سجود ولا إحرام ولا تسليم كالصلاة على رسول الله ﷺ المأمور بها شرعاً منزلاً وحكمة ذلك.

وصل الاعتبار: الصلاة تقتضي العبودية، ولما انقسمت الصلاة إلى قسمين كما قدّمنا إلى ما هو فرض أعيان وإلى ما ليس بفرض انقسمت العبودية إلى قسمين: عبودية اضطرار وبها أصلي فرائض الأعيان، وعبودية اختيار وبها نصلي ما عدا فرض الأعيان، وسمّاها الحق تعالىٰ نوافل، وسمّاها رسول الله ﷺ تطوعاً. قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٩] يقول بعض الصالحين: ما لأحد نافلة مقطوع بها إلاّ لرسول الله ﷺ فإنها لا تصحّ النوافل إلاّ لمن كملت فرائضه، ومن نقصت فرائضه عن الكمال كملت له من تطوعه، فإن زاد التطوع حينئذ يصحّ اسم النافلة، وما شهد الله بها لأحد إلاّ لرسوله ﷺ فقال له أمراً: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ وقال تعالىٰ في الخبر الصحيح عنه: «**وَلاَ يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ**». فسمّى ما زاد على الفرائض نوافل. وقال رسول الله ﷺ للأعرابيّ في تعليم ما بني عليه الإسلام فذكر الفرائض فقال: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: «**لاَ إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ**» فسمّى ما زاد على الفرائض تطوعاً، فالفرض عبودية اضطرار لأن المعصية تتحقق بفعله أو بتركه وما عداه فعبودية اختيار لكنه مختار في الدخول فيها ابتداء، فإذا دخل فيها عندنا لزمته أحكام عبودية الاضطرار ولا بدّ، وليس له أن يخرج عن حكمها حتى يفرغ من تلك العبادة، ولهذا لما قال له: هل عليّ غيرها؟ قال له عليه السلام: لا. يعني أنه ما فرض الله عليك ابتداء من عنده إلاّ ما ذكرته لك إلاّ أن تطوّع، إلاّ أن تشرع أنت في أمثالها مما رغبك الحق فيه، فإن تطوّعت ودخلت فيها وجب عليك الوفاء بها كما وجب في فروض الأعيان، فهذا معنى قوله: لا إلاّ أن تطوّع، فيجب عليك ما أوجبته على نفسك، وفي هذا الباب دخل النذر وأمثاله، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [سورة محمد: الآية ٣٣] فالوتر لمعرفة الحق في الأشياء كلها، وركعتا الفجر للشكر لقيام الليل على ما وفق له، وللنائم على قيامه إلى أداء فرض الصبح ودخول المسجد للسلام على الملك في بيته، وقيام رمضان لكون رمضان اسماً من أسماء الله فوجب القيام لذكر الملك، قال: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة المطففين: الآية ٦] والكسوف للتجلي الذي يعطي الخشوع.

سُئِل رسول الله ﷺ عن الكسوف فقال: «**مَا تَجَلَّىٰ اللَّهُ لِشَيءٍ إِلاَّ خَشَعَ لَهُ**» وهو ما يظهر لعين الرائي من التغيّر في الشمس أو القمر وإن لم يتغيرا في أنفسهما، فأبدى الحق لعين الرائي ما في نفس الشمس والقمر في ذلك الزمان من الخشوع لله في صورة ذهاب النور بالحجاب النفسيّ الطبيعيّ في كسوف القمر، وبالحجاب العلميّ في كسوف الشمس،

والاستسقاء طلب الرحمة، والعيدان تكرار التجلي، وسجود القرآن الخضوع عند كلام الله ولهذا أمر بالإنصات والاستماع والصلاة على الميت العبد يتخذ الله وكيلاً نائباً عنه فيما ملكه إياه شكراً على ما أولاه حين حرم من قيل له: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٧] فأخرجه من أيديهم بغير اختيار منهم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٨] والذين اتخذوا الله وكيلاً صاروا أمواتاً بين يديه ولهذا أعطاهم صفة التقديس وهي الطهارة، فأمرنا بغسل الميت ليجمع بين الطهارتين، فإنه في قبلة المصلي عليه بينه وبين الله فهو يناجي الله فيه له، فإن المصلي على طهارة والحق هو القدّوس، وصار الميت بين الله وبين المصلي عليه، فلا بدّ أن يكون طاهراً، وطهارته المعنوية لا يشعر بها إلاّ أهل الكشف، فأمر أهل الشريعة في ظاهر الحكم أن يغسل الميت حتى يتيقن من لا كشف له طهارته، وسيأتي اعتباره في بابه إن شاء الله تعالىٰ وصلاة الاستخارة وهي تعيين ما اختار الله لهذا العبد فعله أو تركه ليكون على بينة من ربه كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [سورة محمد: الآية ١٤] فهذه فائدة صلاة الاستخارة، وستأتي في بابها إن شاء الله، فلنذكر ما شرطناه فصلاً فصلاً إن شاء الله ليعرف الناس مقاصد العارفين في عباداتهم التي امتازوا بها عن العامّة مع مشاركتهم في الأمر العام لجميع المكلفين، والله الموفق لا رب غيره.

وصل في فصل ـ صلاة الوتر: خرّج أبو داود عن أبي أيوب الأنصاريّ أنه ﷺ قال: «**الوِتْرُ حَقٌّ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُوتِرَ بِثَلاثٍ فَلْيَفْعَلْ وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُوتِرَ بِوَاحِدَةٍ فَلْيَفْعَلْ**» وخرّج أبو داود: «**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُوتِرُ بِسَبْعٍ وَتِسْعٍ وَخَمْسٍ**» والحديث العام بوتره ﷺ ما خرّجه عن عبد الله بن قيس قال: «**قُلْتُ لِعَائِشَةَ: بِكَمْ كَانَ يُوتِرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: كَانَ يُوتِرُ بِأَرْبَعٍ وَثَلاثٍ وَبِسِتٍّ وَثَلاثٍ وَبِثَمَانٍ وَثَلاثٍ وَعَشْرٍ وَثَلاثٍ وَلَمْ يَكُنْ يُوتِرُ بِأَنْقَصَ مِنْ سَبْعٍ وَلا بِأَكْثَرَ مِنْ ثَلاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً**» وخرّج النسائيّ عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «**صَلاةُ المَغْرِبِ وِتْرُ صَلاةِ النَّهَارِ فَأَوْتِرُوا صَلاةَ اللَّيْلِ**» واختلف الناس في الوتر هل هو واجب أو سنّة؟ فمن قائل: إنه واجب والواجب عند صاحب هذا القول بين الفرض والسنّة. ومن قائل: إنه سنّة مؤكدة وقد تقدم الكلام في حكمه، وبقي الكلام في صفته ووقته والقنوت فيه وصلاته على الراحلة، فلنذكر أولاً من أحاديث الأمر به ما تيسّر ليتبين للناظر فيها الوجوب وعدم الوجوب.

فمن ذلك ما خرّجه أبو داود عن خارجة بن حذافة قال: «**خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَمَدَّكُمْ بِصَلاةٍ وَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ، فَجَعَلَهَا لَكُمْ فِيمَا بَيْنَ صَلاةِ العِشَاءِ إِلَىٰ طُلُوعِ الفَجْرِ**» فهذا يدخل فيه الوتر وغير الوتر، وهذا الحديث هو من رواية عبد الله بن راشد عن عبد الله بن أبي مرّة ولم يسمع منه وليس له إلاّ هذا الحديث وكلاهما ليس ممّن يحتجّ به ولا يكاد. ورواه عبد الله بن أبي مرّة عن خارجة ولا يعرف له سماع من خارجة. ولما ذكر الترمذي هذا الحديث بهذا الإسناد قال فيه حديث غريب. وخرّجه الدارقطنيّ من حديث النضر بن عبد الرحمن عن عكرمة عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ وذكر

الحديث وفيه: «**إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَدَّكُمْ بِصَلاةٍ وَهِيَ الْوِتْرُ**» والنضر ضعيف عند الجميع ضعفه البخاريّ وابن حنبل وأبو حاتم وأبو زرعة والنسائيّ، وقال فيه ابن معين: لا تحل الرواية عنه وقد ضعفه غير هؤلاء. وقد روي أيضاً من طريق العزرمي والعزرميّ متروك. وروي من طريق حجاج بن أرطأة وهو ضعيف. ورواه أبو جعفر الطحاوي من حديث نعيم بن حماد وهو ضعيف.

وأمّا حديث البزار عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ ﷺ قال: «**الْوِتْرُ وَاجِبٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ**» ففي إسناده جابر الجعفي وأبو معشر المديني وغيرهما وكلهم ضعفاء. وأما حديث أبي داود في ذلك فهو عن عبيد الله بن عبد الله العتكيّ عن عبدالله بن بريدة عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الْوِتْرُ حَقٌّ فَمَنْ لَمْ يُوتِرْ فَلَيْسَ مِنَّا، الْوِتْرُ حَقٌّ فَمَنْ لَمْ يُوتِرْ فَلَيْسَ مِنَّا، الْوِتْرُ حَقٌّ فَمَنْ لَمْ يُوتِرْ فَلَيْسَ مِنَّا**» وعبيد الله هذا وثقه يحيىٰ بن معين وقال فيه أبو حاتم: صالح الحديث. وأما حديث أبي أحمد بن عديّ من حديث أبي حباب حديث: «**ثَلاثٌ عَلَيَّ فَرِيضَةٌ وَعَلَيْكُمْ تَطَوُّعٌ**» فذكر منهنّ الوتر، وأبو حباب كان يدلس في الحديث. وحديث البزار عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ: «**أُمِرْتُ بِرَكْعَتَي الْفَجْرِ وَالْوِتْرِ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ**» في إسناده جابر بن بريد الجعفيّ وهو ضعيف، وخرّجه الدارقطنيّ من حديث عبد الله بن محرز من رواية أنس وابن محرز متروك. وذكر أبو داود من حديث عليّ عن النبيّ ﷺ: «**يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ أَوْتِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْوِتْرَ**» وقد تقدم اعتبار حكمه فيما تقدم في فصل عدد الصلوات المفروضات على الأعيان وغير المفروضات على الأعيان وهو الفصل الذي يليه هذا الفصل.

وصل في فصل ـ صفة الوتر: فمنهم: من استحب أن يوتر بثلاث يفصل بينهما بسلام. ومنهم: من لا يفصل بينهما بسلام. ومنهم: من يوتر بواحدة. ومنهم: من يوتر بخمس لا يجلس إلاّ في آخرها وقد أوتر بسبع وتسع وإحدى عشرة وبثلاث عشرة وهو أكثر ما روي في ذلك في وتره ﷺ قد بيّنا لك في الاعتبار قبل هذا في كون المغرب وتر صلاة النهار فأمر بوتر صلاة الليل لتصحّ الشفعية في العبادة، إذ العبادة تناقض التوحيد فإنها تطلب عابداً ومعبوداً والعابد لا يكون المعبود فإن الشيء لا يذل لنفسه، ولهذا قسّم الصلاة بين العبد والرب بنصفين، فلما جعل المغرب وتر صلاة النهار والصلاة عبادة غارت الأحدية إذ سمعت الوترية تصحب العبادة فشرعت وتر صلاة الليل لتشفع وتر صلاة النهار فتأخذ بوتر الليل ثأرها من وتر صلاة النهار، ولهذا يسمّى الذحل وتراً وهو طلب الثأر، فإن أوتر بثلاث فهو من قوله: ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٤] ومن أوتر بواحدة فهو مثل قوله: لا قود إلاّ بحديدة، فمن فصل في الثلاث بسلام راعى لا قود إلاّ بحديدة وراعى حكم الأحدية، ومن لم يفصل راعى أحدية الإله، فمن أوتر بواحدة فوتره أحديّ، ومن أوتر بثلاث فهو توحيد الألوهة، ومن أوتر بخمس فهو توحيد القلب، ومن أوتر بسبع فهو توحيد الصفات، ومن أوتر بتسع فقد جمع في كل ثلاث: توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال. ومن أوتر بإحدى عشرة فهو توحيد المؤمن، ومن أوتر بثلاث عشرة فهو توحيد الرسول وليس

وراء الرسالة مرمى فإنها الغاية وما بعدها إلاّ الرجوع إلى النبوّة لأن عين العبد ظاهر هناك بلا شك.

ومن السنّة أن يتقدّم الوتر شفع، والسبب في ذلك أن الوتر لا يؤمر بالوتر، فإنه لو أمر به لكان أمراً بالشفع، وإنما المأمور بالوتر من ثبتت له الشفعية فيقال له أوترها فإن الوتر هو المطلوب من العبد، فما أوتر رسول الله ﷺ قط إلاّ عن شفع، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾ [سورة الفجر: الآية ٣] وقد قدّمنا أن الشفعية حقيقة العبد إذ الوترية لا تنبغي إلاّ لله من حيث ذاته وتوحيد مرتبته أي مرتبة الإله لا تنبغي إلاّ لله من غير مشاركة، والعبودية عبوديتان: عبودية اضطرار ويظهر ذلك في أداء الفرائض. وعبودية اختيار ويظهر ذلك في النوافل. ورسول الله ﷺ ما أوتر قط إلاّ عن شفع نافلة، غير أن قوله: إن صلاة المغرب وتر صلاة النهار وشرع الوتر لوترية صلاة الليل وصلاة النهار منها فرض ونفل، وعلمنا أن النفل قد لا يصليه واحد من الناس كضمام بن ثعلبة السعديّ فقد أوتر له صلاة المغرب الصلوات المفروضة في النهار، فقد يكون الوتر يوتر له صلاة العشاء الآخرة إذا أوتر بواحدة أو بأكثر من واحدة ما لم يجلس، فإن النفل لا يقوي قوّة الفرض، فإن الفرض بقوّته أوتر صلاة النهار. وإن كانت صلاة المغرب ثلاث ركعات يجلس فيها من ركعتين ويقوم إلى ثالثة، وقد ورد النهي عن أن يتشبه في وتر الليل بصلاة المغرب لئلا يقع اللبس بين الفرائض والنوافل، فمن أوتر بثلاث أو بخمس أو بسبع وأراد أن يوتر الفرض فلا يجلس إلاّ في آخر صلاته حتى لا يشتبه بالصلاة المفروضة، فإذا لم يجلس قامت في القوّة مقام وترية المغرب، وإن كان فيه جلوس لقوّة الفرضية فيتقوّى الوتر إذا كان أكثر من ركعة إذا لم يجلس بقوّة الأحدية.

وصل في فصل ـ وقت الوتر: فمن وقته متفق عليه وهو من بعد صلاة العشاء الآخرة إلى طلوع الفجر، ومنه مختلف فيه على خمسة أقوال: فمن قائل: يجوز بعد الفجر. ومن قائل: بجوازه ما لم تصل الصبح. ومن قائل: يصلى بعد الصبح. ومن قائل: يصلى وإن طلعت الشمس. ومن قائل: يصلى من الليلة القابلة، هذه الأقوال حكاها أبو بكر بن إبراهيم بن المنذر في كتاب الأشراف في الخلاف، والذي أقول: إنه يجوز بعد طلوع الشمس وهو قول أبي ثور والأوزاعيّ فإن رسول الله ﷺ جعل المغرب وتر صلاة النهار مع كونه لا يصلى إلاّ بعد غروب الشمس، فكذلك صلاة الوتر وإن تركها الإنسان من الليل فإنه تارك للسنّة، فإن صلاّها بعد طلوع الشمس فإنها توتر له صلاة الليل وإن وقعت بالنهار، كما أوترت صلاة المغرب صلاة النهار وإن كانت وقعت بالليل.

وصل الاعتبار: الوتر لا يقيد بالأوقات وإن ظهر في الأوقات إذ لو تقيد لم يصحّ له الانفراد، فإن القيد ضدّ الإطلاق لا سيّما وقد بيّنا لك فيما ذكرناه في هذا الكتاب وفي كتاب الزمان أن الوقت أمر عدميّ لا وجود له، والوتر أمر محقق وجوديّ، وكيف يتقيد الأمر الوجوديّ بالأمر العدميّ حتى يؤثر فيه هذا التأثير، ونسبة التأثير إلى الأمر الوجوديّ أحق وأولى عند كل عاقل، وإذا لم يقيد الوقت الوتر فليوتر متى شاء، ومثابرته على إيقاعه قبل

الفجر أولى فإنه السنّة والاتباع في العبادات أولى، وإنما هذا الكلام الذي أوردناه هو على ما تعطيه الحقائق في الاعتبارات فافهم، كما أنه إذا اعتبرنا في الوتر الذحل ممّا وقع من وتر صلاة المغرب من كونها عبادة فطلب الثأر لا يتقيد بالوقت، وإنما أمره مهما ظفر بمن يطلبه أخذ ثأره منه من غير تقييد بوقت، فعلى كل وجه من الاعتبارات لا يتقيد بالوقت.

وصل في فصل ـ القنوت في الوتر: قد تقدّم الكلام في شرح ألفاظ قنوت الوتر في فصل القنوت من هذا الباب واختلف الناس فيه، فمن قائل: يقنت في الوتر. ومن قائل: بالمنع. ومن قائل: بالجواز في نصف رمضان الأوّل. ومن قائل: في نصف رمضان الآخر. ومن قائل: بجوازه في رمضان كله، وعندي أن كل ذلك جائز. فمن فعل من ذلك ما فعل فله حجة ليس هذا موضعها.

وصل في الاعتبار: الوتر لما لم يصحّ إلاّ أن يكون عن شفع إما مفروض أو مسنون لم يقو قوّة توحيد الأحدية الذاتية التي لا تكون نتيجة عن شفع، ولا تتولد في نفس العارف عن نظر مثل من عرف نفسه عرف ربه، فهذه معرفة الوترية لا معرفة الأحدية الذاتية، والقنوت دعاء وتضرّع وابتهال، وهو ما يحمله الوتر من أثر الشفع المقدم عليه الذي هو هذه المعرفة الوترية نتيجة عنه فتعين الدعاء من الوتر ولهذا دعا الحق عباده وقال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢١] وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [سورة يونس: الآية ٢٥] فوصف نفسه بالدعاء وهو الوتر سبحانه فاقتضى الوتر القنوت، فإذا أوتر العبد ينبغي له أن يقنت ولا سيما في رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالىٰ فتأكد الدعاء في وتر رمضان أكثر من غيره من الشهور فاعلم.

وصل في فصل ـ صلاة الوتر على الراحلة: فمنهم من منع من ذلك لكونه يراه واجباً فيلحقه بالفرض قياساً، وموضع الاتفاق بين الأئمة أن الفرض لا يجوز على الراحلة، وأكثر الناس على إجازة صلاة الوتر على الراحلة لثبوت الأثر في ذلك وبه أقول.

وصل في الاعتبار في هذا الفصل: الصلاة المقسومة بين الله وبين العبد ليست في الأفعال وإنما هي في قراءة المصلي فاتحة الكتاب، وما في معناها من أقوال الإنسان في الصلاة عند أهل الله فيجوز الوتر على الراحلة وهو مصلّ، ومن راعى تنزيه الحق جلّ جلاله في كل فعل في الصلاة واعتباره فيما يناسب الحق من ذلك قال: لا يجوز الوتر على الراحلة لأن من شروط صحة الصلاة ما يسقط في مشي الراحلة إذا توجهت لغير القبلة، فإن اعترض بوتر النبيّ ﷺ على الراحلة حيث توجهت فاعلم أن النبيّ ﷺ كله وجه بلا قفا، فإنه قال ﷺ: «**إنّي أَرَاكُمْ مِنْ خَلْفِ ظَهْرِي**» فأثبت الرؤيا لحاله ومقامه، فثبتت الوجهية له وذكر الخلف والظهر لبشريته، فإنهم ما يرون رؤيته ويرون خلفه وظهره ولما ورثته ﷺ في هذا المقام وكانت لي هذه كنت أصلي بالناس بالمسجد الأزهر بمدينة فاس، فإذا دخلت المحراب رجع بذاتي كلها عيناً واحداً فأرى من جميع جهاتي كما أرى قبلتي لا يخفى عليّ الداخل ولا الخارج ولا واحد من الجماعة، حتى أنه ربما يسهو من أدرك معي ركعة من الصلاة، فإذا

سلمت ورددت وجهي إلى الجماعة أدعو أرى ذلك الرجل يجبر ما فاته فيخل بركعة فأقول له: فاتك كذا وكذا فيتم صلاته ويتذكر، فلا يعرف الأشياء ولا هذه الأحوال إلاَّ من ذاقها. ومن كانت هذه حاله فحيث كانت القبلة فهو مواجهها هكذا ذقته بنفسي، فلا ينبغي أن يصلي على الراحلة إلاَّ صاحب هذا الحال، ورأيت مقالة لبعض أهل الظاهر أنه لا يجوز الوتر إلاَّ على الراحلة فقط لا على غير الراحلة من حمار وبغل وفرس، ولا على الراحلة إلاَّ الوتر فقط، فما أوتر رسول الله ﷺ قط على راحلته حيث توجهت إلاَّ والقبلة في وجهه كما قرّرناه، ومن كان له مثل هذه الحال يثبت له في صلاته وجميع تصرفاته قوله تعالىٰ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥] ووجه الله للمصلي إنما هو في قبلته، فدل أن من حاله هذا الوصف ويرى القبلة بعين منه تكون في الجهة التي تليها فهو مصلّ للقبلة.

وصل في فصل ـ من نام على وتر ثم قام فبدا له أن يصلي من الليل: فمن قائل: يصلي ركعة تشفع له وتره ثم يصلي ما شاء ثم يوتر. ومن قائل: لا يشفع وتره فإن الوتر لا ينقلب شفعاً بهذه الركعة التي يشفعه بها، والتنفل بركعة واحدة غير الوتر غير مشروعة فهو شرع لم يأذن به الله، والوتر مختلف فيه بين سنّة مؤكدة ووجوب، وأين النفل من السنن المؤكدة أو الصلاة الواجبة والحكم هنا للشرع وقد قال ﷺ: **«لاَ وِتْرانِ فِي لَيْلَةٍ»** ومن راعى المعنى المعقول قال: إن هذه الركعة الواحدة تشفع تلك الركعة الوترية واتباع الشرع أولى في ذلك بلا شك.

اعتبار هذا الفصل: الوتر لا يتكرر فإن الحضرة الإلهية لا تقتضي التكرار لما هي عليه من الاتساع ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٧] ولما كان العلم صفة إحاطته قرن معه السعة واشتق له اسماً منها كما اشتق من العلم فاعلم ذلك فلا وتران في ليلة، فأحدية الحق لا تشفعها أحدية كل مخلوق فإنه لكل شيء أحدية لا بدّ من ذلك، وبأحديته عرف كل شيء أحدية خالقه وهي الآية التي لله في كل شيء الدالة على أحديته وهو الذي أشار إليه القائل بقوله وهو أبو العتاهية: وفي كل شيء له آية. تدل على أنه واحد. ولا يكون لشيء أحديتان فلا يشفع وتره من قام يصلي ممّن نام على وتر، ومن راعى أحدية الألوهة وأضافها إلى أحدية الذات الموصوفة بالألوهة فإن أحدية المرتبة لا تعقل إلاَّ مع أحدية صاحب المرتبة، قال: من قام من الليل يريد الصلاة وكان قد نام على وتر يضيف إلى تلك الركعة التي نام عليها وهي التي أوتر بها ركعة عند قيامه يشفعها به ثم يصلي بعد تلك الركعة ما يشاء مثنى مثنى، فإذا خشي الصبح أوتر بواحدة، فكل قائل من العلماء له اعتبار خاص يسوغ له فيما ذهب إليه من ذلك.

وصل في فصل ـ ركعتي الفجر: ركعتا الفجر قبل صلاة فرض الصبح بمنزلة الركعتين قبل صلاة فرض المغرب، فإن الصحابة في زمن رسول الله ﷺ كانوا إذا سمعوا أذان المغرب تبادروا إلى صلاة هاتين الركعتين قبل خروج النبيّ ﷺ بحديث عبد الله بن مغفل ذكره مسلم في صحيحه، وكان يخرج عليهم رسول الله ﷺ ويراهم ولا ينكر عليهم، وقد قال ﷺ: **«بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلاَةٌ»** يريد الأذان والإقامة فإنها أذان بلا شك، ولا يحافظ على الركعتين قبل

المغرب إلاّ من استبرأ لدينه إلاّ أن تعجله الإقامة، فإنه إذا كانت الإقامة فلا صلاة إلاّ التي أقيم لها وهي سنّة متروكة مغفول عنها، وما رأيت في زماننا من يحافظ عليها من الفقهاء إلاّ صاحبنا زين الدين يوسف بن إبراهيم الشافعي الكردي وفّقه الله لذلك، وفي هاتين الركعتين قبل صلاة المغرب من الأجر ما لا يعلمه إلاّ الله، فإن لله بين كل أذان وإقامة تجلّ خاص واطلاع، فمن ناجاه في ذلك الوقت اختصّ بأمر عظيم وهو كما قلنا في الخبر المروي الذي صحّحه الكشف عن رسول الله ﷺ: «**بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلاةٌ**» يريد الأذان والإقامة فسمّاها أذاناً لأنها إعلام بالقيام إلى الصلاة وحضور الإمام كما يقال في الشمس والقمر القمران في لسان العرب، وكذلك العمران في أبي بكر وعمر، وهي صلاة الأولياء الأوابين، وكان الصدر الأول شديد المحافظة عليهما، وسبب ذلك التوفيق الإلهي أن النفل عبودية اختيار والفرض عبودية اضطرار، فيحتاج في عبودية الاضطرار إلى حضور تام بمعرفة ما ينبغي للسيد المعبود من الآداب والجلال والتنزيه، فتقوم عبودية الاختيار لها كالرياضة للنفس وكالعزلة بين يدي الخلوة، فإن دخول العبد للفرض من النفل ما يكون مثل دخوله من الفعل المباح، لأنه لا بدّ أن يبقى للداخل في خاطره ممّا تقدّم له قبل دخوله أثر، فلهذا حافظ عليهما من حافظ وركعتا الفجر كذلك، فإن النافلة قبل الفريضة صدقة من الشخص على نفسه، يقول الله: ﴿إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ [سورة المجادلة: الآية ١٢] فما ظنّك بمناجاة الحق تعالىٰ آكد وأوجب، وحكم ركعتي الفجر سنّة بالاتفاق، فإن النبي ﷺ قضاها بعد طلوع الشمس حين نام عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس فصلاّهما ثم صلّى الصبح وما هي عندنا قضاء وأنه صلاّها في وقتها كما صلّى الصبح في وقتها، فإن ذلك وقت صلاة النائم والناسي فلا يقال قضاها على اصطلاح الفقهاء.

وصل في فصل ـ القراءة في ركعتي الفجر: استحب بعضهم أن يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فقط، وقال بعض العلماء: لا بأس أن يضيف إلى أمّ القرآن سورة قصيرة. وقال بعضهم: ليس في القراءة في ركعتي الفجر توقيت يستحب، والذي أذهب إليه أن يوجز فيهما ويخفف في كمال بلا توقيت، والفاتحة لا بدّ منها فإنها عين الصلاة في الصلاة، ومن لم يقرأ بها في صلاته فما صلّى، وقد وردت السنّة بتحسينهما وإن زاحمك الوقت.

وصل في اعتبار هذا الفصل: سبب التخفيف فيها من السنّة للخبر الوارد أن مقدار الزمان في محاسبة الله عباده يوم القيامة بأجمعهم كركعتي الفجر فكان يخففهما رحمة بأمته وهي بالجملة صلاة فحكمها حكم الصلاة وما عدا الفرائض، وإن كانت عبودية اختيار فإن في ركعتي الفجر شبهة عبودية اضطرار لما تتضمنه صلاة النفل من الفرائض، فالعبد في النافلة وما عدا الفرائض من الصلوات بمنزلة عبد قد عتق منه شقص أو بمنزل المكاتب أو بمنزلة المدبر، فإن في هؤلاء من روائح الحرية ما ليست للعبد الذي ما له هذه الحالات، فالسنن من النوافل حال العبودية فيها حال المكاتب والمدبر والنافلة التي ليست بسنّة أي ليست من فعله ﷺ دائماً ولا من نطقه بتعيينه بمنزلة عبد عتق منه شقص فهو حرّ من حيث إنه عتق منه ما عتق وهو عبد

من حيث ما بقي منه دون عتق ما بقي، فهذه حالة في العبودية بين عبودية الاضطرار وعبودية الاختيار كالسنن بين الفرائض والنوافل سواء، فأما من رأى في القراءة فيها الفاتحة فقط فلأنه الكافية فإن بها يصحّ أنه صلّى، وأما من زاد السورة بعد الفاتحة فليعلم المنزلة التي حصلت له من هذه الخاصة لأن السورة بالسين هي المنزلة، قال النابغة في ممدوحه: [الطويل]

ألـم تَـرَ أن الله أعـطـاك سـورةً ... تـرى كـلَّ مَـلْـكٍ دونـهـا يـتـذَبْـذَبُ

بـأنـك شـمـسٌ والـمـلـوكُ كـواكـبٌ ... إذا طـلـعـت لـم يَـبْـدُ مـنـهـنَّ كـوكـبُ

وسور القرآن منازله، وكما أنه لكل سورة آيات كذلك لكل منزلة لأحد عند الله دلالات وأوضحها المعرفة بالله فالتأييد في الإفصاح عنها، وهذه الدلالة سيدة الدلالات كآية الكرسي سيدة آي القرآن، فهو قرآن من حيث ما اجتمع العبد والرب في الصلاة، وهو فرقان من حيث ما تميز به العبد من الرب ممّا اختص به في القراءة من الصلاة، والعبد في الفاتحة قد أبان الحق بمنزلته فيها وأنه لا صلاة له إلاّ بها فإنه تعرفه بمنزلته من ربه، وأنها منزلة مقسمة بين عبد ورب كما ثبت، فينبغي للعبد أن يقرأ سورة بعد الفاتحة من غير أن تتقدمه روية فيما يقرأ من السور أو الآيات من سورة واحدة أو من سور، فإن تقدم الروية في تعيين ما يقرأ بعد الفاتحة يقدح في علم من يريد الوقوف على وجه الحق في منزلته عند الله فهو الخاطر الأوّل، فإذا فرغ المصلي من قراءة فاتحة الكتاب قرأ ما تيسّر له من القرآن، وما يجري الله على لسانه منه من غير أن يختار آية معينة أو يتردد فينظر آية سورة يقيمه الله فيها أو أي آية من سورة أو سور يجري الله على لسانه إن لم يكمل السورة بالقراءة، فيعلم بذلك العالم الحاضر المراقب منزلته من الله في ذلك الوقت التي حصلت له من قراءة فاتحة الكتاب من قسمه الذي له منها، ومن قسم ربه جزءاً لما كان منه من الثناء على ربه والسؤال بالسورة التي يقرؤها، فإن أتمها فالمنزلة له بكمالها بلا شك، وإن اقتصر منها على ما اقتصر فحظّه منها أي من تلك المنزلة بحسب ما اقتصر عليه منها، والسنّة إتمام السورة، في الخبر الصحيح: «**يُقَالُ لِقَارِىءِ القُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ: اقْرَأْ وَارْقَ فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ**» فاختر لنفسك أيها الإنسان واصخ إليّ يلح لك البرهان.

وصل في فصل ـ صفة القراءة فيهما: فمن العلماء من استحب الإسرار. ومنهم من استحبّ الجهر. ومنهم من خيّر. والذي أذهب إليه إذ لم يرد في ذلك نص نوقف عنده أن يسمع بالقراءة نفسه من جهة سمعه بحيث أن لا يسمع غيره قراءته وهي حالة بين الجهر والإسرار مناسبة لوقتها، فإن وقتها وقت برزخي بين الليل والنهار ما هو ليل فيجهر ولا هو نهار فيسرّ، ولولا أن النص في قراءة فرض الصبح ورد بالجهر لكان الحكم فيها كذلك، نعم صلاة المغرب جمعت بين الجهر لما فيها من الليل وبين الإسرار لما فيها من النهار فأشبهت في الوقت النائم، فإن النائم في موطن برزخي، فيكون النائم يرى في نومه صيحات وزعقات وأموراً عظاماً والذي إلى جانبه لا يعلم بما هو فيه هذا النائم، فمعاملة الوقت بهذه الصفة من القراءة أولى للمناسبة، وليفرق بمثل هذه الصفة في القراءة بينها وبين قراءة صلاة الصبح لتتميز

من الفريضة، ومن الحكمة تميز المراتب وارتفاع اللبس في الأشياء، ومع هذا فالذي عندي أنه مخيّر، والذي يقول بالجهر يلحقها بصلاة الليل لأن الليل ما لم تطلع الشمس في العرف لا في الشرع، والذي يسرّها يجعل طلوع الفجر من النهار المشروع للصائم الإمساك فيه ولم يعتبر ذلك في المغرب وسمّاه ليلاً لقوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧] والشرع أن يعتبر المعنى الواحد باعتبارين في وقتين أو من وجهين له ذلك، وقد قيل في تفسير قوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [سورة هود: الآية ٤٠] يريد ضوء الفجر وهو المعلوم من لسان العرب، فإذا فار التنور وظهر انبغى للعبد أن يكون في صلاة ركعتي الفجر كما قال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [سورة طه: الآية ١٠٨] وطلوع الفجر تجلّ رحمانيّ للمعاش كطلوع الليل للسكون، يقول تعالىٰ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [سورة القصص: الآية ٧٣] لما يتضمنه النهار غالباً من الحركات في المعاش، وقوام النفوس، ومصالح الخلق، وتنفيذ الأوامر، وإظهار الصنائع، وإقامة المصنوعات في نشأتها وتحسين هيأتها، فهو تجلّ إلهيّ رحماني بهذا العالم، فلهذا استحببنا الإسرار بحيث أن يسمع نفسه فلا تسمع إلاّ همساً أي صوتاً خفياً خشوعاً لله تعالىٰ وخضوعاً وأدباً مع الحق، وإنما شرع الجهر في الصبح عند هذا التجلّي لأنه مأمور أمر فرض واجب بالكلام من الله، فهو يتكلم عن أمر إلهيّ يعصي بتركه إذا قصده على حسب ما شرع له كما قال تعالىٰ في حق هذا الفرض عند هذا التجلّي الذي ذكرناه في مثل هذا اليوم: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [سورة النبأ: الآية ٣٨] فورد الإذن فتعين الجهر، والنافلة ليست لها هذه المرتبة في هذا التجلّي فلا تسمع في النافلة إلاّ همساً فحصل الفرق بين المأمور والمختار والله الهادي.

وصل في فصل ـ من جاء إلى المسجد ولم يركع ركعتي الفجر فوجد الصلاة تقام أو وجد الإمام يصلي: فمن الناس من جوّز ركوعهما في المسجد والإمام يصلي. ومن الناس من قال: لا يركعهما أصلاً في هذا الحال وبه أقول. ومن الناس من قال: لا يخلو إمّا أن يكون خارج المسجد أو داخل المسجد، فإن كان قد دخل المسجد فلا يركعهما، وإن كان لم يدخل بعد فاختلف أصحاب هذا القول في الذي يكون خارج المسجد وقد سمع الإقامة أو قد رأى الإمام يصلي والناس يصلون. فمنهم من قال: إن لم يخف أن يفوته الإمام بتلك الركعة فليركعهما وإن خاف فلا يركعهما ويدخل مع الإمام في الصلاة ويقضيهما بعد طلوع الشمس، وقال المخالف: يركعهما من هو خارج المسجد ما غلب على ظنه أنه مدرك ركعة واحدة مع الإمام من صلاة الصبح.

وصل الاعتبار في هذا الفصل: يبطل التيمم مع وجود الماء والقدرة على استعماله، ولا شك أنه كل ما زاد على الفرض فهو نافلة سواء وكّد أو لم يوكّد، فإن الفرض آكد منه بلا شك، والوقت للفرض بالإقامة الحاصلة فتأخرت النافلة إذ لا تتحقق الزيادة على الشيء إلاّ بعد حصول الشيء، فإن الزيادة تؤذن بوجود مزاد عليه متقدّم في الوجود وهو الفرض وهو

الأصل في التكليف وكذلك هو في نفس الأمر، فإن الفرض هو المشروع الذي يأثم تاركه، والنفل إنما يكون بعد ثبوته فإن كونه زائداً يبطل فإنه لما يكون زائداً وما ثبت أمر قبله يزيد عليه هذا فيصحّ عليه اسم الزائد ومراعاة الأصول أولى، فالدخول مع الإمام في الصلاة أو عند سماع الإقامة أولى من صلاة ركعتي الفجر، وقد غلّط في ذلك رسول الله ﷺ وأظهر الكراهة لمن فعل ذلك وقال لمن صلاّهما وصلاة الصبح تقام: «**أتصلّي الصُبْحَ أَرْبَعاً؟**» يكرّر عليه كارهاً منه ذلك الفعل، وهذا هو عين الدليل على جوازها مع الكراهة فإنه ﷺ ما أمره أن يقطعها ولا أن يخرج عنها، فلو فعل محظوراً ما أبقاه عليه، فثبت أنه عمل مشروع لا يبطله من شرع فيه فإن الله يقول: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٣٣] ولكن لا يعود إليه بعد علمه بأن الشرع يكرهه وإنما يكره له الشروع فيه.

وصل بل فصل ـ في وقت قضاء ركعتي الفجر: فمن قائل: يقضيها بعد صلاة الصبح وبه أقول: وقال قوم: يقضيها بعد طلوع الشمس، وأصحاب هذا القول اختلفوا، فمنهم من جعل لها هذا الوقت غير متسع. ومنهم من وسع فقال: يقضيها من لدن طلوع الشمس إلى وقت الزوال ولا يقضيها بعد الزوال، والقائلون بالقضاء: منهم من استحب ذلك، ومنهم من خيّر.

وصل الاعتبار في هذا الفصل: كل حق لله واجب أو مرغب فيه إذا فات وقته لم يقيده وقت فإن الشرع ما قيّده فليؤدّه قاضياً متى شاء ما لم يمت إلاّ أن يكون عن نسيان فهو مؤدّ وذلك وقته ولا يكون قاضياً قط في نوم ولا نسيان.

وصل في فصل ـ الاضطجاع بعد ركعتي الفجر: فذهب قوم إلى وجوبها وبه أقول للأمر الثابت عن رسول الله ﷺ، وذهب قوم إلى أنها سنّة، وذهب قوم أنه مستحب ولم يره قوم ولا شكّ ولا خفاء على كل من عرف شرع الله من المحدّثين لا من الفقهاء الذين يقلدون أهل الاجتهاد كفقهاء زماننا ولا علم لهم بالقرآن ولا بالسنّة، وإن حفظوا القرآن ورأوا فيه ما يخالف مذهب شيخهم لم يلتفتوا إليه ولا عملوا به ولا قرؤوا على جهة اقتباس العلم، واعتمدوا على مذهب إمامهم المخالف لهذه الآية والخبر ولا عذر لهم عند الله في ذلك، فأوّل من يتبرّأ منهم يوم القيامة إمامهم فإنهم لا يقدرون أن يثبتوا عنه أنه قال للناس: قلدوني واتبعوني فإن ذلك من خصائص الرسول ﷺ، فإن قالوا: فالله أمرنا باتباعهم، فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٧] وقد سألناهم فأفتونا قلنا لهم: إنما نسألهم لينقلوا إلينا حكم الله في الأمور لا رأيهم فإنه قال: ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ وهم أهل القرآن، فإن الذكر هو القرآن، فإذا وجدنا الحكم عند قراءتنا القرآن مخالفاً لفتواه تعين علينا الأخذ بكتاب الله أو بالحديث، وتركنا قول ذلك الإمام إلاّ أن ينقل إلينا ذلك الإمام الآية أو الخبر فيكون عملنا بالآية أو الخبر لا بقوله، فحينئذ ليس لنا أن نعارضه بآية أخرى ولا خبر لعدم معرفتنا باللسان وبما يقتضيه الحكم، فإن كان لنا علم بذلك فنحن وإياهم سواء.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يضطجع بعد ركعتي الفجر. وقد ثبت في

الصحيح من حديث أبي هريرة الأمر بالاضطجاع لكل من ركع ركعتي الفجر، فالذي أذهب إليه أن تارك الاضطجاع عاص، وأن الوجوب يتعلق به فليضطجع ولا بدّ ولو قضاه متى قضاه، وإن كانت الفاء تعطي التعقيب فإن بعض المتأخرين من المجتهدين الحفاظ من أهل الظاهر قال: إن صلاة الصبح لا تصحّ لمن ركع ركعتي الفجر ولم يضطجع فإن لم يركع ركعتي الفجر صحّت صلاة الصبح عنده.

وصل الاعتبار في هذا الفصل: الاضطجاع بعد ركعتي الفجر وقبل صلاة الصبح لأن الكراهة قد تعلقت بالمكلف، فإنه لا يصلي بعد طلوع الفجر إلاّ ركعتي الفجر، ثم يصلي الصبح، فقد أشبهت الفريضة فجاء الاضطجاع بينها وبين صلاة الصبح لتتميز السنّة من الفرض، وليقوم إلى الفرض من اضطجاع حتى يعلم أنه قد انفصل عن ركعتي الفجر، فإنه لو قام إلى الصبح بعد ركعتي الفجر لالتبست بالرباعية من الصلوات، ولهذا قال رسول الله ﷺ لمن صلاّها والمؤذن يقيم: «**أَتُصَلِّي الصُّبْحَ أَرْبَعاً؟**» فيستحب أن يفصل بينهما وبين الصبح بأمر يعرف الحاضر أنه قد انفصل عن صلاة الفجر، فشرع النبي ﷺ الاضطجاع فعلاً وأمراً ففعل وأمر، فلا حجة للمخالف عن التخلّف عن أمر رسول الله ﷺ بذلك ولا عن الاقتداء به والله يقول ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢١] فانظر منزلة من لم يقتد في نقيضها.

وصل في فصل ـ النافلة: هل تثنى أو تربع أو تثلث؟ فما زاد. فمن قائل: تثنى ولا بدّ أن يسلم في كل ركعتين ليلاً أو نهاراً. ومن قائل بالتخيير إن شاء ثنى وثلّث وربّع وسدّس وثمّن وما شاء. ومن قائل بالتفريق بين صلاة النهار فقال: يربّع إن شاء وصلاة الليل مثنى مثنى، والذي أقول به في غير الوتر هو مخيّر بين أن يسلم من اثنتين وهو أولى ولا سيما في صلاة الليل، ويربّع في صلاة النهار إن شاء ولا سيّما في الأربع قبل الظهر، وإن شاء سدّس وثمّن وما شاء من ذلك. وأمّا التثليث والتخميس والتسبيع من النوافل فذلك في صلاة الوتر فإنه ما جاء شرع بإفراد ركعة في غير الوتر، ولكن هو مخيّر إن شاء لم يسلم ويجلس في كل ركعتين إلى الثالثة والخامسة والسابعة وإن لم يجلس إلاّ في آخرها من الشفع ثم يقوم إلى الواحد، وإن شاء لم يجلس إلاّ في آخر الركعة الوترية ويؤخّر السلام في الأحوال كلها إلى الركعة الوترية.

وصل الاعتبار في هذا الفصل: لما كان الشروع فيها مبنياً على الاختيار كان الاختيار أيضاً في القدر من ذلك من غير توقيت، فإنه ما ورد من الشرع في ذلك منع، ولا أمر بالاقتصار على ما وقع في ذلك من فعله ﷺ واتباع السنّة أولى وأحق، وإن جوّزنا ذلك لمن وقع منه فنرجح الاتباع والاقتداء على الابتداع وإن كان خيراً فإن الفضل في الاتباع والاتباع أليق بالعبد وأحق بمرتبته من أن يبتدع من نفسه، فإن في الابتداع والتسنين ضرباً من السيادة والتقدّم، ولولا أنّ رسول الله ﷺ فرض له أن يسنّ ما سنّ وكان يقول ﷺ: «**اتْرُكُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ**» وكره المسائل وعابها، وما فرض على غيره أن يسنّ، ولو شغل الإنسان نفسه

باستعمال السنن والفرائض لاستغرق أوقاته ولم يتسع له أن يسنّ هيهات حجاب الإنسان برياسته عن سياسته، والذي اعتمد عليه من السنن المنطوق بها والثابتة من فعله ﷺ صلاة ركعتي الفجر وأربع ركعات في أوّل النهار وأربع ركعات قبل الظهر وأربع ركعات بعد الظهر وأربع ركعات قبل العصر وركعتين قبل المغرب وست ركعات بعد المغرب وثلاث عشرة ركعة بالليل منها الوتر وأربع ركعات بعد صلاة الجمعة، فما زاد على ذلك فهو خير على خير نور على نور، وإن صلّى ست ركعات بعد الظهر ليجمع بين فعله وبين ما حضّ عليه وهي الأربع كان أولى، وللناس في هذا مذاهب، وما ذكرت إلاّ ما اخترته ممّا جاء به النص أو الفعل، والحديث العام الصلاة خير موضوع والاستكثار من الخير حسن، ولكن الذي ذكرناه من حسنه وطول فيه في أفعال ذلك وتدبّر قراءتها وأذكارها أخذ من الزمان بقدر الذي يكثر الركوع بالتخفيف والذي ذهبنا إليه أولى، وعليه أدركت شيوخنا من أهل الله، وقد ورد في صلاة النبيّ ﷺ حين كان يقوم من الليل فيصلي ركعتين فياحسنهنّ وياطولهنّ، وكان ركوعه قريباً من قيامه، ورفعه من الركوع قريباً من ركوعه وسجوده كذلك، فكانت صلاته قريباً من السواء والأصل الركوع، فتكون أفعال الصلوات في الخفض والرفع من نسبة الركوع فيها في حال الوقت من الطول والقصر، ومن السنّة الركعة الأولى أطول من الثانية، وكل ما زاد قصر عن التي قبلها، وكذلك في الفرائض فاعلم ذلك. انتهى الجزء الخامس والأربعون.

(الجزء السادس والأربعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل في فصل ـ قيام شهر رمضان: ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**» فهو مرغب فيه وهو المسمّى التراويح والأشفاع لأن صلاته مثنى مثنى، واختلفوا في عدد ركعاتها التي يقوم بها الناس في رمضان ما المختار منها إذ لا نصّ في ذلك، فاختار بعضهم عشرين ركعة سوى الوتر، واستحسن بعضهم ستاً وثلاثين ركعة والوتر ثلاث ركعات وهو الأمر القديم الذي كان عليه الصدر الأوّل، والذي أقول به في ذلك أن لا توقيت فيه، فإن كان ولا بدّ من الاقتداء فالاقتداء برسول الله ﷺ في ذلك فإنه ثبت عنه ﷺ أنه ما زاد على ثلاث عشرة ركعة بالوتر شيئاً لا في رمضان ولا في غيره إلاّ أنه كان يطوّلهنّ ويحسنهنّ، فهذا هو الذي اختاره ليجمع بين قيام رمضان والاقتداء برسول الله ﷺ قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١].

وصل الاعتبار في هذا الفصل: رمضان اسم من أسماء الله تعالىٰ، فالقيام في هذا الشهر من أجل هذا الاسم لأنه إذا ورد وجب القيام له، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة المطففين: الآية ٦] ورمضان اسمه سبحانه فيقوم العارف إجلالاً لهذا الاسم الذي اختصّ به هذا الشهر الكريم هذا يحضر العارف في قيامه. ثم إن لهذا الشهر من نعوت الحق حكماً ليس لغيره وهو فرض الصوم على عباد الله وهو صفة صمدانية يتنزّه الإنسان فيها عن الطعام

والشراب والنكاح والغيبة، وهذه كلها نعوت إلهية يتصف بها العبد في حال صومه، فإذا جاء الليل قام العبد بين يدي الحق بصفاته التي كان عليها في نهاره وفرض له القيام في وقت الفطر ليعلم أنه عبد فقير متغذ ليس له ذلك التنزّه حقيقة، وإنما هو أمر عرض له لينبّهه على التخلّق بأوصاف الله من التنزيه عن حكم الطبيعة، ولهذا أخبرنا تعالىٰ في الحديث المرويّ عنه أن الصوم له وكل عمل ابن آدم لابن آدم يقول: إن التنزّه عن الطعام والشراب والنكاح لي لا لك يا عبدي لأني القائم بنفسي لا أفتقر في وجودي إلى حافظ يحفظه عليّ وأنت تفتقر في وجودك لحافظ يحفظه عليك وهو أنا، فجعلت لك الغذاء وأفقرتك إليه لينبهك أني أنا الحافظ عليك وجودك ليصحّ عندك افتقارك، ومع هذا الافتقار طغيت وتجبرت وتكبرت وتعاظمت في نفسك وقلت لمن هو مثلك: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [سورة النازعات: الآية ٢٤] و﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [سورة القصص: الآية ٣٨] وأنا وأنا وأنا، وما استحييت في ذلك من فضيحتك بجوعك وعطشك وبولك وخراءتك وتألمك بالحرّ والبرد والآلام العارضة. يا ابن آدم رهصتك ثلاث رهصات: الفقر والمرض والموت ومع ذلك إنك وثاب، فقيام رمضان قيام في الله، فمن كان الحق ظرفاً له فإن الله بكل شيء محيط، فهذا معنى الظرفية فليس له خروج عنه، فإحاطته بك في رمضان إحاطة تشريف وتنزيه حيث شرع لك فرضاً في عبوديتك الاضطرارية للاتصاف بما ينبغي له لا لك، وهو التنزّه عن الغذاء وملابسة النساء طول النهار وهو النصف من عمر وجودك، ثم تستقبل الليل فتخرج من ربوبيتك المنزّهة عن الغذاء والنكاح إلى عبوديتك بالفطر والكل رمضان، فأنت في رمضان كما أنت في الصلاة من قوله: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي بنصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي، كذلك رمضان قسّمه بينه وبين عبده بنصفين: نصف له وهو قوله: الصوم لي وهو زمان النهار، والنصف للعبد وهو الليل زمان فطره. وقد قال في الصلاة: إنها نور. وقال في الصوم إنه ضياء والضياء هو النور، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ﴾ [سورة يونس: الآية ٥] وقال: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ [سورة نوح: الآية ١٦] وشرع القيام في ليل رمضان ورغب فيه للمناسبة التي بين الصلاة والصوم في القسمة والنور ليكون ليله بصلاته مثل نهاره بصومه، فبالنهار يتّحد به وبالليل يتوحّد له كما قلنا: [مجزوء الوافر]

إذا صحّت عزائمنا ففي الأسرار نتّحِدُ

والعزيمة النية والنية شرط في الصوم من الليل فنحن في الصوم مع الحق كما قالت بلقيس في عرشها: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٢] وهو كان هو وإنما جهلها أدخل كاف التشبيه كذلك جهل الإنسان يقول: أنا الصائم، وكيف ينبغي للمتغذي أن يكون صائماً؟ هيهات، قال الله: الصوم لي لا لك، فأزال عنه دعوى الصوم كما أزال عن بلقيس تشبيه العرش بعرشها، فعلمت بعد ذلك أنه هو لا غيره، فهذا معنى قولنا: إذا صحّت عزائمنا ففي الأسرار نتّحد. فإن قلت: الصائم هو الإنسان صدقت. وإن قلت: الصوم لله لا للإنسان صدقت. ولا معنى للاتحاد إلاّ صحة النسبة لكل واحد من المتحدين مع تميُّز كل واحد عن

الآخر في عين الاتحاد فهو هو وما هو هو، كما قلنا في بعض ما نظمناه في هذا المعنى في حال غلب عليّ: [مجزوء الرجز]

لستَ أنا ولستُ هُوْ فمن أنا ومَنْ هُو هُوْ
فيا هُو قلْ أنت أنا ويا أنا هُو أنت هُوْ
لا وأنا ما هُوْ أنا ولا هُو ما هُو هُوْ
لو كان هُوْ ما نظَرَتْ أبصارنا بهِ لَهُ
ما في الوجودِ غيرُنا أنا وهُوْ وهُوْ
فمن لنا بنا لنا كما له به لهُ

ولما رأينا فيما روينا أن الله أنزل لقاءه منزلة فطر الصائم فقال: للصائم فرحتان: فرحة عند فطره لأنه غذاء طبيعته وهو الغذاء الحجابيّ إذ المغذي هو الله تعالىٰ، وفرحة عند لقاء ربّه وهو غذاؤه الحقيقيّ الذي به بقاؤه، فجعل هاتين الفرحتين للصائم في الحجاب وفي رفع الحجاب، فنظمنا في شرف الرغيف إذ هو الغذاء المعتاد عندنا، وله الشكل الكري وهو أفضل الأشكال، فخصصنا الرغيف بالذكر دون غيره من الأمور التي يكون بها الغذاء، فقلنا فيما سخّر الله في حقّه من العالم وطلب الهمم كلها جهته لتصل إليه، فإن كل حيوان يطلب غذاءه بلا شك بل كل موجود حتى ما لا يقال فقلنا: [الوافر]

إذا عاينتَ ذا سيْر حثيثٍ فذاك السيرُ في طَلَب الرغيفِ
لأن الله صيَّره حجاباً على اسمَيْهِ المُهَيْمنِ واللطيفِ
به وله تجاراتُ الذراري وأرواحُ اللطائفِ والكثيفِ
وتسخيرُ العناصر والبرايا وتكوينُ المعادن في الكهوفِ
وتَسْييرُ المثقَّفَة الجواري بمَوْج البحر والريح العَسيفِ
وقَطْعُ مَهَامِهِ فِيحٍ تَبَارَى بها الأنعامُ بالسَّيْر العنيفِ
فمن شرف الرغيف يمينُ ربي عليه للوضيع وللشريفِ
يضجُّ الخلقُ إن عَدِموه وقتاً عن أذنِ الواحد البَرِّ الرَّؤوفِ
له صلُّوا وصاموا واستباحوا دمَ الكفارِ والبرِّ العَفيفِ
له تسعى الطيورُ مع المواشي له يسعى القويُّ مع الضعيفِ
فمنْ ساعٍ له من غير شكّ وللسَّبب الثقيلِ أو الخفيفِ
هو المعنى ونحن إذا نظرنا به عند التفكُّر كالحروفِ
هو الجودُ الذي ما فيه شكٌّ فيا شوقي لذا الجودِ الظريفِ
فديتُكَ من رغيف فيه سرٌّ جليٌّ بالتَّليد وبالطريفِ
فقل للمُنكرين صحيحَ قولي لقد غبْتُمُ عن المعنى الطَّريفِ
أليس الله صيَّره عديلاً لرؤيته على رغم الأنوفِ

فالصفة التي يقوم بها المصلي في صلاته في رمضان أشرف الصفات لشرف الاسم

لشرف الزمان، فأقام الحق قيامه بالليل مقام صيامه بالنهار إلاَّ في الفرضية رحمة بعبده وتخفيفاً، ولهذا امتنع رسول الله ﷺ أن يقومه بأصحابه لئلا يفترض عليهم فلا يطيقونه، ولو فرض عليهم لم يثابروا عليه هذه المثابرة ولا استعدّوا له هذا الاستعداد، ثم الذين ثابروا عليه في العامّة يؤدّونه أشأم أداء وأنقصه، لا يذكرون الله فيه إلاَّ قليلاً، لا يتمّون ركوعه ولا سجوده ولا يرتلون قراءته، وما سنّه من سنّه أعني من الاجتماع على قارىء واحد على ما هم الناس اليوم عليه من المتميزين من الخطباء والفقهاء وأئمة المساجد، وفي مثل صلاتهم فيه: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلرَّجُلِ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**» فمن عزم على قيام رمضان المسنون قيامه المرغب فيه فليقم كما شرع الشارع الصلاة من الطمأنينة والخشوع والوقار وتدبّر ما يتلى وإلاَّ تركه أولى، والقيام فيه أوّل الليل كما قام رسول الله ﷺ فيه في الليلتين أو الثلاثة منه أولى، ويكون في المسجد أولى منه في البيت بخلاف سائر النوافل، وإنما تركه رسول الله ﷺ ودخل بيته وصلّى فيه رحمة بأمته أن يفترض عليهم فيعجزوا عنه أو يتكاسلوا وهو كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٧] وقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨] والصلاة فيه مثنى مثنى كما ورد في الخبر في صلاة الليل أنها مثنى مثنى.

وصل في فصل ـ صلاة الكسوف: وإنها سنّة بالاتفاق، وإنها في جماعة. واختلفوا في صفتها والقراءة فيها والأوقات التي تجوز فيها، وهل من شرطها الخطبة أم لا؟ وهل كسوف القمر في ذلك مثل كسوف الشمس؟ الخلاف في صفتها وردت فيها روايات مختلفة عن رسول الله ﷺ ما بين ثابت وغير ثابت، وما من رواية إلاَّ وبها قائل، فأيّ شخص صلاّها على أيّ رواية كانت جاز له ذلك فإنه مخيّر في عشر ركعات في ركعتين، وبين ثمان ركعات في ركعتين، وبين ست ركعات في ركعتين، وبين أربع ركعات في ركعتين، وإن شاء صلّى ركعتين ركعتين على العادة في النوافل حتى تنجلي الشمس، وإن شاء دعا الله تعالىٰ بتضرّع وخشوع حتى تنجلي، فإذا انجلت صلّى ركعتين شكراً لله تعالىٰ وانصرف، والعمل على هذه الرواية أحب إليّ لما فيها من إحترام الجناب الإلهي والرحمة بالأمة المصلين لها، فإنهم لاستيلاء الغفلات والبطالة عليهم لا يفون بشروط ما تستحقه الصلاة من الحضور والآداب، فربما يمقت المصلي ولا يشعر أو تثقل عليه تلك العبارة فيتبرم منها فلذلك جعلنا رواية الدعاء من غير صلاة أولى فإنه في حقّهم أحوط، وكان العلاء بن زياد يصلي لها فإذا رفع رأسه من الركوع نظر إليها، فإن كانت انجلت سجد، وإن لم تكن انجلت مضى في قيامه إلى أن يركع ثانياً فإذا رفع رأسه من الركوع نظر إلى الشمس فإن انجلت سجد وإلاَّ مضى في قيامه حتى يركع هكذا حتى تنجلي.

وصل الاعتبار: الكسوف آية من آيات الله يخوّف الله به عباده، فإذا وقع فالسنّة أن يفزع الناس إلى الصلاة كسائر الآيات المخوفات مثل الزلازل وشدّة الظلمة واشتداد الريح على غير المعتاد، سُئِل رسول الله ﷺ عن الكسوف فقال: «**إِذَا تَجَلَّى اللَّهُ لِشَيْءٍ خَشَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ**»

والحديث غير ثابت من طريق الرواية صحيح المعنى، وعندنا أن التجلي لا زال دائماً وإنما جهل الناس به أدّاهم إلى أن يقولوا أو يقال لهم مثل هذا لعدم علمهم، فخرق العادة إنما هو في أن يعلم خاصة كما كان خرق العادة في إسماع السامعين تسبيح الحصى، وما زال الحصى مسبحاً، ولا شك أن النفوس ما تنبعث وتهتز إلاّ للآيات الخارقة للعادة، والآيات الإلهية منها معتاد وغير معتاد، والقرآن قد ورد في الآيات المعتادة كثير في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ . . . ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [سورة الروم: الآية ٢٠ وغيرها] ويذكر أموراً معتادة ثم يقول: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ [سورة الروم: الآية ٢١] ولكن لا ترفع العامّة بها رأساً لجري العادة واستيلاء الغفلة وعدم الحضور.

وسبب كسوف الشمس والقمر معروف، والذي لا يعرف كونه عن تجلّ إلهي إلاّ من جهة الرسول ﷺ أو عارف صاحب كشف، وقد جعل الله الكسوف آية على ما يريد أن يحدثه من الكوائن في العالم العنصري وفي العالم الذي يظهر فيه الكسوف وفي الزمان فإنه قد يكسف ليلاً فلا أثر له عندنا، ويكون الحدث أيضاً بحسب البرج الذي يقع الكسوف فيه وهو علم قطعي أعني علم وقوع الكسوف لا علم ما يحدث الله فيه أو عنده، ويكون الكسوف في مكان أكثر منه في مكان آخر، وفي مكان دون مكان، ويبتدىء في مكان وفي مكان آخر ما ابتدأ بل هو على حاله، وهذا كله يعرفه العلماء به، فإنه راجع إلى حركات معلومة معدودة عند أهل هذا الشأن، وسبب كسوف الشمس من القمر إذا كان في مسامتتها فعلى قدر ما يسامتها منه يغيب منها عن أبصارنا، فذلك الظل الذي نراه في الشمس هو من جرم القمر وقد يحجبها كلها فيظلم الجو فيقع الإبصار على جرم القمر فتتخيل العامّة أنّ ذلك المرئي هو ذات الشمس، والشمس نيرة في ذاتها على عادتها إلى أن يشاء الله تكويرها، ولذلك يعرف زمان كسوفها ومقداره عند العارفين بتسيير الكواكب، ولا يكون أبداً إلاّ في آخر الشهر العربي، فإنّ القمر في ذلك الزمان يكون في المحاق والاحتراق تحت الشعاع، فإن أعطى الحساب ما يؤدّي إلى المسامتة عندنا وقع الكسوف بلا شك.

وكذلك كسوف القمر إنما هو أن يحول ظل الأرض بينه وبين الشمس، فعلى قدر ما يحول بينهما يكون الكسوف في ذلك الموضع ولهذا يعرف، والخطأ فيه قليل جداً، ولو لم يكن الأمر على هذا ما علم، فإن الأمور العوارض لا تعلم إلاّ بإعلام الله على لسان من شاء من عباده، وعندنا هي عوارض لا في نفس ما رتب الله في ذلك عندما أوحى في كل سماء أمرها، والأمور الجارية على أصولها ثابتة لا تنخرم يعلمها العلوم بتلك الأصول، وهي معتادة موضوعة لله تعالىٰ واضعها ما هي عقلية ولا رسب ذلك طبيعي ولهذا يجوز خرق العادة فيها، وهكذا كل موضوع إلى أن يخرم الله ذلك الأصل، فللّه المشيئة في ذلك وله الأمر من قبل ومن بعد. ولذلك لا يقال في حكم المنجم أنه علم لأنّ الأصول التي يبني عليها إنما هي عن وضع إلٰهيّ وترتيب عالم حكيم استمرت به العادة ما ذاك لذواتها وما كان بالوضع قد يمكن زواله، فإنّ الواضع له قد يضعه إلى أجل مخصوص معين ما عندنا علم به، فما من زمان

نقدره إلاّ ويجوز تغيير ما وضع فيه من الأمور، فإن لم يكن فبإرادة الواضع لا بنفسه. وما كان بهذه المثابة لا يكون القائل بوقوعه على علم قطعي، ولو وقع فإنه لا يعرف ما في نفس الواضع إلاّ بجهتين: إما أن يكون هو المعرف بما في نفسه وهو الصادق، وإما بعد ظهور الشيء فيعلم أنه لولا ما كان في نفس الواضع ما وقع والواضع هو الله تعالىٰ وجلّ.

فالعالم المؤمن يقول في مثل هذا إن أبقى الله الترتيب على حاله وسيّره في المنازل على قدره ولم يخرق العادة فيه فلا بدّ أن يقع هذا الأمر الذي ذكرناه، فلهذا ينفي العلم عن المنجم وكل ما هو مثله من حظ الرسل وغيره فضوء القمر لما كان مستفاداً من الشمس أشبه النفس في الأخذ عن الله نور الإيمان والكشف، وإذا كملت النفس وصحّ لها التجلّي على التقابل وهي ليلة البدر ربما التفتت إلى طبيعتها فظهرت فيها ظلمة طبيعتها فحالت تلك الظلمة بينها وبين نورها العقليّ الإيمانيّ الإلهيّ كما حال ظلّ الأرض بين القمر الذي هو بمنزلة النفس وبين نور الشمس، فعلى قدر ما نظرت إلى طبيعتها انحجبت عن نور الإيمان الإلهيّ فذلك كسوفها فهذا كسوف القمر.

وأمّا كسوف الشمس فهو كسوف العقل فإن الله خلقه ليعقل عن الله ما يأخذ عنه فحالت النفس التي هي بمنزلة القمر بينه وبين الحق تعالىٰ من حيث ما يأخذ عنه من اسمه النور سبحانه من كون نسبته إلى الأرض من قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٤] فيريد العقل أن يأخذ عن الحق من علم ما يوجده في الأرض فتحول النفس بينه وبين علم ما يوجده في الأرض بشهواتها حتى لا ينظر إليه سبحانه فيما يحدثه فيها، والأرض عبارة عن عالم الجسم فيحجب العقل لحجاب النفس الحيوانية الشهوانية فذلك بمنزلة كسوف الشمس فلا تدركها أبصار الناظرين ممّن هو في تلك الموازنة، ويفوت العقل من العلم بالله بقدر ما انحجب عنه من عالم الأجسام، فلهذا شرع الله التوجّه إلى مناجاته المعبر عن ذلك بصلاة الكسوف، وشرع الدعاء لرفع ذلك الحجاب، فإن الحجاب جهل وبعد في الحال الذي ينبغي له الكمال، ولهذا لم يكن الكسوف إلاّ عند الكمال في النيرين في القمر بدره وهو كماله في الأخذ من الوجه الذي يلينا، وكسوف الشمس في ثمانية وعشرين يوماً من سير القمر في جميع منازل الفلك، فلما وصل إلى نهايته وأراد أن يقابل الشمس من الوجه الآخر حتى يأخذ عنها على الكمال في عالم الأرواح مثل أخذه في الرابع عشر في عالم الأجسام النازل ليفيض من نوره على أبصار الناظرين إنعاماً منه، فاشتغلت الشمس بإعطائها النور للقمر في عالم الأرواح العالم العلوي إسعافاً لطلبته وإكراماً لقدومه عليها في حضرتها كان الكسوف لهذا الإسعاف.

ولهذا لا يكون للكسوفات حكم في الأرض إلاّ في الأماكن التي يظهر فيها الكسوف، وأما الأماكن التي لا يظهر فيها الكسوف فلا حكم يظهر فيها له ولا أثر أي ما يفعل الله عند ذلك شيئاً في العالم من الكوائن التي يفعلها عند ظهور الكسوف إذ لا فاعل إلاّ الله، فإن الأمور بتقدير العزيز العليم صنعة حكيم، حتى أن الشمس إذا أعطى الحساب أنها تكسف ليلاً

لم يكن لذلك الكسوف حكم في ظاهر الأرض التي لم يظهر الكسوف فيها، وكذلك كسوف القمر في الحكم فكذلك ظاهر الإنسان وباطنه، فقد يقع الكسوف في الأعمال أي في العلم الذي يطلب العمل بالأحكام المشروعة، وقد يقع في العلوم التي تتعلق بالباطن ولا حكم لها في الظاهر فتؤثر في موضع تعلقها إما في علم العمل وإما في العلم الذي لا يطلب العمل بحسب ما يقع، فيتعين على من تكون حالته مثل هذه أن يتضرّع إلى الله، فإن أخطأ المجتهد فهو بمنزلة الكسوف الذي يكون في غيبة المكسوف فلا وزر عليه وهو مأجور، وإن ظهر له النص وتركه لرأيه أو لقياسه الجليّ في زعمه فلا عذر له عند الله وهو مأثوم وهو الكسوف الظاهر الذي يكون له الأثر المقرّر عند علماء الأحكام بسير الكواكب، وأكثر ما يكون هذا في الفقهاء المقلدين الذين قالوا لهم: لا تقلدونا واتبعوا الحديث إذا وصل إليكم المعارض لما حكمنا به، فإنّ الحديث مذهبنا وإن كنّا لا نحكم بشيء إلاّ بدليل يظهر لنا في نظرنا أنه دليل وما يلزمنا غير ذلك، لكن ما يلزمكم اتباعنا ولكن يلزمكم سؤالنا.

وفي كل وقت في النازلة الواحدة قد يتغير الحكم عند المجتهد ولهذا كان يقول مالك إذا سُئل في نازلة: هل وقعت؟ فإن قيل: لا، يقول: لا أفتي، وإن قيل: نعم أفتى في ذلك الوقت بما أعطاه دليله، فأبت المقلدة من الفقهاء في زماننا أن توفي حقيقة تقليدها لإمامها باتباعها الحديث الذي أمرها به إمامها وقلّدته في الحكم مع وجود المعارض فعصت الله في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [سورة الحشر: الآية ٧] وعصت الرسول في قوله: فاتبعوني فإنه ما قالها إلاّ عن أمر ربه سبحانه، وعصت إمامها في قوله: «خذوا بالحديث إذا بلغكم واضربوا بكلامي الحائط» فهؤلاء في كسوف دائم مسرمد عليهم إلى يوم القيامة، فلا هم مع الله ولا مع رسوله ﷺ ولا مع إمامهم، فهم في ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [سورة التوبة: الآية ١] وإمامهم فلا حجة لهم عند الله، فانظروا مع من يحشر هؤلاء؟ فالصلاة المشروعة في الكسوف إنما هي لمناجاة الحق في رفع ظلمة النفس وظلمة الطبع كما يقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهم أهل الأنوار ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ مثل أهل ظلمة الطبع ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [سورة الفاتحة: ٦ ـ ٧] مثل أهل ظلمة النفس. فالله يحوّل بيننا وبين ما يكسف عقولنا ونفوسنا ويجعلنا أنواراً كلنا لنا ولمن يقتدي بنا إنه المليء بذلك والقادر عليه.

وأمّا اعتبار عدد الركعات في الركعتين فاعلم أن الركعتين ظاهر الإنسان وباطنه أو عقله وطبعه أو معناه وحرفه أو غيبه وشهادته، وأما العشرة فهو تنزيهه في الركعتين خالقه تعالىٰ وجلّ عن القبل والبعد والكل والبعض والفوق والتحت واليمين والشمال والخلف والأمام فيرجع هذا التنزيه من الله عليه فإنه عمل من أعماله، فتكون له برجوع هذا العمل عليه هذه الأحكام كلها فلا قبل له فإنه لم يكن إلاّ الله، والله لا يتصف بالقبلية ولا بعد له فإنه باق بإبقاء الله فلا يبعد ولا كل له فإنه لا يتجزأ ولا يتحير من حيث لطيفته، ومن لا كل له من ذاته فلا بعض له، ومن لا يتصف بهذه الصفات فلا جهات له، فلا جهات للإنسان إلاّ من حيث صورة جسمه ونشأته، فإن نشأته الجسدية بها ظهرت الجهات الستة فهو عين الجهات ما هو في جهة من نفسه.

وأما اعتبار الثمانية في اثنتين فالثمانية الذات والصفات فتغيب الذات الكونية وصفاتها في الذات الأحدية وتندرج أنوار صفاتها في صفاتها وهو قوله تعالىٰ: كنت سمعه وبصره وذكر جوارحه فلا تقع عين إلاّ عليه ظاهراً وباطناً من عرف نفسه عرف ربه، فهكذا هو الأمر في الباطن، وأما في الظاهر فما تقع العين إلاّ على العبد، والحق مدرج في هذا الحق بضم الحاء الكياني ما هو كاندراج العرض في المحل ولا كالمظروف في الظرف.

وأما اعتبار الست في اثنتين فهو قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥] وقوله: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ [سورة البروج: الآية ٢٠] وأمّا اعتبار الأربعة في الثنتين فهو قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧] وعلى كل طريق يأتي إليه منها ملك مقدس بيده السيف صلتاً، فإن كان المؤتى إليه من العارفين لم يكن له ملك يحفظه بل هو إكسير وقفه من أي ناحية جاءه قبل منه وقلب جسده ذهباً إبريزاً فيعود الآتي من الخاسرين.

وصل في فصل ـ في القراءة فيها: اختلف العلماء في القراءة فيها أعني في السر والجهر بها. فمن قائل: يقرأ فيها سراً. ومن قائل: يقرأ فيها جهراً.

اعتبار هذا الفصل: إن كان كسوفه نفسياً أسرّ في مناجاته وذكر الله في نفسه، وإن كان كسوفه في عقله جهر في قراءته وهو بحثه عن الأدلة الواضحة، وفيها الظاهرة الدلالة القريبة المأخذ التي يشركه فيها العقلاء من حيث ما هم أهل فكر ونظر واستدلال، والآخرون أهل كشف وتجلّ ينتجه الهمم إلى الرياضات وهي تهذيب الأخلاق والخلوات والمجاهدات وتطويل المناجاة والتضرّع إلى الله تعالىٰ فيها مشروع، وهو اعتبار طول القراءة في صلاة الكسوف، فإنه روي أنه كان يقوم فيها بقدر سورة البقرة، والقيام الثاني ربما يكون على النصف، والقيام الثالث على النصف من الثاني، وهكذا في القيام الرابع والخامس، وسبب ذلك أن عالم الأرواح ما يتعبهم القيام ولا يدركهم ملل لأن النشأة نورية خارجة عن حكم الأركان، وأما نشأة تقوم من العناصر تؤول إلى الاستحالات العبدية والقريبة فيعبر عن ذلك بالنصب والتعب، وكلما نزل فيها من معدن إلى نبات إلى حيوان إلى إنسان كان التعب أقوى في آخر الدرجات وهو الإنسان والنصب أعم فإنه سريع التغيّر فإن له الوهم، ولا شك أن الأوهام تلعب بالعقول كتلاعب الأفعال بالأسماء.

وصل في فصل ـ الوقت الذي تصلى فيه: اختلف العلماء في الوقت الذي تصلى فيه صلاة الكسوف، فمن قائل: تصلّى في جميع الأوقات المنهيّ عن الصلاة فيها وغير المنهيّ. ومن قائل: لا تصلّى في الأوقات المنهي عن الصلاة فيها. ومن قائل: تصلّى في الوقت الذي تصلّى فيه النافلة. ومن قائل: تصلّى من الضحى إلى الزوال لا غير.

وصل الاعتبار: كما لا يتعين للكسوف وقت لا يتعين للصلاة له لأن الصلاة تابعة للأحوال، وقد ثبت الأمر بالصلاة لها وما خصّ وقتاً من وقت وهي صلاة مأمور بها بخلاف

النافلة فإنها غير مأمور بها، فإن حملنا الصلاة على الدعاء دعونا في الوقت المنهي عن الصلاة فيه وصلّينا في غيره من الأوقات وبه أقول.

وصل في فصل ـ الخطبة فيها: اختلف علماء الشريعة في ذلك، فمن قائل: إن الخطبة من شرطها. ومن قائل: ليس في صلاة الكسوف خطبة، والذي أذهب إليه أنه يستحب للإمام أن يخطب بالناس ليذكرهم ويحذرهم، فإن الكسوف من الآيات التي يخوف الله بها عباده.

وصل الاعتبار في هذا الفصل: الخطبة موعظة وذكرى والآية منبهة وذكرى، والكسوف آية تخويف فوقعت المناسبة فترجح جانب من يقول باشتراط الخطبة، وقد ثبت أن النبيّ ﷺ في ذلك اليوم ذكر الناس بعد الفراغ من الصلاة.

وصل في فصل ـ كسوف القمر: فمن قائل: يصلّى لكسوف القمر في جماعة كصلاة كسوف الشمس. ومن قائل: لا يصلّى له في جماعة، واستحبّ صاحب هذا القول أن يصلى له أفذاذ ركعتين ركعتين كسائر النوافل، والذي أذهب إليه الصلاة في الجماعة أولى إن قدر عليها.

اعتبار هذا الفصل: لما كان كسوف الشمس سببه القمر كان كسوف القمر كالعقوبة له لكسوفه الشمس فتضمن كسوف القمر آيتين فكانت الصلاة له في الجماعة أولى، فإن شفاعة الجماعة لها حرمة أكثر من حرمة الواحد، فالجمع لها ينبغي أن يكون آكد من الجمع بكسوف الشمس وكسوف القمر نفسيّ كما قدمنا، والنفس أبداً هي المزاحمة للربوبية بخلاف العقل فكان ذنبها أعظم وحالها أخطر، فاجتماع الشفعاء عند الشفاعة أولى من إتيانهم أفذاذاً، ومن اعتبر في الكسوفات الخشوع كما ورد في الحديث الذي تقدّم كان منبهاً على الخشوع للمصلي فإن الله يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١، ٢]. وقال: ﴿وَإِنَّهَا﴾ يعني الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٥] وخشوع كل خاشع على قدر علمه بربه، وعلمه بربه على قدر تجليه له.

وصل في فصل ـ صلاة الاستسقاء: فمن قائل: بصلاة الاستسقاء. ومن قائل: لا صلاة فيه، والحجة لمن قال بالصلاة أنه من لم يذكر شيئاً فليس بحجة على من ذكر، وقد ثبت أنه ﷺ خرج بالناس يستسقي فصلّى بهم ركعتين جهر فيهما بالقراءة وحوّل رداءه ورفع يديه واستسقى واستقبل القبلة، والعلماء مجمعون على أن الخروج إلى الاستسقاء والبروز عن المصر والدعاء والتضرّع إلى الله تعالىٰ في نزول المطر سنّة سنّها رسول الله ﷺ، واختلفوا في الصلاة في الاستسقاء كما ذكرنا، والذي أقول به أن الصلاة ليست من شرط صحة الاستسقاء، والقائلون بأن الصلاة من سنته يقولون أيضاً أن الخطبة من سنته، وقد ثبت أنه ﷺ صلّى فيه وخطب، واختلف القائلون بالخطبة هل هي قبل الصلاة أو بعدها؟ فاتفق القائلون بالصلاة أن قراءتها جهر، واختلفوا هل يكبر فيها مثل تكبير العيدين أو مثل تكبير سائر الصلوات؟ ومن السنّة في الاستسقاء استقبال القبلة واقفاً والدعاء ورفع اليدين وتحويل الرداء باتفاق، واختلفوا في كيفية تحويل الرداء فقال قوم: يجعل الأعلى أسفل والأسفل أعلى. وقال قوم: يجعل اليمين على الشمال والشمال على اليمين، والذي أقول به أن يجمع بين الثلاث الكيفيات

الأعلى أسفل، واليمين على الشمال، والباطن ظاهراً، واختلفوا متى يحوّل ثوبه فقال قوم: عند الفراغ من الخطبة. وقال قوم: إذا مضى صدر من الخطبة، والذي أذهب إليه أن وقت التحويل وقت الدعاء فإنه سؤال بالحال في تحويل الحالة. واختلفوا في وقت الخروج إليه فقيل: في وقت صلاة العيدين. وقيل: عند الزوال. وروى أبو داود: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَىٰ الاسْتِسْقَاءِ حِينَ بَدَا حَاجِبُ الشَّمْسِ**».

وصل ـ الاعتبارات في جميع ما ذكرناه: اعتبار الاستسقاء: الاستسقاء طلب السقيا، وقد يكون طالب السقيا لنفسه أو لغيره أو لهما بحسب ما تعطيه قرائن الأحوال، فأما أهل الله المختصون به الذين شغلهم به عنهم وعرّفهم بأنهم إن قاموا فهم معه وهو معهم، وإن رحلهم رحلوا به إليه، فلا يبالون في أي منزل أنزلهم، إذا كان الحق مشهودهم في كل حال، فإن عاشوا في الدنيا فبه عيشهم، وإن انقلبوا إلى الأخرى فإليه انقلابهم، فلا أثر لفقد الأسباب عندهم ولا لوجودها، فهؤلاء لا يستسقون في حق نفوسهم، إذ علموا أن الحياة تلزمهم لأنها أشد افتقاراً إليهم منهم إليها، وفائدة الاستسقاء إبقاء الحياة الدنيا، فاستسقاء العلماء بالله في الزيادة من العلم بالله كما قال الله لنبيه ﷺ حين أمره: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية١١٤] هذا الدعاء هو عين الاستسقاء، فإذا استسقى النبيّ ﷺ ربه في إنزال المطر والعلماء بالله لم يستسقوه في حق نفوسهم وإنما استسقوه في حق غيرهم ممّن لا يعرف الله معرفتهم تخلّقاً بصفته تعالىٰ حيث يقول كما ورد في الحديث الصحيح: «**قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: اسْتَسْقَيْتُكَ عَبْدِي فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: وَكَيفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ فُلانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ**» فهذا الرب قد استسقى عبده في حق عبده لا في حق نفسه، فإنه يتعالى عن الحاجات، كذلك استسقاء النبيّ والعلماء بالله إنما يقع منهم لحق الغير، فهم ألسنة أولئك المحجوبين بالحياة الدنيا عن لزوم الحياة لهم حيث كانوا تخلقاً بالاستسقاء الإلهيّ، إذ الفقير المحقق من لا يقوم به حاجة معينة فتملكه لعلمه بأنه عين الحاجة فلا تقيده حاجة فإن حاجة العالم إلى الله مطلقة من غير تقييد، كما أن غناه سبحانه عن العالم مطلق من غير تقييد من حيث ذاته، فهم يقابلون ذاتاً بذات، وينسبون إلى كل ذات ما تعطيها حقيقتها.

وما أحسن ما شرع في الأذان والإقامة في قوله: حيّ على الصلاة ولم يقل إلى الصلاة فيقيده بالغاية، ومن كان معك فلا يكون غايتك ولا تقل حيّ كلمة إقبال، ولا يطلب الإقبال إلاّ من معرض وكل معرض فاقد، قلنا نعم لما كان العبد متحققاً بالله كان هو الناظر والمنظور والشاهد والمشهود وغاب عين العبد ولم يبق إلاّ الرب، وأراد الحق سبحانه أن يشهد العبد عين عبوديته ليعرفه بما أنعم عليه به ممّا لم يعط ذلك لغيره من العبيد ولا يعرف ذلك حتى يردّ لنفسه ومشاهدة عينه مقارنة لمشاهدة ربه، ولم يجعل ذلك في شيء من عباداته إلاّ في الصلاة فقال: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، فلا بدّ للمصلي من أجل قسمه من الصلاة أن يقوم فيه، إذ لا يتيق ذلك لقسم الذي للعبد من الصلاة أن يكون لله فقال له: حيّ على الصلاة أي أقبل على الصلاة من أجل القسم الذي يخصك منها، فإعراضه إنما كان عن نفسه لا عن ربه،

لأن العلم بالله أعطاه ذلك فقال له: أقبل على صلاتك لتشهدني وتشهد نفسك فتعرف ما لي وما لك فتتصف بالحكمة وفصل الخطاب وترى ما أنت فيه، فلم يأت بإلى فإنها أداة تؤذن بالفقد والأمر في نفسه ليس كذلك، فإذا كان الحق يستسقي عبده فالعبد أولى، وإذا كان الحق ينوب عن عبده في استسقاء عبده يسقي عبده فالعبد أولى أن يستسقي ربه ليسقي عبده، وهو أولى بالنيابة عن مثله من الحق عنه إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١].

فمن الأدب مع الله الاستسقاء في حق الغير فإن أصحاب الأحوال محجوبون بالحال عن العلم الصحيح، فصاحب الحال إذا لم يكن محفوظاً عليه أدبه لم يؤاخذ بسوء الأدب إذ كان لسانه لسان الحال، وصاحب العلم مؤاخذ بأدنى شيء لأنه ظاهر في العالم بصورة الحق، وكم بين من يظهر في وجوده بربه وبين من يظهر بحاله شتان بين المقامين، ويا بعد ما بين المنزلتين شاهد العلم عدل وشاهد الحال فقير إلى من يزكيه في حاله ولا يزكيه إلاّ صاحب العلم. ولما كان العلم بهذه العزّة شرعت التزكية في حكم الشرع بغلبة الظنّ فيقول: أحسبه كذا وأظنه كذا لأنه لا يعلم كل أحد ما منزلة ذلك المزكى عند الله فلا يزكي على الله أحداً، وإذا افتقر صاحب الحال إلى التزكية بغلبة الظنّ فهو إلى العالم صاحب العلم أفقر وأفقر فإنه مع من يزكيه، كلاهما محتاجان إلى صاحب العلم، العلم منجلي يظهر نفسه، والحال ملتبس يحتاج إلى دليل يقوّيه لضعفه أن يلحق بدرجة الكمال، فصاحب الحال يطلب العلم، وصاحب العلم لا يطلب الحال، أيّ عاقل يكون من يطلب الخروج من الوضوح إلى اللبس، فإذا فهمت ما قرّرناه تعين عليك الاستسقاء فاشرع فيه.

وصل ـ اعتبار البروز إلى الاستسقاء: الاستسقاء له حالان: الحال الواحدة أن يكون الإمام في حال أداء واجب فيطلب منه الاستسقاء فيستسقي على حالته تلك من غير تغيير ولا خروج عنها ولا صلاة ولا تغيّر هيئة، بل يدعو الله ويتضرّع في ذلك، فحال هذا بمنزلة من يكون حاضراً مع الله فيما أوجب الله عليه، فيتعرّض له في خاطره ما يؤديه إلى السؤال في أمر لا يؤثر السؤال فيه في ذلك الواجب الذي هو بصدده، بل ربما هو مشروع فيه كمسألتنا، ألا ترى أن الشارع قد شرع للمصلي أن يقول في جلوسه بين السجدتين: اللهمّ اغفر لي وارحمني وارزقني واجبرني، فشرع له في الصلاة طلب الرزق والاستسقاء طلب الرزق، فليس لمن هذه حالته أن يبرز إلى خارج المصر ولا يغيّر هيئته فإنه في أحسن الحالات وعلى أحسن الهيئات، لأن أفضل الأمور أداء الواجبات.

دخل أعرابيّ على رسول الله ﷺ يوم الجمعة من باب المسجد ورسول الله ﷺ يخطب على المنبر خطبة الجمعة فشكا إليه الجدب فطلب منه أن يستسقي الله فاستسقى له ربه كما هو على منبره، وفي نفس خطبته ما تغيّر عن حاله ولا أخّر ذلك إلى وقت آخر، وأما الحالة الأخرى فهو أن لا يكون العبد في حال أداء واجب فيعرض له ما يؤديه إلى أن يطلب من ربه ابتداء في حق نفسه أو غيره مما يحتاج أن يتأهب له أهبة جديدة على هيئة مخصوصة فيتأهب لذلك الأمر ويؤدي بين يديه أمراً واجباً ليكون بحكم عبودية الاضطرار، فإن المضطرّ تجاب

دعوته بلا شك، كذلك العبد إذا لم يكن في حال أداء واجب وأراد الاستسقاء برز إلى المصلى وجمع الناس وصلّى ركعتين، فالشروع في تلك الصلاة عبودية اختيار وأداء ما فيها من قيام وركوع وسجود وجلوس عبودية اضطرار، فإنه يجب عليه في الصلاة النافلة بحكم الشروع الركوع والسجود وكل ما هو فرض في الصلاة، فإذا دعا عقيب عبودية الاضطرار فقمن أن يستجاب له ويدخل في الهيئة الخاصة من رفع اليد وتحويل الرداء واستقبال القبلة والتضرّع إلى الله والابتهال في حق المحتاجين إلى ذلك كائناً من كان. ولما ذكرناه وقع الخلاف في البروز إلى الاستسقاء وقد برز رسول الله ﷺ إلى خارج المدينة فاستسقى بصلاة وخطبة. واعتبار البروز من المصر إلى خارجه خروج الإنسان من الركون إلى الأسباب إلى مقام التجريد والفضاء، حتى لا يكون بينه وبين السماء الذي هو قبلة الدعاء حجاب سقف ولا غيره وهو خروج من عالم ظاهره مع عالم باطنه في حال الافتقار إلى ربه بنية التخلق بربه في ذلك، أو بنية الرحمة بالغير أو بنفسه، أو بمجموع ذلك كله.

وصل ـ الاعتبار في الوقت الذي يبرز: إن برز من ابتداء طلوع حاجب الشمس إلى الزوال وذلك عندما يتجلّى الحق لقلب العبد التجلّي المشبّه بالشمس لشدّة الوضوح ورفع اللبس وكشف المراتب والمنازل على ما هي عليه حتى يعلم ويرى أين يضع قدمه لئلا يهوي أو يخطىء الطريق أو تؤذيه هو أم أفكار ردية ووساوس شيطانية، فإن الشمس تجلو كل ظلمة وتكشف كل كربة، فإن لطلوعها شرع أهل الأسباب في طلب المعاش، والمستسقي طالب عيش بلا شك، فما دام الحق يطلب العبد لنفسه لما ينقبض من الظل من طلوع الشمس إلى الزوال ليكون طلبه للأشياء من الله بربه لا بنفسه، لذلك نبّهه على ذلك بقبض الظل إلى حدّ الزوال، فإذا قضيت حاجته التي سأل فيها فمن شأن صاحب هذا الحال إذا حصلت له حاجته أنه يؤديها إلى المحتاج وقد انقبض ظلّه فأخذ الحق في الاحتجاب عن عبده ليبقى مع نفسه فيما أعطاه في سؤاله ممّا تحتاج إليه نفسه فيشهده نفسه شيئاً فشيئاً، كما يمتد الظل ويظهر بدلوك الشمس إلى حين الغروب، فإذا احتجب عنه بقي مع نفسه متفرّغاً إليها بما حصله وهو المعبر عنه بالعشاء فينضم إلى وكره ويجمع أهله على مائدته بما اكتسبه في يومه، فلهذا كان البروز إلى المصلّى من طلوع الشمس، فإن النبيّ ﷺ لما برز إلى الاستسقاء خرج حين بدا حاجب الشمس فاعتبرناه على ذلك الحدّ للمناسبة والمطابقة.

وصل ـ اعتبار الصلاة في الاستسقاء: لما شرع الله في الصلاة الدعاء بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٦] والاستسقاء دعاء مخصوص، فأراد الحق أن يكون ذلك الدعاء في مناجاة مخصوصة يدعو فيها بتحصيل قسمه المعنويّ من الهداية إلى الصراط المستقيم صراط النبيين الذين هداهم الله تهمّماً بطلب الأول الذي فيه السعادة المخصوصة بأهل الله، ثم بعد ذلك يستسقون في طلب ما يعمّ الجميع من الرزق المحسوس الذي يشترك جميع الحيوانات وجميع الناس من طائع وعاص وسعيد وشقيّ فيه، فابتدأ بالصلاة ليقرع باب التجلّي واستجابة الدعاء فيما يزلف عند الله، فيأتي طلب الرزق عقيب ذلك ضمناً ليرزق

الكافر بعناية المؤمن والعاصي بعناية الطائع، فلهذا شرعت الصلاة في الاستسقاء، فعبودية الاختيار قبل عبودية الاضطرار تأهب واستحضار وتزيين محل وتهيؤه وعبودية الاختيار عقيب عبودية الاضطرار شكر وفرح وبشرى بحصول عبودية الاضطرار، فالأولى بمنزلة النافلة قبل الفرض، والثانية بمنزلة النافلة بعد أداء الفرض لما بشّر رسول الله ﷺ بأن الله قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر تنفل حتى تورمت قدماه، فسُئِل في ذلك فقال: «**أفلا أكونُ عبْداً شَكُوراً**» وعبادة الشكر عبادة مغفول عنها ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سورة سبأ: الآية ١٣]. وما بأيدي الناس من عبادة الشكر على النعماء إلاّ قولهم: الحمد لله والشكر لله لفظ ما فيه كلفة، وأهل الله يزيدون على مثل هذا اللفظ العمل بالأبدان والتوجّه بالهمم قال: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سورة سبأ: الآية ١٣] ولم يقل قولوا، والأمة المحمدية أولى بهذه الصفة من كل أمة إذ كانت ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٠].

وصل ـ اعتبار التكبير فيها: من شبّهها بصلاة العيد الأول عيد فطر فهو خروج من حال صيام والصيام يناسب الجدب فإن الصائم يعطش كما تعطش الأرض في حال الجدب. وعيد الأضحى هو عند زمان الحج وأيام عشر الحج أيام ترك زينة ولهذا شرع للمحرم ترك الزينة، وشرع لمن أراد أن يضحي إذا أهل هلال ذي الحجة أن لا يقص ظفراً ولا يأخذ من شعره، ولما لم يكن زينة الأرض إلاّ بالأزهار والأزهار لا تكون إلاّ بالأمطار وهذه الأحوال تقتضي عدم الزينة فأشبهت الأرض الجدبة التي لا زينة لها لعدم الزهر لعدم المطر، فأشبهت صلاة الاستسقاء صلاة العيدين فكبّر فيها كما يكبّر في العيدين، وسيأتي اعتبار عدد التكبير في صلاة العيدين، ومن حمل صلاة الاستسقاء على سائر أكثر السنن والنوافل وصلوات الفرائض لم يزد على التكبير المعلوم شيئاً وهو أولى، فإن حالة الاستسقاء حالة واحدة ما هي مختلفة الأنواع، فإن المقصود إنزال المطر فلا يزيد على تكبيرة الإحرام شيئاً لأنه ما ثم حالة تطلب تكبيرة أخرى زائدة على تكبيرة الإحرام فيحرم على المصلي في الاستسقاء في تكبيرة الإحرام جميع ما تلتذ به النفوس من الشهوات ويفتقر إلى ربه في تلك الحالة كما حرم على الأرض الجدبة الماء الذي به حياتها وزينتها ونسمتها يناسب حال العبد بالإحرام حال الأرض فيما حرمت من الخصب.

وصل ـ اعتبار الخطبة: في الاستسقاء الخطبة ثناء على الله بما هو أهله ليعطي ما هو أهله فيثني عليه ثناء آخر بما يكون منه وهو الشكر على ما أنعم، والمصلي مثن على الله بما هو أهله وعلى ما يكون منه، وهو القسم الواحد الذي لله من الصلاة، فالخطبة ينبغي أن تكون في الاستسقاء، ومن رأى أن الصلاة ثناء على الله يقول: حصل المقصود فأغنى عن الخطبة وتضاعف الثناء على الله أولى من الاقتصار على حال واحدة، فإن الخطبة تتضمن الثناء والذكرى ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٥] والاستسقاء طلب منفعة بلا شك.

وصل ـ اعتبار متى يخطب: التشبّه بالنسبة لكونها سنّة أولى من التشبّه بالفريضة، وقد ورد عن النبيّ ﷺ: «**أنْ لا تُشبَّهَ صَلاةُ الْوِترِ بِصَلاةِ الْمُغرِبِ**» فيكره لمن أوتر بثلاثة أن يأتي بها

على صورة صلاة المغرب، فتشبيه الاستسقاء بالعيدين أولى فيخطب لها بعد الصلاة، إلاَّ أن يرد نص صريح بأن النبيّ ﷺ خطب لها قبل الصلاة فيكون النص فيها، فلا تقاس على سنّة ولا على فريضة، بل تكون هي أصلاً في نفسها يقيس عليها من يجيز القياس في دين الله، وإذا كان العيد يخطب فيه بعد الصلاة مع المراد بالخطبة تذكير الناس وتعليمهم وهم لا يقيمون بل يتصرف أكثرهم بتمام الصلاة، فالخطبة في الاستسقاء بعد الصلاة أولى لأنهم لا ينصرفون حتى يستسقي الإمام بهم فإنهم للاستسقاء خرجوا، والخطبة إنما تكون بعد الصلاة وبعد الدعاء بالاستسقاء فلا ينصرف الناس فيحصل المقصود من الخطبة، ألا ترى إلى عبد الملك بن مروان كيف اختطب في العيد قبل الصلاة فقيل له في المجلس في ذلك معيراً عليه فعله وأن النبي ﷺ ما اختطب في العيدين إلاَّ بعد الصلاة، فقال عبد الملك: قد ترك ما هنالك، يريد أن الناس قد تركوا الجلوس للخطبة، وكانت الصحابة لا ينصرفون من صلاة العيد حتى يخطب رسول الله ﷺ واتباع السنّة أولى ولو لم يبق إلاَّ الإمام وحده لأنه لا يلزمه أكثر من الاقتداء، ولا يعلل كذلك الإنسان إذا فرغ من مناجاة ربّه في صلاته يثني على الله في نفسه فيما ينصرف إليه وذلك حتى لا يبرح مع الله في عموم أحواله، فإذا فعل ذلك كان بمنزلة الخطبة بعد الصلاة، فلا يزال في شغله مع الله في كل حال والله الموفق لا رب غيره.

وصل ـ اعتبار في القراءة جهراً: يجهر المصلي بالقراءة في الاستسقاء ليسمع من وراءه ليحول بينهم وبين وساوسهم بما يسمعونه من القرآن ليدبروا آياته ويشغلوا نفوسهم عن وساوسها بالتفكّر في معاني القرآن وليثابوا من حيث سمعهم، فقد يكون حسن استماعهم لقراءة الإمام من الأسباب الموجبة لنزول المطر لكونهم أدّوا واجباً بامتثالهم أمر الله بقوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٤] والمطر من رحمة الله وهم ما أخرجهم إلاَّ طلبتهم إياه من الله تعالىٰ وقد وعد به لمن استمع القرآن، فإن أفعال الترجّي من الله حكمها حكم الواجب، وأن الإمام إذا كرّر به في ملأ وهو الجماعة في صلاته جهراً ودعائه فيذكره الله في ملأ خير منهم، فقد يكون في ذلك الملأ من يسأل الله تعالىٰ في قضاء حاجة ما توجّه إليه فيها هذا الإمام وجماعته فيمطرون بدعاء ذلك الملك، فإن الملائكة تقول: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [سورة غافر: الآية ٧] فقدمت الرحمة على العلم لموضع حاجة العباد إليها وأدباً مع الله، فإن الله قدمها في العطاء على العلم فقال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] وقد ورد أن الله يقول لعبده: ادعني بلسان لم تعصني به، وهو لسان أمثالي من العصاة فكيف بلسان الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فالجهر بالقراءة فيها أولى، فإن رسول الله ﷺ جهر بالقرآن فيها أعني في صلاة الاستسقاء.

وصل ـ اعتبار تحويل الرداء: إشارة إلى تحويل الحال الذي أخرجهم من الجدب إلى الخصب، ومن حال شظف العيش إلى رغده، فإن ذلك من الفأل الحسن، كما تحوّل أهل هذا المصر في خروجهم إلى الاستسقاء من حال البطر والأشر وكفران النعم إلى حال التوبة

والافتقار وإظهار الفاقة والمسكنة، فطلبوا التحويل بالتحويل، ولسان الأفعال أفصح من لسان الأقوال، فإنهم القائلون بذلك الفعل أي: ربنا إنا هدنا إليك ورجعنا عمّا كنّا عليه من مخالفتك، فإن التنعم بالنعم وما كنّا فيه من الخصب على جهة البطر أوجب لنا الجدب والقحط ونرجو بكرمك أن توجب لنا الافتقار والذلّة والمسكنة والخشوع والخصب، فإن الشيء لا يقابل إلاّ بضدّه حتى ينتجه. فإن قلت: فقوله تعالىٰ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٧] قلنا: الشاكر في حال شكره هو عين فقره إلى ما ليس عنده وهو الزيادة التي تزاد له على النعمة التي يكون فيها وهي نعمة باطنة وهي توبته التي أعطاه الله في باطنه وظاهره وهي نعمة توجب الشكر، والشكر يطلب المزيد فتعمّه النعمة ظاهراً بنزول المطر وباطناً بالحمد على ما أنعم الله به عليهم: [البسيط]

شكرٌ لنعمةِ ربي نعمةٌ أخرى ... منه عليَّ لهذا يطلب الشُّكْرَا
فَقْري إليه وما عندي سوى نِعَمٍ ... من الإله بها أَرْسَالُه تَتْرَى
هو الغنيُّ وفقري مِنَّة ظهرت ... منه عليَّ فنلت الزَّهْوَ والفَخْرَا
بالفقر فخري وبالفاقات سلطنتي ... على الوجود فلا أدْرِي ولا أُدْرَى

ألا ترى التاجر رب المال الغزير والخير الكثير الذي لو قسم ماله عليه وعلى أهله وأولاده وأتباعه طول أعمارهم لكفاهم وفضل عنهم، ومع هذا يخاطر بماله ونفسه في ركوب البحار والسبل المخوفة في طلب زيادة درهم، فما أخرجه عن أهله وهوّن عليه مفارقة وطنه وولده ودعته وأحوجه إلى ركوب هذه الأخطار إلاّ فقره وتوهمه تحصيل هذا الدرهم الزائد على ما عنده، وربما تلفت نفسه وماله بغرق أو قطاع طريق أو أسر المحقق عنده الحاصل في أمر متوهم يمكن أن يحصل ويمكن أن لا يحصل، فإذا أراد من هذه حالته من التجار وتخرجه فاقته ولا بدّ له من السفر فليحول نيّته إلى نيّة أخرى فينظر إلى الجهة التي يقصدها في سفره، ويعلم أن الله قد سخّر عباده في قضاء حوائج بعضهم لبعض فيقول: إن البلد الفلاني يحتاجون إلى كذا وكذا ويذكر السلع التي يطلبها أهل ذلك البلد يا رب، فإن قعدت أنا وغيري ولم أحمل إليهم هذا الذي يحتاجون إليه كلفناهم التعب ومفارقة الأولاد بالوصول إلينا لتحصيل ما يحتاجون إليه، فنحن نؤثر تعبنا على تعبهم، ونحمل إليهم ما يحتاجون إليه، ويكون ما يكسبه من زيادة الدرهم تبعاً لهذه النية.

هكذا يكون متجر الموفقين الصادقين الذين قال رسول الله ﷺ فيهم في الحديث الصحيح: «**التَّاجِرُ الصَّدُوقُ يُحْشَرُ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ**» فانظر ما أحسن هذه النسبة بهذا التنبيه فإن النبيّ ﷺ والأنبياء عليهم السلام جاؤوا من عند الله إلى عباد الله بما يحتاجون إليه ممّا فيه سعادتهم فأجروا على ذلك الأجر التام، وهذا حال التاجر لمن عقل، يقول تعالىٰ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الصف: الآية ١٠] مع حصول المشقة في ذلك من مفارقة الأهل في دخوله في الإيمان دونهم ومفارقة الوطن بالهجرة إلى دار الإسلام، فانظر ما أعجب كلام النبوّة، وهذا كله من تحويل الحالات لهذا يحول رداءه من

يستسقي، ومن لم يوفق إلى هذا النظر الذي له فيه الأجر التام والمعرفة الصحيحة أخرجه ما يخرج الناس اليوم وهو الفقر الذي قام به لطلب تلك الزيادة المتوهمة التي يمكن أن تحصل ويمكن أن لا تحصل، مع كثرة المال الذي يقع له به الغني لو استغنى، فلما لم يكن عنده غنى في نفسه بما عنده وقام به الخوف على ماله والفقر إلى الزيادة خاطر بنفسه وماله وعمي عن علمه بأن المسافر وماله عليّ قلت فأزعجه هذا الفقر المتوهم وحال بينه وبين أهله وولده وأحبابه وهو على غاية من السرور والفرح بذلك السفر لتوهمه حصول الأرباح، فحال الشاكر وفقره إلى طلب الزيادة أولى، فإن الزيادة محققة والربح هناك متوهم، فإن الله صادق في أخباره، ثم إن الشاكر الذي له هذه الزيادة المحققة بشكره هو في أهله لا يفارق وطنه ولا أهله ولا ولده ولا يغري بنفسه ولا يركب الأخطار ولا يتعب بدنه، ولو تصدّق بماله كله فهو كتاجر باع بنسيئة فهو له مدخر يجده يوم فقره وحاجته عند الله، فإن رزقه الذي تقوم به نشأته وأرزاق عياله لا بدّ منها يأتي بها الله كما قال لقمان: ﴿يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٦] فهذا تاجر باع بنسيئة إلى أجل وأجله زمان القيامة فهو حلول الأجل، فهذا يا أخي حكمة تحويل الرداء.

وصل ـ اعتبار كيفية تحويله: وهو على ثلاث مراتب يجمعها كلها العالم إذا أراد أن يخرج من الخلاف الذي بين علماء الشريعة، وهو أن يردّ ظاهره باطنه، وباطنه ظاهره، وأعلاه أسفله، وأسفله أعلاه، والذي على يمينه على يساره، والذي على يساره على يمينه، وكل ذلك تأكيد في الإشارة إلى تحويل الحالة التي هم عليها. فأما اعتبار ظاهر الرداء وباطنه فهو تأثير أعمال ظاهره في باطنه أعني في قلبه بما تنتج له هذه الأعمال وأعمال باطنه أيضاً المحمودة تظهر بالفعل على ظاهره مثل نيته أن يتصدّق فيتصدّق أو ينوي فعل خير ما فيفعله، فما كان في باطنه قد ظهر بالفعل على ظاهره من أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها، ومن عمل صالحاً أثر له في نفسه وقلبه المحبة والطلب إلى الشروع في عمل آخر، ولا سيما إن أنتج له ذلك العمل في الدنيا علماً في نفسه كما قال ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ**» وقال تعالىٰ: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩].

وأما تحويل أعلى الرداء وأسفله فهو إلحاق العالم الأعلى بالأسفل في التسخير، وإلحاق العالم الأسفل بالأعلى في الطهارة والتقديس، فينزل الأعلى رحمة بالأسفل، ويرفع الأسفل عناية إلى رتبة الأعلى في النسبة إلى الله تعالىٰ والافتقار إليه، وأن الله كما توجّه إلى أعلى الموجودات قدراً وهو القلم الإلهيّ والعقل الأول بما أعطاه من العلم والسعادة، كذلك توجّه إلى أدنى الموجودات قدراً وأشقاهم وأخسّهم منزلة عند الله على حدّ واحد، فإن الله من حيث ذاته ما فيه مفاضلة لأنه لا يتصف بالكل فيتحقق فيه البعض، وما من جوهر فرد من العالم كله أعلاه وأسفله إلاّ وهو مرتبط بحقيقة إلهية، ولا تفاضل في ذلك الجانب الأعز الأحمى فهو مستو على عرشه الأعلى ولو دليتم بحبل لهبط على الله، اجتمع أربعة من

الأملاك على الكعبة: واحد نازل من السماء، وآخر عرج من الأرض السفلى، والثالث جاء من ناحية المشرق، والرابع من ناحية المغرب، فسأل كل واحد منهم صاحبه من أين جئت؟ فكلهم قالوا: من عند الله.

وروينا عن بعض شيوخنا حديثاً يرفعه أو يبلغ به رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللَّهَ فِي السَّماءِ كَمَا هُوَ فِي الأَرْضِ وَإِنَّ الْمَلأَ الأَعْلَىٰ يَطْلُبُونَهُ كَمَا تَطْلُبُونَهُ أَنْتُمْ**» فساوى بين العالمين في الطلب، ومعلوم ما بينهما من التفاوت في العرف، واتفق لي في هذا المشهد ذوقاً وذلك أني حملت في يدي شيئاً محقراً بحيث يراه الناس ما كان يقتضيه منصبي في الدنيا وهو ذو رائحة خبيثة من هذا السمك المالح فتخيّل أصحابي أني حملته مجاهدة لنفسي لعلو منصبي عندهم عن حمل مثل ذلك وقالوا لشيخي ما قصر فلان في مجاهدته فقال: حتى نسأله بأي نيّة حمله، فسألني الشيخ بحضور الجماعة وذكر لي ما ذكروه فقلت لهم: أخطأتم في التأويل عليّ والله ما نويت شيئاً من ذلك ولكني رأيت الله على علو قدره ما نزّه نفسه عن خلق مثل هذا فأنزّه نفسي عن حمله، فشكرني الشيخ وتعجّب الأصحاب وهو من هذا الباب بل والله في حملي إياه شرفي فإنه نظير القدرة في إيجاد عينه، ولا فرق عند العارفين بين العالي والدون المعتاد، هذا خلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك، وأين إدراك الشم من الرائحتين؟ فلا تنظروا في الأشياء المتفاضلة إلاّ بارتباطها بالحقائق الإلهية، وإذا كان هذا نظركم فإنكم لا تحقرون شيئاً من العالم، فلا تقس الله ولا تحمله على نفسك وخذ الأشياء على ما تعطيها الحقائق.

وأمّا تحويل ما هو على اليمين إلى الشمال وبالعكس فاعتباره أن صفات السعداء في الدعاء الخشوع والذلّة وهم أهل اليمين في الدنيا، فتتحوّل هذه الصفة على أهل الشمال في الدار الآخرة، فكأن السعداء أخذوها منهم في الدنيا، قال تعالىٰ في حق السعداء: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٢] وقال: ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩٩] وقال ـ أعني في عكس الصفة عليهم: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [سورة النور: الآية ٣٧] وقال في حق الأشقياء في الدار الآخرة: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٥] وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [سورة الغاشية: الآية ٢ ـ ٤] وتحويل آخر وهو أن يتصف العبد السعيد في الآخرة بما يتصف به العبد الشقيّ في الدنيا في الثروة والملك والسلطان، فينقلب إليه المؤمن في الآخرة ويتحوّل إليه ويتحوّل عنه الكافر في الآخرة، فيظهر المؤمن في الآخرة بنعيم الكافر الشقيّ في الدنيا، ويظهر الكافر المنعم في الدنيا في الآخرة بصفة الشقاء والبؤس الذي كان فيه المؤمن في الدنيا، فهذا اعتبار اليمين والشمال في تحويل الرداء.

وصل ـ في اعتبار وقت التحويل وهو في الاستسقاء في أول الخطبة أو بعد مضيّ صدر الخطبة: فاعلم أن اعتبار التحويل في أول الخطبة هو أن يكون الإنسان في حال نظره لربه بربه، فينظر في أول الخطبة لربه بنفسه وهو قوله في أول الصلاة: حمدني عبدي، فلو كان

حال المصلي في وقت الحمد حال فناء بمشاهدة ربه أنه تعالىٰ حمد نفسه على لسان عبده لم يصدق من جميع الوجوه حمدني عبدي وهو الصادق سبحانه في قوله: حمدني عبدي، فلا بدّ أن يكون العبد يشاهد نفسه في حمده ربه وهو صدق. ومن قال بعد مضيّ صدر من الخطبة فهو إذا قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] فكان في أول الخطبة يثني على ربّه بربه بحال فناء علمي ومشهد سنيّ بربّه عن نفسه فإنه بكلامه حمده، فلما أوقع الخطاب كان ثناؤه بنفسه على ربّه فيحول عن حالته تلك في هذا الوقت، فهذا اعتبار تعيين التحويل في أول الخطبة أو بعد مضيّ صدر الخطبة.

وصل ـ اعتبار استقبال القبلة: من كان وجهاً كله يستقبل ربّه بذاته كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه فكان وجهاً كله، فينبغي للمستسقي ربّه أن يقبل على ربّه بجميع ذاته فإنه ما فيه جزء محسوس أو معنوي ظاهر أو باطن إلاّ وهو فقير محتاج إلى رحمة الله به في استجلاب نعمه أو بقاء النعم عليه، ولهذا يجيب الله المضطرّ في الدعاء، فإنّ المضطرّ هو الذي دعا ربّه عن ظهر فقر إليه، وما منع الناس الإجابة من الله في دعائهم إياه إلاّ كونهم يدعونه عن ظهر غنى لالتفاتهم إلى الأسباب وهم لا يشعرون وينتجه عدم الإخلاص، والمضطرّ المضمون له الإجابة مخلص مخلص ما عنده التفات إلى غير من توجّه إليه.

أخبرني الرشيد الفرغانيّ رحمه الله عن فخر الدين شيخه ابن خطيب الريّ عالم زمانه أن السلطان حبسه وعزم على قتله وماله شفيع عنده مقبول قال: فطمعت أن أجمع همّي على الله في أمري أن يخلصني من يد السلطان لما انقطعت بي الأسباب وحصل اليأس من كل ما سوى الله، فما تخلّص لي ذلك لما يرد عليّ من الشبه النظرية في إثبات الله الذي ربطت معتقدي به إلى أن جمعت همّتي وكليتي على الإله الذي تعتقده العامّة ورميت من نفسي نظري وأدلتي ولم أجد في نفسي شبهة تقدح عندي فيه وأخلصت إليه التوجّه بكلي ودعوته في التخلّص فما أصبح إلاّ وقد أفرج الله عني وأخرجني من السجن، فهذا اعتبار استقبال القبلة فإن ذلك إشارة إلى القبول.

وصل ـ اعتبار الوقوف عند الدعاء: القيام في الاستسقاء عند الدعاء مناسب لقيام الحق بعباده فيما يحتاجون إليه فإنه طلب للرزق بإنزال المطر الذي تركن نفوسهم إليه ويستبشرون بقول الله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [سورة النساء: الآية٣٤] والنفوس كلها في مقام الأنوثة لمن عقل، فإن كل منفعل فرتبته رتبة الأنثى وما ثم إلاّ منفعل، والفعل مقسم على الحقيقة بين الفاعل والمنفعل، فمن الفاعل الاقتدار، ومن المنفعل القبول للاقتدار فيه، وهنا سرّ يتضمن ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦]. فالذي يجعل الله الرزق على يديه قائم على من يرزق بسببه فشرع القيام في الدعاء في الاستسقاء كأنه يقول بحال قيامه بين يدي ربّه: ارزقنا ما نقوم به على عيالنا بما تنزله من الغيث علينا، فإنه السبب في وجود ما به قوام أنفسنا ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة التحريم: الآية ٨].

وصل ـ اعتبار الدعاء في هذا الباب: الدعاء مخ العبادة، وبالمخ تكون القوّة للأعضاء،

كذلك الدعاء مخ العبادة به تقوى عبادة العابدين فإنه روح العبادة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ العبادة هنا عين الدعاء ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠] وهو البعد عن الله فإن جهنم سميت به لبعد قعرها.

وصل ـ اعتبار رفع الأيدي عند الدعاء: على الكيفيتين الأيدي محل القبض والعطاء، فبها ما أخذ، وبها ما أعطى، فلها القبض بما تأخذ، والبسط بما تعطي، فيرفع العبد يديه مبسوطتين ليجعل الله فيهما ما سأله من نعمه، فإن رفعها وجعل بطونها إلى الأرض فرفعها تشهد العلو والرفعة ليدي ربي تعالىٰ التي هي اليد العليا ويداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، ويجعل الداعي بطون يديه إلى الأرض في الاستسقاء أي أنزل علينا ممّا بيديك من الخير والبركة ما تسدّ به فقرنا وفاقتنا التي علقتها بالأسباب فأوحدها إليك وفرغها بما تنزله من الغيث من أجلها، فهذا وأشباهه اعتبار صلاة الاستسقاء وأحوال أهله وكون صلاتها ركعتين هو قول الله ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٠] فالركعة الواحدة للنعمة الظاهرة يسدّ بها الخلل الظاهر، والركعة الثانية للنعمة الباطنة يسأل فيها ما يكون فيه غذاء الأرواح والقلوب من العلوم والمعارف والتجلّي واليد النعمة. انتهى الجزء السادس والأربعون.

(الجزء السابع والأربعون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصل في فصل ـ ركعتا تحية المسجد: اختلف علماء الشريعة في الركعتين لدخول المسجد، فمن قائل: إنها سنّة. ومن قائل: بوجوبهما، والذي أذهب إليه وأقول به أن هاتين الركعتين لا تجب على من دخل المسجد إلاّ إن أراد القعود في المسجد، فإن وقف ولا يجلس أو عبر فيه ولم يقعد فهو مخيّر عندي إن شاء ركعهما وإن شاء لم يركعهما ولا حرج عليه، ويأثم بتركهما إن قعد ولم يركعهما إلاّ أن يدخل في الوقت المنهي عن الصلاة فيه أو يكون على غير طهارة.

وصل ـ في اعتبار هذا الفصل: لا يخلو هذا الداخل في المسجد أن يدخل في زمان إباحة النافلة أو في زمان النهي عن صلاة النافلة، فإن دخل في زمان النهي فلا يركع فإنه ربما يتخيل بعض الناس أن الأمر بتحية المسجد يعارض حديث النهي عن الصلاة في الأوقات المنهي عن الصلاة فيها، فاعلم أن النهي لا يعارض به الأمر الثابت عند الفقهاء إلاّ عندنا فإن لنا في ذلك نظراً، وهو أن النهي إذا ثبت والأمر إذا ثبت فإن رسول الله ﷺ أمرنا إذا نهانا عن أمر بامتثال ذلك النهي مطلقاً من غير تخصيص، وأن نجتنب كل منهي عنه يدخل تحت حكم ذلك النهي، وقال في الأمر الثابت ﷺ في هذا الحديث: «**وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**» فقد أمرنا بالصلاة عند دخول المسجد، ونهانا عن الصلاة في أوقات معينة، فقد حصلنا بالنهي الثابت في حكم من لا يستطيع إتيان ما أمر به في هذه الحال لوجود النهي، فانتفت الاستطاعة شرعاً كما تنتفي عقلاً، فإن رسول الله ﷺ لم يقل: فافعلوا منه ما استطعتم

لاستطاعة المشروعة ولا المعقولة فوجب العموم في ذلك فيقول: إن النهي المطلق منعني من الإتيان بجميع ما يحويه هذا الأمر الوارد من الأزمنة، فلا أستطيع إتيان هذه الصلاة في هذا الوقت المخصص بالنهي شرعاً فاعلم ذلك.

المسجد بيت الله، والكرسيّ تجليه لمن أراد أن يناجيه، فمن دخل عليه في بيته وجب عليه أن يحييه بما أمره أن يحييه، فعلمنا رسول الله ﷺ كيف نحيي بيت ربنا فإنه يقول: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ رِجَالٌ﴾ [سورة النور: ٣٦ ـ ٣٧] يقول عبد الله بن عمر: لو كنت مسبحاً أتممت يعني متنفلاً، وسبحة الضحى صلاة الضحى إذا دخلنا المسجد نسلم على الحاضرين فيه من الملأ الأعلى بقولنا: السلام عليكم إن كان هنالك من البشر أحد من كان من صبي أو امرأة أو رجل، فإذا لم يكن أحد ممّن يسمّى إنساناً فلا يخلو هذا الداخل إمّا أن يكون ممّن كشف الله عن بصره غطاء الحجاب المعتاد فيدرك من فيه من الأرواح العاقلين من جن وملك فيسلم عليهم كما يسلم على من وجد فيه من البشر، وإن لم يكن من أهل الكشف لمن فيه فليقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وينوي كل صالح لله من جميع عباده من كل ما سوى الله، فيصيب ذلك السلام كل عبد صالح لله في السماء والأرض، ولا يقل: السلام على الله فإن الله هو السلام، وليركع ركعتين بين يدي ربّه عزّ وجلّ وليجعل الحق تعالىٰ في قبلته، وتكون تلك الصلاة بما فيها من الركوع والسجود مثل التحية التي تحيا بها ملوك الأعاجم إذا دخل عليهم أو ظهروا لرعاياهم، وقد مضى اعتبار أحوال الركوع والقيام والجلوس والسجود فهاتان الركعتان سجود تحية، فإن كان دخوله في غير وقت صلاة أعني دخل في الأوقات المنهي عن إيقاع الصلاة فيها فعندما يدخل المسجد يقوم بين يدي ربّه عزّ وجلّ خاضعاً ذليلاً مراقباً ممتثلاً أمر سيده في نهيه عن الصلاة في ذلك الوقت كما نهاه أن يقول في تحياته في الصلاة: السلام على الله، فإن رسم له سيده تعالىٰ بالقعود في بيته فليركع ركعتين شكراً لله تعالىٰ على ذلك حيث أمره سيده بالقعود عنده في بيته، فهاتان الركعتان في ذلك الوقت ركعتا شكر، ومن ركع قبل الجلوس وما في نيته أن يجلس وهو وقت صلاة فتانك الركعتان تحية لله لدخوله عليه في بيته، ومن راعى من أهل الله من العارفين دخوله على الحق في بيته ولم يخطر له خاطر التقييد بالأوقات كان ركوعه ركوع تحية لدخوله، ومن كان حاله الحضور مع الله على الدوام ومناجاته في كل حال فليست بتحية مطلقاً ولكنهما ركعتا شكر لله تعالىٰ حيث جعله من المتقين بدخوله المسجد حيث قال: المسجد بيت كل تقي، فأضافه إلى المتقين من عباده، وقد كان مضافاً إلى الله.

وصل في فصل ـ سجود التلاوة: اختلف علماء الشريعة في سجود التلاوة هل هو واجب أو سنّة؟ فمن الناس من قال: إنه واجب. ومن الناس من قال: إنه سنّة وليس بواجب.

وصل الاعتبار في هذا الفصل: لما قال رسول الله ﷺ في الخبر الثابت عنه أن الله عزّ وجلّ يقول: «**قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ**» ولم يذكر في المقسوم إلاّ تلاوة الفاتحة، ولم يتعرض للهيئات من قيام أو ركوع أو سجود أو جلوس، فلما لم يذكر إلاّ التلاوة

ومن القرآن فاتحة الكتاب من العبد لله تعالىٰ ما فيها من تلاوة فاتحة الكتاب، وهذا الحديث دليلنا على وجوب قراءة الفاتحة على المصلي، فسمينا التالي مصلياً أو مناجياً لله تعالىٰ بما يخصّ الله من الصفات وبما يخصّ العبد منها كشفاً محققاً في جميع القرآن المسمّى كلام الله، فثم آية تخصّ جناب الحق فهي لله مخلصة، وثم آية تخصّ جناب العبد فهي له مخلصة، وثم آية يقع فيها الاشتراك فهي بين الله وبين عبده، والعمل في ذلك كالعمل في الفاتحة المنصوص عليها، فجاء في الذي يتلوه من كلامه تعالىٰ مواضع ينبغي السجود فيها، فعين لنا الشارع ما نسجد فيه ممّا لا نسجد فيه، فاشترط فيها من اشترط الطهارة والوقت للسجود والقبلة، وسيأتي فصل ذلك كله، فنسجد فيما سجد فيه رسول الله ﷺ ونترك فيما ترك، وإن كان اللفظ بالأمر يقتضي السجود، ولكن لا نسجد لكون الشارع ما شرع السجود إلاّ في مواضع مخصوصة معينة عيّنها لنا الشارع فعلاً وقولاً لا تتعدى ولا يزاد عليها، والخلاف في عددها معلوم، والسجود المشروع في غير التلاوة مذكور كسجود الإنسان عند رؤية الآيات وكسجود الشكر وغير ذلك، فلنذكر عدد عزائم السجود الوارد في القرآن ونجمع المختلف فيه إلى المجمع عليه.

وصل ـ في ذكر سجود القرآن العزيز: اعلم أن سجدات القرآن العزيز من إحدى عشرة سجدة إلى خمس عشرة سجدة، فمنها ما ورد بصيغة الخبر. ومنها ما ورد بصيغة الأمر السجدة الأولى من ذلك في سورة الأعراف في خاتمتها، أما الأعراف فهو سور بين الجنة والنار باطنه فيه الرحمة وهو ما يلي الجنة وظاهره من قبله العذاب وهو ما يلي النار منه، وعليه رجال تساوت حسناتهم وسيئاتهم فلم ترجح في الوزن كفة على كفة فلم تثقل موازينهم ولا خفت، فإنه ما وضع الله لأحد منهم في ميزانه تلفظه بلا إله إلاّ الله، فإنه ما ثم سيئة تعادلها إلاّ الشرك، وكما لا يجتمع الشرك والتوحيد في قلب شخص واحد، كذلك لا يدخل في الميزان إلاّ لصاحب السجلات لسبب آخر نذكره في هذا الكتاب أو قد ذكرناه في باب القيامة فيما تقدم.

وأما خاتمة هذه السورة فقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٤] وهذه الآية روينا أنها نزلت في القراءة في الصلاة والسجود ركن من أركان الصلاة، وختم هذه السورة بذكر الملائكة وسجودهم لله فوصفهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهم المقربون من الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ يقول: يذلّون ويخضعون له ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٦] أي ينزهونه عن الصفات التي لا يليق به وهي التي تقربوا بها إليه من الذلّ والخضوع، وصدقهم الله في هذه الآية في قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] فأخبر الله عنهم بما أخبروه عن نفوسهم ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٦] وصفهم بالسجود له عزّ وجلّ مع هذه الأحوال المذكورة.

وقال الله تعالىٰ لما ذكر النبيين عليهم السلام لمحمد ﷺ وذكر أنه تعالىٰ أتاهم الكتاب والحكمة والنبوة قال له: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠] وهم

بشر مثله، فما ظنك بالملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؟ وأيّ هدي أعظم ممّا هدى الله تعالىٰ به الملائكة فسجد هذا التالي في هذه السجدة اقتداء بسجود الملأ الأعلى وبهديهم، فمن سجد فيها ولم يحصل له نفحة ممّا حصل للملائكة في سجودها من حيث ملكيته الخاصة به فما سجدها، وهكذا في كل سجدة ترد. ورأى أصحاب الأعراف أن موطن القيامة قد سجد فيه رسول الله ﷺ عند ما طلب من ربّه فتح باب الشفاعة تعظيماً لله وهيبة وإجلالاً وسمع الله يقول: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [سورة القلم: الآية ٤٢] بأمر الآخرة، تقول العرب: كشفت الحرب عن ساقها وهو إذا حمي الوطيس واشتد الحرب وعظم الخطب فعلموا أنه موطن سجود، فلما دعوا إلى السجود هنالك سجد أصحاب الأعراف امتثالاً لأمر الله فرجحت كفة حسناتهم بهذه السجدة وثقلت فسعدوا لأنها سجدة تكليف مشروعة في ذلك الموطن عن أمر إلهي فيدخلون الجنة.

وصل ـ السجدة الثانية: وهي سجود الظلال بالغدو والآصال مع سجود عام، وهذه سجدة سورة الرعد وهي عند قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [سورة الرعد: الآية ١٥] وظلال الأرواح أجسادها، فأخبر الله تعالىٰ أنه ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهم الأعلون ومن في الأرض وهم الأسفلون، عالم الأجساد الذين قاموا بالنشأة العنصرية ﴿طَوْعًا﴾ للأرواح من حيث علمهم ومقامهم، وللأجسام من حيث ذواتهم وأعيانهم، ﴿وَكَرْهًا﴾ [سورة الرعد: الآية ١٥] في الأرواح من حيث ذواتهم، وفي الأجسام من حيث رياستهم وتقدمهم على أبناء جنسهم وهذا سجود إخبار، فتعين على العبد أن يصدق الله في خبره عمّن ذكر فإنه من أهل الأرض بجسده ومن أهل السموات بعقله، فهو الملك البشري والبشر الملكي فيسجد طائعاً لربه وكرهاً من تقييده بجهة خاصة لا يقتضيها علمه وإن كان ساجداً في نفس الأمر سجوداً ذاتياً وإن لم يشعر بذلك فيوقعها عبادة فإن ذلك أنجى له، وذكر الغدو والآصال لامتداد الظلال في هذه الأوقات، فجعل امتدادها سجوداً فهي في الغدو تتقلص رجوعاً إلى أصلها الذي منه انبعثت وخوفاً على نفسها من الاحتراق فكأنها تقتصر على ذاتها. وفي الآصال تمتد وتطول بالزيادات من إظهار نعم الله التي أسبغها عليها، والغدو والآصال من الأوقات المنهي عن الصلاة فيها، فأخرج حكم السجود في هذه الأوقات عن حكم النافلة، وجعل حكمه حكم الفرائض أو المقضي من النوافل، فتعين على التالي في هذه الآية السجود فيجازى من باب من صدق ربّه تعالىٰ في خبره، فسجدة الأعراف سجدة اقتداء بهدي الملائكة، وهذه سجدة تصديق بتحقيق.

وصل ـ السجدة الثالثة: سجود العالم الأعلى والأدنى في مقام الذلّة والخوف سجود هذه السجدة عند قوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٥٠] فذكر الملائكة والظلال وسجدوا في الأعراف سجود اختيار لما يقتضيه جلال الله، وهنا أثنى الله عزّ وجلّ عليهم بأنهم ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فسجدوا شكراً لله لما أثنى الله عزّ وجلّ عليهم بأنهم يفعلون ما يؤمرون، فسجدوا شكراً لله لما أثنى الله عزّ وجلّ عليهم بما وفّقهم إليه من امتثال أوامره، فسجدها العبد

رغبة في أن يكون ممّن أثنى الله عليه بما أثنى على ملائكته، فهي للعبد سجود ذلّة وخضوع، فإنه يقول: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٨] الضمير في ظلاله يعود على الشيء المخلوق، وقد قلنا: إن الأجساد ظلال الأرواح فلا تتحرك إلاّ بتحريك الأرواح إياها تحريكاً ذاتياً. ثم قال: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٨] أي أذلاء، فهو سجود ذلّة وخضوع، فمن سجد هذه السجدة ولم يشاهد سجود ظلّه في اليمين إذا وقع له التجلّي في الشمائل ولا شاهد سجود ظلّه في الشمائل إذا وقع له التجلّي في اليمين ولم يحصل له التأثير في عالم الكون خاصة فإن الآثار في حضرة العين سهلة الوجود، وما تظهر الرجال أصحاب القوّة واليمين إلاّ في تأثيرهم في الكون، فهذا من خصوص سجود هذه السجدة.

وصل ـ السجدة الرابعة: سجود العلماء بما أودع الله في كلامهم من علوم الأسرار والأذواق وهو سجود تسليم وبكاء وخشوع ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٠٥، ١٠٦] يقول: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾ لتحكم به بين الناس فيما اختلفوا فيه من الحق ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ لذاته ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ خطاب لمن أنزل عليه تبياناً لكل شيء ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ تبشر قوماً برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم، وتبشر قوماً بعذاب أليم ﴿وَنَذِيرًا﴾ معلماً بمن تبشره وبما تبشر ﴿وَقُرْءَانًا﴾ وكلاماً جامعاً لأمور شتى ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ أي فصلناه آيات بينات في سور منزلات ﴿لِتَقْرَأَهُۥ﴾ أي تجمعه وتجمع عليه الناس ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ تؤدة مرتلاً ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ﴾ عمّا يجب له من التعظيم إلى مخاطبة من لا يعرف قدره ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩١] ﴿قُلْ﴾ يا أيها النبيّ ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ﴾ صدقوا به ﴿أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ أو ترددوه ولا تصدقوا به ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أعطوا العلامات التي تعطي اليقين والطمأنينة في الأشياء ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ ممّن تقدمه من أمثاله ﴿إِذَا يُتْلَىٰ﴾ تتبع آياته بعضها بعضاً بالمناسبة التي بين الآية والآية ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٠٧] يقعون على وجوههم مطأطئين أذلاء، والسجود التطاطي، أسجد البعير إذا طأطأه ليركبه ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أي وعده صدق وكلامه حق ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٠٨] واقعاً كما وعد الوعد، يستعمل في الخير والشر، والوعيد في الشرّ خاصة، فالوعد في الخير من الله لا بدّ منه، والوعيد قد يعفو ويتجاوز فإنه من صفة الكريم عند العرب، وممّا تمدح به الأعراب سادتها وكبراءها يقول شاعرهم: [الطويل]

وإنـي إذا أوعـدتُـه أو وَعَـدْتُـهُ ... لـمُـخْـلِـفُ إيـعـادي ومـنْـجـزُ مَـوْعِـدِي

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ على ما فرط منهم ممّا لا يستدركونه ولو عفى عنه فالكتابة على المحو ما تقوم في الصفا كالكتابة على غير المحو ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٠٩] أي ذلّة، والخشوع لا يكون أبداً من الخاشع إلاّ عن تجلّ، ولا بدّ إما على الظاهر وإما على الباطن أو عليهما معاً، فهذه السجدة سجدة زيادة في الخشوع، والخشوع كما قلنا لا يكون إلاّ عن تجلّ إلهيّ، فزيادة الخشوع دليل على زيادة التجلّي، فهذا يسمّى سجود التجلّي فافهم.

وصل ـ السجدة الخامسة: وهي سجود الإنعام العام الرحماني عن الدلالات وهي في سورة مريم عند قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٥٨] وهي سجدة النبيين المنعم عليهم، فهذا بكاء فرح وسرور وآيات قبول ورضى، فإن الله قرن هذا السجود بآيات الرحمن، والرحمة لا تقتضي القهر والعظمة وإنما تقتضي اللطف والعطف الإلهيّ فدمعت عيونهم فرحاً بما بشّرهم الله من هذه الآيات، فالصورة صورة بكاء لجريان الدموع، والدموع دموع فرح لا دموع ترح وكمد وحزن، لأن مقام الاسم الرحمن لا يقتضيه، وفي هذه السورة في قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [سورة مريم: الآية ٨٥] فرح أبو يزيد وطار الدم من عينيه حتى ضرب المنبر وقال: يا عجباً كيف يحشر إليه من هو جليسه فإن الله يقول: أنا جليس من ذكرني والمتقي ذاكر لله ذكر حذر، فلما حشر إلى الرحمن وهو مقام الأمان ممّا كان فيه من الحذر فرح بذلك واستبشر وكان دمع أبي يزيد دمع فرح كيف حشر منه إليه حين حشر غيره إلى الحجاب.

وأما قوله في هذه السورة عن إبراهيم الخليل في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [سورة مريم: الآية ٤٥] فقرن العذاب بالاسم الرحمن ولا يقتضيه هنا في الظاهر، فاعلم أنه أشار له إلى الاسم الذي هو أبوه معه في الحال فإنه مع الرحمن بلا شك لحصول العافية والخير والرزق والصحة الذي هو فيه وعليه، والمعنى الآخر في مساق هذا الاسم مع العذاب مثل رحمة الطبيب بصاحب الأكلة فهو يعذبه في الوقت بقطع العضو الذي فيه الأكلة رحمة به حتى يحيا، ومن رحمته نصب الحدود في الدنيا لتكون لهم طهارة إلى الأخرى، وهكذا في كل دار إن نظرت بعين التحقيق فاعلم ذلك، فمن سجد هذه السجدة ولم ير النعيم في العذاب فما سجدها كما قال القائل: [الوافر]

أريــدكَ لا أريــدكَ لــلــثَّــوابِ ... ولــكــنــي أريــدك لــلــعــقَــابِ

وكُــلَّ مــآربــي قــد نِــلْــتُ مــنــهــا ... ســوى مَــلْــذُوذِ وَجْــدي بــالــعــذابِ

وأما رابعة العدوية فضرب رأسها ركن جدار فأدماه فقيل: ما تحسين بالألم؟ فقالت: شغلني بموافقة مراده فيما جرى شغلني عن الإحساس بما ترون من شاهد الحالة.

وصل ـ السجدة السادسة: وهي سجود المعادن والنبات سجود المشيئة والحيوان وبعض البشر وعمار الأفلاك والأركان سجود مشاهدة واعتبار، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨] فذكر سبحانه كل شيء في هذه الآية ولم يبعض إلاّ الناس فإنه قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وجعل ذلك من مشيئته، فيبادر العبد بالسجود في هذه الآية ليكون من الكثير الذي يسجد لله لا من الكثير الذي حقّ عليه العذاب، فإذا رأى هذا العبد أن الله تعالىٰ قد وفّقه للسجود ولم يحل بينه وبين السجود علم أنه من أهل العناية الذين التحقوا بمن لم يبعض سجودهم ممّن في السموات ومن في الأرض، والشمس في غروبها، والقمر في

محاقه، والنجوم في مواقعها، والجبال في إسكانها، والشجر في إقامتها على سوقها والدواب في تسخيرها، وبعض الناس ممّن له الشهود، فمن سجد هذه السجدة من أهل ولم يشهد كل عالم فيه ممّن ذكر ويشهد سجود بعضه من كله ومن بقي منه ولم يسجد سجدها.

وصل ـ السجدة السابعة: وهي سجدة الفلاح والإيمان عن خضوع وذلّة وافتقار وهي في آخر الحج في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٧] فهذا سجود الفلاح وهو البقاء والفوز والنجاة، فكان فعل الخير بمبادرته للسجود عندما سمع هذه الآية تتلى سبباً لإيمانه، إذ كان الله قد آيه بالمؤمنين في هذه الآية وأمرهم بالركوع والسجود له، فالتحق بالملائكة في كونهم يفعلون ما يؤمرون، فسجد العبد فأفلح وهي سجدة خلاف، فمن سجد هذه السجدة ولم يعرف نسبة البقاء الإلهيّ والإبقاء ولم يفرق بين من هو باق ببقائه ومن هو باق بإبقائه وفر فامتاز بعلامته ممّن انحاز وجاز ونجا عندما التجا وقال بالتثبّت في بعض الأمور وفي بعضها بالنجا فما سجد هذه السجدة.

وصل ـ السجدة الثامنة: وهو سجدة النفور والإنكار عند أهل الاعتراف، قال تعالىٰ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٠] لما قيل لهم: اسجدوا للرحمن فسجدها المؤمن عندما يتلو ليمتاز بها عن الكافر المنكر لاسمه الرحمن، فهذه تسمى سجدة الامتياز والله يقول: ﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٥٩] فيقع الامتياز بين المنكرين للاسم الرحمن وبين العارفين به يوم القيامة بالسجود الذي كان منهم عند التلاوة، وزادهم هذا الاسم نفوراً لجهلهم به، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٠] على طريق الاستفهام، فهذا سجود إنعام لا سجود قهر، فإن الكفار أخطؤوا حيث رأوا أن الرحمن يناقض التكليف ورأوا أن الأمر بالسجود تكليف، فلا ينبغي أن يكون السجود لمن هو هذا الاسم الرحمن لما فيه من المبالغة في الرحمة، فلو ذكره بالاسم الذي يقتضي القهر ربما سارع الكافر إلى السجود خوفاً كما صدر من الجبار عند رسول الله ﷺ من رؤساء الجاهلية حيث قال له: يا محمد اتل عليّ ممّا جئت به حتى أسمع فتلا عليه ﴿حمٓ﴾ السجدة فلما وصل إلى قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١٣] وهما من العرب وحديثهما مشهور عندهم بالحجاز، فلما سمع هذه الآية ارتعدت فرائصه واصفرّ لونه وضرط من شدّة ما سمع ومعرفته بذلك وقال: هذا كلام جبار. فما زادهم نفوراً إلاّ اقتران التكليف بالاسم الرحمن، فإن الرحمن من عصاه عفا عنه وتجاوز فلا يكلفه ابتداء، فلو علم هذا الجاهل أن أمره تعالىٰ بالسجود للرحمن لا يناقض التكليف وإنما يناقض المؤاخذة ويزيد في الجزاء الحسنى لبادر إلى ذلك كما بادر المؤمن، فمن سجد هذه السجدة ولم يفرق بين العلم والخبرة وهو علم الأذواق ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١].

وصل ـ السجدة التاسعة: وهي سجدة السرّ الخفي عن النبأ اليقين، وموضع السجود من

هذه السورة مختلف فيه فقيل عند قوله: ﴿تُعْلِنُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٢٥] وقيل عند قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة النمل: الآية ٢٦] فهذا هو سجود توحيد العظمة إن سجد في العظيم وإن سجد في قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٢٥] يقول: إن الشمس التي يسجدون لها وإن اعتقدوا أنها تعلم ما يعلنون فالسجود لمن يعلم ما يخفون وما يعلنون أولى، ثم إنهم يسجدون للشمس لكونها تخرج لهم بحرارتها ما خبأت الأرض من النبات فقال الله لهم: ينبغي لكم أن تسجدوا للذي يخرج الخبء في السموات وهو إخراجه ما ظهر من الكواكب بعد أفولها وخبئها ثم يظهرها طالعة من ذلك الخبء، وفي الأرض ما يخرجه من نباتها، فالشمس ليس لها ذلك، بل بظهورها يكون خبء ما في السموات من الكواكب، فالله أولى بأن يسجد له من سجودكم للشمس فإن حكمها عند الله كحكم الكواكب في الأفول والطلوع، فطلوعها من الخبء الذي يخرجه الله في السماء مثل سائر الكواكب فهذا سجود الرجحان، فإن الدليل هنا في جناب الله أرجح منه في الدلالة على ألوهة الشمس حين اتخذتموها إلهاً لما ذكرناه، فمن سجد هذه السجدة ولم يقف على لغات البهائم ولا علم منطق الطير ولم ينكح جميع الكواكب وحروف المنطق بحيث يلتذّ بها التذاذه بالكواعب.

وصل ـ السجدة العاشرة: وهي سجدة التذكّر والذكر بتسبيح وتواضع عن دلالات منصوبة سجود عقل واستبصار، وهذه سجدة ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ﴾ التي إلى جانب سورة لقمان الحكيم ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة السجدة: الآية ١٥] إن حرف تحقيق وتنكير يقول: إن الذي يصدق بآياتنا أنها آيات نصبن لها دلالات على وجودنا وصدق إرسالنا ما هي عن همم النفوس عند جمعيتها هم الذين إذا ذكروا بها، والتذكّر لا يكون إلاّ عن علم غفل عنه أو نسيان من عاقل﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة الزمر: الآية ٩] يقول: إنها مدركة بالنظر العقلي أنها دلالات على ما نصبناها عليه، فإذا ذكروا بها وقعوا على وجوههم أي حرصوا على معرفة ذواتهم، فنزّهوا ربهم بما نزّه به نفسه على ألسنة رسله ولم يعطهم العلم الأنفة عن ذلك، فمن سجد هذه السجدة ولم يقف على مدارك عقله ولم يفرق بين ما يعطيه نظره وبين ما يعطيه إيمانه فينزّه ربّه إيماناً لا عقلاً، ويأخذ العلم والحكمة حيث وجدها، ولا ينظر إلى المحل الذي جاء بها، وأن العاقل يعرف الرجال بالحق وغير العاقل يعرف الحق بالرجال وهذا من أكبر أغاليط النظر، فإن المعنى الذي يندرج في اللفظ الذي يقصد به المتكلم إيضاح أمر هو في الحق المطلوب يقبله الجاهل من الرسول إذا جاء به ويحيله ويردّه من الوارث والوليّ إذا جاء به، فلو قبل العلم لذات العلم لكان ممّن تذكر فإن الله تعالىٰ يقول في حق ما أنزل من القرآن أن رسول الله ﷺ يخاطب به ثلاث طبقات من الناس فهو في حق طائفة بلاغ يسمعون حروفه إيماناً بها أنها من عند الله لا يعرفون غير ذلك، وطائفة تلاه عليها ليدبروا آياته أي يتفكروا فيها حتى يعلموا أن الآتي بها لم يأت بها من نفسه بل هي من عند مرسله سبحانه، وليتذكر أرباب العقول ما كانوا

قد علموه قبل أي ما جاؤوا بما تحيله الأدلة الغامض إدراكها فإنها لب الدلالات وهم أهل الكشف والجمع والوجود، فمن لم يحصل ما ذكرناه في سجوده هذه السجدة فما سجد.

وصل ـ السجدة الحادية عشرة: وهي لنا سجدة شكر في حضرة الأنوار، ولصاحبها سجدة توبة لا من حوبة وليست من عزائم السجود وهذه سجدة سورة ﴿صٓ﴾ في قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [سورة ص: الآية ٢٤] فسجدها توبة وشكراً معاً، والظنّ على بابه يقول ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ إنما اختبرناه فإن الفتنة في اللسان الاختبار، تقول العرب: فتنت الفضة على النار أي اختبرتها فطلب طلباً مؤكداً الستر من ربه، فإن الاستفعال يؤذن بالتأكيد ووقع خاضعاً ورجع إلى الله فيما طلب عنه لا لحوله وقوّته، وهذا دليل على أنه كان عنده من القوّة ما يستتر به فلم يفعل ورجع إلى الله في ذلك، ويؤيّد هذا قول الله له ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦] فلو لم يكن في قوّته التحكّم به فيما يريده ما نهي عنه، فقضينا حاجته فيما رجع إلينا فيه وسترناه عن الأغيار في حضرتنا فجهل قدره مع تصريحنا بخلافته عنّا في الحكم في عبادي والتحكّم والتصريف، ثم قال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ ممّا هو له منّا لا يرجع من ذلك إلى الأكوان والأغيار شيء ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [سورة ص: الآية ٢٥] وخاتمة حسنة أي مشهود لأن الحسنة والحسنى من الإحسان وهو مقام الشهود الذي يعطي الحقائق على ما هي عليه، فإن رسول الله ﷺ فسّر الإحسان لجبريل عليه السلام بما أشرنا إليه، فمن سجد هذا السجود وهو سجود الإنابة وفي السجود فيها خلاف، فإذا سجدها الإنسان ولم يجد فيها ما وجد داود عليه السلام من التقريب الإلهيّ وعلم خاتمة أمره وبماذا يختم له ونهاية مقامه ومنزلته عند ربه في الدار الآخرة هذا إذا سجدها سجود داود، وإذا سجدها سجود رسول الله ﷺ ولم يجد الزيادة في جميع أحواله في كل حال بما يليق به من علم وعمل في كل دار بما يليق بتلك الدار فإن الزيادات في الدار بحسب ما وضعت لها، فالدنيا دار تكليف وعمل، والآخرة دار جزاء، والدنيا أيضاً دار جزاء لمن عقل عن الله، هذا رسول الله ﷺ لما غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر زاد في عبادته ربه فقام حتى تورمت قدماه شكراً لله على ذلك، وهذا جزاء العبد على المغفرة فهي دار جزاء، فيوم الدين هو يوم الدنيا والآخرة، فوضع الحدود جزاء، وجازى أهل الشقاء بما عملوه من مكارم الأخلاق في الدنيا ما أنعم به عليهم من النعم حتى انقلبوا إلى الآخرة وقد جنوا ثمر خيرهم في الدنيا، فلو لم تكن الدنيا أيضاً دار جزاء ما كان هذا، فمن لم يدرك في سجوده أمثال هذه العلوم فلم يسجد.

وصل ـ السجدة الثانية عشرة: وهي سجدة الاجتهاد وبذل المجهود فيما ينبغي لجلال الله من التعظيم والالتذاذ به وهي في ﴿حمٓ﴾ السجدة، وفي موضع سجودها خلاف، فقيل عند قوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٧] فمن سجد هنا جعلها سجدة شرط، ومن سجدها عند قوله: ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٨] كانت عنده سجدة نشاط ومحبة لما كانت حاجة الخلق إلى الليل ليسكنوا فيه ويتخذوه لباساً يحول بينهم وبين أعين الناظرين، وإلى النهار ليتسببوا فيه في تحصيل أقواتهم، ورأوا أن الشمس يكون النهار بطلوعها

ويكون الليل بغروبها نسبوا وجود الليل والنهار إليها فعبدوها وهم الشمسية رأينا منهم خلقاً كثيراً ببلاد يونان ونزلت عند واحد من علمائهم فسألته: لِمَ أشركتم مع الله في عبادته عبادة الشمس؟ فقال لي: ما عبدنا الشمس لكونها أنها حاشى لله بل الله إله واحد وإنما نظر علماؤنا فيما لهذا النير الأعظم من المنافع في العالم ثم عدد ما ربط الله به من المنافع فعرفنا أنه لو لم يكن له عناية من الله به ما ولاّه على هذه الأمور فطلبنا القربة إليه بالتعظيم ليكون لنا أحسن وساطة عند الله في تخليصنا، والشمس عندنا عبد فقير إلى الله تعالىٰ إلاّ أن لله به عناية. هذا قوله لي ونحن على مائدته نأكل ضيافته، يقول الله تعالىٰ في هذه السجدة: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾ الضمير يعود على الله ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ وإن حدث عن الشمس فما هو من آياتها بل هو من آياتي، ثم قال: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٧] وأخبرهم أن الله ممحي آية الليل وهو القمر فلا يظهر لنوره حكم في البصر إلاّ بالليل ونوره معار فإنه انعكاس نور الشمس فإنه لها كالمرآة، فالنور الذي يعطيك القمر إنما هو للشمس وهو موصل لا غير لأنه محو، وجعل ﴿ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٢] يعني نورها ظاهراً للبصر، وجعلنا ذلك الطلوع والغروب لمن يكون حسابه بالشمس ليعلم فصول سنته ومن يكون حسابه بالقمر عدد السنين والحساب.

يقول الله في الأهلة: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٩] فقال لهم: إذا كانت عبادتكم للشمس والقمر لهذه العلة فأنا خالق هذه الآيات دلالات عليّ فاسجدوا لله الذي خلقهم فجميع الليل والنهار والشمس والقمر في الضمير، وغلب هنا التأنيث على التذكير لأن الليل والنهار والشمس والقمر منفعلون لا فاعلون فهو تشبيه واضح لمن عقل، وجمعهن جمع من يعقل من المؤنث، ينبّه بذلك أيضاً على نقص الدرجة التي تنبغي للذكورية ولم يقل خلقهم حتى لا يعظم قدرهم بتغليب التذكير عليهم، فإن العرب تغلب المذكر على المؤنث في كلامها تقول: زيد والفواطم خرجوا ولا تقول خرجن، فالله الذي خلقهن أولى بأن تعبدوه منهن لأن مرتبة الفاعل فوق مرتبة المنفعل فالحق أولى وأحق أن يعبد ممّن له النقص من طريقين: من كونه مخلوقاً ومن كونه مؤنثاً. وقال: إن الذين عند ربك يعني العلماء بالله من الملائكة الذين هم دون مقعر فلك القمر يسبحون له بالليل والنهار وهم أعلم بالله منكم، فلو كان ما اتخذتموه من هؤلاء آلهة لكانت الملائكة أولى بالسجود لهن منكم لعلمكم أنهم أعلم فهم يسجدون لله من غير سآمة ولا فتور.

وصل ـ السجدة الثالثة عشرة: وهي سجدة الطرب واللهو تنبيه الغافلين عن الله، وهي سجدة خاتمة سورة النجم، وفي السجود فيها خلاف، واقترن بسجودها الأمر الإلهيّ والذلّة والمسكنة، لأن السامدين اللاهون فيقول لهم: وإن كنتم أهل غناء فتغنوا بالقرآن فهو أولى بكم فاسجدوا لله واعبدوا. وقد ورد في الخبر: ما أذن الله لنبي كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن يقول: ما استمع كاستماعه، وقال رسول الله ﷺ: «**لَيسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِ**» فجعل التغني به من السنّة وهي لغة حميرية يقولون: اسمد لنا أي غنّ لنا في وقت حصادهم لينشطوا

للعمل، وكانت العرب إذا سمعت القرآن عنت حتى لا تسمع القرآن، وكانوا يقولون ما أخبر الله عنهم ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢٦] كما يفعله اليوم من لم يوفقه الله من العلماء إذا سمعوا كلام أهل الله بما يمنحهم الله من الأسرار يقولون: هذ هذيان وفشار. وأما المتغالون فيقولون: هذا كفر. ولو سئلوا عن معنى ما سمعوا ما عرفو فقال الله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني من القرآن فيما وعظهم به منهم وتوعدهم ووعدهم ﴿تَعْجَبُونَ﴾ [سورة النجم: الآية ٥٩] تكثرون العجب كيف جاء به مثل هذا وما أنزل على عظمائكم كما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣١] ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ [سورة النجم: الآية ٦٠] أي تهزؤون منه إذا أتى به، وهؤلاء هم الذين ذكرنا من جهلهم أنهم لا يعرفون الحق إلاّ بالرجال ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [سورة النجم: الآية ٦١] يقول: لاهون فلا تفعلوا ولا تتكبروا واخضعوا لله الذي هذا كلامه بلغتكم وتذلّلوا لمنزله فإن في القرآن ما يبكي من الوعيد، وما يضحك ويتعجب فيه من الفرح باتساع رحمة الله ولطفه بعباده ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ [سورة النجم: الآية ٦٠] وفي القرآن من الوعيد والمخاوف ما يبكي بدل الدموع دماً لمن دبّر آياته ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ وفي القرآن هذا كله فما لكم عنه معرضون وموطن الدنيا موطن حذر ولا سيما والموت فيكم رائح وغاد مع الأنفاس، ولا تتفكروا إلى أين تصيرون وإلى أين تسافرون وأين تحطون؟ ما هي الدنيا موطن أمان، والعالم الحكيم هو الذي يعامل كل موطن بما يستحقه.

وصل ـ السجدة الرابعة عشرة: وهي سجدة الجمع والوجود، فمن سجد سجدة النجم ولم ينتج له في علم النغمات والألحان المطربة الفلكية ورأى أن أصوات كل مصوت مزامير من مزامير الحق في العالم ويشهد داود عليه السلام في هذا الكشف ويرى الأصوات والحروف ناطقة بكل مغنى عجيب يهزّ الجبال الراسيات طرباً ويضحك الثكلى سروراً وفرحاً فما سجدها، وهذه السجدة الأخرى في سورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [سورة الانشقاق: الآية ١] وفيها خلاف وسجدها أبو هريرة خلف رسول الله ﷺ ويسجد فيها عند قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [سورة الانشقاق: الآية ٢١] فهذا سجود الجمع لأنه سجود عند القرآن، والجمع يؤذن بالكثرة، وقد تكون الكثرة بالأمثال وغيرها، والأحدية وإن كانت لله تعالى فالمقطوع به أحدية الألوهية أي لا إله إلاّ الله، وأحدية الكثرة من حيث أسمائه الحسنى. وأما الحق فلا يقال فيه من حيث ما هو عليه في نفسه كل ولا بعض، ويقال في الواحد منّا: رأيت زيداً نفسه عينه كله لاحتمال أنك قد ترى وجهه دون سائر جسده، فأعطى التأكيد بالكل رؤية جميعه، فلولا وجود الكثرة فيه ما قلت كله، يقول: فإذا سمع القرآن الذي هو جامع صفات الله من التنزيه والتقديس كيف لا يتذكر السامع جمعيته فيسجد لمن له جميع صفات التنزيه، فمن سجد في هذه السورة ولم يقف على علم الموالد وما تجنه الحاملات في بطونها من أنواع الحوامل من العالم كالأرض والسحاب والنساء وجميع الأناثي وما تحمله الكتب في حروفها من المعاني فإنها من جملة الحاملات، ولم يقف فيها على رجوعه من أين جاء ويرى صورة حاله عياناً حالاً وعاقبة بحيث أن يحلف على ما رآه لقطعه به فما سجد.

وصل ـ السجدة الخامسة عشرة: وهي سجدة العقل الأوّل سجود تعليم عن شهود ورجوع إلى الله، وهذه سجدة سورة العلق عند قوله: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [سورة العلق: الآية ١٩] فهي سجدة طلب القرب من الله تعالىٰ، وجاءت بعد كلمة ردع وزجر وهو قوله كلا لما جاء به من: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٤] يقول له ربه: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [سورة العلق: الآية ١٩] لما تعتصم ممّا دعاك إليه فتأمن من غائلة ذلك. انتهى الجزء السابع والأربعون.

(الجزء الثامن والأربعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل في فصل ـ وقت سجود التلاوة: منع قوم السجود في الأوقات المنهي عن الصلاة فيها، وأجاز قوم السجود بعد صلاة العصر وبعد صلاة الصبح ما لم تدن الشمس إلى الغروب أو الطلوع، والذي أقول به بالسجود في كل وقت لأن متعلق النهي الصلاة، وليس السجود من الصلاة شرعاً إلاَّ في الصلاة، كما أن له أن يقرأ الفاتحة في كل وقت وإن كانت قراءتها في الصلاة من الصلاة. اعتبار هذا الفصل السجود قربة تعريف وتنزيه بما يستحقه الإله من العلو والرفعة عن صفات المحدثات، ومثل هذا لا يتقيد بوقت دون وقت بل نسبة تعظيمه وإجلاله إلى الأوقات على السواء، كما أن للعبد أن يناجي ربه بتلاوته كتابه العزيز في كل وقت وهو محمود في ذلك مأجور عند الله عزّ وجلّ.

وصل في فصل ـ من يتوجّه عليه حكم السجود: أجمعوا على أنه يتوجه على القارىء في صلاة كان أو غير صلاة السجود، واختلفوا في السامع، فمن قائل: عليه السجود. ومن قائل: عليه السجود بشرطين: أحدهما أن يسجد القارىء، والآخر أن يكون قعد ليسمع القرآن، وأن يكون القارىء ممّن يصلح أن يكون إماماً للسامع. وقيل عن بعضهم: يسجد السامع لسجود القارىء وإن كان القارىء لا يصلح للإمامة إذا جلس إليه ليسمع، والذي أذهب إليه أنه لا سجود عليهما وإن كرهنا لهما ذلك.

الاعتبار: يجب السجود على القلب، وإذا سجد لا يرفع أبداً بخلاف سجود الوجه، اتفق لسهل بن عبد الله في أوّل دخوله إلى هذا الطريق أنه رأى قلبه قد سجد وانتظر أن يرفع فلم يرفع فبقي حائراً، فما زال يسأل شيوخ الطريق عن واقعته فما وجد أحداً يعرف واقعته، فإنهم أهل صدق لا ينطقون إلاَّ عن ذوق محقق، فقيل له: إن في عبادان شيخاً معتبراً لو رحلت إليه ربما وجدت عنده علم ما تسأل عنه، فرحل إلى عبادان من أجل واقعته فلما دخل عليه سلم وقال: أيها الشيخ أيسجد القلب؟ فقال له الشيخ: إلى الأبد، فوجد شفاه فلزم خدمته.

ومدار هذه الطريقة على هذه السجدة القلبية إذا حصلت للإنسان حالة مشاهدة عين فقل: كمل وكملت معرفته وعصمته فلم يكن للشيطان عليه من سبيل، وتسمى هذه العصمة

في حق الولي حفظاً، كما تسمى في حق النبي والرسول عصمة ليقع الفرق بين الوليّ والنبي أدباً منهم مع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ليختصّوا باسم العصمة، ومع هذا فإني أبين الفرق بينهما وذلك أن الأنبياء لهم العصمة من الشيطان ظاهراً وباطناً وهم محفوظون من الله في جميع حركاتهم، وذلك لأنهم قد نصبهم الله للناس ولهم المناجاة الإلهية، فالأنبياء المرسلون معصومون من المباح أن يفعلوه من أجل نفوسهم لأنهم يشرعون بأفعالهم وأقوالهم، فإذا فعلوا مباحاً يأتونه للتشريع ليقتدى بهم ويعرفون الأتباع عين الحكم الإلهي فيه، فهو واجب عليهم ليبيّنوا للناس ما أنزل إليهم، يقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٧].

وللورثة من هذا التبليغ حظ وافر، والوليّ محفوظ من الأمر الذي يقصد الشيطان عند إلقائه في قلب الوليّ ما شاء الله أن يلقي إليه، فيقلب عينه بصرفه إلى الوجه الذي يرضي الله فيحصل بذلك على منزلة عظيمة عند الله، ولولا حرص إبليس على المعصية ما عاد إلى هذا الوليّ مرة أخرى، فإنه يرى ما جاءه به ليبعده بذلك من الله يزيده قرباً وسعادة، والأنبياء معصومون أن يلقي الشيطان إليهم، فهذا الفرق بين العصمة والحفظ، وإنما جعلوا الحفظ للوليّ أيضاً أدباً مع النبي، فإن الشيطان ما له سبيل على قلوب بعض الأولياء من أجل العلم الذي أعطاه التجلّي الإلهي لقلوبهم يقول تعالىٰ: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [سورة الصافات: الآية ٧] وهو أعظم الشياطين فإنه لا يلقي إلى أحد إلاَّ ما يليق بمقامه، فيأتي إلى الوليّ فما يلقي إليه إلاَّ فعل الطاعات وينوعه فيها ويخرجه من طاعة إلى طاعة أعلى، فلا يرى الوليّ فيها أثراً لهذي نفسي فيبادر إلى فعلها ويقنع الشيطان المارد منه بهذا الأخذ عنه على جهالة، فلو كان على بينة من ربه في ذلك لكان أولى، فالشيطان لا يقدر أن يقدح في علم التجلّي الإلهي بوجه من الوجوه، ولذلك قال رسول الله ﷺ في حق شيطانه أعني قرينه الموكل: «**إِنَّ اللَّهَ أَعَانَهُ عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ**» أي انقاد إليه فلا يأمره إلاَّ بخير، بخلاف من كان عنده العلم بالله عن نظر فكري واستدلال فإن الشيطان يلقي إليه الشبهة في أدلته ليحيره ويرده إلى محل النظر ليموت على جهل بربه أو شك أو حيرة أو وقفة.

والوليّ الحاصل عنده العلم عن التجلّي هو على بصيرة محفوظ من كل شبهة، فإن الشيطان أعني شيطان الإنس والجن ليس له على قلب صاحب علم التجلّي الإلهي سبيل في ربه، وهذا لا يكون لأحد من الأولياء إلاَّ لمن سجد قلبه، فإن الشيطان لا يعتزل عن الإنسان إلاَّ في حال سجوده في الظاهر والباطن، فإن لم يسجد قلب الوليّ فليس بمحفوظ، وهذه مسألة دقيقة عظيمة في طرق أهل الله ما تحصل إلاَّ لأفراد يعزّ وجودهم وهم الذين هم على بينة من ربهم والبينة تجليه تعالىٰ، ويتلو تلك البينة شاهد من العبد معدل وهو سجود القلب، فإذا اجتمعت البينة الربانية والشاهد التالي عصم القلب وحفظ ودعا صاحبه الخلق إلى الله على بصيرة، وعلى هذا المقام من طرق القوم أسباب حار فيها القوم مثل قول أبي يزيد: دعوت الخلق إلى الله كذا وكذا سنّة ثم رجعت إليه فوجدتهم قد سبقوني، وقيل له في هذا المقام:

أيعصي العارف؟ فقال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وهذا غاية في الأدب حيث لم يقل نعم ولا لا، وهذا من كمال حاله وعلمه وأدبه رضي الله عنه وعن أمثاله.

وصل في فصل ـ صفة السجود: فمن قائل: يكبر إذا خفض وإذا رفع. ومن قائل: لا يكبر إلاَّ إذا كانت السجدة في الصلاة حينئذ يكبر لها في الخفض والرفع، والذي أذهب إليه التكبير وإن كان لم ينقل ولا خلافه.

وصل في اعتبار هذا الفصل: تكبير الحق عن السجود محمود على أيّ حال كان، فإنه تنزيه، وينبغي للعبد أن يعطي اللسان حظّه من هذا السجود وليس إلاَّ التلفظ بالتكبير كما سجد سائر أعضائه كل عضو بحقيقته.

وصل في فصل ـ الطهارة للسجود: فمن قائل: لا يسجد إلاَّ على طهارة ومن قائل: يسجد وإن لم يكن طاهراً وبه أقول، وعلى طهارة أولى وأفضل، فإن النبي ﷺ تيمّم لردّ السلام وقال: «**إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَذْكُرَ اللَّهَ إِلاَّ عَلَىٰ طُهْرٍ أَوْ قَالَ: عَلَىٰ طَهَارَةٍ**».

الاعتبار في هذا الفصل: طهارة القلب شرط في صحة السجود لله عزّ وجلّ من كونه ساجداً، وطهارة الجوارح في وقت السجود معقولة من طريق المعنى، فإنها في وقت السجود غير متصرفة في أمر آخر بخلاف القلب، ولهذا إذا سجد قلب العبد لم يرفع أبداً، والجوارح في حال السجود في غير الصلاة متصرفة في عبادة لم يشترط في فعلها استعمال ماء ولا تراب، وإن كان على طهارة فهو أولى وأفضل، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه يسجد للتلاوة على غير طهارة.

وصل في فصل ـ السجود للقبلة: اختلف العلماء رضي الله عنهم في السجود للتلاوة للقبلة، فمن قائل: يسجد في التلاوة لأي وجهة كان وجهه، والأولى استقبال القبلة، ومن قائل: لا بدّ من استقبال القبلة، والذي أقول به بالسجود لأي وجه كان فإن الله يقول: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥] وإذا قدر على القبلة فهو أولى للجمع بين الظاهر والباطن.

وصل في اعتبار ذلك: الله جلّ جلاله عن التقييد فهو قبلة القلوب ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥] حقيقة منزّهة بلا خلاف بين أهل الله، فإذا سجد العبد لله فقد سجد للقبلة المعتبرة فإن الله ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٤] لا تقيده الجهات ولا تحصره الأينيات، وهو بالعين في كل أين ليس ذلك لسواه، ولا يوصف به موجود إلاَّ إياه، فإن جمع الساجد بين القبلتين كما جمع في خلقه بين النشأتين باليدين فيقيد من يقبل التقييد ويطلق من يقبل الإطلاق، فيعطي كل ذي حقّ حقه، كما أن الله أعطى كل شيء خلقه.

وصل في فصل ـ صلاة العيدين حكماً واعتباراً: [نظم: الوافر]

صلاةُ العيد تكرارُ الشُّهودِ ... بما يبدو عليَّ من الوجودِ
إذا جلَّى لنا ما كان منهُ ... لنا منِّي به في كل عيدِ
فعيدي من وجودي يومُ جُودِ ... يَمَنُّ به عليَّ بلا مزيدِ

أكبِّره بسبع ثم خمس عن القرب المقيَّد بالوريدِ
وأطلب منه ما تُعطيه ذاتي لذاك اليوم من لِبْسٍ جديدِ
ولو أني أقولُ بعين كَوْني لميَّزتُ المرادَ من المُريدِ
ولكنْ عنه أعني حين أُكْنِي بحالٍ في هُبُوطٍ أو صُعودِ
أناجيه به في كل حالٍ ويحجبني بلذَّاتِ المزيدِ
وأرفع سِتْرَه عن عين ذاتي فتُغْنيني المطالعُ عن وجودي
بماء حياته طُهْري ومن لم يجِدْ ماءً تيمَّم بالصَّعيدِ
وعيْنُ تيمُّمي ردي بذاتي إليَّ بلا شُهودٍ في شهودِ

صلاة العيدين سنّة بلا أذان ولا إقامة، هما يوما سرور، عيد الفطر لفرحته بفطره فيعجل بالصلاة للقاء ربه فإن المصلي يناجي ربّه، قال رسول الله ﷺ: «**لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ**» فأراد أن يعجل بحصول الفرحتين، فشرعت صلاة عيد الفطر وحرم عليه صوم ذلك اليوم ليكون في فطره مأجوراً أجر الفرائض في عبودية الاضطرار لتكون المثوبة عظيمة القدر. وفي صلاة عيد الأضحى مثل ذلك لصيامه يوم عرفة في حق من صامه، فإنه صوم مرغب فيه في غير عرفة، وحرم عليه صوم يوم الأضحى ليؤجر أجر الواجبات فإنها من أعظم الأجور. ولما كان يوم زينة وشغل بأحوال النفوس من أكل وشرب وبعال شرع في حق من ليس بحاج في ذلك اليوم أن يستفتح يومه بالصلاة بمناجاة ربه لتحفظه سائر يومه، فإن الصلاة في ذلك اليوم في أوّل النهار كالنية في الصلاة، فكما أن النية تحفظ عليه هذه العبادة وإن صحبته الغفلة في أثناء صلاته فالنية تجبر له ذلك فإنها تعلقت عند وجودها بكمال الصلاة فحكمها سار في الصلاة وإن غفل المصلي كذلك الصلاة في يوم العيد تقوم مقام النية واليوم يقوم مقام الصلاة، فما كان في ذلك اليوم من الإنسان من لهو ولعب وفعل مباح فهو في حفظ صلاته إلى آخر يومه ولهذا سميت صلاة العيد، أي تعود إليه في كل فعل يفعله من المباحات بالأجر الذي يكون للمصلي حال صلاته وإن غفل لصحة نيته، ولهذا حرم عليه الصوم فيه تشبهاً بتكبيرة الإحرام، وليقابل به نية الصوم في حال وجوب الصوم فيكون في فطره صاحب فريضة، كما كان في صومه في رمضان صاحب فريضة، فجميع ما يفعله من المباحات في ذلك اليوم مثل سنن الصلاة في الصلاة، وجميع ما يفعله من الفرائض في ذلك اليوم والواجبات من جميع العبادات بمنزلة الأركان في الصلاة، فلا يزال العبد في يوم العيدين حاله في أفعاله كلها حال المصلي فلهذا قلنا: سميت صلاة العيد بخلاف ما يقول من ليس من طريقنا ولا شرب شربنا من أنه سمّي بذلك لأنه يعود في كل سنة، فهذه الصلوات الخمس تعود في كل يوم ولا تسمّى صلاة عيد وإن كان لا يلزم هذا ولكن هو قول في الجملة. يقال: فإن قيل: لارتباطه يوم العيد بالزينة، قلنا: والزينة مشروعة في كل صلاة فإن الله يقول: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣١] للمؤمنين من بني آدم، فلما عاد الفطر عبادة مفروضة سمّي عيداً وعاد ما كان مباحاً واجباً.

فصول ـ ما أجمع عليه أكثر العلماء: الغسل مستحسن في هذا اليوم للخروج إلى الصلاة بلا خلاف أعني في استحسانه، والسنّة ترك الأذان والإقامة إلاّ ما أحدثه معاوية على ما ذكره أبو عمر بن عبد البر في أصحّ الأقاويل عنه في ذلك، والسنّة تقدّم الصلاة على الخطبة في هذا اليوم إلاّ ما فعله عثمان بن عفان رضي الله عنه وبه أخذ عبد الملك بن مروان رحمه الله نظراً واجتهاداً ومبني على ما فهم من الشارع من المقصود بالخطبة ما هو، وأجمعوا أن لا توقيت في القراءة في صلاة العيدين مع استحباب قراءة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في الأولى، وفي الثانية: الغاشية، وكذلك سورة ﴿قٓ﴾ في الأولى، وسورة القمر في الثانية، اقتداء برسول الله ﷺ.

الاعتبار في هذا الفصل: الغسل وهو الطهارة العامّة، والطهارة تنظيف فليلبس أحسن لباسه ظاهراً وهو الريش وباطناً وهو لباس التقوى، والمراد بالتقوى هنا ما يقي به الإنسان كشف عورته أو ألم الحر والبرد وهو خير لباس من الريش، ولما توفرت الدواعي على الخروج في هذا اليوم إلى المصلى من الصغير والكبير وما شرع من الذكر المستصحب للخارجين سقط حكم الأذان والإقامة لأنهما للإعلام لينبّه الغافلين والتهيؤ هنا حاصل، فحضور القلب مع الله يغني عن إعلام الملك بلمته التي هي بمنزلة الأذان والإقامة للإسماع، والذي أحدث معاوية مراعاة للنادر وهو تنبيه الغافل فإنه ليس ببعيد أن يغفل عن الصلاة بما يراه من اللعب بالتفرّج فيه، وكانت النفوس في زمان رسول الله ﷺ متوفرة على رؤيته ﷺ وفرجتها في مشاهدته وهو الإمام، فلم يكن يشغلهم عن التطلّع إليه شاغل في ذلك اليوم فلم يشرع أذاناً ولا إقامة.

وأمّا تقديم الصلاة على الخطبة فإن العبد في الصلاة مناج ربه، وفي الخطبة مبلغ للناس ما أنزل إليه من التذكير في مناجاته، فكان الأولى تقديم الصلاة على الخطبة وهي السنة، فلما رأى عثمان بن عفان أن الناس يفترقون إذا فرغوا من الصلاة ويتركون الجلوس إلى استماع الخطبة قدم الخطبة مراعاة لهذه الحالة على الصلاة تشبّهاً بصلاة الجمعة، فإنه فهم من الشارع في الخطبة إسماع الحاضرين، فإذا افترقوا لم تحصل الخطبة لما شرعت له، فقدّمها ليكون لهم أجر الاستماع، ولو فهم عثمان رضي الله عنه من النبيّ ﷺ خلاف هذا ما فعله واجتهد، ولم يصدر من النبيّ ﷺ في ذلك ما يمنع منه، ولقرائن الأحوال أثر في الأحكام عند من ثبتت عنده القرينة، وتختلف قرائن الأحوال باختلاف الناظر فيها ولا سيما وقد قال ﷺ: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُوني أُصَلِّي**» وقال في الحج: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**» فلو راعى ﷺ صلاة العيد مع الخطبة مراعاة الحج ومراعاة الصلاة لنطق فيها كما نطق في مثل هذا.

وكذلك ما أحدثه معاوية كاتب رسول الله ﷺ وصهره خال المؤمنين فالظنّ بهم جميل رضي الله عن جميعهم ولا سبيل إلى تجريحهم، وإن تكلم بعضهم في بعض فلهم ذلك وليس لنا الخوض فيما شجر بينهم فإنهم أهل علم واجتهاد وحديثو عهد بنبوّة، وهم مأجورون في كلّ ما صدر منهم عن اجتهاد سواء أخطؤوا أم أصابوا. وأما التوقيت في القراءة فما ورد عن

النبيّ ﷺ في ذلك كلام وإن كان قد قرأ بسورة معلومة في بعض أعياده ممّا نقل إلينا في أخبار الآحاد، وقد ثبت في القرآن المتواتر أن لا توقيت في القراءة في الصلاة بقوله: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ [سورة المزمل: الآية ٢٠] و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧] وهو ما يتذكره في وقت الصلاة والقرآن كله طيب وتاليه مناج ربه بكلامه، فإن قرأ بتلك السورة فقد جمع بين ما تيسّر والعمل بفعله ﷺ فهو مستحب والتأسي به مشروع لنا وليس بفرض ولا سنّة.

وصل في فصل ـ التكبير في صلاة العيدين: فقال قوم: يكبر بعد تكبيرة الإحرام وقبل القراءة في الركعة الأولى سبع تكبيرات، وقيل: بتكبيرة الإحرام، ويكبر في الثانية بعد تكبيرة القيام إلى الركعة الثانية خمس تكبيرات. وقال آخرون: يكبر في الأولى قبل القراءة وبعد تكبيرة الإحرام ثلاث تكبيرات، ويكبر في الركعة الثانية بعد القراءة ثلاث تكبيرات ثم يكبر للركوع. وحكى أبو بكر بن إبراهيم بن المنذر في التكبير اثني عشر قولاً.

وصل في اعتبار هذا الفصل: زيادة التكبير في صلاة العيدين على التكبير المعلوم في الصلوات تؤذن بأمر زائد يعطيه اسم العيد فإنه من العودة فيعاد التكبير لأنها صلاة عيد فيعاد كبرياء الحق تعالىٰ قبل القراءة لتكون المناجاة عن تعظيم مقرّر مؤكّد، لأن التكرار تأكيد للتثبيت في نفس المؤكد من أجله مراعاة لاسم العيد، إذ كان للأسماء حكم ومرتبة عظمى فإنّ بها شرف آدم على الملائكة، فاسم العيد أعطى إعادة التكبير لأن الحكم له في هذا الموطن، وبعد القراءة في مذهب من يراه لأجل الركوع في صلاة العيد، وسبب ذلك أن العيد لما كان يوم فرح وزينة وسرور واستولت فيه النفوس على طلب حظوظها من النعيم وأيّدها الشرع في ذلك بتحريم الصوم فيه وشرع لهم اللعب في هذا اليوم والزينة، وفي هذا اليوم لعبت الأحابشة في مسجد رسول الله ﷺ وهو واقف ينظر إليهم وعائشة رضي الله عنها خلفه ﷺ، وفي هذا اليوم دخل بيت رسول الله ﷺ مغنيتان فغنتا في بيت رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ يسمع، ولما أراد أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث دخل أن يغير عليهما قاله له رسول الله ﷺ: **«دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّهُ يَوْمُ عِيدٍ»**.

فلما كان هذا اليوم يوم حظوظ النفوس شرع الله تضاعف التكبير في الصلاة ليتمكن من قلوب عباده ما ينبغي للحق من الكبرياء والعظمة لئلا تشغلهم حظوظ النفوس عن مراعاة حقّه تعالىٰ بما يكون عليهم من أداء الفرائض في أثناء النهار أعني صلاة الظهر والعصر وباقي الصلوات، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] يعني في الحكم، فمن رآه ثلاث تكبيرات فلعوالمه الثلاثة لكل عالم تكبيرة في كل ركعة، ومن رآه سبعاً فاعتبر صفاته فكبّر لكل صفة تكبيرة فإن العبد موصوف بالصفات السبعة التي وصف الحق بها نفسه فكبّره أن تكون نسبة هذه الصفات إليه سبحانه كنسبتها إلى العبد فقال: الله أكبر، يعني من ذلك في كل صفة والمكبر خمساً فيها فنظره في الذات والأربع الصفات التي يحتاج إليها العالم من الله أن يكون موصوفاً بها، وبها ثبت كونه إلهاً فيكبره بالواحدة لذاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

شَيۡءٞۖ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ويكبره بالأربع لهذه الصفات الأربع خاصة على حد ما كبره في السبع من عدم الشبه في المناسبة فاعلم ذلك. وأمّا رفع الأيدي فيها فإشارة إلى أنه ما بأيدينا شيء ممّا ينسب إلينا من ذلك، وأمّا من لم يرفع يديه فيها فاكتفى برفعها في تكبيرة الإحرام ورأى أن الصلاة أقرّت بالسكينة فلم يرفع إذ كانت الحركة تشوّش غالباً ليتفرّغ بالذكر بالتكبير خاصة ولا يعلق خاطره بيديه ليرفعهما فينقسم خاطره، فكل عارف راعى أمراً ما فعمل بحسب ما أحضره الحق فيه.

وصل في فصل في التنفل قبل صلاة العيد وبعدها: فمن قائل: لا يتنفل قبلها ولا بعدها. ومن قائل: بالعكس. ومن قائل: لا يتنفل قبلها ويتنفل بعدها، والذي أقول به أن الموضع الذي يخرج إليه لصلاة العيد لا يخلو إمّا أن يكون مسجداً في الحكم كسائر المساجد فيكون حكم الآتي إليه حكم من جاء إلى مسجد، فمن يرى تحية المسجد فليتنفل كما أمر في ركعتي دخول المسجد، وإن كان فضاء غير مسجد موضوع فهو مخيّر إن شاء تنفل وإن شاء لم يتنفل.

وصل الاعتبار في هذا الفصل: المقصود في هذا اليوم فعل ما كان مباحاً على جهة الفرض والندب، خلاف ما كان عليه ذلك الفعل في سائر الأيام فلا يتنفل فيه سوى صلاة العيد خاصة، والفرائض إذا جاءت أوقاتها فإن حركة الإنسان في ذلك اليوم في أمور مقرّبة مندوب إليها وفي فرض، ومن كان في أمر مندوب إليه مربوط بوقت فينبغي أن يكون له الحكم من حيث إن الوقت لذلك المندوب المعين فهو أولى به فلا يتنفل وقد ندب إلى اللعب والفرح والزينة في ذلك اليوم فلا يدخل مع ذلك مندوباً آخر يعارضه، فإذا أزال زمانه حينئذ له أن يبادر إلى سائر المندوبات ويرجع ما كان مندوباً إليه في هذا اليوم مباحاً فيما عداه من الأيام، وهذا هو فعل الحكيم العادل في القضايا، فإن لنفسك عليك حقاً، واللعب واللهو والطرب في هذا اليوم من حق النفس، فلا تكن ظالماً نفسك فتكون كمن يقوم الليل ولا ينام فإن تفطنت فقد نبهتك.

وصل في فصول ـ الصلاة على الجنازة: الصلاة على الميت شفاعة من المصلي عليه عند ربه، ولا تكون الشفاعة إلاّ لمن ارتضى الحق أن يشفع فيه، ولم يرتض سبحانه من عباده إلاّ العصاة من أهل التوحيد، سواء كان ذلك عن دليل أو إيمان، ولهذا شرع تلقين الميت ليكون الشفيع على علم بتوحيد من يشفع فيه، وآخر شافع حيث كان الاسم الرؤوف يشفع عند الاسم الجبار المنتقم في نجاة من عنده علم التوحيد مع وصول الدعوة إليه وتوقفه في القبول، فإن الموحد الذي لم تصل إليه الدعوة لا يدخل النار، فلا تكون الشفاعة إلاّ في العصاة الذين بلغتهم الدعوة، فمنهم من آمن، ومنهم من توقف إيمانه بهذا الشخص من أجل ما جاء به لأنه استند إلى عظيم لا ينبغي أن يفترى عليه فاحتاج إلى دليل يقطع به على صدق دعواه فيما يبلغه أنه من عند الله، فلهذا توقف إذ لم يرزقه الله العلم الضروريّ ابتداء بصدق دعوى هذا الرسول قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٥] يعني

نبعثه بالآيات البينات على صدق دعواه، وكذا أخبر الله تعالىٰ أنه أيّد الرسل بالبينات ليعذر الإنسان من نفسه، والإيمان نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده، فإذا انضاف إلى نور العلم فهو نور على نور، فلنشرع في حال الميت الذي يصلي عليه وما يجب له وما يجب من أجله علينا من تجهيزه على الصفات التي أمرنا الشارع بها، فمن ذلك التلقين التلقين عند الموت إذا احتضر، فإن الهول شديد والمقام عظيم وهو وقت الفتنة التي هي فتنة المحيا بما يكشفه المحتضر عند كشف الغطاء عن بصره، فيعاين ما لا يعاينه الحاضر، ويتمثل له من سلف من معارفه على الصور التي يعرفهم فيها وهم الشياطين تتمثل إليه على صورهم بأحسن زيّ وأحسن صورة، ويعرفونه أنهم ما وصلوا إلى ما هم فيه من الحسن إلاّ بكونهم ماتوا مشركين بالله، فينبغي للحاضرين عنده في ذلك الوقت من المؤمنين أن يلقنوه شهادة التوحيد ويعرفوه بصورة هذه الفتنة لينتبه بذلك فيموت مسلماً موحداً مؤمناً، فإنه عندما يتلفظ بشهادة التوحيد ويتحرّك بها لسانه أو يظهر نورها من قلبه بتذكره إياها، فإن ملائكة الرحمة تتولاه وتطرد عنه تلك الصور الشيطانية التي تحضره الحالة الثانية من التلقين.

وكذلك ينبغي أن يلقن إذا أنزل في قبره وستر بالتراب من أجل سؤال القبر، فإن الملكين منظرهما فظيع، وسؤالهما عن رسول الله ﷺ بكلام ما فيه تعظيم ولا تبجيل في حق رسول الله ﷺ، وذلك أن يقولا له: ما تقول في هذا الرجل؟ وهذه هي فتنة الممات المستعاذ منها. وأمّا استعاذة الأنبياء عليهم السلام منها فإنهم مسؤولون عمّن أرسل إليهم وهو جبريل عليه السلام كما نسأل نحن عن رسول الله ﷺ، فكان النبيّ ﷺ يستعيذ في التشهّد في الصلاة من فتنة المحيا والممات لعلمه بأن الأنبياء تفتن في الممات كما يفتن المؤمنون، فأمر المؤمنين بالاستعاذة من ذلك في الصلاة، فإن الإنسان في الصلاة في مقام قربة من الله بمناجاته فيسأله على الكشف.

وصل: وممّا يستحب من الشروط المخاطب بها أهل الميت أن يستقبلوا به القبلة عند الاحتضار، فإن كان على قفاه فيستقبل القبلة برجليه وإن كان على جنبه فيستقبل القبلة بوجهه.

وصل: وممّا يستحب تعجيل دفنه والإسراع به إلى قبره، فإن كان سعيداً أسرعتم به إلى خيره، وإن كان شقياً فشرّ تضعونه عن رقابكم، فيراعى الميت في السعادة، ويراعى الحيّ الذي هو حامله بوضع الشرّ عنه، فهذا إسراع من أجل الميت، وهذا إسراع من أجل حامله، وإنما ورد التفسير من الشرع في الإسراع بهذا ليعلم أن الله ما كلف عباده إلاّ من أجل الخير لا لينالوا بذلك شرّاً، فاعتبر في حق الشقيّ حامله فقال: أسرعوا بالجنازة فإنه شرّ تضعونه عن رقابكم، واعتبر في حمل السعيد الميت فقال: أسرعوا به فإنه خير تقدّمونه إليه، فما ألطف حكم الشارع، وقد ورد أنّ العجلة من الشيطان إلاّ في ثلاث منها تجهيز الميت ومن تجهيزه الإسراع به إلى دفنه فيقول الميت وهو على نعشه حين يحمل إذا كان سعيداً: قدّموني قدّموني، وإذا كان شقياً يقول: إلى أين تذهبون بي؟ يسمع ذلك منه كل دابة إلاّ الثقلين.

وصل: وممّا يتعلق بالحيّ من الميت أيضاً غسله وهو كالطهارة للصلاة وفعله مخاطب

به الحيّ، واختلف الناس فيه أعني في حكمه، فمن قائل: إنه فرض على الكفاية. ومن قائل: إنه سنّة على الكفاية. فمن قال بوجوبه فللأمر الوارد في قوله ﷺ: «**اغسِلْنَهَا ثَلاثاً أَوْ خَمْساً**». وقوله في المحرم «**اغسِلُوهُ**» فهذا أمر في الصيغة بلا شك، فإذا اقترنت معه قرينة حال تخرجه مخرج التعليم لصفة الغسل جعلته سنّة، ومن رأى أنه يتضمن الأمر والصفة قال بالوجوب.

واعتبار: الميت الجاهل والموت الجهل فيجب على العالم تعليم الجاهل لأن من جهل الجاهل أنه لا يعلم أنّ السؤال يجب عليه فيما لا يعلمه فيتعين على العالم أن يعلمه أن من لا يدري حكم الشرع في حركاته أن يسأل أهل الذكر ومتى لم يفعل فقد عصى، ويعلمه ما يتعين عليه تعليمه إياه فتلك طهارته، وهذا هو غسل الميت في الاعتبار مختصر.

فصل في الأموات الذين يجب غسلهم: فأمّا الأموات الذين يجب غسلهم فاتفقوا على غسل الميت والمقتول الذي لم يقتل في معترك حرب الكفار، واختلفوا في الشهيد المقتول في حرب الكفار، وفي غسل المشرك، وفي غسل من ينطلق عليه اسم شهيد، وفيمن قتله مشرك في غير المعترك، فمن قائل: يغسل كل هؤلاء. ومن قائل: لا يغسلون، فمن راعى أن الغسل عبادة يعود ما فيها من الثواب على المغسول قال: لا يغسل المشرك. ومن رأى أن غسل الميت تنظيف قال: يغسل المشرك وأمر النبيّ ﷺ بغسل عمّه أبي طالب وهو مشرك. وأمر النبيّ ﷺ بقتلى أحد أن يدفنوا في ثيابهم ولا يغسلون. فمن رأى أن الشهيد لا يغسل لمطلق الشهادة قال: لا يغسل من نص النبيّ ﷺ أنه شهيد. ومن رأى وفهم من النبيّ ﷺ بقرينة حال أن الشهيد الذي لا يغسل هو المقتول في المعترك في حرب الكفار قال: يغسل ما عداه.

وصل اعتبار هذا الفصل: المقتول في سبيل الله في معترك حرب الكفار حيّ يرزق، وإنما أمرنا بغسل الميت، وهذا الشهيد الخاص لا يقال فيه إنه ميت ولا يحسب أنه ميت بل هو حيّ بالخبر الإلهيّ الصدق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولكنّ الله أخذ بأبصارنا عن إدراك الحياة القائمة به، كما أخذ بأبصارنا عن إدراك أشياء كثيرة، كما أخذ أيضاً بأسماعنا عن إدراك تسبيح النبات والحيوان والجماد وكل شيء قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٩] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٤] بحياتهم، كما يحيى الميت عند السؤال ونحن نراه من حيث لا نشعر، ونعلم قطعاً أنه يسأل ولا يسأل إلاّ من يعقل ولا يعقل إلاّ من هو موصوف بالحياة، فنهينا أن نقول فيهم أموات وأخبرنا أنهم أحياء ولكن لا نشعر. وما ورد مثل هذا في من لم يقتل في سبيل الله فهو ميت وإن كان شهيداً أو هو حيّ مثله، وما أخبرنا بذلك الشهيد هو الحاضر عند الله ولهذا قال: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٩] وإنما يغسل الميت ويطهر ليحضر عند ربه طاهراً فيلقاه في البرزخ بعد الموت على طهارة مشروعة، وهذا الشهيد حاضر عند ربه بمجرّد الشهادة التي هي القتل في سبيل الله فإنه لا يغسل وهو عند ربه.

وصل في اعتبار غسل المشرك: وهو القائل بالأسباب بالركون إليها والاعتماد عليها والاعتقاد بأن الله يفعل الأشياء بها لا عندها، وذلك لعدم علمه لضعف نفسه واضطراب إيمانه كما يضطرب في صدق وعده تبارك وتعالىٰ في الرزق مع قسمه سبحانه عليه لعباده فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢٣] فهذا ضرب من الشرك الصريح لا الخفي لغلبة الطبع عليه في مألوف العادة، قال بعضهم موبخاً لمن اضطرب إيمانه: [الطويل]

وترضَى بصرَّافٍ وإن كان مُشركاً ضميناً ولا ترضى بربِّك ضامِنا

فيجب على العلماء بالله طهارة قلب هذا الميت وغسله باليقين والطمأنينة حتى يتنظف قلبه فيجب غسل المشرك، ومن رأى أن مثل هذا الشرك لا يقدح في الإيمان بالرزق ويقول: إنما اضطرب بالطبع لكون الحق ما عين الوقت ولا المقدار منه. فاعلم أنّ الله بحكمته قد ربط المسببات بالأسباب، وأنّ ذلك الاضطراب ما هو عن تهمة من المؤمن في حق الله وأنه ربما لا يرزقه، وإنما ذلك الاضطراب اضطراب البشرية والإحساس بألم الفقد وعدم الصبر، فإن الله قد أعلمه أنه يرزقه ولا بدّ سواء كان كافراً أو مؤمناً لكونه حيواناً فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [سورة هود: الآية ٦] ولكن ما قال له متى ولا من أين فما عين الزمان ولا السبب، بل أعلمه أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فما يدري عند فقد السبب المعتاد لحصول الرزق عند وجوده هل فرغ وجاء أجله أم لا؟ فيكون فزعه واضطرابه من الموت فإن الموت فزع، أمّا للمؤمن فلما قدّم من إساءة، وإما للعارف فللحياء من الله عند القدوم عليه، والكافر لفقد المألوفات، فالصورة في الخوف واحدة والأسباب مختلفة: [الطويل]

ومَنْ لم يمُتْ بالسيف مات بغيره تنوَّعتِ الأسبابُ والداءُ واحِدُ

وإن كان لم يفرغ رزقه في علم الله فيكون اضطرابه لجهله بوقت حصول الرزق كما قدمنا بانقطاع السبب، فيخاف من طول المدة وألم الجوع المتوقع والحاجة الداعية له إلى الوقوف فيه لمن لا يسهل عليه الوقوف بين يديه في ذلك لعزّة نفسه عنده، وقد كان رسول الله ﷺ يتعوّذ من الجوع ويقول: إنه بئس الضجيع فإنه بلاء من الله يحتاج من قام به إلى صبر، ولا علم له هل يرزقه الله الصبر عند ذلك أم لا؟ فإن القليل من عباد الله من يرزقه الله الصبر عند البلاء، ولهذا شرع التطبّب لسكون النفس وخور الطبيعة بالاستناد إلى سبب حصول الصحة المتوهمة وهو اختلاف الطبيب إليه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وهذه كلها أسباب بلاء يبتلي الله به عباده حتى يعلم الصابرين منهم كما أخبر، وهو العالم بالصابر منهم وغير الصابر، ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٥] على ما ابتليتهم به من ذلك، ثم من فضله ورحمته، نعت لنا الصابرين لنسلك طريقهم ونتصف بصفاتهم عند حلول الرزايا والمصائب التي ابتلى الله بها عباده فقال في نعت الصابرين: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٦] يريد في رفعها عنهم. ثم أخبر بما يكون منه لمن هذه صفته فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ يقول: إن الله يشكرهم على ذلك ﴿وَرَحۡمَةٞۖ﴾ بإزالتها عنهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٧] الذين بانت لهم الأمور على ما هو الأمر عليه. فمن رأى هذا قال: لا يغسل المشرك أي هذا المشرك لأن إيمانه بتوحيد الله صحيح فلا يطهر من حيث إنه مؤمن بل طهر وغسل، فمن كونه ضعيف اليقين في الاعتماد على مراد الله فيما قطعه من الأسباب في حقه.

وصل في ذكر من يغسل ويغسل: اتفق العلماء رضي الله عنهم أن الرجل يغسل الرجل والمرأة تغسل المرأة لاختلاف بينهم في ذلك إذا ماتت.

الاعتبار: الكامل في المرتبة يرى منه الكامل أيضاً فيها مع ما هم فيه من التفاضل فيها، قال تعالىٰ: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] مع اجتماعهم في الرسالة والكمال وقال: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٥٥] مع اجتماعهم في درجة النبوّة، فإذا رأى الكامل من الكامل أمراً يجب عليه تطهيره منه طهره منه، ولزم الكامل الآخر اتباعه في ذلك لا يأنف من ذلك، يقول رسول الله ﷺ في حق موسىٰ كليم الله عليه السلام ولا نشك في كمالهما: «**لَوْ كَانَ مُوسَى حَيّاً لَمَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتبعَنِي**» وسبب ذلك مع وجود الكمال أن الحكم لصاحب الوقت وهو الحكم الناسخ وهو الحيّ، والحكم المنسوخ هو الميت، فللوقت سلطان ولو كان صاحبه ينقص عن درجة الكمال فله السلطان على الكامل فكيف وهو كامل؟ فالنسخ له كالموت فينوب عنه في تطهيره، فإنه لو كان حياً لطهر نفسه، كما أن الكامل لو كشف له عمّا نقصه لتعمل في تحصيله، وكذلك حكم من نقص عن درجة الكمال في الطريق، فينبغي للمريد أن يغسل المريد إذا طرأ منه ما يوجب غسله، وينبغي للآخر أن يقبل منه فإنهم أهل إنصاف مطلبهم واحد وهو الحق فإنا مأمورون بذلك فإن ذلك موت في حقه، والله يقول في هؤلاء: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [سورة العصر: الآية ٣].

وأمرنا بالتعاون على البر والتقوى، ونهانا عن التعاون على الإثم والعدوان، فإن صاحب الشهوة الغالبة عليه في الطبع وصاحب الشبهة الغالبة عليه في العقل محجوبان عن حكمهما فيها، لأن صاحب الشبهة يتخيل أنها دليل في نفس الأمر، وصاحب الشهوة يتخيل أنها في الله في نفس الأمر، فيتعين على العالم بهذا وإن كان ليس محله الكمال، ويكونان هذان أكمل منه أو لهما الكمال إلاَّ أنه يعلم تلك المسألة فيجب عليه أن يطهره من تلك الشبهة لاتصاف صاحبها بالموت فيها لأنه لا علم له بها، وكذلك صاحب الشهوة فإن كانت تلك الشبهة في معترك حرب النظر الفكري والاجتهاد في طلب الأدلة فغلبته كان قتيلاً بها ولها في نفس الأمر في سبيل الله من يد مشرك فإنه ما قصد إلاَّ الخير فهو في سبيل الله، فإن الشبهة تشارك الدليل في الصورة فهو حيّ غير متصف بالموت فلا يجب غسله على الحيّ العالم بكون ما هو فيه أنه شبهة، فليس للمجتهد أن يحكم على المجتهد، فإن الشرع قرّر حكمهما، كمن يرى أن صفات الحق تعلق ذاته بما يجب لتلك النسب من الحكم، ويرى آخر أن صفات

الحق أعيان زائدة على ذات الحق وقد اجتمعا في كون الحق حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً، هذا في العقائد، وذلك عن نظر واجتهاد، فهو قتيل ميت عند النافي صاحب شبهة، وهو حيّ عند نفسه وعند ربّه صاحب دليل وإن أخطأ فلا يجب غسله، وكذلك في الظنيات، ليس للشافعي مثلاً إذا كان حاكماً أن يرد شهادة الحنفي إذا كان عدلاً مع اعتقاد تحليل النبيذ، ويحدّه عليه إن شربه الحنفي لكونه حاكماً يرى تحريمه لدليله فيجب عليه إقامة الحد، وكالحنفي إذا كان حاكماً وقد رأى شافعياً تزوج بابنته المخلوقة من ماء الزنى منه ويشهد عنده فلا يرد شهادته إذا كان عدلاً ويفرق بينه وبين زوجته التي هي ابنته لصلبه المخلوقة من ماء الزنى لكونه حاكماً ذا سلطان فإنه صاحب الوقت، فهذا بمنزلة الشهيد لا يغسل، وإن كنّا نشهد حسّاً أن روحه فارقت بدنه كسائر القتلى، والحكم لله ليس لغيره وقد قرّر حكم المجتهد فليس لنا إزالة حكم اجتهاده فإن ذلك إزالة حكم الله في حقه، أصل هذا الباب في قبول الكامل ما يشير به الأنقص في المسألة التي هو أعلم بها منه حديث تأبير النخل قوله ﷺ لأصحابه: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ دُنْيَاكُمْ**» ورجع إلى قوله وكذلك رجوعه ﷺ إلى قولهم يوم بدر في نزوله على الماء.

وصل في فصل ـ المرأة تموت عند الرجال والرجل يموت عند النساء وليسا بزوجين:
اختلف العلماء رضي الله عنهم في الرجل يموت عند النساء والمرأة تموت عند الرجال وليس بزوجين على ثلاثة أقوال: فمن قائل: يغسل كل واحد منهما صاحبه، ومن قائل: ييممه ولا يغسله. ومن قائل: لا يغسل واحد منهما صاحبه ولا ييممه. والذي أقول به: يغسل كل واحد منهما صاحبه خلف ثوب يكون على الميت إن كان من ذوي المحارم أو ستر مضروب بين الميت وبين غاسله، وصورة غسله: يصب الماء عليه من غير مدّ يد إلى عضو من أعضاء الميت إلاّ إن كان من ذوي المحارم فيجتنب مدّ اليد إلى الفرجين ويكتفي بصب الماء عليهما بالحائل لا بدّ من ذلك هذا الذي أذهب إليه في مثل هذه المسألة.

الاعتبار في هذا الفصل: الموت في الاعتبار في هذا الطريق شبهة تطرأ على هذا الشخص في نظره طروّ الموت على الحيّ أو شهوة طبيعية تحكم عليه وتعميه فيأتيها بشبهة عنده هي أنه يرى ربّه في الأشياء فهو ميت عند الجماعة بلا خلاف، كاملاً كان أو ناقصاً عن درجة الكمال، فقد قال الله في الكامل: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ١٢١] أي خاف وهو قد أكل بالتأويل وظنّ أنه مصيب غير منتهك للحرمة في نفس الأمر، وكان متعلق النهي القرب لا الأكل فيقوى التأويل، وقال في الكمل الذين ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦] لما ألجأتهم الغيرة الإلهية التي نطقتهم بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ فقال: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] وأما غير الكامل فرتبته معروفة، والناقص قد يكون مريداً بين يدي الكامل داخلاً تحت حكمه وطاعته شبيه الزوجين وهو كالواحد من الأمة مع نبيه المبعوث إليه، فهذا العارف الكامل مع تلميذه فقد يموت الكامل في مسألة ما لا يعلمها ويعلمها المريد فيشهدها الشيخ من التلميذ مثل ما تقدّم في الحديثين قبل هذا، فهكذا

حال التلامذة مع الشيوخ، فإنّ الشيوخ ما تقدّموا عليهم إلاّ في أمور معينة هي مطاوبة للاتباع.

فإن كان المريد مريداً لغير ذلك الشيخ وأعني بالمريد التلميذ والرجل من الناس لغير ذلك النبيّ في الزمان الذي قبل زمان رسول الله ﷺ، فإن كانت المسألة التي جهلها هذا الناقص ممّا تختص بالطريق العام من حيث ما هو طريق إلى الله فإن لغير شيخه أن يطهره منها بما تبين له فيها، وله أن يقبل منه إن أراد الفلاح ووفى الطريق حقّه، وإن كانت المسألة التي جهلها غير عامّة وتكون خاصة بالنظر إلى مقام ذلك الشيخ وإن كان نقصاً عند هذا الشيخ الآخر فليس له أن يردّ ذلك المريد عن تلك المسألة، كما أنه ليس لمجتهد أن يردّ مجتهداً آخر إلى حكم ما أعطاه دليله، ولا لمقلد مجتهد أن يرد مقلداً مجتهداً آخر عن مسألته التي قلّد فيها إمامه إذ قال له: هذا حكم الله، فإن كانت المسألة عامّة مثل أن يقدح في التوحيد أو في النبوّات فله تطهيره منها سواء كان ذلك المريد تحت حكمه أو لم يكن، وصورة غسله وطهارته التي يلزمه هو أن يعرفه وجه الحق في المسألة ولا يبالي أخذ بها أو لم يأخذ كغسل الميت، فإن كان محلاً لقبول الغسل انتفع به، وإن لم يكن محلاً ولا أهلاً لقبول الغسل وأريد بالمحل الأهلية وإن غسل فهو كغسل المشرك لم ينتفع به وقد أدّى الحيّ ما عليه، فإن الداعي إلى الله ما يجب عليه إلاّ البلاغ كما قال: ﴿مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٩] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٩] ما يلزمه خلق القبول والهداية في نفس السامع.

فمن علم عدم القبول قال: لا يغسل واحد منهما صاحبه، وإن كانت المسألة في العقائد قال بالغسل، وإن كانت في فروع الأحكام قال بالتيمم فإن موضع التيمم من الشخصين ليس بعورة، فإن الوجه والكفين من المرأة ما هما عورة فله أن ييممها، وتيممه إذا مات كذلك الحكم الشرعي العام لا يتوقف سماع المريد على أحد من أهل الفتوى بل يأخذه المريد من كل شيخ والشيخ من كل مريد لأن الحكم ليس لواحد منهما بل هو لله بخلاف المباحات والمندوبات في الرياضات والمجاهدات فليس للمريد أن يخرج عن حكم شيخه في ذلك.

وصل في فصل ـ غسل من مات من ذوي المحارم: اختلف قول بعض الأئمة في ذوي المحارم فقول: إن الرجل يغسل المرأة والمرأة تغسل الرجل، وقول: لا يغسل أحد منهما صاحبه، وقول: تغسل المرأة الرجل ولا يغسل الرجل المرأة، وقد تقدّم في الفصل قبل هذا مذهبنا في هذا.

وصل في الاعتبار: ذوو المحارم أهل الشرع كلهم، فالرجل منهم الكامل هو الذي أحكم العلم والعمل فجمع بين الظاهر والباطن والناقص منهم هم الفقهاء الذين يعلمون ولا يعملون ويقولون بالظاهر ولا يعرفون الباطن، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٧] فإذا وقع ذو محرّم في شبهة أو شهوة من الكمال أو النقص فإن كانت في العقائد فيغسل كل واحد منهما صاحبه أي يعرفه بوجه الصحة في ذلك سواء كان العالم بها ناقصاً أو كاملاً، وإن كانت في الأحكام لا يغسل كل واحد منهما صاحبه فإنه حكم مقرّر في الشرع، وسواء كان كاملاً أو ناقصاً، ومن رأى أن المرأة تغسل

الرجل وهو غسل الناقص الكامل فللناقص أن يطهر الكامل إذا تحقق أن الكامل وقع في شبهة، ولا بدّ مثل الفقيه يرى العارف قد زلّ بارتكاب محرّم شرعاً بلا خلاف، فله أن ينكر عليه والعارف أعلم بما فعل، فإن كان كما علّمه الفقيه تعين عليه قبول ذلك التطهير بتوبة منه ورجوع عنه وإن كان في باطن الأمر على صحة وأن الفقيه أفتى بالصورة ولم يعلم باطن الأمر فقد وفى الفقيه ما يجب عليه فيغسل الناقص الكامل لا يغسل الكامل الناقص في مثل هذه المسألة، وهو أن يكاشف الكامل ببراءة شخص ممّا ينسب إليه ممّا يوجب الحدّ، وقد حكم الحاكم الناقص بإقامة الحدّ عليه، فليس للكامل أن يردّ حكم الفقيه في تلك المسألة لعلمه ببراءة المحدود، فليس للكامل في مثل هذا أن يردّ على الناقص، كذلك ليس للرجل أن يغسل المرأة إذا ماتت لأنها عورة، قال ﷺ في المرأة التي لاعنت زوجها وكذبت وعرف ذلك وقد حكم الله بالملاعنة، وفي نفس الأمر صدق الرجل وكذبت المرأة فقال ﷺ لكان لي ولها شأن فترك كشفه وعلمه لظاهر الحكم.

وصل في فصل ـ غسل المرأة زوجها وغسله إياها: أجمعوا على غسل المرأة زوجها واختلفوا في غسله إياها فقال قوم: يغسلها ومنع قوم من ذلك.

الاعتبار في هذا الفصل: مريد الشيخ إذا رأى الشيخ قد فعل ما لا يقتضيه الطريق عند الشيخ فللمريد أن ينبّه الشيخ على ذلك لموضع احتمال أن يكون غافلاً، وليس له أن يسكت عنه وليس للشيخ إذا رأى المريد قد وقعت منه طاعة بالنظر إلى مذهبه وهي معصية بالنظر إلى مذهب الشيخ وحكم الشرع بصحتها بالنظر إلى من وقعت منه فإنها وقعت عن اجتهاد فليس للكامل وهو الشيخ وإن عرف أن ذلك المجتهد أو المقلد له قد أخطأ في اجتهاده أن يردّ عليه فلا يغسل الرجل زوجته إذا ماتت، ومن ذهب إلى أنه يغسلها قال باعتباره يتعين على الشيخ أن يعرّف المريد الذي هو الناقص أن ذلك الأمر قد أخطأ فيه المجتهد هذا حد غسله، فإن كان المريد هو المقلد للمجتهد لزمه أن يرجع إلى كلام شيخه، وإن كان المريد هو المجتهد فيحرم عليه الرجوع إلى كلام الشيخ في تلك المسألة، إلاّ إن قام له كلام الشيخ مقام المعارض في الدلالة، فحينئذ يكون كلام الشيخ أقوى من دليل المجتهد فيلزم المجتهد أن يرجع إلى كلام شيخه وهو من اجتهاده أعني رجوعه لرجحان ذلك الدليل الذي هو تصديقه الشيخ على الدليل الذي كان عنده لاحتمال كذب الراوي أو تخيّل الغلط منه في قياسه لما أثر في نفسه من صدق الشيخ في ذلك.

وصل في فصل ـ المطلقة في الغسل: أجمعوا على أن المطلقة المبتوتة لا تغسل زوجها، واختلفوا في الرجعية فقالوا: تغسل، وقالوا: لا تغسل.

الاعتبار: المريد يخرج عن حكم شيخه بالكلية فليس له أن يقدح في شيخه ولو قدح لم يقبل منه فإنه في حال تهمة لارتداده وهو ناقص فكيف يطهر الكامل وهو في حال نقصه؟ فإن كان تخلّف المريد عن شيخه حياء منه لزلّة وقع فيها أو فترة حصلت له فهو مثل الطلاق الرجعيّ، فإن حكم الحرمة في نفس المريد للشيخ ما زالت، وإن تخلّف عنه أو هجره الشيخ

تأديباً له لقي بعض الشيوخ تلميذاً له كان قد زلّ فاستحيى أن يجتمع بالشيخ فتركه فلما لقيه استحيى وأخذ التلميذ طريقاً غير طريق الشيخ فلحقه الشيخ ومسكه وقال له: يا ولدي لا تصحب من يريد أن يراك معصوماً، في مثل هذا الوقت يحتاج إلى الشيخ، فأزال ما كان أصابه من الخجل ورجع إلى خدمته، فإذا كان المريد بمنزلة صاحبة الطلاق الرجعي فما خرجت عن حكمه كان اعتباره كما ذكرناه فيما تقدم في الموضع الذي يغسل فيه الناقص الكامل.

وصل في فصل ـ حكم الغاسل: قال قوم: يجب الغسل على من غسل ميتاً. وقال قوم: لا يجب على من غسل ميتاً غسل.

الاعتبار: العالم إذا علم غيره وطهره من الجهل بما حصل له من العلم فلا يخلو إمّا أن علمه بربه أي وهو حاضر مع الله أن الله هو المعلم مثل قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ١، ٢] فلا غسل عليه، فإن الله هو الغاسل لذلك الجاهل من جهله بما علمه الله على لسان هذا الشيخ، وإن كان الغاسل علمه بنفسه وغاب في حال تعليمه عن شهود ربه أنه معلمه على لسانه في ذلك الوقت وجب عليه الغسل من تلك الغفلة التي حالت بينه وبين الحضور مع ربه في ذلك التعليم.

وصل في فصل ـ صفات الغسل: فمن ذلك هل ينزع عن الميت قميصه عند الغسل أم لا؟ فمن قائل: تنزع ثيابه وتستر عورته. وقال بعضهم: يغسل في قميصه.

الاعتبار: صاحب الشبهة أو الشهوة الغالبة الطبيعية وإن كانت مباحة إذا اتصف صاحبها بالموت تشبيهاً فإن الغاسل له إن كان قادراً على أن يظهر له الحق من نفس شبهته وشهوته فهو كمن غسل الميت في قميصه ولم ينزعه عنه وإن لم يقدر على تطهيره إلاّ بإزالة تلك الشبهة لقصوره كان كمن نزع ثياب الميت وحينئذ غسله.

وصل في فصل ـ وضوء الميت في غسله: فذهب قوم إلى أن الميت يوضأ، وذهب قوم إلى أنه لا يوضأ، وقال قوم: إن وضيء فحسن.

الاعتبار: الوضوء في الغسل طهر خاص في طهر عام إذا كانت المسألة تطلب بعض عالم الشخص كزلة تقع من جوارحه فإنه يغسل تلك الجوارح الخاصة بما تستحقه من الطهارة كالعين والأذن واليد والرجل واللسان والإيمان هو الغسل العام، فيجمع بين طهارة الجوارح على الخصوص وبين الإيمان لا بدّ من ذلك فإن الغسل غير مختلف فيه والوضوء مختلف فيه والجمع بين عبادتين إذا وجد السبيل إليهما أولى من الانفراد بالأعم منهما.

فصل في التوقيت في الغسل: فمن العلماء من أوجبه، ومنهم من لم يوجبه فاعلم ذلك.

الاعتبار: بأيّ شيء وقع التطهير من هذه الشبهة كان من غير تعيين ولا توقيت ما تقع به، ومن قال بوجوب التوقيت قال: نحن مأمورون بالتخلق بأخلاق الله، والله يقول: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [سورة الرعد: الآية ٨] وهو التوقيت ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢١] ولكن ينزل بقدر ما يشاء. وقال ﷺ فيمن زاد على ثلاث مرّات في

الوضوء أنه قد أساء وتعدّى وظلم وجعله موقتاً من واحدة إلى ثلاث وكره الإسراف في الماء في الغسل والوضوء، وكان رسول الله ﷺ يغتسل بالصاع ويتوضأ بالمدّ.

وصل منه: والذين أوجبوا التوقيت فيه اختلفوا، فمنهم من أوجب الوتر أيّ وتر كان، ومنهم من أوجب الثلاثة فقط، ومنهم من حدّ أقل الوتر في ذلك ولم يحدّ الأكثر فقال: لا ينقص من الثلاث، ومنهم من حدّ الأكثر فقال: لا يتجاوز السبعة، ومنهم من استحب الوتر ولم يحد فيه حدّاً.

الاعتبار: أمّا الوتر في الغسل فواجب لأنه عبادة، ومن شرطها الحضور مع الله فيها وهو الوتر، فينبغي أن يكون الغسل وتراً لحكم الحال وهو من واحد إلى سبعة، فإن زاد فهو إسراف إذا وقعت به الطهارة، فوتريته في الغسل بحسب ما يخطر له في حال الغسل وهي سبع صفات أمّهات فيها وقع الكلام بين أهل النظر في الإلهيات وهي: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، والعبد قد وصف بهذه الصفات كلها، وقد ورد أن الحق قال في المتقرّب بالنوافل إن الله يكون سمعه وبصره وغير ذلك فقد تبدّلت نسبة هذه الصفات المخلوقة للعبد بالحق، فبالله يسمع وبه يبصر وبه يعلم وبه يقدر وبه يكون حيّاً وبه يريد، وبه يتكلم فقد غسل صفاته بربه فكان طاهراً مقدّساً بصفاته، فهذا توقيت غسل الميت من واحد إلى سبعة بحسب ما ينقص ويزيد، وقد عمّ هذا جميع ما وقع من الخلاف في شفعه ووتره وقليله وكثيره وحدّه وترك حدّه ففكر فيه واغسل الميت منك بمثل هذا الغسل والكامل مع الناقص كالعاقل المؤمن مع العاقل وحده أو مع المؤمن.

وصل في فصل ـ ما يخرج من الحدث من بطن الميت بعد غسله: الحدث يخرج من بطن الميت بعد غسله، فمنهم من قال يعاد، ومنهم من قال: لا يعاد الغسل، والذي قال بأنه يعاد اختلفوا في العدد إلى سبع وأجمعوا على أنه لا يزاد على السبع.

الاعتبار: الشبهة تطرأ بعد حصول الطهارة لسرعة زوالها من خياله لضعف تصوّره فيعاد عليه التعليم سبع مرات، فإن استنكحه ذلك كان كمن استنكحه سلس البول وخروج الريح لا يعاد عليه التعليم فإنه غير قابل لثبوته، وإنما اجتمعنا على السبع لأنه غاية الكمال في العلم الإلهيّ بكونه إلهاً، ولهذا ربط الله الحكمة في وجود الآثار في العالم العنصريّ عن سير السبعة الدراري في الاثني عشر برجاً فجعل السائرين سبعة فعلمنا أنه غاية كمال الوجود، وجعل كمال السير في اثني عشر لأنه غاية مراتب العدد من واحد إلى تسعة، ثم العشرات ثم المئون، ثم الآلاف، فهذه اثنا عشر، وفيها يقع التركيب إلى ما لا يتناهى من غير زيادة، كذلك سير السبعة في الاثني عشر برجاً ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [سورة يس: الآية ٣٨].

وصل: اختلفوا في عصر بطن الميت قبل أن يغسل فمنهم من رأى ذلك، ومنهم من لم يره.

الاعتبار: العصر اختبار الكبير الصغير في حاله هل عنده شبهة فيما هو فيه يخاف عليه منها أن تقدح في طهارته إذا طهره الكبير أم لا حتى يدعوه على بصيرة منه أنه صاحب شبهة

يتوقى ظهورها في وقت آخر فيحفظ المربيّ نفسه في أوّل الوقت قبل أن ينشب فيقع التعب ويعظم. انتهى الجزء الثامن والأربعون بانتهاء السفر السابع يتلوه في الجزء التاسع والأربعين وصل في الأكفان وهو كاللباس للمصلي.

[السفر الثامن]
(الجزء التاسع والأربعون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصل في فصل في الأكفان: الكفن للميت كاللباس للمصلي وهو ما يصلى عليه لا فيه، كالصلاة على الحصير والثوب الحائل بينك وبين الأرض لأنه في موضع سجودك لو سجدت فأشبه ما يصلّى عليه، فأمّا المرأة فترتيب تكفينها أن تغطي الغاسلة أولاً الحقو وهو الأزرة التي تشدّ على وسط الإنسان، ثم الدرع وهو القميص الكامل، ثم الخمار وهو الذي تغطي به رأسها، ثم الملحفة ثم تدرج بعد في ثوب آخر يعم الجميع، فهذه خمسة أثواب هكذا على الترتيب، أعطى رسول الله ﷺ ليلى الثقفية حين غسلت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ بيده ثوباً بعد ثوب يناولها إياه ويأمرها بأن تفعل به ما ذكرناه على ذلك الترتيب، هذا هو السنّة في تكفين المرأة، وأمّا الرجل فما لنا نص في صفة تكفينه إلاّ أنه لما مات رسول الله ﷺ كفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة بحضور من حضر من علماء الصحابة، ولم يبلغنا أن أحداً منهم ولا ممّن بلّغه أنكر ذلك ولا تنازعوا فيه، ولكن في قول الراوي ليس فيها قميص ولا عمامة احتمال ظاهر والنص في الثلاثة الأثواب من الراوي بلا شك، إلاّ أن الوتر مستحب في الأكفان، فمن الناس من رأى أن الرجل يكفن في ثلاثة أثواب والمرأة في خمسة أثواب أخذاً بما ذكرناه، ومنهم من يرى أقل ما يكفن فيه الرجل ثوبان والسنّة ثلاثة أثواب، وأقل ما تكفن فيه المرأة ثلاثة أبواب والسنّة خمسة أثواب، ومن الناس من لم ير في ذلك حداً ولكن يستحب الوتر، قال رسول الله ﷺ في الذي مات محرماً يكفن في ثوبين.

وصل في اعتبار هذا الفصل: المقصود من التكفين أن يوارى الميت عن الأبصار، ولهذا لما كفن مصعب بن عمير يوم أحد في الثوب الواحد الذي كان عليه وكان نمرة قصيرة لا تعمّه بالستر فأمر رسول الله ﷺ أن يغطى بها رأسه ويلقى على رجليه من الإذخر حتى يستر عن الأبصار، ولما خلق الإنسان من تراب كان من له حضور مع الله من أهل الله إذا شاهدوا التراب تذكروا ما خلقوا منه فينظروا في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٥] يعني يوم البعث، والمصلي يناجي ربّه فإذا وقف المصلي في المناجاة وليس بينه وبين الأرض حائل وكانت الأرض مشهودة لبصره ذكرته بنشأته وبما خلق منه وبإهانته وذلّته، فإن الأرض قد جعلها الله ذلولاً مبالغة في الذلّة بهذه البنية، قال الشاعر: [الطويل]

ضَرُوبٌ بنَصْل السيف سُوقَ سِمَانِها   إذا عُدِمُوا زاداً فإنك عاقِرُ

فجاء ببنية فعول للمبالغة في الكرم، ولا أذل ممّن يطأه الأذلاء ونحن نطأها وجميع الخلائق، ونحن عبيد أي أذلاء، فربما شغل المصلي النظر في نفسه وما خلق منه عن مناجاة ربّه بما يقرأ من كلامه فيغيب عمّا يقول للحق وما يقول له الحق وهو سوء أدب من التالي، فكان الحائل أولى لما نهي المصلي أن يستقبل رجلاً مثله في قبلته أو يصمد إلى سترته صمداً وليجعلها على حاجبه الأيمن أو الأيسر، هذا كله حتى لا يقوم له مقام الوثن غيرة إلهية فإنهم كانوا يصوّرونه على صورة الإنسان فأمر يستره الميت لأنّ الميت بين يدي المصلي والمصلي يناجي الحق في قبلته شفيعاً في هذا الميت، وسيأتي اعتباره في الصلاة على الميت إن شاء الله تعالىٰ.

وصل في فضل المشي مع الجنازة: المشي مع الجنازة كالسعي إلى الصلاة فقال بعضهم: من السنّة المشي أمامها. وقال آخرون: المشي خلفها أفضل، والذي أذهب إليه أن يمشي راجلاً خلفها قبل الصلاة عليها فيجعلها أمامه كما يجعلها في الصلاة وبعد الصلاة يمشي أمامها خدمة لها بين يديها إلى منزلها وهو القبر ظناً بالله جميلاً أنّ الله قبل الشفاعة فيها عند الصلاة عليها، وأن القبر لها روضة من رياض الجنة، فإن الله قد ندب إلى حسن ظنّ عبده به فقال: أنا عند ظن عبدي بي فليظنّ بي خيراً. وروي أن الله سُئِل من أحبّ إليك عيسىٰ أم يحيىٰ عليهما السلام؟ فقال الله تعالىٰ للسائل: أحسنهما ظناً بي يعني عيسىٰ، فإن الخوف كان الغالب على يحيىٰ، والأولى أن لا يركب أدباً مع الملائكة لا غير، فإن الملائكة تمشي مع الجنازة ما لم يصحبها صراخ، فإن صحبها صراخ تركتها الملائكة، فعند ذلك أنت مخيّر بين الركوب والمشي، فإن الميت على نعشه كالشخص في المحفة محمول، قال صاحبنا أبو المتوكل وقد رأينا نعشاً يحمل وعليه الميت فأشار إليه وقال: [الكامل]

ما زال يحملنا وتحمله الوَرَى عجباً له من حاملٍ محمولا

وصل الاعتبار فيه: المشي أمام الجنازة لأن الماشي شفيع لها عند الله فيتقدم ليخلو بالله في شأنها، فإن الشفيع لا يدري هل تقبل شفاعته فيها أم لا؟ حتى إذا وصلت إلى قبرها وصلت مغفوراً لها بكرم الله في قبول سؤال الشافع، وإن كانت من المغفورين لها قبل ذلك كان الماشي أمامها من المعرفين بقدومها لمن تقدم عليه في منزلها الذي هو قبرها فهو كالحاجب بين يديها تعظيماً لها يشهد ذلك كله أهل الكشف، وأما الماشي خلفها فإنه يراعي تقديمها بين يديه كما يجعلها بين يديه في الصلاة عليها ليعتبر بالنظر إليها فيها، فإن الموت فزع وأن الملك معها وأن النبيّ ﷺ قام عندما رأى جنازة يهودي فقيل له: إنها جنازة يهودي فقال: «**أليس معها الملك؟**» وقال مرة أخرى: «**إن الموت فزع**»، وقال مرة أخرى: «**أليست نفساً؟**» ولكل قول وجه أرجى الأقوال أليست نفساً لمن عقل فكان قيامه مع الملك، وفي هذا الحديث قيام المفضول للفاضل عندنا وعند من يرى أن الملائكة أفضل من البشر على الإطلاق، وهكذا قال لي رسول الله ﷺ في مبشرة أريتها، وأما قوله ﷺ في هذا «**أليست نفساً**» في حق يهودي فإنه أرجى ما يتمسك به أهل الله إذا لم يكونوا من أهل الكشف وكانت

بصائرهم منورة بالإيمان في شرف النفس الناطقة، وأن صاحبها إن شقي بدخول النار فهو كمن يشقى هنا بأمراض النفس من هلاك ماله وخراب منزله وفقد ما يعزّ عليه ألماً روحانياً لا ألماً حسيّاً، فإن ذلك حظ الروح الحيواني، وهذا كله غير مؤثر في شرفها فإنها منفوخة من الروح المضاف إلى الله بطريق التشريف فالأصل شريف، ولما كانت من العالم الأشرف قام لها رسول الله ﷺ بكونها نفساً فقيامه لعينها وهذا إعلام بتساوي النفوس في أصلها.

وروى القشيري في رسالته عن بعض الصالحين أنه قال: من رأى نفسه خيراً من نفس فرعون فما عرف فذمّه وأخبر أنه ليس له أن يرى ذلك، وهذه مسألة من أعظم المسائل تؤذن بشمول الرحمة وعمومها لكل نفس وإن عمرت النفوس الدارين، ولا بدّ من عمارة الدارين كما ورد، وأن الله سيعامل النفوس بما يقتضيه شرفها بسر لا يعلمه إلاّ أهل الله فإنه من الأسرار المخصوصة بهم، فكما أن الحد يجمعهم كذلك المقام يجمعهم لذاتهم إن شاء الله تعالىٰ، قال تعالىٰ في الذين شقوا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] ولم يقل عذاباً غير مجذوذ كما قال في السعداء فإنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٦] ولم يخص شخصاً من شخص، بل الظاهر أنه يريد من خالف أمره وعصاه مطلقاً لا من أطاعه ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٦] فنبّه الغافل عن صفة الحق التي هي كرمه فإنه من كرمه أوجده ولهذا قال له: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٧] يقول له: بكرمه أوجدك ليقول له العبد: يا رب كرمك غرّني فقد يقولها لبعض الناس هنا في خاطره وفي تدبره عند التلاوة، فيكون سبب توبته، وقد يقولها في حشره، وقد يقولها له وهو في جهنم فتكون سبباً في نعيمه حيث كان، فإنه ما يقولها له إلاّ في الوقت الذي قد شاء أن يعامله بصفة الكرم والجود، فإن رحمته سبقت غضبه، ورحمة الله وسعت كل شيء منة واستحقاقاً، وبالأصل فكل ذلك منة منه سبحانه فإنه الذي كتب على نفسه الرحمة للمتقي والمتقي بمنته سبحانه اتقاه وجعله محلاً للعمل الصالح.

وصل في فصل صفة الصلاة على الجنازة: فمنها عدد التكبير، واختلف الصدر الأوّل في ذلك من ثلاث إلى سبع وما بينهما لاختلاف الآثار، ورد حديث أن النبيّ ﷺ كان يكبر على الجنازة أربعاً وخمساً وستاً وسبعاً وثمانية، وقد ورد أنه كبّر ثلاثاً، ولما مات النجاشيّ وصلّى عليه رسول الله ﷺ كبّر عليه أربعاً وثبت على أربع إلى أن توفاه الله تعالىٰ.

وصل الاعتبار في هذا الفصل: أكثر عدد الفرائض أربع، ولا ركوع في صلاة الجنائز بل هي قيام كلها، وكل وقوف فيها للقراءة له تكبير، فكبّر أربعاً على أتم عدد ركعات الصلاة المفروضة، فالتكبيرة الأولى للإحرام يحرم فيها أن لا يسأل في المغفرة لهذا الميت إلاّ الله تعالىٰ، والتكبيرة الثانية يكبّر الله تعالىٰ من كونه حيّاً لا يموت إذا كانت ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨٥] و ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [سورة القصص: الآية ٨٨]، والتكبيرة الثالثة لكرمه ورحمته في قبول الشفاعة في حق من يشفع فيه أو يسأل فيه مثل الصلاة على النبيّ ﷺ لما مات، وقد كان عرفنا أنه من سأل الله له

الوسيلة حلّت له الشفاعة، فإن النبيّ ﷺ لا يشفع فيه من صلّى عليه، وإنما يسأل له الوسيلة من الله لتحضيضه أمّته على ذلك، والتكبيرة الرابعة تكبيرة شكر لحسن ظنّ المصلي بربّه في أنه قبل من المصلي سؤاله فيمن صلّى عليه، فإنه سبحانه ما شرع الصلاة على الميت إلاّ وقد تحققنا أنه يقبل سؤال المصلي في المصلّى عليه، فإنه أذن من الله تعالىٰ في السؤال فيه فهو لا يأذن، وفي نفسه أنه لا يقبل سؤال السائل، قال تعالىٰ في الشفاعة يوم القيامة: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٨] وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٣] وقد أذن لنا أن نشفع في هذا الميت بالصلاة عليه فقد تحققنا الإجابة بلا شك، ثم يسلم بعد تكبيرة الشكر سلام انصراف عن الميت أي لقيت من ربك السلام، ولهذا شرع النبيّ ﷺ أن يكفوا عن ذكر مساوىء الموتى، فإن المصلي قد قال في آخر صلاته عليه السلام عليكم فأخبر عن نفسه أن الميت قد سلم منه، فإن ذكره بمساءة بعد هذا فقد كذب نفسه في قوله: السلام عليكم فإنه ما سلم منه من ذكره بسوء بعد موته، فإن ذلك يكرهه الميت ويكرهه الله للحيّ فإن الحيّ يذكره به ولا ينتهي عن فعل مثله فيؤدّيه ذلك إلى أن يكون قليل الحياء من ربّه.

وصل في فصل ـ رفع الأيدي عند التكبير في الصلاة على الجنائز والتكتيف: وأمّا رفع الأيدي عند كل تكبيرة والتكتيف، فإنه مختلف فيهما، ولا شك أن رفع اليدين يؤذن بالافتقار في كل حال من أحوال التكبير يقول: ما بأيدينا شيء هذه قد رفعناها إليك في كل حال ليس فيها شيء ولا تملك شيئاً. وأمّا التكتيف فإنه شافع، والشافع سائل، والسؤال حال ذلّة وافتقار فيما يسأل فيه، سواء كان ذلك السؤال في حق نفسه أو في حق غيره، فإن السائل في حق الغير هو نائب في سؤاله عن ذلك الغير، فلا بدّ أن يقف موقف الذلّة والحاجة لما هو مفتقر إليه فيه، والتكتيف صفة الأذلاء، وصفته وضع اليد على الأخرى بالقبض على ظهر الكف والرسغ والساعد، فيشبه أخذ العهد في الجمع بين اليدين يد المعاهد والمعاهد، أي أخذت علينا العهد في أن ندعوك، وأخذنا عليك العهد بكرمك في أن تجيبنا فقلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] ولم يقل دعاني في حق نفسه ولا في حق غيره، ثم أذنت لنا في الدعاء للميت والشفاعة عندك فيه فلم يبق إلاّ الإجابة فهي متحققة عند المؤمن، ولهذا جعلنا التكبيرة الأخيرة شكراً والسلام سلام انصراف وتعريف بما يلقى الميت من السلام والسلامة عند الله، ومنا من الرحمة والكف عند ذكر مساويه.

وصل في فصل ـ القراءة في صلاة الجنازة: فمن قائل: ما في صلاة الجنازة قراءة إنما هو الدعاء. وقال بعضهم: إنما يحمد الله ويثني عليه بعد التكبيرة الأولى، ثم يكبر الثانية فيصلي على النبيّ ﷺ، ثم يكبر الثالثة فيشفع للميت، ثم يكبر الرابعة ويسلم. وقال آخر: يقرأ بعد التكبيرة الأولى بفاتحة الكتاب، ثم يفعل في سائر التكبيرات مثل ما تقدّم آنفاً وبه

أقول، وذلك أنه إذ ولا بدّ من التحميد والثناء فبكلام الله أولى وقد انطلق عليها اسم صلاة، فالعدول عن الفاتحة ليس بحسن، وبه قال الشافعيّ وأحمد وداود.

وصل الاعتبار في هذا الفصل: قال أبو يزيد البسطامي: اطلعت على الخلق فرأيتهم موتى فكبرت عليهم أربع تكبيرات، قال بعض شيوخنا: رأى أبو يزيد عالم نفسه هذه الصفة تكون لمن لا معرفة له بربه ولا يتعرّف إليه وتكون لأكمل الناس معرفة بالله، فالعارف المكمل يرى نفسه ميتاً بين يديّ ربّه عزّ وجلّ إذ كان الحق سمعه وبصره ويده ولسانه يصلي عليه، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] فإذا كان الحق هو المصلي فيكون كلامه القرآن، والعارفون لا بدّ لهم من قراءة فاتحة الكتاب يقرأها الحق على لسانهم ويصلي عليهم فيثني على نفسه بكلامه ثم يكبر نفسه عن هذا الاتصال في ثنائه على نفسه بلسان عبده في صلاته على جنازة عبده بين يدي ربّه عزّ وجلّ، ويكون الرحمن في قبلته وهو المسؤول، ويكون المصلي هو الحيّ القيوم، ثم يصلي بعد التكبيرة الثانية على نبيّه المبلغ عنه قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٦] فلو لم يكن من شرف الملائكة على سائر المخلوقات إلاّ جمع الضمير في يصلون بينهم وبين الله لكفاهم وما احتيج بعد ذلك إلى دليل آخر ونصب الملائكة بالعطف حتى يتحقق أنّ الضمير جامع للمذكورين قبل، ثم يكبّر نفسه على لسان هذا المصلي من العارفين عن التوهّم الذي يعطيه هذا التنزّل الإلهيّ في تفاضل النسب بين الله وبين عباده من حيث ما يجتمعون فيه، ومن حيث ما يتميزون به في مراتب التفضيل، فربما يؤدّي ذلك التوهّم أن الحقائق الإلهية يفضل بعضها على بعض بتفاضل العباد، إذ كل عبد في كل حالة مرتبط بحقيقة إلهية، والحقائق الإلهية نسب تتعالى عن التفاضل فلهذا كبر الثالثة.

ثم شرع بعد القراءة والصلاة على النبيّ ﷺ في الدعاء للميت من قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣١] لكان هذا القرآن الذي أنزل عليك يا محمد، وإذا كان الأمر على هذا الحدّ والميت في حكم الجمادات في الظاهر لذهاب الروح الحسّاس فكان حكمه حكم الجماد، وقال تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢١]. فوصفه بالخشية وعين وصفه بالخشية عين وصفه بالعلم بما أنزل عليه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٨] فالمعنى الذي أوجب له عدم الخشية إنما هو ارتباط الروح بالجسد، فحدث من المجموع ترك الخشية لتعشق كل واحد منهما بصاحبه، فلما فرق بينهما رجع كل واحد منهما إلى ربّه بذاته، فعلم ما كان قبل قد جهله بتركيبه فصحبته الخشية لعلمه، فأول ما يدعى به للميت في الصلاة عليه ويثني على الله به في الصلاة عليه القرآن، فإن الميت في مقام الخشية من جهة روحه ومن جهة جسمه، فإذا عرف العارف فلا يتكلم ولا ينطق إلاّ بالقرآن، فإنّ الإنسان ينبغي له أن يكون في جميع أحواله كالمصلي على الجنازة فلا يزال يشهد ذاته جنازة بين يدي ربّه وهو يصلي على الدوام

في جميع الحالات على نفسه بكلام ربّه دائباً، فالمصلي داع أبداً والمصلى عليه ميت أو نائم أبداً، فمن نام بنفسه فهو ميت، ومن مات بربه فهو نائم نومة العروس والحق ينوب عنه ولنا في هذا المعنى: [مجزوء الكامل]

يــا نــائــمــاً كــم ذا الــرقــاذ وأنــت تُــدْعَــى فــانــتَــبِــهْ
كــان الإلــهُ يــقــوم عَــنْــ ــكَ بــمــا دعــا لــو نِــمْــتَ بِــهْ
لــكــنَّ قــلــبَــك نــائــمٌ عــمّــا دعــاك ومُــنْــتَــبِــهْ
فــي عــالــم الــكَــوْن الــذي يُــرْديــك مــهــمــا مُــتَّ بــهْ
فــانــظــر لــنــفــسِــك قــبــل سَــيْــ ــرِك إنَّ زادك مُــشْــتَــبِــهْ

اللهم أبدله داراً خيراً من داره يعني النشأة الأخرى فيقول الله: قد فعلت فإن نشأة الدنيا هي داره وهي دار منتنة كثيرة العلل والأمراض والتهدم تختلف عليها الأهواء والأمطار، ويخربها مرور الليل والنهار، والنشأة الآخرة التي بدّلها وهي داره كما قد وصفها الشارع من كونهم لا يبولون ولا يتغوّطون ولا يتمخطون نزّهها عن القذارات، وأن تكون محلاً تقبل الخراب أو تؤثر فيها الأهواء، ثم يقول: وأهلاً خيراً من أهله فيقول: قد فعلت فإن أهله في الدنيا كانوا أهل بغي وحسد وتدابر وتقاطع وغل وشحناء، قال تعالىٰ في الأهل الذي ينقلب إليه الميت ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٧].

ثم يقول: وزوجاً خيراً من زوجه، وكيف لا يكون خيراً وهنّ قاصرات الطرف مقصورات في الخيام ولا تشاهد في نظرها أحسن منه ولا يشاهد أحسن منها، قد زينت له وزيّن لها وطيبت له وطيب لها كما قال تعالىٰ في الجنة: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٦] أي طيبها من أجلهم فلا يستنشقون منها إلاّ كل طيب ولا ينظرون منها إلاّ كل حسن، فدعاؤهم في الصلاة على الميت مقبول لأنه دعاء بظهر الغيب، وما من خير يدعون به في حق الميت إلاّ والملك يقول لهذا المصلي على جهة الخبر: ولك بمثله ولك بمثليه نيابة عن الميت ومكافأة له للمصلي على صلاته عليه خبر صدق وقول حق، فقد تحقّق حصول الخير للمصلي والمصلى عليه، فإنه ثبت عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ الإنْسَانَ الْمُؤمِنَ إذَا دَعَا لأخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ قَالَ المَلَكُ لَهُ: وَلَكَ بِمِثْلَيهِ**» إخباراً عن الله تعالىٰ من هذا الملك لهذا الداعي، وخبر الملك صدق لا يدخله مين، فعلى الحقيقة إنما صلّى على نفسه، وما أحسنها من رقدة بين ربّه عزّ وجلّ وبين المصلى عليه، فإن كان المصلّى عليه عارفاً بربه محبوباً عنده حبّ من يكون الحق سمعه وبصره ولسانه فليس المصلي سوى ربه وليستقبل في الصلاة الرب عزّ وجلّ فيكون الميت في رقدته بين ربّه وربّه فما أعلاها من رقدة ليتها إلى الأبد، فنسأل الله تعالىٰ لنا ولإخواننا إذا جاء أجلنا أن يكون المصلي علينا عبداً يكون الحق سمعه وبصره ولسانه لنا ولإخواننا وأولادنا وآبائنا وأهلينا ومعارفنا وجميع المسلمين من الجن والإنس آمين بعزّته وكرمه.

ولما كان حال الموت حال لقاء الميت ربه واجتماعه به لجمعه ما تفرّق في سائر الكتب والصحف المنزلة واختصّ من القرآن الفاتحة لكونها مقسمة بالخبر الإلهي بين الله وبين عبده وقد سمّاها الشرع صلاة وقال: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي بنصفين، وخصّ الفاتحة بالذكر دون غيرها من سور القرآن، فتعينت قراءتها بكل وجه في الصلاة على الميت لكونها تتضمن ثناء ودعاء، ولا بدّ لكل شافع أن يثني على المشفوع عنده بما يليق بالشفاعة، وأي ثناء أعظم من الرحمن الرحيم والمدح محمود لذاته، وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ: «**لاَ شَيْءَ أَحَبُّ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْ أَنْ يُمْدَحَ**» والله تعالىٰ قد وصف عباده المؤمنين بالحامدين، وذمّ ولعن من ذمّ جناب الله ونسب إليه ما لا يليق به من الفقر والبخل إذ قالت اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ كنت بذلك عن البخل فأكذبهم الله بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٤] فعمّ الكرم يديه، فلا تيأسوا من روح الله فهذه عندنا من أرجى آية تقرأ علينا، فتعين على الشافع أن يمدح ربّه بلا شك، فإنه أمكن لقبول الشفاعة مع الإذن فيها فما ثم مانع من القبول. ورد في الخبر الصحيح: «**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ غَداً يَوْم القِيَامَةِ وَأَرَادَ أَنْ يَشْفَعَ يَحْمَدُ اللَّهَ أَوَّلاً بَيْنَ يَدَي الشَّفَاعَةِ بِمَحَامِدَ لاَ يَعْلَمُهَا الآنَ**» يقتضيها ذلك الموطن بحاله، فإن الثناء على المشفوع عنده إنما يكون بحسب جنايات المشفوع فيهم، فيقدّم بين يدي شفاعته من الثناء على الله بحسب ما ينبغي له لذلك الموطن من مكارم الأخلاق، وموطن القيامة ما شوهد الآن ولا وقع فلهذا قال: لا أعلمها الآن.

وصل في فصل ـ التسليم من الصلاة على الجنازة: اختلف الناس فيه هل هو تسليمة واحدة أو اثنتان؟ فالأكثر على أنه تسليمة واحدة. وقالت طائفة: يسلم تسليمتين. وكذلك اختلفوا هل يجهر فيها بالسلام أو لا يجهر؟ والذي أذهب إليه وأقول به أن حكم السلام من صلاة الجنازة في الإمام والمأموم حكم السلام من الصلاة سواء ولو كان وحده.

الاعتبار: لما كان الشافع بين يدي المشفوع عنده وأقام المشفوع فيه بينه وبين ربّه ليعين المشفوع فيه كما يحضر الشفيع نازلة من يشفع من أجلها بالذكر عند من يشفع عنده فأقام حضور الجاني بين يديه مقام النازلة التي كان يحضرها بالذكر لو لم يحضر الجاني فهو في حال غيبة عن كل من دون ربّه بتوجّهه إليه، فإذا فرغ من شفاعته رجع إلى الحاضرين عنده من بشر وملك وجان مؤمن فسلم عليهم كما يفعل في الصلاة سواء، وهي بشرى من الله في حق الميت كأنه يقول لهم: ما ثم إلاّ السلامة له ولكم، وأن الله قد قبل الشفاعة بما قررناه من الإذن فيها، وكل من قال إن الميت إذا كان من أهل الصلاة عليه وصلّى عليه لا تقبل الشفاعة فما عنده خبر جملة واحدة لا والله بل ذلك الميت سعيد بلا شك ولو كانت ذنوبه عدد الرمل والحصى والتراب. أمّا المختصة بالله من ذلك فمغفورة. وأمّا ما يختص بمظالم العباد فإن الله يصلح بين عباده يوم القيامة، فعلى كل حال لا بدّ من الخير ولو بعد حين، ولهذا ينبغي للمصلي على الميت إذا شفع في صلاته عند الله أن لا يخصّ جناية بعينها، وليعم في ذكره كل ما ينطلق عليه به أنه مسيء إساءة تحول بينه وبين سعادته، وليسأل الله التجاوز عن سيئاته

مطلقاً، وأن يعترف عن الميت بجميع السيئات، وإن لم يحضر المصلي التعميم في ذلك، فإن الله إن شاء عمّه بالتجاوز وإن شاء عامل الميت بحسب ما وقعت فيه الشفاعة من الشافع، ولهذا ينبغي للمصلي على الميت أن يسأل الله له في التخليص من العذاب لا في دخول الجنة لأنه ما ثم دار ثالثة إنما هي جنة أو نار، وذلك أنه إن سأل في دخول الجنة لا غير فإن الله يقبل سؤاله فيه، ولكن قد يرى في الطريق أهوالاً عظاماً، فلهذا ينبغي أن تكون شفاعة المصلي في أن ينجي الله من صلّى عليه ممّا يحول بينه وبين العافية واستصحابها له، فإن ذلك أنفع في حق الميت، وإذا فعل هكذا صحّ التعريف بالسلام من الصلاة أي قد لقي السلامة من كل ما يكرهه.

وصل في فصل ـ تعين الموضع الذي يقوم الإمام فيه المصلي من الجنازة: واختلفوا أين يقوم الإمام من الجنازة؟ فقالت طائفة: يقوم في وسطها ذكراً كان أو أنثى. وقال قوم: يقوم من الذكر عند رأسه ومن الأنثى عند وسطها. ومنهم من قال: يقوم منهما عند صدرهما. وقال قوم: يقوم منهما حيث شاء ولا حد في ذلك وبه أقول.

وصل الاعتبار في ذلك: للخيال والوهم سلطان، ومقصود المصلي إنما هو سؤال الله تعالىٰ والحديث معه في حق هذا الميت وإحضار الميت بين يديه فلا يبالي أين يقوم منه، فإن التردّد في ذلك يفصم الخاطر عن المقصود ولا سيما إن كانت الجنازة أنثى، فيتوهم الإمام إذا وقف عند وسطها أن يسترها عمّن خلفه فلم يسترها عن نفسه، ويقدح ذلك التوهم في حضوره في حقّها مع الله، فإن الحق إنما يستقبله على الحقيقة من الإنسان قلبه، فإذا كان قلب المصلي بهذه المثابة من التفرقة واستحضار ما لا ينبغي بالتوهّم فقد أساء الأدب في الشفاعة، ومن هذه حاله فليس بشفيع وكان هذا المصلي أولى باسم الميت من الميت لسوء أدبه مع الله ومع الموت، فلا يحضر المصلي أين يقوم من الجنازة، وليستفرغ همّته في الله الذي دعاه إلى الشفاعة فيها عنده، وكم من مصلّ على جنازة والجنازة تشفع فيه جعلنا الله من الشافعين هنا وهناك.

الإنسان مكلف من رأسه إلى رجليه وما بينهما، فإنه مأمور بأن لا ينظر إلى ما لا يحل له النظر إليه شرعاً وبجميع ما يختص برأسه من التكليف، ومأمور بأن لا يسعى بأقدامه إلى ما لا يحل له السعي إليه وفيه ومنه وما بينهما ممّا كلفه الله أن يحفظه في تصرفه من يد وبطن وفرج وقلب، فلو تمكن للمصلي أن يعم الميت بذاته كلها لفعل فليقم منها حيث ألهمه الله والقيام عند قلبه وصدره أولى، فإنه كان المستخدم لجميع الأعضاء بالخير والشرّ، فذلك المحل هو أولى أن يقوم المصلي الشافع عنده بلا شك ويجعله بينه وبين الله ويعينه، فإنه إذا غفر له غفر لسائر جسده فإن جميع الأعضاء تبع للقلب في كل شيء دنيا وآخرة، ويقول رسول الله ﷺ فيه: «**إِنَّ فِي الْجَسَدِ بَضْعَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ سَائِرُ الْجَسَدِ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ الْجَسَدِ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ**».

كذلك إذا قبلت الشفاعة فيها قبلت في سائر الجوارح، أراد الشرع بالقلب هنا المضغة

التي يحوي عليها الصدر ولا يريد بالقلب لطيفته وعقله، وفي هذا التنبيه هنا سرّ لمن فهم وعلم لا يحصل إلاّ بالكشف، يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [سورة ق: الآية ٣٧] وقال: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة ص: الآية ٢٩] كما قال أيضاً: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة الحج: الآية ٤٦] وفي باب الإشارة عن الحق فيريد بالصلاح والفساد إذا أراد المضغة ما يطرأ في البدن من المرض والصحة والموت، فإن القلب الذي هو هذه المضغة هو محل الروح الحيواني، ومنه ينتشر الروح الحيواني في جميع ما يحس من الجسد وما ينمي وهو البخار الخارج من تجويف القلب الذي يعطيه الدم الذي أعطاه الكبد، فإذا كان الدم صالحاً كان البخار مثله فصلح الجسد وبالعكس، فهو تنبيه من الشارع لنا بما هو الأمر عليه، فإن العلم بما هو الأمر عليه في هذا الجسم الطبيعيّ العنصريّ الذي هو آلة للطيفة الإنسان المكلفة في إظهار ما كلّفه الشارع إظهاره من الطاعات التي تختص بالجوارح، فإذا لم يتحفظ الإنسان في غذائه ولم ينظر في صلاح مزاجه وروحه الحيواني المدبر لطبيعة بدنه اعتلت القوىٰ وضعفت وفسد الخيال والتصوّر من الأبخرة الفاسدة الخارجة من القلب، وضعف الفكر، وقلّ الحفظ، وتعطل العقل بفساد الآلات التي بها يدرك الأمور، فإن الملك إنما هو بوزعته ورعاياه، وكذلك الأمر أيضاً إن صلح فاعتبر الشارع الأصل المفسد إذا فسد لهذه الآلات، والمصلح لهذه الآلات إذا صلح إذ لا طاقة للإنسان على ما كلفه ربّه إلاّ بصلاح هذه الآلات واستقامتها وسلامتها من الأمور المفسدة لها ولا يكون ذلك إلاّ من القلب، فهذا من جوامع الكلم الذي أوتيه ﷺ، فلو أراد بالقلب العقل هنا ما جمع من الفوائد ما جمع بإرادته القلب الذي يحوي عليه الصدر، ولهذا جاء باسم المضغة والبضعة لرفع الشك حتى لا يتخيل خلاف ذلك ولا يحمله السامع على العقل، وكذلك قال الله: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة الحج: الآية ٤٦] فإذا فسدت وعميت عن إدراك ما ينبغي فإن فساد عين البصيرة فيما يعطيه البصر إنما هو من فساد البصر، وفساد البصر إنما هو من فساد محله، وفساد محله إنما هو من فساد روحه الحيوانيّ الذي محله القلب، فقيام المصلي عند صدر الجنازة عند الصلاة عليها أولى وأحق لأجل قلبه الذي هو الأصل في صلاحه وفساده.

وصل في فصل ـ ترتيب الجنائز عند الصلاة: واختلفوا في ترتيب جنائز إذا اجتمع الرجال والنساء عند الصلاة عليهنّ فقال قوم: يجعل الرجال ممّا يلي الإمام والنساء ممّا يلي القبلة. وقال قوم فيه بالعكس. وقال قوم: يصلى على الرجال على حدة مفردين وعلى النساء على حدّة مفردين، والذي أقول به: إن كان في الجنائز ذكران جعل أحدهما ممّا يلي الإمام والآخر ممّا يلي القبلة، ويجعل النساء فيما بينهما، وإن لم يكن إلاّ رجل واحد جعل ممّا يلي الإمام وإن جعل ممّا يلي القبلة فهو أولى، وكل هذا ما لم يرد حدّ مشروع يوقف عنده، وقد بحثنا أن نجد في ذلك حدّاً للشرع فلم نجد، وقد ورد عن بعض الصحابة أنهم كانوا يجعلون الرجال ممّا يلي القبلة والنساء ممّا يلي الإمام، فإذا سئلوا عن ذلك قالوا هي السنّة وهو أولى عندي، ومثل هذا إذا وقع يدخل في المسند عندهم والتوقيف في الحكم أولى، ولهذا احتاط

من فرّق في الصلاة بين الرجال والنساء، والذي يترجح عندي تقديم الرجال ممّا يلي القبلة، فإن النبيّ ﷺ لما دفن قتلى أحد كان يقدم الأفضل ممّا يلي القبلة ويدفن الجماعة في قبر واحد فكان تقديم الأفضل ممّا يلي القبلة أولى لأنه إلى الله أقرب شرعاً والله أعلم.

الاعتبار: النساء محل التكوين فهنّ إلى المكوّن أقرب فهم أولى بالقبلة من الرجال، وإن وقع التكوين في الرجال مرّة واحدة ولم يكن سوى تكوين حواء من آدم فالحكم للغالب، ولا سيما وقد جعل في مقابلة تكوين حواء من آدم تكوين عيسىٰ في مريم من غير فحل، وبقي الغالب في الإناث أنهنّ محل التكوين فهنّ أولى بالقبلة ليكون كل مولود يولد على الفطرة، فإنه إذا ولد خرج إلينا وهو حديث عهد بربه كما جاء عن رسول الله ﷺ في الغيث أنه حديث عهد بربه، فكان الرجال أولى بأن يكونوا ممّا يلي الإمام. والاعتبار الآخر أن الرجل الميت إذا كان ممّا يلي الإمام كان سترة للإمام عن المرأة، فإن المرأة عورة ومجاورة الميت لها أولى لعدم الشهوة من مجاورة الحيّ، فالنساء أولى بالتقدّم ممّا يلي القبلة من الرجال، وكان الحق أولى بإمائه وسترهنّ عن الإمام أو المصلي عليهنّ، فإن كان الإمام عارفاً بحيث أن يعلم من نفسه أن الحق سمعه وبصره فلا يبالي أيقدم النساء إليه أو الرجال، وتقدم النساء أولى ممّا يلي من هو بهذه الصفة والرجال ممّا يلي القبلة فإنه أقوى في الاعتبار، لأن أكثر الأكوان الطبيعية إنما كوّنها الحق عند الأسباب، فتقديم النساء ممّا يلي الإمام الذي يكون بهذه المثابة أولى فإنه اعتبار محقّق، فإن الإمام الموصوف بهذه الصفة آلة والحق غالب على أمره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٢١].

وفي هذه المسألة من الأسرار البديعة العجيبة ما لو وقف عليها العقلاء لتعجبوا وحاروا وعلموا حكمة الله في الأشياء، وما معنى حجابه النور والظلمة وماذا يحد هذا الحجاب والحق لا يقبل الحد ولا يحتجب عنه شيء ولا يحجبه شيء، إذ لو حجبه شيء لحكم عليه ذلك الحجاب بالحد، ولا يصحّ أن يقبل الحجاب فلا يصحّ أن يكون العبد محجوباً عن الله ولكن يكون محجوباً عن نسبة خاصة، قال تعالىٰ في الفجار: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ١٥] فأضاف الرب إليهم وهي النسبة التي يرجونها منه لم يجدوها لأنهم طلبوها من غير جهة ما تكون فيه، فكانوا كمن يقصد الشرق بنيته وهو يمشي إلى الغرب بجسمه ويتخيل أن حركته إلى جهة قصده وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٤٧] فإنهم لما استيقظوا من نوم غفلتهم ووصلوا إلى منزل وحطّوا عن رحالهم طلبوا ما قصدوه فقيل لهم من أوّل قدم فارقتموه فما ازددتم منه إلاّ بعداً فيقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٢٧] ولا سبيل إلى ذلك، فلهذا وصفوا بالحجاب عن ربهم الذي قصدوه بالتوجّه على غير الطريق الذي شرع لهم، فإذا علمت ما اعتبرناه فلترتب الجنائز على قدر مقامك ولا تحكم فالحكم ليس لك وإنما هو للشارع، فإن وقفت من الشارع في ذلك المقام من طريق الكشف على حكم صحيح ثابت في ذلك فاعمل به ولا تتعداه وقف عنده فماذا بعد الحق إلاّ الضلال.

وصل في فصل ـ من فاته التكبير على الجنازة: اختلفوا في الذي يفوته بعض التكبير

على الجنازة في مواضع منها: هل يدخل بتكبير أم لا؟ ومنها: هل يقضي ما فاته أم لا؟ وإن قضى فهل يدعو بين التكبيرات أو لا؟ فمن قائل: يكبر أوّل دخوله. ومن قائل: ينتظر حتى يكبّر الإمام وحينئذ يكبّر. وأمّا قضاء ما فاته فمن قائل: يقضي ما فاته من التكبير والدعاء. ومن قائل: يقضي ما فاته من التكبير نسقاً من غير دعاء، والذي أذهب إليه أن الذي يدرك مع الإمام من التكبير هو أول له ثم يتم صلاته بتكبيراتها والدعاء.

الاعتبار: التكبير تعظيم الحق فليسارع إليه ولا ينتظر الإمام ويقضي ما فاته من التكبير نسقاً من غير دعاء، فإن الله تعالىٰ يقول: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، والمدعو له هنا الميت فيعطي الميت بالذكر من المصلي أفضل ممّا يعطيه لو دعا له، والمقصود بالدعاء للميت إنما هو النفع والنفع الأعظم قد حصل بالذكر.

وصل في فصل ـ الصلاة على القبر لمن فاتته الصلاة على الجنازة: فقال قوم: لا يصلى على القبر. وقال قوم: لا يصلي على القبر إلاً وليّها فقط إذا فاتته الصلاة عليها وكان قد صلّى عليها غير وليّها. وقال قوم: يصلي على القبر من فاتته الصلاة على الجنازة، واتفق القائلون بإجازة الصلاة على القبر أن من شرط ذلك حدوث الدفن، واختلف هؤلاء في المدة في ذلك فأكثرها شهر وبالصلاة على القبر أقول من غير مدة.

وصل الاعتبار في هذا الفصل: لا يصلّى على الميت حتى يوارى عن الأبصار في أكفانه، فلا فرق أن يوارى بأكفانه أو يوارى بقبره، وقد ثبت عن النبي ﷺ الصلاة على الميت بعدما دفن في قبره، فالاعتبار أن الجسم خلق من التراب وعاد إلى أصله، فلا فرق بينه في حال انفصاله وبروزه على وجه الأرض أو حصوله تحت التراب فهو منها، فإن كان المراد بتلك الصلاة الروح المدبر لهذا الجسم فالروح قد عرج به إلى بارئه وقد فارق الجسد فلا مانع من الصلاة عليه، وإن كان المراد بتلك الصلاة الجسد دون الروح فسواء كان فوق الأرض أو تحت الأرض فإنّ الشارع ما فرّق، فكل واحد من الإنسان قد رجع إلى أصله فالتحق الروح منه بالأرواح والتحق العنصريّ منه بالعنصر.

فصول ـ من يصلى عليه ومن أولى بالتقديم: فمن ذلك: الصلاة على من هو من أهل لا إله إلاّ الله. فمن قائل: يصلى عليهم مطلقاً ولو كانوا من أهل الكبائر والأهواء والبدع، وكره بعضهم الصلاة على أهل البدع وبالأوّل أقول، ولم يجز آخرون الصلاة على أهل الكبائر ولا على أهل البغي والبدع، ولو علم هذا القائل أن المصلي على الجنازة شفيع وقد ثبت أن النبيّ ﷺ قال: «**خَبأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةَ لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**».

وصل اعتبار هذا الفصل: قال ﷺ: «**صَلُّوا عَلَى مَنْ قَالَ: لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللَّه**» ولم يفصل ولا خصّص وعمّ بقوله من وهي نكرة تعمّ، فالمفهوم من هذا الكلام الصلاة على أهل التوحيد، سواء كان توحيدهم عن نظر أو عن إيمان، أعني عن تقليد للرسول أو عن نظر وإيمان معاً، ومعنى الإيمان أن يقولها على جهة القربة المشروعة من حيث ما هي مشروعة، وهذا لا سبيل إلى الوصول إلى معرفته من القائل لها إلاّ بوحي أو كشف فإنه غيب، وما كلّف الله نفساً إلاّ

وسعها، ولهذا ربطه بالقول، ومن لا يتصوّر منه القول أو لم يسمع أنه قالها كالصبيّ الرضيع فإن الرضيع يلحق بأبيه في الحكم فيصلى عليه، ومن لم تسمع منه يلحق بالدار والدار دار الإسلام وهو بين المسلمين ولم يعرف منه دين أصلاً لا الإسلام ولا غيره وكان مجهولاً فإنه يحكم له بالدار فيصلى عليه، فإذا كانت عناية الدار تلحقه بالمحقق إسلامه فما ظنّك بعناية الله؟ وهذا من عناية الله، وأهل لا إله إلاّ الله بكل وجه، وعلى كل حال لا يقبلهم الخلود في النار إلاّ من أشرك أو سنّ الشرك فإنهم لا يخرجون من النار أبداً. فالأهواء والبدع وكل كبيرة لا تقدح في لا إله إلاّ الله لا تعتبر مؤثرة في أهل لا إله إلاّ الله، فإن التوحيد لا يقاومه شيء مع وجوده في نفس العبد، ولولا النص الوارد في المشرك وفيمن سنّ الشرك لعمّت الشفاعة كل من أقرّ بالوجود وإن لم يوحد، فإن المشرك له ضرب من التوحيد أعني توحيد المرتبة الإلهية العظمى. فإن المشرك جعل الشريك شفيعاً عند الله ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [سورة يونس: الآية ١٨] كما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] فوحّد هذا المشرك الله في عظمته ليست للشريك عنده هذه الرتبة، إذ لو كانت له ما اتخذه شفيعاً والشفيع لا يكون حاكماً فلهم رائحة من التوحيد وبهذه الرائحة من التوحيد، وإن لم يخرجوا من النار لا يبعد أن يجعل الله لهم فيها نوعاً من النعيم في الأسباب المقرونة بها الآلام، وأدنى ما يكون من تنعيمهم أن يجعل المقرور في الحرور ونقيضه الذي هو المحرور في الزمهرير حتى يجد كل واحد منهما بعض لذة كما كانت لهم هنا بعض رائحة من التوحيد، فيخلقهم الله على مزاج يقبلون به نعيم هذه الأسباب المعتادة بوجود الألم عندها في المزاج الذي لا يلائمه ذلك ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٢٠] فإنه ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة البروج: الآية ١٦] وما ورد نص يحول بيننا وبين ما ذكرناه من الحكم فبقي الإمكان على أصله في هذه المسألة وفي الشريعة ما يعضده من قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] وقوله: رحمتي سبقت غضبي.

وصل في فصل ـ من قتله الإمام حدّاً: فمن الناس من لم ير أن يصلي عليه الإمام. ومنهم من رأى أنه يصلي عليه الإمام وبه أقول.

اعتبار هذا الفصل: الغاسل غير ممنوع من الصلاة على من غسله والإمام هنا غاسل فإن القتل هنا للمقتول ظهور معنويّ مكفر، وقد ورد في ذلك الخبر، فللإمام أن يصلي عليه لتحقق طهوره، والعجب من صاحب هذا المذهب الذي يمنع من صلاة الإمام عليه وهو عنده لو مات من عليه هذا الحدّ صلّى عليه الإمام مع تحقّقه بأنه مشغول الذمّة بهذا الحدّ الواجب عليه وأنه غير طاهر النفس فإن أمره إلى الله إن شاء آخذه به وإن شاء عفا عنه وبهذا وردت الأخبار، فالأولى أن يصلي عليه الإمام إذا قتله حدّاً كالغاسل سواء فإنه لا معنى لإقامة الحدود على المؤمنين في الدنيا إلاّ إزالتها عنهم في الآخرة بخلاف من قتل سياسة أو كفراً لا حدّاً.

وصل في فصل ـ من قتل نفسه هل يصلى عليه أم لا يصلى عليه؟: فقيل: يصلى عليه. ومن قائل: لا يصلى عليه وبالأوّل أقول.

وصل اعتبار هذا الفصل: لما أذن الله عزّ وجلّ في الشفاعة بالصلاة على الميت علمنا أنه عزّ وجلّ قد ارتضى ذلك وأن السؤال فيه مقبول، وأخبر أن الذي يقتل نفسه في النار خالداً مخلداً فيها أبداً وأنّ الجنة عليه حرام، وما ورد نهي عن الصلاة على من قتل نفسه فيحمل ذلك على من قتل نفسه ولم يصل عليه فيجب على المؤمنين الصلاة على من قتل نفسه لهذا الاحتمال، فيقبل الله شفاعة المصلي عليه فيه، ولا سيما والأخبار الصحاح والأصول تقضي بخروجه من النار، ويخرج الخبر الوارد بتأبيد الخلود مخرج الزجر، والحكمة المشار إليها في هذه المسألة في قول الله تعالىٰ: بادرني عبدي بنفسه حرّمت عليه الجنة، ففيه إشارة حقيقة فالإشارة يسارعون وسابقوا، ومن تقرّب إليّ شبراً تقرّبت منه ذراعاً، والموت سبب لقاء الله، فكان الإنسان في حياته يسافر ويقطع المنازل بأنفاسه إلى لقاء ربه وقد جعل له حدّاً مخصوصاً فاستعجل اللقاء فبادر إليه قبل وصوله إلى ذلك الحدّ وهو السبب الذي لا تعمل له في لقائه، فإن كان عن شوق للقاء الحق فإنه يلقاه برفع الحجب ابتداء فإنه قال: حرمت عليه الجنة، والجنة الستر أي منعت عنه أن يستر عني فإنه بادرني بنفسه ولم يقل ذلك على التفصيل فحمله على وجه الخبر للمؤمن لما يعضده من الأصول أولى.

وأمّا قوله عليه السلام فيمن قتل نفسه بحديدة وبسم وبالتردّي من الجبل فلم يقل في الحديث من المؤمنين ولا من غيرهم فتطرق الاحتمال، وإذا دخل الاحتمال رجعنا إلى الأصول فرأينا أن الإيمان قويّ السلطان لا يتمكن معه الخلود على التأبيد إلى غير نهاية في النار، فنعلم قطعاً أن الشارع أخبر بذلك عن المشركين في تعيين ما يعذبون به أبداً فقال: من قتل نفسه بحديدة منهم فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، أي هذا الصنف من العذاب هو حكمه في النار، وكذلك من شرب سماً فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، أي هذا النوع من العذاب يعذب به هذا الكافر، وقد ورد: «**مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ**».

وأمّا المؤمن فحاشى الإيمان بتوحيد الله أن يقاومه شيء، فتعين أن ذلك النص في المشرك وإن لم يخص الشارع في هذا الخبر صنفاً بعينه، فإن الأدلة الشرعية تؤخذ من جهات متعددة ويضم بعضها إلى بعض ليقوي بعضها بعضاً، لأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، كذلك الإيمان بكذا يشدّ للإيمان بكذا فيقوي بعضه بعضاً، فإن أهل الجنة إنما يرون ربهم رؤية نعيم بعد دخولهم الجنة كما ورد في الخبر في الزيارة: «**إِذَا أَخَذَ النَّاسُ أَمَاكِنَهُمْ فِي الْجَنَّةِ فَيُدعونَ إِلَىٰ الرُّؤْيَةِ**» فيمكن أن الله قد خصّ هذا الذي بادره بنفسه فقتل نفسه أن يكون قوله: حرمت عليه الجنة قبل لقائي فيتقدم للقاتل نفسه لقاء الله رؤية نعيم وحينئذ يدخل الجنة، فإن القاتل نفسه يرى أن الله أرحم به ممّا هو فيه من الحال الموجبة له إلى هذه المبادرة، فلولا ما توهم الراحة عند الله من العذاب الذي هو فيه لما بادر إليه والله يقول: أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي خيراً، والقاتل نفسه إذا كان مؤمناً فظنّه بربه حسن، فظنّه بربه الحسن هو الذي جعله أن يقتل نفسه، وهذا هو الأليق أن يحمل عليه لفظ هذا الخبر الإلهي،

إذ لا نص بالتصريح على خلاف هذا التأويل وإن ظهر فيه بعد فلبعد الناظر في نظره من الأصول المقررة التي تناقض هذا التأويل بالشقاء المؤبّد، فإذا استحضرها ووزن عرف ما قلناه.

وفي الأخبار الصحاح: «**أخرجوا من النار من كان في قلبه أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان**» فلم يبق إلاّ ما ذكرناه، ولم يقل الله في هذا الخبر إلاّ أنه حرم عليه الجنة خاصة. فإن قلنا: ولا بدّ بالعقوبة فتكون الجنة محرمة عليه أن يدخلها دون عقاب مثل أهل الكبائر فيكون نصاً في القاتل نفسه وغيره من أهل الكبائر في حكم المشيئة، فإن صاحب السجلات لا يدخل النار مع أنه من أهل الكبائر إذ ليس معه سوى قول لا إله إلاّ الله في طول إسلامه مدة حياته في الدنيا، فغايته أن يتحقق إنفاذ الوعيد في القاتل نفسه قبل دخول الجنة وأنه لا يغفر له، والله أكرم أن ينسب إليه نفاذ الوعيد بل ينسب إليه المشيئة وترجيح الكرم كما وصف بعض الأعراب مع كونه من أهل الأغراض نفسه. [الطويل]

وإنـي إذا أَوْعَـدْتُـه أو وَعَـدْتُـه ... لَـمُـخْـلِـفُ إيعادي ومُـنْـجِـزُ مَـوْعـدِي

ولذا ما ورد في الشرع نص في الإيعاد، وورد في الوعد: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤٧] فالإيعاد في الشرّ خاصة، والوعد يكون في الخير والشرّ معاً.

وصل في فصل ـ حكم الشهيد المقتول في المعركة: فمن قائل: لا يصلى عليه ولا يغسل. ومن قائل: يصلّى عليه ولا يغسل.

الاعتبار: الحياة المنسوبة إلى الشهيد في المعركة من رأى أن الله أخذ بأبصارنا عن إدراك حياة الشهيد وأنه حيّ يرزق كحياة زيد وعمرو في نفس الأمر وهذا ليس ببعيد، فإن الحيّ بهذه المثابة لا يصلّى عليه، ومن رأى أن الصلاة إنما هي الدعاء له بكونه انقطع عمله في الدنيا وإن كان حيّاً عند ربّه لكنه غير عامل قال: يصلّى عليه أي يدعى له مثل ما يدعى للميت لانقطاعه عن العمل المقرّب له إلى الدرجات التي لا تحصل إلاّ بالعمل من العامل نفسه أو ممّن ينوب عنه في عمله، كمن يصوم عن وليّه إذا مات أو يحجّ عنه إذا مات أو لم يستطع، فتقوم الصلاة على الشهيد من المصلي مقام العمل منه لو كان في حال لم ينقطع العمل منه.

وصل في فصل ـ حكم الصلاة على الطفل: فمن قائل: لا يصلّى عليه حتى يستهل صارخاً. ومن قائل: يصلّى عليه إذا كمل أربعة أشهر لوجود الروح عند هذه المدة.

الاعتبار: أمرنا الله بالصلاة على الميت في السنة ولم يقل الميت عن حياة متقدمة، فنحن إذا رأينا صورة الجنين ولو كان أصغر من البعوضة بحيث تكون أعضاؤه مصوّرة حتى يعلم أنه إنسان وإن كان قبل نفخ الروح فيه فإنه ينطلق بالشرع على تلك الصورة أنها ميتة، قال تعالىٰ: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨] فأطلق علينا اسم الموت قبل نفخ الروح، فالمصلي على الجنين إذا خرج عينه بالطرح وشاهدناه صورة وإن لم ينفخ فيه روح للصورة الظاهرة وتحقق اسم الموت فلا مانع للصلاة عليه بوجه من

الوجوه، ولم يقل رسول الله ﷺ أنه لا يصلّى على ميت إلاّ بعد أن تتقدمه حياة ما تعرض لذلك وإن كان لم يقع الأمر إلاّ فيمن تقدمت له حياة، وما يدل عدم النقل على رفع الحكم، بل المفهوم من الشرع الصلاة على الميت من غير تخصيص إلاّ ما خصّصه الشارع من النهي عن الصلاة على الكافر وغير ذلك ممّن نصّ على ترك الصلاة عليه وليس للطفل فيه مدخل، بل قد ذكر الترمذيّ عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الطِّفْلَ يُصَلَّى عَلَيْهِ وَلاَ يَرِثُ وَلاَ يُوَرَّثُ حَتَّىٰ يَسْتَهِلَّ صَارِخاً**» فقد حكم بالصلاة عليه، وما حكم بالميراث مثل ما حكم على من مات عن حياة، فهذا الخبر يقوّي ما ذهبنا إليه من وجود صورة الإنسان، وإن لم نعلم أن موته عن حياة ولا عن غير حياة، وحديث المغيرة عن النبيّ ﷺ أن الطفل يصلّى عليه، وذهب بعضهم إلى أن الطفل لا يصلّى عليه أصلاً، واحتجّ بأنّ النبيّ ﷺ لم يصلّ على ابنه إبراهيم وهو ابن ثمانية أشهر، فيعارض هذا القائل بأنّ النبيّ ﷺ صلّى على ابنه إبراهيم، ويقوّي هذا الحديث حديث المغيرة وجابر.

وصل في فصل ـ حكم الأطفال من أهل الحرب إذا ماتوا: فقيل: حكمهم حكم آبائهم لا يصلّى عليهم. ومن قائل: حكمهم حكم من سباهم من المسلمين، والذي أقول به إنه متى قدر المسلم على الصلاة على من مات من الأطفال الصغار الذين لم يحصل منهم التمييز ولا العقل أنه يصلّى عليهم فإنهم على فطرة الإسلام.

الاعتبار: الطفل مأخوذ من الطفل وهو ما ينزّل من السماء من الندا غدوة وعشية وهو أضعف ما ينزل من السماء من الماء، فالطفل من الكبار كالرش والوبل والسكب وغير ذلك من أنواع نزول المطر، ولما كان بهذا الضعف والضعيف مرحوم أبداً والصلاة رحمة فالطفل يصلّى عليه إذا مات بكل وجه ولا معنى لترك الصلاة عليه.

وصل في فصل ـ من أولى بالتقديم في الصلاة على الميت: واختلفوا فيمن أولى بالتقديم في الصلاة على الميت فقيل: وليّه. وقيل: الوالي وبه أقول، فإنه ثبت أنّ النبيّ ﷺ صلّى على الجنازة، ولم ينقل عنه قط أنه اعتبر الوليّ ولا سأل عنه، وقدم الحسين بن علي سعيد بن العاص وهو والي المدينة في الصلاة على الحسن بن علي وإلحاقه في هذه المسألة بصلاة الجمعة وصلاة الجماعة أولى من إلحاقه بالوليّ في مواراته ودفنه.

الاعتبار: الوالي له إطلاق الحكم في العموم والخصوص فهو أقوى ممّن له الحكم في بعض الأمور، فهو أولى بالصلاة على الميت وبمناجاة الحق والشفاعة في الميت فإنه نائب الله، ونظر الحق إلى من استخلفه أعظم من نظره فيمن لم يجعل له ذلك المنصب العام في الخلافة وكلامه أقبل عنده فإنه فوّض إليه الحكم فيما ولاّه عليه، والوالي على الحقيقة هو الله تعالىٰ، فمن ثبت له هذا الاسم بالوجه الأعمّ فالأعمّ فهو أولى بالصلاة على الميت، والوالي من له حكم الوقت من الأسماء الإلهية فيشفع عند من ولاّه من الأسماء في الميت ممّن هو أعمّ تعلقاً منه وهو الرحمن، فإن رحمته ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦].

وصل في فصل ـ وقت الصلاة على الجنازة: فقال قوم: لا يصلّى عليها في الوقت

المنهي عن الصلاة فيه. وقال قوم: لا يصلّى في الغروب والطلوع. وقال قوم: يصلّى عليه بعد صلاة الصبح ما لم يكن الإسفار، وبعد صلاة العصر ما لم يكن الإصفرار. وقال قوم: يصلّى عليها في كل وقت وبه أقول، غير أنه لا يقبر في ثلاث ساعات الميت، وإن أجزت الصلاة عليه فيها لورود النص أن لا نقبر فيها موتانا وهي الطلوع والغروب والاستواء.

الاعتبار في هذا الفصل: الصلاة مناجاة وسؤال على حضور ومشاهدة فلا تتقيد بوقت ما لم يقيدها الشرع، وما قيّد صلاة الجنازة فإنها ما فيها سجود، وأما الاستواء فإنه وقت تسعير النار، والقبر أوّل منزل من منازل الآخرة، ولم نقل الموت فإن الموت حال لا منزل والقبر منزل، فإن دفن في ذلك الوقت يشاهد الميت تسعير النار فربما أدركه رعب والله رفيق بالمؤمن، فلم يبح لنا أن نقبر في ذلك الوقت موتانا رحمة بهم. وأما الطلوع والغروب فإنهما ساعات يسجد فيهما الكفار، فجهنم تتقدم لأخذهم لصنيعهم ذلك، فإذا قبر الميت في ذلك الوقت ربما أبصر مبادرة النار لأخذ هذه الطوائف فيدركه رعب لإقبالها حتى يظنّ أنها تريده، كمن يكون ماشياً في طريق وخلفه من عليه طلب فيرى أمامه شخصاً يقصد طلب من يأتي خلفه يفرق منه لفظاعة منظره، فربما يتخيل هذا الشخص أنه المقصود لذلك المقبل فلا يأمن من يأتي حتى يجاوزه فيعلم أنه طالب غيره، فإن الكافر إذا سجد لغير الله بادرت جهنم لأخذه غيرة أن يسجد لغير الله، فإذا رفع رأسه من السجدة نكصت على عقبها عن أمر الله تعالىٰ لعل هذا الساجد لا يعود إلى مثلها ويتوب فإنه في دار قبول التوبة فلهذا لم يتم إقبالها إليه، فالإنسان ما دام حياً إذا كان كافراً يرجى له الإسلام، وإذا كان مسلماً يخاف عليه الكفر فإنها ما هي دار طمأنينة لمخلوق ما لم يبشر، ومع البشرى يرتفع الخوف لصدق المخبر ويبقى الحكم للحياء والخشوع، فخوف المبشر واصفراره للحياء خاصة لا للخوف.

وصل في فصل ـ في الصلاة على الجنازة في المسجد: فأجازها بعضهم وكرهها بعضهم. وأمّا إذا كانت الجنازة خارج المسجد والمصلي في المسجد ففي هذه الصلاة خلاف أيضاً. وأمّا الصلاة على الجنائز في المقابر ففيه خلاف وبالجواز أقول في ذلك كله.

وصل الاعتبار في هذا الفصل: المصلي على الجنائز شفيع فحيث ما كان يشفع فإن الحق يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فنحن نعلم أنه مع الجنازة حيث كانت ومعي حيث كنت فلا يتقيد بالمكان، فالصلاة على الجنازة جائزة في كل مكان من غير تقييد ولا موضع أقذر من موضع فرعون فإن المشرك نجس ومع هذا فجاءه موسىٰ وهرون وقال الله لهما: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٤٦] وكنت أقول بالصلاة على الجنائز حيث كانت في مسجد وغيره حتى رأيت رسول الله ﷺ في المنام وهو ينهى عن دخول الجنائز المسجد وعن الصلاة عليها فانتهيت فما صليت بعد ذلك على جنازة في المسجد، فإن النبي ﷺ يقول: «**مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَآنِي فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَكَوَّنُنِي**».

وصل في فصل ـ في شرط الصلاة على الجنازة: فقال الأكثرون: الطهارة شرط فيها كالقبلة سواء. واختلفوا في التيمم لها لمن خاف فواتها فقال قوم: يتيمم لها. وقال قوم: لا

يتيمم لها ولا يصلّى عليها بتيمم. والذي أقول به: إنّ الطهارة لا تشترط ولكن أكره التوجّه إلى الله وذكره على غير طهارة شرعية.

وصل في اعتبار هذا الفصل: قالت عائشة رضي الله عنها: «**كَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يَذْكُرُ اللّه عَلَىٰ كُلِّ أَحْيَانِهِ**» وهكذا ينبغي أن يكون الأمر فإنّ الله في كل حال مع العبد ولا سيما المؤمن. انتهى الجزء التاسع والأربعون.

(الجزء الخمسون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصل في فصل ـ في صلاة الاستخارة: ورد أن رسول الله ﷺ كان يعلّم أصحابه الاستخارة كما يعلّمهم السورة من القرآن. وورد أنه ﷺ كان يأمر أن يصلّى لها ركعتين ويوقع الدعاء عقيب الركعتين اللتين يصليهما من أجلها بعد السلام منهما، واستحبّ له أن يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [سورة القصص: الآية ٦٨] ما كان لهم الخيرة، أو سورة: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وفي الركعة الثانية يقرأ فاتحة الكتاب و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ويدعو بالدعاء المرويّ في ذلك عقيب السلام، يفعل ذلك في كل حاجة مهمة يريد فعلها وقضاءها، ثم يشرع في حاجته، فإن كان له فيها خيرة عند الله يسّر له أسبابها إلى أن تحصل فتكون عاقبتها محمودة، وإن تعذّر شيء من أسبابها عليه ولم يتفق تحصيلها بيسر فلا يضاد القدر ويعلم أنه لو كان له فيها خيرة عند الله ما تعذرت أسبابها، فيعلم أن الله قد اختار له تركها فلا يتألم لذلك وسيحمد عاقبة تركها.

وينبغي لأهل الله أن يصلّوا صلاة الاستخارة في وقت معين يعنونه من ليل أو نهار في كل يوم، فإذا قالوا الدعاء بعد السلام من الركعتين يقولون في الموضع الذي أمر أن يسمي حاجته كما سنذكره يقول: اللهم إن كنت تعلم أن جميع ما أتحرّك فيه في حقي وفي حق غيري وجميع ما يتحرّك فيه غيري في حقي وفي حق أهلي وولدي وما ملكت يميني خير لي في ديني ودنياي وعاجل أمري وأجله من ساعتي هذه إلى مثلها من اليوم الآخر فيسّره لي وأقدره ورحني به، وإن كنت تعلم أن جميع ما أتحرّك فيه في حقي وفي حق غيري وجميع ما يتحرّك فيه غيري في حقي وفي حق أهلي وولدي وما ملكت يميني من ساعتي هذه إلى مثلها من اليوم الآخر شرّ لي في ديني ودنياي وعاجل أمري وآجله، كما سيأتي في الدعاء بعد هذا إن شاء الله، فإنه إذا فعل ذلك ما يتحرك بحركة ولا يتحرك في حقّه بحركة إلاّ كان له فيها خير محقق فعلاً أو تركاً جربت هذا دائماً، يفعل هذا في كل يوم في وقت بعينه يلزمه لا يغيره.

وصورة دعاء الاستخارة: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علاّم الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر وتسمي حاجتك خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال: عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسّره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر وتذكّر حاجتك شرّ

لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال: عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه وأقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به، فالعارف إذا استخار ربّه في حاجة معينة كانت أو مبهمة فيحضر في قلبه عند قوله: اللهم أي يا ألله أقصد فأدخل هنا الإرادة لأن القصد الإرادة، فحذف الهمزة واكتفى بالهاء من اللهم لقربها في المخرج والمجاورة وليدلك بذلك على عظيم الوصلة، فإن شرح اللهم أي يا ألله أمنا بالخير أي اقصدنا، وقوله: إني آنية الشيء حقيقته كناية عن نفسه، وقوله: أستخيرك بعلمك يقول: أي يا ألله أقصد حقيقتي بما اختاره علمك مما لي فيه خير فإنك تعلم ما يصلح لي من الخير، ولا أعلم هذا الذي توجهت في طلبه ونقدر على إيجاده ولا أقدر على ذلك، فإن كان لي في فعله وظهور عينه خير فقد علمته فأقدره لي أي افعله لي، وإن كان الخير لي في تركه وعدم ظهور عينه فاصرفه عني لكوني استحضرته في خاطري وتخيلته، فقد حصل ضرب من الوجود وهو تصوّره في خيالي فلا تجعله حاكماً عليّ بظهور عينه، فهذا معنى قوله: فاصرفه عني. ثم قال: واصرفني عنه أي حل بيني وبينه واجعل بيني وبينه الحجاب الذي بين الوجود والعدم حتى لا أستحضره ولا يحضرني عيناً وتخيّلاً.

وقوله: وأستقدرك بقدرتك لأنّ القدرة صفة الإيجاد وهي أخصّ تعلقاً من العلم فيصرف بالعلم ويوجد بالقدرة ولا يصرف بها، فقدّم العلم على القدرة لأنه قد يكون له الخيرة في ترك ما طلب فعله ووجوده فكأنه يقول: وإن كان في تحصيل ما طلبت تحصيله خير لي فإني أستقدرك بقدرتك أي أقدرني على تحصيله، وإن كان ممّن يقول بنسبة الفعل للعبد كالمعتزلة وتكون الإضافة في قوله بقدرتك أي بالقدرة التي تخلقها في عبادك، وإن كان ممّن لا يقول بنسبة الفعل إلى العبد فقوله بقدرتك يعني قدرة الحق التي هيَ صفته المنسوبة إليه بحكم الصفة لا بحكم الخلق. وقوله: فإنك تقدر ولا أقدر يتّجه هذا قول من الطائفتين أي فإنك تقدر أن تخلق لي القدرة على فعله إن كان قد علمت أن لي فيه خيراً، وقد يريد الإخبار عن حقيقة نفي القدرة عن العبد فيقول: فإنك تقدر على إيجاده وتحصيل ما طلبته ولا أقدر أي مالي قدرة أحصله بها لعلمه أن القدرة الحادثة ما لها التكوين ولا تتعدّى محلها، وقوله: وأرضني به أي اجعل الفرح والسرور عندي بحصوله أو بعدم حصوله من أجل ما اخترته لي في سابق علمك، وأقدر لي الخير حيث كان وأنت أعلم بالأماكن والزمان والأحوال التي لي الخير فيها من غيرها، فإنك أنت علاّم الغيوب أي ما غاب عنّا من ذلك تعلمه أنت ولا أعلمه أنا.

ثم لتعلم أن العلم بالأمر لا يتضمن شهوده فدل أن نسبة رؤيتك الأشياء غير نسبة علمك بها، فالنسبة العلمية تتعلق بالشهادة والغيب، فكل مشهود معلوم ما شهد منه وما كل معلوم مشهود، وما ورد في الشرع قط أن الله يشهد الغيوب وإنما ورد يعلم الغيوب ولهذا وصف نفسه بالرؤية فقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [سورة العلق: الآية ١٤] ووصف نفسه بالبصر وبالعلم، ففرّق بين النسب وميّز بعضها عن بعض ليعلم ما بينها. ولما لم يتصوّر أن يكون في حق الله

غيب علمنا أن الغيب أمر إضافيّ لما غاب عنّا فكأنه يقول من يقول وأنت علاّم الغيوب أي ما غاب عنّا، وكذلك عالم الغيب والشهادة أي ما غاب عنّا وما نشهده ويشهده وما يلزم من شهود الشيء العلم بحدّه وحقيقته، ويلزم من العلم بالشيء العلم بحدّه وحقيقته عدماً كان أو وجوداً وإلاّ فما علمته، والأشياء كلها مشهودة للحق في حال عدمها، ولو لم تكن كذلك لما خصّص بعضها بالإيجاد عن بعض، إذ العدم المحض الذي ليس فيه أعيان ثابتة لا يقع فيه تمييز شهود بخلاف عدم الممكنات، فكون العلم ميّز الأشياء بعضها عن بعض وفصّل بعضها عن بعض هو المعبر عنه بشهوده إياها وتعيينه لها أي هي بعينه يراها، وإن كانت موصوفة بالعدم فما هي معدومة لله الحق من حيث علمه بها، كما أن تصوّر الإنسان المخترع للأشياء صورة ما يريد اختراعها في نفسه ثم يبرزها فيظهر عينها لها فاتصفت بالوجود العينيّ وكانت في حال عدمها موصوفة بالوجود في الوجود الذهنيّ في حقّنا والوجود العلميّ في حق الله، فظهور الأشياء من وجود إلى وجود، من وجود علم إلى وجود عين، والمحال الذي هو العدم المحض ما فيه أعيان تمييز، فهذا معنى بعض ما يتضمنه دعاء الاستخارة. وأمّا قوله: ويسّره لي يريد الأسباب التي هي علامات ودلائل على تحصيل المطلوب.

فصول جوامع فيما يتعلق بالصلاة ـ وبها خاتمة الباب

وصل في إقامة الصلاة: إقامة الصلاة ظهور نشأتها على أتم خلقها وخلقها يختلف باختلاف من تنسب إليه، فإذا نسبت الصلاة إلى الله فلها نشأة تخالف نشأة نسبتها إلى غير الله من ملك وبشر وغيرهما من المخلوقين، فالحق ينشئها نشأة تامّة ولهذا قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] لتمام خلقها، إذ كانت الصلاة المنسوبة إليه في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] رحمته بعباده، وسيأتي ذكر ذلك، ونسبة الصلاة إلى الملك أيضاً يخرجها ويقيمها تامّة النشأة أي صلاة أظهرها فما يظهرها إلا تامة فلا تكون صلاة الملك إلاّ تامّة النشأة والخلق، وكذلك كل صلاة منسوبة إلى جماد ونبات وحيوان ما عدا الإنس والجن فإن صلاتهما إذا أنشآها قد تكون مخلقة أي تامّة الخلقة وغير مخلقة أي غير تامّة الخلق، فلنذكر أوّلاً صلاة الحق فنقول: **وصل**: قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] عموماً. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٦] خصوصاً بخصوص صلاة، فإن الضمير في قوله: ﴿يصلّون﴾ يجمع الحق والملائكة ولا يتمكن للملائكة أن تلحق صلاة الله على عبده فإنها لا تتعدى مرتبتها فيكون الحق ينزل في هذه الصلاة إلى صلاة الملائكة لأجل الضمير الجامع، فتكون صلاة الله على النبيّ من مقام صلاة الملائكة على النبيّ، بخلاف قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾، فإنه هنا ما جاء بالملائكة إلاّ بعدما ذكرنا، وفصل بنا بين صلاته وبين الملائكة بقوله ﴿عَلَيْكُمْ﴾. ثم قال: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] فأفرد الخروج إليه، وما جاء بضمير جامع يجمع بين الله وبين الملائكة في الصلاة على المؤمنين كما فعل في قوله:

﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ فتميز النبي ﷺ على سائر البشر بمرتبة لم يعطها أحد سواه أي ما ذكر لنا ذلك فعمنا كلنا والنبيّ ﷺ من جملتنا بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ وأفرد نفسه في ذلك، ثم قال: ﴿وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾ فأفرد الملائكة بالصلاة على العباد وفيهم النبيّ، فلجميع الخلق توحيد الصلاة من الله وتوحيد الصلاة من الملائكة.

وخصّ النبيّ ﷺ وحده فيما أخبرنا به بأن جمع له بصلاة جامعة اشترك فيها الله وملائكته فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ ومعلوم أن الصلاة في الجمعية ما هي الصلاة التي في حال الإفراد فإن الحالتين متميزتان، ففاز النبيّ ﷺ بهذه الصلاة ثم أمرنا أن نصلي عليه ﷺ بمثل هذه الصلاة الجامعة، وهو أن نصلّي عليه إذا كان الحق لساننا كما ورد في الخبر، فحينئذ تصحّ الصلاة التي أمرنا بها، وبهذه المثابة كانت صلاة الملائكة في هذا المقام الذي جمع بينهم وبين الله في الصلاة على النبيّ ﷺ، فإن في تلك الصلاة كان نطقهم، فثبت شرفه ﷺ على سائر البشر في هذه المرتبة فإنه شرف محقق الوجود بالتعريف، وإن ساواه أحد ممّن لم نعرف به فذلك شرف إمكانيّ فتعين فضله بالتعيين على من لم يتعين، وإن كان قد صلّى عليه مثل هذا في نفس الأمر ولم نخبر فثبت له الفضل بكل حال، فلما قال تعالىٰ بعد قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ بعد قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولم يقل بماذا هل بالوجود وبالتوحيد؟ فحمله على الوجود الذي هو أعمّ أولى لأنه أعمّ في الرحمة فقال لهم: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤١] أي في كل حال ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٢] أي صلّوا له، فسأل ابن عمر لو كنت مسبّحاً أتممت يريد مصلياً تماماً غير قصر ولهذا قال: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٢] يعني صلاة الغداة والعشيّ. وكذلك قال: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ١٧] و ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ١٨] فجمع الصلوات الخمس في هذه الآية ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ أي الثناء المطلق ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الروم: الآية ١٨].

فأما تقدير الكلام فلما قال هذا وأمرنا بالذكر والصلاة قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ فأخبر أنه يصلّي علينا، فالمفهوم من هذا أمران: الأمر الواحد أنه يصلّي علينا فينبغي لنا أن نذكره بالمدح والثناء ونصلي له بكرة وأصيلاً فإن في ذلك غذاء العقول والأرواح، كما أن غذاء الجسم في هذه الأوقات في قوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٢] ورزق كل مخلوق بحسب ما تطلبه حقيقته فالأرواح غذاؤها في التسبيح فقيل لها سبّحه أي صلّ له في هذه الأوقات واذكره على كل حال فقيد التسبيح وما قيد الذكر بوقت، فعلمنا أن التسبيح ذكر خاص مربوط بهذه الأوقات. والأمر الآخر: أنكم إذا صليتم وذكرتم الله فإنه يصلي عليكم فصلاتنا وذكرنا له سبحانه بين صلاتين من الله تعالىٰ: صلّى علينا فصلينا له فصلّى علينا، فمن صلاته الأولى علينا صلينا له، ومن صلاته الثانية علينا كانت السعادة لنا بأن جنينا ثمرة صلاتنا له وذكرنا.

ثم قال: ﴿وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾ أيضاً تصلّي عليكم بما قد شرع لها من ذلك وهو قوله: ﴿رَبَّنَا

وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ [سورة غافر: الآيات ٧، ٨، ٩] يعني القيامة والمعصومين من وقوع السيئات منهم ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة غافر: الآية ٩] فهذا كله قول الملائكة، فصلاة الملائكة علينا كصلاتنا على الجنازة سواء لمن عقل ثم قال: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ بلام السبب ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] ابتداء منه ومنة وبدعاء الملائكة وهو هذا الذي ذكرناه ولهذا قال: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ وهو قولهم: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فإن السيئات ظلمات، فمنهم من يخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات المخالفة إلى نور الموافقة، ومن ظلمات الضلال إلى نور الهدى، ومن ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، ومن ظلمات الحجاب إلى نور التجلي، ومن ظلمات الشقاء والتعب إلى نور السعادة والراحة. ثم قال: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بالمصدّقين ﴿رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] أي رحمهم لما صدقوا به من وجوده الذي هو أعم من التصديق بالتوحيد.

ثم يندرج بعد الإيمان بالوجود الإلهيّ كل ما يجب به الإيمان على طبقاته، ثم قال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٤] أي إذا وقع اللقاء بشر بالسلامة أنه لا يشقى بعد اللقاء أبداً، فللّه رجال يلقونه في الحياة الدنيا ويبشرون بالسلام، وثم من يلقاه إذا مات، وثم من يلقاه عند البعث، وثم من يلقاه في تفاصيل مواقف القيامة على كثرتها، ومنهم من يلقاه بعد دخول النار وبعد عذابه فيها، ومتى وقع اللقاء حيّاه الله بالسلام فلا يشقى بعد ذلك اللقاء، فلذا جعل السلام عند اللقاء ولم يعين وقتاً مخصوصاً لتفاوت الطبقات في لقائه، فآخر لاق يلقاه المؤمن بوجوده خاصة فإنه قال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقيد فلا نقيد. وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٤] كل أجر على قدر ما عنده من الإيمان، وأقلّهم أجراً المؤمن بوجود الله إلهاً إلى ما هو أعظم في الإيمان، فصلاة الله رحمته بخلقه ولذا قال: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ وقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] والعرش ما حوى ملكه كله ممّا وجد، ورحمتي وسعت كل شيء وعرشه وسع كل شيء، والنار ومن فيها من الأشياء، والرحمة سارية في كل موجود، فصلاة الحق كائنة على كل موجود والخلق صور خيالية محرّكهم الحق والناطق عنهم الحق فهم مصرّفون تجري عليهم أحكام القدرة، وهم محوفي عين ثبوتهم، وعدم في حال وجودهم، أولئك هم الصامتون الناطقون والميتون الأحياء كحياة الشهداء، فالعقل يشهد ما لا يشهد البصر. فإقامة الصلاة الإلهية عموم رحمته بمخلوقاته فهي مخلوقة قال تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] والرحمة شيء وخلقها تعميمها، وكذلك صلاة الملائكة تامة الخلقة فإنها دعت للذين تابوا كما ذكر، وقالت أيضاً: وقهم السيئات فعمّت فما بقي أمر إلا دخل في صلاة الملائكة من طائع وعاص على أنواع الطاعات والمعاصي.

وصل: وأما صلاة الإنسان والجنّ وهو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [سورة المائدة: الآية

٥٥] فإقامة البشر لها أن تنسب إليهم بمعنى الرحمة كما نسبت إلى الحق، وبمعنى الدعاء والرحمة كما نسبت إلى الملائكة، وبمعنى الدعاء والرحمة وإتمام التكبير والقيام والركوع والسجود والجلوس كما ورد في الخبر، فمن أتمّ ركوعها وسجودها وما شرع فيها وإن كان في جماعة ممّا تستحقه صلاة الجماعة والائتمام فقد أكمل خلقها، وإن كان انتقص منها شيء كانت له بحسب ما انتقص منها والله لا يقبلها ناقصة فيضم بعض الصلوات إلى بعض، فإن كانت له مائة صلاة وفيها نقص كملت بعضها من بعض وأدخلت على الحق كاملة فتصير المائة صلاة مثلاً ثمانين صلاة أو خمسين أو عشرة أو زائداً على ذلك أو ناقصاً عنه هكذا هي صلاة الثقلين.

وصل: قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨] ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ﴾ [سورة النور: الآية ٤١] أي كل هؤلاء ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ﴾ [سورة النور: الآية ٤١] الضمير يعود على الله من قوله صلاته أي صلاة الله عليه بنفس وجوده ورحمته به في ذلك، وقوله ﴿وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [سورة النور: الآية ٤١] الضمير يعود في تسبيحه على كل أي ما يسبح ربه به وهو صلاته له فوصف الحق نفسه بالصلاة وما وصف نفسه بالتسبيح فعمّ بهذه الآية العالم الأعلى والأسفل وما بينهما.

وصل: من غيرة الله أن تكون لمخلوق على مخلوق منة لتكون المنة لله ما خلق مخلوقاً إلاً وجعل لمخلوق عليه يداً بوجه ما، فإن أراد الفخر مخلوق على مخلوق بما كان منه إليه نكس رأسه ما كان من مخلوق آخر إليه، فالعارفون مثل الأنبياء والرسل والكمل من العلماء بالله لا يخطر لهم ذلك لمعرفتهم بحقائق الأمور، وما ربط الله به العالم وما يستحقه جلاله ممّا ينبغي أن يفرد به ولا يشارك فيه، فنصب الأسباب وأوقف الأمور بعضها على بعض، وقد قال النبيّ ﷺ للأنصار عند ما ذكر أن الله قد هداهم به قال: «**لَوْ شِئْتُمْ أَنْ تَقُولُوا لَقُلْتُمْ: وَجَدْنَاكَ طَرِيداً فَآوَيْنَاكَ وَضَعِيفاً فَنَصرْنَاكَ**» الحديث، فذكر ما كان منهم في حقّه وكان الله قادراً على نصره من غير سبب، ولكن فعل ما تقتضيه الحكمة لما جبل عليه من خلقه الله على صورته فقال لرسوله ﷺ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٣] فهذا فخر ويد ومنّة يتعرض فيها علة ومرض، لكن عصم الله نبيه من ذلك فجعل سبحانه في مقابلة هذه العلة دواء كما هي أيضاً دواء لما هو لها دواء فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٦] فإن افتخرنا بالصلاة عليه على طريق المنّة وجدناه قد صلّى علينا حين أمر بذلك، وإن تصوّر في الجواز العقلي أن يمتن بصلاته علينا منعته من ذلك صلاتنا عليه أن يذكر هذا مع كونه السيد الأعظم، ولكن لم يترك له سبحانه المنّة على خلقه ليكون هو سبحانه المنعم الممتنّ على عباده بجميع ما هم فيه وما يكون منهم في حق الله من الوفاء بعهوده، فاجعل بالك لما نبهتك عليه فإنه من أسرار المعرفة بالله وبمراتب ما سوى الله إن كنت فطناً.

وصل: اعلم أن الله قد ربط إقامة الصلاة بأزمان وهي الأوقات المفروض فيها إقامة الصلوات المفروضات فقال تعالىٰ: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٣] وربطها بأماكن وهي المساجد قال تعالىٰ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن

﴿تُرۡفَعَ﴾ أي أمر الله أن ترفع حتى تتميز البيوت المنسوبة إلى الله من البيوت المنسوبة إلى المخلوقين ﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ بالأذان والإقامة والتلاوة والذكر والموعظة ﴿يُسَبِّحُ﴾ يقول: يصلي ﴿لَهُۥ فِيهَا﴾ أي من أجل أن أمرهم الله بالصلاة فيها ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ رِجَالٌ﴾ [سورة النور: الآية ٣٦ ـ ٣٧] ولم يذكر النساء لأن الرجل يتضمن المرأة فإن حوّاء جزء من آدم فاكتفى بذكر الرجال دون النساء تشريفاً للرجال وتنبيهاً على لحوق النساء بالرجال فسمّى النساء هنا رجالاً، فإنّ درجة الكمال لم تحجر عليهنّ بل يكملن كما تكمل الرجال، وثبت في الخبر كمال مريم وآسية امرأة فرعون فقال: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ﴾ أي لا تشغلهم تجارة ﴿وَلَا بَيۡعٌ﴾ [سورة النور: الآية ٣٧] فالتجارة أن يبيع ويشتري معاً، والبيع أن يبيع فقط، فمدحهم بالتجارة وهو البيع والشراء في أي شيء كان ممّا أمر الله بالتجارة فيه قال تعالىٰ: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ [سورة الصف: الآية ١٠] وقال في البيع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١١] وهو الثمن وجعلها الثمن للحديث الوارد في الخصمين من الظالم والمظلوم: «**إِذَا أَصْلَحَ اللَّهُ بَيْنَ خَلْقِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَأْمُرُ اللَّهُ المَظْلُومَ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ فَيَنْظُرَ إِلَىٰ عِلِّيينَ فَيَرَىٰ مَا يَبْهَرُهُ حُسْنُهُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا؟ لأَيِّ شَهِيدٍ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: لِمَنْ أَعْطَانِي الثَّمَنَ قَالَ: وَمَنْ يَمْلِكُ ثَمَنَ هَذَا قَالَ: أَنْتَ بِعَفوِكَ عَنْ أَخِيكَ هَذَا فَيَقُولُ: يَا رَبِّ قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَادْخُل الجَنَّةَ**» ولما أورد رسول الله ﷺ هذا الحديث تلا: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١] فإن الله يصلح بين عباده يوم القيامة.

فالمؤمن ممدوح في القرآن بالتجارة والبيع فيما ملك بيعه وما صرّح الله فيه بأنه يشتري خاصة، فإنّ التجارة معاوضة وقبض ثمن، والبيع بيع ما يملكه، والشراء شراء ما ليس عندك، وما وصف بالشراء في القرآن إلاّ من أشهدهم الله عن جناية فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٥] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧٧] والسبب في أن المؤمن ما وصفه الله بالشراء فإنه خلقه الله وملكه جميع ما خلق الله في أرضه الذي هو مسكنه ومحله فقال: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩] فجميع ما في الأرض ملكه فما بقي له ما يشتريه، وحجر عليه الضلالة وهي صفة عدمية فإنها عين الباطن وهو عدم ولم يأمرنا الله باتباعه فإنه من العدم خرجنا إلى الوجود فلا نطلب ما خرجنا منه، هذا تحقيقه لأنه خلقنا لنعبده، فإذا اشترينا الضلالة بالهدى فقد اخترنا العدم على الوجود والباطل على الحق الذي خلقنا له، فلم يصف المؤمن بالشراء، وممّا ملكه الله ما هو مباح له وما هو واجب عليه أن لا يخرجه ولا يبيعه وهي الواجبات والفرائض فيبيع صنف المباحات بالواجبات، فلهذا شرع له البيع فيما أبيح له بيعه، فالمؤمن الكيس الفطن ينظر الوقت الذي يكون فيه بحكم الإباحة يقول: ما لي ربح في هذا الملك والدنيا دار تجارة فلنبع هذا المباح بواجب فهو أولى بي ولا نخسر وقتي فيكون في فرجة مع إخوانه فيقول: يا رب أحب أن أبيع هذا المباح بواجب، فيقول الله له: ذلك إليك،

فيبيع الفرجة بالاعتبار فيما يعطيه ذلك المكان من الحسن والجمال من الدلالة على الله عزّ وجلّ، فيفكر في حسن خلق الله وكماله وجماله، فتكون فرجته أتم وأفرح لقلبه، وليس من المباح في شيء فإنه قد باعه بهذا الواجب، فاعتبر الحق جانب البيع ولم يعتبر في حق المؤمن جانب الابتياع، فكان المؤمن ملك حلّة الإباحة وحلّة الوجوب فخلع عن نفسه حلّة الإباحة وليس حلّة الوجوب وكلاهما له فسمّى خلعه لها بيعاً وما سمّى لباسه للوجوب شراء فإنها ملكه ورحله ومتاعه والإنسان لا يشتري ما يملكه.

ولما حجر الله الضلال على خلقه ورجح من رجح منهم الضلال على الهدى اشتروا الضلالة فإنهم لم يكونوا يملكونها بالهدى الذي ملكهم الله إياه ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦] في ذلك الشراء، لأن الله ما شرع لعباده الشراء. ثم قال تعالىٰ بعد قوله: ﴿وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٧] أي لا يلهيهم شيء عن ذكر الله حين سمعوا المؤذن في هذا البيت يدعو إلى الله وهو حاجب الباب فقال لهم: حيّ على الصلاة أي أقبلوا على مناجاة ربكم فإنه قد تجلّى لكم في صدر بيته وهي القبلة فإن الله في قبلة العبد، فبادر أهل الله من بيعهم وتجارتهم المعلومة في الدنيا إلى هذا الذكر عندما سمعوه، فأقاموا الصلاة أي أتمّوا نشأتها حين أنشؤوها بحسن الائتمام بإمامهم وحسن الركوع والسجود، وما تتضمنه من ذكر الله الذي هو أكبر ما فيها كما أخبر الله تعالىٰ فقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] بسبب تكبيرة الإحرام، فإنه حرم عليه التصرّف في غير الصلاة ما دام في الصلاة، فذلك الإحرام نهاه عن الفحشاء والمنكر فانتهى فصحّ له أجر من عمل بأمر الله وطاعته، وأجر من انتهى عن محارم الله في نفس الصلاة وإن كان لم ينو ذلك.

وانظر ما أشرف الصلاة كيف أعطت هذه المسألة العجيبة وهي أن الإنسان إذا تصرّف في واجب فإن له ثواب من تصرّف في واجب، ويتضمن شغله بذلك الواجب عدم التفرّغ لما نهي عنه أن يأتيه من الفحشاء والمنكر، فيكون له ثواب من نوى أن لا يفعل فحشاء ولا منكراً، فإن أكثر الناس تاركون ما لهم هذا النظر لعدم الحضور باستحضار الأولى، ولو لم يكن الأمر كذلك لما أعطى فائدة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ والصلاة فعل العبد فهو بصلاته ممّن ينهى عن الفحشاء والمنكر، فيكون له بالصلاة أجر من ينهى عن الفحشاء والمنكر وهو لم يتكلم فله أجر عبادتين: أجر الصلاة وهي عبادة، وأجر النهي عن الفحشاء وهو عبادة، وقليل من أصحابنا من يجعل ذهنه في عباداته إلى أمثال هذه المراقبات في التعريف الإلهي على لسان الشارع في الكتاب والسنّة، ثم قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] يعني فيها فهو أكبر من جملة أفعالها فإنها تشتمل على أقوال وأفعال فقال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ في الصلاة ﴿أَكْبَرُ﴾ أحوال الصلاة وما كل أقوال الصلاة ذكر فإن فيها الدعاء.

وقد فرّق الحق بين الذكر والدعاء فقال: من شغله ذكري عن مسألتي وهي الدعاء فما

هو الذكر هنا الذكر الخارج عن الصلاة حتى ترجحه على الصلاة، إنما هو الذكر الذي في الصلاة، فهذا من ربط الصلاة بالمكان والحال، ومن أحوال إقامة الصلاة فيمن أمر غيره بالبر ونسي نفسه توبيخ الله من هذه صفته وجعله إياه بمنزلة من لا عقل له فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٤] والبر من جملة أحوال الصلاة، فإن رسول الله ﷺ يقول: «**أُقِرَّتِ الصَّلاةُ بِالبِرِّ وَالسَّكِينَةِ**». ثم أمر من هذه صفته أن يستعين بالصبر والصلاة يعني بالصبر على الصلاة فقدم حبس النفس عليها فإن الله يقول: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [سورة طه: الآية ١٣٢] فأنث يريد الصلاة.

وأما قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٤] فإنكم تجدون فيه قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة الصف: الآية ٣] في أثر قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة الصف: الآية ٢] وهذه حالة من أمر بالبر غيره ونسي نفسه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٤] يقول: أما لكم عقول تنظرون بها قبيح ما أنتم عليه.

ثم ذكر الخشوع للصلاة فقال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٥] فإنّ الخشوع لله لا يكون إلاّ عن تجلّ إلهي والصلاة مناجاة فلا بدّ من تجلّ إن رأيته خاشعاً وإن لم يخشع في صلاته فما صلّى، فإن رسول الله ﷺ قد جعل التجلّي الإلهي سبباً لوجود الخشوع في القلب ولا سيما في الصلاة، والتجلّي لأكثر الناس إما بالحضور وهو لأفراد، وإما بالاستحضار الخيالي وهو الغالب في عموم الخواص فإن الله في قبلة المصلي. وأما خشوع الأكابر الذين التحقوا بالملأ الأعلى فخشوعهم عن التجلّي الحقيقي فهم في صلاتهم دائمون، وإن أكلوا وشربوا ونكحوا واتجروا فأمرهم الله تعالىٰ إذا كانوا في مثل هذه الحال أن يستعينوا بالصلاة والصبر عليها، فإن المصلي يناجي ربّه، فإذا حصل العبد في محل المناجاة مع ربّه دائماً استلزمه الحياء من الله فلا يتمكن له أن يأمر أحداً ببر وينسى نفسه منه بل يبتدىء بنفسه. والبر هو الإحسان والخير، ومن جملة ذلك أن يكون محتاجاً للقمة يأكلها ويرى غيره محتاجاً إليها والحاجة على السواء فيعطي غيره وينسى نفسه وقد قال له ربه: ابدأ بنفسك، وشرع له ذلك حتى في الدعاء إذا دعا الله لأحد أن يبدأ بنفسه أحق، وغذاء الأرواح الطاعات فهي محتاجة إليها، ومن جملة طاعاتها الأمر بالطاعات فيقوم هذا الغافل القليل الحياء من الله فيأمر غيره بالبرّ وهو على الفجور وينسى نفسه فلا يأمرها بذلك فهو بمنزلة من يغذي غيره ويترك نفسه وهو في غاية الحاجة إلى ذلك الغذاء ونفسه أوجب عليه من ذلك الغير، والسبب في ذلك ما أبينه لك إن شاء الله.

وصل: وذلك أن جميع الخيرات صدقة على النفوس أي خير كان حسّاً ومعنى، فينبغي للمؤمن أن يتصرّف في ذلك بشرع ربّه لا بهواه فإنه عبد مأمور تحت أمر سيده، فإن تعدّى شرع ربّه في ذلك لم يبق له تصرّف إلاّ هوى نفسه فسقط عن تلك الدرجة العلية إلى ما هو دونها عند العامّة من المؤمنين. وأمّا عند العارفين فهو عاص، فإذا خرج الإنسان بصدقته فأول محتاج يلقاه نفسه قبل كل نفس محتاجة وهو إنما أخرج الصدقة للمحتاجين، فإن تعدّى أول

محتاج فذلك لهواه لا لله فإن الله قال له: ابدأ بنفسك وهي أول من يلقاه من أهل الحاجة، وقد شرع له في الإحسان أن يبدأ بالجار الأقرب فالأقرب فإن رجح الأبعد في الجيران على الأقرب مع التساوي في الحاجة فقد اتبع هواه وما وقف عند حدّ ربه، وهذا سار في جميع أفعال البرّ، وسبب ذلك الغفلة عن الله تعالىٰ فأمر بالصفة التي تحضره مع الله وهي الصلاة.

وصل: ومن تأثير الصلاة بالحال قول الله للمؤمنين: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] فأمرهم بالذكر والشكر أمرهم أن يستعينوا على ذلك بالصبر والصلاة، وأخبرهم أنّ الله مع الصابرين عليها وعلى كل مشقة ترضي الله ممّا كلف عباده بها، لأن الصبر من المقامات المشروطة بالمشقات والمكاره والشدائد المعنوية والحسيّة، وجعل الصبر هنا لما ذكرناه وللتطابق في قوله: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ والشكر من المقامات المشروطة بالنعماء والمحبة ليس للبلاء في الشكر دخول ولا للصبر في النعم دخول كما يراه من لا معرفة له بحقائق الأمور، فالصلاة هنا والصبر عليها وهو الدوام والثبات وحبس النفس عليها مؤثرة في الذكر والشكر، فالصبر هنا هو قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ فلذلك ذكر الصبر مع الصلاة، فكما يؤثر الصبر على الذكر والشكر في الذكر والشكر كذلك يؤثر في الصلاة سواء، وتؤثر الصلاة من حيث الصبر عليها في الذكر والشكر ومن حيث هي صلاة، وذلك أن الصلاة مناجاة بين الله وبين عبده، فإذا ناجى العبد ربّه فأولى ما يناجيه به من الكلام كلامه الذي شرع له أن يناجيه به وهو قراءة القرآن في أحوال الصلاة من قيام وهو قراءة الفاتحة وما تيسّر معها من كلامه، ومن ركوع وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٧٤] في ركوعه فهو ذاكر ربّه في صلاته بكلامه المنزّل وكذلك في سجوده يقول: سبحان ربي الأعلى فإنه لما نزل قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلىٰ: الآية ١] قال رسول الله ﷺ: «**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**» فأمرنا الله بذكره وشكره، والفاتحة تجمع الذكر والشكر وهي التي يقرأها المصلي في قيامه. فالشكر فيها قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهو عين الذكر بالشكر إلى كل ذكر فيها وفي سائر الصلاة، فذكر الله في حال الصلاة وشكره أعظم وأفضل من ذكره سبحانه وشكره في غير الصلاة، فإن الصلاة خير موضوع العبادات، وقد أثرت هذه الصلاة في الذكر هذا الفضل وهو يعود على الذاكر.

وينبغي لكل من أراد أن يذكر الله تعالىٰ ويشكره باللسان والعمل أن يكون مصلياً وذاكراً بكل ذكر نزل في القرآن لا في غيره، وينوي بذلك الذكر والدعاء الذي في القرآن ليخرج عن العهدة، فإنه من ذكره بكلامه فقد خرج عن العهدة فيما ينسب في ذلك الذكر إلى الله، وليكون في حال ذكره تالياً لكلامه فيقول من التسبيحات ما في القرآن، ومن التحميدات ما في القرآن، ومن الأدعية ما في القرآن، فتقع المطابقة بين ذكر العبد بالقرآن لأنه كلام الله، وبين ذكر الله إياه في قوله ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] فيذكر الله الذاكر له أيضاً وذكره كلامه فتكون المناسبة بين الذاكرين، فإذا ذكره بذكر يخترعه لم تكن تلك المناسبة بين كلام الله في ذكره للعبد وبين ذكر العبد، فإن العبد هنا ما ذكره بما جاء في القرآن ولا نواه وإن صادفه باللفظ

ولكن هو غير مقصود. ثم إن هذا الذكر بالقرآن جاء في الصلاة فالتحق بالأذكار الواجبة، والأذكار الواجبة عند الله أفضل، فإن العبد مأمور بقراءة الفاتحة في الصلاة ولهذا أوجبها من أوجبها من العلماء، وكذلك العبد مأمور بالتسبيح في الركوع والسجود بما نزل في القرآن وهو قوله ﷺ: «**اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ وَاجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**» فأمر، والمصلي مأمور أن يسبح الله ثلاثة فما زاد في ركوعه بما أمر به وفي سجوده ثلاثة فما زاد بما أمر به وذلك أدناه وأمره محمول على الوجوب، ولهذا رأى بعض العلماء وهو إسحاق بن إبراهيم بن راهويه أن ذلك واجب وأنه من لم يسبح ثلاث مرّات في ركوعه وسجوده لم تجز صلاته، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟﴾ على ذكري وشكري ﴿بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٣] فلولا ما علم الحق أن الصلاة معينة للعبد لما أمره بها فأنزلها منزلة نفسه فإن الله قال للعبد قل: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] يعني في عبادتك، فجعل للعبد أن يستعين بربه، وأمره أن يستعين في ذكره وشكره بالصلاة، فأنزل الصلاة منزلة نفسه وفي معونة العبد على ذكره وشكره.

وناهيك يا وليّ الله من حالة وصفة وحركات وفعل أنزله الحق في أعظم الأشياء وهو ذكر الله منزلة نفسه، فكأنه من دخل في الصلاة فقد التبس بالحق والحق هو النور ولهذا قال: الصلاة نور، فأنزلها منزلة نفسه، قال ﷺ: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ**» وقرّة عيني ما تسرّ به عند الرؤية والمشاهدة فالمصلي متلبس في صلاته بالحق مشاهد له مناج، فجمعت الصلاة بين هذه الثلاثة الأحوال، وكذلك قوله في هذه الآية: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى﴾ يقال: شكرته وشكرت له فشكرته نص في أنه المشكور عينه. وقوله: وشكرت له فيه وجهان: الوجه الواحد: أن يكون مثل شكرته. والوجه الثاني: أن يكون الشكر من أجله، فإذا كان الشكر من أجله يقول له سبحانه: أشكر من أولاك نعمة من عبادي من أجلي ليكون شكره للسبب عين شكره لله فإنه شكره عن أمره، وجعل المنعم هنا نائباً عن ربه وطاعة النائب طاعة من استخلفه ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] فلهذا قال سبحانه: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى﴾ ولم يقل: واشكروني ليعم الحالتين. وقال في الوجهين: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟﴾ في ذلك ﴿بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ كما أمر بالمعونة فيما يوجب الشكر وهو الإحسان بالإنعام فقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ﴾ وهو الإحسان بالإنعام ﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢] أي اجعلوا ذلك وقاية وهي مناسبة للصلاة فإن الصلاة وقاية عن الفحشاء والمنكر ما دام العبد متلبساً بها، فإن الله سمّى نفسه بالواقي والصلاة واقية والعبد متلبس بصلاته وهي وقاية ممّا ذكرناه والله هو الواقي.

فانظر ما أشرف حال الصلاة لمن نظر واستبصر، فالسعيد من ثابر عليها وحافظ وداوم، ومن شرفها أن الله ما علق الوعيد إلاّ بمن سها عنها لا فيها فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [سورة الماعون: الآية ٤، ٥] ولم يقل في صلاتهم، فإن العبد في صلاته بين مناج ومشاهد، فقد يسهو عن مناجاته لاستغراقه في مشاهدته، وقد يسهو عن مشاهدته لاستغراقه في مناجاته ممّا يناجيه به من كلامه.

ولما كان كلامه سبحانه مخبراً عمّا يجب له من صفات التنزيه والثناء ومخبراً عمّا يتعلق بالأكوان من أحكام وقصص وحكايات ووعد ووعيد حال الخاطر في الأكوان لدلالة الكلام عليها وهو مأمور بالتدبّر في التلاوة، فربما استرسل في ذلك الكون لمشاهدته إياه فيه، فيخرج من كون ذلك الكون مذكوراً في القرآن إلى عينه خاصة لا من كونه مذكوراً لله على الحدّ الذي أخبر به عنه فيسمّى مثل هذا إذا أثر شكاً له في صلاته فلا يدري ما مضى من صلاته فشرع أن يسجد سجدتي سهو يرغم بهما الشيطان ويجبر بهما النقصان ويشفع بهما الرجحان فتتضاعف صلاته فيتضاعف الأجر وذلك في النفل والفرض سواء، وما توعد الله بمكروه من سها في صلاته، فمن تنبّه لما ذكرناه وأومأنا إليه يعلم فضل الله ورحمته بعباده والناس عن مثل هذا غافلون، فلا يعرف شرف العبادات إلاّ عباد الله الذين ليس للشيطان عليهم سلطان ولا برهان، جعلنا الله وإياكم ممّن صبر وصلّى رسبق وما صلّى بمنّه ويمنه.

وصل في اختلاف الصلاة: والصلاة على النبيّ ﷺ في الصلاة يختلف حكمها باختلاف أحوال المصلّي، إذا كان المصلي مخلوقاً والمصلّي له. وتختلف باختلاف المصلى عليه إذا كان المصلي هو الله تعالىٰ. فأما الأول فمعلوم أن الإنسان محل التغيير واختلاف الأحوال عليه فتختلف صلاته لاختلاف أحواله، وقد تقدّم من اختلاف أحوال المصلين ما قد ذكرناه في هذا الباب مثل صلاة المريض وصلاة الخائف، وأن اختلافها باختلاف حال المصلى من أجله مثل صلاة الكسوف وصلاة الاستسقاء. وأما اختلافها باختلاف المصلى عليه فمثل صلاة الحق على عباده قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٦] فسأل المؤمنون رسول الله ﷺ عن كيفية الصلاة التي أمرهم الله أن يصلوها عليه فقال لهم رسول الله ﷺ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ**» أي مثل صلاتك على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فهذا يدلك على اختلاف الصلاة الإلهية لاختلاف أحوال المصلى عليهم ومقاماتهم عند الله، ويظهر من هذا الحديث فضل إبراهيم على رسول الله ﷺ إذ طلب أن يصلّى عليه مثل الصلاة على إبراهيم.

فاعلم أن الله أمرنا بالصلاة على رسول الله ﷺ ولم يأمرنا بالصلاة على آله في القرآن، وجاء الإعلام في تعليم رسول الله ﷺ إيانا الصلاة عليه بزيادة الصلاة على الآل، فما طلب ﷺ الصلاة من الله عليه مثل صلاته على إبراهيم من حيث أعيانهما، فإن العناية الإلهية برسول الله ﷺ أتم، إذ قد خصّ بأمور لم يخصّ بها نبيّ قبله لا إبراهيم ولا غيره وذلك من صلاته تعالىٰ عليه، فكيف يطلب الصلاة من الله عليه مثل صلاته على إبراهيم من حيث عينه، وإنما المراد من ذلك ما أبينه إن شاء الله وذلك أن الصلاة على الشخص قد تصلّى عليه من حيث عينه ومن حيث ما يضاف إليه غيره، فكأن الصلاة من حيث ما يضاف إليه غيره هي الصلاة من حيث المجموع، إذ للمجموع حكم ليس للواحد إذا انفرد.

واعلم أن آل الرجل في لغة العرب هم خاصته الأقربون إليه، وخاصة الأنبياء وآلهم هم الصالحون العلماء بالله المؤمنون، وقد علمنا أن إبراهيم كان من آله أنبياء ورسل لله، ومرتبة

النبوّة والرسالة قد ارتفعت في الشاهد في الدنيا، فلا يكون بعد رسول الله ﷺ في أمّته نبيّ يشرّع الله له خلاف شرع محمد ﷺ ولا رسول وما منع المرتبة ولا حجرها من حيث لا تشريع، ولا سيما وقد قال ﷺ فيمن حفظ القرآن: «**إِنَّ النُّبُوَّةَ أُدْرِجَتْ بَيْنَ جَنْبَيْهِ**» أو كما قال ﷺ وقال في المبشرات: إنها جزء من أجزاء النبوّة، فوصف بعض أمّته بأنهم قد حصل لهم المقام وإن لم يكونوا على شرع يخالف شرعه، وقد علمنا بما قال لنا ﷺ أن عيسىٰ عليه السلام ينزل فينا حكماً مقسطاً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ولا نشك قطعاً أنه رسول الله ونبيه وهو ينزل، فله عليه السلام مرتبة النبوّة بلا شك عند الله وما له مرتبة التشريع عند نزوله فعلمنا بقوله ﷺ: «**إِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي وَلاَ رَسُول**» وأن النبوّة قد انقطعت والرسالة إنما يريد بهما التشريع، فلما كانت النبوّة أشرف مرتبة وأكملها ينتهي إليها من اصطفاه الله من عباده علمنا أن التشريع في النبوّة أمر عارض بكون عيسىٰ عليه السلام ينزل فينا حكماً من غير تشريع وهو نبيّ بلا شك، فخفيت مرتبة النبوّة في الخلق بانقطاع التشريع، ومعلوم أن آل إبراهيم من النبيين والرسل الذين كانوا بعده مثل إسحاق ويعقوب ويوسف ومن انتسل منهم من الأنبياء والرسل بالشرائع الظاهرة الدالة على أن لهم مرتبة النبوّة عند الله أراد رسول الله ﷺ أن يلحق أمّته وهم آله العلماء الصالحون منهم بمرتبة النبوّة عند الله وإن لم يشرعوا، ولكن أبقى لهم من شرعه ضرباً من التشريع فقال قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد أي صلِّ عليه من حيث ما له آل كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم أي من حيث إنك أعطيت آل إبراهيم النبوّة تشريفاً لإبراهيم فظهرت نبوّتهم بالتشريع وقد قضيت أن لا شرع بعدي فصل عليّ وعلى آلي بأن تجعل لهم مرتبة النبوّة عندك وإن لم يشرعوا، فكان من كمال رسول الله ﷺ أن ألحق آله بالأنبياء في المرتبة، وزاد على إبراهيم بأنّ شرعه لا ينسخ، وبعض شرع إبراهيم ومن بعده نسخت الشرائع بعضها بعضاً.

وما علمنا رسول الله ﷺ الصلاة عليه على هذه الصورة إلاّ بوحي من الله وبما أراه الله، وأن الدعوة في ذلك مجابة، فقطعنا أن في هذه الأمّة من لحقت درجته درجة الأنبياء في النبوّة عند الله لا في التشريع، ولهذا بيّن رسول الله ﷺ وأكّد بقوله: «**فَلاَ رَسُولَ بَعْدِي وَلاَ نَبِيّ**» فأكّد بالرسالة من أجل التشريع، فأكرم الله رسوله ﷺ بأن جعل آله شهداء على أمم الأنبياء كما جعل الأنبياء شهداء على أممهم، ثم إنه خصّ هذه الأمّة أعني علماءها بأن شرّع لهم الاجتهاد في الأحكام وقرّر حكم ما أدّاه إليه اجتهادهم وتعبدهم به وتعبد من قلّدهم به، كما كان حكم الشرائع للأنبياء ومقلديهم، ولم يكن مثل هذا لأمّة نبيّ ما لم يكن نبيّ بوحي منزّل، فجعل الله وحي علماء هذه الأمّة في اجتهادهم كما قال لنبيّه ﷺ: «**لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ**» فالمجتهد ما حكم إلاّ بما أراه الله في اجتهاده، فهذه نفحات من نفحات التشريع ما هو عين التشريع، فلآل محمد ﷺ وهم المؤمنون من أمته العلماء مرتبة النبوّة عند الله تظهر في الآخرة، وما لها حكم في الدنيا إلاّ هذا القدر من الاجتهاد المشروع لهم فلم يجتهدوا في الدين والأحكام إلاّ بأمر مشروع من عند الله، فإن اتفق أن يكون أحد من أهل البيت بهذه

المثابة من العلم والاجتهاد ولهم هذه المرتبة كالحسن والحسين وجعفر وغيرهم من أهل البيت فقد جمعوا بين الأهل والآل، فلا تتخيّل أن آل محمد ﷺ هم أهل بيته خاصة ليس هذا عند العرب وقد قال تعالىٰ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ [سورة غافر: الآية ٤٦] يريد خاصته، فإن الآل لا يضاف بهذه الصفة إلاّ للكبير القدر في الدنيا والآخرة، فلهذا قيل لنا قولوا: اللهمّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم أي من حيث ما ذكرناه لا من حيث أعيانهما خاصة دون المجموع فهي صلاة من حيث المجموع، وذكرناه لأنه تقدّم بالزمان على رسول الله ﷺ، فرسول الله ﷺ قد ثبت أنه سيّد الناس يوم القيامة، ومن كان بهذه المثابة عند الله كيف تحمل الصلاة عليه كالصلاة على إبراهيم من حيث أعيانهما، فلم يبق إلاّ ما ذكرناه، وهذه المسألة هي عن واقعة إلهية من وقائعنا فللّه الحمد والمنّة.

روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**عُلَمَاءُ هَذِهِ الأُمَّةِ كَأَنْبِيَاءِ سَائِرِ الأُمَمِ**» وفي رواية: «**أَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ**» وإن كان إسناد هذا الحديث ليس بالقائم ولكن أوردناه تأنيساً للسامعين أن علماء هذه الأمة قد التحقت بالأنبياء في الرتبة.

وأما قول النبيّ ﷺ في قوم يوم القيامة تنصب لهم منابر يوم القيامة ليسوا بأنبياء ولا شهداء تغبطهم الأنبياء والشهداء ويعني بالشهداء هنا الرسل فإنهم شهداء على أممهم فلا نريد بهؤلاء الجماعة من ذكرناهم وغبطهم إياهم فيما هم فيه من الراحة وعدم الحزن والخوف في ذلك الموطن والأنبياء والرسل وعلماء هذه الأمّة الصالحون الوارثون درجات الأنبياء خائفون وجلون على أممهم، وأولئك لم يكن لهم أمم ولا أتباع وهم آمنون على أنفسهم مثل الأنبياء على أنفسهم آمنون وما لهم أمم ولا أتباع يخافون عليهم، فارتفع الخوف عنهم في ذلك اليوم في حق نفوسهم وفي حق غيرهم كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٣] يعني على نفوسهم وغيرهم من الأنبياء والعلماء، ولكن الأنبياء والعلماء يخافون على أممهم وأتباعهم، ففي مثل هذا تغبطهم في ذلك الموقف، فإذا دخلوا الجنة وأخذوا منازلهم تبينت المراتب وتعينت المنازل وظهور عليون لأولي الألباب، فهذه مسألة عظيمة الخطر جليلة القدر لم نر أحداً ممّن تقدّمنا تعرض لها ولا قال فيها مثل ما وقع لنا في هذه الواقعة إلاّ إن كان، وما وصل إلينا فإن لله في عباده أخفياء لا يعرفهم سواه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فقد تبين لك أن صلاة الحق على عباده باختلاف أحوالهم، فالله يجعلنا من أجلهم عنده قدراً ولا يحول بيننا وبين عبوديتنا، وتلخيص ما ذكرناه هو أن يقول المصلي: اللهم صلِّ على محمد بأن تجعل آله من أمّته كما صلّيت على إبراهيم بأن جعلت آله أنبياء ورسلاً في المرتبة عندك وعلى آل محمد كما صلّيت على آل إبراهيم بما أعطيتهم من التشريع والوحي فأعطاهم الحديث فمنهم محدّثون، وشرع لهم الاجتهاد وقرّره حكماً شرعياً، فأشبهت الأنبياء في ذلك، فحقق ما أومأنا إليه في هذه المسألة تر الحق حقاً. انتهى الجزء الخمسون.

(الجزء الحادي والخمسون)

باب الزكاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب السبعون في أسرار الزكاة

[نظم: الكامل]

أختُ الصلاة هي الزكاةُ فلا تَقِسْ النَّصُّ في هذي وتلك على السَّوَا
قامَتْ على التَّثْمين نشأتُها لذا حَمَلَتْ على التَّقْسيم عرشَ الاسْتِوَا
ولذاك تُقْسَمُ في ثمانية من الأ صناف شرعاً وهو حكْمُ مَنِ اسْتَوَى
جاء الكتابُ بذكرهم وصفاتِهم وعلى مقامِهِم العليِّ قد احْتَوَى
فزكَتْ بها أموالُهم وذواتُهم وتقدَّست بصلاة من أخذ اللِّوَا
ذاك النبيُّ محمدٌ خيرُ الورى في جنسه وله العلوُّ على السِّوَى
نال المحبَّةَ من عنايته فما يشكو القطيعةَ والصَّبَابَةَ والجَوَى

قال الله تعالىٰ آمراً عباده: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٢٠] والقرض هنا صدقة التطوّع، فورد الأمر بالقرض كما ورد بإعطاء الزكاة، والفرق بينهما أن الزكاة موقتة بالزمان والنصاب وبالأصناف الذين تدفع إليهم، والقرض ليس كذلك، وقد تدخل الزكاة هنا في القرض فكأنه يقول: وآتوا الزكاة قرضاً لله بها فيضاعفها لكم، مثل قوله تعالىٰ في الخبر الصحيح: «**جعتُ فَلَمْ تُطعِمْنِي، فَقَالَ لَهُ العَبْدُ: وَكَيفَ تَطْعَمُ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ فَقَالَ اللَّهُ لَهُ: إِنَّ فُلاناً اسْتَطْعَمَكَ فَلَمْ تُطعِمْهُ، أما إِنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذٰلِكَ عِنْدِي**» والخبر مشهور صحيح، فالقرض الذي لا يدخل في الزكاة غير موقت لا في نفسه ولا في الزمان ولا بصنف من الأصناف، والزكاة المشروعة والصدقة لفظتان بمعنى واحد قال تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٣] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٠] فسمّاها صدقة، فالواجب منها يسمّى زكاة وصدقة، وغير الواجب فيها يسمّى صدقة التطوّع ولا يسمّى زكاة شرعاً، أي لم يطلق الشرع عليه هذه اللفظة مع وجود المعنى فيها من النموّ والبركة والتطهير في الخبر الصحيح: «**أَنَّ الأَعْرَابِيَّ لَمَّا ذَكَرَ لِلنبيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَهُ زَعَمَ أَنَّ عَلَيْنَا صَدَقَةً فِي أَمْوَالِنَا وَقَالَ لَهُ ﷺ صَدَقَ فَقَالَ لَهُ الأَعْرَابِيُّ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: لاَ إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ**» فلهذا سمّيت صدقة التطوّع، يقول: إنّ الله لم يوجبها عليكم ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٤] ولهذا قال تعالىٰ بعد قوله: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٢٠] و ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٠].

وإن كان الخير كل فعل مقرّب إلى الله من صدقة وغيرها، ولكن مع هذا فقد انطلق

على المال خصوصاً اسم الخير قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [سورة المعارج: الآية ٢١] أي جبل على ذلك يؤيده: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ [سورة الحشر: الآية ٩] فالنفس مجبولة على حب المال وجمعه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [سورة العاديات: الآية ٨] يعني المال هنا، فجعل الكرم فيه تخلقاً لا خلقاً ولهذا سمّاها صدقة أي كلفة شديدة على النفس لخروجها عن طبعها في ذلك ولهذا آنسها الحق تعالىٰ بقول نبيّه للأنفس: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ تَقَعُ بِيَدِ الرَّحْمٰنِ فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ**» وذلك لأمرين: أحدهما ليكون السائل يأخذها من يد الرحمن لا من يد المتصدّق فإن النبيّ ﷺ يقول: «**إِنَّهَا تَقَعُ بِيَدِ الرَّحْمٰنِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ بِيَدِ السَّائِلِ فَتَكُونُ المِنَّةُ لِلَّهِ عَلَىٰ السَّائِلِ لاَ لِلْمُتَصَدِّقِ**»، فإن الله طلب منه القرض والسائل ترجمان الحق في طلب هذا القرض فلا يخجل السائل إذا كان مؤمناً من المتصدق ولا يرى أن له فضلاً عليه، فإن المتصدق إنما أعطى لله للقرض الذي سأل منه وليربيها له فهذا من الغيرة الإلهية والفضل الإلهي.

والأمر الآخر: ليعلمه أنها مودعة في موضع تربو له فيه وتزيد هذا كله ليسخو بإخراجها ويتقي شحّ نفسه، وفي جبلة الإنسان طلب الأرباح في التجارة ونموّ المال، فلهذا جاء الخبر بأن الله يربي الصدقات ليكون العبد في إخراج المال من الحرص عليه الطبيعي لأجل المعاوضة والزيادة والبركة بكونه زكاة كما هو في جمع المال وشحّ النفس من الحرص عليه الطبيعي، فرفق الله به حيث لم يخرجه عمّا جبله الله عليه، فيرى التاجر يسافر إلى الأماكن القاصية الخطرة المتلفة للنفوس والأموال ويبذل الأموال ويعطيها رجاء في الأرباح والزيادة ونموّ المال وهومسرور للنفس بذلك فطلب الله منه المقارضة بالكل، إذ قد علم منه أنه يقارض بالثلثين وبالنصف، ويكون فرحه بمن يقارضه بالكل أتمّ وأعظم، فالبخيل بالصدقة بعد هذا التعريف الإلهي وما تعطيه جبلة النفوس من تضاعف الأموال دليل على قلة الإيمان عند هذا البخيل بما ذكرناه، إذ لو كان مؤمناً على يقين من ربه مصدقاً له فيما أخبر به عن نفسه في قرض عبده وتجارته لسارع بالطبع إلى ذلك كما يسارع به في الدنيا مع إشكاله عاجلاً وآجلاً، فإن العبد إذا قارض إنساناً بالنصف أو بالثلث وسافر المقارض إلى بلد آخر وغاب سنين وهو في باب الاحتمال أن يسلم المال أو يهلك أو لا يربح شيئاً وإذا هلك المال لم يستحق في ذمّة المقارض شيئاً، ومع هذه المحتملات يعمى الإنسان ويعطي ماله وينتظر ما لا يقطع بحصوله وهو طيب النفس مع وجود الأجل والتأخير والاحتمال. فإذا قيل له أقرض الله وتأخذ في الآخرة أضعافاً مضاعفة بلا ثلث ولا نصف بل الربح ورأس المال كله لك وما تصبر إلاّ قليلاً وأنت قاطع بحصول ذلك كله تأبى النفس وما تعطي إلاّ قليلاً، فهل ذلك إلاّ من عدم حكم الإيمان على الإنسان في نفسه حيث لا يسخو بما تعطيه جبلته من السخاء به ويقارض زيداً وعمراً كما ذكرناه طيب النفس والموت أقرب إليه من شراك نعله كما كان يقول بلال: [الرجز]

كُلُّ امرىءٍ مُصَبَّحٌ في أهلهِ والموتُ أدنى من شِراكِ نَعْلِهِ

ولهذا سمّاها الله صدقة أي هي أمر شديد على النفس، تقول العرب: رمح صدق أي صلب شديد قويّ أي تجد النفس لإخراج هذا المال لله شدّة وحرجاً كما قال ثعلبة بن حاطب.

وصل مؤيّد: قال تعالىٰ في حق ثعلبة بن حاطب: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٥] وما أخبر الله تعالىٰ عنه أنه قال إن شاء الله فلو قال: إن شاء الله لفعل. ثم قال تعالىٰ في حقه: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٦] وذلك أن الله لما فرض الزكاة جاءه مصدق رسول الله ﷺ يطلب منه زكاة غنمه فقال: هذه أخية الجزية وامتنع فأخبر الله فيه بما قال ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٧] فلما بلغه ما أنزل الله فيه جاء بزكاته إلى رسول الله ﷺ فامتنع رسول الله ﷺ أن يأخذها منه ولم يقبل صدقته إلى أن مات ﷺ، وسبب امتناعه ﷺ من قبول صدقته أن الله أخبر عنه أنه يلقاه منافقاً، والصدقة إذا أخذها النبيّ منه ﷺ طهّره بها وزكّاه وصلّى عليه كما أمره الله، وأخبر الله أن صلاته سكن للمتصدق يسكن إليها، وهذه صفات كلها تناقض النفاق وما يجده المنافق عند الله، فلم يتمكن لهذه الشروط أن يأخذ منه رسول الله ﷺ الصدقة لما جاءه بها بعد قوله ما قال.

وامتنع أيضاً بعد موت رسول الله ﷺ عن أخذها منه أبو بكر وعمر لما جاء بها إليهما في زمان خلافتهما. فلما ولي عثمان بن عفان الخلافة جاءه بها فأخذها منه متأوّلاً أنها حق الأصناف الذين أوجب الله لهم هذا القدر في عين هذا المال، وهذا الفعل من عثمان من جملة ما انتقد عليه، وينبغي أن لا ينتقد على المجتهد حكم ما أدّاه إليه اجتهاده، فإن الشرع قد قرّر حكم المجتهد، ورسول الله ﷺ ما نهى أحداً من أمرائه أن يأخذ من هذا الشخص صدقته، وقد ورد الأمر الإلهيّ بإيتاء الزكاة، وحكم رسول الله ﷺ في مثل هذا قد يفارق حكم غيره فإنه قد يختص رسول الله ﷺ بأمور لا تكون لغيره لخصوص وصف إما تقتضيه النبوّة مطلقاً أو نبوّته ﷺ، فإن الله يقول لنبيه ﷺ في أخذ الصدقة: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٣] وما قال: ينطهرون ولا يتزكون بها، فقد يكون هذا من خصوص وصفه وهو رؤوف رحيم بأمته، فلولا ما علم أن أخذه يطهره ويزكيه بها وقد أخبره الله أن ثعلبة بن حاطب يلقاه منافقاً فامتنع أدباً مع الله، فمن شاء وقف لوقوفه ﷺ كأبي بكر وعمر، ومن شاء لم يقف كعثمان لأمر الله بها العام، وما يلزم غير النبيّ ﷺ أن يطهر ويزكي مؤدّي الزكاة بها، والخليفة فيها إنما هو وكيل من عينت له هذه الزكاة أعني الأصناف الذين يستحقونها إذ كان رسول الله ﷺ ما نهى أحداً ولا أمره فيما توقف فيه واجتنبه، فساغ الاجتهاد وراعى كل مجتهد الدليل الذي أدّاه إليه اجتهاده، فمن خطأ مجتهداً فما وفاه حقّه، وأن المخطىء والمصيب منهم واحد لا بعينه.

وصل: اعلم أن الله تعالىٰ لما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى

سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٤] كان ذلك قبل فرض الزكاة التي فرض الله على عباده في أموالهم، فلما فرض الله الزكاة على عباده المؤمنين طهر الله بها أموالهم وزال بأدائها اسم البخل من مؤدّيها فإنه قال فيمن أنزلت الزكاة من أجله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فوصفهم بعدم قبول حكم الله فأطلق عليهم صفة البخل لمنعهم ما أوجب الله عليهم في أموالهم. ثم فسّر العذاب الأليم بما هو الحال عليه فقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٥] وذلك أن السائل إذا رآه صاحب المال مقبلاً إليه انقبضت أسارير جبينه لعلمه أنه يسأله من ماله فتكوى جبهته فإن السائل يعرف ذلك في وجهه. ثم إن المسؤول يتغافل عن السائل ويعطيه جانبه كأنه ما عنده خبر منه فيكوى بها جنبه، فإذا علم من السائل أنه يقصده ولا بدّ أعطاه ظهره وانصرف فأخبر الله أنه تكوى بها ظهورهم، فهذا حكم ما نعي الزكاة أعني زكاة الذهب والفضة.

وأما زكاة الغنم والبقر والإبل فأمر آخر كما ورد في النص أنه يبطح لها بقاع قرقر فتنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها وتعضه بأفواهها، فلهذا خصّ الجباه والجنوب والظهور بالذكر في الكيّ والله أعلم بما أراد، فأنزل الله الزكاة كما قلنا طهارة للأموال، وإنما اشتدت على الغافلين الجهلاء لكونهم اعتقدوا أن الذي عين لهؤلاء الأصناف ملك لهم وأن ذلك من أموالهم وما علموا أن ذلك المعين ما هو لهم وأنه في أموالهم لا من أموالهم فلا يتعين لهم إلاَّ بالإخراج، فإذا ميّزوه حين ذلك يعرفون أنه لم يكن من مالهم، وإنما كان في مالهم مدرجاً هذا هو التحقيق، وكانوا يعتقدون أن كل ما بأيديهم هو مالهم وملك لهم، فلما أخبر الله أن لقوم في أموالهم حقاً يؤدّونه وماله سبب ظاهر تركن النفس إليه لا من دين ولا من بيع إلاَّ ما ذكر الله تعالىٰ من ادّخار ذلك له ثواباً إلى الآخرة شقّ ذلك على النفوس للمشاركة في الأموال.

ولما علم الله هذا منهم في جبلة نفوسهم أخرج ذلك القدر من الأموال من أيديهم بل أخرج جميع الأموال من أيديهم فقال تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٧] أي هذا المال مالكم منه إلاَّ ما تنفقون منه وهو التصرّف فيه كصورة الوكلاء والمال لله وما تبخلون به، فإنكم تبخلون بما لا تملكون لكونكم فيه خلفاء وعلى ما بأيديكم منه أمناء، فنبّههم بأنهم مستخلفون فيه وذلك لتسهل عليهم الصدقات رحمة بهم، يقول الله: كما أمرناكم أن تنفقوا ممّا أنتم مستخلفون فيه من الأموال أمرنا رسولنا ونوّابنا فيكم أن يأخذوا من هذه الأموال التي لنا بأيديكم مقداراً معلوماً سميناه زكاة يعود خيرها عليكم، فما تصرّف نوّابنا فيما هو لكم ملك وإنما تصرّفوا فيما أنتم فيه مستخلفون، كما أيضاً أبحنا لكم التصرّف فيه، فلماذا يصعب عليكم؟ فالمؤمن لا مال له وله المال كله عاجلاً وآجلاً، فقد أعلمتك أن الزكاة من حيث ما هي صدقة شديدة على النفس، فإذا أخرج الإنسان الصدقة تضاعف له الأجر فإن له أجر المشقة وأجر الإخراج وإن أخرجها عن غير مشقة، فهذا فوق تضاعف الأجر بما لا يقاس ولا يحد، كما ورد في الماهر بالقرآن أنه ملحق بالملائكة السفرة الكرام، والذي يتتعتع عليه

القرآن يضاعف له الأجر للمشقة التي ينالها في تحصيله ودرسه فله أجر المشقة وأجر التلاوة، والزكاة بمعنى التطهير والتقديس، فلما أزال الله عن معطيها من إطلاق اسم البخل والشحّ عليه فلا حكم للبخل والشحّ فيه وبما في الزكاة من النموّ والبركة سمّيت زكاة لأن الله يربيها كما قال: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٦] فتزكوا فاختصت بهذا الاسم لوجود معناه فيها، ففي الزكاة البركة في المال وطهارة النفس والصلابة في دين الله، ومن أوتي هذه الصفات فقد أوتي خيراً كثيراً.

وأما قوله فيها: ﴿إِن تُقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [سورة التغابن: الآية ١٧] فالحسن في العمل أن تشهد الله فيه فإنه من الإحسان، وبهذا فسّر الإحسان رسول الله ﷺ حين سأله عنه جبريل عليه السلام وذلك أن تعلم أن المال مال الله وأن ملكك إياه بتمليك الله وبعد التمليك نزل إليك في ألطافه إلى باب المقارضة يقول لك: لا يغيب عنك طلبي منك القرض في هذا المال من أن تعرف أن هذا المال هو عين مالي ما هو لك، فكما لا يعزّ عليك ولا يصعب إذا رأيت أحداً يتصرّف في ماله كيف شاء كذلك لا يعزّ عليك ولا يصعب ما أطلبه منك ممّا جعلتك مستخلفاً فيه لعلمك بأني ما طلبت منك إلاّ ما أمنتك عليه لأعطيه من أشاء من عبادي، فإن هذا القدر من الزكاة ما أعطيته قط لك بل أمنتك عليه، والأمين لا يصعب عليه آداء الأمانة إلى أهلها، فإذا جاءك المصدق الذي هو رسول رب الأمانة ووكيلها أدّ إليه أمانته عن طيب نفس فهذا هو القرض الحسن، فإن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإنك إذا رأيته علمت أن المال ماله والعبد عبده والتصرّف له ولا مكره له، وتعلم أن هذه الأشياء إذا عملتها لا يعود على الله منها نفع، وإذا أنت لم تعملها لا يتضرّر بذلك، وأنّ الكل يعود عليك، فالزم الأحسن إليك تكن محسناً إلى نفسك، وإذا كنت محسناً كنت متقياً أذى شحّ نفسك، فجمع لك هذا الفعل الإحسان والتقوى فيكون الله معك فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٨] ومن المتقين من يوق شحّ نفسه بأداء زكاته، ومن المحسنين من يعبدني كأنه يراني ويشهدني، ومن شهوده إياي علمه أني ما كلفته التصرّف إلاّ فيما هو لي وتعود منفعته عليه منّة وفضلاً مع الثناء الحسن له على ذلك، والله ذو الفضل العظيم.

وصل إيضاح: واعلم أن الله فرض الزكاة في الأموال أي اقتطعها منها وقال لرب المال: هذا القدر الذي عيّنته بالفرض من المال ما هو لك بل أنت أمين عليه، فالزكاة لا يملكها رب المال. ثم إن الله تعالىٰ أنزل نفوسنا منّا منزلة الأموال منّا في الحكم فجعل فيها الزكاة كما جعلها في الأموال، فكما أمرنا بزكاة الأموال قال لنا في النفوس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٩] كما أفلح من زكّى ماله، كما ألحقها بالأموال في البيع والشراء. فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [سورة التوبة: الآية ١١١] فجعل الشراء والبيع في النفوس والأموال. وفي هذه الآية مسألة فقهية، كذلك جعل الزكاة في الأموال والنفوس، فزكاة الأموال معلومة كما سنذكرها في هذا الباب على التفصيل إن شاء الله، وزكاة النفوس بوجه أبيّنه لك إن شاء الله أيضاً على الأصل الذي ذكرناه أن الزكاة حق الله في المال

والنفس ما هو حق لرب المال والنفس، فنظرنا في النفس ما هو لها فلا تكليف عليها فيه بزكاة وما هو حق الله فتلك الزكاة فيعطيه لله من هذه النفس لتكون من المفلحين بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون.

فإذا نظرنا إلى عين النفس من حيث عينها قلنا ممكنة لذاتها لا زكاة عليها في ذلك، فإن الله لا حقّ له في الإمكان يتعالى الله علوّاً كبيراً فإنه تعالىٰ واجب الوجود لذاته غير ممكن بوجه من الوجوه، ووجدنا هذه النفس قد اتصفت بالوجود، قلنا: هذا الوجود الذي اتصفت به النفس هل اتصفت به لذاتها أم لا؟ فرأينا أن وجودها ما هو عين ذاتها ولا اتصفت به لذاتها، فنظرنا لمن هو؟ فوجدناه لله كما وجدنا القدر المعين في مال زيد المسمّى زكاة ليس هو بمال لزيد وإنما هو أمانة عنده، كذلك الوجود الذي اتصفت به النفس ما هو لها إنما هو لله الذي أوجدها، فالوجود لله لا لها، ووجود الله لا وجودها، فقلنا لهذه النفس: هذا الوجود الذي أنت متصفة به ما هو لك وإنما هو لله خلعه عليك فأخرجه لله وأضفه إلى صاحبه وابق أنت على إمكانك لا تبرح فيه فإنه لا ينقصك شيء ممّا هو لك، وأنت إذا فعلت هذا كان لك من الثواب عند الله ثواب العلماء بالله، ونلت منزلة لا يقدر قدرها إلاّ الله، وهو الفلاح الذي هو البقاء، فيبقي الله هذا الوجود لك لا يأخذه منك أبداً، فهذا معنى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾أي قد أبقاها موجودة من زكّاها وجود فوز من الشرّ أي من علم أن وجوده لله أبقى الله عليه هذه الخلعة يتزيّن بها منعماً دائماً وهو بقاء خاص ببقاء الله، فإن الخائب الذي دساها هو أيضاً باق ولكن بإبقاء الله لا ببقاء الله، فإن المشرك الذي هو من أهل النار ما يرى تخليص وجوده لله تعالىٰ من أجل الشريك وكذلك المعطل، وإنما قلنا ذلك لئلاّ يتخيل من لا علم له أن المشرك والمعطل قد أبقى الله الوجود عليهما، فبينا أن إبقاء الوجود على المفلحين ليس على وجه إبقائه على أهل النار، ولهذا وصف الله أهل النار بأنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، بخلاف صفة أهل السعادة فإنهم في الحياة الدائمة.

وكم بيّن من هو باق ببقاء الله وموجود بوجود الله، وبين من هو باق بإبقاء الله وموجود بالإيجاد لا بالوجود، وبهذا فاز العارفون لأنهم عرفوا من هو المستحق لنعت الوجود وهو الذي استفادوه من الحق، فهذا معنى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ فوجبت الزكاة في النفوس كما وجبت في الأموال، ووقع فيها البيع والشراء كما وقع في الأموال، وسيرد طرف من هذا الفصل عند ذكرنا في هذا الباب في الرقيق وما حكمه؟ ولماذا لم تلحق النفس بالرقيق فتسقط فيه الزكاة؟ وإن كان الرقيق يلحق بالأموال من جهة ما، كما سنذكره إن شاء الله في داخل هذا الباب، كما سأذكر أيضاً فيما تجب فيه الزكاة من الإنسان بعدد ما تجب فيه من أصناف المال في فصله إن شاء الله من هذا الباب.

وصل: وأما قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [سورة النجم: الآية ٣٢] أي إن الله لا يقبل زكاة نفس من أضاف نفسه إليه فإنه قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ فأضافها إليكم أي إذا رأيتم أن أنفسكم لكم لا لي، والزكاة إنما هي حقي وأنتم أمناء عليها، فإذا ادعيتم فيها

فتزعمون أنكم أعطيتموني ما هو لكم وأني سألتكم ما ليس لي، والأمر على خلاف ذلك، فمن كان بهذه المثابة من العطاء فلا يزكي نفسه فإني ما طلبت إلاّ ما هو لي لا لكم حتى تلقوني فينكشف الغطاء في الدار الآخرة فتعلمون في ذلك الوقت هل كانت نفوسكم التي أوجبت الزكاة فيها لي أو لكم حيث لا ينفعكم علمكم بذلك ولهذا قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ فأضاف النفوس إليكم وهي له، ألا ترى عيسىٰ عليه السلام كيف أضاف نفسه إليه من وجه ما هي له؟ وأضافها إلى الله من وجه ما هي لله فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٦] فأضافها إلى الله أي نفسي هي نفسك وملكك فإنك اشتريتها وما هي في ملكي فأنت أعلم بما جعلت فيها وأضاف نفسه إليه فإنها من حيث عينها هي له، ومن حيث وجودها هي لله لا له فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ من حيث عينها ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ من حيث وجودها، وهو من حيث ما هي لك، والنفس وإن كانت واحدة اختلفت الإضافات لاختلاف النسب، فلا يعارض قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ ما ذكرناه من قوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ فإن أنفسكم هنا يعني أمثالكم، قال النبيّ ﷺ: «**لا أُزكّي عَلَىٰ اللَّهِ أَحَداً**» وسيرد الكلام إن شاء الله في هذا الباب في وجوب الزكاة، وعلى من تجب؟ وفيما تجب فيه؟ وفي كم تجب؟ ومن كم تجب؟ ومتى تجب؟ ومتى لا تجب؟ ولمن تجب؟ وكم يجب له من تجب له؟ باعتبارات ذلك كله في الباطن بعد أن نقرّرها في الظاهر بلسان الحكم المشروع كما فعلنا في الصلاة لنجمع بين الظاهر والباطن لكمال النشأة، فإنه ما يظهر في العالم صورة من أحد من خلق الله بأيّ سبب ظهرت من أشكال وغيرها إلاّ ولتلك العين الحادثة في الحس روح تصحب تلك الصورة والشكل الذي ظهر، فإن الله هو الموجد على الحقيقة لتلك الصورة بنيابة كون من أكوانه من ملك أو جن أو إنس أو حيوان أو نبات أو جماد.

وهذه هي الأسباب كلها لوجود تلك الصورة في الحسّ، فلما علمنا أن الله قد ربط بكل صورة حسيّة روحاً معنوياً بتوجّه إلهيّ عن حكم اسم ربانيّ لهذا اعتبرنا خطاب الشارع في الباطن على حكم ما هو في الظاهر قدماً بقدم، لأن الظاهر منه هو صورته الحسيّة، والروح الإلهيّ المعنوي في تلك الصورة هو الذي نسميه الاعتبار في الباطن من عبرت الوادي إذا جزته وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣] وقال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢] أي جوّزوا ممّا رأيتموه من الصور بأبصاركم إلى ما تعطيه تلك الصور من المعاني والأرواح في بواطنكم فتدركونها ببصائركم وأمر وحثّ على الاعتبار، وهذا باب أغفله العلماء ولا سيّما أهل الجمود على الظاهر فليس عندهم من الاعتبار إلاّ التعجّب، فلا فرق بين عقولهم وعقول الصبيان الصغار، فهؤلاء ما عبّروا قط من تلك الصورة الظاهرة كما أمرهم الله، والله يرزقنا الإصابة في النطق والإخبار عمّا أشهدناه وعلمناه من الحق علم كشف وشهود وذوق، فإنّ العبارة عن ذلك فتح من الله تأتي بحكم المطابقة، وكم من شخص لا يقدر أن يعبّر عمّا في نفسه، وكم من شخص تفسد عبارته صحة ما في نفسه والله الموفق لا ربّ غيره.

واعلم أنه لما كان معنى الزكاة التطهير كما قال تعالىٰ: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٣] كان لها من الأسماء الإلهية الاسم القدوس وهو الطاهر وما في معناه من الأسماء الإلهية، ولما لم يكن المال الذي يخرج في الصدقة من جملة مال المخاطب بالزكاة وكان بيده أمانة لأصحابه لم يستحقه غير صاحبه وإن كان عند هذا الآخر ولكنه هو عنده بطريق الأمانة إلى أن يؤدّيه إلى أهله كذلك في زكاة النفوس، فإن النفوس لها صفات تستحقها وهي كل صفة يستحقها الممكن، وقد يوصف الإنسان بصفات لا يستحقها الممكن من حيث ما هو ممكن، ولكن يستحق تلك الصفات الله إذا وصف بها ليميّزها عن صفاته التي يستحقها، كما أن الحق سبحانه وصف نفسه بما هو حق للممكن تنزلاً منه سبحانه ورحمة بعباده، فزكاة نفسك إخراج حق الله منها فهو تطهيرها بذلك الإخراج من الصفات التي ليست بحق لها، فتأخذ مالك منه وتعطي ما له منك وإن كان كما قال تعالىٰ: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣١] وهو الصحيح، فإن نسبتنا منه نسبة الصفات عند الأشاعرة منه، فكل ما سوى الله فهو لله بالله إذ لا يستحق أن يكون له إلاّ ما هو منه.

قال ﷺ: «**مَوْلَىٰ الْقَوم مِنْهُمْ**» وهي إشارة بديعة فإنها كلمة تقتضي غاية الوصلة حتى لا يقال إلاّ أنه هو، وتقتضي غاية البعد حتى لا يقال إنه هو إذ ما هو منك فلا يضاف إليك فإن الشيء لا يضاف إلى نفسه لعدم المغايرة فهذا غاية الوصلة، وما يضاف إليك ما هو منك فهذا غاية البعد لأنه قد أوقع المغايرة بينك وبينه، فهذه الإضافة في هذه المسألة كيد الإنسان من الإنسان، وكحياة الإنسان من الإنسان، فإنه من ذات الإنسان كونه حيواناً، وتضاف الحيوانية إليه مع كونها من عين ذاته وممّا لا تصحّ ذاته إلاّ بها، فتمثل هذه الإصابة تعقل ما أومأنا إليه من نسبة الممكنات إلى الواجب الوجود لنفسه، فإن الإمكان للممكن واجب لنفسه، فلا يزال إنسحاب هذه الحقيقة عليه لأنها عينه وهي تضاف إليه وقد يضاف إليه ما هو عينه، فهذا معنى قوله﴿لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣١] أي ما توصف أنت به ويوصف الحق به هو لله كله فما لك لا تفهم مالك بما في قوله: أعطني مالك فهو نفي من باب الإشارة، واسم من باب الدلالة أي الذي لك وأصليته من اسم المالية ولهذا قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٣] أي المال الذي في أموالهم ممّا ليس لهم بل هو صدقة مني على من ذكرتهم في كتابي يقول الله: ألا تراه قد قال إن الله فرض علينا زكاة أو صدقة في أموالنا فجعل أموالهم ظرفاً للصدقة والظرف ما هو عين المظروف فمال الصدقة ما هو عين مالك بل مالك ظرف له، فما طلب الحق منك ما هو لك فالزكاة في النفوس آكد منها في الأموال ولهذا قدّمها الله في الشراء فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [سورة التوبة: الآية ١١١] فالعبد ينفق في سبيل الله نفسه وماله، وسيرد من ذلك في هذا الباب ما تقف عليه إن شاء الله.

وصل في وجوب الزكاة: الزكاة واجبة بالكتاب والسنّة والإجماع، ولا خلاف في ذلك أجمع كل ما سوى الله، على أن وجود ما سوى الله إنما هو بالله فردّوا وجودهم إليه سبحانه لهذا الإجماع، ولا خلاف في ذلك بين كل ما سوى الله فهذا اعتبار الإجماع في زكاة

الوجود، فرددنا ما هو لله إلى الله، فلا موجود ولا موجد إلاّ الله. وأمّا الكتاب فـ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [سورة القصص: الآية ٨٨] وليس الوجه إلاّ الوجود وهو ظهور الذوات والأعيان. وأمّا السنّة فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله فهذا اعتبار وجوب الزكاة العقلي والشرعي.

وصل في ذكر من تجب عليه الزكاة: اتفق العلماء على أنها واجبة على كل مسلم حرّ بالغ عاقل مالك للنصاب ملكاً تاماً هذا محل الاتفاق، واختلفوا في وجوبها على اليتيم والمجنون والعبد وأهل الذمّة والناقص الملك مثل الذي عليه الدين أو له الدين ومثل المال المحبس الأصل.

وصل: اعتبار ما اتفقوا عليه المسلم هو المنقاد إلى ما يراد منه، وقد ذكرنا أن كل ما سوى الله قد انقاد في ردّ وجوده إلى الله، وأنه ما استفاد الوجود إلاّ من الله ولا بقاء له في الوجود إلاّ بالله. وأمّا الحرية: فمثل ذلك فإنه من كان بهذه المثابة فهو حرّ أي لا ملك عليه في وجوده لأحد من خلق الله جلّ جلاله. وأما البلوغ: فاعتباره إدراكه للتمييز بين ما يستحقه ربّه عزّ وجلّ وما لا يستحقه، وإذا عرف مثل هذا فقد بلغ الحدّ الذي يجب عليه فيه ردّ الأمور كلها إلى الله تعالىٰ علوّاً كبيراً وهي الزكاة الواجبة عليه. وأما العقل: فهو أن يعقل عن الله ما يريد الله منه في خطابه إياه في نفسه بما يلهمه أو على لسان رسوله ﷺ، ومن قيد وجوده بوجود خالقه فقد عقل نفسه، إذ العقل مأخوذ من عقال الدابة، وعلى الحقيقة عقال الدابة مأخوذ من العقل، فإن العقل متقدم على عقال الدابة، فإنه لولا ما عقل أن هذا الحبل إذا شدّت به الدابة قيدها عن السراج ما سمّاه عقالاً.

وأما قولهم: المالك للنصاب ملكاً تاماً فملكه للنصاب هو عين وجوده لما ذكرناه من الإسلام والحرية والبلوغ والعقل. وأما قولهم: ملكاً تاماً إذ التام هو الذي لا نقص فيه والنقص صفة عدمية قال: فهو عدم فالتام هو الوجود، فهو قول الإمام أبي حامد: وليس في الإمكان أبدع من هذا العالم إذ كان إبداعه عين وجوده ليس غير ذلك أي ليس في الإمكان أبدع من وجوده فإنه ممكن لنفسه وما استفاد إلاّ الوجود فلا أبدع في الإمكان من الوجود وقد حصل، فإنه ما يحصل للممكن من الحق سوى الوجود، فهذا معنى اعتبار قولهم ملكاً تاماً.

وأما اعتبار ما اختلفوا فيه فمن ذلك الصغار فقال قوم: تجب الزكاة في أموالهم. وقال قوم: ليس في مال اليتيم صدقة، وفرّق قوم بين ما تخرجه الأرض وبين ما لا تخرجه فقالوا عليه الزكاة فيما تخرجه الأرض وليس عليه زكاة فيما عدا ذلك من الماشية والناض والعروض، وفرّق آخرون بين الناض وغيره فقالوا عليه الزكاة إلاّ في الناض خاصة.

اعتبار ما ذكرنا: اليتيم من لا أب له بالحياة وهو غير بالغ أي لم يبلغ الحلم بالسنّ أو الإنبات أو رؤية الماء، قال تعالىٰ: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٣] وقال سبحانه: أن يكون له ولد فليس الحق بأب لأحد من خلق الله ولا أحد من خلقه يكون له ولداً سبحانه وتعالىٰ، فمن اعتبر التكليف في عين المال قال بوجوبها. ومن اعتبر التكليف في المالك قال: لا يجب عليه لأنه غير مكلف، كذلك من اعتبر وجوده لله قال: لا تجب الزكاة فإنه ما ثم من يقبلها لو وجبت فإنه ما ثم إلاّ الله. ومن اعتبر إضافة الوجود إلى عين الممكن وقد كان

لا يوصف بالوجود قال بوجوب الزكاة ولا بدّ إذ لا بدّ للإضافة من تأثير معقول، ولهذا تقسم الموجودات إلى قسمين: إلى قديم وإلى حادث، فوجود الممكن وجود حادث أي حدث له هذا الوصف ولم يتعرض للوجود في هذا التقسيم هل هو حادث أو قديم؟ لأنه لا يدل حدوث الشيء عندنا على أنه لم يكن له وجود قبل حدوثه عندنا، وعلى هذا يخرج قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] وهو كلام الله القديم، ولكن حدث عندهم كما تقول: حدث عندنا اليوم ضيف فإنه لا يدل ذلك على أنه لم يكن له وجود قبل ذلك، فمن راعى أن الوجود الحادث غير حق للموصوف به وأنه حق لغير الممكن قال بوجوب الزكاة على اليتيم لأنه حق للواجب الوجود فيما اتصف به هذا الممكن، كما يراعي من يرى وجوبها على اليتيم في ماله أنها حق للفقراء في عين هذا المال فيخرجها منه من يملك التصرف في ذلك المال وهو الولي، ومن راعى أن الزكاة عبادة لم يوجب الزكاة لأن اليتيم ما بلغ حد التكليف وقد أشرنا إلى ذلك ولنا: [مخلع البسيط]

الربُّ حقٌّ والعبدُ حقٌّ يا ليت شعري مَنِ المكلَّفْ

هذا في البالغ والصغير غير مكلف وهو اليتيم، وهكذا سائر العبادات على هذا النحو، فإنّ الشيء لا يعبد نفسه، وإذا تحقق عارف مثل هذا وتبين أنه ما ثم إلاَّ الله خاف من الزلل الذي يقع فيه من لا معرفة له ممّن ذمّه الشارع من القائلين بإسقاط الأعمال نعوذ بالله من الخذلان، فنظر العارف عند ذلك إلى الأسماء الإلهية وتوقف أحكام بعضها على بعض وتفاضلها في التعلقات، كما قد ذكرناه في غير ما موضع، فيوجب العبادات من ذلك الباب وبذلك النظر ليظهر ذلك الفعل في ذلك المحل من ذلك الاسم الإلهيّ القائم به إذا خاطبه اسم إلهيّ ممّن له حكم الحال والوقت، فتعين على هذا الاسم الإلهيّ الآخر إن تحرّك هذا المحل لما طلب منه فسمّى ذلك عبادة وهو أقصى ما يمكن الوصول إليه في باب إثبات التكاليف في عين التوحيد حتى يكون الآمر المأمور والمتكلم السامع.

وأما اعتبار من فرّق بين ما تخرجه الأرض وبين ما لا تخرجه الأرض فاعتباره ما يظهره من الموصوف بالوجود الذي هو الممكن من الأشياء على يديه ممّا هو سبب ظهورها، فإن أضاف وجود ذلك إلى ما أضاف إليه وجوده قال: لا زكاة، وإن لم يضف واعتبر ظهورها منه قال بالواجب.

وأما من فرّق بين الناض وما سواه فالناض لما كان له صفة الكمال أو التشبّه بالكمال ونزل ما سوى الناض عن درجة الكمال أو التشبه بالكمال واتصف بالنقص أوجب الزكاة في الناقص ليطهره من النقص ولم يوجبه في الكمال فإن الكمال لا يصحّ أن يكون في غيره إذ لا كمال إلاَّ في الوحدة ومن ذلك أهل الذمّة، والأكثر على أنه لا زكاة على ذميّ إلاَّ طائفة روت تضعيف الزكاة على نصارى بني تغلب وهو أن يؤخذ منهم ما يؤخذ من المسلمين في كل شيء، وقال به جماعة ورووه من فعل عمر بهم وكأنهم رأوا أن مثل هذا توقيف وإن كانت الأصول تعارضه، والذي أذهب إليه أنه لا يجوز أخذ الزكاة من كافر وإن كانت واجبة عليه مع جميع الواجبات إلاَّ

أنه لا يقبل منه شيء ممّا كلف به إلاّ بعد حصول الإيمان به، فإن كان من أهل الكتاب ففيه عندنا نظر، فإن أخذ الجزية منهم قد يكون تقريراً من الشارع لهم دينهم الذي هم عليه فهو مشروع لهم فيجب عليهم إقامة دينهم، فإن كان فيه أداء زكاة وجاؤوا بها قبلت منهم والله أعلم. وليس لنا طلب الزكاة من المشرك وإن جاء بها قبلناها، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [سورة فصلت: الآية ٦، ٧] ويقول الله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٣٨] والكافر هنا المشرك ليس الموحد.

وصل الاعتبار: قال الله تعالىٰ: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠] الإلّ الله اسم من أسمائه والذمّة العهد والعقد فإن كان عهداً مشروعاً فالوفاء به زكاته، فالزكاة على أهل الذمة فإن عليهم الوفاء بما عوهدوا عليه، من أسقط عنهم الزكاة رأى أن الذميّ إذا عقد ساوى بين اثنين في العقد، ومن ساوى بين اثنين جعلهما مثلين وقد قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فلا يقبل توحيد مشرك فإن المشرك مقرّ بتوحيد الله في عظمته لقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] فهذا توحيد بلا شك، ومع هذا منع الشرع من قبوله. واعلم أن الدليل يضادّ المدلول والتوحيد المدلول والدليل مغاير فلا توحيد، فمن جعل الدليل على التوحيد نفس التوحيد لم يكن هنالك من تجب عليه زكاة، فلا زكاة على الذميّ والزكاة طهارة فلا بدّ من الإيمان، فإن الإيمان طهارة الباطن وليس الإيمان المعتبر عندنا إلاّ أن يقال الشيء لقول المخبر على ما أخبر به أو يفعل ما يفعل لقول المخبر لا لعين الدليل العقليّ، وعلم الشرك من أصعب ما ينظر فيه لسريان التوحيد في الأشياء إذ الفعل لا يصحّ فيه اشتراك البتة، فكل من له مرتبة خاصة به لا سبيل له أن يشرك فيها وما ثم إلاّ من له مرتبة خاصة، لكن الشرك المعتبر في الشرع موجود وبه تقع المؤاخذة.

وصل متمم: اعلم أن الكفار مخاطبون بأصل الشريعة وهو الإيمان بجميع ما جاء به الرسول من عند الله من الأخبار وأصول الأحكام وفروعها وهو قوله ﷺ: «**وَتُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ**» وهو العمل بحسب ما اقتضاه الخطاب من فعل وترك، فالإيمان بصدقة التطوّع إنها تطوّع واجب وهو من أصول الشريعة، وإخراج صدقة التطوّع فرع، ولا فرق بينها وبين الصدقة الواجبة في الإيمان بها وفي إخراجها وإن لم يتساويا في الأجر فإن ذلك لا يقدح في الأصل، فإن افترقا من وجه فقد اجتمع من الوجه الأقوى، فالإيمان أصل والعمل فرع لهذا الأصل بلا شك، ولهذا لا يخلص للمؤمن معصية أصلاً من غير أن يخالطها طاعة، فالمخلط هو المؤمن العاصي، فإن المؤمن إذا عصى في أمر ما فهو مؤمن بأن ذلك معصية، والإيمان واجب فقد أتى واجباً، فالمؤمن مأجور في عين عصيانه والإيمان أقوى ولا زكاة على أهل الذمّة بمعنى أنها لا تجزي عنهم إذا أخرجوها مع كونها واجبة عليهم كسائر جميع فروض الشريعة لعدم الشرط المصحح لها وهو الإيمان بجميع ما جاءت به الشريعة لا بها ولا ببعض ما جاء به الشرع، فلو آمن بالزكاة وحدها أو بشيء من الفرائض أنها فرائض أو بشيء من النوافل أنها نافلة، ولو ترك الإيمان بأمر واحد من فرض أو نفل لم يقبل منه إيمانه إلاّ أن يؤمن

بالجميع، ومع هذا فليس لنا أن نسأل ذمياً زكاته، فإن أتى بها من نفسه فليس لنا ردّها لأنه جاء بها إلينا من غير مسألة فيأخذها السلطان منه لبيت مال المسلمين لا يأخذها زكاة ولا يردّها، فإن ردّها عليه فقد عصى أمر رسول الله ﷺ.

وأما العبد فالناس فيه على ثلاثة مذاهب: فمن قائل: لا زكاة في ماله أصلاً لأنه لا يملكه ملكاً تاماً إذ للسيد انتزاعه، ولا يملكه السيد ملكاً تاماً أيضاً لأن يد العبد هي المتصرفة فيه، إذن فلا زكاة في مال العبد. وذهبت طائفة إلى أن زكاة مال العبد على سيده لأن له انتزاعه منه. وقالت طائفة: على العبد في ماله الزكاة لأن اليد على المال توجب الزكاة فيه لمكان تصرفها فيه تشبيهاً بتصرف الحر، قال شيخنا وجمهور من قال لا زكاة في مال العبد على أن لا زكاة في مال المكاتب حتى يعتق. وقال أبو ثور في مال المكاتب الزكاة، والذي أقول به أنه لا يخلو الأمر إما أن يرى أن الزكاة حق في المال ولا يراعى المالك فيجب على السلطان أخذها من كل مال بشرطه من النصاب وحلول الحول على من هو في يده، ومن رأى أن وجوب الزكاة على أرباب المال جاء ما ذكرناه من المذاهب في ذلك، فالأولى كل ناظر في المال هو المخاطب بإخراج الزكاة منه اعتبار ذلك العبد وما يملكه لسيده، فبأي شيء أمره سيده وجبت عليه طاعته، والزكاة حق أوجبه الله في عين المال لأصناف مذكورين وهو بأيدي المؤمنين، فإنه لا يخلو مال عن مالك أي عن يد عليه لها التصرّف فيه، فالزكاة أمانة بيد من هو المال بيده لهؤلاء الأصناف وما هو مال للحر ولا للعبد، فوجب أداؤه لأصحابه ممّن هو عنده، وله التصرف فيه حراً كان أو عبداً من المؤمنين والكل عبيد الله، فلا زكاة على العبد لأنه مؤدّ أمانة والزكاة عليه بمعنى إيصال هذا الحق إلى أهله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [سورة النساء: الآية ٥٨] وتطهيره المال الذي فيه الزكاة بالزكاة أعني بإخراجها منه، والزكاة على السيد لأنه يملكه من باب ما أوجبه الحق لخلقه على نفسه مثل قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] وقوله: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة الروم: الآية ٤٧] وقوله: ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٠] فكل من رأى أصلاً ممّا ذكرناه ذهب في مال العبد مذهبه.

وصل: ومن ذلك المالكون الذين عليهم الديون التي تستغرق أموالهم وتستغرق ما تجب فيه الزكاة من أموالهم وبأيديهم أموال تجب الزكاة فيها. فمن قائل: لا زكاة في مال حباً كان أو غيره حتى يخرج منه الدين، فإن بقي منه ما تجب فيه الزكاة زكّى وإلاّ فلا. وقالت طائفة: الدين لا يمنع زكاة الحبوب ويمنع ما سواها. وقالت طائفة: الدين يمنع زكاة الناض فقط إلاّ أن تكون له عروض فيها وفاء له من دينه فإنه لا يمنع. وقال قوم: الدين لا يمنع زكاة أصلاً، الاعتبار في ذلك الزكاة عبادة فهي حق الله، وحق الله أحق أن يقضى، بذا ورد النص عن رسول الله ﷺ، والله قد جعل الزكاة حقاً لمن ذكر من الأصناف في القرآن العزيز الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢]. والدين حق مترتب متقدّم فالدين أحق بالقضاء من الزكاة.

وصل: ومن ذلك المال الذي هو في ذمّة الغير وليس هو بيد المالك وهو الدين. فمن قائل: لا زكاة فيه وإن قبض حتى يمر عليه حول وهو في يد القابض وبه أقول. ومن قائل: إذا قبضه زكّاه لما مضى من السنين. وقال بعضهم: يزكيه لحول واحد وإن قام عند المديان سنين إذا كان أصله عن عوض، فإن كان على غير عوض مثل الميراث فإنه يستقبل به الحول.

اعتبار الباطن في ذلك: لا مالك إلاّ الله ومن ملكه الله إذا كان ما ملكه بيده بحيث يمكنه التصرّف فيه فحينئذ تجب عليه الزكاة بشرطها ولا مراعاة لما مرّ من الزمان فإن الإنسان ابن وقته ما هو لما مضى من زمانه ولا لما يستقبله، وإن كان له أن ينوي في المستقبل ويتمنى في الماضي ولكن في زمان الحال، هذا كله فهو من الوقت لا من الماضي ولا من المستقبل، فلا مراعاة لما مرَّ على ذلك المال من الزمان حين كان بيد المديان، فإنه على الفتوح مع الله تعالىٰ دائماً الذي بيده المال هو الله، فالزكاة واجبة فيه لما مرَّ عليه من السنين، قال رسول الله ﷺ: «**حجّي عَنْ أَبِيكِ**» وأمر ﷺ وليّ الميت بما على الميت من صيام رمضان وما هو إلاّ إيصال ثمرة العمل لمن حجّ عنه أو صام عنه ممّا هو واجب عليه إلاّ أن فرّط فله حكم آخر، ومع هذا فمن حجّ عنه أو عمل عنه عمل ما فهو صدقة من عمل هذا العمل على المعمول عنه ميتاً كان المعمول عنه أو غير ميت، غير أن الحيّ لا يسقط عنه الواجب عليه إلاّ إذا لم يستطع فعله، فإن فعله وليّه عنه كان له أجر من أدّى ما وجب عليه، وليس ذلك إلاّ في الحج بما ذكرناه، والثواب ما هو له بقابض إلاّ إن كان المعمول عنه ميتاً فإنه أخراويّ، فإن كان حيّاً فالقابض عنه الوكيل وهو الله، فإذا قبضه أعطاه في الآخرة لمن عمل له هنا في الدنيا.

وصل من اعتبار هذا الباب: ومن اعتباره الشخص يتمنى أن لو كان له مال لعمل به برّاً فيكتب الله له أجر من عمل فإن نيّته خير من عمله، ويكتب له على أوفى حظ وهو في ذمّة الغير ليس بيده منه شيء، فإذا حصل له ما تمناه من المال أو ممّا تمناه ممّا يتمكن له به الوصول إلى عمل ذلك البرّ وجب عليه أن يعمل ذلك البر الذي نواه، فإن لم يفعل لم يكتب له أجر ما نواه، فلو مات قبل اكتساب ما تمنى كتب له أجر ما نواه قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٥] أي هما اختبار لإقامة الحجة في صدق الدعوى أو كذبها.

وصل: ومن هذا الباب اختلافهم في زكاة الثمار المحبسة الأصول، فمن قائل: فيها الزكاة. ومن قائل: لا زكاة فيها. وفرّق قوم بين أن تكون محبسة على المساكين فلا يكون فيها زكاة، وبين أن تقوم على قوم بأعيانهم فتجب فيها الزكاة، وبوجوب الزكاة أقول، كانت على من كانت بتعيين أو بغير تعيين، فإن كانت بتعيين قوم وجب عليهم إخراج الزكاة، وإن كانت بغير تعيين وجب على السلطان أخذ الزكاة منها بحكم الوكالة، اعتبار الباطن في ذلك الثمر هو عمل الإنسان المكلف، والعمل قد يكون مخلصاً لله كالصلاة والصيام وأمثالهما، وقد يكون فيه حق للغير كالزكاة إلاّ أنه مشروع مثل أن يعمل الإنسان عملاً فيقول: هذا لله ولوجوهكم فهو لوجوهكم أو ما لي إلاّ الله وأنت، قال النبيّ ﷺ: «**مَنْ قَالَ هَذَا للَّهِ وَلِوُجوهِكُمْ لَيسَ لِلَّهِ**

مِنهُ شَيْءٌ» ثم شرع لمن هذا قوله أن يقول: هذا لله ثم لفلان ولا يدخل واو التشريك فهذا العمل فيه لله، وهو نظير الزكاة في المال المحبس الأصل، وفيه للخلق وهو قوله: ثم لفلان بحرف ثم لا بحرف الواو. وهو ما يبقى بيد الموقوف عليه من هذا الثمر الزائد على الزكاة، فهذا اعتبار من يرى فيه الزكاة، ومن يرى أنه لا زكاة فيه أي لا حق لله فيها فاعتباره قول النبيّ ﷺ فهو لوجوهكم ليس لله منه شيء أي لا حق فيه لله، ومن رأى أن الزكاة حق الفقراء رأى في اعتباره أن زكاة الثمر المحبس الأصل وهو العمل من هذا العبد الذي هو محبس على سيده لا يعتق أبداً يقول: إن العمل هو لله بحكم الوقفية وللحور العين وأمثالهم من ذلك العمل نصيب وهو المعبر عنه بالزكاة كما قال بعضهم في حق المجاهدين: [مخلع البسيط]

أبـوابُ عَـدْنٍ مـفـتَّـحَـاتٌ والـحُـورُ مـنـهـنَّ مُـشْـرِفـاتُ
فـاسْـتَـبِـقُـوا أيُّـمـا اسْـتِـبـاقٍ وبـادروا أيـهـا الـغُـزَاةُ
فـبـيـن أيـديـكُـمُـو جِـنَـانٌ فـيـهـا حـسـانٌ مُـتْـعَـمـاتُ
يـقُـلْـنَ والـخـيـلُ سـابـقـاتٌ مُـهُـورُنـا الـصَّـبْـرُ والـثَّـبـاتُ

فالصبر والثبات من عمل الجهاد بمنزلة الزكاة من الثمر، وكونه محبس الأصل هو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فما خلقهم إلاَّ لعبادته فهم موقوفون عليه. ثم جعل في أعمالهم التي هي بمنزلة الثمر من الشجر نصيباً لله وهو الإخلاص في العمل وهو من العمل وحق لصاحب العمل، وهو ما يحصل له من الثواب عليه، وهو بمنزلة الزكاة التي يطلبها الثواب، فهذا اعتبار زكاة الثمر المحبس الأصل باختلافهم والله الهادي.

وصل: ومن هذا الباب على من تجب زكاة ما تخرجه الأرض المستأجرة فقال قوم من العلماء: إن الزكاة على صاحب الزرع. وقال قوم: إن الزكاة إنما تجب على رب الأرض وليس على المستأجر شيء، وبالقول الأوّل أقول أن الزكاة على صاحب الزرع.

وصل الاعتبار في ذلك: الإمام والمؤذن والمجاهد والعامل على الصدقة، وكل من يأخذ على عمله أجراً ممّن يستأجره على ذلك، والأرض المستأجرة هي نفس المكلف، وما تخرجه هو ما يظهر عن هذه النفس من العمل والزارع الحق تعالىٰ يقول: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٦٤] ورب الأرض هو الشارع وهو الحق سبحانه من كونه شارعاً، كما هو الزرع من كونه موفقاً، قال تعالىٰ مخبراً عن بعض أنبيائه: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [سورة هود: الآية ٨٨] فهو سبحانه يبذر حب الهدى والتوفيق في أرض النفوس، فتخرج أرض النفوس بحسب ما زرع فيها، وفيما يظهر من هذه الأرض ما يكون حق لله فيه، ومنها ما يكون فيه حق للإنسان، فما هو لله فهو المعبر عنه بالزكاة وما بقي فهو للإنسان والإجارة مشروعة فإن الله اشترى منّا نفوسنا، ثم أجرنا إياها بالعشر فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٠] فالحسنة منّا هي العشر الذي نعطيه سبحانه ممّا زرعه في أراضي نفوسنا من الخير الذي أنبت هذا العمل الصالح، فهو سبحانه رب الأرض وهو الزارع

وهو المؤجر وهو المستأجر وهو الذي يجب عليه الزكاة، وهو الذي يأخذ الصدقات كما قال، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات، ولكن بوجوه ونسب مختلفة، فهو المعطي والآخذ لا إله إلاّ هو ولا فاعل سواه، فيوجب من كونه كذا ويجب عليه من كونه كذا، قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] أي أوجب وفرض لم يوجب ذلك عليه موجب بل هو سبحانه الموجب على نفسه منّة منه وفضلاً علينا، فحقائق أسمائه بها تعرّف إلينا، وعلى حقائق هذه الأسماء أثبتت الشرائع الإلهية كلها ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] وقسّم فقال في نسق هذا الكلام ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٩] وهو ما يسوءك، فأنت محل أثر السوء فمن حيث هو فعل لا يتصف بالسوء هو للاسم الإلهيّ الذي أوجده فإنه يحسن منه إيجاد مثل هذا الفعل فلا يكون سوءاً إلاّ من يجده سوءاً أو من يسوءه وهو نفس الإنسان، إذ لا يجد الألم إلاّ من يوجد فيه، ففيه يظهر حكمه لا من يوجده فإنه لا حكم له في فاعله فهذا معنى قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ وإن كانت الحسنة كذلك فذلك يحسن عند الإنسان، فإنها أيضاً تحسن من جانب الحق الموجد لها، فأضيفت الحسنة إلى الله فإنه الموجد لها ابتداء وإن كانت بعد الإيجاد تحسن أيضاً فيك، ولكن لا تسمى حسنة إلاّ من كونها مشروعة، ولا تكون مشروعة إلاّ من قبل الله فلا تضاف إلاّ إلى الله، ولهذا قلنا في السيئة: إنها من قبل الحق حسنة لأنه بيّنها لتجتنب فتسوء من قامت به إما في الدنيا وإما في العقبى، فقد يكون الترك سيئة وليس بفعل، وقد يكون الفعل سيئة، وكذلك الحسنة قد تكون فعلاً وتركاً، والتوفيق الإلهيّ هو المؤثر في الفعل والترك من حيث ما هو ترك له ومن حيث ما هو ظاهر منه إذا كان فعلاً، وما من حق واجب على العبد من ترك وفعل إلاّ ولله فيه حق يقوم به الحاكم نيابة عن الله، فإن كان ما بقي من ذلك الفعل أو الترك حق لله تعالىٰ فهو حق لله من جميع وجوهه لا حق لمخلوق فيه كالصلاة وإقامة الحدود، وإن كان ما بقي من ذلك الفعل أو الترك حق لمخلوق كضرب أو شتم أو غصب مال ففيه حق لله وهو ما ذكرناه وفيه حق للمخلوق، والحق الذي فيه لله هو عين الزكاة الذي في جميع أفعال الله في خلقه، والحاكم نائبه فيما استخلفه فيه، فإن شاء قبضه وإن شاء تركه على ما يعطيه الحال والمصلحة ولا حرج عليه في ذلك وهو المسمّى تعزيراً فيما لا حدّ فيه فتقطع يد السارق ولا بدّ، وإن أخذ المال من يده وعاد إلى صاحبه فالحاكم مخير إن شاء عزره بذلك القدر الذي فيه لله من الحق المشروع وإن شاء لم يعزره ويترك ذلك لله حتى يتولاه في الآخرة بلا واسطة.

وصل: ومن هذا الباب أرض الخراج إذا انتقلت إلى المسلمين وهي الأرض التي كانت بيد أهل الذمّة هل فيها عشر مع الخراج أم لا؟ فمن قائل: إن فيها العشر أعني الزكاة. ومن قائل: ليس فيها عشر، فاعلم أن الزكاة إما أن تكون حق الأرض أو حق الحب، فإن كانت حق الأرض لم تجب الزكاة لأنه لا يجتمع فيها حقّان وهو العشر والخراج، وإن كانت حق الحب كان الخراج حق الأرض والعشر حق الحب، والخلاف في بيع أرض الخراج معلوم عند العلماء.

وصل الاعتبار في ذلك: الأعمال البدنية بمنزلة الزرع والبدن بمنزلة الأرض والهوى حاكم على الأرض، فإذا انتقلت هذه الأرض إلى حكم الشرع الذي هو العمل بما يقتضيه الإسلام فخراج الأرض هو ما لله عليه من الحقوق من حيث إن جعلها ذات إدراكات وهو عما يستقل بإدراكه العقل فللّه في هذه الأرض الخراج إذ شكر المنعم محمود وهو المنعم به سبحانه، فإذا حصلت هذه الأرض في يد المسلم أعني الشرع وانتقلت إليه فالمسلمون على قسمين: عارف وغير عارف، فالعارف إذا زرع الأعمال الصالحة في هذه الأرض رأى أن الزكاة حق العمل لا حق الأرض، فأوجب الزكاة في العمل وهو أن يردّ الأعمال إلى عاملها وهو الحق سبحانه، وغير العارف يرى أن العمل للقوىٰ البدنية وقد وجب عليها الخراج فلا تجب عنده الزكاة حتى لا يجتمع عليها حقان فإنه لا يرى العمل إلاَّ لنفسه فإنه غير عارف، ولم يكلف الله نفساً إلاَّ ما آتاها، وقال ذلك مبلغهم من العلم. وأمّا قولنا في هذه المسألة فإنه يجتمع في الأرض حقان ولا يبعد ذلك لأن الأرض من كونها بيد من هي بيده يمنع غيره من التصرّف فيه إلاَّ بإذنه فعليه حق فيها يسمّى الخراج ومن حيث إنه زرعها فاختلف حال الأرض بكونها قد زرعت من كونها لم تزرع فوجب فيها حق آخر من كونها ذات زرع فوجب العشر فيها من كونها مزدرعة ووجب الخراج فيها من كونها بيده وحكمه عليها وكذلك نأخذه في الاعتبار.

وصل: وأمّا أرض العشر إذا انتقلت إلى الذميّ فزرعها فمن قائل: ليس فيها شيء أعني لا خراج ولا عشر. وقال النعمان: إذا اشترى الذميّ أرض عشر تحوّلت أرض خراج فكأنه رأى أن العشر حق أرض المسلمين والخراج حق أرض الذميين، ومن يرى هذا فينبغي أن أرض الذميّ إذا انتقلت إلى المسلم أن تعود أرض عشر.

اعتبار ذلك: للعقل حكم في النفس من حيث ذاته ونظره، وللشرع حكم في النفس. فإذا سلب العقل النفس من يد الشرع بشبهة اشتراها بها فهل يقبل الله منه كل عمل حمد صورته الشرع ولكن كان عمله من جهة العقل لا من جهة الشرع؟ فمنا من قال: يقبل ويجازى عليه في الدنيا إن لم يكن موحداً وكان مشركاً، فإن كان موحداً قبل منه وجوزي عليه جزاء غير المؤمن، فإن المؤمن له في عمله يوم القيامة جزاءان: جزاء من حيث أنه مؤمن عامل بشريعة، وجزاء من حيث أن ذلك العمل من مكارم الأخلاق وأنه خير، وقد قال ﷺ لحكيم بن حزام حين أسلم وكان قد فعل في الجاهلية خيراً: «**أَسْلَمْتَ عَلَىٰ مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ**» فجازاه الله بما كان منه من خير في زمان جاهليته، فإن الخير يطلب الجزاء لنفسه، فإذا اقترن به الإيمان تضاعف الجزاء لزيادة هذه الصفة فإن لها حقاً آخر، فحكم الشرع العشر وحكم العقل الخراج.

وصل ـ إذا أخرج الزكاة فضاعت: فقال قوم: تجزي عنه. وقال قوم: هو لها ضامن حتى يضعها موضعها. وقوم فرّقوا بين أن يخرجها بعد أن أمكنه إخراجها وبين أن يخرجها أوّل زمان الوجوب والإمكان، فقال بعضهم: إن أخرجها بعد أيام من الإمكان والوجوب ضمن، وإن أخرجها في أوّل الوجوب ولم يقع منه تفريط لم يضمن. وقال قوم: إن فرط

ضمن وبه أقول، وإن لم يفرّط زكّى ما بقي. وقال قوم: بل يعد الذاهب من الجميع ويبقى المساكين ورب المال شريكين في الباقي بقدر حظهما من حظ رب المال مثل الشريكين يذهب بعض المال المشترك بينهما ويبقيان شريكين على تلك النسبة في الباقي، فالحاصل في المسألة خمسة أقوال: قول: إنه لا يضمن بإطلاق. وقول: إنه يضمن بإطلاق. وقول: إن فرّط ضمن وإن لم يفرّط لم يضمن. وقول: إن فرط ضمن وإن لم يفرط زكّى ما بقي. والقول الخامس يكونان شريكين في الباقي. وأما إذا ذهب بعض المال بعد الوجوب وقيل تمكن إخراج الزكاة فقيل: يزكّى ما بقي. وقال قوم: حال المساكين وحال رب المال حال الشريكين يضيع بعض مالهما، وأما إذا وجبت الزكاة وتمكن الإخراج فلم يخرج حتى ذهب بعض المال فإنه ضامن باتفاق والله أعلم إلاَّ في الماشية عند من يرى أن وجوبها إنما يتم بشرط خروج الساعي مع الحول وهو مذهب مالك.

وصل الاعتبار في ذلك: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تَمْنَحُوا الحِكْمَةَ غَيرَ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوهَا وَلاَ تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ**» وإنفاق الحكمة عين زكاتها، ولها أهل كما للزكاة أهل، فإذا أعطيت الحكمة غير أهلها وأنت تظنّ أنه أهلها فقد ضاعت كما ضاع هذا المال بعد إخراجه ولم يصل إلى صاحبه فهو ضامن لمن ضاع لأنه فرط حيث لم يتثبت في معرفة من ضاعت عنده هذه الحكمة، فوجب عليه أن يخرجها مرّة أخرى لمن هو أهلها حتى تقع في موضعها.

وأما حكم الشريكين في ذلك كما تقرّر فإن حامل الحكمة إذا جعلها في غير أهلها على الظنّ فهو أيضاً مضيع لها، والذي أعطيت له ليس بأهل لها فضاعت عنده فيضيع بعض حقّها فيستدرك معطي الحكمة غير أهلها ما فاته بأن ينظر في حال من ضاعت عنده الحكمة فيخاطبه بالقدر الذي يليق به ليستدرجه حتى يصير أهلاً لها، ويضيع من حق الآخر على قدر ما نقصه من فهم الحكمة الأولى التي ضاعت عنده، والحال فيما بقي من وجوه الخلاف في الاعتبار على هذا الأسلوب سواء، فمن قال بعموم قوله ﷺ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْم فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَام مِنْ نَارِ**» فسأله من ليس بأهل للحكمة فضاعت الحكمة قال: لا يضمن على الإطلاق. ومن أخذ بقوله ﷺ: «**لاَ تُعْطُوا الحِكْمَةَ غَيرَ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوهَا**» قال: يضمن على الإطلاق، وضمانها أنه يعطيه من الوجوه فيما سأله ما يليق به، وإن لم يصحّ ذلك في نفس الأمر كالأينية فيمن لا يتصف بالتحيّز، ومن أعرض عن الجواب الأوّل إلى جواب في المسألة يقتضيه حال السائل والوقت قال: يزكي ما بقي ويكون حكم ما مضى وضاع كحكم مال ضاع قبل الحول. ومن قال: يتعين عليه النظر في حال السائل فلما لم يفعل فقد فرط، فإن فعل وغلط لشبهة قامت له تخيّل أنه من أهل الحكمة فلم يفرط فهو بمنزلة من قال: إن فرط ضمن وإن لم يفرط لم يضمن، والقول الخامس قد تقدم في الشريك، ولا يخلو العالم أن يعتقد فيما عنده من العلم الذي يحتاج الخلق إليه أن يكون عنده لهم كالأمانة فحكمه في ذلك حكم الأمين، أو يعتقد فيه أنه دين عليه لهم فحكمه حكم الغريم، والحكم في الأمانة والدين والضياع معلوم، فيمشي عليه الاعتبار بتلك الوجوه والله أعلم.

وصل ـ إذا مات بعد وجوب الزكاة عليه: قال قوم: تخرج من رأس ماله. وقال قوم: إن أوصى بها أخرجت من الثلث وإلاّ فلا شيء عليه. ومن هؤلاء من قال: يبدأ بها إن ضاق الثلث. ومنهم من قال: لا يبدأ بها.

وصل الاعتبار في ذلك الرجل من أهل طريق الله يعطى العلم بالله: وقد قلنا إن زكاة العلم تعليمه، فجاء مريد صادق متعطش فسأله عن مسألة من علم ما هو عالم به فهذا أوان وجوب تعليمه إياه ما سأله عنه كوجوب الزكاة بكمال الحول والنصاب فلم يعلمه ما سأله فيه من العلم، فإن الله يسلب العالم تلك المسألة فيبقى جاهلاً بها فيطلبها في نفسه فلا يجدها، فذلك موته بعد وجوب الزكاة فإنّ الجهل موت، قال: أو من كان ميتاً فأحييناه، أو يكون العالم يجب عليه تعليم من هو أهل فعلم من ليس بأهل فذلك موته حيث جهل الأهلية ممّن هو للحكمة أهل ووضعها في غير أهلها. ففي الأوّل: قد يمنح المريد الصادق تلك المسألة ولكن عن مشاهدة هذا العالم بأن سمعه يعلمها غيره أو يعلمها ممّن قد علمه ذلك العالم قبل ذلك فيكون في ميزان العالم الأوّل وإن كان قد جهلها، فهذا معنى يجزي عنه ويخرج من رأس ماله، فإن اعتذر ذلك العالم للمريد واعترف بعقوبته وذنبه ففتح الله على المريد بها فاعترافه بمنزلة من أوصى بها.

وأمّا إخراجها من الثلث فإن المريض لا يملك من ماله سوى الثلث لا غير، فكأنها وجبت فيما يملك، وكذلك هذا العالم لا يملك في هذه الحالة من نفسه إلاّ الاعتذار، والثلثان الآخران لا يملكهما وهو المنّة، فلا منّة له في التعليم بعد هذه الواقعة ولا يجب عليه فإنه قد نسيها. وبالجملة فينبغي لمن هذه حالته أن يجدّد توبة ممّا وقع فيه ويستغفر الله فيما بينه وبين الله فإن الله يحب التوّابين.

وصل في خلافهم في المال يباع بعد وجوب الصدقة فيه: فقال قوم: يأخذ المصدق الزكاة من المال نفسه ويرجع المشتري بقيمته على البائع. وقال قوم: البيع مفسوخ. وقال قوم: المشتري بالخيار من إنفاذ البيع وردّه والعشر مأخوذ من الثمرة أو من الحب الذي وجبت فيه الزكاة. وقال مالك: الزكاة على البائع وبه أقول.

وصل الاعتبار في ذلك: قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٩] يعني النفس لأنه قد صيّرها ما لا تجب فيه الزكاة والعبد مأمور بزكاة نفسه. ثم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١١] فباع بعض المؤمنين نفسه من الله بعد وجوب الزكاة عليه، فإن العبد إذا آمن وجبت عليه زكاة نفسه فباعها من الله بعد وجوب الزكاة، فلا تخلو الزكاة إما أن تكون في عين المال أو تكون في ذمّة المكلف، فإن كانت في ذمّة المكلف وجبت على البائع، وإن كانت في نفس المال وجب تزكيتها على من بيده المال في عين ذلك المال، فيخرجها المشتري من المال ويرجع بالقيمة على البائع، وإذا كان وجوبها على البائع فللبائع أن يزكي ذلك القدر ممّا عنده من المال، كالشيخ المرشد يملك نفوس تلامذته فيزكي منها بقدر ما وجب عليه في نفسه من الزكاة قبل بيعها من الله، إذ قد كانت وجبت عليه الزكاة في نفسه فتقوم له زكاة

نفوس من عنده من المريدين مقام ذلك، وإن كان ممّن يقول بفسخ البيع فإنه يرجع في بيعه حتى يزكيها وحينئذ يبيعها من الله، وإن كان ممّن يقول المشتري بالخيار من إنفاذ البيع وردّه فذلك إلى الله إن شاء قبلها وزكّاها وإن شاء ردّها على البائع حتى يزكيها.

وصل: ومن هذا الباب اختلافهم في زكاة المال الموهوب واعتباره أن الموهوب له بالخيار إن شاء قبل الهبة وقد عرف ما فيها من الحق فأوصل الحق منها إلى مستحقه ومسك ما بقي، وإن شاء ردّ قدر ما يجب فيها من الزكاة على البائع حتى يؤدّيها والموهوب له هو الحق هنا، والذين لهم الزكاة من هذه النفس ما تطلب منهم الجنة ومن فيها هل هو حق لهم من نفس المؤمن. انتهى الجزء الحادي والخمسون.

(الجزء الثاني والخمسون)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل في حكم من منع الزكاة ولم يجحد وجوبها: ذهب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى أن حكمه حكم المرتد فقاتلهم وسبى ذريتهم، وخالفه في ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأطلق من استرق منهم. وبقول عمر قال الجمهور. وذهبت طائفة إلى تكفير من منع فريضة من الفرائض وإن لم يجحد وجوبها.

وصل الاعتبار في ذلك: اعلم أن في نفس المؤمن حظ الجنان، ومن فيه منها الزكاة ولله ما بقي وهو الذي يصحّ فيه البيع، وإلى هذا ذهبت جماعة المحققين من أهل طريق الله لتعدّد أصناف من تجب لهم الزكاة من أنفسهم عليهم، فالجنة فيها أصناف يطلبون من نفس المؤمن ما يستحقونه وهي الزكاة، فالقصر يطلبه بالسكنى، والزوجات يطلبنه بما احتجن إليه منه، فالثمانية الأعضاء المكلفة من الإنسان كما يجب فيها الزكاة على الإنسان، كذلك لها نسبة في أن تأخذ الزكاة من جهة أخرى، فيقوم ما في الجنان مقام من يقسم عليهم ما يليق به، فمن منع الزكاة من نفسه عن أحد هؤلاء الأصناف وهو مقرّ بها أنها واجبة عليه فهو ظالم غير كافر إلاّ في الصلاة خاصة فإن تاركها كافر، فإن الشرع سمّاه كافراً بمجرّد الترك وما أدري ما أراد، وإنما مانع الزكاة فهو ظالم حيث مسك حق الغير الذي يجب لهم، وسأذكر بعد هذا إن شاء الله ما تجب فيه الزكاة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وصل في ذكر ما تجب فيه الزكاة: اتفق العلماء على أن الزكاة تجب في ثمانية أشياء محصورة في المولدات من معدن ونبات وحيوان. فالمعدن: الذهب والفضة، والنبات: الحنطة والشعير والتمر. والحيوان: الإبل والبقر والغنم، هذا هو المتفق عليه وهو الصحيح عندنا. وأما الزبيب ففيه خلاف.

الاعتبار في ذلك: الزكاة تجب من الإنسان في ثمانية أعضاء البصر والسمع واللسان واليد والبطن والفرج والرجل والقلب، ففي كل عضو وعلى كل عضو من هذه الأعضاء صدقة واجبة يطلب الله بها العبد في الدار الآخرة. وأما صدقة التطوّع فعلى كل عرق في الإنسان

صدقة كما قال ﷺ: «**يُصْبِحُ عَلَىٰ كُلِّ سَلامى مِنَ الإِنْسَانِ صَدَقَةٌ**» والسلامي عروق ظهر الكف وقيل العروق، فكل تسبيحة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكذلك التحميد والتكبير فالزكاة التي في هذه الأعضاء هي حق الله تعالىٰ الذي أوجبها على الإنسان من هذه الأعضاء الثمانية، كما أوجبها في هذه الثمانية من الذهب والورق وسائر ما ذكرنا ممّا تجب فيه الزكاة بالاتفاق، فتعين على المؤمن آداء حق الله تعالىٰ في كل عضو، فزكاة البصر ما يجب لله تعالىٰ فيه من الحق كالغض عن المحرّمات والنظر فيما يؤدّي النظر إليه من القربة عند الله كالنظر في المصحف وفي وجه العالم وفي وجه من يسرّ بنظرك إليه من أهل وولد وأمثالهم، وكالنظر إلى الكعبة إذا كنت لها مجاوراً، فإنه قد ورد: «**أَنَّ لِلنَّاظِرِ إِلَىٰ الْكَعْبَةِ عِشْرِينَ رَحْمَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلِلطَّائِفِ بِهَا سِتِّينَ رَحْمَةً**» وعلى هذا النحو تنظر في جميع الأعضاء المكلفة في الإنسان من تصرفها فيما ينبغي وكفّها عمّا لا ينبغي.

بيان وإيضاح: واعلم أن هذه الأصناف قد أحاطت بمولدات الأركان كما قلنا وهي: المعدن والنبات والحيوان، وما ثم رابع، ففرض الله الزكاة في أنواع مخصوصة من كل جنس من المولدات لطهارة الجنس، فتطهر النوع بلا شك من الدعوى التي حصلت فيه من الإنسان بالملك فإنّ الأصل فيه الطهارة من حيث إنه ملك لله مطلقاً، وذلك أنّ الأصل الذي ظهرت عنه الأشياء من أسمائه القدوس وهو الطاهر لذاته من دنس المحدثات، فلما ظهرت الأشياء في أعيانها وحصلت فيها دعاوى الملاك بالملكية طرأ عليها من نسبة الملك إلى غير منشئها ما أزالها عن الطهارة الأصلية التي كانت لها من إضافتها إلى منشئها قبل أن يلحقها هذا الدنس العرضي بملك الغير لها، وكفى بالحدث حدثاً، وهذه الأجناس لا تصرف لها في أنفسها، فأوجب الله على مالكها فيها الزكاة وجعل ذلك طهارتها، فعين الله فيها نصيباً يرجع إلى الله عن أمر الله لينسبها إلى مالكها الأصليّ فتكتسب الطهارة، فإنّ الزكاة إنما جعلها الله طهارة الأموال وكذلك في الاعتبار، فإن هذه الأعضاء المكلفة هي طاهرة بحكم الأصل فإنها على الفطرة الأولى ولا تزول عنها تلك الطهارة والعدالة. ألا تراها تستشهد يوم القيامة وتقبل شهادتها لزكاتها الأصلية وعدالتها، فإن الأصل في الأشياء العدالة لأنها عن أصل طاهر والجرحة طارئة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾[سورة الإسراء: الآية ٣٦] وقال: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم﴾ [سورة النور: الآية ٢٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢١] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢٢] فهذا كله إعلام من الله لنا أن كل جزء فينا شاهد عدل زكي مرضي، وذلك بشرى خير لنا ولكن أكثر الناس لا يعلمون صورة الخير فيها، فإن الأمر إذا كان بهذه المثابة يرجى أن يكون المآل إلى خير، وإن دخل النار فإنّ الله أجلّ وأعظم وأعدل من أن يعذب مكرهاً مقهوراً وقد قال: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [سورة النحل: الآية ١٠٦].

وقد ثبت حكم المكره في الشرع وعلم حدّ المكره الذي اتفق عليه والمكره الذي

اختلف، وهذه الجوارح من المكرهين المتفق عليهم أنهم مكرهون، فتشهد هذه الأعضاء بلا شك على النفس المدبرة لها السلطانة عليها، والنفس هي المطلوبة عند الله عن حدوده والمسؤولة عنها، وهي مرتبطة بالحواس والقوىٰ لا انفكاك لها عن هذه الأدوات الجسمية الطبيعية العادلة الزكية المرضية المسموع قولها، ولا عذاب للنفس إلاّ بوساطة تعذيب هذه الجسوم، وهي التي تحسّ بالآلام المحسوسة لسريان الروح الحيواني فيها، وعذاب النفس بالهموم والغموم وغلبة الأوهام والأفكار الرديئة وما ترى في رعيتها ممّا تحسّ به من الآلام ويطرأ عليها من التغييرات كل صنف بما يليق به من العذاب، وقد أخبر بمآلها لإيمانها إلى السعادة لكون المقهور غير مؤاخذ بما جبر عليه، وما عذبت الجوارح بالألم إلاّ لإحساسها أيضاً باللذة فيما نالته من حيث حيوانيتها فافهم، فصورتها صورة من أكره على الزنى وفيه خلاف، والنفس غير مؤاخذة بالهم ما لم تعمل ما همّت به بالجوارح، والنفس الحيوانية مساعدة بذاتها مع كونها من وجه مجبورة فلا عمل للنفوس إلاّ بهذه الأدوات، ولا حركة في عمل للأدوات إلاّ بالأغراض النفسية، فكما كان العمل بالمجموع وقع العذاب بالمجموع، ثم تفضي عدالة الأدوات في آخر الأمر إلى سعادة المؤمنين فيرتفع العذاب الحسيّ ثم يقضي حكم الشرع الذي رفع عن النفس ما همّت به فيرتفع أيضاً العذاب المعنوي عن المؤمن، فلا يبقى عذاب معنوي ولا حسيّ على أحد من أهل الإيمان، وبقدر قصر الزمان في الدار الدنيا بذلك العمل لوجود اللذة فيه وأيام النعيم قصار تكون مدّة العذاب على النفس الناطقة والحيوانية الدراكة مع قصر الزمان المطابق لزمان العمل، فإنّ أنفاس الهموم طوال، فما أطول الليل على أصحاب الآلام، وما أقصره بعينه على أصحاب اللذات والنعيم، فزمان الشدّة طويل على صاحبه وزمان الرخاء قصير.

إفصاح: واعلم أن للزكاة نصاباً وحولاً أي مقداراً في العين والزمان، كذلك الاعتبار في زكاة الأعضاء لها مقدار في العين والزمان، فالنصاب بلوغ العين إلى النظرة الثانية فإنها المقصودة والإصغاء إلى السماع الثاني وكذلك الثواني في جميع الأعضاء لأجل القصد والمقدار الزماني يصحبه، فلنذكر ما يليق بهذا الباب مسألة مسألة على قدر ما يلقي الله عزّ وجلّ في الخاطر من ذلك، والله الموفق والهادي إلى صراط مستقيم.

وصل في زكاة الحليّ: اختلف العلماء رضي الله عنهم في زكاة الحلي، فمن قائل: لا زكاة فيه. ومن قائل: فيه الزكاة.

الاعتبار في ذلك: الحلي ما يتخذ للزينة والزينة مأمور بها، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣١] وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣٢] وأضافها إليه ما أضافها إلى الدنيا ولا إلى الشيطان والزكاة حق له، وما كان مضافاً إليه لا يكون فيه حق له لأنه كله له فلا زكاة في زينة الله، ومن اتخذه لزينة الحياة الدنيا وسلب عنه زينة الله أوجب فيه الزكاة وهو أن يجعل لله نصيباً فيه يحيى به ما أضاف منه إلى نفسه ويزكو ويتقدّس، كما شرع الله للإنسان أن يستعين بالله ويطلب العون منه

في أفعاله التي كلفه سبحانه أن يعملها وهو العامل سبحانه لا هم، فكذلك ينبغي أن يجعل الزكاة في زينة الحياة الدنيا وإن كانت زينة الله التي أخرج لعباده فأوجبوا الزكاة في تلك الزينة كما أوجبها من أوجبها في الحليّ.

وصل في زكاة الخيل: اختلفوا في الخيل، فالجمهور على أنه لا زكاة في الخيل. وقال قوم: إذا كانت سائمة وقصد بها النسل ففيها الزكاة أعني إذا كانت ذكراناً وإناثاً.

وصل الاعتبار في ذلك: هذا النوع من الحيوان وأمثاله من جملة زينة الله، قال تعالىٰ: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [سورة النحل: الآية ٨] وهي من زينة الله التي أخرج لعباده، ثم إنه من الحيوان الذي له الكر والفر، فهو أنفع حيوان يجاهد عليه في سبيل الله فالأغلب فيه أنه لله، وما كان لله فما فيه حق لله لأنه كلّه لله، النفس مركبها البدن، فإذا كان البدن في مزاجه وتركيب طبائعه بحيث أن يساعد النفس المؤمنة الطاهرة على ما تريد منه من الإقبال على طاعة الله والفرار عن مخالفة الله كان لله، وما كان لله فلا حق فيه لله لأنه كله لله، وإذا كان البدن يساعد وقتاً ولا يساعد وقتاً آخر لخلل فيه، كان ردّ النفس بالقهر فيما لا يساعد فيه من طاعة الله زكاة فيه كمن يريد الصلاة ويجد كسلاً في أعضائه وتكسّراً فيتثبط عنها مع كونه يشتهيها، فأداء الزكاة في ذلك الوقت أن يقيمها ولا يتركها مع كسلها، وهي في ذلك الوقت سائمة من السآمة اعتبار متخذة للنسل لأن فيها ذكراناً وإناثاً أي خواطر عقل وخواطر نفس.

وصل في سائمة الإبل والبقر والغنم وغير السائمة: فإن قوماً أوجبوا الزكاة فيها كلها سائمة وغير سائمة، وذهب الأكثرون إلى أن لا زكاة في غير السائمة من هذه الثلاثة الأنواع.

اعتبار هذا الوصل: السائمة الأفعال المباحة كلها وغير السائمة ما عدا المباح، فمن قال: الزكاة في السائمة قال: إن المباح لما كانت الغفلة تصحبه أوجبوا أن يحضر الإنسان عند فعله المباح أنه مباح بإباحة الشارع ولو لم يبح فعله ما فعله، فهذا القدر من النظر هو زكاته. وأما غير السائمة فلا زكاة فيها لأنها كلها أفعال مقيدة بالوجوب أو الندب أو الحظر أو الكراهة، فكلها لا تخيير على الإطلاق للعبد فيها فكلها لله تعالىٰ، وما كان لله لا زكاة فيه فإن الزكاة حق لله في هذا كله، وألحق بعض أصحابنا المندوب والمكروه بالمباح فجعل فيه الزكاة كالمباح سواء. وقالت طائفة أخرى: ما هو مثل المباح فإن فيه ما يشبه الواجب والمحظور وفيه ما يشبه المباح، فإن كان وقته تغليب أحد النظرين فيهما كان حكمه بحكم الوقت فيهما وهو أن يحضر له في وقت إلحاقهما بالمباح، وفي وقت إلحاقهما بالواجب والمحظور، والصورة في الشبه أن السائمة مملوكة وغير السائمة مملوكة فالجامع بينهما الملك ولكن ملك غير السائمة أثبت لشغل المالك بها وتعاهده إياها، والسائمة ليست كذلك وإن كانت ملكاً، وكذلك المندوب والمكروه هو مخير في الفعل والترك فأشبه المباح وهو مأجور في الفعل فيهما والترك فأشبه الواجب والمحظور وهذا أسدّ مذاهب القوم عندنا.

ومن قال: الزكاة في الكل، قال: إنما أوجب ذلك في الكل سائمة وغير سائمة لأن

الأفعال الواقعة من العبد منسوبة للعبد نسبة إلهية وإن اقتضى الدليل خلافها، فوجبت الزكاة في جميع الأفعال لما دخلها من النسبة إلى المخلوق، وصورة الزكاة فيها استحضارك أن جميع ما يقع منك بقضاء وقدر عن مشاهدة وحضور تام في كل فعل عند الشروع في الفعل، وذلك القدر هو زمان الزكاة بمنزلة انقضاء الحول وقدر ذلك الفعل الذي يمكن الردّ فيه إلى الله ذلك هو نصاب ذلك الفعل، وهذا مذهب العلماء بالله أن الأفعال كلها لله بوجه وتضاف إلى العبد بوجه فلا يحجبنهم وجه عن وجه كما لا يشغله شأن عن شأن.

وصل في زكاة الحبوب: وأما ما اختلفوا فيه من النبات بعد اتفاقهم على الأصناف الثلاثة فمنهم من لم ير الزكاة إلاَّ في تلك الأصناف الثلاثة. ومنهم من قال: الزكاة في جميع المدخر المقتات من النبات. ومنهم من قال: الزكاة في كل ما تخرجه الأرض ما عدا الحشيش والحطب والقصب.

الاعتبار في كونه نباتاً: فهذا النوع مختص بالقلب فإنه محل نبات الخواطر وفيه يظهر حكمها على الجوارح، فكل خاطر نبت في القلب وظهر عينه على ظاهر أرض بدنه ففيه الزكاة لشهادة كل ناظر فيه أنه فعل من ظهر عليه فلا بدّ أن يزكيه بردّه إلى الله ذلك هو زكاته، وما لم يظهر فلا يخلو صاحبه لما نبت في قلبه ما نبت هل كان ممّن رأى الله فيه أو قبله؟ فإن كان من هذا الصنف فلا زكاة عليه فيه فإنه لله، ومن رأى الله بعده من أجله فتلك عين الزكاة قد أدّاها، وإن لم ير الله بوجه وجبت عليه الزكاة عند العلماء بالله، ولم تجب عليه الزكاة عند الفقهاء من أهل الطريق لأن الشارع لم يعتبر الهم حتى يقع الفعل فكان نباتاً سقطت فيه الزكاة كما سقطت المؤاخذة عليه، فإن كان النبات من الخواطر التي فيها قوت للنفس وجبت الزكاة لما فيها من حظ النفس، فإن كان حظ النفس تبعاً فلا زكاة فإن قوت هذا الذي هذه صفته فهو الله الذي به يقوم كل شيء، قيل لسهل بن عبد الله: ما القوت؟ قال؛ الله، قيل له: سألناك عن قوت الأشباح، قال: الله، فلما ألحوا عليه قال: ما لكم ولها دع الديار إلى مالكها وبانيها إن شاء عمرها وإن شاء خربها.

وصل في النصاب بالاعتبار: وأما النصاب في الأعضاء فهو أن تتجاوز في كل عضو من الأوّل إلى الثاني، ولكن من الأوّل المعفوّ عنه لا من الأول المندوب، فإن الأول المعفوّ عنه لا زكاة فيه فإنه لله، والثاني لك ففيه الزكاة ولا بدّ، سواء كان في النظرة الأولى، أو السماع الأول، أو اللفظة الأولى، أو البطشة الأولى، أو السعي الأول، أو الخاطر الأول، والجامع كل حركة لعضو لا قصد له فيها فلا زكاة عليه، فإذا كانت الثانية التالية لها فإنها لا تكون إلاَّ نفسية عن قصد فوجبت الزكاة أي طهارتها، والزكاة فيها هي التوبة منها لا غير فتلتحق بالحركة الأولى في الطهارة من أجل التوبة والتوبة زكاتها، هذا حدّ النصاب فيما تجب فيه الزكاة من جميع ما تجب فيه الزكاة، ولا حاجة لتعدادها في الحكم الظاهر المشروع في تلك الأصناف لأن المقصود الاعتبار وقد بان فاكتفينا بذلك عن تفصيله، وقد تقدّم اعتبار وقت الزكاة وبقي لنا اعتبار من أخرج الزكاة قبل وقتها فإن قوماً منعوا من ذلك وبه أقول وأجازه بعضهم.

اعتباره: تطهير المحل للخاطر قبل وقوعه بالاستعداد له مع علمه بما يخطر له من جهة الكشف الذي هو عليه، فإن قطع بحضوره ولا بدّ لم يجزه فإنه راجع إلى الطهارة الأولى، وإذا وقع فلا بدّ من طهارة لوقوعه بلا شك فلا يتعدى بالأمور أوقاتها فإن الحكم للوقت، ومن أخرجها قبل الوقت فقد عطل حكم الوقت.

وصل في ذكر من تجب لهم الصدقة: وهم الثمانية الذين ذكر الله في القرآن: الفقراء، والمساكين، والعاملون عليها، والمؤلفة قلوبهم، والرقاب، والغارمون، والمجاهدون، وابن السبيل، اعتبارهم الأعضاء المذكورة تخرج الزكاة من أفعالها وتردّ على أعيانها وهو المعبر عنه بثوابها، ففي أفعال هذه الأعضاء الزكاة وعلى أعيانها تقسم الزكاة، فمن زكّى نظره بنفسه أعطى الزكاة بصره فعاد يبصر بربه بعدما كان يبصر بنفسه، وكذلك من زكّى سمعه بنفسه أعطى الزكاة سمعه فصار يسمع بربه وهو قوله: كنت سمعه وبصره، وكذلك يتكلم ويبطش ويسعى كل ذلك بربه ويتقلب في أموره كلها بربه.

وصل في تعيين الأصناف الثمانية الذين تقسم الزكاة عليهم اعتباراً: فمنهم الفقراء، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٠] يقول: فرضها الله لهؤلاء المذكورين فلا يجوز أن تعطى إلى سواهم وفي إعطائها لصنف واحد خلاف، والذي أذهب إليه أنه من وجد من هؤلاء الأصناف قسمت عليهم الصدقة بحسب ما يوجد منهم لكن على الأصناف لا على الأشخاص، ولو لم يوجد من صنف منهم إلا شخص واحد دفع إليه قسم ذلك الصنف، وإن وجد من الصنف أكثر من شخص واحد قسم على الموجودين منه ما تعين لذلك الصنف قلّ الأشخاص أو كثروا، وكذلك العامل عليها قسمه في ذلك البلد بحسب ما يوجد من الأصناف، فإن وجد الكل فلكل صنف ثمن الصدقة إلى سبع وسدس وخمس وربع وثلث ونصف وللكل، ثم إنا نقدم من قدم الله بالذكر في العطاء، وكذلك أفعل هنا في تعيينهم في هذا الباب فإن رسول الله ﷺ لما جاء في حجة وداعه إلى السعي بين الصفا والمروة تلا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٨] أبدأ بما بدأ الله به، وحدثني بحكايته في هذا بعض أشياخنا قال: أراد رجل من أهل القيروان الحجّ فبقي يتردّد هل يمشي في البحر أو في البر وما ترجح عنده واحد منهما فقال: أسأل أول رجل أجتمع به فحيث ما قال لي سلكت ذلك الطريق، قال: فأول من لقيه يهودي فحار في أمره هل أسأله فعزم على سؤاله فشاوره فقال له: يا مسلم أليس الله يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾ [سورة يونس: الآية ٢٢] فقدم البر فقدم ما قدم الله، وهذا هو الطريق نبدأ بما بدأ الله به ونقدم ما قدم الله فإنه من التزم ذلك رأى خيراً في حركاته.

اعتبار الفقير: الذي يجب إعطاء الصدقة له لا أنه يجب عليه أخذها عند أهل الطريق إلاّ عندنا فإنه واجب عليه أخذها إذا أعطيته ولا يسألها أصلاً، ولو تحقق بالعبودية أسنى مرتبة فيها وجاءته أخذها، فإن الزكاة وإن كانت لهؤلاء الأصناف فإنها حق الله في هذه الأموال وللعبد أن

يأكل من مال سيده فإنه حقّه، وإنما حرمت على أهل البيت تخصيصاً لهذه الإضافة وسواء تحققوا بالعبودية أو لم يتحققوا، فلو كان ذلك للتحقق بالعبودية ما حرمت إلاَّ على رسول الله ﷺ ومن كان على قدمه الأمر وليس كذلك فأهل الله أولى من تصرّف في حقوق الله. ثم نرجع فنقول: الفقير عندنا الذي ليس وراءه مرتبة للفقر هو الذي يفتقر إلى كل شيء ولا يفتقر إليه شيء، وإلى الآن فما رأيت أحداً تحقق بهذه الصفة، يقول الله تعالىٰ من باب الغيرة الإلهية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ فقد كنى عن نفسه في هذه الآية بكل ما يفتقر إليه ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] فما افتقر فقير إلاَّ إلى الله عرف ذلك هذا الشخص أو لم يعرفه، فإن الفقير الإلهيّ يرى الحق عين كل شيء وهو في عبوديته منغمس مغمور حين رأى الله تسمى له باسم كل شيء يفتقر إليه، وما في الوجود شيء إلاَّ ويفتقر إليه مفتقر ما من جميع الأشياء ولا يفتقر إليه شيء لوقوف هذا الفقير عند هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ فتحقق بهذه الآية، فأوجب الله له الطهارة والزكاة حيث تأدّب مع الله وعلم ما أراد الله بهذه الآية فإنها من أعظم آية وردت في القرآن للعلماء بالله الذين فهموا عن الله فلم يظهر عليه صفة غني بالله ولا بغير الله فيفتقر إليه من ذلك الوجه فصحّ له مطلق الفقر، فكأن الله غناه بما هو من الأغنياء بالله، فإن الغنيّ بالله من افتقر إليه الخلق وزها عليهم بغناه بربه فذلك لا يجب له أن يأخذ هذه الزكاة. فما قدّم الحق الفقراء بالذكر وفوقهم من هو أشدّ حاجة منهم لا مسكين ولا غيره، فإن الفقير هو الذي انكسر فقار ظهره فلا يقدر على أن يقيم ظهره وصلبه فلا حظ له في القيومية أبداً بل لا يزال مطأطىء الرأس لانكساره فافهم هذه الإشارة.

والمساكين: المسكين من السكون وهو ضدّ الحركة والموت سكون فإذا تحرّك الميت فبتحريك غيره إياه لا بنفسه فالمسكين من يدبره غيره، فلهذا فرض الله له أن يعطى الزكاة ولا يقال فيه إنه آخذ لها وهو لا يتصف بالحاجة ولا بعدم الحاجة، ولهذا قلنا في الفقير إنه ما فوقه من هو أشدّ حاجة منه، فإن المسكين هو عين المسلم المفوّض أمره إلى الله عن غير اختيار منه بل الكشف أعطاه ذلك ولهذا ألحقناه بالميت، فالمسكين كالأرض التي جعلها الله لنا ذلولاً، فمن ذلّ ذلة ذاتية تحت عزّ كل عزيز كان من كان فذلك المسكين لتحققه أن العزّة لله، وأن عزّته هي الظاهرة في كل عزيز وهذه معرفة نبوية، يقول تعالىٰ: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [سورة عبس: الآيتان ٥، ٦] فعند المحققين ضمير له لله وإن كانت الآية جاءت عتباً ولكن في حق فهم العرب، ونحن مع شهود رسول الله ﷺ وذوقه ومرتبته، فإن العارفين منا ولهم هذا المقام حسنة من حسنات رسول الله ﷺ ولا تبالي بذاك العزيز فنقول: إنه ممّن أشقاه الله بعزّه، فإن هذا المسكين ما ذلّ إلاَّ للصفة، وهذه الصفة لا تكون إلاَّ لله عنده حقيقة لم تدنسها الاستعارة قط، فهذا المسكين لم ير بعينه إلاَّ الله إذ كان لا يرى العزّة إلاَّ عزّته تعالىٰ لا بعينه ولا بقلبه، ونظر إلى ذلّة كل ما سواه تعالىٰ بالعين التي ينبغي أن ينظر إليهم بها، فتخيل المخلوق الموصوف عند نفسه بالعزّة أنه ذلّ هذا المسكين لعزّه وإنما كان ذلك للعزّ خاصة

والعزّ ليس إلاّ لله فوفى المقام حقّه، فمثل هذا هو المسكين الذي يتعين له إعطاء الصدقة.

والعاملين عليها: العامل المرشد إلى معرفة هذه المعاني والمبين لحقائقها والمعلم والأستاذ والدال عليها، وهو الجامع لها بعلمه من كل من تجب عليه فله منها على قدر عمالته، وليس الأمر في حقّه منها إلاّ كما قدمناه، والأولى بالمرشد أن يقول ما قالت الرسل: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة يونس: الآية ٧٢] فقد يكون هذا القدر الذي لهم من الزكاة الإلهية فلهم أخذ زكاة الاعتبار لا زكاة المال، فإن الصدقة الظاهرة على الأنبياء حرام لأنهم عبيد، والعبد لا يأخذ الصدقة من حيث ما تنسب إلى الخلق فاعلم ذلك.

والمؤلفة قلوبهم: فهم الذين تألفهم الإحسان على حب المحسن لأن القلوب تتقلب فتألفها هو أن تتقلب في جميع الأمور كما تعطي حقائقها ولكن لعين واحدة وهي عين الله فهذا تألفها عليه لا تملكها عيون متفرّقة لتفرّق الأمور التي تتقلب فيها، فإنَّ الجداول إذا كانت ترجع إلى عين واحدة فينبغي مراعاة تلك العين والتألف بها، فإنه إن أخذته الغفلة عنها ومسكت تلك العين ماءها لم تنفعه الجداول بل يبست وذهب عينها، وإذا راعى العين وتألف بها تبخرت جداولها واتسعت مذانبها.

وفي الرقاب: فهم الذين يطلبون الحرية من رق كل ما سوى الله، فإن الأسباب قد استرقت رقاب العالم حتى لا يعرفوا سواها، وأعلاهم في الرق الذين استرقتهم الأسماء الإلهية، وليس أعلى من هذا الاسترقاق إلاّ استرقاق أحدية السبب الأوّل من كونه سبباً لا من حيث ذاته، ومع هذا فينبغي لهم أن لا تسترقهم الأسماء لغلبة نظرهم إلى أحدية الذات من كونه ذاتاً لا من كونها إلهاً، ففي مثل هذه الرقاب تخرج الزكاة.

والغارمين: هم الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً عن أمره وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [سورة الحديد: الآية ١٨] عطف على أمرين واجبين وهما قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٣] وثلث بقوله: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فالقرض ثالث ثلاثة ولكن ما عين ما تقرضه كما لم يعين ما تزكيه كما لم يعين صلاة بعينها فعمّت كل صلاة أمرنا بإقامتها وكل زكاة وكل قرض إلاّ أنه نعت قرضاً بقوله: ﴿حَسَنًا﴾ مع تأكيده بالمصدر، وسبب ذلك أن الصلاة والزكاة العبد فيهما عبد اضطرار، وفي القرض عبد اختيار، فمن الناس من أقرض الله قرض اختيار وهو الذي لم يبلغه الأمر به وبلغه أن تقرضوا الله، أو قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [سورة الحديد: الآية ١١] فيأخذ الزكاة الغارم الأول الذي أعطى على الوجوب الصدقة بحكم الوجوب أي أنها تجب له، ويأخذها الثاني باختيار المصدق حيث ميّزه دون غيره، ولا سيّما في مذهب من يرى في عدد هؤلاء الأصناف أنه حصر المصرف في هؤلاء المذكورين أي لا يجوز أن تعطى لغيرهم، فإذا أعطيت لصنف منهم دون صنف فقد برئت الذمّة وهي مسألة خلاف، فهذا المقرض بآية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ وإن تقرضوا الله لا يأخذها بحكم الوجوب، والمقرض بآية الأمر يأخذها بحكم الوجوب، لأن المأمور أدّى واجباً فجزاؤه واجب ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم: الآية ٤٧] فإن الإيمان واجب

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] وهذه كلها واجبات، فأوجب الجزاء بالرحمة لهم بلا شك.

وفي سبيل الله: فيمكن أن يريد المجاهدين والإنفاق منها في الجهاد، فإن العرف في سبيل الله عند الشرع هو الجهاد وهو الأظهر في هذه الآية مع أنه يمكن أن يريد بسبيل الله سبل الخير كلها المقرّبة إلى الله، فأما هذا الصنف بحكم ما يقتضيه الطريق فسبيل الله ما يعطيه هذا الاسم الذي هو الله دون غيره من الأسماء الحسنى الإلهية فيخرجها فيما تطلبه مكارم الأخلاق من غير اعتبار صنف من أصناف المخلوقين كرزق الله عباده، بل ما تقتضيه المصلحة العامة لكل إنسان بل لكل حيوان ونبات حتى الشجرة يراها تموت عطشاً فيكون عنده بما يشتري لها ما يسقيها به من مال الزكاة فيسقيها بذلك فإنه من سبيل الله ولا قائل بهذا. وإن أراد المجاهدين فالمجاهدون معلومون بالعرف من هم، والمجاهدون أنفسهم أيضاً في سبيل الله فيعاونون بذلك على جهاد أنفسهم، قال رسول الله ﷺ: «**رَجِعْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَىٰ الْجِهَادِ الأَكْبَرِ**» يريد جهاد النفوس ومخالفتها في أغراضها الصارفة عن طريق الله تعالىٰ.

وابن السبيل: وأبناء السبيل معلومون وهم في الاعتبار أبناء طريق الله لأن الألف واللام للتعريف فهما بدل من الإضافة، ونصيب هؤلاء من الزكاة التي هي الطهارة الإلهية التي ذكرناها فيما قبل.

وصل متمم: ثم لتعلم وفقك الله أن الأمور التي يتصرّف فيها الإنسان حقوق الله كلها، غير أن هذه الحقوق وإن كانت كثيرة فإنها بوجه ما منحصرة في قسمين: قسم منهما حق الخلق لله وهو قوله ﷺ: «**إِنَّ لِنَفسِكَ عَلَيكَ حَقّاً، وَلِعَينِكَ عَلَيكَ حَقّاً، وَلزورك عَلَيكَ حَقّاً**» والقسم الآخر حق الله لله وهو قوله ﷺ: «**لِي وَقْتٌ لاَ يَسَعُنِي فِيهِ غَيْرُ رَبِّي**» وهذا الحق الذي لله هو زكاة الحقوق التي للخلق لله، وهذه الحقوق بجملتها في ثمانية أصناف: العلم والعمل وهما بمنزلة الذهب والفضة، ومن الحيوان الروح والنفس والجسم في مقابلة الغنم والبقر والإبل، ومن النبات الحنطة والشعير والتمر، وفي الاعتبار ما تنبته الأرواح والنفوس والجوارح من العلوم والخواطر والأعمال الغنم للروح والبقر للنفس والإبل للجسم، وإنما جعلنا الغنم للأرواح لأن الله جعل الكبش قيمة روح نبيّ مكرّم فقال: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٠٧] فعظمه وجعله فداء ولد إبراهيم نبيّ ابن نبيّ، فليس في الحيوان بهذا الاعتبار أرفع درجة من الغنم وهي ضحايا هذه الأمة، ألا تراها أيضاً قد جعلت حق الله في الإبل وهو في كل خمس ذود شاة، وجعلت مائة من الإبل فداء نفس ليس برسول ولا نبيّ، فانظر أين مرتبة الغنم من مرتبة الإبل؟ ثم إن رسول الله ﷺ أمرنا بالصلاة على مرابض الغنم والصلاة قربة إلى الله وأماكنها مساجد الله، فمرابض الغنم من مساجد الله فلها درجة القربة، والإبل ليست لها هذه المرتبة وإن كانت أعظم خلقاً ولهذا جعلناها للأجسام، ألا ترى أنه من أسمائها البدنة والجسم يسمى البدن والبدن من عالم الطبيعة والطبيعة بينها وبين الله درجتان من العالم وهما: النفس والعقل فهي في ثالث درجة من القربة فهي بعيدة عن القرب الإلهيّ.

ألا ترى النبيّ ﷺ نهى عن الصلاة في معاطن الإبل؟ وعلّل ذلك بكونها شياطين والشيطنة البعد، يقال: ركية شطون إذا كانت بعيدة القعر، والصلاة قرب من الله، والبعد يناقض القرب، فنهى عن الصلاة في معاطن الإبل لما فيها من البعد، وكذلك الجسم الطبيعيّ أين هو من درجة القربة التي للروح وهو العقل فإنه الموجود الأوّل وهو المنفوخ منه في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] فلهذا جعلنا الروح بمنزلة الكبش والجسم بمنزلة الإبل.

وأما كون البقر في مقابلة النفوس وهي دون الغنم في الرتبة وفوق الإبل كالنفس فوق الجسم ودون العقل الذي هو الروح الإلهيّ وذلك أن بني إسرائيل لما قتلوا نفساً وتدافعوا فيها أمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوا الميت ببعضها فيحيى بإذن الله فلما حيي به نفس الميت عرفنا أن بينها وبين النفس نسبة فجعلناها للنفس.

ثم إن الروح الذي هو العقل يظهر عنه ممّا زرع الله فيه من العلوم والحكم والأسرار ما لا يعلمه إلاّ الله، وهذه العلوم كلها منها ما يتعلق بالكون ومنها ما يتعلق بالله، وهو بمنزلة الزكاة من الحنطة لأنها أرفع الحبوب، وأن النفس يظهر عنها ممّا زرع الله فيها من الخواطر والشهوات ما لا يعلمه إلاّ الله تعالىٰ، فهذا نباتها وهو بمنزلة التمر، وزكاة الله منها الخاطر الأوّل، ومن الشهوات الشهوة التي تكون لأجل الله وإنما قرناها بالتمر لأن النخلة هي عمّتنا فهي من العقل بمنزلة النخلة من آدم فإنها خلقت من بقية طينته.

وأما الجوارح: فزرع الله فيها الأعمال كلها فأنبتت الأعمال، وحظ الزكاة منها الأعمال المشروعة التي يرى الله فيها، فهذه ثمانية أصناف تجب فيها الزكاة.

فأما العلم الذي هو بمنزلة الذهب فيجب فيها ما يجب في الذهب. وأما العمل الذي هو بمنزلة الفضة فيجب فيه ما يجب في الورق. وأما الروح فيجب فيه ما يجب في الغنم. وأما النفس فيجب فيها ما يجب في البقر. وأما الجوارح فيجب فيها ما يجب في الإبل. وأما ما ينتجه العقل من المعارف وينبته من الأسرار فيجب فيها ما يجب في الحنطة. وأما ما تنتجه النفس من الشهوات والخواطر وتنبته من الواردات فيجب فيه ما يجب في التمر. وأما ما تنتجه الجوارح من الأعمال وتنبته من صور الطاعات وغيرها فيجب فيه ما يجب في الشعير.

وصل في اعتبار الأقوات بالأوقات: اعلم أن الأوقات في طريق الله للعلماء العاملين بمنزلة الأقوات لمصالح الأجسام الطبيعية، وكما أن بعض الأقوات هو زكاة ذلك الصنف كذلك الوقت الإلهيّ هو زكاة الأوقات الكيانية، فإن في الوقت أغذية الأرواح، كما أن في الأقوات أغذية الأشباح الحيوانية والنباتية، وغذاء الجوارح الأعمال. والعلم والعمل معدنان بوجودهما تنال المقاصد الإلهية في الدنيا والآخرة، كما أن بالذهب والفضة تنال جميع المقاصد من الأعراض والأغراض، فلنبين ما يتعلق بهذا النوع وهذه الأنواع من حق الله الذي هو الزكاة.

وصل في مقابلة وموازنة الأصناف الذين تجب لهم الزكاة بالأعضاء المكلفة من

الإنسان: وهم الفقراء يوازنهم من الأعضاء الفرج، ويوازن المساكين البطن، ويوازن العاملين القلب، ويوازن المؤلفة قلوبهم بالسمع، ويوازن الرقاب بالبصر، ويوازن الغارمين باليد، ويوازن المجاهدين باللسان، ويوازن ابن السبيل بالرجل، فإن اعتبرت هذه الموازنة بين هؤلاء الأصناف وبين هذه الأعضاء على ما ذكرناه تجد حكمة ما أشرنا إليه، فالفقر في الفرج واضح، وكذلك المسكنة في البطن ظاهر، والعامل بالقلب صريح، والمؤلفة قلوبهم بالسمع بين، والرقاب بالبصر واقع، والغارم باليد إفصاح، والمجاهد باللسان صحيح، وابن السبيل بالرجل أوضح من الكل.

وصل في معرفة المقدار كيلاً ووزناً وعدداً: خرّج مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيسَ فِي حَبٍّ وَلاَ تَمرٍ صَدَقَةٌ حَتَّىٰ يَبْلُغَ خَمْسَةَ أَوْسُقٍ، وَلاَ فِيمَا دُونَ خَمْسِ ذَوْدٍ صَدَقَةٌ، وَلاَ فِيمَا دُونَ خَمْسِ أَوَاقٍ صَدَقَةٌ**» يريد من الورق، فجعل الوسق في الحبوب وهي النبات وهو مكيال معروف وهو ستون صاعاً، فالخمسة الأوسق ثلاثمائة صاع وهو ما ينبته التخلق بالأسماء أعني الأخلاق الإلهية من الأخلاق في الإنسان، لأنا قد روينا أن لله ثلاثمائة خلق من تخلق بواحد منها دخل الجنة وكلها أخلاق يصرفها الإنسان مع المخلوقات ومع من ينبغي أن تصرف معه على حدّ أمر الله، والزكاة منها هو الخلق الذي يصرفه مع الله فإنه أولى من يتخلق معه، فإنه من المحال أن يبلغ الإنسان بأخلاقه مرضاة العالم، وإيثار جناب الله أولى وهو أن يتخلق مع كل صنف بالخلق الإلهيّ الذي صرفه الله معه فيكون موافقاً للحق. وقوله: ولا فيما دون خمس ذود صدقة فهذا من عدد الأعيان ولا ينعدّ بالعين إلاّ العمل لا العلم، فإن مقدار العلم معنويّ ومقدار العمل حسيّ، ولا فيما دون خمس أواق صدقة، والأوقية أربعون درهماً والأربعون في الأوقية نظير الأربعين صباحاً من أخلصها ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، فإذا ظهرت من العبد في خمسة أحوال كما هي في الزكاة خمس أواق حال في ظاهره له أوقية وهو إخلاص ظاهر وحال في باطنه مثله وحال في حدّه مثله وحال في مطلعه مثله وحال في المجموع مثله، فهذه خمسة أحوال مضروبة في أربعين يكون الخارج مائتين وهو حدّ النصاب فيها خمسة دراهم من كل أربعين درهماً درهم، وهو ما يتعلق بكل أربعين من التوحيد المناسب لذلك النوع، ومقادير المعاني والأرواح أقدار من قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩١] ومقادير المحسوسات من الأعمال أوزان وبالأوزان عرفت الأقدار.

وصل في توقيت ما سقي بالنضح وما لم يسق به: ذكر البخاري عن رسول الله ﷺ فيما سقي بالنضح نصف العشر وما لم يسق بالنضح العشر.

واعتباره: أعمال المراد وأعمال المريد فالمريد مع نفسه لربّه فيجب عليه نصف العشر وهو أن يزكي من عمله ما ظهرت فيه نفسه، والمراد مع ربه لا مع نفسه فيجب عليه العشر وهو نفسه كله فإنه لا نفس له لرفع التعب عنه، وكذلك اعتباره في العلم الموهوب، والعلم

المكتسب لم يخلص لله منه إلاَّ نصفه والموهوب كله لله والكل عبارة عن قدر الزكاة لا غير وهو ما ينسب إلى الله من ذلك العلم أو العمل وما ينسب إلى العبد من حيث حضور العبد مع نفسه في ذلك العلم أو العمل.

وصل في إخراج الزكاة من غير جنس المزكى: في كل خمس ذود من الإبل شاة.

اعتباره: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] فزكاة الأعمال الإخلاص، والإخلاص ليس بعمل لافتقاره إلى الإخلاص وهو النية.

وصل في فصل ـ الخليطان في الزكاة: ذكر الدارقطنيّ عن سعد بن أبي وقاص عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**الْخَلِيطَانِ مَا اجْتَمَعَا عَلَىٰ الْحَوْضِ وَالرَّاعِي وَالْفَحْلِ**».

وصل الاعتبار في ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢] فالمعاونة في الشيء اشتراك فيه وهذا معنى الخليطين، فالحوض كل عمل أو علم يؤدّي إلى حياة القلوب فيستعينا عليه بحسب ما يحتاج كل واحد منهما من صاحبه فيه، وهو في الإنسان القلب والجارحة خليطان، فالجارحة تعين القلب بالعمل، والقلب يعين الجارحة بالإخلاص، فهما خليطان فيما شرعا فيه من عمل أو طلب علم. وأما الراعي؛ فهو المعنى الحافظ لذلك العمل وهو الحضور والاستحضار مثل الصلاة لا يمكن أن يصرف وجهه إلى غير القبلة ولا يمكن أن يقصد بتلك العبادة غير ربّه، وهذا هو الحفظ لتلك العبادة، والقلب والحسّ خليطان فيه. وأما الفحل: فهو السبب الموجب لما ينتجه ذلك العلم أو العمل عند الله من القبول والثواب فهما شريكان في الأجر فتأخذ النفس ما يليق بها ممّا يعطيه العلم، ويأخذ الحسّ الذي للجسم ما يليق به من حسن الصورة في الدار الآخرة، والمعنى الذي أنتج لهما هذا هو الفحل وهما فيه خليطان.

وصل فيما لا صدقة فيه من العمل: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ فِي الْعَوَامِلِ صَدَقَةٌ وَلاَ فِي الْجَبْهَةِ صَدَقَةٌ**» خرّج هذا الحديث الدارقطنيّ عن علي رضي الله عنه. والعوامل هي الإبل التي يعمل عليها والجبهة الخيل وقد تقدم كلام الزكاة في الخيل.

وصل: الاعتبار في ذلك الهياكل عوامل الأرواح لأنها عليها تعمل ما كلفت من العمل وبها يقع العمل منها ولا زكاة على العامل في بدنه وإنما الزكاة على الروح العامل بها، وزكاته قصده وتقواه وهو الإخلاص لله في ذلك العمل، قال الله تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٧].

وصل في فصل ـ إخراج الزكاة من الجنس: خرّج أبو داود عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن فقال: «**خُذِ الْحَبَّ مِنَ الْحَبِّ وَالشَّاةَ مِنَ الْغَنَمِ وَالْبَعِيرَ مِنَ الإِبِلِ وَالْبَقَرَ مِنَ الْبَقَرِ**».

وصل الاعتبار في ذلك: زكاة الظاهر ما قيّده به الشرع من الأعمال الواجبة التي لها شبه في المندوب، ففريضة الصلاة زكاة النوافل من الصلاة فإنها الواجبة أو صلاة ينذرها الإنسان على نفسه أو أيّ عبادة كانت، وكذلك في الباطن زكاة من جنسه وهو أن يكون الباعث له على

العبادة خوف أو طمع والزكاة في الباعث الباطن من ذلك أن تكون ما تستحقه الربوبية من امتثال أمرها ونهيها لا رغبة ولا رهبة إلاّ وقاص.

وصل في ذكر ما لا يؤخذ في الصدقة: ذكر أبو داود في كتاب رسول الله ﷺ: «**لاَ تُؤْخَذُ فِي الصَّدَقَةِ هَرِمَةٌ وَلاَ ذَاتُ عُوَارٍ وَلاَ تَيسُ الغَنَمِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ المُصَدِّقُ**».

وصل الاعتبار في ذلك: الهرمة مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٢] وقال: «**لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ**» ولا ذات عوار وهو العمل بغير نيّة أو نيّة بغير عمل مع التمكن من العمل وارتفاع المانع. وأما مشيئة المصدق في تيس الغنم فاعتباره أن لا يجحف على صاحب المال وهو الحضور في العمل من أوله إلى آخره فربما يقول: لا يقبل العمل إلاّ هكذا، ويكفي في العمل النيّة في أول الشروع ولا يكلف المكلف أكثر من هذا، فإن استحضر المكلف النيّة في جميع العمل فله ذلك وهو مشكور عليه حيث أحسن في عمله وأتى بالأنفس في ذلك، والجامع لهذا الباب اتقاء ما يشين العبادات مثل الالتفات في الصلاة والعبث فيها والتحدث في الصلاة في النفس بالمحرّمات والمكروهات وتخيّلها وأمثال هذا ممّا هو مثل الجعرور ولون الحبيق في زكاة التمر وأمثال ذلك من العيوب.

وصل في فصل زكاة الورق: قد تقدم أن الورق هو العمل، وأن الذهب هو العلم، والزكاة في العمل الفرض منه، والزكاة في العلم أيضاً الفرض منه، فإن نوافل الأعمال والعلوم كثيرة وهي التي زكاتها الفرائض لكون الزكاة واجبة، وما كان من النوافل صدقة تطوّع فهي حضور العبد في ذلك العمل من الشروع فيه إلى آخره، وزكاة أخرى أعني زكاة تطوّع وهو أن يقصد بعمله ذلك تكملة الفرائض فإنه ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَوَّلُ مَا يُنْظَرُ فِيهِ مِنْ عَمَلِ الْعَبْدِ الصَّلاةُ، فَإِنْ كَانَتْ تَامَّةً كُتِبَتْ لَهُ تَامَّةً وَإِنْ كَانَ انْتَقَصَ مِنْهَا شَيْئاً قَالَ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ قَالَ اللَّهُ: أَكْمِلُوا لِعَبْدِي فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ، قَالَ: ثُمَّ تُؤْخَذُ الأَعْمَالُ عَلَىٰ ذَاكُمْ**» يَعْنِي الزَّكَاةُ وَالصَّوْمُ وَالحَجُّ وَمَا بَقِيَ مِنَ الأَعْمَالِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْهِ، فَأَمَّا أَنْ يَقْصُدَ بِعَمَلِهِ تِلْكَ النَّافِلَةُ تَكْمِلَةَ الْفَرَائِضِ أَوْ تَعْظِيمَ جَنَابِ الْحَقِّ بِدُخُولِهِ فِي عُبُودِيَّةِ الاخْتِيَارِ لاَ يَحْمِلُهُ عَلَىٰ ذٰلِكَ طَمَعٌ فِي جَنَّةٍ وَلاَ خَوْفٌ مِنْ نَارٍ.

وصل في فصل زكاة الركاز: خرّج مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ: «**أَنَّ فِي الرِّكَازِ الخُمُس**» وهو ما يوجد من المال في الأرض من دفن الجاهلية أو الكفار.

وصل الاعتبار في ذلك: ما هو مركوز في طبيعة الإنسان هو الركاز وهو حب الرياسة والتقدّم على أبناء الجنس وجلب المنافع ودفع المضار، والخمس فيه إذا وجد الرياسة في قلبه فليقصد بها إعلاء كلمة الله على كلمة الذين كفروا كما هي في نفس الأمر، فإن في نفس الأمر كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والكفر هنا هو الشرك لا غيره، وكما ذكر رسول الله ﷺ في الخيلاء في الحرب في شأن أبي دجانة حين أخذ السيف من رسول الله ﷺ بحقّه فمشى به مصلتاً خيلاء بين الصفين، فلما رآه رسول الله ﷺ على تلك الصورة قال: «**هٰذِهِ مِشْيَةٌ يَبْغُضُهَا الله وَرَسُولُهُ إِلاَّ فِي هٰذَا المَوْطِنِ**»، وزكاتها ما ذكرناه من

قصد إهانة الكفار والحط من قدرهم وإعلاء كلمة الله التي هي الإسلام وعدم المبالاة بالمشركين، وكذلك جلب المنافع ودفع المضار، فزكاة جلب المنافع أن يقصد بالمنفعة المعونة له على القيام بطاعة الله من نوم أو أكل أو شرب أو راحة أو ادّخار مال وأمثال ذلك، وأما دفع المضار أن لا يدفعها إلاً من أجل أنها تحول بينه وبين ما يريده من إقامة طاعة الله ودينه، وما يؤول إليه من السعادة في الآخرة فذلك خمس ركازها. فإن قلت: كيف يضرّ بدينه؟ فأعني به إن لم يدفع تلك المضرّة عن نفسه وإلاً حالت بينه وبين أداء فرض من فرائض الله أو حالت بينه وبين أسباب الخير فدفعها خمس ركازها ما في جبلتها من دفع مضار لا تؤدّي إلى تعطيل فرض تعين عليه أداؤه أو مرغب فيه، وقد سئل النبيّ ﷺ عن الركاز فقال: «**هُوَ الذَّهَبُ الَّذِي يَخْلُقُ اللَّهُ فِي الأَرْضِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ**» يعني المعادن.

وصل في فصل ـ من رزقه الله مالاً من غير تعمل فيه ولا كسب: ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال في حصول مثل هذا المال: «**لاَ زَكَاةَ فِيهِ حَتَّىٰ يَحُولَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ وَهُوَ فِي يَدِهِ**» وجه اعتبار ذلك ما يظهر على العبد من مكارم الأخلاق ممّا لا يأتيها على جهة القربة إلى الله فإنه ينتفع بذلك في الدار الآخرة ولا يلزمه أن ينوي بها القربة إلى الله ولا بدّ ولكن بلا خلاف، إن نوى بذلك القربة فهو أولى وأفضل في حقه، والحديث الوارد في ذلك ما ذكره أبو داود عن ضباعة بنت الزبير قالت: ذهب المقداد لحاجته فإذا جرذ يخرج من جحر ديناراً ثم لم يزل يخرج ديناراً ديناراً حتى أخرج سبعة عشر ديناراً ثم أخرج ديناراً ثم أخرج خرقة حمراء فيها دينار فكانت تسعة عشر ديناراً، فذهب بها إلى النبيّ ﷺ فأخبره وقال له: خذ صدقتها، فقال له النبيّ ﷺ: «**هَلْ قَرِبْتَ الْجُحْرَ؟ قَالَ: لاَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا**».

وصل في فصل ـ زكاة المدبر: قال الراوي رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نخرج الصدقة ممّا نعده للبيع.

وصل في الاعتبار فيه: إذا حدّث الإنسان نفسه في نفسه بأن يعمل خيراً أو يأتي خلقاً كريماً من مكارم الأخلاق فلينو بما حدث به نفسه من ذلك القربة إلى الله.

وصل في فصل ـ الصدقة قبل وقتها: وقال به بعض الأئمة لحديث أبي داود عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أَنَّ الْعَبَّاسَ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي تَعْجِيلِ صَدَقَتِهِ قَبْلَ أَنْ تَحلَّ فَرَخَّصَ لَهُ» وقال مرّة: «فَأَذِنَ لَهُ» تكلم في هذا الحديث ولو صحّ فهي رخصة في قضية عين لا يقاس عليها.

وصل في اعتبار ذلك: نيّة الصلاة الواجبة على المكلف لا تجب إلاً عند الشروع فيها، فإن نواها الإنسان قبل ذلك من حين شروعه في الوضوء ثم استصحب النية إلى أن شرع في الصلاة جاز له ذلك وحصل على خير كثير، ولكن لا تجزيه الصلاة المقيدة بالوقت قبل دخول الوقت إلاً في مذهب من يرى الجمع بين الصلاتين في أوّل الوقت، فلا يبعد أن يجوز تعجيل الصدقة والاسترواح في مثل هذا من قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [سورة

المؤمنون: الآية ٦١] ومثاله أيضاً في الاعتبار: من جاز له النظر إلى المخطوبة فامتنع من ذلك حياء من الله وحذراً أن يزيد في النظر على قدر الحاجة فلم يفعل حتى عقد عليها، وعندي في النظر إلى المخطوبة تقسيم وهو إن كانت المخطوبة من ذرية الأنصار ولم ينظر إليها قبل العقد فهو عاص، وإن نظر إلى وجهها قبل العقد كان نظره قربة إلى الله وطاعة لرسوله ﷺ، وأما غير الأنصارية فلا، وإن نظر فهو أولى إذا خطب. وأما ما ذكرناه من الجمع بين الصلاتين إذا ضمّ الثانية إلى الأولى فهو في الباطن أن يجد في البسملة روح الفاتحة أو السورة التي يريد قراءتها فإنّ البسملة في كل سورة مفتاحها.

وصل في فصل ـ زكاة الفطر: اختلف العلماء في حكم زكاة الفطر، فمن قائل: إنها فرض. ومن قائل: إنها سنّة: ومن قائل: إنها منسوخة بالزكاة.

اعتبار الفطر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١] ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] والفطر الفتق، ومنه كل مولود يولد على الفطرة، وأوّل ما فتق الله أسماع المكوّنات في حال إيجادها وهي حالة تعلّق القدرة بين العدم والوجود بقوله: ﴿كُن﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٧] فتكوّنوا بأنفسهم عند هذا الخطاب امتثالاً لأمر الله وتلك كلمة الحضرة، وأوّل ما فتق أسماعهم به وهم في الوجود الأوّل قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] فهذا خصوص بالبشر والتكوين عموم، وأوّل ما فتق به ألسنتهم بقولهم: بلى، وأول ما فتق معى الصائمين ما أكلوه يوم عيد الفطر قبل الخروج إلى المصلى، وأول ما فتق به معى أهل الجنة أكلهم زيادة كبد النون، فينبغي للعبد في صدقة الفطر يوم العيد أنّ الصفة الصمدانية لا تنبغي إلاّ لله تعالىٰ، فإنّ الصوم لله لا للعبد، وهذه الزكاة فرض على كل إنسان حرّ أو عبد صغير أو كبير ذكر أو أنثى أن يعرف ما تستحقه الربوبية من صفة الصمدانية، ثم إنها لا تجزي عندنا إلاّ من التمر والشعير غير ذلك لا يجزي فيها، وعند الجمهور من العلماء تجوز من المقتات به وهي مسألة خلاف، والقوت ما تقوم به هذه النشأة الطبيعية، وقوت الأرواح ما تتغذى به من علوم الكشف أو الإيمان خاصة، فإن بهذا القدر من العلم تقوم نشأة الأرواح الناطقة وزكاتها علم الكشف خاصة.

وصل في فصل ـ وجوبها على الغنيّ والفقير والحر والعبد والذكر والأنثى والصغير والكبير: أوجبها رسول الله ﷺ على كل اثنين صغير أو كبير.

اعتباره: متعلم وعالم، وقوله: حرّ أو عبد اعتباره من تحرّر عن رق الأكوان، فكان وقته شهوده كونه حرّاً عنها أو عبداً من كان وقته شهود العبودية من غير نظر إلى الأكوان وقوله: ذكر أو أنثى اعتباره في الذكر العقل وفي الأنثى النفس، ويعتبر فيهما أيضاً في الذكر الناظر في العلم الإلهيّ وفي الأنثى الناظر في علم الطبيعة، فنسب كل ناظر إلى مناسبه من جهة ما هو ناظر فيه. وقوله: غنيّ أو فقير اعتباره غنيّ بالله أو فقير إلى الله. وقوله: صاعاً من تمر الصاع أربعة أمداد نشأته صاعه من أربعة أخلاط لكل ركن أو خلط مدّ لكمال نشأته روحاً وعقلاً وجسماً ومرتبة، ثم شهوده فيها الأربع النسب التي يصف بها ربّه في إيجاده عينه،

وأصول كونه من حياة وعلم وإرادة وقدرة لكل صفة مدّ ليكون الجملة صاعاً، إذ بهذه النسب يصحّ كونه رباً، وكونك مربوباً عبداً له تعالىٰ.

وصل في فصل ـ إخراج زكاة الفطر عن كل من يمونه الإنسان: ذكر الدارقطني من حديث ابن عمر رضي الله عنه قال: «**أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِزَكَاةِ الفِطْرِ عَنِ الصَّغِيرِ وَالكَبِيرِ وَالحُرِّ وَالعَبْدِ مِمَّنْ تَمونُونَ**».

وصل الاعتبار في ذلك: الأستاذ يقصد بالتلميذ في التربية ما لا يبلغه علم التلميذ حتى يحصل له ما قصده به الشيخ من الفائدة فذلك زكاة تعليمه، فإن فضل ذلك المنوي يعود على التلميذ فكان التلميذ أعطاه الأستاذ لما يعود عليه من الفضل فقد يفتح على الأستاذ بصدق التلميذ فيما ليس عنده وينجرّ في هذه المسألة الوليّ يزكي مال اليتيم الذي في حجره وتحت نظره.

وصل في فصل ـ إخراجها عن اليهودي والنصراني: ذكره أبو الحسن الدارقطني رحمه الله في كتابه عن رسول الله ﷺ يعني إخراج زكاة الفطر عن اليهودي والنصراني.

الاعتبار في ذلك: نيّة الخير في العمل فيمن ليس من جنسك يعود فضله عليك، وأنا مؤمن بما هو اليهودي والنصراني به مؤمن ممّا هو حق في دينه وفي كتابه من حيث إيماني بكتابي، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٥] فمن هناك يخرجها عنه فإني ممّن أمونه أيضاً، فإنّ كتابي يتضمن كتابه وديني يتضمن دينه، فدينه وكتابه مندرج في كتابي وديني، النفس إذا أشركت في العمل طلب حظها فهي بمنزلة اليهودي والنصراني اللذين يقولان: إن عزيراً ابن الله، والمسيح ابن الله، ويجب على المؤمن إخراج الزكاة عنها وهي بهذه الصفة فإن النبيّ عليه السلام قام إلى جنازة يهودية وقال: أليست نفساً؟ فهذا اعتبار إخراج الزكاة عن اليهودي والنصراني هذا إذا اعتبرت المعنى، فإذا اعتبرت اشتقاق اللفظ من النصرة والهدى فالزكاة عنهما القصد بها وجه الله لا غير ذلك. انتهى الجزء الثاني والخمسون.

(الجزء الثالث والخمسون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصل في فصل ـ وقت إخراج زكاة الفطر: أمر رسول الله ﷺ بزكاة الفطر أن تؤدّى قبل خروج الناس إلى المصلى.

الاعتبار في ذلك: المسارعة في إيصال الراحات إلى المفتقرين إليها وحينئذ يخرج إلى المصلى وهو قوله: ﴿فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ﴾ [سورة المجادلة: الآية ١٢] والمصلّي يناجي ربّه وهو خارج إلى المصلى فذلك خير له وأطهر.

وصل في فصل ـ المتعدي في الصدقة: قال الراوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**المتَعَدِّي فِي الصَّدَقَةِ كَمَانِعِهَا**» خرّجه أبو داود.

الاعتبار في ذلك: لنفسك عليك حق، ولعينك عليك حق، فإذا كلفتها فوق طاقتها أعللتها فأدّى ذلك إلى تعطيل خير كثير فكنت بمنزلة المانع من الخير في عين ما تريده من الخير، وأنت تعلم أن النفس إنما هي بهذه الجوارح، فإذا تعطلت الآلات وضعفت عن العمل بحملها الأوّل على الشدائد من العمل كنت كالمانع عن العمل، ولنا في هذا المعنى: [البسيط]

ما يفعَلُ الصَّنِعُ النِّحْريرُ في شُغُلٍ آلاتُـه أذِنَـتْ فـيـه بـإفْـسَـادِ

والزيادة في الحد نقص من المحدود.

وصل في فصل ـ زكاة العسل: ذكر الترمذيّ عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ: «**فِي العَسَلِ فِي كُلِّ عَشَرَةِ أَزْقَاقٍ زِقٌّ**».

الاعتبار في ذلك: العلم الذي يأخذه الوليّ من طريق الوحي ممّا يتعلق بالغير يجب عليه إذاعته لأهله فإنه من أجلهم أعطيه، وإنما خصصناه بالوحي دون غيره من الصفات إذ صفات تحصيل العلم كثيرة لأنا شبهناه بالعسل وهو نتيجة وحي، قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٨] فزكاته تعليمه.

وصل في فصل ـ الزكاة على الأحرار لا على العبيد: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ فِي مَالِ المُكَاتِبِ زَكَاةٌ حَتَىٰ يُعْتَقَ**» ذكره الدارقطنيّ من حديث جابر.

الاعتبار في ذلك: كما لا يجوز للعبد أن يأخذ الصدقة قيل: ولهذا منع رسول الله ﷺ من الصدقة لتحققه بعبوديته فلم يخرج منه ﷺ شيء في حركة ولا سكون يكون به حرّاً بغفلة ولا غير غفلة جملة واحدة واجتبى آله عناية به في هذا الحكم، فكذلك لا يجب في ماله زكاة حتى يكون حرّاً، فإنّ العبد لا يملك مع سيده، وعلة الزكاة على الحرّ دعوى الملك، والعبد لا دعوى له في شيء العبد عين قيمته وهو ثمنه الذي اشترى به، فكما لا يتصوّر في ثمنه دعوى ولا إباية فيما يريده السيد من التصرّف فيه كذلك العبد وكل عبد لم يكن نظره في ثمنه في معاملة سيده فلا تحقق له في عبوديته ولا معرفة له بنفسه، هذا مذهب الطائفة بلا خلاف، وإذا كان العبد مع سيده بهذه المثابة غاب العبد وظهر السيد، فإنّ أصل الظهور الدعوى، ويكون السيد في هذه الحال يقوم عند الغير بصفة العبد تشريفاً للعبد وهو قوله تعالىٰ: جعت فلم تطعمني ومرضت فلم تعدني، وهما من صفة العبيد الجوع والمرض، وكذا قال الله في الجواب: مرض فلان فلم تعده فلو عدته لوجدتني عنده، فالله عند عبد هذه صفته، والعبد إذا كانت هذه صفته كان عند ربه فافهم.

وصل في فصل ـ أين تؤخذ الصدقات: خرّج أبو داود عن النبيّ ﷺ: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ لاَ تُؤْخَذُ إلاَّ فِي دُورِهِمْ**».

اعتباره: دار الإنسان جسمه، وأخذ الصدقات من الأرواح الإنسانية إنما هو في الدار الآخرة فلا بدّ من حشر الأجسام فإنه لا تؤخذ الصدقات ممّن وجبت عليه إلاَّ في داره، وليس لأرواح الأناسيّ ديار إلاَّ أجسامهم.

وصل في فصل ـ أخذ الإمام شطر مال من لا يؤدّي زكاة ماله بعد أخذ الزكاة منه: ذكر

أبو داود أن رسول الله ﷺ قال في حديث أخذ الزكاة ومن منعها: «**فَأَنَا آخُذُهَا وَشطر مَالِهِ عزمة من عزمات ربنا**» الحديث.

اعتباره: ما يملكه الإنسان من أعماله ينقسم قسمين: قسم يختص بنفسه، وقسم يختص بجوارحه، والزكاة التي تجب عليه في عمله هو ما فرض الله عليه من أعماله مندوبها ومباحها، فإذا لم يؤدّ زكاة ماله نظر الله في أعماله التي عملها في الوقت الذي وجب عليه فيه أداء فرض الله، فإن كان من مكارم الأخلاق لم يجازه عليها بما يستحقه من الثواب، ومسك ذلك الثواب عنه عن زكاة عمل وقته، وإن كان من سفسافها ضاعف عليه الوزر فإنه صاحب عمل مذموم في حال تركه لأداء ما وجب عليه، فجمع بين أمرين مذمومين: عمل وترك، وإن كان في فعل مباح أخذ بترك الواجب خاصة، وأما أخذ شطر عمله فهو الشطر الذي يتصوّر فيه الدعوى وهو العمل، فإن التكليف ينقسم إلى عمل وترك، فالترك لا دعوى فيه فيبقى العمل فيأخذه الحق منه بالحجة بأن الله هو الفاعل لذلك العمل، فإذا كوشف بهذا لم يبق له على ما يطلب جزاء إذ الجزاء من كونه عاملاً وقد تبين له أن العامل هو الله فيبقى في الحيرة إلى أن يمتنّ الله عليه إما بعد العقوبة أو قبل العقوبة فيغفر له، فهذا شطر ماله الذي يؤخذ منه في الدار الآخرة حيث يتصوّر الحساب.

وصل في فصل ـ رضى العامل على الصدقة: ذكر الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن أنس قال: «**أَتَىٰ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سليم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا أَدَّيْتُ الزَّكَاةَ إِلَى رَسُولِكَ فَقَدْ بَرِئْتُ مِنْهَا إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَعَمْ إِذَا أَدَّيْتَهَا إِلَىٰ رَسُولِي فَقَدْ بَرِئْتَ مِنْهَا وَلَكَ أَجْرُهَا وَإِثْمُهَا عَلَىٰ مَنْ بَدَّلَهَا**». وذكر أبو داود من حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال: «**سَيَأْتِيكُمْ رَكْبٌ مُبْغَضُونَ فَإِذَا جَاؤُوكُمْ فَرَحِّبُوا بِهِمْ وَخَلُّوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَبْتَغُونَ، فَإِنْ عَدَلُوا فَلأَنْفُسِهِمْ، وَإِنْ ظَلَمُوا فَعَلَيْهَا، وَأَرْضُوهُمْ فَإِنَّ تَمَامَ زَكَاتِكُمْ رِضَاهُمْ وَلِيَدْعُوا لَكُمْ**». وفي حديثه أيضاً عن بشير بن الخصاصية قال: «**فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَصْحَابَ الصَّدَقَةِ يَعْتَدُونَ عَلَيْنَا أَفَنَكْتُمُ مِنْ أَمْوَالِنَا بِقَدْرِ مَا يَعْتَدُونَ عَلَيْنَا؟ قَالَ: لاَ**».

وصل الاعتبار في ذلك: المصدّق هو الوقت، ورضاه أن يوفى له بما يقتضيه حاله ممّا جاء به، وإن جاء بشدّة وقهر مثل ما يجد الإنسان من خاطر في عمل من الأعمال أي من أعمال الخير إلاّ أنه شاق ربما أدّى إلى تلف فكان أبو مدين رضي الله عنه يقول فيه الدية على القاتل، قال تعالىٰ في المهاجر ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٠] وصورة التعدّي فيه أن الله قد جعل لنفسك عليك حقاً، ولعينك عليك حقاً فاعتديت عليك في ذلك، وهو قوله في المصطفين: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٢] فالمعتدي هو الوقت وهو الخاطر الذي يخطر بما خطر وهو المتعدي وهو العادل.

وصل في فصل ـ المسارعة بالصدقة: فإن مسلم بن الحجاج ذكر في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**تَصَدَّقُوا فَيُوشِكُ الرَّجُلُ يَمْشِي بِصَدَقَتِهِ فَيَقُولُ الَّذِي أُعْطِيهَا لَوْ جِئْتَنَا بِهَا بِالأَمْسِ قَبِلْتُهَا وَأَمَّا الآنَ فَلا حَاجَةَ لِي بِهَا فَلاَ يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا**».

وصل الاعتبار في ذلك: المسارعة بالتوبة وهي من الفرائض فإن أخّرها إلى الاحتضار لم تقبل، وهنا مسألة دقيقة القليل من أصحابنا من يعثر عليها وهي أن المراد قد يكون غير تائب فيكون له كشف من الله عناية به، فيكون أوّل ما يكشف له أن الله هو خالق كل شيء، فلا يرى لنفسه حركة ظاهرةً وباطنة ولا عملاً ولا نيّة ولا شيئاً إلاّ لله ليس بيده من الأمر شيء فهل تتصوّر منه توبة في هذه الحال أم لا؟ وهو يرى أنه مسلوب الأفعال، وإن تاب فهل تقبل توبته مع هذا الكشف أو يكون بمنزلة من تاب بعد طلوع الشمس من مغربها؟ فإنّ شمس الحقيقة قد طلعت له هنا من مغرب قلبه بصحة علمه، وهذا من أصعب الأحوال على قلب المراد المجذوب، فإن قبول التوبة وقبول العمل إنما هو مع الحجاب حجاب إضافة العمل إليك، وهنا ما خرج شيء عنه حتى يقبله بل هو في يديه والقبول لا يكون إلاّ من الغير، فاعلم أن نسبة الناظر ما هي نسبة العامل، فالناظر يقبل من العامل، والعامل هو المتصرّف في هذه الذات التي هي محل ظهور العمل أي عمل كان، فتتصوّر التوبة من صاحب هذا الكشف ويكون الله هو التوّاب هنا وهذا أقصى مشهده، فليسارع إلى الطاعات على أيّ حال كان ولا يتوقف، فإنّ الأنفاس ليست له ولا تكليف إلاّ هنا ويوم القيامة إذ يدعون إلى السجود سجود تمييز لا سجود ابتلاء، فيتميز في دعاء الآخرة إلى السجود من سجد لله مِمَّن سجد اتقاء ورياء وفي الدنيا لم يتميز لاختلاط الصور.

وصل في فصل - ما تتضمنه الصدقة من الأثر في النسب الإلهية وغيرها: فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سورة سبأ: الآية ٣٩] وخرّج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ يَوم يُصْبِحُ فِيهِ الْعِبَادُ إلاَّ وَمَلَكَانِ يَنزِلاَنِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وَيَقُولُ الآخَرُ: اَللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً**» فانظر يا أخي كيف جعل هويته خلفاً من نفقتك، وإنك أحييت من تصدّقت عليه فأحياك الله به حياة أبدية، لأنه إن لم يكن الحق حياتك فلا حياة. فإن قلت: لو كان ذلك النصب الياء ورفع اللام قلنا: الهوية عين الذات، والهوية تخلف الشيء المتصدق به باسم إلهيّ تكون به حياة ذلك المنفق وأسماؤه ليست غيره، ولكن هكذا تقع العبارة عنها لما يعقل في ذلك من اختلاف النسب، وكلامنا في هذه المعاني إنما هو مع أصحابنا الذين قد علموا ما نقول ونشير به إليهم على ما تقرّر عندنا في الاصطلاح في ذلك فالأجنبي لا يقبل اعتراضه، ألا ترى الملك يقول: اللهم أعط منفقاً خلفاً مع أنه وعد بالخلف ووعده صدق، والإنفاق هنا من الهلاك والإتلاف أي أتلف ما كان عنده عنه ولا خلاء فاجعل مكانه ما يناسب أثره فيمن أتلف من أجله فله أجر من أحيا، ألا ترى الآخر يقول: اللهم أعط ممسكاً تلفاً لأن الملائكة لسان خير فيقول هذا الملك: اللهم أعط ممسكاً ما أعطيت المنفق حتى يتلف ماله مثل صاحبه فكأنه يقول: اللهم ارزق الممسك الإنفاق حتى ينفق، فإن كنت لم تقدر في سابق علمك أن ينفقه باختياره فأتلف ماله حتى تأجره فيه أجر المصاب فيصيب خيراً، وأنت قد قلت: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [سورة الرعد: الآية ١٥] فهذا قد تلف ماله كرهاً فأعدّ عليه ثواباً ممّن وجد به راحة وإن لم

يقصدها هذا الذي رزىء في ماله بالتلف، فهذا دعاء له بالخير لا ما يظنه من لا معرفة له بمراتب الملائكة فإن الملك لا يدعو بشرّ ولا سيما في حق المؤمن بوجوده فكيف بتوحيده؟ فكيف بما جاء من عنده؟ ولا شك أن دعاء الملك مجاب لوجهين: الواحد لطهارته، والثاني: أنه في حق الغير، فهو دعاء لصاحب المال بلسان لم يعصه به وهو لسان الملك، إذ هذا موجود في لسان بني آدم مع كونهم عصاة الألسنة، ولكن قال الله تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام: ادعني بلسان لم تعصني به، فقال: وما هو؟ قال: دعاء أخيك لك ودعاؤك له فإن كل واحد منكما ما عصاني بلسان غيره الذي دعاني به في حقّه فما دعاني له إلاّ بلسان طاهر وأضاف الدعاء إليه لأن الداعي نائب عن المدعوّ له، ولسان الداعي ما عصى الله به المدعوّ له.

ومن ذلك أيضاً ما خرّجه مسلم عن أبي هريرة قال: «**قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِي: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ**» فقد أخبر الله تعالىٰ أن إنفاقك جعل الحق ينفق عليك فهذا من أثر الصدقة في النسبة الإلهية. ومن ذلك ما ذكره الترمذيّ عن أنس بن مالك قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ تُطْفِىءُ غَضَبَ الرَّبِّ وَتَدْفَعُ عَنْ مِيتَةِ السُّوءِ**» وهو حديث حسن غريب. فهذا من أثر الصدقة الدفع وإطفاء نار الغضب، فإن الله يغضب يوم القيامة غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله على الوجه الذي يليق بجلاله، فإن الغضب الذي خاطبنا به معلوم بلا شك ولكن نسبته إلى الله مجهولة لا أن الغضب مجهول أو يحمل على ما ينتجه في الغاضب أو يحمل على معنى آخر لا نعلمه نحن، إذ لو كان ذلك لخوطبنا بما لا نفهم، فلا يكون له أثر فينا ولا يكون موعظة، فإن المقصود الإفهام بما نعلم، ولكن إنما جهلنا النسبة خاصة لجهلنا بالمنسوب إليه لا بالمنسوب فاعلم ذلك.

ولقد جرى لبعض شيوخنا من أهل الموازنة بالمغرب الأقصى أنّ السلطان رفع إليه في حقّه أمور يجب قتله بها فأمر بإحضاره مقيداً وينادي في الناس أن يحضروا بأجمعهم حتى يسألهم عنه، وكان الناس فيه على كلمة واحدة في قتله والقول بما يوجب ذلك وزندقته، فمرّ الشيخ في طريقه برجل يبيع خبزاً فقال له: أقرضني نصف قرصة فأقرضه فتصدق بها على شخص عابر ثم حمل وأجلس في ذلك الجمع الأعظم والحاكم قد عزم عليه إن شهد فيه الناس بما ذكر عنه أنه يقتله شرّ قتلة وكان الحاكم من أبغض الناس فيه فقال: يا أهل مراكش هذا فلان ما تقولون فيه؟ فنطق الكل بلسان واحد: إنه عدل رضي، فتعجب الحاكم فقال له الشيخ: لا تعجب فما هي هذه المسألة بعيدة، أيّ غضب أعظم غضبك، أو غضب الله وغضب النار؟ قال: غضب الله وغضب النار. قال: وأيّ وقاية أعظم وزناً وقدراً نصف قرصة أو نصف تمرة؟ قال: نصف قرصة، قال: دفعت غضبك وغضب هذا الجمع بنصف رغيف لما سمعت النبيّ ﷺ يقول: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**» وقال: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِىءُ غَضَبَ الرَّبِّ وَتَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ**» وقد فعل الله ذلك دفع عني شرّكم وميتة السوء بنصف رغيف مع حقارتكم وعظم صدقتي، فإن صدقتي أعظم من شق تمرة، وغضبكم أقل من غضب النار وغضب الرب، فتعجب الحاضرون من قوّة إيمانه، وأسوأ الموتات أن يموت الإنسان على

حالة تؤديه إلى الشقاء ولا يغضب الله إلاَّ على شقيّ، فانظر إلى أثر الصدقة كيف أثرت في الغضب الربانيّ، وفي أسوأ الموتات، وفي سلطان جهنم، فالمتصدّق على نفسه عند الغضب ليس إلاَّ بأن يملكها عند ذلك، فإن ملكه إياها عند الغضب صدقة عليها من حيث لا يشعر.

قال رسول الله ﷺ: «**لَيسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ وَإِنَّمَا الشَّدِيدُ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِندَ الْغَضَبِ**» فَإِنَّ الْغَضَبَ نَارٌ مُحْرِقَةٌ فهذا من صدقة الإنسان على نفسه. ثم إن الله قد ذكر أنه لا يغفر لمشرك ومع هذا فإن الله يهوّن عليه بقدر ما أنفق. وقد ذكر أبو داود عن عائشة قالت: «**يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيْنَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ جُدْعَانٍ؟ قَالَ: فِي النَّارِ، قَالَ: فَاشْتَدَّ عَلَيهَا فَقَالَ: يَا عَائِشَةَ مَا الَّذِي اشْتَدَّ عَلَيك؟ قَالَتْ: كَانَ يُطْعِمُ الطَّعامَ وَيَصِلُ الرَّحِمَ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ يُهَوِّنُ عَلَيهِ بِمَا تَقُولِينَ فِيهِ**» أَنَّهُ يُخَفِّفُ عَنْهُ بِمُجَرَّدِ مَا يُذْكَرُ بِهِ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ وقال البخاريّ في صحيحه إن النبي ﷺ قال: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**» وقد قال ﷺ: «**إنَّ الكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ**» وغير ذلك من الأذكار والأفعال التي تقتضيها مكارم الأخلاق. ولقد ذكر مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**دِينَارٌ أَنفَقتَهُ فِي سَبِيلِ الله دِينَارٌ أَنْفَقتَهُ فِي رَقَبَةٍ دِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ دِينَارٌ أَنفَقْتَهُ عَلَىٰ أَهْلِكَ أَعْظَمُهَا أَجراً الَّذِي أَنفَقْتَهُ عَلىٰ أَهلِكَ**».

وصل في فصل ـ من أنفق ممّا يحبه: قال الله عزّ وجلّ: ﴿**لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٢] وكان عبد الله بن عمر يشتري السكر ويتصدّق به ويقول: إني أحبه عملاً بهذه الآية وأحب ما للإنسان نفسه فإن أنفقها في سبيل الله نال بذلك ما في موازنتها فإنه من استهلك شيئاً فعليه قيمته، والحق قد استهلك نفس هذا العبد فإنه أمرك بإنفاق ما تحب وما لها قيمة عنده إلاَّ الجنة، ولهذا إذا لم تجد شيئاً وجدت الله فإنه لا يوجد إلاَّ عند عدم الأشياء التي يركن إليها، ونفس الإنسان هي عين الأشياء كلها وقد هلكت فقيمتها ما ذكرناه فانظر إلى فضل الصدقة ما أعلاه.

وصل في فصل ـ الإعلان بالصدقة: من الاسم الظاهر والاستفتاح بها من الاسم الأول والتأسّي بها من قوله: ﴿**فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ**﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] ومسألة الإمام الناس لذوي الفاقة إذا وردوا عليه وليس عنده في بيت المال ما يعطيهم هو القلب الخالي من العلم الذي تتعدّى منفعته الغير من جوارحه، ومن يحسن الظنّ به فيسأل الأسماء الإلهية لتعطيه من الأحوال والعلوم ما تستعين بها قواه الظاهرة والباطنة على ما كلفها الله من الأعمال، فإن الله أخبر الرسول ﷺ أنه يصبح على كل سلامى كل يوم صدقة، وجعل كل تسبيحة صدقة، وكل تهليلة صدقة إلى غير ذلك، وهذه أحوال تحتاج إلى نيّة وإخلاص، ولا تكون النيّة إلاَّ بعد معرفة من يخلص له وهو الله تعالىٰ، فلا بدّ للإمام أن يسأل ما يتصدَّق به على كل سلامى وعن كل سلامى، والقلب مسؤول عن رعيته وهي جميع قواه الظاهرة والباطنة. والحديث الجامع النبوي لما قرّرناه واعتبرناه ما خرجه مسلم عن جرير بن عبد الله قال: كنّا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار متقلدين السيوف عامتهم

من مضر بل كلهم من مضر فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلّى بهم ثم خطب فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللَّه الذي تَساءلون به وَالأَرحام إن اللَّه كَان عليكم رقيباً، يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتقوا اللَّه ولتنظر نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ واتقوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ، تَصَدَّقَ رَجُلٌ من دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ حَتَّىٰ قَالَ: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**» قَال: فَجَاءَ رَجُلٌ بِصُرَّةٍ مِنَ الأَنْصَارِ تكاد كفُّه تعجز عنها بل عجزت قال: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاس حَتَّىٰ رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلام سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِه مِنْ غَيرِ أَنْ يَنْتَقِصَ مِنْ أُجورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلام سُنَّةً سَيئَةً كَانَ عَلَيهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِه مِنْ غَيرِ أَنْ يَنْتَقِصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً**».

وصل في فصل ـ شكوى الجوارح إلى الله النفس والشيطان ممّا يلقيان إليهنّ من السوء:
أهل الكشف يرون ويسمعون شكوى الجوارح إلى الله تعالىٰ من النفس الخبيثة التي تدبر البدن وتصرف الجوارح في السوء ممّا يلقي إليها الشيطان والنفس من حيث هيكلها النوريّ تشكو النفس الحيوانية القابلة ما يلقي إليها الشيطان من السوء الذي تصرفه في القوىٰ الظاهرة والباطنة، فإذا صدقوا في شكواهم آمنهم الله ممّا يخافون ورزقهم قبول ما يلقي إليهم الملك واستعملهم التوفيق بذلك الإلقاء في طاعة الله تعالىٰ وطاعة رسوله حتى تورثه تلك الأعمال مشاهدة الحق تعالىٰ ومناجاته على الكشف والشهود بلا واسطة يخاطبهم خطاب تقرير على نعم وآلاء، والعامّة العمي من أهل الحروف والرسوم لا يشعرون صم بكم عمي فهم لا يعقلون ولا يسمعون هذه الشكوى لقوّة صممهم وطمس عيونهم، فلو عملوا بما كلفوا لعلمهم الله مثل هذا العلم ويرونه مشاهدة عين كما يراه وينا له أهل الله تعالىٰ ويقول الله تعالىٰ في حق واحد منهم ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] و﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩] ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٨] وقد أشار ﷺ إلى ما ذكرناه في حديث يعمّ ما وقع في الدنيا والإشارة به إلى ما ذكرنا وهو ما خرّجه البخاريّ عن أخي جدّنا عديّ بن حاتم قال: «**بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتى إليه رجل فشكا إليه الفاقة ثم أتى إليه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال: يا عُدَيُّ هَلْ رَأَيتَ الحِيرَةَ؟ قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها، قال: فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينة تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ أَحَداً إلاَّ الله، قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين ذعار طيّ الذين قد سعروا البلاد؟ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى، قلت: كِسْرَى بِن هُرْمُزَ؟ قال: كِسْرَى بنُ هُرْمُز، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَداً يَقْبَلُهُ مِنْهُ، وَلَيَلْقَيَنَّ الله أَحَدُكُم يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَيسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولاً فَيُبَلِّغكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعطِكَ مَالاً وَأُفضِل عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ**

فَلَا يَرَى إِلاَّ جَهَنَّمَ وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يَرَى إِلاَّ جَهَنَّمَ» قال عديّ: سمعت النبي ﷺ يقول: **«اتّقوا النار ولو بشقِّ تمرةٍ فمن لم يجد شقّ تمرةٍ فبكلمة طيبةٍ»** الحديث.

أما قوله: لا تخاف أحداً إلاّ الله فهو الخوف الأعظم فإنه هو المسلط وبيده ملكوت كل شيء فأين الأمان؟ فهذا تنبيه على إدبارنا فإن الشخص الذي يكون في مثل هذه الحال هو في أمان في دنياه وفي ماله وعلى نفسه ممّن يؤذيه وهذا مقصد رسول الله ﷺ، والله هو الذي رزقه الأمان في تلك الحال فيخاف من الله ممّا في غيبه ممّا لا يعلمه ولا يعلم أوانه، ولو كان هذا الخائف يخاف الله مطلقاً لتعلق خوفه على دينه، فإن سبيل الشيطان إلى قلبه ليست آمنة كما أمنت السبيل الظاهرة التي تمرّ فيها السفار من الناس، وإذا خاف الله شغله خوفه عن ماله ونفسه، ولو لم تكن السبيل آمنة لكان هذا الخائف في أمان، فإنه لا يخطر له خاطر إلاّ في دينه الذي يخاف عليه أن يسلبه حتى أنه لو أصيب في طريقه بتلف مال أو نفس لوقوع لصوص عليه ربما فرح بذلك واستبشر لما له فيه من الأجر الجزيل المدخر والكفارات وكان حكمه حكم تاجرٍ باع بنسيئة بربح كثير، فما أحسن تشبيه النبوّة بقوله: لا تخاف أحداً إلاّ الله فأين الأمان وهو ﷺ ما ذكر ذلك لعدي إلاّ في أن الأمان المعتاد حاصل في ذلك الوقت لما شكا الرجل من قطع السبيل، ولكن أدرج رسول الله ﷺ في ذلك الأمان الخوف من الله لأولي الألباب والنهى ليعمّ الخطاب العامّة بالأمان والخاصة بالخوف، فهو تبيين أحوال خاصة الله أي كونوا على مثل هذه الحالة في أمنكم خائفين من الله تعالىٰ، وهذا من جوامع الكلم لمن نظر واستبصر.

وصل في فصل ـ الصدقة على الأقرب فالأقرب ومراعاة الجوار في ذلك: أقرب أهل الشخص إليه نفسه، فإن الله يقول في قربه من عبده: إنه أقرب إليه من حبل الوريد، فكأنه يقول: إنه أقرب إليه من نفسه فهي أولى بما يتصدق به من غيرها، كما أن الله أولى بالقرض لأنه أقرب إليه من نفسه، ولكل متصدق عليه صدقة تليق به من المخلوقين ثم جوارحه ثم الأقرب إليه بعد ذلك وهو الأهل ثم الولد ثم الخادم ثم الرحم والجار، كما يتصدق على تلميذه وطالب الفائدة منه، وإذا تحقق العارف بربه حتى كان كله نوراً وكان الحق سمعه وبصره وجميع قواه كان حقاً كله، فمن كان أهل الله فإنه أهل هذا الشخص الذي هذه صفته بلا شك، كما هم أهل القرآن أهل الله وخاصته كذلك من هم أهل الله، وخاصته هم أهل هذا الذي ذكرناه فإنه حق كله كما قال ﷺ في دعائه: **«وَاجْعَلْنِي نُوراً»** لما رأى الحق سمّى نفسه نوراً فإنه نائب الله في عباده، فالمتصدق على أهل الله هو المتصدق على أهله إذا كان المتصدق بهذه المثابة.

كنت يوماً عند شيخنا أبي العباس العريبيّ بإشبيلية جالساً وأردنا أو أراد أحد إعطاء معروف فقال شخص من الجماعة للذي يريد أن يتصدق: الأقربون أولى بالمعروف، فقال الشيخ من فوره متصلاً بكلام القائل: إلى الله، فيا بردها على الكبد ووالله ما سمعتها في تلك الحالة إلاّ من الله حتى خيّل لي أنها كذا نزلت في القرآن ممّا تحققت بها وأشربها قلبي وكذا

جميع من حضر فلا ينبغي أن يأكل نعم الله إلاَّ أهل الله ولهم خلقت ويأكلها غيرهم بحكم التبعية فهم المقصودون بالنعم ومن عداهم كما قلنا إنما يأكلها تبعاً بالمجموع ومن حيث التفصيل، فما منه جوهر فرد ولا فيه عرض إلاَّ وهو يسبح الله فهو من أهل الله، فما من العالم من هو خارج عن هذه الأهلية العامة، وما فاز الخاصة إلاَّ بالاطلاع على هذا كشفاً، وهذه المسألة في طريق الله من أغمض المسائل إذ ليس المجموع سوى هذه الأجزاء فالأبعاض عين الكل، فكل جزء وبعض طائع وليس الكل ولا المجموع بهذه الصفة لكنه طائع بطاعة أحدية الجمع وهي طاعة متميزة عن طاعة مفردات هذا المجموع، وقد ورد في خبر في النفقة على الأهل المعلوم في الظاهر المقرّر وفضلها ما يكون هذا اعتباره وهو ما خرّجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ دِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ أَعْظَمُهَا أَجْراً الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ**».

وصل في فصل ـ صلة أولي الأرحام وأن الرحم شجنة من الرحمن: افهم رزقك الله الفهم عن الله لما كانت الرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصله الله يعني بمن هي شجنة منه، ومن قطعها قطعه الله كانت الصدقة على أولي الأرحام صدقة وصلة بالرحمن، وعلى غير الرحم صدقة تقع بيد الرحمن ما فيها صلة بالرحمن، هذه الصورة الآدمية خليفة، فمنزله يعطي أن يكون الخليفة ظاهراً بصورة من استخلفه، فمن تصدق على نفسه بما فيه حياتها كانت له صدقة وصلة بالله الذي الرحمن من نعوته، فإن الله خلق آدم على صورته على خلافهم في الضمير، قال الله تعالىٰ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فوصف الله بالرحمن. وخرّج الترمذي عن سلمة بن عامر عن النبيّ ﷺ قال: «**الصَّدَقَةُ عَلَىٰ المِسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَىٰ ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ**» كلما قويت النسبة عظمت المنزلة هذا عند أصحابنا، والأمر عندنا ليس كذلك فإنه كلما بعدت النسبة عظمت المنزلة ولنا في ذلك: [مخلع البسيط]

رأيتُ ربي بعينِ ربِّي فقلتُ ربِّي فقال أنْتَا

فيتخيل فيه بعض العارفين أن هذا البيت على النمط الأول وليس كذلك، فضمير المتكلم من هذا البيت عين العبد بربه لا بنفسه، فتدبر هذا النظم فإنه من أعجب المعارف الإلهية يحتوي على أسرار عظيمة وعلم كبير.

وصل في فصل ـ تصدق الآخذ على المعطي يأخذ منه: النفس تتصدق على العقل بقبولها منه ما يلقي إليها إذ بعض النفوس لا تقبل والنفس تتصوّر نفوس مريديها وهم أيتام لا أم لهم لأن نفوسهم ماتت عنهم فليس لهم مدبر إلاَّ هذه النفس التي لشيخهم فتتصدق عليهم بما يلقي الله إليها من الروح الإلهيّ إذا كانت في مقام الحال المؤثر بالفعل، فتجد نفس المريد أموراً لا يعطيها مقامه ولا حاله خارجة عن كسبه، فيتخيل أن الله قد فتح عليه بلا واسطة، وذلك الفتح إذا كان من حال نفس هذا الشخص الذي هو الشيخ، فإن المريد يتيم في حجر الشيخ وله على ذلك أجر عظيم عند الله، فإنه ما من نبيّ إلاَّ قال في إفادته وتبليغه لما قيل له: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ١٠٩] فهو تعليم يقتضي

الأجر، وهذا هو الأجر الذي لا يخرجك عن عبوديتك، فأنت العبد في صورة الأجير ما هو أجر الأجير، فإن الأجير من استؤجر فهو أجنبيّ، والسيد لا يستأجر عبده لكن العمل يقتضي الأجرة ولا يأخذها وإنما يأخذها العامل والعامل العبد فهو قابض الأجرة من الله فأشبه الأجير في قبض الأجرة وفارقه بالاستيجار، يؤيد ما ذكرناه ما خرّجه مسلم في صحيحه عن بلال عن النبيّ ﷺ سأله عن صدقة المرأة على زوجها وعلى أيتام في حجرها فقال: **«أَجْرَانِ: أَجْرُ الْقَرَابَةِ وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ»**.

وصل في فصل ـ معرفة من هما أبوا نفس الإنسان: المدبرة لجسمه وقواه النفس الجزئية التي هي نفس الإنسان هي ولد جسمه الطبيعي فهو أمها والروح الإلهيّ أبوها، ولهذا تقول في مناجاتها: ربنا ورب آبائنا العلويات وأمهاتنا السفليات فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي مريم أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا فكان عيسىٰ عليه السلام ولدها وهي أمّه الجسم المسوي نفخ فيه من الروح نفساً فالجسم أُم والمنفوخ منه أب، غير أن هذا الولد كاليتيم الذي لا أب له لأن عقله لم يستحكم بالنظر إليه فكأنه لا عقل له فهو بمنزلة الصغير الذي لا أب له يعلمه ويؤدّبه فتسوسه نفسه النباتية التي هي جسمه بما خلقها الله عليه من صلاح المزاج، فتكون القوىٰ الباطنة والظاهرة في غاية الصفاء والاعتدال، فتفيد النفس من العلوم التي هي بمنزلة صدقة المرأة على ولدها اليتيم فيحصل لهذا الشخص من جهة جسمه من العلم الإلهيّ جزاء لما تصدق به على نفسه ما لا يقدر قدره إلاّ الله، قالت أم سلمة زوج النبي ﷺ: **«هَلْ لِي أَجْرٌ فِي بَنِي أَبِي سَلَمَةَ أُنْفِقُ عَلَيهِمْ وَلَسْتُ بِتَارِكَتِهِمْ هَكَذَا وَهَكَذا إِنَّمَا هُمْ بَنِيّ؟ قَالَ: نَعَمْ لَكِ فِيهِمْ أَجْرُ مَا أَنْفَقْتِ عَلَيهِمْ»** خرّجه مسلم في صحيحه.

وصل في فصل ـ المتصدق بالحكمة على من هو أهل لها: وهي الصدقة على المحتاجين، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ٦، ٧] وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ١٠] يعني السائل عن العلم، الإنسان يتصدق بالعلم على أهل الله الذين هم أهله الحكمة لا ينبغي أن يتعدى بها أهلها ويحتسب تلك الصدقة عند الله أي لا يرى له فضلاً على من علمه ولا تقدماً يستدعي بذلك خدمة منه في أدب وتعظيم وتسخير في مقابلة ما أفضل عليه إن فعل ذلك لم يحتسب ذلك عند الله، وقد لقينا أشياخاً على ذلك وهو طريقنا، وقد نبّه الشرع عليه في علم الرسوم وعالمه فقال: **«إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَىٰ أَهْلِهِ نَفَقَةً وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً»** يعني تقع بيد الرحمن، خرّج هذا الحديث مسلم عن أبي مسعود البدري عن رسول الله ﷺ.

وصل في فصل ـ العلم اللدنيّ والمكتسب: العلم علمان: موهوب ومكتسب، فالعلم الموهوب: لا ميزان له، والعلم المكتسب: هو ما حصل عن التقوى والعمل الصالح وتدخله الموازنة والتعيين. فإن كل تقوى وعمل مخصوص له علم خاص لا يكون إلا لهُ، فثم من يتقي الله لله، ومن يتقي الله للنار، ومن يتقي الله للشيطان، ومن يتقي الله لمن لا يتقي الله، وكل تقوى لها عمل خاص وعلم خاص، يحصل لمن له هذه التقوى، فإنفاق الرجل على

نفسه الذي له به صدقة هو ما يغذيها به من هذه العلوم المكتسبة التي بها حياته الأبدية في الدنيا والآخرة، وذلك أن كل معروف صدقة وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ولا معروف إلاّ الله فلا أهل إلاّ أهل الله، فالناصح نفسه من وقى عرضه فإنه من صدقاته على نفسه، ووقاية العرض أن لا يجري عليه من جانب الحق لسان ذمّ لا غير فيكون محموداً بلسان الشرع وبكل لسان إلهيّ من ملك وحيوان ونبات ومعدن وفلك، وكل ما عدا الثقلين وبعض الثقلين وهل يتصوّر أن يقي عرضه من جميع الثقلين هذا لا يتصوّر لأن الأصل الذي هو الله لم يق عرضه من ألسنة خلقه إلاّ أنه يمكن أن يرتفع عن العرض، وإذا أمكن فقد وقى نفسه الذي هو عرضه أن يكون له أثر في نفسه لا أنه وقى عرضه أن يقال فيه وهو معنى قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سورة سبأ: الآية ٣٩] فإن أنفق ليبتني مجداً في ألسنة الخلق فهو لما أنفق، فإن ابتغى إعادة الثناء على الله من حيث إنه آل الله فإن أنفق في هذا الشأن ولا يرى أنه المنفق وأنفق في معصية إبليس ولا يرى العصمة والإنفاق إلاّ من يد الله، فمثل هذا يستثنى في كل إنفاق إذا كان هذا حاله وذوقه، فلا يجد الثواب على من يعود إلاّ على معطيه، فيد الله منفقة ويد الرحمن آخذة منها: [المديد]

فَيَدُ الله مُنْفِقَةٌ ويدُ الرحمن آخِذةٌ
فالتي للجُود خالية والتي للعَبْد عاطِلَةٌ
فُصِّلتْ آياتُه عجباً وهي للأعيان واصِلةٌ
لو تراها في تَقَلُّبها وهي في الأكوان جائلةٌ
قلتَ أغراضي تصرِّفُها وهي بالبرهان ساكنةٌ

ويؤيّد ما ذكرناه ما يشير إليه قوله ﷺ: «**كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَمَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ كُتِبَ لَهُ صَدَقَةً، وَمَا وَقَىٰ بِهِ رَجُلٌ عِرْضَهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ مِنْ نَفَقَةٍ فَعَلَىٰ الله خَلَفُهَا إلاَّ مَا كَانَ مِنْ نَفَقَةٍ فِي بُنْيَانٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ**» ذكر هذا الحديث أبو أحمد من حديث جابر، قال عبد الحميد وهو الذي روى عنه أبو أحمد: قلت لابن المنكدر: ما وقى به الرجل عرضه يعني ما معناه؟ قال: يعطي الشاعر وذا اللسان.

وصل في الفصل بين العبودية والحرية: إضافة الإنسان بالعبودية إلى ربّه أو إلى العبودية أفضل من إضافته بالحريّة إلى الغير بأن يقال: حرّ عن رق الأغيار، فإن الحريّة عن الله ما تصحّ، فإذا كان الإنسان في مقام الحريّة لم يكن مشهوده إلاّ أعيان الأغيار، لأن بشهودهم تثبت الحريّة عنهم، وهو في هذه الحال غائب عن عبوديته وعبودته معاً، فمقام العبودية أشرف من مقام الحريّة في حق الإنسان، والعبودة أشرف من العبودية، وقد أشار ﷺ إلى مثل هذا في حديث ميمونة بنت الحارث لما أعتقت وليدة لها في زمان رسول الله ﷺ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**لَوْ أَعْطَيْتِهَا أَخْوَالِكِ لَكَانَ أَعْظَمَ لأَجْرِكِ**» فمقام العبودية رجح على ثواب الحريّة، كما رجح الفقر إلى الله على الغنى بالله بعض أشياخنا. حدثني عبد الله القلفاط بجزيرة طريف سنة تسعين وخمسمائة وقد جرى بيننا الكلام على المفاضلة بين الغنيّ

والفقير أعني الغنيّ الشاكر والفقير الصابر وهي مسألة طبولية وانجرّ في ذلك حال الفقر والغنيّ فقال لي: حضرت عند بعض المشايخ أو حكاها لي عن أبي الربيع الكفيف المالقيّ تلميذ أبي العباس بن العريف الصنهاجيّ قال: لو أنّ رجلين كان عند كل واحد منهما عشرة دنانير فتصدق أحدهما من العشرة بدينار واحد وتصدق الآخر بتسعة دنانير من العشرة التي عنده أيهما أفضل؟ فقال الحاضرون: الذي تصدق بالتسعة، فقال: بماذا فضلتموه؟ فقالوا له: لأنه تصدق بأكثر ممّا تصدق به صاحبه، فقال: حسن ولكن نقصكم روح المسألة وغاب عنكم، قيل له: وما هو؟ قال: فرضناهما على التساوي في المال، فالذي تصدّق بالأكثر كان دخوله إلى الفقر أكثر من صاحبه ففضل بسبقه إلى جانب الفقر، وهذا لا ينكره من يعرف المقامات والأحوال فإن القوم ما وقفوا مع الأجور وإنما وقفوا مع الحقائق والأحوال وما يعطيه الكشف وبهذا فضلوا على علماء الرسوم، ولو تصدق بالكل وبقي على أصله لا شيء له كان أعلى فنقصه من الدرجة والذوق على قدر ما تمسك به، ألا ترى ما قاله شيخنا أبو العباس السبتي رحمه الله في المحتضِر يوصي بالثلث فإن المحتضر ما يملك من المال إلاّ الثلث فخرج عمّا يملك وما أبقى شيئاً، وأجاز له الشارع أن يتصدق بالثلث كله الذي يملكه وهو محمود في ذلك شرعاً، فلقي الله فقيراً على حكم الأصل كما خرج من عنده رجع إليه صفر اليدين، قال بعضهم في هذا المعنى: [الطويل]

إذا وُلـد الـمـولـودُ يَـقْـبِـضُ كَـفَّـهُ ... دليلٌ على الحِرْص المركَّب في الحَيّ
ويَبْسطُها عند المـمـات مَـوَاعـظاً ... ألا فـانـظروني قـد خـرجـت بـلا شَيّ

فكان أفضل ممّن لم يتصدق بذلك الثلث الذي يملكه، أو تصدق بأقل من الثلث وينوي بما يبقيه أنه صدقه على ورثته وفيه إشارة عجيبة.

وصل في فصل ـ فضل من ترك صدقة بعد موته جارية في الناس من مال أو علم: العارف بالله يحتضر وفي نفسه لو أطاق الكلام أفاد الناس علماً بربهم وقد عقل لسانه فنقل عنه تلميذ مسألة في العلم النافع من توحيد وغيره أفادها السامعين الحاضرين، فإن ذلك العارف المحتضر يجني ثمرتها، والتلميذ يجني ثمرة نقله عند الله، ويجازي الله بها الميت جزاء وجوب فإنها من سَعْيِهِ يقول الله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٣٩] وأفضل ما أكله الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه، والتلميذ ولد ديني بلا شك فما هو من سعي الإنسان، فهو له عند الله بطريق الإيجاب الإلهي الذي أوجبه على نفسه. وأما ما عمل عنه غيره بحكم النيابة ممّا لم يؤذن فيه الميت ولا أوصى به ولا له فيه تعمل فإن الله يعطيه ذلك المقام إذا وهبه إياه غيره، فيأخذه الميت لا من طريق الوجوب الإلهيّ لكن يجب عليه أخذه ولا بدّ فإنه أتاه من غير مسألة. وفي الحديث الصحيح: «**مَا أَتَاكَ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ فَخُذْهُ وَمَا لاَ فَلاَ تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ**» وقد وردت من ذلك رائحة في علم الرسوم فيما خرّجه مسلم عن عائشة: «**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمي افتلتت نَفْسهَا وَلَمْ تُوصِ وَأَظُنُّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ أَفَلَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ**».

وصل في فصل ـ ما تعطيه النشأة الآخرة: قال الله تعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩] ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٦٢] وبدأنا على غير مثال وعلمنا ذلك، كذلك يعيدنا على غير مثال. اعلم أن من ثواب الدار الآخرة ونسبة الإنسان إليه علم النشأة الآخرة، ولم يبعد عليه أن يكون الشخص في أماكن مختلفة في الزمن الواحد، وهذا أمر تحيله العقول ويشهد بصحته الكشف فهو محال عقلاً وليس بمحال نسبة إلهيَّة، كل مصلّ يناجي ربه، والإنسان مخلوق من حيث حقيقته التي نشأ عليها في الدار الآخرة على الصورة العارف يكون مع كثير من الأسماء الإلهية في أحوال مختلفة مع أحدية العين من العارف ومن المسمّى، ويراه كل إنسان بحسب عينه الذي يحب هذا الرجل أن يظهر إليه به، فيكون زيد المصلي في حال صلاته يراه عمرو نائماً، ويراه خالد كاتباً، ويراه محمد خائطاً، ويراه قاسم آكلاً، والعين واحدة، وكل ذلك بالفعل مشهود لكل راء، وكل راء في بلد غير بلد صاحبه كما يدخل في أيّ صورة شاء من صور سوق الجنة، وما سمعت عن أحد نبّه على هذا المقام إلاَّ عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه في دخوله في حين واحد من جميع أبواب الجنة الثمانية. وعن ذي النون المصريّ في مسائله المشهورة مثل الميت يراه وليّه ميتاً لا حراك به، ويراه الآخر بعينه حيّاً يسأل في الآن الواحد.

أما حديث أبي بكر رضي الله عنه فذكره البخاريّ في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: «**سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دُعِيَ مِنْ أَيِّ أبوابِ الجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهلِ الصَّلاةِ دُعِي مِنْ بَابِ الصَّلاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَة، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَام دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيام باب الريان، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا عَلَىٰ هَذَا الَّذِي يدعى مِنْ تِلْكَ الأَبْوابِ مِنْ ضَرُورَةٍ وقال: هل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: نعم وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر**».

ودعاء الله الناس إلى الدخول يوم القيامة دعاء واحد لدخول الجنان، فيدخل الواحد من الباب الواحد وآخر من بابين وثلاثة، وأعمّهم دخولاً من دخل من الأبواب الثمانية لأن أعضاء التكليف ثمانية لكل عضو باب فلا تنكره في الثواب في الآن الواحد وأنت تشهده في العمل من فعل وترك كغاض بصره في حال استماع موعظة في حال تلاوة في حال صيام في حال تصدّق في حال ورع في حال تحصين فرج، كل ذلك بنية قربة إلى الله تعالىٰ، وفي كل باب منازل كالإيمان بالله بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلاَّ الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، ولا أذى أعظم من أذى الشرك، ولا طريق أعظم من طريق الإيمان، فختم بمثل ما به بدأ فلا إله إلاَّ الله نفي ما سوى الله ممّن يدعي أو يدّعى فيه الألوهة، وإماطة الأذى نفي الأذى عن الطريق فاجتمع آخر الدائرة بأولها وانعطف عليها وما بين هذين بقية شعب الإيمان ولكل شعبة منزل في جنة الإيمان، فمن علم ما قلناه يدخل من أبواب الجنة كلها في زمان واحد والنشأة الآخرة تعطي هذه الأمور كما أعطت النشأة الدنيا جمع شعب الإيمان في الإنسان في زمان واحد ولا يستحيل ذلك.

وصل في فصل ـ إعطاء الطيب من الصدقات عن طيب نفس: واعلم أن الطيب من الصدقات هو أن تتصدق بما تملكه ولا تملك إلاَّ ما يحل لك أن تملكه عن طيب نفس، وأعلى ذلك أن تكون فيه مؤدّياً أمانة سمّاها الشارع صدقة بلسان الرسم فتكون يدك يد الله عند الإعطاء ولهذا قلنا أمانة، فإن أمثال هذا لا ينتفع بها خالقها وإنما يستحقها من خلقت من أجله وهو المخلوق فهي عند الله من الله أمانة لهذا العبد يؤدّيها إليه إمّا منه إليه وإمّا على يد عبد آخر، هذا أطيب الصدقات لأنها على حدّ العلم الصحيح خرجت، فإذا حصلت في يد المتصدق عليه أخذها الرحمن بيمينه، فإن كان المعطي في نفس هذا العبد حين يعطيها هو الله المعطي فلتكن يده تعلو يد المتصدق عليه وهو السائل ولا بدّ فإن اليد العليا هي يد الله وهي المنفقة، وإن شاهد هذا المعطي يد الرحمن آخذة منه حين يتناولها السائل فتبقى يده من حيث إن المعطي هو الله تعلو على يد الرحمن كما هي فإن الرحمن صفة لله ونعت من نعوته، ولكن ما يأخذ منها عينها وإنما يناله منها تقوى المعطي في إعطائه، وأكمل وجوهه ما ذكرناه فشهد المعطي أن الله هو المعطي وأن الرحمن هو الآخذ، وأن الرحمة هي المعطى وهي الصدقة، فإذا أخذها الرحمن في يده بيمينه جعل محلها هذا العبد فأعطاه الرحمن إياها فلا يتمكن إلاَّ ذلك فإن الصدقة رحمة فلا يعطيها إلاَّ الرحمن بحقيقته، وتناولها الله من حيث ما هو موصوف بالرحمن الرحيم لا من حيث مطلق الاسم، والصدقة تقع بيد الرحمن قبل أن تقع بيد السائل، هكذا جاء الخبر.

فمثل هذه الصدقة إذا أكلها السائل أثمرت له طاعة وهداية ونوراً وعلماً وهذا كله هو تربية الرحمن لها، فإن جميع ما أعطته قوّة هذه الصدقة في نفس السائل ممّا ذكرناه من طاعة وهداية ونور وعلم يراه في الآخرة في ميزانه وفي ميزان من أعطاه وهو المتصدق نائب الله فيقال له هذه ثمرة صدقتك قد عادت بركتها عليك وعلى من تصدقت عليه، فإن صدقتك على زيد هي عين صدقتك على نفسك فإن خيرها عليك يعود، وأفضل الصدقات ما يتصدق به الإنسان على نفسه، فيحضر هذا أيضاً المتصدق على أكمل الوجوه في نفسه، فمثل هذه الصدقة لا يقال لمعطيها يوم القيامة من أين تصدقت ولا لمن أعطيت؟ فإنه بهذه المثابة، فإن كان الآخذ مثله في هذه المرتبة تساويا في السعادة وفضل المتصدق بدرجة واحدة لا غير، وإن لم يكن بهذه المثابة فتكون بحيث الصفة التي يقيمه الله فيها، فإن كانت الصدقة صدقة تطوّع فهي منّة إلهية كونية، فإن كانت زكاة فرض فهي منّة إلهية، فإن كانت نذراً فهي إلهية كونية قهرية فإن النذر يستخرج به من البخيل، وإن كانت هذه الأعطية هدية فما هو من هذا الباب فإن هذا الباب مخصوص بإعطاء ما هو صدقة لا غير فتكبر هذه الصدقة في يد الرحمن حسّاً ومعنى، فالحسّ منها من حيث ما هي محسوسة فتجدها في الجنة حسيّة المشهد مرئية بالبصر، والمعنى فيها من حيث ما قام به من الكسب الحلال والتقوى فيه والمسارعة بها وطيب النفس بها عند خروجها ومشاهدته ما ذكرناه من الشؤون الإلهية فيها فيجدها في الكثيب عند المشاهدة العامّة، ويجدها في كل زمان تمر عليه الموازين لزمان إخراجها وهو في الجنة، فيختص من الله بمشهد في عين جنته لا يشهده إلاَّ من هو بهذه المثابة.

خرّج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طِيبٍ وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إلاَّ الطَّيِّبَ إلاَّ أَخَذَهَا الرَّحْمٰنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمٰنِ حَتَّى تَكونَ أعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ»** وكل من نزل في صدقته عن هذه الدرجة التي وصفناها كانت منزلته عند الله بمنتهى علمه وقصده فالصدقة لا تكون إلاّ من الاسم الغنيّ الشديد ذي القوّة المتين بطريق الامتنان غير طالب الشكر عليها، فإن اقترن معها طلب الشكر فليست من الاسم الغنيّ بل من الاسم المريد الحكيم العالم، فإن خطر للمتصدق أن يقرض الله قرضاً حسناً بصدقته تلك مجيباً لأمر الله فهذا الباب أيضاً يلحق بالصدقة لكونه مأموراً بالقرض وقد يكون القرض نفس الزكاة الواجبة، فإن طلب عوضاً زائداً ينتفع به على ما أقرض خرج عن حدّه قرضاً وكان صدقة غير موصوفة بالقرضية فإنه لم يعط القرض المشروع فإن الله لا ينهى عن الربا ويأخذه منّا، كذا قال رسول الله ﷺ فإنه كل قرض جرّ نفعاً فهو ربا، وهو أن يخطر له هذا عند الإعطاء فلا يعطيه إلاّ لهذا.

وللمعطى الذي هو المقترض أن يحسن في الوفاء ويزيد فوق ذلك ما شاء من غير أن يكون شرطاً في نفس القرض، فإن الله قد وعد بتضاعف الأجر في القرض، ولكن لا يقرضه العبد لأجل التضاعف بل لأجل الأمر، والإحسان في الجزاء يوم القيامة لله تعالىٰ على ذلك، وهذا معنى قوله حسناً في وصف القرض فإن الله يعاملنا بما شرع لنا لا بغير ذلك، ألا تراه قد أمر نبيّه ﷺ أن يسأله يوم القيامة أن يحكم بالحق الذي بعثه به بين عباده وبينه فقال له قل: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١١٢] والألف واللام في الحق للحق المعهود الذي بعث به، وعلى هذا تجري أحوال الخلق يوم القيامة، فمن أراد أن يرى حكم الله يوم القيامة فلينظر إلى حكم الشرائع الإلهية في الدنيا حذوك النعل بالنعل من غير زيادة ولا نقصان، فكن على بصيرة من شرعك فإنه عين الحق الذي إليه مآلك، ولا تغتر وكن على حذر وحسن الظنّ بربك، واعرف مواقع خطابه في عباده من كتابه العزيز وسنّة نبيه ﷺ.

وصل في فصل ـ إخفاء الصدقة: اعلم أن إخفاء الصدقة شرط في نيل المقام العالي الذي خصّ الله به الأبدال السبعة، وصورة إخفائها على وجوه، منها: أن لا يعلم بك من تصدقت عليه وتتلطف في إيصال ذلك إليه بأيّ وجه كان فإن الوجوه كثيرة. ومنها: أن تعلمه كيف يأخذ وأنه يأخذ من الله لا منك حتى لا يرى لك فضلاً عليه بما أعطيته فلا يظهر عليه بين يديك أثر ذلّة أو مسكنة، ويحصل له علم جليل بمن أعطاه فتغيب أنت عن عينه حين تعطيه فإنه قد قررت عنده أنه ما يأخذ سوى ما هو له فهذا من إخفاء الصدقة. ومنها: أن تخفي كونها صدقة فلا يعلم المتصدق عليه بين يدي المتصدق، فإذا أخذها العامل الذي نصبه السلطان أخذها بعزّة وقهر منك، فإذا حصلت بيد السلطان الذي هو الوكيل من قبل الله عليها أعطاها السلطان أربابها الثمانية وأخذها أربابها بعزّة نفس لا بذلّة فإنه حق لهم بيد هذا الوكيل، فلا يعلم الآخذ في أعطيته من هو رب ذلك المال على التعيين، فلم يكن للغنيّ رب المال على هذا الفقير منّة ولا عزّة، ولا يعرف هل وصل إليه على التعيين عين ماله على التعيين، فكان هذا أيضاً من إخفاء

الصدقة لأنه لم يعلم المتصدق عين من تصدق عليه ولا علم المتصدق عليه عين المتصدق، وليس في الإخفاء أخفى من هذا، فلم تعلم شماله ما أنفقته يمينه هذا هو عين ذلك.

وقد ذكر رسول الله ﷺ ما قلناه من إخفاء الصدقة في الإبانة عن المنازل السبعة التي هي لخصائص الحق المستظلين يوم القيامة بظل عرش الرحمن لأنهم من أهل الرحمن. خرّج البخاريّ عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يومَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌ نَشأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجلٌ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِالمَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحابًا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجلٌ دَعَتْهُ امْرأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لاَ تَعْلَمَ شمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**».

وصل في فصل ـ من عين له صاحب هذا المال الذي بيده قبل أن يتصدق به عليه: إنّ من عباد الله من يكشف له فيما بيده من الرزق وهو ملك له أنه لفلان ولفلان ويرى أسماء أصحابه عليه ولكن على يده، فإذا أعطى من هذه صفته صدقة هل تكتب له صدقة؟ قلنا: نعم تكتب له صدقة من حيث ما نسب الله الملك له، وإن كوشف فلا يقدح فيه ذلك الكشف، ألا ترى إلى المحتضر قد زال عنه اسم الملك وحجر عليه التصرّف فيه وما أبيح له منه إلاّ الثلث وما فوق ذلك فلا يسمع له فيه كلام لأنه تكلم فيما لا يملك. واعلم أن النفس قد جبلت على الشحّ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [سورة المعارج: الآية ٢١] وقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ [سورة الحشر: الآية ٩] وسبب ذلك أنه ممكن، وكل ممكن فقير بالأصالة إلى مرجح يرجح له وجوده على عدمه فالحاجة له ذاتية، والإنسان ما دامت حياته مرتبطة بجسده فإن حاجته بين عينيه وفقره مشهود له وبه يأتيه اللعين في وعده فقال؛ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٨] فلا يغلب نفسه ولا الشيطان إلاّ الشديد بالتوفيق الإلهيّ فإنه يقاتل نفسه والشيطان المساعد لها عليه ولهذا سمّاها الشارع صدقة لأنها تخرج عن شدّة وقوّة، يقال: رمح صدق أي قويّ شديد، فلو لم يأمل البقاء وتيقن بالفراق هان عليه إعطاء المال لأنه مأخوذ عنه بالقهر شاء أم أبى، فمن طمع النفس أن تجود في تلك الحالة لعل تحصل بذلك في موضع آخر قدر ما فارقته كل ذلك من حرصها فلم تجد مثل هذه النفس عن كرم ولا وقاها الله شحّها. ذكر مسلم في ذلك عن أبي هريرة قال: «**جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْراً؟ قَالَ: أَمَا وَأَبِيكَ لتنبأنه أَن تصدَّق وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَىٰ الفَقْرَ وَتأمَلَ البَقَاءَ وَلاَ تُمْهِلَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُوم قُلْتَ لِفُلانٍ كَذَا وكَذَا وَقد كَانَ لِفُلانٍ**» فينبغي لمن لم يقه الله شحّ نفسه وقد وصل إلى هذا الحد وارتفع عنه في تعيينه لفلان طائفة من ماله أن يكون ذلك صدقة فليجعل في نفسه عند تعيينه أنه مؤدّ أمانة وأن ذلك وقتها فيحشر مع الأمناء المؤدّين أمانتهم لا مع المتصدقين، ولا يخطر له خاطر الصدقة ببال إن أراد أن ينصح نفسه.

وصل في فصل ـ ضروب الملك والتمليك عند أهل الله: العارف يقول الله له: هذا ملكك فيقبله منه بالأدب والعلم في ذلك أنه ملك استحقاق لمن يستحقه ومن هو حق له،

وملك أمانة لمن هو له بيده أمانة، وملك وجود لمن هو موجود عنه، فالأشياء كلها ملك لله وجوديّ وهي للعبد بحسب الحال، فما لا بدّ له في نفس الأمر من المنفعة به على النفس فهو ملك استحقاق له وهو من الطعام والشراب ما يتغذى به في حين التغذي به ممّا يتغذى لا ممّا يفضل عنه ويخرج من سبيله وغير ذينك، ومن الثياب ما يقيه من حر الهواء وبرده. وأمّا ما عدا هذا القدر فهو بيده ملك أمانة لمن يدفع به أيضاً ما دفع هو به عن نفسه ممّا ذكرناه، فلا يخلو العارف إما أن يكون ممّن كشف أسماء أصحاب الأشياء مكتوبة عليها فيمسكها لهم حتى يدفعها إليهم في الوقت الذي قدّره الحكيم وعينه فيفرق ما بين ما هو له فيسميه ملك استحقاق لأن اسمه عليه وهو يستحقه، وبين ما هو لغيره فيسميه ملك أمانة لأن اسم صاحبه عليه والكل بلسان الشرع ملك له في الحكم الظاهر، أو يكون هذا العارف ممّن لم يكشف له ذلك، فلا يعرف على التعيين ما هو رزقه من الذي هو عنده، فإذا كوشف فيعمل بحسب كشفه فإن الحكم للعلم في ذلك، وإن لم يكاشف فالأولى به أن يخرج عن ماله كله صدقة لله، ورزقه لا بدّ أن يأتيه ثقة بما عند الله إن كان قد بقي له عند الله ما يستحقه، وإن لم يبق له عند الله شيء فلا ينفعه إمساك ما هو ملك له شرعاً فإنه لا يستحقه كشفاً في نفس الأمر وهو تارك له وهو غير محمود هذه أحوال العارفين.

وقد يخرج صاحب الكشف عن ماله كله عن كشفه لأنه يرى عليه اسم الغير فلا يستحق منه شيئاً فيشبه بالصورة من خرج عن ماله كله من غير كشف، فإن لم يكن عنده ثقة بالله فيذمّه الشرع إن خرج عن كل ماله ثم بعد ذلك يسأل الناس الصدقة، فمثل هذا لا تقبل صدقته كما قد ورد في ذلك في حديث النسائيّ: فِي الرَّجل الَّذِي تُصُدِّقَ عَلَيْهِ بِثَوْبَيْنِ ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ آخَرُ يَطْلُبُ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ أَيْضاً وَأَلْقَى هَذَا المُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ الأَوَّل أَحَدَ ثَوْبَيْهِ صَدَقَةً عَلَيْهِ فَانْتَهَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: **«خُذْ ثَوبَكَ»** وَلَمْ يَقْبَلْ صَدَقَتَهُ فإذا علم من نفسه أنه لا يسأل ولا يتعرّض فحينئذ له أن يخرج عن ماله كله ولكن بميزان الأفضلية إن كان عالماً إذا لم يكن له كشف، فإن كان صاحب كشف عمل بحسب كشفه.

ولقد خرّج أبو داود ما يناسب ما ذكرناه من حديث عمر بن الخطاب قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْماً أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالاً عِنْدِي وقلت: اليومُ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إن سَبَقْتُهُ يَوماً فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَا أَبْقَيتَ لأَهْلِكَ؟»** قُلْتُ: مِثْلَهُ، قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْده فَقَالَ: مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟ قَال: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قلت: لا أُسَابِقُكَ إِلَىٰ شَيْءٍ أَبَداً . فينبغي للعالم بنفسه أن يعامل نفسه بما يعامله به الشرع الحاكم عليه، ولا ينظر المريد لما يخطر له في الوقت فيكون تحت حكم خاطره فيكون خطأه أكثر من إصابته، وهنا يتميز العاقل العالم من الجاهل، ولكن هذا كله لمن لا كشف له من أهل الله، وقد سكت رسول الله ﷺ عن أبي بكر لما أتاه بماله كله لمعرفته بحاله ومقامه وما قال له: هلا أمسكت لأهلك شيئاً من مالك؟ وأثنى على عمر بذلك بحضرة رسول الله ﷺ ولم ينكره عليه. وقال لكعب بن مالك في هذا الحديث: امسك بعض مالك، وكان كعب بن مالك قد انخلع من

ماله كله صدقة لخاطر خطر له فلم يعامله رسول الله ﷺ بخاطره وعامله بما يقتضيه حاله فقال: «**أَمسِكْ عَلَيكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيرٌ لَكَ**».

وصل في فصل ـ ما ينظره العارف في فضل الله وعدله ومكر الله تعالىٰ: إن من مكر الله وعدله وفضله أن يبين للناس ما فيه مصلحتهم هذا من فضله. وأمّا عدله ومكره هو أن يعاملهم بصفاتهم، فالعارفون في مثل هذا المقام ينظرون في أحوال أنفسهم وفيما يأتيهم الله في بواطنهم وظواهرهم ويزنون ذلك بالميزان الذي وضعه الرحمن ليقيم الوزن بالقسط ولا يخسر الميزان، فإن اعتدلت الكفتان فذلك العلم الصحيح، وإن ترجحت كفة العطاء على كفة الحال فلينظر في الحال، فإن كان ممّا يحمده الشرع فذلك إمّا جزاء معجّل وإمّا زيادة فضل، وإن كان الحال ممّا يذمّه لسان الشرع فذلك مكر من الله، وإن كان الحال ممّا لا يذم ولا يحمد فذلك عدل من الله يؤول، إمّا إلى فضل إن شكر الله وعمل بطاعته في المستأنف بتلك الأعطية، أو يؤول إلى مكر خفيّ إن عمل فيه بمعصية الله، فإن ألهم الاستغفار والتوبة أو أن ذلك مكر إلهيّ فلا يخلو، إمّا أن يتدارك الأمر أو يبقى على حاله، فإن بقي على حاله فهو مكر في مكر، وإن تدارك الأمر فذلك من فضل الله وزال عنه حكم المكر في هذه الحال، فمن مكر الله وفضله اليد العليا خير من اليد السفلى، فإن الصدقة تقع بيد الرحمن ففيه مكر وفضل، فإنه قد ورد أنها تقع بيد الرحمن قبل وقوعها بيد السائل، وقد ذكر البخاريّ عن حكيم بن حزام فيما نبّهنا عليه أن النبيّ ﷺ قال: «**اليَدُ العُلْيَا خَيرٌ مِنَ اليَدِ السفلَىٰ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعولُ، وَخَيرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهرِ غِنىٰ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يعفه اللَّهُ وَمَنْ يَستَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ**» فهذا الحديث يتضمن تفصيل ما ذكرناه من الأحوال، وأعلى الغنى الغنى بالله، والاستعفاف هنا القناعة بالقليل، فإن العفو يرد في اللسان ويراد به القليل وهو من الأضداد، والصدقة عن ظهر غنى هي الصدقة، والدعاء عن ظهر فقر هو الدعاء المجاب بلا شك، وأين الداعي عن ظهر فقر والمعطي عن ظهر غنى.

وصل في فصل ـ حاجة النفس إلى العلم: اعلم أن حاجة النفس إلى العلم أعظم من حاجة المزاج إلى القوت الذي يصلحه، والعلم علمان: علم يحتاج منه مثل ما يحتاج من القوت فينبغي الاقتصاد فيه والاقتصار على قدر الحاجة وهو علم الأحكام الشرعية لا ينظر منها إلاّ قدر ما تمسّ الحاجة إليه في الوقت، فإن تعلق حكمها إنما هو بالأفعال الواقعة في الدنيا فلا تأخذ منه إلاّ قدر عملك، والعلم الآخر هو ما لا حدّ له يوقف عنده وهو العلم المتعلق بالله ومواطن القيامة، فإن العلم بمواطن القيامة يؤدي العالم بها إلى الاستعداد لكل موطن بما يليق به لأن الحق بنفسه هو المطالب في ذلك اليوم بارتفاع الحجب وهو يوم الفصل، فينبغي للإنسان العاقل أن يكون على بصيرة من أمره معدّاً للجواب عن نفسه وعن غيره في المواطن التي يعلم أنه يطلب منهُ الجواب فيها ولهذا ألحقناه بالعلم بالله. وينبغي لطالب العلم أن لا يسأل في المسؤول إلاّ الله لا عين المسؤول. هكذا ينبغي أن يكون عليه السائل من الحضور مع الله، فليستكثر هذا السائل من السؤال، فإن الله هو المسؤول، فإن لم يحضر له ذلك ولم يشاهد سوى الأستاذ ولا يرى

العلم إلاّ منه ولا يردّه ذلك العالم إلى الله بقوله: الله أعلم ولا يقول له من العلم ما يردّه إلى الله فيه فذلك الذي أشار إليه رسول الله ﷺ على ما ذكره مسلم من حديث أبي هريرة: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكثُّراً فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْراً فَلْيَسْتَقْلِلْ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ».

وإنما أراد الله تعالىٰ من عباده أن يرجعوا إليه في المسائل لا إلى أمثالهم إلاّ بقدر ما يتعلمون منهم. كيف يسألون الله وهو حدّ التقوى المشروع فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] بما علمكم من أعلمته بطريق التقوى ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] فكان هو سبحانه المعلم. وسواء كانت المسألة في العلم أو في غير العلم من أعراض الدنيا كما قال لموسىٰ عليه السلام ربّه عزّ وجلّ فيما أوحى إليه به أو كلّمه به سلني حتى الملح تلقيه في عجينك. وقال في باب الإشارة لا التفسير: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾[سورة الرحمٰن: الآية ١، ٢] في أيّ قلب يكون ويستقرّ؟ وعلى أيّ قلب ينزل؟ ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣، ٤] لتبين للناس ما نزل إليهم، فأضاف التعليم إليه لا إلى غيره، هذا كله من الغيرة الإلهية أن يسأل المخلوق غير خالقه ليريح عباده من سؤال من ليس بأيديهم من الأمر شيء، وقد نبّه رسول الله ﷺ على هذا وما خصّ ﷺ مسألة من مسألة فقال ﷺ: **«لَوْ تَعْلَمُونَ مَا فِي المَسْأَلَةِ مَا مَشَىٰ أَحَدٌ إِلَى أَحَدٍ يَسْأَلُهُ شَيْئاً»** وقد كره رسول الله ﷺ المسائل وعابها وأراد من الناس أن يعملوا بما علمهم الله على لسان نبيّه ﷺ ويسألون الله في أعمالهم أن يزيدهم علماً إلى علمهم منه فيتولى بنفسه تعليم عباده فإن الله غيور فلا يجب أن يسأل غيره، وإن سأل غيره بلسان الظاهر فيكون القلب حاضراً مع الله عند سؤاله أن الله هو المسؤول الذي بيده ملكوت كل شيء بالمعنى، فإن الاسم الظاهر من الله هو هذا الشخص فإنه من جملة الحروف المرقومة في رق الوجود المنشور، فيأخذ هذا السائل جوابه من الله إما بقضاء الحاجة وإما بالدعاء، ولهذا كان سؤال الرجل السلطان أولى من سؤال غير السلطان لأن وجود الحق أظهر فيه من غيره من السوقة والعامة، ولهذا رفعت الكدية عن الذين يسألون الملوك فإنهم نوّاب الله وهم موضع حاجة الخلق وهم المأمورون أن لا ينهروا السائل، يقول الله لنبيّه ﷺ وهو النائب الأكبر: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ١٠] ولهذا يسأل الله تعالىٰ يوم القيامة النوّاب وهم الرعاة عن من استرعاهم عليه، ويسأل الرعايا ما فعلوا فيهم.

ثم نرجع إلى مسائل الصدقة التي نحن في بابها فنقول: قال رسول الله ﷺ: **«المسائل كدوح يكدح بها الرجل في وجهه فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك إلاّ أن يسأل ذا سلطان في أمر لا يجد منه بداً»** وهذا نص ما ذكرناه وهو حديث خرّجه أبو داود عن سمرة بن جندب عن رسول الله ﷺ، وكذلك سؤال الصالحين العارفين أهل المراقبة أولى من سؤال السلاطين إلاّ أن تكون هذه الصفات في السلطان فإن أصحاب هذه الصفات أقرب نسبة إلى الله تعالىٰ. وقد رأينا بحمد الله من السلاطين من هو بهذه المثابة من الدين والورع والقيام للحق بالحق رحمهم الله. وقد ورد في الخبر: «**أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ** ﷺ: **أَسْأَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لاَ وَإِنْ كُنْتَ سَائِلاً وَلاَ بُدَّ فَسَلِ الصَّالِحِينَ**» فالعارفون إذا سألوا في أمر تعيّن لهم من

مصالح دنياهم إنما يسألون الله بالله في العالم والعلماء بالله الذين استفرغهم شهود الله شغلهم ذكر الله عن المسألة من الله فهؤلاء أصحاب أحوال فأعطاهم العلم به وهو أفضل ما أعطي السائلون، فإذا علموه علم ذوق لم يذكروه إلاَّ له بهم وبه، فأعطاهم بهذا الذكر أمراً جعلهم أن يتركوا الذكر له وبه فأعطاهم الرؤية، إذ كانت الرؤية أرفع من المشاهدة وهي أفضل صدقة تصدّق الله بها على المقرّبين من عباده.

وصل في فصل ـ أخذ العلماء بالله من الله العلم الموهوب: اعلم أن العلماء بالله لا يأخذون من العلوم إلاَّ العلم الموهوب وهو العلم اللدنيّ علم الخضر وأمثاله، وهو العلم الذي لا تعمل لهم فيه بخاطر أصلاً حتى لا يشوبه شيء من كدورات الكسب، فإن التجلّي الإلهيّ المجرد عن المواد الإمكانية من روح وجسم وعقل أتم من التجلّي الإلهيّ في المواد الإمكانية، وبعض التجليات في المواد الإمكانية أتمّ من بعض، فإذا وقع للعالم بالله من تجلٍّ إلهيّ إشراف على تجلّ آخر لم يحصل له ثم حصل له بعد ذلك فأعطاه من العلم به ما لم يكن عنده لم يقبله في العلم الموهوب وألحقه بالعلم المكتسب، وكل علم حصل له عن دعاء فيه أو بدعاء مطلق فهو مكتسب وذلك لا يصلح إلاَّ للرسل صلوات الله عليهم فإنهم في باب تشريع الاكتساب، فإذا وقفوا مع نبوّتهم لا مع رسالتهم كان حالهم مع الله حال ما ذكرناه من ترك طلب ما سواه والإشراف، فهم مع الله واقفون وإليه ناظرون وبه ناطقون، في كل منطوق به، ومنظور إليه، وموقوف عنده. وكما أنهم به ناطقون هم به سامعون يذكرون عباده تعبداً ويطيعون عباده تعبداً ويجتهدون، ولا يفترون عبادة لا تعرّضاً ولا طلباً إلاَّ وفاء لما يقتضيه مقام من كلفهم من حيث ما هو مكلف لا من وجه آخر ومقام من كلف، فهو يهبهم من لدنه علماً لم يكن مطلوباً لهم فيكون مكتسباً.

من أسمائه سبحانه المؤمن وهو من نعوت العبد لا من أسماء العبد، فإنه إذا كان اسماً لم يعلل، وإذا كان صفة ونعتاً علل، فهو لله اسم وللعبد صفة، هذا هو الأدب مع الله، وقد ورد في معنى ما أشرنا إليه حديث ذكره أبو عمر ابن عبد البرّ النمريّ عن خالد بن عديّ الجهنيّ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ جَاءَهُ مِنْ أَخِيهِ مَعْرُوفٌ مِنْ غَيْرِ إِشْرافٍ وَلاَ مَسْأَلَةٍ فَلْيَقْبَلْهُ وَلاَ يَرُدَّهُ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَاقَه اللَّهُ إِلَيْهِ**» فجمع هذا الحديث بين الأمر بالقبول والنهي عن الردّ فحصل فيه التكليف كله فإنّ التكليف ما هو سوى أمر ونهي. وممّا يؤيّد صحة هذا الحديث ما خرّجه مسلم في صحيحه عن ابن عمر: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُعْطِي عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ العَطَاءَ فَيَقُولُ: أَعْطِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفْقَرَ إِلَيهِ مِنِّي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**خُذْهُ فَتَمَوَّلْهُ أَوْ تَصَدَّقْ بِهِ**» وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه وما لا فلا تتبعه نفسك، فالأكبار لا يسألون أحداً شيئاً إلاَّ إذا كان الله مشهودهم في الأشياء ولا يردّون شيئاً أعطوه، فإن الأدب مع الله أن لا تردّ على الله ما أعطاك، وفتنة العلم أعظم من فتنة المال، فإن شرف المال شرف عارض لا يتعدّى أفواه الناس ليس للنفس منه صفة، وشرف العلم حلية تتحلّى بها النفس ففتنته أعظم ولا زوال له عن صاحبه في حال فقره وغناه ونوائبه، والمال يزول عن صاحبه بلص يأخذه أو حرق أو غرق

أو هدم أو زلزلة أو جائحة سماوية أو فتنة أو سلطان، والعلم منك في حصن حصين لا يوصل إليه أبداً يلزم الإنسان حياً وميتاً دنيا وآخرة وهو لك على كل حال، وإن كان عليك في وقت ما فهو لك في آخر الأمر، وإن أصابتك الآفات من جهته فلا تكترث فليس إلاّ لشرفه حيث لم تعمل به، فما أصبت إلاّ من تركك العمل به لا منه، فإذا نجوت أخذ بيدك إلى منزلته ومنزلته معلومه ومعلومه الحق فينزلك بالحق على قدر ذلك العلم فلا تكن من الجاهلين.

وصل في فصل - إيجاب الله الزكاة في المولدات: اعلم أنّ الله أوجب الزكاة في المولدات وهي ثلاثة: معدن ونبات وحيوان، فالمعدن ذهب وفضة، والنبات حنطة وشعير وتمر، والحيوان إبل وبقر وغنم، فعمّ جميع المولدات وأطلق عليها اسم المولدات لأنها تولدت عن أم وأب عن فلك وحركته الذي هو بمنزلة الجماع وهو الأب والأركان الأم فكان المال محبوباً للإنسان حب الولد، ألا ترى الله قرنه بالولد في الفتنة فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فقدّم المال على الولد في الذكر، والله عنده أجر عظيم إذا رزأكم في شيء منهما فالزكاة وإن كانت طهارة الأموال وطهرت أربابها من صفة البخل فهي رزء في المال بلا شك فلصاحبها أجر المصاب وهو من أعظم الأجور، والولد شجنة من الوالد كالرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله، قال بعض الشعراء في الأولاد وهو من شعر الحماسة: [السريع]

وإنــمــا أولادُنــا بــيــنَــنَــا أكْبَادُنا تــمــشــي عــلــى الأرضِ

فجعل الولد قطعة من الكبد. وقال عيسىٰ عليه السلام لأصحابه: قلب كل إنسان حيث ماله فاجعلوا أموالكم في السماء تكن قلوبكم في السماء. فحثّ على الصدقة لما علم أن الصدقة تقع بيد الرحمن وهو يقول: أأمنتم من في السماء والصدقة تطفىء غضب الرب فانظر ما أعجب كلام النبوّة وما أدقّه وأحلاه. فمن ألحق الولد بالوالد ووصله به فله أجر من وصل الرحم، فينبغي للإنسان أن يلحق ماله من حيث ما هو مولد مولود بأبيه الذي تولد عنه لأنه قطعة منه، فللإنسان المتصدق في صدقة زكاته أجر المصيبة وأجر صلة الرحم إذا زكى ماله، والصبر على فقد المحبوب من أعظم الصبر، ولا يصبر على ذلك إلاّ مؤمن أو عارف، فإن الزاهد لا زكاة عليه لأنه ما ترك له شيئاً تجب فيه الزكاة لأن الزهد يقتضي لك والعارف ليس كذلك، لأن العارف يعلم أن فيه من حيث ما هو مجموع العالم من يطلب المال فيوفيه حقّه فتجب عليه الزكاة من ذلك الوجه وهو زاهد من وجه، ولهذا رجحنا قول من يقول: إن الزكاة واجبة في المال لا على المكلف، وإنما هو مكلف في إخراجها من المال إذ المال لا يخرج بنفسه، فجمع العارف بين الأجرين بخلاف الزاهد، والعارفون هم الكمل من الرجال فلهم الزهد والادّخار والتوكّل والاكتساب، ولهم المحبة في جميع العالم كله، وإن تفاضلت وجوه المحبة فيحبون جميع ما يقع في العالم بحب الله في إيجاد ذلك الواقع لا من جهة عين الواقع فاعلم ذلك فإن فيه دقيق مكر إلهيّ لا يشعر به إلاّ الأدباء العارفون، فإن العارف يعلم أن فيه جزاء يطلب مناسبة من العالم فيوفي كل ذي حق حقّه كما أعطى الله كل شيء خلقه.

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لِنَفسِكَ عَلَيكَ حَقّاً، وَلِعَينِكَ عليك حَقّاً**» وهكذا كل جزء فيك، ولهذا يشهد عليك يوم القيامة إذا استشهده الحق عليك. وانظر في حكمة السامريّ حيث علم ما قال موسىٰ عليه السلام من أن حب المال ملصق بالقلوب صاغ لهم العجل بمرأى منهم من حليهم لعلمه أن قلوبهم تابعة لأموالهم فسارعوا إلى عبادته حين دعاهم إلى ذلك، فالعارف من حيث سرّه الربانيّ مستخلف فيما بيده من المال فهو كالوصيّ على مال المحجور عليه يخرج عنه الزكاة وليس له فيه شيء فلذلك قلنا إنه حق في المال فإن الصغير لا يجب عليه شيء.

وقد أمر النبي ﷺ بالتجارة في مال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة، والعامي وإن كان مثل العارف في كونه جامعاً فإن العاميّ لا يعلم ذلك فأضيف المال إليه فقيل له أموالكم فيخرج منها الزكاة، فالعارف يخرجها إخراج الوصيّ، والعاميّ يخرجها بحكم الملك، فما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون، وكلا الفريقين صادق في حاله وصاحب دليل إلهيّ فيما نسب إليه، فلولا المحبة ما فرضت الزكاة ليثابوا ثواب من رزىء في محبوبه، ولولا المناسبة بين المحب والمحبوب لما كانت محبة ولا تصوّر وجودها، ومن هنا تعلم حب العارف للمال من أيّ نسبة هو، وحبّه لله من أي نسبة هو، ولا يقدح حبّه في المال والدنيا في حبّه لله وللآخرة، فإن ما يحبه منه لأمر ما لا ما يناسب ذلك الأمر في الإلهيات وفي العالم حبّوا الله لما يغذوكم به من نعمه فصحّت المناسبة، ومن نعمه المعرفة به والعارف يطلبها منه فهي نسبة فقير إلى غنيّ يطلب منه ما بيده له ليحصله، فما طلب منه إلاّ أمراً حادثاً إذ معرفة المحدث بالقديم معرفة حادثة، فالمناسبة بينه وبين المعرفة الحدوث وهي بيد المعروف فيتعلق الحب بالمعروف لهذه المناسبة، والمعرفة به لا تنقضي ولا تتناهى، فالحب لا ينقضي وحصول مثل هذه المعرفة عن التجلي، فالتجلي لا ينقضي فالمعرفة مال العارف وزكاة هذا المال التعليم وهي درجة إلهيَّة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] فهو المعلم فلهذا قلنا: إن التعليم درجة إلهية، وجعل أصناف الزكاة ثمانية لما فيها من صلاح العالم فهي فيما تقوم به الأبدان من الغذاء وقضاء الحاجات مطلقاً، وفي هذين الأمرين صلاح العالم فهم حملة العرش الثمانية، والعرش الذي هو الملك محمول لهم، فمن تلك الحقيقة كانت في ثمانية أصناف مجمع عليها وما عداها ممّا اختلف فيه فهو راجع إليها. ولما كان العرش الملك وكان حملة هذا العرش الذي هو عبارة عنّا كان هؤلاء الأصناف الثمانية حملته وكان هذا القدر من المال المعبّر عنه بالزكاة كالأجرة لحملهم.

وصل: إنما سمّي المال مالاً لأنه يميل بالنفوس إليه، وإنما مالت النفوس إليه لما جعل الله عنده من قضاء الحاجات به، وجبل الإنسان على الحاجة لأنه فقير بالذات، فمال إليه بالطبع الذي لا ينفك عنه، ولو كان الزهد في المال حقيقة لم يكن مالاً، ولكان الزهد في الآخرة أتمّ مقاماً من الزهد في الدنيا، وليس الأمر كذلك، وقد وعد الله بتضعيف الجزاء الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فلو كان القليل حجاباً لكان الكثير منه أعظم حجاباً، ألا ترى إلى موطن التجلي والكشف وهو الدار الآخرة وهي محل الرؤية والمشاهدة

مع تناول الشهوات النفسية مطلقاً من غير تحجير، وكلمة ﴿كُن﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٧] من كل إنسان فيها حاكمة، فلو كان مثل هذا حجاباً لكان حجاب الآخرة أكثف وأعظم بما لا يتقارب، فسبحان من جعل له في كل شيء باباً إذا فتح ذلك الباب وجد الله عنده وعيّن في كل شيء وجهاً إلهياً إذا تجلّى عرف ذلك الوجه من ذلك الشيء، قال الصديق: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله قبله، فإنه لا يراه إلاّ بعينه إذ كان الحق بصره في هذا الموطن فيرى نفسه قبل رؤية ذلك الشيء، والإنسان هو المحل لذلك البصر فلهذا قال: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله قبله، وسمّاها الله زكاة لما فيها من الربو والزيادة ولهذا تعطي قليلاً وتجدها كثيراً، فلو أعطيته لرفع الحجاب لكونه حجاباً لكان الثواب حجباً كثيرة أعظم من هذا الحجاب، فلم يكن بحمد الله ما أعطيته حجاباً ولا ما وصلت إليه من ذلك حجاباً، فاعلم ذلك وانظر في تصرّف العارف في الدنيا كيف هو ولا يحمل تصرّفه على تصرّفك وجهلك وسوء تأويلك، فترى الزهد عند ذلك أفضل منه، هيهات ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٩] ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة الرعد: الآية ١٩] بل هي للعارف صفة كمالية سليمانية ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [سورة ص: الآية ٣٥] فما أليق هذا الاسم بهذا السؤال، أتراه عليه السلام سأل ما يحجبه عن الله أو سأل ما يبعده من الله.

ثم انظر إلى أدب رسول الله ﷺ حين أمكنه الله من العفريت الذي فتك عليه فأراد أن يقبضه ويربطه بسارية من سواري المسجد حتى ينظر الناس إليه فتذكر دعوة أخيه سليمان فردّه الله خاسئاً، فهذه حالة سليمانية حصلت لمحمد ﷺ، وما ردّه عنها الزهد فيها وإنما ردّه عن ذلك الأدب مع سليمان عليه السلام حيث طلب من ربّه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمنا من هذه القصة أن قوله لا ينبغي أنه يريد لا ينبغي ظهوره في الشاهد للناس لأحد، وإن حصل بالقوة لبعض الناس كمسألة رسول الله ﷺ مع العفريت فعلمنا أنه أراد الظهور في ذلك لأعين الناس. ثم إن الله أجاب سليمان عليه السلام إلى ما طلب منه بأنه ذكر رسول الله ﷺ بدعوة أخيه سليمان حتى لا يمضي ما قام بخاطره من إظهار ذلك. ثم إنّ الله تمّم هذه النعمة لسليمان عليه السلام بدار التكليف فقال له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة ص: الآية ٣٩] فرفع عنه الحرج في التصريف بالاسم المانع والمعطي فاختص بجنة معجلة في الحياة الدنيا وما حجبه هذا الملك عن ربه عزّ وجلّ، فانظر إلى درجة العارف كيف جمع بين العينين وتحقق بالحقيقتين، فأخرج الزكاة من المال الذي بيده إخراج الوصي من مال المحجور عليه بقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٧] فجعله مالكاً للإنفاق من حقيقة إلهية فيه في مال هو ملك لحقيقة أخرى فيه هو وليّها من حيث الحقيقة الإلهية، جعلنا الله من العارفين العلماء وبما أودع فيه من قرّة أعين.

وصل في فصل ـ قبول المال أنواع العطاء: اعلم أن المال يقبل أنواع العطاء وهو ثمانية أنواع لها ثمانية أسماء: فنوع يسمى الإنعام، ونوع يسمّى الهبة، ونوع يسمّى الصدقة، ونوع يسمّى الكرم، ونوع يسمّى الهدية، ونوع يسمّى الجود، ونوع يسمّى السخاء، ونوع يسمّى الإيثار، وهذه الأنواع كلها يعطي بها الإنسان ويعطي بسبعة منها الحق تعالىٰ وهي ما عدا

الإيثار، فإن قال أجبني فمن أيّ حقيقة إلهية ظهر الإيثار في الكون وهو لا يعطي على جهة الإيثار لأنه غنيّ عن الحاجة، والإيثار إعطاء ما أنت محتاج إليه إمّا في الحال وإمّا بالمآل، وهو أن تعطي مع حصول التوهّم في النفس أنك محتاج إليه فتعطيه مع هذا التوهّم فيكون عطاؤك إيثاراً وهذا في حق الحق محال، فقد ظهر في الوجود أمر لا ترتبط به حقيقة إلهية فنقول: قد قدمنا أن الغنى المطلق إنما هو للحق من حيث ذاته معرّى عن نسبة العالم إليه، فإذا نسبت العالم إليه لم تعتبر الذات فلم تعتبر الغنى وإنما اعتبرت كونها إلهاً فاعتبرت المرتبة، فالذي ينبغي للمرتبة هو ماتسمت به من الأسماء وهي الصورة الإلهية لا الذات من حيث عينها بل من كونها إلهاً، ثم إنه أعطاك الصورة التي هي الخلافة وسمّاك بالأسماء كلها على طريق المحمدة فقد أعطاك ما هي المرتبة موقوفة نسبتها إليه وهي الأسماء الحسنى. فإن قلت: فإن المعطي لا يبقى عنده ما أعطاه. قلنا: هذا يرجع إلى حقيقة المعطى ما هو؟ فإن كان محسوساً فإن المعطي يفقده بالإعطاء، وإن كان معنى فإنه لا يفقده بالإعطاء، ولهذا حددنا الإيثار بإعطاء ما أنت محتاج إليه ولم تتعرض لفقد المعطى ولا لبقائه، فإنّ ذلك راجع إلى حقيقة الأمر الذي أعطيت ما هو فاعلم ذلك.

فمن هذه الحقيقة صدر الإيثار في العالم وما بعد هذا البيان بيان، فالإنعام إعطاء ما هو نعمة في حق المعطي إياه ممّا يلائم مزاجه ويوافق غرضه، والهبة الإعطاء لينعم خاصة، والهدية الإعطاء لاستجلاب المحبَّة فإنها عن محبة، ولهذا قال الشارع: تهادوا تحابوا، والصدقة إعطاء من شدّة وقهر وإباية، فأما في الإنسان لكونه جبل على الشحّ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ [سورة الحشر: الآية ٩] ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ [سورة المعارج: الآية ٢١]، فإذا أعطى بهذه المثابة لا يكون عطاؤه إلا عن قهر منه لما جبلت النفس عليه، وفي حق الحق هذه النسبة حقيقة ما ورد من التردّد الإلهيّ في قبضه نسمة للمؤمن ولا بدّ له من اللقاء يريد قبض روحه مع التردّد لما سبق في العلم من ذلك فهو في حق الحق كأنه وفي حق العبد هو لا كأنه أدباً إلهياً، ودليل العقل يرمي مثل هذا لقصوره وعدم معرفته بما يستحقه الإله المعبود، والحق عرف بهذه الحقيقة التي هي عليها عباده، فقبلتها العقول السليمة من حكم أفكارها عليها بصفة القبول التي هي عليه حين ردّتها العقول التي هي بحكم أفكارها، وهذه هي المعرفة التي طلب منّا الشارع أن نعرف بها ربنا ونصفه بها لا المعرفة التي أثبتناه بها، فإن تلك ممّا يستقل العقل بإدراكها وهي بالنسبة إلى هذه المعرفة نازلة فإنها ثبتت بحكم العقل وهذه ثبتت بالإخبار الإلهيّ، وهو بكل وجه أعلم بنفسه منّا به.

والكرم: العطاء بعد السؤال حقاً وخلقاً. والجود: العطاء قبل السؤال حقاً لا خلقاً، فإذا نسب إلى الخلق فمن حيث أنه ما طلب منه الحق هذا الأمر الذي عيّنه الخلق على التعيين، وإنما طلب الحق منه أن يتطوّع بصدقة وما عيّن فإذا عيّن العبد ثوباً أو درهماً أو ديناراً أو ما كان من غير أن يسأل في ذلك فهو الجود خلقاً، وإنما قلنا لا خلقاً في ذلك لأنه لا يعطي على جهة القربة إلاّ بتعريف إلهيّ ولهذا قلنا حقاً لا خلقاً، وإذا لم يعتبر الشرع في ذلك

فالعطاء قبل السؤال لا على جهة القربة موجود في العالم بلا شك، ولكن غرض الصوفيّ أن لا يتصرّف إلاّ في أمر يكون قربة ولا بدّ، فلا مندوحة له عن مراعاة حكم الشرع في ذلك، والسخاء العطاء على قدر الحاجة من غير مزيد لمصلحة يراها المعطي، إذ لو زاد على ذلك ربما كان فيها هلاك المعطي إياه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٢٧].

والإيثار: إعطاء ما أنت محتاج إليه في الوقت أو توهم الحاجة إليه، قال تعالىٰ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [سورة الحشر: الآية ٩] وكل ما ذكرناه من العطاء فإنه الصدقة في حق العبد لكونه مجبولاً على الشح والبخل كما أن الأم في الأعطيات الإلهية من هذه الأقسام الثمانية إنما هو الوهب وهو الإعطاء لينعم لا لأمر آخر فهو الوهاب على الحقيقة في جميع أنواع عطائه، كما هو العبد متصدق في جميع أعطياته لأنه غير مجرّد عن الغرض وطلب العوض لفقره الذاتيّ، فما ينسب إلى الله بحكم العرض ينسب إلى المخلوق بالذات، وما ينسب إلى الحق بالذات كالغنى ينسب إلى المخلوق بالعرض النسبيّ الإضافيّ خاصة، قال تعالىٰ لنبيّه ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٣] أي ما يشتد عليهم في نفوسهم إعطاؤها، ولهذا قال ثعلبة بن حاطب: هذه أخية الجزية لما اشتدّ عليه ذلك بعدما كان عاهد الله كما أخبرنا الله في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٥] الآية، فلما رزقه الله مالاً وفرض الله الصدقة عليه قال: ما أخبر الله به عنه وقوله: بخلوا به هي صفة النفس التي جبلت عليه وهي إذا حكمت على العبد استبدلهُ الله بغيره نسأل الله العافية وهكذا ورد: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ عمّا سألتموه من الإنفاق وبخلتم ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [سورة محمد: الآية ٣٨] أي على صفتكم بل يعطون ما يسألون كما قال: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٩] فإن الملك أوسع من أن يضيق عن وجود شيء، فالصدقة أصل كونيّ والوهب أصل إلهي.

وممّا يؤيد ما ذكرناه أن الملائكة قالت من جبلتها حيث لم ترد الخير إلاّ لنفسها وغلب عليها الطبع في ذلك عن موافقة الحق فيما أراد أن يظهره في الكون من جعل آدم خليفة في الأرض فعرفهم بذلك فلم يوافقوه لحكم الطبع في الطمع في أعلى المراتب، ثم تستر حكم الطبع لئلاّ تنسب إلى النقص من عدم موافقة الحق فأقام لهم صورة الغيرة على جناب الحق والإيثار لعظمته وذهلوا عن تعظيمه، إذ لو وقفوا مع وما ينبغي له من العظمة لوافقوه ما وافقوه وإن كانوا قصدوا الخير فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي فنحن أولى من هذا فرجحوا نظرهم على علم الله في خلقه لذلك قال لهم: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] فوصفهم بنفي العلم الذي علم الحق من هذا الخليفة ممّا لم يعلموا وأثنوا على أنفسهم، فمسألتهم جمعت ذلك حيث أثنوا على أنفسهم وعدلوها وجرحوا غيرهم وما ردّوا العلم في ذلك إلى الله فهذا من بخل الطبع بالمرتبة.

وهذا يؤيّد أن الملائكة كما ذهبنا إليه تحت حكم الطبيعة وأن لها أثراً فيهم، قال تعالىٰ:

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [سورة ص: الآية ٦٩] والخصام من حكمها، وقد ورد اختصام ملائكة الرحمة وملائكة العذاب في الشخص الذي مات بين القريتين فوصفهم بالخصام، ولولا أن مرتبتها دون النفس وفوق الهباء لسرى حكمها، ومن أراد أن يقف على أصل هذا الشأن فلينظر إلى تضادّ الأسماء الإلهية، فمن هناك ظهرت هذه الحقيقة في الجميع، فهم مشاركون لنا في حكم الطبيعة، ومن حكمها البخل والشحّ فيمن تركب منها وهو من الاسم المانع في الأسماء، وسببه فينا أن الفقر والحاجة ذاتيّ لنا ولكل ممكن، ولهذا افتقرت الممكنات إلى المرجح لإمكانها. فالمكوّن عن الطبيعة شحيح بخيل بالذات كريم بالعرض، فما فرض الله الزكاة وأوجبها وطهر بها النفوس من البخل والشحّ إلاّ لهذا الأمر المحقق، فالفرض منها أشد على النفس من صدقة التطوّع للجبر الذي في الفرض، والاختيار الذي في التطوّع فإنه في الفرض عبد بحكم سيد وفي الاختيار لنفسه إن شاء وإن شاء.

وصل في فصل ـ الادّخار من شحّ النفس وبخلها: اعلم أنه من شحّ النفس الادّخار والشبهة لها إلى وقت الحاجة، فإذا تعين المحتاج كان العطاء، وعلى هذا أكثر بعض نفوس الصالحين. وأما العامة فلا كلام لنا معهم، وإنما نتكلم مع أهل الله على طبقاتهم، والقليل من أهل الله من يطلب على أهل الحاجة حتى يوصل إليهم ما بيده فرضاً كان أو تطوّعاً، فالفرض من ذلك قد عين الله أصنافه ورتبه على نصاب وزمان معين، والتطوّع من ذلك لا يقف عند شيء، فإن التطوّع إعطاء ربوبية فلا يتقيد، والفرض إعطاء عبودية فهو بحسب ما يرسم له سيده، وإعطاء العبودية أفضل فإنّ الفرض أفضل من النفل، وأين عبودية الاضطرار من عبودية الاختيار؟ وهذا الصنف قليل في الصالحين وشبهتهم أنا لم نكلف الطلب عليهم والمحتاج هو الطالب، فإذا تعين لي بالحال أو بالسؤال أعطيته، والذين هم فوق هذه الطبقة التي تعطي على حدّ الاستحقاق فهم أيضاً أعلى من هؤلاء، وهم الذين يعطون ما بأيديهم كرماً إلهياً وتخلقاً فيعطون المستحق وغير المستحق، وهو عندنا من جهة الحقيقة الآخذ مستحق لأنه ما أخذ إلاّ بصفة الفقر والحاجة لا بغيرها، سواء كانت الأعطية ما كانت من هدية أو وهب أو غير ذلك من أصناف العطايا، كالتاجر الغنيّ صاحب الآلاف يجوب القفار ويركب البحار ويقاسي الأخطار ويتغرّب عن الأهل والولد ويعرض بنفسه وبماله للتلف في أسفاره وذلك لطلب درهم زائد على ما عنده، فحكمت عليه صفة الفقر وأعمته عن مطالعة هذه الأهوال وهوّنت عليه الشدائد لأن سلطان هذه الصفة في العبد قوية.

فمن نظر هذا النظر الذي هو الحق فإنه يرى أن كل من أعطاه شيئاً وأخذه منه ذلك الآخر فإنه مستحق لمعرفته بالصفة التي بها أخذها منه إلاّ أن يأخذها قضاء حاجة له لكونه يتضرّر بالردّ عليه أو ليستر مقامه بالأخذ فذلك يده يد حق كما ورد: «**أَنَّ الصَّدَقَةَ تَقَعُ بِيَدِ الرَّحْمٰنِ قَبْلَ وُقُوعِهَا بِيَدِ السَّائِلِ فَيُرَبِّيهَا لَهُ كَمَا يُرَبي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ**» فهذا أخذ من غير خاطر حاجة في الوقت وغاب عن أصله الذي حرّكه للأخذ وهو أن ذلك تقتضيه حقيقة الممكن، فهذا شخص قد استترت عنه حقيقته في الأخذ بهذا الأمر الغرضي فنحن نعرفه حين

يجهل نفسه فما أعطى إلاّ غني عمّا أعطاه سواء كان لغرض أو عوض أو ما كان فإنه غنيّ عمّا أعطى وما أخذ إلاّ مستحق أو محتاج لما أخذ لغرض أو عوض أو ما كان، لأنّ الحاجة إلى تربية ما أخذ حاجة، إذ لا يكون مربياً إلاّ بعد الأخذ فافهم، فإنه دقيق غامض بسبب النسبة الإلهية في التربية للصدقة مع الغني المطلق الذي يستحقه.

والنسب الإلهية لا ينكرها إلاّ من ليس بمؤمن خالص فإنّ الله يقول: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٢٠] ويقول: جعت فلم تطعمني، وظمئت فلم تسقني، وبين ذلك كله فلم يمتنع جلّ وتعالىٰ عن نسبة هذه الأشياء إليه تنبيهاً منه لنا أنه هو الظاهر في المظاهر بحسب استعداداتها، واليد العليا هي المنفقة فهي خير بكل وجه من اليد السفلى التي هي الآخذة، فالمعطي بحق والآخذ بحق ليسا على السواء في المرتبة ولا في الاسم ولا في الحال، فما من شيء إلاّ وله وجه ونسبة إلى الحق ووجه ونسبة إلى الخلق، ولهذا جعله إنفاقاً فقال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [سورة المنافقون: الآية ١٠] ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٥] فراعى عزّ وجلّ في هذا الخطاب أكابر العلماء لأنهم الذين لهم العطاء من حيث ما هو إنفاق لعلمهم بالنسبتين لأنه من النفق وهو جحر اليربوع، ويسمّى النافقاء له بابان إذا طلب من باب ليصاد خرج من الباب الآخر كالكلام المحتمل إذا قيدت صاحبه بوجه أمكن أن يقول لك: إنما أردت الوجه الآخر من محتملات اللفظ.

ولما كان العطاء له نسبة إلى الحق والغنى ونسبة إلى الخلق والحاجة سمّاه الله إنفاقاً، فعلماء الخلق ينفقون بالوجهين فيرون الحق فيما يعطونه معطياً وآخذاً، ويشاهدون أيديهم هي التي يظهر فيها العطاء والأخذ ولا يحجبهم هذا عن هذا، فهؤلاء لا يرون إلاّ مستحقاً، فكل آخذ إنما أخذ بحكم الاستحقاق ولو لم يستحقه لاستحال القبول منه لما أعطيته كما يستحيل عليه الغنى المطلق ولا يستحيل عليه الفقر المطلق. ثم إن الذين ينتظرون مواقيت الحاجة ويدّخرون كما ذكرنا للشبهة التي وقعت لهم، فمنهم من يدّخر على بصيرة، ومنهم من يدّخر لا عن بصيرة فلا نسلم لهم ادّخارهم في ذلك لأنه لا عن بصيرة وليس من أهل الله، فإن أهل الله هم أصحاب البصائر، والذي عن بصيرة فلا يخلو إمّا أن يكون عن أمر إلهيّ يقف عنده ويحكم عليه أو لا عن أمر إلهيّ، فإن كان عن أمر إلهيّ فهو عبد محض لا كلام لنا معه فإنه مأمور كما نظنّه في عبد القادر الجيليّ فإنه كان هذا مقامه والله أعلم لما كان عليه من التصرّف في العالم وإن لم يكن عن أمر إلهيّ، فإمّا أن يكون عن اطلاع أن هذا القدر المدّخر لفلان لا يصل إليه إلاّ على يد هذا فيمسكه لهذا الكشف، وهذا أيضاً من وجوه عبد القادر وأمثاله. وإما أن يعرف أنه لفلان ولا بد ولكن لم يطالع على أنه على يده أو على يد غيره فإمساك مثل هذا الشحّ في الطبيعة وفرح بالوجود، ويحتجب عن ذلك بكشفه من هو صاحبه، وبهذا احتججنا على عبد العزيز بن أبي بكر المهدوي في ادّخاره فوقف ولم يجد جواباً فإنه ادّخر لا عن بصيرة أن ذلك على يده ولا عن بصيرة أن ذلك المعين عنده صاحبه فافتضح بين أيدينا في الحال، ومثل هذا ينبغي أن لا يدخر.

ولقد أنصف سيد الطائفة عاقل زمانه المنصف بحاله أبو السعود بن الشبل حيث قال: نحن تركنا الحق يتصرف لنا فلم يزاحم الحضرة الإلهية، فلو أمر وقف عند الأمر أو عيّن له وقف مع التعيين وفيه خلاف بين أهل الله فإنه من الرجال من عيّن لهم أنّ ذلك المدّخر لا يصل إلى صاحبه إلاّ على يده في الزمان الفلاني المعين، فمنهم من يمسكه إلى ذلك الوقت. ومنهم من يقول: ما أنا حارس أنا أخرجه عن يدي إذ الحق تعالىٰ ما أمرني بإمساكه، فإذا وصل الوقت فإن الحق يردّه إلى يدي حتى أوصله إلى صاحبه وأكون ما بين الزمانين غير موصوف بالادّخار لأني خزانة الحق ما أنا خازله إذ قد تفرغت إليه وفرغت نفسي له لقوله: وسعني قلب عبدي، فلا أحب أن يزاحمه في تلك السعة أمر ليس هو، فاعلم ذلك فقد نبهتك على أمر عظيم في هذه المسألة فلا تصحّ الزكاة من عارف إلاّ إذا ادّخر عن أمر إلهيّ أو كشف محقق معين أنه ما يسبق في العلم أن يكون لهذا الشيء خازن غيره فحينئذ يسلم له ذلك، وما عدا هذا فإنما يزكي من حيث تزكي العامة. انتهى الجزء الثالث والخمسون.

(الجزء الرابع والخمسون)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل في فصل ـ تقسيم الناس في الصدقات المعطي منهم والآخذ: اعلم أن الناس على أربعة أقسام فيما يعطونه وفيما يأخذونه: قسم يستعظم ما يعطي ويستحقر ما يأخذ، وقسم يستحقر ما يعطي ويستعظم ما يأخذ، وقسم يستحقر ما يعطي وما يأخذ، وقسم يستعظم ما يعطي وما يأخذ. ولهذا منهم: من ينتقي وهم الذين لا يرون وجه الحق في الأشياء. ومنهم: من لا ينتقي وهم الذين يرون وجه الحق في الأشياء وقد ينتقون لحاجة الوقت وقد لا ينتقون لاطلاعهم على فقرهم المطلق، فمنهم ومنهم، فإن مشاربهم مختلفة، وكذلك مشاهدهم وأذواقهم بحسب أحوالهم، فإن الحال للنفس الناطقة كالمزاج للنفس الحيوانية، فإنّ مزاج حاكم على الجسم والحال حاكم على النفس. ثم اعلم أن استعظام الصدقة مشروع قال تعالىٰ: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [سورة الحج: الآية ٢٨]. وقال: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٦] يعني من البدن التي جعلها سبحانه من شعائر الله قال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٢] يعني البدن، وفي هذه القصة قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٥].

وقد ذكرنا في شرح المنفق الذي الإنفاق منه كونه له وجهان فكذلك هنا فنالنا منها لحومها ونال الحق منها التقوى منا فيها ومن تقوانا تعظيمها، فقد يكون استعظام الصدقة من هذا الباب عند بعض العارفين، فلهذا يستعظم ما يعطي إن كان معطياً، أو ما يأخذ إن كان آخذاً، وقد يكون مشهده ذوقاً آخر وهو أول مشهد ذقناه من هذا الباب في هذا الطريق وهو أني حملت يوماً في يدي شيئاً محقراً مستقذر في العادة عند العامة لم يكن أمثالنا يحمل مثل ذلك من أجل ما في النفوس من رعونة الطبع ومحبة التميز على من لا يلحظ بعين التعظيم،

فرأيت الشيخ ومعه أصحابه مقبلاً فقال له أصحابه: يا سيدنا هذا فلان قد أقبل وما قصر في الطريق لقد جاهد نفسه نراه يحمل في وسط السوق حيث يراه الناس كذا وذكروا له ما كان بيدي فقال الشيخ: فلعله ما حمله مجاهدة لنفسه، قالوا له: فما ثم إلاً هذا، قال: فاسألوه إذا اجتمع بنا، فلما وصلت إليهم سلمت على الشيخ فقال لي بعد ردّ السلام: بأي خاطر حملت هذا في يدك وهو أمر محقّر مستقذر وأهل منصبك من أرباب الدنيا لا يحملون مثل هذا في أيديهم لحقارته واستقذاره، فقلت له: يا سيدنا حاشاك من هذا النظر ما هو نظر مثلك إن الله تعالىٰ ما استقذره ولا حقره لما علّق القدرة بإيجاده كما علّقها بإيجاد العرش وما تعظمونه من المخلوقات فكيف بي وأنا عبد حقير ضعيف استحقر واستقذر ما هو بهذه المثابة، فقبلني ودعا لي وقال لأصحابه: أين هذا الخاطر من حمل المجاهد نفسه فقد يكون استعظام الصدقة من هذا الباب في حق المعطي وفي حق الآخذ.

فلاستعظام الأشياء وجوه مختلفة يعتبرها أهل الله أوحى الله إلى موسىٰ عليه السلام إذا جاءتك من أحد باقلاية مسوّسة فاقبلها فإني الذي جئت بها إليك فيستعظمها المعطي من حيث أنه نائب عن الحق تعالىٰ في إيصالها، ويستعظمها الآخذ من حيث أنّ الله جاء بها إليه، فيد المعطي هنا يد الحق عن شهود أو إيمان قويّ فإن الله يقول: إنّ الله قال على لسان عبده سمع الله لمن حمده فأضاف القول إليه والعبد هو الناطق بذلك. وقال تعالىٰ في الخبر: كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً. وقد يكون استعظامها عند أهل الكشف لما يرى ويشاهد ويسمع من تسبيح تلك الصدقة أو الهدية أو الهبة أو ما كانت لله تعالىٰ، وتعظيمها لخالقها باللسان الذي يليق بها وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] فتعظم عنده لما عندها من تعظيم الحق وعدم الغفلة والفتور دائماً كما تعظم الملوك الصالحين وإن كانوا فقراء مهانين عبيداً كانوا أو إماء وأهل بلاء كانوا أو معافين، ويتبركون بهم لانتسابهم إلى طاعة الله على ما يقال فكيف بصاحب هذا المشهد الذي يعاين؟

فمن كان هذا مشهده أيضاً من معط وآخذ يستعظم خلق الله إذ هو كله بهذه المثابة، وقد يقع التعظيم له أيضاً من باب كونه فقيراً إلى ذلك الشيء محتاجاً إليه من كون الحق تعالىٰ جعله سبباً لا يصل إلى حاجته إلاً به، سواء كان معطياً أو آخذاً إذا كان هذا مشهده، وقد يستعظم ذلك أيضاً من حيث قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] فتسمّى الله في هذه الآية بكل شيء يفتقر إليه وهذا منها، وأسماء الحق معظمة وهذا من أسمائه وهو دقيقة لا يتفطن إليها كل أحد إلاً من يشاهد هذا المشهد وهو من باب الغيرة الإلهية والنزول الإلهيّ العام مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] مع ما عبد في الأرض من الحجارة والنبات والحيوان، وفي السماء من الكواكب والملائكة، وذلك لاعتقادهم في كل معبود أنه إله لا لكونه حجراً ولا شجرة ولا غير ذلك وإن أخطؤوا في النسبة في أخطؤوا في المعبود فلهذا قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فكان من قضائه أنهم اعتقدوا الإله وحينئذ عبدوا ما عبدوا، فهذا من الغيرة الإلهية حتى لا

يعبد إلاَّ من له هذه الصفة، وليس إلاَّ الله سبحانه في نفس الأمر فقد تستعظم الصدقة من هذا الكشف.

وأما استحقارها عند بعضهم فلمشهد آخر ليس هذا، فإن مشاهد القوم وأحوالهم وأذواقهم ومشاربهم تحكم عليهم بقوّتها وسلطانها، وهل كل ما ذكرناه في الاستعظام إلاَّ من باب حكم الأحوال والأذواق والمشاهد على أصحابها، فمنها أن يشاهد إمكان ما تعطيه من صدقة إن كان معطياً، أو ما يأخذ إن كان آخذاً، والإمكان للممكن صفة افتقارية وذلة وحاجة وحقارة، فيستحقر صاحب هذا المشهد كل شيء سواء كان ذلك من أنفس الأشياء في العادة أو غير نفيس، وقد يكون مشوباً أيضاً في الاستحقار من يعطي من أجل الله ويأخذ بيد الله، رأيت بعض أهل الله فيما أحسب فإني لا أزكي على الله أحداً كما أمرنا رسول الله ﷺ وفعله وقد نهانا الله عن ذلك، وقد سأل فقير شخصاً أن يعطيه صدقة لله فأخرج الرجل المسؤول صرّة فيها قطع فضة بين كبير وصغير فأخذ يفتش فيها بيده وذلك الرجل الصالح ينظر إليه ثم ردّ وجهه إليّ وقال لي: تعلم على من يبحث هذا المتصدق؟ قلت: لا، قال: على قدر منزلته عند الله، فإنه يعطي من أجل الله، فإذا رأى قلعة كبيرة يعدل عنها ويقول: ما نساوي عند الله هذا القدر إلى أن عمد إلى أصغر قطعة وجدها فأعطاها السائل فقال ذلك الصالح: هذه قيمتك عند الله ألا كل شيء محتقر في جنب الله.

لكن هنا كرم إلهيّ يستند إلى غيرة إلهية، وذلك أن الناس يوم القيامة ينادي مناد فيهم من قبل الله: أين ما أعطي لغير الله؟ فيؤتى بالأموال الجسام والعقار والأملاك، ثم يقال: أين ما أعطي لوجهي؟ فيؤتى بالكسر اليابسة والفلوس وقطع الفضة المحقرة والخليع من الثياب، فغار الحق لذلك أن يعطى لوجهه من نعمته مثل ذلك فأخذ الصدقة بيده ورباها حتى صارت مثل جبل أحد أكبر ما يكون فيظهرها له على رؤوس الإشهاد ويحقر ما أعطي لغير الله فيجعله هباء منثوراً، فلا بدّ من الاستخبار لمن هذا مشهده؟ وأمثال هذا ممّا يطول ذكره، وقد نبهنا على ما فيه كفاية من ذلك ممّا تدخل فيه الأربعة الأقسام التي قسمنا العالم إليها في أول هذا الفصل.

وصل في فصل ـ أحوال الناس في الجهر بالصدقة والكتمان: من الناس من يراعي صدقة السرّ لأجل ثناء الحق على ذلك في الحديث الحسن الذي يتضمن قوله: «**مَا تَدْرِي شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ**» وما جاء في صدقة السرّ واعتناء الله بذلك فيسرّ بها لعلم الله بما أنفق لا لغير ذلك من إخلاص وشبهه، لأن القوم قد حفظهم الله عن الشرك الجليّ والخفيّ فممن يخلصون، وما ثم إلاَّ الله لا رب غيره، وذلك لمشاهدتهم الحق في الأعمال عاملاً، فيعلمون أن الحق تعالىٰ ما ذكر باب السرّ في مثل هذا وفضله على الإعلان في حق من يرى هذا النظر إلاَّ لعلم له في ذلك، وإن لم يطلع عليه لا لأجل الإخلاص والجهر إذ الجهر والسرّ قد تساويا في حق هؤلاء في المعطي والآخذ، ومن هذا الباب قوله: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأ خَير مِنْهُمْ**» الحديث.

وأمّا صاحب الإعلان بالصدقة فليس هذا مشهده ولا أمثاله، وإنما الغالب على قلبه وبصره مشاهدة الحق في كل شيء، فكل حال عنده أعمال بلا شك ما يشهد غير هذا فيعلن بالصدقة، كما يذكره في الملأ، فإن من ذكره في الملأ فقد ذكره في نفسه، فإن ذكر النفس متقدم بلا شك، وما كل من ذكره في نفسه ذكره في ملأ، فهذه حالة زائدة على الذكر النفسي لا مرتبة تفوت صاحب ذكر النفس، فإن ذكر النفس لا يطلع عليه في الحالتين، فهو سرّ بكل وجه، فصدقة الإعلان تؤذن بالاقتدار الإلهيّ فعمن يخفيها أو يسرّها وهو الظاهر في المظاهر الإمكانية، وهذه كانت طريقة شيخنا أبي مدين وكان يقول: قل الله ثم ذرهم ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٤٠] وقد يعلن بها للتأسي وراثة نبوية.

وأما ما يذكر عامة أهل هذا الطريق كأبي حامد والمحاسبي وأمثالهما من العامة من الرياء وطلب الإخلاص فإنما ذلك خطاب الحق بلسان العموم ليعم بذلك ما هو لسان من لا يرى لا لله، ونحن إنما نتكلم مع أهل الله في ذلك، ولقد كان شيخنا يقول لأصحابه: اعلنوا بالطاعة لله حتى تكون كلمة الله هي العليا كما يعلن هؤلاء بالمعاصي والمخالفات وإظهار المنكرات ولا يستحيون من الله، قال بعض السادة لأصحاب شيخ معتبر: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ قال: كان يأمرنا بالاجتهاد في الأعمال ورؤية التقصير فيها، فقال: أمركم والله بالمجوسية المحضة، هلا أمركم بالأعمال وبرؤية مجريها ومنشيها؟ فهذا من هذا الباب، فقد نبهتك على دقائق صدقة السرّ والإعلان في نفوس القوم مع الخلاف الذي بين علماء الرسوم في الصدقة المكتوبة وصدقة التطوّع وهو مشهور لا يحتاج إلى ذكره لشهرته من أجل طلب الاختصار والاقتصاد وفي صدقة الإعلان ورد من سنّ سنّة حسنة الحديث.

وأما الكامل من أهل الله فهو الذي يعطي بالحالتين ليجمع بين المقامين، ويحصل النتيجتين، وينظر بالعينين، ويسلك النجدين، ويعطي باليدين، فيعلن في وقت في الموضع الذي يرى أن الحق رجح فيه الإعلان ويسرّ بها في وقت في الموضع الذي يرى أن الحق رجح فيه الإسرار، وهذا هو الأولى بالكمل من أهل الله في طريق الله تعالىٰ.

وصل في فصل ـ صدقة التطوّع: صدقة التطوّع عبودية اختيار مشوبة بسيادة وإن لم تكن هكذا فما هي صدقة تطوّع، فإنه أوجبها على نفسه إيجاب الحق الرحمة على نفسه لمن تاب وأصلح من العاملين السوء بجهالة، فهذه مثلها ربوبية مشوبة يحكم عليه بها، فإن الله تعالىٰ لا يجب عليه شيء بإيجاب غيره، فهو الموجب على نفسه الذي أوجبه من حيث ما هو موجب، فمن أعطى من هذا الوجوب من هذه المنزلة ثم نفرض أن هذه المرتبة الإلهية إذا فعلت مثل هذا ونفرض لها ثواباً مناسباً على هذا الفعل فنعطيه بعينه لمن أعطى بهذا الوجوب من هذه المنزلة وهم أفراد من العارفين بصدقة التطوّع، فإن الحق من ذلك المقام يثيبه إذا كان هذا مشربه، وهذه مسألة ذوقية مشهودة للقوم، ولكن ما رأيت أحداً نبّه عليه قبلي إلاّ إن كان، وما وصل إليّ فإنه لا بدّ لأهل الله المتحققين بهذا المقام من إدراك هذا، ولكن قد لا يجريه الله على ألسنتهم أو تتعذر على بعضهم العبارة عن ذلك، وقد ذكرناها في كتابنا هذا في غير هذا

الموضع بأبسط من هذا القول وأوضح من هذه العبارة، وبهذا الاعتبار تعلو صدقة التطوّع على صدقة الفرض ابتداء، فإن هذا التطوّع أيضاً قد يكن واجباً بإيجاب الله إذ أوجبه العبد على نفسه كالنذر فإن الله أوجبه بإيجاب العبد وغير النذر قد يلحق بهذا الباب.

قال الأعرابيّ في صحيح الحديث: «**يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي الزَّكَاةِ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: لاَ إلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ**» فيحتمل أن الله يوجب عليه ذلك إذا تطوّع به فيلحقه بدرجة الفرض فيكون في الثواب على السواء مع زيادة أجر التطوّع في ذلك، فيعلو على الفرض الأصليّ بهذا القدر والله يقول: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٣٣] فنهى والنهي يعمّ العمل به بخلاف الأمر فالشروع في الشرع ملزم وهو الأظهر، فسوّى في النهي بين المفروض وغير المفروض، وقضى رسول الله ﷺ النافلة في الصلاة والصيام ولا يجوز عندنا ذلك في الفرائض وهي مسألة خلاف في قضاء الفرض الموقت، وليس معنى التطوّع في ذلك كله إلاّ أن العبد عبد بالأصالة ومحل لما يوجبه عليه سيده، فهو بالذات قابل للوجوب والإيجاب عليه فالمتطوّع إنما هو الراجع إلى أصله، والخروج عن الأصل إنما هو بحكم العرض، فمن لزم الأصل دائماً فلا يرى إلاّ الوجوب دائماً لأنه مصرّف مجبور في اختياره تشبيهاً بالأصل الذي أوجده فإنه قال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] فما يكون منه إلاّ ما سبق به العلم فانتفى الإمكان بالنسبة إلى الله، فما ثم إلاّ أن يكون أو لا يكون غير هذا ما في الجناب الإلهيّ.

ومنه قال في حديث التردّد: «**وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْ لِقَائِي**» أي لا بدّ له من الموت. وقوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [سورة الزمر: الآية ١٩] وقوله: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ﴾ [سورة السجدة: الآية ١٣] فليس في الأصل إلاّ أمر واحد عند الله، فليس في الكون واقع إلاّ أمر واحد علمه من علمه وجهله من جهله هذا تعطي الحقائق، فالحكم للوجوب والإمكان لا عين له بكل وجه الواحد إذا لم يكن فيه إلاّ حقيقة الوحدة من جميع الوجوه، فليس للكثرة وجه فيه تخرج عنه بذلك الوجه فلا يخرج عنه إلاّ واحد، فإن كان في الواحد وجوه معان أو نسب مختلفة فالكثرة الظاهرة عنه لا تستحيل، لأجل هذه الوجوه الكثيرة فاجعل بالك من هذه المسألة، فإنك من هنا تعرف من أين جئت؟ ومن أنت؟ وهل أنت واحد أو كثير؟ ومن أيّ وجه يقبل الواحد الكثرة ويقبل الكثير الوحدة؟ ولماذا كانت الحكمة في الكثرة أوسع منها في الواحد والواحد هو الأصل؟ فبماذا خرج الفرع عن حكم الأصل وما ثم من يعضده؟ وهل النسب التي أعطت الكثرة في الأصل هل ترجع إلى الأصل أو تعطيها أحكام الفرع وليست في الأصل أعيان وجودية؟ هذا كله يتعلق بهذه المسألة، فسبحان الواحد الموحّد بالواحد وأحدية الكثرة، فإن للكثرة أحدية تخصّها لا بدّ من ذلك بها سميت تلك الكثرة المعينة وتميزت عن غيرها، فما وقع التميز بين الأشياء آحاداً أو كثيرين إلاّ بالوحدة، ولو اشترك فيها اثنان ما وقع التميّز والتميّز حاصل، فالوحدة لا بدّ منها في الواحد والمجموع فما ثم إلاّ واحد أصلاً وفرعاً، فانظر يا أخي فيما نبهتك عليه فإنه من لباب المعرفة الإلهية، وانظر ما تعطيه صدقة التطوّع وما أشرف هذه الإضافة.

وصل في استدراك تطهير الزكاة ـ وصل في الزكاة من غير الجنس في المال المزكى: فرض رسول الله ﷺ في كل خمس من الإبل شاة، وصنف الشاة غير صنف الإبل، فالأصل في هذه المسألة هل يطهر الشيء بنفسه أو يطهر بغيره؟ فالأصل الصحيح أن الشيء لا يطهر إلاّ بنفسه، هذا هو الحق الذي يرجع إليه، وإن وقع الخلاف في الصورة فالمراعاة إنما هي في الأصل لما فرض الله الطهارة للعبادة بالماء والتراب وهما مخالفان في الصورة غير مخالفين في الأصل، فالأصل أنه من الماء خلق كل شيء حيّ، وقال في آدم: خلقه من تراب، فما أوقع الطهارة في الظاهر إلاّ بنفس ما خلق منه كالحيوانية الجامعة للشاء والإبل والمالية للشاء والإبل وغير ذلك، فلولا هذا الأمر الجامع ما صحّت الطهارة، فلهذا صحّت الزكاة في بعض الأموال بغير الصنف الذي تجب فيه الزكاة، قال رسول الله ﷺ في تطهير الإنسان من الجهل: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» فبمعرفته صحّت طهارته لمعرفته بربه، فالحق هو القدّوس المطلق، وتقديس العبد معرفته بنفسه فما طهر إلاّ بنفسه فتحقق هذا.

وصل في فصل النصاب: النصاب: المقدار، وهو الذي يصحّ أن يقال فيه كم ويكون كيلاً ووزناً. وقد بيّن الشارع نصاب المكيل ونصاب الموزون.

الاعتبار في هذا: المكيل المعقول لما ورد في الخبر النبويّ من تقسيم العقل في الناس بالقفيز والقفيزين والأكثر والأقل فألحقه الشارع بالمكيل وإن كان معنى فهو صاحب الكشف الأتم الأعمّ الأجلى، وقد عرّفناك قبل أن الحضرات ثلاث: عقلية وحسيّة وخيالية، والخيالية هي التي تنزل المعاني إلى الصور المحسوسة أعني تجلّيها فيها إذ لا يعقلها إلاّ هكذا. ومن هذه الحضرة قسم الشارع العقل كيلاً لكون العقل أظهره له الحق في صورة المكيل أعني العقول لما أراد الله من ذلك. وأما الموزون فالأعمال وهي أيضاً معان عرضية تعرض للعامل فألحقها الله بالموزون فقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٤٧] وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [سورة الزلزلة: الآية ٧] فأدخل العمل في الميزان فكان موزوناً.

ولكن في هذه الحضرة المثالية التي لا تدرك المعاني إلاّ في صورة المحسوس حتى التجلّي الإلهيّ في النوم فلا ترى الحق إلاّ صورة، وقد ورد في ذلك من الأخبار ما يغني عن الاستقصاء في تحقيق ذلك وهو شيء يعلمه كل إنسان، إذ كل إنسان له تخيّل في اليقظة والمنام، ولهذا يعبر ما يدركه الخيال كما عبر الشارع عليه السلام من صورة اللبن إلى العلم، ومن صورة القيد إلى الثبات في الدين، فهذا معرفة النصاب بما هو نصاب لا بما هو نصاب في كذا، فإن ذلك يرد في نصاب ما تخرج منه الزكاة، ويندرج في هذا الباب معرفة ماله كمية واحدة وكميات كثيرة، فإن لنا في ذلك مذهباً من أجل أن قطعة الفضة أو الذهب قد تكون غير مسكوكة فتكون جسماً واحداً، فإذا وزنت أعطى وزنها النصاب أو أزيد من ذلك، فمن كونها جسماً واحداً هل لذلك الجسم كمية واحدة أو كميات كثيرة؟ أعني أزيد من واحد. فاعلم أن الأعداد تعطي في الشيء كثرة الكميات وقلتها والعدد كمية، فإن كان العدد بسيطاً غير مركب

فليس له غير كمية واحدة وهو من الواحد إلى العشرة إلى عقد العشرات عقداً عقداً، كالعشرين والثلاثين إلى المائة إلى المائتين إلى الألف إلى الألفين وانتهى الأمر.

فإذا كان الموزون أو المكيل ينطلق عليه وهو جسم واحد أحد هذه الألقاب العددية فإنه ذو حكم واحد، فإن انطلق عليه غير هذه الألقاب من الأعداد مثل أحد عشر أو مثل مائة وعشرين أو مثل ثلاثمائة ومثل ثلاثة آلاف أو ما تركب من العدد فكمياته من العدد بحسب ما تركب، أو يكون الموزون ليس جسماً واحداً كالدراهم والدنانير فله أيضاً كميات كثيرة، فإن كان العدد مركباً والموزون مجموعاً من آحاد كان العدد والموزون ذو كميات، فإن كان أحدهما مركباً ومجموعاً والآخر ليس بمجموع أو ليس بمركب كان ما ليس بمركب ولا مجموع ذو كمية واحدة، وكان المركب والمجموع ذا كميات فاعلم ذلك.

وتحدث الكميات في الأجسام بحدوث الانقسام إذ الأجسام تقبل القسمة بلا شك، ولكن هل يرد الانفصال بالقسمة على الاتصال أم لا؟ فإن ورد على الاتصال كما يراه بعضهم فالجسم الواحد ذو كميات، وإن لم يرد على الاتصال كما يراه بعضهم فليس له سوى كمية واحدة، وهذا التفضيل الذي ذكرناه نحن من كميات الموزون وكميات العدد على هذا ما رأينا أحداً تعرض إليه وهو ممّا يحتاج إليه ولا بدّ، ومن عرف هذه المسألة عرف هل يصحّ إثبات الجوهر الفرد الذي هو الجزء الذي لا يقبل القسمة أم لا يصحُّ؟ ثم لتعلم أن من حكمة الشرع جمعه أصناف العدد فيما تجب فيه الزكاة وهي الفردية فجعلها في الحيوان فكان في ثلاثة أصناف، والثلاثة الأول الأفراد وهي الإبل والبقر والغنم، وجعل الشفعية في صنفين في المعدن وهو: الذهب والفضة. وفي الحبوب وهو: الحنطة والشعير، وجعل الأحدية في صنف واحد من الثمر وهو الثمر خاصة هذا بالاتفاق بلا خلاف، وما عدا هذا ممّا يزكى فبخلاف غير مجمع عليه، فمنه خلاف شاذ ومنه غير شاذ.

وصل في فصل زكاة الورق: اتفقوا على أنه خمس أواق للخبر الصحيح، والأوقية أربعون درهماً، هذا هو النصاب في الورق، وزكاته خمسة دراهم وذلك ربع العشر.

وصل الاعتبار في ذلك: لكل صنف كمال ينتهي إليه، فالكمال في الصنف المعدني حازه الذهب، وسيأتي ذكره في زكاة الذهب والورق على النصف من درجة الكمال والمدّة الزمانية لحصول الكمال المعدني ستة وثلاثون ألف سنة، والورق ثمان عشرة ألف سنة وهو نصف زمان الكمال، وجميع المعادن تطلب درجة الكمال لتحصلها، فتطرأ في الطريق علل تحول بينهم وبين البلوغ إلى الغاية، فالواصل منها إلى الغاية هو المسمّى ذهباً، وما نزل عن هذه الدرجة لمرض غلب عليه حدث له اسم آخر من فضة ونحاس وأسرب وقزدير وحديد وزئبق، فيكون الذهب عن اتحاد أبويه بالنكاح والتسوية في التناسب واستيلاء حرارة المعدن في الكل على السواء، ولم يعرض للأبوين من البرودة واليبوسة ما يؤثر في هذا الطالب درجة الكمال قبل تحكّم سلطان حرارة المعدن، فإذا كان السالك بهذه المثابة بلغ الغاية فوجد عين الذهب فإن دخل عليه في سلوكه من البرودة فوق ما يحتاج إليه أمرضه وحال بينه وبين مطلوبه حدث له اسم

الفضة فما نزلت عن الذهب إلاَّ بدرجة واحدة والكمال في الأربعة وقد نقص هذا عن الكمال بدرجة واحدة من أربعة والأربعة أوّل عدد كامل ولهذا يتضمن العشرة، فكان في الفضة ربع العشر لنقصان درجة واحدة عن الذهب بغلبة البرودة، والبرودة أصل فاعليّ، والحرارة أصل فاعليّ، والرطوبة واليبوسة فرعان منفعلان، فتبعت الرطوبة البرودة لكونها منفعلة عنها فلهذا تكوّنت الفضة على النصف من زمان تكوين الذهب، ولما كان المنفعل يدل على الفاعل ويطلبه بذاته لهذا استغني بذكر المنفعل عن ذكر ما انفعل عنه لتضمنه إياه فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٩] ولم يذكر ولا حار ولا بارد وهذا من فصاحة القرآن وإعجازه حيث علم أن الذي أتى به وهو محمد ﷺ لم يكن ممّن اشتغل بالعلوم الطبيعية فيعرف هذا القدر، فعلم قطعاً أن ذلك ليس من جهته وأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢] وأن القائل بهذا عالم وهو الله تعالىٰ، فعلّم النبي ﷺ كل شيء بتعليم الله إياه وإعلامه لا بفكره ونظره وبحثه، فلا يعرف مقدار النبوّة إلاَّ من أطلعه الله على مثل هذه الأمور، فانظر ما أحكم علم الشرع في فرض الزكاة في هذه الأصناف على هذا الحدّ المعلوم في كل صنف صنف لمن نظر واستبصر.

وصل في فصل نصاب الذهب: المتفق عليه في نصاب الذهب ما نذكره إن شاء الله فقالت طائفة: تجب الزكاة في عشرين ديناراً كما تجب في مائتي درهم. ومن قائل: ليس في الذهب شيء حتى يبلغ أربعين ديناراً ففيه دينار واحد وهو ربع العشر أعني عشرها لأن عشر الأربعين أربعة وربع الأربعة واحد. ومن قائل: ليس في الذهب زكاة حتى يبلغ صرفه مائتي درهم أو قيمتها فإذا بلغ ففيه ربع عشره سواء بلغ عشرين ديناراً أو أقل أو أكثر، هذا فيما كان من ذلك دون الأربعين حينئذ يكون الاعتبار في الذهب ما ذكرناه، فإذا بلغ الأربعين كان الاعتبار بها نفسها لا بالدراهم لا صرفاً ولا قيمة.

الاعتبار في ذلك: في كل أربعين ديناراً دينار وهو ربع العشر، من ذلك قد ذكرنا أن الفضة لما حكم عليها وهي تطلب الكمال الذي ناله الذهب طبع واحد وهو البرودة من الأربع الطبائع فأخذت من الذهب طبعاً واحداً أخرجته عن محل الاعتدال فلهذا أخذ من الأربعين التي هي نصاب الذهب دينار واحد وهو ربع العشر لأنك إذا ضربت أربعة في عشرة كان الخارج أربعين فالأربعة عشر الأربعين والواحد ربع الأربعة فهو ربع عشرها وهو الواحد الذي أخذته الفضة وصارت به فضة في طلبها درجة الكمال فنقص من الذهب هذا القدر فكانت زكاته ديناراً وهذا الدينار قد اجتمع مع الخمسة الدراهم في كونه ربع عشر ما أخذ منه، فإن العشرين عشر المائتين وربع العشرين خمسة فكان في المائتين خمسة دراهم وهي ربع عشرها، فمن حمل الذهب على الفضة وقال: إن في عشرين ديناراً كما في مائتي درهم، أو من قال بالصرف والقيمة بمائتي درهم فأوجب الزكاة فيما هذا قيمته وصرفه من الذهب وهذا فيما دون الأربعين، فإنه ما ورد نهي فيما دون الأربعين من الذهب كما ورد في الورق فإنه قال: ليس فيما دون خمس أواق صدقة ولم يقل ليس فيما دون الأربعين، فلهذا ساغ الخلاف

في الذهب ولم يسغ في الورق واجتمعا في ربع العشر بكل وجه، واعتبر العشر والربع منه لتضمن الأربعة العشرة فضربت فيها ولم تضرب في غيرها لأن الأربعة تتضمن عينها وما تحتها من العدد فيكون من المجموع عشرة، ولهذا قيل في الأربعة إنه أوّل عدد كامل فإن الأربعة عينها وفيها الثلاثة فتكون سبعة وفيها الاثنان فتكون تسعة وفيها الواحد فتكون عشرة، فمن ضرب الأربعة في العشرة كان كمن ضرب الأربعة في نفسها بما تحوي عليه فوجبت الزكاة لنظرها لنفسها في ذلك ولم تنظر إلى بارئها وموجدها فأخذ الحق منها نظرها إلى نفسها وسمّاه زكاة لها أي طهارة من الدعوى فبقيت لربها بربها فلم يتعين له فيها حق يتميز لأنها كلها له لا لذاتها.

وصل في فصل ـ الأوقاص وهي ما زاد على النصاب ممّا يزكى: أجمع العلماء على زكاة الأوقاص في الماشية وعلى أنه لا أوقاص في الحبوب، واختلفوا في أوقاص الذهب والورق وبترك الزكاة في أوقاص الذهب والورق، أقول: فإن إلحاقهما بالحبوب أولى من إلحاقهما بالماشية فإن الحيوان مجاور للنبات والنبات مجاور للمعدن فإلحاقه في الحكم بالمجاور أحق فإن الجار أحق بصقبه.

وصل في اعتبار هذا: الكمال لا يقبل النقص والزكاة نقص من المال، ولهذا لما كمل الحيوان بالإنسانية لم يكن فيه زكاة، فإن الأشياء ما خلقت إلاّ لطلب الكمال فلا كامل إلاّ الإنسان، وأكمل المعادن الذهب ولهذا لا يقبل النقص بالنار مثل ما يقبله سائر المعادن. فإن قلت: فالفضة قد نزلت عن درجة الكمال فهي ناقصة فوجبت الزكاة في أوقاصها. قلنا: قد أشركها الحق في الزكاة إذا بلغت النصاب في الذهب ولم يفعل ذلك في سائر المعادن، فلولا أن بينهما مناسبة قوية لما وقع الاشتراك في الحكم فليكن في الأوقاص كذلك. فإن قلت: إن الزكاة نقص من المال ومن بلغ الكمال لا ينقص والذهب قد بلغ الكمال والزكاة فيه إذا بلغ النصاب وهو ذهب في النصاب وذهب في الأوقاص ما زال عنه حكم الكمال. قلنا: كذلك أقول هكذا كان ينبغي لو جرينا على هذا الأصل لكن عارضنا أصل آخر إلهي وهو التبدّل والتحوّل في الصور عند التجلّي الإلهي واختلاف النسب والاعتبارات على الجناب الإلهي والعين واحدة والنسب مختلفة، فهي العالمة من كذا والقادرة والخالقة من كذا، فالحق سبحانه ما فرض الزكاة في أعيان المزكي من كونها أعياناً بل من كونها على الخصوص أموالاً في هذه الأعيان خاصة لا في كل ما ينطلق عليه اسم مال، فاعتبرنا لما جاء الحكم بالزكاة فيهما إذا بلغا النصاب المالية، وما اعتبرنا أعيانهما، واعتبرنا في الأوقاص أعيانهما لا المالية فرفعنا الزكاة فيهما، كما اعتبرنا في تحوّل التجليات الاعتقادات والمرتبة وما اعتبرنا الذات، واعتبرنا في التنزيه الذات وما اعتبرنا المرتبة ولا الاعتقادات، فلما كان أصل الوجود وهو الحق تعالىٰ يقبل الاعتبارات سرت تلك الحقيقة في بعض الموجودات بل في الموجودات مطلقاً، فاعتبرنا فيها وجودها مختلفة تارة لأمور عقلية وتارة لأمور شرعية، ألا ترى الرقيق وهو إنسان وله الكمال إذا اعتبرنا فيه المالية أو اعتبارنا أيضاً في المشتري له التجارة قوّمناه

عليه بالقيمة وأنزلناه منزلة ما يزكى من المال فأخرجنا من قيمته الزكاة، ألا ترى كمالية الحق لا تقبل وصفاً من نعوت المحدثات؟ فلما تجلّت في حضرة التمثّل للأبصار المقيدة بالحسّ المشترك تبعت الأحكام هذا التجلّي الخاص فقال تعالىٰ: جعت فلم تطعمني، وظمئت فلم تسقني، ومرضت فلم تعدني ولما وقع النظر فيه من حيث رفع النسب قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٦] فمن كان غنياً عن الدلالة عليه كان هو الدليل على نفسه لشدّة وضوحه، فإنه لا شيء أشدّ في الدلالة من الشيء على نفسه.

وقد نبهتك على أن الأحكام تتبع الاعتبارات والنسب، وبعد أن وقع الحكم من الشارع في أمر ما بما حكم به عليها فلا بدّ لنا أن ننظر ما اعتبر فيه حتى حكم عليه بذلك الحكم، وبهذا يفضل العالم على الجاهل، فإذا تقرّر هذا فاعلم أن البلوغ بالسنّ أو الإنبات أو الحلم للعقل هو كالنصاب في المال، فكما أن النصاب إذا وجد في المال وجبت الزكاة فيه، كذلك يجب التكليف على العاقل إذا بلغ، ثم بعد أوان البلوغ يستحكم عقله لمرور الأزمان عليه كما يزيد المال بالتجارة فتظهر الأوقاص، فمن لم يجد في استحكام عقله أن الله هو الفاعل مطلقاً وأن العبد لا أثر له في الفعل وجبت عليه الزكاة في الأوقاص والزكاة حق الله في المال، فنضيف إلى الله من أعماله ما ينبغي أن يضيف، وهنا رجلان منهم من يضيف إلى الله ما يضيفه على جهة الحقيقة ويضيف إلى نفسه من أعماله ما يضيف على جهة الأدب كقوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [سورة الكهف: الآية ٧٩] وكقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] وكقول الخليل: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٨٠] وكقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٩] ومنهم من يضيف ذلك العمل كله إلى الإنسان عقلاً وشرعاً كالمعتزلي، ويضيف إلى الله من ذلك خلق القدرة له في هذا العامل لا غير، وأما من لا يرى الأفعال في استحكام عقله إلاَّ من الله ولا أثر للعبد فيها لم ير الزكاة في الأوقاص لأنه ما ثمّ ما يردّ إلى الله فإنه علم أن الكل لله، كما قال شيبان الراعي لما سُئِل عن الزكاة فقال لابن حنبل وللشافعيّ وهما كانا السائلين على مذهبنا أو على مذهبكم، إن كان على مذهبنا فالكل لله لا نملك شيئاً، وإن كان على مذهبكم ففي كل أربعين شاة من الغنم شاة، فاعتبر شيبان أمراً ما فأوجب الزكاة، واعتبر أمراً آخر فلم يوجب الزكاة والمال هو المال بعينه.

وصل في فصل ـ ضم الورق إلى الذهب: فمن قائل: نضم الدراهم إلى الدنانير فإذا كان من مجموعهما النصاب وجبت الزكاة. ومن قائل: لا يضم فضة إلى ذهب ولا ذهب إلى فضة وبه أقول.

الاعتبار في ذلك: قال النبي ﷺ: «**إِنَّ لِعَينِكَ عَلَيْكَ حَقاً وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقاً فَكُلْ وَنَمْ**» وإن كان الإنسان هو الجامع لعينه ونفسه الحيوانية ولكن جعل الله لكل واحد منهما حقاً يخصّه

فحق العين هنا النوم وحق النفس النباتية التغذي وهو الأكل فلا يضم شيء إلى شيء، فإن النوم ما يقوم مقام الأكل ولا الأكل يقوم مقام النوم، فلا يضم شيء إلى شيء، والذي يرى ضم الشيء إلى الشي يرى ضم النوم إلى الأكل، فإن الأكل سبب في حصول النوم لما يتولد منه من الأبخرة المرطبة التي يكون بها النوم فتنال العين حقّها والنفس حقّها، فلا بأس بضم الذهب إلى الفضة لحصول الحق من ذلك المجموع.

وصل في فصل ـ الشريكان: فمن قائل: إن الشريكين لا زكاة عليهما في مالهما حتى يكون لكل واحد منهما نصاب، وبه أقول. ومن قائل: إن المال المشترك حكمه حكم مال رجل واحد.

الاعتبار في ذلك: العمل من الإنسان إذا وقع فيه الاشتراك فليس فيه حق لله فلا زكاة فيه لأن الله تعالىٰ يقول: أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو الذي أشرك. وقال ﷺ: «**مَنْ قَالَ هَذَا لِلَّهِ وَلِوُجُوهِكُمْ فَهُوَ لِوُجُوهِكُمْ فَهُوَ لَيسَ لِلَّهِ مِنْهُ شَيْءٌ**» والنصاب بالاشتراك غير معتبر، فإن الشريكين في حكم الانفصال وإن كانا متصلين فإن الاتصال هو الدليل على وجود الانفصال، إذ لولا الفصل لم يكن الاتصال، وإذا كان الحكم للانفصال ولم يبلغ أحدهما ما عنده النصاب في ماله لم تجب عليه الزكاة، فإن الزكاة وإن كانت تطلب المال فما تطلبه إلاّ من المكلف بإخراجه، ألا ترى المال الذي في بيت المال ما فيه زكاة لاشتراك الخلق فيه مع وجود النصاب فيه وحلول الحول إذ أمسكه الإمام ولم يفرقه لمصلحة رآها في ذلك، فلما اعتبر الخلق المشتركين فيه لم تبلغ حصة واحد منهم النصاب ولم يتعين أيضاً رب المال؟ فإذا عيّنه الإمام ودفع إليه ما يبلغ النصاب فقد خرج من بيت المال وتعين مالكه فزال ذلك الحكم، فإذا مضى عليه الحول أدّى زكاته. انتهى الجزء الرابع والخمسون.

(الجزء الخامس والخمسون)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل في فصل ـ زكاة الإبل: الزكاة فيها بالاتفاق وقدرها ونصابها مذكور في أحكام الشريعة.

الاعتبار: حكم الشارع على الإبل أنها شياطين، فأوجب فيها الزكاة لتطهر بذلك من هذه النسبة، إذ الزكاة مطهرة رب المال من صفة البخل الشيطنة البعد، يقال: بئر شطون إذا كانت بعيدة القعر، وسمّي الشيطان لبعده من رحمة الله لما ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٤] والأفعال والأعمال إذا لم تنسب إلى الله فقد أبعدت عن الله فوجبت الزكاة فيها وهو ما لله فيها من الحق يردّها إليه سبحانه، فإذا ردّت إليه اكتسبت حلة الحسن فقيل: أفعال الله كلها حسنة، والزكاة واجبة على المعتزلي من حيث اعتقاده خلق أعمال العباد لهم، والأشعري تجب عليه الزكاة لإضافة كسبه في العمل إلى نفسه، وكان في كل خمس ذود شاة

والخمس هو عين الزكاة من الورق وهو ربع العشر فصارحكم العدد الذي كان زكاة يزكى أيضاً، كمن يرى الزكاة في الأوقاص فيخرج من كل أربعة دنانير درهماً ومن أربعين درهماً درهماً، وكما أخرجت من الذهب درهماً في الأوقاص وليس الورق من صنف الذهب كذلك الشاة تخرج في زكاة خمس من الإبل وليست من صنفها، كذلك يؤخذ حق الله من الجارحة بالحرق بالنار والقطع في السرقة، والنفس المكلفة هي السارقة وليست من جنس الجارحة، وتطهرت من حكم السرقة بقطع اليد، كما تطهر الخمس من الإبل بإخراج الشاة وليست من صنف المزكى، وقد تقدّم حكم الأوقاص فلا يحتاج إلى ذكره هنا.

وصل في صغار الإبل: فمن قائل: تجب فيها الزكاة. ومن قائل: لا تجب.

الاعتبار: الصغير لا يجب عليه التكليف حتى يبلغ فلا زكاة في صغار الإبل، والصغير يعلم الصلاة ويضرب عليها وهو ابن عشر سنين ولا يضرب إلاَّ على واجب والبلوغ ما حصل، فتجب الزكاة في صغار الإبل، العقل إذا وجد من الصبي وإن لم يبلغ فمن اعتبر البلوغ أسقط التكليف، ومن اعتبر استحكام العقل أوجب التكليف فيما نص الشرع عليه لأن الحكم في ذلك له قال تعالىٰ: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [سورة الطور: الآية ٢١] وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٢] وقال في المهد: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [سورة مريم: الآية ٣٠] في المهد وغيره ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾ [سورة مريم: الآية ٣١] ومن برّه بها كونه برّأها ممّا نسب إليها بشهادته، وأتى في كل ما ادّعاه ببنية الماضي ليعرف السامع بحصول ذلك كله عنده وهو صبي في المهد، وقد ذكر أن الله تعالىٰ أوصاه بالصلاة والزكاة ما دام في الحياة، وأنه آتاه الكتاب والحكمة، ولكن غاب عن أبصار الناس إدراك الكتاب الذي آتاه حتى ظهر في زمان آخر، وأما الحكمة فظهر عينها في نفس نطقه بمثل هذه الكلمات وهو في المهد، والإنسان صغير من حيث جسمه لعدم مرور الأزمان الكثيرة عليه في هذه الصورة وأصغر مدّته زمان تكوينه، ثم لا تزال مدّته تكبر إلى حين موته، فكلما كبّر جسمه صغر عمره، فلا ينفك من إضافة الكبر والصغر إليه فزيادته نقصه ونقصه زيادته، فانظر ما أعجب هذا التدبير الإلهيّ.

وصل في فصل ـ زكاة الغنم: الاتفاق على الزكاة فيها بلا خلاف، وبالله التوفيق.

الاعتبار في هذا الوصل: قال تعالىٰ في نفس الإنسان: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٩] وقد تقدّم الكلام عليها وأن الله أقام الرأس من الغنم مقام الإنسان الكامل فهو قيمته، فانظر ما أكمل مرتبة الغنم حيث كان الواحد منها فداء نبيّ مكرّم فقال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٠٧] فعظمه الله وناب مناب هذا النبيّ المكرّم وقام مقامه فوجبت الزكاة في الغنم كما أفلح من زكّى نفسه شعر: [الطويل]

فداءُ نبيٍّ ذَبْحُ ذَبْحٍ لقربانِ ... وأين ثُؤَاجُ الكَبْش من نَوْسِ إنسانِ
وعظّمه الله العظيمُ عنايةً ... بنا أو به لم أدرِ من أيِّ ميزانِ

ولا شكَّ أن البُدْنَ أعظمُ قيمةً   وقد نزلت عن ذَبْح كَبْشٍ لقربانِ
فيا ليت شعري كيف نابَ بذاته   شُخَيْصُ كَبيشٍ عن خليفةِ رَحْمَانِ

وصل في فصل ـ زكاة البقر: والاتفاق أيضاً من علماء الشريعة على الزكاة فيها.

الاعتبار في ذلك: يقول الله سبحانه في نفس الإنسان: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٩] يعني النفس، ولما كانت المناسبة بين البقر والإنسان قوية عظيمة السلطان لذلك حيي بها الميت لما ضرب ببعض البقر فجاء بالضرب إشارة إلى الصفة القهرية لما شمخت نفس الإنسان أن تكون سبب حياته بقرة ولا سيما وقد ذبحت وزالت حياتها فحيي بحياتها هذا الإنسان المضروب ببعضها وكان قد أبى لما عرضت عليه فضرب ببعضها فحيي بصفة قهرية للأنفة التي جبل الله الإنسان عليها، وفعل الله ذلك ليعرفه أن الاشتراك بينه وبين الحيوان في الحيوانية محقق بالحدّ والحقيقة، ولهذا هو كل حيوان جسم متغذّ حساس، فالإنسان وغيره من الحيوان، وانفصل كل نوع من الحيوان عن غيره بفصله المقوّم لذاته الذي به سمّي هذا إنساناً وهذا بقراً وهذا غنماً وغير ذلك من الأنواع، وما أبى الإنسان إلاّ من حيث فصله المقوّم وتخيّل أن حيوانيته مثل فصله المقوّم، فأعلمه الله بما وقع أن الحيوانية في الحيوان كله حقيقة واحدة فأفاد، ما لم يكن عنده، وكذلك ذلك الميت ما حيي إلاّ بحياة حيوانية لا بحياة إنسانية من حيث إنه ناطق، وكان كلام ذلك الميت مثل كلام البقرة في بني إسرائيل حيث قالت: ما خلقت لهذا إنما خلقت للحرث. ولما قال النبيّ ﷺ هذا الخبر الذي جرى في بني إسرائيل قال الصحابة تعجباً لبقرة تكلم فقال رسول الله ﷺ: «**آمنت بهذا**» وما رأوا أن الله قد قال ما هو أعجب من هذا أن الجلود قالت: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢١] وهنا علم غامض لمن كشف الله عن بصيرته، فوجبت الزكاة في البقرة كما ظهرت في النفس، ثم مناسبة البرزخ بين البقرة والإنسان، فإن البقر بين الإبل والغنم في الحيوان المزكّى، والإنسان بين الملك والحيوان، ثم البقرة التي ظهر الإحياء بموتها والضرب بها برزخية أيضاً في سنّها ولونها فهي: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٨] **فهذا مقام** برزخيّ، فهي لا بيضاء ولا سوداء بل صفراء، والصفرة لون برزخي بين البياض والسواد، فتحقق ما أومأنا إليه في هذا الاعتبار فإنه يحتوي على معان جليلة وأسرار لا يعرفها إلاّ أهل النظر والاستبصار.

وصل في فصل ـ الحبوب والتمر: فقد عرفت أيضاً ما تجب الزكاة فيه من ذلك بالاتفاق.

الاعتبار في ذلك: النفس النباتية وهي التي تنمى بالغذاء فزكاتها في الإنسان بالصوم، ولكن له شرط في طريق الله وهو أن الصائم إنما يمسك عن الأكل بالنهار، فليأخذ ما كان يستحق أن يأكل بالنهار ويتصدق به ليخرج بذلك من البخل، فإذا لم يفعل ذلك عندنا واستوفى في عشائه ما فاته بالنهار فما أمسك، وبهذا ينفصل صوم خواص أهل الله عن صوم العامّة، وما تسحر رسول الله ﷺ إلاّ رحمة بالعامّة حتى يجدوا ما يتأسوا به، فإن رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ كَانَ مُواصِلاً فَلْيُوَاصِلْ حَتَّىٰ السَّحَر**» مع أنه رغب في تعجيل الفطر

وتأخير السحور، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٧] وهذا الاعتبار فيما يزكى من الحبوب وبالله التوفيق.

وصل: وأما التمر فهو أيضاً كما قلنا الزكاة فيه بالاتفاق وقد تقدّم ذلك.

وأما اعتبار التمر في الزكاة: فاعلم أن النبيّ ﷺ جعل النخلة عمّة لنا وشبّهها بالمؤمن حين سأل الناس عنها، ووقع الناس في شجر البوادي، ووقع عند عبد الله بن عمر أنها النخلة أصاب ما أراده رسول الله ﷺ، وبهذا الحديث يحتجّ على إباحة الحزورات التي تستعملها الناس، فكما أن التمر تجب فيه الزكاة شرعاً كذلك المؤمن لما شارك الحق في هذا الاسم تعين للحق فيه حق كما تعين في جميع الأسماء الحسنى يسمّى ذلك الحق زكاة فيزكي المؤمن هذه النسبة إليه بالصدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله وإعطاء الأمان منه لكل خائف من جهته، فإذا صدق في ذلك كله صدّقه الله تعالىٰ لأنه لا يصدّق سبحانه إلاّ الصادق، ولا يصدّقه تعالىٰ إلاّ من اسمه المؤمن لا غير، فصدق العبد ردّ لاسم الله المؤمن عليه كردّ صورة الناظر في المرآة على الناظر ليصدقه سبحانه فيما صدق فيه هذا العبد فهذا زكاته من نسبة الإيمان إليه، فأعطى حق الله من إيمانه بما صدق فيه من أقواله وأفعاله وأحواله، وتمّت أصناف ما يزكّى من الأموال المتفق عليها ويلحق بها ما اختلف فيه، فإنه لا يخلو أن يكون ما اختلف فيه نباتاً أو حيواناً أو معدناً، وقد بيّنا ذلك في المتفق عليه، فليحكم في المختلف فيه بذلك الحكم، وليعتبر فيه ما يليق بذلك الصنف حتى لا يطول الكلام، ومذهبنا في هذا الكتاب الاقتصار والاختصار جهد الطاقة، فإن الكتاب كبير يحتوي على ما لا بدّ منه في طريق الله من الأمّهات والأصول، فإن الأبناء والفروع تكاد لا تنحصر بل لا تنحصر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وصل في فصل ـ الخرص: الاتفاق على إجازة الخرص فيما يخرص من النخيل وغير ذلك وهو تقدير النصاب في ذلك حتى يقوم مقام الكيل.

الاعتبار في ذلك: هو موضع خطر يحتاج إلى معرفة وتحقيق في المقادير وبصيرة حادّة، قال تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ [سورة الذاريات: الآية ١٠] وهذه إشارة تلحق بالتفسير وإن لم نرد بها التفسير ولكن لتقارب المعنى، والمكيل والموزون بمنزلة العلم، والخرص بمنزلة غلبة الظنّ، والأصل العلم، ثم إنه إذا تعذر العلم حكمنا بغلبة الظنّ، وذلك لا يكون إلاّ في الأحكام الشرعية أعني في فروع الأحكام، فإن الحاكم لا يحكم إلاّ بشهادة الشاهد وهو ليس قاطعاً فيما شهد به من ذلك، والأصل في الحكم المشروع غلبة الظنّ حتى في السعادة عند الله فإن الله يقول: أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي خيراً، فحسن الظنّ بالله إذا غلب على العبد أنتج له السعادة، كما أن سوء الظنّ بالله يرديه ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢٣] فما اختلف العلماء في حكم الحاكم بين الخصمين بغلبة الظنّ واختلفوا في حكمه بعلمه، فكانت غلبة الظنّ في هذا النوع أصلاً متفقاً عليه يرجع إليه، وكان العلم في ذلك مختلفاً فيه، والحق تعالىٰ وإن لم يكن عنده إلاّ العلم فإنه يحكم بالشهود، ولهذا جاء: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١١٢] أي بما شرعت لي وأرسلتني به، وفي هذا الطريق

معرفة الله بالعقل بطريق الخرص، ولهذا تقبل الشبهة القادحة في الأدلة ومعرفة الله من طريق الشرع المتواتر مقطوع بها لا تقدح فيها شبهة عند المؤمن أصلاً، وإن جهلت النسبة فالعلم بالله من جهة الشرع وهو تعريف الحق عباده بما هو عليه فإنه أعلم بنفسه من عباده وبه، فإن العلم به منه أن يعلم أنه جامع بين التنزيه والتشبيه، وهذا في الأدلة النظرية غير سائغ، أعني الجمع بين الضدّين في المحكوم عليه ليس ذلك إلاّ هنا خاصة، فلا يحكم عليه خلقه، والعقل ونظره وفكره من خلقه، فكلامه في موجده بأنه ليس كذا أو هو كذا خرص بلا شك، والخارص قد يصيب وقد يخطىء، والعلم بالله من حيث القطع أولى من العلم به من حيث الخرص وإن كان الخرص لا بدّ منه في العلم بالله ابتداء.

وصل في فصل ـ ما أكل صاحب التمر والزرع من تمره وزرعه قبل الحصاد والجداد: فمن قائل: يحسب ذلك عليه في النصاب. ومن قائل: لا يحسب عليه ويترك الخارص لرب المال ما أكل هو وأهله ويأكل.

الاعتبار: ثمر الإنسان وزرعه أعماله، وأعماله واجبة ومندوب إليها ومباحة خاصة. وأما المكروه والمحظور فلا دخول لهما هنا ولا سيما المحظور خاصة في الزكاة، وقد يدخل في الزكاة بوجه خاص في فعل المحظور، وذلك أن المؤمن لا تخلص له معصية أصلاً من غير أن تكون مشوبة بطاعة، وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فالطاعة التي تشوب كل معصية هي الإيمان بها أنها معصية، وكما هي طاعة في عين معصية فهي قرب في عين بعد، فذلك الإيمان هو زكاتها فيطهر المحظور بالإيمان فهو قوله تعالىٰ: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠] فإذا أعطى هذا القدر في عمل المعصية وقع الترجي للعبد من الله في القبول وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ وهؤلاء منهم ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٢] أي يرجع عليهم بالرحمة والقبول والغفران وتبديل السيئات، فهذه عناية الزكاة أثرت في الحظر.

وأمّا في أعمال الطاعات فنصابها الذي تجب فيه الزكاة زكاتها المباح من عامله خاصة وهو الذي يخصّ النفس، فإن الزكاة وإن كانت حق الله فما هي حق الله إلاّ من حيث إنه شرعها فهي راجعة إلينا، فإن الله عين مصارفها بذكر الأصناف الذين يأخذونها، فتصدّق الله على الإنسان بالمباح في الثمانية الأعضاء من جميع أعماله، فتلك الزكاة التي أعطاها الله من جميع أعماله، وذلك لفقره ومسكنته وعمله وتألّفه على طاعة ربه، واجتماعه من حيث إيمانه عليها وفكّاك رقبته من رق الواجبات في أوقات المباحات، وإن اندرجت فيها أعني الواجبات لأنه يجب عليه اعتقاد المباح أنه مباح إلى غير ذلك، فمن حسبه عليه في النصاب فلكونه من جملة ما شرع له لأن المباح مشروع كالواجب، فلهذا يتصرّف فيه تصرّف من أبيح له لا تصرّف الطبع، ومن قال: لا يحسب عليه فلكونه وإن كان مباحاً إنما راعى سقوط التكليف في المباح لأن المكلف لا يكون مخيراً، فإن التكليف مشقة والتخيير لا مشقة فيه وإن تضمن الحيرة والتردّد.

وصل في فصل ـ وقت الزكاة: فجمهور العلماء في الصدر الأوّل مجمعون على وجوب الزكاة في الذهب والفضة والماشية باشتراط الحول، وما خالف في ذلك أحد من الصدر الأول فيما نقل إلينا إلاّ ابن عباس ومعاوية لأنه لم يثبت عندهما في ذلك حديث صحيح ثابت عن رسول الله ﷺ، فاعلم أن الحول فيه كمال الزمان فأشبه كمال النصاب، فكما وجبت بكمال النصاب وجبت بكمال الزمان، ومعنى كمال الزمان تعميمه للفصول الأربعة فيه، ولهذا ينتظر بالعنين الحول الكامل حتى تمرّ عليه الفصول الأربعة فلا تغير في حاله شيئاً أي لا حكم لها في عنته لعدم استعداده لتأثيرها، وكمال الإنسان إنما هو في عقله، فإذا كمل في عقله فقد كمل حوله فوجب عليه إخراج الزكاة، وهي أن يعلم ما لله عليه من الحقوق فيجتهد في أداء ذلك، ووقت الحبوب والتمر يوم حصاده وجده من غير اشتراط الحول إذ قد مرّ الحول على الأصل، وهو ما للخريف والشتاء والربيع والصيف فيه من الأثر، فكأنه ما خرج عن حكم الحول بهذا الاعتبار، فمن العبادات هي مرتبطة بالحول كالحج والصيام، وما ذكرناه من صنف ما من أصناف المال المزكى، ومن العبادة الواجبة ما لا يرتبط بالحول كالصلاة والعمرة، ونوافل الخيرات ما عدا الحج فإن واجبه ونافلته سواء في الحول.

وصل في فصل ـ زكاة المعدن: فمن العلماء من راعى فيه الحول مع النصاب تشبيهاً بالذهب والفضة. ومنهم من راعى فيه النصاب دون الحول تشبيهاً بما تخرجه الأرض ممّا تجب فيه الزكاة.

وصل الاعتبار في هذا: المعدن الطبيعة التي تتكوّن عنها الأجسام، ونفوس الأجسام الجزئية والطبيعية أربع حقائق بتأليفها ظهر عالم الأجسام، وفي العلم الإلهي أن العالم ظهر عن الله تعالىٰ من كونه حياً عالماً مريداً قادراً لا غير، وكل اسم له حكم في العالم فداخل تحت حيطة هذه الأربعة الأسماء الأمهات، فمن راعى النصاب دون الحول اعتبر هذا فإنه فوق الزمان، فإذا تكوّن عن الإنسان ما يتكوّن عن الطبيعة فقد بلغ النصاب فوجبت الزكاة وهي إلحاق ذلك بالأربع الصفات الثابتة في العلم الإلهي الذي لا يصحّ التكوين إلاّ بها، والطبيعة آلة لا إله، ومن اعتبر الحول مع النصاب فإنه إذا تكوّن عن الإنسان ما يتكوّن عن العناصر لا عن الطبيعة، والعناصر لا يتكوّن عنها شيء إلاّ بمرور الأزمان عليها وهي حركات الأفلاك التي فوقها، فزكاتها مقيدة بالزمان وهي إعطاء حق الله تعالىٰ من ذلك التكوين بإضافته إلى الوجه الخاص الإلهي الذي له في كل ممكن من غير نظر إلى سببه، وهذا هو عالم الخلق والأمر والأول هو عالم الأمر خاصة فاعلم ذلك.

وصل في فصل ـ حول ربح المال: فطائفة رأت أن حوله يعتبر فيه من يوم استفيد سواء كان الأصل نصاباً أو لم يكن وبه أقول. وطائفة قالت حول الربح هو حول الأصل أي إذا كمل الأصل حولاً زكّي الربح معه، سواء كان الأصل نصاباً أو أقل من نصاب إذا بلغ الأصل مع ربحه نصاباً، وانفرد بهذا مالك وأصحابه، وفرّقت طائفة بين أن يكون رأس المال الحائل عليه الحول نصاباً أو لا يكون فقالوا: إن كان نصاباً زكّي ربحه مع رأس المال وإن لم يكن نصاباً لم يزكَّ.

وصل الاعتبار في هذا: الأعمال هي المال وربحها ما يكون عنها من الصور كالمصلي أو الذاكر يخلق له من ذكره وصلاته ملك يستغفر له إلى يوم القيامة، فالصور التي تلبس الأعمال هي أرباحها كمانع الزكاة يأتيه ماله الذي هو قدر الزكاة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوّق به ويقال له هذا كنزك، والأعمال على قسمين: عمل روحاني وهو عمل القلوب، وعمل طبيعيّ وهو عمل الأجسام وهي الأعمال المحسوسة، فما كان من عمل محسوس اعتبر فيه الحول، وما كان من عمل معنوي لم يعتبر فيه الحول لأنه خارج عن حكم الزمان، ولا بدّ من اعتبار النصاب في المعنى والحسّ، وقد تقدّم اعتبار النصاب وهو المقدار قبل هذا من هذا الباب، وصورة الزكاة في ذلك الربح هو ما يعود منه على العامل من الخير من كونه موصوفاً بصفات الدين لإعطائهم الزكاة من فقير ومسكين وغير ذلك وهو قول النبيّ ﷺ فيما يخلق من الأعمال من صور الأملاك أنه يستغفر له ذلك الملك إلى يوم القيامة، ولقد رأيت رسول الله ﷺ وأنا بمكة في المنام وهو يقول ويشير إلى الكعبة: يا ساكني هذا البيت لا تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت في أيّ وقت كان من ليل أو نهار أن يصلي في أيّ وقت شاء من ليل أو نهار، فإن الله يخلق له من صلاته ملكاً يستغفر له إلى يوم القيامة. ومصداق بعض هذا الخبر ما روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**يَا بَنِي عَبْد مَنَاف لاَ تَمْنَعُوا أَحَداً طَافَ بِهَذَا البَيْتِ وَصَلَّىٰ فِي أَيِّ وَقْتٍ شَاءَ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ**» خرّجه النسائيّ في سننه والله أعلم.

وصل في فصل ـ حول الفوائد: وهو ما يستفاد من المال من غير ربحه فقال بعض العلماء: إن العلماء أجمعوا على أن المال إذا كان أقل من نصاب واستفيد إليه مال آخر من غير ربحه فكمل من مجموعهما نصاب أنه يستقبل به الحول من يوم كمل، واختلفوا إذا استفاد مالاً وعنده نصاب مال آخر قد حال عليه الحول فقال بعضهم: يزكى المستفاد إن كان نصاباً لحوله ولا يضم إلى المال الذي وجبت فيه الزكاة وبه أقول. وقال بعضهم: الفوائد كلها تزكى لحول الأصل إذا كان الأصل نصاباً، وكذلك الربح عندهم.

وصل اعتبار هذا الفصل: من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها فقد استفاد من عمل غيره ما لم يكن من عمله فيكون ربحه وإنما هو عمل، والحكم في ذلك في الاعتبار على ما هو في الحكم الظاهر كما فصلناه في المذاهب على اختلافها فيما اختلفوا فيه وإجماعها فيما أجمعوا عليه كما تقدّم في الفصول قبله من الاعتبار في ذلك سواء.

وصل في فصل ـ اعتبار حول نسل الغنم: من العلماء من قال: حول النسل هو حول الأمّهات كانت الأمّهات نصاباً أو لم تكن. ومن قائل: لا يكون حول النسل حول الأمّهات إلاّ أن تكون الأمّهات نصاباً.

وصل الاعتبار في ذلك: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ وهذا في: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ [سورة الطور: الآية ٢١] فهذه الذرية بمنزلة نوافل الخيرات، والأمّهات مثل فرائض الخيرات، وكما يتقرّب بالفرائض كذلك يتقرّب بالنوافل. وقد وردت

الأخبار بما تنتجه نوافل الخيرات من القرب الإلهي فجعل لها حكماً في نفسها، فهذا اعتـ من أفرد نسل الغنم بالحكم ومن ألحقها بالأمّهات كما ذكرنا في المذهبين، واعتباره أن نو فـ الخيرات فرائض وكان حكمها حكم الفرائض فلهذا ضمت إليها، فإن صلاة التطوّع وهي النافلة التي لا تجب على الإنسان ولا يعصي بتركها إذا شرع فيها في صلاة نافلة أو صيام أو حج فإنه يلزمه ما فيها من الفرائض، فالركوع والسجود والقيام في صلاة النافلة فريضة واجبة عليه لا تصحّ أن تكون صلاة إلاّ بهذه الأركان، ولهذا قال الله: أكملوا لعبدي فريضته من تطوّعه، فيكمل فرض المفروض من فرض التطوّع كان العمل ما كان، فحق الله في نوافل الخيرات ما تحوي عليه من الفرائض وهو زكاتها، وما في ذلك من الفضل يعود على عامله. ولهذا يكون الحق سمعه وبصره في التقرّب بالنوافل.

وصل في فصل ـ فوائد الماشية: قد تقدم اعتبار مثله في فوائد الناض فأغنى عن ذكره في هذا الفصل وإنما جئنا به لننبّه عليه.

وصل في فصل ـ اعتبار حول الديون: فيمن يرى الزكاة فيه، فإن قوماً قالوا يستقبل به الحول من اليوم الذي قبضه يعني الدين من غريمه، والذين يقولون في الدين الزكاة اختلفوا، فمن قائل: يعتبر فيه من أول ما كان ديناً وإن مضى عليه حول زكّى زكاة حول، وإن مرّت عليه أحوال زكّى لكل حول مرّ عليه زكاة فأنزله صاحب هذا المذهب منزلة المال الحاضر. ومن قائل: يزكيه لعام واحد خاصة وإن أقام أحوالاً عند الذي عنده الدين فلا زكاة فيه إلاّ هذا القدر ولا أعرف له حجة في ذلك.

الاعتبار في هذا: الحج عن الميت ومن لا يستطيع كما ورد في النص: وصيام وليّ الميت عن الميت إذا مات وعليه صيام فرض رمضان فصار حقاً لله فيه على الوليّ الذي يحجّ أو يصوم، فذلك الحق هو قدر الزكاة الذي في الدين وتبرأ ذمّة الذي عنده الدين، كما أن الذي عنده الدين لا زكاة عليه فيما عنده لأنه ليس بمالك له، ومن يرى أنه لا زكاة عليه فيه ما دام عند المديون يرى أنه ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٣٩] وليس بيده مال يسعى فيه بخير بل خيره منه كونه وسع على المديون بما أعطاه من المال، فعين هذا الفعل قام فيه مقام الزكاة فأغنى عن أن يزكيه، وأيّ خير أعظم ممّن وسع على عباد الله، وقد قرّر العلماء أن المقصود بالزكاة إنما هو سدّ الخلة، والذي يأخذ الدين لولا حاجته ما أخذه والذي يعطيه ذلك قد سدّ منه تلك الخلة فأشبه الزكاة من هذا الوجه، فهذا اعتبار من لا يرى زكاة فيه حتى يقبضه ويستقبل به الحول من يوم قبضه، وآية الديون على ما قلناه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [سورة الحديد: الآية ١٨] ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٥] ولما كان في القرض سدّ الخلة لذلك قالت اليهود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] أي من أجل فقره طلب القرض منّا، وغابوا عن الذي أراده الحق تعالىٰ من ذلك من غاية وصلته بخلقه كما جاء في الصحيح: «**جعتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي**» وشبه ذلك والباب واحد، وقد تقدّم الكلام في القرض في أوّل الباب.

وصل في فصل ـ حول العروض عند من أوجب الزكاة فيها: وقد تقدّم اعتبار الحول، والذي أذهب إليه أنه لا زكاة فيها لعدم النص في ذلك وكأنه شرع زائد وهو القياس المرسل، لا شرع مستنبط من شرع ثابت والله أعلم. فمن العلماء من اشترط مع العروض وجود الناض، ومنهم من اعتبر فيه النصاب، ومنهم من لم يعتبر ذلك، وقال أكثر العلماء: المدير وغير المدير حكمه واحد، وأنه من اشترى عرضاً وحال عليه الحول قوّمه وزكّاه، وقال قوم: بل يزكي ثمنه وبه أقول لا قيمته.

وصل الاعتبار في هذا: العروض هو ما يعرض على الإنسان من أعمال البرّ ممّا لا نيّة له في ذلك، أو يكون من الأعمال التي لا تشترط فيها النيّة وله الثواب عليها كما قال ﷺ: «**أَسْلَمْتَ عَلَىٰ مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ**» أي لك ثوابه وإن لم يكن فعلك فيه عن شرع ثابت لكنه مكارم خلق فصادف الحق فجوزي عليه، فلو لم يكن في ذلك العمل الذي عرض حق لله لنسبة تعطيه ما صحّ أن يثني عليه فذلك زكاته من حيث لا يشعر.

وصل في فصل ـ تقدّم الزكاة قبل الحول: فمن العلماء من منع من ذلك، وبالمنع أقول ظاهراً لا باطناً، ومنهم من جوّز ذلك.

الاعتبار: اعتبار التجويز: وقدّموا لأنفسكم ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٠] ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٣] و﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٦١] وقوله ﷺ فيمن أتى بالشهادة قبل أن يسألها فعظم ما فيها من الأجر على أجر من أتى بالشهادة بعد أن طولب بأدائها. وأمّا اعتبار المنع فإن الحكم للوقت، فلا ينبغي أن يفعل فيه ما لا يقتضيه، وهنا دقائق من العلوم من علوم الأسماء الإلهية، وهل يحكم اسم في وقت سلطنة اسم آخر مع بقاء حكم صاحب الوقت؟ وهل يشتركان في الوقت الواحد فيكون الحكم لكل واحد من الأسماء حكم في وقته؟ وهل حكم الوقت هو الحاكم على الاسم بأن جعله بحكم الاستعداد المحكوم فيه الذي أعطاه الوقت؟ فما وقع حكم إلاّ في وقته إلى مثل هذا فاعلمه، ويكفي هذا القدر من اعتبار باب الزكاة والحمد لله. انتهى الجزء الخامس والخمسون.

(الجزء السادس والخمسون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الحادي والسبعون في أسرار الصوم

[نظم: السريع]

يا ضاحكاً في صورة الباكي ... أنت بنا المشكوُّ والشاكي
الصَّومُ إمساكٌ بلا رفعةٍ ... ورفعةٌ من غير إمساكِ
وقد يكونان معاً عند مَنْ ... يُثبتُ توحيداً بإشراكِ

صِيدَتْ عقولٌ عن تصاريفها بلا حِبَالاتٍ وأشراكِ
صِيْدَتْ عقولٌ عن تصاريفها بصارمٍ للشرع بَتَّاكِ
فسلَّمتْ ما ردَّ برهانها وآمنتْ من غير إدراكِ
جرى بها نجمُ الهدى سابحاً ما بين أملاك بأفلاكِ
لولاكِ يا نفسي لما كُنْتُه كأنه لولاك لولاكِ
صومي عن الكون ولا تفطري بذا إلهُ الخَلْق أولاكِ
وانوي بذاك الصَّوْمَ من حيث هو فإنه بالطَّبْع غذَّاكِ
في الصوم معنًى لو تدبَّرْتِهِ ما حلَّ مخلوقٌ بمغناكِ
لا مِثْلَ للصوم كذا قال لي شارِعُهُ فدبِّري ذاكِ
لأنه تَرْكٌ فأين الذي عملْتِه أو أين دَعْوَاكِ
قد رجع الأمر إلى أصله بذاك ربي قد تَوَلاكِ
والصومُ إن فكَّرْتِ في حُكْمِهِ وأصْلِ معناه بمعناكِ
ثم أتى مِنْ عنده مخْبِرٌ عن صَوْمِكِ المشروع عرَّاكِ
فالصومُ لله فلا تجهلي وأنتِ مَجْلاه فإيَّاكِ
الصومُ لله وأنتِ التي تموتُ جوعاً فاعلمي ذاكِ
أنَّثَكِ الرحمنُ من أجل من يظْهَرُ منك حين سوّاكِ
سبحانَ من سوّاكِ أهلاً له ولم يُنِلْ ذلك إلاكِ
فأنتِ كالأرض فراشٌ له وعينُه المنعوتُ بالباكي
وصُنْعَةُ الله ترى عينُها بينكما فأين مَجْلاكِ
لما دعوتِ اللَّهَ من ذلَّة به تعالى بك لبَّاكِ
والقلمُ الأرفعُ في لَوْحِهِ سَطَّرَ عنه وصْفَكِ الزاكي
فأنتِ عينُ الكل لا عينُه أدناكِ من وجهٍ وأقصاكِ
إياكِ أن ترضِيْ بما تَرْتَضي من أجل ما يُرْضيكِ إياكِ
كوني على أصلك في كل ما يريد لا تَنْسَيْ فينساكِ
هذا هو العلم الذي جاءني من قائلٍ ليس بأفَّاكِ
أنزله عن أمر علاَّمِهِ ما بين زهَّادٍ ونسَّاكِ
والحمدُ لله الذي خصَّني بعلم أضواءٍ وأَحْلاكِ
وخصَّني بصورةٍ لم يكن كمالُها إلاَّ بإيواكِ

اعلم أيّدك الله أن الصوم هو الإمساك والرفعة، يقال: صام النهار إذا ارتفع، قال امرؤ القيس: إذا صام النهار وهجرا: أي ارتفع. ولما ارتفع الصوم عن سائر العبادات كلها في الدرجة سمّي صوماً، ورفعه سبحانه بنفي المثلية عنه في العبادات كما سنذكره، وسلبه عن عباده مع تعبّدهم به، وأضافه إليه سبحانه، وجعل جزاء من اتصف به بيده من إنايته، وألحقه

بنفسه في نفي المثلية، وهو في الحقيقة ترك لا عمل، ونفي المثلية نعت سلبي فتقوّت المناسبة بينه وبين الله، قال تعالىٰ في حق نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فنفى أن يكون له مثل، فهو سبحانه لا مثل له بالدلالة العقلية والشرعية. وخرّج النسائي عن أبي أمامة قال: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: مُرْنِي بِأَمْرٍ آخُذَهُ عَنْكَ، قال: «**عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لاَ مِثْلَ لَهُ**» فنفى أن يماثله عبادة من العبادات التي شرع لعباده. ومن عرف أنه وصف سلبي إذ هو ترك المفطرات علم قطعاً أنه لا مثل له إذ لا عين له تتصف بالوجود الذي يعقل، ولهذا قال الله تعالىٰ: الصوم لي، فهو على الحقيقة لا عبادة ولا عمل، واسم العمل إذا أطلق عليه فيه تجوّز، كإطلاق لفظة الموجود على الحق المعقول عندنا تجوّزاً، إذ من كان وجوده عين ذاته لا تشبه نسبة الوجود إليه نسبة الوجود إلينا فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

إيراد حديث نبويّ إلهي: خرّج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: «**قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصِّيَامُ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أجزي بِهِ، وَالصِّيَامُ جنة فَإِذَا كَانَ يَومُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يسخب فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ إِنِّي صَائِمٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَم الصَّائِم أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ**» وللصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربّه عزّ وجلّ فرح بصومه. واعلم أنه لما نفى المثلية عن الصوم كما ثبت فيما تقدم من حديث النسائي والحق ليس كمثله شيء لقي الصائم ربّه عزّ وجلّ بوصف ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فرآه به فكان هو الرائي المرئي، فلهذا قال ﷺ: فرح بصومه ولم يقل فرح بلقاء ربّه، فإن الفرح لا يفرح بنفسه بل يفرح به، ومن كان الحق بصره عند رؤيته ومشاهدته فما رأى نفسه إلاّ برؤيته، ففرح الصائم لحوقه بدرجة نفي المماثلة، وكان فرحه بالفطر في الدنيا من حيث إيصال حق النفس الحيوانية التي تطلب الغذاء لذاتها، فلما رأى العارف افتقار نفسه الحيوانية النباتية إليه ورأى جوده بما أوصل إليها من الغذاء أداء لحقها الذي أوجبه الله عليه قام في هذا المقام بصفة حق فأعطى بيد الله كما يرى الحق عند لقائه بعين الله، فلهذا فرح بفطره كما فرح بصومه عند لقاء ربّه.

بيان ما يتضمنه هذا الخبر: ولما كان العبد موصوفاً بأنه ذو صوم واستحق اسم الصائم بهذه الصفة ثم بعد إثبات الصوم له سلبه الحق عنه وأضافه إلى نفسه فقال: إلاّ الصيام فإنه لي أي صفة الصمدانية وهي التنزيه عن الغذاء ليس إلاّ لي، وإن وصفتك به فإنما وصفتك باعتبار تقييد ما من تقييد التنزيه لا بإطلاق التنزيه الذي ينبغي لجلالي فقلت: وأنا أجزي به، فكان الحق جزاء الصوم للصائم إذا انقلب إلى ربّه ولقيه بوصف، لا مثل له وهو الصوم إذ كان لا يرى من ليس كمثله شيء إلاّ من ليس كمثله شيء، كذا نصّ عليه أبو طالب المكي من سادات أهل الذوق ﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَآؤُهُۥ﴾ [سورة يوسف: الآية ٧٥] ما أوجب هذه الآية في هذه الحالة. ثم قوله: والصيام جنة وهي الوقاية مثل قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] أي اتخذوه وقاية وكونوا له أيضاً وقاية، فأقام الصوم مقامه في الوقاية وهو ليس كمثله شيء. والصوم من العبادات لا مثل له. ولا يقال في الصوم ليس كمثله شيء فإن الشيء أمر ثبوتي أو

وجوديّ، والصوم ترك فهو معقول عدميّ ووصف سلبيّ، فهو لا مثل له لا أنه ليس كمثله شيء، فهذا الفرق بين نعت الحق في نفي المثلية وبين وصف الصوم بها.

ثم إن الشارع نهى الصائم والنهي ترك ونعت سلبيّ فقال: لا يرفث ولا يسخب، فما أمره بعمل بل نهاه أن يتصف بعمل ما. والصوم ترك فصحت المناسبة بين الصوم وبين ما نهي عنه الصائم. ثم أمر أن يقول لمن سابه أو قاتله: إني صائم أي تارك لهذا العمل الذي عملته أنت أيها المقاتل والساب في جانبي، فنزّه نفسه عن أمر ربّه عن هذا العمل، فهو مخبر أنه تارك أي ليس عنده صفة سبّ ولا قتال لمن سابه وقاتله. ثم قال: والذي نفس محمد بيده يقسم ﷺ لخلوف فم الصائم وهو تغيّر رائحة فم الصائم التي لا توجد إلاّ مع التنفس، وقد تنفّس بهذا الكلام الطيب الذي أمر به وهو قوله: إني صائم، فهذه الكلمة وكل نفس الصائم أطيب يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة المطففين: الآية ٦] عند الله فجاء بالاسم الجامع المنعوت بالأسماء كلها فجاء باسم لا مثل له، إذ لم يتسم أحد بهذا الاسم إلاّ الله سبحانه فناسب كون الصوم لا مثل له. وقوله: من ريح المسك فإن ريح المسك أمر وجوديّ يدركه الشامّ ويلتذّ به السليم المزاج المعتدل، فجعل الخلوف عند الله أطيب منه لأن نسبة إدراك الروائح إلى الله لا تشبه إدراك الروائح بالمشامّ، فهو خلوف عندنا وعنده تعالىٰ هذا الخلوف فوق طيب المسك في الرائحة فإنه روح موصوف لا مثل لما وصف به فلا تشبه الرائحة الرائحة، فإن رائحة الصائم عن تنفّس ورائحة المسك لا عن تنفّس من المسك.

ولنا واقعة في مثل هذا: كنت عند موسىٰ بن محمد القباب بالمنارة بحرم مكة بباب الحزورة وكان يؤذّن بها وكان له طعام يتأذى برائحته كل من شمّه، وسمعت في الخبر النبوي أن الملائكة تتأذّى ممّا يتأذّى منه بنو آدم ونهى أن تقرب المساجد برائحة الثوم والبصل والكرّاث، فبت وأنا عازم أن أقول لذلك الرجل أن يزيل ذلك الطعام من المسجد لأجل الملائكة، فرأيت الحق تعالىٰ في النوم فقال لي عزّ وجلّ: لا تقل له عن الطعام فإن رائحته عندنا ما هي مثل ما هي عندكم، فلما أصبح جاء على عادته إلينا فأخبرته بما جرى فبكى وسجد لله شكراً ثم قال لي: يا سيدي ومع هذا فالأدب مع الشرع أولى فأزاله من المسجد رحمه الله.

ولما كانت الروائح الكريهة الخبيثة تنفر عنها الأمزجة الطبيعية السليمة من إنسان وملك لما يحسّونه من التأذي لعدم المناسبة فإن وجه الحق في الروائح الخبيثة لا يدركه إلاّ الله خاصة، ومن فيه مزاج القبول له من الحيوان أو الإنسان الذي له مزاج ذلك الحيوان لا ملك ولهذا قال عند الله، فإن الصائم أيضاً من كونه إنساناً سليم المزاج يكره خلوف الصوم من نفسه ومن غيره، وهل يتحقق أحد من المخلوقين السالمين المزاج بربه وقتاً ما أو في مشهد ما فيدرك الروائح الخبيثة طيبة على الإطلاق ما سمعنا بهذا، وقولي على الإطلاق من أجل أن بعض الأمزجة يتأذى بريح المسك والورد ولا سيما المحرور المزاج وما يتأذى منه فليس بطيب عند صاحب ذلك المزاج فلهذا قلنا على الإطلاق، إذ الغالب على الأمزجة طيب

المسك والورد وأمثاله، والمتأذي من هذه الروائح الطيبة مزاج غريب أي غير معتاد. ولا أدري هل أعطى الله أحداً إدراك تساوي الروائح بحيث أن لا يكون عنده خبث رائحة أم لا؟ هذا ما ذقناه من أنفسنا ولا نقل إلينا أن أحداً أدرك ذلك بل المنقول عن الكمل من الناس وعن الملائكة التأذي بهذه الروائح الخبيثة، وما انفرد بإدراك ذلك طيباً إلاَّ الحق هذا هو المنقول، ولا أدري أيضاً شأن الحيوان من غير الإنسان في ذلك ما هو لأني ما أقامني الحق في صورة حيوان غير إنسان كما أقامني في أوقات في صور ملائكته والله أعلم.

ثم إن الشرع قد نعت الصوم من طريق المعنى بالكمال الذي لا كمال فوقه حين أفرد له الحق باباً خاصاً وسمّاه باسم خاص يطلب الكمال يقال له باب الريان منه يدخل الصائمون، والريّ درجة الكمال في الشرب فإنه لا يقبل بعد الريّ الشارب شرباً أصلاً، ومهما قبل فما ارتوى أرضاً كان أو غير أرض من أرضين الحيوانات. خرّج مسلم من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ فِي الْجَنَّةِ بَاباً يُقَالُ لَهُ الريان يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ لاَ يَدْخُلُ مَعَهُمْ أَحَدٌ غَيرهُمْ يُقَالُ أَيْنَ الصَّائِمُونَ فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ فَإذَا دَخَلَ آخِرهم أُغْلِقَ فَلا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ**». ولم يقل ذلك في شيء من منهي العبادات ولا مأمورها إلاَّ في الصوم، فبيّن بالريان أنهم حازوا صفة كمال في العمل إذ قد اتصفوا بما لا مثل له كما تقدّم وما لا يماثل هو الكامل على الحقيقة، والصائمون من العارفين هنا دخلوه، وهناك يدخلون منه على علم من الخلائق أجمعين، فلنذكر إن شاء الله في هذا الباب أحكام الصوم المشروع وتوابعه ولواحقه وأنواعه وواجبه ومندوبه، كما ذكرنا فيما تقدّم من أخواته من زكاة وصلاة في العموم والخصوص على طبقاتهم في ذلك، وله عندنا مراتب أوّلها: الصوم العام المعروف الذي تعبدنا الله به وهو الصوم الظاهر في الشاهد على تمام شروطه، فإذا فرغنا من الكلام على أحكام المسألة التي نوردها في ذلك انتقلنا إلى الكلام بلسان الخواص وخلاصتهم على صوم النفس بما هي آمرة للجوارح وهو إمساكها عمّا حجر عليها في مسألة مسألة وارتفاعها عن ذلك، وعلى صوم القلب الموصوف بالسعة للنزول الإلهي حيث قال تعالىٰ: وسعني قلب عبدي، فنتكلم على صومه وهو إمساكه هذه السعة أن يعمرها أحد غير خالقه، فإن عمّرها أحد غير خالقه فقد أفطر في الزمان الذي يجب أن يكون فيه صائماً إيثاراً لربّه مسألة مسألة، والكلام على جملة المفطرات في نوع كل صوم على الاختصار والتقريب فإنه باب يطول، وسأورد في هذا الباب من الأخبار النبوية ما تقف عليه إن شاء الله تعالىٰ.

وصل في فصل ـ تقسيم الصوم: اعلم أن الصوم المشروع منه واجب ومنه مندوب إليه. والواجب على ثلاثة أنواع: منه ما يجب بإيجاب الله تعالىٰ إياه ابتداء وهو صوم ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥] أي في صيامه ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥] في حق المسافر أفطر أو لم يفطر عندنا وعند غيرنا إن أفطر، وفي حق المريض، ومنه ما يجب لسبب موجب وهو صيام الكفارات، ومنه ما يجب من الله بما أوجبه الإنسان على نفسه وهو غير مكروه وهو صوم النذر فإنه يستخرج به من البخيل، وما ثم واجب غير ما ذكرنا. وأما

المندوب فمنه ما يتقيد بالزمان المرغب فيه كصوم الأيام البيض والاثنين والخميس وأشباه ذلك من الأيام والشهور، ومنه ما يتقيد بالحال كصيام يوم وفطر يوم وهو أعدل الصوم، وكالصيام في سبيل الله ومنه ما لا يتقيد بزمان وهو أن يصوم الإنسان متى شاء متطوّعاً بذلك.

وصل في فصل ـ الصوم الواجب الذي هو شهر رمضان لمن شهده: فلنقدم في ذلك ذكر رمضان، وبعد هذا نتكلم في أحكام صومه. خرّج مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوابُ النَّارِ وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ**» زاد النسائي في كتابه: «**وَنَادَى مُنَادٍ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ: يَا طَالِبَ الخَيْرِ هَلُمَّ وَيَا طَالِبَ الشَّرِّ أَمْسِكْ**» رواه النسائي عن عرفجة عن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ عن النبيّ ﷺ لما كان مجيء رمضان سبباً في الشروع في الصوم فتح الله أبواب الجنة والجنة الستر، فدخل الصوم في عمل مستور لا يعلمه منه إلاّ الله تعالىٰ لأنه ترك وليس بعمل وجودي فيظهر للبصر أو يعمل بالجوارح، فهو مستور عن كل ما سوى الله لا يعلمه من الصائم إلاّ الله تعالىٰ، والصائم الذي سمّاه الشرع صائماً لا الجائع، وغلق الله أبواب النار فإذا غلقت أبواب النار عاد نفسها عليها فتضاعف حرّها عليها وأكل بعضها بعضاً، كذلك الصائم في حكم طبيعته إذا صام غلق أبواب نار طبيعته فوجد للصوم حرارة زائدة لعدم استعمال المرطبات ووجد ألم ذلك في باطنه وتضاعفت شهوته للطعام الذي يتوهم الراحة بتحصيله، فتقوى نار شهوته بغلق باب تناول الأطعمة والأشربة وصفدت الشياطين وهي صفة البعد فكان الصائم قريباً من الله بالصفة الصمدانية، فإنه في عبادة لا مثل لها فقرب بها من صفة ليس كمثله شيء، ومن كانت هذه صفته فقد صفدت الشياطين في حقه، وقد ورد في الخبر: «**أَنَّ الشَّيطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ فَسُدُّوا مَجَارِيَهُ بِالجُوعِ وَالعَطَشِ**» أي هذه الأسباب معينة له على ما يريده من الإنسان من التصرّف في الفضول وهو ما زاد على التصرّف المشروع.

ثم اعلم علمك الله من لدنه علماً وجعل لك في كل أمر حكمة وحكماً أن رمضان اسم من أسماء الله تعالىٰ وهو الصمد، ورد الخبر النبوي بذلك، روى أبو أحمد بن عديّ الجرجانيّ من حديث نجيح أبي معشر عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تَقُولُوا رَمَضَان فَإِنَّ رَمَضَانَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَىٰ**» وإن كان في هذا الإسناد أبو معشر فإن علماء هذا الشأن قالوا فيه إنه مع ضعفه يكتب حديثه فاعتبروه رضي الله عنهم، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥] ولم يقل رمضان. وقال: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥] ولم يقل رمضان، فتقوّى بهذا حديث أبي معشر مع قول العلماء فيه إنه يكتب حديثه مع ضعفه فزاد قوّة في هذا الحديث بما أيده القرآن من ذلك، فما فرض الله الصوم الذي لا مثل له ابتداء إلاّ في شهر سمّاه سبحانه باسم من أسمائه، فلا مثل له في الشهور لأنه ليس في أسماء شهور السنة من له اسم تسمّى الله به إلاّ رمضان، فجاء باسم خاص اختصّ به معين وليس كذلك في إضافة رجب، يقول النبيّ ﷺ فيه: «**أَنَّهُ شَهْرُ اللَّهِ المُحَرَّم**» فالكل شهور الله وما نعته هنا إلاّ بالمحرم وهو أحد الشهور الحرم.

ثم إن الله تعالىٰ أنزل القرآن في هذا الشهر في أفضل ليلة تسمّى ليلة القدر فأنزله فيه: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥] من كونه رمضان. وأما من كونه ليلة القدر فأنزله كتاباً مبيناً أي بيناً أنه كتاب، وبين كون الشيء كتاباً وقرآناً وفرقاناً مراتب متميزة يعلمها العالمون بالله، فنهى رسول الله ﷺ أن يقال رمضان لقوله: ليس كمثله شيء، فلو قيل لكان مثلاً في هذا الاسم، فأضاف لفظ الشهر إليه حتى تنتفي عنه المثلية في الشهور خاصة ويبقى ليس كمثله شيء على رتبته من كل وجه. وقد فرض الله صومه وندب إلى قيامه وهو يتضمن صوماً وفطراً لأنه يتضمن ليلاً ونهاراً، واسم رمضان ينطلق عليه في حال الصوم والإفطار حتى يتميز من رمضان الذي هو اسم الله تعالىٰ، فإن الله تعالىٰ له الصوم الذي لا يقبل الفطر، ولنا الصوم الذي يقبل الفطر وينتهي إلى حدّ وهو إدبار النهار وإقبال الليل وغروب الشمس، فكان إطلاقه على الحق لا يشبه إطلاقه على الخلق، وندب إلى القيام في ليله لتجليه تعالىٰ يوم يقوم الناس لرب العالمين، وإن كان التجلي لله في كل ليلة من السنة، ولكن تجليه في رمضان في زمان فطر الصائمين ما هو مثل تجليه للمفطر من غير صوم، لأن هذا وجود فطر عن ترك مشروع موصوف بأنه لا مثل له، وذلك الآخر لا يسمّى مفطراً بل يسمّى آكلاً إذا كان الفطر الشق فهذا الأكل للصائم شق أمعائه بالطعام والشراب بعد سدّها بالصوم حيث قال: «**سُدُّوا مَجَارِيَه بِالجُوعِ وَالعَطَشِ**» وكان القيام بالليل لأن القيام نتيجة قوّة في المحل، وسبب قوى المحل الغذاء، وكان بالليل لمناسبة الغيب، فإن القوّة عن الغذاء غيب غير محسوس إنتاج القوّة عن الغذاء.

ولما شمل رمضان الصوم والفطر والقيام وعدم القيام لذلك ورد في الخبر: «**لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ إِنِّي قُمْتُ رَمَضَانَ كُلَّهُ وَصُمْتُهُ**» قال الراوي: فلا أدري أكره التزكية أو قال: لا بدّ من نومة أو رقدة، فجعل الاستثناء في قيام ليله لا في صوم نهاره، خرّج هذا الحديث أبو داود عن أبي بكرة عن رسول الله ﷺ، فالفطر هنا هو الإدبار والإقبال والغروب سواء أكل أو لم يأكل، فصوم شهر رمضان واجب على كل إنسان مسلم بالغ عاقل صحيح مقيم غير مسافر، وهو عين هذا الزمان المعلوم المشهور المعين من الشهور الاثني عشر شهراً الذي بين شعبان وشوّال، والمعين من هذا الزمان صوم الأيام دون الليالي، وحدّ يوم الصوم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فهذا هو حدّ اليوم المشروع للصوم لا حدّ اليوم المعروف بالنهار فإن ذلك من طلوع الشمس إلى غروبها ولما اتصف من ليس كمثله شيء بالأوّل والآخر، كذلك وصف الصوم الذي لا مثل له بأول وآخر، فأوّله الطلوع الفجريّ وآخره الغروب الشمسيّ، فلم يجعل أوّله يشبه آخره لأنه اعتبر في أوّله ما لم يعتبر في آخريته ممّا هو موجود في آخريته موصوف فيه الصائم بالإفطار، وفي أوّليته موصوف فيه بالصوم، ولا فرق بين الشفق في الغروب والطلوع من حين الغروب إلى حين مغيب الشفق، أو من حين الانفجار إلى طلوع الشمس، ولهذا عدل الشرع إلى لفظة الفجر لأن حكم انفجاره لوجود النهار حكم غروب الشمس لإقبال الليل وحصوله، فكما علم بانفجار الصبح إقبال النهار، وإن لم تطلع الشمس

كذلك عرفنا بغروب الشمس إقبال الليل وإن لم يغرب الشفق فانظر ما أحكم وضع الشريعة في العالم، فالجامع بين الأوّل والآخر في الصوم وجود العلامة على إقبال زمان الصوم وزمان الفطر وهو إدبار النهار، كما أن بالفجر إدبار الليل، فرمضان أعم من صيامه. وسيأتي الكلام على الوصال في موضعه وهل صاحبه يسمّى صائماً أم لا؟

وبعد أن ذكرنا تحديد يوم الصوم سواء كان في شهر رمضان أو في غيره فلننظر في تحديد الشهر، فأقل مسمّى الشهر تسعة وعشرون يوماً وأكثره ثلاثون يوماً، هذا هو الشهر العربيّ القمريّ خاصة الذي كلفنا أن نعرفه وشهود العادين بالعلامة أيضاً، لكن أصحاب العلامة يجعلون شهراً تسعة وعشرين وشهراً ثلاثين، والشرع تعبدنا في ذلك برؤية الهلال وفي الغيم بأكبر المقدارين إلاّ في شعبان إذا غمّ علينا هلال رمضان، فإن فيه خلافاً بين أن نمدّ شعبان إلى أكثر المقدارين، وهو الذي ذهبت إليه الجماعة، وإما أن نردّه إلى أقل المقدارين وهو تسعة وعشرون وهو مذهب الحنابلة ومن تابعهم، ومن خالف من غير هؤلاء لم يعتبر أهل السنّة خلافه فإنهم شرعوا ما لم يأذن به الله، والذي أقول به أن يسأل أهل التسيير عن منزلة القمر، فإن كان على درج الرؤية وغمّ علينا عملنا عليه، وإن كان على غير درج الرؤية كملنا العدّة ثلاثين.

وأمّا الشهور التي لا تعدّ بالقمر فلها مقادير مخصوصة أقل مقاديرها ثمانية وعشرون وهو المسمّى بالرومية فبراير، وأكثرها مقداراً ستة وثلاثون يوماً وهو المسمّى بالقبطية مسرى وهو آخر شهور سنة القبط، ولا حاجة لنا بشهور الأعاجم فيما تعبدنا به من الصوم. فأما انتهاء الثلاثين في ذلك فهو عدد المنازل والنازلين اللذين لا يخنسان وهما الشمس المشبهة بالروح التي ظهرت به حياة الجسم للحسّ، والقمر المشبّه بالنفس لوجود الزيادة والنقص والكمال الزيادي والنقصيّ، والمنازل مقدار المساحة التي يقطعها ما ذكرناه دائباً، فإن بالشهر ظهرت بسائط الأعداد ومركباتها بحرف العطف من أحد وعشرين إلى تسعة وعشرين، وبغير حرف العطف من أحد عشر إلى تسعة عشر، وحصر وجود الفردية في البسائط وهي الثلاثة، وفي العقد وهي الثلاثون، ثم تكرار الفرد لكمال التثليث الذي عنه يكون الإنتاج في ثلاثة مواضع وهي الثلاثة في البسائط، والثلاثة عشر في العدد الذي هو مركب بغير حرف عطف، والثلاثة والعشرون بحرف العطف وانحصرت الأقسام.

ولما رأينا أن الروح يوجد فتكون الحياة ولا يكون هناك نقص ولا زيادة فلا يكون للنفس عين موجودة لها حكم كموت الجنين في بطن أمّه فقد نفخ الروح فيه أو عند ولادته لذلك كان الشهر قد يوجد من تسعة وعشرين يوماً، فإذا علمت هذا فقد علمت حكمة مقدار الشهر العربيّ، وإذا عددناه بغير سير الهلال ونوينا شهراً مطلقاً في إيلاء أو نذر عملنا بالقدر الأقل في ذلك ولم نعمل بالأكثر فإنا قد خرنا بالأقل حدّ الشهر ففرغنا، وإنما نعتبر القدر الأكثر في الموضع الذي شرع لنا أن نعتبره وذلك في الغيم على مذهب أو يعطي ذلك رؤية الهلال لقوله ﷺ: «**صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ**».

وصل في فصل ـ إذا غُمَّ علينا في رؤية الهلال: اختلف العلماء إذا غمّ الهلال فقال الأكثرون: تكمل العدة ثلاثين، فإن كان الذي غمّ هلال أول الشهر عدّ الشهر الذي قبله ثلاثين، وكان أول رمضان الحادي والثلاثين، وإن كان الذي غمّ هلال آخر الشهر أعني شهر رمضان صام الناس ثلاثين يوماً، ومن قائل: إن كان المغمى هلال أول الشهر صيم اليوم الثاني وهو يوم الشك. ومن قائل في ذلك يرجع إلى الحساب بتسيير القمر والشمس وهو مذهب ابن الشخير وبه أقول.

وصل اعتبار هذا: تقدّم حديث سبب الخلاف، خرّج مسلم عن ابن عمر: «**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ رَمَضَانَ فَضَرَبَ بِيَدِهِ فَقَالَ: الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا ـ ثُمَّ عَقَدَ إِبْهَامَهُ فِي الثَّالِثَةِ ـ وقال صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُمِّيَ عَلَيْكُمْ فَاقْدرُوا ثَلاَثِين**». وقد ورد أيضاً من حديث ابن عمر أنه قال ﷺ: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِيَّةٌ لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسُبُ الشَّهْرُ هَكَذا وَهَكَذا وهَكذا ـ وَعَقَدَ الإِبْهَامَ ـ والشَّهْرُ هَكذا وَهَكَذا وهكذا يَعْنِي تَمَامَ ثَلاثِينَ**» فهذا الحديث الثاني رفع الإشكال. وحديث: «**اقدروا**» من حمله على التضيّق ابتدأ بصوم رمضان من يوم الشك، ومن حمله على التقدير حكم بالتيسير، وبه أقول.

اعلم أنه لا ترفع الأصوات إلاّ بالرؤية، وبه سمّي هلالاً، فمتى ما طلع هلال المعرفة في أفق قلوب العارفين من الاسم الإلهيّ رمضان وجب الصوم، ومتى طلع هلال المعرفة في أفق قلوب العارفين من الاسم الإلهيّ ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الزمر: الآية ٤٦] وجب الفطر على الأرواح من قوله ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وعلى الأجسام من قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ وطلع هنا أي ظهر فإنه غارب يتلو الشمس، فإن غمّ على العارف ولم يره من أجل الحجاب الحائل من عالم البرزخ فإن الغيم برزخيّ بين السماء والأرض فيقدر العارف لهلال المعرفة في قلبه بحاله، وذلك أن ينظر في هلال عقله بتسييره في منازل سلوكه حالاً بعد حال ومقاماً بعد مقام، فإن كان مقامه يعطي الكشف وأن النداء قد جاءه من خلف حجاب كما جاء: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١] غير أن حجاب الطبيعة قام له في ذلك الوقت في أمر من أموره من شغل الخاطر بمال أو أهل، وإن كان في الله فيعمل بحساب ذلك، ويعامل اسم الله رمضان بما يليق به، وإن لم يشهده فإن الحال اقتضى له ذلك، وإن لم يعطه الحال لصحة الحساب أخرجكم ذلك الاسم الإلهيّ إلى وقته.

وصل في فصل ـ اعتبار وقت الرؤية: اتفقوا على أنه إذا رئي من العشاء على أن الشهر من اليوم الثاني، واختلفوا إذا رئي في سائر أوقات النهار أعني أول ما يرى، فأكثر العلماء على أن القمر في أول وقت رئي من النهار أنه لليوم المستقبل كحكمه في موضع الاتفاق: ومن قائل: إذا رئي قبل الزوال فهو لليلة الماضية، وإن رئي بعد الزوال فهو لليلة الآتية، وبه أقول.

وصل في الاعتبار فيه: حكم الاسم الإلهيّ في أيّ حال ظهر من الأحوال فالحكم له في الحال بالتجلي، وفي الاستقبال بالأثر حتى يأتي حكم اسم آخر يزيل حكم الأول. وأما من يعتبر الرؤية قبل الزوال وبعده فاعلم أن الاستواء هو المسمّى في الطريق موقف السواء وهو

الموقف الذي لا يتميز فيه سيد من عبد ولا عبد من سيد. فإن قلت فيه في تلك الحالة سيد صدقت، وإن قلت فيه عبد صدقت، لأن لك شاهد حال في كل قول يشهد لك بصدق ما تقول، فقل ما شئت فيه تصدق، وهو مثل قوله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فكونه رمى حق وكونه لم يرم حق، يقول تعالىٰ: كنت يده التي يبطش بها. فإن قلت: إن الرامي هو الله صدقت. وإن قلت: إن الرامي هو محمد ﷺ صدقت، هذا هو موقف السواء. فإن كنت في موقف أبي بكر الصدّيق ما رأيت شيئاً إلاَّ رأيت الله قبله فتكون ممّن رآه قبل الزوال فالحكم للماضي وأنت بالحال في أول الشهر، وذلك اليوم هو أوله، وإن كنت عثمانيّ المشهد أو صاحب دليل فكر فتقول: ما رأيت شيئاً إلاَّ رأيت الله بعده وهو الذي رآه بعد الزوال، فحكمه في المستقبل ووقته في الاستواء وقت وجه الدليل له نسبة إلى الدليل ونسبة إلى المدلول، ثم يظهر الزوال وهو رجوع الظل من خط الاستواء إلى الميل العينيّ فإنه راجع إلى العشيّ وهو طلب الليل.

وصل في فصل ـ اختلافهم في حصول العلم بالرؤية بطريق البصر: اختلف العلماء في ذلك فكلهم قالوا: إن من أبصر هلال الصوم وحده أن عليه أن يصوم إلاَّ ابن أبي رباح فإنه قال: لا يصوم إلاَّ برؤية غيره معه. واختلفوا هل يفطر برؤيته وحده؟ فمن قائل: لا يفطر. ومن قائل: يفطر. وبه أقول. وكذلك يصوم لرؤيته وحده ولكن مع حصول العلم في الرؤيتين. وأما حصول العلم بالرؤية من طريق الخبر فمن قائل: لا يصام ولا يفطر إلاَّ بشاهدين عدلين. ومن قائل: يصام بواحد ويفطر باثنين. ومن قائل: إن كانت السماء مغيمة أعني في موضع الهلال قبل واحد وإن كانت مصحية لم يقبل إلاَّ الجمّ الغفير أو عدلان. وكذلك في هلال الفطر فمن قائل: اثنان. ومن قائل: واحد.

وصل في الاعتبار في ذلك: فيما يراه أهل الله من التجلي في الأسماء الإلهية هل يقف مع رؤيته أو يتوقف حتى يقوم له شاهد من كتاب أو سنّة؟ قال الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنّة، يريد أنه نتيجة عن العمل عليهما وهو الذي أردناه بالشاهد وهما الشاهدان العدلان. وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهو صاحب الرؤية ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [سورة هود: الآية ١٧] وهو ما ذكرناه من العمل على الخبر إمّا كتاب أو سنّة وهو الشاهد الواحد، والشاهدان الكتاب والسنّة، وإنما احتجنا إلى العمل عليهما دون العثور على النقل الذي يشهد لصاحب هذا المقام لأن ذلك يتعذر إلاَّ بخرق العادة وهو أن نعرف من هناك بآية الدليل أو الخبر، وقد رأينا هذا لجماعة من أصحابنا يحتجون على مواجيدهم بالقرآن وما تقدّم لهم به حفظ وبالسنّة، وقد روينا هذا عن أبي يزيد البسطاميّ، ومتى لم يعط ذلك لم يحكم عليه بقبول ولا بردّ، كأهل الكتاب إذا أخبرونا عن كتابهم بأمر لا نصدّق ولا نكذب، بهذا أمرنا رسول الله ﷺ فنتركه موقوفاً. والذي أعرف من قول الجنيد لعلمي بالطريق أنه أراد أن يفرّق بين ما يعطى لصاحب الخلوات والمجاهدة والرياضة على غير طريق الشرع، بل بما تقتضيه النفوس من طريق العقل، وبين ما يظهر للعاملين على الطريقة المشروعة بالخلوات

والرياضات، فيشهد له سلوكه على الطريقة المشروعة الإلهية بأن ذلك الظاهر له من عند الله على طريق الكرامة به، فهذا معنى قول الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنّة، وفي رواية مشيد أي هو نتيجة عن عمل مشروع إلهيّ ليفرّق بينه وبين ما يظهر لأرباب العقول أصحاب النواميس الحكمية، والمعلوم واحد، والطريق مختلف، وصاحب الذوق يفرق بين الأمرين.

وصل في فصل ـ زمان الإمساك: اتفقوا على أن آخره غيبوبة الشمس. واختلفوا في أوله، فمن قائل: الفجر الثاني وهو المستطير. ومن قائل: هو الفجر الأحمر الذي يكون بعد الأبيض وهو قول حذيفة وابن مسعود، وهو نظير الشفق الأحمر الذي يكون في أول الليل. والذي أقول به هو تبيّنه للناظر إليه حينئذ يحرم الأكل وهذا هو نص القرآن حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود يريد بياض الصبح وسواد الليل.

وصل الاعتبار في هذا: غيبوبة الشمس هي انقضاء مدّة حكم الاسم الإلهيّ رمضان في الصوم فإنه الذي شرع الصوم، فانتهاء مدة حكمه في الصوم هو مغيب الشمس، وإن كان اسم رمضان كما هو لم يزل عن ولايته فإن له حكماً آخر فينا وهو القيام وتولّي الحكم في المحل الذي كان موصوفاً بالصيام الاسم الذي هو ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الزمر: الآية ٤٦] ولكن بتولية اسم رمضان إياه فهو النائب عنه، كما أنه في الصوم رفيع الدرجات وممسك السموات والأرض أن تزولا أو أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه، فأفطر الصائم وبقي حكمه مستمراً في القيام إلى الحدّ الذي يحرّم فيه الأكل الاسم الإلهيّ رمضان، فتولى الاسم الممسك ويبقى الاسم الفاطر والياً على المريض والمسافر والمرضع والحامل، وذلك الحدّ هو الفجر الأبيض المستطير، وهو الأولى من الفجر الأحمر إلاّ عند من يقول بفار التنور أنه الفجر، كما أن الأخذ بالتواتر أولى من الأخذ بالخبر الواحد الصحيح والقرآن متواتر وهو القائل: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧] فإن أصل الألوان البياض والسواد وما عداهما من الألوان فبرازخ بينهما تتولد من امتزاج البياض والسواد، فتظهر الغبرة والحمرة والخضرة إلى غير ذلك من الألوان، فما قرب للبياض كانت كمية البياض فيه أكثر من كمية السواد، وكذلك في الطرف الآخر.

وجاءت السنّة في حديث حذيفة بالحمرة دون البياض فقال: هو النهار إلاّ أن الشمس لم تطلع وهو محتمل، والبياض المذكور في القرآن ليس بمحتمل، فرجحنا الأبيض على الأحمر بوجهين قويين: القرآن وعدم الاحتمال واعتبارهما حكم الإيمان وهو الأبيض فإنه مخلص لله غير ممتزج والأحمر للنظر الاجتهاديّ وهو حكم العقل، ونظر العقل ممتزج بالحسّ من طريق الخيال لأنه يأخذ عن الفكر عن الخيال عن الحسّ إمّا بما يعطيه وإما بما تعطيه القوّة المصوّرة وهو قاطع بما يعطيه إلاّ أنه تدخل عليه الشبهة القادحة، فلهذا أعطينا الشفق الأحمر لنظر المجتهد، إذ الحمرة لون حدث من امتزاج البياض والسواد وهو امتزاج خاص. وأمّا اعتبار التبين في قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ﴾ ولا يتبين حتى يكون

الطلوع وإليه أذهب في الحكم فلم يحرم الأكل مع حصول الطلوع في نفس الأمر، لكن ما حصل البيان عند الناظر كذلك الحق، وإن كان في نفس الأمر هو الظاهر في المظاهر الإمكانية لكن لم يتبين ذلك لكل أحد، وكما عفا الشارع عن الآكل في أكله وأباح له الأكل مع تحقق طلوع الفجر في نفس الأمر لكن ما تبين له كذلك ما وقع من العبد الذي لا يعرف أن الحق هو الظاهر في المظاهر الإمكانية بأفعاله وأسمائه، لا يؤاخذ بها من جهل ذلك حتى يتبين له الحق في ذلك فيكون على بصيرة في قوله: إذا أحببته كنت سمعه وبصره، فكان العبد مظهر الحق، وقد ثبت أن الله قال على لسان عبده في الصلاة: سمع الله لمن حمده، فنسب القول إليه واللسان للعبد الذي هو محل القول، واللسان مظهر إمكانيّ، وكما يحرم على المكلف الأكل عند تُبين الفجر كذلك يحرم على صاحب الشهود أن يعتقد أن ثم في الوجود غير الله فاعلاً بل ولا مشهوداً، إذ كان قد عمّ في الحديث القوى والجوارح وما ثم إلا هذان.

وصل في فصل ـ ما يمسك عنه الصائم: أجمعوا على أنه يجب على الصائم الإمساك عن المطعوم والمشروب والجماع، وهذا القدر هو الذي ورد به نص الكتاب في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧].

وصل في الاعتبار في هذا: أما المطعوم فهو علم الذوق والشرب، فالصائم على صفة لا مثل لها، ومن اتصف بما لا مثل له فحكمه أن لا مثل له، والذوق أول مبادي التجلي الإلهيّ، فإذا دام فهو الشرب، والذوق نسبة تحدث عند الذائق إذا طعم المذوق، والصوم ترك، والترك ما له صفة وجودية تحدث، فإن الترك ليس بشيء وجودي يحدث لأنه نعت سلبي، والطعم يضادّه فلهذا حرم تناول المطعوم على الصائم لأنه يزيل حكم الصوم عنه.

وأما المشروب: فهو تجلّ وسط، والوسط محصور بين طرفين لمن هو وسط لهما، والحصر يقضي بالتحديد في المحصور، والصوم صفة إلهية، والله لا يقتضي الحصر ولا يتصف به ولا بالحدّ ولا يتميز بذلك عندنا فيناقض المشروب الصوم، فلهذا حرم على الصائم المشروب، ثم إن المشروب لما كان تجلياً أذن بوجود الغير المتجلى له، والغير في الصائم لا عين له لأن الصوم لله ليس لنا وأنا المنعوت به فقد أنزلني الحق بهذه الصفة منزلته والشيء لا يتجلّى لنفسه فالصائم لا يتناول المشروب ويحرم عليه ذلك.

وأما الجماع: فهو لوجود اللذة بالشفعية، فكل واحد من الزوجين صاحب لذة فيه، فكل واحد مثل للآخر في الجماع ولهذا سمّي جماعاً لاجتماع الزوجين، والصائم لا مثل له لاتصافه بصفة لا مثل لها، فحرم الجماع على الصائم، هذا موضع الاجتماع على هذه الثلاثة التي تبطل الصوم ولا يكون الموصوف بها أو بأحدها صائماً.

وصل في فصل ـ ما يدخل الجوف ممّا ليس بغذاء: اختلفوا فيما يدخل الجوف ممّا ليس بغذاء كالحصى وغيره، وفيما يدخل الجوف من غير منفذ الطعام والشراب كالحقنة،

وفيما يرد باطن الأعضاء ولا يرد الجوف، مثل أن يرد الدماغ ولا يرد المعدة. فمن قائل: أن ذلك يفطر. ومن قائل: لا يفطر.

وصل في فصل الاعتبار: مشاركة الحكماء أصحاب الأفكار أهل الله فيما يفتح لهم من علم الكشف بالخلوة والرياضة من طريق النظر وأهل الله تعالىٰ بهما من طريق الإيمان واجتمعا في النتيجة، فمن فرّق من أصحابنا بينهما بالذوق وإن مدرك هذا غير مدرك هذا، وإن اشتركا في الصورة قال: لا يفطر، ومن قال: المدرك واحد والطريق مختلف فذلك اعتبار من قال يفطر، وأما اعتبار باطن الأعضاء ما عدا الجوف فهو أن يكون الصائم في حضرة إلهية فأقيم في حضرة مثالية مثل قوله: «**اعْبدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» فهل لمن خرج من عباد الله في ذوقه عن حكم التشبيه والتمثيل أن يؤثر فيه قول الشارع: «**اعبد الله كأنك تراه**» فيترك علمه وذوقه وينزل إلى هذه المنزلة أدباً مع الشرع وحقيقة من الكشف فيكون قد أفطر، أو لا ينزل ويقول أنا مجموع من حقائق مختلفة وفيّ ما يبقيني على ما أنا عليه، وفي ما تطلبه مشاهدة هذا التنزل وهو كوني متخيلاً أو ذا خيال، فيعلم أن الحق قد طلب مني أن نشهده في هذه الحضرة من هذه الحقيقة ومن كل حقيقة فيّ، فيتعين لهذا التجلي المثاليّ مني هذه الحقيقة التي تطلبه وتبقى على ما أنا عليه من حقيقة أن لا خيال ولا تخيّل، فهذا اعتبار من يرى أنه لا يفطر ما يرد باطن الأعضاء الخارجة عن المعدة.

وصل في فصل ـ القبلة للصائم: فمن علماء الشريعة من أجازها. ومنهم من كرهها على الإطلاق. ومنهم من كرهها للشاب وأجازها للشيخ.

اعتبار هذا الفصل: هذه المسألة نقيض مسألة موسىٰ عليه السلام فإنه طلب الرؤية بعدما حصل له الكلام، فالمشاهدة والكلام لا يجتمعان في غير التجلي البرزخيّ وهو كان مقام شهاب الدين عمر السهرورديّ الذي مات ببغداد رحمه الله، فإنه روى لي عنه من أثق بنقله من أصحابه أنه قال باجتماع الرؤية والكلام، فمن هنا علمت أن مشهده برزخي لا بدّ من ذلك غير ذلك لا يكون، والقبلة من الإقبال والقبول على الفهوانية من حضرة اللسن فإنه محل الكلام، وكان الإقبال عليه أيضاً بالكلام المسموع إذ كان في المشاهدة المثالية، ومن كان فيها يتصوّر منه طلب الإقبال على الفهوانية فإذا كلّمه لم يشهده، وهذا المقام الموسويّ ذقته في الموضع الذي ذاقه موسىٰ عليه السلام، غير أني ذقته في بلة في الرمل على قدر الكف، وذاقه موسىٰ عليه السلام في حاجته وهي طلبه النار لأهله ففرحت حيث كان ماء. وإنما قلنا إذا كلّمه لم يشهده لأن النفس الطالبة تستفرغ لفهم الخطاب فتغيب عن المشاهدة فهو بمنزلة من يكره القبلة إذ الصائم صاحب المشاهدة لأن الصوم لا مثل له والمشاهدة لا مثل لها. وأما من أجازها فقال التجلّي مثالي فلا أبالي، فإن الذات من وراء ذلك التجلي، والتجلي لا يصحّ إلاّ من مقام المتجلّى له. وأما لو كان التجلّي في غير مقام المتجلّى له لم يصحّ، طلب غير ما هو فيه، لأن مشاهدة الحق فناء ومع الفناء لا يتصوّر طلب، فإن اللذة أقرب من طلب الكلام لنفس المشاهد، ومع هذا فلا يلتذّ المشاهد في حال المشاهدة.

قال أبو العباس السياري رحمه الله: ما التذّ عاقل بمشاهدة قط لأن مشاهدة الحق فناء ليس فيها لذة. وأما من كرهها للشاب فاعتباره المبتدي في الطريق أجازها للشيخ واعتباره المنتهي، فإن المنتهي لا يطلب الرجوع من المشاهدة إلى الكلام فيترك المشاهدة ويقبل على الفهوانية إذ لا تصحّ الفهوانية إلاّ مع الحجاب كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١] والمنتهي يعرف ذلك فلا يفعله، وأما المبتدي وهو الشاب فما عنده خبرة بالمقامات فإنه في مقام السلوك فلا يعرف منها إلاّ ما ذاقه، والنهاية إنما تكون في المشاهدة وهو يسمع بها من الأكابر فيتخيل أنه لا يفقد المشاهدة مع الكلام، والمبتدي في مشاهدة مثالية فيقال له: ليس الأمر كما تزعم إن كلمك لم يشهدك وإن أشهدك لم يكلمك ولهذا لم يجوّزها للشاب وأجازها للشيخ، لأن الشيخ لا يطلب الفهوانية إلاّ إذا كان وارثاً للرسول في التبليغ عن الله فيجوز له الإقبال على الفهوانية لفهم الخطاب.

وصل في فصل ـ الحجامة للصائم: فمن قائل: إنها تفطر والإمساك عنها واجب. ومن قائل: إنها لا تفطر ولكنها تكره للصائم. ومن قائل: إنها غير مكروهة للصائم ولا تفطر.

وصل في اعتبار هذا الفصل: الاسم المحيي يرد على الاسم رمضان في حال حكمه في الصائم في شهر رمضان، أو على الاسم الممسك الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، أو يمسك السماء أن تقع على الأرض إذ كانت الحياة الطبيعية في الأجسام بخار الدم الذي يتولد من طبخ الكبد الذي هو بيت الدم للجسد، ثم يسري في العروق سريان الماء في الطوارق لسقي البستان لحياة الشجر، فإذا طمي يخاف أن ينعكس فعله في البدن فيخرج بالفصاد أو بالحجامة ليبقى منه قدر ما يكون به الحياة، فلهذا جعلنا الحكم للاسم المحيي أو الممسك، فإن بالحياة تبقى سموات الأرواح وأرض الأجسام، وبه يكون حكم المحيي أقوى ممّا هو بنفسهما اسمان إلهيان أخوان، فإذا وردا على اسم الله رمضان في حكم الصائم أو على الاسم الإلهي الذي به أضاف الحق الصوم لنفسه في غير رمضان ووجدا في المنزل الأقرب لهذا المحل الاسم الإلهي الضار والمميت استعانا بالاسم الإلهي النافع فصاروا ثلاثة أسماء إلهية يطلبون دوام هذه العين القائمة فحرّكوه لطلب الحجامة فلم يفطر الصائم ولم يكره، فإن بوجودها ثبت حكم الاسم الإلهي رمضان لها، ومن قال تكره ولا تفطر فوجه الكراهة في الاعتبار أن الصائم موصوف بترك الغذاء لأنه حرم عليه الأكل والشرب، والغذاء سبب الحياة للصائم، وقد أمر بتركه في حال صومه، وإزالة الدم إنما هو في هذه الحال بالحجامة من أجل خوف الهلاك، فقام مقام الغذاء لطلب الحياة وهو ممنوع من الغذاء فكره له ذلك، وبهذا الاعتبار وبالذي قبله يكون الحكم فيمن قال أنها تفطر والإمساك عنها واجب.

وصل في فصل ـ القيء والاستقاء: فمن قائل فيمن ذرعه القيء أنه لا يفطر الصائم وهم الأكثرون. ومن قائل: أنه يفطر وهو ربيعة ومن تابعه، وكذلك الاستقاء الجماعة على أنه مفطر إلاّ طاووس فإنه قال: ليس بمفطر.

وصل في اعتبار هذا الفصل: المعدة خزانة الأغذية التي عنها تكون الحياة الطبيعية،

وإبقاء الملك على النفس الناطقة الذي به يسمّى ملكاً، وبوجوده تحصل فوائد العلوم الوهبية والكسبية، والنفس الناطقة تراعي الطبيعة، والطبيعة وإن كانت خادمة البدن فإنها تعرف قدر ما تراعيها النفس الناطقة التي هي في الملك، فإذا أبصرت الطبيعة أن في خزانة المعدة ما يؤدّي إلى فساد هذا الجسم قالت للقوّة الدافعة: أخرجي الزائد المتلف بقاؤه في هذه الخزانة، فأخذته الدافعة من الماسكة وفتحت له الباب وأخرجته، وهذا هو الذي ذرعه القيء، فمن راعى كونه كان غذاء فخرج على الطريق الذي منه دخل عن قصد، ويسمّى لأجل مروره على ذلك الطريق إذا دخل مفطراً أفطر عنده بالخروج أيضاً، ومن فرّق بين حكم الدخول وحكم الخروج ولم يراع الطريق وهما ضدّان قال: لا يفطر وهذا هو الذي ذرعه القيء، فإن كان للصائم في إخراجه تعمل وهو الاستقاء فإن راعى وجود المنفعة ودفع الضرر لبقاء هذه البنية فقام عنده مقام الغذاء والصائم ممنوع من استعمال الغذاء في حال صومه وكان إخراجه ليكون عنه في الجسم ما يكون للغذاء قال: إنه مفطر ومن فرّق بين حكم الدخول وحكم الخروج قال: ليس بمفطر، وهذا كله في الاعتبار الإلهي أحكام الأسماء الإلهية التي يطلبها استعداد هذا البدن لتأثيرها في كل وقت، فإن الجسم لا يخلو من حكم اسم إلهي فيه، فإن استعدّ المحل لطلب اسم إلهي غير الاسم الذي هو الحاكم فيه الآن زال الحكم ووليّه الذي يطلبه للاستعداد، ونظيره إذا خامر أهل بلد على سلطانهم فجاؤوا بسلطان غيره لم يكن للأول مساعد فيزول عن حكمه ويرجع الحكم الذي طلبه الاستعداد، فالحكم أبداً إنما هو للاستعداد، والاسم الإلهي المعد لا يبرح حكمه دائماً لا ينعزل، ولا يصحّ المخامرة من أهل البلد عليه فهو لا يفارقه في حياة ولا موت ولا جمع ولا تفرقة، ويساعده الاسم الإلهي الحفيظ والقويّ وأخواتهما فاعلم ذلك: ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «احْتَجَمَ وَهُوَ صَائِمٌ» خرّجه البخاري عن ابن عباس. وخرّج أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ ذَرَعَهُ القَيْءُ وَهُوَ صَائِمٌ فَلَيْسَ عَلَيْهِ القَضَاءُ وَإِن اسْتَقَاءَ فَلْيَقْضِ»** رواة هذا الحديث كلهم ثقات.

وصل في فصل النيّة: فمنهم من رأى النيّة شرطاً في صحة الصيام وهو الجمهور. ومنهم من قال: لا يحتاج رمضان إلى نيّة إلاّ أن يكون الذي يدركه صوم رمضان مريضاً أو مسافراً فيريد الصوم.

وصل في الاعتبار فيه: النيّة القصد، وشهر رمضان لا يأتي بحكم القصد من الإنسان الصائم، فمن راعى أن الصوم لله لا للعبد قال بالنيّة في الصوم فإنه ما جاء شهر رمضان إلاّ بإرادة الحق من الاسم الإلهيّ رمضان، والنيّة إرادة بلا شك. ومن راعى أن الحكم للوارد وهو شهر رمضان فسواء نواه الصائم الإنساني أو لم ينوه فإن حكمه الصوم، فليست النيّة شرطاً في صحة صومه، فإن لم يجب عليه وخيره مع كونه ورد كالمريض والمسافر صار حكمهما بين أمرين على التخيير فلا يمكن أن يعدل إلى أحد الأمرين إلاّ بقصد منه وهو النيّة.

وصل في فصل من هذا الفصل وهو تعيين النية المجزئة في ذلك: فمن قائل: لا بدّ في ذلك من تعيين صوم رمضان، ولا يكفيه اعتقاد الصوم مطلقاً، ولا اعتقاد صوم معين غير صوم

رمضان. ومن قائل: إن أطلق الصوم أجزأه، وكذلك إن نوى فيه غير صيام رمضان أجزأه وانقلب إلى صيام رمضان إلاَّ أن يكون مسافراً، فإن للمسافر عنده أن ينوي صيام غير رمضان في رمضان. ومن قائل: أن كل صوم نوي في رمضان انقلب إلى رمضان المسافر والحاضر في ذلك على السواء.

وصل الاعتبار فيه: قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] فالحكم للمدعوّ بالأسماء الإلهية لا للأسماء، فإنها وإن تفرقت معانيها وتميزت فإن لها دلالة على ذات معينة في الجملة وفي نفس الأمر، وإن لم تعلم ولا يدركها حدّ فإنه لا يقدح ذلك في إدراكنا وعلمنا أن ثم ذاتاً ينطلق عليها هذه الأسماء كذلك الصوم هو المطلوب سواء كان مندوباً أو واجباً على كثرة تقاسيم الوجوب فيه، ومن راعى الاسم الإلهي رمضان فرّق بينه وبين غيره، فإن غيره هو من الاسم الممسك لا من اسم رمضان، والأسماء الإلهية وإن دلّت على ذات واحدة فإنها تتميز في أنفسها من طريقين: الواحد من اختلاف ألفاظها. والثاني من اختلاف معانيها، وإن تقاربت غاية القرب وتشابهت غاية الشبه. وأسماء المقابلة في غاية البعد كالضارّ والنافع والمعزّ والمذلّ والمحيي والمميت والهادي والمضلّ، فلا بدّ من مراعاة حكم ما تدل عليه من المعاني وبهذا يتميز العالم من الجاهل، وما أتى الحق بها متعدّدة إلاَّ لمراعاة ما تدل عليه من المعاني، ومراعاة قصد الحق تعالىٰ في ذلك أولى من غيره، فلا بدّ من التعيين لحصول الفائدة المطلوبة بذلك اللفظ المعين دون غيره من تركيبات الألفاظ التي هي الكلمات الإلهية، ومن اعتبر حال المكلف وهو الذي فرّق بين المسافر والحاضر وله في التفرقة وجه صحيح لأن الحكم يتبع الأحوال فيراعى المضطرّ وغير المضطرّ والمريض وغير المريض، وكذلك الأسماء تراعى أيضاً فيراعى اسم الخمر إذا تخللت من اسم الخل فيتغير الحكم الإلهيّ في هذا الجسم المعين بتغيّر الأسماء، كما تغيّرت الأسماء في بعض الأشياء لتغيّر الأحوال، إذ كان التغيير في ذلك لحكم اسم إلهيّ أوجب له تغيير الاسم فتغيّر الحكم. [الكامل]

الحكمُ للمدعوِّ بالأسماءِ ... ما الحكمُ للأسماء في الأشياءِ
لكنْ لها التحكيمُ في تصريفها ... فيه كمثل الحُكْم للأنواءِ
في الزّهر والأشجار في أمطارها ... وقتاً وفي الأشياء كالأنْدَاءِ
لعِبَتْ بها الأرواحُ في تصريفها ... كتَلاعُب الأفعال بالأسماءِ

وصل في فصل ـ وقت النيّة للصوم: فمن قائل: لا يجزىء الصيام إلاَّ بنيّة قبل الفجر مطلقاً في جميع أنواع الصوم. ومن قائل: تجزىء النيّة بعد الفجر في صوم التطوّع لا في الفروض. ومن قائل: تجزىء النيّة بعد الفجر في الصيام المتعلق وجوبه بوقت معين والنافلة ولا تجزىء في الواجب في الذمّة.

وصل الاعتبار في ذلك: الفجر علامة على طلوع الشمس، فهو كالاسم الإلهيّ من حيث دلالته على المسمّى به لا على المعنى الذي تميّز به عن غيره من الأسماء، والقاصد

للصوم قد يقصده اضطراراً واختياراً، والإنسان في علمه بالله قد يكون صاحب نظر فكري أو صاحب شهود، فمن كان علمه بالله عن نظر في دليل فلا بدّ أن يطلب على الدليل الموصل إليه إلى المعرفة فهو بمنزلة من نوى قبل الفجر، ومدة نظره في الدليل كالمدة من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والمعرفة بالله على قسمين: واجبة كمعرفته بتوحيده في ألوهيته، ومعرفة غير واجبة كمعرفته بنسبة الأسماء إليه التي تدل على معان، فإنه لا يجب عليه النظر في تلك المعاني هل هي زائدة عليه أم لا؟ فمثل هذه المعرفة لا يبالي متى قصدها؟ هل بعد حصول الدليل بتوحيد الإله أو قبله؟ وأمّا الواجب في الذمّة فكالمعرفة بالله من حيث ما نسب الشرع إليه في الكتاب والسنّة، فإنه قد تعين بالدليل النظري أن هذا شرعه وهذا كلامه فوقع الإيمان به فحصل في الذمّة فلا بدّ من القصد إليه من غير نظر إلى الدليل النظري، وهو الذي اعتبر فيه النيّة قبل الفجر لأنه عنده علم ضروري وهو المقدم على العلم النظري لأن العلم النظري لا يحصل إلاّ أن يكون الدليل ضرورياً أو مولداً عن ضروري على قرب أو بعد، وإن لم يكن كذلك فليس بدليل قطعي ولا برهان وجودي.

وصل في فصل ـ الطهارة من الجنابة للصائم: فالجمهور على أن الطهارة من الجنابة ليست شرطاً في صحة الصوم، وأن الاحتلام بالنهار لا يفسد الصوم إلاّ بعضهم، فإنه ذهب إلى أنه إذا تعمّد ذلك أفسد صومه وهو قول ينقل عن النخعيّ وطاووس وعروة بن الزبير، وقد روي عن أبي هريرة ذلك في المتعمد وغير المتعمد وكان يقول: من أصبح جنباً في رمضان أفطر، وكان يقول: ما أنا قلته محمد ﷺ قاله ورب الكعبة. وقال بعض المالكيين: إن الحائض إذا طهرت قبل الفجر فأخّرت الغسل أن يومها يوم فطر.

وصل الاعتبار في هذا: الجنابة الغربة والغربة بعد، والحيض أذى والأذى يوجب البعد، وأعني الأذى الخاص مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٧] أي أبعدهم، واللعنة البعد، وسببه وقوع الأذى منهم، فهو بعيد من الاسم القدّوس، والصوم يوجب القرب من الله الذي ليس كمثله شيء، والصوم لا مثل له في العبادات، فكما لا يجتمع القرب والبعد لا يجتمع الصوم والجنابة والأذى، ومن راعى أن الجنابة حكم الطبيعة فكذلك الحيض، وقال: إن الصوم نسبة إلهية أثبت كل أمر في موضعه فقال بصحة الصوم للجنب وللطاهرة من الحيض قبل الفجر إذا أخّرت الغسل فلم تتطهر إلاّ بعد الفجر وهو الأولى في الاعتبار لما تطلبه الحكمة من إعطاء كل ذي حق حقّه، فإن الحكيم عزّ وجلّ يقول: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] أي بيّن، وأثنى الله بهذا القول لما حكاه عن موسىٰ أنه قاله لفرعون ولم يجرّحه تعالىٰ في هذا القول كما جرّح من قال: إن الله فقير وإن الله ثالث ثلاثة.

وصل في فصل ـ صوم المسافر والمريض شهر رمضان: فمن قائل: إنهما إن صاماه وقع وأجزأهما. ومن قائل: إنه لا يجزيهما وأن الواجب عليهما ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٤] والذي أذهب إليه أنهما إن صاماه فإن ذلك لا يجزيهما، وأن الواجب عليهما

أيام أخر، غير أني أفرّق بين المريض والمسافر إذا أوقعا الصوم في هذه الحالة في شهر رمضان، فأمّا المريض: فيكون الصوم له نفلاً وهو عمل برّ وليس بواجب عليه ولو أوجبه على نفسه فإنه لا يجب عليه. وأما المسافر: لا يكون صومه في السفر في شهر رمضان ولا في غيره عمل برّ، وإذا لم يكن عمل برّ كان كمن لم يعمل شيئاً وهو أدنى درجاته، أو يكون على ضدّ البرّ ونقيضه وهو الفجور، ولا أقول بذلك إلاّ أني أنفي عنه أن يكون في عمل برّ في ذلك الفعل في تلك الحال والله أعلم.

الاعتبار: السالك هو المسافر في المقامات بالأسماء الإلهية، فلا يحكم عليه الاسم الإلهيّ رمضان بالصوم الواجب ولا غير الواجب، ولهذا قال ﷺ: «**لَيسَ مِنَ البِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ**» واسم رمضان يطلبه بتنفيذ الحكم فيه إلى انقضاء شهر سلطانه، والسفر يحكم عليه بالانتقال الذي هو عدم الثبوت على الحال الواحدة، فبطل حكم الاسم الإلهيّ رمضان في حق المسافر الصائم، ومن قال: إنه يجزيه جعل سفره في قطع أيام الشهر وجعل الحكم فيه الاسم رمضان فجمع بين السفر والصوم. وأمّا حكم انتقاله المسمّى سفراً فإنه ينتقل من صوم إلى فطر، ومن فطر إلى صوم، وحكم رمضان لا يفارقه، ولهذا شرع صيامه وقيامه، ثم جواز الوصال فيه أيضاً مع انتقاله من ليل إلى نهار ومن نهار إلى ليل، وحكم رمضان منسحب عليه، ولهذا أجزأ المسافر صوم رمضان. وأمّا المريض فحكمه غير حكم المسافر في الاعتبار، فإن العلماء أجمعوا على أن المريض إن صام رمضان في حال مرضه أجزأه، والمسافر ليس كذلك عندهم فضعف استدلالهم بالآية، فاعتباره أن المرض يضادّ الصحة والمطلوب من الصوم صحته والضدان لا يجتمعان فلا يصحّ المرض والصوم، واعتبرناه في شهر رمضان دون غيره لأنه واجب بإيجاب الله ابتداء، فالذي أوجبه هو الذي رفعه عن المريض، فلا يصحّ أن يرجع ما ليس بواجب من الله واجباً من الله في حال كونه ليس بواجب.

وصل في فصل ـ من يقول: إن صوم المسافر والمريض يجزيهما في شهر رمضان فهل الفطر لهما أفضل أم الصوم؟: فمن قائل: إن الصوم أفضل. ومن قائل: إن الفطر أفضل. ومن قائل: إنه على التخيير فليس أحدهما بأفضل من الآخر.

الاعتبار: من اعتبر أن الصوم لا مثل له وأنه صفة للحق قال: إنه أفضل. ومن اعتبر أنه عبادة فهو صفة ذلّة وافتقار فهو بالعبد أليق، قال: إن الفطر أفضل ولا سيّما للسالك والمريض فإنهما محتاجان إلى القوّة ومنبعها الفطر عادة فالفطر أفضل. ومن اعتبر أن الصوم من الاسم الإلهيّ رمضان وأن الفطر من الاسم الإلهيّ الفاطر وقال: لا تفاضل في الأسماء الإلهية بما هي أسماء للإله تعالىٰ، قال: ليس أحد الاسمين بأفضل من الآخر، لأن المفطر في حكم الفاطر، والصائم في حكم الرفيع الدرجات، وحكم الممسك، وحكم اسم رمضان، وهذا مذهب المحققين رفع الشريف والأشرف والوضيع والشريف الذي في مقابلته من العالم الذي هو عبارة عن كل ما سوى الله تعالىٰ.

وصل في فصل ـ هل الفطر الجائز للمسافر هل هو في سفر محدود أو غير محدود؟: فمن قائل: إنه يفطر في السفر الذي يقصر فيه الصلاة، وذلك على حسب اختلافهم في هذه المسألة. ومن قائل: إنه يفطر في كل ما ينطلق عليه اسم سفر وبه أقول.

الاعتبار في ذلك: المسافرون إلى الله وهو الاسم الجامع وهو الغاية المطلوبة والأسماء الإلهية في الطريق إليه كالمنازل للمسافرين ومنازل القمر المقدرة لسير القمر في الطريق إلى غاية مقصوده، وأقل السفر الانتقال من اسم إلى اسم، فإن وجد الله في أول قدم من سفره كان حكمه بحسب ذلك وقد انطلق عليه أنه مسافر وليس لأكثره عندنا نهاية ولا حدّ لقوله ﷺ في دعائه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ غَيْبِكَ**» فهذا اعتبار من قالَ: يفطر فيما ينطلق عليه اسم سفر، ومن قال بالتحديد في ذلك فاعتباره بحسب ما حدّد، فمن اعتبر الثلاثة في ذلك كان كمن قال: الأحدية أو الواحد لا حكم له في العدد، وإنما العدد من الاثنين فصاعداً، والسفر هنا إلى الاسم الله ولا سفر إليه إلاّ به، فأول ما يلقاه من كونه مسافراً إليه في الفردية وهي الثلاثة أول الأفراد فهذا هو السفر المحدود، ثم يؤخذ الاعتبار في تحديد العلماء تقصير الصلاة في باب الصلاة من هذا الكتاب، وإنا قد ذكرناه في صلاة القصر من هذا الكتاب.

وصل في فصل ـ المرض الذي يجوز فيه الفطر: فمن قائل: المرض هو الذي يلحق من الصوم فيه مشقة وضرر. ومن قائل: إنه المرض الغالب. ومن قائل: إنه أقل ما ينطلق عليه اسم مرض وبه أقول وهو مذهب ربيعة بن أبي عبد الرحمن.

الاعتبار: المريد تلحقه المشقة وهو صاحب مكابدة وجهد، ومن أجل ذلك شرع لنا ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٥] فيعينه الاسم القويّ على ما هو بصدده فهذا مرض يوجب الفطر وأمّا من اعتبر المرض بالميل وهو الذي ينطلق عليه اسم مرض وهو مذهب محمد بن عبد الجبار النفريّ صاحب المواقف من رجال الله كذا أحسبه، والإنسان لا يخلو عن ميل بالضرورة فإنه بين حق وخلق وبين حق وحق من حيث الأسماء الإلهيّة، وكل طرف يدعوه إلى نفسه فلا بدّ له من الميل إمّا عنه أو إليه، به أو بنفسه بحسب حاله، ولا سيما أهل طريق الله فإنهم في مباحهم في حال ندب أو وجوب فلا يخلص لهم مباح أصلاً، فلا يوجد أحد من أهل الله تكون كفتا ميزانه على الاعتدال، والإنسان هو لسان الميزان فلا بدّ فيه من الميل إلى جانب داعي الحق، وهذا هو اعتبار من يقول بالفطر فيما ينطلق عليه اسم مرض، وأن الله عند المريض بالإخبار الإلهيّ الثابت، ألا تراه يلجأ إليه ويكثر من ذكره على أيّ دين كان أو نحلة؟ فإنه بالضرورة يميل إليه، ويظهر لك ذلك بيناً في طلب النجاة ممّا هو فيه، فإن الإنسان بحكم الطبع يجري إذا مسّه الضرّ إلى طلب من يزيله عنه وليس إلاّ الله، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٦٧] وإن جهل الطريق إليها فما جهل الاضطرار فإنه حاله

ذوقاً ونحن إنما نراعي القصد وهو المطلوب. وأمّا من اعتبر المرض الغالب فهو ما يضاف إلى العبد من الأفعال فإنه ميل عن الحق في الأفعال إذ هي له، والموافق والمخالف يميل بها إلى العبد سواء مال اقتداراً أو خلقاً أو كسباً، فهذا ميل حسيّ شرعيّ وهو قولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٣] فأضافوا الإيمان إليهم إيجاداً، وقول الله لهم: ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٦] تقرير الصحة ما نسبوه من الأفعال إليهم بهذه الإضافة فهذا هو الشرعيّ فهذا بمنزلة المرض وأنه الميل الغالب لأنه بين الحق والخلق.

وصل في فصل ـ متى يفطر الصائم ومتى يمسك: فمن قائل: يفطر في يومه الذي خرج فيه مسافراً. ومن قائل: لا يفطر يومه ذلك. واستحب العلماء لمن علم أنه يدخل المدينة ذلك اليوم أن يدخلها صائماً، فإن دخلها مفطراً لم يوجبوا عليه كفارة.

الاعتبار: إذا خرج السالك في سلوكه من حكم اسم إلهيّ كان له إلى حكم اسم آخر إلهيّ دعاه إليه ليوصله إليه حكم اسم آخر ليس هو الذي خرج عنه ولا هو الذي يصل إليه، كان بحكم ذلك الاسم الذي يسلك به وهو معه أينما كان، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] وإن اقتضى له ذلك الاسم الصوم كان بحكم صفة الصوم، وإن اقتضى له الفطر كان بحكم صفة الفطر فإذا علم أنه يحصل في يومه الذي هو نفسه بفتح الفاء في حكم الإسم الذي دعاه إليه ويريد النزول عليه كان بحكم صفة ذلك الاسم من فطر أو صوم لا أعين له حالاً من الأحوال لأن الأحوال تختلف ولا حرج عليه فيما كان من ذلك وبالله التوفيق.

وصل في فصل ـ المسافر يدخل المدينة التي سافر إليها وقد ذهب بعض النهار: اختلف العلماء فيمن هذه حاله فقال بعضهم: يتمادى على فطره. وقال آخرون: يكف عن الأكل، وكذلك الحائض تطهر تكف عن الأكل.

وصل الاعتبار في هذا الفصل: كان له مطلوب في سلوكه فوصل إليه هل يحجبه فرحه بما وصل إليه عن شكر من أوصله إليه؟ فإن حجبه تغيّر الحكم عليه وراعى حكم الإمساك عنه، وإن لم يحجبه ذلك اشتغل عند الوصول بمراعاة من أوصله فلم يخرج عن حكمه وتمادى على الصفة التي كان عليها في سلوكه عابداً لذلك الاسم عبادة شكر لا عبادة تكليف، وكذلك الحائض وهو كذب النفس ترزق الصدق فتطهر عن الكذب الذي هو حيضها والحيض سبب فطرها، فهل تتمادى على صفة الفطر بالكذب المشروع من إصلاح ذات البين؟ والكذب في الحرب، وكذب الرجل لزوجته، أو تستلزم ما هو صدق في محمود وواجب ومندوب، فإن الصدق المحظور كالغيبة، والنميمة مثل الكذب المحظور يتعلق بهما الإثم والحجاب على السواء مثاله من يتحدث بما جرى له مع امرأته في الفراش فأخبر بصدق وهو من الكبائر، وكذلك ما ذكرناه من الغيبة والنميمة. انتهى الجزء السادس والخمسون.

(الجزء السابع والخمسون)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل في فصل ـ هل يجوز للصائم بعض رمضان أن ينشىء سفراً ثم لا يصوم فيه؟: اختلف العلماء فيمن هذه حاله، فمن قائل: يجوز له ذلك وهو الجمهور. ومن قائل: لم يجز له الفطر، روي هذا القول عن سويد بن غفلة وغيره.

الاعتبار: لما كان عندنا وعند أهل الله كلهم أن كل اسم إلهي يتضمن جميع الأسماء، ولهذا ينعت كل اسم إلهي بجميع الأسماء الإلهية لتضمنه معناها كلها، ولأن كل اسم إلهيّ له دلالة على الذات كما له دلالة على المعنى الخاص به، وإذا كان الأمر كما ذكرناه فأيّ اسم إلهيّ حكم عليك سلطانِه؟ قد يلوح لك في ذلك الحكم معنى اسم إلهيّ آخر يكون حكمه في ذلك الاسم أجلى منه وأوضح من الاسم الذي أنت به في وقته فتنشىء سلوكاً إليه. فمن قائل منا: يبقى على تجلّي الاسم الذي لاح له فيه ذلك المعنى. ومنّا من قال: ينتقل إلى الاسم الذي لاح له معناه في التضمن فإنه أجلى وأتم، فالرجل مخيّر إذا كان قوياً على تصريف الأحوال، فإن كان تحت تصريف الأحوال كان بحكم حال الاسم الذي يقضي عليه سلطانه.

وصل في فصل ـ المغمى عليه والذي به جنون: اتفق الفقهاء على وجوبه على المغمى عليه واختلفوا في المجنون، فمنهم من أوجب القضاء عليه. ومنهم من لم يوجب القضاء وبه أقول، وكذلك عندي في المغمى عليه، واختلفوا في كون الإغماء والجنون مفسداً للصوم، فمن قائل: إنه مفسد. ومن قائل: إنه غير مفسد. وفرّق قوم بين أن يكون أغمي عليه قبل الفجر أو بعد الفجر، وقوم قالوا: إن أغمي عليه بعدما مضى أكثر النهار أجزأه، وإن أغمي عليه أوّل النهار قضى.

الاعتبار: الإغماء حالة فناء والجنون حالة وله، وكل واحد من أهل هذه الصفة ليس بمكلف فلا قضاء عليه، على أن القضاء في أصله عندنا لا يتصوّر في الطريق، فإن كل زمان له وارد يخصّه فما ثم زمان يكون فيه حكم الزمان الذي مضى، فما مضى من الزمان مضى بحاله وما نحن فيه فنحن تحت سلطانِه، وما لم يأت فلا حكم له فينا، فإن قالوا: قد يكون من حكم الزمان الحالي الذي هو الآن قضاء ما كان له أداؤه في الزمان الأوّل، قلنا له: فهو مؤدّ إذن، إذ هذا زمان أداء ما سميته قضاء، فإن أردت به هذا فمسلم في الطريق فأنت سميته قاضياً، وزمان الحال ما عنده خبر لا بما مضى ولا بما يأتي فإنه موجود بين طرفي عدم، فلا علم له بالماضي ولا بما جاء به ولا بما فات صاحبه منه، وقد يشبه ما يأتي به زمان الحال ما أتى به زمان الماضي في الصورة لا في الحقيقة، كما تشبه صلاة العصر في زمان الحال الوجوديّ صلاة الظهر التي كانت في الزمان الماضي في أحوالها كلها حتى كأنها هي، ومعلوم أن حكم العصر ما هو حكم الظهر، حتى لو رأينا شخصاً محافظاً على الصلوات في أوقاتها واتفق أنه نسي الظهر أو نام عنها حتى دخل وقت العصر فرأيناه يصلي أربعاً في ذلك الوقت

صلاة الظهر ويغلب علينا أنه يصلي العصر للشبه الكثير الذي بينهما وليست هذه هذه.

وصل في فصل ـ صفة القضاء لمن أفطر في رمضان: فمن العلماء من أوجب التتابع في القضاء كما كان في الأداء. ومنهم من لم يوجبه وهؤلاء منهم من خيّر ومنهم من استحبّ والجماعة على ترك إيجابه.

الاعتبار: إذا دخل الوقت في الواجب الموسّع بالزمان طلب الاسم الأوّل من المكلف الأداء، فإذا لم يفعل المكلف وأخّر الفعل إلى آخر الوقت تلقاه الاسم الآخر فيكون المكلف في ذلك الفعل قاضياً بالنسبة إلى الاسم الأوّل، وأنه لو فعله في أوّل دخول الوقت كان مؤدّياً من غير دخل ولا شبهة، وكان مؤدّياً بالنسبة إلى الاسم الآخر، فالصائم المسافر أو المريض إذا أفطر إنما الواجب عليه عدة من أيام أخر في غير رمضان، فهو واجب موسّع الوقت من ثاني يوم من شوّال إلى آخر عمره، أو إلى شعبان من تلك السنة، فيتلقاه الاسم الأوّل ثاني يوم من شوّال، فإن صامه كان مؤدياً من غير شبهة ولا دخل، وإن أخّره إلى غير ذلك الوقت كان مؤدّياً من وجه قاضياً من وجه، وبالتتابع في ذلك في أول زمانه يكون مؤدّياً بلا شك، وإن لم يتابع فيكون قاضياً، فمن راعى قصر الأمل وجهل الأجل أوجب، ومن راعى اتساع الزمان خير، ومن راعى الاحتياط استحب، وكل حال من هذه الأحوال له اسم إلهيّ لا يتعدّى حكمه فيه، فإن الكون في قبضة الأسماء الإلهية تصرّفه بطريقين بحسب حقائقها وبحسب استعدادات الأكوان لها لا بدّ من الأمرين لذي عينين، فإن الأوصاف النفسية للأسماء وغير الأسماء لا تنقلب فافهم ذلك وتحقّقه تسعد إن شاء الله تعالىٰ.

وصل في فصل ـ من أخر قضاء رمضان حتى دخل عليه رمضان آخر: اختلف العلماء فيمن هذه حاله فقالت طائفة: عليه القضاء والكفارة. وقالت طائفة: عليه القضاء ولا كفارة عليه وبه أقول.

الاعتبار: المقامات التي لها جهات كثيرة مختلفة قد يغفل السالك عن حكمها في جهة ما من جهات متعلقاتها كالورع فإن له حكماً في جهات كثيرة، منها في الطعام، والشراب، واللباس، والأخذ، والنظر، والاستماع، والسعي، واللمس، والشم، فإن عمر بن الخطاب أتي بمسك من المغانم قبل أن تأخذه القسمة ليعرض عليه فمسك بأنفه لئلاّ ينال من رائحته شيئاً دون المسلمين قبل أن تأخذه القسمة ورعاً، فسئل عن ذلك فقال: إنما ينتفع من هذا بريحه، وكذلك الورع في النسب والأسماء، فإذا فات السالك وجه من وجوه متعلقات مثل هذا المقام وانتقل إلى غيره من المقامات وقد بقيت عليه بقية من حكم هذا المقام الذي انتقل عنه، فإذا تعيّن عليه استعماله في وقت آخر لحالة تطلبه بذلك من مطعم أو غيره يتذكر ما فاته قبل ذلك منه، فمنا من قال: عليه الكفارة وكفارته التوبة ممّا جرى منه في تفريطه والاستغفار، ومنّا من قال: لا كفارة عليه فإنه لم يتعمد ولا قصد انتهاك الحرمة وإنما جعله في ذلك عذر من تأويل في المسألة أو غفلة، والإنسان في هذا الطريق مؤاخذ بالغفلات عند بعضهم، ولهذا أوجب الكفارة عليه من أوجبها، ومن يرى أنه غير مؤاخذ بالغفلات لم يوجب عليه كفارة،

والقضاء مجمع عليه عند الجميع، وصورته أنه إذا نال منه أحد أمراً حرم على المتناول تناوله منه عرضاً كان أو مالاً أو أثراً بدنياً من جرح أو غيره، وله أن يعفو عنه فيما يتناول ذلك منه فيعفو ويحسن ولا يؤاخذ بكل جريمة من الغير في حقّه ممّا يعطي الورع المتعدي في ذلك أن لا يفعله فهذا هو صورة القضاء، ثم إنه يستقصي جميع جهات متعلقات ذلك المقام جهده حتى لا يترك منه شيئاً، فتدبر هذه المسألة فإنها من أنفع المسائل في طريق الله.

وصل في فصل ـ من مات وعليه صوم: فمن قائل: يصوم عنه وليّه. ومن قائل: لا يصوم أحد عن أحد. واختلف أصحاب هذا القول فبعضهم قال: يطعم عنه وليّه. وبعضهم قال: لا صيام ولا إطعام إلاً أن يوصي به. وقال قوم: يصوم فإن لم يستطع أطعم. وفرّق قوم بين النذر والصيام المفروض فقالوا: يصوم عنه وليّه في النذر ولا يصوم في الصيام المفروض.

الاعتبار: قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦٨] وقال تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٦] فالمريد صاحب التربية يكون الشيخ قد أهله وخصّه بذكر مخصوص لنيل حالة مخصوصة ومقام خاص فمات قبل تحصيله، فمنا من يرى أن الشيخ لما كان وليّه وقد حال الموت بينه وبين ذلك المقام الذي لو حصل له نال به المنزلة الإلهية التي يستحقها رب ذلك المقام فيشرع الشيخ في العمل الموصل إلى ذلك المقام نيابة عن المريد الذي مات، فإذا استوفاه أحضر ذلك الميت إحضار من مثله في خياله بصورته التي كان عليها وألبس تلك الصورة الممثلة ذلك الأمر وسأل الله أن يبقي ذلك عليه، فحصلت نفس ذلك الميت في ذلك المقام على أتم وجوهه منة من الله وفضلاً ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧٤] وهذا مذهب شيخنا أبي يعقوب يوسف بن يخلف الكومي وما راضني أحد من مشايخي سواه، فانتفعت به في الرياضة وانتفع بنا في مواجيده فكان لي تلميذاً وأستاذاً وكنت له مثل ذلك، وكان الناس يتعجبون من ذلك ولا يعرف واحد منهم سبب ذلك، وذلك سنة ست وثمانين وخمسمائة فإنه كان قد تقدّم فتحي على رياضتي وهو مقام خطر فأفاء الله عليّ بتحصيل الرياضة على يد هذا الشيخ جزاه الله عني كل خير، ومن أهل الله من يقول: لا يقوم أحد عن أحد في العمل ولكن يطلبه له بهمته ودعائه والجماعة على ذلك وهذا الأول نادر الوقوع، فهذا اعتبار من يقول: لا يصوم أحد عن أحد، واعتبار من يقول: يصوم عنه وليّه.

ومن قال: لا صيام ولا إطعام إلاً أن يوصي به فهو أن يقول المريد عند الموت للشيخ: اجعلني من همتك واجعل لي نصيباً من عملك عسى الله أن يعطيني ما كان في أملي، وهذا إذا فعله المريد كان سوء أدب مع الشيخ حيث استخدمه في حق نفسه وتهمة منه للشيخ في نسيان حق المريد. والأصل في ذلك أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أن يسأل ربّه في حقّه مرافقته في الجنة فقال له رسول الله ﷺ: «**أَعِنّي عَلَىٰ نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**» فنبّهه بهذا العمل على نفسه وسوء أدبه معه، والطريق يقتضي أن الشيخ لا ينسى أهل زمانه فكيف مريده المختص بخدمته؟

فإنه من فتوّة أهل هذا الطريق ومعرفتهم بالنفوس أنهم إذا كان يوم القيامة وظهر ما لهم من الجاه عند الله خاف منهم من آذاهم هنا في الدنيا، فأول ما يشفعون يوم القيامة فيمن آذاهم قبل المؤاخذة، وهذا نص أبي يزيد البسطاميّ وهو مذهبنا، فإن الذين أحسنوا إليهم يكفيهم عين إحسانهم فهم بإحسانهم شفعاء أنفسهم عند الله بما قدموه من الخير في حق هذا الوليّ و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٦٠] ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٠] وذلك للعافين عن الناس، بل الوليّ لا ينسى من يعرف الشيخ وإن كان الشيخ لا يعرفه فيسأل الله تعالىٰ أن يغفر ويعفو عمّن سمع بذكره فسبّه وذمّه أو أثنى عليه خيراً، وهذا ذقته من نفسي وأعطانيه ربي بحمد الله، ووعدني بالشفاعة يوم القيامة فيمن أدركه بصري ممّن أعرف ومن لا أعرف، وعين لي هذا المشهد حتى عاينته ذوقاً صحيحاً لا أشك فيه.

وهذا مذهب شيخنا أيضاً أبي إسحاق بن طريف وهو من أكبر من لقيته، ولقد سمعت هذا الشيخ يوماً وأنا عنده بمنزله بالجزيرة الخضراء سنة تسع وثمانين وخمسمائة وقال لي: يا أخي والله ما أرى الناس في حقي إلاَّ أولياء عن آخرهم ممّن يعرفني، قلت له: كيف تقول يا أبا إسحاق؟ فقال: إن الناس الذين رأوني أو سمعوا بي إما أن يقولوا في حقي خيراً أو يقولوا ضد ذلك، فمن قال في حقي خيراً وأثنى عليّ فما وصفني إلاَّ بصفته، فلولا ما هو أهل ومحل لتلك الصفة ما وصفني بها، فهذا عندي من أولياء الله تعالىٰ. ومن قال فيّ شرّاً فهو عندي وليّ أطلعه الله على حالي فإنه صاحب فراسة وكشف ناظر بنور الله فهو عندي وليّ فلا أرى يا أخي إلاَّ وليّاً لله. وما قال لي هذا إلاَّ من أجل كلام جرى بيني وبينه في حق إنسان من أهل سبتة كان خلف هذا الشيخ بخلاف ما كان يلقاه به، فهذا بلغ من حسن اعتقاده وكان من الشيوخ الذين تحسب عليهم أنفاسهم ويعاقبون على غفلاتهم ومات في عقوبة غفلة ذكرناها في الدرة الفاخرة عند ذكري إياه فيها.

وأما من فرّق بين النذر والصوم المفروض فإن النذر أوجبه الله عليه بإيجابه، والصوم المفروض الذي هو رمضان أوجبه الله عليه ابتداء من غير إيجاب العبد، فلما كان للعبد في واجب النذر تعمل بإيجابه صام عنه وليّه لأنه عن وجوب عبد فينوب عنه في ذلك عبد مثله حتى تبرأ ذمته، والصوم المفروض ابتداء لم يكن للعبد فيه تعمل، فالذي فرضه عليه هو الذي أماته فلو تركه صامه فكانت الدية على القاتل، وقال تعالىٰ فيمن خرج مهاجراً إلى الله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله، فالذي فرّق كان فقيه النفس سديد النظر علاماً بالحقائق وهكذا حكمه في الاعتبار.

وصل في فصل ـ المرضع والحامل إذا أفطرتا ماذا عليهما؟: فمن قائل: يطعمان ولا قضاء عليهما وبه أقول فإنه نص القرآن، والآية عندي مخصصة غير منسوخة في حق الحامل والمرضع والشيخ والعجوز. ومن قائل: تقضيان فقط ولا إطعام عليهما. ومن قائل: تقضيان وتطعمان. ومن قائل: الحامل تقضي ولا تطعم، والمرضع تقضي وتطعم، والإطعام مدّ عن كل يوم أو تحفن حفاناً ويطعم كما كان أنس يصنعه.

الاعتبار: الحامل الذي يملكه الحال والمرضع الساعي في حق الغير يتعين عليهما حق من حقوق الله، فمن رأى أن الدين قبل الوصية قدم حق الغير على حق الله لمسيس الحاجة فإنه حكم الوقت، ومن قدم حق الله على حق الغير ورأى قول النبيّ ﷺ أن حق الله أحق بالقضاء، ورأى أن الله قدم في القرآن الوصية على الدين في آية المواريث فقدم حق الله وإليه أذهب قال تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ [سورة النساء: الآية ١١] ويرجع عندي حق الغرماء إذا لم يف ما بقي لهم من مال هذا الميت في بيت المال يؤدّيه عنه السلطان من الصدقات فإنهم من الثمانية الأصناف فلصاحب الدين أمر يرجع إليه في دينه وليس للوصية ذلك فوجب تقديمها بلا شك عند المنصف، وأما المرضع وإن كانت في حق الغير فحق الغير من حقوق الله حيث شرع الله أداءها، وصاحب الحال ليس في حق من حقوق الله لأنه غير مكلف في وقت الحال، والمرضع كالساعي في حق الغير فهو في حق الله فإنه في أمر مشروع له، فقد وكلناك بعد هذا البيان والتفصيل إلى نفسك في النظر فيمن ينبغي له القضاء والإطعام أو أحدهما ممّن ذكرنا.

وصل في فصل ـ الشيخ والعجوز: أجمع العلماء على أنهما إذا لم يقدرا على الصوم أن يفطرا، واختلفوا إذا أفطرا هل يطعمان أو لا يطعمان؟ فقال قوم: يطعمان. وقال قوم: لا يطعمان وبه أقول غير أنهم استحبوا لهم الإطعام، والذي أقول به أن الإطعام إنما شرع مع الطاقة على الصوم، وأما من لا يطيقه فقد سقط عنه التكليف في ذلك، وليس في الشرع إطعام من هذه صفته من عدم القدرة عليه فإن الله ما كلف نفساً إلاّ وسعها وما كلفها إلاّ الإطعام، فلو كلفها مع عدم القدرة لم نعدل عنه وقلنا به.

الاعتبار: من كان مشهده أن لا قدرة له كأمثالنا أو يقول: إن القدرة الحادثة ما لها أثر إيجاد في المقدور وكان مشهده أن الصوم لله فقد انتفى عنه الحكم بالصوم والإطعام يقول الله: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤] وقال مصدقاً لخليله: ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي﴾ [سورة الشعراء: الآية ٧٩] فقرّره ولم يردّه، والإطعام إنما هو عوض عن واجب يقدر عليه ولا واجب فلا عوض فلا إطعام وهجير صاحب هذا المقام لا قوّة إلاّ بالله وليس له في ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] مدخل، ولا في نون نفعل، وألف أفعل، لكن له من هذه الأحرف الأربعة الزوائد حرف التاء المنقوط من أعلى بضمير المخاطب، وقد تكون الياء المنقوطة من أسفل يفعل بضمير الهوية، فاعلم ذلك وبالله التوفيق.

وصل في فصل ـ من جامع متعمداً في رمضان: أجمعوا أن عليه القضاء والكفارة. وقيل: لا يجب عليه إلاّ القضاء فقط لأن الكفارة في ذلك لم تكن عزمة لقرائن الأحوال لأنه ﷺ لم يأمره عند عدم العتق والإطعام أن يصوم ولا بدّ إذ كان صحيحاً، ولو كان مريضاً لقال له: إذا وجدت الصحة فصم. وقال قوم: ليس عليه إلاّ الكفارة فقط ليس عليه قضاء، والذي أذهب إليه أنه لا قضاء عليه، وأستحبّ له أن يكفر إن قدر على ذلك، والله أعلم بحكمه في ذلك.

الاعتبار: القدرتان تجتمعان على إيجاد ممكن من ممكن فيما ينسب من ذلك إلى العبد في الفعل عن كل من لا يصل عقله إلى معرفة ذلك إما بعتق رقبة من الرق مطلقاً أو مقيداً، فإن أعتقه من الرق مطلقاً فهو أن يقيم نفسه في حال كون الحق عينه في قواه وجوارحه التي بها تميز عن غيره من الأنواع بالصورة والحدّ، وإذا كان في هذا الحال وكان هذا نعته كان سيداً وزالت عبوديته مطلقاً لأن العبودية هنا راحت إذ لا يكون الشيء عبد نفسه فهو هو، قال أبو يزيد في تحقق هذا المقام مشيراً تالياً: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [سورة طه: الآية ١٤] هذا أوحى الله به لموسىٰ وهو خطاب يعم الخلق أجمعين.

وأما إن كان العبد مقيداً فهو أن يعتق نفسه من رق الكون فيكون حرّاً عن الغير عبداً لله، فإن عبوديتنا لله يستحيل رفعها وعتقها لأنها صفة ذاتية له، واستحال العتق منها في هذه الحال لا في الحال الأول، وقد نبّه على ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٦] فسمّاه ملكاً ليصحّ له اسم المالك ولم يقل: مالك العالم، وقال أيضاً وهو من باب الإشارة والتحقيق: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس: الآية ١، ٢] فمن باب التحقيق لما سمّاهم الناس ولم يسمّهم باسم يقتضي لهم أن يكونوا حقاً أضاف نفسه إليهم باسم الملك، ومن باب الإشارة اسم فاعل من النسيان معرّفاً بالألف واللام لأنه نسي أن الحق سمعه وبصره وجميع قواه في حال كونه كله نوراً وهو المقام الذي سأله رسول الله ﷺ من ربه أن يقيم فيه أبداً فقال: «**وَاجْعَلْنِي نُوراً**» فإن الله من أسمائه النور بل هو النور، للحديث الثابت: «**نُورٌ أَنّى أَرَاهُ**» وقد صحّفه بعض النقلة فقال: «**نُورَانِيٌّ أراه**» فحصل في هذا التصحيف معنى بديع، وهو إذا جعل عبده نوراً فيرى الحق فيه ومنه فعند ذلك يكون نورانياً لا غير، فهو في ذاته نور وفي عبده نورانيّ فافهم ما قلنا.

فلما لم يتذكر الناسي هذه الحال وهو في نفسه عليها غافل عنها خاطبه الحق مذكراً له بها في القرآن الذي تعبده بتلاوته ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [سورة ص: الآية ٢٩] ما كانوا قد نسوه، فهذا يدلك على أنهم كانوا على علم متقدم في شيئية الثبوت وأخذ العهد.

وأما الإطعام في الكفارة فالطعام سبب في حفظ الحياة على متناوله، فهو في الإطعام متخلق بالاسم المحيي لما أمات بما فعله عبادة لا مثل لها كان عليها، فكان منعوتاً بالمميت في فعلها لأنه تعمد ذلك فأمر بالإطعام ليظهر اسم المقابل الذي هو المحيي فافهم. وأما صوم شهرين في كفارته فالشهر عبارة في المحمديين عن استيفاء سير القمر في المنازل المقدرة، وذلك سير النفس في المنازل الإلهية، فالشهر الواحد يسير فيها بنفسه ليثبت ربوبية خالقه عليه عند نفسه، والشهر الآخر يسير فيه بربه، فإنه رجله التي يسعى بها من باب أن الحق جميع قواه وجوارحه فإنه بقواه قطع هذه المنازل، والحق عيّن قواه فقطعها بربّه لا بنفسه. وأما قول هذا الفاعل لرسول الله ﷺ حين أمره بالصوم في الكفارة أي اتصف بصفة الحق فإن الصوم له فقال: من الصوم أتى عليّ فضحك رسول الله ﷺ، فضحكه علامة على خفة الأمر. ولما علم أن الحق أنطقه وما أراد ذلك الناطق وإن جهله ذلك الأعرابيّ فكأنه قال له في قوله: كفر

بالصوم أي كن حقاً فنطق أن يقول من الحق أتى عليّ فإني لما كنت حقاً زال التكليف عني فإن الحق لا يكلف فلماذا تبقيني حقاً أنزلني إلى العبودية فأوجب عليّ الكفارة التي هي الستر أي لا تذكر أنك عصيتني بي، ولهذا قال للنبيّ ﷺ: «أَتُعْطِيهَا لأَفْقَرَ مِنِّي؟ مَا بَيْنَ لاَبَتَيْهَا أَفْقَرُ مِنِّي»، فأضاف كمال الفقر إليه لأنه رجع إلى العبودية عن سيادته فعظم ذلّه وفقره، فإن استصحاب الفقر لا ألم له في الفقير مثل ألم من كان غنياً ثم يفتقر فإن ألمه أشدّ والحسرة عنده أعظم، فإن حكمه حكم من استؤسر وكان حرّاً فيجد ألم الاسترقاق لكونه حصل فيه عن حرّية. [مخلع البسيط]

من كان مَلْكاً فعاد مَلْكَا قد حازَ هَلْكاً ومات فَتْكَا

والعبد الأصلي المؤثل القنّ لا يجد ذلك، فلهذا قال: ما بين لابتيها أفقر مني، أنطقه الله بذلك من حيث لا يشعر حتى يكون مناسباً لما أنطقه به أيضاً في قوله: من الصوم أتى عليّ، فانظر حكمة الله في إجراء هذه الحقائق في عباده من حيث لا يشعرون، فهو المتكلم على الحقيقة لا هم، فهذا حكم الكفارة على من هذا فعله، والحمد لله قد دخل في هذا جميع الأقوال التي ذكرنا في هذه المسألة إذا تدبرتها فلا حاجة للإطالة في ذلك فإنه كالتكرار، وإن كان ذكرها يتضمن فوائد زائدة على ما ذكرنا لاختلاف النسب ولكن يكفي هذا في اعتبار هذه المسألة.

وصل في فصل ـ من أكل أو شرب متعمداً: فقال قوم: عليه القضاء والكفارة التي أوجبها في الجماع. وقال آخرون: لا كفارة عليه، والذي أقول به أنه لا قضاء عليه ولا كفارة فإنه لا يقضيه أبداً ولكن يكثر من صوم التطوّع لتكمل له فريضته من تطوعه، فإن الفرائض عندنا المقيدة بالأوقات إذا ذهب وقتها بتعمد من الواجبة عليه لا يقضيها أبداً مطلقاً، فليكثر من التطوّع الذي يناسبها إلاّ الحج وإن كان مربوطاً بوقت ولكنه مرّة واحدة في العمر إلاّ من يقول بالاستطاعة، ولكن متى حجّ كان مؤدّياً ويكون عاصياً في التأخير مع الاستطاعة.

الاعتبار: الأكل والشرب تغذ له فأحياه الأكل والشرب عند هذا السبب لأن حياته مستفادة كما كان وجوده مستفاداً ليتميز الممكن الواجب بالغير عن الواجب بنفسه، والصوم لله لا للعبد فلا قضاء عليه ولا كفارة، ومن قال بالكفارة أوجب عليه ستر مقامه وحكمه فيها حكم المجامع في الاعتبار سواء، ومن قال بالقضاء عليه يقول ما أوجب عليه القضاء إلاّ كونه غيراً كما كان في أصل التكليف كما كان في صوم رمضان سواء، فيقضيه بردّه إلى من الصوم له، فإن الصوم للعبد الذي هو لله كمن سلف شيئاً من غيره فقضاؤه ذلك الدين إنما هو ردّه إلى مستحقه مع ما عاد عليه من الانتفاع به، والعبد إنما يصوم مستسلفاً ذلك لأن الصمدانية ليست له، والصوم صمدانية فهو لله لا له فاعلم ذلك.

وصل في فصل ـ من جامع ناسياً لصومه: فقيل: لا قضاء عليه ولا كفارة وبه أقول. وقيل: عليه القضاء دون الكفارة. وقيل: عليه القضاء والكفارة.

الاعتبار: هذا من باب الغيرة الإلهية لما اتصف العبد بما هو لله، وإن كان مشروعاً وهو

الصوم أنساه الله أنه صائم فأقامه في مقام وحالة تفسد عليه صيامه تنبيهاً له أن هذه الحقيقة لا يتصف بها إلاَّ الله غيرة إلهية أن يراجع فيما هو له بضرب من الاشتراك، فلما لم يكن للعبد في ذلك قصد ولا انتهك به حرمة المكلف سقط عنه القضاء والكفارة والجماع قد عرفت معناه فيمن جامع متعمداً، ومن قال عليه القضاء دون الكفارة قال: يشهد بالصمدية له دون نفسه في حال قيامها به فيكون موصوفاً بها لا موصوفاً بها مثل قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فنفى وأثبت. ومن قال: عليه القضاء والكفارة قال: النسيان هو الترك، والصوم ترك، وترك الترك وجود نقيض الترك، كما أن عدم العدم وجود، ومن هذه حاله فلم يقم به الترك الذي هو الصوم فما امتثل ما كلف فلا فرق بينه وبين المتعمد، فوجب عليه القضاء والكفارة والاعتبار قد تقدّم في ذلك، وأنه ليس في الحديث أن ذلك الأعرابيّ كان ذاكراً لصومه حين جامع أهله ولا غير ذاكر ولا استفصله رسول الله ﷺ هل كان ذاكراً لصومه أو غير ذاكر؟ وقد اجتمعا في التعمّد للجماع، فوجب على الناسي كما وجب على الذاكر لصومه ولا سيما في الاعتبار، فإن الطريق تقتضي المؤاخذة بالنسيان لأنه طريق الحضور، فالنسيان فيه غريب.

وصل في فصل ـ هل الكفارة مرتبة كما هي في المظاهر أو على التخيير؟: فإنه قال له: أعتق. ثم قال له: صم. ثم قال له: أطعم. فلا يدري أقصد عليه السلام الترتيب أم لا؟ فقيل: إنها على الترتيب وأدلّها العتق، فإن لم يجد فالصوم، فإن لم يستطع فالإطعام. وقيل: هي على التخيير. ومنهم من استحب الإطعام أكثر من العتق ومن الصيام، ويتصوّر هنا ترجيح بعض هذه الأقسام على بعض بحسب حال المكلف أو مقصود الشارع، فمن رأى أنه يقدم التغليظ وأن الكفارة عقوبة فإن كان صاحب الواقعة غنياً أو ملكاً خوطب بالصيام فإنه أشق عليه وأردع، فإن المقصود بالحدود والعقوبات إنما هو الزجر، وإن كان متوسط الحال في المال ويتضرّر بالإخراج أكثر ممّا يشق عليه الصوم أمر بالعتق أو الإطعام، وإن كان الصوم عليه أشق أمر بالصوم، ومن رأى أن الذي ينبغي أن يقدّم في ذلك ما يرفع الحرج فإنه تعالىٰ يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] فيكلف من الكفارة ما هو أهون عليه، وبه أقول في الفتيا وإن لم أعمل به في حق نفسي لو وقع مني إلاَّ أن لا أستطيع ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] و﴿مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧] ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧] وكذلك فعل فإنه قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [سورة الشرح: ٥، ٦] فأتى بعسر واحد ويسرين معه فلا يكون الحق يراعي اليسر في الدين ورفع الحرج ويفتي المفتي بخلاف ذلك، فإنّ كون الحدود وضعت للزجر ما فيه نص من الله ولا رسوله وإنما يقتضيه النظر الفكري، فقد يصيب في ذلك وقد يخطىء، ولا سيما وقد رأينا خفيف الحدّ في أشد الجنايات ضرراً في العالم، فلو أريد الزجر لكانت العقوبة أشدّ فيها، وبعض الكبائر ما شرع فيها حدّاً ولا سيما والشرع في بعض الحدود في الكبائر التي لا تقام إلاَّ بطلب المخلوق، وإن أسقط ذلك سقطت، والضرر بإسقاط الحد في مثله أظهر كوليّ المقتول

إذا عفا وليس للإمام أن يقتله، وأمثال هذا من الخفة والإسقاط فيضعف قول من يقول: وضعت الحدود للزجر.

ولو شرعنا نتكلم في سبب وضع الحدود وإسقاطها في أماكن وتخفيفها في أماكن وتشديدها في أماكن أظهرنا في ذلك أسراراً عظيمة لأنها تختلف باختلاف الأحوال التي شرعت فيها والكلام فيها يطول، وفيها إشكالات مثل السارق والقاتل، وإتلاف النفس أشد من إتلاف المال، وإن عفا وليّ المقتول لا يقتل قاتله، وإن عفا رب المال المسروق أو وجد عند السارق عين المال فردّ على ربه ومع هذا فلا بدّ أن تقطع يده على كل حال وليس للحاكم أن يترك ذلك، ومن هنا تعرف أن حق الله في الأشياء أعظم من حق المخلوق فيها بخلاف ما تعتقده الفقهاء، قال ﷺ: «**حَقُّ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُقْضَىٰ**».

الاعتبار: الترتيب في الكفارة أولى من التخيير، فإن الحكمة تقتضي الترتيب والله حكيم، والتخيير في بعض الأشياء أولى من الترتيب لما اقتضته الحكمة، والعبد في الترتيب عبد اضطرار كعبودة الفرائض، والعبد في التخيير عبد اختيار كعبودة النوافل، وفيها رائحة من عبودية الاضطرار، وبين عبادة النوافل وعبادة الفرائض في التقريب الإلهيّ بون بعيد في علو المرتبة، فإن الله جعل القرب في الفرائض أعظم من القرب في النوافل وأن ذلك أحب إليه، ولهذا جعل في النوافل فرائض وأمرنا أن لا نبطل أعمالنا وإن كان العمل نافلة لمراعاة عبودية الاضطرار على عبودية الاختيار لأن ظهور سلطان الربوبية فيها أجلى ودلالتها عليها أعظم.

وصل في فصل ـ الكفارة على المرأة إذا طاوعت زوجها فيما أراد منها من الجماع: فمن قائل: عليها الكفارة. ومن قائل: لا كفارة عليها وبه أقول فإن النبيّ ﷺ في حديث الأعرابيّ ما ذكر المرأة ولا تعرّض إليها ولا سأل عن ذلك، ولا ينبغي لنا أن نشرع ما لم يأذن به الله.

الاعتبار: النفس قابلة للفجور، والتقوى بذاتها فهي بحكم غيرها بالذات فلا تقدر تنفصل عن التحكّم فيها فلا عقوبة عليها، والهوى والعقل هما المتحكمان فيها، فالعقل يدعوها إلى النجاة والهوى يدعوها إلى النار، فمن رأى أنه لا حكم لها فيما دعيت إليه قال: لا كفارة عليها، ومن رأى أن التخيير لها في القبول وأن حكم كل واحد منهما ما ظهر له حكم إلاّ بقبولها إذ كان لها المنفع ممّا دعيت إليه والقبول، فلما حجت أثيبت، إن كان خيراً فخير، وإن كان شرّاً فشرّ، فقيل: عليها الكفارة.

وصل في فصل ـ تكرّر الكفارة لتكرر الإفطار: فقيل: إنه من وطىء ثم كفر ثم وطىء في يوم واحد أن عليه كفارة أخرى. وقيل: من وطىء مراراً في يوم واحد فليس عليه إلاّ كفارة واحدة. واختلفوا أيضاً فيمن وطىء في يوم من رمضان ولم يكفر حتى وطىء في يوم ثان فقال بعضهم: عليه لكل يوم كفارة. وقال بعضهم: عليه كفارة واحدة ما لم يكفر عن الجماع الأوّل. والذي أقول به أن عليه كفارة واحدة لأنها ما شرعت إلاّ لمراعاة رمضان في حال الصوم لا لمراعاة الصوم لأنه لو أفطر في صوم القضاء لم يكفر، ولو كانت هذه الكفارة مثل

كفارة الظهار لم يوجب عليه كفارة أخرى إذا كفر عن الجماع الأول فلما أوجبها بعد الوقوع لهذا جعلناها تلزمه إذا أوقع الوطء بعد تكفير وطء قبله متعدداً كان ذلك الأول أو واحداً.

الاعتبار: الروح الواحد يدبر أجساماً متعددة إذا كان له الاقتدار على ذلك، ويكون ذلك في الدنيا للوليّ بخرق العادة وفي الآخرة نشأة الإنسان تعطي ذلك، وكان قضيب البان ممّن له هذه القوّة، ولذي النون المصريّ كما يدبر الروح الواحد سائر أعضاء البدن من يد ورجل وسمع وبصر وغير ذلك كما تؤاخذ النفس بأفعال الجوارح على ما يقع منها كذلك الأجساد الكثيرة التي يدبرها روح واحد، أيّ شيء وقع منها يسأل عنه ذلك الروح الواحد وإن كان عين ما يقع من هذا الجسم من الفعل مثل ما يقع من الجسم الآخر فيكون ما يلزمه من المؤاخذة على فعل أحد الجسمين يلزمه على فعل الآخر وإن كان مثله، وقسم المذاهب على هذا الحد فيما يلزم الروح الواحد من تكرار الفعل بتعدد الأجسام المماثل لتعدد الزمان في حق المجامع في رمضان فاعلم ذلك.

وصل في فصل ـ هل يجب عليه الإطعام إذا أيسر وكان معسراً في وقت الوجوب: فمن قائل: لا شيء عليه وبه أقول. ومن قائل: يكفر إذا أيسر.

الاعتبار: المسلوب الأفعال مشاهدة وكشفاً معسر لا شيء له فلا يلزمه شيء، فإن حجب عن هذا الشهود وأثبت ذلك من طريق العلم بعد الشهود كمتخيل المحسوس بعدما قد كان أدركه بالحسّ فإن الأحكام الشرعية تلزمه بلا شك، ولا يمتنع الحكم في حقه بوجود العلم ويمتنع بوجود المشاهدة فإنه يشاهد الحق محركاً له ومسكناً، وكذلك إن كان مقامه أعلى من هذا وهو أن يكون الحق سمعه وبصره على الكشف والشهود، فمنا من قال: حكمه حكم صاحب العلم فإن الله قد أوجب على نفسه ولا يدخل بذلك تحت حدّ الواجب، ومنّا من ألحقه بمشاهدة الأفعال منه تعالىٰ كما قدمناه فلا يلزمه الحكم كما لم يلزمه هناك، فتارة ينطلق على هذا العبد اسم الحق وتارة ينطلق عليه اسم العبد مع اختلاف هذه الأحوال، وفي كل واحد من هذه المراتب يلزمه الحكم من وجه وينتفي عنه من وجه.

وصل في فصل ـ من فعل في صومه ما هو مختلف فيه كالحجامة والاستقاء وبلع الحصى والمسافر يفطر أول يوم يخرج عند من يرى أنه ليس له أن يفطر: فكل من أوجب في هذه الأفعال وأشباهها الفطر اختلفوا، فمن قائل منهم: عليه القضاء. ومن قائل منهم: عليه القضاء والكفارة. وهكذا كل مختلف فيه. والذي أذهب إليه ممّا ذكرناه أن الاستقاء فيه القضاء للخبر، وقد تقدم اعتبار ما ذكرناه من هذه الأفعال، فمن أفطر في يوم يجوز له الإفطار فيه كالمرأة تفطر قبل أن تحيض ثم تحيض في ذلك اليوم، والمريض والمسافر يفطران قبل المرض وقبل السفر ثم يمرض في ذلك اليوم أو يسافر فمذهبنا عليه القضاء ولا كفارة، وإنما أوجبنا عليه القضاء لأنها حاضت أو مرض أو سافر، وأمّا حكمه في الإثم حكم من أفطر متعمداً حتى أنها لو لم تحض أو لم يمرض أو لم يسافر ما يقضي ذلك اليوم أبداً وليكثر من صيام التطوّع، ومع هذا فأمرهم إلى الله لأنهم أفطروا في يوم يجوز لهم الفطر فيه عند الله وأمّا الظاهر فما قلناه.

الاعتبار: في هذا الفعل رائحة من الكشف الذي للنفوس واستطلاع على الغيب من حيث لا يشعر، وسببه أنها من عالم الغيب وإن كانت النشأة الجسمية أمها فإن الروح الإلهيّ أبوها، فلها الإطلاع من خلف حجاب رقيق بحيث أنه لو دخل صاحب هذا الفعل طريق أهل الله سارع إليه الكشف لاستعداده وتأهله لذلك، ومثل هذا لا يسمّى اتفاقياً إذ الأمر الاتفاقيّ عندنا لا يصحّ فإن الأمر كله لله، والله لا يحدث شيئاً بالاتفاق وإنما يحدثه عن علم صحيح وإرادة وقضاء غيبيّ وقدر، فلا بدّ من كون ما هو كائن في علمه، وإنما بقي هل يتعلق بمن ظهر عليه مثل هذا الفعل الإلهيّ إثم أم لا؟ فعندنا الإثم متعلق به ولو حصل له العلم الصحيح بأنه في يوم يجوز له الإفطار فيه ولم يتلبس بالسبب فإنه ما شرع له الفطر إلاَّ مع التلبّس بالحال الذي تسمّى به حائضاً أو مريضاً أو مسافراً في اللسان الظاهر، هذا مذهب المحققين من أهل الله وهو مذهبنا في مثل هذه المسألة، والحكم في صاحبها لله إن شاء عفا وإن شاء آخذ فضلاً وعدلاً، إلاَّ إن كان حاله ممّن قد أعلم ما يقع منه من الجرائم مشاهدة وكشفاً، ومن اطلاعه على المقدور عليه اطلاعه أنه غير مؤاخذ بذلك عند الله، فإن لم يطلع فلا يبادر ولا يكن له تعمل في ذلك ما لم يعلم علم الله فيه، فإن علم أنه مؤاخذ ولا بدّ فيعلم أن الله قد راعى حكم الظاهر في العموم فيتهيأ لقضاء الله النافذ فيه، وهذا عندنا ليس بواقع أصلاً، وإن كان جائزاً عقلاً قيل لإبليس: لم أبيت عن السجود؟ قال: يا رب لو أردت مني السجود لسجدت، قال له: متى علمت أني لم أرد منك السجود بعد حصول الإباية والمخالفة أو قبل ذلك؟ فقال: يا رب بعد وقوع الإباية علمت، فقال: بذلك آخذتك.

واعلم أن من عباد الله من يطلعهم الله على ما قدر عليهم من المعاصي فيسارعون إليها من شدّة حيائهم من الله ليسارعوا بالتوبة وتبقى خلف ظهورهم ويستريحون من ظلمة شهودها، فإذا تابوا رأوها عادت حسنة على قدر ما تكون، ومثل هذا لا يقدح في منزلته عند الله، فإن وقوع ذلك من مثل هؤلاء لم يكن انتهاكاً للحرمة الإلهية ولكن بنفوذ القضاء والقدر فيهم وهو قوله ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢] فسبقت المغفرة وقوع الذنب، فهذه الآية قد يكون لها في حق المعصوم وجه وهو أن يستر عن الذنوب فتطلبه الذنوب فلا تصل إليه فلا يقع منه ذنب أصلاً فإنه مستور عنه أو يستر عن العقوبة فلا تلحقه، فإن العقوبة ناظرة إلى محال الذنوب فيستر الله من شاء من عباده بمغفرته عن إيقاع العقوبة به والمؤاخذة عليه والأول أتم، فتقدمت المغفرة من قبل وقوع الذنب فعلاً كان أو تركاً، فلا يقع إلاَّ حسنة يشهدها وحسنها، ومن عباد الله من لم يأت في نفس الأمر إلاَّ ما أبيح له أن يأتيه بالنظر إلى هذا الشخص على الخصوص وهذا هو الأقرب في أهل الله، فإنه قد ثبت في الشرع أن الله يقول للعبد لحالة خاصة: افعل ما شئت فقد غفرت لك فهذا هو المباح، ومن أتى مباحاً لم يؤاخذه الله به وإن كان في العموم في الظاهر معصية فما هو عند الشرع في حق هذا الشخص معصية، ومن هذا القبيل هي معاصي أهل البيت عند الله قال عليه السلام في أهل بدر: «**وَمَا يُدْرِيكُمْ لَعَلَّ اللَّهَ قَد اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: افْعَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**».

وفي الحديث الثابت: أن عبداً أذنب ذنباً فيقول: رب اغفر لي فيقول الله: أذنب عبدي ذنباً فعلم أنّ له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب إلى أن قال في الرابعة أو في الثالثة: افعل ما شئت فقد غفرت لك فأباح له جميع ما كان قد حجره عليه حتى لا يفعل إلاً ما أبيح له فعله، فلا يجري عليه عند الله لسان ذنب، وإن كنّا لجهلنا بمن هذه صفته وهذا حكمه عند الله أن نعرفه فلا يقدح ذلك في منزلته عند الله، فمن هذه حالته ما فعل إلاً ما أبيح له فعله أو تركه فإن الحكم يترتب على الأحوال، فحال أهل الكشف على اختلاف أحوالهم ما هو حال من ستر عنه حاله، فمن سوّى بينهما فقد تعدّى فيما حكم به، ألا ترى المضطرّ ما حرمت الميتة عليه قط متى وجد الاضطرار، وغير المضطرّ ما أحلت له الميتة قط، هذا ظاهر الشرع، فأحكام الشرائع على الأحوال ونحن فيما جهلنا حاله أن نحسن الظن به ما وجدنا لذلك سبيلاً.

وصل في فصل ـ من أفطر متعمداً في قضاء رمضان: فأكثر العلماء على أنه لا كفارة عليه وإليه أذهب وعليه القضاء. وقال بعضهم: عليه قضاء يومين، ولصاحب هذا القول وجه دقيق خفيّ أدّاه إلى هذا القول وهو أنه مخيّر في القضاء في ذلك اليوم فاختار القضاء ثم بدا له فأفطر، ولو كان متنفلاً أوجبنا عليه بالشروع قضاء ذلك اليوم، فهذا هو اليوم الواحد واليوم الآخر يوم رمضان الذي عليه فما قصر في نظره صاحب هذا القول، وقال قتادة: عليه القضاء والكفارة.

الاعتبار: من كان مشهده الاسم الإلهيّ رمضان في حال القضاء كان حكمه حكم الأداء، وحكم الأداء فيمن أفطر متعمداً في رمضان قد تقدم الكلام فيه وما فيه من الخلاف فهو بحسب ما هو عنده فيجري على ذلك الأسلوب فيه وفي اعتباره، ومن لم يكن مشهده الاسم الإلهيّ الذي يخصّ شهره الذي أوقع فيه القضاء لا شهر رمضان ولا اسم رمضان بل مشهده الاسم الذي يحكم عليه بالإمساك فلا يكفر، ولكن فيمن كان مذهبه أن يكفر في شهر رمضان وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٤] كفاية فإنه قد سمّاها أخر فما هي أيام رمضان وإنما هي أيام صوم على النكرة أي يوم شاء، ولا يسمّى يوماً إلاّ بكماله، فإذا لم يكمل في حقّه فليس بيوم صومه.

الأسماء التي للشهور القمرية: رمضان: لشهر رمضان. الرفيع: لشوال. الرحمن: لذي قعدة. المريد: لذي حجة. المحرّم: للمحرّم. المخلي: لصفر. المحيي: لربيع الأول. المعيد: لربيع الآخر. الممسك: لجمادى الأولى. الرب بمعنى الثابت: لجمادى الآخرة. العظيم: لرجب. الفاصل والحاكم: لشعبان. وما في معنى كل اسم من هذه الأسماء الإلهية.

وصل في فصل ـ الصوم المندوب إليه: وسأذكر من ذلك ما هو مرغب فيه بالحال كالصوم في الجهاد وبالزمان كصوم الاثنين والخميس وعرفة وعاشوراء والعشر وشعبان وأمثال ذلك، وما هو معين في نفسه من غير تقييده بيوم مخصوص من أيام الجمعة كعاشوراء عرفة، فمن كونه معين الشهر ألحقناه بالزمان، ومن كونه مجهولاً في أيام الجمعة لم نقيده بالزمان،

ومنه ما هو معين في الشهور كشهر شعبان، ومنه ما هو مطلق في الأيام مقيد بالشهور كالأيام البيض وصيام ثلاثة أيام من كل شهر، ومنه ما هو مطلق كصوم أي يوم شاء، ومنه ما هو مقيد بالتوقيت كصيام داود صيام يوم وفطر يوم وما يجري هذا المجرى. وأما صوم يوم عرفة في عرفة فمختلف فيه، وفي غير عرفة مرغب فيه إلاّ أنه على كل حال يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده. وأما صوم الستة الأيام من شوّال فمرغب فيها والخلاف في وقتها من شوّال وفي تتابعها وفيها خلاف شاذ وهو أن يوقع أول يوم منها في شوّال وباقي الأيام في سائر أيام السنة.

وصل في فصل ـ الصوم في سبيل الله: خرّج مسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْماً فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ بَاعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ اليَوْمِ وَجْهَهُ مِنَ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً**» فذكر صوم العبيد لا صوم الأحرار، والعبيد بالحال قليل وبالاعتقاد جميعهم، والصوم تشبيه إلهيّ ولهذا نفاه عن العبد بقوله تعالىٰ: الصوم لي وليس للعبيد من الصوم إلاّ الجوع. فالتنزيه في الصوم لله والجوع للعبد، فإذا أقيم العبد في التشبيه بالإله المعبر عنه بالتخلق بالأسماء في صفة القهر والغلبة للمنازع الذي هو العدو ولهذا جعله في الجهاد أعني الصوم لأن السبيل هنا في الظاهر الجهاد، عرفنا هذا بقرائن الأحوال لا مطلق اللفظ، فإن أخذناه على مطلق اللفظ لا على العرف وهو نظر أهل الله في الأسماء يراعون ما قيد الله وما أطلقه فيقع الكلام بحسب ما جاء فجاء بلفظ التنكير في السبيل، ثم عرفه بالإضافة إلى الله تعالىٰ، والله هو الاسم الجامع لجميع حقائق الأسماء كلها، وكلها لها برّ مخصوص وسبيل إليها، فأيّ بر كان فيه العبد فهو في سبيل بر وهو سبيل الله فلهذا أتى بالاسم الجامع فعمّ كما تعمّ النكرة أي لا تعين وكذلك نكر يوماً وما عرفه ليوسّع بذلك كله على عبيده في القرب إلى الله، ثم نكر سبعين خريفاً فأتى بالتمييز والتمييز لا يكون إلاّ نكرة ولم يعين زماناً فلم ندر هل سبعين خريفاً من زمان أيام الرب؟ أو أيام ذي المعارج؟ أو أيام منزلة من المنازل؟ أو أيام واحد من الجواري الخنس والكنس؟ أو من أيام الحركة الكبرى؟ أو من الأيام المعلومات عندنا؟ فأبهم الأمر فساوى التنكير الذي في مساق الحديث. وكذلك قوله: وجهه أبهمه هل هو وجهه الذي هو ذاته؟ أو وجهه المعهود في العرف؟ وكذلك قوله: من النار بالألف واللام هل أراد به النار المعروفة أو الدار التي فيها النار؟ لأنه قد يكون على عمل يستحق دخول ذلك الدار ولا تصيبه النار، وعلى الحقيقة فما منا إلاّ من يردها فإنها الطريق إلى الجنة، ولو لم يكن في المعنى إلاّ كون الصراط عليها في الآخرة وفي الدنيا حفت بالمكاره، وقد ألقيتك على مدرجة التحقيق في النظر في كلام الله وفي كلام المترجم عن الله من رسول مرسل أو وليّ محدث.

وصل في فصل ـ تخيير الحامل والمرضع في صوم رمضان مع الطاقة عليه بين الصوم والإفطار: فأشبه المفروض من وجه وهو إذا اختاره، وقبل التخيير كان حكمه في حقه حكم المباح المخير في فعله وتركه، فأشبه التطوع وفعل المندوب إليه خير من تركه، ولهذا قال فيه: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٤] خرّج مسلم عن سلمة بن الأكوع قال:

كنّا في رمضان على عهد رسول الله ﷺ من شاء صام ومن شاء أفطر وافتدى بطعام مسكين حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥] فمنهم من جعل ذلك نسخاً، ومنهم من جعله تخصيصاً وهو مذهبنا. فبقي حكم الآية في الحامل والمرضع إذا خافتا على ولدهما وسمّاه الله تطوعاً. وقال: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٤] فنكر خيراً فدخل فيه الإطعام والصوم. ذكر البخاري عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٤] قال ابن عباس: ليست بمنسوخة هو للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة. وقال أبو داود عن ابن عباس: أثبتت في الحبلى والمرضع. وقال الدارقطني عن ابن عباس في هذا: يطعم كل يوم مسكيناً نصف صاع من حنطة. اعلم أن الحق إذا خيّر العبد فقد حيّره فإن حقيقته العبودية فلا يتصرف إلاّ بحكم الاضطرار والجبر، والتخيير نعت السيد ما هو نعت العبد، وقد أقام السيد عبده في التخيير اختباراً وابتلاء ليرى هل يقف مع عبوديته أو يختار فيجري في الأشياء مجرى سيده، وهو في المعنى مجبور في اختياره مع كون ذلك عن أمر سيده، فكان لا يزول عن عبوديته ولا يتشبه بربه فيما أوجب الله عليه التخيير، فمن العبيد من حار ولا يدري ما يرجح، ومن العبيد من قال: إن ربي يقول: ما كان لهم الخيرة فنفى فأنا واقف مع النفي فلا أخرج عن عبوديتي طرفة عين. ومنهم من قال: إن ربي يقول: ما كان لهم الخيرة من ذواتهم بل أنا أبحث لهم التصرّف على الاختيار، اخترت لهم ذلك وعينت لهم محالها، ومن محالها ما جاء في هذه الآية من التخيير بين الصوم والفطر وبعض الكفارات. ولما نبّه عباده على أن الصوم خير لهم إذا اختاروه أبان لهم بذلك عن طريق الأفضلية ليرجحوا الصوم على الفطر، فكان هذا من رفقه سبحانه بهم حيث أزال عنهم الحيرة في التخيير بهذا القدر من الترجيح، ومع هذا فالابتلاء له مصاحب لأنه تعالىٰ لم يوجب عليه فعل ما رجحه له بل أبقى له الاختيار على بابه ولذلك لا يأثم بالإفطار، فمن صامه فقد أدّى واجباً فإنه فرض عليه فعل أحدهما لا على التعيين، فإذا عيّنه المكلف وهو العبد تعينت الفرضية فيه وهو في أصله مخيّر فيه فهو يشبه صوم التطوّع فيحصل للعبد الذي هذا حاله إذا صامه أجر الفرض وأجر التطوّع وأجر المشقة فهو أعظم أجراً وأكثر من الذي يؤدي الواجب غير المخيّر، وكذلك الأجر في الكفارات المخيّر فيها أجر الوجوب وأجر التطوّع وهذا من كرم الله في التكليف. انتهى الجزء السابع والخمسون.

(الجزء الثامن والخمسون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصل في فصل ـ تبييت الصيام في المفروض والمندوب إليه: خرّج النسائي عن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ قال: «**مَنْ لَمْ يبيّت الصِّيَامَ مِنَ اللَّيلِ فَلا صِيَامَ لَهُ يُكْتَبُ لَهُ الصِّيَامُ مِنْ حِينِ يُبيِّتُ مِنْ أوَّلِ اللَّيلِ كَانَ أوْ وَسَطَهُ أوْ آخِرَهُ**» فيتفاضل الصائمون في الأجر بحسب التبييت، ويؤيّد ذلك الوصال فكما يكتب له في إيصال يومه بالطرف الأول من

ليله يكتب له في اتصال طرفه الآخر من ليله بيومه، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ مُواصِلاً فَلْيُواصِلْ حَتَّىٰ السَّحَر**» وسيرد الكلام في الوصال والسحور في هذا الباب، فإن في هذا الحديث أعني من كان مواصلاً إشعاراً بالترغيب في أكلة السحور، فالليل أيضاً في الوصال محل للصوم ومحل للفطر، فصوم الليل على التخيير كصوم التطوّع في اليوم، والصوم لله في الزمانين فإنه يتبع الصائم، ففي أي وقت انطلق عليك اسم صائم فإن الصوم لله وهو بالليل أوجه لكونه أكثر نسبة إلى الغيب، والحق سبحانه غيب لنا من حيث وعدنا برؤيته وهو من حيث أفعاله وآثاره مشهود لنا والحق على التحقيق غيب في شهود، وكذلك الصوم غيب في شهود لأنه ترك والترك غير مرئيّ وكونه منوياً فهو مشهود، فإذا نواه في أيّ وقت نواه من الليل، فلا ينبغي له أن يأكل بعد النيّة حتى تصحّ النيّة مع الشروع، فكل ما صام فيه من الليل كان بمنزلة صوم التطوّع حتى يطلع الفجر فيكون الحكم عند ذلك لصوم الفرض فيجمع بين التطوّع والفرض فيكون له أجرهما.

ولما كان الصوم لله وأراد أن يتقرّب العبد بدخوله فيه واتصافه به إلى الله تعالىٰ كان الأولى أن يبيته من أول الثلث إلى آخر من الثلث الأول أو الأوسط، فإن الله يتجلى في ذلك الوقت في نزوله إلى السماء الدنيا فيتقرّب العبد إليه بصفته وهو الصوم فإن الصوم لا يكون إلاّ لله إلاّ إذا اتصف به العبد وما لم يتصف به العبد لم يكن، ثم صوم يكون لله فإنه في هذا الموطن كالقرى لنزول الحق إليه وعليه، ولما كان الصيام بهذه المثابة كما ذكرناه تولى الله جزاءه بأنانيّته لم يجعل ذلك لغيره، كما كان الصيام من العبد لله من غير واسطة كان الجزاء من الله للصائم من غير واسطة، ومن يلقى سيده بما يستحقه كان إقبال السيد على من هذا فعله أتم إقبال لأن السيد ظهر في هذا الموطن ظهور مستفيد فقابله بنفسه ولم يكل كرامته لغيره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧].

وصل في فصل ـ في وقت فطر الصائم: خرّج مسلم عن عبد الله بن أبي أوفى قال: «**كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فَلَمَّا غَابَتِ الشَّمْسُ قَالَ: يَا فُلانُ انْزِلْ فَاجْدَحْ لَنَا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ عَلَيْكَ نَهَاراً، قَالَ: انزِلْ فَاجْدَحْ لَنَا، قَالَ: فَنَزَلَ فَجَدَحَ فَأَتَاهُ بِهِ فَشَرِبَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ قَالَ: إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ مِنْ هٰهُنَا وَجَاءَ اللَّيْلُ مِنْ هٰهُنَا فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ**» فسواء أكل أو لم يأكل فإن الشرع أخبر أنه قد أفطر، أي إن ذلك ليس بوقت للصوم وأنه بالغروب تولاه الاسم الفاطر، وإتيان الليل ظهور سلطان الغيب لا ظهور ما في الغيب فجاء ليستر ما كانت شمس الحقيقة كشفته غيرة لعدم احترام المكاشفين لما عاينوه من شعائر الله وحرماته، فإن البصر قد أدرك ما لو اعتبر في شيء منه ما وفى بما يجب عليه من التعظيم الإلهيّ له فلما قلت الحرمة منهم ستره الليل غيرة فدخل في غيب الليل، غير أن الإنسان إذا دخل في الغيب واتصف به أدرك ما فيه من علوم الأنوار لا من علوم الأسرار، وعلوم الأنوار هو كل علم يتعلق به منافع الأكوان كلها، كما أن الليل إذا جاء ظهرت بمجيئه أنوار الكواكب والله جعلها لنهتدي بها في ظلمات البرّ والبحر، وهما علم الإحسان وعلم الحياة وعلوم

الأسرار خفيت عن أبصار الناظرين وهي غيب الغيب، فصار الغيب على هذا فيه ما يدرك به وفيه ما لا يدرك. ولما قال ﷺ: «**فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ**» فالأولى بالصائم أن يعجل الفطر عند الغروب بعد صلاة المغرب فإنه أولى لأن الله جعل المغرب وتر صلاة النهار، فينبغي أن يؤدّيها بالصفة التي كان عليها بالنهار وهو الإمساك عن الطعام والشراب، واستحبّ له إذا فرغ من الفريضة أن يشرع في الإفطار ولو على شربة ماء أو تمر قبل النافلة فإن فاعل ذلك لا يزال بخير، خرّج مسلم عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطْرَ**» فسمّى الأكل أو الشرب فطراً مع أنه قال عنه أنه أفطر بمجيء الليل وغروب الشمس، فجمع بالأكل بين فطرين: فطر بالفعل وفطر بالحكم.

فمن قال بالمفهوم يرى أنه إذا لم يفطر بالأكل زال عنه الخير الذي كان يأتيه بالأكل لو أكل معجلاً، فإنه إذا أخّر لم يحصل على ذلك الخير الذي أعطاه التعجيل وكان محروماً خاسراً في صفقته، ثم إنه تفوته الفرحة التي للصائم عند فطره أي يفوته ذوقها وحلاوتها وهي لذة الخروج من الجبر إلى الاختيار، ومن الحجر إلى السراح، ومن الضيق إلى السعة، وهو المقام المحمديّ والبقاء في الحجر مقام يوسفيّ جاء الرسول ليوسف من العزيز بالخروج من السجن فقال يوسف: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ [سورة يوسف: الآية ٥٠] فلم يخرج واختار الإقامة في السجن حتى يرجع إليه الرسول بالجواب، وإن كان مطابقاً لدخوله في السجن فإنه دخله عن محبة واستصحبته تلك الحالة وهو قوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ٣٣] فكانت محبة إضافة لم تكن محبة حقيقة. وقال رسول الله ﷺ: «**يَرْحَمُ اللَّهُ أَخِي يُوسُفَ لَوْ كُنْتُ أَنَا لأَجَبْتُ الدَّاعِي**» يقول: سارعت إلى الخروج من السجن لأن مقامه ﷺ يعطي السعة فإنه أرسله الله رحمة ومن كان رحمة لا يحتمل الضيق فلهذا قلنا بلذة فرحة فطر الصائم أنه مقام محمديّ لا يوسفيّ، وإنما قلنا بتعجيل الصلاة فيفطر بعد المغرب وقبل التنفّل فإنه من فعل رسول الله ﷺ، وإنما قدمناه على الفطر لأن الصلاة وإن كانت للعبد فإنها حق الله والفطر حق نفسك، ورسول الله ﷺ يقول للشخص الذي ماتت أمّه وعليها صوم وأراد أن يقضيه عنها فقال له عليه السلام: «**أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَيْهَا دَيْنٌ أَكُنْتَ تَقْضِيهِ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: فَحَقُّ اللهِ أَحَقُّ أَنْ يُقْضَىٰ**» فقدّم حق الله وجعله أحق بالقضاء من حق المخلوق.

وذكر مسلم عن أبي عطية قال: دخلت أنا ومسروق على عائشة فقلنا: يا أم المؤمنين رجلان من أصحاب محمد ﷺ أحدهما يعجل الإفطار ويعجل الصلاة والآخر يؤخر الإفطار ويؤخر الصلاة، قالت: أيهما الذي يعجل الإفطار ويعجل الصلاة؟ قال: قلنا عبد الله بن مسعود، قالت: كذلك كان يصنع رسول الله ﷺ. ولما كان ﷺ قد جعله الله أسوة يتأسى به فقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١] فكان يفطر بأن يشق أمعاءه بشيء من رطب أو تمر أو حسوات من ماء قبل أن يصلي المغرب وبعد الصلاة كان يأكل ما قدّر له. قال أبو داود في سننه عن أنس بن مالك: «**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُفْطِرُ عَلَىٰ رطبات قَبْلَ أَنْ يُصَلِّي، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ رطبات فَعَلَىٰ تَمَرَاتٍ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَمَرَاتٌ حَسَا**

حَسَواتٍ مِنْ مَاءٍ» فقدّم الرطب لأنه أحدث عهد بربه من التمر كما فعل ﷺ في المطرحين نزل برز بنفسه ﷺ إليه وحسر الثوب عنه حتى أصابه المطر فسُئِل عن فعله ذلك فقال ﷺ: «**إِنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ**».

وصل في فصل ـ صيام سر الشهر: اعلم أنه صوم يوم ورد به الأمر من النبي ﷺ رويناه من طريق أبي داود عن عبد الله بن العلاء عن المغيرة بن قرّة قال: قام معاوية في الناس يوم مسحل الذي على باب حمص فقال: يا أيها الناس إنا قد رأينا الهلال يوم كذا وكذا وأنا متقدّم بالصوم فمن أحب أن يفعل فليفعله قال: فقام إليه مالك بن هبيرة السبلي فقال: يا معاوية أشيء سمعته من رسول الله ﷺ أم شيء من رأيك؟ قال فقال: سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «**صُومُوا الشَّهْرَ وَسِرَّهُ**» فاعلم أن السرّ ضدّ الشهرة وبها سمّي الشهر شهراً لاشتهاره وتمييزه واعتناء المسلمين به وأصحاب تسيير الكواكب، فرغب في الصوم في حال السرّ والإعلان.

واعلم أن سرّ الشهر هو الوقت الذي يكون فيه القمر في قبضة الشمس تحت شعاعها، كذلك العبد إذا أقيم في مشهد من مشاهد القرب الذي تطلبه عيون الأكوان فيه فلا تبصره وذلك مقام الأخفياء الأبرياء الذين لم يتميزوا في العامّة في هذه الدار تحققاً بصفة سيدهم حيث لم يجعل سبيلاً إلى رؤيته في هذه الدار لحصول دعاوى الكون في المرتبة الإلهية فقالوا: ينبغي أن لا نظهر إلاّ بظهور مولانا وذلك في الآخرة حيث يقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [سورة غافر: الآية ١٦] فلا يجرأ أحد يدّعيه، فهناك تظهر هذه الطبقة أن الله أخفياء في عباده وضنائن اكتنفهم في صونه فلما تشبهوا بسيدهم في هذه الصفة من الستر وعدم الظهور لزمهم صوم سر الشهر، فإن الصوم صفة صمدانية فاتصفوا بصفة الحق في هذا التقريب كما اتصفوا به في الإعلان في صوم الواحد كشهر رمضان فإنه ظهر هناك باسمه رمضان، وسمّي به الشهر حجاباً عنه تعالىٰ والعامة تقول: صمت رمضان، والعارف يقول: شهر رمضان معلناً فإن الله قال لهم: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾ وهو إعلان رمضان وشهرته ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥] إلاّ المسافر فإن المسافر إليه يسافر ليشهده فما هو في حال شهود في وقت سفره، والمريض مائل عن الحق لأن المرض النفسيّ ميل النفس إلى الكون فلم يشهد الشهر، والحيض كذب النفس ولذلك هو أذى في المحل ينافي الطهارة التي توجب القرب وهو الصدق.

ورد في الخبر الصحيح أن العبد إذا كذب الكذبة تباعد منه الملك ثلاثين ميلاً من نتن ما جاء به فجاء بالثلاثين الذي هو كمال عدّة الشهر القمريّ الذي استسر في شعاع الشمس فكانت الحائض بعيدة من شهود الشهر لما ذكرناه، والحق سبحانه لا يقرّب عبده إلاّ ليمنحه ويعطيه ثم يبرزه إلى الناس قليلاً قليلاً لئلاً يبهرهم بهاء نور ما أعطاه لضعف عيون بصائرهم رحمة بالعامة، فلا يزال يظهر لهم قليلاً قليلاً فلا يبدي لهم من العلم بالله الذي أعطاه في حال ذلك السرار إلاّ قدر ما يعلم أنه لا يذهلهم إلى أن تعتاد عيون بصائرهم إلى أن يظهر لهم في صورة

كمال الأعطية بالخلعة الإلهية وهو قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] فذلك بمنزلة القمر ليلة البدر، فهو القدر الذي كان حصل له ليلة السرار في حضرة الغيب من وجه باطنه، فإن ضوء البدر كان في السرار من الشمس في الوجه الذي ينظر إلى الشمس في حين المسامتة والظاهر لا نور فيه، وفي ليلة الإبدار ينعكس الأمر فيكون الظهور بالاسم الظاهر، وكذلك فعل الحق مع عامّة عباده احتجب عنهم غاية الحجاب كالسرار في القمر فلم يدركوه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] رحمة بهم فلم يجدوا في أذهانهم ولا في طبقات أحوالهم ما يذهلهم فجاء سرّاً في رحمة حجاب هذه الآية، وهذا غاية نزول الحق إلى عباده في مقام الرحمة لهم ثم استدرجهم قليلاً قليلاً بمثل ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ١، ٢] وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [سورة العلق: الآية ١٤] إلى أن تقوت أنوار بصائرهم بالمعرفة بالله وأنسوا به قليلاً قليلاً إلى أن يتجلى لهم في المعرفة التامة النزيهة التي لو تجلى لهم فيها في أوّل الحال لهلكوا من ساعتهم فقال عزّ من قائل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فقبلوه ولم ينفروا منه ونسوا حال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فكان بقاؤهم في ذلك المقام بقطع اليأس لرفع المناسبة من جميع الوجوه.

ألا ترى أهل الميت تنقطع وحشتهم من ميتهم لأنهم لا يرجون لقاءه في الدنيا فلا يبقى لهم حزن، وأهل الغائب ليس كذلك فإنهم لم ييأسوا من لقائه وكتبه وأخباره ترد عليهم مع الآنات إلى وقت اللقاء عند قدومه، فسبحان الحكيم الخبير يدبر الأمر يفصل الآيات لعلنا نعقل عنه، فلمثل هذا وقع صيام سرّ الشهر، والشهر مثلاً مضروباً لمن يعقل عن الله، ففي صيام سرّ الشهر مقام جمعية الهمة على الله حتى لا يرى غير الله وهو قوله ﷺ: «**لِي وَقْتٌ لاَ يَسَعُنِي فِيهِ غَيْرُ رَبِّي**» لأنه في تجلّ خاص به ولهذا أضافه إليه فقال: ربي ولم يقل: الله ولا الرب. وممّا يؤيد قولنا أنه يريد بصوم السرّ من الشهر الجمعية تحضيضه وتحريضه على صوم سرر شعبان وأن يقضيه من فاته فإن شعبان من التفريق ولهذا قيل: إنه ما سمّي هذا الشهر بلفظ شعبان إلاّ لتفرّق قبائل العرب فيه، وكذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٣] فالشعوب في الأعاجم كالقبائل في العرب أي فرقكم شعوباً وميّز قبيلة من قبيلة، وسمّيت المنية شعوباً لأنها تفرّق بين الميت وأهله، فكان صيام سرر شعبان آكد من صيام سرر غيره من الشهور لما فيه من التفريق.

خرّج مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «**هَلْ صُمْتَ مِنْ سرر هَذَا الشَّهْرِ شَيْئاً؟ قَالَ: لا ، فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِذَا أَفْطَرْتَ مِنْ رَمَضَانَ فَصُمْ يَوْمَيْنِ مَكَانَهُ**». وفي طريق أخرى أيضاً لمسلم عن ابن عمر: «**هَلْ صُمْتَ مِنْ سرر شَعْبَانَ**». وفي هذا الفصل علوم وأسرار إلهية يعرفها من تحقق بما نبهنا عليه وأسعد الناس بذلك أهل الاعتبار من الذين يراعون تسيير الشمس والقمر لحفظ أوقات العبادات، فإن معرفة منزلة القمر والشمس في ضرب المثل من أعظم الدلائل على العلم الإلهيّ الذي يختص بالكون والإمداد الربانيّ

والحفظ لبقاء أعيان الكائنات ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [سورة ق: الآية ٣٧] أي حاضر فيما يلقي إليه المخبر فيمثله نصب عينيه فكأنه يشاهده فإنه خبر صدق جاء به صادق أمين: [مخلع البسيط]

جاء به صادقٌ أمينُ   يُخبرُ عن كل ما يكونُ
في كل كَونٍ بكل وجهِ   من كل صعب وما يهونُ
ممّا تراه القلوبُ كشفاً   معنًى وما تُدركُ العيونُ

جاء به من رب الدار يعلمه بما أودع فيها من كل شيء مليح. قال تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٢] ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢].

وصل في فصل ـ في حكمة صوم أهل كل بلد برؤيتهم: خرّج مسلم في صحيحه عن كريب أن أمّ الفضل بنت الحارث بعثته إلى معاوية بالشام قال: فقدمت الشام فقضيت حاجتها واستهل عليّ رمضان وأنا بالشام فرأيت الهلال ليلة الجمعة ثم قدمت المدينة في آخر الشهر فسألني عبد الله بن عباس ثم ذكر الهلال فقال: متى رأيتم الهلال؟ فقلت: رأيناه ليلة الجمعة، فقال: أنت رأيته؟ فقلت: نعم ورآه الناس وصاموا وصام معاوية، فقال: لكنا رأيناه ليلة السبت فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين أو نراه، فقلت: أو لا تكتفي برؤية معاوية وصيامه؟ فقال: لا هكذا أمرنا رسول الله ﷺ، فبدنك وقواك بلدك وأقليمك وعالمك رعيتك وأنت مخاطب بالتصرّف فيهم بالقدر الذي حدّ لك الحق في شرعه وأنت الراعي المسؤول عنهم لا غيرك فإن الله ما كلف أحداً إلاَّ بحاله ووسعه ما كلف أحداً بحال أحد ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [سورة المدثر: الآية ٣٨] ﴿كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [سورة النحل: الآية ١١١] ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٣]، فإذا طلع هلال المعرفة في قلبك من الاسم الإلـهيّ رمضان فقد دعاك في ذلك الطلوع إلى الاتصاف بما هو له وهو الصوم فأمرك بتقييد جوارحك كلها الظاهرة وتقييد قواك الباطنة، وأمرك بقيام ليله ورغبك فيه وهو المحافظة على غيبه، وجعل لك فيه فطراً في أوّل الليل وأمرك بالتعجيل به وغذاء في آخره، وأمرك بتأخير ذلك إلى أن يكون في التأخير بمنزلة من قال: هو النهار إلاَّ أنّ الشمس لم تطلع وذلك لحكمة التحقق بالاسم الآخر في ليل رمضان كما كنت في يومه فإنك بين طرفي تحليل وتحريم، فما خاطبك الحق إلاَّ منك ولا خاطبك إلاَّ بك، وهكذا مع كل مكلف في العالم من ملك وجنّ وإنسان بل من كل مخلوق حال ذلك المخلوق ينزل الحكم عليه بصفة الكلام، سواء ضمّ ذلك الكلام حروف هجاء أو لم تضمّه هو عين الكلام الإلهيّ في العالم أن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، ولقد أنطقني سبحانه في ذلك بما أنا ذاكره من الأبيات إن شاء الله تعالىٰ: [مخلع البسيط]

ناداني الحقُّ من سمائي   بغير حرفٍ من الهجاءِ

ثم دعاني من أرضِ كَوْني ... بكل حرفٍ من الهجاءِ
وقال لي كُلُّهُ كَلامي ... فلا تعرِّج على سوائي
ولا ترى أن ثَمَّ غيري ... فإنه غايةُ التَّنائي

فلما علمت أنه لكل بلد رؤية وما وقف حكم بلد على بلد علمت أن الأمر شديد، وأن كل نفس مطلوبة من الحق في نفسها ﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٣] وأنّ تقلب الإنسان في العبادة من وجه بذاته ومن وجه بربه ليس لغيره فيه مساغ ولا دخول، وأراني ذلك في واقعة فاستيقظت من منامي وأنا أحرّك شفتيّ بهذه الأبيات التي ما سمعتها قبل هذا لا مني ولا من غيري وهي هذه: [مخلع البسيط]

قال ليَ الحقُّ في منامي ... ولم يكن ذاك من كلامي
وقتاً أناديك في عِبادي ... وقتاً أناجيك في مَقامي
وأنت في الحالتين عندي ... في كَنَفِ الصون والذِّمامِ
فمن صلاةٍ إلى زكاةٍ ... ومن زكاةٍ إلى صيامِ
ومن حرامٍ إلى حلالٍ ... ومن حلالٍ إلى حرامِ
وأنت في ذا وذاك مني ... كمثل مَقْصورةِ الخيامِ

فلو علم الإنسان من أيّ مقام ناداه الحق تعالىٰ بالصيام في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾وأنه المخاطب في نفسه وحده بهذه الجمعية فإنه قال: يصبح على كل سلامى منكم صدقة فجعل التكليف عامّاً في الإنسان الواحد، وإذا كان هذا في عروقه فأين أنت من جوارحه من سمعه وبصره ولسانه ويده وبطنه ورجله وفرجه وقلبه الذين هم رؤساء ظاهره؟ وأن كل جارحة مخاطبة بصوم يخصّها من إمساكها فيما حجر عليها، ومنعت من التصرّف فيه بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ واعلم أن الله ناداك من كونك مؤمناً من مقام الحكمة الجامعة لتقف بتفصيل ما يخاطبك به على العلم بما أراده منك في هذه العبادة فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ أي الإمساك عن كل ما حرّم عليكم فعله أو تركه ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني الصوم من حيث ما هو صوم، فإن كان أيضاً يعني به صوم رمضان بعينه كما ذهب إليه بعضهم غير أن الذين قبلنا من أهل الكتاب زادوا فيه: إلى أن بلغوا به خمسين يوماً وهو ممّا غيّروه، وقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ أي فرض ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهم الذين هم لكم سلف في هذا الحكم وأنتم لهم خلف ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٣] أي تتخذوا الصوم وقاية فإن النبيّ ﷺ أخبرنا أن الصوم جنة والجنة الوقاية، ولا يتخذوه وقاية إلاّ إذا جعلوه عبادة، فيكون الصوم للحق من وجه ما فيه من التنزيه، ويكون من وجه ما هو عبادة في حق العبد جنة ووقاية من دعوى فيما هو لله لا له، فإن الصوم لا مثل له فهو لمن لا مثل له، فالصوم لله ليس لك.

ثم قال: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٤] العامل في الأيام كتب الأول بلا شك فإنه ما عندنا بما كتب على من قبلنا هل كتب عليهم يوم واحد وهو عاشوراء أو كتب عليهم

أيام؟ والذي كتب علينا إنما هو شهر والشهر إما تسعة وعشرون يوماً وإما ثلاثون يوماً بحسب ما نرى الهلال، والأيام من ثلاثة إلى عشرة لا غير، فطابق لفظ القرآن ما أعلمنا به رسول الله ﷺ في عدد أيام الشهر فقال: الشهر هكذا وأشار بيده يعني عشرة أيام، ثم قال: وهكذا يعني عشرة أيام وهكذا وعقد إبهامه في الثالثة يعني تسعة أيام، وفي المرّة الأخرى لم يعقد الإبهام فأراد أيضاً عشرة أيام وذلك لما قال تعالىٰ: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ عدد الشارع أيام الشهر بالعشرات حتى يصحّ ذكر الأيام موافقاً لكلام الله فإنه لو قال: ثلاثون يوماً لكان كما قال في الإيلاء لعائشة: قد يكون الشهر تسعة وعشرين يوماً ولم يقل هكذا وهكذا كما قال في عدد شهر رمضان، فعلمنا أنه أراد موافقة الحق تعالىٰ فيما ذكر في كتابه.

ثم قال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٤] فأتى بذكر الأيام أيضاً، وأشار إلى المخاطبين بقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ وهم الذين آمنوا ﴿مَّرِيضًا﴾ يعني في حبس الحق ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ وهم أهل السلوك في الطريق إلى الله في المقامات والأحوال، والسفر من الإسفار وهو الظهور لأنه إنما سمّي السفر سفراً لأنه يسفر عن أخلاق الرجال فيه فأسفر لهم المقام والحال في هذا السلوك أن العمل ليس لهم وإن كانوا فيه، وإنما الله هو العامل بهم كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٤] يعني في وقت الحجاب فإنها أيام أخر حتى يجد التكليف محلاً يقبله بالوجوب، وقد تقدّم الكلام في مثل هذا من هذا الباب فلينظر هناك.

ثم قال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٤] يقول: من يطيق الصوم قد خيرناه بين الصوم والإطعام، فانتقل من وجوب معين إلى وجوب غير معين عند المكلف وإن كان محصوراً، وقد علم الله ما يفعل المكلف من ذلك فألحقه بالتطوّع فإن كل واحد منهما غير واجب بعينه، فأيّ شيء اختار كان تطوّعاً منه به إذ له أن يختار الآخر دونه، ثم رجح الله له الصوم الذي هو له ليقوم به إذ صفة الصوم من حيث ما هي عبادة لا مثل له، فإن قلت: فالإطعام صفته أيضاً فإنه المطعم. قلنا: لو ذكر الإطعام دون الفدية لكان ولما قرن بالإطعام الفداء وأضافه إليه كان كأنه المكلف وجب عليه الصوم والله لا يجب عليه شيء في الأدب الوضعيّ الحقيقيّ إلاّ ما أوجبه على نفسه، ومن حصل تحت حكم الوجوب فهو مأسور تحت سلطانه فتعين الفداء وكان الإطعام فراعى الله الصوم هناك فجعله خيراً له فإنه صفته، ألا تراه يقول: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٠٧] من أسر الهلاك ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قد تكون إن هنا بمعنى ما يقول: ما كنتم تعلمون أن الصوم خير من الإطعام لولا ما أعلمتكم ويكون معناها أيضاً إن كنتم تعلمون الأفضل فيما خيّرتكم فيه فقد أعلمتكم يعني مرتبة الصوم ومرتبة الإطعام.

ثم قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ يقول: شهر هذا الاسم الإلهيّ الذي هو رمضان فأضافه إلى

الله تعالىٰ من اسمه رمضان وهو اسم غريب نادر ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ يقول: نزل القرآن بصومه على التعيين دون غيره من الشهور ﴿هُدًى﴾ أي بياناً ﴿لِّلنَّاسِ﴾ والقرآن الجمع فلهذا جمع بينك وبينه في الصفة الصمدانية وهي الصوم فما كان فيه من تنزيه فهو لله فإنه قال: الصوم لي ومن كونه عبادة فهو لك هدى أي بياناً للناس على قدر طبقاتهم، وما رزقوا من الفهم عنه فإن لكل شخص شرباً في هذه العبادة ﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾ فكل شخص على بينة تخصّه بقدر ما فهم من خطاب الله في ذلك ﴿مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ وهو التبيان الإلهيّ ﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥] فإنه جمعك أولاً معه في الصوم بالقرآن ثم فرّقك لتتميز عنه بالفرقان فأنت أنت وهو هو في حكم ما ذكرناه من استعمالك فيما هو له وهو الصوم فهو له من باب التنزيه وهو لك عبادة لا مثل لها ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥] يقول: فليمسك نفسه في هذه الشهرة يعني ينزّهها بالذلة والافتقار حتى تعظم فرحته عند الفطر ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مائلاً والمرض الميل أو محبوساً فإن المريض في حبس الحق ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ سلوك في الأسماء الإلهية علم ذوق أو مسافراً عنه إلى الأكوان ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ﴾ أخر أيام معدودات لا يزاد فيها ولا ينقص منها ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ فيما خاطبكم به من الرفق في التكليف ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥] وهو ما يشق عليكم أكد بهذا القول قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] فعرف اليسر هنا بالألف واللام، يشير إلى اليسر المذكور المنكر في سورة ألم نشرح أي ذلك اليسر أردت بكم وهو قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [سورة الشرح: الآية ٥] في عسر المرض يسر الإفطار ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ﴾ عسر السفر ﴿يُسْرًا﴾ يسر الإفطار أيضاً ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من المرض أو السفر ﴿فَٱنصَبْ﴾ [سورة الشرح: الآية ٧] نفسك للعبادة وهو الصوم يقول: اقضه ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [سورة الشرح: الآية ٨] في المعونة.

كان شيخنا أبو مدين رحمه الله يقول في هذه الآية: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من الأكوان ﴿فَٱنصَبْ﴾ قلبك لمشاهدة الرحمن ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ في الدوام. وإذا دخلت في عبادة فلا تحدّث نفسك بالخروج منها وقل: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ [سورة الحاقة: الآية ٢٧].

﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ برؤية الهلال أو بتمام الثلاثين ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تشهدوا له بالكبرياء تفردوه به ولا تنازعوه فيه فإنه لا ينبغي إلاّ له سبحانه فتكبروه عن صفة اليسر والعسر فإنه قال في الإعادة وهو أهون عليه فهو أعلم بما قال، واحذر من تأويلك وحمله عليك فكبّره عن هذا ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي وفقكم لمثل هذا وبين لكم ما تستحقونه ممّا يستحقه تعالىٰ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فجعل ذلك نعمة يجب الشكر منا عليها لكوننا نقبل الزيادة والشكر صفة إلهية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٨] فطلب منا بهذه الصفة الزيادة لكونه شاكراً فإنه قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٧] فنبهنا بما هو مضمون الشكر لنزيده في العمل.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ لكونك حاجب الباب ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ بما شاركناهم فيه من

الشكر والصوم الذي هو لي فأمرناهم بالصوم وعرفناهم أنه لنا ما هو لهم فمن تلبس به تلبس بما هو خاص لنا فكان من أهل الاختصاص مثل أهل القرآن هم أهل الله وخاصته ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ على بصيرة ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ يقول: كما جعلناك تدعو الناس إلى الله على بصيرة جعلنا الداعي الذي يدعونا إليه على بصيرة من إجابتنا إياه ما لم يقل لم يستجب لي ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] أي لما دعوتهم لي من طاعتي وعبادتي فإني ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فدعوتهم إلى ذلك على ألسنة رسلي وفي كتبي المنزلة التي أرسلت رسلي بها إليهم، وأكّد ذلك بالسين أعني الاستجابة لما علم من إبايتنا وبعدنا عن إجابته لي أي من أجلي لا تعملون ذلك رجاء تحصيل ما عندي فتكونون عبيد نعمة لا عبيدي وهم عبيدي طوعاً وكرهاً لا انفكاك لهم من ذلك ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ يصدّقوا بإجابتي إياهم إذا دعوني وليكن إيمانهم بي لا بأنفسهم لأنه من آمن بنفسه لا بالله لم يستوعب إيمانه ما استحقه فإذا آمن بي وفى الأمر حقّه فأعطى كل ذي حقّ حقّه وهذا هو الذي يصدّق بالأخبار كلها، ومن آمن بنفسه فإنه مؤمن بما أعطاه دليله، والذي أمرته بالإيمان به متناقض الدلالة متردّد بين تشبيه وتنزيه، فالذي يؤمن بنفسه يؤمن ببعض ويكفر ببعض تأويلاً لا ردّاً، فمن تأول فإيمانه بعقله لا بي، ومن ادّعى في نفسه أنه أعلم بي مني فما عرفني ولا آمن بي فهو عبد يكذبني فيما نسبته إلى نفسي بحسن عبارة، فإذا سُئِل يقول: أردت التنزيه وهذا من حيل النفوس بما فيها من العزّة وطلب الاستقلال والخروج عن الاتباع ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] أي يسلكون طريق الرشد كما يفعل الموفقون الذين إذا رأوا سبيل الرشد اتخذوه سبيلاً فيمشي بهم إلى السعادة الأبدية، فكانت إجابة الحق إياهم حين دعوه، ونهاية طريقهم إلى ما فرحت به نفوسهم من تحليل ما كان حرم عليهم في حال صومهم من أول اليوم إلى آخره فقال:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ أي الليلة التي انتهى صومكم إليها لا الليلة التي تصبحون فيها صائمين فهي صفة تصحبكم إلى ليلة عيد الفطر، ولو كانت إضافة ليلة الصيام إلى المستقبل لم تكن ليلة عيد الفطر فيها فإنك لا تصبح يوم العيد صائماً ولو صمت فيه لكنت عاصياً ولا يلزم هذا في أول ليلة من رمضان فإن الأكل وأمثاله كان حلالاً قبل ذلك فما زال مستصحب الحكم، فلهذا جعلناه للصوم الماضي ﴿ٱلرَّفَثُ﴾ يعني الجماع ﴿إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧] فجاء بالنساء ولم يقل الأزواج ولا غير ذلك، فإن في هذا الاسم معنى ما في النساء وهو التأخير فقد كنّ أخرن عن هذا الحكم الذي هو الجماع زمان الصوم إلى الليل فلما جاء الليل زال حكم التأخير بالإحلال فكأنه يقول: إلى ما أخّرتم عنه وأخرن عنه من أزواجكم وما ملكت أيمانكم ممّن هو محل الوطء ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧] أي المناسبة بينكم صحيحة ما هي مثل ما تلبستم بنا في صومكم حيث اتصفتم بصفة هي لي وهو الصوم فلستم لباساً لي في قولي وسعني قلب عبدي، ولست لباساً لكم في قولي: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٤] فإن اللباس يحيط بالملبوس به ويستره ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧] من الخيانة

لشهادتي عليكم حين قبلتم الأمانة لما عرضتها عليكم فقلت في حاملها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] ظلوماً لنفسه بأن كلفها ما لا يدري علم الله فيه عند حمله إياها، جهولاً بقدرها وما يتعلق من الذم به إذ أمن خان فيها، ولما كان الجهول ﴿أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٢] لا يدري كيف يضع رجله ولا يرى أين يضع رجله قال: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ لما حجر عليكم فيما حجره عليكم ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي رجع عليكم ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ أي بالقليل الذي أباحه لكم من زمان الإحلال الذي هو الليل، وإنما جعله قليلاً لبقاء التحجير فيه في المباشرة للمعتكف في المساجد بلا خلاف وفي غير المسجد بخلاف والمواصل ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ وهو زمان الفطر في رمضان ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ واطلبوا ما فرض الله من أجلكم حتى تعلموه فتعملوا به من كل ما ذكره في هذه الآية ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ أمر بإعطاء ما عليك لنفسك من حق الأكل والشرب ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ﴾ إقبال النهار ﴿مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ إدبار الليل ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ الانفجار الضوء في الأفق ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧] فأبقى تحجير الجماع على من هذه حالته، وكذلك في الأكل والشرب للذي ينوي الوصال في صومه.

يقول ﷺ: «**مَن كَانَ مُواصِلاً فَلْيُوَاصِلْ حَتَّىٰ السَّحَر**». وهو اختلاط الضوء والظلمة، يريد في وقت ظهور ذنب السرحان ما بين الفجرين المستطيل والمستطير، وواصل رسول الله ﷺ بأصحابه يومين ورأوا الهلال ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي أمركم أن تقفوا عندها ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ لئلا تشرفوا على ما وراءها، وهنا علم غامض لا يعلمه إلاَّ من أعطيه ذوقاً عناية إلهية كالخضر وغيره فربما تزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي دلائله ﴿لِلنَّاسِ﴾ إشارة فيتذكر بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧] يتخذون تلك الدلائل وقاية من التقليد والجهل، فإن المقلد ما هو على بينة من ربه وما هو صاحب دلالة، وجعله بمعنى الترجي لأنه ما كل من رزق الدليل ووصل إلى المدلول وحصل له العلم وفق لاستعمال ما علمه إن كان من العلوم التي غايتها العمل.

وصل في فصل ـ السحور: خرّج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السُّحُورِ بَرَكَةً**» وأمر ﷺ بالسحور ورغب فيه بما ذكر. حديث ثان لمسلم: وخرّج مسلم أيضاً عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «**فَصْلُ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَام أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ السُّحُورِ**». حديث ثالث للنسائي: خرّج النسائي عن العرباض بن سارية قال: «**سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو إِلَىٰ السُّحُورِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فَقَالَ: هلمّوا إِلَى الغَدَاءِ المُبَارَكِ**». حديث رابع للنسائي: وخرّج النسائي أيضاً عن عبد الله بن الحارث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: «**دَخَلْتُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَتَسَحَّرُ فَقَالَ: إِنَّهَا بَرَكَةٌ أَعْطَاكُمُ اللَّهُ إياهَا فَلاَ تَدَعُوهَا**». حديث خامس لمسلم والبخاريّ: خرّج مسلم عن ابن عمر قال: «**كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُؤَذِّنَانِ: بِلالٌ وَابْن أُمّ مَكْتُومٍ الأَعْمَىٰ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ بِلالاً يُؤَذِّنُ بليلٍ**

فكلوا واشربوا حتَّىٰ يُؤَذِّنَ ابنُ أُمِّ مَكْتُوم، قَالَ: وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا إلاَّ أَنْ يَنْزِلَ هٰذا وَيَرْقَى هَذا» زاد البخاري: «فَإِنَّهُ لاَ يُؤَذِّنُ حَتَّىٰ يَطْلعَ الْفَجْرُ يَعْنِي ابنَ أُمِّ مَكْتُومِ» خرّجه البخاريّ من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبيّ ﷺ.

حديث سادس لأبي داود: خرّج أبو داود عن أبي هريرة قال: قال النبيّ ﷺ: «إذَا سَمِعَ أَحَدُكُمُ النِّدَاءَ والإِنَاءُ عَلَىٰ يَدِهِ فَلاَ يَضَعْهُ حَتَّىٰ يقضي حَاجَتَهُ مِنْهُ». حديث سابع للنسائي: خرّج النسائي عن عاصم عن زرٍّ قال: «قُلْنَا لِحُذَيْفَةَ: أَيّ سَاعَةٍ تَسَحَّرْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: هُوَ النَّهَارُ إلاّ أَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَطْلعْ». حديث ثامن لمسلم: خرّج مسلم عن أنس قال: «تَسَحَّرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قُمْنَا إلَىٰ الصَّلاةِ قُلْتُ: كَمْ كَانَ قَدْرُ مَا بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: خَمْسِينَ آيَةً». حديث تاسع لمسلم: خرّج مسلم عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَغُرَّنَّكُمْ مِنْ سُحُورِكُمْ أَذَانُ بِلالٍ وَلاَ بَيَاضُ الأُفُقِ الْمُسْتَطِيلِ هَكَذَا حَتى يَسْتَطِيرَ هَكَذَا». وحكاه حماد بيده يعني معترضاً.

فهذه أحاديث السحور قد ذكرتها ليقف من سمع كلامي في السحور عليها حتى يعلم أنا ما خرجنا فيما نذهب إليه من الاعتبار عمّا أشار إليه ﷺ قولاً وفعلاً، لأن سيد هذه الطائفة أبا القاسم الجنيد يقول: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنّة، يقول رضي الله عنه: وإن كنّا أخذنا علمنا عن الله ما أخذناه من الكتب ولا من أفواه الرجال فما علمنا الله تعالىٰ علماً به نخالف ما جاءت به الأنبياء صلوات الله عليهم من عند الله ممّا ذكرته من الأخبار ولا ما أنزله الله في كتاب، بل هو عندنا كما أخبر الله عن عبده خضر أنه آتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً، وهذا هو علم الوهب الإلهيّ الذي أنتجه التقوى والعمل على الكتاب والسنّة الذي لو عمل أهل الكتاب بما أنزل إليهم وأقاموا التوراة والإنجيل لأكلوا من فوقهم إشارة إلى هذا المقام أعني علم الوهب ومن تحت أرجلهم إشارة إلى علم الكسب وهو العلم الذي يناله أهل التقوى من هذه الأمّة فإنه علم كسب إذ كان نتيجة عمل وهو التقوى.

فاعلم أن السحور مشتق من السحر وهو اختلاط الضوء والظلمة يريد زمان أكلة السحور فله وجه إلى النهار وله وجه إلى الليل، فبما له وجه إلى النهار سمّاه غذاء فرجح فيه حكم النهار على حكم الليل كما عمل في الفطر فأمر بتعجيله فرجح فيه النهار أيضاً على الليل بوجود آثار الشمس، فإنّ الأكل وقع فيه قبل زوال آثار النهار ودلائله، فإن النهار قد أدبر لأن حقيقة النهار من طلوع حاجب الشمس الأول إلى غروب حاجب الشمس الآخر، فبمغيبه يغيب قرص الشمس، وآثار النهار من أول الليل من مغيبه إلى مغيب البياض، وآثاره في آخر الليل من طلوع الفجر الأول إلى طلوع الشمس إلاّ أنه لا يمنع الأكل طلوع الفجر الأول شرعاً، وفي الفجر الثاني خلاف، وموضع الإجماع الأحمر وما كان قبل ذلك فليس بسحر وإنما هو ليل وبعده إنما هو نهار، وهكذا صفة الشبهة لها وجه إلى الحق ولها وجه إلى الباطل في الأمور العقلية، وكذلك المتشابه له وجه إلى الحل وله وجه إلى الحرمة، ولهذا سمّي الفجر الأول الكذاب وما هو كذاب وإنما أضيف الكذب إليه لأنه ربما يتوهم صاحب السحور

أن الأكل محرم عنده وليس كذلك فإن علته ضرب الشمس أي طرح شعاعها على البحر فيأخذ الضوء في الاستطالة، فإذا ارتفعت ذهب ذلك الضوء المنعكس من البحر إلى الأفق فجاءت الظلمة وقرب بروز الشمس إلينا فظهر ضوءها في الأفق كالطائر الذي فتح جناحيه ولهذا سمّاه مستطيراً، فلا يزال في زيادة إلى طلوع الشمس كذلك الحق والباطل.

فأما الزبد فيذهب جفاء، وأمّا ما ينفع الناس فيمكث أي يثبت وهو الفجر الصادق وما بينهما هو السحر، كما أن ما بين الوجهين اللذين يظهران في الشبهة هو العلم الصحيح يظهر بها أنها شبهة فيتميز بعلمك بها الحق من الباطل، كما تميز بانتكاس الفجر الكذاب إلى الأرض، والظلمة الظاهرة عند ذلك أن ذلك الفجر الأول لا يمنع من يريد الصوم من الأكل ولهذا سمته العرب ذنب السرحان لأنه ليس في السباع أخبث منه ولا أكثر محالاً فإنه يظهر الضعف ليحقر فيغفل عنه فينال مقصوده من الافتراس فإن ذنبه يشبه ذنب الكلب فيتخيل من لا يعرفه أنه كلب فيأمن منه فهو شبيه المنافق، فأمر رسول الله ﷺ في ذلك الوقت بأكلة السحور وقال: «**إِنَّهَا بَرَكَةٌ أَعْطَاكُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا**» فأكد أمره بها بنهيه أن لا ندعها، فكما صرَّح بالأمر بها صرَّح بالنهي عن تركها وأكد في وجوبها فأشبهت صلاة الوتر فإنها صلاة مأمور بها على طريق القربة المأمور بها فهي سنّة مؤكدة وعند بعض علماء الشريعة واجبة، وأكلة السحور أشدّ في التأكيد من الوتر في جنس الصلاة لما ورد في ذلك من التصريح بالنهي عن تركها وهو بمنزلة البحث عن الشبهة حتى يعرف بذلك الحق من الباطل، فهذه هي البركة التي في أكلة السحور، فإن البركة الزيادة فزادت على سائر الأكلات شمولها الأمر بها والنهي عن تركها، وليس ذلك الحكم لغيرها من الأكلات.

ثم إن النبيّ ﷺ جعلها فصلاً بين منزلة أهل الكتاب ومنزلتنا، فهي إما ممّن اختصنا بها الحق على سائر الأمم من أهل الكتاب، وإما ممّن أمرنا بالمحافظة عليها حتى نتميز من أهل الكتاب حيث أنزلت عليهم كما أنزلت علينا ففرّطوا في حقّها كما فعلوا في أشياء كثيرة وكلا الوجهين سائغ، وهذا يعم تعجيل الفطر وتأخير السحور، فإن اعتبرنا أن أهل الكتاب هم القائمون بكتابهم علمنا أن الله اختصنا بفضل تعجيل الفطر وتأخير السحور عليهم وأنه ما أنزل ذلك عليهم فحرموا فضلها، وإن اعتبرنا أن أهل الكتاب هم الذين أنزل عليهم كتاب من الله سواء عملوا به أو لم يعملوا تأكّد عندنا أن الله إنما أكّد في ذلك حتى نتميز عن أهل الكتاب إذ قد أمروا بذلك فأضاعوه بترك العمل. فمن رأى أكلة السحور بضم الهمزة اكتفى باللقمة الواحدة ليقع الفرق بينه وبين أهل الكتاب وهو أقل ما يكون، ومن فتح الهمزة أراد الغذاء، ثم من التأكيد فيها محافظة النبيّ ﷺ عليها وعلى تأخيرها ودعاؤه إليها فسنّها قولاً وفعلاً فقال: «**هَلُمُّوا إِلَى الْغِذَاءِ الْمُبَارَكِ**» كما قال: حيّ على الصلاة.

ثم إنه ﷺ من تأكيده في ذلك وتغليبه للأكل على تركه مع التحقق ببيان المانع وهو الفجر الصادق أنك إذا سمعت النداء به إذا كان في البلد من يعلم أنه لا ينادي إلاّ عند الطلوع الذي به تصحّ الصلاة كابن أم مكتوم عند رسول الله ﷺ فإذا سمع المتسحر ذلك وجب عليه

الترك فقيل له: إن سمعته والإناء في يدك وأنت تشرب فلا تقطع شربك من الماء مع هذا التحقق حتى تقضي حاجتك منه كما قال حذيفة هو النهار إلاّ أن الشمس لم تطلع، فجعل الحكم لحال الوقت وهو الوجود، فكان الدفع أهون من الرفع، لأن المدفوع معدوم والذي تريد رفعه موجود حاكم بالفعل وهو أنك آكل أو شارب، فالحكم لهُ حتى يرتفع بنفسه، كذلك الاسم الحاكم في الوقت على العبد إذا طلبه اسم آخر لا حكم له عليه كان الأولى بالعبد أن لا ينفصل من هذا الاسم الإلهيّ حتى لا يبقى له حكم عليه يطالبه به، فإذا فرغ من حكمه تلقى بالأدب ذلك الاسم الإلهيّ الذي يطلبه أيضاً هكذا في الدنيا والآخرة، كشخص حكم عليه اسم التوّاب عن فعل تقابلت فيه الأسماء الإلهية في حال الذنب فقال المنتقم: أنا أولى به. وقال الراحم والغفار: أنا أولى به، فتقابلت الأسماء في حال العاصي أيّ اسم إلهي يحكم عليه وفيه فوجدوا التوّاب فتقوّى الاسم الراحم على المنتقم وقال: هذا نائبي في المحل فإنه لولا ما رحمته ما تاب، فدفع المنتقم عن طلبه وتسلمه الراحم وصار التوّاب يرجع به إلى ربه من طاعة إلى طاعة بعدما كان يرجع به من معصية أو كفر إلى طاعة، فهذا التائب ما ينعزل لأن التوبة قد لا تكون من ذنب بل يرجع إلى الله في كل حال في كل طاعة، فإن وجد في المحل الاسم الخاذل وهو حكمه في العبد في حال وقوع المخالفة منه فحينئذ يكون تقابل الأسماء المتقابلة أعظم وأشدّ فإن هذا الفعل يستدعيهما، وكان الخاذل بينه وبين هذه الأسماء مواظبة من حيث لا يشعر بما فعله كل واحد منهما فيقول الراحم: إن الخاذل دعاني فهو يساعدني على المنتقم، ويقول المنتقم: إنه دعاني فساعدني على الراحم فإذا أقبلا لا يريا منه مساعدة لأحدهما، فإن كان الخذلان كفراً جاء الاسم العدل الحكم ليحكم بين الاسمين المتقابلين الراحم وإخوانه والمنتقم وإخوانه فيقول: إن الله أمرني أن أحكم بينكما وهو قوله: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ [سورة الحجرات: الآية ٩] فيقول للطائفتين من الأسماء: ارقبوا هذا العبد إلى آخر نفس فإن فارق هذا الجسم وهو على كفره فليتسلمه المنتقم وتتأخر أنت عنه أيها الراحم وجماعتك، فيقول الراحم: سبقت الرحمة الغضب فأنا السابق فلا أتأخر، فيقول له العدل: إنما يعتبر السبق في انتهاء المدى والمدى بعدما انتهى فاترك المنتقم إلى أن يستوفي منه مقدار زمان المخالفة والخذلان فذلك انتهاء المدى، فإذا انتهى فلك تجديد المطالبة فيحكم الله عند ذلك بما يشاء، فإن بعثني حاكماً حكمت بما يعطيه علمي، وإن ولي المفضل أو المنتقم حكم أيضاً بحسب ما أذن له فيه فينفصلون على هذا الحدّ، وإن كان الخاذل في هذا المحل لم يعط كفراً وأعطى معصية ووقع هذا التقابل بين الأسماء فجاء الحكم العدل وكلّم كل واحدة من الطائفتين وسمع دعواهما وأن كل واحد منهما يدعي الحق له فيطلبهم بالبينة فيقول المنتقم: أي بينة أوضح من وقوع الفعل أما تراه سكران إن كان يشرب الخمر؟ أو سارقاً أو قاتلاً أو ما كان من أمور التعدّي، فيقول الحكم: هذه الأفعال وإن وقعت فهي موضع شبهة والحاكم لا يحكم إلاّ ببينة، فإن وقوع الشرب للخمر لا يؤذن بأنه ارتكب محرماً ربما غصّ بلقمة ربما هو مريض فما استعمل إلاّ ما يحل له استعماله، ربما قتل هذا قاتل أبيه أو أحداً ممّن هذا القاتل وليّه واعتدى

عليه بمثل ما اعتدى لا أعلم ذلك إلاَّ بدليل فصورته صورة مخذول ولكن بهذه الشبهة، فيقول خصمي: يسلم لي أن هذا متعدّ حدّ الله في شربه الخمر أو قتله أو ما كان من أفعال المعاصي في ذلك الحال، فيقول الراحم: نعم صدق إلاَّ أنّ لي في المحل سلطاناً قوياً يشدّ مني وهو معي على المنتقم، قال له الحاكم: ومن هو؟ قال الاسم المؤمن قد نزل عنده في دار الإيمان وهو قلبه فله الأمان، قال: فادعه فجاء فقال: أنت في هذا المحل عابر سبيل أو هو محلك وملكك؟ فيقول: هو محلي وملكي وما عارضني في ملكي صاحب هذا الفعل الذي هو العاصي فجزاه الله خيراً عني يستعملني في كل حال بما تعطيه حقيقتي وأنا محتاج إليه، فيقول للمنتقم: تأخّر عنه حتى نشاور الاسم المريد الذي هو الحاجب الأقرب إلى الله فإن له المشيئة في هذا العبد وفي هذا الحكم فلا يزال الأمر متوقفاً إلى انتهاء المدى وهو الأجل المسمّى الذي هو الموت، فإن مات على المخالفة تسلمه المريد، وإن تاب عند الموت تأخر المنتقم عنه بالكلية وتسلمه الراحم وأصحابه، فانتهاء المدى في العاصي إنما هو إلى زمن الموت وفي الكافر كما قرّرناه فاعلم ذلك. انتهى الجزء الثامن والخمسون.

(الجزء التاسع والخمسون)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل في فصل ـ صيام يوم الشك: خرّج الترمذيّ عن عمار بن ياسر قال: «**مَنْ صَامَ الْيَوْمَ الَّذِي شكّ فِيهِ فَقَدْ عَصَىٰ أَبَا الْقَاسِمِ**». قال: هذا حديث حسن صحيح. جمهور العلماء على النهي عن صيام يوم الشك على أنه من رمضان، واختلفوا في تحرّي صيامه تطوّعاً، فمنهم من كرهه. ومنهم من أجازه. وأمّا حديث عمار عندي فما هو نص ولا مرفوع إلى رسول الله ﷺ، بل هو يحتمل أن يكون عن نظر من عمار، ويحتمل أن يكون عن خبر عن النبيّ ﷺ. وقال بعضهم: إن صامه على أنه من رمضان ثم جاء الثبت أنه من رمضان أجزأه.

الاعتبار: لما كان الشك يتردّد بين أمرين من غير ترجيح أشبه حال العبد إذا كان الحق سمعه وبصره، فإن نظر الناظر إلى كون الحق سمعه قال: إنه حق، وإن نظر إلى إضافة السمع إلى العبد بالهاء من قوله سمعه قال: إنه عبد، وما ثم حالة ترجح أحد الناظرين على الآخر فيسقطان، وإذا سقطا بقيا بحكم الأصل والأصل هو وجود عبد ورب، هذا هو الأصل النظري والشرعي من وجه. وأمّا أصل الأصل المراعى قبل هذا الأصل بل الذي هذا الأصل فرع عنه فهو وجود رب في عين عبد فهذا هو أصل الأصول الكشفي الشرعي من وجه، فاعمل بحسب ما يتقوى عندك في ذلك وما هو مشربك فقف عنده حتى يتبين لك وجه الحق في المسألة فتكون عند ذلك من أهل الكشف والوجود.

وصل في فصل ـ حكم الإفطار في التطوّع: حكى بعضهم الإجماع على أنه ليس على من دخل في صيام تطوّع فأفطر لعذر قضاء، واختلفوا إذا قطعه لغير عذر عامداً، فمن قائل: عليه القضاء. ومن قائل: ليس عليه القضاء.

الاعتبار: إذا دخل في فعل بعبودية الاختيار فقد ألزم نفسه العبودية إذا رجع إلى أصله في ذلك الإلزام فحكمه حكم عبودية الاضطرار فيلزمه في التطوّع ما يلزمه في الواجب، ومن راعى كون الحق جعل هذا العبد مختاراً فقال: لا يرفع حكم الحق عني في هذا الفعل فإنه يؤدّي إلى منازعة الحق حيث يجعل الاختيار في موضع الاضطرار فيعامله معاملة الاختيار، فإن شاء قضى اختياراً أيضاً وإن شاء لم يقض، وفي هذه المسألة طول في الاعتبار يكفي هذا القدر منه في هذا الكتاب فإن التكليف يثبت عين العبد مضطرّاً كان أو مختاراً.

وصل في فصل ـ المتطوّع يفطر ناسياً: اختلف العلماء فيه، فطائفة قالت: عليه القضاء. وقالت طائفة أخرى: لا قضاء عليه. وبترك القضاء أقول للخبر الوارد فيه.

الاعتبار: الناسي هو التارك لما اختار بعدما اختار، فإن كان عن هوى نفس فالقضاء عليه، وإن كان عن شغل بمقام أو حال أو اسم إلهيّ فلا قضاء عليه، والقضاء هنا الحكم عليه بحسب ما تطوّع به.

وصل في فصل ـ صوم يوم عاشوراء: اختلفوا أيّ يوم هو من المحرّم، فقيل: العاشر وهو الصحيح وبه أقول. وقيل: التاسع.

الاعتبار: هنا حكم الاسم الأول والآخر، فمن أقيم في مقام أحدية ذاته صام العاشر فإنه أول آحاد العقد. ومن أقيم في مقام الاسم الآخر الإلهيّ صام اليوم التاسع فإنه آخر بسائط العدد. ولما كان الصوم أعني صوم عاشوراء مرغباً فيه وكان فرضه قبل فرض رمضان على الاختلاف في فرضيته صحّ له مقام الوجوب وكان حكمه حكم الواجب، فمن صامه حصل له قرب الواجب وقرب المندوب إليه فكان لصاحبه مشهدان وتجليان يعرفهما من ذاقهما من حيث إنه صام يوم عاشوراء.

وصل في فضل صوم يوم عاشوراء: ذكر مسلم عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ قال في صيام يوم عاشوراء: «**أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله**» فقامت حركة يومه في القوّة مقام قوىٰ أيام السنة كلها إذا عومل كل يوم بما يليق به من عبادة الصوم فحمل بقوّته عن الذي صامه جميع ما أجرم في السنة التي قبله فلا يؤاخذ بشيء ممّا اجترح فيها في رمضان وغيره من الأيام الفاضلة والليالي مع كون رمضان أفضل منه، وكذا يوم عرفة وليلة القدر ويوم الجمعة، فمثله مثل الإمام إذا صلّى بمن هو أفضل منه كابن عوف حين صلّى برسول الله ﷺ المقطوع بفضله فإنه يحمل سهو المأموم مع كونه أفضل، فلا يستبعد أن يحمل صوم يوم عاشوراء جرائم المجرم في أيام السنة كلها، ولو شاهدت الأمر أو كنت من أهل الكشف عرفت صحة ما قلناه وما أراده الشارع والعارف إذا قال: أحتسب على الله فما يقولها عن حسن ظنّ بالله وإنما هي لفظة أدب يستعملها مع الله مع أنه على علم من الله أنه يكفرها الله يقول الله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٢] وهو سبحانه يعلم ما يجريه في عباده ومع هذا جاء بلفظ الترجي، والمخلوق أولى بهذه الصفة فإنها له حقيقة لو لم يعلمه الله، فإذا أعلمه الله بقي على الأصل أدباً مع الله تعالىٰ، ألا تراه ﷺ مع قطعه بأنه يموت فإن الله يقول له: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ

وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٠] فكيف استثنى لما أتى البقيع ووقف على القبور وسلم عليهم قال: «**وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ**». فاستثنى في أمر مقطوع به، وسواء كان الاستثناء في الموت أو في الإيمان فإن كليهما مقطوع له بهما وذلك أدب إلهيّ فإن الله قال له: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٣] فلما أتى في قوله لاحقون باسم الفاعل استثنى امتثالاً لأمر الله تعالىٰ.

وصل في فصل ـ من صامه من غير تبييت: ذكر البخاري عن سلمة بن الأكوع قال: «**أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلاً مِنْ أَسْلَمَ أَنْ يُنَادِيَ فِي النَّاسِ: مَنْ كَانَ أَكَلَ فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ وَمن لَمْ يَكُنْ أَكَلَ فَلْيَصُمْ فَإِنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ**» فجعل حكمه حكم من لم يبيت صوم من شك في أول يوم من رمضان فأكل ثم ثبت أنه من رمضان فأمر بالإمساك والقضاء، وهذا حديث صحيح وقال: فليتم بقية يومه ولم يسمه صائماً، فيقوّي هذا الحديث حديث القضاء الذي ذكره أبو داود عن عبد الرحمن بن سلمة عن عمّه أن أسلم أتت النبيّ ﷺ فقال: «**صُمْتُمْ يَوْمَكُمْ هَذَا؟ قَالُوا: لاَ قَالَ: فَأَتِمُّوا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمْ وَاقْضُوهُ**» يعني يوم عاشوراء، وإن كان هذا الحديث لم يلحقوه بالصحيح فراعى حرمة اليوم لما لله فيه من السرّ الذي يرفع فضله على عباده، وظهر هنا فضل الإمساك عن الطعام والشراب وإن لم يكن صائماً وهو الجوع الذي تشير إليه الصوفية في كلامها وفيه أقول: [الوافر]

أجوعُ ولا أصومُ فإنَّ نفسي ... تُنازعني على أجْرِ الصِّيامِ
فلو فَنِيَتْ أجيرتُها لقلنا ... بإيجابِ الصِّيامِ وبالقيامِ
فإن العبدَ عبدُ الله ما لم ... يكُنْ في نفسه هدفٌ لرامي

ولما أمر بقضائه أكّد تشبيهه برمضان لا بالنذر المعين إذا فات يومه فإنه لا يقضى، وإن أمسك صاحبه بقية يومه إذا لم يبيت، ولما أمرنا بصيامه وحرّض في ذلك وكان قد أمرنا بمخالفة أهل الكتاب اليهود والنصارى وذلك فيما شرعوه لأنفسهم ممّا لم يأذن به الله وبدّلوا وغيّروا ولم يتميز عندنا ما شرّعوه لأنفسهم ممّا شرع لهم نبيهم فلذلك أمرنا بمخالفتهم إلاّ فيما قرّره النبيّ ﷺ لنا ممّا كان شرعاً لهم، فعلمناه على القطع مثل رجم الثيب وإقامة الصلاة لمن تذكر بعد نسيانه، فلما تعين علمنا به فإن الله تعالىٰ يقول في الأنبياء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠] وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [سورة الشورى: الآية ١٣] الآية. وقال عليه الصلاة والسلام: «**نَحْنُ أَوْلَىٰ بِمُوسَىٰ مِنْكُمْ**». فكنى بنحن عن نفسه وأمّته، فكنا أولى بموسىٰ من اليهود لأنهم لم يؤمنوا بكل ما أتى به موسىٰ، ولو آمنوا بكل ما أتى به موسىٰ لآمنوا بمحمد ﷺ وبكتابه، ونحن أمرنا بالإيمان به وبما أنزل عليه، ثم أخبر الحق عنّا بذلك وخبره صدق، فاستحال في أمّة محمد ﷺ أن يؤمن المؤمن منهم ببعض ويكفر ببعض، فهذه عناية إلهية حيث أخبر بعصمتنا من ذلك فهي بشرى لنا، قال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٥] وممّا جاء به موسىٰ صوم يوم عاشوراء فآمنا به وصمناه

عن أمر رسول الله ﷺ فرضاً بخلاف عندنا، كما صامه موسىٰ فرضاً، ثم أن الله فرض علينا رمضان وخيّرنا في صوم عاشوراء فنصومه من طريق الأولوية فنجمع بين أجر الفريضة فيه والنفل درجة زائدة على المؤمنين من قوم موسىٰ عليه السلام.

ولما أمرنا ﷺ بمخالفة اليهود أمرنا بأن نصوم يوماً قبل عاشوراء وهو التاسع ويوماً بعده وهو الحادي عشر فقال لنا ﷺ: «**صُومُوا يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَخَالِفُوا فِيهِ الْيَهُودَ صُومُوا قَبْلَهُ يَوْماً وَبَعْدَهُ يَوماً**» ولم يقل خالفوا موسىٰ فإن الله قد عصمنا من مخالفة الأنبياء بل أسقط الله عنّا بعض شرائعهم كما أسقط عنّا بعض ما شرعه لنا، ونحن مؤمنون بكل ناسخ ومنسوخ في كل شرع، ولا يلزم من الإيمان وجود العمل إلاّ أن يكون العمل مأموراً به، فبهذا القدر نخالف اليهود، ولهذا توهم علماؤنا أن عاشوراء هو التاسع من المحرّم لا غير، وقد روينا في ذلك ما يؤيّده ما قلناه من أنه اليوم العاشر، وهو أنا روينا من حديث أبي أحمد بن عديّ الجرجانيّ الذي رواه من حديث ابن حييّ عن داود بن عليّ عن أبيه عن جدّه أن النبيّ عليه السلام قال: «**لَئِنْ بَقِيتُ إِلَىٰ قَابِلٍ لأَصُومَنَّ يَوْماً قَبْلَهُ وَيَوْماً بَعْدَهُ**».

والحديث الثاني وهو ما رواه مسلم من حديث الحكم بن الأعرج قال: انْتَهيتُ إِلَىٰ ابنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ رِدَاءَهُ فِي زَمْزَمَ فَقُلْتُ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: إِذَا رَأَيْتَ يَا هَذَا هِلالَ المحرّم فَاعْدُدْ ثَمَاناً وَأَصْبِحْ الْيَوْمَ التَّاسِعَ صَائِماً، قُلْتُ: هَكَذَا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَصُومُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. يعني لو عاش إلى العام القابل، يؤيد ما قلناه ما رواه أيضاً مسلم عن ابن عباس قال: حِينَ صَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَومَ عَاشُورَاءَ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ قَالُوا: يَا رَسُول اللَّهِ إِنَّهُ يَومٌ تُعَظِّمُهُ اليَهُودُ والنَّصَارَى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا كَانَ فِي العَامِ المُقْبِلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ صُمْنَا اليَومَ التَّاسِعَ**»، قَالَ: فَلَمْ يَأْتِ العَامُ الْمُقْبِلُ حَتَىٰ تُوُفِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فما صام التاسع على أنه عاشوراء لو صامه وصام يوم عاشوراء بتحقيق يوم العاشر من المحرّم فلا ينبغي أن يقال التاسع هو عاشوراء مع وجود هذه الأخبار، وقد ذكرنا حكمة يوم التاسع والعاشر في الاسم الأول والاسم الآخر في هذا الفصل، وكذلك أيضاً أقول في صيام اليوم الذي بعد عاشوراء حتى يعلم التناسب فيما أشرنا إليه من ذلك فنقول أيضاً: إنه ملحق بالاسم الأول كعاشوراء في العاشر فإن العاشر أول العقد والحادي عشر أول تركيب الأعداد تركيب البسائط مع العقد، فانظر حكمة الشارع في أمره بصوم يوم قبله ويوم بعده متصلاً به حتى لا تقول اليهود أن صومه مقصود لنا فإنه يكره في الفرائض مثل هذا إلاّ أن يكون الإنسان على عمل يعمله فلا يبالي إلاّ إن وقع التحجير، وقد نهينا أن نقدم رمضان بيوم أو يومين قصداً، إلاّ أن يكون في صيام نصومه، ثم من الحكمة أن حرّم علينا صيام يوم الفطر حتى لا نصل صيام رمضان بصوم آخر تمييزاً لحق الفرض من النفل خلاف اعتبار يوم الجمعة، وسيأتي الكلام في صومه إن شاء الله تعالىٰ في هذا الباب.

وصل ـ في فضل صوم يوم عرفة: ورد في الحديث الثابت عن رسول الله ﷺ في صيام يوم عرفة: «**أحتسب عَلَى اللّه أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ**». خرّجه مسلم من

حديث أبي قتادة، فمن صام هذا اليوم فإنه أخذ بحظ وافر ممّا أعطى الله نبيه ﷺ في قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢] فلم يزل رسول الله ﷺ عمره كله في الحكم حكم الصائم يوم عرفة، وخصّه باسم عرفة لشرف لفظة المعرفة التي هي العلم، لأن المعرفة في اللسان الذي بعث به نبينا ﷺ تتعدّى إلى مفعول واحد فلها الأحدية فهي اسم شريف سمّى الله به العلم، فكأنّ المعرفة علم بالأحدية، والعلم قد يكون تعلقه بالأحدية وغيرها بخلاف لفظ المعرفة فقد تميز اللفظان بما وضعا له، وقد ينوب العلم مناب المعرفة في اللسان بالعمل، كذا ذكره النحاة واستشهدوا على ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠] تأويله لا تعرفونهم فعدوا العلم إلى مفعول واحد للنيابة والمعرفة ما لها حكم إلاّ في الأحدية، وذهلوا عمّا نعلمه نحن، فإن العلم أيضاً، إنما طلب الأحدية، ولهذا صحّ للمعرفة أن تكون من أسمائه لأن العمل هو الأصل، فإنه صفة الحق ليست المعرفة صفته ولا له منها اسم عندنا في الشرع وإن جمعها، والعلم حدّ واحد لكن المعرفة من أسماء العلم كما قلنا، والعارف من أسماء العالم فينا بالأحدية. وأما قولنا: إن العلم إنما هو موضوع للأحدية مثل المعرفة ولهذا سمينا العلم معرفة لأنا إذا قلنا علمت زيداً قائماً فلم يكن مطلوبنا زيداً لنفسه ولا مطلوبنا القيام لعينه، وإنما مطلوبنا نسبة قيام زيد وهو مطلوب واحد فإنها نسبة واحدة معينة، وعلمنا زيداً وحده بالمعرفة والقيام وحده بالمعرفة فنقول: عرفت زيداً وعرفت القيام، وهذا القدر غاب عن النحاة، وتخيّلوا أن تعلق العلم بنسبة القيام إلى زيد هو عين تعلقه بزيد والقيام وهذا غلط فإنه لو لم يكن زيد معلوماً له والقيام أيضاً معلوماً له قبل ذلك لما صحّ أن ينسب ما لا يعلمه إلى ما لا يعلمه لأنه لا يدري هل تصحّ تلك النسبة أم لا، وهذا النوع من العلم يسمّى عند أصحاب ميزان المعاني التصوّر وهو معرفة المفردات والتصديق وهو معرفة المركبات وهو نسبة مفرد إلى مفرد بطريق الإخبار بالواحد عن الآخر، وهو عند النحويين المبتدأ والخبر، وعند غيرهم الموضوع والمحمول، ثم نرجع إلى بابنا فنقول: فعلمنا شرف يوم عرفة من حيث اسمه لما وضع له من تعلقه بالأحدية إنما الله إله واحد، والأحدية أشرف صفة الواحد من جميع الصفات وهي سارية في كل موجود، ولولا أنها سارية في كل موجود ما صحّ أن نعرف أحدية الحق سبحانه، فما عرفه أحد إلاّ من نفسه، ولا كان على أحديته دليل سوى أحديته من عرف نفسه عرف ربه، هكذا قال ﷺ.
وقال أبو العتاهية: [المتقارب]

وفـــي كـــلِّ شـــيءٍ لـــه آيـــةٌ ... تـــدلُّ عـــلـــى أنـــه واحِـــدُ

والآية أحدية. كل شيء وهي التي يمتاز بها عن غيره من أمثاله، فالأحدية تسري في كل شيء من قديم وحادث ومعدوم وموجود، ولا يشعر بسريانها كل أحد لشدّة وضوحها وبيانها كالحياة عند أرباب الكشف والإيمان، فإنها سارية في كل شيء سواء ظهرت حياته كالحيوان أو بطنت حياته كالنبات والجماد، فالله حيّ بغير منازع، وما من شيء ممّا سوى الله إلاّ وهو يسبح الله بحمده ولا يسبحه إلاّ من يعلمه، ومن شرط العالم أن يكون حياً، فلا بدّ أن

يكون كل شيء حياً، ولما كانت الأحدية للمعرفة والأحدية لله تعالىٰ في ذاته رجحنا صوم يوم عرفة على فطره في غير عرفة، فإن كنّا في عرفة علمنا أن الصوم لله لا لنا، فرجحنا فطره على صومه لشهود عرفة فافهم، فالصوم لله حقيقة والأحدية له حقيقة، فوقعت المناسبة بين الصوم ويوم عرفة، فإن كل واحد لا مثل له، فإن صومه يفعل فيما بعده وليس ذلك لغيره في حق كل أحد ويفعل فيما قبله لأنه زماني فيتقيد بالقبلية وبالبعدية، والمقصود أن فعله عام كصفة الحق في إيجاد الممكنات عامّة لا تختص بممكن دون ممكن، وإن كان الأمر لله من قبل ومن بعد، فجاء مبنياً غير مضاف لعدم تقييده عزّ وجلّ بالقبل والبعد، فهذا الذي ليوم عرفة ليس لغيره من الأزمان فقد تميز على جنسه، وإن كان ثم أعمال هي أقوى منه في العمل ولكن ليست زمانية أي ما هي لعين الزمان غاية عاشوراء أن يكفر السنة التي قبله فتعلقه بالواقع، وعرفة تعلقه بالواقع، وغير الواقع فعاشوراء رافع وعرفة رافع ودافع، فجمع بين الرفع والدفع فناسب الحق فإن الحق يتعلق بالموجود حفظاً وبالمعدوم إيجاداً، فكثرت المناسبة بين يوم عرفة وبين الأسماء الإلهية فترجح صومه في غير عرفة وإن كان له هذا الحكم في عرفة إلاّ أن فطره أعلى في عرفة من صومه لما قلنا، وفي الحكم الظاهر للاتباع والاقتداء. قال في الاتباع: ﴿فَأَتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] وقال في الاقتداء: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١] وأفطر في هذا اليوم في عرفة، وإنما اختلف علماء الرسوم في صومه في عرفة لا في غيرها لمظنة المشقة فيها والضعف عن الدعاء غالباً، والدعاء في هذا اليوم هو المطلوب من الحاج، فإن أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة كالمسافر في رمضان في فطره، فمن العلماء من اختار الفطر فيه للحاج وصيامه لغير الحاج للجمع بين الأثرين.

وقد قدمنا في أوّل الفصل الخبر المروي الصحيح في صيامه فنذكر أن النبيّ ﷺ لم يصمه بعرفة رحمة بالناس الذين تدركهم المشقة في صيامه كذا توهم علماء الرسوم والأمر على ما قلناه، فإنه كان قادراً على صومه في نفسه وينهى أمّته عن صيامه بعرفة، ومثل هذا وقع في الشرع كنكاح الهبة فهو له خاصة وهو حرام على الأمّة بلا خلاف، وكالوصال وإن جاز فعلى كراهة. خرّج مسلم عن أم الفضل أن الناس تماروا عندها يوم عرفة في صيام رسول الله ﷺ فقال بعضهم: هو صائم، وقال بعضهم: ليس بصائم، فأرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره فشربه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٧] فالرحمة هنا عندنا أن أعلمهم أن الفطر في يوم عرفة في عرفة هي السنة، وعند علماء الرسوم طلب الرفق، والحجة لنا في قوله: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**» فمنها عدم الصوم في ذلك الموضع في ذلك اليوم، والأمر لا يتوقف في الأخذ به إذا ورد معرّى عمّا يخرجه عن الأخذ به.

وأمّا حديث النهي عن صيام يوم عرفة في عرفة ففي إسناده مهدي بن حرب الهجري وليس بمعروف خرّجه النسائي من حديثه عن أبي هريرة قال: «**نَهَىٰ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ صِيَامِ يَوم عَرَفَةَ بِعَرَفَةَ**» وأما حديث الترمذي عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَوْمُ عَرَفَةَ وَيَوْمُ النَّحْرِ وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ عِيدُنَا أَهْلَ الإِسْلامِ وَهِيَ أَيامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ**». قال أبو عيسىٰ: حديث

عقبة حديث حسن صحيح، فكأنه يشير بهذا القول إلى ما قلناه، ويشير إلى مقام المعرفة والعارف، فإن مقام المعرفة لا يعطي الصوم إذ يعرف العارف الصوم لمن هو، فكان يوم عيده يوم حصوله في هذا المقام، وأيام العيد أيام سرور، فأراد أن يسري السرور ظاهراً وباطناً في النفس الناطقة بترك الصوم وفي الحيوانية بالأكل والشرب، فجمع بين السرورين ولم يتعرض لتحريم الصوم في هذا الحديث ولكن قرنه بالصوم المحرم وهو يوم النحر وبالصوم المكروه وهو صوم أيام التشريق، وأنه ﷺ رجح الأكل والشرب فيه في الظاهر، ولم يتعرّض للنهي عن ذلك، وحرّمنا صيام يوم عيد الأضحى بخبر غير هذا سأورده إن شاء الله. ثم قوله ﷺ في هذا الخبر أهل الإسلام ولم يقل أهل الإيمان دلّ على مراعاة الظاهر هنا، ولهذا قلنا: إنه راعى النفس الحيوانية التي سرورها بالأكل والشرب في يوم عيدها فاعلم ذلك.

وصل - في فضل صيام الستة من شوّال: قد تقدّم ذكر الخلاف في وقتها، وفي هذا الخبر عندي نظر لكون رسول الله ﷺ لم يثبت الهاء في العدد أعني في الستة فقال: وأتبعه ستاً من شوّال وهو عربي والأيام مذكرة والصوم لا يكون إلاّ في اليوم وهو النهار فلا بدّ من إثبات الهاء فيه، فهذا سبب كون الحديث منكر المتن مع صحة طريق الخبر، فيترجح عندي أنه اعتبر في ذلك الوصال، فوصل صوم النهار بصوم الليل والليلة مقدّمة على النهار لأن النهار مسلوخ منها، أو تكون لغة شاذة تكلم بها رسول الله ﷺ في مجلس كان فيه من هذه لغته، ومع هذا فمن استطاع الوصال في هذه الأيام الستة فهو أولى عملاً، فظاهر لفظ الخبر والوصال لم يقع النهي عنه نهي تحريم، وإنما راعى الشفقة والرحمة في ذلك بظاهر الناس لئلا يتكلفوا الحرج والمشقة في ذلك، ولو كان حراماً ما واصل بهم ﷺ، وقد ورد أنه ﷺ قال: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ وَقَالَ: مَنْ يُشَادَّ هَذَا الدِّينَ يَغْلِبْهُ**». وخرّج مسلم عن أنس بن مالك: واصل رسول الله ﷺ في آخر شهر رمضان فواصل ناس من المسلمين فبلغه ذلك فقال: لو مدّ لنا الشهر لواصلنا وصالاً يدع المتعمقون تعمّقهم فمن لم يقدر أن يواصلها كلها فليواصل حتى السحر في كل يوم فتدخل الليلة في الصوم كل ليلة ويكون حدّ السحر لفطرها، فحدّ الغروب للنهار في حق من لا يواصل في الصحيح أنه عليه السلام قال: «**أَيُّكُمْ أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ حَتَىٰ السَّحَرِ**». خرّجه البخاري عن أبي سعيد.

وممّا يؤيّد قولنا أنه أراد الرحمة بالناس في ذلك ما خرّجه مسلم أيضاً عن عائشة قالت: نَهَاهُمُ النبيّ ﷺ عَنْ الوِصَالِ رَحْمَةً لَهُمْ قَالُوا: إِنَّكَ تُوَاصِلُ، قَالَ: «**إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي**». فكوشف ﷺ بحال تلك الجماعة التي خاطبهم أنهم ليست لهم هذه الحال وأنه ما أراد بذلك أنه مختص به دون أمته، فإنا قد وجدناه ذوقاً من نفوسنا في وصالنا فبتنا في حال الوصال، فأطعمنا ربنا وسقانا في مبيتنا ليلة وصالنا، فأصبحنا أقوياء لا نشتهي طعاماً ورائحة الطعام الذي أكلناه الذي أطعمناه ربنا يشم منا ويتعجبون الناس من حسن رائحته، فسألونا من أين لك هذه الرائحة في هذا الذي طعمت فما رأينا مثلها، فمنهم من أخبرته بالحال، ومنهم من سكت عنه، فلو كان هذا خصوصاً برسول الله ﷺ ما نلناه، فصحّ

لنا الوصال والفطر، فجمع لنا بين الأجرين والفرحتين، وحكمة الوصال أن الحق قال: الصوم له وأمرنا بما هو له وجعله عبادة لا مثل لها، فإذا فرّق بالفطر بين اليومين فما واصل، فإذا لم يفطر تحقق الوصال، فيشير بذلك إلى إيصال صوم العبد بالصوم المضاف إلى الحق ليبين له أن للعبد ضرباً من التنزيه بالصوم كما أن للحق من الصوم التنزيه فهو إشعار حسن للعارفين، وكذا هو في نفس الأمر، فإن العبد له تنزيه يخصّه ولا سيما إذا كان عمله تنزيه الحق فإن عمله يعود عليه وهو التنزيه، فإن تنزيه الحق ما هو بتنزيه المنزّه بل هو تعالىٰ منزّه الذات لنفسه ما نحن نزّهناه، فلذلك يعود تنزيهنا علينا حين حرمه غيرنا، فمن قدر على الوصال في هذه الستة الأيام فهو أحق وأولى، فإن وجد أحد نقلاً عن العرب في اللسان حذف الهاء في عدد المذكر حمل الحديث على تلك اللغة.

ولقد روينا أن الله حين أنزل على نبيه ﷺ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [سورة نوح: الآية ٢٢] لم يعرف هذا اللحن الحاضرون ولا عرفوا معناه، فبينما هم كذلك إذ أتى أعرابي قد أقبل غريباً فدخل على رسول الله ﷺ فسلم عليه وقال: يا محمد إني رجل من كبار قومي بضم الكاف وتشديد الباء، فعلم الحاضرون أن هذه اللفظة نزلت بلحن ذلك العربي وأصحابه فعلموا معناها، فما يبعد أن يكون حذف الهاء جائزاً في عدد المذكر في لغة بعض الأعراب، ولو كان ذلك لم يقدح فيما ذهبنا إليه من الحقائق المشهودة لنا، فيكون الشارع العالم يقصد الأمرين معاً في هذه اللفظة في حق من هي لغته وفي حق من ليست له بلغة وجعلها ستاً ولم يجعلها أكثر ولا أقل، وبين أن ذلك صوم الدهر لقول الله تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٠] على هذا أكثر العلماء بالله، وهذا فيه حدّ مخصوص وهو أن يكون عدد رمضان ثلاثين يوماً، فإن نقص نزل عن هذه الدرجة، وعندنا أنه يجبر بهذه الستة من صيام الدهر ما نقصه بالفطر في الأيام المحرّم صومها وهي ستة أيام: يوم الفطر ويوم النحر وثلاثة أيام التشريق ويوم السادس عشر من شعبان، يجبر بهذه الستة الأيام ما نقص بأيام تحريم الصوم فيها، والاعتبار الآخر وهو المعتمد عليه في صوم هذه الأيام من كونها ستة لا غير: أن الله تعالىٰ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤] وكنا نحن المقصود بذلك الخلق، فأظهر في هذه الستة الأيام من أجلنا ما أظهر من المخلوقات كما ورد في الخبر، فكان سبحانه لنا في تلك الأيام فجعل لنا صوم هذه الستة الأيام في مقابلة تلك لأن نكون فيه متصفين بما هو له وهو الصوم كما اتصف هو بما هو لنا وهو الخلق.

ولهذا كان أحمد السبتي ابن أمير المؤمنين هارون الرشيد يصوم ستة أيام من كل جمعة ويشتغل بالعبادة فيها فإذا كان يوم السبت احترف فيما يأكله بقية الأسبوع وبهذا سمي السبتي، فلقيته بالطواف يوم جمعة بعد الصلاة وأنا أطوف فلم أعرفه غير أني أنكرته وأنكرت حالته في الطواف فإني ما رأيته يزاحم ولا يزاحم ويخترق الرجلين ولا يفصل بينهما، فقلت: هذا روح تجسد بلا شك فمسكته وسلمت عليه فردّ عليّ السلام وماشيته ووقع بيني وبينه كلام ومفاوضة فكان منها أني قلت: لم خصصت يوم السبت بعمل الحرفة؟ فقال: لأن الله سبحانه ابتدأ خلقنا

يوم الأحد وانتهى الفراغ منه في يوم الجمعة فجعلت تلك الأيام لي عبادة لله تعالىٰ لا أشتغل فيها بما فيه حظ لنفسي، فإذا كان يوم السبت انفردت لحظ نفسي فاحترفت في طلب ما أتقوّت به في تلك الأيام هكذا كل جمعة، فإنه سبحانه نظر إلى ما خلق في يوم السبت فاستلقى ووضع إحدى يديه على الأخرى وقال: أنا الملك لظهور الملك ولهذا سمّي يوم السبت والسبت الراحة ولهذا أخبر تعالىٰ أنه ما مسَّه من لغوب فيما خلقه، واللغوب الإعياء فهي راحة لا عن إعياء كما هي في حقّنا فتعجبت من فطنته وقصده، فسألته من كان قطب الزمان في وقتك؟ فقال: أنا ثم ودعني وانصرف، فلما جئت المكان الذي أقعد فيه للناس فقال لي رجل من أصحابي من المجاورين يقال له نبيل بن خزر بن خزرون السبتي من أهل سبتة: إني رأيت رجلاً غريباً لا نعرفه بمكة يكلمك ويحادثك في الطواف من كان ومن أين جاء؟ فذكرت له قصته فتعجب الحاضرون من ذلك، فهذا اعتبار الستة الأيام من الوجه الصحيح، وإنما حذف الهاء الشارع إن صحّت الرواية لاعتبار الليالي لأنها دلائل الغيب بخلاف النهار والغيب ممّا انفرد به الحق فلا يطلع على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول. وكذلك علم الحكمة في الأشياء لا يكون علماً إلاّ لأهل الله، وأما أهل الفكر والقياس فإنهم يصادفون الحكمة بحكم الاتفاق فلا يكون علماً عندهم وعند أهل العلم بالله يعلمون أن ذلك هو المراد بذلك الأمر فيكون علماً لهم بذلك الاعتبار فيقصدونه لا بحكم الاتفاق، فإن بعض الناس إذا رأى كرم أهل الله في مثل هذا يقولون باحتماله لا يقطعون به حملاً على نفوسهم ورتبتهم في العلم وهو قول الله تعالىٰ في حق من هذه حالته ذلك مبلغهم من العلم، فاعلم بذلك والله الموفق للصواب.

وصل - في فضل غرر الشهر وهي الثلاثة الأيام في أوّله: خرّج مسلم عن معاذة أنها سألت عائشة: «أَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَقُلْتُ لَهَا: مِنْ أَيِّ أَيَّامِ الشَّهْرِ كَانَ يَصُومُ؟ قَالَتْ: لَمْ يَكُنْ يُبَالِي مِنْ أَيِّ أَيَّامِ الشَّهْرِ يَصُومُ».

اعلم أن كل شهر يرد على الإنسان إنما هو ضيف ورد عليه من جانب الحق، فوجب على الإنسان القيام بحقّه المسمّى ضيافة وهو الضيف، وحق الضيف ثلاثة أيام، فلهذا شرع الشارع في الشرع المندوب إليه ثلاثة أيام من كل شهر، ورغبنا في أوله فقلنا: نصوم ذلك في الثلاث الغرر منه لأن الشرع ورد بتعجيل الطعام للضيف فقال: العجلة من الشيطان إلاّ في ثلاث فذكر منها إطعام الضيف، وكان رسول الله ﷺ يصوم ثلاثة أيام من غرّة كل شهر، خرّجه النسائي عن ابن مسعود. والصيام صفة للحق واختصه من جميع الأعمال لنفسه وهو عمل مختص بهذه النشأة لا يكون ذلك لملك فلا يشهده سبحانه ملك مقرّب في مشهد صوميّ، ولا يتجلى له سبحانه في مشهد صومي أبداً، فإنه من خصائص هذه النشأة، وكانت هذه الضيافة ثلاثة أيام لكل شهر لأنه وارد من الحق وراجع إليه سبحانه حامداً له في تلقيه إياه أو ذا ماله بحسب ما يتلقاه العبد به، فأحسن ما يتلقاه به ما هو صفة إلهية وهو الصوم ولله تعالىٰ ثلاثمائة خلق، كذا ورد عنه ﷺ، والثلاثة من الثلاثمائة عشر العشر فإنّ عشر الثلاثمائة

ثلاثون وهو الشهر، وعشر الثلاثين ثلاثة فهي عشر العشر، فهو قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٠] فيقبل الحق تلك الثلاثة ثلاثين فيجازيه بالثلاثين ثلاثمائة خلق فإنه قال: ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فكأنه صام الشهر كله، فلذلك جوزي بالثلاثمائة إذ كانت الثلاثون قبلت عملاً لا جزاء، فإنها مثل الحسنة والحسنة عمل، والمثلان هما اللذان يشتركان في صفات النفس.

فانظر في حكمة الشارع ما ألطفها وأحسنها في ترغيبه إيانا في صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وما نبّه عموم الخلق على عين الجزاء فإن حصول الجزاء إذا جاء فجأة من غير أن يعرف سببه ولا ينتظر كان ألذ في نفس العامّة، والصيام خلق إلهي فكان جزاؤه من جنسه وهي الثلاثمائة خلق إلهيّ يتصف بها الصائم هذه الثلاثة الأيام كما اتصف بالصيام وهو وصف إلهي، والعاميّ الذي لم يصم على هذا الحدّ يكون جزاؤه من كونه لم يأكل ولم يشرب فيقال له كل يا من لم يأكل واشرب يا من لم يشرب. قال تعالىٰ: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [سورة الحاقة: الآية ٢٤]، يعني أيام الصوم في زمان التكليف، وأهل الله الذين يصومون هذه الثلاثة الأيام، وأيّ صوم كان على استحضار ما ذكرناه من أنه يتلبس بوصف إلهيّ يكون جزاؤه من هذه صفته قوله: ﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ [سورة يوسف: الآية ٧٥] ولما لم تكن هذه الصفة عملاً للملك لم يحضر مع الصائم في حضرة لهذا التجلي فلا يعرف هذا المجلي ذوقاً ذاتياً والإنسان يشهده تعالىٰ إذا كان من أهل العلم بالله الكامل في جميع ما يشهده فيه الملك، كان الملك في أيّ مقام كان، ومع هذا فلا يدل على أن الإنسان أعظم عند الله من الملك، فالإنسان أكمل نشأة، والملك أكمل منزلة، كذا قال لي رسول الله ﷺ في مشهد واقعة أبصرته ﷺ فيه فسألته، لكن الإنسان أجمع بالذوق من الملك لأجل جمعيته، وبعض الناس يغلط في هذا المقام من أجل تشكل الروحاني في أي صورة شاء، وما علم أن التكحل في العينين ليس كالكحل، فالإنسان الكامل لا الإنسان الحيواني أكمل نشأة للحقائق التي أنشىء عليها حقائق الأسماء الإلهية وحقائق العالم وهو الذي أنشأه الله على الصورة فهو بجمعيته حق كله فالحق مجلاه إذ كان له الكمال، فيراه بكل عين ويشهده في كل صورة، ولا يدل هذا على أنه أفضل عند الله فإن هذا كان لجمعيته، فلا يقال في الشيء إنه أفضل من نفسه وإنما تقع الفضيلة بين الغيرين، ولا غير فإن الملك جزء من الإنسان، والجزء من الكل، وللكل من الجزء ما ليس للجزء من الكل، والمثلان لا يتفاضلان فيما هما مثلان فيه، فإن تفاضلا فما هما مثلان، ولنا في ذلك من قصيدة في واقعة عجيبة وقد نوديت ممسوك الدار: [الطويل]

مَسَكْتُكَ في داري لإظهار صورتي ... فسبحانكم مَجْلًى وسبحانَ سبحانا
فما أبصرتْ عيناك مثليَ كاملاً ... ولا أبصرتْ عيني كمثلك إنسانا
فلم يبقَ في الإمكان أكملُ منكُمُو ... نَصَبْتَ على هذا من الشرع بُرْهانا
فأيّ كمال كان لم يك غيرَكُم ... على كل وجه كان ذلك ما كانا

ظهرت إلى خلقي بصورة آدم ... وقرَّرتُ هذا في الشرائع إيمانا
وسمَّيْتُه لما تجلى بصورتي ... إلى ناظري حقاً وإن كان إنسانا
فقل فيه ما تهواه إن شئت إنه ... لَيَقْبَلُه عيناً وإن كان أكوانا
فلو كان في الإمكان أكملُ منكُمُو ... لكان وجودُ النَّقْص فيَّ إذا كانا
لأنك مخصوصٌ بصورة حضرتي ... وأكمل منها ما يكون فقد بانا
فمَاثِلْ وجودي فالتَّقَابُلُ حاصلٌ ... فزن ذاتكم إني وضعتك ميزانا
تَجِدْ علمَ ما قد قلتُ فيكَ مسطراً ... ولا أحداً أوجَدْتُه منك ريَّانا
ظَهَرْتَ لنا مُجْلًى فعاينتُ صورتي ... وعاينتُ فيكَ الكونَ رمزاً وتبيانا
وسارَرْتُكم لما رأيتُ سِرَارَكَم ... وأعلنتُ قولي إذ تجلَّيْتُ إحسانا
وما أنت ذاتي لا ولا أنا ذاتكم ... فإن كنتَ لي عيناً فلا تُبْدِهِ الآنا
فأَخْسَرُنا من كان يعلن سرَّه ... وأربَحُنا من كان يخفيه كِتْمانا
فمن كان ذا كَتْم لسرِّي وغَيْرةٍ ... سيلقى غداً روحاً لديَّ وريحانا
إذا كنتَ لي عيناً أكون لكم يداً ... وأُظْهركم بالحال سرّاً وإعلانا
وصيَّرتُ قلبي للتجلِّي منصَّةً ... ومهَّدْتُه حباً لخيلك مَيْدانا
وأملأته من كل شهم غَشَمْشَم ... لدعواك فرساناً تجول وركبانا
وجئتك بالأسما يقدّم جمعها ... مِنَ أسمائه الحسنى خبيراً ومِحْسَانا
وأنزلتُها تبغي الفنا بفنائكم ... وأرسلتها عيناً معيناً وطوفانا
وهبتك يا عبدي مِنَ اسماء ذاتكم ... ملابسَ أعيادٍ ضروباً وألوانا
فإن كنتَ لي بي كنتَ أنت ولا تقل ... أنا أنت بل كُنْ في الخليقة رَحْمَانا

فتحقق أيّدك الله ما أشرنا إليه في صيام ما ذكرناه من الثلاثة الأيام من كل شهر فهي في حقنا على حدّ ما ذكرناه، وتقبل هذه الثلاثة الأيام في حق العامّة زكاة ذلك الشهر، وفي مجموع السنة زكاة تلك السنة، وهي ستة وثلاثون يوماً، فهي مثل العشر في زكاة الحبوب، فإن العامّة مع النفس التي تطلب الغذاء وهي النفس النباتية لا الحيوانية، فإن الحيوان ما يطلب الغذاء من كونه حياً وإنما يطلبه من كونه نباتاً فلا تخلط بين الحقائق، ولهذا جوّزوا من حيث امتنعوا في زمان الصوم من استعمال ما ينمون به وهو الغذاء، ورحمهم الله تعالىٰ بالسحور عوضاً من أكل النهار، فما نقص الصائم من غذائه شيء إذا تسحّر ورغب الله في أكلة السحور وسمّاه غذاء حتى لا يكون للنفس النباتية مقال يطلبه حق من الله، فإن ترك العبد السحور تعيّن عليه من النفس طلب حقّها، ومن الله الذي أمره بإيصال حقّها إليها، فإن المكلف مأمور أن يؤدّي إلى كل ذي حق حقه، وكما فرقنا بيننا وبين أهل الكتاب في أكلة السحور، وكان الاعتبار في سحورنا غير ما تعتبره العامّة، لذلك كان صومنا يخالف صومهم من هذه الجهة، فنحن مشاركون لهم فيما تطلبه النفس النباتية منا ومنهم وهم لا يشاركوننا فيما يختص بالنفس الناطقة التي هي العقل من إيصال الحق إلى مستحقه فإن لنفسك عليك حقاً، وهو أشدّ حقوق

الأكوان بعد حق الله عليك، لأن خصمك بين جنبيك، وما من حق لكون من الأكوان على أحد إلاَّ ولله فيه حق على ذلك الكون فاحفظ نفسك، فإذا كان غداً في موطن الجزاء والتجلي ظهر الفرق بين الفرق والتفاضل، فكم بين نفس تحشر بنعوت إلهية وبين نفس محرومة من ذلك فتصرف قيمتها يوم القيامة إلى ما كانت صرفتها في الدنيا من الانكباب على ما تطلبه هذه النشأة الطبيعية من الاتساع فيما هو فوق الحاجة، فلا فرق بينه وبين سائر الحيوانات، وهذا هو الإنسان الحيوان، وربما أكثر الحيوان إذا اكتفى ما له همّة في المستأنف.

والإنسان ليس كذلك لا يزال مهموماً ومنهوماً في الحال والاستقبال فيجمع ولا يشبع لأنــه ﴿خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [سورة المعارج: الآية ١٩ ـ ٢٣] وهم المتأخرون عن هذه الصفة التي جبلوا عليها، فإن المصلي هو المتأخر عن السابق في الحلبة فهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [سورة المعارج: الآية ٢٢] هنا في الاعتبار، وقد يكون تفسيراً للآية فإنه سائغ، ولكن حمله على الإشارة أعصم، فنفوس العامّة التي هي بهذه المثابة محجوبة في الدنيا والآخرة ليرتفع عنهم الألم كما ارتفع هنا، وكذلك أهل الله، فكما هم الخلق في الدنيا كذلك يكونون غداً يوم القيامة، ولولا حشر الأجسام في الآخرة لقامت بنفوس الزهاد والعارفين في الآخرة حسرة الفوت ولتعذبوا لو كان الاقتصار على الجنات المعنوية لا الحسيّة، فخلق الله في الآخرة جنة حسيّة وجنة معنوية، وأباح لهم في الجنة الحسيّة ما تشتهي أنفسهم ورفع عنهم ألم الحاجات، فشهواتهم كالإرادة من الحق إذا تعلقت بالمراد تكون، فما أكل أهل السعادة لدفع ألم الجوع ولا شربوا لدفع ألم العطش، ولما اشتغلوا هنا بالله من حيث ما كلفهم، فهم يجرون في الأمور بالميزان الذي حدّ لهم خائفين من أن يطففوا أو يخسروا الميزان، جعل لهم سبحانه الاشتغال في الآخرة بالجنة الحسيّة لأجسامهم الطبيعية ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [سورة النبأ: الآية ٢٦] قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾[سورة يس: الآية ٥٥].

والعارفون وغير العارفين في هذه الصورة الحسيّة على السواء، ويفوز العارفون بما يزيدون عليهم بجنات المعاني، فجنى الجنتين للعارفين دان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ١٣] ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فهذا الاشتغال منع العامّة وعلماء الرسوم في الدنيا والآخرة وأهل الله معهم من حيث نفوسهم النباتية والحيوانية في هذا الشغل وهم مع الله من ذلك الوجه الآخر، فكما أنه ما حجبهم في الدنيا ما هم عليه من الحاجة إلى الغذاء مع قوّة سلطانه في الدنيا لدفع آلام الجوع والعطش والإحساس بأنواع الأشياء المؤلمة، كذلك لا يحجبهم في الآخرة نعيم الجنان المحسوس عن الله في الاتصاف بأسمائه التي تليق بالدار الآخرة، لأن لها أسماء إلهية لا يعلمها اليوم أحد أصلاً، فإن الأسماء الإلهية إنما يظهرها مواطنها، يقول النبيّ ﷺ: «**فَأَحمدُهُ بِمَحَامِدَ لاَ أَعْلَمُهَا الآنَ**» فإن الموطن يعين الأسماء فإنه عن آثارها، ولكن هذا الذي نذكره من النعيم الذي لا حسرة فيه إنما يكون في الجنة لا في القيامة، فإن يوم القيامة يوم التغابن للكل، فالسعيد يقول: يا ويلتا ليتني زدت، والشقيّ

يقول: ﴿يَحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٥٦] ولهذا سمّي يوم الحسرة لإظهاره مثل هذا لأنه من حسرت الثوب عني فظهر ما تحته أي أزلته.

وصل في فصل ـ من جعل الثلاثة الأيام من كل شهر صوم أيام الثلاثة البيض: خرّج النسائيّ من حديث جابر بن عبد الله عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**صِيَامُ ثَلاثَةِ أيام مِنْ كُلِّ شَهر صيامُ الدَّهْرِ أيامُ البِيضِ ثَلاثُ عَشرة وأربع عشرة وخمس عشرة**». فهذا ظهورٌ حق في خلق وهو ظهور الشمس لا عينا في القمر لليالي إبداره وهي الليالي البيض، وأيامها تسمى الأيام البيض، لأن الليل من أوّله إلى آخره لا يزال فيها منوّراً، فجعل لياليها أياماً لإزالة ظلمة الليل وطلوع الشمس بوساطة القمر مكملاً فجعلها شهادة وكانت غيباً يستتر فيها كل شيء فصار يظهر فيها كل ما كان مستوراً بظلمة الليل، فالنهار وإن كان ولد الليل فهو من أعدائه لأنه ينفره أبداً، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٤]:

[مجزوء الرجز]

يا حَذَري من حَذَري ... لو كان يُغني حَذَري

فالنهار ولد عاق لا يزال يطرد أباه ويهججه ليلاً ونهاراً على قدر ما يقدر عليه، فظهور الشمس في مرآة القمر ظهور حق في خلق لأن النور اسم من أسماء الله تعالىٰ فظهر باسمه النور في ظهور القمر، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ فهو مجلّى لنور الشمس ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [سورة نوح: الآية ١٦] فإن النور الحق هو سبحانه، فإنه الممدّ بالنورية لكل منوّر، والسراج نور ممدود بالدهن الذي يعطيه بقاء الإضاءة عليه ولهذا جعل الشمس سراجاً، وكذلك جعل نبيه ﷺ سراجاً منيراً لأنه يمدّه بنور الوحي الإلهيّ في دعائه إلى الله عباده. ومن شرط من يدعي الإجابة إلى ذلك وجعله بإلى في قوله إلى الله وهو حرف غاية وهو انتهاء المطلوب، فتضمّنت حرف إلى أن المدعوّ لا بدّ أن يكون له سعي من نفسه إلى الله، فإن مشى في الظلمة فإنه لا يبصر مواقع الهلكة في الطريق، فتحول بينه وبين الوصول إلى الله الذي دعاه إليه بحفرة يقع فيها وبئر يتردّى فيها أو شجرة أو حائط يضرب في وجهه فيصرفه عن مطلوبه أو الطريق الموصلة إليه يضل عنها لعدم التمييز في الطرق، فإنّ هذه كلها كالشبه المضلّة للإنسان في نظره إذا أراد القرب من الله بالعلم من حيث عقله، وافتقر إلى نور يكشف به ما يصدّه عن مطلوبه ويحرمه الوصول إليه لما دعاه، فجعل الحق شرعه سراجاً منيراً يتبين لذلك المدعوّ بالسراج الطريق الموصلة إلى من دعاه إليه فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٥] أي بأمره لم يكن ذلك من نفسك ولا من عقلك ونظرك ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٦] أي يظهر به للمدعوّ ما يمنعه من الوصول فيجتنبه على بصيرة كما قال: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] فجعل لنا سهماً ممّا وصفه به الحق من صفة السراج المنير فهو نور ممدود بإمداد إلهيّ لا بإمداد عقليّ.

ثم إن الحق سبحانه لما كان من أسمائه تعالىٰ الدهر كما ورد في الصحيح: «**لا تَسُبُّوا**

الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ». فأمر بتنزيه الزمان من حيث ما سمي دهراً لكون الدهر إسماً من أسماء الله تعالىٰ، فصار لفظ الدهر من الألفاظ المشتركة، كما ننزّه الحروف أعني حروف المعجم من حيث إنها كتب بها كلام الله تعالىٰ وعظمناها فقال: فأجره حتى يسمع كلام الله، ونهانا أن نسافر بالمصحف إلى أرض العدو، وما سمع السامع إلاّ أصواتاً وحروفاً فلما جعلها كلامه أوجب علينا تنزيهها وتقديسها وتعظيمها فقال النبيّ ﷺ مخبراً لنا: «**أنّ صيام الأيام البيض صيام الدهر**» من باب الإشارة ما هو صيامكم. فأضاف الصوم إلى الدهر وهو قوله تعالىٰ: الصوم لي.

ولما جعله صيام الدهر وأنت الصائم في هذه الأيام كان الدهر كمثل الشمس في ظهورها في القمر، وكان القمر كالإنسان الصائم، وكان نور القمر كالصوم المضاف إلى الإنسان إذ كان هو محل وهو مجلي الدهر تعالىٰ، فهو صوم حق في صورة خلق كما قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فالقائل الله والسماع متعلق بلفظ العبد فهو نطق إلهيّ في خلق، فهو قول الله في هذه الحال لا قول العبد، فالسمع على الحقيقة إنما تعلق بكلام الله على لسان العبد الذي هو مجرى الحروف المقطعة، فينبغي للناصح نفسه أن يصوم الغرر من أول كل شهر على نية ما ذكرناه لك من الاعتبار، ويصوم الأيام البيض على هذا الاعتبار الآخر وهو صوم النيابة عن الحق، فلك جزاء الحق لا الجزاء الذي يليق بك، وكل شيء له فما ثم من يقوم مقامه أن يكون جزاء له، وكذلك هذا الصائم بهذا الحضور فإنه في عبادة لا مثل لها بنيابة إلهية ومجلى اسم إلهيّ يقال له الدهر فله كل شيء، كما كان الدهر ظرف كل شيء، فلا جزاء لهذا الصائم غير من ناب عنه إذ كان مجلاه ولهذا قال: وأنا أجزي به معناه أنا جزاؤه بسبب كونه صائماً بحق شهوديّ مشهود له ما هو للحق لا للعبد، فقد عرفتك كيف تصوم الأيام البيض وما تحضره في نفسك عندما تريد أن تشرع فيها وهي صفة كمال العبد في الأخذ عن الله، كما كان القمر في هذه الأيام موصوفاً بالكمال في أخذه النور من الشمس من الاسم الظاهر للخلق، فإن له أيضاً كمالاً آخر في الوجه الآخر منه من الاسم الباطن ليلة السرار وهو مجلّى في تلك الليلة من غير إمداد يرجع إلى الخلق، بل هو في السرار بما يخصّه من حيث ذاته خالص له، وهو الذي أشرنا إليه في صوم سرر الشهر المأمور به شرعاً وقد تقدّم.

فاجعل بالك لما فتحناه إلى عين فهمك عناية من الله بك من حيث لا تشعر، ولا يحجبنك عن هذا العلم الغريب الذي بيّناه لك الرؤيا الشيطانية التي رؤيت في حق أبي حامد الغزاليّ فحكاها علماء الرسوم وذهلوا عن أمر الله تعالىٰ سبحانه لنبيه في قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] لم يقل عملاً ولا حالاً ولا شيئاً سوى العلم، أتراه أمره بأن يطلب الحجاب عن الله والبعد منه والصفة الناقصة عن درجة الكمال؟ أتراه في قوله: ضرب بيده يعني ضربة الحق إياه فعلمت في تلك الضربة علم الأولين والآخرين لأي شيء لم يذكر العمل ولا الحال؟ فحكى أصحاب الرسوم عن شخص سمّوه وهو أنه رأى أبا حامد الغزالي في النوم فقال له أو سأله عن حاله فقال له: لولا هذا العلم الغريب لكنا على خير كثير، فتأولها علماء

الرسوم على ما كان عليه أبو حامد من علم هذا الطريق وقصد إبليس بهذا التأويل الذي زيّن لهم أن يعرضوا عن هذا العلم فيحرموا هذه الدرجات، هذا إذا لم يكن لإبليس مدخل في الرؤيا وكانت الرؤيا ملكية، وإذا كانت الرؤيا من الله والرائي في غير موطن الحسّ والمرئي ميت فهو عند الحق لا في موطن الحسّ، والعلم الذي كان يحرّض عليه أبو حامد وأمثاله في أسرار العبادات وغيرها ما هو غريب عن ذلك الموطن الذي الإنسان فيه بعد الموت بل تلك حضرته وذلك محله، فلم يبق العلم الغريب على ذلك الموطن إلاّ العلم الذي كان يشتغل به في الدنيا من علم الطلاق والنكاح والمبايعات والمزارعة وعلوم الأحكام التي تتعلق بالدنيا ليس لها إلى الآخرة تعلق البتة لأنه بالموت يفارقها.

فهذه العلوم الغريبة عن موطن الآخرة وكالهندسة والهيئة وأمثال هذه العلوم التي لا منفعة لها إلاّ في الدار الدنيا وإن كان له الأجر فيها من حيث قصده ونيته، فالخير الذي يرجع إليه من ذلك قصده ونيته لا عين العلم، فإن العلم يتبع معلومه، ومعلومه هذا كان حكمه في الدنيا لا في الآخرة، فكأنه يقول له في رؤياه: لو اشتغلنا زمان شغلنا بهذا العلم الغريب عن هذا الموطن بالعلم الذي يليق به ويطلبه هذا الموضع لكنا على خير كثير، ففاتنا من خير هذا الموطن على قدر اشتغالنا بالعلم الذي كان تعلقه بالدار الدنيا، فهذا تأويل رؤيا هذا الرائي لا ما ذكروه، ولو عقلوا لتفطنوا في قوله العلم الغريب، فلو كان علمه بأسرار العبادة وما يتعلق بالجناب الأخرويّ لما كان غريباً لأن ذلك موطنه والغربة إنما هي لفراق الوطن فثبت ما ذكرناه، فإياك أن تحتجب عن طلب هذه العلوم الإلهية والأخروية، وخذ من علوم الشريعة على قدر ما تمس الحاجة إليه ممّا ينفرض عليك طلبه خاصة وقل رب زدني علماً على الدوام دنيا وآخرة.

وصل في فصل ـ صيام الاثنين والخميس: خرّج النسائي عن أسامة بن زيد قال: «**قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّكَ تَصُومُ حَتَىٰ تَكَادُ لاَ تُفْطِرُ وَتُفْطِرُ حَتَىٰ تَكَادُ لاَ تَصُومُ إِلاَّ يَوْمَيْنِ إِنْ دَخَلا فِي صِيَامِكَ وَإِلاَّ صُمْتَهُمَا، قَالَ: أَيُّ يَوْمَيْنِ؟ قُلْتُ: يَوْمُ الاثْنَيْنِ وَيَوْمُ الخَمِيسِ، قَالَ: ذَانِكَ يَومَانِ تُعْرَضُ فِيهِمَا الأَعْمَالُ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ**».

فاعلم أن أسماء الأيام الخمسة جاءت بأسماء العدد أوّلها الأحد وآخرها الخميس، واختصّ السادس باسم العروبة وفي الإسلام باسم الجمعة، والسابع بيوم السبت فسميا بالحال لا باسم العدد، كما أقسم بالخمسة الخنس الجواري وهي التي لها الإقبال والإدبار، ولم يجعل معهنّ في هذا القسم الشمس والقمر وإن كانا من الجواري ولكنهما ليس من الخنس، كذلك الجمعة والسبت وإن كانا من الأيام لم يجعل اسمهما من أسماء العدد، فلنذكر هنا ما يختص بالاثنين والخميس كما نذكر في صيام الجمعة والسبت والأحد ما يختص بهنّ أيضاً في موضعه من هذا الباب، فيوم الاثنين لآدم صلوات الله عليه، ويوم الخميس لموسىٰ صلّى الله عليه وسلّم، فجمع بين آدم ومحمد ﷺ الجمعية في الأسماء وجوامع الكلم، فكما أن آدم علّم الأسماء كلها كذلك محمد ﷺ أوتي جوامع الكلم، والأسماء من الكلم، فتلبس بيوم الاثنين الذي هو

خاص بآدم لهذه المشاركة، وأما موسىٰ فجمع بينه وبين محمد ﷺ وعلى جميع النبيين الرفق وهو الذي تطلبه الرحمة، وكان النبيّ ﷺ أرسله الله رحمة للعالمين، وكان موسىٰ في ليلة الإسراء لما اجتمع به رسول الله ﷺ وبمن اجتمع من الأنبياء عليهم السلام لم يأمره أحد من الأنبياء ولا نبّهه على الرفق بأمّته إلاّ موسىٰ صلّى الله عليه وسلّم لما فرض الله علينا في تلك الليلة خمسين صلاة، فما سأله أحد من الأنبياء لما رجع عليهم ما فرض الله على أمّتك إلاّ موسىٰ عليه السلام، فتهمم بنا دون سائر الأنبياء عليهم السلام، فلما قال له رسول الله ﷺ: خمسين صلاة، قال له موسىٰ عليه السلام: راجع ربك في ذلك الحديث. وفيه: «**فَمَا زِلْتُ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَبَيْنَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ حَتَىٰ فَرَضَهَا خَمْسَةً فِي العَمَلِ وَجَعَلَ أَجْرَهَا أَجْرَ خَمْسِينَ**» فنقص من التكليف وأبقى الأجر على ما كان عليه في الأصل، فلما جمع بينه وبين موسىٰ في صفة الرفق بنا تلبس معه بيوم الخميس الذي هو لموسىٰ عليه السلام، وكان يتذكر بآدم في صوم الاثنين ما هو عليه من العلم، ويتذكر بموسىٰ في صوم الخميس الرحمة التي أرسل بها للعالمين، وهما في حال لا يأكلان ولا يشربان فيه لأنهما قد فارقا الحياة الدنيا وما هما في عالم النشء الجسمي الذي يطلب الغذاء بل هما في برزخ لا غذاء فيه بين النشأتين، فأراد ﷺ لما وقعت بينه وبينهما المشاركة فيما ذكرناه أن يتلبس في هذين اليومين اللذين يجتمع معهما فيهما بترك الطعام والشراب موافقة لهما ليتفرّغ ﷺ لتحصيل ما أدّاه إلى الاجتماع بهما في هذين اليومين، وجعله صوماً دون أن يعتبره اتساعاً من الغذاء، فحسب حتى يكون تركه ذلك عملاً مشروعاً، فتلبس بصفة هي للحق وهو الصوم فصامهما ليعرض عمله على رب العالمين في ذينك اليومين وهو متلبس بصفة الحق إذ كان الصوم له.

ولما كان الصوم بالنسبة إلى العباد يدخله الفساد لما كان قابلاً لذلك ويقبل الصلاح أيضاً كان العرض على رب العالمين لا على اسم غيره، والرب هو المصلح فيصلح ما دخل في هذا الصوم من الفساد إن كان دخله فساد من حيث لا يشعر، ويتعلق هذا الحكم بالعلامة خاصة وهي الدلالة على الله تعالىٰ ولذلك قال على رب العالمين من العلامة، وفساد العلامة إنما هو من طرو الشبهة عليها في النظر العقليّ، وما ثم شبهة أعظم من نسبة الصوم لله دون سائر الأعمال ووصف العبد به، فإذا حصل العرض الذي هو التجلّي والكشف بأن للصائم ما لله من الصوم وما للعبد منه فزالت الشبهة التي يقبلها العقل بالكشف الإلهيّ فهذا معنى مصلح العلامة.

وأما إذا اعتبرته بمربي العالمين أي مغذيهم فغذاء الصائم في هذا العرض هو ما يفيده الحق في هذا الصوم من العلوم المختصة بهذين اليومين من علم الأسماء وعلم الاثنتي عشرة عيناً التي في العلم بها العلم بكل ما سوى الله وهو علم الحياة التي يحيا بها كل شيء، وهو العلم المتولد بين النبات والجماد من المولدات بصفة القهر، فإن العيون الاثنتي عشرة إنما ظهرت بضرب العصا الحجر فانفجرت منه بذلك الضرب اثنتا عشرة عيناً يريد علوم المشاهدة عن مجاهدة بسبب الضرب وعلوم ذوق لأن الماء من الأشياء التي تذاق ويختلف طعمها في

الذوق فيعلم بذلك نسبة الحياة كيف اتصف بها المسمّى جماداً، حتى أخبر عنه الصادق أنه يسبح بحمد الله لأن الحق أضاف ذلك إلى الحجر بقوله منه. ومن لا كشف له ولا إيمان لا يثبت للجماد حياة فكيف تسبيحاً؟ نعوذ بالله من الخذلان. فيعلم بهذا الكشف نسبة الحياة أيضاً إلى النبات لأن الضرب كان بالعصا وهي من عالم النبات، وبضربه بها ظهر ما ظهر. ومن لا كشف له لا يعلم أن النبات حيّ إلاَّ من يصرف الحياة إلى النموّ فيعلم في يوم الخميس إذا صام من أجل الإمداد روحانية موسىٰ عليه السلام فيه علم الاثنتي عشرة عيناً على الكشف والمشاهدة، وهو علم ما يتعلق بمصالح العالم قد علم كل أناس مشربهم من تلك العيون، فمن علمها علم حكم الاثنتي عشر برجاً، وعلم منتهى أسماء الأعداد وهي اثنا عشر، وعلم الإنسان بما هو وليّ لله تعالىٰ [البسيط].

فانظُرْ إلى شجرٍ يَقْضي على حَجَرِ وانظر إلى ضاربٍ من خلف أَسْتَارِ

وكان الحجاب عليه والستر موسىٰ عليه السلام، كما كان الحجاب للأعرابي على كلام الله محمداً ﷺ، فبصوم يوم الاثنين يجمع بين خلق وحق في بساط مشاهدة وحضور لتحصيل علم الأسماء الإلهية، وبصوم يوم الخميس يجمع حفظ نفسه وحفظ الأربع من جهاته التي يدخل عليه منها الشبه المضلّة فإنها طرق الشيطان من قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ عن أمر واستفزاز ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ عن أمر وأجلب عليهم ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ عن أمر وشاركهم ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ عن أمر وعدهم وهو بعينه في الوسط، فإن به تميّزت هذه الجهات الأربع وكان المجموع في هذه الحضرة خمسة فاعتصم بصوم يوم الخميس لكون الخمسة من خصائصه وموسىٰ صاحبه فيها وهو فظ غليظ يفرق الشيطان منه لفظاظته، فيعتصم الصائم يوم الخميس بهذا الحضور الذي ذكرناه من الشيطان الذي أرصد له على هذه الجهات ومن قبول نفسه لما يرد به هذا الشيطان لو ورد عليه وهو الشيء الخامس المساعد للشيطان فيما يرومه فيكون موسىٰ حاجب هذه الأبواب، فيبقى الصائم فيها مستريحاً آمناً وهو صاحب الصوم في ذلك اليوم، ولم يقل ذلك في آدم في صوم الاثنين، وجعلناه في الاعتبار جمع حق وخلق لئلا يطرأ عليه الخلل في صومه من حيث لا يشعر، فإن آدم صاحب ذلك اليوم قبل من إبليس الأزلال من حيث لا يشعر، ومن لم يدفع عن نفسه فأحرى أن لا يقدر أن يدفع عن غيره، فحمل الاثنين على حق وخلق للاشتراك في صفة الصوم ولم يعتبر آدم في هذا الموطن، ونسبة الخمسة الخنس ليوم الخميس الذي هو لموسىٰ لكونها لها الكرّ والفرّ بما لها من الإقبال والإدبار في السير، فلها الحكم والقوّة بذلك على غيرها لقوّة الخمسة التي جمعتها، فإن الخمسة من الأعداد تحفظ نفسها وتحفظ العشرين، وما ثم عدد له هذه المرتبة ولا هذه القوّة إلاَّ هذه الخمسة، ومن حفظ نفسه وغيره كان أقوى شبهاً بما تطلبه العقول من التشبّه بمن له هذه الصفة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] وقال: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢١] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء التاسع والخمسون.

(الجزء الستون)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل في فصل ـ صيام يوم الجمعة: اختلف العلماء في صوم يوم الجمعة، فمن قائل: يكره صومه. ومن قائل: يكره صومه إلاَّ أن يصام قبله أو بعده. خرّج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ يَصُمْ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الجُمُعَةِ إلاَّ أَنْ يَصُومَ قَبْلَهُ أَوْ يَصُومَ بَعْدَهُ**» وخرّج البخاريّ عن جويرية بنت الحارث: «**أَنَّ النَّبيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهِيَ صَائِمَةٌ فَقَالَ: أَصُمْتِ أَمْس؟ قَالَتْ: لاَ، قَالَ: تُرِيدِينَ أَنْ تَصُومِي غداً؟ قَالَتْ: لاَ، قَال: فَأَفْطِرِي**».

اعلم أن يوم الجمعة هو آخر أيام الخلق وفيه خلق من خلقه الله على الصورة وهو آدم، فبه ظهر كمال إتمام الخلق وغايته، وبه ظهر أكمل المخلوقات وهو الإنسان، وهو آخر المولدات، فحفظ الله به الاسم الآخر على الحضرة الإلهية، وحفظه الله بالاسم الآخر، فهو الذي ينظر إليه من الأسماء الإلهية، ولما جمع الله خلق الإنسان فيه بما أنشأه تعالىٰ عليه من الجمع بين الصورتين: صورة الحق وصورة العالم سمّاه الله بلسان الشرع يوم الجمعة، ولما زيّنه الله بزينة الأسماء الإلهية وحلاه بها وأقامه خليفة فيها بها فظهر بأحسن زينة إلهية في الكمال، وخصّه الله تعالىٰ بأن جعله أوسع من رحمته تعالىٰ، فإن رحمته لا تسعه سبحانه ولا تعود عليه وأن محلها الذي لها الأثر فيه إنما هو المخلوقون ووسع القلب الحق سبحانه فلهذا كان أوسع من رحمة الله، وهذا من أعجب الأشياء أنه مخلوق من رحمة الله وهو أوسع منها، ومن كان مجلى كمال الحق فلا زينة أعلى من زينة الله فأطلق الله عليه اسماً على ألسنة العرب في الجاهلية وهو لفظ العروبة أي هو يوم الحسن والزينة، فظهر الحق في كماليته في أكمل الخلق وهو آدم، فلم يكن في الأيام أكمل من يوم الجمعة فإن فيه ظهرت حكمة الاقتدار بخلق الإنسان فيه الذي خلقه الله على صورته فلم يبق للاقتدار الإلهيّ كمال يخلقه إذ لا أكمل من صورة الحق، فلما كان أكمل الأيام وخلق فيه أكمل الموجودات وخصّه الله بالساعة التي ليست لغيره من الأيام والزمان كله ليس سوى هذه الأيام فلم تحصل هذه الساعة لشيء من الأزمان إلاَّ ليوم الجمعة وهي جزء من أربع وعشرين جزءاً من اليوم وهي في النصف منه وهو المعبر عنه بالنهار فهي في ظاهر اليوم وفي باطن الإنسان، لأن ظاهر الإنسان يقابل باطن اليوم، وباطن الإنسان يقابل ظاهر اليوم، ألا تراه أمر في رمضان بالقيام بالليل؟ والقيام حكم ظاهر الإنسان فإنّ الظاهر منه هو المستريح بالنوم، وجعل الله النوم له سباتاً أي راحة والليل محل التجلي الإلهيّ والنزول الربانيّ. واستقبال هذا النزول بالقيام الكونيّ واجب في الطريق أدباً إلهياً، وهذا النزول في الليل يقوم مقام الساعة التي في نهار الجمعة، لكن النزول في كل ليلة والساعة خاصة بيوم الجمعة فإنها ساعة الكمال، والكمال لا يكون إلاَّ واحداً في كل جنس إن كان ذلك الجنس ممّن له استعداد الكمال كاستعداد الإنسان، وما هو ثم ممّا قبله غير الإنسان، فالإنسان كامل بربه لأجل الصورة، ويوم الجمعة كامل بالإنسان لكونه خلق فيه،

وما خلق فيه إلاّ في الساعة المذكورة فيه فإنها أشرف ساعاته، والحكم فيها للروح الذي في السماء السادسة وهي سماء العدل، والاعتدال صفات وكمال الباطن، فإن سلطان هذا اليوم هو الروح الذي في السماء الثالثة، وله الاستبداد التام في يومه في الساعة الأولى منه والثامنة. فهو الحاكم بنفسه تجلياً، وسائر ساعاته يجري حكمه فيه بنوّابه والعلم أكمل الصفات فخص الأكمل بالأكمل.

والصوم لا مثل له في العبادات، فأشبه من لا مثل له في نفي المثلية ومن لا مثل له قد اتصف بصفتين متقابلتين من وجه واحد وهو الأول والآخر وهو ما بينهما إذ كان هو الموصوف، وكذلك هو بين الظاهر والباطن، وهاتان الصفتان في المعنى واحدة، وإنما كان الانقسام فيما ظهر عنها من الحكم، فأطلق عليها اسم الظاهر لظهور الحكم عنها واسم الباطن لخفاء سببه فهما نسبتان له، فلما لم يكن بدّ من إثبات هذه الصفة النسبية التي هي معقول حكمها غير معقول حكم الموصوف لم يكن بدّ من إثباتها، وكل حكم له أوّلية وآخرية في المحكوم عليه، فهو الأوّل والآخر من حيث المعنى واحد، ومن ابتدائه وانتهائه طرفان فيما لا ينقسم.

ولما كان الأمر على ما قرّرناه كان من أراد أن يصوم الجمعة يصوم يوماً قبله أو يوماً بعده ولا يفرد بالصوم لما ذكرناه من الشبه في صيام ذلك اليوم وقيام ليلته، إذ كان ليس كمثله يوم، فإنه خير يوم طلعت فيه الشمس، فما أحكم علم الشرع في كونه حكم أن لا يفرد بالصوم ولا ليلته بالقيام تعظيماً لرتبته على سائر الأيام وهو اليوم الذي اختلفت فيه الأمم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فما بيّنه الله لأحد إلاّ لمحمد ﷺ لمناسبته الكمالية فإنه أكمل الأنبياء ونحن أكمل الأمم، وسائر الأمم وأنبيائها ما أبان الحق لهم عنه لأنهم لم يكونوا من المستعدين له لكونهم دون درجة الكمال أنبياؤهم دون محمد ﷺ وأممهم دوننا في كمالنا، فالحمد لله الذي اصطفانا، فنحن بحمد الله يوم الجمعة ورسول الله ﷺ عيّن الساعة التي فيها التي بها فضل يوم الجمعة على سائر الأيام كما فضلنا نحن بمحمد ﷺ على سائر الأمم، والصوم لله من وجه التنزيه، والصوم للإنسان عبادة وموضع الاشتراك الصوم، فصوم يوم الجمعة بما هو منه لله، وصوم اليوم المضاف إليه بما هو للعبد منه إذ بصيام العبد صحّ أن يكون الصوم لله، وبصيام اليوم المضاف إلى يوم الجمعة صحّ صوم يوم الجمعة والله عليم حكيم.

وصل في فصل ـ صيام يوم السبت: خرّج أبو داود عن عبد الله بن بشر عن أخيه أن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ تَصُومُوا يَوْمَ السَّبْتِ إلاَّ فِيمَا افْتُرِضَ عَلَيْكُمْ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُكُمْ إلاَّ عُودَ عِنَبٍ أَوْ لِحَاءَ شَجَرٍ فَلْيَمْضغْهُ**». قال أبو داود: هذا منسوخ. قال أبو عيسىٰ في هذا الحديث حديث حسن. وخرّج النسائي عن أمّ سلمة قالت: «**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ يَوْمَ السَّبْتِ والأَحَدِ أَكْثَرَ مَا يَصُومُ وَيَقُولُ: إِنَّهُمَا يَوْمَا عِيدٍ لِلْمُشْرِكِينَ فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أُخَالِفَهُمْ**».

واختلف العلماء في صوم يوم السبت، فمن قائل: بصومه. ومن قائل: لا يصام. اعلم

أن يوم السبت عندنا هو يوم الأبد الذي لا انقضاء ليومه، فليله في جهنم فهي سوداء مظلمة، ونهاره لأهل الجنان فالجنة مضيئة مشرقة، والجوع مستمرّ دائم في أهل النار وضدّه في أهل الجنان، فهم يأكلون عن شهوة لا لدفع ألم جوع ولا عطش، فمن كان مشهده القبض والخوف اللذين هما من نعوت جهنم قال: يصومه لأن الصوم جنة فيتقي به هذا الأمر الذي أذهله، وقد ورد في كتاب الترغيب لابن زنجويه عن رسول الله ﷺ: «**أَنَّهُ مَنْ صَامَ يَوْماً ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ بَعَّدَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً**» ومثل هذا ومن كان مشهده البسط والرجاء والجنة وعرف أن يوم السبت إنما سمي سبتاً لمعنى الراحة فيه وإن لم تكن الراحة عن تعب وهو يوم ما بين ابتداء الخلق الذي وقع في يوم الأحد وبين انتهاء الخلق الذي وقع في يوم الجمعة وتلك الستة الأيام التي خلق الله فيها الخلق. وقال في يوم السبت وقد وضع إحدى الرجلين على الأخرى: أنا الملك وأحكم العالم وقدّر في الأرض أقواتها وأوحى في كل سماء أمرها ووضع الموازين، وأحال الخلق بعضهم على بعض وجعل منهم المفيض والقابل، وأكمل استعداداتهم على أتم الوجوه، وفعل كما أخبر من أنه أعطى كل شيء خلقه ووصف نفسه بالفراغ قال: من هذا مشهده الحكمة تعطي الفطر في هذا اليوم فحجر صومه، ولما في ذلك من التعب الذي يضادّ الراحة فإن الصوم مشقة لأنه ضدّ ما جبل عليه الإنسان من التغذي، وأمّا من صامه لمراعاة خلاف المشركين فمشهده أن مشهد المشرك الشريك الذي نصبه فلما ولي الشريك أمورهم في زعمهم بما ولّوه جعل لهم ذلك اليوم عيد الفرحة بالولاية فأطعمهم فيه وسقاهم، ولست أعني بالشريك الذي عبدوه واستندوا إليه وإنما أعني بالشريك صورته القائمة بنفوسهم لا عينه فهو الذي أعطاهم السرور في هذا اليوم وجعله عيداً لهم. وأمّا الذين جعلوه شريكاً لله فلا يخلو ذلك المجعول أن يرضى بهذا المحال أو لا يرضى، فإن رضي كان بمثابتهم كفرعون وغيره، وإن لم يرض وهرب إلى الله بما نسبوا إليه سعد هو في نفسه ولحق الشقاء بالناصبين له، فمن صامه بهذا الشهود فهو صوم مقابلة ضدّ لبعد المناسبة بين المشرك والموحد، فأراد أن يتصف أيضاً في حكمه في ذلك اليوم بصفة التقابل بالصوم الذي يقابل فطرهم ولذلك كان يصومه ﷺ.

وصل في فصل ـ صوم يوم الأحد: فمن اعتبر ما ذكرناه من هذا الشهود فإنه يوم عيد للنصارى صامه لمخالفتهم، ومن اعتبر فيه أنه أوّل يوم اعتنى الله فيه بخلق الخلق في أعيانهم صامه شكراً لله تعالىٰ فقابله بعبادة لا مثل لها، فاختلف قصد العارفين في صومهم، ومن العارفين من صامه لكونه الأحد خاصة، والأحد صفة تنزيه للحق، والصوم صفة تنزيه ورتبة منيعة الحمى لما في الصوم من التحجير على الصائم عن الحظ النفسيّ من الإفطار والاستمتاع من الجماع والتنزيه عن المذام، فالصائم محجور عليه أن يغتاب أو يرفث أو يجهل أو يتصف بمذموم شرعاً في تلك الحال، فوقعت المناسبة بينه وبين الأحد في صفة التنزيه فصامه لذلك وكل له شرب معلوم فعامله بأشرف الصفات، ولهذا كان للصوم من الطبيعة الحرارة واليبوسة لفقد الغذاء، وهو ضدّ ما تطلبه الطبيعة فإنها تطلب لأجل الحياة الحرارة لا منفعلها، وتطلب

الرطوبة التي هي منفلعة عن البرودة فقابلها الصائم بالضدّ فقابلها بالأصل ومنفعله فإنه مأمور بمخالفة النفس، والنفس طبيعة محضة منازعة للإله بذاتها لتوقف وجود عالم الأجسام كلها عليها، ولولاها لم يظهر لعالم الأجسام عين، فزهت وتاهت لذلك فقيل للروح المدبر لهذ الجسم العنصريّ المأمور بحفظ الاعتدال على هذا الجسد والنظر في مصالحه إذا رأيت النفس الطبيعية في هذا المقام من الزهو والخيلاء فامنعها عن الطعام والشراب والاستمتاع بالجماع بنية المخالفة لها ونية التنزيه عمّا تتخيله الطبيعة أنك مفتقر إليها في ذلك، ولتعلم الطبيعة أنها محكوم عليها فتذل تحت العبودة والافتقار لطلب الغذاء من هذا المدبر لهذا الهيكل، فسمّي مثل هذا التدبير صوماً، فإن منعها عن ذلك كله لصلاح المزاج لا يسمّى صوماً وذلك الفعل للروح إنما هو من تدبير الطبيعة فسمّي مثل هذا حمية لا صوماً، فإن نوى الروح بهذه الحمية ومساعدة الطبيعة فيما أمرته به صلاح مزاج هذا البدن لأجل عبادة الله وأن يقوم بجميع ما أمره الله به من العبادة في حركاته وسكناته التي لا تظهر منه إلاّ بصلاح المزاج أجر في تلك الحمية وإن لم تكن صوماً فهذا قد أبنت لك بعض أسرار صوم يوم الأحد.

وصل في فصل ـ أن التجلي المثالي الرمضاني وغيره إذا كان فهو لوقته: خرّج مسلم في صحيحه عن أبي البختري قال: لقينا ابن عباس فقلنا: إنا رأينا الهلال، فقال بعض القوم: هذا ابن ثلاث، وقال بعض القوم: هو ابن ليلتين، فقال: أيّ ليلة رأيتموه؟ فقلنا: ليلة كذا وكذا، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللَّهَ مَدَّهُ لِلرُّؤْيَةِ فَهُوَ لِلَيلَةِ رَأَيْتُمُوهُ**»، قالت السادة من أهل الله: الحكم للوقت والإنسان أو الصوفيّ ابن وقته لا يحكم عليه ماض ولا مستقبل غير أن الإنسان لا يعرف أنه ابن وقته مع حكم الوقت عليه، والصوفي يعلم أنه بحكم وقته كذا هو في نفس الأمر فلهذا قلنا: إن الصوفي ابن وقته لاطلاعه على ذلك ولعلمه أنه فيما يحكم عليه به وفيه أثر النبوّة، وما كل إنسان يعلم ذلك مع أنه كذا في نفس الأمر، فمتى ما ظهر للإنسان هذا الحكم واتصف على علم بأنه ابن وقته فذلك معنى قوله ﷺ: «**هُوَ لِلَيلَةِ رَأَيْتُمُوهُ**». فإنا نعلم قطعاً إذا كان الهلال في الشعاع أنه متجلّ لنا ولكنا لا نراه، كما نعلم قطعاً أن الكواكب في السماء بالنهار متجلية لنا ولكنا لا نراها لضعف الإدراك البصريّ فلا ننسب إليه، فإذا رأيناه فإنه الوقت الذي نراه فيه لنعلمه فيحكم علينا بما يعطيه ذلك التجلي، فإن كان رمضان أثر فينا نية الصوم، وإن كان هلال فطر أثر فينا نية الفطر، وإن لم يكن إلاّ هلال شهر من الشهور أثر فينا العلم بزوال حكم الشهر الذي انقضى وحكم الشهر الذي هذا هلاله. وتختلف أحوال الناس فتمتاز الأوقات به لانقضاء الآجال في كل شيء من المبايعات والمداينات والأكرية وأفعال الحج، يقول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٩] كما قررناه.

وصل في فصل ـ الشهادة في رؤيته: فإن لم نره وأخبرنا به رجل واحد أو اثنان فهل ندخل تحت حكم الوقت وتقوم لنا الشهادة مقام الرؤية؟ فأقول: لا يخلو حكم هذا الهلال في ظهوره أن يظهر بحكم يوافق الغرض النفسيّ أو يخالفه، فإن خالف قبلنا فيه شهادة الواحد

ويكون الشاهد الآخر ما أمرنا به من مخالفة النفس فإن النفس بطبعها ما تريد هذا الحكم، فينبغي لنا أن نعمل به في هلال الصوم. ولما كان الفطر فيه غرض النفس طلبنا شاهداً آخر في الظاهر يشهد لنا حتى يكون فطرنا عبادة لا لأجل غرض النفس وربما اشترطنا فيهما العدالة وأن مثل هذا الفطر الذي هو عيد الفطر عبادة وصومه حرام فإنا فيه أعني في رؤية هلال الفطر مستقبلو عبادة لوجوب الفطر فيه وتحريم الصوم: كما أنا في هلال رمضان مستقبلو عبادة لوجوب الصوم وتحريم الفطر فلا فرق، ومع هذا يحتاج إلى شاهدين في هلال الفطر جرياً على الأصل، ولولا الخبر الوارد في هلال الصوم لأجريناه مجرى هلال الفطر وإن كان الأمر فيه على الاحتمال، ولكن لنا ما ظهر فيحتاج في هلال الفطر إلى شاهدين ظاهرين، وفي هلال الصوم إلى شاهدين ظاهر وباطن، فالباطن شاهد الأمر بمخالفة النفس يقول تعالىٰ: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [سورة النازعات: الآية ٤٠].

والصوم ليس للنفس فيه هوى طبيعيّ فما صمنا إلاّ بشاهدين ولا أفطرنا إلاّ بشاهدين لأن كل واحدة من العبادتين حكم وجوديّ، فلا بدّ لكل نتيجة من مقدّمتين وهما في هذه العبادات الشاهدان، فلنذكر الأخبار الواردة في ذلك لنفيد الواقف على هذا الكتاب مأخذنا حتى لا يفتقر إلى كتاب آخر فيتعب فأقول: حديث وارد في سنن أبي داود: خرّج أبو داود عن ربعيّ بن خراش عن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ قال: «اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ فَقَدِمَ أَعْرَابِيانِ فَشَهِدَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بالله لأَهلَّ الهلال أمس عشية فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ أَنْ يُفْطِرُوا وَأَنْ يَغْدُوا إِلَى مُصَلاَّهُمْ». حديث آخر أيضاً من سنن أبي داود: خرّج أبو داود أيضاً عن ابن عمر قال: «تَرَاءَى النَّاسُ الهِلالَ فَأَخْبَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنِّي رَأَيْتُهُ فَصَامَ وَأَمَرَ النَّاسَ بِصِيَامِهِ». حديث ثالث عن أبي داود أيضاً: خرّج أبو داود أيضاً عن الحسين بن الحارث أن أمير مكة خطب ثم قال: عهد إلينا رسول الله ﷺ أن ننسك للرؤية فإن لم نره وشهد شاهدا عدل نسكنا بشهادتهما، ثم قال: إن فيكم من هو أعلم بالله ورسوله مني وشهد هذا من رسول الله ﷺ وأومأ بيده إلى رجل قال الحسين: فقلت لشيخ إلى جنبي: من هذا الذي أومأ إليه؟ فقال: هذا عبد الله بن عمر، وأمير مكة كان الحارث بن حاطب الجمحيّ. حديث رابع للدارقطنيّ: وذكر الدارقطنيّ من حديث ابن عمر وابن عباس قالا: **«إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَجَازَ شَهَادَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَىٰ رُؤْيَةِ هِلالِ رَمَضَانَ وَقَالا: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لاَ يُجِيزُ شَهَادَةَ الإِفْطَارِ إِلاَّ بِرَجُلَيْنِ»** وهذا الحديث ضعيف.

وصل في فصل ـ الصائم ينقضي أكثر نهاره في رؤية نفسه دون ربه: لما كان الصوم حكماً أضافه الله إليه وعرّى الصائم عنه مع كونه أمره بالصيام فانبغى للصائم أن يكون مدّة صومه ناظراً فيه إلى ربه حتى يصحّ كونه صائماً لا يغفل عنه، فإن الحق لا يضيفه إليه حتى يصحّ أنه صوم، ولا يصحّ إلاّ بصيام العبد على الصورة التي شرع الله له فيه أن يأتي بها، فإن لم يصمه على حدّ ما شرع له فما هو صائم، وإذا لم يكن صائماً فما ثم صوم يردّه الله إليه، فإن الصائم قد يحسب أنه صائم، وقد فعل في صومه فعلاً أوجب له ذلك الفعل أن يخرج عن

صومه كالغيبة إذا وقعت منه وأمثالها فهو مفطر أي ليس بصائم وإن لم يأكل، فإن كان لذلك الفعل كفارة وأتى بها فهو صائم فيحافظ الصائم على هذا فإن فيه إيثاراً للحق على نفسه فيجازيه على قدر المؤثر به وهو الله تعالىٰ، فمن راعى ربه عزّ وجلّ راعاه الله تعالىٰ، فما يكون جزاؤه إلاّ هو من وجد في رحله فهو جزاؤه وقد وجد في رحله، فإن الحق في قلب عبده المؤمن الحاضر معه لا بدّ من ذلك، والصوم وجد عند الله فإنه له لما صحّ صوم الصائم طلب رحله فقيل له: أخذه الله فكان الله جزاءه، فقال: الصوم لي وأنا أجزي به؛ حديث مرويّ في فساد الصوم: ذكر أبو أحمد بن عديّ الجرجانيّ من حديث خراش بن عبد الله عن أنس عن النبيّ ﷺ قال: «**مَنْ تَأَمَّلَ خَلْقَ امْرَأَةٍ حَتَّىٰ يَسْتَبِينَ لَهُ حَجْمُ عِظَامِها مِنْ وَرَاءِ ثِيَابِهَا وَهُوَ صَائِمٌ فَقَدْ أَفْطَرَ**» خراش: هذا مجهول لأنه كان يحدّث من صحيفة كانت عنده وهذا الحديث منها والذي يرويها عنه ضعيف، كذا ذكر شيخنا أبو محمد عبد الحق.

وصل في فصل ـ حكم صوم السادس عشر من شهر شعبان: صومه عندنا حرام، وهو عندنا من أحد الأيام الستة التي يحرم صومها وهي هذا اليوم ويوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى وثلاثة أيام التشريق. خرّج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا بَقِيَ نِصْفٌ مِنْ شَعْبَانَ فلاَ تَصُومُوا**» قال أبو عيسىٰ: هذا حديث حسن صحيح لما كانت ليلة النصف من شعبان ليلة يكتب فيها الملك الموت من يقبض روحه في تلك السنة فيخط على اسم الشقيّ خطاً أسود وعلى اسم السعيد خطاً أبيض به يعرف ملك الموت السعيد من الشقيّ، فكان الموت لهذا الشخص مشهوداً لأنه زمن الاطلاع على الآجال واستحضارها عند المؤمن الذي ماله هذا الاطلاع، فإذا تلتها ليلة السادس عشر لم ينفك صاحب هذا الشهود أو المستحضر عن ملاحظة الموت فهو معدود بحاله في أبناء الآخرة، وبالموت يسقط التكليف، فما هو على حالة يبيت فيها الصوم لشهوده حالة الصفة التي تقطع الأعمال فبقي سكران من أثر هذه المشاهدة، فمن بقيت عليه إلى دخول رمضان منع من صوم النصف، ومن لم تبق له منع من صوم السادس عشر خاصة من أجل أنه لم يبيت ليلاً ولا ليلة السادس عشر ليلة نسخ الآجال وهي ليلة النصف، وإنما خصّ بعض العلماء من أهل الظاهر السادس عشر أنه محل لتحريم الصوم فيه ما أذكره وهو أنه رحمه الله أورد حديثاً صحيحاً: حدثناه جماعة أبو بكر محمد بن خلف بن صاف اللخمي وأبو القاسم عبد الرحمن بن غالب المقري وأبو الوليد جابر بن أبي أيوب الحضرمي وأبو العباس ابن مقدام كل هؤلاء قالوا: حدثنا أبو الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعينيّ المقريّ قال: حدّثنا أبو محمد عليّ بن أحمد قال: حدثنا عبد الله بن الربيع قال: حدثنا عمر بن عبد الملك قال: حدثنا محمد بن بكر قال: حدثنا أبو داود حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا عبد العزيز بن محمد الدراورديّ قال: قدم عباد بن كثير المدينة فمال إلى مسجد العلاء بن عبد الرحمن فأخذ بيده فأقامه فقال: اللهم إن هذا يحدث عن أبيه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا انْتَصَفَ شَعْبَانُ فَلاَ تَصُومُوا**» فقال العلاء: اللهم إن أبي حدثني عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال ذلك، قال أبو محمد ابن حزم: هكذا رواه

سفيان عن العلاء والعلاء ثقة روى عنه شعبة وسفيان الثوري ومالك وابن عيينة ومسعر بن كدام وأبو العميس وكلهم يحتج بحديثه فلا يضره غمز ابن معين له، ولا يجوز أن يظنّ بأبي هريرة مخالفة ما روى عن النبيّ ﷺ والظن أكذب الحديث، فمن ادّعى ههنا إجماعاً فقد كذب، قال أبو محمد: وقد كره قوم الصوم بعد النصف من شعبان جملة إلاّ أن الصحيح المتيقن مقتضى لفظ هذا الخبر النهي عن الصيام بعد النصف من شعبان ولا يكون الصيام في أقل من يوم، ولا يجوز أن يحمل على النهي صوم باقي الشهر إذ ليس ذلك بيناً، ولا يخلو شعبان أن يكون ثلاثين أو تسعاً وعشرين، فإذا كان ثلاثين فانتصافه بتمامه خمسة عشر يوماً، وإن كان تسعاً وعشرين فانتصافه في نصف اليوم الخامس عشر، ولم ينه إلاّ عن الصيام بعد النصف، فحصل من ذلك النهي عن صيام السادس عشر بلا شك، انتهى كلام أبي محمد في كتاب المحلى ومنه نقلته وهو روايتي عن هؤلاء الجماعة الذين ذكرناهم في أول مساق حديث العلاء وغيرهم عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح عنه، وهو الذي ذهب إلى أن صوم السادس عشر لا يجوز وعليه ما ذكرناه عنه.

وصل في فصل ـ صيام أيام التشريق: اختلف العلماء رضي الله عنهم في صيام أيام التشريق، فمن قائل: بجواز صومها. ومن قائل: بجواز صوم المتمتع فيها. ومن قائِل: بالكراهة. ومن قائل: بمنع الصوم مطلقاً. فيها أيام التشريق هي الثلاثة الأيام التي بعد يوم النحر وهي أيام أكل وشرب وذكر لله تعالىٰ. ذكر مسلم في كتابه عن نبيشة الهذلي عن رسول الله ﷺ أنه قال ذلك وهذه صفة أهل الجنة، فحيث وجدت هذه الصفة زال معها كل عمل في حال حكمها إلاّ العبادة فإنها حقيقة لا تزول عن الإنسان دنيا ولا آخرة، والصوم ترك وعبادة، فمن اعتبر العبادة فيه أجاز الصوم فيه، ومن اعتبر ما رجح الشرع من أنها أيام أكل وشرب وذكر لله تعالىٰ ولم يقل ليالي أكل وشرب فهو خبر إلهيّ لأنه ﷺ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٣] فهو إعلام إلهيّ على جهة الخبر والخبر لا يدخله النسخ فأوجب الفطر فيها عبادة واجبة العمل، فمن صام فيها فقد رجح نظره على خبر الله تعالىٰ بما ينبغي أن يعمل فيها، ومن نازع الله في شيء قال إنه له فقد عرّض لنفسه للهلاك فإن الصوم له والفطر لك، وما رخص في صومها المجتهد إلاّ لمن لم يجد الهدى، كذا قال البخاريّ عن عائشة وابن عمر، ثم جعل لك فيها ذكر لله وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٠] فأمركم فيها بذكر الله فإن العرب كانت في هذه الأيام في الموسم تذكر أنسابها وأحسابها لاجتماع قبائل العرب في هذه الأيام تريد بذلك الفخر والسمعة فهذا معنى قوله: ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ أي اشتغلوا بالثناء على الله بما هو عليه على طريق الفخر إذ كنتم عبيده وفخر العبد بسيده فإنه مضاف إليه، وأكبر من ذلك من كونه منه كما قال ﷺ: «**مَوْلَىٰ القَوم مِنهُمْ**» وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته، والعبد لا فخر له بأبيه بل فخره بسيده، وإن افتخر العبد بأبيه فإنما يفتخر به من حيث إن أباه كان مقرّباً عند سيده لأنه عبد مثله ممتثلاً لأمره واقفاً عند حدوده ورسومه فإنه

أيضاً عبد الله فلهذا قال: ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ فما نهاهم عن ذكر آبائهم ولكن رجح ذكرهم الله على ذكرهم آباءهم بقوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ وهو الموصي عباده بقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٤] أي كونوا أنتم من إيثار ذكر الله والفخر به من كونه سيدكم وأنتم عبيد له على ما كان عليه آباؤكم ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] وأيّ عبادة كان فيها العبد وفيها ذكر الله فإن ذكر الله أكبر ما فيها من أفعال تلك العبادة وأقوالها. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يعني الذي فيها أكبر من جميع أفعالها فإنك إذا ذكرت الله فيها كان جليسك في تلك العبادة فإنه أخبر أنه جليس من ذكره، وإذا كان جليسك فلا يخلو إمّا أن تكون ذا بصر إلهيّ فتشهده أو تكون غير ذي بصر إلهيّ فتشهده من طريق الإيمان أنه يراك، فتكون في هذه الحال مثل الأعمى يعلم أنه جليس زيد وإن كان لا يراه فهو كأنه يراه، فالرائي له يشهده محرّكاً له في جميع أفعاله، والذي لا يراه يحسّ بأن ثم محرّكاً له في أفعاله بحسّ الإيمان لا بحسّ الشهود البصري وهو قوله: «**كأنك تراه**» فإنه بالذكر يعلم أنه جليسه ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [سورة العلق: الآية ١٤].

وجليس الحق لا يمكن أن يكون إلاّ في خلوة معه ضرورة لا يتمكن أن يثبت مع هذا العبد إذا جالسه الحق جليس آخر جملة واحدة في خاطره لأنها مجالسة غيب، قيل لبعضهم: اذكرني في خلوتك بالله، قال له: إذا ذكرتك فلست في خلوة مع الله، فكما أنه لا يكلم الله خلقه إلاّ من وراء حجاب والحجاب عين الكلام، كذلك لا تكلمه أنت ولا تذكر عنده نفسك ولا غيرك إلاّ من وراء حجاب لا بدّ من ذلك فإن المشاهدة للبهت والخرس، فلا بدّ للذاكر وإن كان الحق جليسه أن يكون أعمى ولا بدّ وعماه ذكره، فالحق جليس غيب عند كل ذاكر، فمن غلب عليه مشاهدة الخيال في حق ربه من قوله: «**كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» وهو استحضار في خيال فمثل ذلك يجمع بين المشاهدة والكلام، فإن الجليس في تلك الحال مثلك لا من ليس كمثله شيء، وهذا كان حال الشهاب ابن أخي النجيب رحمه الله على ما نقل إليّ الثقة عندي من قوله: إن الإنسان يجمع بين المشاهدة والكلام، أين هذا الذوق من ذوق المحقق أبي العباس السياري من الرجال المذكورين في رسالة القشيريّ حين قال: ما التذّ عاقل بمشاهدة قط لأن مشاهدة الحق فناء وليس فيها لذة، أين هذا الذوق من ذوق الشهاب فافهم فإنه موضع غلط لأكابر المحققين من أهل الله فكيف بمن هو دونهم؟ وقد أخبرنا عمّن رأيناه من أهل الله المنتمين إلى الله أنه يقول بذلك أعني مثل قول الشهاب، فإن كان صاحب علم تامّ فيقوله على حدّ ما رسمناه، وإن كان دون ذلك فإنما يقوله كما يقوله من لا علم له بالحقائق، ولو قالها بحضوري كنت أفاوضه فيها حتى أعرف بأيّ لسان يقول ذلك، فكنت أنسبه إلى ما قال على التعيين، فاعلم أنه إن كان قال ذلك على مجرى التحقيق علمنا أنه فوق ما يقول، ومنهم من هو تحت ما يقول، والذين هم تحت ما يقولون طائفتان: طائفة في غاية العلم بالله ممّا في وسع البشر أن يعلموه من الله. والطائفة الأخرى في غاية البعد والحجاب عن الله وهم الذين

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [سورة الروم: الآية ٧] وهم الذين لا يرون شيئاً فوق علم الرسوم، فهم يشبهون الطبقة العالية في كونهم تحت ما يقولون، كما أنهم شاركوهم في اسم العلم وانفصلوا عنهم بمن أغنى بالمعلوم أي ممّن تعلق علمهم، وهذا كله مدرك أهل أيام التشريق، فإن أكلوا فيها فمن حيث إنها أيام أكل وشرب وذكر، وإن صاموا فيها فمن حيث إنها أيام ذكر الله فشغلهم الذكر عن الأكل والشرب، فامتناعهم عن الأكل امتناع حال لا امتناع عبادة.

وصل في فصل ـ صيام يوم الفطر والأضحى: هذان اليومان محرم صومهما بحديث أبي هريرة وحديث أبي سعيد، أمّا حديث أبي سعيد الثابت فإنه قال: «**سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لاَ يَصِحُّ صِيَامُ يَوْمَيْنِ: يَوْمُ الفِطْرِ مِنْ رَمَضَانَ وَيَوْمُ النَّحْرِ**» وبه يحتجّ من يرى صيام أيام التشريق لأن دليل الخطاب يقتضي أن ما عدا هذين اليومين يصحّ الصيام بها وإلاّ كان تخصيصهما عبثاً. وأما حديث أبي هريرة الثابت أيضاً في مسلم فهو: «**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَىٰ عَنْ صِيَامِ يَوْمَيْنِ: يَوْمِ الأَضْحَىٰ وَيَوْمِ الفِطْرِ**» ويوم الفطر هو يوم يفطر الناس والأضحى يوم يضحون، هكذا فسّره رسول الله ﷺ على ما ذكره الترمذيّ عن عائشة عن رسول الله ﷺ وقال فيه: حديث حسن صحيح. وسبب منع الصوم له في هذين اليومين لأن بالفطر والأضحى صحّ له التمييز بينه وبين ربه فعلم ما له وما لديه فحرم عليه التلبس بالصوم في هذين اليومين اللذين هما دليلان على العلم بالفارق والتمييز، فلم يتمكن مع ذلك التلبس بالصوم فإن الصوم لله إذ كان صفة صمدانية منزّهة من كانت صفته عن الطعام والشراب، فلو تلبس بالصوم مع مشاهدة وجه هذا الدليل لم يكن صادقاً في إخباره عن نفسه أنه في هذا المقام فكان فطره في هذين اليومين عبادة وتكليفاً مشروعاً ليجمع بين الحالتين، فأعطاه الكشف العبادة من ذلك لما ذكرناه، وأعطاه التكليف الشرعي الأجر في ذلك إذ عمل بحكمه لما نهاه ﷺ عن صيامهما، ولهذا قلنا في رؤية هلال الفطر أنه مستقبل عبادة كما علّله بعض العلماء في هلال الصوم وغاب عن تحريم الصوم في هلال الفطر فأوجب في رؤيته شاهدين.

وصل في فصل ـ من دعي إلى طعام وهو صائم: فمن قائل: يجيب الداعي ولا بدّ بالاتفاق، واختلفوا هل يفطر أو يبقى على صومه؟ فمن قائل: إنه يعرّف صاحب الدعوة أنه صائم ويدعو له وبه قال أبو هريرة. ومن قائل: إنه لا يأكل ويصلي الصلاة المشروعة غير المكتوبة ويدعو للداعي وبه يقول أنس. ومن قائل: هو مخيّر بين الفطر وتمام الصوم ولكن إن أفطر قضاه وبه يقول طلحة بن يحيى وغيره. ومنهم قائل: إن شاء أفطر ولا قضاء عليه وبه يقول شريك ومجاهد. ومن قائل: يفطر إن شاء ما لم ينتصف النهار وبه يقول جعفر ابن الزبير. ومن قائل: بالتخيير في القضاء إذا أفطر وبه تقول أمّ هانىء وسماك بن حرب.

اعلم وفقك الله توفيق العارفين أن الذي يشرع في الصوم ابتداء من نفسه من غير أن يعين الحق عليه ذلك اليوم الذي يصبح فيه صائماً فإنه عقد عقده مع الله على طريق القربة إليه تعالىٰ من هذه العبادة الخاصة التي تلبس بها وشرع فيها والله يقول له: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٣٣] فإن كان في مقام السلوك فلا يعوّد نفسه نقض العهد مع الله تعالىٰ فإن الله

يقول: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٠] ولا سيما فيما أوجبته على نفسك وعقدت عليه مع ربك وهو قوله: «**لاَ إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ**» وإن كان من أهل العلم بالله الأكابر الذين حكموا أنفسهم وصحّت لهم الخلافة على نفوسهم فهم لا يرون متكلماً ولا آمراً ولا داعياً في الوجود إلاّ الله على ألسنة العباد كما قال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ قَالَ عَلَىٰ لِسَانِ عَبْدِهِ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**» فهم في جميع نطق العالم كله حالاً ومقالاً بهذه الصفة، فإن صحة مقام الشهود تحكم عليهم بذلك فإنهم لا ينكرون ما يعرفون، وكما يقول المحجوب: فلان تكلم يقول صاحب هذا المقام: الحق تكلم على لسان هذا العبد بكذا وكذا أي شيء كان، ثم إن المتكلم لا يخلو إمّا أن يكون في هذا المقام أيضاً فيرى أنه ينطق بالحق لا بنفسه أو لا يكون في هذا المقام، فللمدعوّ أن ينظر في حال الداعي، فإن دعاه بربه أجاب دعوته وقال: إني صائم ولم يأكل ودعا لأهل البيت وصلّى عندهم، وإن شاء أكل إن عرف أن أكله ممّا يسرّ به الداعي فهو مخيّر لكماله وتحقّقه بالصفة فإن الكامل له التخيير في المشيئة أبداً فإن شاء وإن شاء ما لم يعزم فإن عزيمته مثل قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] ومثل قوله: ولا بدّ له من لقائي، وأمثال ذلك.

وإن دعاه هذا الداعي بنفسه فإنه لا يدعو إلاّ مثله فإنه ما يدعو إلاّ من يصحّ منه الأكل والشرب، ولولا ما هذا شهوده ما دعاه، فليس لهذا السامع أن يأكل وليتم صومه ولا بدّ فإن حق الله أحق بالقضاء، وقد تعين عليه حق الله بما أدخل نفسه من هذا التلبس بالصوم. فإن قالت له نفسه الأكلة ما دعاك إنما كانت الدعوة لي لا لك فإجابتي لدعوته هو عين أكلي، فإنه يقول لها: إنما كان لك ذلك لو لم تدخل نفسك ابتداء مع الحق في هذه العبادة من غير أن يلزمك بها فلما تلبست بها تعين عليك إتمامها، فإن ذلك من حقك الذي أوجبته على نفسك وحقك عليك أولى من حق غيرك عليك وقد عرّفك الحق بذلك على لسان نبيك فقال: «**إِنَّ أَفْضَلَ الصَّدَقَاتِ مَا تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَىٰ نَفْسِكَ**» وقال في القاتل نفسه: «**حُرِّمَتْ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ**». وقال في القاتل غيره إذا مات ولم يقتص منه: «**إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ**» فإن أفطرت فرّطت في حق نفسك وأدّيت حق غيرك وفي حق نفسك حق الله فتمنعها من الفطر وتشغلها بالصلاة عوضاً من ذلك، يريد أنه يكون مناجياً لله تعالىٰ الذي هو أشرف داع وأكمله، وقد دعاه إلى الصلاة في هذه الحال فإنه قال له على لسان نبيه ﷺ: «**وَإِنْ كَانَ صَائِماً فَلْيُصَلِّ**» فأمره بالصلاة في هذه الحال.

وصل في فصل ـ صيام الدهر: لا يصحّ إلاّ للدهر لا لغير الدهر، فإن صيام الدهر في حق الإنسان إنما هو أن يصوم السنة بكمالها، ولا يصحّ له ذلك من أجل يوم الفطر والأضحى، فإن الفطر فيهما واجب بالاتفاق فلهذا ما يصحّ، فإن الدهر اسم الله والصوم له فما كان لله فما هو لك وإنما يكون لك ما لم يحجره عليك، فإذا حجره وهو بالأصالة ليس لك فقد أخبرك أنه لا يحصل فإن فعلته عملت في غير معمل وطمعت في غير مطمع.

وصل في فصل ـ صيام داود ومريم وعيسىٰ عليهم السلام: أفضل الصيام وأعدله صوم

يوم في حقك، وصوم يوم في حق ربك، وبينهما فطر يوم فهو أعظم مجاهدة على النفس وأعدل في الحكم، ويحصل له في مثل هذا الصوم حال الصلاة كحالة الضوء من نور الشمس، فإن الصلاة نور والصبر ضياء وهو الصوم والصلاة عبادة مقسومة بين رب وعبد، وكذلك صوم داود عليه السلام صوم يوم وفطر يوم، فتجمع ما بين ما هو لك وما هو لربك. ولما رأى بعضهم أن حق الله أحق لم ير التساوي بين ما هو لله وما هو للعبد فصام يومين وأفطر يوماً وهذا كان صوم مريم عليها السلام فإنها رأت أنّ للرجال عليها درجة فقالت: عسى اجعل هذا اليوم الثاني في الصوم في مقابلة تلك الدرجة وكذلك كان، فإن النبيّ ﷺ شهد لها بالكمال كما شهد به للرجال. ولما رأت أن شهادة المرأتين تعدل شهادة الرجل الواحد فقالت: صوم اليومين مني بمنزلة اليوم الواحد من الرجل فنالت مقام الرجال بذلك فساوت داود في الفضيلة في الصوم، فهكذا من غلبت عليه نفسه فقد غلبت عليه ألوهيته، فينبغي أن يعاملها بمثل ما عاملت به مريم نفسها في هذه الصورة حتى تلحق بعقلها، وهذه إشارة حسنة لمن فهمها، فإنه إذا كان الكمال لها لحوقها بالرجال فالأكمل لها لحوقها بربها كعيسىٰ ابن مريم ولدها فإنه كان يصوم الدهر ولا يفطر، ويقوم الليل فلا ينام، وكان ظاهراً في العالم باسم الدهر في نهاره وباسم القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم في ليله، فادّعي فيه الألوهية فقيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٧٢] وما قيل ذلك في نبيّ قبله فإنه غاية ما قيل في العزير أنه ابن الله ما قيل هو الله، فانظر ما أثرت هذه الصفة من خلف حجاب الغيب في قلوب المحجوبين من أهل الكشف حتى قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ فنسبهم إلى الكفر في ذلك إقامة عذر لهم فإنهم ما أشركوا بل قالوا هو الله، والمشرك من يجعل مع الله إلهاً آخر فهذا كافر لا مشرك فقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ فوصفهم بالستر، واتخذوا ناسوت عيسىٰ مجلى، ونبّه عيسىٰ على هذا المقام فيما أخبر الله تعالىٰ تثبيتاً لهم فيما قالوا فقال المسيح: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٧٢] فقالوا كذلك نفعل فعبدوا الله فيه ثم قال لهم: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٧٢] أي حرّم الله عليه كنفه الذي يستره والله قد وصفهم بالستر حيث وصفهم بالكفر، فهي آية يعطي ظاهرها نفس ما يعطي ما هو عليه الأمر في ذلك والتأويل فيها يلحق بالذم، فإن تفطنت لما ذكرناه وقعت في بحر عظيم لا ينجو من غرق فيه أبداً فإنه بحر الأبدّ، فما أحكم كلام الله لمن نظر فيه واستبصر وكان من الله فيه على بصيرة.

وصل في فصل ـ صوم المرأة التطوّع وزوجها حاضر: ذكر مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تَصُومُ المَرْأَةُ وَبَعْلُهَا شَاهِدٌ إلاَّ بِإِذْنِهِ**» الحديث، الاتفاق على وجوب صوم رمضان، ولهذا زاد أبو داود في هذا الحديث: «**غَيْر رَمَضَانَ**» فاعلم أن المرأة هي النفس المؤمنة وبعلها المتحكم فيها إنما هو إيمانها بالشرع لا الشرع. ثم الشارع يشرع لإيمانها به ما شاء أن يشرع، فلا تدخل في فعل ولا تشرع في عمل إلاّ بإذنه أي بحكمه، وقليل من عباد الله

من يفعل هذا، فتلحظ حكم الشرع في جميع أفعاله عند الشروع في الفعل، فلو أنهم فعلوا ذلك لكان خيراً لهم ولهذا يفوتهم خير كثير وعلم كبير.

وصل في فصل ـ صوم المسافر: ثبت في الصحيحين مسلم والبخاري عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيسَ مِنَ البرِّ أَنْ تَصُومُوا فِي السَّفَرِ**» لفظة «من» في هذا الحديث من رواية البخاريّ، فإن حديث مسلم ليس البر بغير من سمّى السفر سفراً لأنه يسفر عن أخلاق الرجال لما فيه من المشقة والجهد لأهل الثروة ولليسار فكيف حال الضعفاء؟ فمن أسفر له عمله عن عامله صار عن صومه بمعزل وتركه للعامل فلا يدّعيه مع أنه صائم، وهذا هو الصوم الذي لا يشوبه رياء عنده فإنه ليس من البرّ أو ليس البرّ أن يدّعي الإنسان فيما يعلم أنه ليس له أنه له ولو كان بربّه متحققاً وهذه إشارة فقف عندها فقد طال الكلام في هذا الباب.

وصل في فصل ـ في عدد أيام الوجوب في الصوم: عدد أيام الوجوب في الصوم مائتا يوم وستة وعشرون يوماً، والنذر لا ينضبط فنحصره وغايته سنة ينقص منها ستة أيام أو ثلاثة أيام من أجل من يحرّم صوم أيام التشريق أو يومين وهو موضع الاتفاق يوم الأضحى ويوم الفطر، وأقل النذر في الصوم يوم واحد، فإن نظرت إلى أقله قلت سبعة وعشرون يوماً ومائتان وما عدا هذا العدد فليس بواجب منها لمن جامع في رمضان والظهار، وقتل الخطأ ستون ستون ستون ومنها رمضان ثلاثون ومنها للفداء في الحجّ ثلاثة ولليمين ثلاثة وللتمتع عشرة وللنذر واحد على الأقل، ومنها ما هو واجب مخيّر وموسّع ومعين بالزمان مضيق، فاعلم أنه لو لم يكن بين الصوم وبين هذه الأفعال التي أوجبته أو الأفعال التي يكون عوضاً عنها مناسبة ما صحّ أن يقوم مقامها وذلك من كل صوم يكون كفارة وهو قولنا الواجب المخيّر، فمنه ما يحل به ما كان حرم عليه، ومنه ما يسقط به حق الله عليه، ومنه ما يسقط به حق الله وحق الغير عليه، وقيل لي لما عرفت بهذه الأيام ووجوبها قد وكلناك إلى نفسك في استخراج هذه المناسبات وما أنت وحدك بل كل من عرف بها حتى علمها حجر عليه أن يعلم بها إذا علمها بأي طريق فهذا منعني من إيضاح هذه المناسبات، فالوقوف عند الأوامر الإلهية والإشارات الربانية على أهل هذه الطريق واجب.

وصل في فصلٍ ـ السواك للصائم: ثبت في الحسان عن عامر بن ربيعة أنه قال: «**رَأَيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا لاَ أُحْصِي تَسَوَّكَ وَهُوَ صَائِمٌ**». فمن قائل به مطلقاً في سائر اليوم وبه أقول. ومن قائل بكراهيته له من بعد الظهر، فمن راعى حكم الخلوف كرهه وهو ناقص النظر في ذلك فإنه ثبت عن رسول الله ﷺ أنّ السوّاك مطهرة للفم ومرضاة للرب فهو طاهر مطهر يرضي الرب وينظف الأسنان من القلح والصفرة التي تطلع عليها. فإن البزار روى عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه: «**مَا لَكُم تَدْخُلُونَ عَلَيَّ قلحاً اسْتَاكُوا**» فذكر ما هو حظ البصر وما تعرّض للشم والخلوف لا يزيله السواك فإنه تغير في المعدة يظهره التنفس، فصاحب هذا النظر والذي يقول استنوق الجمل سواء، وإذا كان الخلوف من الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك فيوم القيامة تتغير رائحته برائحة المسك فما هو هناك خلوف، وما ورد

عن النبيّ ﷺ في حق الصائم نهي عن التسوّك في حال صومه أصلاً ولا كراهة بل هو أمر مندوب إليه مرغب فيه مطلقاً من غير تقييد بزمان ولا حال، وهو أقرب إلى الوجوب منه إلى الندب ممّا أكد فيه رسول الله ﷺ، وكان هذا الخبر جبراً لقلب الصائم لما ظهرت من فيه رائحة يتأذى منها جليسه إذا كان غير مؤمن، وأما المتحلي بالإيمان حاشاه من التأذي فإنه من الإيمان أن يعرف منزل الخلوف للصائم عند الله، فهو يستحسن للغرض النفسي ما يستقبحه السليم النظر فكيف حال المؤمن إذا أحسّ بما يرضي الرب يلهج به فرحاً؟ وعندنا بالذوق علامة إيمانه أن يدرك ذلك الخلوف مثل رائحة المسك هنا، فإذا ورد مثل هذا الخبر في تشريف هذه الرائحة على أمثالها من الروائح باعتناء الله بها انجبر قلب الصائم ورغب في الزيادة من الصوم وعلم أن الملائكة ورجال الله لا يتأذون في مجالسته من خلوف فمه، فإن الملائكة تتأذى ممّا يتأذى منه بنو آدم، ورد ذلك في روائح الثوم وأمثاله لا في خلوف فم الصائم، فإن تسوّك الصائم كان أعلى منزلة ممّن لم يتسوّك في أي وقت كان فإنه في زيادة عمل يرضي الله وهو التسوّك.

واعلم أن الخلوف ليس للإنسان وإنما هو أمر تقتضيه الطبيعة للتعفين الذي يكون فيما يبقى في المعدة من فضول الطعام ولم يحجبه بطعام جديد طيب الرائحة فيخرج النفس من القلب فيمرّ على المعدة فيخرج بما يمرّ عليه من طيب وخبيث حسّاً كما يجده الملك معنى إذا كذب العبد الكذبة تباعد منه الملك ثلاثين ميلاً من نتن ما جاء به يجد ذلك النتن من الكاذب بالإدراك الشميّ أهل الروائح، فإن كان حاكماً وهو من أهل هذا المقام وله هذا الحال وشهد عنده بالزور في حكومة تعين عليه أن لا يمضي الحكم للمشهود له وإن حكم له فإنه آثم عند الله، وهذه مسألة عظيمة الفائدة لأهل الأذواق، فإن الحاكم وإن لم يحكم بعلمه فلا يجوز له أن يخالف علمه أصلاً وذلك في الأموال. وأمّا في الأبشار فما يجب عليه إمضاء الحكم على المحكوم عليه لأمر آخر لا أحتاج إلى بيانه ولما كان الصوم سبب الخلوف والصوم لله وجب على المؤمن أن يحتمل ما يجده من خلوف فم الصائم وراعى الله تعالىٰ الواجد لذلك بأن أمر الصائم بتعجيل الفطر وتأخير السحور لإزالة الرائحة من أجل جلسائه وجعل له فرحة بالطبع بفطره.

اعتبار آخر في المقابلة: أمر بتعجيل الفطر وتأخير السحور لتكون المناجاة في هاتين الصلاتين بريح طيبة، إذ كان زمن الصوم قد انقضى فخلوفه بعد انقضاء زمن الصوم ما هو خلوف الصائم، فإن خلوف الصائم إنما هو في حال صومه، ثم إن الله يقول في هذا الخبر الذي أخبر رسول الله ﷺ: **«أَنَّ طِيبَ خُلُوفِ فَم الصَّائِم عِنْدَ اللَّهِ إِنَّمَا ذلك في يوم القيامة»**. إذا اتفق للصائم أن لا يزيله فإن أزاله بسواك أو بمَا لا يفطَر الصائم كان أطهر وأطيب، وانتقل من طيب إلى طيب وأرضى الله، فإن الخلوف لا أثر له في الصوم. وقد ورد أنّ الله أحق من تجمل له، ومن التجمل استعمال ما يطيب الروائح ويزيل ما فيها من الخبث فإن الله جميل يحب الجمال، وكل شيء فجماله بما يناسبه وما يقتضيه ممّا يتنعم به المدرك من طريق ذلك

الإدراك عينه من سمع وبصر وشم وذوق ولمس بمسموع ومبصر ومشموم ومطعوم وملموس.

ثم إنه قد ورد: «**صَلاةٌ بِسِواكٍ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ صَلاةٍ بِغَيْرِ سِواكٍ**» فمن باب الإشارة صلاتك بربك أفضل من صلاتك بنفسك، فأشار إلى السوى والسبعون إشارة في اعتبار الغالب في عمر الإنسان، فإن المسبعات كثيراً ما يعتبرها الشرع في البسائط والمركبات. وأما طريقة تفسير هذا الحديث فكونه جمع بين طهارتين: الوضوء والسواك، والمقصود بالوضوء هنا المضمضة وهي من فرائض الوضوء عندنا بالسنة والفم هو محل المناجاة، فإن الصلاة محادثة مع الله نهاراً ومسامرة ليلاً، واختصاص سرّاً أي مساررة، وتبليغ جهراً للقائم والقاعد والراقد على جنب، وإذا كنت من عالم الإشارة وصليت بسواك فلا تصل به إلاّ من اسمه السبوح القدّوس فإن القدّوس يعطي التسوّك، وإنما فرقنا في التعبير بين الإشارة والتحقيق لئلا يتخيل من لا معرفة له بما آخذ أهل الله أنهم يرمون بالظواهر فينسبونهم إلى الباطنية وحاشاهم من ذلك بل هم القائلون بالطرفين، كان شيخنا أبو مدين يذمّ الطرفين على الانفراد ويقول: إن الجامع بين الطرفين هو الكامل في السنة والمعرفة، والاشتراك وقع في تلفظه بسواك، والكاف في السواك أصلية من نفس الكلمة وهي في الاستثناء مضافة ما هي أصلية، ومن جعلها من باب التحقيق نظر إلى كون إضافة المخاطب أمراً واحداً فجعلها أصلية في الإضافة كالكلمة الواحدة، واعتبر التركيب فيها اعتبار تركيب الحروف في الكلمة، فلا يصحّ وجود إضافة مثل هذا الخطاب إلاّ بكاف الإضافة، كما لا يصحّ اسم السواك بغير كاف، فانظر ما أدق نظر أهل الله هذا لو كان ذلك عن فكر، لقد كانوا يفضلون به غيرهم فكيف بمن ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ**﴾ [سورة النجم: الآية ٣ ـ ٥] إن الله هو الرزاق والعلم رزق الأرواح ذو القوّة المتين.

وصل في فصل ـ من فطر صائماً: لما ورد الخبر الذي خرّجه الترمذيّ عن زيد بن خالد الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ فَطَّرَ صَائِماً كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْءٌ**». وقال فيه: حديث صحيح، فالصائم له أجر في فطره كما كان له في صومه، فلمن فَطره أجر فطره لا أجر صومه فافهم. وعلمنا من هذا الخبر أن الفطر من تمام الصوم، وأنه من أعان شخصاًعلى عمل كان مشاركاً له فيما يؤدّي إليه ذلك العمل من الخير لا مشاركة توجب نقصاً بل هو على التمام لكل واحد من الشريكين كما جاء في الحديث: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً**» الحديث، فجعل الفطر من تمام الصوم وأنه جزء منه، ومن تلبس بجزء من الشيء المتناسب الأجزاء حصل له خير ذلك الشيء وإن لم يحصل ولا اتصف بذلك الأمر كله كما اتصف به صاحبه كمن اتصف بجزء من أجزاء النبوّة فله أجر من ثبتت له النبوّة وفضلها من غير أن يتلبس بها كلها فليس بنبيّ، ولهذا ورد: «**أَنَّهُ يَأْتِي يَومَ القِيَامَةِ نَاسٌ لَيسُوا بِأَنْبِيَاءَ يَغْبِطُهُم الأَنْبِيَاءُ**» إذ كانت الأنبياء نالت هذه الفضيلة بما في النبوّة من الأثقال والمشاق، وهؤلاء بجزء منها قد اتصفوا أو أكثر من جزء وتلبسوا به، وربما كان هذا الجزء منها وممّا لا مشقة فيه

ونالوا فضل من تلبس بها كلها كالفقير مع صاحب المال فيما يتمناه من فعل الخير إذا رأى صاحب المال أو العلم يفعل في ذلك ما لا يتمكن للفقير فعله فهما في الأجر سواء وما اشتركا إلاّ في النيّة، وزاد عليه صاحب النيّة بسقوط الحساب والمسألة فيم أنفق وممّ اكتسب، فهؤلاء هم الذين يغبطهم النبيون في ذلك المقام، ولكن في القيامة في الموقف لا في الجنة وهو قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٣] فإن الرسل تخاف على أممها لا على أنفسها، والمؤمنون خائفون على أنفسهم لما ارتكبوه من المخالفات، وهؤلاء ما لهم أتباع يخافون عليهم ولا ارتكبوا مخالفة توجب لهم الخوف فلا يحزنهم الفزع الأكبر، وكذلك الأنبياء يعطى لكل نبيّ أجر الأمّة التي بعث إليهم سواء آمنوا به أو كفروا، فإن نيّة كل نبيّ يودّ لو أنهم آمنوا فتساوى الكل في أجر التمني ويتميز كل واحد عن صاحبه في الموقف بالاتباع، فالنبيّ يأتي ومعه السواد الأعظم وأقل وأقل حتى يأتي نبيّ ومعه الرجلان والرجل، ويأتي النبيّ وليس معه أحد، والكل في أجر التبليغ سواء وفي الأمنية، فمن فطر صائماً فقد اتصف بصفة إلهية وهي اسمه الفاطر فإن الله فطر الصائم مع غروب الشمس سواء أكل أو لم يأكل أو شرب أو لم يشرب فهو مفطر شرعاً، وأخرجه غروب الشمس من التلبس بالصوم وهذا فطره بما أطعمه، فلما حصل في هذه الدرجة كان متخلقاً بما هو لله كما كان الصائم متلبساً في صومه بما هو لله من التنزيه عن الطعام والشراب والصاحبة وكل وصف مفسد للصوم.

وصل في فصل ـ صوم الضيف: لما خرّج الترمذيّ عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ نَزَلَ عَلَىٰ قَوْمٍ فَلاَ يَصُومَنَّ تَطَوُّعاً إِلاَّ بِإِذْنِهِمْ**»، علمنا أن الصوفية أضياف الله فإنهم سافروا من حظوظ أنفسهم وجميع الأكوان إيثاراً للجناب الإلهيّ فنزلوا به، فلا يعملون عملاً إلاّ بإذن من نزلوا عليه وهو الله، فلا يتصرّفون ولا يسكنون ولا يتحرّكون إلاّ عن أمر إلهيّ، ومن ليست له هذه الصفة فهو في الطريق يمشي يقطع مناهل نفسه حتى يصل إلى ربّه فحينئذ يصحّ أن يكون ضيفاً، وإذا أقام عنده ولا يرجع كان أهلاً لأن أهل القرآن وهو الجمع به تعالىٰ هم أهل الله وخاصته.

حكاية: كان شيخنا أبو مدين بالمغرب قد ترك الحرفة وجلس مع الله على ما يفتح الله له، وكان على طريقة عجيبة مع الله في ذلك الجلوس فإنه ما كان يردّ شيئاً يؤتى إليه به مثل الإمام عبد القادر الجيليّ سواء، غير أن عبد القادر كان أنهض في الظاهر لما يعطيه الشرف فقيل له: يا أبا مدين لم لا تحترف أو لم لا تقول بالحرفة؟ فقال: أقول بها، فقيل له: فلم لا تحترف؟ فقال: الضيف عندكم إذا نزل بقوم وعزم على الإقامة كم توقيت زمان وجوب ضيافته عليهم؟ قالوا: ثلاثة أيام، قال: وبعد الثلاثة الأيام؟ قالوا: يحترف ولا يقعد عندهم حتى يحرجهم، قال الشيخ: الله أكبر أنصفونا نحن أضياف ربنا تبارك وتعالىٰ نزلنا عليه في حضرته على وجه الإقامة عنده إلى الأبد فتعينت الضيافة، فإنه تعالىٰ ماد لّ على كريم خلق لعبده إلاّ كان هو أولى بالاتصاف به، قالوا: نعم، قال: وأيام ربنا كما قال: كل يوم كألف سنة ممّا تعدّون، فضيافته بحسب أيامه، فإذا أقمنا عنده ثلاثة آلاف سنة وانقضت ولا نحترف

يتوجّه اعتراضكم علينا ونحن نموت وتنقضي الدنيا ويبقى لنا فضلة عنده تعالىٰ من ضيافتنا، فاستحسن ذلك منه المعترض، فانظر في هذا النفس إن كنت منهم.

وصل في فصل ـ استيعاب الأيام السبعة بالصيام: لما ورد في الخبر الذي خرّجه الترمذي عن عائشة قالت: «**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ مِنَ الشَّهْرِ: السَّبْتَ وَالأَحَدَ والاثْنَيْن، وَمِنَ الشَّهْرِ الآخَرِ: الثُّلاثَاءَ وَالأَربعَاءَ وَالخَمِيسَ**» علمنا أنه ﷺ أراد أن يتلبس بعبادة الصوم في كل يوم من أيام الجمعة إمّا امتناناً منه على ذلك اليوم، فإن الأيام تفتخر بعضها على بعض بما يوقع العبد المعتبر فيها من الأعمال المقرّبة إلى الله من حيث إنها ظرف له، فيريد العبد الصالح أن يجعل لكل يوم من أيام الجمعة وأيام الشهر وأيام السنة جميع ما يقدر عليه من أفعال البرّ حتى يحمده كل يوم ويتجمل به عند الله ويشهد له، فإذا لم يقدر في اليوم الواحد أن يجمع جميع الخيرات فيفعل فيه ما يقدر عليه، فإذا عاد عليه من الجمعة الأخرى عمل فيه ما فاته فيه في الجمعة الأولى حتى يستوفي فيه جميع الخيرات التي يقدر عليها، وهكذا في أيام الشهر وأيام السنة.

واعلم أن الشهور تتفاضل أيامها بحسب ما ينسب إليه، كما تتفاضل ساعات النهار والليل بحسب ما ينسب إليه، فيأخذ الليل من النهار من ساعته، ويأخذ النهار من الليل والتوقيت من حيث حركة اليوم الذي يعمّ الليل والنهار، كذلك أيام الشهور تتعين بقطع الدراري في منازل الفلك الأقصى لا في الكواكب الثابتة التي تسمّى في العرف منازل، وللقمر أيام معلومة في قطع الفلك، وللكاتب أيام أخر، وللزهرة كذلك، وللشمس كذلك، وللأحمر كذلك، وللمشتري كذلك، وللمقاتل كذلك، فينبغي للعبد أن يراعي هذا كله في أعماله، فإنه ما له من العمر بحيث أن يفي بذلك، فإن أكبر هذه الشهور لا يكون أكبر من نحو ثلاثين سنة لا غير، وأمّا شهور الكواكب الثابتة في قطعها في فلك البروج فلا يحتاج إليه لأن الأعمار تقصر عن ذلك لكن لها حكم في أهل جهنم، كما أنه لحركات الدراري حكم على من هو في الدرك الأسفل من النار وهم المنافقون خاصة، والباطنية ما لهم في الدرك الأسفل منزل وأن منزلهم الأعلى من جهنم والكفار لهم في كل موضع من جهنم منزل. وأمّا أهل الجنان فالدائر عليهم فلك البروج ولا يقطع في شيء فلا تنتهي حركته بالرصد لأن الرصد لا يأخذه وهو متماثل الأجزاء، فلهذا كانت السعادة لا نهاية لها، فظهر بها الخلود الدائم في النعيم المقيم إلى ما لا يتناهى، والنار ما حكمها حكم أهل النعيم، فإن الدائر عليهم فلك المنازل والدراري، وهذه الأفلاك تقطع في فلك متناهي المساحة، فلهذا يرجى لهم أن لا يتسرمد عليهم العذاب مع كون النار دار ألم، والعذاب حكم زائد على كونها داراً، فإنا نعلم أن خزنتها في نعيم دائم ما هم فيها بمعذبين مع كونهم ما هم منها بمخرجين لأنهم لها خلقوا وهي دائمة والساكن فيها دائم لكونه مخلوقاً لها، فتحقق ما ختمنا به هذا الصوم من سبق الرحمة وغلبتها صفة الغضب، والله أجلّ وأعلى أن لا يكون له في كل منزل تجلّ وهو تعالىٰ الخير المحض الذي لا شرّ فيه، والوجود الذي لا عدم يقابله، والوجود رحمة مطلقة في

الكون، والعذاب شيء يعرض لأمور تطرأ وتعرض، فهو عرض لعارض والعوارض لا تتصف بالدوام ولو اتصفت ما كانت عوارض وما هو عارض قد لا يعرض، فلهذا يضعف القول بتسرمد العذاب، فإن الرحمة شملت آدم بجملته وكان حاملاً لكل بنيه بالقوّة فعمّت الرحمة الجميع إذ لا تحجير ولا كان يستحق أن يسمّى آدم مرحوماً وفيه من لا يقبل الرحمة والحق يقول: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ أي رجع عليه بالرحمة وبين له أنه رجع عليه بها فعمته، ولله الحمد والله عند حسن ظنّ عبده به.

وصل في فصل ـ قيام رمضان: ليس لاسم إلهيّ حكم في شهر رمضان إلاّ الاسم الإلهيّ رمضان وفاطر السموات والأرض في كل عبد، سواء كان ممّن يجب عليه صوم رمضان أم لا يجب عليه، إلاّ عدّة من أيام أخر وذلك في كل فعل عبادة يقام فيها العبد، فمن جملة أفعال البرّ فيه قيام ليله لمناجاة رمضان تبارك وتعالىٰ، تارة على الكشف إذا كان مواصلاً، وتارة من خلف حجاب الاسم الفاطر فإن الأسماء الإلهية يحجب بعضها بعضاً، وإن كان لكل واحد من الحاجب والمحجوب سلطنة الوقت، فإن بعضها أولى بالحجابة من بعض وذلك سار في جميع أحوال الخلق. ذكر أبو أحمد بن عديّ الجرجاني من حديث عمرو بن أبي عمرو عن المطلب عن عائشة قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ شَدَّ مِئْزَرَهُ فَلَمْ يَأْوِ إِلَىٰ فِرَاشِهِ حَتَىٰ يَنْسَلِخَ رَمَضَانُ» وخرّج أيضاً مسلم عنها أنها قالت: **«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ تَعْنِي العَشْرَ الآخِرَ مِنَ رَمَضَانَ أَحيَا اللَّيلَ وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ وَجَدَّ وَشَدَّ المِئْزَرَ»** وقيام الليل عبارة عن الصلاة فيه، هذا هو المعروف من قيام الليل في العرف الشرعي، والناس في مناجاة الحق فيه على قسمين: فمنهم من يناجيه بالاسم الممسك وهو أيضاً من حجاب الاسم رمضان، ومنهم من يناجيه بالاسم الفاطر وهو أيضاً من حجابه، والناس على اختلاف في أحوالهم: [البسيط]

لولا مزاحمةُ الرحمٰن أعمالي ... ما زاحمَتْهُ على التكوين إخواني
يقول كُنْ وحصولُ الكون ليس لنا ... وما له في وجود الكوْن من ثاني
يقول صُمْ فإذا صُمْنَا يقول لنا ... هذا الصيامُ لنا فأين أعياني
إن قلتَ لي لم أخاطِبْكم بما هو لي ... فلي شهودٌ على التكليف آذاني
أسْمَعْتني ثم بعد السمع تسلُبُني ... فالصومُ لي ولكم في الشرع قِسْمانِ
إن كنت تسلبني عنه فشأنكمو ... في الصوم ما هو في التحقيق من شاني

والاسم الفاطر على هذا في ليل شهر رمضان أقوى حكماً فينا من الممسك، فمن كان حاله في إمساكه يطعمه ربه ويسقيه في مبيته في حال كونه ليس بآكل ولا شارب في ظاهره فهو مفطر وإن كان صائماً وقد ذقت هذا، ومن هنا علمت أن قوله ﷺ: **«لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي»** أنه نفى أن تشبهه تلك الجماعة التي خاطبهم فلم يكن لهم هذه الحالة إذ لو أراد الأمّة كلها ما ذقته وقد وجدته ذوقاً والحمد لله، وإن لم يكن ممّن يطعمه ربه ويسقيه في حال وصال صومه فهومتطفل على من هذه صفته وهو كلابس ثوبي زور، ولذلك يكره له

الوصال إذا لم تكن له هذه الصفة حالاً يشهدها ذوقاً في نفسه ويظهر أثرها عليه في يقظته، والله يحب الصدق في موطنه كما يحب الكذب في موطنه، وهذا ليس بموطن حب الكذب فإن الله يكرهه في هذا الموطن. انتهى الجزء الستون.

(الجزء الحادي والستون)

بسم الله الرحمن الرحيم

[فصل - في ليلة القدر]*

فإذا ناجى الله العبد في هذا الزمان الخاص بالحال الإلهيّ الخاص فينبغي أن يحضر معه الحضور التامّ الذي لا يلتفت معه إلى غيره بجمعيته، فيناجيه في كل حركة منه وسكون حسّاً من حيث إنه هو الباطن ومعنى من حيث إنه هو الظاهر، إذ كان الحسّ ظاهراً والمعنى باطناً فلا يقوم المعنى إلاّ بين يدي الظاهر، فإنه لو قام بين يدي الباطن والمعنى باطن الحرف الذي هو المحسوس والحسّ كان قيام الشيء بين يدي نفسه، والشيء لا يقوم بين يدي نفسه لأنه قام للاستفادة والشيء لا يستفيد من نفسه نفسه، ألا ترى نزول الحق للتعليم والتعريف لنا وهو العليم بكل شيء بما كان ويكون، ومع هذا أنبأ عن حقيقة لا نردّ تعليماً لنا بما هو الأمر عليه وأن الحكم للأحوال، فأنزل نفسه منزلة المستفيد وجعل المفيد له من خطابه فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] مع أنه هو العالم بما يكون منهم، ولكن الحال يمنع من إقامة الحجة له سبحانه علينا وقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] فلم يبق بالابتلاء لأحد حجة على الله، فحسم بذلك الابتلاء احتمال قولهم لو حكم بعلمه فيهم أن يقولوا: لو بلوتنا وجدتنا واقفين عند حدودك، وهذا يسمّى علم الخبرة وهو الاسم الخبير في قوله تعالىٰ: ﴿عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [سورة النساء: الآية ٣٥] فهذه رائحة إلهية في الاستفادة للشيء من غيره لا من نفسه فنحن أولى بهذه الصفة، فلذلك جعلنا ظاهر العبد يناجي الاسم الباطن، وباطن العبد يناجي الاسم الظاهر ويقوم بين يديه قيام مستفيد فيهبه ما شاء أن يهبه، فإذا رأيت المستفيد قد استفاد في قيامه خرق العوائد المدركة بالحسّ المسماة كرامات الأولياء في العموم وآيات الأنبياء الرسل عليهم السلام فذلك أعطية الاسم الظاهر، وإذا رأيته قد استفاد علوماً وحكماً تحار العقول فيها أو تردّها أو تقبلها من حيث ما يدركها بالقوّة المفكرة فذلك كله أعطية الاسم الباطن، فاجعل بالك لما نبهتك عليه ونصحتك لتعلم من تناجي ولا تخلط فيخلط عليك فإن الله يقول: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩] وقال: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٤] ثم نفى المكر عنهم فقال؛ بل ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [سورة الرعد: الآية ٤٢] يعني المكر المضاف إلى عباده والمكر المضاف إليه سبحانه، والله سبحانه قد أمرني على لسان نبيه ﷺ بالنصيحة لله ولرسوله ولأئمة

(*) زيادة يقتضيها السياق.

المسلمين وعامّتهم خطاباً عاماً، ثم خاطبني على الخصوص من غير واسطة غير مرّة بمكة وبدمشق فقال لي: انصح عبادي في مبشرة أريتها فتعين علي الأمر أكثر ممّا تعين على غيري، فالله يجعل ذلك لي من الله عناية وتشريفاً لا ابتلاء وتمحيصاً، فمن قام بين يدي الله تعالىٰ بهذه المعرفة فهو القائم وإن كان نائماً فإنه ما نام إلاّ به، ومن لم يقم بين يديه بهذه المعرفة فهو نائم وإن كان قائماً، فكن رقيباً عليه في قلبك فإنه الذي وسعه كما هو رقيب عليك، فإنك لا تعلم مواقع آثاره فيك وفي غيرك إلاّ بالمراقبة. واعلم أن القائمين في شهر رمضان في قيامهم على خاطرين: منهم القائم لرمضان، ومنهم القائم لليلة القدر التي هي خير من ألف شهر والناس فيها على خلاف، والقائم فيه لرمضان لا يتغير عليه الحال بزيادة ولا نقصان، والقائم لليلة القدر يتغير عليه الحال بحسب مذهبه فيها.

واختلف الناس في ليلة القدر أعني في زمانها، فمنهم من قال: هي في السنة كلها تدور وبه أقول فإني رأيتها في شعبان وفي شهر ربيع وفي شهر رمضان، وأكثر ما رأيتها في شهر رمضان وفي العشر الآخر منه، ورأيتها مرّة في العشر الوسط من رمضان في غير ليلة وتر وفي الوتر منها، فأنا على يقين من أنها تدور في السنة في وتر وشفع من الشهر الذي ترى فيه، فمن قام من أجل ليلة القدر فقد قام لنفسه وإن كان قيامه لترغيب الحق في التماسها، ومن قام لأجل الاسم الذي أقامه رمضان أو غيره فقيامه لله لا لنفسه وهو أتمّ والكل شرع، فمن الناس عبيد ومنهم أجراء، ولأجل الإجارة نزلت الكتب الإلهية بها بين الأجير والمستأجر، فلو كانوا عبيداً ما كتب الحق كتاباً لهم على نفسه فإن العبد لا يوقت على سيده إنما هو عامل في ملكه ومتناول ما يحتاج إليه، فهؤلئك لهم أجرهم والعبيد لهم نورهم وهو سيدهم فإنه نور السموات والأرض قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٩] يعني الأجراء وهم الذين اشترى الحق منهم أنفسهم ونورهم وهم العبيد والإماء، جعلنا الله وإياكم من أعلاهم مقاماً وأحبهم إليه إنه الوليّ المحسان.

واعلم أن ليلة القدر إذا صادفها الإنسان هي خير له فيما ينعم الله به عليه من ألف شهر إن لو لم تكن إلاّ واحدة في ألف شهر فكيف وهي في كل اثني عشر شهراً في كل سنة، هذا معنى غريب لم يطرق أسماعكم إلاّ في هذا النص، ثم يتضمن معنى آخر وهو أنها خير من ألف شهر من غير تحديد، وإن كان الزائد على ألف شهر غير محدود فلا يدري حيث ينتهي، فما جعلها الله أنها تقاوم ألف شهر بل جعلها خيراً من ذلك أي أفضل من ذلك من غير توقيت، فإذا نالها العبد كان كمن عاش في عبادة ربه مخلصاً أكثر من ألف شهر من غير توقيت كمن يتعدّى العمر الطبيعيّ يقع في العمر المجهول وإن كان لا بدّ له من الموت، ولكن لا يدري هل بعد تعدية العمر الطبيعيّ بنفس واحد وبآلاف من السنين، فهكذا ليلة القدر إذا لم تكن محصورة كما قدّمنا.

واعلم أن الشهر هنا بالاعتبار الحقيقيّ هو العبد الكامل إذا مشى القمر الذي جعله الله نوراً فأعطاه اسماً من أسمائه ليكون هو تعالىٰ المراد لا جرم القمر، فالقمر من حيث جرمه

مظهر من مظاهر الحق في اسمه النور فيمشي في منازل عبده المحصورة في ثمانية وعشرين، فإذا انتهى سمّي شهراً على الحقيقة لأنه قد استوفى السير واستأنف سيراً آخر هكذا من طريق المعنى دائماً أبداً، فإن فعل الحق في الكائنات لا يتناهى فله الدوام بإبقاء الله تعالىٰ، كما أن العبد يمشي في منازل الأسماء الإلهية وهي تسعة وتسعون، التاسع والتسعون منها الوسيلة وليست إلاّ لمحمد ﷺ، والثمانية والتسعون لنا كالثمانية والعشرين من المنازل للقمر، ويسميه بعض الناس الإنسان المفرد، والعشرون خمس المائة لأنها في الأصل مائة اسم لكن الواحد أخفاه للوترية فإن الله وتر يحب الوتر، فالذي أخفاه وتر والذي أظهره وتر أيضاً، وإنما قلنا منبهين على منازل القمر ثمانياً وعشرين منزلة لأنها قامت من ضرب أربعة في سبعة، ونشأة الإنسان قامت من أربعة أخلاط مضروبة في سبع صفات من حياة وعلم وإرادة وقدرة وكلام وسمع وبصر، فكان من ضرب المجموع بعضه في بعضه الإنسان، ولم يكن له ظهور إلاّ بالله من اسمه النور لأن النور له إظهار الأشياء وهو الظاهر بنفسه، فحكمه في الأشياء حكم ذاتي، كذلك الشهر ما ظهر إلاّ بسير القمر من حيث كونه نوراً في المنازل، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٩] فإذا انتهى فيها سيره فهو الشهر المحقق وما عداه ممّا سمّي شهراً فهو بحسب ما يصطلح عليه فلا منافرة، ولله تعالىٰ في كل منزلة من العبد ينزلها اسم النور حكم خاص قد ذكرناه في هذا الكتاب في نعت السالك الداخل والسالك الخارج أيضاً، والفاصل بين السلوكين ليلة الإبدار وهي ليلة النصف من ثمانية وعشرين ليلة الرابع عشر من الشهر المحقق وليلة السرار منه والنور فيه كامل أبداً فإن له وجهين والتجلي له لازم لا ينفك عنه، فإما في الوجه الواحد وإما في الوجهين بزيادة ونقص في كل وجه، فله الكمال من ذاته لا بدّ منه، وله الزيادة والنقص من كونه له وجهان، فكلما زاد من وجه نقص من وجه آخر وهو هو لحكمة قدرها العزيز العليم: [الطويل]

وفي كفَّتَيْ ميزاننا لك عبرةٌ … وأنت لسانٌ فيه إن كنتَ تعْقِلُ
إذا رجَحَتْ إحداهما طاشَ أختُها … وأنتَ لما فيها تَميلُ وتَسْفُلُ

وجعل سبحانه إضافة الليل إلى القدر دون النهار، لأن الليل شبيه بالغيب والتقدير لا يكون إلاّ غيباً لأنه في نفس الإنسان، والنهار يعطي الظهور، فلو كان بالنهار لظهر الحكم في غير محله ومناسبه، فإن الفعل في الظاهر لا يظهر إلاّ على صورة ما هو في النفس، فخرج من غيب إلى شهادة بالنسبة إلى الله ومن عدم إلى وجود بالنسبة إلى الخلق فهي ليلة يفرق فيها كل أمر حكيم فينزل الأمر إليها عيناً واحدة ثم يفرق فيها بحسب ما يعطيه من التفاصيل، كما تقول في الكلام إنه واحد من كونه كلاماً، ثم يفرق في المتكلم به بحسب أحوال الذي يتكلم به واستخبار وتقرير وتهديد وأمر ونهي وغير ذلك من أقسام الكلام مع وحدانيته، فهي ليلة مقادير الأشياء والمقادير ما تطلب سوانا فلهذا أمرنا بطلب ليلة القدر وهو قوله ﷺ: «**التَمِسُوهَا**» لِنَسْتَقْبِلَهَا كَمَا يُسْتَقْبَلُ القَادِمُ إِذَا جَاءَ مِنْ سَفَرِهِ وَالمُسَافِرُ إِذَا جَاءَ مِنْ سَفَرِهِ، فلا بدّ له إذا كان له موجود من هدية لأهله الذين يستقبلونه فإذا استقبلوه واجتمعوا به دفع إليهم ما كان

قد استعده به لهم فتلك المقادير فيهم وبذلك فليفرحوا، فمنهم من تكون هديته لقاء ربه، ومنهم من تكون هديته التوفيق الإلهيّ والاعتصام وكل على حسب ما أراد المقدر أن يهبه ويعطيه لا تحجير عليه في ذلك، وعلامتها محو الأنوار بنورها وجعلها دائرة منتقلة في الشهور وفي أيام الأسبوع حتى يأخذ كل شهر من الشهور قسطه منها، وكذلك كل يوم من أيام الأسبوع.

كما جعل رمضان يدور في الشهور الشمسية حتى يأخذ كل شهر من الشهور الشمسية فضيلة رمضان فيعمّ فضل رمضان فصول السنة كلها، فلو كان صومنا المفروض بالشهور الشمسية لما عمّ هذا التعميم وكذلك الحج سواء، وكذلك الزكاة فإن حولها ليس بمعين، إنما ابتداؤه من وقت حصول المال عند المكلف، فما من يوم في السنة إلاّ وهو رأس حول لصاحب مال، فلا تنفك السنة إلاّ وأيامها كلها محل للزكاة وهي الطهارة والبركة، فالناس كلهم في بركة زكاة كل يوم يعمّ كل من زكّى فيه ومن لم يزك، وإنما محى نور الشمس من جرم الشمس في صبيحة ليلتها إعلاماً بأن الليل زمان إتيانها والنهار زمان ظهور أحكامها فلهذا تستقبل ليلاً تعظيماً لها، فمن فاته إدراكها ليلاً فليرقب الشمس، فإذا رأى العلامة دعا بما كان يدعو به في الليلة لو عرفها، فإن محرور نور الشمس لنورها كنور الكواكب مع ظهور الشمس لا يبقى لها نور في العين، وبهذا يتقوّى مذهب من يجعل الفجر حمرة الشفق لقوله تعالىٰ: ﴿هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [سورة القدر: الآية ٥] أي إلى مطلع الفجر، فذلك القدر هو الذي يتميز به حد الليل من النهار الفجر الطالع ما هو ذلك الفجر في ليلة القدر من نور الشمس وإنما هو نور ليلة القدر ظهر في حجم الشمس، كما أن نور القمر إنما هو نور الشمس ظهر في جرم القمر، فلو كان نور القمر من ذاته لكان له شعاع كما هو للشمس، ولما كان مستعاراً من الشمس لم يكن له شعاع، كذلك الشمس لها من نور ذاتها شعاع، فإذا محت ليلة القدر شعاع الشمس بقيت الشمس كالقمر لها ضوء في الموجودات بغير شعاع مع وجود الضوء فذلك الضوء نور ليلة القدر حتى تعلو قيد رمح أو أقل من ذلك فحينئذ يرجع إليها نورها فترى الشمس تطلع في صبيحتها صبيحة ليلة القدر كأنها طاس ليس لها شعاع من وجود الضوء مثل طلوع القمر لا شعاع له، وإنما ذكرت لك ذلك لتعلم بأيّ نور تستنير في صبيحة ليلة القدر، فتعلم أن الحكم في الأنوار كلها لمن نوّر السموات والأرض وأنزل الأنوار ما يفتقر إلى مادّة وهو المصباح، فإذا أنزل الحق نوره في التشبيه إلى مصباح وهو نور مفتقر إلى مادّة تمدّه وهي الدهن فما هو أعلى منه من الأنوار أقرب إلى التشبيه وأعلى في التنزيه، وإنما أعلمنا الحق بذلك وجاء بكاف الصفة في قوله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] إلى آخر الآية إعلاماً أنه نور كل نور بل هو كل نور، وشرع لنا طلب هذه الصفة فكان ﷺ يقول: «**واجعَلْنِي نُوراً**» وكذلك كان ﷺ.

وصل في فصل ـ التماسها مخافة الفوت: خرّج الترمذيّ عن أبي ذرّ قال: صُمْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ بِنَا حَتى بَقِيَ سَبْعٌ مِنَ الشَّهْرِ فَقَامَ بِنَا حَتَّى ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ ثُمَّ لَمْ يَقُمْ بِنَا السَّادِسَةَ وَقَامَ بِنَا فِي الخَامِسَةِ حَتَّى ذَهَبَ شَطْرُ اللَّيْلِ فَقُلْنَا لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ نَفلْتَنَا بَقِيةَ

لَيْلَتِنَا هَذِهِ فَقَالَ: «**إِنَّهُ مَنْ قَامَ مَعَ الإِمَامِ حَتَّىٰ يَنصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيلَةٍ**». ثُمَّ لم يُصَلِّ بِنَا حَتَّىٰ بَقِيَ ثلاثٌ مِنَ الشَّهْرِ وَصَلَّىٰ بِنَا فِي الثَّالِثَةِ وَدَعَا أَهْلَهُ وَنِسَاءَهُ وَقَامَ بِنَا حَتَّىٰ تَخَوَّفْنا أَنْ يَفُوتَ الفَلاحُ، قِيلَ: وَمَا الفَلاحُ؟ قَالَ: السُّحُورُ. وقال: هذا حديث حسن صحيح. انظر ما أعجب قول هذا الصاحب حيث سمّى السحور فلاحاً والفلاح البقاء، ينبّه أن الإنسان إنما هو في الصوم بالعرض فإنه لا بقاء له فإن الصوم لله، ألا تراه يزول حكمه عن الصائمين بزوال الدنيا، فهو في الآخرة يأكل ويشرب بما أسلف في أيام الصوم وهي الأيام الخالية يعني الماضية، قال تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [سورة الحاقة: الآية ٢٤] أيام الصوم في الدنيا والآخرة دار بقاء وأكلها دائم وظلّها والسحور أكلة غذاء، فنبّه أن الإنسان في بقائه آكل لا صائم، فهو متغذّ بالذات صائم بالعرض فالغذاء باق فسمّاه فلاحاً أي بقاء وهو من السحر والسحر له وجهان كما ذكرنا: وجه إلى الليل ووجه إلى النهار وهو الوقت الذي بين الفجرين، كذلك الإنسان له البقاء الذي هو الفلاح وهو السحور في مقامه الذي هو فيه، فله وجه إلى الواجب الوجود لنفسه ووجه إلى العدم لا ينفك عن ذلك في أيّ حالة كان من وجود أو عدم ولذلك سمّي ممكناً ودخل في جملة الممكنات، فهذه الصفة له باقية وإن ظهر بنعت إلهيّ في وقت فليس له فيه بقاء وإنما بقاؤه فيما قلناه.

ولهذا قال الصاحب لما اتصف في ليلته بالقيوم قال: تخوّفنا أن يفوتنا الفلاح وهو أن ينقضي زمان الليل وما عرفنا نفوسنا إذ في معرفتنا بها معرفة ربنا لكنهم ما فاتهم الفلاح بحمد الله بل أشهدهم الله نفوسهم بالغذاء ليشهدوا أن القيومية له ذاتية، وقيومية العبد إنما هي بإمداد ما يتغذى به، ولهذا قال ﷺ: «**حَسْبُ ابنِ آدَمَ لُقَيمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ**» فجعل القيومية للغذاء وإن كان هو القائم بها فكأنه يقول؛ وإن تلبسنا بالتماس هذه الليلة من الاسم الوتر تعالىٰ فلم يغننا ذلك الالتماس عن حظوظ نفوسنا التي بها بقاؤنا وهو التغذي، فإن التماسنا لها إنما هو لما ينالنا من خيرها في دار البقاء، فما التمسناها بالعبادة إلاّ لحظ نفسيّ نبقى به في الدار الآخرة والسحور رب الوقت في الحال وهو سبب في بقاء الحياة الدنيا للعمل الصالح فتخوّفنا أن يفوتنا حكمه، إذا كان ذلك الحكم عين طلبنا بالالتماس وإن اختلف الدار.

ثم جعلها ﷺ في الوتر من الليالي دون الشفع لأنه انفرد بها الليل دون النهار فإنه وتر من اليوم واليوم شفع، فإن اليوم عبارة عن ليل ونهار ولكن في تلك السنة لورود النص فإنها قد تكون في الأشفاع إلاّ في تلك السنة لما ورد في الخبر من التماسها في الأوتار من العشر الآخر، ولمعنى آخر أيضاً وهو أن الطلب إذا كان في ليالي وتر الشهر كان الوتر حافظاً لهذا العبد لما تعطيه هذه الليلة من البركات والخير وهو في وتر من الزمان المذكر له وترية الحق، فيضيف ذلك الخير إلى الله لا إلى الليلة وإن كانت سبباً في حصوله، ولكن عين شهود الوتر يحفظه من نسبة الخير لغير الله مع ثبوت السبب عنده، فلو كانت في ليلة شفع وهي سبب لم يكن لهذا العبد من يذكره تذكير حال في وقت التماسه إياها أو في شهوده إياها إذا عثر عليها، فكان محصلاً للخير من يد غير أهله فيكون صاحب جهل وحجاب في أخذ ذلك الخير، فما كان يقاوم ما

حصل له فيها من الخير ما حصل له من الحرمان والجهل لحجابه عن معطي الخير، فلهذا أيضاً جعلت في أوتار الليالي فافهم، وجعلت في العشر الآخر لأنها نور والنور شهادة وظهور فهو بمنزلة النهار، إذ سمّي النهار لاتساع النور فيه، والنهار متأخر عن الليل لأنه مسلوخ منه، والعشر الآخر متأخر عن العشر الأوسط والأول فكان ظهورها والتماسها في المناسب الأبعد، وما رأيت أحداً رآها في العشر الأوّل ولا نقل إلينا وإنما تقع في العشر الوسط والآخر.

خرّج مسلم عن أبي سعيد قال: «**اعْتَكَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَشْرَ الأَوْسَطَ مِن رَمَضَانَ يَلْتَمِسُ لَيلَةَ الْقَدرِ**». وكذلك التجلي الإلهيّ ما ورد قط في خبر صحيح نبويّ ولا سقيم أن الله يتجلّى في الثلث الأول من الليل، وقد ورد أنه يتجلى في الثلث الأوسط والآخر من الليل، وليلة القدر إنما هي حكم تجلّ إلهيّ فكانت في الثلث الأوسط والآخر من الشهر ولم تكن في الثلث الأول، فإن الأول أنت ولا بدّ، فالأولية لك في معرفتك ربك وأنت وهو لا تجتمعان، كما أن الدليل والمدلول لا يجتمعان، فمن عرف نفسه عرف ربه فقدّمك فإنك الدليل، فالأولية لك في المعرفة النظرية والكشفية، فإن معرفة الكشف لا تكون إلاّ بعد رياضة ومجاهدة، فلا بدّ من تقدّمك نظراً وكشفاً، كما أن علمه بك إنما هو من علمه به، فلو لم يتصف بأنه عالم بنفسه ما علمك فتفطن في علم الله بك من أين هو فإنها مسألة دقيقة جدّاً ذكرناها في كتابنا الموسوم بعقلة المستوفز وفي هذا الكتاب.

وصل في فصل ـ في التماسها في الجماعة بالقيام في شهر رمضان: خرّج أبو داود عن مسلم بن خالد عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال: «**خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَإذَا نَاسٌ فِي رَمَضَانَ يُصَلُّونَ فِي نَاحِيَةِ المَسْجِدِ فَقَالَ: مَنْ هٰؤلاَءِ؟ فَقِيلَ: هٰؤلاءِ نَاسٌ لَيسَ مَعَهُمْ قُرآنٌ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ يُصَلِّي بِهِمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ بِصَلاتِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَصَابُوا وَنِعْمَ مَا صَنَعُوا**». فالجمعية فيها أحق للمناسبة فإن قدرها أعظم من ألف شهر لياليه وأيامه فلها مقام هذا الجمع وأنزل الله فيها القرآن قرآناً أي مجموعاً، وأنزله بنون الجمع والعظمة فجمع في إنزاله فيها جميع الأسماء بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [سورة القدر: الآية ١] وفيها ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ما نزل فيها واحد ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ القائم فيهم مقام أبيّ في الجماعة التي يصلي بهم ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [سورة القدر: الآية ٤] وكل يقتضي جميع الأمور التي يريد الحق تنفيذها في خلقه و ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [سورة القدر: الآية ٥] نهاية غاية فإنها تتضمن حرف إلى التي للغاية، ولا تكون نهاية إلاّ عن ابتداء فكان جمعاً، فهذه الليلة ليلة جمع فلذلك قال رسول الله ﷺ: «**أَصَابُوا وَنِعْمَ مَا صَنَعُوا**»، يغبطهم لما ذكرناه.

والباعث لالتماسها أمور تقتضيها وهي البواعث على التماسها وهو عظم قدرها وعظم من أنزلها، وحقارة من التمسها عند نفسه بالتماسها فإنه شاهد بالتماس لهذا الخبر العظيم القدر على نفسه بافتقار عظيم يقابله، لأن العبد كلما أراد أن يتحقق بعبودية حقر قدره إلى أن يلحق نفسه بالعدم الذي هو أصله ولا أحقر من العدم فلا أحقر من نفس المخلوق، فسمّي أيضاً ليلة القدر لمعرفة أهل الحضور فيها بأقدارهم أعني بحقارتها، مع أن الخير الذي ينالونه

شرّ كالملتمسين في الإمكان والافتقار، وأفقر الموجودات من افتقر إلى مفتقر فلا أفقر من الإنسان فإنه لا أعرف بالله منه لجمعيته وعقله ومعرفته بنفسه.

وصل في فصل ـ إلحاقها من قامها برسول الله في المغفرة: قال الله تعالىٰ يخاطب محمداً ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢] وذكر مسلم والنسائيّ من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قَامَ لَيلَةَ القَدْرِ** ـ وَفي مسلم ـ **فيوافقها إِيمَاناً وَاحتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ**». يقول: يستر عنه ذنبه حتى لا يخجل، وإن كان ممّن قيل له افعل ما شئت فقد غفرت لك كما ورد في الصحيح فيكون قد ستر عنه خطاب التحريم وأبيح له شرعاً فما تصرّف إلاّ في مباح فإن الله لا يأمر بالفحشاء، فلولا عظم قدرها ما ألحقها الله بصفة العلم الذي هو أشرف الصفات، ولهذا أمر تعالىٰ نبيّه ﷺ بطلب الزيادة منه، ومعنى قولي: ألحقها الله لما ورد في الصحيح: «**أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْباً فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ يَقُولُ اللَّهُ لَهُ فِي الثَّالِثَةِ: افْعَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ**». وما ثم سبب موجب لإباحة ما حرّم عليه فعله إلاّ العلم فلحق فضل ليلة القدر بمرتبة العلم فيما ذكرناه. وقال ﷺ: «**مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ**» ذكره النسائي وأي خير أعظم من رفع التحجير فذلك جنة معجلة.

وصل في فصل ـ الاعتكاف: الاعتكاف: الإقامة بمكان مخصوص، وفي الشرع على عمل مخصوص بحال مخصوص على نية القربة إلى الله جلّ جلاله وهو مندوب إليه شرعاً واجب بالنذر، وفي الاعتبار الإقامة مع الله على ما ينبغي لله إيثاراً لجناب الله، فإن أقام بالله فهو أتم من أن يقيم بنفسه، فأما العمل الذي يخصّه، فمن قائل: إن الصلاة وذكر الله وقراءة القرآن لا غير ذلك من أعمال البرّ والقرب. ومن قائل: جميع أعمال البرّ المختصة بالآخرة، والذي أذهب إليه أن له أن يفعل جميع أفعال البرّ التي لا تخرجه عن الإقامة بالموضع الذي أقام فيه، فإن خرج فليس بمعتكف ولا يثبت فيه عندي الاشتراط، وقد ثبت عن عائشة أن السنة للمعتكف أن لا يشهد جنازة ولا يعود مريضاً، فاعلم أن الإقامة مع الله إذا كانت بالله فله التصرّف في جميع أعمال البرّ المختصة بمكانه الذي اعتكف فيه والخارجة عنه التي يخرجه فعلها عن مكانه فإن الله يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] وإذا كانت الإقامة بنفسك لله فقد عينت مكاناً لها فلتلزمها به حتى يتجلى لك في غير ما ألزمتها به فافهم.

وصل في فصل ـ المكان الذي يعتكف فيه: فمن قائل: لا يجوز الاعتكاف إلاّ في الثلاثة المساجد التي تشدّ الرحال إليها. ومن قائل: الاعتكاف عام في كل مسجد. ومن قائل: لا اعتكاف إلاّ في مسجد تقام فيه الجمعة. ومن قائل: تعتكف المرأة في مسجد بيتها ومن قائل يجوز الاعتكاف حيث شاء إلاّ أنه إن اعتكف في غير مسجد جاز له مباشرة النساء وإن اعتكف فليس له مباشرة النساء وبه أقول إلاّ أني أزيد أنه إن نوى الاعتكاف في أيام تقام فيها الجمعة فلا يعتكف إلاّ في مكان يمكن له مع الإقامة فيه أن يقيم الجمعة سواء كان في المسجد أو في مكان قريب من المسجد يجوز له إقامة الجمعة فيه.

اعلم أن المساجد بيوت الله مضافة إليه، فمن استلزم الإقامة فيها فلا ينبغي له أن يصرف وجهه لغير رب البيت فإنه سوء أدب فإنه لا فائدة للاختصاص بإضافتها إلى الله إلاَّ أن لا يخالطها شيء من حظوظ الطبع، ومن أقام مع الله في غير البيت الذي أضافه إلى نفسه جاز له مباشرة أهله إلاَّ في حال صومه في اعتكافه إن كان صائماً، ومباشرة المرأة رجوع العقل من حال العقل عن الله إلى مشاهدة النفس سواء جعلها دليلاً أو غير دليل، فإن جعلها دليلاً فالدليل والمدلول لا يجتمعان، فلا تصحّ الإقامة مع الله وملابسة النفس وأعلى الرجوع إلى النفس وملابستها أن لابسها دليل، وأما إن لم يلابسها دليل فلم يبق إلاَّ شهود الطبع، فلا ينبغي للمعتكف أن يباشر النساء في مسجد كان أو في غير مسجد، ومن كان مشهده سريان الحق في جميع الموجودات وأنه الظاهر في مظاهر الأعيان وأن باقتداره واستعداداتها كان الوجود في الأعيان رأى أن ذلك نكاح، وأجاز مباشرة المعتكف المرأة إذا لم يكن في مسجد، فإن هذا المشهد لا يصحّ فيه أن يكون للمسجد عين موجودة فإنه لا يرى في الأعيان من هذه حالته إلاَّ الله، فلا مسجد أي لا موضع تواضع ولا تطأطؤ فافهم.

وصل في فصل ـ قضاء الاعتكاف: ذكر مسلم عن أبيّ بن كعب: «**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ فَسَافَرَ عَاماً فَلَمْ يَعْتَكِفْ فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ اعْتَكَفَ عِشْرِينَ لَيْلَةً**» الإقامة مع الله على الدوام هو طريق أهل الله، ولها الثناء العام، ولذلك صاحبها الحمد لله على كل حال وهو ذكر الضرّاء وهو الذكر الأعمّ الأتمّ، فإنه إذا حمده العبد على الضرّاء فكيف يكون مع السرّاء؟ فإن السرّاء من جملة أحوال العبد، وقد دخل تحت عموم قوله: كل حال وهو الطرفان وما بينهما وحمد السرّاء مقيد فإن النبيّ ﷺ كان يقول في السرّاء: «**الحَمْدُ لِلَّهِ المُنْعِمِ المُفْضِلِ**». فيقيده وهذا هو حمد أيضاً أعم من الأول وإن ظهر فيه التقييد ولكن لا يفطن له كل أحد، فإن من نعم الله على عبده وإنعامه إن وفقه أن يقول عند الضرّاء: الحمد لله على كل حال، فهذا من اسمه المنعم المفضل عليه بهذا القول، فإذا اتفق أن ينقل الله من له صفة الإقامة معه على كل حال إلى من يرى الله بعد كل شيء فتزيله هذه الحال عن الإقامة مع الله دائماً فيكون بمنزلة المسافر الذي يناقض الاعتكاف فيجب عليه القضاء إذا رجع إلى حاله الأوّل، وصورة قضائه الإقامة مع الله الثابت بالدليل الشرعي فإنها أيام أخر وهي العشر الوسط بين العشرين الآخر والأوّل، كذلك هي النعوت التي جاءت بها الشريعة من صفات التشبيه بين الحسّ والعقل وهي حضرة الخيال، ففي هذه الحضرة يقضي الاعتكاف، وفي العشر الآخر المتصلة به يعتكف على عادته بصفات التنزيه عقلاً وشرعاً من: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١].

وصل في فصل ـ تعيين الوقت الذي يدخل فيه الذي يريد الاعتكاف إلى المكان الذي يقيم فيه: خرّج مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: «**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْتَكِفَ صَلَّىٰ الْفَجْرَ ثُمَّ دَخَلَ فِي مُعْتَكَفِهِ**». اعلم أن المعتكف وهو المقيم مع الله على جهة القربة دائماً لا يصحّ له ذلك إلاَّ بوجه خاص وهو أن يشهده في كل شيء، هذا هو الاعتكاف

العام المطلق. وثم اعتكاف آخر مقيد يعتكف فيه العبد مع اسم ما إلهيّ يتجلّى له ذلك الاسم بسلطانه فيدعوه إلى الإقامة معه.

واعتبار مكان الاعتكاف في المعاني هو المكانة وما ثم اسم إلهيّ إلا وهو بين اسمين إلهيين، فإن الأمر الإلهيّ دوريّ ولهذا لا يتناهى أمر الله في الأشياء، فإن الدائرة لا أوّل لها ولا آخر إلاّ بحكم الفرض، ولهذا خرج العالم مستديراً على صورة الأمر الذي هو عليه في نفسه حتى في الأشكال، فأول شكل قبل الجسم الكل الشكل المستدير وهو الفلك، ولما كانت الأشياء الكائنة من الله عند حركات هذه الأفلاك بما قدّره العزيز العليم أعطت الحكمة أن تكون على صورته في الشكل أو ما يقاربها، فما من حيوان ولا شجرة ولا ورقة ولا حجر ولا جسم إلاّ وفيه ميل إلى الاستدارة ولا بدّ منها، لكنها تدق في أشياء وتظهر بينة في أشياء، واجعل بالك في كل ما خلق الله تعالىٰ من جبل وشجر وجسم تر فيه انعطافاً إلى الاستدارة، ولذلك كان الشكل الكريّ أفضل الأشكال.

ولما كان التجلّي الأعظم العام يشبه طلوع الشمس ومع التجلّي الشمسيّ يكون الاعتكاف العام قيل للمعتكف بترجمان اسم ما إلهيّ: ادخل في اعتكافك في وقت ظهور علامة التجلّي الأعظم وهو طلوع الفجر وبعد صلاة الصبح ليقرب عليك الفتح ولا يقيدك هذا الاسم الإلهيّ الذي أقمت معه أو تريد الإقامة معه عن التجلّي الأعظم الذي هو بمنزلة طلوع الشمس فتجمع في اعتكافك بين التقييد والإطلاق، فإنه لو دخل المعتكف أول الليل بعدت عليه المسافة الزمانية وطال المدى فربما نسي ما هو الأمر عليه فإن الإنسان مجبول على النسيان. قال رسول الله ﷺ: «**فَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ**». وهذا الحديث بشرى من النبيّ ﷺ للناس كافة، فإن آدم رحمه الله فرحمت ذرّيته كانوا حيثما كانوا، جعل لهم رحمة تخصّهم بأيّ دار أنزلهم الله تعالىٰ فإن الأمر إضافيّ، وأن الأصول تحكم على الفروع، وهذا يدلك على أن هذه النفوس الإنسانية نتيجة عن هذه الأجسام العنصرية ومتولدة عنها، فإنها ما ظهرت إلاّ بعد تسوية هذه الأجسام واعتدال أخلاطها، فهي للنفوس المنفوخة فيها من الروح المضاف إليه تعالىٰ كالأماكن التي تطرح الشمس شعاعاتها عليها فتختلف آثارها باختلاف القوابل، أين ضوء نور الشمس في الأجسام الكثيفة منه في الأجسام الصقيلة؟ فلهذا تفاضلت النفوس لتفاضل الأمزجة، فترى نفساً سريعة القبول للفضائل والعلوم، ونفساً أخرى في الضدّ منها وبينهما متوسطات فهكذا هو الأمر إن فهمت. قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ يعني جسم الإنسان ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] ولهذا قلنا: إن النسيان في الإنسان أمر طبيعيّ يقتضيه المزاج، كما أن التذكر أمر طبيعيّ أيضاً في هذا المزاج الخاص، وكذلك جميع القوىٰ التي تنسب إلى الإنسان، ألا تراه يقلّ فعل هذه القوىٰ في أشخاص ويكثر في أشخاص؟ فنبّه الشارع بدخول المعتكف مكان اعتكافه بعد صلاة الفجر قبل طلوع الشمس.

وصل في فصل ـ إقامة المعتكف مع الله ما هي: اعلم أن الإقامة مع الله إنما هو أمر معنويّ لا أمر حسيّ، فلا يقام مع الله إلاّ بالقلب كما لا يتوجه في الصلاة إلى الله إلاّ بالقلب،

وكما تتوجه بوجهك إلى المسماة قبلة وهي الكعبة كذلك يقام بالحسّ مع أفعال البرّ، وقد يكون من أفعال البرّ ملاحظة النفس ليؤدّي إليها حقّها المشروع لها فإن لنفسك عليك حقاً، وقد يؤثر نفسه على غيرها بإيصال الخير إليها، وهو الذي شرّعه الله لنا وما لنا طريق إلى الله إلاَّ ما شرعه، ولهذا يكلف الإنسان نفسه بعض مصالحها ليعود خير ذلك إليها، كخروج المعتكف إلى حاجة الإنسان وإقباله على ما كان من نسائه وأهله ليصلح بعض شأنه في حال إقامته واعتكافه. ذكر مسلم عن عائشة أنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اعْتَكَفَ يُدْنِي إِلَيَّ رَأْسَهُ فَأُرَجِّلُهُ، وَكَانَ لاَ يَدْخُلُ الْبَيْتَ إِلاَّ لِحَاجَةِ الإِنْسَانِ». وقال النسائي عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فِي المَسْجِدِ فَيَتَّكِيءُ عَلَىٰ بَابِ حُجْرَتِي فَأَغْسِلُ رَأْسَهُ وَأَنَا فِي حُجْرَتِي وَسَائِرُهُ فِي الْمَسْجِدِ». وفي هذا دليل لمن يقول بالحكم للأغلب، فإنه ما أخرجه كون رأسه في غير المسجد عن الاعتكاف لأن الأكثر منه في المسجد فراعى حكم الأكثر في الجرمية.

وصل في فصل ـ ما يكون عليه المعتكف في نهاره: ذكر أبو أحمد من حديث عبد الله بن بديل بن ورقاء المكيّ عن عمرو بن دينار عن ابن عمر عن عمر: أَنَّهُ نَذَرَ أَنْ يَعْتَكِفَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اعْتَكِفْ وَصُمْ**».

اعتباره: أمر رسول الله ﷺ من أراد الإقامة مع الله أن يقيم معه بصفة هي لله وهي الصوم ليكون مع الله بالله لله، فلا يرى منه شيء إلاَّ الله، وهذه حالة أهل الله. قيل لرسول الله ﷺ: مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ؟ قَالَ: «**الَّذِينَ إِذَا رُؤوا ذكر الله**» أي لتحققهم بالله يغيبون به عنهم وعن عيون الخلق، فإذا رآهم الناس لم يروا غير الله فتذكرهم بالله رؤيتهم مثل الآيات المذكرات، وهذا هو المقام الذي سأله رسول الله ﷺ في دعائه: «**واجعلني نوراً**» فأجاب الله تعالىٰ دعاءه فأخبرنا أنه بعثه إلى الناس ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٥، ٤٦] فجعله نوراً كما سأل، فإن قوله لربه: «**واجعَلْنِي نُوراً**» فأكون بذاتي عين الاسم الإلهي النور، ومن كان الحق سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله ولا ينطق عن الهوى فما هو هو وما بقي لمن يراه ما يرى إلاَّ الله عرف ذلك الرائي أو لم يعرفه، هكذا يشاهدونه أهل العلم بالله من المؤمنين الخلفاء يظهر في العالم والسوقة بصفات من استخلفها قالت بلقيس في عرشها: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٢] وما كان إلاَّ هو ولكن حجبها بعد المسافة وحكم العادة وجهلها بقدر سليمان عليه السلام عند ربه، فهذا حجبها أن تقول: هو هو فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ وأيّ مسافة أبعد من ليس كمثله شيء ممّن مثله أشياء: قال الكامل ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**» عَنْ أَمْرِ اللَّهِ قِيلَ لَهُ قُلْ، فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [سورة الكهف: الآية ١١٠] «وبهذا علمنا أنه عن أمر الله لأنه نقل الأمر لنا كما نقل المأمور، وكان هذا القول دواء للمرض الذي قام بمن عبد عيسىٰ عليه السلام من أمته فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٧] وفاتهم علم كثير حيث قالوا: ابن مريم وما شعروا! ولهذا قال الله تعالىٰ في إقامة

الحجة على من هذه صفته: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٣] فما يسمونهم إلاّ بما يعرفون به من الأسماء حتى يعقل عنهم ما يريدون، فإذا سمّوهم تبين في نفس الاسم أنه ليس الذي طلب منهم الرسول المبعوث إليهم أن يعبدوه، وإنما قلنا هو هو لما يعطيه الكشف الصحيح في الخصوص والإيمان الصريح في العموم كما ورد به الخبر النبويّ الإلهيّ من أن الله إذا أحب عبده كان سمعه وبصره وذكر قواه وجوارحه، والإنسان ليس غير هذه الأمور المذكورة الذي جعل الحق هويته عينها، فإن كنت مؤمناً عرفت بمن أنت، وإن كنت صاحب شهود صحيح عرفت من شاهدت، وأكثر من هذا البيان النبويّ عن الله ما يكون في قوّة الإنسان حتى يكون المؤمن صاحب حال عيان، فيعرف عند ذلك من هو عين هذه الأكوان والأعيان.

وصل في فصل ـ زيارة المعتكف في معتكفه المقيم مع الله من حيث اسم ما تطلبه أسماء أخر إلهية في أعيان أكوان ليظهر سلطانها فيه منازعة للاسم الذي هو مقيم معه: ذكر البخاري عن صفية زوج النبيّ ﷺ: «أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَزُورُهُ فِي مُعْتَكَفِهِ فِي المَسْجِدِ فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَهَا يقلبها حَتَّىٰ إِذَا بَلَغت بَابَ أُمِّ سَلَمَةَ» الحديث، فهذا اسم إلهيّ حرّك صفية لتزوره حتى يأخذ بوساطتها النبي ﷺ من الإقامة مع الاسم الإلهي الذي أجاءها، فأقام رسول الله ﷺ مع هذا الاسم زمان حديثه معها، ثم أخرجه من موضع جلوسه حين شيّعها وهو نوع سفر لا بل هو سفر بر الرجل بامرأته تعظيماً لحرمتها وقصدها فإن السفر انتقال ولم ينتقل إلاّ بحكم ذلك الاسم عليه من مكانه، فإن المعتكف إذا انتقل إلى حاجة الإنسان من وضوء وما لا بدّ منه فإن ذلك كله من حكم الاسم الذي أقام معه في مدّة اعتكافه، وما من حركة يتحرّكها الإنسان في اعتكافه وغير اعتكافه إلاّ عن ورود اسم إلهيّ عليه، هذا مفروغ منه عندنا في الحقائق الإلهية، وأسماء الله لا تحصى كثرة، وما من شأن المعتكف تشييع الزائر فما تحرّك لذلك إلاّ لحكم الاسم الإلهيّ الذي حرّك الزائر إليه، فالعين لا تعرف إلاّ أنها زائرة لقضاء غرضها من نظر أو حديث، والعارف يشهد الأسماء الإلهية ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله قبله، فالاسم الإلهيّ الذي حرّك صفية من وراء حجاب صفية ومعه كان يتأدّب رسول الله ﷺ وله قام وشيّع، وكان مطلب ذلك الاسم إظهار سلطانه فيه وقد ظهر، وقد بيّنا ذلك في مجاراة الأسماء الإلهية في أوّل هذا الكتاب وفي عنقاء مغرب.

وصل في فصل ـ اعتكاف المستحاضة في المسجد: كذب النفس لعلة مشروعة ليس بحيض ولذلك تصلي المستحاضة ولا تصلي الحائض. ورد عن عائشة على ما ذكره البخاري: «**أَنَّهُ اعْتَكَفَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ امْرَأَةٌ مُسْتَحَاضَةٌ مِنْ أَزْوَاجِهِ**». الحديث، فمن وضع الأشياء في مواضعها فقد أعطاها ما تستحقه عليه وهو حكيم وقته، فإن الحكمة تعطي وضع كل شيء في موضعه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٠] وما ثم شيء مطلق أصلاً لأنه لا يقتضيه الإمكان ولا تعطيه أيضاً الحقائق فإن الإطلاق تقييد، فما من أمر إلاّ وله موطن يقبله وموطن يدفعه ولا يقبله لا بدّ من ذلك، كالأغذية الطبيعية للجسم الطبيعيّ ما من شيء يتغذّى

به إلاً وفيه مضرّة ومنفعة يعرف ذلك العالم بالطبيعة من حيث ما هي مدبرة للبدن وهو المسمّى طبيباً ويعرفه الطبيعيّ مجملاً والتفصيل للطبيب، فما في العالم لسان حمد مطلق ولا لسان ذم مطلق، والأصل الأسماء الإلهيّة المتقابلة فإن الله سمّى لنا نفسه بها من كونه متكلماً كما نزّه وشبّه ووحّد وشرّك ونطق عباده بالصفتين ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠ ـ ١٨٢] هذا آخر الجزء الحادي والستين.

(الجزء الثاني والستون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الثاني والسبعون في الحج وأسراره

[نظم: البسيط]

الحجُّ فرضٌ إلهيٌّ على الناس ... من عهد والدنا المنعوتِ بالناسي
فرضٌ علينا ولكنْ لا نقوم به ... وواجبُ الفَرْضِ أن نُلْقِي على الرَّاسِ
فإن حَرَمْتَ بإحرام تجرُّدكم ... عن كل حال بإعسار وإفلاسِ
دعتْكَ حالتُه في كل منزلةٍ ... من المنازل بالعاري وبالكاسي
فيه الإجابةُ للرحمن من كَثَبٍ ... بنَغْت عبدٍ لدنيٍّ وإلياسِ
فيه العباداتُ من صوم ومن صِلَةٍ ... ومن صلاةٍ وحكم الجودِ والباسِ
وفي الطواف معانٍ ليس يشبهها ... إلاً تردُّدُ ربِّ الجِنِّ والناسِ
إني قتيلُ خَلاخِيل كَلِفْتُ بها ... عند الطوَاف وأقراطٍ ووَسْوَاسِ
وفي المحصَّب شرعُ الفرد ناسَبَهُ ... رَمْيُ الجِمَار لخنَّاس بوسواسِ
الله خصَّصه في بطن عُرَنَتِهِ ... يومَ الوقوف بإذلال وإبلاسِ
وكن مع الفرق في جَمْعٍ بمزدلف ... فما عليك بذاك الفرقِ من باسِ
من حجَّ لله لا بالله كان كمَنْ ... سعى لظُلْمته بضوء نِبْراسِ
في يوم غيم شديدِ الحرِّ فاعتبروا ... فيما تَفُوه به للخلق أنفاسي
وكن إذا أنت دبَّرْتَ الأمورَ به ... ما بين عقل إلهيٍّ وإحساسِ
واحذَرْ شهودَ إسافٍ ثم نائلةٍ ... إذا سعيت كأسْقُفٍ وشمَّاسِ
وفي مِنًى فانحر القربانَ في صفةٍ ... تُدْعَى بها عند ذاك النحر بالقاسي
وَتْريَّةِ الذات لا شَفْعٌ يزلزلها ... مَصُونةٌ بين حُفَّاظ وحُرَّاسِ
عِطْريَّة النَّشر معسولٌ مقبَّلُها ... محفوفةٍ ببَهَار الروض والآسِ
مكلومةٍ بالذي نالته من صفتي ... وما يكون لذاك الكَلْم من آسي

اعلم أيّدك الله أن الحج في اللسان تكرار القصد إلى المقصود، والعمرة الزيارة، ولما نسب الله تعالىٰ البيت إليه بالإضافة في قوله لخليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ

﴿وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [سورة الحج: الآية ٢٦]. وأخبرنا أنه أوّل بيت وضعه للناس معبداً فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٦] جعله نظيراً ومثالاً لعرشه، وجعل الطائفين به من البشر كالملائكة ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٥] أي بالثناء على ربهم تبارك وتعالىٰ، وثناؤنا على الله في طوافنا أعظم من ثناء الملائكة عليه سبحانه بما لا يتقارب، ولكن ما كل طائف يتنبّه إلى هذا الثناء الذي نريده، وذلك أن العلماء بالله إذا قالوا: سبحان الله، أو الحمد لله، أو لا إله إلاّ الله، إنما يقولونها بجمعيتهم للحضرتين والصورتين فيذكرونه بكل جزء ذاكر لله في العالم وبذكر أسمائه إياه، ثم إنهم ما يقصدون من هذه الكلمات إلاّ ما نزل منها في القرآن لا الذكر الذي يذكرونه، فهم في هذا الثناء نوّاب عن الحق يثنون عليه بكلامه الذي أنزله عليهم وهم أهل الله بنص رسول الله ﷺ فإنهم أهل القرآن، وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته، فهم نائبون عنه في الثناء عليه، فلم يشب ثناءهم استنباط نفسيّ ولا اختيار كونيّ ولا أحدثرا ثناء من عندهم، فما سمع من ثنائهم إلاّ كلامه الذي أثنى به على نفسه فهو ثناء إلهيّ قدّوس طاهر نزيه عن الشوب الكوني، قال تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] فأضاف الكلام إليه لا إلى نبيه ﷺ.

ولما جعل الله تعالىٰ قلب عبده بيتاً كريماً وحرماً عظيماً وذكر أنه وسعه حين لم يسعه سماء ولا أرض، علمنا قطعاً أن قلب المؤمن أشرف من هذا البيت، وجعل الخواطر التي تمرّ عليه كالطائفين، ولما كان في الطائفين من يعرف حرمة البيت فيعامله في الطواف به بما يستحقه من التعظيم والإجلال، ومن الطائفين من لا يعرف ذلك فيطوفون به بقلوب غافلة لاهية وألسنة بغير ذكر الله ناطقة بل ربما يطوفون بفضول من القول وزور، وكذلك الخواطر التي تمرّ على قلب المؤمن منها مذموم ومنها محمود، وكما كتب الله طواف كل طائف للطائف به على أيّ حالة كان وعفا عنه فيما كان منه، كذلك الخواطر المذمومة عفا الله عنها ما لم يظهر حكمها على ظاهر الجوارح إلى الحسّ، وكما أن في البيت يمين الله للمبايعة الإلهية، ففي قلب العبد الحق سبحانه من غير تشبيه ولا تكييف كما يليق بجلاله سبحانه حيث وسعه، وأين مرتبة اليمين منه على الانفراد منه سبحانه، ففيه اليمين المسمّى كلتا يديه فهو أعظم علماً وأكثر إحاطة، فإنه محل لجميع الصفات وارتفاعه بالمكانة عند الله لما أودع الله فيه من المعرفة به.

ثم إن الله تعالىٰ جعل لبيته أربعة أركان لسرّ إلهيّ وهي في الحقيقة ثلاثة أركان لأنه شكل مكعب الركن الواحد الذي يلي الحجر كالحجر في الصورة مكعب الشكل، ولأجل ذلك سمّي كعبة تشبيهاً بالكعب، فإذا اعتبرت الثلاثة الأركان جعلتها في القلب محل الخاطر الإلهيّ، والركن الآخر ركن الخاطر الملكي، والركن الثالث ركن الخاطر النفسيّ، فالإلهي ركن الحجر، والمكيّ الركن اليمنيّ، والنفسيّ المكعب الذي في الحجر لا غير، وليس

للخاطر الشيطاني فيه محل، وعلى هذا الشكل قلوب الأنبياء مثلثة الشكل على شكل الكعبة. ولما أراد الله ما أراد من إظهار الركن الرابع جعله للخاطر الشيطانيّ وهو الركن العراقيّ، فيبقى الركن الشامي للخاطر النفسيّ، وإنما جعلنا الخاطر الشيطانيّ للركن العراقيّ لأن الشارع شرع أن يقال عنده: أعوذ بالله من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، وبالذكر المشروع في كل ركن تعرف مراتب الأركان، وعلى هذا الشكل المربع قلوب المؤمنين، وما عدا الرسل والأنبياء المعصومين ليميز الله رسله وأنبياءه من سائر المؤمنين بالعصمة التي أعطاهم وألبسهم إياها، فليس لنبيّ إلاّ ثلاثة خواطر: إلهيّ وملكيّ ونفسيّ، وقد يكون ذلك لبعض الأولياء الذين لهم جزء وافر من النبوّة كسليمان الدنبلي لقيته وهو ممّن له هذا الحال فأخبرني عن نفسه أن له بضعاً وخمسين سنة ما خطر له خاطر قبيح، ولأكثر الأولياء هذه الخواطر وزادوا بالخاطر الشيطانيّ العراقي، فمنهم من ظهر عليه حكمه في الظاهر وهم عامة الخلق، ومنهم من يخطر له ولا يؤثر في ظاهره وهم المحفوظون من أوليائه.

ولما اعتبر الله الشكل الأول الذي للبيت جعل له الحجر على صورته وسمّاه حجراً لما حجر عليه أن ينال تلك المرتبة أحد من غير الأنبياء والمرسلين حكمة منه سبحانه، فللأولياء الحفظ الإلهيّ ولهم العصمة، أخبرني بعض الأولياء من أهل الله وهو عبد الله ابن الأستاذ الموروري أن الشيخ عبد الرزاق أو غيره الشك مني بل غيره بلا شك فإني تذكرته رأى إبليس فقال له: كيف حالك مع الشيخ أبي مدين عبد صالح إمام في التوحيد والتوكل كان ببجاية؟ فقال إبليس: ما شبهت نفسي فما نلقي إليه في قلبه إلاّ كشخص بال في البحر المحيط، فقيل له: لِمَ تبول فيه؟ قال: حتى أنجسه فلا تقع به الطهارة، فهل رأيتم أجهل من هذا الشخص؟ كذلك أنا وقلب أبي مدين كلما ألقيت فيه أمراً قلب عينه فأخبر أنه يلقى في قلوب الأولياء وهو الذي ذكرناه وليس له على الأنبياء سبيل.

وارتفاع البيت سبعة وعشرون ذراعاً وذراع التحجير الأعلى فهو ثمانية وعشرون ذراعاً كل ذراع مقدار لأمر ما إلهي يعرفه أهل الكشف فهي هذه المقادير نظير منازل القلب التي تقطعها كواكب الإيمان السيارة لإظهار حوادث تجري في النفس المضاهي لمنازل القمر والكواكب السيارة لإظهار الحوادث في العالم العنصري سواء حرفاً حرفاً ومعنى معنى.

واعلم أن الله تعالىٰ قد أودع في الكعبة كنزاً أراد رسول الله ﷺ أن يخرجه فينفقه ثم بدا له في ذلك لمصلحة رآها. ثم أراد عمر بعده أن يخرجه فامتنع اقتداء برسول الله ﷺ فهو فيه إلى الآن. وأمّا أنا فسيق لي منه لوح من ذهب جيء به إليّ وأنا بتونس سنة ثمان وتسعين وخمسمائة فيه شق غلظه أصبع عرضه شبر وطوله شبر أو أزيد مكتوب فيه بقلم لا أعرفه، وذلك لسبب طرأ بيني وبين الله فسألت الله أن يردّه إلى موضعه أدباً مع رسول الله ﷺ، ولو أخرجته إلى الناس لثارت فتنة عمياء فتركته أيضاً لهذه المصلحة فإنه ﷺ ما تركه سدى وإنما تركه ليخرجه القائم بأمر الله في آخر الزمان الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. وقد ورد خبر رويناه فيما ذكرناه من إخراجه على يد هذا الخليفة وما أذكر الآن عمّن

رويته ولا الجزء الذي رأيته فيه، كذلك جعل الله في قلب العارف كنز العلم بالله فشهد لله بما شهد به الحق لنفسه من أنه لا إله إلاّ الله، ونفى هذه المرتبة عن كل ما سواه فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] فجعلها كنزاً في قلوب العلماء بالله، ولما كانت كنزاً لذلك لا تدخل الميزان يوم القيامة وما يظهر لها عين إلاّ إن كان في الكثيب الأبيض يوم الزور ويظهر جسمها وهو النطق بها عناية لصاحب السجلات لا غير، فذلك الواحد يوضع له في ميزانه التلفظ بها إذ لم يكن له خير غيرها، فما يزن ظاهرها شيء فأين أنت من روحها ومعناها؟ فهي كنز مدخر أبداً دنيا وآخرة، وكل ما ظهر في الأكوان والأعيان من الخير فهو من أحكامها وحقها.

ثم إن الله جعل هذا البيت الذي هو محل ذكر اسم الله على أربعة أركان، كذلك جعل الله القلب على أربع طبائع تحمله وعليها قامت نشأته، كقيام البيت اليوم على أربعة أركان، كقيام العرش على أربعة حملة اليوم، كذا ورد في الخبر أنهم اليوم أربعة وغداً يكونون ثمانية، فإن الآخرة فيها حكم الدنيا والآخرة فلذلك تكون غداً ثمانية، فيظهر في الآخرة حكم سلطان الأربعة الأخر، وكذلك يكون القلب في الآخرة تحمله ثمانية الأربعة التي ذكرناها والأربعة الغيبية وهي: العلم والقدرة والإرادة والكلام ليس غير ذلك. فإن قلت: فهي موجودة اليوم فلماذا جعلتها في الآخرة؟ قلنا: وكذلك الثمانية من الحملة موجودون اليوم في أعيانهم لكن لا حكم لهم في الحمل الخاص إلاّ غداً، كذلك هذه الصفات التي ذكرناها لا حكم ينفذ لهم في الدنيا دائماً، وإنما حكمهم في الآخرة للسعداء، وحكم الأربعة الذين هم طبائع هذا البيت ظاهرة الحكم في الأجسام. فإن قلت: فما معنى قولك حكمهم؟ قلت: فإن العلم لا يشاهد العالم معلومه إلاّ في الآخرة، والقدرة لا ينفذ حكمها إلاّ في الآخرة، فلا يعجز السعيد عن تكوين شيء وإرادته غير قاصرة، فما يهمّ بشيء يريد حضوره إلاّ حضر وكلامه نافذ، فما يقول لشيء كن إلاّ ويكون، فالعلم له عين في الآخرة، وليس هذا حكم هذه الصفات في النشأة الدنيا مطلقة فاعلم ذلك فالإنسان في الآخرة نافذ الاقتدار، فالله بيته قلب عبده المؤمن، والبيت بيت اسمه تعالىٰ، والعرش مستوى الرحمن فـ ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى، الآية: ٧] كما أنه ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [سورة طه: الآية ٧] وأصفى. وهو قوله: ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] فإنه أخفى من السرّ أي أظهر، فإن الوسط الحائل بين الطرفين المعين للطرفين والمميز لهما هو أخفى منهما كالخط الفاصل بين الظل والشمس والبرزخ بين البحرين الأجاج والفرات، والفاصل بين السواد والبياض في الجسم نعلم أن ثم فاصلاً ولكن لا تدركه العين ويشهد له العقل وإن كان لا يعقل ما هو أي لا يعقل ماهيته، فبين القلب والعرش في المنزلة بين الاسم الله والاسم الرحمن وإن كان أياً ما تدعوا ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ [سورة الإسراء: الآية: ١١٠] ولكن ما أنكر أحد الله وأنكر الرحمن فقالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٠] فكان مشهداً لألوهة أعمّ لإقرار الجميع بها فإنها تتضمن البلاء والعافية وهما

موجودان في الكون فما أنكرهما أحد، ومشهد الرحمانية لا يعرفه إلاً المرحومون بالإيمان، وما أنكره إلاً المحرومون من حيث لا يشعرون أنهم محرومون، لأن الرحمانية لا تتضمن سوى العافية والخير المحض، فالله معروف بالحال، والرحمن منكور بالحال فقيل لهم: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فعرفه أهل البلاء تقليداً لتعريف الله من وراء حجاب البلاء فافهم فقد نبهتك لأمور إن سلكت عليها جلت لك في العلم الإلهيّ ما لا يقدر قدره إلاً الله، فإن العارف بقدر ما ذكرناه من العلم بالله الذوقيّ اليوم عزيز.

ولما كان الحج لهذا البيت تكرار القصد في زمان مخصوص كذلك القلب تقصده الأسماء الإلهية في حال مخصوص، إذ كل اسم له حال خاص يطلبه، فمهما ظهر ذلك الحال من العبد طلب الاسم الذي يخصّه فيقصده ذلك الاسم فلهذا تحجّ الأسماء الإلهية بيت القلب وقد تحج إليه من حيث أن القلب وسع الحق والأسماء تطلب مسماها فلا بدّ لها أن تقصد مسماها فتقصد البيت الذي ذكر أنه وسعه السعة التي يعلمها سبحانه، وإنما تقصده لكونها كانت متوجهة نحو الأحوال التي تطلبها من الأكوان، فإذا أنفذت حكمها في ذلك الكون المعين رجعت قاصدة تطلب مسماها فتطلب قلب المؤمن وتقصده، فلما تكرر ذلك القصد منها سمّي ذلك القصد المكرر رجحاً، كما يتكرّر القصد من الناس، والجنّ والملائكة للكعبة في كل سنة للحجب الواجب والنفل، وفي غير زمان الحج وحاله يسمّى زيارة لا حجاً وهو العمرة والعمرة الزيارة وتسمّى حجاً أصغر لما فيها من الإحرام والطواف والسعي وأخذ الشعر أو منه والإحلال ولم تعم جميع المناسك فسميت حجاً أصغر بالنظر إلى الحج الأكبر الذي يعم استيفاء جميع المناسك، ولهذا يجزىء القارن بينهما طواف واحد وسعي واحد لمسمّى الحج لها، وهكذا فعل رسول الله ﷺ في قرانه في حجة وداعه التي قال فيها: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**». وهكذا الحكم في الآخرة في الزور العام هو بمنزلة الحج في الدنيا، وحج العمرة هو بمنزلة الزور الذي يخصّ كل إنسان، فعلى قدر اعتماره تكون زيارته لربه، والزور الأعمّ في زمان خاص للزمان الخاص الذي للحج، والزور الأخص الذي هو العمر لا يختص بزمان دون زمان فحكمها أنفذ في الزمان من الحج الأكبر، وحكم الحج الأكبر أنفذ في استيفاء المناسك من الحج الأصغر، ليكون كل واحد منهما فاضلاً مفضولاً لينفرد الحق بالكمال الذي لا يقبل المفاضلة، وما سوى الله ليس كذلك حتى الأسماء الإلهية وهم الأعلون يقبلون المفاضلة، وقد بينا ذلك في غير موضع، وكذلك المقامات والأحوال والموجودات كلها، فالزيارة الخاصة التي هي العمرة مطلقة الزمان على قدر مخصوص، وسأذكر إن شاء الله ما يختص بهذا الباب من الأفعال الظاهرة المشروعة في العموم والخصوص على ألسنة علماء الرسوم بالظواهر والنصوص، وما يختص أيضاً بها من الاعتبارات في أحوال الباطن بلسان التقريب والاختصار والإشارة والإيماء كما عملنا فيما تقدم من العبادات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ولو شاء لهداكم أجمعين ولكن الله فعال لما يريد.

وصل في فصل ـ وجوب الحج: لا خلاف في وجوبه بين علماء الإسلام، قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] فوجب على كل مستطيع من الناس صغير وكبير ذكر وأنثى حرّ وعبد مسلم وغير مسلم ولا يقع بالفعل إلاَّ بشروط له معينة، فإن الإيمان والإسلام واجب على كل إنسان، والأحكام كلها الواجبة واجبة على كل إنسان، ولكن يتوقف قبول فعلها أو فعلها من الإنسان على وجود الإسلام منه، فلا يقبل تلبسه بشيء منها إلاَّ بشرط وجود الإسلام عنده، فإن لم يؤمن أخذ بالواجبين جميعاً يوم القيامة وجوب الشرط المصحّح لقبول هذه العبادات، ووجوب المشروط التي هي هذه العبادات، وقرىء بكسر الحاء وهو الاسم وبفتحها وهو المصدر، فمن فتح وجب عليه أن يقصد البيت ليفعل ما أمره الله به أن يفعله عند الوصول إليه في المناسك التي عين الله له أن يفعلها، ومن قرأ بالكسر وأراد الاسم فمعناه أن يراعي قصد البيت فيقصد ما يقصده البيت وبينهما بون بعيد، فإن العبد بفتح الحاء يقصد البيت، وبكسرها يقصد قصد البيت فيقوم في الكسر مقام البيت، ويقوم في الفتح مقام خادم البيت، فيكون حال العبد في حجه بحسب ما يقيمه فيه الحق من الشهود، والله المرشد والهادي لا رب غيره.

ولما كان قصد البيت قصداً حالياً لأنه يطلب بصورته الساكن فللّه على الناس أن يجعلوا قلوبهم كالبيت تطلب بحالها أن يكون الحق ساكنها كما قال: اطلبوني في قلوب العارفين بي، فهذا معنى الكسر فيه وهو الاستعداد بالصفة التي ذكر الله أن القلب يصلح له تعالىٰ بها، ومن فتح فوجب عليه أن يطلب قلبه ليرى فيه آثار ربه فيعمل بحسب ما يرى فيه من الآثار الإلهية، وهذا حال غير ذلك، فبالكسر يقصد الله، وبالفتح يقصد القلب لما ذكرناه.

وصل في فصل ـ شروط صحة الحج: لا خلاف أن من شرط صحته الإسلام، إذ لا يصحّ ممّن ليس بمسلم. الإسلام الانقياد إلى ما دعاك الحق إليه ظاهراً وباطناً على الصفة التي دعاك أن تكون عليها عند الإجابة، فإن جئت بغير تلك الصفة التي قال لك تجيء بها فما أجبت دعاء الاسم الإلهيّ الذي دعاك ولا انقدت إليه، وهنا علم دقيق وهل الدعوة كانت من الله على المجموع وهو عينك وعين الصفة؟ أو المقصود من هذا الدعاء عين الصفة وأنت بحكم التبع لكون هذا الوصف الخاص لا يقوم بنفسه فما تكون أنت المطلوب، ولا بدّ لك من اسم يكون لك من تلك الصفة يناديك به، أو تكون أنت المدعوّ من حيث عينك، والصفة تبع ما هي المقصود في الدعاء لأنها لم يذكر لها عين في هذا الدعاء الخاص. فمن راعى من العارفين العين لا عين الصفة لكونه تعالىٰ قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وما قال على المسلمين ولا ذكر صفة زائدة على أعيانهم فأوجبها على الأعيان وجوباً إلهياً، فإذا أتى بهذا الدعاء صاحب الاسم الذي هو الناس قيل فيه أنه قد أجاب إجابة ذاتية فيكون جزاء إجابته تجلي من دعاه ذاتاً بذات.

ومن اعتبر أنه ما دعاه من حيث ما هو ذات، وإنما دعاه من حيث ما هو متكلم، فما أجاب هذا المدعوّ إلاَّ عين الصفة لا عين الذات، قيل له: وكذلك المجيب المدعوّ ما أجاب منه إلاَّ عين صفته، فإن ذات المدعوّ من صفات من دعاه، وهذه الصفة يعبر عنها بذات

المدعوّ لأن المدعوّ مجموع صفات ذاتية له بمجموعها يكون إنساناً وهو كونه حيواناً ناطقاً، وليس عين هذا المجموع سوى عين ذاته، ولهذا وقع الدعاء من الداعي بالاسم الجامع وهو الله، فإن قيل: لا يصحّ أن يكون حقيقة هذا الاسم الجامع وإنما يأتي والداعي به اسم خاص يخصّصه حال المدعوّ ويعين الاسم الخاص به كالجائع يقول: يا الله أطعمني، فالله الذي دعا يعم المعطي والمانع فتتعذر الإجابة إذا قصد الداعي ما يدل عليه هذا الاسم، وما قصد الداعي إلاّ المطعم المعطي الرزاق ما قصد المانع، فإن أطعمه الله فما أجابه إلاّ المطعم كذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ ليس المقصود بهذا الاسم عين ما يدل عليه، فإن من مدلولاته أسماء إلهية تمنع من إجابة المكلف وأسماء تعطي إجابة المكلف، فما دعاه من هذا الاسم إلاّ الاسم الذي يطلب إجابة المكلف المدعوّ، ولهذا يعصي من لم يجب الدعاء بقرائن الأحوال، ولو كان من حيث الاسم الله ما عصى ولا أطاع وتقابلت الأمور، فلهذا لا يتصوّر أن يدعو أحد الله من حيث حقيقة هذا الاسم، ولا يدعو هذا الاسم الله أحداً من حيث حقيقته، وإنما يدعو ويدعى منه من حيث اسم خاص يتضمنه يعرف بالحال.

فاعلم أن الذات من الجانبين لا يصحّ أن تكون مطلوبة لأنها موجودة، وإنما متعلق الطلب المعدوم ليوجد فما يدعى إلاّ المعدوم لأن الدعاء طلب والطلب عين الإرادة والإرادة لا تتعلق إلاّ بالمعدوم. قلنا: وكذلك وقع فإنه ما ظهر من هذا المدعوّ إلاّ الإجابة وكانت معدومة مع كون ذات المدعوّ لما يدعى إليه موجودة، فظهرت الإجابة من المدعوّ بعد أن لم تكن لأن الإجابة لا تكون إلاّ بعد دعاء داع، وهذا المدعوّ المعدوم الثابت لا يصحّ وجود من ذات المدعوّ، وإنما يصحّ في ذات المدعوّ إذا كان المدعوّ من العالم فيفتقر إلى أن يقول له الداعي: كن فحينئذ يكون المدعوّ إجابة لأمره في ذات هذا المتوجه عليه الخطاب، فما إجابته ذات المدعوّ فيما يطهر وإنما وقعت الإجابة من الصفة التي ظهرت فيه، فيخيل أن الذات التي ظهرت فيها ذات هذا المدعوّ هو المخاطب بالتكوين وليس كذلك، وهكذا هو الوجود الإلهي والكوني في نفس الأمر، وإن كان الظاهر يعطي غير هذا فما في الكون إلاّ مسلم لغة لأنه ما ثم إلاّ منقاد للأمر الإلهي لأنه ما ثم من قيل له كن فأبى بل يكون من غير تثبط ولا يصحّ إلاّ ذلك، فإذا وقع الحج ممّن وقع من الناس ما وقع إلاّ من مسلم قال رسول الله ﷺ لحكيم بن حزام: «**أَسْلَمْتَ عَلَىٰ مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ**»، ولم يكن مشروعاً من جانب الله له ذلك في حال الجاهلية وقبل بعثة الرسول فاعتبره له الله سبحانه لحكم الانقياد الأصليّ الذي تعطيه حقيقة الممكن وهو الإسلام العامّ.

فمن اعتبر المجموع وجد، ومن اعتبر عين الصفة وجد، ومن اعتبر الذات وجد، ولكل واحد شرب معلوم من علم خاص، فإنه يدخل فيه هذا الإسلام الخاص المعروف في العرف الحاكم في الظاهر والباطن معاً، فإن حكم في الظاهر لا في الباطن كالمنافق الذي أسلم للتقية حتى يعصم ظاهره في الدنيا فهذا ما فعل ما فعل من الأمور الخيرية التي دعي إليها لخيريتها فما له أجر، والذي فعلها وهو مشرك لخيريتها نفعته بالخير المنوي، فلا بدّ أن ينقاد

الباطن والظاهر وبالمجموع تحصل الفائدة مكملة لأن الداعي دعاه بالاسم الجامع والمدعوّ دعي من الاسم الجامع لصفة جامعة وهو الحج، والحج لا يكون إلاّ بتكرار القصد فهو جمع في المعنى، فما في الكون إلاّ مسلم فوجب الحج على كل مسلم، فلهذا لم يتصوّر فيه خلاف بين علماء الرسوم وعلماء الحقائق وعالم الحقائق أتم من عالم الرسم في هذه المسألة وأمثالها، فإن حج الطفل الرضيع صحّ حجه ولا تلفظ له بالإسلام ولا يعرف نية الحج، ولو مات عندنا قبل البلوغ كتب الله له تلك الحجة عن فريضته، ولنا في ذلك خبر نبويّ في الصبي قبل البلوغ والعبد، فللصبي الرضيع الإسلام العام الذي يثبته المحقق وقد اعتبره الشرع «**رَفَعَتِ امْرَأَةٌ صَبِيّاً لَهَا صَغِيراً فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ لَهَا: نَعَمْ وَلَكِ أَجْرٌ**». فنسب الحج لمن لا قصد له فيه، فلو لم يكن لذلك الرضيع قصد بوجه ما عرفه الشارع صاحب الكشف ما صحّ أن ينسب الحج إليه وكان ذلك كذباً، كانت امرأة ترضع صغيراً لها فمرّ رجل ذو شارة حسنة وخول وحشمة فقالت المرأة: اللهم اجعل ابني مثل هذا فترك الرضيع الثدي ونظر إليه وقال: اللهم لا تجعلني مثله. ومرت عليها امرأة وهي تضرب والناس يقولون فيها: زنت وسرقت فقالت المرأة: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه فترك الصغير الثدي ونظر إليها وقال: اللهم اجعلني مثلها. قال رسول الله ﷺ في ذلك الرجل كان جباراً متكبراً. وقال في المرأة: كانت بريئة ممّا نسب إليها. واتفق لي مع بنت كانت لي ترضع يكون عمرها دون السنة فقلت لها: يا بنية فأصغت إليّ ما تقول في رجل جامع امرأته فلم ينزل ما يجب عليه فقالت: يجب عليه الغسل، فغشي على جدّتها من نطقها هذا شهدته بنفسي، وكذلك زكاة الفطر على الرضيع والجنين.

وصل في فصل ـ حج الطفل: فمن قائل: بجوازه ومن مانع، والمجوّز له صاحب الحق في هذه المسألة شرعاً وحقيقة، فإن الشرع أثبت له الحج وليس العجب، إلاّ أن الحج يثبت بالنيابة، فهو بالمباشرة في حق الطفل أثبت على كل حال، وسيأتي ذكر النيابة في هذا العمل فيما بعد إن شاء الله وأين الإسلام في حق الصبي الصغير الرضيع فهل هو عند أهل الظاهر إلاّ بحكم التبع، وأمّا عندنا فهو بالأصالة والتبع معاً، فهو ثابت في الصغير بطريقين وفي الكبير بطريق واحد وهو الأصالة لا التبع، فالإيمان أثبت في حق الرضيع فإنه ولد على فطرة الإيمان وهو إقراره بالربوبية لله تعالىٰ على خلقه حين الأخذ من الظهر الذرية والإشهاد، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] فلو لم يعقلوا ما خوطبوا ولا أجابوا، يقول ذو النون المصريّ: كأنه الآن في أذني وما نقل إلينا أنه طرأ أمر أخرج الذرية عن هذا الإقرار وصحته.

ثم إنه لما ولد ولد على تلك الفطرة الأولى فهو مؤمن بالأصالة، ثم حكم له بإيمان أبيه في أمور ظاهرة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ يعني إيمان الفطرة ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فورثوهم وصلّي عليهم إن ماتوا وأقيمت فيهم أحكام الإسلام كلها مع كونهم على حال لا يعقلون جملة واحدة، ثم قال: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [سورة الطور: ٢١] يعني

أولئك الصغار ما أنقصناهم شيئاً من أعمالهم وأضاف العمل إليهم يعني قولهم: بلى فبقي لهم على غاية التمام ما نقصهم منه شيئاً لأنهم لم يطرأ عليهم حال يخرجهم في فعل ما من أفعالهم عن ذلك الإقرار الأوّل كما طرأ للكبير العاقل فنقص من عمله ذلك بقدر ما طرأ عليه فأنقصه الله على قدر ما نقص، فالرضيع أتمّ إيماناً من الكبير بلا شك، فحجّه أتم من حج الكبير، فإنه حجّ بالفطرة، وباشر الأفعال بنفسه مع كونه مفعولاً به فيها كما هو الأمر عليه في نفسه فإن الأفعال كلها لله، فمن كل وجه صحّ له الحج حقيقة وشرعاً، والطفل مباشر بلا شك وغير عاقل العقل المعتبر في الكبير بلا شك، وغير متلفظ بالإسلام ولا معتقد له ولا عالم به بلا شك ونريد الاعتقاد، والعلم المعروف عند أهل الرسوم في العرف كل ذلك غير موجود في الصبي الرضيع وقد باشر العمل وهو معمول به وأضاف الحج إليه الشارع، والصبي مستطيع في هذه الحالة بالاستعداد الذي هو عليه أن يكون معمولاً به أعمال الحج كلها فهو محل للعمل لأنه وقف به في عرفة فوقف كما يقف الراكب بدابته وينسب الوقوف إليه ويطوف على راحلته ويسعى بين الصفا والمروة، والراحلة هي التي تسعى وتطوف وتقف، وينسب ذلك كله إليه بحكم المباشرة وأنه باشر أفعال الحج بنفسه، فكذلك الصغير الرضيع يطاف به ويسعى فهو مباشر أفعال الحج، ويوقف به مستطيع بالوجه الذي ذكرناه من الاستعداد لقبول ما يفعل به كما استعدّ الكبير الراكب لقبول ما تفعل به راحلته من سكون وحركة، وينسب العمل إليه لا إلى الراحلة جرياً على حكم الأصل الإلهي حيث تنسب الأفعال إلى العبادة والأفعال أعني خلقها لله تعالىٰ على الحقيقة وهم محال ظهورها.

وصل في فصل ـ الاستطاعة: فمن قائل: الزاد والراحلة. ومن قائل: من استطاع المشي فلا تشترط الراحلة، وكذلك الزاد ليس من شرطه إذا كان يمكنه الاكتساب في القافلة ولو بالسؤال هذا في المباشرة، فالراحلة عين هذا الجسم لأنه مركب الروح الذي هو اللطيفة الإنسانية المنفوخة فيه فيما يصدر منه بوساطة هذا الجسم من أعمال صلاة وصدقة وحجّ وإماطة وتلفظ بذكر، كل ذلك أعمال موصلة إلى الله عزّ وجلّ، والسعادة الأبدية والجسم هو المباشر لها والروح بوساطته، فلا بدّ من الراحلة أن تشترط في هذا العمل الخاص بهذه الصورة.

وأما الزاد فمن اعتبر فيه الزيادة وهو السبب الذي بوجوده يكون التغذي الذي تكون عنه القوّة التي بها تحصل هذه الأفعال فبأيّ شيء حصلت تلك القوّة سواء بذاتها أو عند هذا الزائد المسمّى زاداً لأن الله زاده في الحجاب، ولهذا تعلقت به النفس في تحصيل القوّة وسكنت عند وجوده واطمأنت وانحجبت عن الله به وهي مسرورة بوجود هذا الحجاب لما حصل لها من السكون به إذ كانت الحركة متعبة ظاهراً وباطناً، وإذا فقد الزاد تشوّش باطنه واضطرب طبعاً ونفساً وتقلق عند فقد هذا السبب المسمّى زاداً وزال عنه ذلك السكون والطمأنينة، فكل ما يؤدّيه إلى السكون فهو زاد وهو حجاب أثبته الحق بالفعل وقرّره الشرع بالحكم فيقوي أساسه، فلهذا كان أثر الأسباب أقوى من التجرّد عنها، لأن التجرد عنها خلاف الحكمة

والاعتماد عليها خلاف العلم، فينبغي للإنسان أن يكون مثبتاً لها فاعلاً بها غير معتمد عليها وذلك هو القويّ من الرجال، ولكن لا يكون له مقام هذه القوّة من الاعتماد أن تؤثر فيه الأسباب إلاّ بعد حصول الابتلاء بالتجريد عن الأسباب المعتادة وطرحها من ظاهره والاشتغال بها، فإذا حصلت له هذه القوّة الأولى حينئذ ينتقل إلى القوّة الأخرى التي لا يؤثر فيها عمل الأسباب، وأما قبل ذلك فغير مسلم للعبد القول به وهذا هو علم الذوق وحاله، والعالم الذي يجد الاضطراب وعدم السكون فليس ذلك العلم هو المطلوب والمتكلم عليه فإنه غير معتبر، بل إذا أمعنت النظر في تحقيقه وجدته ليس بعلم ولا اعتقاد، فلهذا لا أثر له ولا حكم في هذه القوّة المطلوبة التي حصلت عن علم الذوق والحال وهذا هو مرض النفس، وأما وجود الإحساس بالآلام الحسيّة من جوع وتعب فذلك لا يقدح فإنه أمر يقتضيه الطبع ليس للنفس فيه تعمل وليس بألم نفسيّ.

وصل ـ في الاستطاعة بالنيابة مع العجز عن المباشرة: فمن قائل: بلزوم النيابة. ومنهم من قال: لا يلزم مع العجز عن المباشرة، وقد ثبت شرعاً عندنا الأمر بالحج عمّن لا يستطيع لوليه أو بالإجارة عليه من ماله إن كان ذا مال، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

فاعلم أن النيابة صحيحة، فإن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فناب منابه في ذلك القول وقال: فأجره حتى يسمع كلام الله، فناب الرسول ﷺ مناب الحق لو باشر الكلام منه بلا واسطة. وقال في النيابة: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦] وقال في العموم: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٧] والاستخلاف نيابة، فإن المال لله والتصرّف لك فيه على حدّ من استخلفك فيه، فهذا كله نيابة العبد عن الله في الأمور. وأما نيابة الحق عن العبد فقوله تعالىٰ لبني إسرائيل: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢] وقال آمراً: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٩]. وقال ﷺ يخاطب ربه: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ**». والوكالة نيابة عن الموكل فيما وكله فيه أن يقوم مقامه فأثبت لك الشيء وسألك أن تستنيبه فيه بحكم الوكالة، فمن كل وجه النيابة مشروعة، وهل تصحّ من جهة الحقيقة أم لا؟ فمنا من يقول: إنها تصحّ من جهة الحقيقة، فإن الأموال ما خلقت إلاّ لنا إذ لا حاجة لله إليها فهي لنا حقيقة.

ثم وكلنا الحق تعالىٰ أن يتصرّف لنا فيها لعلمنا أنه أعلم بالمصلحة فتصرّف على وجه الحكمة التي تقتضي أن تعود على الموكل منه منفعة فأتلف ماله هذا الوكيل الحق تعالىٰ بغرق أو حرق أو خسف أو ما شاء تجارة له ليكسبه بذلك في الدار الآخرة أكثر ممّا قيل أنه في ظاهر الأمر إتلاف وما هو إتلاف بل هي تجارة بيع بنسيئة يسمّى مثل هذا تجارة رزء لكن ربحها عظيم، وهذا علم يعرفه الوكيل لا الموكل، وهو يحفظ عليه ماله لمصلحة أخرى يقتضيها علمه فيها، ومنّا من وكّل الله فاستخلفه الوكيل في التصرّف على حدّ ما يرسمه الوكيل لعلم الوكيل بالمصلحة فصار الموكل وكيلاً عن وكيله، وهو الذي لا يتعدّى الأمر المشروع في تصرّفه، فهو وإن كان المال له فالتصرّف فيه بحكم وكيله وهذا نظر غريب، ومنّا من قال: لا

تصحّ من جهة الحقيقة فإن الله ما خلق الأشياء والأموال من الأشياء إلاّ له تعالىٰ لتسبيحه، ووقعت المنفعة لنا بحكم التبعية ولهذا قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] فإذا خلق الأشياء من أجله لا من أجلنا فما لنا شيء نوكله فيه لكن نحن وكلاؤه في الأشياء، فحدّ لنا حدوداً فنتصرّف فيها على ما حدّ لنا، فإن زدنا على ما رسم لنا أو نقصنا عاقبنا، فلو كانت الأموال لنا لكان تصرّفنا فيها مطلقاً، وما وقع الأمر هكذا بل حجر علينا التصرّف فيها، فما هي وكالة مفوّضة بل مقيدة بوجوه مخصوصة من رب المال الذي هو الحق الموكل، وعلى كل وجه فالنيابة حاصلة إما منه تعالىٰ وإما منا، وقد ثبتت في أي طرف كان. انتهى الجزء الثاني والستون.

(الجزء الثالث والستون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصل في فصل ـ صفة النائب في الحج: اختلف علماء الرسوم، سواء كان المحجوج عنه حياً أو ميتاً هل من شرطه أن يكون قد حجّ عن نفسه أم لا؟ فمن قائل: ليس من شرطه أن يكون قد حجّ عن نفسه وإن كان قد حجّ عن نفسه فهو أفضل. ومن قائل: أن من شرطه أن يكون قد قضى فريضته وبه أقول.

اعلم أنه من رأى أن الإيثار يصحّ في هذا الطريق قال: لا يشترط فيه أن يكون قد حجّ عن نفسه وألحق ذلك بالفتوة حيث نفع غيره وسعى في حقّه قبل سعيه في حق نفسه فله ذلك، ولا سيما إن رأى أن مثل هذا الفعل هو في حق نفسه لما لها في الإيثار من الأجر فما آثر إلاّ نفسه. ومن رأى أن حق نفسه أوجب عليه من حق غيره وعامل نفسه معاملة الأجنبيّ وأنها الجار الأحق فهو بمنزلة من قال: لا يحجّ عن غيره حتى يكون قد حجّ عن نفسه وهو الأولى في الاتباع وهو المرجوع إليه لأنه الحقيقة، وذلك أنه إن سعى أوّلاً في حق نفسه فهو الأولى بلا خلاف، وإن سعى في حق غيره فإن سعيه فيه إنما هو في حق نفسه فإنه الذي يجني ثمرة ذلك بالثناء عليه والثواب فيه، فلنفسه سعى في الحالتين ولكن يسمى بسعيه في حق غيره مؤثراً لتركه فيما يظهر حق نفسه لحق غيره الواجب على ذلك الغير لا عليه، فإنه في هذا أدّى ما لا يجب عليه، وجزاء الواجب أعلى من جزاء غير الواجب لاستيفاء عين العبودية في الواجب، وفي الآخر رفعة وامتنان حالي على المتفتي عليه فهو قائم في حق الغير بصفة إلهية لأن لها الامتنان وهو في قيام حق نفسه من طريق الوجوب تقيمه صفة عبودية محضة، وهو المطلوب الصحيح من العبد الذي يضيف الفعل المذموم والمكروه في الطبع والعادة والعرف إلى نفسه إيثاراً منه لجناب ربه حتى لا ينسب إليه ما جرى عليه لسان ذم كالذنب، ولسان كراهة الطبع كالمرض وسائر العيوب غيرة على ذلك الجناب الإلهيّ وفداء له بنفسه، وكذلك لو وقى عرض أخيه بعرضه كالمؤمن مع المؤمن ووقى ضرراً كبيراً من نبيّ ورسول بنفسه كان أعلى ممّن لم يفعل ذلك وآثر نفسه وهذا يرجع إلى قدر من آثرته على نفسك، فمن راعى

الإيثار والفتوّة عمم، ومن راعى من آثرته قسم الأمر إلى ما ذكرناه فهو بحسب ما يقام فيه ويخطر له، هذا كله ما لم يقع فيه إجارة، فإن وقعت النيابة بإجارة فلها حكم آخر.

وصل ـ في الرجل يؤاجر نفسه في الحج: فكرهه قوم مع الجواز ومنعه قوم. العمل يقتضي الأجرة لذاته وهي العوض في مقابلة ما أعطى من نفسه وما بقي إلاّ ممّن تؤخذ، فمنا من قال: لا يأخذه من الله تعالىٰ لأنه المستخدم لنا في ذلك العمل فالأجرة عليه ما من نبيّ ولا رسول إلاّ قد قال إذ قيل له قل فأمر فقال: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ [سورة الشعراء: الآية ١٠٩] يعني في التبليغ ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ [سورة هود: الآية ٢٩] فما خرجوا عن الأجرة والتبليغ عن الله من أفضل القرب إلى الله، وأن الله استخدمه في التبليغ مع كونه عبداً فتعينت عليه الأجرة سبحانه بتعيينه عوضاً ممّا أعطاه من نفسه فيما استخدمه فيه وترك مباحه الذي هو له وتخييره، ومن رأى أن العوض إنما يستحقه من وقعت له المنفعة في ذلك التبليغ طلب الأجرة من المتعلم لأن المنفعة هو حصلها، فالعوض يطلب منه فموضع الإجماع ثبوت الإجارة لأن المانع لا يمنعها، وإنما يمنعها الخلق من جانب الحق غيرة أن يعبد لأمر لا لعينه لما في ذلك من عدم تعظيم الجناب الإلهيّ، وهذا موجود كثير مثل النهي أن يفرد يوم الجمعة بصيام لعينه، وكذلك قيام ليلتها، وكذلك من يستحسن فعل عبادة بموضع يستحسنه، وليس هذا من شأن القوم فإنهم قد أدركوا حرمان ذلك ذوقاً وخسرانه.

مرّ رجل من القوم مع جماعة ممّن سخّر لهم الهواء وهم يسيرون فيه فالتفت واحد منهم في طريقه فنظر إلى الأرض وإذا هم قد جازوا بقعة خضراء فيها عين خرارة فاستحسن ذلك طبعاً فخطر له لو ركع فيها ركعتين فسقط من بين الجماعة وما رجع بعد ذلك إلى تلك الحالة لأنه ما طلب العبادة لما يستحقه الحق، وإنما كان الباعث لذلك الطلب الطبع في ذلك المكان لحسنه طبعاً فعوقب، فمن رأى هذا قال: لا أجرة إلاّ من الله إذ العمل بذاته يطلب الأجرة ولا بدّ.

وصل في فصل ـ حج العبد: فمن قائل: بوجوبه عليه. ومن قائل: لا يجب عليه حتى يعتق وبالأوّل أقول، وإن منعه سيده مع القدرة على تركه لذلك كان السيد عندنا من الذين يصدّون عن سبيل الله، كان أحمد بن حنبل في حال سجنه أيام المحنة إذا سمع النداء للجمعة توضأ وخرج إلى باب السجن فإذا منعه السجان وردّه قام له العذر بالمانع من أداء ما وجب عليه وهكذا العبد فإنه من جملة الناس المذكورين في الآية.

اعلم أن من استرقه الكون فلا يخلو إما إن استرقه بحكم مشروع كالسعي في حق الغير والسعي في شكر من أنعم عليه من المخلوقين نعمة استرقه بها، فهذا عبد لا يجب عليه الحق، فإنه في أداء واجب حق مشروع يطلبه به ذلك الزمان وهو عند الله عبد لغير الله عن أمر الله لأداء حق الله، وإن كان استرقه غرض نفسي وهوى كياني ليس للحق المشروع فيه رائحة وجب عليه إجابة الحق فيما دعاه الله من الحجب إليه في ذلك الفعل، فإذا نظر إلى وجه الحق في ذلك الغرض كان ذلك عتقه فوجب الحج عليه، وإن غاب عنه ذلك لغفلة لم يجب عليه وكان عاصياً لمعرفته بأن الله خاطبه بالحج مطلقاً، وإن كان مشهده في ذلك الوقت أنه مظهر

والمخاطب بالحج الظاهر فيه وليس عينه لم يوجب الحج عليه، وهذا هو العبد المخلص لله، وهذه عبودة لا عتق فيها، ألا ترى أن الشارع قد قال في الصبي يحج والعبد يحج قبل أن يعتق ثم يموت قبل العتق ويموت الصبي قبل البلوغ إن ذلك الحج يكتب له عن فريضته، وذلك لأنه خرج بالموت عن رق الغير فعتق بالموت، وحينئذ كتب له ذلك الحج بأداء واجب، وإن كان فعله في غير زمان الوجوب على من يقول بذلك.

وصل في فصل ـ هذه العبادة هل هي على الفور أو على التراخي والتوسعة: فمن قائل: على الفور. ومن قائل: على التراخي، وبالفور أقول عند الاستطاعة. الأسماء الإلهية على قسمين في الحكم في العالم من الأسماء من يتمادى حكمه ما شاء الله ويطول، فإذا نسبته من أوّله إلى آخره قلت بالتوسّع والتراخي كالواجب الموسع بالزمان فكل واجب توقعه في الزمان الموسع فهو زمانه سواء أوقعته في أوّل الزمان أو في آخره أو فيما بينهما فإن الكل زمانه وأدّيت واجباً، فاستصحاب حكم الاسم الإلهي على المحكوم عليه موسع كالعلم في استصحابه للمعلومات وكالمشيئة، وهكذا المكلف إن شاء فعل في أوّل وإن شاء فعل في آخر، ولا يقال هنا: وإن شاء لم يفعل لأن حقيقة فعل أثر وحقيقة لم يفعل استصحاب الأصل فلا أثر فلم يكن للمشيئة هنا حكم عياني. ومن الأسماء من لا يتمادى حكمه كالموجد فهو بمنزلة من هو على الفور، فإذا وقع لم يبق له حكم فيه فإنه تعالىٰ إذا أراد شيئاً أن يقول له كن على الفور من غير تراخ، فإن الموجد ناظر إلى تعلق الإرادة بالكون، فإذا رأى حكمها قد تعلق بالتعيين أوجد على الفور مثل الاستطاعة إذا حصلت تعين الحج.

وصل في فصل ـ وجوب الحج على المرأة وهل من شرط وجوبه أن يسافر معها زوج أو ذو محرم أم لا؟: فقيل: ليس من شرط الوجوب ذلك. وقيل: من شرطه وجود المحرم ومطاوعته النفس تريد الحج إلى الله وهو النظر في معرفة الله من طريق الشهود، فهل يدخل المريد إلى ذلك بنفسه أو لا يدخل إلى ذلك إلاّ بمرشد؟ والمرشد أحد شخصين: إمّا عقل وافر وهو بمنزلة الزوج للمرأة، وإمّا علم بالشرع وهو ذو المحرم، فالجواب لا يخلو هذا الطالب أن يكون مراداً مجذوباً أو لا يكون، فإن كان مجذوباً فالعناية الإلهية تصحبه فلا يحتاج إلى مرشد من جنسه وهو نادر، وإن لم يكن مجذوباً فإنه لا بدّ من الدخول على يد موقف إمّا عقل أو شرع. فإن كان طالباً المعرفة الأولى فلا بدّ من العقل بالوجوب الشرعي، وإن طلب المعرفة الثانية فلا بدّ من الشرع يأخذ بيده في ذلك، فبالمعرفة الأولى يثبت الشرع عنده، وبالمعرفة الثانية يثبت الحق عنده ويزيل عنه من أحكام المعرفة الأولى العقلية نصفها ويثبت له نصفها.

فالعقل مع الشرع في هذه المسألة كملك ولى في ملكه نائباً وأيّده وقوّاه واحتجب الملك عن رعاياه وتحكم النائب واستفحل فلما قوي واستحكم وانصبت إليه قلوب الرعايا وأحبته وملكها بإحسانه تقوّى على الملك وعزله وخلعه على غير علم من الرعايا فقال له الملك: إذ خلعتني فلا تظهر للرعية أنك خلعتني فتنسب إلى قلة المروءة حيث وليتك على علم منهم فجازيتني بالإساءة، فربما يتطرق إليك الذم فلا تفعل، وإني قد عهدت إلى الرعية

عندما وليتك واستنبتك أن يسمعوا لك ويطيعوا، وجعلت لك النظر فيهم بما تراه وقلت لهم: إن جميع ما يراه هذا النائب فاعملوا به سواء خالف نظري ورأيي أو وافقه، فإن قد علمت أنه ما يأمركم إلاّ بما فيه صلاحكم، فقد مشيت لك مرادك في الملك فإنك تحتاج إليّ في أوقات، فإنهم لولا أني آمرهم من حيث لا تشعر ما أطاعوك وردّوا أمرك، فليس لك مصلحة في إظهار خلعي وعزلي، فإنهم إن صحّ عندهم عزلي لم يقبلوا منك وعزلوك ولم يسمعوا لك ولا أطاعوا، فهذا مثل العقل الذي أعطى المعرفة الأولى وهو الملك، والشرع مثله مثل النائب، وما خاطب الشارع إلاّ ليسمع، ولا يسمع منه إلاّ ذو عقل، فبالعقل الذي ولاّه به يسمع المكلف خطابه لأنه إذا زال العقل سقط التكليف، ولم يبق للشرع عليه سلطان ولا حجة، فأولو الألباب والنهى هم المخاطبون، وهذا هو عين إمداد الملك للرعايا الذي أوصاه بحفظه عليهم فافهم. فهذه المعرفة الثانية بالله الذي أعطاها النائب في العامّة والملك الذي هو العقل لا يعرفها، ولكن أمر بقبولها حتى لا ينسب إلى التقصير ولا يتحدّث عنه أنه عزل، ولذلك تأوّل من العقلاء من تأوّل ما جاءت به الشريعة ممّا يخالف نظر العقل وسلمه آخرون فلم يقولوا فيه بشيء فإنهم قالوا: قد تقرّر عندنا من الملك لما ولاّه أن نسمع له ونطيع على كل حال فلا نسفه رأي العقل في توليته الشرع واستنابته، وهكذا وقعت صورة الحال لمن نظر واستبصر، فهذا اعتبار المرأة في السفر إلى الحج وما فيه من الخلاف الذي تقدّم في وجوب ذي المحرم أو سقوطه.

وصل في فصل ـ وجوب العمرة: فمن قائل: بوجوبها. ومن قائل: إنها سنّة. ومن قائل: إنها تطوّع.

العمرة: الزيارة للحق بعد معرفته بالأمور المشروعة، فإذا أراد أن يناجيه فلا يتمكن له ذلك إلاّ بأن يزوره في بيته وهو كل موضع تصحّ فيه الصلاة فيميل إليه بالصلاة فيناجيه لأن الزيارة الميل ومنه الزور، وزار فلان القوم إذا مال إليهم، وكذلك إذا أراد أن يزوره بخلعته تلبس بالصوم وتجمل به ليدخل به عليه، وإذا أراد أن يزوره بعبوديته تلبس بالحج فالزيارة لا بدّ منها، والعمرة واجبة في أداء الفرائض، سنّة في الرغائب، تطوّع في النوافل، غير المنطوق بها في الشرع، فأيّ جانب حكم عليك ممّا ذكرناه حكمت على العمرة به من وجوب أو سنّة أو تطوّع فافهم.

وصل في فصل ـ في المواقيت المكانية للإحرام: وهي أربعة بالاتفاق وخمسة باختلاف: ذو الحليفة، والجحفة، وقرن، ويلملم، وذات عرق. وهو المختلف فيه أعني ذات عرق هل وقته رسول الله ﷺ أو عمر بن الخطاب؟ وقيل: العقيق وجعلوه أحوط من ذات عرق فكان سادساً بخلاف، فأشبه عدد المواقيت أعداد الصلوات، فمن جعلها أربعة اعتبر أن المغرب وتر صلاة النهار فكأنه جيء بها لغيرها لا لنفسها كما في صلوات الفرض، ومن اعتبر الفرضية في الجميع قال خمسة، ومن اعتبر قوله عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ زَادَكُمْ صَلاةً إِلَىٰ صَلاتِكُمْ**» قال: بوجوب الوتر لأن كل فرض واجب فاجتمع الوتر مع الخمس الصلوات

المفروضة بالقطع في الوجوب لا في الفرضية فارتفع عن درجة التطوّع، وممّا يقوّي وجوبه تشبيهه بصلاة المغرب فقال في الوتر: إنه لصلاة الليل فيقوى لشبهه بالفرض في المغرب حيث جعل وتر الصلاة النهار وضعف المغرب عن باقي الصلوات المفروضة، لكون الوتر الذي ليس بفرض بالاتفاق شبه به، فعين ما يقوى به الوتر هو الذي أضعف المغرب، والصلاة نور والحج عبودية فارتبطا، فإن الله قسم الصلاة بينه وبين العبد، والمواقيت إمكانية، ومواقيت الفرائض الجماعة في المساجد.

وصل في فصل ـ حكم هذه المواقيت: فمن مرّ عليها وهو يريد الحج والعمرة وتعداها ولم يحرم منها فإن عليه دماً، وقال قوم: لا دم عليه. والذين قالوا بالدم فيهم من قال: إن رجع إلى الميقات وأحرم سقط عنه الدم. ومنهم من قال: لا يسقط وإن رجع. وقال قوم: إن لم يرجع إلى الميقات فسد حجّه إذا تعين الدم، فلا يسقط عمّن تعين عليه لما تعين ذبح ولد إبراهيم الخليل على إبراهيم لم يسقط عنه الدم أصلاً، ففداه الله بذبح عظيم وهو الكبش حيث جعل بدل إفساد بنية نبيّ مكرّم فحصل الدم لأنه وجب، وبعد أن وجب فلا يرتفع فصارت صورة ولد إبراهيم صورة كبش كسوق الجنة يدخل في أيّ صورة شاء فذبحت صورة الكبش، وليس ولد إبراهيم صورة الإنسان، وهذا سبب العقيقة التي كل إنسان مرهون بعقيقته.

حكاية شهدناها: قيل لبعض شيوخنا عن بنت من بنات الملوك ممّن كان الناس ينتفعون بها وكان لها اعتقاد في هذا الشيخ فوجهت إليه ليدخل عليها فدخل عليها والملك الذي هو زوجها عندها فقام إليه السلطان إجلالاً، ثم نظر إليها الشيخ وهي في النزع فقال الشيخ: أدركوها قبل أن تقضي، قال له الملك: بماذا قال بديتها اشتروها فجيء إليه بديتها كاملة، فتوقف النزع والكرب الذي كانت فيه وفتحت عينيها وسلمت على الشيخ فقال لها الشيخ: لا بأس عليك ولكن ثم دقيقة بعد أن حلّ الموت لا يمكن أن يرجع خائباً بلا بدّ له من أثر ونحن قد أخذناك من يده وهو يطالبنا بحقّه فلا ينصرف إلاّ بروح مقبوضة، وأنت إذا عشت انتفع بك الناس وأنت عظيمة القدر فلا نفديك إلاّ بعظيم ما عندي من هذا الموت ولي بنت هي أحب البنات إليّ أنا أفديك بها، ثم ردّ وجهه إلى ملك الموت وقال له: لا بدّ من روح ترجع بها إلى ربك هذه بنتي تعلم محبتي فيها خذ روحها بدلاً من هذه الروح فإني قد اشتريتها من الحق وباعني إياها وابنتي جعلك وحق لمجيئك، ثم قام وخرج إلى ابنته وقال لابنته وما بها بأس: يا بنية هبيني نفسك فإنك لا تقومين للناس مقام زينب بنت أمير المؤمنين في المنفعة، فقالت: يا أبت أنا بحكمك قد وهبتك نفسي، فقال للموت: خذها فماتت من وقتها. فهذه عين مسألة الخليل وولده صلّى الله عليهما.

فهذه الموازنات الإلهية لا يعرفها إلاّ أهلها، وعندنا أن الجعل لا بدّ منه ولا نلتزم أخذ روح ولا بدّ فإنا قد رأينا مثل هذا من نفوسنا فاشتريناه وما أعطينا فيه روحاً، وإنما فعل ذلك الشيخ لحال طرأ عليه في نفسه أوجب عليه ما فعله من إعطاء ابنته لأن مشهده في ذلك الوقت كانت قصة إبراهيم عليه السلام، فحكم عليه حال إبراهيم عليه السلام، فإن فهمت ما قلناه

سعدت. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [سورة التوبة: الآية ١١١] يعني الجنة، فلو لم يشتر أموالهم حتى حال بينهم وبينها لكان لهم ما يصلون به إلى المنعة ببقاء الحياة لبقاء الفداء الحاصل بالمال، فلما أفلسهم أعدمهم، فكان مشهد الشيخ من هذه الآية: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ وكان مشهدنا نحن في هذه المسألة عين الشراء لا غير وهو الحيّ فمن كان عنده حيي ولا بدّ فأعطينا العوض الذي اشترينا به حياته فبقي حياً وما ظهر للموت أثر في ذلك المشهد.

فهذه آثار الأحوال على قدر الشهود وهي علوم الأذواق فهي عزيزة المنال، فما كل عارف يعرفها وهي موازين لا تخطىء فإنها بالوضع الإلهيّ نزلت ليوم القيامة بخلاف نزولها في الدنيا فإنها نزلت تعريفاً، وعند أهل الشهود في الدنيا كالأنبياء، وفي يوم القيامة نزلت حقيقة بيد حق فلذلك ما جار نبيّ في حكم وفرضت له العصمة في أحكامه، وكذلك الولي محفوظ في ميزانه، وإن كانت العامّة تنسبه إلى الجور فليس جوراً في نفس الأمر، وإنما هو جور بالنظر إلى موازينهم حيث لم يوافقها، وكل حق فإنه ثم ميزان عموم كميزان الإجماع، وميزان خصوص مثل هذا الميزان، وميزان المجتهد في الحكم، ولكن بقي أي ميزان أفضل في الخصوص هل هو ميزان المجتهد أو ميزان صاحب الكشف؟

كما اختلفوا في إحرام الرجل من الميقات أو من منزله الخارج عن الميقات، فمن قائل: إن الإحرام من منزله الخارج عن الميقات أفضل. ومن قائل: إن الإحرام من الميقات أفضل ولكن على من يجيز الإحرام قبل الميقات، فمن راعى الاتباع فضل الميقات، ومن راعى المسارعة إلى التلبس بالعبادات مخافة الفوت فضل الإحرام من المنزل الذي خارج الميقات، لكن المجمع عليه الميقات وهو تقييد، والأفضل التقييد في الدين، فإن المباح الذي هو المطلق لا أجر فيه ولا وزر، والعبادات تكليف والتكليف تقييد، وجزاء تقييد الواجب أوجبه من أوجبه أعلى من الجزاء في الغير المقيد لأنه قد ورد أن الله يقول: «**مَا تَقَرَّبَ أَحَدٌ بِأَحَبَّ إِليَّ مِنْ تَقَرُّبِهِ بِمَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ**» فجعله حب إليه من غير ذلك، وهنا أسرار إلهية لا تتجلى إلاً لأهل الفهم عن الله أهل الستر والكتم جعلنا الله منهم وأرجو أن أكون.

وصل في فصل ـ حكم من مرّ على ميقات وأمامه ميقات آخر وهو يريد الحج أو العمرة: اختلف الناس فيمن يريد الحج أو العمرة فيمر على ميقات وأمامه ميقات آخر فلم يحرم في الأول وتعدّى إلى الآخر كالمار بذي الحليفة فلم يحرم وتعدى إلى الجحفة فإنها في طريقه، فقال قوم: عليه دم. وقال قوم: ليس عليه شيء. فمن راعى المسارعة إلى التلبس بالعبادة أعني بهذه العبادة الخاصة ورأى أن المسارعة إلى الخيرات سنّة مؤكدة قال: إن عليه دماً في تعديها. ومن رأى أن الأصل في الدين رفع الحرج وقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥] فإرادة موافقة الحق فيما أراده أولى، وكل عبادة فأخر وقال لا دم عليه، فالعارف إذا كان مشهده الاسم الأول المقيد

بالآخر لا الأول المطلق الذي لا يتقيد بالآخر رأى أن التلبس بالعبادة في الآخر الذي لا يجوز تعديه ولا فسحة فيه أولى، فإنه فيه صاحب فرض من كل وجه لا يسعه تركه، ومن رأى أن التلبس بهذه العبادة بحكم الاسم الأول أولى لكونه لا علم له بإتمامها فلا يدري هل يموت قبل أن يتلقاه الاسم الآخر، فإن لم يحرم فارق موطن التكليف وهو لم يتلبس بعبادة الله اقتضاها له الموطن فحرم تجليها الإلهي فهو بحسب ما أشهده الحق، وما خرج في هذا كله عن حكم اسم إلهي من الأسماء على شهود منه.

فإن قيل: كيف يتعداه غير متلبس بهذه العبادة والميقات يقضي عليه بسلطانه وهو الاسم الأول. قلنا: لا حكم للأسماء في الأشياء إلاّ باستعدادات الأشياء للقبول وقبولها بحسب الحال التي تكون عليها في نفسها من ذاتها فإن الأسباب الخارجة الموجبة لأمر ما تضعف عن مقاومة الأسباب الداخلة التي في المكلف فربما يكون حال هذا المتعدي حال الختم فيطلبه بالتأخير فيعرف ذلك الاسم الأول فيضعف موطن ميقاته عن التأثير فيه لأنه ليس عين مشهده، فيتعدى إلى الميقات الثاني لأنّ له الاسم الآخر، ولا شك أن الآخر في الطريق يتضمن حكمه ما تقدمه مضافاً إلى خصوصيته بخلاف الأول، فالأول يدرج في الثاني وليس الثاني مدرجاً في الأول.

ومن أصول القوم أن العارف لو جلس مع الله كذا وكذا سنة وفاتته لحظة من الله في وقته كان الذي فاته في تلك اللحظة أكثر ممّا ناله قبل ذلك، وسببه أن كل لحظة إلهية متأخرة تتضمن ما تقدمها من اللحظات وفيها خصوصيتها التي بها تميزت، وبتلك الخصوصية صحت لها الكثرة على ما تقدمها، فلهذا لم ير بالتعدي بأساً محمد ﷺ آخر المرسلين، فحصل جميع مقامات الرسل وزاد بخصوصيته بلا شك لأنه آخر النبيين، وفي هذا إشارة لمن فهم.

فإن قيل: إذا تلبس بالعبادة أولاً ومرّ على الآخر وهو متلبس فقد حصل له ما في الآخر بمروره متلبساً بها. قلنا: هكذا هو إلاّ أنه لم يحصل له في الثاني الحكم الخاص بالثاني الذي هو الإنشاء منه وهو أوليته، فيفوته أولية الإنشاء منه لهذه العبادة بالاسم الآخر فلهذا تعدى إليه، قال السائل: كذلك أيضاً يفوته أولية الأول في الإنشاء. قلنا: إن كل أولية مضافة تحكم عليها حقيقة الأولية التي لا تضاف وهي المعتبرة فما فاته ما يتحسر عليه، إذ حقيقتها موجودة في أولية الآخر، والآخر لا وجود له في الأول، ومن نظر في الأسماء بهذه العين علم كيف يقبل تصريفها فيه ويعين لها من ذاته ما يليق بها على شهود منه وبينة وعلم صحيح، وبهذا يتميز لأنه في نفس الأمر كذا هو ما يتلقاه منه إلاّ ما يليق به، ولكن لا علم لكل أحد بذلك، وبهذا تتفاوت الناس ويرفع الله درجات بعضهم على بعض ويعلم أيضاً كيف يصرفها في غيره إذا مكنته من نفسها أو مكنه منها حاله، لأنه ليس في الحقيقة أن يقوم بك العلم ولا تكون عالماً، فهذا هو التمكن الحاليّ الذي تقتضيه ذاته ولا يصحّ غيره، لأن المعاني توجب أحكامها لمن قامت به، ولولا ذلك ما صحّ وجود العالم عن الحق. ألا ترى أن المحال لما لم يكن في استعداده قبول ما يقبله الممكن من الوجود لم يكن له وجود ولا يصحّ كالشريك

لله تعالىٰ في ألوهيته. ولما كان الممكن في استعداده الذاتيّ قبول الإيجاد وجد فلا تغب عن حقائق الأمور فإنها تتداخل في حكم الناظر فيها لا في نفسها، ومن غاب عن الحقائق هوى في مهاوي الجهالات ويفوته درجة العلم الذي أمر الله نبيه بطلب الزيادة منه فلا شيء أشرف من العلم، ولم يأمر بطلب زيادة في غيره من الصفات لأنه الصفة العامة التي لها الإحاطة بكل صفة وموصوف.

وصل في فصل ـ الآفاقيّ يمرّ على الميقات يريد مكة ولا يريد الحج ولا العمرة: اختلف العلماء فيمن ليس من أهل مكة يريد مكة ولا يريد حجاً ولا عمرة ومرّ على ميقات من المواقيت هل يلزمه الإحرام أم لا؟ إذا لم يكن ممّن يكثر التردّد إلى مكة. فقال قوم: يلزمه الإحرام. وقال قوم: لا يلزمه الإحرام وبه أقول.

رجال الله على نوعين: رجال يرون أنهم مسيّرون، ورجال يرون أنهم يسيرون. فمن رأى أنه مسيّر لزمه الإحرام على كل حال فإنه مسيّر على كل حال. ومن رأى أنه يسير لا غير فهو بحكم ما بعثه على السير، فإن كان بعثه باعث يقتضي الإحرام أحرم فإنه كمن أراد الحج أو العمرة أو هما معاً. وإن كان باعثه غير ذلك فهو بحسب باعثه كما قاله ﷺ لمن أراد الحج والعمرة. وقال ﷺ في الصحيح أيضاً: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَىٰ**». فليس له أن يحرم وهو لم ينو حجاً ولا عمرة، وما عندنا شرع يوجب عليه أن ينوي الحج أو العمرة ولا بدّ. ثم فسّر رسول الله ﷺ لنا ما أراد وما حجر ولا ذم فقال: «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**».

وصل في فصل ـ ميقات الزمان: يقول الله تعالىٰ: ﴿**ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ**﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٧] فمن قائل: هي شوّال وذو القعدة وذو الحجة وبه أقول. ومن قائل: شوّال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة. ومن قائل: في أيّ وقت شاء من السنة. وكذلك العمرة في أيّ وقت شاء من السنة، وكرهها بعضهم في يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق، واختلفوا في تكرارها في السنة الواحدة، فمنهم من استحب عمرة في كل سنة وكره ما زاد على ذلك. ومنهم من قال: لا كراهة في ذلك، وبه أقول.

اعلم أن الميقات الزمانيّ إنما عيّنه الاسم الإلهيّ الدهر. واعلم أنّ الزمان منه ما هو فوق الطبيعة وهو مذهب المتكلمين، ومنه ما هو تحت الطبيعة فله الحكم العامّ، فالذي له من الحكم تحت الطبيعة فحكم جسمانيّ يتميز بحركات الأفلاك والزمان في نفسه معقول والطريق إلى معقوليته الوهم فهو امتداد متوهم تقطعه حركات الأفلاك كالخلاء امتداد متوهم لا في جسم، فحاصله على هذا القول أنه عدم لا وجود. وأمّا الزمان الذي فوق الطبيعة فتميزه الأحوال وتعينه في أمر وجوديّ يلقيه إلى العقل الاسم الدهر، وتصحبه لفظة متى في لسان العرب، فمتى يصحب الزمان الطبيعيّ وغير الطبيعيّ، وقد وقع في الأمور والنسب الإلهية والزمانية نسبة الزمان والمكان وهما ظرفان، ففي المكان قول رسول الله ﷺ للسوداء: «**أَيْنَ**

الله». وقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٠] فذكر اعتقادهم وما جرّح وما صوّب ولا أنكر ولا عرّف. ومثل هذا في الشرع كثير.

وفي الزمان قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] و﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [سورة الروم: الآية ٤] وقد ورد في الصحيح: **«لاَ تَسبُّوا الدَّهرَ فإنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهرُ»**، تنزيهاً لهذه اللفظة أي أنها من الألفاظ المشتركة كالعين والمشتري، فالدهر الزماني مظهر للاسم الدهر، والاسم بالفعل هو الظاهر فيه، والفعل في الكون للظاهر ولا للمظهر، وحكم المظهر إنما هو في الظاهر حيث سمّاه بنفسه، ولهذا تأوّله من تأوّله فقال معناه أنه الفاعل في الدهر، وهذا خطأ بين لأنه لم يفرق بين الفعل من حيث نسبته إلى الفاعل ونسبته إلى المفعول، فالحق فاعل والمفعول واقع في الدهر، والفعل حال بين الفاعل والمفعول، ولم يفرق هذا المتأوّل بين الفاعل والمفعول فهلاّ سلم علم ذلك لقائله وهو الله تعالىٰ، ولا تأوّله تأوّل من لا يعرف ما يستحقه جلال الله من التعظيم.

وصل في فصل ـ الإحرام، وهو أوّل التلبس بهذه العبادة: حكاية الشبلي في ذلك: قال صاحب الشبلي وهو صاحب الحكاية عن نفسه: قال لي الشبلي: عقدت الحج؟ قال: فقلت نعم، فقال لي: فسخت بعقدك كل عقد عقدته منذ خلقت ممّا يضادّ ذلك العقد؟ فقلت: لا، فقال لي: ما عقدت. ثم قال لي: نزعت ثيابك؟ قلت؛ نعم، فقال لي: تجردت من كل شيء؟ فقلت: لا، فقال لي: ما نزعت. ثم قال لي: تطهرت؟ قلت: نعم. فقال لي: زال عنك كل علة بطهرك؟ قلت: لا، قال: ما تطهرت ثُمَّ قال لي: لبيت؟ قلت: نعم، فقال لي: وجدت جواب التلبية بتلبيتك مثله؟ قلت: لا، فقال: ما لبيت. ثم قال لي: دخلت الحرم؟ قلت: نعم، قال: اعتقدت في دخولك الحرم ترك كل محرم؟ قلت: لا، قال: ما دخلت. ثم قال لي: أشرفت على مكة؟ قلت: نعم، قال: أشرف عليك حال من الحق لإشرافك على مكة؟ قلت: لا، قال: ما أشرفت على مكة. ثم قال لي: دخلت المسجد؟ قلت: نعم، قال: دخلت في قربه من حيث علمت؟ قلت: لا، قال: ما دخلت المسجد. ثم قال لي: رأيت الكعبة؟ فقلت: نعم، فقال: رأيت ما قصدت له؟ فقلت: لا، قال: ما رأيت الكعبة. ثم قال لي: رملت ثلاثاً ومشيت أربعاً؟ فقلت: نعم، فقال: هربت من الدنيا هرباً علمت أنك قد فاصلتها وانقطعت عنها ووجدت بمشيك الأربعة أمناً ممّا هربت منه فازددت لله شكراً لذاك؟ فقلت: لا، قال: ما رملت. ثم قال لي: صافحت الحجر وقبلته؟ قلت: نعم، فزعق زعقة وقال: ويحك إنه قد قيل: إن من صافح الحجر فقد صافح الحق سبحانه وتعالىٰ، ومن صافح الحق سبحانه وتعالىٰ فهو في محل الأمن، أظهر عليك أثر الأمن؟ قلت: لا، قال: ما صافحت. ثم قال لي: وقفت الوقفة بين يدي الله تعالىٰ خلف المقام وصليت ركعتين؟ قلت: نعم، قال: وقفت على مكانتك من ربك فأريت قصدك؟ قلت: لا، قال: فما صليت. ثم قال لي: خرجت إلى الصفا فوقفت بها؟ قلت: نعم، قال: إيش عملت؟ قلت: كبرت سبعاً وذكرت الحج وسألت الله القبول، فقال لي: كبرت بتكبير الملائكة ووجدت حقيقة تكبيرك

في ذلك المكان؟ قلت: لا، قال: ما كبرت. ثم قال لي: نزلت من الصفا؟ قلت: نعم، قال: زالت كل علة عنك حتى صفيت؟ قلت: لا، فقال: ما صعدت ولا نزلت. ثم قال لي: هرولت؟ قلت: نعم، قال: ففررت إليه وبرئت من فرارك ووصلت إلى وجودك؟ قلت: لا، قال: ما هرولت. ثم قال لي: وصلت إلى المروة؟ قلت: نعم، قال: رأيت السكينة على المروة فأخذتها أو نزلت عليك؟ قلت: لا، قال: ما وصلت إلى المروة. ثم قال لي: خرجت إلى منى؟ قلت: نعم، قال: تمنيت على الله غير الحال التي عصيته فيها؟ قلت: لا، قال: ما خرجت إلى منى. ثم قال لي: دخلت مسجد الخيف؟ قلت: نعم، قال: خفت الله في دخولك وخروجك ووجدت من الخوف ما لا تجده إلاَّ فيه؟ قلت: لا، قال: ما دخلت مسجد الخيف. ثم قال لي: مضيت إلى عرفات؟ قلت: نعم، قال: وقفت بها؟ قلت: نعم، قال: عرفت الحال التي خلقت من أجلها والحال التي تريدها والحال التي تصير إليها وعرفت المعرّف لك هذه الأحوال ورأيت المكان الذي إليه الإشارات فإنه هو الذي نفّس الأنفاس في كل حال؟ قلت: لا، قال: ما وقفت بعرفات. ثم قال لي: نفرت إلى المزدلفة؟ قلت: نعم، قال: رأيت المشعر الحرام؟ قلت: نعم، قال: ذكرت الله ذكراً أنساك ذكر ما سواه فاشتغلت به؟ قلت: لا، قال: ما وقفت بالمزدلفة. ثم قال لي: دخلت منى؟ قلت: نعم، قال: ذبحت؟ قلت: نعم، قال: نفسك؟ قلت: لا، قال: ما ذبحت. ثم قال لي: رميت؟ قلت؛ نعم، قال: رميت جهلك عنك بزيادة علم ظهر عليك؟ قلت: لا، قال؛ ما رميت. ثم قال لي؛ حلقت؟ قلت؛ نعم، قال: نقصت آمالك عنك؟ قلت: لا، قال؛ ما حلقت. ثم قال لي: زرت؟ قلت: نعم، قال: كوشفت بشيء من الحقائق أو رأيت زيادات الكرامات عليك للزيارة فإنّ النبي ﷺ قال: «**الحُجَّاجُ وَالعُمَّارُ زُوَّارُ اللَّهِ وَحَقٌّ عَلَىٰ المَزُورِ أَنْ يُكرِمَ زُوَّارَهُ**». قلت: لا، قال: ما زرت. ثم قال لي؛ أحللت؟ قلت: نعم، قال: عزمت على أكل الحلال؟ قلت: لا، قال: ما أحللت. ثم قال لي: ودّعت؟ قلت: نعم، قال: خرجت من نفسك وروحك بالكلية؟ قلت: لا، قال: ما ودّعت وعليك العود، وانظر كيف تحج بعد هذا فقد عرّفتك، وإذا حججت فاجتهد أن تكون كما وصفت لك.

فاعلم أيّدك الله أني ما سقت هذه الحكاية إلاَّ تنبيهاً وتذكرة وإعلاماً أن طريق أهل الله على هذا مضى حالهم فيه، والشبلي هكذا كان إدراكه في حجه، فإنه ما سأل إلاَّ عن ذوقه هل أدركه غيره أم لا؟ وغيره قد يدرك هذا وقد يدرك ما هو أعلى منه وأدون منه، فما منهم إلاَّ من له مقام معلوم، فما اخترعت في اعتباراتي في هذه العبادات طريقة لم أسبق إليها إلاَّ أن الأذواق تتفاوت بحسب ما تكون عناية الله بالعبد في ذلك.

ثم نرجع ونقول على نحو ما تقدم في الفصول ولنبتدىء أولاً فيما يمنع المحرم أن يلبسه وهو القميص والعمامة والبرنس والخف إلاَّ أن لا يجد النعل والسراويل إلاَّ أن لا يجد الإزار ولا ثوباً مسّه زعفران ولا ورس، وفيما ذكرناه متفق عليه ومختلف فيه، وفي التفصيل تفسير إن شاء الله، وحال الرجل في هذا يخالف حال المرأة، فإن المرأة تلبس المخيط

والخفاف والخمر، وما للمرأة إحرام إلاً في وجهها وكفيها، وسبب هذا كله في هذه العبادة أنهم وفد الله دعاهم الحق إلى بيته وما دعاهم إليه سبحانه بمفارقة الأهل والوطن والعيش الترف وحلاهم بحلية الشعث والغبرة إلاّ ابتلاء ليريهم من وقف مع عبوديته ممّن لم يقف، ولهذا أفعال الحج أكثرها تعبدات لا تعلل، ولا يعرف لها معنى من طريق النظر، لكن تنال ربما من طريق الكشف والإخبار الإلهي الوارد على قلوب الواردين العارفين من الوجه الخاص الذي لكل موجود من ربه، فزينة الحاج تخالف زينة جميع العبادات فإنهم وفد الله الحاج منهم والمعتمر، وأعني من انفرد بالحج ومن انفرد بالعمرة فهما وفدان، فالقارن بينهما له خصوص وصف لأنه جامع لمرتبة الوفدين لأنّ وفود الله ثلاثة على ما ذكره النسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«وَفْدُ اللَّهِ ثَلاثَةٌ: الغَازِي والحاجُ والْمُعْتَمِرُ»**. انتهى الجزء الثالث والستون.

(الجزء الرابع والستون)

بسم الله الرحمن الرحيم

واعلم أيضاً أنّ المرأة إنما خالفت الرجل في أكثر الأحكام في الحج لأنها جزء منه وإن اجتمعا في الإنسانية، ولكن تميزا بأمر عارض عرض لهما وهو الذكورية للرجل والأنوثة للمرأة، وخلقت منفعلة عنه ليحنّ إليها حنين من ظهرت سيادته بها، فهو يحبها محبة من أعطاه درجة السيادة، وهي تحنّ إليه وتحبه حنين الجزء إلى الكل وهو حنين الوطن لأنه وطنها، مع ما يضاف إلى ذلك من كون كل واحد موضعاً لشهوته والتذاذه، وقد تبلغ المرأة في الكمال درجة الرجال، وقد ينزل الرجل في النقص إلى ما هو أقل من درجة النقص الذي للمرأة، وقد يجتمعان في أحكام من العبادات ويفترقان، غير أنّ الغالب فضل عقل الرجل على عقل المرأة لأنه عقل عن الله قبل عقل المرأة لأنه تقدّمها في الوجود والأمر الإلهي لا يتكرّر، فالمشهد الذي حصل للمتقدّم لا سبيل أن يحصل للمتأخر لما قلناً من أنه تعالىٰ لا يتجلّى في صورة مرّتين ولا لشخصين في صورة واحدة للتوسّع الإلهي، وهذه هي الدرجة التي يزيد بها الرجل على المرأة، وأين الكل من الجزء؟ وإن لحقه في الكمال ولكنه كمال خاص، كما لحق بعض أعضاء الإنسان إذا قطع في الديّة تلف الإنسان في كمالها وبعض الأعضاء على النصف من ذلك وأقل، فما كل جزء يلحق بالكل في كل الدرجات، فحرم المخيط على الرجل في الإحرام ولم يحرم على المرأة، فإنّ الرجل وإن كان خلق من مركب فهو من البسائط أقرب فهو أقرب الأقربين، والمرأة خلقت من مركب محقق فإنها خلقت من الرجل فبعدت من البسائط أكثر من بعد الرجل، والمخيط تركيب فقيل لها: ابقي على أصلك، وقيل للرجل: ارتفع عن تركيبك، فأمر بالتجرّد عن المخيط ليقرب من بسيطه الذي لا مخيط فيه وإن كان مركباً فإنه ثوب منسوج ولكنه أقرب إلى الهباء منه من القميص والسراويل وكل مخيط، والهباء بسيط فما قرب منه عومل بمعاملته وما بعد عنه تميّز في الحكم عن القريب.

ثم إن الرجل وهو آدم خلق على صورته وخلقت حواء على صورة آدم، وخلق البنون من امتزاج الأبوين لا من واحد منهما بل من المجموع حسّاً ووهماً، فكان استعداد الأبناء أقوى من استعداد الأبوين لأن الابن جمع استعداد الاثنين، فكمال الابن الكامل أعظم من كمال الأب، ولهذا اختصّ محمد ﷺ بالكمال الأتم لكونه ابناً، وكل ابن في النشأة له هذا الكمال، غير أنهم في الكمال يتفاضلون لأجل الحركات العلوية والطوالع النورانية والاقترانات السعادية، فما كل ابن له هذا الكمال الثاني الزائد على نشأته، فهذه دقيقة أخرى يعطيها الوجه الخاص الإلهيّ في التجلي للسبب الذي يكون عنه هذا الابن يعين ذلك الوجه اسم إلهيّ يكون في الكمال الإحاطيّ أكمل من غيره من الأسماء كالعالم فإنه أتم في الإحاطة من سائر الأسماء بما لا يتقارب، فمن كان ذا أب وأم واسم إلهيّ إحاطيّ خاص رفيع الدرجات كان أكمل ممّن كان ذا أب وأم واسم إلهيّ دونه في الإحاطة والدرجة، ومن كان عن أم وأب متوهم مثالي أشبه جدّه لأمه إذ لا أب له مثل عيسىٰ عليه السلام فصفته صفة جده آدم في صدوره عن الأمر بذا، ورد التعريف الإلهيّ فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي الاسم الإلهيّ الذي وجد عنه آدم وجد عنه عيسىٰ: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٩] الضمير يعود على آدم، فعيسىٰ أخ لحوّاء وهو ابن بنتها، ومن كان عن أب دون أم قصر عن درجة أبيه كحوّاء خلقت من القصيرى فقصرت وعوجها استقامتها، فانحناؤها حنوّها على أبنائها وعلى ماله من الخزائن مثل انحناء الأضلاع على ما في الجوف من الأحشاء والأمعاء المختزنة فيه لصلاح صاحبه فاعوجاجها عين استقامتها التي أريدت له، ولهذا اعوجاج القوس عين استقامته، فإن رمت أن تقيمه على الاستقامة الخطية المعلومة كسرته فلم تبلغ أنت بالاستقامة التي تطلبها منه غرضك الذي تؤمله، وهذا لجهلك بالاستقامة اللائقة به، فما في العالم إلاّ مستقيم عند العلماء بالله الواقفين على أسرار الله في خلقه فإنه قد بيّن لنا ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] وهو عين كمال ذلك الشيء، فما نقصه شيء، وسبب ذلك كوننا مخلوقين على من له الكمال المطلق فأشبهنا في التقييد بإطلاقه، فإن الإطلاق تقييد بلا شك إذ به يميز عن المقيد، فما يصدر عن الكامل شيء إلاّ وذلك على كماله اللائق به، فما في العالم ناقص أصلاً، ولولا الأعراض التي تولد الأمراض لتنزّه الإنسان في صورة العالم كما يتنزّه العالم ويتفرّج فيه فإنه بستان الحق والأسماء ملاكه بالاشتراك، فكل اسم له فيه حصة، فهذا الذي تعطيه الحقائق فالكمال للأشياء وصف ذاتيّ والنقص أمر عرضيّ وله كمال في ذاته فافهم، فما هلك امرؤ عرف قدره، فقد بان لك شأن المرأة من شأن الرجل وأنهما وإن افترقا من وجه فهما يجتمعان من وجه.

وصل في فصل ـ اختلاف العلماء في المحرم إذا لم يجد غير السراويل هل له لباسها:

فمن قائل: لا يجوز له لباسها فإن لبسها افتدى. ومن قائل: يلبسها إذا لم يجد إزاراً.

اعلم أن الإزار والرداء لما لم يكونا مخيطين لم يكونا مركبين، ولهذا وصف الحق نفسه بهما لعدم التركيب إذ كان كل مركب في حكم الانفصال، وهذا سبب وجوب قول القائل بأن صفات المعاني الإلهية ليست بأعيان زائدة على الذات مخافة التركيب ونزع مثبتوها زائدة إلى

أن يقولوا فيها لا هي هو ولا هي غيره لما في التركيب من النقص، إذ لو فرض انفصال المتصل لصحّ ولم يكن محالاً من وجه انفصاله، وإنما يستحيل ذلك إذا استحال لاتصافه بالقدم الذي هو نفي الأولية، والقديم لا شك أنه يستحيل أن ينعدم بالبرهان العقليّ، فإذا فرضنا عدم صفات المعاني التي بوجودها يكون كمال الموصوف ظهر نقص الموصوف، وإن كان فرض محال لاستحالة عدم القديم والله يقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٢] وهذا بطريق فرض المحال والحق كامل الذات فاجعل بالك، يقول تعالىٰ: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فهذا إحرام إلهيّ فإنه ذكر ثوبين ليسا بمخيطين، فألحق سبحانه المحرم من الرجال بما وصف به نفسه ولم يفعل ذلك بالمرأة ولا أيضاً حجر ذلك عليها فإنها قد تكمل في ذلك كما يكمل الرجال، فلو لبسته المرأة لكان أولى بها عندنا، فالمحرم قد تلبس بصفة هي للحق معنوية، وفي الخلق حسيّة هي في الحق كبرياء وعظمة، وفي الخلق رداء وإزار كما تلبس الصائم بصفة هي للحق، ولهذا جعل في قوعد الإسلام مجاوراً له، وإن كان في الحقيقة وجود العظمة والكبرياء إنما محلهما ظاهر العبد لا قلبه، فقد تكون العظمة والكبرياء حال الإنسان لا صفته ولو اتصف بها هلك جهلاً، وإذا كانتا حالاً له في موطنهما نجا وسعد وشكر له ذلك.

فأول درجة هذه العبادة أن ألحق المتلبس بها من عباده بربه في التنزيه عن الاتصاف بالتركيب، فتلبس بالكمال في أول قدم فيها ولهذا لا نجوّز نحن للمحرم أن يلبس شيئاً من المخيط، ولا يغطي رأسه إلاّ لضرورة من أذى يلحقه لا يندفع ذلك الأذى إلاّ بلباس ما حجر عليه، وأما إن فعله لغير أذى فما تلبس بالعبادة ولا حجّ ولا يفدي إلاّ من لبس ذلك من أذى، والأذى في الجناب الإلهيّ أن ينسب إلى التركيب لما فيه من النقص، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٧] فوصف نفسه بأنه يؤذى وجعل له هذا الأذى الاسم الصبور، فلا أحد أصبر على أذى من الله لقدرته على الأخذ عليه فلا يؤاخذ ويمهل، فالعبد إذا لم يقمه الله في مقام شهود العظمة التي هي الإزار وأقيم في مقام الإدلال فانبسط على الحق وهذا موجود في الطريق، وقد وردت به الأخبار النبوية في عجوز موسىٰ وغيره: لبس السراويل ستر للعورة التي هي محل السرّ الإلهيّ، وستر للأذى لأنهما محل خروج الأذى أيضاً، فتأكد سترهما بما يناسبهما وهو السراويل، والسراويل أشدّ في الستر للعورة من الإزار والقميص وغيره لأن الميل عن الاستقامة عيب، فينبغي ستر العيب ولهذا سميت عورة لميلها، فإن لها درجة السرّ في الإيجاد الإلهيّ، وأنزلها الحق منزلة القلم الإلهيّ، كما أنزل المرأة منزلة اللوح لرقم هذا القلم، فلما مالت عن هذه المرتبة العظمى والمكانة الزلفى إلى أن تكون محلاً لوجود الروائح الكريهة الخارجة منهما من أذى الغائط والبول وجعلت نفسها طريقاً لما تخرجه القوّة الدافعة من البدن سمّيت عورة وسترت لأنها ميل إلى عيب، فالتحقت بعالم الغيب وانحجبت عن عالم الشهادة، فبالسراويل لا تشهد ولا تشهد، فالسراويل أستر في حقّها، ولكن رجح الحق الإزار لأنه خلق العبد للتشبّه به لكونه خلقه على صورته.

وصل في فصل ـ لباس المحرم الخفين: فمن قائل وهو الأكثر: أن المحرم يلبس الخفين إذا لم يجد النعلين وليقطعهما أسفل من الكعبين. ومن قائل: يلبسهما ولا يقطعهما، وعلل عطاء قطعهما بأنه فساد والله لا يحب الفساد. ومطلق حديث ابن عباس: «**أَنَّ الخُفَّيْنِ لِمَنْ لَمْ يَجِدِ النَّعْلَيْنِ**» عن رسول الله ﷺ ولم يذكر قطعهما، وبه قال أحمد وعطاء القدم صفة إلهية وصف الحق بها نفسه وليس كمثله شيء، فمن راعى التنزيه وأدركته الغيرة على الحق في نزوله لما هو من وصف العبد المخلوق قال بلباس الخف غير المقطوع لأنه أعظم في الستر، ومن راعى ظهور ما أظهره الحق لكون الحق أعرف بنفسه من عبده به ونزّه نفسه في مقام آخر لم يرد أن يتحكم على الحق بعقله وقال: الرجوع إليه أولى من الغيرة عليه، فإن الحقيقة تعطي أن يغار له لا عليه شرعاً، وما شرع لباس الخفين إلاَّ لمن لا يجد النعلين، والنعل واق غير ساتر فقال بقطع الخفين وهو أولى.

وصل في فصل ـ من لبسهما مقطوعتين مع وجود النعلين: فمن قائل: عليه الفدية. ومن قائل: لا فدية عليه لما اجتمع الخف مع النعل في الوقاية من أذى العالم الأسفل وزاد الخف الوقاية من أذى العالم الأعلى من حيث ما هما عالم لمشترك الدلالة، والدلالة تقبل الشبه وهو الأذى الذي يتعلق بها، ولهذا معرفة الله بطريق الخبر أعلى من المعرفة بالله من طريق النظر، فإن طريق الخبر في معرفة الله إنما جاء بما ليست عليه ذاته تعالىٰ في علم الناظر، فالمعرفة بالأدلة العقلية سلبية، وبالأدلة الخبرية ثبوتية وسلبية في ثبوت، فلما كان أكشف لم يرجح جانب الستر فجعل النعل في الإحرام هو الأصل، فإنه ما جاء اتخاذ النعل إلاَّ للزينة والوقاية من الأذى الأرضي، فإذا علم عدل إلى الخف، فإذا زال اسم الخف بالقطع ولم يلحق بدرجة النعل لستره ظاهر الرجل فهو لا خف ولا نعل فهو مسكوت عنه كمن يمشي حافياً فإنه لا خلاف في صحة إحرامه وهو مسكوت عنه، وكل ما سكت عنه الشرع فهو عافية، وقد جاء الأمر بالقطع فالتحق بالمنطوق عليه بكذا وهو حكم زائد صحيح يعطي ما لا يعطي الإطلاق فتعين الأخذ به، فإنه ما قطعهما إلاَّ ليلحقهما بدرجة النعل، غير أن فيه ستر أعلى الرجل ففارق النعل ولم يستر الساق ففارق الخف فهو لا خف ولا نعل، وهو قريب من الخف وقريب من النعل، وجعلناه وقاية في الأعلى لوجود المسح على أعلى الخف، فلولا اعتبار أذى في ذلك بوجه مّا ما مسح أعلى الخف في الوضوء لأن إحداث الطهارة مؤذن بعلة وجودية يريد إزالتها بإحداث تلك الطهارة، والطهارة التي هي غير حادثة ما لها هذا الحكم فإنه طاهر الأصل لا عن تطهير.

فالإنسان في هذه المسألة إذا كان عارفاً بحسب ما يقام فيه وما يكون مشهده، فإن أعطاه شهوده أن يلبس مع وجود النعلين حذراً من أثر العلوّ في ظاهر قدمه عصم بلباسه قدمه من ذلك الأثر، وإن كان عنده قوّة إلهية يدفع بها ذلك الأثر قبل أن ينزل به لبس النعلين ولم يجز لـ لباس المقطوعين، إذ كان الأصل في استعمال ذلك عدم النعلين فرجح الكشف والإعلان على الستر والإسرار في معرفة الله في الملأ الأعلى، وهو علم التنزيه المشروع والمعقول،

فإن التنزيه له درجات في العقل ما دونه تنزيه بتشبيه، وأعلاه عند العقل تنزيه بغير تشبيه، ولا سبيل لمخلوق إليه إلاّ بردّ العلم فيه إلى الله تعالى، والتنزيه بغير التشبيه وردت به الشريعة أيضاً وما وجد في العقل فغاية النظر العقلي في تنزيه الحق مثلاً عن الاستواء أنه انتقل عن شرح الاستواء الجسماني عن العرش المكاني بالتنزيه عنه إلى التشبيه بالاستواء السلطاني الحادث وهو الاستيلاء على المكان الإحاطي الأعظم أو على الملك، فما زال في تنزيهه من التشبيه، فانتقل من التشبيه بمحدث ما إلى التشبيه بمحدث آخر فوقه في الرتبة، فما بلغ العقل في التنزيه مبلغ الشرع فيه في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ألا تراهم استشهدوا في التنزيه العقلي في الاستواء بقول الشاعر: [الرجز]

قد استوى بِشْرٌ على العراقِ ... من غير سيف ودم مُهْرَاقِ

وأين استواء بشر على العراق من استواء الحق على العرش؟ لقد خسر المبطلون، أين هذا الروح من قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فاستواء بشر من جملة الأشياء، لقد صدق أبو سعيد الخرّاز وأمثاله حيث قالوا: لا يعرف الله إلاّ الله: [البسيط]

لا يعرف الشوقَ إلاّ من يكابِدُهُ ... ولا الصبابةَ إلاّ من يُعانيها

وصل في فصل ـ اختلاف الناس في لباس المحرم المعصفر بعد اتفاقهم على أنه لا يلبس المصبوغ بالورس ولا الزعفران: فقال بعضهم: لا بأس بلباس المعصفر فإنه ليس بطيب. وقال قوم: هو طيب ففيه الفدية إن لبسه الطيب للمحرم عندنا وأعني التطيب لا وجود الطيب عنده الذي يطيب به قبل عقد الإحرام واستصحبه غير جائز إلاّ إذا أراد الإحلال وقبل أن يحل، فمن السنّة أن يتطيب ولا أقول في الأول والثاني إن تطيبه عليه السلام كان لحرمه ولحله فإنه لم يرد ذلك عن رسول الله ﷺ وإنما ورد من قول عائشة، فتطرق إليه الاحتمال بين أن يكون عن أمر فهمته من رسول الله ﷺ في ذلك فيما اقتضاه نظرها وفهمها، أو عن نص صريح منه لها في ذلك، ورأيناه قد نهى عن الطيب زمان مدّة إقامته على الإحرام إلاّ إذا أراد الحل، فالعصفر وإن كان ليس طيباً حكمه حكم الطيب، فإن لبس الرداء المعصفر قبل الإحرام عند الإحرام ولم يرد نص باجتنابه فله أن يبقى عليه أو يلبسه عند الإحلال وقبل الإحلال ولا يلبسه ابتداء في زمان بقاء الإحرام، هذا هو الأظهر في هذه المسألة عندنا، إلاّ أن يرد نص جليّ في المعصفر في النهي عنه ابتداء وانتهاء وما بينهما فنقف عنده الصفرة من الشيء الصفر وهو الخالي والخلي وبه سمّي صفر من الشهور في أول وضع هذا الاسم لخلوّ الأرض فيه عن النبات في ذلك الوقت الموافق لوضع هذا الاسم، ولهذا جاز مع بعده لوجود الربيع الذي أزال كون الأرض خالية منه في الهلال الأول المسمّى صفراً، فإن خلى العبد عن نفسه في هذه العبادة فهو الذي جاز له لباس المعصفر، وإن خلى عن ربه فيها لم يجز له لباس المعصفر ولهذا وجد الخلاف فيه.

وصل في فصل ـ اختلافهم في جواز الطيب للمحرم عند الإحرام وقبل أن يحرم لما يبقى عليه من أثره بعد الإحرام: فكرهه قوم وأجازه قوم، وبإجازته أقول، بل هي السنة عندي بلا

شك، أما قبل الإحرام فجائز، وأما إذا أحرم هل يغسل ذلك الطيب من أجل بقاء الرائحة أم لا؟ هذا هو محل الخلاف الصحيح بين العلماء، رائحة الطيب يلتذّ بها صاحب الطبع السليم ولا تستخبثها نفسه وهو الثناء على العبد بالنعوت الإلهية التي هي التخلق بالأسماء الحسنى لا بمطلق الأسماء، وهو في هذه العبادة الأغلب عليه مقام العبودية لما فيها من التحجير ومن الأفعال التي يجهل حكمتها النظر العقلي فكأنها مجرّد عبادة، فلا تقوم إلاّ بأوصاف العبودة، فمن رأى هذا منع من التخلق بالأسماء في هذه الحالة وفي ابتداء الدخول فيها لأنه لا يدخل فيها باسم إلهيّ، فلا يتطيب عند الإحرام خوفاً من الرائحة الباقية مع الإحرام، وهو بمنزلة حكم الخلق الإلهيّ في المتخلق إذا تخلق به، ومن رأى أنه يجوز له ذلك كان مشهده أنه ما ثم خلق إلاّ وقد اتصف به الله تعالىٰ من أوصاف العباد من الفرح والضحك والتعجب وغير ذلك بالتصريح كما بيّناه، وبغير التصريح مثل قوله: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٨] ومثل قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥] وقوله: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٤] وأمثال هذا، فمن كان هذا مشهده قال: لا يخلو الإنسان العبد عن نعت إلهيّ يكون عليه فأجاز له ذلك، وإنما لم يحدث تطيباً في زمان بقاء الإحرام إلى أن يريد التحلل، فإنه في زمان بقاء الإحرام تحت قهر اسم العبودة، فليس له أن يحدث ثناء إلهياً فيزيل عنه حكم ما يعطيه الاسم الحاكم لتلك العبادة، فإنها لا تتصوّر عبادة إلاّ بحكم هذا الاسم، فإذا زال لم يكن ثم من يقيمها إلاّ النائب الذي هو الفدية لا غير. وأمّا حكم الطيب للإحرام والإحلال فهو لسلطان الاسم الأول، فإن الأول من كل شيء قويّ لا يغلب وصادق لا يكذب، فلم يكن لغيره من الأسماء هذه القوّة فلم يقاومه منازع، فحقيقته الأولية فلا يكون وسطاً فحكم في أولية الإحرام وفي آخرية الإحرام، وهو الذي فهمته عائشة من ذلك فقالت: «طَيَّبْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِحِلِّهِ وَلِحَرَمِهِ قَبْلَ وُجُودِ الإِحْرَامِ مِنْهُ وَالتَّحْلِيلِ» ولم تقل طيبته لآخر إحرامه حين أراد أن ينقضي ويعقبه الإحلال، وإنما راعت الإحلال في آخر أفعال الحج وهو طواف الإفاضة، وكذلك راعت الإحرام المستقبل ما غسل عنه طيباً.

وصل في فصل ـ مجامعة النساء: أجمع المسلمون على أن الوطء يحرم على المحرم مطلقاً وبه أقول، غير أنه إذا وقع فعندنا فيه نظر في زمان وقوعه، فإن وقع منه بعد الوقوف بعرفة أي بعد انقضاء زمان جواز الوقوف بعرفة من ليل أو نهار فالحج فاسد وليس بباطل لأنه مأمور بإتمام المناسك مع الفساد ويحج بعد ذلك، وإن جامع قبل الوقوف بعرفة وبعد الإحرام فالحكم فيه عند العلماء كحكمه بعد الوقوف يفسد ولا بدّ من غير خلاف أعرفه ولا أعرف لهم دليلاً على ذلك، ونحن وإن قلنا بقولهم واتبعناهم في ذلك فإن النظر يقتضي إن وقع قبل الوقوف أن يرفض ما مضى ويجدد الإحرام ويهدي، وإن كان بعد الوقوف فلا لأنه لم يبق زمان للوقوف، وهنا بقي زمان للإحرام، لكن ما قال به أحد، فجرينا على ما أجمع عليه العلماء مع أني لا أقدر على صرف هذا الحكم عن خاطري ولا أعمل عليه ولا أفتي به ولا أجد دليلاً، وقد رفضت العمرة عائشة حين حاضت بعد التلبس بها وأحرمت بالحج فقد

رفضت إحراماً، وفي أمر عائشة وشأنها عندي نظر هل أردفت على عمرتها؟ أو هل رفضتها بالكلية؟ فإن أراد بالرفض ترك الإحرام بالعمرة، وأن وجود الحيض أثر في صحتها مع بقاء زمان الإحرام، فالجماع مثله في الحكم وإن لم يرد بالرفض الخروج عن العمرة، وإنما أراد إدخال الحج عليها فرفض أحدية العمرة لا اقترانها بالحج فهي على إحرامها في العمرة والحج مردف عليها والجماع في الحج في الطريق لا شك أن الإنسان لما كان مصرّفاً تحت حكم الأسماء الإلهية ومحلاً لظهور آثار سلطانها فيه ولكن يكون حكمها فيه بحسب ما يمكنها حال الإنسان أو زمانه أو مكانه، والأحوال والأزمان تولى الأسماء الإلهية عليها، وإن كان كل حال هي عليه أو دخول الإنسان في ظرفية زمان خاص أو ظرفية مكان ما هو إلاً عن حكم اسم إلهيّ بذلك، فقد يتوجه على الإنسان أحكام أسماء إلهية كثيرة في آن واحد، ويقبل ذلك كله بحاله لأنه قد يكون في أحوال مختلفة يطلب كل حال حكم اسم خاص فلا يتوجه عليه إلاً ذلك الاسم الذي يطلبه ذلك الحال الخاص، ومع هذا كله فلا بدّ أن يكون الحاكم الأكبر اسماً ما له المضاء فيه والرجوع إليه مع هذه المشاركة.

ثم إني أبين لك مثالاً فيما ذكرناه وذلك أنّا نرى الإنسان يجتنب ما حرّم الله على عينه أن ينظر إليه على انتهاكه حرمة ما حرم على أذنه من الإصغاء إلى الغيبة في حال انتهاكه حرمة ما حرم عليه من جهة لسانه من كذب أو نميمة مع إعطاء صدقة فرض من زكاة أو ندب متطوّع بها من جهة ما أمرت به يده المنفقة، وذلك كله في زمان واحد من شخص واحد الذي هو المخاطب من الإنسان المصرّف جميع جوارحه القابل للأوامر الأسمائية في باطنه التي تحكم عليه وتمضي تصريف الجوارح بأمره لها فيما يراها تتصرّف فيه وهو واحد في نفسه ذو آلات متعدّدة، فلولا تعدّد هذه الآلات ما صحّ أن يحكم عليه إلاً اسم واحد، فوجود الكثرة التي سببها الآلات أوجبت له مع أحديته في نفسه قبول اختلاف أحكام الأسماء الإلهية عليه، فيكون الإنسان منصوراً من وجه مخذولاً في حين كونه منصوراً ولكن من وجه آخر، والعين واحدة المصرّفة المكلفة وهي النفس الناطقة، ويكون عزيزاً بالمعز في حال كونه ذليلاً بالمذل، لشخص ذي عزّة له عنده مكانة فلقيه فأعزّه فاعتزّ، وفي تلك الحال عينها سلّط عليه الاسم المذلّ شخصاً آخر لا يعرفه فأذلّه، فذلّ من جهة هذا وعزّ من جهة هذا في الزمان الواحد وحكمهما في آن واحد، والقابل لهذين الحكمين واحد العين.

فلهذا الذي مهدناه أمر المحرم إذا جامع أهله أن يمضي في مقام نسكه إلى أن يفرغ مع فساده ولا يعتد به وعليه القضاء من قابل على صورة مخصوصة شرعها له الشارع، لأن صاحب الوقت الذي هو المحرم عليه أفعالاً مخصوصة أوجبتها هذه العبادة التي تلبس بها هو الحاكم الأكبر، واتفق أن هذا المحرم التفت بالاسم الخاذل إلى امرأته فجامعها في حال إحرامه، فلما لم يكن الوقت له شرعاً وكان لغيره لم يقو قوّته فأفسد منه ما أفسد وبقي الحكم لصاحب الوقت فأمره أن يمضي في نسكه مع فساده وعاقبه بتلك الالتفاتة إلى الخاذل حيث أعانه عليه بنظره إلى امرأته واستحسانه لإيقاع ما حكم عليه به حاكم الوقت أن يعيد من قابل،

فلو بطل وأزال حكمه عنه في ذلك الوقت ووقع الجماع بعد الإحرام وقبل الوقوف رفض ما كان واستقبل الحج كما هو ولم يكن عليه إلاّ دم لا غير لما أبطل، فلما لم يزل حكمه منه بذلك الفعل أمر بإتمام نسكه الذي نواه في عقده، وهو مأجور فيما فعل من تلك العبادة، مأزور فيما أفسد منها في إتيانه ما حرّم عليه إتيانه كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ وهو النكاح ﴿وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٧].

خرّج أبو داود في المراسيل قال: حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية يعني ابن سلام أخبرني يزيد بن نعيم أو زيد بن نعيم شك أبو توبة أن رجلاً من جذام جامع امرأته وهما محرمان فسأل الرجل رسول الله ﷺ فقال لهما: «**اقْضِيَا نُسكَكُمَا وَاهْدِيَا هَدْياً ثُمَّ ارْجِعَا حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمَا بِالْمَكَانِ الَّذِي أَصَبْتُمَا فِيهِ مَا أَصَبْتُمَا فَتَفَرَّقَا وَلاَ يَرَىٰ مِنْكُمَا وَاحِدٌ صَاحِبَهُ وَعَلَيْكُمَا حَجَّةٌ أُخرَىٰ فَتُقْبِلانِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمَا بِالمَكَانِ الَّذِي أَصَبْتُمَا فِيهِ مَا أَصَبْتُمَا فَتَفَرَّقَا وَلاَ يَرَىٰ أَحَدٌ مِنكُمَا صَاحِبَهُ فَأَحْرِمَا وَأَتِمَّا نُسكَكُمَا وَاهْدِيَا**». فهذا ترجمان الحق الذي هو الرسول قوّى الاسم الإلهيّ الذي هو حاكم الوقت وصاحب الزمان فيما يريده من إتمام هذه العبادة مع ما طرأ فيها من الإخلال، وذلك أن الاسم الحاكم لا يسمع المحكوم عليه خطابه إياه لأن الله أخذ بسمعه عنه فقال لمن فتق الله سمعه لسماع كلامه وهو المعبر عنه بالرسول: بلغ لهذا المكلف عني أن يمضي في فعله حتى يتم، وذكر له ما قال وبينه لهذا الشخص لأن الرسول ما ينطق عن الهوى والمؤمن كثير بأخيه فقام الرسول مقام الحاجب المنفذ أوامر الملك صاحب الحكم هكذا هو في الحكم العام.

وأمّا في العالم الأخص فهو حكم نفس طبيعية على عقل إلهيّ رجع إليها من حيث علمه بأن لها وجهاً خاصاً إلى خالقها فغاب عن التثبت في ذلك فيما أوصل إليه ترجمان الحق الذي هو الرسول، فوافق النفس ما حكم به عليها الطبع فيما أمرت به، ولولا ذلك الوجه الخاص ما انخدع العقل واتصف باللؤم الذي هو صفة الطبع بحكم الأصالة، وفي مثل هذا قلنا: [الطويل]

يعزُّ علينا أن تكون عقولُنا ... بحكم نفوسٍ إنَّ ذا لَعظيمُ
إذا غلبَ الطَّبْعُ اللئيمُ نِجَارُه ... على عقل شخصٍ إنه لَلَئيمُ

فالعقول وإن كانت عالية الأوج فإن الحضيض يقابل أوجه وهو موطن الطبع النفسي، فهو ينظر إليها من أوجه فيراها في مقابلته على خط مستقيم لا اعوجاج فيه، وذلك الخط هو الذي يكون عليه العروج من الحضيض إلى الأوج إذا زكّت النفس، وعليه يكون نزول العقل إلى الحضيض من الأوج إذا خذل العقل، وإنما خذله استقامة الخط فإنه على الاستقامة فطر، ثم إنه رأى النفس زكّت بعروجها عليه، فهذا الذي خدع العقل من النفس فإنه لا حظ للعقل في الطبع وساعده على النزول قول الترجمان رسول الله ﷺ: لو دليتم بحبل لهبط على الله، والعقل مجبول على طلب الزيادة من العلم بالله، فأراد في نزوله إلى الطبع على ذلك الخط من وجه ليرى هل نسبة الحق إلى

الحضيض نسبته إلى الأوج أم لا، فيريد علماً بالذوق بأنه على ذلك الحدّ أو ما هو عليه، بل له نسبة أخرى فتحصل له الفائدة على كل حال، فلهذا القصد أيضاً أمر بإتمام نسكه ولم يبطل عمله، ولا سيما وقد سمع أن أربعة أملاك التقوا، ملك كان يأتي من المغرب، وآخر مقبل من المشرق، وآخر نازل من الفوق، وآخر صاعد من التحت، فسأل كل واحد صاحبه من أين جئت؟ فكل قال: من عند الله، فلا بدّ للعقل مع شوقه لطلب الزيادة من العلم أن يتحرك ليحصل هذا العلم بالله ذوقاً حالياً لا تقليد فيه ولا يتمكن له ذلك وهو في أوجه إلاً إن قنع بالتقليد، فنزل على ذلك الخط لطلب هذه المعارف، وفي نزوله لا بدّ أن يرى موضع اجتماع الخطوط فيشاهد علوماً كثيرة، فهي زلة أوجبت علماً فشفع ذلك العلم في صاحب هذه الزلة فجبر له نقصه، فلولا زلة هذا المجامع في الحج ما عرفنا حكم الشرع فيه لو وقع هذا بعد موت المترجم ﷺ، فمن رحمة الله حصل تقرير هذا العلم لنكون على بصيرة من ربنا في عباداتنا.

وصل في فصل ـ غسل المحرم بعد إحرامه: اتفقوا على أنه يجوز له غسل رأسه من الجنابة، واختلفوا في كراهية غسله من غير الجنابة فقالوا: لا بأس بغسله وبه أقول، وكره ذلك بعضهم لما كان الرأس محل القوىٰ الإنسانية كلها ومجمع القوىٰ الروحانية اعتبر فيه الحكم دون غيره من الأعضاء لجمعيته، وله من الأسماء الإلهية الله لأنه الاسم المنعوت الجامع، فحفظه متعين على المكلف لأنه لو اختلّ من قواه قوّة أدّى ذلك الاختلال إمّا إلى فساد يمكن إصلاحه أو إلى فساد لا يمكن إصلاحه، وإمّا إلى فساد يكون فيه تلفه فيزول عن إنسانيته ويرجع من جملة الحيوانات فيسقط عنه التكليف فتنقطع المناسبة بينه وبين الله، وأعني مناسبة التقريب خاصة لا مناسبة الافتقار، لأن مناسبة الافتقار لا تزول عن الممكن أبداً لا في حال عدمه ولا في حال وجوده، فإذا اغترب الإنسان عن موطن عبوديته فهي جنابته فيقال له: ارجع إلى وطنك فلا قدم لك في الربوبية أصلاً من ذاتك، فإذا أراد الحق أن يمنحك منها ما شاء نزل إليك ما أنت تصعد إليه لأنه يعلمك ويعلم محلك وأينك، وأنت لا تعرفه فأين تطلبه فما خرجت عن عبوديتك إلاً لجهلك، ألا تراه سبحانه لما أراد أن يهبك من الربانية ما شاء نزل إليك بأمر سمّاه شرعاً بوساطة رسول ملكيّ فملكك أموراً وجعل لك الحكم فيها على حدّ ما رسم لك، فمن كونك حاكماً فيها هو القدر الذي أعطاك من الربوبية، وعلى قدر ما حدّ لك ومنعك من تجاوزه هو ما أبقى عليك من العبودية: [مخلع البسيط]

فأنت مَلْكٌ وأنت عبدٌ ... وأنت في أنت مُسْتَعَارُ
ولا وجودَ في غير عينٍ ... فلا احتكامٌ ولا افتقارُ
قد حار مثلي من حِرْتُ فيه ... فلا اضطرارٌ ولا اختيارُ
ولا فَنَاءٌ ولا بقاءٌ ... ولا فرار ولا قَرارُ

فوجب الغسل من الجنابة بالاتفاق لأنك عبد بالاتفاق ولست رباً بالاتفاق. وأمّا في غير الجنابة: [السريع]

فحكمةُ الغُسْل لحفظ القُوَىٰ وحفظُها من أوجب الحُكْمِ
لا سيَّما وكونُها واجباً لأنها دلَّت على العِلْمِ
بعينها وكلّ علم لها لذاتها كالكَيْف والكَمِّ
فضَّلها اللَّهُ على خلقه بما لها من جَوْدة الفَهْمِ

فمن راعى حفظ هذي القوىٰ ممّا ينالها من الضرر لسدّ المسام وانعكاس الأبخرة المؤذية لها المؤثرة فيها قال بالغسل، ومن غلب الحرمة لصغر الزمان في ذلك وندور الضرر ضعف عنده الموجب فكره ذلك، ألا تراهم كيف اتفقوا في الجنابة لقوّة الموجب وإن كان الغسل بالماء يزيده شعثاً في تلبيد الرأس والله تعالىٰ قد أمرنا بإلقاء التفث عنّا لما ذكرناه من حفظ القوىٰ وما في معناها، لأن الطهارة والنظافة مقصودة للشارع لأنه القدّوس وما له اسم يقابله فيكون له حكم، ولما جهل علماء الرسوم حكمة هذه العبادة من حيث إنهم ليس لهم كشف إلهيّ من جانب الحق جعلوا أكثر أفعالها تعبداً ونعم ما فعلوه، فإن هذا مذهبنا في جميع العبادات كلها مع عقلنا بعلل بعضها من جهة الشرع بحكم التعريف أو بحكم الاستنباط عند أصحاب القياس، ومع هذا كله فلا نخرجها عن أنها تعبد من الله، إذ كانت العلل غير مؤثرة في إيجاد الحكم مع وجود العلة وكونها مقصودة، وهذا أقوى في تنزيه الجناب الإلهيّ إذا فهمت.

وصل في فصل ـ غسل المحرم رأسه بالخطميّ: أما غسل المحرم رأسه بالخطمي فإنهم اتفقوا على منعه، فإن غسل به قال بعضهم: فيه الفداء. وقال بعضهم: إن غسل فلا شيء عليه وبه أقول من غير منع منه ولا من غيره، إذ كل سبب موجب للنظافة ظاهراً وباطناً ينبغي استعماله في كل حال، فإن الله جميل يحب الجمال، وما ورد كتاب ولا سنّة ولا إجماع على منع المحرم من غسل رأسه بشيء، ولما أمر الله تعالىٰ الإنسان أن يدخل في الإحرام فيصير حراماً بعدما كان حلالاً وصفه بصفة العزّة أن يصل إليه شيء من الأشياء التي كانت تصل إليه قبل أن يتصف بهذه المنعة، إذ الأشياء تطلب الإنسان لأنها خلقت من أجله، فهي تطلبه بالتسخير الذي خلقها الله عليه والإنسان مخلوق على الصورة، ومن حقيقة الصورة التي خلق عليها العزّة أن تدرك أو تنال بأكثر الوجوه مثل قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٣] يعني في الدنيا ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [سورة القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣] مع ثبوت الرؤية في الآخرة، فهذه عزّة إضافية لأنه حجر ثم أباح، فجعل لمن حصل الصورة بخلقه عزّة وتحجيراً في عبادات من صوم وحج وصلاة أن يصل إليه بعض ما خلق من أجله، فاعتزّ وامتنع عن بعض الأشياء ولم يمتنع عن أن يناله بعضها، كما لم يمنع من خلق على صورته أن تناله التقوى منّا، والتقوى في المتقين من خلقه، فقوّى الشبهة في الشبه ليلحق الأدلة بالشبه إذ الكل منه وإليه بل الكل عينه، فما حرمت عليه الأشياء على الحقيقة وإنما هو الحرام على الأشياء لأنه ما خلق إلاّ لربه، والأشياء خلقت له فهي تطلبه كما أنه يطلب ربه، فامتناع في وقت كامتناع، ووصول في وقت كوصول، إن فهمت فقد بينت لك مرتبتك، قال تعالىٰ في حق الإنسان: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [سورة الجاثية: الآية ١٣]،

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦].

وفي التوراة المنزّلة على موسىٰ عليه السلام: يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي، فلا تهتك ما خلقت من أجلي فيما خلقت من أجلك. فأبان سبحانه لك عن مرتبتك لتعرف موطن ذلتك من موطن عزّتك، وأنت ما اعتززت ولا صرت حراماً على الأشياء منك بل هو جعلك حراماً على الأشياء أن تنالك، فأمرك أن تحرم فدخلت في الإحرام فصرت حراماً، وما جعل ذلك لك عن أمره سبحانه إلاّ ليكون ذلك قربة إليه ومزيد مكانة عنده تعالىٰ، وحتى لا تنسى عبوديتك التي خلقت عليها بكونه تعالىٰ جعلك مأموراً في هذه المنعة دواء لك نافعاً يمنع من علة تطرأ عليك لعظيم مكانتك، فلا بدّ أن يؤثر فيك خلقك على صورته عزّة في نفسك، فشرعها لك في طاعته بأمر أمرك فيه أن تكون حراماً لا احتجار عليك بل احتجاراً لك، ألا ترى من خذله الله كيف اعتزّ على أمثاله بقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [سورة النازعات: الآية ٢٤] هل جعله في ذلك إلاّ علمه بمرتبته لا علمه بنفسه، فالإنسان عبد عيناً ورتبة كما هو سيد عيناً لا رتبة، ولهذا إذا ادّعى الرتبة قصم وحرم، وإذا ادّعى العين عصم ورحم، والإنسان واحد في الحقيقة غير أنه ما بين معتنى به وغير معتنى به فهذا اعتبار هذا الفصل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الرابع والستون.

(الجزء الخامس والستون)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل في فصل ـ دخول المحرم الحمام: فمن الناس من كرهه. ومن الناس من قال: لا بأس به وبه أقول. ليس في أحوال الدنيا من يدل على الآخرة بل على الله تعالىٰ وعلى قدر الإنسان مثل الحمام يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما دخل الحمام بالشام: نعم البيت بيت الحمام ينعم البدن ويزيل الدرن ويذكر الآخرة. ومن هذه آثاره في العبد لا يكره له استعماله فإنه نعم الصاحب وبه سمّي، لأن الحمام من الحميم، والحميم الصاحب الشفيق، قال تعالىٰ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: الآية ١٠٠، ١٠١] أي شفيق، وسمّي حميماً لحرارته واستعمل فيه الماء لما فيه من الرطوبة، فالحمام حار رطب طبع الحياة وبها ينعم البدن وبالماء يزول الدرن، وبتجريد الداخل فيه عن لباسه وبقائه عرياناً لا شيء في يده من جميع ما يملكه يذكر الآخرة والموت، وقيام الناس من قبورهم عراة حفاة لا يملكون شيئاً، فدخول الحمام أدل على الآخرة من الموت، فإن الميت لا ينقلب إلى قبره حتى يكسى، وداخل الحمام لا يدخل إليه حتى يعرّى والتجريد أدلّ. ثم إنه من دعاء النبيّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ كَمَا يُنَقَّىٰ الثَّوْبُ مِنَ الدرَنِ**»، وتنقية البدن من الدرن والوسخ من أخص صفات الحمام ولأجله عمل، واعتبار الحمام بأحوال الآخرة مجاله رحب عظيم الفائدة ما يعقله إلاّ العلماء بالله.

وصل في فصل ـ تحريم صيد البرّ على المحرم: اتفقوا على ذلك وهو اتفاق أهل الله أيضاً في اعتباره ومعناه. قال بعضهم: الزاهد صيد الحق من الدنيا، والعارف صيد الحق من الجنة، فمال الزاهد إلى قوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [سورة القصص: الآية ٦٠] ومال العارف إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [سورة طه: الآية ٧٣] فالخلق صيد للحق صادهم من نفوسهم برّاً أو بحراً، وسأبين ذلك إن شاء الله.

فاعلم أن الحق تعالىٰ نصب حبالات صيد النفوس الشاردة عمّا خلقت له من عبادته، ثم خدعهم بالحب الذي جعل لهم في تلك الحبالات أو الطعوم أو ذوات الأرواح المشبهة لهم في الحياة، جعلها مقيدة في الحبالات من حيث لا يشعر الناظرون إليها، فمن الصيد من أوقعه في الحبالة رؤية الجنس طمعاً في اللحوق بهم ليرى ما هم فيه فصار في قبضة الصائد فقيده وهو كان المقصود لأنه مطلوب لعينه. ومن الصيد من أوقعه الطمع في تحصيل الحب المبذور في الحبالة. ثم إن الصائد له تصافير يحكي بها أصوات الطير إذا سمعها الطائر نزل فوقع في الحبالة فهو بمنزلة من سمع نداء الحق فأجاب، فهذا لم يصد بالإحسان، والآخر أحسن إليه بالحب المبذور في الحبالة فأبصره فقاده الإحسان فرمى بنفسه عليه فصاده فلولا الإحسان ما جاء إليه فمجيئه معلول، والبرّ هو المحسن والإحسان والحق غيور، فما أراد من هذه الطائفة الخاصة الذين جعلهم الله حراماً ليكونوا له أن يجعلهم عبيد إحسان فيكونون للإحسان لا له، ولهذا دعاهم شعثاً غبراً مجرّدين من المخيط ملبين لإجابته بالإهلال، كما لجأ الطائر لصوت الصائد فحرم عليهم لمكانتهم صيد البرّ الذي هو الإحسان ما داموا حرماً حلالاً في المكان الحلال والحرام، وسكاناً في الحرام وإن كانوا حلالاً أو حراماً فحيث ما كانت الحرمة امتنع صيد الإحسان فإن الله من صفاته الغيرة، فلم يرد أن يدعو هذه الطائفة المنعوتين بالإحرام من باب النعم والإحسان فيكونوا عبيد إحسان لا عبيد حقيقة، فإنه استهضام بالجناب الإلهيّ فقال: من صحبك لغرض انقضت صحبته بانقضائه، وصحبة العبد ربه ينبغي أن تكون ذاتية كما هي في نفس الأمر لأنه لا خروج للعبد عن قبضة سيده وإن أبق في زعمه فما خرج عن ملكه وهو جاهل بملك سيده لأنه حيث ما مشى في ملكه مشى، فما خرج عن ملك سيده ولا ملكه ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨٩] فلهذا حرّم على الحاج صيد البرّ وهو قوله ﷺ: «**أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ**». خطاباً منه لعبيد الإحسان حيث جهلوا مقاديرهم، وما ينبغي لجلال الله من الانقياد بالطاعة إليه.

ولم يحرم صيد البحر على المحرم ما دام محرماً لأن صيد البحر صيد ماء وهو عنصر الحياة الذي خلق الله منه كل شيء حيّ، والمطلوب بإقامة هذه العبادة وغيرها إنما هو حياة القلوب كما قال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٢] في معرض الثناء بذلك، فإذا كان المقصود حياة القلوب والجوارح بهذه العبادة وبالعبادات كلها ظاهرها وباطنها فوقعت المناسبة بين ما طلب منه وبين الماء فلم يحرم صيده أن يتناوله، ولهذا جاء بلفظ البحر لاتساعه فإنه يعمّ، وكذلك هو الأمر في نفسه فإنه ما من شيء من خلقه إلاّ وهو يسبح بحمده

ولا يسبح إلاّ حيّ، فسرت الحياة في جميع الموجودات فاتسع حكمها فناسب البحر في الاتساع، فلهذا أضافه إلى البحر ولم يقل إلى الماء لمراعاة السعة التي في البحر، فصيد البحر حلال للحلال وللحرام.

وصل في فصل ـ صيد البرّ إذا صاده الحلال هل يأكل منه المحرم أم لا؟: فمن قائل: يجوز له أكله على الإطلاق. ومن قائل: هو محرم عليه على الإطلاق. ومن قائل: إن لم يصد من أجله ولا من أجل قوم محرمين جاز أكله، وإن صيد من أجل محرم فهو حرام على المحرم. وأما مذهبنا في هذا فلم ينقدح لي فيه شيء ولا نرجح عندي فيه دليل إلاّ أنه يغلب على ظني الخبر الصحيح الوارد أنه إذا لم يكن للمحرم فيه تعمل فله أكله، وترجح أحد احتمالي لفظة الصيد المحرم في الآية لأن الصيد المذكور قد يراد به الفعل وقد يراد به المصيد، ولا أدري أيّ ذلك أراد الحق تعالىٰ أو أراد الأمرين جميعاً الفعل والمصيد، فمن يرى أنه الفعل لا المصيد فيقول بجواز أكله على الإطلاق، ولا معنى لقول من يقول: إن صيد من أجله لأني ما خوطبت بنية غيري فإن أمرت أنا الحلال أو أشرت إليه أو نبهته أو أومأت إليه في ذلك أو أعنته بشيء فلي فيه تعمل فيحرم عليّ ذلك وأنا آثم فيه، وهذا القول وإن كنت لم أره لغيري ولكن هو من محتملات القول الثالث. وهو قوله: إن لم يصد من أجله قد يريد بإشارته أو دلالته، وقد يريد أن الحلال نوى أن يصيد ما يأكله المحرم الحلال لا تحجير عليه في تصرّفه فأشبه الحق في هذه الصفة، فإنّ رفع التحجير تنزيه عن التقييد فهي صفة إلهية، وليس لأحد أن يمتنع بتقييده عن تصريف الحق له، إذ كان تقييده من تصريفه فله قبول ما يصرّفه فيه كما قبل تقييده لا فرق، فهذه عبودية محضة خالصة حيث رآها في الحلال من كونه غير محجور عليه ما حجر على المحرم، أعني رأى الصفة الإلهية التي ليس من شأنها أن تقبل الاحتجار بل هو الفعال لما يريد، كما أنه تعالىٰ أشبه المقيد المحرم في أمور أوجبها على نفسه لعباده في غير موضع كما قال: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٠] فأدخل نفسه معنا، وهذا من أصعب معارض الآية قوله تعالىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] فإنه ليس بمحل لفعله ووفاؤه بالعهد لمن وفى بعهده لا بدّ منه لصدقه في خبره فقد فعل ما يريد، وليس بمحل لتعلق إرادته لأنه موجود، ولا ترجع إلى ذاته من فعله حال لم يكن عليها، فهذا غاية الإشكال في العلم الإلهيّ، وإن تساهل الناس في ذلك فإنما ذلك لجهلهم بمتعلق الإرادة، والقول الثالث أقرب الأقوال إلى الصحة لأنه أقرب إلى الجمع بين الأحاديث الواردة في هذا الباب، وهذا النظر الذي لنا في هذه المسألة ما هو قول رابع فإنا ما قطعنا بالحكم في ذلك لكن يغلب على ظني ترجيح القول الثالث على القولين وإن لم يكن بذاك الصريح.

وصل في فصل ـ المحرم المضطرّ هل يأكل الميتة أو الصيد؟: فمن قائل: يأكل الميتة والخنزير دون الصيد. ومن قائل: يصيد ويأكل وعليه الجزاء وبالأوّل أقول، فإن اضطرّ إلى الصيد صاد وعليه الجزاء لأنه متعمد، فما خصّ الله مضطرّاً من غير مضطرّ كل مخلوق

الاضطرار يصحبه دائماً لأنه حقيقته، ومع اضطراره فقد كلفه، فالذي ينبغي له أن يقف عندما كلف، فإن الاضطرار المطلق لا يرتفع عنه، وإنما يرتفع عنه اضطرار خاص إلى كذا، فجميع حركات الكون من جهة الحقيقة اضطرارية مجبور فيها، وإن كان الاختيار في الكون موجوداً نعرفه، ولكن ثم علم آخر علمنا به أن المختار مجبور في اختياره بل تعطى الحقائق أن لا مختار لأنا رأينا الاختيار في المختار اضطرارياً أي لا بدّ أن يكون مختاراً، فالاضطرار أصل ثابت لا يندفع يصحب الاختيار ولا يحكم على الاضطرار الاختيار، فالوجود كله في الجبر الذاتيّ لا أنه مجبور بإجبار من غير، فإن المجبر للمجبور الذي لولا جبره لكان مختاراً مجبور في اختياره لهذا المجبور: [السريع]

فالخلقُ مجبورٌ ولا سيَّما ... والأصلُ مجبورٌ فأين الخِيارْ
فكلُّ مخلوقٍ على شكْلِهِ ... في حالة الجَبْرِ وفي الاضطرارْ
تَمَيَّز المخلوقُ عن أصله ... بما لَهُ من ذلَّةٍ وافتقارْ
فكن مع الحقِّ بأوصافه ... ما بين جبرٍ دائمٍ واختيارْ

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وصل في فصل ـ نكاح المحرم: فمن قائل: لا ينكح ولا ينكح فإن نكح فالنكاح باطل. ومن قائل: لا بأس أن ينكح وينكح، والذي أقول به إنه مكروه غير محرّم والله أعلم الإحرام عقد والنكاح عقد، فاشتركا في النسبة فجاز الوطء للمحرم حرام والعقد سبب مبيح للوطء فحرم أو كره فإنه حمى والراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وإنما اجتنبت الشبه خوفاً من الوقوع في المحظور النكاح، والعقد لا يصحّ إلاّ بين اثنين لا يصحّ من واحد فحرم أو كره لأنا مطلوبون بمعرفة الوحدة وإثبات الواحد والوحدانية ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٣] فاعلم أنه لا إله إلاّ الله التجلي في الأحدية لا يصحّ لأن التجلي يطلب الاثنين ولا بدّ من التجلي فلا بدّ من الاثنين، فعقد النكاح للمحرم جائز، فالعارف على قدر ما يقام فيه من أحوال الشهود، قيل للجنيد وقد سُئِل عن المعرفة والعارف فقال: لون الماء لون إنائه فأثبت الاثنين فلا بدّ منك ومنه ولا بدّ من التمييز فلا بدّ من الواحد. فإن قلت: ما في الوجود إلاّ واحد صدقت. وإن قلت: ما في الوجود إلاّ اثنان صدقت. وإن قلت: ما في الإيجاد إلاّ اثنان صدقت فإنه عن ذات واحدة. وإن قلت: ما في الإيجاد إلاّ واحد صدقت لأنه يستحيل تعلّق قدرتين بمقدور، والتوحيد غيب والإثبات شهادة، وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة، فأثبت الاثنينية بالنسبة إلى العالم وبالنسبة إلى الله عالم بالشهادة لا غير، إذ يستحيل أن يكون عنه شيء غيباً خلافاً لمن يجعل العلة في الرؤية الوجود.

وصل في فصل ـ المحرمون: وهم ثلاثة: إمّا قارن، وإمّا مفرد بحج أو مفرد بعمرة وهو المتمتع، فهذا الفصل يستدعي إيراد حجة الوداع، وبعد إيرادها تذكر ما يتعلق بأفعال هذه العبادة من الأحكام على أسلوب ما مضى فنقول: حدثنا غير واحد إجازة وسماعاً عن ابن صاعد العراوي عن عبد الغافر الفارسيّ عن الجلودي عن إبراهيم بن سفيان المروزيّ عن

مسلم بن الحجاج القشيري عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال: إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ثم أذن في الناس في العاشرة أن النبيّ ﷺ حاج فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمسون أن يأتموا برسول الله ﷺ ويعملوا مثل عمله فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر فأرسلت إلى رسول الله ﷺ كيف تصنع؟ قال: اغتسلي واستثفري بثوب وأحرمي، فصلى رسول الله ﷺ في المسجد ثم ركب القصواء حتى إذا استوت به ناقته على البيداء نظرت إلى مدّ بصري بين يديه من راكب وماش وعن يمينه مثل ذلك وعن يساره مثل ذلك ومن خلفه مثل ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله وما عمل من شيء عملنا به، فأهل بالتوحيد: لبيك اللهمّ لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، وأهل الناس بهذا الذي يهلون، فلم يردّ رسول الله ﷺ شيئاً منه ولزم رسول الله ﷺ تلبيته، قال جابر: لسنا ندري إلا الحج لسنا نعرف العمرة حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٥] فجعل المقام بينه وبين البيت فكان أبي يقول ولا أعلم ذكره إلاّ عن النبيّ ﷺ كان يقرأ في الركعتين: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾. ثم رجع إلى الركن فاستلمه ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٨] أبدأ بما بدأ الله فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبّره وقال: لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلاّ الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ثم دعا بين ذلك - قال مثل هذا ثلاث مرّات - ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي أسرع حتى إذا صعدنا مشى حتى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا حتى إذا كان آخر طواف على المروة قال: لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي ولجعلتها عمرة فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل وليجعلها عمرة، فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله أَلِعَامِنا هذا أم لأبد؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى فقال: دخلت العمرة في الحج مرتين لا بل لأبد أبد. وقدم عليّ من اليمن ببدن النبيّ ﷺ فوجد فاطمة ممّن حلّ ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت فأنكر ذلك عليها فقالت: إني أمرت بهذا، قال: فكان عليّ يقول بالعراق: فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرّشاً على فاطمة للذي صنعت مستفتياً رسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه فأخبرته أني أنكرت ذلك عليها فقال: صدقت صدقت ماذا قلت حين فرضت الحج؟ قال قلت: اللهمّ إني أهل بما أهل به رسول الله ﷺ قال: فإن معي الهدي فلا تحل، قال: فكان جماعة البدن الذي قدم به عليّ من اليمن والذي أتى به النبيّ ﷺ مائة قال: فحلّ الناس كلهم وقصروا إلاّ النبيّ ﷺ ومن كان معه هدي، فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج فركب رسول الله ﷺ فصلّى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس فأمر بقبة من

شعر فضربت له بنمرة فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلاَّ أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصوى فرحلت له فأتى بطن الوادي فخطب الناس فقال: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوع، وأن أوّل دم أضعه من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل وربا الجاهلية موضوعة وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهنّ بأمانة الله واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، ولكم عليهنّ أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهنّ ضرباً غير مبرّح، ولهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ثم ينكبها إلى الناس: اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات، ثم أذن فأقام فصلَّى الظهر ثم أقام فصلَّى العصر ولم يصل بينهما شيئاً، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصوى إلى الصخرات وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصوى الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ويقول بيده اليمنى: أيها الناس السكينة السكينة كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد حتى أتى المزدلفة فصلَّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر فصلَّى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصوى حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعا الله وكبّره وهلّله ووحّده فلم يزل واقفاً حتى أسفر جدّا فدفع قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عباس وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً، فلما دفع رسول الله ﷺ مرّت ظعن يجرين فطفق الفضل ينظر إليهنّ فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل فحوّل الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر فحوّل رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل فصرف وجهه من الشق الآخر حتى أتى بطن محسر فحرّك ناقته قليلاً ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرجك على الجمرة الكبرى حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف رمى من بطن الوادي، ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بدنة، ثم أعطى علياً فنحر ما غبر وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها، وركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت فصلَّى بمكة الظهر، فأتى بني عبد المطلب وهم يسقون على زمزم فقال: انزعوا يا بني عبد المطلب فلولا أن يغلبنكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم فناولوه دلواً فشرب منه. انتهى حديث جابر.

ثم نرجع فنقول: القارن من قرن بين صفات الربوبية وصفات العبودية في عمل من الأعمال كالصوم، أو من قرن بين العبد والحق في أمر بحكم الاشتراك فيه على التساوي بأن يكون لكل واحد من ذلك الأمر حظ مثل ما للآخر كانقسام الصلاة بين الله وبين عبده فهذا أيضاً قران، وأمّا الإفراد فمثل قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٢٨] ومثل قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٤] ومثل قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] وكقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] وما جاء من مثل هذا ممّا انفرد به عبد دون رب أو انفرد به رب دون عبد، فمما انفرد به عبد دون رب قوله تعالىٰ: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] وقوله تعالىٰ لأبي يزيد: يا أبا يزيد تقرب إليّ بما ليس لي: الذلّة والافتقار، فهذا معنى القران والإفراد في الحج، وسيأتي حكم ذلك في التفصيل إن شاء الله تعالىٰ.

وصل في فصل ـ المتمتع: والمتمتعون على نوعين: إمّا قارن وإما مفرد بعمرة. واختلف علماء الإسلام في التمتع فمنهم من قال: أن يهل الرجل بالعمرة في أشهر الحج من الميقات ممّن مسكنه خارج الحرم فكمل أفعال العمرة كلها ثم يحل منها ثم ينشىء الحج في ذلك العام بعينه وفي تلك الأشهر من غير أن ينصرف إلى بلده. وقال بعضهم وهو الأحسن: هو متمتع وإن عاد إلى بلده حج أو لم يحج فإن عليه هدي التمتع المنصوص عليه في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦] فكان يقول: عمرة في أشهر الحج متعة. وقال بعضهم: ولو اعتمر في غير أشهر الحج ثم أقام حتى أتى الحج وحج من عامه أنه متمتع. وذهب ابن الزبير إلى أن المتمتع الذي ذكره الله هو المحصر بمرض أو عدوّ، وذلك إذا خرج الرجل حاجاً فحبسه عدو أو أمر تعذر به حتى تذهب أيام الحج فيأتي البيت ويطوف ويسعى ويحل ثم يتمتع وعليه بحجة إلى العام المقبل ثم يحج ويهدي، وعلى ما قال ابن الزبير لا يكون التمتع المشهور إجماعاً. وقال أيضاً: إن المكيّ إذا تمتع من بلد غير مكة كان عليه الهدي. واتفق العلماء على أن من لم يكن من حاضري المسجد الحرام فهو متمتع، والذي أقول به أن قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦] أنه يريد بذلك أي بهذه الإشارة بإجازة الصوم في أيام التشريق من أجل رجوعه إلى بلده لا أن المكيّ ليس بمتمتع، فإنّ العلماء اختلفوا في المكيّ هل يقع منه التمتع أم لا يقع؟ فمن قائل: إنه يقع منه التمتع، واتفقوا أنه ليس عليه دم وحجتهم الآية التي ذكرناها وهي محتملة، وأن الدم يمكن أن يلزمه أو بدّله وهو الصوم بعد انقضاء أيام التشريق فإنه من حاضري المسجد الحرام.

ثم ينبغي أن نذكر من أجل هذه الآية اختلافهم في حدّ حاضري المسجد الحرام فقال بعضهم: حاضرو المسجد الحرام أهل مكة وذي طوى وما كان مثل ذلك من مكة وقال بعضهم: هم أهل المواقيت فمن دونهم إلى مكة. وقال بعضهم: من كان بينه وبين مكة ليلة. وقال بعضهم: من كان ساكن الحرم. وقال بعضهم: هم أهل مكة فقط. والذي أقول به:

إنهم ساكنو الحرم ممّا ردّ الإعلام إلى البيت فإنه من لم يكن فيه فليس بحاضر بلا شك، فلو قال تعالىٰ في حاضر المسجد الحرام كنا نقول بما جاور الحرم لأن حاضر البلد ربضه الخارج عن سورة امتدّ في المساحة ما امتدّ، وإنما علق سبحانه ما ذكره بحاضري المسجد الحرام وهم الساكنون فيه، فمعنى التمتع تحلل المحرّم بين النسكين: العمرة والحج، وهذا عندي ما يكون إلاّ لمن لم يسق الهدي، فإن ساق الهدي وأحرم قارناً فإنه متمتع من غير إحلال فإنه ليس له أن يحل حتى يبلغ الهدي محله.

وبعد أن ذكرنا حكم التمتع فلنرجع إلى ما وضعنا عليه كتابنا هذا في هذه العبادات فنقول: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤] إن أشهر الحج حضرة إلهية انفردت بهذا الحكم، فأيّ عبد اتصف بصفة سيادة من تخلق إلهيّ، ثم عاد إلى صفة حق عبودية، ثم رجع إلى صفة سيادته في حضرة واحدة فذلك هو المتمتع، فإن دخل في صفة عبودية بصفة ربانية في حال اتصافه بذلك فهو القارن وهو متمتع، ومعنى التمتع أنه يلزمه حكم الهدي، فإن كان له هدي وهو بهذه الحالة من الإفراد بالعمرة أو القران فذلك الهدي كافية ولا يلزمه هدي ولا يفسخ جملة واحدة، وإن أفرد الحج ومعه هدي فلا فسخ، فإلى هنا بمعنى مع، ولهذا يدخل القارن فيه لقوله: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦] أي مع الحج، فتعم المفرد والقارن بالدلالة، فإن العمرة الزيارة، فإذا قصدت على التكرار وأقل التكرار مرّة ثانية كانت الزيارة حجاً فدخلت العمرة في الحج أي يحرم بها في الوقت الذي يحرم بالحج وأكّد ذلك رسول الله ﷺ بأن جعل للقارن طوافاً واحداً وسعياً واحداً وهذا مقام الاتحاد وهو التباس عبد بصفة رب، وإن كان المقصود العبد فهو التباس رب بصفة عبد، فإذا حلّ المتمتع لأداء حق نفسه ثم ينشأ الحج فقد يكون تمتعه بصفة ربانية إن كان ممّن جعله الله نوراً أو كان الحق سمعه بصره، فلا يتصرّف فيما يتصرّف فيه إلاّ بصفة ربانية، والصفات الإلهية على قسمين: صفة إلهية تقتضي التنزيه كالكبير والعليّ، وصفة إلهية تقتضي التشبيه كالمتكبر والمتعالي، وما وصف الحق به نفسه ممّا يتصف به العبد، فمن جعل ذلك نزولاً من الحق إلينا جعل الأصل للعبد، ومن جعل ذلك للحق صفة إلهية لا تعقل نسبتها إليه لجهلنا به كان العبد في اتصافه بها يوصف بصفة ربانية في حال عبوديته، فيكون جميع صفات العبد التي يقول فيها لا تقتضي التنزيه هي صفات الحق تعالىٰ لا غيرها، غير أنها لما تلبس بها العبد انطلق عليها لسان استحقاق للعبد والأمر على خلاف ذلك وهذا هو الذي يرتضيه المحققون من أهل طريقنا على أنّه ما رأينا أحداً نصَّ عليه ولا حقّقه ولا أبداه مثل ما فعلنا نحن وهو قريب إلى الأفهام إذا وقع الإنصاف، وذلك أن العبد ما استنبطه ولا وصف الحق به ابتداء من نفسه، وإنما الحق وصف بذلك نفسه على ما بلغت رسله وما كشفه لأوليائه، ونحن ما كنّا نعلم هذه الصفات إلاّ لنا لا له بحكم الدليل العقلي، فلما جاءت الشرائع بذلك وقد كان هو ولم نكن نحن علمنا أن هذه الصفات هي له بحكم الأصل، ثم سرى حكمها فينا منه فهي له حقيقة وهي لنا مستعارة إذ كان ولا نحن، فالأمر فيها على ما مهدناه حين المأخذ قريب

المتناول فلا يهولنك ذلك إذا كان الحق به متكلماً وأنت السامع. فإن قيل لك في ذلك شيء فليكن جوابك للمتعرض أن تقول له: أنا ما قلته هو قال ذلك عن نفسه فهو أعلم بما نسبه إلى نفسه ونحن مؤمنون به على حدّ علمه فيه وهذه أسلم العقائد.

فمن كشف له الحق تعالىٰ صورة تلك النسبة كان على علم من الله تعالىٰ بها ذوقاً وشرباً، ولولا هذا الامتزاج ما صحّ أن يكون الإنسان والحيوان من نطفة أمشاج، فأظهر الكل بالكل وضرب الكل في الكل، فظهرنا به له ولنا فنحن به من وجه وما هو بنا لأنه الظاهر ونحن على أصلنا، وإن كنّا أعطينا باستعدادنا في أعياننا أموراً لها سمّي بما يظنه المحجوب أسماء لنا من: عرش، وكرسيّ، وعقل، ونفس، وطبيعة، وفلك، وجسم، وأرض، وسماء، وماء، وهواء، ونار، وجماد، ونبات، وحيوان، وإنسان، وجانّ، كل ذلك لعين واحدة ليس إلاّ، فسبحان الأعلى المخصوص بالأسماء الحسنى والصفات العلى، وقد علم من هو الأولى بصفة الآخرة والأولى فهو: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] والإنسان ظلوم بما غصب من هذه الصفات من حيث جعلها لنفسه حقيقة جهول بمن هي له وبأنها غصب في يده، فمن أراد أن يزول عنه وصف الظلم والجهالة فليردّ الأمانة إلى أهلها والأمر المغصوب إلى صاحبه، والأمر في ذلك هين جدّاً، والعامة تظن أن ذلك صعب وليس كذلك.

وصل في فصل ـ الفسخ: وهو أن ينوي الحج وليس معه هدي، فيحوّل النية إلى العمرة فيعتمر ويحل ثم ينشيء الحج. فمن قائل: بجوازه. ومن قائل: بوجوبه. ومن قائل: بأن ذلك لا يجوز وبالوجوب أقول العمرة حج أصغر فجاز تحويل النية إليها، وكيف لا وقد تضمن فعلها الحج الأكبر، فقام طواف الحج الأكبر، وسعيه للقارن مقام ما للعمرة من الطواف والسعي وهما ركنان، فاندرجت العمرة التي هي الحج الأصغر في الحج الأكبر وصارا عيناً واحدة فجاز الفسخ لعدم الهدي، فإن الهدية من القادم للذي قدم عليه معتادة، فإذا لم يجيء بها كلف أن لا يدخل على من قصده بالنية الأولى حتى يتمتع ويهدي ولا بدّ، ولكن لا يقدّم هديه حتى ينشيء نية أخرى بالقصد على حسب ما نواه، فإذا أحرم بالحج أي نوى قصد الكبير سبحانه لا المتكبر الذي هو بمنزلة العمرة التي هي حج أصغر قدّم الهدي الذي أوجبه التمتع إما نسيكة على ما تيسر وإما صوماً لمن قصده بتلك الزيارة فهي الهدية له فإن الصوم له وهو الذي نزل عليه الحاج، فلذلك كان الصوم هدية لأنه يستحقها بل هي أليق به من الهدي، فإنه لا يناله من الهدي إلاّ التقوى خاصة من المهدي والصوم كله هو له فهو أعظم في الهدية، وإنما جعله الله لمن لم يجد هدياً لأن الهدي ينال الحق منه التقوى، وينال العبد منه ما يكون له به التغذي وقوام نشأته، فراعى سبحانه منفعة العبد مع ما للحق فيه من نصيب التقوى مع الوجود، فإذا لم يجد رفق به سبحانه فأوجب عليه الصوم إذ كان الصوم له ولم يوجب عليه غير ذلك لأنه ليس له من عمل العباد إلاّ الصوم فأقامه مقام الهدية بل هو أسنى، وقنع منه بثلاثة أيام في الحج رفقاً به حتى يكون قد أتى إليه بشيء فيفرح القادم بتلك التقدمة

التي قدّمها لربّه في هذا القدوم، فهذا من وجه رفق الله بعبده، وأخر السبعة إذا رجع إلى أهله فهناك يأخذها منه فإنه في رجوعه أيضاً قادم عليه، فإن الحق مع أهله أينما كانوا فإذا رجع إلى أهله وجد الحق معهم فصام هدية سبعة أيام فقبلها الحق منه في أهله أو حيثما ما كان فإن الله مع عباده أينما كانوا، ومن رأى أن العين واحدة وإن اختلفت النسب لم ير أنه فسخ مع وجود الفسخ مثل قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فنفى وأثبت كذلك هذا وما فسخت إذ فسخته، فمن كان شهوده في نفسه الحج خاصة لم يحل له الأصغر والأكبر فلم يفسخ وبقي على نيته الأولى لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦] فهو بحسب مشهده والأول أتمّ وهو القائل بالفسخ والتعدّي عن الفسخ فهو فاسخ لا فاسخ.

تفريع في التمتع: اختلف علماء الإسلام فيمن أنشأ عمرة في غير أشهر الحج ثم حج من عامه ذلك. فمن قائل: عمرته في الشهر الذي حلّ فيه فهذا متمتع عنده بلا شك فإن حل في غير أشهر الحج عنده فليس بمتمتع، واشترط بعضهم أن يكون طوافه كله في أشهر الحج. وقال بعضهم: إن طاف ثلاثة أشواط في رمضان وأربعة في شوّال كان متمتعاً. وقال بعضهم: من أهل بعمرة في غير أشهر الحج فسواء طاف في أشهر الحج أو لم يطف لا شيء عليه فإنه ليس بمتمتع.

اعلم أنه لما كانت أسماء الحق منها ما يعطي الاشتراك ومنها ما لا يعطي الاشتراك، والذي لا يعطي الاشتراك كالمعزّ والمذلّ، والذي يعطي الاشتراك كالعليم والخبير، فإذا كان العبد تحت حكم اسم ما من الأسماء الإلهية التي تعطي الاشتراك فهو بمنزلة من أحرم بالعمرة في غير أشهر الحج وعملها في أشهر الحج، فهل للاسم الأوّل فيه حكم إذا انتقل إلى الاسم الآخر؟ فانظر إن كان أحدهما يتضمن الآخر في أمر ما كالخبير والعالم كان في عمله تحت حكم الآخر لأنه صاحب الوقت وأنت أخيذه بأكثر ممّا أخذ منك الوقت الأوّل، وإن كان مشهدك أول الإنشاء وأنه المؤثر ولولاه لم يصحّ حكم هذا الآخر كالنيّة في الصلاة ثم لا يحضر في أثناء الصلاة فصحت الصلاة لحكم الأول وقوّته، فمن كان مشهده هذا نفى أن يكون هذا متمتعاً فإنه بحكم الإنشاء لا بحكم الانتهاء فاعلم ذلك.

وأما أكثر شروط التمتع الذي يكون به المتمتع متمتعاً فهي عند بعضهم خمسة: منها أن يجمع بين العمرة والحج في سفر واحد. الثاني: أن يكون ذلك في عام واحد. الثالث: أن يفعل شيئاً من العمرة في أشهر الحج. الرابع: أن ينشىء الحج بعد الفراغ من العمرة وإحلاله منها. الخامس: أن يكون وطنه غير مكة. أما الجمع في سفر واحد وذلك أن يدعوه اسمان فما زاد أو اسم يتضمن اسمين فما زاد كما قدّمنا، فيجيب في ذلك السفر الواحد إليهما بحسب ما دعوا إليه كالمغني إذا دعاه إليه فإنه يتضمن في المدعوّ حكم الاسم المعزّ فإنه إذا استغنى اعتزّ والعزّة لا تكون إلاّ من الاسم المعزّ، وما اعتزّ هنا إلاّ بالاسم المغني لأنه أغناه فأورثته صفة الغنى العزّة، فلولا أن المغني يتضمن الاسم المعزّ ما ظهرت العزّة في هذا الغني بما استغنى به.

وأما العام الواحد فإنه كمال الزمان إذ العام فيه كمال الزمان لحصره الفصول، فكمال الزمان هو بظهور الأبد الذي به كمل الدهر، فإن الأزل نفى الأولية، والأبد نفى الآخرية، فما بقي طرفان فليس إلاّ دهر واحد، إذ كان نسبة الأزل للحق نسبة الزمان للخلق في العامة بنسبة الزمان الماضي فينا، فلهذا لا يعبر عن الفعل فيه إلاّ بالماضي فيقولون: كان ذلك في الأزل، وفعل ذلك في الأزل، وقد بيّنا حقيقة مدلول هذه اللفظة في كتابنا هذا وفي جزء لنا سميناه الأزل.

وأما كونه أن يكون شيء من العمرة في أشهر الحج فهو أن يكون قصد الإنسان إلى ربه من حيث ما يقتضيه حق الله عليه فيه ووفاء بحق العبودية، فللعمل وجه في هذا ووجه في هذا، وأما أن ينشىء الحج بعد الفراغ من العمرة والإحلال منها فهو بمنزلة الإخلاص في العبادة والخروج من حكم اسم إلهيّ مقابل لاسم إلهيّ لا يجتمعان كالضارّ والنافع والمعطي والمانع. وأما الوطن أن يكون غير مكة فذلك بين فإن العبد مواطنه العبودية ولا يستطيع الخروج من مواطنه إلاّ إذا دعاه الحق إليه فلو ضمّه معه موطن لما دعاه إليه.

وصل في فصل ـ في القران: فهو عندنا أن يهل بالعمرة والحج معاً، فإن أهل بالعمرة ثم بعد ذلك أهل بالحج فهذا مردف وهو قارن أيضاً ولكن بحكم الاستدراك. فمن جمع بين العمرة والحج في إحرام واحد فهو قران سواء قرن بالإنشاء أو بعده بزمان ما لم يطف بالبيت، وقيل: ما لم يطف ويركع ويكره بعد الطواف وقبل الركوع، فإن ركع لزمه. ومن قائل له ذلك بعد الركوع من الطواف وما بقي عليه شيء من عمل العمرة إلاّ إذا لم يبق عليه من أفعال العمرة إلاّ الحلاق، فإنهم اتفقوا على أنه ليس بقارن، وذلك كله عند بعضهم إن ساق الهدي وبه أقول، فإن لم يسق معه هدياً فاختلفوا في حجه، وكذلك مفرد الحج سواء، فمن قائل: ببطلان الحج ويجب عليه الفسخ ولا بدّ. ومن قائل: بجواز الفسخ لا بوجوبه. ومن قائل: بمنعه وأنه يتم حجّه الذي نواه سواء ساق الهدي أم لم يسق، والقارن الذي يلزمه هدي التمتع هو عند الجمهور من غير حاضري المسجد الحرام إلاّ ابن الماجشون فإن القارن عنده من أهل مكة عليه الهدي. وأما الإفراد فهو ما تعرّى من هذه الصفات وهو الإهلال بالحج فقط، واختلف العلماء من الصحابة فيه إذا لم يكن له هدي وقد ذكرناه آنفاً في هذا الفصل.

وأما الذين أجازوا الحج لمن لم يسق الهدي وفي أصل الإهلال بالحج وإن ساق الهدي أيّ أفضل؟ فمن قائل: الإفراد أفضل. ومن قائل القران. ومن قائل: التمتع. اعلم أن المحرم لا يحرم، كما أن الموجود لا يوجد، وقد أحرم المردف قبل أن يردف، ثم أردف على إحرام العمرة المتقدّم وأجزأه بلا خلاف، والإحرام ركن في كل واحد من العملين وبالاتفاق جوازه، فيترجح قول من يقول: يطوف لهما طوافاً واحداً وسعياً واحداً وحلاقاً واحداً أو تقصيراً على من لا يقول بذلك، قد تقدّم لك حكم تداخل الأسماء الإلهية في الحكم، وقد تقدّم لك انفراد حكم الاسم الإلهيّ الذي لا يداخله حكم غيره في حكمه فلتنظره هنالك، فمن أفرد قال: الأفعال كلها لله والعبد محل ظهورها، ومن قرن قال: الأفعال لله بوجه وتنسب إلى من تظهر

منه بوجه يسمى ذلك كسباً عند بعض النظار وخلقاً عند آخرين، واتفق الكل على أن خلق القدرة المقارنة لظهور الفعل من العبد لله وأنها ليست من كسب العبد ولا من خلقه.

واختلفوا هل لها أثر في المقدور أم لا؟ فمنهم من قال: لها أثر في المقدور ولا يكون مقدورها إلاّ عنها وما صحّ التكليف وتوجّه على العبد إذ لو لم يكن قادراً على الفعل لما كلف و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] وهو ما يقدر على الإتيان به وقال في أن القدرة لله التي في العبد ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧] والذي أعطاها إنما هو القدرة التي خلق فيه فله الاقتدار بها على إيجاد ما طلب منه أن يأتي به من التكليف. ومنهم من قال: ليس للقدرة الحادثة أثر خلق في المقدور الموجود من العبد، وليس للعبد في الفعل الصادر منه إلاّ الكسب وهو اختياره لذلك الفعل إذ لم يكن مضطرّاً ولا مجبوراً فيه.

وأما أهل الله الذين هم أهله فأعيان الأفعال الظاهرة من أعيان الخلق إنما هي نسب من الظاهر في أعيان هذه الممكنات، وأن استعداد الممكنات أثرت في الظاهر في أعيان الممكنات ما ظهر من الأفعال والعطاء بطريق الاستعداد لا يقال فيه أنه فعل من أفعال المستعدّ لأنه لذاته اقتضاه، كما أعطى قيام العلم لمن قام به حكم العالم وكون العالم عالماً ليس فعلاً البتة، فالاقتضاءات الذاتية العلية ليست أفعالاً منسوبة إلى من ظهرت عنه وإنما هي أحكام له، فأفعال المكلفين فيما كلفوا به من الأفعال أو التروك مع علمنا بأن الظاهر الموجود هو الحق لا غيره بمنزلة ما ذكرناه من محاورة الأسماء الإلهية ومجاراتها في ميادين المناظرة وتوجهاتها على المحل الموصوف بصفة ما بأحكام مختلفة وقهر بعضها بعضاً، كفاعل الفعل المسمّى ذنباً ومعصية يتوجه عليه الاسم العفوّ والغفار والمنتقم والمعاقب، فلا بدّ أن ينفذ فيه أحد أحكام هذه الأسماء، إذ لا يصحّ أن ينفذ فيه الجميع في وقت واحد، لأن المحل لا يقبله للتقابل الذي بين هذه الأحكام، فقد ظهر قهر بعض الأسماء في الحكم لبعض والحضرة الإلهية واحدة، فإذا علمت هذا هان عليك أن تنسب الأفعال كلها لله كما تنسب الأسماء الحسنى كلها لله تعالىٰ أو الرحمن مع أحدية العين واختلاف الحكم، فاعلم ذلك وخذه في جميع ما يسمى فعلاً فتعرف عند ذلك من هو المكلف والمكلف وتنطق فيه بحسب مشهدك. انتهى الجزء الخامس والستون.

(الجزء السادس والستون)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل في فصل ـ الغسل للإحرام: فمن قائل: بوجوبه. ومن قائل: إن الوضوء يجزىء عنه. ومن قائل: إنه سنّة مؤكدة آكد من غسل الجمعة.

اعلم أن الطهارة الباطنة في كل عبادة واجبة عند أهل الله إلاّ من يرى أن المكلف إنما هو الظاهر في مظهر ما من أعيان الممكنات فإنه يراه سنّة لا وجوباً، ومن يرى من أهل الله أن الاستعداد الذي هو عليه عين المظهر كما أثر في الظاهر فيه أن يتميز عن ظهور آخر بأمر ما

وباسم ما من حيوان أو إنسان أو مضطرّ أو بالغ أو عاقل أو مجنون، فذلك الاستعداد عينه أوجب عليه الحكم بأمر ما كما أوجب له الاسم فقال له: اغتسل لإحرامك أي تطهر بجمعك حتى تعم الطهارة ذاتك لكونك تريد أن تحرّم عليك أفعالاً مخصوصة لا يقتضي فعلها هذه العبادة الخاصة المسمّاة حجاً أو عمرة، فاستقبالها بصفة تقديس أولى لأنك تريد بها الدخول على الاسم القدّوس، فلا تدخل عليه إلاّ بصفته وهي الطهارة، كما لم تدخل عليه إلاّ بأمره، إذ المناسبة شرط في التواصل والصحبة فوجب الغسل، ومن رأى أنه إنما يحرم على المحرم أفعال مخصوصة لا جميع الأفعال قال: فلا يجب عليه الغسل الذي هو عموم الطهارة فإنه لم يحرم عليه جميع أفعاله فيجزيء الوضوء فإنه غسل أعضاء مخصوصة من البدن، كما أنه ما يحرم عليه إلاّ أفعال مخصوصة من أفعاله، وإن اغتسل فهو أفضل، وكذلك إن عمّم الطهارة لباطنه فهو أولى وأفضل.

وصل في فصل ـ النية للإحرام: وهو أمر متفق عليه إلاّ من شذّ القصد بالمنع عين بقائك على ما أنت عليه، فهذا حكم منسوب إليك تؤجر عليه، وما عملت شيئاً وجودياً وهو كالنهي في التكليف، وله من الأسماء المانع والقصد أبداً لا يكون متعلقه إلاّ معدوماً، فيقصد في المعدوم أبداً أحد أمرين: إمّا إيجاد عين وهو الكون، وإمّا إيجاد حكم وهو النسبة، وما ثم ثالث يقصد، فمثل إيجاد العين: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ ولا يريده إلاّ وهو معدوم ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فيظهر وجود عين المراد بعدما كان معدوماً، ومثل إيجاد الحكم وهو النسبة قوله تعالىٰ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ١٩] فالإذهاب معدوم وهو الذي يشاء إن شاءه، فإن شاء أعدمه بمنع شرطه الذي به بقاء حكم الوجود عليه فيصير عليه حكم اسم المعدوم، وما فعل الفاعل شيئاً فتعلق القصد بالإعدام، فاتصف الموجود بحكم العدم لا أنه كان العدم، فإن العدم لا يكون مع وجود حكمه وهو النسبة، وإذا تأمّلت فما ثم وجود إلاّ الله خاصة، وكل موصوف بالوجود ممّا سوى الله فهو نسبة خاصة، والإرادة الإلهية إنما متعلقها إظهار التجلي في المظاهر أي في مظاهر ما وهو نسبة، فإن الظاهر لم يزل موصوفاً بالوجود، والمظهر لم يزل موصوفاً بالعدم، فإذا ظهر أعطى المظهر حكماً في الظاهر بحسب حقائقه النفسية، فانطلق على الظاهر من تلك الحقائق التي هو عليها ذلك المظهر المعدوم حكم يسمى إنساناً أو فلكاً أو ملكاً، وما كان من أشخاص المخلوقات، كما رجع من ذلك الظهور للظاهر اسم يطلق عليه يقال به خالق وصانع وضار ونافع وقادر، وما يعطيه ذلك التجلي من الأسماء وأعيان الممكنات على حالها من العدم.

كما أن الحق لم يزل له حكم الوجود، فحدث لعين الممكن اسم المظهر وللمتجلي فيه اسم الظاهر، فلهذا قلنا: فكل موجود سوى الله فهو نسبة لا عين، فأعطى استعداد مظهر ما أن يكون الظاهر فيه مكلفاً فيقال له: افعل ولا تفعل، ويكون مخاطباً بأنت وبكاف الخطاب، فالقصد للإحرام هو القصد للمنع أن يمنع به ما يمكن أن لا يمنع، فحينئذ يصير المنع حكماً والتكليفات كلها أحكام، فالنية للإحرام أن يقصد بذلك المنع القربة إلى الله والقربة معدومة

فيكون سبب وجود حكمها هذا المنع، فحصل للعبد بعد أن لم يكن فيصير مظهراً عند ذلك وهو غاية القرب ظهور في مظهر، لأن بذلك الظهور يظهر حكم المظهر في الظاهر فيه، كما يظهر بطريق القرب حكم الداعي في المدعوّ بما يكون منه من الإجابة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] إذ لا تكون إجابة إلاّ بعد الدعاء، فأعطاه الداعي حكم الإجابة، كما دعاه تعالىٰ إلى الحج إلى بيته على صفة مخصوصة تسمّى الإحرام فأجاب العبد رافعاً صوته وهو الإهلال بالتلبية وهي قوله: لبيك اللهمّ لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

وصل في فصل ـ هل تجزىء النية عن التلبية: اختلف علماء الرسوم رضي الله عنهم في ذلك فقال بعضهم: التلبية في الحج كتكبيرة الإحرام في الصلاة، وصاحب هذا القول يجزىء عنده كل لفظ يقوم مقام التلبية، كما يجزىء عنده في الصلاة كل لفظ يقوم مقام التكبير وهو كل ما يدل على التعظيم. وقال بعضهم: لا بدّ من لفظ التلبية فإن رسول الله ﷺ قال: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**» وممّا شرع لفظ التلبية وهو قوله: لبيك، كما شرع الله أكبر في تكبيرة الإحرام في الصلاة، فأوجب بعضهم تلبية رسول الله ﷺ وصورتها: «**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ والنعمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ**». وفي رواية: «**لَبَّيْكَ إِلَهَ الْحَقِّ**» وفي رواية: «**إِلَهَ الخَلْقِ**»، فهي واجبة بهذا اللفظ عند هؤلاء وعند جمهور العلماء مستحبة، وبه أقول، واللفظ بها أولى، واختلفوا في الزيادة على هذا اللفظ وفي تبديله كما قلنا، وكذلك اختلفوا في رفع الصوت بالتلبية وهو الإهلال فأوجبه بعضهم وبه أقول، ولكنه عندي إذا وقع منه مرّة واحدة أجزأه وما زاد على الواحدة فهو مستحب وأولى. وقال بعضهم: رفع الصوت بالتلبية مستحب إلاَّ في مساجد الجماعات ما عدا المسجد الحرام ومسجد منى عند بعضهم.

واختلفوا في التلبية هل هي ركن أم لا؟ فقال بعضهم: هي ركن من أركان الحج وبه أقول فإن الله يقول: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] وهو قد دعانا إلى بيته فلا بدّ أن أقول: لبيك، ثم نأخذ في الفعل لما دعاني الله أن نأتيه به من الصفات. وقال بعضهم: ليست ركناً.

اعلم أن القصد إلى الله تعالىٰ بهذه العبادة الخاصة الجامعة بين الإحرام والتصرّف في أكثر المباحات هو قصد خاص لاسم خاص وهو الداعي إلى البيت بهذا القصد لا إليه لكن من أجله بصفة عبودية مشوبة بصفة سيادة تظهر حكم السيادة في هذه العبادة في النحر لأنه إتلاف صورة وفي الرمي بالجمار فإنه وصف فعل إلهيّ في قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ [سورة هود: الآية ٨٢] روي أن إبليس تعرّض لإبراهيم الخليل في أماكن هذه الجمرات مراراً فحصبه بعدد ما شرع وفي زمانها. وكذلك في إلقاء التفث فإنه وصف إلهيّ من قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] وفرغ ربك والوفاء بما نذر فيه كذلك لقوله: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٠] والطواف بالبيت لكون هذا الفعل إحاطة بالبيت من قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٤] والذكر فيها من قوله: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢]

وذكر الله لنا أكبر من ذكرنا له، إلاَّ إن ذكرناه به لا بنا، فذكرنا به أكبر إحاطة، فإن في ذكرنا نحن وهو، وفي ذكره هو بلا نحن.

قرىء على أبي يزيد: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [سورة البروج: الآية ١٢] قال: بطشي أشدّ يعني إذا بطش العبد به لا بنفسه. وإنما قول أبي يزيد عندي فشرحه خلاف هذا، فإن بطش العبد بطش معرّى عن الرحمة ما عنده من الرحمة شيء في حال بطشه، وبطش الحق بكل وجه فيه رحمة بالمبطوش به من وجه يقصده الباطش الحق فهو الرحيم به في بطشه، فبطش العبد أشدّ لأنه لا تقوم به رحمة بالمبطوش به، وما أشبه ذلك من الرمل والسعي وكل فعل له في الألوهية وصف.

وإذا عرفت أن القصد إلى البيت من الله لا إليه فليكن قصدك إلى البيت بربك لا بنفسك فتكون ذا قصد إلـهيّ فإنه تعالىٰ قصد هذا البيت دون غيره من البيوت، وطلب من عباده أن يقصدوه بوصف خاص وهو الإحرام وجميع أفعال الحاج، وجعل أوّله طوافاً وآخره طوافاً، فختم بمثل ما به بدأ عند الوصول إلى البيت، فما أمرك بالقصد إلى البيت لا إليه إلاَّ لكونه جعله قصداً حسيّاً فيه قطع مسافة أقربها من بيتك الذي بمكة إلى البيت وهو معك أينما كنت، فلا يصحّ أن تقصد بالمشي الحسيّ من هو معك، فأعلمك أنه معك، ثم إنه دلّك على البيت الذي هو مثلك ومن جنسك أعني أنه مخلوق، فدلالته لك على البيت دلالته لك على نفسك في قوله: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» فإذا قصدت البيت إنما قصدت نفسك، فإذا وصلت إلى نفسك عرفت من أنت، وإذا عرفت من أنت عرفت ربك، فتعلم عند ذلك هل أنت هو أو لست هو، فإنه هناك يحصل لك العلم الصحيح، فإن الدليل قد يكون خلاف المدلول وقد يكون عين المدلول، فلا شيء أدل على الشيء من نفسه، ثم تبعد الدلالة بحسب بعد المناسبة، فالإنسان أقرب دليل عليه من كونه مخلوقاً على الصورة، ولهذا ناداك من قريب لقرب المناسبة فقال: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] و ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ [سورة المجادلة: الآية ١].

وقد تقدّم في أول الباب أسرار ظهرت في اعتبار البيت، ثم جاء بلفظة البيت لما فيه من اشتقاق المبيت، فكأنه إنما سمي بيتاً للمبيت فيه، فإنه الركن الأعظم في منافع البيت كقولهم: الحج عرفة يريد معظمه، فراعى حكم المبيت لأنه في المبيت يكون النوم فهو محتاج إلى من يحفظ رحله ونفسه لنومه، فإنه في حال يقظته يتصف بحفظ رحله ونفسه، فلما راعى فيه المبيت والمبيت لا يكون إلاَّ بالليل لا بالنهار ولهذا راعى أحمد بن حنبل في غسل اليد في الوضوء قبل إدخالها في الإناء لمن قام من نوم الليل خاصة لقوله ﷺ: «**فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لاَ يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ**». فجاء بلفظ المبيت فجعل الحكم في نوم الليل. ولما كان الليل محل التجلّي فيه فإن الحق ما جعل تجليه لعباده في الحكم الزمانيّ إلاَّ في الليل، فإن فيه ينزل ربنا، وفيه كان الإسراء برسول الله ﷺ، وفيه معارج الأرواح في النوم لرؤية الآيات.

ولما تحققت هذه الأمور كلها خصّ سبحانه هذا المكان بلفظ البيت فسمّاه بيتاً، فافهم

ما أشرنا إليه، فقال جلّ وتعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إشارة إلى النسيان ولم يقل على بني آدم ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ يعني قصد هذا المكان من كونه بيتاً ليتنبّه باسمه على ما قصد به دون غيره ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] أي من قدر على الوصول إليه ولذلك شرع ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] وأمثاله فالإجابة لله بالتلبية لدعائه ورفع الصوت به من أجل البيت لعبده عن المدعوّ، فإنه دعاه من البيت لأنه دعاه ليراه فيه لتجليه، كما أسرى بعبده ليلاً ليريه من آياته التي هي دلائل عليه، وقد يكون ظهور الشيء للطالب دليلاً على نفسه، فيكون من آياته أن يتجلى له فيراه فيكون له دليلاً على نفسه، وهذا مذهب ابن عباس، فوجب رفع الصوت بالتلبية وهو الإهلال لأجل ما للبيت من الحظ في هذا الدعاء فإنه المقصود في اللفظ فهو الحجاب على الوجه المقصود، فإن كنت محمديّ المشهد فلا تزد على تلبية رسول الله ﷺ شيئاً فتراه بعينه فإنه لا يتجلّى لك بتلبيته إلاّ ما تجلّى له، وقد تقرّر أنه أعلم الخلق بالله، والعلم بالله لا يحصل إلاّ من التجلّي، وقد تجلى لك في تلبيتك هذه، فنظرته بعين محمد ﷺ وهي أكمل الأعين لأنه أكمل العلماء بالله، والله مع العبد في شهوده على قدر علمه به، فإن زدت على هذه التلبية فقد أشركت حيث أضفت إليها تلبية أخرى، وأنت تعلم أن الجمع يعطي من الحكم ما لا يعطى الأفراد، فلا تتخيل أنك لما جئت بتلبيته ﷺ كاملة ثم زدت عليها ما شئت أن باستيفائك إياها يحصل لك ما حصل لمن لم يزد عليها هذا جهل من قائله بما هي عليه حقائق الأمور، ألا تراه ﷺ لزم تلبيته تلك وما زاد عليها ولا أنكر على أحد ما لبّى به فلم يكن لزومه إياها باطلاً، فالزم الاتباع تكن عبداً، ولا تبتدع في العبودية حكماً فتكون بذلك الابتداع رباً فإنه البديع سبحانه، فالزم حقيقتك تحظ به، وإن شاركته لم تحظ به فإنه لا يشارك فتقع في الجهل، لأن الشركة لا تصحّ في الوجود، لأنه الوجود على صورة الحق، وما في الحق شريك بل هو الواحد الشركة ما لها مصدر تصدر عنه، فتحقق هذا التنبيه في الشركة فإنه بعيد أن تسمعه من غيري، وإن كان معلوماً عنده فإنه يحكم عليه الجبن الذي فطر عليه فيفزع من كون الحق أثبت الشركة وصفاً في المخلوق، وما شعر هذا الناظر بقوله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو الذي أشرك، فما قال أن الشركة صحيحة ولا أن الشريك موجود إذ لا يصحّ وجود معنى الشركة على الحقيقة لأن الشريكين حصة كل واحد منهما معينة عند الله، وإن جهلها الشريكان فأنت الذي أشركت وما في نفس الأمر شركة لأن الأمر من واحد: [مجزوء الرجز]

هذا هو الحقُّ الذي إن قُلْتَه لا تُغْلَبُ
وما سوى هذا فلا فهو مثالٌ يُضْرَبُ

مثل تقدير وجود المحال وجوده بحكم الفرض. ولما كان القصد إلى البيت والبيت في الصورة ذو أربعة أركان، وفي الوضع الأوّل ذو ثلاثة أركان، كان القصد على صورة البيت في أكثر المذاهب، فأركان الحج أربعة: الإحرام، والوقوف، والسعي، وطواف الإفاضة، هذا هو الذي عليه أكثر الناس. ومن راعى صورة البيت في الوضع الأول كان عنده على التثليث

لم ير طواف الإفاضة فرضاً، فأقام البيت على شكل مثلث متساوي الساقين لا متساوي الأضلاع، ولا يصحّ أن يكون متساوي الأضلاع إذ لوكان لم يكن، ثم من يميز الساقين لأنه مثلهما، ولا بدّ من تساوي الساقين والتمييز بينهما وهما اليدان والقبضتان، وإنما سميتا ساقين للاعتماد الذي في حقيقة الساق، ولما كان الاعتماد على القبضتين وإليهما يرجع حكم الأمر في الدارين الجنة والنار وما ثم غيرهما كان اسم الساق أولى ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [سورة القيامة: الآية ٢٩] فلا بدّ من التساوي حتى يصحّ الالتفاف عليه كله من كله، وما زاد على هؤلاء الأربعة وجعل ركناً فمن نظر آخر خارج عن شكل البيت وصورته، فهو بمنزلة من يطلب أمراً فيرى ما يشبهه فيقول: هو هو وإن كان هو اعتبار صحيح ولكن ما له هذا الظهور في الشبه لأن الصورة لا تشهد له أعني صورة البيت الذي هو المقصود بالحج لا غير.

وصل في فصل ـ الإحرام إثر صلاة: وهو مستحب عند العلماء فرضاً كان أو نفلاً، غير أن بعضهم يستحب أن يتنفل له بركعتين فإنه أولى، إذ كانت السنّة من النبيّ ﷺ الصلاة في ذلك، والسنّة أحق بالاتباع فإنه لهذا سنّت وقد قال: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**»، في حجّه ﷺ إنما شرع الإحرام إثر صلاة لأن الصلاة عبادة بين طرفي تحريم وتحليل، فتحريمها التكبير وتحليلها التسليم، فأشبهت الحج والعمرة فإنهما عبادتان بين طرفي تحريم وتحليل فوقعت المناسبة، ولأن الصلاة أيضاً أثبت الحق فيها نفسه وعبده على السواء، فجعل لنفسه منها أمراً انفرد به، وجعل لعبده منها حظاً أفرده به، وجعل منها برزخاً أوقع فيه الاشتراك بينه وبين عبده، فإنها عبادة مبنية على أقوال وأفعال، والحج كذلك ينبني على أقوال وأفعال، فما فيه من التعظيم فهو لله، ومن الذلّة والافتقار والتفث فهو للعبد، وما فيه ممّا يظهر فيه اشتراك فهو برزخ، فوقعت المناسبة أيضاً فيه أكثر من غيره من العبادات، فإن الصوم وإن كان بين طرفي تحريم وتحليل فما يشتمل على أقوال ولا على أفعال.

ثم إن كان لك أهل في موضع إحرامك فينبغي لك إذا أردت الإحرام أن تطأ أهلك فإن ذلك من السنّة ثم تغتسل وتصلي وتحرم، فإن المناسبة بين الحج والصلاة والنكاح كون كل واحد من هذه العبادات بين طرفي تحريم وتحليل، وقد راعى الله ذلك أعني المناسبة من هذا الوجه في الصلاة والنكاح فقال: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٨] وجعل هذه الآية بين آيات نكاح وطلاق تتقدّمها وتتأخّر عنها وعدة وفاة، وفي ظاهر الأمر أن هذا ليس موضعها، وما في الظاهر وجه مناسب للجمع بينها وبين ما ذكرنا إلاّ كونهما بين طرفي تحريم وتحليل متقدم أو متأخر، ولما أراد الله من العبد فيما نبّهه به أن لا يفعل شيئاً من الأفعال الصادرة منه في ظاهر الأمر إلاّ وهو يعلم أن الله هو الفاعل لذلك الفعل في قوله: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَتَحَرَّكُ**» وقال في الصلاة: إن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده فنسب القول إليه لا إلى العبد ولم يقل بلسان عبده، فلهذا شرع الإحرام عقيب صلاة لينتبه الإنسان بما ذكرناه أنه بربّه في جميع حركاته وسكناته على اختلاف أحكامها فيكون في عبادة دائماً بهذا الحضور ويكون فيها لا فيها: [الكامل]

فالله أظهرَ نفسَه بحقائق الـ أكوان في أعيانها فاعبُدْهُ بِهْ
إن كنتَ تعبُده فلستَ بعابدٍ فانظرْ إلى قولي لعلك تَنْتَبِهْ

وتفطن فإن الله ما قال لنبيّه ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] سدى، بل قال ذلك لتعرف أنت وأمثالك صورة الأمر كيف هو، فالإحرام للعبد نظير التنزيه للحق وهو قولك في حق الحق: ليس كذا وليس كذا، لكونه قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] و ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] والعزّة الامتناع والتسبيح تنزيه، والتنزيه بعد عمّا نسب إليه من الصاحبة والولد وغيرهما، والإحرام منع وتنزيه وبعد عن الجماع وعن أشياء قد عيّن الشارع اجتنابها وهو عين التنزيه والتباعد عنها، ومنع صاحب هذه العبادة من الاتصاف بها.

وصل في فصل ـ نسبة المكان إلى الحج من ميقات الإحرام: أي من أيّ مكان أحرم عليه السلام؟ فمنهم من قال: من مسجد ذي الحليفة. ومنهم من قال: حين استوت به راحلته. ومنهم من قال: حين أشرف على البيداء، وكل قال وأخبر عن الوقت الذي سمعه فيه يهل، فمنهم من سمعه يهل عقيب الصلاة من المسجد، ثم سمعه آخر يهل حين استوت به راحلته، ثم سمعه آخر يهل حين أشرف على البيداء. وقال علماء الرسوم في المكيّ: إذا أحرم لا يهل حتى يأخذ في الرواح إلى منى، والأولى عندي أن يهل عقيب الصلاة إذا أحرم، ثم إذا أخذ في الرواح، ثم لا يزال يهل إلى الوقت المشروع الذي يقطع عنده التلبية، لأن الدعاء كان لجميع أفعال الحج، فالتلبية إجابة لذلك الدعاء، فما بقي فعل من أفعال الحج أمامه لم يفعله، فلا يقطع التلبية حتى يفرغ من أفعال الحج الذي دعاه إلى فعلها، هذا يقتضي النظر إلاَّ أن يرد نص من الشارع بتعيين وقت قطع التلبية فيقف عنده لقوله ﷺ: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**».

ولما كان الدعاء عند أهل الله نداء على رأس البعد وبوح بعين العلة فإن الإجابة تؤذن في الحال بالبعد، فكان النداء طلباً للقرب من حكم هذا البعد، فالإجابة مقدّمة بشرى من العبد للحق يبشره بالإجابة لما دعاه إليه من كونه يتجلّى في صورة تعطي هذه النسب وإن كانت السعادة للعبد في تلك الإجابة، ولكن ما خلق الله الجن والإنس إلاَّ ليعبدوه، فدعاهم لما خلقهم له. ولما كان في الإمكان الإجابة وعدم الإجابة لذلك كانت الإجابة بشرى للداعي أن دعاءه مسموع وأمره مطاع حين أبى غيره وامتنع ممّن سمع الدعاء، وربما يدخل في هذا من يقول بالتراخي مع الاستطاعة، والأولى بكل وجه المبادرة عند الاستطاعة وارتفاع الموانع، فجعل قوله تعالىٰ: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢١] في مقابلة هذه البشرى بالإجابة جزاء وقال لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة جزاء أيضاً مؤكداً لبشراهم بإجابة داعي الحق بالعبادات فقالوا لبيك أي إجابة لك لما دعوتنا إليه وخلقتنا له، فلم يرجع داعي الحق خائباً، ثم حققوا الإجابة بما فعلوه ممّا كلفوه على حدّ ما كلفوه من نسبة الأعمال إليهم وفنائهم عن رؤيتها منهم برؤية مجريها على أيديهم ومنشئها فيهم فهم عمال لأعمال كذا هو الأمر في

الحقيقة اطلع العباد على ذلك أو لم يطلعوا فشرف العالم بالاطلاع على من لم يطلع وفضل عليه ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة المجادلة: الآية ١١] والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وصل في فصل ـ المكيّ يحرم بالعمرة دون الحج: فإن العلماء ألزموه بالخروج إلى الحل ولا أعرف لهم حجة على ذلك أصلاً، واختلفوا إذا لم يخرج إلى الحل فقيل: عليه دم. وقيل: لا يجزيه، ووقفت على ما احتجوا به في ذلك فلم أره حجة فيما ذهبوا إليه، والذي أذهب إليه في هذه المسألة أن المكيّ يجوز له أن يحرم من بيته بالعمرة كما يحرم بالحج سواء، ويفعل أفعال العمرة كلها من طواف وسعي وحلق أو تقصير ويحل ولا شيء عليه جملة واحدة، فإن النبيّ ﷺ لما وقت المواقيت لمن أراد الحج والعمرة ولم يفرّق بين حج ولا عمرة قال: «**مِيقَاتُ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ مَكَّةَ**». وما يلزم من الأفعال في نسك العمرة فعل، وما يلزم من نسك الحج فعل، وما خصّص رسول الله ﷺ قط الجمع بين الحل والحرم، وإنما شرع ذلك للآفاقي لا للمكيّ فقال لعبد الرحمن بن أبي بكر: «**اخْرُجْ بِعَائِشَةَ إِلَىٰ التَّنْعِيمِ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُحْرِمَ بِالْعُمْرَةِ مَكَانَ عُمْرَتِهَا الَّتِي رَفَضَتْهَا حِينَ حَاضَتْ**» وَعَائِشَةُ آفَاقِيَّةٌ. وهذا هو دليل العلماء فيما ذهبوا إليه، وهو دليل في غاية الضعف لا يحتج بمثل هذا على المكيّ، والأوجه في تمشية الحكمة في المكيّ أن لا يخرج إلى الحل إذا أحرم بالعمرة فإنه في حرم الله تعالىٰ فهو في عبودية مشاهدة قد منعه الموطن أن يكون غير عبد، ثم أكد تلك العبودية بالإحرام، فهو إحرام في حرم تأكيد للعبودية وإجلال للربوبية، فإذا خرج إلى الحل نقص عن هذه الدرجة والمطلوب الزيادة في الفضل.

ألا ترى الآفاقي لما خرج إلى الحل هناك أحرم فلم يكن المطلوب منه في خروجه أن يبقى على إحلاله، ثم دخل في الحرم محرماً فزاد فضلاً على فضل، فكان المطلوب الزيادة، فالمكيّ في حرم الله أي موجود في عين القرب من الله بالمكان فلماذا يخرج والقرب بيته وموطنه؟ حاشا الشارع أن يرى هذا، وكذلك ما قاله ولا رآه ولا أمر به. والآفاقي لما كان همّه متعلقاً بوطنه الخارج عن الحرم كان خروجه إلى الحل من أجل الإحرام بالعمرة كالعقوبة له لما كانت الهمة به متعلقة، فإنه في نيّة المفارقة لحرم الله وطلب موطنه الخارج عنه فخرج من الأفضل إلى ما هو دونه، وأين جار الله ممّن ليس بجار له والله قد وصى بالجار حتى قال رسول الله ﷺ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَىٰ ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**». يعني يلحقه بالقرابة أصحاب السهام في الورث، وكذلك في الحج، واتفق من نسك الحج الوقوف بعرفة وعرفة في الحل، وما ورد عن رسول الله ﷺ أنه ما شرع الوقوف بعرفة إلاّ لكونها في الحل، ولا بدّ للمحرم أن يجمع بين الحل والحرم ما تعرّض الشارع إلى شيء من ذلك، ولو كان مقصوده لأبان عنه، وما ترك الناس في عماية بل بيّن ﷺ في المواقيت ما ذكرناه، فوصف المناسك وعينها وأحوالها وأماكنها وأزمانها، فالله يلهمنا رشد أنفسنا ويجعلنا ممّن اتبع وتأسّى آمين بعزّته، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وصل في فصل ـ متى يقطع الحاج التلبية؟: فمن قائل: إذا زاغت الشمس من يوم عرفة وهو عند الزوال. ومن قائل: حتى يرمي جمرة العقبة كلها. ومن قائل: حين يرمي أول حصاة من جمرة العقبة، وقد تقدم قولنا في ذلك وهو أنه ما بقي عليه فعل من أفعال الحج فلا يقطع التلبية حتى يفرغ منه، فإن الله يدعوه ما بقي عليه فعل من أفعال الحج فالإجابة لازمة، وما ثم نص من النبيّ ﷺ في ذلك فإنه غاية ما وصل إلينا أن الواحد ما سمعه يلبي بعدما زاغت الشمس، والآخر ما سمعه يلبي حين رمى أول حصاة من جمرة العقبة، والآخر ما سمعه يلبي بعد آخر رميه حصاة من آخر جمرة العقبة، فصدق كل واحد منهم في أنه ما سمع مثل قولهم في الإهلال بالحج سواء عند الإحرام والكل ثقات فيما ذكروه فإنه ﷺ لم يشرع اتصال التلبية زمان الحج من غير فتور بحيث أن لا يتفرغ إلى كلام ولا إلى ذكر، بل كان يلبي وقتاً ويذكر وقتاً ويستريح وقتاً ويأكل وقتاً ويخطب وقتاً، فسرد التلبية ما هو مشروع وإن أكثر منها فلا بدّ من قطع في أثناء أزمان الحج فهذا كله ليس بخلاف. كذلك المعتمر لا يقطع التلبية عندنا ما بقي عليه فعل من أفعال العمرة عندنا، فإن الذين قالوا إن المحرم بالعمرة يخرج إلى الحل منهم من قال؛ يقطع التلبية إذا انتهى إلى الحرم يعني المسجد. ومنهم من قال: إذا افتتح الطواف.

واعلم أنه ما من فعل من أفعال الحج والعمرة يشرع فيه المحرم إلاَّ والحق يدعوه إلى فعل ما بقي من الأفعال لا بدّ من ذلك، فكما يلزمه الإجابة ابتداء إلى الفعل يلزمه الإجابة إلى كل فعل حتى يفعله، فإن المحرم قد دخل في الحج من حين أحرم، وما قطع التلبية وطاف بالبيت، وما قطع التلبية وسعى، وما قطع التلبية وخرج إلى عرفة، وما قطع التلبية، وما بعض الأفعال المفروضة بالمراعاة أولى من بعض، وكذلك المسنونة ما بعضها أولى من بعض في المراعاة، إذ لم يرد نص يوقف عنده من الشارع، ففي الفرائض إجابة الله، وفي السنن إجابة رسول الله ﷺ فإن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٤] فإن الرسول داع بأمر الله فالله هو المجاب.

وعتب ﷺ على ذلك المصلي الذي دعاه رسول الله ﷺ إذ لم يجبه حين دعاه والمدعوّ في الصلاة فقال: يا رسول الله إني كنت في الصلاة، فقال له رسول الله ﷺ: «**فَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَىٰ**: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٤]». والتلبية إجابة، وأفعال الحج ما بين مفروض ومسنون، وإذا أنصفت فقد بان لك الحق فالزمه إلاَّ أن تقف على نص من قول الرسول ﷺ في ذلك فالمرجع إليه، وأما العارفون فإنهم لا يقطعون التلبية لا في الدنيا ولا في الآخرة، فإنهم لا يزالون يسمعون دعاء الحق في قلوبهم مع أنفاسهم، فهم ينتقلون من حال إلى حال بحسب ما يدعوهم إليه الحق، وهكذا المؤمنون الصادقون في الدنيا بما دعاهم الشرع إليه في جميع أفعالهم وإجابتهم هي العاصمة لهم من وقوعهم في محظور، فهم ينتقلون أيضاً من حال إلى حال لدعاء ربهم إياهم فهو داع أبداً، والعارف غير محجوب السمع فهو مجيب أبداً، جعلنا الله ممّن شق سمعه دعاء ربه وشق بصره لمشاهدة تجليه، فالتجلي دائم لا ينقطع،

فشهود الحق ما لا يرتفع، فدوام لدوام واهتمام لاهتمام، وانتقال لمقام، وهو أعلى من مقام، انتقلت منه من وجه يرجع إليك وما هو أعلى من وجه يرجع إلى الحق، فإن الأمور إذا نسبتها إلى الحق لم تتفاضل في الشرف، وإذا نسبتها إليك تفاضلت في حقك، والمكمل عندنا من تكون الأمور بالنسبة إليه كما تكون بالنسبة إلى الله، وهو الذي يرى وجه الحق في كل أمر، وهذا الباب ما رأيت له ذائقاً فيما نقل إلينا جملة واحدة، ولا بدّ أن يكون له رجال لا بدّ من ذلك ولكنهم قليلون، فإن المقام عظيم، والخطب جسيم، وكنت أتخيل في بعض المقتدين بنا أنه حصله فجاءني منه يوماً عتاب في أمر شهد عندي ذلك الخطاب أنه ما حصله.

وصل في فصل ـ الطواف بالكعبة: وصفته أن يجعل البيت عن يساره ويبتدىء فيقبل الحجر الأسود إن قدر عليه، ثم يسجد عليه أو يشير إليه إن لم يتمكن له الوصول إليه، ويتأخر عنه قليلاً بحيث أن يدخله في الطواف بالمرور عليه، ثم يمشي إلى أن ينتهي إليه، يفعل ذلك سبع مرات، يقبل الحجر في كل مرّة، ويمس الركن اليمانيّ الذي قبل ركن الحجر بيده ولا يقبله، فإن كان في طواف القدوم فيرمل ثلاثة أشواط ويمشي أربعة أشواط، ولكن في أشواط رمله يمشي قليلاً بين الركنين اليمانيين ويقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠١] إلى أن تفرغ سبعة أشواط كل ذلك بقلب حاضر مع الله، ويخيل أنه في تلك العبادة كاد﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٥] فيلزم التسبيح في طوافه والتحميد والتهليل، وقول: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، ولنا في ذلك: [البسيط]

جسمٌ يطوف وقلبٌ ليس بالطائِفْ ... ذاتٌ تـصـدُّ وذاتٌ مـا لـهـا صـارِفْ
يُـدْعَـى وإن كـان هـذا الـحـالُ حِـلْـيَـتَـه ... هـذا الإمـامُ الـهـمـامُ الـهَـمْـهَـمُ الـعـارِفْ
هيهاتَ هيهاتَ ما اسمُ الزورِ يعجبني ... قـلـبـي لـه مـن خـفـايـا مَـكْـرِه خـائِـفْ

ولقد نظرت يوماً إلى الكعبة وهي تسألني الطواف بها وزمزم يسألني التضلع من مائه رغبة في الاتصال بالمؤمن سؤال نطق مسموع بالأذن، فخفنا من الحجاب بهما لعظيم مكانتهما من الحق عمّا نحن عليه في أحوالنا من القرب الإلهيّ الذي يليق بذلك الموطن في معرفتنا، فأنشدتهما مخاطباً ومعرّفاً بما هو الأمر عليه مترجماً عن المؤمن الكامل: [السريع]

يـا كـعـبـةَ الله ويـا زَمْـزَمَـهْ ... كـم تـسـألانـي الـوصـل صَـهْ ثـم مَـهْ
إن كـان وصـلـي بـكـمـا واقـعـاً ... فـرحـمـةً لا رغـبـةً فـيـكُـمَـهْ
مـا كـعـبـةُ الله سـوى ذاتـنـا ... ذاتِ سـتـاراتِ الـتُّـقـى الـمُـعْـلَـمَـهْ
مـا وسـع الـحـقَّ سـمـاءٌ ولا ... أرضٌ ولا كـلَّـمَ مـنْ كـلَّـمَـهْ
ولاح لـلـقـلـب فـقـال اصـطَـبِـرْ ... فـإنـه قـبـلـتُـنـا الـمُـحْـكَـمَـهْ
مـنـكـم إلـيـنـا وإلـى قـلـبـكـم ... مـنَّـا فـيـا بَـيْـتـيَ مـا أعـظَـمَـهْ
فَـرْضٌ عـلـى كـعـبـتـنـا حـبُّـكـم ... وحـبُّـنـا فـرضٌ عـلـيـكـم ومَـهْ
مـا عـظَّـمَ الـبـيـتَ عـلـى غـيـره ... سـواك يـا عـبـدي بـأن تَـلْـزَمَـهْ

قد نوَّر الكعبةَ تَطْوَافُكم ... بها وأبياتُ الورى مظْلِمَهْ
ما أصْبَرَ البيتَ على شِرْكِهم ... لولاكمُو كان لهم مَشْأَمَهْ
لكنَّكم في تَوَاصيكُمُو ... بالصَّبْر تحقيقاً وبالمَرْحَمَهْ
ما أعْشَقَ القلبَ بذاتي وما ... أشدَّه حباً وما أعْلَمَهْ

كانت بيني وبين الكعبة في زمان مجاورتي بها مراسلة وتوسلات ومعاتبة دائمة، وقد ذكرت بعض ما كان بيني وبينها من المخاطبات في جزء سميناه: تاج الرسائل ومنهاج الوسائل، يحتوي فيما أظنّ على سبع رسائل أو ثمان من أجل السبعة الأشواط لكل شوط رسالة مني إلى الصفة الإلهية التي تجلت لي في ذلك الشوط، ولكن ما عملت تلك الرسائل ولا خاطبتها بها إلاَّ لسبب حادث، وذلك أني كنت أفضل عليها نشأتي وأجعل مكانتها في مجلى الحقائق دون مكانتي، وأذكرها من حيث ما هي نشأة جمادية في أوّل درجة من المولدات، وأعرض عمّا خصّها الله به من علوّ الدرجات وذلك لأرقي همّتها، ولا تحجب بطواف الرسل والأكابر بذاتها وتقبيل حجرها، فإني على بينة من ترقي العالم علوه وسفله مع الأنفاس لاستحالة ثبوت الأعيان على حالة واحدة، فإن الأصل الذي يرجع إليه جميع الموجودات وهو الله وصف نفسه أنه كل يوم هو في شأن، فمن المحال أن يبقى شيء في العالم على حالة واحدة زمانين، فتختلف الأحوال عليه لاختلاف التجليات بالشؤون الإلهية، وكان ذلك مني في حقّها لغلبة حال غلب عليّ، فلا شك أنّ الحق أراد أن ينبهني على ما أنا فيه من سكر الحال، فأقامني من مضجعي في ليلة باردة مقمرة فيها رش مطر فتوضأت وخرجت إلى الطواف بانزعاج شديد وليس في الطواف أحد سوى شخص واحد فيما أظنّ. انتهى الجزء السادس والستون.

(الجزء السابع والستون)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل: فيما جرى من الكعبة في حقي في تلك الليلة: وذلك أني لما نزلت قبلت الحجر وشرعت في الطواف، فلما كنت في مقابلة الميزاب من وراء الحجر نظرت إلى الكعبة فرأيتها فيما تخيّل لي قد شمرت أذيالها واستعدت مرتفعة عن قواعدها وفي نفسها إذا وصلت بالطواف إلى الركن الشامي أن تدفعني بنفسها وترمي بي عن الطواف بها وهي تتوعدني بكلام أسمعه بأذني، فجزعت جزعاً شديداً وأظهر الله لي منها حرجاً وغيظاً بحيث لم أقدر على أن أبرح من موضعي ذلك، وتسترت بالحجر ليقع الضرب منها عليه جعلته كالمجنّ الحائل بيني وبينها وأسمعها والله وهي تقول لي: تقدّم حتى ترى ما أصنع بك، كم تضع من قدري وترفع من قدر بني آدم وتفضل العارفين عليّ، وعزّة من له العزّة لا تركتك تطوف بي، فرجعت مع نفسي وعلمت أن الله يريد تأديبي، فشكرت الله على ذلك وزال جزعي الذي كنت أجده، وهي والله فيما يخيل لي قد ارتفعت عن الأرض بقواعدها مشمرة الأذيال كما يتشمر الإنسان إذا أراد أن يثب من مكانه يجمع عليه ثيابه، هكذا خيلت لي قد جمعت ستورها عليها لتثب

عليّ وهي في صورة جارية لم أر صورة أحسن منها ولا يتخيل أحسن منها، فارتجلت أبياتاً في الحال أخاطبها بها وأستنزلها عن ذلك الحرج الذي عاينته منها، فما زلت أثني عليها في تلك الأبيات وهي تتسع وتنزل بقواعدها على مكانها وتظهر السرور بما أسمعها إلى أن عادت إلى حالها كما كانت وأمّنتني وأشارت إليّ بالطواف فرميت بنفسي على المستجار وما فيّ مفصل إلاّ وهو يضطرب من قوّة الحال إلى أن سرّي عني، وصالحتها وأودعتها شهادة التوحيد عند تقبيل الحجر، فخرجت الشهادة عند تلفظي بها وأنا أنظر إليها بعينيّ في صورة سلك، وانفتح في الحجر الأسود مثل الطاق حتى نظرت إلى قعر طول الحجر فرأيته نحو ذراع فسألت عنه بعد ذلك من رآه من المجاورين حين احترق البيت فعمل بالفضة وأصلح شأنه فقال لي: رأيته كما ذكرت في طول الذراع، ورأيت الشهادة قد صارت مثل الكبة واستقرت في قعر الحجر وانطبق الحجر عليها وانسدّ ذلك الطاق وأنا أنظر إليه، فقالت لي: هذه أمانة عندي أرفعها لك إلى يوم القيامة أشهد لك بها عند الله، هذا قول الحجر لي وأنا أسمع، فشكرت الله ثم شكرتها على ذلك، ومن ذلك الوقت وقع الصلح بيني وبينها وخاطبتها بتلك الرسائل السبعة فزادت بي فرحاً وابتهاجاً حتى جاءتني منها بشرى على لسان رجل صالح من أهل الكشف ما عنده خبر بما كان بيني وبينها ممّا ذكرته فقال لي: رأيت البارحة فيما يرى النائم هذه الكعبة وهي تقول لي: يا عبد الواحد سبحان الله ما في هذا الحرم من يطوف بي إلاّ فلان وسمتك لي باسمك ما أدري أين مضى الناس ثم أقمت لي في النوم وأنت طائف بها وحدك لم أر معك في الطواف أحداً، قال الرائي: فقالت لي: انظر إليه هل ترى بي طائفاً آخر؟ لا والله ولا أراه أنا، فشكرت الله على هذه البشرى من مثل ذلك الرجل، وتذكرت قول رسول الله ﷺ في الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو ترى له: وأما الأبيات التي استنزلت بها الكعبة فهي هذه: [مخلع البسيط]

بالمُسْتَجارِ استجار قلبي ... لما أتاه سهمُ الأعادي
يا رحمةَ الله للعباد ... أوَدَعك الله في الجمادِ
يا بيتَ ربي يا نورَ قلبي ... يا قُرَّة العين يا فؤادي
يا سرَّ قلب الوجود حقاً ... يا حُرْمتي يا صَفَا ودادي
يا قبلةً أقبلتْ إليها ... من كل رَبْع وكل وادي
ومن بقاءٍ فمن سماءٍ ... ومن فناءٍ فمن مِهادِ
يا كعبةَ الله يا حياتي ... يا منهجَ السَّعْد يا رَشَادي
أوَدَعكِ الله كلَّ أمنِ ... من فَزَع الهَوْل في المَعادِ
فيكِ المقامُ الكريمُ يزهو ... فيكِ السعاداتُ للعبادِ
فيكِ اليمينُ التي كستها ... خطيئتي جِدَّةَ السوادِ
ملْتزمٌ فيك من يلازمْ ... هواه يسْعَدْ يوم التَّنادِ
ماتت نفوسٌ شوقاً إليها ... من ألم الشوق والبعادِ

من حزنٍ ما نالها عليهم قد لبست حلَّةَ الحدادِ
لله نورٌ على ذراها من نوره للفؤاد بادي
وما يراه سوى حزينٍ قد كحَّل العينَ بالسُّهادِ
يطوف سبعاً في إثر سبع من أوّل الليل للمنادي
بعَبْرةٍ ما لها انقطاعٌ رهينُ وجْدٍ حلف اجتهادِ
سمعتُه قال مستغيثاً من جانب الحجْر آه فؤادي
قد انقضى ليلُنا حثيثاً وما انقضى في الهوى مُرَادي

ولما نسب الله العرش إلى نفسه وجعله محل الاستواء الرحمانيّ فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] جعل الملائكة حافين به من حول العرش بمنزلة الحرس حرس الملك والملازمين بابه لتنفيذ أوامره، وجعل الله الكعبة بيته ونصب الطائفين به على ذلك الأسلوب، وتميز البيت على العرش وعلى الضراح وسائر البيوت الأربعة عشر بأمر ما نقل إلينا أنه في العرش ولا في غير هذا من البيوت وهو الحجر الأسود يمين الله في الأرض لنبايعه في كل شوط مبايعة رضوان وبشرى بقبول لما كان منا في كل شوط ممّا هو لنا أو علينا، فما لنا فقبول، وما علينا فغفران، فإني رأيت في واقعة والناس به طائفون وشرر النار يتطاير من أفواههم فأوّلته كلام الطائفين في الطواف به بما لا ينبغي، فإذا انتهينا إلى اليمين الذي هو الحجر استشعرنا من الله سبحانه بالقبول فبايعناه وقبلنا يمينه المضافة إليه قبلة قبول فرح واستبشار، هكذا في كل شوط، فإن كثر الازدحام عليه لتجليها في صورة محسوسة محضورة أشرنا إليه إعلاماً بأنا نريد تقبيله وإعلاماً بعجزنا عن الوصول إليه ولا نقف ننتظر النوبة حتى تصل إلينا فنقبله لأنه لو أراد ذلك منّا ما شرع لنا الإشارة إليه إذا لم نقدر عليه، فعلمنا أنه يريد منّا اتصال المشي في السبعة الأشواط من غير أن يتخللها وقوف إلاّ قدر التقبيل في مرورنا إذا وجدنا السبيل إليه، ونحن نعلم أن يمين الله مطلقة ونحن في قبضتها وما بيننا وبينها حجاب، ولكن لما ظهرت في مظهر عين محصورة يعبر عنه بالحجر قيّدها استعداد هذه العين المسماة حجر النسبة ظهور اليمين بها فأثرت الضيق والحصر مع أنها يمين الله لا شكّ ولكن على الوجه الذي يعلمه سبحانه من ذلك فصحّ النسب، ومن هنا يعرف قولنا أنه ما في الوجود إلاّ الله والأعيان الإمكانية على أصلها من العدم متميزة لله في أعيانها على حقائقها، وأن الحق هو الظاهر فيها من غير ظرفية معقولة، فيظهر بصورة تلك العين لو صحّ أن توجد لكانت بهذه الصورة في الحسّ، فانظر ما أعجب أمر الوجود، فعين المستفيد للوجود عين المفيد، فإن كانت الاستفادة غير الوجود وهي الصورة فالمستفيد الظاهر والمفيد العين لأن الصورة التي ظهر بها الظاهر هي صورة عين المظهر حقيقة، فكل حكم ينسب إلى الظاهر إنما هو منها، وأفادها الظاهر بظهوره حكم التأثير فيه إذا لم يكن لها ذلك الحكم إذ كانت ولا تجلٍّ في صورتها ولا ظهور، وإنما بيّنا لك ذلك لتعرف من هو الطائف والمطوف به والحجر والمقبل فتكون بحسب ما علمت من ذلك، فعلمك عين صورتك، وفيها تحشر

روحك يوم القيامة وبذلك يتميز في الزور الأعظم فلا يفوتنك علم ما نبهتك عليه والسلام.

وصل في فصل ـ حكم الرمل في الطواف: فقول: بأنه سنّة فأوجب فيه على من تركه الدم. وقول: بأنه فضيلة فلا يجب في تركه شيء، وأعني في طواف القدوم الرمل إسراع في نفس الخير إلى الخير فهو خير في خير، وذلك لحكمة استعجال إدراك علم الأمر الإلهي، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٠] فإن البصر لا شيء أسرع منه، فإن زمان لمحة عين زمان تعلقه بالملموح، ولو كان في البعد ما كان، وأبعد الأشياء في الحسّ الكواكب الثابتة التي في فلك المنازل، وعندما تنظر إليها يتعلق اللمح بها، فهذه سرعة الحسّ، فما ظنك بالمعاني المجرّدة عن التقييد في سرعة نفوذها، فإن للسرعة حكماً في الأشياء لا يكون لغير السرعة، ومن هنا يعرف قول الحق للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٧] فحال ﴿كُن﴾ الإلهية حال المكوّن المخلوق، ولهذا أسرع ما يكون من الحروف في ذلك فاء التعقيب فلهذا جاء بها في جواب الأمر، فإن أردت أن تعرف صورة نشء العالم وظهوره وسرعة نفوذ الأمر الإلهيّ فيه وما أدركت الأبصار والبصائر منه، فانظر إلى ما يحدث في الهواء من سرعة الحركة بجمرة النار في يد المحرّك لها إذا أرادها، فتحدث في عين الرائي دائرة أو خطاً مستطيلاً إن أخذ بالحركة طولاً أو أيّ شكل شاء، ولا تشك أنك أبصرت دائرة نار، ولا تشك أن ما ثم دائرة، وإنما أنشأ ذلك في نظرك سرعة الحركة وهو قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ﴾ وهو قوله ﴿ كُن﴾ إلاَّ واحدة كالجمرة كلمح بالبصر إدراك الدائرة وما هي دائرة، فذلك عين الصورة المخلوقة الظاهرة لإدراك العين، فتحكم من حيث نظرك ببصرك وبصيرتك وفكرك أنه خلق، وبعلمك وكشفك أنه حق مخلوق به ما ظهر لعينك ممّا ليس هو، فهذا عدم في عين وجود.

فانظر ما ألطف هذا الإدراك مع كون الحسّ محلاً لظهوره على تقييده وكثافته وقصوره، فما ظنك بما هو الأمر عليه بالنسبة إلى جناب الحق، فسبحان من يكلم نفسه بنفسه في أعيان خلقه كما قال: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] وأن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فهو المتكلم. والقائل: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦] حقّق يا أخي نظرك في سرعة البرق إذا برق، فإن برق البرق إذا برق كان سبباً لانصباغ الهواء به، وانصباغ الهواء به سبب لظهور أعيان المحسوسات به، وظهور أعيان المحسوسات به سبب في تعلّق إدراك الأبصار بها، والزمان في ذلك واحد مع تعقلك تقدّم كل سبب على مسببه، فزمان إضاءة البرق عين زمان انصباغ الهواء به، عين زمان ظهور المحسوسات به، عين زمان إدراك الأبصار ما ظهر منها، فسبحان من ضرب الأمثال ونصب الأشكال ليقول القائل: ثم وما ثم أو ما ثم وثم، فوعزّة من له العزّة والجلال والكبرياء ما ثمّ إلاَّ الله الواجب الوجود الواحد بذاته الكثير بأسمائه وأحكامه القادر على المحال، فكيف الإمكان والممكن وهما من حكمه؟ فوالله ما هو إلاَّ الله، فمنه وإليه يرجع الأمر كله، ولهذا سنّ الرمل ثلاثاً لا زائد ولا ناقص الواحد له والثالث لما ظهر والثاني بين الأوّل والثالث السبب لظهور ما ظهر عنه لا بدّ من ذلك، فإذا حققت ما رأيت رأيت أن ثم ما رأيت فخرج إدراك العقل للأمور

المعقولة على هذه الصورة مثلثة الشكل، وهي المقدّمات المركبة من الثلاثة لإنتاج المطلوب، وكذلك في الحسّ حسّ ومحسوس وتعلّق لحسّ بمحسوس لا يدري هل الحسّ تعلق بالمحسوس أو المحسوس انطبع في الحسّ، قصر العقل والله وخنس الفكر، وحار الوهم، وطمس الفهم، فالأمر عظيم، والخطب جسيم، والشرع نازل، والعقل قابل، والأمر نافذ، والحوادث تحدث، والقوى قائمة، والموازين موضوعة، والكلمات لا تنفد، والكائنات لا تبعد، وما ثم شيء مع هذا المعلوم المتعدّد، والعين واحدة، والأمر واحد، حارت الحيرة في نفسها إذ لم تجد من يحاربها، فالحيرة التي يتخيل أن العالم موصوف بها ليس كما تخيّلت بل ذلك حيرة الحيرة فما ثم إلاّ هو والحيرة، كلّت والله الألسنة عمّا علمته الأفئدة أن تعبر عن ذلك، وكلّت والله الأفئدة عن عقل ما هو الأمر عليه فلا تدري هل هي الحائرة أم لا؟ والحيرة موجودة، ولا يعرف لها محل تقوم به، فلمن هي موجودة؟ وفيمن ظهر حكمها؟ وما ثم إلاّ الله: [الطويل]

وما ثَمَّ إلاّ الله لا شيءَ غيرَهُ وما ثَمَّ كانت العينُ واحدَهْ
لذلك قلنا في الذواتِ بأنها وإن لم تكن لله بالله ساجِدَهْ

وصل في فصل منه: اختلف العلماء في أهل مكة هل عليهم رمل إذا حجّوا أو لا؟ فقال قوم: كل طواف قبل عرفة ممّا يوصل بسعي فإنه يرمل فيه. وقال قوم: باستحباب ذلك. وكان بعضهم لا يرى عليهم رملاً إذا طافوا بالبيت وهو مذهب ابن عمر على ما رواه مالك عنه، إذا كانت العلة ما ذكرناها آنفاً في الرمل تعين الرمل على أهل مكة وغيرهم، ولا سيما والأمر في نفسه أن الإنسان تحت حكم كل نفس، وكل نفس قادم، وكل قادم فهو طائف، وكل طواف قدوم فيه رمل، هكذا هي السنة فيه لمن أراد أن يتبعها، ومن جهل قدوم نفسه، وأن الإنسان في كل حال مخلوق، فهو قادم على الوجود من العدم لم ير عليه طوافاً فإنه من أهل هذه الصفة كما هم أهل مكة من مكة.

وصل في فصل ـ استلام الأركان: فقال قوم وهم الأكثرون باستلام الركنين فقط. وقال جابر: كنا نرى إذا طفنا أن نستلم الأركان كلها. وقال قوم من أهل السلف: باستحباب استلام الركنين في كل وتر من الأشواط وهو الأول والثالث والخامس والسابع، وأجمعوا على أن تقبيل الحجر الأسود خاصة من سنن الطواف، واختلفوا في تقبيل الركن اليماني الثاني. وأمّا الاستلام وهو لمس الركن باليد على نية البيعة فلا يكون إلاّ في ركن الحجر في الحجر خاصة لكون الحق جعله يميناً له فلمسه بطريق البيعة، ومن لم ير اللمس للبيعة ورآه للبركة استلم جميع الأركان، فإن لمسها والقرب منها كله بركة، وما يختص ركن الحجر إلاّ بالبيعة والمصافحة، وتقع المشاركة في البركة له مع سائر الأركان، ففيه كونه ركناً وزيادة، فمن راعى كونه ركناً أشرك في الاستلام معه الركن اليماني، والركن الثالث هو في الحجر غير معين إذ لا صورة له في البيت، والركن الشاميّ والعراقيّ ليسا بركنين للبيت الأول الموضوع، فلما لم يكونا بالوضع الأول الإلهيّ لم يكونا ركنين فخالف حكمهما حكم الركنين. ومن رأى أن الأفعال كلها من الله رأى أن الذي عين الركنين والركن الثالث في الحجر بالوضع الأول هو

الذي عيّن الأربعة الأركان بالوضع الثاني إذ لا واضع إلاَّ الله، فاستلم الأركان كلها من كونها أركاناً موضوعة بوضع إلهيّ، وفق الله من شاء من المخلوقين لإظهارها على أيديهم، ولكن لا دخول لهم من كونهم أركاناً في التقبيل والمصافحة، فينبغي للطائف إذا قبل الحجر وسجد عليه بجبهته كما جاءت السنّة وصافحه بلمسه إياه بيده أن يستلم ركنه حتى يكون قد استلم الأركان كلها، فإن لم يفعل فما استلم إلاَّ أن يرى أن الحجر الأسود من جملة أحجار الركن فيكون عين مصافحته استلامه.

وصل في فصل ـ الركوع بعد الطواف: [نظم: الخفيف]

طُفتُ بالبيت سبعةً وركعتُ بمقام الخليل ثم رجعتُ
لطوافي فطفتُ سبعاً وعدنا لمقام الخليل ثم ركعتُ
لم أزل بين ذا وذاك أنادي يا حبيب القلوب حتى سمعت
يا عُبَيْدي فقلت لبَّيْكَ ربي ها أنا ذا أجبتُ ثم أطعتُ
فأمروا بالذي تشاؤون مني إن بابَ القَبُول مني فتحتُ

أجمع العلماء على أنه من سنن الطواف ركعتان بعد انقضاء الطواف، وجمهورهم على أنه يأتي بهما بعد انقضاء كل أسبوع إن طاف أكثر من أسبوع، وأجاز بعضهم أن لا يفرّق بين الأسابيع ولا يفصل بينهما بركوع ثم يركع لكل أسبوع ركعتين، والذي أقول به أن الأولى أن يصلي عند انقضاء كل أسبوع، فإن جمع أسابيع فلا ينصرف إلاَّ عن وتر، فإن النبيّ ﷺ ما انصرف من الطواف إلاَّ عن وتر، فإنه انصرف عن سبعة أشواط أو عن طواف واحد، فإن زاد فينصرف عن ثلاثة أسابيع وهي أحد وعشرون شوطاً، ولا ينصرف عن أسبوعين فإنه شفع، وبالأشواط أربعة عشر شوطاً وهي شفع، فجاء بخلاف السنّة في طوافه من كل وجه.

فاعلم أن الطواف قد روي أنه صلاة أبيح فيها الكلام وإن لم يكن فيه ركوع ولا سجود كما سميت صلاة الجنائز صلاة شرعاً وما فيها ركوع ولا سجود، وأقل ما ينطلق عليه اسم صلاة ركعة وهي الوتر، وإذا انضاف إلى الطواف ركعتان كانت وتراً مثل المغرب التي توتر صلاة النهار، فأشبه الطواف مع الركعتين صلاة المغرب وهي فرض فأوتر الحق شفعية العبد، ولا يقال في الرابع من الأربعة أنه قد شفع وترية العبد، فإن العبد ما له وترية في عينه فإنه مركب وكل مركب فقير فيحتاج إلى وتر يستند إليه لا ينفرد بشفعية في نفسه، فلا يكون أبداً إلاَّ وتراً ثلاثة أو خمسة أو سبعة إلى ما لا يتناهى من الأفراد، فإن كان رابعاً أو سادساً فهو رابع ثلاثة لا رابع أربعة، وسادس خمسة لا سادس ستة، فهو واحد الأصل مضاف إلى وتر، فما نسبته إلاَّ لعينه إذ هو عين كل وتر لأنه بظهوره أبقى اسم الوترية على من أضيف إليه، فقيل: رابع ثلاثة لا رابع أربعة، ورابع الثلاثة لا يكون إلاَّ واحداً، فسواء ورد على وتر أو على شفع الحكم فيه واحد، فإنك تقول فيه: خامس أربعة، كما تقول: رابع ثلاثة، فما زالت الأحدية تصحبه في كل حال فهو مثل قوله: كان الله ولا شيء معه وهو الواحد وهو الآن على ما عليه كان، فأقام (الآن) مقام الأعداد والأعداد منها أشفاع، ومنها أوتار، فإذا أضفت الحق

إليها لم تجعله واحداً منها فتقول: ثالث اثنين ورابع ثلاثة إلى ما لا يتناهى، فتميز بذاته، فالذي ثبت له من الحكم ولا عالم ثبت له والعالم كائن فتلك الأحدية المطلقة له في حال وجود العالم وفي حال عدمه، فالطائف إن انفرد بالطواف كان وتراً وإن أضاف إليه الركعتين كان وتراً من حيث إنه صلاة يقوم مقام الركعة الواحدة، ومن ثم طوافه أشبه الصلاة الرباعية لوجود الثمان السجدات التي يتضمنها الأسبوع من السجود على الحجر عند تقبيله بالحسّ وهي ثمان تقبيلات في كل أسبوع عند الشروع فيه وفي كل شوط عند انقضائه، فمن أقام الطواف بهذا الاعتبار على الطريقين جوزي جزاء صلاة الفريضة الرباعية والثلاثية الجامعة للفرض والوتر الذي هو سنة أو واجب، فالأولى أن لا يؤخر الركعتين عن أسبوعهما وليصلهما عند انقضاء الأسبوع، فإن قرأ في الطواف كان كمن قرأ في الصلاة، ومن لم يقرأ فيه كان كمن يرى أن الصلاة تجزىء بلا قراءة.

واعلم أن هاتين الركعتين عقيب الطواف إنما ولدها فيك الطواف، فإن الطواف قام لك مقام الأفلاك التي هي السموات السبع لأنه شكل مستدير فلكيّ وكذلك الفلك، فلما أنشأت سبعة أدوار في الطواف أنشأت سبعة أفلاك أوحى الله في كل سماء أمرها من حيث لا يشعر بذلك إلاّ عارف بالله، فإذا أطلعك الله على ما أودع في هذه الأشواط الفلكية كنت طائفاً ثم إنه جعل حركات السموات التي هي الأفلاك مؤثرة في الأركان الأربعة لإيجاد ما يتولد منها، فأنت الأركان الأربعة لأنك مركب من أربعة أخلاط ومجموعهما هو عين ذاتك الحسيّة التي هي الجسم، فأنشأت فيك حركات هذه الأطواف السبعة الصلاة وهي المولدة من أركانك عنها وكانت ركعتان، لأن النشأة المولدة مركبة من اثنين جسم ونفس ناطقة وهو الحيوان الناطق، فالركعة الواحدة لحيوانيتك والثانية للنفس الناطقة، ولهذا جعل الله الصلاة نصفين: نصفاً له ونصفاً للعبد، وجعل الله لكل حركة دورية من هذا الأسبوع في الصلاة أثراً ليعرف أنها متولدة عنه، فظهر في الصلاة سبعة آثار جسمانية وسبعة آثار روحانية عن حركة كل شوط من أسبوع الطواف أثر، فإنه شكل باق وفلك معنويّ لا يراه إلاّ من يرى خلق الموجودات من الأعمال أعياناً، فالآثار الموجودة السبعة الجسمانية في نشأة الصلاة القيام الأوّل والركوع، والقيام الثاني وهو الرفع من الركوع والسجود والجلوس بين السجدتين والسجود الثاني والجلوس للتشهّد.

والأذكار التي في هذه الحركات الجسمانية سبعة هي أرواحها، فقامت نشأة الصلاة كاملة. ولما كان في النشأة الإنسانية أمر اختصّه الله وفضّله على سائر النشأة الإنسانية وجعله إماماً فيها وهو القلب، كذلك جعل في نشأة الصلاة أمراً هو أرفع ما في الصلاة وهو الحركة التي يقول فيها: سمع الله لمن حمده، فإن المصلي فيها نائب عن الله كالقلب نائب عن الله في تدبير الجسد وهو أشرف هيئات الصلاة، فإنه قيام عن خضوع عظمت فيه ربك في حضرة برزخية وهي أكمل النشآت لأنها بين سجود وقيام جامعة للطرفين والحقيقتين، فلها حكم القائم وحكم الساجد فجمعت بين الحكمين، وأثرها في القراءة في الصلاة أيضاً سباعيّ عن أثر كل شوط في الطواف وهي قراءة السبع المثاني أعني فاتحة الكتاب وسلطانها

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] فإنها برزخية بين الله وبين عبده فهي جامعة والسلطان جامع وما قبلها لله مخلص وما بعدها للعبد مخلص، وأعلى المقامات إثبات إله ومألوه، ورب ومربوب، فهو كمال الحضرة الإلهية، فما تمدّح إلاّ بنا، ولا شرفنا إلاّ به، فنحن به وله، وهي سبع آيات لا غير وهي القراءة الكافية في الصلاة، وكما أن العبد هو الذي أنشأ في ذاته الأشواط السبعة المستديرة الشكل الفلكية، وفي ذاته أثرت إيجاد الصلاة، وفي ذاته ظهرت الصلاة بكمالها، فلم يخرج عن ذاته شيء من ذلك كله، كذلك الأمر في ظهور الحق في الأعيان اكتسب من استعداد كل عين ظهر فيها ما حكم على الظاهر فيها والعين واحدة فقيل فيه طائف أعطاه هذا الاسم هذه الصورة التي أنشأها وهو الطواف، وقيل فيه مصلّ أعطاه هذا الحكم صورة الصلاة التي أنشأها في ذاته عن طوافه فهو هو وما ثم غيره: [مخلع البسيط]

فلو رأيتَ الذي رأينا ... وصفْتَهُ بالذي وصفْنَا
من أنه واحدٌ كثيرٌ ... بذا عرفناه إذ عرفْنَا
فنحنُ لا وهو ذو ظُهورٍ ... فالعين منه والنَّعْتُ منَّا

وقد ذكرنا في أوّل هذا الكتاب ما بقي في الحجر من البيت ولماذا أبقاه الله فيه، وبيّنا الحكمة الإلهية في ذلك من رفع التحجير والتجلّي الإلهيّ في الباب المفتوح لمن أراد الدخول إليه، وذلك هو بيت الله الصحيح، وما بقي منه بأيدي الحجبة بني شيبة وقع في باطنه التحجير لأنه في ملك محدث وهو الموجود المقيد فلا بدّ أن يفعل ما تعطيه ذاته. والحديث النبويّ في ذلك مشهور، والخلفاء والأمراء غفلوا عن مقتضى معنى قوله تعالىٰ حين مسك رسول الله ﷺ مفتاح البيت الذي أخذه من بني شيبة فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [سورة النساء: الآية ٥٨] فتخيّل الناس أن الأمانة هي سدانة البيت ولم تكن الأمانة إلاّ مفتاح البيت الذي هو ملك لبني شيبة، فردّ إليهم مفتاحهم وأبقى ﷺ عليهم ولاية السدانة، ولو شاء جعل في تلك المرتبة غيرهم.

وللإمام أن يفعل ذلك إذا رأى في فعله المصلحة، لكن الخلفاء لم يريدوا أن يؤخروا عن هذه الرتبة من قرّره رسول الله ﷺ فيها فهم مثل سائر ولاة المناصب إن أقاموا فيه الحق فلهم، وإن جاروا فعليهم، وللإمام النظر فبقي بيت الله عند العلماء بالله لا حكم لبني شيبة ولا لغيرهم فيه وهو ما بقي منه في الحجر، فمن دخله دخل البيت، ومن صلّى فيه صلّى في البيت، كذا قال ﷺ لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، ولا يحتاج العارفون لمنة بني شيبة، فإن الله قد كفاهم بما أخرج لهم منه في الحجر، فجناب الله أوسع أن يكون عليه سدنة من خلقه، ولا سيما من نفوس جبلت على الشحّ وحبّ الرياسة والتقدّم، ولقد وفق الله الحجاج رحمه الله لردّ البيت على ما كان عليه في زمان رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، فإن عبد الله بن الزبير غيره وأدخله في البيت، فأبى الله إلاّ ما هو الأمر عليه وجهلوا حكمة الله فيه، يقول علي بن الجهم: [الوافر]

وأبوابُ الملوك محجَّباتٌ وبابُ الله مبذولُ الفناءِ

وصل في فصل ـ وقت جواز الطواف: فمن قائل: بإجازة الطواف بعد صلاة الصبح والعصر، وبه أقول، وسبب ذلك أني رأيت رسول الله ﷺ في النوم وقد استقبل الكعبة وهو يقول: يا مالكي، أو قال: يا ساكني، الشك مني، هذا البيت لا تمنعوا أحداً طاف به وصلّى في أيّ وقت شاء من ليل أو نهار، فإن الله يخلق له من صلاته ملكاً يستغفر له إلى يوم القيامة، فمن ذلك الوقت قلت بإجازة الطواف في هذين الوقتين، وكنت قبل هذه الرؤيا عندي في ذلك وقفة، فإن حديث النسائيّ الذي يشبهه حديثنا رأيتهم قد توقفوا في الأخذ به، فلما رأيت هذه المبشرة ارتفع عني الإشكال وثبت به عندي حديث النسائيّ وحديث أبي ذر الغفاريّ والحمد لله. ومن قائل: بالمنع وقت الطلوع ووقت الغروب خاصة. ومن قائل: بالكراهة بعد العصر والصبح ومنعه عند الطلوع والغروب. ومن قائل: بإباحته في الأوقات كلها وهو قولنا إلاَّ أني أكره الدخول في الصلاة حال الطلوع وحال الغروب إلاَّ أن يكون قد أحرم بها قبل حال الطلوع والغروب.

تحرير ذلك: لا يخلو المصلي أن يكون قبلته موضع طلوع الشمس أو غروبها بحيث أن يستقبلها فهنالك أكره له ذلك، وأما إذا لم يكن في قبلته فلا بأس، وأما عند الكعبة فالحكم له يدور من حيث شاء لا يستقبل الشمس طالعة ولا غاربة، وقد فارق الكفار الذين يسجدون لها في الصورة الظاهرة في استقبالها وهو مفارق لهم في الباطن بلا شك ولا ريب سياق الحديثين، حديث النسائي: قال رسول الله ﷺ: «**يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لاَ تَمْنَعُوا أَحَداً طَافَ بِهٰذَا الْبَيْتِ وَصَلَّى فِي أَيِّ وَقْتٍ شَاءَ مِنْ لَيلٍ أَوْ نَهَارٍ**». وما خصّ حال طلوع ولا حال غروب، لأن العبد بشهود البيت متمكن أن لا يقصد استقبال مغرب ولا مشرق وليس كذلك في الآفاق، وما أحسن تحرّيه ﷺ في المصلّى إلى السترة أن لا يصمد إليها صمداً وليمل بها يميناً أو شمالاً قليلاً. حديث أبي ذر: قال قال رسول الله ﷺ: «**لاَ صَلاَةَ بَعْدَ الْعَصْرِ حَتَىٰ تَغْرُبَ الشَّمْسُ وَلاَ بَعْدَ الصُّبْحِ حَتَىٰ تَطْلَعَ الشَّمْسُ إِلاَّ بِمَكَّةَ إِلاَّ بِمَكَّةَ إِلاَّ بِمَكَّةَ**». وهذه الأحاديث تعضد رؤيانا.

واعلم أن الله متجلّ على الدوام لا تقيد تجليه الأوقات، والحجب إنما ترفع عن أبصارنا، قال تعالىٰ: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ [سورة ق: الآية ٢٢] وقال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] يعني المحتضر، قال إبراهيم الخليل؛ ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٦] وهو يحب الله بلا شك، فالله ليس بآفل، فتجليه دائم وتدليه لازم، والذي بين ذا وذا أنك اليوم نائم، فلا مانع لمن كان الحق مشهده، ولهذا لم يمنع في تلك الحالة من ذكر الله والجلوس بين يديه لانتظار الصلاة والدعاء فيه، وإنما منع السجود خاصة لكون الكفار يسجدون لها في ذلك الوقت، وهنا تنبيه على سرّ معقول وهو أنه من المحال أن يكون أثر الكفر أقوى من أثر الإيمان عندنا وعندهم حتى يمنع من ظهوره، وحكمه كما يظهر في هذا الأمر من كون سجود الكفار للشمس وهو كفر منع المؤمن من السجود لله، والمانع إبداله القوّة.

واعلم أن الأمر في ذلك خفيّ أخفاه الله إلاَّ عن العارفين، فإن الله بهذا المنع أبقى على

الكفار بعض حق إلهيّ بذلك القدر، وقع المنع وظهرت القوّة في الحكم بمنع المؤمن من السجود في ذلك الوقت لسجود الكفار للشمس وذلك أن الله يقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] وكذلك فعلوا فإنهم ما عبدوا الشمس إلاّ لتخيلهم أنها إله فما سجدوا إلاّ لله لا لعين الشمس بل لعين حكمهم فيها أنها الله. ولقد أضافني واحد من علمائهم فأخذت معه في عبادتهم الشمس وسجودهم لها فقال لي: ما ثم إلاّ الله وهذه الشمس أقرب نسبة إلى الله لما جعل الله فيها من النور والمنافع، فنحن نعظمها لما عظمها الله بما جعل لها، ثم نرجع ونقول: فلما علم الحق أنهم ما عبدوا سواه وإن أخطؤوا في النسبة، والمؤمن لا يعبد إلاّ الله فأشبه الكافر في إيمانه بالله، فكان الأمر مثل الشرع الإلهيّ ينسخ بعضه بعضاً، فما أثر الكفر هنا في الإيمان ولا كان أقوى منه، بل لما كان الأمر كما ذكرنا فيما كان في الكافر من اعتقاده الإله كان ذا حق، ومن نسبة الألوهة للشمس كان كافراً فراعى الحق المعنى الذي قصدوه، فمن هنالك ثبت لهم التخصيص بالسجود دون المؤمنين، والنسخ لسجود المؤمنين في ذلك الوقت لله فهو أثر إيمان في إيمان لا أثر كفر في إيمان.

وصل في فصل ـ الطواف بغير طهارة: فمن قائل: لا يجوز طواف بغير طهارة لا عمداً ولا سهواً. ومن قائل: يجزىء ويستحب له الإعادة وعليه دم لأنهم أجمعوا على أن الطهارة من سنّة الطواف. ومن قائل: إذا طاف على غير وضوء أجزأه طوافه إن كان لا يعلم ولا يجزئه إن كان يعلم، وبعضهم يشترط طهارة الثوب للطائف كاشتراطه للمصلي، والذي أقول به أنه يجوز الطواف بغير وضوء للرجل والمرأة إلاّ أن تكون حائضاً فإنها لا تطوف وإن طافت لا يجزئها وهي عاصية لورود النص في ذلك، وما ورد شرع بالطهارة للطواف إلاّ ما ورد في الحائض خاصة، وما كل عبادة تشترط فيها هذه الطهارة الظاهرة.

اعلم أنه ما في الوجود حال ليس فيه لله وجه يحفظ عليه وجوده من كل قائم بنفسه بذلك الوجه الإلهيّ طهارته، فما في الوجود بحكم الحقيقة إلاّ طاهر، فإن الاسم القدّوس يصحب الموجودات وبه يثبت قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] من تفريقكم بين الله وبين عباده. ولا ينبغي أن يحال بين العبد وبين سيده، ولا يدخل بين العبد والسيد إلاّ بخير.

لقيت بعض السياح على ساحل البحر بين مرسى لقيط والمنارة فقال لي: إني لقيت بهذا الموضع شخصاً من الأبدال مصادفة وهو ماش على موج البحر فسلمت عليه فردّ عليّ السلام وكان في البلاد ظلم عظيم وجور فقلت له: يا هذا أما ترى إلى ما في البلاد من الجور؟ فنظر إليّ مغضباً وقال لي: ما لك وعباد الله لا تقل إلاّ خيراً. ولهذا شرع الله الشفاعة وقبل العذر. ولا شك أن النجاسة أمر عرضيّ عيّنه حكم شرعيّ، والطهارة أمر ذاتيّ، فإن ظهر حكم العرض في وقت ما كمانع الحيض من الطواف فمرجع الأمر إلى ما تقتضيه الذات من الطهارة أيكذب المؤمن؟ قال: لا أنباء صحيح فإن الكاذب لا يكون صادقاً فيما هو فيه كاذب فافهم،

والحيض كذب النفس بالاتفاق والطواف حالة إيمان، فالحائض لا تطوف كما نقول في إمامة الفاسق إنها لا تجوز إمامته في حال فسقه بلا خلاف فإنه من كان فاسقاً في حال فسقه ثم توضأ شرعاً وأحرم بالصلاة إماماً فهو في طاعة لله، ولا يجوز لنا أن نطلق عليه في تلك الحال فاسقاً فما صلينا خلف إمام فاسق، وكذا فعل عبد الله بن عمر الذي يحتجون به في الصلاة خلف الفاسق وأخطؤوا فإن الحجاج ليس بفاسق في حال أدائه ما أوجب الله عليه من طاعته في الصلاة، وهذه مسألة أغفلها الفقهاء ويخبطون فيها وما حصلوا على طائل، وقد بيّنا أنه ما تخلص قط من مؤمن معصية لا تشوبها طاعة أصلاً، والطاعة قد تخلص فلا تشوبها معصية، فما من معصية إلاً والإيمان يصحبها من المؤمن أنها معصية يحرم عليه فعلها، والإيمان بكونها معصية طاعة لله، فالحجاج أو غيره في حال فسقه مؤمن مطيع بإيمانه، فضعفت معصيته أن تقاوم طاعته وفي حال صلاته أو طاعته في فعل ما من أفعاله فليس بفاسق بل هو مطيع، فرجح من طمس الله على قلبه الفسق على الإيمان والطاعة مع ضعف الفسوق عن الطاعة بما شابها من الإيمان بكون ذلك الفعل فسوقاً فقالوا: لا تجوز إمامة الفاسق بغير المعنى الذي ذكرناه، فلو قاله الرسول ﷺ أو الله تعالىٰ لكان الوجه فيه ما قلناه، فغاية درجة الفاسق في حال فسقه المسلم أن يكون ممّن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وفي حال طاعته فليس بفاسق، وأعجب ما في هذه المسألة أنا مأمورون بحسن الظنّ بالناس منهيون عن سوء الظنّ بعبادي، وقد رأينا من علمنا أنه فسق قد توضأ وصلّى فلماذا نطبق عليه اسم الفسوق في حال عبادته؟ وأين حسن الظن من سوء الظن به والمستقبل فلا علم لنا به فيه والماضي لا ندري ما فعل الله فيه، والحكم لوقت الطاعة التي هو عليها متلبس بها، فحسن الظن أولى بالعبد إذا كان ولا بدّ من الفضول.

ولقد أخبرني من أثق به في دينه عن رجل فقيه إمام متكلم مسرف على نفسه قال لي: دخلت عليه في مجلس يدار فيه الخمر وهو يشرب مع الجماعة ففرغ النبيذ فقيل له: نفذ إلى فلان يجيء إلينا بنبيذ، فقال: لا أفعل فإني ما أصررت على معصية قط، وإن لي بين الكأسين توبة ولا أنتظره، فإذا حصل في يدي أنظر هل يوفقني ربي فأتركه أو يخذلني فأشربه، فهكذا هم العلماء رحمه الله، مات هذا العالم وفي قلبه حسرة من كونه لم يلقني، واجتمعت به وما عرفني، وسألني عني وكان بالأشواق إليّ رحمه الله، وذلك بمرسية سنة خمس وتسعين وخمسمائة، ولقد أشهدني الحق في سرّي في واقعة وقال لي: بلغ عبادي ما عاينته من كرمي بالمؤمن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسيئة بمثلها، والسيئة لا يقاوم فعلها الإيمان بها أنها سيئة، فما لعبادي يقنطون من رحمتي ورحمتي وسعت كل شيء وأنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي خيراً.

وصل في فصل ـ أعداد الطواف وهي ثلاثة: القدوم والإفاضة والوداع: طواف القدوم يقابل طواف الوداع، فهو كالاسم الأوّل والآخر ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٩] وانتهت دورة الملك وطواف الإفاضة ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٠، ٢١] يخرج طواف القدوم لؤلؤ المعارف في المناسك وطواف الوداع المرجان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فلطواف الزيارة وجه إلى طواف القدوم فقد يجزىء عنه، ووجه إلى طواف الوداع فقد يجزىء عنه، وقد قال العلماء بالقولين جميعاً، وسيأتي ذكرها في هذا الفصل إن شاء الله، وقد تقدّم الاعتبار في الطواف وما ينشأ منه، فطواف القادم كالعقل إذا أقبل على الله بالاستفادة، وطواف الوداع إذا أراد الخروج إلى النفس بالإفادة كالرسول ﷺ يقبل على الروح الأمين عندما يلقي إليه من الوحي الإلهيّ، ثم الرسول يلقي إلى الخلق عند مفارقة الروح لتبليغ الرسالة، فالرسول بين طواف قدوم ووداع، وما بينهما طواف زيارة، وكانت ثلاثة أطواف لما قرّرناه أن ظهور العلوم لا يكون إلاّ عن ثلاث مراتب فكرية كانت أو وهبية، وقد بيّنا لك أن البرزخ أبداً هو أقوى في الحكم لجمعه بين الطرفين، فيتصوّر بأيّ صورة شاء، ويقوم في حكم أيّ طرف أراد، ويجزىء عنهما فله الاقتدار التامّ، ويظهر سرّ ما قلنا في حكم ظاهر الشرع فيه. فمن ذلك أنهم أجمعوا على أن الواجب من هذه الأطواف الثلاثة الذي بفوته يفوت الحج هو طواف الإفاضة، فإن المعرّف إذا قدم مكة بعد الرمي وطواف الإفاضة أجزأه عن طواف القدوم وصحّ حجّه، وأن المودّع إذا طاف في زعمه طواف الوداع ولم يكن طاف طواف الإفاضة كان ذلك الطواف طواف إفاضة أجزأ عن طواف الوداع لأنه طواف بالبيت معمول به في وقت طواف الوجوب الذي هو الإفاضة، فقبله الله طواف إفاضة وأجزأ عن طواف الوداع، كما ذكرنا فيمن صام في رمضان متطوّعاً أن وجوب رمضان يردّه واجباً لحكم الوقت ولم تؤثر فيه النية، وجمهور العلماء على أنه لا يجزىء طواف القدوم على مكة عن طواف الإفاضة، كأنهم رأوا أن الواجب إنما هو طواف واحد، قال بعضهم: أجمعوا على أن طواف القدوم والوداع من سنة الحاج إلاّ لخائف فوات الحج فإنه يجزىء عنه طواف الإفاضة، واستحب بعض العلماء لمن جعل طواف الإفاضة يجزىء عن طواف القدوم أن يرمل فيه، وأمّا المكيّ فما عليه سوى طواف واحد، وأما المتمتع فإن لم يكن قارناً فعليه طوافان، وإن كان قارناً فطواف واحد هذا عندي، وقال قوم على القارن طوافان. انتهى الجزء السابع والستون.

(الجزء الثامن والستون)

بسم الله الرحمٰن الرحيم

وصل في فصل ـ حكم السعي: فمن قائل: إنه واجب إن لم يسع كان عليه الحج. ومن قائل: إنه سنّة فإن رجع إلى بلده ولم يسع فعليه دم. ومن قائل: أنه تطوّع ولا شيء على تاركه لما كان الكمال غير محجور على النساء، وإن كانت المرأة أنقص درجة من الرجل فتلك درجة الإيجاد لأنها وجدت عنه وذلك لا يقدح في الكمال، فإن الرجل الذي هو آدم نسبته إلى ما خلق منه وهو التراب نسبة حوّاء إليه، ولم تمنع هذه النسبة الترابية لآدم عن الكمال الذي

شهد له به، وقد شهد رسول الله ﷺ بالكمال لمريم وآسية، فلما اعتبر الله هذا في المرأة جعل لها أصلاً في التشريع من حيث لم تقصد، فطافت بين الصفا والمروة هاجر أم إسماعيل عليه السلام وهرولت في بطن الوادي سبع مرات تنظر إلى من يقبل من أجل الماء لعطش قام بابنها إسماعيل فخافت عليه من الهلاك والحديث مشهور، فجعلها الله أعني جعل فعل هاجر من السعي بين الصفا والمروة وقرّره شرعاً من مناسك الحج، فمن رآه واجباً عظم فيه الحرمة ولم ير أنه يصحّ الحج بتركه، كذلك الخواطر النفسية إذا أثرت الشفقة والسعي في حق الغير أثر القبول في الجناب الإلهيّ فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [سورة الفجر: ٢٧، ٢٨] الذي خرجت منه إلى تدبير هذا البدن بالنفخ الإلهيّ، لأن الرجوع لا يكون إلاّ لحال خرج منه وإلاّ فما هو رجوع، فإنه ما قال لها أقبلي وإنما قال لها ارجعي، ولا يكون الأمر إلاّ كذلك، فرجعوها كما لها لما قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[سورة الجمعة: الآية ٩] فوجب السعي لنداء الحق بالواسطة، فكيف وقد نادى الحق عباده في كتابه المنزّل علينا فقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] فوجب السعي، غير أن الشريعة التي شرع الله في السعي إلى الجمعة أن يكون بالسكينة والوقار كالسعي في الإفاضة من عرفات إلى المزدلفة بالسكينة، فإن النبيّ ﷺ كان يقول للناس لما رآهم أسرعوا في الإفاضة من عرفات التي هي موقف حصول المعرفة بالله، فلما أفاضوا عن أمره إلى المزدلفة وهو مقام القربة والاجتماع بالمعروف فيها وهو تجلٍ خاص منه لقلوب عباده ولهذا سميت جمعاً، ومزدلفة من الزلفى وهو القرب فقال لهم رسول الله: السكينة السكينة، كما قال في السعي إلى الجمعة: لا تأتوها وأنتم تسعون أي مسرعون في السعي وائتوها وعليكم السكينة في سعيكم والوقار، فاجتمعت الجمعة وجمع في هذه الحقيقة الجمعية به تعالىٰ في المقامين، وقوله: والوقار سعي في سكون وتهد مشي المثقل لأنه من الوقر وهو الثقل، فإن المعرفة بالله تعطي ذلك فإنه من عرفه شاهده ومن شاهده لم يغب، فإذا دعاه من مقام إلى مقام فهو لا يسرع إلاّ من أجله وهو مشاهد له فإنه به يسعى فيمشي على ترسل مشي المثقل، فهذا معنى الوقار، فإنه لا يكون السكون في الأشياء إلاّ عن هيبة وتعظيم لا عن إعياء وتعب، فإن السعي بالله لا تعب فيه ولا نصب.

وصل في فصل ـ صفة السعي: قال جمهور علماء الشريعة: إن من سنّة السعي بين الصفا والمروة أن يدعو إذا رقي في الصفا مستقبل البيت ثم ينحدر فإذا وصل إلى الميل الأخضر وهو بطن الوادي رمل إلى أن يصل إلى الميل الثاني الأخضر وذلك كان حد الصعود إلى المروة وحد سعة الوادي، وإنما اليوم قد ارتدم بما جاءت به السيول، ولهذا جعل من جعل الميلين علامة لبطن الوادي ليكون حد الرمل المشروع في السعي، ثم يسعى من غير إسراع إذا جاز الميل الثاني على صورة ما انحدر من الصفا، فإذا وصل إلى المروة فعل في المروة مثل ما فعل في الصفا، ثم رجع يطلب الصفا من المروة فيكون حاله مثل الحال الأول في الرمل والهدوّ حتى يكمل سبع مرّات، وإنما يبدأ بالصفا لأن الله تهمّم بها في الذكر فبدأ

بها، وقال رسول الله ﷺ: «**أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ**» فبدأ بالصفا واقترأ الآية ثم دعا بعدها وختم بالمروة لما كان الأول نظير الآخر وكان حكمهما على السواء ختم بها لأن بها تكمل السبعة، لأن الشيء المقابل هو من مقابله على خط السواء كما قال ﷺ: «**لاَ تَسْتَقْبِلُوا الْقِبْلَةَ وَلاَ تَسْتَدْبِرُوهَا**» لأن استقبال الشيء واستدباره على خط واحد.

وكذلك لما سكت إبليس في إتيانه العبد للإغواء عن الفوقية سكت عن التحت لأنه على خط استواء مع الفوق، لأنه لعنه الله رأى نزول الأنوار على العبد من فوقه فخاف من الاحتراق فلم يتعرّض في إتيانه إلى الفوق، ورأى التحت على خط استواء من الفوق وأن ذلك النور يتصل بالتحت للاستواء لم يأت من التحت والعلة واحدة. وقال عطاء: إن جهل فبدأ بالمروة أجزأ عنه. وقال بعضهم: إن بدأ بالمروة ألغى ذلك الشوط.

وقد ذكرنا في حديث جابر المتقدم ما يدعو به إذا رقى على الصفا والمروة من فعله ﷺ كان على الصفا أساف وعلى المروة نائلة فلا يغفلها الساعي بين الصفا والمروة، فعندما يرقى في الصفا يعتبر اسمه من الأسف وهو حزنه على ما فاته من تضييع حقوق الله تعالىٰ عليه، ولهذا يستقبل البيت بالدعاء والذكر ليذكره ذلك فيظهر عليه الحزن، فإذا وصل إلى المروة وهو موضع نائلة يأخذه من النيل وهو العطية فيحصل نائلة الأسف أي أجره ويفعل ذلك في السبعة الأشواط لأن الله أمتنّ عليه بسبع صفات ليتصرّف بها ويصرفها في أداء حقوق الله لا يضيع منها شيئاً فيأسف على ذلك فيجعل الله له أجره في اعتبار نائلة بالمروة إلى أن يفرغ، ثم أنه يرمل بين الميلين وهو بطن الوادي وبطون الأودية مساكن الشياطين ولهذا تكره الصلاة فيها، وقد ورد عن النبيّ ﷺ لما نام في بطن الوادي عن وقت صلاة الصبح قال: «**ارْتَفِعُوا فَإِنَّهُ وَادٍ بِهِ شَيْطَانٌ**» فإن فيه إصابتهم الفتنة فيرمل في بطن الوادي ليخلص معجلاً من الصفة الشيطانية والتخلص من صحبته فيها إذ كانت مقرّه كما يفعل في بطن محسر بمنى يسرع في الخروج منه لأنه واد من أودية النار التي خلق الشيطان منها، وكذلك الإسراع في بطن عرفة وهو وادي عرفة وهو موضع وقوف إبليس يوم عرفة بما وصفه الله فيه في ذلك اليوم من الذلة والصغار والبكاء لما يرى من رحمة الله وعفوه وحط خطايا الحاج من عباده.

ثم إن السعي في هذا الموضع جمع الثلاثة الأحوال وهو الانحدار والترقي والاستواء وما ثم رابع، فحاز درجة الكمال في هذه العبادة أعطى ذلك الموضع وهو في كل حال منها سالك، فانحداره إلى الله وصعوده إلى الله واستواؤه مع الله، وهو في كل ذلك بالله لأنه عن أمر الله في الله، فالساعي بين الصفا والمروة من الله إلى الله مع الله بالله في الله عن أمر الله، فهو في كل حال مع الله لله، والصفا والمروة صفة جمادية مناسبة للحجارة التي ظهر بترتيبها شكل البيت المخصوص، فإنها بذلك الشكل أعطت اسم البيت، ولولا ذلك لم يوجد اسم البيت، وقد بيّنا لك أن الجمادات هي أعرف بالله وأعبد لله من سائر المولدات، وأنها خلقت في المعرفة لا عقل لها ولا شهوة ولا تصرّف إلاّ إن صرّفت فهي مصرّفة بغيرها لا بنفسها، ولا مصرّف إلاّ الله فهي مصرّفة بتصريف الله، والنبات وإن خلق في المعرفة مثلها فإنه نزل عن

درجتها بالنموّ وطلب الرفعة عليها بنفسه حين كان من أهل التغذي وهو يعطي النموّ، وطلب الارتفاع والجماد ليس كذلك ليس له العلوّ في الحركة الطبيعية، لكن إذا رقى به إلى العلوّ وترك مع طبعه طلب السفل وهو حقيقة العبودية، والعلوّ نعت إلهيّ فإنه هو العليّ، فالحجر يهرب من مزاحمة الربوبية في العلوّ فيهبط من خشية الله، وبهذا أخبر الله عنه فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ لما ذكر الحجارة ﴿لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٤] فجعل هبوط الطبيعي من خشية فهو منشأ من الخشية لله والشهود له ذاتيّ و﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٨] به فمن خشي فقد علم من يخشى، وهذا هومذهب سهل بن عبد الله التستري، فلا أعلى في الإنسان من الصفة الجمادية، ثم بعدها النباتية، ثم بعدها الحيوانية، وهي أعظم تصريف في الجهات من النبات، ثم الإنسان الذي ادّعى الألوهة، فعلى قدر ما ارتفع عن درجة الجماد حصل له من تلك الرفعة صورة إلهية خرج بها عن أصله، فالحجارة عبيد محققون ما خرجوا عن أصولهم في نشأتهم، ثم إن الله جعل هذه الأحجار محلاً لإظهار المياه التي هي أصل حياة كل حيّ في العالم الطبيعيّ وهي معادن الحياة، وبالعلم يحيى الإنسان الميت بالجهل، فجمعت الأحجار بالخشية، وتفجر الأنهار منها بين العلم والحياة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٤] مع اتصافها بالقساوة وذلك لقوّتها في مقام العبودية، فلا تتزلزل عن ذاتها لأنها لا تحب مفارقة موطنها لما لها فيه من العلم والحياة اللتين هما من أشرف الصفات، فنال الساعي من الصفا إلى المروة وهما الحجارة ما تعطيه حقيقة الحجارة من الخشية والحياة والعلم بالله والثبات في مقامهم ذلك، فمن سعى ووجد مثل هذه الصفات في نفسه حال سعيه فقد سعى وحصل نتيجة سعيه فانصرف من مسعاه حيّ القلب بالله ذا خشية من الله عالماً بقدره وبماله ولله، وإن لم يكن كذلك فما سعى بين الصفا والمروة.

وصل في فصل ـ شروطه: اتفق العلماء أن من شرطه الطهارة من الحيض، فأمّا الطهارة من الحدث فكلهم قالوا: ليس من شرطه الطهارة من الحدث إلاّ الحسن.

فاعلم أنه لما قرّرنا في فصل السعي ما قرّرنا وفي اعتباره الحجارة من حكم الصفا والمروة لذلك اتفقوا أنه لا يشترط الطهارة من الحدث في هذا النسك لأنه عبد محض فيها، ولم تصحّ له هذه العبودة إلاّ بحدثه، فلولا حدثه ما صحّت عبوديته، فإذا تطهر من حدثه خرج عن حقيقته وادّعى المشاركة في الربوبية بقدر ما خرج، فإن كان طهراً عامّاً كالغسل كان أبعد له من حقيقته، وإن كان طهراً خاصاً كالوضوء فهو أقرب والأخذ بالمناسب أتم في الحقائق. وأمّا من يرى الطهارة في هذا النسك فإنه يقول: لا بدّ لكل موجود حيّ من نسبة فعل إليه على أيّ وجه كان، ولا أكثر محدث بقي على أصله أتم من الحجارة، ومع هذا فإن الله وصفها بالخشية وهو فعل نسب إليها أي قيل إنها تخشى، فينبغي أن تتطهر من هذه النسبة لا من الخشية لتكون الخشية من الله فيها، وكذلك التشقق نسب إليها لخروج المياه فلا بدّ من التطهير من هذه النسب، ولهذا نزع الحسن إلى اشتراط الطهارة في هذا الشك وهو حسن مثل

اسمه أي هو مذهب حسن، فإن النبيّ ﷺ كره أن يذكر الله إلاّ على طهر أو قال: طهارة، ولا بدّ فيه من ذكر الله، فالقول بالطهارة أولى، والحسن عندنا من أئمة طريق الله جلّ جلاله، ومن أهل الأسرار والإشارات.

وصل في فصل ـ ترتيبه: اتفق العلماء أن السعي ما يكون إلاّ بعد الطواف بالبيت، وأنه من سعى قبل الطواف يرجع فيطوف وإن خرج عن مكة، فإن جهل ذلك حتى أصاب النساء في العمرة أو في الحج كان عليه حج قابل والهدي أو عمرة أخرى. وقال بعضهم: لا شيء عليه. وقال بعضهم: إن خرج عن مكة فليس عليه أن يعود وعليه دم وبه أقول.

اعلم أن الله لما دعانا ما دعانا إلاّ أن نقصد البيت فلا ينبغي أن نبدأ إذا وصلنا إليه بغير ما دعانا إليه، ولا نفعل شيئاً حتى نطوف به، فإذا قصدناه بالصفة التي أمرنا بها حينئذ تصرّفنا بعد ذلك على حدّ ما رسم لنا في سائر المناسك إن كنا عبيد اضطرار ووفينا بمقامنا من العبودية، وهكذا فعل المشرّع ﷺ الذي قال لنا: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**» وقال الله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١] وقال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] وقال: «**مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّي**». فأبان بفعله ﷺ عن مراد الله منّا في هذه العبادة هذا هو التحقيق، فإن اتسع العبد إدلالاً بالدال اليابسة وهو عندنا خروج عن الإذلال بالذال المعجمة من الذلة لما خلقه الله على الصورة وهي تقتضي العزّة أراد أن يكون له في الفعل اختيار، وبهذه الإرادة كلف ليصحّ ظهوره بالصورة إذا اختار لأنه علم أنه لا بدّ لها من الحكم في موطن ما فقدّم السعي وقال: وإن دعانا إلى بيته فلا بدّ من الوصول إليه والطواف به فإنه ما حجرعلينا أن لا نمرّ بغير البيت في طريقنا، فلو حجر وقفنا عند تحجيره، فدلّ سكوته على ذلك أنه خيّرنا، إذ لا بدّ من الطواف بالبيت لأنه أمرنا بذلك فقال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [سورة الحج: الآية ٢٩] فجعلنا الحكم في تقديم السعي لمكان خلقنا على الصورة ليكون لها حكم الاختيار، والاختبار ووفاء بمقامها ومراعاة له، فإنه يقول عن نفسه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [سورة القصص: الآية ٦٨] ونحن على الصورة، فلا بدّ من هذه الحقيقة أن يكون لها أثر، ومع هذا فالأولى أن نصرف اختيار الصورة منه في غير هذا الموطن لما تقدم من بيان الشارع الذي هو العبد المحقق محمد ﷺ، فلم يقدم السعي على الطواف ولا المروة على الصفا في السعي، وقال الله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١] ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٤]فلم يذم أدباً معنا لنتعلم بل نزّه نفسه بالغنى عمّا دعاهم إليه، وأنهم إن أجابوا لذلك فإن الخير الذي فيه عليهم يرجع والله غنيّ عنه، وبهذا وجد رخصة من قدم السعي ثم أتبعه بالحميد أي هو أهل الثناء بالمحامد في الأولى والآخرة، فله الحمد على كل حال، سواء تحرّكت يا هذا بالصورة فاخترت لما تعطيه قوّة الصورة أو تحرّكت عبداً مضطرّاً، فإن الحمد لله في كل ذلك، يقول الله بالحال: لولا صورتي ما اخترت ولم تكن مختاراً فصورتي هي التي كانت لها الخيرة لا لك إقامة عذر للعبد، وهذا من كرم الله فلا حرج، فلهذا لم يعلق به الذم ولا تعرّض لذكره

في عدم الاقتداء والتأسي برسوله ﷺ فإنه ما حجر كما قلنا، وهذا تنبيه من الله غريب في الموقع حيث لم يذم ولا حمد بل جعله مسكوتاً عنه.

وصل في فصل ـ ما يفعله الحاج في يوم التروية إذا كان طريقه على منى: يوم التروية هو يوم الخروج إلى منى في اليوم الثامن من ذي الحجة والمبيت فيه ويصلي به الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر من اليوم التاسع الذي هو يوم عرفة تأسّياً برسول الله ﷺ، وأجمع العلماء على أن ذلك ليس بشرط في صحة الحج، فإذا أصبح يوم عرفة غدا إلى عرفة ووقف بها لما وصل الحاج إلى البيت ونال من العلم بالله ما نال، ونال في المبايعة والمصافحة ليمين الله تعالىٰ ما يجده أهل الله في ذلك، وحصل من المعارف الإلهية وطوافه بالبيت وسعيه وصلاته بمنى، أراد الله أن يميز له ما بين العلم الذي حصل له في الموضع المحرّم وبين المعرفة الإلهية التي يعطيه الله في الحل وهو عرفة، فإن معرفة الحل تعطي رفع التحجير عن العبد وهو في حال إحرامه محجور عليه لأنه محرم بالحج، فيجمع في عرفة بين معرفته بالله من حيث ما هو محرم، وبين معرفة الله من حيث ما هو في الحل، لأن معرفة الله في الحرم وهو محرم معرفة مناسبة النظير، فإنه بالإحرام محجور عليه وبالحرم محجور عليه، وهذا خلاف حكم عرفة، فإنه محرم في حل فهو في عرفة أبعد مناسبة وأشد مشقة لأنه تقابل ضد وتمييز، فإنه لم يحرم الحل بإحرام الحاج، ولم يحل الحاج من إحرام بإحلال الموضع، فلم يؤثر أحدهما في الآخر، فتميز العبد بالحجر لبقائه على إحرامه ليس فيه من الحق المختار شيء، وتميز الحق بالحل أنه غير محجور عليه فهو يفعل ما يريد لما يتوهمه الوهم بدليل العقل أن الحق يحكم على الفعل منه علمه به فما يبدل، وهذا نقيض الاختيار، فأشبه المحجور عليه فيحصل له في عرفة في الحل معرفة إزالة هذا التحجير الذي أثبته الوهم بدليل العقل، فإنه في هذا الموطن من العلم بالله ساوى الوهم العقل، فحجر على الله وجعلاه تحت حكم علمه في الشيء في مذهب من يرى أن العلم صفة زائدة على ذاته قائمة به تحكم على ذاته بحسب ما تعلقت به، فمن قال: إن علمه ذاته لا يلزمه هذا، وهذه معرفة بالله بديعة عجيبة لا يعرف قدرها إلاّ من عرفها، فلما أراد الحاج حصول هذه المعرفة مرّ في طريقه بمنى وهو موضع الحج الأكبر وأراد أن يذوق طعمه قبل الوقوف بعرفة إذ كان مرجعه إليه يوم النحر وهو يوم الحج الأكبر، فإنه في ذلك الزمان الأوّل يجتمع فيه من وقف بعرفة، وسن وقف بالمزدلفة فكان معظم الحاج بمنى فصلّى بها وبات ليذوق ذلك في حكم النهار وحكم الليل، فيحصل بين الأمر النهاريّ والتجلّي الليليّ، وما يحصل في أوقات الصلوات من الأمر الخاص في هذا الموطن حتى يرى إذا رجع إليها بعد الوقوف هل يتساوى الذوق في ذلك أو يتغير عليه الحال لتأثير عرفة والمزدلفة فيه، فكان مبيته وقعوده بمنى حالة اختيار وتمحيص ليكون من ذلك على علم في المآل، بخلاف المعرّف فإنه لا يحصل له ذلك، فلا يعرف هل يتغير حكم منى بعد عرفة عن حكمه قبل عرفة أم لا؟ فهذا كان سبب ذلك.

وصل في فصل ـ الوقوف بعرفة: أمّا الوقوف بعرفة فإنهم أجمعوا على أنه ركن من

أركان الحج، وأن من فاته فعليه الحج من قابل والهدي في قول أكثرهم، ونحن لا نقول بالهدي لمن فاته فإنه ليس بمتمتع لأنه ما حج مع عمرته في سنة واحدة، والسنة في يوم عرفة أن يدخلها قبل الزوال، فإذا زالت الشمس خطب الإمام الناس ثم جمع بين الظهر والعصر في أول وقت الظهر ثم وقف حتى تغيب الشمس، هكذا فعل رسول الله ﷺ، وإمامة الحج هي للسلطان الأعظم لا خلاف بينهم في ذلك، وأنه يصلي وراءه برّاً كان أو فاجراً، وقد قدمنا أنه برّ في وقت صلاته فما صليت إلاَّ خلف برّ ولا كان إمامك إلاَّ برّاً، فلا فائدة للفجور والفسق الذي يذكره علماء الرسوم في هذه المسألة، وقد قدمنا الكلام فيها، وأنّ من السنّة علينا في ذلك اليوم أن نأتي إلى المسجد مع الإمام للصلاة، ويعتبر في ذلك المشي بالله مع الله إلى الله في بيت المعرفة لأنه مسجد في عرفة وهو مسجد عبودية، ولا يصحّ أن يكون المسجد إلاَّ موطن عبودية، لأن السجود هو التطاطي وهو نزول من أعلى إلى أسفل، وبه سمّي الساجد ساجداً لنزوله من قيامه، فيعطيه مسجد عرفة المعرفة بنفسه ليكون له ذلك سلماً إلى معرفة ربه، فإنه من عرف نفسه عرف ربه الذي سجد له، والمعرفة تطلب في التعدّي أمراً واحداً فهو تعلّقه أي تعلّق علم العبد ومعرفته بأحدية الله خاصة، فلو لم يقل عرفة وقال ما يدل على العلم كما دلّ عرفة على العلم لم نجعل تعلّقه بالأحدية وكنّا نجعله بأمر آخر، فعلمنا أن الإنسان يطلب في معرفة نفسه شفعيتها من حيث أحديتها التي تمتاز بها معرفة أحدية الحق، إذ لا يعرف الواحد إلاَّ من هو واحد، فبأحديتك في شفيعتك عرفت أحديته تعالىٰ، فجاء في المعرفة باسم عرفة لأجل القصد بمعرفة أحدية الخالق لأنه لا أحدية له في غير الذات من المناسبات إلاَّ أحدية الخالق بمعنى الموجد، ولذلك تمدّح بها وجعلها فرقاناً بين من ادّعى الألوهية أو ادعيت فيه فقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٧] فلو وقعت المشاركة في الخلق لما صحّ أن يتخذها تمدّحاً ولا دليلاً مع الاشتراك في الدلالة هذا لا تصحّ، فيعلم قطعاً أن الخالق صفة أحدية لله لا تصح لأحد غير الله، فلهذا كانت معرفة الله في عرفة معرفة أحدية، إذ المعرفة هذا نعتها في اللسان الذي خوطبنا به من الله، فإذا عرفت هذا فقد عرفت.

وصل في فصل ـ الأذان: اعلم أن العلماء اختلفوا في وقت أذان المؤذن بعرفة الظهر والعصر، فقال بعضهم: يخطب الإمام حتى يمضي صدر من خطبته أو معظمها، ثم يؤذن المؤذن وهو يخطب. وقال قوم: يؤذن إذا أخذ في الخطبة الثانية. وقال قوم: إذا صعد الإمام المنبر أمر المؤذن بالأذان فأذن كالجمعة، فإذا فرغ المؤذن قام الإمام يخطب، وعلى هذا القول رأيت العمل اليوم وهو مذهب أبي حنيفة، والأول مذهب مالك والثاني قيل إنه مذهب الشافعيّ، وقد حكي عن مالك أنه قال كما قال أبو حنيفة، حكاه ابن نافع عن مالك، والحديث: **«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ ثُمَّ أَذَّنَ بِلالٌ ثُمَّ أَقَامَ وَجَمَعَ بَيْنَ الظُّهْرِ والْعَصْرِ وَلَمْ يَتَنَفَّلْ بَيْنَهُمَا»** حقيقة الأذان الإعلام لا الذكر، وقد يكون إعلاماً بذكر لذكر أيضاً فكله ذكر إلاَّ الحيعلتين فإنه نداء بأمر إلى عبادة معينة، فمن راعى الجمع في عين الفرق جعل لهما أذاناً واحداً وإقامتين، ومن راعى الفرق بين الظهر والعصر جعل في الجمع حكم التفرقة فقال بأذانين وإقامتين، ولهذا

وقع الخلاف، فقال قوم: بأذانين وإقامتين. وقال قوم: بأذان واحد وإقامتين، فمن راعى الصلاة جعله بعد الخطبة، ومن راعى سماع الخطبة جعله قبل الخطبة، ومن راعى كونه ذكر الله بصورة الأذان كالذي أمر أن يقول مثل ما يقول المؤذن على أنه ذاكر لله لا مؤذن، فإن القائل مثل المؤذن لا يقال فيه أنه مؤذن إنما هو ذاكر بصفة الأذان، فهذا يقول بالأذان في نفس الخطبة، ويكتفي بقرينة حال قصد الناس عرفة في ذلك اليوم ليس لهم شغل إلاّ الاهتمام بالأفعال التي تلزمهم في ذلك اليوم، فمنها استماع الخطبة والصلاة فأغنى عن الأذان الذي هو الإعلام، إلاّ أن يقصد إعلاماً بدخول وقت الصلاة لمن يجهل ذلك فيكون أذاناً بذكر، فإن الذكر في طريق الله لا يختص بالقول فقط، بل تصرّف العبد إذا رزق التوفيق في جميع حركاته لا يتحرك إلاّ في طاعة الله تعالىٰ من واجب أو مندوب إليه، ويسمّى ذلك ذكر الله أي لذكره في ذلك الفعل أنه لله بطريق القربة، سمّي ذكراً، قالت عائشة عن رسول الله ﷺ: «**أَنَّهُ كَانَ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ أَحْيَانِهِ**» فعمّت جميع أحواله في يقظة ونوم وحركة وسكون، تريد أنه ما تصرّف ولا كان في حال من الأحوال إلاّ في أمر مقرّب إلى الله لأنه جليس الذاكرين له، فجميع الطاعات كلها من فعل وترك إذا فعلت أو تركت لأجل الله فذلك من ذكر الله أي الله ذكر فيها، ومن أجله فعلت أو تركت على حكم ما شرع فيها، وهذا هو ذكر الموفقين من العلماء بالله.

وأجمع العلماء على أن الإمام لو لم يخطب يوم عرفة قبل الصلاة أن صلاته جائزة بخلاف الجمعة، فهذا فرق بين الجمعة وبين الصلاة في عرفة، هذا هو ما فعل النبيّ ﷺ وإنما خطب قبل الصلاة، كما أجمعوا على أن القراءة في هذه الصلاة سرّ لا جهر، بخلاف الجمعة فالخطيب في هذا اليوم مذكر الحق في قلب العبد وواعظه وجوارحه كالجماعة الحاضرين سماع تلك الخطبة، فهو يحرّضهم على طاعة الله، ويعرّفهم أن الله ما دعاهم إلى هذا الموطن للوقوف بين يديه إلاّ تذكرة لقيام الناس يوم القيامة لرب العالمين، ويعرّفهم أن الله يأتيهم في هذا اليوم، بخلاف إتيانه يوم القيامة فإن ذلك الإتيان إنما هو للفصل والقضاء وتميّز الفرق بعضها من بعض بسيماهم واليوم إتيانه للواقفين في هذا الموطن إتيان بمغفرة ورحمة وفضل وإنعام ينال ذلك الفضل الإلهيّ في هذا اليوم من هو أهله يعني المحرمين بالحج ومن ليس من أهله ممّن شاركهم في الوقوف والحضور في ذلك اليوم وليس بحاج، فحكمهم كالجليس مع القوم الذين لا يشقى جليسهم، قال تعالىٰ للملائكة في أهل مجالس الذكر فيمن جاء لحاجة له لا للذكر أنهم القوم لا يشقى جليسهم، فعمّتهم مغفرة الله ورضوانه، وضاعف الله للمحرمين من حيث أنهم أهل ذلك الموقف ما تستحقه الأهلية، هذا كله وأمثاله يشعر العبد به نفسه، كما ينبغي للخطيب أن يذكر الناس بمثل هذا الفضل الإلهيّ لتكون عبادتهم في ذلك اليوم شكراً لله تعالىٰ، وينسون ما هم فيه من الشعث والتعب في جنب ما حصل لهم من الله، ثم يقومون للصلاة بعد الفراغ من الخطبة فيصلون في ذلك الموطن صلاة من هو بعرفة في حال كونهم شعثاً غبراً عرايا من المخيط حاسرين عن رؤوسهم واقفين على أقدامهم بين يدي رب عظيم، فيصلون في ذلك اليوم جمعاً صلاة العارفين كما قلنا: [الوافر]

صلاةُ العارفين لها خُشوعٌ ومَسْكَنَةٌ وذلٌّ وافتقَارُ
وفاعِلُها وحيدٌ في شُهودٍ عليه في شهادته اضطرارُ

ولما كانت حالته في هذا اليوم خاصة به بينه وبين ربه في صلاته تعيّن عليه أن تكون قراءته سرّاً، وهو الذكر النفسيّ إشعاراً لتحققه بالحق في ذلك الموطن، فإنه إذا ذكره في نفسه والقرآن ذكر ذكره الحق في نفسه من حيث لا يشعر العبد بأن الله ذكره، فإن الله إذا ذكره في نفسه فذكره في حضرة أزلية لا حدوث فيها فكان للعبد بهذا الذكر قدم في الأزل حيث أحضره الحق في نفسه بالذكر، فإنه إذا ذكره في ملأ فقد ذكره في حضرة حدوث والحدوث صفة العبد، فما زاد منزلة بذلك إلاّ كونه ذكراً خاصاً وموطن عرفة عظيم، فكانت القراءة فيه في الصلاة نفسية لتحصل هذه المنزلة في ذلك اليوم.

وصل في فصل: فإن كان الإمام مكياً فاختلفوا هل يقصر أم لا هنا وبمنى وبالمزدلفة؟ فمن قائل: بالقصر ولا بدّ في هذه الأماكن كان مكياً أو لم يكن، وكان من أهل الموضع أو لم يكن. ومن قائل: لا يقصر إلاّ إن كان مسافراً، فمن راعى السفر أراد أن يناجي الحق تعالىٰ في هذه الصلاة في مقام الوحدانية فيجعل للحق الركعة التي يناجيه منها من حيث أحديته، ويجعل لنفسه الركعة الثانية التي يناجيه فيها من حيث أحدية العبد التي بها عرف أحدية الحق في يوم عرفة لتعدّي هذا الفعل إلى أمر واحد، ومن راعى الإتمام جعل للحق ركعتين: الواحدة من حيث ذاته تعالىٰ، والثانية من حيث ما هو معلوم لنا بنسبة خاصة تقضي بأن يوصف بأنه معلوم لنا، إذ قد كان غير موصوف بأنه معلوم، إذ لم يكن لنا وجود في أعياننا، فلم يكن ثم من يطلب منه أن يعرفه، ويجعل الركعتين الأخريين الواحدة منها لذات العبد من حيث عينه، والركعة الثانية من حيث إمكانه الذي يعطيه الافتقار إلى مرجحه في انتسابه إليه، وهذه معرفة لدليل والمشاهدة فإنها دليل أيضاً فإن المشاهدة طريق موصلة إلى العلم بالمشهود، والفكر طريق موصل إلى العلم بالله أيضاً من حيث استقلال العقل به وإن لم يشهد فهذا سرّ الإتمام في الصلاة والقصر لما يعطيه مكان عرفة من المعرفة بالله في الصلاة بهذا المكان.

وصل في فصل ـ الجمعة بعرفة: اختلف العلماء في وجوب الجمعة ومتى تجب، فقيل: لا تجب الجمعة بعرفة. وقال آخرون ممّن قال بهذا القول إنه اشترط في وجوب الجمعة أن يكون هنالك من أهل عرفة أربعون رجلاً. ومن قائل: إذا كان أمير الحاج ممّن لا يفارق الصلاة بمنى ولا بعرفة صلّى بهم فيهما الجمعة إذا صادفها. وقال قوم: إذا كان والي مكة يجمع بهم، والذي أقول به إنه يجمع بهم سواء كان مسافراً أو مقيماً وكثيرين أو قليلين ممّا ينطلق عليهم في اللسان اسم جماعة.

واقعة وقعت لنا في ليلة كتابتي هذا الوجه وهي مناسبة لهذا الباب، كنت أرى فيما يراه النائم شخصاً من الملائكة قد ناولني قطعة من أرض متراصة الأجزاء ما لها غبار، في عرض شبر وطول شبر وعمق لا نهاية له، فعندما تحصل في يدي أجدها قوله تعالىٰ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٠] إلى قوله ـ

﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] فكنت أتعجب ما كنت أقدر أن أنكر أنها عين هذه الآيات، ولا أنكر أنها قطعة أرض، وقيل لي هكذا أنزل القرآن أو أنزلت على محمد ﷺ، فكنت أرى رسول الله ﷺ ويقول لي: هكذا أنزلت عليّ فخذها ذوقاً وهكذا هو الأمر فهل تقدر على إنكار ما تجده من ذلك؟ قلت: لا، فكنت أحار في الأمر حتى قلت لغلبة الحال عليّ في ذلك: [السريع]

مــا ثَــمَّ إلاَّ حَــيْــرةٌ عــمَّــتْ　　كـلي وبعضي وهي من جُمْلتي
واللهِ مــا ثَــمَّ حــديــثٌ ســوى　　هـذا الـذي قـد شـهـدتْ مُـقْـلـتـي
فــمــا أرى غــيــري ومــا هــو أنــا　　وذاك مــجْــلاه وذي كِــلَّــتــي

فقلت: هذا كشف مطابق للجمعة التي جاء بها جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ في صورة مرآة مجلوّة وفيها نكتة وقال له: يا رسول الله هذه الجمعة وهذه النكتة الساعة التي فيها والحديث مشهور فانظر ما أعجب الأمور الإلهية وتجليها في القوالب الحسيّة، وهذا دليل على ارتباط الأمر بيننا وبين الحق: [مخلع البسيط]

فــالــكــلُّ حــقٌّ والــكــلُّ خَــلْــقُ　　وكــل مــا تــشــهــدون حــقُّ
يــحــوي عــلــى الأمــر مــن قــريــب　　ومــا لــه فــي الــلــســان نُــطْــقُ
وكــلُّــه مــثــلُ مــا تــراه　　وكــلــه فــي الــوجــود صِــدْقُ

انتهى إمداد الواقعة الجامعة. فلنرجع ونقول: والله يقول الحق وهو يهدي السبيل: الحج نداء إلهيّ ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ [سورة الحج: الآية ٢٧] والجمعة نداء إلهيّ ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ [سورة الجمعة: الآية ٩] فوقعت المناسبة، فالجماعة موجودة فوجبت إقامتها بعرفة ولا سبيل إلى تركها ولا سيما والحقائق تعضد ذلك، فما وجد كون من الأكوان إلاَّ عن جمع معقول، ولا ظهر كون في عين إلاَّ مجموعاً من حقائق تظهر ذلك ولم يصحّ وجود حادث شرعاً ولا عقلاً، وكل ما سوى الله حادث إلاَّ عن ذات ذات إرادة وعلم وقدرة وحياة عقلاً وذات إرادة وقول أمري شرعاً، ثم الوجه الآخر من الجمعية أن الحادث عن اقتدار إلهيّ وقبول إمكانيّ لا بدّ منهما من شرطها وجود حياة شرعاً تقول للشيء كن، فثبتت الجمعية شرعاً في إيجاد الأكوان، وثبتت عقلاً كما قرّرنا، فالوحدة في الإيجاد والوجود والموجود لا يعقل ولا ينقل إلاَّ في لا إله إلاَّ هو، فهذه أحدية المرتبة وهي أحدية الكثرة فافهم، فإذا أطلقت الأحدية فلا تطلق عقلاً ونقلاً إلاَّ بإزاء أحدية المجموع مجموع نسب أو صفات، أو ما شئت على قدر ما أعطاه دليلك، ولكل نسبة أو صفة أحدية تمتاز بها عن غيرها في نفس الأمر، فمن أراد أن يميزها عند السامع أو المتعلم فما يقدر على ذلك إلاَّ بمجموع حقائق كل حقيقة معلومة عند السامع، وما في العلوم أعجب من هذا العلم حيث تعقل الأحدية في كل موجود، ولا يصحّ وجود موجود حادث إلاَّ بمجموع مجموعاً وهذه حيرة عظيمة: [مجزوء الخفيف]

حَــيْــرةُ الأمــر حَــيْــرةٌ　　وهــي فــي الــغَــيْــر غَــيْــرةٌ

ولذلك ما طلب الحق تعالىٰ في الإيمان منّا إلاّ توحيد الإله خاصة، وهو أن تعلم أنه ما ثم إلاّ إله واحد لا إله إلاّ هو، ثم قال: الرحمن الرحيم، فلم يكن ثم جمع يقتضي هذا الحكم، وهو أن يكون إلهاً إلاّ هذا المسمّى بهذه الأسماء الحسنى المختلفة المعاني التي افتقر إليها الممكن في وجود عينه، وإذا كان الأمر على ما قرّرناه فلا واجب أوجب من إقامة الجمعة بعرفة إذا جاء وقتها وشرطها، فلا أدري في العالم أجهل ممّن قال: لا يصدر عن الواحد إلاّ واحد مع قول صاحب هذا القول بالعلية، ومعقولية كون الشيء علة لشيء خلاف معقولية شيئيته والنسب من جملة وجوه الجمع، فما أبعد صاحب هذا القول من الحقائق ومن معرفة من له الأسماء الحسنى، ألا ترى أهل الشرائع وهم أهل الحق يقولون بنسبة الألوهة لهذا الموجد للممكن المألوه، ومعقول الألوهة ما هو معقول الذات، فالأحدية معقولة لا تتمكن العبارة عنها إلاّ بمجموع مع كون العقل يعقلها وهي أحدية المجموع وآحاده، ألا ترى أن التجلّي الإلهيّ لا يصحّ في الأحدية أصلاً وما ثم غير الأحدية، وما يتعقل أثر عن واحد لا جمعية له، فيا ليت شعري كيف جهلت العقول ما هو أظهر من الشمس فيقول؛ ما صدر عن الواحد إلاّ واحد، ويقول: إن الحق واحد من جميع الوجوه وهو يعلم أن النسب من بعض الوجوه، وأن الصفات في مذهب الآخر من بعض الوجوه، فأين الواحد من جميع الوجوه؟ فلا أعلم من الله بالله حيث لم يفرض الوحدة إلاّ أحدية المجموع وهي أحدية الألوهة له تعالىٰ فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٢ ـ ٢٤] وهي تسعة وتسعون اسماً مائة إلاّ واحداً، وكل اسم واحد مدلوله ليس مدلول عين الاسم الآخر، وإن كان المسمّى بالكل واحداً فما عرف الله إلاّ الله: [البسيط]

مـا يـعـرف الله إلاّ الله فـاعـتـرفـوا ... الـعـينُ واحـدةٌ والـحـكـمُ مـخـتـلِـفُ
فـقُـلْ لـقـوم أبَـوْا إلاّ عـقـولَـهُـمُ ... هـذا هـو الـنَّـهَـرُ الـمـنـسـابُ فاغـتـرفـوا
ولا تـقـولُـنَّ إن الـعـقـلَ لـيـس لـه ... سـوى دلائـلِـه فـيـمـا بـدا فَـقِـفُـوا
هـنـا ولا تـبـرحـوا حـتـى يـجـوزَ بـكـم ... إليه كشْفٌ وما في الكشف منصَرَفُ

فمن طلب الواحد في عينه لم يحصل إلاّ على الحيرة، فإنه لا يقدر على الانفكاك من الجمع والكثرة في الطالب والمطلوب، وكيف يقدر على نفي الكثرة وهو يحكم على نفسه بأنه طالب وعلى مطلوبه بأنه مطلوب، ويوم عرفة يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود، وما عجله الحق في الدنيا لعباده إلاّ لانقضاء أجله المحدود كما قال سبحانه وتعالىٰ في الآخرة: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٣] ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٤] ويوم عرفة يوم مغفرة عامة شاملة، فإذا اتفق أن يكون يوم جمعة ففضل على فضل، ومغفرة إلى مغفرة، وعيد إلى عيد، فالأولى والأحق بالإمام أن يقيم فيه الجمعة، فإنها أفضل صلاة مشروعة هي في موضع الأولى، فلها الأوّلية التي لا ثاني لها،

فينبغي أن يقيمها من ثبتت له المغفرة الإلهية شرعاً، فطهر طهارة ظاهرة وباطنة، فهو المقدّس عن كل ذنب يحجب عن الله، ثم إنه موطن الغبرة والشعث والخشوع والابتهال والدعاء والتضرّع، فوجبت الجمعة فيه إن حضر يومها فيكون يوما عيد عيد عرفة وعيد الجمعة، فإن لم يقمها الإمام لم يحظ إلاّ بعيد واحد، ولا يكون ذلك يوم جمعة أصلاً، بل يسلب عنه ذلك الحكم لعدم صلاة الجمعة فيه، وقد زال عنه اسمه الأوّل وهو العروبة فلا جمعة ولا عروبة، فإن اعتبرت الرتبة الباطنة فقد يرجع عليه اسمه الأوّل وهو العروبة لا غير، فتفطن لما ذكرته لك من زوال اسم الجمعة عنه لأنه ما سمّي به إلاّ لاجتماع الناس فيه على إمام واحد كما اجتمعنا في وجودنا على إله واحد، والله الهادي. انتهى الجزء الثامن والستون.

وصل في فصل ـ توقيت الوقوف بعرفة في يومه وليلته: لم تختلف العلماء أن رسول الله ﷺ ما وقف إلاّ بعد الزوال، وبعدما صلّى الظهر والعصر ارتفع عن مصلاه ووقف داعياً إلى غروب الشمس، فلما غربت دفع إلى المزدلفة، وأجمعوا على أن من وقف بعرفة قبل الزوال أنه لا يعتد به إن فارق عرفة، وأنه إن لم يرجع ويقف بعد الزوال أو يقف من ليلته تلك قبل طلوع الفجر فقد فاته الحج.

اعلم أن العرب والزمان العربيّ في اصطلاحهم وما تواطؤوا عليه يتقدم ليله على نهاره جرياً على الأصل، فإن موجد الزمان وهو الله تعالىٰ يقول: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٧] فجعل الليل أصلاً وسلخ منه النهار كما تسلخ الشاة من جلدها، فكان الظهور لليل والنهار مبطون فيه كجلد الشاة ظاهر كالستر عليها حتى تسلخ منه، فسلخ الشهادة من الغيب ووجودنا من العدم، فظهر علم العرب على العجم، فإن العجم الذين حسابهم بالشمس يقدّمون النهار على الليل ولهم وجه بهذه الآية وهو قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٧] وإذا حرف يدل على زمان الحال أو الاستقبال ولا يكون الموصوف بأنه مظلم إلاّ بوجود الليل في هذه الآية فكان النهار غطاء عليه، ثم سلخ منه أي أزيل؛ ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ أي ظهر الليل الذي حكمه الظلمة، فإذا الناس مظلمون الممكن وإن كان موجوداً فهو في حكم المعدوم، وأصدق بيت قالته العرب قول لبيد: (ألا كل شيء ما خلا الله باطل). والباطل عدم، فظهر هذا الحكم الأعجمي في الشرع العربيّ في يوم عرفة، فإن العرب والشرع أخّروا ليلة عرفة عن يومها كما فعلت الأعاجم أصحاب حساب الشمس فجعل الشرع العربي ليلة عرفة الليلة المتقبلة من يوم عرفة التي يكون صبيحتها يوم النحر وهو اليوم العاشر، وسائر الزمان عندهم الليلة لليوم الذي يكون صبيحتها، وعند الأعاجم ليلة الجمعة مثلاً الذي يكون يوم السبت صبيحتها، فاجتمع العرب والعجم في تأخير هذه الليلة عن يومها أعطى ذلك مقام المزدلفة المسمّى جمعاً، فإنه جمع فيه العرب والعجم على حكم واحد، فجعلوا ليلة عرفة ليوم عرفة المتقدّم لكون الشارع شرع أنه من أدرك الوقوف بعرفة ليلة جمع قبل الفجر فقد أدرك الحج والحج عرفة، وكل يوم كامل بليلته من غروب إلى غروب عند العرب ومن شروق إلى شروق عند العجم إلاّ يوم عرفة فإنه ثلاثة أرباع اليوم المعلوم إلاّ ساعة وخمسة

أسداس ساعة فإنه من زوال الشمس إلى طلوع الفجر خاصة، فقد نقص من زمان يوم عرفة عن اليوم المعلوم من طلوع الفجر إلى الزوال.

وسبب ذلك أنه لما اعتبر في عرفة أنه مقام المعرفة بالله التي أوجبها علينا فكان ينبغي أن لا نسمّى عارفين بالله حتى نعلم ذاته وما يجب لها من كونها إلهاً، فإذا عرفناه على هذا الحد فقد عرفناه، فصارت المعرفة مقسمة نصفين: النصف الواحد معرفة الذات، والنصف الآخر معرفة كونه إلهاً، فلما بحثنا بالأدلة العقلية وأصغينا إلى الأدلة الشرعية أثبتنا وجود الذات وجهلنا حقيقتها وأثبتنا الألوهة لها وهو نصف المعرفة بكمالها والربع وجودها أعني وجود الذات المنسوبة إليها الألوهة، والربع الرابع معرفة حقيقتها، فلم نصل إلى معرفة حقيقتها ولا يمكن الوصول إلى ذلك، والزائد على الربع الذي جهلناه أيضاً هو جهلنا بنسبة ما نسبناه إليها من الأحكام، فإنا وإن كنا نعرف النسبة من كونها نسبة فقد نجهل النسبة الخاصة لجهلنا بالمنسوب إليه، فحصلت المعرفة من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، ومن طلوع الفجر إلى طلوع الشمس جهلنا بالنسبة، ومن طلوع الشمس إلى الزوال وهو ربع اليوم جهلنا بالذات، فما أعطى عرفة من المعرفة بالله إلاّ ما أعطاه زمانه فاعلم، فنقص العلم بها عن درجة العلم بكل معلوم، فمن لم نعلمه بحقيقته فما علمناه، فعلمنا بوجود الذات من أجل الاستناد لا بالذات، وعلمنا نسبة الألوهة لها لا كيفية النسبة وهو نصف المعرفة، وهذا النصف يتضمن ربعين: الربع الواحد العلم بصفات التنزيه والسلوب، والربع الآخر المعرفة بصفات الأفعال والنسب، فالحاصل بأيدينا ثلاثة أرباع المعرفة [ليس] إلاّ والربع الواحد لا نعرفه أبداً، والذي ينظر من المعرفة المناسب لما زاد على الربع من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس هو بمنزلة ما جهلنا من نسبة وصف ما وصف الحق به نفسه من صفة التشبيه، فلا ندري كيف ننسب إليه مع إيماننا به وإثباتنا له هذا الحكم مع جهلنا لكن على ما يعلمه الله من ذلك، فهذا في مقابلة الزائد على ربع اليوم، فلهذا نقص يوم عرفة عن سائر الأيام الزمانية، فتحقق صحة يوم عرفة أنه من الزوال إلى طلوع الفجر من ليلة عرفة.

وصل في فصل ـ من دفع قبل الإمام من عرفة: اختلف علماء الإسلام فيمن وقف بعرفة بعد الزوال ثم دفع منها قبل الإمام وبعد الغيبوبة، فقيل: أجزأه لأنه جمع بعرفة بين الليل والنهار، فإن دفع قبل الغروب قيل: عليه دم، وقيل: لا شيء عليه وحجّه تام، والذي أقول به إنه لا شيء عليه وإن حجّه تام الأركان غير تام المناسك لأنه ترك الأفضل لا شك أنه من ترك شيئاً من اتباع الرسول ﷺ ممّا لم ينفرض عليه فإنه ينقص من محبة الله إياه على قدر ما نقص من اتباع الرسول، وأكذب نفسه في محبته لله لعدم إتمام الاتباع، وعند أهل طريق الله لو اتبعه في جميع أموره وأخلّ بالاتباع في أمر واحد مما لم ينفرض عليه بل خالف سنّة الاتباع في ذلك ممّا أبيح له الاتباع فيه أنه ما اتبعه قط وإنما اتبع هوى نفسه لا هو مع ارتفاع الأعذار الموجبة لعدم الاتباع هذا مقرّر عندنا، قال تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأمتك: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ فجعل الاتباع دليلاً، وما قال في شيء دون شيء ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة

آل عمران: الآية ٣١] والله يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١] وهو الاتباع، وقال: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ﴾ في دعواكم محبتي ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٠] وهو أني أحبكم إذا صدقتم في محبتي، وجعل الدليل على صدقهم حصول محبة الله إياهم، وحصول محبة الله إياهم دليل الاتباع وعلى قدر ما نقص ينقص، وعند أهل الله هو أمر لا يقبل النقص وأن العذر لا ينقصه فإنه في حبس الله عن الاتباع في أمر ما فالحق ينوب عنه عندي.

حكاية: قال أبو يزيد في هذا الباب: كنت أظنّ في برّي بأمي أني ما أقوم فيه لهوى نفسي بل لتعظيم الشريعة حيث أمرتني ببرّها، فكنت أجد في نفسي لذّة عظيمة، كنت أتخيل أن تلك اللذة من تعظيم الحق عندي لا من موافقة نفسي، فقالت لي في ليلة باردة: اسقني يا أبا يزيد ماء، فثقل عليّ التحرّك لذلك فقلت: والله ما خفف عليّ ما كانت تكلفني فعله إلاّ الموافقة كان في نفسي من حيث لا أشعر فأبطل عمله وما سلم لها، قال أبو يزيد: فقمت بمجاهدة وجئت بالكوز إليها فوجدتها قد سارع إليها النوم ونامت، فوقفت بالكوز على رأسها حتى استيقظت فناولتها الكوز وقد بقي في أذن الكوز قطعة من جلد أصبعي لشدة البرد انقرضت فتألمت الوالدة لذلك، قال أبو يزيد: فرجعت إلى نفسي وقلت لها: حبط عملك في كونك كنت تدعين النشاط في عبادتك والاتباع أن ذلك من محبتك الله فإنه ما كلفك ولا ندبك وأوجب عليك إلاّ ما هو محبوب له، وكل ما يأمر به المحبوب عند المحب محبوب، وممّا أمرك الله به يا نفسي البرّ بوالدتك والإحسان إليها، والمحب يفرح ويبادر لما يحبه حبيبه ورأيتك قد تكاسلت وتثاقلت وصعب عليك أمر الوالدة حين طلبت الماء فقمت بكسل وكراهة، فعلمت أنه كل ما نشطت فيه من أعمال البرّ وفعلته لا عن كسل ولا تثاقل بل عن فرح والتذاذ به، إنما كان ذلك لهوى كان لك فيه لا لأجل الله، إذ لو كان لله ما صعب عليك الإحسان لوالدتك وهو فعل يحبه الله منك وأمرك به وأنت تدعين حبّه، وأن حبّه أورثك النشاط واللذّة في عبادته فلم يسلم لنفسه هذا القدر، وكذلك غير أبي يزيد من أهل الله كان يحافظ على الصف الأوّل دائماً منذ سبعين سنة وهو يزعم أنه يفعل ذلك رغبة فيما رغبه الله فيه موافقة لله، فاتفق له عائق عن المشي إلى الصف الأوّل فخطر له خاطر أن الجماعة التي تصلي في الصف الأول إذا لم يروه يقولون: أين فلان؟ فبكى وقال لنفسه: خدعتني منذ سبعين سنة أتخيل أني لله وأنا في هواك وماذا عليك إذا فقدوك فتاب وما رئي بعد ذلك يلزم في المسجد مكاناً واحداً معيناً ولا مسجداً معيناً، فهكذا حاسب القوم نفوسهم، ومن كانت حالته هذه ما يستوي مع من هو فاقد لهذه الصفة كذلك من وقف مع الإمام لأنها عبادة يشترط فيها الإمام إلى أن يدفع معه ما يستوي في الاتباع مثل من دفع قبله.

وصل في فصل ـ من وقف بعرنة من عرفة فإنه منها: اختلف العلماء فيمن وقف بعرنة بعرفة فإنه من عرفة فقيل: حجّه تام وعليه دم. وقال بعضهم: لا حج له عرنة من عرفة موقف إبليس، فإن إبليس يحجّ في كل سنة وذلك موقفه يبكي على ما فاته من طاعة ربه وهو مجبور في الإغواء، وإن كان من اختياره إبرار القسمة بربّه، فإنه وإن سبق له الشقاء فله شبهة يستند

إليها في امتثاله أمر سيده بعد أن حقّت الكلمة كلمة العذاب عليه بقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ اذْهَبْ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٦٣] واستفزز، وأجلب، وعدهم، فإنه يجد لذلك تنفيساً، ومع هذا فإنه يحزن لما يرى من المغفرة التي حصلت لأهل عرفة الشاملة لهم وهو فيها أعني بعرفة، فلا بدّ له عند نفسه من طرف منها يناله من عين المنة الإلهية ولو بعد حين هذا ظنّه بربه. وأما خروجه من جهنم فلا سبيل إليه لأنه وأتباعه من المشركين الذين هم أهل النار يملأ الله بهم جهنم ولا نقص فيها بعد ملئها فلا خروج، وأمر الله الحاج أن يرتفع عن موقف إبليس فإنه موقف البعد، فإبليس تحت حكم الاسم البعيد، وأهل عرفة تحت حكم الاسم القريب، فما برحوا من حكم الأسماء، فحجّ من وقف بعرنة لكونه من عرفات تام إلاَّ أنه ناقص الفضيلة كما بيّنا في الدفع قبل الإمام، فعرنة موضع مكروه للوقوف به من أجل مشاركة الشيطان، ألا ترى النبيّ ﷺ ارتفع في ذلك عن بطن الوادي الذي فاتته فيه صلاة الصبح فعلّل وقال: «**إِنَّهُ وَادٍ بِهِ شَيْطَانٌ**». لأنه هو الذي هدأ بلالاً حتى نام عن مراقبة الفجر، وقد ورد في الحديث: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَعْقِدُ عَلَىٰ قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ مَكَانَ كُلِّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ**» الحديث، فما أراد ﷺ بارتفاعه عن بطن عرنة إلاَّ البعد من مجاورة الشيطان، ولو صلَّى في ذلك الموضع أجزأه أعني الموضع الذي أصابته فيه الفتنة ففارق الموضع مفارقة تنزيه لا مفارقة تحريم.

ولما كان لإبليس طرف من المعرفة لذلك لم تطرده الملائكة عن عرنة بل وقف فيها، غير أن الناس انعزلوا عنه في ناحية منها لانعزال إمامهم، وعرفات كلها موقف وعرنة من عرفات، فأمرنا بالارتفاع عن بطن عرنة لما ذكرناه، ومن حمل هذا الأمر على الوجوب أبطل الحج، ولا تكون الإفاضة للحاج إلاَّ من بطن عرنة فإن حدّ المزدلفة حرف الوادي الذي هو عرنة، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٨] ولم يخص مكاناً من مكان بل الخروج عنها بالكلية إلى المزدلفة، وقد علمنا أن الله يغفر لأهل الموقف من الحاج وغيرهم ورحمة الله وسعت كل شيء، فالتقييد ما هو من صفة من له الوجود المطلق، فبرحمة الله يحيا ويرزق كل موجود سوى الله، فالرحمة شاملة ومي في كل موطن تعطى بحسب ذلك الموطن، فأثرها في النار بخلاف أثرها في الجنة، والله الموفق لا رب غيره.

وصل في فصل ـ المزدلفة: أجمع العلماء على أنه من بات بالمزدلفة وصلَّى فيها المغرب والعشاء وصلَّى الصبح يوم النحر ووقف بعد الصلاة إلى أن أسفر ثم دفع إلى منى أن حجّه تام، واختلفوا هل الوقوف بها بعد صلاة الصبح والمبيت بها من سنن الحج أو فروضه؟ فقال جماعة: هو من فروض الحج ومن فاته فعليه الحج من قابل والهدي. وقال بعضهم: من فاته الوقوف بها والمبيت فعليه دم. وقال بعضهم: إن لم يصل بها الصبح فعليه دم المزدلفة اسم قرب والعمل فيها قربة فمن فاته صفة القرب في محل القرب فما حجّ، فإن الحج نشأة كاملة من هذه الأفعال كلها، فهي له كالصفات النفسية للموصوف إذا زال واحد منها بطل كون ذلك الموصوف، وهكذا كل عبادة تقوم من أشياء مختلفة بمجموعها تصحّ تلك العبادة وهي

المعبر عنها بأركانها فتسمّى في العبادة ركناً، وتسمّى في الذوات والأعيان صفة نفسية، غير أن النشآت وإن كانت لها صفات نفسية هي التي تحفظ على ذلك الشيء عينه لها أيضاً لوازم وهي التي توجد في الحدود الرسمية وهي لا تنفك عن الموصوف بها، فمن يرى أن الموصوف لا ينفك عنها كالضحك للإنسان أشبهت الصفة النفسية قال: ببطلان الملزوم لعدم اللازم، ومن قال: يصحّ حدّ الشيء الذاتيّ دون هذا اللازم قال: لا يكون للشيء حكم البطلان مع ارتفاع اللازم في الذهن وإن لم يرتفع في الوجود.

ولما سمّاه الله المشعر الحرام لنشعر بالقبول من الله في هذه العبادة بالعناية والمغفرة وضمان التبعات ووصفه بالحرمة لأنه في الحرم فيحرم فيه ما يحرم في الحرم كله فإنه من جملته فأمر بذكر الله فيه يعني بما ذكرناه، فإن الشيء لا يذكر بأن يسمّى وإنما يذكر بما يكون عليه من صفات المحمدة، فإن الأسماء في أصل الوضع إنما هي إعلام للمسمّى بها لا نعوت، فلا يذكر بالاسم العلم إلاّ للتعريف لتعلم من هو المذكور بما ذكرته من المحامد أو غيرها.

وصل في فصل ـ رمي الجمار: أما جمرة العقبة فموضع الاتفاق فيها أن ترمى من بعد طلوع الشمس إلى قريب من الاستواء بسبع حصيات يوم النحر لا يرمى في ذلك اليوم غيرها، واختلفوا في رميها قبل طلوع الفجر فقيل: لا يجوز عليه الإعادة يعني إعادة الرمي. وقيل: يجوز والمستحب بعد طلوع الشمس وبالأول أقول. وقال قوم: إن رماها قبل غروب الشمس يوم النحر أجزأه ولا شيء عليه. وقال بعضهم: أستحب لمن رماها قبل غروب الشمس يوم النحر أن يريق دماً، واختلفوا فيمن لم يرم حتى غابت الشمس فرماها من الليل أو من الغد فقيل: عليه دم، وقيل: لا شيء عليه إن رماها من الليل وإن أخّرها إلى غد فعليه دم. وقال قوم: لا شيء عليه وإن أخّرها إلى الغد.

وأما الرعاء فرخّص لهم رسول الله ﷺ فقال بعضهم: معنى الرخصة للرعاء إنما ذلك إذا مضى يوم النحر ورموا جمرة العقبة ثم كان اليوم الثالث وهو أول أيام النفر رخص لهم رسول الله ﷺ أن يرموا في ذلك اليوم له ولليوم الذي بعده، فإن نفروا فقد فرغوا، وإن أقاموا إلى الغد رموا مع الناس يوم النفر الآخر ونفروا. وقال بعضهم: معنى الرخصة عند العلماء هو جمع يومين في يوم واحد، إلاّ أن مالكاً، إنما يجمع عنده ما وجب فيجمع في اليوم الثالث فيرمي عن الثاني والثالث فإنه لا يعصى أحد عنده إلاّ بما وجب، ورخص كثير من العلماء في جمع اليومين في يوم واحد، سواء تقدّم ذلك اليوم الذي أضيف إليه غيره أو تأخر.

واختلفوا فيمن قدّم من هذه الأفعال ما أخّره النبيّ ﷺ بفعله أو من أخّر ما قدّمه النبيّ ﷺ منها فقال بعضهم: من حلق قبل أن يرمي جمرة العقبة فعليه الفدية. وقال آخرون: لا شيء عليه، وسيرد في سرد الأخبار النبوية الواردة في الحج إن شاء الله بعد هذا ما تقف عليه ويقع التنبيه على كل خبر بحسب ما يتضمنه. وقال بعضهم: إن حلق قبل أن يرمي وينحر فعليه دم وإن كان قارناً فعليه دمان. وقال بعضهم: عليه ثلاثة دماء: دمان للقران ودم للحلق

قبل النحر، وأجمعوا على أنه من نحر قبل أن يرمي فلا شيء عليه، وأنه من قدّم الإفاضة قبل الرمي والحلق أنه يلزمه إعادة الطواف. وقال بعضهم: لا إعادة عليه. وقال الأوزاعيّ: إذا طاف الإفاضة قبل أن يرمي جمرة العقبة ثم واقع أهله فعليه دم.

واتفقوا على أن جملة ما يرميه الحاج سبعون حصاة منها في يوم النحر سبعة، وأن من رمى هذه الجمرة أعني جمرة العقبة من أسفلها أو من أعلاها أو من وسطها أن ذلك كله واسع، والمختار منها فعل رسول الله ﷺ وهو بطن الوادي، وأجمعوا على أنه يعيد الرمي إذا لم تقع الحصاة في العقبة، وأنه يرمي في كل يوم من أيام التشريق ثلاث جمار بإحدى وعشرين حصاة كل جمرة بسبع، وأنه يجوز أن يرمي منها يومين وينفر في الثالث، وقدّروها عندهم أن تكون مثل حصى الخذف، والسنّة في رمي الجمرات في أيام التشريق أن يرمي الأولى فيقف عندها ويدعو وكذلك الثانية ويطيل المقام ثم يرمي الثالثة ولا يقف عندها، والتكبير عندهم عند كل رمي جمرة حسن وأن يكون رمي أيام التشريق بعد الزوال، واختلفوا إذا رماها قبل الزوال في أيام التشريق فقال جمهور العلماء: عليه إعادة الرمي بعد الزوال.

وروي عن بعض علماء أهل البيت أنه قال: رمي الجمار من طلوع الشمس إلى غروبها، وأجمعوا على أن من لم يرم الجمار أيام التشريق حتى تغيب الشمس من آخرها أنه لا يرميها بعد، واختلفوا في الوجوب من ذلك بين الدم والكفارة فقال بعضهم: إن ترك رمي الجمار كلها أو بعضها أو واحدة منها فعليه دم. وقال بعضهم: إن تركها كلها كان عليه دم، وإن ترك جمرة واحدة فصاعداً كان عليه لكل جمرة إطعام مسكين نصف صاع حنطة إلى أن يبلغ ذلك ما ترك الجميع إلاّ جمرة العقبة فمن تركها فعليه دم. وقال بعضهم: عليه في الحصاة مدّ من طعام، وفي الحصاتين مدّان، وفي الثلاث دم. وقال الثوريّ مثله إلاّ أنه قال في الرابعة دم. ورخصت طائفة من التابعين في الحصاة الواحدة فقالت: ليس فيها شيء. وقال أهل الظاهر: لا شيء في ذلك وسأورد الأخبار فيما ذكرناه إن شاء الله، وجمهور العلماء على أن جمرة العقبة ليست من أركان الحج، وأما التحلل من الحج فهو تحللان: تحلل أكبر وهو طواف الإفاضة، وتحلل أصغر وهو رمي جمرة العقبة.

اعتبار هذا الفصل: الجمرات الجماعات وكل جمرة جماعة أية جماعة كانت، ومنه الاستجمار في الطهارة، ولهذا استحبّ له أن يكون أكثر من واحد حتى يوجد فيه معنى الجماعة، ولا معنى لمن يرى الاستجمار بالحجر الواحد إذ كان له ثلاثة حروف، فإن العرب لا تقول في الحجر الواحد أنه جمرة، ويستحب أن يكون وتراً من ثلاث فصاعداً وأكثره سبع في العبادة لا في اللسان، فإن الجمرة الواحدة سبع حصيات، وكذلك الجمرة الزمانية التي تدل على خروج فصل شدّة البرد كل جمرة في شباط سبعة أيام وهي ثلاث جمرات متصلة كل جمرة سبعة أيام، فتنقضي الجمرات بمضيّ أحد وعشرين يوماً من شباط مثل رمي الجمار إحدى وعشرين حصاة وهي ثلاثة جمرات، وكذلك الحضرة الإلهية تنطلق بإزاء ثلاثة معان: الذات والصفات والأفعال، ورمي الجمرات مثل الأدلة والبراهين على سلب كحضرة الذات،

أو إثبات كحضرة الصفات المعنوية، أو نسب أو إضافة كحضرة الأفعال، فدلائل الجمرة الأولى لمعرفة الذات، ولهذا نقف عندها لغموضها إشارة إلى الثبات فيها وهي ما يتعلق بها من السلوب، إذ لا يصحّ أن يعرف بطريق إثبات صفة معينة، ولا يصحّ أن يكون لها صفات نفسية متعدّدة بل صفة نفسه عينه لا أمر آخر، فلا بدّ أن تكون صفته النفسية الثبوتية واحدة وهي عينه لا غير، فهو مجهول العين معلوم بالافتقار إليه، وهذه هي معرفة أحديته تعالىٰ، فيأتي خاطر الشبهة بالإمكان إلى هذه الذات فيرميه بحصاة الافتقار إلى المرجح وهو واجب الوجود لنفسه، ويأتي بصورة الدليل على ما يعطيه نظمه في موازين العقول.

فهذه حصاة واحدة من الجمرة الأولى، فإذا رماه بها مكبراً أي يكبر عن هذه النسبة الإمكانية إليه فيأتيه في الثانية بأنه جوهر فيرميه بالحصاة الثانية وهو دليل الافتقار إلى التحيّز أو إلى الوجود بالغير، فيأتيه بالجسمية فيرميه بحصاة الافتقار إلى الأداة والتركيب والأبعاد فيأتيه بالعرضية فيرميه بحصاة الافتقار إلى المحل والحدوث بعد أن لم يكن، فيأتيه بالعلية فيرميه بالحصاة الخامسة وهي دليل مساوقة المعلول له في الوجود وهو كان ولا شيء معه، فيأتيه في الطبيعة فيرميه بالحصاة السادسة وهي دليل نسبة الكثرة إليه، وافتقار كل واحد من آحاد الطبيعة إلى الأمر الآخر في الاجتماع به إلى إيجاد الأجسام الطبيعية، فإن الطبيعة مجموع فاعلين ومنفعلين حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة، ولا يصحّ اجتماعها لذاتها ولا افتراقها لذاتها، ولا وجود لها إلاّ في عين الحار والبارد والرطب واليابس، فيأتيه في العدم وهو أن يقول له: إذا لم يكن هذا ولا هذا ويعدد ما تقدم فما ثم شيء فيرميه بالحصاة السابعة وهي دليل آثاره في الممكن والعدم لا أثر له، وقد ثبت بدليل افتقار الممكن في وجوده إلى مرجح ووجود موجود واجب الوجود لنفسه وهو هذا الذي أثبتناه مرجحاً، وانقضت الجمرة الأولى.

ثم أتينا إلى الثانية وهي حضرة الصفات المعنوية وقال لك سلمنا إن ثم ذاتاً مرجحة للممكن، فمن قال: إن هذه الذات عالمة بما ظهر عنها فرميناه بالحصاة الأولى إن كان هذا هو الخاطر الأوّل الذي خطر لهذا الحاج المعنويّ، وقد يخطر له الطعن في صفة أخرى أوّلاً فيرميه بحسب ما يخطر له إلى تمام سبع صفات وهي: الحياة، والقدرة، والإرادة، والعلم، والسمع، والبصر، والكلام، وبعض أصحابنا لا يشترط هذه الثلاثة أعني السمع والبصر والكلام في الأدلة العقلية ويتلقاها من السمع إذا ثبت ويجعل مكانها ثلاثة أخرى وهي علم ما يجب له وما يجوز وما يستحيل عليه مع الأربعة التي هي: القدرة والإرادة والعلم والحياة، فهذه سبعة علوم، فورد الخاطر الشيطانيّ بشبهة لكل علم منها فيرميه هذا الحاج بحصاة كل دليل عقليّ على الميزان الصحيح في نظم الأدلة بحسب ما يقتضيه ويطيل التثبت في ذلك وهو الوقوف عند الجمرة الوسطى والدعاء عندها.

ثم يأتي الجمرة الثالثة وهي حضرة الأفعال وهي سبع أيضاً فيقوم في خاطره أولاً المولدات وأنها قامت بأنفسها فيرميه بحصاة افتقارها من الوجه الخاص إلى الحق عزّ وجلّ، فإذا علم الخاطر الشيطانيّ أنه لا يرجع عن علمه بالافتقار أظهر له أن افتقاره إلى سبب آخر

غير الحق وهو العناصر، وقد رأينا من كان يعبدها بالموصل، وإذا خطر له ذلك فإمّا أن يتمكن منه بأن ينفي أثر الحق تعالىٰ عنها فيها فإن لم يقدر فقصاراه أن يثبتها شركاً فيرميه بالحصاة الثانية فيريه في دلالتها أن العناصر مثل المولدات في الافتقار إلى غيرها وهو الله تعالىٰ، لأن العارف أبداً إنما ينظر في كل ممكن ممكن الوجه الخاص الذي من الله إليه ما ينظر إلى السبب الذي أوقف الله وجوده عليه أو ربطه به على جهة العلية أو الشرط، هذا هو نظر أهل طريق الله من أصحابنا، وما رأيت أحداً من المتقدمين قبلنا ولا من أهل زماننا في علمي نبّه على إثبات هذا الوجه الخاص في كل ممكن مع كونهم لا يجهلونه، ولكن صدق الله في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يعني الأسباب ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] يعني نسبته إلينا لا إلى السبب، فالحمد لله الذي فتح أبصارنا إلى إدراك هذا الوجه في كل ممكن، فإذا رماه بالحصاة الثانية كما ذكرناه أخطر له السبب الذي يتوقف وجود الأركان عليه وهو الفلك فقال: إن موجد هذه الأركان الفلك وصدقت فيما قلته فيرميه بالحصاة الثالثة وهي افتقار الفلك وهو الشكل إلى الله من الوجه الخاص كما ذكرنا فيصدّقه في الافتقار ويقول له: أنت غالط إنما كان افتقار الشكل إلى الجسم الذي لولاه ما ظهر الشكل، فيرميه بالحصاة الربعة وهو افتقار الجسم إلى الله من الوجه الخاص فيصدقه ويقول له: صحيح ما قلت من الافتقار القائم ولكن إلى جوهر الهباء الذي تسميه أهل النظر الهيولى الكل الذي لم تظهر صورة الجسم إلاّ فيه، فيرميه بالحصاة الخامسة وهو دليل افتقار الهباء إلى الله كما ذكرنا قبله فيقول: بل افتقارها إلى النفس الكلية المعبر عنها في الشرع باللوح المحفوظ، فيرميه بالحصاة السادسة وهو دليل افتقار النفس الكلية إلى الله من الوجه الخاص أيضاً فيصدّقه في الافتقار ولكن يقول له: بل افتقارها إلى العقل الأول وهو القلم الأعلى الذي عنه انبعثت هذه النفس، فيرميه بالحصاة السابعة وهو دليل افتقار العقل الأول إلى الله وليس وراء الله مرمى فما يجد ما يقول له بعد الله فلذلك ما يقف عند جمرة العقبة وهي آخر الجمرات لأنه كما قلنا: وليس وراء الله مرمى.

فهذا تحرير رمي جمرات العارفين بمنى موضع التمني وبلوغ الأمنية، فإنها أيام أكل وشرب وتمتع ونعيم، فهي جنة معجلة، وفيه إلقاء التفث والوسخ وإزالة الشعث من الحاج، ومن قوة التمني الذي سمّي به منى أنه يبلغ بصاحبه الذي هو معدوم ممّا تمناه مبلغ من عنده ما تمناه هذا المتمني بالفعل على أتم الوجوه مثل رب المال يفعل به أنواع الخير وينفقه في سبل البرّ ابتغاء فضل الله، فيتمنى العديم أن لو كان له مثله ليفعل فعله فهما في الأجر سواء بل هو أتم فإنه يحصل له الأجر التامّ على أكمل وجوهه من غير سؤال، فإن صاحب الفعل يسأل عنه من أين جمعه وهل أخلص في إخراجه؟ وبعد هذا التعب والمشقة يحصل على أجره. والمتمني يحصل على ذلك من غير سؤال ولا مشقة من بعد رمي الجمار يحلق رأسه أعني جمرة العقبة يوم النحر، وإنما سميتها جماراً وإن كانت جمرة واحدة في ذلك اليوم فإن كل واحدة من الحصى بإضافتها إلى الأخرى تسمّى جماعة فهي جمار بهذا النظر، كما تقول إذا اجتمع جوهران كانا جسمين أي

انطلق على كل واحد منهما باجتماعه مع الآخر جسم فهما جسمان بهذا النظر كما قال: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٤٩] وما خلق من كل شيء إلاّ زوجاً واحداً ذكراً وأنثى مثلاً، فسمّاه زوجين بهذا الاعتبار الذي ذكرناه، لأن كل واحد بالنظر إلى نفسه دون أن ينضم إليه هذا الآخر لا يكون زوجاً، فإذا ضمّ إليه آخر انطلق على كل واحد منهما اسم الزوج فقيل فيها زوجان.

ولما اعتبر الله هذا بالذكر لذلك قلنا نحن: ثم بعد رمي الجمار فسمينا جمرة العقبة جماراً إذ كانت عدّة حصيات، فما في كلامنا حشو لأنه لا تكرار في الوجود للاتساع الإلهيّ، فإذا رمى جمرة العقبة حلق رأسه وهو أولى من تقصير الشعر، فإنّ الشعور بالأمر ما هو عين حصول العلم به على التمام من التفصيل، وإنما يشعر العبد أن ثم أمراً ما فإذا حصله زال الشعور وكان علماً تامّاً بتفصيل ما شعر به، كمن يشعر بالتفصيل في المجمل قبل حصول العلم بتعيين تفصيله، فإلقاء الشعور هو إزالة الشعور بوجود العلم لأن الشعر سترة على الرأس، ثم يتطيب ليوجد منه رائحة ما انتقل إليه من تحليل ما كان حجر عليه كما تطيب لإحرامه حين أحرم ليوجد منه ريح ما انتقل إليه وجعله طيباً لأنه انتقال في الحالتين لخير مشروع مقرّب إلى الله تعالىٰ، فإن الله طيب لا يقبل إلاّ طيباً ليميز الله الخبيث من الطيب، فجعل الطيب في الحالين تنبيهاً على طيب الأفعال، ثم نحر أو ذبح قربانه ينوي بذلك تسريح روح هذا الحيوان من سجن هذا الهيكل الطبيعيّ المظلم إلى العالم الأعلى عالم الانفساح والخير، فإن الحيوانات كلها عندنا ذات أرواح وعقول تعقل عن الله ولهذا قال فيها تعالىٰ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [سورة النور: الآية ٤١] فسرّحنا أرواح هذه الحيوانات في هذا اليوم شكراً لله، كما خرجنا نحن فيه من حال التحجير وهو الإحرام الذي كنا عليه إلى الإحلال والتصرّف في المباحات المقربة إلى الله بحكم الاختيار، ثم أكلنا منها ليكون جزء منها عندنا لنشاهد ما هو عليه من الذكر المخصوص به ذوقاً، ولنجعله كالمساعد لنا فيما نرومه من الحركة في طاعة الله تعالىٰ، إذ لا بدّ من الغذاء، فكان أخذ هذا النوع من الغذاء أولى.

ثم نزلنا إلى البيت زائرين ربنا تعالىٰ ليرانا محلين كما يرانا محرمين على جهة الشكر له، حيث سرّح أعياننا وأباح لنا التصرّف فيما كان حجره علينا فقبلنا يمينه على ذلك مبايعة وتحية ثم طفنا به سبعة أشواط وصلينا خلف مقام إبراهيم، وقد تقدّم الكلام في المراد بالطواف والصلاة في طواف القدوم، إلاّ أنه ما نبهنا على اتخاذ مقام إبراهيم مصلّى لننال ما ناله من الخلة على قدر ما يعطيه حالنا، فإن الله أمرنا أن نتخذه مصلًى، ونبهنا على ما تأوّلناه صفة الصلاة على النبيّ ﷺ فقال لنا قولوا: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ**» وَالمُؤْمِنُونَ آلُهُ «**كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**» وما اختص به إلاّ الخلة، فلما دعونا بها لرسول الله ﷺ أجاب الله دعاءنا فيه لنتخذ عنده يداً بذلك، فصلّى الله عنه علينا بذلك عشراً فقام تعالىٰ عن نبيه ﷺ بالمكافأة عناية منه به عليه السلام وتشريفاً لنا حيث لم تكمل المكافأة في ذلك لملك ولا غيره، فقال النبيّ ﷺ عند ذلك لما حصلت الإجابة من الله فيما دعوناه فيه لنبيه ﷺ: «**لَوْ**

كُنْتُ مُتَّخِذاً خَليلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلٰكِنَّ صَاحِبَكُمْ - يَعْنِي نَفْسَهُ - خَلِيلُ اللّٰهِ»، ولو صحّت له هذه الخلة من قبل دعاء أمته له بذلك لكان غير مفيد صلاتنا عليه أي دعاءنا له بذلك.

فإن قيل: قد حصلت الخلة بدعاء الصحابة أولاً فما فائدة دعائنا ونحن مأمورون في هذا الوقت بالصلاة عليه مع حصول الخلة فهكذا حكم الأول فربما نال الخلة قبل دعاء أصحابه وتكون نسبة دعائهم بها له كدعائنا اليوم. قلنا: حكم الخلة ما ظهر هنا وإنما يظهر ذلك في الآخرة، والحكم للمعنى لا يكون إلاَّ بعد حصول المعنى، فمتى قام المعنى بمحل وجب حكمه لذلك المحل، ففي الآخرة تنال الخلة لظهور حكمها هناك، وأمّا الذي يظهر هنا منها لوامع تبدو وتؤذن بأنه قد أهل لها واعتنى به هذا هو الصحيح، والجواب الأول أن لكل نفس منا حظاً من محمد ﷺ وهو الصورة التي في باطنه أعني في باطن كل إنسان منه ﷺ، فهو في كل نفس بصورة ما يعتقد فيه كل شخص فيدعو له بالصلاة عليه المذكورة ﷺ فتنال تلك الصورة المحمدية التي عنده تلك الحال المدعوّ بها بدعائه والصلاة عليه، فما حصلت له الخلة من هذا الوجه إلاَّ بعد دعاء كل نفس، وهكذا يجده أهل الله في كشفهم فاعلم ذلك.

واقعة: اعلم وفّقك الله بينا أنا أكتب هذا الكلام في مقام إبراهيم الخليل عليه السلام ومقامه عليه السلام قوله تعالىٰ فيه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [سورة النجم: الآية ٣٧] لأنه وفى بما رأى من ذبح ابنه أخذتني سنّة فإذا قائل من الأرواح أرواح الملأ الأعلى يقول لي عن الله تعالىٰ: ادخل مقام إبراهيم وهو أنه كان أواهاً حليماً، ثم تلا عليّ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٤] فعلمت أن الله تعالىٰ لا بدّ أن يعطيني من الاقتدار ما يكون معه الحلم، إذ لا حليم عن غير قدرة على من يحلم عنه، وعلمت أن الله تعالىٰ لا بدّ أن يبتليني بكلام في عرضي من أشخاص فأعاملهم مع القدرة عليهم بالحلم عنهم ويكون أذى كثير، فإنه جاء حليم ببنية المبالغة وهي فعيل، ثم وصف بالأواه وهو الذي يكثر منه التأوّه لما يشاهده من جلال الله وكونه ما في قوّته ممّا ينبغي أن يعامل به ذلك الجلال الإلهيّ من التعظيم، إذ لا طاقة للمحدث على ما يقابل به جلال الله من التكبير والتعظيم، فهذا أيضاً من قصدنا مقام إبراهيم لنتخذه مصلًّى أي موضع دعاء في صلاة أو أثر صلاة لنيل هذا المقام، والصفة التي هي نعت إبراهيم خليل الله وحاله ومقامه، فنرجو أن يكون لنا نصيب من الخلة كما حصل من درجة الكمال والختام والرفعة السارية في الأشياء في هذه الأمّة الحظ الوافر بالبشرى في ذلك، ومن مقام إبراهيم أيضاً أنه كان أمّة قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين، شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم، مطلق الشرك المعفو عنه والمذموم فيما نسب إليه من قوله في الكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٦] ومن مقام إبراهيم أيضاً عليه السلام أنه أوتي الحجة على قومه بتوحيد الله وأنه شاكر لأنعمه اجتباه فهو مجتبى، وهداه أي وفّقه بما أبان له إلى صراط مستقيم وهو صراط الرب الذي ورد في قول هود: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦].

ومن مقامه عليه السلام أيضاً أنه كان حنيفاً مائلاً في جميع أحواله من الله إلى الله عن مشاهدة وعيان، ومن نفسه إلى الله عن أمر الله، وآيثار لجناب الله بحسب المقام الذي يقام فيه والمشهد الذي يشهده، ومن كل ما ينبغي أن يمال عنه عن أمر الله. ومن مقامه عليه السلام أيضاً أنه كان مسلماً منقاداً إلى الله عند كل دعاء يدعوه إليه من غير توقف، والأمّة معلم الخير فنرجو مما نورده من هذا العلم للناس أن يكون حظي من تعلم الخير، وأن نقوم ونختص بأمر واحد من جانب الله أي من العلم به ممّا لا نشارك فيه، نقوم فيه مقام الأمّة لانفرادي به والقانت المطيع لله، فأرجو أن أكون ممّن أطاع الله في السرّ والعلانية، ولا تكون الطاعة إلاّ عند المراسم الإلهية والأوامر الموقوفة على الخطاب، فأرجو أن أكون ممّن يأمره الله في سرّه فيمتثل مراسمه بلا واسطة.

ومن مقامه عليه السلام أيضاً الصلاح، والصلاح عندنا أشرف مقام يصل إليه العبد ويتصف به في الدنيا والآخرة، فإن الصلاح صفة امتنّ الله بها على من وصفه بها من خاصته وهي صفة يسأل نيلها كل نبيّ ورسوله، وعندنا من العلم بها ذوق عظيم ورثناه من الأنبياء عليهم السلام ما رأيته لغيرنا، والصلاح صفة ملكية روحانية، فإن رسول الله ﷺ يقول فيها: **«إِذَا قَالَ العَبْدُ فِي التَّشَهُّدِ: السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ للَّهِ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»**.

ومن مقام إبراهيم عليه السلام أن الله آتاه أجره في الدنيا وهو قول كل نبيّ ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة هود: الآية ٢٩] أجر التبليغ، فكان أجره أن نجاه الله من النار فجعلها عليه برداً وسلاماً، فأرجو من الله أن يجعل كل مخالفة ومعصية صدرت مني يكون حكمها في حكم النار في إبراهيم عليه السلام حين رمي فيها عناية من الله لا عن عمل ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٠] أي لذلك الأجر ما نقصه كونه في الدنيا قد حصله بما يناله منه في الآخرة شيئي.

ومن مقام إبراهيم عليه السلام الوفاء فإنه الذي وفى، فأرجو أن أكون من ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٠] وعليه أدل الناس أبداً وأربي عليه أصحابي فلا أترك أحداً عهد مع الله عهداً وهو يسمع مني ينقضه كان ما كان من قليل الخير وكثيره، ولا أدعه يتركه لرخصة تظهر له تسقط عنه الإثم فيه، ومع هذا فيوفي بعهد الله ولا ينقضه تماماً للمقام الأعلى وكمالاً، فإن النفس إذا تعوّدت نقض العهد واستحلته لا يجيء منها شيء أبداً، فهذا كله من مقام إبراهيم الذي أمرنا أن نتخذه مصلًى فقال: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٥] أي موضع دعاء إذا صليتم فيه أن ندعو في نيل هذه المقامات التي حصلت لإبراهيم الخليل عليه السلام كما قرّرناه، وفي هذه الواقعة أيضاً قيل لي: قل لأصحابك: استغنموا وجودي من قبل رحلتي، فنظمت ذلك وضمنته هذا اللفظ فقلت بعدما استيقظت: [مجزوء الرجز]

قد جاءني خطابٌ ... من عند بُغيَتِي
بأن أقول قولاً ... لأهل مِلَّتي
استغنموا وجودي ... من قبل رِحلتي
لكي أرى بعيني ... من كان قِبْلَتي
وفي وجوديَ أيضاً ... من كان عِلَّتي
فإنني فقيرٌ ... لِسَدِّ خَلَّتي
محبتي مقامي ... والحال خُلَّتي
فعينُه وجودي ... والعلم حُلَّتي
دعوتُ عينَ نفسي ... لما تولَّتِ
عن ذكرِ ما أتاها ... وما استقلَّتِ
فعند ما تجلَّى ... مع الأهلَّةِ
إلى شُهُودِ عيني ... من خلف كِلَّتي
ومدَّ لي يميناً ... من أجل قِبْلتي
فما رأيتُ غيري ... إذ كان جُمْلَتي

ورأيت في هذه الواقعة أنواعاً كثيرة من مبشرات إلهية بالتقريب الإلهيّ وما يدل على العناية والاعتناء، فأرجو من الله أن يحقق ذلك في الشاهد، فإن الأدب يعطي أن أقول في مثل هذا ما قال رسول الله ﷺ: إن يكن من عند الله يمضه مع علمه بأنه من عند الله، فما قلت مثل هذا قط في واقعة إلاَّ وخرجت مثل فلق الصبح، فإني في هذا القول متأسّ ومقتد برسول الله ﷺ لما رأى في المنام أن جبريل عليه السلام أتاه بعائشة في سرقة حرير حمراء وقال له: هذه زوجتك، فلما قصّها على أصحابه قال: إن يكن من عند الله يمضه، فجاء بالشرط لسلطان الاحتمال الذي يعطيه مقام النوم وحضرة الخيال فكان كما رأى وكما قيل له فزوّجها بعد ذلك، فاتخذت ذلك في كل مبشرة أراها وانتفعت بالاتباع فيه، وما قلت هذا كله إلاَّ امتثالاً لأمر الله في قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ١١] وأية نعمة أعظم من هذه النعم الإلهية الموافقة للكتاب والسنّة.

ثم نرجع ونقول: فإذا فرغ من طواف الإفاضة إن كان عليه سعي خرج يسعى على ما قرّرنا قبل في السعي عند الكلام عليه، وإلاَّ أتى زمزم فتضلع من مائها وهي بئر فهو علم خفيّ في صورة طبيعية عنصرية قد اندرج فيها تحيى بها النفوس يدل على العبودية المحضة، فإن حكم الله تعالىٰ في الطبيعة أعظم منه في السموات والأرض لأنهما من عالم الطبيعة عندنا، وعن الطبيعة ظهر كل جسم وجسد وجسماني في عالم الأجسام العلوي والسفلي.

وصل في فصل ـ قوله تعالىٰ: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٩] ولم يقل للحاج فأنزل الحج في الآية منزلة الناس ما أنزله منزلة الديون والبيوع وإن كان المعنى يطلبه، فعلمنا أن حكم الحج عند الله ليس حكم الأشياء التي تعتبر فيها الأهلة

أعني مواقيت الأهلة، والحج فعل مضاف مخصوص معين يفعله الإنسان كسائر أفعاله في بيوعه ومداييناته، فاعتنى بذكر هذه الأفعال المخصوصة، لأنها أفعال مخصوصة لله عزّ وجلّ بالقصد ليس للعبد فيها منفعة دنيوية إلاّ القليل من الرياضة البدنية، ولهذا تميّز حكم الحج عن سائر العبادات في أغلب أحواله وأفعاله في التعليل، فأكثره تعبد محض لا يعقل له معنى عند الفقهاء، فكان بذاته عين الحكمة ما وضع لحكمة موجبة، وفيه أجر لا يكون في غيره من العبادات، وتجلّ إلهيّ لا يكون في غيره من الأعمال، فكان الهلال في أوّل شهر الوقوف بمنزلة الواحد من العدد، وتجلي الهلال في أول ليلة فيه تجلي الحق في العبد بالإيمان الذي هو أول مطلوب بالشرع من الإنسان المكلف، والإيمان روح وجسمه صورة التلفظ بلا إله إلاّ الله وهي الشهادة بالتوحيد، وكذلك نشهد أول ليلة الهلال، ثم لا يزال يعظم التجلي في بسائط العدد إلى أن ينتهي إلى ليلة التاسع وهي آخر ليلة بسائط العدد التي هي آحاده، فكمل تجليه في آحاد بسائط العدد، فكان الوقوف بعرفة يوم التاسع، فحصلت له معرفة الله تعالىٰ بكمال البسائط، ولهذا قابلها ودخل فيها بالتجريد عن المخيط وهو التركيب.

ألا تراه يلبس في اليوم العاشر المخيط لأنه انتقل من الآحاد إلى أول العقد وهي العشرة؟ والعقد لا يكون إلاّ بين اثنين بضم الواحد إلى الآخر بصورة العطف والالتفاف وهو على قسمين: أعني العقد وهو أنشوطة وغير أنشوطة، فعقد الأنشوطة يسرع إليه الانحلال فيما عهد إليه وعاهد عليه الله، وغير الأنشوطة لا يسرع إليه الانحلال، وبقي بعد التسعة من أفعال الحج ثلاثة وهو: فعل المزدلفة ومنى وطواف الإفاضة، والفعل المختص بالمزدلفة إنما هو من أول الفجر إلى طلوع الشمس، وليس المبيت في المزدلفة خاصاً بها لأنها ليلة عرفة، والمزدلفة لا ليلة لها ولها المبيت لا الليلة كليلة سودة بنت زمعة الليلة لها والمبيت لعائشة، فلسودة ليلة بلا مبيت، ولعائشة مبيت ليلة سودة لا ليلتها، ولهذا كانت تلك الليلة تضاف إلى سودة بالذكر، كذلك بقي من مراتب العدد ثلاثة بعد التاسع وهي العشرة والمائة والألف، وما بقي للعدد مرتبة سوى ما ذكرته، كذلك ليس بعد طواف الإفاضة عمل للحاج في الحج يحرم عليه به شيء هو له حلال، فإنه به أحل الحل كله وليس بعده لغير المكيّ إلاّ طواف الوداع، لأنه ودع مراتب العدد وبقي التركيب فيه إلى ما لا نهاية له، فهذه اثنتا عشرة مرتبة قد حصلها العبد في التجليات الكمالية العددية، ودخل في الليلة الثالث عشرة الهلال في الكمال وهي من الليالي البيض المرغب في صومها كأيام التشريق المرغب في فطرها التي يصومها المتمتع الآفاقي، وانتهى نصف الشهر الذي يتضمن السلوك منه بالخروج إلينا وإياه سبحانه نقصد.

ثم نشرع في النصف الثاني من الشهر في السلوك إليه منا إلى أن ينتهي إلى ليلة السرار وهو الكمال الغيبي كما كان في النصف الكمال الشهادي، فكمل غيباً وشهادة ودار الدور بإهلال ثان وحكم آخر دنيا وآخرة فإنه قال في وصف الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٢] فجعلها محلاً للزمان المعروف عند العرب مثل الدنيا، فالحاج في الحج يجني ثمرة الزمان وما يحوي عليه من المعارف الإلهية المختصة بشهر ذي حجة، ويجني ثمرة

العدد في المعارف الإلهية لأن العدد له حكم فيها ألا تراه قد قال: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٣] وقال: «إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مِائَةً إلاَّ وَاحِدٌ». فدخل تحت حكم العدد بأسماء مخصوصة وقال: إن لله ثلاثمائة خلق فأدخل الأخلاق الإلهية تحت حكم العدد، فله سلطان في الإلهيات ذكراً واسماً وخلقاً، فمن لم يقف عليه حرم خيراً كثيراً من المعرفة بالله، ولذلك قدّمنا في هذا الباب وجود الآحاد في الكثرة والكثرة في الآحاد وهو العدد فهو المعطي الفائدة للعادّين ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [سورة الكهف: الآية ١٩] فاسأل العادّين كما قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٣] فألحقهم بالعلماء. كذلك الحج هو المعطي ما يحوي عليه من المعارف الإلهية للحاج، فلهذا أضيف الميقات للحج في الهلال، وما أضيف للحاج كما أضيف للناس وجعلها مواقيت لما ذكرناه، فإن الفعل ينتهي فيه إلى نصف الشهر وهو تمام وكمال في نفس الأمر، فإن النصف لا يؤذن بالنقص لكونه نصفاً، ولو كان نقصاً لكان الذي حصل له متصفاً في تحصيله بالنقص، لأنه ما حصل له النصف الآخر بل لو حصل له النصف الآخر لكان نقصاً حصوله.

قال تعالىٰ: «قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي» فظهر كمال الحق في تحصيل النصف من الصلاة، ولو اتصف بتحصيل النصف الثاني لكان نقصاً فيما ينبغي لله من الكمال وظهر كمال العبد في تحصيل النصف من الصلاة، ولو اتصف بتحصيل النصف الآخر لكان نقصاً في كمال عبوديته وفيما ينبغي له من الكمال فيها، فكان يوصف بأوصاف الرب وليس له ذلك، ألا ترى الشريك الموضوع لله تعالىٰ من المشرك كيف لا يغفر الله هذه المظلمة فإنها من حقوق الغير لا من حق الله، فإنه من كرم الله ما كان لله من حق على العبد وفرّط فيه غفره الله له، وذلك لأن حقيقته التفريط، ولا يعصمه من ذلك إلاّ الله، فالعصمة فيما تقتضيه حقيقته ليست له إنما هي لله وبيد الله، فمن لم يخرج عن حقيقته فلا مطالبة عليه، ولهذا كانت لله الحجة البالغة على خلقه، فتعين أن الشرك من مظالم العباد، فإن الشريك يأتي يوم القيامة من كوكب ونبات وحيوان وحجر وإنسان فيقول: يا رب سل هذا الذي جعلني إلهاً ووصفني بما لا ينبغي لي خذ لي بمظلمتي منه، فيأخذ الله له بمظلمته من المشرك فيخلده في النار مع شريكه إن كان حجراً أو نباتاً أو حيواناً أو كوكباً، إلاّ الإنسان الذي لم يرض بما نسب إليه ونهى عنه وكرهه ظاهراً وباطناً فإنه لا يكون معه في النار، وإن كان هذا من قوله وعن أمره ومات غير موحد ولا تائب كان معه في النار، إلاّ أن الذي لا يرضى بذلك ينصب للمشرك مثال صورته يدخل معه ليعذب بها ولا عذاب على كوكب ولا حجر ولا شجر ولا حيوان، وإنما يدخلون معهم زيادة في عذابهم حتى يروا أنهم لن يغنوا عنهم من الله شيئاً ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٩٨] فيقولون: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٩٩] ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤] فهم جمر جهنم، فالناس المشركون والحجارة المعبودون.

وأما من سبقت لهم الحسنى وهم الذين لم يأمروا ولم يرضوا فهم عنها مبعدون كعيسىٰ وعزير وأمثالهما وعلي بن أبي طالب وكل من ادّعي فيه أنه إله وقد سعد فيدخل الله معهم في جهنم مثلهم الذين كانوا يصورونها في الكنائس وغيرها نكاية لهم، لأن كل عابد من المشركين قد مسك مثال صورة معبوده المتخيلة في نفسه، فتجسد إليه تلك الصورة المتخيلة ويدخلها النار معه فإنه ما عبد إلاّ تلك الصورة التي مسكها في نفسه، وتجسد المعاني المتخيلة غير منكور شرعاً وعقلاً. فأمّا العقل فمعلوم عند كل متخيل. وأمّا الشرع فقد ورد بتصوّر الأعمال والأعمال أعراض، ألا ترى الموت وهو معنى نسبي إضافيّ فإنه عبارة عن مفارقة الروح الجسد وأن الله يمثله يوم القيامة للناس صورة كبش أملح فيوضع بين الجنة والنار ويذبح فهكذا تلك المثل.

وأمّا الظالم لنفسه من أهل الشرك فنفسه تطالبه عند الله بمظلمتها ولا شيء أشدّ من ظلم النفس، ألا ترى القاتل نفسه الجنة عليه محرّمة؟ فثبت بهذا أن الكمال للشيء ما لا يخرجه عن حقيقته، فإذا أخرج عن حقيقته وما تستحقه ذاته كان نقصاً، فلهذا قلنا: إن النصف كمال في حق من هو سهمه مال الورث وإن انقسم إلى ثلث وربع وثمن وثلثين ونصف وسدس وغير ذلك، وكل جزء إذا حصل لمستحق صاحب الفريضة فقد حصل له كمال نصيبه، فهو موصوف بالكمال في النصيب مع كونه ما حصل له إلاّ سدس المال إن كان له السدس ولا يتصف بالنقص، قال الله: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦] والعمرة بلا شك تنقص في الأفعال عن أفعال الحج وكمالها إتيانها كما شرعت، وكذلك الحج يتصف بالكمال إذا استوفيت صورته وكملت نشأته، وهما نشأتان ينشئهما العبد المكلف، أنشأها بما أعطاه الله من خلقه على الصورة الإلهية، فضرب له بسهم في الربوبية بأن جعل له فعلاً وإنشاء، فإن انحجب بذلك عن عبوديته فقد نقص وشقي وكان صاحب علة، ولهذه العلة جعل الله له دواء فقال على لسان نبيه ﷺ: جرح العجماء جبار، فأضاف الجرح وهو فعل للعجماء، فإن ادّعى الربوبية لكونه فاعلاً فهو يعلم أنه أفضل من العجماء، فإن نسب الفعل إليهما فتنكسر نفسه ويبرأ من علته إن استعمل هذا الدواء، ثم يفكر في أن الشرع قد جعل جرح العجماء جبار وجرح الإنسان مأخوذ به على جهة القصاص، مع كون العجماء لها اختيار في الجرح وإرادة، ولكن العجماء ما قصدت أذى المجروح، وإنما قصدت دفع الأذى عن نفسها فوقع الجرح والأذى تبعاً، بخلاف الإنسان فإنه قد يقصد الأذى، فمن حيوانيته يدفع الأذى، ومن إنسانيته يقصد الأذى، فالعبد رق والرب الكريم خلق، فعين الشكل وفصل الأجزاء في الكل.

ثم ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ١ ـ ٤] وهو ما ينطق به اللسان، ثم الرب الأكرم علم بالقلم ما يخطه البنان، فالإنسان بنيان صنعة رب كريم وأكرم ورحمان، فهذه أربعة أسماء توجهت على خلق الماء فجعل ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] إذ كان عرشه عليه، فالكون المخلوق ظله بفيئه، ثم ردّه إليه، فالإلقاء رتق، واللقاء فتق، فعين السماء من الأرض، فتميز الرفع من الخفض، وأحكم الصنعة

الإنسانية وصبغها بالصبغة الإيمانية، في حضرة الفهوانية، بالمشاهدة الإحسانية، فلما كتب رتب، فوضع كل شيء مكانه، وأقام أوزانه، لما وضع ميزانه: [البسيط]

فـكـلُّ جـزء لـه حـكـمٌ يـمـيِّـزهُ فـي عـيـنـه أبـداً مـن بـيـن إخـوانـهِ
فالكلُّ في الكلِّ مضروبٌ لذي نَظَرٍ ضَـرْبَ الـحـسـاب لإفـهـام بـتـبـيـانـهِ
لأنـه فـي دجـى الأحـشـاء رتَّـبَـهُ إذ كـان سـوّاه فـي تـعـديـل بـنـيـانـهِ
أقـام نـشـأتَـه مـن عـيـن صـورتـه وعـيَّـن الـحـقَّ فـيـهـا وضْـعُ مـيـزانـهِ
الأصلُ مني وحكم الوزن منه لذا أبـدتـه فـي عـيـنـه أحـكـامُ أوزانـهِ
وأودع الـعـالـمَ الـعـلـويَّ فـيـه بـمـا أعـطـاه مـن نـفـسـه بـحـدّ إمـكـانـهِ
فـصـار جـمـعـاً لـمـا قـد كـان فـرَّقـه مـن الـحـقـائـق فـي أعـيـان أكـوانـهِ
بـالـجـمـع صـحَّ لـه تـحـصـيلُ صـورتـه لـم يـدر ذلـك لـولا حـكـمُ إيـمـانـهِ
أحـاط عـلـمـاً بـأن الأمـر فـيـه عـلـى خـلاف مـا هـو فـي آيـات قـرآنـهِ
مـن كـان يـقـرأه يـدري حـقـيـقـتَـه بـأنـه لـم يـزل فـي حـكـم فُـرْقـانـهِ

فلولا شرف النفس ما دفع الحيوان الأذى عن نفسه، وما قصد أذى الغير مع جهله، بأنه يلزمه من غيره ما يلزمه من نفسه للاشتراك في الحقيقة، وكذلك الإنسان إذا دفع الأذى عن نفسه لم يقع عليه مطالبة من الحق، فإن تعدّى وزاد على القصاص أو تعدّى ابتداء أخذ به، ولكن ما يتعدى إلاَّ من كونه إنساناً فقد تجاوز حيوانيته إلى إنسانيته، والأصل في هذا التعدّي من الأصل لأن الأصل له الغنى، وأين حكمه من حكم ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فهذا الأمر من الخالق أعني من الاسم الخالق لا من الاسم الغني، فإن أحصرتم عن حجكم أو عمرتكم فما استيسر من الهدي.

وصل في فصل ـ الإحصار: اختلف العلماء بالذكر في هذه الآية في حكم المحصر بمرض أو بعدو، وهل هذا المحصر في هذه الآية بعدو أو بمرض؟ فقالت طائفة: المحصر هنا بالعدو. وقالت طائفة: المحصر هنا بالمرض. وقال قوم: المحصر الممنوع عن الحج أو العمرة بأي نوع كان من المنع بمرض أو بعدو أو غير ذلك وهو الظاهر وبه أقول مراعاة للقصد، وما أوقع الخلاف إلاَّ فهمهم في اللسان لأنه جاء في الآية بالوزن الرباعيّ، ونقل أنه يقال حصره المرض وأحصره العدو، فأما المحصر بالعدو فاتفق الجمهور على أنه يحل من عمرته وحجّه حين أحصر. وقال الثوريّ والحسن بن صالح: لا يحل إلاَّ يوم النحر، وبالأول أقول، وهو أنه يحل حين أحصر، غير أني أزيد هنا شيئاً لم يره من وافقنا في الإحلال حين الإحصار، وهو أن المحرم إن كان قال حين أحرم أنّ محلي حيث تحبسني كما مر فلا هدي عليه ويحل حيث أحصر وإن لم يقل ذلك، وما في معناه فعليه الهدي، والذين قالوا بالتحلّل حين أحصر اختلفوا في إيجاب الهدي عليه، وفي موضع نحره عند من يقول بوجوبه على شرطنا أو على غير شرطنا فيما أحصر عنه من حج أو عمرة فقال بعضهم: لا هدي عليه وإن كان معه هدي تطوّع نحره حيث أحلّ، وبنحر الهدي المتطوع به حيث أحل أقول، وقال

بعضهم بإيجاب الهدي عليه، واشترط بعضهم ذبح الهدي الواجب بالحرم، وأما الإعادة فمن العلماء من لا يرى عليه إعادة وبه أقول في حج التطوّع وعمرته إن كان عليه في ذلك حرج، فإن لم يكن عليه فيه حرج فليعد.

وأما الفريضة فلا تسقط عنه إلاَّ إن مات قبل الإعادة فيقبلها الله له عن فريضته، وإن لم يحصل منه إلاَّ ركن الإحرام بل ولو لم يحصل منه إلاَّ القصد والتعمل. وقال بعضهم: إن كان أحرم بالحج فعليه حجة وعمرة، وإن كان قارناً فعليه حجة وعمرتان، فإن كان معتمراً قضى عمرته ولا تقصير عليه، واختار بعض من يقول بهذا القول التقصير، وقد حكى بعضهم الإجماع، على أن المحصر بمرض وما أشبهه عليه القضاء ولكن لا أدري أيّ إجماع أراد، فإن إطلاق الفقهاء لفظة الإجماع قد تجاوزوا بها حدّها الأول إلى غيره، فقد يطلقون الإجماع على اتفاق المذهبين ويطلقونه على اتفاق الأربعة المذاهب، ولكن ما هو الإجماع الذي يتخذ دليلاً إذا لم يوجد الحكم في كتاب ولا سنّة متواترة، فهذا قد ذكرنا من اختلافهم في هذه المسألة ما ذكرناه وتركنا ما لا يحتاج إليه في هذا الوقت، فلنرجع إلى طريقنا فنقول: قوله تعالىٰ: ﴿أُحْصِرْتُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦] هو من أحصر لا من حصر، يقال: فعل به كذا إذا أوقع به الفعل، فإذا عرّضه لوقوع ذلك الفعل يقال فيه أفعل، ومثاله: ضرب زيد عمراً إذا أوقع به الضرب، وأضرب زيد عمراً إذا جعله يضرب غيره. وفي اللسان: أحصره المرض وحصره العدو بغير ألف فهو في المرض من الفعل الرباعيّ، وفي العدو: من الفعل الثلاثيّ، فالعبد لما كان محل ظهور الأفعال الإلهية فيه وما تشاهد في الحسّ إلاَّ منه، ولا يمكن أن يكون إلاَّ كذلك نسب الله الفعل للعبد ونسب الناس الفعل للمخلوق، وإن كان أصاره الحق لذلك فصار فنسبة صار تجعل الفعل للعبد، ونسبة أصار تجعل الفعل لله، فمن راعى أصار لم يوجب عليه الهدي لأن الأصل عدم الفعل من العبد، ومن راعى أصاره الحق فصار أوجب عليه الهدي، ولهذا فصلنا نحن في ذلك فقلنا: إن قال محلي حيث يحبسني فقد تبرّأ العبد من حكم الحصر فلا هدي عليه، وإن لم يقل كان الهدي عليه عقوبة للتركب، فالفعل من المخلوق للعبد ظهور الفعل منه بالاختيار والقصد والمباشرة حقيقة مشهودة للبصر والفعل من المخلوق من كون الحق أصاره إلى ذلك، فكان له كالآلة للفاعل، والآلة هي المباشرة للفعل، وينسب الفعل لغير الآلة بصراً وعقلاً، فيقال: زيد الضارب والمباشر للضرب، والذي يقع به الضرب إنما هو السوط لا زيد، هكذا أفعال العباد فهم للحق كالآلة لزيد النجار أو الحائك أو الخائط أو ما كان، وبهذا القدر تعلق الجزاء والتكليف لوجود الاختيار من الآلة، والأصل الغفلة الغالبة وهي مسألة دقيقة في غاية الغموض، ولا دليل في العقل يخرج الفعل عن العبد المخلوق ولا جاء به نص من الشارع لا يحتمل التأويل،.فالأفعال من المخلوقين مقدّرة من الله، ووجود أسبابها كلها بالأصالة من الله، وليس للعبد ولا لمخلوق فيها بالأصالة مدخل إلاَّ من حيث ما هو مظهر لها ومظهر اسم فاعل واسم مفعول، يقال في الصنع إذا اختل في صنعته شيء لعدم مساعدة الآلة مع علمه بالصنعة قد أخلّ منها بكذا وكذا، أو يستفهم لم أخللت بها

مع علمنا بأنك عالم بها، فيقول: لم تساعدني الآلة على إبراز ما كان في علمي، ويقول المصنوع: ما قصر لظهور عينه لا لقصد الصانع، فمن حيث الصنعة من المصنوع ما اختلّ شيء، ومن حيث مصنوع ما كان المراد سواه إذا كان الصانع المخلوق اختلّ، فإن كان الخالق فما اختلّ في الصنعة شيء لأن الكل مقصود لعدم قصور تعلّق الإرادة، فكل واقع وغير واقع مراد للحق أراد الله إيجاد عرض ما ولم يرد إيجاد محل يقوم به هذا العرض، فلم يمكن إيجاد ذلك العرض ما لم يكن المحل، فلا بدّ من وجود المحل إذ كان لا بدّ من وجود العرض، فوجود العرض عن إيجاد اختياريّ، ووجود المحل عن إيجاد غير اختياري، ولا يجوز أن يكون اضطرارياً إذ كان لا بدّ من وجود ذلك العرض، فاضطرار الكون من حقيقة عدم هذا الاختيار المحقق فتفطن فإنك إن لم تعرف الأمور من جهة حقائقها لم تعرف أن العالم خرج على صورة الحق يرتبط ما فيه من الحقائق بالحقائق الإلهية، وهذا مدرك صعب عليه حجب كثيرة لا ترتفع بفكر ولا بكشف، فالأمر دائر بين تأثير حق في خلق وخلق في حق، قال تعالىٰ: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِّ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] وقال ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله، فللناقة شرب أعني ناقة صالح: ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [سورة الشعراء: الآية ١٥٥] ضرب مثلاً لقوم يعقلون وما منا إلاّ له مقام معلوم، فالحصر عمّ الوجود، فكل موجود موصوف بحصر ما فهو محصر من ذلك الوجه، وقد أبنت لك ما لا يقدر على دفعه كشف، ولا دليل عقل نظريّ، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

وصل في فصول ـ أحكام القاتل للصيد في الحرم وفي الإحرام: وقد تقدّم من حكم الصيد طرف في هذا الباب، والكلام هنا في قتله لا في صيده في الحرم كان أو في الحل لقوله؛ ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ﴾[سورة المائدة: الآية ٩٥]. الآية وهي آية محكمة، واختلفوا في تفاصيلها على حسب فهمهم فيها، فمن ذلك هل الواجب قيمته أو مثله؟ فذهب بعضهم إلى أن الواجب المثل، وقال بعضهم: هو مخيّر بين القيمة والمثل، قتل الصيد شهادة للصيد فهو حيّ يرزق، لأنه قتل تعدّياً بغير حق في سبيل الله، إذ سبيل الله حرمه والحرم صفة المحرم والبقعة، فهذا الصيد المتعدّي عليه إما بهاتين الصفتين أو بإحداهما، فمن تعمد قتله محرماً أو في الحرم فقد تعدّى عليه فعاد ما أراد به من الموت وإن لم يقم به على القاتل ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٤] فالصيد مقتول لا ميت، والقاتل ميت لا مقتول، فهذا هو الميت المكلف، كما يطلب الجواب من الميت في قبره عند السؤال مع وصفه بالموت، وهذا هو الموت المعنوي، فكلف بجزاء مثل ما قتل من النعم هدياً بالغ الكعبة، أو كفارة طعام مساكين، أو عدل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره، كما يعذب الميت في قبره، ومن عاد لمثل ذلك الفعل فينتقم الله منه إما بإعادة الجزاء فإنه وبال والوبال الانتقام، وإمّا أن يسقط عنه في الدنيا هذا الوبال المعين وينتقم الله منه بمصيبة يبتليه بها إمّا في الدنيا، وإمّا في الآخرة فإنه لم يعين.

واعلم أن كل علم من علوم الأسرار المصونة في خزائن الغيرة التي لا يوهب إلاّ لأهله

فإنه قال ﷺ: «**لاَ تُعْطُوا الْحِكْمَةَ غَيرَ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوهَا**» فهي كالصيد في حمى الحرم أو الإحرام أو هما معاً أعني في الحمائين، فإذا قتلها وهو أن يمنحها غير أهلها فلا يعرف قدرها فتموت عنده عاد وبالها عليه فيكفر بها يتزندق، فذلك عين الجزاء حكم به عدلان وهما الكتاب والسنّة، فإن كان الجزاء مثلاً فيبحث عن جاهل عنده حكمة لا يعرف قدرها، فيبين له عن مكانتها حتى يحيي بها قلبه، فيقتل متعمداً من ذلك الشخص عين الجهل القائم به الذي كان سبب إضاعة هذا العلم عنده، وصورة العقوبة والوبال فيه عليه أنه حرم حكمة ذلك الجهل في ذلك الجاهل حتى رآها صفة مذمومة منهياً عنها مستعاذاً بالله منها في قوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٧] فحرم ما هو كمال في نفس الأمر إذ كان الجهل من جملة الأسرار المخزونة في أعيان الجاهلين، فحفظها تبرم العالم منها فكأنهم تبرؤوا عن حقائقهم، فالذي تبرؤوا منه وقعوا فيه، فإنهم تبرؤوا من الجهل بالجهل لو عقلوه، فحكم جهلهم فيهم أعظم من جهل الجهلاء فإنهم ما تفطنوا لقول الله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٥] فلا ينتهي إلاّ عن معلوم محقق عنده، فإنه إن لم يعلم الجهل فلا يدري ما نهى عنه، وإذا علمه فقد اتصف به، فإن الجهل إن لم يكن ذوقاً فلا يحصل له العلم به فإنه من علوم الأذواق، ألا ترى الطائفة قد أجمعوا على أن العلم بالله عين الجهل به تعالىٰ. وقال الله تعالىٰ في الجاهل: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [سورة النجم: الآية ٣٠] فسمّى الجهل علماً لمن تفطن وهي صفة كيانية حقيقة للعبد إن خرج منها ذم، وإن بقي فيها حمد، فإنه ما علم من الله سوى ما عنده وما عنده ينفد فإنه عنده، وما هو هو لا ينفد، وهو هو عين الجهل، والذي عنده عين العلم فهو عين الدلالة والدليل وهو الدال فهو عين العلم بالله: [البسيط]

والعلمُ بالله نَفيُ العلم بالله ... والثَّبْتُ من صفة المنعوت بالسَّاهي
فالعلم جَهلٌ لكونِ العين واحدةً ... والجهلُ علمٌ بكونِ الله في اللاهي

انتهى الجزء التاسع والستون.

(الجزء السبعون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصل في فصل ـ اختلافهم في آية قتل الصيد في الحرم والإحرام في كفارته هل هي على الترتيب أم لا؟: الآية قوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٥] إلى آخر الآية. اختلفوا في هذه الآية هل هي على الترتيب وبه قال بعضهم إنه المثل أوّلاً، فإن لم فالإطعام، فإن لم فالصيام، أو الآية على التخيير وقال به بعضهم، وهو أن الحكمين يخيران الذي عليه الجزاء وبه أقول، فإن كلمة أو تقتضي التخيير، ولو أراد الترتيب لقال وأبان كما فعل في كفارات الترتيب، فمن لم يجد فمذهبنا في هذه المسألة أن المثل المذكور هنا ليس كما رآه بعضهم أن يجعل في النعامة بدنة، وفي الغزالة شاة، وفي البقرة الوحشية بقرة إنسية بل في كل شيء مثله، فإن كانت نعامة اشترى نعامة صادها حلال في حل، وكذلك كل مسمّى صيد ممّا يحل صيده وأكله من الطير وذوات الأربع أو كفارة بإطعام وحدّ ذلك عندي أن ينظر إلى قيمة

ما يساوي ذلك المثل، فيشتري بقيمته طعاماً فيطعمه للمساكين، أو عدل ذلك صياماً فننظر إلى أقرب الكفارات شبهاً بهذه الكفارة الجامعة لهدي أو إطعام أو صيام، فلم نجد إلاً من حلق رأسه وهو محرم لأذى نزل به ففدية من صيام أو صدقة أو نسك، فذكر الثلاثة المذكورة في كفارة قاتل الصيد، فجعل الشارع هنالك في الإطعام ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع، وجعل الصيام ثلاثة أيام فجعل لكل صاع يوماً فننظر القيمة فإن بلغت صاعاً أو أقل فيوم فإن الصوم لا يتبعض، وإن بلغت القيمة أن نشتري بها صاعين أو دون الصاعين أو أكثر من الصاع فيومان وهكذا ما بلغت القيمة، وأعني بالقيمة قيمة المثل يشتري بها طعاماً فيطعم، والصيام محمول على ما حصل من الطعام بالشراء على ما قررناه، فهو مخيّر بين المثل والإطعام بقيمة المثل والصيام بحسب ما حصل من الطعام من قيمة المثل والمثل والطعام تناوله سبب في بقاء حياة المتغذي به، لأن هذا المتغذي أتلف نفساً وأزال حياة فجبرها وكفر ذلك بما يكون سبباً لإبقاء حياة، فكأنه أحياها زمان بقائها بحصول ذلك الغذاء من المثل أو الطعام، وأما الصيام فإنها صفة ربانية، فكلف أن يأتي بها هذا القاتل إن لم يكفر بالمثل أو بالإطعام، فإن أبيت فاخرج عن التحجير حتى يكون قاتل الصيد غير محجور عليه فلا يكلف شيئاً، قال: وما هو؟ قال: الصوم فإنه لي وأنا لا أتصف بالحجر عليّ فتلبس بصفتي تحصل في الحمى عن الحجر عليك، فإذا صمت كان الصوم لي والجوع لك، فبما في الصوم من الجوع في حقك الذي ليس لي يكون كفارة، لأن الجوع من الأسباب المزيلة للحياة من الحيّ، فأشبه القتل الذي هو سبب مزيل للحياة من الحيّ، ولم تزل حياتك بهذا الجوع لأنه جوع صوم والصوم من صفاتي وهو غير مؤثر في الحياة الأزلية، فلهذا لم يجع جوع الإتلاف، والحق سبحانه مذهب الأشياء لا معدمها لأنه فاعل والفاعل من يفعل شيئاً، فإنّ لا شيء ما يكون مفعولاً، فهو وإن أذهب الأشياء من موطن كان لها وجود في موطن آخر، فإن الكون الذي منه الاجتماع والافتقار لا يدل على عدم الأعيان، فالموت إذهاب لا إعدام فإنه انتقال من دنيا إلى آخرة التي أولها البرزخ، فلما كان الإذهاب من صفات الحق لا الإعدام كما قال تعالىٰ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٣] ولم يقل يعدمكم لذلك لم يجعل جوع الصوم جوع إتلاف النفس وإن كان إذهاباً لا إعداماً، وذلك أنه لا يصحّ الإعدام لهذا الموجود لأن المتصف بالوجود إنما هو الحق الظاهر في أعيان المظاهر، فالعدم لا يلحق به أصلاً فإنه يقول للشيء إذا أراده ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٧] هو: [البسيط]

نظرتُ في كون من قالت إرادتُه ... إذا توجَّه للأشياء كُنْ فتكُونْ
فعندما حقَّقَتْ عيني تكوُّنَه ... إذا به عينه لا غيره فأكونْ
فخذ فديْتُك علماً كنتَ تجهله ... وانظر إلى أصعب الأشياء كيف يَهُونْ
فالعلمُ أشرفُ نعت ناله بشرٌ ... وصاحبُ العلم محفوظٌ عليه مَصُونْ
إن قام به أو راح راح به ... والحالُ والمالُ في حكم الزوال يكونْ

وليس ناظم هذا غيره فله ... ما قلت فهو الذي في عين كل مَكُونْ
لولا تجلّيه في الأعيان ما ظهرت ... نُعوتٌ كان به وكائن ويكونْ
لذا تسمَّى بدهر لا انقضاءَ له ... ولا ابتداءَ فشكلُ الكون منه كُنُونْ

وصل في فصل ـ هل يقوّم الصيد أو المثل؟: فمذهبنا قد تقدّم أن المثل يقوّم وبيَّنا ما هو المثل فقال بعضهم: يقوَّم الصيد وقال قوم: يقوّم المثل وهو قولنا وخالفناهم في المثل ما هو، وكذلك اختلفوا في تقدير الصيام بالطعام، وقد تقدّم مذهبنا فيه فقالت طائفة: لكل مدّ يوماً. وقال قوم: لكل مدّين يوماً.

وصل في فصل ـ قتل الصيد خطأ: اختلف فقيل؛ فيه الجزاء. وقيل: لا شيء عليه فيه وبه أقول، فإن قتل الخطأ هو قتل الله ولا حكم على الله فإنه بالنسبة إلى الله مقصود القتل، وبالنسبة إلينا خطأ لظهور القتل على أيدينا وعدم القصد فيه، فالمقتول متعمد أي مقصود بالقتل غير مقصود بالقتل، فلهذا تصوّر الاختلاف لإطلاق الحكمين فيه، فمن راعى أنه قتله من كونه ظاهراً في مظهر القاتل ما أوجب الجزاء لأن تلك العين التي ظهر فيها أعطته الحكم عليه بأن لا جزاء لأنه قاصد للقتل، ومن راعى أنه القاتل من خلف حجاب الكون الظاهر ولكن ما أوقعه وظهر في الوجود إلاَّ على يد الظاهر أوجب الجزاء لأن الحكم لما ظهر والقصد غيب وما تعبدنا به فالقاتل إن عرف من نفسه أنه قتل غير قاصد فأوجب عليه ظاهر الشرع بالحكمين الجزاء جبراً كان ذلك له صدقة تطوّع بوجوب شرعيّ في أصل مجهول عند الحاكم، فجمع لهذا القاتل بين أجر التطوّع والواجب فأسقط عنه ما يسقطه الواجب والتطوّع معاً، وإن لم يره أحد مضى ولا شيء عليه.

وصل في فصل ـ اختلافهم في الجماعة المحرمين اشتركوا في قتل صيد: اختلفوا إذا اشترك جماعة محرمون في قتل صيد فقيل: على كل واحد جزاء. وقيل: عليهم جزاء واحد، والذي أقول به إن عرف كل واحد من الشركاء أنه ضربه في مقتل كان على كل من ضربه في مقتل جزاء، ومن جرحه في غير مقتل فلا جزاء عليه وهو آثم حيث تعرّف بالأذى لما حرم عليه الجماعة هنا، إذ يأثم الإنسان بجميع ما كلف من أعضائه الثمانية، فعليه لكل عضو توبة من حيث ذلك العضو، ومن رأى التوبة من جانب من تاب إليه لا ما تاب منه فهو القائل بجزاء واحد، وفرّق بعضهم بين المحرمين يقتلون الصيد وبين المحلين يقتلون الصيد في الحرم فقال في المحرمين: على كل واحد منهم جزاء، وقال في المحلين: جزاء واحد.

وصل في فصل ـ هل يكون أحد الحكمين قاتلاً للصيد؟: فذهب قوم إلى أنه لا يجوز وأجازه قوم، فمن رأى أنه لا فاعل إلاَّ الله وهو الحاكم وهو الفاعل أجاز ذلك، ومن رأى أن الفعل للمخلوق لم يجز ذلك وبالأول أقول وأثبت القول الثاني على غير الوجه الذي يعتقده القائل به.

وصل في فصل ـ اختلافهم في موضع الإطعام: فقيل: يطعم في الموضع الذي قتل فيه الصيد إن كان هناك طعام، أو في أقرب المواضع إليه إن لم يكن هناك ما يطعم. وقال

بعضهم: حيثما أطعم أجزأه وبه أقول لأن الله ما عيّن. وقال بعضهم: لا يطعم إلاّ مساكين مكة من كان الله قبلته لم يخصّص الإطعام بموضع معين ومن كان قبلته البيت حدد.

وصل في فصل ـ اختلافهم في الحال يقتل الصيد في الحرم بعد إجماعهم على أن المحرم إذا قتل الصيد أنّ عليه الجزاء: فقال قوم: عليه الجزاء. وقال قوم: لا شيء عليه وبه أقول.

وصل في فصل ـ المحرم يقتل الصيد ويأكله: فمن قائل: عليه كفارة واحدة وبه أقول. وقيل: عليه كفارتان وبه قال عطاء. وفيه وجه عندي فإن الشرع اعتبره فما أطلق أكله إلاّ لمن لم يعن عليه بشيء، فأحرى إذا كان هو القاتل فإن أكله يحرم عليه كما حرم عليه صيده كما حرم عليه قتله، فهذه ثلاثة حرم: صيد وقتل وأكل لما كان الآكل لنفسه سعى ومن حق نفسه عليه أنه لا يطعمها إلاّ ما لها حق فيه وما لاحق لها فيه فقد ظلمها فجوزي جزاء من ظلم نفسه.

وصل في فصل ـ فدية الأذى: أجمع العلماء على أنها واجبة على من أماط الأذى من ضرورة وهو وجوب اللعنة على الذين يؤذون الله ورسوله، فوجب دفع الأذى حرمة للمحرم، ووجبت الكفارة حرمة للإحرام. الكلام في الله بما لا ينبغي أذى فوجبت إماطته حرمة للحق ولا فاعل إلاّ الله فوجبت الكفارة وهي الستر لهذه النسبة بأن لا يضاف مثل هذا الفعل إلى الله تعالىٰ وجلّ، والكفارات كلها ستر حيثما وقعت، واختلفوا فيمن أماط الأذى من غير ضرورة فقال قوم: عليه الفدية المنصوص عليها. وقال قوم: عليه دم وبه أقول فإنه غير متأذٍ في نفسه أي أنه ليس بذي ألم لذلك، ولذلك جعل محل الأذى الرأس المحسّ به وما جعله الشعر، فما ثم ضرورة توجب الحلق لما كان الإنسان مخلوقاً على الصورة وجبت إماطة الأذى عنه للنسبة عناية به، ووجبت الكفارة فيما أوجب الله عليه فعله أو أباحه له لئلاّ يشغله الإحساس بالأذى عن ذكر الله، وما شرع الحج إلاّ لذكر الله فوجبت الكفارة حيث لم يصبر على الأذى، فما وفى الصورة حقّها، فإنه ورد أنه ما أحد أصبر على أذى من الله، وبهذا سمّي الصبور، وبعدم المؤاخذة مع الاقتدار سمّي الحليم.

وصل في فصل: اختلافهم هل من شرط من وجبت عليه الفدية بإماطة الأذى أن يكون متعمداً أم الناسي والمتعمد سواء؟ فقال قوم: هما سواء. وقال آخرون: لا فدية على الناسي وبه أقول. والناسي هنا هو الناسي لإحرامه وكلاهما متعمد لإماطة الأذى، فإذا وجبت على المضطرّ وهو الذي قصد إزالتها لإزالة الأذى مع تذكره الإحرام فهي على الناسي أوجب، لأنه مأمور بالذكر الذي يختص بالإحرام، فإذا نسي الإحرام فما جاء بالذكر الذي للمحرم فاجتمع عليه إماطة الأذى ونسيان الإحرام فكانت الكفارة أوجب، وأصل ما ينبني عليه هذا الباب وجميع أفعال العبادات كلها علم إضافة الأفعال هل تضاف إلى الله وإلى العباد أو إلى الله وإلى العباد؟ فإن وجودها محقق ونسبتها غير محققة، فلنقل أولاً في ذلك قولاً إذا حققته ونظرت فيه نظر منصف عرفته أو قاربت فإني أفصل ولا أعين الأمر على ما هو في نفسه لما فيه من الضرر واختلاف الناس فيه، والخلاف لا يرتفع من العالم

بقولي، فإبقاؤه في العموم على إبهامه أولى، وعلماء رجالنا يفهمون ما أومي إليه فيها فأقول: إن الله قد قال؛ أنه ما خلق الله الخلق إلاَّ بالحق، وتكلم الناس في هذا الحق المخلوق به، وما صرّح أحد به ما هو إلاَّ أنهم أشاروا إلى أمور محتملة، فاعلم أن الحق المخلوق به والعالم المخلوق أمران محققان أنهما أمران عند الجميع، غير أنهما نظير الجوهر الهبائيّ والصورة، ومعلوم عند الجماعة أن الأفعال تصدر من الصورة، ولكن من هو الصورة؟ فهل العالم أو المخلوق به الذي هو الحق الذي قال الله فيه ﴿مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الدخان: الآية ٣٩] و ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٠٥] فمن رأى أن الحق المخلوق به مظهر صور العالم ظهرت فيه بحسب ما تعطيه حقائق الصور على اختلافها بحسب الأفعال إلى الخلق، ومن رأى أن أعيان الممكنات التي هي العالم هو الجوهر الهبائيّ، وأن الحق المخلوق به هو الصورة في هذا العالم وتنوّعت أشكال صور لاختلاف أعيان العالم، فاختلفت عليه النعوت والألقاب، كما تنسب الأسماء الإلهية من اختلاف آثارها في العالم، فمن رأى هذا نسب الفعل إلى الله بصورة الصورة الظاهرة، ومن رأى أن ظهور الصورة لا يتمكن إلاَّ في الجوهر الهبائيّ.

وأن الوجود لا يصحّ للجوهر الهبائيّ في عينه إلاَّ بحصول الصورة، فلا تعرف الصورة إلاَّ بالجوهر الهبائيّ، ولا يوجد الجوهر الهبائيّ إلاَّ بالصورة، نسب الأفعال إلى الله بوجه وإلى العباد بوجه، فعلق المحامد والحسن بما ينسب من الأفعال للحق، وعلّق المذام والقبح بما ينسب من الأفعال للعباد بالخلق الذي هو العالم لحكم الاشتراك العقليّ والتوقف في العلم بكل واحد منهما، وتوقف كمال الوجود على وجودهما، وقد رميت بك على الجادّة فهذا تفسير: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فنفى الرمي عمّن أثبته له، يقول الله في هذه الآية عين ما قلناه في هذه المسألة وذهبنا إليه ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤] وهذا قوله ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤] أي يبينه لنمشي عليه ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] فمشينا عليه بحمد الله، فأثبت بهذه الآية أن أعيان العالم هو الجوهر البائيّ إلاَّ أنه لا يوجد إلاَّ بوجود الصورة، وكذلك أعيان العالم كما اتصفت بالوجود إلاَّ بظهور الحق فيها، فالحق المخلوق به لها كالصورة، وقد أعلمتك أن الفعل كله إنما يظهر صدوره من الصورة وهو القائل: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فكان الحق عين الصورة التي تشاهد الأعمال منها فتحقق ما ذكرناه، فإنه لا أوضح ممّا بين الله في هذه الآية وبيّناه نحن في شرحنا إياها على التفصيل: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة النور: الآية ٤٦] صراط الله، والصراط الذي عليه الرب، والصراط المضاف إلى الحقيقة في قوله: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣] ولكل صراط حكم ليس للآخر فافهم والسلام. وأما ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٧] فهو الشرع.

وصل في فصل ـ اختلافهم في توقيت الإطعام والصيام: اختلفوا في توقيت الإطعام

والصيام، فالأكثرون على أن يطعم ستة مساكين. وقال قوم: عشرة مساكين والصيام عشرة أيام. واختلفوا في كم يطعم كل مسكين فقال بعضهم: مدّين بمدّ النبيّ ﷺ لكل مسكين. وقال بعضهم: من البرّ نصف صاع ومن التمر والزبيب والشعير صاع. وأما قص الأظفار فقال قوم: ليس فيها شيء. وقال قوم: فيه دم. وفروع هذا الباب كثيرة جداً، فمن اعتبر الستة المساكين نظر إلى ما يطعم الصفات ممّا تطلب فوجدناها ستة كونية عن ستة إلهية، فما للإلٰهية من الحكم للكونية من الحكم وإطعامها ما تطلبه لبقاء حقيقتها فإنه لها كالغذاء للأجسام الطبيعية، فالمعلوم للعلم طعام فيه يتعلق، وكذلك الإرادة، والقدرة، والكلام، والسمع، والبصر، وأما الحياة فليس لها مدخل في هذا الباب، فغاية حقيقتها الشرطية لا غير وهو باب آخر، ولما كانت الحضرة حضرتين كان من المجموع اثنا عشر وهو نهاية أسماء بسائط العدد الذي يعم الحضرتين، فإن العدد يدخل عليهما، ولهذا ورد تعدّد الصفات والأسماء المنسوبة إلى الله، وأما حكمه في الكون فلا يقدر أحد على إنكاره، كما أنها أيضاً نهاية انتهاء وزن الفعل الذي هو مركب من مائة وثمانين درجة، وسأبين حكمها إن شاء الله، فأما أوزان الفعل في الأسماء فهي اثنا عشر وزناً كل وزن يطلب ما لا يطلبه الآخر وهي محصورة في هذا العدد، كما نهاية أسماء العدد محصورة في الاثني عشر، فمن ذلك في تسكين عين الفعل ثلاثة، وفي فتحه ثلاثة، وفي ضمه ثلاثة، وفي كسره ثلاثة، فالمجموع اثنا عشر، فالتسكين مثل فعل كدعد، وفعل كقفل، وفعل كهند، والمفتوح العين فعل مثل جمل، وفعل مثل صرد، وفعل مثل عنب، والمضموم العين فعل مثل عضد، وفعل مثل عنق، وفعل لم يوجد له اسم على وزنه في اللسان، وعلّله أهل هذا الشأن بأنهم استثقلوا الخروج من الكسر إلى الضم، ومبنى كلامهم على التخفيف، وهذا التعليل عندنا ليس بشيء بسطناه في النسخة الأولى من هذا الكتاب، وقد مرّت بنا كلمة للعرب على وزن فعل بكسر فاء الفعل وضم عينه لا أذكرها الآن إلاّ أنها لغة شاذة، والمكسور العين فعل مثل كتف، وفعل مثل إبل، ولم يوجد على وزن فعل سوى دئل وهو اسم دويبة تعرفها العرب.

ثم إن الله أجرى حكمته في خلقه أن لا تأخذ العرب في أوزان الكلام إلاّ هذه الأحرف الثلاثة: الفاء والعين واللام، ولها ثلاث مراتب في النشأة، وأخذوا من كل مرتبة حرفاً، أخذوا الفاء من حروف الشفتين عالم الملك والشهادة، وأخذوا العين من حروف الحلق عالم الغيب والملكوت، وأخذوا اللام من الوسط عالم البرزخ والجبروت، وهو من حروف اللسان الذي له العبارة والتصرّف في الكلام، فكان مجموع هذه الحروف التي جعلوها أصولاً في أوزان الكلام مائة وثمانين درجة وهو شطر الفلك الظاهر، وهو الذي يكون له الأثر أبداً في التكوين، والشطر الغائب لا أثر له إلاّ حيث يظهر، وسبب ذلك أن أشعة أنوار الكواكب تتصل بالمحل العنصري وهو مطارح شعاعاتها، والعناصر قابلة للتكوين فيها، فإذا اتصلت بها سارع التعفين فيها لما في الأنوار من الحرارة، وفي ركن الماء والهواء من الرطوبة، فظهرت أعيان المكوّنات أنّ الله خمر طينة آدم بيده والتخمير

تعفين، وما غاب عن هذه الأنوار فلا أثر لها فيه، ألا ترى في كسوف الشمس إذا اتفق أن يكون بالليل لا حكم له عندنا لعدم مشاهدة الظاهر ظاهر كرة الأرض التي نحن عليها، فلا حكم له إلاّ حيث يظهر بتقدير العزيز العليم، فإنه حيث يظهر يشهد ما حضر عنده فيؤثر فيه لشهوده عادة طبيعية أجراها الله، وهذا من أدل دليل على قول المعتزلي في ثبوت أعيان الممكنات في حال عدمها وأن لها شيئية وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فيرانا سبحانه في حال عدمنا في شيئية ثبوتنا، كما يرانا في حال وجودنا لأنه تعالىٰ ما في حقّه غيب، فكل حال له شهادة يعرفه صاحب الشهادة فيتجلى تعالىٰ للأشياء التي يريد إيجادها في حال عدمها في اسمه النور تعالىٰ فينفهق على تلك الأعيان أنوار هذا التجلي، فتستعدّ به لقبول الإيجاد استعداد الجنين في بطن أمّه في رابع الأشهر من حمله لنفخ الروح فيه، فيقول له عند هذا الاستعداد: كن فيكون من حينه من غير تثبط، فانظر إلى هذه الحكمة ما أجلاها.

ثم إنه من تمام الحكمة أنه إذا كان في القابلات للتكوين من لا يقبله لحقيقة هو عليها إلاّ بزيادة درجات وهو بين أصله وحقيقته فإنه يكرّر اللام من هذا الوزن إذا كانت حروف الوزن من نفس الكلمة ومن أصولها مثل جعفر وزنه فعلّل فكرّر واحداً من أصل الأوزان لأن حروف الموزون كلها أصول، فإن كان الحرف في الكلمة زائداً جئنا به على صورته ولم نعطه حرفاً من حروف الفعل فنقول في وزن مكسب مفعل، فالأصول أبداً هي التي تراعى في الأشياء، وهي التي لها الآثار فيها. وقال بعضهم: إن الجياد على أعراقها تجري. يقول: على أصولها. فمن كان أصله كريماً فلا بدّ أن يؤثر فيه أصله، وإن ظهر عنه لؤم فهو أمر عارض يرجع إلى أصله ولا بدّ في آخر الأمر، وكذلك اللئيم الأصل، وهذه مسألة قليل من يتفطن لها وهي: لماذا ترجع أصول الممكنات؟ هل أصله كريم فيكون واجب الوجود أصلها أو يكون أصلها لئيماً وهو الإمكان، فلا يزال الفقر والبخر واللؤم يصحبها، ويكون ما نسبت إليها من المحامد بحكم العرض، وهنا أسرار ودقائق وكلناك لنفسك في الاطلاع عليها، فإن ظهورها في العموم يتعذر، فتركنا علم ذلك لمن يطلعه الله عليه، فيقف على ما هو الأمر عليه في نفسه، وقد بقي من أمهات مسائل هذا الباب يسير نذكر اعتبارها في سرد أحاديث ما يتعلق بهذا الباب إن شاء الله تعالىٰ. انتهى الجزء السبعون.

(الجزء الحادي والسبعون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصل في فصول ـ الأحاديث النبوية فيما يتعلق بهذا الباب: ولا أذكرها بجملتها وإنما أذكر منها ما تمسّ الحاجة إليه وبعد أن قد ذكرنا حجة رسول الله ﷺ من حديث جابر بن عبد الله فلنذكر في بقية هذا الباب ما تيسّر من الأخبار النبوية، فمن ذلك:

حديث فضل الحج والعمرة: خرّج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «**الْعُمْرَةُ إِلَىٰ الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَّ**

الجَنَّة» فالكفارة تعطي الستر والجنة تعطي الستر غير أن ستر العمرة لا يكون إلاَّ بين عمرتين، وستر الحج لم يشترط فيه ذلك إلاَّ أنه قيده بأنه يكون مبروراً والبرّ الإحسان والإحسان مشاهدة أو كالمشاهدة، فإنه قال ﷺ في تفسير الإحسان: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» فصارت الجنة عن حج مقيد بصفة برّ فقام البرّ للحج مقام العمرة الثانية للعمرة الأولى، والسبب في ذلك أن التكفير والجنة نتيجة، والنتيجة لا تكون عن واحد فإن ذلك لا يصحّ، وإنما تكون عن مقدمتين، فحصل التكفير عن عمرتين وحصلت الجنة عن حج مبرور أي يكون عن صاحب صفة برّ، فما أعجب مقاصد الشارع، فالعمرة الزيارة وهي زيارات أهل السعادة لله تعالىٰ هنا بالقلوب والأعمال، وفي الدار الآخرة بالذوات والأعيان وبين الزيارتين حجب موانع بين الزائرين وبين أهليهم من أهل الجنان، وفي حالة الدنيا بين المعتمرين وبين غيرهم، فلا يدرك ما حصلوه في تلك الزيارة من الأسرار الإلهية والأنوار ما لو تجلّى بشيء منها لا يصار من ليس لهم هذا المقام لأحرقهم وذهب بوجودهم فكان ذلك الستر رحمة بهم.

وقد عاينا ذلك في المعارف الإلهية مشاهدة حين زرناه بالقلوب والأعمال بمكة التي لا تصحّ العمرة إلاَّ بها، وأما الزيارة من غير تسميتها بالعمرة فتكون لكل زائر حيث كان، وكذلك الحج فهي زيارة مخصوصة كما هو قصد مخصوص، ولما فيها من الشهود الذي يكون به عمارة القلوب تسمّى عمرة، فهذا معنى التكفير في هذا العمل الخاص، وقد يكون التكفير في غير هذا وهو أن يسترك عن الانتقام أن ينزل بك لما تلبست به من المخالفات، ومن الناس من يكون له التكفير ستراً من المخالفات أن تصيبه إذا توجهت عليه لتحل به لطلب النفس الشهوانية إياها فيكون معصوماً بهذا الستر فلا يكون للمخالفة عليه حكم، وهذان المعنيان خلاف الأول، ومن الناس من يجمع ذلك كله، وفي الدنيا من هذه الأحكام الثلاثة كلها، وفي الآخرة اثنان خاصة وهو الستر الأول والستر أن لا يصيبه الانتقام.

وأمّا الستر عن المخالفات فلا يكون إلاَّ في الدنيا لوجود التكليف، والآخرة ليست بمحل للتكليف إلاَّ في يوم القيامة في موطن التمييز حين يدعون إلى السجود فهو دعاء تمييز لا دعاء تكليف إلاَّ الحديث الذي خرّجه الحميديّ في كتاب الموازنة ولم يثبت، ولما اقترن به الأمر أشبه التكليف فجوزوا بالسجود جزاء المكلفين كما تجيء الملائكة إليهم من عند الله بالأمر والنهي، وليس المراد به التكليف وهو قولهم للسعداء: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ وهذا نهي ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٠] وهذا أمر وليس بتكليف، كذلك إذا أمروا بالسجود إنما هو للتمييز والفرقان بين من سجد لله خالصاً وسجد اتقاء ورياء وسمعة لاجتماعهم في السجود لله، فلذلك وقع الشبه لأنهم ما سجدوا ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩] كما أمروا، فميّز الله يوم القيامة بينهما، كما ميّز بين المجرمين، قال تعالىٰ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٥٩].

حديث ثان في الحثّ على المتابعة بين الحج والعمرة: لأن كل واحد منهما قصد زيارة بيت الله العتيق. خرّج النسائيّ عن عبد الله هو ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**تابِعوا**

بَيْنَ الْحَجِّ وَالعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ والذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ». وليس للحج المبرور ثواب دون الجنة، فجعل في الأول العمرة إلى العمرة، وكذلك الحج والبرّ، وهنا جعل الحج والعمرة مقدّمتين ليكون منهما أجر آخر ليس ما أعطاه الحديث الأول وهو نفي الفقر، فيحال بينك وبين عبوديتك إذا جمعت بين هاتين العبادتين، وما ثم إلاّ عبد ورب، والعبد لا يتميز عن الرب إلاّ بالافتقار، فإذا أذهب الله بفقره كساه حلة الصفة الربانية، فأعطاه أن يقول للشيء إذا أراده: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] وهذا سر وجود الغنى في الفقر، ولا يشعر به كل أحد، فإنه لا يقول لشيء كن فيكون حتى يشتهيه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣١] فما طلب إلاّ ما ليس عنده ليكون عنده عن فقر لما طلب، لأن شهوته أفقرته إليه ودعته إلى طلبه ليس ذلك المشتهى طلبه، وعنده الصفة الربانية التي أوجبت له القوّة على إيجاد هذا لمشتهى المطلوب فقال له: كن عن فقر بصفة إلهية فكان هذا المطلوب في عينه، فتناول منه ما لأجله طلب وجوده، وليس هو كذا في حق الحق لأن الله لم يطلب تكوين الموجودات لافتقاره إليها وإنما الأشياء في حال عدمها الإمكانيّ لها تطلب وجودها وهي مفتقرة بالذات إلى الله الذي هو الموجد لها لفقرها الذاتي وفي وجودها من الله، فقبل الحق سؤالها وأوجدها لها، ولأجل سؤالها لا من حاجة قامت به إليها لأنها مشهودة له تعالىٰ في حال عدمها ووجودها، والعبد ليس كذلك فإنه فاقد لها حسّاً في حال عدمها، وإن كان غير فاقد لها علماً، إذ لولا علمه بها ما عين بالإيجاد شيئاً عن شيء ودون شيء، غير أن العبد مركب من ذاتين: من معنى وحسّ وهو كماله، فما لم يوجد الشيء المعلوم للحسّ فما كمل إدراكه لذلك الشيء بكمال ذاته، فإذا أدركه حسّاً بعد وجوده وقد كان أدركه علماً فكمل إدراكه للشيء بذاته، فتركيبه سبب فقره إلى هذا الذي أراد وجوده، وإمكانه سبب فقره إلى مرجحه.

وأمّا الحق تعالىٰ فليس بمركب بل هو واحد، فإدراكه للأشياء على ما هي الأشياء عليه من حقائقها في حال عدمها ووجودها إدراك واحد، فلهذا لم يكن في إيجاده الأشياء عن فقر كما كان لهذا العبد المخلوع عليه صفة الحق، وهذه مسألة لو ذهب عينك جزاء لتحصيلها لكان قليلاً في حقّها لأنها مزلة قدم زلّ فيها كثير من أهل طريقنا، والتحقوا فيها بمن ذمّ الله تعالىٰ في كتابه من قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] وهذا سببه، فما وجد الممكن ولا وجدت المعرفة الحادثة إلاّ لكمال رتبة الوجود، وكمال رتبة المعرفة لا لكمال الله بل هو الكامل في نفسه سواء وجد العالم أو لم يوجد، وعرف بالمعرفة المحدثة أو لم يعرف، كما أنه على الحقيقة لا يعرف ولا يعرف منه ممكن إلاّ نفسه، وأما نفي الذنوب فإنها من حكم الاسم الآخر لأن ذلك من الأمر بمنزلة الذنب من الرأس متأخرة عنه لأن أصله طاعة فإنه ممتثل للتكوين إذ قيل له كن فما وجد إلاّ مطيعاً، ثم عرض له بعد ذلك مخالفة الأمر المسمّى ذنباً فأشبه الذنب في التأخّر فانتفى بالأصل لأنه أمر عارض والعرض لا بقاء له وإن كان له حكم في حال وجوده ولكن يزول، فهذا يدلّك على أن المآل إلى السعادة إن شاء الله ولو بعد حين.

ثم إن للذنب من معنى الذنب صفتين شريفتين إذا علمها الإنسان عرف منزلة الذنب عند الله، وذلك أن ذنب الدابة له صفتان شريفتان: ستر عورتها وبه تطرد الذباب عنها بتحريكها إياه، وكذلك الذنب فيه عفو الله ومغفرته، وشبه ذلك ما لا يشعر به ممّا يتضمنه من الأسماء الإلهية يطرد عن صاحبه أذى الانتقام والمؤاخذة وهما بمنزلة الذباب الذي يؤذي الدابة فلا يصيب الانتقام إلاّ للأبتر الذي لا ذنب له، يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [سورة الكوثر: الآية ٣] أي لا عقب له أي لا يترك عقباً ينتفع به بعد موته كما قال عليه السلام: أو ولد صالح يدعو له ولداً كان أو سبطاً وذكراً أو أنثى يقول الله تعالىٰ لمحمد ﷺ: إن الذي ألحق بك الشين هو الأبتر فلم يعقب وعقب الشيء مؤخره، ولهذا قلنا في الذنب إنه مؤخر لأنه في عقب الدابة وبعدمه يكون أبتر، فلو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيغفر لهم ولم يقل فيعاقبهم فغلب المغفرة وجعل لها الحكم، فأصل وجود الذنب بذاته لما يتضمنه من المغفرة والمؤاخذة فيطلب تأثير الأسماء وليس أحد الاسمين المتقابلين في الحكم أولى من الآخرة لكن سبقت الرحمة لغضب في التجاري فلم تدع شيئاً إلاّ وسعته رحمته.

ومن رحمة الطبيب بالعليل صاحب الأكلة إدخال الألم عليه بقطع رجله، فافهم واجعل بالك، فمؤاخذات الحق عباده في الدنيا والآخرة تطهير ورحمة والتنبيه أيضاً على ذلك أن العقاب لا يكون إلاّ في الذنب، والعقوبة لفظة تقتضي التأخير عن المتقدّم فهي تأتي عقيبه، فقد تجد العقوبة الذنب في المحل وقد لا تجده إما بأن يقلع عنه، وإما أن يكون الاسم العفوّ والغفور استعانا عليه الاسم الرحيم فزال، فترجع العقوبة خاسرة، ويزول عن المذنب اسم المذنب لأنه لا يسمّى مذنباً إلاّ في حال قيام الذنب به وهو المخالفة والغفران في نفس الذنب وما يأتي عقيبه لأنه غير متيقن بالمؤاخذة والانتقام عليه، فلا يأتي الغفران عقيبه، فلا يسمّى الغفران عقاباً، وجزاء الخير يسمّى ثواباً لثورانه وعجلته، فيكون في نفس الخير المستحق له لأنه من ثاب إلى الشيء إذا ثار إليه بالعجلة والسرعة ولهذا قال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٣] وقال: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٦١] فجعل المسارعة في الخير وإليه ولا يسابق إليها إلاّ بالذنوب وطلب المغفرة فإنها لا ترد إلاّ على ذنب، وإن كانت في وقت تستر العبد عن أن تصيبه الذنوب وهو المعصوم والمحفوظ فلها الحكمان في العبد: محوالذنب بالستر عن العقوبة، أو العصمة والحفظ، ولا ترد على تائب فإن التائب لا ذنب له إذ التوبة إزالته، فما ترد المغفرة إلاّ على المذنبين في حال كونهم مذنبين غير تائبين فهناك يظهر حكمها، وهذا ذوق لم يطرق قلبك مثله قبل هذا، وهو من أسرار الله في عباده الخفية في حكم أسمائه الحسنى، لا يعقل ذلك إلاّ أهل الله شهوداً، فمثل هذا يسمّى التضمين فإنه أمر بالمسابقة إلى المغفرة وما أمر بالمسابقة إلى الذنب.

ولما كان العفو والغفران يطلب الذنب وهو مأمور بالمسابقة إلى المغفرة فهو مأمور بماله يكون ليظهر حكمها فما لا يتوصل إلى الواجب إلاّ به فهو واجب، ولكن من حيث ما هو فعل لا من حيث ما هو حكم، وإنما أخفى ذكره هنا وذكر المغفرة لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا

﴿يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٨] والأمر من أقسام الكلام، فما أمر بالذنوب وإنما أمر بالمسابقة والإسراع إلى الخير وفيه وإلى المغفرة فافهم.

وأما تشبيهه بنفي الكير خبث الحديد والفضة والذهب وهو ما تعلق بهذه الأجسام في المعادن من أصل الطبيعة استعانوا بالنار على إزالة ذلك، واستعانوا على النار بإشعال الهواء، واستعانوا على تحريك الهواء بالكير، فما انتفى الخبث إلاّ عن مقدّمتين وهما: النار والهواء، فلولا وجود هاتين القوّتين العلمية والعملية ما وقع نفي هذا الخبث، وقد تقدّم الكلام في الحج المبرور، وإن كان له هنا معنى آخر ليس هو ذلك المعنى المتقدّم، ولكن يقع الاكتفاء بذلك الأول مخافة التطويل، فإن أسرار الله في الأشياء لا تنحصر، بل ينقدح في كل حال لأصحاب القلوب ما لا يعلمه إلاّ الله والعامّة لا تعلم ذلك، ولهذا تقول الخواص من عباد الله: ما ثم تكرار للاتساع الإلهيّ وإنما الأمثال تحجب بصورها القلوب عن هذا الإدراك فتتخيل العامّة التكرار ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٧] فمن تحقق بوجود هذا الاسم الواسع لم يقل بالتكرار ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [سورة ق: الآية ١٥].

حديث ثالث في فضل إتيان البيت شرّفه الله: خرّج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَتَىٰ هَذَا البَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفسِقْ رَجَعَ كَيَوْم وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**» وفي لفظ البخاري عن رسول الله ﷺ: «**مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفسِقْ**» الحديث. فاعلم أنه يوم خروج المولود من بطن أمّه خرج من الضيق إلى السعة بلا شك، ومن الظلمة إلى النور والسعة هي رحمة الله التي وسعت كل شيء، والضيق نقيض رحمة الله مع أن الرحمة وسعته حيث أوجدت عينه وجعلت له حكماً في نفوس العالم حسّاً ومعنى، يقول تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا﴾ [سورة الفرقان: الآية ١٣] والمولود على النقيض من الحق في هذه المسألة، فإن الحق لما كان له نعت لا شيء موجود إلاّ هو كان، ولا منازع ولا مدع مشاركة في أمر ولا موجب لغضب ولا استعطاف غنيّ عن العالمين، فكان بنفسه لنفسه في ابتهاج الأزل والتذاذ الكمال بالغنى الذاتي، فكان الله ولا شيء معه وهو على ما عليه كان، فلما أوجد العالم كانت هذه الحالة لهذا المولود، ولكن على النقيض زاحمه العالم في الوجود العيني وما قنع حتى زاحمه في الوحدة، وما قنع حتى نسب إليه ما لا يليق به، فوصف نفسه لهذا كله بالغضب على من نازعه في كل شيء ذكرناه، فكان مثل من خرج من السعة إلى الضيق ومن الفرح إلى الغم، فانتقم وعذب بصفة الغضب، وعفا وتجاوز بصفة الكرم، وحفظ وعصم بصفة الرحمة، فظهر الاستناد من الموجودات إلى الكثرة في العين الواحدة، فاستند هذا إلى غير ما استند هذا، فزال ابتهاج التوحيد والأحدية بالأسماء الحسنى، وبما نسب إليه من الوجوه المتعدّدة الأحكام، فلم يبق للاسم الواحد ابتهاج، فرجع الأمر إلى أحدية الألوهية وهي أحدية الكثرة لما تطلبه من الأسماء لبقاء مسمّى الأحدية فقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٣] ولم يتعرّض إلى ذكر النسب والأسماء والوجوه، فإن طلب الوحدة ينافي طلب الكثرة، فلا بدّ أن يكون هذا الأمر هكذا، فصير قاصد بيته لحج أو عمرة من أجل الله في حال من

ولدته أمّه أي أنه خرج من الضيق إلى السعة، فشبهه بمثله وهو المولود ولم يشبهه بوصفه تعالىٰ الذي ذكرناه آنفاً، ولكن اشترط فيه أنه لا يرفث، فإنه إن نكح أولد فلا يشبه المولود فإنه إذا ولد خرج من السعة إلى الضيق، فإنه حصل له في ماله مشاركة بالولد، وصار بحكم الولد أكثر منه بحكم نفسه، فضاق الأمر عليه، ولا سيما إذا تحرك ولده بما لا يرضيه فإنه يورثه الحرج وضيق الصدر لمزاحمة الثاني، فلهذا اشترط في الآتي إلى البيت أن لا يرفث ولا يفسق أي لا يخرج على سيده فيدّعي في نعته ويزاحمه في صفاته إذ الفسوق الخروج، فمن بقي في حال وجوده مع الله كما كان في حال عدمه فذلك الذي أعطى الله حقّه، ولهذا الداء العضال أحاله على استعمال دواء: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٧] يقول له: كن معي في شيئية وجودك كما كنت إذ لم تكن موجوداً فأكون أنا على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه، فمن استعمل منّا هذا الدواء عرف حق الله فأعطاه مما يجب له، ومن لم يعرف ولا استعمل هذا الدواء وخلط كثرت أمراضه وآلامه في عين أفراحه وأغضب الحق عليه فيما هو فارح مسرور به، ففي بعض أفراحك غضبه، فتنبه إلى ما في هذا الحديث من الأسرار على هذا الأسلوب وأمثاله فإن فيه علوماً يطول الكتاب بتفصيلها وتعيينها.

حديث رابع في فضل عرفة والعتق فيه: خرّج مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ يَوم أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْداً مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْم عَرَفَةَ وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلائِكَةَ فَيَقُولُ مَا أَرَادَ هٰؤُلاءِ حَتَىٰ يَقُولُوا مَغْفِرَتَكَ وَرِضَاكَ عَنْهُمْ**». فقصد الحق مباهاة الملائكة بهم وسؤاله إياهم ما أراد هؤلاء حجاب رقيق على قصد المباهاة جبراً لقلوب الملائكة، ولما ظهر الإباق في عبيد الله واسترقتهم الأهواء والشهوات وصاروا عبيداً لها وخلق الله النار من الغيرة الإلهية فغارت لله وطلبت الانتقام من العبيد الذين أبقوا، وقد جاء الخبر: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَبَقَ فَقَدْ كَفَرَ**». والكفر سبب الاسترقاق فصاروا عبيداً للأهواء بالكفر، فاحتالت النار على أخذهم من يد الأهواء للانتقام، فلما استحقتهم النار وأرادت إيقاع العذاب بهم اتفق أن وافق من الزمان يوم عرفة فجاء اليوم شفيعاً عند الله في هؤلاء العبيد بأن يعتقهم من ملك النار إذ كانت النار من عبيد الله المطيعين له فجاد الله عليهم بشفاعة ذلك اليوم فأعتق الله رقابهم من النار فلم يكن للنار عليهم سبيل، فكثر خير الله وطاب وطهر الله قلوبهم من الشهوات المردية لا من أعيان الشهوات، فأبقى أعيان الشهوات عليهم وأزال تعلقها بما لا يرضي الله، فلما أوقفهم بعرفات أظهر عليهم أعيان الشهوات لتنظر إليها الملائكة، ولما كانت الملائكة لا شهوة لهم كانوا مطيعين بالذات، ولم يقم بهم مانع شهوة يصرفهم عن طاعة ربهم، فلم يظهر سلطان لقوّة الملائكة عندهم، إذ ليس لهم منازع فكانوا عقولاً عقولاً بلا منازع، فلما أبصرت الملائكة عقول هؤلاء العبيد مع كثرة المنازعين لهم من الشهوات ورأوا حضرة البشر ملأى منها علموا أنه لولا ما رزقهم الله من القوّة الإلهية على دفع حكم تلك الشهوات المردية فيهم ما أطاقوا وأنهم ربما لو ابتلاهم الله بما ابتلى به البشر من الشهوات

ما أطاقوا دفعها، فقصرت نفوسهم عندهم وما هم فيه من عبادة ربهم، وعلموا أن القوّة لله جميعاً، وأن الله له بهم عناية عظيمة السلطان. وهذا كان المراد من الله التباهي مع هذه الحالة، ولذلك وصف الحق نفسه بالدنوّ منهم ليستعينوا بقربه على دفع الشهوات المردية من حيث لا تشعر الملائكة، ثم يقول الله للملائكة وهو أعلم ما أراد هؤلاء لينظروا إلى سلطان عقولهم على شهواتهم وما هم فيه من الإلتجاء والتضرّع والابتهال بالدعاء ونسيان كل مما سوى الله في جنب الله.

حديث خامس في الحاج وفد الله: خرّج النسائي عن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَفْدُ اللَّهِ ثَلاثَةٌ: الغَازِي وَالحَاجُ وَالمُعْتَمِرُ**». أراد وفد طلبه في بيته لا غير، فإن الله معهم أينما كانوا، فما وفد عليك من أنت معه ولكن لله تعالىٰ في عباده نسب وإضافات كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [سورة مريم: الآية ٨٥] فجعلهم وفود الرحمن، لأن الرحمن لا يتقى، وكانوا حين كانوا متقين في حكم اسم إلهيّ تجلّى الحق فيه لهم فكانوا يتقونه، فلما أراد أن يرزقهم الأمان ممّا كانوا فيه من الاتقاء حشرهم إلى الرحمن فلما وفدوا عليه أمّنهم، وهكذا نسبتهم إلى رب البيت لما تركوا الحق خليفة في الأهل والمال كما جاءت به السنّة من دعاء المسافر فارقوا ذلك الحال واتخذوه اسماً إلهياً جعلوه صاحباً في سفرهم، وجاءت به السنّة والعين واحدة في هذا كله، ولذلك ورد: أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، فإذا قدموا على البيت وهو قصر الملك وحضرته تحجب لهم عنده الاسم إلهيّ الذي صحبهما في السفر عن أمر الاسم الذي تخلف في الأهل وهو الإسم الحفيظ فتلقاهم رب البيت وأبرز لهم يمينه فقبلوه وطافوا ببيته إلى أن فرغوا من حجهم وعمرتهم، وفي كل منسك يتلقاهم اسم إلهيّ، ويتسلمهم من يد الاسم الإلهيّ الذي يصحبهم من منسك إلى منسك إلى أن يرجعوا إلى منازلهم، فيحصلوا في قبضة من خلفوه في الأهل، فهذا معنى وفد الله إن عقلت.

حديث سادس الحج للكعبة من خصائص هذه الأمّة أهل القرآن: ذكر الترمذي عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ مَلَكَ زَاداً وَرَاحِلَةً تُبلغُهُ إِلَىٰ بَيتِ اللَّهِ ثُمَّ لَمْ يَحُجَّ فَلاَ عَلَيْهِ أَنْ يَمُوتَ يَهُودِيّاً أَوْ نَصْرَانِيّاً**». وذلك أن الله تعالىٰ يقول في كتابه العزيز: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] قال: هذا حديث غريب وفي إسناده مقال.

اعلم أنه لو كان أهل التوراة والإنجيل مخاطبين بالحج إلى هذا البيت لم يقل «له فلا عليه أن يموت يهودياً أونصرانياً»، أي إن الله ما دعاهم إليه أي أنه من كان بهذه المثابة فليس من أهل القرآن، الوكيل يملك التصرّف في مال الموكل ولا يملك المال ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٧] فأمره بالإنفاق فيما حدّ له أن ينفقه فيه، وممّا حدّ له الإنفاق في الحج الوكيل الحق الموكل العبد الوكيل هنا أعلم بالمصالح من الموكل، وقد ظهر له المصلحة في الحج والمال بيد الوكيل وهو وكيل لا ينزع يده من المال، فإن أعطاه ما يحج به

ولم يحج ثبت سفه الموكل فحكم عليه الحاكم بالحجر فحجر عليه الإسلام وألحقه بالسفهاء ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣] فإن شاء حكم عليه بحكم اليهود أو بحكم النصارى الذين لم يخاطبوا بهذه المصلحة فلا نصيب له في الإسلام لأن الحج ركن من أركانه وقد استطاع ولم يفعل، وإذا فارق الإسلام فلا يبالي إلى أية ملة يرجع.

حديث سابع في فرض الحج: خرّج مسلم عن أبي هريرة قال: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَىٰ قَالَهَا ثَلاثاً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ، ثُمَّ قَالَ: ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيءٍ فَدَعُوهُ**». وقال النسائي من حديث ابن عباس: «**لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ، ثم إذن لا تسمعون ولا تطيعون**» ولكنها حجة واحدة لما ثبت أن المكلف أحديّ في ألوهته. وأنه قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٣] ثم أمر بالقصد إليه في بيته وحدّ القصد فجعلها حجة واحدة لمناسبة الأحدية، فختم الأركان بمثل ما به بدأ وهو الأحدية فبدأ بلا إله إلاّ الله وختم بالحج فجعله واحدة في العمر، فلا يتكرّر وجوبه بالأيام كتكرّر وجوب الصلوات، ولا بالسنين كتكرّر وجوب الزكاة بالحول، ووجوب الصيام بدخول رمضان في كل سنة، والحج ليس كذلك، فانفرد بالأحدية لأن الآخر في الإلهيات عين الأول فيحكم له بحكمه. وفي متن هذا الخبر حكم كثيرة يطول ذكرها لو شرعنا فيها، والأحاديث كثيرة في هذا الباب، فلنأخذ من كل حديث بطرف على قدر ما يلقي الروح من أمره على قلبي بلمته أو ما شئت.

حديث ثامن في الصرورة: خرّج أبو داود عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ صَرُورَةَ فِي الإِسْلامِ**». وفي الحديث الذي خرّجه الدارقطنيّ عنه: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَىٰ أَنْ يُقَالَ لِلْمُسْلِمِ صَرُورَةٌ**». وكلا الحديثين متكلم فيه. الصرورة: هو الذي لم يحج قط، والمسلم من ثبت إسلامه، وفي نية المسلم الحج ولا بدّ، والإنسان في صلاة ما دام ينتظر الصلاة، كما هو في حج ما دام ينتظر الأسباب الموصلة إلى الحج، فلا يقال فيه أنه صرورة فإنه حاج ولا بدّ، وإن مات فله أجر من حج بانتظاره، كما لو مات منتظراً لصلاة لكتب مصلياً فلا صرورة في الإسلام.

حديث تاسع في إذن المرأة زوجها في الحج: خرّج الدارقطنيّ عن ابن عمر قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَةٍ لَهَا زَوْجٌ وَلَهَا مَالٌ وَلاَ يَأْذَنُ لَهَا فِي الْحَجِّ: «**لَيسَ لَهَا أَنْ تَنطَلِقَ إِلاَّ بِإِذْنِ زَوْجِهَا**». وفي إسناد هذا الحديث رجل مجهول يقال أنه محمد بن أبي يعقوب الكرمانيّ، رواه عن حسان بن إبراهيم الكرمانيّ إن منعها زوجها فهو من الذين يصدّون عن سبيل الله إن كان لها محرم تسافر معه عندنا في هذه المسألة إذا كانت افاقية، وأما إن كانت من أهل مكة فلا تحتاج إلى إذنه فإنها في محل الحج، كما لا تستأذنه في الصلاة ولا في صوم رمضان ولا في الإسلام ولا في أداء الزكاة. لما كان الحج القصد إلى البيت على طريق الوجوب لمن لم

يحج كذلك قصد النفس إلى معرفة الله ليس لها من ذاتها النظر في ذلك، فإنها مجبولة في أصل خلقها على دفع المضارّ المحسوسة والنفسية وجلب المنافع كذلك وهي لا تعرف أن النظر في معرفة الله ممّا يقرّبها من الله أم لا، وهي به في الحال متضرّرة لما يطرأ عليها في شغلها بذلك من ترك الملاذ النفسية، فلا بدّ ممّن يحكم عليها في ذلك، ويأذن لها في النظر بمنزلة إذن الزوج للمرأة فمنا من قال يأذن لها العقل فإذا أذن لها في النظر في الله بما تعطيه الأدلة العقلية فإن العلم بالشيء كان ما كان أحسن من الجهل به عند كل عاقل، فإن النفس تشرف بالعلم بالأشياء على غيرها من النفوس ولا سيما وهي تشاهد النفوس الجاهلة بالعلوم الصناعية وغير الصناعية تفتقر إلى النفوس العالمة فيتبين لها مرتبة شرف العلم، هذا إذا لم يعلم أن الخوض في ذلك ممّا يقرّب من الله وينال به الحظوة عند الله. ومنا من قال: الزوج في هذه المسألة إنما هو الشرع، فإن أذن لها في الخوض في ذلك اشتغلت به حتى تناله.
فتعرف منه توحيد خالقها وما يجب له وما يستحيل عليه وما يجوز أن يفعله، فيعلم بالنظر في ذلك أن بعثة الرسل من جانب الله إلى عباده ليبينوا لهم ما فيه نجاتهم وسعادتهم إذا استعملوه أو اجتنبوه، فيكون وجوب النظر في ذلك شرعاً من حيث أنه أوجب عليهم النظر لثبوته في نفسه، وهي مسألة خلاف بين المتكلمين هل تجب معرفة الله على الناس بالعقل أو بالشرع؟ وعلى كل حال فزوج النفس هنا إما الشرع في مذهب الأشعريّ، وإما العقل في مذهب المعتزليّ ليس لها من نفسها في هذا التصرّف الخاص حكم ولا نظر بطريق الوجوب إلاّ إن كان لها بذلك التلذاذ لحب رياسة من حيث إنها ترى النفوس تفتقر إليها فيما تعلمه وجهلته نفوس الغير فتكون عند ذلك بمنزلة المرأة، وإن كان لها زوج إذا كانت بمكان الحج في زمان الحج عندنا ولا سيّما إن كان صاحبها أيضاً ممّن يحج فأكد في الأمر.

حديث عاشر: سفر المرأة مع العبد ضيعة: ذكر البزار عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**سَفَرُ المَرْأَةِ مَعَ عَبْدِهَا ضَيْعَةٌ**» في إسناده مقال، سفر النفس في معرفة الله مع الإيمان بالشرع غاية المحمدة والسعادة، ويكون في تلك الحالة العقل من جملة عبيدها لأنها الحاكمة عليه بأن يقبل من الشارع في معرفة الله كل ما جاء به، فإن سافرت مع عقلها في معرفة ما أتى به هذا الشارع من العلم بصفات الحق ممّا يحيله دليله وانفردت معه دون الإيمان فإنها تضيع عن طريق الرشد والنجاة، فإن كان السفر الأوّل قبل ثبوت الشرع فليكن العبد هناك الهوى لا العقل، والنفس إذا سافرت في صحبة هواها أضلّها عن طريق الرشد والنجاة وما فيه سعادتها، قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٣] وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [سورة النازعات: الآية ٤٠] يعني أن تسافر معه فإنه على الحقيقة عبدها لأنه من جملة أوصافها الذي ليس له عين إلاّ بوجودها فهي المالكة له، فإذا اتبعته صار مالكاً لها وهو لا عقل له ولا إيمان فيرمي بها في المهالك فتضيع، فاعتبر الشارع ذلك في السفر المحسوس في المرأة مع عبدها وجعله تنبيهاً لما ذكرناه.

حديث أحد عشر: في تلبيد الشعر بالعسل في الإحرام: خرّج أبو داود عن ابن عمر:

«**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَبَّدَ رَأْسَهُ بِالعَسَلِ**» لما كان الشعر من الشعور والتلبيد أن يلصق بعضه ببعض حتى يصير كاللبد قطعة واحدة وهو أن يرد الإنسان ما تعدّد عنده من الصفات والمناسبة الإلهية شرعاً والأسماء الحسنى وعقلاً كالمعاني الثابتة بالأدلة النظرية يرد ذلك إلى عين واحدة كما قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] وقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٣] ثم إنه لبده بالعسل دون غيره من خطمي وغيره ممّا يكون به التلبيد، وذلك أن العسل لما أنتجه صنف من الحيوان ممّن له نصيب في الوحي صحّت المناسبة بينه وبين رسول الله ﷺ فإنه ممّن يوحى إليه والنحل ممّن يوحى إليه، فالعسل من النحل بمنزلة العلوم التي جاء بها النبيّ ﷺ من قرآن وأخبار، قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] فكان النبيّ ﷺ يعرفنا في ردّنا ما تعدّد من الأحكام لعين واحدة لايكون عن نظر عقلي، وإنما يكون عن وهب إلهيّ وكشف ربانيّ الذي لا تقدح فيه شبهة، فهذا أعني تلبيد الرأس بالعسل دون غيره من الملبدات.

حديث ثاني عشر: المحرم لا يطوف بعد طواف القدوم إلاّ طواف الإفاضة: خرّج البخاري عن ابن عباس قال: «**انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ المَدِينَةِ يَعْنِي فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ**» حديث وفيه: «**وَلَمْ يَقْرَبِ الكَعْبَةَ بَعْدَ طَوَافِهِ بِهَا حَتَّىٰ رَجَعَ مِنْ عَرَفَةَ يَعْنِي طَوافَ القُدُومِ**». أصل أعمال العبادات مبنية على التوقيف ينبغي أن لا يزاد فيها ولا ينقص منها، والمحرم بالحج كالمحرم بالصلاة، فلا ينبغي أن يفعل فيها إلاّ ما شرع أن يفعل فيها، ومن الأفعال في العبادات ما هو مباح له فعله أو تركه. ومنها ما يكون من الفعل فيها مرغباً. ومنها أفعال تقدح في كمالها. ومنها أفعال تبطلها ولو كانت عبادة كمن تعين عليه كلام وهو في الصلاة، فإن تكلم بذلك بطلت الصلاة أو فعل فعلاً يجب عليه ممّا يبطل الصلاة فعله، ولا خلاف بين العلماء في أنه إن طاف لا يؤثر في حجّه فساداً ولا بطلاناً، الحقائق لا تتبدّل، فالتطوّع لا يكون وجوباً، والتطوّع ما يكون المكلف فيه مخيّراً إن شاء فعله وإن شاء تركه فله الفعل والترك، فمن رأى الترك لم يؤثر في حكم التطوّع تحريماً ولا كراهة، ومن رأى الفعل لم يؤثر في حكمه وجوباً، وهذا سار في جميع أحكام الشرائع الخمسة. فنسبة التطوّع للعبد نسبة أفعال الله إلى الله لا يجب عليه فعلها ولا تركها ولهذا جعل المشيئة في ذلك، فأكمل ما يكون العبد في اتصافه بصفة الحق في تصرّفه في المباح فإن الربوبية ظاهرة فيه والإباحة مقام النفس، وعينها وخاطرها من الأحكام الخمسة الشرعية لأنها على الصورة أوجدها الله فلا بدّ أن يكون حكمها هذا، وأمّا شبه الإيجاب فلا يكون ذلك إلاّ في النذر لا غيره، فإن الحق أوجب على نفسه أموراً ذكرها لنا في كتابه، وصاحب النذر أوجب على نفسه ما لم يوجب الله عليه ابتداء، فما أوجب الله على العبد الوفاء بنذره إلاّ بالنسبة التي أوجب على نفسه، فتقوّى الشبه في وجوب النذر كما تقوّى في التطوّع.

وأما التحريم ففيه من الشبه تحجير المماثلة فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فحجر على الكون أن يماثله أو يماثل مثله المفروض، فكان عين التحجير عليه أن

يتجلى في صورة تقبل التشبيه، فإن كان نفس الأمر يقتضي نفي التشبيه فقد شاركناه في ذلك فإنه لا يقبل التشبيه بنا ولا نقبل التشبيه به، وإن لم يكن في نفس الأمر كذا وإنما اختار ذلك أي قام في هذا المقام لعبيده فقد حكم على نفسه بالتحجير فيما له أن يقوم في خلافه كما حجر علينا، فعلى الحالتين قد حصل نوع من الشبه، وأما الوجوب فصورة الشبه أنه على ما يجب له ونحن على ما يجب لنا، قال لأبي يزيد: تقرّب إليّ بما ليس لي الذلة والافتقار، فله الغنى والعزّة من حيث ذاته واجبة، ولنا الذلّة والافتقار من حيث ذاتنا واجب، هذا هو الوجوب الذاتيّ. وأما الوجوب بالموجب فإنه أوجب علينا ابتداء أموراً لم نوجبها على أنفسنا، فيكون قد أوجب علينا بإيجابنا إياها على أنفسنا كالنذر فأوجب على نفسه أن يخلق الخلق ابتداء أوجبه عليه طلب كمال العلم به وكمال الوجود فهما الذي طلبا منه خلق الخلق لما كان له الكمال، وما رأى لكماله حكماً لم يكن لكماله تعلّق فطلب فأوجب بطلبه عليه أن يوجد له صورة يرى نفسه فيها، لأن الشيء لا يرى نفسه في نفسه عند المحققين، وإنما يرى نفسه في غيره بنفسه، ولذلك أوجد الله المرآة والأجسام الصقيلة لنرى فيها صورنا، فكل أمر ترى فيه صورتك فتلك مرآة لك، قال النبيّ ﷺ: «**المُؤمِنُ مِرآةُ أخِيهِ**». فخلق الخلق فكمل الوجود به وكمل العلم به، فعاين كمال الحق نفسه في كمال الوجود، فهذا واجب بموجب فوقع الشبه بالوجوب بالموجب، كما وقع فيما وقع من الأحكام، وحكم الندب والكراهة يلحقان بالمباح، وإن كان بينهما درجة فالمندوب هو ما يتعلق بفاعله الحمد، ولا يذمّ بترك ذلك الفعل وشبهه في الجناب الإلهي ما يعطيه من النعم لعباده زائداً على ما تدعوه إليه الحاجة فيحمد على ذلك، وإن لم يفعله فلا يتعلق به ذم لأن الحاجة لا تطلبه إذ قد استوفت حقّها فهذا شبه المندوب، وأما شبه المكروه فالله يقول عن نفسه أنه يكره فإنه قال: وأكره مساءته، وقال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧] والكراهة المشروعة هي ما يحمد تاركها ولا يذمّ فاعلها فتشبه الندب ولكن في النقيض، فإذا كان للعبد غرض فيما عليه فيه ضرر وهو أكثر ما في الناس فيسأل نيل ذلك الغرض من الله، فما فعله الله له فيكره العبد ذلك الترك من الله ويقول: ولعل الله جعل لي في ذلك خيراً من حيث لا أشعر وهو قوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٦] وهو ما لا يوافق الغرض وهو خير لكم، فإن فعله له لا يذمّه عليه فإنه يعذر من نفسه ويقول: أنا طلبته، فهذا عين الشبه بين العبد والرب من جهة المكروه، وانحصرت أقسام أحكام الشريعة في الحضرة الإلهية وفي العبد ولهذا يقول الصوفية: إن العالم خرج على صورة الحق في جميع أحكامه الوجودية فعم التكليف الحضرتين وتوجه على الصورتين، فإن قلت: فأين الشبه في الجهل ببعض الأشياء وما هناك جهل؟ قلنا: قد قلنا في ذلك: [السريع]

إن قلتُ إني لستُ غيرَ إلهٌ — وهو أنا فإنه يجهلُ

لأنني أجهلُ من هُوْ أنا — وهوَ أنا فما الذي نفعلُ

ممن يقول: إنه الظاهر في المظاهر، والمظاهر على ما هي عليه، والظاهر فيها هو

الموصوف بالعلم بأمور وبالجهل بأمور أعطاه ذلك استعداداً لمظهر لما انصبغ به فصحّ الشبه على هذا بل هو هو، قال الجنيد في هذا: لون الماء لون إنائه. انتهى الجزء الحادي والسبعون.

(الجزء الثاني والسبعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

حديث ثالث عشر: بقاء الطيب على المحرم بعد إحرامه: خرّج مسلم عن عائشة قالت: «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ وَبِيصِ الطِّيبِ فِي مَفرقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُحْرِمٌ**». زاد النسائي: «**بَعْدَ ثَلاثٍ وَهُوَ مُحْرِمٌ**»، يعني بعد ثلاث ليال من إحرامه، الله تعالىٰ تسمّى بالطيب وجعل سبحانه في أمور ومواطن أن يتقرّب إليه بصفاته التي تسمّى بها، وأن من صفاته الكرم، وجعله فينا من صفات القرب إليه، وهكذا سائر ما وصف الحق به نفسه، فبقاء الطيب على المحرم من بقاء صفة الحق عليه، إذ كان جعلها وتخلق بها في وقت يجوز له التخلّق بها، فإن صفات الحق لا يتخلق بها على الإطلاق، بل عيّن لها أحوالاً ومواطن فافهم ذلك.

حديث رابع عشر في المحرم يدّهن بالزيت غير المطيب: خرّج الترمذيّ عن فرقد السبخي عن سعيد بن جبير عن ابن عمر؛ «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدَّهِنُ بِالزَّيْتِ وَهُوَ مُحْرِمٌ غير المفَتَّتِ**». قال أبو عيسىٰ: المفتت المطيب. وفي إسناده مقال من أجل فرقد الزيت مادّة الأنوار، والمحرم أولى به من كل متلبس بعبادة لكثرة المناسك في الحج، فإن لم يكن نوره قوياً ممدوداً بالنور الإلهيّ الذي أودع الله في الزيت وأمثاله من الأدهان لبقاء النور وإلاّ يفوته كثير من إدراك معاني المناسك، فنبّه بالإدّهان بالزيت على الإمداد الإلهيّ للنور قال تعالىٰ: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ فجعله نوراً ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] والهداية لا تكون إلاّ بدليل ولا دليل هنا إلاّ الزيت ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [سورة النور: الآية ٤٠] فكل ما أبقى عليك وجود النور فذلك النور مجعول له ومراعاة الأصول من التمكن في العلم والحكمة.

حديث خامس عشر في اختضاب المرأة بالحناء ليلة إحرامها: ذكر الدارقطنيّ عن ابن عمر أنه كان يقول: «من السنّة أن تدلك المرأة بشيء من الحناء عشية الإحرام وتغلف رأسها بغسلة ليس فيها طيب ولا تحرم عطلاً»، العطل الخالية من الزينة في الصحيح: «**إنَّ الله جَمِيلٌ يُحبُّ الجَمَالَ**»، و «**الحَقُّ أَوْلَىٰ مَنْ تُجُمِّلَ لَهُ**»، ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣١] أراد هنا أن يلحقه بليلة القدر بين الليالي، فإن سائر الليالي عطل من زينة ليلة القدر، كذلك المرأة إذا أحرمت بغير زينة، ولما كانت مأمورة بالستر وفي الإحرام مأمورة بالكشف أراد أن يبقي لها ضرباً من حكم الستر في زمان إحرامها، فاختضبت بالحناء فسترت بياضها حمرة الحناء فكانت زينة وستراً، فأباح للمرأة في هذا الحديث التزيّن بزينة الله، وزينة الله أسماؤه، والمرأة في الاعتبار نفس الإنسان، فمن تخلّق بأسماء الله وصفاته فقد تحلّى بزينة الله التي أخرج لعباده في

كتابه وعلى ألسنة رسله ولا سيّما في الأشهر الحرم، ولا سيّما شهر ذي الحجة، وأعني بالأشهر الحرم التي للحاج أن يحرم فيها، والإحرام كله شهرة فإنه لا ستر فيه، وسبب إزالة الستر فيه والتجرّد إنما هو لكونه جعل محرماً، فمنع من أمور كثيرة كان يفعلها في زمان حلّه فجبره بإزالة الستر الذي يقتضي التحجير حتى لا يجمع عليه تحجيرين: الستر والإحرام.

حديث سادس عشر: إحرام المرأة في وجهها: ذكر الدارقطني عن ابن عمر أن النبيّ ﷺ قال: «**لَيسَ عَلَىٰ المَرْأَةِ إِحْرَامٌ إِلاَّ فِي وَجْهِهَا**». رجوع إلى الأصل، فإن الأصل أن لا حجاب ولا ستر، والأصل ثبوت العين لا وجودها، ولم تزل بهذا النعت موصوفة وبقبولها سماع الخطاب إذا خوطبت منعوتة فهي مستعدة لقبول نعت الوجود مسارعة لمشاهدة المعبود، فلما قال لها في حال عدمها ﴿كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] كانت فبانت بنفسها وما بانت، فوجدت غير محجور عليها في صورة موجدها ذليلة في عزّ مشهدها لا تدري ما الحجاب ولا تعرفه، فلما بانت المراتب للأعيان وأثرت الطبيعة الشحّ في الحيوان ووفّره في حقيقة نفس الإنسان لما ركبه الله عليه في نشأته من وفور العقل وتحكيم القوىٰ الروحانية والحسيّة منه، انجرّت الغيرة المصاحبة للشحّ الطبيعيّ فكان أكثر الحيوان غيرة، لأن سلطان الشحّ والوهم فيه أقوى ممّا في سواه، والعقل ليس بينه وبين الغيرة مناسبة في الحقيقة، ولهذا خلقه الله في الإنسان لدفع سلطان الشهوة والهوى الموجبين لحكم الغيرة فيه، فإن الغيرة من مشاهدة الغير المماثل المزاحم له فيما يروم تحصيله أو هو حاصل له من الأمور التي إذا ظفر بها واحد لم تكن عند غيره، وقد جبله الله على الحرص والطمع أن يكون كل شيء له وتحت حكمه لإظهار حكم سلطان الصورة التي خلق عليها، فإن من حقيقتها أن يكون كل شيء تحت سلطانها، حتى أن بعض الناس أرسل حكم غيرته فيما لا ينبغي أن يرسلها فغار على الله وما خلق وما كلف إلاّ أن يغار لله لا على الله، فبهذا بلغ من العبد سلطان استحكامها في الإنسان فألحقته بالجاهلين، والعقل الكامل يعلم أنه خلق لربه لا لغيره، وعلم بذاته أن من خلقه لا يمكن أن يزاحمه في أمر ولا يعارضه في حكم فيقول؛ هو هو على ما هو عليه في نفسه فليس كمثله شيء، وأنا أنا على ما أنا عليه في نفسي ولي أمثال من جنسي فليس له فيما أنا عليه قدم إلاّ التحكّم، وليس لي فيما هو عليه إلاّ قبول الحكم فلا مزاحمة ولا غيرة، فالإنسان بما هو عاقل إن كان تحت سلطان عقله فلا يغار لأنه ما خلق إلاّ لله والله لا يغار عليه، فإذا غار العاقل فإنما يغار من حيث إيمانه فهو يغار لله، ولها موطن مخصوص شرعه له لا تعدّاه، فكل غيرة تتعدّى ذلك الحدّ فهي خارجة عن حكم العقل منبعثة عن شحّ الطبيعة وحكم الهوى، حتى أن بعض الناس يرى أموراً قد أباحها الشرع يجد في نفسه أن لو كان له الحكم فيها لحجرها وحرّمها، فيرجح نظره في مثل هذا على ما أباح الله فعله، ويرى أنه في رأيه أرجح من الله ميزاناً ومن رسوله ﷺ في هذا الذي خطر له، وربما يغتاظ حتى يقول: أيّ شيء أصنع؟ هذا شيء قد أباحه الله فلنصبر على ذلك فيصبر على كره وحنق في نفسه على ربه فهو في هدنة على دخن، وهذا أعظم ما يكون من سوء الأدب مع الله وهو ممّن أضلّه الله على علم، وقد

ظهر مثل هذا في الزمان الأوّل في آحاد الناس، وأمّا اليوم فهو فاش في الناس كلهم، فنحن نعلم أن الشارع هو الله، وأن الرسول شخص مبلغ عن الله حكمه فيما أراه الله لا ينطق عن هوى نفسه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٤] والله يقول عن نفسه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٤] ودلّ عليه دليل العقل والله أشدّ غيرة من عباده.

وما قرّر من الشرائع إلاّ ما تقع به المصلحة في العالم فلا يزاد فيها ولا ينقص منها، ومهما زاد فيها أو نقص منها أو لم يعمل بما قرّره فقد اختل نظام المصلحة المقصود لله فيما نزله من الشرائع وقرّره من الأحكام، فأباح الله لإمائه إتيان المساجد، فرأى بعض الناس أن النبيّ ﷺ لو رأى ما أحدث النساء بعده لمنع النساء المساجد كما منعت نساء بني إسرائيل، فرأوا أن الله لم يعلم أن مثل هذا يقع من عباده، إذ كان هو المشرّع سبحانه لا غيره، فرجحوا نظرهم على حكم الله، حتى أن بعضهم كان يغار على امرأته أن تخرج إلى المسجد، وكان قوياً في استعمال إيمانه، وكانت المرأة تحب إتيان المسجد للصلاة، وكانت ذات جمال فائق، ويمنعه الخبر الوارد في تحريم منع النساء من إتيان المساجد فيجد في ذلك شدّة، فلو قدرت أن يردّ الله الحكم لهذا الشخص في هذه المسألة لرجح نظره على حكم الله ومنع النساء المساجد والجائز كالواقع، فما زال يحتال عليها حتى امنعت من نفسها من إتيان المسجد فسرّ بذلك، فلو استحكم في هذا الرجل سلطان العقل ما غار، ولو استحكم فيه سلطان الإيمان ما وجد حرجاً في قلبه فصبر عليه ممّا حكم الله به في ذلك، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ٦٥] وإنما ضربنا المثل في هذا المساق بتعيين هذا الخبر في النساء لأنا في مسألة المرأة أنها لا تستر وجهها في الإحرام والغيرة يعطي حكمها الستر.

وقد ثبت في الصحيح أنه لا أغير من الله، يقول رسول الله ﷺ في سعد: «**إِنَّ سَعْداً لَغَيُورٌ، وَأَنَا أَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي، وَمِنْ غيرَتِهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ**»، وما زاد على غيرة الله فهو في نفسه وعند نفسه أغير من الله، وإن ذلك الأمر الذي هو عند الله ليس بفاحشة، إذ لو كان عند الله فاحشة لحرّمها، فإن الله حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن فعم الحكم، فهذا شخص قد جعل فاحشة ما ليس عند الله فاحشة، وأكذب الله فيما قال وجعل بغيرته التي يجدها أنه أحكم من الله في نصب هذا الحكم، فلا يزال من هو بهذه المثابة معذباً في نفسه، فما أحسن قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ فلو عرض الإنسان نفسه وأدخلها في هذا الميزان لرأى نفسه كافرة بعيدة من الإيمان، فإن الله نفى الإيمان عمّن هذه صفته، وأقسم بنفسه عليه أنه ليس بمؤمن، فهو حكم إلهيّ بقسم تأكيداً له فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلو كان الستر لها أصلاً لما قيل لها في الإحرام: لا تستري وجهك، ألا ترى آية الحجاب ما نزلت ابتداء وإنما نزلت باستدعاء بعض المخلوقين هي وغيرها، وكثير من أحكام الشرع نزلت بأسباب كونية، لولا تلك الأسباب ما أنزل الله فيها ما أنزل، ولذلك يفرّق أهل الله بين الحكم الإلهيّ ابتداء وبين الحكم الإلهيّ إذا كان مطلوباً لبعض عباد الله،

فيكون ذلك الطلب سبباً لنزول ذلك الحكم فكأن الحق مكلف في تنزيله، إذ لولا هذا ما أنزله بخلاف ما أنزله ابتداء، فالمحقق يأخذ الحكم الإلهيّ المنزل ابتداء بغير الوجه الذي يأخذ به الحكم الإلهيّ الذي لم ينزل ابتداء.

فلا يغرّنك أيها السائل كون الحق أنزل الأشياء بحكم سؤالات السائلين فبادر إلى قبول حكمه أيّ نوع كان مشروح الصدر طيب النفس إن أردت أن تكون مؤمناً. وأمّا العاقل الوافر العقل فمستريح مع الله والحكم الإلهيّ مستريح معه، لقد كان ﷺ يقول: «**اتْرُكُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ**» حتى قال في وجوب الحج كل عام: «**لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلٰكِنَّهَا حجَّةٌ وَاحِدَةٌ**»، فكره المسائل وعابها، فالله يفهمنا وإياك مقاصد الشرع، فلا يحجبنا ما ظهر منها ممّا بطن، وعبادة الحج شبيهة بالناس في أحوالهم يوم القيامة شعثاً غبراً متضرّعين مهطعين إلى الداعي تاركين للزينة يرمون بالأحجار شغل المجانين لأنهم في عبادة لو علموا ما فيها لذهلت عقولهم فكانوا كالمجانين يرمون بالحجارة، فجعله الله تنبيهاً لهم في رمي الجمار أن المشهد عظيم يذهب بالعقول عن أماكنها، وما ثم عبادة هي تعبد محض في أكثر أفعالها إلاّ الحج.

وكذلك النساء في الدار الآخرة في القيامة مكشفات الوجوه كما هنّ في حال الإحرام، ولولا تعلق الأغراض النفسية في إنزال الحجاب ما نزلت آية الحجاب، فإن الله ما أخّرها لهذا السبب هي وغيرها من الأحكام الموقوفة على مثل هذا إلاّ ذخيرة لحساب هذا الشخص الذي كان سبباً في تكليف الناس بها، فيتمنى يوم القيامة أنه لايكون سبباً في ذلك لما يشدّد عليه والناس عن هذا غافلون، وكذلك أهل الاجتهاد يوم القيامة وهم رجلان: الواحد يغلب الحرمة، والثاني يغلب رفع الحرج عن هذه الأمة استمساكاً بالآية ورجوعاً إلى الأصل، فهو عند الله أقرب إلى الله وأعظم منزلة من الذي يغلب الحرمة، إذ الحرمة أمر عارض عرض للأصل ورافع الحرج مع الأصل وإليه يعود حال الناس في الجنان، يتبوّؤن من الجنة حيث يشاؤون، وما أغفل أهل الأهواء وإن كانوا مؤمنين عن هذه المسألة وسيندمون، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الوجود دار واحدة، ورب الدار واحد، والخلق عيال الله يعمّهم هذا الدار، فأين الحجاب؟ أغير الله يرى؟ أغير الله يرى؟ أينحجب الشيء عن حقيقته؟ جزء الكل من عينه، خلقت حوّاء من آدم، النساء شقائق الرجال، هذه أدوية من استعملها في مرض الغيرة أزالت مرضه، ولم تبق فيه إلاّ غيرة الإيمان، فإنها غيرة لا تزول في الحياة الدنيا في الموضع الذي حكمها فيه نافذ، فإياك يا أخي وهوس الطبيعة، فإن العبد فيه ممكور به من حيث لا يشعر، وما أسرع الفضيحة إليه عند الله، قال ﷺ: «**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَنْهَاكُمْ عَنِ الرِّبَا وَيأْخُذَهُ مِنْكُمْ**». فمن غار الغيرة الإيمانية في زعمه فحكمه أن لا يظهر منه ولا يقوم به ذلك الأمر الذي غار عليه حين رآه في غيره، فإن قام به فما تلك غيرة الإيمان بل تلك غيرة الطبيعة وشحّها ما وقاه الله منه فليس بمفلح في غيرته، وما أكثر وقوع هذا، وكم قاسينا في هذا الباب من المحجوبين حين غلبت أهواؤهم على عقولهم، فأنا آخذ بحجزهم عن النار وهم يتقحمون فيها: [الرمل]

مُرْسِلُ الغَيْرة في موطنها هو فردٌ أحديٌّ مصطفى

والـــذي يـــرســلــهـــا مـــطــلــقـــةً فـــهـــو دارٌ رسْـــمُـــه مـــنـــه عـــفَـــا
مـــرضُ الـــغَـــيْـــرة داءٌ مـــزمـــنٌ والـــــذي قـــد شَـــرَع الله شـــفَـــا
فـــمـــن اســـتـــعـــمـــلـــه بـــل ومـــن حـــاد عـــنـــه لـــم يـــزل مـــنْـــحَـــرِفَـــا
فـــأقـــلُّ الأمـــر فـــيـــه أن يُـــرَى وهـــو مـــوصـــوفٌ بـــه مـــعْـــتَـــرِفَـــا

دعا بعض أصحاب النبيّ ﷺ النبيَّ صلى الله عليه وسلم إلى طعام فقال له النبيّ ﷺ: **«أنَا وَهٰذِهِ وَأَشَارَ إِلَىٰ عَائِشَةَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لاَ، فَأَبَىٰ أَنْ يُجِيبَ دَعْوَتَهُ ﷺ إِلَىٰ أَنْ أَنْعَمَ لَهُ فِيهَا أَنْ تَأْتِيَ مَعَهُ فَأَقْبَلا يَتَدَافَعَانِ إِلَىٰ مَنْزِلِ ذٰلِكَ الرَّجُلِ النَّبِيُّ ﷺ وَعَائِشَةُ»**، والله تعالىٰ يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١] أين إيمانك لو رأيت اليوم صاحب منصب من قاض أو خطيب أو وزير أو سلطان يفعل مثل هذا تأسياً؟ هل كنت تنسبه إلاَّ إلى سفساف الأخلاق، ولو لم تكن هذه الصفة من مكارم الأخلاق ما فعلها رسول الله ﷺ الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق.

رأى رسول الله ﷺ وهو يخطب يوم الجمعة على المنبر الحسن والحسين وقد أقبلا يعثران في أذيالهما فلم يتمالك أن نزل من المنبر وأخذهما وجاء بهما حتى صعد المنبر وعاد إلى خطبته، أترى ذلك من نقص حاله؟ لا والله بل من كمال معرفته، فإنه رأى بأيّ عين نظر ولمن نظر ممّا غاب عنه العمى الذين لا يبصرون، وهم الذين يقولون في مثل هذه الأفعال أما كان له شغل بالله عن مثل هذا وهو ﷺ والله ما اشتغل إلاَّ بالله كما قالت من لم تعرف فيا ليتها سلمت حين سمعت القارىء يقرأ: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٥٥] مساكين أهل الجنة في شغل هم وأزواجهم، يا مسكينة ذكر الشغل تعالىٰ عن هؤلاء وما عرّفك بمن ولا بمن تفكهوا هم وأزواجهم، فيما ذا حكمت عليهم أنهم شغلوا عن الله، لو اشتغلت هذه القائلة بالله ما قالت هذه المقالة لأنها لا تنسب إليهم شغلهم بغير الله حتى تتصوّر في نفسها هذه الحالة التي تخيلتها فيهم، وإذا تصوّرتها لم يكن مشهودها في ذلك الوقت إلاَّ تلك الصورة، فهي المسكينة لما تحققنا من كلامها أن وقتها ذلك كان شغلاً عن الله، وأصحاب الجنة في باب الإمكان، وهي قد شهدت على نفسها شهود تحقيق أنها مع غير الله في شغل، وهذا من مكر الله الخفيّ بالعارفين في تجريح الغير ببادىء الرأي والتعريض في حق نفوسهم أنهم منزّهون عن ذلك، هكذا صاحب الغيرة المطلقة لا يزال في عذابها مقيماً متعوب الخاطر وهو عند الله في عين البعد من حيث لا يشعر.

حديث سابع عشر: في بقاء الطيب على المحرمة: ذكر أبو داود من حديث عمر بن سويد قال: **«حَدَّثَتْنِي عَائِشَةُ بِنْتُ طَلْحَةَ أَنَّ عَائِشَةَ أُمَّ المُؤْمِنِينَ حَدَّثَتْهَا قَالَتْ: كُنَّا نَخْرُجُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ مَكَّةَ فَنُضَمِّدُ جِبَاهَنَا بِالمِسْكِ المُطَيَّبِ عِنْدَ الإِحْرَامِ فَإِذَا عَرِقَتْ إِحْدَانَا سَالَ عَلَىٰ وَجْهِهَا فَيَرَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَلاَ يَنْهَانَا»**، تسمّى الله بالطيب، وحبّب إلى نبيه ﷺ الطيب، وإنما منع المحرم من إحداثه في أثناء أفعال الحج إلى وقت طواف الإفاضة، فإنه يستعمله للإحلال قبل أن يحل، كما استعمله للإحرام قبل أن يحرم، فأشبه النية في العمل لأن الإحرام عمل

مشروع والإحلال منه عمل مشروع، فصار في منزلة من لا يقبل العمل إلاّ به، فهي مرتبة عظمى، وهو أقوى من النية في الصحبة للمكلف، فإنّ المكلف يذهل عن النية في أثناء الفعل، فيقدح ذلك في صورة الفعل لا في ذات الفعل، فيخرج الفعل ممّا يكمله حضور النية والطيب لذاته يبقى لا كلفة فيه، فالأجر له من جهته ما دام موجوداً فيه فهو أقوى سلطاناً من النية، ولا يستعمل الطيب إلاّ لرائحته، فهو من مدارك الأنفاس الرحمانية، فيقع الكربات ويرفع الهموم ويزيل الضيق والحرج ويؤدّي إلى السعة والسراح والجولان في المعارف الإلهية، لأن الله طيب لا يقبل إلاّ طيباً، فالطيب محبوب لذاته فأشبه الكمال وهو في المرأة سبب موجب للنظر إليها، وما منعها الشارع من ذلك في حال إحرامها مع كشف وجهها، وهذا نقيض الغيرة التي في العامة التي ما خوطبنا بها، فعليك بالغيرة الإيمانية الشرعية لا تزد عليها فتشقى في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فلا تزال متعوب النفس. وأما في الآخرة بما يؤدي إلى سؤال الحق عن ذلك بما ينجرّ معها من سوء الظنّ ومن الاعتراض بالحال على الله وحصول الكراهة في النفس بما أباحه الله.

حديث ثامن عشر: في المسارعة إلى البيان عند الحاجة واحتزام المحرم: ذكر أبو داود عن صالح بن حسان: «**أنّ النّبيّ ﷺ رَأىٰ رَجُلاً مُحْرِماً مُحْتَزِماً بِحَبْلِ أَبْرَقَ فَقَالَ يَا صَاحِبَ الْحَبْلِ أَلْقِهِ**». فيحتجون بمثل هذا الحديث أن المحرم لا يحتزم والنبيّ ﷺ ما قال فيه ألقه لأنك محرم فما علّل للإلقاء بشيء، فيحتمل أن يكون لكونه محرماً، ويحتمل أن يكون لأمر آخر وهو أن يكون ذلك الحبل إما مغصوباً عنده وإما للتشبّه بالزنار الذي جعل علامة للنصارى.

اعلم أن الاحتزام مأخوذ من الحزم وهو الاحتياط في الأخذ بالأمور التي يكون في الأخذ بها حصول السعادة للإنسان ومرضاة الرب إذا كان الحزم على الوجه المشروع في الوجه المشروع والحبل إذا كان حبل الله وهو السبب الموصل إلى إدراك السعادة، فإن كان ذلك المحتزم احتزم بحبل الله معلماً بأخذ الشدائد والأمور المهمة وقال له ألقه فإنما ذلك مثل قوله: من يشادّ هذا الدين يغلبه. وقوله: إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، وكان كثراً ما يأمر ﷺ بالرفق وقال: «**إنَّ اللّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**» والحزم ضدّ الرفق، فإن الحزم سوء الظن وقد نهينا عن سوء الظن والأمر أيسر ممّا يتخيله الحازم وهو يناقض المعرفة فإنه لا يؤثر في القدر الكائن، والأمر الشديد على الواحد إذا انقسم على الجماعة هان، قال بعضهم: [الوافر]

إذا الحملُ الثقيلُ تقسَّمَتْهُ رقابُ الخلق خفَّ على الرقابِ

ألا ترى الله تعالىٰ يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٣] وقال في الواحد: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠١] وقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢] فيعتصم به الواحد والجماعة. ولما ذكر الحبل أمر الجماعة بالاعتصام به حتى يهون عليهم، ثم إنه مع كونهم جماعة قد يشق عليهم لشدته وقد تضعف الجماعة عنه

فأعانهم بنفسه وما ذكر من نفسه إلاَّ ما يعلم أنه الموصوف بالقدرة منه فقال رسول الله ﷺ: «**يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ**»، فيستعينون به ويعينهم بكون يد الله معهم على الاعتصام بحبل الله وهو عهده ودينه المشروع فينا، الذي لا يتمكن لكل واحد منا على الانفراد الوفاء به، فيحصل بالمجموع لاختلاف أحوال المخاطبين ولا يكون إلاَّ هكذا، فلهذا اعتبره ﷺ تنبيهاً له فقال له: ألقه هذا اعتباره الذي يحتاج إليه ولا سيما المحرم فإنه محجور عليه فزاد بالحبل احتجاراً على احتجار فكأنه قال له: يكفيك ما أنت عليه من الاحتجار فلا تزد، فما كان أرفقه بأمته ﷺ، وإنما رخّص رسول الله ﷺ في الهميان للمحرم لأن نفقته فيه الذي أمره الله أن يتزود بها إذا أراد الحج فقال: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٧] فالتقوى ههنا ما يتخذه الحاج من الزاد ليقي به وجهه من السؤال ويتفرغ لعبادة ربّه، وليس هذا هو التقوى المعروف ولهذا ألحقه بقوله عقيب ذلك ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٧] فيه وهو أن لا يكون إلاَّ من وجه طيب.

ولما كان الهميان محلاً له وظرفاً ووعاء وهو مأمور به في الاستصحاب رخّص له في الاحتزام به، فإنه من الحزم أن تكون نفقة الرجل صحبته، فإن ذلك أبعد من الآفات التي يمكن أن تطرأ عليه فتتلفه. ذكر أبو أحمد بن عدي الجرجانيّ من حديث ابن عباس قال: «**رَخَّصَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الهميان لِلْمُحْرِمِ**»، وإن كان هذا الحديث لا يصحّ عند أهل الحديث وهو صحيح عند أهل الكشف.

حديث تاسع عشر: في الإحرام من المسجد الأقصى: خرّج أبو داود من حديث أم سلمة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ أَهَلَّ بِحجَّةٍ أَوْ عُمْرَةٍ مِنَ المَسْجِدِ الأَقْصَىٰ إِلَىٰ المَسْجِدِ الحَرَامِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ وَوَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ**» في إسناده مقال.

المناسبة: المسجد يناقض الرفعة فهو بعيد منها وهو سبب في حصولها، قال عليه السلام: «**مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ**». والأقصى البعيد والحرام المحجور فهو بعد في قرب لمن هو فيه، فالأقصى بالنسبة إلى المسجد هو بعيد ممّا خوطب به ممّن هو في المسجد الحرام وهم أهل مكة، وما هو أقصى من أهله بل هو الأقرب، وهو أيضاً قصي من الأولية لأن البيت الذي هو الكعبة قد حاز الأولية وبين الأقصى وبينه أربعون سنة وهو حدّ زمان التيه لقوم موسىٰ عن دخول المسجد الأقصى لما كان في عين القرب وهو مرتبة الأوّلية التي للمسجد الحرام، فأبوا نصرة نبيه موسىٰ وقالوا له ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢٤] فقال لهم: إني تارككم تائهين في هذه القعدة أربعين سنة لا تستطيعون دخول بيت المقدس، كما لم يكن ظهوره للعبادة بعد المسجد الحرام إلاَّ بعد أربعين سنة، وما بقي معهم موسىٰ عليه السلام في التيه إلاَّ لكونه رسولاً إليهم، فبقوا حيارى لا هم في عين القرب من الأولية ولا حصل لهم غرضهم في دخول بيت المقدس، وما أخذهم الله إلاَّ بظاهر قولهم: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ فاحذر أن تكون من قوم موسىٰ الذين صفتهم هذا، بل كن من قوم موسىٰ الذين هم أمة يقضون بالحق وبه يعدلون، كذلك مقام النبوّة من مقام الولادة بينهما من

التوقيت الزمانيّ أربعون سنة، فما بعث نبيّ إلاَّ من أربعين سنة فإنه غاية استحكام العقل وقوّة سلطانه وابتداء ضعف الطبيعة، ثم يمشي بحكمه فيما بقي من عمره في وفور من عقله ونقص من طبيعته، فمن أحرم من المقام الأبعد يطلب المقام الأقرب، وكلاهما معبد كان المحرم برزخاً بينهما، وكان المعبدان طرفيه فما لم يصل إليه هو ما تأخر فأوصاه أيضاً مع تقوى الزاد بالتقوى من ذنبه، وما تقدّم عنه هو ما تقدّم من ذنبه، فيغفر له ما بين المسجدين، والغفر الستر فوجبت له الجنة لأنها ستر عن النار لمن دخل فيها وذاته ستر على نار شهواته فباطن الجنة نار محرقة، لأن الشهوة من الإنسان متحكمة فيها وهي نار طبيعته بلا شك، فما زال العبد السعيد مكتنفاً بالستر في التقدّم أن لا تصيبه عقوبة الذنب، وفي التأخر اكتنف بستر الحفظ، والعصمة أن لا يصيبه الذنب فهو ممّن وجبت له الجنة إذا كان هذا حكمه فهو مستور في كنف الله فهو في الجنة وإن كان في الدنيا.

حديث عشرون: في التنعيم أنه ميقات أهل مكة: من مراسيل أبي داود عن ابن عباس قال: «**وَقَّتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَهْلِ مَكَّةَ التَّنْعِيمَ**»، كيف لا يكون ميقاتهم التنعيم وهم جيران الله وأهل بيته؟ وهم أقرب الخلق إلى أولية المعابد، فيتجلى لهم الحق في اسمه الأول، ولا يحصل هذا التجلّي إلاَّ لأهل الحرم، وفيه يتفاضلون بحكم الأهلية فإنهم بين عصبة وأصحاب سهام، ولا يحصل هذا التجلّي لغيرهم ممّن جاور غيره من البيوت المضافة إلى الله، وكل من كان فيه وفارقه فإنما حكمه حكم المسافر وإليه ينسب لا إلى غيره، كهجرة النبيّ ﷺ ومن هاجر منه إلى المدينة قبل الفتح، فأثبت لهم جوار الله لما وجدوا اسم المهاجرين، وإنما وقع هذا الاسم لأمور عرضية والبيت لله على أصله من الحرمة والتحريم عند الفريقين، فأهل مكة بحكم الأصل مكيّون جيران الله في حرمه، وهم عرب لهم حفظ الجار ومراعاة الجوار والحق يعامل عباده بما تواطؤوا عليه في أخلاقهم إليهم يحج الخلق من كل جانب: [الطويل]

يقولون حجَّ العبدُ والعبد لم يحجْ ... وما حجَّ إلاَّ من له الفعلُ والأمرُ
وما ثَمَّ إلاَّ الله ما ثَمَّ غيرُه ... فمنه العطاءُ الجزْلُ والنائلُ الغَمْرُ

وإذا كان المكيّ في غير مكة لا يزول عنه اسم الأهلية، كما أن الآفاقيّ إذا كان بمكة لا يزول عنه اسم الجار، كما أنا وإن حزنا بخلقنا الصورة الربانية فنحن بحكم الأصل عبيد عبودية لا حرية فيها فما نحن سادة ولا أرباب، فمراعاة الأصول هي المرجوع إليها ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] فهو الأصل فافهم هذه الآية فهم حفيّ بها خابر، ولا أثر لما يقدح في الأصل من العوارض فإن ذلك ليس قادحاً في نفس الأمر.

حديث حادي وعشرون: في تغيير ثوبي الإحرام: ذكر أبو داود عن عكرمة: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ غَيَّرَ ثَوْبَيْهِ بِالتَّنْعِيمِ وَهُوَ مُحْرِمٌ**» هذا من المراسيل اعتباره تغيير حال الشدّة بالرخاء، وذلك من كان حاله البلاء الذي يوجب للمؤمن الصبر عليه والرضى به لكونه من عند الله تعالى فتجده عند هذا البلاء شاكراً فقد عامل البلاء بما لا يستحقه.

وهذه مسألة أغفلها أيضاً أصحابنا وغلطوا في تحقيقها والعبارة عنها، واحتجوا في ذلك بما قاله أبو يزيد البسطامي الأكبر وهو: [الوافر]

أريــــدكَ لا أريــــدكَ لــلـثَّـوَابِ ولــكــنــي أريــدك لــلــعــقــابِ
وكــل مــآربــي قــد نِــلْــتُ مــنــهــا ســوى مَــلْــذُوذِ وجْــدي بــالــعــذابِ

فاعلم أن البلاء المحقق إنما هو قيام الألم ووجوده في نفس المتألم، ما هو السبب المربوط به عادة كوجود الضرب بالسوط والحرق بالنار والجرح بالحديد، وما أشبه ذلك من الآثار الحسية ممّا يكون عنها الآلام الحسيّة، وكذلك ضياع المال والمصيبة في الأهل والولد، والتوعّد بالوعيد الشديد، وجميع الأسباب الخارجة عنه الموجبة للآلام النفسية عادة إذا حصلت بهذا الشخص وهي ثوبا الإحرام، فإن الإحرام يحول بينه وبين الترفّه والتنعم، فمثل هذه الأمور في العادة يوجب الآلام فيتعين شرعاً على المبتلى بها الصبر والرضى والتسليم لجريان الأقدار عليه بذلك، فتسمى هذه الأسباب عذاباً وليست في الحقيقة عذاباً، وإنما العذاب هو وجود الألم عند هذه الأسباب لا عين الأسباب، وكذلك اللذة التي هي نقيض الألم هي صفة للملتذ يوصف بها وهو النعيم والتنعم، وله أسباب ظاهرة وهي نيل أغراضه كانت ما كانت فإنه يتنعم بوجودها إذا حصلت فهو صاحب تنعم في مقام تنعيم، فعبد على مثل هذا بالشكر لا بالصبر وسمّي أسباب وجود اللذة في الملتذ نعيماً، وليس النعيم في الحقيقة إلاً اللذة الموجودة في النفس وهي أيضاً لذات حسية ونفسية، وأسباب كأسباب الآلام خارجة وقائمة بحسّه، فأما صاحب أسباب الآلام إذا وجد اللذّة والالتذاذ في نفسه مع قيام هذه الأسباب الموجبة للآلام عادة لم يجب عليه الصبر فإنه ليس بصاحب ألم وإنما هو صاحب لذّة متقلب في نعم من الله فيجب عليه الشكر للتنعّم القائم به، وبالعكس في حصول أسباب النعم يجد عندهاالألم فيجب عليه الصبر، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما أصابني الله بمصيبة فأثبت أنه مصاب بها أي نزلت به مصيبة أي سبب موجب للألم عادة فقال: إلا رأيت أن لله عليّ في تلك المصيبة ثلاث نعم: النعمة الواحدة حيث لم تكن في ديني. النعمة الثانية حيث لم تكن أكثر منها. النعمة الثالثة ما وعد الله من الثواب عليها. فأنا أنظر إليه فمثل هذا ما يسمّى صابراً فإنه صاحب نعم متعددة فهو ملتذّ بمشهوده، فيجب عليه شكر المنعم وبالعكس وهو وجود أسباب اللذة، فينعم الله عليه بمال وعافية ووجود ولد أو ولاية جديدة يكون له فيها رياسة وأمر ونهي، وهذه كلها أسباب تلتذّ النفوس بها.

وإذا كانت مطعومات شهية وملبوسات لينة فاخرة ومشمومات عطرة فهو صاحب لذة حسيّة، فيفكر صاحب هذه الأسباب بما للحق عليه فيها من الحقوق من شكر المنعم والتكليف الإلهي في ذلك وما يتعين عليه في المال والولد والولاية من التصرّف في ذلك كله على الوجه المشروع المقرّب إلى الله وإقامة الوزن في ذلك كله، فعندما يخطر له هذا وهو الواجب عليه من الله أن ينظر في ذلك أعقبت هذه الأسباب الملذة في العادة هذا الفكر الموجب للألم فقام الألم به فهو صاحب بلاء لأنه صاحب ألم عن ظهور أسباب نعيم، فيجب

عليه الصبر على ذلك الألم، ويسعى في أداء ما يجب عليه من الحق في ذلك أو يزهد فيه إن أفرط فيه الألم، فما وقع الصبر إلاّ في موضعه مع وجود أسباب ضدّه، ولا وقع الشكر إلاّ في موضعه مع وجود أسباب ضده ولذا قال أبو يزيد: * سوى ملذوذ وجدي بالعذاب *. فما أراد بالعذاب هنا وجود الألم، فإن الألم بالشيء مضادّ للتلذّذ به فلا يجتمعان في محل واحد أبداً، وهو طلب اللذة عند وجود سبب الآلام، وهو خرق عادة كنار إبراهيم عليه السلام هي في الظاهر نار، ولكن ما أثرت إحراقاً في جسم إبراهيم ولا وجداً لما لها بل كانت عليه برداً وسلاماً، فتعين الشكر عليه لأنه ما ثم ألم يجب الصبر عليه، فالصبر أبداً لا يكون إلاّ مع البلاء، والبلاء وجود الألم، والشكر أبداً لا يكون إلاّ مع النعماء والنعيم بوجود اللذة في المحل، فما يقع الشكر من العبد إلاّ على مسمى النعمة، ولا يقع الصبر من العبد إلاّ على مسمى الألم وهو البلاء، ألا ترى النبيّ ﷺ ما غيّر ثوبي إحرامه إلاّ بمكان يسمّى التنعيم، ينبّه بذلك أصحابه ومن يأتي بعده من إخوانه أنكم إذا نالتكم مشقة الإحرام في الحج وما يتضمنه من الأسباب المؤلمة المؤذية فانظر فيما لله في طيّها من النعم التي لا تحصى، فيعقبكم رؤية ذلك تنعيماً والتذاذاً بما أنتم بسبيله لأنه سبب موجب لنيل تلك المشاهد الكرام والنعم الجسام فتهون عليكم صعوبة طريقكم فتكونون من الشاكرين، فتجازوا يوم القيامة جزاء الصديقين الصابرين وجزاء الصديقين الشاكرين، وكذلك في أسباب النعم إذا رأيتموها بلاء واختباراً وأدّيتم حقوقها فإن لكم الجزاءين: جزاء الشاكر وجزاء الصابر، فهذا معنى تغيير النبيّ ﷺ ثوبيه بالتنعيم وهو محرم، فإن شاء قال: الحمد لله المنعم المفضل، وإن شاء قال: الحمد لله على كل حال لوجود الحالين عنده فاعلم ذلك، ألا ترى تلبيته ﷺ: لبيك إن الحمد فعمّ الحالتين ثم قال: والنعمة لك وما قال: والبلاء منك مع ظاهر الحال من المشقة والتحجير، وأعظمها امتناعه ممّا حبّب إليه وهو التمتع بالنساء.

حديث ثان وعشرون: لا حج لمن لم يتكلم: ذكر ابن الأعرابيّ عن زينب بنت جابر الأحمسية: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا فِي امْرَأَةٍ حَجَّتْ مَعَهَا مصمتة قُولِي لَهَا تَتَكَلَّمُ فَإِنَّهُ لاَ حَجَّ لِمَنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ**». يروي هذا الحديث متصلاً إلى زينب ذكره ابن حزم في كتاب المحلى، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩] وهو كلام وهو صفة إلهية وأنت في عبادة مشروعة، فينبغي بل يجب الكلام فيها بذكر ورد الحديث أن المناسك في الحج إنما وضعت لإقامة ذكر الله، وعن الكلام صدرنا وهو قوله: كن فكنا، فالصمت حالة عدمية والكلام حالة وجودية، فالكلام له الأثر وبه سمّي كلاماً لأنه من الكلم وهو الجرح والجرح أثر في البدن والإنسان موجود فلا ينبغي أن يتصف إلاّ بصفة وجودية وهو الكلام لا يوصف عدميّ وهو الصمت فإن حقيقة الإنسان النطق، فإذا صمت كذب على نفسه بالحال على أن الله قد جعل للصمت موطناً وهو صمت إضافيّ وهو ترك الكلام فيما لا يعني أو فيما يكون عليك لا لك.

حديث ثالث وعشرون: في رفع الصوت بالتلبية وهو الإهلال في الحج: ذكر النسائي عن السائب بن خلاد عن رسول الله ﷺ قال: «**جَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيهِ السَّلاَمُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ**

أَصْحَابَكَ أَنْ يَرْفَعُوا أَصْواتَهُمْ بِالتلْبِيَةِ». قد ثبت بالدليل العقليّ والسمعي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٧٥] وأنه ﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سورة سبأ: الآية ٥٠] وقد جاء الشرع بذلك فاستوى المؤمن والعالم، فلم يبق لرفع الصوت بالتلبية لجناب الحق مدخل، غير أنه تعالىٰ أخبر أنه يباهي بالحاج ملائكته، فإذا رفعوا أصواتهم وضجّوا بالتلبية شعثاً غبراً مهطعين إلى الله تعالىٰ فإنه الداعي لهم كان أعظم عند الملائكة في المباهاة المرادة للحق في ذلك، ثم إنه من الأرواح المفارقة لحالة الدنيا بالموت ممّن دعانا إلى الحق بعمل الحج كما روي عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه لما بنى البيت أمره ربه تعالىٰ أن يصعد عليه وأن يؤذن في الناس بالحج فقال: يا رب وما عسى يبلغ صوتي؟ فأوحى إليه: عليك بالنداء وعليّ البلاغ، فنادى إبراهيم عليه السلام: يا أيها الناس إن لله بيتاً فحجّوه، قال: فأسمع الله ذلك النداء عباده. فمنهم من أجاب، ومنهم من لم يجب. وكانت إجابتهم مثل قولهم بلى حين أشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ فأجابوه إجابة يسمعها من كان الحق سمعه منهم من سارع إلى إجابة الحق وهم الذين يسارعون في الخيرات والقائلين بأن الحج على الفور للمستطيع. ومنهم من تلكأ في الإجابة فلم يسرع إلاّ بعد حين منهم الذين يقولون: الحج مع الاستطاعة على التراخي، فمن هناك قضوا في هذا الوقت بما قضوا به من ذلك وهم لا يشعرون، لأن الله تعالىٰ ما أطلعهم على هذا المشهد لما أخرجهم إلى الحياة الدنيا ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٧] ثم إن الذين أجابوه منهم من كرّر الإجابة، ومنهم من لم يكرّر، فمن لم يكرّر لم يحج إلاّ واحدة، ومن كرّر حج على قدر ما كرّر وله أجر فريضة في كل حجة، وقد نبّه الشارع على ذلك بتكرار التلبية في الحج فقال: لبيك اللهمّ لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك إله الحق، فأتى بخمس للتأذين بالحج تشبيهاً بالنداء للصلوات الخمس، فيجيب لكل أذان لأنه كانت قرّة عينه في الصلاة.

وممّا يؤيد ما ذهبنا إليه أن الإهلال بالحج ما شرع إلاّ أثر صلاة لا بدّ منها، ولقد رأيت رجلاً بمكة من أهلها يزيد على الثلاثين سنة عمره ما حج قط ولا اعتمر ولا طاف بالبيت، فكانت أوّل عمرة اعتمرها معي وكنت أعلمته كيف يصنع فيها، وأخبرت عن رجل بجدة على ليلة من مكة يكون عمرة بضعاً وثمانين سنة مما حجّ قط. وأخبرت عن رجل من أهل مصر من أهل الثروة ما حدث نفسه بالحج قط فقبض عليه عن أمر صاحب مكة لنازلة وقعت تخيّل فيه أنه صاحب النازلة فجاؤوا به إلى صاحب مكة وهو مقيد بالحديد ليقتله فوافق يوم الوقوف بعرفة فلما أبصره الواشي قال: أيها الأمير ما هو هذا فخلى سبيله واعتذر إليه فاغتسل وأهل بالحج فهكذا هي العناية.

وأما من لم يجب ذلك النداء الإبراهيميّ فهم الذين لم يضرب الله لهم بسهم في الحج مع كونهم سمعوا، ومن أصمه الله عن ذلك النداء فهو الذي لا يؤمن بالحج، وأمّا الذين يحج عنهم إذا لم يحجوا فالذي يحج عنهم له الحج كاملاً بثوابه وللمحجوج عنه ثواب الحج لا الحج فيحشر في الحاج وليس بحاج هذا أعطاه الكشف، فلهذا قد ذكرنا أن رفع الصوت

بالتلبية إنما كان للمباهاة، وأما المعنى الآخر في حكم الأسماء الإلهية فإنه من أسمائه البعيد وهو التائه الوارد في القرآن حيث وقع، فلا ينادي إلاَّ الاسم البعيد من الحالة التي ينادي فيها العبد ليجيب نداء الحق إلى الحالة التي يدعوه إليها، والبعد يطلب رفع الصوت بالتلبية لإظهار قوّة سلطان الاسم البعيد بأن له التأثير فيما بعد كتأثير القريب، إذ لا مفاضلة في الأسماء الإلهية كما قررناه غير مرّة فاعلم ذلك. انتهى الجزء الثاني والسبعون.

(الجزء الثالث والسبعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

حديث رابع وعشرون: في ذكر الله قبل الإهلال بالحج: خرّج البخاري عن أنس: «**أَنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا اسْتَوَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ عَلَىٰ البَيْدَاءِ حَمدَ اللَّهَ وَسَبَّحَ وَكَبَّرَ ثُمَّ أَهَلَّ بِحَجٍ وَعُمْرَةٍ حَمْداً لِلَّهِ**»، ولم يذكر صورة التحميد، فليحمل على الثناء على الله بما يقتضيه حال النبيّ ﷺ في ذلك الموطن، فإنه فيه بين ما يسره بين ما حجر عليه فعله ممّا كانت له في إباحته إرادة، فمن حيث ما هو صاحب سر آي من إجابة الخلق دعوة الله يقول: الحمد لله المنعم المفضل، ومن حيث ما حجر عليه ومنع ممّا له فيه إرادة يقول: الحمد لله على كل حال، فجمع بين الحمدين ليجمع الله له بين الدرجتين لأنه كامل فيكمل له الجزاء، وهكذا ينبغي أن يحضر الحاج في نفسه في ذلك الوقت عند تحميده ربه إحضار الحالتين ليجمع له بين الحمدين حالاً ونطقاً فيحصل على الجزاءين، فلهذا قال الصاحب: حمداً لله ولم يعين. وأما التسبيح في ذلك الموطن فإنه التحجير والإحرام والحق منزّه عن التحجير في تصريفه في خلقه، فهو يصرّفهم كيف يشاء لا مانع ولا تحجير عليه، فوجب التسبيح لما يقتضيه الموطن، ومن وجب له التسبيح فهو الكبير عن الاتصاف بمثل ما هم الناس عليه في ذلك الوقت من الحال فلا بدّ من التكبير، فإذا أعطى الله ما ينبغي له حينئذ يتفرّغ لمقصود فيما دعى إليه من الحج والعمرة فيها بالحج والعمرة كما ورد.

حديث خامس وعشرون: في النهي عن العمرة قبل الحج: خرّج أبو داود عن سعيد بن المسيب: «**أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَتَىٰ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَشَهِدَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ يَنْهَىٰ عَنِ الْعُمْرَةِ قَبْلَ الْحَجِّ**». وهذا مرسل وضعيف جداً، فإن الأحاديث الصحاح تعارضه، فصار مدلول لفظ الحج في هذا الحديث أنه القصد وهو النيّة فهي نهي أن يتقدّم العمل على النيّة فيه، فإن النيّة ما شرعت إلاَّ عند الشروع في العمل، والعمرة زيارة الحق في بيته المضاف إليه الذي دعا الناس إلى الإتيان إليه، فمن زاره من غير قصد وهو المسمّى بالحج لغة لا شرعاً فما زاره، فنهى عن الزيارة قبل القصد يعني نية الزيارة على جهة القربة، فيصحّ الحديث على هذا المعنى.

حديث سادس وعشرون: ما يبدأ به الحاج إذا قدم مكة: خرّج مسلم عن عروة بن الزبير قال: «حجّ رسول الله ﷺ فأخبرتني عائشة رضي الله عنها أنه أوّل شيء بدأ به حين قدم مكة أنه توضأ ثم طاف بالبيت» لما دعا الله سبحانه عباده إلى هذه العبادة ما دعاهم إلاَّ إلى بيته لا

إلى غيره فقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وأمر خليله إبراهيم عليه السلام أن يعلو على ظهر البيت حين أكمله بالبناء أن ينادي: «إن لله بيتاً فحجّوه»، فلما وصلوا إلى البيت لم يتمكن أن يكون البدء إلاّ الطواف به حتى يعمّه من جميع جهاته ولا يطاف بالبقعة ما لم تكن محجورة بصورة ينطلق عليها اسم البيت، ألا تراهم لما بقي من البقعة ما بقي خارجاً، إذ قصرت بهم النفقة من جهة الحجر أقاموا لذلك الباقي حائط الحجر حتى لا يكون الطواف إلاّ بصورة زائدة على البقعة، هذا كله لئلا يتخيل أن المقصود البقعة، فأعلمهم الله تعالىٰ أن المقصود صورة البيت في هذه البقعة، فوقع القصد للمجموع لا للمفرد، ومتى لم يكن المجموع لم يصح القصد ولا صحّت العبادة، وذلك لأن أصل استنادنا في وجودنا ما هو للذات الغنية من كونها ذاتاً بل من كون هذه الذات إلهاً، فاستنادنا للمجموع، ولهذا كثرت الآلهة في العالم في ذوات مختلفة في زعم من جعلها آلهة، كما كثرت البيوت في بقاع مختلفة، وما صحّ منها أن يكون بيتاً لهذه العبادة إلاّ هذا الخاص لهذا الجمع الخاص وإن كانت كلها بيوتاً في بقع، ثم إن الله تعالىٰ لما اتصف بالغيرة ورأى ما يستحقه من المرتبة قد نوزع فيها ورأى أن المنسوب إليهم هذا النعت وهذا الاسم لم يكن لهم فيه قصد ولا إرادة من فلك، وملك، ومعدن، ونبات، وحيوان، وكوكب، وأنهم يتبرؤون منهم يوم القيامة، قضى الله حوائج من عبدهم غيرة ليظهر سلطان هذه النسبة، لأنهم ما عبدوه لكونه حجراً ولا شجراً، بل عبدوه لكونه إلهاً في زعمهم، فالإله عبدوا فما رأى معبوداً إلاّ هو، ولهذا يوم القيامة ما يأخذهم إلاّ بطلب المعبودين، فإن ذلك من مظالم العباد، فمن هنالك يجازيهم الله بالشقاء لا من حيث عبادتهم، فالعبادة مقبولة، ولهذا يكون المآل إلى الرحمة مع التخليد في جهنم فإنهم أهلها فتفطن، فقد اجتمعوا معنا في كوننا ما عبدنا هذه الذات لكونها ذاتاً بل لكونها إلهاً. فوضعنا الاسم حقيقة على مسماه فهو الله حقاً لا إله إلاّ هو، فلما نسبنا ما ينبغي لمن ينبغي سمينا علماء سعداء، وأولئك جهلاء أشقياء لأنهم وضعوا الاسم على غير المسمّى، فأخطؤوا فهم عباد الاسم والمسمّى مدرج فوقع التمييز بيننا وبينهم في الدار، فسكنا داراً تسمّى جنة لها ثمانية أبواب، الباب الثامن من وضع الاسم على مسمّاه حقيقة، وكانت النار سبعة أبواب لأن الباب الثامن هو وضع الاسم على مسمّاه، وأهل جهنم ما وضعوه على مسمّاه فجهلوا فظهر الحجاب فلم يروا إلاّ مسماهم وذهب الاسم عنهم يطلب مسمّاه فأخذه من استحقه وهو الله، فعرفوا في الآخرة ما جهلوه في الدنيا ولم تنفعهم معرفتهم. ولكن راعى الحق سبحانه قصدهم حيث أنهم ما عبدوا إلاّ الله لا الأعيان فصيرهم في العاقبة إلى شمول الرحمة بعد استيفاء حقوق المعبودين منهم ولذلك جعله من الكبائر التي لا تغفر، ولكن ما كل مشرك بل المشركون الذين بعثت إليهم الرسل أو لم يوفوا النظر حقّه ولا اجتهدوا، فإن النبيّ ﷺ قد أخبر أن المجتهد وإن أخطأ فإنه مأجور، ولم يعين فرعاً من أصل بل عمّ وصدق قوله: ورحمتي وسعت كل شيء. وقوله: سبقت رحمتي غضبي. وأن الميزان ما هو على السواء في القبضتين وإنما هو على السواء بين العمل والجزاء لذلك وضع الميزان، وهذه

المسألة الميزانية غلط فيها جماعة من أهل الله منهم أبو القسم بن قسي صاحب خلع النعلين ومن تابعه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حديث سابع وعشرون: أين يكون البيت من الطائف؟: خرّج الترمذي عن جابر قال: «**لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ دَخَلَ فَاسْتَلَمَ الْحَجَرَ ثُمَّ مَضَىٰ عَلَىٰ يَمِينِهِ فَرَمَلَ ثَلاثاً وَمَشَى أَرْبَعاً**» الحديث، لما كان الحجر يمين الله وجعل للإنسان المخلوق على الصورة يميناً شرع له أن يكون في طوافه بين يمين الله ويمينه فيكون مؤيّد بالقوّتين معاً، فلا يجد الشيطان إليه دخولاً لأن الشيطان ليس له على اليمين سبيل، وإنما يلقي في قلب العبد وهو مائل إلى جهة الشمال، فيكون يمين الحق في الطواف في حق الطائف يحفظه وهو ذو يمين من نشأته فلا يزال محفوظاً، فإذا انتقل من موازنته وهو من حدّ الركن العراقي إلى الركن اليماني تحفظه عناية البيت المنسوب إلى الله. فإن قلت: فقد أخبر الله تعالىٰ عن إبليس أنه يأتينا من قبل اليمين. قلنا؛ اليمين الذي أراد الشيطان هنا ليس هو يمين الجارحة فإنه لا يلقي على الجوارح، وكذلك ما هو شمال الجوارح، ولا أمام الإنسان ولا خلفه، وأن محل إلقائه إنما هو القلب فتارة يلقي في القلب ما يقدح في أفعال ما يتعلق بيمينه أو شماله أو من خلفه أو من بين يديه، ونحن إنما نريد باليمين هنا هذه الجهة المخصوصة. فإن قلت. وكذا المشرك له هذه اليمين. قلنا: بالمجموع وقع ما وقع وما يكون المجموع إلاَّ للمؤمن وهذا معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٩٠] يريد يمين المبايعة التي بيدها الميثاق ما يريد يمين الجارحة.

حديث ثامن وعشرون: من رأى الركوب في الطواف والسعي: خرّج مسلم عن جابر قال: «**طَافَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حجَّةِ الْوَدَاعِ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ بِالبَيْتِ وبِالصَّفَا وَالمَرْوَة**» الحديث. وكذلك أيضاً وقف بعرفة وبجمع ورمى الجمار، كل ذلك وهو راكب إعلام منه ﷺ أنه محمول في جميع أحواله من طاعة ربه وأنه بغيره لا بنفسه، وكان من حامله كعضو من أعضائه بالنسبة إليه، فكما أن أعضاءه محمولة لنفسه عضواً عضواً حمل الكل للجزء، كذلك الإنسان بجملته الإنسان لمن يحمله فهو طائف لا طائف، وساع لا ساع، وواقف لا واقف، وما سمّي بالحاج إلاَّ بهذه الأفعال وهو محمول فيها بسعي حامله ووقوفه، ومع هذا ينسب إليه، فنبهك على ما هو الأمر عليه يقول لك: وإن قال لك اعمل فهو العامل بك لا أنت، ثم ينسب العمل إليك ويجعل الجزاء للعمل لا لك، غير أن العمل ليس بمحل للتنعم والتألم بالجزاء، ولا بدّ له من قائم يقوم به، فليكن محله من نسب الفعل إليه حسّاً وهو المكلف، وعاد الحامل له كالآلة، وإذا كان الحامل هو الله كان المحمول لظهور ذلك الفعل فيه كالآلة له وهذا عكس الأوّل، فلهذا طاف وسعى ووقف ورمى راكباً ليراه الناس فيتأسون وأهل الله فيعتبرون لمعرفتهم بما أراد رسول الله ﷺ بتلك الحالة مع تمكنه أن يفعل هذه الأفعال من غير ركوب.

حديث تاسع وعشرون: إلحاق اليدين بالرجلين في الطواف: ذكر الدارقطنيّ عن أم

كبشة أنها قالت: «**يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي آلَيتُ أَنْ أَطُوفَ بِالبَيْتِ حَبْواً، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: طُوفِي عَلَىٰ رَاحِلَتِكِ سَبْعِينَ سَبْعاً عَنْ يَدَيْكِ وَسَبْعاً عَنْ رِجْلَيْكِ**»، اليدان للإنسان كالجناحين للطائر، فكما يسبح في الأرض برجليه حين يمشي، كذلك يسبح في الماء بيديه إذ مشى فيه، ومع كون الإنسان يمشي على رجليه فإنه يستعين بحركة يديه إذا مشى، ولما كان باطن الإنسان وهو روحه ملكاً في الحقيقة من ملائكة التدبير وهم النوع الثالث من الملائكة وقد أخبر الله تعالىٰ عن الملائكة أنهم ذوو أجنحة وما خصّ ملكاً من ملك فنعلم قطعاً أن نفوسنا من حيث هي من الملائكة الذين مقامهم تدبير هذه الأجسام العنصرية أنهم ذووا أجنحة، وجعلت هذه الأجسام الطبيعية حجاباً دوننا عن إدراكنا إياها، ألا ترى إلى جبريل عليه السلام لما تجسد في صورة دحية، وفي صورة الأعرابيّ ما ظهر لعين أجنحته عين جملة واحدة حكم على سترها ظهور صورة الجسم الذي ليس من شأنه أن يكون له جناح مع كون جبريل له ستمائة جناح، فلما كانت لهم السباحة بالأجنحة التي بها يمشون في الهواء وهو ركن من الأربعة الأركان كما هي الرجلان للسعي في ركن التراب ألحق اليد بالرجلين فقال لها في هذا القول: طوفي سبعاً عن روحك لأن مشيه بالجناحين وهو قوله عن يديك وسبعاً عن رجليك لأن بهما يكون المشي في الطواف وغيره، فضاعف عليها التكليف لما جعلت المشي في غير آلته فافهم.

حديث ثلاثون: في الاضطباع في الطواف: ذكر الترمذيّ عن يعلىٰ بن أمية: «**أَنَّ النَّبِيَ صلى الله عليه وسلم طَافَ بِالبَيْتِ مُضْطَبِعاً وَعَلَيهِ بُرْدٌ**». قال أبو عيسىٰ: هذا حديث حسن صحيح، الاضطباع أن يكون طرف من الرداء على كتفك اليسرى بما بقي منه تتأبطه تحت ذراعك اليمنى، ثم تمرّ به إلى صدرك، إلى كتفك اليسرى فتغطيها بطرفه، فيكون الكتف الأيمن مكشوفاً والأيسر مستوراً، هذا ليجمع بين حالتي الستر والتجلي والغيب والشهادة والسرّ والعلن، وإنما وقع الستر من جهة القلب لأنه موضع الغيب من الإنسان، وعنه تظهر الأفعال في عالم الشهادة وهي الجوارح، فلولا قصده لتحريكها ما ظهرت عليها حركة فذلك تأثير الغيب في الشهادة، وأصل ذلك من العلم الإلهيّ قول الله تعالىٰ في الذكر: «**إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه**».

اعلم أن له ذكراً مستوراً نسبه إلى نفسه، وأن له ذكراً علانية، والعين واحدة ما لها وجهان مع وجود الاختلاف في الحكم، وعن هذه النسبة الإلهية ظهر العالم في مقام الزوجية فقال: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٤٩] وإن كان واحداً فله نسبتان ظاهرة وباطنة إذ كان هو الظاهر والباطن، فما أعزّ معرفة الله على أهل النظر الفكري، وما أقربها على أهل الله جعلنا الله من أهله.

حديث حادي وثلاثون: السجود على الحجر عند تقبيله: ذكر البزار عن جعفر بن عبد الله بن عثمان المخزوميّ قال: «**رَأَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبَّادِ بْنِ جَعْفَرَ قَبَّلَ الحَجَرَ ثُمَّ سَجَدَ عَلَيهِ، قُلْتُ: مَا هٰذَا؟ قَالَ: رَأَيتَ خَالَكَ ابْنَ عَبَّاسٍ قَبَّلَ الحَجَرَ ثُمَّ سَجَدَ عَلَيهِ. وَقَالَ: رَأَيْتُ**

عُمَرَ قَبَّلَهُ وَسَجَدَ عَلَيْهِ. وقال: رأيت رسول الله ﷺ قبله وسجد عليه» لما كان الحجر أرضياً وجعل الله الأرض ذلولاً، وهي لفظة مبالغة في الذلّة، فإن فعولاً من أبنية المبالغة في اللسان العربيّ، قال الشاعر: ضروب بنصل السيف سوق سمانها. وإنما أعطيت المبالغة في الذلّة لكون الأذلاء وهم عبيد الله أمروا بالمشي في مناكبها أي عليها، فمن وطئه الذليل، فهو أشد مبالغة في وصفه بالذلة من الذي يطؤه، فكما جبر الله كسر الأرض من هذه الذلّة بما شرع من السجود عليها بالوجوه التي هي أشرف ما في ظاهر الإنسان والحجر من الأرض فصحبه ذلك الانكسار لأنه قد فارق الأرض التي هي محل سجود الجباه والوجوه الذي ينجبر به انكسارها، فشرع السجود على الحجر مع كونه فارق الأرض في حال الانكسار، فحصل له من الجبر نصيبه بهذا السجود لأنه حجر معتنى به، وقبل لكونه يميناً منسوباً إلى الله، فتقبيله للمبايعة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [سورة الفتح: الآية ١٠] فهذه علة السجود عليه.

حديث ثاني وثلاثون: سواد الحجر الأسود: ذكر الترمذيّ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**نَزَلَ الْحَجَرُ الأَسْوَدُ مِنَ الْجَنَّةِ وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ فَسَوَّدَتهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ**». قال أبو عيسىٰ: هذا حديث حسن صحيح، آدم عليه السلام لولا خطيئته ما ظهرت سيادته في الدنيا فهي التي سوّدته وأورثته الاجتباء، فما خرج من الجنة بخطيئته إلاَّ لتظهر سيادته، وكذلك الحجر الأسود لما خرج وهو أبيض فلا بدّ من أثر يظهر عليه إذا رجع إلى الجنة يتميز به على أمثاله فيظهر عليه خلعة التقريب الإلهي، فأنزله الله منزلة اليمين الإلهي التي خمر الله بها طينة آدم حين خلقه فسوّدته خطايا بني آدم أي صيرته سيداً بتقبيلهم إياه، فلم يكن من الألوان من يدل على السيادة إلاَّ اللون الأسود فكساه الله لون السواد ليعلم أن ابنه قد سوّده بهذا الخروج إلى الدنيا كما سوّد آدم، فكان هبوطه هبوط خلافة لا هبوط بعد، ونسب سواده إلى خطايا بني آدم كما حصل الاجتباء والسيادة لآدم بخطيئته أي بسبب خطايا بني آدم أمروا أن يسجدوا على هذا الحجر ويقبلوه ويتبركوا به ليكون ذلك كفارة لهم من خطاياهم فظهرت سيادته لذلك، فهذا معنى سوّدته خطايا بني آدم أي جعلته سيداً، وجعلت اللونية السوداية دلالة على هذا المعنى، فهو مدح لا ذم في حق بني آدم، ألا ترى آدم ما ذكر الله أولاً للملائكة إلاَّ خلافته في الأرض وما تعرض للملائكة، فلما ظهر من الملائكة في حق آدم ما ظهر قام ذلك الترجيح منهم لأنفسهم وكونهم أولى من آدم بذلك ورجحوا نظرهم على علم الله في ذلك فقام لهم ذلك مقام خطايا بني آدم فكان سبباً لسيادة آدم على الملائكة، فأمروا بالسجود له لتثبت سيادته عليهم، فالسعيد من وعظ بغيره، فالعاقل منا لا يعترض على الله فيما يجريه في عباده من تولية من يحكم بهواه ولا يعمل في رعيته بما شرع له، فللّه في ذلك حكم وتدبير، فإن الله أمر بالسمع والطاعة وأن لا ننازع الأمر أهله إذ قد جعله الله لذلك الأمر، فإن عدل فلناوله، وإن جار فلنا وعليه، فنحن في الحالين لنا فنحن السعداء وما نبالي بعد ذلك إذا أثبت الله السعادة لنا بما يفعل في خلقه، فإن تكلمنا في ولاتنا وملوكنا بما هم عليه من الجور سقط ما هو لنا في جورهم وأسأنا الأدب مع الله حيث رجحنا نظرنا على فعله في ذلك، لأن

لنا الذي هو في جورهم هو نصيب أخروي بلا شك فقد حرمناه نفوسنا، ومن حرم نفسه أجر الآخرة فهو من الخاسرين، والذي لنا إذا عدلوا فهو نصيب دنيويّ والدنيا فانية، ونحن قد فرحنا وآثرنا نصيب الدنيا على نصيب الآخرة من حيث لا نشعر لاستيلاء الغفلة علينا، فكنا بهذا الفعل ممّن أراد حرث الدنيا، كما أن قوله: إذا عدلوا فلهم نصيب أخروي فزهدوا فيه بجورهم فعاد عليهم وبال ذلك الجور، فالمسلم من سلم وفوّض ورأى أن الأمور كلها بيد الله، فلا يعترض إلاّ فيما أمر أن يعترض فيكون اعتراضه عبادة، وإن سكت في موضع الاعتراض كان حكمه حكم من اعترض في موضع السكوت، جعلنا الله من الأدباء المهذبين الذين يقضون بالحق وبه يعدلون.

واقعة قيل لي فيها وفيه مناسبة من هذا الحديث ما يعلم من الله وما يجهل فقلت: [البسيط]

العلمُ بالله ديني إذْ أدينُ به ... والجهلُ بالعين إيماني وتوحيدي

فقيل لي: صدقت هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٨] فما عندك في تجليه؟ فقلت: [البسيط]

في كلِّ مُجْلًى أراه حين أشهده ... ما بين صورة تنزيهٍ وتحديدِ

فقيل لي: سبحان من تنزّه عن التنزيه بالتشبيه، وعن التشبيه بالتنزيه. قيل لأبي سعيد الخراز: بم عرفت الله؟ فقال: بجمعه بين الضدين يعني في وصفه ثم تلا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] وكان بساقي دمل كنت أتألم منه من شدة وجعه فغلب عليّ في تلك الحال شهوده سبحانه فقلت: [مجزوء الرجز]

رأيتُه في دُمَّلي ... فقلت داءٌ معْضِلُ
لا راحةٌ تُرْتَجى ولا ... ضُرٌّ فقلْ ما أعملُ

فقيل لي: سلم. فقلت: نِعْمَ المعلم. فسلمت وما تكلمت. [مجزوء الرجز]

رأيتُ هذي الواقعهْ ... لكل علم جامعَهْ
فما رأيتُ مثلها ... من العلوم النافِعَهْ

وخوطبت في سرّي فيها بأمور لا يمكنني إذاعتها ولا تلتبس عليّ بضاعتها، غير أن التجلي للبشر لا يكون إلاّ بالصور، والعمل الإلهيّ في البصر عند تعلق النظر، وقد عرفت فالزم.

حديث ثالث وثلاثون: شهادة الحجر يوم القيامة: ذكر الترمذيّ عن ابن عباس قال: «**قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ فِي الحجرِ: وَاللهِ لَيَبْعَثَنَّهُ اللّٰهُ يَوْمَ القِيامَةِ ولَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ يَشهدُ عَلَىٰ مَن اسْتَلَمَهُ بِحَقٍّ**». هذا من أعجب ما في القرآن أن يكون على بمعنى اللام، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣] أي للنصب، لأن الشهادة عليك إنما هي بما لا ترتضيه، لأن المشهود عليه لو اعترف ما شهد عليه ولا ينكر إلاّ ما يتوقع من الاعتراف به الضرر، فعلى عندنا هنا على بابها، وهكذا كل أداة على بابها لا يعدل بها إلى خلاف ما

وضعت له بالأصالة إلاّ بقرينة حال، وكذلك فعل من أخرج هنا على عن بابها وجعلها بمعنى اللام جعل قرينة الحال أنّ النبيّ ﷺ ما أراد بهذا القول إلاّ تعظيم استلامه في حقّنا، وأن الخير العظيم لنا في ذلك إذا استلمناه إيماناً وهو قوله بحق عندهم يعني بحق مشروع لأنه يمين الله المنصوب للتقبيل والاستلام في استلام كل أمّة لها هذا الإيمان، ولذلك نكر قوله بحق ولم يجيء به معرّفاً قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٨] فجاء بالنكير، فالشرائع كلها حق، فمن استلمه بحق أيّ حق كان في أيّ ملة كان دخل تحت هذا الحكم من الشهادة الحجرية بالإيمان، وأما من ترك على بابها وهو الأولى فإن الحق هنا وإن كان نكرة فهو في المعنى معرفة، وإنما نكر لسريانه في كل شيء، فما من شيء موجود أو متصف بالوجود إلاّ والحق يصحبه كما قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فأينما كنا كان الحق معنا كينونية وجودية منزّهة كما يليق به وكنا أمر وجودي، فالباطل عدم والحق وجود.

ولما جعل الحجر يمين الله ومحل الاستلام والتقبيل انبغى لنا أن نقبله بعبوديتنا، ولا نحضر عند التقبيل كون الحق سمعنا وبصرنا والعامل منا، فإنا إذا كان مشهدنا هذا فيكون الحق مستلماً يمينه ولا يستلم إلاّ باليمين، واليمين هو الحجر والشيء لا يستلم نفسه، وقد اختار آدم عليه السلام يمين ربه مع علمه بأن كلتي يدي ربه يمين مباركة ومع هذا عدل إلى اختيار اليمين، فلما أراد العبد أن يجتني يوم القيامة ثمرة غرس الاستلام فقال له: ما استلمت وإنما الحق استلم يده بيده، ثم جيء بالحجر فقيل له: تعرف هذا؟ فيقول؛ نعم، فيقال له؛ بم تشهد في استلامه إياك؟ فيقول: استلمني بك لا بعبوديته، فيقال للعبد: قد علمت بهذه الشهادة أن الاستلام ما كان بك وإنما كان بالحق، فتكون عند ذلك الشهادة على الإنسان لا للإنسان فلا يبقى له ما يطلبه، فأخبرنا الشارع بما هو الأمر عليه لنستلمه عبودية واضطراراً مكلفين بذلك تعبداً محضاً كما فعل عمر بن الخطاب. فإن قلت: فقد بايع النبيّ ﷺ في بيعة الرضوان نفسه بنفسه وجعل يده على يده وأخذ يده بيده وقال: هذا عن عثمان وكان عثمان غائباً في تلك البيعة، وكذلك العبد إذا استلمه بحق يكون الحق يستلم يمينه بيده فإنّ كلتي يديه يمين ويكون ذلك الاستلام عن هذا البعد الذي استلمه بحق فيجني ثمرته إذا قال: هذا عن عثمان، ويكون عذر هذا العبد كون مشهد الحال غلب عليه سلطانه حيث لم يشاهد إلاّ الله في أعيان كل شيء من الموجودات. قلنا: الفرق بين المسألتين أن المناسبة بين المثلين صحيحة، والجامع بين النبيّ ﷺ وبين عثمان الإنسانية وهي حقيقة النشأة والعبودية فجازت النيابة، وأن يقوم كل واحد مقام الآخر، والفرق الثاني أن اليد التي بايعوها هي يد الله فبايعوها بأيديهم وهنا المستلم يمين الله والمستلم يد الله أيضاً، ولا مناسبة بين الله وبين خلقه، وهناك المناسبة موجودة. فإن قيل: المناسبة هنا خلقه على الصورة ولهذا صحّ له التخلق بالأسماء الإلهية. قلنا: أما الصورة فلا ننكرها، وأما التخلق فلا ننكره، ولكن أضاف الاستلام هنا للعبد وجعل استلامه بحق، وما ثم إلاّ الاستلام وهو بحق فما استلم إلاّ الحق، والصورة هنا ما هي عين

الحق بلا شك فإنها لو كانت عين الحق ما قال: خلق آدم على صورته، وهنا كان الحق سمعه وبصره ويده فهنا هو الحق عينه من حيث ما هو سامع وناظر وفاعل أيّ فعل كان، فهو عين الصفة التي يكون لها الحكم والأثر والحال في الكون، فاختر عند استلامه بأي حالة تستلم، ومع هذا فكلها أحوال حسنة وبينهما فرقان بين وإخراج على عن بابها في هذا الموضع أولى بالعموم وإبقاؤها على بابها أولى بالخصوص، والأكابر منا من يستلمه بالوجهين: يستلمه بحق ويستلمه بعبودية، فيجمع بين الصفتين فيكون ذا جزاءين فيكون له وعليه كما كان يسلك منه وإليه.

حديث رابع وثلاثون: في الصلاة خلف المقام: خرّج أبو داود عن عبد الله بن أبي أوفى: «**أَنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ اعْتَمَرَ فَطَافَ بِالبَيْتِ وَصَلَّىٰ خَلْفَ الْمَقَامِ**» الحديث، لما أمرنا الله تعالىٰ أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلًّى وقد مضى اعتباره فجعلناه بين أيدينا لنشاهده حتى لا نغفل عنه في حال صلاتنا فيذكرنا شهوده بأن نسأل الله تحصيل هذا المقام إن لم نكن فيه وإن كان حالنا فيذكرنا شهوده أن نسأل الله دوامه علينا وبقاءنا فيه، فلا بدّ في الحالين أن نكون خلفه لئلا نكون ممّن نبذه وراء ظهره فلم يتذكره لعدم شهوده إياه.

حديث خامس وثلاثون: إشعار البدن وتقليدها النعال والعهن: خرّج مسلم عن ابن عباس قال: «**صَلَّىٰ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الظُّهرَ بِذِي الْحليفَةِ ثُمَّ دَعَا بِنَاقَتِهِ فَأَشْعَرَهَا فِي صَفْحَةِ سِنَامِهَا الأَيْمَنِ وَسَلَتَ عَنْهَا الدَّمَ وَقَلَّدَهَا نَعْلَيْنِ ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ**» الحديث.

اعلم أن النبيّ ﷺ قد ذكر في الإبل أنها شياطين، وجعل ذلك علة في منع الصلاة في معاطنها، والشيطنة صفة بعد من رحمة الله لا من الله لأن الكل في قبضة الله وبعين الله، والإشعار الإعلام والمحسنون ما عليهم من سبيل، وإنما يدعى إلى الله من لم يكن عنده في الصفة التي يدّعى إليها، والشفاعة لا تقع إلاّ فيمن أتى كبيرة تحول بينه وبين سعادته، ولا أبعد من شياطين الإنس والجنّ، والهدية بعيدة من المهدىٰ إليه لأنها في ملك المهدي فهي موصوفة بالبعد، وما يتقرّب المتقرّب إلى الله من أهل الدعاء إلى الله بأولى من ردّ من شرد عن باب الله وبعد إلى الله ليناله رحمة الله، فإن الرسل ما بعثت بالتوحيد إلاّ للمشركين وهم أبعد الخلق من الله ليردّوهم إلى الله ويسوقوهم إلى محل القرب وحضرة الرحمة، فلهذا أهدى رسول الله ﷺ البدن مع ذكره فيها أنها شياطين ليثبت عند العالمين به أنّ مقامه ﷺ ردّ البعداء من الله إلى حال التقريب، ثم إنه أشعرها في سنامها الأيمن وسنامها أرفع ما فيها فهو الكبرياء الذي كانوا عليه في نفوسهم، فكان إعلاماً من النبيّ ﷺ لنا بأنه من هذه الصفة أتى عليهم لنجتنبها، فإن الدار الآخرة إنما جعلها الله ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة القصص: الآية ٨٣] والسنام علوّ، ووقع الإشعار في صفحة السنام الأيمن، فإن اليمين محل الاقتدار، والقوّة والصفحة من الصفح إشعار من أن الله يصفح عمّن هذه صفته إذا طلب القرب من الله وزال عن كبريائه الذي أوجب له البعد لأنه أبى واستكبر.

وجعل ﷺ الدلالة على إزالة الكبرياء في شيطنة البدن، جعل النعال في أرقابها إذ لا

يصفع بالنعال إلاَّ أهل الهون والذلة، ومن كان بهذه المثابة فما بقي فيه كبرياء يشهد، وعلّق النعال في قلائد من عهن وهو الصوف ليتذكر بذلك ما أراد الله بقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [سورة القارعة: الآية ٥] فإذا كانت هذه صفته كان قرباناً من التقريب إلى الله، فحصلت له القربة بعد ما كان موصوفاً بالبعد إذ كان شيطاناً، فإذا كانت الشياطين قد أصابتهم الرحمة فما ظنك بأهل الإسلام؟ ثم إن النبيّ ﷺ أيضاً بعث إلى الموحدين ليشهدوا بتوحيدهم على جهة القربة التي لا يستقل العقل بإدراكها أعني بإدراك هذه القربة إلاَّ من جهة الشرع، فيحقق بعثه إلى المشرك والموحد بوجهين، فالمشرك وهو الشيطان المتكبر دعاه إلى عين القربة كما ذكرناه فقبل قربه وزال عنه بما ذكرناه من الإشعار وتقليد النعال ما كان فيه من صفة البعد. ثم نبّه ﷺ على مقام دعوته للموحدين حيث دعاهم إلى النطق بها قربة ولم يكن لهم علم بذلك، فأهدى مرّة إلى البيت غنماً وهي من الحيوان الطاهر الذي تجوز لنا الصلاة في مرابضها فكان مثل تقريب الموحدين. خرّج مسلم عن عائشة قالت: «**أَهْدَىٰ رَسُولُ اللَّهِ إِلَىٰ البَيْتِ غَنَماً فَقَلَّدَهَا**» والتقليد للغنم أي هذه صفتها التي أوجبت لها القرب أن تكون قرباناً.

حديث سادس وثلاثون: يوم النحر هو يوم الحج الأكبر: ذكره أبو داود عن ابن عمر؛ «**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ يَوْمَ النَّحْرِ بَيْنَ الْجَمَرَاتِ فِي الحجَّةِ الَّتِي حَجَّ فِيهَا فَقَالَ: أَيُّ يَوْم هٰذَا؟ فَقَالُوا: هٰذَا يَوْمُ النَّحْرِ، فَقَال: هٰذَا يَوْمُ الْحَجِّ الأَكْبَرِ**». يعني الذي سمّاه الله في قوله ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٣] وإنما سمّي في ذلك الوقت يوم الحج الأكبر لأنه كان مجمع الحاج بجملته، إذ كان من الناس من يقف بعرفة وكانت الحمس تقف بالمزدلفة فكانوا متفرّقين فلما كان يوم منى اجتمع فيه أهل الوقوف بالمزدلفة وبعرفة فكان يوم الحج الأكبر لاجتماع الكل فيه، ولما كان إبقاء هذا الاسم عليه بعد أن صار الوقوف كله بعرفة حدث له معنى آخر في الإسلام نبّه الشارع عليه ولهذا سنّ طواف الإفاضة في هذا اليوم، فأحل في هذا اليوم من إحرامه مع كونه متلبساً بالحج حتى يفرغ من أيام منى، فلما أحلّ من احرامه في هذا اليوم زال عن التحجير الذي كان تلبس به في هذه العبادة وأبيح له جميع ما كان حرم عليه، وأحلّ الحل كله في هذا اليوم، وكان إحلاله عبادة كما كان إحرامه عبادة، وما زال عنه اسم الحج لما بقي عليه من الرمي، فكان يوم الحج الأكبر لهذا السراح والإحلال، فكانت أيام منى أيام أكل وشرب وبعال، فمن أراد فضل هذا اليوم فليطف فيه طواف الإفاضة ويحل الحل كله، فإن لم يفعل فما هو من أهل الحج الأكبر. فلا يغلبنك الشيطان عن فضل هذا اليوم بأن تتميز في أهله وهو يوم النحر نحر البدن وقبولها قرباناً وإعادة منفعتها علينا من أكل لحومها والأجر الجزيل في نحرها والصدقة بلحومها.

حديث سابع وثلاثون: نحر البدن قائمة: خرّج أبو داود عن أبي الزبير عن جابر عن عبد الرحمن بن سابط: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ كَانُوا يَنحَرُونَ البَدَنَةَ مَعْقُولَةَ الْيَدِ الْيُسْرَىٰ قَائِمَةً عَلَىٰ مَا بَقِيَ مِنْ قَوَائِمِهَا إِعْلاماً لِمَا كَانَ نَحْرُهَا قُرْبَةً**» أراد المناسبة في صفة نحرها في الوترية فأقامها على ثلاث قوائم، فإنّ الله وتر يحب الوتر، والثلاث أوّل الأفراد، فلها أوّل المراتب

في ذلك، والأولية وترية أيضاً وجعلها قائمة لأن القيومية مثل الوترية صفة إلهية، فهو القائم تعالىٰ على كل نفس بما كسبت، فيذكر الذي ينحرها بقيامها، وأن النحر كسب له مشاهدة القائم على كل نفس بما كسبت، وقد صحّ أن المناسك إنما شرعت لإقامة ذكر الله وهذا من مناسك الحج أعني صفة النحر، فيذكر الله بهذه الصفة وشفع الرجلين لقوله: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [سورة القيامة: الآية ٢٩] وهو اجتماع أمر الدنيا والآخرة، وأفرد اليمين من يد البدنة حتى لا تعتمد إلاَّ على وتر الاقتدار والشفع والوتر، فالبدنة قائمة بحق الخلق بشفعية رجليها ووترية يدها فتتذكر الله بهذه الصفة، وأن القيام ما صحّ للأشياء إلاَّ على وتر بحالة تجمع الشفعية والوترية، وهي أول حالة يظهر فيها هذا الجمع وليس إلاَّ الثلاثة، ولا يمكن للبدنة القيام إلاَّ على ثلاث قوائم، وكان العقل في اليد اليسرى لأنها خلية عن القوّة التي لليمنى، والقيام لا يكون إلاَّ على الأقوى لأجل الاعتماد، قال في الصلاة أقيموا الصلاة، وقال: قد قامت الصلاة، فأخبر بالماضي قبل قيام العبد لها، فأراد قيام صلاة الله على العبد ليقوم العبد إلى الصلاة فيقيم بقيامه نشأتها. قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] فهو المشار إليه بقوله: قد قامت الصلاة، فالقيام معتبر في العبادات، ومنه الوقوف بيوم عرفة وفي جمع وعند رمي الجمار، وأعمال الحج كلها لا تصحّ إلاَّ من قائم.

حديث ثامن وثلاثون: منى كلها منحر: خرّج مسلم في حديث جابر أنّ النبيّ ﷺ قال: «**مِنَىَ كُلُّهَا مَنْحَرٌ**» قد قلنا إن منى من بلوغ الأمنية، ومن بلغ المنى المشروع فقد بلغ الغاية، فجعله محلاً للقرابين وهو إتلاف أرواح عن تدبير أجسام حيوانية ليتغذى بها أجسام إنسانية فتنظر أرواحها إليها في حال تفريقها فتدبرها إنسانية بعدما كانت تدبرها إبلاً أو بقراً أو غنماً، وهذه مسألة دقيقة لم يتفطن لها إلاَّ من نوّر الله بصيرته من أهل الله، ويحتوي عليها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] وكانوا في حال تفريق في أطوار من المخلوقات، يميز الله أجزاء كل مجموع وهي معينة عند أرواحها المدبرة لها في كل حال تكون عليها من اجتماع وافتقار، وتتبدّل الأسماء عليها بحسب مزاجها الخاص بها في ذلك الاجتماع، ومن هنا هبت نفحة على القائلين بالتناسخ فلم يتحققوا معناها فزلوا وضلوا وأضلوا، ولأنهم نظروا فيها من حيث أفكارهم فأخطؤوا الطريق فغلطوا فهم مخطئون غير كافرين إلاَّ من أنكر البعث منهم الذي هو نشأة الآخرة فهو ملحق بالكفار، والأرواح المدبرة لها في كل حال لا تتبدّل تبدّل الصور لأنها لا تقبل التبديل لأحديتها، وإنما تقبل التبديل المركب من أجسام وأجساد حسّاً وبرزخاً، فمن بلوغ المنى إلحاق الأسافل بالأعالي والتحام الأباعد بالأداني: [الوافر]

فمنهم من تجسّد لي بأرضٍ ... ومنهم من تجسّد في الهواءِ
ومنهم من تجسّد حيث كنا ... ومنهم من تجسّد في السماءِ
فيُخبرنا ونُخبره بعلم ... ولكن لا نكون على السَّواءِ
فإني ثابتٌ في كل عينٍ ... وهم لا يقدرون على البقاءِ

فهم يتصوَّرون بكل شكلٍ ... كلَوْن الماء من لون الإناءِ

عملت هذه الأبيات في تجسد الأرواح المفارقة لاجتماع أجسامها في الحياة الدنيا المسمى موتاً، وكنّا رأينا منهم جماعة متجسدين من الأنبياء والملائكة والصالحين من الصحابة وغيرهم وهم يتجسدون في صور المعاني المتجسدة في صور المحسوسات، فإذا تجلّى المعنى وظهر في صورة حسيّة تبعه الروح في صورة ذلك الجسد كان ما كان لأن الأرواح المدبرة تطلب الأجسام طلباً ذاتياً، فحيث ما ظهر جسم أو جسد حسّاً كان ذلك أو معنى تجسد كالعمل الصالح في صورة شاب حسن الوجه والنشأة والرائحة فإن الروح تلزمه أبداً ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٨] إذ لم تكن.

الحديث التاسع والثلاثون: في رفع الأيدي في سبعة مواطن: ذكر البزار عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ قال: «**تُرْفَعُ الأَيْدِي فِي سَبْعِ مَوَاطِنَ: افْتِتَاحِ الصَّلاةِ، وَاسْتِقْبَالِ الْبَيْتِ، والصَّفَا، وَالْمَرْوَة، والْمَوْقِفَينِ، وَعِنْدَ الْحَجَرِ**» رفع الأيدي في هذه المواطن كلها للتبرّي ممّا ينسب إلى الأيدي من الملك، فيرفعها صفراً خالية لا شيء فيها بل الملك كله لله، وهذه المواطن كلها موطن سؤال والسؤال من غنيّ مالك لا يتصوّر، وإنما السؤال عن الحاجة، فمن صفة الفقير الذي لا يملك ما يسأل فيه، فإذا سأل الغنيّ فتحقق من أيّ صفة يسأل وكما يسأل هل يسأل ما هو عنده أو ما ليس عنده فاجعل الحكم في ذلك بحسب ما نبهتك عليه، وقد اعتنى الله بالفقراء حيث جعل سؤالهم الأغنياء طلباً إلهياً في قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [سورة المزمل: الآية ٢٠] وفي قوله: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ﴾ [سورة المزمل: الآية ٢٠] وفي قوله: جعت فلم تطعمني. فإذا فهمت الصفة التي أوجبت السؤال عرفت كيف تسأل وممّن تسأل وما تسأل وبيد من تقع الأعطية وما يصنع بها؟ وتعلم رفع الأيدي عند السؤال بالظهور وبالبطون وما الفرق في أحوالهما.

الحديث الأربعون: حديث الاستغفار للمحلقين والمقصرين: خرّج مسلم عن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ للمحلقين**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلْمُقَصِّرِينَ؟ قَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ للمُحَلِّقِينَ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلْمُقَصِّرِينَ؟ قَال: «**وَلِلْمُقَصِّرِينَ**». لما لم يفهموا مقصود الشارع بطلب الغفر الذي هو الستر للمحلقين وهم الذين حسروا عن رؤوسهم الشعر فانكشفت رؤوسهم فطلب من الله سترها ثواباً لكشفها، والمقصر ليس له ذلك فلما لم يفهموا عنه قال: وللمقصرين خطاباً لهم، إذ قد قال ﷺ: «**خَاطِبُوا النَّاسَ عَلَىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ**»، أي على قدر ما يعقلونه من الخطاب حتى لا يرموا به.

الحديث الحادي والأربعون: حديث طواف الوداع: خرّج مسلم عن ابن عباس قال: كَانَ النَّاسُ يَنْصَرِفُونَ فِي كُلِّ وَجْهٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لاَ يَنْفُرَنَّ أَحَدٌ حَتَّىٰ يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِ بِالبَيْتِ**» لما كان هذا البيت أوّل مقصود الحاج لأنه ما أمر بالحج إلاَّ إلى البيت، والأوّل يطلب الآخر في عالم المفارقة، وليس من شرطه في كل منسوب إليه الأولية، بخلاف الآخر فإنه يطلب الأوّل بذاته لا بدّ من ذلك فافهم حتى تعرف إذا نسبت إليك الأولية كيف تنسبها، وإذا نسبت إليك الآخرية كيف تنسبها، فإذا علمت أن الآخر

يطلب الأول في عالم المفارقة وأنت من عالم حاله المفارقة لأنك آفاقيّ تعين عليك أن يكون آخر عهدك الطواف بالبيت.

فصل ـ في كفارة التمتع: قال تعالىٰ: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦] لا خلاف في وجوبها. واختلفوا في الواجب، فجماعة العلماء على أن ما استيسر من الهدي شاة. وقال ابن عمر: إن اسم الهدي لا ينطلق إلاَّ على الإبل والبقر وأن معنى قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ بقرة أدون من بقرة أو بدنة أدون من بدنة، والذي أقول به لو أهدى دجاجة أجزأه، وأجمعوا على أن هذه الكفارة على الترتيب، فلا يكون الصيام إلاَّ بعد أن لا يجد هدياً. واختلف العلماء في حدّ الزمان الذي ينتقل بانقضائه فرضه من الهدي إلى الصيام، فقائل: إذا ضرع في الصيام فقد انتقل واجبه إلى الصوم وإن وجد الهدي في أثناء الصوم. ومن قائل: إن وجد الهدي في صوم الثلاثة الأيام لزمه وإن وجده في السبعة لم يلزمه وبالأوّل أقول. وأما صيام الثلاثة الأيام في الحج فاختلفوا فيمن صامها في أيام عمل العمرة أو صامها في أيام منى، فأجازها بعضهم في أيام منى ومنعه آخرون وقالوا: إذا فاتته الأيام الأول وجب الهدي في ذمّته ومنعه مالك قبل الشروع في عمل الحج، وأجازه أبو حنيفة عندنا يصوم الثلاثة الأيام ما لم ينقض شهر ذي الحجة، وأما السبعة الأيام فاتفقوا على أنه إن صامها في أهله أجزأه، واختلفوا إذا صامها في الطريق فقائل يجزيه وبه أقول. وقائل لا يجزيه الهدي أولى في المناسبة في كفارة المتمتع فإنه بدل من تمتعه، وبالهدي يتمتع من تصدّق عليه منه والصوم نقيض التمتع، وأما مناسبة الصوم فيه فلأنه تمتع بالإحلال فجوزي بنقيض التمتع وهو الصوم، فرجح الحق في هذه الكفارة التمتع بالهدي في حق من تصدّق عليه به، فإذا لم يجد حينئذ قوبل بنقيض التمتع وهو الصوم. انتهى الجزء الثالث والسبعون.

(الجزء الرابع والسبعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

أحاديث مكة والمدينة شرفهما الله

الحديث الأول: في دخول مكة والخروج منها على الاقتداء بالسنة: خرّج مسلم عن ابن عمر: «أنّ رسول الله ﷺ كان إذا دخل مكة دخل من الثنية العليا ويخرج من الثنية السفلى» الثنية العليا تسمى كداء بالمد والفتح والهمز، والثنية السفلى تسمى كدى بالضم والقصر. لما كانت مكة أشرف بقاع الأرض وموطناً لظهور يمين الحق وحضرة المبايعة أشبهت كثيب المسك الأبيض في جنة عدن موطن الزور الأعظم والرؤية العامة، والكثيب أشرف مكان في جنة عدن، وعدن أشرف الجنان لأنها قصبة الجنة، والقصبة حيث تكون دار الملك وهي دار تورث من قصدها الإمداد الإلهيّ، والفتح في العلم الإلهيّ الذي تعطيه المشاهدة، فلهذا شرع الدخول إلى مكة من كداء بفتح الكاف للفتح الإلهيّ في كاف التكوين

من قوله: ﴿كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] والمد للإمداد الإلهيّ بالعطاء من العلم به الذي هو أشرف هبة يعطيها من قصده، والمد في هذه الألفاظ زيادة، ومكة موضع المزيد في كل خير لأنه فرع عن الأصل، لأن الأصل في الكون الفقر والقصور والعجز، ولهذا يجوز في ضرورة الشعر قصر الممدود لأنه رجوع إلى الأصل، ولا يجوز له مدّ المقصور لأنه خروج عن الأصل فلا يخرج إلاّ بموجب وما هو ثم فإن الموجب للمدّ المزاد في الحرف من الكلمة إنما هو الهمزة أولاً كآمن وآخراً كجاءآ، أو الحرف المشدّد مثل الطامّة والصاخة والدابة، والتشديد هو تضعيف الحرف والتضعيف زيادة لأنه دخول حرف في حرف وهو الإدغام، فهو ظهور عبد بصفة رب فكان له المزيد وأخذ المد إذ لم يكن له ذلك بالأصل، وكذلك ظهور رب بصفة عبد في تنزل إلهيّ فهو من باب الإدغام تشريف للعبد من الله وكل لنفسه سعى، فأما السعي في حق العبد فمعلوم محقق لافتقاره، وأمّا الهرولة في السعي المنسوبة إلى الله فصفة تطلب الشدة في الطلب أكثر من طلب الساعي بغير صفة الهرولة، فدل على أن الطلب هناك أشد لأجل تعطيل حكم ما تقتضيه الأسماء الإلهية، ولهذا يقول في تجليه: هل من تائب فأتوب عليه؟ فهو سؤال من الاسم التواب. هل من داع فأجيبه؟ فهذا لسان الاسم المجيب. هل من مستغفر فأغفر له؟ هذا لسان الاسم الغفور لأنه إن لم يكن في الكون من يستدعي هذا الاسم وإلاّ بقي معطل الحكم، فلهذا كان سعيه هرولة وطلبه أشد لأنه لا يليق به النقص والعبد كله نقص وضعف، فليس له لضعفه شدة السرعة في السعي لأنه يفتقر إلى المعين بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥].

وأمّا إذا خرج خرج من كدى بضم الكاف والقصر وهو ما اكتسبه في حضرة الحق من الرفعة وجار في كاف التكوين وهو المقول عندنا الفعل بالهمة فلهذا رفع الكاف، قال الحق لأبي يزيد: اخرج إلى خلقي بصفتي فمن رآك رآني، وهو ظهور صفات الربوبية عليه، ألا ترى خلفاء الحق في العباد لهم الأمر والنهي والحكم والتحكم؟ وهذه صفات الإله، والسوقة مأمورة بالسمع والطاعة، وأعطاه القصر في كدى ينبهه، وإن كنت خرجت بصفتي فلا تحجبنك عن عبوديتك فالقصر والعجز لا يفارقك فإنك مهما فارقك ذلك قصمتك، فخرج حين خرج من مكة حضرة الله لرعيته رفيعاً بشرف الحضرة مشاهداً لعبوديته بالقصر، فلهذا كان يدخل من كداء ويخرج من كدى وهذا القدر في الحج كاف، فإن فروعه تطول لو تقصيناها ما وفى بها العمر، فما بقي إلاّ فضل مكة والمدينة والزيارة تكون بذلك خاتمة الباب.

الحديث الثاني: أرض مكة خير أرض الله: خرّج النسائي عن عبد الله بن عدي بن الحمراء: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ بِالْحَزورَةِ مِنْ مَكَّةَ يَقُولُ لِمَكَّةَ: **«إِنَّكِ وَاللَّهِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَىٰ اللَّهِ، لَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»**.

قال رسول الله ﷺ: **«يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِلْقُرْآنِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاء فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِن كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاء فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاء فَأَقْدَمُهُمْ سِلْماً، فَإِنْ كَانُوا**

فِي السِّلْم سَواء فَأَكْبَرهُمْ سِناً، فَمَنِ اجْتَمَعَ فِيهِ مِثْلُ هٰذِه الخِصَالِ صَحَّ لَهُ التَّقَدُّم، وَمَنْ صَحَّ لَهُ التَّقَدُّمُ كَانَ مَتْبُوعاً وَكَانَ أَحَقَّ بِاللَّهِ مِنَ التَّابِع».

والبيت المكي أول بيت وضع للناس معبداً، والصلاة فيه أفضل من الصلاة فيما سواه، فهو أقدمهم بالزمان وهو اعتبار السنّ فله تقدم السنّ وما يتقدم بالسنّ إلاّ من حوى جميع الفضائل كلها فإنه جاء آخراً، فلو اكتفينا بهذا لكان فيه غنى عن ذكر ما سواه، وإن نظرنا إلى الهجرة فإنه بيت مقصود ينبغي الهجرة إليه، والحجر الأسود من جملة أحجاره وهو أقدم الأحجار هجرة من سائر الأحجار، هاجر من الجنة إليه فشرفه الله باليمين وجعله للمبايعة. وأمّا أكثرهم قرآناً فإنه أجمع للخيرات من سائر البيوت لما فيه من الآيات البينات من حجر، وملتزم، ومستجار، ومقام إبراهيم، وزمزم إلى غير ذلك. وأمّا علمه بالسنّة فإن السنن فيه أكثر لكثرة مناسكه واحتوائه على أفعال وتروك لا تكون في غيره من العبادات ولا في بيت من البيوت فإنه محل الحج. وأمّا السلم فإنه أقدم الحرم فهو سلم كله من دخله كان آمناً، فصحّ له التقدم من كل وجه على كل بلد وكل بيت.

الحديث الثالث: **تحريم مكة**: خرّج مسلم عن أبي هريرة أن خزاعة قتلوا رجلاً من بني ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فركب راحلته فخطب فقال: **«إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الفِيلَ وَسَلَّطَ عَلَيها رَسُولَهُ وَالمُؤْمِنِينَ أَلاَ وإِنَّهَا لاَ تَحِلُّ لأَحَدٍ قَبْلِي وَلَنْ تَحِلَّ لأَحَدٍ بَعْدِي، أَلا وَإِنَّهَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، أَلا وَإِنَّهَا سَاعَتِي هٰذِه وَهِيَ حَرَامٌ لا يُخْبطُ شَوْكُهَا وَلاَ يُعْضدُ شَجَرُهَا وَلاَ يُلْقطُ سَاقِطَتُهَا إِلاَّ لِمُنْشِدٍ، وَمَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيرِ النَّظَرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يُعْطَى يَعْنِي الدِّيَة، وَإِمَا أَنْ يُقَادَ أَهْلَ القَتِيلِ»**. الحديث. فهذا هو حمى الله وحرمه ولا موجود أعظم من الله، فلا حمى ولا حرم أعظم من حرم الله ولا حماه في الأمكان، فإن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس كذا قال ﷺ. وقال أيضاً في حديث مسلم: **«إِنَّ هٰذَا البَلَدَ حَرَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ»** الحديث. وهو قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [سورة النمل: الآية ٩١].

الحديث الرابع: **في منع حمل السلاح بمكة**: خرّج مسلم عن جابر بن عبد الله قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«لاَ يَحِلُّ لأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ السِّلاحَ بِمَكَّةَ»** لما كان السلاح عدّة للخائف أو لمتوقع الخوف أو لآخذ بثأر أو لمتعدّي يدفع بذلك عن نفسه أن نوزع في غرضه، والله تعالى قد جعله حرماً آمناً فلم يكن لحمل السلاح فيه معنى.

الحديث الخامس: **في زمزم**: خرّج أبو داود الطيالسيّ عن أبي ذر عن النبيّ ﷺ في زمزم: **«أنها مباركة طعام طعم وشفاء سقم»**.

الحديث السادس: **فيه**: خرّج الدارقطني من حديث جابر أن النبيّ ﷺ قال: **«مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ»** وهذا الخبر صحّ عندي بالذوق فإني شربته لأمر فحصل لي.

الحديث السابع: في تغريب ماء زمزم لفضله: ذكره الترمذيّ عن عائشة: «**أَنَّهَا كَانَتْ تَحْمِلُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ وَتُخْبِرُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَحْمِلُهُ**»، وهو حديث حسن غريب.

الحديث الثامن: في دخول مكة بالإحرام: ذكر أبو أحمد بن عديّ الجرجانيّ من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ مَكَّةَ إلاَّ بِإِحْرَام مِنْ أَهْلِهَا أَوْ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا**» وفي إسناده مقال. وحمل الإحرام المذكور في هذا الحديث عندي على أنه لا يدخلها إلاَّ محترماً لها، إذ قد صحّ أن رسول الله ﷺ دخل يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام. وقال في توقيت المواقيت: لمن أراد الحج والعمرة.

الحديث التاسع: في احتكار الطعام بمكة: ذكر مسلم من حديث يعلىٰ بن أمية أن رسول الله ﷺ قال: «**احْتِكَارُ الطَّعَامِ فِي الْحَرَمِ إِلْحَادٌ فِيهِ**» وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٢٥] ولا يؤخذ أحد بإرادة السوء والظلم في غير حرم مكة، وأحاديث شرفها كثيرة.

[أحاديث المدينة]

وأما أحاديث المدينة: فمنها حديث الزيارة، وهو الأول: خرّج الدارقطنيّ عن ابن عمر قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ زَارَ قَبْرِي وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي**».

الحديث الثاني: في فضل من مات فيها: ذكر الترمذيّ عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «**مَن اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ بِهَا فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ مَاتَ بِهَا**» وهو حديث صحيح.

الحديث الثالث: في تحريم المدينة: ذكر مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: «**قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لاَبَتَي الْمَدِينَةِ أَنْ يُقْطَعَ عِضَاهُهَا أَوْ يُقْتَلَ صَيْدُهَا**». وقال: «**الْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، لاَ يَدَعُهَا أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا إلاَّ أَبْدَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَلاَ يَثْبُتُ أَحَدٌ عَلَىٰ لأْوَائِهَا وَجُهْدِهَا إلاَّ كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً أَوْ شَهِيداً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلاَ يُرِيدُ أَحَدٌ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِسُوءٍ إلاَّ أَذَابَهُ اللَّهُ فِي النَّارِ ذَوْبَ الرَّصَاصِ أَوْ ذَوْبَ الْمِلْحِ فِي الْمَاءِ**».

الحديث الرابع: فيمن صاد في المدينة: ذكر أبو داود عن سليمان بن أبي عبد الله قال: رأيت سعد بن أبي وقاص أخذ رجلاً يصيد في حرم المدينة الذي حرّم رسول الله ﷺ فسلبه ثيابه فجاؤوا يعني مواليه فكلموه فيه فقال: إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَرَّمَ هٰذَا الْحَرَمَ وقال: مَنْ أَخَذَ أَحَداً يَصِيدُ فِيهِ فَلْيَسْلِبْهُ فلا أردّ عليكم طعمة أطعمنيها رسول الله ﷺ ولكن إن شئتم دفعت إليكم ثمنه.

الحديث الخامس: في نقل حمّى المدينة إلى الجحفة: ذكر مسلم عن عائشة قالت: قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَهِيَ وَبِئَةٌ فَاشْتَكَىٰ أَبُو بَكْرٍ وَاشْتَكَىٰ بِلالٌ فَلَمَّا رَأَىٰ رَسُولُ اللَّهِ شَكْوَىٰ أَصْحَابِهِ قَالَ: «**اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ مَكَةَ وَأَشَدَّ وَأَصْحِحْهَا لَنَا وَبَارِك لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا وَحَوِّلْ حُمَّاهَا إِلَىٰ الْجحْفَةِ**».

الحديث السادس والسابع: في طيبها ونفيها الخبث: ذكر مسلم من حديث زيد بن ثابت

عن النبيّ ﷺ قال: «**إِنَّهَا طَيْبَةُ - يَعْنِي المَدِينَةَ - وَاللهِ إِنَّهَا تَنفِي الخبث كَمَا تَنفِي النَّارُ خَبَثَ الفِضَّةِ**». وقال ﷺ: «**إِنَّمَا المَدِينَةُ كَالْكِيرِ تَنفِي خَبَثَهَا وَيَنصَعُ طِيبُهَا**» خرّجه مسلم من حديث جابر.

والحديث الثامن: في عصمة المدينة من الدجال والطاعون: ذكر مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**عَلَىٰ أَنقَابِ المَدِينَةِ مَلائِكَةٌ لاَ يَدْخُلُهَا الدَّجالُ وَلاَ الطَّاعُونُ**».

الحديث التاسع: في ذلك: خرّج البخاريّ عن أبي بكر عن النبيّ ﷺ قال: «**لاَ يَدْخُلُ المَدِينَةَ رُعْبُ المَسِيحِ الدَّجالِ لَهَا يَوْمَئِذٍ سَبْعَةُ أَبوابٍ لِكُلِّ بَابٍ مَلَكَانِ**» وأما حديث فَضْل صَلاَةٍ فِي مَسْجِدِ المَدِينَةِ وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ وَالمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ فمشهور.

الحديث العاشر: في تحريم وادي وَجّ من الطائف: ذكر تحريمه أبو داود عن عروة بن الزبير قال: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الثَّنِيةِ حَتَىٰ إِذَا كُنَّا عِندَ السِّدْرَةِ وَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي طَرَفِ الْقَرْنِ الأَسْوَدِ حذوها فاستقبلَ وَجَاءَ بِبَصَرِهِ وَقَالَ مَرة واديه وَوَقَفَ حَتَّىٰ أَنْفَذَ النَّاسُ كُلُّهُمْ ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ صَيْدَ وَج وعضاهه حَرَامٌ مُحَرَّمٌ لله**». وذلك قبل نزوله الطائف وحصاره ثقيفاً.

وصل: وأما حكمة حرم المدينة فلأن الله قرن الشهادة بنبوّة محمد ﷺ ورسالته بشهادة التوحيد تشريفاً له، وأنه لا يكون الإيمان إلاّ بهما، والله قد حرّم مكة فجعل لرسوله ﷺ تحريم المدينة تأييداً لشرف الشهادة، فجعل له أن يحرّم كما حرّم الله، ثم إن الله وتر يحب الوتر، وقد شفع حرمة الحرم بحرمة المدينة، فجعل حرماً ثالثاً للوترية، وجعل تحريمه لله لا للنبيّ ﷺ لأنه الوتر، ولهذا ما حرّم إلاّ ما هو مجاور مكة يؤذن أن الحرمة لله فيه كالحرمة لمكة ولهذا قال: حرام محرم لله، فبهذا قد ذكرنا من الأحاديث الواردة في الحرمين والحرم الثالث الذي أوترهما.

فأما زيارة النبي ﷺ فلكونه لا يكمل الإيمان إلاّ بالإيمان به، فلا بدّ من قصده للمؤمن، من يطع الرسول فقد أطاع الله، فلما جاءت الشفعية بالطاعة والله وتر يحب الوتر ثلث الطاعة للوتر المطلوب في الأشياء كما فعل في الحرم فقال: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩] فأوتر. ومن شرط المبايعة لأولي الأمر السمع والطاعة في المنشط والمكره، فإن قيل: فالأشهر الحرم أربعة. قلنا: صدقت ولما علمها الله أربعة لم يجعلها سرداً من أجل حب الوترية، فجعل ثلاثة منها سرداً وهي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، فثبت الوترية، وجعل الرابع رجب وسماه رجب الفرد إثباتاً للوترية، وذلك لأن الله وتر يحب الوتر في الأشياء ليرى صورة وتريته فيها فلا يرى إلاّ رتبته ولا يحب إلاّ صفته، ولهذا خرج العالم على صورة الأسماء الإلهية ليكون مجلاه، فلا يرى في الوجود إلاّ هو سبحانه لا إله إلاّ هو.

وصل: رأينا أن نقيد في خاتمة هذا الباب ما رويناه من الافتخار بين الحرمين، وهو ما حدّثنا به محمد بن إسماعيل بن أبي الصيف اليمني نزيل مكة قال: حدّثنا حسن بن علي قال: حدّثنا الحسين بن خلف بن هبة بن قاسم الشاميّ قال: حدّثنا أبي قال: حدّثنا

الحسين بن أحمد بن فراس قال: حدثنا أبي عن أبيه إبراهيم بن فراس عن أبي محمد إسحاق بن نافع الخزاعي عن إبراهيم بن عبد الرحمن المكيّ عن محمد بن عباس المكيّ قال: أخبرنا بعض مشايخ المكيين أن داود بن عيسىٰ بن موسىٰ هو موسىٰ بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عم رسول الله ﷺ لما ولي مكة والمدينة أقام بمكة وولى ابنه سليمان المدينة فأقام بمكة عشرين شهراً فكتب إليه أهل المدينة. وقال الزبير بن أبي بكر: كتب إليه يحيىٰ بن مسكين بن أيوب بن مخراق يسأله التحوّل إليهم ويعلمونه أن مقامه بالمدينة أفضل من مقامه بمكة وأهدوا إليه في ذلك شعراً قاله شاعرهم يقول فيه: [المتقارب]

أداوُدُ قد فزتَ بالمَكرُمات ... وبالعدل في بلد المصطفى
وصرتَ ثمالاً لأهل الحجاز ... وسرتَ بسيرة أهل التُّقَى
وأنت المهذَّبُ من هاشم ... وفي منصب العزّ والمُرْتَجَى
وأنت الرِّضَى للذي نابَهُمْ ... وفي كل حال ونجلُ الرِّضَى
وبالفَيْءِ أغنيتَ أهلَ الخَصَاص ... فعدلك فينا هو المنتَهَى
ومكّةُ ليست بدار المُقَامْ ... فهاجرْ كهجرة من قد مَضَى
مقامُك عشرون شهراً بها ... كثيرٌ لهم عند أهل الحِجَى
فضُمْ ببلاد الرسول التي ... بها الله خصَّ نبيَّ الهُدَى
ولا ينْفيَنَّك عن قربه ... مشيرٌ مَشُورتُه بالهَوَى
فقبرُ النبيّ وآثاره ... أحقُّ بقربك من ذي طُوَى

قال: فلما ورد الكتاب والأبيات على داود بن عيسىٰ أرسل إلى رجال من أهل مكة فقرأ عليهم الكتاب فأجابه رجل منهم يقال له عيسىٰ بن عبد العزيز السعلبوس بقصيدة يردّ عليه ويذكر فيها فضل مكة وما خصّها الله تعالىٰ به من الكرامة والفضيلة ويذكر المشاعر والمناقب، فقال وفّقه الله هذه القصيدة: [المتقارب]

أداوُدُ أنت الإمامُ الرِّضَى ... وأنت ابنُ عمّ نبيِّ الهُدَى
وأنت المهذَّبُ من كل عيب ... كبيراً ومن قبله في الصِّبَى
وأنت المؤمَّلُ من هاشم ... وأنت ابنُ قوم كرام تُقَى
وأنت غياثٌ لأهل الخَصَاصِ ... تسدّ خَصَاصَتَهم بالغِنَى
أتاك كتابُ حسودٍ جَحودٍ ... أسَا في مقالته واعتَدَى
يُخيِّر يثربَ في شعره ... على حرم الله حيث ابْتَنَى
فإن كان يصدق فيما يقول ... فلا يسجدنَّ إلى ما هنا
وأيّ بلاد تفوق أمَّها ... ومكّةُ مكّةُ أمُّ القُرَى
وربي دحا الأرضَ من تحتها ... ويثربُ لا شكَّ فيما دحَا
وبيتُ المهَيْمِن فينا مقيمٌ ... يُصلَّى إليه برغم العدى
ومسجدُنا بيِّنٌ فضلُه ... على غيره ليس في ذا مِرَا

صلاةُ المصلّي تُعَدُّ لَهُ ... مئين ألوفاً صلاةَ وفَا
كذاك أتى في حديث النبي ... وما قال حقٌّ به يُقْتَدَى
وأعمالكم كل يوم وفودٌ ... إلينا شوارعُ مثلُ القَطَا
فيرفع منها إلهي الذي ... يشاء ويترك ما لا يَشَا
ونحن تحجُّ إلينا العبادُ ... فيرمون شُعْثاً بوتر الحَصَى
ويأتون من كل فجّ عميق ... على أَيْنُقٍ ضُمَّر كالقَنَا
لتقضوا مناسككم عندنا ... فمنهم سِغَابٌ ومنهم مِعَى
فكم من مُلَبٍّ بصوت حزين ... ترى صوتَه في الهوا قد علا
وآخر يذكر ربَّ العباد ... ويثني عليه بحسن الثَّنا
فكلُّهمُو أشعثٌ أغبرٌ ... يؤم المعرَّفَ أقصى المَدى
فظلوا به يومهم كلَّه ... وقوفاً يضجُّون حتى المَسَا
حفاةً ضحاةً قياماً لهم ... عجيجٌ يناجون رب السَّمَا
رجاءً وخوفاً لما قدَّموا ... وكلٌّ يسائل دفْعَ البلا
يقولون يا ربنا اغفر لنا ... بعفوك والصَّفْح عمَّن أسَا
فلما دنا الليلُ من يومهم ... وولى النهار أجدُّوا البُكَا
وسار الحجيجُ له رجَّةٌ ... فحلوا بجَمْعٍ بُعَيْدَ العَشَا
فباتوا جميعاً فلما بدا ... عمودُ الصباحَ وولى الدُّجَى
دعوا ساعةً ثم شدوا الشُّسُوع ... على قُلُصٍ ثم أمُّوا منى
فمن بين من قد قَضَى نُسْكَهُ ... وآخر يبدا بسفك الدما
وآخر يهدي إلى مكة ... ليسعى ويدعوه فيمن دعا
وآخر يَرْمُلُ حول الطواف ... وآخر ماض يؤمُّ الصفا
فآبوا بأفضل ممّا رجَوْا ... وما طلبوا من جزيل العَطا
وحج الملائكة المكرمون ... إلى أرضنا قبلُ فيما مضى
وآدمُ قد حج من بعدهم ... ومن بعده أحمدُ المصطفى
وحجَّ إلينا خليلُ الإله ... وهجَّرَ بالرمي فيمن رمى
فهذا لعمري لنا رفعةٌ ... حبانا بهذا شديدُ القُوَى
ومنّا النبي نبيُّ الهدى ... وفينا تنبَّا ومنا ابتدى
ومنا أبو بكرٍ ابن الكرام ... ومنا أبو حفص المرتجى
وعثمانُ منا فمن مثله ... إذا عدَّد الناسُ أهلَ الحَيَا
ومنا عليٌّ ومنا الزبيرُ ... وطلحةُ منا وفينا انْتَشَا
ومنا ابن عباسَ ذو المكرمات ... نسيبُ النبي وحلْفُ النَّدَا
ومنا قريشٌ وآباؤها ... فنحن إلى فخرنا المنتهى

ومـنـا الـذيـن بـهـم تـفـخـرون فـلا تـفـخـرون عـلـيـنـا بـنـا
فـفـخـرُ أولاء لـنـا رفـعـةٌ وفـيـنـا مـن الـفـخـر مـا قـد كـفـا
وزمـزمُ والـحِـجْـرُ فـيـنـا فـهـل لـكـم مـكـرمـاتٌ كـمـا قـد لـنـا
وزمـزمُ طـعـمٌ وشـربٌ لـمـن أراد الـطـعـام وفـيـه الـشـفـا
وزمـزمُ تـنـفـي هـمـومَ الـصُّـدور وزمـزمُ مـن كـل سُـقْـم دوا
ومـن جـاء زمـزمَ مـن جـائـع إذا مـا تـضـلَّـع مـنـهـا اكـتـفَـى
ولـيـسـت كـزمـزمَ فـي أرضـكـم كـمـا لـيـس نـحـن وأنـتـم سَـوَا
وفـيـنـا سِـقـايـةُ عـمّ الـرسـول ومـنـهـا الـنـبـيُّ امـتـلا وارتـوى
وفـيـنـا الـمـقـامُ فـأكـرمْ بـه وفـيـنـا الـمـحـصَّـبُ والـمـخْـتَـبَـى
وفـيـنـا الـحَـجُـونُ فـفـاخـر بـه وفـيـنـا كَـدَاءُ وفـيـنـا كَـدَى
وفـيـنـا الأبـاطِـحُ والـمَـرْوتـان فـبَـخْ بَـخْ فـمـن مـثـلـنـا يـا فـتـى
وفـيـنـا الـمـشـاعِـرُ مَـنْـشـا الـنـبـي وأجـيـادُ والـركـنُ والـمـتَّـكَـى
وثـورٌ وهـل عـنـدكـم مـثـل ثـورٍ وفـيـنـا ثَـبِـيـرٌ وفـيـنـا حَـرَا
وفـيـه اخـتـبـاءُ نـبـي الإلـه ومَـغْـهُ أبـو بـكـر الـمـرتَـضَـى
فـكـم بـيـن أحـدٍ إذا جـاء فـخـرٌ وبـيـن الـقـبـيـسـيِّ فـيـمـا تـرى
وبـلـدتُـنَـا حَـرَمٌ لـم تـزل مـحـرَّمَـةَ الـصـيـد فـيـمـا خـلا
ويـشـربُ كـانـت حـلالاً فـلا تـكـذِّبْ فـكـم بـيـن هـذا وذا
وحـرَّمـهـا بـعـد ذاك الـنـبـيّ فـمـن أجـل ذلـك جـا ذا كـذا
ولـو قُـتِـلَ الـوحـشُ فـي يـثـرب لـمـا فـدَى الـوحـشَ حـتـى الـلِّـقَـا
ولـو قُـتـلـتْ عـنـدنـا نـمـلـةٌ أُخِـذْتُـمْ بـهـا أو تـؤدّوا الـفـدا
ولـولا زيـارةُ قـبـر الـنـبـيّ لـكـنـتـم كـسـائـر مـن قـد تـرا
ولـيـس الـنـبـيّ بـهـا ثـاويـاً ولـكـنـه فـي جـنـان الـعُـلـى
فـإن قـلـتَ قـولاً خـلاف الـذي أقـولُ فـقـد قـلـتَ قـولَ الـخـطـا
فـلا تـفـحـشـنَّ عـلـيـنـا الـمـقـالَ ولا تـنـطـقـنَّ بـقـول الـخَـنَـا
ولا تـفـخـرنَّ بـمـا لا يـكـون ولا مـا يَـشِـيـنُـك عـنـد الـمَـلا
ولا تَـهْـجُ بـالـشـعـر أرضَ الـحـرام وكـفَّ لـسـانـك عـن ذي طُـوَى
وإلاّ فـجـاءك مـا لا تـريـد مـن الـشَّـتْـم فـي أرضـكـم والأذى
فـقـد يُـمـكـن الـقـولُ فـي أرضـكـم بـسـبـب الـعـقـيـق ووادي قَـبَـا

فأجابهما رجل من بني عجل ناسك كان مقيماً بجدّة مرابطاً فحكم بينهما فقال: [الكامل]

إني قضيتُ على اللذين تماريا في فضل مكةَ والمدينةِ فاسألُوا
فلسوف أخبركم بحقٍ فافهموا فالحكم وقتاً قد يجور ويعدلُ
فأنا الفتى العِجْليُّ جدةُ مسكني وخزانةُ الحرم التي لا تُجهَلُ

وبها الجهادُ مع الرباط وإنها   لبها الوقيعةُ لا محالةَ تنزلُ
من آل حام في أواخر دهرها   وشهيدُها بشهيد بدر يُعْدَلُ
شهداؤنا قد فُضِّلوا بسعادة   وبها السرورُ لمن يموت ويقتلُ
يا أيها المدنيُّ أرضك فضلُها   فوق البلاد وفضلُ مكةَ أفضلُ
أرضٌ بها البيتُ المحرَّمُ قبلةٌ   للعالمين بها المساجد تُعْدَلُ
حَرَمٌ حرام أرضُها وصُيودها   والصيدُ في كل البلاد محلَّلُ
وبها المشاعرُ والمناسكُ كلُّها   وإلى فضيلتها البريةُ ترحَلُ
وبها المقامُ وحوضُ زمزمَ مترعاً   والحجْرُ والركنُ الذي لا يُجْهَلُ
والمسجدُ العالي الممجَّدُ والصفا   والمشعران ومن يطوف ويرملُ
هل في البلاد محلةٌ معروفةٌ   مثل المعرَّف أو محلٌّ يُخلَلُ
أو مثل جَمْعٍ في المواطن كلها   أو مثل خَيْفِ منًى بأرض منزلُ
تلكمْ مواضعُ لا يُرى بخرابها   إلاَّ الدعا ومحرَّمٌ ومحلَّلُ
شرفاً لمن وافى المعرَّفَ ضيفُه   شرفاً له ولأرضه إذ ينزلُ
وبمكةَ الحَسَنَاتُ يضعف أجرُها   وبها المُسيء عن الخطيئة يُسألُ
يُجْزَى المسيءُ على الخطيئة مثلَها   وتُضاعَفُ الحسناتُ منه وتُقبلُ
ما ينبغي لك أن تفاخر يا فتى   أرضاً بها وُلِدَ النبيُّ المرسَلُ
بالشعب دون الردم مسقطُ رأسه   وبها نشا صلَّى عليه المرسِلُ
وبها أقام وجاءه وحيُ السما   وسرى به الملك الرفيعُ المنْزَلُ
ونبوّة الرحمن فيها أُنزلتْ   والدينُ فيها قبل دينك أوّلُ
هل بالمدينة هاشميٌّ ساكنٌ   أو من قريش ناشىء أو مُكْهَلُ
إلاَّ ومكةُ أرضُه وقراره   لكنهم عنها نَبَوْا فتحوّلوا
وكذاك هاجَرَ نحوكم لما أتى   إن المدينة هجرةٌ فتحمَّلوا
فأَجَرْتُمُو وقَرَيْتُمُو ونَصَرْتُمُو   خير البرية حقكم أن تفعلوا
فضلُ المدينة بيِّنٌ ولأهلها   فضلٌ قديم نورُه يتهلَّلُ
من لم يقُلْ إن الفضيلةَ فيكمو   قلنا كذبتَ وقولُ ذلك أرذلُ
لا خير فيمن ليس يعرف فضلكم   من كان يجهله فلسنا نَجهلُ
في أرضكم قبرُ النبيّ وبيتُه   والمنبرُ العالي الرفيعُ الأطْوَلُ
وبها قبورُ السابقين بفضلهم   عمرٌ وصاحبُه الرفيقُ الأفضلُ
والعِترةُ الميمونة اللاتي بها   سبقت فضيلةَ كل من يتفضَّلُ
آلُ النبيّ بنو عليٍّ إنهم   أمسوا ضياءً للبرية يَشْمَلُ
يا من تنصُّ إلى المدينة عينُه   فيك الصغارُ وصَعْرُ خدّك أسفلُ
إنا لنهواها ونهوى أهلها   ووداُدها حقٌّ على من يعقلُ

قــل لــلــمــديــنــيِّ الــذي يَــزْدَارُ دَا وُدُ الأمــيــرُ ويــســتــحــثُّ ويــعــجــلُ
قــد جــاءكــم داودُ بــعــد كــتــابــكــم قــد كــان حــبــلُــك فــي أمــيــرك يُــفْــتَــلُ
فــاطــلــبْ أمــيــرَك واســتــزره ولا تــقــغْ فــي بــلــدةٍ عــظــمــت فــوعــظــك أفــضَــلُ
ســاق الإلــهُ لــبــطــن مــكــة دِيْــمَــةً تُــرْوَى بــهــا وعــلــى الــمــديــنــة تُــسْــبَــلُ

انتهى الجزء الرابع والسبعون

تمّ الجزء الثاني من الفتوحات المكية، ويتلوه الجزء الثالث أوّله الباب الثالث والسبعون
الذي هو أول الجزء الخامس والسبعين على حسب تجزئة المؤلف

فهرس المحتويات

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
BEIRUT

الفتوحات المكية

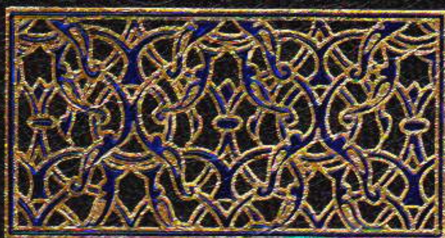

للشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين محمد بن علي
بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي "المعروف بابن عربي"
المتوفى سنة ٦٣٨ هـ

ضبطه وصححه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدين

المجلد الثالث

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الفتوحات المكية

تأليف

الشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين
محمد بن عليّ بن محمّد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي
المعروف بابن عربي
المتوفى سنة ٦٣٨هـ

ضبطه وصحّحه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدّين

الجزء الثالث

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ١١ - ٩٤٢٤ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2275-4

http://www.al-ilmiyah.com.lb/
e-mail : sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com

الفتوحات المكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الثالث والسبعون

في معرفة عدد ما يحصل من الأسرار للمشاهد عند المقابلة والانحراف، وعلى كم ينحرف من المقابلة

[نظم : الوافر]

ملائكةُ الإلٰهِ أتتْ إلينا ... لتُوقِفَنا على النَّبأ اليَقينِ
فقالت قَوْلَ مَعْصوم عليم ... بريءٍ من مُلابَسَة الظُّنونِ
ثمانيةٌ وعشرٌ قدَ أتتنا ... جِهاراً ثم عَشْرٌ في كَمينِ
ثمانيةٌ أشدّاءُ غِلاظٌ ... وخَمْسَتُهم أشدّاءُ بِلِينِ
بأربعةٍ وعشرينَ افتتحنا ... وما يعلو بسبْعَتِهم قريني
وخامسُ عَشْرةٍ في لينِ عيشٍ ... وأربعةٌ لتطبيق الجفونِ
وفي إحدى وعشرين انْسَفَلْنا ... عن التقويم بالبلد الأمينِ
مددنا ظلَّنا لحجاب غصنٍ ... على الأقوام في عَطْفٍ ولينِ
صلاةُ المشركين بها مُكَاءٌ ... مثلَّثةٌ تُحلِّيني بديني
وواحدٌ استطال فصال قهراً ... ومنحرفٌ توحَّد في الوتينِ
إذا انفشَّ الوحيدُ يصير جمعاً ... ويهوَى مثله يهواه دوني
تفرَّقتِ الهمومُ غَداة ثَبْتٍ ... ويعرفها المتيَّمُ بعد حينِ
بشَفْعٍ من إبانتكم غَنينا ... فكُرِّر واحدُ الصبح المبينِ
وأن زَّوائدَ الأفلاك عشرٌ ... وللبُدَلاء أبراجُ الشُّؤونِ
ومن عَقْدِ المئين لنا ثلاثٌ ... على قلبِ لآدم عن يقينِ
وأن الأربعين لقلبِ نوحٍ ... على بيضاءَ بالنور المبينِ
على قلبِ الخليل لنا رجالٌ ... سباعيةٌ كآساد العرينِ
وخمسةُ أنفس لهمُ ثَبَاتٌ ... بقلب الطاهرِ الروح الأمينِ
وميكائيلُ يتلوه ثلاثٌ ... تمسُّكُهُنَّ بالحبل المتينِ
وإسرافيلُ يتبعه وحيدٌ ... بقلبِ قد تفنَّن بالفنونِ
يُقَلْقِلُهم عن التَّثْبِيتِ خمسٌ ... ولولاهنَّ كانوا في سُكونِ
وينصرني على الإشراك وَتْري ... تلقَّي نصرَ ذلك باليمينِ

نَـجـيـبٌ مـن ثـمـانـيـةٍ كـرام ... وثِـنْـتَـا عَـشْـرَة نُـقَـبـاءُ ديـنِ
أقـالـيـمُ الـبـلاد لـهـا رجـالٌ ... عـلـى الـتـمـثـيل فـي رأيِ الـعـيـونِ
وتَـحْـرُسـنـا بـأربـعـةِ رجـالٍ ... مـن الأوتـاد فـي الـحِـضْـنِ الـحـصـيـنِ
إمـامـا الـعـالـمـيـن هُـمـا وزيـرا ... مـلـيـكِ الـعـالـم الـقـطـبِ الـمـكـيـنِ
وسـتَّـة أنْـفُـسٍ لـجـهـات سـتٍّ ... أئـمـتـهُـنَّ مِـن نـور وطـيـنِ
فـهـذا الـرمـزُ إن فـكَّـرتَ فـيـه ... تـرى سـرَّ الـظُّـهـور مع الـكُـمـونِ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن هذا الباب يتضمن أصناف الرجال الذين يحصرهم العدد والذين لا توقيت لهم، ويتضمن المسائل التي لا يعلمها إلاّ الأكابر من عبد الله الذين هم في زمانهم بمنزلة الأنبياء في زمان النبوّة وهي النبوّة العامّة، فإن النبوّة التي انقطعت بوجود رسول الله ﷺ إنما هي نبوّة التشريع لا مقامها، فلا شرع يكون ناسخاً لشرعه ﷺ. ولا يزيد في حكمه شرعاً آخر، وهذا معنى قوله ﷺ: «**إنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قد انْقَطَعَتْ فَلا رَسُولَ بَعْدِي وَلا نَبِيَّ**» أي لا نبيّ بعدي يكون على شرع يخالف شرعي، بل إذا كان يكون تحت حكم شريعتي، ولا رسول أي لا رسول بعدي إلى أحد من خلق الله بشرع يدعوهم إليه. فهذا هو الذي انقطع وسدّ بابه لا مقام النبوّة، فإنه لا خلاف أن عيسىٰ عليه السلام نبيّ ورسول، وأنه لا خلاف أنه ينزل في آخر الزمان حكماً مقسطاً عدلاً بشرعنا لا بشرع آخر ولا بشرعه الذي تعبّد الله به بني إسرائيل من حيث ما نزل هو به، بل ما ظهر من ذلك هو ما قرّره شرع محمد ﷺ، ونبوّة عيسىٰ عليه السلام ثابتة له محققة، فهذا نبيّ ورسول قد ظهر بعده ﷺ وهو الصادق في قوله أنه لا نبيّ بعده، فعلمنا قطعاً أنه يريد التشريع خاصة وهو المعبّر عنه عند أهل النظر بالاختصاص وهو المراد بقولهم: إن النبوّة غير مكتسبة.

وأما القائلون باكتساب النبوّة فإنهم يريدون بذلك حصول المنزلة عند الله المختصة من غير تشريع لا في حق أنفسهم ولا في حق غيرهم، فمن لم يعقل النبوّة سوى عين الشرع ونصب الأحكام قال بالاختصاص ومنع الكسب، فإذا وقفتم على كلام أحد من أهل الله أصحاب الكشف يشير بكلامه إلى الاكتساب كأبي حامد الغزاليّ وغيره فليس مرادهم سوى ما ذكرناه، وقد بيّنا هذا في فصل الصلاة على النبيّ ﷺ في آخر باب الصلاة من هذا الكتاب، وهؤلاء هم المقرّبون الذين قال الله فيهم: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ٢٨] وبه وصف الله نبيه عيسىٰ عليه السلام فقال: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٥] وبه وصف الملائكة فقال: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧٢].

ومعلوم قطعاً أن جبريل كان ينزل بالوحي على رسول الله ﷺ ولم يطلق عليه في الشرع اسم نبيّ، مع أنه بهذه المثابة فالنبوّة مقام عند الله يناله البشر وهو مختص بالأكابر من البشر، يعطى للنبيّ المشرّع ويعطى للتابع لهذا النبيّ المشرّع الجاري على سنته، قال تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٥٣] فإذا نظر إلى هذا المقام بالنسبة إلى التابع وأنه باتباعه حصل له هذا المقام سمّي مكتسباً والتعمّل بهذا الاتباع اكتساباً، ولم يأته شرع من ربه

يختص به ولا شرع يوصله إلى غيره، وكذلك كان هارون، فسددنا باب إطلاق لفظ النبوّة على هذا المقام مع تحقّقه لئلا يتخيل متخيّل أن المطلق لهذا اللفظ يريد نبوّة التشريع فيغلط، كما اعتقده بعض الناس في الإمام أبي حامد فقال عنه: إنه يقول باكتساب النبوّة في كيمياء السعادة وغيره، معاذ الله أن يريد أبو حامد غير ما ذكرناه، وسأذكر إن شاء الله ما يختص به صاحب هذا المقام من الأسرار الخاصة به التي لا يعلمها إلاّ من حصله، فإذا سمعتني أقول في هذا الباب وممّا يختص بهذا المقام كذا فاعلم أن ذلك الذي أذكره هو من علوم أهل هذا المقام، فلنذكر أوّلاً شرح ما بوّبنا عليه من المقابلة والانحراف.

وصل: اعلم أن للحق سبحانه في مشاهدة عباده إياه نسبتين: نسبة تنزيه ونسبة تنزل إلى الخيال بضرب من التشبيه، فنسبة التنزيه تجليه في: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] والنسبة الأخرى تجليه في قوله عليه السلام: «**اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» وقوله: «**إِنَّ اللَّهَ فِي قِبْلَةِ الْمُصَلِّي**». وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥] وثمّ ظرف ووجه الله ذاته وحقيقته والأحاديث والآيات الواردة بالألفاظ التي تطلق على المخلوقات باستصحاب معانيها إياها، ولولا استصحاب معانيها إياها المفهومة من الاصطلاح ما وقعت الفائدة بذلك عند المخاطب بها، إذ لم يرد عن الله شرح ما أراد بها مّما يخالف ذلك اللسان الذي نزل به هذا التعريف الإلهيّ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤] يعني بلغتهم ليعلموا ما هو الأمر عليه، ولم يشرح الرسول المبعوث بهذه الألفاظ هذه الألفاظ بشرح يخالف ما وقع عليه الاصطلاح، فنسب تلك المعاني المفهومة من تلك الألفاظ الواردة إلى الله تعالىٰ كما نسبها لنفسه، ولا يتحكم في شرحها بمعان لا يفهمها أهل ذلك اللسان الذي نزلت هذه الألفاظ بلغتهم فنكون من الذين ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [سورة النساء: الآية ٤٦] ومن الذين ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٥] وهم يعلمون بمخالفتهم، ونقرّ بالجهل بكيفية هذه النسب، وهذا هو اعتقاد السلف قاطبة من غير مخالف في ذلك، فإذا تقرّر عندك ما ذكرناه من هاتين النسبتين للحق المشروعتين وأنت المطلوب بالتوجّه بقلبك وبعبادتك إلى هاتين النسبتين فلا تعدل عنهما إن كنت كاملاً، أو إلى إحداهما إن كنت نازلاً عن هذه المرتبة الكمالية، إما لما يقوله أهل الكلام في الله من حيث عقولهم، وإما لما توهمه القاصرة عقولهم من تشبيه الحق بخلقه فهؤلاء جهلوا وهؤلاء جهلوا والحق في الجمع بينهما.

وقد ورد الخبر في النشأة الآدمية، أن الله خلق آدم على صورته وورد في القرآن أن الله خلقه بيديه على جهة التشريف لقرينة الحال حين عرف بذلك إبليس لما ادّعى الشرف على آدم بنشأته فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [سورة ص: الآية ٧٥] ولا يسوغ هنا حمل اليدين على القدرة لوجود التثنية، ولا على أن تكون الواحدة يد النعمة والأخرى يد القدرة، فإن ذلك سائغ في كل موجود فلا شرف لآدم بهذا التأويل، فلا بدّ أن يكون لقوله: ﴿بِيَدَىَّ﴾ خلاف ما ذكرناه ممّا يصحّ به التشريف، فتوجهت على خلق الإنسان هاتان النسبتان: نسبة التنزيه ونسبة

التشبيه، فخرج بنو آدم لهذا على ثلاث مراتب: كامل وهو الجامع بين هاتين النسبتين، أو واقف مع دليل عقله ونظر فكره خاصة، أو مشبّه بما أعطاه اللفظ الوارد، ولا رابع لهم من المؤمنين. فالمقابلة أو الانحراف لا تكون إلاّ من جهة نسبة التنزّل الإلهيّ الخياليّ في قوله عليه السلام: «**اعْبُدِ اللّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»، في هذا هي المقابلة للمعبود، والانحراف عن هذه المقابلة إما بتنزيه وهو انحراف المتكلمين، وإما بتشبيه محدود وهو انحراف المجسمين، والكمل هم أهل القول بالأمرين.

وهذه الحضرة التي ذكرناها تحوي على ستين وثلاثمائة مقام منها ستة وثلاثون أمهات وما بقي فهي نازلة عن هذه الستة والثلاثين تحصل كلها لأهل الشهود من الاسم الدهر، فإن الله هو الدهر، ولا يتوهم من هذا القول الزمان المعروف الذي تعدّه حركات الأفلاك وتتخيّل من ذلك درجات الفلك التي تقطعها الكواكب ذلك هو الزمان، وكلامنا إنما هو في الاسم الدهر ومقاماته التي ظهر عنها الزمان، والزمان على التحقيق قد عرّفناك أنه نسبة لا أمر وجودي وأنه للمحدث بمنزلة الأزل للقديم، فهذه المقامات تحصل لأهل الشهود إذا قابلوها بذواتهم من حيث خلقهم على الصورة، كذلك يقابل الزمان الدهر والأبد يقابله الأزل، ولا يكون منهم عند المقابلة نظر إلى كون أصلاً يميزونه عن ذواتهم وذوات ما قابلوه، فإن وقع لمن هذا مقامه تميّز لكون من الأكوان، أو للذي قابلوه يميّز لهم عمّا قابلوه من ذواتهم، فقد حدّوه وانحرفوا عن المقابلة، وانحطوا بذلك إلى ثمانية عشر مقاماً وهو النصف، فإما أن يكون انحرافهم إليه أو إليهم، فإن كان إليه تعالىٰ فقد غابوا عنهم والمطلوب منهم حضورهم بهم له، وإن كان الانحراف إليهم فقد غابوا عنه والمطلوب حضورهم معه، فإن زاد الانحراف انحطوا إلى نصف ذلك وهو تسعة مقامات فغاب عنهم من الذي انحطوا عنه النصف، فإن زاد الانحراف انحطوا إلى ستة مقامات وهو غاية الانحطاط وهو الثلث من الثمانية عشر والسدس من المجموع الذي هو ستة وثلاثون، فمنزل العبد الكامل يكون بين هاتين النسبتين يقابل كل نسبة منهما بذاته، فإنه لا ينقسم في ذاته وما لا ينقسم لا يوصف بأنه يقابل كل نسبة بغير الذي يقابل بها الأخرى وما ثَمَّ إلاّ ذاته، كالجوهر الفرد بين الجوهرين أو الجسمين يقابل كل واحد ممّا هو بينهما بذاته، لأن ما لا ينقسم لا يكون له جهتان مختلفتان في حكم العقل، وإن كان الوهم يتخيل ذلك كذلك الإنسان من حيث حقيقته ولطيفته يقابل بذاته الحق من حيث نسبة التنزيه، وبذلك الوجه عينه يقابل الحق من حيث صفة النزول الإلهي إلى الاتصاف بالصفات التي توهم التشبيه وهي النسبة الأخرى.

وكما أن الحق الذي هو الموصوف بهاتين النسبتين وله حد في نفسه وأحديته ولم تحكم عليه هاتان النسبتان بالتعداد والانقسام في ذاته، كذلك العبد الكامل في مقابلة الحق في هاتين النسبتين لا يكون له وجهان متغايران، فهذه هي المقابلة للحق من جميع النسب على كثرتها، فإنها وإن كثرت فهي راجعة إلى هاتين النسبتين وليستا بأمر زائد على عين الموصوف بها فالكل عين واحدة وما ثَمَّ كل وجودي، وإنما جئنا به من حيث النسب وهي لا أعيان لها،

فالعين من الحق واحدة والعين من العبد واحدة، لكن عين العبد ثبوتية ما برحت من أصلها ولا خرجت من معدنها، ولكن كساها الحق حلّة وجوده، فعينها باطن وجوده ووجودها عين موجدها، فما ظهر إلاّ الحق لا غيره، وعين العبد باقٍ على أصله، لكنه استفاد ما لم يكن عنده من العلم بذاته، وبمن كساه حلّة وجوده وبمعرفة أمثاله ورأى العالم بعضه بعضاً بعين وجود ربّه، فمن نظر إلى ذاته بعين ربه ولم يميز فقد انحرف عمّا ينبغي له فهو العبد الموصوف بالجهل في عين الحق، وحكمه في هذا الوصف والحال حكم من لم يتصف بالوجود لأن الجهل عدم، فمن قال في رؤيته ما رأى الله إلاّ الله فهو العبد الكامل وهكذا في كل نسبة، وهذه أسنى درجات المعارف. وتليها المعرفة الثانية التي يقول فيها صاحبها: كنت مغمض العينين ففتحتهما فما وقعت على شيء إلاّ كان هو الله فما رأيت إلاّ الله والأعيان على أصولها لا أثر لها في رؤيتي إياها. والمعرفة الثالثة هي التي يقول فيها صاحبها: ما رأيت شيئاً. والمعرفة الرابعة أن يقول: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله قبله وهذه رؤية تحديد، وكذلك فيما نزل عن هذه المعرفة من فيه وبعده وعنده وغير ذلك، وهي هذه المعارف التي تعطي التحديد من النسبة النزولية التي توهم التشبيه، والمعارف الأول التي ذكرناها من مقام كون العبد بين النسبتين لا غير.

وأما المعارف التي تحصل من نسبة التنزيه فلا تقال ولا تأخذها عبارة ولا تصحّ فيها الإشارة فانحصر لك الأمر في ثلاث معارف أمّهات: معرفة نسبة التنزيه، ومعرفة نسبة التحديد والتشبيه، ومعرفة أعطاها مقامك بين هاتين النسبتين وهو عينك لا وجود عينك لكون وجود عينك هو وجود الحق فلا ينسب إليك. فمن لا علم له بهذه الأمّهات فهو المنحرف.

واعلم أن الله في كل نوع من المخلوقات خصائص، وقد ذكرنا ذلك في هذا الكتاب، وهذا النوع الإنساني هو من جملة الأنواع ولله فيه خصائص وصفوة، وأعلى الخواص فيه من العباد الرسل عليهم السلام ولهم مقام النبوّة والولاية والإيمان، فهم أركان بيت هذا النوع، والرسول أفضلهم مقاماً وأعلاهم حالاً أي المقام الذي يرسل منه أعلى منزلة عند الله من سائر المقامات وهم الأقطاب والأئمة والأوتاد الذين يحفظ الله بهم العالم كما يحفظ البيت بأركانه، فلو زال ركن منها زال كون البيت بيتاً، ألا إن البيت هو الدين، ألا إن أركانه هي الرسالة والنبوّة والولاية والإيمان، ألا إن الرسالة هي الركن الجامع للبيت وأركانه، ألا إنها هي المقصودة من هذا النوع فلا يخلو هذا النوع أن يكون فيه رسول من رسل الله، كما لا يزال الشرع الذي هو دين الله فيه، ألا إن ذلك الرسول هو القطب المشار إليه الذي ينظر الحق إليه فيبقى به هذا النوع في هذه الدار ولو كفر الجميع، إلاّ أن الإنسان لا يصح عليه هذا الاسم إلاّ أن يكون ذا جسم طبيعيّ وروح، ويكون موجوداً في هذه الدار الدنيا بجسده وحقيقته، فلا بدّ أن يكون الرسول الذي يحفظ الله به هذا النوع الإنساني موجوداً في هذا النوع في هذه الدار بجسده وروحه يتغذى، وهو مجلّي الحق من آدم إلى يوم القيامة.

ولما كان الأمر على ما ذكرناه ومات رسول الله ﷺ بعدما قرّر الدين الذي لا ينسخ

والشرع الذي لا يبدّل، ودخلت الرسل كلهم في هذه الشريعة يقومون بها، والأرض لا تخلو من رسول حيّ بجسمه، فإنه قطب العالم الإنساني، ولو كانوا ألف رسول لا بدّ أن يكون الواحد من هؤلاء هو الإمام المقصود، فأبقى الله تعالىٰ بعد رسول الله ﷺ من الرسل الأحياء بأجسادهم في هذه الدار الدنيا ثلاثة وهم: إدريس عليه السلام بقي حياً بجسده وأسكنه الله السماء الرابعة والسموات السبع هنّ من عالم الدنيا وتبقى ببقائها وتفنى صورتها بفنائها فهي جزء من الدار الدنيا، فإن الدار الأخرى تبدّل فيها السموات والأرض بغيرهما كما تبدّل هذه النشأة الترابية منّا نشآت أخر غير هذه كما وردت الأخبار في السعداء من الصفاء والرقة واللطافة، فهي نشآت طبيعية جسمية لا تقبل الأثقال، فلا يغوطون ولا يبولون ولا يتمخطون كما كانت هذه النشأة الدنياوية، وكذلك أهل الشقاء. وأبقى في الأرض أيضاً إلياس وعيسىٰ وكلاهما من المرسلين وهما قائمان بالدين الحنيفيّ الذي جاء به محمد ﷺ، فهؤلاء ثلاثة من الرسل المجمع عليهم أنهم رسل. وأما الخضر وهو الرابع فهو من المختلف فيه عند غيرنا لا عندنا، فهؤلاء باقون بأجسامهم في الدار الدنيا فكلهم الأوتاد، واثنان منهم الإمامان وواحد منهم القطب الذي هو موضع نظر الحق من العالم، فما زال المرسلون ولا يزالون في هذه الدار إلى يوم القيامة، وإن لم يبعثوا بشرع ناسخ ولا هم على غير شرع محمد ﷺ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٣٨].

والواحد من هؤلاء الأربعة الذين هم: عيسىٰ وإلياس وإدريس وخضر هو القطب، وهو أحد أركان بيت الدين، وهو ركن الحجر الأسود، واثنان منهم هما الإمامان، وأربعتهم هم الأوتاد، فبالواحد يحفظ الله الإيمان، وبالثاني يحفظ الله الولاية، وبالثالث يحفظ الله النبوّة، وبالرابع يحفظ الله الرسالة، وبالمجموع يحفظ الله الدين الحنيفيّ. فالقطب من هؤلاء لا يموت أبداً أي لا يصعق.

وهذه المعرفة التي أبرزنا عينها للناظرين لا يعرفها من أهل طريقنا إلاّ الأفراد الأمناء، ولكل واحد من هؤلاء الأربعة من هذه الأمّة في كل زمان شخص على قلوبهم مع وجودهم هم نوّابهم، فأكثر الأولياء من عامّة أصحابنا لا يعرفون القطب والإمامين والوتد إلاّ النوّاب لا هؤلاء المرسلون الذين ذكرناهم، ولهذا يتطاول كل واحد من الأمّة لنيل هذه المقامات، فإذا حصلوا أو خصّوا بها عرفوا عند ذلك أنهم نوّاب لذلك القطب، ونائب الإمام يعرف أن الإمام غيره وأنه نائب عنه وكذلك الوتد. فمن كرامة رسول الله ﷺ محمد أن جعل من أمّته وأتباعه رسلاً وإن لم يرسلوا فهم من أهل المقام الذي منه يرسلون وقد كانوا أرسلوا فاعلم ذلك، ولهذا صلّى رسول الله ﷺ ليلة إسرائه بالأنبياء عليهم السلام في السموات لتصحّ له الإمامة على الجميع حساً بجسمانيته وجسمه، فلما انتقل ﷺ بقي الأمر محفوظاً بهؤلاء الرسل، فثبت الدين قائماً بحمد الله ما انهدم منه ركن إذ كان له حافظ يحفظه وإن ظهر الفساد في العالم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذه نكتة فاعرف قدرها فإنك لست تراها في كلام أحد منقول عنه أسرار هذه الطريقة

غير كلامنا. ولولا ما ألقى عندي في إظهارها ما أظهرتها لسر يعلمه الله ما أعلمنا به، ولا يعرف ما ذكرناه إلاَّ نوّابهم خاصة لا غيرهم من الأولياء. فاحمدوا الله يا إخواننا حيث جعلكم الله ممّن قرع سمعه أسرار الله المخبوّة في خلقه التي اختصّ الله بها من شاء من عباده، فكونوا لها قابلين مؤمنين بها ولا تحرموا التصديق بها فتحرموا خيرها. قال أبو يزيد البسطاميّ وهو أحد النوّاب لأبي موسىٰ الديبليّ: يا أبا موسىٰ إذا رأيت من يؤمن بكلام أهل هذه الطريقة فقل له يدعو لك فإنه مجاب الدعوة. وسمعت شيخنا أبا عمران موسىٰ بن عمران الميرتلي بمنزله بمسجد الرضى بأشبيلية وهو يقول للخطيب أبي القاسم بن عفير وقد أنكر أبو القاسم ما يذكر أهل هذه الطريقة: يا أبا القاسم لا تفعل فإنك إن فعلت هذا جمعنا بين حرمانين لا نرى ذلك من نفوسنا ولا نؤمن به من غيرنا، وما ثم دليل يردّه ولا قادح يقدح فيه شرعاً وعقلاً، ثم استشهدني على ما ذكره، وكان أبو القاسم يعتقد فينا فقرّرت عنده ما قاله بدليل يسلمه من مذهبه فإنه كان محدّثاً فشرح الله صدره للقبول وشكرني الشيخ ودعا لي.

واعلم أن رجال الله في هذه الطريقة هم المسمّون بعالم الأنفاس وهو اسم يعمّ جميعهم، وهم على طبقات كثيرة وأحوال مختلفة، فمنهم من تجمّع له الحالات كلها والطبقات. ومنهم من يحصل من ذلك ما شاء الله، وما من طبقة إلاَّ لها لقب خاص من أهل الأحوال والمقامات التي يظهرون عليها في قوله: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣٣] كل طائفة في جنسها. ومنهم من يحصره عدد في كل زمان. ومنهم من لا عدد له لازم فيقلّون ويكثرون. ولنذكر منهم أهل الأعداد ومن لا عدد لهم بألقابهم إن شاء الله تعالىٰ.

فمنهم رضي الله عنهم الأقطاب وهم الجامعون للأحوال والمقامات بالأصالة أو بالنيابة كما ذكرنا، وقد يتوسعون في هذا الإطلاق فيسمون قطباً كل من دار عليه مقام ما من المقامات وانفرد به في زمانه على أبناء جنسه، وقد يسمّى رجل البلد قطب ذلك البلد وشيخ الجماعة قطب تلك الجماعة، ولكن الأقطاب المصطلح على أن يكون لهم هذا الاسم مطلقاً من غير إضافة لا يكون منهم في الزمان إلاَّ واحد وهو الغوث أيضاً وهو من المقرّبين وهو سيد الجماعة في زمانه.

ومنهم من يكون ظاهر الحكم، ويحوز الخلافة الظاهرة، كما حاز الخلافة الباطنة من جهة المقام كأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ والحسن ومعاوية بن يزيد وعمر بن عبد العزيز والمتوكل. ومنهم من له الخلافة الباطنة خاصة ولا حكم له في الظاهر كأحمد بن هارون الرشيد السبتيّ وكأبي يزيد البسطاميّ، وأكثر الأقطاب لا حكم لهم في الظاهر. ومنهم رضي الله عنهم الأئمة ولا يزيدون في كل زمان على اثنين لا ثالث لهما الواحد عبد الرب والآخر عبد الملك والقطب عبد الله، قال تعالىٰ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ [سورة الجن: الآية ١٩] يعني محمداً ﷺ فلكل رجل اسم إلهيّ يخصّه به يدعى عبد الله، ولو كان اسمه ما كان فالأقطاب كلهم عبد الله، والأئمة في كل زمان عبد الملك وعبد الرب وهما اللذان يخلفان القطب إذا مات، وهما للقطب بمنزلة الوزيرين الواحد منهم مقصور على مشاهدة عالم الملكوت والآخر مع عالم الملك.

ومنهم رضي الله عنهم الأوتاد وهم أربعة في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، رأينا منهم شخصاً بمدينة فاس يقال له ابن جعدون كان ينخل الحناء بالأجرة، الواحد منهم يحفظ الله به المشرق وولايته فيه، والآخر المغرب، والآخر الجنوب، والآخر الشمال، والتقسيم من الكعبة، وهؤلاء قد يعبر عنهم الجبال لقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [سورة النبأ: ٦ ـ ٧] فإنه بالجبال سكن ميد الأرض، كذلك حكم هؤلاء في العالم حكم الجبال في الأرض، وإلى مقامهم الإشارة بقوله تعالىٰ عن إبليس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧] فيحفظ الله بالأوتاد هذه الجهات، وهم محفوظون من هذه الجهات، فليس للشيطان عليهم سلطان، إذ لا دخول له على بني آدم إلاَّ من هذه الجهات. وأما الفوق والتحت فربما يكون للستة التي نذكر أمرهم بعد هذا إن شاء الله، وكل ما نذكره من هؤلاء الرجال باسم الرجال فقد يكون منهم النساء ولكن يغلب ذكر الرجال، قيل لبعضهم: كم الأبدال؟ فقال: أربعون نفساً، فقيل له: لم لا تقول أربعون رجلاً؟ فقال: قد يكون فيهم النساء ألقابهم عبد الحيّ وعبد العليم وعبد القادر وعبد المريد.

ومنهم رضي الله عنهم الأبدال وهم سبعة لا يزيدون ولا ينقصون يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة، لكل بدل إقليم فيه ولايته الواحد منهم على قدم الخليل عليه السلام وله الإقليم الأول وأسوقهم على الترتيب إلى صاحب الإقليم السابع. والثاني: على قدم الكليم عليه السلام. والثالث: على قدم هارون. والرابع: على قدم إدريس. والخامس: على قدم يوسف. والسادس: على قدم عيسىٰ. والسابع: على قدم آدم على الكل السلام، وهم عارفون بما أودع الله سبحانه في الكواكب السيارة من الأمور والأسرار في حركاتها ونزولها في المنازل المقدّرة. ولهم من الأسماء أسماء الصفات فمنهم: عبد الحيّ وعبد العليم وعبد الودود وعبد القادر وهذه الأربعة هي أربعة أسماء الأوتاد. ومنهم: عبد الشكور وعبد السميع وعبد البصير لكل صفة إلهية رجل من هؤلاء الأبدال بها ينظر الحق إليهم وهي الغالبة عليه، وما من شخص إلاَّ وله نسبة إلى اسم إلهي منه يتلقى ما يكون عليه من أسباب الخير، وهم بحسب ما تعطيه حقيقة ذلك الاسم الإلهيّ من الشمول والإحاطة، فعلى تلك الموازنة يكون علم هذا الرجل، وسمّوا هؤلاء أبدالاً لكونهم إذا فارقوا موضعاً ويريدون أن يخلفوا بدلاً منهم في ذلك الموضع لأمر يرونه مصلحة وقربة يتركوا به شخصاً على صورته لا يشك أحد ممّن أدرك رؤية ذلك الشخص أنه عين ذلك الرجل وليس هو بل هو شخص روحاني يتركه بدله بالقصد على علم منه، فكل من له هذه القوّة فهو البدل، ومن يقيم الله عنه بدلاً في موضع ما ولا علم له بذلك فليس من الأبدال المذكورين، وقد يتفق ذلك كثيراً، عايناه ورأيناه ورأينا هؤلاء السبعة الأبدال بمكة لقيناهم خلف حطيم الحنابلة وهنالك اجتمعنا بهم فما رأيت أحسن سمتاً منهم، وكنا قد رأينا منهم موسىٰ السدّراتي بإشبيلية سنة ست وثمانين وخمسمائة وصل إلينا بالقصد واجتمع بنا ورأينا منهم شيخ الجبال محمد بن أشرف الرنديّ، ولقي منهم صاحبنا عبد المجيد بن سلمة شخصاً اسمه معاذ بن أشرس كان من كبارهم وبلغني سلامه

علينا، سأله عبد المجيد هذا عن الأبدال بماذا كانت لهم هذه المنزلة؟ فقال: بالأربعة التي ذكرها أبو طالب المكيّ يعني: الجوع والسهر والصمت والعزلة، وقد يسمّون الرجبيين أبدالاً وهم أربعون، وقد يسمّون الاثني عشر أيضاً أبدالاً، وسيأتي ذكر هؤلاء في الرجال المعدودين. فمن رأى الرجبيين قال: إن الأبدال أربعون نفساً فإنهم أربعون.

ومنهم رضي الله عنهم النقباء وهم اثنا عشر نقيباً في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون على عدد بروج الفلك الاثني عشر برجاً، كل نقيب عالم بخاصية كل برج، وبما أودع الله في مقامه من الأسرار والتأثيرات، وما يعطي للنزلاء فيه من الكواكب السيارة والثوابت فإن للثوابت حركات وقطعاً في البروج لا يشعر به في الحسّ، لأنه لا يظهر ذلك إلاّ في آلاف من السنين، وأعمار أهل الرصد تقصر عن مشاهدة ذلك.

واعلم أن الله قد جعل بأيدي هؤلاء النقباء علوم الشرائع المنزّلة، ولهم استخراج خبايا النفوس وغوائلها ومعرفة مكرها وخداعها. وأما إبليس فمكشوف عندهم يعرفون منه ما لا يعرفه من نفسه، وهم من العلم بحيث إذا رأى أحدهم أثر وطأة شخص في الأرض علم أنها وطأة سعيد أو شقيّ مثل العلماء بالآثار والقيافة، وبالديار المصرية منهم كثير يخرجون الأثر في الصخور، وإذا رأوا شخصاً يقولون: هذا الشخص هو صاحب ذلك الأثر، ويكون كذلك وليسوا بأولياء الله، فما ظنك بما يعطيه الله هؤلاء النقباء من علوم الآثار. ومنهم رضي الله عنهم النجباء وهم ثمانية في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، وهم الذين تبدو منهم وعليهم إعلام القبول من أحوالهم وإن لم يكن لهم في ذلك اختيار، لكن الحال يغلب عليهم ولا يعرف ذلك منهم إلاّ من هو فوقهم لا من هو دونهم، وهم أهل علم الصفات الثمانية السبع المشهورة والإدراك الثامن ومقامهم الكرسي لا يتعدّوه ما داموا نجباء، ولهم القدم الراسخة في علم تسيير الكواكب من جهة الكشف والاطّلاع لا من جهة الطريقة المعلومة عند العلماء بهذا الشأن، والنقباء هم الذين حازوا علم الفلك التاسع، والنجباء حازوا علم الثمانية الأفلاك التي دونه وهي كل فلك فيه كوكب.

ومنهم رضي الله عنهم الحواريون وهو واحد في كل زمان لا يكون فيه اثنان فإذا مات ذلك الواحد أقيم غيره. وكان في زمان رسول الله ﷺ الزبير بن العوّام هو كان صاحب هذا المقام مع كثرة أنصار الدين بالسيف، فالحواريّ من جمع في نصرة الدين بين السيف والحجة فأعطي العلم والعبارة والحجة، وأعطي السيف والشجاعة والإقدام ومقاومة التحدّي في إقامة الحجة على صحة الدين المشروع كالمعجزة التي للنبي، فلا يقوم بعد رسول الله ﷺ بدليله الذي يقيمه على صدقه فيما ادّعاه إلاّ حواريه، فهو يرث المعجزة ولا يقيمها إلاّ على صدق نبيّه ﷺ، هذا مقام الحواريّ، ويبقى عليها اسم المعجزة أعني على تلك الدلالة فإنه يقترن بها مع الحواريّ ما يقترن بها مع النبيّ ﷺ، ويضيفها إلى النبيّ كما يضيفها النبيّ إلى نفسه، ولا يسمّى مثل هذا كرامة لوليّ لأنه ما كان معجزة النبيّ على حدّها وشمول لوازمها لا يكون ذلك أبداً كرامة لوليّ، وإلى هذا ذهب الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني ولكن على غير هذا الوجه

الذي أومأنا إليه، فإن أبا إسحاق يحيل وقوع عين الفعل المعجز وأكثر المتكلمين لا يحيله أن يكون كرامة لا على طريق الإعجاز، فإذا وقع من الشخص على حد ما وقع من النبيّ بطريق الإعجاز لصدق ذلك النبيّ من هذا التابع فإنه يقع ولا بدّ، وهذا لا يكون إلاّ من الحواريّ خاصة، فمن ظهر منه مثل هذا على حد ما رسمناه فهو حواريّ ذلك العصر، وقد رأيناه في زماننا سنة ست وثمانين وخمسمائة فهذا هو المسمّى بالحواريّ.

ومنهم رضي الله عنهم الرجبيون وهم أربعون نفساً في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، وهم رجال حالهم القيام بعظمة الله وهم من الأفراد، وهم أرباب القول الثقيل من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٥] وسمّوا رجبيون لأن حال هذا المقام لا يكون لهم إلاّ في شهر رجب من أول استهلال هلاله إلى انفصاله، ثم يفقدون ذلك الحال من أنفسهم فلا يجدونه إلى دخول رجب من السنة الآتية، وقليل من يعرفهم من أهل هذا الطريق وهم متفرّقون في البلاد، ويعرف بعضهم بعضاً منهم من يكون باليمن وبالشام وبديار بكر لقيت واحداً منهم بدنيسير من ديار بكر ما رأيت منهم غيره وكنت بالأشواق إلى رؤيتهم، ومنهم من يبقى عليه في سائر السنة أمر ما ممّا كان يكاشف به في حاله في رجب، ومنهم من لا يبقى عليه شيء من ذلك، وكان هذا الذي رأيته قد أبقى عليه كشف الروافض من أهل الشيعة سائر السنّة فكان يراهم خنازير فيأتي الرجل المستور الذي لا يعرف منه هذا المذهب قط وهو في نفسه مؤمن به يدين به ربّه فإذا مرّ عليه يراه في صورة خنزير فيستدعيه ويقول له: تب إلى الله فإنك شيعيّ رافضيّ، فيبقى الآخر متعجباً من ذلك، فإن تاب وصدق في توبته رآه إنساناً، وإن قال له بلسانه تبت وهو يضمر مذهبه لا يزال يراه خنزيراً فيقول له: كذبت في قولك تبت، وإذا صدق يقول له: صدقت فيعرف ذلك الرجل صدقه في كشفه فيرجع عن مذهبه ذلك الرافضي. ولقد جرى لهذا مثل هذا مع رجلين عاقلين من أهل العدالة من الشافعية ما عرف منهما قط التشيع ولم يكونا من بيت التشيع أدّاهما إليه نظرهما وكانا متمكنين من عقولهما فلم يظهرا ذلك وأصرّا عليه بينهما وبين الله فكانا يعتقدان السوء في أبي بكر وعمر ويتغاليان في عليّ، فلما مرّا به ودخلا عليه أمر بإخراجهما من عنده، فإنّ الله كشف له عن بواطنهما في صورة خنازير، وهي العلامة التي جعل الله له في أهل هذا المذهب، وكانا قد علما من نفوسهما أنّ أحداً من أهل الأرض ما اطلع على حالهما وكانا شاهدين عدلين مشهورين بالسنّة فقالا له في ذلك فقال: أراكما خنزيرين وهي علامة بيني وبين الله فيمن كان مذهبه هذا، فأضمرا التوبة في نفوسهما فقال لهما: إنكما الساعة قد رجعتما عن ذلك المذهب فإني أراكما إنسانين، فتعجبا من ذلك وتابا إلى الله.

وهؤلاء الرجبيون أول يوم يكون في رجب يجدون كأنما أطبقت عليهم السماء فيجدون من الثقل بحيث لا يقدرون على أن يطرفوا ولا يتحرّك فيهم جارحة، ويضطجعون فلا يقدرون على حركة أصلاً ولا قيام ولا قعود ولا حركة يد ولا رجل ولا جفن عين يبقى ذلك عليهم أول يوم ثم يخف في ثاني يوم قليلاً، وفي ثالث يوم أقل، وتقع له الكشوفات والتجليات

والاطلاع على المغيبات، ولا يزال مضطجعاً مسجّى يتكلم بعد الثلاث أو اليومين ويتكلم معه ويقال له إلى أن يكمل الشهر، فإذا فرغ الشهر ودخل شعبان قام كأنما نشط من عقال، فإن كان صاحب صناعة أو تجارة اشتغل بشغله وسلب عنه جميع حاله كله إلاّ من شاء الله أن يبقى عليه من ذلك شيء أبقاه الله عليه، هذا حالهم وهو حال غريب مجهول السبب، والذي اجتمعت به منهم كان في شهر رجب وكان في هذه الحال.

ومنهم رضي الله عنهم الختم وهو واحد لا في كل زمان بل هو واحد في العالم يختم الله به الولاية المحمدية فلا يكون في الأولياء المحمديين أكبر منه، وثم ختم آخر يختم الله به الولاية العامّة من آدم إلى آخر وليّ وهو عيسىٰ عليه السلام هو ختم الأولياء كما كان ختم دورة الملك فله يوم القيامة حشران يحشر في أمّة محمد ﷺ ويحشر رسولاً مع الرسل عليهم السلام.

ومنهم رضي الله عنهم ثلاثمائة نفس على قلب آدم عليه السلام في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون. فاعلم أن معنى قول النبيّ عليه السلام في حق هؤلاء الثلاثمائة أنهم على قلب آدم، وكذلك قوله عليه السلام في غير هؤلاء ممّن هو على قلب شخص من أكابر البشر أو الملائكة إنما معناه أنهم يتقلبون في المعارف الإلهية تقلب ذلك الشخص، إذ كانت واردات العلوم الإلهية إنما ترد على القلوب، فكل علم برد على قلب ذلك الكبير من ملك أو رسول فإنه يرد على هذه القلوب التي هي على قلبه، وربما يقول بعضهم: فلان على قدم فلان وهو بهذا المعنى نفسه، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن هؤلاء الثلاثمائة أنهم على قلب آدم، وما ذكر ﷺ أنهم ثلاثمائة في أمته فقط أو هم في كل زمان، وما علمنا أنهم في كل زمان إلاّ من طريق الكشف وأن الزمان لا يخلو عن هذا العدد، ولكل واحد من هؤلاء الثلاثمائة من الأخلاق الإلهية ثلاثمائة خلق إلهيّ من تخلق بواحد منها صحت له السعادة، وهؤلاء هم المجتبون المصطفون، ويستحبون من الدعاء ما ذكره الحق سبحانه في كتابه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٣] وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٢] فمنهم ظالم لنفسه وهو آدم ومن كان بهذه المثابة، ولهذه الطائفة من الزمان الثلاثمائة من السنين التي ذكر الله أنها لبثها أهل الكهف وكانت شمسية ولهذا قال: ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٥] فإن الثلاثمائة سنة الشمسية تكون من سني القمر ثلاثمائة وتسع سنين على التقريب، وكل سنة تمام الزمان بفصوله، وهذه الجملة قريبة من ثلث يوم واحد من أيام الرب ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج: الآية ٤٧] فإذا أخذ العارف في مشهد من مشاهد الربوبية حصل في مقدار يومها في تلك اللحظة من العلوم الإلهية ما يحصل غيره في عالم الحسّ مع الاجتهاد والتهيؤ من العلوم الإلهية في ألف سنة من هذه السنين المعلومة، وعلى هذا المجرى يكون ما يحصله واحد من هؤلاء الثلاثمائة من العلوم الإلهية إذا اختطف عن نفسه وحصره يوم من أيام الرب، ولا يعرف قدر ما ذكرناه وشرفه إلاّ من ذاقه وانطوى الزمان في حقّه في تلك اللحظة كما

تنطوي المسافة والمقادير في حق البصر إذا فتحه فوقع نظره على فلك الكواكب الثابتة في زمان فتح عينه اتصلت أشعته بأجرام تلك الكواكب.

فانظر إلى هذا البعد وانظر إلى هذه السرعة، وكذلك تعلق إدراك السمع في الزمان الذي يكون فيه الصوت فيه يكون إدراك السمع له مع البعد العظيم، فإن تفطنت لهذا الذي أشرنا إليه علمت معنى رؤيتك ربك مع نفي التحيّز والجهات، وعلمت الرائي منك والمرئيّ والرؤية، وكذلك السامع والسمع والمسموع، وهذه الطبقة هي التي علمت الأسماء الإلهية التي توجهت على الأشياء المشار إليها في قوله تعالىٰ: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] إذ كان الإنباء بالأسماء عين الثناء على المسمى، والناس يأخذون هذه الآية على أن الأسماء هي أسماء المشار إليهم من حيث دلالتها عليهم كدلالة زيد في علميته على شخص زيد وعمرو على شخص عمرو، وأي فخر في ذلك على الموصوفين بالعلم وهم الملائكة وما تفطن الناس لقولهم نسبح بحمدك وقد فاتهم من أسماء الله تعالىٰ ما توجهت على هؤلاء المشار إليهم. انتهى الجزء الخامس والسبعون.

(الجزء السادس والسبعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

ومنهم رضي الله عنهم أربعون شخصاً على قلب نوح عليه السلام في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، هكذا ورد الخبر عن رسول الله ﷺ في هذه الطبقة أنّ في أمّته أربعين على قلب نوح عليه السلام وهو أول الرسل، والرجال الذين هم على قلبه صفتهم القبض، ودعاؤهم دعاء نوح: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [سورة نوح: الآية ٢٨] ومقام هؤلاء الرجال مقام الغيرة الدينية وهو مقام صعب المرتقى فإنه صحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنَّ اللّه غَيورٌ وَمِنْ غَيرَتِهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ**»، فثبت من هذا الخبر أن الفاحشة هي فاحشة لعينها ولهذا حرّمها، قيل لمحمد عليه السلام: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣٣] أي ما علم وما لم يعلم إلاّ بالتوقيف لغموض إدراك الفحش، فكل محرّم حرّمه الله على عباده فهو فحش، وما هو عين ما أحلّه في زمان آخر ولا في شرع آخر فهذا هو الذي بطن علمه، فإنّ الخمر التي أحلّت له ما هي التي حرمت عليه ومنع من شربها، فعلل الأحكام قد تكون أعيان الأشياء، ومذاهب أهل الكلام في ذلك مختلفة، والذي يعطيه الكشف تقرير المذهبين، فإنّ المكاشف يحكم بحسب الحضرة التي منها يكاشف فإنها تعطيه بذاتها ما هي عليه، ومن هنا كان مقام الغيرة مقام حيرة صعب المرتقى، ولا سيما والحق وصف بها نفسه على لسان رسوله ﷺ وهي من صفات القلوب والباطن وهي تستدعي إثبات المغاير، ولا غير على الحقيقة إلاّ أعيان الممكنات من حيث ثبوتها لا من حيث وجودها، فالغيرة تظهر من ثبوت أعيان الممكنات، وعدم الغيرة من وجود أعيان الممكنات، فالله غيور من حيث قبول الممكنات للوجود، فمن هناك حرّم الفواحش ما

ظهر منها وما بطن وما ثَمَّ إلاَّ ظاهر أو باطن، والغيرة قد انسحبت على الجميع، ثم إنها في جبلة الحيوانات ولا يشعر لحكمها، فمن غار عقلاً كان مشهوده ثبوت الأعيان، ومن غار شرعاً كان مشهوده وجود الأعيان، وهؤلاء الأربعون هم رجال هذا المقام، وحقيقة مقام ميقات موسىٰ أربعون ليلة لهؤلاء الأربعين، فالليل منها لما بطن والنهار منها لما ظهر ﴿فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٢] فأضاف الميقات إلى الربّ، فعلمنا أنّ قوله ﷺ: «**وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي**» أنّ الاسم الله هنا يريد به الاسم الرب، لأنه لا يصحّ أن يطلق الاسم الله من غير تقييد من طريق المعنى، فإنّ الأحوال تقيد هذا الإطلاق باسم خاص يطلبه الحال، فالغيرة للاسم الرب وإن وصف بها الاسم الله.

ولما كانت المكالمة والتجلّي عقيب تمامها لذلك ظهر بتمام هؤلاء الأربعين رجل في العالم مقامه مقام أبيه نوح فإنه الأب الثاني على ما ذكر، وكل ما تفرّق في هؤلاء الأربعين اجتمع في نوح، كما أنه كلما تفرّق في الثلاثمائة اجتمع في آدم، وعلى معارج هؤلاء الأربعين عملت الطائفة الأربعينيات في خلواتهم لم يزيدوا على ذلك شيئاً وهي خلوات الفتح عندهم، ويحتجون على ذلك بالخبر المرويّ عن رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَىٰ لِسَانِهِ**» كما كانت المكالمة في التجلّي عن مقدّمة الميقات الأربعينيّ الرباني.

ومنهم رضي الله عنهم سبعة على قلب الخليل إبراهيم عليه السلام لا يزيدون ولا ينقصون في كل زمان، ورد به الخبر المرويّ عن رسول الله ﷺ ودعاؤهم دعاء الخليل: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٨٣] ومقامهم السلام من جميع الريب والشكوك، وقد نزع الله الغل من صدورهم في هذه الدنيا وسلم الناس من سوء ظنّهم إذ ليس لهم سوء ظنّ بل ما لهم ظنّ فإنهم أهل علم صحيح، فإنّ الظنّ إنما يقع ممّن لا علم له فيما لا علم له به بضرب من الترجيح، فلا يعلمون من الناس إلاّ ما هم عليه الناس من الخير، وقد أرسل الله بينهم وبين الشرور التي همَّ عليها الناس حجاباً وأطلعهم على النسب التي بين الله وبين عباده، ونظر الحق إلى عباده بالرحمة التي أوجدهم بها، فكل خير في الخلق من تلك الرحمة فذلك هو المشهود لهم من عباد الله. ولقد لقيتهم يوماً وما رأيت أحسن سمتاً منهم علماً وحلماً إخوان صدق على سرر متقابلين قد عجلت لهم جناتهم المعنوية الروحانية في قلوبهم مشهودهم من الخلق تصريف الحق من حيث هو وجود لا من حيث تعلّق حكم به.

ومنهم رضي الله عنهم خمسة على قلب جبريل عليه السلام لا يزيدون ولا ينقصون في كل زمان، ورد بذلك الخبر المرويّ عن رسول الله ﷺ هم ملوك أهل هذه الطريقة، لهم من العلوم على عدد ما لجبريل من القوىٰ المعبر عنها بالأجنحة التي بها يصعد وينزل، لا يتجاوز علم هؤلاء الخمسة مقام جبريل وهو الممد لهم من الغيب ومعه يقفون يوم القيامة في الحشر.

ومنهم رضي الله عنهم ثلاثة على قلب ميكائيل عليه السلام لهم الخير المحض والرحمة

والحنان والعطف، والغالب على هؤلاء الثلاثة البسط والتبسّم ولين الجانب والشفقة المفرطة ومشاهدة ما يوجب الشفقة ولا يزيدون ولا ينقصون في كل زمان، ولهم من العلوم على قدر ما لميكائيل من القوىٰ.

ومنهم رضي الله عنهم واحد على قلب إسرافيل عليه السلام في كل زمان وله الأمر ونقيضه جامع للطرفين، ورد بذلك خبر مرويّ عن رسول الله ﷺ له علم إسرافيل وكان أبو يزيد البسطامي منهم ممّن كان على قلب إسرافيل، وله من الأنبياء عيسىٰ عليه السلام، فمن كان على قلب عيسىٰ عليه السلام فهو على قلب إسرافيل، ومن كان على قلب إسرافيل قد لا يكون على قلب عيسىٰ، وكان بعض شيوخنا على قلب عيسىٰ وكان من الأكابر.

وصل: وأما رجال عالم الأنفاس رضي الله عنهم فأنا أذكرهم وهم على قلب داود عليه السلام ولا يزيدون ولا ينقصون في كل زمان وإنما نسبناهم إلى قلب داود وقد كانوا موجودين قبل ذلك بهذه الصفة، فالمراد بذلك أنه ما تفرّق فيهم من الأحوال والعلوم والمراتب اجتمع في داود، ولقيت هؤلاء العالم كلهم ولازمتهم وانتفعت بهم وهم على مراتب لا يتعدّونها بعدد مخصوص لا يزيد ولا ينقص وأنا ذاكرهم إن شاء الله تعالىٰ. فمنهم رضي الله عنهم رجال الغيب وهم عشرة لا يزيدون ولا ينقصون هم أهل خشوع فلا يتكلمون إلاّ همساً لغلبة تجلي الرحمن عليهم دائماً في أحوالهم، قال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [سورة طٰه: الآية ١٠٨] وهؤلاء هم المستورون الذين لا يعرفون خبأهم الحق في أرضه وسمائه فلا يناجون سواه ولا يشهدون غيره ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا سَلَٰمًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٣] دأبهم الحياء، إذا سمعوا أحداً يرفع صوته في كلامه ترعد فرائصهم ويتعجبون، وذلك أنهم لغلبة الحال عليهم يتخيلون أن التجلّي الذي أورث عندهم الخشوع والحياء يراه كل أحد، ورأوا أنّ الله قد أمر عباده أن يغضوا أصواتهم عند رسول الله ﷺ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة الحجرات: الآية ٢] وإذا كنا نهينا وتحبط أعمالنا برفع أصواتنا على صوت رسول الله ﷺ إذا تكلم وهو المبلغ عن الله فغض أصواتنا عندما نسمع تلاوة القرآن آكد والله يقول: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٤] وهذا هو مقام رجال الغيب وحالهم الذي ذكرناه، فيمتاز الحديث النبويّ من القرآن بهذا القدر، ويمتاز كلامنا من الحديث النبويّ بهذا القدر، وأما أهل الورع إذا اتفقت بينهم مناظرة في مسألة دينية فيذكر أحد الخصمين حديثاً عن رسول الله ﷺ خفض الخصم صوته عند سرد الحديث، هذا هو الأدب عندهم إذا كانوا أهل حضور مع الله وطلبوا العلم لوجه الله. فأما علماء زماننا اليوم فما عندهم خير ولا حياء لا من الله ولا من رسول الله، إذا سمعوا الآية أو الحديث النبويّ من الخصم لم يحسنوا الإصغاء إليه ولا أنصتوا وداخلوا الخصم في تلاوته أو حديثه وذلك لجهلهم وقلة ورعهم عصمنا الله من أفعالهم.

واعلم أنّ رجال الغيب في اصطلاح أهل الله يطلقونه ويريدون به هؤلاء الذين ذكرناهم وهي هذه الطبقة، وقد يطلقونه ويريدون به من يحتجب عن الأبصار من الإنس، وقد يطلقونه أيضاً ويريدون به رجالاً من الجنّ من صالحي مؤمنيهم، وقد يطلقونه على القوم الذين لا يأخذون شيئاً من العلوم والرزق المحسوس من الحسّ ولكن يأخذونه من الغيب.

ومنهم رضي الله عنهم ثمانية عشر نفساً أيضاً هم الظاهرون بأمر الله عن أمر الله لا يزيدون ولا ينقصون. في كل زمان ظهورهم. بالله قائمون بحقوق الله مثبتون الأسباب خرق العوائد عندهم عادة آيتهم: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩١] وأيضاً: ﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ [سورة نوح: الآية ٨] كان منهم شيخنا أبو مدين رحمه الله كان يقول لأصحابه: أظهروا للناس ما عندكم من الموافقة كما يظهر الناس بالمخالفة، وأظهروا بما أعطاكم الله من نعمه الظاهرة يعني خرق العوائد والباطنة يعني المعارف فإن الله يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [سورة الضحى: الآية ١١] وقال عليه السلام: «التَّحَدُّثُ بِالنِّعَم شُكْرٌ» وكان يقول بلسان أهل هذا المقام: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٤٠] ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٤١] هم على مدارج الأنبياء والرسل لا يعرفون إلاّ الله ظاهراً وباطناً، وهذه الطبقة اختصّت باسم الظهور لكونهم ظهروا في عالم الشهادة، ومن ظهر في عالم الشهادة فقد ظهر بجميع العالم، فكانوا أولى بهذا اللقب من غيرهم.

كان سهل بن عبد الله يقول في رجال الغيب الأول: الرجل من يكون في فلاة من الأرض فيصلي فينصرف من صلاته فينصرف معه أمثال الجبال من الملائكة على مشاهدة منه إياهم فقلت لحاكي هذه الحكاية عن سهل: الرجل من يكون وحده في الفلاة فيصلي فينصرف من صلاته بالحال الذي هو في صلاته فلا ينصرف معه أحد من الملائكة فإنهم لا يعرفون أين يذهب، فهؤلاء هم عندنا رجال الغيب على الحقيقة لأنهم غابوا عنده، فإنّ رجال الغيب قسمان في الظهور: منهم رجال غيب عن الأرواح العلى ظاهرون لله لا لمخلوق رأساً، ورجال غيب عن عالم الشهادة ظاهرون في العالم الأعلى، فرجال الغيب أيضاً أهل ظهور ولكن لا في عالم الشهادة. فاعلم أن الظاهرين بأمر الله لا يرون سوى الله في الأكوان، وأن الأكوان عندهم مظاهر الحق فهم أهل علانية وجهر فكل طبقة عاشقة لمقامها تذب عنه ولهذا لا تعرف منزلة مقامها من المقامات حتى تفارقه، فإذا نظرت إليه نظر الأجنبيّ المفارق حينئذ تعرفه فقبل أن تحصل فيه يكون معلوماً لها من حيث الجملة وترى علوّ منصبه، فإذا دخلت فيه كان ذوقاً لها وشرباً فيحجبها كونها فيه عن التمييز، فإذا ارتقت عنه نظرت إليه بعد ذوق فكانت عارفة بقدره بين المقامات ومرتبته فيقبل كلام هذا الشخص فيه لأنه تكلم عن ذوق وكان شهوده إياه عن صحو فتقبل شهادته لذلك المقام وعليه كما قبلنا شهادة الشبليّ، وقوله في الحلاج ولم نقبل قول الحلاج في نفسه ولا في الشبليّ لأنّ الحلاج سكران والشبلي صاح.

ومنهم رضي الله عنهم ثمانية رجال يقال لهم رجال القوّة الإلهية آيتهم من كتاب الله

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٩] لهم من الأسماء الإلهية ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٨] جمعوا ما بين علم ما ينبغي أن تعلم به الذات الواجبة الوجود لنفسها من حيث هي، وبين علم ما ينبغي أن يعلم به من حيث ما هي إله فقدمها عزيز في المعارف لا تأخذهم في الله لومة لائم، وقد يسمّون رجال القهر، لهم همم فعالة في النفوس وبهذا يعرفون، كان بمدينة فاس منهم رجل واحد يقال له أبو عبد الله الدقاق كان يقول: ما اغتبت أحداً قط ولا اعتيب بحضرتي أحد قط، ولقيت أنا منهم ببلاد الأندلس جماعة لهم أثر عجيب وكل معنى غريب وكان بعض شيوخي منهم، ومن نمط هؤلاء رضي الله عنهم خمسة رجال في كل زمان أيضاً لا يزيدون ولا ينقصون هم على قدم هؤلاء الثمانية في القوّة، غير أنّ فيهم ليناً ليس للثمانية، وهم على قدم الرسل في هذا المقام، قال تعالىٰ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [سورة طٰه: الآية ٤٤] وقال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] فهم مع قوّتهم لهم لين في بعض المواطن. وأمّا في العزائم فهم في قوّة الثمانية على السواء ويزيدون عليهم بما ذكرناه ممّا ليس للثمانية، وقد لقينا منهم رضي الله عنهم وانتفعنا بهم.

ومنهم رضي الله عنهم خمسة عشر نفساً هم رجال الحنان والعطف الإلهيّ، آيتهم من كتاب الله آية الريح السليمانية تجري بأمره رخاء حيث أصاب لهم شفقة على عباد الله، مؤمنهم وكافرهم ينظرون الخلق بعين الجود والوجود لا بعين الحكم والقضاء، لا يولي الله منهم قط أحداً ولاية ظاهرة من قضاء أو ملك لأن ذوقهم ومقامهم لا يحتمل القيام بأمر الخلق فهم مع الحق في الرحمة المطلقة التي قال الله فيها: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] لقيت منهم جماعة وماشيتهم على هذا القدم وانتقلت منهم إلى الخمسة التي ذكرناهم آنفاً فإنّ مقام هؤلاء الخمسة بين رجال القوّة ورجال الحنان فجمعت بين الطرفين فكانت واسطة العقد وهي الطائفة التي تصلح لهم ولاية الأحكام في الظاهر، وهاتان الطائفتان رجال القوّة ورجال الحنان لا يكون منهم وال أبداً أمور العباد ولا يستخلف منهم أحد جملة واحدة.

ومنهم رضي الله عنهم أربعة أنفس في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون آيتهم من كتاب الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] وآيتهم أيضاً في سورة تبارك الملك ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [سورة الملك: الآية ٣] هم رجال الهيبة والجلال: [البسيط]

كـأنـمـا الـطـيـرُ مـنـهـم فـوقَ أرؤسـهـم ... لا خَـوْفَ ظُـلـم ولـكـن خَـوْفَ إجـلالِ

وهم الذين يمدّون الأوتاد الغالب على أحوالهم الروحانية، قلوبهم سماوية، مجهولون في الأرض، معروفون في السماء الواحد من هؤلاء الأربعة هو ممّن استثنى الله تعالىٰ في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٨] والثاني له العلم بما لا يتناهى وهو مقام عزيز يعلم التفصيل في المجمل وعندنا ليس في علمه مجمل، والثالث له الهمة الفعالة في الإيجاد ولكن لا يوجد عنه شيء، والرابع توجد عنه الأشياء وليس له إرادة فيها ولا همة متعلقة بها أطبق العالم الأعلى على علوّ مراتبهم،

أحدهم على قلب محمد ﷺ والآخر على قلب شعيب عليه السلام، والثالث على قلب صالح عليه السلام، والرابع على قلب هود عليه السلام، ينظر إلى أحدهم من الملأ الأعلى عزرائيل، وإلى الآخر جبرائيل، وإلى الآخر ميكائيل، وإلى الآخر إسرافيل. أحدهم يعبد الله من حيث نسبة العماء إليه، والثاني يعبد الله من حيث نسبة العرش إليه، والثالث يعبد الله من حيث نسبة السماء إليه، والرابع يعبد الله من حيث نسبة الأرض إليه. فقد اجتمع في هؤلاء الأربعة عبادة العالم كله، شأنهم عجيب وأمرهم غريب، ما لقيت فيمن لقيت مثلهم، لقيتهم بدمشق فعرفت أنهم هم وقد كنت رأيتهم ببلاد الأندلس واجتمعوا بي ولكن لم أكن أعلم أن لهم هذا المقام بل كانوا عندي من جملة عباد الله، فشكرت الله على أن عرّفني بمقامهم وأطلعني على حالهم.

ومنهم رضي الله عنهم أربعة وعشرون نفساً في كل زمان يسمون رجال الفتح لا يزيدون ولا ينقصون، بهم يفتح الله على قلوب أهل الله ما يفتحه من المعارف والأسرار، وجعلهم الله على عدد الساعات لكل ساعة رجل منهم، فكل من يفتح عليه في شيء من العلوم والمعارف في أيّ ساعة كانت من ليل أو نهار فهو لرجل تلك الساعة وهم متفرقون في الأرض لا يجتمعون أبداً كل شخص منهم لازم مكانه لا يبرح أبداً، فمنهم باليمن اثنان، ومنهم ببلاد الشرق أربعة، ومنهم بالمغرب ستة، والباقي بسائر الجهات، آيتهم من كتاب الله تعالىٰ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [سورة فاطر: الآية ٢] وآية الأربعة الذين ذكرناهم قبل هؤلاء باقي الآية وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢] مع أن قدم أولئك في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [سورة الملك: الآية ٣].

ومنهم رضي الله عنهم سبعة أنفس يقال لهم رجال العلى في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون هم رجال المعارج العلى، لهم في كل نفس معراج، وهم أعلى عالم الأنفاس، آيتهم من كتاب الله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٣٥] والله معكم يتخيل بعض الناس من أهل الطريق أنهم الأبدال لما يرى أنهم سبعة، كما يتخيل بعض الناس في الرجبيين أنهم الأبدال لكونهم أربعين عند من يقول إنَّ الأبدال أربعون نفساً، ومنهم من يقول: سبعة أنفس، وسبب ذلك أنهم لم يقع لهم التعريف من الله بذلك ولا بعدد ما لله في العالم في كل زمان من العباد المصطفين الذين يحفظ الله بهم العالم فيسمعون أن ثم رجالاً عددهم كذا، كما أن ثم أيضاً مراتب محفوظة لا عدد لأصحابها معين في كل زمان بل يزيدون وينقصون كالأفراد، ورجال الماء والأمناء والأحباء والأخلاء وأهل الله والمحدّثين والسمراء والأصفياء وهم المصطفون، فكل مرتبة من هذه المراتب محفوظة برجال في كل زمان، غير أنهم لا يتقيدون بعدد مخصوص مثل من ذكرناهم، وسأذكر إذا فرغنا من رجال العدد هذه المراتب وصفة رجالها، فإنا لقينا منهم جماعة ورأينا أحوالهم، فهؤلاء السبعة أهل العروج لهم كما قلنا في كل نفس معراج إلى الله لتحصيل علم خاص من الله فهم مع النفس الصاعد خاصة، ولله

رجال هم مع النفس الرحماني النازل الذي به حياتهم وغذاؤهم وهم أحد وعشرون نفساً.

ومنهم رضي الله عنهم أحد وعشرون نفساً وهم رجال التحت الأسفل، وهم أهل النفس الذي يتلقونه من الله لا معرفة لهم بالنفس الخارج عنهم، وهم على هذا العدد في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، آيتهم من كتاب الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [سورة التين: الآية ٥] يريد عالم الطبيعة إذ لا أسفل منه ردّه إليه ليحيا به فإنّ الطبع ميت بالأصالة فأحياه بهذا النفس الرحمانيّ الذي ردّه إليه لتكون الحياة سارية في جميع الكون، لأن المراد من كل ما سوى الله أن يعبد الله فلا بدّ أن يكون حياً وجوداً ميتاً حكماً فيجمع بين الحياة والموت ولهذا قال له ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٧] فيريد منك في شيئيتك أن تكون معه كما كنت وأنت لا هذه الشيئية فلهذا قلنا حياً وجوداً وميتاً حكماً، وهؤلاء الرجال لا نظر لهم إلاّ فيما يرد من عند الله مع الأنفاس فهم أهل حضور مع الدوام.

ومنهم رضي الله عنهم ثلاثة أنفس وهم رجال الإمداد الإلهيّ والكونيّ في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، فهم يستمدّون من الحق ويمدّون الخلق، ولكن بلطف ولين ورحمة لا بعنف ولا شدّة ولا قهر، يقبلون على الله بالاستفادة ويقبلون على الخلق بالإفادة، فيهم رجال ونساء قد أهلهم الله للسعي في حوائج الناس وقضائها عند الله لا عند غيره، وهم ثلاثة لقيت واحداً منهم بإشبيلية وهو من أكبر من لقيته يقال له موسىٰ بن عمران سيد وقته كان أحد الثلاثة لم يسأل أحداً حاجة من خلق الله، ورد في الخبر أنّ النبيّ ﷺ قال: «**مَنْ تَقَبَّلَ لِي بِوَاحِدَةٍ تَقَبَّلْتُ لَهُ بِالجَنَّةِ أَنْ لاَ يَسْأَلَ أَحَداً شَيْئاً**» فأخذها أبان مولى عثمان بن عفان فعمل عليها، فربما وقع له السوط من يده وهو راكب فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه فينيخ راحلته فتبرك فيأخذ السوط من الأرض بيده، وصفة هؤلاء إذا أفادوا الخلق ترى فيهم من اللطف وحسن التأنّي حتى يظنّ أنهم هم الذين يستفيدون من الخلق، وأن الخلق هم الذين لهم اليد عليهم، ما رأيت أحسن منهم في معاملة الناس الواحد من هؤلاء الثلاثة فتحه دائم لا ينقطع على قدم واحدة لا يتنوّع في المقامات وهو مع الله واقف وبالله في خلقه قائم هجيره ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] والثاني له عالم الملكوت جليس للملائكة تتنوّع عليه المقامات والأحوال ويظهر في كل صورة من صور العالم له التروحن إذا شاء كقضيب البان. والثالث له عالم الملك جليس للناس لين المعاطف تتنوّع أيضاً عليه المقامات إمداده من البشر أي من النفوس الحيوانية، وإمداد الثاني من الملائكة شأنهم عجيب ومعناهم لطيف.

ومنهم رضي الله عنهم ثلاثة أنفس إلهيون رحمانيون في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، يشبهون الأبدال في بعض الأحوال وليسوا بأبدال، آيتهم من كتاب الله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً﴾ [سورة الأنفال: الآية ٣٥] لهم اعتقاد عجيب في كلام الله بين الاعتقادين، هم أهل وحي إلهيّ لا يسمعونه أبداً إلاّ كسلسلة على صفوان لا غير ذلك ومثل صلصلة الجرس، هذا مقام هؤلاء القوم وما عندي خبر بفهمهم في ذلك لأنه ما حصل عندي من شأنهم هل هم بأنفسهم يعطيهم الله الفهم في تلك الصلصلة إذا تكلم الله بالوحي أو هل

يفتقرون في فهم ما جاء في تلك الصلصلة إلى غيرهم كما قيل عن غيرهم؟ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق فاستفهموا بعد صعقهم فإنّ الله إذا تكلم بالوحي كأنه سلسلة على صفوان تصعق الملائكة، فإذا أفاقت وهو قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٣] يقولون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فلا أدري شأن هؤلاء الثلاثة هل هم بهذه المثابة في سماع كلام الحق أو يعطون الفهم كما أعطيه النبيّ ﷺ؟ فقال: وأحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال، فالله أعلم كيف شأنهم في ذلك وما أخبرني أحد عنهم، وسألتهم في ذلك فما أخبرني واحد منهم بشيء إلاّ اطلعت عليه من جانب الحق.

ومنهم رضي الله عنهم رجل واحد وقد تكون امرأة في كل زمان آيته: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٨] له الاستطالة على كل شيء سوى الله، شهم شجاع مقدام كبير الدعوى بحق يقول حقاً ويحكم عدلاً، كان صاحب هذا المقام شيخنا عبد القادر الجيليّ ببغداد، كانت له الصولة والاستطالة بحق على الخلق، كان كبير الشأن أخباره مشهورة لم ألقه ولكن لقيت صاحب زماننا في هذا المقام، ولكن كان عبد القادر أتم في أمور أخر من هذا الشخص الذي لقيته، وقد درج الآخر ولا علم لي بمن ولي بعده هذا المقام إلى الآن.

ومنهم رضي الله عنهم رجل واحد مركب ممتزج في كل زمان لا يوجد غيره في مقامه وهو يشبه عيسىٰ عليه السلام متولد بين الروح والبشر لا يعلم له أب بشريّ، كما يحكى عن بلقيس أنها تولدت بين الجنّ والإنس، فهو مركب من جنسين مختلفين، وهو رجل البرزخ، به يحفظ الله عالم البرزخ دائماً، فلا يخلو كل زمان عن واحد مثل هذا الرجل يكون مولده على هذه الصفة فهو مخلوق من ماء أمه، خلافاً لما ذكر عن أهل علم الطبائع أنه لا يتكوّن من ماء المرأة ولد بل الله على كل شيء قدير.

ومنهم رضي الله عنهم رجل واحد وقد يكون امرأة له رقائق ممتدّة إلى جميع العالم، وهو شخص غريب المقام لا يوجد منه في كل زمان إلاّ واحد، يلتبس على بعض أهل الطريق ممّن يعرفه بحالة القطب فيتخيّل أنه القطب وليس بالقطب.

ومنهم رضي الله عنهم رجل واحد يسمّى بمقامه سقيط الرفرف بن ساقط العرش رأيته بقونية، آيته من كتاب الله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ١] حاله لا يتعدّاه شغله بنفسه وبربه، كبير الشأن عظيم الحال، رؤيته مؤثرة في حال من يراه، فيه انكسار، هكذا شاهدته صاحب انكسار وذلّ، أعجبتني صفته، له لسان في المعارف شديد الحياء.

ومنهم رضي الله عنهم رجلان يقال لهما رجال الغنى بالله في كل زمان من عالم الأنفاس آيتهم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] يحفظ الله بهم هذا المقام، الواحد منهم أكمل من الآخر، يضاف الواحد منهم إلى نفسه وهو الأدنى، ويضاف الآخر إلى الله تعالىٰ، قال النبيّ ﷺ في صاحب هذا: **«ليس الغنى عن كثرة العرض لكن الغنى غنى النفس»** ولهذا المقام هذان الرجلان وإن كان في العالم أغنياء النفوس ولكن في غناهم شوب، ولا

يخلص في الزمان إلاّ لرجلين تكون نهايتهما في بدايتهما، وبدايتهما في نهايتهما، للواحد منهما إمداد عالم الشهادة، فكل غنى في عالم الشهادة فمن هذا الرجل، وللآخر منهما له إمداد عالم الملكوت فكل غنى بالله في عالم الملكوت فمن هذا الرجل، والذي يستمدّان منه هذان الرجلان روح علويّ متحقق بالحق غناه الله ما هو غناه بالله، فإن أضفته إليهما فرجال الغنى ثلاثة، وإن نظرت إلى بشريتهما فرجال الغنى اثنان، وقد يكون منهم النساء فغنيّ بالنفس وغنيّ بالله وغنيّ غناه الله، ولنا جزء عجيب في معرفة هؤلاء الرجال الثلاثة.

ومنهم رضي الله عنهم شخص واحد يتكرّر تقلبه في كل نفس لا يفتر بين علمه بربه وبين علمه بذات ربه، ما تكاد تراه في إحدى المنزلتين إلاّ رأيته في الأخرى، لا ترى في الرجال أعجب منه حالاً، وليس في أهل المعرفة بالله أكبر معرفة من صاحب هذا المقام يخشى الله ويتقيه، تحققت به ورأيته وأفادني، آيته من كتاب الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٦] لا تزال ترعد فرائصه من خشية الله هكذا شهدناه.

ومنهم رجال عين التحكيم والزوائد رضي الله عنهم وهم عشرة أنفس في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، مقامهم إظهار غاية الخصوصية بلسان الانبساط في الدعاء، وحالهم زيادات الإيمان بالغيب واليقين في تحصيل ذلك الغيب فلا يكون لهم غيباً: [مخلع البسيط]

إذ كــلُّ غـيـب لــهـم شـهـادَهْ   وكــلُّ حــالٍ لــهـم عَـبـادَهْ

فلا يصير لهم غيب شهادة إلاّ ويزيدون إيماناً بغيب آخر ويقيناً في تحصيله، آيتهم من كتاب الله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ﴾ [سورة الفتح: الآية ٤] ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٤] بالزيادة. وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] ومنهم رضي الله عنهم اثنا عشر نفساً وهم البدلاء ما هم الأبدال وهم في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، وسمّوا بدلاء لأنّ الواحد منهم لو لم يوجد الباقون ناب منابهم وقام بما يقوم به جميعهم، فكل واحد منهم في عين الجميع: [السريع]

ومـا عـلـى الله بـمُـسْـتَـنْـكـرٍ   أن يـجـمـعَ الـعـالـمَ فـي واحـدِ

ويلتبس على الناس أمرهم مع الأبدال من جهة الاسم، ويشبهون النقباء من جهة العدد، آيتهم من كتاب الله تعالىٰ قول بلقيس: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٢] تعني عرشها وهو هو فما شبهته إلاّ بنفسه وعينه لا بغيره، وإنما شوّش عليها بعد المسافة المعتاد وبالعادات وصل جماعة من الناس في هذا الطريق.

ومنهم رضي الله عنهم رجال الاشتياق وهم خمسة أنفس وهم أصحاب القلق وفيهم يقول القائل يصف حالهم:

لـسـت أدري أطـال لـيـلـي أم لا   كـيـف يـدري بـذاك مـن يـتـقـلـى

فالأشواق تقلقهم في عين المشاهدة، وهم من ملوك أهل طريق الله، وهم رجال

الصلوات الخمس، كل رجل منهم مختص بحقيقة صلاة من الفرائض، وإلى هذا المقام يؤول قوله عليه السلام: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ» بهم يحفظ الله وجود العالم، آيتهم من كتاب الله: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٨] لا يفترون عن صلاة في ليل ولا نهار، كان صالح البربريّ منهم لقيته وصحبته إلى أن مات وانتفعت به، وكذلك أبو عبد الله المهدويّ بمدينة فاس صحبته كان من هؤلاء أيضاً، حتى أن بعض أهل الكشف يتخيّلون أن كل صلاة تجسّدت لهم ما هي أعيان وليس الأمر كذلك.

ومنهم رضي الله عنهم ستة أنفس في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، كان منهم ابن هارون الرشيد السبتيّ لقيته بالطواف يوم الجمعة بعد الصلاة سنة تسع وتسعين وخمسمائة وهو يطوف بالكعبة وسألته وأجابني ونحن بالطواف، وكان روحه تجسد لي في الطواف حسّاً تجسد جبريل في صورة أعرابي، وهؤلاء الرجال الستة لما اطلعت عليهم لم أكن قبل ذلك عرفت أن ثَمَّ ستة رجال، ولما عرفت بهم في هذا الزمان القريب لم أدر ما مقامهم؟ ثم بعد هذا عرفت أنهم رجال الأيام الستة التي خلق الله فيها العالم، وما علمت ذلك إلاّ من هجيرهم فإن هجيرهم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [سورة ق: الآية ٣٨] ولهم سلطان على الجهات الست التي ظهرت بوجود الإنسان، وأخبرت أن واحداً منهم بوكاً من جملة العوانية من أهل أرزن الروم أعرف ذلك الشخص بعينه وصحبته وكان يعظمني ويراني كثيراً واجتمعت به في دمشق وفي سيواس وفي ملطية وفي قيصرية، وخدمني مدّة، وكانت له والدة كان براً بها، اجتمعت به في حران في خدمة والدته فما رأيت فيمن رأيت من يبرّ أمّه مثله، وكان ذا مال، ولي سنون فقدته من دمشق فما أدري هل عاش أو مات.

وبالجملة فما من أمر محصور في العالم في عدد ما إلاّ ولله رجال بعدده في كل زمان، يحفظ الله بهم ذلك الأمر، وقد ذكرنا من الرجال المحصورين في كل زمان في عدد ما الذين لا يخلو الزمان منهم ما ذكرناه في هذا الباب، فلنذكر من رجال الله الذين لا يختصون بعدد خاص يثبت لهم في كل زمان بل يزيدون وينقصون، ولنذكر الأسرار والعلوم التي يختصون بها وهي علوم تقسم عليهم بحسب كثرتهم وقلتهم، حتى أنه لو لم يوجد إلاّ واحد منهم في الزمان اجتمع في ذلك الواحد ذلك الأمر كله، فلنذكر الآن بعض ما تيسّر من المقامات المعروفة التي ذكرها أهل الطريق وعيّنها أيضاً الشرع أو عيّن أكثرها وسمّاها، ثم بعد ذلك أذكر من المسائل التي تختص بهذا الباب وبالأولياء التي لا يعرفها بالمجموع إلاّ الوليّ الكامل، فإن الإمام محمد بن علي الترمذي الحكيم هو الذي نبّه على هذه المسائل وسأل عنها اختباراً لأهل الدعوى لما رأى من الدعاوى العريضة والضعف الظاهر، فجعل هذه المسائل كالمحك والمعيار لدعواهم، ولم يتعرض لخرق العوائد في ظاهر الكون التي اتخذتها العامة دلائل على الولاية وليست بدلائل عند أهل الله، وإنما القوم يختبر بعضهم بعضاً فيما يدّعونه من العلوم الإلهية والأسرار، فإن خرق العوائد عند الصادقين إنما ذلك في

بواطنهم وقلوبهم بما يهبهم الله من الفهم عنه ممّا لا يشاركهم فيه ذوقاً من ليس من جنسهم، وها أنا ذاكر ألقاب الرجال الذين لا يحصرهم عدد ولا يقيدهم أمد، والله المستعان. انتهى الجزء السادس والسبعون.

(الجزء السابع والسبعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

فمنهم رضي الله عنهم الملامية، وقد يقولون الملامتية وهي لغة ضعيفة، وهم سادات أهل طريق الله وأئمتهم وسيد العالم فيهم ومنهم وهو محمد رسول الله ﷺ وهم الحكماء الذين وضعوا الأمور مواضعها وأحكموها وأقرّوا الأسباب في أماكنها، ونفوها في المواضع التي ينبغي أن تنفى عنها، ولا أخلوا بشيء ممّا رتبه الله في خلقه على حسب ما رتبوه، فما تقتضيه الدار الأولى تركوه للدار الأولى، وما تقتضيه الدار الآخرة تركوه للدار الآخرة، فنظروا في الأشياء بالعين التي نظر الله إليها لم يخلطوا بين الحقائق، فإنه من رفع السبب في الموضع الذي وضعه فيه واضعه وهو الحق فقد سفه واضعه وجهل قدره، ومن اعتمد عليه فقد أشرك وألحد وإلى أرض الطبيعة أخلد، فالملامتية قرّرت الأسباب ولم تعتمد عليها، فتلامذة الملامتية الصادقون يتقلبون في أطوار الرجولية، وتلامذة غيرهم يتقلبون في أطوار الرعونات النفسية، فالملامية مجهولة أقدارهم لا يعرفهم إلاّ سيدهم الذي حاباهم وخصّهم بهذا المقام ولا عدد يحصرهم بل يزيدون وينقصون.

ومنهم رضي الله عنهم الفقراء ولا عدد يحصرهم أيضاً بل يكثرون ويقلّون، قال تعالىٰ تشريفاً لجميع الموجودات وشهادة لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] فالفقراء هم الذين يفتقرون إلى كل شيء من حيث أن ذلك الشيء هو مسمّى الله، فإن الحقيقة تأبى أن يفتقر إلى غير الله، وقد أخبر الله أن الناس فقراء إلى الله على الإطلاق والفقر حاصل منهم، فعلمنا أن الحق قد ظهر في صورة كل ما يفتقر إليه فيه فلا يفتقر إلى الفقراء إلى الله بهذه الآية شيء وهم يفتقرون إلى كل شيء، فالناس محجوبون بالأشياء عن الله، وهؤلاء السادة ينظرون الأشياء مظاهر الحق تجلّى فيها لعباده حتى في أعيانهم، فيفتقر الإنسان إلى سمعه وبصره، وجميع ما يفتقر إليه من جوارحه وإدراكاته ظاهراً وباطناً، وقد أخبر الحق في الحديث الصحيح أن الله سمع العبد وبصره ويده، فما افتقر هذا الفقير إلاّ إلى الله في افتقاره إلى سمعه وبصره، فسمعه وبصره إذاً مظهر الحق ومجلاه، وكذلك جميع الأشياء بهذه المثابة، فما ألطف سريان الحق في الموجودات وسريان بعضها في بعض وهو قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] فالآيات هنا دلالات أنها مظاهر للحق، فهذا حال الفقراء إلى الله لا ما يتوهمه من لا علم له بطريق القوم، فالفقير من يفتقر إلى كل شيء وإلى نفسه ولا يفتقر إليه شيء، فهذه أسنى الحالات. قال أبو يزيد: يارب بماذا أتقرب إليك؟ قال: بما ليس لي الذلّة والافتقار، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا

لِيَعۡبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] أي ليتذللوا لي ولا يتذللوا لي حتى يعرفوني في الأشياء، فيذلّوا لي لا لمن ظهرت فيهم أو ظهرت أعيانهم بكونهم مظاهر لي، فوجودهم أنا وما يشهدون من أعيانهم سوى وجودهم فاعلم ذلك والله المرشد منوّر البصائر.

ومنهم رضي الله عنهم الصوفية ولا عدد لهم يحصرهم بل يكثرون ويقلّون، وهم أهل مكارم الأخلاق، يقال: من زاد عليك في الأخلاق زاد عليك في التصوّف. مقامهم الاجتماع على قلب واحد، أسقطوا الياءات الثلاثة فلا يقولون لي ولا عندي ولا متاعي، أي لا يضيفون إلى أنفسهم شيئاً، أي لا ملك لهم دون خلق الله، فهم فيما في أيديهم على السواء مع جميع ما سوى الله مع تقرير ما بأيدي الخلق للخلق لا يطلبونهم بهذا المقام، وهذه الطبقة هي التي يظهر عليهم خرق العوائد عن اختيار منهم ليقيموا الدلالة على التصديق بالدين وصحته في مواضع الضرورة، وقد عاينا مثل هذا من هذه الطائفة في مناظرة فيلسوف.

ومنهم من يفعل ذلك لكونه صار عادة لهم كسائر الأمور المعتادة عند أهلها، فما هي في حقّهم خرق عادة وهي في المعتاد العام خرق عادة فيمشون على الماء وفي الهواء كما نمشي نحن، وكل دابة على الأرض لا يحتاج في ذلك في العموم إلى نيّة وحضور إلاّ الملامية والفقراء، فإنهم لا يمشون ولا يخطو أحد منهم خطوة ولا يجلس إلاّ بنيّة وحضور لأنه لا يدري من أين يكون أخذ الله لعباده، وقد كان ﷺ كثيراً ما يقول في دعائه: «أعوذ بالله أن أغتال من تحتي» وإن كانوا على أفعال تقتضي لهم الأمان كما هي أفعال الأنبياء من الطاعات لله والحضور مع الله، ولكن لا يأمنون أن يصيب الله عامة عباده بشيء فيعمّ الصالح والطالح لأنها دار بلاء ويحشر كل شخص على نيّته ومقامه، وقد أخبر الله بقتل الأمم أنبياءها ورسلها، وأهل القسط من الناس وما عصمهم الله من بلاء الدنيا، فالصوفية هم الذين حازوا مكارم الأخلاق، ثم أنهم رضي الله عنهم علموا أن الأمر يقتضي أن لا يقدر أحد على أن يرضي عباد الله بخلق، وأنه مهما أرضى زيداً ربما أسخط عمراً، فلما رأوا أن حصول مقام عموم مكارم الأخلاق مع الجميع محال نظروا مَنْ أولى أن يعامل بمكارم الأخلاق ولا يلتفت إلى من يسخطه ذلك، فلم يجدوا إلاّ الله وأحباءه من الملائكة والبشر المطهر من الرسل والأنبياء وأكابر الأولياء من الثقلين، فالتزموا مكارم الأخلاق معهم ثم أرسلوها عامّة في سائر الحيوانات والنباتات وما عدا أشرار الثقلين، والذي يقدرون عليه من مكارم الأخلاق ممّا أبيح لهم أن يصرفوه مع أشرار الثقلين فعلوه وبادروا إليه، وهو على الحقيقة ذلك الخلق مع الله إلاّ في إقامة الحدود إذا كانوا حكاماً وأداء الشهادات إذا تفرضت عليهم فاعلم ذلك.

ومنهم رضي الله عنهم العباد وهم أهل الفرائض خاصة قال تعالىٰ مثنياً عليهم: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٧٣] ولم يكونوا يؤدّون سوى الفرائض، ومن هؤلاء المنقطعون بالجبال والشعاب والسواحل وبطون الأودية ويسمّون السياح، ومنهم من يلازم بيته وصلاة الجماعات ويشتغل بنفسه، ومنهم صاحب سبب، ومنهم تارك السبب وهم صلحاء الظاهر والباطن قد عصموا من الغل والحسد والحرص والشره المذموم، وصرفوا كل هذه الأوصاف

إلى الجهات المحمودة، ولا رائحة عندهم من المعارف الإلهية والأسرار ومطالعة الملكوت والفهم عن الله في آياته حين تتلى، غير أن الثواب لهم مشهود والقيامة وأهوالها، والجنة والنار مشهودتان دموعهم في محاريبهم ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [سورة السجدة: الآية ١٦]و﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٥] ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٣] ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٢] ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٤] شغلهم هول المعاد عن الرقاد، ضمروا بطونهم بالصيام للسباق في حلبة النجاة ﴿إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٧] ليسوا من الإثم والباطل في شيء، عمال وأي عمال عاملوا الحق بالتعظيم والإجلال، سمعت بعضهم رضي الله عنهم وعنه وهو أبو عبد الله الطبخي والي وجدة يتأوّه وينشد ما قاله عمر بن عبد العزيز: [مجزوء الكامل]

حتى متى لا ترعوي ... وإلى متى وإلى متى
ما بعد أن سُمِّيتَ كهـ ... ـلاً واستُلِبْتَ اسمَ الفتى
لا ترعوي لنصيحةٍ ... فإلى متى وإلى متى

وكان منهم خليفة من بني العباس هرب من الخلافة من العراق وأقام بقرطبة من بلاد الأندلس إلى أن درج ودفن بباب عباس منها يقال له أبو وهب الفاضل، خرّج فضائله شيخنا أبو القاسم خلف بن بشكوال رحمه الله فذكر فيها عنه أنه كان كثيراً ما ينشد لنفسه: [الوافر]

برئتُ من المنازل والقبابِ ... فلم يَعْسُرْ على أحد حجابي
فمنزليَ الفضاءُ وسقفُ بيتي ... سماءُ الله أو قِطَعُ السحابِ
فأنت إذا أردتَ دخلت بيتي ... عليَّ مسلماً من غير بابِ
لأني لم أجد مصراعَ باب ... يكون من السماء إلى الترابِ
ولا انشقَّ الثرى عن عود تَختٍ ... أؤمل أن أشدَّ به ثيابي
ولا خفتُ الإباقَ على عبيدي ... ولا خفتُ الرِّهَاصَ على دوابي
ولا حاسبتُ يوماً قهرماناً ... فأخشى أن أغلّتْ في الحسابِ
ففي ذا راحةٌ وبلاغُ عيش ... فدأبُ الدهر ذا أبداً ودابي

كان خالنا أبو مسلم الخولانيّ رحمه الله من أكابرهم، كان يقوم الليل فإذا أدركه العياء ضرب رجليه بقضبان كانت عنده ويقول لرجليه: أنتما أحق بالضرب من دابتي، أيظنّ أصحاب محمد ﷺ أن يفوزوا بمحمد ﷺ دوننا والله لأزاحمنهم عليه حتى يعلموا أنهم خلفوا بعدهم رجالاً، لقينا منهم جماعة كثيرة ذكرناهم في كتبنا ورأينا من أحوالهم ما تضيق الكتب عنها.

ومنهم رضي الله عنهم الزهّاد وهم الذين تركوا الدنيا عن قدرة، واختلف أصحابنا فيمن ليس عنده بيده من الدنيا شيء وهو قادر على طلبها وجمعها غير أنه لم يفعل وترك الطلب فهل يلحق بالزهاد أم لا؟ فمن قائل من أصحابنا: إنه يلحق بالزهاد. ومن قائل: لا زهد إلاّ في

حاصل فإنه ربما لو حصل له شيء منها ما زهد، فمن رؤسائهم إبراهيم بن أدهم وحديثه مشهور، وكان بعض أخوالي منهم كان قد ملك مدينة تلمسان يقال له يحيىٰ بن يغان، وكان في زمنه رجل فقيه عابد منقطع من أهل تونس يقال له أبو عبد الله التونسيّ كان بموضع خارج تلمسان يقال له العباد كان قد انقطع بمسجد يعبد الله فيه وقبره مشهور بها يزار، فبينا هذا الصالح يمشي بمدينة تلمسان بين المدينتين أقادير والمدينة الوسطى إذ لقيه خالنا يحيىٰ بن يغان ملك المدينة في خوله وحشمه فقيل له: هذا أبو عبد الله التونسيّ عابد وقته فمسك لجام فرسه وسلم على الشيخ فردّ عليه السلام، وكان على الملك ثياب فاخرة فقال له: يا شيخ هذه الثياب التي أنا لابسها تجوز لي الصلاة فيها؟ فضحك الشيخ، فقال له الملك: مم تضحك؟ قال: من سخف عقلك وجهلك بنفسك وحالك ما لك تشبيه عندي إلاّ بالكلب يتمرغ في دم الجيفة وأكلها وقذارتها فإذا جاء يبول يرفع رجله حتى لا يصيبه البول، وأنت وعاء مليء حراماً وتسأل عن الثياب ومظالم العباد في عنقك، قال: فبكى الملك ونزل عن دابته وخرج عن ملكه من حينه ولزم خدمة الشيخ فمسكه الشيخ ثلاثة أيام ثم جاءه بحبل فقال له: أيها الملك قد فرغت أيام الضيافة قم فاحتطب، فكان يأتي بالحطب على رأسه ويدخل به السوق والناس ينظرون إليه ويبكون فيبيع ويأخذ قوته ويتصدّق بالباقي، ولم يزل في بلده ذلك حتى درج ودفن خارج تربة الشيخ وقبره اليوم بها يزار، فكان الشيخ إذا جاءه الناس يطلبون أن يدعو لهم يقول لهم: التمسوا الدعاء من يحيىٰ بن يغان فإنه ملك فزهد، ولو ابتليت بما ابتلي به من الملك ربما لم أزهد، قال بعض الملوك في حال نفسه وقد تزهّد وانقطع إلى الله تعالىٰ: [الخفيف]

أنا في الحال الذي قد تراه ... إن تأمّلتَ أحسنُ الناس حالا
منزلي حيث شئتُ من مستَقَرِّ الأ ... رض أُسقَى من المياه الزلالا
ليس لي والدٌ ولا لي مولو ... دٌ أراه ولا أرى إليَّ عيالا
أجعل الساعدَ اليمينَ وسادي ... فإذا ما انقلبتُ كان الشمالا
قد تلذَّذْتُ حقبةً بأمور ... لو تدبَّرتها لكانت خيالا

فهؤلاء الزهّاد هم الذين آثروا الحق على الخلق وعلى نفوسهم، فكل أمر لله فيه رضى وإيثار قاموا به وأقبلوا عليه وما كان للحق عنه إعراض أعرضوا عنه، تركوا القليل رغبة في الكثير ليس للزهاد خروج عن هذا المقام في الزهد، فإن خرجوا فلم يخرجوا من كونهم زهاداً بل من مقام آخر، وقد ينطلق اسم الزهد في اصطلاح القوم على ترك كلّ ما سوى الله من دنيا وآخرة كأبي يزيد سُئِل عن الزهد فقال: ليس بشيء لا قدر له عندي ما كنت زاهداً سوى ثلاثة أيام، أوّل يوم زهدت في الدنيا، والثاني زهدت في الآخرة، وثالث يوم زهدت في كل ما سوى الله، فنوديت ماذا تريد: فقلت: أريد أن لا أريد لأني أنا المراد وأنت المريد، فجعل ترك كل ما سوى الله زهداً.

ومنهم رضي الله عنهم رجال الماء وهم قوم يعبدون الله في قعور البحار والأنهار لا

يعلم بهم كلّ أحد، أخبرني أبو البدر التماشكيّ البغداديّ وكان صدوقاً ثقة عارفاً بما ينقل ضابطاً حافظاً لما ينقل عن الشيخ أبي السعود بن الشبلي إمام وقته في الطريق قال: كنت بشاطىء دجلة بغداد فخطر في نفسي هل لله عباد يعبدونه في الماء؟ قال: فما استتممت الخاطر إلاّ وإذا بالنهر قد انفلق عن رجل فسلم عليّ وقال: نعم يا أبا السعود لله رجال يعبدون الله في الماء وأنا منهم أنا رجل من تكريت وقد خرجت منها لأنه بعد كذا وكذا يوماً يقع فيها كذا وكذا ويذكر أمراً يحدث فيها ثم غاب في الماء، فلما انقضت خمسة عشر يوماً وقع ذلك الأمر على صورة ما ذكره ذلك الرجل لأبي السعود وأعلمني بالأمر ما كان.

ومنهم رضي الله عنهم الأفراد ولا عدد يحصرهم وهم المقرّبون بلسان الشرع كان منهم محمد الأوانيّ يعرف بابن قائد لوانة من أعمال بغداد من أصحاب الإمام عبد القادر الجيليّ، وكان هذا ابن قائد يقول فيه عبد القادر معربد الحضرة كان يشهد له عبد القادر الحاكم في هذه الطريقة المرجوع إلى قوله في الرجال أن محمد بن قائد الأوانيّ من المفردين وهم رجال خارجون عن دائرة القطب وخضر منهم، ونظيرهم من الملائكة الأرواح المهيمة في جلال الله وهم الكروبيون معتكفون في حضرة الحق سبحانه لا يعرفون سواه، ولا يشهدون سوى ما عرفوا منه، ليس لهم بذواتهم علم عند نفوسهم، وهم على الحقيقة ما عرفوا سواهم ولا وقفوا إلاّ معهم هم وكل ما سوى الله بهذه المثابة مقامهم بين الصدّيقية والنبوّة الشرعية وهو مقام جليل جهله أكثر الناس من أهل طريقنا كأبي حامد وأمثاله لأن ذوقه عزيز هو مقام النبوّة المطلقة، وقد ينال اختصاصاً، وقد ينال بالعمل المشروع، وقد ينال بتوحيد الحق والذلّة له، وما ينبغي من تعظيم جلال المنعم بالإيجاد والتوحيد، كلّ ذلك من جهة العلم، وله كشف خاص لا يناله سواهم كالخضر فإنه كما قلنا من الأفراد، ومحمد ﷺ كان قبل أن يرسل وينبأ من الأفراد الذين نالوا الأمر بتوحيد الحق وتعظيم جلاله والانقطاع إليه، وذلك أنه يحصل في نفوسهم أعني في نفوس من هذا طريقهم أن الله كما أنعم عليه بالإيجاد وأسباب الخير هو قادر على أن يبقي له وعليه نعمة البقاء في الخير الدائم والسعادة حيث أراد، وإن لم يعلم أن ثمّ آخرة ولا أن الدنيا لها نهاية أم لا، ولا إيمان عنده بشيء من هذا لأنه ما كشف له عن ذلك، فإذا أطلعه الحق على الأمور حينئذ التحق بالمؤمنين بما هو الأمر عليه ممّا لا يدرك بالنظر الفكريّ، فلو كان في زمان جواز نبوّة الشرائع لكان صاحب هذا المقام منهم كالخضر في زمانه وعيسىٰ وإلياس وإدريس، وأما اليوم فليس إلاّ المقام الذي ذكرناه والرسالة ونبوّة الشرائع قد انقطعت، ولو كانت الأنبياء والرسل في قيد الحياة في هذا الزمان لكانوا بأجمعهم داخلين تحت حكم الشرع المحمديّ.

وأما الرسالة ونبوّة الشرائع العامّة أعني المتعدّية إلى الأمم والخاصة بكلّ نبي فاختصاص إلهي في الأنبياء والرسل لا ينال بالاكتساب ولا بالتعمل، فخطاب الحق قد ينال بالتعمل، والذي يخاطب به إن كان شرعاً يبلغه أو يخصّه ذلك هو الذي نقول فيه لا ينال بالتعمّل ولا بالكسب وهو الاختصاص الإلهي المعلوم، وكل شرع ينال به عامله هذه المرتبة،

فإن نبيّ ذلك الشرع من أهل هذا المقام وهو زيادة على شريعة نبوّته له فضلاً من الله ونعمة، وهو لمحمد ﷺ بالقطع، وكل شرع لا ينال العامل به هذا المقام فإن نبيّ ذلك الشرع لم يحصل له هذا المقام الذي حصل لغيره من أنبياء الشرائع، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٥٥] وقال جلّ جلاله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] في وجوه منها هذا، قال الخضر لموسىٰ في هذا المقام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٨] فإن موسىٰ في ذلك الوقت لم يكن له هذا المقام الذي نفاه عنه العدل بقوله، وتعديل الله إياه بما شهد له به من العلم وما ردّ عليه موسىٰ في ذلك ولا أنكر عليه بل قال له: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٩] فإنه قال له قبل ذلك: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٦] قال له الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٧] ثم أنصفه في العلم وقال له: يا موسىٰ أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، فلم يكن للخضر نبوّة التشريع التي للأنبياء المرسلين، ولا أدري بعد هذا الاجتماع هل حصل لموسىٰ من جانب الحق ذلك المقام الذي كان لخضر أم لا؟ لا علم لي بذلك. فرحم الله عبداً أطلعه الحق على أن موسىٰ قد أحاط بالعلم الذي ناله الخضر بعد ذلك وحصل له هذا المقام خبراً فألحقه في هذا الموضع من كتابي هذا ونسبه إلى نفسه لا إلي.

ومنهم رضي الله عنهم الأمناء قال النبي ﷺ: «**إنَّ للَّهِ أُمَنَاءَ**» وقال في أبي عبيدة بن الجراح إنه أمين هذه الأمة. [نظم: الطويل]

ومستخبر عن سرِّ ليلى رددْتُه ... بعمياءَ من ليلى بغير يقينِ
يقولون خبِّرنا فأنت أمينُها ... وما أنا إن أخبرتُهم بأمينِ

هم طائفة من الملامية لا تكون الأمناء من غيرهم، وهم أكابر الملامتية وخواصهم، فلا يعرف ما عندهم من أحوالهم لجريهم مع الخلق بحكم العوائد المعلومة التي يطلبها الإيمان بما هو إيمان وهو الوقوف عندما أمر الله به ونهى على جهة الفرضية، فإذا كان يوم القيامة وظهرت مقاماتهم للخلق وكانوا في الدنيا مجهولين بين الناس قال النبي ﷺ: «**إنَّ للَّهِ أُمَنَاءَ**» وكان الذي أمنوا عليه ما ذكرناه، ولولا أن الخضر أمره الله أن يظهر لموسىٰ عليه السلام بما ظهر ما ظهر له بشيء من ذلك فإنه من الأمناء، ولما عرض الله الأمانة على الإنسان وقبلها كان بحكم الأصل ظلوماً جهولاً فإنه خوطب بحملها عرضاً لا أمراً، فإن حملها جبراً أعين عليها مثل هؤلاء، فالأمناء حملوها جبراً لا عرضاً فإنه جاءهم الكشف، فلا يقدرون أن يجهلوا ما علموا، ولم يريدوا أن يتميزوا عن الخلق لأنه ما قيل لهم في ذلك أظهروا شيئاً منه ولا لا تظهروه فوقفوا على هذا الحدّ فسمّوا أمناء، ويزيدون على سائر الطبقات أنهم لا يعرف بعضهم بعضاً بما عنده، فكل واحد يتخيل في صاحبه أنه من عامّة المؤمنين وهذا ليس إلاّ لهذه الطائفة خاصة لا يكون ذلك لغيرهم.

ومنهم رضي الله عنهم القرّاء أهل الله وخاصته ولا عدد يحصرهم، قال النبي ﷺ:

«أَهلُ القُرآنِ هُمْ أَهلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ» وأهل القرآن هم الذين حفظوه بالعمل به وحفظوا حروفه فاستظهروه حفظاً وعملاً، كان أبو يزيد البسطامي منهم؛ حدث أبو موسىٰ الديبلي عنه بذلك أنه ما مات حتى استظهر القرآن، فمن كان خلقه القرآن كان من أهله، ومن كان من أهل القرآن كان من أهل الله، لأنّ القرآن كلام الله وكلامه علمه وعلمه ذاته، ونال هذا المقام سهل بن عبد الله التستري وهو ابن ست سنين ولهذا كان بدؤه في هذا الطريق سجود القلب، وكم من وليّ لله كبير الشأن طويل العمر مات وما حصل له سجود القلب ولا علم أنّ للقلب سجوداً أصلاً مع تحققه بالولاية ورسوخ قدمه فيها، فإن سجود القلب إذا حصل لا يرفع أبداً رأسه من سجدته، فهو ثباته على تلك القدم الواحدة التي تتفرع منها أقدام كثيرة وهو ثابت عليها، فأكثر الأولياء يرون تقليب القلب من حال إلى حال ولهذا سمّي قلباً، وصاحب هذا المقام وإن تقلبت أحواله فمن عين واحدة هو عليها ثابت يعبر عنها بسجود القلب، ولهذا لما دخل سهل بن عبد الله عبادان على الشيخ قال له: أيسجد القلب؟ قال الشيخ: إلى الأبد، فلزم سهل خدمته، فالله تعالىٰ يؤتي ما شاء من علمه من شاء من عباده، كما قال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥] فكل أمر منه إلى خلقه سبحانه من مقامات القربة في ملك ورسول ونبي ووليّ ومؤمن وسعادة بمجرد توحيد، ومن يبعث أمّة وحده إنما هو من عناية الله به ومنته عليه، فإن توفيق الله للعبد في اكتساب ما قد قضى باكتسابه منّة الله بذلك على عبده واختصاص، وكم من وليّ قد تعرض لنيل أمر من ذلك ولم تسبق له عناية من الله في تحصيله فحيل بينه وبين حصوله مع التعملّ، فأهل القرآن هم أهل الله، فلم يجعل لهم صفة سوى عينه سبحانه، ولا مقام أشرف ممّن كان عين الحق صفته على علم منه.

ومنهم رضي الله عنهم الأحباب ولا عدد لهم يحصرهم بل يكثرون ويقلون، قال تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] فمن كونهم محبين ابتلاهم، ومن كونهم محبوبين اجتباهم واصطفاهم أعني في هذه الدار وفي القيامة، وأما في الجنة فليس يعاملهم الحق إلاّ من كونهم محبوبين خاصة، ولا يتجلى لهم إلاّ في ذلك المقام، وهذه الطائفة على قسمين: قسم أحبهم ابتداء، وقسم استعملهم في طاعة رسوله طاعة لله، فأثمرت لهم تلك محبة الله إياهم، قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] وقال لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] فهذه محبة قد نتجت لم تكن ابتداء وإن كانوا أحباباً كلهم.

[نظم: البسيط]

يا قومُ أذني لبعض الحيّ عاشقةٌ والأذنُ تعشق قبل العين أحيانا

فلا خفاء فيما بينهم من المنازل، وما من مقام من المقامات إلاّ وأهله فيه بين فاضل ومفضول، وهؤلاء الأحباب علامتهم الصفاء، فلا يشوب ودّهم كدر أصلاً، ولهم الثبات على هذه القدم مع الله، وهم مع الكون بحسب ما يقام فيه ذلك الكون من محمود ومذموم شرعاً، فيعاملونه بما يقتضيه الأدب، فهم يوالون في الله ويعادون في الله تعالىٰ، فالموالاة من حيث

وجود المكوّن، والمعاداة والذمّ من حيث عين المتكوّن لا من حيث ما اتصف به من الكون، لأنّ الكون كون الله فهم يحكمون ولا يحكمون، قد مكّنهم الله من أنفسهم وأقامهم في حضرة الأدب، فهم الأدباء الجامعون للخيرات، يقول الله تعالىٰ فيمن ادّعى هذا المقام: يا عبدي هل عملت لي عملاً قط؟ فيقول العبد: يا رب صليت وجاهدت وفعلت وفعلت ويصف من أحوال الخير، فيقول الله له: ذلك لك، فيقول العبد: يا رب فما هو العمل الذي هو لك؟ فيقول: هل واليت فيّ ولياً أو عاديت فيّ عدواً؟ وهذا هو إيثار المحبوب، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [سورة الممتحنة: الآية ١] وقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٢٢] فهم أهل التأييد والقوّة. وورد في الخبر الصحيح: «**وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ**».

ومنهم رضي الله عنهم المحدثون وعمر بن الخطاب رضي الله عنه منهم، وكان في زماننا منهم أبو العباس الخشاب، وأبو زكرياء البجاي بالمعرّة بزاوية عمر بن عبد العزيز بدير النقيرة وهم صنفان: صنف يحدثه الحق من خلف حجاب الحديث، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾[سورة الشورى: الآية ٥١] وهذا الصنف على طبقات كثيرة. والصنف الآخر تحدّثهم الأرواح الملكية في قلوبهم وأحياناً على آذانهم وقد يكتب لهم وهم كلهم أهل حديث، فالصنف الذي تحدثه الأرواح الطريق إليه بالرياضات النفسية والمجاهدات البدنية بأي وجه كان ومن كان فإن النفوس إذا صفت من كدر الوقوف مع الطبع التحقت بعالمها المناسب لها، فأدركت ما أدركت الأرواح العلى من علوم الملكوت والأسرار، وانتقش فيها جميع ما في العالم من المعاني، وحصلت من الغيوب بحسب الصنف الروحاني المناسب لها، فإن الأرواح وإن جمعهم أمر واحد فلكل روح مقام معلوم فهم على درجات وطبقات، فمنهم الكبير والأكبر كجبريل وإن كان من أكابرهم فميكائيل أكبر منه ومنصبه فوق منصبه، وإسرافيل أكبر من ميكائيل، وجبريل أكبر من إسماعيل، فالذي على قلب إسرافيل منه يأتي الإمداد إليه وهو أعلى من الذين هم على قلب ميكائيل، فكل محدث من هؤلاء يحدّثهم الروح المناسب لهم، وكم من محدث لا يعلم من يحدثه، فهذا من آثار صفاء النفوس وتخليصها من الوقوف مع الطبع وارتفاعها عن تأثير العناصر والأركان فيها فهي نفس فوق مزاج بدنها، وقنع قوم بهذا القدر من الحديث ولكن ما هو شرط في السعادة الإيمانية في الدار الآخرة لأنه تخليص نفسي، فإن كان هذا المحدث أتى جميع هذه الصفات التي أوجبت له التخليص من الطبع بالطريقة المشروعة والاتباع النبوي والإيمان الجزم اقترنت بالحديث السعادة، فإن انضاف إلى ذلك الحديث الحديث مع الرب من الرب تعالىٰ إليهم كان من الصنف الأول الذي ذكرنا أنه على طبقات في الحديث، قال بعضهم: [الكامل]

يا مؤنسي بالليل إن هَجَعَ الورى ومحدِّثي من بينهم بنهارِ

فذكر هذا القائل أن حديثه مع الله وحديث الله معه أنه من بينيتهم لا أنه كلمه على ألسنتهم، قال تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [سورة القصص: الآية ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٦٤] فأكّده بالمصدر لرفع الإشكال، هذا هو المطلوب بالحديث في هذه الطريقة. وأما قوله تعالى ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] فذلك لأهل السماع من الحق في الأشياء لا من بين الأشياء، لأنّ بينية الأشياء عبارة عن النسب وهي أمور عدمية لا وجودية، فإذا كان الحديث منها كان بلا واسطة وإذا كان من الأشياء فذلك قوّة الفهم عن الله، ورد في الخبر الصحيح أن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فهذا عين قوله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] والذي نطلبه في هذا الطريق كلام الله من بين الأشياء لا في الأشياء ولا من الأشياء، وإن كان هو عين وجود الأشياء فإنه ليس عين الأشياء، فالأعيان في الموجودات هيولى لها أو أرواح لها، والوجود ظاهر تلك الأرواح وصور تلك الأعيان الهيولانية، فالوجود كله حق ظاهر وباطنه الأشياء، فالحديث الإلهيّ من بين الأشياء أوضح عند السامع في الدلالة أنه هو المكلم، من أن يكلمنا في الأشياء فافهم والله تعالى الملهم.

ومنهم رضي الله عنهم الأخلاء ولا عدد يحصرهم بل يكثرون ويقلّون، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٥] وقال النبيّ ﷺ: **«لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلٰكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللّهِ»** والمخاللة لا تصح إلاّ بين الله وبين عبده وهو مقام الاتحاد، ولا تصحّ المخاللة بين المخلوقين وأعني من المخلوقين من المؤمنين، ولكن قد انطلق اسم الأخلاء على الناس مؤمنيهم وكافريهم، قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٦٧] فالخلة هنا المعاشرة، وقد ورد أن المرء على دين خليله، وقيل في مقام الخلة: [الخفيف]

قد تخلّلتَ مسلكَ الروح مني وبذا سُمّي الخليلُ خليلا

وإنما قلنا لا تصحّ الخلة إلاّ بين الله وبين عبده لأن أعيان الأشياء متميزة، وكون الأعيان وجود الحق لا غير، ووجود الشيء لا يمتاز عن عينه، فلهذا لا تصحّ الخلة إلاّ بين الله وعبيده خاصة، إذ هذا الحال لا يكون بين المخلوقين لأنه لا يستفاد من مخلوق وجود عين فاعلم ذلك.

واعلم أن شروط الخلة لا تصحّ بين المؤمنين ولا بين النبيّ وتابعيه، فإذا لم تصحّ شروطها لا تصحّ هي في نفسها ولكن في دار التكليف، فإن النبيّ والمؤمن بحكم الله لا بحكم خليله ولا بحكم نفسه، ومن شروط الخلة أن يكون الخليل بحكم خليله وهذا لا يتصوّر مطلقاً بين المؤمنين ولا بين الرسل وأتباعهم في الدار الدنيا، والمؤمن تصحّ الخلة بينه وبين الله ولا تصحّ بينه وبين الناس، لكن تسمّى المعاشرة التي بين الناس إذا تأكدت في غالب الأحوال خلة، فالنبيّ ليس له خليل ولا هو صاحب لأحد سوى نبوّته، وكذلك المؤمن ليس له خليل ولا صاحب سوى إيمانه، كما أن الملك ليس هو صاحب أحد سوى ملكه، فمن

كان بحكم ما يلقى إليه ولا يتصرّف إلاّ عن أمر إلهيّ فلا يكون خليلاً لأحد ولا صاحباً أبداً، فمن اتخذ من المؤمنين خليلاً غير الله فقد جهل مقام الخلة، وإن كان عالماً بالخلة والصحبة ووفاها حقّها مع خليله وهو حاكم فقد قدح في إيمانه لما يؤدي ذلك إليه من إبطال حقوق الله، فلا خليل إلاّ الله فالمقام عظيم وشأنه خطير والله الموفق لا رب غيره.

ومنهم رضي الله عنهم السمراء ولا عدد يحصرهم وهم صنف خاص من أهل الحديث، قال تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] وهذا الصنف لا حديث لهم مع الأرواح فحديثهم مع الله من قوله تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] فجليسهم من الأسماء الإلهية المدَبر المفضل، وهم من أهل الغيب في هذا المقام لا من أهل الشهادة.

ومنهم رضي الله عنهم الورثة وهم ثلاثة أصناف: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٢] وقال ﷺ: «**العُلَماءُ وَرَثَةُ الأَنْبِياءِ**» وكان شيخنا أبو مدين يقول في هذا المقام: من علامات صدق المريد في إرادته فراره عن الخلق، ومن علامات صدق فراره عن الخلق وجوده للحق، ومن علامات صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخلق، وهذا هو حال الوارث للنبيّ ﷺ فإنه كان يخلو بغار حراء ينقطع إلى الله فيه ويترك بيته وأهله ويفرّ إلى ربه حتى فجاءه الحق ثم بعثه الله رسولاً مرشداً إلى عباده، فهذه حالات ثلاث ورثه فيها من اعتنى الله به من أمّته ومثل هذا يسمّى وارثاً، فالوارث الكامل من ورثه علماً وعملاً وحالاً، فأما قوله تعالىٰ في الوارث للمصطفى أنه ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٢] يريد حال أبي الدرداء وأمثاله من الرجال الذين ظلموا أنفسهم لأنفسهم أي من أجل أنفسهم حتى يسعدوها في الآخرة، وذلك أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ لِنَفسِكَ عَلَيكَ حَقاً وَلِعَينِكَ عَلَيكَ حَقاً**» فإذا صام الإنسان دائماً وسهر ليله ولم ينم فقد ظلم نفسه في حقها وعينه في حقها وذلك الظلم لها من أجلها ولهذا قال: ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ فإنه أراد بها العزائم وارتكاب الأشد لما عرف منها ومن جنوحها إلى الرخص والبطالة، وجاءت السنة بالأمرين لأجل الضعفاء فلم يرد الله تعالىٰ بقوله: ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ الظلم المذموم في الشرع فإن ذلك ليس بمصطفى.

وأما الصنف الثاني من ورثة الكتاب فهو المقتصد، وهو الذي يعطي نفسه حقّها من راحة الدنيا ليستعين بذلك على ما يحملها عليه من خدمة ربّها في قيامه بين الراحة وأعمال البرّ، وهو حال بين حالين: بين العزيمة والرخصة، ففي قيام الليل يسمّى المقتصد متهجداً لأنه يقوم وينام وعلى مثل هذا تجري أفعاله.

وأما السابق بالخيرات وهو المبادر إلى الأمر قبل دخول وقته ليكون على أهبة واستعداد، وإذا دخل الوقت كان متهيأ لأداء فرض الوقت لا يمنعه من ذلك مانع كالمتوضىء قبل دخول الوقت والجالس في المسجد قبل دخول وقت الصلاة، فإذا دخل الوقت كان على

طهارة وفي المسجد فيسابق إلى أداء فرضه وهي الصلاة، وكذلك إن كان له مال أخرج زكاته وعينها ليلة فراغ الحول ودفعها لربها في أوّل ساعة من الحول الثاني للعامل الذي يكون عليها، وكذلك في جميع أفعال البرّ كلها يبادر إليها كما قال النبي ﷺ لبلال: «**بِمَ سَبقْتني إلى الجنَّةِ؟ فَقَالَ بِلال: مَا أَحْدَثْتُ قطّ إلاَّ تَوضَّأْتُ وَلاَ تَوَضَّأْتُ إلاَّ صَلَّيتُ رَكْعَتَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بِهِمَا**» فهذا وأمثاله من السابق بالخيرات، وهو كان حال رسول الله ﷺ بين المشركين في شبابه وحداثة سنّه ولم يكن مكلفاً بشرع فانقطع إلى ربه وتحنث وسابق إلى الخيرات ومكارم الأخلاق حتى أعطاه الله الرسالة.

وصل: واعلم أن الله تعالىٰ قد وصف أقواماً من النساء والرجال بصفات أذكرها إن شاء الله، إذ كان الزمان لا يخلو أبداً عن رجال ونساء قائمين بهذا الوصف مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ ثم قال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] فأعدّ الله لهم المغفرة قبل وقوع الذنب المقدّر عليهم عناية منه، فدلّ ذلك على أنهم من العباد الذين لا تضرّهم الذنوب. وقد ورد في الصحيح من الخبر الإلهيّ: «**اعملْ ما شِئْتَ فقد غَفَرْتُ لك**» فما وقعت من مثل هؤلاء الذنوب إلاّ بالقدر المحتوم لا انتهاكاً للحرمة الإلهية. قيل لأبي يزيد: أيعصي العارف؟ قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٨] فتقع المعصية من العارفين أهل العناية بحكم التقدير لنفوذ القضاء السابق، فلا بدّ من ذكر هؤلاء الأصناف ليتبين من هو المسلم والمسلمة والمؤمن والمؤمنة، ومن وصف الله منهم الذين لهم هذه المرتبة من إعداد المغفرة لهم والأجر العظيم قبل وقوع الذنب منهم وقبل حصول العمل، وأمر قد عظمه الله لا يكون إلاّ عظيماً. وكذلك قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة النساء: الآية ٦٩] وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٢] وقد ذكرنا العباد، ثم قال: ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٢] والسياحة في هذه الأمّة الجهاد، وقد قال تعالىٰ في خليله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٤] فلا بدّ من ذكر الأوّاهين والحلماء، وقال فيه: ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [سورة هود: الآية ٧٥] فأثنى عليه بالإنابة، وقال فيه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٣٠] فذكره بالأوبة، فهؤلاء الأصناف لا بدّ من ذكرهم في هذا الباب ليقع عند السامع تعيين هذه الصفة ومنزلة هذا الموصوف بها، وكذلك أولو النهى، وأولو الأحلام، وأولو الألباب، وأولو الأبصار، فما نعتهم الله بهذه النعوت سدى، والمتصفون بهذه الأوصاف قد طالبهم الحق بما تقتضيه هذه الصفات وما تثمر لهم من المنازل عند الله، فإنّ هذا الباب باب شريف من أشرف أبواب هذا الكتاب يتضمن ذكر الرجال وعلوم الأولياء ونحن نستوفيها إن شاء الله أو نقارب استيفاء ذلك على القدر الذي رسم لنا وعينه الحق تعالىٰ في واقعتنا، فإن المبشرات هي التي أبقى الله لنا من آثار النبوّة التي سدّ بابها وقطع أسبابها، فقذف به في قلوبنا ونفث به الروح المؤيد القدسيّ في نفوسنا، وهو الإلهام

الإلهيّ والعلم اللدنيّ نتيجة الرحمة التي أعطاها الله من عنده من شاء من عباده.

فمنهم رضي الله عنهم الأولياء قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٢] مطلقاً ولم يقل في الآخرة فالوليّ من كان على بينة من ربه في حاله فعرف مآله بأخبار الحق إياه على الوجه الذي يقع به التصديق عنده وبشارته حق، وقوله صدق، وحكمه فصل، فالقطع حاصل، فالمراد بالوليّ من حصلت له البشرى من الله كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٤] وأيّ خوف وحزن يبقى مع البشرى بالخير الذي لا يدخله تأويل، فهذا هو الذي أريد بالوليّ في هذه الآية، ثم إن أهل الولاية على أقسام كثيرة فإنها أعمّ فلك أحاطيّ فنذكر أهلها من البشر إن شاء الله وهم الأصناف الذين نذكرهم مضافاً إلى ما تقدم في هذا الباب من ذكرهم ممّن حصرتهم الأعداد ومن لا يحصرهم عدد. انتهى الجزء السابع والسبعون.

(الجزء الثامن والسبعون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فمن الأولياء رضي الله عنهم الأنبياء صلوات الله عليهم تولاّهم الله بالنبوّة وهم رجال اصطنعهم لنفسه واختارهم لخدمته واختصهم من سائر العباد لحضرته، شرع لهم ما تعبدهم به في ذواتهم، ولم يأمر بعضهم بأن يعدى تلك العبادات إلى غيرهم بطريق الوجوب، فمقام النبوّة مقام خاص في الولاية، فهم على شرع من الله أحلّ لهم أموراً وحرّم عليهم أموراً قصرها عليهم دون غيرهم، إذ كانت الدار الدنيا تقتضي ذلك لأنها دار الموت والحياة، وقد قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [سورة الملك: الآية ٢] والتكليف هو الابتلاء، فالولاية نبوّة عامّة، والنبوّة التي بها التشريع نبوّة خاصة تعمّ من هو بهذه المثابة من هذا الصنف وهي مقام الرفعة في الخطاب الإلهيّ إذا لم يؤمر لا غير لا في المشاهدة، فمقام النبوّة علوّ في الخطاب، ومن الأولياء رضوان الله عليهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم تولاهم الله بالرسالة، فهم النبيون المرسلون إلى طائفة من الناس، أو يكون إرسالاً عامّاً إلى الناس، ولم يحصل ذلك إلاّ لمحمد ﷺ، فبلغ عن الله ما أمره الله بتبليغه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٧] ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ١٨] فمقام التبليغ هو المعبر عنه بالرسالة لا غير، وما توقفنا عن الكلام في مقام الرسول والنبيّ صاحب الشرع إلاّ أنّ شرط أهل الطريق فيما يخبرون عنه من المقامات والأحوال أن يكون عن ذوق ولا ذوق لنا ولا لغيرنا ولا لمن ليس بنبيّ صاحب شريعة في نبوّة التشريع ولا في الرسالة فكيف نتكلم في مقام لم نصل إليه وعلى حال لم نذقه لا أنا ولا غيري ممّن ليس بنبيّ ذي شريعة من الله ولا رسول حرام علينا الكلام فيه؟ فما نتكلم إلاّ فيما لنا فيه ذوق، فما عدا هذين المقامين فلنا الكلام فيه عن ذوق لأنّ الله ما حجره.

ومن الأولياء أيضاً الصدّيقون رضي الله عن الجميع تولاهم الله بالصدّيقية، قال تعالىٰ في الذين آمنوا بالله ورسوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٩] فالصدّيق من آمن بالله ورسوله عن قول المخبر لا عن دليل سوى النور الإيمانيّ الذي يجده في قلبه المانع له من تردّد أو شك يدخله في قول المخبر الرسول ومتعلقه على الحقيقة الإيمان بالرسول، ويكون الإيمان بالله على جهة القربة لا على إثباته، إذ كان بعض الصدّيقين قد ثبت عندهم وجود الحق ضرورة أو نظراً ولكن ما ثبت كونه قربة، وهذه الآية تدل على شرف إثبات الوجود، ثم إن الرسول إذا آمن به الصديق آمن بما جاء به وممّا جاء به توحيد الإله وهو قوله: «**قولوا لاَ إِلٰه إلاَّ اللّه**»، أَوْ «**اعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إلاَّ اللّه**» فعلم أنه واحد في ألوهيته من حيث قوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة محمد: الآية ١٩] فذلك يسمّى إيماناً، ويسمّى المؤمن به على هذا الحد صديقاً، فإن نظر في دليل يدل على صدق قوله ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وعثر على توحيده بعد نظره فصدق الرسول في قوله، وصدق الله في قوله له: لا إله إلاَّ الله فليس بصديق وهو مؤمن عن دليل فهو عالم، فقد بان لك منزل الصديقية، وأن الصديق هو صاحب النور الإيمانيّ الذي يجده ضرورة في عين قلبه كنور البصر الذي جعله الله في البصر فلم يكن للعبد فيه كسب، كذلك نور الصديق في بصيرته، ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٩] من حيث الشهادة ونورهم من حيث الصديقية، فجعل النور للصديقية والأجر للشهادة وهي بنية مبالغة في التصديق، والصديق كشرّيب وخمير وسكير، فليس بين النبوّة التي هي نبوّة التشريع والصديقية مقام ولا منزلة، فمن تخطّى رقاب الصديقين وقع في النبوّة الرسالية، ومن ادّعى نبوّة التشريع بعد محمد ﷺ فقد كذب بل كذب وكفر بما جاء به الصادق رسول الله ﷺ، غير أن ثم مقام القربة وهي النبوّة العامة لا نبوّة التشريع فيثبتها نبيّ التشريع فيثبتها الصديق لإثبات النبيّ المشرّع إياها لا من حيث نفسه وحينئذ يكون صديقاً، كمسألة موسىٰ والخضر وفتى موسىٰ الذي هو صديقه ولكل رسول صديقون، إما من عالم الإنس والجانّ أو من أحدهما، فكل من آمن عن نور في قلبه ليس له دليل من خارج سوى قول الرسول «قل» ولا يجد توقفاً وبادر فذلك الصديق، فإن آمن عن نظر ودليل من خارج أو توقف عند القول حتى أوجد الله ذلك النور في قلبه فآمن فهو مؤمن لا صديق، فنور الصديق معد قبل وجود المصدق به، ونور المؤمن غير الصديق يوجد بعد قول الرسول: قل لا إله إلاَّ الله، ونور المؤمن بكونه قربة بعد النظر في الدليل الذي أعطاه العلم بالتوحيد، فهو في علمه بالتوحيد صاحب نور علم لا نور إيمان، وهو في كون ذلك العلم والنظر قربة إلى الله صاحب نور إيمان، فإن نور العلم بتوحيد الله قد شهدوا الله بتوحيده قبل ذلك، والرسل منهم قد وجدوه قبل أن يكونوا أنبياء ورسلاً، فإن الرسول ما أشرك قط، قال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] ولم يقل وأولو الإيمان، فرتبة العلم فوق رتبة الإيمان بلا شك وهي صفة الملائكة والرسل، وقد يكون حصول ذلك العلم عن نظر أو ضرورة كيفما كان فيسمى علماً إذ لا قائل ولا مخبر يلزم التصديق بقوله.

وهذ المقام الذي أثبتناه بين الصديقية ونبوّة التشريع الذي هو مقام القربة وهو للأفراد هو دون نبوّة التشريع في المنزلة عند الله، وفوق الصديقية في المنزلة عند الله وهو المشار إليه بالسرّ الذي وقر في صدر أبي بكر ففضل به الصديقين إذ حصل له ما ليس من شرط الصديقية ولا من لوازمها، فليس بين أبي بكر ورسول الله ﷺ رجل لأنه صاحب صديقية وصاحب سرّ، فهو من كونه صاحب سرّ بين الصديقية ونبوّة التشريع ويشارك فيه فلا يفضل عليه من يشاركه فيه بل هو مساو له في حقيقته فافهم ذلك.

ومن الأولياء أيضاً الشهداء رضي الله عن جميعهم تولاّهم الله بالشهادة وهم من المقرّبين وهم أهل الحضور مع الله على بساط العلم به، قال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] فجمعهم مع الملائكة في بساط الشهادة فهم موحدون عن حضور إلهيّ وعناية أزلية فهم الموحدون وشأنهم عجيب وأمرهم غريب، والإيمان فرع عن هذه الشهادة، فإن بعث رسول وآمنوا به أعني هؤلاء الشهداء فهم المؤمنون العلماء ولهم الأجر التام يوم القيامة، وإن لم يؤمنوا فليس هم الشهداء الذين أنعم الله عليهم في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ ولولا قوله: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [سورة النساء: الآية ٦٩] ألحقنا هؤلاء الشهداء بحصول النعمة التي لأصحاب هذه الآية، فإنهم وإن كانوا موحدين غير مؤمنين مع وجود الرسول إليهم لم تحسن مرافقتهم للمؤمنين، فإنهم يشوّشون على المؤمنين إيمانهم، وهؤلاء الشهداء الذين تعمّهم هذه الآية هم العلماء بالله المؤمنون بعد العلم بما قال سبحانه إذ ذلك قربة إليه من حيث قاله الله أو قاله الرسول الذي جاء من عند الله، فقدم الصديق على الشهيد وجعله بإزاء النبيّ فإنه لا واسطة بينهما لاتصال نور الإيمان بنور الرسالة. والشهداء لهم نور العلم مساوق لنور الرسول من حيث ما هو شاهد لله بتوحيده لا من حيث هو رسول، فلا يصحّ أن يكون بعده مع المساوقة فكانت المساوقة تبطل، ولا يصحّ أن يكون معه لكونه رسولاً والشاهد ليس برسول فلا بدّ أن يتأخر فلم يبق إلاّ أن يكون في الرتبة التي تلي الصديقية، فإن الصديق أتم نوراً من الشهيد في الصديقية لأنه صديق من وجهين: من وجه التوحيد، ومن وجه القربة، والشهيد من وجه القربة خاصة لا من وجه التوحيد، فإنّ توحيده عن علم لا عن إيمان، فنزل عن الصديق في مرتبة الإيمان وهو فوق الصديق في مرتبة العلم، فهو المتقدم في رتبة العلم المتأخر برتبة الإيمان والتصديق فإنه لا يصحّ من العالم أن يكون صديقاً، وقد تقدم العلم مرتبة الخبر فهو يعلم أنه صادق في توحيد الله إذا بلغ رسالة الله، والصديق لم يعلم ذلك إلاّ بنور الإيمان المعد في قلبه، فعندما جاءه الرسول اتبعه من غير دليل ظاهر فقد عرفت منازل الشهداء عند الله.

ومن الأولياء رضي الله عنهم الصالحون تولاهم الله بالصلاح وجعل رتبتهم بعد الشهداء في المرتبة الرابعة، لكن الشكل دائرة كما رسمناه في الهامش:

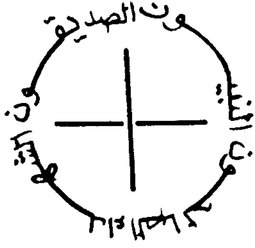

فالنبوّة ابتدأ بها حتى انتهى إلى الصلاح، ونهاية الشكل المستدير إذا كان مجعولاً ترتبط بالبداية حتى تصحّ الدائرة، وما من نبيّ إلاً وقد ذكر أنه صالح أو أنه دعا أن يكون من الصالحين مع كونه نبياً، فدل على أن رتبة الصلاح خصوص في النبوّة، فقد تحصل لمن ليس بنبيّ ولا صديق ولا شهيد، فصلاح الأنبياء هو مما يلي بدايتهم وهو عطف الصلاح عليهم فهم صالحون للنبوّة فكانوا أنبياء، وأعطاهم الدلالة فكانوا شهداء، وأخبرهم بالغيب فكانوا صديقين، فالأنبياء صلحت لجميع هذه المقامات فكانوا صالحين فجمعت الرسل جميع المقامات، كما صلح الصديقون للصديقية، وصلح الشهداء للشهادة، وكل موجود فهو صالح لما وجد له، غير أن هؤلاء الصالحين الذين أثنى الله عليهم بأنه أنعم عليهم هم المطلوبون في هذا المقام، وهم المنخرطون في سلك هذا النمط، فهم رابعو أربعة، وأراد بالنبيين هنا الرسل أهل الشرع سواء بعثوا أو لم يبعثوا، أعني بطريق الوجوب عليهم، فالصالحون هم الذين لا يدخل علمهم بالله ولا إيمانهم بالله وبما جاء من عند الله خلل، فإن دخله خلل بطل كونه صالحاً، فهذا هو الصلاح الذي رغبت فيه الأنبياء صلوات الله عليهم. فكل من لم يدخله خلل في صديقيته فهو صالح، ولا في شهادته فهو صالح، ولا في نبوّته فهو صالح، والإنسان حقيقته الإمكان، فله أن يدعو بتحصيل الصلاح له في المقام الذي يكون فيه لجواز دخول الخلل عليه في مقامه، لأن النبيّ لو كان نبياً لنفسه أو لإنسانيته لكان كل إنسان بتلك المثابة، إذ العلة في كونه نبياً كونه إنساناً، فلما كان الأمر اختصاصاً إلهياً جاز دخول الخلل فيه وجاز رفعه، فصحّ أن يدعو الصالح بأن يجعل من الصالحين، أي الذين لا يدخل صلاحهم خلل في زمان ما، فهذا نعني بالصالحين في هذا الباب والله الموفق.

ومن الأولياء أيضاً رضي الله عنهم المسلمون والمسلمات، وهكذا كل طائفة ذكرناهم منهم الرجال والنساء تولاهم الله بالإسلام، وهو انقياد خاص لما جاء من عند الله لا غير، فإذا وفى العبد الإسلام بجميع لوازمه وشروطه وقواعده فهو مسلم، وإن انتقص شيئاً من ذلك فليس بمسلم فيما أخلّ به من الشروط، قال رسول الله ﷺ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**» واليد هنا بمعنى القدرة أي سلم المسلمون مما هو قادر على أن يفعل بهم مما لا يقتضيه الإسلام من التعدّي لحدود الله فيهم، فأتى بالأعمّ وذكر اللسان لأنه قد يؤذي بالذكر من لا يقدر على إيصال الأذى إليه بالفعل وهو البهتان هنا خاصة لا الغيبة فإنه قال: المسلمون، فلو قال: الناس لدخلت الغيبة وغير ذلك من سوء القول، فلم يثبت الشارع الإسلام إلاً لمن سلم المسلمون وهم أمثاله في السلامة، فالمسلمون هم المعتبر في هذا الحديث وهم المقصود، فإن المسلمين لا يسلمون من لسان من يقع فيهم إلاً حتى يكونوا أبرياء مما نسب إليهم ولذلك فسّرناه بالبهتان، فإن النبيّ ﷺ قال: «**إِذَا قُلْتَ فِي أَخِيكَ مَا لَيْسَ فِيهِ فَذَلِكَ الْبُهْتَانُ**» وفي رواية: «**فَقَدْ بَهَتَّهُ**» فخاب سهمك الذي رميته به، فإنه ما وجد منفذاً فإنك نسبت إليه ما ليس

هو عليه فسمّاهم الله مسلمين، فمن وقع فيمن هذه صفته فليس بمسلم لأن ذلك الوصف الذي وصفه المسلم به ورماه به ولم يكن المسلم محلاً له عاد على قائله فلم يكن الرامي له بمسلم فإنه ما سلم مما قال إذ صار عليه سهم كلامه الذي رماه به، قال ﷺ: «**مَنْ قَالَ لأَخِيهِ كَافِرٌ فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا**» وقال تعالىٰ في حق قوم: ﴿قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ قال الله فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣] فأعاد الصفة عليهم لما لم يكن المسلمون المؤمنون أهل سفه أي ضعف رأى في إيمانهم، فعاد ما نسبوه من ضعف الرأي الذي هو السفه إليهم، فليس المسلم إلاّ من سلم من جميع العيوب الأصلية والطارئة، فلا يقول في أحد شراً ولا يؤثر فيه إذا قدر عليه شرّاً أصلاً، وليس إقامة الحدود بشرّ فإنه خير إذ جعل الله إقامة الحدود كشرب الدواء للمريض لأجل العافية وزوال المرض، فهو وإن كان كريهاً في الوقت فإن عاقبته محمودة، فما قصد الطبيب بشرب الدواء شرّاً للمريض وإنما أعطاه سبب حصول العافية فيتحمل ما فيه من الكراهة في الوقت كذلك إقامة الحدود.

وأما القصاص في مثل قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٠] فلا يخرجه ذلك عن الإسلام، فإن النبيّ ﷺ اشترط سلامة المسلمين ومن آذاك ابتداء عن قصد منه فليس بمسلم فإنك ما سلمت منه، والنبيّ ﷺ يقول: «**مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ**» فلا يقدح القصاص في الإسلام فإنك ما آذيت مسلماً من حيث آذاك فإن المسلم لا يؤذي المسلم بل أسقط عنه القصاص في الدنيا القصاص في الآخرة فقد أنعم عليه بضرب من النعم، فإن عفا وأصلح ولم يؤاخذه وتجاوز عن سيئته فذلك المقام العالي وأجره على الله بشرط ترك المطالبة في الآخرة، وحق الله ثابت قبله لأنه تعدّى حدّه فقدح في إسلامه قدر ما تعدّى فيه، فإن عصى المسلم ربه في غير المسلم هل يكون مسلماً بذلك أم لا؟ قلنا: لا يكون مسلماً فإن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٧] والمسلم لا يكون ملعوناً، فلقائل أن يقول هنا بالمجموع كانت اللعنة ونحن إنما قلنا: من آذى الله وحده قلنا كل من آذى الله وحده في زعمه فقد آذى المسلمين، فإن المسلم يتأذّى إذا سمع في الله من القول ما لا يليق به فهو مؤاخذ من جهة ما تأذّى به المسلمون من قولهم في الله ما لا يليق به. فإن قيل: فإن لم يعرف ذلك المسلمون منه حتى يتأذّوا من ذلك. قلنا: حكم ذلك حكم الغيبة فإنه لو عرف من اغتيب تأذّى وهو مؤاخذ بالغيبة فهو مؤاخذ بإيذائه الله وإن لم يعرف بذلك مسلم، قال ﷺ: «**لا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَىٰ أَذى مِنَ اللَّهِ**» المسلم من كان بهذه المثابة وهو السعيد المطلق وقليل ما هم.

ومن الأولياء أيضاً رضي الله عنهم المؤمنون والمؤمنات تولاهم الله بالإيمان الذي هو القول والعمل والاعتقاد، وحقيقته الاعتقاد شرعاً ولغة وهو في القول والعمل شرعاً لا لغة، فالمؤمن من كان قوله وفعله مطابقاً لما يعتقده في ذلك الفعل ولهذا قال في المؤمنين: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [سورة التحريم: الآية ٨] يريد ما قدّموه من الأعمال الصالحة عند الله فأولئك من الذين ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] قال ﷺ:

«المؤمنُ من أَمِنهُ الناسُ على أموالِهم وأنفسِهِم» وقال ﷺ: «المؤمنُ من أَمِنَ جارُهُ بوائقَهُ» ولم يخص مؤمناً ولا مسلماً بل قال: الناس والجار من غير تقييد، فإن المسلم قيده بسلامة المسلمين، ففرّق بين المسلم والمؤمن بما قيده به وبما أطلقه، فعلمنا أن للإيمان خصوص وصف وهو التصديق تقليداً من غير دليل ليفرق بين الإيمان والعلم.

واعلم أن المؤمن المصطلح عليه في طريق الله عند أهله الذي اعتبره الشرع له علامتان في نفسه إذا وجدهما كان من المؤمنين، العلامة الواحدة: أن يصير الغيب له كالشهادة في عدم الريب فيما يظهر على المشاهد لذلك الأمر الذي وقع به الإيمان من الإيثار في نفس المؤمن كما يقع في نفس المشاهد له فيعلم أنه مؤمن بالغيب. والعلامة الثانية: أن يسري الأمان منه في نفس العالم كله فيأمنوه على القطع على أموالهم وأنفسهم وأهليهم من غير أن تتخلل ذلك الأمان تهمة في أنفسهم من هذا الشخص وانفعلت لأمانة النفوس فذلك هو المشهود له بأنه من المؤمنين، ومهما لم يجد هاتين العلامتين فلا يغالط نفسه ولا يدخلها في المؤمنين فليس إلاّ ما ذكرناه.

ومن الأولياء أيضاً القانتون لله والقانتات رضي الله عنهم تولاهم الله بالقنوت وهو الطاعة لله في كل ما أمر به ونهى عنه، وهذا لا يكون إلاّ بعد نزول الشرائع، وما كان منه قبل نزول الشرائع فلا يسمّى قنوتاً ولا طاعة ولكن يسمّى خيراً ومكارم خلق وفعل ما ينبغي، قال الله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٨] أي طائعين فأمر بطاعته، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] وقال تعالىٰ: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٥] وليس يرث الصالح من الأرض إلاّ إتيانها لله طائعة مع السماء حين قال لها وللأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] فورث العباد منها الطاعة لله وهي المعبر عنها بالقنوت، إذ الساجدون لله على قسمين: منهم من يسجد طوعاً، ومنهم من يسجد كرهاً، فالقانت يسجد طوعاً، وتصحيح طاعتهم لله وقنوتهم أن يكون الحق لهم بهذه المثابة للموازنة كما قال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] و «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً» فالحق مع العبد على قدر ما هو العبد مع الحق.

وقفت يوماً أنا وعبد صالح معي يقال له الحاج مدور يوسف الأستجيّ كان من الأمّيين المنقطعين إلى الله المنوّرة بصائرهم على سائل يقول: من يعطي شيئاً لوجه الله؟ ففتح رجل صرّة دراهم كانت عنده وجعل ينتقي له من بين الدراهم قطعة صغيرة يدفعها للسائل فوجد ثمن درهم فأعطاه إياه وهذا العبد الصالح ينظر إليه فقال لي: يا فلان تدري على ما يفتش هذا المعطي؟ قلت: لا، قال: على قدره عند الله لأنه أعطى السائل لوجه الله فعلى قدر ما أعطى لوجهه ذلك قيمته عند ربه، ولكن من شرط القانت عندنا أنه يطيع الله من حيث ما هو عبد الله لا من حيث ما وعده الله به من الأجر والثواب لمن أطاعه. وأمّا الأجر الذي يحصل للقانت فذلك من حيث العمل الذي يطلبه لا من حيث الحال الذي أوجب له القنوت، قال الله تعالىٰ في القانتات من نساء رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا

مَرَّتَيْنِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣١] فالأجر هنا للعمل الصالح الذي عملته وكان مضاعفاً في مقابلة قوله تعالىٰ في حقهنّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٠] لمكانة رسول الله ﷺ ولفعل الفاحشة كذلك ضوعف الأجر للعمل الصالح ومكانة رسول الله ﷺ، وبقي القنوت معرى عن الأجر فإنه أعظم من الأجر فإنه ليس بتكليف وإنما الحقيقة تطلبه وهو حال يستصحب العبد في الدنيا والآخرة ولهذا قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [سورة مريم: الآية ٩٣] يعني يوم القيامة، فالقنوت مع العبودية في دار التكليف لا مع الأجر ذلك هو القنوت المطلوب، والحق إنما ينظر للعبد في طاعته بعين باعثة على تلك الطاعة ولهذا قال تعالىٰ آمراً: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٨] ولم يسم أجراً ولا جعل القنوت إلاَّ من أجله لا من أجل أمر آخر فهؤلاء هم القانتون والقانتات.

ومن الأولياء أيضاً: الصادقون والصادقات رضي الله عنهم، تولاهم الله بالصدق في أقوالهم وأحوالهم فقال تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢٣] فهذا من صدق أحوالهم، والصدق في القول معلوم وهو ما يخبر به، وصدق الحال ما يفي به في المستأنف وهو أقصى الغاية في الوفاء لأنه شديد على النفس فلا يقع الوفاء به في الحال والقول إلاَّ من الأشدّاء الأقوياء ولا سيما في القول، فإنك لو حكيت كلاماً عن أحد كان بالفاء فجعلت بدله واواً لم تكن من هذه الطائفة فانظر ما أغمض هذا المقام وما أقواه، فإن نقلت الخبر على المعنى تعرف السامع أنك نقلت على المعنى فتكون صادقاً من حيث إخبارك عن المعنى عند السامع ولا تسمّى صادقاً من حيث نقلك لما نقلته فإنك ما نقلت عين لفظ من نقلت عنه، ولا تسمّى كاذباً فإنك قد عرّفت السامع أنك نقلت المعنى فأنت مخبر للسامع عن فهمك لا عمّن تحكي عنه، فأنت صادق عنده في نقلك عن فهمك لا عن الرسول أو من تخبر عنه أن ذلك مراده بما قال، فالصدق في المقال عسير جداً، قليل من الناس من يفي به إلاَّ من أخبر السامع أنه ينقل على المعنى فيخرج عن العهدة، فالصدق في الحال أهون منه إلاَّ أنه شديد على النفوس فإنه يراعي جانب الوفاء لما عاهد من عاهد عليه، وقد قرن الله الجزاء بالصدق والسؤال عنه فقال: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢٤] ولكن بعد أن يسأل الصادقين عن صدقهم، فإذا ثبت لهم جازاهم به وجزاؤهم به هو صدق الله فيما وعدهم به، فجزاء الصدق الصدق الإلهيّ، وجزاء ما صدق فيه من العمل والقول بحسب ما يعطيه ذلك العمل أو القول فهذا معنى الجزاء.

وأما السؤال عنه فمن حيث إضافة الصدق إليهم لأنه قال تعالىٰ عن صدقهم وما قال عن الصدق، فإن أضاف الصادق إذا سُئِل صدقه إلى ربه لا إلى نفسه وكان صادقاً في هذه الإضافة أنها وجدت منه في حين صدقه في ذلك الأمر في الدار الدنيا ارتفع عنه الاعتراض، فإن الصادق هو الله وهو قوله المشروع: لا حول ولا قوّة إلاَّ بالله، فإذا كانت القوّة به وهي الصدق فإضافتها إلى العبد إنما هو من حيث إيجادها فيه وقيامها به، وإن قال عند سؤال الحق

إياه عن صدقه أنه لما صدق في فعله أو قوله في الدنيا لم يحضر في صدقه أن ذلك بالله كان منه كان صادقاً في الجواب عند السؤال، ونفعه ذلك عند الله في ذلك الموطن وحشر مع الصادقين وصدق في صدقه، وهذا من أغمض ما يحتوي عليه هذا المقام، ويطرأ فيه غلط كبير في هذا الطريق وهو أن يقول المريد أو العارف كلاماً ما يترجم به عن معنى في نفسه قد وقع له، ويكون في قوّة دلالة تلك العبارة أن تدل على ذلك المعنى وعلى غيره من المعاني التي هي أعلى ممّا وقع له في الوقت، ثم يأتي هذا الشخص في الزمان الآخر فيلوح له من مطلق ذلك اللفظ معنى غامض هو أعلى وأدق وأحسن من المعنى الذي عبر عنه بذلك اللفظ أولاً، فإذا سُئِلَ عن شرح قوله ذلك شرحه بما ظهر له في ثاني الحال لا بأول الوضع، فيكون كاذباً في أصل الوضع صادقاً في دلالة اللفظ، فالصادق يقول: كان قد ظهر لي معنى ما وهو كذا فأخرجته أو كسوته هذه العبارة ثم إنه لاح لي معنى هو أعلى منه لما نظرت في مدلول هذه العبارة فتركت هذه العبارة عليه أيضاً في الزمان الثاني ولا يقول خلاف هذا، وهذا من خفيّ رياسة النفوس وطلبها للعلوّ في الدنيا، وقد ذمّ الله من طلب علوّاً في الأرض، فإذا أراد العارف أن يسلم من هذا الخطر ويكون صادقاً إذا أراد أن يترجم عن معنى قام له فليحضر في نفسه عند الترجمة أنه يترجم عن الله عن كل ما يحويه ذلك اللفظ من المعاني في علم الله، ومن جملتها المعنى الذي وقع له، فإذا أحضر هذا ولاح له ما شاء الله أن يمنحه من المعاني التي يدل عليها ذلك اللفظ كان صادقاً في الشرح أنه قصد ذلك المعنى على الإجمال والإبهام، لأنه لم يكن يعلم على التعيين ما في علم الله ممّا يدل عليه ذلك اللفظ إحضار مثل هذا عند كل إخبار وقت الإخبار عزيز لسلطان الغفلة والذهول الغالب على الإنسان، فليعوّد الإنسان نفسه مثل هذا الاستحضار فإنه نافع في استدامة المراقبة والحضور مع الحق، وهذا التنبيه الذي نبهت الصادقين عليه ما يشعر به أكثر أهل طريقنا فإنهم لا يحققون معناه، وربما يتخيلون فيه أنه شبهة فيفرّون منه وليس كذلك بل ذلك هو غاية الأدب البشريّ مع الله حيث يعبر عمّا في علم الله، فهذا من الأدوية النافعة لهذا المرض لمن استعمله، وفقنا الله والسامعين لاستعماله واستعمال أمثاله.

ومن الأولياء أيضاً: الصابرون والصابرات رضي الله عنهم تولاهم الله بالصبر، وهم الذين حبسوا أنفسهم مع الله على طاعته من غير توقيت، فجعل الله جزاءهم على ذلك من غير توقيت فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [سورة الزمر: الآية ١٠] فما وقت لهم فإنهم لم يوقتوا فعم صبرهم جميع المواطن التي يطلبها الصبر، فكما حبسوا نفوسهم على الفعل بما أمروا به حبسوها أيضاً على ترك ما نهوا عن فعله، فلم يوقتوا فلم يوقت لهم الأجر، وهم الذين أيضاً حبسوا نفوسهم عند وقوع البلايا والرزايا بهم عن سؤال ما سوى الله في رفعها عنهم بدعاء الغير أو شفاعة أو طب إن كان من البلاء الموقوف إزالته على الطب، ولا يقدح في صبرهم شكواهم إلى الله في رفع ذلك البلاء عنهم، ألا ترى أيوب سأل ربه رفع البلاء عنه بقوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٣] أي أصاب مني، فشكا ذلك

إلى ربّه عزّ وجلّ وقال له: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ففي هذه الكلمة إثبات وضع الأسباب وعرّض فيها لربه برفع البلاء عنه، فاستجاب له ربه وكشف ما به من الضرّ فأثبت بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٤] أنّ دعاءه كان في رفع البلاء فكشف ما به من ضر، ومع هذا أثنى عليه بالصبر وشهد له به فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٤٤] أي رجاع إلينا فيما ابتليناه به وأثنى عليه بالعبودية، فلو كان الدعاء إلى الله في رفع الضر ورفع البلاء يناقض الصبر المشروع المطلوب في هذا الطريق لم يثن الله على أيوب بالصبر وقد أثنى عليه به، بل عندنا من سوء الأدب مع الله أن لا يسأل العبد رفع البلاء عنه لأنّ فيه رائحة من مقاومة القهر الإلهي بما يجده من الصبر وقوّته، قال العارف: إنما جوّعني لأبكي، فالعارف وإن وجد القوّة الصبرية فليفر إلى موطن الضعف والعبودية وحسن الأدب ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٥] فيسأل ربه رفع البلاء عنه أو عصمته منه إن توهم وقوعه، وهذا لا يناقض الرضا بالقضاء، فإنّ البلاء إنما هو عين المقضيّ لا القضاء، فيرضى بالقضاء ويسأل الله في رفع المقضيّ عنه فيكون راضياً صابراً، فهؤلاء أيضاً هم الصابرون الذين أثنى الله عليهم.

ومن الأولياء أيضاً الخاشعون والخاشعات رضي الله عنهم، تولاهم الله بالخشوع من ذلّ العبودية القائم بهم لتجلي سلطان الربوبية على قلوبهم في الدار الدنيا، فينظرون إلى الحق سبحانه من طرف خفي يوجده الله لهم في قلوبهم في هذه الحالة خفي عن إدراك كل مدرك إياه بل لا يشهد ذلك النظر منهم إلاّ الله، فمن كانت حالته هذه في الدار الدنيا من رجل وامرأة فهو الخاشع وهي الخاشعة فيشبه القنوت من وجه، إلاّ أن القنوت يشترط فيه الأمر الإلهي، والخشوع لا يشترط فيه إلاّ التجلّي الذاتي، وكلتا الصفتين تطلبهما العبودية، فلا يتحقق بهما إلاّ عبد خالص العبودية والعبودة، وله حال ظاهر في الجوارح التي لها الحركات وحال باطن في القلوب، فيورث في الظاهر سكوناً ويؤثر في الباطن ثبوتاً، والقنوت يورث في الظاهر بحسب ما نرد به الأوامر من حركة وسكون، فإن كان القانت خاشعاً فحركته في سكون ولا بدّ إن ورد الأمر بالتحرّك فيورث القنوت في الباطن انتقالات أدق من الأنفاس متوالية مع الأوامر الإلهية الواردة عليه في عالم باطنه، فالخاشع في قنوته في الباطن ثبوته على قبول تلك الأوامر الواردة عليه من غير أن يتخللها ما يخرجها عن أن تكون مشهودة لهذا الخاشع، فالخاشع والقانت خشوعه وقنوته أخوان متفقان في الموفقين من عباد الله.

ومن الأولياء أيضاً المتصدقون والمتصدقات رضي الله عنهم، تولاهم الله بجوده ليجودوا بما استخلفهم الله فيه ممّا افتقر إليه خلق الله، فأحوج الله الخلق إليهم لغناهم بالله فالكلمة الطيبة صدقة، ولما كان حالهم التعمّل في الإعطاء لا العمل دلّ على أنهم متكسبون في ذلك لنظرهم أنّ ذلك ليس لهم وإنما هو لله، فلا يدعون فيما ليس لهم، فلا منّة لهم في الذي يوصلونه إلى الناس أو إلى خلق الله من جميع الحيوانات، وكل متغذ عليهم لكونهم مؤدّين أمانة كانت بأيديهم أوصلوها إلى مستحقيها فلا يرون أن لهم فضلاً عليهم فيما

أخرجوه، وهذه الحالة لا يمدحون بها إلاّ مع الدوام والدؤوب عليها في كل حال، والعارفون هنا في هذه الصفة على طبقتين: منهم من يكون عين ما يعطيه مشهوداً له أنه حق لمن يعطيه لأنّ الله ما خلق الأشياء التي يقع بها الانتفاع لنفسه وإنما خلق الخلق للخلق فهذا معنى الاستحقاق، وطبقة أخرى يكون مشهوداً لهم كون خالق النعمة مختاراً فيبطل عندهم الاستحقاق بأنهم يرون أنّ الله ما خلق الخلق أجمعه إلاّ لعبادته ولهذا قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] ﴿يَسْجُدُ لَهُۥ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨] وكان إيصال بعض الخلق للخلق بحكم التبعية لا بالقصد الأوّل، وإن لم يكن هناك ما يقال فيه قصد أول ولا ثان، ولكن العبارات من أجل إبراز الحقائق تعطي ذلك، ولله عباد من المتصدّقين أقامهم الحق بين هاتين الطبقتين، فهم ينظرون في حين كونهم متصدّقين الاستحقاق لبقاء عين من تصدّق عليه ليصحّ منه ما خلق له من التسبيح لربّه والثناء عليه، ولكن لا من حيث أنه آكل مثلاً ولا شارب في حق من يكون بقاؤه بالأكل والشرب فذلك لا يكون باستحقاق، وإنما الاستحقاق ما به بقاؤه وأسبابه كثيرة، ثم تنظر هذه الطبقة الثالثة المتولدة بينهما من عين آخر معاً وهو أن تنظر إلى الحق من حيث ما تقتضيه ذاته فيرتفع عندها الاختيار وترى أنّ المظاهر الإلهية هي المسبحة، فلا يسبح الله إلاّ الله، ولا يحمده هو، فهو إلاّ ثناء ذاتيّ لا ثناء افتقار لاكتساب ثناء، فهؤلاء أحق باسم المتصدّقين من غيره حيث أثبتوا أعيانهم ونفوا أحكامهم والله الهادي.

ومن الأولياء أيضاً الصائمون والصائمات رضي الله عنهم، تولاهم الله بالإمساك الذي يورثهم الرفعة عند الله تعالىٰ عن كل شيء أمرهم الحق أن يمسكوا عنه أنفسهم وجوارحهم، فمنه ما هو واجب ومندوب، وأمّا قوله تعالىٰ لهذه الطائفة: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧] تنبيهاً على غاية توقيت الإمساك في عالم الشهادة وهو النهار، والليل ضرب مثال محقق للغيب، فإذا وصلوا إلى رتبة مصاحبة عالم الغيب المعبّر عنه بالليل لم يصحّ هنالك الإمساك، فإنّ إمساك النفس والجوارح إنما هو في المنهيات وهي في عالم الشهادة، فإن عالم الغيب أمر بلا نهي، ولهذا سمّوا عالم الأمر، وذلك لأنّ عالم الغيب عقل مجرّد لا شهوة لهم، فلا نهي عندهم في مقام التكليف فهم كما أثنى الله عليهم في كتاب العزيز: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦] ولم يذكر لهم نهي عن شيء لأنّ حقائقهم لا تقتضيه، فإذا صام الإنسان وانتقل من بشريته إلى عقله فقد كمل نهاره وفارقه الإمساك لمفارقة النهى والتحق بعالم الأمر بعقله، فهو عقل محض لا شهوة عندهم، ألا ترى إلى قوله ﷺ في حقّه «**إذا أقبلَ الليلُ من ههنا وأدبرَ النهار من ههنا وغَرَبَتِ الشمسُ فقد أفطرَ الصائمُ**» يقول: وغربت الشمس عن عالم الشهادة وطلعت على عالم عقله فقد أفطر الصائم أي لم يمتنع فارتفع عنه التحجير لأنّ عقله لا يتغذّى ممّا أمره الحق بالإمساك عنه وهو حظ طبعه فاعلم ذلك. وإذا كان الأمر على هذا الحدّ وحصلت له الرفعة الإلهية عن حكم طبعه ورفعه التجلّي عن حكم فكره إذ كان الفكر من حكم الطبع العنصريّ، ولهذا لا يفكر الملك ويفكر الإنسان لأنه مركّب من طبيعة عنصرية وعقل، فالعقل من حيث نفسه له التجلّي فيرتفع عن حضيض

الفكر الطبيعيّ المصاحب للخيال الآخذ عن الحسّ والمحسوس، قال الشاعر: إذا صام النهار وهجر. أي ارتفع النهار، فمن ليست له هذه الرفعة عن هذا الإمساك فما هو الصائم المطلوب المسمّى عندنا، فهذا هو صوم العارفين بالله وهم أهل الله. انتهى الجزء الثامن والسبعون.

(الجزء التاسع والسبعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

ومن الأولياء: الحافظون لحدود الله والحافظات رضي الله عنهم، تولاهم الله بالحفظ الإلهيّ، فحفظوا به مانعين عليهم أن يحفظوه وهم على طبقتين ذكرهم الله وهم: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] فعين وخصّص ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٢] فعمّم، وقال في الحافظين لحدود الله ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٥] على ذلك، وهم الذين حبسوا نفوسهم عند الحدود ولم يتعدّوها مطلقاً. وقال في الحافظين فروجهم: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] أي ستراً لأن الفرج عورة تطلب الستر، فهو إنباء عن حقيقة، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٦] فيسترها غيرة وفيها قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٦] والوقاية ستر لأنه يتقي بها ما ينبغي أن يتقي منه، فجعل التقوى لباساً ينبّه أنّ ذلك ستر، والستر الغفر، والعورة هي المائلة يريد المائلة إلى الحق عن نفسه ورؤية شهود وجودها، فأمر بستر ذلك من أجل الأدب الإلهيّ لما نسب إليها من المذامّ وجعلها من الأسرار المكتوبة المستورة، ألا ترى النكاح يسمّى سراً، قال الله تعالىٰ: ﴿لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٥] وهذا كله يؤذن بالستر، فمن صبر على حفظ الحدود وسترها فإنّ الله يستره بما تطلبه هذه الحقيقة.

واعلم أنّ الحفظ حفظان وأهله طبقتان، وقد يجتمع الحفظان في شخص واحد، وقد تنفرد طبقة واحدة بحفظ واحد، فلهذا فصل الله بينهما، فأطلق في حق طائفة وقيّد في حق أخرى، ثم إنّ الذين أطلق في حقهم الحفظ لحدود الله هم على طبقتين: فمنهم من عرف الحدود الذاتية فوقف عندها وذلك العالم الحكيم المشاهد المكاشف صاحب العين السليمة، وصاحب هذا المقام قد لا يكون صاحب طريقة معينة لأنّ الإنسانية تطلبها. ومنهم من عرف الحدود الرسمية ولم يعلم الحدود الذاتية وهم أرباب الإيمان. ومنهم من عرف الحدود الرسمية والذاتية وهم الأنبياء والرسل ومن دعا إلى الله على بصيرة من أتباع الرسول ﷺ فهؤلاء هم الأولى بأن يطلق عليهم الحافظون لحدود الله الذاتية والرسمية معاً. وأمّا الحافظون فروجهم فهم على طبقتين: منهم من يحفظ فرجه عمّا أمر بحفظه منه ولا يحفظه ممّا رغب في استعماله لأمور إلهية وحكم ربانية أظهرها إبقاء النوع على طريق القربة. ومنهم من يحفظ فرجه إبقاء على نفسه لغلبة عقله على طبعه وغيبته عمّا سنّه أهل السنن من الترغيب في ذلك، فإن انفتح له عين وانفرج له طريق إلى ما تعطيه حقيقة الوضع المرغب في النكاح فذلك صاحب فرج فلم يحفظه الحفظ الذي أشرنا إليه. وأما صاحب الشرع الحافظ به فلا بدّ له من

الفتح ولكن إذا اقترنت مع الحفظ الهمة، فإن لم تقترن معه الهمة فقد يصل إلى هذا المقام وقد لا يصل، جعلنا الله من الحافظين لحدود الله الذاتية والرسمية فإنّ الله بكل شيء حفيظ.

ومن الأولياء: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات رضي الله عنهم، تولاهم الله بإلهام الذكر ليذكروه فيذكرهم، وهذا يتعلق بالاسم الآخر وهو صلاة الحق على العبد، فالعبد هنا سابق والحق مصل لأنّ المقام يقتضيه فإنه قال تعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] فأخّر ذكره إياهم عن ذكرهم إياه، وقال: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيرٍ منهم**» وقال: «**مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيهِ ذِرَاعاً**» وقال: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] فكل مقام إليه يتأخر عن مقام كوني فهو من الاسم الآخر، ومن باب قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] فالأمر يتردّد بين الاسمين الإلهيين: الأول والآخر، وعين العبد مظهر لحكم هذين الاسمين، وهذا هو الفصل الذي تسميه الكوفيون العماد مثل قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٧] من قوله: ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ فلولا الاعتماد على عين العبد ما ظهر سلطان هذين الاسمين، إذ العين هنالك واحدة لا متحدة، وفي العبد متحدة لا واحدة، فالأحدية لله والاتحاد للعبد لا الأحدية، فإنه لا يعقل العبد إلاّ بغيره لا بنفسه، فلا رائحة له في الأحدية أبداً، والحق قد تعقل له الأحدية وقد تعقل بالإضافة، لأنّ الكل له بل هو عين الكل لا كلية جمع، بل حقيقة أحدية تكون عنها الكثرة، ولا يصحّ هذا إلاّ في جناب الحق خاصة، فلا يصدر عن الواحد أبداً في قضية العقل إلاّ واحداً لا أحدية الحق، فإن الكثرة تصدر عنها، لأنّ أحديته خارجة عن حكم العقل وطوره، فأحدية حكم العقل هي التي لا يصدر عنها إلاّ واحد، وأحدية الحق لا تدخل تحت الحكم، كيف يدخل تحت الحكم من خلق الحكم والحاكم ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦] فالذكر أعلى المقامات كلها، والذاكر هو الرجل الذي له الدرجة على غيره من أهل المقامات كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٨] ومن الذكر سمّي الذكر الذي هو نقيض الأنثى فهو الفاعل والأنثى منفعلة كحوّاء من آدم، فقد نبهتك بذكر الحق عن ذكرك من كونه مصلياً، فحوّاء عن ذكر بشري صوريّ إلهي، وعيسىٰ عن ذكر روحيّ ملكيّ في صورة بشر، فذكر حوّاء أتم بسبب الصورة، وذكر عيسىٰ أتم بالملكية المتجلية في الصورة البشرية المخلوقة على الحضرة الإلهية، فجمع بين الصورة والروح فكان نشأة تمامية ظاهره بشر وباطنه ملك فهو روح الله وكلمته، فـ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧٢] أي من أجل الله لمن ظهر من المخلوقين بالعزّة فذلّوا لهم تحت العزّة الإلهية، إذ لا يصحّ ذلّة إلاّ بظهورها، فالأعزاء من الخلائق هم مظاهر العزّة الإلهية، فالمتواضع من تواضع تحت جبروت المخلوقين، والفقير على الحقيقة من افتقر إلى الأغنياء من المخلوقين، لأنّ غنى المخلوق هو مظهر لصفة الحق، فالفقير من افتقر إليها ولم يحجبه المظهر عنها، وهكذا كل صفة علوية إلهية لا تنبغي إلاّ لله،

يكون مظهرها في المخلوقين، فإن العلماء بالله يذلّون تحت سلطانها ولا يعرف ذلك إلاَّ العلماء بالله، فإذا رأيت عارفاً يزعم أنه عارف وتراه يتعزّز على أبناء الدنيا لما يرى فيهم من العزّة والجبروت فاعلم أنه غير عارف ولا صاحب ذوق، وهذا لا يصحّ إلاَّ للذاكرين الله كثيراً والذاكرات، أي في كل حال، هذا معنى الكثير، فإنه من الناس من يكون له هذه الحالة في أوقات ما ثم تنحجب، فدلّ انحجابه على أنها لم تكن هذه المعرفة عنده عن ذوق وإنما كانت عن تخيّل وتوهّم وتمثّل لا عن تحقّق.

ومن الأولياء أيضاً: التائبون والتائبات والتوّابون رضي الله عنهم، تولاهم الله بالتوبة إليه في كل حال أو في حال واحد سار في كل مقام. واعلم أن الله سبحانه وصف نفسه بالتوّاب لا بالتائب وذكر محبته للتوّابين فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] وهم الراجعون منه إليه. وأمّا من رجع إليه من غيره فهو تائب خاصة فإنه لا يرجع إليه من غيره من هذه صفته إلاَّ إلى عين واحدة، ومن يرجع منه إليه فإنه يرجع إلى أسماء متعدّدة في عين واحدة وذلك هو المحبوب، ومن أحبّه الله كان سمعه وبصره ويده ورجله ولسانه وجميع قواه ومحال قواه أي هو عين قواه بل محال قواه فما أحبّ إلاَّ نفسه وهو أشدّ الحب من حبّ الغير، فإن حبّ الغير من حبّ النفس وليس حبّ النفس من حبّ الغير، فالحبّ الأصليّ هو حبّ الشيء نفسه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ و ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٧] والتوّابون مجلى صورة التوّاب فرأى نفسه فأحبها لأنه الجميل فهو يحب الجمال، والكون مظاهره فما تعلقت محبته إلاَّ به، فإن الصور منه، وعين العبد في العناية الإلهية غرق، فالتائب راجع إليه من عين المخالفة، ولو رجع ألف مرة في كل يوم فما يرجع إلاَّ من المخالفة إلى عين واحدة وهو القابل التوب خاصة، والتوّاب ينتقل في الآنات مع الأنفاس من الله إلى الله بالموافقات بل لا يكون إلاَّ كذلك، وإن ظهرت في الظاهر ممّن هذه صفته عند الله مخافة فلجهل الناظر بالصورة التي أدخلت عليه الشبهة، فإنه يتخيل أنه قد اجتمع معه في الحكم وما عنده خبر أنه ممّن قيل له اعمل ما شئت وأبيح له ما حجر على غيره، ثم بيّن له فقال: فقد غفرت لك أي سترتك عن خطاب التحجير، فالتوّاب هو المجهول في الخلق لأنه محبوب، والمحب غيور على محبوبه فستره عن عيون الخلق، فإنه لو كشفه لعباده ونظروا إلى حسن المعنى في باطنه لأحبّوه، ولو أحبّوه لصرفوا همتهم إليه فأثّروا فيه الإقبال عليهم تخلّقاً حقيقياً من قوله: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] فكان سبب إقبال الحق على العبد إقبال العبد على أمر الحق، فما ظنّك بالمخلوق فهو أسرع في الإقبال عليهم لأنه محل يقبل الأثر، فلهذا القبول الصادر منهم لو أحبهم الخلق سترهم فلم يعرفوا فهم العرائس المخدّرات خلف حجاب الغيرة فيقال فيهم مذنبون وليسوا والله بمذنبين بل مصانين محفوظين، وهذا المقام هو مقام التوبة من التوبة، أي من التوبة التي يقال في صاحبها تائب بالتوبة التي يقال في صاحبها توّاب، قال بعضهم في ذلك: [السريع]

يا ربّةَ العود خذي في الغنا ... وحرّكي من صوته ما وَنَا

فإنّ مسوَدَّ قميصِ الدجى لونه الصبحُ بما لوّنا
قد تابَ أقوامٌ كثيرٌ وما تابَ من التوبة إلاّ أنا

ولنا في هذا المقام على أتم إشارة من قول الأوّل: [السريع]

ما فازَ بالتوبة إلاّ الذي قد تابَ منها والورَى نُوَّمُ
فمن يتُبْ أدرك مطلوبَه من توبة الناس ولا يعلموا

فالتوّابون أحباب الله بنص كتابه الناطق بالحق الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢]. ومن الأولياء أيضاً المتطهرون من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله القدوس بتطهيره، فتطهيرهم تطهير ذاتيّ لا فعليّ وهي صفة تنزيه، وهو تعمل في الطهارة ظاهراً وفي الحقيقة ليس كذلك، ولهذا أحبّهم الله، فإنها صفة ذاتية له، يدل عليها اسمه: ﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٣] فأحبّ نفسه، والصورة فيهم مثل الصورة في التوّابين ولهذا قرن بينهما في آية واحدة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] فعين محبته لهم ليعلم أنّ صفة التوبة ما هي صفة التطهير، وجاور بينهما لأحدية المعاملة من الله في حقّهما من كونه ما أحبّ سوى نفسه.

واعلم أنّ المتطهر في هذا الطريق من عباد الله الأولياء هو الذي تطهر من كل صفة تحول بينه وبين دخوله على ربّه، ولهذا شرع في الصلاة الطهارة، لأن الصلاة دخول على الرب لمناجاته، والصفات التي تحول بين العبد وبين دخوله على ربه هي كل صفة ربانية لا تكون إلاّ لله، وكل صفة تدخله على ربّه ويقع بها لهذا العبد التطهير فهي صفاته التي لا يستحقها إلاّ العبد، ولا ينبغي أن تكون إلاّ له، ولو خلع الحق عليه جميع الصفات التي لا تنبغي إلاّ له، ولا بدّ من خلعها عليه لا تبرح ذاته من حيث تجلّى الرب له موصوفة بصفاته التي له، فإن كان التجلّي ظاهراً كان حكم صفاته عليه ظاهراً مثل الخشوع والخضوع وخمود الجوارح وسكون الأعضاء والارتعاش الضروريّ وعدم الالتفات، وإن كان التجلّي باطناً لقلبه كان أيضاً حكم صفاته في باطنه قائماً، وسواء كان موصوفاً في ظاهره في ذلك الحال بصفة ربانية أي حكمها ظاهر عليه من قهر واستيلاء أو قبض أو عطاء أو عطف أو حنان، فالتجلّي في الباطن بصفات العبودة لازم لا ينفك عنه باطن المتطهر أبداً، فإنّ طهارة القلب مثل سجوده إذا تطهر وصحّ تطهيره لا تنتقض طهارته أبداً، وكل من قال في هذا بتجديد طهارة القلب وأنّ طهارته يدخل عليها في القلب ما ينقضها فهو حديث نفس أعني طهره ما تطهر قط، فإنّ طهارة القلب مؤيّدة، وهؤلاء هم المتطهرون الذين أحبّهم الله وهي حالة مكتسبة يتعمّل لها الإنسان، فإنّ التفعل تعمّل الفعل، ثم الكلام في التعمّل في ذلك على صورة ما ذكرناه في التوّاب سواء آنفاً وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى الصراط المستقيم.

ومن الأولياء أيضاً الحامدون من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله بعواقب ما تعطيه صفات الحمد فهم أهل عاقبة الأمور، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [سورة الحج: الآية ٤١] فالحامد من عباد الله من يرى في الحمد المطلق على ألسنة العالم كله، سواء كان

الحامدون من أهل الله أو لم يكونوا، وسواء كان المحمود الله أو كان ممّا يحمد الناس به بعضهم بعضاً، فإنه في نفس الأمر يرجع عواقب الثناء كله إلى الله لا إلى غيره، فالحمد إنما هو لله خاصة بأيّ وجه كان، فالحامدون الذين أثنى الله عليهم في القرآن هم الذين طالعوا نهايات الأمور في ابتدائها وهم أهل السوابق، فشرعوا في حمده ابتداء بما يرجع إليه سبحانه وتعالىٰ جلّ جلاله من حمد المحجوبين انتهاء، فهؤلاء هم الحامدون على الشهود بلسان الحق.

ومن الأولياء أيضاً السائحون، وهم المجاهدون في سبيل الله من رجال ونساء، قال ﷺ: «**سياحة أمّتي الجهاد في سبيل الله**»، قال تعالىٰ: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٢] والسياحة المشي في الأرض للاعتبار برؤية آثار القرون الماضية ومن هلك من الأمم السالفة، وذلك أنّ العارفين بالله لما علموا أنّ الأرض تزهو وتفخر بذكر الله عليها وهم رضي الله عنهم أهل إيثار وسعي في حق الغير ورأوا أنّ المعمور من الأرض لا يخلو عن ذاكر لله فيه من عامّة الناس، وأنّ المفاوز المهلكة البعيدة عن العمران لا يكون فيها ذاكر لله من البشر، لزم بعض العارفين السياحة صدقة منهم على البيداء التي لا يطرقها إلاّ أمثالهم، وسواحل البحار وبطون الأودية وقنن الجبال والشعاب والجهاد في أرض الكفر التي لا يوحّد الله تعالىٰ فيها ويعبد فيها غير الله، ولذلك جعل النبيّ ﷺ سياحة هذه الأمة الجهاد، فإنّ الأرض وإن لم يكفر عليها ولا ذكر الله فيها أحد من البشر فهي أقل حزناً وهما من الأرض التي عبد غير الله فيها وكفر عليها وهي أرض المشركين والكفار، فكأن السياحة بالجهاد أفضل من السياحة في غير الجهاد، ولكن بشرط أن يذكر الله عليها ولا بدّ، فإنّ ذكر الله في الجهاد أفضل من لقاء العدوّ، فيضرب المؤمنون رقابهم ويضرب الكفار رقاب المؤمنين، والمقصود إعلاء كلمة الله في الأماكن التي يعلو فيها ذكر غير الله ممّن يعبد من دون الله فهؤلاء هم السائحون، لقيت من أكابرهم يوسف المغاور الجلاء ساح مجاهداً في أرض العدو عشرين سنة. وممّن رابط بثغر الأعداء شاب بجلمانية نشأ في عبادة الله تعالىٰ يقال له أحمد بن همام الشقاق بالأندلس، وكان من كبار الرجال مع صغر سنّه، انقطع إلى الله تعالىٰ على هذه الطريق وهو دون البلوغ واستمرّ حاله على ذلك إلى أن مات.

ومن الأولياء أيضاً: الراكعون من رجال ونساء رضي الله عنهم، وصفهم الله في كتابه بالراكعين وهو الخضوع والتواضع لله تعالىٰ من حيث هويته سبحانه ولعزّته وكبريائه حيث ظهر من العالم، إذ كان العارف لا ينظر العالم من حيث عينه وإنما ينظره من حيث هو مظهر لصفات الحق، قال الله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [سورة غافر: الآية ٣٥] وقال: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤٩] وقال: «**الكبرياءُ ردائي والعظمةُ إزاري مَنْ نازعني واحداً منهما قَصَمْتُه**» فالعين هالكة والصفة قائمة، فالراكعون ركعوا للصفة لا للعين لأنهم سمعوا الحق يقول: من نازعني واحداً منهما قصمته، فعلموا أنها صفة الحق لا صفتهم، ولهذا أوقع التنازع فيهما فعرفوا من العالم ما لم يعرف العالم من نفسه، فلو كان الكبرياء والجبروت والعزّة والعظمة التي يدّعيها العزيز الجبار العظيم المتكبّر من العباد صفة لهم

حقيقة لما ذمّهم ولا أخذهم أخذة رابية، كما أنه لم يأخذهم بكونهم أذلاء خاشعين حقراء محقرين، فإنّ الحقارة والذلّة والصغار صفتهم، فمن ظهر بصفته لم يؤاخذه الله لأنه كيف يؤاخذه إذا ظهر بما هو حق له؟ ولما لم يكن لهم الجبروت وما في معناه وظهروا به أهلكهم الله فتحقق عند العارفين أنها صفة الحق تعالىٰ ظهرت فيمن أراد الله أن يشقيه، فتواضع العارفون للجبابرة والمتكبرين من العالم للصفة لا لعينهم، إذ كان الحق هو مشهودهم في كل شيء حتى الانحناء في السلام عند الملاقاة ربما انحنى العارفون لإخوانهم عند ما يلقونهم في سلامهم، فيسَّر بذلك الشخص الذي ينحني من أجله، وسروره إنما هو من جهله بنفسه حيث تخيّل أن ذلك الانحناء والركوع له ممن لقيه إنما هو لما يستحقه من الرفعة، فيفعله عامّة الأعاجم مقابلة جهل بجهل وعادة وعرفاً وهم لا يشعرون، ويفعله العارفون مشاهدة جبروت إلهيّ يجب الانحناء له إذ لا يرون إلاّ الله، قال لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. والباطل هو العدم بلا شك، والوجود كله حق، فما ركع الراكع إلاّ لحق وجودي باطنه عدم وهو عين المخلوق. فإن قلت: فالراكع أيضاً وجود. قلنا: صدقت فإن الأسماء الإلهية التي تنسب إلى الحق على مراتب في النسبة بعضها يتوقف على بعض، وبعضها لها الهيمنة على بعض، وبعضها أعمّ تعلّقاً وأكثر أثراً في العالم من بعض، والعالم كله مظاهر هذه الأسماء الإلهية، فيركع الاسم الذي هو تحت حيطة غيره من الأسماء للاسم الذي له الهيمنة عليه فيظهر ذلك في الشخص الراكع فكان انحناء حق لحق. ألا ترى الأحاديث الواردة الصحيحة بالفرح الإلهيّ والتبشيش والنزول والتعجّب والضحك أين هذه الصفات من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ومن ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٨] وأمثال ذلك من صفات العظمة، فمن ركع فبهذه الصفة فهي الراكعة، ومن تعاظم فبتلك الصفة أيضاً الإلهية فهي العظيمة، والراكعون من الأولياء على هذا الحد هو ركوعهم.

ومن الأولياء أيضاً: الساجدون من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله بسجود القلوب، فهم لا يرفعون رؤوسهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهو حال القربة وصفة المقرّبين، ولا يكون السجود إلاّ عن تجلٍ وشهود، ولهذا قال له: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [سورة العلق: الآية ١٩] يعني اقتراب كرامة وبرّ وتحف، كما يقول الملك للرجل إذا دخل عليه فحيّاه بالسجود له بين يديه فيقول له الملك: أدنه أدنه حتى ينتهي منه حيث يريد من القربة، فهذا معنى قوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ في حال السجود إعلاماً بأنه قد شاهد من سجد له وأنه بين يديه وهو يقول له ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ ليضاعف له القربة، كما قال: «**مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً**» إذا كان اقتراب العبد عن أمر إلهيّ كان أعظم وأتمّ في برّه وإكرامه لأنه ممتثل أمر سيده على الكشف، فهذا هو سجود العارفين الذين أمر الله نبيّه ﷺ أن يطهر بيته لهم ولأمثالهم فقال عزّ من قائل: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [سورة الحج: الآية ٢٦] وقال لنبيّه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٨] يريد الذين لا يرفعون رؤوسهم أبداً، ولا يكون ذلك إلاّ في سجود القلب.

ولهذا قال له عقيب قوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ثم فقال: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٩] فتعرف باليقين من سجد منك ولمن سجدت، فتعلم أنك آلة مسخّرة بيد حق قادر اصطفاك وطهرك وحلاك بصفاته، فصفاته سبحانه طلبته بالسجود لذاته لنسبتها إليه.

فانظر يا أخي سرّ ما أشرنا إليه في هذه المسألة إذ كانت النسب أو الصفات أو الأسماء لا تقوم بأنفسها لذاتها، فهي طالبة بطلب ذاتيّ لعين تقوم بها فيظهر حكمها بأن توصف تلك العين بها أو تسمّى بها أو تنسب إليها كيف ما شئت من هذا كله فقل: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] وكذلك انظر في قوله وتنبّه: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢١٩] فأشار إلى تنوّع الحالات عليه في حال سجوده من غير رفع يتخلّل ذلك، ولقد رفع وقام وركع وثنى السجود، ولم يثن حالة من حالات صلاته إلاّ السجود لشرفه في حق العبد، فأكّده بتثنيته في كل ركعة فرضاً واجباً وركناً لا ينجبر إلاّ بالإتيان به.

ومن الأولياء: الآمرون بالمعروف من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله بالأمر بالله إذ كان هو المعروف، فلا فرق أن تقول: الآمرون بالله أو الآمرون بالمعروف لأنه سبحانه هو المعروف الذي لا ينكر ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٧] مع كونهم مشركين، وقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾ يعني الآلهة ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] فهو المعروف عندهم بلا خلاف في ذلك في جميع النحل والملل والعقول، قال ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» فهو المعروف، فمن أمر به فقد أمر بالمعروف، ومن نهى به فقد نهى عن المنكر بالمعروف، فالآمرون بالمعروف هم الآمرون على الحقيقة بالله، فإنه سبحانه إذا أحبّ عبده كان لسانه الذي يتكلم به، والأمر من أقسام الكلام فهم الآمرون به لأنه لسانهم، فهؤلاء هم الطبقة العليا في الأمر بالمعروف، وكل أمر بمعروف فهو تحت حيطة هذا الأمر فاعلم ذلك.

ومن الأولياء أيضاً: الناهون عن المنكر من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاّهم الله بالنهي عن المنكر بالمعروف، والمنكر الشريك الذي أثبته المشركون بجعلهم فلم يقبله التوحيد العرفانيّ الإلهيّ وأنكره فصار منكراً من القول وزوراً، فلم يكن ثم شريك له عين أصلاً بل هو لفظ ظهر تحته العدم المحض فأنكرته المعرفة بتوحيد الله الوجوديّ فسمّي منكراً من القول إذ القول موجود وليس بمنكر عينيّ فإنه لا عين للشريك إذ لا شريك في العالم عيناً وإن وجد قولاً ونطقاً، فهم الناهون عن المنكر، وهو عين القول خاصة، فليس لمنكر من المنكرات عين موجودة فلهذا وصفهم الله بأنهم ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٢] ولكن نهيهم بالمعروف في ذلك.

ومن الأولياء أيضاً: الحلماء من رجال ونساء رضي الله عنهم، وما من صفة للرجال إلاّ وللنساء فيها مشرب تولاهم الله بالحلم، وهو ترك الأخذ بالجريمة في الحال مع القدرة على ذلك فلم يعجل، فإن العجلة بالأخذ عقيب الجريمة دليل على الضجر، وحكمه في المستأنف في المشيئة، فالحليم هو الذي لا يعجل مع القدرة وارتفاع المانع والعلم السابق مانع، وهو محجوب عن العبد قبل الاتصاف بصفة الحلم، فالعبيد على الحقيقة إذا لم يعجلوا بالأخذ

عقيب الجريمة مع القدرة هم الحلماء فإنهم لا علم لهم سابق يمنع من وقوع الأخذ لا في نفس الأمر، فإن حلم العبد من العلم الإلهيّ السابق، ولا يشعر به العبد حتى تقوم به صفة الحلم، فحينئذ يعلم ما أعطاه حكم علم الله في حكمه، ولهذا إن تقدّمه العلم بذلك لا يسمّى حليماً على جهة التشريف، فالحق يوصف بالحلم لعدم الأخذ لا على طريق التشريف، والعبد ينعت بالحليم لعدم الأخذ أيضاً ولكن على طريق التشريف لجهله بما في علم الله من ذلك قبل اتصافه بعدم المؤاخذة والإمهال من غير إهمال، فشرف الحق بالعلم لا بالحلم، وشرف العبد بالحلم لا بالعلم لجهله بذلك، فإن علم قبل قيام صفة الحلم به لم يكن له الحلم تشريفاً، فالأمر فيه بمنزلة من هو مجبور في اختياره، فلا يثنى عليه بالاختيار إلاَّ مع رفع العلم عنه بالجبر في ذلك الاختيار سواء، لأنّ الاختيار يناقض الجبر، فيعلم الإنسان عند ذلك ما هو المراد بالاختيار، ويرى أنه ما ثم في الوجودين إلاَّ الجبر من غير إكراه فهو مجبور غير مكره، وهذه المسألة من أعظم المسائل في المعارف، وكم هلك فيها من الخلق قديماً وحديثاً.

ومن الأولياء أيضاً: الأواهون من رجال ونساء رضي الله عنهم، لقيت منهم امرأة بمرشانة الزيتون من بلاد الأندلس تدعى بشمس مسنّة تولى الله هذا الصنف بالتأوّه ممّا يجدونه في صدورهم من ردّهم لقصورهم من عين الكمال والنفوذ، ويكون عن وجود أو عن وجود وجد على مفقود، أثنى الله تعالىٰ على خليله إبراهيم عليه السلام بذلك أنّ إبراهيم ﴿لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٤] فتأوّه لما رأى من عبادة قومه ما نحتوه وحلم فلم يعجل بأخذهم على ذلك مع قدرته عليهم بالدعاء عليهم ولهذا سمّي حليماً، فلو لم يقدر ولا مكّنه الله من أخذهم ما سمّاه سبحانه حليماً، ولكنه عليه السلام علم أنه في دار الامتزاج والتحوّل من حال إلى حال، فكان يرجو لهم الإيمان فيما بعد، فهذا سبب حلمه وجود الموطن الذي يقتضي التحوّل من العبد والقبول من الله، فلو علم من قومه ما علم نوح عليه السلام حيث قال: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [سورة نوح: الآية ٢٧] ما حلم عنهم، فالأوّاه هو الذي يكثر التأوّه لبلواه، ولما يقاسيه ويعانيه ممّا يشاهده ويراه وهو من باب الغيرة والحيرة، والتأوّه أمر طبيعيّ لا مدخل له في الأرواح من حيث عروها عن الامتزاج بالطبع.

ومن الأولياء: الأجناد الإلهيون الذين لهم الغلبة على الأعداء من رجال ونساء رضي الله عنهم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٧٣] فأضافهم إليه سبحانه من اسمه الملك، فهم عبيد الملك وهنا سرّ، فإن العالم أجناده سلّط بعضهم على بعض ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة المدثر: الآية ٣١] أي ما يحصيهم عدداً تولّى الله طائفة منهم بالعناية الإلهية فأضافهم إلى نفسه بضمير الكناية عن ذاته، ولم يصرّح باسم إلهيّ معين منصوص عليه اكتفاء بتسميتهم جنداً، والأجناد لا تكون إلاَّ للملك، فبين أنهم أهل عدّة، إذ كانت العدّة من خصائص الأجناد التي تقع بها الغلبة على الأعداء، والأعداء الذين في مقابلة هؤلاء الأجناد الشياطين والأهواء والمصارف المذمومة كلها وسلطانهم الهوى، وعدّة هؤلاء الجند التقوى والمراقبة والحياء والخشية والصبر والافتقار، والميدان الذي يكون فيه المصاف والمقابلة إذا

﴿تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٦١] بينهم وبين الأعداء هو العلم في حق بعض الأجناد والإيمان في حق بعضهم، والعلم والإيمان معاً في حق الطبقة الثالثة من الجند، فإن أجناد الإنابة الذين لهم الغلبة على ثلاث طبقات: الطبقة الخاصة العلية: أهل علم بتوحيد الله، وأهل علم برسول الله عن دليل عقليّ برهاني، وأهل إيمان مبناه على هذا العلم. والطبقة الثانية: أهل علم بتوحيد الله عن دليل قطعيّ من جهة النظر لا عن علم ضروريّ يجدونه في نفوسهم فإنه من الجند، فلا بدّ له من آلة يدفع بها العدو المنازع ولا يقدر يدفعه صاحب العلم الضروريّ لكونه عالماً من هذا الوجه من غير دليل، فإن العدو ما يندفع إلاّ بالدليل وترتيبه، وأصحاب العلم بالله من جهة الضرورة طائفة أخرى لا يتميزون في الأجناد ولا يتعرّضون لدفع عدو بشبهة قادحة. والطبقة الثالثة: أهل إيمان لا أهل علم، فهم أهل إيمان يكون عنه خرق عوائد يقوم لهم ذلك مقام الأدلة للعالم فيدفعون بخرق العوائد أعداء الله وأعداءهم كما يدفعه صاحب الدليل، فمثل هذه الطبقة هم المسمّون جنداً، وأمّا المؤمنون الذين ليس عندهم خرق عادة لدفع عدو فليسوا بأجناد وإن كانوا مؤمنين، والجامع لمعرفة هذه الطبقة أن كل شخص يقدر على دفع عدو بآلة تكون عنده فهو من جنده سبحانه وتعالىٰ الذين لهم الغلبة والقهر، وهو التأييد الإلهيّ الذي به يقع ظهورهم على الأعداء، قال تعالىٰ: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾[سورة الصف: الآية ١٤].

ومن الأولياء أيضاً: الأخيار من رجال ونساء رضي الله عنهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [سورة ص: الآية ٤٧] تولاهم الله بالخيرة، قال تعالىٰ: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ [سورة التوبة: الآية ٨٨] جمع خيرة وهي الفاضلة من كل شيء، ومنه: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٧٠] والفضل يقتضي الزيادة على ما يقع فيه الاشتراك ممّا لا يشترك فيه من ليس من ذلك الجنس، فالأخيار كل من زاد على جميع الأجناس بأمر لا يوجد في غير جنسه من العلم بالله على طريق خاص لا يحصل إلاّ لأهل ذلك الجنس، ثم في هذا الجنس العالم بهذا العلم الخاص الذي به سمّوا أخياراً: منهم من أعطى الإفصاح عمّا علمه. ومنهم من لم يعط الإفصاح عمّا علمه في نفسه، فالذي أعطى الإفصاح أخير ممّن هو دونه وهو المستحق بهذا الاسم فإن الخير بالكسر الكلام، يقال في فلان كرم وخير أي كرم وفصاحة، فإذا أعطى الفصاحة عمّا عنده اهتدى به من سمع منه فكانت المنفعة به أتمّ فكان أفضل من غيره فإنه أقرب إلى التشبّه بالاسم النافع، فاعلم ذلك فقد بيّنت لك مرتبة الأخيار، ولهذا ورد في أوصاف المرسلين، لأن الرسول لا بدّ أن يكون مؤيداً بالنطق ليبين لمن أرسل إليه ما أرسل به إليه فهم الأخيار أي أصحاب هذه الفضيلة.

ومن الأولياء أيضاً: الأوّابون من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاّهم الله بالأوبة في أحوالهم قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٥] يقال: آبت الشمس لغة في غابت، فالرجال الغائبون عند الله فلم يشهد حالهم مع الله أحد من خلق الله، فإن الله وصف نفسه بأنه غفور لهم أي ساتر أي يستر مقامهم عن كل أحد سواه لأنهم طلبوا الغيبة

عنده حتى لا يكون لهم مشهود سواه سبحانه. والآيب أيضاً الذي يأتي القوم ليلاً كالطارق والليل ستر، وهم الراجعون إلى الله في كل حال من كل ناحية، يقال: جاؤوا من كل أوبة أي ناحية، فالأوّاب الراجع إلى الله من كل ناحية من الأربع التي يأتي منها إبليس إلى الإنسان من ناحية أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، فهم يرجعون في ذلك كله إلى الله أولاً وآخراً فيما ذمّ وحمد من ذلك، ولما اقتضى الأدب أن لا يرجعوا في حصول ما ذمّ إلى الله واقتضى لهؤلاء هذا الحال أن يرجعوا فيه إلى الله سمّى نفسه غفوراً للأوّابين أي يغفر لهم هذا القدر الذي يصحبه من مقام آخر من سوء الأدب، فالرجال الذين هم بهذه المثابة وهذه الصفة هم الأوّابون.

ومن الأولياء أيضاً: المخبتون من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله بالإخبات وهو الطمأنينة، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦] أي يسكن، والخبت المطمئن من الأرض، فالذين اطمأنوا بالله من عباده وسكنت قلوبهم لما اطمأنوا إليه سبحانه فيه وتواضعوا تحت اسمه رفيع الدرجات وذلّوا لعزّته، وأولئك هم المخبتون الذين أمر الله نبيّه ﷺ في كتابه أن يبشرهم فقال له: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٤] فإن قيل: ومن المخبتون؟ فقل: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٥] فهذه صفات المخبتين أي كانوا ساكنين فحرّكهم ذكر الله بحسب ما وقع به الذكر وصبروا أي حبسوا نفوسهم على ما أصابهم من ذلك، ولم يمنعهم ذلك الوجل ولا غلبة الحال عن إقامة الصلاة إذا حضر وقتها على أتم نشأتها لما أعطاهم الله من القوّة على ذلك، ثم مع ما هم فيه من الصبر على ما نابهم من الشدّة، فسألهم سائل وهم بتلك المثابة في رزق علميّ أو حسيّ من سدّ جوعة أو ستر عورة أعطوه ممّا سألهم منه فلم يشغلهم شأن عن شأن، فهذا نعت المخبتين الذي نعتهم الله به وهم ساكنون تحت مجاري الأقدار عليهم راضون بذلك من خبت النار إذا سكن لهبها.

ومن الأولياء أيضاً: المنيبون إلى الله من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله بالإنابة إليه سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [سورة هود: الآية ٧٥] والرجال المنيبون هم الذين رجعوا إلى الله من كل شيء أمرهم الله بالرجوع عنه مع شهودهم في حالهم أنهم نوّاب عن الله في رجوعهم، إذ الرجوع عن الكشف إنما هو لله، إذ كانت نواصي الخلق بيده يصرفهم كيف يشاء، فمن شاهد نفسه في إنابته إلى ربّه نائباً عن الله كما ينوب المصلي عن الله في قوله: سمع الله لمن حمده وفي تلاوته كذلك رجوعه إلى الله في كل حال يسمّى منيباً فلهم خصوص هذا الوصف.

ومن الأولياء أيضاً: المبصرون من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله بالإبصار وهو من صفات خصائص المتقين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠١] فهم علماء أهل تقوى طرأ عليهم خاطر حسن أصله شيطانيّ فوجدوا له ذوقاً خاصاً لا يجدونه إلاّ إذا كان من الشيطان فيذكرهم ذلك الذوق بأنّ

ذلك الخاطر من الشيطان ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي مشاهدون له بالذوق، فإن اقتضى العلم أخذه وقلب عينه ليحزن بذلك الشيطان أخذه ولم يلتفت منه وكان من المبصرين، فعلم كيف يأخذه ما يجب أخذه من ذلك، ففرّق بينه وبين ما يجب تركه كما قال عيسىٰ عليه السلام لما قال له إبليس حين تصوّر له على أنه لا يعرفه فقال له: يا روح الله قل لا إله إلاّ الله رجاء منه أن يقول ذلك لقوله فيكون قد أطاعه بوجه ما وذلك هو الإيمان، فقال له عيسىٰ عليه السلام: أقولها لا لقولك لا إله إلاّ الله، فجمع بين القول ومخالفة غرض الشيطان لا امتثالاً لأمر الشيطان، فمن عرف كيف يأخذ الأشياء لا يبالي على يدي من جاء الله بها إليه، وإن اقتضى العلم ردّ ذلك في وجهه ردّه، فهذا معنى قوله: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ ولا يكون التذكّر إلاّ لمعلوم قد نسي ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي رجع إليهم نظرهم الذي غاب عنهم رجع بالتذكّر.

ومن الأولياء أيضاً: المهاجرون والمهاجرات رضي الله عنهم، تولاهم الله بالهجرة بأن ألهمهم إليها ووفقهم لها، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٠] فالمهاجر من ترك ماأمره الله ورسوله بتركه وبالغ في ترك ذلك لله خالصاً من كل شبهة عن كرم نفس وطواعية لا عن كره وإكراه ولا رغبة في جزاء، بل كرم نفس بمقاساة شدائد يلقاها من المنازعين له في ذلك، ويسمعونه ما يكره من الكلام طبعاً، فيتغير عند سماعه ويكون ذلك كله عن اتساع في العلم والدؤوب على مثل هذه الصفة وتقيده في ذلك كله بالوجوه المشروعة لا بأغراض نفسه، ويكون به كمال مقامه، فإذا اجتمعت هذه الصفات في الرجل فهو مهاجر، فإن فاته شيء من هذه الفصول والنعوت فاته من المقام بحسب ما فاته من الحال، وإنما قلنا هذا كله واشترطناه لما سمّاه الله مهاجراً ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٦] فكل ما يدخل تحت هذا اللفظ ممّا ينبغي أن يكون وصفاً حسناً للعبد فيسمى به صاحب هجرة اشترطناه في المهاجر لانسحاب هذه الحقيقة اللفظية في نفس الوضع على ذلك المعنى الذي اشتق من لفظه هذا الاسم.

ومن الأولياء أيضاً: المشفقون من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله بالإشفاق من خشية ربهم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٥٧] يقال: أشفقت منه فأنا مشفق إذ حذرته، قال تعالىٰ: ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [سورة المعارج: الآية ٢٧. ٢٨] أي حذرون من عذاب ربهم غير آمنين يعني وقوعه بهم، ولا يقال: أشفقت منه إلاّ في الحذر، ويقال: أشفقت عليه إشفاقاً من الشفقة والأصل واحد أي حذرت عليه، فالمشفقون من الأولياء من خاف على نفسه من التبديل والتحويل، فإن أمنه الله بالبشرى مع إشفاقه على خلق الله مثل إشفاق المرسلين على أممهم، ومن بشّر من المؤمنين وهم قوم ذوو كبد رطبة لهم حنان وعطف إذا أبصروا مخالفة الأمر الإلهيّ من أحد ارتعدت فرائصهم إشفاقاً عليه أن ينزل به أمر من السماء، ومن كان بهذه المثابة فالغالب على أمره أنه محفوظ في أفعاله، فلا يتصوّر منه مخالفة لما تحقق به من صفة الإشفاق، فلما كانت ثمرة الإشفاق الاستقامة على طاعة الله أثنى الله عليهم بأنهم مشفقون للتغيير الذي يقوم

بنفوسهم عند رؤية الموجب لذلك مأخوذ من الشفق الذي هو حمرة بقية ضوء الشمس إذا غربت أو إذا أرادت الطلوع.

ومن الأولياء: الموفون بعهد الله من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله بالوفاء، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٧] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٠] وهم الذين لا يغدرون إذا عاهدوا. ومن جملة ما سأل قيصر ملك الروم عنه أبا سفيان بن حرب حين سأله عن صفة النبيّ ﷺ: هل يغدر؟ فالوفاء من شيم خاصة الله، فمن أتى في أموره التي كلّفه الله أن يأتي بها على التمام وكثر ذلك في حالاته كلها فهو وفيّ، وقد وفى، قال تعالىٰ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [سورة النجم: الآية ٣٧] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الفتح: الآية ١٠] يقال: وفى الشيء وفياً على فعول بضم فاء الفعل إذا تمّ وكثر، وهم على إشراف على الأسرار الإلهية المخزونة ولهذا يقال: أوفى على الشيء إذا أشرف، فمن كان بهذه المثابة من الوفاء بما كلّفه الله وأشرف على ما اختزنه الله من المعارف عن أكثر عباده فذلك هو الوفي. ومن توفّاه الله في حياته في دار الدنيا أي آتاه من الكشف ما يأتي للميت عند الاحتضار إذ كانت الوفاة عبارة عن إتيان الموت، فإذا طولع العبد على هذه المرتبة أوجبت له الوفاء بعهود الله التي أخذها عليه، فقد يكون الوفاء لأهل هذه الصفة سبب الكشف، وقد يكون الكشف في حق طائفة منهم سبب الوفاء.

ومن الأولياء أيضاً: الواصلون ما أمر الله به أن يوصل من رجال ونساء رضي الله عن جميعهم، تولاّهم الله بالتوفيق بالصلة لمن أمر الله به أن يوصل، قال تعالىٰ: ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢١] يعني من صلة الأرحام، وأن يصلوا من قطعهم من المؤمنين بما أمكنهم من السلام عليهم فما فوقه من الإحسان، ولا يؤاخذ بالجريمة التي له الصفح عنها والتغافل، ولا يقطعون أحداً من خلق الله إلاّ من أمرهم الحق بقطعه، فيقطعونه معتقدين قطع الصفة لا قطع ذواتهم، فإن الصفة دائمة القطع في حق هؤلاء اتصف بها من اتصف، فهم ينتظرون به رحمة الله أن تشمله، والوصل ضدّ القطع. ولما كان الوجود مبنياً على الوصل ولهذا دلّ العالم على الله واتصف بالوجود الذي هو الله فالوصل أصل في الباب والقطع عارض يعرض، ولهذا جعل الله بينه وبين عباده حبلاً منه إليهم يعتصمون به ويتمسكون ليصحّ الوصلة بينهم وبين الله سبحانه، قال النبيّ ﷺ: «**الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ**» أي هذه اللفظة أخذت من الاسم الرحمن عيناً وغيباً، فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله، وقطعه إياها هو قطع الله لا أمر زائد، فلما علموا أن الحق تعالىٰ ما دعاهم إليه ولا شرع لهم الطريق الموصل إليه إلاّ ليسعدوا بالاتصال به فهم الواصلون أهل الإنس والوصال. [مجزوء الكامل]

فَـهُـمُ الـذيـن هُـمُـو هُـمُـو ... أهـلُ الـمـودَّة فـي الـقـديـمْ

وقد ورد في الخبر: «**لاَ تَحَاسَدُوا وَلا تَدَابَرُوا وَلا تَقَاطَعُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً**» فنهوا

عن التقاطع، ألا ترى اتصال الأنفاس داخلها بخارجها يؤذن بالبقاء والحياة، فإذا انقطعت الوصلة بين النفسين فخرج الداخل يطلب دخول الخارج فلم يجده مات الإنسان لانقطاع تلك الوصلة التي كانت بين النفسين، فالواصلون ما أمر الله به أن يوصل ذلك هو عين وصلتهم بالله تعالىٰ فأثنى عليهم.

ومن الأولياء أيضاً: الخائفون من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاّهم الله بالخوف منه أو ممّا خوّفهم منه امتثالاً لأمره فقال: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٧٥] وأثنى عليهم بأنهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [سورة النور: الآية ٣٧] و ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢١] فإذا خافوه التحقوا بالملأ الأعلى في هذه الصفة فإنه قال فيهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٥٠] فمن كان بهذه المثابة تميّز مع الملأ الأعلى، فمن أدّبهم مع الله أنهم خافوا اليوم لما يقع فيه لكون الله خوّفهم، ومنه ولما تحققوا بهذا الأدب أثنى الله عليهم بأنهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [سورة النور: الآية ٣٧] فهذا خوف الزمان، وأما خوف الحال فهو قوله: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ فهم أهل أدب مع الله وفقوا له حيث وفقهم، فإن كثيراً من أهل الله لا يتفطنون لهذا الأدب، ولا يعرّجون على ما خوّفوا به من الأكوان، وعلقوا أمرهم بالله، فهؤلاء لهم لقب آخر غير اسم الخائف، وإنما الخائفون الذين استحقوا هذا الاسم فهم الأدباء أوحى الله إلى رسوله موسىٰ عليه السلام: يا موسىٰ خفني وخف نفسك يعني هواك وخف من لا يخافني وهم أعداء الله، فأمره بالخوف من غيره، فامتثل الأدباء أمر الله فخافوهم في هذا الموطن، كما شكروا غير الله من المحسنين إليهم بأمر الله لا من حيث إيصال النعم إليهم على أيديهم، فهم في عبادة إلهية في شكرهم وفي خوفهم، وهذا صراط دقيق خفيّ على العارفين فما ظنّك بالعامّة. وأمّا المتوسطون أصحاب الأحوال فلا يعرفونه لأنهم تحت سلطان أحوالهم.

ومن الأولياء أيضاً: المعرضون عمّن أمرهم الله بالإعراض عنه من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاّهم الله بالإعراض عنهم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٣] وقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [سورة النجم: الآية ٢٩] وقد علمت هذه الطبقة أنه ما ثم إلاّ الله فأعرضوا بأمره عن فعله فكانوا أدباء زمانهم ولم يعرضوا بأنفسهم إذ المؤمن لا نفس له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [سورة التوبة: الآية ١١١] فمن ادّعى الإيمان وزعم أنّ له نفساً يملكها فليس بمؤمن فقال الحق لمن هذه صفته: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة النجم: الآية ٢٩] بها يعني بالنفس التي اشتريتها منك، أعرض بها عن من تولّى عن ذكرنا ممّن لم نشتر منه نفسه لكونه غير مؤمن، فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي عن الذي أسقطه الله عن أن يعتبر معرضون لكون الحق أسقطه، يقال لما لا يعتدّ به في الديّة من أولاد الإبل لغو أي ساقط، ومنه لغو اليمين لإسقاط الكفارة والمؤاخذة بها فأثنى الله عليهم بالإعراض وإن تحققوا أنه ما ثم إلاّ الله.

ومن الأولياء أيضاً: الكرماء من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله بكرم النفوس

فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٢] أي لم ينظروا لما أسقط الله النظر إليه فلم يتدنسوا بشيء منه، فمرّوا به غير ملتفتين إليه كراماً، فما أثر فيهم فإنه مقام تستحليه النفوس وتقبل عليه للمخالفة التي جبلها الله عليها، وهذه هي النفوس الأبية أي تأبى الرذائل، فهي نفوس الكرام من عباد الله، والتحق بهذه الصفة بالملأ الأعلى الذين قال الله فيهم أنّ صحفه ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [سورة عبس: الآيتان ١٥ و١٦] فنعتهم بأنهم كرام، فكل وصف يلحقك بالملأ الأعلى فهو شرف في حقك، فإن العارفين من عباد الله يجعلون بينهم وبين نعوت الحق عند التحاق بأسمائه ما وصف الله به الملأ الأعلى من تلك الصفة فيأخذونها من حيث هي صفة لعبيد من عباد الله مطهرين لا من حيث هي صفة للحق تعالىٰ، فإن شرفهم أن لا يبرحوا من مقام العبودية، وهذا الذوق في العارفين عزيز، فإن أكثر العارفين إنما يتخلقون بالأسماء الحسنى من حيث ما هي أسماء الله تعالىٰ لا من حيث ما ذكرناه من كون الملأ الأعلى قد اتصف بها على ما يليق به، فلا يتخلق العارف بها إلاّ بعد أن اكتسبت من اتصاف الملأ الأعلى روائح العبودة، فمثل هؤلاء لا يجدون في التخلّق بها طعماً للربوبية التي تستحقها هذه الأسماء، فمن عرف ما ذكرناه وعمل عليه ذاق من علم التجلّي ما لم يذقه أحد ممّن وجد طعم الربوبية في تخلّقه، وصفات أولياء الله في كتاب الله المودع كلام الله كثيرة، ومن أعلى الثناء وأكمله ما أوقع الاشتراك فيه بما يدل على المفاضلة، وأكثر من هذا التنزّل الإلهيّ ما يكون، ولولا أنّ الكيان مظاهر الحق فكان نزوله منه إليه لما أطاق العارفون حمل كلام الحق ولا سماعه، فجعل نفسه أرحم الراحمين بعباده، وأحكم الحاكمين بفصل قضائه، وأحسن الخالقين بتقديره، وخير الغافرين بستر جلاله، وخير الفاتحين لمغالق غيوبه، وخير الفاصلين بأحكام حكمته، فهم لأماناتهم وعهدهم راعون بكلاءته، وبشهاداتهم قائمون بين يديه في بساط جلاله، وداعون إليه على بيّنة منه وبصيرة بما يطلبه حسن بلائه، وهم العاملون بأوامره، والراسخون في العلم بشهادة توحيده بلسان إيمانه، وأولو الأبصار بالاعتبار في مخلوقاته، وأولو النهى بما زجرهم به في خطابه، وأولو الألباب بما حفظهم من الاستمداد لبقاء نوره، وهم العارفون عن الناس لما حجبهم به عن الاطلاع إلى سابق علمه، والكاظمون الغيظ لتعدّي حدوده، والمنفقون مما استخلفهم فيه أداء أمانة لمن شاء من عبيده، والمستغفرون بالأسحار عند تجلّيه من سمائه، والشاكرون لما أسداه من آلائه، والفائزون بما وهبهم من معرفته، والسابقون على نجب الأعمال إلى مرضاته، والأبرار بما غمرهم به من إحسانه، والمحسنون بما أشهدهم من كبريائه، والمصطفون من بين الخلائق باجتبائه، والأعلون بإعلاء كلمته على كلمة أعدائه، والمقرّبون بين أسمائه وأنبيائه، والمتفكرون فيما أخفاه من غامض حكمته في أحكامه، والمذكرون من نسي إقراره بربوبيته عند أخذ ميثاقه، والناصرون أهل دينه على من ناوأهم فيه ابتغاء منازعته وإن كان بقضائه، أولئك عباد الله الذين ليس لأحد عليهم سلطان لكونهم من أهل الحجة البالغة، لما تكلموا بالنيابة عنه في كلامه فهو لسانهم، وسمعهم، وبصرهم، ويدهم، في نوره وظلماته، ولو تقصينا ما ذكر الله في كتابه من

صفات أوليائه وشرحنا ما خصّوا به لم يف بذلك الوقت، فإذ ولا بدّ من الاقتصاد في الاقتصار، فليكف هذا القدر الذي ذكرناه من ذلك إجمالاً وتفصيلاً وموقتاً وغير موقت.

واعلم أنه من شم رائحة من العلم بالله لم يقل: لم فعل كذا؟ وما فعل كذا؟ وكيف يقول العالم بالله لم فعل كذا وهو يعلم أنه السبب الذي اقتضى كل ما ظهر وما يظهر وما قدم وما أخّر وما رتب لذاته، فهو عين السبب، فلا يوجد لعلة سواه، ولا يعدم سبحانه وتعالىٰ عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً، فمشيئته عرش ذاته، كذا قال أبو طالب المكّي إن عقلت، فإن فتح لك في علم نسب الأسماء الإلهية التي ظهرت بظهور المظاهر الإلهية في أعيان الممكنات فتنوّعت وتجنست وتشخصت ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٠] و ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [سورة النور: الآية ٤١] فسبب ظهور كل حكم في عينه اسمه الإلهي، وليست أسماؤه سوى نسب ذاتية فاعقل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء التاسع والسبعون.

(الجزء الثمانون)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل من هذا الباب

اعلم أن الدعاوى لما استطال لسانها في هذا الطريق من غير المحققين قديماً وحديثاً جرّد الإمام صاحب الذوق التام محمد ابن عليّ الترمذيّ الحكيم مسائل تمحيص واختبار وعددها مائة وخمسة وخمسون سؤالاً لا يعرف الجواب عنها إلاّ من علمها ذوقاً وشرباً، فإنها لا تنال بالنظر الفكريّ ولا بضرورات العقول، فلم يبق إلاّ أن يكون حصولها عن تجلّ إلهيّ في حضرة غيبية بمظهر من المظاهر، فوقتاً يكون المظهر جسمياً، ووقتاً يكون جسمانياً، ووقتاً جسدياً، ووقتاً يكون المظهر روحياً، ووقتاً روحانياً. وهذا الباب من هذا الكتاب ممّا يطلب إيضاح تلك المسائل وشرحها، فجعلت هذا الباب مجلاها إن شاء الله تعالىٰ، فمن ذلك.

السؤال الأوّل: كم عدد منازل الأولياء؟ الجواب: اعلم أن منازل الأولياء على نوعين: حسّيّة ومعنوية، فمنازلهم الحسّيّة في الجنان وإن كانت الجنة مائة درجة. ومنازلهم الحسّيّة في الدنيا أحوالهم التي تنتج لهم خرق العوائد، فمنهم من يتبرز فيها كالأبدال وأشباههم، ومنهم من تحصل له ولا يظهر عليه شيء منها وهم الملامتية وأكابر العارفين وهي تزيد على مائة منزل وبضعة عشر منزلاً وكل منزل يتضمن منازل كثيرة فهذه منازلهم الحسّيّة في الدارين، وأما منازلهم المعنوية في المعارف فهي مائتا ألف منزل وثمانية وأربعون ألف منزل محققة لم ينلها أحد من الأمم قبل هذه الأمّة وهي من خصائص هذه الأمّة ولها أذواق مختلفة لكل ذوق وصف خاص يعرفه من ذاقه، وهذا العدد منحصر في أربعة مقامات: مقام العلم اللدنيّ، وعلم النور، وعلم الجمع والتفرقة، وعلم الكتابة الإلهية. ثم بين هذه المقامات مقامات من

جنسها تنتهي إلى بضع ومائة مقام كلها منازل للأولياء، ويتفرّع من كل مقام منازل كثيرة معلومة العدد يطول الكتاب بإيرادها، وإذا ذكرت الأمهات عرف ذوق صاحبها، فأما العلم اللدنيّ فمتعلقه الإلهيات وما يؤدي إلى تحصيلها من الرحمة الخاصة، وأما علم النور فظهر سلطانه في الملأ الأعلى قبل وجود آدم بآلاف من السنين من أيام الرب، وأما علم الجمع والتفرقة فهو البحر المحيط الذي اللوح المحفوظ جزء منه، ومنه يستفيد العقل الأول، وجميع الملأ الأعلى منه يستمدون، وما ناله أحد من الأمم سوى أولياء هذه الأمّة، وتتنوّع تجلياته في صدورهم على ستة آلاف نوع ومئين، فمن الأولياء من حصل جميع هذه الأنواع كأبي يزيد البسطاميّ وسهل بن عبد الله، ومنهم من حصل بعضها، وقد كان للأولياء في سائر الأمم من هذه العلوم نفثات روح في روع وما كمل إلاّ لهذه الأمة تشريفاً لهم وعناية بهم لمكانة نبيهم سيدنا محمد ﷺ.

وفيه من خفايا العلوم التي هي بمنزلة الأصول ثلاثة علوم: علم يتعلق بالإلهيات، وعلم يتعلق بالأرواح العلوية، وعلم يتعلق بالمولدات الطبيعية، فما يتعلق منه بالإلهيات على قدم واحدة لا يتغير وإن تغيرت تعلقاته، والذي يتعلق منه بالأرواح العلوية فيتنوّع من غير استحالة والذي يتعلق بالمولدات الطبيعية يتنوّع ويستحيل باستحالاتها وهو المعبر عنه بـ: ﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [سورة النحل: الآية ٧٠] فإن المواد التي حصل له منها هذا العلم استحالت فالتحق العلم بها بحكم التبعية، وكما هي أصولها ثلاثة علوم، فالأولياء فيها على ثلاث طبقات: الطبقة الوسطى منهم لهم مائة ألف منزل وثلاثة وعشرون ألف منزل وستمائة منزل وسبعة وثمانون منزلاً أمهات يحتوي كل منزل منها على نازل لا يتسع الوقت لحصرها لتداخل بعضها في بعضها ولا ينفع فيها إلاّ الذوق خاصة، وما بقي من الأعداد فمقسم بين الطبقتين وهما اللذان ظهرا برداء الكبرياء وإزار العظمة، غير أن لهما من إزار العظمة ممّا يزيد على هذا الذي ذكرناه ألف منزل وبضعة وعشرون منزلاً، لهذه المنازل خصوص وصف لا يوجد في منازل رداء الكبرياء، وذلك أن رداء الكبرياء مظهره من الاسم الظاهر، والإزار مظهر من الاسم الباطن، والظاهر هو الأصل والباطن نسبة حادثة ولحدوثها كانت لها هذه المنازل، فإن الفروع محل الثمر فيوجد في الفرع ما لا يظهر في الأصل وهو الثمرة وإن كان مددهما من الأصل وهو الاسم الظاهر لكن الحكم يختلف، فمعرفتنا بالرب تحدث عن معرفة بالنفس لأنها الدليل من عرف نفسه عرف ربّه، وإن كان وجود النفس فرعاً عن وجود الرب فوجود الرب هو الأصل ووجود العبد فرع، ففي مرتبة يتقدم فيكون له الاسم الأول، وفي مرتبة يتأخر فيكون له الاسم الآخر، فيحكم له بالأصل من نسبة خاصة، ويحكم له بالفرع من نسبة أخرى، هذا يعطيه النظر العقليّ، وأما ما تعطيه المعرفة الذوقية فهو أنه ظاهر من حيث ما هو باطن، وباطن من عين ما هو ظاهر، وأول من عين ما هو آخر، وكذلك القول في الآخر، وإزار من نفس ما هو رداء ورداء من نفس ما هو إزار لا يتصف أبداً بنسبتين مختلفتين كما يقرّره ويعقله العقل من حيث ما هو ذو فكر، ولهذا قال أبو سعيد الخرّاز، وقد قيل له: بم

عرفت الله؟ فقال: بجمع بين الضدين، ثم تلا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] فلو كان عنده هذا العلم من نسبتين مختلفتين ما صدق قوله بجمعه بين الضدّين، ولو كانت معقولية الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية في نسبتها إلى الحق معقولية نسبتها إلى الخلق لما كان ذلك مدحاً في الجناب الإلهيّ، ولا استعظم العارفون بحقائق الأسماء ورود هذه النسب بل يصل العبد إذا تحقق بالحق أن تنسب إليه الأضداد وغيرها من عين واحدة لا تختلف، وإذا كان العبد يتصوّر في حقّه وقوع هذا فالحق أجدر وأولى إذ هو المجهول الذات، فمثل هذه المعرفة الإلهية لا تنال إلاّ من هذه المنازل التي وقع السؤال عنها.

وأما عدد الأولياء الذين لهم عدد المنازل فهم ثلاثمائة وستة وخمسون نفساً، وهم الذين على قلب آدم، ونوح، وإبراهيم، وجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وهم ثلاثمائة وأربعون وسبعة وخمسة وثلاثة وواحد فيكون المجموع ستة وخمسين وثلاثمائة، هذا هو عند أكثر الناس من أصحابنا وذلك للحديث الوارد في ذلك.

وأما طريقتنا وما يعطيه الكشف الذي لا مرية فيه فهو المجموع من الأولياء الذين ذكرنا أعدادهم في أول هذا الباب ومبلغ ذلك خمسمائة نفس وتسعة وثمانون نفساً منهم واحد لا يكون في كل زمان وهو الختم المحمدي وما بقي فهم في كل زمان لا ينقصون ولا يزيدون. وأما الختم فهذا زمانه وقد رأيناه وعرفناه تمّم الله سعادته علمته بفاس سنة خمس وتسعين وخمسمائة، والمجمع عليه من أهل الطريق أنهم على ست طبقات: أمهات أقطاب، وأئمة، وأوتاد، وأبدال، ونقباء، ونجباء. وأما الذين زادوا على هؤلاء في الكشف فطبقات الرجال عندهم الذي يحصرهم العدد ولا يخلو عنهم زمان خمس وثلاثون طبقة لا غير ومرتبة الختمين ولكن لا يكونان في كل زمان، فلهذا لم نلحقهما بالطبقات الثابتة في كل زمان.

السؤال الثاني: أين منازل أهل القربة؟ الجواب: بين الصدّيقية ونبوّة الشرائع، فلم تبلغ منزلة نبي التشريع من النبوّة العامة ولا هو من الصدّيقين الذين هم أتباع الرسل لقول الرسل وهو مقام المقرّبين، وتقريب الحق لهم على وجهين: وجه اختصاص من غير تعمّل كالقائم في آخر الزمان وأمثاله، ووجه آخر من طريق التعمّل كالخضر وأمثاله، والمقام واحد ولكن الحصول فيه على ما ذكرناه، ومن ثم يتبين الرسول من النبيّ ويعمّ الجميع هذا المقام وهو مقام المقربين والأفراد، وفي هذا المقام يلتحق البشر بالملأ الأعلى، ويقع الاختصاص الإلهيّ فيما يكون من الحق لهؤلاء. وأما المقام فداخل تحت الكسب وقد يحصل اختصاصاً ولهذا يقال في الرسالة أنها اختصاص وهو الصحيح، فإنّ العبد لا يكتسب ما يكون من الحق سبحانه فله التعمّل في الوصول، وما له تعمّل فيما يكون من الحق له عند الوصول، ومن هناك منبع العلم اللدنيّ الذي قال الله فيه في حق عبده الخضر: ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] المعنى: آتيناه رحمة علماً من عندنا وعلمناه من لدنا وهو من الأربعة المقامات الذي هو: علم الكتابة الإلهية، وعلم الجمع والتفرقة، وعلم النور، والعلم اللدنيّ.

واعلم أنّ منزل أهل القربة يعطيهم اتصال حياتهم بالآخرة، فلا يدركهم الصعق الذي يدرك الأرواح بل هم ممّن استثنى الله تعالىٰ في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٨] وهذا المنزل هو أخصّ المنازل عند الله وأعلاها، والناس فيه على طبقات ثلاث: فمنهم من يحصله برمته وهم الرسل صلوات الله عليهم وهم فيه على درجات يفضل بعضهم بعضاً. ومنهم من يحصل منه الدرجة الثانية وهم الأنبياء صلوات الله عليهم الذين لم يبعثوا بل تعبدوا وبشريعة موقوفة عليهم، فمن اتبعهم كان، ومن لم يتبعهم لم يوجب الله على أحد أتباعهم وهم فيها على درجات يفضل بعضهم بعضاً. والطبقة الثالثة هي دونهما درج النبوّة المطلقة التي لا يتخلل وحيها ملك. ودون هؤلاء الطبقات هم الصدّيقون الذين يتبعون المرسلين، ودون هؤلاء الصديقين الصديقون الذين يتبعون الأنبياء من غير أن يجب ذلك عليهم، ودون هؤلاء الصدّيقين الذين يتبعون أهل الطبقة الثالثة وهم الذين انطلق عليهم اسم المقرّبين أعني أهل الطبقة الثالثة، ولكل طبقة ذوق لا تعلمه الطبقة الأخرى. ولهذا قال الخضر لموسىٰ عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٨] والخبر الذوق وهو علم حال. وقال الخضر لموسىٰ: أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا.

السؤال الثالث: فإن قيل: إنّ الذين حازوا العساكر بأيّ شيء حازوا؟ فلنقل في الجواب: نذكر أولاً ما معنى العساكر وما معنى حيازتهم لهم ثم نبين بأيّ شيء حازوا فإنّ هذا السائل إذا أرسل سؤاله من غير تقييد لفظيّ أو قرينة حال ينبغي للمجيب أن يجيب بالمعاني التي تدل عليها تلك الكلمة في اصطلاحهم، فمهما أخلّ بشيء منها فما وفى الكلمة حقّها. فاعلم أنّ العساكر قد يطلقونها ويريدون بها شدائد الأعمال والعزائم والمجاهدات كما قال القائل: ظلّ في عسكرة من حبّها أي في شدّة. واعلم أنّ مبنى هذا الطريق على التخلّق بأسماء الله فحاز هؤلاء العساكر بالتخلّق باسمه الملك، فإنّ الملك هو الذي يوصف بأنه يحوز العساكر، والملك معناه أيضاً الشديد، فلا تحاز الشدائد والعزائم إلاّ بما هو أشدّ منها، يقال: ملكت العجين إذا شدّدت عجنه. قال قيس بن الحطيم يصف طعنة: ملكت بها كفي فأنهزت فتقها، أي شدّدت بها كفي حين طعنته، فحازوا العساكر بالطريقين باسمه الملك، فأمّا الشدائد التي حازوها في هذا الباب فهي البرازخ التي أوقفهم الحق في حضرة الأفعال من نسبتها إلى الله ونسبتها إلى أنفسهم، فيلوح لهم ما لا يتمكن لهم معه أن ينسبوها إلى أنفسهم، ويلوح لهم ما لا يتمكن لهم معه أن ينسبوها إلى الله، فهم هالكون بين حقيقة وأدب، والتخليص من هذا البرزخ من أشدّ ما يقاسيه العارفون، فإنّ الذي ينزل عن هذا المقام يشاهد أحد الطرفين، فيكون مستريحاً لعدم المعارض.

واعلم أن صاحب هذا المقام هو الذي أعلمه الله بجنوده الذي لا يعلمها إلاّ هو قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [سورة المدثر: الآية ٣١] وقال: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٧٣] فصاحب هذا المقام يعرفه جنود الله الذين لا حاكم عليهم في شغلهم إلاّ الله

ولهذا نسبهم إليه، فهم الغالبون الذين لا يغلبون، فمنهم الريح العقيم، ومنهم الطير التي أرسلت على أصحاب الفيل، وكل جند ليس لمخلوق فيه تصريف هم العساكر التي حازها صاحب هذا المقام علماً. وقال ﷺ فيهم: «**نُصِرتُ بالصَّبَا**» وقال: «**نُصِرتُ بِالرُّعبِ بَيْنَ يَدَي مَسِيرَةِ شَهرٍ**» فإذا منح الله صاحب هذا المقام علم هؤلاء العساكر رمى بالحصى في وجوه الأعداء فانهزموا، كما رمى رسول الله ﷺ في غزوة حنين فله الرمي وهم لا يكون منهم غلبة إلاّ بأمر الله ولهذا قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فكل منصور بجند الله فهو دليل على عناية الله به، ولا يكون منصوراً بهم على الاختصاص إلاّ بتعريف إلهي، فإن نصره الله من غير تعريف إلهيّ فليس هو من هذه الطبقة التي حازت العساكر، فلا بدّ من اشتراط النصر حقاً في ذلك القصد، وصاحب هذا المقام يعين لأصحابه مصارع القوم كما فعل رسول الله ﷺ في غزوة بدر، فإنه ما من شخص من أجناد الله إلاّ وهو يعرف عين من سلط عليه ومتى يسلط عليه وأين يسلط عليه فتتشخص الأجناد لصاحب هذا المقام في الأماكن التي هي مصارع القوم، كل شخص على صورة المقتول وباسمه، فيراه صاحب هذا المقام فيقول: هذا هو مصرع فلان، وهذا هومقام الإمام الواحد من الإمامين، وأقرب شيء ينال به هذا المقام البغض في الله والحب في الله، فتكون هم هذه الطبقة وأنفاسهم من جملة العساكر التي حازوها بما ذكرناه، وهو الموالاة في الله والعداوة في الله عن عزم وصدق، مع كونهم لا يرون إلاّ الله، فيجدون من الانضغاط وكظم الغيظ ما لا يعلمه إلاّ الله، والعين تحرسهم في باطنهم، هل ينظرون في ذلك أنه غير الله؟ فإذا تحققوا ذلك حازوا عساكر الحق التي هي أسماؤه سبحانه إذ أسماؤه تعالى عساكره وهي التي يسلطها على من يشاء ويرحم بها من يشاء، فمن حاز أسماء الله فقد حاز العساكر الإلهية، ورئيس هؤلاء الأجناد الأسمائية، كما قلنا الاسم الملك هو المهيمن عليها، ومن عداه فأمثال السدنة له، ويكفي هذا القدر في الجواب عن هذا السؤال.

السؤال الرابع: فإن قال: إلى أين منتهاهم؟ قلنا في الجواب: لا شك ولا خفاء أن أهل هذه الطبقة هم أصحاب عقد وعهد وهو قوله: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢٣] فإذا حصلت هذه الطبقة فيما قلنا في غزوهم وسلكوا سبيل جهادهم كان منتهاهم إلى حلّ ما عقدوا عليه ونقض ما عسكروا إليه، وذلك أن الأعيان التي عسكروا لها وعقدوا مع الله أن يبيدوها فلما توجهوا بعساكرهم التي أوردناها إليها كانت آثار تلك العساكر فيها إيجاد أعيانها وهو خلاف مقصود العارف بهذه العساكر، إذ كان المقصود إذهاب أعيانها وإلحاقها بمن لا عين له، وما علم أن الحقائق لا تتبدّل، وأن آثار العساكر فيها الوجود، إذ كان سبق العدم لها لعينها، فلا تؤثر فيها هذه العساكر العدم لأن العدم لها من نفسها فلم يبق إلاّ الوجود، فوقع غير مقصود العارف، وعلم عند ذلك العارف أن تلك الأعيان مظاهر الحق فكان منتهاهم إليه وبدأهم منه وليس وراء الله مرمى. فإن قلت: فالذات الغنية عن العالمين وراء الله. قلنا: ليس الأمر كما زعمت بل الله

وراء الذات وليس وراء الله مرمى، فإن الذات متقدّمة على المرتبة في كل شيء بما هي مرتبة لها، فليس وراء الله مرمى، فحصلوا من العلم بالله ما لم يكن عندهم بالقصد الأول حين حازوا العساكر. وكان الذي حجبهم ابتداء عن هذه المعرفة غيرتهم أن يشترك الحق مع كون من الأكوان في حال أو عين أو نسبة، فلهذا كان مقصودهم أن يلحقوا الأعيان بمطلق العدم، وهو المقام الذي تشير إليه الباطنية بقولها في جواب من يقول لها الله موجود فنقول: ليس بمعدوم، فإذا قلت لهم: الله حيّ، تقول: ليس بميت، فإن قيل لهم: فالله قادر، قالت: ليس بعاجز، فلا تجيب قط بلفظة تعطي الاشتراك في الثبوت فتجيب بالسلب وهذا كله من باب الغيرة ولا تقدر نفي الأعيان، فتستعين بهؤلاء العساكر على إعدام هذه الأعيان وزوال حكم الثبوت منها، فتجد العساكر توجدها وتكسوها حلة الوجود، فإذا رأت أنها مظاهر الحق رضيت بأن تبقيها أعياناً ثابتة ولا تراها موجودة، ويكون عين شهودها ناظرة فيها إلى وجود الحق، وأنه لا وجود اكتسبته من الحق، بل حكمها مع الوجود حكمها ولا وجود، وأن الذي ظهر ما هو غير هذا غايتها وهو قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ﴾ [سورة النازعات: الآية ٤٤] فكان منتهاها ربها.

فأما من كانت عساكره العزائم فمنتهاه إلى الرخص من طريقين: الطريق الواحدة أحدية المحبة فيهما فيكون منتهاهم إلى شهودها، وهو الذي أشار إليه ﷺ بقوله: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَىٰ رُخَصُهُ كَمَا تُؤْتَىٰ عَزَائِمُهُ**» فينحل عقد الأخذ بالعزائم بهذه المشاهدة لكونه يفوته من العلم بالله على قدر ما فاته من الأخذ بالرخصة، والطريقة الأخرى تنتهي بهم إلى شهود كونه في العزائم هو عين كونه في الرخص وهم لا نسبة لهم في واحدة منهما، فينحل ما عقدوا عليه انحلالاً ذاتياً لا تعمل لهم فيه، ومن هذا المقام يقول بعضهم بتفضيل الرسل بعضهم على بعض، على أنه في نفس الأمر كما ورد في الخطاب من قوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] فينتهي بهم هذا الأمر إلى حل عقد التفضيل بقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٥] ومن فضل فقد فرّق، فلولا وحدانية الأمر لما كان عين الجمع عين الفرق، كما أن السالك يمشي حنبلياً أو حنفياً مقتصراً على مذهب بعينه يدين الله به لا يرى مخالفته، فينتهي به هذا المشهد إلى أن يصبح يتعبد نفسه بجميع المذاهب من غير فرقان، ومن هنا يبطل النسخ عنده الذي هو رفع الحكم بعد ثبوته لا انقضاء مدّته، فإلى ما ذكرناه منتهاهم على حسب ما أعطته عساكرهم فإن العساكر تختلف، فإن جند الرياح ما هي جند الطير، وجند الطير ما هو جند المعاني الحاصلة في نفوس الأعداء كالروع والجبن، فمنتهى كل عسكر إلى فعله الذي وجه إليه من حصار قلعة وضرب مصاف أو غارة أو كبسة كل عسكر له خاصية في نفس الأمر لا يتعدّاه، قال تعالى في الطير: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ﴾ [سورة الفيل: الآية ٤] وقال في الريح: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٤٢] وقال في الرعب: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢] فانظر منتهى كل عسكر إلى ما أثر في نفس من عسكر إليه. فالحق لا يتقيد إذ كان هو عين كل قيد، فالناس بين

محجوب وغير محجوب، جعلنا الله ممّن أشهد الحق في عين حجابه، وفي رفع حجابه، وفيما كان له من وراء حجابه.

السؤال الخامس: فإن قيل: قد عرفنا أبنية منازل أهل القربة، وأبنية منتهى العساكر، ومنتهى من حازها، فأين مقام أهل المجالس والحديث؟ قلنا في الجواب: أما أهل المجالس المحدثون فمجالسهم خلف الحجاب الأنزل الأقدس في النزول ولهم ست حضرات، لهم في الحضرة الأولى ثمانية مجالس، المجلس الثاني والسادس يسمى مجالس الراحات وهي من باب رفق الله بالعباد الذين لهم هذه الأحوال، ومجلسان الأول الذي هو الرابع والثامن فهما مجلسا الجمع بين العبد والرب، ومجلس الفصل بين العبد والرب على مراتب أبينها، وأما الأربعة مجالس التي بقيت فالحديث فيها على مراتب متعدّدة، وكذلك الحضرة الثانية، والحضرة الرابعة فيها ثمانية مجالس على ما ذكرناه، وأما في الحضرة السادسة فمجلسان، وأما في الحضرة الثالثة فستة مجالس، وأما في الحضرة الخامسة فأربعة مجالس، وانتهت أمهات مجالس أهل الحديث مع الله من حيث هم محدثون لا من حيث لهم مجالس.

وأما أهل المجالس لا من كونهم محدثين فهم أهل الشهود، وهم على أربع مراتب في مجالسهم، فالمحدثون جلوسهم من حيث هم من خلف ذلك الحجاب، وأهل المجالس فمن حيث المراتب التي أعدّ لهم الحق فمنهم من أعدّ لهم منابر، ومنهم من أعدّ لهم أرائك، ومنهم من أعدّ لهم كراسي، ومنهم من أعدّ لهم درائك، والكل يشهدون جليسهم من غير حديث من الطرفين، فلنذكر مجالس أهل الحديث وهي ثمانية وأربعون مجلساً، وعند الترمذيّ الحكيم ستة وخمسون مجلساً لأن الترمذيّ يراعي من الإنسان حظ طبعه فيزيد اثني عشر مجلساً وهو الصحيح، ومن يقتصر منّا في الإنسان على روحانيته من غير طبيعته فهي ستة وثلاثون مجلساً. فلهذا وقع الخلاف بيننا وبين العلماء من أهل هذه المجالس، فمنا من اعتبر ذلك ومنا من لم يعتبر والأولى اعتبارها.

فأما مجالس الجمع بين العبد والرب فأربعة مجالس يعلم فيما يحادثه به الحق فيها كيف يخاطب الخلق من أجل الله وكيف يثني على الحق تبارك وتعالىٰ ويعلم معنى قوله: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [سورة النمل: الآية ٨] ويحادثه فيها بمثل قوله: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾ [سورة المائدة: الآية ٨٨] فيعرف من أين طيب له وبما طيب له وبما طاب له، ويعلم الاسم الآخر ما نسبته إلى الحق وما حظ العبد منه، ويعلم ما يقول كلما ورد على ملأ أعلى من روح وبشر في السموات والأرض، ويعلم شهادة التوحيد بالنسبة إلى الله، وبالنسبة إلى الملائكة، وبالنسبة إلى العلماء من البشر الحاصلة لهم من باب الشهود لا من باب الفكر، ويعلم منازل الرسل ومن أين خصّوا بما خصّوا به، وبماذا يفضل بعضهم بعضاً، وبماذا لا يفضل، ومن أيّ نسبة ينسبون إلى الله، وأشياء غير هذا محصورة.

وأما مجالس الفصل فيحصل فيها ما يحصل في هذه المجالس من طريق أخرى وذوق

آخر، غير أنه يختلف عليه الحال عند انتهاء المجالسة بمشاهدة أسماء إلهية لم يكن يعرفها قبل ذلك، أو بمشاهدة أسماء إلهية من حيث أعيان أكوان خاصة، أو بمشاهدة أعيان أكوان خاصة من غير ارتباط بأسماء إلهية وإن كانت في نفس الأمر مرتبطة بها، ولكن يكون بينها وبين هذا العبد حجاب رقيق. وأما المجالس الأربعة التي بقيت ذات المراتب فسأذكر ما يكون فيها وفي هذه الست الحضرات من الحديث في الفصل الثامن في سؤاله ما حديثهم ونجواهم، وهذه المجالس أيضاً توجد في الحضرة الثانية والرابعة، وأما الحضرة الثالثة فمجالسها ستة مجالس، وأما الحضرة الخامسة ففيها أربعة مجالس، وأما الحضرة السادسة ففيها مجلسان، وهذه كلها مجالس أهل الحديث لا مجالس الشهود إلاّ عند بعض العارفين، فإنه قد تكون مجالس شهود متخيل من خلف حجاب الخيال، وأما الاثنا عشر مجلساً الذي لهم على مذهب الترمذيّ كما قرّرنا وهي تمام الثمانية والأربعين مجلساً فحديثهم فيها نذكره عند ذكر الستة والثلاثين مجلساً في الفصل الثامن إن شاء الله فإن ذلك الفصل سورته.

السؤال السادس: فإن قلت: كم عددهم؟ قلنا في الجواب: عدد أهل بدر أهل الحديث منه أربعون نفساً وما بقي فلهم مجالس الشهود من غير حديث، فإن الحديث للحضور مع المعنى الذي يعطيه الكلام لا مع المتكلم، إلاّ أن يكون المتكلم بحيث يتخيله السامع فيجمع بين الحديث والشهود، ولكن ما هو الشهود المطلوب لأهل الأذواق؟ فلا بدّ أن تكون أنت من حيث أنت للاستفادة عند الحديث، ولكن يسمعه لا بعينك بل بظهوره فيك، فمن كونك مظهر تسمع ومن كونك عيناً تكون مظهراً فافهم، وقد أشار لسان الخبر الصدق إلى هذا العدد بقوله: «**مَنْ أَخْلَصَ لله أَرْبَعِينَ صَبَاحاً ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ**،» أي كان من الحديث بالله عن الله، والصباح ظهور عين العبد مظهراً لا عيناً، وبطون عينه في مظهره كبطون الليل عند وجود الصباح، والأربعون إشارة إلى أعيان هؤلاء الأشخاص فهو عين ما قلنا أن أهل الحديث منه أربعون نفساً، فبقي أهل المجالس من غير حديث مائتين وثلاثة وسبعين نفساً وهم تمام الثلاثمائة والثلاثة عشر، فجلوسهم جلوس مشاهدة للاستفادة من حيث أن أعيانهم مظهر لبصر الحق فيرونه به وهم غيب في ذلك المظهر، وتكون استفادتهم من ذلك التجلّي استفادة أصحاب الرصد، فتعطيهم الأرصاد العلوم من غير حديث لكنه حديث معنويّ بدلالات ظاهرة تقوم تلك الدلالات مقام الخطاب بالحروف والإشارات في عالم الحروف والإشارات، فالغرض الحاصل من هذه المجالس سواء كانت مجالس شهود أو حديث حصول علو ينتقش في عين هذا المظهر من نظر أو سماع وهؤلاء هم المعتنى بهم من أهل الله.

السؤال السابع: فإن قلت: بأيّ شيء استوجبوا هذا على ربهم تبارك وتعالىٰ؟ قلنا في الجواب: الأدب الإلهيّ إذ لا يجب على الله شيء بإيجاب موجب غير نفسه، فإن أوجب هو على نفسه أمراً ما فهو الموجب، والوجوب الموجب عليه لا غيره، ولكن إيجابه على نفسه لمن أوجب عليه مثل قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] يعني الرحمة الواسعة فأدخلها تحت التقييد بعد الإطلاق من أجل الوجوب، ومثل قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ

عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] الآية فهل هذا كله من حيث مظاهره أو هو وجوب ذاتيّ لمظاهره من حيث هي مظاهر لا من حيث الأعيان؟ فإن كان للمظاهر فما أوجب على نفسه إلاّ لنفسه، فلا يدخل تحت حدّ الواجب ما هو وجوب على هذه الصفة، فإن الشيء لا يذمّ نفسه، وإن كان للأعيان القابلة أن تكون مظاهر كان وجوبه لغيره، إذ الأعيان غيره والمظاهر هويته، فقل بعد هذا البيان ما شئت في الجواب، ويكون الجواب بحسب ما قيده الموجب، فاستوجبوا ذلك على ربهم في موطن بكونهم ﴿يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] على مفهوم الزكاة لغة وشرعاً ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٧] فهؤلاء طائفة مخصوصة وهم أهل الكتاب، فخرج من ليس بأهل الكتاب من هذا التقييد الوجوبيّ وبقي الحق عنده من كونه رحماناً على الإطلاق، واستوجبت طائفة أخرى ذلك على ربها ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] فقيد بالجهالة، فإن لم يجهل لم يدخل في هذا التقييد وبقيت الرحمة في حقّه مطلقة ينتظرها من عين المنة التي منها كان وجوده أي منها كان مظهراً للحق لتتميز عينه في حال اتصافها بالعدم عن العدم المطلق الذي لا عين فيه، ألا ترى إبليس كيف قال لسهل في هذا الفصل: يا سهل التقييد صفتك لا صفته، فلم ينحجب بتقييد الجهالة والتقوى عمّا يستحقه من الإطلاق فلا وجوب عليه مطلقاً أصلاً، فمهما رأيت الوجوب فاعلم أن التقييد يصحبه، وأما من رأى أنهم استوجبوا ذلك على ربهم من غير ما ذكره تعالىٰ عن نفسه فقالوا ببذلهم مراكبهم في زمان الزيادة طلباً للمواصلة وإيثار الجناب الحق في زعمهم وإن كان في ذلك نقص فهو عين الكمال التام بهذه المراعاة، فهذا عندي مثل ما قال الشاعر لعمر بن الخطاب حين حبسه: [البسيط]

ماذا تقولُ لأفراخ بذي مَرَخ ... حُمْرِ الحواصل لا ماءٌ ولا شَجَرُ
ألقيتَ كاسِبَهم في قعر مظلمةٍ ... فاغفِرْ هداك مليكُ الناس يا عمرُ
ما آثروك بها إذ قدّموك لها ... لا بل لأنفسهم قد كانت الأثرُ

فإن كانوا بذلوا مراكبهم عن طلب إلهيّ يقتضي ذلك وجوباً إلهياً كان مثل الأول، فإنه لو لم يرد عنه تعالىٰ الوجوب على نفسه لم نقل به فإنه سوء أدب من العبد أن يوجب على سيده، غير أن هنا لطيفة دقيقة لا يشعر بها كثير من العارفين بهذه المجالس وذلك أنه كما نطلبه لوجود أعياننا يطلبنا لظهور مظاهره فلا مظهر له إلاّ نحن ولا ظهور لنا إلاّ به، فبه عرفنا أنفسنا وعرفناه، وبنا تحقق عين ما يستحقه الإلٰه: [الهزج]

فلولاه لما كنّا ... ولولا نحنُ ما كانا
فإن قلنا بأنا هُوْ ... يكونُ الحقُّ إيانا
فأبدانا وأخفاه ... وأبداه وأخفانا
فكان الحقُّ أكوانا ... وكنا نحن أعيانا

فـيُـظْـهِـرُنـا لـنـظـهِـرَهُ سِـرَاراً ثـم إعْـلانـا

فلما وقفوا على هذه الحقائق من نفوسهم ونفوس الأعيان سواهم تميزوا على من سواهم بأن علموا منهم ما لم يعلموا من أنفسهم واطلع الحق على قلوبهم، فرأى ما تجلّت به ممّا أعطتها العناية الإلهية وسابقة القدم الربانيّ استوجبوا على ربهم ما استوجبوه من أن يكونوا أهلاً لهذه المجالس الثمانية والأربعين.

السؤال الثامن: فإن قلت عن أهل هذه المجالس ما حديثهم ونجواهم؟ قلنا في الجواب: بحسب الاسم الذي يقيمهم فلا يتعين علينا تعيينه ولكن الأصول الإلهية محفوظة، وذلك أن حديث أهل الحضرة الأولى في مجالستهم فيها والمجلس الأول الذي بين المثلين من اسمه الظاهر والمبدىء والباعث وكل اسم يعطي البروز ووجود الأعيان تحادث الحق فيه بلسان حياة الأرواح وحياة الهياكل السفلية في البرازخ وعالم الحس والمحسوس والعقل والمعقول، وبلسان من ضاع عن الطريق وانجبر إليه بعدما انكسر خاطره وخاف الفوت، وبلسان: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] أي بيّن أنه أعطى كل شيء خلقه ففرق بين قوله: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٣] وقوله له بعينه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] وقال لموسىٰ وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ [سورة طه: الآية ٤٤] ليُقابل به غلظة فرعون فينكسر لعدم المقاوم، إذ لم يجد قوّة تصادم غلظته فعاد أثرها عليه فأهلكته بالغرق فباللين هلك فرعون، فأعطى كل شيء خلقه في وقته فيحدث نشأة الإنسان مع الأنفاس ولا يشعر وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٦١] يعني مع الأنفاس وفي كل نفس له فينا إنشاء جديد بنشأة جديدة، ومن لا علم له بهذا فهو في ﴿لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق: الآية ١٥] لأن الحسّ يحجبه بالصورة التي لم يحسّ بتغييرها مع ثبوت عين القابل للتغيير مع الأنفاس، وبلسان طلب الاستقامة في المزاج ليصحّ نظر العقل في فكره، ومزاج الحواس فيما تنقل إليه، ومزاج القوىٰ الباطنة فيما تؤدّيه من الأمور للعقل، فإنه إذا اختلّ المزاج ضعفت الإدراكات عن صحة النقل فنقلت بحسب ماله انتقلت فكانت الشبه والمغالط فعقل العقل للجهل علماً فيصير العدم وجود أو بلسان إزاحة الأمور التي توجب عدم المواصلة والمراسلة، ففي الحضرة الأولى أربعة مجالس ممّا تشاكل ما ذكرناه، ومثلها في الثانية والرابعة، وأما في الحضرة الثالثة من هذه المجالس فثلاثة، وفي الخامسة اثنان، وفي السادسة واحدة على هذه المشاكلة، لكن في كل حضرة فنون مختلفة ولكن لا تخرج عن هذا الأسلوب، وأما مجالس الراحات في الحضرة الأولى والثانية والرابعة هي ستة مجالس فيها أحاديث معنوية عن مشاهدة كما قيل: [الطويل]

تَـكَـلَّـمُ مِـنَّـا فـي الـوجـوه عـيـونُـنـا فـنـحـن سـكـوتٌ والـهـوى يـتـكـلَّـمُ

وكما قلنا في هذا الشكل: [الخفيف]

والـهـوى بـيـنـنـا يـسـوق حـديـثـاً طـيـبـاً مُـطْـرِبـاً بـغـيـر لـسـانِ

وهي المجالس التي بين الضدّين يحصل منها علم الاعتماد والكشف عن الساق والبرزخ الذي بين الضدّين كالفاتر بين الحار والبارد، وكالإسماع بين المخافتة والجهر، وكالتبسم بين الضحك والبكاء، وكلّ ضدّين ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٠ ـ ٢١] فهو مجلس راحة، وليس بين النفي والاثبات برزخ وجوديّ، فصاحبه ينقطع في الحال لأحد الطرفين لأنه لا يجد حيث يستريح، فالبرازخ مواطن الراحات، ألا ترى أن الله جعل ﴿النوم سباتاً﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٧] أي راحة لأنه بين الضدّين: الموت والحياة، فالنائم لا حيّ ولا ميت، فأمثال هذه العلوم هي التي يقع بها الحديث لهم ونجواهم، وفي الحضرة الثالثة والخامسة مجلس واحد في كلّ حضرة، والحضرة السادسة لا مجلس فيها من مجالس الراحة، وأما مجالس الفصل بين العبد والربّ ففيه ذكرنا من حديثه طرفاً آنفاً في السؤال الرابع من هذه السؤالات، وأما الحضرة السادسة والخامسة فليس فيهما من هذه المجالس مجلس البتة، وأما مجالس الفصل الثاني بين العبد والربّ فهي ستة مجالس لا سابع لها في كلّ حضرة من الست مجالس واحد يفصل به بين العبد والربّ من حيث ما هو العبد عبد ومن حيث ما هو الربّ ربّ، ومجالس الفصل الأول بين العبد والربّ من حيث ما هو عبد لهذا الربّ، ومن حيث ما هو ربّ لهذا العبد، فهو فصل في عين وصل، وهذه المجالس الأخر فصل في فصول لا وصل فيها فيحصل له ما يشاء، كلّ هذا الفنّ من العلم الإلهيّ إذ كنت لا تعلمه إلاّ من نفسك، ولا تعلم نفسك إلاّ منه، فهو يشبه الدور ولا دور بل هو علم محقق.

وأما الاثنا عشر مجلساً التي يراها الترمذيّ الحكيم صاحب هذه السؤالات وبها تكمل الثمانية والأربعون من المجالس فإن الأرواح العلوية لا تعلمها وليس لها فيها قدم مع الله وهي مخصوصة بنا من أجل الدعوى، فإذا تجسدت الأرواح العلوية تبعث الدعوى جسديتها فربما تدعى فإن ادّعت ابتليت، وفي قصة آدم والملائكة تحقيق ما ذكرناه، فابتليت بالسجود جبراً لما أخذت من طهارتها الدعوى فكان ذلك للملائكة كالسهو في الصلاة للمصلي، فأمر المصلي أن يسجد لسهوه، كذلك أمرت الملائكة أن تسجد لدعواها، فإن الدعوى سهو في حقها فكان ذلك ترغيماً للدعوى لا لهم، كما كان سجود السهو منا ترغيماً للشيطان لا لنا فاعلم ذلك.

فأما هذه المجالس الإثنا عشر فستة منها تلتحق بالمجلس الذي بين المثلين والستة الباقية تلتحق بمجالس الفصل الثاني بين العبد من حيث ما هو عبد وبين الربّ من حيث ما هو ربّ، لكن تختلف الأذواق في ذلك آيات هذا السؤال من القرآن: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ [سورة يس: الآية ٤٠] وقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٩] وقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ [سورة التكوير: الآية ١٥] وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [سورة البروج: الآية ١] إلى آخرها والمدار على القطب. انتهى الجزء الثمانون.

(الجزء الحادي والثمانون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

السؤال التاسع: فإن قلت: فبأيّ شيء يفتتحون المناجاة؟ قلنا: في الجواب بحسب الباعث والداعي لها، وذلك أن الحق إذا أجلسهم هذه المجالس التي ذكرناها فإنما يجلسهم الحق فيها بعد قرع وفتح واستفتاح وذلك أنه سمعوا الحق يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ [سورة المجادلة: الآية ١٢] ثم قال: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ [سورة المجادلة: الآية ١٣] وقال في إنزال الرسول منزلة الحق نفسه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٤] وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] لأنه به يدعو إليه سبحانه. وقال ﷺ: «**الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَة**». وقال: «**يُصْبِحُ عَلَىٰ كُلِّ سُلامَى مِنِ ابْنِ آدَمَ صَدَقَةٌ**» وأفضل الصدقات تصدق الإنسان بنفسه، وأفضل ما يخرجها عليه من يخرجها على نفسه، فإذا إذا أراد العبد نجوى ربّه فليقدم بين يدي نجواه نفسه لنفسه فإن النجوى سامع ومتكلم، والعبد إن لم يكن الحق سمعه فمن المحال أن يطيق فهم كلام الله، وإن لم يكن الحق لسان العبد عند النجوى فمن المحال أن تكون نجواه صادقة الصدق الذي ينبغي أن يخاطب به الله، فإن الحق ناجى نفسه بنفسه، والعبد محل الاستفادة لأنها أمور وجودية والوجود كله هو عينه، والعبد يصدق بنفسه على نفسه لأنها أفضل الصدقات استفتاحاً لنجوى ربه، فكانت المناسبة بين النجوى وما افتتحت به كون الصدقة رجعت إليه وكون الحق كانت نجواه بينه وبينه، فما سمع الحق إلاّ الحق، ولا تصدق العبد إلاّ على العبد فصحّت الأهلية، فمن كان استفتاحه هكذا كان من أهل المجالس والحديث.

وأما مذهب الترمذيّ فإن الذي يفتتحون به المناجاة إنما هو تلبسهم بالكبرياء، ثم يتعرّون من بعضه بوجه خاص ويبقون عليهم ما يليق أن يسمع به كلام الحق ويكلم به الحق لتصحّ النجوى فيكون الابتداء من العبد، فيكوّن له الأولية في هذا الموطن وهو وجه صحيح وهذا هو الباعث الوضعيّ، والذي ذكرناه أولاً هو الباعث الذاتيّ، فإن نجوى هذه الطائفة في هذا الحال بمنزلة الصلاة في العامّة، فإنه من هذه الحضرة التي ذكرناها خرج التكليف بها على ألسنة الرسل للعباد وشرع فيها التكبير لما ذكرناه والصلاة مناجاة، ومن أهل الله من يجعل عاقبة الأمور استفتاحاً فيردها أولاً إذ كان المطلوب عين العواقب كمن يطلب الاستظلال، فأول ما يقع عنده وجود السقف وهو آخر ما يقع به الفعل لأنّ وجوده موقوف على وجود أشياء، فإذا كان من الأمور التي لا توقف لوجودها على شيء كان عين العاقبة عين السابقة، فيكون استفتاح العمل بالعاقبة وهي طريقة عجيبة عملنا عليها وناجينا بها في هذا المقام، ولكن لا بدّ أن تكون النجوى كما قرّرنا بسمع الحق وكلام الحق لأنّ الحقيقة تأبىٰ أن يكلمه غير نفسه أو يسمعه غير نفسه، فقد أعلمتك بماذا يفتتحونَ المناجاة أهل المجالس والحديث.

السؤال العاشر: فإن قلت: بأيّ شيء يختمونها؟ فلنقل في الجواب: بالمنزلة التي تعطيهم

ذلك الاستفتاح والافتتاح مختلف فالختام مختلف أيضاً فلا يتقيد، غير أنه ثم أمر جامع وهو الوقفة بين الاسمين: بين الاسم الذي ينفصل عنه وبين الاسم الذي يأخذ منه، فإن بينهما اسماً إلهياً خفياً به يقع الختم ولا يشعر به إلاّ أهل المجالس والحديث وهو وجود سار في جميع الموجودات لكن لا يشعر به لدقته، كالخط الفاصل بين الظل والشمس يعقل ولا يدرك بالحسّ، وهي الحدود بين الأشياء لها لكل من هي بينهما وجه خاص مع كونها لا تنقسم فهي بذاتها مع كل محدود، ولهذا يعزّ العثور على الحدود الذاتية بخلاف الحدود الرسمية واللفظية التي بأيدي العلماء فقد يكون ذلك الذي يختم به دليل كون، وقد يكون دليل عين، وقد يكون دليل ذات لا تقبل المظاهر، وهذا أعلى ما تختم به النجوى عندهم ودونه دليل كون وهو ما يعطي مظهراً ما ودونه دليل عين، وهو الذي لا يقبل التغيير، وهو المعبر عنه بباطن المظهر.

واعلم أن الأمر في النجوى دائرة تنعطف بطلب أوّلها فيكون عين الختم هو عين الافتتاح، فتنقسم بين أوّل وآخر وظاهر وباطن، فإذا ابتدأ فهو الظاهر، فإذا انتهى صار الظاهر باطناً وعاد الباطن ظاهراً فإن الحكم له، فيبطن الختم في الافتتاح عند البدء، ويبطن الافتتاح في الختام عند النهاية، قيل في رسول الله ﷺ إنه خاتم النبيين فبطن بظهور ختمه كونه نبياً وآدم بين الماء والطين، ولما ظهر كونه نبياً وآدم بين الماء والطين واستفتح به مراتب البشر كان كونه خاتم النبيين باطناً في ذلك الظهور، وأما الإلهية فالوجود منه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ﴾ بينهما ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فيهما ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] حيث أنتم مظاهر أسمائه الحسنى وبها تسعدون وتشقون ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٣٥] فسلم الأمر إليه واستسلم تكن موافقاً لما هو الأمر عليه في نفسه فتستريح من تعب الدعوى بين الافتتاح والختم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

السؤال الحادي عشر: بماذا يجابون؟ الجواب: بحسب حالهم ووقتهم، وحالهم ووقتهم بحسب الاسم الذي هو الحاكم فيهم بين الافتتاح والختم، فإنه بين الختم والافتتاح تكون أسماء كثيرة إلهية هي الناطقة في تلك الأعيان من أهل المجالس والحديث، فيكون الجواب بحسب ما وقع به حكم الاسم ولكن ما يجابون إلاّ باسم ولا بدّ، فإن كان الحديث معنوياً عن شهود فقد يقع الجواب بالذات معرّاة من الأسماء وهو بمنزلة المجاز من الحقيقة ويجتمع هذا مع الحديث في الإفادة والاستفادة، فمن راعى الاستفادة والإفادة ألحق هذا المقام بأهل المجالس والحديث، وهو الذي قصده الترمذيّ لكونه قال: أهل المجالس والحديث ولم يقل أهل الحديث خاصة، ومن الناس من لا يراعي سوى الحديث فلا يجعل في هذه الحضرة حكماً لحديث معنويّ حاليّ فإنه يقول: مطلبي الحقائق ولكنه صاحب هذا القول كأنه غير محقق، وما أوقعه في ذلك إلاّ تقيد الحديث بالألفاظ، وأما نحن فعلى مذهب الترمذيّ في ذلك فإنا ذقناه في المجالسة حديثاً معنوياً في غاية الإفهام معرى عن الاحتمال والإجمال، بل هو تفصيل محقق في عين واحدة وهو الذي يعوّل عليه في هذا الفصل.

السؤال الثاني عشر: كيف يكون صفة سيرهم يعني إلى هذه المجالس والحديث ابتداء؟

قلنا في الجواب: بالهمم المجرّدة عن السوى وبسط ذلك ما نقول، وهو أن الأمور المعنوية التي لا تقبل الموادّ ولا تحدّدها لا يصحّ السير إلى تحصيلها أو تحصيل ما يكون منها بقطع المسافات وتذريع المساحات، لكن قد يقترن بالهمة حركات مادية مبناها على علم أو إيمان بشرط التوحيد فبهما، فأما سيرهم من حيث ما هم علماء فبتصفية النفوس من كدورات الطبيعة واتخاذ الخلوات لتفريغ القلوب عن الخواطر المتعلقة بأجزاء الكون الحاصلة من إرسال الحواس في المحسوسات فتمتلىء خزانة الخيال فتصوّر القوّة المصوّر منها بحسب ما تعشقت به من ذلك، فتكون هذه الصور حائلة بينه وبين حصول هذه المرتبة الإلهية، فيجنحون إلى الخلوات والأذكار على جهة المدح لمن بيده الملكوت، فإذا صفت النفس وارتفع الحجاب الطبيعيّ الذي بينها وبين عالم الملكوت انطبع في مرآتها جميع ما في صور عالم الملكوت من العلوم المنقوشة، فيطلع الملأ الأعلى على هذه النفس التي هي بهذه المثابة فيرى فيها ما عنده فيتخذها مجلى ظهور ما فيه، فيكون الملأ الأعلى معيناً له أيضاً على استدامة ذلك الصفاء، ويحول بينه وبين ما يقتضيه حجاب الطبع، فتتلقى هذه النفس من العالم العلويّ بقدر مناسبتها منهم من العلم بالله، فيؤدّيهم ذلك العلم إلى التلقي من الفيض الإلهيّ ولكن بوساطة الأرواح النورية لا بدّ من ذلك فيسمّون ذلك سيراً، ولا بدّ من تجريد الهمم في الطلب لذلك، ولولا تعلق الهمة بتحصيل ما تقرّر عندها مجملاً ما صحّ له توجّه إلى الملأ الأعلى، فإن اتفق أن يكون هذا الرجل في سيره مع علمه مؤمناً أو يكون صاحب إيمان من غير علم فإن همته لا تتعلق إلاّ بالله، فإن الإيمان لا يدلّه إلاّ على الله، والعلم إنما يدله على الوسائط وترتيب الحكمة المعتادة في العالم، فصفة سير أصحاب الإيمان ما لهم طريق إلى ذلك إلاّ بعزائم الأمور المشروعة من حيث ما هي مشروعة وهم على قسمين: طائفة منهم قد ربطت همتها على أن الرسول إنما جاء منبهاً ومعلماً بالطريق الموصلة إلى جناب الحق تعالىٰ، فإذا أعطى العلم بذلك زال من الطريق وخلى بينهم وبين الله، فهؤلاء إذا سارعوا أو سابقوا إلى الخيرات وفي الخيرات لم يروا أمامهم قدم أحد من المخلوقين لأنهم قد أزالوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق كرابعة العدوية، فهؤلاء إذا حصلوا في المجالس والحديث خاطبهم الحق بالكلام الإلهيّ من غير وساطة لسان معين. وأما الطائفة الأخرى فهم قوم جعلوا في نفوسهم أنهم لا سبيل لهم إليه تعالىٰ إلاّ والرسول هو الحاجب، فلا يشهدون منه أمراً إلاّ ويرون في سيرهم قدم الرسول بين أيديهم ولا يخاطبهم إلاّ بلسانه ولغته كمحمد الأواني قال: تركت الكل ورائي وجئت إليه فرأيت أمامي قدماً فغرت وقلت لمن هذا اعتماداً مني أنه ما سبقني أحد وأني من أهل الرعيل الأوّل فقيل لي: هذه قدم نبيك فسكن روعي، والحالة الأولى هي حالة عبد القادر وأبي السعود بن الشبل ورابعة العدوية ومن جرى مجراهم، وأصحاب الإيمان إذا كانوا علماء جمع لهم بين الأمرين فهم أكمل الرجال بشرط أنه إذا ساروا إليه وأخذوا مجالسهم عنده بالحديث المعنويّ كما تقدم وحديث السمع رأوا سريان سرّه تعالىٰ في الموجودات من قوله: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً». ومن كونه ينزل إلى السماء الدنيا التي لا أقرب

منها فإنها أقرب من حبل الوريد، فالتحق عنده عالم الطبع بالعالم الروحانيّ وعاد الوجود عنده كله ملأ أعلى ومكانة زلفى فلم يحجبه كون ولا شغله عين، واستوى عنده الأين وعدم الأين وكان وما كان فرآه في الحجاب والعسس وسمع كلامه وحديثه في الغث والجرس هذا صفة سيرهم على طبقاتهم، ومنهم من كان سيره فيه بأسمائه فهو صاحب سير منه وإليه وفيه وبه، فهو سائر في وقوفه وواقف في سيره، والخضر والأفراد من أهل هذا المقام، ومن هنا كانت قرّة عينه ﷺ في الصلاة لأنه مناج مع اختلاف الحالات المحصورة من قيام وركوع وسجود وجلوس ما ثم أكثر من هذه الأركان وهي حالات تربيع روحانيّ فأشبهت العناصر في التربيع فحدثت صور المعاني من امتزاج هذه الحالات الأربعة كما حدثت صور المولدات الجسمية الطبيعية من امتزاج هذه العناصر.

السؤال الثالث عشر: فإن قلت: ومن الذي يستحق خاتم الأولياء كما يستحق محمد ﷺ خاتم النبوّة؟ فلنقل في الجواب: الختم ختمان: ختم يختم الله به الولاية، وختم يختم الله به الولاية المحمدية. فأما ختم الولاية على الإطلاق فهو عيسىٰ عليه السلام فهو الوليّ بالنبوّة المطلقة في زمان هذه الأمّة وقد حيل بينه وبين نبوّة التشريع والرسالة فينزل في آخر الزمان وارثاً خاتماً لا وليّ بعده بنبوّة مطلقة، كما أن محمداً ﷺ خاتم النبوّة لا نبوّة تشريع بعده وإن كان بعده مثل عيسىٰ من أولي العزم من الرسل وخواص الأنبياء ولكن زال حكمه من هذا المقام لحكم الزمان عليه الذي هو لغيره فينزل وليّاً ذا نبوّة مطلقة يشركه فيها الأولياء المحمديون فهو منا وهو سيدنا، فكان أوّل هذا الأمر نبيّ وهو آدم، وآخره نبيّ وهو عيسىٰ أعني نبوّة الاختصاص، فيكون له يوم القيامة حشران: حشر معنا وحشر مع الرسل وحشر مع الأنبياء. وأما ختم الولاية المحمدية فهي لرجل من العرب من أكرمها أصلاً ويداً وهو في زماننا اليوم موجود عرّفت به سنة خمس وتسعين وخمسمائة ورأيت العلامة التي له قد أخفاها الحق فيه عن عيون عباده وكشفها إليّ بمدينة فاس حتى رأيت خاتم الولاية منه، وهو خاتم النبوّة المطلقة لا يعلمها كثير من الناس، وقد ابتلاه الله بأهل الإنكار عليه فيما يتحقق به من الحق في سرّه من العلم به، وكما أن الله ختم بمحمد ﷺ نبوّة الشرائع كذلك ختم الله بالختم المحمديّ الولاية التي تحصل من الورث المحمديّ لا التي تحصل من سائر الأنبياء، فإن من الأولياء من يرث إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ فهؤلاء يوجدون بعد هذا الختم المحمديّ، وبعده فلا يوجد وليّ على قلب محمد ﷺ، هذا معنى خاتم الولاية المحمديّة. وأما ختم الولاية العامة الذي لا يوجد بعده وليّ فهو عيسىٰ عليه السلام، ولقينا جماعة ممّن هو على قلب عيسىٰ عليه السلام وغيره من الرسل عليهم السلام وقد جمعت بين صاحبيّ عبد الله وإسماعيل بن سودكين وبين هذا الختم ودعا لهما وانتفعا به والحمد لله.

السؤال الرابع عشر: بأيّ صفة يكون ذلك المستحق لذلك؟ الجواب: بصفة الأمانة وبيده مفاتيح الأنفاس وحالة التجريد والحركة، وهذا هو نعت عيسىٰ عليه السلام كان يحيي بالنفخ وكان من زهّاد الرسل، وكانت له السياحة، وكان حافظاً للأمانة مؤدّياً لها، ولهذا عادته

اليهود ولم تأخذه في الله لومة لائم، كنت كثير الاجتماع به في الوقائع، وعلى يده تبت، ودعا لي بالثبات على الدين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ودعاني بالحبيب وأمرني بالزهد والتجريد. وأما الصفة التي استحق بها خاتم الولاية المحمديّة أن يكون خاتماً فبتمام مكارم الأخلاق مع الله وجميع ما حصل للناس من جهته من الأخلاق، فمن كون ذلك الخلق موافقاً لتصريف الأخلاق مع الله، وإنما كان ذلك كذلك لأن الأغراض مختلفة، ومكارم الأخلاق عند من يتخلق بها معه عبارة عن موافقة غرضه، سواء حمد ذلك عند غيره أو ذمّ، فلما لم يتمكن في الوجود تعميم موافقة العالم بالجميل الذي هو عنده جميل نظر في ذلك نظر الحكيم الذي يفعل ما ينبغي كما ينبغي لما ينبغي فنظر في الموجودات فلم يجد صاحباً مثل الحق ولا صحبة أحسن من صحبته، ورأى أن السعادة في معاملته وموافقة إرادته، فنظر فيما حدّه وشرعه فوقف عنده واتبعه، وكان من جملة ما شرعه أن علمه كيف يعاشر ما سوى الله من ملك مطهر، ورسول مكرّم وإمام جعل الله أمور الخلق بيده من خليفة إلى عريف، وصاحب وصاحبة، وقرابة وولد، وخادم وداية، وحيوان ونبات وجماد في ذات وعرض، وملك إذا كان ممّن يملك، فراعى جميع من ذكرناه بمراعاة الصاحب الحق، فما صرف الأخلاق إلاّ مع سيده، فلما كان بهذه المثابة قيل فيه مثل ما قيل في رسوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: الآية ٤] قالت عائشة: «**كَانَ الْقُرْآنُ خُلُقَهُ يَحْمَدُ مَا حَمِدَ اللَّهُ وَيَذُمُّ مَا ذَمَّ اللَّهُ بِلِسَانِ حَقّ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ**» فلما طابت أعراقه وعمّ العالم أخلاقه ووصلت إلى جميع الآفاق أرفاقه استحق أن يختم بمن هذه صفته الولاية المحمدية من قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ جعلنا الله ممّن مهد له سبيل هداه ووفقه للمشي عليه وهداه.

السؤال الخامس عشر: فإن قلت: ما سبب الخاتم ومعناه؟ فلنقل في الجواب: كمال المقام سببه والمنع والحجر معناه، وذلك أن الدنيا لما كان لها بدء ونهاية وهو ختمها قضى الله سبحانه أن يكون جميع ما فيها بحسب نعتها له بدء وختام، وكان من جملة ما فيها تنزيل الشرائع، فختم الله هذا التنزيل بشرع محمد ﷺ فكان خاتم النبيين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٠] وكان من جملة ما فيها الولاية العامة، ولها بدء من آدم فختمها الله بعيسىٰ فكان الختم يضاهي البدء ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٩] فختم بمثل ما به بدأ، فكان البدء لهذا الأمر بنبيّ مطلق وختم به أيضاً.

ولما كانت أحكام محمد ﷺ عند الله تخالف أحكام سائر الأنبياء والرسل في البعث العام وتحليل الغنائم وطهارة الأرض واتخاذها مسجداً وأوتي جوامع الكلم ونصر بالمعنى وهو الرعب وأوتي مفاتيح خزائن الأرض وختمت به النبوّة عاد حكم كلّ نبيّ بعده حكم وليّ، فأنزل في الدنيا من مقام اختصاصه، واستحق أن يكون لولايته الخاصة ختم يواطىء اسمه اسمه ﷺ ويحوز خلقه، وما هو بالمهديّ المسمّى المعروف المنتظر، فإن ذلك من سلالته وعتره، والختم ليس من سلالته الحسيّة ولكنه من سلالة أعراقه وأخلاقه ﷺ، أما سمعت الله يقول فيما أشرنا إليه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣٤] وجميع أنواع

المخلوقات في الدنيا أمم، وقال: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [سورة فاطر: الآية ١٣] في أثر قوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [سورة فاطر: الآية ١٣] فجعل لها ختاماً وهو انتهاء مدّة الأجل ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] فما من نوع إلاّ وهو أمّة، فافهم ما بيّناه لك فإنه من أسرار العالم المخزونة التي لا تعرف إلاّ من طريق الكشف، والله يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

السؤال السادس عشر: كم مجالس ملك الملك؟ الجواب: على عدد الحقائق الملكية والنارية والإنسانية واستحقاقاتها الداعية لإجابة الحق فيم سألته منه بسط ذلك. اعلم أوّلاً أنه لا بدّ من معرفة ملك الملك ما أرادوا به، ثم بعد هذا تعرف كمية مجالسه إن كان لها كمية محصورة، فالملك هو الذي يقضي فيه مالكه ومليكه بما شاء ولا يمتنع عنه جبراً فيسمّى كرهاً أو اختياراً فيسمّى طوعاً، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [سورة الرعد: الآية ١٥] فقال لها وللأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] والمأمور هو الملك والآمر هو المالك، ولا بدّ من أخذ الإرادة في حدّ الأمر لأنه اقتضاء وطلب من الآمر بالمأمور، سواء كان المأمور دونه أو مثله أو أعلى، وفرّق الناس بين أمر الدون وبين أمر الأعلى، فسمّوا أمر الدون إذا أمر الأعلى طلباً وسؤالاً مثل قوله تعالىٰ: ﴿اهْدِنَا﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٦] فلا يشك أنه أمر من العبد لله فسمّي دعاء، وإذا فهمت هذا وعلمت أن المأمور هو بالنسبة إلى الآمر ملكاً والآمر مليك، ثم رأيت المأمور وقد امتثل أمر آمره وأجابه فيما سأل منه أو اعترف بأنه يجيبه إذا دعاه لما يدعوه إليه إن كان المدعوّ أعلى منه فقد صيّر نفسه هذا الأعلى ملكاً لهذا الدون، وهذا الدون هو تحت حكم هذا الأعلى وحيطته وقهره وقدرته وأمره فهو ملكه بلا شك، وقد قرّرنا أن الدون الذي هو بهذه المثابة قد يأمر سيده فيجيبه السيد لأمره فيصير بتلك الإجابة ملكاً له، وإن كان عن اختيار منه فيصحّ أن يقال في السيد أنه ملك الملك لأنه أجاب أمر عبده وعبده ملك له، ومن أمر فأجاب فقد صحّ عليه اسم المأمور وهو معنى الملك، فإذا أجاب السيد أمر عبده وهو ملك فبإجابته صيّر نفسه ملك ملكه وهذا غاية النزول الإلهيّ لعبده إذ قال له: أدعوني أستجب لك، فيقول له العبد: اغفر لي ارحمني انصرني اجبرني فيفعل، ويقول الله له: ادعني أقم الصلاة ائت الزكاة اصبروا ورابطوا جاهدوا فيطيع ويعصي. وأما الحق سبحانه فيجيب عبده لما دعاه إليه بشرط تفرّغه لدعائه، وقد يكون أثر المؤثر فعلاً من غير أمر كالعبد يعصي فيثير كونه عاصياً غضباً في نفس السيد فيوقع به العقوبة فقد جعل العبد سيده يعاقبه بمعصيته، ولو لم يعصه ما ظهر من السيد ما ظهر أو يغفر له، وكذلك في الطاعة يثيبه فيكون من هذه النسبة أيضاً ملك الملك أي ملكاً لمن هو ملكه، وبهذا وردت الشرائع كلها.

وأما قوله: كم مجالسه؟ فإنها لا تنحصر عقلاً، فإنها حالة دوام من سيد لعبد، ومن عبد إلى سيد، فسؤاله لا يخلو إما أن يريد ما قلنا من أنها لا تنحصر عقلاً، فإن أجاب بانحصار في كمية معلومة علم أنه لا علم عنده أو يريد مجالسه من حيث ما شرع فهي مجالس

في الدنيا محصورة وفي الآخرة غير محصورة، لأن الآثار الواقعة في الآخرة كلها أصلها من الشرائع، فلا ينفك حكم الشرع في الدنيا والآخرة، فإن الخلود في الدارين من حكم الشرع، وما يكون من الحق فيهم من حكم الشرع، فإذا مجالس ملك الملك من جهة الشرع لا تنحصر، فإن أراد السائل عن هذا حالة الدنيا خاصة فعددها عدد أنفاس الخلائق عقلاً، وإن أراد ما اقترن به الأمر من العبد خاصة فعلى قدر ما دعا العبد ربّه من حيث ما أمره أن يدعوه به وهي من كلّ داع بحسب ما سبق في علم الله من تكليفه لكلّ عين عبد أن يدعوه، وخلق الله الذين هم بهذه المثابة يفوتون التلفّظ باسم العدد الذي يحصرهم فإنه يدخل في ذلك الملائكة والجنّ والإنس، فحصر كمياتها ما دام زمان الدنيا إلى أن ينقضي في حق الملك والجنّ والإنس محصور الكمية غير متصوّر التلفظ به لأنه قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة المدثر: الآية ٣١] وهم من الملك الذي يدعو ربّه فيصيره بدعائه ملكاً له، فكمياتها وإن كانت محصورة فهي غير معلومة، وإن علمت فهي غير مقدورة للتلفظ بها لما في ذلك من المشقة، ولكن من وقف على ما رقم في اللوح المحفوظ عرف كمياتها بلا شك وإن تعذّر النطق بها، فمن كل وجه لا يتصوّر الجواب عنها بأكثر من هذا وإنما جعله الترمذيّ على سبيل الامتحان، فإنه جاء بمسائل لا يصحّ الجواب عنها ليعلم أن المسؤول إذا أجاب عنها أنه مبطل في دعواه علم ذلك، إذ لو علم ذلك لكان من علمه به أنه ممّا لا يجب عنه فيعلم صدق دعواه، وسيأتي من ذلك ما تقف عليه في هذه السؤالات إن شاء الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

السؤال السابع عشر: بأيّ شيء حظ كل رسول من ربه؟ الجواب عن هذا لا يتصوّر، لأن كلام أهل طريق الله عن ذوق ولا ذوق لأحد في نصيب كلّ رسول من الله، لأن أذواق الرسل مخصوصة بالرسل، وأذواق الأنبياء مخصوصة بالأنبياء، وأذواق الأولياء مخصوصة بالأولياء، فبعض الرسل عنده الأذواق الثلاثة لأنه وليّ ونبيّ ورسول، قال الخضر لموسىٰ: ﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٨] والخبر الذوق، وقال له: أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، هذا هو الذوق.

حضرت في مجلس فيه جماعة من العارفين فسأل بعضهم بعضاً من أيّ مقام سأل موسىٰ الرؤية؟ فقال له الآخر: من مقام الشوق، فقلت له: لا تفعل، أصل الطريق أن نهايات الأولياء بدايات الأنبياء، فلا ذوق للوليّ في حال من أحوال أنبياء الشرائع فلا ذوق لهم فيه، ومن أصولنا أنا لا نتكلم إلاّ عن ذوق ونحن لسنا برسل ولا أنبياء شريعة، فبأيّ شيء نعرف من أيّ مقام سأل موسىٰ الرؤية ربه؟ نعم لو سألها وليّ أمكنك الجواب، فإن في الإمكان أن يكون لك ذلك الذوق، وقد علمنا من باب الذوق أن ذوق مقام الرسل لغير الرسل ممنوع، فالتحق وجوده بالمحال العقليّ لأنّ الذات لا تقتضي إلاّ هذا الترتيب الخاص أو سبق العلم كيف شئت فقل، فإن أراد السؤال عن السبب الذي اقتضى لذلك الرسول هذا الحظ الذي انفرد به، فقد قال صاحب المحاسن: ليس بينه وبين عباده نسب إلاّ العناية ولا سبب إلاّ الحكم ولا وقت غير الأزل وما بقي فعمى وتلبيس.

واعلم أن السبب العام الذي عين المراتب العلية لأربابها إنما هو العناية الإلهية وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سورة يونس: الآية ٢] وأما السبب الخاص لهذا الرسول للحظ الخاص الذي له من ربّه فيحتاج ذكره إلى ذكر كل رسول باسمه وحينئذ نذكر سببه، ورسل الله في البشر محصورون وفي الملائكة غير محصورين عندنا، لكن من شرط أهل هذه الطريقة إذا ادّعوا هذه المعرفة فلا بدّ أن يعرفوا السبب عند تعيّن الرسول بالذكر، ولكن هو من الأسباب التي لا تذاع لئلا يتعب الخلق أو يتخيل الضعيف الرأي أن الرسالة تكتسب بذلك السبب إذا علم، فيؤدّي ذكر ذلك إلى فساد في العالم فيحفظ عليه الأمناء، وأيضاً فلا فائدة في إظهاره فإنه بكونه رسولاً خصّ به لأنه كان رسولاً بل هو رسول بأمر عام يجتمع فيه المرسلون قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] وقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٥٥] فكل واحد منهم فاضل مفضول وهو مذهب الجماعة، وقد بين هذا أبو القاسم ابن قسيّ في خلع النعلين وهو قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [سورة ص: الآية ٤٧] فخصّ آدم بعلم الأسماء الإلهية التي طوى علمها عن الملائكة، فلم تسبح الله بها حتى استفادتها من آدم، وخصّ موسىٰ بالكلام والتوراة من حيث أن الله كتبها بيده قبل أن يخلق آدم بأربع آلاف سنة، وخصّ رسول الله ﷺ بما ذكر عن نفسه من أنه أوتي جوامع الكلم، وخصّ عيسىٰ بكونه روحاً وأضاف النفخ إليه فيما خلقه من الطين ولم يضف نفخاً في إعطاء الحياة لغير عيسىٰ بل لنفسه تعالىٰ إما بالنون أو بالتاء التي هي ضمير المتكلم عن نفسه، وهذا وإن كانت كلها منصوصاً عليها أنها حصلت لهم فليس بمنصوص الاختصاص بها ولكنه معلوم من جهة الكشف والاطلاع.

السؤال الثامن عشر: أين مقام الرسل من مقام الأنبياء؟ الجواب: هو بالإزاء إلاّ أنه في المقام الرابع من المراتب، فإن المراتب أربع التي تعطي السعادة للإنسان وهي: الإيمان والولاية والنبوّة والرسالة. وأما من مقام الأنبياء فهم من أنبياء التشريع في الرتبة الثانية، ومن مقام الأنبياء في الرتبة الثالثة، والعلم من شرائط الولاية وليس من شرطها الإيمان فإن الإيمان مستنده الخبر فلا يحتاج إليه مع الخبر، إما بالمحال كالأينية لله أو بالإمكان وهو الإخبار ببعض المغيبات التي يمكن أن ينسب إليها المخبر ما نسب، فأول مرتبة العلماء بتوحيد الله الأولياء فإن الله ما اتخذ وليّاً جاهلاً، وهذه مسألة عظيمة أغفلها علماء الرسوم فإنه يدخل تحت فلك الولاية كل موحّد لله بأي طريق كان وهو المقام الأول، ثم النبوّة، ثم الرسالة، ثم الإيمان، فهي فينا أعني مرتبة الولاية على ما رتبناه وهي هناك ولاية، ثم إيمان، ثم نبوّة، ثم رسالة، وعند علماء الرسوم وعامّة الناس الخارجين عن الطريق الخاص المرتبة الأولى إيمان، ثم ولاية، ثم نبوّة، ثم رسالة، فأجبنا فيها على ما تعرفه العامة وعلماء الرسوم، وبيّنا المراتب كيف هي بالنظر إلى جهات مختلفة، فالموحدون بأيّ وجه كان أولياء الله تعالىٰ فإنهم حازوا أشرف المراتب التي شرك الله أصحابها من أجلها مع الله فيها فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] ففصل لتمييز شهادة الحق لنفسه من شهادة من سواه له بما شهد به

لنفسه فقال: وعطف بالواو والملائكة فقدم للمجاورة في النسبة من كونه إلهاً، والجار الأقرب في الشرع وفي العرف عند أرباب الكرم، والعلم مقدم على الجار الأبعد بكل وجه إذا اتحدا في ذلك الوجه، وفي هذا من رحمة الله بخلقه ما لا يقدر قدره إلاَّ العارفون به في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] فنحن أقرب جار وللجار حق مشروع يعرفه أهل الشريعة، وكذلك قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] فينبغي للإنسان أن يحضر هذا الجوار الإلهي عند الموت حتى يطلب من الحق ما يستحقه الجار على جاره من حيث ما شرع وهو قوله لنبيه ﷺ أن يقول: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١١٢] أي الحق الذي شرعته لنا فعاملنا به حتى لا ننكر شيئاً منه ممّا يقتضيه الكرم، فلو علم الناس ما في هاتين الآيتين من العناية بالعباد لكانوا على أحوال لا يمكن أن تذاع يقول تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٤] وقال ﷺ في مثل هذا المقام: «**أفلا أكون عَبْداً شَكُوراً**».

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] يعني من الجنّ والإنس ومن شاركهم من الأمهات، والمولدات العلماء بالله فجعلهم جيران الملائكة لتصح الشفاعة من الملائكة فينا لحق الجوار أنه لا إله إلاَّ هو الضمير في أنه يعود على الله من شهد الله فشهادتهم بتوحيده على قدر مراتبهم في ذلك، فلذلك فصل بين شهادته لنفسه وشهادة العلماء له ثم قال: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] أي بالعدل فيما فصل به بين الشهادتين، ثم قال بنفسه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] نظير الشهادة الأولى التي له، فحصلت شهادة العالم له بالتوحيد بين شهادتين إلهيتين أحاطنا بها حتى لا يكون للشقاء سبيل إلى القائل بها، ثم تمّم بقوله: ﴿ ٱلْعَزِيزُ﴾ ليعلم أن الشهادة الثالثة له مثل الأولى لاقتران العزّة بها أي لا ينالها إلاَّ هو لأنها منيعة الحمى بالعزّة، ولو كانت هذه الشهادة من الخلق لم تكن منيعة الحمى عن الله، فدلّ إضافة العزّة لها على أنها شهادة الله لنفسه. وقوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] لوجود هذا الترتيب في إعطاء السعادة لصاحب هذه الشهادة حيث جعلها بين شهادتين منسوبتين إلى الله من حيث الاسم الأول والآخر وشهادة الخلق بينهما، فسبحان من قدر الأشياء مقاديرها وعجز العالم أن يقدورها حق قدرها، فكيف أن يقدروا حق قدر من خلقها؟ وهذا الكشف من مقام وراثة الرسول ﷺ من حيث رسالته من قوله: ﴿ ٱدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] وهم العلماء بالله من أهل الله الذين أقامهم الحق مقام الرسل في الدعوة إلى الله بلسان حق عن نبوّة مطلقة اعتنى بهم في أن وصفهم بها لا نبوّة الشرائع بل نبوّة حفظ لأمر مشروع على بصيرة من الحافظ لا عن تقليد.

السؤال التاسع عشر: أين مقام الأنبياء من الأولياء؟ الجواب: هو خصوص فيه وهو بالإزاء أيضاً إلاَّ أنه في المقام الثالث على ما تقدم من المراتب، وكان ينبغي أن يكون السؤال عن هذا بتفصيل بين نبوّة الشرائع والنبوّة المطلقة، فهم من الأولياء إذا كانوا أنبياء شريعة في الدرجة الثالثة، وأن كانوا في النبوّة اللغوية فهم في الدرجة الثانية. واعلم أن الأولياء هم الذين

تولاهم الله بنصرته في مقام مجاهدتهم الأعداء الأربعة: الهوى والنفس والدنيا والشيطان، والمعرفة بهؤلاء أركان المعرفة عند المحاسبي وإن كان سؤاله عن مقام الأنبياء من الأولياء أي أنبياء الأولياء وهي النبوّة التي قلنا أنها لم تنقطع فإنها ليست نبوّة الشرائع، وكذلك في السؤال عن مقام الرسل الذين هم أنبياء، فلنقل في جوابه إن أنبياء الأولياء مقامهم من الحضرات الإلهية الفردانية، والاسم الإلهيّ الذي تعبّدهم الفرد، وهم المسمّون الأفراد، فهذا هو مقام نبوّة الولاية لا نبوّة الشرائع، وأما مقام الرسل الذين هم أنبياء فهم الذين لهم خصائص على ما تعبدوا به أتباعهم كمحمد ﷺ فيما قيل له: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٠] في النكاح بالهبة، فمن الرسل من لهم خصائص على أمّتهم، ومنهم من لا يختصه الله بشيء دون أمّته، وكذلك الأولياء فيهم أنبياء أي خصّوا بعلم لا يحصل إلاّ لنبيّ من العلم الإلهيّ ويكون حكمهم من الله فيما أخبرهم به حكم الملائكة ولهذا قال في نبيّ الشرائع: ﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٨] أي ما هو ذوقك يا موسىٰ مع كونه كليم الله فخرق السفينة وقتل الغلام حكماً وأقام الجدار مكارم خلق عن حكم أمر إلهيّ كخسف البلاد على يدي جبريل ومن كان من الملائكة، ولهذا كان الأفراد من البشر بمنزلة المهيمين من الملائكة وأنبياؤهم منهم بمنزلة الرسل من الأنبياء.

السؤال العشرون: وأي اسم منحه من أسمائه؟ الجواب: سؤالك هذا يحتمل أربعة أمور: الواحد أن يكون الضمير المرفوع في منحه يعود على الله. الثاني: أن يعود على المقام. الثالث: على الاسم الإلهيّ. الرابع: أن يكون الضمير في أسمائه يعود على العبد، فيكون الاسم اسم العبد لا اسم الله، وكذلك الضمير المنصوب في منحه الذي هو المفعول الثاني هل هو ضمير اسم إلهيّ أو هل هو المقام؟ فإن كان الضمير المرفوع الله أو المقام فيكون الممنوح الاسم بلا شك، وإن كان الضمير المرفوع الله أو الاسم الإلهيّ أو اسم العبد فيكون المقام هو الممنوح فليكن الضمير المرفوع الله، فالممنوح الاسم الإلهيّ الذي يسمّى به العبد في تخلّقه أو اسم العبد وهو الأصل في القربة الإلهية، فإن العبد لا يتصف بالقرب من الله إلاّ باسمه، قال الله لأبي يزيد: تقرّب إليّ بما ليس لي، قال: يا رب وما ليس لك؟ قال: الذلّة والافتقار. والسبب في ذلك أن أصل العبد أن يكون معلولاً ولا بدّ والمعلولية له لذاته، وكل معلول فقير ذليل بلا شك لا شفاء يرجى له من هذه العلة، فيكون القرب من الله قرباً ذاتياً أصلياً.

وإن كان الممنوح اسماً إلهياً ليتخلق به العبد، كالاسم الرحيم في موطنه، والاسم الملك المتكبر في موطنه، فذلك قرب يعرض له من الشارع الذي عيّنه له، فإن للعبد أسماء يستحقها وأسماء تعرض له مثل الأسماء الإلهية إذا تخلق بها العبد، ولله أسماء يستحقها وأسماء عرضت له من تنزّله لعقول عباده وهي الأسماء التي هي للعبد بحكم الاستحقاق، فهل اتصاف الحق بها يكون تخلّقاً من الله بأسماء عبده أو تلك الصفات لله حقيقة جهلنا معناها بالنسبة إليه وعرفنا معناها بالنسبة إلينا، فيكون العبد متخلقاً بها، وإن كان يستحقها من وجه

معرفته بمعناها إذا نسبت إليه، ومن كون الباري اتصف بها على طريقة مجهولة عندنا فلا نعرف كيف ننسبها إليه لجهلنا بذاته فتكون أصلاً فيه عارضة فينا، فلا نستحق شيئاً لا من أسمائه ولا ممّا نعتقد فيها أنها أسماؤنا، وهذا موضع حيرة ومزلّة قدم إلاّ لمن كشف الله عن بصيرته، ونحن بحمد الله وإن كنّا قد علمناها فهي من العلوم التي لا تذاع أصلاً ورأساً، وبمعرفته بها دعا من دعا إلى الله على بصيرة وهو الشخص الذي هو ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [سورة هود: الآية ١٧] يشهد له بصدق البينة التي هو عليها، فالفطن يعلم ما سترناه بإعلام الله في قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾.

هل تلك الأسماء إذا نسبت إلى الله هل تنسب إليه تخلّقاً واستحقاقاً، وإذا نسبت إلى العبد هل تنسب إليه تخلّقاً كسائر الأسماء الإلهية التي لا خلاف فيها عند العام والخاص أو تنسب إليه بطريق الاستحقاق؟ فالشاهد المطلوب هنا أن عين العبد لا تستحق شيئاً من حيث عينه لأنه ليس بحق أصلاً، والحق هو الذي يستحق ما يستحق فجميع الأسماء التي في العالم ويتخيّل أنها حق للعبد حق لله، فإذا أضيفت إليه وسمّى بها على غير وجه الاستحقاق كانت كفراً وكان صاحبها كافراً، قال الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] فكفروا بالمجموع، هذا إذا كان الكفر شرعاً، فإن كان لغة ولساناً فهو إشارة إلى الأمناء من عباد الله الذين علموا أن الاستحقاق بجميع الأسماء الواقعة في الكون الظاهرة الحكم إنما يستحقها الحق والعبد يتخلق بها وأنه ليس للعبد سوى عينه، ولا يقال في الشيء أنه يستحق عينه فإن عينه هويته فلا حق ولا استحقاق، وكل ما عرض أو وقع عليه اسم من الأسماء إنما وقع على الأعيان من كونها مظاهر، فما وقع اسم إلاّ على وجود الحق في الأعيان، والأعيان على أصلها لا استحقاق لها فهذا شرح قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [سورة هود: الآية ١٧] يشهد له بصدق النسبة أنه عين بلا حكم وكونه مظهراً حكماً لا عيناً، فالوجود لله وما يوصف به من أية صفة كانت إنما المسمّى بها هو مسمّى الله فافهم أنه ما ثم مسمّى وجوديّ إلاّ الله، فهو المسمّى بكل اسم، والموصوف بكل صفة، والمنعوت بكل نعت.

وأما قوله: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] من أن يكون له شريك في الأسماء كلها، فالكل أسماء الله أسماء أفعاله أو صفاته أو ذاته، فما في الوجود إلاّ الله، والأعيان معدومة في عين ما ظهر فيها، وقد اندرج في هذا الفصل إن فهمت جميع ما ذكرناه في تقسيم الضميرين المنصوب والمرفوع، فالوجود له والعدم لك، فهو لا يزال موجوداً وأنت لا تزال معدوماً، ووجوده إن كان لنفسه فهو ما جهلت منه، وإن كان لك فهو ما علمت منه فهو العالم والمعلوم، والذي يقصده أكثر الناس بقولهم أي اسم منح الله الرسول من أسمائه هو الاسم الذي يستدعيه تأييد دعوته وهو المعبر عنه بالسلطان والإعجاز أثره، وإن منحه النبيّ فهو الاسم الذي يتأيّد به في حصول الرتبة النبويّة وصحتها، وقد يكون لكل شخص اسم يمنحه بحسب ما تقتضيه رتبته من مقام نبوّته أو رسالته، غير أن الاسم الواهب هو الذي يعطي ذلك إلاّ إذا كان المقام مكتسباً فقد يعطيه الاسم الكريم أو الجواد أو السخي. انتهى الجزء الحادي والثمانون.

(الجزء الثاني والثمانون)

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال الحادي والعشرون: أيّ شيء حظوظ الأولياء من أسمائه؟ الجواب: هنا تفصيل هل يريد بالاسم الذي أوجب لهم هذه الحظوظ أو الاسم الذي يتولاهم فيها أو الاسم الذي تنتجه هذه الحظوظ؟ فإن أراد الاسم أو الأسماء التي أوجبت لهم هذه الحظوظ فالحظوظ على قسمين: حظوظ مكتسبة وحظوظ غير مكتسبة، ولكل واحد من القسمين اسم يخصّه من حيث ما يوجبها، ومن حيث ما يتولاها، ومن حيث ما تنتجه، فما كان من الحظوظ المكتسبة فالأسماء التي توجبها هي الأسماء التي تعطيهم الأعمال التي اكتسبوها بها وهي مختلفة كل عمل بحسب اسمه، فكل عامل إذا كان عارفاً يعلم الاسم الذي يخصّ تلك الحركة العلمية من الأسماء الإلهية ويطول التفصيل فيها والأسماء التي تتولاهم في حال وجودها لهم فهي بحسب ما هو ذلك الحظ، فالحظ يطلب بذاته من يتولاه من الأسماء والحظوظ مختلفة، وكذلك الأسماء التي توجبها الحظوظ وتنتجها فهي بحسب الحظوظ أيضاً، فتختلف الأسماء باختلاف الحظوظ، وعلى هذا النسق الكلام في الحظوظ التي هي غير مكتسبة من التفصيل.

السؤال الثاني والعشرون: وأي شيء علم المبدأ؟ الجواب: سأل بلفظ في العامّة يعطي البدء، وفي الخاصة يعطي موجب النسخ في مذهب من يراه، فلنتكلم على الأمرين معاً ليقع الشرح باللسانين فيعم الجواب. اعلم أن علم البدء علم عزيز وأنه غير مقيّد، وأقرب ما تكون العبارة عنه أن يقال: البدء افتتاح وجود الممكنات على التتالي والتتابع لكون الذات الموجدة له اقتضت ذلك من غير تقييد بزمان، إذ الزمان من جملة الممكنات الجسمانية فلا يعقل إلاّ ارتباط ممكن بواجب لذاته، فكان في مقابلة وجود الحق أعيان ثابتة موصوفة بالعدم أزلاً وهو الكون الذي لا شيء مع الله فيه، إلاّ أن وجوده أفاض على هذه الأعيان على حسب ما اقتضته استعداداتها فتكوّنت لأعيانها لا له من غير بينية تعقل أو تتوهم وقعت في تصوّرها الحيرة من الطريقين: من طريق الكشف ومن طريق الدليل الفكري والنطق عمّا يشهده الكشف بإيضاح معناه يتعذر فإن الأمر غير متخيل، فلا يقال ولا يدخل في قوالب الألفاظ بأوضح ممّا ذكرناه، وسبب عزة ذلك الجهل بالسبب الأول وهو ذات الحق، ولما كانت سبباً كانت إلهاً لمألوه لها حيث لا يعلم المألوه أنه مألوه، فمن أصحابنا من قال: إن البدء كان عن نسبة القهر. وقال بعض أصحابنا: بل كان عن نسبة القدرة والشرع يقول عن نسبة أمر والتخصيص في عين ممكن دون غيره من الممكنات المميزة عنده، والذي وصل إليه علمنا من ذلك ووافقنا الأنبياء عليه أن البدء عن نسبة أمر فيه رائحة جبر إذ الخطاب لا يقع إلاّ على عين ثابتة معدومة عاقلة سميعة عالمة بما تسمع يسمع ما هو سمع وجود ولا عقل وجود ولا علم وجود، فالتبست عند هذا الخطاب بوجوده فكانت مظهراً له من اسمه الأول الظاهر، وانسحبت هذه الحقيقة على هذه الطريقة على كل عين عين إلى ما لا يتناهى، فالبدء حالة مستصحبة قائمة لا تنقطع

بهذا الاعتبار فإن معطي الوجود لا يقيده ترتيب الممكنات فالنسبة منه واحدة فالبدء ما زال ولا يزال، فكل شيء من الممكنات له عين الأولية في البدء، ثم إذا نسبت الممكنات بعضها إلى بعض تعين التقدّم والتأخر لا بالنسبة إليه سبحانه، فوقف علماء النظر مع ترتيب الممكنات حين وقفنا نحن مع نسبتها إليه والعالم كله عندنا ليس له تقييد إلاّ بالله خاصة والله يتعالىٰ عن الحدّ والتقييد، فالمقيد به تابع له في هذا التنزيه، فأولية الحق هي أوليته إذ لا أولية للحق بغير العالم لا يصحّ نسبتها ولا نعته بها بل هكذا جميع النسب الأسمائية كلها: [نظم: مخلع البسيط]

فالعبدُ مَلْكٌ إذ قد تسمَّى ... في عين حال بما تَسَمَّى
والمَلْكُ عبدٌ في عينِ حالٍ ... إذا تسمَّى بما أُسَمَّى
فإنه بي ولستُ أعني ... عني لكوني أصمَّ أَعْمَى
عن كل عينٍ سوى عياني ... لكونه أظهرته الأَسْمَا

هذه طريقة البدء، وأما إذا أراد البداء وهو أن يظهر له ما لم يكن ظهر هو مثل قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] وهو قوله: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٩٤] فيكون الحكم الإلهي بحسب ما يعطيه الحال، وقد كان قرّر الأمر بحال معين بشرط الدوام لذلك الحال في توهمنا فلما ارتفع الدوام الحالي الذي لو دام أوجب دوام ذلك الأمر بدا من جانب الحق حكم آخر اقتضاه الحال الذي بدا من الكون فقابل البدا بالبدا، فهذا معنى علم البدالة على الطريقة الأخرى، قال تعالىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٤٧] يقول ﷺ: **«اتْرُكُونِي ما تَرَكْتُكُمْ»** وكانت الشرائع تنزل بقدر السؤال، فلو تركوا السؤال لم ينزل هذا القدر الذي شرع، ومعقول ما يفهم من هذا علم البدا. وبعد أن علمت هذا فقد علمت علم الظهور وعلم الابتداء فكأنك علمت علم ظهور الابتداء أو ابتداء الظهور فإن كل نسبة منهما مرتبطة بالأخرى، فإن كان ظهور الابتداء فما حضرة الإخفاء التي منها ظهر هذا الابتداء فلا شك أنه لم يكن يصحّ هذا الوصف إلاّ له ففيه خفي وبه ظهر، فحالة ظهوره عن ذلك الخفاء هو المعبر عنه بالابتداء، وإن كان إبتداء الظهور فهل له نسبة إلى القدم إذ لم يكن له حالة الظهور فما نسبة القدم إليه؟ قلنا: عينه الثابتة حال عدمه هي له نسبة أزلية لا أول لها، وابتداء الظهور عبارة عمّا اتصفت به من الوجود الإلهيّ إذ كانت مظهراً للحق فهو المعبر عنه بابتداء الظهور، فإن تعدّد الأحكام على المحكوم عليه مع أحدية العين إنما ذلك راجع إلى نسب واعتبارات، فعين الممكن لم تزل ولا تزال على حالها من الإمكان، فلم يخرجها كونها مظهراً حتى انطلق عليها الاتصاف بالوجود عن حكم الإمكان فيها فإنه وصف ذاتيّ لها، والأمور لا تتغير عن حقائقها باختلاف الحكم عليها لاختلاف النسب، ألا ترى قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [سورة مريم: الآية ٩] وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فنفى الشيئية عنه وأثبتها له والعين هي العين لا غيرها.

السؤال الثالث والعشرون: ما معنى قوله عليه السلام: **«كانَ اللَّهُ وَلا شَيْءَ مَعَهُ»**؟

الجواب: لا تصحبه الشيئية ولا تنطلق عليه، وكذلك هو ولا شيء معه، فإنه وصف ذاتيّ له سلب الشيئية عنه وسلب معية الشيئية لكنه مع الأشياء وليست الأشياء معه، لأن المعيّة تابعة للعلم، فهو يعلمنا فهو معنا ونحن لا نعلمه فلسنا معه. فاعلم أن لفظة «كان» تعطي التقييد الزمانيّ وليس المراد هنا به ذلك التقييد وإنما المراد به الكون الذي هو الوجود، فتحقيق «كان» أنه حرف وجوديّ لا فعل يطلب الزمان ولهذا لم يرد ما يقوله علماء الرسوم من المتكلمين وهو قولهم وهو الآن على ما عليه كان، فهذه زيادة مدرجة في الحديث ممّن لا علم له بعلم كان ولا سيما في هذا الموضع ومنه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [سورة النساء: الآية ٩٩] وغير ذلك ممّا اقترنت به لفظة كان، ولهذا سمّاها بعض النحاة هي وأخواتها حروفاً تعمل عمل الأفعال وهي عند سيبويه حرف وجوديّ وهذا هو الذي تعقله العرب، وإن تصرفت تصرف الأفعال فليس من أشبه شيئاً من وجه ما يشبهه من جميع الوجوه بخلاف الزيادة بقولهم وهو الآن، فإن الآن تدل على الزمان، وأصل وضعه لفظة تدل على الزمان الفاصل بين الزمانين الماضي والمستقبل ولهذا قالوا في الآن أنه حد الزمانين، فلما كان مدلولها الزمان الوجوديّ لم يطلقه الشارع في وجود الحق، وأطلق «كان» لأنه حرف وجوديّ، وتخيّل فيه الزمان لوجود التصرّف من كان ويكون فهو كائن ومكوّن كقتل يقتل فهو قاتل ومقتول، وكذلك كن بمنزلة أخرج فلما رأوا في الكون هذا التصرّف الذي يلحق الأفعال الزمانية تخيّلوا أن حكمها حكم الزمان، فأدرجوا الآن تتمة للخبر وليس منه فالمحقق لا يقول قط وهو الآن على ما عليه كان فإنه لم يرد ويقول على الله ما لم يطلقه على نفسه لما فيه من الإخلال بالمعنى الذي يطلبه حقيقة وجود الحق خالق الزمان، فمعنى ذلك: الله موجود ولا شيء معه أي ما ثم من وجوده واجب لذاته غير الحق، والممكن واجب الوجود به لأنه مظهره وهو ظاهر به، والعين الممكنة مستورة بهذا الظاهر فيها فاتصف هذا الظهور، والظاهر بالإمكان حكم عليه به عين المظهر الذي هو الممكن، فاندرج الممكن في واجب الوجود لذاته عيناً، واندرج الواجب الوجود لذاته في الممكن حكماً فتدبر ما قلناه.

واعلم أن كلامنا في شرح ما ورد إنما هو على قول الوليّ إذا قال مثل هذا اللفظ أو نطق به من مقام ولايته لا من مقام الرتبة التي منها بعث رسولاً، فإن الرسول إذا قال مثل هذا اللفظ في المعرفة بالله من مقامه الاختصاصي فلا كلام لنا فيه، ولا ينبغي لنا أن نشرح ما ليس يذوق لنا وإنما كلامنا فيه من لسان الولاية، فنحن نترجم عنها بأعلى وجه يقتضيه حالها، هذا غاية الوليّ في ذلك، ولا شك أن المعيّة في هذا الخبر ثابتة والشيئية منفية والمعية تقتضي الكثرة والموجود الحق هو عين وجوده في نسبته إلى نفسه وهويته وهو عين المنعوت به مظهره فالعين واحدة في النسبتين، فهذه المعيّة كيف تصحّ والعين واحدة فالشيئية هنا عين المظهر لا عينه وهو معها لأن الوجود يصحبها وليست معه لأنها لا تصحب الوجود، وكيف تصحبه والوجوب لهذا الوجود ذاتيّ ولا ذوق للعين الممكنة في الوجوب الذاتيّ فهو يقتضيها فيصحّ أن يكون معها وهي لا تقتضيه فلا يصحّ أن تكون معه، فلهذا نفى الشيء أن يكون مع هوية الحق لأن المعيّة نعت تمجيد، ولا مجد لمن هو عديم الوجوب الوجوديّ لذاته، فإن الشيء

لا يكون مع الشيء إلاّ بحكم الوعيد أو الوعد بالخير، وهذا لا يتصوّر من الدون للأعلى، فالعالم لا يكون مع الله أبداً سواء اتّصف بالوجود أو العدم، والواجب الوجود الحق لذاته يصحّ له نعت المعية مع العالم عدماً ووجوداً.

السؤال الرابع والعشرون: ما بدء الأسماء؟ الجواب: إطلاق هذا اللفظ في الطريق يقتضي أمرين: الواحد سؤال عن أوّل الأسماء. والثاني سؤال عمّا تبتدىء به الأسماء من الآثار، وهذان الأمران فرعان عن مدلول لفظ الأسماء ما هو؟ هل هو موجود أو عدم؟ أو لا وجود ولا عدم؟ وهي النسب فلا تقبل معنى الحدوث ولا القدم، فإنه لا يقبل هذا الوصف إلاّ الوجود أو العدم، فاعلم أن هذه الأسماء الإلهية التي بأيدينا هي أسماء الأسماء الإلهية التي سمّى بها نفسه من كونه متكلماً، فنضع الشرح الذي كنّا نوضح به مدلول تلك الأسماء على هذه الأسماء التي بأيدينا وهو المسمّى بها من حيث الظاهر ومن حيث كلامه، وكلامه علمه، وعلمه ذاته، فهو مسمّى بها من حيث ذاته، والنسب لا تعقل للموصوف بالأحدية من جميع الوجوه، إذاً فلا تعقل الأسماء إلاّ بأن تعقل النسب، ولا تعقل النسب إلاّ بأن تعقل المظاهر المعبّر عنها بالعالم، فالنسب على هذا تحدث بحدوث المظاهر، لأن المظاهر من حيث هي أعيان لا تحدث، ومن حيث هي مظاهر هي حادثة، فالنسب حادثة فالأسماء تابعة لها ولا وجود لها مع كونها معقولة الحكم، فإذا ثبت هذا فالقائل ما بدء الأسماء هو القائل ما بدء النسب، والنسبة أمر معقول غير موجود بين اثنين، فإما أن نتكلم فيها من حيث نسبتها إلى الأول، أو من حيث ما دلّ الأثر عليها، فإن نظرنا فيها من حيث المسمّى بها لا من حيث دلالة أثرها كان قوله ما بدء الأسماء معناه ما أول الأسماء، فلنقل أول الأسماء الواحد الأحد وهو اسم واحد مركب تركيب بعلبك ورامهرمز والرحمن والرحيم، لا نريد بذلك اسمين، وإنما كان الواحد الأحد أوّل الأسماء، لأن الاسم موضوع للدلالة وهي العلمية الدالة على عين الذات لا من حيث نسبة ما يوصف بها كالأسماء الجوامد للأشياء، وليس أخصّ في العلمية من الواحد الأحد لأنه اسم ذاتي له يعطيه هذا اللفظ بحكم المطابقة.

فإن قلت: فالله أولى بالأولية من الواحد الأحد لأن الله ينعت بالواحد الواحد ولا ينعت بالله. قلنا: مدلول الله يطلب العالم بجميع ما فيه فهو له كاسم الملك أو السلطان، فهو اسم للمرتبة لا للذات، والأحد اسم ذاتي لا يتوهم معه دلالة على غير العين، فلهذا لم يصحّ أن يكون الله أول الأسماء فلم يبق إلاّ الواحد حيث لا يعقل منه إلاّ العين من غير تركيب، ولو تسمّى بالشيء لسميناه الشيء وكان أول الأسماء لكنه لم يرد في الأسماء الإلهية يا شيء، ولا فرق بين مدلول الواحد والشيء فإنه دليل على ذات غير مركبة، إذ لو كانت مركبة لم يصحّ اسم الواحد ولا الشيء عليه حقيقة فلا مثل له ولا شبه يتميز عنه شخصيته، فهو الواحد الأحد في ذاته لذاته، ومع هذا فقد قرّرنا أن الأسماء عبارة عن نسب فما نسبة هذا الاسم الأول ولا أثر له منه يطلبه؟ قلنا: أما النسبة التي أوجبت له هذا الاسم فمعلومة وذلك أن في مقابلة وجوده أعياناً ثابتة لا وجود لها إلاّ بطريق الاستفادة من وجود الحق، فتكون مظاهره في ذلك

الإتصاف بالوجود وهي أعيان لذاتها ما هي أعيان لموجب ولا لعلة، كما أن وجود الحق لذاته لا لعلة، وكما هو الغني لله تعالىٰ على الإطلاق فالفقر لهذه الأعيان على الإطلاق إلى هذا الغني الواجب الغنى بذاته لذاته، وهذه الأعيان وإن كانت بهذه المثابة فمنها أمثال وغير أمثال متميزة بأمر وغير متميزة بأمر يقع فيه الاشتراك، فلا يصحّ على كل عين منها اسم الواحد الأحد لوجود الاشتراك والمثلية، فلهذا سمينا هذه الذات الغنية على الإطلاق بالواحد الأحد لأنه لا موجود إلاّ هي فهي عين الوجود في نفسها وفي مظاهرها، وهذه نسبة لا عن أثر، إذ لا أثر لها في كون الأعيان الممكنات أعياناً ولا في إمكانها.

وأما إذا كان قوله: ما بدء الأسماء؟ بمعنى ما تبتدىء به الأسماء من الآثار في هذه الأعيان فيطلب هذا السؤال أمرين: الأمر الواحد ما يتبدىء به في كل عين عين، والأمر الآخر ما يبتدىء به على الإطلاق في الجملة ومعناه: ما أول اسم يطلب أن يظهر أثر في هذه الأعيان فاعلم أن ذلك الاسم هو الوهّاب خاصة في الجملة وفي عين عين لا فرق، وهو اسم أحدثته الهبات لهذه الأعيان من حيث فقرها، فلما انطلق عليها اسم مظهر وقد كانت عرية عن هذا الاسم ولم يجب على الغنيّ أن يجعلها مظاهر له طلبت هذه النسبة الاسم الوهّاب ولهذا لا نجعله تعالىٰ علة لشيء لأن العلة تطلب معلولها كما يطلب المعلول علته، والغني لا يتصف بالطلب إذا فلا يصحّ أن يكون علة، والوهب ليس كذلك فإنه امتنان على الموهوب له، وإن كان الوهب له ذاتياً فإنه لا يقدح في غناه عن كل شيء، والذي يبتدىء به من الوهب إعطاء الوجود لكل عين حتى وصفها بما لا تقضيه عينها، فأول ما يبتدأ به من الأعيان ما هو أقرب مناسبة للأسماء التي تطلب التنزيه، ثم بعد ذلك يظهر سلطان الأسماء التي تطلب التشبيه، فالأسماء التي تطلب التنزيه هي الأسماء التي تطلب الذات لذاتها، والأسماء التي تطلب التشبيه هي الأسماء التي تطلب الذات لكونها إلهاً. فأسماء التنزيه كالغنيّ والأحد، وما يصحّ أن ينفرد به، وأسماء التشبيه كالرحيم والغفور، وكل ما يمكن أن يتصف به العبد حقيقة من حيث ما هو مظهر لا من حيث عينه لأنه لو اتصف به من حيث عينه لكان له الغنى ولا غنى له أصلاً، فإذا اتصفت هذه الأعيان التي هي المظاهر بمثل الغنى وتسمّت بالغني فيكون معنى ذلك الغنى بالله عن غيرها من الأعيان لا أن العين غنى بذاته، وكذا كل اسم تنزيه فلها هذه الأسماء من حيث ما هي مظاهر، فإن كان المسمّى لسان الظاهر فيها فهو كونه إلهاً فهو أقرب نسبة إلى الذات من لسان المظهر إذا تسمّى بالغنى، فالمظهر لا يزول عنه اسم الفقر مع وجود اسم الغنى المقيّد له، والظاهر فيه إذا تسمّى بالغنى يصحّ له لأنه يعطي جوداً ومنّة وهو الوهاب الذي يعطي لينعم، وقد يعطي ليعبد، فلا يكون هذا عطاء تنزيه بل هو عطاء عوض، ففيه طلب قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فإعطاء هذا الخلق إعطاء طلب لا إعطاء هبة ومنّة، وإعطاء الوهب إعطاء إنعام لا لطلب شكر ولا عوض ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٩] ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٠] وهو الخنثى. ثم وصف نفسه في ذلك ﴿إِنَّهُ

عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٠] وهو وصف يرجع إليه ما طلب منهم في ذلك عوضاً، كما طلب في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فمنزلة خلقهم له ما هو منزلة خلقهم لهم فخلقهم لهم من أسماء التنزيه، وخلقهم له من أسماء التشبيه، وهذا القدر كاف في الغرض.

السؤال الخامس والعشرون: ما بدء الوحي؟ الجواب: إنزال المعاني المجرّدة العقلية في القوالب الحسيّة المقيدة في حضرة الخيال في نوم كان أو يقظة، وهو من مدركات الحسّ في حضرة المحسوس مثل قوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٧] وفي حضرة الخيال كما أدرك رسول الله ﷺ العلم في صورة اللبن وكذا أول رؤياه قالت عائشة: «أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا فكان لا يرى رؤيا إلاّ خرجت مثل فلق الصبح» وهي التي أبقى الله على المسلمين وهي من أجزاء النبوّة فما ارتفعت النبوّة بالكلية، ولهذا قلنا: إنما ارتفعت نبوّة التشريع، فهذا معنى لا نبيّ بعده، وكذلك من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوّة بين جنبيه فقد قامت به النبوّة بلا شك، فعلمنا أن قوله: لا نبيّ بعده أي لا مشرع خاصة لا أنه لا يكون بعده نبيّ، فهذا مثل قوله: إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، ولم يكن كسرى وقيصر إلاّ ملك الروم والفرس وما زال الملك من الروم، ولكن ارتفع هذا الاسم مع وجود الملك فيهم وتسمّى ملكهم باسم آخر بعد هلاك قيصر وكسرى، كذلك اسم النبيّ زال بعد رسول الله ﷺ، فإنه زال التشريع المنزّل من عند الله بالوحي بعده ﷺ، فلا يشرع أحد بعده شرعاً إلاّ ما اقتضاه نظر المجتهدين من العلماء في الأحكام، فإنه بتقرير رسول الله ﷺ صحّ، فحكم المجتهد من شرعه الذي شرعه ﷺ الذي يعطي المجتهد دليله وهو الذي أذن الله به فما هو من الشرع الذي لم يأذن به الله فإن ذلك كفر وافتراء على الله. فإن قلت: هذا الذي بديء به رسول الله ﷺ من أين؟ نقول: إنه بدء الوحي، قلنا: لا شك ولا خفاء عند المؤمنين والأولياء أن محمداً ﷺ خصّه الله بالكمال في كل فضيلة، فمن ذلك أن خصّه بكمال الوحي وهو استيفاء أنواعه وضروبه وهو قوله عليه السلام: «**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِم**» وبعث عامّة فما بقي ضرب من الوحي إلاّ وقد نزل عليه به، فلما كان بهذه المثابة وبديء ﷺ بالرؤيا في وحيه ستة أشهر علمنا أن بدء الوحي الرؤيا وأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة لكونها ستة أشهر، وكانت نبوّته ثلاثاً وعشرين سنة، فستة أشهر جزء من ستة وأربعين، ولا يلزم أن يكون لكل نبيّ فقد يوحى لنبيّ لا من بدء الوحي الذي هو الرؤيا بل بضرب آخر من الوحي، فلما بديء بالرؤيا ﷺ قلنا: الرؤيا بدء الوحي بلا شك لأن الكمال الذي وصف به نفسه ﷺ في المقام أعطى أن يكون بدء الوحي ما بديء به رسول الله ﷺ، وكذا ينبغي أن يكون، فإن البدء عندنا هو ما يناسب الحسّ أوّلاً ثم يرتقي إلى الأمور المجردة الخارجة عن الحسّ فلم تكن إلاّ الرؤيا نوماً كان أو يقظة، والوحي هنا تشريع الشرائع من كونه نبياً أو رسولاً كيف ما كان، وهذا كله إذا كان سؤاله عن الوحي المنزّل على البشر، فإن كان سؤاله عن بدء الوحي من حيث الوحي أو عن بدء الوحي في حق كل صنف ممّن يوحى إليه

كالملائكة وغير البشر من الجنس الحيواني مثل قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٨] وغير الجنس الحيوانيّ مثل عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال فإنه كان بوحي، ومثل قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] ومثل قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٧] وهي نفس كل مكلف وما ثم إلاّ مكلف لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] فدخل الملك بالتقوى في هذه الآية، إذ لا نصيب له في الفجور، وكذلك سائر نفوس ما عدا الإنس والجان، فالإنس والجنّ ألهموا الفجور والتقوى ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٠] فإن أراد بدء الوحي في كل صنف وشخص شخص فهو الإلهام فإنه لا يخلو عنه موجود وهو الوحي، وهذا جواب عن بدء الوحي من حيث الوحي ومن حيث شخص شخص.

السؤال السادس والعشرون: ما بدء الروح؟ الجواب: أهل الطريق يطلقون لفظ الروح على معان مختلفة فيقولون: فلان فيه روح أي أمر ربّاني يحيى به من قام به يعني قلبه، ويطلقون الروح على الذي سئل عنه رسول الله ﷺ، ويطلقون الروح ويريدون به الروح الذي ينفخ فيه عند كمال تسوية الخلق، والذي مدار الطريق عليه هو الروح الذي يجده أهل الله عند الانقطاع إليه بالهمم والعبادة، فأكثر ما يقع عنه السؤال منهم غالباً، فيكون قوله: ما بدء الروح؟ أي ما ابتداء حصوله في قلب العارف؟ فتقول: إن بدء الروح في نفوس أهله الذين أهّلهم الله لتحصيله أن نفس الرحمن إذا تحكمت في نفوسهم المجاهدات التي تعطيهم رؤية الأغيار عريّة عن رؤية الله فيها وأنها حائلة وقاطعة بين الله وبين هذا العبد، فيكون صاحب هذه المجاهدة صاحب قبض وهم وغم وحجب يريد رفعها، فتهبّ عليه من نفس الرحمن في باطنه ما يؤدّيه إلى رؤية وجه الحق في هذه القواطع على زعمه، وفي هذه الحجب والأشياء التي يجاهد نفسه في قطع ما يتعرض إليه منها في طريقه فيريه ذلك النفس وجه الحق في كل شيء وهو العين والحافظ عليه وجودها فلم ير شيئاً خارجاً عن الحق فزال تعبه من حيث ما يريد قطعها، ويتألم عند ذلك ألماً شديداً حيث يتوهم عدم تلك المعرفة، ثم يعقب ذلك سرور عظيم لوجود هذا النفس فيحيي به معناه ويصير به روحاً وهو قوله: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] ما هو تحت كسبك ولا تعلق لك خاطر بتحصيله، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] فهذا العارف ممّن شاء من عباده فيقال فيه عند ذلك إنه ذو روح، ويقال فيه إنه حيّ وقد التحق بالأحياء وهو قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ ومن لم يجعل الله له نوراً [سورة الأنعام: الآية ١٢٢] وهو هذا الروح ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [سورة النور: الآية ٤٠] فكان يجعل الله ولم يضفه إلى الاكتساب فإنه مجهول العين لعدم الذوق، فهذا معنى بدء الروح الذي يجده العارفون في الطريق وهو مقصود السائلين، وهو نور من حضرة الربوبية لا من غيرها، وأصله من الروح الذي هو من أمر ربي أي من الروح الذي لم يوجد عن خلق، فإنّ عالم الأمر كل موجود لا يكون عند سبب كونيّ يتقدّمه، ولكل موجود منه شرب وهو

الوجه الخاص الذي لكل موجود عن سبب وعن غير سبب، فعن هذا الروح يكون هذا الروح المسؤول عنه الذي يجده أهل هذا الطريق.

السؤال السابع والعشرون: ما بدء السكينة؟ الجواب: مطالعة الأمر بطريق الإحاطة من كل وجه وما لم يكن ذلك فالسكينة لا تصحّ، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٠] فجعل الطمأنينة بدء السكينة لما اختلفت عليه وجوه الأحياء فكانت تجاذبه من كل ناحية، فلما أشهده الله الكيفية سكن عمّا كان يجد من القلق لتلك الجذبات التي للوجوه المختلقة، قال بعضهم: [الرمل]

إنــمــا أجْــزَعُ مــمّــا أتّــقــي ... فــإذا حــلّ فــمــا لــي والــجَــزَعْ
وكــذا أطــمــعُ فــيــمــا أبــتــغــي ... فــإذا فــاتَ فــمــا لــي والــطَّــمَــعْ

فحصول المطلوب أو اليأس من تحصيله بدء السكينة فيما يطلب، وكذلك على ما يليق به يكون ما يخالف منه فاعلم ذلك، فإذا أكمل الإنسان شرائط الإيمان وأحكمها حصل من الحق تجلّ لقلب هذا المؤمن الذي هو بهذه الصفة يسمّى ذلك التجلّي ذوقاً هو بدء جعل السكينة في قلبه لتكون تلك السكينة له باباً أو سلماً إلى حصول أمر مغيب يقع له الإيمان به فيكون معه وجود السكون لما أعطاه الأمر الأوّل لكونه يصير أمراً معتاداً مثل سكون من تعوّد الأسباب إلى الأسباب، ولا يكون ذلك عن غيب أصلاً بل عن ذوق وهو المعاينة، فإن الإنسان إذا كان عنده قوت يومه سكنت نفسه لما يعطيه قلق يومه لمعاينة ما عنده بحصوله تحت ملكه، فإن حصل الإيمان عنده بهذه المثابة تحت حكمه فهو صاحب سكينة، وإن كان الإنسان تحت حكم الإيمان نازعه العيان فلم تحصل سكينة.

واعلم أنّ المعاني التي تتصف بها القلوب قد يجعل الله علامة على حصولها في نفوس من شاء من عباده أن يحصلها فيه علامات من خارج تسمّى تلك العلامة باسم ذلك المعنى الذي يحصل في نفسه من الله، وإنما يسميه به ليعلم أن تلك العلامة لحصول هذا المعنى نصبت مثل قوله تعالىٰ في تابوت بني إسرائيل إن الله قد جعل﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ [سورة البقرة: الآية٢٤٨] وهي صورة على شكل حيوان من الحيوانات، اختلف الناس في أيّ صورة حيوان كانت، ولا فائدة لنا في ذكر ما ذكروه في صورتها، فكانت تلك الصور إذا هفت أو ظهرت منها حركة خاصة بصروا فسكن قلبهم عند رؤية تلك العلامة من تلك الصورة التي سمّاها سكينة، وأن السكينة المعلومة إنما محلها القلوب، فلم يجعل لهذه الأمّة علامة خارجة عنهم على حصولها، فليس لهم علامة في قلوبهم سوى حصولها، فهي الدليل على نفسها ما تحتاج إلى دليل من خارج كما كان في بني إسرائيل فبدء السكينة قد بيّناه. وأما السكينة فهي الأمر الذي تسكن له النفس لما وعدت به أو لما حصل في نفسه من طلب أمر ما، وسمّيت سكينة لأنها إذا حصلت قطعت عنه وجود الهبوب إلى غير ما سكنت إليه النفس، ومنه سمّي السكين سكيناً لكون صاحبه يقطع به ما يمكن قطعه به، وهذا اللفظ مشتق من السكون وهو الثبوت وهو ضدّ الحركة فإن الحركة نقلة، فالسكينة تعطي الثبوت على ما سكنت إليه النفس ولو

سكنت إلى الحركة هذا حقيقتها، ولا يكون ذلك إلاّ عن مطالعة أو مشاهدة فتنزل عليهم وهم مؤمنون فتنقلهم بنزولها عن رتبة ما كانوا به مؤمنين إلى مقام معاينة ذلك وهو تضاعف إيمانهم بالعيان ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ﴾ [سورة الفتح: الآية ٤] ألا ترى إلى قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١١] ألا إنّ الأمنة هي السكينة لا غيرها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

السؤال الثامن والعشرون: ما العدل؟ الجواب: العدل هو الحق المخلوق به السموات والأرض. فسهل بن عبد الله وغيره يسمّيه العدل. وأبو الحكم عبد السلام بن برجان يسمّيه الحق المخلوق به لأنه سمع الله يقول: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الدخان: الآية ٣٩] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ﴾ [سورة الحجر: الآية ٨٥] ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٠٥] أي بما يجب لذلك المخلوق ممّا تقتضيه حالة خاصة بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥٠] أي بيّن أنه ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أي ما خلقه إلاّ بالحق وهو ما يجب له، فالعالم على الحقيقة هو الله الذي علم ما تستحقه الأعيان في حال عدمها، وميّز بعضها عن بعض بهذه النسبة الإحاطية، ولولا ذلك لكانت نسبة الممكنات في قضية العقل فيما يجب لها من الوجود نسبة واحدة، وليس الأمر كذلك، ولا وقع كذلك، بل علم سبحانه ما يتقيد من الممكنات في وجوده بأمس لا يمكن عنده أن يوجده اليوم ولا في غد، فإنه من تمام خلقه تعيين زمانه وهو القدر وهي الأقدار أي مواقيت الإيجاد، فهو سبحانه يخلق من غير حكم قدر عليه في خلقه، والمخلوقات تطلب الأقدار بذاتها ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥٠] من زمانه فيمن يتقيّد وجوده بالزمان، ومن حاله فيمن يتقيّد وجوده بالحال، ومن صفته فيمن يتقيّد وجوده بالصفة.

فإن قلت فيه: مختار صدقت. وإن قلت حكيم صدقت. وإن قلت: لم يوجد هذه الأمور على هذا الترتيب إلاّ بحسب ما أعطاه العلم صدقت. وإن قلت: ذاته اقتضت أن يكون خلق كل شيء على ما هو عليه ذلك الشيء في ذاته ولوازمه وإعراضه لا تتبدّل ولا تتحوّل ولا في الإمكان أن يكون ذلك اللازم أو العارض لغير ذلك الممكن صدقت. فبعد أن أعلمتك صورة الأمر على ما هو عليه فقل ما تشاء، فإنّ قولك من جملة من أعطى خلقه في ظهوره منك فهو من جملة الإعراض في حقك، وله صفة ذاتية ولازمة وعرضية من حيث نفسه فاعلم ذلك. وأما تحقيق هذا الاسم لهذه النسبة فاعلم أن العدل هو الميل، يقال: عدل عن الطريق إذا مال عنه، وعدل إليه إذا مال إليه، وسمّى الميل إلى الحق عدلاً كما سمّى الميل عن الحق جوراً بمعنى أنّ الله خلق الخلق بالعدل، أي إنّ الذات لها استحقاق من حيث هويتها، ولها استحقاق من حيث مرتبتها وهي الألوهية، فلما كان الميل ممّا تستحقه الذات لما تستحقه الألوهية التي تطلب المظاهر لذاتها سمّي ذلك عدلاً أي ميلاً من استحقاق ذاتيّ إلى استحقاق إلهيّ لطلب المألوه ذلك الذي يستحقه، ومن أعطى المستحق ما يستحقه سمّي عادلاً وعطاؤه عدلاً وهو الحق، فما خلق الله الخلق إلاّ بالحق وهو إعطاؤه خلقه ما يستحقونه، وليس وراء هذا البيان وبسط العبارة ما يزيد عليها في الوضوح.

السؤال التاسع والعشرون: ما فضل النبيين بعضهم على بعض وكذلك الأولياء؟ الجواب: قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٥٥] وقال في حق الناس: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣٢] هذا عموم في الناس، فدخل الأولياء في عموم هذه الآية. وقال في حق المؤمنين والعلماء: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [سورة المجادلة: الآية ١١] فاختلف أصحابنا في مثل هذا، فذهب ابن قسيّ إلى أن كل واحد منهم فاضل مفضول، ففضل هذا هذا بأمر ما، وفضله المفضول ذلك الأمر بأمر آخر، فهو فاضل بوجه ومفضول بوجه لمن فضل عليه، فأدّى إلى التساوي في الفضيلة، فصاحب هذا القول ما حرّر الأمر على ما يقتضيه وجه الحق فيه وذلك أن تنظر المراتب، فإن كان تقتضي الفضيلة فتنظر أية مرتبة هي أعم من الأخرى وأعظم، فالمتصف بها أفضل، ففضل أرباب المراتب بفضل المراتب فقد يزيد، ويفضل بعض الناس غيره بشيء ما فيه ذلك الفضل، فإنّ الفضل في هذا الوجه لا ينظر من حيث أنه زيادة ولكن ينظر من حيث اعتبار زيادات لها شرف في العرف والعقل كالعلم والنجارة والخياطة والعلم بالأحكام الشرعية والعلم بما ينبغي لجلال الله، وكل واحد منهم لا يعلم علم الآخر فيقال: قد فضل النجار على الموحّد بالدليل بالنجارة، هذا لا يقال على جهة الفخر والمدح بل على جهة الزيادة، ويقال: فضل العالم بالله النجار على طريق الشرف والفخر، فمثل هذه المفاضلة هي التي تعتبر وهي أن يزيد كل واحد على صاحبه برتبة تقتضي المجد والشرف، فهذا معنى قوله: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] بما يقتضيه الشرف.

ونحن نجمع إلى ذلك الزيادة فنقول في قوله: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي جعلنا عند كل واحد من صفات المجد والشرف ما لم نجعل عند الآخر، فقد زاد بعضهم على بعض في صفات الشرف، والمراتب التي فضلوا بها بعضهم على بعض ما فيها مفاضلة عندنا لارتباطها بالأسماء الإلهية والحقائق الربانية، ولا تصحّ مفاضلة بين الأسماء الإلهية لوجهين: الواحد أن الأسماء نسبتها إلى الذات نسبة واحدة فلا مفاضلة فيها، فلو فضلت المراتب بعضها بعضاً بحسب ما استندت إليه من الحقائق الإلهية لوقع الفضل في أسماء الله فيكون بعض الأسماء الإلهية أفضل من بعض، وهذا لا قائل به عقلاً ولا شرعاً ولا يدل عموم الاسم على فضله لأنّ الفضلية إنما تقع فيما من شأنه أن يقبل، فلا يتعمل في القبول أو فيما يجوز أن يوصف به فلا يتصف به. والوجه الآخر أن الأسماء الإلهية راجعة إلى ذاته والذات واحدة والمفاضلة تطلب الكثرة والشيء لا يفضل نفسه فإذا المفاضلة لا تصحّ، فمعقول: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي أعطينا هذا ما لم نعط هذا، وأعطينا هذا أيضاً ما لم نعط من فضله ولكن من مراتب الشرف ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] فمنهم من فضّل بأن خلقه بيده وأسجد له الملائكة. ومنهم من فضّل بالكلام القديم الإلهيّ بارتفاع الوسائط. ومنهم من فضّل بالخلة. ومنهم من فضّل بالصفوة وهو إسرائيل يعقوب، فهذه كلها صفات شرف ومجد، لا يقال إن خلته أشرف من كلامه ولا أن كلامه أفضل من خلقه بيديه، بل كل ذلك راجع إلى ذات واحدة لا تقبل الكثرة ولا العدد، فهي بالنسبة إلى

كذا خالقة، وبالنسبة إلى كذا مالكة، وبالنسبة إلى كذا عالمة إلى ما نسبت من صفات الشرف والعين واحدة.

وأما المسألة الطفولية التي بين الناس واختلافهم في فضل الملائكة على البشر فإني سألت عن ذلك رسول الله ﷺ في الواقعة فقال لي: إن الملائكة أفضل، فقلت له: يا رسول الله فإن سئلت ما الدليل على ذلك فما أقول؟ فأشار إليّ أن قد علمتم أني أفضل الناس وقد صحّ عندكم وثبت وهو صحيح أني قلت عن الله تعالىٰ أنه قال: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وكم ذاكر لله تعالىٰ ذكره في ملأ أنا فيهم فذكره الله في ملأ خير من ذلك الملأ الذي أنا فيهم، فما سررت بشيء سروري بهذه المسألة فإنه كان على قلبي منها كثير، وإن تدبّرت قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] وهذا كله بلسان التفصيل، وأما جهة الحقائق فلا مفاضلة ولا أفضل لارتباط الأشخاص بالمراتب، وارتباط المراتب بالأسماء الإلهية، وإن كان لها الابتهاج بذاتها وكمالها فابتهاجها بظهور آثارها في أعيان المظاهر أتمّ ابتهاجاً لظهور سلطانها، كما تعطي الإشارة في قول القائل المترجم عنها حيث نطق بلسانها من كناية «نحن» المنزل عن الله في كلامه وهي كناية تقتضي الكثرة: [الخفيف]

نحن في مجلس السرور ولكنْ ليس إلاّ بكم يتمُّ السُّرورُ

فمجلس السرور لها حضرة الذات وتمام السرور لها ما تعطيه حقائقها في المظاهر وهو قوله: بكم، وذلك لكمال الوجود والمعرفة لا لكمال الذات إن عقلت.

السؤال الثلاثون: خلق الله الخلق في ظلمة. الجواب: هذا مثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [سورة النحل: الآية ٧٨] ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [سورة السجدة: الآية ٩] فهذه أنوار فيك تدرك بها الأشياء، فما أدركت إلاّ بما جعل فيك، وما جعل فيك سوى أنت، فله تعالىٰ ممّا أنت الوجود وأنت من ذلك الوجود المدرك به المعدوم الموجود وما لا يتصف بالعدم ولا بالوجود وهو إدراك الأفئدة ممّا ذكر، فالممكنات على عدم تناهيها في ظلمة من ذاتها وعينها لا تعلم شيئاً ما لم تكن مظهراً لوجوده وهو ما يستفيده الممكن منه وهو قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [سورة الزمر: الآية ٢٢] فخلق هنا بمعنى قدّر، قال تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٢] فقدّرهم ولم يكونوا مظهراً لكن كانوا قابلين لتقديره، فأوّل أثر إلهيّ في الخلق التقدير قبل وجودهم وأن يتصفوا بكونهم مظاهر للحق، فالتقدير الإلهيّ في حقّهم كإحضار المهندس ما يريد إبرازه ممّا يخترعه في ذهنه من الأمور، فأوّل أثر في تلك الصورة إنما هو ما تصوّره المهندس على غير مثال، وآية هذا المقام قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] أي انتقالكم من وجود الدنيا إلى وجود الآخرة أقرب في العلم: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢٤] من انتقالكم من حال عدم إلى حال وجود، فأنتم في الظلمة فيكم وأنتم في الوجود فيه، غير أن لكم انتقالات في وجوده وظلمتكم تستصحبكم لا تفارقكم أبداً ﴿وَءَايَةٌ

لَهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٧] ولم يقل نجعلهم في ظلمة بل زوال عين النور الذي هو الوجود هو عين كونكم مظلمين أي تبقى أعيانكم لا نور لها أي لا وجود لها، ولو لم تكن الظلمة نسبة عدمية وهي كون ذواتكم العينية معدومة لكانت الظلمة من جملة الخلق، فكانت الظلمة تستدعي أن تكون في ظلمة، والكلام في تلك الظلمة كالكلام في الأولى ويتسلسل، فإنّ قوله: خلق الله الخلق في ظلمة قد يريد بالخلق هنا المخلوقات، والظلمة إذا كانت أمراً وجودياً فهي مخلوقة فتكون أيضاً في ظلمة، وإذا كان الخلق هنا مصدراً كأنه قال: قدر الله التقدير في ظلمة أي في غير موجودين يعني تلك الأعيان.

وانظر في قوله تعالىٰ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦] ثم إن الله تعالىٰ في الوجود الأخروي إذا أراد الله بتبديل الأرض كان الخلق في الظلمة دون الجسر، فالظلمة تصحيهم بين كل مقامين إذا أراد الله أن يوجدهم في عالم آخر أي ينشئهم نشأة أخرى لم تكن في أعيانهم فيعلمون بتغيّر الأحوال عليهم أنهم تحت حكم قهار، فيكونون في حال وجودهم مثل حالهم في العدم، ولهذا نبّه الحق سبحانه عقولنا بقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٧] أي قدّرناه في حال شيئيته المتوجّه عليها أمره إلى شيئية أخرى لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ يعني في حال عدمه ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] كلمة وجودية من التكوين فسمّاه شيئاً في حال لم تكن فيه الشيئية المنفية بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ فلا بدّ أن يعقل العارف ما الشيئية الثابتة له في حال عدمه في قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ وما الشيئية المنفية عنه في حال عدمه في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: الآية ٩] فالظلمة التي خلق الله فيها الخلق نفى هذه الشيئية عنهم، والنفي عدم محض لا وجود فيه، وقد ذكر المفسرون معنى قوله: ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ وليس المقصود إلاّ ما ذكره صاحب السؤال، وأما الآية فمعلوم أمرها عند العلماء بالله في خلق مخصوص وهو الخلق في الرحم لا غير. انتهى الجزء الثاني والثمانون.

(الجزء الثالث والثمانون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السؤال الحادي والثلاثون: فما قصتهم هناك يعني قصة المخلوقين؟ الجواب: قصتهم هناك الانتظار لما يكسوهم الحق من حلل نور الوجود لكل مخلوق نور على قدره ينفهق منه وهو النور الذي يمشون فيه يوم القيامة، فإنّ يوم القيامة ليس له ضوء جملة واحدة والناس لا يسعون فيه إلاّ في أنوارهم، ولا يمشي مع أحد منهم غيره في نوره كما قال عليه السلام: «بَشِّرِ المَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلىٰ المَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ القِيَامَةِ» وهو الجمع بين النورين: بين نورهم المبطون في أعيانهم الظاهر هناك، وبين النور المبطون في ظلمة الليل الذي ينوب عنه السراج في نفي تلك الظلمة عن طريق الماشي، والمسجد بيت الله يسعى إليه لمناجاته كذلك

هذا النور لا يكون لهم إلاّ في الوقت الذي يدعون فيه إلى رؤية ربّهم الذي ناجوه هنا، فيمشون في ذلك الوقت في النور الذي كان مبطوناً في الظلمة التي سعوا فيها في صلاة الصبح والعشاء إلى المساجد وانتظارهم هو انتظار حال، فإنهم غير موصوفين في تلك الظلمة بالعلم، لأنّ الاتصاف بالعلم تابع للوجود وهم غير موجودين بل هم في شيئيتهم القابلة لقول التكوين. ولما جعل الظلمة ظرفاً للخلق كذلك قال هناك فأتى بما يدل على الظرف فهم قابلون للتقدير وإن كان قوله في ظلمة في موضع الحال من الخالق فيكون المراد به العماء الذي ما فوقه هواء وما تحته هواء الذي أثبته رسول الله ﷺ بهذه الصفة للحق تعالىٰ حين قيل له: أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ فقال ﷺ: «**كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا فَوْقَهُ هَواءٌ وَمَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ**» فنزّه أن يكون تصريفه للأشياء على الأهواء، فإنه لما كنيّ عن ذلك الوجود بما هو اسم للسحاب محل تصريف الأهواء نفى أن يكون فوق ذلك العماء هواء أو تحته هواء، فله الثبوت الدائم لا على هواء ولا في هواء، فإنّ السؤال وقع بالاسم الرب ومعناه الثابت يقال رب بالمكان إذا أقام فيه وثبت فطابق الجواب ولم يصف الحق نفسه في مخلوقاته إلاّ بقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] وقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٨] فتخيل من لا فهم له تغيّر الأحوال عليه وهو يتعالى ويتقدّس عن التغيير، بل الحالات هي متغيرة ما هو يتغير بها فإنه الحاكم ولا حكم عليه، فجاء الشارع بصفة الثبوت الذي لا تقبل التغيير، فلا تصرف آياته يد الأهواء لأنّ عماءه لا يقبل الأهواء، وذلك العماء هو الأمر الذي ذكرنا أنه يكون في القديم قديماً وفي المحدث محدثاً وهو مثل قولك أو عين قولك في الوجود إذا نسبته إلى الحق قلت قديم، وإذا نسبته إلى الخلق قلت محدث، فالعماء من حيث هو وصف للحق هو وصف إلهيّ، ومن حيث هو وصف للعالم هو وصف كياني، فتختلف عليه الأوصاف لاختلاف أعيان الموصوفين، قال تعالىٰ في كلامه القديم الأزليّ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] فنعته بالحدوث لأنه نزل على محدث لأنه حدث عنده ما لم يكن يعلمه فهو محدث عنده بلا شك ولا ريب، وهذا الحادث هل هو محدث في نفسه أو ليس بمحدث؟ فإذا قلنا فيه أنه صفة الحق التي يستحقها جلاله. قلنا بقدمها بلا شك، فإنه يتعالىٰ أن تقوم الصفات الحادثات به، فكلام الحق قديم في نفسه قديم بالنسبة إليه محدث أيضاً كما قال عند من أنزل عليه، كما أنه أيضاً من وجوه قدمه نسبته إلى الحدوث بالنظر إلى من أنزل عليه، فهو الذي أيضاً أوجب له صفة القدم، إذ لو ارتفع الحدوث من المخلوق لم يصحّ نسبة القدم ولم تعقل، فلا تعقل النسب التي لها أضداد إلاّ بأضدادها، فقصة الخلق في الظلمة التهيؤ والقبول في الأعيان لظهور الحق في صور الوجود لهذه الأعيان.

السؤال الثاني والثلاثون: وكيف صفة المقادير؟ الجواب: المقادير هي الصفات الذاتية للأشياء فلا صفة لها، فهي الحدود المانعة من هو متصف بها أن تكون صفة لغيره، وعندي في حدّ الحدّ نظر، فإن أراد بقوله: صفة المقادير المنع ويجعله صفة من حيث أنك تعبر عنها

بأمر هو عينها بعد علمك بهذا فقل إنّ هذا صفة المقدار. وإن أردت الحقيقة فلا صفة للمقادير لأنّ الشيء لا يكون صفة لنفسه. فإن قلت: فالصفات النفسية ما هي بأمر زائد على الذات. قلنا: صدقت. قال: فإذاً قد وصفت الشيء بنفسه. قلت: إن كان غير مركب فالوصف فيه عين إطلاق لفظ يكون شرحاً للفظ آخر عند السامع يقع به الإفهام عنده، وإن كان الشيء مركباً فذلك الوصف للمجموع، وحكم الشيء من كونه مجموعاً غير حكمه من كونه غير مجموع، فأنت إنما ذكرت آحاد ذلك المجموع المعقول من هذه الجمعية أمراً ما هو عين كل مفرد من هذا المجموع، فهذا الشيء الموصوف بصفاته النفسية إنما تلك أسماء آحاده، ألا ترى الذات لا توصف رأساً فإنها لذاتها هي ذات ولذاتها لا تقبل الوصف! ثم لما قلت: الله من حيث المرتبة استحق أن يوصف من حيث هذا الاسم بما يطلبه هذا الاسم من الحقائق التي تعينها المحدثات المعبّر عنها بالأسماء فما ثم شيء يوصف بنفسه إلاّ من حيث شرح لفظ بلفظ آخر، ولذا قسمنا الحدود إلى ثلاث مراتب: ذاتية ورسمية ولفظية، فالمقادير جمع مقدار، والأقدار جمع قدر، فلا يلتبس عليك المقادير بالأقدار، فبعض المقادير محل تأثير الأقدار، فاعلم. فحدود الأمور الذاتية عين مقاديرها، فالوزن القدر، والموازين المقادير، وبها توزن الأشياء، فالأمور لا تعلم إلاّ بحدودها، ومن لا حدّ له فذلك حدّه فقد علم.

السؤال الثالث والثلاثون: فما سبب علم القدر الذي طُوي عن الرسل فمن دونهم؟

الجواب: في السؤال حذف وهو أن يقول: ما سبب طيّ علم القدر الذي طوي عن الرسل فمن دونهم؟ فإن كان هذا الرجل يقول بفضل أفضل البشر على أفضل الملائكة فكأنه قال: الذي طوى عن كل ما سوى الله، وإن كان يرى أنّ أفضل الملائكة أفضل من أفضل البشر فقوله: فمن دونهم لا يلزم أن من هو أفضل من الرسل طوى عنه علم القدر، فقد يمكن عنده أن يكون من هو أعلى يعلم ذلك، فبقي الجواب عمّا يقتضيه الأمر في نفسه هل ثم من يعلم علم القدر أم لا؟ قلنا: لا ولكن قد يعلم سرّه وتحكمه في الخلائق وقد أعلمنا به فعلمناه بحمد الله، وأنّ مظاهر الحق في أعيان الممكنات المعبّر عنها بالعالم هي آثار القدر وهي علامة على وجود الحق، ولا دليل أدلّ على الشيء من نفسه فلم يعلم الحق بغيره بل علم بنفسه، ونسبة الوجود إلى هذه الأعيان قد قلنا أنّ ذلك أثر القدر فنعلم القدر بأثره ونعلم الحق بوجوده، وذلك لأنّ القدر نسبة مجهولة خاصة والحق وجود، فيصحّ تعلق العلم بالحق ولا يصحّ تعلق العلم بالقدر، فإنّ علمنا بظهور المظهر في العين هو عين علمنا بالحق والقدر مرتبة بين الذات وبين الحق من حيث ظهوره لا يعلم أصلاً، وحكمه في المظاهر حكم الزمان في عالم الأجسام، فلهذا يطلقه أكثر المحققين على الأوقات المعقولة.

وقد أعلمناك أنّ الزمان نسبة معقولة غير موجودة ولا معدومة وهو في الكائنات، فالوقت أعزّ مقاماً في امتناع العلم به أو تصوّره فلا ينال أبداً، وقد كان العزير رسول الله عليه السلام كثير السؤال عن القدر إلى أن قال له الحق تعالىٰ: يا عزير لئن سألت عنه لأمحون اسمك من ديوان النبوّة، ويقرب منه السؤال عن علل الأشياء في تكويناتها، فأفعال الحق لا

ينبغي أن تعلّل فإنه ما ثم علة موجبة لتكوين شيء إلاَّ عين وجود الذات وقبول عين الممكن لظهور الوجود، فالأزل لا يقبل السؤال عن العلل، وأنّ ذلك لا يصدر إلاَّ من جاهل بالله، فالسبب الذي لأجله طوي علم القدر هو أنّ له نسبة إلى ذات الحق ونسبة إلى المقادير، فعزّ أن يعلم عزّ الذات وعزّ أن يجهل لنسبة المقادير فهو المعلوم المجهول فأعطى التكليف في العالم فاشتغل العالم بما كلفوا ونهوا عن طلب العلم بالقدر، ولا يعلم إلاَّ بتقريب الحق وشهوده شهوداً خاصاً لعلم هذا المسمّى قدراً، فأولياء الله وعباده لا يطلبون علمه للنهي الوارد عن طلبه، فمن عصى الله وطلبه من الله وهو لا يعلم بالنظر الفكري فلم يبق إلاَّ أن يعلم بطريق الكشف الإلهيّ، والحق لا يقرّب من عصاه بمعصيته، وطالب هذا العلم قد عصاه في طلبه فلا ينال من طريق الكشف، وما ثم طريق آخر يعلم به علم القدر فلهذا كان مطوياً عن الرسل فمن دونهم، وإن نزع أحد إلى أنّ السائل اعتبر بسؤاله معنى الرسالة فمن حيث إنهم رسل طوي عنهم في هذه المرتبة ومن دونهم من أرسل إليهم وذلك هو التكليف، فسدّ الله باب العلم بالقدر في حال الرسالة، فإن علموه فما علموه من كونهم رسلاً بل من كونهم من الراسخين في العلم، فقد ينال على هذا لولا ما بيّناه من أنّ مرتبته بين الذات والمظاهر، فمن علم الله علم القدر، ومن جهل الله جهل القدر، والله سبحانه مجهول فالقدر مجهول، فمن المحال أن يعرف المألوه الله لأنه لا ذوق له في الألوهة فإنه مألوه، ولله ذوق في المألوهية لكونه يطلبها في المألوه كما يطلبه المألوه، فمن هناك وصف الحق نفسه بما وصف به مظاهر من التعجّب والضحك والنسيان وجميع الأوصاف التي لا تليق إلاَّ بالممكنات. فسرّ القدر عين تحكمه في المقادير، كما أنّ الوزن متحكم في الموزون، والميزان نسبة رابطة بين الموزون والوزن بها يتعين مقدار الموزون ومقادير الموزونات على اختلافها فالحق وضع الميزان وقال: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢١] ويستحقه من أنزل إليه، فكل شيء بقضائه أي بحكمه وقدره أي وزنه وهو تعيين وقت حالاً كان وقته أو زماناً أو صفة أو ما كان، فظهر أنّ سبب طيّ علم القدر سبب ذاتيّ، والأشياء إذا اقتضت الأمور لذواتها لا للوازمها أو أعراضها لم يصحّ أن تتبدّل ما دامت ذواتها، والذوات لها الدوام في نفسها لا لنفسها فوجود العلم بها محال.

السؤال الرابع والثلاثون: لأيّ شيء طُوي؟ الجواب: هذا سؤال اختبار إن كان السائل عالماً فإنه من المعلومات ما يعلل ومنها ما لا يعلل، هذا في المعلومات فكيف ما لا يعلم؟ كيف يصحّ أن يعلّل الجهل به؟ وأما من يرى أنّ القدر معلوم لمن فوق مرتبة الرسل من الملائكة أو من شاء الله من خلقه الذي لا علم لنا بأجناس خلقه فيكون طيّه حتى لا يشارك الحق في علم حقائق الأشياء من طريق الإحاطة بها، إذ لو علم أيّ معلوم كان بطريق الإحاطة من جميع وجوهه كما يعلمه الحق لما تميّز علم الحق عن علم العبد بذلك الشيء ولا يلزمنا على هذا الاستواء فيما علم منه، فإنّ الكلام فيما علم منه على ذلك، فإنّ العبد جاهل بكيفية تعلّق العلم مطلقاً بمعلومه، فلا يصحّ أن يقع الاشتراك مع الحق في العلم بمعلوم ما، ومن

المعلومات العلم بالعلم، وما من وجه من المعلومات إلاّ وللقدر فيه حكم لا يعلمه إلاّ الله، فلو علم القدر علمت أحكامه، ولو علمت أحكامه لاستقل العبد في العلم بكل شيء وما احتاج إلى الحق في شيء وكان الغنى له على الإطلاق، فلما كان الأمر بعلم القدر يؤدّي إلى هذا طواه الله عن عباده فلا يعلم، فكل شخص في العالم على جهل من نفسه وعلم، فمن حيث جهله يفتقر ويسأل ويخضع ويتضرّع ويعلمه بجهله يقع منه هذا الوصف، هذا إذا اتفق أن يكون ممكناً العلم به، وقد قرّرنا أنه محال لذاته، كما يعلم أنه ليس للمحقق من الصفات النفسية سوى واحدة لأحدّيته وهي عين ذاته، فليس له فصل مقوّم يميز به عمّا وقع له من الاشتراك فيه مع غيره، بل له الأحديّة الذاتية التي لا تعلّل ولا تكون علّة فهي الوجود وما هي، ومن الأسباب التي لأجلها طوى علم ذلك عن الإنسان لكون ذات الإنسان تقتضي البوح به لأنه أسنى ما يمدح به الإنسان ولا سيما الرسل فحاجتهم إليه آكد من جميع الناس، لأنّ مقام الرسالة يقتضي ذلك، وما ثم علم ولا آية أقرب دلالة على صدقهم من مثل هذا العلم، قال رسول الله ﷺ فيما وصف ربّه به ممّا أوحى إليه به: «**إِنَّهُ لا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالىٰ مِنْ أَنْ يُمْدَحَ**» ولا مدحة فوق المدحة بمثل هذا، ثم إنَّ الله خلق آدم على صورته، فلا شيء أحبّ إلى العبد من أن يمدح ويثنى عليه، وأسنى ما يمدح به العبد العلم بالله وعلمه بالقدر، علمه بالله، فلو فتح للعبد الإنساني العلم بالقدر وقد أمر بالغيرة فيه وطيّه عمّن لا ينبغي أن يظهر عليه، وكان الإنسان وهو مجبول على حبّ المدح والرسالة تعطي الرغبة في هداية الخلق أجمعين، ولا طريق للهداية أوضح من هذا الفنّ، فالذي كانوا يلقونه من الكتم من الألم والعذاب في أنفسهم لا يقدر قدره فخفّف الله عن الرسل مثل هذا الألم فطواه عنهم، فإنّ جميع العالم ممّن له قوّة على إيصال ما في نفسه من الأمور إلى الخلق يكتمون علم مثل هذا وغيره إذا كان عندهم إلاّ الجنّ والإنس فإنّ النشأة من هذه القوىٰ العنصرية تقتضي لهم ذلك، فمن كتم منهم فإنما يكتم على كره ممّا ينبغي أن يمدح به إذا بثّه، ولولا أنّ البهائم لم تعط لها قوّة التوصيل لأعلمت بما تشاهده من الأمور الغيبية التي أمر الله من يعلمها بسترها، مثل خوار الميت على نعشه، وعذاب القبر، وحياة الشهداء، فكل دابة تسمعه وتصغي يوم الجمعة شفقاً من الساعة، ولكن لما كوشفت على مثل هذا أعطيت الخرس عن التوصيل، فكتمها الأشياء اضطراري لا اختياري، فطواه الله عن الثقلين لذلك فإنه من الأسرار المكتومة، فهذا من الأسباب التي طوى لها علم القدر.

السؤال الخامس والثلاثون: متى ينكشف لهم سرّ القدر؟ الجواب: سرّ القدر غير القدر، وسرّه عين تحكمه في الخلائق وأنه لا ينكشف لهم هذا السرّ حتى يكون الحق بصرهم، فإذا كان بصرهم بصر الحق ونظروا للأشياء ببصر الحق حينئذ انكشف لهم علم ما جهلوه إذ كان بصر الحق لا يخفى عليه شيء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٌ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥، ٦] لكونها مظلمة تمدح بإدراك الأشياء فيها كيف يشاء من أنواع الصور والتصوير ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي المنيع

الذي نسب لنفسه الصورة لا عن تصوير ولا تصوّر ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦] بما تعطيه الاستعدادات المسوّاة لقبول الصور فيعين لها من الصور ما شاء ممّا قد علم أنها مناسبة له.

قال رسول الله ﷺ عن ربّه تعالىٰ أنه قال: «**مَا تَقَرَّبَ أَحَدٌ بِأَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيهِ**» لأَنَّهَا عُبُودِيَّةُ اضْطِرَارٍ، «**وَلا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ**» وَهِيَ عُبُودِيَّةُ اخْتِيَارٍ «**حَتىٰ أُحِبَّهُ**» إذ جعلها نوافل فاقتضت البعد من الله فلما ألزم عبوديّة الاختيار نفسه لزوم عبودية الاضطرار أحبه، فهو معنى قوله تعالىٰ: «**حتى أحبه**» ثم قال: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِر بِهِ**» الحديث، فإذا كان الحق لهذه الحالة بصر العبد كيف يخفى عليه ما ليس يخفى فأعطته النوافل واللزوم عليها أحكام صفات الحق وأعطته الفرائض أن يكون كله نوراً فينظر بذاته لا بصفته فذاته عين سمعه وبصره فذلك وجود الحق لا وجوده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

السؤال السادس والسابع والثلاثون: أين ينكشف لهم؟ ولمن ينكشف منهم؟ الجواب: في حال الانفعال عنهم والاتحاد بهم وذلك أنّ من المظاهر من يعلم أنه مظهر، ومن المظاهر من لا يعلم أنه مظهر، فيتخيل أنه عن الحق أجنبيّ، وعلامة من يعلم أنه مظهر أن تكون له مظاهر حيث شاء من الكون كقضيب البان فإنه كان له مظاهر فيما شاء من الكون لا حيث ما شاء من الكون، وأن من الرجال من يكون له الظهور فيما شاء من الكون لا حيث شاء، ومن كان له الظهور حيث شاء من الكون كان له الظهور فيما شاء من الكون، فتكون الصورة الواحدة تظهر في أماكن مختلفة، وتكون الصور الكثيرة على التعاقب تلبس الذات الواحدة في عين المدرك لها، فإذا حصل الإنسان في المكان الذي يعرف فيه تجلّي الحق في الصور المختلفة للشخص الواحد أو الأشخاص الكثيرين، فمعرفته بتلك الحيثية لا تكون إلاّ ذوقاً، ومن عرف مثل هذا ذوقاً كان متمكناً من الاتصاف بمثل هذه الصفة، وهذا هو علم سرّ القدر الذي ينكشف لهم إذا كانوا في هذا المنزل وبهذه القوّة.

السؤال الثامن والثلاثون: ما الإذن في الطاعة والمعصية من ربنا؟ الجواب: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٨] فالإذن الذي تشترك فيه الطاعة والمعصية هو الإذن الإلهيّ في كون المأذون فيه فعلاً لا من طريق الحكم، لأنّ حكمه في الأشياء بالطاعة، والمعصية هو عين علمه بها بهذه الحالة فلا يكون مراداً فلا يكون الحكم مأموراً به والمحكوم به وعليه هو المراد والمأمور به، فلا يصحّ الإذن في الطاعة والمعصية من حيث إنها طاعة ومعصية، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ من حيث إنها فعل ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] فأنكر عليهم أن تكون السيئة من عند محمد ﷺ كما قال في موسىٰ: ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٣١] فقال لهم: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٩] لا من محمد ﷺ، فاحتجاجنا في مسألتنا إنما هو بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ

﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فأضاف الكل إلى الله والكل خير وهو بيده والشرّ ليس إليه، فأوهم السائل المسؤول بلفظ الطاعة والمعصية ليرى ما عنده من العلم فإنه سؤال ابتلاء منه لمدّعي علم الحقائق من طريق الكشف، وقد قرّرنا هذا الفصل في كتاب المعرفة لنا.

السؤال التاسع والثلاثون: وما العقل الأكثر الذي قسمت العقول منه لجميع خلقه؟ الجواب: لما كان في نفس الأمر يقتضي أن يكون مراتب المعلومات من الممكنات ثلاثاً: مرتبة للمعاني المجرّدة عن الموادّ التي من شأنها أن تدرك بالعقول بطريق الأدلة والبداية. ومرتبة من شأنها أن تدرك بالحواس وهي المحسوسات. ومرتبة من شأنها أن تدرك بالعقل أو الحواس وهي المتخيلات وهي تشكل المعاني في الصور المحسوسة تصوّرها القوّة المصوّرة الخادمة للعقل يقتضي ذلك أمر يسمّى الطبيعة فيما ينشأ منها من الأجسام الإنسانية والجنية، فلما إن شاء الله أن يوضح للمكلفين من عباده أسباب سعادتهم على ألسنة رسله من البشر إليهم بوساطة الروح العلويّ المنزّل بذلك على قلوب بعض البشر المسمّين رسلاً وأنبياء أجرى المعاني في المخاطبات مجرى المحسوسات في الصور التي تقبل التجزيء والانقسام والقلة والكثرة وجعل محل ذلك حضرة الخيال فحصروا المعاني في الخطاب فتلقتها بالتشبيه العقول كما تتلقى بالمحسوسات التي شبهت بها هذه المعاني التي ليس من شأنها بالنظر إلى ذاتها أن تكون متحيزة أو منقسمة أو قليلة أو كثيرة أو ذات حدّ ومقدار وكيف وكم، وجعل لنا الدليل على قبول ما أتى به من هذا القبيل في هذه الصور ما يراه النائم في نومه من العلم في صورة اللبن فيشربه حتى يرى الريّ يخرج من أظفاره فقيل له: ما أوّلته يا رسول الله؟ يريد ما تؤول إليه صورة ما رأيت؟ فقال: «**العلم**»، ومعلوم أنّ العلم ليس بجسم يسمّى لبناً ولا هو لبن، وإنما هو معنى مجرّد عن الصور التي من شأنها أن تدركها الحواس، فكان منها ما قال الشارع في تقسيم العقول على الناس كما تقسم الحبوب، فمن الناس من حصل له من العقل الممثل في الصور التي من شأنها أن تكال القفيز والقفيزين والأكثر والأقل، والمدّ والمدّين والأكثر من ذلك والأقل، ليبين بهذا تفاضل الناس في العقول لأنه المشهود عندنا لأنا نرى أشخاصاً كلهم يتصفون بأنهم عقلاء ذو وأحلام، فمنهم من يدرك عقله غوامض الأسرار والمعاني ويحمل صورة الكلمة الواحدة من الحكيم على خمسين وجهاً ومائة وأكثر وأقل من المعاني الغامضة، والعلوم العالية المتعلقة بالجناب الإلهيّ أو الروحانيّ أو الطبائع أو العلم الرياضي أو الميزان المنطقي، وعقل شخص ينزل عن هذه الدرجة إلى ما هو أقل وآخر ينزل دون هذا الأقل، وعقل آخر يعلو فوق هذا الأكبر، فلما شاهدنا تفاوت العقول احتجنا أن نقسمها على الأشخاص تقسيم الذوات التي تقبل الكثرة والقلة، ويسمّى المعنى القابل لهذه القسمة المعنوية الممثلة العقل الأكثر أي الذين قسمت منه هذي العقول التي في العقلاء من الموجودات بحسب ما بينهم من التفاوت.

وصورة تكوين العقول من هذا العقل الأكبر في تحقيق الأمر بطريق التمثيل، والتشبيه الأقرب إلى المناسب بالسراج الأوّل فتوقد منه جميع الفتائل فتتعدّد السرج بعدد الفتائل وتقبل

الفتائل من نور ذلك السراج بحسب استعداداتها، ففتيلة طبيعية في غاية النظافة صافية الدهن وافرة الجسم يكون قبولها أعظم في اتساع النور وفي كمية جسم النور، وأكبر من فتيلة نزلت عن هذه في الصفة من النظافة والصفاء فكان التفاوت بين الأنوار بحسب استعدادات الفتائل، ومع هذا فلم ينقص من السراج الأوّل شيء بل هو على كماله كما كان، وكل سراج من هذه السرج يضاهيه ويقول: أنا مثله وبأي شيء فضل عليّ وأنا يوخذ مني كما يؤخذ منه ويصول ويقول وما يرى فضله عليه من وجه أنه الأصل وله التقدّم، والثاني أنه في غير مادة ولا واسطة بينه وبين ربّه وما عداه فلم يظهر له وجود إلاّ به وبالمواد التي قبلت الاشتعال منه فظهرت أعيان العقول هذا كله غاب عنها بل ما لها فيه ذوق كيف يدرك من لا وجود له إلاّ بين أب وأمّ حقيقة من كان وجوده عن غير واسطة، وإذا كانت العقول تعجز عن إدراك العقل الأول التي ظهرت عنه فعجزها عن إدراك خالق العقل الأول وهو الله تعالىٰ أعظم، فإنه أول ما خلق الله العقل وهو الذي ظهرت منه هذه العقول بوساطة هذه النفوس الطبيعية فهو أول الآباء، وسمّاه الله في كتابه العزيز الروح وأضافه إليه فقال في حق النفوس الطبيعية وحق هذا الروح وحق هذه الأرواح الجزئية التي لكل نفس طبيعية ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] وهو هذا العقل الأكبر ولهذا يقال فيه العقل الغريزي معناه الذي اقتضته هذه النشأة الطبيعية باستعدادها الذي هو عبارة عن تسويتها وتعديلها لقبول هذا الأمر.

واعلم أنّ أصل كل متكثر الواحد فالأجسام ترجع إلى جسم واحد، والأنفس ترجع إلى نفس واحدة، والعقول ترجع إلى عقل واحد، ولكن لا يكون من الواحد الكثرة بمجرّد أحديته بل بنسب، إذا تأملت ما ذكرناه وجدته كذلك فيكون كأنّ ذلك الواحد انقسم إلى هذه الكثرة لا أنه انقسم في نفسه، إمّا لكونه لا يقبل القسمة كالنفوس والعقول والأصل المرجوع إليه، وإما لكونه في قوّته أن تكون منه هذه الكثرة من غير أن ينقص منه من حيث جسميته كالجسوم التي يتولد عنها الحيوان بماء أو ريح، فذلك الماء أو الريح ليس هو من حدّ هذا الجسم الذي تكوّن عنه ما تكوّن.

السؤال الأربعون: ما صفة آدم عليه السلام؟ الجواب: إن شئت صفته الحضرة الإلهية، وإن شئت مجموع الأسماء الإلهية، وإن شئت قول النبي ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته**» فهذه صفته، فإنه لما جمع له في خلقه بين يديه علمنا أنه قد أعطاه صفة الكمال فخلقه كاملاً جامعاً ولهذا قبل الأسماء كلها، فإنه مجموع العالم من حيث حقائقه فهو عالم مستقل وما عداه فإنه جزء من العالم، ونسبة الإنسان إلى الحق من جهة باطنه أكمل في هذه الدار الدنيا، وأما في النشأة الآخرة فإنّ نسبته إلى الحق من جهة الظاهر والباطن، وأما الملك فإن نسبته من جهة الظاهر إلى الحق أتم ولا باطن للملك ولكن إلى الحق من حيث هو مسمّى الله لا من حيث ذاته، فإنه من حيث ذاته هو لذاته، ومن حيث مسمّى الله يطلب العالم، فكأن العالم لم يعلم من الحق سوى المرتبة وهي كونه إلهاً رباً، ولهذا لا كلام له فيه إلاّ في هذه النسب والإضافات، وسمّي بآدم لحكم ظاهرة عليه فإنه ما عرف منه سوى ظاهره، كما أنه ما عرف من الحق سوى الاسم

الظاهر وهو المرتبة الإلهية، فالذات مجهولة، وكذلك كان آدم عند العالم من الملائكة، فمن دونهم مجهول الباطن، وإنما حكموا عليه بالفساد أي بالإفساد من ظاهر نشأته لما رأوها قامت من طبائع مختلفة متضادّة متنافرة، فعلموا أنه لا بدّ أن يظهر أثر هذه الأصول على من هو على هذه النشأة، فلو علموا باطنه وهو حقيقة ما خلقه الله عليه من الصورة لرأوا الملائكة جزءاً من خلقه، فجهلوا أسماءه الإلهية التي نالها بهذه الجمعية لما كشف له عنه فأبصر ذاته فعلم مستنده في كل شيء ومن كل شيء، فالعالم كله تفصيل آدم، وآدم هو الكتاب الجامع، فهو للعالم كالروح من الجسد، فالإنسان روح العالم والعالم الجسد، فبالمجموع يكون العالم كله هو الإنسان الكبير والإنسان فيه. وإذا نظرت في العالم وحده دون الإنسان وجدته كالجسد المسوّى بغير روح، وكمال العالم بالإنسان مثل كمال الجسد بالروح، والإنسان منفوخ في جسم العالم فهو المقصود من العالم، واتخذ الله الملائكة رسلاً إليه ولهذا سمّاهم ملائكة أي رسلاً من المألكة وهي الرسالة، فإن أخذت الشرف بكمال الصورة قلت: الإنسان أكمل، وإن أخذت الشرف بالعلم بالله من جانب الحق لا من طريق النظر فالأفضل والأشرف من شرّفه الله بقوله: هذا أفضل عندي، فإنه لا تحجير عليه في أن يفضل من شاء من عباده، فإن العلم بالله الذي يقع به الشرف لا حدّ له ينتهي إليه.

السؤال الحادي والأربعون: ما توليته؟ الجواب: إن الله تولاه بثلاث: منها توليته في خلقه بيديه. ومنها بما علمه من الأسماء التي ما تولى بها ملائكته. ومنها الخلافة وهي قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] فإن كان قوله: ﴿خَلِيفَةً﴾ لقوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٤] فهو نائب الحق في أرضه وعليه يقع الكلام، وإن أراد بالخلافة أنه يخلف من كان فيها لما فقد فما نحن بصدد ذلك، وكان المقصود النيابة عن الحق بقوله: ﴿خَلِيفَةً﴾لقولهم: ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] وهذا لا يقع إلاّ ممّن له حكم، ولا حكم إلاّ لمن له مرتبة التقدّم وإنفاذ الأوامر، فأما مقصود السائل فإنه يريد الخلافة التي هي بمعنى النيابة عن الله في خلقه فأقامه بالاسم الظاهر وأعطاه علم الأسماء من حيث ما هي عليه من الخواص التي يكون عنها الانفعالات فيتصرّف بها في العالم تصرفها، فإنه لكل اسم خاصة من الفعل في الكون يعلمها من يعلم علم الحروف وترتيبها من حيث ما هي مرقومة، ومن حيث ما هي متلفظ بها، ومن حيث ما هي متوهمة في الخيال. فمنها ما له أثر في العالم الأعلى وتنزيل الروحانيات بها إذا ذكرت أو كتبت في عالم الحسّ. ومنها ما له أثر في العالم الجبروتيّ من الجنّ الروحانيّ. ومنها ما يؤثر ذكره في خيال كل متخيل وفي حسّ كل ذي حسّ. ومنها ما له أثر في الجانب الأحمى الأعلى الذي هو موضع النسب، ولا يعرف هذا التأثير الواحد وأسماءه إلاّ الأنبياء والمرسلون سلام الله عليهم وهي أسماء التشريع، والعمل بتلك الشرائع هو المؤثّر في هذا الجناب النسبي وهو جناب عزيز لا يشعر به جعله الحق سبحانه موضع أسراره ومجلى تجلياته، وهو الذي يعطي النزول والاستواء والمعية والفرح والضحك والمقدار، وما يفهم منه من الآلات التي لا تكون إلاّ لذوات المقادير والكميات والكيفيات.

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ فجاء بالهوية بما ينبغي أن يظهر به في السموات من الألوهية بالاسم الذي يخصّها ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٤] بالاسم الذي ينبغي أن يظهر به في الأرض من كونه إلهاً، فكان آدم نائباً عن هذا الاسم، وهذا الاسم هو باطنه وهو المعلم له علم التأثيرات التي تكون عن الأسماء الإلهية التي تختص بالأرض حيث كانت خلافته فيها، وهكذا هو كل خليفة فيها، ولهذا قال: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٥] أي يخلف بعضنا بعضاً فيها في تلك المرتبة، مع وجود التفاضل بين الخلفاء فيها، وذلك لاختلاف الأزمان واختلاف الأحوال، فيعطي هذا الحال والزمان من الأمر ما لا يعطيه الزمان والحال الذي كان قبله والذي يكون بعده، ولهذا اختلفت آيات الأنبياء باختلاف الأعصار، فآية كل خليفة ورسول من نسبة ما هو الظاهر والغالب على ذلك الزمان وأحوال علمائه أي شيء كان من طب أو سحر أو فصاحة وما شاكل هذا، وهو قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ يقول للخلفاء: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٥] وهاتان الصفتان لا تكونان إلاّ لمن بيده الحكم والأمر والنهي.

فهذا النسق يقوّي أنه أراد خلافة السلطنة والملك وهي التولية الإلهية، وأعظم تأثيراتها الفعل بالهمة من حيث إن النفس ناطقة لا من حيث الحرف والصوت المعتاد في الكلام اللفظيّ، فإن الهمّة من غير نطق النفس بالنطق الذي يليق بها، وإن لم يشبه نطق اللسان لا يكون عنها انفعال بوجه من الوجوه عند جماعة أصحابنا، وأوقعهم في هذا الإشكال حكم النيابة عن الله الذي ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ وهو المعبّر فينا بالهمة ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة يس: الآية ٨٢] وهو المعبر عنه فينا بالنطق أو الكلام بحسب ما يليق بالمنسوب إليه ذلك، فما اكتفى سبحانه في حق نفسه بالإرادة حتى قرن معها القول وحينئذ وجد التكوين، ولا يمكن أن يكون النائب عنه وهو الخليفة بأبلغ في التكوين ممّن استخلفه، فلهذا لم يقتصروا على الهمة دون نطق النفس. وأما نحن فنقول بهذا في موطنه وهو صحيح، غير أن الذات غاب عنهم ما تستحقه لكون المرتبة لا تعقل دونها، فكان كون المرتبة إنما هو عن الذات بلا شك، لأن الذات تطلبها طلباً ذاتياً لا طلباً يتوقف على همّة وقول، بل عين همتها وقولها هو عين ذاتها، فكون الألوهة لها هو ما يكون عن ذات الخليفة من حيث إنها ذات خليفة، فهي الذات الخلافية لا ذات الخلق التي هي نشأة جسمه وروحه، ومع هذا فلا بدّ من النسب الثلاث لوجود التكوين عقلاً في موازين العلوم وشرعاً، فأما في العقل فأصحاب الموازين يعرفون ذلك، وأما في الشرع فإنه قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ فهذا الضمير الذي هو النون من قولنا عين وجود ذاته تعالىٰ وكناية عنه فهذا أمر واحد، وقوله: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ أمر ثان. وقوله: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] أمر ثالث فذات مريده قائلة يكون عنها التكوين بلا شك، فالاقتدار الإلهيّ على التكوين لم يقم إلاّ من اعتبار ثلاثة أمور شرعاً، وكذلك هو الإنتاج في العلوم بترتيب المقدّمات وإن كانت كل مقدمة مركبة من محمول وموضوع، فلا بدّ أن يكون أحد الأربعة

يتكرّر، فيكون في المعنى ثلاثة، وفي التركيب أربعة، فوقع التكوين عن الفردية وهي الثلاثة لقوّة نسبة الفردية إلى الأحدية، فبقوّة الواحد ظهرت الأكوان، فلو لم يكن الكون عينه لما صحّ له ظهور، فالوجود المنسوب إلى كل مخلوق هو وجود الحق إذ لا وجود للممكن، لكن أعيان الممكنات قوابل لظهور هذا الوجود، فتدبر ما ذكرناه في هذه التولية التي سأل عنها سمينا وابن سمي أبينا محمد بن عليّ الترمذيّ في كتاب ختم الأولياء له، وهي هذه المسائل التي أذكرها في هذا الباب.

السؤال الثاني والأربعون: ما فطرته يعني فطرة آدم أو الإنسان؟ الجواب: إن أراد فطرته من كونه إنساناً فله جواب، أو من كونه خليفة فله جواب، أو من كونه إنساناً خليفة فله جواب، أو من كونه لا إنسان ولا خليفة فله جواب وهو أعلاها نسبة، فإنه إذا كان حقاً مطلقاً فليس بإنسان ولا خليفة كما ورد في الخبر: «**كنت سمعه وبصره**» فأين الإنسانية هنا؟ إذ لا أجنبية، وأين الخلافة هنا؟ وهو الأمر بنفسه، فأثبتك ومحاك وأضلك وهداك أي حيّرك فيما بين لك فما تبينت إلاّ الحيرة فعلمت أن الأمر حيرة، فعين الهدى متعلقه الضلال فقال: أنت وما أنت ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] وما رمى إلاّ محمد فما رمى إلاّ الله، فأين محمد؟ فمحاه وأثبته، ثم محاه، فهو مثبت بين محوين: محو أزليّ وهو قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ ومحو أبديّ وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ وإثباته قوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فإثبات محمد في هذه الآية مثل الآن الذي هو الوجود الدائم بين الزمانين: بين الزمان الماضي وهو نفي عدم محقق، وبين الزمان المستقبل وهو عدم محض.

وكذلك ما وقع الحسّ والبصر إلاّ على رمي محمد، فجعله وسطاً بين محوين مثبتاً فأشبه الآن الذي هو عين الوجود، والوجود إنما هو وجود الله لا وجوده، فهو سبحانه الثابت الوجود في الماضي والحال والاستقبال، فزال عنه التقييد المتوهم فسبحان اللطيف الخبير، ولهذا قال: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فجاء بالخبرة، أي قلنا: هذا اختباراً للمؤمنين في إيمانهم لنا في ذلك من تناقص الأمور الذي يزلزل إيمان من في إيمانه نقص عمّا يستحقه الإيمان من مرتبة الكمال الذي في: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فهذا الجواب عن الوجه الرابع الذي هو أصعب الوجوه قد بان، فأمّا فطرته من حيث ما هو إنسان ففطرته العالم الكبير، وأما فطرته من حيث ما هو خليفة ففطرته الأسماء الإلهية، وأما فطرته من حيث ما هو إنسان خليفة ففطرته ذات منسوب إليها مرتبة لا تعقل المرتبة دونها ولا تعقل هي دون المرتبة، قال تعالىٰ: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠١] وهو قوله: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] والفطر الشق، وقال تعالىٰ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الروم: الآية ٣٠] وهو الفطرة، كما أنه لا تبديل لكلمات الله وهو قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] أي قولنا واحد لا يقبل التبديل.

وقال ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ**» فالألف واللام هنا للعهد أي: الفطرة التي فطر الله الناس عليها وقد تكون الألف واللام لجنس الفطرة كلها، لأن الناس أي هذا الإنسان لما كان

مجموع العالم ففطرته جامعة لفطر العالم، ففطرة آدم فطرة جميع العالم، فهو يعلم ربّه من حيث كل علم نوع من العالم من حيث هو عالم ذلك النوع بربه من حيث فطرته، وفطرته ما يظهر به عند وجوده من التجلّي الإلهيّ الذي يكون له عند إيجاده، ففيه استعداد كل موجود من العالم، فهو العابد بكل شرع، والمسبح بكل لسان، والقابل لكل تجلّ، إذا وفى حقيقة إنسانيته وعلم نفسه فإنه لا يعلم ربه إلاّ من علم نفسه، فإن حجبه شيء منه عن درك كله فهو الجاني على نفسه وليس بإنسان كامل ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرُونَ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ مَرْيَمُ وَآسِيَةُ**» يعني بالكمال معرفتهم بهم، ومعرفتهم بهم هو عين معرفتهم بربهم، فكانت فطرة آدم علمه به فعلم جميع الفطر ولهذا قال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] وكل يقتضي الإحاطة والعموم الذي يراد به في ذلك الصنف، وأما الأسماء الخارجة عن الخلق والنسب فلا يعلمها إلاّ هو لأنه لا تعلق لها بالأكوان. وهو قوله عليه السلام في دعائه: «**أوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ غَيْبِكَ**» يعني من الأسماء الإلهية، وإن كان معقول الأسماء مّما يطلب الكون ولكن الكون لا نهايَة لتكوينه فلا نهاية لأسمائه، فوقع الإيثار في الموضع الذي لا يصحّ وجوده، إذ كان حصر تكوين ما لا يتناهى محال، وأما الذات من حيث هي فلا اسم لها إذ ليست محل أثر ولا معلومة لأحد ولا ثم اسم يدل عليها معرى عن نسبة ولا بتميكن، فإنّ الأسماء للتعريف والتمييز وهو باب ممنوع لكل ما سوى الله، فلا يعلم الله إلاّ الله، فالأسماء بنا ولنا، ومدارها علينا، وظهورها فينا، وأحكامها عندنا، وغاياتها إلينا، وعباراتها عنا، وبداياتها منا.

[نظم: الهزج]

فلولاها لما كنّا ... ولولانا لما كانَتْ
بها بِنّا وما بِنّا ... كما بانَتْ وما بانَتْ
فإن خَفِيَتْ لقد جلَّتْ ... وإن ظهرت لقد زانَتْ

انتهى الجزء الثالث والثمانون.

(الجزء الرابع والثمانون)

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال الثالث والأربعون: ما الفطرة؟ الجواب: النور الذي تشق به ظلمة الممكنات ويقع به الفصل بين الصور فيقال: هذا ليس هذا، إذ قد يقال: هذا عين هذا من حيث ما يقع به الاشتراك ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١] هو قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والعالم كله سماء وأرض ليس غير ذلك، وبالنور ظهرت قوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٠٥] والله مظهرها فهو نورها، فظهور المظاهر هو الله فهو ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ففطر السماء والأرض به فهو فطرتها، والفطرة التي فطر الناس عليها، فكل مولود يولد على الفطرة ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] فما فطرهم إلاّ عليه، ولا فطرهم إلاّ به، فبه تميزت الأشياء وانفصلت وتعينت، والأشياء في ظهورها الإلهيّ لا

شيء، فالوجود وجوده، والعبيد عبيده، فهم العبيد من حيث أعيانهم وهم الحق من حيث وجودهم، فما تميز وجودهم من أعيانهم إلاّ بالفطرة التي فصلت بين العين ووجودها، وهو من أغمض ما يتعلق به علم العلماء بالله كشفه عسير وزمانه يسير.

السؤال الرابع والأربعون: لم سمّاه بشراً؟ الجواب: قال تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص: الآية ٧٥] على جهة التشريف الإلهيّ، فقرينة الحال تدل على مباشرة خلقه بيديه بحسب ما يليق بجلاله فسمّاه بشراً لذلك، إذا اليد بمعنى القدرة لا شرف فيها على من شرف عليه، واليد بمعنى النعمة مثل ذلك، فإنّ النعمة والقدرة عمّت جميع الموجودات، فلا بدّ أن يكون لقوله: ﴿بِيَدَيَّ﴾ أمر معقول له خصوص وصف بخلاف هذين، وهو المفهوم من لسان العرب الذي نزل القرآن بلغتهم، فإذا قال صاحب اللسان أنه فعل هذا بيده فالمفهوم منه رفع الوسائط، فكانت نسبة آدم في الجسوم الإنسانية نسبة العقل الأول في العقول.

ولما كانت الأجسام مركبة طلبت اليدين لوجود التركيب ولم يذكر ذلك في العقل الأول لكونه غير مركب، فاجتمعا في رفع الوسائط، وليس بعد رفع الوسائط في التكوين مع ذكر اليدين إلاّ أمر من أجله سمّي بشراً وسرت هذه الحقيقة في البنين فلم يوجد أحد منهم إلاّ عن مباشرة، ألا ترى وجود عيسىٰ عليه السلام لما تمثل لها الروح بشراً سوياً فجعله واسطة بينه تعالىٰ وبين مريم في إيجاد عيسىٰ تنبيهاً على المباشرة بقوله: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٧] قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧] وبشرة الشيء ظاهره، والبشرى إظهار علامة حصولها في البشرة، فقوله للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٧] بالحرفين الكاف والنون بمنزلة اليدين في خلق آدم، فأقام القول للشيء مقام المباشرة، وأقام الكاف والنون مقام اليدين، وأقام الواو المحذوفة لاجتماع الساكنين مقام الجامع بين اليدين في خلق آدم وأخفى ذكره كما خفيت الواو من ﴿كُن﴾ غير أن خفاءها في ﴿ كُن﴾ لأمر عارض، وخفاء الجامع بين اليدين لاقتضاء ما تعطيه حقيقة الفعل وهو قوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الكهف: الآية ٥١] وهو حال الفعل لأنه ليس في حقائق ما سوى الله ما يعطي ذلك المشهد، فلا فعل لأحد سوى الله، ولا فعل عن اختيار واقع في الوجود، فالاختيارات المعلومة في العالم من عين الجبر، فهم المجبورون في اختيارهم، والفعل الحقيقيّ لا جبر فيه ولا اختيار لأن الذات تقتضيه فتحقق ذلك، فلمباشرة الوجود المطلق الأعيان الثابتة لظهور الوجود المقيّد سمّي الوجود المقيّد بشراً واختصّ به الإنسان لأنه أكمل الموجودات خلقاً، وكلّ نوع من الموجودات ليس له ذلك الكمال في الوجود فالإنسان أتم المظاهر فاستحقّ اسم البشر دون غيره من الأعيان.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١] فسمّي المكلم هنا بشراً بهذه الضروب كلها من الكلام لما يباشره من الأمور الشاغلة له عن اللحوق برتبة الروح التي له من حيث روحانيته، فإن ارتقى عن درجة البشرية كلّمه الله من حيث ما كلّم الأرواح، إذ كانت

الأرواح أقوى في التشبّه لكونها لا تقبل التحيّز والانقسام وتتجلّى في الصور من غير أن يكون لها باطن وظاهر، فما لها سوى نسبة واحدة من ذاتها وهي عين ذاتها، والبشر من نشأته ليس كذلك فإنه على صورة العالم كله، ففيه ما يقتضي المباشرة والتحيّز والانقسام وهو مسمّى البشر، وفيه ما لا يطلب ذلك وهو روحه المنفوخ فيه، وعلى بشريته توجهت اليدان فظهرت الشفعية في اليدين في نشأته، فلا يسمع كلام الحق من كونه بشراً إلاَّ بهذه الضروب التي ذكرها أو بأحدها، فإذا زال في نظره عن بشريته وتحقق بمشاهدة روحه كلّمه الله بما يكلم به الأرواح المجرّدة عن المواد مثل قوله تعالىٰ في حق محمد ﷺ وفي حق الأعرابيّ ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] وما تلاه عليه غير لسان محمد ﷺ، فأقام محمداً ﷺ في هذه الصورة مقام الروح الأمين الذي نزل بكلام الله على قلب محمد ﷺ وهو قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ يعني لذلك البشر فيوحي إليه بإذنه ما يشاء الله تعالىٰ ممّا أمره أن يوحي به إليه فقوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ يريد هنا إلهاماً بعلامة يعلم بها أن ربّه كلّمه حتى لا يلتبس عليه الأمر ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ يريد إسماعه إياه لحجاب الحروف المقطعة والأصوات كما سمع الأعرابيّ القرآن المتلو الذي هو كلام الله، أو حجاب الآذان أيضاً من السامع، أو حجاب بشريته مطلقاً فيكلمه في الأشياء كما كلّم موسىٰ: ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [سورة القصص: الآية ٣٠] فوقع الحدّ بالجهة وتعيّن البقعة لشغله بطلب النار الذي تقتضيه بشريته، فنودي في حاجته لافتقاره إليها، والله قد أخبر أن الناس فقراء إلى الله فتسمّى الله في هذه الآية باسم كلّ ما يفتقر إليه غيرة إلهية أن يفتقر إلى غير الله، فتجلّى الله له في عين صورة حاجته، فلما جاء إليها ناداه منها فكان في الحقيقة فقره إلى الله، والحجاب وقع بالصورة التي وقع فيها التجلّي، فلولا ما ناداه ما عرفه، وفي مثل هذا يقع التجلّي الإلهيّ في الآخرة الذي يقع فيه الإنكار، وقوله ﴿حَكِيمٌ﴾ أي ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ بما تقتضيه المراتب التي ذكرها وأنزلها منزلتها، وقوله ﴿حَكِيمٌ﴾ يريد بإنزال ما علمه منزلته، ولو بدل الأمر لما عجز عن ذلك، ولكن كونه عليماً حكيماً يقضي بأن لا يكون الأمر إلاّ كما وقع، ولما أخبر نبيّه بهذه المراتب كلها التي تطلبها البشرية قال له: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي ومثل ذلك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] يعني الروح الأمين الذي نزل به على قلبك الذي هو روح القدس أي الطاهر عن تقييد البشر، فقد علمت معنى البشر الذي أردنا أن نبيّنه لك بما تقتضيه هذه اللفظة باللسان العربي.

السؤال الخامس والأربعون: بأيّ شيء نال التقدمة على الملائكة؟ الجواب: إن الله قد بيّن ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] يعني الأسماء الإلهية التي توجهت على إيجاد حقائق الأكوان، ومن جملتها الأسماء الإلهية التي توجهت على إيجاد الملائكة والملائكة لا تعرفها، ثم أقام المسمّين بهذه الأسماء وهي التجليات الإلهية التي هي للأسماء كالمواد الصورية للأرواح فقال للملائكة: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني

الصور التي تجلّى فيها الحق ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] في قولكم: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] وهل سبحتموني بهذه الأسماء التي تقتضيها هذه التجليات التي أتجلاها لعبادي؟ وإن كنتم صادقين في قولكم: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] ذواتنا عن الجهل بك فهل قدستم ذواتكم لنا من جهلكم بهذه التجليات، وما لها من الأسماء التي ينبغي أن تسبحوني بها؟ فقالت الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ فمن علمهم بالله أنهم ما أضافو التعليم إلاَّ إليه تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما لا يعلم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٢] بترتيب الأشياء مراتبها، فأعطيت هذا الخليفة ما لم تعطنا ممّا غاب عنّا، فلولا أن رتبة نشأته تعطي ذلك ما أعطت الحكمة أن يكون له هذا العلم الذي خصصته به دوننا وهو بشر، فقال لآدم: ﴿أَنۢبِئْهُم﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٣] بأسماء هؤلاء الذين عرضناهم عليهم، فأنبأ آدم الملائكة بأسماء تلك التجليات وكانت على عدد ما في نشأة آدم من الحقائق الإلهية التي تقتضيها اليدان الإلهية ممّا ليس من ذلك في غيره من الملائكة شيء، فكان هؤلائك المسمّون المعروضة على الملائكة تجلّيات إلهية في صورة ما في آدم من الحقائق، فأولئك هم عالم آدم كلهم فلما علمهم آدم عليه السلام قال لهم الله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهو ما علا من علم الغيوب ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو ما في الطبيعة من الأسرار ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي ما هو من الأمور ظاهر ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٣] أي ما تخفونه على أنه باطن مستور، فأعلمتكم أنه أمر نسبيّ بل هو ظاهر لمن يعلمه. ثم قال لهم بعد التعليم ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٤] سجود المتعلمين للمعلم من أجل ما علمهم فلآدم هنا لام العلة والسبب أي من أجل آدم، فالسجود لله من أجل آدم سجود شكر لما علمهم الله من العلم به وبما خلقه في آدم عليه السلام، فعلموا ما لم يكونوا يعلمون فنال التقدمة عليهم بكونه علمهم فهو أستاذهم في هذه المسألة وبعده، فما ظهرت هذه الحقيقة في أحد من البشر إلاَّ في محمد ﷺ فقال عن نفسه: إنه أوتي جوامع الكلم وهو قوله في حق آدم عليه السلام ﴿ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ وكلها بمنزلة الجوامع، والكلم بمنزلة الأسماء، ونال التقدمة بها وبالصورة التي خلقه الله عليها.

قال عليه السلام: «**إِنَّ اللَّه خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**» بِالنَّشْأَةِ مِنْ أَجْلِ الْيَدَيْنِ وَجَعَلَهُ بِالخِلَافَةِ عَلَىٰ صُورَتِهِ وهي المنزلة فأعطته الصورتان التقدّم حيث لم يكن ذلك لغيره من المخلوقات، فليس فوق هذه المنزلة منزلة لمخلوق، فلا بدّ أن يكون له التقدّمة على من سواه، وكذلك الأمر الذي أعطاه هذا يتقدّم على جميع الأمور كلها.

السؤال السادس والأربعون: كم عدد الأخلاق التي منحه عطاء؟ الجواب: ثلاثمائة خلق وهي التي ذكر النبيّ ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ ثَلَاثَمِائَةِ خُلُقٍ مَنْ تَخَلَّقَ بِوَاحِدٍ مِنْهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**» ولهذا قال في الثلاثمائة إنهم على قلب آدم عليه السلام يعني هذه الأخلاق التي منح الله آدم، فمن كملت نشأته من بنيه قبل هذه الثلاثمائة من الخلق ومن لم يكمل كمال آدم فله منها على قدر ما أعطى من الكمال، فمنهم الكامل والأكمل، وهذه الأخلاق خارجة عن الاكتساب، لا تكتسب بعمل بل يعطيها الله اختصاصاً، ولا يصحّ التخلّق بها لأنه لا أثر لها في الكون، وإنما هي إعدادات

بأنفسها لتجلّيات إلهية على عددها، لا يكون شيء من تلك التجلّيات إلاّ لمن له هذه الأخلاق، فناهيك من أخلاق لا نعلق لها لمن كان عليها واتصف بها إلاّ بالله خاصة ليس بينها وبين المخلوقين نسب أصلاً، فقول النبيّ ﷺ: «مَنْ تَخَلَّقَ بِوَاحِدٍ مِنْهَا» أراد من اتصف بشيء منها أي من قامت به، فإن الأخلاق على أقسام ثلاثة: منها أخلاق لا يمكن التخلّق بها إلاّ مع الكون كالرحيم، وأخلاق يتخلق بها مع الكون ومع الله كالغفور، فإنه يقتضي الستر لما يتعلق بالله من كونه غيوراً ويتعلق بالكون، وأخلاق لا يتخلق بها إلاّ مع الله خاصة وهي هذه الثلاثمائة ولها من الجنات جنة مخصوصة لا ينالها إلاّ أهل هذه الأخلاق، وتجلياتها لا تكون لغيرها من الجنات، ولكن هذه الأخلاق هي لهم كالخلوق الذي يتطيّب به الإنسان، فإنه وجود الريح من الطيب لا تعمل فيه للمتطيّب به، فإنه يقتضي تلك الريح لذاته، والتخلّق تعمل في تحصيل الخلق وهذا ليس كذلك، فالثناء على الطيب لا على من قام به، فكذلك هذا الخلق إذا رأى على عبد قد اتصف به لم يقع منه ثناء عليه أصلاً، وإنما يقع الثناء على الخلق خاصة، فكل خلق تجده بهذه المثابة فهو من هذه الأخلاق الثلثمائة، فإن الكرم خلق من أخلاق الله، ولكن إذا تخلّق به العبد أثنى عليه بأنه كريم وكذلك الرحمة يقال فيه رحيم، وهذه الأخلاق لا ينطلق على من اتصف بها اسم فاعل جملة واحدة، لكن ينطلق عليه اسم موصوف بها، وسبب ذلك لأنه لا تعلق لها بالكون إلاّ بحكم الاشتراك كالغفور، ولا بحكم الاختصاص كالشديد العقاب، ويعطيها الاسم الوهاب من عين المنّة لا غير.

السؤال السابع والأربعون: كم خزائن الأخلاق؟ الجواب: على عدد أصناف الموجودات وأعيان أشخاصها، فهي غير متناهية من حيث ما هي أشخاص، ومتناهية من حيث ما هي خزائن، وما سميت خزائن لكون الأخلاق مخزونة فيها اختزاناً وجودياً، وإنما جعلت خزائن لما تتضمنه في حكم من اتصف بها من الصفات التي لا نهاية لوجودها وهي خزائن في خزائن، وأصلها الذي ترجع إليه الجامع للكل ثلاث خزائن: خزانة تحوي على ما تقتضيه الذوات من حيث ما هي ذوات. وخزانة تحوي على ما تقتضيه النسب الموجبة للأسماء من حيث ما هي نسب. وخزانة تحوي على ما تقتضيه الأفعال من حيث أنها أفعال لا من حيث المفعولات ولا الانفعالات ولا الفاعلية، وكل خزانة من هذه الخزائن الثلاث تنفتح إلى خزائن، وتلك الخزائن إلى خزائن، هكذا إلى غير نهاية، فهي تدخل تحت الكم بوجه ولا تدخل تحت الكم بوجه، فما حصل منها في الوجود حصره الكم.

السؤال الثامن والأربعون: إن لله مائة وسبعة عشر خلقاً ما تلك الأخلاق؟ الجواب: إن هذه الأخلاق مخصوصة بالأنبياء عليهم السلام ليس لمن دونهم فيها ذوق ولكن لمن دونهم تعريفاتها، فتكون عن تلك التعريفات أذواق ومشارب لا يحصيها إلاّ الله علماً وعدداً، فمن هذه الأخلاق خلق الجمع الدال على التفريق، والجمع الذي يتضمن التفريق، والفرق الذي يتضمن الجمع، ويظهر هذا الخلق من حضرة العزّة والإبانة والحكمة والكرم، ومن هذه الأخلاق خلق النور المستور وهو من أعزّ المعارف إذ لا يتمكن في النور أن يكون مستوراً فإنه

لذاته يخرق الحجب ويهتك الأستار، فما هذا الستر الذي يحجبه إلاَّ أن ذلك الحجاب هو أنت كما قال العارف: [الطويل]

فأنتَ حجابُ القلب عن سرِّ غَيْبِهِ ... ولولاك لم يَطْبَعْ عليه خِتَامَهُ

ومن هذه الأخلاق خلق اليد وهو القوّة وهو مخصوص بالقلوب وأصحابها وهو على مراتب، ومن هذه الأخلاق خلق إعدام الأسباب في عين وجودها وهو على مراتب وقفت منها في الأندلس على مائة مرتبة لا توجد في الكمال إلاَّ في روحانية ذلك الإقليم، فإنه لكل جزء من الأرض روحانية علوية تنظر إليه، ولتلك الروحانية حقيقة إلهية تمدها، وتلك الحقيقة هي المسماة خلقاً إلهياً، وأما بقية الأخلاق فلها مراتب دون هذه التي ذكرناها في الإحاطة والعموم، ولكل خلق من هذه الأخلاق درجة في الجنة لا ينالها إلاَّ من له هذا الخلق، وهذه الأربع التي ذكرناها منها للرسل، ومنها للأنبياء، ومنها للأولياء، ومنها للمؤمنين، وكل طبقة من هؤلاء الأربع على منازل بعددهم، فمنها ما يشاركهم فيها الملأ الأعلى، ومنها ما تختص به تلك الطبقة وذلك أن كل أمر يطلب الحق ففيه يقع الاشتراك، وكل أمر يطلب الخلق فهو يختص بذلك النوع من الخلق يقتصر عليه، ومن الباقي أربعة عشر خلقاً لا يعلمها إلاَّ الله، والباقي من الأخلاق تعينها أسماء الإحصاء وهي أسماء لا يعرفها إلاَّ وليّ أو من سمعها من رسول الله ﷺ من الصحابة، وأما من طريق النقل فلا يحصل بها علم، وأما الثلاثة عشر فيختصّ بعلمها سبحانه وما بقي فيعلمه أهل الجنة وهم في العلم بها على طبقات، وأعني بأهل الجنة الذين هم أهلها فإنه لله سبحانه أهل هم أهله لا يصلحون لغيره كما ورد في الخبر: «**إِنَّ أَهْلَ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ**» وللجنة أهل هم أهلها لا يصلحون إلاَّ لها لا يصلحون لله وإن جمعتهم حضرة الزيارة ولكن هم فيها بالعرض، وللنار أهل هم أهلها لا يصلحون لله ولا للجنة، ولكل أهل فيما هم فيه نعيم بما هم فيه ولكن بعد نفوذ أمر سلطان الحكم العدل القاضي إلى أجل مسمّى، وكل طائفة لها شرب وذوق في هذه الأخلاق المذكورة في هذا الباب، فانقسمت هذه الأخلاق على هؤلاء الطبقات الثلاث، كل خلق منها يدعوهم إلى ما يقتضيه أمره وشأنه من نار أو جنان أو حضور عنده حيث لا أين ولا كيف، وللمعاني المجرّدة منها أخلاق، ولعالم الحسّ منها أخلاق، ولعالم الخيال منها أخلاق، فجنة محسوسة لمعنى دون حسّ، وجنة معنوية لحسّ دون معنى، وحضور مع الحق معنويّ لحسّ دون معنى، وحضور مع الحق محسوس لمعنى، ونار محسوسة لمعنى دون حسّ، ونار معنوية لحسّ دون معنى، وتتفاضل مشارب هؤلاء الطبقات فيها، فمنهم التام والأتم، والكامل والأكمل، ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٨٣] في كلّ حضرة فإنه كلما أثبتناه من أعيان أكوان في نار وجنان فليس إلاَّ الحق إذ هي مظاهره، فالنعيم به لا يصحّ أصلاً في غير مظهر فإنه فناء ليس فيه لذّة، فإذا تجلّى في المظاهر وقعت اللذات والآلام وسرت في العالم، ويرحم الله من قال: [المضارع]

فهل سمعتُمْ بصبٍّ ... سليم طَرْفٍ سقيمِ

منعَّمٍ بعذابٍ ... معذَّبٍ بنعيمِ

فبه النعيم وبه العذاب، فلا يوجد النعيم أبداً إلاّ في مركب وكذلك العذاب. وأما النعيم والعذاب البسيط فلا حكم له في الوجود فإنه معقول غير موجود، فأهل المظاهر هم أهل النعيم والعذاب، وأهل أحدية الذات لا نعيم عندهم ولا عذاب. قال أبو يزيد: ضحكت زماناً وبكيت زماناً وأنا اليوم لا أضحك ولا أبكي. وقيل له: كيف أصبحت؟ قال: لا صباح لي ولا مساء، إنما المساء والصباح لمن تقيد بالصفة ولا صفة لي.

السؤال التاسع والأربعون والموفي خمسين: كم للرسل سوى محمد ﷺ منها؟ وكم لمحمد ﷺ منها؟ الجواب: كلها إلاّ اثنين وهم فيها على قدر ما نزل في كتبهم وصحفهم إلاّ محمداً ﷺ فإنه جمعها كلها بل جمعت له عناية أزلية، قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] فيما لهم به من هذه الأخلاق. فاعلم أن الله تعالىٰ لما خلق الخلق خلقهم أصنافاً وجعل في كلّ صنف خياراً واختار من الخيار خواص وهم المؤمنون، واختار من المؤمنين خواص وهم الأولياء، واختار من هؤلاء الخواص خلاصة وهم الأنبياء، واختار من الخلاصة نقاوة وهم أنبياء الشرائع المقصورة عليهم، واختار من النقاوة شرذمة قليلة هم صفاء النقاوة المروقة وهم الرسل أجمعهم، واصطفى واحداً من خلقه هو منهم وليس منهم هو المهيمن على جميع الخلائق جعله عمداً أقام عليه قبة الوجود، جعله أعلى المظاهر وأسناها، صحّ له المقام تعييناً وتعريفاً، فعلمه قبل وجود طينة البشر وهو محمد رسول الله ﷺ لا يكاثر ولا يقاوم، وهو السيد ومن سواه سوقة، قال عن نفسه: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ وَلا فَخْرَ**» بالراء والزاي روايتان أي أقولها غير متبجح بباطل، أي أقولها ولا أقصد الافتخار على من بقي من العالم، فإني وإن كنت أعلى المظاهر الإنسانية فأنا أشد الخلق تحقّقاً بعيني، فليس الرجل من تحقق بربه وإنما الرجل من تحقق بعينه لما علم أن الله أوجده له تعالىٰ لا لنفسه، وما فاز بهذه الدرجة ذوقاً إلاّ محمد ﷺ وكشفاً إلاّ الرسل، وراسخو علماء هذه الأمّة المحمدية ومن سواهم، فلا قدم لهم في هذا الأمر، وما سوى من ذكرنا ما علم أن الله أوجده له تعالىٰ بل يقولون: إنما أوجد العالم للعالم، فرفع ﴿بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣٢]وهو ﴿غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] هذا مذهب جماعة من العلماء بالله.

وقالت طائفة من العارفين: إن الله أوجد الإنس له تعالىٰ والجنّ وأوجد ما عدا هذين الصنفين للإنسان. وقد روي في ذلك خبر إلهيّ عن موسىٰ ﷺ: «**إِنَّ الله أَنْزَلَ فِي التَّوْرَاةِ: يَا ابْنَ آدَمَ خَلَقْتُ الأَشْيَاءَ مِنْ أَجْلِكَ وَخَلَقْتُكَ مِنْ أَجْلِي فَلا تَهْتِكْ مَا خَلَقْتُ مِنْ أَجْلِي فِيما خَلَقْتُ مِنْ أَجْلِكَ**» وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] وتقتضي المعرفة بالله أن الله خلق العالم وتعرّف إليهم لكمال مرتبة الوجود ومرتبة العلم بالله لا لنفسه سبحانه، وهذه الوجوه كلها لها نسب صحيحة ولكن بعضها أحق من بعض وأعلاها ما ذهبنا إليه، ثم يلي ذلك خلقه لكمال الوجود وكمال العلم بالله، وما بقي فنازل عن هاتين المرتبتين.

واعلم أن كلّ خلق ينسب إلى جناب الحضرة الإلهية فلا بدّ من مظهر يظهر فيه ذلك

الخلق، فإمّا أن يعود من المظهر التخلّق به على جناب الحق أو يكون متعلقه مظهر آخر يقتضيه في عين ممكن ما من الممكنات لا يكون إلاّ هكذا، وأما الحق من حيث هو لنفسه فلا خلق، فمن عرف النسب فقد عرف الله، ومن جهل النسب فقد جهل الله، ومن عرف أن النسب تطلبها الممكنات فقد عرف العالم، ومن عرف ارتفاع النسب فقدعرف ذات الحق من طريق السلب فلا يقبل النسب ولا تقبله، وإذا لم يقبل النسب لم يقبل العالم، وإذا قبل النسب كان عين العالم، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ نسبة خاصة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٩] فتعلم من عبده ومن العابد والمعبود، قال تعالى: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣] ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٦] ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٣] ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٣] ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] لا تعبد أنت فإن عبدته من حيث عرفته فنفسك عبدت، وإن عبدته من حيث لم تعرفه فنسبته إلى المرتبة الإلهية عبدت، وإن عبدته عيناً من غير مظهر ولا ظاهر ولا ظهور بل هو هو لا أنت، وأنت أنت لا هو، فهو قوله: فاعبده فقد عبدته، وتلك المعرفة التي ما فوقها معرفة فإنها معرفة لا يشهد معروفها، فسبحان من علا في نزوله ونزل في علوّه، ثم لم يكن واحداً منهما ولم يكن إلاّ هما لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم.

السؤال الحادي والخمسون: أين خزائن المنن؟ الجواب: في الاختيار المتوهم المنسوب إليه وإليك فأنت مجبور في اختيارك فأين الاختيار؟ وهو ليس بمجبور وأمره واحد فأين الاختيار؟ ولو شاء الله فما شاء و﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ١٩] وليس بمحل للحوادث بل الأعيان محل الحوادث وهو عين الحوادث عليها فإنها محال ظهوره ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] والذكر كلامه وهو الذي حدث عندهم، وكلامه علمه وعلمه ذاته، فهو الذي حدث عندهم فهو خزائن المنن والمنن ظهور ما حدث عندهم فيهم وهو لا أين له فلا أينية لخزائن المنن.

ولما كانت المنن متعدّدة طلب عين كل نسبة منه خزانة فلهذا تعدّدت الخزائن بتعدّد المنن وإن كانت واحدة ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٧] فهذه منتان: منة الهدى ومنة الإيمان، وجميع نعمه الظاهرة والباطنة مننه، وإذا كان هو عين المنة فأنت الخزانة، فالعالم خزائن المنن الإلهية، ففينا اختزن مننه سبحانه، فما هو لنا بأين، ونحن له أين، فمن لا أينية له هو نحن فأعياننا أين لظهوره، فحقيقة المكان لا تقبل المكان، ودع عنك من يقول المتمكن في المكان مكان لمكانه، وفرض بين التمكن والمكان حركتين متضادّتين تعطي حقيقة المكانية لكل واحد منهما، وهذا من قائله توهّم من أجل ما ذهب إليه، والحقيقة هي ما قرّرناه من أن المكان لا يقبل المكان، فلا أين للأين لمن هو أين له وهذا كله في المظاهر الطبيعية، وأما في المعاني المجرّدة عن الموادّ فهي المظاهر القدسية

للأسماء التي لا تقبل نسب التشبيه، فالعلم بها أن لا علم. كما روي عن الصدّيق أنه قال في مثل ما ذكرناه: العجز عن درك الإدراك إدراك، فانقلب التنزيه عن الأين لمن يقبل التشبيه فلا تشبيه في العالم ولا تنزيه، فإن الشيء لا يتنزه عن نفسه ولا يشبه بنفسه، فقد تبينت الرتب وعلم ما معنى النسب، والحمد لله وحده أن علم عبده.

السؤال الثاني والخمسون: أين خزائن سعي الأعمال؟ الجواب: ذوات العمال، فإن أراد تجسّد هذا السعي فخزانته الخيال، وإن أراد أين يختزن ففي سدرة المنتهى، فإن أراد ما لها من الخزائن الإلهية فخزانة الاسم الحفيظ العليم.

واعلم أن خزائن هذا السعي خمس خزائن لا سادسة لها، وعباد الله رجلان: عامل ومعمول به، فالمعمول به ليس هو مقصودنا في هذا الباب من هذا الفصل، وإنما مقصودنا سعي الأعمال من حيث نسبتها إلى العاملين والعاملون ثلاثة: عامل هو حق، وعامل بحق، وعامل هو خلق، وكلّ له سعي في العمل بحسب ما أضيف إليه، فإن الله قد نسب الهرولة إليه وهي ضرب من السعي سريع وقد قال: «**إِنَّ اللَّهَ لا يَمَلُّ حَتَىٰ تَمَلُّوا**» ثبت هذا في الحديث الصحيح، فأمّا سعي العمل الذي هو حق فالعمل يطلب الأجر بنفسه ليجود به على عامله، والعامل هنا ما يعطي حقيقته قبول الأجر ولا بدّ من الأجر فيكون إذاً الأجر الثناء لا غير، فإنه يقبل الثناء هذا العامل الذي هو حق، ولا يقبل القصور ولا الحور ولا الولدان ولا التجليات، فإن كان العمل ممّا يتضمن الحسن والقبح أو لا حسن ولا قبح فلا يضاف العمل إلى هذا العامل من حيث ما هو محكوم عليه بحسن أو قبح أو لا حسن ولا قبح، بل يضاف إليه معرى عن الحكم بنفي أو إثبات، وصاحبه أكمل الناس نعيماً في الجنة ولذة وأرفعهم درجة، وماله من الجنات من حيث هذا العمل سوى جنة عدن، والعمل يطلب نصيبه في جميع الجنان من حيث ما هو عمل لا غير فيعود به على صاحبه، بل يكون له مركباً إلى كلّ درجة في جميع الجنات وهو المراد بقوله تعالىٰ عنه: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٤] إلى هنا. وقوله: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٤] ليس هم هؤلاء بل العاملون بحق وبخلق إلاّ أن يريد بقوله: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ الثناء فهو لهم، فإن لفظة نعم وبئس للمدح والذم، والعامل هنا حق والثناء له حق، ونعم كلمة محمدة ومدح فيكون بهذا التأويل تمام الآية له والتبوّؤ في الجنات للعمل لا له.

فالمحل الذي ظهر فيه العمل وهو أنت هو الذي يتبوّأ من الجنة بعناية عمله الظاهر فيه ما شاء، إذ الصورة الطبيعية منه تطلب النعيم المحسوس والمتخيّل، فلهذا أبيحت الجنات له بحكم مشيئته بشفاعة العمل الحق، فخزائن هذا السعي كلها أنوار مباحها، ومندوبها، وواجبها، ومحظورها، ومكروهها، في حكم الظاهر المقرّر عند علماء الرسوم ممّن ليس له كشف منهم، وهو عند علماء الرسوم الذين لهم الكشف الأتم في معرفة الشرائع، أعني هذا الذي ظهر فيه هذا العمل على هذه الصفة ما تصرّف إلاّ فيما حسنه الشرع وقبله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧].

وأما سعي من كان عمله بحق فيقرب من هذا أنه لما شاهد ذاته عاملة وهو من أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] ومن أهل: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، نقص عن ذلك الأوّل، فكان صاحب كشف في عمله لأخذ الحق بناصيته في جميع ما يتصرّف فيه، فامتلأت خزائنه الخمسة عندنا والستة عند أبي حنيفة نوراً خالصاً ونوراً غير خالص ونوراً مزيلاً لظلمة كانت قبله، فكان ممتزج الأحوال، فلولا عناية هذا الحضور والكشف في حال السعي لما تمّ له هذا السعد الذي حصل له من إزالة ظلمته، فهذان الصنفان من أصحاب الأعمال في النور فلهم أجرهم ونورهم، وأما من كان سعى عامله خلق فترفع له خزائن الواجبات أعني الفرائض في العمل والترك والمندوبات في العمل والترك ممتلئة نوراً مشوباً بكون دون أنوار من ذكرناهم، وترفع لهم خزائن المباحات فارغة في العمل والترك إلاّ من ترك المباح أو عمله لكونه مباحاً ففيها نور يليق بهذا النوع، فكأنه نور من وراء حجاب مثل ضوء الشمس من خلف السحاب الرقيق، فإن نظر إلى تضمن ذلك المباح ترك محظوراً أو مكروه ولم يخطر له ترك واجب أو مندوب، فإن نوره يكون أتمّ قليلاً وأضوأ من النور الأول المعرّى عن هذا الخاطر، فإن خطر له أن ذلك المباح يتضمن ترك مندوب أو واجب من واجب يوجبه على نفسه، كمن نذر صيام يوم لا بعينه وله إن شاء أن يصومه في هذا اليوم وهو صوم واجب ولكن لا في هذا اليوم ولا بدّ وإن صامه في هذا اليوم المباح له ترك الصوم فيه فقد أدّى واجباً، فإن نوره في خزانته هذه بين النورين المتقدّمين وترفع له خزائن المحظورات في العمل والترك والمكروهات في العمل والترك، أما خزائن المحظورات ظلمة محضة، وأما خزائن المكروهات فسدفة، فإن كان حصره في وقت المحظور الإيمان به أنه في محظور وكذلك في المكروه فيكون خزائن المحظور ممتلئة سدفة، وخزائن المكروه كالأسفار والشفق، وما ثم عامل في المؤمنين أو الموحدين إلاّ هؤلاء خاصة، وأما من سوى المؤمن أو الموحد فلا كلام لنا معه في هذا الفصل من حيث قصد السائل، وأما من حيث سعي الأعمال فإن لكلّ عامل مدخلاً في هذا الفصل بحسب سعيه من معطل، ومشرك، وكافر، وجاحد، ومنافق، وما ثم شقيّ سوى هؤلاء الخمسة وفي الكلام على مناهجهم تفصيل يطول وكل يجري في طلقه إلى أجل مسمّى، وما منهم إلاّ من يقول: أنا من الأشياء فلا بدّ لي من الرحمة، فإن قائلها ليس من صفته التقييد، إذ لو تقيد لخرج عنه ما لا يمكن أن يكون إلاّ به، فمن المحال خروج شيء عنه، فمن المحال تقييده، فمنا من تفيض عليه الرحمة من خزائن الوجوب، ومنا من تفيض عليه الرحمة من خزائن المنن التي ذكرناها، فالكل طامع والمطموع فيه واسع ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [سورة النجم: الآية ٣٢] أترى هذه السعة الربانية تضيق عن شيء هي لم تضق عن الممكنات إذ كانت في الشرّ المحض، فكيف تضيق عن الممكنات إذ هي في الشرّ المشوب؟ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٣٢] فيخصّه بالرحمة الموجبة بالصيفة الموجبة ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [سورة الأعراف:

الآية ١٥٦] ممّن لم يتق فيخصّه برحمته المطلقة وهي رحمة الامتنان ولا تتقيد بحصر، فهذا جواب خزائن سعي الأعمال على الإيجاز والبيان.

السؤال الثالث والخمسون: من أين تعطى الأنبياء؟ الجواب: الأنبياء على نوعين: أنبياء تشريع وأنبياء لا تشريع لهم، وأنبياء التشريع على قسمين: أنبياء تشريع في خاصتهم كقوله: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٣] وأنبياء تشريع في غيرهم وهم الرسل عليهم السلام. أما الأنبياء الذين هم الرسل فمن حضرة الملك الذي هو ملك الملك، وأما الأنبياء غير المرسلين فمن حضرة الاختصاص، وأما الأنبياء الذين لا يوحى إليهم الروح المخصوص بذينك الصنفين فمن حضرة الكرم والكل من عين المنة والرحمة وهو الجامع، فأما الدائرة العظمى العامة التي هي النبوّة المطلقة فمن أعطيها من حيث إطلاقها فلا يعرف أحد ما لديه وما اتحفه به ربه، وهو أيضاً لا يعرف قدر ذلك لأنه لا يقابله ضد فيها فيتميز عنه، وأما من أعطي منها من باب الرحمة به وتولّى الحق بضرب من العطف عليه تعليمه فتعرف إليه بعوارفه، ثم عرفه من غيبه ما شاء أن يعرفه كخضر الذي قال فيه: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] أي رحمناه فأعطيناه هذا العلم الذي ظهر به، وإن أراد تعالىٰ أنه أعطاه رحمة من عنده جعلها فيه ليرحم بها نفسه وعباده فيكون في حق الغلام رحمة أن حال بينه وبين ما كان يكتسبه لو عاش من الآثام إذ قد كان طبع كافراً، وأما رحمته بالملك الغاصب حتى لا يتحمل وزر غصبه تلك السفينة من هؤلاء المساكين فالرحمة إنما تنظر من جانب الرحيم بها لا من جانب صاحب الغرض فإنه جاهل بما ينفعه، كالطبيب يقطع رجل صاحب الأكلة رحمة به لبقاء نفسه، فالرحمة عامة من الرحيم الراحم، ولم أر أحداً أعطي النبوّة المطلقة التي لا تشريع لها إلاَّ إن كان وما عرفته فهذا لا يبعد، فإني رأيت من أولياء الله تعالىٰ ما لا أحصيهم عدداً أنفعنا الله بهم. وأما من أعطى النبوّة المقيدة بالشرع الخاص به فما على الأرض منهم اليوم أحد ولا يراهم أحد إلاَّ في الموافقة وهي المبشرات. وأما النبوّة المقيدة بالشرائع ففي الزمان منهم اليوم إلياس ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٢٣] وإدريس وعيسىٰ، واختلف في الخضر بين النبوّة والولاية فقيل: هو نبيّ، وقيل: وليّ.

السؤال الرابع والخمسون: أين خزائن المحدثين من الأولياء؟ الجواب: في حضرة الحق من الحضرات الإلهية، وفي المظاهر الإلهية ممّا وقعت عليه العين أو بعض الحواس من صامت معتاد وناطق. [الطويل]

تحدّثني في ناطق ثم صامت وغمز عيون ثم كسر حواجب

قال رسول الله ﷺ في هذا الفصل: «**إِذَا قَالَ الإِمَامُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ فَقُولُوا: رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ فَإِنَّ الله قَالَ عَلَىٰ لِسَانِ عَبْدِهِ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**» فهذا من حديث الله مع خلقه. وقال تعالىٰ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] فكلم الله الأعرابي بلسان رسوله ﷺ، فإن رسول الله ﷺ هو الذي تلا عليه القرآن، والقرآن كلام الله، قال تعالىٰ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] لأنه حدث عندهم وإن كان قديماً في

نفس الأمر من حيث إنه كلام الله. وقال ﷺ في عمر إنه من المحدثين إن يكن في هذه الأمّة منهم أحد وأريد حديثه تعالىٰ مع أوليائه لا مع الأنبياء والرسل، فإن الأذواق تختلف باختلاف المراتب، فنحن لا نتكلم إلاَّ فيما لو ادعيناه لم ينكر علينا لأن باب الولاية مفتوح، ولهذا سأل عن خزائن المحدثين من الأولياء، فأكمل المحدثين من فهم عن الله ما حدّثه به في كل شيء وهم أهل السماع المطلق من الحق، فإن أجابوه به فهو حديث، وإن أجابوه بهم فهي محادثة، وإن سمعوا حديثه به فليس بحديث في حقّهم وإنما هو خطاب أو كلام، وأهل الحقائق يمنعون المحادثة ولا يمنعون المناجاة، فإن الحق لا يحدث عنده شيء، فهو سبحانه يحدّث من شاء من عباده ولا يحدّثه منهم أحد لكن يناجونه ويسامرونه كالمتهجدين هم أهل المسامرة، فالعالم خزائن المحدثين من الأولياء إذا سمعوا بهم فالمحدثون أنزل الدرجات في مقامات الأولياء وهم عند العامة في الرتبة العليا لأن علومهم ليست عن ذوق وإنما هي علوم نقل أو علوم فكر لا غير.

فأما حديث الله في الصوامت فهو عند العامّة من علماء الرسوم حديث حال أي يفهم من حاله كذا وكذا حتى أنه لو نطق لنطق بما فهمه هذا الفاهم منه، قال القوم في مثل هذا: قالت الأرض للوتد: لم تشقني؟ قال الوتد لها: سلي من يدقني، فهذا عندهم حديث حال وعليه خرجوا. قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] إباية حال، وأما عند أهل الكشف فيسمعون نطق كل شيء من جماد ونبات وحيوان يسمعه المقيد بأذنه في عالم الحسّ لا في الخيال كما يسمع نطق المتكلم من الناس والصوت من أصحاب الأصوات، فما عندنا في الوجود صامت أصلاً بل الكل ناطق بالثناء على الله، كما أنه ليس عندنا في الوجود ناطق أصلاً من حيث عينه بل كل عين سوى الله صامتة لا نطق لها، إلاَّ أنها لما كانت مظاهر كان النطق للظاهر، قالت الجلود: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢١] فالكلام في المظاهر هو الأصل، والصمت فيها عرض يعرض في حق المحجوب، والصمت في الأعيان هو الأصل، والكلام المسموع منها عرض يعرض في حق المحجوب فلأصحاب الحرف والصوت عذر عند هؤلاء، ولمنكر الصوت والحرف عذر أيضاً عندهم. انتهى الجزء الرابع والثمانون.

(الجزء الخامس والثمانون)

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال الخامس والخمسون: ما الحديث؟ الجواب: ما يتلقاه السامع إذا سمعه به لا بربه فذلك هو الحديث لا غير، فإن سمعه بربه فليس ذلك بحديث، ومعنى قوله سمعه بربه قول الله تعالىٰ: كنت سمعه الذي يسمع به. فاعلم أن وصفه بأنه سميع هو عينه لا أمر زائد. واعلم أن تحقيق هذا أنه لكل اسم إلهي نسبة كلام، والإنسان محل لاختلاف الأحوال عليه

عقلاً وحسّاً، وذلك أن الألوهية تعطي ذلك لذاتها، فإنها بالنسبة إلى العالم بهذه الصفة قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] فكل حال في الكون فهو عين شان إلهي. وقد تقرّر في العلم الإلهي أنه تعالىٰ لا يتجلّى في صورة واحدة لشخصين ولا في صورة واحدة لشخص مرّتين، وكل تجلّ له كلام، فذلك الكلام لهذا الحال من هذا التجلّي هو المعبّر عنه بالحديث، فالحديث لا يزال أبداً، غير أنه من الناس من يفهم أنه حديث، ومن الناس من لا يعرف ذلك بل يقول: ظهر لي كذا وكذا ولا يعرف أن ذلك من حديث الحق معه في نفسه لأنه حرم عين الفهم عن الله فيما يحسب أنه خاطر، والذين قسموا الخواطر إلى أربعة فذلك التقسيم لا يقع في الحديث، فإن الحديث حديث في كل قسم، وإنما الأقسام وقعت في الذوات التي فهم منها ما أريد بالحديث فيقال خاطر شيطاني وهو حديث رباني، وقول إلهيّ لما أراده الحق قال له: ﴿كُن﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٧] فكان، فناجاه الاسم البعيد، كما يتلقاه من الحديث الإلهيّ في الخاطر الملكي الاسم القريب، كما يتلقاه من الحديث الإلهي في الخاطر النفسي الاسم المريد، كما يتلقاه من الحديث الإلهي في الخاطر الرباني الاسم الحفيظ، فهذه الخواطر كلها من الحديث الإلهيّ الذي لا يشعر به إلاّ رجال الله، فالعالم كله على طبقاته لا يزالون في الحديث، فمن رزق الفهم عنه تعالىٰ وعرفه فذلك المحدث وهو من أهل الحديث، وعلم أن كل ما سمعه حديث بلا شك، وإن اختلفت ألقابه كالسمر والمناجاة والمناغاة والإشارات فالكلام كله حادث قديم حادث في السمع قديم في المسمع فافهم.

السؤال السادس والخمسون: ما الوحي؟ الجواب: ما تقع به الإشارة القائمة مقام العبارة من غير عبارة، فإن العبارة تجوز منها إلى المعنى المقصود بها ولهذا سميت عبارة، بخلاف الإشارة التي هي الوحي فإنها ذات المشار إليه، والوحي هو المفهوم الأوّل والإفهام الأوّل، ولا أعجل من أن يكون عين الفهم عين الإفهام عين المفهوم منه، فإن لم تحصل لك هذه النكتة فلست صاحب وحي، ألا ترى أن الوحي هو السرعة ولا سرعة أسرع ممّا ذكرناه، فهذا الضرب من الكلام يسمّى وحياً، ولما كان بهذه المثابة وأنه تجلّ ذاتيّ لهذا ورد في الخبر: «**إِنَّ اللَّهَ إِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ صَعِقَتِ الْمَلَائِكَةُ**» ولما تجلّى الرب للجبل تدكدك الجبل وهو حجاب موسىٰ فإنه كان ناظراً إليه طاعة لأمر الله فلاح له عند تدكدك الجبل الأمر الذي جعل الجبل ﴿دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٣] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٣] قالت الملائكة ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٣] قالت الحقيقة ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٣] هذه النسبة من حيث هويته، فالوحي ما يسرع أثره من كلام الحق تعالىٰ في نفس السامع، ولا يعرف هذا إلاّ العارفون بالشؤون الإلهية، فإنها عين الوحي الإلهيّ في العالم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٦٦] فافهم.

وقد يكون الوحي إسراع الروح الإلهيّ الأمري بالإيمان بما يقع به الأخبار والمفطور عليه كل شيء ممّا لا كسب له فيه من الوحي أيضاً، كالمولود يتلقى ثدي أمّه ذلك من أثر الوحي

الإلهيّ إليه كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٨] فلولا ما فهمت من الله وحيه لما صدر منها ما صدر، ولهذا لا يتصوّر المخالف إذا كان الكلام وحياً فإن سلطانه أقوى من أن يقام ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [سورة القصص: الآية ٧] وكذا فعلت ولم تخالف مع أن الحالة تؤذن أنها ألقته في الهلاك ولم تخالف ولا تردّدت ولا حكمت عليها البشرية بأن إلقاءه في اليم في تابوت من أخطر الأشياء، فدلّ على أن الوحي أقوى سلطاناً في نفس الموحى إليه من طبعه الذي هو عين نفسه، قال تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] وحبل الوريد من ذاته.

فيا أيها الوليّ إذا زعمت أن الله أوحى إليك فانظر في نفسك في التردّد أو المخالفة، فإن وجدت لذلك أثراً بتدبير أو تفصيل أو تفكّر فلست صاحب وحي، فإن حكم عليك وأعماك وأصمك وحال بين فكرك وتدبيرك وأمضى حكمه فيك فذلك هو الوحي وأنت عند ذلك صاحب وحي، وعلمت عند ذلك أن رفعتك وعلوّ منصبك أن تلحق بمن تقول إنه دونك من حيوان ونبات وجماد، فإن كل ما سوى مجموع الإنسان مفطور على العلم بالله إلاّ مجموع الإنسان والجان فإنه من حيث تفصيله مفطور على العلم بالله كسائر ما سواهما من المخلوقات من ملك ونبات وحيوان وجماد، فما من شيء فيه من شعر وجلد ولحم وعصب ودم وروح ونفس وظفر وناب إلاّ وهو عالم بالله تعالىٰ بالفطرة بالوحي الذي تجلّى له فيه وهو من حيث مجموعيته، وما لجمعيته من الحكم جاهل بالله حتى ينظر ويفكر ويرجع إلى نفسه فيعلم أن له صانعاً صنعه وخالقاً خلقه، فلو أسمعه الله نطق جلده أو يده أو لسانه أو رجله لسمعه ناطقاً بمعرفته بربّه مسبحاً لجلاله ومقدّساً ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النور: الآية ٢٤] ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [سورة فصلت: الآية ٢١] فالإنسان من حيث تفصيله عالم بالله، ومن حيث جملته جاهل بالله حتى يتعلم أي يعلم بما في تفصيله فهو العالم الجاهل ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [سورة السجدة: الآية ١٧] فالإنسان من حيث تفصيله صاحب وحي، ومن حيث جملته لا يكون في كل وقت صاحب وحي.

السؤال السابع والخمسون: ما الفرق بين النبيين والمحدّثين؟ الجواب: التكليف، فإن النبوّة لا بدّ فيها من علم التكليف، ولا تكليف في حديث المحدثين جملة ورأساً، هذا إن أراد أنبياء الشرائع، فإن أراد أصحاب النبوّة المطلقة فالمحدثون أصحاب جزء منها، فالنبيّ الذي لا شرع له فيما يوحى إليه به هو رأس الأولياء وجامع المقامات مقامات ما تقضيه الأسماء الإلهية ممّا لا شرع فيه من شرائع أنبياء التشريع الذين يأخذون بوساطة الروح الأمين من عين الملك والمحدث ما له سوى الحديث وما ينتجه من الأحوال والأعمال والمقامات، فكل نبيّ محدث وما كل محدث نبيّ، وهؤلاء هم أنبياء الأولياء. وأما الأنبياء الذين لهم الشرائع فلا بدّ من تنزّل الأرواح على قلوبهم بالأمر والنهي، وما عدا ما ينزلون به من الأمر

والنهي مثل العلوم الإلهية والإخبارات عن الكوائن والأمور الغائبة فذلك خارج عن نبوّة الشرائع وهو من أحوال الأنبياء على العموم ويناله المحدث، فإن ظهر من أصحاب النبوّة المطلقة حكم من الأحكام الظاهرة من أنبياء الشرائع من قتل أو أخذ مال أو فعل من الأفعال يناقض حكم شرع الزمان المقرّر فاعلم أن هذا النبيّ الذي ما له شرع ليس ذلك من شرع نزل إليه وخوطب به، بل لا يزال تابعاً لرسول قد شرع له ما شرع، وإنما اتفق أنه أخبر باتباع شرع رسول قد شرع له ممّا لم شرع لرسول آخر، وحكمه في حق هذا الرسول يعارض حكم الرسول الآخر، فإذا اجتمع هذا الشخص الذي هو بهذه المثابة مع رسول من الرسل كالخضر مع موسىٰ عليه السلام فحكم في قتل الغلام بما حكم وأنكر عليه موسىٰ قتل نفس زكية في ظاهر الشرع بغير نفس ممّا لم يكن ذلك حكمه في شرعه. فقال له: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٧٤] أي ينكره شرعي، وقال له الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] يعني في كلّ ما جزى منه، فكان الخضر في حكمه على شرع رسول غير موسىٰ، فحكم بما حكم به ممّا يقتضيه شرع الرسول الذي اتبعه.

ومن شرع ذلك الرسول حكم الشخص بعلمه، فحكم بعلمه في الغلام أنه كافر فلم يكن حكم الخضر فيه من حيث أنه صاحب شرع منزّل، وإنما حكم فيه مثل حكم القاضي عندنا بشرع رسول الله ﷺ، فعلى هذا الحدّ تصدر الأحكام من أنبياء الأولياء. فإن قيل: هذا يجوز في زمان وجود الرسل واليوم فما ثم شرع إلاّ واحد فهل يتصوّر أن تحكم أنبياء الأولياء بما يخالف شرع محمد ﷺ؟ قلنا: لا نعم، فأما قولنا لا فإنه لا يجوز أن يحكم برأيه. وأما قولنا نعم فإنه يجوز للشافعيّ أن يحكم بما يخالف به حكم الحنفيّ وكلاهما شرع محمد ﷺ فإنه قرّر الحكمين فخالفت شرعه بشرعه، فإذا اتفق أن تخبر أنبياء الأولياء فيما يعلمهم الحق من أحكام شرع رسول الله ﷺ أو يشهدون الرسول ﷺ فيخبرهم بالحكم في أمر يرى خلافه أحمد والشافعيّ ومالك وأبو حنيفة لحديث رووه صحّ عندهم من طريق النقل فوقفت عليه أنبياء الأولياء وعلمت من طريقها الذي ذكرناه أن شرع محمد يخالف هذا الحكم وأن ذلك الحديث في نفس الأمر ليس بصحيح وجب عليهم إمضاء الحكم بخلافه ضرورة، كما يجب على صاحب النظر إذا لم يقم له دليل على صحة ذلك الحديث وقام لغيره دليل على صحته وكلاهما قد وفى في الاجتهاد حقّه، فيحرم على كلّ واحد من المجتهدين أن يخالف ما ثبت عنده وكلّ ذلك شرع واحد، فمثل هذا يظهر من أنبياء الأولياء بتعريف الله أنه شرع هذا الرسول فيتخيل الأجنبيّ فيه أنه يدّعي النبوّة وأنه ينسخ بذلك شرع رسول الله ﷺ فيكفره، وقد رأينا هذا كثيراً في زماننا وذقناه من علماء وقتنا فنحن نعذرهم لأنه ما قام عنده دليل صدق هذه الطائفة وهم مخاطبون بغلبة الظنون، وهؤلاء علماء بالأحكام غير ظانين بحمد الله، فلو وفوا النظر حقّه لسلموا له حاله كما يسلم الشافعيّ للمالكيّ حكمه ولا ينقضه إذا حكم به الحاكم، غير أنهم رضي الله عنهم لو فتحوا هذا الباب على نفوسهم لدخل الخلل في الدين من المدّعي صاحب الغرض فسدوه وقالوا إن الصادق من هؤلاء لا يضره سدنا هذا الباب

ونعم ما فعلوه. ونحن نسلم لهم ذلك ونصوبهم فيه ونحكم لهم بالأجر التام عند الله. ولكن إذا لم يقطعوا بأن ذلك مخطىء في مخالفتهم فإن قطعوا فلا عذر لهم فإن أقل الأحوال أن ينزلوهم منزلة أهل الكتاب لا نصدقهم ولا نكذبهم، فإنه ما دلّ لهم دليل على صدقهم ولا كذبهم، بل ينبغي أن يجروا عليهم الحكم الذي ثبت عندهم مع وجود التسليم لهم فيما ادعوه، فإن صدقوا فلهم، وإن كذبوا فعليهم، فعلى هذا تجري الأحكام من أنبياء الأولياء لا أنهم أرباب شرائع بل اتباع ولا بدّ، ولا سيما في هذا الزمان الذي ظهرت فيه دولة محمد ﷺ والمحدثون ليست لهم هذه الرتبة بل رتبتهم الحديث لا غير، فهم ناظرون في كلّ شيء، آخذون من عين كل شيء من كون كلّ شيء مظهر حق، غير أنهم لا يتعدون حدود الله جملة، فإن صدر منهم ما هو في الظاهر تعدّ لحدّ من حدود الله فذلك الحدّ هو بالنسبة إليك حدّ وبالنسبة إليه مباح لا معصية فيه وأنت لا تعلم وهو على بينة من ربّه في ذلك، فما أتى محرماً من هذه صفته فإنه ممّن قيل له اعمل ما شئت فما عمل إلاّ ما أبيح له عمله فإنه أمر لا على جهة الوعيد مثل قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٠] فهذا وعيد.

وإنما قولنا فيمن قيل له اعمل ما شئت فقد غفرت لك فعمل على كشف وتحقق وهذا ثابت في شرعنا بلا شك، فأهل الحديث أيضاً لهم في مثل هذا قدم ولكن ليس هم مخصوصين به بل يشاركهم فيه من ليس بمحدث من الأولياء، وقد عرفت صفة المحدثين فيما قبل وصفة النبيين فقف عند ذلك، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

السؤال الثامن والخمسون: أين مكانهم منهم؟ الجواب: مكان التابع من المتبوع وهو المشي على الأثر، قال شيخنا محمد بن قائد: رأيت في دخولي عليه أثر قدم أمامي فغرت فقيل لي: هذه قدم نبيك فسكن ما بي. فاعلم أن هذه الدولة المحمدية جامعة لأقدام النبيين والمرسلين عليهم السلام، فأيّ وليّ رأى قدماً أمامه فتلك قدم النبيّ الذي هو له وارث.

وأما قدم محمد ﷺ فلا يطأ أثره أحد ﷺ كما لا يكون أحد على قلبه، فالقدم التي رآها محمد بن قائد أو يراها كلّ من يراها فتلك قدم النبيّ الذي هو له وارث، ولكن من حيث ما هو محمدي لا غير ولهذا قيل له: قدم نبيك ولم يقل له هذه قدم محمد ﷺ، فإن كان الشيخ فهم منه ما ذكرناه فهو من أهل الحديث والكمال، وإن كان فهم منه قدم محمد ﷺ فذلك صدع أصاب عين فهمه. ولهذا قال السائل: أين مكانهم منهم؟ ولم يقل منه، والمكان هنا يعني به المكانة.

وحكي عن عبد القادر الجيليّ أنه قال حين قيل له ما قاله هذا الشيخ كنت في المخدع ومن عندي خرجت له النوالة يعني الخلعة التي أعطى لأنه سئل عنه فقال: ما رأيته في الحضرة فقيل ذلك لعبد القادر فلذلك قال: كنت في المخدع وسمى النوالة وكان كما قال. وإنما قال في المخدع ولم يسم مكان صونه وعينه بهذا الاسم ليعلم بخداع الله محمد بن قائد حيث حكم بأنه رأى عبد القادر في الحضرة في معرض النفاسة عليه، فإن حضرة محمد بن قائد في هذه الواقعة هي حضرته التي تختص به من حيث معرفته بربه، لا حضرة الحق من حيث يعرفه

عبد القادر أو غيره من الأكابر، فستر عنه مقام عبد القادر خداعاً. فهم ذلك عبد القادر فقال: كنت في المخدع. وقوله: إن من عنده خرجت النوالة له يدل على أن عبد القادر كان شيخه في تلك الحضرة وعلى يديه استفادها وجهل ذلك محمد بن قائد، فإن الرجال في ذلك كانوا تحت قهر عبد القادر فيما يحكى لنا من أحواله وأحوالهم وكان يقول هذا عن نفسه فيسلم له حاله، فإن شاهده يشهد له بصدق دعواه فإنه كان صاحب حال مؤثرة ربانية مدة حياته لم يكن صاحب مقام، وما انتقل إلى حال أبي السعود وإن كان تلميذه إلا عند موته وهي الحال الكبرى، وكانت هذه الحال مستصحبة لأبي السعود طول حياته فكان عبداً محضاً لم تشب عبوديته ربوبية فاعلم ذلك.

ثم لتعلم أن مكان كلّ واحد من نبيه الذي هو وارثه إنما مكانه منه على الحال التي أثمر له طريقه. فإنه لا يرث أحد نبياً على الكمال، إذ لو ورثه على الكمال لكان هو رسولاً مثله أو نبيّ شريعة تخصه يأخذ عمن يأخذ عنه وليس الأمر كذلك، إلا أن الروح الذي يلقى على ذلك النبيّ تمتد منه رقيقة ملكية لقلب هذا الرجل الوارث في صورة حالة مشوبة في ظاهرها بصورة ذلك الملك، وتسمى تلك الروحانية باسم ذلك الملك وتخاطب هذا الوارث ويخاطبها هذا الوارث بقدر حاله، وينطلق على تلك الرقيقة اسم ذلك الروح، وربما بعض الورثة يتخيل أنه عين الروح الذي كان يلقى على ذلك النبيّ، وأنه الروح عينه والصور مختلفة، وليس الأمر كذلك، والخطاب من حيث الصورة لا من حيث الروح وتتعين المرتبة بالصورة، فمعرفة الإنسان بنفسه ومرتبته لا تعلم إلا من الصورة، ومن هنا يتخيل من لا تمكن له في المعارف الإلهية ذوقاً، أنه نبيّ أوقد نال درجة أنبياء الشرائع، ولهذا قال بعض السادة من رجال الله: جعلك الله محدثاً صوفياً ولا جعلك صوفياً محدثاً، فإن الغالب أن تكون بحكم الأصل المتقدم إلا أن يعصم الله، فمعرفة الكان الذي لنا من الأنبياء واجب علينا العلم به لئلا نكون ممن لبس عليه في ذلك ولا سيما والله يقول: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥] ولو كان رجلاً لظهر في صورة ملك للالتباس المطلوب الذي هو صورة عملهم، ليعلم أنه ما أتى عليهم إلا منهم، فما جنوا إلا ثمرة أعمالهم، هذا هو الحق.

السؤال التاسع والخمسون: أين سائر الأولياء؟ الجواب: في النور خلف حجاب السبحات الوجهية من الأنوار والظلم في نور ممتزج بينهما كنور الأسحار وهو السدفة. وأمّا المؤمنون فإنهم في النور العام المبطون في ظلم الحجب، ومنه تخلص الأولياء إلى هذا النور الممتزج والأكابر أحرقتهم أنوار السبحات، وخواص الأكابر أحرقهم نور البصر، فالأولياء لا يتجاوز علمهم الصفات الذاتية من حيث ما هي منسوبة إلى الحق الموصوف بها لا من حيث ما دلت عليها دلائل الآثار، فهم يعرفون العالم من الله ويعرفون الله بالله، ومن دونهم يعرفون الله من العالم، وأما العالم فلا يعرفه من نفسه إلا أكابر الرجال الذين لا يعرفون الأشياء أو

المعلومات إلا من نفوسها وأعيانها، فلا يتخذون دليلاً على الشيء أو المعلوم سوى نفس ذلك المعلوم وذلك لارتفاع المناسبات ولسريان الأحدية في كلّ معلوم، فكما أنه لا مناسبة بين الله وبين خلقه كذلك لا مناسبة بين أعيان العالم والمظاهر فلا يعرفون شيئاً بشيء ولا معلوماً بمعلوم غيره، وسائر الأولياء ما لهم هذه المرتبة، وكيف يعرف الشيء بغيره ولا يجتمع بالدليل والمدلول؟ فإن أحدهما إذا انتفى بوجود الآخر جهلت المناسبة المتخيلة، فذلك المدلول إنما عرفته حين ظهر لك بنفسه، وأما حين نظرك في الدليل على زعمك فلا علم لك إلا بذات الدليل لأن ذاته عرفتك بذاته لا بما جعلته دليلاً عليه، فإن المدلول في حين علمك بالدليل لست بعالم به، فهذا الذي جعل أكابر الرجال لا يتخذون أمر الأمر وإنما يتخذون كلّ أمر لنفسه وعينه، فيعلمون هؤلاء الله بالله والعالم بالعالم والأسماء بالأسماء، فلا فكر لهم في استنباط شيء كما لسائر الأولياء فلهم الشهود الدائم فأينية سائر الأولياء في الأدلة فلا يشهدون مدلولاً أبداً، وعلى هذا جرت أحكامهم، وأما أينيتهم في القيامة فهم الذين لا يخافون ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠٣] لأنهم ما لهم تبع وهم في أنفسهم آمنون، فتغبطهم الأنبياء في ذلك الموطن خاصة.

وأما أينيتهم في الكثيب يوم الزور الأعظم فلهم الكراسي عليها يقعدون والمنابر والأسرة والمراتب لغيرهم ولكن من حيث هم رسل وأنبياء ومؤمنون، وأما الأكابر في العلم بالله فإن لهم قوّة على التحوّل في رقايق لتحوّل التجلي في الصور، فيبعثون لكل تجل في صورة رقيقة صورية من ذواتهم تشاهد ما يشاهده أهل الجمع وهم في تلك الحال في قصورهم ينعمون في صورة أجسامهم الطبيعية ومع الله من حيث كونه إحدى الذات بحقايقهم، وفي الكثيب عند الرؤية برقايقهم المعنوية التي أوجدوها لصور التجلي ومن سواهم، فحالهم إذا كانوا في الجنان لا يكونون في الكثيب، وإذا كانوا في الكثيب لا يكونون في الجنان، فتفقدهم جواريهم وولدانهم، وأكابر القوم لا يفقدهم شيء من ملكهم فهؤلاء بأيديهم ملكوت ملكهم.

السؤال الستون: ما خوض الوقوف؟ الجواب: دخول بعضهم في بعض طلباً للتخلص مما هم فيه من شدة ذلك اليوم وكربه، فمنهم الخائض في طلب من يشفع له. ومنهم الخائض في طلب من يتكرم عليه لينقذه من هول ذلك اليوم. ومنهم الخائض في طلب من يشهد له ومنهم الخائض في طلب الخصم لطلب القصاص ومنهم الخائض ليختفي ويستتر من خصمائه. ومنهم الخائض ليستتر حياء من معارفه، وعلى هذا كان يعمل شيخنا أبو عمران موسى بن عمران الميرتلي قلت له يوماً: تقلل من معارفك؟ فقال: ربما لا أكون هناك بذاك فأستحي من معارفي، فإذا لم أر من أعرف هان عليّ بعض الحال. ومنهم الخائض ليعرف بمنزلته لما هو فيه من المكانة عند ربه ليغيظ بهم الكفار، وأمثال هذا هو خوض الوقوف إذا تأملت.

وأما الطائفة التي كانت تخوض في آيات الله وكانوا بها يستهزئون فإن الله يخوض بهم في غمرات أعمالهم كما كانوا في الدنيا في خوضهم يلعبون، يكونون في الآخرة في خوضهم

يحزنون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٢] فهذا خوضهم في الدنيا ﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين ٣٣، ٣٤] الصورة بالصورة فهذا خوضهم في الوقوف قال تعالى يوصينا ويحذرنا ممن هذه صفته: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾[الأنعام: ٦٨] إنكم إذن مثلهم إذا أقمتم معهم وهم بهذه المثابة وإن لم تخض معهم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧] ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦] فهؤلاء في الوقوف يخاض بهم حيث يكرهون كما خاضوا هنا حيث يكره الحق منهم. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

السؤال الحادي والستون: كيف صار أمره كلمح البصر؟ الجواب: الضمير في أمره يعود على الوقوف، فاعلم أن الكيفيات لاتنقال ولكن تقال بضرب من التشبيه فإن أمره واحدة أي كلمة واحدة مثل لمح البصر، فإن اللمحة الواحدة من البصر نعم من أحكام المرئيات من حيث الرائي إلى الفلك الأطلس جميع ما يحوي عليه ما أدركه البصر في تلك اللمحة من الذوات والأعراض القائمة بها من الأكوان والألوان وفي العبادات كل مصل والخلق كله مصل من حيث دعى يناجي ربه في الآن الواحد، كذلك أمره في الوقوف مع كون ذلك بالمقدار الزماني خمسين ألف سنة من أيام الدنيا وهو يوم ذي المعارج، ويوم الرب من يوم ذي المعارج مثل نصف خمس الخمس، فالأيام وإن اختلفت مقاديرها وعدها اليوم الشمسي فإن أمر الله فيها مثل لمح البصر للإفهام والتوصيل، وربما هو في القله أقل من هذا المقدار، بل مقداره الزمان الفرد المتوهم الذي هو يوم الشأن، فالشأن بالنظر إلى الحق واحد منه، وبالنظر إلى قوابل العالم كله شؤون لولا الوجود حصرها لقلنا إنها لا نهاية لها، فانظر الحكم الواحد من الحاكم كيف تعدّد وعظم بحيث لا يمكن أن يحصره عدد من حيث العالم وإنما يحصيه من ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢] ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ٢٨]فكما صارت الخمسون ألف سنة كيوم واحد وفي يوم واحد كذلك صار أمره كلمح البصر، وسبب ذلك أن الذي يصدر منه الأمر لا يتقيد فهو في كل مأمور بحيث أمر، فينفذ الأمر بحكمه دفعة واحدة، وهذا إذا لم يبعد في المحدثات وجوده بهذه السعة، فما ظنك بالأمر الحق فإن الهواء حكمه في كل شيء من العالم الطبيعي أسرع من لمح البصر وهو واحد كالإنسان الواحد، وكذلك الروح الأمري في العقول وفي الأجسام الطبيعية، فمثل هذا لا يستبعده إلا من لا علم له بالأمور والحقائق، ولا سيما وإن أعاد الضمير في سؤاله من أمره على الضمير المذكور في سورة القمر: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] وهو الذي أراد والله أعلم، مع أنه يسوغ أن يعود على الوقوف وعلى الخوص، فإن الزمان الواحد يجمع الخائضين في خوضهم، والله الهادي من شاء إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

السؤال الثاني والستون: أمر الساعة كلمح البصر أو هو أقرب؟ الجواب: سميت الساعة

ساعة لأنها تسعى إلينا بقطع هذه الأزمان لا بقطع المسافات وبقطع الأنفاس، فمن مات وصلت إليه ساعته وقامت قيامته إلى يوم الساعة الكبرى التي هي لساعات الأنفاس، كالسنة لمجموع الأيام التي تعينها الفصول باختلاف أحكامها، فأمر الساعة وشأنها في العالم أقرب من لمح البصر، فإن عين وصولها عين حكمها، وعين حكمها عين نفوذ الحكم في المحكوم عليهم، وعين نفوذه عين تمامه، وعين تمامه عين عمارة الدارين ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] ولا يعرف هذا القرب إلا من عرف قدرة الله في وجود الخيال في العالم الطبيعيّ، وما يجده العالم به من الأمور الواسعة في النفس الفرد والطرفة ثم يرى أثر ذلك في الحس بعين الخيال فيعرف هذا القرب وتضاعف السنين في الزمن القليل من زمان الحياة الدنيا.

ومن وقف على حكاية الجوهريّ رأى عجباً وهو من هذا الباب. فإن قلت: وما حكاية الجوهري؟ قلنا: ذكر عن نفسه أنه خرج بالعجين من بيته إلى الفرن وكانت عليه جنابة فجاء إلى شط النيل ليغتسل فرأى وهو في الماء مثل ما يرى النائم كأنه في بغداد وقد تزوّج وأقام مع المرأة ست سنين وأولدها أولاداً غاب عني عددهم ثم ردّ إلى نفسه وهو في الماء ففرغ من غسله وخرج ولبس ثيابه وجاء إلى الفرن وأخذ الخبز وجاء إلى بيته وأخبر أهله بما أبصره في واقعته، فلما كان بعد أشهر جاءت تلك المرأة التي رأى أنه تزوّجها في الواقعة تسأل عن داره فلما اجتمعت به عرفها وعرف الأولاد وما أنكرهم وقيل لها: متى تزوّج؟ فقالت: منذ ست سنين وهؤلاء أولاده مني، فخرج في الحس ما وقع في الخيال. وهذه من مسائل ذي النون المصريّ الستة التي تحيلها العقول، فلله قوى في العالم خلقها مختلفة الأحكام كاختلاف حكم العقل في العامة من حكم البصر من حكم السمع من حكم الطعم وغير ذلك من القوى التي في عامة الناس، فاختص الله أولياءه بقوى لها مثل هذه الأحكام فلا ينكرها إلا جاهل بما ينبغي للجناب الإلهيّ من الاقتدار، وفي معراج رسول الله ﷺ ما فيه كفاية في هذا الباب مع بعد هذه المسافات التي قطعها في الزمان القليل.

السؤال الثالث والستون: ما كلام الله تعالى لعامة أهل الوقوف؟ الجواب: يقول لهم ما جئتم به فيقع في أسماع السامعين ذلك مختلفاً باختلاف أحوالهم فتختلف أحوالهم بأسماعهم، بل تختلف أسماعهم بحسب أحوالهم في الموقف، ولا يحصل في سمع واحد منهم ما حصل في سمع الآخر، وهو السؤال عن النفس الذي قبض فيه، ولا يكون هذا الكلام إلا لأهل الوقوف خاصة الذين هم في هول ذلك اليوم. وأمّا المتصرّفون فيه كالأنبياء والرسل والدعاة إلى الله وكالمستريحين من أهل المنابر الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر وكالمصونين في سرادقات الجلال خلف حجاب الإنس فهؤلاء كلهم وأمثالهم ما هم من أهل الوقوف، فأهل الوقوف هم الذين ينتظرون حكم الله فيهم فيجيبونه عند هذا الكلام بما فهم كلّ واحد منهم.

السؤال الرابع والستون: ما كلامه للموحدين؟ الجواب: يقول لهم: فيماذا وحدتموني؟

وبماذا وحدتموني؟ وما الذي اقتضى لكم توحيدي؟ فإن كنتم وحدتموني في المظاهر فأنتم القائلون بالحلول، والقائلون بالحلول غير موحدين لأنه أثبت أمرين: حال ومحل، وإن كنتم وحدتموني في الذات دون الصفات والأفعال فما وحدتموني فإن العقول لا تبلغ إليها والخبر من عندي فما جاءكم بها، وإن كنتم وحدتموني في الألوهة بما تحمله من الصفات الفعلية والذاتية من كونها عيناً واحدة مختلفة النسب فبماذا وحدتموني؟ هل بعقولكم أو بي؟ وكيفما كان فما وحدتموني لأنّ وحدانيتي ما هي بتوحيد موحد لا بعقولكم ولابي، فإنّ توحيدكم إياي بي هو توحيدي لا توحيدكم وبعقولكم كيف يحكم علي بأمر من خلقته ونصبته، وبعد أن ادّعيتم توحيدي بأيّ وجه كان أو في أيّ وجه كان فما الذي اقتضى لكم توحيدي إن كان اقتضاه وجودكم فأنتم تحت حكم ما اقتضاه منكم فقد خرجتم عني فأين التوحيد؟ وإن كان اقتضاه أمري فأمري ما هو غيري، فعلى يدي من وصلكم إن رأيتموه مني فمن الذي رآه منكم وإن لم تروه مني فأين التوحيد يا أيها الموحدون؟ كيف يصح لكم هذا المقام وأنتم المظاهر لعيني وأنا الظاهر والظاهر يناقض الهوية فأين التوحيد؟ لا توحيد في المعلومات، فإنّ المعلومات أنا وأعيانكم والمحالات والنسب فلا توحيد في المعلومات، فإن قلتم في الوجود فلا توحيد فإن الوجود عين كل موجود، واختلاف المظاهر يدل على اختلاف وجود الظاهر، فنسبة عالم ما هي نسبة جاهل ولا نسبة متعلم فأين التوحيد؟ وما ثم إلا المعلومات أو الموجودات. فإن قلت: لا معلوم ولا مجهول ولا موجود ولا معدوم وهو عين التوحيد. قلنا: بنفس ما علمت أن في تقسيم المعلومات من يقبل هذا الوصف فقد دخل تحت قسم المعلومات فأين التوحيد؟ فيا أيها الموحدون استدركوا الغلط فما ثم إلا الله والكثرة في ثم وما هم سواه فأين التوحيد؟ فإن قلتم: التوحيد المطلوب في عين الكثرة. قلنا: فذلك توحيد الجمع فأين التوحيد؟ فإنّ التوحيد لا يضاف ولا يضاف إليه استعدوا أيها الموحدون للجواب عن هذا الكلام إذا وقع السؤال، فإن كان أهل الشرك لا يغفر لهم فبحقيقة ما نالوا ذلك لأنه لو غفر لهم ما قالوا بالشريك فشاهدوا الأمر على ما هو عليه. فإن قلت: فمن أين جاءهم الشقاء وهم بهذه المثابة وأن عدم المغفرة في حقهم ثناء عليهم؟ قلنا: لأنهم عينوا الشريك فأشقاهم توحيد التعيين فلو لم يعنيوا لسعدوا ولكن هم أرجى من الموحدين لدرجة العلم، جعلنا الله ممن وحده بتوحيد نفسه جلّ علاه.

السؤال الخامس والستون: ما كلامه للرسل؟ الجواب: ما قاله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩] فآووا إلى ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] فعلموا أنهم لما وجهوا ادعوا إلى الله تعالى أممهم ظاهراً وباطناً بدعوة واحدة، فلو كلفوا الظواهر لم يكن قولهم ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ جواباً، ومن هنا لم يصح جميع فروع أحكام الشريعة من المنافق لأنه ما أجاب بباطنه لدعوته مثل ما أجاب بظاهره، وصحت فروع أحكام الشريعة من العاصي المؤمن بباطنه، فعلمنا أن المقصود للشرع الباطن ولكن بشرط مخصوص وهو أن يعم الإيمان جميع فروع الأحكام وأصولها، فإن آمن ببعض وكفر ببعض فلا يعتبر مثل ذلك الإيمان وهو الكافر

حقاً فيقول الله تعالى للرسل: ﴿ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾ إذا كان كلامه لهم في حق ما كلفهم من الدعوة إليه، فإن أراد السائل ما كلامه للرسل فيما يختص بذواتهم من كونم عبيداً مقرّبين فيكلمهم بما يكلم به المقرّبين من عباده، فكلامه للرسل المقرّبين ممن اعتقدتم القربة هل اعتقدتم أن اقترابكم إلينا أو إلى سعادتكم أو إلى معرفة ذواتكم أو إلى معرفتي، فإن اعتقدتم اقترابكم، إلينا فقد حددتموني وأنا لا حدّ لي، وهذا اللسان الذي أذكره في هذا الفصل إنما هو كلام الحق لمن دعا إلى الله على بصيرة كما قال: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨] فهذا لسان من اتبعه في دعوته إلى الله نيابة عنه، فكأنه رسول الله ﷺ يدعو إلى الله على بصيرة من حيث دعا الرسول لأنهم ورثة، وإنما قلنا هذا لأن كلامه للرسل لا يعرفه إلا الرسل ولا ذوق لنا فيه، ولو عرفنا به ما عرفناه، ولو عرفناه لكنا رسلاً مثلهم، ولاحظ لنا في رسالتهم ولا في نبوّتهم، وكلامنا لا يكون إلا عن ذوق.

فالجواب عن هذا السؤال: إذا أراد الرسل ترك الجواب فأردنا أن نفيد أصحابنا في أن نتكلم في كلامه تعالى للرسل الذين هم الورثة رسل رسل الله لما ادعوا إلى الله على بصيرة وشرك رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله على بصيرة بينه وبين من اتبعه، فاعلما من أين نتكلم وفيمن أتكلم وعمن نبين، ثم نرجع إلى ما كنا بسبيله فنقول: فيقول فقد حددتموني وأنا لا حدّ لي، فنقول: هذا الذي تقول لسان العلم وأنت خاطبتنا بلسان الإيمان فآمنا فقلت: من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً، ومن تقرّب إليّ ذراعاً تقربت منه باعاً، فما حددناك إلا بحدك، فأنت حددت نفسك بنا وحددتنا بك، وإلا فمن أين لنا أن نحد ذواتنا؟ فكيف أن نحدك وجعلت الإيمان بما ذكرناه قربة إليك؟ فهذا كلامك ولسان الإيمان ونحن لا جراءة لنا على أن نقول ما قلته عن نفسك، فيقول: صدقتم هذا لسان الإيمان، فتقول طائفة منهم: اقتربنا إلى سعادتنا، فيقول: سعادتكم قائمة بكم وما برحت معكم في حال طلبكم القربة إليها فإن لم تعلموا ذلك فقد جهلتم وإن علمتموه فما صدقتم إذاً فلا قربة. فإن قالت طائفة: إنما اعتقدنا القربة إلى معرفة ذواتنا، فيقول لهم: الشيء لا يجهل نفسه لكنه لا يعرف أنه يعرف نفسه لأنّ معرفة الشهود تحجب عن معرفة المشهود فطلبكم القربة من معرفة ما هو معروف لا يصح. فإن قالت طائفة: ولا بدّ أن تقول: إنما اعتقدنا القربة من معرفتك، فيقول لهم: كيف يعرف من ليس كمثله شيء فلو كان شيئاً لجمعتهما الشيئية فيقع التماثل فيها إذا فلا شيئية له فليس هو شيئاً ولا هو لا شيء فإنّ لا شيء صفة المعدوم فيماثله المعدوم في أنه لا شيء وهو لا يماثل فليس مثله شيء وليس مثله لا شيء، ومن هو بهذه المثابة كيف يعرف؟ فبطل اقترابكم إلى معرفتي فبطل أن يكونوا من المقرّبين فيقولون: ﴿ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] فيقول: أنتم رسل وحقيقة الرسول، أن يكون بين مرسل ومرسل إليه وهو حامل إليهم رسالة ليعلموا بحكم ما تقتضيه تلك الرسالة، فالرسول لما كانت مرتبته البينية كان أقرب من المرسل إليهم إلى الاسم الذي أرسله، وكان المرسل إليهم أقرب إلى الاسم القابل لما جاء به الرسول من الرسول فالكل من المقرّبين فإن لم يقبلوا الرسالة كان

الرسول من المقرّبين وكان المرسل إليهم غير متصفين بالقربة فكانوا من المبعدين.

السؤال السادس والستون: إلى أين يأوون يوم القيامة من العرصة؟ الجواب: إلى ساق العرش، ويوم القيامة له مواطن كثيرة، فالرسل يأوون يوم القيامة من العرصة في كلّ موطن إلى الموضع الذي يكون فيه تجلي الحكم الإلهيّ الذي يليق بذلك الموطن، فموطن للسؤال، وموطن للموازين، وموطن لأخذ الكتب، وموطن للصراط، وموطن للحوض فمواطن القيامة تكون الرسل فيها بين يدي الحق سبحانه كالوزعة بين يدي الملك، وأقربهم منزلة من هو أدنى من قاب قوسين وهو التقاء قطري الدائرة، ثم يأوون في السؤال العام إلى لا علم لنا، وفي السؤال الخاص بحسب ما يقتضيه ذلك السؤال من الجواب، وللحق سؤال في كل عرصة من عرصات القيامة فيأوون إلى الاسم الذي يتضمن الجواب عن ذلك السؤال الخاص.

السؤال السابع والستون: كيف مراتب الأنبياء والأولياء يوم الزيارة؟ الجواب: أن الناس إذا جمعهم الله يوم الزيارة في جنة عدن على كثيب المسك الأبيض نصب لهم منابر وأسرة وكراسي ومراتب. فالأنبياء على رتبتين: أنبياء شرائع وأنبياء أتباع، فأنبياء الشرائع في الرتبة الثانية من الرسل، والأنبياء الأتباع في الرتبة الثالثة، والرتبة الثالثة تنقسم قسمين: قسم يسمى أنبياء، وقسم يسمى أولياء، والرتبة للأولياء بالاسم العام، فإذا كان يوم الزيارة فكل نبيّ أخذ معرفة ربه من ربه إيماناً لم يشبها بنظر فكريّ فإنه يشاهد ربه بعين إيمانه، والوليّ التابع له في إيمانه بربه يراه بمرآة نبيه، فإن كان هذا الوليّ حصل معرفة به بنظره واتخذ ذلك قربة من حيث إيمانه فله يوم الزيارة رؤيتان: رؤية علم ورؤية إيمان، وكذلك إن كان النبيّ له في معرفته بربه نظر فكريّ له رؤيتان: رؤية علم ورؤية إيمان، فإن كان الوليّ من أولياء الفترات ولم يحصل له في معرفته بربه من المعارف الإلهية التي جاءت بها الرسل وكانت معرفتهم بربهم إمّا عن نظر وإمّا عن تجل إلهيّ لقلبه أو كلاهما فمثل هؤلاء يكونون بما هم أهل نظر في مرتبة أهل النظر في الرؤية، وإن كانت معرفتهم عن كشف إلٰهيّ فإن لهؤلاء صفاً على حدة يتميزون به عن سائر الخلق، والجامع لهذا الباب أن الرؤية يوم الزيارة تابعة للاعتقادات في الدنيا، فمن اعتقد في ربه ما أعطاه النظر وما أعطاه الكشف وما أعطاه تقليد رسوله، فإنه يرى ربه في صورة وجه كل اعتقاد ربط عليه إلا أنه في تقليد نبيه يراه بصورة نبيه من حيث ما أعلمه ذلك الرسول مما أوحى به إليه في معرفته بربه، فلمثل هذا ثلاث تجليات بثلاثة أعين في الآن الواحد، وكذلك حكم صاحب النظر وحده، أو صاحب الكشف وحده، أو صاحب التقليد وحده، فتتميز مراتب الأولياء الأتباع في الزيارة بتقديم الأنبياء عليهم، والطبقتان اللتان ليستا بأنبياء ولا أتباع فهم أولياء الله لا يحكم عليهم مقام يتميزون عن الجميع بالنسب الصحيح إلى ربهم، غير أن أصحاب النظر منهم في الرتبة دون أصحاب الكشف، فبين الحق وبينهم في الرؤية حجاب فكرهم، كلما أرادوا أن يرفعوا ذلك الحجاب لم يستطيعوا، كأتباع الأنبياء كلما هموا برفع حجب الأنبياء عنهم حتى يروه دون هذه الواسطة لم يستطيعوا ذلك، فلا تكون الرؤية الخالصة من الشوب إلا للأنبياء الرسل أهل الشرائع ولأهل الكشف خاصة، ومن

حصل له هذا المقام مع كونه تابعاً أو صاحب نظر جمع له على قدر ما عنده ولو كان على ألف طريق.

وأمّا الرجال الذين صوّبوا اعتقاد كل معتقد بما وصله إليه وعلمه وقرّره فإنه يوم الزيارة يرى ربّه بعين كل اعتقاد، فالناصح نفسه ينبغي له أن يبحث في دنياه على جميع المقالات في ذلك ويعلم من أي أثبت كل واحد ذو مقالة مقالته، فإذا ثبت عنده من وجهها الخاص بها الذي به صحّت عنده وقال بها في حق ذلك المعتقد ولم ينكرها ولا ردّها، فإنه يجني ثمرتها يوم الزيارة، كانت تلك العقيدة ما كانت، وهذا هو العلم الإلهي الواسع، والأصل في صحة ما ذكرناه أن كل ناظر في الله تحت حكم اسم من أسماء الله، فذلك الاسم هو المتجلّي له وهو المعطي له ذلك الاعتقاد بتجلّيه له من حيث لا يشعر، والأسماء الإلهية كلها نسبتها إلى الحق صحيحة، فرؤيته في كل اعتقاد مع الاختلاف صحيحة ليس فيها من الخطأ شيء، هذا يعطيه الكشف الأتم فلم يخرج عن الله نظر ناظر ولا يصحّ أن يخرج، وإنما الناس حجبوا عن الحق بالحق لوضوح الحق، فهذه الطائفة التي هي بهذه المثابة من العلم بالله صف يوم الزيارة بمعزل إذا انصرفوا من الزيارة يتخيّل كل صاحب اعتقاد أنه منهم لأنه يرى صورة اعتقاده فيها كصورته، فهو محبوب لجميع الطوائف من يكون بهذه الصفة، وكذلك كان في الدنيا، وهذا القول الذي ذكرناه لا يعرفه إلاّ الفحول من أهل الكشف والوجود، وأما أصحاب النظر العقلي فلا يشمّون منه رائحة، فاجعل بالك لما ذكرناه واعمل عليه تعطي الألوهية حقّها وتكون ممّن أنصف ربّه في العلم به، فإن الله يتعالىٰ أن يدخل تحت التقييد أو تضبطه صورة دون غيرها، ومن هنا تعرف عموم السعادة لجميع خلق الله واتساع الرحمة التي وسعت كل شيء. انتهى الجزء الخامس والثمانون.

(الجزء السادس والثمانون)

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال الثامن والستون: ما حظوظ الأنبياء من النظر إليه؟ الجواب: لا أدري فإني لست بنبيّ، فذوق الأنبياء لا يعلمه سواهم إن أراد الأنبياء الذين خصّهم الله بالتشريع العام والخاص بهم، فإن أراد أنبياء الأولياء فحظّهم منه على قدر ما عندهم من وجوه الاعتقادات في الله، فإن حصل على الجميع فحظّه ما للجميع فهو في النعيم العام فيلتذّ بلذّة كل معتقد فما أعظمها من لذّة، وإن حصل على البعض فلذاته بحسب ما حصل له، وإن انفرد بأمر واحد فحظّه ما انفرد به من غير مزيد، فافهم ما ذكرناه.

السؤال التاسع والستون: ما حظوظ المحدثين من النظر إليه؟ الجواب: الحجاب الأقرب، فإذا شاهد ربّه حصل لهم في المشاهدة من الحظ مثل ما يحصل لهم من الكلام، إلاّ أن المحدثين يتميزون في الرؤية عن سائر الخلق بأن التجلّي يتنوّع عليهم في المشهد الواحد وسائر الخلق ليس لهم هذا المقام فإنه مخصوص بالمحدثين.

السؤال السبعون: ما حظوظ سائر الأولياء من النظر إليه؟ الجواب: الأولياء على مراتب، فتختلف حظوظهم باختلاف مراتبهم، فوليّ حظّه من النظر إليه لذة عقلية، ووليّ حظّه من ذلك لذّة نفسية، ووليّ حظه من ذلك لذة حسّيّة، ووليّ حظه من ذلك لذّة خيالية، ووليّ حظّه من ذلك لذة مكيفة، ووليّ حظّه من ذلك لذة غير مكيفة، ووليّ حظّه من ذلك لذة ينقال تكييفها، ووليّ حظّه من ذلك لذّة لا ينقال تكييفها، فهم درجات عند الله كما كانوا في الدنيا كما قال تعالىٰ: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٣].

السؤال الحادي والسبعون: ما حظوظ العامّة من النظر إليه؟ الجواب: حظوظ العامة من النظر إليه على قدر ما فهموه ممّن قلّدوه من العلماء على طبقاتهم، فمنهم من ألقى إليه عالمه ما عنده. ومنهم من ألقى إليه عالمه على قدر ما علم من عقله وقبوله، فإن الفطرة مختلفة متفاضلة بحسب ما ألقى الله عندها فإنها أقسام أصلها المزاج الذي ركبه الله عليه وهو السبب في اختلاف نظر العلماء بأفكارهم في المعقولات، فيكون حظّهم في لذّة النظر حظّهم فيما تخيّل لهم، فالعامة حظوظهم خيالية لا يقدرون على التجريد عن الموادّ في كل ما يلتذون به من المعاني في الدنيا والبرزخ والآخرة، بل قليل من العلماء من يتصوّر التجريد الكليّ عن الموادّ، ولهذا أكثر الشريعة جاءت على فهم العامة وتأتي فيها تلويحات للخاصة مثل قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] و ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠].

السؤال الثاني والسبعون: أن الرجل منهم ينصرف بحظه من ربه فيذهل أهل الجنان عن نعيمهم اشتغالاً بالنظر إليه. الجواب: ذلك للباس الرائي صورة ما رأى، وسبب ذلك أنّ المقام عظيم في قلب كل طائفة وأنه أعظم ممّا هم فيه من نعيم الأكوان في الجنان، فإذا دعوا إلى الزيارة وبقي الأزواج الجنانيون من الحور والولدان وأشجار الجنان وأنهارها وجميع ما فيها ممّا يتنعم به من الطيور والمراكب وغير ذلك والكل حيوان فإنها الدار الحيوان، فإذا دعي صاحب المنزل ذكراً كان أو أنثى من الثقلين بقي أهل ذلك المنزل مرتقبين ما يأتون به إليهم من الخلع الإلهية التي أورثهم النظر إليه وبأي صورة يرجعون إليهم من ذلك المقام الأعظم إذ كان ذلك مشاهدة الملك، فإذا وردوا عليهم من الزيارة إذا قال الجليل لملائكته: ردّوهم إلى قصورهم وقد غشيهم من نور الرؤية ما غشاهم ممّا لا مناسبة بين ذلك وبين الجمال والبهاء الذي كانوا فيه قبل الزيارة مع تعظيم المقام الذي مشوا إليه في قلوب أهل المنزل ثم إنهم إذا رجعوا إليهم بصفة ما يشاهدونه في الرؤية أشرق الجنان بأنوارهم على مقدارهم بصورة ما رأوه، فيجدون من الزيارة ما لم يكن عندهم ولا كانوا عليه فهذا هو السبب في ذهولهم، وحظ كل شخص من ربه على مقدار علمه وعقده في درجات العقائد واختلافاتها وكثرتها وقلتها، كما قد تقرر قبل في هذه الفصول، فاعلم ذلك والله الهادي، وفي سوق الجنة علم ما أشرنا إليه.

السؤال الثالث والسبعون: ما المقام المحمود؟ الجواب: هو الذي يرجع إليه عواقب

المقامات كلها، وإليه تنظر جميع الأسماء الإلهية المختصة بالمقامات وهو لرسول الله ﷺ، ويظهر ذلك لعموم الخلق يوم القيامة، وبهذا صحّت له السيادة على جميع الخلق يوم العرض. قال ﷺ: «**أَنا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيامَةِ**» وكان قد أقيم فيه آدم صلّى الله عليه وسلم لما سجدت له الملائكة، فإن ذلك المقام اقتضى له ذلك في الدنيا وهو لمحمد ﷺ في الآخرة وهو كمال الحضرة الإلهية، وإنما ظهر به أوّلاً أبو البشر لكونه كان يتضمن جسده بشرية محمد ﷺ وهو الأب الأعظم في الجسمية والمقرّب عند الله وأول هذه النشأة الترابية الإنسانية، فظهرت فيه المقامات كلها حتى المخالفة إذ كان جامعاً للقبضتين: قبضة الوفاق وقبضة الخلاف، فما تحرّك من آدم لمخالفة النهي إلاّ النسمة المجبولة على المخالفة، فكانت مخالفته نهي الله من تحرّك تلك النسمة التي كان يحملها في ظهره فإن المقام يقتضي له ذلك. وسألت شيخنا أبا العباس عن ذلك فقال: ما عصى من آدم عليه السلام إلاّ ما كان من أولاده المخالفين في ظهره، وكانت العاقبة لمحمد ﷺ في الدار الآخرة فظهر في المقام المحمود ومنه يفتح باب الشفاعات، فأوّل شفاعة يشفعها عند الله تعالىٰ في حق من له أهلية الشفاعة من ملك ورسول ونبيّ ووليّ ومؤمن وحيوان ونبات وجماد، فيشفع رسول الله ﷺ عند ربّه لهؤلاء أن يشفعوا، فكان محموداً لكل لسان وبكل كلام، فله أوّل الشفاعة ووسطها وآخرها، يقول الله: شفعت الملائكة وشفع النبيّون وشفع المؤمنون وبقي أرحم الراحمين، فيتقضي سياق الكلام أن يكون أرحم الراحمين يشفع أيضاً فلا بدّ ممّن يشفع عنده وما ثم إلاّ الله.

فاعلم أن الله يشفع من حيث اسماؤه فيشفع اسمه أرحم الراحمين عند اسمه القهّار والشديد العقاب ليرفع عقوبته عن هؤلاء الطوائف، فيخرج من النار من لم يعمل خيراً قط، وقد نبّه الله تعالىٰ على هذا المقام فقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [سورة مريم: الآية ٨٥] فالمتقي إنما هو جليس الاسم الإلهيّ الذي يقع منه الخوف في قلوب العباد، فسمّى جليسه متقياً منه فيحشره الله من هذا الاسم إلى الاسم الإلهيّ الذي يعطيه الأمان ممّا كان خائفاً منه وهو الرحمن فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ أي يأمنون ممّا كانوا يخافون منه، ولهذا يقول في الشفاعة: وبقي أرحم الراحمين، فبهذه النسبة تنسب الشفاعة إلى الحق من الحق من حيث آثار أسمائه، وهذا هو مأخذ العارفين من الأولياء، فلا يجمع المحامد يوم القيامة كلها إلاّ محمد ﷺ، فهذا الذي عبّر عنه بالمقام المحمود، قال ﷺ في هذا المقام: «**فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لاَ أَعْلَمُهَا الآنَ**» وهذا يدلك أن علوم الأنبياء والأولياء أذواق لا عن فكر ونظر، فإن الموطن يقتضي هنالك بآثاره أسماء إلهية يحمد الله بها ما يقتضيه موطن الدنيا فلهذا قال: لا أعلمها الآن، وهذا المقام هو الوسيلة لأن منه يتوصل إلى الله فيما توجّه فيه من فتح باب الشفاعة وهو شفاعته في الجميع، ألا تراه ﷺ يقول في الوسيلة: «**إِنَّهَا دَرَجَةٌ فِي الجَنَّةِ لا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ إِلاَّ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيهِ الشَّفَاعَةُ**» فجعل الشفاعة ثواب السائل ولهذا سمّى المقام المحمود الوسيلة، وكان ثوابهم في هذا السؤال أن يشفعوا، وهذا هو منصب إلهيّ جامع من عين ملك الملك، قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ

ٱلْأُمُورُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٣] وقال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] فكان المرجع إليه، فكذلك ترجع المقامات كلها والأسماء إلى هذا المقام المحمود. قال ﷺ: «**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ**».

السؤال الرابع والسبعون: بأيّ شيء ناله؟ الجواب: قال ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَاسْتَعْجَلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**» لعلمه بموطن الآخرة أكثر من علم غيره من الأنبياء. فاعلم أنه لما كان المقام المحمود إليه ترجع المقامات كلها وهو الجامع لها لم يصحّ أن يكون صاحبه إلاَّ من أوتي جوامع الكلم لأنّ المحامد من صفة الكلام، ولما كان بعثه عاماً كانت شريعته جامعة جميع الشرائع، فشريعته تتضمن جميع الأعمال كلها التي تصحّ أن تشرع.

واعلم أن جنات الأعمال ما بين الثمانين إلى السبعين لا تزيد ولا تنقص، والإيمان بضع وسبعون باباً أدنى ذلك إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعه قول: لا إله إلاَّ الله، قال تعالىٰ في حق العاملين: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٤] فلم يحجر بهذا لمن عمل بكل عمل، فإنّ الإنسان في الدنيا أي عمل عمله من الأعمال أعمال الإيمان لا يحجر عليه إذا شاء عمله، فلما ظهر ﷺ بجميع شعب الإيمان كلها التي هي بعدد الجنات العملية إمّا بالفعل وإمّا بالدلالة عليها فإنه الذي سنّها لأمّته فله أجر من عمل بها، ولا يخلو واحد من الأمّة أن يعمل بواحدة منها فهي في ميزانه ﷺ من حيث العمل بها فيتبوّأ من الجنة حيث يشاء، وهذا لا يصلح إلاَّ لمحمد ﷺ فإنه عنه ظهرت السنن الإلهية، فبهذا نال المقام المحمود وبجوامع الكلم وبالبعثة العامّة، فإنه بالعناية الأخروية صحّت له هذه المقامات في الدنيا، وباتصافه بهذه الأحوال في الدنيا نال تلك المقامات الأخروية، فهو دور بديع مختلف الوجوه حتى يصحّ الوجود عنه.

السؤال الخامس والسبعون: كم بين حظ محمد ﷺ وحظوظ الأنبياء عليهم السلام؟ الجواب: أما بينه وبين الجميع فحظ واحد وهو عين الجمعية لما تفرّق فيهم، وأما بينه وبين كل واحد منهم فثمانية وسبعون حظاً ومقاماً إلاَّ آدم فإنه ما بينه وبين رسول الله صلّى الله وسلّم عليهما إلاَّ ما بين الظاهر والباطن، فكان في الدنيا محمد ﷺ باطن آدم عليه السلام، وآدم عليه السلام ظاهر محمد ﷺ، وبهما كان الظاهر والباطن، وهو في الآخرة آدم عليه السلام باطن محمد ﷺ، ومحمد ﷺ ظاهر آدم، وبهما يكون الظاهر والباطن في الآخرة، فهذا بين حظ محمد ﷺ وبين حظوظ الأنبياء عليهم السلام، وأكثر أصحابنا يمنعون معرفة التوقيت في ذلك وهو غلط منهم، وفي هذا الفصل تفصيل عظيم تبلغ فصول التفصيل فيه إلى مائة ألف تفصيل وأربعة وعشرين ألف تفصيل بعدد الأنبياء عليهم السلام، لأنه يحتاج إلى تعيين كل نبيّ ومعرفة ما بين حظ محمد ﷺ وبين ذلك النبيّ، والحظوظ محصورة من حيث الأعمال في تسعة وسبعين، وقد يكون للنبيّ من ذلك أمر واحد، ولآخر أمران، ولآخر عشر العدد وتسعه وثمنه وأقل من ذلك وأكثر، والمجموع لا يكون إلاَّ لرسول الله ﷺ ولهذا لم يبعث بعثاً عاماً

سوى محمد ﷺ وما سواه فبعثه خاص ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٨].

السؤال السادس والسبعون: ما لواء الحمد؟ الجواب: لواء الحمد هو حمد الحمد وهو أتمّ المحامد وأسناها وأعلاها مرتبة. لما كان اللواء يجتمع إليه الناس لأنه علامة على مرتبة الملك ووجود الملك كذلك حمد المحامد تجتمع إليه المحامد كلها فإنه الحمد الصحيح الذي لا يدخله احتمال ولا يدخل فيه شك، ولا ريب أنه حمد لأنه لذاته يدل فهو لواء في نفسه، ألا ترى لو قلت في شخص إنه كريم أو يقول عن نفسه ذلك الشخص إنه كريم يمكن أن يصدق هذا الثناء ويمكن أن لا يصدق، فإذا وجد العطاء من ذلك الشخص بطريق الامتنان والإحسان شهد العطاء بذاته بكرم المعطي فلا يدخل في ذلك احتمال، فهذا معنى حمد الحمد فهو المعبر عنه بلواء الحمد، وسمّي لواء لأنه يلتوي على جميع المحامد فلا يخرج عنه حمد لأنّ به يقع الحمد من كل حامد وهو عاقبة العاقبة فافهم، ولما كان يجمع ألوان المحامد كلها لهذا عمّ ظلّه جميع الحامدين.

قال ﷺ: «**آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي**» وإنما قال: فمن دونه لأنّ الحمد لا يكون إلاّ بالأسماء وآدم عالم بجميع الأسماء كلها فلم يبق إلاّ أن يكون من هناك تحته ودونه في الرتبة لأنه لا بدّ أن يكون مثنياً باسم ما من تلك الأسماء، ولما كانت الدولة في الآخرة لمحمد ﷺ المؤتى جوامع الكلم وهو الأصل فإنه ﷺ أعلم بمقامه فعلمه وآدم بين الماء والطين لم يكن بعد، فكان آدم لما علمه الله الأسماء في المقام الثاني من مقام محمد ﷺ فكان قد تقدّم لمحمد ﷺ علمه بجوامع الكلم والأسماء كلها من الكلم، ولم تكن في الظاهر لمحمد ﷺ عين فتظهر بالأسماء لأنه صاحبها، فظهر ذلك في أوّل موجود من البشر وهو آدم، فكان هو صاحب اللواء في الملائكة بحكم النيابة عن محمد ﷺ لأنه تقدّم عليه بوجود الطينة، فمتى ظهر محمد ﷺ كان أحق بولايته ولوائه، فيأخذ اللواء من آدم يوم القيامة بحكم الأصالة، فيكون آدم فمن دونه تحت لوائه، وقد كانت الملائكة تحت ذلك اللواء في زمان آدم فهم في الآخرة تحته، فتظهر في هذه المرتبة خلافة رسول الله ﷺ على الجميع.

السؤال السابع والسبعون: بأيّ شيء يثني على ربّه حتى يستوجب لواء الحمد؟ الجواب: بالقرآن وهو الجامع للمحامد كلها ولهذا سمّي قرآناً أي جامعاً، وهو قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [سورة الفاتحة: ٢ - ٤] وما أنزلت على أحد قبله، ولا ينبغي أن تنزل إلاّ على من له هذا المقام، فإنه سبحانه لا ينبغي أن يحمد إلاّ بما يشرع أن يحمد به من حيث ما شرعه لا من حيث ما تطلبه الصفة الحمدية من الكمال فذلك هو الثناء الإلهيّ، ولو حمد بما تعطيه الصفة لكان حمداً عرفياً عقلياً ولا ينبغي مثل هذا الحمد لجلاله.

السؤال الثامن والسبعون: ماذا يقدم إلى ربّه من العبودية؟ الجواب: العبودية وهو انتساب العبد إليه، ثم بعد ذلك تكون العبودية، وهو انتسابه إلى المظهر الإلهيّ. فبالعبودة

يمتثل الأمر دون مخالفة، وهو إذا يقول له﴿كُن فَيَكُونُ﴾ من غير تردّد، فإنه ما ثم إلاّ العين الثابتة القابلة بذاتها للتكوين، فإذا حصلت مظهراً وقيل لها افعل أو لا تفعل فإن خالفت فمن كونها مظهراً، وإن امتثلت ولم تتوقف فمن حيث عينها: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فبهذه العبودية يتقدّم إلى الله في ذلك اليوم، ألا تراه يسجد من غير أن يؤمر بالسجود؟ لكن السجود في ذلك اليوم هو المأمور بالتكوين ولم يكن له محل إلاّ عين محمد ﷺ، فتكوّن السجود في ذاته لأمر الحق له بتكوينه، فسجد به محمد ﷺ من غير أمر إلهيّ ورد عليه بالسجود فيقال له: «ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع»، ثم بعد ذلك في موطن آخر يؤمر الخلق بالسجود ليتميز المخلص من غير المخلص فذلك سجود العبودية، فالعارفون بالله في هذه الدار يعبدون ربهم من حيث العبودة فما لهم نسبة إلاّ إليه سبحانه، ومن سواهم فإنهم ينسبون إلى العبودية فيقال: قد قاموا بين يديه في مقام العبودية، فهذا الذي يقدّمه من العبودية إلى ربه وكل محقق بهذه المثابة يوم القيامة.

السؤال التاسع والسبعون: بأيّ شيء يختمه حتى يناوله مفاتيح الكرم؟ الجواب: يختمه بالعبودية وهو انتسابه إلى العبودة كما قرّرنا وهي الدرجة الثانية، فإنّ هذا المقام ما هو سوى درجتين: درجة العبودة وهي العظمى المقدّمة، ودرجة العبودية وهي الختام لأنه ما أمر بما يقتضيه أمر العبودة إلاّ بعد وجوده، فأمر ونهى بوساطة هذا التركيب، فأطاع وعصى وأناب وآمن وكفر ووحّد وأشرك وصدّق وكذّب، ولما وفى حق الدرجة الثانية بما تستحقه العبودية من امتثال أوامر سيده ونواهيه ناوله مفاتح الكرم برد ما قدّم إليه.

السؤال الثمانون: ما مفاتيح الكرم؟ الجواب: سؤالات السائلين منّا ومنه وبنا وبه، فأما منّا وبنا فسؤال ذاتيّ لا يمكن الانفكاك عنه، وصورة مفتاح الكرم في مثل هذا وقوفك على علمه بأنه بهذه المثابة وغيرك ممّن هو مثلك يجهله ولا يعرفه، فتكرّم عليك بأن عرّفك كيف أنت وما تستحقه ذاتك أن توفي به بما لا يمكن انفكاكها عنه، وأما منه وبه فإن سؤال السائل بما هو عارض له أي عرض له ذلك بعد تكوينه، وذلك أنه لما كان مظهراً للحق وكان الحق منه هو الظاهر فسأل من جعله مظهراً بلسان الظاهر فيه، فهذا سؤال عارض عرض له بعد أن لم يكن، فعبّر عن مثل هذا السؤال بمفتاح الكرم أي من كرم الله تعالىٰ إن سأل نفسه بنفسه وأضاف ذلك إلى عبده فهو بمنزلة ما هو الأمر عليه بأنه يخلق في عباده طاعته ويثني عليهم بأنهم أطاعوا الله ورسوله وما بأيديهم من الطاعة شيء غير أنهم محل لها.

سأل إبليس الاجتماع بمحمد ﷺ فلما أذن له قيل له اصدقه وحفّت به الملائكة وهو في مقام الصغار والذلّة بين يدي محمد ﷺ فقال له: يا محمد إن الله خلقك للهداية وما بيدك من الهداية شيء، وخلقني للغواية وما بيدي من الغواية شيء فصدقه فصدّقه. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [سورة القصص: الآية ٥٦] وقال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] وقال: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] وقال: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] ثم أثنى مع هذا عليهم فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ

ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأٓمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٢] يا ليت شعري ومن خلق التوبة فيهم والعبادة والحمد والسياحة والركوع والسجود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحفظ لحدود الله إلاَّ الله؟ فمن كرمه أنه أثنى عليه بخلق هذه الصفات والأفعال فيهم ومنهم، ثم أثنى عليه بأن أضاف ذلك كله إليهم إذ كانوا محلاً لهذه الصفات المحمودة شرعاً، أليس هذا كله مفاتيح الكرم؟ فإنه يفتح بها من العطايا الإلهية ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال تعالىٰ؛ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [سورة السجدة: الآية ١٦] يا ليت شعري ومن أقامهم من المضاجع حين نوم غيرهم إلاَّ هو؟ ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [سورة السجدة: الآية ١٦] يا ليت شعري ومن أنطق ألسنتهم بالدعاء ومن خوّفهم وطمعهم إلاَّ هو؟ أترى ذلك من نفوسهم؟ لا والله إلاَّ من مفاتيح كرمه فتح بها عليهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٣] فممّا رزقهم التجافي عن المضاجع وعن دار الغرور، وممّا رزقهم الدعاء والابتهال، وممّا رزقهم الخوف منه والطمع فيه، فأنفقوا ذلك كله عليه فقبله منهم، فلا تعلم نفس عالمة ما أخفى لهم أي لهؤلاء الذين هم بهذه المثابة من قرّة أعين ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ١٤] فكانت هذه الأعمال عين مفاتيح الكرم لمشاهدة ما أخفى لهم فيهم، وفي هذه الأعمال من قرّة أعين، فكلما هو في خزائن الكرم فإن مفاتيحه تتضمنه فهو فيها مجمل وهو في الخزائن مفصل، فإذا فتح بالأعمال تميزت الرتب وعرفت النسب وجاءت كل حقيقة تطلب حقّها وكل علم يطلب معلومه.

السؤال الحادي والثمانون: على من توزع عطايا ربنا؟ الجواب: على كل حسن السيرة من الولاة وكل شخص وال بالولاية العامّة وهي تولية القلب على القوىٰ المعنوية والحسيّة في نفسه، والولاية كل من له ولاية خارجة عن نفسه من أهل وولد ومملوك وملك، فتوزع العطايا على قدر الولاية وقدر ما عاملهم به من حسن السيرة فيهم، فإن كان الوالي من العلماء بالله الذين يكون الحق سمعهم وبصرهم فليس له حظ في هذه العطايا فإنها عطايا غني لفقراء، وإنما يعطي من هذه صفته عطاء غنيّ لغنيّ ظاهر في مظهر فقير لما أعطى عن فقر ذاتيّ فأخذ هذا المعطي له من الاسم الله لا من الاسم الربّ، فما أعظم الغفلة على قلوب العباد، هيهات متى تبلغ البشر درجة من لا يوصف بالغفلة وهم الملأ الأعلى الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون في غير ليل ولا نهار، يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون وكفى بالبشرية نقصاً.

واعلم أن العطايا تختلف باختلاف المستحقين، فمنهم من يكون عطاؤه هو، ومنهم من يكون عطاؤه معرفته بنفسه، ومنهم من يكون عطاؤه ما هو منه، فإن كان المستحق يقول بالاستحقاق الذاتيّ فلا يلزمه إلاَّ شكر إيجاد العين حيث كان مظهراً له جلّ وتعالىٰ، وإن كان يقول بالاستحقاق العرضيّ وهو يرى أنه تعالىٰ جعل له استحقاقاً فهذا يتضاعف عليه الشكر فإنه دون الأوّل في المرتبة، وإن كان المستحق يرى الاستحقاق للظاهر في مظهر ما من حيث ما هو ظاهر لذلك المظهر ولا يرى أن عينه تستحق شيئاً فهذا لا يجب عليه شكر إلاَّ إن أوجبه

على نفسه كإيجاب الحق عن نفسه في مثل قوله ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢] فتتوزع العطايا على مقادير من توزع عليه في العلم والعمل والحال والزمان والمكان والقصد وملازمة العمل ومغبته ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٠] قال فرعون لموسىٰ وهرون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] وهو الذي يستحقه، فالرب هو القاسم العطايا.

السؤال الثاني والثمانون: كم أجزاء النبوّة؟ الجواب: أجزاء النبوّة على قدر آي الكتب المنزّلة والصحف والأخبار الإلهية من العدد الموضوع في العالم من آدم إلى آخر نبيّ يموت ممّا وصل إلينا وممّا لم يصل، على أنّ القرآن يجمع ذلك كله، فإنّ النبيّ ﷺ يقول فيمن حفظ القرآن أنّ النبوّة أدرجت بين جنبيه، فهي وإن كانت مجموعة في القرآن فهي مفصلة معينة في آي الكتب المنزّلة مفسرة في الصحف متميزة في الأخبار الإلهية الخارجة عن قبيل الصحف والكتب، ويجمع النبوّة كلها أمّ الكتاب ومفتاحها بسم الله الرحمن الرحيم، فالنبوّة سارية إلى يوم القيامة في الخلق وإن كان التشريع قد انقطع فالتشريع جزء من أجزاء النبوّة، فإنه يستحيل أن ينقطع خبر الله وأخباره من العالم، إذ لو انقطع لم يبق للعالم غذاء يتغذّى به في بقاء وجوده ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٩] ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٧] وقد أخبر الله أنه ما من شيء يريد إيجاده إلاّ يقول له ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فهذه كلمات الله لا تنقطع، وهي الغذاء العام لجميع الموجودات، فهذا جزء واحد من أجزاء النبوّة لا ينفد فأين أنت من باقي الأجزاء التي لها؟

السؤال الثالث والثمانون: ما النبوّة؟ الجواب: النبوّة منزلة يعينها ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥] ينزلها العبد بأخلاق صالحة وأعمال مشكورة حسنة في العامة تعرفها القلوب ولا تنكرها النفوس، وتدل عليها العقول وتوافق الأغراض وتزيل الأمراض، فإذا وصلوا إلى هذه المنزلة فتلك منزلة الانباء الإلهي المطلق لكل من حصل في تلك المنزلة من ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ فإن نظر الحق من هذا الواصل إلى تلك المنزلة نظر استنابة وخلافة ألقى الروح بالانباء من أمره على قلب ذلك الخليفة المعتنى به فتلك نبوّة التشريع، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] وقال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ فهي عامة لأن «من» نكرة ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [سورة النحل: الآية ٢] نبوّة خاصة نبوّة تشريع ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥] مثل ذلك ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥ ـ ١٦] نبوّة تشريع لا نبوّة عموم ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ١٩٤] فالإنذار مقرون أبداً بنبوّة التشريع، ولهذه النبوّة هي تلك الأجزاء التي سأل عنها والتي وردت في الأخبار.

وأما النبوّة العامة فأجزاؤها لا تنحصر ولا يضبطها عدد فإنها غير مؤقتة لها الاستمرار دائماً دنيا وآخرة، وهذه مسألة أغفلها أهل طريقنا فلا أدري عن قصد منهم كان ذلك أو لم يوقفهم الله عليها أو ذكروها وما وصل ذلك الذكر إلينا والله أعلم بما هو الأمر عليه. ولقد حدّثني أبو البدر التماشكي البغداديّ رحمه الله عن الشيخ بشير من ساداتنا بباب الأزج عن إمام العصر عبد القادر أنه قال: معاشر الأنبياء أوتيتم اللقب وأوتينا ما لم تؤتوا. فأما قوله أوتيتم اللقب أي حجر علينا إطلاق لفظ النبيّ وإن كانت النبوّة العامة سارية في أكابر الرجال. وأما قوله: وأوتينا ما لم تؤتوا هو معنى قول الخضر الذي شهد الله تعالىٰ بعدالته وتقدمه في العلم وأتعب الكليم المصطفى المقرّب موسىٰ عليه السلام في طلبه مع العلم بأن العلماء يرون أن موسىٰ أفضل من الخضر فقال له: يا موسىٰ أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، فهذا عين معنى قوله: أوتينا ما لم تؤتوا، وإن أراد رضي الله عنه بالأنبياء هنا أنبياء الأولياء أهل النبوّة العامة، فيكون قد صرّح بهذا القول أن الله قد أعطاه ما لم يعطهم، فإن الله قد جعلهم فاضلاً ومفضولاً فمثل هذا لا ينكر.

السؤال الرابع والثمانون: كم أجزاء الصدّيقية؟ الجواب: بضع وسبعون جزءاً على عدد شعب الإيمان الذي يجب على الصدّيق التصديق بها، وليست الصديقية إلاّ للأتباع، والأنبياء أصحاب الشرائع صدّيقون، بخلاف أنبياء الأولياء الذين كانوا في الفترات، وإنما كانت الأنبياء أصحاب الشرائع صدّيقين، لأن أهل هذا المقام لا يأخذون التشريع إلاّ عن الروح الذي ينزل بها على قلوبهم وهو تنزيل خبريّ لا تنزيل علميّ، فلا يتلقونه إلاّ بصفة الإيمان، ولا يكشفونه إلاّ بنوره، فهم صدّيقون للأرواح التي تنزل عليهم بذلك، وكذلك كل من يتلقى عن الله ما يتلقاه من كون الحق في ذلك الإلقاء مخبراً فإنما يتلقاه من جانب الإيمان ونوره لا من التجلّي، فإنّ التجلّي ما يعطى الإيمان بما يعطيه، وإنما يعطى ذلك بنور العقل لا من حيث هو مؤمن، فأجزاء الصدّيقية على ما ذكرناه لا تنحصر فإنه ما يعلم ما يعطي الله في إخباراته لمن أخبرهم، فأجزاء الصدّيقية المحصورة هو ما وردت به الأخبار الإلهية بأنّ اعتقاد ذلك الخبر قربة إلى الله على التعيين وهي متعلقة بالاسم الصادق لا بدّ من ذلك، فيتصوّر هنا من أصول طريق الله وأنه ما ثم إلاّ صادق فإنه ما ثم مخبر إلاّ الله، فينبغي أن لا يكذب بشيء من الأخبار. قلنا: الصدّيق من لا يكذب بشيء من الأخبار إذ تلقّى ذلك من الصادق، ولكن الصدّيق إن كان من العلم بالله بحيث أن يعلم أنه ما ثم مخبر إلاّ الله فيلزمه التصديق بكل خبر على حسب ما أخبر به المخبر، فإذا أخبر الصادق الحق بأن قوماً كذبوا في أمر أخبروا به صدق الله في خبره أنهم كذبوا في كل ما أخبر به أنهم كذبوا فيه، وأنّ الكذب هي صفة بالنسبة إليهم لا بالنسبة إلى الخبر، فإنّ الخبر إذا نسبته إلى الصادق كان صدقاً، وإذا نسبته إلى الكاذب فيه كان كذباً، وإذا نسبته إلى الكاذب لا فيه كان محتملاً، والذي يرى أن المخبر هو الله الصادق فإنّ ذلك الخبر في ذلك الحال هو صدق والمؤمن به صدّيق، ثم أخبر الصادق الحق أنّ ذلك الخبر الذي نسبته إليّ بأنه صدق أنسبه إلى الذي ظهرعلى لسانه نسبة كذب

فاعتقد أنه كذب فيعتقد فيه أنه بالنسبة إلى ذلك الشخص لكونه محلاً لظهور عين هذا الخبر كذب لأن مدلوله العدم لا الوجود، فالصدق أمر وجوديّ، والكذب أمر عدميّ، وصورة الصدق في الكذب أنّ المخبر الكاذب ما أخبر إلاّ بأمر وجوديّ صحيح العين في تخيّله، إذ لو لم يتخيله لحصول المعنى عنده لما صحّ أن يخبر عنه بما أخبر فهو صادق في خبره ذلك والمؤمن به صدّيق، ثم أخبر الحق عن ذلك الخبر أنه بالنسبة إلى الحسّ كذب وما تعرض إلى الخيال كما لم يتعرّض المخبر في خبره ذلك إلى الحسّ، وإنما السامع ليس له في أول سماعه الأخبار إلاّ أوّل مرتبة وهي الحسّ، ثم بعد ذلك يرتقي في درجات القوىٰ، فاعتقد بعد هذا بإخبار الحق عنه أن ذلك كذب في الحسّ أنه كذب في الحسّ، أي ليس في الحسّ منه صورة من حيث الحكم الظاهر فهو صدّيق للخبر الحق، فماللوجود كذب ولا في العدم صدق، فإن الصدق أصله الصادق وهو الوجود المحض الذي لا نسبة للعدم إليه، والكذب هو العدم المحض الذي لا نسبة للوجود إليه.

وأما الكذب النسبيّ بالنظر إلى الخيال يكون صدقاً، وبالنظر إلى الظاهر على شرط مخصوص يكون كذباً، فالصديق يتعلق به من حيث نسبته إلى ما هو موجود به، والعامّة تتعلق به من حيث إنه لا وجود له في المرتبة التي يطلبها فيه من يكذبه فاعلم ذلك، فإن شئت قلت بعد هذا إن للصدّيقية أجزاء منحصرة، وإن شئت قلت: لا تدخل تحت الحصر أجزاؤها، وإن أردت بأجزاء الصدّيقية الصفة التي بها تحصل الصدّيقية للصديق فهذا سؤال آخر يمكن أن يسأل عنه، فالجواب عن مثل هذا الوجه أن من أجزائها سلامة العقل والفكر الصحيح والخيال الصحيح والإيمان بصدق المخبر، وإن أحاله العقل الذي ليس بسليم عند أهل هذه الصفة والقول باستحالات الإمكان في الأعيان الممكنات بالنظر إلى ما تقتضيه ذات الواجب الوجود لذاته أو إلى سبق العلم منه عند من يقول بذلك، فإذا كان بهذه المثابة حصلت له الصدّيقية، ويكون هذا المجموع أجزاءها لأنها ليست بزائدة على عين المجموع وهذا هو النور الأخضر.

السؤال الخامس والثمانون: ما الصدّيقية؟ الجواب: نور أخضر بين نورين يحصل بذلك النور شهود عين ما جاء به المخبر من خلف حجاب الغيب بنور الكرم، وذلك أن اسم الله المؤمن الذي تسمّى الله لنا به في كتابه من حيث هو نور أعني الكتاب فقال عزّ من قائل: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٣] إلاّ أن المؤمن هنا له وجهان: معطي الأمان، ومصدق الصادقين من عباده عند من لم يثبت صدقهم عنده، ولهذا قال تعالىٰ حكاية عمّا يقوله الصادق يوم القيامة لربّه: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١١٢] ليثبت صدقي عند من أرسلتني إليهم فيما أرسلتني به، فجاء بلفظ يدل على أنه وقع وهو عند العامّة ما وقع، فإنه يوم القيامة وما أخبر الله إلاّ بالواقع فلا بدّ أن يكون، ثم حضرة إلهية فيها وقوع الأشياء دائماً لا تتقيد بالماضي فيقال: قد وقعت ولا بالمستقبل فيقال تقع، ولكن متعلقها الحال الدائم، وبين القلوب وبين هذه الحضرة حجاب التقييد، فإذا كوشف العبد على خلوصه من التقييد وظهر بصورة حق في حضرة مطلقه شهد ما يقال فيه يقع واقعاً،

وشهد ما يقال فيه واقعاً، فلم يزل واقعاً ولا يزال واقعاً، فعنه تقع الحكايات الإلهية بأنه يقع مثل قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ [سورة النحل: الآية ١١١] فعلق بالمستقبل، وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [سورة النحل: الآية ١] فأتى بالماضي، وكلا التقييدين يدل على العدم والحال له الوجود والعدم لا يقع فيه شهود ولا تمييز، فلا بدّ أن يكون المخبر عنه بأنه كان كذا أو يكون كذا له حالة وجودية في حضرة إلهية عنها تقع الإخبارات، والواقف فيها يسمّى صديقاً وهي بنفسها الصديقية ولها اطلاع من خلف حجاب هذا الهيكل المظلم في حق شخص، والهيكل المنوّر في حق شخص، فإن وجدت عيناً مفتوحة سليمة من الصدع أبصرت هذه العين بهذا النور من هذه الحضرة صدق المخبرين كانوا من كانوا فيسمّون صدّيقين بذلك وتسمّى هذه الحالة صدّيقية، وللملأ الأعلى منها شرب، وللرسل فيها شرب، وللأنبياء فيها شرب، وللأولياء فيها شرب، وللمؤمنين فيها شرب، ولغير المؤمنين من جميع أهل النحل والملل شرب، فيسعد بها قوم ويشقى بها قوم، لشروط تتعلق بها ولوازم بها يقال: مؤمن وكافر، ومشرك وموحّد، ومعطل ومثبت، ومقرّ وجاحد، وصادق وكاذب، فقد عمّت الصدّيقية جميع الهياكل المنوّرة والمظلمة والنورية والنارية والطبيعية العنصرية ولا يشعر بها إلاّ الأكابر من الرجال وهم العارفون بسريانها في الموجودات، فإذا نظرت أرباب هذه الهياكل أنفسها مجرّدة عن هياكلها خرجت عن حضرة الصدّيقية وكانت من أهل المعاينة، فصارت ترى من بعدما كانت كأنها ترى، فالحق سبحانه من كونه مؤمناً له حضرة الصدّيقية فيها يصدق الحق عباده المؤمنين بقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] فصدقهم في كونهم ما عبدوا سواه في الهياكل المسمّاة شركاء، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٣] وقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [سورة النجم: الآية ٢٣] وبهذا يصدق العباد في الأخبار كلها من غير توقف فلها حكم في الطرفين، فإنّ في هذا الذي قلناه ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٧] ما فيه آية لقوم يتفكرون ولا لقوم يعلمون على الإطلاق إلاّ إن أراد بيعلمون يعقلون، فالصدّيقية مستندها من الأسماء الإلهية المؤمن، وكذلك أثرها في المخلوقات الإيمان، وكذلك أسماؤهم المؤمنون الصدّيقون لهم النور لصدقهم، إذ لولا النور لما عاينوا صدق المخبر وصدق الخبر من خلف حجاب هذا الهيكل ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ ثم طوبى ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٩]. انتهى الجزء السادس والثمانون.

(الجزء السابع والثمانون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

السؤال السادس والثمانون: على كم سهم ثبتت العبودية؟ الجواب: على تسعة وتسعين سهماً على عدد الأسماء الإلهية التي من أحصاها دخل الجنة، لكل اسم إلهيّ عبودية تخصّه بها يتعبد له من يتعبّد من المخلوقين، ولهذا لا يعلم هذه الأسماء الإلهية الأولى ثابت الولاية، فإنّ رسول الله ﷺ ما ثبت عندنا أنه عينها وقد يحصيها بعض الناس، ولا يعلم أنها هي التي ورد

فيها النص كما يكون ولياً، ولا يعلم أنه وليّ، ومن رجال الله من عرّفهم الله بها من أجل ما يطلبه كل اسم منها من عبودية هذا العبد، فيعين له هذا الوليّ العارف من العبودية بحسب الاسم الذي له الحكم عليه في وقته، فمن أحصى هذه الأسماء الإلهية دخل الجنة المعنوية والحسّيّة، فأما المعنوية فبماذا تطلبه هذه الأسماء من العلم بالعبودية التي تليق بها. وأما الحسّيّة فبماذا تطلبه هذه الأسماء من الأعمال التي تطلبه من العباد فلا بدّ من تمييزها، وكيف يعرف اسم العبودية من لا يعلم من الله ما يطلبه منه؟ فبهذا النظر يكون للعبودية سهام ويكون عددها ما ذكرناه، والعاملون بهذه العبودية رجلان: رجل يعمل بها من حيث شرعه ومن عمل بها من حيث شرعه فقد عمل بها من حيث عقله. ورجل عمل بها من حيث عقله ومن عمل بها من حيث عقله قد لا يعمل بها من حيث شرعه، فالعامل بها من حيث عقله ينسبها إلى هياكل منوّرة أو عقول مجرّدة عن المواد لا بدّ من ذلك. والعامل بها من حيث شرعه ينسبها إلى الله سبحانه وينسبها من حيث آثارها وما تنظر إليه لوضع الوسائط بينك وبينها إلى الهياكل النورية والعقول المجرّدة عن المواد.

وأمّا العامة فلا يعرفونها إلاّ لله خاصة أو للأسباب القريبة المعتادة المحسوسة خاصة لا يعلمون غير هذا، وما رأيت ولا سمعت عن أحد من المقرّبين أنه وقف مع ربّه على قدم العبودة المحضة، فالملأ الأعلى يقول: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] والمصطفون من البشر يقولون: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٣] ويقولون: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [سورة نوح: الآية ٢٦] ويقولون: إن تهلك هذه العصابة لن تعبد في الأرض من بعد اليوم. وهذا كله لغلب الغيرة عليهم واستعجال لكون الإنسان خلق ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١] فهي حركة طبيعية أظهرت حكمها في الوقت فانحجب عن صاحبها من العبودة بقدر استصحاب مثل هذا الحكم لصاحبها، وكل ما كان يقدح في مقام ما ويرمي به ذلك المقام فإنّ صاحب ذلك المقام لم يتصف في تلك الحال بالكمال الذي يستحقه، وإن كان من الكمل فنور العبودية على السواء من نور الربوبية فإنه من أثره، وعلى قدر ما يقدح في العبودية يقدح في الربوبية، وإن كان مثل هذا القدح لا يقدح ولا يؤثر في السعادة الطبيعية ولكن يؤثر في السعادة العلمية، وأعمّ الدرجات في ذلك درجتان: درجة العجلة التي خلق الإنسان عليها ودرجة الغفلة التي جبل الإنسان عليها، ولولا أنّ الملأ الأعلى له جزء في الطبيعة ومدخل من حيث هيكله النوريّ ما وصفهم الحق بالخصام في قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ [سورة ص: الآية ٦٩] ولا يختصم الملأ الأعلى إلاّ من حيث المظهر الطبيعيّ الذي يظهر فيه كظهور جبريل في صورة دحية، وكذلك ظهورهم في الهياكل النورية المادية وهي هذه الأنوار التي تدركها الحواس فإنها تدركها إلاّ في مواد طبيعية عنصرية، وأما إذا تجرّدت عن هذه الهياكل فلا خصام ولا نزاع إذ لا تركيب ومهما قلت اثنان كان وقوع الخصام ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾[سورة الأنبياء: الآية ٢٢].

فالوحدة من جميع الوجوه هو الكمال الذي لا يقبل النقص ولا الزيادة، فانظر من حيث هي لا من حيث الموحّد بها، فإن كانت عين الموحّد بها فهي نفسها، وإن لم تكن عين

الموحّد بها فهو تركيب، فما هو مقصودنا ولا مطلب الرجال، ولهذا اختلفت أحكام الأسماء الإلهية من حيث هي أسماء، فأين المنتقم والشديد العقاب والقاهر من الرحيم والغافر واللطيف؟ فالمنتقم يطلب وقوع الانتقام من المنتقم منه، والرحيم يطلب رفع الانتقام عنه وكل ينظر في الشيء بحسب حكم حقيقته فلا بدّ من المنازعة لظهور السلطان، فمن نظر إلى الأسماء الإلهية قال بالنزاع الإلهيّ ولهذا قال تعالىٰ لنبيه: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥] فأمره بالجدال الذي تطلبه الأسماء الإلهية وهو قوله: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾. كما ورد في الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإذا جادل بالإحسان جادل كأنه يرى ربّه، ولا يرى ربّه مجادلاً إلاّ إذا رآه من حيث ما تطلبه الأسماء الإلهية من التضادّ فاعلم ذلك.

وما منعني من تحصيل هذا المقام إلاّ الغفلة لا غير فليس بيني وبينه إلاّ حجاب الغفلة وهو حجاب لا يرفع، وأما حجاب العجلة فأرجو بحمد الله أنه قد ارتفع عني، وأما حجاب الغفلة فمن المحال رفعه دائماً مع وجود التركيب حيث كان في المعاني أو في الأجسام، ولو ارتفع هذا الحجاب لبطل سرّ الربوبية في حق هذا الشخص وهو الذي أشار إليه سهل بن عبد الله أو من كان يقوله أن للربوبية سرّاً لو ظهر لبطلت الربوبية لكنه ممكن الحصول بالنظر إلى نفسه، ولكن لا أدري هل تقتضي الذات تحصيله وظهوره في الوجود أم لا غير أني أعلم أنه ما وقع، ومع هذا فلا أقطع يأسي من تحصيله مع علمي باستحالة ذلك، وينبغي للناصح نفسه أن يقارب هذا المقام جهد الاستطاعة، وأما القائلون بالتشبه بالحضرة الإلهية جهد الطاقة وهو التخلّق بالأسماء أنه عين المطلوب والكمال فهو صحيح في باب السلوك لا في عين الحصول، وأما في عين الحصول فلا تشبه بل هو عين الحق والشيء لا يشبه نفسه، فأعلى المظاهر مظاهر الجمع وهو عين التفريق.

السؤال السابع والثمانون: ما يقتضي الحق من الموحدين؟ الجواب: أن لا مزاحمة، وذلك أنّ الله لما تسمّى بالظاهر وبالباطن نفى المزاحمة، إذ الظاهر لا يزاحم الباطن والباطن لا يزاحم الظاهر، وإنما المزاحمة أن يكون ظاهران أو باطنان، فهو الظاهر من حيث المظاهر، وهو الباطن من حيث الهوية، فالمظاهر متعددة من حيث أعيانها لا من حيث الظاهر فيها، فالأحدية من ظهورها والعدد من أعيانها، فيقتضي الحق من الموحدين الذين وصفوا بصفة التوحيد أن يوحّدوه من حيث هويته، وإن تعددت المظاهر فما تعدد الظاهر فلا يرون شيئاً إلاّ كان هو المرئيّ والرائي، ولا يطلبون شيئاً إلاّ كان هو الطالب والطلب والمطلوب، ولا يسمعون شيئاً إلاّ كان هو السامع والسمع والمسموع، فلا تزاحم فلا منازعة، فإن النزاع لا يحمله إلاّ التضادّ وهو المماثل والمنافر وهو عين المماثل هنا، إذ قد يكون الضدان ما ليس بمثلين، بخلاف المخالف فإن حكم المخالف لا يقع منه مزاحمة ولا منازعة، ولهذا نفى الحق أن تضرب له الأمثال لأنها أضداد تنافي حقيقة ما ينبغي له، ولا ينافيه ما سميّ به حيث نفى التشبيه فقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] خلق الله التفاحة تحمل اللون والطعم والرائحة، ولا مزاحمة في الجوهر الذي لا ينقسم، ويستحيل

وجود لونين أو طعمين أو ريحين في ذلك الجزء الذي لا ينقسم، فلا يصحّ إلهان لأنهما مثلان، ويصحّ وجود جميع الأسماء للعين الواحدة لأنها خلاف والخلاف قابل للاجتماع بخلاف المماثل، فإذا استحال الاجتماع فلحكم الضديّة لا لحكم الخلاف إذ الاجتماع لا يناقض الخلاف، فكل اجتماع يطلب الخلاف وما كل خلاف يطلب الاجتماع، وإنما يقتضي الحق من الموحّدين عدم المزاحمة ليبقى الرب رباً والعبد عبداً، فلا يزاحم الرب العبد في عبوديته، ولا يزاحم العبد الرب في ربوبيته مع وجود عين الرب والعبد، فالموحد لا يتخلق بالأسماء الإلهية. فإن قلت: فيلزم أن لا يقبل ما جاء من الحق من اتصافه بأوصاف المحدثات من معية ونزول واستواء وضحك فهذه أوصاف العباد وقد قلت أن لا مزاحمة فهذه ربوبية زاحمت عبودية. قلنا: ليس الأمر كما زعمت ليس ما ذكرت من أوصاف العبودية، وإنما ذلك من أوصاف الربوبية من حيث ظهورها في المظاهر لا من حيث هويتها، فالعبد عبد على أصله، والربوبية ربوبية على أصلها، والهوية هوية على أصلها فإن قلت: فالربوبية ما هي عين الهوية. قلنا: الربوبية نسبة هوية إلى عين، والهوية لنفسها لا تقتضي نسبة، وإنما ثبوت الأعيان طلبت النسب من هذه الهوية فهو المعبر عنها بالربوبية، فاقتضى الحق من الموحدين أن يوحدوا كل أمر لترتفع المزاحمة فيزول النزاع فيصحّ الدوام للعالم فيتعين عند ذلك ما معنى الأزل بمعقولية الأبد وهو قولك: لا يزال، فلولا النقطة المفروضة في الخط التي تشبه الآن ما فرّق بين الأزل والأبد كما لا نفرّق بين الماضي والمستقبل بانعدام الآن من الزمان إلاّ أن النقطة هي الربوبية ففرقت بين الهوية والأعيان وهو المسمّى المظاهر، إلاّ أن النقطة أنت فتميز هو وأنا بأنت، فإذا علمت هذا فأنت موحّد فأعط الحق ما يقتضيه منك إذا اقتضاه، فإن قال لك: أليس قد تبين لك في المرتبة الأخرى أنه ما ثم إلاّ الله وبيّنت في ذلك ما بيّنت فلماذا نزعت هنا هذا المنزع قلنا: لأنك سميت نفسك مقتضياً منا من كوننا موحدين أمراً ما لا يقتضي أنت ما يعطيك نحن، نحن ما أعطيناك إنما أعطينا للمقتضى فلا تكلمنا بغير لغتنا إذ أنت القائل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤] يكون المقتضى في هذا الفصل مشهودنا، ويخاطبنا اسم آخر ليس مشهودنا هذا خطاب ابتلاء وتمحيص.

السؤال الثامن والثمانون: عن الحق المقتضي ما الحق؟ الجواب: سمّي الحق حقاً لاقتضائه من عباده من حيث أعيانهم ومن حيث كونهم مظاهر ما يستحق، إذ لا يطلب الحق إلاّ بالحق وهو العلم الحاصل بعد العين، وهو ما يجب على المقتضى منه ما يعطيه إذا طلبه منه ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] أي أوجبها فصارت حقاً عليه قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم: الآية ٤٧] فهو الحق لا غيره، وهو المستحق والمحق، وهو الذي تجب عليه الحقوق من حيث إيجابه لا من حيث ذاته، فالأعيان لولا ما تستحق أن تكون مظاهر ما ظهر الحق فيها، ولم يكن حكيماً لما كان يلزم من الخلل في ذلك، ولو لم تكن الهوية تستحق الظهور في هذه المظاهر العينية لظهور سلطان الربوبية ما ظهرت في هذه الأعيان لأنّ الشيء لا يظهر في نفسه لنفسه، فلا بدّ من عين يظهر فيها لها،

فيشهد نفسه في المظهر فيسمّى مشهوداً وشاهداً، فإن الأعيان لا تستحق ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ ولم يقل إنّ الأعيان تستحق الرحمة، فالأعيان ليس لها استحقاق إلاّ أن تكون مظاهر خاصة: [الوافر]

فقلْ للحقِّ إنّ الحقَّ ما هو سواه فهو حقٌّ في الحقيقَهْ

فلم أنظُرْ بعيني غيرَ عيني فعينُ الحقِّ أعيانُ الخليقَهْ

الحق هويته الحق اسمه خلق هو المخلوق به خلق كل شيء حقّه أعطى كل شيء خلقه ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الحجر: الآية ٨٥] ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٠٥] ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٩] ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٩] الحق طلب الحقوق، فبالحق يطلب الحق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [سورة يونس: الآية ٣٢] فالحق الوجود والضلال الحيرة في النسبة، فالحق المنزل، والحق التنزيل، والحق المنزّل، والحق من الله من حيث هو ربنا، ومن صرف عن الحق إلى أين يذهب؟ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة التكوير: الآية ٢٦ - ٢٧] أصحاب العلامات والدلائل، فالحق المسؤول عنه في هذا السؤال هو المقتضى الذي يقتضي من الموحدين لما ذكرناه، فسمّي حقاً لوجوب وجوده لنفسه، فاقتضاؤه إنما اقتضى من نفسه، فإنه إنما اقتضاه من الظاهر في مظهره، وهويته هي الظاهرة في المظهر الذي به كانت رتبة الربوبية، فما اقتضى إلاّ منه، وما كان المقتضى إلاّ هو، والذي اقتضى هو حق وهو عين الحق، فإن أعطى فهو الآخذ، وإن أخذ فهو المعطي، فمن عرفه عرف الحق.

السؤال التاسع والثمانون: وماذا بدؤه؟ الجواب: الضمير يعود على الحق وبدؤه من الاسم الأوّل الذي تسمّى الحق به، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] فسمّى لنا نفسه أوّلاً فبدؤه أوّلية الحق وهي نسبة لأنّ مرجع الموجودات في وجودها إلى الحق، فلا بدّ أن تكون نسبة الأوّلية له، فبدؤه نسبة الأوّلية له، ونسبة الأوّلية له لا تكون إلاّ في المظاهر، فظهوره في العقل الأول الذي هو القلم الأعلى وهو أول ما خلق الله، فهو الأول من حيث ذلك المظهر لأنه أول الموجودات عنه، فالذات الأزلية لا توصف بالأولية وإنما يوصف بها الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ فهو المسبح ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من حيث أعيانهم ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع الحمى من هويته ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة الحديد: الآية ١] بمن ينبغي أن يسبح ﴿لَهُۥ﴾ الضمير يعود على الله ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولهذا يسبحه أهلهما لأنهم مقهورون محصورون في قبضة السموات والأرض ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ يحيي العين ويميت الوصف فالعين لها الدوام من حيث حييت والصفات تتوالى عليها فيميت الصفة بزوالها عن هذه العين ويأتي بأخرى ﴿وَهُوَ﴾ الضمير يعود على الله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢] أي شيئية الأعيان الثابتة يقول: إنها تحت الاقتدار الإلهيّ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] الضمير يعود على الله من لله والأول خبر الضمير الذي هو المبتدأ وهو في موضع الصفة لله ومسمّى الله إنما هو من حيث المرتبة، وأول مظهر ظهر القلم الإلهيّ وهو

العقل الأول والعين ما كانت مظهراً إلاّ بظهور الحق فيها فهي أول، والكلام في الظاهر في المظهر لأنّ به يتميز، فالأول هو الله والعقل حجاب عليه ومجنّ تتوالى الصفات عليه. ولما كانت الأعيان كلها من كونها مظاهر نسبتها إلى الألوهية نسبة واحدة من حيث ما هي مظاهر تسمّى بالآخر فهو الآخر آخرية الأجناس لا آخرية الأشخاص، وهو الأول بأولية الأجناس وأولية الأشخاص لأنه ما أوجد إلاّ عيناً واحدة وهو القلم أو العقل كيفما شئت سميته، ولما كان العالم له الظهور والبطون من حيث ما هومظاهر كان هو سبحانه ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] لنسبة ما ظهر منه ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لنسبة ما بطن منه ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ شيئية الأعيان وشيئية الوجود من حيث أجناسه وأنواعه وأشخاصه، فقد تبيّن أنّ بدأه عين وجود العقل الأول. قال النبيّ ﷺ: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ العَقْلَ**» وهو الحق الذي خلق به السموات والأرض، وقد مشى معنا هذا في سؤاله في العدل في السؤال الثامن والعشرين من هذه السؤالات.

السؤال التسعون: أيّ شيء فعله في الخلق؟ الجواب: إن كان قوله في الخلق من كونهم مقدّرين فالإيجاد وهو حال الفعل، وإن كان قوله في الخلق من كونهم موجودين فحال الفناء، وذلك أنّ الله تعالىٰ قال للإنسان: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي قدّرناه ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٧] نبهه على أصله فأنعم عليه بشيئية الوجود وهو عين وجود الظاهر فيه، وإنما خاطب الإنسان وحده لأنه المعتبر الذي وجد العالم من أجله، وإلاّ فكل ممكن بهذه المنزلة هذا الذي تعطيه نشأته لكونه مخلوقاً على الصورة الإلهية وأنه مجموع حقائق العالم كله، فإذا خاطبه فقد خاطب العالم كله وخاطب أسماءه كلها. وأما الوجه الآخر الذي ينبغي أيضاً أن يقال وهو دون هذا في كونه مقصوداً بالخطاب، وذلك أنه ما ادّعى أحد الألوهية سواه من جميع المخلوقات، وأعصى الخلائق إبليس وغاية جهله أنه رأى نفسه خيراً من آدم لكونه من نار لاعتقاده أنه أفضل العناصر، وغاية معصيته أنه أمر بالسجود لآدم فتكبر في نفسه عن السجود لآدم لما ذكرناه وأبى فعصى الله في أمره فسمّاه الله كافراً، فإنه جمع بين المعصية والجهل والإنسان ادّعى أنه الرب الأعلى فلهذا خصّ بالخطاب في قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فلذا قلنا الفناء أي أحاله على هذه الصفة أن يكون مستحضراً لها.

وأما الفعل الخاص بكل خلق فهو إعطاؤه ما يستحقه كل خلق ممّا تقضيه الحكمة الإلهية وهو قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] أي بين أنه تعالىٰ أعطى كل شيء خلقه حتى لا يقول شيء من الأشياء قد نقصني كذا، فإنّ ذلك النقص الذي يتوهمه هو عرض عرض له لجهله بنفسه وعدم إيمانه إن كان وصل إليه قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ فإنّ المخلوق ما يعرف كماله ولا ما ينقصه لأنه مخلوق لغيره لا لنفسه، فالذي خلقه إنما خلقه له لا لنفسه فما أعطاه إلاّ ما يصلح أن يكون له تعالىٰ، والعبد يريد أن يكون لنفسه لا لربّه، فلهذا يقول: أريد كذا وينقصني كذا، فلو علم أنه مخلوق لربّه لعلم أنّ الله خلق الخلق على

أكمل صورة تصلح لربّه ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٧] وهذه المسألة ممّا أغفلها أصحابنا مع معرفة أكابرهم بها وهي ممّا يحتاج إليها في المعرفة المبتدىء والمنتهي والمتوسط، فإنها أصل الأدب الإلهيّ الذي طلبه الحق من عباده وما علم ذلك إلاّ القائلون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [سورة غافر: الآية ٧] وأما الذين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] فما وقفوا على مقصود الحق من خلقه الخلق، ولو لم يكن الأمر كما وقع لتعطّل من الحضرة الإلهية أسماء كثيرة لا يظهر لها حكم. قال رسول الله ﷺ: «**لو لم تُذنبوا لجاء الله بقوم يُذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم**» فنبّه أن كل أمر يقع في العالم إنما هو لإظهار حكم اسم إلهيّ، وإذا كان هكذا الأمر فلم يبق في الإمكان أبدع من هذا العالم ولا أكمل، فما بقي في الإمكان إلاّ أمثاله إلى ما لا نهاية له، فاعلم ذلك فهذا فعله في الخلق. وأما الجواب العامّ في هذه المسألة أن يقال فعله في الخلق ما هو الخلق عليه في جميع أحواله.

السؤال الحادي والتسعون: وبماذا وكّل؟ يعني الحق الجواب: وكّل بتمشية أوامر الله وإنفاذ كلماته لا غير، فهو مخصوص بالشرائع الإلهية سنّها من سنّها كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ فذمّهم لما لم يرعوها فقال: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٧]. وقال ﷺ: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا**» فالخير يطلب الثواب بذاته، والشرع مبين للناس توقيت ذلك الثواب كقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٠] وقال الله لداود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لمن تقدّمك أو نيابة عنا بالاسم الظاهر الذي لنا فقد خلعناه عليك لتظهر به في خلقي ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦] فعرفنا أنّ الحق سبحانه قد وكّل الحق بتمشية دينه فقال لخلفائه: احكموا بما يقتضيه أمر هذا الوكيل ولا تتبعوا الهوى، وهو إرادة النفوس التي يخالفها حكم الحق الموكل بتمشية الكلمات الإلهية المشروعة، وكل مخاطب راع ومسؤول عن رعيته، فكان العدل صفة هذا الحق الذي وكّله الله أن يصرفها في المخلوقات بمساعدة الخلفاء والله المرشد.

السؤال الثاني والتسعون: وما ثمرته؟ يعني فيمن حكم به من الخلفاء. الجواب: الوقوف دائماً مع العبودة هذه ثمرته، ولكن جوائح الربوبية تمنع من ظهور هذه الثمرة ولا سيما في البشر، ولكن له ثمرة أخرى دون هذه الثمرة وهو أن يكون الحق سمعه وبصره وجميع قواه، ثم إنّ له في كل شخص من الثمر بحسب ما أمضاه في سلطانه من أحكامه، وأما ثمرته التي يعمل عليها ولها أكثر العقلاء من أهل الله فتهيؤ مراداتهم بمجرّد الهمم، فمنهم من ينال ذلك في الدنيا، ومنهم من يدّخر له ذلك إلى يوم القيامة، فإنّ أكابر الرجال مع معرفتهم بما خلقوا له لو وقفوا مع التكوين قوبلوا، ولكنهم تركوا الحق يتصرّف في خلقه كما هو في نفس الأمر، وأبوا أن يكونوا محلاً لظهور التصريف، وإن ظهر عليهم من ذلك شيء فما هو عن قصد منهم لذلك، ولكن الله أجراه لهم وأظهره عليهم لحكمة علمها الحق وهؤلاء

عن ذلك بمعزل، وأما أن يقصدوا ذلك فلا يتصوّر منهم إلاّ أن يكونوا مأمورين كالرسل عليهم السلام فذلك إلى الله وهم لا يعصون الله ما أمرهم، فإنهم معصومون من إضافة الأفعال إليهم إذا ظهرت منهم فيقولون: هي للظاهر من أسمائه في مظاهره فما لنا وللدّعوى فنحن لا شيء في حال كوننا مظاهر له، وفي غير هذه الحال وهذا المقام يسمّى راحة الأبد والقائم فيه مستريح، وهذا هو الذي وفى الربوبية حقّها لأن الحكم للمرتبة لا للعين، ألا ترى أن السلطان تمشي أوامره في مملكته فلا يعصى ويخاف ويرجى وما هو لكونه إنساناً فإن الإنسانية عينه، وإنما هو لكونه سلطاناً وهي المرتبة، فالعاقل من الناس يرى أن المتحكم في المملكة إنما هي المرتبة لا عينه، إذ لو كان ذلك لكونه إنساناً فلا فرق بينه وبين كل إنسان، وهكذا كل المظاهر، فرجال الله ينظرون أنفسهم من حيث أعيانهم لا من حيث كونهم مظاهر، فكانت المرتبة الحاكمة لا هم، وهذه هي ثمرة الحق التي جنوها حين حكموا به وفازوا بالعبودة والعبودية عبادة الفرائض وعبادة النوافل.

السؤال الثالث والتسعون: وما المحق؟ الجواب: معطي الحق، وهو الموصوف بالحكم العدل، وذلك أني أنبهك على تحقيق هذا الأمر، فاعلم أن المحق إذا كان هو معطي الحق فليس إلاّ الله، ومقصود الطائفة من المحق أن يكون الصادق الدعوى في طلب الحق الذي يستحقه وهي مسألة صعبة، فإن الله أعطى كل شيء خلقه وهو ما يستحقه، فقد أعطى كل شيء استحقاقه فهذا الطالب ما يستحقه، كيف يصحّ أن يكون ممنوعاً عنه ما يستحقه مع قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فلنقل: اعلم أن قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ إنما هو ممّا يقوم ذات ذلك الشيء من الفصول المقومة لذاته، وأما ما تطلبه تلك الفصول من اللوازم والأعراض فما أعطاه ذلك لأن أعراض كل ذات لا يتناهى ما دام موصوفاً بالبقاء في الوجود، وما لا يمكن فيه التناهي لا يصحّ أن يدخل في الوجود بل على التتالي والتتابع، فالطالب المحق هو الذي لا يطلب ما لا تستحقه ذاته من لوازمها وأعراضها، كمن ليس من حقيقته أن يقبل التفكّر فيطلب أن يتصف بالفكر فما هو محق في طلبه، فإذا طلبه الإنسان إذا كان الغالب عليه الوقوف مع المحسوسات فله أن يطلب الاشتغال بالتفكّر في خلق السموات والأرض وجميع الآيات فهو محق في طلبه صادق الدعوى في نفي التفكّر عنه لاستيلاء الغفلة عليه، فهذا هو المحق الذي لا يعارض طلب حقه الذي يستحق بذاته طلبه قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ فقد تبين لك كيف ينبغي لك أن تسأل وماذا تسأل فيه.

ومن أوصاف المحق أن لا يسأل إلاّ من بيده قضاء ذلك الحق المسؤول، فإن لم يفعل فقد شكى إلى غير مشتكى، كان شيخنا أبو العباس بن العريف الصنهاجيّ يقول في دعائه: اللهم إنك سددت باب النبوّة والرسالة دوننا ولم تسد باب الولاية، اللهم مهما عينت أعلى رتبة في الولاية لأعلى وليّ عندك فاجعلني ذلك الوليّ، فهذا من المحقين الذين طلبوا ما يمكن أن يكون حقاً لهم، وإن كانت النبوّة والرسالة ممّا يستحقه الإنسان عقلاً لكون ذاته قابلة لها، لكن لما علم أن الله قد سدّ بابها شرعاً وسدّ باب نبوّة الشرائع لم يسألها وسأل ما

يستحقه، فإن الله ما حجر الولاية علينا، ومن هذا الباب سؤال الوسيلة وإن لم يكن مثلها لكن يقرب منها، وإنما ألحقناها بها في التشبيه لقرينة حال وهي درجة في الجنة لا ينالها أو لا تنبغي إلاّ لرجل واحد، قال ﷺ: **«وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»** فلو سأل واحد منّا ربه الوسيلة في حق نفسه لما سأل ما لا يستحقه لأنه ربما لا ينالها إلاّ شخص هو على صفة مخصوصة والله يقول لنا: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٥] إلاّ أنه لم يقل منه فقد يمكن أن يكون هذه من التوسّل، وتلك الصفة إما موهوبة أو مكتسبة، ولم يعينها رسول الله ﷺ ولا حجرها على واحد بعينه، ولم يقل أنها لا تنبغي إلاّ لمن هو أفضل عند الله من البشر، ونحن نعلم أنه أفضل الناس عند الله بما نصّ على نفسه فكان يكون ذلك تحجيراً.

ولم ينص أيضاً في وحدانية ذلك الشخص هل هو واحد لعينه أو واحد تلك الصفة فتكون الأحدية لتلك الصفة، ولو ظهرت في ألف لكان كل واحد من الألف له الوسيلة لأن تلك الصفة تطلبها، فلما لم يقع من الشارع شيء من هذا كله ساغ لنا أن نطلبها لأنفسنا، ولكن يمنعنا من ذلك الإيثار وحسن الأدب مع الله في حق رسول الله ﷺ الذي اهتدينا بهديه، وقد طلب منّا أن نسأل الله له الوسيلة فتعين علينا أدباً وإيثاراً ومروءة ومكارم خلق أن لو كانت لنا لوهبناها له، إذ كان هو الأولى بالأفضل من كل شيء لعلو منصبه وما عرفناه من منزلته عند الله، ونرجوا بهذا أن يكون لنا في الجنة ما يماثل تلك الدرجة مثل قيمة المثل عندنا في الحكم المشروع في الدنيا، وذلك أن بيننا وبينه ﷺ أخوة الإيمان، وإن كان هو السيد الذي لا يقاوم ولا يكاثر ولكن قد انتظم معنا في سلك الإيمان فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٠] وثبت في الشرع أن الإنسان إذا دعى لأخيه بظهر الغيب قال الملك له: ولك بمثله ولك بمثليه، فإذا دعونا له بالوسيلة وهو غائب عنا قال الملك: ولك بمثله فهي له والمثل للداعي فينال من درجات مجموعه ما يناله صاحب الوسيلة من الوسيلة مثل قيمة المثل لأن الوسيلة لا مثل لها أي ما ثم درجة واحدة تجمع ما جمعت الوسيلة، وإن كانت ما جمعت الوسيلة متفرّقاً في درجات متعدّدة ولكن للوسيلة خاصية الجمع.

السؤال الرابع والتسعون: فأين محل من يكون محقاً؟ الجواب: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٥] فإن الحقوق ما يطلبها المحق إلاّ وهو في المقعد الصدق لأنه صادق، ولا تطلب الحقوق إلاّ عند من يعلم أنه قادر على إيصالها وملك ماضي الكلمة في ملكه فلهذا قلنا: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ فاجتمع هذا المحق مع المتقي في هذا المحل ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٤] وإن كان المحق كذلك، ولكن لما كان الفرق بين المتقي وبين هذا معلوماً لم تكن الجنات كالجنات ووقع الاشتراك في كونه محقاً مع المتقي، فالمتقي ما نال المقعد الصدق إلاّ من كونه محقاً ﴿عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ حضرة بقاء العين والاقتدار والتأييد، ولهم أماكن مختلفة بحسب الحضرات التي ينزلونها من حضرات الأسماء محلهم الاسم الصادق والحق والناصر وما في معنى هذه الأسماء، فأي اسم

من هؤلاء الأسماء نظر إليه كان محله، وأما في الذاتيات فمحله الواجبات، وأما في الألوهية فمحلها بالظفر بالمطلوب، وأما في العبودية فمحلها عبودية الفرائض، وأما في الأحوال فالتأثير، وأما في المقامات فالصدق، وأما في الجنان فارتفاع الحجب، وأما في الدنيا فالفعل بالهمة، وأما في المعارف فإن يكون مع الحق من حيث أمره ومع عالمه من حيث عدله ووفائه فيعين كل طالب حق فمقامه لا يتزلزل ولا ينخرم، فإن له في كل حضرة مقعداً ومجلساً فحيث حل فهو بيته، فلا يفطر إن كان صائماً ولا يقصر الصلاة فإنه مقيم غير مسافر لأن السفر فيه لا يجوز فيه القصر ولا الفطر فهو كمثل عائشة قالت: «**لا أَقْصُرُ فَإِنِّي أُمُّ المُؤْمِنِينَ فَحَيْثُ مَا حَلَلْتُ حَلَلْتُ عِنْدَ بَنِيَّ فَأَنَا فِي بَيْتِي**» والسفر إليه بخلاف ذلك فإنه يقصر ويفطر فهو فطر الصائمين.

السؤال الخامس والتسعون: ما سكينة الأولياء؟ الجواب: إذا اتبع الوليّ الأسباب وقطعها سبباً سبباً، وولي مملكة جابر قينا وجابر سينا، وجمع له بين المشرقين والمشارق والمغربين والمغارب، واطلع على المشرق والمغرب، ووفى المقامات حقّها، وأعطى الأنبياء حقّهم، وأنبياء الشرائع حقّهم، وأنصف الملأ الأعلى، وأحال الأسماء الإلهية على الأسماء الإلهية ولم يتوجه لمخلوق عليه حق فإنه غير وارث ولا رسول ولا إمام ولا صاحب منصب يخاف عليه فيه عدله أو جوره ويرجى فيه فضله وجهل قدره ولم يعرف حقّه، وتمنّى الرسل في موطن ما أن تكون مثله وجمع هذا كله، فتلك سكينة الأولياء التي يسكنون إليها، فهم العرائس المصانون رجال أيّ رجال يسكنون إليها ولا تحصل لهم دائماً لكن لهم اختلاسات فيها كالبروق فهي تشبه المشاهد الذاتية في كونها لا بقاء لها، فإن المواطن تحكم عليهم وطبيعتهم تطلبهم، فإن اتفق أن تحصل لأحد وقتاً ما قصيراً أو طويلاً فإن الدوام محال، فيكون الوليّ في تلك الحال ناظراً لمن يطلب طبيعته فيكون كالمتفرّج ويرى الظاهر فيه المسؤول ذلك، إما يعطيها ما سألته، وإما يمنعها وهو مهيمن على ذلك من حيث عينه، إلاّ أن هذه هي العبودة المحضة التي لا يتخللها شوب من الربوبية.

السؤال السادس والتسعون: ما حظ المؤمنين من قوله: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾[سورة الحديد: الآية ٣]. الجواب: كل مصدق بأمر لم يعلمه إلاّ من الذي أخبره به فقد بطن عنه ما صدقه فيه وظهر له ما صدقه فيه عند إخباره وحظّه من الأول أن لا يتوقف في تصديقه عند سماعه الخبر منه، وحظه من الآخر أن لا يتردّد فيما صدّقه فيه إن قدح فيه نظره عند التفكّر فيما أخبره به المخبر، وذلك أن الإيمان نور شعشعانيّ ظهر عن صفة مطلقة لا تقبل التقييد، فإذا خالط هذا النور بشاشة القلوب كان حكمه ما ذكرناه من ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ والمؤمنون فيه على قسمين: مؤمن عن نظر واستدلال وبرهان فهذا لا يوثق بإيمانه ولا يخالط نوره بشاشة القلوب فإن صاحبه لا ينظر إليه إلاّ من خلف حجاب دليله، وما من دليل لأصحاب النظر إلاّ وهو معرض للدخل فيه والقدح ولو بعد حين، فلا يمكن لصاحب البرهان أن يخالط الإيمان بشاشة قلبه، وهذا الحجاب بينه وبينه. والمؤمن

الآخر الذي كان برهانه عين حصول الإيمان في قلبه لا أمر آخر، وهذا هو الإيمان الذي يخالط بشاشة القلوب فلا يتصوّر في صاحبه شك لأن الشك لا يجد محلاً يعمره فإن محله الدليل ولا دليل، فما ثم على ما يرد الدخل ولا الشك بل هو في مزيد. ثم إن المؤمن على نوعين: مؤمن له عين فيه نور بذلك العين إذا اجتمع بنور الإيمان أدرك المغيبات التي متعلقها الإيمان. ومؤمن ما لعينه نور سوى نور الإيمان فنظر إليه به ونظر إلى غيره به، فالأول يمكن أن يقوم بعينه أمر يزيل عنه النور الذي إذا اجتمع بنور الإيمان أدرك الأمور التي ألزمه الإيمان القول بها، وهو المؤمن الذي لا دليل له، وينظر الأشياء بذاته فيدخله الشك ممّن يشككه، فإن فطرته تعطي النظر في الأدلة إلاّ أنه لم ينظر فإذا نبّه تنبّه، فمثل هذا إن لم يسرع إليه الذوق وإلاّ خيف عليه، والمؤمن الآخر هو بمنزلة الجسد الذي قد تسوّت بنيته واستوت آلات قواه وتركّبت طبقات عينه غير أنه ما نفخ فيه الروح فلا نور لعينه، فإذا كان الإنسان بهذه المثابة من الطمس فنفخ فيه روح الإيمان فأبصرت عينه بنور الإيمان الأشياء فلا يتمكن له إدخال الشكوك عليه جملة ورأساً، فإنه ما لعينه نور سوى نور الإيمان والضدّ لا يقبل الضدّ، فماله نور في عينه يقبل به الشك والقدح فيما يراه، وهكذا هي الأذواق وهذه فائدتها، ومتى لم يكن الإيمان بهذه المثابة والفطرة بهذه المثابة وإلاّ فقليل أن يجيء منه ما جاء من الأنبياء والأولياء من الصدق بالإلهيات، فالفطرة الذكية التي تقبل النظر في المعقولات من أكبر الموانع لحصول ما ينبغي أن يحصل من العلم الإلهيّ، والفطرة المطموسة هي القابلة التي لا نور لعينها من ذاتها إلاّ من نور الإيمان، فلا تعطي فطرته النظر في الأمور على اختلافها، وممّا يعضد ما قلناه حديث إبار النخل وحديث نزوله بأصحابه يوم بدر وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٩] أي ما لي علم ولا نظر بغير ما يوحى إليّ، وهذا باب لا يعرفه إلاّ أهل الله، ومنزلة الأنبياء فيما يأخذونه من الغيب بطريق الإيمان من الملائكة منزلة المؤمنين مع ما يأخذونه من الأنبياء، فالأنبياء مؤمنون بما يلقى إليهم الروح، والروح مؤمن بما يلقى إليه من يلقى إليه، فحظ المؤمن كان من كان من الظاهر ما ألقي إليه، وحظه من الباطن ما استتر به، وحظه من الأول علم الخواطر الإلهية، وحظه من الآخر إلحاق بقية الخواطر بالخواطر الإلهية وهو تتميم قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣].

السؤال السابع والتسعون: ما حظ المؤمنين من قوله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾؟ [سورة القصص: الآية ٨٨] الجواب: المؤمن هو الذي ذكرناه الذي لا نور لعين بصيرته إلاّ نور الإيمان، فكل شيء عنده هالك عن شيئيته شيئية ثبوته وشيئية وجوده إلاّ وجهه وجه الشيء ذاته وحقيقته ووجهه مظهره أي ظهوره في الأعيان، فأما شيئية ذاته فهي المستثناة لا بدّ من ذلك، وأما وجهه في المظهر فبعض أصحابنا يدخلها في ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ﴾ وبعض أصحابنا لا يدخلها هنالك، فأما من أدخلها في الهلاك فاعتبر مظهراً خاصاً، وأما من لم يدخلها في الهلاك فاعتبر أنها لا تخلو عن مظهر ما، وأما نحن فلا نثبت إطلاق لفظ الشيئية على ذات الحق لأنها ما وردت ولا خوطبنا بها والأدب أولى، والأولى أن يكون هنا وجهه مثل إطلاق

الأول يريد المظهر لا هويته، والمظهر له مناسبة بينه وبين الوجه الظاهر فيه فلذلك صحّ الاستثناء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فسمّاه شيئاً في حال هلاكه، فكل شيء موصوف بالهلاك لأن هالك خبر المبتدأ الذي هو ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ أي كل ما ينطلق عليه اسم شيء فهو ﴿هَالِكٌ﴾ وإن كان مظهراً فهو في حال كونه مظهراً في شيئية عينه وهي هالكة فهو هالك في حال اتصافه بالوجود، كما هو هالك في حال اتصافه بالهلاك الذي هو العدم، فإن العدم للممكن ذاتيّ أي من حقيقة ذاته أن يكون معدوماً، والأشياء إذا اقتضت أموراً لذواتها فمن المحال زوالها، فمن المحال زوال حكم العدم عن هذه العين الممكنة، سواء اتصفت بالوجود أو لم تتصف، فإن المتصف بالوجود ما هو عين الممكن، وإنما هو الظاهر في عين الممكن الذي سمّي به الممكن مظهراً لوجود الحق فكل شيء هالك، فلهذا نفينا عن الحق إطلاق لفظ الشيء عليه ويكون الاستثناء استثناء منقطعاً مثل قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [سورة الحجر: ٣٠، ٣١] ألا ترى لما استحق الحق الوجود لذاته استحال عليه العدم، كذلك إذا استحق الممكن العدم لذاته استحال وجوده، فلهذا جعلناه مظهراً.

قلنا في كتاب المعرفة: إن الممكن ما استحق العدم لذاته كما يقوله بعض الناس، وإنما الذي استحقه الممكن تقدم اتصافه بالعدم على اتصافه بالوجود لذاته لا العدم، ولهذا قبل الوجود بالترجيح إذن، فالعدم المرجح عليه الوجود ليس هو العدم المتقدم على وجوده، وإنما هو العدم الذي له في مقابلة وجوده في حال وجوده إن لو لم يكن الوجود لكان العدم، فذلك العدم هو المرجح عليه الوجود في عين الممكن، هذا هو الذي يقتضيه النظر العقلي، وأما مذهبنا فالعين الممكنة إنما هي ممكنة لأن تكون مظهراً إلاّ لأن تقبل الاتصاف بالوجود فيكون الوجود عينها إذن، فليس الوجود في الممكن عين الموجود بل هو حال لعين الممكن به يسمّى الممكن موجوداً مجازاً لا حقيقة، لأن الحقيقة تأبى أن يكون الممكن موجوداً، فلا يزال كل شيء لك كما لم يزل لم يتغير عليه نعت ولا تغير على الوجود نعت، فالوجود وجود والعدم عدم، والموصوف بأنه موجود موجود والموصوف بأنه معدوم معدوم، هذا هو نفس أهل التحقيق من أهل الكشف والوجود، ثم يندرج في هذه المسألة الوجه الذي له الإمام وهو الوجه المقيد بالنظر وبه تميز عن الخلف، فإذا كان الشخص يرى من خلفه مثل ما يرى من أمامه كان وجهاً كله بلا قفا فلا يهلك من هذه صفته لأنه يرى من كل جهة فلا يهلك لأن العين تحفظه بنظرها، فمن أي جهة جاءه من يريد إهلاكه لم يجد سبيلاً إليه لكشفه إياه، كما يتقي صاحب الوجه المقيد من يأتيه من أمامه. انتهى الجزء السابع والثمانون.

(الجزء الثامن والثمانون)

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال الثامن والتسعون: كيف خصّ ذكر الوجه؟ الجواب: لأنّ السبحات له فهي

مهلكة والمهلك لا يكون هالكاً. فاعلم أن الحقائق لا تتصف بالهلاك ووجه الشيء حقيقته. وإنما يتصف بالهلاك الأمور العوارض للحقائق من نسبة بعضها إلى بعض، فهي أعني الأمور العوارض حقيقتها أن تكون عوارض فلا يهلك وجهها عن كونها عوارض، فاتصاف من عرضت له نسبة ما ثم بها زالت تلك النسبة بحصول نسبة أخرى، فإزالة تلك النسبة العارضة تسمّى هلاكاً، ويسمّى ذلك المحل المنسوب إليه ذلك العارض بزواله هالكاً، وما ثم إلاّ حقائق، فما ثمّ إلاّوجوه غير هالكة، وما ثم إلاّ نسب، فما ثم إلاّ هالك، فانظر كيف شئت وانطق بحسب ما تنظر، فلهذا خصّ الوجه لاستحالة اتصافه بالهلاك إذ كانت الحقيقة لا تهلك.

السؤال التاسع والتسعون: ما مبتدأ الحمد؟ الجواب: مبتدأه الابتداء، وهو المعنى القائم في نفس الحامد، فلا بدّ أن يكون مقيداً من طريق المعنى أنه ابتداء حادث، فلا بدّ له من سبب والسبب عين التقييد، ومن طريق التلفّظ بالحمد فمبتدأه الإطلاق، ثم بعد ذلك إن شئت قيدته بصفة فعل إلهيّ، وإن شئت نزهته في التقييد بصفة تنزيه وما ثم أكثر من هذا، وإن أراد السائل بالحمد هنا العبد فإنه عين الثناء على الحق بوجود عينه، فمبتدؤه الحق الذي أوجده لما أوجده وإن أراد بالحمد، ومبتدئه إضافة المبدأ إلى الحمد أي بما يبتدأ الحمد فنقول بالوجود، سواء اقترنت سعادة بذلك الموجود أو شقاوة، وإن أراد بالحمد حمد الحمد فمبتدؤه الوهب والمنة، وإن أراد بمبتدأ الحمد حمد الحق الحمد أو حمد الحق نفسه أو حمد الحق مخلوقاته فالثناء على الثناء بأنه ثناء ثناء عليه فمبتدؤه العلم بأنه ثناء، وإن أراد به حمد الحق نفسه فمبتدؤه الهوية فهو غيب لا يظهر أبداً، وإن أراد به حمد الحق خلقه فمبتدؤه إضافة الخلق إله تعالىٰ لا إلى غيره، وإن أراد بالحمد الفاتحة التي هي السورة فمبتدؤها الباء، إن نظرت الحق من حيث دلالة الخلق عليه فيكون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ آية من سورة الفاتحة، وإن كان ينظرها من حيث الحق مجرّداً عن تعلّق العالم به للدلالة فمبتدؤها الألف من ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فلم تتصل بأمر ولا ينبغي لها أن تتصل ولم يتصل بها فإنها تتعالى في الفاتحة أن يتصل بها، فإنه ما اتصل بها في المعنى إلاّ أسماؤها وأسماؤها عينها فلم يتصل بها سواها، فإن أراد بالحمد عواقب الثناء فمبدؤه من حيث هو عواقب رجوع أسمائه إليه فإنه لا أثر لها إلاّ في الظاهر في المظاهر، وعلى الظاهر يقع الثناء وليس الظاهر في المظاهر غيره، فلا مثنى ولا مثنى عليه إلاّ هو، والتبس على الناس ما يتعلق بالمظاهر من الثناء فلهذا قالوا: ما مبتدأ الحمد، والظاهر من سؤال هذا السائل أنه أراد الفاتحة لأنه قال في السؤال الذي يليه: ما معنى آمين؟ وهي كلمة شرعت بعد الفراغ من الفاتحة فهو ثناء بدعاء، وكل ثناء بدعاء فهو مشوب، ولهذا قال: «**قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي ولِعَبْدِي مَا سَأَلَ**» فآمين المشروعة لما فيها من السؤال وهو قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ومن طلب شيئاً من أحد فلا بدّ أن يفتقر إليه بحال طلبه فمبتدأ الحمد على هذا هو الافتقار، ولهذا سأل في الإجابة.

ثم إنه ما أوجب له الافتقار إليه إلاَّ أثر غناه تعالىٰ بما افتقر إليه فيه، فمبتدأ الحمد غنى الحق عن العالمين، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] فقدّم الفقر على الغنيّ في اللفظ وغنى الحق مقدّم في المعنى على فقراء الخلق إليه، لا بل هما سؤالان تقدّم أحدهما على الآخر، فإن الغني عن الخلق لله أزلاً، والفقر للممكن في حال عدمه إلى الله من حيث غناه أزلاً، والموصوفان بالأزل نفياً وإثباتاً لا يتقدّم أحدهما على الآخر لأن الأزل لا يصحّ فيه تقدّم ولا تأخر فافهم.

السؤال الموفي مائة: ما قوله آمين؟ الجواب: لما أراد الثناء بما هو دعاء في مصالح ترجع إلى الداعي لهذا قيل له قل آمين وهي تقصر وتمدّ، قال الشاعر في القصر: [الطويل]

تَبَاعَدَ مني فَطْحَلٌ وابنُ أُمِّهِ ... أمينٌ فزاد الله ما بيننا بُعْدَا

يعني حتى يتفرد مع الحق الذي لا يقبل البينية. وقال الشاعر في المد: [البسيط]

يا ربُّ لا تسلبَنّي حُبَّها أبداً ... ويرحمُ الله عبداً قال آمينا

يعني في دعائه بالبعد بينه وبين من يقبل البينية. وورد في الشرع الجهر بها والإخفاء، لأن الأمر ظاهر وباطن، فالباطن يطلب الإخفاء والظاهر يطلب الجهر غير أن الظاهر أعمّ، فإذا جهر بها فقد حصل حظ الباطن، وإذا أسر بها لم يعلم الظاهر ما جرى، والباطن خصوص والأسرار بها خاص لخاص، والظاهر عموم فالجهر بها عام لعام، وخاص: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُ**». وكل مذكور في ملأ فهو مذكور في النفس، وما كل ما هو مذكور في النفس يكون مذكوراً في الملأ، قوله عليه السلام: «**أو اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ غَيْبِكَ**» هي أسماء لا يعلمها إلاَّ هو فعلم السر أتم ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٩] فالمفاتيح العلم بها خاص له، والغيب قد يظهر على غيبة من يرتضيه من رسله ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [سورة الجن: الآية ٢٧] فالسر بها أتم مقاماً من الجهر بها، والجهر بها أعمّ منفعة من السر، السر بها آمين معناه أجب دعاءنا، لا بل معناه قصدنا إجابتك فيما دعوناك فيه، يقال: أمّ فلان جانب فلان إذا قصده ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢] أي قاصدين، وخفّف أمين للسرعة المطلوبة في الإجابة، والخفة تقتضي الإسراع في الأشياء، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة فقد غفر له ولم يقل فقد أجيب لأنه لو أجيب لما غفر له، لأن المهدي ما له ما يغفر أي فمن أمّن مثل تأمين الملائكة، هذا معنى الموافقة لا الموافقة الزمانية، وقد تكون الموافقة الزمانية فيحويهم زمان واحد عند قولهم آمين.

والملائكة لا يخلو قولها في آمين هل يقولونها متجسدين أو يقولونها غير متجسدين؟ فإن قالتها متجسدة فربما يريد الموافقة الزمانية خاصة لأن التجسّد يحكم عليهم بالإتيان بلفظة آمين أي بترتيب هذه الحروف. وإن قالتها غير متجسدة فلم تبق الموافقة إلاَّ أن يقولها العبد بالحال التي يقولها الملك، والحال هنا على أقسام الحال الواحدة أن يقولها بربّه، فإن الملك يقولها كذلك أو يقولها بحاله التي تقتضيها ذاته، فالإنسان إذا قالها كذلك قالها من حيث

روحانيته لا من حيث حسّه أو يقولها بحكم النيابة، فالملك قد يقولها كذلك أو يقولها وهو هو، فالملك قد يقولها كذلك، وقول الإنسان بحكم النيابة هو قوله بحكم الصورة التي خلق عليها، فينبغي للإنسان أن يقولها بكل حال يقولها الملك من هذه الأقسام التي ذكرناها، فإذا قالها غفر الله له، ولا بدّ أن يستره الله عن كل أمر يضادّ الهداية بما تنتج لا بدّ من ذلك لأن نتيجة الهداية سعادة، وقد يكون في حياته الدنيا غير مهدي والعناية قد سبقت فيجني ثمرة الهداية، فلهذا لم يقل أجيب وقال غفر، فهذا معنى قوله آمين، وكل داع بحسب ما دعا فإن الله يستجيب له بأمر سعادي لا بما عينه فقد أجابه بما فيه سعادته إذ هي المطلوب الأعم في كل دعاء داع.

السؤال الحادي ومائة: ما السجود؟ الجواب: السجود من كل ساجد مشاهدة أصله الذي غاب عنه حين كان فرعاً عنه، فلما اشتغل بفرعيته عن أصليته قيل له اطلب ما غاب عنك وهو أصلك الذي عنه صدرت، فسجد الجسم إلى التربة التي هي أصله، وسجد الروح إلى الروح الكل الذي عنه صدر، وسجد السر لربه الذي به نال المرتبة، والأصول كلها غيب، ألا تراها قد ظهرت في الشجر أصولها غيب؟ فإن التكوين غيب لا يشاهده أحد، الجنين يتكوّن في بطن أمّه فهو غيب، حيوان آخر يتكوّن في البيض فإذا كمل تشقق عنه الحق، أصل وجود الأشياء وهو غيب لها، السجود تحية الملوك لما كان السوقة دون الملك، فالملك له العلو والعظمة، فإذا دخل عليه من دونه سجد له، أي منزلتنا منك منزلة السفل من العلو، فإنهم نظروا إليه من حيث مكانته ومرتبته فإنهم على السواء في النشأة، سجدت الملائكة لمرتبة العلم فكان سجودها لا علم لها وهو الجهل، سجدت الظلال لمشاهدتها من خرجت عنه وهي الأشخاص يتستّر ظل الشخص عن النور بأصله الذي انبعث عنه لئلا يفنيه النور، فلم يكن له بقاء إلاّ بوجود الأصل فلا بقاء للعالم إلاّ بالله، السلطان ظل الله في أرضه، العرش ظل الله يوم القيامة العرش عين الملك، يقال: ثل عرش الملك إذا اختلّ ملكه عليه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] أي على ملكه سجود القلب إذا سجد لا يرفع أبداً لأن سجوده للأسماء الإلهية لا للذات، فإنها هي التي جعلته قلباً فهي تقلبه من حال إلى حال دنيا وآخرة فلهذا سمته قلباً، فإذا تجلّى له الحق مقلباً فيرى أنه في قبضة مقلبه وهو الأسماء الإلهية التي لا ينفكّ مخلوق عنها فهي المتحكمة في الخلائق، فمن مشاهد لها وهو الذي سجد قلبه، ومن غير مشاهد لها فلا يسجد قلبه وهو المدعي الذي يقول أنا، وعلى من هذه صفته يتوجّه الحساب والسؤال يوم القيامة والعقاب إن عوقب، ومن سجد قلبه فلا دعوى له فلا حساب ولا سؤال ولا عقاب، فلا حالة أشرف من حالة السجود لأنها حالة الوصول إلى علم الأصول، فلا صفة أشرف من صفة العلم فإنه معطي السعادة في الدارين والراحة في المنزلتين أصل الأعداد الواحد فلا وجود لها إلاّ به وبه بقاؤها، فمن لا علم له بأحدية خالقه كثرت آلهته وغاب عن معرفته بنفسه فجهل ربه: [مخلع البسيط]

فصار عبداً لكلِّ ربٍّ فهو مَحَلٌّ لكلِّ ذنبِ

والسجود يقتضي الديمومية، ولهذا قال الشيخ أيضاً لسهل بن عبد الله إلى الأبد لأن السجود الخضوع، والإسجاد إدامة النظر، وكل من تطأطأ فقد سجد. وقلن له اسجد لليلى فأسجدا. أي طأطأ البعير لها لتركبه، والتطأطؤ لا يكون إلاّ عن رفعة، والرفعة في حق كل ما سوى الله خروج عن أصله، فقيل له: اسجد أي تطأطأ عن رفعتك المتوهمة واخضع من شموخك بأن تنظر إلى أصلك فتعرف حقيقتك، فإنك ما تعاليت حتى غاب عنك أصلك، فطلبك على أصلك طلبك الغيب عينه، ومن عرف أصله عرف عينه أي نفسه، ومن عرف نفسه عرف ربّه، ومن عرف نفسه لم يرفع رأسه، ومن عرف ربّه رفع رأسه فإنه مخلوق على صورة ربّه، ومن نعوت ربّه الرفيع فلا بدّ أن يرفع نفسه وبعد هذه الرفعة يقال له اسجد فيسجد وجهه فيسجد قلبه فيرفع وجهه من السجود فلا يدوم، فإن القبلة التي سجد لها لا تدوم، والجهة التي سجد لها لا تدوم، فرفع لرفع المسجود له وسجد القلب فلم يرفع لأنه سجد لربه فقبلته ربه وربه لا يزول ولا ترتفع عن الوجود ربوبيته، فالقلب لا يرفع رأسه من سجوده أبداً لأن قبلته لا ترتفع، فهذا معنى السجود.

السؤال الثاني ومائة: ما بدؤه؟ الجواب: بدؤ السجود الذي أسجدك تنوّع الحالات وتغيراتها عليك، فنبهك ذلك على النظر في السبب الموجب لذلك فطلبت فعلمت أنك معلول وكل معلول فلا قيام له بنفسه، فإن المريض لا يمرض نفسه، وما كل ما تقام فيه من تغيّر الأحوال يرضيك، وإذا لم يرضك فقد أمرضك فلا بدّ من ممرض، ومن طلب الممرض فقد افتقر، فعلمت أنك فقير، وإذا افتقرت فهو كسر فقار ظهرك لم يتمكن لك أن ترفع رأسك فأنت موصوف بالسجود دائماً فهذا بدء السجود، وإن أراد بقوله ما بدؤه يعني ما بدؤه فيك أي ما هو أوّل شيء يعطيك السجود من منحه فنقول: القربة والقربة مؤذنة ببعد متقدّم، وكل ذلك يؤدّي إلى الحدّ ولا حدّ فإنه البعيد القريب، فاعلم أن الهوية المسمّاة بالبعيد القريب هي التي أعطتك السجود وبدأك بها منحة، ولكن من كونها تسمّى بالبعيد القريب فنقلتك من النعت البعيد إلى النعت القريب، فنقلتك من البعد إلى القربة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [سورة العلق: الآية ١٩] ولم يقل غير ذلك من الأحوال، فدل على أن أول شيء يمنحك السجود هو القربة، ثم بعد ذلك تعطى من مقام القربة ما يليق بالمقربين من الملائكة والنبيين، فتلك عوارف التقريب والتقريب منحة السجود والسجود منحة النظر في تغيّر الأحوال، والنظر في تغيّر الأحوال حكم تغير الأحوال، وتغيّر الأحوال كونك على الصورة ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وكونك على الصورة كونك مظهراً للأسماء الإلهية، وكونك مظهراً للأسماء الإلهية أعطاك الرفعة، ولاتصافك بالرفعة أمرت بالسجود فاعلم.

السؤال الثالث ومائة: ما قوله: «العزّة إزاري»؟ الجواب: لما أنعم الحق على عباده حين دعاهم إلى معرفته بالتنزّل بضرب الأمثال لهم ليحصلوا بذلك القدر الذي أراد منهم أن يعلموا منه مثل قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] لقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] فجعل النور نفسه لأنه خبر المبتدأ أي صفته وهويته النور من

حيث إنه الله النور، وأين نور المصباح من قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ﴾ وكذلك الخبر: «**إنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ إذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفوَانٍ**» وأين كلام الحق تعالىٰ من ضرب سلسلة على صفوان كذلك قوله: العزّة إزاري، فأنزل نفسه لعباده منزلة من يقبل الاتصاف بالإزار، وأن مراده من علمهم به في مثل هذا ما يناسب الإزار وما يستره الإزار. واعلم أن الإزار يتخذ لثلاثة أمور: الواحد للتجمّل. والثاني: للوقاية. والثالث: للستر. والمقصود في هذا الخبر من الثلاثة الوقاية خاصة لأجل قوله العزّة، فإن العزّة تطلب هنا الامتناع من الوصول إليه، لأن الإزار بقي موضع الغيرة أن تطلع إليه الأبصار. ولما كانت العزّة منيعة الحمى أن يتصف بها على الحقيقة خلق من المخلوقات أو مبدع من المبدعات لاستصحاب الذلّة للمخلوقات والمبدعات وهي تناقض العزّة، فلما اتزر الحق بالعزّة منع العقول أن تدرك قبول الأعيان للإيجاد الذي اتصفت به وتميّزت لأعيانها، فلا يعلم ما سوى الله صورة إيجاده ولا قبوله ولا كيف صار مظهراً للحق ولا كيف وصفه بالوجود، فقيل فيه موجود وقد كان يقال فيه معدوم فقال الحق: العزّة إزاري أي هي حجاب على ما من شأن النفوس أن تتشوّف إلى تحصله ولهذا قال: من نازعني واحداً منهما قصمته، فأخبر أنه ينازع في مثل هذه الصفات التي لا تنبغي إلا له، مثل العزّة والعظمة والكبرياء، والعزّة القهر الذي نجده عن إدراك السرّ الذي به ظهور العالم.

السؤال الرابع ومائة: ما قوله: والعظمة ردائي؟ الجواب: إن الله قد نبّه أن العظمة التي تلبسها العقول رداء يحجبها عن إدراك الحق عند التجلّي، فليست العظمة صفة للحق على التحقيق وإنما هي صفة للقلوب العارفة به، فهي عليها كالرداء على لابسه وهي من خلفه تحجبها تلك العظمة عن الإدلال عليه وتورثها الإذلال بين يديه، ومن الدليل على أن يوصف العظيم بالعظمة أنه راجع إلى العالم به لا إليه، أن المعظم إذا رآه من لا يعرفه لا يجد لذلك النظر في قلبه هيبة ولا تعظيماً لجهله به، والذي يعلم مكانته ومنزلته له على قلبه سلطان العلم به فيورثه ذلك العلم عظمة في قلبه فهو الموصوف بالعظمة لا العظيم. وقد ورد خبر ذكره أبو نعيم الحافظ في دلائل النبوّة: «**إنَّ جِبْرِيلَ أَخَذَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَسْرَىٰ بِهِ فِي شَجَرَةٍ فِيهَا كوكَرَيْ طَائِرٍ فَقَعَدَ جِبْرِيلُ فِي الْوَاحِدِ وَقَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الآخَرِ فَلَمَّا وَصَلاَ إلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا تَدَلَّىٰ إلَيْهِمَا شِبْهُ الرَّفْرَفِ دُرّاً وَيَاقُوتاً، فَأَمَّا جِبْرِيلُ فَغُشِيَ عَلَيْهِ، وَأَمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ فَبَقِيَ عَلَى حَالِهِ مَا تَغَيَّرَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَعَلِمْتُ فَضْلَ جِبْرِيلَ عَلَيَّ فِي العِلْمِ لأَنَّهُ عَلِمَ مَا رَأَىٰ وَأَنَا مَا علِمْتُهُ**» فالعظمة التي حصلت في قلب جبريل إنما كانت من علمه بما تدلىّ إليه، فقلب جبريل هو الموصوف بتلك العظمة فهي حال للرائي لا للمرئيّ، ولو كانت العظمة حالة للمرئيّ لعظمه كل من رآه، والأمر ليس كذلك، وقد ورد في الحديث الصحيح: «**إنَّ اللَّهَ يَتَجَلَّىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ لِهٰذِهِ الأُمَّةِ وَفِيهَا مُنَافِقُوهَا فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ فَيَسْتَعِيذُونَ مِنْهُ وَلا يَجِدُونَ لَهُ تَعْظِيماً وَيُنْكِرُونَهُ لِجَهْلِهِمْ بِهِ فَإذَا تَجَلَّىٰ لَهُمْ فِي العَلاَمَةِ التي يَعْرِفُونَهُ بِهَا أَنَّهُ رَبَّهُمْ حِينَئِذٍ يَجِدُونَ عَظَمَتَهُ فِي قُلُوبِهِمْ وَالهَيْبَةَ**» فلهذا قلنا في قوله: العظمة ردائي أي هي رداؤه لذي تلبسه عقول العلماء به، وجعلها رداء ولم يجعلها ثوباً فإن الرداء له كمية واحدة والثوب مؤلف من كميات

مختلفة ضمّ بعضها إلى بعض كالقميص، وكذلك أيضاً الإزار مثل الرداء، ولم يقل السراويل لأن ذلك أقرب إلى الأحدية من الثوب المؤلف لتنوّع الشكل.

السؤال الخامس ومائة: ما الإزار؟ الجواب: حجاب الغيرة والستر على تأثير القدرة الإلهية في الحقيقة الخامسة، الكلية الظاهرة في القديم قديمة وفي المحدثات محدثة، وهو ظهور الحقائق الإلهية، والصور الربانية في الأعيان الثابتة الموصوفة بالإمكان التي هي مظاهر الحق، فلا يعلم نسبة هذا الظهور إلى هذا المظهر إلاَّ الله سبحانه وتعالىٰ، فالحجاب الذي حال بيننا وبين هذا العلم هو المعبّر عنه بالإزار وهي كلمة: ﴿كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] ولا أريد به حرف الكاف والواو والنون وإنما أريد به المعنى الذي به كان هذا الظهور.

السؤال السادس ومائة: ما الرداء؟ الجواب: العبد الكامل المخلوق على الصورة الجامع للحقائق الإمكانية والإلهية وهو المظهر الأكمل الذي لا أكمل منه الذي قال فيه أبو حامد: ما في الإمكان أبدع من هذا العالم لكمال وجود الحقائق كلها فيه وهو العبد الذي ينبغي أن يسمّى خليفة ونائباً وله الأثر الكامل في جميع الممكنات وله المشيئة التامّة وهو أكمل المظاهر. واختلف العلماء هل يصحّ أن يكون منه في الوجود شخصان فصاعداً أو لا يكون إلاَّ شخص واحد؟ فإن كان شخص واحد فمن هو ذلك الشخص؟ ومن أيّ قسم هو من أقسام الموجودات؟ هل من البشر أو من الجنّ أو من الملائكة؟ وإنما سمّاه رداء لأنه مشتق من الرّدى المقصور وهو الهلاك، لأنه مستهلك في الحق استهلاكاً كلياً بحيث أن لا يظهر له وجود عين مع ظهور الانفعالات الإلهية عنه، فلا يجد في نفسه حقيقة ينسب بها شيئاً من تلك الانفعالات إليه فيكون حقاً كله وهو قوله ﷺ: **«واجعَلنِي نُوراً»** أي يظهر فيّ كل شيء ولا أظهر بشيء، وقد يستهلك الحق فيه فلا ينسب بوجوده شيء إلى الحق وهو الوجه الذي اعتمد عليه من أثبت الحق المخلوق به كأبي الحكم بن برجان وسهل بن عبد الله التستري وغيرهما، وإليه أشرنا بقولنا: [البسيط]

أنا الرداءُ أنا السرُّ الذي ظهرتْ ... بي ظلمةُ الكونِ إذ صيَّرتُها نورا

فالمرتدي هو الهالك بهذا الرداء، فانظر من هو المرتدي فاحكم عليه بأنه مستهلك فيه فتجد حقيقة ما ذكرناه، فكل مرتد محجوب بردائه عن إدراك الأبصار، قال تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٣] لأن الرداء يحجب الأبصار عنه ولا يحجبه عنها، فهو يدركها ولا تدركه، فالأبصار تدرك الرداء والرداء هو الذي استهلك المرتدي فيه بظهوره ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٤].

السؤال السابع ومائة: ما الكبر؟ الجواب: ما ظهر عن دعاوى الخلق في حضرة الربوبية من «أنا» على طبقات القائلين بها الكبر حال من أحوال القلوب من حيث ما هي عالمة بمن ينبغي أن ينسب إليه الكبرياء، فإن الحق معلوم عند كل موجود ويتبع العلم الكبرياء، فمن كان أعلم به كان كبرياء الحق في قلبه أعظم ممّن ليس في قلبه ما يوجب ذلك، فلو كان الكبرياء صفة للذات لكانت الذات مركبة، وإن كان عين الذات وتجلّى سبحانه وسلب العلم به في تجلّيه لم يجد المتجلّي له أثر كبر

عنده لهذا المتجلّي لجهله به، فإن رزقه العلم به تبعه الكبر، والعلم مّما يوصف به العالم لا المعلوم، كذلك الكبر يوصف به من يوصف بالعلم بمن يكون الكبرياء من أثره في قلب هذا الشخص، ولهذا قد ورد: «**الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي**» فهو حجاب بين العبد وبين الحق، يحجب العبد أن يعرف كنه المرتدي به وهو نفسه فأحرى أن يعرف ربه، ومع هذا فلا يضاف الكبر إلاّ لغير لابسه فإنه حالة عجيبة، وكذلك العظمة فإن الحق ما هي صفته لا ذاتية ولا معنوية، فإنه يستحيل على ذاته قيام صفات المعاني بها، ويستحيل أن تكون صفة نفسية من أجل ما ورد من إنكار الخلق له في تجلّيه مع كونه هو هو، وإذا بطل الوجهان فلم يبق إلاّ أن تكون صفة للمتجلّى له وهو الكون، أو حالة تعقل بين المتجلّي والمتجلّى له لا يتصف بها المتجلّي له لأن العبودة تقابل الكبر وتضادها، ومحال أن تقوم بنفسها بينهما، فلم يبق إلاّ أن تكون من أوصاف العلم، فتكون نسبة كبر وتعظيم وعزّة تتصف بها نسبة علم بمعلوم محقق من حيث ما يؤدّي إليه ذلك العلم من وجود هذه النسب ذوقاً وشرباً، كما تقول في التشبيه: وضرب المثل سواد مشرق وعلم حسن، فوصف السواد بالإشراق والعلم بالحسن وهو وصف من لا قيام له بنفسه بما لا قيام له بنفسه، فلذلك جعلنا الكبرياء والعظمة حالة نابعة للعلم بالمعظم والمكبر في نفس من عظّمه وكبّره.

السؤال الثامن ومائة: ما تاج الملك؟ الجواب: تاج الملك علامة الملك، وتتويج الكتاب السلطانيّ خط السلطان فيه، والوجود كتاب مرقوم يشهده المقرّبون، ويجهله من ليس بمقرّب، وتتويج هذا الكتاب إنما يكون بمن جمع الحقائق كلها وهي علامة موجده، فالإنسان الكامل الذي يدل بذاته من أوّل البديهة على ربّه هو تاج الملك وليس إلاّ الإنسان الكامل وهو قوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**» ﴿**هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ**﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] فلم يظهر الكمال الإلهيّ إلاّ في المركب، فإنه يتضمن البسيط ولا يتضمن البسيط المركب، فالإنسان الكامل هو الأوّل بالقصد والآخر بالفعل والظاهر بالحرف والباطن بالمعنى، وهو الجامع بين الطبع والعقل، ففيه أكثف تركيب وألطف تركيب من حيث طبعه، وفيه التجرّد عن المواد والقوىٰ الحاكمة على الأجساد، وليس ذلك لغيره من المخلوقات سواه، ولهذا خصّ بعلم الأسماء كلها وبجوامع الكلم، ولم يعلمنا الله أن أحداً سواه أعطاه هذا إلاّ الإنسان الكامل، وليس فوق الإنسان مرتبة إلاّ مرتبة الملك في المخلوقات، وقد تلمذت الملائكة له حين علمهم الأسماء، ولا يدل هذا على أنه خير من الملك ولكنه يدل على أنه أكمل نشأة من الملك، فلما كان مجلّى الأسماء الإلهية صحّ له أن يكون للكتاب مثل التاج لأنه أشرف زينة يتزيّن بها الكتاب، وبذلك التتويج ظهرت آثار الأوامر في الملك، كذلك بالإنسان الكامل ظهر الحكم الإلهيّ في العالم بالثواب والعقاب، وبه قام النظام وانخرم، وفيه قضى وقدّر وحكم.

السؤال التاسع ومائة: ما الوقار؟ الجواب: حمل أعباء التجلّي قبل حصوله والفناء فيه كسكرات الموت قبل حلوله، وذلك أن للتجلّي مقدّمات كطلوع الفجر لطلوع الشمس، وكما ورد في الخبر عن مقدّمات تجلّي الرب للجبل بما ينزل من الملائكة والقوىٰ الروحانية في الضباب وهي أثقال التجلّي التي تتقدّمه من الوقر وهو الثقل، وإذا حصل الثقل ضعف الإسراع

والحركة، فسمّى ذلك السكون وقاراً أي سكون عن ثقل عارض لا عن مزاج طبيعيّ، فإن السكون الكائن عن الأمر الذي يورث الهيبة والعظمة في نفس الشخص يسمّى وقاراً وسكينة، والسكون الطبيعيّ الذي يكون في الإنسان من مزاجه لغلبة البرد والرطوبة على الحرارة واليبس لا يسمّى وقاراً، إنما الوقار نتيجة التعظيم والعظمة، ولا سيما أن تقدم التجلّي خطاب إلهيّ فصاحبه أشدّ وقاراً، لأنّ خطاب الحق بوساطة الروح يورث هيبة ولا سيما إن كان قولاً ثقيلاً. وقد كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كصلصلة الجرس يجد منه مشقة عظيمة ويورثه سكوناً وغشياً مع الواسطة، فكيف به إذا خاطبه الحق بارتفاع الوسائط مثل موسىٰ عليه السلام ومن كلّمه الله، فإذا كان هذا وأمثاله من مقدمات التجلّي الإلهيّ فكيف يكون حال الإنسان بعد حصول التجلّي من الوقار؟ ألا ترى إلى ما يحصل في قلوب الناس من هيبة الصالحين المنقطعين إلى الله الذين لم تجر العادة عند العامّة برؤيتهم، فإذا وقع نظرهم عليهم ظهر عليهم من الوقار والسكينة والخمود برؤيتهم ما لا يقدر قدره إلاّ الله وهو إجلال المتجلّي، يقول بعضهم: [البسيط]

كأنما الطيرُ منهم فوق أرؤسهم لا خوفَ ظلمٍ ولكنْ خوفَ إجلالِ

وقال آخر: [مجزوء الكامل]

أشتاقه فإذا بدا أطرقتُ من إجلالهِ
لا خيفةً بل هيبةً وصيانةً لجمالهِ

فهذا الإطراق هو عين الوقار. وقال تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٣] وقال عليه السلام: «**فَلا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَونَ يَعْنِي الجُمُعَةَ وائْتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ**» أي امشوا مشي المثقلين، وهذا لا يكون إلاّ إذا تجلّى لهم في جلال الجمال.

السؤال العاشر والمائة: وما صفة مجالس الهيبة؟ الجواب: لما كانت الهيبة تورث الوقار سأل عن صفة مجلسه أي ما صفته في قعوده بين يديه؟ فمن صفته عدم الالتفات، واشتغال السرّ بالمشاهد، وعصمة القلب من الخواطر، والعقل من الأفكار، والجوارح من الحركات، وعدم التمييز بين الحسن والقبيح، وأن تكون أذناه مصروفة إليه، وعيناه مطرقتين إلى الأرض، وعين بصيرته غير مطموسة، وجمع الهم وتضاؤله في نفسه، واجتماع أعضائه اجتماعاً يسمع له أزيز، وأن لا يتأوّه مع جمود العين عن الحركة، وأن لا تعطيه المباسطة الإذلال، فإن جالسه بتقييد جهة كما كلّمه بتقييد جهة من حضرة مثالية كجانب الطور الأيمن ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [سورة القصص: الآية ٣٠] فليكن سمعه بحيث قيده، فإن أطلق سمعه لأجل حقيقة أخرى تعطيه عدم التقييد وهو تعالىٰ قد قيّد نفسه به في جانب خاص فقد أساء الأدب، وليس هو في مجلس هيبة، ولا يكون صاحب مجلس الهيبة صاحب فناء لكنه صاحب حضور أو استحضار، لا يرجح ولا يجرح ولا يرفع ميزاناً ولا يسمّى إنساناً، فإن الإنسان مجموع أضداد ومختلفات.

السؤال الحادي عشر ومائة: ما صفة ملك الآلاء؟ الجواب: روحاني وذلك أن الملك لا يتصف به إلاّ الجماد خاصة وهو أشدّ الخلق طواعية لله سبحانه المعترف بأنه ملك لله سبحانه، على أن جميع ما سوى الله ملك لله، ولكن الفضل في الملك أن يعلم أنه ملك، وأن يكون معاملته مع الله معاملة من هو ملك لله، وليس ذلك إلاّ للمهيّمين من الملائكة والجمادات، وأما النبات فلم يتصف بذلك كل النبات، فإن منه من لا يخرج إلاّ نكداً ولكن باقي الخلائق فيهم من قام بحق كونه ملكاً ومنهم من لم يقم بذلك في كلّ صنف، وبهذا وصفهم الحق سبحانه فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [سورة الرعد: الآية ١٥] فالطائع في الإمكان أن يكون صاحب كره، والكاره في الإمكان أن يكون طائعاً، فأعظم الآلاء وأتمّها بل هي النعمة المطلقة أن يرزق الخلائق طاعة الله، فإنهم لذلك خلقوا فملك الآلاء هو الذي ملكته النعمة لله وهو قوله عليه السلام: «**أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ**» وكل ما سوى الله متغذ، فكلّ ما سوى الله منعم عليه، فكل من تعبّدته نعمة الله لله، فهو ملك الآلاء والآلاء من جملة الملك فيحتاج إلى نعمة، وتلك النعمة عين وجودها وبقائها في المنعمين عليهم، فالنعم ملك الآلاء أيضاً، فإذا كان ملك الآلاء المنعم عليهم ردّتهم النعمة إلى الله فكان ملكهم لله بتلك النعم فهم ملك الآلاء فملك الآلاء من كل بهذه الصفة، وإذا كان ملك الآلاء عبارة عن عين الآلاء فصفة هذا العين أن لا تنسب إلاّ إلى الله، فإن نسبت إلى غير الله فذلك من جهة المنعم عليه لا من جهة النعمة، والمنعم عليه هو المذموم بقدر ما أضاف من الآلاء إلى غير الله لما تلا رسول الله ﷺ سورة الرحمن العامّة لجميع ما خلق الله دنيا وآخرة وعلواً وسفلاً على الجن فما قال في آية منها: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمن: الآية ١٣] إلاّ قالت الجن: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فمدحهم رسول الله ﷺ لأصحابه بحسن الاستماع حين تلاها عليهم ولم يقولوا شيئاً من ذلك، ولم يكن سكوتهم عن جهل بأن الآلاء من الله، ولا أن الجن أعرف منهم بنسبة الآلاء إلى الله، ولكن الجن وفت بكمال المقام الظاهر حيث قالت: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فإن الموطن يقتضيه.

ولم تقل الصحابة من الإنس حين تلاها عليهم شغلاً منهم بتحصيل علم ما ليس عندهم ممّا يجيء به رسول الله ﷺ فشغلهم ذلك الحرص على تعمير الزمان الذي يقولون فيه ما قالت الجن أن يقوله النبيّ ﷺ ما يقول من العلم فيستفيدون فهم أشدّ حرصاً على اقتناء العلم من الجن، والجن أمكن في توفية الأدب بما يقتضيه هذا الموطن من الجواب من الإنس، فمدحهم رسول الله ﷺ بما فضلوا به على الإنس، وما مدح الإنس بما فضلوا به على الجنّ من الحرص على مزيد العلم بسكوتهم عند تلاوته ولا سيما والحق يقول لهم: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٤] والسورة واحدة في نفسها كالكلام غير التام، فهم ينصتون حتى يتمّها. فجمع الصحابة من الإنس بين فضيلتين لم يذكرهما رسول الله ﷺ وذكر فضل الجن فيما نطقوا به، فإن نطقه تصريح بالعبودية بلسان الظاهر وهم بلسان الباطن أيضاً عبيد فجمعوا بين اللسانين بهذا النطق. والجواب: ولم يفعل الإنس من

الصحابة ذلك عند التلاوة فنقصهم هذا اللسان، فكان توبيخ رسول الله ﷺ إياهم تعليماً بما تستحقه المواطن أعني مواطن الألسنة الناطقة ليتنبهوا فلا يفوتهم ذلك من الخير العملي فإنهم كانوا في الخير العلمي في ذلك الوقت، وحكم العمل في موطنه لا يقاومه العلم، فإن الحكم للموطن وحكم العلم في موطنه لا يقاومه العمل، والجن غرباء في الظاهر، فهم يسارعون في الظهورية ليعلموا أنهم قد حصل لهم فيه قدم لكونهم مستورين، فهم إلى الباطن أقرب منهم إلى الظاهر، والتلاوة كانت بلسان الظاهر، والإنس في مرتبة الظاهر فحجبهم عن الجواب الذي أجابت به الجن كونهم أصحاب موطن الظاهر، فذهلوا عن الجواب لقرينة حال موطنهم، ولو وفوا به لكان أحسن في حقّهم، فنبّههم رسول الله ﷺ على الأكمل في موطنه وهو المعلم فنعم المؤدّب. فمن أراد تحقيق ملك الآلاء فليتدبّر سورة الرحمن من القرآن وينظر إلى تقديم الإنس على الجن في آيتها وقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣] أيضاً فابتدأ به تقديراً ومرتبة نطقية تهمماً به على الجن وإن كان الجن موجوداً قبله يؤذن بأنه وإن تأخرت نشأته فهو المعتنى به في غيب ربّه. لأنه المقصود من العالم لما خصّه به من كمال الصورة في خلقه باليدين وعلّمه الأسماء والإفصاح عمّا علّمه بقوله: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٤].

وبعض أصحابنا يطلق ملك الآلاء على ما يحصل للعبد من مزيد الشكر على نعم الله، فذلك القدر لمن حصل له يسمّى ملك الآلاء فهو ملك الشاكرين، فمن شكر نعم الله بلسان حق وناب الحق مناب العبد من اسمه الشكور وهو شكره لعباده على ما كان منهم من شكرهم على ما أنعم عليهم ليزيدوا في الأعمال في مقابلة شكره، فيكون ما جازاهم به من ذلك على قدر علم الشاكر بالمشكور، والله هو الشاكر في هذا الحال وهو العالم بنفسه، فالجزاء الذي يليق بهذا الشاكر لو جوزي هو الذي يحصل لهؤلاء الشاكرين الذين لهم هذا الحال، فهذا الجزاء يسمّى ملك الآلاء وهو أعظم الملك وهو قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [سورة القيامة: الآية ٢٢ ـ ٢٣] أي نعم ربها جمع آلاء، وإلى ربها المضافة إليه هنا الذي يستحقها لو قبل الجزاء الذي هذه صفته، فتكون تلك جزاء هؤلاء، وهذا من باب ما طلبه الله من عباده فقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] و﴿ٱعْبُدُونِى﴾ [سورة فاطر: آية ٣٦] ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [سورة آل عمران: آية ٥٠] ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥٢]. وهذا كله جزاء من العبد في مقابلة ما أنعم الله عليه به من الوجود خاصة، فكيف إذا انضاف إلى ذلك ما خلق من أجله من النعم المعنوية والحسيّة؟ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فعلّل فيعبدوه لكونه أنعم عليهم بالإيجاد لكمال مرتبة العلم والوجود من حيث من ذكر من الأجناس فاعلم ذلك لا لكمال مرتبة الوجود والمعرفة من غير هذا التقييد، فإن ذلك يكفي فيه خلق محدث واحد، وإيجاد العلم المحدث فيه المتعلق بالله والكون، ولكن لما كانت الأجناس منحصرة عند الله وأوجدها كلها وبقي هذان الجنسان أوقع الأخبار عنهما بما ذكر فشرحناه بما يعطيه الحال المقصودة لخالقهما تعالىٰ بهما. انتهى الجزء الثامن والثمانون.

(الجزء التاسع والثمانون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

السؤال الثاني عشر ومائة: ما صفات ملك الضياء؟ الجواب: قال تعالىٰ في القرآن: ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٤٨] فكل ما أضاء بالقرآن فهو ملك الضياء، وكذلك جعل الشمس ضياء، فكل ما أضاء بالشمس في الدنيا ويوجد به عينه فهو من ملك الضياء وكلّ نور أعطى ضياء فهو من ملك الضياء ممّا لا يقابله معطي الضياء بنفسه، أي نوع كان من الأنوار فضياؤه هو الضوء الذي لا يكون معه الحجاب عمّا يكشفه والنور حجاب، قال رسول الله ﷺ في حق الحق تعالىٰ: «**حِجَابُهُ النُّورُ**» وقال: «**نورٌ أَنَّى أَرَاهُ**» والضياء ليس بحجاب، فالضياء أثر النور وهو الظل، فإن النور صيّره الحجاب ضياء فهو بالنسبة إلى الحجاب ظل وإلى النور ضياء، فله الكشف من كونه ضياء، وله الراحة من كونه ظلاً، فملك الضياء ملك الكشف فهو ملك العلم، وملك الراحة فهو ملك الرحمة، فجمع الضياء بين الرحمة والعلم، قال تعالىٰ في منّته على عبده الخضر: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ وهو الظل ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] وهو الضياء أي الكشف الضيائي وهو أتم الكشوف، وإنما قلنا النور حجاب لقوله عليه الصلاة والسلام: «**نورٌ أَنَّى أراه**» أي النور لا يتمكن أن تدركه الأبصار لأنها تضعف عنه فهو حجاب على نفسه بنفسه، والضياء ليس كذلك فالضياء روح النور والضياء للنور ذاتي، فملك الضياء ملك ذاتي، وضوء الذات الأسماء الإلهية، فملك الضياء ملك الأسماء والقرآن ضياء فملكه ما أظهره القرآن، فعلم الخضر في زمان موسىٰ عليه السلام جزء من أجزاء ما يحويه صاحب القرآن المحمديّ من العلوم، فبالقرآن يكشف جميع ما في الكتب المنزّلة من العلوم، وفيه ما ليس فيها، فمن أوتي القرآن فقد أوتي الضياء الكامل الذي يتضمن كل علم، قال تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٨] وهو القرآن العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢] وبه صحّ لمحمد ﷺ جوامع الكلم. فعلوم الأنبياء والملائكة وكل لسان علم فإن القرآن يتضمنه ويوضحه لأهل القرآن بما هو ضياء، فهو نور من حيث ذاته لأنه لا يدرك لعزّته وهو ضياء لما يدرك به ولما يدرك منه، فمن أعطى القرآن فقد أعطي العلم الكامل، فما ثم في الخلق أتمّ من المحمديين وهم: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٠] ثم ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ [سورة يونس: الآية ٥] لوجود روح الحياة في العالم كله، وبالحياة رحم العالم، فالحياة فلك الرحمة التي ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] وكذلك نسبة الحياة إلى الذات الإلهية شرط في صحة كل نسبة نسبت إلى الله من علم وإرادة وقدرة وكلام وسمع وبصر وإدراك، فلو رفعت نسبة الحياة إليه ارتفعت هذه النسب كلها، فهي الرحمة الذاتية التي وسعت جميع الأسماء، فهي ضياء النور الذاتي وظل الحجاب النسبيّ لأنه لا يعقل الإله إلاّ بهذه النسب، وتعقل الذات نوراً لا من حيث هذه النسب، فكونه إلهاً حجاب على الذات فكانت الألوهية عين الضياء فهي عين

الكشف والعلم، وكانت عين الظل النسبية فكانت عين الرحمة، فجمعت الألوهية بين العلم والرحمة في حق الكون وهو المألوه، وفي حق الأسماء الإلهية فما أعطاه هذا المقام الإلهي فهو ملك الضياء وهو أرفع من ملك السموات والأرض وما بينهما ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٧] بل لا يؤمنون، وقد نبهتك على ما فيه غنية وشفاء في ملك الضياء:

[مجزوء الكامل]

فالكُلُّ في ملك الضيا … ءِ وليس عندَهُمُ خَبَرْ
والكلُّ في عين الظِّلا … ل وهو المسمَّى بالمَقَرّ
فالحمدُ لله الذي … قد حُزتُهُ بين البشَرْ
في عصرنا هذا فهل … في وقتنا من مُدَّكِرْ
يعرف ما قد قلتُه … كما أتانا في الزُّبُرْ
هذا هو العِلْمُ الذي … يقضي على علم الخَضِرْ
هل كان إلاَّ خَرْقَهُ … سفينةً ذاتَ دُسُرْ
وقتلَ نفسٍ رحمةً … لو أنه يحيا كَفَرْ
وسَتْرَهُ كنزَ الذي … كان يتيماً يحتَقِرْ
وعِلْمُنا بالله لا … بعينِ كونٍ عن نَظَرْ
فأين ذا من ذاك يا … أهلَ القلوبِ والبَصَرْ
هذا هو العلمُ الذي … يُقال سحرٌ مستمِرّ
ودونه الشمسُ التي … تُكْسَفُ فيه والقَمَرْ
في مقعدِ من صِدْقِهِ … عند مليكٍ مُقْتَدِرْ
متَّكيءٍ على سُرُرْ … وسْطَ جنانٍ في نَهَرْ

السؤال الثالث عشر ومائة: ما صفات ملك القدس؟ الجواب: قالت الملائكة: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] تعني ذواتها أي من أجلك لنكون من أهل ملك القدس، فالمتطهرون من البشر من أهل الله من ملك القدس، وأهل البيت من ملك القدس، والأرواح العلا كلها من غير تخصيص من ملك القدس، فتختلف صفات ملك القدس باختلاف ما تقبله ذواتهم من التقديس، ولما نعت الله اسم الملك بالاسم القدوس والملك يطلب الملك فيضاف الملك إلى القدس كما يضاف إلى الآلاء وغيرها، وذوات ملك القدس على نوعين في التقديس: فمنهم ذوات مقدسة لذاتها وهي كل ذات كونية لم تلتفت قط إلى غير الاسم الإلهيّ الذي عنه تكوّنت فلم يطرأ عليها حجاب يحجبها عن إلٰهها فتتصف لذلك الحجاب بأنها غير مقدسة أي لا تضاف إلى القدس فتخرج عن ملك القدس وهم الذين ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٠] أي ينزّهون ذواتهم عن التقديس العرضي بالشهود الدائم، وهذا مقام ما ناله أحد من البشر إلاَّ من استصحب حقيقته من حين خلقت شهود الاسم الإلهيّ الذي عنه تكوّنت وبقي عليها هذا الشهود حين أوجد الله لها مركبها الطبيعيّ

الذي هو الجسم، ثم استمرّ لها ذلك إلى حين الانتقال إلى البرزخ من غير موت معنويّ وإن مات حسّاً، وهذا والله أعلم ناله محمد ﷺ فإنه قال: **«كُنْتُ نَبِيّاً وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ»** يريد أن العلم بنبوته حصل له وآدم بين الماء والطين، واستصحبه ذلك إلى أن وجد جسمه في بلد لم يكن فيه موحّد لله، ولم يزل على توحيد الله لم يشرك كما أشرك أهله وقومه، ثم إنه لما استقامت آلاته الحسيّة وتمكن من العمل بها بحسب ما وجدت له واستحكم بنيان قصر عقله وخزانة فكره واعتدلت مظاهر قواه الباطنة لم يصرفها إلاَّ في عبادة خالقه، فكان يخلو بغار حرا للتحنّث فيه إلى أن أرسله الله إلى الناس كافة فكان يذكر الله على كل أحيانه كما ذكرت عنه عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وقد قال ﷺ عن نفسه وهو الصادق: **«أَنَّهُ تَنَامُ عَيْنُهُ وَلا يَنَامُ قَلْبُهُ»** فأخبر عن قلبه أنه لا ينام عند نوم عينه عن حسّه، فكذلك موته إنما مات حسّاً كما نام حسّاً، فإن الله يقول له: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٠] وكما أنه لم ينم قلبه لم يمت قلبه، فاستصحبته الحياة من حين خلقه الله، وحياته إنما هي مشاهدة خالقه دائماً لا تنقطع.

وقد أخبر ذو النون المصري حين سئل عن قوله تعالىٰ في أخذ الميثاق فقال: كأنه الآن في أذني يشير إلى علمه بتلك الحال، فإن كان عن تذكّر فلم يلحق بالملائكة في هذا المقام، وإن لم يكن عن تذكّر بل استصحاب حال من حين أشهد إلى حين سئل فيكون ممّن خصّه الله بهذا المقام فلا أنفيه ولا أثبته، وما عندي خبر من جانب الحق تعالىٰ في ذلك مروي ولا غير مروي أنه ناله أحد من البشر، وإنما ذكرنا ذلك في حق رسول الله ﷺ أعني أنه ناله على طريق الاحتمال لا على القطع فإنه لا علم لي بذلك، والظاهر أنه تخلّله في هذا المقام ما يتخلّل البشر فإنه كثيراً ما أوحى إليه في القرآن أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٦] فاستروحنا من هذا أن حكمه حكم البشر إلاَّ ما خصّه الله به من التقريب الإلهيّ الذي ورد وثبت عندنا، وقد ثبت عنه أنه قال: **«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ وَأَرْضَىٰ كَمَا يَرْضَىٰ البَشَرُ»** والرضى والغضب من صفات النفس الحيوانية في البشر لا من صفات النفس الناطقة، وإن اتصفت النفوس الناطقة بالرضى والغضب فما هو على حد ما أراده بقوله: **«أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ وَأَرْضَى كَمَا يَرْضَى البَشَرُ»** وإذا قلنا بإضافة ذلك إلى النفس الحيوانية لما نشاهده من الحيوانات من ذلك.

وقد ثبت النهي عن رسول الله ﷺ عن التحريش بين البهائم وجميع الحيوان كله من صفته المباشرة التي بحقيقتها سمّي الإنسان بشراً، وبهذا القدر تبين فضل الملك على الإنسان في العبادة لكونه لا يفتر، لأن حقيقة نشأته تعطيه أنه لا يفتر، فتقديسه ذاتي لأن تسبيحه لا يكون إلاَّ عن حضور مع المسبح، وليس تسبيحه إلاَّ لمن أوجده، فهو مقدس الذات عن الغفلات فلم تشغله نشأته الطبيعية النورية عن تسبيح خالقه على الدوام مع كونهم من حيث نشأتهم يختصمون، كما أن البشر من حيث نشأته تنام عينه ولا ينام قلبه، ولم يعط البشر قوّة الملك في ذلك لأن الطبيعة يختلف مزاجها في الأشخاص، وهذا مشهود بالضرورة في عالم العناصر، فكيف بمن هو في نسبته إلى الطبيعة أقرب من نسبة العناصر إليها، وعلى قدر ما

يكون بين الطبيعة المجرّدة وبين ما يتولد عنها من وسائط المولدات يكثف الحجاب وتترادف الظلم، فأين نسبة آخر موجود من الأناسي من ربه من حيث خلق جسد آدم بيديه من نسبة آدم إلى ربه من حيث خلقه بيديه، فآدم يقول: خلقني ربي بيديه، وابنه شيث يقول: بيني وبين يدي ربي أبي، وهكذا الموجودات الطبيعية مع الطبيعة من ملك وفلك وعنصر وجماد ونبات وحيوان وإنسان وملك مخلوق من نفس إنسان، وهذا الملك آخر موجود طبيعيّ، ولا يعرف ذلك من أصحابنا إلاّ القليل فكيف من ليس من أهل الإيمان والكشف.

وأما القسم الذي تقديسه لا من ذاته فهي كل ذات يتخلّل شهودها خالقها غفلات، فالأحيان التي تكون فيها حاضرة مع خالقها هي من ملك القدس، وسنبين ما ذكرناه في سؤاله ما القدس إذا أجبنا عنه بعد هذا إن شاء الله، فمن صفات ملك القدس التباعد عن الطبيعة بالأصل، والتباعد عن مشاهدة آثار الأسماء الإلهية بمشاهدة الأسماء الإلهية لا من كونها مؤثرة بل بما تستحقه الألوهية والذات، فإذا كان القدس عين الملك وأضيف إلى عينه لاختلاف اللفظ واختلاف معنى الملك والقدس فإنه يدل على المبالغة في الطهارة والمبالغة في الطهر هي نسبة في الطهر ما هي عين الطهر لوجود الطهر دونها، وما هي غير الطهر فإن المبالغة ليست سوى استقصاء هذه الصفة، فيكون ملك القدس استقصاء وهو المبالغة فيه فيكون سؤاله عن صفاته الذاتية، فإن هذه المراتب نشآت في المعاني كالنشآت الطبيعية، وقد علمت أن النشء الطبيعيّ كما أخبر الله مخلقة وغير مخلقة أي تامة الخلق وغير تامة الخلق، والغير التامة الخلق داخلة في قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فأعطى النقص خلقه أن يكون نقصاً، فالزيادة على النقص الذي هو عينه لو كانت لكانت نقصاً فيه ولم يعط النقص خلقه فتمام النقص أن يكون نقصاً.

السؤال الرابع عشر ومائة: ما القدس؟ الجواب: الطهارة وهي ذاتية وعرضية، فالذاتية كتقديس الحضرة الإلهية التي أعطيها الاسم القدوس فهي القدس عن أن تقبل التأثر فيها من ذاتها، فإن قبول الأثر تغيير في القابل، وإن كان التغيير عبارة عن زوال عين بعين إما في محل أو مكان، فيوصف المحل أو المكان بالتغيير، ومعنى ذلك أنه كان هذا المحل مثلاً أصفر فصار أخضر، أو كان ساكناً فصار متحرّكاً، فتغير المحل أي قبل الغير، فالقدس والقدوس لا يقبل التغيير جملة واحدة، وأما القدس العرضي فيقبل الغير وهو النقيض، وما تفاوت الناس إلاّ في القدس العرضي، فمن ذلك تقديس النفوس بالرياضات وهي تهذيب الأخلاق، وتقديس المزاج بالمجاهدات، وتقديس العقول بالمكاشفات والمطالعات، وتقديس الجوارح بالوقوف عند الأوامر والنواهي المشروعات، ونقيض هذا القدس ما يضاده ممّا لا يجتمع معه في محل واحد في زمان واحد، فهذا هو القدس الذي ذكرنا ملكه، فالقدس العارف لا يكون إلاّ في المركبات، فإذا اتصف المركب بالقدس فذلك المسمّى حظيرة القدس أي المانعة قبول ما يناقض كونها قدساً، ومهما لم تمنع فلا تكون حظيرة قدس فإن الحظر المنع ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٠] أي ممنوعاً، فالقدس حقيقة إلهية سيالة سارية في

المقدسين، لا يدرك لنورها لون مخصوص معين، ولا عين تسري في حقائق الكون، ليس لعالم الأرواح المنفصلين عن الظلمة عليها أثر، وذلك أن الأرواح المدبّرة للأجسام العنصرية لا يمكن أن تدخل أبداً حظيرة القدس، ولكن العارض الكامل يشهدها حظيرة قدس فيقول العارف عند ذلك: إن هذه الأرواح لا تدخل حظيرة القدس أبداً لأن الشيء يستحيل أن يدخل في نفسه فهي عنده حظيرة قدس، وغير العارف يشارك العارف في هذا الإطلاق فيقول: إنها لا تدخل حظيرة القدس أي لا تتصف بالقدس أبداً، فإن ظلمة الطبع لا تزال تصحب الأرواح المدبّرة في الدنيا والبرزخ والآخرة فاختلفا في المشهد وكل قال حقاً وأشار إلى معنى وما تواردوا على معنى واحد، ولهذا لا يتصوّر الخلاف الحقيقيّ في هذا الطريق، فإذا كان ملك القدس كل من اتصف بالطهارة الذاتية والعرضية، والقدوس اسم إلهيّ منه سرت الطهارة في الطاهرات كلها، فمن نظر الأشياء كلها بعين ارتباطها بالحقائق الإلهية كان ملك القدس جميع ما سوى الله من هذه الحيثية، ومن نظر الأشياء من حيث أعيانها فليس ملك القدس منها إلاّ من كان طهوره عرضياً.

وأما الطهور الذاتيّ فلا ينبغي أن يكون ملك القدس إلاّ أن يكون ملك القدس عين القدس، فحينئذ يصحّ أن يقال فيه ملك القدس، وطهور كل مطهر بحسب ما تقضيه ذاته من الطهارة، فطهارة حسّيّة وطهارة معنوية، فملك القدس منه ما هو من عالم المعاني، ومنه ما هو من عالم الحسّ، وقد تورث الأسباب الحسّيّة المطهرة طهارة معنوية، وقد تورث الأسباب المعنوية المطهرة طهارة حسّيّة، فأما الأول: فقوله تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١١] وسبب هذه الطهارة المعنوية كلها إنما هو نزول هذا الماء من السماء. وأما الثاني فقول النبيّ ﷺ لأبي هريرة حين كان جنباً فانتزع أبو هريرة يده من يد النبي ﷺ تعظيماً له لكونه غير طاهر لجنابة أصابته فقال له رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لاَ يَنْجَسُ فَعَرَقُ الْمُؤْمِنِ وَسُؤْرُهُ طَاهِرٌ**» فهذه طهارة حسّيّة عن طهر معنويّ، وكذلك المقدس طهارته الحسّيّة عن طهر معنويّ فإن له التواضع وهو مسيل الحياة والعلم والحياة مطهرة والعلم كذلك فبالمجموع نال الطهارة، فإن الأودية كلها طاهرة وإنما تنجس بالعرض، وكل واد به شيطان فهو نجس، فما يجد المؤمن فيه خيراً لأجل ذلك الشيطان كما ثبت عن رسول الله ﷺ: «**أَنَّ هٰذَا وَادٍ بِهِ شَيْطَانٌ**» فارتفع عنه وصلىٰ في موضع آخر. ووادي عرنة بعرفة موقف إبليس، وكذلك بطن محسر، فلهذا أمرنا بالارتفاع يوم عرفة عن بطن عرنة، وأمرنا بالإسراع في بطن محسر، ولهذا يعتبر الأولياء أهل الكشف ألفاظ الذكر، كان شيخنا يقول: الله الله، فقلت له: لم لا تقول لا إله إلاّ الله؟ فقال: أخاف أن أموت في وحشة النفي إذ كان كل حرف نفس، فهذا مثل الإسراع في بطن محسر لئلاّ يدركه الموت في مكان غير طاهر، ولأولياء الله في هذا الكشف التام نظر دقيق جعلنا الله من أهله.

السؤال الخامس عشر ومائة: ما سبحات الوجه؟ الجواب: وجه الشيء ذاته وحقيقته، فهي أنوار ذاتية بيننا وبينها حجب الأسماء الإلهية ولهذا قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾

[سورة القصص: الآية ٨٨] في أحد تأويلات هذا الوجه، وهذه السبحات في العموم باللسان الشامل أنوار التنزيه وهو سلب ما لا يليق به عنه وهي أحكام عدمية، فإن العدم على الحقيقة هو الذي لا يليق بالذات وهنا الحيرة فإنه عين الوجود فإذا لا ينزّه عن أمر وجوديّ، ولهذا كانت الأسماء الإلهية نسباً إن تفطنت أحدثت هذه النسب أعيان الممكنات لما اكتسبت من الحالات من هذه الذات، فكل حال تلفظ باسم يدل عليه من حيث نفسه إما بسلب أو إثبات أو بهما، وهي هذه الأسماء على قسمين: قسم كله أنوار وهي الأسماء التي تدل على أمور وجودية، وقسم كله ظلم وهي الأسماء التي تدل على التنزيه، فقال: «**إِنَّ لِلَّهِ سَبْعِينَ حِجَاباً أَوْ سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ لَوْ كَشَفَهَا لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**» فإنه لو رفع الأسماء الإلهية ارتفعت هذه الحجب، ولو ارتفعت الحجب التي هي هذه الأسماء ظهرت أحدية الذات، ولا يقف لأحديتها عين تتصف بالوجود، فكانت تذهب وجود أعيان الممكنات، فلا توصف بالوجود لأنها لا تقبل الاتصاف بالوجود إلاّ بهذه الأسماء، ولا تقبل الاتصاف بهذه الأحكام كلها عقلاً وشرعاً إلاّ بهذه الأسماء، فالممكنات من خلف هذه الحجب مّما يلي حضرة الإمكان، فهو تجلٍ ذاتي أورثها الاتصاف بالوجود من خلف حجاب الأسماء الإلهية، فلم يتعلق لأعيان الممكنات علم بالله إلاّ من حيث هذه الأسماء عقلاً وكشفاً.

السؤال السادس عشر ومائة: ما شراب الحب؟ الجواب: تجلّ متوسط بين تجليين؛ وهو التجلّي الدائم الذي لا ينقطع وهو أعلى مقام يتجلى الحق فيه لعباده العارفين وأوله تجلّي الذوق. وأما التجلّي الذي يقع به الريّ فهو لأصحاب الضيق فغاية شربهم ريّ. وأما أهل السعة فلا ريّ لشربهم كأبي يزيد وأمثاله، فأول ما أقدّم في هذا السؤال معرفة الحب وحينئذ يعرف شرابه الذي أضيف إليه وكأسه.

فاعلم أن الحب على ثلاث مراتب: حب طبيعي وهو حب العوامّ وغايته الاتحاد في الروح الحيوانيّ فتكون روح كل واحد منهما روحاً لصاحبه بطريق الالتذاذ وإثارة الشهوة ونهايته من الفعل النكاح، فإن شهوة الحب تسري في جميع المزاج سريان الماء في الصوفة بل سريان اللون في المتلون. وحب روحانيّ نفسيّ وغايته التشبّه بالمحبوب مع القيام بحق المحبوب ومعرفة قدره. وحب إلهيّ وهو حب الله للعبد وحب العبد ربه كما قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] ونهايته من الطرفين أن يشاهد العبد كونه مظهراً للحق وهو لذلك الحق الظاهر كالروح للجسم باطنه غيب فيه لا يدرك أبداً ولا يشهده إلاّ محب، وأن يكون الحق مظهراً للعبد فيتصف بما يتصف به العبد من الحدود والمقادير والأعراض ويشاهد هذا العبد وحينئذ يكون محبوباً للحق، وإذا كان الأمر كما قلناه فلا حدّ للحب يعرف به ذاتيّ، ولكن يحد بالحدود الرسمية واللفظية لا غير، فمن حدّ الحب ما عرفه ومن لم يذقه شرباً ما عرفه، ومن قال: رويت منه ما عرفه فالحب شرب بلا ريّ. قال بعض المحجوبين: شربت شربة فلم أظمأ بعدها أبداً، فقال أبو يزيد: الرجل من يحسي البحار ولسانه خارج على صدره من العطش وهذا هو الذي أشرنا إليه.

واعلم أنه قد يكون الحب طبيعياً والمحبوب ليس من عالم الطبيعية، ولا يكون الحب طبيعياً إلاّ إذا كان المحب من عالم الطبيعة لا بدّ من ذلك، وذلك أن الحب الطبيعيّ سببه نظرة أو سماع فيحدث في خيال الناظر ممّا رآه إن كان المحبوب ممّن يدرك بالبصر، وفي خيال السامع ممّا سمع فحمله في نشأته فصوّره في خياله بالقوّة المصوّرة، وقد يكون المحبوب ذا صورة طبيعية مطابقة لما تصوّر في الخيال أو دون ذلك أو فوق ذلك، وقد لا يكون للمحبوب صورة ولا يجوز أن يقبل الصور، فصور هذا المحبّ من السماع ما لا يمكن أن يتصوّر، ولم يكن مقصود الطبيعة في تصوير ما لا يقبل الصورة إلاّ اجتماعها على أمر محصور ينضبط لها مخافة التبديد والتعلّق بما ليس في اليد منه شيء، فهذا هو الداعي لما ذكرناه من تصوير من ليس بصورة، أو من تصوير من لم يشهد له صورة وإن كان ذا صورة، وفعل الحبّ في هذه الصورة أن يعظم شخصها حتى يضيق محل الخيال عنها فيما يخيّل إليه فتثمر تلك العظمة والكبر التي في تلك الصورة نحولاً في بدن المحبّ فلهذا تنحل أجساد المحبين، فإن مواد الغذاء تنصرف إليها فتعظم وتقل عن البدن فينحل، فإن حرقة الشوق تحرقه فلا يبقى للبدن ما يتغذى به، وفي ذلك الاحتراق نموّ صورة المحبوب في الخيال فإن ذلك أكلها، ثم إن القوّة المصوّرة تكسو تلك الصورة في الخيال حسناً فائقاً وجمالاً رائقاً يتغير لذلك الحسن صورة المحب الظاهرة فيصفرّ لونه وتذبل شفته وتغور عينه، ثم إن تلك القوّة تكسو تلك الصورة قوّة عظيمة تأخذها من قوّة بدن المحبّ فيصبح المحبّ ضعيف القوىٰ ترعد فرائصه، ثم إن قوّة الحبّ في المحب تجعله يحبّ لقاء محبوبه ويجبن عند لقائه لأنه لا يرى في نفسه قوّة للقائه، ولهذا يغشى على المحب إذا لقي المحبوب ويصعق، ومن فيه فضلة وحبّه ناقص يعتريه عند لقاء محبوبه ارتعاد وخبلان كما قال بعضهم: [الوافر]

أفكِّرُ ما أقول إذا افترقنا ... وأُحْكِمُ دائباً حُجَجَ المَقَالِ

فأنساها إذا نحن التقينا ... وأنطقُ حين أنطقُ بالمُحَالِ

ثم إن قوّة الحبّ الطبيعيّ تشجع المحب بين يدي محبوبه له لا عليه، فالمحب جبان شجاع مقدام، فلا يزال هذا حاله ما دامت تلك الصورة موجودة في خياله إلى أن يموت وينحل نظامه أو تزول عن خياله فيسلو. ومن الحب الطبيعيّ أن تلتبس تلك الصورة في خياله فتلصق بصورة نفسه المتخيلة له، وإذا تقاربت الصورتان في خياله تقارباً مفرطاً وتلتصق به لصوق الهواء بالناظر يطلبه المحب في خياله فلا يتصوره ويضيع ولا ينضبط له للقرب المفرط فيأخذه لذلك خبال وحيرة مثل ما يأخذ من فقد محبوبه، وهذا هو الاشتياق والشوق من البعد، والاشتياق من القرب المفرط.

كان قيس ليلى في هذا المقام حيث كان يصيح ليلى ليلى في كل ما يكلم به فإنه كان يتخيّل أنه فقيد لها ولم يكن، وإنما قرب الصورة المتخيلة أفرطت في القرب فلم يشاهدها فكان يطلبها طلب الفاقد، ألا تراه حين جاءته من خارج فلم تطابق صورتها الظاهرة الصورة الباطنة المتخيلة التي مسكها في خياله منها فرآها كأنها مزاحمة لتلك الصورة فخاف فقدها فقال

لها: إليك عني فإن حبّك شغلني عنك، يريد أن تلك الصورة هي عين الحبّ فبقي يطلبها ليلى ليلى، فإذا تقوت تلك الصورة في خيال المحبّ أثرت في المحبوب تأثير الخيال في الحسّ مثل الذي يتوهم السقوط فيسقط أو يتوهم أمراً ما مفزعاً فيتغير له المزاج فتتغير صورة حسّه، كذلك هذه الصورة إذا تقوّت أثرت في المحبوب فقيدته وصيرته أشد طلباً لها منها له، فإن النفوس قد جبلت على حبّ الرياسة، والمحب عبد مملوك بحبه لهذا المحبوب، فالمحبوب لا يكون له رياسة إلاّ بوجود هذا المحب فيعشقه على قدر عشقه رياسته، وإنما يتيه عليه للطمأنينة الحاصلة في نفس المحبوب بأن المحب لا يصبر عنه وهو طالب إياه فتأخذه العزّة ظاهراً وهو الطالب له باطناً، ولا يرى في الوجود أحداً مثله لكونه ملكه، فالمحب لا يعلّل فعل المحبوب لأنّ التعليل من صفات العقل ولا عقل للمحب، يقول بعضهم: ولا خير في حب يدبر بالعقل.

وأنشدني أبو العباس المقراني وكان من المحبين لنفسه: الحب أملك للنفوس من العقل. والمحبوب يعلل أفعال المحب بأحسن التعليل لأنه ملكه، فيريد أن يظهر شرفه وعلوه حتى يعلو المحبوب إذ هو المالك وهو يحب الثناء على نفسه وهذا كله فعل الحب فعل في المحبوب ماذ كرناه وفعل في المحب ما ذكرناه، وهذا من أعجب الأشياء أنّ المعنى أوجب حكمه لمن لم يقم به وهو المحبوب فإنه أثر فيه حب المحب كما أثر في المحب، كمسألة المعتزلي أن الله مريد بإرادة لم تقم بمحل بل خلقها إما في محل أو في لا محل وأراد بها، وهذا خلاف المعقول إيجاب المعاني أحكامها لمن لم تقم به، وكذلك الحب لا يجتمع مع العقل في محل واحد، فلا بدّ أن يكون حكم الحب يناقض حكم العقل، فالعقل للنطق والتهيام للخرس. ثم إنه من شأن الحب الطبيعي أن تكون الصورة التي حصلت في خيال المحب على مقدار المحل الحاصلة فيه بحيث لا يفضل عنها منه ما يقبل به شيئاً أصلاً، وإن لم يكن كذلك فما هي صورة الحب، وبهذا تخالف صورة الحب سائر الصور كما كانت صورة العالم على قدر الحضرة الإلهية الأسمائية، فما في الحضرة الإلهية اسم إلهي إلاّ وهو على قدر أثره في نشء العالم من غير زيادة ولا نقصان، ولهذا كان إيجاد العالم عن حب.

وقد ورد ما يؤيّد هذا في السنّة وهو قوله: **«كنتُ كنزاً لم أُعْرَفْ فأحببتُ أن أُعْرَفَ فخلقْتُ الخلقَ وتعَرَّفْتُ إليهم فعرفوني»**. فأخبر أن الحب كان سبب إيجاد العالم فطابق الأسماء الإلهية، ولولا تعشق النفس بالجسم ما تألم عند مفارقته مع كونه ضداً له، فجمع بين المقادير والأحوال لوجود النسب والأشكال، فالنسب أصل في وجود الأنساب، وإن كانت الأرواح تخالف الأشباح والمعاني تخالف الكلمات والحروف، ولكن تدل الكلمة على المعنى بحكم المطابقة بحيث لو تجسد المعنى لما زاد على كمية الكلمة، ومثل هذا النوع يسمى حباً.

وأما الحب الروحاني فخارج عن هذا الحد وبعيد عن المقدار والشكل، وذلك أن القوىٰ الروحانية لها التفات نسبي، فمتى عمّت النسب في الالتفاتات بين المحب والمحبوب عن نظر أو سماع أو علم كان ذلك الحب، فإن نقص ولم تستوف النسب لم يكن حباً، ومعنى

النسب أن الأرواح التي من شأنها أن تهب وتعطي متوجهة على الأرواح التي من شأنها أن تأخذ وتمسك وتلك تتألم بعدم القبول وهذه تتألم بعدم الفيض وإن كان لا ينعدم إلاَّ أن كونه لم تكمل شروط الاستعداد والزمان سمّي ذلك الروح القابل عدم فيض وليس بصحيح، فكل واحد من الروحين مستفرغ الطاقة في حب الآخر، فمثل هذا الحب إذا تمكن من الحبيبين لم يشك المحبّ فرقة محبوبه لأنه ليس من عالم الأجسام ولا الأجساد، فتقع المفارقة بين الشخصين أو يؤثر فيه القرب المفرط كما فعل في الحب الطبيعيّ، فالمعاني لا تتقيد ولا تتحيّز ولا يتخيلها إلاَّ ناقص الفطرة فإنه يصوّر ما ليس بصورة، وهذا هو حبّ العارفين الذين يمتازون به عن العوام أصحاب الاتحاد، فهذا محب أشبه محبوبه في الافتقار لا في الحال والمقدار، ولهذا يعرف المحب قدر المحبوب من حيث ما هو محبوب.

وأما الحب الإلهي فمن اسمه الجميل والنور فيتقدّم النور إلى أعيان الممكنات فينفر عنها ظلمة نظرها إلى نفسها وإمكانها فيحدث لها بصراً هو بصره إذ لا يرى إلاَّ به، فيتجلى لتلك العين بالاسم الجميل فتتعشق به فيصير عين ذلك الممكن مظهراً له، فيبطن العين من الممكن فيه وتفنى عن نفسها فلا تعرف أنها محبة له سبحانه، أو تفنى عنه بنفسها مع كونها على هذه الحالة فلا تعرف أنها مظهر له سبحانه، وتجد من نفسها أنها تحب نفسها، فإن كل شيء مجبول على حب نفسه وما ثم ظاهر إلاَّ هو في عين الممكن، فما أحب الله إلاَّ الله، والعبد لا يتصف بالحب إذ لا حكم له فيه فإنه ما أحبه منه سواه الظاهر فيه وهو الظاهر، فلا تعرف أيضاً أنها محبة له فتطلبه وتحب أن تحبه من حيث أنها ناظرة إلى نفسها بعينه، فنفس حبّها أن تحبه هو بعينه حبّها له، ولهذا يوصف هذا النور بأنه له أشعة أي أنه شعشعاني لامتداده من الحق إلى عين الممكن ليكون مظهراً له بنصب الهاء لا اسم فاعل، فإذا جمع من هذه صفته بين المتضادّات في وصفه فذلك هو صاحب الحب الإلهي، فإنه يؤدّي إلى إلحاقه بالعدم عند نفسه كما هو في نفس الأمر، فعلامة الحب الإلهي حب جميع الكائنات في كل حضرة معنوية أو حسية أو خيالية أو متخيلة، ولكل حضرة عين من اسمه النور تنظر بها إلى اسمه الجليل فيكسوها ذلك النور حلة وجود، فكل محب ما أحب سوى نفسه، ولهذا وصف الحق نفسه بأنه يحب المظاهر والمظاهر عدم في عين، وتعلق بالمحبة بما ظهر وهو الظاهر فيها، فتلك النسبة بين الظاهر والمظاهر هي الحب، ومتعلق الحب إنما هو العدم فمتعلقها هنا الدوام والدوام ما وقع فإنه لا نهاية له وما لا نهاية له لا يتصف بالوقوع، ولما كان الحب من صفات الحق حيث قال: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ ومن صفات الخلق حيث قال ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] اتصف الحب بالعزّة لنسبته إلى الحق ووصف الحق به وسرى في الخلق بتلك النسبة العزية، فأورثت في المحل ذلّة من الطرفين، فلهذا ترى المحب يذلّ تحت عزّ الحب لا عزّ المحبوب، فإن المحبوب قد يكون مملوكاً للمحب مقهوراً تحت سلطانه ومع هذا تجده يذلّ له المحب، فعلمنا أن تلك عزّة الحب لا عزّة المحبوب، قال أمير المؤمنين هارون الرشيد في محبوباته: [الكامل]

مَلَكَ الثلاث الآنساتِ عَنَاني ... وحلَلْنَ من قلبي بكلِّ مكانِ
ما لي تطاوعني البريةُ كلُّها ... وأطيعُهُنّ وهنَّ في عِصْياني
ما ذاك إلاَّ أنَّ سلطانَ الهوى ... وبه قَوَيْنَ أَعَزُّ من سلطاني

فأضاف القوّة إلى الهوى بقوله: سلطان الهوى، يقول الله في غير ما موضع من كتابه متلطفاً بعباده: «يا عبادي اشتَقْتُ إليكم وأنا إليكم أشدُّ شوقاً»، ويخاطبهم بنزول من لطف خفي، وهذا الخطاب كله لا يتمكن أن يكون منه إلاَّ من كونه محباً، ومثل ذلك يصدر من المحبين له تعالىٰ، فالمحب في حكم الحب لا في حكم المحبوب، ومن هي صفته عينه فعينه تحكم عليه لا أمر زائد فلا نقص، غير أن أثره في المخلوقين التلاشي عند استحكامه لأنه يقبل التلاشي، فلهذا يتنوّع العالم في الصور فيكون في صورة، فإذا أفرط فيها الحب من حيث لا يعلم وحصل التجلّي من حيث لا يظهر تلاشت الصورة وظهرت في العين صورة أخرى وهي أيضاً مثل الأولى في الحكم راجعة إليه، ولا يزال الأمر كذلك دائماً لا ينقطع، ومن هنا غلط من يقول: إن العالم لا بدّ له من التلاشي، ومن نهاية علم الله في العالم حيث وصف نفسه بالإحاطة في علمه بهم، ثم إنه من كرمه سبحانه أن جعل هذه الحقيقة سارية في كل عين ممكن متصف بالوجود، وقرن معها اللذة التي لا لذة فوقها، فأحب العالم بعضه بعضاً حب تقييد من حقيقة حب مطلق فقيل: فلان أحب فلاناً، وفلان أحب أمراً ما، وليس إلاَّ ظهور حق في عين ما أحب ظهور حق في عين أخرى كان ما كان، فمحب الله لا ينكر على محب حبّ من أحب، فإنه لا يرى محباً إلاَّ الله في مظهر ما، ومن ليس له هذا الحب الإلهي فهو ينكر على من يحب، ثم إنه ثم دقيقة من كون من قال: إنه يستحيل أن يحب أحد الله تعالىٰ فإن الحق لا يمكن أن يضاف إليه ولا إلى ما يكون منه نسبة عدم أصلاً، والحب متعلقه العدم، فلا حب يتعلق بالله من مخلوق، لكن حبّ الله يتعلق بالمخلوق لأنّ المخلوق معدوم، فالمخلوق محبوب لله أبداً دائماً، وما دام الحبّ لا يتصوّر معه وجود المخلوق فالمخلوق لا يوجد أبداً، فأعطت هذه الحقيقة أن يكون المخلوق مظهراً للحق لا ظاهراً، فمن أحبّ شخصاً بالحبّ الإلهيّ فعلى هذا الحدّ يكون حبّه إياه فلا يتقيد بالخيال ولا بجمال مّا فإنها كلها موجودة له فلا يتعلق الحبّ بها، فقد بان الفرقان بين المراتب الثلاثة في الحبّ، واعلم أنّ الخيال حق كله والتخيّل منه حق ومنه باطل.

السؤال السابع عشر ومائة: ما كأس الحبّ؟ الجواب: القلب من المحب لا عقله ولا حسّه، فإنّ القلب يتقلب من حال إلى حال، كما أنّ الله الذي هو المحبوب ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] فيتنوّع المحب في تعلّق حبّه بتنوّع المحبوب في أفعاله، كالكأس الزجاجيّ الأبيض الصافي يتنوّع بحسب تنوّع المائع الحالّ فيه، فلون الحب لون محبوبه وليس هذا إلاَّ للقلب، فإنّ العقل من عالم التقييد، ولهذا سمّي عقلاً من العقال والحسّ، فمعلوم بالضرورة أنه من عالم التقييد بخلاف القلب، وذلك أنّ الحبّ له أحكام كثيرة مختلفة متضادّة، فلا يقبلها إلاَّ من في قوّته الانقلاب معه فيها وذلك لا يكون إلاَّ للقلب، وإذا أضفت مثل هذا إلى الحق فهو قوله: ﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] وأن الله لا

يملّ حتى تملّوا. ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي. والشرع كله أو أكثره في هذا الباب وشرابه عين الحاصل في الكأس، وقد بينّا أنّ الكأس هو عين المظهر، والشراب عين الظاهر فيه، والشرب ما يحصل من المتجلّي للمتجلّى له، فاعلم ذلك على الاختصار. انتهى الجزء التاسع والثمانون.

(الجزء التسعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال الثامن عشر ومائة: من أين؟ الجواب: من تجلّيه في اسمه الجميل. قال ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**» وهو حديث ثابت، فوصف نفسه بأنه يحب الجمال وهو يحب العالم، فلا شيء أجمل من العالم وهو جميل والجمال محبوب لذاته، فالعالم كله محب لله، وجمال صنعه سار في خلقه والعالم مظاهره، فحب العالم بعضه بعضاً مذهب من حب الله نفسه، فإنّ الحب صفة الموجود، وما في الوجود إلاّ الله، والجلال والجمال لله وصف ذاتي في نفسه وفي صنعه، والهيبة التي هي من أثر الجمال، والأنس الذي هو من أثر الجلال نعتان للمخلوق لا للخالق ولا لما يوصف به ولا يهاب ولا يأنس إلاّ موجود ولا موجود إلاّ الله، فالأثر عين الصفة، والصفة ليست مغايرة للموصوف في حال اتصافه بها بل هي عين الموصوف، وإن عقلت ثانياً فلا محب ولا محبوب إلاّ الله عزّ وجلّ، فما في الوجود إلاّ الحضرة الإلهية وهي ذاته وصفاته وأفعاله، كما تقول: كلام الله علمه وعلمه ذاته، فإنه يستحيل عليه أن يقوم بذاته أمر زائد أو عين زائدة، ما هي ذاته تعطيها حكماً لا يصحّ لها ذلك الحكم دونها ممّا يكون كمالاً لها في ألوهيتها، بل لا تصحّ الألوهة إلاّ بها وهو كونه عالماً بكل شيء، ذكر ذلك عن نفسه بطريق المدحة لذاته ودلّ عليه الدليل العقليّ، ومن المحال أن تكمل ذاته بغير ما هي ذاته فتكون مكتسبة الشرف بغيرها، ومن علمه بذاته علم العلماء بالله من الله ما لا تعلمه العقول من حيث أفكارها الصحيحة الدلالة، وهذا العلم ما تقول فيه الطبيعة أنه وراء طور العقل، قال تعالى في عبده الخضر: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] وقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٤] فأضاف التعليم إليه لا إلى الفكر، فعلمنا أن ثم مقاماً آخر فوق الفكر يعطي العبد العلم بأمور شتى: منها ما يمكن أن يدركها من حيث الفكر. ومنها ما يجوّزها الفكر وإن لم يحصل لذلك العقل من الفكر. ومنها ما يجوّزها الفكر وإن كان يستحيل أن يعينها الفكر. ومنها ما يستحيل عند الفكر ويقبلها العقل من الفكر مستحيلة الوجود لا يمكن أن يكون له تحت دليل الإمكان فيعلمها هذا العقل من جانب الحق واقعة صحيحة غير مستحيلة ولا يزول عنها اسم الاستحالة ولا حكم الاستحالة عقلاً.

قال ﷺ: «**إنَّ مِنَ العِلْمِ كَهَيْئَةِ المَكْنُونِ لاَ يَعْلَمُهُ إلاَّ العُلَمَاءُ بِاللَّهِ فَإذَا نَطَقُوا بِهِ لَمْ يُنْكِرْهُ إلاَّ أَهْلُ الغِرَّةِ بِاللَّهِ**» هذا وهو من العلم الذي يكون تحت النطق، فما ظنك بما عندهم من العلم ممّا هو خارج عن الدخول تحت حكم النطق فما كل علم يدخل تحت العبارات، وهي علوم

الأذواق كلها، فلا أعلم من العقل ولا أجهل من العقل، فالعقل مستفيد أبداً فهو العالم الذي لا يعلم علمه وهو الجاهل الذي لا ينتهي جهله.

السؤال التاسع عشر ومائة: ما شراب حبّه لك حتى يسكرك عن حبك له؟ الجواب: إن أراد باللام الذي في لك وله الأجلية فجوابه مغاير لجوابه إذا كانت لا للأجلية، إذ يكون المعنى ما شراب حبّه إياك حتى يسكرك عن حبّك إياه، فجواب الوجه الأول والثاني متغاير، نقول: تغاير التجلّيات إنما كان من حيث ظهوره فيك فوصف نفسه بالحب من أجلك فأسكرك هذا العلم الحاصل لك من هذا التجلي عن أن تكون أنت المحب له أي المحب من أجله، فلم تحب أحداً من أجله وهو أحبّ من أجلك، فلو زلت أنت لم يتصف هو بالمحبة وأنت لا تزول فوصفه بالحب لا يزول، فهذا جواب يعم الأول والثاني لفرقان بين ما يستحقه الأوّل منه والثاني دقيق غامض.

وأما الجواب عن الثاني أن شراب حبّه إياك وهو حبّه إياك أن تحبه فإذا أحببته علمت حين شربت شراب حبّه إياك أن حبّك إياه عين حبّه إياك وأسكرك عن حبّك إياه مع إحساسك بأنك تحبّه فلم تفرق وهو تجلّي المعرفة، فالمحب لا يكون عارفاً أبداً، والعارف لا يكون محباً أبداً، فمن ههنا يتميز المحب من العارف والمعرفة من المحبة، فحبّه لك مسكر عن حبك له وهو شراب الخمر الذي لو شربه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء لغوت عامّة الأمة، وحبّك له لا يسكرك عن حبّه لك وهو شراب اللبن الذي شربه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء فأصاب الله به الفطرة التي فطر الله الخلق عليها فاهتدت منه في ذوقها وشربها وهو الحفظ الإلهيّ والعصمة وعلمت ما لها وماله في حال صحو وسكر، فشراب حبّه لك هو العلم بأن حبّك إياه من حبّه إياك فغيبك عن حبك إياه فأنت محب لا محب ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] مثل هذا البلاء في فنون من المقامات يظهر فيه كما ظهر في حق رسول الله ﷺ في رميه التراب في وجوه الأعداء، فأثبت أنه رمى ونفى أنه رمى فعبر عنه الترمذيّ بالسكر إذ كان السكران هو الذي لا يعقل فإن الترمذيّ كان مذهبه في السكر مذهب أبي حنيفة وكان حنفيّ المذهب في الأصل قبل أن يعرف الشرع من الشارع وهو الصحيح في حدّ السكر، ولكن من شيء يتقدم هذا السكران قبل سكره من شربه طرب وابتهاج وهو الذي اتخذه غير أبي حنيفة في حدّ السكر وهو ليس بصحيح، فكل مسكر بهذه المثابة فهو الذي يترتب عليه الحكم المشروع، فإن سكر من شيء لا يتقدّم سكره طرب لم يترتب عليه حكم الشرع لا بحدّ ولا بحكم.

السؤال العشرون ومائة: ما القبضة؟ الجواب: قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٧] والأرواح تابعة للأجسام ليست الأجسام تابعة للأرواح، فإذا قبض على الأجسام فقد قبض على الأرواح فإنها هياكلها، فأخبر أن الكل في قبضته، وكل جسم أرض لروحه وما ثم إلاّ جسم وروح غير أن الأجسام على قسمين: عنصرية ونورية

وهي أيضاً طبيعية، فربط الله وجود الأرواح بوجود الأجسام وبقاء الأجسام ببقاء الأرواح. وقبض عليها ليستخرج ما فيها ليعود بذلك عليها فإنه منها يغذيها ومنها يخرج ما فيها ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٥] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٢] ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [سورة المرسلات: الآية ٢٠] وهي دخان ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩] فهي من العناصر فهي أجسام عنصريات، وإن كانت فوق الأركان بالمكان فالأركان فوقهنّ بالمكانة ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٥] فيقبض منها ما يبسطها بها فلا يعطيها شيئاً من ذاته فإنها لا تقبله فلا وجود لها إلاّ بها، فالممكنات إنما أقامها الحق من إمكانها فقيامها منها بها، والحق واسطة في ذلك مؤلف رائق فائق ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ لأنه كذا أوجدها بإمكانها ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] بإمكانهما لو لم يكن الفتق ممكناً لما قام بهما فما أثر في الممكنات إلاّ الممكنات لكن العمى غلب على أكثر الخلق ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[سورة الروم: الآية ٧].

ألا ترى ما هو محال لنفسه هل يقبل شيئاً ممّا يقبله الممكن؟ فبنفسه تمكّن منه الواجب الوجود بالإيجاد فأوجده، وهذه هي الإعانة الذاتية، ألا ترى الحجر إذا رميت به علواً فيقال: إنّ حركته نحو العلو قهرية لأنّ طبيعته النزول إما إلى الأعظم وإما إلى المركز، فلولا أن طبيعته تقبل الصعود علواً بالقهر لما صعد، فما صعد إلاّ بطبعه أيضاً مع سبب آخر عارض ساعده الطبع بالقبول لما أراد منه، فالقبضة على الحقيقة قوله: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٤] ومن أحاط بك فقد قبض عليك لأنه ليس لك منفذ مع وجود الإحاطة، وإلاّ فليست إحاطة وما هو محيط، وصورة ذلك أنه ما من موجود سوى الله من الممكنات إلاّ وهو مرتبط بنسبة إلهية وحقيقة ربانية تسمّى أسماء حسنى، فكل ممكن في قبضة حقيقة إلهية فالكل في القبضة.

واعلم أن القبضة تحتوي على المقبوض بأربعة عشر فصلاً وخمسة أصول عن هذه الأربعة عشر فصلاً ظهر نصف دائرة الفلك وهي أربع عشرة منزلة وفي الغيب مثلها، وهذه الفصول تحوي جميع الحروف إلاّ حرف الجيم فإنها تبرّأت منه دون سائر الحروف وما علمنا لماذا، وما أدري هل هو ممّا يجوز أن يعلم أم لا؟ فإنّ الله تعالىٰ ما نفث في روعنا شيئاً ولا رأيته لغيرنا ولا ورد في النبوّات، فرحم الله عبداً وقف عليه فألحقه في هذا الموضع من كتابي هذا وينسب ذلك إليه لا إليّ، فتحصل الفائدة بطريق الصدق حتى لا يتخيل الناظر فيه أن ذلك ممّا وقع لي بعد هذا، فإن فتح عليّ به حينئذ أذكره أنه لي، فإن الصدق في هذا الطريق أصل قاطع لا بدّ منه ولا حظ له في الكذب، وهذه الخمسة الأصول متفاضلة في الدرجات فأعلاها وأعمّها هو العلم وهو الأصل الوسط، وعن يمينه أصلان: الحياة والقدرة، وعن يساره أصلان: الإرادة والقول، وكل أصل فله ثلاثة فصول إلاّ أصل القدرة فإن له فصلين خاصة، وإنما سقط عنه الفصل الثالث لأن اقتداره محجور غير مطلق وهو قول العلماء، وما لم يشأ أن يكون أن لو شاء أن يكون لكان كيف يكون، فعلق كونه بلو فامتنع عن نفوذ الاقتدار عليه

لسبب آخر فلم يكن له النفوذ، وهذا موضع إبهام لا يفتح أبداً، ومن هنا وجد في العالم الأمور المبهمة لأنه ما من شيء في العالم إلاّ وأصله من حقيقة إلهية، ولهذا وصف الحق نفسه بما يقوم الدليل العقليّ على تنزيهه عن ذلك، فما يقبله إلاّ بطريق الإيمان والتسليم، ومن زاد فبالتأويل على الوجه اللائق في النظر العقليّ، وأهل الكشف أصحاب القوّة الإلهية التي وراء طور العقل يعرف ذلك كما تفهمه العامة ويعلم ما سبب قبوله لهذا الوصف مع نزاهته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١]، وهذا خارج عن مدارك العقول بأفكارها، فالعامة في مقام التشبيه وهؤلاء في التشبيه والتنزيه والعقلاء في التنزيه خاصة، فجمع الله لأهل خاصته بين الطرفين، فمن لم يعرف القبضة هكذا فما قدر الله حق قدره، فإنه إن لم يقل العبد إن الله ليس كمثله شيء فما قدر الله حق قدره، وإن لم يقل أن خلق آدم بيده فما قدر الله حق قدره، وأين الانقسام من عدم الانقسام؟ وأين المركب من البسيط؟ فالكون يغاير مركبه بسيطه وعدده، توحيده وأحديته، والحق عين تركيبه عين بسيطه عين أحديته عين كثرته من غير مغايرة ولا اختلاف نسب، وإن اختلفت الآثار فعن عين واحدة، وهذا لا يصحّ إلاّ في الحق تعالىٰ، ولكن إذا نسبنا نحن بالعبارة فلا بدّ أن نغاير كان كذا من نسبة كذا وكذا من نسبة كذا لا بدّ من ذلك للإفهام.

السؤال الحادي والعشرون ومائة: من الذين استوجبوا القبضة حتى صاروا فيها؟ الجواب: الشاردون إلى ذواتهم من مرتبة الوجوب ومرتبة المحال، إذ لا يقبض إلاّ على شارد، فإنه لو لم يشرد لما قبض عليه، فالقبض لا يكون إلاّ عن شرود أو توقع شرود، فحكم الشرود حكم عليه بالقبض فيه استوجبوا أن يقبض عليهم، فمنهم من قبض عليه مرتبة الوجوب، ومنه من قبض عليه مرتبة المحال وهنا غور بعيد، والإشارة إلى بعض بيانه أن كل ممكن لم يتعلق العلم الإلهيّ بإيجاده لا يمكن أن يوجد فهو محال الوجود فحكم على الممكن المحال وألحقه به فكان في قبضة المحال، وما تعلق العلم الإلهيّ بإيجاده فلا بدّ أن يوجد فهو واجب الوجود فحكم على الممكن الوجوب، فكان في قبضة الواجب وليس له حكم بالنظر إلى نفسه، فما خرج الممكن من أن يكون مقبوضاً عليه إمّا في قبضة المحال وإمّا في قبضة الواجب، ولم يبق له في نفسه مرتبة يكون عليها خارجة عن هذين المقامين فلا إمكان، فإمّا محال، وإما واجب، وإمّا الغور البعيد، فإن جماعة قالوا وذهبوا إلى أنه ليس في الإمكان شيء إلاّ ولا بدّ أن يوجد إلى ما لا يتناهى، فما ثم ممكن في قبضة المحال، ولا شك أنهم غلطوا في ذلك من الوجه الظاهر وأصابوا من وجه آخر، فأما غلطهم فما من حالة من الأكوان في عين ما تقتضي الوجود فتوجد إلاّ ويجوز ضدها على تلك العين كحالة القيام للجسم مع جواز القعود لا نفي القيام، ومن المحال وجود القعود في الجسم القائم في حال قيامه وزمان قيامه، فصار وجود هذا القعود بلا شك في قبضة المحال لا يتصف بالوجود أبداً من حيث هذه النسبة لهذا الجسم الخاص وهو قعود خاص، وأما مطلق القعود فإنه في قبضة الواجب فإنه واقع، وأما وجه الإصابة فإن متعلق الإمكان إنما هو في الظاهر في المظاهر

والمظاهر محال ظهورها وواجب الظهور فيها، والظاهر لا يجوز عليه خلافه فإنه ليس بمحل لخلافه، وإنما المظهر هو المحل وقد قبل ما ظهر فيه ولا يقبل غيره، فإذا وجد غيره فذلك ظهور آخر ومظهر آخر، فإن كل مظهر لظاهر لا ينفك عنه بعد ظهوره فيه، فلا يبقى في الإمكان شيء إلاّ ويظهر إلى ما لا يتناهى، فإن الممكنات غير متناهية، وهذا غور بعيد التصوّر لا يقبل إلاّ بالتسليم أو تدقيق النظر جداً فإنه سريع التفلت من الخاطر لا يقدر على إمساكه إلاّ من ذاقه والعبارة تتعذر فيه.

السؤال الثاني والعشرون ومائة: ما صنيعه بهم في القبضة؟ الجواب: المحض وهو ما هم عليه فهو يرفع ويخفض، ويبسط ويقبض، ويكشف ويستر، ويخفى ويظهر، ويوقع التحريش، ويؤلف وينفر، وصنيعه العام بهم التغيير في الأحوال فإنه صنع ذاتيّ إذ لو لم يغيّر لتعطل كونه إلهاً، وكونه إلهاً نعت ذاتيّ له، فتغيير الصنع في الممكنات واجب لا ينفك كما أنهم في القبضة دائماً.

السؤال الثالث والعشرون ومائة: كم نظرته إلى الأولياء في كل يوم؟ الجواب: بعدد ما يغير عليهم الحال من حيث هو متوليهم لا غير، وينحصر ذلك في مائة مرّة من غير زيادة ولا نقصان، ولكن ما دام الوليّ مظروفاً لليوم، وأما نظره للأولياء إذا خرجوا من الأوقات فنظر دائم لا توقيت فيه ولا يقبل التوقيت فإنه لا يدخل تحت العدد ولا المغايرة ولا التمييز، فإذا دخلوا أو كان حالهم الزمان فمائة مرّة، وكل مرّة يحصل لهم في تلك النظرة ما لا يحدّه توقّت فهو عطاء إلهيّ من غير حساب ولا هنداز.

السؤال الرابع والعشرون ومائة: إلى ماذا ينظر منهم؟ الجواب: إلى أسرارهم لا إلى ظواهرهم، فإن ظواهرهم يجريها سبحانه بحسب الأوقات وسرائرهم ناظرة إلى عين واحدة، فإن أعرضوا أو أطرفوا نقصهم في ذلك الإعراض أو تلك الطرفة ما تقتضيه النظرة، وهو أكثر ممّا نالوه من حين أوجدهم إلى حين ذلك الإعراض، قال بعض السادة فيما حكاه القشيريّ في رسالته، لو أن شخصاً أقبل على الله طول عمره ثم أعرض عنه لحظة واحدة كان ما فاته في تلك اللحظة أكثر ممّا ناله في عمره، وذلك أن الشيء في المزيد وأن المتأخر يتضمن ما تقدمه، وزيادة ما تعطيه عينه من حيث ما هو جامع، فيرى ما تقدم في حكم الجمع وهو يخالف حكم انفراده وحكم جمعه دون هذا الجمع الخاص، ومن حيث ما تختص به هذه اللحظة من حيث ما هي لنفسها لا من حيث كونها حضرة جمع لما تقدمها، فبالضرورة يفوته هذا الخير، فما أشأم الإعراض عن الله، وفي هذا يتبين لك شرف العلم، فإن العلم هو الذي يفوتك، والعلم هو الذي تستفيده، قال تعالىٰ آمراً لنبيّه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] فإنه أشرف الصفات وأنزه السمات.

السؤال الخامس والعشرون ومائة: إلى ماذا ينظر من الأنبياء عليهم السلام؟ الجواب: إن أراد العلم فإلى أسرارهم، وإن أراد الوحي فإلى قلوبهم، وإن أراد الابتلاء فإلى نفوسهم، إلاّ أن نظره سبحانه على قسمين: نظر بواسطة وهو قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [سورة

الشعراء: الآية ١٩٣] ونظر بلا واسطة وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ١٠] فإذا نظر إلى أسرارهم أعطاهم من العلم به ما شاء لا غير، وهو أن يكشف لهم عنهم أنهم به لا بهم، فيرونه فيهم ولا يرونهم، فيعلمون﴿ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [سورة السجدة: الآية ١٧]، فتقرّ عيونهم بما شاهدوه ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة النور: الآية ٢٥] بهم في كل نظرة، وهو مزيد العلم الذي أمر بطلبه لا علم التكليف، فإن النقص منه هو مطلوب الأنبياء عليهم السلام، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «**اتْرُكُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ**» وقوله: «**لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَمَا كُنْتُمْ تُطِيقُونَهَا**» وإذا نظر إلى قلوبهم قلب الوحي فيهم بحسب ما تقلبوا فيه فلكل حال يتقلبون فيه حكم شرعيّ يدعو إليه هذا النبيّ وسكوته عن الدعوة شرع أي ابقوا على أصولكم، وهذا هو الوحي العرضيّ الذي عرض لهم، فإن الوحي الذاتيّ الذي تقتضيه ذواتهم هو أنهم يسبحون بحمد الله لا يحتاجون في ذلك إلى تكليف بل هو لهم مثل النفس للمتنفس، وذلك لكل عين على الانفراد، والوحي العرضي هو لعين المجموع، وهو الذي يجب تارة ولا يجب تارة، ويكون لعين دون عين، وهو على نوعين: نوع يكون بدليل أنه من الله وهو شرع الأنبياء ومنه ما لا دليل عليه وهو الناموس الوضعي الذي تقتضيه الحكمة يلقيه الحق تعالىٰ من اسمه الباطن الحكيم في قلوب حكماء الوقت من حيث لا يشعرون، ويضيفون ذلك الإلقاء إلى نظرهم لا يعلمون أنه من عند الله على التعيين، لكنهم يرون أن الأصل من عند الله فيشرعونه لمتبعيهم من أهل زمانهم، إذ لم يكن فيهم نبي مدلول على نبوّته، فإن هم قاموا بحدود ذلك الناموس ووقفوا عنده ورعوه جازاهم الله على ذلك بحسب ما عاملوه به في الدنيا والآخرة جزاء الشرع المقرّر المدلول عليه ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٧] فيما ابتدعوه من الرهبانية. ومن سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها، ومن سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، وأن الله يصدق قول واضع الناموس الحكميّ كما هو مصدق واضع الناموس الشرعي الحكمي، فأما جزاؤه في الدنيا فلا شك ولا خفاء بوقوع المصلحة ووجودها في الأهل والمال والعرض، وأما الآخرة فعلى هذا المجرى وإن لم يتعرّض إليها صاحب الناموس الحكميّ، كما أنه في ناموس الحكم الإلهيّ أن في الآخرة لنا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويحصل لنا من غير تقدم علم به كذلك الحاصل في الآخرة جزاء لعمل الناموس الذي اقتضته الحكمة عند من ابتدعه للمصلحة، فإن قال في ناموسه: قال الله ، ويكون ممن قد علم أنه مظهر وأن لا موجود على الحقيقة إلاّ الله صدق وعفا الله عنه، وإن كان من أهل الحجاب عن هذا العلم فأمره إلى الله وهو بحسب قصده في ذلك، فإنه قد يقصد الرياسة وتكون المصلحة في حكم التبع، وقد يقصد المصلحة وتكون الرياسة تبعاً، وهذا الكلام لا يتصوّر إلاّ مع عدم الشرع المقرّر بالدليل في تلك الجماعة وذلك المكان خاصة، وإذا نظر إلى نفوسهم ابتلاهم بمخالفة أممهم فاختلفوا عليه واختلفوا فيما بينهم وإن اجتمعوا عليه، وهذا كله إذا اتفق أن ينظر النبيّ إلى نفسه ولا بدّ له من النظر إلى نفسه فإن الجلوس مع الله لا تقتضي البشرية دوامه، وإذا لم يدم فما ثم الاّ النفس، فيكون نظره في هذا

الحال نظر ابتلاء لأن النبي في تلك الحالة صاحب دعوى أنه قد بلغ رسالة ربه، وكذا ورد: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَقَدْ قَالَ: قَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ**» وقال: «**ألا هل بلّغت؟**» فأضاف التبليغ إليه، ولم يقل في هذه الحال قد بلغ الله إليكم بلساني ما قد أسمعكم، فلو قال هذا ما ابتلوا ببلاء النفوس، وفي هذا لله حكم خفيّ ليعلم العبد أنه محل للتوفيق ونقيضه، وأنه لا حول ولا قوّة إلاَّ بالله على ما أمر به ونهى عنه، فالحكم لله العليّ الكبير.

السؤال السادس والعشرون ومائة: كم إقباله على خاصته في كل يوم؟ الجواب: أربعة وعشرون ألف إقبال في كل يوم، يهبهم في ذلك الإقبال ما شاء ويأخذ منهم في الإقبال الثاني ما كان أعطاهم في الإقبال الأول، إما أخذ قبول، وإما أخذ ردّ غير مقبول، فإنّ الله قد أمرهم بالأدب في كل ما يلقى إليهم عند أخذهم، وكذلك إذا ردّوا الأمور إليه يردّونها محلاة بالأدب الإلهيّ فذلك داعية القبول الإلهيّ، فإن أساؤوا الأدب في الأخذ والردّ عاد وبال ذلك عليهم وليسوا عند ذلك بخاصة الله، فالخاصة تحضر مع الله أربعة وعشرين ألف مرة في كل يوم، وإن أردت التحرير في المقال إن لم يكن عندك علم وتخرج من العهدة فقل إقباله على خاصته كل يوم بعدد أنفاسهم كانت ما كانت، فمن اطلع على توقيت أنفاسه علم توقيت إقبال الله عليه في كل يوم، فإنّ ذلك النفس من نفس الرحمن، فهو عين إقبال الحق عليهم، وبه تنوّرت هياكلهم، فهو في الأجسام ريح، وفي اللطائف أرواح جمع روح بفتح الراء وتسكين الواو سكوناً حياً.

السؤال السابع والعشرون ومائة: ما المعية مع الخلق والأصفياء والأنبياء والخاصة والتفاوت والفرق بينهم في ذلك؟ الجواب: قال الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فالأينية إلينا، وقال لموسىٰ وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٤٦] فنبههما على أنه سمعهما وبصرهما تذكرة لهما أو إعلاماً لم يتقدمه علم به عندهما، فإنه قد صحّ عندنا في الخبر أنّ العبد إذا أحبّه ربّه كان سمعه وبصره الذي يسمع به ويبصر به، فالنبيّ أولى بهذا ممّن ليس بنبيّ، وطبقات الأولياء كثيرة، ولكن ما ذكر منها إلاَّ ما قلناه، فلا نتعدّى بالجواب قدر ما سأل فنقول: إن المعية تقتضي المناسبة، فلا نأخذ من الحق إلاَّ الوجه المناسب لا الوجه الذي يرفع المناسبة، ثم إننا أردنا أن نعمّم الجواب بتعميم قوله تعالىٰ: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ من الأحوال ولا يخلو موجود عن حال بل ما تخلو عين موجودة ولا معدومة أن تكون على حال وجودي أو عدميّ في حال وجودها أو عدمها، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾.

فإن قلت: قوله: ﴿كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] لفظة معناها وجوديّ فالمعنى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ من الوجود فنقول صحيح، ولكن من أيّ الوجوه من الوجود من حيث العلم بكم وما ثم إلاَّ هو أو من حيث الوجود الذي يتصف به عين الممكنات من حيث ما هي مظاهر، فحالة منها توصف العين الممكنة بها بالعدم ولهذا نقول: كان هذا معدوماً ووجد، والكون يناقض العدم مع صحة هذا القول، فيعلم عند ذلك أن قوله تعالىٰ:

﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أي على أيّ حالة تكونون من الوصف بالعدم أو الوجود، ثم نقول: أنه مع الخلق بإعطاء كل شيء خلقاً من كونهم خلقاً لا غير فينجرّ معه أنه معهم بكل ما تطلبه ذواتهم من لوازمها، ومعيته مع الأصفياء بما يعطيه الصفاء من التجلي، فإنه قد وصفهم: أنهم أصفياء، فما هو معهم بالصفاء والاصطفاء وإنما هو معهم بما يطلبه الاصطفاء وقدم الخلق فإنه مقدم بالرتبة، فإن الاصطفاء لا يكون إلاّ بعد الخلق، بل هم من الخلق عند الحق بمنزلة الصفي الذي يأخذه الإمام من المغنم قبل القسمة، فذلك هو نصيب الحق من الخلق وما بقي فله ولهم، وأما معيته مع الأنبياء فبتأييد الدعوى لا بالحفظ والعصمة إلاّ أن أخبر بذلك في حق نبيّ معين، فإن الله قد عرّفنا أن الأنبياء قتلتهم أممهم وما عصموا ولا حفظوا، فلا بدّ أن يكون ظرف المعية التأييد في الدعوى لإقامة الحجة على الأمم فإنه قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] ولا يكون نبياً حتى يقدمه الإصطفاء فلهذا أخّر النبوّة عن الاصطفاء، فإنه ما كل خلق مصطفى وما كل مصطفى نبيّ، ومعيته مع الخاصة بالمحادثة برفع الوسائط بعد تبليغ ما أمر بتبليغه مثل قوله: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ من أيام التبليغ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [سورة النصر: ٢ ـ ٣] أي يرجع إليك الرجوع الخاص الذي يربي على مقام التبليغ، فيجتمع هذا كله في الرسول وهو شخص واحد وفي كل مقام أشخاص، فيكون الشخص الواحد خلقاً مصطفى نبياً خاصاً، وأما معية الذات فلا تنقال، فإن الذات مجهولة فلا تعلم نسبة المعية إليها فهو مع الخلق بالعلم واللطف، ومع الأصفياء بالتولي، ومع الأنبياء بالتأييد، ومع الخاصة بالمباسطة والأنس.

السؤال الثامن والعشرون ومائة: ما ذكره الذي يقول: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾؟[سورة العنكبوت: الآية ٤٥] الجواب: ذكره نفسه لنفسه بنفسه أكبر من ذكره نفسه في المظهر لنفسه. اعلم أن الله ما قال هذا الذكر ووصفه بهذه الصفة من الكبرياء إلاّ في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] إنباء عن حقيقة لأجل ما فيها من الإحرام وهو المنع من التصرّف في شيء ممّا يغاير كون فاعله مصلياً، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر ولا تنهى عن غيرها من الطاعات فيها ممّا لا يخرجك فعله عن أن تكون مصلياً شرعاً فيكون قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ فيها أكبر أعمالها وأكبر أحوالها، إذ الصلاة تشتمل على أقوال وأفعال، فتحريك اللسان بالذكر من المصلي من جملة أفعال الصلاة، والقول المسموع من هذا التحريك هو من أقوال الصلاة وليس في أقوالها شيء يخرج عن ذكر الله في حال قيام وركوع ورفع وخفض إلاّ ما يقع به التلفظ من ذكر نفسك بحرف ضمير أو ذكر صفة تسأله أن يعطيكها مثل: اهدني وارزقني، ولكن هو ذكر شرعاً لله فإن الله سمّى القرآن ذكراً وفيه أسماء الشياطين والمغضوب عليهم والمتلفظ به يسمّى ذكر الله فإنه كلام الله فذكرتهم بذكر الله، وهذا ممّا يؤيد قول من قال: ليس في الوجود إلاّ الله، فالأذكار أذكار الله، ثم إن قوله تعالىٰ ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ هذه الإضافة تكون من كونه ذاكراً ومن كونه مذكوراً، فهو أكبر الذاكرين، وهو أكبر المذكورين، وذكره أكبر الأذكار التي تظهر في المظاهر، فالذكر وإن لم

يخرج عنه فإن الله قد جعل بعضه أكبر من بعض، ثم يتوجه فيه قصد آخر من أجل الاسم الله فيقول: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ بهذا الاسم الذي ينعت ولا ينعت به ويتضمن جميع الأسماء الحسنى ولا يتضمنه شيء في حكم الدلالة ﴿أَكْبَرُ﴾ من كل اسم تذكره به سبحانه من رحيم وغفور ورب وشكور وغير ذلك، فإنه لا يعطي في الدلالة ما يعطي الاسم الله لوجود الاشتراك في جميع الأسماء كلها، هذا إذا أخذنا أكبر بطريق أفعل من كذا، فإن لم نأخذها على أفعل من كذا فيكون إخباراً عن كبر الذكر من غير مفاضلة بأيّ اسم ذكر، وهو أولى بالجناب الإلهيّ، وإن كانت الوجوه كلها مقصودة في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ إنه كل وجه تحتمله كل آية في كلام الله من فرقان وتوراة وزبور وإنجيل وصحيفة عند كل عارف بذلك اللسان فإنه مقصود لله تعالىٰ في حق ذلك المتأوّل لعلمه الإحاطي سبحانه بجميع الوجوه، وبقي عليه في ذلك الكلام من حيث ما يعلمه هو، فكل متأوّل مصيب قصد الحق بتلك الكلمة، هذا هو الحق الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢] على قلب من اصطفاه الله به من عباده، فلا سبيل إلى تخطئة عالم في تأويل يحتمله اللفظ، فإن مخطئه في غاية من القصور في العلم، ولكن لا يلزمه القول به ولا العمل بذلك التأويل إلاّ في حق ذلك المتأوّل خاصة ومن قلّده.

السؤال التاسع والعشرون ومائة: قوله تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] ما هذا الذكر؟ الجواب: هذا ذكر الجزاء الوفاق. قال تعالىٰ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾[سورة النبأ: الآية ٢٦]، فذكر الله في هذا الموطن هو المصلي عن سابق ذكر العبد، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] أي يؤخّر ذكره عن ذكركم، فلا يذكركم حتى تذكروه، ولا تذكرونه حتى يوفقكم ويلهمكم ذكره، فيذكركم بذكره إياكم فتذكروه به أو بكم فيذكركم بكم وبه بالواو لا بأو فإن له الذكرين معاً، وقد يكون لبعض العلماء الذكران معاً، وقد يكون الذكر الواحد دون الآخر في حق بعض الناس، وتختلف أحوال الذاكرين منا، فمنا من يذكره في نفسه وهم على طبقات طبقة تذكره في نفسها والضمير من النفس يعود على الله من حيث الهو، وشخص يذكره في نفسه والضمير يعود على الشخص، وشخص يذكره في نفسه والضمير يعود على الله من حيث ما هو خالقها لا من حيث ما هي نفسه من كونها ظاهرة في مظهر خاص، فإذا ذكره كل شخص من هؤلاء إما بوجه واحد من هذه الوجوه أو بكل الوجوه، فإنّ الله يذكره في نفسه، وقد يكون قوله: ذكرته في نفسي عين ذكر هذا العبد ربّه في نفسه من حيث ما هو الضمير يعود على الله من نفسه من حيث ما هي نفسه عيناً لا من حيث ما هي نفسه خلقاً، فيكون عين ذكر العبد هو عين ذكر الحق كما قلنا في قوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٤] وهو عين مكرهم عين مكر الله بهم لا أنه استأنف مكراً آخر، ويؤيده أيضاً بقوله: ذكرته في نفسي يريد نفس العبد مضافة إلى الله من حيث ما هي ملك له خلقاً وإيجاداً، ويريد أيضاً ذكرته في نفسي نفس الحق لا من حيث الوجه الذي ذكره به العبد من حيث نفسه نفس الحق وهو الوجه الأوّل، فهذه أحوال ذكر النفس بالجزاء الوفاق

في كل وجه، والحالة الثانية أن يذكره في ملأ فيذكره الله في ملأ خير من ذلك الملأ، وقد يكون عين ذلك الملأ وتكون الخيرية بالحال، فحال ذلك الملأ في ذكر هذا العبد لله دون حال ذلك الملأ في ذكر الله فيهم لهذا العبد، فهو في هذه الحال خير منه في حال ذكر العبد والملأ واحد، كما تتشرف الجماعة بالملك إذا كان فيها على شرفها، إذا لم يكن الملك فيها، وعين الجماعة واحدة فهي خير منها، ولكن بشرط أن يكون كل واحد من ذلك الملأ حاله الكشف أن الله قد ذكر هذا العبد فيه وهم يسمعون ذكر الله إياه كما سمعوا ذكر هذا العبد ربه، فحينئذ يكون الشرف في الملأ الواحد يتفاضل، والوجه الآخر أن يكون الملأ مغايراً لذلك الملأ فيكون خيره على هذا الملأ، إما بكون الحق أسمعهم ذكره عبده وهو فيهم، أو يكون خيره لأمر آخر تقتضيه مرتبته عند الله إمّا نشأة أو حالاً أو علماً، وهذه أمور إن تأملتها انفتح لك منها علوم جمة من العلم الإلهيّ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

السؤال الثلاثون ومائة: ما معنى الاسم؟ الجواب: أمر يحدث عن الأثر، أو أمر يكون عنه الأثر، أو منه ما يكون عنه الأثر، ومنه ما يحدث عن الأثر إذا لم ترد به المسمّى، فإن أردت به المسمّى فمعناه المسمّى كان ما كان مركباً تركيباً معنوياً أو حسّياً، أو غير مركب معنوياً أو حسّياً كلفظة رحيم أي ذات راحمة، فالمسمّى بهذه التسمية هي عين تلك النسبة الجامعة بين ذات ورحمة حتى جعل عليها من هذه النسبة اسم فاعل، وإن كانت التسمية جامدة لا يعقل منها غير الذات فليست بمركبة تركيباً معنوياً فقد تكون هذه الذات مفردة معنى وفي نفسها، وقد تكون مركبة حسّاً مثل إنسان تحته مركب حسيّ ومعنويّ، والاسم والرسم عند بعض أصحابنا نعتان يجريان في الأبد على حكم ما كان عليه أزلاً، وفرّق بين الاسم والرسم، وسيأتي ذكرهما في شرح معاني ألفاظ أهل الله من هذا الباب فإنه يطلبها.

السؤال الحادي والثلاثون ومائة: ما رأس أسمائه الذي استوجب منه جميع الأسماء؟ الجواب: الاسم الأعظم الذي لا مدلول له سوى عين الجمع وفيه: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] ولا بدّ. فإن قلت: فهو الاسم الله. قلت: لا أدري فإنه يفعل بالخاصية، وهذه اللفظة إنما تفعل بالصدق إذا كان صفة للمتلفظ بها بخلاف ذلك الاسم، ولكن الظاهر من مذهب الترمذيّ أن رأس الأسماء الذي استوجب منه جميع الأسماء إنما هو الإنسان الكبير وهو الكامل، وإذا كان هذا فهو الأولى في طريق القوم أن يشرح به رأس الأسماء، فإن آدم علمه الله جميع الأسماء كلها من ذاته ذوقاً فتجلّى له تجلّياً كلياً، فما بقي اسم في الحضرة الإلهية إلاّ ظهر له فيه، فعلم من ذاته جميع أسماء خالقه.

السؤال الثاني والثلاثون ومائة: ما الاسم الذي أبهم على الخلق إلاّ على خاصته؟ الجواب: هذا الاسم الذي استوجب منه جميع الأسماء، وإن شئت قلت: هو اسم مركب من عشرين وثلاثين بينهما أحد وأربعون حسّاً ومعنى، وقد يتركب حسّاً لا معنى من ثمانية وثمانين ومائتين وستة عدداً، فإذا جمعتها على وجه مخصوص من غير إسقاط الستة كان اسماً مركباً، وإن أسقطت الستة كان اسماً غير مركب، ولا ينبغي أن يوضح في العامة ما أبهمه

الحق على خلقه وخصّ به خاصته فإن هذا من غاية سوء الأدب، وما أظنّ الترمذيّ قصد بهذا السؤال طلب الشرح والإيضاح لمعناه، وإنما قصد اختبار المسؤول أنه إن كان من أهل الله لا يوضحه، فإن أوضحه فيكون قد تلقاه من أحد غلطاً ممّن تلقاه منه لقرينة حال وذكاء فيه، وأما أهل الله فعندهم من الأدب الإلهيّ ما يمنعهم أن يستروا ما كشف الله أو يكشفوا ما ستره الله.

السؤال الثالث والثلاثون ومائة: بما نال صاحب سليمان عليه السلام ذلك وطوي عن سليمان عليه السلام؟ الجواب: بجمعيته وتلمذته ليعرف الشيخ بما حصل عنده وبسببه وطوى عن سليمان بوجوده في محل التبديد في الوقت، فإن الحكم للوقت ووقته أنه رسول، فهو صاحب وجود مصروف العين إلى من أرسل إليه، وصاحبه في جمعيته على أمر واحد متحقق بها، فظهر بما طوى عن سليمان العمل به تعظيماً لقدر سليمان عليه السلام عند أهل بلقيس وسائر أصحابه، وما طوى عن سليمان العلم به وإنما طوى عنه الإذن في التصرّف به تنزيهاً لمقامه.

السؤال الرابع والثلاثون ومائة: ما سبب ذلك؟ الجواب: إعلام الغير بأن التلميذ التابع إذا كان أمره بهذه المثابة فما ظنك بالشيخ؟ فيبقى قدر الشيخ مجهولاً في غاية التعظيم فلو ظهر على سليمان لتوهم أن هذا غايته، ولا شك أن مشهد سليمان في ذلك الوقت والله أعلم كان مشهد أدب لا يريد أن يكون عنه شرك في التصرّف، كما قال أبو السعود: أعطيت التصرّف وتركته تظرفاً، في حكاية طويلة، والغرض للنبي إنما هو الدلالة وظهورها على يد صاحبه أتم في حقّه، إذ كان هذا التابع مصدقاً به وقائماً في خدمته بين يديه تحت أمره ونهيه، فيزيد المطلوب رغبة في هذا الرسول إذا رأى بركته قد عادت على تابعيه فيرجو هذا الداخل أن يكون له بالدخول في أمره ما كان لهذا التابع، والنفس مجبولة على الطمع وحب الرياسة والتقدم.

السؤال الخامس والثلاثون ومائة: ماذا أطلع من الاسم على حروفه أو معناه؟ الجواب: على حروفه دون معناه، فإنه لو وقف على معناه لمنعه العمل به كما منع سليمان، ألا ترى إلى قوله تعالىٰ في صاحب موسىٰ: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٥] فكانت عليه كالثوب وهو مثل الحرف على المعنى فعمل بها في غير طاعة الله فأشقاه الله، وصاحب سليمان عمل به في طاعة الله فسعد، وما وقف على معناه من الأمم الخالية سوى الرسل والأنبياء، فإنهم وقفوا على معناه وحروفه إلاّ هذه الطائفة المحمدية فإنهم جمع لبعضهم بين حروفه ومعناه، ولبعضهم أعطي معناه دون حروفه، وليس في هذه الأمة من أعطي حروفه دون معناه، وكذلك صاحب الأخدود أعطي حروفه دون معناه، فإنه تلقاه من الراهب كلمات كما ورد وهي الكلمات التي ذكرناها في السؤال الثاني والثلاثين ومائة.

السؤال السادس والثلاثون ومائة: أين باب هذا الاسم الخفيّ على الخلق من أبوابه؟ الجواب: بالمغرب. قال رسول الله ﷺ: **«لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ المَغْرِبِ ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ»** وعليه تطلع الشمس من المغرب عندما يسدّ باب التوبة ويغلق فلا ينفع نفساً

إيمانها ولا ما تكتسبه من خير بذلك الإيمان، والمؤمن لا يغلق له باب، وكيف يغلق دونه وقد جازه وتركه وراءه، فمن عناية المؤمن غلقه حتى لا يخرج عليه بعدما دخل منه فلا يرتدّ مؤمن بعد ذلك فإنه ليس له باب يخرج منه، فغلق باب التوبة رحمة بالمؤمن ووبالاً بالكافر، وجعله الله بالمغرب لأنه محل الأسرار والكتم، وهو سر لا يعلمه إلاّ أهل الاختصاص، فلو كان هذا الباب بالشرق لكان ظاهراً عند العام والخاص ووقع به الفساد في العموم وهذا يناقض ما وجد له العالم من الصلاح، وقد جاء في جانب الشرق من الذمّ ما جاء، والشرق بمنزلة الخروج إلى الدنيا وهي دار الإبتلاء للعام والخاص، والغرب بمنزلة الخروج من الدنيا والدخول إلى الآخرة، فإنه انتقال إلى دار التمييز والبيان ومعرفة المنازل والمراتب على ما هي عند الله تعالىٰ، فيعلم السعيد سعادته والشقي شقاوته، فيظهر عند ذلك عين هذا الاسم الخفي لجميع الخلق، ويحرمون الدعاء به لشغلهم بما هم فيه من الهول، فيعظم في قلوبهم شدّة الهول بحيث أن يظنوا أنه ما ثم دعاء يردّ ما هم فيه ولو وفقوا للدعاء به لسعدوا، فسبحان القدير على ما يشاء.

السؤال السابع والثلاثون ومائة: ما كسوته؟ الجواب: حال الداعي به المعنويّ وكسوته على الحقيقة حروفه إذا أخذت الاسم من طريق معناه، فإن أخذته من طريق حروفه فحينئذ يكون كسوته حال الداعي به، فإذا أقيم في شاهد الحسّ في التخيّل أو الخيال فيكون كسوته الثوب السابغ الأصفر يلتوي فيه فإنه غير مخيط، ألا ترى بقرة بني إسرائيل﴿ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٩] ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ [البقرة: ٧١] فحيي بها الميت وهو أعظم الآثار إحياء الموات حياة الإيمان وحياة العلم وحياة الحسّ، وأعظم أثره في زمان الشتاء إذا وقع فيه شهر صفر في أوّل الشتاء إلى انتصافه فهو أسرع أثراً منه في باقي الأزمنة وباقي الشهور، ويكون الثوب صوفاً أو شعراً أو وبراً لا غير ذلك والريش منه، وإنما قلنا هذا لأنه قد يظهر لقوم بنوع من أنواع ما ذكرناه من هذه الأنواع التي تلبس، فلو ظهر في نوع واحد لعرّفناكم به واقتصرنا عليه. وقال بعضهم: رأيت كسوته جلداً أصفر قد صفر بورس أو زعفران، وهكذا رآه الحسين بن منصور ولكن لم يكن سابغ الثوب وإنما ستر بعض أعضائه ستر منه قدر ستة أذرع لا غير.

السؤال الثامن والثلاثون ومائة: ما حروفه؟ الجواب: الألف ولام الألف والواو والزاي والراء والدال والذال، فإذا ركبت التركيب الخاص الذي تقوم به نشأة هذا الاسم ظهر عينه ولونه وطوله وعرضه وقدره وانفعل عنه جميع ما توجهه عليه، هكذا هو عند الطائفة في الواقعة، ولا تنقل عني أني أعلمه لما ذكرت فيه هذا لا يلزم، فقد ننقل من الواقعة والكشف جميع ما سطرته، ولا يلزم أن أكون به عالماً، وإنما قلت هذا لئلا يتوهم أني ما ذكرته إلاّ عن علم به، ولكن مطلبي من الحق العبودة المحضة التي لا تشوبها ربوبية لا حسّاً ولا معنى.

السؤال التاسع والثلاثون ومائة: والحروف المقطعة مفتاح كل اسم من أسمائه فأين هذه الأسماء؟ وإنما هي ثمانية وعشرون حرفاً فأين هذه الحروف؟ الجواب: لأنه يفتح الحرف الواحد من الأسماء الإلهية أسماء كثيرة لا يحصرها عدد، وذلك لأنه إنما يفتح أسماء الأسماء

التي تتركب من الحروف بحكم الاصطلاح، وقد ثبت أن الحق متكلم فقد سمّى نفسه من كونه متكلماً بالكلام الذي نسب إليه ويليق به، وهذه الأسماء التي تظهر عن الحروف أسماء تلك الأسماء، فلو أن الحرف الواحد يفتح اسماً واحداً لكان كما قلت من التعجب، ألا ترى في الأسماء المحفوظة في العموم كالملك والمصوّر والمان والمنان والمقتدر والمحيي والمميت والمقيت والمالك والمليك والمقدّم والمؤخر والمؤمن والمهيمن والمتكبر والمغني والمعز والمذل، فهذا حرف واحد افتتحنا به كذا كذا اسماً إلهياً مع أنا لم نستوف، ثم لتعلم أنّ كل اسم في العالم هو اسمه لا اسم غيره، فإنه اسم الظاهر في المظهر وليس في وسع المخلوقين حصرها ولا إحصاؤها وجميعها مفاتيحها هذه الحروف على قلتها، ولك في اختلاف اللغات أعظم شاهد وأسدّ دليل إن فهمت مقصود القوم.

وأمّا قوله: فأين هذه الحروف؟ فقل له في عوارض الأنفاس تعرض للنفس الرحمانيّ ما يحدث عين الحرف، ويعرض للحروف ما يحدث الأسماء، فأينية الأسماء في الحروف، وأينية الحروف الأنفاس، وأينية الأنفاس الأرواح، وأينية الأرواح القلوب، وأينية القلوب عندية مقلبها، وأسماء الحق لا تتعدّد ولا تتكثر إلاّ في المظاهر، وأما بالنسبة إليه فلا يحكم عليها العدد ولا أصله الذي هو الواحد، فأسماؤه من حيث هو لا تتصف بالوحدة ولا بالكثرة، فسؤال الإمام إنما هو عن الأسماء التي يقع بها التلفّظ في عالم الحروف اللفظية، ويقع بها الرقم في عالم الكتابة، فتارة يراعى الرقم وتارة يراعى اللفظ، وأما غيره فيجعل حروفاً ثوالث وهي الحروف الفكرية وهي ما يضبطه الخيال من سماع المتلفظ بها أو إبصار الكاتب إياها.

السؤال الأربعون ومائة: كيف صار الألف مبتدأ الحروف؟ الجواب: لأنّ له الحركة المستقيمة وعن القيومية يقوم كل شيء. فإن قلت: إنما يقع التكوين بالحركة الأفقية فإنه لا يقع إلاّ بمرض والمرض ميل، ألا ترى إلى القائلين بحكم العقل كيف جعلوا موجد العالم علة العلل؟ والعلة تناقض القيومية. فلنقل إنما وقع الوجود بقيومية العلة فإنه لكل أمر قيومية فافهم، فقيومية الألوهية تطلب المألوه بلا شك. ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٣] وما ثم ما يناسب الألف إلاّ الحرف المركب وهو اللام فإنه مركب من ألف ونون، فلما تركب حدث اللام الرقميّ لا اللفظيّ، فلام اللفظ صورته في الرقم مركب من حرفين: فيفعل بالتلفظ فعل الواحد وهو عينه، ويفعل بالنقش فعل الألف والنون، وهكذا كل حرف مركب، ويفعل فعل الراء والزاي ببعد كما يفعله النون بقرب لأنّ النون حرف مركب من زاي وراء وأريد حروف الرقم فابتدؤوا بالألف في الرقم لما ذكرناه، وانفتحت فيه أشكال الحروف كلها لأنّ أصل الأشكال الخط، كما أن أصل الخط النقطة والخط هو الألف، فالحروف منه تتركب وإليه تنحل فهو أصلها.

وأمّا الحروف اللفظية فالألف يحدثها بلا شك كما يظهر الألف عن الحرف إذا أشبعته الفتح فإنه يدل على الألف، كما أنك إذا أشبعت الحرف الضمّ دلّ على ألف الميل وهو واو

العلة، وإنما ظهر عن الرفع المشبّع لأنّ العلة أرفع من المعلول، فما ظهر عن الحرف إلاّ بصفة الرفع البالغ ليعلم أنه وإن مال فإنه ما مال إلاّ عن رفعة رحمة بك ليوجدك مظهراً لخالقك، ألا تراه في حرف الإيجاد كيف جاء برفع الكاف المشبع فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فجاء بالكاف مشبعة الضم لتدل على الواو. فإن قلت: وأين الواو؟ قلنا: غيب في السكون الذي هو الثبوت، فإنّ الحق يستحيل عليه الحركة، فلما التقى سكون الواو من «كون» وسكون النون اتصفت الواو بالغيب فلم تظهر ولزمت الهوية، ولهذا هو الهو غيب وضمير عن غائب، وبقيت النون ساكنة تدل على سكون الواو وظهرت النون على صورة الواو في السكون وهو الثبوت كقوله: «**خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**» فأثبت الأسماء بوجود النون في ﴿كُن﴾ أي ما ثم كائن حادث إلاّ عند سبب، فلا يرفع الأسباب إلاّ جاهل بالوضع الإلهيّ، ولا يثبت الأسباب إلاّ عالم كبير أديب في العلم الإلهيّ، فعن الحروف اللفظية يوجد عالم الأرواح، وعن الحروف الرقمية يوجد عالم الحسّ، وعن الحروف الفكرية يوجد عالم العقل في الخيال، ومن كل صنف من هذه الحروف تتركب أسماء الأسماء.

السؤال الحادي والأربعون ومائة: كيف كرر الألف واللام في آخره؟ الجواب: هذا يختص بحروف الرقم المناسب المزدوج وهو نظم: ا ب ت ث، لا حروف وضع أبجد، فإنّ لام ألف ما ظهر إلاّ في نظم: ا ب ت ث، فإنه ناسب بين الحروف لتناسبها في الصورة بخلاف وضع أبجد، وذلك لأنّ اللام كسوة الألف وجنته فإنه مستور فيها بالنون الملصقة به الذي تمّم وجود اللام وجعلها في آخر النظم ليس بعدها إلاّ الياء لأنه ظهر في عالم التركيب وهو آخر العوالم وجاء بعده بالياء فإنه لها السفل، إذ كانت إنما حدثت من إشباع حركة الخفض والخفض سفل والسفل آخر المراتب، فكان تنبيهاً أجري على خاطر الواضع لهذه الحروف وربما لم يقصد ذلك، ونحن إنما ننظر في الأشياء من حيث أنّ الباري واضعها لا من حيث يد من ظهرت منه، فلا بدّ من القصد في ذلك والتخصيص: فشرحنا لكون الحق هو الواضع لها لا غيره.

ولما كانت الأولية للألف انبغى أن تكون له الآخرية، وكماله الظاهر في أوّل الحروف انبغى أن يكون له الباطن في آخر الحروف ليجمع بين ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] والياء هي ألف الميل في عالم الحسّ الذي هو العالم الأسفل لحدوثها عن الخفض، لتدل على الألف التي في لام ألف، ولتدل على السبب الذي في شكل اللام إذا انفردت، فإذا عانقت الألف صغرت النون في الالتواء، وقابل الألف التي في اللام الألف التي في لام الألف حتى لا يكون يقابله إلاّ نفسه، فقابل الألف الألف وربطت النون بينهما وهو ألف سرّ العبد الذي تألف بربه وهو من باب الامتنان الإلهيّ، قال الله تعالىٰ ممتناً على عبده: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٣] ولم يقل بين قلوبهم ولا بينها فجاء بهاء الهو في بينهم وجعل ميم الجمع ستراً عليه ليدل على ما ينسب إليه من الجمعية من حيث كثرة الأسماء له تعالىٰ، والمراد أنه سبحانه ألّف بين

قلوب المؤمنين وبينه لأنهم ما اجتمعوا على محمد ﷺ إلاّ بالله ولله، فبه تألّفوا لتألف محمد ﷺ به فافهم لماذا كرّر لام الألف في نظم تناسب الحروف وهو نظم: ا ب ت ث.

السؤال الثاني والأربعون ومائة: من أيّ حساب صار عددها ثمانية وعشرين حرفاً؟ الجواب: لأنها إنما ظهرت أعيان الحروف في العالم العنصريّ وفي عنصر الهواء سلطانها، كما أن التراب والماء للأجسام الحيوانية، كما أن عنصر النار للجان والعالم العنصريّ إنما نسب إلى العناصر لأنها السبب الأقرب، والعناصر إنما حدثت عن حركات الأفلاك، وحركات الأفلاك إنما قطعت ثمانياً وعشرين منزلة في الفلك الذي قطعت فيه، والعالم إنما صدر من نفس الرحمن لأنه نفس به عن الأسماء لما كانت تجده من عدم تأثيرها، والنفس مناسب لعنصر الهواء فتشكلت المنازل الفلكية في الهواء العنصريّ لما ظهرت العناصر، فلما جاء حكمه فيما تولد عن العناصر من المولدات ظهرت في أكمل نشأة المولدات وهو الإنسان صور الحروف ثمانية وعشرين حرفاً عن ثمان وعشرين منزلة، وألحق فيها لام الألف خطاً لينبّه على القاطع في هذه المنازل وهي الكواكب السيارة، فكما عمّت المنازل بقوّتها وتقطع فيها إيجاد الكائنات والحوادث، كذلك أوجدت هذه الحروف جميع الكلمات التي لا نهاية لها دنيا وآخرة، فقد بان لك على التقريب لم كانت ثمانية وعشرين حرفاً، فمن تمكن له أن يضع قلماً على شكل المنازل في طالع مخصوص وتكون الدراري في عقدة الرأس فإنه يكون عن ذلك القلم متى كتب به عجائب في سرعة ظهور ما يكتب له في أيّ شيء كان حتى لو كتب به كاتب دعاء أجيب ذلك الدعاء ولم يتوقف.

السؤال الثالث والأربعون ومائة: ما قوله: «خلق آدم على صورته»؟ الجواب: اعلم أنه كل ما يتصوّره المتصوّر فهو عينه لا غيره فإنه ليس بخارج عنه، ولا بدّ للعالم أن يكون متصوّراً للحق على ما يظهر عينه، والإنسان الذي هو آدم عبارة عن مجموع العالم فإنه الإنسان الصغير وهو المختصر من العالم الكبير، والعالم ما في قوّة إنسان حصره في الإدراك لكبره وعظمه، والإنسان صغير الحجم يحيط به الإدراك من حيث صورته وتشريحه، وبما يحمله من القوىٰ الروحانية، فرتب الله فيه جميع ما خرج عنه ممّا سوى الله، فارتبطت بكل جزء منه حقيقة الاسم الإلهي التي أبرزته وظهر عنها، فارتبطت به الأسماء الإلهية كلها لم يشذ عنه منها شيء، فخرج آدم على صورة الاسم الله، إذ كان هذا الاسم يتضمن جميع الأسماء الإلهية، كذلك الإنسان وإن صغر جرمه فإنه يتضمن جميع المعاني ولو كان أصغر ممّا هو، فإنه لا يزول عنه اسم الإنسان، كما جوّزوا دخول الجمل في سم الخياط، وأن ذلك ليس من قبيل المحال، لأن الصغر والكبر العارضين في الشخص لا يبطلان حقيقته ولا يخرجانه عنها، والقدرة صالحة أن تخلق جملاً يكون من الصغر بحيث لا يضيق عنه سم الخياط، فكان في ذلك رجاء لهم أن يدخلوا جنة النعيم، كذلك الإنسان وإن صغر جرمه عن جرم العالم فإنه يجمع جميع حقائق العالم الكبير ولهذا يسمّي العقلاء العالم إنساناً كبيراً، ولم يبق في الإمكان معنى إلاّ وقد ظهر في العالم، فقد ظهر في مختصره والعلم تصوّر المعلوم، والعلم من صفات العالم الذاتية فعلمه

صورته وعليها خلق آدم، فآدم خلقه الله على صورته، وهذا المعنى لا يبطل لو عاد الضمير على آدم، وتكون الصورة صورة آدم علماً والصورة الآدمية حسّاً مطابقة للصورة، ولا يقدر يتصوّر هذا إلاّ بضرب من الخيال يحدثه التخيّل. وأما نحن وأمثالنا فنعلمه من غير تصوّر، ولكن لما جاء في الحديث ذكر الصورة علمنا أن الله إنما أراد خلقه على الصورة من حيث إنه يتصوّر لا من حيث ما يعلمه من غير تصوّر، فاعتبر الله تعالىٰ في هذه العبارة التخيّل، وإذا أدخل سبحانه نفسه في التخيل فما ظنك بمن سوى الحق من العالم، صحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال لجبريل: **«الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»** فهذا تنزيل خيالي من أجل كاف التشبيه، وانظر من كان السائل ومن كان المسؤول ومرتبتهما من العلم بالله، ولم يكن بأيدينا إلاّ الأخبار الواردة بالنزول، والمعية، واليدين، واليد، والعين، والأعين، والرجل، والضحك، وغير ذلك مما ينسب الحق إلى نفسه، وهذه صورة آدم قد فصّلها في الأخبار وجمعها في قوله: **«خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ»** فالإنسان الكامل ينظر بعين الله وهو قوله: **«كُنْتُ بَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ»** الحديث، كذلك يتبشبش بتبشبش الله، ويضحك بضحك الله، ويفرح بفرح الله، ويغضب بغضب الله، وينسى بنسيان الله، قال تعالىٰ: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٧] وينسب جميع ما ذكرناه إلى كل ذات بحسب ما تقتضيه مع علمنا بحقيقة كل صفة، فإن كانت الذات المنسوب إليها معلومة علم صورة نسبة هذا المنسوب، وإن جهلت الذات المنسوب إليها كنت بنسبة هذا المنسوب أجهل، فهذا الوجه الذي يليق بجواب سؤال هذا السيد، فلو سأل مثل هذا السؤال فيلسوف إسلاميّ أجبناه بأن الضمير يعود على آدم، أي أنه لم ينتقل في أطوار الخلقة انتقال النطفة من ماء إلى إنسان خلقاً بعد خلق بل خلقه الله كما ظهر، ولم ينتقل أيضاً من طفولة إلى صبي إلى شباب إلى كهولة، ولا انتقل من صغر جرم إلى كبره كما ينتقل الصغير من الذرية، بهذا يجاب مثل هذا السائل، فلكل سائل جواب يليق به.

السؤال الرابع والأربعون ومائة: ليتمنين اثنا عشر نبياً أن يكونوا من أمتي؟ الجواب: لما كانت أمته خير الأمم وعندها زيادة على أنبياء الأمم باتباعهم سنن هدي رسول الله ﷺ فإنهم ما اتبعوه لأنهم تقدّموه، وليس خيراً من كل أمة إلاّ نبيها، ونحن خير الأمم، فنحن والأنبياء في هذه الخيرية في سلك واحد منخرطين، لأنه ما ثم مرتبة بين النبيّ وأمته ومحمد خير من أمته كما كان كل نبيّ خيراً من أمته، فهو ﷺ خير الأنبياء، فهؤلاء الاثنا عشر نبياً ولدوا ليلاً وصاموا إلى أن ماتوا وما أفطروا نهاراً مع طول أعمارهم سؤالاً ورغبة ورجاء أن يكونوا من أمّة محمد ﷺ، فلهم ما تمنّوا وهم مع من أحبوه يوم القيامة، فيأتي النبيّ يوم القيامة وفي أمّته النبيّ والاثنان والثلاثة ويأتي محمد ﷺ وفي أمّته أنبياء أتباع وأنبياء أتباع وأنبياء ما هم أنبياء أتباع فيتبع محمداً ﷺ ثلاثة أصناف من الأنبياء، وهذه مسألة أعرض عن ذكرها أصحابنا لما فيها مما يتطرق إلى الأوهام الضعيفة من الأشكال، وجعلهم الله اثني عشر كما جعل الفلك الأقصى اثني عشر برجاً، كل برج منها طالع نبيّ من هؤلاء الاثني عشر، لتكون جميع المراتب تتمنى أن تكون من أمّة محمد ﷺ من الاسم الظاهر ليجمعوا بينه وبين ما حصل لهم

من اسمه الباطن، إذ كان كل شرع بعثوا به من شرعه عليه السلام من اسمه الباطن إذ كان نبياً وآدم بين الماء والطين، فقوله تعالىٰ له: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠] وما قال بهم إذ كان هداهم هداك الذي سرى إليهم في الباطن من حقيقتك، فمعناه من حيث العلم إذا اهتديت بهداهم فهو اهتداؤك بهديك لأن الأولية لك باطناً والآخرية لك ظاهراً، والأولية لك في الآخرية ظاهراً وباطناً.

السؤال الخامس والأربعون ومائة: ما تأويل قول موسىٰ: اجعلني من أمة محمد ﷺ؟

الجواب: لما عرف موسىٰ أن الأنبياء في النسبة إلى محمد ﷺ نسبة أمته إليه، وأن نسبة أمته إليه من اسمه الظاهر والباطن، ونسبة الأنبياء إليه من اسمه الباطن، أراد موسىٰ أن يجمع الله له بين الاسمين في شرعه. ثم إنه لما علم أنه تبع ولم يشك أراد إقامة جاهه عند محمد ﷺ على غيره من الرسل، إذ كان التباهي يوم القيامة بالتكاثر بالأمم والأتباع وليس في الرسل أكثر أتباعاً من موسىٰ عليه السلام كما أخبر ﷺ في الصحيح حين رأى سواداً أعظم فسأل فقيل له: هذا موسىٰ وأمته. وقد قال ﷺ: «**إِنَّهُ سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» والسيد لا يكاثر، فإذا كان موسىٰ بدعائه من أمة محمد ﷺفي الدرجة ظاهره وباطنه مثل ما نحن زاد هو وأمته في سوادنا بلا شك، وما قال عليه السلام: «**إِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ إِلاَّ فِي أُمَمٍ لَمْ يَكُنْ لِنَبِيِّهَا مَجموعُ الاسمين اللَّذَيْنِ دَعَا اللَّهَ مُوسَىٰ أَنْ يَكُونا لَهُ**» فكل من جمع بين الاسمَين حشر معنا في أمته ﷺ فيباهي موسىٰ بأمته سائر الأنبياء الذين حشروا معنا، فيكونون معه بمنزلة الأمراء المقدمين على العساكر، فأكبرهم أميراً أكثرهم جيشاً، وأكثرهم جيشاً أعظمهم قدراً وحرمة عند رسول الله ﷺ. ولهذا قال الترمذيّ: أنه يكون في أمّة محمد ﷺ من هو أفضل من أبي بكر الصديق عندما يرى أنه أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ من المسلمين، فإنه معلوم أن عيسىٰ عليه السلام أفضل من أبي بكر وهو من أمة محمد ﷺ ومتبعيه، وإنما ذكرناه لكون الخصم يعلم أنه لا بدّ أن ينزل في هذه الأمة في آخر الزمان ويحكم بسنة محمد ﷺ مثل ما حكم الخلفاء المهديون الراشدون، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويدخل بدخوله من أهل الكتاب في الإسلام خلق كثير أيضاً.

السؤال السادس والأربعون ومائة: إن لله عباداً ليسوا بأنبياء يغبطهم النبيون بمقاماتهم وقربهم إلى الله تعالىٰ.

الجواب: يريد ليسوا بأنبياء تشريع لكنهم أنبياء علم وسلوك اهتدوا فيه بهدي أنبياء التشريع، وقد ذكرنا مقامهم ومعنى النبوّة وتفاصيلها في هذا الباب وفي غيره من هذا الكتاب، غير أنهم ليس لهم أتباع لوجهين: الواحد لغنائهم في دعائهم إلى الله على بصيرة عن نفوسهم فلا تعرفهم الأتباع وهم المسوّدون الوجه في الدنيا والآخرة من السؤدد عند الرسل والأنبياء والملائكة، ومن السواد لكونهم مجهولين عند الناس، فلم يكونوا في الدنيا يعرفون ولا في الآخرة يطلب منهم الشفاعة، فهم أصحاب راحة عامة في ذلك اليوم. والوجه الآخر أنهم لما لم يعرفوا لم يكن لهم أتباع، فإذا كان في القيامة جاءت الأنبياء خائفة يحزنهم الفزع الأكبر

على أممهم لا على أنفسهم، وجاء غير الأنبياء خائفين يحزنهم الفزع الأكبر على أنفسهم، وجاءت هذه الطائفة مستريحة غير خائفة لا على نفوسهم ولا يحزنهم الفزع الأكبر على أممهم إذ لم يكن لهم أمم، وفيهم قال الله تعالىٰ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٣] أن يرتفع الحزن والخوف فيه عنكم في حق أنفسكم وحق الأمم، إذ لم تكن لكم أمّة ولا تعرفتم لأمة مع انتفاع الأمة بكم، ففي هذا الحال تغبطهم الأنبياء المتبوعون أولئك المهيمون في جلال الله العارفون الذين لم تفرض عليهم الدعوة إلى الله. انتهى الجزء التسعون.

(الجزء الحادي والتسعون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السؤال السابع والأربعون ومائة: ما تأويل قول بسم الله؟ **الجواب:** هو للعبد في التكوين بمنزلة كن للحق، فبه يتكوّن عن بعض الناس ما شاؤوا، قال الحلاج: بسم الله من العبد بمنزلة كن من الحق، ولكن بعض العباد له كن دون بسم الله وهم الأكابر: جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوك أَنَّهُمْ رَأَوْا شَخْصاً فَلَمْ يَعْرِفُوهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**كُنْ أَبَا ذَرٍّ!**» فَإِذا هُوَ أَبُو ذَرٍّ، وَلَمْ يَقُلْ بِسْمِ اللَّهِ فَكَانَتْ كنْ مِنه كُن الإِلٰهِيةَ، فإنه قال الله تعالىٰ فيمن أحبه حب النوافل: «كنت سمعه وبصره ولسانه الذي يتكلم به». وقد شهد الله لمحمد ﷺ بأن له نافلة بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٩] فلا بدّ أن يكون سمعه الحق وبصره الحق وكلامه الحق، ولم يشهد بها لأحد من الخلق على التعيين، فعلامة من لم تستغرق فرائضه نوافله وفضلت له نوافل أن يحبه الله تعالىٰ هذه المحبة الخاصة وجعل علامتها أن يكون الحق سمعهم وبصرهم ويدهم وجميع قواهم، ولهذا دعا رسول الله ﷺ أن يكون كله نوراً فإن الله نور السموات والأرض، ولهذا تشير الحكماء بأن الغاية المطلوبة للعبد التشبّه بالإله، وتقول فيه الصوفية التخلّق بالأسماء، فاختلفت العبارات وتوحّد المعنى، ونحن نرغب إلى الله ونضرع أن لا يحجبنا في تخلقنا بالأسماء الإلهية عن عبودتنا.

السؤال الثامن والأربعون ومائة: قوله: السلام عليك أيها النبيّ. الجواب: لما كانت الأنبياء بصفة تقتضي الاعتراض والتسليم شرع للمؤمن التسليم ومن سلم لم يطلب على العلة في كل ما جاء به النبيّ ولا في مسألة من مسائله، فإن جاء النبيّ بالعلة قبلها كما قبل المعلول، وإن لم يجيء بها سلم فقال: السلام عليك أيها النبيّ، وقد بيّنا معناها في باب الصلاة من هذا الكتاب في فصول التشهّد، وإذا قال هذا النبي فالمسلم عليه منه هو الروح.

السؤال التاسع والأربعون ومائة: قوله: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. الجواب: يريد التسليم علينا لنا إذ فينا ما يقتضيه الاعتراض منا علينا، فنلزم نفوسنا التسليم فيه لنا ولا نعترضه، ولا سيما إذا رأينا أن الحكم الذي يقتضي الاعتراض صدر من الظاهر في هذا المظهر الذي هو عيني فنسلم ولا بدّ علينا وعلى عباد الله الصالحين للاشتراك في العطف، أي

لا يصحّ هذا العطف بعباد الله الصالحين إلاّ بأن يكون بتلك الصفة الصالحة، وحينئذ يكون السلام علينا حقيقة، وقد بيّنا أيضاً هذا المعنى في باب الصلاة من هذا الكتاب في فصول التشهّد، قال تعالىٰ: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [سورة النور: الآية ٦١] فقد أمرنا بالسلام علينا لنحظى بجميع المراتب في امتثال الأمر الإلهيّ، وهذا يدلك على أن الإنسان ينبغي أن يكون في صلاته أجنبياً عن نفسه بربه حتى يصحّ له أن يسلم عليه بكلام ربه فإنه قال: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾، فهو سلام الله على عبده وأنت ترجمانه إليك.

السؤال الخمسون ومائة: أهل بيتي أمان لأمتي. الجواب: قال ﷺ: «**سلمان منا أهل البيت**» فكل عبد له صفات سيده. وأنه لما قام عبد الله فأضافه إليه صفة أي صفته العبودة واسمه محمد وأحمد وأهل القرآن هم أهل الله فإنهم موصوفون بصفة الله وهو القرآن، والقرآن أمان فإنه شفاء ورحمة، وأمته ﷺ من بعث إليهم وأهل بيته من كان موصوفاً بصفته، فسعد الطالح ببركة الصالح فدخل الكل في رحمة الله، فانظر ما تحت هذه اللفظة من الرحمة الإلهية بأمة محمد ﷺ، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] ووصف النبيّ ﷺ بالرحمة فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨] وما من أحد من الأمة إلاّ وهو مؤمن بالله، وقد بيّنا فيما تقدّم من هذا الكتاب في باب «**سلمان منا أهل البيت**» فأغنى عن الكلام في أهل البيت طلباً للاختصار، قال تعالىٰ لما وصف ووصى أزواج النبيّ ﷺ بقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [سورة الأحزاب، الآية ٣٣] ثم أعلمهم أن ذلك كله بكونهن أزواجه ﷺ حتى لا ينسبن إلى قبيح فيعود ذلك العار على بيت رسول الله ﷺ، فببركة أهل البيت وما أراد الله به من التطهير بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾تفعل الأزواج ما أوصيناهنّ به ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٣] من دنس الأقوال المنسوبة إلى الفحش وهو الرجس، فإن الرجس هو القذر، فكان أهل البيت أماناً لأزواج رسول الله ﷺ من الوقوع في المخالفات التي يعود عارها على أهل البيت، فكذلك أمّة محمد ﷺ لو خلدت في النار لعاد العار والقدح في منصب النبيّ ﷺ، ولهذا يقول أهل النار: ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ [سورة ص: الآية ٦٢] وهو من دخل النار من أمّة محمد ﷺ التي بعث إليها في مشارق الأرض ومغاربها.

فكما طهر الله بيت النبوّة في الدنيا بما ذكره ممّا يليق بالدنيا، كذلك الذي يليق بالآخرة إنما هو الخروج من النار، فلا يبقى في النار موحد ممّن بعث إليه رسول الله ﷺ، بل ولا أحد ممّن بعث إليه يبقى شقياً، ولو بقي في النار فإنها ترجع عليه برداً وسلاماً من بركة أهل البيت في الآخرة، فما أعظم بركة أهل البيت، فإنه من حين بعث رسول الله ﷺ انطلق على جميع من في الأرض من الناس أمّة محمد ﷺ إلى يوم القيامة، فالمؤمنون به منهم يحشرون معه، وغير المؤمنين به يحشرون إليه، وقد أعلم أنه ما أرسل﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [سورة

الأنبياء: الآية ١٠٧]، ولم يقل للمؤمنين خاصة، وقد قيل له لما دعا في الصلاة على رعل وذكوان وعصية «ما بعثك الله سباباً ولا لعاناً» أي طرّاداً أي لا تطرد عن رحمتي من بعثتك إليه وإن كان كافراً وإنما بعثتك رحمة وهو قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً﴾ فإذا حشروا إليه وهم أمّته وهو بهذه المثابة من الرحمة التي فطر عليها والرحمة التي بعث بها فيرحم منهم من يقتضي ذلك الموطن أن يرحم فإنه حكيم، والذي لا يقتضي ذلك الموطن أن يرحمه يقول فيه سحقاً سحقاً أدباً مع الله حتى يتجلى الحق في صفة غير تلك الصفة مما يقتضي الإسعاف في الجميع، فعند ذلك تظهر بركته ورحمته ﷺ فيمن بعث إليهم بما يرحمهم الله به وينقلهم من النار إلى الجنان، ومن حال الشقاء إلى حال السعادة، وإن كانوا مخلدين في النار فإن الحكم يقضي بحكم الموطن، كرجل مقرّب عند مليك رأى الملك في حال غضب على عبد من عبيده فلا ينبغي له في الأدب أن يشفع فيه في تلك الحال، ولكن ينبغي له أن يقول: أزيلوه من بين يدي الملك واجعلوه في الحبس وقيدوه فإنه لا يصلح لشيء من الخير هذا العبد الآبق الكافر نعمة سيده كل ذلك بمرأى من سيده، فإذا تجلى ذلك السيد في حال بسط ورضى وزال ذلك العبد إلى السجن والقيد وبعد عن الرحمة وإن كان في رحمة حينئذ يليق بهذا المقرّب أن يقول للسيد: يا مولانا فلان على كل حال هو عبدك وماله راحم سواك وإلى من يلجأ إن طردته؟ ومن يوسع عليه إن ضيقت عليه؟ وهو محسوب عليك، وفي هذا من العار بالحضرة أن يقال فيه أنه لم يحترم سيده إذا رُئي معاقباً، والحضرة أجلّ من أن يقال عنها إنها لم تحترم، فإذا عفوت عنه وألحقته بالسعداء استتر الأمر، وأنا يا مولاي أغار أن ينسب إلى هذه الحضرة ما يشينها، ومثل هذا الكلام مع البسط الذي هو عليه السيد واقتضى الموضع الشفاعة فيه فيأمر السيد بتبديل حال الشقاء عنه بحال السعادة وأن يخلع عليه خلع الرضى، وإن بقي محبوساً فيصير له ذلك الدار والمنزل ملكاً ويهبه له ربه ملكاً ويرجع عذابه نعيماً وهو أبلغ في القدرة، هذا إن كانت تلك الدار سكناه، أو يأمر بإخراجه إلى منازل السعداء، فهكذا الناس يوم القيامة في بركة أهل البيت ممن بعث إليه ﷺ، فما أسعد هذه الأمّة، فإن اعتبر الله البيت اعتبار الباطن إذ كان كل شرع متقدّم شرع محمد ﷺ بمنزلة طلوع الفجر إلى حين طلوع الشمس فكان ذلك الضوء وتزايده من الشمس، فتكون أمّة محمد ﷺ من آدم إلى آخر إنسان يوجد، فيكون الكل من أمّة محمد ﷺ فينال الكل بركة أهل البيت فيسعد الجميع، ألا تراه يقول يوم القيامة: «**أنا سيد الناس**» فلم يخص ولم يقل: أنا سيد أمتي، ثم إنه ما ذكر بعد هذه اللفظة إلاّ حديث الشفاعة فقال: «**أتدرون بما ذاك؟**» وذكر حديث الشفاعة يوم القيامة وهو معنى ما أشرنا إليه آنفاً، فإن فهمت ما أومأنا إليه فافعل ما شئت فقد غفر لك إنه واسع المغفرة.

السؤال الحادي والخمسون ومائة: قوله: آل محمد. الجواب: قال رسول الله ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ آلٌ وَعدَّةٌ وَآلِي وَعدَّتِي المُؤْمِنُ**» ومن أسمائه تعالى المؤمن وهو العدّة لكل شدّة، والآل يعظم الأشخاص فعظم الشخص في السراب يسمى الآل، فآل محمد ﷺ هم العظماء بمحمد، ومحمد ﷺ مثل السراب يعظم من يكون فيه، وأنت تحسبه محمداً العظيم الشأن، كما تحسب

السراب ماء وهو ماء في رأي العين، فإذا جئت محمداً ﷺ لم تجد محمداً ووجدت الله في صورة محمدية ورأيته برؤية محمدية، كما أنك إذا جئت إلى السراب لتجده كما أعطاك النظر فلم تجده في شيئيته ما أعطاك النظر ووجدت الله عنده أي عرفت أن معرفتك بالله مثل معرفتك بالسراب أنه ماء فإذا به ليس ماء وتراه العين ماء، فكذلك إذا قلت عرفت الله وتحققت بالمعرفة عرفت أنك ما عرفت الله فالعجز عن معرفته هي المعرفة به فما حصل بيدك إلاَّ أنه لا يتحصل لأحد من خلقه، وكل من استند إلى الله عظم في القلوب وعند العارفين بالله وعند العامّة، كما أنه من كان في السراب عظم شخصه في رأي العين، ويسمى ذلك الشخص آلاً وهو في نفسه على خلاف ما تراه العيون من التضاؤل تحت جلال الله وعظمته، كذلك محمد يتضاءل تضاؤل السراب في جنب الله لوجود الله عنده، فهذا إذا فهمت ما قلناه معنى آل محمد.

السؤال الثاني والخمسون ومائة: أين خزائن الحجة من خزائن الكلام من خزائن علم التدبير؟ الجواب في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] بكلّ وجه، فأوّله تدبير وهي الخزائن العامّة وهو قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] وفي هذه الخزائن خزائن الكلام لأن خزائن علم التدبير تحوي على خزائن شتى منها خزائن الكلام وهي في قوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] بالكلام وفي خزائن الكلام خزائن الحجة في مقابلة المعارض، وهو الذي لا يعرف الله معرفة ذوق وهم أصحاب الأدلة العقلية فإنهم لا يقبلون ما جاءت به الشرائع من صفات الحق التي لو قالها غير النبيّ جهله العقلاء بأدلتهم وكفره المؤمنون وهو ما قال إلاَّ ما قيل له، فمتى ما لم يكن العلم ذوقاً لم يخلص خاطر سامعه من الإنكار بقلبه من حيث عقله، ثم خزائن الحجة خصوص في خزائن الكلام وهو القول المعجز وهو قول الحق والصدق، وكذا رأيته في الواقعة مثل القرآن فهو الحجة من الكلام ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [سورة يونس: الآية ٣٨] ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٨] لأنه أتى من خزائن الحجة وسائر الكتب والصحف من خزائن الكلام، وسائر المخلوقات من خزائن علم التدبير.

السؤال الثالث والخمسون ومائة: أين خزائن علم الله من خزائن علم البدء؟ الجواب في المساوقة الوجودية لأن الله لم يزل عالماً بأنه الإله، وأن الممكن مألوه، وأن العدم للممكن نعت أزلي، وأنه لم يزل مظهراً للحق، فخزانة علم الله من علم البدء هو معرفة مرتبة الاسم الله من الاسم المبدىء، كما يقال: أين خزانة علم المبدىء من علم المعيد، فإن الظرفية لا تخلو إما أن تكون مكانية أو زمانية، ولا مكان ولا زمان فإنهما هما اللذان يعطيان المقدار، وأين كذا من كذا يطلب المقدار، فغاية أن يقال في المرتبة الأولى التي لا تقبل الثاني وهي مرتبة الواجب الوجود الذاتي كما نقول في الممكن: إنه في مرتبة الوجوب الإمكاني الذاتيّ، والعلم بهذا هو علم سرّ السرّ وهو الأخفى، وهو العلم الذي انفرد به الحق دون ما سواه، ولا يعلم هذا إلاَّ بالتحلي بالحاء المهملة. فإن قلت: وما التحلي؟ قلنا: الاتصاف بالأخلاق الإلهية المعبر عنها في الطريق بالتخلق بالأسماء، وعندنا التحلي ظهور أوصاف العبودة دائماً

مع وجود التخلق بالأسماء، فإن غاب عن هذا التحلي كان التخلق بالأسماء عليه وبالاً، قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [سورة غافر: الآية ٣٥] وتحلي العبد بأوصاف العبودة هو من تخلقه بالأخلاق الإلهية﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:١٠٣]. فلو عرفوا معنى ما ورد في القرآن والسنة من وصف الحق سبحانه نفسه بما لا يقبله العقل إلاّ بالتأويل الأنزه ما نفروا من ذلك إذا سمعوه من أمثالنا، فإن العبودة أعني معقولها إن كان أمراً وجودياً فهو عينه، فإن الوجود له وإنما الحق لما كانت أعيان الممكنات مظاهره عظم على العقول أن تنسب إلى الله ما نسبه لنفسه، فلما ظهر المقام الذي وراء طور العقل بالنبوّة وعملت الطائفة عليه بالإيمان أعطاهم الكشف ما أحاله العقل من حيث فكره وهو في نفس الأمر ليس على ما حكم به، وهذا من خصائص التصوّف.

فإن قلت: وما التصوّف؟ قلنا: الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً وهي مكارم الأخلاق، وهو أن تعامل كل شيء بما يليق به ممّا يحمده منك ولا تقدر على هذا حتى تكون من أهل اليقظة. فإن قلت: وما اليقظة حتى أكون من أهلها؟ قلنا: اليقظة الفهم عن الله في زجره فإذا فهمت عن الله انتبهت فإن قلت: فما الانتباه؟ قلنا: هو زجر الحق عبده على طريق العناية، وهذا لا يحصل إلاّ لأهل العبودة.

فإن قلت: وما العبودة؟ قلنا: نسبة العبد إلى الله لا إلى نفسه، فإن انتسب إلى نفسه فتلك العبودية لا العبودة، فالعبودة أتم حتى لا يحكم عليه مقام السوا. فإن قلت: وما السوا؟ قلنا: بطون الحق في الخلق وبطون الخلق في الحق، وهذا لا يكون إلاّ فيمن عرف أنه مظهر للحق فيكون عند ذلك باطناً للحق وبهذا وردت الفهوانية. فإن قلت: وما الفهوانية؟ قلنا: خطاب الحق كافة في عالم المثال وهو قوله ﷺ في الإحسان: «**أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» ومن هناك تعلم الهو. فإن قلت: وما الهو؟ قلنا: الغيب الذاتي الذي لا يصحّ شهوده فليس هو ظاهراً ولا مظهراً وهو المطلوب الذي أوضحه اللسن. فإن قلت: وما اللسن؟ قلنا: ما يقع به الإفصاح الإلهيّ لآذان العارفين وهي كلمة الحضرة. فإن قلت: وما كلمة الحضرة؟ قلنا: كن ولا يقال كن إلاّ لذي رؤية لعلم من يقول له كن على الشهود. فإن قلت: وما الرؤية؟ قلنا: المشاهدة بالبصر لا بالبصيرة حيث كان وهو لأصحاب النعت. فإن قلت: وما النعت؟ قلنا: ما طلب النسب العدمية كالأوّل ولا يعرفه إلاّ عبيد الصفة. فإن قلت: وما الصفة؟ قلنا: ما طلب المعنى الوجوديّ كالعالم والعلم لأهل الحدّ. فإن قلت: وما الحدّ؟ قلنا: الفصل بينك وبينه لتعرف من أنت فتعرف أنه هو فتلزم الأدب معه وهو يوم عيدك.

فإن قلت: وما العيد؟ قلنا: ما يعود عليك في قلبك من التجلي بعود الأعمال وهو قوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَىٰ تَمَلُّوا فَطُوبَىٰ لأَهْلِ القَدَمِ**» فإن قلت: وما القدم؟ قلنا: ما ثبت للعبد في علم الحق به، قال تعالىٰ: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي سابق عناية ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سورة يونس: الآية ٢] في علم الله ويتميز ذلك في الكرسي. فإن قلت: وما الكرسي؟ قلنا: علم الأمر والنهي فإنه قد ورد في الخبر أن الكرسي موضع القدمين قدم الأمر وقدم النهي الذي قيده

العرش. فإن قلت: وما العرش؟ قلنا: مستوى الأسماء المقيدة وفيه ظهرت صورة المثل من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى الآية ١١]وهذا هو المثل الثابت. فإن قلت: وما المثل؟ قلنا: المخلوق على الصورة الإلهية الواردة في قوله ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته**» وقال تعالى فيه: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] وهو نائب الحق الظاهر بصورته ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٤] أظهره النائب ومشهد هذا النائب حجاب العزّة ليلاً يغلط في نفسه. فإن قلت: وما حجاب العزّة؟ قلنا: العمى والحيرة فإنه المانع من الوصول إلى علم الأمر على ما هو عليه في نفسه ولا يقف على حقيقة هذا الأمر إلاّ أهل المطلع.

فإن قلت: وما المطلع؟ قلنا: الناظر إلى الكون بعين الحق ومن هنالك يعلم ما هو ملك الملك. فإن قلت: وما هو ملك الملك؟ قلنا: هو الحق في مجازاة العبد على ما كان منه ممّا أمر به وما لم يؤمر به، ويختص بهذا الأمر عالم الملكوت. فإن قلت: وما عالم الملكوت؟ قلنا: عالم المعاني والغيب والارتقاء إليه من عالم الملك. فإن قلت: وما عالم الملك؟ قلنا: عالم الشهادة والحرف وبينهما عالم البرزخ. فإن قلت: وما عالم البرزخ؟ قلنا: عالم الخيال ويسميه بعض أهل الطريق عالم الجبروت وهكذا هو عندي، ويقول فيه أبو طالب صاحب القوت: عالم الجبروت هو العالم الذي أشهد العظمة وهم خواص عالم الملكوت ولهم الكمال. فإن قلت: وما الكمال؟ قلنا: التنزّه عن الصفات وأثارها ولا يعرفها إلاّ الساكن بأرين. فإن قلت: وما أرين؟ قلنا: عبارة عن الاعتدال في قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فإن أرين موضع خط اعتدال الليل والنهار فاستعاروه، وقد ذكره منهم عبد المنعم بن حسان الجلباني في مختصره غاية النجاة له ولقيته وسألته عن ذلك فقال فيه ما شرحناه به، وصاحب هذا المقام هو صاحب الرداء. فإن قلت: وما الرداء؟ قلنا: الظهور بصفات الحق في الكون. فإن قلت: وما الكون؟ قلنا: كل أمر وجودي وهو خلاف الباطل. فإن قلت: وما يريد أهل الله بالباطل؟ قلنا: العدم ويقابل الباطل الحق. فإن قلت: وما الحق عندهم؟ قلنا: ما وجب على العبد القيام به من جانب الله وما أوجبه الرب للعباد على نفسه إذ كان هو العالم والعلم.

فإن قلت: وما العالم والعلم؟ قلنا: العالم من أشهده الله ألوهته وذاته ولم يظهر عليه حال والعلم حاله ولكن بشرط أن يفرّق بينه وبين المعرفة والعارف. فإن قلت: وما المعرفة والعارف؟ قلنا: من مشهده الرب لا اسم إلٰهي غيره فظهرت منه الأحوال والمعرفة حاله وهو من عالم الخلق كما أن العالم من عالم الأمر. فإن قلت: وما عالم الخلق والأمر والله يقول: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤] قلنا: عالم الأمر ما وجد عن الله لا عند سبب حادث، وعالم الخلق ما أوجده الله عند سبب حادث فالغيب فيه مستور. فإن قلت: وما الغيب في اصطلاحكم؟ قلنا: الغيب ما ستره الحق عنك منك لا منه ولهذا يشار إليه. فإن قلت: وما الإشارة؟ قلنا: الإشارة نداء على رأس البعد يكون في القرب مع حضور الغير ويكون مع البعد في العموم والخصوص. فإن قلت: وما العموم والخصوص عندهم؟ قلنا:

العموم ما يقع في الصفات من الاشتراك، والخصوص ما يقع به الانفراد وهو أحدية كل شيء وهو لب اللب. فإن قلت: وما لب اللب؟ قلنا: مادة النور الإلهيّ ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] فلب اللب هو قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

فإن قلت: وما اللب؟ قلنا: ما صين من العلوم عن القلوب المتعلقة بالسوا وهو القشر. فإن قلت: وما القشر؟ قلنا: كل علم يصون عين المحقق من الفساد لما يتجلى له من خلف حجاب الظل. فإن قلت: وما الظل؟ قلنا: وجود الراحة خلف حجاب الضياء. فإن قلت: وما الضياء؟ قلنا: ما ترى به الأغيار بعين الحق، فالظل من أثر الظلمة والضياء من أثر النور والعين واحدة. فإن قلت: وما الظلمة والنور اللذان عنهما الظل والضياء؟ قلنا: النور كل وارد إلهي ينفر الكون عن القلب والظلمة قد يطلقونها على العلم بالذات فإنه لا يكشف معها غيرها وأكثر ما يعلم هذين أرباب الأجساد. فإن قلت: وما الجسد؟ قلنا: كل روح أو معنى ظهر في صورة جسم نوري أو عنصريّ حتى يشهده السوا. فإن قلت: وما السوا هنا؟ قلنا: الغير الذي يتعشق بالمنصَّات. فإن قلت: وما المنصة؟ قلنا: مجلى الأعراس وهي تجليات روحانية ألية. فإن قلت: وما الأل؟ قلنا: كل اسم إلهي أضيف إلى ملك أو روحانيّ مثل جبريل وميكائيل أو عبدال وبأيديهم الطبع والختم. فإن قلت: وما الطبع والختم؟ قلنا: الختم علامة الحق على القلوب العارفين، والطبع ما سبق به العلم في حق كل مختص من الإلهيين. فإن قلت: وما الإلهية؟ قلنا: كل اسم إلهيّ يضاف إلى البشر مثل عبد الله وعبد الرحمن وهم الخارجون عن الرعونة. فإن قلت: وما الرعونة؟ قلنا: الوقوف مع الطبع بخلاف أهل الأنية فإنهم واقفون مع الحق. فإن قلت: وما الأنية؟ قلنا: الحقيقة بطريق الإضافة وهم المعتكفون على اللوح المشاهدون للقلم الناظرون في النون المستمدون من الهوية القائلون بالأناية الناطقون بالاتحاد لأجل الجرس.

فإن قلت: وما هذه الألفاظ التي ذكرتها؟ قلنا: أمّا اللوح فمحل التدوين والتسطير المؤجل إلى حدّ معلوم، وأمّا الهوية فالحقيقة الغيبية، وأما النون فعالم الإجمال، وأما الإناية فقولك بك، وأما القلم فعلم التفصيل، وأما الاتحاد فتصيير الذاتين ذاتاً واحدة فإمّا عبد وإمّا رب ولا يكون إلاّ في العدد وفي الطبيعة وهو حال، وأما الجرس فإجمال الخطاب بضرب من القهر لقوّة الوارد وهذا كله لا يناله إلاّ أهل النوالة. فإن قلت: وما النوالة؟ قلنا: الخلع التي تخصّ الأفراد من الرجال وقد تكون الخلع مطلقاً ومع هذا فهم في الحجاب. فإن قلت: وما الحجاب؟ قلنا: ما ستر مطلوبك عن عينك إذا كان الحجاب ممّا يلي المخدع. فإن قلت: وما المخدع؟ قلنا: موضع ستر القطب عن الأفراد الواصلين عندما يخلع عليهم وهو خزانة الخلع والخازن هو القطب. قال محمد بن قائد الأوانيّ: رقيت حتى لم أر أمامي سوى قدم واحدة فغرت فقيل هي قدم نبيك فسكن جأشي. وكان من الأفراد وتخيّل أن ما فوقه إلاّ نبيه ولا تقدّمه غيره، وصدق رضي الله عنه فإنه ما شاهد سوى طريقه فما سلك عليها غير نبيه، وقيل له: هل رأيت عبد القادر؟ قال: ما رأيت عبد القادر في الحضرة، فقيل ذلك لعبد القادر قال:

صدق ابن قائد في قوله فإني كنت في المخدع ومن عندي خرجت له النوالة وسمّاها بعينها، فسئل ابن قائد عن النوالة ما صفتها؟ فقال مثل ما قال عبد القادر، فكان أحدهما من أهل الخلوة والآخر من أهل الجلوة.

فإن قلت: وما الخلوة والجلوة؟ قلنا: الجلوة خروج العبد من الخلوة بنعوت الحق فيحرق ما أدركه بصره، والخلوة محادثة السر مع الحق حيث لا ملك لا أحد وهناك يكون الصعق. فإن قلت: وما الصعق؟ قلنا: الفنا عند التجلي الربانيّ وهو لأهل الرجاء لأهل الخوف. فإن قلت: وما الرجاء والخوف؟ قلنا: الرجاء الطمع في الآجل، والخوف ما تحذر من المكروه في المستأنف ولهذا يجنح إلى التولي وهو رجوعك إليك منه بعد التلقي. فإن قلت: وما التلقي؟ قلنا: أخذك ما يرد من الحق عليك عند الترقي. فإن قلت: وما الترقي؟ قلنا: التنقل في الأحوال والمقامات والمعارف نفساً وقلباً وحقاً طلباً للتداني. فإن قلت: وما التداني؟ قلنا: معراج المقربين إلى التدلي. فإن قلت: وما التدلي؟ قلنا: نزول الحق إليه ونزولهم لمن هو دونهم بسكينة. فإن قلت: وما السكينة؟ قلنا: ما تجده من الطمأنينة عند تنزل الغيب بالحرف. فإن قلت: وما الحرف؟ قلنا: ما يخاطبك به الحق من العبارات مثل ما أنزل القرآن على سبعة أحرف والحرف صورة في السبحة السوداء.

فإن قلت: وما السبحة؟ قلنا: الهباء الذي فتح فيه صور أجسام العالم المنفعل عن الزمردة الخضراء فإن قلت: وما الزمردة الخضراء؟ قلنا: النفس المنبعثة عن الدرة البيضاء. فإن قلت: وما الدرة البيضاء؟ قلنا: العقل الأول صاحب علم السمسمة. فإن قلت: وما السمسمة؟ قلنا: معرفة دقيقة في غاية الخفاء تدق عن العبارة ولا تدرك بالإشارة مع كونها ثمرة شجرة. فإن قلت: وما هذه الشجرة؟ قلنا: الإنسان الكامل مدبر هيكل الغراب. فإن قلت: وما الغراب؟ قلنا: الجسم الكل الذي ينظر إليه العقاب بوساطة الورقاء. فإن قلت: وما العقاب؟ قلنا: الروح الإلهيّ الذي ينفخ الحق منه في الهياكل كأنها أرواحها المحركة لها والمسكنة، والورقاء النفس التي بين الطبيعة والعقل ودون الطبيعة هي العنقاء. فإن قلت: وما العنقاء؟ قلنا: الهباء لا موجود ولا معدوم على أنها تتمثل في الواقعة. فإن قلت: وما الواقعة؟ قلنا: ما يرد على القلب من العالم العلويّ بأيّ طريق كان من خطاب أو مثال أو غير ذلك على يد الغوث. فإن قلت: وما الغوث؟ قلنا: صاحب الزمان وواحده وقد يكون ما يعطيه على يد إلياس. فإن قلت: وما إلياس؟ قلنا: عبارة عن القبض وقد يكون ما يعطيه على يد الخضر. فإن قلت: وما الخضر؟ قلنا: عبارة عن البسط وهذه العطايا من بحر الزوائد. فإن قلت: وما الزوائد؟ قلنا: زيادات الإيمان بالغيب واليقين ولها رجال مخصوصون ذكرناهم في أوّل الباب فإنهم موقنون هم عشرة أشخاص لا يزيدون ولا ينقصون غير أنهم قد يكون منهم نساء يوجدهم الاسم والرسم. فإن قلت: وما الاسم والرسم؟ قلنا: الرسم نعت يجري في الأبد بما جرى في الأزل، والاسم الحاكم على حال العبد في الوقت من الأسماء الإلهية عند الوصل. فإن قلت: وما الوصل؟ قلنا: إدراك الفائت وهو أوّل الفتوح. فإن قلت: وما

الفتوح؟ قلنا: فتوح العبارة في الظاهر، وفتوح الحلاوة في الباطن، وفتوح المكاشفة لتصحيح المطالعة. فإن قلت: وما المطالعة؟ قلنا: توقيعات الحق تعالىٰ للعارفين ابتداء، وعن سؤال منهم فيما يرجع إلى حوادث الكون وفيها أقول: [الرمل]

خرج التوقيعُ لي بالأمانِ ... ولْتُحاذِرْ غائِلاتِ الأماني
ينقضي الدهرُ ولا شيءَ منها ... حاصِلٌ قد مَلَكَتْهُ اليدانِ
فاشتغِلْ بي لا تخالِطْ سوايَ ... فسوايَ شانُهُ غيرُ شاني
لا يغرَّنَّك عبدي المَثَاني ... فأنا الثاني ولستُ بثاني
يشتهي من ظلَّ بي مستهاماً ... أن يراني أو يرى من رآني
وأنا أقربُ منه إليه ... فليزُلْ عنِّيَ حكم المكانِ
فيراني منه فيه بعيني ... إنَّ عين الغير ليست تراني

والمطالعة لا تكون إلاّ لأهل الحرية. فإن قلت: وما الحرية؟ قلنا: إقامة حقوق العبودية لله تعالىٰ فهو حر عمّا سوى الله لأجل الغيرة الإلهية، فإن الله غيور ومن غيرته حرم الفواحش. فإن قلت: وما الغيرة؟ قلنا: تطلق في الطريق بإزاء ثلاثة معان: غيرة في الحق لتعدي الحدود، وغيرة تطلق بإزاء كتمان الأسرار والسرائر، وغيرة الحق ضنته على أوليائه وهم الضنائن أصحاب الهمم. فإن قلت: وما الهمة؟ قلنا: تطلق بإزاء تجريد القلب للمنى، وبإزاء أوّل صدق المريد، وبإزاء جمع الهمم بصفاء الإلهام، هذا عند أهل الغربة. فإن قلت: وما الغربة؟ قلنا: مفارقة الوطن في طلب المقصود، وغربة عن الحال من حقيقة النفوذ فيه، وغربة عن الحق من الدهش عن المعرفة لحكم الاصطلام. فإن قلت: وما الاصطلام؟ قلنا: نعت وله يرد على القلب فيسكن تحت سلطانه حذر المكر. فإن قلت: وما المكر؟ قلنا: إرداف النعم مع المخالفة وقد رأيناه في أشخاص وإبقاء الحال مع سوء الأدب وهو الغالب على أهل العراق وما نجى منه في علمنا إلاّ أبو السعود بن الشبل سيد وقته، وإظهار الآيات والكرامات من غير أمر ولا حدّ، وهي عندنا خرق عوايد لا كرامات إلاّ أن يقصد بها المتحدث التحدّث بالنعم ولكن تمنع العارفين من مثل هذه الرهبة.

فإن قلت: وما الرهبة؟ قلنا: رهبة الظاهر لتحقيق الوعيد، ورهبة الباطن لتقلب العلم، ورهبة لتحقيق أمر السبق، ولكن بعد سبق الرغبة. فإن قلت: وما الرغبة؟ قلنا: رغبة النفس في الثواب، ورغبة القلب في الحقيقة، ورغبة السر في الحق وهو مقام التمكين. فإن قلت: وما التمكين؟ قلنا: عندنا هو التمكن في التكوين، وعند الجماعة حال أهل الوصول وعدلنا نحن فيه إلى ما قلناه لقوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وعدلت الجماعة إلى قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [سورة فاطر: الآية ٤١] وهذه الآية أيضاً تعضدنا فيما ذهبنا إليه، فالتمكين في التلوين أولى. فإن قلت: فما التلوين؟ قلنا: تنقل العبد في أحواله وهو عند الأكثرين مقام ناقص وعندنا هو أكمل المقامات لأنه موضع التشبّه بالمطلوب للإنسان وسببه الهجوم. فإن قلت: وما الهجوم؟ قلنا: ما يرد على القلب بقوّة

الوقت من غير تصنّع منك عقيب البواده. فإن قلت: وما البواده؟ قلنا: ما يفجأ القلب من الغيب على سبيل الوهلة إما موجب فرح أو موجب ترح، ولكن مع كونها بواده لا بدّ أن يتقدّمها لوامع. فإن قلت: وما اللوامع؟ قلنا: ما ثبت من أنوار التجلي وقتين وقريب من ذلك بعد الطوالع. فإن قلت: وما الطوالع؟ قلنا: أنوار التوحيد تطلع على قلوب أهل المعرفة فتطمس سائر الأنوار عندما تحكم على الأسرار اللوائح. فإن قلت: وما اللوائح؟ قلنا: ما يلوح للأسرار الظاهرة من السمو من حال إلى حال هذا عند القوم، وعندنا هي ما يلوح للبصر إذا لم يتقيد بالجارحة من الأنوار الذاتية لا من جهة السلب وهي من أحوال أهل المسامرة. فإن قلت: وما السمر؟ قلنا: خطاب الحق للعارفين من عالم الأسرار والغيوب، نزل به الروح الأمين على قلبك، وهو خصوص في المحادثة. فإن قلت: وما المحادثة: قلنا: خطاب الحق للعارفين من عباده من عالم الملك كالنداء من الشجرة لموسىٰ وهو فرع عن المشاهدة.

فإن قلت: وما المشاهدة؟ قلنا: رؤية الأشياء بدلائل التوحيد وتكون أيضاً رؤية الحق في الأشياء وتكون أيضاً حقيقة اليقين من غير شك وهي تتلو المكاشفة وقد قيل تتلوها المكاشفة. فإن قلت: وما المكاشفة؟ قلنا: تحقيق الأمانة بالفهم وتحقيق زيادة الحال وتحقيق الإشارة التي تعطيها المحاضرة. فإن قلت: وما المحاضرة؟ قلنا: حضور القلب بتواتر البرهان وعندنا مجاراة الأسماء بينها بما هي عليه من الحقائق في وقت التخلي. فإن قلت: وما التخلي؟ قلنا: اختيار الخلوة والإعراض عن كل ما يشعل عن الحق طلب التجلي بالجيم. فإن قلت: وما التجلي؟ قلنا: ما يكشف للقلوب من أنوار الغيوب بعد الستر. فإن قلت: وما الستر؟ قلنا: كل ما سترك عن ما يغنيك، وقيل هو غطاء الكون، وقد يكون الوقوف مع العادات، وقد يكون الوقوف مع نتائج الأعمال ما لم يغلب سلطان المحق. فإن قلت: وما المحق؟ قلنا: فناؤك في عينه بعد تحكم السحق. فإن قلت: وما السحق؟ قلنا: تفرق تركيبك تحت القهر لأجل الزاجر فإن قلت: وما الزاجر؟ قلنا: واعظ الحق في قلب المؤمن وهو الداعي بحكم الزمان. فإن قلت: وما الزمان؟ قلنا: السلطان فإنه قد يحول بينك وبين الذهاب. فإن قلت: وما الذهاب؟ قلنا: غيبة القلب عن حسّ كلّ محسوس بمشاهدة محبوبه كان المحبوب ما كان قبل الفصل. فإن قلت: وما الفصل؟ قلنا: فوت ما ترجوه من محبوبك وهو عندنا تميزك عنه بعد حال الاتحاد الذي هو نتيجة المجاهدة.

فإن قلت: وما المجاهدة؟ قلنا: حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال، ولكن لا يتمكن له مخالفة الهوى إلاّ بعد الرياضة. فإن قلت: وما الرياضة؟ قلنا: رياضة الأدب وهو الخروج عن طبع النفس، ورياضة الطلب وهي صحة المراد به، وبالجملة فهي عبارة عن تهذيب الأخلاق النفسية وذلك عن علة. فإن قلت: وما العلة؟ قلنا: تنبيه الحق لعبده بسبب وبغير سبب وهو من عين اللطف وتسميه أهل الطريق اللطيفة. فإن قلت: وما اللطيفة؟ قلنا: كل إشارة دقيقة المعنى تلوح في الفهم لا تسعها العبارة وهي المؤدّية إلى التفريد، وقد يطلقون اللطيفة على حقيقة الإنسان. فإن قلت: وما التفريد؟ قلنا: وقوفك

بالحق معك ومن شرطه التجريد. فإن قلت: وما التجريد؟ قلنا: إماطة السوى والكون عن القلب والسر من أجل حكم الفترة. فإن قلت: وما الفترة؟ قلنا: خمود نار البداية المحرقة وهي حالة تشبه حالة الوقفة التي للواقفين. فإن قلت: وما الوقفة؟ قلنا: الحبس بين المقامين مع العصمة من الوله.

فإن قلت: وما الوله؟ قلنا: إفراط الوجد بمشاهدة السر. فإن قلت: وما السرّ؟ قلنا: سرّ العلم بإزاء حقيقة العالم به، وسرّ الحال بإزاء معرفة مراد الله فيه، وسرّ الحقيقة بإزاء ما يقع به الإشارة من الروح. فإن قلت: وما الروح؟ قلنا: الملقى إلى القلب من علم الغيب على وجه مخصوص يتلقاه منه النفس. فإن قلت: وما النفس؟ قلنا: ما كان معلوماً من أوصاف العبد بحكم الشاهد. فإن قلت: وما الشاهد؟ قلنا: ما تعطيه المشاهدة من الأثر في قلب المشاهد وهو على صورة ما يضبطه القلب من رؤية المشهود، وعلى الشاهد يرد الوارد. فإن قلت: وما الوارد؟ قلنا: ما يرد على القلب من الخواطر المحمودة من غير تعمّل، وكل ما يرد على القلب من كل اسم إلهيّ، وهو الذي يعطي أحياناً حق اليقين. فإن قلت: وما حق اليقين؟ قلنا: ما حصل من العلم بالعلة ولكن بعد عين اليقين. فإن قلت: وما عين اليقين؟ قلنا: ما أعطته المشاهدة والكشف ابتداء وبعد علم اليقين. فإن قلت: وما علم اليقين؟ قلنا: ما أعطاه الدليل الذي لا يحتمل الشبه الواردة من الخاطر. فإن قلت: وما الخاطر؟ قلنا: ما يرد على القلب والضمير من الخطاب ربانياً كان أو غير ربانيّ ولكن من غير إقامة، فإن أقام فهو حديث نفس فصاحبه مفتقر إلى النفس.

فإن قلت: وما النفس؟ قلنا: روح يسلطه الله على نار القلب ليطفىء شررها لأجل سلطان الحقيقة. فإن قلت: وما الحقيقة؟ قلنا: سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه بأنه الفاعل بك فيك منك لا أنت ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] فكأنه حال البعد. فإن قلت: وما البعد؟ قلنا: الإقامة على المخالفات وقد يكون البعد منك وتختلف باختلاف الأحوال فيدل على ما يعطيه قرائن الأحوال وكذلك القرب. فإن قلت: وما القرب؟ قلنا: القيام بالطاعة، وقد يطلق على حقيقة قاب قوسين وهو قدر الخط الذي يقسم قطري الدائرة فيشقها بقسمين وهو غاية القرب المشهود، ولا يدركه إلاّ صاحب إثبات لا صاحب محو. فإن قلت: فما المحو وما الإثبات؟ قلنا: الإثبات إقامة أحكام العبادات وإثبات المواصلات، وأما المحو فرفع أوصاف العادة وإزالة العلة، وهو أيضاً ما ستره الحق ونفاه وعنه يكون الذوق. فإن قلت: وما الذوق؟ قلنا: أوّل مباديء التجلي المؤدّي إلى الشرب. فإن قلت: وما الشرب؟ قلنا: الوسط من التجلي من مقام يستدعي الري، وقد يكون من مقام لا يستدعي الري، وقد يكون مزاج الشارب لا يقبل الري. فإن قلت: وما الري؟ قلنا: غايات التجلي في كل مقام، فإن كان المشروب خمراً أدّى إلى السكر.

فإن قلت: وما السكر؟ قلنا: غيبة بوارد قوي مفرح يكون عنه صحو في الكبير. فإن قلت: فما الصحو؟ قلنا: رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة بوارد قوي. فإن قلت: وما

الغيبة؟ قلنا: غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لشغل الحسّ بما ورد عليه من الحضور. فإن قلت: وما الحضور؟ قلنا: حضور القلب بالحق عند غيبته فيتصف الفناء. فإن قلت: وما الفناء؟ قلنا: فناء رؤية العبد فعله بقيام الله على ذلك وهو شبه البقاء. فإن قلت: وما البقاء؟ قلنا: رؤية العبد قيام الله على كل شيء من عين الفرق. فإن قلت: وما الفرق؟ قلنا: إشارة إلى خلق بلا حق، وقيل مشاهدة العبودة وهو نقيض الجمع. فإن قلت: وما الجمع؟ قلنا: إشارة إلى حق بلا خلق وعليه يرد جمع الجمع. فإن قلت: وما جمع الجمع؟ قلنا: الاستهلاك بالكلية في الله عند رؤية الجمال. فإن قلت: وما الجمال؟ قلنا: نعوت الرحمة والألطاف من الحضرة الإلهية باسمه الجميل، وهو الجمال الذي له الجلال المشهود في العالم. فإن قلت: وما الجلال؟ قلنا: نعوت القهر من الحضرة الإلهية الذي يكون عنده الوجود. فإن قلت: وما الوجود؟ قلنا: وجدان الحق في الوجد. فإن قلت: وما الوجد؟ قلنا: ما يصادف القلب من الأحوال المغنية له عن شهوده وإن تقدمه التواجد. فإن قلت: وما التواجد؟ قلنا: استدعاء الوجد وإظهار حالة الوجد من غير وجد لأنس يجده صاحبه.

فإن قلت: وما الأنس؟ قلنا: أثر مشاهدة جمال الحضرة الإلهية في القلب وهو جلال الجمال فإنه لا يكون عنه الهيبة. فإن قلت: وما الهيبة؟ قلنا: هي مشاهدة جمال الله في القلب، وأكثر الطبقة يرون الأنس والبسط من الجمال وليس كذلك. فإن قلت: وما البسط؟ قلنا: هو عندنا من يسع الأشياء ولا يسعه شيء، وقيل: هو حال الرجاء، وقيل: هو وارد توجبه إشارة إلى قبول ورحمة وأنس وهو نقيض القبض. فإن قلت: وما القبض؟ قلنا: حال الخوف في الوقت ووارد يرد على القلب توجبه إشارة إلى عتاب وتأديب، وقيل: أخذوا رد الوقت وهاتان الحالتان قد توجدان لأهل المكان. فإن قلت: وما المكان؟ قلنا: منزلة في البساط لا تكون إلاَّ لأهل الكمال الذين تحققوا بالمقامات والأحوال وجازوها إلى المقام الذي فوق الجلال والجمال فلا صفة لهم ولا نعت. قيل لأبي يزيد: كيف أصبحت؟ قال: لا صباح لي ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة ولا صفة لي، واختلف أصحابنا في هذا القول هل هو شطح أو ليس بشطح؟ فإن المكان اقتضاه له. فإن قلت: وما الشطح؟ قلنا: عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى وهي نادرة أن توجد من المحققين أهل الشريعة. فإن قلت: وما الشريعة؟ قلنا: عبارة عن الأمر بالتزام العبودية الذي لا يكون معها عين التحكم. فإن قلت: وما عين التحكم؟ قلنا: تحدّي الولي بما يريده إظهاراً لمرتبته لأمر يراه فيزعجه. فإن قلت: وما الانزعاج؟ قلنا: أثر الواعظ الذي في قلب المؤمن وفي أصحاب الأحوال التحرّك للوجد والأنس.

فإن قلت: وما الحال؟ قلنا: هو ما يرد على القلب من غير تعمّل ولا اجتلاب، ومن شرطه أن يزول ويعقبه المثل بعد المثل إلى أن يصفو وقد لا يعقبه المثل، ومن هنا نشأ الخلاف بين الطائفة في دوام الأحوال، فمن رأى تعاقب الأمثال ولم يعلم أنها أمثال قال

بدوامه واشتقه من الحلول، ومن لم يعقبه مثل قال بعدم دوامه واشتقه من حال يحول إذا زال، وأنشدوا في ذلك: [السريع]

لـو لـم تَـحُـلْ مـا سـمِّـيْـتَ حـالا   وكـــل مـــا حـــال فـــقـــد زالا

وقد قيل: الحال تغير الأوصاف على العبد، فإذا استحكم وثبت فهو المقام. فإن قلت: وما المقام؟ قلنا: عبارة عن استيفاء حقوق المراسم على التمام وغاية صاحبه أن لا مقام وهو الأدب. فإن قلت: وما الأدب؟ قلنا: وقتاً يريدون به أدب الشريعة، ووقتاً أدب الخدمة، ووقتاً أدب الحق، فأدب الشريعة الوقوف عند مراسمها وهي حدود الله، وأدب الخدمة الفناء عن رؤيتها مع المبالغة فيها برؤية مجريها، وأدب الحق أن تعرف مالك وماله، والأديب من كان بحكم الوقت أو من عرف وقته. فإن قلت: وما الوقت؟ قلنا: ما أنت به من غير نظر إلى ماض ولا إلى مستقبل هكذا حكم أهل الطريق. فإن قلت: وما الطريق عندهم؟ قلنا: عبارة عن مراسم الحق المشروعة التي لا رخصة فيها من عزائم ورخص في أمكانها، فإن الرخص في أماكنها لا يأتيها إلاّ ذو عزيمة، فإن كثيراً من أهل الطريق لا يقول بالرخص وهو غلط، فإنه يفوته محبة الله في إتيانها فلا يكون له ذوق فيها، فهو كمثل الذي يقضي ولا يتنفل دائماً وهو غاية الخطأ بل المشروع أن يتطوّع، فإن نقصت فرائضه كملت له من تطوّعه وهو النوافل، وإن لم ينتقص منها شيئاً كانت له نوافل كما نواها، ويحصل له ذوق محبة الله إياه من أجلها، فقد أبطل شرع الله من لم تكن هذه حاله، فإنه إن كانت فريضته تامة لم يجز قضاؤها فقد شرع ما لم يشرع له ولم يأذن به الله، وأن الله ما يكتبها له نافلة فإنه ما نواها وقد أساء الأدب مع الله حيث سمّاها الله تطوّعاً وقال: هذا قضاء فلا يحصل له ثمرة النوافل لأنها غير منوية ولا ورد في ذلك شرع أنه يكتب له ما نواه قضاء نافلة، هذا هو الطريق الذي يكون فيه سفر القوم.

فإن قلت: وما السفر؟ قلنا: القلب إذا أخذ في التوجه إلى الحق تعالىٰ بالذكر بحق أو بنفس كيف كان يسمى مسافراً. فإن قلت: وما المسافر؟ قلنا: هو الذي سافر بفكره في المعقولات وهو الاعتبار في الشرع، فعبر من العدوة الدنيا إلى العدوة القصوى وهو العامل السالك. فإن قلت: وما السالك؟ قلنا: هو الذي مشى على المقامات بحاله لا بعلمه وهو العمل فكان له عيناً، قال ذو النون: لقيت فاطمة النيسابورية فما ذكرت لها مقاماً إلاّ كان ذلك المقام لها حالاً، وقد يحصل هذا للمراد والمريد. فإن قلت: وما المراد وما المريد؟ قلنا: المراد عبارة عن المجذوب عن إرادته مع تهيؤ الأمر له فجاوز الرسوم كلها والمقامات من غير مكابدة، وأما المريد فهو المتجرّد عن إرادته، وقال أبو حامد: هو الذي صحّ له الأسماء ودخل في جملة المنقطعين إلى الله بالاسم، وأما المريد عندنا فنطلقه على شخصين لحالين: الواحد من سلك الطريق بمكابدة ومشاق ولم تصرفه تلك المشاق عن طريقه. والآخر من تنفذ إرادته في الأشياء، وهذا هو المتحقق بالإرادة لا المراد. فإن قلت: وما الإرادة؟ قلنا: لوعة في القلب يطلقونها ويريدون بها إرادة التمني وهي منه، وإرادة الطبع ومتعلقها الخط النفسي، وإرادة الحق ومتعلقها الإخلاص

وذلك بحسب الهاجس. فإن قلت: وما الهاجس؟ قلنا: الخاطر الأوّل وهو الخاطر الربانيّ الذي لا يخطىء أبداً ويسمونه السبب الأوّل ونقر الخاطر. فهذا قد بيّنا لك ارتباط المقامات والمراتب بضرب من التناسب وتعلق بعضها ببعض، وقليل من سلك في إيضاحها هذا المسلك، وهذا مساق المسلسل في لغات العرب وهي طريقة غريبة أشار إليها إبراهيم بن أدهم وغيره رضي الله عنهم، وبان منها شرح ألفاظ اصطلاح القوم فحصل من ذلك منها فائدتان: الواحدة معرفة ما اصطلحوا عليه. والثاني المناسبات التي بينهما والله الموفق.

السؤال الرابع والخمسون ومائة: ما تأويل أم الكتاب؟ فإنه ادّخرها من جميع الرسل له ولهذه الأمة. الجواب: الأم هي الجامعة، ومنه أمّ القرى، والرأس أمّ الجسد يقال: أمّ رأسه لأنه مجموع القوى الحسّيّة والمعنوية كلها التي للإنسان وكانت الفاتحة أمّاً لجميع الكتب المنزلة وهي القرآن العظيم أي المجموع العظيم الحاوي لكل شيء، وكان محمد ﷺ قد أوتي جوامع الكلم فشرعه تضمن جميع الشرائع وكان نبياً وآدم لم يخلق، فمنه تفرعت الشرائع لجميع الأنبياء عليهم السلام هم إرساله ونوّابه في الأرض لغيبة جسمه، ولو كان جسمه موجوداً لما كان لأحد شرع معه وهو قوله: «**لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَياً مَا وَسِعَهُ إلاَّ أَنْ يَتَّبِعَني**» وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٤] ونحن المسلمون وعلماؤنا الأنبياء ونحكم على أهل كل شريعة بشريعتهم فإنها شريعة نبينا إذ هو المقرّر لها وشرعه أصلها، وأرسل إلى الناس كافة ولم يكن ذلك لغيره والناس من آدم إلى آخر إنسان وكانت فيهم الشرائع فهي شرائع محمد ﷺ بأيدي نوّابه فإنه المبعوث إلى الناس كافة، فجميع الرسل نوّابه بلا شك، فلما ظهر بنفسه لم يبق حكم إلاّ له، ولا حاكم إلاّ رجع إليه، واقتضت مرتبته أن تختص بأمر عند ظهور عينه في الدنيا لم يعطه أحد من نوّابه.

ولا بدّ أن يكون ذلك الأمر من العظم بحيث إنه يتضمن جميع ما تفرّق في نوّابه وزيادة وأعطاه أمّ الكتاب فتضمنت جميع الصحف والكتب وظهر بها فينا مختصرة سبع آيات تحتوي على جميع الآيات، كما كانت السبع الصفات الإلهية تتضمن جميع الأسماء الإلهية كلها، ويرجع كل اسم إلهيّ إلى واحد منها بلا شك، وقد فعل ذلك الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني في كتاب الجليّ والخفيّ له فردّ جميع الأسماء إليها وما وجد من الأسماء الإلهية لصفة الكلام إلاّ الاسم الشكور والشاكر خاصة، وباقي الأسماء قسمها على الصفات فقبلتها حيث تتضمنها بلا شك، فمنها ما ألحقه بالعلم، ومنها بالقدرة وسائر الصفات، فكذلك أم الكتاب ألحق الله بها جميع الكتب والصحف المنزلة على الأنبياء نوّاب محمد ﷺ فادّخرها له ولهذه الأمة ليتميز على الأنبياء بالتقدم، وأنه الإمام الأكبر، وأمته التي ظهر فيها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٠] لظهوره بصورته فيهم، وكذلك القرن الذي ظهر فيهم خير القرون لظهوره فيه بنفسه وقبل ذلك وبعده بشرعه، فمن جمعية هذه الأمّة أن جعل الله لأوليائها حظاً في نعوت أهل البعد عن الله بطريق القربة، فيقع الاشتراك في اللفظ والمعنى ويتغير

المصرف، كما قلنا في الحرص أنه مذموم، فإذا حرصنا في طلب العلم والتقرّب به إلى الله كان محموداً وهو بإطلاق اللفظ مذموم فإنه ما يستعمل مطلقاً إلاّ في مذموم، فإذا أريد به الحمد قيد فقيل حريص على الخير، وهكذا الحسد يتعوّذ منه مطلقاً من غير تقييد فإنه بالإطلاق للذمّ ويستعمل في المحمود بالتقييد، فلهذا جمع الله لأولياء هذه الأمّة النظر في مثل هذا، فحصلوا حظوظهم من أسماء الذمّ في الإطلاق حتى لا يفوتهم شيء إذ كانوا الجامعين للمقامات كلها فلهم في كل أمر شرب وحظ: [الطويل]

إذا جاء نعتٌ أي نعتٍ فرضْتَهُ ... لنا فيه حظٌ وافرٌ ثم مَشْرَبُ
سواءٌ يكون النعتُ في ذمّ حالةٍ ... وفي حمدها فالكلُّ للقوم مَطْلَبُ
ألستَ ترى أوصافَه في نُعُوتنا ... وأوصافُنا نعتٌ له لا يكْذِبُ
له فرحٌ في حالة وتبشُّشٌ ... إلى مَلَلٍ قد جاءنا وتَعَجُّبُ
وهُزْءٌ نَسَبْناهُ له وتردُّدٌ ... ومكرٌ وكيدٌ كلُّ ذاك مرتَّبُ
كما كان للعبد الجلالُ ومجْدُهُ ... وعزٌّ وتعظيمٌ لديه مُرَغَّبُ
وهذا من أوصاف الإله فدبِّروا ... كلامي الذي قد قلتُ فيه وطَنِّبُوا
كذلك نعتي الأولياءَ مدحتُهم ... بما ذُمَّ عُرْفاً في الأنام فنَقِّبوا
فمن أنكر العلمَ الذي قد شرحتُه ... فليس هو الشخصُ العليم المقرَّبُ

فمنهم الحاسدون، قال عليه السلام: «**لا حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْماً فَهُوَ يَبُثُّهُ فِي النَّاسِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ البِرِّ**» فقام أهل النفوس الأبية التي تأبى الرذائل وتحب الفضائل وجماع الخير فقالوا: لا ينبغي الحسد إلاّ في معالي الأمور، وأعلى الأمور ما تعرف إلاّ بأربابها ورب الأرباب وذو الصفات العلى والأسماء الحسنى هو الله، فيقال: نتشبه به في التخلق بأسمائه ففعلوا وبالغوا واجتهدوا إلى أن صاروا يقولون للشيء كن فيكون وذلك أقصى المراتب التي تمدح الله بها، فلولا الحسد ما تعمل القوم في تحصيل هذا المقام.

ومنهم الساحرون السحر بالإطلاق صفة مذمومة، وحظ الأولياء منها ما أطلعهم الله عليه من علم الحروف وهو علم الأولياء، فيتعلمون ما أودع الله في الحروف والأسماء من الخواص العجيبة التي تنفعل عنها الأشياء لهم في عالم الحقيقة والخيال، فهو وإن كان مذموماً بالإطلاق فهو محمود بالتقييد، وهو من باب الكرامات وخرق العوائد، ولكن لا يسمون سحرة مع أنه يشاهد منهم خرق العوائد، فسمّي ذلك في حقهم كرامة وهو عين السحر عند العلماء، فقد كان سحرة موسىٰ ما زال عنهم علم السحر مع كونهم آمنوا بـ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[سورة الشعراء: الآية ٤٨] ودخلوا في دين الله، وآثروا الآخرة على الدنيا، ورضوا بعذاب الله على يد فرعون مع كونهم يعلمون السحر، ويسمّى عندنا علم السيمياء مشتق من السمة وهي العلامة أي علم العلامات التي نصبت على ما تعطيه من الانفعالات من جمع حروف وتركيب أسماء وكلمات، فمن الناس من يعطي ذلك كله في بسم الله وحده فيقوم له ذلك مقام جميع الأسماء كلها وتنزل من هذا العبد منزلة ﴿كُن﴾ وهي آية من فاتحة الكتاب، ومن هناك

تفعل لا من بسملة سائر السور، وما عند أكثر الناس من ذلك خبر، والبسملة التي تنفعل عنها الكائنات على الإطلاق هي بسملة الفاتحة، وأما بسملة سائر السور فهي لأمور خاصة. وقد لقينا فاطمة بنت مثنى وكانت من أكابر الصالحين تتصرّف في العالم ويظهر عنها من خرق العوائد بفاتحة الكتاب خاصة، كل شيء رأيت ذلك منها، وكانت تتخيل أن ذلك يعرفه كل أحد وكانت تقول لي: العجب ممّن يعتاص عليه شيء وعنده فاتحة الكتاب لأيّ شيء لا يقرؤها فيكون له ما يريد ما هذا إلاّ حرمان بيّن، وخدمتها وانتفعت بها.

ومنهم الكافرون وهم الساترون مقامهم مثل الملامية والكفار والزراعون لأنهم يسترون البذر في الأرض، وذلك أن أهل الأنس والجمال والرحمة إذا نظروا في القرآن وفي الأشياء كلها لم تقع عينهم إلاّ على حسن وجمال لا على غير ذلك، كان ذلك ما كان، وإذا قرأوا القرآن لم يقم لهم من صور الممقوتين إلاّ ما تتضمنه من مصارف الحسن، فعلى ذلك تقع أعينهم وذلك يشهدهم الحق من تلك الآية التي وصف الله بها من مقته من عباده لقيام تلك الصفة به على حدّ مطلقها، فيأخذون من كل صفة ما يليق بهم في طريقهم، فيصرفون ذلك إليهم بالوجه الأحسن، فيتنعمون بما هو عذاب عند غيرهم والصورة واحدة، والمتصوّر مختلف منها لاختلاف الناظرين، فلكل منظر عين تخصّه، فالكافر من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة. والكافر من الأولياء من كان ختم الحق على قلبه لأنه اتخذه بيته فقال: «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي»، والله غيور فلا يريد أن يزاحمه أحد من خلقه فيه كما ختم الحرم فلم يحل لأحد قتل صيده ولا قطع شجره، فإن الله لا ينظر إلاّ إلى قلب العبد، فلما ختم الله على قلب هذا العبد لم يدخل في قلبه سوى ربه ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٣] فلا يصغي إلى كلام أحد إلاّ إلى كلام ربه ﴿هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٣]﴿عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٣] وهي غطاء العناية، فلا ينظرون إلى شيء إلاّ ولهم فيه آية تدل على الله، فكان هذا الحفظ غشاوة تحول بين أعينهم وبين النظر من غير دلالة ولا اعتبار، وحالت بينهم وبين ما لا ينبغي أن ينظر إليه فهي غشاوة محمودة ولهم عذاب من العذوبة عظيم يعني عظيم القدر، فإن العذاب إنما سمّاه الله بهذا الاسم إيثاراً للمؤمن، فإنه يستعذب ما يقوم بأعداء الله من الآلام فهو عذاب بالنظر إلى هؤلاء.

ومنهم: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧١] و ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨] فهم صم عن سماع ما لا يحل سماعه، وعن سماع كل كلام غير كلام سيدهم بكم أي خرس فلا يتكلمون بما لا يرضى سيدهم كما كان أولئك بكم عن الكلام بذكر الله، فاختلف المصرف وصحّ الوصف عمي فلا تقع عينهم على غير الله فاعلاً في الأشياء، وكل واحد من الأولياء على قدر مقامه في ذلك من المعرفة بالله، فإنهم تختلف مآخذهم في المحمود من ذلك، ولا يتسع الوقت لتفصيل ذلك وحصلت الفائدة بالتنبيه على اليسير من ذلك فهم لا يرجعون إلاّ إلى الله ولا يعقلون إلاّ عن الله، لا يرجعون إلى المصارف المذمومة من هذه الصفات حيث وصف بها الأشقياء من عباده، فهم لا يعقلون من هذه الصفات سوى

ما يحمد منها في صرفه، فهي كل صفة بحقيقتها في كل موصوف بها. واختلفوا في المصرف فلم يكن اتصافهم بها مجازاً بل هو حقيقة.

ومنهم: الظالمون قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ والمصطفى هو الوليّ. ثم قال في المصطفين: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٢] وهو أن يمنعها حقّها من أجلها أي الحق الذي لك يا نفسي عليّ في الدنيا نؤخره لك إلى الآخرة، وبادر هنا إلى الكدّ والاجتهاد وخذ بالعزائم واجتنب الميل إلى الخرص وهذا كله حق لها فهو ظالم لنفسه نفسه من أجل نفسه، ولهذا قال فيمن اصطفاه: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي من أجل نفسه ليسعدها فما ظلمها إلاّ لها.

ومنهم: الساهون وهم: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [سورة الماعون: الآية ٥] بصلاة الله بهم، فهم يرون أن نواصيهم بيد الله يقيمهم فيها ويركع بهم ويسجد بهم ويقرأ بهم ويكبر بهم ويسلم بهم لأنه سمعهم وبصرهم ولسانهم ويدهم ورجلهم كما ورد في الخبر، ومن كان هذا مشهده وحاله فهو عن صلاته ساه، فإنه لم يقل عن الصلاة فإنه ليس بساه عن الصلاة وإنما سهوهم عن إضافة الصلاة إليهم، فلهذا اعتبروا قوله: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ والويل الذي لهم إنما هو بالنظر لمن جمع في نظره بين صلاته وصلاة الله به فإنه الأكمل، فإذا قست بين الرجلين في هذين المقامين الكبيرين نقص أحدهما ما كان خيراً في حق الآخر الجامع لهما فيكون ذلك النقص ويلاً له بالإضافة حسنات الأبرار سيئات المقرّبين ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٠].

ومنهم: المراؤون الذين يراؤون الناس وهم الذين يفعلون الفعل ليقتدي بهم فيه علماء هذه الأمة يعلمون الناس بالفعل يقصدون تعليمهم إذ كان الفعل أتم عند الرأي من القول كما قال عليه السلام: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**» مع كونه وصف الصلاة لهم، ومع هذا كله صلّى على المنبر ليراه الناس فيقتدوا به، وهكذا في كل ما يمكن من الأعمال، هذا حظ الأولياء من الرياء في الأفعال المقرّبة إلى الله.

ومنهم: المانعون الماعون وحظهم من هؤلاء أن يحجبوا الناس عن رؤية الأسباب ليصرفوا نظرهم إلى مسببها فلا معين إلاّ الله، قيل لهم: قولوا: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] لا بالماعون.

ومنهم: الهمازون اللمازون، وهم العيابون وأولياء الله يطلعون كل شخص على عيوب النفس إذ كان لا يشعر كل أحد بذلك، فإذا أخذ العارف يصف عيوب النفوس في حق كل طائفة من أصحاب المراتب كالسلطان وما يتعلق بمرتبته من العيوب والقاضي وجميع الولاة وعيوب نفوس الزهاد والصالحين والعوام فيعرّف كل طائفة عيبها بعدما كان مستوراً عنها هذا حظهم من الهمز واللمز.

ومنهم: الفاسقون الناقضون القاطعون المفسدون الفاسقون الخارجون عن الصفات التي تحول بينهم وبين السعادة والقربة إلى الله، فهم ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [سورة

البقرة: الآية ٢٧] وذلك أنهم يتعهدون مع الله أن يطيعوه، فإذا حصلوا في مقام التقريب والكشف رأوا أن الله هو العامل بهم ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] فرأوا أنهم لا حول لهم ولا فعل ولا قول، فنقضوا عهد الله بردّه إليه سبحانه لأنه ما انعقد ذلك إلاَّ مع فاعل يفعله ورأوا مشاهدة أن الله هو الفاعل لذلك، فلم يقع العهد في نفس الأمر إلاَّ من الله بين الله وبين نفسه، فعلموا أن الحجاب أعماهم عن هذا الإدراك في حين أخذ العهد، وأن العهد إنما يلزم لأهل الحجاب فانتقض عهدهم والأعمال تجري منهم بالله وهم لا يرونها، فهم المعصومون في أعمالهم عن إضافتها إليهم، وكذلك في قطعهم ما أمرهم الله أن يصلوه من أرحامهم فقال عليه السلام: «**الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِن الرَّحْمٰنِ مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللّٰهُ**» فوصلوها بالرحمن وردّوا القطعة إلى موضعها فشاهدوا الرحمن يمتن عليهم وخرج هؤلاء من الوسط وامتثلوا قول الشارع بصلة الرحم فأخذها الناس على صلة القرابة بالمال ويأخذ هؤلاء على صلة القربى إلى الله فهم يدلون أرحامهم على أصلهم وهو الرحمن ويرون في إعطائهم الصلات، يد الله معطية، ويد الله آخذة، فإنها شجنة من الرحمن، فالعطاء منه والأخذ منه، فانقطع هؤلاء عن صلة الرحم بالمال لأنهم لا يدلهم مع غاية الإحسان في الشاهد والناس لا يشعرون. وكذلك قوله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧] وفساد دنياهم هو فسادهم في الأرض لأن الجنة في السماء وفي هذا الفساد صلاح آخرتهم في السماء فيصومون ويسهرون ويحملون الأثقال الشاقة، وهذا كله من فساد أرض أجسامهم لما طرأ عليها من النحول والذبول والضعف، وهذا كله وصف أهل الشقاء في الكتاب فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [سورة الحشر: الآية ١٩] ثم وصفهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧].

ومنهم: الضالون، وهم: التائهون الحائرون في جلال الله وعظمته، كلما أرادوا أن يسكنوا فتح لهم من العلم به ما حيّرهم وأقلقهم، فلا يزالون حيارى لا ينضبط لهم منه ما يسكنون عنده بل عقولهم حائرة، فهؤلاء هم الضالون الذين حيّرهم التجلي في الصور المختلفة.

ومنهم: المضلون، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٥١] وهو في الاعتبار الذين أظهروا لأتباعهم من المتعلمين طريق الحيرة في الله والعجز عن معرفته وأنه ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة يس: الآية ٨٣] مع كونه خاطب عباده بالعمل وهو العامل بهم لا هم، فلما نبهوا الناس على ما يقتضيه جلال الله من الإطلاق وعدم التقييد كانوا مضلين أي محيرين من أجل ما حيّروا الخلق في جلال الله، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨] محيرين ﴿عَضُدًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٥١] يعتضد بهم في تحييرهم، بل أنا محيرهم على الحقيقة لا هم مع كونهم لهم أجر ما قصدوه، والدليل على أني محيرهم لا هم ولا اتخذتهم عضداً أن من الناس من يقبل منهم ومن الناس من لا يقبل، ولو كان الأمر بأيديهم لآثروا في الكل القبول، فلما كان الأمر بيدي لا بأيديهم جعلت القبول في البعض دون البعض، فقبلوا الحيرة فيّ فأنا كنت محيرهم لا هم، فعلى هذا يعتبر قوله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٥١] بل لنأجرهم على ذلك.

ومنهم: الكاذبون وهم الذين يقولون: صلينا وسمعنا وأطعنا، وقيل لهم قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٥] وغير ذلك مما يدعونه من أعمال البرّ المأمور بها شرعاً، وهم يعلمون أنّ الأمور بيد الله، وأنه لولا ما أجرى الله العمل على أيديهم ما ظهر، ولولا أنّ الله قال لهذا العمل كن في هذا المحل ما كان وهم مع ذلك يضيفونه إلى أنفسهم فهم كاذبون من هذا الوجه، وهكذا يسري في سائر الأعمال.

ومنهم: المكذبون وهي الطائفة التي ترى هؤلاء المدّعين في أعمالهم ممّن يراها أنها أعمالنا وممّن يراها أنها من الله ولكن يدعونها وهم كاذبون، فتكذبهم هذه الطائفة في دعواهم وإضافتهم ذلك إليه فيقال فيهم مكذبون، والكامل من يضيف الأعمال على حدّ ما أضافها الحق، ويزيلها عن الإضافة على حدّ ما أزالها الحق من علمه بالمواطن، فمن نقص عن هذا النظر وكذب المدعين في كل حال فقد نقصه هذا الأدب مع كونه جليل القدر، فهذا النقص يعبر عنه بالويل في حقّه الذي في العموم ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ فإنه يقول يوم القيامة: إذا رأى ما فاته في تكذيبه من المواطن التي كان ينبغي له أن يقرّر فيها إضافة العمل إليهم فلم يفعل، يا ويلنا لَم لَم أحقق النظر في ذلك حتى أفوز بعلم الأدب الذي هو جماع الخير فيدخل تحت عموم قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة المطففين: الآية ١٠] أي يقولون: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣١] و ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ [سورة الزمر: الآية ٥٦] وإن كانوا سعداء فإنه يوم التغابن. ومنهم: الفجار فإنهم في سجين من السجن، وهم الذين حبسوا نفوسهم وسجنوها عن التصرّف فيما منعوا من التصرّف فيه، ولا يقع التفجير إلاّ في محبوس ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [سورة الإنسان: الآية ٦] فهم الفجار جاؤوا عيون المعارف التي سدّها الله في العموم لكون الفطر أكثرها لا تسعد بتفجيرها لما يؤدي إليه بالنظر الفاسد من الإباحة والقول الحلول وغير ذلك ممّا يشقيهم، فجاءت هذه الطائفة إلى المعنى ففجرت هذه العيون لأنفسها فشربت من مائها فزادت هدى إلى هداها، وبياناً إلى بيانها، فسعدت وطالت وعظمت سعادتها، فهذا حظ الأولياء من الفجور الذي سمّوا به فجاراً، وعلى هذا الأسلوب نأخذ كل صفة مذمومة بالإطلاق فتقيدها فتكون محمودة ونضع عليك اسماً منها كما يسمّي صاحب إطلاقها فلتتبع الكتاب العزيز والسنّة في ذلك واعمل بحسبها فإنه يعطيك النظر فيها من حيث ما وصف بها الأشقياء ما لا يعطيك من حيث ما وصف بنقيضها الأتقياء فاجعل بالك، وهذا كله من بركة أمّ الكتاب فإنه مثل هذا النظر ما فتح لأمّة من الأمم وعصمت فيه إلاّ لهذه الأمّة، وأعظم صفة في الذمّ الشرك.

ومنهم: المشركون بالله قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [سورة النساء: الآية ٤٨] وكذا هو لأنه لو ستر لم يشرك به، وهذا الاسم الله هو الذي وقع عليه الشرك فيما يتضمنه فشاركه الاسم الرحمن قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] فجعل للاسم الله شريكاً في المعنى وهو الاسم الرحمن، فالمشركون هم الذين وقعوا على الشركة في الأسماء الإلهية لأنها اشتركت في الدلالة على الذات وتميزت

بأعيانها بما تدل عليه من رحمة ومغفرة وانتقام وحياة وعلم وغير ذلك، وإذ كان للشرك مثل هذا الوجه فقد قرب عليك مأخذ كل صفة يمكن أن تغفر، فلا تجزع من أجل الشريك الذي شقي صاحبه فإنّ ذلك ليس بمشرك حقيقة، وأنت هو المشرك على الحقيقة لأنه من شأن الشركة اتحاد العين المشترك فيه فيكون لكل واحد الحكم فيه على السواء وإلاً فليس بشريك مطلق، وهذا الشريك الذي أثبته الشقي لم يتوارد مع الله على أمر يقع فيه الاشتراك فليس بمشرك على الحقيقة، بخلاف السعيد فإنه أشرك الاسم الرحمن بالاسم الله وبالأسماء كلها في الدلالة على الذات، فهو أقوى في الشرك من هذا، فإنّ الأول شريك دعوى كاذبة، وهذا أثبت شريكاً بدعوى صادقة، فغفر لهذا المشرك بصدقه فيه، ولم يغفر لذلك المشرك لكذبه في دعواه، فهذا أولى باسم المشرك من الآخر.

السؤال الخامس والخمسون ومائة: ما معنى المغفرة التي لنبينا وقد بشّر النبيين بالمغفرة؟ الجواب: الغفر الستر فستر عن الأنبياء عليهم السلام في الدنيا كونهم نوّاباً عن رسول الله ﷺ، وكشف لهم عن ذلك في الآخرة إذ قال: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» فيشفع فيهم ﷺ أن يشفعوا، فإنّ شفاعته ﷺ في كل مشفوع فيه بحسب ما يقتضيه حاله من وجوه الشفاعة، فبشر النبيين بالمغفرة الخاصة، وبشّر محمداً ﷺ بالمغفرة العامّة، وقد ثبتت عصمته فليس له ذنب يغفر فلم يبق إضافة الذنب إليه إلاً إن يكون هو المخاطب والقصد أمته كما قيل: إياك أعني فاسمعي يا جارة. وكما قيل له: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٤] ومعلوم أنه ليس في شك، فالمقصود من هو في شك من الأمة، وكذلك: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٥] وقد علم أنه لا يشرك فالمقصود من أشرك فهذه صفته فكذلك قيل له: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وهو معصوم من الذنوب، فهو المخاطب بالمغفرة، والمقصود من تقدّم من آدم إلى زمانه، وما تأخر من الأمة من زمانه إلى يوم القيامة، فإن الكل أمته، فإنه ما من أمة إلاً وهي تحت شرع من الله، وقد قرّرنا أن ذلك هو شرع محمد ﷺ من اسمه الباطن حيث كان نبياً وآدم بين الماء والطين وهو سيد النبيين والمرسلين فإنه سيد الناس وهم من الناس، وقد تقدّم تقرير هذا كله فبشر الله محمداً ﷺ بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢] بعموم رسالته إلى الناس كافة، وكذلك قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٨] وما يلزم الناس رؤية شخصه، فكما وجه في زمان ظهور جسمه رسوله علياً ومعاذاً إلى اليمن لتبليغ الدعوة، كذلك وجه الرسل والأنبياء إلى أممهم من حين كان نبياً وآدم بين الماء والطين، فدعا الكل إلى الله، فالناس أمته من آدم إلى يوم القيامة، فبشّره الله بالمغفرة لما تقدّم من ذنوب الناس وما تأخّر منهم، فكان هو المخاطب والمقصود الناس، فيغفر الله للكل ويسعدهم وهو اللائق بعموم رحمته التي وسعت كل شيء، وبعموم مرتبة محمد ﷺ حيث بعث إلى الناس كافة بالنص، ولم يقل أرسلناك إلى هذه الأمة خاصة ولا إلى أهل هذا الزمان إلى يوم القيامة خاصة، وإنما أخبره أنه مرسل إلى الناس كافة، والناس من آدم إلى يوم القيامة، فهم المقصودون بخطاب

مغفرة الله لما تقدم من ذنب وما تأخر: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢١] لكن ثم مغفرة في الدنيا، وثم مغفرة في القبر، وثم مغفرة في الحشر، وثم مغفرة في النار بخروج منها وبغير خروج، لكن يستر عن العذاب أن يصل إليه بما يجعل له من النعيم في النار ممّا يستعذ به فهو عذاب بلا ألم.

وقد انتهت سؤالاته رضي الله عنه، وانتهى ما ذكرناه من الأجوبة عليها من غير استيفاء، وما تركناه من ذلك في الجواب أكثر ممّا أوردنا بما لا يتقارب، فإنّ الاختصار أولى من الإكثار إذ باب النطق والإبانة عن حقائق الأمور لا يتناهى، فإنّ علم الله أوسع، فتعليمه لنا لا يقف عند حد، والله الموفق لا ربّ غيره. انتهى الجزء الحادي والتسعون.

الفصل الثاني

في المعاملات

(الجزء الثاني والتسعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع والسبعون

في التوبة

[نظم: الكامل]

الاعتـرافُ مَتَـابُ كـل مـحـقِّـقٍ ... وبـه الإلـهُ الـحـقُّ يـشـرح صَـدْرَهُ

رضيَ الإلـهُ عن الـمخالِف مِثل ما ... رضـيَ الإلـهُ عـن الـمـوافـق أمْـرَهُ

مـاذا كـغـيـر أن يـنـالَ مَـنَـالَـهُ ... لا سـيـمـا إن كـنـتَ تـعـرف سـرَّهُ

مـن عـيـن مـنَّـتـه يـنـال مـخـالـفٌ ... مـا نـالـه إن كـنـتَ تـجـهـل قَـدْرَهُ

اعـلـم أيّـدنـا الله وإيـاك أنّ الله يـقـول: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة النور: الآية ٣١] فأمر بالتوبة عباده، ثم لقنهم الحجة لو خالفوا أمره فقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٨] ليقولوا إذا سئلوا ذلك أي لو تبت علينا لتبنا مثل قوله تعالىٰ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٦] ليقول كرمك فهذا من باب تعليم الخصم الحجة خصمه ليحاجه بذلك إذا كان محبوباً، وجاء بلفظة الإنسان بالألف واللام والإغرار ليعم جميع الناس، فهذا ممّا يدلك على أن إرادة الحق بهم السعادة في المآل، ولو نالهم ما نالهم ممّا يناقضها، غير أن توبة الله مقرونة بعلى، لأن من أسمائه الاسم العلي، وتوبة الخلق مقرونة بإلى لأنه المطلوب بالتوبة فهو غايتها، واجتمع الحق والخلق في مَنْ مِنَ التوبة فهم رجعوا إليه من أنفسهم والعارفون رجعوا إليه منه، والعلماء بالله رجعوا إليه من رجوعهم إليه.

وأما العامة فإنها رجعت من المخالفات إلى الموافقة، والحق عزّ وجلّ رجع إليهم من كناية أن يخذلكم ليرجعوا إليه بحسب ما تقتضيه مقاماتهم التي فصلناها آنفاً، فرجوع الحق عليهم ليرجعوا إليه مثل قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] فرجوعه عليهم رجوع عناية محبة أزلية ليتوبوا، فإذا تابوا أحبهم حب من رجع إليه فهو حب جزاء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] فهذا الحب منه ما هو الأول، وللعبد حب آخر زائد

على قوله: ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾. وهو أنه قال ﷺ: «**أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ**» فهذا حب جزاء المنعم لما أنعم به عليهم، فهذا الحب منهم في مقابلة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] حب جزاء لحب جزاء، والأول حب عناية منه ابتداء وحبّهم إياه حبّ إيثار لجنابه لا حبّ آلاء ونعم. فالتوبة منهم عن محبة منتجة لمحبة أخرى منه فهي بين محبتين متعلقتين بهم من الله كتوبته عليهم عن محبة منهم تنتج محبة أخرى منهم، فتوبته عليهم بين محبتين أيضاً، وهذا من باب خلق الله آدم على صورته، أي جميع ما تقبله الحضرة الإلهية من الصفات يقبلها الإنسان الصغير والكبير وحدها ترك الزلة في الحال والندم على ما فات، والعزم على أنه لا يعود لما رجع عنه، ويفعل الله بعد ذلك ما يريد. فأما ترك الزلة في الحال فلا بدّ منه لأنّ سلطان وقته الحياء والحياء يحول بسلطانه بين من قام به وبين تعدّي حدود الله.

ومن أسماء الله تعالىٰ المذكورة في السنة الحييّ، وأنّ الله يستحيي يوم القيامة من ذي الشيبة، فحياء الله من العبد أنه قد أعلمه أنه سبحانه لا يتوبون إليه حتى يتوب عليهم، فإذا وقف المخذول الذي لم يتب الله عليه فلم يتب إليه وكان في حال وقوفه بين يديه يوم القيامة ذاكراً في نفسه هذه الآية: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٨] استحيا الله منه أن يؤاخذه بذنب، كما أنّ العبد يستحي من الله في حال توبته إلى الله أن يقع منه زلة وهو في هذا الحال فإنه ليس بتائب في تلك الحال، ونحن تكلمنا في التائب فالحياء له لازم، والحياء يقتضي ترك الزلة في الحال، ومن ترك الزلة في الحال للتائب إذا كان عارفاً هو ترك نسبتها إلى ربّه فينسبها إلى نفسه أدباً مع الله، وفي نفس الأمر الفعل فعل الله والقدر من الله والحكم بكونها معصية وزلة حكم الله، ومع هذا فالأدب يقول له: انسبها إلى نفسك لما تعلق بها لسان الذم، ولهذا قال في حد النفس: كل خاطر مذموم والأصل: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨].

ومن العلماء بالله من يكون ترك الزلة في الحال عندهم أن لا يشهدوا أنها زلة وهو عين قضاء الله فيها لأنه الذي حكم أنها زلة، ومن حيث إنها فعل من أفعال الله فهي في غاية الحسن والجمال، وإنما سميت زلة من زلّ إذا زلق أي زلّت من نسبة كونها من أفعال الله إلى حكم الله فيها بالذم، فحكم الله فيها بالزلل عن هذه المرتبة فاعلم.

ومن العلماء بالله من يكون ترك الزلة في حقّه أن يشهد الزلة في ذلك الفعل من كونها زلة لا من كونها فعلاً يتعلق به الذم أو الحمد، فيشهد نسبتها للعبد التي بها سميت زلة ثم يتبعها الذم، وإن كان كل فعل إلهيّ نسب إلى العبد من هذا الباب فجميع الأفعال الكونية كلها زلل محمودها ومذمومها، ومن الناس من يكون ترك الزلة في الحال في حقّه شغله برجوعه إلى ربه، والذلة رجوعه عن ربه فهو في النقيض، ومن هو في النقيض بالحال لا يكون في نقيضه فبالضرورة لا يكون له في هذه الحال زلة. ومن الناس من يكون ترك الزلة في الحال في حقّه هو شغله بشهوده رجوع الحق عليه ليرجع إليه ليفرق ما بين رجوعه عليه ليرجع إليه وبين رجوع آخر لا ليرجع إليه ليميز بين الرجوعين ليقيم على نفسه ميزان ما يجب عليه في

ذلك من الله من عمل من الأعمال من ذكر بلسان أو قلب أو عمل بجارحة أو المجموع أو بعض المجموع، ومن كان بهذه المثابة من الشغل فلا تقوم به زلة في الحال. ومن الناس من يكون ترك الزلة في الحال في حقه أن يشهد رجوع الحق إليه لا ليميز ولا ليرجع إليه، بل ليعلم حقيقة معنى الرجوع الإلهيّ لماذا ينسبه هل إلى الذات أو لاسم إلهيّ؟ وما سبب ذلك الرجوع هل هو ذاتيّ أو غير ذاتيّ أو لا نسبة له إلى الذات؟ فهذه الوجوه وأمثالها ممّا يطلبه ترك الزلة في الحال.

وأما الركن الثاني وهو الندم على ما فات وهو عند الفقهاء الركن الأعظم بمنزلة قوله: «**الحَجُّ عَرَفَةُ**» لأنه الركن الأعظم، وهنا تتشعب أمور كثيرة في التائبين ميم الندم منقلبة عن باء مثل لازم ولازب وهو أثر حزنه على ما فاته يسمى ندماً، والندب الأثر فقلبت ميماً وجعلت لأثر الحزن خاصة، وأما تعلقه بالفوات فمن أصحابنا من رأى أنه تضييع للوقت فإنه ما فات لا يسترجع، ومن أصحابنا من يرى أنه صاحب الوقت وأنّ فائدته أن يجبر له ما مضى ويحتج بقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠].

ومن أصحابنا من يرى أنه لا يندم إلاّ بإحضاره في نفسه ذنبه الحائل بينه وبين ما فاته من طاعة أمر ربه عزّ وجلّ وذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء، فينبغي له أن ينسى ذنبه وهو خلاف الأول فإنه قال: التوبة أن لا تنسى ذنبك والكلام فيما فاته، فمنهم من يندم على ما فاته من الاستغفار في عقب كل ذنب. ومنهم من يرى الندم على ما فاته من الوقت. ومن الناس من يرى الندم على ما فاته من الطاعة في وقت المخالفة. ومن الناس من يرى الندم على ما فاته من فعل الكبائر في وقت المخالفة لأنه يشاهد التبديل كل سيئة بما يوازنها من الحسنات، كقتل نفس بإحياء نفس، وذم بمحمدة، وصدقة بغصب أو سرقة أو خيانة.

ومن الناس من يرى الندم على ما فاته من الحضور مع الله في قضائه بالمعصية في حال المعصية. ومن الناس من يرى الندم على ما فاته من إضافة ذلك الفعل إلى الفاعل في حال الفعل وهو نور عظيم شعشعانيّ حجابه: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [سورة فاطر: الآية ٨] فقرن به السوء لما أضافه إليه فرآه حسناً ولا بدّ من حضرة وجودية وهي التي أوجبت له الحسن الذي رآه محل الفعل إذ العدم لا يراه الممكن، وما ثم حسن إلاّ كونه من أفعال الله، وما أساءه إلاّ إضافته إلى العبد فإنه قال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ﴾ بكونه لربه ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ من كونه عمله فكسبه السوء ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ بالتزيين الإلهيّ، وزينة الله غير محرّمة فهو في نفس الأمر مزيّن بزينة الله، وعند العبد بحسب ما يحضر فيه، فإن حضرة تزيين الشيطان فهو سوء على سوء، وأن حضرة تزيين الحياة الدنيا فهو غفلة في سوء وإن حضرة تزيين الله والإضافة إلى العبد فهو حسن في سوء، فإن أخذ إضافة السوء إلى العمل أدباً إلهياً فهو حسن في حسن.

[الرمل]

كل شيء أنت فيه حَسَنٌ ... لا يبالي حَسَنٌ ما لَبِسَا

من ثوب مخالفة أو موافقة، فإنك إن لم توافق الأمر وافقت الإرادة، ولولا ما بين السيىء والحسن مناسبة تقتضي جمعهما في عين واحدة يكون بها حسناً سيئاً ما قبل التبديل في قوله: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠] ولا كان يتصف سوء العمل بالحسن في رؤيته، فما اتصف بالحسن عنده حتى قبل العمل صفة الحسن في وجه من الوجوه الوجودية فهو سوء بالخبر حسن بالرؤية، فكأنّ الرؤية لا تصدق الخبر وشاهد الرؤية أقطع. [الوافر]

ولكنْ للعيان لطيفُ معنًى لذا سأل المعاينةَ الكليمُ

والناس يطلبون أن يصدق الخبر الخبر، والخبر الرؤية، ولم نر أحداً يطلب أن يصدق الخبر الرؤية كما يصدق الخبر الخبر، ولهذا اختلف في شهادة الأعمى ولم يختلف في شهادة صاحب البصر، ولهذا قال في الآية: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ [سورة فاطر: الآية ٨] أي يحيره في مثل هذا حيث وصفه بالسيء والحسن، فلا يدري المكلف ما يغلب، وبقوله: ﴿زُيِّنَ﴾ بنية ما لم يسم فاعله فلا يدري من زيّنه؟ هل تزيين الله أو تزيين الشيطان أو تزيين الحياة الدنيا؟ ثم قال: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [سورة فاطر: الآية ٨] أي يوفق للإصابة في معنى السوء والحسن لهذا العمل ما معناه وكيف ينبغي أن يأخذه ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [سورة فاطر: الآية ٨] أي فلا تكترث لهم حسرة عليهم فهي بشرى من الله بسعادة الجميع، فإنه ما حيل بينه ﷺ وبين إنسانيته فهو إنسان في كل حال ولا تزول الحسرات عنه وهو إنسان كامل إلاّ باطلاعه على سعادتهم في المآل فلا يبالي من العوارض فإنّ السوء للعمل عارض بلا شك، والحسن له ذاتي، وكل عارض زائل وكل ذاتيّ باق لا يبرح ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحشر: الآية ١٨] أي عليم عن ابتلاء ﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [سورة فاطر: الآية ٨] من كل ما يظهر فيكم من الأفعال وعنكم، وفي هذا الركن أيضاً في قوله: ما فات من فات من فلان فلاناً جوداً إذا أربى عليه في الجود وزاد فهذا يرى الندم في التوبة على ما فات، أي ما زاد حسن السيئة المبدّلة على حسن الحسنة غير المبدّلة، فإن حسن الحسنة بنفسها لا بأمر آخر، وحسن السيئة إذا أبدلت لها حسنان: حسن ذاتيّ وهو الحسن الذي لكل فعل من حيث ما هو لله، وحسن زائد وهو ما خلع الحق على هذا الفعل بالتبديل، فكسى ما ظهر فيه من السوء حسناً ففات سوء العمل حسن على حسن العمل بما كساه الحق، فالحسنة كشخص جميل في غاية الجمال لا بزة عليه، وشخص جميل مثله في غاية الجمال طرأ عليه وسخ من غبار فنظف من ذلك الوسخ العارض فبان جماله ثم كسى بزة حسنة فاخرة تضاعف بها جماله وحسنه ففات الأوّل حسناً، فالتائب يندم على ما فات حيث لم تكن أفعاله كلها معلومة له أنها بهذه المثابة فيتصل فرحه، قال في هذه الآية: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ أي يستر عمن شاء الوقوف على مثل هذا كشفاً ﴿رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ٩٦] رحمة به لمعنى علمه سبحانه لم يعينه لنا فندم مثل هذا الذي هو أثر الحزن مثل ما يجده المحب على محبوبه من الوجد والحزن والكرب والندم على ما فرط في حق محبوبه الذي زيّن له، فكان يتلقاه بأعظم ممّا تلقاه من الحرمة والحشمة. يقول لسان آدم: [الطويل]

فيا طاعتي لو كُنتِ كُنتُ بحسرة ومعصيتي لولاكِ ما كنتُ مجتَبَى

قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ١٢٢] فالله كان التائب لا آدم، والذي صدر من آدم ما اقتضته خاصية الكلمات التي تلقاها وما فيها ذكر توبة، وإنما هو مجرّد اعتراف وهو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ حيث عرّضوها إلى التلف، وكان حقها عليهم أن يسعوا في نجاتها بامتثال نهي سيدهم ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا﴾ أي وإن لم تسترنا عن وارد المخالفة حتى لا يحكم سلطانه علينا وترحمنا بذلك الستر ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٣] ما ربحت تجارتنا، فأنتج لهم هذا الاعتراف قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ١٢٢] أي رجع عليهم بستره، فحال بينهم ذلك الستر الإلهي وبيّن العقوبة التي تقتضيها المخالفة، وجعل ذلك من عناية الاجتباء أي لما اجتباه أعطاه الكلمات وهدى أي بيّن له قدر ما فعل، وقدر ما يستحقه من الجزاء، وقدر ما أنعم به عليه من الاجتباء، ومع التوبة قال له: ﴿فَٱهۡبِطۡ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٣] هبوط ولاية واستخلاف لا هبوط طرد، فهو هبوط مكان لا هبوط رتبة:

هُبُوطُ مكان لا هُبُوطُ مكانةٍ لتلقَى به فوزاً وملكاً مخلَّدَا

كما قال من أغواه صدقاً لكونه رآه كلاماً من إله مُسَدَّدَا

فإنّ إبليس قال له: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ١٢٠] فسمع ذلك الخطاب من ربه تعالىٰ فكان صدقاً لحسن ظنّه بربه فعرض له من أجل المحل الذي ظهر فيه خطاب الحق وأورثه ظهور السوءأت من أجل المحل وأورثه الأكل الخلد والملك الذي لا يبلى، ولكن بعد ظهور سلطانه ونيابته ونيابة بنيه في خلقه حكماً مقسطاً عدلاً يرفع القسط ويضعه أورثه ذلك كله توبة ربه. واعلم أن توبة ربه مقطوع لها بالقبول، وتوبة العبد في محل الإمكان لما فيها من العلل وعدم العلم باستيفاء حدودها وشروطها وعلم الله فيها، فالعارفون آدميون يسألون من ربهم أن يتوب عليهم، وحظهم من التوبة الاعتراف والسؤال لا غير ذلك، هذا معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [سورة النور: الآية ٣١] أي ارجعوا إلى الاعتراف والدعاء كما فعل أبوكم آدم، فإن الرجوع إلى الله بطريق العهد وهو لا يعلم ما في علم الله فيه خطر عظيم، فإنه إن كان قد بقي عليه شيء من مخالفة فلا بدّ من نقض ذلك العهد فينتظم في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧] فلم ير أكمل معرفة من آدم عليه السلام حيث اعترف ودعا وما عهد مع الله توبة عزم فيها أنه لا يعود كما يشترطه علماء الرسوم في حدّ التوبة فالناصح نفسه من سلك طريقة آدم. فإنّ في العزم سوء أدب مع الله بكل وجه، فإنه لا يخلو أن يكون عالماً بعلم الله فيه أنه لا يقع منه زلة في المستأنف أم لا، فإن كان عالماً بذلك فلا فائدة في العزم على أن لا يعود بعد علمه أنه لا يعود، وإن لم يعلم وعاهد الله على ذلك وكان ممّن قضى الله عليه أن يعود ناقض عهد الله وميثاقه، وإن أعلمه الله أنه يعود فعزمه بعد العلم أنه يعود مكابرة، فعلى كل وجه لا فائدة للعزم في المستأنف لا لذي العلم ولا لغير العالم، فالتوبة التي طلب منّا إنما هي صورة ما جرى من آدم عليه السلام، هذا

معنى التوبة عند أهل الله فإن الله يحب كل مفتن توّاب أي كل من اختبره الله في كل نفس فيرجع إلى الله فيه لا عزم أنه لا يعود لما تاب منه فهو جهل على الحقيقة، فإنّ الذي تاب منه من المحال أن يرجع إليه، وإن رجع إنما يرجع إلى مثله لا إلى عينه، فإنّ الله لا يكرّر شيئاً في الوجود، فالعالم بذلك لا يعزم على أنه لا يعود، والذي ينظره أهل الله أنّ التائب يعزم أنه لا يعود أن ينسب إليه ما ليس إليه، وإن عاد بنسبته إليه فقد علم عند العزم أنّ ذلك العود إلى الله لا إليه، فلا تضرّه الغفلة بعد تصحيح الأصل وهو بمنزلة النية عند الشروع في العمل، فإنّ الغفلة لا تؤثر في العمل فساداً، وإن لم يحضر في أثناء العمل ما أحضره عند الشروع فهكذا العازم في عزمه.

واعلم أنّ مقام التوبة من المقامات المستصحبة إلى حين الموت ما دام مخاطباً بالتكليف أعني التوبة المشروعة، وأما توبة المحققين فلا ترتفع دنيا ولا آخرة فلها البداية ولا نهاية لها إلاّ أن يكون الاسم التوّاب في المظهر عين الظاهر، فلا بدء في أحواله ولا نهاية، وإن كانت كل توبة لها بدء والتوبة الكونية ملكية جبروتية عند الجماعة وهو محل إجماعهم، وزاد بعضهم: إنها ملكوتية، فمن لم ير أنها ملكوتية قال: إنها تعطي صاحبها ثمانمائة مقام وثمانية مقامات، ومن رأى أنها ملكوتية قال: إنها تعطي أربعمائة مقام وثلاثة عشر مقاماً، والواقفية أرباب المواقف مثل محمد بن عبد الجبار النفّريّ وأبي يزيد البسطاميّ قال: هي غيبية آثارها حسية وجميع ما تتضمنه هذه المعاملات من المقامات الإلهية الجسام ما فيها مقام يتكرّر على ما قد تقرر في الأصل ولو تاب الخلق كلهم ملك، وإنس، وجان، ومعدن، ونبات، وحيوان، وفلك، ونالوا هذه المقامات كلها لما اجتمع اثنان في ذوق واحد منها وهي منازل فيها ينزلها العبد إذا أحكم ذلك المقام الذي هو التوبة أو غيره، ويعطيه كل منزل منها من الأسرار والعلوم ما لا يعلمه إلاّ الله، ولهذا المقام الحجاب والكشف.

وممّا يؤيد ما ذكرناه من أنّ التوبة اعتراف ودعاء لا عزم على أنه لا يعود ما ثبت في الأخبار الإلهية وصحّ أنّ العبد يذنب الذنب، ويعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ولم يزد على هذا مثل صورة آدم سواء، ثم يذنب الذنب فيعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب فيقول الله له في ثالث مرة أو رابع مرة: اعمل ما شئت فقد غفرت لك، وهذا مشروع أن الله قد رفع في حق من هذه صفته المؤاخذة بالذنب على من يرى أن الخطاب على غير من ليس بهذه الصفة منسحب. وأما ظاهر الحديث فإن الله قد أباح له ما قد كان حجر عليه لأجل هذه الصفة، كما أحلّ الميتة للمضطرّ وقد كانت محرمة على هذا الشخص قبل أن تقوم به صفة الاضطرار، ثم أنه قد بيّنا أن من عباد الله من يطلعه الله على ما يقع منه في المستأنف فكيف يعزم على أن لا يعود فيما يعلم بالقطع أنه يعود ولم يرد شرع نقف عنده أن من حدّ التوبة المشروعة العزم في المستأنف فلم تبق التوبة إلاّ ما قرّرناه في حديث آدم عليه السلام. ثم يؤيّد ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٨] يعني في الحالتين ما هم أنتم ينظر إليه قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة

الأنفال: الآية ١٧] وقوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] وقوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الحشر: الآية ٥] والإذن الأمر الإلهيّ أمر بعض الشجر أن تقوم فقامت، وأمر بعض الشجر أن تنقطع فانقطعت بإذن الله لا بقطعهم، وبإذن الله لا بتركهم، مع كونهم موصوفين بالقطع والترك، فإنه لا يناقض إذن الله، فإن إذن الله لها في هذه الصورة كالاستعداد في الشيء، فالشجرة مستعدّة للقطع فقبلته من القاطع فقوله: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يعني للشجرة كقوله: ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٠] فالنفخ من عيسىٰ لوجود الروح الحيواني، إذ كان النفخ أعني الهواء الخارج من عيسىٰ هو عين الروح الحيواني، فدخل في جسم هذا الطائر وسرى فيه، إذ كان هذا الطائر على استعداد يقبل الحياة بذلك النفس كما قبل العجل الحياة مما رمى فيه السامريّ فطار الطائر بإذن الله كما خار عجل السامريّ بإذن الله ولهذا قال: ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [سورة الحشر: الآية ٥] الخارجين عن معرفة هذا الإذن الإلهيّ الذي قطع هذه الشجرة وترك الأخرى.

ولشيوخنا في هذا المقام حدود أذكر منها ما تيسر وأبين عن مقاصدهم فيها بما يقتضيه الطريق، وهكذا أفعل إن شاء الله في كل مقام إذا وجدنا لهم فيه كلاماً، على أنهم إذا سئلوا عن ماهية الشيء لم يجيبوا بالحد الذاتي، لكن يجيبون بما ينتج ذلك المقام فيمن اتصف به، فعين جوابهم يدل على أن المقام حاصل لهم ذوقاً وحالاً، وكم من عالم بحدّه الذاتيّ وليس عنده منه رائحة بل هو عنه بمعزل بل ليس بمؤمن رأساً وهو يعلم حدّه الذاتيّ والرسميّ، فكان الجواب بالنتائج والحال أتم بلا خلاف، فإنّ المقامات لا فائدة فيها إلاّ أن يكون لها أثر في الشخص لأنها مطلوبة لذلك لا لأنفسها والله المرشد.

واختلف أصحابنا ما أوّل منزل من منازل السالكين فقال بعضهم: اليقظة، وقال بعضهم: الانتباه، وقال بعضهم: التوبة. وروي أن رسول الله ﷺ قال: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**» فقد يخرج مخرج قوله: «**الحَجُّ عَرَفَةُ**» ولو قال ﷺ: «**النَّدَمُ التَّوْبَةُ**» لكان أقرب إلى الحدّ من قوله: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**» وقد تقدّم الكلام في الشروط الثلاثة المصححة للتوبة في هذا الباب، قال بعضهم وهو أبو عليّ الدقاق: التوبة على ثلاثة أقسام: لأنّ لها بداية ووسطاً وغاية، فبدؤها يسمّى توبة، ووسطها يسمّى إنابة، وغايتها يسمّى أوبة، فالتوبة للخائف، والإنابة للطائع، والأوبة لراعي الأمر الإلهيّ، يشير بهذا التقسيم إلى أن التوبة عنده عبارة عن الرجوع عن المخالفات خاصة والخروج عما يقدر عليه من أداء حقوق الغير المترتبة في ذمّته ممّا لا يزول إلاّ بعفو الغير عن ذلك أو القصاص، أو ردّ ما يقدر على ردّه من ذلك. وقال رويم وقد سئل عن التوبة: التوبة من التوبة، كما قال ابن العريف: [السريع]

قد تابَ أقوامٌ كثيرٌ وما ... تابَ من التَّوْبة إلاّ أنا

ومقالات القوم في التوبة كثيرة مذكورة في كتب المقامات للمنذريّ والقشيري والمطوعي وعمرو بن عثمان المكيّ وغيرهم فلينظر هنالك.

الباب الخامس والسبعون
في ترك التوبة

[نظم: الوافر]

متى خالفته حتى تتوبا فتركُ التوب يؤذنُ بالشهودِ
فقل للتائبين لقد حُجبْتُم عن إدراك الحقائق بالورودِ
فممن أو إلى من قد رجعتم وليس سوى المسوَّدِ والمَسُودِ
فمن عين الذي قد جئتُ منه إليه به ومن عينِ العبيدِ
وأسماءُ الإله هي التي لم تَزلْ موصوفةً بسَنَا الوجودِ

اعلم وفقك الله أنه من كان صفته ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُۢ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٤] ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [سورة العلق: الآية ١٤] ﴿الَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢١٨] ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] فلا يتوب إلاً من لا يشعر ولا يبصر، هذا القرب والشعور علم إجماليّ قطعي أن ثم مشعوراً به لكن لا يعلم ما هو ذلك المشعور به، فالعلم بالله شعور، والشعور لا علم بما هو عليه المشعور به، وعلمه بنا ليس كذلك، فلا يصرف العبد معناه إلى معنى إلاً والحق في الصارف والمصروف والصرف، فإلى أين أتوب إن نادى فهو المنادي لأنه لا ينادي إلاً من يسمع وهو سمعك فلا تسمع إلاً به فما فقدته في ندائه إياك، هذا حدّ العلم الصحيح ولهذا لم يأمر بالتوبة إلاً المؤمنين فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة النور: الآية ٣١] بغير ألف لحكمة أخفاها يعرفها العالم ولا يشعر بها المؤمن فهي بالألف هاء التنبيه إذا قال: أيها المؤمنون، وهي بغير الألف هي هويته، قرأها الكسائي برفع هاء أيه وحذف الواو لالتقاء الساكنين يقول: هو المؤمنون لأنه المؤمن وما يسمع نداء الحق إلاً بالحق، والسامع مؤمن، والسامعون كثيرون، فهو المؤمنون، فترك التوبة ترك الرجوع لأنه قال: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ لمن كان في ظلمة كونه ﴿فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [سورة الحديد: الآية ١٣] انظروا إلى موجدكم وهو النور الذي به الظهور، فإذا رأيتم النور كشف لكم عنكم فعلمتم أنه أقرب إليكم منكم ولكن لا تبصرون لعدم النور، فلما حصلت لهم المعرفة هنا بهذا القدر لم تصح منهم توبة عندهم أنهم تائبون: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ فكان هو التائب على الحقيقة والعبد محل ظهور الصفة ولذلك قال: ﴿لِيَتُوبُوا﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٨] وهو لفظ المبالغة إذ كانت له التوبة الأولى من قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ والثانية من قوله: ﴿لِيَتُوبُوا﴾ فالتوبتان له من كل عبد فهو التواب لا هم ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] وهذا حكم سار في جميع أفعال العباد، فما تاب من تاب ولكنّ الله تاب، ولهذا قالت الجماعة: التوبة ترك التوبة والتوبة من التوبة فنفيها إثباتها وإثباتها نفيها، فترك التوبة حال التبرّي من الدعوى، فليست التوبة المشروعة إلاً الرجوع من حال المخالفة

إلى حال الموافقة، أعني مخالفة أمر الواسطة إلى موافقة أمرها لا غير.

والتوبة من التوبة هي الرجوع منه إليه به، فالتوبة من التوبة لها الكشف وما لها حجاب وصاحبها مسؤول لأنه تبرأ من الدعوى بها أعني بالدعوى، وكل مدّع مطالب بالبرهان على صحة دعواه، فالمكمل من يثبت التوبة حيث أثبتها الحق ولمن أثبتها ولا يعديها محلها، فلها رجال يقومون بها ولها رجال يحكمون بها وهم عنها مبعدون لأنها حالة غربة، وهم في الموطن الذي فيه ولدوا، فلا غربة ما يرجع إلى أهله إلاّ الغائب والغائب غريب فالغرباء هم التائبون، فالمحبة من الله لهم محبة أهل الغائب إذا ورد عليهم غائبهم، فمن كان من أهله مشاهداً له في حال غربته لم يفرح به لنفسه فإنه غير فاقد له، وإنما فرحه به لفرحه برجوعه إلى موطنه، فهو فرح موافقة كمحبة المحبوب لمحبة لأنها عين حبه لنفسه، ولهذا يبغض من يبغضه لحبه لنفسه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] إليه في كل حال من خلاف ووفاق فهو مقبول محبوب على كل حال، وإذا كانت التوبة تحب لأجل الوصلة فالمتصل لا يتصل فهو أشد في المحبة وأعظم في اللذة وهو المعبر عنه بترك التوبة. ومن رأى أن الأمر الإلهيّ واتساع الحقيقة الربانية لا يدوم لها حال معين ولا ينبغي ولذلك ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] ولا يكرّر فلا تصحّ توبة فإنها رجوع، ولا يكون رجوع إلاّ من مفارقة لأمر يرجع إليه والحق على خلافه فلا رجوع فلا توبة.

وقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] لما تغرب الأمر عند المحجوبين عن موطنه بما ادّعوه فيه لنفوسهم قيل لهم: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ لو نظرتم لرأيتم من نسبتم إليه هذا الفعل منكم إنما هو الله لا أنتم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٤] من دعواكم إنّ الأمر إليكم وهو لله، فالأصل أنه لا رجوع وأنّ الأمر في مزيد إلى ما لا نهاية له ولا إحاطة، إذ لا نهاية لواجب الوجود فلا نهاية للمكنات إذ هو الخلاق دائماً، ولا يصح أن يزول عنه هذا الحكم لأنه ما لا يثبت نفيه إلاّ بإثباته فنفيه محال، فكل باب من أبواب هذا الكتاب ممّا يقتضي ترك ما أثبتناه في الباب الذي قبله فهو كالذيل له فهو منه، فنسوقه مختصراً لأنه لا يحتمل التطويل، وهو فصل من فصول الباب الذي قبله فنقتصر في ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والسبعون
في المجاهدة

[نظم: الكامل]

سبِّحْ إلهكَ بكرةً وأصيلاً ... فالشُّغْلُ يرجع بالهدى إكليلا
جاهدْ هواكَ ولا تكنْ ذا فَتْرَةٍ ... فيه وكن للنائبات خليلا
إن المجاهدَ لا يزال مكابداً ... يَهْوَى الخطوبَ ويعشق التَّغليلا
لا تركنَنّ إلى البطالة إنها ... تُرْدي وكن للحادثات وَصُولا

اعلموا وفقكم الله أني لما شرعت في الكلام على هذا الباب أريت مبشرة عرفت فيها أن الناس لا بدّ أن ينزل بهم أمر إلهي عارض يحتاجون فيه إلى حمل مشقة وجهد نفسي وحسّي، وقيل لي: لا تغفل في كل باب أن تدرج فيه الحروف الصغار وتبين أن بإشباعها تكون الحروف الثلاثة التي هي حروف العلة وهي حروف المد واللين وهي الحروف المركبة من علة ومعلول ويكون كلامك فيها وإشارتك إلى الأربعة الأصناف، وهم العارفون الذين لهم العوارف الإلهية الوجودية الجودية في معرفتهم، وأهل المواقف عند الحدود الإلهية لتلقي الأدب بين كل مقامين عند الانتقال في حال لا يتصفون فيه بالمقام الأول ولا بالثاني وهم أهل البرازخ، وكذلك أيضاً أهل الوصال والأنس تعين ما لهم من الدرجات في كل مقام كما تبين ما لأهل المواقف سواء حتى لا يختلط على السالك، وكذلك أيضاً المنكرة أحوالهم وهم الملامية الذين يعرفون ولا يعرفون تميّزهم من أهل عوارف المعارف وتظهر ما لهم من الكمال وهم العلماء بالله، فهؤلاء الأربعة لا بدّ من تمشية أحوالهم في كل مقام وهم: العارفون والملامية وأهل الأنس والوصال وأصحاب المواقف والقول وهم الأدباء، فإنك مأمور بالنصح لعباد الله عن أمر الله والدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم. فلما فرع وارد البرزخ في الواقعة قمنا من مرقدنا وسألنا الله تعالىٰ العصمة في القول والعمل والحال، وكنت أرى معي في هذه الواقعة صاحبنا تاج الدين عباس بن عمر السراج وهو الذي كان ينبهني عن الحق تعالىٰ على الكلام في الحروف الصغار التي تتولد عنها حروف العلل الثلاثة، فلنبين أولاً ما المراد بالحروف الصغار وما مراتب أولادها وهي حروف العلل، وإن كنا قد ذكرناها في الباب الثاني من باب الحروف من هذا الكتاب فلا بدّ من ذكر طرف هنا منها لأجل الواقعة.

فصل: اعلم أن المراد بالحروف الصغار الحركات الثلاثة وهي: الضمة والفتحة والكسرة، ولهذه الحروف حالان: حال إشباع وحال غير إشباع، فإذا اتصف واحد منها بالإشباع كان علة لوجود معلول يناسبه، فإن أشبعت الضمة كان عنها الواو المعلولة، وإن كانت فتحة كان عنها الألف، وإن كانت كسرة كان عنها الياء المعلولة، وإنما قيدنا الواو والياء بالعلة لأنهما قد يوجدان في مقام الصحة غير موصوفين بالعلية والألف لا توجد أبداً إلاّ معلولة ولذلك لا يكون ما قبلها إلاّ مفتوحاً أبداً، فهذه تسمى حروف العلة أي وجدت معلولة عن هذه العلل فخرجت على صورة عللها في الحكم فأعربت بها الكلمات كما أعربت بعللها، تقول: زيد أخوك فعلامة الرفع في زيد ضمة الدال، وعن إشباع الضمة في قولك: أخوك تكون الواو علامة الرفع في أخوك، وكذلك في النصف في رأيت زيداً أخاك، وفي الخفض: مررت بزيد أخيك، وكذلك رأيت أخاك زيداً الفتحة في زيد علامة النصب، والألف في أخاك المتولدة عن فتحة الخاء علامة النصب، وكذلك مررت بأخيك زيد، فالكسرة في زيد علامة الخفض، والياء في أخيك علامة الخفض، فأعطيت الياء حكم معلوله فأعلت الكلمة هذه الحروف فلها حكم آبائها إلى الذي هو الرفع له من الأسماء العلي، والفتح له من الأسماء الرحمن ما يفتح الله للناس من رحمة، والكسر له من الأسماء المتعالي، وآثار

هذه الأسماء الإلهية في الكون معلومة كما هي في الحق متميزة بحدودها يمتاز بعضها عن بعض، وقد بيّناها في الباب الثاني من أبواب هذا الكتاب، وبيّنا فيه حركات البناء من حركات الإعراب، ومرتبة السكون الحيّ والميت، وإلحاق النون بحروف العلة في حكم الإعراب في الخمسة الأمثلة من الفعل وهي: يفعلان وتفعلان ويفعلون وتفعلون وتفعلين، وإثباتها إعراب وحذفها إعراب بحسب العوامل الداخلة عليها.

ولما كان المعلول موصوفاً بالمرض كان ذا جهد ومشقة لما يقاسيه من ألم العلة القائمة به، إذ لا يوجد عن العلة إلاّ معلول، فلهذا جعلناه في باب المجاهدة لأن المجاهدة مشقة وتعب وبها سمّي الجهاد جهاداً، ودين الله يسر وقول الله صدق حيث قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥] ولهذا جعلنا باباً لترك الجهاد وهو الذي يلي هذا الباب وهو الباب السابع والسبعون في ترك المجاهدة لا ترك العمل لأن المجاهدة حال الأعمال في وقت والأحوال مواهب والأعمال مكاسب، ولهذا أقيم الكسب مقام العمل والعمل مقام الكسب فجاء في آية ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [سورة النحل: الآية ١١١] وفي آية ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨١] فسمّى العمل كسباً، وناب كل واحد منهما مناب صاحبه، ولهذا قلنا في الأعمال مكاسب، ومن العمال من يكون عليهم في عملهم مشقة وهي المجاهدة، ومنهم من لا يجدها فلا يكون صاحب مجاهدة، فلو اقتضى العمل المشقة لكانت صفة كل عامل.

واعلم أيّدك الله أن المجاهدين هم أهل الجهد والمشقة والمكابدة وهم أربعة أصناف: مجاهدون من غير تقييد بأمر وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [سورة النساء: الآية ٩٥] والصنف الثاني: مجاهدون بتقييد في سبيل الله وهو قوله: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ٩٥] والصنف الثالث: المجاهدون فيه وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت الآية ٦٩] أي نبين لهم حتى يعلموا فيمن جاهدوا فيجاهدون عند ذلك أو لا يجاهدون. والصنف الرابع: والمجاهدون ﴿فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] فميزهم عن المجاهدين من غير هذا التقييد كالذين يتقون الله ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٢] ويتلون الكتاب ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢١] فهي مرتبة رابعة في الجهاد، وهذه المجاهدة من المقامات المستصحبة للتكليف، فما دام التكليف موجوداً كانت المجاهدة قائمة العين، فإذا زال حكم التكليف زالت المجاهدة، ولهذا نفّس الله عن المكلفين بصنف المباح لما شفعت فيهم الصورة التي خلقوا عليها لأنها غير محجور عليها، فلما رأت من يشبهها قد حجر عليه سألت فيه رفع الحجر عنه فقيل لها: إلى ذلك ما له في الآخرة، فقالت: فلا بد له أن يكون له حكم في الحياة الدنيا ليكون لي بشرى بقبول الشفاعة، فإنك القائل ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٤] فإن هذه الصورة متنزهي وموضع نظري، فإذا رأت عليها التحجير أرى الانكسار فيها ولا نرى أثراً لعنايتي فيها مع كونها مخلوقة على صورتي ولا تحجير عليّ، فشرع الله لها في الدنيا المباح، فلا تنظر إليها الصورة الإلهية إلاّ في

وقت تصرّفها في المباح وهو أرفع أحوال النفس في الدنيا فإنه من الحياة الأخرى التي لا تحجير فيها، فإذا انتقلت من المباح إلى مكروه أو مندوب أعرضت الصورة عن المكلف قليلاً ونأت بجانبها مع بعض التفات إليها، فإذا انتقلت إلى محظور أو فعل واجب أسدلت الحجاب وأعرضت بالكلية عن ذلك المكلف، فلما رأى ذلك من كلفها وحجر عليها وهو الله تعالىٰ أوجب على نفسه ما أوجبه مثل قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم: الآية ٤٧] فرفع الحجاب ونظرت الصورة إلى كل واحد في كل حال من أحوال الأحكام.

فانظر يا ولي ما ألطف الله وما أرأفه بعباده حيث شرّك نفسه معهم في حكم الوجوب، وما أسقط الوجوب عنهم بل أدخل نفسه معهم فيه، إذ قد اتصفوا به ابتداء، فلو أزاله عنهم لم يقم عندهم مقام إدخال نفسه معهم فيه أي ذقنا ما ذوّقناكم هذا، وغاية اللطف في الحكم والتنزّل الإلهيّ كما نزل معهم في العلم المستفاد، إذ كان علمهم مستفاداً فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] وهو العليم فآنسهم وفيه حكم إيمان يعتض به من يسمع ممّن لا يعرف الله قولهم: إن الله لا يعلم الجزئيات وإن كانوا قصدوا بذلك التنزيه، وهذه مسألة لا يمكن تحققها بالعقل ما لم يكن الكشف بكيفية تعلق العلم الإلهي بالمعلومات، وأنه ليس في حق الحق ماض ولا آت وإن آنه لم يزل ولا يزال لا يتصف آنه بأنه لم يكن ثم كان ولا بانقضاء بعدما كان، وربما يعطي الله هذه القوّة لمن شاء من عباده، وقد ظهر منها نفحة على محمد ﷺ علم بها علم الأوّلين والآخرين، فعلم الماضي والمستقبل في الآن، فلولا حضور المعلومات له في حضرة الآن لما وصف بالعلم بها، فهذا يعلم أن الله يعلم الجزئيات علماً صحيحاً غاب عنه من قصد التنزيه بنفيه عن جناب الحق.

ثم نرجع ونقول: إن المجاهدة حمل النفس على المشاق البدنية المؤثرة في المزاج وهناً وضعفاً، كما أن الرياضة تهذيب الأخلاق النفسية بحملها على احتمال الأذى في العرض والخارج عن بدنه مّما لا حركة فيه بدنية، ثم إن هذه الحركات البدنية المحمودة شرعاً منها حركات في سبيل الله مطلقاً وهي أنواع سبيل كل برّ مشروع فمنه ما فيه مشقة فيسمى مجاهدة ومنه ما لا مشقة فيه فيرتفع عنها حكم هذا الاسم وهذا الباب مخصوص بما فيه مشقة، وبها أسميناه باب المجاهدة فنظرنا إلى أعظم المشاق فلم نجد أعظم من إتلاف المهج في سبيل الله وهو الجهاد في سبيل الله الذي وصف الله قتلاه بأنهم أحياء يرزقون، ونهى أن يقال فيهم أموات ونفي العلم عمّن يلحقهم بالأموات للمشاركة في صورة مفارقة الإحساس وعدم وجود الأنفاس، وهذا من أدل دليل على إبطال القياس لأن المعتقدين موت المجاهدين المقتولين في سبيل الله إنما اعتقدوه قياساً على المقتول في غير سبيل الله بالعلة الجامعة في كونهم رأوا كل واحد من المقتولين على صورة واحدة من عدم الأنفاس والحركات الحيوانية، وعدم الامتناع ممّا يراد من الفعل بهم من قطع الأعضاء وتمزيق الجلود وأكل سباع الطير والسباع واستحالة أجسامهم إلى الدود والبلى، فقاسوا فأخطؤوا القياس، ولا قياس أوضح من هذا، أو لا أدل في

وجود العلة منه، ومع هذا أكذبهم الله وقال لهم ما هو الأمر في المقتول في سبيلي كالمقتول في غير سبيلي ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩، ١٧٠] فقال لهم ذلك الحكم الذي حكمتم عليّ ليس بعلم، وإذا لم يكن علماً لم يكن صحيحاً، وإذا لم يصح لم يجز الحكم به مع علمنا بأخبار الله أن ذلك ليس بصحيح.

ثم قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٤] فنفى عنهم العلم الذي أعطاهم القياس، فإذا كان حكم هذا القياس على وضوحه وعدم الريب فيه وتوفر أسبابه وظهور علله الجامعة بينه وبين غيره من القتلى وهو باطل بأخبار الله فما ظنك بقياس الفقهاء في النوازل وقياس العقلاء بحكم الشاهد على الغائب في معرفة الله؟ هيهات صدق الله وكذب أهل القياس على الله، والله لا أشبه من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] من مثله الأشياء، فلما كان إتلاف المهج أعظم المشاق على النفوس لهذا سمّي جهاداً، فإن النفوس نفسان: نفس ترغب في الحياة الدنيا لألفتها بها فلا يريد المفارقة وتشق عليها، ونفس ترغب في الحياة الدنيا لتزيد بذلك طاعة وأفعالاً مقرّبة ومعرفة إلهية وترقياً دائماً مع الأنفاس، فشق عليها مفارقة الحياة الدنيا فلهذا سمّي جهاداً في حق الطائفتين.

فأما المجاهدون في سبيل الله وهي الطريق إلى الله أي إلى الوصول إليه من كونه إلهاً فهو جهاد لنيل معرفة المرتبة التي عنها ظهر العالم والأحكام فيه، وعنها تكون الخلائف في الأرض، فينالهم في هذه السبل من المشقة ما يناله المسافر في طريقه المخوفة، فإنه في طريق عرّض نفسه في السلوك فيه إلى إتلاف ماله ونفسه ويتم أولاده وفقد مألوفاته، قال تعالىٰ: ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٥] وقال: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١١].

ولما علم الله من العباد أنه يكبر عليه مثل هذا لدعواهم أن نفوسهم وأموالهم لهم كما أثبتها الحق لهم والله لا يقول إلاّ حقاً، فقدم شراء الأموال والنفوس منهم حتى يرفع يدهم عنها فبقي المشتري يتصرّف في سلعته كيف يشاء، والبائع وإن أحبّ سلعته فالعوض الذي أعطاه فيها وهو الثمن أحب إليه ممّا باعه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [سورة التوبة: الآية ١١١] وبعد هذا الشراء أمر أن يجاهد بها في سبيل الله ليهون ذلك عليهم، فهم يجاهدون بنفوس مستعارة أعني النفوس الحيوانية القائمة بالأجسام والأموال مستعارة فهم كمن سافر على دابة معارة ومال غيره وقد رفع عنه الحرج مالكها عندما أعاره إن نفقت الدابة وهلك المال فهو مستريح القلب، فما بقي عليه مشقة نفسية إن كان مؤمناً إلاّ ما يقاسي هذا المركب الحيواني من المشقة من طول الشقة وتعب الطريق، وإن كان في قتال العدوّ فما ينال من الكرّ والفرّ والطعن بالأرماح والرشق بالسهام والضرب بالسيوف والإنسان مجبول على الشفقة الطبيعية فهو يشفق على مركوبه من حيث إنه حيوان لا من جهة مالكه، فإن مالكه قد علم منه هذا المعير أنه يريد إتلافه فذلك محبوب له فلم يبق له عليه شفقة إلاّ الشفقة الطبيعية، فالنفوس التي اشتراها الحق في هذه الآية إنما هي النفوس الحيوانية اشتراها

من النفوس الناطقة المؤمنة، فنفوس المؤمنين الناطقة هي البائعة المالكة لهذه النفوس الحيوانية التي اشتراها الحق منها لأنها التي يحل بها القتل، وليست هذه النفوس بمحل للإيمان وإنما الموصوف بالإيمان النفوس الناطقة، ومنها اشترى الحق نفوس الأجسام فقال: ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهي النفوس الناطقة الموصوفة بالإيمان ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ التي هي مراكبهم الحسية وهي الخارجة للقتال بهم والجهاد، فالمؤمن لا نفس له فليس له في الشفقة عليها إلاّ الشفقة الذاتية التي في النفس الناطقة على كل حيوان.

وأما المجاهدون الذين لم يقيدهم الله بصفة معينة لا في سبيل الله ولا فيه ولا بحق جهاد فهم المجاهدون بالله الذي ليس من صفته التقييد، فجهاده في كل شيء وهو الجهاد العام، ونسبة الجهاد إليه فيه الذي هو المشقة لكونه سمّاه مجاهداً ولم يقيد فيماذا يجاهد فهو حكم القضاء والقدر في الأشياء التي يحصل منه الكره في المقضي عليه بما قضى به عليه، والحق لا يريد مساءته لما له بهذا العبد من العناية فقال في هذا المقام: ما تردّدت في شيء أنا فاعله تردّدي في قبض نسمة عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بدّ له من لقائي، يقول: ولا بدّ له من الموت لما سبق به العلم فيقبضه عن مجاهدة مطلقة غير مقيدة بأذى ولا غيره، ولكن تنبيهه تعالىٰ بالتردد دليل على حكم مناسب حكم المجاهدة فإنه ما جاء به إلاّ ليقيدنا العلم بالأمر على ما هو عليه فإنه سبحانه المعلم عباده العلم وهو قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [سورة القصص: الآية ٨٠] وهو الذي أعطاهم العلم من اسمه الرحمن الذي قال فيه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: الآية ٥].

فالمجاهدون من العباد الذين لا يتقيدون كما أطلقهم الله هم المتردّدون في الأفعال الصادرة أعيانها فيهم هل ينسبونها إلى الله؟ ففيها ما لا ينبغي أن ينسب إليه أدباً وتبرأ الحق منها كما قال: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ١] أو ينسبونها لأنفسهم، ففيها ما ينبغي أن ينسب إلى الله أدباً مع الله ونسبة حقيقية ورأوا الله يقول: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ فنفى وأثبت عين ما نفى. ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فجعل الإثبات بين نفيين، فكان أقوى من الإثبات لما له من الإحاطة بالمثبت، ثم قال: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] في نفس هذه الآية، فعلمنا أن الله حيّر المؤمنين وهو ابتلاؤه بما ذكر من نفي الرمي وإثباته وجعله بلاء حسناً أي إن نفاه العبد عنه أصاب وإن أثبته له أصاب، وما بقي إلاّ أيّ الإصابتين أولى بالعبد وإن كان كله حسناً وهذا موضع الحيرة ولذلك سمّاه بلاء أي موضع اختبار، فمن أصاب الحق وهو مراد الله أي الإصابتين أو أي الحكمين أراد حكم النفي أو حكم الإثبات كان أعظم عند الله من الذي لا يصيب ذلك، فهؤلاء هم المجاهدون الذين فضلهم الله ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ عن هذا النظر ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ٩٥] وما عظم الله فلا يقدر قدره ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾ [سورة النساء: الآية ٩٦] وما جعلها درجة واحدة كما قال في المجاهدين في سبيل الله حيث جعل لهم درجة واحدة ثم زادهم ما ذكر في تمام الآية فهذان صنفان قد ذكرنا.

وأما الصنف الثالث وهم الذين ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨]

فالهاء من جهاده تعود على الله أي يتصفون بالجهاد أي في حال جهاده صفة الحق كما ذكرنا في التردّد الإلهي أي لا يرون مجاهداً إلاّ الله، وذلك لأن الجهاد وقع فيه، ولا يعلم أحد كيف الجهاد في الله إلاّ الله، فإذا ردّوا ذلك إلى الله وهو قوله: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ فنسب الجهاد إليه بإضافة الضمير فكان هو المجاهد لا هم، وإن كانوا محل ظهور الآثار فهم المجاهدون لا مجاهدون، قال الله لموسىٰ: «**يَا مُوسَىٰ اشْكُرْنِي حَقَّ الشُّكْرِ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَىٰ ذَلِكَ؟ قَالَ: إِذَا رَأَيْتَ النِّعْمَةَ مِنِّي فَقَدْ شَكَرْتَنِي حَقَّ الشُّكْرِ**» وهذا الحديث خرجه ابن ماجه في سننه، فكل عمل أضفته إلى الله عن ذوق وكشف ومشاهدة لا عن اعتقاد وحال بل عن مقام وعلم صحيح فقد أعطيت ذلك العمل حقّه حيث رأيته ممن هو له، فحيث ما وقع لك مثل هذا فشرحه ما شرحه بل الله على لسان رسوله فبلغه إلينا وهي طريقة موصلة إلى الله سهلة لينة قريبة المأخذ مستوية﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [سورة طه: الآية ١٠٧]

والصنف الرابع: هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٦٩] الذين قلنا لهم فيها: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣] يعني السبيل التي لكم فيها السعادة، وإلاّ فالسبل كلها إليه لأن الله منتهى كل سبيل فإليه يرجع الأمر كله، ولكن ما كل من رجع إليه سعد، فسبيل السعادة هي المشروعة لا غير، وإنما جميع السبل فغايتها كلها إلى الله أولاً ثم يتولاها الرحمن آخراً، ويبقى حكم الرحمن فيها إلى الأبد الذي لا نهاية لبقائه. وهذه مسألة عجيبة المكاشف لها قليل والمؤمن بها أقل.

ولما كان سبب الجهاد أفعالاً تصدر من الذين أمرنا بقتالهم وجهادهم وتلك الأفعال أفعال الله فما جاهدنا إلاّ فيه لا في العدو، وإذ لم يكن عدواً إلاّ بها، فإذا جاهدنا فيه وتبين لنا بقوله: إذا جاهدنا فيه أن يهدينا سبله أي يبين لنا سبلها فندخلها فلا نرى إذا جاهدنا غيراً فاستغفرنا الله ممّا وقع منا، وكان من السبل مشاهدة ما وقع منا أنه الموقع لا نحن، فاستغفرنا الله أي طلبنا منه أن لا نكون محلاً لظهور عمل قد وصف نفسه بالكراهة فيه، فقد ثبت أنه ما في الوجود إلاّ الله فما جاهد فيه سواه، ولولا ما هدانا سبله ما عرفنا ذلك ولذلك تمّم الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٦٩] والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإذا رأيته علمت أن الجهاد إنما كان منه وفيه.

فهذا قد أعربت لك عن أحوال أهل المجاهدات وهم المجاهدون، والكلام يطول في تفاصيل هذا الباب والكتاب كبير، فإن استقصينا إيراد ما يطلبه منا كل باب لا يفي العمر بكتابته، فإذاً ولا بدّ من الاقتصار، فلنقتصر على ما يجري من كل باب مجرى الأمهات لا غير، وكل أمّ مثل حوّاء مع بني آدم فإنهم بنوها كلهم، فلو أعطانا الله الكتابة الإلهية أبرزنا جميع ما يحويه هذا الكتاب على الاستيفاء في ورقة صغيرة واحدة كما خرج رسول الله ﷺ بكتابين في يده بالكتاب الإلهي الذي ليس لمخلوق فيه تعمل، وأخبر أن في الكتاب الذي في يمينه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم وعشائرهم من أول خلقهم إلى يوم القيامة، والكتاب الآخر مثله في أسماء أهل الشقاء، ولو كان ذلك بالكتاب المعهود ما وسع ورقه المدينة، فمثل ذلك لو وقع لنا

أظهرناه في اللحظة، وقد رأينا تلك الكتاب وهي كالجنة في عرض الحائط والنار وكصورة السماء في المرآة، فلنذكر ما لهذه الصفة التي هي المجاهدة من المقامات التي هي مراتبها ومنازلها الذين ينزلها أهلها وهم الملامية وهم قسمان: أهل أدب بوقوف عند حدّ، وأهل أنس ووصال، وكذلك ما للعارفين من هذا الباب وهم قسمان: أهل أدب ووقوف عند حدّ، وأهل أنس ووصال وهذا سار في كل مقام، فالذي للملامية منه من الصنف الذي له أدب الوقوف عند الحدود فثلاث وخمسون درجة، وإنما عدلنا إلى ذكر الدرجات لما سمعنا الله يقول بالدرجات في فضلهم فاتبعنا ما قال الله فهو أولى بنا، والتي للملامية أهل الأنس والوصال من الدرجات في هذا الباب أربعمائة درجة وثلاث وخمسون، وأما درجات العارفين أهل الأنس والوصال فلهم أربعمائة درجة وأربع وثمانون درجة، وأما الذي لأهل الأدب والوقوف عند الحدود من العارفين فتسع وثمانون درجة تسعون إلاً واحدة بينه وبين درجات الأسماء الإلهية عشرة.

الباب السابع والسبعون

في ترك المجاهدة

[نظم: الخفيف]

لا تـجـاهِـدْ فـإنَّ عـيـنَ الـمُـنـازِعْ ... هـو عـيـنُ الـذي تـجـاهِـدُ فـيـهِ
وإذا كـان واحـداً مـن تـنـاوي ... أيُّ عـقـلٍ يـرضـاه أو يـصـطـفـيـهِ
هـل لـعـيـنِ الـشـريـك عـيـنُ وجـودِ ... فـتـراه بـالـعـلـم أو تـنـفـيـهِ
كيف يُنْفَى من كان في الأصل نفياً ... وهـو نـفـيٌ والـنـفـيُ يَـسْـتَـوْفـيـهِ

لما اطلع المجاهد فيه وفي سبيله وفي الله وفي سبيل الله على السبل التي هداه الله إليها فبانت عنده فرأى أنه ما جاهد غير الله فاستحيى لأجل هذا المشهد فترك الجهاد لاقتضاء الموطن وهو المجاهد تعالىٰ وما هو ممّن يتصف بالمشقة فإنه يقول فيما هو أعظم من هذا: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [سورة ق: الآية ٣٨] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [سورة الروم: الآية ٢٧] وليس هذا الهين عن صعوبة في الابتداء، ولهذا القول بالمفهوم ضعيف في الدلالة لأنه لا يكون حقاً في كل موضع ونسب ذلك إلى الله كما شاهده كما ترك رسول الله ﷺ تعظيم عزّة الله إذا اتصف بها أحد من عباد الله مثل قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [سورة عبس: الآية ١ ـ ٢] فإنه ﷺ كان يحب الفأل الحسن، وبعثه بدعوة الحق وإظهار الآيات إنما يظهرها لمن يتصف بأنه يرى، فلما جاءه الأعمى قام له حقيقة من بعث إليهم وهم أهل الأبصار فأعرض وتولى لأنه ما بعث لمثل هذا، فهذا كان نظره ﷺ وما عتبه سبحانه فيما علمه وإنما عتبه جبراً لقلب ابن أم مكتوم وأمثاله لأنهم غائبون عن الذي يشهده ﷺ وأمره أن يحبس نفسه معهم فقال له: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٨] وكان خباب بن الأرت وبلال وغيرهم من الأعبد والفقراء لما تكبر كبراء قريش وأهل الجاهلية عن أن يجمعهم عند رسول الله ﷺ مجلس واحد وأجابهم إلى

ذلك رسول الله ﷺ فيقول لسان الظاهر: إن النبيّ ﷺ كان يفعل لهم ذلك ليتألفهم على الإسلام لأن واحداً منهم كان إذا أسلم أسلم لإسلامه بشر كثير لكونه مطاعاً في قومه، ويترجم عن هذا المقام لسان الحقيقة أن النبيّ ﷺ لم يشاهد سوى الحق، فأينما يرى الصفة التي لا تنبغي إلاّ لله عظمها ولم يشاهد معها سواها وقام لها ووفاها حقها مثل العزّة والكبرياء والغنى فقال له ربه: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ [سورة عبس: الآية ٥] فنبهه ببنية الاستغفال﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [سورة عبس: الآية ٦] وقد علم أنه لمن تصدّى محمد ﷺ يقول له: وإن كنت تعظم صفتي حيث تراها الغلبة شهودك إياي فقد أمرتك أن لا تشاهدها مقيدة في المحدثين وهو قوله عليه السلام: «**إِنّ اللّهَ أَدّبَنِي فَأَحْسَنَ أَدَبِي**» وهذا من ذلك التأديب.

وكان رسول الله ﷺ إذا رأى هؤلاء الأعبد يقول: مرحباً بمن عاتبني فيهم ربي، فكلما جلسوا عنده جلس لجلوسهم لا يمكن لهم أن يقوم ولا ينصرف حتى يكونوا هم الذين ينصرفون، فإن الله قال له: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٨] ولما علموا ذلك منه وأنه عليه السلام قد تعرض له أمور يحتاج إلى التصرّف فيها فكانوا يخففون فلا يلبثون عنده إلاّ قليلاً وينصرفون حتى ينصرف النبيّ ﷺ لأشغاله، فترك ﷺ ذلك الأمر الذي كان له فيه مشهد صحيح إلهيّ مراعاة لحفظ القلوب المنكسرة، فإن الله عند المنكسرة قلوبهم غيباً يثبته الإيمان وينفيه العيان، وهو عند المتكبرين عيناً يثبته العيان وينفيه الإيمان، فنقل الله نبيه ﷺ من العيان إلى الإيمان وأخبره أن تجليه تعالىٰ في أعيان الأعزاء المتكبرين من زينة الحياة الدنيا فهي زينة الله للحياة الدينا لا لنا، والذي لنا زينة الله من غير تقييد بالحياة الدنيا، وما يلزم من كونه زيناً لزيد أن يكون زيناً لعمرو، فمن الناس من لا شهود له إلاّ زينة الله، ومن الناس من لا شهود له إلاّ زينة الحياة الدنيا من حيث ما هي زينة الله لها لا لنا فيشهدها لها وإن لم تكن لنا زينة، ومن الناس من يشهد زينة الشيطان في عمله وأعمال الخلق في قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٣٨] فهم الذين أضلهم الله على علم فيشهدها أهل الله زينة الله للشيطان لأنه عمله. ومن الناس من يشهد من زيّن له عمله ولا يدري من زيّنه هل متعلق تلك الزينة الذمّ أو الحمد وهو موضع الشبهة، كمن يرى رجلاً يحب أن يكون نعله حسناً وثوبه حسناً فلا يدري أهو ممّن يحب زينة الحياة الدنيا أو هو ممّن يتجمل لله في قوله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣١] وقد قال عليه السلام للرجل الذي قال له: إني أحب أن يكون نعلي حسناً وثوبي حسناً «**إِنّ اللّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**» فوقع لهذا الرجل الاشتباه فلا يدري لمن ينسب تلك الزينة، كمن يسمع شخصاً يقول: الحمد لله رب العالين فلا يدري هل هو تال أو هو ذاكر من غير قصد تلاوة القرآن، لأن اللفظ واحد وهو المشهود والقصد غيب، والأولى أن تحسن الظنّ بمن يتجمل فإنك مندوب إليه، وسوء الظنّ أنت مأمور باجتنابه في حق المسلمين، ولهذا فسّر النبيّ ﷺ كلامه للرجلين في اعتكافه حين انقلب يشيع صفية: «**إِنّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ الشّيطَانُ**» فما أساء الظنّ إلاّ بأهله وهو الشيطان، فينبغي لك إذا سمعت من يقول كلمة هي في القرآن كما قلنا فيمن سمع من يقول:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٢] أن تسمعها تلاوة قرآنية وإن لم يقصدها قائلها فإنك تؤجر أجر من سمع القرآن ولا بدّ، وهذا مشهد عزيز قلّ أن ترى له ذائقاً وهو قريب سهل لا كلفة فيه.

وأمّا قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [سورة فاطر: الآية ٨] فمن قوله ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ عرفت من زينه وإن لم يذكره، ومع هذا فالاحتمال لا يرتفع عنه فإن الله يقول في مثل هذا: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٤] فجاء بنون الكناية عن نفسه ونسب الحيرة إليهم بهذا التزيين، فمثل هذا إذا لم يبين الله له في كشفه لمن هو هذا التزيين يقبله على مراد الله فيه من غير تعيين فيكون جزاؤه على الله من غير تعيين عندنا، وإن كان معيناً عند الله فإنه عند الله أيضاً لا معين فإنا لم نعينه فهو يعلمه معيناً لا معيناً بنسبتين مختلفتين فافهم ذلك. انتهى الجزء الثاني والتسعون.

(الجزء الثالث والتسعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثامن والسبعون
في معرفة الخلوة

[نظم: الطويل]

خلوتُ بمن أهوَى فلم يكُ غيرُنا ... ولو كان غيري لم يَصُحَّ وجودُهَا
فإذا أحكمتْ نفسي شروطَ انفرادها ... فإن نفوسَ الخلق طرّاً عبيدُهَا
ولو لم يكن في نفسها غيرُ نفسها ... لجادتْ بها جُوداً على من يُجيدُهَا

اعلم وفقنا الله وإياكم أن الخلوة أصلها في الشرع: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيرٍ مِنْهُ**» فهذا حديث إلهيّ صحيح يتضمن الخلوة والجلوة، وأصل الخلوة من الخلاء الذي وجد فيه العالم: [الرجز]

فمن خلا ولم يَجِدْ فما خلا ... فهي طريقٌ حكمُها حكمُ البَلاَ

وقال رسول الله ﷺ: «**كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ**». وسُئِل رسول الله ﷺ: أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء» ثم خلق الخلق وقضى القضية وفرغ من أشياء وهو ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وسيفرغ من أشياء ثم يعمر المنازل بأهلها إلى الأبد.

الخلوة أعلى المقامات وهو المنزل الذي يعمره الإنسان ويملؤه بذاته فلا يسعه معه فيه غيره، فتلك الخلوة ونسبتها إليه، ونسبته إليها نسبة الحق إلى قلب العبد الذي وسعه ولا يدخله، وفيه غير بوجه من الوجوه الكونية فيكون خالياً من الأكوان كلها فيظهر فيه بذاته، ونسبة القلب إلى الحق أن يكون على صورته فلا يسع فيه سواه، وأصل الخلوة في العالم الخلاء الذي ملأه العالم، فأوّل شيء ملأه الهباء وهو جوهر مظلم ملأ الخلاء

بذاته ثم تجلّى له الحق باسمه النور فانصبغ به ذلك الجوهر وزال عنه حكم الظلمة وهو العدم فاتصف بالوجود فظهر لنفسه بذلك النور المنصبغ به وكان ظهوره به على صورة الإنسان، وبهذا يسميه أهل الله الإنسان الكبير، وتسمّى مختصره الإنسان الصغير لأنه موجود أودع الله فيه حقائق العالم الكبير كلها، فخرج على صورة العالم مع صغر جرمه، والعالم على صورة الحق، فالإنسان على صورة الحق وهو قوله: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**».

ولما كان الأمر على ما قرّرناه لذلك قال تعالىٰ ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧] لكن يعلم القليل من الناس، فالإنسان عالم صغير والعالم إنسان كبير، ثم انفتحت في العالم صور الأشكال من الأفلاك والعناصر والمولدات فكان الإنسان آخر مولد في العالم أوجده الله جامعاً لحقائق العالم كله وجعله خليفة فيه فأعطاه قوّة كل صورة موجودة في العالم، فذلك الجوهر الهبائيّ المنصبغ بالنور وهو البسيط، وظهور صور العالم فيه هو الوسيط، والإنسان الكامل هو الوجيز، قال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] ليعلموا أن الإنسان عالم وجيز من العالم يحوي على الآيات التي في العالم فأوّل ما يكشف لصاحب الخلوة آيات العالم قبل آيات نفسه لأن العالم قبله كما قال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ﴾ ثم بعد هذا يريه الآيات التي أبصرها في العالم في نفسه، فلو رآها أولاً في نفسه ثم رآها في العالم ربما تحيل أن نفسه رأى في العالم فرفع الله عنه هذا الإشكال بأن قدّم له رؤية الآيات في العالم كالذي وقع في الوجود فإنه أقدم من الإنسان، وكيف لا يكون أقدم وهو أبوه؟ فأبانت له رؤية تلك الآيات التي في الآفاق وفي نفسه أنه الحق لا غيره وتبين له ذلك، فالآيات هي الدلالات له على أنه الحق الظاهر في مظاهر أعيان العالم، فلا يطلب على أمر آخر صاحب هذه الخلوة، فإنه ما ثم جملة واحدة، ولهذا تمّم تعالىٰ في التعريف فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من أعيان العالم ﴿شَهِيدٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] على التجلي فيه والظهور، وليس في قوّة العالم أن يدفع عن نفسه هذا الظاهر فيه ولا أن لا يكون مظهراً وهو المعبر عنه بالإمكان، فلو لم يكن حقيقة العالم الإمكان لما قبل النور وهو ظهور الحق فيه الذي تبين له بالآيات، ثم تمّم وقال: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾من العالم ﴿مُّحِيطٌۢ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٤] والإحاطة بالشيء تستر ذلك الشيء فيكون الظاهر المحيط لا ذلك الشيء، فإن الإحاطة به تمنع من ظهوره فصار ذلك الشيء وهو العالم في المحيط كالروح للجسم، والمحيط كالجسم للروح الواحد شهادة وهو المحيط الظاهر والآخر غيب وهو المستور بهذه الإحاطة وهو عين العالم.

ولما كان الحكم للموصوف بالغيب في الظاهر الذي هو الشهادة وكانت أعيان شيئيات العالم على استعدادات في أنفسها حكمت على الظاهر فيها بما تعطيه حقائقها

فظهرت صورها في المحيط وهو الحق، فقيل: عرش وكرسيّ وأفلاك وأملاك وعناصر ومولدات وأحوال تعرض وما ثم إلاّ الله، فالحق من كونه محيطاً، كبيت الخلوة لصاحب الخلوة فيطلب صاحب الخلوة فلا يوجد فإن البيت يحجبه فلا يعرف منه إلاّ مكانه ومكانه يدل على مكانته، فقد أعطيتك مرتبة الخلوة التي نريد في هذا الكتاب لا الخلوة المعهودة عند أصحاب الخلوات ودرجاتها ألف وسبع وستون درجة فظهر في الدرجات صورة الوترية، وإذا لم يعمر الخلاء إلاّ العالم فهو في خلوة بنفسه هذا أصله، ثم إنه لما انصبغ بالنور كان في خلوة بربه، وبقي في تلك الخلوة إلى الأبد لا يتقيد بالزمان لا بأر بعين يوماً ولا بغير ذلك، فالعارف إذا عرف ما ذكرناه عرف أنه في خلوة بربه لا بنفسه ومع ربه لا مع نفسه، فيرى من حيث أثره في المحيط به بالصور التي ظهر بها المحيط نفسه بنفسه، ومن حيث تعدد أعيانه رأى منه به وكانت كل عين مغايرة لصاحبتها، ولذلك اختلفت صور العالم وإن كان واحداً كما اختلفت صورة الإنسان في نفسه، وإن كان الإنسان واحداً فيده ما هي رجله، ورأسه ما هو صدره، وعينه ما هو أذنه ولا لسانه ولا فرجه، وعقله ما هو فكره ولا خياله، فهو متنوع متعدّد العين بالصور المحسوسة والمعنوية، ومع هذا يقال فيه أنه واحد ويصدق ويقال فيه كثير ويصدق.

فمن حيث أحديته نقول: رأى نفسه بنفسه، ومن حيث كثرته نقول: رأى بعضه ببعضه، فتكلم بلسانه، وبطش بيده، وسعى برجله، واستنشق بأنفه، وسمع بأذنه، ونظر بعينه، وتخيّل بخياله، وعقل بعقله، فهذا كثير وما ثم إلاّ هو، فمن حصل له هذا العلم كما قرّرناه كان صاحب خلوة، ومن حرمه فليس بصاحب خلوة، فقد تبين لك أنّ الحق بالعالم والعالم بالحق، فهويته عين المجموع، كما أنّ المجموع هو الإنسان بغيبه وشهادته ونطقه وحيوانيته فهو واحد في الكثرة وكثير في الأحدية، فالخلوة من المقامات المستصحبة دنيا وآخرة إلى الأبد من حصلت له لا تزول فإنه لا أثر بعد عين. وأما الخلوة المعروفة المعهودة فليست مقاماً ولا تصح إلاّ لمحجوب. وأما أهل الكشف فلا تصح لهم خلوة أبداً فإنهم يشاهدون الأرواح العلوية والأرواح النارية ويرون الكائنات ناطقة أكوان ذاته وأكوان بيت خلوته فهو في ملأ كما هو في نفس الأمر، فإذا أخذ الله عن بصره هذه المدركات وفصل بين الحيوان والجماد والملائكة وعالم الصمت من عالم الكلام وعالم السكون من عالم الحركات ويجب أن يخلو بربه حتى لا يشغله عنه نطق كون ولا حركة كون، فمنهم من يطلب الخلوة لمزيد علم بالله من الله لا من نظره وفكره وهذا أتم المقاصد فإنه مأمور بذلك، والعمل على الأمر الإلهي هو غاية كمال العمل والله يقول له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] فمن تحدّث في خلوته في نفسه مع كون من الأكوان فما هو في خلوة.

قال بعضهم لصاحب خلوة: اذكرني عند ربك في خلوتك، فقال له: إذا ذكرتك فلست معه في خلوة. ومن هنا تعرف قوله تعالىٰ: «أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي» فإنه لا يذكره حتى يحضر

المذكور في نفسه إن كان المذكور ذا صورة في اعتقاده أحضره في خياله، وإن كان من غير عالم الصور أو لا صورة له أحضرته القوّة الذاكرة، فإن القوّة الذاكرة من الإنسان تضبط المعاني، والقوّة المتخيلة تضبط المثل التي أعطتها الحواس أو ما تركبه القوّة المصوّرة من الأشكال الغريبة التي استفادت جزئياتها من الحس لا بدّ من ذلك ليس لها تصرّف إلاّ به، فمن شرط الخلوة في هذا الطريق الذكر النفسي لا الذكر اللفظيّ، فأوّل خلوته الذكر الخياليّ وهو تصوّر لفظة الذكر من كونه مركباً من حروف رقمية ولفظية يمسكها الخيال سمعاً أو رؤية فيذكر بها من غير أن يرتقي إلى الذكر المعنويّ الذي لا صورة له وهو ذكر القلب، ومن الذكر القلبيّ ينقدح له المطلوب والزيادة من العلوم، وبذلك العلم الذي انقدح له يعرف ما المراد بصور المثل إذا أقيمت له، وأنشأها الحسّ في خياله في نوم ويقظة وغيبة وفناء، فيعلم ما رأى وهو علم التعبير للرؤيا.

ومنهم من يأخذ الخلوة لصفاء الفكر ليكون صحيح النظر فيما يطلبه من العلم، وهذا لا يكون إلاّ للذين يأخذون العلم من أفكارهم، فهم يتخذون الخلوات لتصحيح ما يطلبونه إذا ظهر لهم بالموازين المنطقية وهو ميزان لطيف أدنى هواء يحرّكه فيخرجه عن الاستقامة فيتخذون الخلوات ويسدون مجاري الأهواء لئلا تؤثر في الميزان حركة تفسد عليهم صحة المطلوب، ومثل هذه الخلوة لا يدخلها أهل الله وإنما لهم الخلوة بالذكر ليس للفكر عليهم سلطان ولا له فيهم أثر، وأيّ صاحب خلوة استنكحه الفكر في خلوته فليخرج ويعلم أنه لا يراد لها وأنه ليس من أهل العلم الإلهيّ الصحيح، إذ لو أراده الله لعلم الفيض الإلهي لحال بينه وبين الفكر.

ومنهم من يأخذ الخلوة لما غلب عليه من وحشة الأنس بالخلق فيجد انقباضاً في نفسه برؤية الخلق حتى أهل بيته، حتى أنه ليجد وحشة الحركة فيطلب السكون فيؤدّيه ذلك إلى اتخاذ الخلوة. ومنهم من يتخذ الخلوة لاستحلاء ما يجد فيها من الالتذاذ، وهذه كلها أمور معلومة لا تعطي مقاماً ولا رتبة، وصاحب الخلوة لا ينتظر وارداً ولا صورة وشهوداً، وإنما يطلب علماً بربه فوقتاً يعطيه ذلك في غير مادّة، ووقتاً يعطيه ذلك في مادة، ويعطيه العلم بمدلول تلك المادّة الخلوة لها الدعوى وصاحبها مسؤول لها الحجاب الأقرب هي نسبة ما هي مقام، أعني الخلوة المعهودة عند القوم لا الخلوة التي هي مقام التي ذكرناها في أول الباب، وهذه وإن لم تكن مقاماً فإنها تحصل لصاحبها بالذكر مقامات لها إحاطة بالملك والملكوت والجبروت عند العارفين والملامية من الأدباء أرباب المواقف، وأما أهل الوصال والأنس من العارفين والملامية فلا يرون لها في الملكوت دخولاً وأنها مخصوصة بعالم الجبروت والملك لا غير إلاّ أنها لها قرب من الملكوت ما بينها وبينه إلاّ درجتان، فالأدباء الواقفون من الملامية يرون لها ستمائة درجة وإحدى وأربعون درجة، والعارفون من أهل الأنس يرون لها ألف درجة وسبعاً وستين درجة، والأدباء من العارفين الواقفين يرون لها ستمائة درجة وسبعاً وستين درجة، والملامية من أهل الأنس والوصال يرون لها ألف درجة وستة وثلاثين درجة.

الباب التاسع والسبعون
في ترك الخلوة وهو المعبر عنه بالجلوة

[نظم: البسيط]

إذا لم يرَ الإنسانُ غيرَ إلهه ... لدى كل عينٍ فالخلاءُ مُحَالُ
فإن كنتَ هذا كنتَ صاحبَ خلوةٍ ... ولله فيه فَيْصَلٌ ومَقَالُ

اعلم أيّدنا الله وإياكم أن الكشف يمنع من الخلوة وإن كان فيها فإن الحجاب لها، فإذا كوشف علم أنه لم يكن في خلوة، فاتخاذ الخلوة المعهودة دليل على جهل متخذها فإنه عند الكشف يعرف جهله، فكل من جهل أنه جهل فهو صاحب جهلين، ومن عرف أنه جهل فهو ذو جهل واحد، والذين علموا أن الظاهر من كونه ظاهراً في أعيان العالم وما ثم سواه فهو في خلوة في نفسه إذا لم ينظر إلى من ظهر فيه فأورثه الملأ والجلوة فلا تصحّ له الخلوة من هذا الوجه، فمن الناس من يرجح صاحب الخلوة، ومن الناس من يرجح نقيضه وهو صاحب الجلوة، فالاسم الأول والباطن يطلبان الخلوة، والاسم الآخر والظاهر يطلبان تركها وهي الجلوة، وأنت لأيّ اسم غلب عليك ولا مفاضلة في الأسماء من وجه، ومآل الخلق إلى القلوب من المآل وهو الملأ، فالخلوة دنيوية، والجلوة أخروية والآخر خير.

الباب الموفي ثمانين
في العزلة

[نظم: البسيط]

إذا اعتزلتَ فلا تركَنْ إلى أحدِ ... ولا تعرِّجْ على أهلٍ ولا ولَدِ
ولا توالي إذا واليتَ منزلةً ... وغِبْ عن الشرك والتوحيد بالأحَدِ
وانزِعْ إلى طلب العلياءِ منفرداً ... بغير فكرٍ ولا نفسٍ ولا جَسَدِ
وسابقِ الهمَّةَ العلياءَ تَحْظَ بمن ... سما بأسمائه الحسنى بلا عَدَدِ
واعلمْ بأنك محبوسٌ ومُكْتَنَفٌ ... بالنور حبساً جلياً لا إلى أمَدِ

لا يعتزل إلاّ من عرف نفسه، ومن عرف نفسه عرف ربه، فليس له مشهود إلاّ الله من حيث أسماؤه الحسنى وتخلقه بها ظاهراً وباطناً، وأسماؤه الحسنى سبحانه على قسمين: أسماء يقبلها العقل ويستقل بإدراكها وينسبها ويسمّى بها الله تعالى، وأسماء أيضاً إلهية لولا ورود الشرع بها ما قبلها فيقبلها إيماناً ولا يعقلها من حيث ذاته إلاّ إن أعلمه الحق بحقيقة نسبة تلك الأسماء إليه كما علمها أنبياءه واولياءه، فصاحب العزلة هو الذي يعتزل بما هو له من غير تخلق بما ينفرد به في زعم العقل من الأسماء الإلهية المشروعة التي لولا الشرع ما سمّى العقل الله بها فهي للحق وقد جبل الإنسان عليها وخلقه مجلالها فهو المسمّى بها، ولا يتمكن له الاعتزال عن مثل هذه الأسماء الإلهية، وبقي القسم الآخر من الأسماء الإلهية يعتزل عنها لما

يطرأ عليه منها من الضرر كما قال: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤٩] وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [سورة غافر: الآية ٣٥] فيعتزل عن مثل هذه الأسماء الإلهية لما فيها من الذمّ لمن تسمّى بها وظهر بحكمها في العالم، فالإنسان حقيقته أن يكون عائلاً والعائل لا يكون متكبراً فإنه ظهر بما ليس هو له بنعت ولذلك لا ينظر الله إليه وهو واحد من الثلاثة، الشيخ الزاني، والملك الكذاب، والعائل المستكبر. ذكره مسلم في صحيحه.

فمن رأى التخلق بالأسماء الحسنى ومزاحمة الحق فيها لكونه خلق على الصورة فلا بد أن يظهر بها ويتلبس على الحدّ المشروع المحمود فهذه مزاحمة عبودية ربوبية، وذلك لما رأى أن له أسماء هي له حقيقة ينفرد بها، ورأى أن الحق زاحمه فيها كالضحك والفرح والتعجب والمحب والمتردّد والكاره والناسي والاستحياء وما أشبه ذلك ممّا ورد ذكره في الكتاب والسنّة، إلى ما يداخل النشأة من يد ويدين وأيد ورجل وعين وأعين، إلى ما يداخل النشأة من الأحوال من استواء ومعية ونزول وطلب وشوّق وأمثال ذلك، ورأى هذا المعتزل قبل اعتزاله أنّ الحق قد زاحمه في هذه النعوت التي ينبغي أن تكون للعبد كما هي في نفس الأمر عنده قال: الأليق بي أن أعتزل بأسمائي عن أسمائه ولا أزاحمه فيها تكون عارية عندي إذ كانت العارية أمانة مؤدّاة، وحامل الأمانة موصوف بالتعريف الإلهيّ بالظلم والجهل، فاعتزل صاحب هذا النظر التخلق بالأسماء الحسنى وانفرد بفقره وذلّه وصغاره وعجزه وقصوره وجهله في بيته، كلما قرع عليه الباب اسم الإلهيّ قيل له: ما هنا من يكلمك، فإذا انقدح له بهذا الاعتزال أنّ الله له نفي الأولية وأنه أزليّ الوجود ونظر في كلامه سبحانه وفيما أمر نبيه ﷺ أن يوصله إلينا من صفاته وأسمائه لنعرفه بذلك ويخلع علينا بهذا التعريف خلع العلم تشريفاً لنا فأعلمنا أنّ هذه الصفات التي زعمنا أنا نستحقها وأنها لنا حقيقة أنّ الأمر على خلاف ذلك إذ قد اتصف هو بها وتسمى بها ونحن ما كنا، فلا فرق بين هذه الأسماء والتي اعتزلنا عنها، فإمّا أن نعتزل عن الجميع، وإما أن نتسمى بالجميع، فقلنا له: اعتزل عن الجميع واترك الحق إن شاء سمّاك بالأسماء كلها فاقبلها ولا تعترض، وإن شاء سماك ببعضها، وإن شاء لم يسمك ولا بواحد منها ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [سورة الروم: الآية ٤] فرجع العبد إلى خصوصيته وهي العبودة التي لم تزاحم الربوبية فتحلى بها وقعد في بيت شيئية ثبوته لا بشيئية وجوده ينظر تصريف الحق فيه وهو معتزل عن التدبير في ذلك، فإن تسمى من هذه حالته بأيّ اسم كان فالله مسميه ما هو تسمى وليس له ردّ ما سماه به فتلك الأسماء هي خلع الحق على عباده وهي خلع تشريف فمن الأدب قبولها لأنها جاءته من غير سؤال ولا استشراف، وقد أمره رسول الله ﷺ بأخذ مثل هذا العطاء وترك ما استشرفت النفس إلى أخذه وتمنّى ذلك بالاستطلاع إليه ووقف عند ذلك على أنه كان غاصباً لله فيما كان يزعم أنه له فإذا هو لله وهو قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] فأخذ منه جميع ما كان يزعم أنه له إلاّ العبادة فإنه لا يأخذها إذ كانت ليست بصفة له فقال له تعالى

لما قال: ﴿وَإِلَيْهِ﴾ إلى ﴿يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] وهو أصله الذي خلق له ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فالعبادة اسم حقيقيّ للعبد، فهي ذاته وموطنه وحاله وعينه ونفسه وحقيقته ووجهه.

فمن اعتزل هذه العزلة فهي عزلة العلماء بالله لا هجران الخلائق ولا غلق الأبواب وملازمة البيوت وهي العزلة التي عند الناس أن يلزم الإنسان بيته ولا يعاشر ولا يخالط ويطلب السلامة ما استطاع بعزلته ليسلم من الناس ويسلم الناس منه، فهذا طلب عامّة أهل الطريق بالعزلة، ثم إن ارتقى إلى طور أعلى من هذا فيجعل عزلته رياضة وتقدمة بين يدي خلوته لتألف النفس قطع المألوفات من الإنس بالخلق، فإنه يرى الإنس بالخلق من العلائق والعوائق الحائلة بينه وبين مطلوبه من الأنس بالله والانفراد به، فإذا انتقل من العزلة بعد أحكامه شرائطها سهل عليه أمر الخلوة هذا سبب العزلة عند خاصة أهل الله، فهذه العزلة نسبة لا مقام، والعزلة الأولى التي ذكرناها مقام مطلوب، ولهذا جعلناها في المقامات من هذا الكتاب، وإذا كانت مقاماً فهي من المقامات المستصحبة في الدنيا والآخرة، فللعارفين من أهل الأنس والوصال في العزلة من الدرجات خمسمائة درجة وثمان وثلاثون درجة، وللعارفين الأدباء الواقفين مائة وثلاث وأربعون درجة، وللملامية فيها من أهل الأنس خمسمائة درجة وسبع درجات، وللملامية من أهل الأدب الواقفين معهم مائة واثنتي عشرة درجة، والعزلة المعهودة في عموم أهل الله من المقامات المقيدة بشرط لا تكون إلاّ به وهي نسبة في التحقيق لا مقام إلاّ أنها تحصل عنها فوائد أقلها العصمة لها الدعوى صاحبها مسؤول وعلتها سوء الظنّ بنفسك أو بمن اعتزلت عنهم، وهذا كله في عزلة العموم وهي من عالم الجبروت والملكوت ما لها قدم في عالم الشهادة فلا تتعلق معارفها بشيء من عالم الملك.

الباب الحادي والثمانون

في ترك العزلة

[نظم: الكامل]

لا تـفـرحـنَّ بـالاعـتـزال فـإنـه … جـهـلٌ وأيـن الله والأرواحُ
نـورُ الإلـه أجـلُّ مـنـك نَـفَـاسَـةً … ومع الـجـلال جـلـيسُـه الـمـصبَـاحُ
لـم يـعـتـزلْ عـن نـور كـونٍ حـادثٍ … وإلـى الـتـعـلُّـق ذاتـه تَـرْتَـاحُ
لـو أنّ نـورَ الـحـق مـعـتـزلٌ لـمـا … ظـهـر الـوجـودُ ودَامَـتِ الأفـراحُ
بـالـنـور مـن فَـلَـكِ الـبـهـاء إذا بـدا … لـلـنـاظـريـن أضـاءت الأشْـبَـاحُ

اعلم أيّدنا الله وإياك أن مثير العزلة إنما هو خوف القواطع عن الوصلة بالجناب الإلهيّ أو رجاء الوصلة بالعزلة به لما كان في حجاب نفسه وظلمة كونه وحقيقة ذاته يبعثها على طلب الوصلة ما هي عليه من الصورة الإلهية، كما يطلبُ الرحم الوصلة بالرحمن لما كانت شجنة منه، ثم إن العبد رأى ارتباط الكون بالله ارتباطاً لا يمكن الانفكاك عنه لأنه

وصف ذاتيّ له وتجلّي له في هذه الارتباط وعرف من هذا التجلي وجوبه به وأنه لا تثبت لمطلوبه هذه الرتبة إلاّ به، وأنه سرّها الذي لو بطل لبطلت الربوبية، ورآه في كل شيء مثل ما هو عنده، ونسبة كل شيء إليه كنسبته هو إليه فلم يتمكن له الاعتزال فتأدّب مع قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] أي صفة نوره صفة المصباح ولم يقل صفة الشمس فإن الإمداد في نور الشمس يخفى بخلاف المصباح فإن الزيت والدهن يمده لبقاء الإضاءة فهو باق بإمداد دهني من شجرة نسبة الجهات إليها نسبة واحدة منزّهة عن الاختصاص بحكم جهة وهو قوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] وهذا الإمداد من نور السبحات الظاهرة من وراء سبحات العزة والكبرياء والجلال فما ينفذ من نور سبحات هذه الحجب هو ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] ومثله كمثل المصباح والنور الذي في الدهن معلوم غير مشهود، وضوء المصباح من أثره يدل عليه وعلى الحقيقة ما هو نور وإنما هو سبب لبقاء النور واستمراره، فالنور العلمي منفر ظلمة الجهل من النفس، فإذا أضاءت ذات النفس أبصرت ارتباطها بربها في كونها وفي كون كل كون فلم تر عمّن تعتزل، وجعل هذا النور في مشكاة وزجاجة مخافة الهواء أن يجيره ويشتدّ عليه فيطفئه فكان مشكاته وزجاجته نشأته الظاهرة والباطنة فإنهما من حيث هما عاصمان، فإنهما من الذين يسبحون بحمد الله الليل والنهار لا يفترون، وهما اللذان يشهدان على النفس المدبرة إذا أنكرت بين يدي الله فهما أهل عدالة، قال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢٠] وهما من النشأة الباطنية ﴿وَجُلُودُهُم﴾ وهي من النشأة الظاهرة، فما من شخص يروم مخالفة حق إلاّ ونشأتاه تقولان له: لا تفعل أيها الملك ولا تحوجنا أن نكون سبباً في إهلاكك، فإنّ الله إن استشهدنا شهدنا، ألا ترى الرسول ﷺ لما بلغ وأنذر ووعد وأوعد قال لقومه: «**إِنَّكُمْ لَتُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ بَلَّغْتَ وَنَصَحْتَ وَأَدَّيْتَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ**».

وقد سأل هود قومه مع شركهم فقال: ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [سورة هود: الآية ٥٤] فاستشهدهم لعلمه أنهم لا بدّ أن يسألهم، ونحن رعيتك ولا حركة لنا إلاّ بك فلا تحرّكنا إلاّ في أمر يكون لك لا عليك، والمحجوب غافل عن هذا غير سامع لصمم قام به من شدّة الهواء الذي أصمه، فالله يجعلنا ممّن سمع نطق جوارحه بالموعظة قبل سماعه إياها بالشهادة إنه وليّ جواد كريم ذو الفضل العظيم.

الباب الثاني والثمانون

في الفرار

[نظم: مخلع البسيط]

جزاءُ من فرَّ أن ينبّا ... فرار موسىٰ لما تأبّا

من فرّ منه به إليه ... صيَّر محبوبَه مُحِبَّا

وكان وتراً فصار شفعاً وكان عيناً فصار قَلْبا
أظهرني في الوجود تاجاً فعدْتُ في ساعديه قَلْبَا
أعطاني كُنْ ثم قال عبدي فقال كن بي تكون ربَّا

الضمير في ساعديه يعود على الوجود، قال الله تعالىٰ حكاية عن موسىٰ عليه السلام أنه قال لفرعون وآله ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢١] ثم قال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢٢] فقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ [سورة الشعراء: الآية ١٨] فتلك النعمة تربية فرعون، والمنّ يبطل الإنعام لأنه استعجال جزاء، فلو لم يقل لنفعه ذلك عند الله إذ كان من شأن فرعون إذلال بني إسرائيل وموسىٰ منهم، وكان قد أعزه وتبناه، فهذا معنى قوله: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ والفرار أنتج لموسىٰ الرسالة والحكم، فكان خليفة رسولاً، لأن الرسول لا يكون حاكماً حتى يكون خليفة، ثم قال لنا ربّنا لما قضاه من أن جعلنا ورثة النبيين والمرسلين في نبوّتهم ورسالتهم ما أعطانا الله من حفظ دينه والفتيا فيه والاجتهاد في استنباط الحكم فقال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٠] فجاء بالاسم الجامع، والمراد منه اسم خاص يقتضي لنا ما اقتضى لموسىٰ عليه السلام في فراره وهو الاسم الوهاب الذي يعطي لينعم خاصة، وذلك الوهب يجعله رسولاً ضرورة لأن الحكم في غير محكوم عليه لا يصحّ.

وقال فيمن تربص في أهله ولم يفرّ إليه ما ذكره في كتابه وهو قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٤] والتربص نقيض الفرار ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٠] وقد ذكرنا هذا الفرار الموسويّ في كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار، وسميت هذا الفرار الموسويّ سفر الطلب فلنحقق هنا معنى الفرار وكيف هو مقام وما ينتج؟ فإنه يظهر أنه نسبة لا مقام كالعزلة والخلوة فإن كونه من المقامات مجهول عند أكثر أهل الله.

فاعلم أن الفرار بين طرفي ابتداء وانتهاء، فابتداؤه من وانتهاؤه إلى، فقد يكون السبب الموجب للفرار من كفرار موسىٰ عليه السلام ولا يتعين إلى فإنّ الفارّ مِنْ مَنْ إنما يطلب النجاة من غير تعيين غاية، والفارّ إذا كان هو السبب الموجب للفرار لا بدّ أن يكون معيناً ولا يتعين من وهو عكس الأول، ولما كان الأمر بهذه المثابة أمرنا الله أن نفرّ إليه ولا بدّ، وقد نفرّ إليه منه مثل قوله: وأعوذ بك منك، وقد نفر إليه من كون ما من الأكوان أو من صفة ما من الصفات إلهية كانت أو غير إلهية، أو صفة فعل أو غير صفة فعل، فعلمنا الله كيف نفرّ في قوله إلى الله، وهذه عناية من الله بنا أعني بهذه الأمة المحمدية يستروح منها ما لا يخفى على أحد، فإنّ الأنبياء عليهم السلام يصدقون في كل ما يخبرون به من أحوالهم منزّهون أن يلبسوا ثوبي زور فقال موسىٰ عليه السلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢١] فأنتج له ذلك الفرار الحكم الذي هو الإمامة والخلافة والرسالة مع كون

السبب الموجب الذي ذكره وما ذكر إلى أين فرّ، فإذا فرّ الفارّ إلى الله وعيّن من فرّ إليه وأبهم ما فرّ منه فما ترون تكون جائزته؟ فإن جائزة موسىٰ جائزة منقطعة فإن الخلافة هنا تترك والرسالة كذلك ينقطع الأمران بالموت والانقلاب إلى الدار الآخرة، فهذا أعطى حكم ما فرّ منه لما كان منقطعاً فإنه انقطع بغرقه أو بموته لو مات ولا بدّ له من الموت، فكانت النتيجة والهبة مناسبة بما أعطيه من انقطاعهما بالموت، فإن الإمامة والرسالة ينقطعان بالموت، والفرار إلى الله يعطي ما يبقى ببقاء الله ولا أعين فإن التعيين في ذلك إلى الله، وسواء كان الفرار من الله أو لم يكن فإن المراعاة هنا لمن فرّ إليه وفي حق موسىٰ لما فرّ منه، وإذا كانت هذه الأمّة مع الأنبياء بهذا الحكم وهذه المنزلة فما ظنك بمنزلة أمم الأنبياء منا، والله ما يعرفون على أي طريق سلكت هذه الأمّة في فرارها، فإن الله مجهول الأينية والفرار كان إليه، فلا يدري أحد يفرّ إليه إذا تلقاه وأخذ بيده إلى أين يسير به، فإنّ الله أسرع إلى من فرّ إليه من تلقيه من الفارّ إليه فإنه يقول وهو الصادق تعالىٰ: «**مَنْ أَتَانِي يَسْعَىٰ أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**» فوصف نفسه بالإقبال على عبده إذا أتاه بأضعاف مّما يأتيه به من الحال، وإتيان الفار أشدّ من الهرولة، فيكون إتيان الحق إليه أشد من ذلك، فتحقق هذا في العلم الإلهيّ تر العجب فيما أعطى الله هذه الأمّة بعناية محمد ﷺ.

فاعلم أن مقامك من الفرار لا يتعين فنتكلم عليه، فإن حكمه في الفار بحسب ما فرّ منه وهي أمور كثيرة لا تنضبط جزئياتها وإن انحصرت أمّهاتها أو ما فرّ إليه وهي أسماء كثيرة إلهية أو أحكام بحسب ما يراه الفارّ إليه، ولكن الذي أمر الله به أن نفرّ إلى الله والفرار إلى الله لا يصحّ من حيث المجموع فإنا منه نفرّ إليه، فإن فيه ما نفرّ منه، ومن وإلى لا يجتمعان فإنّ أحكامهما مختلفة. فإن قلت: فقوله: « وأعوذ بك منك». قلنا: فيه وجهان: الواحد أن قوله: وأعوذ بك ما هو حكم الباء هنا حكم إلى فإنه يستعيد بالله في حال فراره وما بلغ إلى حكم إلى ونحن إنما نتكلم في لفظة إلى من حيث ما تدل عليه وهذا التعويذ النبويّ إنما وقع بالباء فلا وجه لقولك هذا بالاستعاذة، والوجه الآخر أنه وإن جعلت مطلوب إلى عين المستعاذ به في نهاية الفرار فمعلوم أنه لو كان عين من تفرّ منه عين من يفرّ إليه من غير اختلاف نسبة لم يصح فرار فلا بدّ من اختلاف النسبة، فالنسبة التي جعلتك تفرّ منه عين النسبة التي فررت إليه من أجلها والعين واحدة مثل قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [سورة مريم: الآية ٨٥] فالعين التي تحشر منها هي العين التي تحشر إليها وبعينها ما وصفت به، فانظر أيّ اسم يكون مشهود المتقي فما تجده الرحمن وإن كان معه في حال اتقائه، ولكن تحشر إليه لينفرد بك دون أن تكون لاسم آخر تصرف فيك.

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٠] تعلم ما هو الاسم الذي من أجله كان الإنذار المبين من المنذر لك. وقوله: ﴿مِّنْهُ﴾ يعود على الله هو الذي وجهه إليك ليأمرك بالفرار إلى الله، وإنما جاء بالاسم الجامع إذ كان في عرف الطبع الاستناد إلى الكثرة، يقول النبيّ ﷺ: «**يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ**» فالنفس يحصل لها الأمان باستنادها إلى الكثرة، والله مجموع أسماء الخير إذا حققت معرفة الأسماء الإلهية وجدت أسماء الأخذ قليلة وأسماء الرحمة كثيرة

في الاسم الله، فلذلك أمرك بالفرار إلى الله فاعلم ذلك، وما من اسم إلهيّ إلاّ ويريد أن يربطك به ويقيدك وتكون له لظهور سلطانه فيك، وأنت قد علمت أن سعادتك في المزيد، والمزيد لا يكون لك إلاّ بالانتقال إلى حكم اسم آخر لتستفيد علماً لم يكن عندك، والذي أنت عنده لا يتركك فتعين الفرار ويكون الإنذار أن لا يحكم عليك الاسم الذي أنت عنده بالبقاء معه ففررت إلى موطن الزيادة، الفرار حكم يستصحب العبد في الدنيا والآخرة، ودرجات العارفين من أهل الإنس والوصال منه خمسمائة واثنتا عشرة درجة، ودرجات العارفين من أهل الأدب والوقوف مثلهم، ودرجات الملامية من أهل الإنس والوصال أربعمائة وإحدى وثمانون درجة، ودرجات الملامية من أهل الأدب والوقوف مثلهم.

الباب الثالث والثمانون
في ترك الفرار

[نظم: البسيط]

أين الفرارُ وما في الكون إلاّ هُوْ ... وهل يجوز عليه هل هو أو ما هُوْ
إن قلت هل فشهودُ العين يُنْكِرُهُ ... أو قلت ما هو فما هو ليس إلاّ هُوْ
فلا تفرَّ ولا تركَنْ إلى طلب ... فكلُّ شيء تراه ذلك اللّهُ

اعلم أيّدك الله أن قوله تعالىٰ: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٤] عقيب ما تعدد من الأعيان إذن وأمر بالتربص إن كان الله مشهوداً لكم في كل ما ذكرناه، فإن ذلك الشهود هو المطلوب بهذا الفرار لأن الله أمرنا بالفرار إلى الله، وقوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٤] أي من أجل الله، أي شهودكم الله في هذه الأعيان أحب إليكم من شهودكم إياه في أعيان غيرها للمناسبة القريبة التي بينكم وبين هذه الأشياء المذكورة، وإن كان الكامل منا يشهده في كل عين، ولكن بعض الأعيان قد يكون لبعض الأشخاص أحب من أعيان أخر. وقوله: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ مثل قوله: ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أي ومن أجل رسوله حيث أمركم ببر هؤلاء وجعل لهم حقوقاً عليكم، فحقوق الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشائر معلومة منصوص عليها لا تخفى على من وقف على العلم المشروع، وكذلك حقوق الأموال نعم المال الصالح للرجل الصالح، وحقوق التجارة معلومة فإن صدق التجارة لا يكون لغيرها، والتاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع النبيين والشهداء كذا قال ﷺ. وقوله: ﴿تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٤] يقول: تخافون أن تتركوها لأجل الكساد طلباً للأرباح، وأيّ ربح أعظم من ربح صدق التاجر. وقوله: ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٤] أي ومن أجل أيضاً شهودكم إياه تعالىٰ في الجهاد في سبيله لأنه أمركم بهذا وعلمتم أنه مشهودكم في كل ما ذكرناه. ولما ذكرناه منزلة شريفة عندكم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي لا تفرّوا فإنه ما أمرنا بالفرار إلاّ لكوننا ليست لنا هذه المشاهدة. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٤] وهو قيام الساعة أو الموت الذي يخرجكم عن مشاهدة هؤلاء، وقوله:

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٤] يقول: الخارجين عن حكم هذه المشاهدة التي أنتم فيها والتي دعيتم إليها، فما هي في حق أصحاب هذا النظر آية وعيد، وإنما هي آية وعد وبشرى وتقرير حال وسكون، أي تربصوا إذا كان هذا مشهدكم فقد حصل المطلوب، فإن انتقلتم بعد هذا فهو انتقال من خير إلى خير أو من خير أدنى إلى خير أعلى، فتفهم وتدبر ما ذكرنا تسعد إن شاء الله تعالىٰ.

الباب الرابع والثمانون

في تقوى الله

[نظم: الرجز]

ما يتقي الله سوى جامعٍ ... لكل ما في الكون من حكمتِهِ
فيتَّقي النقمةَ في نعمتهِ ... ويتقي النِّعمةَ في نقْمتِهِ
فكلُّ ما في الكون من ظاهرٍ ... وباطنٍ فيه فمن نغْمَتِهِ
وهي التي أَسْبَغَها مِنَّةً ... منه على المختار من أمَّتهِ
فكل ما يُجْريه سبحانه ... من كل ما يقضي فمن هِمَّتِهِ

اعلموا يا إخواننا أنار الله بصائركم وأصلح سرائركم وخلص من الشبه أدلتكم أنه لما امتنّ الله علينا بالاسم الرحمن فأخرجنا من الشرّ الذي هو العدم إلى الخير الذي هو الوجود ولهذا امتنّ الله تعالىٰ علينا بنعمة الوجود فقال: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٧] فما تولانا منه سبحانه ابتداء إلاّ الرحمة ولهذا قال: «إنّ رحمة الله سبقت غضبه»، فلما نظرنا في قوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٩] أي اتخذوه وقاية من كل ما تحذرون ورأينا مسمّى الله يتضمن كل اسم إلٰهيّ فينبغي أن يتقي منه ويتخذ وقاية، فإنه ما من اسم من الأسماء الإلهية للكون به تعلق إلاّ ويمكن أن يتقي منه وبه، إما خوفاً من فراقه إن كان من أسماء اللطف، أو خوفاً من نزوله إن كان من أسماء القهر، فما يتقي إلاّ حكم أسمائه، وما تتقى أسماؤه إلاّ بأسمائه الاسم الذي يجمعها هو الله، فإذا كان الله مجموع الأسماء المتقابلة وقد علمنا أنّ المتقابلين إذا كانا على ميزان واحد سقط حكمهما لأن المحل لا يقبل حكم تقابلهما فيسقطان، فإذا رجح ميزان أحدهما كان الحكم للراجح، وقد رجح اسم اللطيف بوجودنا لأنّ الاسم الرحمن يحفظنا فترجحت الرحمة فنفذ حكمها فهي الأصل بالإيجاد والانتقام حكم عارض والعوارض لا ثبات لها فإن الوجود يصحبنا فمآلنا إلى الرحمة وحكمها، فلهذا أمرنا بتقوى الله أي نتخذه وقاية ونتقيه لما فيه من التقابل وهو مثل قوله في الاستعاذة منه به فقال: «وأعوذ بك منك»، وهو من المقامات المستصحبة في الدنيا والآخرة، فإنه إذا اتقيت أحكام الأسماء ولا سيما في الجنة التي حكم الإنسان فيها للصورة الإلهية التي فطر عليها فيقول للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] ذلك الشيء، فربما يحجبه هذا المقام عن الذي هو أعلى في حقّه، فيذهل عن الكثيب الذي هو خير له مما هو فيه، فيأتي الاسم المذكر الإلهيّ

فيذكره بشرف رتبة الكثيب وما يحصل له فيه وما يرجع به إلى أهله، فيتقي هذا الاسم الذي مسكه في الجنة عن التشوق إلى ما هو أفضل في حقه مّما يحصل له في الكثيب، فلهذا قلنا باستصحاب مقام التقوى في الدنيا والآخرة.

فإذا علمت هذا علمت أنّ مقام التقوى تقوى الله مكتسب للعبد ولهذا أمر به، وهكذا كل مأمور به فهو مقام يكتسب، ولهذا قالت الطائفة: إن المقامات مكاسب والأحوال مواهب، والتقوى الإلهية على قسمين في الحكم فينا أي انقسم فيها الأمر قسمين: قسماً أمرنا الله أن نتقيه حق تقاته من كوننا مؤمنين، وقسماً أمرنا فيه أن نتقيه على قدر الاستطاعة، وما عين في هذا التكليف صفة تخصّ بها طائفة من الطوائف مثل ما عينها في حق تقاته، وإن كان المؤمنون قد تقدم ذكرهم فأعاد الضمير عليهم، ولكن مثل هذا لا يسمّى تصريحاً ولا تعييناً فينزل عن درجة التعيين فيحدث لذلك حكم آخر فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦] ابتدأ آيه بفاء عطف وضمير جمع لمذكور متقدم قريب أو بعيد، فإن المضمرات تلحق بعالم الغيب والمعينات تلحق بعالم الشهادة، لأن المضمر صالح لكل معين لا يختص به واحد دون آخر فهو مطلق والمعين مقيد، فإنك إذا قلت زيد فما هو غيره من الأسماء لأنه موضوع لشخص بعينه. وإذا قلت أنت أو هو أو إنك فهو ضمير يصلح لكل مخاطب قديم وحديث، فلهذا فرقنا بين المضمر والمعين بالاسم أو الصفة، والصفة برزخية بين الأسماء وبين الضمائر، فإنك إذا قلت: المؤمن أو الكاتب فقد ميّزته من غير المؤمن، فأشبه زيداً من وجه ما عينته الصفة، وأشبه الضمائر من وجه إطلاقه على كل من هذه صفته، غير أن الضمير الخطابي مثلاً يعم كل مخاطب كائناً من كان من مؤمن وغير مؤمن، وإنسان وغير إنسان، فتقوى الله حق تقاته هو رؤية المتقي التقوى منه وهو عنها بمعزل، ما عدى نسبة التكليف به فإنه لا ينعزل عنها لما يقتضيه من سوء الأدب مع الله، فحال المتقي لله حق تقاته كحال من شكر الله حق الشكر وقد تقدّم معنى ذلك.

وهذه الآية من أصعب آية مرت على الصحابة، وتخيّلوا أن الله خفف عن عباده بآية الاستطاعة في التقوى، وما علموا أنهم انتقلوا إلى الأشدّ وكنا نقول بما قالوه، ولكنّ الله لما فسّر مراده بالحقية في أمثال هذا هان علينا الأمر في ذلك، وعلمنا أن تقوى الله بالاستطاعة أعظم في التكليف، فإنه عزيز أن يبذل الإنسان في عمله جهد استطاعته لا بدّ من فضلة يبقيها وفي حق تقاته ليس كذلك، وعلمنا أن الله أثبت العبد في الاستطاعة، فلا ينبغي أن ننفيه عن الموضع الذي أثبته الحق فيه فإن ذلك منازعة لله، وفي حق تقاته أثبت له النظر إليه في تقواه وهو أهون عليه، فما كان شديداً عندهم كان في نفس الأمر أهون وعند من فهم عن الله، وما كان هيناً عندهم كان في نفس الأمر شديداً، وعند من فهم عن الله جعلنا الله ممّن فهم عنه خطابه فآتاه رحمة من عنده وهو ما أعطاه من الفهم ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] فلم يكله إلى عنديته ولا إلى نفسه، بل تولى تعليمه ليريحه لما هو عليه من الضعف، ولولا أن العبد ادّعى الاستطاعة في الأفعال والاستقلال بها ما أنزل الله تكليفاً قط ولا شريعة، ولهذا جعل حظ المؤمن من هذه الدعوى أن يقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥]

وقال في حقنا وحق أمثالنا ممّن تبرأ من الأفعال الظاهر وجودها منه قولوا: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، عن أن يشارك فيها فهي له خالصة، فكم بين الحالين بين التبرّي والدعوى، فالمدعي مطالب بالبرهان على دعواه، والمتبرّي غير مطالب بذلك، ولا تقل إن التبرّي دعوى فإن التبرّي لا يبقى شيئاً، وعلى ذلك ينطلق اسم المتبرّي، ونحن نتكلم في الأمر المحقق، فإن كتابنا هذا بل كلامنا كله مبناه في الكلام على الأمور بما هي عليه في أنفسها، والتبرّي صفة إلهية سلبية، والعبد حقيقته سلب، والدعوى صفة إلهية ثبوتية لا تنبغي إلاّ لله عزّ وجلّ، والعبد إذا اتصف بها لم يزاحم الله فيها ويقول: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، ومهما قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإنما يقولها تالياً لا حقيقة فله ما نوى وهو بحيث علم.

ولولا ما ظهر العبد بالدعوى ما قيل له ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦] بالقوّة التي جعلتها لكم فيكم بين الضعفين، فمن تنبّه على أن قوّته مجعولة وأنها لمن جعلها لم يدع فيها بل هي أمانة عنده لا يملكها، والإنسان لا يكون غنياً إلاّ بما يملكه، والأمانة عارية لا تملك مأمور من هي عنده بردّها إلى أهلها وهو قوله: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، أي القوّة قائمة بالله لا بنا، فالمدعون في القوّة يجعلون ما من قوله ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ مصدرية، وأهل التبرّي يجعلونها للنفي في الآية، فنفى عندهم الاستطاعة في التقوى وأثبتها عند من جعلها مصدرية، ولما كان المعنى في التقوى أن تتخذ وقاية ممّا ينسب إلى المتقي، فإذا جاءت النسبة حالت الوقاية بينها وبين المتقي أن تصل إليه فتؤذيه فتلقتها الوقاية، فلا أحد أصبر على أذى من الله، فإن السهم والطعن والحجر والضرب بالسيف وما أشبه ذلك عند المثاقف إنما تتلقاها الوقاية وهي المجن الذي بيده وهو من ورائها ماسك عليها لكنه يحتاج إلى ميزان قوي لأمور عوارض عرضت للنسبة تسمى مذمومة فيقبلها العبد، ولا يجعل الله وقاية أدباً وإن كان لا يتلقاها إلاّ الله في نفس الأمر، ولكن الأدب مشروع للعبد في ذلك، ولا تضرّه هذه الدعوى لأنها صورة لا حقيقة، وإذا علم الله ذلك منك جازاك جزاء من ردّ الأمور إليه وعول في كل حال عليه، وسكن تحت مجاري الأقدار، وتفرج فيما يحدث الله في أولاد الليل والنهار، فهذا تقوى الله قد أومأنا إلى تحقيقه إيماء، فإن للكلام في معناه مجالاً رحباً يطول، فاكتفينا بهذا وانتقلنا إلى تقوى الحجاب والستر، والكل من تقوى الله فإنه الأصل. انتهى الجزء الثالث والتسعون.

(الجزء الرابع والتسعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الخامس والثمانون

في تقوى الحجاب والستر

[نظم: السريع]

مـن يـتـقـي الـسِّـتـرَ فـذاك الـذي يـعـلـم أن الـسِّـتـرَ مـن نـفـسـهِ

إذا أتـى يـومٌ عـلـيـه يُـرَى ... يـبـكـي عـلـى مـا فـات فـي أمـسـهِ
لـو رفـع الـسِّـتْـرَ بـدار الـفـنـا ... مـن قـبـل أن يُـرْفَـعَ فـي رَمْـسِـهِ
لـنـال مـا نـال رجـال سـمـت ... هـمـتـهـم عـن جـنـتـي قـدسـه
ولاح وجـهُ الـحـقّ فـي سـرِّهـمْ ... فـي بـدره وقـتـاً وفـي شَـمْـسـهِ
فـلا يـرى الـتَّـرجـيـحَ فـيـمـا يـرى ... بـعـقـلـه مـن ذاك أو حِـسِّـهِ
كـمـا يـخـافُ الـعـقـلُ مـن عـقـلـه ... كـذا يـخـافُ الـحـسُّ مـن حِـسِّـهِ
لأجـل هـذا يـتَّـقـي الـمُـتَّـقـي ... كـمُـتَّـقِـي الـشـيـطـان مـن مَـسِّـهِ

اعلم أيّدنا الله وإياك أن الله تعالىٰ قال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ١٥] وقال ﷺ: «**إِنَّ للَّهِ سَبْعِينَ حِجَاباً مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ لَوْ كَشفَهَا لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**» فانظر ما ألطف هذه الحجب وما أخفاها فإنه قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] مع وجود هذه الحجب التي تمنعنا من رؤيته في هذا القرب العظيم، وما نرى لهذه الحجب عيناً فهي أيضاً محجوبة عنا. وقال تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] نعم يا ربنا ما نبصرك ولا نبصر الحجب، فنحن خلف حجاب، الحجب وأنت منا بمكان الوريد أو أقرب إلينا منا، وهذا القرب هو سبب عدم الرؤية منا أن تتعلق بك الإنسان لا يرى نفسه فكيف يراك وأنت أقرب إلينا من أنفسنا؟ فغاية القرب حجاب، كما غاية البعد حجاب، وإنما العجب الذي قصم الظهر وحيّر العقل قولك وعلمنا أن الله يرى في قولك توبيخاً وتنبيهاً: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [سورة العلق: الآية ١٤] وقولك: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] ثم قلت: إنك لو رفعت الحجب بيننا وبينك من كونك موصوفاً بالسبحات الوجهية لاحترق ما أدركه بصرك بسبحات وجهك وبالنور صحّ ظهور العالم وهو وجوده، فكيف يعدم من حقيقته؟ الإيجاد هنا هي الحيرة، ثم إنه على الأمرين: أدخلت نفسك تحت حكم التحديد وهذا ينكره ما جعلته فينا من القوّة العقلية الناظرة بالصفة الفكرية وما لنا إلاَّ حسّ وعقل، فبالحسّ ما ندرك وبالعقل ما ندرك، فقد وقع الحدّ، إن كنت خلف الحجاب فأنت محدود، وإن كنت أقرب إلينا من الحجاب فأنت محدود، وإن كنت بكل شيء محيط فأنت أقرب إلى نفي الحدّ، فلماذا أدخلت نفسك في الحدّ بما أعلمتنا به من الحجب الحايلة بينك وبيننا، وبيننا وبينك حارت العقول، وما خاطب إلاَّ العقول ونصب أدلتها متقابلة فما أثبتـه دليل نـفـاه آخـر ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٥] وأيّ غفر أشدّ من هذا؟ جزى الله عنا موسىٰ عليه السلام خيراً إذ ترجم عنا بقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ اختبرت عبادك بالأدلة وما ثم دليل يوصل إليك الدليل موضوع ليدل على واضع لا يدل على حقيقة واضعه، فما رأينا بعد السبر والتقسيم وما أعطاه الكلام القديم إلاَّ أن تكون أنت عين الحجب ولهذا احتجبت الحجب فلا نراها مع كونها نوراً وظلمة وهو ما تسميت به لنا من الظاهر والباطن وقد أمرتنا أن نتقي الله، فإن لم يكن الله عين الحجاب عليه النوري من الاسم الظاهر والظلمي من الاسم الباطن وإلاَّ كنا مشركين، وقد

ثبت أنا موحدون فثبت أنك عين الحجاب فما احتجبنا عنك إلاَّ بك، ولا احتجبت عنا إلاَّ بظهورك، غير أنك لا تعرف لكوننا نطلبك من اسمك كما نطلب الملك من اسمه وصفته وإن كان معنا غير ظاهر بذلك الاسم ولا بتلك الصفة بل ظهور ذاتي، فهو يكلمنا ونكلمه ويشهدنا ونشهده ويعرفنا ولا نعرفه، وهذا أقوى دليلٍ على أن صفاته سلبية لاثبوتية، إذ لو كانت ثبوتية لأظهرته إذا ظهر بذاته، فما نعرف أنه هو إلاَّ بتعريفه، فنحن في المعرفة مقلدون له، فلو كانت صفاته ثبوتية لكانت عين ذاته وكنا نعرفه بنفس ما نراه ولم يكن الأمر كذلك فدل على خلاف ما يعتقده أهل النظر وأرباب الفكر الصفاتين من المشبهة من أرباب العقول، وهذا الأمر أدّانا إلى أن نعتقد في الموجودات على تفاصيلها أن ذلك ظهور الحق في مظاهر أعيان الممكنات بحكم ما هي الممكنات عليه من الاستعدادات، فاختلفت الصفات على الظاهر لأن الأعيان التي ظهر فيها مختلفة، فتميزت الموجودات وتعدّدت لتعدّد الأعيان وتميزها في نفسه، فما في الوجود إلاَّ الله وأحكام الأعيان، وما في العدم الشيء إلاَّ أعيان الممكنات مهيأة للاتصاف بالوجود فهي لا هي في الوجود لأن الظاهر أحكامها فهي ولا عين لها في الوجود فلا هي كما هو ولا هو لأنه الظاهر، فهو والتميز بين الموجودات معقول ومحسوس لاختلاف أحكام الأعيان، فلا هو فيا أنا ما هو أنا ولا هو ما هو هو مغازلة رقيقة وإشارة دقية ردّها البرهان ونفاها وأوجدها العيان وأثبتها، فقل بعد هذا ما شئت فقد أنبت لك عن الأمر ما هو فما أخطأ معتقد في اعتقاده ولا جهل منتقد في انتقاده: [الطويل]

فـمـا ثَـمَّ إلاَّ الله والـكـونُ حـادثٌ ... ومـا ثَـمَّ إلاَّ الله والـكـونُ ظـاهـرُ
فما العلمُ إلاَّ الجهلُ بالله فاعْتَصِمْ ... بقولي فإني عن قريب أسافِرُ
ومـا لـيَ مـالٌ غيـرَ عـلـمـي ووارثٌ ... سوى عينِ أولادي فذا المالُ حاضِرُ

الباب السادس والثمانون
في تقوى الحدود الدنياوية

اعلم وفّقك الله: [البسيط]

الـمـتَّـقُـونَ حـدودَ الله أفـرادُ ... بـهـذه الـدار والأفـرادُ آحـادُ
إن الـحـدودَ إذا حـقَّـقْـتَ صورتَـهـا ... بـرازخٌ وهـي فـي الـتـحـقـيـق أشْـهَـادُ
فـلـتـتَّـقـي حـدَّكَ الـرسـميَّ إن لـه ... غـوراً وفـي غـور ذاك الـغـور إلْـحـادُ
وقـفْ لـدى حـظِّـك الـذاتـيِّ تـحْـظَ بـمـا ... حـظـي بـه مـن لـه سَـعْـدٌ وإسـعـادُ
الـفـقـرُ والـعـجـزُ فـي دنـيـا وآخـرة ... فـغـايـةُ الـقـرب قـربٌ فـيـه إبـعـادُ
هـذي طـريـقـةُ أقـوام لـهـم هـمَـمٌ ... فـازوا بـهـا وبـهـا عـلـى الـورى سـادوا

قال الله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [سورة الأنفال، الآية ٢٥] وأي عقوبة أشدّ من عقوبة تعم المستحق بها وغير المستحق؟ والظالم وغير الظالم؟ والبريء والفاعل؟ وهي هذه الحدود الدنيوية لأنها دار امتزاج ونطفة

أمشاج، فتعمّ عقوبتها لعدم التميز، وحدود الآخرة ليست كذلك فإنها دار تمييز فلا تصيب العقوبة إلاّ أهلها، فلو كانت نشأة الآخرة من نطفة أمشاج كما ذهب إليه ابن قسي لعمت العقوبة أهلها وغير أهلها، ومن هنا إن نظرت تعرف نشأة الآخرة أنها على غير مثال سبق، كما أن نشأة الدنيا على غير مثال سبق وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٦٢] أنها كانت على غير مثال، ولهذا أتى بكلمة التحضيض، وهذه الفتنة العامّة والعقوبة الشاملة والحدود المتداخلة من صفة قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] فإن ظاهرها لا يقتضي العدل وباطنها يقتضي الفضل الإلهيّ، ففي الآخرة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٤] وهنا ليس كذلك في عموم صورة العقوبة، ولكن ما هي في البريء عقوبة وإنما هي فتنة وفي الظالم عقوبة لأنها جاءته عقيب ظلمه فما يستوجبها البريء، ولكن حكم الدار عليه كما يحكم على أهل دار الكفر الدار، وإن كان فيها من لا يستحق ما يستحقه الكفار، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [سورة هود: الآية ١١٣] والنبيّ ﷺ قد جعل مولى القوم منهم في الحكم وما هو منهم في نفس الأمر، جعلنا الله ممّن عامله بفضله ولم يطلبه بواجب حقّه إذا قال الله في حق من اصطفاه من عباده أنه ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [سورة الكهف: الآية ٣٥] حيث حمل الأمانة، وهذا هو ظلم المصطفين من عباد الله لا ظلم يتعدّى الحدود الإلهية فإنه ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١] لأن لنفسه حداً تقف عنده وهي عليه في نفسها، وذلك الحد هو عين عبوديتها، وحد الله هو الذي يكون له، فإذا دخل العبد في نعت الربوبية وهو الله فقد تعدّى حدود الله ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٩] لأن حدّ الشيء يمنع ما هو منه أن يخرج منه وما ليس منه أن يدخل فيه، هذه هي الحدود الذاتية فمن يتقيها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٠٢] ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧] فوصفهم بالتقوى إذا لم يتعدوها وجعلوها وقاية لهم، وليس بأيدينا من الحدود الذاتية لله شيء، والذي عندنا إنما هي الحدود الرسمية ولهذا اجترأ العباد عليها وتعدوها ومنها عوقبوا، كما إذا أدخلهم الحق صاحب الحد فيما هو له لم يتصف بالظلم فما استوجب عقوبة، ولما كان حداً رسمياً قبل العبد الدخول فيه، فإن دخل فيه بنفسه من غير إدخال صاحبه فقد عرض نفسه للعقوبة، فصاحب الحد بخير النظرين: إن شاء عاقب وإن شاء عفى وإن شاء أثنى، كالمتصف بالكرم والعفو والصفح، وهذه كلها حدود رسمية للحق، فاعلم ما نبتهك عليه من العلم الغريب في هذه المسألة فإنها من لباب المعرفة بالله. وأما حدود الله اللفظية فما حجر منها شيئاً سوى كلمة الله، واختلفوا في كلمة الرحمن بالألف واللام، وكذلك أيضاً لم يتسم أحد بالرحمن الرحيم على أن يكون من الأسماء المركبة مثل: بعل بك، ورام هرمز، وبلال أباذ، والحماية لهذا الاسم لم يكن عن أمر إلهيّ مشروع، وإنما كانت حماية غيبية أغفل الله عن التسمية بهذا الاسم المركب الناس، ويكفي هذا القدر من تقوى الحدود.

الباب السابع والثمانون

في تقوى النار

قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣١] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤] وقال: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦].

[نظم: السريع]

من يتقي النارَ فذاك الذي ... يُحشَرُ للرحمن من قَبْرِهِ
فمن اسمه الجبار أو مثله ... فليشكرِ الله على شُكْرِهِ
لا سيما والنارُ مَشْهُودَةٌ ... في ذلك اليوم على كِبْرِهِ
لا تتَّقي النار ولا مثلها ... فإن تَقْوَى النار من مَكْرِهِ
لا تتَّقي غير الإله الذي ... أبْطَنَ نَفْعَ الشخص في ضُرِّهِ

اعلم وفّقك الله وفهمك أن النار قد تتخذ دواء لبعض الأمراض فهي وقاية وهو الداء الذي لا يتقى إلاَّ بالكي بالنار، فقد جعل الله النار وقاية في هذا الموطن من داء هو أشدّ من النار في حق المبتلى به، وأي داء أكبر من الكبائر، فجعل الله لهم النار يوم القيامة دواء كالكي بالنار في الدنيا، فدفع بدخولهم النار يوم القيامة داء عظيماً أعظم من النار، وهو غضب الله الذي قام مقام الداء الذي يكوي من يخاف عليه منه بالنار، ولهذا يخرجون بعد ذلك من النار إلى الجنة قد امتحشوا، كما يخرج إلى العافية صاحب الكي بالنار، هذا إذا جعلناها وقاية، كما جعلنا في الحدود الدنياوية وقاية من عذاب الآخرة ولهذا هي كفارات أي تستره هذه الحدود عن عذاب الآخرة، ومن هنا قلنا في المحاربين الله ورسوله أن المعنيّ بهم الكفار، فإن الله لما عاقبهم في الدنيا لم يجعل عقوبتهم كفارة مثل ما هي الحدود في حق المؤمنين بل قال: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٣] وهذا لا يكون إلاَّ للكفار، والعذاب العظيم هو أن يعمّ الظاهر والباطن، بخلاف عذاب أهل الكبائر من المؤمنين فإن الله يميتهم في النار إماتة حتى يعود واحماً شبه الفحم، فهؤلاء ما أحسّوا بالعذاب لموتهم فليس لهم حظ في العذاب العظيم فتتقي النار لما يكون من الألم عند تعلقها بنا، والذين هم جمر لها يزيدون في فعلها فإنهم المحرقون بالنار مثل الجمرات، ثم تفعل النار بوساطة الجمرات التي ظهرت فيها فعلاً آخر قد يكون فيه منفعة، كالمجرات التي تكون تحت القدر لإنضاج ما في القدر ليقع بذلك الإنضاج منفعة المتمتع بما نضج.

ولما كانت كرة الأثير واسعة الشمس تؤثر في مولدات الفواكه والمعادن بحرارتها نضجاً، لما في ذلك من المنفعة لنا كانت رحمة مع كونها ناراً، كذلك من عرف نشأة الآخرة وموضع الجنة والنار وما في فواكه الجنة من النضج الذي يقع به الالتذاذ لأكله من أهل الجنان علم أين النار وأين الجنة، وأن نضج فواكه الجنة سببها حرارة النار التي تحت مقعر أرض

الجنة، فتحدث النار حرارة في مقعر أرضها فيكون صلاح ما في الجنة من المأكولات، وما لا يصلح إلاَّ بالحرارة من حرارة النار وهو لها كحرارة النار تحت القدر، فإن مقعر أرض الجنة هو سقف النار، وقد بيّنا ذلك في التنزلات الموصلية والشمس والقمر والنجوم كلها في النار وعن أحكامها بما أودع الله فيها كانت منافع الحيوانات بها، فتفعل بالأشياء هنالك علواً، كما كانت تفعل هنا سفلاً، وكما هو الأمر هنا، كذلك ينتقل إلى هنالك بالمعنى وإن اختلفت الصور، ألا ترى أرض الجنة مسكاً وهو حار بالطبع لما فيه من النار وأشجار الجنة مغروسة في تلك التربة المسكية، كما يقتضي حال نبات هذه الدار الدنيا الزبل لما فيه من الحرارة الطبيعية لأنه معفن، والحرارة تعطي التعفين في الأجسام القابلة للتعفين، وهذا القدر كاف في تقوى النار أعاذنا الله منها في الدارين.

الباب الثامن والثمانون
في معرفة أسرار أصول أحكام الشرع

[نظم: الكامل]

الشرعُ ما شَرَعَ الإلٰهُ تَخَلُّقاً ... فهو العليمُ بحقهم وبحقِّهِ
فإذا أتى عبدٌ يشرِّعُ شِرْعَةً ... قام الإلهُ بحقها في حقِّهِ
والشرعتان هما من أصلٍ واحدٍ ... ما لم يقلْ قال الإلهُ لخَلْقهِ
فإذا يقول فإنها أُحْبُولَةٌ ... نَجَمَ القرينُ بنجمها من أُفْقهِ
ليصدِّقوا ما قلَّدوا أفكارَهم ... فهو الكذوبُ وإن أتاك بِصِدْقهِ
فلتعتبرْ أحكامَ أصل كتابِها ... فلربما غصَّ اللعينُ بريقهِ

اعلم أن أصول أحكام الشرع المتفق عليها ثلاث: الكتاب والسنّة المتواترة والإجماع. واختلف العلماء في القياس فمن قائل: بأنه دليل وأنه من أصول الأحكام. ومن قائل: بمنعه وبه أقول، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] وقال: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩] وقال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٨] مثل قوله في عبده الخضر: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] فجعل إعطاءه العلم عبده من رحمته، والتقوى عمل مشروع لنا، فلا بدّ أن تكون التقوى نسبة حكمه إلى دليل من هذه الأدلة أو إلى كلها في أيّ مسألة يلزمنا فيها تقوى الله. قال الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنّة وهما الأصلان الفاعلان، والإجماع والقياس إنما يثبتان وتصحّ دلالتهما بالكتاب والسنّة فهما أصلان في الحكم منفعلان، فظهرت عن هذه الأربع الحقائق نشأة الأحكام المشروعة التي بالعمل بها تكون السعادة، فإن الموجودات ظهرت عن أربع حقائق إلهية وهي: الحياة والعلم والإرادة والقدرة، والأجسام ظهرت عن أربع حقائق: عن حرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة، والمولدات ظهرت عن أربعة أركان: نار وهواء وماء وتراب، وجسم

الإنسان والحيوان ظهر عن أربعة أخلاط: صفراء وسوداء ودم وبلغم، فالحرارة والبرودة فاعلان، والرطوبة واليبوسة منفعلتان فاعلم.

ولما كان من لا يؤمن بالشرائع المنزلة يشاركنا بالرياضة والمجاهدة وتخليص النفس من حكم الطبيعة يظهر عليه الاتصال بالأرواح الطاهرة الزكية ويظهر حكم ذلك الاتصال عليه مثل ما يظهر من المؤمنين العاملين منا بالشرائع المنزلة بما وقع من التشبيه والاشتراك فيما ذكرناه عند عامة الناس ونطقنا بالعلوم التي يعطيها كشف الرياضة وإمداد الأرواح العلوية، وانتقش في هذه النفوس الفاضلة جميع ما في العالم فنطقوا بالغيوب. قال الجنيد: علمنا هذا. وإن وقع فيه الاشتراك بيننا وبين العقلاء فأصل رياضتنا ومجاهدتنا وأعمالنا التي أعطتنا هذه العلوم والآثار الظاهرة علينا إنما كان من عملنا على الكتاب والسنّة، فهذا معنى قوله: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنّة، وتتميز يوم القيامة عن أولئك بهذا القدر فإنهم ليس لهم في الإلهيات ذوق، فإن فيضهم روحانيّ وفيضنا روحانيّ وإلهيّ لكوننا سلكنا على طريقة إلهية تسمّى شريعة فأوصلتنا إلى المشرع وهو الله تعالىٰ لأنه جعلها طريقاً إليه فاعلم ذلك.

ولما كان شرع الله وحكمه في حركات الإنسان المكلف لا يؤخذ إلاّ من القرآن كذلك لم توجد إلاّ بالمتكلم به وهو الله تعالىٰ فقال للشيء ﴿كُن﴾ فكان، فالقرآن أقوى دليل يستند إليه، أو ما صحّ عن رسول الله ﷺ الذي قام الدليل على صدقه أنه مخبر عن الله جميع ما شرعه في عبيد الله، وقد يكون ذلك الخبر إمّا بإجماع من الصحابة وهو الإجماع أو من بعضهم بنقل العدل عن العدل وهو خبر الواحد وبأيّ طريق وصل إلينا فنحن متعبدون بالعمل به بلا خلاف بين علماء الإسلام، ولهذا يقول أهل الأصول في الإجماع: إنه لا بدّ أن يستند إلى نص وإن لم ينطق به. وأمّا القياس فمختلف في اتخاذه دليلاً وأصلاً فإن له وجهاً في المعقول، ففي مواضع تظهر قوّة الأخذ به على تركه، وفي مواضع لا يظهر ذلك، ومع هذا فما هو دليل مقطوع به فأشبه خبر الآحاد، فإنّ الاتفاق على الأخذ به مع كونه لا يفيد العلم وهو أصل من أصول إثبات الأحكام، فليكن القياس مثله إذا كان جلياً لا يرتاب فيه، وعندنا وإن لم نقل به في حقي، فإني أجيز الحكم به لمن أدّاه اجتهاده إلى إثباته أخطأ في ذلك أو أصاب، فإن الشارع أثبت حكم المجتهد وإن أخطأ وأنه مأجور.

فلولا أن المجتهد استند إلى دليل في إثبات القياس من كتاب أو سنّة أو إجماع أو من كل أصل منها لما حلّ له أن يحكم به بل ربما يكون في حكم النظر عند المنصف القياس الجليّ أقوى في الدلالة على الحكم من خبر الواحد الصحيح، فإنا إنما نأخذه بحسن الظن برواته ولا نزكيه علماً على الله، فإن الشرع منعنا أن نزكي على الله أحداً، ولنقل: أظنه كذا وأحسبه كذا، والقياس الجلي يشاركنا فيه النظر الصحيح العقلي، وقد كنّا أثبتنا بالنظر العقليّ الذي أمرنا به شرعاً في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٥] ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٤] وفي القرآن من مثل هذا كثير، فقد اعتبر الشارع حكم النظر العقلي في إثبات وجود الله أولاً وهو الركن الأعظم، ثم

اعتبره في توحيده في ألوهته، فكلفنا النظر في أنه لا إله إلاَّ الله بعقولنا، ثم نظرنا بالدليل العقلي ما يجب لهذا الإله من الأحكام، ثم نظرنا بالنظر العقلي الذي أمرنا به في تصديق ما جاء به هذا الرسول من عنده إذ كان بشراً مثلنا، فنظرنا بالعقول في آياته وما نصبه دليلاً على صدقه فأثبتناه، وهذه كلها أصول لو انهدّ ركن منها بطلت الشرائع، ومستند ثبوتها النظر العقلي واعتبره الشرع وأمر به عباده والقياس نظر عقلي، أترى الحق يبيحه في هذه المهمات والأركان العظيمة ويحجزه علينا في مسألة فرعية ما وجدنا لها ذكراً في كتاب ولا سنّة ولا إجماع، ونحن نقطع أنه لا بدّ فيها من حكم إلهيّ مشروع، وقد انسدت الطرق فلجأنا إلى الأصل وهو النظر العقلي، واتخذنا قواعد إثبات هذا الأصل كتاباً وسنّة، فنظرنا في ذلك فأثبتنا القياس أصلاً من أصول أدلة الأحكام بهذا القدر من النظر العقلي حيث كان له حكم في الأصول، فقسنا مسكوتاً عنه على منطوق به لعلة معقولة لا يبعد أن تكون مقصودة للشارع تجمع بينهما في مواضع الضرورة إذا لم نجد فيه نصاً معيناً، فهذا مذهبنا في هذه المسألة، وكل من خطأ عندي مثبت القياس أصلاً أو خطأ مجتهداً في فرع كان أو في أصل فقد أساء الأدب على الشارع حيث أثبت حكمه والشارع لا يثبت الباطل، فلا بدّ أن يكون حقاً ويكون نسبة الخطأ إلى ذلك نسبة أنه خطأ دليل المخالف الذي لم يصحّ عند المجتهد أن يكون ذلك دليلاً، والمخطىء في الشرع واحد لا بعينه فلا بدّ من الأخذ بقوله ومن قوله إثبات القياس فقد أمر الشارع بالأخذ به، وإن كان خطأ في نفس الأمر فقد تعبده به، فإن للشارع أن يتعبد بما شاء عباده، وهذه طريقة انفردنا بها في علمنا، مع أنا لا نقول بالقياس بالنظر إلينا ونقول به بالنظر لمن أدّاه إليه اجتهاده لكون الشارع أثبته، فلو أنصف المخالف لسكت عن النزاع في هذه المسألة فإنها أوضح من أن ينازع فيها والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ثم نبين في هذا الباب ما يتعلق بأصول الأحكام عند علماء الإسلام كما عملنا في العبادات، وكان الأولى تقديم هذا الباب في أول العبادات قبل الشروع فيها ولكن هكذا وقع، فإنا ما قصدنا هذا الترتيب عن اختيار، ولو كان عن نظر فكري لم يكن هذا موضعه في ترتيب الحكمة فأشبه آية قوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٨] بين آيات طلاق ونكاح وعدّة وفاة يتقدّمها ويتأخرها، فيعطي الظاهر أن ذلك ليس موضعها، وقد جعل الله ذلك موضعها لعلمه بما ينبغي في الأشياء، فإن الحكيم من يعمل ما ينبغي لما ينبغي كما ينبغي، وإن جهلنا نحن صورة ما ينبغي في ذلك فالله تعالىٰ رتب على يدنا هذا الترتيب فتركناه ولم ندخل فيه برأينا ولا بعقولنا، فالله يملي على القلوب بالإلهام جميع ما يسطره العالم في الوجود فإن العالم كتاب مسطور إلهي، وإذا تعارض آيتان أو خبران صحيحان وأمكن الجمع بينهما واستعمالهما معاً فلا نعدل عن استعمالهما، فإن لم يمكن استعمالها معاً بحيث أن يكون في أحدهما استثناء فيجب أن يؤخذ بالذي فيه الاستثناء، وإن كان في أحدهما زيادة أخذت الزيادة وعمل بها، فإن لم يوجد شيء من ذلك وتعارضا من جميع الوجوه فينظر إلى التاريخ فيؤخذ بالمتأخر منهما، فإن جهل التاريخ وعسر العلم به فلينظر إلى أقربهما إلى

رفع الحرج في الدين فيعمل به لأنه يعضده ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] ودين الله يسر ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥] «**وَمَا أَمَرْتُكُم بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَدَعُوهُ**» فإن تساويا في رفع الحرج فلا يسقطان وتكون مخيراً فيهما تعمل بأيّ الخبرين شئت أو الآيتين، وإذا تعارض آية وخبر صحيح من جميع الوجوه من أخبار الآحاد وجهل التاريخ أخذ بالآية وتركنا الخبر، فإن الآية مقطوع بها وخبر الواحد مظنون، فإن كان الخبر متواتراً كالآية وجهل التاريخ ولم يمكن الجمع بينهما كان الحكم التخيير فيهما إلاّ أن يكون أحدهما فيه رفع الحرج فيقدم الأخذ به، وكل خبرين أو آيتين تعارضا أو آية وخبر صحيح متواتراً وغير متواتر وفي أحدهما زيادة حكم قبلت الزيادة. وعمل بها وترجح الأخذ بحديث الزيادة على معارضه ولا يؤخذ من الحديث إلاّ ما صحّ، فإن كان المكلف مقلداً وبلغ إليه حديث ضعيف مسند إلى رسول الله ﷺ وقد عارضه قول إمام من الأئمة أو صاحب لا يعرف دليل ذلك القول فيأخذ بالحديث الضعيف ويترك ذلك القول، فإن قصاراه أن يكون في درجة ذلك القول إن كان الحديث في نفس الأمر ليس بصحيح ولا يعدل عن الحديث.

وأما إذا صحّ الحديث وعارضه قول صاحب أو إمام فلا سبيل إلى العدول عن الحديث ويترك قول ذلك الإمام والصاحب للخبر، فإن كان الخبر مرسلاً أو موقوفاً فلا يعول عليه إلاّ إذا علم من التابع أنه لا يرسل الحديث إلاّ عن صاحب لا غير، وإن لم يعين ذلك الصاحب فيؤخذ بالمرسل فإنه في حكم المسند وهو أن يقول التابع: قال رسول الله ﷺ، ولا يذكر الصاحب الذي عنه رواه ويعلم أنه ممّن أدرك الصحابة وصحبهم وهو ثقة في دينه، ويعلم منه أنه ممّن لا يرى الكذب على النبيّ ﷺ في المصالح، فإن علم منه ذلك لم يؤخذ بحديثه ولو أسنده، ولا يجوز ترك آية أو خبر صحيح لقول صاحب أو إمام، ومن يفعل ذلك فقد ضلّ ضلالاً مبيناً وخرج عن دين الله.

وإذا ورد الخبر عن قوم مستورين لم يتكلم فيهم بجرح ولا تعديل وجب الأخذ بروايتهم، فإن جرح واحد منهم بجرحة تؤثر في صدقهِ ترك حديثه، وإن كانت الجرحة لا تتعلق بنقله وجب الأخذ به إلاّ شارب الخمر إذا حدّث في حال سكره، فإن علم أنه حدّث في حال صحوه وهو ممّن هذه صفته أخذ بقوله والإسلام العدالة والجرحة طارئة، وإذا ثبتت على حد ما قلناه ترك الأخذ بحديث صاحب تلك الجرحة، ولا فرق بين الأخذ بخبر الواحد الصحيح وبين المتواتر إلاّ إن تعارضا كما قلناه، وما أوجب الله علينا الأخذ بقول أحد غير رسول الله ﷺ مع كوننا مأمورين بتعظيمهم ومحبتهم.

وأما النسخ فلا أقول به على حد ما يقولون به، فإنه عندنا انتهاء مدة الحكم في علم الله، فإذا انتهى فجائز أن يأتي حكم آخر من قرآن أو سنّة، فإن سمّي مثل هذا نسخاً قلنا به، وإذا كان الأمر على هذا فيجوز نسخ القرآن بالقرآن وبالسنّة فإن السنّة مبينة لأنه عليه السلام مأمور بأنه يبين للناس ما نزل إليهم وأن يحكم بما أراه الله لا بما أرته نفسه فإنه لا يتبع إلاّ ما

يوحى إليه سواء كان ذلك قرآناً أو غير قرآن، ويجوز نسخ السنّة بالقرآن والسنّة، وإذا ورد نص من آية أو خبر لا يجوز الوقوف عن الأخذ بذلك القرآن أو الخبر حتى يرى هل له معارض أم لا؟ بل يعمل بما وصل إليه، فإن عثر بعد ذلك على خبر أو آية ناسخ أو مخصص أو معمّم للمتقدم كان بحكم ما وصل إليه بشروطه وهو أن يبحث عن التاريخ، فإن الخاص قد يتقدم على العام كما يتقدم العام على الخاص والأصل أن الحكم للمتأخر.

وإذا وردت الآية أو الخبر بلفظ ما من اللسان فالأصل أن يؤخذ بما هو عليه في لغة العرب، فإن أطلقه الشارع على غير المفهوم من اللسان كاسم الصلاة واسم الوضوء واسم الحج واسم الزكاة صار الأصل ما فسره به الشارع وقرّره، فإذا ورد بعد ذلك خبر بذلك اللفظ حمل على ما فسّره به الشارع ولم يحمل على ما هو عليه في اللسان حتى يرد من الرسول في ذلك اللفظ أنه به ما هو عليه في اللسان فيعدل عند ذلك إليه في ذلك الخبر على التعيين، وأوامر الشرع كلها محمولة على الوجوب ونواهيه مخمولة على الحظر ما لم يقترن بالأمر قرينة حال تخرجه عن الوجوب إلى الندب أو الإباحة، وكذلك النهي إن اقترنت به قرينة تخرجه من الحظر إلى الكراهة، فإن تعرّى الأمر عن قرينة الندب أو الإباحة تعين الوجوب، وكذلك النهي، وقد يرد الأمر الإلهي أو النبوّيّ على النهي برفع التحجير خاصة لا لوجوب فعل المأمور به، والإجماع إجماع الصحابة بعد رسول الله ﷺ لا غير، وما عدا عصرهم فليس بإجماع يحكم به، وصورة الإجماع أن يعلم أنّ المسألة قد بلغت لكل واحد من الصحابة فقال فيها بذلك الحكم الذي قال به الآخر إلى أن لم يبق منهم أحد إلاّ وقد وصل إليه ذلك الأمر وقال فيه بذلك الحكم، فإن نقل عن واحد خلاف في ذلك فليس بإجماع أو نقل عنه سكوت فليس بإجماع، وإن وقع خلاف في شيء وجب ردّ الحكم فيه إلى الكتاب والخبر النبويّ فإنه ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩].

ولا يجوز أن يدان الله بالرأي وهو القول بغير حجة ولا برهان لا من كتاب ولا من سنّة ولا من إجماع، وإن كنا لا نقول بالقياس فلا نخطىء مثبته إذا كانت العلة الجامعة معقولة جلية يغلب على الظنّ أنها مقصودة للشارع، وإنما امتنعنا نحن من الأخذ بالقياس لأنه زيادة في الحكم، وفهمنا من الشارع أنه يريد التخفيف عن هذه الأمّة وكان يقول: «**اتْرُكُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ**»، وكان يكره المسائل خوفاً أن ينزل عليهم في ذلك حكم فلا يقومون به كقيام رمضان والحج في كل سنة وغير ذلك، فلما رأيناه على ذلك منعنا القياس في الدين، فإن النبيّ ﷺ ما أمر به ولا أمر به الحق تعالىٰ فتعين علينا تركه فإنه مّما يكرهه ﷺ، وحكم الأصل أن لا تكليف، وأنّ الله خلق لنا ما في الأرض جميعاً، فمن ادّعى التحجير علينا فعليه بالدليل من كتاب أو سنّة أو إجماع، وأما القياس فلا أقول به ولا أقلد فيه جملة واحدة.

وأما أفعال النبيّ ﷺ فليست على الوجوب، فإنّ في ذلك غاية الحرج إلاّ فعل بين به أمراً تعبدنا به فذلك الفعل واجب مثل قوله: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي وَخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**» وأفعال الحج، ولولا نطقه في ذلك في بعض الأفعال لم يكن يلزمنا ذلك الفعل،

فإنه بشر يتحرّك كما يتحرّك البشر، ويرضى كما يرضى البشر، ويغضب كما يغضب البشر، فلا يلزمنا اتباعه في أفعاله إلاّ إن أمر بذلك، وتعين عليه أن لا يفعل فعلاً سرّاً بحيث لا يراه أحد كما تعين عليه فيما أمر بتبليغه أن لا يتكلم به وحده بحيث لا يسمعه أحد حتى ينقله إلى من لم يسمعه. وأما شرع من قبلنا فما يلزمنا إتباعه إلاّ ما قرّر شرعنا منه مع كون ذلك شرعاً حقاً لمن خوطب به لا نقول فيه بالباطل، بل نؤمن بالله ورسوله وما أنزل إليه وما أنزل من قبله من كتاب وشرع منزّل.

والتقليد في دين الله لا يجوز عندنا لا تقليد حيّ ولا ميت، ويتعين على السائل إذا سأل العالم أن يقول له: أريد حكم الله أو حكم رسوله في هذه المسألة، فإن قال له المسؤول: هذا حكم الله في المسألة أو حكم رسوله تعين عليه الأخذ بها فإن المسؤول هنا ناقل حكم الله وحكم رسوله الذي أمرنا بالأخذ به فإن قال: هذا رأيي أو هذا حكم رأيته أو ما عندي في هذه المسألة حكم منطوق به ولكن القياس يعطي أن يكون الحكم فيه مثل الحكم في المسألة الفلانية المنطوق بحكمها لم يجز للسائل أن يأخذ بقوله ويبحث عن أهل الذكر فيسألهم على صفة ما قلنا، ويتعين على كل مسلم أن لا يسأل إلاّ أهل الذكر وهم أهل القرآن، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩] وأهل الحديث، فإن علم السائل أن هذا المسؤول صاحب رأي وقياس فيتركه ويسأل صاحب الحديث فإن كان المسؤول صاحب رأي وقياس وحديث فيسأله فإذا أفتاه تعين عليه أن يقول له هذا الحكم رأي أو قياس أو عن حديث، فإن قال: عن رأي أو قياس تركه، وإن قال: عن خبر أخذ به، ولا حكم للخطأ والنسيان إلاّ حيث جاء في قرآن أو سنّة أن يكون لهما حكم فيعمل به مثل صلاة الناسي وقتل الخطأ، وكل مسكوت عنه فلا حكم فيه إلاّ الإباحة الأصلية، وخطاب الشرع متوجّه على الأسماء والأحوال لا على الأعيان، فلا يكون حكم الفرض إلاّ على من حاله قبول الفرض من أمر ونهي في عمل أو ترك، فكل من عجز عن شيء من ذلك ممّا كلفه الله به بل ما هو مخاطب به إن الله ما كلف نفساً إلاّ وسعها وإلاّ ما آتاها ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧] وكل عمل مقيد بوقت موسعاً كان أو مضيقاً فلا يجوز عمله إلاّ في وقته لا قبله ولا بعده فإنّ ذلك حدّ الله المشروع فيه فلا يتعدّى، وحكم الاجتهاد في الأصول والفروع واحد، والحق في الفروع حيث قرّره الشرع وقد قرّر حكم المجتهدين ولا يقرّر إلاّ ما هو حق فكله حق.

وأما نسبة الخطأ إلى المجتهد الذي له أجر واحد فهو كونه لم يعثر على حكم الله أو حكم رسوله في تلك المسألة وقد تعبده الله بما انتهى إليه اجتهاد، فلو لم يكن حقاً عند الله بالنظر إليه لما تعبده به فإن الله لا يقرّ الباطل، فإذا وصل إليه بعد ذلك حكم الله تعالىٰ أو رسوله في تلك المسألة بما يخالف دليله وعلم أن ذلك الحكم متأخر عن حكم دليله وجب عليه الرجوع عن ذلك الحكم الأول ولا يحل له البقاء عليه. ولهذا كان من علم مالك بن أنس ودينه وورعه أنه إذا سئل عن مسألة في دين الله يقول نزلت فإن قيل له نعم أفتى وإن قيل لم تنزل لم يفت، وسببه ما ذكرنا لأن المصيب للحكم المعين في تلك المسألة واحد لا بعينه

والمخطىء واحد لا بعينه، ولهذا قالت العلماء: كل مجتهد مصيب، فإما مصيب للحكم الإلهيّ فيها على التعيين، أو مصيب للحكم المقرّر الذي أثبته الله له إذا لم يعثر على ذلك الحكم المعين وأخطأه، وهذا القدر كاف في أصول أحكام الشرع في هذا الكتاب لأنه لا يحتمل الاستقصاء.

وأمّا أسرار أصول أحكام الشرع المتفق عليها والمختلف فيها فإن سرّ الكتاب هو ما يكون من الله للعبد بترك الوسائط كما قال: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٢٢] فهم كتاب الله، وهو قول الشارع: «**دَعْ مَا يُرِيبكَ إِلَىٰ مَا لاَ يُرِيبكَ**» وقوله: «**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ المُفْتُونَ**» والكتابة ضم المعاني الإلهية بما يليق بجلاله من نسبة أسماء الله الحسنى إلى المعاني التي لنا من التخلق بتلك الأسماء أي بمعانيها، أو تكون أخلاقاً لنا لا تخلقاً، وهي نسبتها إلينا على ما يليق بنا فهو الرؤوف الرحيم، وقد قال في رسول الله ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨] وهذا مدح، وسمّى نفسه بالعزيز الكريم، وقد قال في بعض عباده ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤٩] وهو ذم وكلها أسماء الله وأسماء الخلق ومدلولاتها معقولة المعنى بآثارها فيمن تسمّي بها، وإن كانت نسبها مختلفة فنسبتها إلى الله لا تشبه نسبتها إلى العبد فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وإن كان آثار الكريم أن يعطي وقد وجد العطاء من الله ومن العبد على جهة الإنعام، فإن انضمّ المعنى إلى المعنى من وجه فقد افترقا من وجه لأنّ الموصوف المسمّى لا يشبه الموصوف المسمّى الآخر، فمن الوجه الذي يقع الاشتراك وهو الأثر من ذلك الوجه يكون كتابة، لأنّ الكتابة الضم وبضم الحروف بعضها إلى بعض سميت كتابة والكتيبة ضم الخيل بفرسانها بعضها إلى بعض، فلو جاؤوا متفرقين وحداناً ما سمّوا كتيبة فهو المؤمن وقد كتب في قلب عبده الإيمان فأوجب له ذلك الكتاب حكماً سمّي به مؤمناً وليس الاسم غير المسمّى، فهو الظاهر في عين الممكن والممكن له مظهر، وكل ظاهر في مظهر فقد انضم الظاهر إلى المظهور وانضم المظهر إلى الظاهر ولذلك صحّ أن يكون مظهراً للظاهر فيه، فهذا سرّ أصل الأخذ بالكتاب دليلاً على ثبوت الحكم.

وأما سرّ السنّة في إثبات الحكم فإنه لما كان الرسول عليه السلام لا ينطق عن الهوى وأنّ حكمه حكم الله وهو ناقل عن الله ومبلغ عنه بما أراه الله والله على صراط مستقيم، والسنّة الطريقة والطريق لا يراد لنفسه وإنما يراد لغايته، فالسنّة ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٣] لأنها صراطه وهو غاية صراطه، فلا بدّ للسالك عليه من الوصول إليه، فالصراط الواسطة وبوساطة استعداد المظهر بما هو عليه في نفسه حكم على الظاهر بما سمّى به فهو أعطاه ذلك الاسم وذلك الحكم صحيح ﴿هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٦١] فنحن إذا سألنا الحق في أمر يعن لنا كان أثر سؤالنا في الله الإجابة فسمّي مجيباً، فلولا سؤالنا ما ثبت هذا الحكم ولا أطلق عليه هذا الاسم، ونحن طريقة له في ذلك، قال تعالىٰ: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] فما أجابه حتى دعاه، فهذا سرّ استدلاله بالسنّة. وأما الإجماع فهو ما أجمع عليه الرب والمربوب في أنّ

الله خالق والعبد مخلوق، وهكذا كل إضافة، فلا خلاف بين الله وبين عباده في مسائل الإضافة أين ما وجدت، وكذلك في المعلومات من حيث ما هي معلومات.

وأما القياس عند مثبتيه فهو ظهور رب بصفة عبد، وظهور عبد بصفة رب عن أمر رب، فإن لم يكن عن أمر رب فلا يتخذ دليلاً على حكم أو عن حميد خلق كريم فإنه أيضاً يتخذ دليلاً. وأما ظهور رب بصفة مربوب فلا يشترط فيه الأمر الواجب، ولكن قد يكون عن دعاء وطلب وصفته صفة الأمر والمعنى مختلف، وإن كان هذا مسموعاً ممتثلاً والآخر كذلك ولكن بينهما فرقان، فهذا حكم سرّ القياس في الاستدلال، وهو قياس الغائب على الشاهد لحكم معقول جامع بين الشاهد والغائب، وينسب لكل واحد من المنسوبين إليه بحسب ما يليق بجلاله، وإنما قلنا بجلاله لأن الجليل من الأضداد يطلق على العظيم وعلى الحقير، وقد انتهت أسرار أصول أحكام الشرع. انتهى الجزء الرابع والتسعون.

(الجزء الخامس والتسعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب التاسع والثمانون
في معرفة النوافل على الإطلاق

[نظم: الكامل]

إنّ النوافلَ ما يكون لعينها ... أصلٌ يشاهَدُ في الفرائض كلِّهَا
فالفرضُ كالأجرام إن قابلْتَها ... بالنور والنَّفْلُ المزادُ كظلِّهَا
يبدو بصورتها وليس فريضةً ... فيعود فرضاً في الحساب كمثْلِهَا
جاء الحديث به فبيَّن فَضْلَها ... شرعاً وميَّز أصْلهَا من أصلها
فإذا أتيتَ بهنَّ فاعلم أنه ... ذَخَر الإلهُ لكم نتيجةَ فعلهَا
فيكون عين قواك ربك فاغترف ... من طَلِّها حتى تفوزَ بوبْلهَا

اعلم أيّدك الله بروح القدس أنّ للنوافل حكماً في الحضرة الإلهية جامعاً ينوب صاحبها فيه مناب الحق، من ذاقه عرف قدره وعجز عمّا يستحقه واهبه من الشكر عليه، ثم إنّ النوافل تتفاضل وتعلو بعلوّ فرائضها، إذ كانت النوافل كل عمل له أصل في الفرائض عن ذلك الأصل يتولد وبصورته يظهر كما ظهرنا نحن بصورة الحق فنحن له نافلة وهو أصلنا، ولهذا نقول فيه إنه واجب الوجود لنفسه ونحن واجبون به لا بأنفسنا، فبهذه الدرجة يتميز عنا ونتميز عنه، وما عدا النوافل فيسمّى عبادة مستقلة وسنناً مبتدءات نذكرها بعد هذا الباب إن شاء الله، وإذا كانت النوافل تعلو بعلوّ فرائضها التي هي أصولها فأعلى نوافل التنزيه في الخيرات الصيام لأنّ فرضه صوم رمضان ورمضان اسم الله والصوم عبادة لا مثل لها وهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ففضل نوافل سائر العبادات فإنه يمنع من النكاح فله أثر فيه أي في منعه، وكل

من له قوّة المنع فإنّ الممنوع متصف بالضعف بالنسبة إلى تلك القوّة، فإن كان لهذا الممنوع من القوّة بحيث يؤثر في محل هذه العبادة حتى يزيل حكمها كان أقوى بلا شك، فنافلة النكاح أقوى لما له من التأثير في إبطال الصوم والصلاة وغيرها.

والنكاح أفضل نوافل الخيرات وله أصل وهو النكاح المفروض فما زاد عليه كان نافلة، وهو على نوعين أعني وقوعه فقد يقع على نسبة المحبة مطلقة، وقد يقع على نسبة محبة التوالد والتناسل، فإذا وقع عن محبة التوالد والتناسل التحق بالحب الإلهيّ ولا عالم فأحب أن يعرف فتوجه بالإرادة لهذه المحبة على الأشياء في حال عدمها القائمة في استعداد إمكانها مقام الأصل فقال لها ﴿كُن﴾ فكانت ليعرف بجميع وجوه المعارف وهي المعرفة المحدثة التي لم يكن تعلق لها به، إذ لم يكن العارف بها متصفاً بالوجود وذلك محبة طلب كمال المعرفة وكمال الوجود، فما كمل الوجود ولا المعرفة إلاّ بالعالم ولا ظهر العالم إلاّ عن هذا التوجّه الإلهيّ على شيئية أعيان الممكنات بطريق المحبة للكمال الوجودي في الأعيان والمعارف وهي حال تشبه النكاح للتوالد، فكان النكاح المفروض أفضل الفرائض، ونافلته أفضل نوافل الخيرات، ولاشتراك غيره من العبادات في اسم النوافل نال من استعملها على اختلاف أنواعها منالها، والأصل نوافل النكاح، لأنّ العمل إذا أنتج ما لم يكن له عين قبل ذلك فذلك من حكم النكاح، وما من عمل إلاّ وهو منتج بحسب حقيقته وطريقته، فكان النكاح أصل في الأشياء كلها فله الإحاطة والفضل والتقدّم.

وقال أبو حنيفة في النكاح إنه أفضل نوافل الخيرات، ولقد قال حقاً أو صادف حقاً كان رسول الله ﷺ حبّب إليه النساء وكان أكثر الأنبياء نكاحاً لما فيه من التحقق بالصورة التي خلق عليها، ولكن لا يعلم ذلك إلاّ قليل من الناس من طريق الكشف بل من العارفين من أهل الله.

وقدم علينا بإشبيلية سنة ست وثمانين وخمسمائة أبو الحجاج يوسف الغليريّ من أهل غليرة وكان من أهل الأحوال، فبينما هو قاعد معي إذ كشف له عن هذا المقام ممثلاً فذكره لي في غلبة حاله بصورة ما رآه ممّا لا يمكنني ذكره فكوشف على العالم وفي أيّ صورة هو أبوه تعريفاً من الحق فما زلت أسكنه وهو هائج حتى سكن، فوجود الحق هو الفرض في نفس الأمر، ووجود العبد نافلة عن ذلك الفرض ولذلك خرج على صورته، فنافلة النكاح قد ذكرنا ما نتج منها، ونافلة الصلاة تنتج وجود العبد في حظه من القسمة منه قوله: **«قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي»** فيعرف من نوافل هذه الصلاة حظه من القسمة لا حظ ربه كما يعرف من فرضها حق ربه وقسمه منها، ولكل حال شرب معلوم، فإنّ الذي يعطي الفرض في عامله من الحكم خلاف الذي يعطي النفل لأنه في الفرض عبد مضطرّ، وفي النفل عبد مخيّر مختار موصوف بصفة إلهية وهي المشيئة، فإن شاء فعل وإن شاء لم يفعل.

ونافلة الصيام ما يحصل للعبد من التنزيه في نفي المماثلة من قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] أي ليس مثل مثله شيء، وما مثله إلاّ من خلق على صورته، فنفى سبحانه أن يماثل هذا المثل فهو أحق أن لا يماثل، وماله من الصورة إلاّ الاسم خاصة،

فإنّ العالم كما أعطاه الله اسم الوجود الذي هو له تعالىٰ حقيقة أعطاه العالم باستعداده وكونه مظهراً له الأسماء الحسنى ما علمنا منها وما لم نعلم، فهذا كونه على صورته.

ونافلة الزكاة أعطت في الإنسان البركة وهي الزيادة التي حصلت له على ما أعطته الفريضة لا غيره. ونافلة الحج أعطت له القصد بظهور الكون في الأطوار المختلفة مع أحدية التوجه. ونافلة العمرة أعطته الدخول عليه تعالىٰ في كل عبادة بين طرفي تحليل وتحريم وفيها ذوق وشرب، وهما تجليان معروفان عند أهل الله. ونافلة الذكر الذي فرضه لا إله إلاَّ الله، وتكبيرة الإحرام والسلام من الصلاة وشهادة التعيين وكل فرض يتعلق بالقول فإنه يعطيك نافلته، والمواظبة عليه أن تقول لما تريده في الكون ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] كما يعطيك الفرض أن تقول للحق تعالىٰ افعل فيفعل، والباب الجامع لما يعطي جميع النوافل أن يكون الحق يحبه، فأنتجت النوافل محبة الله لعبده ولكن ما كل محبة، بل المحبة التي بها يكون الحق سمعك الذي تسمع به، وبصرك الذي تبصر به، ويديك التي تبطش بها، ورجلك الذي تسعى به، وهذا منعنا أن نقول في المفاضلة في الأشياء لأن العرف يعطي أن البصر أفضل من الرجل عند الجماعة، وهنا قد أنزل الحق نفسه أنه بصرك الذي تبصر به ورجلك التي تسعى بها، وأعطى لكل حق حقيقة منه، وهو لا يفضل نفسه فإنه هو الظاهر في كل ما ذكر أنه هو كما يليق بجلاله، فليس البصر بأعلى ولا أفضل من الرجل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٧] فهذا قد ذكرنا ما تعطيه نوافل الخيرات على الإطلاق وعلى التقييد نافلة نافلة.

الباب الموفي تسعين
في معرفة الفرائض والسنن

[نظم: الكامل]

إن الفرائضَ كالركائب والسُّنَنْ ... مثلُ الطريق لها إلى غاياتِهَا
فإذا قطعتَ الضربَ كنتَ فريضةً ... فتكون سَمْعَ الحقِّ في آياتها
عكس النوافل فاعتبرها والتزمْ ... طرقَ الفضائل واسْعَ في إثباتها

الفرائض هي الأعمال أو التروك التي أوجبها الله تعالىٰ على عباده وقطعها عليهم وأثم من لم يقم بها وهي على قسمين: فرض عين وهو الذي لا يسقط عنه إذا عمله غيره، وفرض كفاية وهو الذي يسقط عنه إذا قام به غيره، وقد كان قبل قيام الغير به متعيناً عليه وعلى ذلك الغير كالصلاة على الجنازة وغسل الميت والجهاد، وثم فرض آخر يلوح بينهما له طرف إلى كل واحد منهما يخالف حكم الآخر مثل الحج المفروض إذا لم يستطع، وهو إن كان غير مخاطب به إلاَّ مع الاستطاعة فهو فرض متوقف على شرطه، فإذا حج عنه وليّه سقط عنه وكان له الأجر أجر الأداء، وليس هذا في فرض الكفاية لوجود الأجر، ولا في فرض الصلاة لعدم سقوطها عمن صليت عنه، فلا يشبه فرض الصلاة ولا يشبه فرض الكفاية.

وأما السنن فكل ما عدا ما تعين عمله وهو على قسمين: سنة أمر بها وحرض عليها أو

فعلها بنفسه وخيّر أمّته في فعلها، وسنّة ابتدعها واحد من الأمّة فاتبع فيها فله أجرها وأجر من عمل بها، فالفرض إذا جاء به العبد موفى فقد وفى ما تستحقه الربوبية عليه من العبودة فينتج له عمل الفريضة أمراً هو أعلى من أن يكون الحق سمعه، فإنّ كون الحق سمع العبد حال للعبد، وحكم الفرض يحول بينه وبين هذه الحال وهو أن يكون سمعاً للحق فيسمع الحق بالعبد وهو قوله: «**جِعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي**»، وأما هذه الحيلولة التي أعطاها الفرض من أن يكون الحق سمعه هي مقام محقق ثابت كما هو في نفس الأمر، فيعرف عند ذلك العبد أنّ الحق هو لا هو، وصاحب الحال يقول أنا والسنن طرق الاقتداء، وأعلاها الاقتداء بالحق حتى أكون في إطلاق أسمائه عليّ قريباً من التحقق بها لا من التخلق، وأدناها في حق الوليّ الاقتداء بالذين قال الله فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠] والعلماء ورثة الأنبياء وما ورثوا إلاّ العلم، فالسنّة النبوية عالية المقام وهي الجمعية على الدين وإقامته وأن لا يتفرق فيه فهي تعلو بمن يأتيها ويسلك فيها في الحضرات المحمدية إلى غاياتها في المعارف والأحوال والتجلي.

وأما السنن التي هي الشرائع المستحسنة بعد رسول الله ﷺ وهو الاستحسان عند الفقهاء الذي قال فيه الشافعي رحمه الله: من استحسن فقد شرّع، فأخذها الفقهاء منه على جهة الذم، وهو رضي الله عنه نطق بحقيقة مشروعة له لم تفهم عنه فإنه كان من الأربعة الأوتاد وكان قيامه بعلم الشرع حجبه عن أهل زمانه ومن بعده.

روينا عن بعض الصالحين أنه لقي الخضر فقال له: ما تقول في الشافعيّ؟ فقال: هو من الأوتاد، فقال: فما تقول في أحمد بن حنبل؟ قال: رجل صدّيق. قال: فما تقول في بشر الحافي؟ قال: ما ترك بعده مثله. فهذه شهادة الخضر في الشافعيّ رحمه الله. ولما صحّ عند الشافعيّ أن النبيّ ﷺ قال: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً**» الحديث فلا شك أنّ الشرع قد أباح له أن يسنّ سنّة حسنة وهي من جملة ما ورث من الأنبياء وهي حسنة أي يستحسنها الحق منه وهو سنّها، فمن استحسن أي من سنّ سنّة حسنة فقد شرع، ويا عجباً من عدم فهم الناس كلام الشافعيّ في هذا وهم يثبتون حكم المجتهد وإن أخطأ في نفس الأمر وقد أقرّه الشارع وهو حكم شرعيّ مقبول لا يحلّ لأحد من الحكام ردّه، وقواعد الشرع وأصوله تحفظه. وكالمصالح المرسلة في مذهب مالك ولما قرّر الشارع حكمها مجملاً وأبان أن واضعها ومتبعيه فيها مأجورون ونهاية التابعين فيها إلى واضعها على قدره وقدر ما سنّ نبهتك بهذا أن تكون أوقاتك معمورة بالشرائع النبوية والسنن الأصلية، فإنّ الكيس ينبغي أن لا يكون غاية عمله إلاّ نبوّة أصلية لا فرعية، إذ كان له الاختيار في الاختيار لما كانت الأمور في أنفسها تقبل الاختيار كما فعل سبحانه في جميع الموجودات، فاختار من كل أمر في كل جنس أمراً ما، كما اختار من الأسماء الحسنى كلمة الله، واختار من الناس الرسل، واختار من العباد الملائكة، واختار من الأفلاك العرش، واختار من الأركان الماء، واختار من الشهور رمضان، واختار من العبادات الصوم، واختار من القرون قرن النبيّ ﷺ، واختار من أيام الأسبوع يوم الجمعة، واختار من الليالي ليلة القدر، واختار من الأعمال الفرائض، واختار من

الأعداد التسعة والتسعين، واختار من الديار الجنة، واختار من أحوال السعادة في الجنة الرؤية، واختار من الأحوال الرضى، واختار من الأذكار لا إله إلاّ الله، واختار من الكلام القرآن، واختار من سور القرآن سورة يس، واختار من آي القرآن آية الكرسي، واختار من قصار المفصل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ١] واختار من أدعية الأزمنة دعاء يوم عرفة، واختار من المراكب البراق، واختار من الملائكة الروح، واختار من الألوان البياض، واختار من الأكوان الاجتماع، واختار من الإنسان القلب، واختار من الأحجار الحجر الأسود، واختار من البيوت البيت المعمور، واختار من الأشجار السدرة، واختار من النساء مريم وآسية، واختار من الرجال محمداً ﷺ، واختار من الكواكب الشمس، واختار من الحركات الحركة المستقيمة، واختار من النواميس الشريعة المنزّلة، واختار من البراهين البراهين الوجودية، واختار من الصور الصور الآدمية لذلك أبرزها على الصورة الإلهية، واختار من الأنوار ما يكون معه النظر، واختار من النقيضين الإثبات، ومن الضدّين الوجود، واختار الرحمة على الغضب، واختار من أحوال أفعال الصلاة السجود، ومن أقوالها ذكر الله، ومن أصناف الإرادات النية فلها الحكم في قبول العمل وردّه، فإنه لكل امرىء ما نوى، ويلحق غير العامل بالعامل في الأجر وزيادة.

وأما ذكر الله من أقوال الصلاة فإنّ ذكر الله منها أكبر ما فيها هكذا قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] فإنّ الصلاة مناجاة والذاكر جليسه الحق، فإن ذكره به فهو تعالىٰ لسانه. وأما اختياره السجود في أفعال الصلاة فلما فيه من العصمة من الشيطان، فإنه لا يفارقه في شيء من أفعال الصلاة إلاّ في السجود خاصة لأنه خطيئته، وعند السجود يبكي ويتأسف ويندم والندم توبة، ولا بدّ من قبول ذلك القدر فهو يتوب عند كل سجدة، وأن الله يحب كل مفتن تواب، ثم يعود إلى الإغواء عند الرفع من السجود هكذا.

وأما اختياره الرحمة على الغضب فلأنها تفعل بالمنة وتفعل بالوجوب و ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة غافر: الآية ٧] والغضب من الأشياء التي وسعته الرحمة، فما ثم غضب خالص غير مشوب برحمة والرحمة لا يشوبها غضب ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٨١] فالغضب جعله يهوي، فإذا هوى وهو السقوط وهو حكم الغضب لا غير فيسقط في الرحمة فتسعه وتتلقاه فلا يسقط إلاّ إليها، وبالرحمة التي في الغضب سقط، فهي التي جعلت الغضب يهوي به لتستلمه الرحمة الخالصة، كالرحمة التي في الدواء الكريه فيشربه العليل على كراهة فيه رحمة خفية، من أجلها استعمل الدواء الكريه في الوقت لتسلمه إلى العافية وهي الرحمة الخالصة، ولهذا كان المآل إلى الرحمة وحكمها، وإن لم يخرجوا من النار فلهم فيها نعيم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٤] ألا ترى إلى ما جعل الله في النار في الدنيا من المنافع والراحات ولو لم يكن إلاّ الكي بها لبعض العلل فإنه أقطع الأدوية ولقوته في أثره قدح في التوكل لأنه يقوم في الفعل مقام الشافي والمعافي، فحكمت الغيرة على المكتوي بأنه غير متوكل.

وأما اختيار الوجود من الضدين فلأنه صفته فاختار للمكنات صفته ولا يصحّ إلاّ هذا، فإن له الاقتدار، والاقتدار لا يكون عنه إلاّ الوجود، ألا تراه لما قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ قال: ﴿وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٣] فأبى الاقتدار إلاّ الوجود، وعلق الإرادة بالإعدام، وله الاسم المانع والمنع عدم. وأما اختياره الإثبات فهو عين الشيء الذي يقول له ﴿كُن﴾ لأنه في حال عدمه رجح له الإثبات على النفي حتى لا يزال ممكناً في حال عدمه وهي مسألة دقيقة في الترجيح في حال العدم، وبذلك الافتقار الذاتيّ الذي في الممكن قبل الوجود إذا أراده الحق منه وأسرع إليه بحكم الإثبات الذي هو عليه.

وأما النور المختار من الأنوار فإنّ الأنوار حجب ولذلك قال في الأنوار الحجابية: نور أنّى أراه، ثم وعد بالرؤية وهو نور، فلا بدّ أن يكون النور الذي يظهر فيه لعباده مختاراً من تلك الأنوار الحجابية كنور الأحدية والعزّة والكبرياء والعظمة، فهذه كلها ترفع عن البصر ويبقى حكمها في القلب، فبرفعها تقع الرؤية للحق تعالىٰ ويبقى حكمها في القلب ويفنى العبيد عن الرؤية، ولولا ذلك لشهدوا نفوسهم عند شهوده.

وأما اختياره الصورة الآدمية فلأنه خلق آدم على صورته فأطلق عليه جميع أسمائه الحسنى، وبقوتها حمل الأمانة المعروضة وما أعطته هذه الحقيقة أن يردها كما أبت السموات والأرض والجبال حملها ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ لو لم يحملها ﴿جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] لأنّ العلم بالله عين الجهل به العجز عن درك الإدراك إدراك، فإنه إذا علم أن ثم ما لم يعلم فما علم وهو العلم بأن ثم ما لا يعلم وليس لعلمه متعلق إلاّ الجهل به.

وأما اختياره البراهين الوجودية من البراهين الجدلية وغيرها فلما تعطيه من تمام العلم بثبوت الحق وإبطال حجة الخصم، والبراهين الجدلية ليست لها هذه القوّة فإنها تبطل حجة الخصم وقد لا تثبت حقاً، والبراهين السوفسطائية تنتج حيرة وهي أقرب إلى البراهين الوجودية في العلم الإلهيّ من وجه من البراهين الجدلية. وأما اختياره الشريعة المنزّلة فلما لها من عموم التعلّق بالدار الآخرة ومصالح الدنيا، وليست النواميس الحكمية الموضوعة لمصالح الدنيا وبقاء الخير في عالم الدنيا لها حكم لتحكم على الله بالقرب الإلهيّ وقبول الأعمال ورفع الدرجات وإثبات الجنات ودار الشقاء لا يستقل بذلك كله إلاّ الشرع المنزّل من عند الله. وأما الذين ابتدعوا عبادات ورعوها حق رعايتها ابتغاء رضوان الله ممّا لم يكتبها الله عليهم فهم أصحاب شرع منزّل من عند الله فسنوا فيه سنناً حسنة مناسبة لما سنّها الشرع بالشرع المنزّل فيهم وأباح لهم أن يسنّوا. وأما النواميس الحكمية فما هي التي سنّها هؤلاء ولهذا جعل لهم الأجر.

وأما اختياره الحركة المستقيمة فإنه على صراط مستقيم كما قال عن نفسه، واختصّ بها الإنسان الذي خلقه الله على صورة الحق وفيها يحشر السعيد يوم القيامة فهي له دنيا وآخرة فإن المجرمين يحشرون منكوسين وهي الحركة المنكوسة كما قال تعالىٰ في حق المجرمين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سورة السجدة: الآية ١٢] والحركة المعوجة الأفقية في البهائم فلم تصحّ الحركة المستقيمة إلاّ لمن خلقه الله على الصورة، وذلك الإنسان

الكامل الذي له هذه الصفة في الدنيا والآخرة، ولهذا خصّ بها ذكر آدم لأنه من أهل السعادة التي تبقى عليه هذه الحركة المستقيمة ولهذا نعت بالخلافة.

وأما اختياره الشمس فلما لها من الإمداد في جميع الكواكب المستنيرة علوّاً وسفلاً ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٨] واختصت على المذهبين بالقلب من الكرة وهي السماء الرابعة وفيها إدريس عليه السلام والله قد ذكر أنه رفعه ﴿مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٥٧] فعلوّ هذا المكان من كونه قلب الأفلاك فهو مكان عال بالمكانة وما فوقه وإن كان دونه فهو أعلى بالمسافة بنسبته إلى رؤوسنا وهو الذي أحدث الليل والنهار بطلوعه وغروبه الذي جعل الله لهما الغشيان وهو النكاح والإيلاج لظهور أعيان المولدات وما يحدث الله في الليل والنهار من المخلوقات عن هذا الإيلاج والغشيان وجعل لكل واحد من هذين الموجودين عن الحركة الشمسية الطلب الحثيث لإبراز أعيان الحوادث عن هذا الطلب.

وأما اختياره محمداً ﷺ فلما اقتضاه مزاجه دون الأمزجة الإنسانية من الكمال والاعتدال إذ به شاهد نبوّته وآدم بين الماء والطين وهو متفرّق الأجزاء في المولدات العنصرية وهي مسألة دقيقة لا يعرفها إلاَّ من عرف أخذ الذرية من ظهر آدم حين أشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] وهي الفطرة التي ولد الناس عليها وإليها ينتهون، وفي هذا الجمع قال: الأرواح أجناد مجندة ولما جمعهم جمعهم في حضرة التمثيل فما كان وجهاً لوجه هناك تعارفوا هنا وما وقع ظهر الظهر هناك تناكر هنا وما بينهما من وجه إلى ظهر وجانب وغير ذلك، وفي هذا أقول: [البسيط]

إن القلوبَ لأجنَادٌ مجندة في حضرة الجمع تبدو ثم تنصَرفُ
فما تعارفَ منها فهو مؤتلفٌ وما تناكر منها فهو مختلفُ

وأن كل أحد يقرّب بهذه الشهادة في الآخرة ولا ينكر ولا يدعي لنفسه ربوبية يقول تعالىٰ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٦] فكان ﷺ أعظم مجلى إلٰهي علم به علم الأوّلين والآخرين، ومن الأوّلين علم آدم بالأسماء وأوتي محمد ﷺ جوامع الكلم وكلمات الله لا تنفد، وله السيادة التي لا تبعد على الناس يوم القيامة فيشفع في الشافعين أن يشفعوا من ملك ورسول ونبيّ ووليّ ومؤمن، وله المقام المحمود في اليوم المشهود.

وأما اختياره مريم وآسية فهو إلحاقهما بالكمال الذي للرجال مع وجود الدرجة التي للرجال عليهنّ فإنّ تلك الدرجة وجودية فلا تزول. وأما اختياره السدرة فلأنها موضع انتهاء أعمال العباد وموضع الفضل وبظلّها تستظل صور الأعمال وغشاها الله من الأنوار ما غشى، إلا إنّ تلك الأنوار أنوار الأعمال فلا يستطيع أحد أن ينعتها، وتلك الأنوار كما قلنا أنوار الأعمال تنبعث من صورها فتغشاها فلا يستطيع أحد أن ينعتها فإنّ النعت للأشياء تقييد وتمييز والأعمال تختلف ولها مراتب، وأنوارها على قدر مراتبها فعال وأعلى ومضيء وأضوأ، ونعت العالي يناقض الأعلى، ونعت المضيء يقابل الأضوأ من حيث ما هو أضوأ فلا يتقيد بنعت

لأنك إن قيدتها بنعت أبطله لك نقيضه فما وفيتها حقّها في النعتية، إذ لم تكن أنوار الأعمال على درجة واحدة، وقد غشيتها هذه الأنوار وغطتها فلا يقدر أحد يصل إلى نعتها فهم وإن استظلّوا بها فقد كسوها من ملابس الأنوار ما فضلت به جميع الأشجار وهي طعام وغاسول ونبقها كالقلال منه ترزق أرواح الشهداء.

وأما اختياره البيت المعمور فلأنه مخصوص بعمارة ملائكة يخلقون كل يوم من قطرات ماء نهر الحياة الواقعة من انتفاض الروح الأمين فإنه ينغمس في نهر الحياة كل يوم غمسة لأجل خلق هؤلاء الملائكة عمرة البيت المعمور وهم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لا يعودون إليه أبداً، وبقي السرّ في المكان الذي يعمرونه هؤلاء الملائكة وما ثم خلاء والعالم كله قد ملأ الخلا فابحث عليه فإنه علم جليل، يوقفك على علم استحالات الأعيان في الأعيان وتقلب الخلق في الأطوار فتعلم أنّ الله على كل شيء قدير لا على ما ليس بشيء، فإن لا شيء لا يقبل الشيئية، إذ لو قبلها ما كانت حقيقته لا شيء ولا يخرج معلوم عن حقيقته فلا شيء محكوم عليه بأنه لا شيء أبداً وما هو شيء فمحكوم عليه بأنه شيء أبداً.

وأما اختياره الحجر الأسود فلأنه أنزله ليقيمه مقام يمينه في البيعة الإلهية إذ لم يكن في المعارف والعبادات أعظم ملازمة لما عرف ولما تعبد به من العبادات فإنها فطرت على المعرفة والعبادة المحضة التي عجزت عنها حقيقة النبات والحيوان ولهذا ليس شيء منه في الإنسان جملة واحدة، فإن جميع ما في الإنسان يقبل النموّ وهو للنبات، كما أنّ الحيوان له التصرّف في الجهات، فكلما فارق موجود المعدن التبس بصورة الدعوى بحقيقته فهي منازعة خفية لا يشعر بها كل عالم، وقد نبّه على بعض ذلك سهل وما وفى الأمر فيها ما هو عليه، فلا أدري هل علم واكتفى بما ذكر أو ما أطلعه الله في ذلك الوقت على أكثر ممّا ذكر؟ والله أعلم فاختاره الله يميناً.

وأما اختياره من الإنسان القلب وهو الذي وسعه لأنه كل يوم في شأن، واليوم قدر نفس المتنفس في الزمان الفرد، وبه سمّي قلباً لتقلبه، ألا تراه بين أصبعي الرحمن فما يقلبه إلاّ الرحمن ليس لغيره من الأسماء معه فيه دخول ولا يعطي الاسم الرحمن إلاّ ما في حقيقته، فرحمته وسعت كل شيء، فما من أمر تراه في تقلبه ممّا يؤدّي إلى عناء وعذاب وشقاء إلاّ وفيه رحمة خفية لأنه بأصابع الرحمن يقلب، فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه عن تلك الإقامة فهو ميل إضافي، فمآل القلب إلى الرحمة بحكم سلطان هذا الاسم الذي قلبه في الزيغ كما قلبه في الإقامة فهي بشرى من الله إلى عباده: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ وما ذكر سرفاً من سرف فعمّ جميع حالات المسرفين في السرف ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ فإنّ الذي أزاغكم أصبع الرحمن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [سورة الزمر: الآية ٥٣] وهو حبر لا يدخله النسخ فيجمع بين قوله هذا وبين قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [سورة النساء: الآية ٤٨] فيؤاخذ على الشرك ما شاء الله ثم يحكم عليه أصبع الرحمن فيؤول إلى الرحمن وأمور أخر من الزيغ ممّا دون الشرك يغفر منها ما يغفر بعد العقوبة وهم أهل الكبائر الذين يخرجون من

النار بالشفاعة بعدما رجعوا جمعاً مع كونهم ليسوا بمشركين، والإيمان بذلك واجب، ومنها ما يغفر ابتداء من غير عقوبة فلا بدّ من المآل إلى الرحمة.

وأما اختياره من الأكوان الاجتماع فإنه يعطي الافتراق بالتمييز في عين الجمع، فلا بدّ من رب ومربوب ومن قادر ومقدور، فالجمع مختار لا بدّ منه لما تعطيه حقائق الأسماء الإلهية من التعلّق. وأما اختياره من الألوان البياض فلأن الملونات كلها تستحيل إليه ولا يستحيل إليها بل بياضيته كامنة فيه مستورة لحجاب اللون الذي يظهر في العين من سواد وحمرة وصفرة وغير ذلك، فمنه ما يكون لوناً قائماً بالمحل، ومنه ما يكون لوناً في ناظر العين وليس كذلك في نفس المتلون كسواد الجبال البيض على البعد فإذا جئتها رأيتها بيضاً وقد كنت تحكم عليها بالسواد وأنت غالط في ذلك الحكم، وصحيح في ظهور السواد به مصيب والكيفية في ذلك مجهولة، وبهذه المثابة زرقة السماء إنما هي لنظر العين وإن كانت في نفسها على لون يخالف الزرقة.

وأمّا اختياره من الملائكة الروح لأنه المنفوخ فيه في كل صورة ملكية وفلكية وعنصرية ومادية وطبيعية وبها حياة الأشياء وهو الروح المضاف إليه وهو نفس الرحمن الذي يكون عنه الحياة والحياة نعيم والنعيم ملتذ به والالتذاذ بحسب المزاج كما قلنا في مزاج المقرور يتنعم بما به يتعذب المحرور فافهم، ويكفيك تنبيه الشارع لو كنت تفهم بأن للنار أهلاً هم أهلها، وللجنة أهلاً هم أهلها، وذكر في أهل النار أنهم لا يموتون فيها ولا يحيون فهم يطلبون النعيم بالنار لوجود البرد وهذا من حكم المزاج.

وأمّا اختياره البراق من المراكب لكونه مركب المعارج فجمع بين ذوات الأربع وذوات الجناح فهو علوي سفلي كبعض الحيوانات بري بحري. وأما اختياره دعاء يوم عرفة فإنه دعاء في حال تجريد وذلّة وخضوع في موطن معرفة ليوم زماني لما فيه من الجمع بين الليل والنهار. وأما اختياره ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلأنها مخصوصة به ليس فيها ذكر كون من الأكوان إلاّ أحدية كل أحد أنها لا تشبه أحديته تعالىٰ خاصة، وفي إتيانها في هذه السورة علم غريب لمن فتح الله به عليه، فإنه افتتح السورة بأحديته وختمها بأحدية المخلوقين، فاعلم أن الكائنات مرتبطة به ارتباط الآخر بالأوّل لا ارتباط الأوّل بالآخر، فإن الآخر يطلب الأوّل والأول لا يطلب الآخر، فهو الغني عن العالمين من ذاته، ويطلب الآخر من مسمّى الله المنعوت بالأحدية فهذا قد نبهتك على مآخذ هذا العلم الذي تحويه هذه السورة بالأحدية المتأخرة التي هي مع ارتباطها بالأول لا تماثلها لكونها تطلبه ولا يطلبها ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥].

وأما اختياره من الآي آية الكرسي الآيات العلامات ولا شيء أدل على الشيء من نفسه، وهذه آية الكرسي كلها أسماؤه أو صفته لا يوجد ذلك في غيرها من الآيات، فدل على نفسه بنفسه ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فنفى وأثبت بضمير غائب على اسم حاضر له مسمّى غيب ﴿ٱلْحَىُّ﴾ صفة شرطية في وجود ماله من الأسماء ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ على كل ما سواه بما كسب فإنه

أعطى كل شيء خلقه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ صفة تنزيه عمّا يناقض حفظ العالم الذي لولا قيوميته ما بقي لحظة واحدة ﴿لَّهُۥ﴾ الضمير يعود عليه وهو ضمير غيب ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً له وعبداً معين الحفظ لبقاء الحكم بالألوهة ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ﴾ شفعية الوتر بالحكم ﴿عِندَهُۥٓ﴾ ضمير غيب ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ عدم الاستقلال بالحكم دونه فلا بدّ من إذنه إذ كان ثم شفيع أو شفعاء ﴿يعلم مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من الشفعاء والمشفوع فيهم ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وهو ما هم فيه ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وهو ما يؤولون إليه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ بالأشياء ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ منها لا بكلها ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ علمه ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ العلو والسفل ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ يثقله ﴿حِفْظُهُمَا﴾ لأنه حفظ ذاتيّ معنويّ وإمداد غيبي وخلق دائم في سفل وعلو ﴿وَهُوَ﴾ ضمير غيب ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ بغناه عن خلقه من ذاته ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] في قلوب العارفين بجلاله فله الهيبة فيها. فهي آية ذكر الله فيها ما بين اسم ظاهر ومضمر في ستة عشر موضعاً من هذه الآية لا تجد ذلك في غيرها من الآيات، منها خمسة أسماء ظاهرة: الله الحيّ القيوم العليّ العظيم، ومنها تسعة ضميرها ظاهر فهي مضمرة في الظاهر ومنها اثنان مضمران في الباطن لا عين لها في الظاهر وهما ضمير العلم والمشيئة، وكذلك علمه ومشيئته لا يعلمها إلاّ هو فلا يعلم أحد ما في علمه ولا ما في مشيئته إلاّ بعد ظهور المعلوم بوقوع المراد لا غير، فلذلك لم يظهر الضمير فيها.

وأما اختياره يس من القرآن فلأنها قلب القرآن، ومن قرأها كان كمن قرأ القرآن عشر مرّات، والقلب أشرف ما في الصورة الصادية، كذلك السورة السينية وهي المنزلة ولها من الأبراج بيت شرف الشمس وهو برج الأولية زمان الربيع إقبال النشء وظهور البدء وابتداء زينة عالم الطبيعة وتلطيف بخارات الأنفاس التي كشفها زمان الشتاء لبرودة الجوّ كان يعطي الجمد في البخارات الخارجة من المتنفسين عندما تخرج يكثفها ثم يردّها ماء وهو ما تجد في يديك إذا تنفست فيه في زمان الشتاء من النداوة، وله الشؤون الإلهية التي لا يزال في كل نفس فيها جلّ جلاله.

وأما اختياره من الكلام القرآن وهو الذي له صفة الجمع وفي الجمع عين الفرقان إذ الجمع دليل الكثرة والكثرة آحاد فهي عين الافتراق في عين الجمع فهو الفرقان القرآن. وأما اختياره لا إله إلاّ الله فإنه ذكر عمّ النفي والإثبات وليس ذلك لغيره من الأذكار. وأما اختياره الرضى من الأحوال فإنه آخر ما يكون من الحق لأهل السعادة من البشرى فلا بشرى بعدها فإنها بشرى تصحب الأبد كما ورد في الخبر وهي بشرى بعد رجوع الناس من الرؤية، لا بل هي من الله لهم في الكثيب عند الرؤية في الزور الأعظم. وأما اختياره الجنة فإنها دار بقاء السعادة والنظر الساترة لأهلها عن كل مكروه يكون في الدار التي تقابلها وما يعطيه سلطان أسماء الانتقام. وأما اختياره الرؤية فإنها غاية البصر فاللذة البصرية لا تشبهها لذة فإنها عين اليقين في المعبود.

وأما اختياره من الأعداد التسعة والتسعين فلأنها وتر الأسماء الجامع بين الآحاد والعقد

أن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلاّ واحداً من أحصاها دخل الجنة بمجرّد الإحصاء حفظاً ولفظاً وإحاطة فإن الله وتر يحب الوتر. وأما اختياره الفرائض فلأن نتيجتها أن يكون العبد نعت الحق سمعه وبصره، فإن حب النوافل يعطي أن يكون الحق سمع العبد وبصره، والنفل لا يكون إلاّ في الدرجة النازلة عن الفرض، فالفرض له الأولية ولا ينزل الحق إلى أن يكون سمعاً للعبد كما قال بما يقتضيه من الجلال، فلا بدّ أن ينزل الله بصفته وهو كون العبد صفة الحق للصورة التي خلق عليها فهي مقتطعة من الصورة الإلهية كما هي الرحم شجنة من الرحمن والفرض القطع، فإذا أدّاه ظهر له في ذلك أنه صفة للحق، فإذا تنفل كان صفة الحق له فتميز الفرض من النفل وكانت الدرجة العليا للفرض، ولولا ما أعطي الفرض ذلك ما ثبت أن يقول: جعت فلم تطعمني وأنا أشدّ شوقاً إلى لقاء عبدي يريد إياي فإنه أقرب إلينا من حبل الوريد، وما تردّدت في شيء أنا فاعله، وأمثال هذا من الإخبارات الإلهية.

وأما اختياره ليلة القدر فإن الأمور لا تتميز إلاّ بأقدارها عند الحق والحق غيب فاختصّ القدر بالليلة لأن الليل ستر كما يستر الغيب. وأما اختياره من الأيام يوم الجمعة لأن فيه ظهرت الصورتان وجعل الله ذلك اليوم للصور وهو الشهر الخامس لمسقط النطفة وهو يوم مؤنث له الزينة وتمام الخلق، واختار الله فيه ساعة من ساعاته هي كالنكتة في المرآة وهو موضع صورة المتجلي من مرآة اليوم فيرى فيها نفسه وعلى الصورة الظاهرة بين المرآة والناظر فيها يقع الخطاب والتكليف وبها تحدث أسماء الإشارات من ذا وذان وتا وتان وأولاء، وأسماء الضمائر مثل هو وهي وهما وهم وهنّ وك وك وكما وكم وكن وأنت وأنت وأنتما وأنتم وأنتن، وياء ضمير المتكلم المؤثرة في آنيته إن لم تحفظها نون الوقاية ولا بدّ لها من تأثير إما في الآنية أو في نون الوقاية لا بدّ لها من ذلك ولهذا نون الوقاية له الفتوة والإيثار من عالم الحروف، ولهذا سميت نون الوقاية فلها منزلة لكاف من قوله: ﴿أَعُوذُ بِكَ﴾ [سورة هود: الآية ٤٧]، ولنا فيها: [البسيط]

نونُ الوقايةِ نونٌ ليس يُشْبِهُها ... من الوجود سوى صوم وخَلاّقِ
له الفتوَّةُ والإيثارُ نشأتُه ... فما لنا غيره في اللفظ من واقِ
شَطْرُ الوجود له من نَعْتِ خالقه ... من المكانة فهو الدائمُ الباقي

وأما اختياره الثلاثة القرون على الترتيب فإن الأول من ذلك لظهور كمال محمد ﷺ غيباً وشهادة، فسنّ الشريعة بنفسه ونسخ ما كان سنّة نوابه بوجوده وقرّر منه ما قرّر وأقرّ الإيمان بجميعه ما نسخ منه وما لم ينسخ، وهذا هو القرن الأوّل، ثم اثنان بعده، والكل أهل فتح وظهور بمنزلة الثلاث الغرر من كل شهر، يقول ﷺ: «**يَغزُو فِئام مِنَ النَّاسِ فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَىٰ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ فَيُفتَحُ لَهُمْ وَهٰذَا هُوَ القَرْنُ الأَوَّلُ، ثُمَّ يَغزُو فِئامٌ مِنَ النَّاسِ فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ رأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ فَيُفْتَحُ لَهُمْ وَهٰذَا هُوَ القَرْنُ الثَّانِي، ثُمَّ يَغزُو فِئامٌ مِنَ النَّاسِ فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَىٰ مَنْ رَأَى مَنْ رأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ فَيُفْتَحُ لَهُمْ وَهٰذَا هُوَ القَرْنُ الثَّالِثُ**». وما زاد ﷺ على هذا، وذلك أنه

ما ثم سوى الحضرة الإلهية، وهي عبارة عن الذات والصفات والأفعال، فهذا معنى: «**خَيْرُ القُرُونِ**» فبعناية القرن الأوّل فتح للجميع وهي ذات رسول الله ﷺ فأعطت قوّة نوره وسلطان ظهوره الفتح الإلهيّ لمن رآه أو رأى من رآه أو رأى من رأى من رآه فهو قوله: «**خَيْرُ القُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**» وإنما شبهناهم بالثلاث الغرر من الشهر، وجعلنا زمان دعوته مشبهة بالشهر لأنهم اختلفوا في القرن ما قدره من الزمان، فمن جملة أقوالهم أن القرن ثلاثون سنة فلهذا أنزلنا الثلاثة القرون من زمان دعوته إلى يوم القيامة منزلة شهر، وجعلنا الثلاثة القرون كالثلاث الغرر منه.

وأما اختياره الصوم فإن النبيّ ﷺ قال لشخص سأله: «**عَلَيكَ بالصَّوم فإنّه لاَ مثْلَ لَهُ**» فنفى المثلية عن الصوم فأشبه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١]. وقال: «**الصوم لي**»، وجعل جميع العبادات كلها للإنسان إذ كان الصوم صفة تنزيه ولا ينبغي التنزيه إلا له تعالى. وأما اختياره من الشهور شهر رمضان فلمشاركته في الاسم فإن رمضان من الأسماء الإلهية فتعينت له حرمة ما هي لسائر شهور السنة وجعله من الشهور القمرية حتى تعمّ بركته جميع شهور السنة فيظهر في كل شهر من شهور السنة، فيحصل لكل يوم من أيام السنة حظ منه، فإن أفضل الشهور عندنا شهر رمضان، ثم شهر ربيع الأوّل، ثم شهر رجب، ثم شعبان، ثم ذو الحجة، ثم شوّال، ثم ذو القعدة، ثم المحرّم، وإلى هنا انتهى علمي في فضيلة الشهور القمرية، وأبهم عليّ ترتيب الفضل فيما بقي من شهور السنة القمرية وذلك شهر صفر، وربيع الآخر، وجمادى الأولى، وجمادى الآخرة، ما عندي علم بترتيب الفضلية في هؤلاء أو هي متساوية في الفضل وهو الغالب على ظني فإنه أظهر ذلك وما تحققته فلم يتمكن لي أن أقول ما ليس لي به علم.

وأما اختياره من الأركان ركن الماء لأنه من الماء جعل كل شيء حي حتى العرش لما خلقه ما كان إلاّ على الماء فسرت الحياة فيه منه فهو الركن الأعظم كما قال: «**الحج عرفة**» وإن كان سبب الحياة أشياء معه ولكنه الركن الأعظم من تلك الأشياء. وأما اختياره من الأفلاك العرش لأن له الإحاطة بجميع الأجسام ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٤] وله الأولية في الأفلاك فما تحتها فهو الأوّل المحيط فاختار للاستواء لما بين الصفتين، فإن كان العرش الملك فأجرى أن يكون هو من غير اختيار لأنه ما ثم إلاّ الله وملكه وكل شيء ما سواه ملكه، وقد ورد تمييزه عن غيره، فتعين أن يكون مختاراً للأولية والإحاطة لأن السموات والأرض في جوف الكرسي كحلقة في فلاة والكرسي في جوف العرش كحلقة في فلاة. واختار من العباد الملائكة فإنهم مخلوقون من النور فأجسامهم نورية بالأصالة فهم أقرب نسبة من سائر المخلوقات إلى النور الإلهيّ ولذلك كان رسول الله ﷺ يدعو أن يجعله الله نوراً لما يعرف من ظلمة الطبيعة. واختار من الأينيات العماء فكان له قبل خلق الخلق ومنه خلق الملائكة المهيمة فهيمها في جلاله ثم خلق الخلق فشغلهم هيمانهم في جلال جماله أن يروا سواه، فهم الذين لا يعرفون أن الله خلق أحداً ما أشرفها من حالة فجعل العماء أينية له، والعرش مستوى له، والسماء الدنيا لنزوله، والأرض لمعيته فهو معنا أينما كنا.

واختار من الناس الرسل ليبلغوا عن الله ما هو الأمر عليه فإنه ما أخرجهم إلاّ للعلم به لأنه أحب أن يعرف فتعرف إليهم بالرسل بما بعثهم به من كتب وصحف فعرفوه معرفة ذاتية كما عرفوه بالعقول التي خلق لهم وأعطاها قوّة النظر الفكري فعرفوه بالدلائل والبراهين معرفة وجودية سلبية لم يكن في قوّة العقل في استقلاله أكثر من هذا، ثم بعد ذلك جاءت الرسل من بعده بمعرفة ذاتية، فعبد الخلق الإله الذي تعرف إليهم بشرعه إذ العقل لا يعطي عملاً من الأعمال ولا قربة من القرب ولا صفة ذاتية ثبوتية للحق، وما حظ العقل من الشرع ممّا يستقل به دليله إلاّ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] على زيادة الكاف لا على إثباتها صفة، فاختار الرسل لتبليغ ما لا يستقل العقل بإدراكه من العلم بذاته وبما يقرب إليه من الأعمال والتروك والنسب.

واختار من الأسماء الاسم الله فأقامه في الكلمات مقامه فهو الاسم الذي ينعت ولا ينعت به، فجميع الأسماء نعته وهو لا يكون نعتاً ولهذا يتكلف فيه الاشتقاق فهو اسم جامد علم موضوع للذات في عالم الكلمات والحروف لم يتسم به غيره جلّ وعلا فعصمه من الاشتراك كما دلّ أن لا يكون ثم إله غيره، فهذا قد ذكرنا من الاختيارات الإلهية ما يخرج مخرج التنبيه للعقول الغافلة عمّا دعيت إليه من الاعتبار والاستبصار، ولم نستوف الأمر حدّه لأنا ما نعرف بطريق الإحاطة تفصيل ما خلق الله من الموجودات، وإن كنا نقدر بما أقدرنا الله على حصر الموجودات فيدخل في ذلك كل شيء ونحن ما تصدينا في هذا إلاّ لمعرفة آحاد ما اختاره واصطفاه من كل نوع نوع من المخلوقات المحصورة في الوجود القائمة بنفسها والمتحيزة وغير المتحيزة من القائمة بنفسها وغير القائمة بنفسها، والنوع الذي لا يقبل التحيز إلاّ بالتبعية وما تألف من ذلك وما لم يتألف، وانحصرت أقسام العالم والموجودات فيما ذكرناه، وثم تفصيل نسبي يمكن أن يستقل به العقل وهي مفاضلة الأشياء بعضها على بعض بتميز مراتبها، وانفعال بعضها على بعض، وتأثير بعضها في بعض، وتوقف بعضها على بعض، ولكن مفاضلة القرب الإلهيّ بطريق العناية بهم لا بما تعطيه حقائقهم، لا يكون ذلك إلاّ بتعريف الله إيانا بما يعطيه في قلوبنا من علوم الإلهام، أو بما يبلغنا من ذلك في الكتب المنزّلة والإخبارات النبوية. وأما طريق آخر غير ذلك فما هو ثم، فالسنن الدلالات العقلية لأنها طرق، والفرائض هي التعريفات الشرعية بما هو الحق تعالىٰ عليه بالنسبة إليه وبالنسبة إلى خلقه، فاعبدوا الله عباد الله على النعت الذي وصف به نفسه في كتابه أو على لسان ألسنة رسله من غير زيادة ولا نقصان ولا تأويل يؤدّي إلى تطفيف أو رجحان، بل سلم إليه جل جلاله ما وصف به نفسه، وإن استحال أو تناقض فذلك لقصورنا وجهلنا بما هو الأمر عليه، وقد وفينا ما أعطته القوّة العقلية النظرية من العلم في وجوده بصدق المبلغين عنه تعالىٰ ما أنزله على عبيده قلنا القبول من غير اعتراض، ولو تناقض الأمر واستحال فما هو للعقل مجهول بالذات كيف يدخله فيما يرجع إلى ذاته في وجوب أو جواز أو استحالة، فلا يتعدّى العقل حدّه ويسلم إليه سبحانه ما أنزله وعرفنا به ممّا هو عليه، فإن الله يقول الحق وهو يهدي السبيل، فلنا الإيمان به

وبما جاء من عنده على علمه في ذلك في كتاب وعلى لسان رسوله، والله يوفقنا للوقوف عند ذلك فإنه لا يهلك على الله إلاَّ هالك. انتهى الجزء الخامس والتسعون.

(الجزء السادس والتسعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الحادي والتسعون
في معرفة الورع وأسراره

[نظم: الكامل]

وَرَعُ الطريقة في اجْتِنَاب مَحَارِمٍ مهما أتتك وما له وجهانِ
فإذا أتاك مخلّصاً لجلاله وتركْتَه وَرَعاً فمن نُقْصَانِ
لما جهلتَ الأمر قلتَ بعكسه وتبيَّن النّقْصانُ في الإيمانِ

الورع الاجتناب وهو في الشرع اجتناب الحرام والشبه لا اجتناب الحلال، قال ﷺ: **«دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يُرِيبكَ»** فِي هَذَا الْبَابِ وهذا عين ما قلناه، وهذا الحديث من جوامع الكلم وفصل الخطاب. وقال بعضهم: ما رأيت أسهل عليّ من الورع كلما حاك له شيء في نفسي تركته عملاً بهذا الحديث. فأما الحرام النص فمأمور باجتنابه لأنه ممنوع تناوله في حق من منع منه لا في عين الممنوع، فإن ذلك الممنوع بعينه قد أبيح لغيره لكون ذلك الغير على صفة ليست فيمن منع منه إباحته له تلك الصفة بإباحة الشارع، فلهذا قلنا: لا في عين الممنوع فإنه ما حرم شيء لعينه جملة واحدة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِۗ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٩] فعلمنا أن الحكم بالمنع وغيره مبناه على حال المكلف وفي مواضع على اسم الممنوع، فإن تغير الاسم لتغير قام بالمحرّم تغير الحكم على المكلف في تناوله إمّا بجهة الإباحة أو الوجوب، وكذلك إن تغير حال المكلف الذي خوطب بالمنع من ذلك الشيء واجتنابه لأجل تلك الحال فإنه يرتفع عنه هذا الحكم ولا بدّ، وإذا كان الأمر على هذا الحدّ فما ثم عين محرّمة لعينها. وأمّا اجتناب الشبهة فالشبهة هي التي لها وجه إلى الحرام ووجه إلى الحل على السواء من غير تغليب، فليس اجتنابها بأولى من تناولها ولا تناولها بأولى من اجتنابها، فالورع يترك تناولها ترجيحاً لجانب الحرمة في ذلك، وغير الورع لا يترك ذلك فبينهما هذا القدر. وأما ترك ما لا شبهة فيه فذلك الحلال المحض، فإن تركه أعني ترك الفضل منه لأنه لا يصحّ إلاَّ ترك الفضل منه فذلك الترك زهد لا ورع، فإن الزهد في الحرام والشبهة ورع، والترك في الحلال الفاضل زهد. وأمّا غير الفاضل وهو الذي تدعو إليه الحاجة فالزهد فيه معصية وما بقي إلاَّ توقيت الحاجة إلى ذلك، وما حدّ الفاضل منه الذي يصحّ فيه الزهد، فنذكر ذلك في باب الزهد إن شاء الله.

والورع من المقامات المشروطة ويستصحب العبد ما دام مكلفاً ولا يتعين استعماله إلاَّ عند وجود شرطه وهو عام في جميع تصرّفات المكلف ما هو مخصوص بشيء من أعماله

دون شيء بل له السريان في جميع الأعضاء المكلفة في حركاتها وسكونها وما ينسب إليها من عمل وترك، وقد قيل: إن للورع حكماً في الأسرار والأرواح وليس ذلك بصحيح في الورع المشروع، فإن الشبهة في المعاني والمعارف والأسرار مستحيلة عند العارفين، وإنما تكون الشبهات في العلوم النظرية الحاصلة بالأدلة العقلية، فأولئك يجب عليهم الورع في النظر الفكري حتى يخلصوه من النظر المحرّم كالنظر في الذات الإلهية، ويخلصوه من الشبهة كالنظر لله أو للسمعة، فيخفى على بعض النفوس ذلك لشرف العلم فيتخيل أنه يطلبه لله وهو يطلبه للدنيا، أو لغير الله فيجتنب نية ذلك الطلب لا يجتنب العلم فإن طلب العلم ليس بمحرّم عليه، فمتعلق التحريم تلك النية الفاسدة، وهنا نظر هل تقدح تلك النية في فضل طلب العالم أو يبقى طلب العلم على فضله يعطي حقيقة سعادته في الآخرة وتكون العقوبة على مجرّد النيّة في ذلك وهو الذي نعتمد عليه في باب تحقيق الموازنة الإلهية؟ فمن قال: الكون كله شبهة وبه نقول فليس ذلك كما يتوهمه السامع وإنما الصورة الرحمانية أدتنا إلى هذا القول، ومثل ذلك لا يتورع فيه ولا يجتنب فإنك لا تعرف منه إلاّ أنت، فإن انتقلت عنك فقد جهلت ذاتك، ومن أوجدك فإنه قال: من عرف نفسه عرف ربه، فالورع في هذه الشبهة محال، بل ينبغي أن تتناول من حيث أنها شبهة فذلك محلها الذي يحلها فإنها لا تخلص لأحد الطرفين أبداً، وهذا بحر هلك فيه أكثر العقول وأكثر العارفين إلاّ من رحم الله وركب سفينة نوح نجاته.

والجامع لباب الورع أن تجتنب في ظاهرك وباطنك وجميع أعمال أعضائك المكلفة كل عمل، وترك لا يكون لله على الحدّ المشروع فيه المخلص له الذي لا شبهة تضره ولا تقدح فيه، فهذا اللام الذي في لله هي الرابطة لهذا الباب، وكل مقام في طريق الله تعالىٰ فهو مكتسب ثابت، وكل حال فهو موهوب غير مكتسب غير ثابت إنما هو مثل بارق برق، فإذا برق إمّا يزول لنقيضه وإمّا أن تتوالى أمثاله، فإن توالت أمثاله فصاحبه خاسر، وكل مقام فإمّا إلهيّ أو ربانيّ أو رحمانيّ غير هذه الثلاث الحضرات لا يكون، وهي تعم جميع الحضرات وعليها يدور الوجود وبها تنزلت الكتب وإليها ترتقي المعارج، والمهيمن عليها ثلاثة أسماء إلهية، الله والرب والرحمن، من حكم اسم ما من الأسماء الإلهية ينعت به في ذلك الوقت أحد هذه الأسماء الثلاثة ويكون حكمه بحسب مقام هذا العبد المحكوم عليه المؤثر فيه من حيث ما هو مسلم أو مؤمن أو محسن، وآثاره في عالم ملك العبد أو في عالم جبروته أو في عالم ملكوته، وعمله فيه إمّا بحكم الإطلاق وهو العمل الذاتيّ، وإمّا بحكم التقييد وهو عمل الصفة وحكمه بعمل الصفة إما بصفة تنزيه وسلب وإما بصفة فعل، هذا هو الضابط للمقامات وأحوالها سواء عرفه السالك أو لم يعرفه فإنه لا يخلو من هذه الأحكام كل كون لكنه لا يعرف ذلك كل أحد فأقول: إن الورع له مقام ولمقامه حال وهو مشروط كما ذكرنا وينتهي بانتهاء التكليف، فأما مقام الورع فهو التقييد بصفة التنزيه لأن حقيقته الاجتناب وهو إلهيّ وصاحبه مجهول لا يعرف، وحاله أن يكون صاحب علامة في نفسه أو في المتورع فيه والاسم الله ينظر

إليه دائماً فينظر إليه في عالم ملكه من حيث ما هو مسلم فيؤثر في أفعاله وكلما ظهر على جوارحه، فيجتنب كل ما يقدح في حصول هذا المقام وينظر إليه في عالم جبروته من حيث ما هو مؤمن فيؤثر فيه فلا تكذب له رؤيا جملة واحدة، ويجتنب في خياله كما يجتنب في ظاهره لأن الخيال تابع للحسّ، ولهذا إذا احتلم المريد برؤيا عاقبه شيخه، ألا ترى أنه ما احتلم نبيّ قط ولا ينبغي له ذلك ولا العارفون بالله ذوقاً، فإن الاحتلام برؤيا في النوم أو في التصوّر في اليقظة فإنما هو من بقية طبيعية في خياله وهو كذب فإنه يظن أنه في الحسّ الظاهر، وقد قلنا: إن الورع يجتنب الكذب فلو اجتنبه في الحسّ لأثر في خياله، فإذا رأيتم صاحب مقام الورع يغتسل من نوم فذلك لماء خرج منه وهو نائم لضعف الأعضاء الباطنة وهو مرض طرأ في مزاجه لا عن رؤيا أصلاً لا في حلال ولا في حرام. وأما إذا نظر إليه في عالم ملكوته فأثره فيه اجتناب التأويل فيما يرد عليه من المخاطبات الإلهية والتجلي الإلهيّ إذا كان كل ذلك في السور فلا يعبر ما رآه ولا يتأوّل ما خوطب به فإنه كله إلهيّ وكل إلهيّ مجهول، كما أن الورعين مجهولون لأنه اجتناب وترك ولا يتميز الأمر من خارج إلاً بالفعل، فإن نطق الورع بما ينبغي أن يجتنب ذلك الأمر ولأجله اجتنبه فقد أخلّ بمقام الورع فإنه مقامه أن يكون مجهولاً وقد عرف بأنه ورع فزال عنه حكم مقامه بل ما كان قط في مقام الورع وورعه في اجتنابه معلول فلا يسلم له، وأما الربانيّ والرحمانيّ فعلى هذا المجرى سواء فخذه واعمل عليه ترى عجباً، فقلّ أن تجده في غير هذا الكتاب، فإن أكثر الناس بل ربما كلهم ما أبانوا عن هذه المقامات والأحوال بما يعطيه تفصيل الوجود، وإن كانوا يعرفونها فإنهم اتكلوا في ذلك، على أن السالك إذا دخل وصدق في التوجّه أبينت له الأمور على ما هي عليه فيعرف حاله.

الباب الثاني والتسعون
في معرفة مقام ترك الورع

[نظم: الكامل]

شَفْعِيَّةُ الإنسان تُؤذِنُ بالوَرَعْ ... والوِتْرُ فيها مُوجِبٌ تَرْكَ الوَرَعْ
العينُ واحدةٌ إذا حقَّقْتَها ... مَضَت المطامعُ فانتفى حُكْمُ الطَّمَعْ
ما تطلب الأعمالُ عينَ وجودها ... إلاّ لِضَعْفٍ في البصائر أو صَدَعْ

لما كانت الأمور كلها لها أربعة أحكام: حكم ظاهر، وحكم باطن، وحكم حدّ، وحكم مطلع، وكان الورع يحكم على ظاهر صاحبه وباطنه بالحدّ فأبان له هذا العمل وجه الحق في كل شيء وهو المطلع فاطلع فما وقعت عينه على الأشياء وإنما وقعت عينه على وجه الحق فيها الذي ارتبطت في وجودها به والذي ظهرت عنه فاقتضى حاله ترك الورع، لأنه لا ينبغي أن يجتنب رؤية وجه الحق في الأشياء وما هو من حكم ما لا ينبغي، فإن العبد لا يقدر أن يدفع عن نفسه التجلي إذا كان حقيقة فهو محكوم عليه به، ولست أعني بقولي ترك الورع أن صاحبه يتناول الحرام أو الشبهة بعد علمه بذينك هذا لا يقول به أحد، وإنما صاحب

هذا المقام يتناول الأشياء بحسب ما خاطبه به الشرع، فلا يأكل إلاّ حلالاً، ولا يتصرّف إلاّ حلالاً، فإن العلامة أزالها الحق عنه برؤية الوجه، والورع بغير علامة سوء ظن بالناس، وحاشى أهل الله ولا سيما أصحاب مشاهدة الوجه أن يسيؤا الظن بعباد الله أو يخطر شيء من قبائحهم ببال صاحب هذا الحال المتمكن في مقامه، ولقد لقي بعض أصحابنا بعض الأبدال في سياحته، فأخذ يذكر له ما هم الناس عليه من فساد الأحوال في الملوك والولاة والرعايا فغضب البدل وقال له: ما لك وعباد الله؟ لا تدخل بين السيد وعبده، فإن الرحمة والمغفرة والإحسان لهؤلاء يطلبون، أتريد أن تبقى الألوهية معطلة الحكم؟ اشتغل بنفسك وأعرض عن هذه الأشياء وليكن نظرك إليه تعالىٰ وشغلك بالله، ولقد اتفق لي في بدايتي وما ثم إلاّ بداية، وأما النهاية فمقولة غير معقولة دخلت على شيخنا أبي العباس العريبي وأنا في مثل هذه الحال وقد تكدر عليّ وقتي لما أرى الناس فيه من مخالفة الحق فقال لي صاحبي: عليك بالله، فخرجت من عنده ودخلت على شيخنا أبي عمران الميرتلي وأنا على تلك الحالة فقال لي: عليك بنفسك، فقلت له: يا سيدنا قد حرت بينكما هذا أبو العباس يقول: عليك بالله، وأنت تقول: عليك بنفسك، وأنتما إمامان دالان على الحق، فبكى أبو عمران وقال لي: يا حبيبي الذي دلّك عليه أبو العباس هو الحق وإليه الرجوع، وكل واحد منا دلّك على ما يقتضيه حاله، وأرجو إن شاء الله أن يلحقني بالمقام الذي أشار إليه أبو العباس فاسمع منه فإنه أولى بي وبك فما أحسن إنصاف القوم، فرجعت إلى أبي العباس وذكرت له مقالة أبي عمران وقال لي: أحسن في قوله هو دلّك على الطريق وأنا دللتك على الرفيق فاعمل بما قال لك وبما قلته لك فتجمع بين الرفيق والطريق، وكل من لا يصحب الحق في سفره فليس هو على بينة من سلامته فيه، وكل من تورع بغير علامة له من الله في الأشياء وما ثم حكم معين في ذلك الأمر من رؤية معاملة خاصة مشاهدة في الوقت تقتضي الحرام أو الشبهة فصاحب هذا الورع مخدوع مقطوع به عن الله، فإن حاله سوء الظن بعباد الله، فباطنه مظلم وخلقه سيء، فهو ولا شيء في حكم واحد، بل لا شيء أحسن منه، فينبغي للإنسان أن يتحفظ إذا أراد أن يكون ورعاً، كما أوجب الله عليه بأن يتحقق ويكون على بصيرة فيما يتورع، وهذا قليل العلم به لمن لا علامة له لأن الإنسان لو رأى إنساناً على مخالفة حق مشروع وفارقه لحظة ثم رآه في اللحظة الأخرى وحكم عليه بالحالة الأولى فما وفى الألوهية حقّها ولا الأدب مع الله حقّه وكان قرين إبليس حليف الخسران سيىء الظن بالله وبعباده وكان ورعه مقتاً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والتسعون

في الزهد

[نظم: الكامل]

الزُّهْدُ تَرْكُ محلَّلٍ ومحلَّلِ ومحلَّلٍ فازهَدْ فزُهْدُكَ أَزْهَدُ
والتَّرْكُ شيءٌ لا وجودَ لعينه وله لسانٌ في الشريعة يُحْمَدُ

في الزهد تَعْظيمُ الأمور وما له عند المحقِّق قيمةٌ لا تُجْحَدُ

الزهد لا يكون إلاَّ في الحاصل في الملك، والطلب حاصل في الملك، فالزهد في الطلب زهد لأن أصحابنا اختلفوا في الفقير الذي لا ملك له هل يصحّ له اسم الزاهد أو لا قدم له في هذا المقام؟ فمذهبنا أن الفقير متمكن من الرغبة في الدنيا والتعمّل في تحصيلها ولو لم يحصل فتركه لذلك التعمّل والطلب والرغبة عنه يسمّى زهداً بلا شك وذلك الطلب في ملكه حاصل. فلهذا حددناه بما ذكرنا. ولقد فاوضت في هذه المسألة جماعة من أهل الله فأكثرهم قال بقولنا، وسبب ذلك أن صاحب الذوق لا بدّ أن يرى لتركه طلب الدنيا والرغبة فيها أثراً إلهياً في قلبه، فلو لم يكن للأمر وجود عند الله واعتبار ما صحّ أن يكون له أثر في التجلي الإلهيّ لصاحب هذا الحال وهو الصحيح فلنقل أن للزهد الذي ذكرناه مقاماً وحالاً، فمقامه الإلهيّ مطلق وهو زهده في كل اسم إلهيّ يحول بينه وبين عبوديته، والربانيّ مقيد بصفة التنزيه عن حكم هذا الاسم عليه، والرحماني هو صرفه على ما يستحقه أعني هذا المزهود فيه، فأما في الملك من كونه مسلماً فالزهد في الأكوان وهو الحجاب الأبعد الأقصى. وأما في الجبروت من كونه مؤمناً فالزهد في نفسه وهو الحجاب الأدنى الأقرب. وأما في الملكوت من كونه محسناً فالزهد في كل ما سوى الله وهنا يرتفع الحجاب عند الطائفة. قال أبو يزيد الأكبر: ليس الزهد عندي بمقام إني كنت زاهداً ثلاثة أيام: أول يوم زهدت في الدنيا واليوم الثاني زهدت في الآخرة واليوم الثالث زهدت في كل ما سوى الله، فناداني الحق: ماذا تريد؟ فقلت: أريد أن لا أريد لأني أنا المراد وأنت المريد، وقد انتقد عليه هذا القول بعض أهل الطريق وجهل مقام أبي يزيد في ذلك، وقد تكلمنا على قصده بهذا القول وبيّنا فساد هذا القول أعني قول المعترض عليه في غير هذا الموضع وهو من المقامات المستصحبة للعبد ما لم ينكشف له، فإذا كشف الغطاء عن عين قلبه لم يزهد ولا ينبغي له أن يزهد فإن العبد لا يزهد فيما خلق له، ولا يكون زاهداً إلاَّ من يزهد فيما خلق من أجله وهذا لا يصحّ كونه، فالزهد من القائل به جهل في عين الحقيقة لأنه ما ليس لي لا أتصف بالزهد فيه، وما هو لي لا يمكنني الانفكاك عنه فأين الزهد؟ فلنقل صاحب هذا الحكم هذا هو الزهد الذي يستحق هذا الاسم ولنا في هذا المقام الزهدي نظم: [الكامل]

العيب منك وأنت لا تدري فالزُّهدُ مثلُ صلاتي الوتْرِ
وسراجُ نفسك نورُه متعلِّقٌ بجميع ما في الكون من أمْرِ
فاطفِ السراج يزول كل تعلُّقٍ فالزهدُ فيك كليلة القَدْرِ
هي من غروب الشمس حتى تنتهي بالحكم فيك كمطلع الفَجْرِ

يقول: لو رأيت الحق لم تزهد، فإن الله ما زهد في الخلق وما ثم تخلق إلاَّ بالله فبمن تتخلق في الزهد، انظر إلى هذا المعنى فإنه دقيق جداً.

الباب الرابع والتسعون

في معرفة مقام ترك الزهد

[نظم : البسيط]

الزُّهْدُ تَرْكٌ وتركُ التَّرْكِ معلومٌ ... بأنه مَسْكُ ما في الكف مَقْبُوضُ
الأرضُ قَبْضَتُه وهو الغنيُّ فأيـ ... ـن الترك فهو محالٌ فيك مفروضُ
لا ينعم الحقُّ بالنعما فأنت لها ... وقد زَهِدْتَ فهذا اللفظ تَعْرِيضُ
فالزهدُ ليس له في العلم مرتبةٌ ... وتَرْكُهُ عند أهل الجَمْع مَفْروضُ

اعلم أن ترك الترك إمساك، والزهد ترك، وترك الزهد ترك الترك، فهو عين رجوعك إلى ما زهدت فيه، لأن العلم الحق ردّك إليه والحال يطلبه فماله حقيقة في باطن الأمر لكن له حكم ما في الظاهر فيصحّ هذا القدر منه، وبقي هل يقع الإمساك الذي هو ترك الزهد عن رغبة في الممسوك أو لا عن رغبة، فاختلفت أحوال الناس فيه، فمن أمسك لا عن رغبة فهو زاهد أمين على إمساك حقوق الغير حتى يؤديها إلى أربابها في الأوقات المقدرة المقررة، وقد يكون عن كشف وعلم صحيح بأعيان أصحابها وقد لا يكون غير أنه لا يتناول منها شيئاً في حق نفسه إذ كان بهذه المثابة، ومن أمسك عن رغبة في الممسوك وهم رجلان: الواحد راجع عن مقام الزهد بلا شك لمرض قام به في نفسه فهذا ليس بشيء، والرجل الآخر وهم الأنبياء والكمل من الأولياء فامسكوا باطلاع عرفانيّ أنتج لهم أمراً عشقه بما في الإمساك من المعرفة والتحلّي بالكمال لا عن بخل وضعف يقين، أرسل الله على أيوب رجل جراد من ذهب فسقط عليه فأخذ يجمعه في ثوبه فأوحى الله إليه: ألم أكن أغنيتك عن هذا؟ فقال: لا غنى لي عن خيرك، فانظر ما أعطته معرفته، وما زهد من زهد إلاّ لطلب الأكثر فزهد في الأقل ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٧] فأين الزهد؟ فما تركوا الدنيا إلاّ حذراً أن يرزأهم في الآخرة فهذا عين الطمع والرغبة فيما يتخيل فيه أنه زهد وهذا هو مقام ترك الزهد، وأما حالة فالزهد في الدنيا ولهذا لا يثبت.

الباب الخامس والتسعون

في معرفة أسرار الجود وأصناف الأعطيات مثل الكرم والسخاء والإيثار على الخصاصة وعلى غير الخصاصة والصدقة والصلة والهدية والهبة وطلب العوض وتركه

[نظم : الكامل]

رُتَبُ العطاء كثيرةٌ لا تُحْصَرُ ... وبها على أعدائنا نَسْتَنْصِرُ
بالجود صحَّ وجودُنا في عيننا ... بل نحن منه على الحقيقة مَظْهَرُ

فصل الجود: عن الجود صدر الوجود، والجود بفتح الجيم المطر الكثير وهو مقلوب

وجد مثل جذب وجبذ فحروفهما واحدة بالاشتراك في المعنى، فمتعلق الجود من الحق في الأعيان التي هي المظاهر ظهوره فيها ومتعلق الجود من المظاهر على الظاهر ما جادت به عليه باستعدادها الذاتي من الثناء بالأسماء الإلهية التي كسبه جودها من وجودها، فالجود من الحق امتنان ذاتي، والجود من الأعيان ذاتي لا امتناني فهذا الفرق بين الجودين، وهذا معنى قولهم في الجود إنه العطاء قبل السؤال.

فصل الكرم: وأما عطاء الكرم فهو العطاء بعد السؤال وهو على نوعين: سؤال بالحال وسؤال بالمقال، فسؤال الحال عن كشف من الطرفين، وسؤال المقال من العبد معلوم: يا رب يا رب أعطني، اغفر لي، ارحمني، اهدني، ارزقني، اجبرني، عافني، اعف عني، لا تخزني، لا تفتني، وأمثال ذلك. وسؤال الحق: ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠] ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [سورة طه: الآية ١٤] ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [سورة الرحمن: الآية ٩] ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٥] وكل طلب تصوّر من الحق يطلبه من عباده وهي الفرائض كلها، فمن الكرم تؤدّي الفرائض، ومن الجود تكون النوافل إلاّ لمثل رسول الله ﷺ فإنها من الجود فهي تلحق بالفرائض وكون ذلك نافلة أخبار صادق قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٩].

فصل السخاء: ورد في حديث أبي بكر النقاش في مواقف القيامة اسم السخي على الله وهو مذكور في هذا الكتاب في باب الجنة منه. وأما عطاء السخاء فهو العطاء على قدر الحاجة وذلك عطاء الحكمة فهو من اسمه الحكيم، فسخاء الحق قول موسىٰ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [سورة الرعد: الآية ٨] ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٢٧] ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢١]. وأما سخاء العبد فإعطاؤه كل ذي حق حقه وإنصافه، فلنفسه عليه حق، ولأهله عليه حق، ولعينه عليه حق، ولزوره عليه حق.

فصل الإيثار: أما الإيثار فليس للحق منه صفة إلاّ بوجه بعيد في ذكره سوء أدب بل ما هو حقيقة فتركه أولى، وما ذهب إليه إلاّ من لا علم له ولا أدب من أهل الشطح، فلنقل أنّ الإيثار قد يكون عطاء محتاج لمحتاج، وقد يكون على الخصاصة ومع الخصاصة أو توهم الخصاصة، وأما في جانب الحق فهو إعطاؤه الجوهر الجود لخلق عرض من الأعراض لتعلق الإرادة بإيجاده لا بإيجاد المحل، فيوجد المحل تبعاً ضرورة، إذ من شرط وجود العرض وجود المحل، والجوهر محتاج فيما أعطاه الحق من خلق العرض فيه، إذ لا يكون له وجود إلاّ بوجود عرض ما، وسواء كان الجوهر متحيزاً أو غير متحيز، ومؤلفاً مع غيره أو غير مؤلف، فهذا عطاء على خصاصة مع خصاصة، وأما على غير الخصاصة فهو اتصاف العبد في التخلّق بالأسماء الإلهية واتصاف الحق في نزوله بأوصاف المحدثات، وهذا كله واقع قد ظهر حكمه في الوجود وتبين.

فصل الصدقة: فقد ذكرنا ذلك في باب الزكاة وهي ههنا تصدق الحق على العبد بإبقاء

عينه في الوجود بإيجاده أوّلاً مع علمه بأنه إذا أوجده يدعي الألوهية ويقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [سورة النازعات: الآية ٢٤] ولا بدّ من إيجاده لما سبق في العلم والصدقة من العبد على الحق، فإنّ العبد يجد في نفسه عزّة الصورة ومع هذا يقرّ بالعبودة لعزّة الله، وأيضاً هي ما يظهر من المحامد المحدثة التي لا تصح لله إلاّ بعد وجود المحدث وهو كل ما سوى الله، وإنما سميت صدقة لأن العبد المختار في محامد الله في نفسه فإنه قال تعالىٰ في حقه لما بين له السبيل إلى سعادته: ﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [سورة الإنسان: الآية ٣] فإنه ذو اختيار في أفعاله، ولهذا يصحّ منه القبول والرد ويعاقب ويثاب، وعلى هذا قام أصل الجزاء من الله تعالىٰ لعباده.

فصل عطاء الصلة: وأما عطاء الصلة فهي لذوي الأرحام حقاً وخلقاً، يقول تعالىٰ: **«الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ»** فنسبتها للحق نسبتها للعبد، فالرحمن رحم لنا ونحن رحم للرحمن.

فصل عطاء الهدية: وهو عطاء عن بيان، ولهذا اشتركت في حروف الهدي لأنه بالهدي أهدى، فهدية الحق للعبد نفسه، وهدية العبد للحق ردّ تلك النفس إليه بخلعة تكسبه محبة ربه ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١].

فصل عطاء الهبة: وهو من الحق إعطاء لينعم لا يقترن معه طلب جزاء، ومن العبد عمله لحق الربوبية لا للجزاء.

فصل: وأما طلب العوض وتركه فمن الحق قوله ﷺ: **«أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ»** و : ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٠] ومن العبد هو ما يطلبه من الجزاء على عمله الذي وعده الله به ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة يونس: الآية ٧٢].

فصل: وأما ترك طلب العوض فمن الحق أنه العامل، ولا يتصوّر من المالك إذا كان هو العامل أن يطلب ما هو عنده، فإن الحاصل لا يبتغي، ومن العبد فإنه لا يرى نفسه عاملاً، فما فعل شيئاً يطلب بذلك الفعل عوضاً من الله حيث أعطاه من نفسه، فهذه فصول محققة نبهناك بها على ما هو الأمر عليه وتفصيلاتها تبدو لك مع الآنات في نفس سلوكك، وهذا كله مقام إلهيّ في المحسنين خاصة، وصاحبه مجهول لا يعرف ونكرة لا تتعرّف. ثم إنّ هذا العطاء لا بدّ أن يكون مطلقاً أو مقيداً، فمن أعطى بيد حق أطلقه فيعمّ عطاؤه جميع عباد الله لا يخصص عيناً من عين ممّا يصلح لذلك المعطي مثل ذلك، إن كانت الأعطية من النقود فلا يعطيها إلاّ من له التصرّف فيها وهو الإنسان، ولا يشترط فيه صغيراً ولا كبيراً ولا ذكراً ولا أنثى ولا غنياً ولا فقيراً ولا مؤمناً ولا كافراً ولا عاقلاً ولا مجنوناً، بل هو في ذلك العطاء كمطلق الرزق على كل حيوان، وكذلك إن كان مما يلبس مثل النقود سواء يعطيه لأهله، وأما إن كان مأكولاً فيعطيه لكل متغذ يأكل ذلك الصنف من الغذاء من حيوان أوإنسان وليس له اختيار ولا تمييز بل هو مع أول من يلقاه، فإن ردّه عليه حينئذ أعطاه الثاني وهكذا حتى يجد من يأخذه منه، وهذا لا يكون إلاّ للربانيين من الاسم الرب، والرحمانيين من الاسم الرحمن، وليس للإلهيين مدخل في العطاء المطلق، وأثر هذا العطاء ظاهر في كل موجود لا أحاشي أعني من الأصناف لا في آحاد أشخاص الموجودات،

وهذا عطاء المحسن لا المؤمن ولا المسلم. وأما إن كان العطاء مقيداً فهو بحسب ما تقيد به، فحكم ذلك راجع إلى حكم الشرع فيه، فيعمل الأولى فالأولى، ويبتدىء بالذي أمره الشارع أن يبتدىء به ويبحث عنه حتى يجده، ولا يعطي على هذا الحد إلاَّ الإلهيّ من الاسم الله المؤمن المحسن المسلم وأثر هذا العطاء أيضاً عام.

الباب السادس والتسعون
في الصمت وأسراره

[نظم: الكامل]

الله قال على لسان عبيده ... فالصَّمْتُ في الأكوان نَعْتٌ لازِمُ
ما ثَمَّ إلاَّ من يكلِّم نفْسَهُ ... فهو السميع كلامه والعالِمُ
وهو الوجودُ فليس إلاَّ عَيْنُه ... هذا هو الحقُّ الصريحُ الحاكِمُ

اعلم وفقك الله أنّ الصمت أحد الأربعة الأركان التي بها يكون الرجال والنساء أبدالاً، قيل لبعضهم: كم الأبدال؟ قال: أربعون نفساً، قيل له: لِمَ لَمْ تقل رجلاً؟ قال: قد يكون فيهم النساء كما قال ﷺ في الكمال، فذكر أنه يكون أيضاً في النساء وعيّن منهن مريم إبنة عمران وآسية امرأة فرعون وله حال ومقام، فأما مقامه فهو أنه لا يرى متكلماً إلاَّ من خلق الكلام في عباده وهو الله تعالىٰ خالق كل شيء، فالعبد صامت بذاته متكلم بالعرض، وأما حاله فهو أن يرى أنّ الله وإن خلق الكلام فيه فالعبد هو المتكلم فيه كما هو المتحرّك بخلق الحركة فيه، ولا يصحّ أن يصمت مطلقاً أصلاً فإنه مأمور بذكر الله تعالىٰ في أحوال مخصوصة أمر وجوب، فهو مقام مقيد بصفة تنزيه لأنه وصف سلبي وحكمه في ظاهر الإنسان، وأما باطنه فلا يصحّ فيه صمت فإنه كله ناطق بتسبيح الله فالصمت محال، وإنما الكلام على الصمت المعلوم بالعرف، ومن تخلل صمته كلام في غير فرض ولا ذكر لله فما صمت، فالصامت هنا هو الذي يقيم نشأة مصمتة الأجزاء لا يتخللها حين فارغ مقدر حينئذ يكون صامتاً، وإذا أراد الإنسان أن يختبر نفسه هل هو ممّن صمت كما ينبغي فلينظر هل له فعل بالهمة المجردة فيما من شأنه أن لا يفعل إلاَّ بالكلام أم لا؟ فإن أثر وحصل المقصود فهو صامت حقيقة، مثل أن يريد أن يقول لخادمه: اسقني ماء وائتني بطعام، أو سر إلى فلان فقل له كذا وكذا ولا يشير إلى الخادم بشيء من هذا كله فيجد الخادم في نفسه ذلك كله بأن يخلق الله في سمع الخادم عن ذلك يقول فلان: قال لي افعل كذا وكذا يسمع ذلك حسّاً بأُذنه ولكن يتخيل أنه صوت ذلك الصامت وليس كذلك، فمن ليست له هذه الحالة فلا يدعي أنه صامت. وأما الصامت المتكلم بالإشارة فهو يتعب نفسه وغيره ولا ينتج له شيئاً بل هو ممّن يتشبه بالأخرس الذي يتكلم بالإشارة فلا يعوّل عليه، وهذا ممّا غلط فيه جماعة من أهل الطريق، فمن نصح نفسه فقد أقمنا له ميزان هذا المقام الذي يزنه به حتى لا يتلبس عليه الأمر، وهذا لا يكون إلاَّ للإلهيين المحسنين، لا لغيرهم من المؤمنين والمسلمين الذين لم يحصل لهم مقام الإحسان.

الباب السابع والتسعون
في مقام الكلام وتفاصيله

[نظم: البسيط]

إنّ الكلامَ عباراتٌ وألفاظُ ... وقد تنوب إشاراتٌ وإيماءُ
لولا الكلامُ لكنا اليوم في عَدَمٍ ... ولم تكن ثَمَّ أحكامٌ وأنباءُ
وإنه نَفَسُ الرحمن عيَّنَهُ ... عقلٌ صريحٌ وفي التشريع أنباءُ
فيه بدَتْ صورُ الأشخاص بارزةً ... معنًى وحسّاً وذاك البَدْوُ إنشاءُ
فانظر تَرَ الحكمةَ الغرَّاءَ قائمةً ... فيها لعين اللَّبيبِ القلبِ أشياءُ

الكلام صفة مؤثرة نفسية رحمانية مشتقة من الكلم وهو الجرح فلهذا قلنا مؤثّرة كما أثر الكلم في جسم المجروح، فأول كلام شق أسماع الممكنات كلمة ﴿كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فما ظهر العالم إلاّ عن صفة الكلام وهو توجّه نفس الرحمن على عين من الأعيان ينفتح في ذلك النفس شخصية ذلك المقصود فيعبر عن ذلك الكون بالكلام وعن المتكوّن فيه بالنفس، كما ينتهي النفس من المتنفس المريد إيجاد عين حرف فيخرج النفس المسمّى صوتاً، ففي أي موضع انتهى أمد قصده ظهر عند ذلك عين الحرف المقصود إن كان عين الحرف خاصة هو المقصود، فتظهر الهاء مثلاً إلى الواو وما بينهما من مخارج الحروف، وهذه تسمّى معارج التكوين فيها يعرج النفس الرحمانيّ، فأي عين عين من الأعيان الثابتة اتصفت بالوجود فلا بدّ لكل متكلم من أثر في نفس من كلمة، غير أنّ المتكلم قد يكون إلهياً وربانياً ورحمانياً، فمن كونه ربانياً ورحمانياً لا يشترط في كلامه خلق عين ظاهرة سوى ما ظهر من صورة الكلام التي أنشأها عند التلفظ، فإن أثرت نشأة كلامه نشأة أخرى وهو أن يقول لزيد: قم فهذا المتكلم قد أنشأ نشأة قم، فإن قام زيد لأمره فقد أنشأ هذا الآمر صورة القيام في زيد عن نشأة لفظة قم فهو إلهيّ لأن إنشاء الأعيان إنما هو لله وهذا عام في جميع الخلق، فإن لم يسمع منه ولا أثرت فيه نشأة أمره فهو قاصر الهمة وليس بإلهيّ في هذه الحال وإنما هو ربانيّ أو رحمانيّ، ولا يلزم للربانيّ والرحمانيّ سوى إقامة نشأة الكلام خاصة، والإلهيّ هو الذي ذكرناه، غير أن الإلهيّ على نوعين: إلهيّ كما ذكرناه وإلهيّ يؤثر كلامه في الأشياء مطلقاً من جماد ونبات وحيوان وكون أي كون كان علواً وسفلاً، فهذا هو الإلهيّ المطلوب في هذا الطريق، ولا يصحّ وجوده عاماً أبداً في هذه الدار بل محله الجنان فإنه لا أكبر من محمد ﷺ وقد قال: لمن ﴿حَقَّتْ﴾ عليه ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧١] قل لا إله إلاّ الله فما ظهر عن نشأة أمره نشأة لا إله إلاّ الله في محل المأمور وإن كان على بصيرة فيه ولكنه مأمور أن يأمر وهو حريص على الأمة، فالمأمور ما امتنع وإنما الممتنع لا إله إلاّ الله، فإنّ هذا اللفظ هو المأمور أن يكون في هذا المحل فلم يكن، فلو تكوّن في محل هذا الشخص لظهر عينه وأعطاه اسم الإسلام، كما أن هذا الشخص لما قال له الحق: ﴿كُن﴾ وهو في العدم لم يتمكن له إلاّ أن

يكون ولا بدّ فقد علمت من هو المأمور بالوجود في التحقيق وهو قول الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [سورة القصص: الآية ٥٦] أي إنك لا تقدر على من تريد أن تجعله محلاً لظهور ما تريد إنشاءه فيه أن يكون محلاً لوجود إنشائك فيه، فليس كل متكلم في الدنيا بإلهيّ مطلق، لكن له الإطلاق فيما يريد أن ينشئه في نفسه لا في غيره، فاعلم سرّ هذا واعلم هل أنت متكلم أو لافظ.

الباب الثامن والتسعون

في معرفة مقام السهر

[نظم: البسيط]

مـن لا تـنـام لـه عـيـنٌ ولـيـس لـه ... قـلـبٌ يـنـام فـذاكَ الـواحـدُ الأَحَـدُ
مَـقَـامُـه الـحـفـظُ والأعـيـانُ تـعـبـده ... ولا يُـقـيِّـده طَـبْـعٌ ولا جَـسَـدُ
هـو الإمـامُ ومـا تـسـري إمـامـتُـه ... فـي الـعـالـمـيـن فـلـم يـظـفَـرْ بـه أَحَـدُ
كُـرسـيُّـه تُـخـزَنُ الأكـوانُ فـيـه ولا ... يَـؤوده حـفـظُ شـيءٍ ضـمَّـه عَـدَدُ

هذا المقام يسمّى مقام القيومية، واختلف أصحابنا هل يتخلق به أم لا؟ ولقيت أبا عبد الله بن جنيد من شيوخ الطائفة من أهل قبر فيق من أعمال رندة وكان معتزلي المذهب فرأيته يمنع من التخلق بالقيومية فرددته عن ذلك من مذهبه فإنه كان يقول بخلق الأفعال للعباد، فلما رجع إلى قولنا وأبنت له معنى قوله تعالىٰ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [سورة النساء: الآية ٣٤] فقد أثبت لهم درجة في القيومية، وكان قد أتى إلى زيارتنا فلما رجع إلى بلده مشيت إلى زيارته في بلده فرددته وجميع أصحابه عن مذهبه في خلق الأفعال فشكر الله على ذلك رحمه الله، فيتخيل من لا معرفة له بالحقائق أنها من خصائص الحق، ولا فرق عندنا بينها وبين سائر الأسماء الإلهية كلها في التخلق بها على ما تعطيه حقيقة الخلق كما هي لله بحسب ما تعطيه ذاته تعالىٰ وتقدس والسهر من أحد الأربعة الأركان التي قام عليها بيت الأبدال وهي: السهر والجوع والصمت والعزلة، وقد أفردنا لمعرفة هذه الأربعة جزءاً عملناه بالطائف سميناه حلية الأبدال ونظمناها في أبيات في الجزء المذكور سؤال صاحبي عبد الله بدر الخادم ومحمد بن خالد الصدفيّ. وهذه هي الأبيات: [الكامل]

يـا مـن أراد مـنـازلَ الأَبْـدالِ ... مـن غـيـر قَـصْـدٍ مـنـه لـلأعـمـالِ
لا تـطـمـعـنَّ بـهـا فـلـستَ مِـنَ أهـلـهـا ... إن لـم تـزاحـمْـهـم عـلـى الأحـوالِ
بـيـتُ الـولايـة قُـسِّـمَـتْ أركـانُـه ... سـاداتُـنـا فـيـه مـن الأَبْـدالِ
مـا بـيـن صَـمْـتٍ واعـتـزالٍ دائـم ... والـجـوعِ والـسـهـرِ الـنـزيـهِ الـعـالـي

فجعلوا السهر ركناً من أركان المقام الذي يكون من صفات الأبدال، وآيتهم من كتاب الله تعالىٰ سيدة آي القرآن: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] فانظر ما أعجب هذه الآية، ولهذه الصفة عنت الوجوه منا، والمراد بالوجوه حقائقنا إذ وجه الشيء حقيقته فقال تعالىٰ:

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [سورة طه: الآية ١١١] وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [سورة القصص: الآية ٨٨] فإذا لم يحفظ العبد بسهر قلبه ذاته الباطنة كما يحفظ بسهر عينه ذاته الظاهرة وإن كان نائماً فيكون ممّن تنام عينه ولا ينام قلبه ويحفظ غيره بحفظه فما سهر من ليست هذه صفته، وتكون الخمسة من الأعداد أتم منه في مقامها في حفظها نفسها وغيرها، ومن لا يقدر أن يكون له درجة الخمسة من العدد وهي جزء ممّا لا يتناهى فإنها جزء من العدد والعدد لا نهاية له فكيف يتمكن له أن يتخلق بالقيومية مطلقاً ليس ذلك في وسع البشر مثل الكلام سواء، وغاية من يقوم بها قطب الوقت فإنّ له الأكثرية فيها من سواه، فالذي يتعين علينا حفظ هذه الصفة، فنحن نسهر لحفظ الكون وإقامته ما يلزمنا أكثر من هذا والله حفيظ عليم لا نحن، فإذا قامت هذه الصفة بنا فقد وفينا المقام حقّه، فينبغي لصاحب هذا المقام إذا سهر أن يسهر بعين الله، وعين الله حافظته بلا شك الحفظ الذي يعلمه الله لا الحفظ العرضي، فإن الله تعالىٰ ما رأيناه يحفظ على كل عين صورتها بل الواقع غير ذلك وهو مطلق الحفظ، فإذن ليس الحفظ ما يتخيل من حفظ الصور على أعيانها، وإنما ينظر صاحب هذا المقام إلى الحفظ المطلق وينظر في المحفوظ، وإذا كان من عالم التغيير والاستحالات فيحفظ عليه التغيير والاستحالات، فإن لم يتغير ولا استحال فما حفظ عليه ما تستحقه ذاته، فينظر صاحب هذا المقام مراتب الموجودات ويكون حفظه في سهره بحسب ما تعطيه رتبة ذلك العالم، ولا يلتفت إلى أغراض أشخاص ذلك النوع فإن الضدين لا يجتمعان، فإذا أراد السكون أن يحفظ عليه ذاته في ساكن معين لم يتمكن أن يجيبه إلى ذلك، فإن الساكن مأمور من الله بتغيير حاله من سكون إلى قيام لصلاة أو لأمر مشروع أو طبع كقضاء حاجته، ولا يكون هذا إلاَّ بأن يتغير وينتقل إلى حكم الحركة، وكذلك المتحرّك إذا توجّه عليه الأمر بالسكون فالحافظ هنا إنما يحفظ عليه حكم التغيير، فإن لم يحفظ عليه ذلك فما سهر ولا تحقق بالقيومية، فهذا ما يعطيه مقام السهر وحاله فافهم فإنه ما من مقام وإلاَّ ويتسع المجال فيه لو تكلمنا على تفاصيله، لكن نومىء إلى ما لا بدّ منه في كل مقام وحال بأمر كليّ تقع به المنفعة ويندرج فيه كل تفصيل يحتمله، فإذا بحثت عليه في كلامنا تجدنا قد وفينا المقصود. انتهى الجزء السادس والتسعون.

(الجزء السابع والتسعون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب التاسع والتسعون

في مقام النوم

[نظم: البسيط]

النومُ جامعُ أمرٍ ليس يجمعه غيرُ المنام ففكِّرْ فيه واعتَبِرِ
إن الخيالَ له حكمٌ وسلْطَنَةٌ على الوجودين من معنًى ومن صُوَرِ
وليس يُدْرَكُ في غير المنام ولا تبدو له صُوَرٌ في حضرة السُّوَرِ

يُخْتَصُّ بالصاد لا بالسين حَضْرَتُه فهو المحيطُ بما في الغيب من صُورِ
من لا يُكَيِّفُ يأبى النَّوْمَ يحْصُرُهُ بالكَيْفِ والكَمِّ للتحديد بالعِبَرِ

اعلم أيّدك الله أن النوم حالة تنقل العبد من مشاهدة عالم الحسّ إلى شهود عالم البرزخ وهو أكمل العالم فلا أكمل منه، هو أصل مصدر العالم له الوجود الحقيقي والتحكم في الأمور كلها يجسد المعاني ويرد ما ليس قائماً بنفسه قائماً بنفسه، وما لا صورة له يجعل له صورة ويرد المحال ممكناً ويتصرّف في الأمور كيف يشاء، فإذا كان له هذا الإطلاق وهو خلق مخلوق لله فما ظنك بالخالق سبحانه الذي خلقه وأعطاه هذه القوّة، فكيف تريد أن تحكم على الله بالتقيد وتقول: إن الله غير قادر على المحال وأنت تشهد من نفسك قدرة الخيال على المحال والخيال خلق من خلق الله، ولا تشك فيما تراه من المعاني التي جسدها لك وأراها إياك أشخاصاً قائمة، فكذلك يأتي الله بأعمال بني آدم مع كونها إعراضاً صوراً قائمة توضع في الموازين لإقامة القسط، ويؤتى بالموت مع كونه نسبة فوق العرض في البعد عن التجسد في صورة كبش أملح يريد أنه في غاية الوضوح لهذا وصفه بالملحة وهي البياض فيعرفه جميع الناس فهذا محال مقدور فأين حكم العقل على الله وفساد تأويله؟ وكذلك نعيم الجنان في فواكهه ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٣٣]، فيتأوّله من لا علم له بحمله على فصول السنة أن الفاكهة تنقضي بانقضاء زمانها ثم تعود في السنة الأخرى، وفاكهة الجنة دائمة التكوين لا تنقطع، هذا مبلغ علمهم في هذه المسألة، وهي عندنا كما قال الله: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ فإن الله جاعل لنا فيها رزقاً يسمّى قطفاً وتناولاً، كما جعل الله لعالم الجنّ في العظام رزقاً وما ترى ينقص من العظم شيء، ونحن بلا شك نأكل من فاكهة الجنة قطفاً دانياً مع كون الثمرة في موضعها من الشجرة ما زال عينها لأنها دار بقاء لما يتكوّن فيها فهي دار تكوين لا دار إعدام، وكذلك سوق الجنة ندخل في أيّ صورة شئنا من صور السوق مع كوننا على صورتنا لا ينكرنا أحد من أهلنا ولا من معارفنا، ونحن نعلم أن قد لبسنا صورة جديدة تكوينية مع بقائنا على صورتنا، فأين العقول والمعقول هنا؟ [البسيط]

لا يَعرفُ الله إلاّ الله فاعتبروا ما عَقْلُ عَيْنٍ كعَقْلٍ قَلَّدَ الفِكَرَا

ولما نزّه الله نفسه عن صفة النوم فقال: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] أي ما يغيبه شهود البرازخ عن شهود عالم الحسّ عن شهود المعاني الخارجة عن المواد في حال عدم حصولها في البرزخ وتحت حكمه، وقد يمنح الله بعض عباده بهذا الإدراك مع كونه لا يتصف بأنه لا ينام أعني في حالة الدنيا ونشأتها، وأما في الآخرة فإنه لا ينام أهل الجنة في الجنة ولا يغيب عنهم شيء من العالم، بل كل عالم على مرتبته مشهود لهم مع كونهم غير متصفين بالنوم، يقال: نام فلان فرأى كذا أي رأى مقلوبه وهو مان أي كذب في عرف العادة، فإن العلم ما هو لبن والقرآن ما هو عسل ولكن هكذا تراه، فإذا كملت رأيته علماً في حضرة المعاني في حال رؤيتك إياه لبناً في حضرة البرزخ وهو هو لا غيره، فتحقق ما أعلمناك به فقد أرحناك بما ذكرناه راحة الأبد، وقد عرفناك بالإله المعرفة المطلوبة منا، وإذا تحققت ما أومأنا

إليه في هذا الباب علمت جميع ما جاء به الشرع في الكتاب والسنة قديماً وحديثاً من النعوت الإلهية التي تردّها العقول ببراهينها القاصرة عن هذا الإدراك، فمعرفة وجود الحق مدرك العقول من حيث ما هي مفكرة وصاحبة دلالات، ومعرفة ما هو الحق عليه في نفسه هو ما أعطاه الوجود لكل إدراك في عالمه، فما ثم إلاّ حق ومصيب، فسبحان من طوّر الأطوار وجعل في اليوم حقيقة الليل والنهار وأنزل الأحكام وشرعها على التفصيل لا على الإجمال، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

والنوم من أحكام الطبيعة في مولدات العناصر خاصة، والنشأة الآخرة ليست من مولدات العناصر بل هي من مولدات الطبيعة فلذلك لا تنام ولا تقبل النوم كالملائكة وما علا عن العناصر، ونشأة الإنسان في الآخرة على غير مثال كما كانت نشأته في الدنيا على غير مثال، فما ظهر قبله من هو على صورته ولهذا جاء: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ يعني على غير مثال ﴿تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩] على غير مثال يعني في نشأة الآخرة. وقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٦٢] أنها كانت على غير مثال سبق، فاشحذ فؤادك ووفر زادك فإنك راحل عن نشأة أنت فيها وما أنت فيها.

الباب الموفي مائة
في مقام الخوف

[نظم: الطويل]

خَفِ الله يا مسكينُ إن كنتَ مؤمناً إذا جاء سلطانُ المنازِع في الأَمْرِ
فإن جنحوا للسَّلْم فاجنَحْ لها تنَلْ بها رُتَبَ العلياء في عَالَم الأَمْرِ
وما قُلْتُه بل قاله الله معْلِماً كما جاء في القرآن في مُحْكَم الذِّكْرِ

اعلم أيّدك الله وعصمك أن الخوف مقام الإلهيين له الاسم الله لأنه متناقض الحكم، فإنه يخاف من الحجاب ويخاف من رفع الحجاب، أما خوفه من الحجاب فلما فيه من الجهل بما هو حجاب عنه، وأما خوفه من رفع الحجاب فلذهاب عينه عند رفعه فتزول الفائدة، والإلتذاذ بالجمال المطلق آية المحجوب قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ١٥] في معرض الذم. وأما الحديث فقوله ﷺ في الحجب: «**لَوْ كَشَفَهَا أَوْ لَوْ رَفَعَهَا لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وجْهِهِ مَا أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**». وما أشبه هذا المقام بقول القائل: [البسيط]

الليلُ إن وَصَلَتْ كالليل إن هَجَرَتْ أشكو من الطُّولِ ما أشكو من القِصَرِ

فمقام الخوف مقام الحيرة، والوقوف لا يتعين له ما يرجح لقيام شاهد كل جانب عنده، ومن خرج عن هذا الخوف إلى الخوف من متعلق غيره فهو خوف وليس بمقام، فإن كل خوف ما عدا هذا فليس له هذا الحكم، فإن المقام كل ما له قدم راسخ في الألوهة، وما ليس له ذلك فليس بمقام وإنما هو حال يرد ويزول بزوال حكم التعلّق والمتعلق ببشرى أو بغيرها، والخوف الذي هو مقام يستصحب للعالم بالله الذي يعلم ما ثم، ومن لا يعلم ذلك فلا

يستصحبه خوف إلاّ إلى أول قدم يضعه من الصراط في الجنة أو حاضرها، فالخائف هو الذي يعلم ما هو التجلي وما هو الذي يرى يوم القيامة، وهو الذي يعلم أن أهل النار لهم تجلّ يزيد في عذابهم، كما أن لأهل الجنة تجلّياً يزيد في نعيمهم ،أهل النار محجوبون عنه ولهذا قال عنهم ربهم أهل النار والرد المربي والمصلح، فباب العلم بالله دون ما سواه مغلق من حيث ذاته وهو المطلوب بالتجلي، فالخلق في عين الجهل بهذا الذي ذكرناه إلاّ من رحم الله، ولقد أصابت المعتزلة في إنكارها الرؤية لا في دليلها على ذلك، فلو لم تذكر دلالتها لتخيلنا أنها عالمة بالأمر كما علمه أهل الله، لكنها في دلالتها كانت كما قال بعضهم لصاحبه حين قال له ما أعجبه وأخذ به فلما ذكر له الإسناد فيما أورده زال عنه ذلك الفرح وقال له: أفسدت حين أسندت، فمن لم يعرف الله هكذا لم يعرفه المعرفة المطلوبة منه.

الباب الأحد ومائة

في مقام ترك الخوف

[نظم: البسيط]

لـمـا تـعـلّـقَ عـلـمُ الـخـوف بـالـعَـدَمِ لـم أخْـشَ مـنـه فـحُـزْنـا رُتْـبَـةَ الـقِـدَمِ

أنـا الـوجـودُ فـلا خـوفٌ يـصـاحـبـنـي لأن ضـدِّيَ مـنـسـوبٌ إلـى الـعَـدَمِ

إن الـذي خِـفْـتَ مـنـه لا وجـودَ لـه فـاتـرُكْ مَـخَـافَـتَـهُ لـحـمـاً عـلـى وَضَـمِ

قال ﷺ: «**واجعلني نوراً**» في دعائه. وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] والسبحات أنوار، والنور لا يحترق بالنور ولكن يندرج فيه أي يلتئم معه للمجانسة وهذا هو الالتحام والاتحاد، وهنا سرّ عظيم وهو ما يزيد في نور المتجلي من نور المتجلي له إذا انضاف إليه واندرج فيه، ولما وقف ﷺ على مقام الخوف الذي ذكرناه أدّاه إلى أن طلب أن يكون نوراً فكأنه يقول: اجعلني أنت حتى أراك بك فلا تذهب عيني برؤيتك لكن أندرج فيك. كما قال النابغة: [الطويل]

بـأنـك شَـمْـسٌ والـمـلـوكُ كـواكـبٌ إذا طَـلَـعَـتْ لـم يَـبْـدُ مـنـهـنَّ كـوكـبُ

وما ذهب لها عين، وما ظهر لها عين، فهي ترى ولا ترى، لأنها خلف حجاب النور الأعظم الذي له الحكم في ظاهر الأمر، ولأنوار الكواكب حكم في باطن الأمر مندرج في النور الأعظم يعلم ذلك أرباب علم التعاليم فهم أسعد الناس بهذا المقام وهو مقام جليل نبويّ، وما حجره الحق على المؤمنين إلاّ رحمة بهم، لأن الغالب في العالم الجهل بحقائق الأمور والعلماء أفراد فرحمهم الله بما حجر عليهم من ذلك. وأما العلماء بالله فلا حرج عليهم فيه فإنهم عالمون كيف ينسبون وكيف لا يعلمون والله يقول: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] وهو ما يعطيه من الآثار في العالم كما تعطى كل آلة للصانع بها ما عملت له، والصنعة مضافة للصانع لا للآلة، فاعلم ذلك وكن بحسب ما تعطيه قوتك والسلام.

واختلف أصحابنا في صاحب هذا المقام هل يأمن من المكر الإلهي أم لا؟ أما مع

البشرى فيأمن ولا بد، وأعني إذا جاءت البشرى بالأمن من مكر الله ولا أقدر أبسط في هذا المقام شيئاً أكثر ممّا ذكرناه في هذا الوقت لأسباب، ولا أصرح بمذهبنا فيه إلاً بقدر ما ذكرنا منه في البشرى فإنه أمر محقق تدل عليه العقول والشرع، وذلك أن صاحب هذا المقام إن كانت عجلت له الجنة بوجه لا يمكن استبداله فالأمن حاصل ويصحّ له هذا المقام وإن لم تكن له هذه الحالة فالله أعلم.

الباب الثاني ومائة

في مقام الرجاء

[نظم: البسيط]

إن الرجاءَ كمِثْلِ الخوفِ في الحُكْمِ ... فاعزمْ عليه وكُنْ منه على عِلْمِ
إن الرجاءَ مَقَامٌ ليس يعلمه ... إلاّ أولو العلم بالرحمن والفَهْمِ
يَلْتَذُّ صاحبُه في وقته فإذا ... يفوته كان مثْلَ الخَوْفِ في الحُكْمِ
وإنَّ ما أنت راجيه لَفِي عَدَمٍ ... ولستَ من فَقْدِهِ المعلوم في عُدَمِ

الرجاء متعلقه ما ليس عنده، وهو مقام مخوف يحتاج صاحبه إلى أدب حاضر حاصل ومعرفة ثابتة لا يدخلها شبهة، فإنه مقام عن جانب الطريق ما هو في نفس الطريق تحته مهواة بأدنى زلة يسقط صاحبه من الطريق وهو على طريق الحياة الدائمة التي بها بقاء العالم في النعيم، والحال التي ينبغي أن يظهر سلطانه فيها عند الاحتضار، وأما قبل ذلك فيساوي بين حكمه وبين حكم الخوف إن كان مؤمناً حقيقة، قال الله تعالىٰ: «**أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيراً**». وكذلك ينبغي أن يظن بنفسه شراً لا بربه إلاً عند الموت فإنه يشتغل بربه في تلك الحال ويظن به خيراً ويعرض عن ظنّه بنفسه جملة واحدة بخلاف حاله في دنياه، والرجاء المطلوب من أهل الله هو ما يطلبه وقته لأن المرجو معدوم في تلك الحال، فيخاف على الراجي أن يفوته حكم للوقت، فإذا كان متعلق رجائه ما يطلب الوقت فهو صاحب وقت ولا بدّ، وما يرسم في ديوان من لم يتأدب مع وقته، ثم إن وقته لا يخلو من أحد ثلاثة أمور: إما أن يكون صاحب وقت مرضي فمتعلق رجائه ما يطلبه الوقت المرضي، وإن كان غير مرضي أو لا مرضي ولا غير مرضي كالمباح فمتعلق رجائه إزالته عنه بما هو مرضي في النفس الثاني والزمان الذي يليه، فمتى خرج عن هذا التعلق الخاص فليس هو الرجاء الذي هو قام في الطريق، وهو من المقامات المستصحبة في الدنيا والآخرة لا ينقطع، لأن الإنسان حيث كان لا يزال صاحب قوت لأن الأمر لا يتناهى، وكلامنا في الفائت المستأنف، وأما الفائت الماضي فإنه لا يعود إذ لو عاد لتكرر أمر ما في الوجود ولا تكرار للتوسّع الإلهي، غير أنه إن كان الفائت الماضي مرضياً وهو لا يعود فحكم ذلك الفعل الفائت الماضي فهو إنما يجنيه في الآخرة لو اتصف به في الدنيا فقد يتعلق الرجاء بتحصيل ما لو كان الفائت الماضي لم يفت حصل له فيحصل له مثل ذلك برجائه إن كان قد كان له وجود وانقضى، أو عين ذلك المرجو إن كان لم يكن برجائه فإنه فائت

مستأنف كان مهيأ للفائت الماضي هذا غاية قوة الرجاء، وقد قال ﷺ في الذي يفوته خير الدنيا ويرى من له شيء من ذلك الخير يعمل به في طاعة الله: **«لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ هَذَا الْعَامِلِ مِنَ الْخَيْرِ لَفَعَلْتُ مِثْلَ مَا فَعَلَ فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ»** فهذا قد فاته العمل وجنى ثمرته بالتمني وساوى من لم يفته العمل وربما أربى عليه لا بل أربى عليه، فإن العامل مسؤول ﴿لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٨] وهذا غير مسؤول لأنه ليس بعامل، ولا يكون هذا إلاَّ لمن لم يعطه الله أمنيته من الخير الذي تمنى العمل به، فإن أعطاه ما تمناه من الخير فليس له هذا المقام ولا هذا الأجر، وينتقل حكمه إلى ما يعمله فيما أعطاه الله من الخير ولا يبقى للتمني في الآخرة أثر، فإن عمل به براً كان له، وإن عمل غير ذلك كان في حكم المشيئة، وليس رجاء القوم رجاء العاصين في رحمة الله ذلك رجاء آخر ما هو مقام، وكلامنا في المقام والرجاء عند بعضهم مقام إلهيّ، واستدلوا عليه بقوله في غير آية لعل وعسى، ولهذا جعلها علماء الرسوم من الله واجبة.

الباب الثالث ومائة

في ترك الرجاء

[نظم: الكامل]

لا تَـرْكَـنَـنَّ إلـى الـرجـاء فـربَّـمـا ... أصبحْتَ من حُكْم الرجاءِ على رَجَا
فـاضْرَعْ إلى الرحمن في تَـحْصيلِهِ ... فـيـه نَـجَـاتُـك فـالـسَّـعـيـدُ مـن الْـتَـجَـا

اعلم أيّدك الله أن حكم صاحب هذا المقام شهود نفسه من حيث ما تطلبه به الحضرة الإلهية، وضعف العبودية عن الوفاء بما تستحقه أو بما يمكن أن يوفيها من طاقتها المأمور بها في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦] هذا من جهتنا، وأما من جانب ما تستحقه الربوبية على العبودية فقوله: ﴿ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٢] وليس لهم من الأمر شيء، فقطع بهم هذا الأمر فهو مقام صعب وحالة شديدة، فمن ترك الرجاء فقد ترك نصف الإيمان، فالإيمان نصفان: نصف خوف ونصف رجاء وكلاهما متعلقهما عدم، فإذا حصل العلم حصل الوجود وزال العدم وأزال العلم حكم الإيمان لأنه شهد ما آمن به فصار صاحب علم، والإيمان تقليد والتقليد يناقض العلم إلاَّ أن يكون المخبر معصوماً عند المؤمن وفي نفسه من الكذب وليس بينك وبينه واسطة في أخباره، فإن الدليل الذي حكم لك بصدقه وعصمته عن الخطأ والكذب فكنت فيه على بصيرة وهي العلم ينسحب لك على ما يخبرك به عن الله فيكون عندك خبره علماً لا تقليداً، وهذا لا يكون اليوم إلاَّ عند أهل الكشف والوجود خاصة، وأما عند أهل النقل فلا سبيل، فالصحابة الذين سمعوا شفاهاً من الرسول ما لا يحتمله التأويل بما هو نص في الباب لا فرق بينهم وبين أهل الكشف والوجود فهم علماء غير مقلدين ما داموا ذاكرين لدليلهم، فإن غابوا عن الدليل في وقت الإخبار فهم مقلدون مع ارتفاع الوسائط، فاجعل دليلك ربك على الأشياء

فلا تغفل عنه، فإنك إذا كنت بهذه المثابة كنت صاحب علم وهو أرفع ما يكون من عند الله ولهذا أمر نبيه ﷺ بالزيادة منه دون غيره من الصفات، فمن علم الماضي والحال والمستأنف لم يبق له عدم فلم يبق له متعلق رجاء فلم يبق له رجاء من: [الرمل]

إنــمــا أجْــزَعُ مــمّــا أتّــقــي　　　فــإذا حــلَّ فــمــا لــي والــجَــزَعْ
وكــذا أطْــمَــعُ فــيــمــا أبــتــغــي　　　فــإذا فــاتَ فــمــا لــي والــطَّــمَــعْ

فهذان البيتان جمعا ترك الرجاء والخوف بحصول المخوف وقوعه وفوت المرجو حصوله إلى. وهذا وإن كان صحيحاً في الرجاء فلا يكون هذا في رجاء المقام فإنه ما له خوف فوت الماضي وإنما له خوف فوت المستأنف لفوت سببه الذي مضى.

الباب الرابع ومائة
في مقام الحزن

[نظم: البسيط]

الــحــزنُ مَــرْكَــبُــهُ صــعــبٌ وغــايــتُــه　　　ذَهَــابُــه فــولــيُّ الله مــن حَــزنَــا
قــلــبُ الــحــزيــن هــنــا تَــقْــوَى قــواعــدُه　　　هــنــاك والــغَــرَضُ الــمــقــصــودُ مــنــك هُــنَــا
دارُ الــتــكــالــيــفِ دارٌ مــا بــهــا فَــرَحٌ　　　فــالله لــيــس يــحــبُّ الــفــارحَ الــلَّــسِــنَــا

الحزن مشتق من الحزن وهو الوعر الصعب، والحزونة في الرجل صعوبة أخلاقه، والحزن لا يكون إلاً على فائت، والفائت الماضي لا يرجع لكن يرجع المثل، فإذا رجع ذكر بذاته من قام به مثله الذي فات ومضى، فأعقب هذا التذكّر حزناً في قلب العبد، ولا سيما فيمن يطلب مراعاة الأنفاس وهي صعبة المنال لا تحصل إلاً لأهل الشهود من الرجال، وليس في الوسع الإمكانيّ تحصيل جملة الأمر فلا بدّ من فوت فلا بدّ من حزن، وهذه الدار وهذه النشأة نشأة غفلة ما هي نشأة حضور إلاً بتعمّل واستحضار، بخلاف نشأة الآخرة فطلب منا أن ننشىء نفوسنا في هذه الدار نشأة أخرى يكون لها الحضور لا الاستحضار، فهل ما طلب منا نعجز عنه أو لا نعجز؟ ومحال أن يطلب منا ما لم يجعل فينا قوّة الإتيان به ويمكننا من ذلك فإنه حكيم، وقد أعطانا في نفس هذا الطلب علمنا بأن فينا قوّة ربانية، ولكن من حيث أنا مظهر لها أكسبناها قصوراً عمّا تستحقه من المضاء في كل ممكن فطلبنا المعونة منه فشرع لنا أن نقول ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] ولا حول ولا قوّة إلاً بالله، فمن كان هذا مشهده فلا يزال حزنه دائماً أبداً، وهو مقام مستصحب للعبد ما دام مكلفاً، وفي الآخرة ما لم يدخل الجنة فإن في الآخرة لهم حزن التغابن لا حزن الفزع الأكبر، والخوف يرتفع عنهم مطلقاً إلاً أن يكونوا متبوعين، فإن الخوف يبقى عليهم على الأتباع كالرسل، فالحزن إذا فقد من القلب في الدنيا خرب لحصول ضدّه إذ لا يخلو والدار لا تعطي الفرح لما فيه من نفي المحبة الإلهية عمّن قام به وما يزيل الحزن إلاً العلم خاصة وهو قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [سورة يونس: الآية ٥٨] فالحزن مثل العلم سواء يرتفع بارتفاع المحزون عليه ويتضع كذلك كالعلم

يشرف بشرف المعلوم، والحزن مقام صعب المرتقى قليل من الخلق عليه هو للكمل من الناس.

الباب الخامس ومائة

في ترك الحزن

[نظم: مجزوء الرجز]

الحقُّ أعطى كلَّ شيء خلقَهُ ثم هَدَى
الحزنُ حكمٌ واقعٌ لفائتٍ وما عَدَا
فما تَرَى من فائتٍ قد فات فالحُزنُ سُدَى
هذا فلا تَحفِلْ به فإنه حكمُ السَّدَا

هو حال وليس بمقام، وهو مؤدّ إلى خراب القلوب، وفي طيّه مكر إلهيّ إلاّ للعارف، فإنه لا يخرج عن مقام الحزن إلاّ من أقيم في مقام سلب الأوصاف عنه، قيل لأبي يزيد: كيف أصبحت؟ قال: لا صباح لي ولا مساء إنما هي لمن تقيد بالصفة وأنا لا صفة لي، وذلك لما سأله بكيف وهي للحال وهو من أمهات المطالب الأربعة. وله من النسب الإلهية ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] على قراءة الكسائي ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] ويخفض القسط ويرفعه، فهذا مقام الكيف في الإلهيات. وأما أبو يزيد فما قصد التمدّح بهذا القول وإنما قصد التعريف بحاله، فإنّ الصباح والمساء لله لا له وهو المقيد تعالىٰ بالصفة، والعبد العنصري مقيد بالصباح والمساء غير مقيد بالصفة ولهذا نفى الصفة فقال: لا صفة لي﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٢] ، فالصباح والمساء يملكه ولا ملك لأبي يزيد عليهما لأنهما بالصفة يملكان وأبو يزيد لا صفة له، فمن لا علم له بالمقام يتخيل أن أبا يزيد تألّه في هذا القول ولم يقصد ذلك رضي الله عنه، بل هو أجل من أن يعزى إليه مثل هذا التأويل في قوله هذا، فإن قال من يتأول عليه خلاف ما قلنا من أنه تأله في قوله بقوله: ضحكت زماناً وبكيت زماناً وأنا اليوم لا أضحك ولا أبكي فاعلم أنه ثم تجلٍّ يضحك، وما رأيت أحداً في هذا الطريق من أهل الضحك إلاّ واحداً يقال له عليّ السلاوي سحت معه وصحبته سفراً وحضراً بالأندلس لا يفتر عن الضحك شبه المولّه وما رأيته جرى عليه قط لسان ذنب.

وأما البكاؤون فما رأيت منهم إلاّ واحداً يوسف المغاور الجلا سنة ست وثمانين وخمسمائة بإشبيلية، وكان يلازمنا ويعرض أحواله علينا، كثير الجزع لا تفتر له دمعة، صحبته في الزمان الذي صحبت الضحاك. وأما كون أبي يزيد انتقل عن هذين المقامين إلى المقام الذي بينهما فإنهما من الأمور المتقابلة التي ما يكون بينهما واسطة كالنفي والإثبات لا كالوجود والعدم والحار والبارد فإن بينهما واسطة تأخذ من كل طرف بنسبة تميزه عن الطرفين، وكذلك إذا لم يكن الشخص في موجب ضحك ولا موجب بكاء كحالة البهت لأهل

الله فهو لا ضاحك ولا باك فوصفه البهت والتعرّي عن الموجبين فأراد التعريف ما أراد التمدح.

الباب السادس ومائة

في معرفة الجوع المطلوب

[نظم: مجزوء الرجز]

الجوعُ موتٌ أبيضٌ وهو مِنَ أعلام الهُدَى
ما لم يؤثِّرْ خَبَلاً فهو دواءٌ وهْوَ دَا
فاحكُمْ به تَكُنْ بهِ موفقاً مُسَدَّدَا

الجوع حلية أهل الله، وأعني بذلك جوع العادة وهو الموت الأبيض، فإن أهل الله جعلوا في طريقهم أربع موتات هذا أحدها، وموت أخضر وهو لباس المرقعات إلاَّ المشهرات كان لعمر بن الخطاب ثوب يلبسه فيه ثلاث عشرة رقعة إحداهنّ قطعة جلد وهو أمير المؤمنين، وموت أسود وهو تحمّل الأذى، وموت أحمر وهو مخالفة النفس في أغراضها وهو لأهل الملامية، فالجوع المطلوب في الطريق هو للسالكين جوع اختيار لتقليل فضول الطبع ولطلب السكون عن الحركة إلى الحاجة. فإن علا فلطلب الصفة الصمدية وحده عندنا صوم يوم فإن زاد فإلى السحر، هذا هو الجوع المشروع الاختياريّ، وما لنا طريق إلى الله إلاَّ على الوجه المشروع، ولولا أن الله جعل هذا حدّ المصلحة في عموم خلقه لما وقته إلى هذا القدر فلا يكون الإنسان في الزيادة عليه أعلم بمصالح الجوع في العبد من ربه هذا غاية سوء الأدب، فإن كان ممن يطعم ويسقى في مبيته وفنائه ويجد أثر ذلك في قوّته وصحة عقله وحفظ مزاجه فليواصل ما شاء فإنه ليس بصاحب جوع، وكلامنا في الجوع وإن كان أيضاً ممن يستغرقه حال ووارد قوي يحول بينه وبين الطعام كأبي عقال فإن كان صاحب فائدة فهي المطلوب، وإن لم يكن فذلك مرض يعرض حاله على الأطباء وما ذلك مطلب القوم.

وأما جوع الأكابر فجوع اضطرار، فإن الذي ينتجه الجوع قد حصل لهم ملكة لا تزول عنهم في حال جوع ولا شبع فلم يبق إلاَّ التقليل، ولكن من الحلال إما للنشاط في الطاعات وإما لخفة الحساب، فإن النبيّ ﷺ قال: «**إِنَّكُمْ لَتُسْأَلُونَ عَنْ نَعِيمِ هَذَا الْيَوم**» ولم يكن سوى تمر وماء، وما أدخل نفسه في الجماعة، فإن لله عباداً سليمانيين يقول الله لهم: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة ص، الآية ٣٩] وهم سبعون ألفاً في هذه الأمّة قد نعتهم النبيّ ﷺ والخبر صحيح وعكاشة منهم بالنص عليه، فينبغي للصالح السالك أن لا يزيد على الحد المشروع فيكون متبعاً، فإن ترك العمل بالاتباع أعظم أجراً من العمل بالابتداع فإنّا بالاتباع بحكم الأصل، فإن وجودنا تبع لوجود من أوجدنا، فلتكن أفعال العلماء بهذه المرتبة على ذلك، ولما قال ﷺ: «**إِنَّ الشَّيطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَىٰ الدَّمِ فَسُدُّوا مَجَارِيَهُ**

بِالْجُوعِ وَالْعَطَشِ» لم يختلف أحد من العلماء ولا من أهل الله أنه أراد الصوم والتقليل من الطعام في السحور المسنون لمن واصل، وفي الإفطار لمن أفطر، فإنه قال بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فلا يتعدّى المريد الحدّ الذي سنّه من شرع الطريق إلى الله به، ولا تعرف قدر ما دللتك عليه إلاّ في نتيجته إن فتح لك هنا، ولا تجع من غير صوم فإنه غير طريق مشروعة، ولا تجعل سبب ذلك حديث أجر الصوم فذلك ليس لك إنما هو للعمل، ودع النفس ترغب في الأجرة التي لها على ذلك فإن فيها من يطلب ذلك، وأنت بالسرّ الإلهيّ والروح الأمريّ بمعزل عن هذا الطلب الذي تطلبه النفس الحيوانية فإنك مجموع، ولا تلحق بأهل الغلط من أهل هذه الطريق الذين يجوّعون تلامذتهم من غير صوم أو يصوّمونهم ثم يطعمونهم قبل غروب الشمس ذلك غلط منهم وجهل بطريق الله تعالىٰ وإن كانوا يقصدون بذلك مخالفة النفوس فما هذا موضعه، وإنما ينبغي أن يخالفوها في تعيين المأكول على حدّ مخصوص ووجه معين وميزان مستقيم يعرفه أهل الله، فإذا مالت إلى طعام خاص معين عندها حتى لا تكره شيئاً من نعم الله، ولقد عملت على هذا زماناً حتى طاب لي كل شيء كنت لا أقدر على أكله وتمجّه نفسي، وكذلك في التقليل منه وهو أشدّ ما على النفس أن تشرع في الشيء، ثم يحال بينها وبين التملي منه، والله الموفق لا رب غيره.

الباب السابع ومائة

في ترك الجوع

[نظم: البسيط]

الجوعُ بئْسَ ضَجيعُ العبدِ جاء به ... لفظُ النبيِّ فلا تَرْفَعْ به راسَا
قد أدرك القومَ في تعيينه غَلَطٌ ... ولم يقيموا له وزناً وقِسْطَاسَا
من قال ما الجوعُ لم يعرفْ حقيقَتَهُ ... وقد أضلَّ بما قد قاله النَّاسَا
جوعُ العوائدِ محمودٌ ولستُ أرى ... فيما أراه من استعماله باسَا
جوعُ الطبيعةِ مذمومٌ وليس يَرَى ... فيه المحقِّقُ بالرحمن إيْنَاسَا

ترك الجوع عند القوم ليس الشبع، وإنما هو إعطاء النفس حقها من الغذاء الذي جعل الله به صلاح مزاجها وقوام بنيتها، فإذا أحسّ صاحب هذه الحالة بالجوع فذلك جوع العادة. خرّج أبو بكر البزار في مسنده أن النبيّ ﷺ: «كان يتعوّذ من الجوع ويقول: إنه بئس الضجيع» ولا يذم حال يعطي الفوائد، فدل أنه لا فائدة في مثل هذا الجوع، وأن الفوائد فيما أظهر الشرع ميزانه من ذلك، فترك الجوع عبادة وطريق موصلة إلى الله، وبهذا فضّل سلمان على أبي الدرداء وشهد له بذلك رسول الله ﷺ: «**إنَّ لِنَفسِكَ عَلَيكَ حَقاً، وَلِعَينِكَ عَلَيكَ حَقاً، وَلِزَوْرِكَ عَلَيكَ حَقاً، وَلأَهْلِكَ عَلَيكَ حَقاً، فَقُمْ وَنَمْ وَصُمْ وَأَفْطِرْ وَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَإنَّكَ لاَ تَدْخُلُ عَلَىٰ الحَقِّ أَبَداً وَلأَحَدٍ عَلَيكَ حَقٌّ**» وأعظم الحقوق حق الله ثم حق نفسك. انتهى الجزء السابع والتسعون بانتهاء السفر الثالث عشر والحمدلله.

[السفر الرابع عشر]

(الجزء الثامن والتسعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثامن ومائة

في معرفة الفتنة والشهوة وصحبة الأحداث والنسوان وأخذ الأرفاق منهنّ ومتى يأخذ المريد الأرفاق؟

[نظم: البسيط]

لا تصحبَنْ حَدَثاً إن كنتَ ذا حَدَثٍ ... ولا نساءَ وكُنْ بالله مُشْتغلاَ
واحذَرْ من الفتنة العمياءِ إنَّ لها ... حكماً قوياً على القلب الذي غَفَلا
وشهوةُ النفس فاحذرها فكم فتَكَتْ ... بسيِّدٍ قلبُه عن ربه غَفَلا
ولا يُرَى آخذاً رفْقاً من امرأة ... إلاَّ الذي من رجال الله قد كَمُلاَ

اعلم أيّدك الله أن الفتنة الاختبار، يقال: فتنت الفضة بالنار إذا اختبرتها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٥] أي اختبرناكم بهما هل تحجبكم عنا وعما حدّدنا لكم أن تقفوا عنده، وقال موسىٰ عليه السلام: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ أي تحير ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٥] ومن أعظم الفتن التي فتن الله بها الإنسان تعريفه إياه خلقه على صورته ليرى هل يقف مع عبوديته وإمكانه أو يزهو من أجل مكانة صورته، إذ ليس له من الصورة إلاَّ حكم الأسماء فيتحكم في العالم تحكم المستخلف القائم بصورة الحق على الكمال، وكذلك من تأييد هذه الفتنة قول النبيّ ﷺ يحكيه عن ربه: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا تَقَرَّبَ إِلَىٰ اللَّه بِالنَّوَافِلِ أَحبَّهُ فَإِذا أَحَبَّهُ كَانَ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ**» وذكر اليد والرجل الحديث. وإذا علم العبد كنه بهذه المثابة يسمع بالحق، ويبصر بالحق، ويبطش بالحق، ويسعى بالحق، لا بنفسه وبقي مع هذا النعت الإلهيّ عبداً محضاً فقيراً ويكون شهوده من الحق وهو بهذه المثابة كون الحق ينزل إلى عباده بالفرح بتوبتهم والتبشيش لمن يأتي إلى بيته، والتعجب من الشاب الذي قمع هواه واتصافه بالجوع نيابة عن جوع عبده وبالظمأ نيابة عن ظمأ عبده، وبالمرض نيابة عن مرض عبده مع علمه بما تقتضيه عزة ربوبيته وكبريائه في ألوهيته، فما أثر هذا النزول في جبروته الأعظم ولا في كبريائه الأنزه الأقدم، كذلك العبد إذا أقامه الحق نائباً فيما ينبغي للرب تعالىٰ يقول العبد: ومن كمال الصورة التي قال إنه خلقني عليها أن لا يغيب عني مقام إمكاني ومنزلة عبوديتي وصفة فقري وحاجتي، كما كان الحق في حال نزوله إلى صفتنا حاضراً في كبريائه وعظمته، فيكون الحق مع العبد إذا وفى بهذه الصفة يثني عليه بأنه ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٣٠] حيث لم تؤثر فيه هذه الولاية الإلهية، ولا أخرجته عن فقره واضطراره، ومن تجاوز حده في التقريب انعكس إلى الضد وهو البعد من

الله والمقت فاحذر نفسك، فإنّ الفتنة بالاتساع أعظم من الفتنة بالحرج والضيق.

وأما الشهوة فهي آلة للنفس تعلو بعلو المشتهي وتستفل باستفال المشتهى، والشهوة إرادة الالتذاذ بما ينبغي أن يلتذ به، واللذة لذتان: روحانية وطبيعية، والنفس الجزئية متولدة من الطبيعة وهي أمها والروح الإلهيّ أبوها، فالشهوة الروحانية لا تخلص من الطبيعة أصلاً وبقي من يلتذ به فلا يلتذ إلاّ بالمناسب ولا مناسبة بيننا وبين الحق إلاّ بالصورة، والتذاذ الإنسان بكماله أشدّ الالتذاذ، فالتذاذه بمن هو على صورته أشد التذاذ، برهان ذلك أن الإنسان لا يسري في كله الالتذاذ ولا يفنى في مشاهدة شيء بكليته ولا تسري المحبة والعشق في طبيعة روحانيته إلاّ إذا عشق جارية أو غلاماً، وسبب ذلك أنه يقابله بكليته لأنه على صورته، وكل شيء في العالم جزء منه فلا يقابله إلاّ بذلك الجزء المناسب، فلذلك لا يفنى في شيء يعشقه إلاّ في مثله، فإذا وقع التجلي الإلهي في عين الصورة التي خلق آدم عليها طابق المعنى المعنى ووقع الالتذاذ بالكل وسرت الشهوة في جميع أجزاء الإنسان ظاهراً وباطناً، فهي الشهوة التي هي مطلب العارفين الوارثين، ألا ترى إلى قيس المجنون في حب ليلى كيف أفناه عن نفسه لما ذكرناه؟ وكذلك رأينا أصحاب الوله والمحبين أعظم لذة وأقوى محبة في جناب الله من حب الجنس، فإن الصورة الإلهية أتم في العبد من مماثلة الجنس، لأنه لا يتمكن للجنس أن يكون سمعك وبصرك، بل يكون غايته أن يكون مسموعك ومدركك اسم مفعول، وإذا كان العبد مدرك بحق هو أتم فلذته أعظم وشهوته أقوى، فهكذا ينبغي أن تكون شهوة أهل الله.

وأما صحبته الأحداث وهم المردان وأهل البدع الذين أحدثوا في الدين من التسنين المحمود الذي أقرّه الشارع فينا فينظر العارف في المردان من حيث أنه أملس لا نبات بعارضيه كالصخرة الملساء فإن الأرض المرداء هي التي لا نبات فيها، فذكره مقام التجريد وأنه أحدث عهد بربه من الكبير، وقد راعى الشرع ذلك في المطر، فكلما قرب من التكوين كان أقرب دلالة وأعظم حرمة وأوفر لدواعي الرحمة به من الكبير البعيد عن هذا المقام، وأما كونهم أحداثاً لهذا المعنى لأنهم حديثو عهد بربهم وفي صحبتهم تذكر حدثهم ليتميز قدمه تعالىٰ به فهو اعتبار صحيح وطريق موصلة، وأما إن كان من أحداث التسنين فيؤيده قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٥] فذم من لم يتلقَّه بالقبول، فهكذا نظر العارفين فيه، وأما المريدون والصوفية فحرام عليهم صحبة الأحداث لاستيلاء الشهوة الحيوانية عليهم بسبب العقل الذي جعله الله مقابلاً لها، فلولا العقل لكانت الشهوة الطبيعية محمودة.

وأما النسوان فنظر العارفين فيهنّ وفي أخذ الإرفاق منهنّ، فحنين العارفين إليهن حنين الكل إلى جزئه كاستيحاش المنازل لساكنيها التي بهم حياتها، ولأن المكان الذي في الرجل الذي استخرجت منه المرأة عمره الله بالميل إليها فحنينه إلى المرأة حنين الكبير وحنوّه على الصغير. وأما أخذ الأرفاق منهنّ فإنه يأخذه منهن لهن كما أخذه رسول الله ﷺ حين أمرهنّ

أن يتصدقن لأنه يسعى في خلاصهن لما رآهن أكثر أهل النار فأشفق عليهن حيث كن منه فهو شفقة الإنسان على نفسه، ولأنهن محل التكوين لصورة الكمال فحبهنّ فريضة واقتداء به عليه السلام، قال رسول الله ﷺ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ: النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**» فذكر النساء أترى حبّب إليه ما يبعده عن ربه لا والله بل حبّب إليه ما يقرّبه من ربه، ولقد فهمت عائشة أم المؤمنين ما أخذ النساء من قلب رسول الله ﷺ حين خيرهن فاخترنه فأراد الله تعالىٰ جبرهن وإيثارهن في الوقت ومراعاتهن وإن كان بخلاف مراد رسول الله ﷺ فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٢] فأبقى عليه رحمة به لما جعل في قلبه من حب النساء ملك اليمين، وهذه من أشق آية نزلت على رسول الله ﷺ فقالت عائشة: ما كان الله ليعذب قلب نبيه ﷺ والله ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ له النساء، فمن عرف قدر النساء وسرهنّ لم يزهد في حبهنّ، بل من كمال العارف حبهنّ فإنه ميراث نبويّ وحبّ إلهيّ، فإنه قال ﷺ: «**حبّب إليّ**» فلم ينسب حبّه فيهن إلاّ إلى الله تعالىٰ فتدبر هذا الفصل تر عجباً.

وأما المريدون الذين هم تحت حكم الشيوخ فهم بحكم أشياخهم فيهم، فإن كانوا شيوخاً حقيقة مقدّمين من عند الله فهم أنصح الناس لعباد الله، وإن لم يكونوا فعليهم وعلى أتباعهم الحرج من الله لأن الله قد وضع الميزان المشروع في العالم لتوزن به أفعال العباد، والأشياخ يسألون ولا يقتدى بأفعالهم إلاّ إن أمروا بذلك في أفعال معينة قال تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٣] وهم أهل القرآن أهل الله وخاصته، وأهل القرآن هم الذين يعملون به وهو الميزان الذي قلنا، ولا ينبغي أن يقتدي بفعل أحد دون رسول الله ﷺ فإن أحوال الناس تختلف، فقد يكون عين ما يصلح للواحد يفسد به الآخر إن عمل به، والعلماء الذين يخشون الله أطباء دين الله المزيلون علله وأمراضه العارفون بالأدوية، فإذا كان رسول الله ﷺ قد اختلف الناس في أفعاله هل هي على الوجوب أم لا؟ فكيف بغيره مع قول الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١] وقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] وهذا كله ليس بنص منه في وجوب الأتباع في أفعاله فإنه ﷺ قد اختصّ بأشياء لا يجوز لنا اتباعه فيها ولو اقتدينا به فيها كنا عاصين مأثومين، فينبغي لكل مؤمن ويجب على كل مدع في طريق الله إذا لم يكن من أهل الكشف والوجود والخطاب الإلهيّ وممّن لا يكون يطفىء نور معرفته نور ورعه أن يجتنب كل أمر يؤدّي إلى شغل القلب بغير الله فإنه فتنة في حقه، ويجب عليه أن يغلب عقله على شهوته، بل يسعى في قطع المألوفات وترك المستحسنات الطبيعية، وما يميل الطبع البشريّ ويجتنب مواضع التهم وصحبة المبتدعين في الدين ما لم يأذن به الله وهم الأحداث، وكذلك صباح الوجوه من المردان مجالسة والنساء وأخذ الأرفاق فإن القلوب تميل إلى كل من أحسن إليها والطبع يطلبهم، والقوّة الإلهية على دفع الشهوات النفسية ما هي هناك، والمعرفة معدومة من هذا الصنف من الناس، وما صبر تحت الاختبار الإلهيّ إلاّ الذهب الخالص المعدني الذي حاز رتبة الكمال وما بقي فيه من تربة

المعدن شيء، وكل تكليف فتنة وجميع المخلوقات فتنة، والاطلاع على نتائج الأعمال فتنة، وهي حالة مقام يستصحب إلى الجنة، وكان رسول الله ﷺ وهو صاحب الكشف الأتم والعالم بما ثم يستعيذ من فتنة القبر وعذاب النار وفتنة المحيا والممات.

وأما الشهوة فهي إرادة الملذوذات فهي لذة والتذاذ بملذوذ عند المشتهي، فإنه لا يلزم أن يكون ذلك ملذوذاً عند غيره ولا أن يكون موافقاً لمزاجه ولا ملايمة طبعه، وذلك أن الشهوة شهوتان: شهوة عرضية وهي التي يمنع من اتباعها فإنها كاذبة وإن نفعت يوماً ما فلا ينبغي للعاقل أن يتبعها لئلا يرجع ذلك له عادة فتؤثر فيه العوارض، وشهوة ذاتية فواجب عليه اتباعها فإن فيها صلاح مزاجه لملائمتها طبعه وفي صلاح مزاجه وفي صلاح دينه سعادته، ولكن يتبعها بالميزان الإلهيّ الموضوع من الشارع وهو حكم الشرع المقرر، وفيها سواء كان من الرخص أو العزائم إذا كان متبعاً للشرع لا يبالي فإنه طريق إلى الله مشروعة، فإنه تعالىٰ ما شرع إلاّ ما يوصل إليه بحكم السعادة، ولا يلزم أيضاً أن يكون ما يشتهيه في هذه الحال أن يشتهيه في كل حال ولا في كل وقت، فينبغي له أن يعرف الحال الذي ولد تلك الشهوة عنده والوقت الذي اقتضاها، وقد تتعلق بأعمال الطاعات هذه الشهوات العرضية فتوجب بعداً كمن يرى موضعاً يستحسنه طبعه فيشتهي أن يصلي فيه أو لفضيلة يعلمها في ذلك الزمان على غيره، فإن ذلك يؤثر في حاله مع الله أثر سوء وميزان ذلك الإلتذاذ بعمل لا لشهود إلهيّ، وهذا من المكر الخفي.

ولأبي يزيد في هذا قدم راسخة، وقد نبّه على ذلك لما سألته أمه في ليلة باردة أن يسقيها ماء وكان برّاً بها فثقل عليه القيام وقد كان ملتذاً في جميع أحواله في خدمة أمّه فاتهم نفسه في تلك اللذة إذ كان يتخيل أنه لا يلتذ بخدمة أمه إلاّ لإقامة حق الله، ولا بعبادة إلاّ لإقامة حق الله فيها، فرمى كل عبادة تقدمت له كان له التذاذ بها وتاب توبة جديدة، فأغوار النفوس لا يدركها إلاّ فحول أهل الله، فلا تفرح بالالتذاذ بالطاعات ورفع المشقة فيها عنك دون ميزان القوم في ذلك، فإذا اقترنت هذه الشهوة بصحبة أهل البدع وهم الأحداث وبصحبة الصبيان الصباح الوجود والنساء في الله تعالىٰ فيما تخيل له أنه في الله تعالىٰ ففي طيّ هذا التعلق مكر إلهيّ خفيّ، ولو تعلق ذلك الالتذاذ منه بغير هؤلاء الأصناف فليس ذلك بميزان يعرف به مكر الله حتى يفرّق بين الصحبة لله والصحبة لشهوة الطبع إلاّ أن يصحب العلماء بالله أهل الورع أو شيخه إن كان من أهل الأذواق فذلك أمر آخر.

والذي ينبغي له أن يزن به حاله في دعواه أنه ما صحب الأحداث والنساء إلاّ لله إذا وجد ألماً ووحشة عند فقده إياه وهيجاناً إلى لقائهم وفرحاً به عند إقبالهم، فتعلم عند ذلك أن الصحبة لهذا الصنف معلولة ليست لله وإن وقعت المنفعة للمصحوب منه فيسعد المصحوب ويشقى هذا المحب شقاوتين: الواحدة فقد المحبوب والأخرى بالجهل وعدم العلم فيما كان يتخيل أنه علم وأنه صحب لله وفي الله. وأما إن كان ممّن تتعلق تلك المحبة منه بجميع المخلوقات، ومن جملة المخلوقات أيضاً هؤلاء الأصناف، فقد يكون ذلك خديعة نفسية وميزانه أن لا يستوحش عند مفارقة واحد واحد فإنه لا يخلو عن مشاهدة مخلوق فمحبوبه معه ما فارقه، فإن العين

واحدة لو غاب عضو من أعضاء محبوبك مع بقاء عينه معك ما وجدت ألماً، والخلق كلهم أعضاء بعضهم لبعض، وأيضاً إن تعلق بجميع المخلوقات على علم من صاحبه بعموم التعلق ابتداء في غير هؤلاء الأصناف ثم تظهر هؤلاء الأصناف ولا يجد مزيداً في ميزانه فيدخلهم في عموم ذلك التعلق فذلك مبناه على أصل صحيح، وإن انجرّ معه الطبع في هذا الصنف ووجد معه الألم عند فقده على الخصوص فذلك لا يؤثر في خلوص تعلّقه الإلهيّ في دعوته ونصيحته لصحة الأصل، فإن حدث عنده عموم التعلق في ثاني الحال من تعلقه بصحبة هذا الصنف فلا يعوّل عليه فذلك تلبيس من النفس فليحذر منه وليترك صحبتهم جملة واحدة، وكلامنا إنما هو مع أهل الطريق، ولا بدّ من تمحيص هذا التعميم الذي وجده في ثاني حال من صحبتهم، كما يمحص نفسه صاحب السماع المقيد بالنغمات إذا أرسله مطلقاً بعد تحصيله ابتداء من المقيد بالنغمات فهو أصل معلول، فلا يعتمد من هذه حالته على سماعه المطلب المكتسب في ثاني حال فإن ذلك تلبيس النفس حتى لا تترك السماع المقيد، والإنسان إذا أنصف لربه من نفسه ولنفسه من نفسه عرف حاله، بل كان أعرف بحاله من غيره إلاّ من العارفين بالله فإنهم أعرف به من نفسه، لأن العارفين لهم أعين في قلوبهم فتحتها لهم المعرفة يرون بها منك ما تجهله أنت من نفسك لأنه ليست لك تلك العين، ولهذا قال الجنيد: العارف من ينطق عن سرك وأنت ساكت والسكوت عدم الكلام، فمعناه يعرف منك ما لا تعرفه أنت من نفسك، كالخفي من سوء المزاج يعرفه الطبيب منك إذ نظر إليك ولا تعرفه أنت، وهؤلاء أطباء النفوس.

واعلموا أن الشيوخ إنما حذروا من أخذ الإرفاق من النساء ومن صحبة الأحداث لما ذكرناه من الميل الطبيعي، فلا ينبغي للمريد أن يأخذ رفقاً من النساء حتى يرجع هو في نفسه امرأة، فإذا تأنّث والتحق بالعالم الأسفل ورأى تعشق العالم الأعلى به وشهد نفسه في كل حال ووقت ووارد منكوحاً دائماً ولا يبصر لنفسه في كشفه الصوري وحاله ذكراً ولا أنه رجل أصلاً بل أنوثة محضة ويحمل من ذلك النكاح ويلد وحينئذ يجوز له أخذ الرفق من النساء ولا يضره الميل إليهن وحبهنّ. وأما أخذ العارفين فمطلق لأن مشهودهم اليد الإلهية المقدسة المطلقة في الأخذ والعطاء، وكل شخص يعرف حاله والطريق صدق كله وجد لا يقبل الهزل ولا الطفيلي عنده وإن سامح الحق.

الباب التاسع ومائة

في معرفة الفرق بين الشهوة والإرادة، وبين شهوة الدنيا وشهوة الجنة، والفرق بين اللذة والشهوة، ومعرفة مقام من يشتهي ويشتهى، ومن لا يشتهي ولا يشتهى، ومن يشتهي ولا يشتهى، ومن يشتهى ولا يشتهي

[نظم: الكامل]

رَبُّ الإرادة سـيـدٌ مـتـحـكِّـمٌ ... تـجـري أمـورُ الـكـائـنـات بـوفْـقِـهِ
والاشْتِـهَـاءُ مـن الـطـبـيـعـة أصلُـهُ ... فـمـنِ اشـتـهـى فـالـطـبـعُ مالِكُ رِقِّـهِ
لا يـفـرحَـنْ أبـداً عُـبَـيْـدُ طـبـيـعـةٍ ... فـي مـلْـكِـهِ فـي الـمـنـزلـيـن بـعـتْـقِـهِ

والإلتذاذُ تَقَسَّمَتْ أحكامُه   في كل موجودٍ بطالِع أُفْقِهِ
فتراه والأعيانُ تطلب حقَّها   يعطي لكل منه واجبَ حقِّهِ
يعطي الجزيلَ وما له ملكٌ سوى   ما أودعَ الملكُ الجوادُ بحقِّهِ
الوَهْبُ يأتيه بكل فضيلةٍ   تبدو عليه بخَلْقه وبخُلْقهِ
فعطاؤه الممزوجُ يشهد أنه   فيما يجود عطاؤه من صِدْقِهِ
أما العبيدُ فرزقُهم معبودُهم   فالكل إن حقَّقتَ عابدُ رزقهِ

اعلم أيّدك الله أن المتمكن الكامل والعابد أيضاً من أهل الله صاحب المقام يشتهي ويشتهى لكماله، فيعطي كل ذي حق حقه، فإنه يشاهد جمعيته ففيه من كل شيء حقيقة، وصاحب الحال صاحب فناء لا يشتهي ولا يشتهى لأنه لا يشهد سوى الحق بعين الحق في حال فناء عن رؤية نفسه، فلا يشتهي لأن الحق لا يوصف بالشهوة، ولا يشتهى لأنه مجهول لا يعرف غير ربه لا تعرف الأكوان ولا نفسه لغيبته بربه عن الكل فهو غيب، لا يشتهي لأن العلم بالمشتهى من لوازم هذا الحكم، والزاهد لا يشتهي ويشتهى فإن النعم له خلقت فهو يراها حجباً موضوعة فينفر منها فلا يشتهيها وهي تشتهيه لعلمها بأنها خلقت له فيتناولها الزاهد جوداً منه عليها وإيثاراً إذا كان صاحب مقام، والمخلط الكاذب الذي يعصي الله بنعمه يشتهى ولا يشتهى، فيشتهى لغلبة الطبع عليه، ولا يشتهى لأن النعم إنما تشتهي من تراه يقوم بحقها وهو شكر المنعم على ما أنعم الله به عليه.

ثم اعلم أن الشهوة إرادة طبيعية مقيدة، والإرادة صفة إلٰهية روحانية طبيعية متعلقها لا يزال معدوماً وهي أعم تعلقاً من الشهوة، فإن كل حقيقة منهما تتعلق بالمناسب، والمناسب ما يشركها في الأصل، فلا تتعلق الشهوة إلاَّ بنيل أمر طبيعي، فإن وجد الإنسان ميلاً إلى غير أمر طبيعي كميله إلى إدراك المعاني والأرواح العلوية والكمال ورؤية الحق والعلم به فلا يخلو عند هذا الميل إما أن يميل إلى ذلك كله بطريق الالتذاذ عن تخيّل صوري فذلك تعلق الشهوة وميلها لأجل الصورة، فإن الخيال إذا جسد ما ليس بجسد فذلك من فعل الطبيعة، وإن تعلق ذلك الميل بغير هذا التخيل الحاصل بل يبقى المعاني والأرواح والكمال على حاله من التجرّد عن التقييد وضبط الخيال له بالتخيّل فذلك ميل الإرادة لا ميل الشهوة، لأن الشهوة لا مدخل لها في المعاني المجرّدة، فالإرادة تتعلق بكل مراد للنفس، والعقل كان ذلك المراد محبوباً أو غير محبوب، والشهوة لا تتعلق إلاَّ بما للنفس في نيله لذّة خاصة، ومحل الشهوة النفس الحيوانية، ومحل الإرادة النفس الناطقة، والشهوة تتقدّم اللذّة بالمشتهى في الوجود، ولها لذة متخيلة تتعلق بتصوّر وجود المشتهى، فتلك اللذة مقارنة لها في الوجود فتوجد في النفس قبل حصول المشتهى، واللذة مقارنة لوجود حصول المشتهى في ملك المشتهي فتزول شهوة التحصيل وتبقى اللذة، فليس عين الشهوة عين اللذة لفنائه بحصول المشتهي وبقاء اللذة غير أن الطبع يحدث له أو يظهر له عن كمون غيب إلٰهيّ شهوة أخرى تتعلق ببقاء المشتهى دائماً لا تنقطع فهذه شهوة لا لذّة لها، فإن البقاء دائماً غير حاصل مطلقاً فلا يتناهى الأمر ولا يوجد البقاء، فإن جدّد البقاء بزمان مخصوص ومقدار معين فذلك البقاء المشتهى يكون للشهوة لذة بحصوله موجوداً،

فاللذة مقارنة لحصول المشتهى خاصة لا تتأخر عنه ولا تتقدمه بوجود عين ووجود خيال.

وأما شهوة الدنيا فلا تقع لها لذة إلاَّ بالمحسوس الكائن. وشهوة الجنة يقع لها اللذة بالمحسوس وبالمعقول على صورة ما يقع بالمحسوس من وجود الأثر البرزخي عند نيل المشتهى المعقول سواء، ولا أعني بالجنة أن هذه الشهوة التي هذا حكمها لا توجد إلاَّ في الجنة المعلومة في العموم، إنما أعني حيث وجد هذا الحكم لهذه الشهوة الذي ذكرناه فهو شهوة الجنة سواء وجد في الدنيا أو وجد في الجنة، وإنما أضفناها إلى الجنة لأنها تكون فيها لكل أحد من أهل الجنة وفي الدنيا لا تقع إلاَّ لآحاد من العارفين، والشهوة لنا نسبة واحدة إلى عالم الملك، ونسبتان إلى عالم الملكوت، ولها مقامات وأسرار وهي الدرجات بقدر ما لحروف اسم الشهوة من العدد بالجمل الكبير بالتعريف وهو الشهوة وبالتنكير وهو شهوة وبالاتصال بكلام، فتعود هاء السكت تاء فلها عدد التاء وعدد الهاء في حال التنكير والتعريف فاجمع الأعداد بعضها إلى بعض فما اجتمع لك من ذلك فهو قدر درجات ما يناله صاحب ذلك المقام ولا يعتبر فيه إلاَّ اللفظ العربي القرشي فإنه لغة أهل الجنة سواء كان أصلاً وهو البناء أو فرعاً وهو الإعراب، وغير العربي والمغرب لا يلتفت إليه، وكذلك تعمل في كل اسم مقام وهو قولهم لكل إنسان من اسمه نصيب ومعناه لكل موجود من اسمه نصيب ولهذا جاءت أسماء النعوت فلا تطلب إلاَّ أصحابها وهي زور على من تطلق عليه وليست له وهذا من أصعب المسائل، فإن الاسم إطلاق إلهيّ فلا بدّ من نصيب منه لذلك المسمّى، غير أنه يخفى في حال مسمّى ما ويظهر في آخر ومدرك ذلك عزيز، وعلى هذا الحدّ الإرادة، فالمريد إلهيّ رباني رحماني، والمشتهى رباني رحماني خاصة، والمسلم المؤمن المحسن هو المريد، وصاحب الشهوة مسلم نصف مؤمن نصف محسن لأنه مع الإحسان المقيد بالتشبيه.

الباب العاشر ومائة
في مقام الخشوع

[نظم: الخفيف]

لا يكون الخشوعُ إلاَّ إذا ما ... يُبْصرُ القلبُ من تَدَلَّى إليهِ
وتجلَّى له بصورةِ مِثْلٍ ... غير هذا فلا يكون لدَيْه
فإن اعتزَّ في مَقَام التَّجَلِّي ... فله الحكمُ لا يكون عليهِ

الخشوع مقام الذلة والصغار وهو من صفات المخلوقين ليس له في الألوهية مدخل، وهو نعت محمود في الدنيا على قوم محمودين، وهو نعت محمود في الآخرة في قوم مذمومين شرعاً بلسان حق وهو حال ينتقل من المؤمنين في الآخرة إلى أهل العزّة المتكبرين الجبارين الذين يريدون علواً في الأرض من المفسدين في الأرض، فالمؤمنون في صلاتهم خاشعون، وهم ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾ من الرجال ﴿وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ من النساء الذين ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] ونعت أصحابه في الآخرة فقال: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾

[سورة الشورى: الآية ٤٥] وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [سورة الغاشية: الآية ٢ـ٦] ولا يكون الخشوع حيث كان إلاّ عن تجلّ إلهيّ على القلوب في المؤمن عن تعظيم وإجلال، وفي الكافر عن قهر، وخوف، وبطش. قال عليه السلام حين سئل عن كسوف الشمس: «إنَّ اللَّهَ إِذَا تَجَلَّى لِشَيْءٍ خَشَعَ لَهُ» أخرجه البزار وإذا وقع التجلي حصل الخشوع وأورث التجلي العلم والعلم يورث الخشية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٨] والخشية تعطي الخشوع، والخشوع يعطي التصدع وهو انفعال الطبع للخشوع، والتصدّع تقصف وتكسر في الأعضاء والغطيط الذي يسمع فيها كل ذلك من أثر الطبع القابل لأثر الوارد في التجلي الإلهيّ وهو الذي كنى عنه الشرع بالغتّ والغطّ في نزول الوحي عليه كصلصلة الجرس وهو أشده عليه، فإن نزوله شديد على هذا الهيكل البشري ولا سيما إن كان النزول بالقرآن كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣١] وقد يكون من الجبال القوة الماسكة الطبع الذي من شأنه الميل نظير الميد في الأرض، ويكون من الأرض أرض الأجسام الطبيعية أو كلم به الموتى.

ومن أصناف الموت الجهل يقول تعالىٰ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٢] لكان هذا القرآن يحيا بما فيه من العلم ويقطع به الأرض وتسير الجبال بما فيه من الزجر والوعيد. وقوله ﴿قُرْءَانًا﴾ [سورة يوسف: الآية ٢] بالتنكير دليل على أحد أمرين: إما على آيات منه مخصوصة كما ضرط الجبار عندما سمع صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، وإما أن يكون ثم أمر آخر ينطلق عليه اسم قرآن غير هذا لغة ولو حرف امتناع لامتناع فهل هو داخل تحت الإمكان فيوجد، أو ما هو ثم إلاّ بحكم الفرض والتقدير، فأما عندنا فكل كلام إلهيّ من كلمة مركبة من حرفين إلى ما فوق ذلك من تركيبات الحروف والكلمات المنسوبة إلى الله بحكم الكلام فإنه قرآن لغة وله أثر في النزول في المحل المنزّل عليه إذا كان في استعداده التأثّر بنزوله، فإن لم يكن فلا يشترط، والاستعداد من المحل أن يكون حاله العبودة والعبودية وأثره في حال العبودية أتمّ منه في حال العبودة، فإن سمع المحل أو نزل عليه في حال كون الحق سمعه حصل له النزول ولم يظهر له أثر عليه لأنه حق في تلك الحالة فينتفي عنه الخشوع، وهذا أصل يطرد في كل وصف لا يكون له في الألوهة مدخل، كالذلّة والافتقار والخشوع والخوف والخشية فإنه يتأثر صاحب هذا الحال، وكل كون يكون حالة نعت إلهيّ كالكرم والجود والرحمة والكبرياء فإنه لا يؤثر في صاحبه أصلاً فإنه نعت حق فله العزّة والمنع هذا مطرد، وقد نزل علينا من القرآن ذوقاً عرفنا من ذلك صورة نزوله على نبيه ﷺ فوجدنا له ما لم نجد لحفظ حروفه ولا لتدبّر معانيه، ونزل علينا في الحالين فأثر في الحال الواحد الكوني ولم يؤثر في الحال الإلهي إلاّ لذة خاصة فإنه لا بدّ منها، وأما خشوعاً فلا، ولهذا ينسب إلى الجناب الإلهيّ الأقدس ما ينسب من الفرح وهو التذاذ.

ثم إن الله جعل مثل هذا أمثالاً مضروبة للناس ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦] الخارج عن الحالين والعاري عن التلبس بالحكمين وهي حالة الغافلين عمّا خلقوا له وعمّا فضلوا به، لم يمت أبو يزيد حتى استظهر القرآن وهو تنزيله عليه ذوقاً، و«من استظهر القرآن فقد أدرجت النبوّة بين جنبيه »كذا قال ﷺ، وهذا الفرق بين تنزّله على النبيّ ﷺ وبين تنزّله علينا، فإنه منزل في النبي ﷺ على قلبه وفي صدره فنبوّته له مشهودة، وينزل علينا بين جنبينا من وراء حجابنا فهو لنا في الظهر لا في الظهور، فنبوّتنا مستورة عنا مع كوننا محلاً لها، فمن خشع تصدع ومن علم يخشى.

الباب الحادي عشر ومائة

في ترك الخشوع

[نظم: الخفيف]

مَن تجلَّى لنفسه كيف يَخْشَعْ ... وبه تنظُرُ العيونُ إليهِ
فقُوانا قُواه من غير شكٍّ ... هكذا نصَّ لي الرسولُ عليهِ

إذا كان العبد في نعت إلهيّ وورد التجلّي عليه وتلقاه بذلك النعت أورثه لذة وفرحاً وابتهاجاً وسروراً، ولم يجد خشوعاً ولا ذلة، فينسب ذلك الفرح للظاهر في المظهر لا من حيث هو ظاهر فهو سرور بكمال، وأثره في المظهر من حيث ما هو مظهر، فهو محجوب عن ذاته بربه في حال صحوه وظهوره وحضوره وإثباته وبقائه، وترك الخشوع لمن ليست هذه حالته مذموم مطرود.

الباب الثاني عشر ومائة

في مخالفة النفس

[نظم: الكامل]

خالِفْ هواكَ فإنه محمودُ ... واعلَمْ بأنك وحدَك المقصودُ
الكلُّ يسعد غير من هو مثله ... فَلْتُلْقِ سمْعَك لي وأنت شهيدُ
أنت العزيزُ فذُقْ وبَالَ صفاتِه ... يوم القيامة والأنامُ شُهودُ

اعلم أيّدك الله أن مخالفة النفس هو الموت الأحمر وهو حال شاق عليها وهي المخالفة نفسها فالمخالف عين المخالف، وهذا من أعجب الأمور أعني وجود المشقة، نعم لو كان المخالف نفساً أخرى لم يكن التعجب من حصول المشقة في ذلك، ونحن بحمد الله حيث قلنا بمخالفتها ولم نقل تخالف بالمقابل، فقد يكون الخلاف بما ليس بمقابل، فيجمع بين وجود الخلاف وبين المساعدة، وسيأتي في الباب الذي بعد هذا الباب وفائدة المخالفة عظيمة. واعلم أنه لا يخالف النفس إلاّ في ثلاثة مواطن: في المباح والمكروه والمحظور لا غير. وأما إذا وقعت لها لذة في طاعة مخصوصة وعمل مقرّب فهنالك علة خفية يخالفها بطاعة أخرى وعمل مقرّب، فإن استوى عندها جميع التصرّفات في فنون الطاعات سلمنا لها

تلك اللذة بتلك الطاعة الخاصة، وإن وجدت المشقة في العمل المقرّب الآخر الذي هو خلاف هذا العمل فالعدول إلى الشاق واجب لأنها إن اعتادت المساعدة في مثل هذا أثرت في المساعدة في المحظور والمكروه والمباح، وإنما صعب على النفس المخالفة لكريم أصلها وعلوّ منصبها، فإن النيابة الإلهية في العالم لها فتقول في نفسها بيدي أزمة الأمر وملاكه ولا سيما وقد خلقني الله تعالىٰ على الصورة، فمخالفتي مخالفة الحق من هذا المقام يكون لها المخالفة موتاً أحمر، وحجبت هذه النفس عن الاتساع الإلهيّ وعما خلقت له، وعن العلم بأن الصورة ليست لكل نفس، وإنما هي للنفس الكاملة كنفوس الأنبياء ومن كمل من الناس، فلو كملت هذه النفس ما كانت المخالفة لها موتاً أحمر، فإن لذة العرفان تعطيها الحياة التي لا موت فيها، فالوجود والفتح مقرونان بمخالفتها في كل شيء ينبغي أن تخالف فيه فافهم.

الباب الثالث عشر ومائة

في معرفة مساعدة النفس في أغراضها

[نظم: الخفيف]

سـاعـد الـنَّـفْـسَ إنـهـا نَـفَـسُ الـحـ ـقِّ ونـعـتٌ لـه فـأيـن تـغـيـبُ
انـظُـرِ الـحـقَّ فـي الـوجـود تـراه عَيْـنَـه فـالـبغـيـضُ فيـه الـحـبـيـبُ
لـيس عـيـنـي سـواه إن كـنـتَ تـدري فـهـو عَيْـنُ الـبـعـيـد وهـو الـقـريـبُ
إن رآنـــي بـــه فـــمـــنِّـــي أراه أو دعـانـي إلـيـه فـهـو الـمـجـيـبُ

مخالفتها عين مساعدتها فإنها بها تخالفها فانتقلت منها إليها فما زلت عنها. ثم اعلم أن للنفس غرضين: ذاتيّ وعرضيّ، فالذاتيّ هو جلب المنافع ودفع المضار، والعرضيّ هو ما عرض لها من جانب الشريعة، وقد يكون من جانب الغرض، وقد يكون من جانب ملائمة الطبع، وقد يكون من جانب طلب الكمال، فكلها في الطريق الذي نحن بسبيله غير معتبر إلاّ جانب الشريعة خاصة فإنها التي وضعت الأسباب الفاضلة التي بفعل ما أمرت بفعله وبترك ما نهت عن فعله وجبت السعادة وحصلت المحبة الإلهية، وكان الحق سمع العبد وبصره، ففصل الشارع لها جميع ما يرضيه منها وما يسخطه من ذلك عليها إن فعلته وما لا سخط فيه ولا رضى، فما كان ممّا يرضي الله فهو إلقاء ملكيّ، وفي حق النبيّ إلقاء ملكيّ وإلهيّ، وليس للإلقاء الإلهيّ مدخل في الأولياء الأتباع جملة واحدة أعني في الأحكام بتحليل أو تحريم، وما كان ممّا يسخط الله فهو إلقاء شيطانيّ لا ناريّ، فمن الجنّ من يلقي الخير في قلوب الصالحين لهم بهم تلبس عظيم وامتزاج ومحبة، فما كان ممّا يلقي الشيطان فهو ملذوذ للنفس ومحبب لها ومزيّن في عينها في الوقت مر العاقبة في المآل، وإلقاء الملك قد يكون مراً في الوقت لكنه ملذوذ في المآل، وكلتا الحالتين لا تقتضيهما النفس من ذاتها، فلا ينبغي للعاقل أن يساعد النفس فيما تتعلق به من الأمور التي تأمره بها مما يقع له فيها غرض، إما عرضيّ أو ذاتيّ، إلاّ المؤمن والعارف، فالمؤمن يساعدها في الغرض الذاتي وهو كل ما تأمره به من

المباح خاصة، ومن ملذوذات الطاعات، وأما العارف الذي الحق سمعه وقواه فيساعدها في جميع أغراضها فإنه نور كله والنور ما لا ظلمة فيه، ولذلك كان ﷺ يقول في دعائه: «**واجْعَلْنِي نُوراً**» لأن النفس ما ينسب إليها ذمّ إلاّ بعد تصريفها آلتها في المذموم وهو الظلمة فيقال: قد اغتاب الغيبة المحرّمة عليه، وقد كذب الكذب المحرّم عليه، وقد نظر النظر المحرّم عليه، وما لم يظهر الفعل على الآلات لم يتعلق بها ذمّ، والعارف قد وقع الإخبار الإلهيّ عنه بأن الحق جميع قواه فذكر الآلات، فلهذا أبحنا للعارف مساعدة النفس لما هو عليه من العصمة في ظاهره الذي هو الحفظ.

الباب الرابع عشر ومائة

في معرفة الحسد والغبط

[نظم: مجزوء الرمل]

حَسَدُ القلب حَصَادُ ... وهوى النَّفس بُعَادُ

عينُه في الجنس تبدو ... وهو المَلْكُ الجَوادُ

فأنا أَحْسُدُ مثلي ... وبهذا القَوْمُ سادوا

ما لنا مثْلُ سوانا ... حَسَدَ الحقَّ العبادُ

لو درى الناسُ الذي قـ ... ـلت لما كان العنَادُ

الحسد وصف جبليّ في الإنس والجان، وكذلك الغضب والغبط والحرص والشره والجبن والبخل، وما كان في الجبلة فمن الحال عدمه إلاّ أن تنعدم العين الموصوف بها. ولما علم الحق أن إزالتها من هذين الصنفين من الخلق لا يصحّ زوالها عين لها مصارف يصرفها فيها فتكون محمودة إذا صرفت في الوجه الذي أمر الشارع أن تصرف فيه وجوباً أو ندباً، وتكون مذمومة إذا صرفت في خلاف المشروع، وإذا عرفت هذا فلا عناد ولا نزاع، قال ﷺ: «**زَادَكَ اللّهُ حِرْصاً وَلا تَعُدْ**» وقال: «**مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ دُنْيَا وَطَالِبُ عِلْمٍ**» فطلب الدنيا قد يكون مذموماً وقد يكون محموداً، وطلب العلم محمود بكل وجه، غير أن المعلومات متفاضلة فبعضها أفضل من بعض وتختلف باختلاف القصد، فإن طلب العلم بالمثال من جهة من قامت بهم لا من حيث أعيانها، وطلب بعضها بطريق التجسّس مذموم، فما ثم على التحقيق ما هو مخلص لأحد الجانبين أين قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [سورة الفلق: الآية ٥] من قوله: «**لاَ حَسدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ**» وكذلك أين الغضب لله من غضب الإنسان لنفسه من غضبه حمية جاهلية، فجميع ما جبلت النفس عليه لا يزول بالمجاهدة ولا بالرياضة، وإنما تختلف مصارفها فيختلف اللسان عليها بالذمّ والحمد، فإن أخذ بها جهة اليمين فبخل بدينه وحرص على فعل الخير وغضب لله حمد، وإن أخذ بها جهة الشمال فغضب حمية جاهلية وبخل بما فرض عليه الجود به كالزكاة وتعليم العلم ذمّ حقاً وخلقاً، وعلم هذا الباب فيه راحة عظيمة ومنفعة للناس وهم عنها غافلون. انتهى الجزء الثامن والتسعون.

(الجزء التاسع والتسعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الخامس عشر ومائة

في معرفة الغيبة ومحمودها ومذمومها

[نظم: المتقارب]

إذا نـزلَ الحـقُّ مـن عـزِّهِ ... إلى منزل الجوع والمَرْحَمَة
فخذه على حدِّ ما قاله ... فإن به تحصلُ المكرُمَة
ولا تُلْقينَّهُ على جاهلٍ ... فتحصَلُ في موقف المَنْدَمَة
فغيَّبكَ الحقُّ في ذكره ... بما لم يَقُلْ وهي المَشْأَمَة
وإن كان حقاً ولكنه ... إذا قاله قائلٌ قال مَه

اعلم فهمك الله ما أسمعك أن الغيبة ذكر الغائب بما لو سمعه ساءه وهي حرام على المؤمنين، فالحق لا يغتاب لأنه السميع البصير في نفس الأمر، وعند العلماء به، وقد أبان لعباده ما يكرهه منهم وما يحمده ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] فلا يغتاب أيضاً اسم فاعل واسم مفعول، فالغيبة حرام على المكلفين فيما بينهم، ويجتنبها أهل المروءات من غير المؤمنين نزاهة وشرف نفس لأن اجتنابها يدل على كرم الأصول إلاَّ في مواطن مخصوصة فإنها واجبة وقربة إلى الله، وأهل الورع من المؤمنين يعرّضون بها ولا يصرحون، فمن ذلك في طريق الجرح الذي يعرفه المحدثون في رواة الأحكام المشروعة روينا عن بعض العلماء بالله أنه كان يقول في ذلك لصاحبه: تعال نغتب في الله، ومنها عند المشورة في النكاح فإنه مؤتمن والنصيحة واجبة، ومنها الغيبة المرسلة وهو أن يغتاب أهل زمانه من غير تعيين شخص بعينه، ومنها غيبة المشايخ المريدين في حال التربية إذا كان فيها صلاح المريد إذا وصل ذلك إليه، ومع كون الغيبة محمودة في هذه المواطن فعدم التعيين فيها أولى من التعيين، فإن النبيّ ﷺ يقول: «**لا غَيْبَةَ فِي فَاسِقٍ**» نهياً لا نفياً، على هذا أخذ أهل الورع هذا الخبر وطريق التعريض هين المأخذ، وما عدا أمثال هذه المواطن فهي مذمومة يجب اجتنابها، ومن هذا الباب تجريح الشهود إذا عرف المشهود عليه أنهم شهدوا بالزور فوجب عليه نصرة الحق وأهله وخذلان الباطل وأهله، ومن هنا يتبين لك أن العدم هو الشر، فإن شهداء الزور مالوا إلى جانب العدم ورجحوه على الوجود ووصفوا بالكون ما ليس بكائن، وجعله الله على لسان رسوله من الكبائر لأنه ما مدلول قولهم إلاَّ العدم، ومع هذا كله إن استطاع من هو من أهل طريق الله التعريض لا التصريح حتى يفهم عنه ما يريد إذا علم أن في ذلك منفعة دينية فليفعل فهو أولى، ويحصل الغرض ويكون اللسان قد وفى ما تعين عليه من غير فحش في المنطق، وهذا كله ما دام يسمى مؤمناً.

وأما إن كان هذا الشخص في مقام من كان الحق سمعه وبصره ولسانه فحاله غير حال المؤمن مع أنه من أهل الإيمان. واعلم أن الله تعالىٰ ما خلق داء إلاّ وخلق له دواء، والأدوية على نوعين: دواء العامة وهو الذي يقدر عليه كل أحد والدواء الآخر دواء ملكي وهو الذي لا يقدر عليه إلاّ الملوك والأغنياء لنفاسته وغلو ثمنه، فلا يقدر عليه إلاّ المتمكن من المال والسلطان، وهكذا قسم الأدوية أهل الطب وصادقوا الحق في ذلك، فأما الدواء العام النافع الداخل تحت قدرة كل أحد من غنيّ وفقير وسوقة وملوك من داء جميع الذنوب والمعاصي فهو التوبة وإرضاء الخصوم من شروطها مما يقدر عليه من ذلك، وعينه عليه الشارع إذ كان ذلك الداء ممّا ينبغي أن يرضى فيه الخصوم، وإذا كان مما لا ينبغي فيتوب ولا يرضى خصمه، فإنه إن أرضاه قد يقع في محظور أشدّ ممّا كان قد تاب عنه فلا يغفل عنه.

وأما الدواء الملكي فلا يستعمله إلاّ العارفون السادة من رجال الله وهم الذين يكون الحق سمعهم وبصرهم ولسانهم وهو قوله عقيب قوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٢] هذا خطاب عام ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَۚ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٢] هذا هو الدواء، ومعناه اتخذوه وقاية بينكم وبين هذه الأمور المذمومة التي الغيبة منها، فإذا اتخذتموه جنة تعاورت هذه الجنة سهام هذه الأفعال وهي قوية لا تنفذها هذه السهام فيكون المتقي بها في حمايتها، ولا يكون الحق وقاية للعبد حتى يتلبس به البعيد كما يتلبس المتوقي بالجنن من الدرع الحصينة وغيرها، وصورة تلبسه أن يكون الحق سمعه ولسانه وجميع قواه وجوارحه في حال تصرّفها فيما هي له فيكون نوراً كله، فنبّه الله في كتابه على هذه الأدواء الملكية السلطانية مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا﴾ والغيبة من الفجور ﴿وَتَقْوَاهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] أي الذي يتخذه وقاية من هذا الفجور، ولم يجعل الفجور من أوصافها وإنما جعله مجعولاً فيها من الملهم لها كما أيّد هذا بقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًاۖ﴾ [سورة فاطر: الآية ٨] فما جعل التزيين له بل قال: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [سورة النمل: الآية ٤] وقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [سورة النمل: الآية ٢٤] ولما أضاف التزيين إليه سبحانه قال: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٤] أي يحارون والحيرة من صفات الأكابر، وصفة الحيرة في مثل هذا أنه الأمر في إيجاده للملهم المزيّن والمجعول فيه الملهم والمزيّن له مأمور باجتنابه وهو الاتصاف بما ألهم له وما زيّن من قبل أن يظهر بالفعل فهو مذموم غير مؤاخذيه حتى يتلبس به في الظاهر.

ثم قال في أمور من هذا الباب: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٠] وهو البعيد من الرحمة: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أي وكونوا مع الاسم القريب من الرحمة. ومن أسمائه سبحانه البعيد، فمن اتخذ الحمق جنة ووقاية كما أمر لم تضرّه هذه الأشياء فإنّ الله تعالىٰ ما نبّهه على استعمال هذه الأدواء إلاّ لإقامة العذر منه إذا سئل عن مثل هذا، والمؤمن غيب خلف جنته فهو في حمى فلا يخرج عن حماه، والفاسق الذي لا غيبة فيه ليس بغائب خلف جنته بل هو خارج عنها لأن الفسوق الخروج فقال: لا غيبة في فاسق، فمن أخرج غيباً

يستحق أن يكون غيباً إلى شهادة فقد أخطأ ولهذا أضاف الغيبة إلينا فقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٢] فجعلنا نشأة واحدة ذات أبعاض، فإن الجزء والتفصيل إنما يرد على الكل، فما خرجنا عنا ولا وقعنا إلاَّ فينا فشدّد الأمر علينا في ذلك، فإن القاتل نفسه حرمت عليه الجنة وهي الساترة فإن الشيء لا يستتر عن نفسه، وكل من ذكر غائباً فقد صيّره شهادة وغربه عن موطنه وموت الغريب شهادة، فالمغتاب فاعل خير في حق من اغتابه، وإن كان يكره ذلك ففيه منفعة كشارب الدواء الكره ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٦] وإذا كان فاعل خير من غير قصد فهو ممّن أجرى الله الخير لزيد على يديه فيكون جزاؤه جزاء من وفق لعمل خير من غير قصد في حق من اغتابه لكن ذلك مقصود لمن ألهمه إياه وسمّاه فجوراً في حقّه، فيصلح الله يوم القيامة بين عباده لما يراه المظلوم من الخير الواصل إليه على يدي أخيه فيشكره على ذلك فيسعدان جميعاً.

وفي الخبر الصحيح: «**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُصْلِحُ بَيْنَ عِبَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» فالغيبة وإن كانت مذمومة فهي من ذلك الوجه محمودة في حق من اغتيب، فمآل ذلك إلى الخير، إذ كانت الجنة والوقاية الحائلة بينهما الحق والحق والغيبة وجود ما هي عدم، فوقع التناسب بين الموجودين، فاندرج الأضعف في الأقوى فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس عشر ومائة

في معرفة القناعة وأسرارها

[نظم: البسيط]

إن الـقـنـاعـةَ بـابٌ أنـت داخِـلُـهُ ... إن كـنـتَ ذاك الـذي يُـرْجَـى لـخـدمـتـهِ
فـاقـنَـعْ بـمـا أعـطـتِ الأيـامُ مـن نِـعَـم ... مـن الـطـبـيـعـة لا تـقـنَـعْ بـنـعـمـتـهِ
لـو كـان عـنـدك مـالُ الـخـلـق كـلِّـهِـمُ ... لـم يـأكـلِ الـشـخـصُ منه غـيـرَ لُـقْـمـتـهِ

ليست القناعة عندنا الاكتفاء بالموجود من غير طلب المزيد، أرسل الله تعالىٰ على أيوب وهو نبيّ مكرّم قيل فيه: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [سورة ص: الآية ٣٠] وأثنى عليه بالصبر مع دعائه ربه في كشف الضرّ عنه فأزاله، فلما أرسل عليه رجلاً من جراد من ذهب فأخذ يجمعه في ثوبه فقال له ربه: ألم أكن أغنيتك عن هذا؟ فقال: يا رب لا غنى بي عن خيرك، فإن كان فعل هذا لما هو عليه ظاهر الحال فهو ما أردنا، وإن كان ليقتدي به في ذلك فما فعل إلاَّ ما هو أولى بالقربة إلى الله من تركه، وهو من الذين هدى الله وأمر الله نبيه ﷺ بالاقتداء بهداهم وقال لنا: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١] والقناعة عندنا على بابها في اللسان وهي المسألة، والقانع السائل، والسؤال من الله لا من غيره، يقال: قنع يقنع قنوعاً إذا سأل وهو الذي رفع سؤاله إلى الله وهو قوله في الظالمين يوم القيامة: ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤٣] أي رافعين إلى الله يسألونه المغفرة عن جرائمهم، ويجتمع الحدّان في أمر وهو أن السائلين الله قنعوا به في سؤالهم والتجائهم إليه فلم

يسألوا غيره تعالىٰ، فهذا معنى قول الأكابر الاكتفاء بالموجود وهو الله بالسؤال عن طلب المزيد وهو أن يتعدّى بالسؤال إلى غيره، والخلق عيال الله أي الفقراء إلى الله، فمن سأل غير الله فليس بقانع ويخاف عليه من الحرمان والخسران، فإن السائل موصوف بالركون لمن سأله والله يقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [سورة هود: الآية ١١٣] ومن ركن إلى جنسه فقد ركن إلى ظالم فإن الله يقول في الإنسان: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] لحمله الأمانة وما من أحد من الناس إلاَّ حملها، فلا تركن إلى غير الله واكتف بالله في سؤالك تسعد إن شاء الله.

وللقناعة درجات عند العارفين من أهل الأنس والوصال وهي ستمائة واثنتان وخمسون درجة، ودرجاتها عند العارفين من أهل الأدب والوقوف مائتان وسبع وخمسون درجة ودرجاتها عند الملامية من أهل الأنس والوصال ستمائة وإحدى وعشرون درجة، ودرجاتها عند الملامتية من أهل الأدب والوقوف مائتان وست وعشرون درجة، وللقناعة الدعوى ولها نسبتان: نسبة إلى عالم الجبروت، ونسبة إلى عالم الملكوت، وليس لها إلى عالم الملك نسبة ظاهرة بل لها نسبة باطنة إلى عالم الملك يظهر ذلك القنوع، وهذا القدر كاف فيها والله الموفق.

الباب السابع عشر ومائة
في مقام الشره والحرص في الزيادة على الاكتفاء

[نظم: البسيط]

لا تَـقْـنَـعَـنَّ بـشـيء دونـه أبـداً ... واشْرَهْ فإنك مجبولٌ على الشَّرَهِ
واحرصْ على طلب العَلْياءِ تَحْظَ بها ... فليس نائمُها عنها كمُنْتَبِهِ
إن الحلالَ حلالٌ ما وثقتَ به ... وليس مالُ حَرَام مثلَ مُشْتَبِهِ

اعلم أيّدك الله أن هاتين الصفتين مجبول عليهما الإنسان بما هو إنسان، وكل ما هو الإنسان مجبول عليه فمن المحال زواله، فهو مقام لا حال فإنه ثابت، ويتطرق إليه الذم من جهة متعلقه إذا كان مذموماً شرعاً وعقلاً، قال تعالىٰ: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٩٦] وقال ﷺ: «**زادَكَ اللَّهُ حِرصاً ولا تَعُدْ**» فالآية موجهة لطرفي الحمد والذم لولا الضمير الذي في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ فإنه يعود على قوم مذمومين، وقرينة الحال تدل على أن مساقه الحرص فيها على الذم تكذيباً لهم فيما ادعوه من أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس. فمن نظر في الحرص هنا الدلالة على كذبهم كان محموداً فيهم لأنه دليل إلهيّ على كذبهم، فهو من جانب الحق فيهم عليهم حجة لله ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] والمذموم هو المذموم من كل وجه من حيث ما هو فيهم لا من حيث دلالته عليهم، وكان متعلقه ما يفنى وتكذيب الصادق كان مذموماً.

وأما في الخبر الذي أوردناه فهو محمود لأنه حرص على أداء عبادة مفروضة، ثم إنه مع هذا فإنهما صفتان من صفات العالم الوارث المكمل الذي هو سائس أمّة فهو ينظر فيما فيه

صلاحهم كما قال في نبيه ﷺ يمدحه به ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨] فمدحه بالحرص على ما تسعد به أمته، وشرهه وحرصه على إسلام عمّه أبي طالب إلى أن قال له: «قلها في أذني حتى أشهد لك بها»، لعلمه بأن شهادته مقبولة وكلامه مسموع، فيعرف الكامل نائب الله في عباده نوائب الزمان المستأنفة فيستعدّ لها عن الأمر الذي كان له منه الاطلاع على منازلتها، فيتخيل من لا علم له أنه سعى في حق نفسه وليس الأمر كذلك وهو كذلك، فإنه يباهي الأمم بالأتباع من أمته فكان يطلب الكثرة من المؤمنين، ولكن لا بدّ لهذا الشره من وجود الشرطين: الاطلاع والأمر الإلهي وهو الشرط الأعظم.

وأما الاطلاع وإن اشترط فهو شرط ضعيف فإنه لا يشترط إلاّ لمن ادّعى أنه يدخر في حق الغير، ثم يتناول من ذلك المدخر في حق نفسه فيقال له: هل أطلعك الله على من له هذا المدخر عندك؟ وهل اطلعت على أنه لا يصل إليهم إلاّ على يدك؟ فإن قال: نعم سلم له الإدّخار. وإن قال: لا قيل له: فحرصك ما قام على أصل مقطوع بصحته فدخله الخلل. فإن قيل: فقد قالت طائفة: من صحّ توكله في نفسه صحّ توكله في غيره. قلنا: هذا صحيح وهذا لا يناقض حال هذا الحريص على الكسب والادّخار والمزاحمة لأبناء الدنيا الذين لا توكل لهم على ذلك، فإن التوكل أمر باطن وهو الاعتماد على الله، وهذا المدخر إن كان اعتماده على ما ادّخره فهذا يناقض التوكل، وإن لم يعتمد عليه فليس يناقض، لكن يناقض التجريد الظاهر وقطع الأسباب، وليس هذا من أحوال المكملين، وإنما هو من أحوال السالكين ليكون لهم ما اتخذوه عقداً ذوقاً، فإن الذوق أتم في التمكن فإنه يزيل الاضطراب في حال عدم السبب الذي من عادة النفس أن تسكن إليه، وسيرد تحقيق هذا في مقام التوكل بعد هذا إن شاء الله.

ولهذا الشره والحرص من الدرجات عند العارفين سواء كانوا من أهل الأدب والوقوف أو من أهل الأنس والوصال ثمانمائة وخمس وستون درجة، وعند الملامتية سواء كان الملامي من أهل الأنس والوصال أو من أهل الأدب والوقوف ثمانمائة درجة وثلاث درجات، فإن كان العارفون من أهل الأسرار فلهم من الدرجات ألف وخمسمائة وخمس وثلاثون درجة، وإن كانوا من أهل الأنوار فلهم ثمانمائة درجة وخمس وستون درجة، وإن كان الملامية من أهل الأسرار فلهم ألف وأربعمائة وثلاث وسبعون درجة، وإن كانوا من أهل الأنوار فلهم ثمانمائة وثلاث درجات وهو نعت إلهيّ فإنه يقول: عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، وكذلك الحرص نعت إلهيّ أيضاً وهو الذي يقتضيه قول الله لملائكته في المتشاحنين: انظروا هذين حتى يصطلحا، وتسخير الملائكة في حق المؤمنين بالاستغفار والدعاء لهم فهذا من ثمرته، وإن لم يرد الإطلاق اللفظي به فإن هذه الأمور على قسمين: منهما ما ورد إطلاق اللفظ بأسمائها على الجناب الإلهي، ومنها ما وجد منه آثارها ولم يطلق عليه منها اسم، ومنها ما نسب الفعل الذي يكون منها إليه ولم يطلق عليه منه اسماً، ومنه ما أطلق عليه منه اسماً في جماعة بحكم التضمين، فمثل ما نسب إليه الفعل ولم يطلق الاسم قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥] وقوله: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٩] ومثل ما نسب إليه الفعل وأطلق عليه الاسم

في جماعة بحكم التضمين قوله: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٤] ومثل ما أطلق عليه منه اسم قوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٢] ومثل ما وجد منه آثارها ولم يطلق عليه منها اسم ولا فعل قوله: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٨].

الباب الثامن عشر ومائة

في مقام التوكل

[نظم: الكامل]

مَن يتَّخِذْ ربَّ العباد وكيلا ... سَلَكَ الصراطَ وكانَ أَقْوَمَ قِيلاَ

إن الذي فيه يوكِّلُ ربَّهُ ... عبد الإله يُقَارِنُ التَّنْزِيلاَ

يا طالباً ما ليس يُعْلَمُ ما له ... لا تتَّخِذْ غيرَ الإله وَكِيلاَ

التوكل اعتماد القلب على الله تعالىٰ مع عدم الاضطراب عند فقد الأسباب الموضوعة في العالم التي من شأن النفوس أن تركن إليها، فإن اضطرب فليس بمتوكل وهو من صفات المؤمنين فما ظنك بالعلماء من المؤمنين؟ وإن كان التوكل لا يكون للعالم إلاَّ من كونه مؤمناً كما قيده الله به وما قيده سدى، فلو كان من صفات العلماء ويقتضيه العلم النظري ما قيده بالإيمان فلا يقع في التوكل مشاركة من غير المؤمن بأي شريعة كان، وسبب ذلك أن الله تعالىٰ لا يجب عليه شيء عقلاً إلاَّ ما أوجبه على نفسه، فيقبله بصفة الإيمان لا بصفة العلم فإنه ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] فلما ضمن ما ضمن وأخبر بأنه يفعل أحد الممكنين اعتمدنا عليه في ذلك على التعيين وصدقناه لأنه بالدليل والعلم النظري فعلم صدقه فسكوننا وعدم اضطرابنا عند فقد الأسباب إنما هو من إيماننا بضمانه، فلو بقينا مع العلم اضطربنا، فالعالم إذا سكن، فمن كونه مؤمناً وكونه مؤمناً من كونه عالماً بصدق الضامن وتحقيق الوكالة من يستحقها هل الله أو هل العالم أو هل لله منها نصيب وللعالم نصيب، فاعلم أن الوكالة لا تصحّ إلاَّ في موكل فيه، وذلك الموكل فيه أمر يكون للموكل ليس لغيره فيقيم فيه وكيلاً ويتصرّف فيما للموكل أن يتصرّف فيه مطلقاً، فمن نظر أن الأشياء ما عدا الإنسان خلقت من أجل الإنسان كان كل شيء له فيه مصلحة يطلبها بذاته ملكاً له، ولما جهل مصالح نفسه ومصالحه ما فيها سعادته خاف من سوء التصرف في ذلك، وقد ورد فيما أوحى الله لموسى: يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك، وخلقتك من أجلي، فقال: إذ وقد خلق الأشياء من أجلي فما خلق إلاَّ ما يصلح لي وأنا جاهل بالمصلحة التي في استعمالها نجاتي وسعادتي فلأوكله في أموري فهو أعلم بما يصلح لي، فكما أنه خلقها هو أولى بالتصرف فيها، هذا يقتضيه نظري وعقلي من غير أن يقترن بذلك أمر إلهي، فكيف وقد ورد به الأمر الإلهي فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٩] نبّه بهذا الأمر أنه لا ينبغي الوكالة إلاَّ لمن هو إله لأنه عالم بالمصالح إذ هو خالقها كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سورة الملك: الآية ١٤] فاتخذه المؤمن العالم وكيلاً وسلم إليه أموره وجعل زمامها بيده كما هو في

نفس الأمر، فما زاد شيئاً مما هو الأمر عليه في الوجود ومدحه الله بذلك وما أثر في الملك شيئاً وهذا غاية الكرم الثناء بالأثر على غير المؤثر بل الكل منه وإليه فهذا حظ الناظر الأول، والناظر الثاني هو أن يقول: ما خلق الله الأشياء من أجل الأشياء وإنما خلقها ليسبحه كل جنس من الممكنات بما يليق به من صلاة وتسبيح لتسري عظمته في جميع الأكوان وأجناس الممكنات وأنواعها وأشخاصها فقال: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [سورة النور: الآية ٤١] وقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] فالكل له تعالىٰ ملك.

وإذا كان الأمر على هذا ولم يخلق على الصورة الإلهية سوانا ووصف نفسه بالغيب عن الأشياء وأسدل الحجب بينها وبين أن ندركه فهو يدركها ولا تدركه لأنها لا تعرفه فأقام الإنسان خليفة وهو الوكيل فقال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٧] فحدّ لنا في الوكالة أموراً لا نتعدّاها فما هي وكالة مطلقة مثل ما وكلناه نحن، فحدّ حدوداً لنا إن تعديناها تعدينا حدود الله ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١] وعلى النظر الأول جاء القرآن كله فإنه ما قال إلاّ ﴿تَوَكَّلُوٓاْ﴾ [سورة يونس: الآية ٨٤] وقال: ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٦٧] فرجح النظر الأول، وهو أن نتخذ وكيلاً في المصلحة لنا لا في الأشياء فيجمع بين النظرين، وهي حالة ثالثة شهدناها وما رأيناها لا حدّ من طريقتنا فقلنا: إنه خلق الأشياء له لا لنا ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠].

ومن خلقنا افتقارنا إلى ما يكون صلاحنا حيث كنا من دنيا وآخرة، ولا نعلم طريقنا إلى المصلحة لأنه ما خلق الأشياء من أجلنا فوكلناه ليسخر لنا من هذه الأشياء ما يرى فيه المصلحة لنا امتناناً منه وامتثالاً لأمره، فنكون في توكلنا عليه عبيداً مأمورين ممتثلين أمره نرجو بذلك خيره، فوقع التوكل في المصالح لا في عين الأشياء، وهذا برزخ دقيق لا يشعر به كل أحد للطافته وهو جمع بين الاثنين وتثبيت للحكمين، وإن كان قد تكلم أهل هذا المقام فيه وما من أحد منهم إلاّ نزع لأحد الطرفين من غير جمع بينهما، فالرجال المنعوتون بهذا المقام منهم من يكون بين يدي الله فيه كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء ولا يعترض عليه في شيء، ومنهم من حالته فيه حال العبد مع سيده في مال سيده، ومنهم من حاله فيه حال الولد مع والده في مال ولده، ومنهم من حاله فيه حال الوكيل مع موكله بجعل كان أو بغير جعل، والذي عليه المحققون وبه نقول: إن التوكل لا يصحّ في الإنسان على الإطلاق على الكمال، لأن الافتقار الطبيعي بحكم ذاته فيه والإنسان مركب من أمر طبيعي وملكوتي.

ولما علم الحق أنه على هذا الحد وقد أمر بالتوكل وما أمر به إلاّ وهو ممكن الاتصاف به وقد وصف نفسه بالغيرة على الألوهية فأقام نفسه مقام كل شيء في خلقه إذ هو المفتقر إليه بكل وجه وفي كل حال فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وما خصّ مؤمناً ولا غيره ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] فما افتقرتم إليه من الأشياء هو لنا وبأيدينا وما هو لنا فما يطلب إلاّ منا فإلينا الافتقار لا إليه إذ هو غير مستقل إلاّ بنا. وليكن للتوكل أحوال يصحّ

الاتصاف بها يسمى توكلاً. وبلغني عن واحد من أهل طريق الله أنه قال بما أشرنا إليه في هذه المسألة: متنا وما شممنا لهذا التوكل رائحة لأنه يطلب سريانه في الكل للافتقار الطبيعيّ الذي فيه، والتوكل مقام لا يتبعض إلاّ بالمجاز، ونحن أهل حقائق فلو صحّ في وجه كما يزعم هذا المدعي لصحّ في جميع الوجوه وله الدعوى وصاحبه مسؤول وله الكشف، ودرجاته عند العارفين أربعمائة وسبع وثمانون، ودرجات الملاميين فيه أربعمائة وست وخمسون، وله نسب إلى العالم كله من ملك وملكوت وجبروت.

الباب التاسع عشر ومائة

في ترك التوكل

[نظم: البسيط]

أنت الخليفةُ فيما أنت مالِكُهُ ... والحقُّ ليس به نَفْعٌ ولا ضَرَرُ
تَرْكُ التوكُّلِ حالٌ ليس يعلمه ... غيرُ الوكيلِ فلا روحٌ ولا بَشَرُ
كيف التوكُّلُ والأعيانُ ليس سوى ... عينِ الموكِّلِ لا عينٌ ولا أَثَرُ

التوكل مشروع فينال الحدّ المشروع منه، والتوكل الحقيقي غير واقع من الكون في حال وجوده، فما هو إلا للمعدوم في حال عدمه، وما ثم مقام يتصف به المعدوم، ولا يصحّ في الموجود من جهة الحقيقة إلاّ التوكل، فلا يزال المعدوم موصوفاً بالتوكل حتى يوجد فإذا وجد خرج عنه التوكل فذلك المعبر عنه بترك التوكل. ثم أقول: لا يصحّ ترك التوكل المعروف عند العامة من أهل الله إلاّ لرجلين: الواحد علم أنه لا يصحّ فترك الشروع فيه لأنه عنده لا يمكن تحصيله لما رأى نفسه إذا أخذه ألم الجوع وعنده ما يدفعه به تناوله ليزيل ألم الجوع، فلا فرق بينه وبين من يسترقي ويتطبب ويلجأ إلى محل الأمن من الأمور المخوفة مع الصحو وتوفر العقل والعلم التام، فالتوكل من حيث ما هو مقام هو حاصل، ومن حيث حاله ليس بحاصل، فالتوكل يصحّ لا يصحّ.

وأمّا الرجل الآخر قال: إن الله أعلم بمصالح الخلق وقد ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] ففيم التوكل مع هذا الفراغ فترك التوكل، فإنه ما بقي له ما يعتمد على الله فيه لأنه قال: فرغ ربك، ومع هذا فهو واقف مع الأمر والنهي عامل بما أمر به أو نهى عنه من الأعمال، قائم بالحكم المشروع عليه. فمن أسرار التوكل ترك التوكل، فإن ترك التوكل يبقي الأغيار، والتوكل ينفي الأغيار، وعند أكثر القوم أن الأعلى ما ينفي لا ما يبقي، وعندنا وعند شيخنا أبي السعود بن الشبلي وأبي عبد الله الهواري بتنس من بلاد المغرب، وأبي عبد الله الغزال بالمرية ببلاد الأندلس وأبي عمران موسىٰ بن عمران الميرتلي بإشبيلية وغيرهم أن الأعلى ما يفني ما ينبغي ويبقي ما ينبغي في الحال التي تنبغي والوقت الذي ينبغي، وبه كان يقول عبد القادر الجيلي ببغداد فإن الله تعالىٰ أفنى وأبقى، يقول تعالىٰ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ فلا تعتمد عليه ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٦] فتعتمد على الله في بقائه فأفنى وأبقى.

والإفناء حال أبي مدين في وقت إمامته، ولا أدري هل انتقل عنه بعد ذلك أم لا، لأنه انتقل عن الإمامة قبل أن يموت بساعة أو ساعتين ـ الشك مني لبعد الوقت ـ وصاحب ترك التوكل ما له دعوى وهو غير مسؤول لأنه أمر عدمي، فجرى مجرى الأصل في قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [سورة الإنسان: الآية ١] يريد عدمه في عينه لأنه كان مذكوراً لله تعالىٰ، والدهر اسم من أسماء الله، ولهذا الاشتراك اللفظي نهي عن سبّ الدهر وقال: «**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ**» وما ثم عين تسبّ لعينها وإنما تسبّ لما يصدر منها، وما يصدر كون إلاّ من الله، والدهر الزمانيّ نسبة. وقوله: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ يعني الإنسان في ذلك الحين، أي موجوداً في عينه مع وجود الأعيان، ولكن ما تعرفه حتى تذكره ولا هي ذات فكر حتى تجمعه في ذهنا تقديراً فتذكره، فإن الفكر من القوىٰ التي اختصّ بها الإنسان لا توجد في غيره، ثم إن هذه الآية من أصعب ما نزل في القرآن في حق نقصان الإنسان وفيما يظهر من عدم الإعتناء الإلهي به، وعندنا ما أخّر الله نشأته ووجود عينه إلاّ اعتناء الله به، لأنه لو أوجده الله أوّل الأشياء كان يمرّ عليه وقت لا يكون فيه خليفة، فإنه ما ثم من قد هيّأه لمرتبة الخلافة والنيابة عنه، فلا بدّ أن يتأخر وجود عينه عن وجود الأعيان حتى لا يزول عنه اسم الخلافة دنيا ولا آخرة، فما وجد إلاّ مليكاً سيداً، كما أنه مع غيره لله عبد مملوك ففضل العالم كله بالخلافة فلم تكن لغير الإنسان، وهذه المرتبة أوجبت له أن يخلق على الصورة، ومن قال إن هذه الآية تدل على عدم الاعتناء الإلهي بالإنسان لأن الله متكلم أزلاً عالم بما يكون أزلاً، ونفى أن يكون الإنسان شيئاً مذكوراً مع أنه شيء ولا بدّ لقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فما يؤمر إلاّ من يسمع بسمع ثبوتي أو وجودي، ونفى أن يكون الإنسان مذكوراً في حين من الدهر، والدهر هنا الزمان والحين جزء منه لم يكن فيه الإنسان مذكوراً مع وجوده صورة إنسان، وجهل من شاهد صورته مراداً لله فيه، وما علم له اسم رتبة يذكر به، ولا ماله عند الله من العناية به التي ظهر أثرها عليه حين أقامه خليفة في أرضه وما غرّبه عن موطنه، وهو التراب الذي خلق منه ومواطن ذلّته لشهود عبوديته فإن الأرض ذلول فما حجبته الخلافة عن عبودته، وإن كانت أعلى المراتب فهو فيها بالذات والملائكة المقرّبون فيها بالعرض، يقول تعالىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ لكونه يحيي الموتى ويخلق ويبرىء ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ ثم عطف فقال: ﴿وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧٢] وهم العالون عن العالم العنصري المولد، فهم أعلى نشأة، والإنسان أجمع نشأة فإن فيه الملك وغيره فله فضيلة الجمع، ولهذه جعله معلم الملائكة وأسجدهم له، فمساق الآية يوزن بتقرير النعم عليه، وإنما وقعت الصعوبة في هذا الذكر كونه نكرة، والنكرة تعمّ في مساق النفي، فالتنكير يوزن بتعميم نفي الذكر عنه من كل ذاكر، وهو دليل على أن الله ما ذكره لمن أوجد قبله من الأعيان، وإن كان مذكوراً له في نفسه ثم ذكره لملائكته بمرتبته التي خلق لها لا باسمه العلم الذي هو آدم فاعلم.

الباب العشرون ومائة
في معرفة مقام الشكر وأسراره

[نظم: البسيط]

الشُّكْرُ شكران شُكْرُ الفَوْز والرِّفَدِ هذا من الروح والثاني من الجَسَدِ
فالشكرُ للرِّفْدِ يعطيني زيادتَه والشكرُ للفوز مثلُ السَّلْب للأَحَدِ
والشكر للفوز محصورٌ بغايته والشكرُ للرِّفْد لا يجري إلى أَمَدِ

اعلم أن درجات الشكر في الأسرار الإلهية ألف درجة ومائتان وإحدى وخمسون درجة عند العارفين من أهل الله، وعند الملامية منهم ألف ومائتان وعشرون، ودرجاته في الأنوار عند العارفين خمسمائة وإحدى وخمسون درجة، وعند الملامية من أهل الأنوار خمسمائة وعشرون درجة. اعلم أيّدك الله أن الشكر هو الثناء على الله بما يكون منه خاصة لصفة هو عليها من حيث ما هو مشكور، ومن أسمائه الشكور وشاكر وقد قال: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٧] فهي صفة تقتضي الزيادة من المشكور للشاكر وهي واجبة بالاتفاق عقلاً عند طائفة وشرعاً عند طائفة، فإن شكر المنعم يجب عقلاً وشرعاً، وما تسمى الله تعالىٰ بشاكر لنا إلاً لنزيده من العمل الذي أعطاه أن يشكرنا عليه لنزيده منه كما يزيدنا نعمة إذا شكرناه على نعمه وآلائه، ولا يصحّ الشكر إلاّ على النعم فتفطن لنسبة الشكر إليه تعالىٰ ببنية المبالغة في حق من أعطاه من العمل ما تعين على جميع أعضائه وقواه الظاهرة والباطنة في كل حال بما يليق به، وفي كل زمان بما يليق به، فيشكره الحق على كل ذلك بالاسم الشكور وهذا من خصوص أهل الله.

وأما العامة فدون هذه الرتبة في أعمال الحال والزمان وجميع الكل، فإذا أتوا بالعمل على هذا الحد من النقص تلقاهم الاسم الشاكر لا الشكور، فهم على كل حال مشكورون ولكن قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سورة سبأ: الآية ١٣] فهم خاصة الله الذين يرون جميع ما يكون من الله في حقهم وفي حق عباده نعمة إلهية سواء سرهم ذلك أم ساءهم فهم يشكرون على كل حال، وهذا الصنف قليل بالوجود وبتعريف الله إيانا بقلتهم.

وأما الشاكرون من العباد فهم الذين يشكرون الله على المسمى نعمة في العرف خاصة، والشكر نعت إلهي وهو لفظي وعلمي وعملي، فاللفظي الثناء على الله بما يكون منه على حد ما تقدم. والعملي قوله تعالىٰ: ﴿وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سورة سبأ: الآية ١٣] فهذا هو الشكر العملي. وقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ١١] فهو موجّه له وجه إلى اللفظ وهو الذكر بما أنعم الله به عليه، فإذا ذكر ما أنعم الله به عليه من النعم المعلومة في العرف من المال والعلم فقد عرض نفسه لنقصد في ذلك فيجود به على القاصد فيدخلك في الشكر العملي لأن من النعم ما يكون مستوراً لا يعرف صاحبها أنه صاحب نعمة فلا يقصد، فإذا حدث بما أعطاه الله وأنعم عليه به قصد به ذلك،

فلهذا أمر بالحديث بالنعم، والتحدّث بالنعم شكر والإعطاء منها شكر على شكر، فجمع بين الذكر والعمل فيقول: الحمد لله المنعم المفضل. وأما الشكر العلمي وهو حق الشكر فهو أن يرى النعمة من الله فإذا رأيتها من الله فقد شكرته حق الشكر. خرّج ابن ماجه في سننه عن رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ أَوْحَىٰ إِلَىٰ مُوسَىٰ يَا مُوسَىٰ اشْكُرْنِي حَقَّ الشُّكْرِ، قَالَ مُوسَىٰ: يَا رَبِّ وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَىٰ ذَلِكَ؟ قَالَ: يَا مُوسَىٰ إِذَا رَأَيْتَ النِعْمَةَ مِنِّي فَقَدْ شَكَرْتَنِي حَقَّ الشُّكْرِ**» هذا حال من رأى النعمة.

ومن نعمته على عبده أن يوفقه لبذل ما عنده من نعم الله على المحتاجين من عباده، فيعطيهم بيد حق لا بيده، فهم ناظرون في هذه النعمة، وهي رؤيتهم ذلك التصريف من عند الله في مرضاة الله، فيدخلون في حزب من شكره حق الشكر، وهذا هو أعلى الشكر في الشاكرين، وهو هين على العارفين المتجردين عن أوصافهم برد الأمور إلى الله، وليس لهذا المقام نسبة إلاّ لعالم البرازخ وهو الجبروت ليعم الطرفين، فإن البرازخ أتم المقامات علماً بالأمور وهو مقام الأسماء الإلهية فإنها برزخ بيننا وبين المسمّى، فلها نظر إليه من كونها اسماً له، ولها نظر إلينا من حيث ما تعطي فينا من الآثار المنسوبة للمسمّى فتعرف المسمّى وتعرفنا.

واختلف أصحابنا في الزيادة التي يعطيها الشكر هل هي من جنس ما وقع الشكر عليه أو لا يكون إلاّ من نعم أخر أو منهما، فالمحققون يجعلونها من الجنس المشكور من أجله، وما لم يكن من جنسه فما هو من الزيادة التي أوجبها الشكر، بل تكون تلك النعم من باب المنة ابتداء لا من باب الجزاء. ومنهم من قال: أي نعمة وقعت بعد الشكر فهي جزاء وهي الزيادة، وما لم يقع عقيب شكر من النعم فهو من عين المنة، وإنما قالوا ذلك لعدم معرفتهم بالمناسبة بين الأشياء التي اختارها الحكيم سبحانه، وقصد القوم القائلون بهذا تنزيه الحق عن التقييد، بل يعطي ممّا شاء من غير تقييد، فالمحققون أكبر علماً منهم وهؤلاء في الظاهر أنزه، وفي المعنى: الكل سواء في تنزيه الحق، والله الموفق. انتهى الجزء التاسع والتسعون.

(الجزء الموفي مائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأحد والعشرون ومائة
في مقام ترك الشكر

[نظم: الطويل]

إذا كان حالُ الشُّكر يُعطي زيادة   وكان الإلهُ الحقُّ سمْعَك والبَصَرْ
فلا يقْبَلُ الحقُّ الزيادةَ فانتقدْ   كلامي تجدْهُ عبرةً لمن اعتَبَرْ
فقد زال حكمُ الشكر من كل عالمٍ   بما قلته فالتَّرْكُ للشكر قد شَكَرْ

اعلم أنه ما من عمل إلاّ وهو أمر وجودي، وما من أمر وجودي إلاّ وهو دلالة على

وجود الله وتوحيده، سواء كان ذلك الأمر مذموماً عرفاً وشرعاً، أو محموداً عرفاً وشرعاً، وإذا كان دلالة فهو نور والنور محمود لذاته، فما ثم ما يجري عليه لسان ذم على الإطلاق، كما أنه ما ثم معصية من مؤمن خالصة غير مشوبة بطاعة وهي الإيمان بكونها معصية فتحقق هذا ثم حقيقة أخرى أنه ما ثم تكليف من عمل أو ترك إلاّ والأولوية تصحبه لا بدّ من ذلك فيقال: تركه أولى من العمل، أو العمل به أولى من تركه، وما دخلته الأولوية فما هو خالص لأمر معين، هذا معلوم دلالة عقل وكشف، والله قد جعل الشكر عبادة والعبادات لا تترك، وجعل الصدق عبادة، وما أطلق عليه الحمد في كل موطن، فإنّ الغيبة صدق وهو صدق مذموم، والنميمة بالسوء صدق وهو مذموم، ومواطن كثيرة للصدق يكون الصدق مذموماً فيها مع الإطلاق، إذ الصدق صفة محمودة، فإذا أخذه التفصيل ميزته المواطن عرفاً وشرعاً، كما أن الكذب بمطلقه صفة مذمومة، فإذا أخذه التقييد والتفصيل ميزته المواطن عرفاً وشرعاً، فإذا شكر الإنسان ربه ورأى الشكر والنعمة منه فقد أتى صفة محمودة وهو عبادة، فمن أدّاها من حيث ما هي عبادة خاصة ولم يخطر له الشكر من أجل المزيد من جهة هذه العبادة كما أنه أيضاً طلب المزيد من العلم عبادة مأمور بها فهنالك يكون طلب الزيادة عبادة، وأمّا في غير ذلك الموطن فما هو عبادة مشروعة.

فإذا أدّى الإنسان شكر رب النعمة بفصولها من غير طلب الزيادة فكأنه ترك ما يعطيه الشكر، وما يقتضيه طبع النفوس بذاتها من طلب زيادات النعم، ولا يمنع هنا كون الحق سمعه وبصره أن يكون تاركاً لطلب الزيادة إذا كان الحق لا ينقصه شيء، فإن الله قد اتصف بكونه شاكراً وشكوراً، وطلب الزيادة من أعمالنا من كونه شكوراً، فتعين علينا بل وجب أن نعطي الشكر الإلهي حقّه وهو الزيادة منا فيما شكر منا، والزيادة عبادات سواء كان ذلك تركاً أو عملاً، فترك الشكر برؤية العمل من الإنسان ترك صحيح لحق الشكر الذي يجب له وهذا مقام العموم، فيصحّ ترك الشكر من العامة من أهل الله. وأما من قال: شكر النعمة أنه حجاب على المنعم فما عنده معرفة بالحقائق، فإنّ ذلك لا يصحّ في كل من شكر نعمة فبالضرورة شكر المنعم بها، غير أن بعض الناس لا يرى المنعم إلاّ السبب، وبعض الناس يرى المنعم الله سبحانه، والكمل من الناس يرون الله والسبب فيشكر الله حقيقة، ويشكر السبب عن أمر الله عباده من حيث أمرهم بشكره فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٤] وقال: لا يشكر الله من لم يشكر الناس، فهذا مقام ترك الشكر، أي ترك توحيد شكر المنعم الأصلي لأنه شرّك في شكره بين المنعم بالأصالة وبين السبب عن أمر الله فإنه مقام صعب غامض أعني ترك الشكر لكون الله اتصف بالشكر وطلب الزيادة ممّا شكرنا من أجله فالتخلص من ذلك عسير، وأمّا إذا كان مجلاه ووقته أن يكون الحق هو الشاكر والمشكور وسلب الأفعال عن المخلوقين فقد ترك الشكر في حال كونه شاكراً فيرى الحق إمّا شاكراً مطلقاً والعبد لا شكر له البتة، وإمّا أن يرى الحق تعالىٰ شاكراً به أي بعبده بما هو العبد عليه من الشكر، فهذا تارك للشكر من وجه موصوف بالشكر من وجه، وهذا سار في جميع ما يصدر من العبد من الأفعال مشهد عزيز من عين المنة.

هذه المسألة كانت عندي من أصعب المسائل، وما فتح لي فيها بما هو الأمر عليه على القطع الذي لا أشك علماً سوى ليلة تقييدي لهذا الباب في هذه المجلدة وهي ليلة السبت السادس من رجب الفرد سنة ثلاث وثلاثين وستمائة فإنه لم يكن تتخلص لي إضافة خلق الأعمال لأحد الجانبين، ويعسر عندي الفصل بين الكسب الذي يقول به قوم وبين الخلق الذي يقول به قوم، فأوقفني الحق بكشف بصري على خلقه المخلوق الأوّل الذي لم يتقدّمه مخلوق إذ لم يكن إلاّ الله وقال لي: هل هنا أمر يورث التلبيس والحيرة؟ قلت: لا، قال لي: هكذا جميع ما تراه من المحدثات ما لأحد فيه أثر ولا شيء من الخلق فأنا الذي أخلق الأشياء عند الأسباب لا بالأسباب فتتكوّن عن أمري، خلقت النفخ في عيسىٰ، وخلقت التكوين في الطائر، قلت له: فنفسك إذا خاطبت في قولك افعل ولا تفعل، قال لي: إذا طالعتك بأمر فالزم الأدب فإن الحضرة لا تحتمل المحاققة قلت به وهذا عين ما كنا فيه ومن يحاقق ومن يتأدّب وأنت خالق الأدب والمحاققة، فإن خلقت المحاققة فلا بدّ من حكمها، وإن خلقت الأدب فلا بدّ من حكمه، قال: هو ذلك فاستمع إذا قرىء القرآن وأنصت، قلت: ذلك لك أخلق السمع حتى أسمع وأخلق الإنصات حتى أنصت وما يخاطبك الآن سوى ما خلقت، فقال لي ما أخلق إلاّ ما علمت وما علمت إلاّ ما هو المعلوم عليه ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] وقد أعلمتك هذا فيما سلف فالزمه مشاهدة فليس سواه ترح خاطرك ولا تأمن حتى ينقطع التكليف ولا ينقطع حتى تجوز على الصراط، فحينئذ تكون العبادة من الناس ذاتية ليست عن أمر ولا نهي يقتضيه وجوب أو ندب أو حظر أو كراهة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والعشرون ومائة
في معرفة مقام اليقين وأسراره

[نظم: البسيط]

إن اليقينَ مَقَرُّ العلم في الخَلَدِ ... في كل حالٍ بوَعْد الواحد الصَّمَدِ
إن اليقينَ الذي التَّحقيقُ حصَّلَهُ ... اعكُفْ عليه ولا تنظُرْ إلى أحَدِ
فإن تَزَلْزَل عَن حُكم الثباتِ فما ... هو اليقينُ الذي يَقْوَى به خَلَدي

واليقين هو قوله لنبيه ﷺ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٩] وحكمه سكون النفس بالمتيقن أو حركتها إلى المتيقن، وهو ما يكون الإنسان فيه على بصيرة أي شيء كان، فإذا كان حكم المبتغي في النفس حكم الحاصل فذلك اليقين سواء حصل المتيقن أو لم يحصل في الوقت، كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [سورة النحل: الآية ١] وإن كان لم يأت بعد ولكن تقطع النفس المؤمنة بإتيانه، فلا فرق عندها بين حصوله وبين عدم حصوله وهو قول من قال: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، مع أن المتيقن ما حصل في الوجود العيني فقال الله لنبيه ولكل عبد يكون بمثابته: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ فإذا أتاك اليقين علمت

من العابد والمعبود ومن العامل والمعمول به، وعلمت ما أثر الظاهر في المظاهر، وما أعطت المظاهر في الظاهر.

واعلم أن لليقين علماً وعيناً وحقاً ولكل حق حقيقة، وسيرد ذلك في باب له مفرد بعد هذا من هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ، وإنما جعل له علماً وعيناً وحقاً لأنه قد يكون يقيناً ما ليس بعلم ولا عين ولا حق، ويقطع به من حصل عنده وهو صاحب يقين لا صاحب علم يقين، واختلف أصحابنا في اليقين هل يصحّ أن يكون يقين أتم من يقين أم لا؟ فإنه روي عن النبي ﷺ أنه قال في عيسىٰ عليه السلام: «**لو ازداد يقيناً لمشى في الهواء**» أشار به إلى ليلة الإسراء وأن باليقين صحّ له المشي في الهواء، وهذا التفسير ليس بشيء فإنه أسرى به ربه ليريه من آياته وبعث إليه بالبراق فكان محمولاً في إسرائه. ومثل هذا الحديث لا يصحّ عن رسول الله ﷺ أنه أشار بذلك إلى نفسه، ومعلوم أنه ليس أحد من البشر يماثله في اليقين، لكنه ما مشى في الهواء بيقينه، وإنا جاءه جبريل عليه السلام بدابة دون البغل وفوق الحمار تسمّى البراق فكان والبراق هو الذي مشى في الهواء، ثم أنه ﷺ لما انتهى البراق به إلى الحدّ الذي أذن له نزل عنه وقعد في الرفرف وعلا به إلى حيث أراد الله وغفل الناس عن هذا كله، فما أسرى به ﷺ لقوّة يقينه بل يقينه في قلبه على ما هو به من التعلّق بالمتيقن العام كان ما كان لكنه ممّا فيه سعادته، لأنه وصف به في معرض المدح، ولنا في اليقين جزء شريف وضعناه في مسجد اليقين مسجد إبراهيم الخليل في زيارتنا لوطاً عليه السلام، فقد يتيقن الجاهل أنه جاهل والظان أنه ظان والشاك أنه شاك فيما هو فيه شاك، وكل واحد صاحب يقين قاطع بحاله الذي هو عليه علماً كان أو غير علم.

فإن قلت: فأين شرفه؟ قلنا: شرفه بشرف المتيقن كالعلم سواء ولهذا جاء بالألف واللام في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٩] يريد متيقناً خاصاً ما هو يقين يقع المدح به بل هو يقين معين. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٥٧] يريد ما هو مقتول في نفس الأمر لا عندهم بل شبه لهم، فهذا يقين مستقل ليس له محل يقوم به فإنهم متيقنون أنهم قتلوه والله ليس بمحل لليقين فلم يبق محل لليقين سوى القتل، وهذا من باب قيام المعنى بالمعنى، فإن اليقين معنى والقتل معنى، فالقتل قد تيقن في نفسه أنه ما قام بعيسىٰ عليه السلام، فالقتل موصوف في هذه الآية باليقين، وأصدق المعاني ما قام بالمعاني، وهذه المسألة عندنا من محارات العقول ممّا لا يقضى فيها بشيء، وعند بعضنا يلحقه بالمحال، وعند بعضهم ممكنة واقعة، وبالجملة فاليقين عزيز الوجود في الأمور الطبيعية المعتادة، فإن العادة تسرق الطبع ولا سيما في الأمور التي بها قوام البدن الطبيعي، فإذا فقد ما به يصل إلى ما به قوامه فإنه يتألم والألم لا يقدح في اليقين فإنه ما يضادّه، ولكن قل إن يتألم ذو ألم إلاً ولا بدّ أن يضطرب ويتحرّك في نفسه، ولا سيما ألم الجوع والعطش والبرد والحرّ، والاضطراب يضادّ اليقين، فإن اليقين سكون النفس إلى من بيده هذه الأمور المزيلة لهذه الآلام، فيريد من قامت به الآلام سرعة زوالها طبعاً، وإذا كان هذا فنسلك في اليقين طريقة

غير ما يتخيلها أهل الطريق، وهو أن الاضطراب لا يقدح في اليقين إذا كان هبوب اليقين في إزالة تلك الآلام إلى جناب الحق لا إلى الأسباب المزيلة في العادة، فإن شاء الحق أزالها بتلك الأسباب أزالها بأن يوجد عنده تلك الأسباب، وإن شاء أزالها بغير ذلك فصار متعلق اليقين الجناب الإلهي لا غير، وهذا قد يكون كثيراً في رجال الله، ودرجات اليقين عند العارفين مائتا درجة ودرجة واحدة، وعند الملامية مائة وسبعون درجة وهو ملكوتي جبروتي له إلى الملكوت نسبة واحدة، وعند العارفين نسبتان لأنه عند العارفين مركب من ست حقائق، ونشأته عند الملامية من أربع حقائق، وله السكون الميت والحي، فبالسكون الحيّ يضطرب صاحبه، وبالسكون الميت يتعلق بالله، فما يضطرب فيه من غير تعيين مزيل بل بما أراد الله أن يزيله.

الباب الثالث والعشرون ومائة
في معرفة مقام ترك اليقين وأسراره

[نظم: الوافر]

إذا وقفَ العبيدُ مع المريدِ ... يُزيلُ يقينُه حُكمَ الإرادَهْ
ويُعطي الحقَّ رُتْبَتَه لئلا ... يقيِّدَه فيقْدَحَ في العبادَهْ
فيفعل ما يشاء كما يشاء ... بلا جَبْرٍ ولا حُكم لعادَهْ
وقد دلَّ الدليلُ بغير شكٍّ ... ولا ريبٍ على نَفْيِ الإعادَهْ
لأن الجَوْهَرَ المعلومَ باقٍ ... على ما كان في حُكم الشَّهادَهْ
فيخلع منه وقتاً أو عليه ... بمِثْلٍ أو بضدٍّ للإفادَهْ

اعلم وفقك الله أني أردت بنفي الإعادة الذي نقول إنه لا يتكرر شيء في الوجود للاتساع الإلهي، وإنما هي أعيان أمثال لا يدركها الحسّ، إذ لا يدرك التفرقة بينها، أريد بين ما انعدم منها وما تجدد، وهو قول المتكلمين أن العرض لا يبقى زمانين لما كان اليقين فيه رائحة من مقاومة القهر الإلهي مثل الصبر ترك أهل الله الاتصاف به وتعلمه وطلبه من الله، فإذا أتى من عند الله من غير تعمّل من العبد قبله العبد أدباً مع الله ولم يرده على الله إذا أراد الله أن يصير هذا العبد محلاً لوجود هذا اليقين، ويكون حكمه في هذا المحل التعلّق بالله في دفع الضرر عن هذا العبد، فيكون ذلك سؤال اليقين، وتعلّقه بجناب الحق لا بتعلّق العبد ولا بسؤاله، وذلك لما كان العبد سبباً في ظهور عين اليقين لعدم قيام اليقين بنفسه كان للمحل عند هذا اليقين يد أراد مكافأتها، فيسأل اليقين موجده تعالىٰ رفع الضرر عن هذا المحل إذ اليقين لا يوجد إلاّ لرفع الضرر، وأما في حال المنفعة فلا حكم له إلاّ في استدامتها لا فيها فإنها حاصلة. فإن توهم العبد إزالتها فإن اليقين بطلب من الله استمرار وجودها في محله، فبهذا القدر يكون ترك اليقين أي العبد لا يعترض على اليقين في سؤاله ربه ما شاء فهو تاركه يفعل ما يريد، فلا يتصف العبد هنا بشيء، ومع هذا التحقيق فالمسألة غامضة بعيدة التصوّر، فالعبد

في أصله مضطرب متزلزل الملك فلا يقين له من حيث حقيقته فإنه محل لتجدد الإعراض عليه، واليقين سكون وهو عرض فلا ثبوت له زمانين والله تعالىٰ كل يوم في شأن، وأصغر الأيام الزمن الفرد، فقد أبنت لك أن أهل الله في نفوسهم بمعزل عما يطلبه اليقين وأن اليقين هو السائل، ولهذا قال له: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٩] فيكون اليقين هو الذي يسأل ويتعب وأنت مستريح فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فإن الوقوف مع إرادة الله لا يتمكن معها سكون أصلاً لأنه خروج عن حقيقة النفس، والشيء لا يخرج عن حقيقته إذ خروج الشيء عن حقيقته محال، فلا طمأنينية مع المريد إلاً عن بشرى فإنه يسكن عند ذلك لصدق القول وتكون البشرى معينة موقتة وحينئذ يكون له السكون إليها وهو اليقين. وقد ورد أن الملائكة يخافون من مكر الله ولا يقين مع الخوف فإن سكن العبد إلى قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] لا يزول عنه فذلك السكون قد يسمّى يقيناً، ولكن يورث في المحل خلاف ما يطلب من حكم اليقين الذي اصطلح عليه أهل الله. وأما نحن فاليقين عندنا موجود في كل أحد من خلق الله، وإنما يقع الخلاف بماذا يتعلق اليقين، فاليقين صفة شمول وليست من خصوص طريق الله التي فيها السعادة إلاً بحكم متيقن ما، فهذا تحقيقه والله الموفق لا رب غيره.

الباب الرابع والعشرون ومائة

في معرفة مقام الصبر وتفاصيله وأسراره

[نظم: الطويل]

تَـنـوَّعَ شـربُ الـصـبـر فـي كـل مَـشْـرَبِ ... بـعَـنْ وعَـلـى أو فـي وبـالـبـاء والـلام

ولـيـس يـكـونُ الـصـبـرُ إلاً عـلـى أذًى ... وجـوداً وتـقـديـراً بـأنـواع آلامِ

وعـيَّـنَ لـلـحـق الـصـبـور أذًى أتـى ... بـمُـحْـكَـم آيـاتِ الـكـتـابِ لأعـلامِ

فلا صَبْرَ في النَّعْماء إن كنتَ عالماً ... بـقـولِ إمـامٍ صـادقِ الـحـكـمِ عَـلاَّمِ

اعلم وفقك الله أن الله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٧] فأخبر أنه يؤذى فتسمّى سبحانه بالصبور على أذى خلقه، وكما سأل عباده رفع الأذى مع استحقاقه اسم الصبور، كذلك لا يرفع اسم الصبر عن العبد إذا حلّ به بلاء فسأل الله تعالىٰ في رفع ذلك البلاء كما فعل أيوب عليه السلام فقال: ﴿ مَسَّنِيَ﴾ أنت ﴿ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٣] وأثنى الله عليه فقال مع هذا السؤال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ﴾ [سورة ص: الآية ٤٤] فليس الصبر حبس النفس عن الشكوى إلى الله في رفع البلاء أو دفعه، وإنما الصبر حبس النفس عن الشكوى إلى غير الله والركون إلى ذلك الغير، وقد أبنت لك أنّ الله طلب من عباده رفع الأذى الذي آذوه به مع قدرته على أن لا يخلق فيهم ما خلق من الأذى، فتفطن لسر هذا الصبر فإنه من أحسن الأسرار، وقد ورد أنه لا أحد أصبر على أذى من الله. وهو من المقامات التي تنقطع وتزول إذا دخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة وتميز الفريقان

تميز الانقطاع أن لا يلحق أحد بغير الدار التي هو فيها، والصبر الإلهي يزول حكمه بزوال الدنيا، وهذه بشرى بإزالة اسم المنتقم والشديد العقاب، إذ قد رأينا إزالة الصبور ورحمته سبقت غضبه.

فحكمة زوال الدنيا رفع الأذى عن الله إذ لا يكون إلاّ فيها، فأبشروا عباد الله بشمول الرحمة واتساعها وانسحابها على كل مخلوق سوى الله ولو بعد حين، فإنه بإزالة الدنيا زال الأذى عن كل من أوذي، وبزوال الأذى زال الصبر، ومن أسباب العقاب الأذى، والأذى قد زال، فلا بدّ من الرحمة وارتفاع الغضب، فلا بدّ من الرحمة أن تعم الجميع بفضل الله إن شاء الله، هذا ظنّنا في الله، فإن الله وهو الصادق يقول: «أنا عند ظنّ عبدي بي فليظن بي خيراً»، فأخبر وأمر ولم يقيد في حق الظان ولا في غيره، ولهذا سمّي عذاباً ما يقع به الآلام بشرى من الله لعباده، إن الذي تتألمون به لا بدّ إذا شملتكم الرحمة أن تستعذبوه وأنتم في النار كما يستعذب المقرور حرارة النار، والمحرور برودة الزمهرير، ولهذا جمعت جهنم النار والزمهرير لاختلاف المزاج، فما يقع به الألم لمزاج مخصوص يقع به النعيم في مزاج آخر يضادّه، فلا تتعطل الحكمة ويبقي الله على أهل جهنم ،الزمهرير على المحرورين والنار على المقرورين فينعمون في جهنم فهم على مزاج لو دخلوا به الجنة تعذبوا بها لاعتدالها.

ثم اعلم أن الصبر يتنوع بتنوع الأدوات، فالصبر في الله إذا أوذي فيه، والصبر مع الله رؤية المعذب في العذاب، والصبر على الله حال فقده لربه بوجود نفسه غير مقترنة بوجود ربه، والصبر بالله أن يكون الحق عين صبره كما هو سمعه وبصره، والصبر من الله حال رفع الحول والقوّة منك فلا تقول: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله فيزول بالاستعانة، والصبر عن الله وهو أعظمها مقاماً وهو الصبر الذي يزول بالموت ولا يوجد في الآخرة فإن صاحب هذا الصبر ينسب الصبر إليه نسبة الاسم الصبور إلى الله ولهذا يرتفع بزوال الدنيا، وفي العبد بزواله عن الدنيا، ومن زلت عنه فقد زال عنك فهؤلاء أخذوا الصبر عن الله، كما تقول: أخذت هذا العلم عن فلان فأنت فيه كهو كذلك قول سليمان عليه السلام: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ [سورة ص: الآية ٣٢] لأنه سمّاه خيراً والخير منسوب إلى الله فقال: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ [سورة ص: الآية ٣٢] إياه بالخيرية أحببته، فطفق يمسح بيده على أعرافها وسوقها فرحاً وإعجاباً بخير ربه، فإنه أحب حب الخير، وحب الخير إما أن يريد حب الله إياه أو حب الخير من حيث وصف الخير بالحب، والخير لا يحب إلاّ الأخيار فإنهم محل وجود عينه، فكذلك سليمان عليه السلام قال: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي أنا في حبي كالخير في حبّه، ولهذا لما توارت بالحجاب أعني الصافنات الجياد أشتاق إليها لأنه فقد المحل الذي أوجب له هذه الصفة الملذوذة فإنها كانت مجلى له فقال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ [سورة ص: الآية ٣٣].

وأما المفسرون الذي جعلوا التواري للشمس فليس للشمس هنا ذكر ولا للصلاة التي يزعمون، ثم إنهم يأخذون في ذلك حكايات اليهود في تفسير القرآن، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن لا نصدّق أهل الكتاب ولا نكذبهم، فمن فسّر القرآن برواية اليهود فقد ردّ

أمر رسول الله ﷺ، ومن ردّ أمر رسول الله ﷺ فقد ردّ أمر الله فإنه أمر أن نطيع الرسول وأن نأخذ ما أتانا به، وأن ننتهي عما نهانا عنه، إذ لا يوصلنا إلى أخبار هؤلاء الأنبياء الإسرائيليين إلاّ نبيّ فنصدقه، أو أهل كتاب فنقف عند أخبارهم إذا لم يكن في كتابنا ولا قول رسولنا ﷺ ولا في أدلة العقول ما يرده ولا يثبته ولا نقضي فيه بشيء، وأما مساق الآية فلا يدل على ما قالوه بوجه ظاهر البتة.

وأما استرواحهم فيما فسروه بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ [سورة ص: الآية ٣٤] فليس تلك الفتنة وهو الاختبار إذا كان متعلقه الخيل ولا بدّ فيكون اختباره إذا رآها هل يحبها عن ذكري لها أو هل يحبها لعينها، فأخبر ﷺ أنه أحبها عن ذكر ربه إياها لا نفسها مع حسنها وجمالها وحاجته إليها، وهي جزء من الملك الذي طلب أن لا ينبغي لأحد من بعده، فأجابه الحق إلى ما سأل في المجموع ورفع الحرج عنه وقال له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة ص: الآية ٣٩] ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا﴾ يعني في الآخرة ﴿لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [سورة ص: الآية ٤٠] أي ما ينقصه هذا الملك من ملك الآخرة شيء كما يفعله مع غيره، حيث أنقصه من نعيم الآخرة على قدر ما تنعم به في الدنيا، قال الله تعالىٰ في حق قوم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٢٠] فالصبر عن الله بهذا التفسير أعظم أنواع الصبر. وأما الصبر عن الله على ما يتخيله العامة من الصبر عن كذا لمفارقته إياه فليس ذلك من شأن أهل الله، والشبلي لما غشي عليه من قول الشاب: إن الصبر عن الله أعظم الصبر غشي عليه لعظم المقام الذي لا يناله إلاّ الكمّل من الرجال فلما لاح للشبلي من كلام الشاب كان وارده أقوى من محل الشبلي فلذلك أثر فيه الغشي، وهكذا كل وارد يكون أقوى من قوّة المحل، فإنه يفعل فيه الغشي والصعق، وليس لأهل الله قدم في الصبر عن الله على تفسير العامة، وللصبر درجات عند العارفين من أهل الأنوار ثلاثمائة وثلاث وعشرون درجة، وعند أهل الأسرار منهم مائتان وثلاث وتسعون درجة، وعند الملامية من أهل الأنوار مائتان واثنتان وتسعون، وعند أهل الأسرار منه مائتان واثنتان وستون درجة.

الباب الخامس والعشرون ومائة
في معرفة مقام ترك الصبر وأسراره

[نظم: الطويل]

وفي الصبر من سُوءِ الصَّنيعةِ أنه ... يقاوم قَهْرَ الحقِّ في كل إقدامِ
فلا صَبْرَ عند العارفين فإنهم ... من الضَّعْفِ في بحر على سيفه طامِ

اعلم علّمك الله أن في الصبر المعروف عند العامة مقاومة القهر الإلهي وسوء أدب مع الله، وما ابتلى الله عباده إلاّ ليتضرعوا إليه ويسألوه في رفع ما ابتلاهم به من البلاء عنهم، لأنه دواء لما تعطيهم في نفوسهم من المرض الصورة التي خلقوا عليها فيدعيها من لم تكمل فيه الصورة فإنه من كمالها الخلافة وهم المكملون من الرجال، ومن لم تحصل له درجة الخلافة

فما هو على الصورة فإنه بالمجموع يكون بالصورة، قال بعضهم وقد بكى حين أخذه الجوع: إنما جوعني لأبكي فهو يبكي له وعليه، فإن أكابر الرجال لا يحبسون نفوسهم عن الشكوى إلى الله، فإذا مدح الله الصابرين فهم الذين حبسوا نفوسهم عن الشكوى لغير الله، وهذا مذهب الأكابر، ألا ترى سمنون لما أساء الأدب مع الله وأراد أن يقاوم القدرة الإلهية لما وجد في نفسه من حكم الرضى والصبر قال: [مخلع البسيط]

وليس لي في سواك حَظٌّ فكيف ما شئتَ فاختبرني

فابتلاه الله بعسر البول والنفس مجبولة على طلب حظها من العافية، ولما سأل هذا كان في حكم حال العافية، فلما سلبها بهذا البلاء طلبتها النفس بما جبلت عليه، وقد ذكرنا ذلك في صفات النفس وأن الله عين لها مصارف لما علمه من أنها لا تنعدم، إذ لو انعدمت لانعدمت النفس، فهو وصف ذاتيّ لها. ألا ترى إلى عالم العلماء وحاكم الحكماء كيف كان سؤاله العافية وأمر بها فقال: «**إذا سَألْتُمُ الله فاسْألُوهُ العَافيةَ**»، فإن كنتم أهل بلاء فقد سألتم العافية، وإن كنتم أهل عافية فقد سألتم دوامها، وهي مشتقة من عفى الأثر إذا ذهب، فالعافية ذهاب أثر البلاء ممّن قام به، فمن الأدب مع الله وقوف العبد مع عجزه وفقره وفاقته، فإن الغناء بالله لا يصحّ عن الله ولا عن المخلوقين من حيث العموم، لكنه يصحّ من حيث تعيين مخلوق ما يمكن أن يستغنى عنه بغيره فإن الله ما وضع الأسباب سدى، فمنها أسباب ذاتية لا يمكن رفعها هنا، ومنها أسباب عرضية يمكن رفعها، فمن المحال رفع التأليف والتركيب عن الجسم مع بقاء حكم الجسمية فيه، فهذا سبب لا يمكن زواله إلاّ بعدم عين الجسم من الوجود، وإذا كانت الأسباب الأصلية لا ترتفع فلنقر الأسباب العرضية أدباً مع الله ولا نركن إليها ونبقي الخاطر معلقاً بالله، ولا يصحّ أن يتعلق بالله لله فإنه محال، وإنما يتعلق بالله للأسباب فهذا حد المعرفة بها، فقد بان لك معنى ترك الصبر.

الباب السادس والعشرون ومائة

في معرفة مقام المراقبة

[نظم: الخفيف]

كُنْ رقيباً عليه في كل شَأنِ فهو سبحانَه عليكَ رقيبُ
في حضور وغَيْبةٍ لشؤونِ ولذا لي في كل حالٍ نَصيبُ
فإذا ما أتى أَوانُ فراغ لا أُبالي وإنَّ ذا لَعجيبُ

المراقبة نعت إلهي لنا فيه شرب، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٢] وهو قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] يعني السموات وهو العالم الأعلى، والأرض وهو العالم الأسفل، وما ثم إلاّ أعلى وأسفل، وهو على قسمين: عالم قائم بنفسه، وعالم غير قائم بنفسه، فالقائم بنفسه جواهر وأجسام، وغير القائم بنفسه أكوان وألوان وهي الصفات والأعراض، فعالم الأجسام والجواهر لا بقاء لهما إلاّ بإيجاد

الأعراض فيهما، فمتى لم يوجد فيهما العرض الذي به يكون بقاؤها وجودها تنعدم، ولا شك أن الأعراض تنعدم في الزمان الثاني من زمان وجودها، فلا يزال الحق مراقباً لعالم الأجسام والجواهر العلوية والسفلية كلما انعدم منها عرض به وجوده خلق في ذلك الزمان عرضاً مثله أو ضده يحفظه به من العدم في كل زمان، فهو خلاق على الدوام، والعالم مفتقر إليه تعالىٰ على الدوام افتقاراً ذاتياً من عالم الأعراض والجواهر، فهذه مراقبة الحق خلقه لحفظ الوجود عليه، وهذه هي الشؤون التي عبر عنها في كتابه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩].

ومراقبة أخرى للحق في عباده وهي نظره إليهم فيما كلفهم من أوامره ونواهيه ورسم لهم من حدوده وهذه مراقبة كبرياء ووعيد، فمنهم من وكّل بهم من يحصي عليهم جميع ما يفعلونه مثل قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق: الآية ١٨] ومثل قوله: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة الانفطار: الآيتان ١١ ، ١٢] وقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة يس: الآية ١٢] ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٤] فهذه مراقبة الحق. وأما مراقبة العبد فهي على ثلاثة أقسام: الواحد منها لا يصحّ والإثنان يصحّ وجودهما من العبد. أما المراقبة التي لا تصحّ فهي مراقبة العبد ربه ولا يعلم ذاته ولا نسبته إلى العالم، فلا يتصور وجود هذه المراقبة لأنها موقوفة على العلم بذات المراقب بفتح القاف، وثم طائفة أخرى قالت بصحة تلك المراقبة، فإن الشرع قد حدّد كما ينبغي لجلاله فهو معنا أينما كنا وهو على العرش استوى، وهو في الأرض يعلم سرّنا وجهرنا، وهو في السماء كذلك، وينزل إليها وهو الظاهر في عين كل مظهر من الممكنات فقد علمنا هذا القدر منه فنراقبه على هذا الحد، فمراقبتنا للأشياء هي عين مراقبتنا إياه لأنه الظاهر من كل شيء، فمن الناس من قال: ما رأيت شيئاً إلاَّ رأيت الله قبله يعني المراقبة، وآخر بعده، وآخر معه أو آخر فيه، فمثل هؤلاء يصححون هذه المراقبة.

والمراقبة الثانية مراقبة الحياء من قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [سورة العلق: الآية ١٤] فهو يراقب رؤيته وهي تراقبه، فهو يرقب مراقبة الحق إياه فهذه مراقبة المراقبة وهي مشروعة.

والمراقبة الثالثة هي أن يراقب قلبه ونفسه الظاهرة والباطنة ليرى آثار ربه فيها فيعمل بحسب ما يراه من آثار ربه، وكذلك في الموجودات الخارجة عنه يرقبها ليرى آثار ربه فيها منها وهو قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] ولهذه المراقبة تعلق بالحق إذ لا فاعل إلاَّ الحق، والمراقبة دوام المراعاة بحيث أن لا يتخللها وقت لا يكون العبد فيه مراقباً، فاعلم ذلك وتحققه تعلم شؤون ربك في نفسك، وما يدركه من الموجودات بصرك، وما يصل إليه فكرك وعقلك، وما يشهدك في مشاهدتك، وما تطلع عليه من الغيوب في كونك أو حيث كان ومن هنا تعرف خواطرك، وللمراقبة جاءت الموازين الشرعية وهي خمسة موازين: الفرض والندب والإباحة والحظر والكراهة.

وللمراقبة درجات عند أرباب الأنس والوصال من العارفين ومبلغها سبع مائة درجة

وأربع وسبعون درجة. وعند أرباب الأدب من العارفين: ثلاث مائة درجة وتسع وسبعون درجة. وعند الملامية من أهل الأنس: سبعمائة وثلاث وأربعون درجة. وعند الأدباء منهم: ثمان وأربعون وثلاثمائة درجة، ولها نسب إلى العوالم منها إلى عالم الملك نسبتان، وإلى عالم الملكوت نسبة واحدة عند الأدباء من الطائفتين، وثلاث نسب عند أهل الأنس إلى عالم الجبروت. واعلموا أن الله تعالىٰ أطلعني في ليلة تقييدي هذا الباب على أمر لم يكن عندي في واقعة وقعت لي برزخية قيل لي فيها: ألم تسمع أن الدنيا أمّ رقوب؟ قلت: نعم، قيل لي: فاجعل لها فصلاً في هذا الباب، فاستخرت الله على ذلك.

وصل: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِلدُّنيا أَبْناء**» وَإِذَا كَانَ لَهَا أَبْنَاءٌ فَهِيَ أُمٌّ لِهٰؤُلاَءِ الأَبْنَاءِ، ومن عادة الأمّ أن ترقب أبناءها لأنها المربية لهم ولها عليهم حنو الأمومة والحذر عليهم أن تؤثر فيهم ضرتها وهي الآخرة فيميلون إليها فتحفظهم من مشاهدة خير الآخرة فتشتد مراقبتها لأحوالهم، ثم لتعلموا أن الدنيا هي الدار الأولى القريبة إلينا نشأنا فيها وما رأينا سواها فهي المشهودة وهي الحفيظة علينا والرحيمة بنا، فيها عملنا الأعمال المقربة إلى الله، وفيها ظهرت شرائع الله، وهي الدار الجامعة لجميع الأسماء الإلهية، فظهرت فيها آلاء الجنان وآلام النار، ففيها العافية والمرض، وفيها السرور والحزن، وفيها السر والعلن، وما في الآخرة أمر إلاَّ وفيها منه مثل وهي الأمينة الطائعة لله، أودعها الله أمانات لعباده لتؤديها إليهم، وهذا هو الذي جعلها ترقب أحوال أبنائها ما يفعلون بتلك الأمانات التي أدتها إليهم، هل يعاملونها بما تستحق كل أمانة لما وضعت له؟ فمنها أمانة توافق غرض نفوس الأبناء فترقبهم هل يشكرون الله على ما أولاهم من ذلك على يديها. ومنها أمانات لا توافق أغراضهم فترقب أحوالهم هل يقبلونها بالرضى والتسليم لكونها هدية من الله؟ فيقولون في الأولى: الحمد لله المنعم المفضل، ويقولون فيما لا يوافق الغرض: الحمد لله على كل حال، فيكونون من الحامدين في السراء والضراء، فتعطيهم الدنيا هذه الأمانات نقية طاهرة من الشوب، فبعض أمزجة الأبناء الذين هم كالبقعة للماء والأوعية لما يجعل فيها فيؤثر مزاج تلك البقعة في الماء، فإن الماء كله طيب عذب في أصله وهو المطر، فإذا حصل في بقع الأرض وهي مختلفة البقاع في المزاج ظهر العذب في المزاج الحسن فأبقاه على أصله كما ورد طاهراً لطيفاً، وزاده من مزاجه طيباً وحلاوة زائدة على ما كان عليه وهو الماء النمير، وبقعة أخرى جعلته ملحاً أجاجاً، وبقعة أخرى جعلته قعاماً مراً فأثر في الحال النقي هذه الأوعية، والشرع إنما تعلق بأفعال الأبناء لا بالأم بل قال: ﴿وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] وبما قال: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآيتان ٢٣، ٢٤] فما أوصى الله تعالىٰ بهذه الأمور إلاَّ لعلمه بأنه في الأبناء من يصدر منهم مثل هذه الأفعال، فأمرهم أن يراقبوا هذه الأحكام في أفعالهم حتى يأتوا منها ما أمرهم الله، والدنيا شفيقة عليهم حدبة كثيرة الحنو، خائفة أن تأخذهم الضرة الآخرة منها، فإن الدار في هذا الوقت للدنيا والحكم لها ولا ينبغي أن تعزل عنها، كما أن الدار الآخرة لا تتعرض لها الدار

الدنيا إذا انتقل الناس إليها، فالدنيا أنصف من الآخرة في الحكم فإنها في دار سلطانها.

وإذا جاءت الآخرة وكان يومها لا تعترض الدنيا ولا تزاحم الآخرة فما أنصف أحد من الناس، قال قتادة: ما أنصف الدنيا أحد ذمّت بإساءة المسيء فيها ولم تحمد بإحسان المحسن فيها، فلو كانت بذاتها تعطي القبح والسوء ما تمكن أن يكون فيها نبيّ مرسل ولا عبد صالح، كيف والله قد وصفها بالطاعة فقال إن علوّها وسفلها ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] وقال: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٥] والصالح لا يرث إلاّ المال الصالح الذي يجوز له التصرف فيه فإنه عبد صالح ولم يقل إن جميع العباد يرثها، فدل أن تركتها كان كسباً صالحاً فورثه عباد الله الصالحون.

قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ: لَعَنَ اللَّهُ الدُّنْيَا، قَالَتِ الدُّنْيَا: لَعَنَ اللَّهُ أَعْصَانَا لِرَبِّهِ**» فهذا ابن عاق لها. كيف لعنها وصرّح باسمها والدنيا من حنوها على أبنائها لم تقدر أن تلعن ولدها فقالت: لعن الله أعصانا لربه وما قدرت أن تسميه باسمه فهذا حنو الأم وشفقتها على ولدها، فيا عجباً فينا لم نقف عندما أمرنا الله به من طاعته ولا وفقنا ولا وفينا ما رأيناه من أخلاق هذه الأم وحنوها علينا ومحبتها. وقال النبيّ ﷺ: «**نِعْمَتْ مَطِيَّةُ الْمُؤْمِنِ عَلَيْهَا يَبْلُغُ الْخَيْرَ وَبِهَا يَنْجُو مِنَ الشَّرِّ**» فوصفها بأن حذرها على أبنائها تذكرهم بالشرور وتهرب بهم منها وتزين لهم الخير وتشوقهم إليه، فهي تسافر بهم وتحملهم من موطن الشر إلى موطن الخير، وذلك لشدّة مراقبتها إلى ما أنزل الله فيها من الأوامر الإلهية المسمّاة شرائع، فتحب أن يقوم بها أبناؤها ليسعدوا، فهذا ﷺ قد وصفها بأحسن الصفات وجعلها محلاً للخيرات، فينبغي لأهل المراقبة أن يكون بدؤهم في الدخول لاكتساب هذه الصفة أن يرقبوا أحوال أمهم لأن الطفل لا يفتح عينيه إلاّ على أمه فلا يبصر غيرها فيحبها طبعاً ويميل إليها أكثر ممّا يميل إلى أبيه لأنه لا يعقل سوى من يربيه وبأفعالها ينبغي أن يقتدي. فإن قلت: فلماذا تغار من الآخرة؟ قلنا: لما كان الحكم لها وهي من الطاعة بهذه المثابة وليس للآخرة هنا سلطان، والذي في الآخرة هو في الدنيا من اللذات والآلام فالداران متساويتان فيصعب عليها أن يكون أبناؤها ينسبون إلى الآخرة وما ولدتهم ولا تعبت في تربيتهم، وبعد هذا كله فإن الناس نسبوا ما كانوا عليه من أحوال الشرور التي عينها الشارع إلى الدنيا وهي أحوالهم ما هي أحوال الدينا، لأن الشر هو فعل المكلف ما هو الدنيا، ونسبوا ما كانوا عليه من أحوال الخير ومرضاة اللّه التي عينها الشارع للآخرة وهي أحوالهم ما هي أحوال الآخرة، لأن الخير هو فعل المكلف ما هو الآخرة، فللدنيا أجر المصيبة التي أصيبت في أولادها ومن أولادها. فمن عرف الدنيا بهذه المثابة فقد عرفها، ومن لم يعرفها بهذه المثابة وجهلها مع كونه فيها مشاهداً لأحوالها شرعاً وعقلاً فهو بالآخرة أجهل حيث ما ذاق لها طعماً.

وهنا يطرأ غلط لأهل طريق الله في كشفهم إذ لو تيقنوا في هذه الدار وطولعوا بأحوال الآخرة فليست تلك الآخرة على الحقيقة، وإنما هي الدنيا أظهرها الله لهم في عالم البرزخ بعين الكشف أو النوم في صورة ما جهلوه منها في اليقظة، فإنهم غير عارفين منها ما ذكرناه

فيقولون: رأينا الجنة والنار والقيامة، ويذكرون الرؤيا التي رأوها وأين الدار من الدار وأين الاتساع من الاتساع؟ فذلك الذي رأوه حال الدنيا التي خلقها الله عليها من الخير والطاعة والعدل في الحكومة والنصيحة والوعظ والتذكرة، فإنه معلوم أن القيامة ما هي الآن موجودة، فإذا رؤيت في الحياة الدنيا فما هي إلاَّ قيامة الدنيا وجنة الدنيا ونار الدنيا، وأن الجنة والنار جاءتا خادمتين للدنيا، إذ قال ﷺ بل رؤي في صلاة الكسوف يتقدم في قبلته ثم تأخر تأخراً كثيراً ومدّ يده حين تقدم فسئل عن ذلك، فقال: «إني رأيت النار حين رأيتموني تأخرت مخافة أن يصيبني من لفحها، ورأيت الجنة حين تقدمت وحين مددت يدي لأقطف منها قطفاً ولو خرجت به إليكم لأكلتم منه ما بقيت»، وذكر أنه رأى في النار صاحبة الهرة وعمرو بن لحي الذي سيب السوائب وذلك كله في حال الصلاة في يقظته، وما قال رأيت الآخرة ولا جنة الآخرة ولا نارها بل قال في عرض هذا الحائط والحائط من الدار الدنيا، ولذا قال عليه السلام: «**مثلث لِيَ الجَنَّةُ فِي عَرْضِ الحَائِطِ**» ولم يقل هي وقال: رأيت الجنة ولم يصفها، وذكر التمثيل وتمثل الشيء ما هو عين الشيء بل هو شبهه، وقال: مثلت لي كما قال في جبريل عليه السلام: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٧] أترى كان غير جبريل؟ لا والله إلاَّ جبريل فما رآهما إلاَّ في الدنيا في دارها وحياتها، وقال متمدحاً: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٧] وهما للدار الدنيا، وقد قررنا أنه كل ما في الآخرة هو في الدنيا، فمنه ما عرفناه ومنه ما لم نعرفه، بل في الدنيا من الزيادة ما ليست في الآخرة، فالدنيا أكمل في النشأة، ولولا التكليف وعدم حصول كل الأغراض لم تزنها الآخرة.

فإن قلت: فما الزيادة التي تزيد بها الدنيا على الآخرة؟ قلنا: الآخرة دار تمييز، والدار الدنيا دار تمييز واختلاط، فأهل النار مميزون وأهل الجنة مميزون، فأهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٤٦]، والدار الدنيا فيها ما في الآخرة من التمييز لكن لا يعم، فإنه قد علمنا في الدنيا بإعلام الله أن الرسل والأنبياء ومن عينته الرسل بالبشرى أنه سعيد، يقول الله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٤] فهذا عموم الدنيا، فما ينقلب أحد من أهل السعادة إلى الآخرة حتى يبشر في الدنيا ولو نفس واحد فيحصل المقصود، ومن عينته الرسل بالبشرى أنه شقي فقد تميز بالشقاء يقول سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢١] وسكت عن أكثر الناس فلم يعين منهم أحداً، وظهرت صفات الأشقياء في الآخرة في هذه الدار على السعداء من الحزن والبلاء والبكاء والذلة والخشوع، وظهرت صفات السعداء في الآخرة في هذه الدار من الخير والنعمة والتفكه والوصول إلى نيل الأغراض ونفوذ الأوامر على الأشقياء من أهل النار، إذ هذه النشأة تعطي أن يكون لها حظ ونصيب من هذه الصفات، فمنهم من تجمع له في الدار الواحدة، ومنهم من تكون له في الدارين، فيظهر المؤمن بصفة الكافر حتى يختم له بالإيمان، ويظهر الكافر بصفة المؤمن حتى يختم له بالكفر.

ثم إن الله قد شرك السعيد والشقيّ في إطلاق الإيمان والكفر، وهذان اللفظان معلومان،

أكثر الناس ما يطلق الإيمان إلاً على المؤمن بالله، ولا الكافر إلاً على الكافر بالله، والله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ فسماهم مؤمنين ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٥٢] فقد أعطت الدنيا ما أعطت الآخرة، وهذه الزيادة التي لا تكون في الآخرة، والتشريع لا يكون في الآخرة إلاً في موطن واحد حين يدعون إلى السجود ليرجح بتلك السجدة ميزان أصحاب الأعراف والناس لا يشعرون. ولما أوردناه يقول بعض أهل الله: ولا أزكى على الله أحداً أن وجود الحق في الدنيا في الإنسان أكمل منه في الآخرة. وقد رأينا من ذهب إلى هذا وشافهنا به في مجالس وجعل دليله الخلافة، فالإنسان في الدنيا أكمل في الصفات الأسمائية منه في الآخرة بلا شك لأنه يظهر بالإنعام والانتقام، ولا يكون له ذلك في الآخرة فإنه لا إنعام له على أحد ولا انتقام وإن شفع فبإذن فالإنعام لمن أذن. وأما في الجنة والنار بعد ذبح الموت فلا، بل في القيامة يكون من ذلك طرف انتقام لحكمة ذكرناها في هذا الكتاب مثل قوله عليه السلام: **«فسحقاً سحقاً»** فراقبوا الله هنا عباد الله مراقبة الدنيا أبناءها فهي الأم الرقوب وكونوا على أخلاق أمكم تسعدوا.

الباب السابع والعشرون ومائة

في ترك المراقبة

[نظم: الخفيف]

لا تراقِبْ فليس في الكون إلاً ... واحدُ العَيْن وهو عَيْنُ الوجودِ
فتُسَمَّى في حالة بمليكٍ ... وتُكَنَّى في حالةٍ بالعبيدِ
ودليلي ما جاء من افتقارِ الـ ... فقرا إلى الغَنيِّ الحميدِ
هكذا جاء في التِّلاوة نصاً ... في قريبٍ من سَعْده وبعيدِ
ثم جاؤوا باقرضوا الله قرضاً ... فبدى النَّقْصُ وهو عَيْنُ المزيدِ

لما كانت المراقبة تنزلاً مثالياً للتقريب، واقتضت مرتبة العلماء بالله أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فارتفعت الأشكال والأمثال ولم يتقيد أمر الإله ولا انضبط وجهل الأمر وتبين أنه لم يكن معلوماً في وقت الاعتقاد بأنه كان معلوماً لنا، ولم يحصل في العلم به أمر ثبوتي، بل سلب محقق ونسبة معقولة أعطتها الآثار الموجودة في الأعيان، فلا كيف ولا أين ولا متى ولا وضع ولا إضافة ولا عرض ولا جوهر ولا كم وهو المقدار، وما بقي من العشرة إلاً انفعال محقق وفاعل معين أو فعل ظاهر من فاعل مجهول يرى أثره ولا يعرف خبره ولا يعلم عينه ولا يجهل كونه، فلمن نراقب وما ثم من يقع عليه عين ولا من يضبطه خيال ولا من يحدده زمان ولا من تعدده صفات وأحكام، ولا من تكيّفه أحوال، ولا من تميزه أوضاع ولا من تظهره إضافة، فكيف نراقب من لا يقبل الصفات والعلم يرفع الخيال، فهو الرقيب لا المراقب، وهو الحفيظ لا المحفوظ، فالذي يحفظه الإنسان إنما هو اعتقاده في قلبه، فذلك الذي وسعه من ربه، فإن راقبت فاعلم من راقبت، فما زلت عنك ولا عرفت سوى ذاتك، فالحادث لا يتعلق إلاً بالمناسب وهو ما عندك منه وما عندك حادث، فما

برحت من جنسك، وما عبدت على الحقيقة سوى ما نصبته في نفسك، ولهذا اختلفت المقالات في الله وتغيرت الأحوال، فطائفة تقول هو كذا، وطائفة تقول ما هو كذا بل هو كذا، وطائفة قالت في العلم به لون الماء إنائه، فهذا مؤثر بالدليل مؤثر فيه عند صاحب هذا القول في رأي العين، فانظر إلى الحيرة سارية في كل معتقد، فالكامل من عظمت حيرته ودامت حسرته ولم ينل مقصوده لما كان معبوده، وذلك أنه رام تحصيل ما لا يكن تحصيله، وسلك سبيل من لا يعرف سبيله، والأكمل من الكامل من اعتقد فيه كل اعتقاد وعرفه في الإيمان والدلائل وفي الإلحاد، فإن الإلحاد ميل إلى اعتقاد معين من اعتقاد، فاشهدوه بكل عين إن أردتم إصابة العين فإنه عام التجلي له في كل صورة وجه وفي كل عالم حال، فراقب إن شئت أوّلاً تراقب فما ثم إلاّ مثاب ومثيب ومعاقب ومعاقب. انتهى الجزء الموفي مائة.

(الجزء الواحد ومائة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الثامن والعشرون ومائة

في معرفة مقام الرضى وأسراره

[نظم: مجزوء الرجز]

سألتُ ربي عِصْمَةً	من كل سوءٍ وأَذى
وأن أَرَى من أَجْلِهِ	كروحه مُنْتَبَذَا
مُخْتَطَفاً عن نفسِهِ	مُسْتَهْلَكاً مُتَّخَذَا
حتى أقولَ صادقاً	من حالنا يا حَبَّذَا
رضيتُ منه بكذا	رضيتُ عنه لكَذَا
وهكذا نَنْسُبُه	إليه حُكْماً هكَذَا
وهو دليلٌ قاطعٌ	على يَسيرِ فإذا
أفْرَدْتَه عن منْ وعنْ	وصَفْتَه بذا وذا
وكنتَ ذا معرفةٍ	بحقِّه وجَهْبَذَا

اعلم وفقك الله أن قولي دليل قاطع على يسير أعني الرضى يدل على يسير من كثير، فيرضى به أدباً مع الله لأنه وكله، والرضى أمر مختلف فيه عند أهل الله هل هو مقام أو حال؟ فن رآه حالاً ألحقه بالواهب، ومن رآه مقاماً ألحقه بالكاسب وهو نعت إلهيّ، وكل نعت إلهيّ إذا أضيف إلى الله فليس يقبل الوهب ولا الكسب، فهو على غير المعنى الذي إذا نسبناه للخلق لم يبق له تلك الصفة فحصل له بنسبته للخلق، إن ثبت كان مقاماً، وإن زال كان حالاً، وهو على الحقيقة يقبل الوصفين وهو الصحيح، فهو في حق بعض الناس حال وفي حق بعض الناس مقام، وكل نعت إلهيّ بهذه المثابة فتجري النعوت الإلهية إذا نسبت إلى الخلق مجرى الاعتقادات، فكما أنه يقبل كل اعتقاد ويصدق فيه كل معتقد كذلك النعوت الإلهية إذا

نسبت للخلق تقبل صفات المقامات وصفات الأحوال، هذا هو تحرير هذه الصفة وأمثالها، وهو الذي عليه الأمر، وقد وصف الله نفسه وهو ما أعطاه العبد من نفسه رضي الله به ورضي عنه فيه وإن لم يبذل استطاعته، فإنه لو بذل استطاعته التي إذا بذلها وقع في الحرج كان قد بذلها على جهد ومشقة، وقد رفع الله الحرج عن عباده في دينه فعلمنا أن المراد بالاستطاعة في مثل قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦] ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] وما آتاها أن حدها أوّل درجات الحرج، فإذا أحسّ به أو استشرف عليه قبل الإحساس به فذلك حد الاستطاعة المأمور بها شرعاً ليجمع بين قوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ وبين قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] ودين الله يسر ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥] في قوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾.

ولما فهمت الصحابة من الاستطاعة ما ذكرناه لذلك كانت رخصة لعزمة قوله: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٢] فرضي الله منك إذا أعطيته ممّا كلفك حد الاستطاعة التي لا حرج عليك فيها، ورضيت منه أنت بالذي أعطاك من حال الدنيا ورضيت عنه في ذلك، وقد عرفت أحوال الدنيا أنها الطاعة خاصة كما بيناها في باب المراقبة، وكلما أعطاك الحق في الدنيا والآخرة من الخير والنعم فهو قليل بالنسبة إلى ما عنده، فإن الذي عنده لا نهاية له، وكل ما حصل لك من ذلك فهو متناه بحصوله في الوجود، ونسبة ما يتناهى إلى ما لا يتناهى أقل القليل كما قال الخضر لموسىٰ لما نقر الطائر بمنقره في البحر ليشرب من مائه فشبهه بما هم عليه من العلم وبعلم الله فلذلك قال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ في يسير العمل ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٩] في يسير الثواب لأنه لا يتمكن تحصيل ما لا يتناهى في الوجود لأنه لا يتناهى فلذلك قلنا: متعلق الرضى اليسير وهو الرضى بالموجود فرضي به من الله وعن الله فيه، وما قدم الله رضاه عن عبيد بما قبله من اليسير من أعمالهم التي كلفهم إلاّ ليرضوا عنه في يسير الثواب لما علموا أن عنده ما هو أكثر من الذي وصل إليهم، فهو يصل إليهم من الآنات حالاً بعد حال أبد الآباد من غير انقطاع مع انقطاع أعمالهم التي كانت عن تكليف مشروع، فانقطعت الأعمال منهم ولم تنقطع العبادة، فإذا تناهى حد العمل الحسن والقبيح في أهل الجنة وأهل النار بقي جزاؤهم جزاء العبادة في السعداء، وجزاء العبودية في أهل النار، وهو جزاء لا ينقطع أبداً، فهذا أعطاهم اتساع الرحمة وشمولها، فإن المجرمين لم يزل عنهم شهود عبوديتهم وإن ادّعوا ربانية فيعلمون من نفوسهم أنهم كاذبون بما يجدونه فتزول الدعوى بزوال أوانها، وتبقى عليهم نسبة العبودية التي كانوا عليها في حال الدعوى وقبل الدعوى، ويجنون ثمرة قولهم بلى، فكانوا بمنزلة من أسلم بعد ارتداده فحكم على الكل سلطان بلى فأعقبهم سعادة بعدما مسّهم من الشقاء بقدر ما كانوا عليه من زمان الدعوى، فما زال حكم بلى يصحبهم من وقته إلى ما لا يتناهى ديناً وبرزخاً وآخرة، وعرضت عوارض لبعض الناس أخرجتهم في الظاهر عن حكم توحيدهم بما ادّعوه من الألوهة في الشركاء

فأثبتوه وزادوا فقام لهم الشركاء مقام الأسباب للمؤمنين، وكل عارض زائل وحكمه يزول بزواله ويرجع الحكم إلى الأصل والأصل يقتضي السعادة، فمآل الكل إن شاء الله إليها مع عمارة الدارين، ولكل واحدة ملؤها والرحمة تصحبها كما صحبت هنا العبودية لكل أحد ممّن بقي عليها أو ادّعى الربوبية فإنه ادّعى أمراً يعلم من نفسه خلافه، فمقام الرضى ماثلته لك فقل فيه بعد هذا ما شئت حال أو مقام أو لا حال ولا مقام، واعلم الفرق فيه بين النسبتين: نسبته لله ونسبته للخلق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والعشرون ومائة

في معرفة ترك الرضى

[نظم: البسيط]

تَـرْكُ الرضى عند أهل الرَّسْم مَثْلَبَةٌ ... وعـنـد أهـلِ وجـودِ الله آيـاتُ

عـلى تـحـقُّـقِـهـم بـعـيـن مُـوجِـدِهـمْ ... مـن حيثُ ما هـم بـه مَـحْـوٌ وإثبـاتُ

يـرضى الإلهُ عن النفس التي ربطَتْ ... بـحـكـمِـهِ ولـهـم فـيـهـا عـلامـاتُ

والـنـفـسُ راضـيـةٌ عـنـه ولـيـس لـهـا ... بـالـعـيـن عـلـمٌ ولا بـالـوَجْـد لَـذَّاتُ

وما سوى النفسِ من عقلٍ فليس له ... رضًـى ولـيـسـت لـه فـيـهـا نـهـايـاتُ

جناب الله أوسع من أن أرضى منه باليسير، ولكن أرضى عنه لا منه، لأن الرضى منه يقطع همم الرجال والله يقول آمراً نبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] مع كونه قد حصل علم الأوّلين والآخرين وأوتي جوامع الكلم، فإنه لا يعظم على الله شيء طلب منه، فإن المطلوب منه لا يتناهى، فليس له طرف نقف عنده فوسع في طلب المزيد إن كنت من العلماء بالله، وإذا كان اتساع الممكنات لا يقبل التناهي فما ظنك بالاتساع الإلهي فيما يجب له، وما يعطيه من المعرفة كل ممكن على عدم التناهي فيه، فكيف إذا انضاف إلى تلك المعرفة ما لا تعلق للممكن بها لا من سلب ولا من إثبات نسب، فإذا ترك العبد الرضى فعلى هذا الحد يتركه فهو راض عنه لا راض منه، لأن الرضى منه جهل به ونقص، والعبد الكامل مخلوق على صورة الكمال. وأما قول بعضهم لي منذ ستين سنة أو كذا وقت ما أقامني الله في أمر فكرهته قالت المشايخ: أشار إلى دوام الرضى واحتجوا بهذا على ثبوت الأحوال، فإن الرضى عندهم من الأحوال، وهذا لا يصحّ من غير المعصوم والمحفوظ فربما كان هذا القائل من المحفوظين أو المعصومين، فإن لم يكن فيريد الرضى بقضاء الله فيما أقامه لا بكل مقضي فإنه لا ينبغي الرضى بكل مقضي، وإن رأيت وجه الحق فيه فإنك إذا كنت صحيح الرؤية فيه فإنك ترى وجه الحق فيه غير راض عنه، فإن لم تره بذلك العين الإلهيّ وإلاّ فما رأيته إن رضيت به ولا يرضى لعباده الكفر فتحفظ من هذا الحال أو هذا المقام فإنه زهوق لا يثبت عليه الإقدام فإن فيه منازعة الحق.

الباب الموفي ثلاثين ومائة

في مقام العبودة

[نظم: البسيط]

إني انتَسَبْتُ إلى نفسي لمعرفتي ... بأنَّ نِسْبَتَنا للحق مَعْلُولَهْ

وكَوْنُهُ عِلَّةً للخَلْق مجهلةٌ ... بما له من عُلُوِّ القَدْر مجهولَهْ

هو الغنيُّ على الإطلاق ليس له ... فَقْرٌ قد أَوْدَعَ الرحمنُ تنزيلَهْ

هذا الذي قلته القرآنُ فَصَّلَهُ ... فابحثْ عليه ترى بالبحث تَفْصيلَهْ

العبودية نسب إلى العبودة، والعبودة مخلصة من غير نسب لا إلى الله ولا إلى نفسها لأنه لا يقبل النسب إليه ولذلك لم تجىء بيا النسب، فأذل الأذلاء من ينتسب إلى ذليل على جهة الافتخار به ولهذا قيل في الأرض ذلول ببنية المبالغة في الذلة، لأن الأذلاء يطؤونها فهي أعظم في الذلة منهم، فمقام العبودية مقام الذلة والافتقار وليس بنعت إلهيّ. قال أبو يزيد البسطامي: وما وجد سبباً يتقرب به إلى الله إذ رأى كل نعت يتقرب به إلى الله للألوهية فيه مدخل فلما عجز قال: يا رب بماذا أتقرب إليك؟ قال الله له: بما جرت عادة الله مع أوليائه أن يخاطبهم به تقرب إليّ بما ليس لي الذلة والافتقار، وهنا سرّ لا يمكن كشفه، فمن أطلعه الله عليه عرفه نطق الله عباده عليه بأن له صاحبة وولداً وأمثالاً وأن له البخل وأنه فقير من العرض بقولهم: ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾. ثم قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] وكتبة الله إيجاب، وهذا موضع السرّ لمن فتح الله عين بصيرته.

ثم في قوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] فألحقهم في العقاب بالكفار، وهم الذين ستروا ما يجب للحق عليهم من التنزيه والاشتراك في أسماء الصفات لا في مسمياتها. فالعبد معناه الذليل، يقال: أرض معبدة أي مذللة، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] وما قال ذلك في غير هذين الجنسين لأنه ما ادّعى أحد الألوهية ولا اعتقدها في غير الله ولا تكبر على خلق الله إلاّ هذان الجنسان فلذلك خصّهما بالذكر دون سائر المخلوقات، فقال ابن عباس: معناه ليعرفوني، فما فسّر بحقيقة ما تعطيه دلالة اللفظ وإنما تفسيره ليذلوا لي ولا يذل له من لا يعرفه، فلا بدّ من المعرفة به أوّلاً وأنه ذو العزّة التي تذلّ الأعزاء لها، فلذلك عدل ابن عباس في تفسير العبادة إلى المعرفة، هذا هو الظن به، ولم يتحقق بهذا المقام على كماله مثل رسول الله ﷺ فكان عبداً محضاً زاهداً في جمع الأحوال التي تخرجه عن مرتبة العبودية، وشهد الله له بأنه عبد مضاف إليه من حيث هويته واسمه الجامع فقال في حق اسمه ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [سورة الجن: الآية ١٩] وقال في حق هويته: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] فأسرى به عبداً، ولما أمر بتعريف مقامه يوم القيامة قيد ذلك فقال: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**» بالراء أي ما قصدت الفخر عليكم بالسيادة بل أردت

التعريف بشرى لكم إذ أنتم مأمورون بإتباعي، وقد روي ولا فخز بالزاي ما قلته متبجحاً وأنا لست كذلك، فإن الفخز التبجح بالباطل في صورة حق، فالعبد مع الحق في حال عبوديته كالظل مع الشخص في مقابلة السراج، كلما قرب من السراج عظم الظل، ولا قرب من الله إلاّ بما هو لك وصف أخصّ لا له، وكلما بعد من السراج صغر الظل، فإنه ما يبعدك عن الحق إلاّ خروجك عن صفتك التي تستحقها وطمعك في صفته ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [سورة غافر: الآية ٣٥] وهما صفتان لله تعالىٰ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤٩].

وهذا قوله ﷺ: «**أَعوذُ بِكَ مِنْكَ**» وهذا المقام لا يبقى لك صفة تخصّ الحق وينفرد بها، ولا يمكن حصول اشتراك فيها من النعوت الثبوتية لا النعوت السلبية والإضافية إلاّ ويعلمها صاحب هذا المقام خاصة، ولكن عزّ صاحبه ذوقاً، فإن الوصف الأخص منك إذا تحققت به وانفردت ودخلت به على الحق لم يقابلك إلاّ بالنعت الأخص به الذي لا قدم لك فيه، وإذا جئت بالنعت المشترك تجلّى لك بالنعت المشترك فتعرف سرّ نسبته إليك من نسبته إليه وهو علم غريب قلّ أن تجد له ذائقاً، ومع هذا فهو دون الأوّل الذي هو الأخص بك فاعلم ذلك فتحقق بهذا المقام فهذا أعطاك مقام العبودية.

وأما مقام العبودة فلا تدري ما يحصل لك فيه من العلم به فإنك تنفي النسب فيه عنه تعالىٰ وعن الكون وهو مقام عزيز جداً لأنه لا يصحّ عند الطائفة أن يبقى الكون مع إمكانه بغير نسب وهو بالذات واجب لغيره، والتنبيه على هذا المقام وصف الظاهر في المظهر بنعت العبد، فإن الظاهر ينصبغ بحقيقة المظهر كان ما كان، فلا ينتسب الظاهر إلى العبودية فإنه ليس وراءها نزول، والمنتسب لا بدّ أن يكون أنزل في المرتبة من المنسوب إليه ولا ينتسب الظاهر إلاّ إليه، فإن الأثر الذي أعطاه عين المظهر ليس غير الظاهر وليس وراء الله مرمى والشيء لا ينسب إلى نفسه، فلهذا جاءت العبودة بغير ياء النسب، يقال: رجل بين العبودية والعبودة أي ذاته ظاهرة ونسبه مجهول فلا ينسب فإنه ما ثم إلى من فهو عبد لا عبد.

الباب الأحد والثلاثون ومائة

في مقام ترك العبودية

[نظم: البسيط]

إنِ انتسبْتَ إلى مَغلُول أنتَ له ... وأنت لله لا للخلق فازدجرُوا
نحن المظاهرُ المعبودُ ظاهِرُها ... ومَظْهَرُ الكون عَيْنُ الكون فاعتبرُوا
ما جاء بي عَبَثاً لكن لنَعْبُدَهُ ... حقاً بذا حَكَمَ التشريعُ والنَّظَرُ
ولستُ أعبُدُه إلاّ بصورتهِ ... فهو الإلهُ الذي في طَيِّه البَشَرُ
فما القضاءُ إذا حقَّقْتَ صورتَنا ... وما التصرُّفُ والأحكامُ والقَدَرُ
فكلُّها عِبَرٌ إن كنتَ ذا نظرٍ ... ولا يخيبُ من تسري به العِبَرُ

ترك العبودية لا يصحّ إلاّ عند من يرى أن عين الممكنات باقية على أصلها من العدم وأنها مظاهر للحق الظاهر فيها، فلا وجود إلاّ لله ولا أثر إلاّ لها، فإنها بذاتها تكسب وجود الظاهر ما تقع به الحدود في عين كل ظاهر فهي أشبه شيء بالعدد، فإنها معقول لا وجود له، وحكمه سار ثابت في المعدودات، والمعدودات ليست سوى صور الموجودات كانت ما كانت، والموجودات سبب كثرتها أعيان الممكنات وهي أيضاً سبب اختلاف صور الموجودات، فالعدد حكمه مقدّم على حكم كل حاكم. ولما وصلت في أول هذا الباب من هذه النسخة إلى العدد والمعدودات نمت فرأيت رسول الله ﷺ في منامي وأنا بين يديه وقد سألني سائل وهو يسمع: ما أقل الجمع في العدد؟ فكنت أقول له: عند الفقهاء اثنان، وعند النحويين ثلاثة، فقال ﷺ: «**أَخطأَ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ**»، فقلت له: يا رسول اللّه فكيف أقول؟ قال لي: «**إِنَّ العَدَدَ شَفْعٌ وَوَتْرٌ**» يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [سورة الفجر: الآية ٣] والكل عدد فميز، ثم أخرج خمسة دراهم بيده المباركة ورمى بها على حصير كنا عليه فرمى درهمين بمعزل ورمى ثلاثة بمعزل وقال لي: ينبغي لمن سئل في هذه المسألة أن يقول للسائل عن أي عدد تسأل عن العدد المسمّى شفعاً أو عند العدد المسمّى وتراً ثم وضع يده على الاثنين الدرهمين وقال: هذا أقل الجمع في عدد الشفع، ثم وضع يده على الثلاثة وقال: هذا أقل الجمع في عدد الوتر، هكذا فليجب من سئل في هذه المسألة كذا هو عندنا، واستيقظت فقيدتها في هذا الباب كما رأيتها حين استيقظت، وخرج عن ذكري مسائل كثيرة كانت بيني وبينه ﷺ مّما يتعلق بغير هذا الباب، وأنا في غاية السرور والفرح برؤيته ﷺ، ووجدت في خاطري عند انتباهي صحة النهي عن البتيرا فإنه تكلم في طريقه فما رأيت معلماً أحسن منه، وأخذت في تقييدي لهذا الكتاب فنرجع ونقول: فالعدد حكمه مقدم على حكم كل حاكم، فحكم على الممكنات بالكثرة كثرة الممكنات، واختلافات استعداداتها على الظاهر فيها مع أحديته فكثرته كثرة الممكنات.

ولما كان الأمر هكذا لم يمكن أن يكون للعبودية عين، فلهذا المقام يقال بترك العبودية، ومنم حكم العدد وقوّة سريانه وإن لم يكن له وجود قول الله تعالىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] يعني الاثنين وهذا يعضد رؤيانا المتقدمة، ولا أكثر إلاّ هو معهم أينما كانوا من المراتب التي يطلبها العدد فينسحب عليها حكم العدد. وقوله ﷺ: «**إِنَّ لِلّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مِائَةً إِلاَّ وَاحِداً**» هذا من حكم العدد. وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [سورة المائدة: الآية ٧٣] ولم يكفر من قال إنه سبحانه رابع ثلاثة، وذلك أنه لو كان ثالث ثلاثة أو رابع أربعة على ما توطأ عليه أهل هذا اللسان لكان من جنس الممكنات وهو سبحانه وتعالىٰ ليس من جنس الممكنات فلا يقال فيه أنه واحد منها فهو واحد أبداً لكل كثرة وجماعة ولا يدخل معها في الجنس فهو رابع ثلاثة فهو واحد وخامس أربعة فهو واحد بالغاً ما بلغت فذلك هو مسمّى الله، فهو وإن كان هو الوجود الظاهر بصور ما هي المظاهر عليه فما هو من جنسها فإنه واجب الوجود لذاته وهي واجبة العدم لذاتها أزلاً، فلها الحكم فيمن تلبس بها، كما للزينة الحكم فيمن تزين بها،

فنسبة الممكنات للظاهر نسبة العلم والقدرة للعالم والقادر، وما ثم عين موجودة تحكم على هذا الموصوف بأنه عالم وقادر فلهذا نقول: إنه عالم لذاته وقادر لذاته وهكذا هي الحقائق، فالعدد حاكم لذاته في المعدودات ولا وجود له، والمظاهر حاكمة في صور الظاهر وكثرتها في عين الواحد ولا وجود لها، وليس عندنا في العلم الإلهيّ مسألة أغمض من هذه المسألة، فإن الممكنات على مذهب الجماعة ما استفادت من الحق إلاّ الوجود، وما يدري أحد ما معنى قولهم: ما استفادت إلاّ الوجود إلاّ من كشف الله عن بصيرته، وأصحاب هذا الإطلاق لا يعرفون معناه على ما هو الأمر عليه في نفسه، فإنه ما ثم موجود إلاّ الله تعالىٰ والممكنات في حال العدم.

فهذا الوجود المستفاد إما أن يكون موجوداً وما هو الله ولا أعيان الممكنات. وإما أن يكون عبارة عن وجود الحق، فإن كان أمراً زائداً ما هو الحق ولا عين الممكنات فلا يخلو أن يكون هذا الوجود موجوداً فيكون موصوفاً بنفسه وذلك هو الحق لأنه قد قام الدليل، على أنه ما ثم وجود أزلاً إلاّ وجود الحق فهو واجب الوجود لنفسه، فثبت أنه ما ثم موجود لنفسه غير الله، فقبلت أعيان الممكنات بحقائقها وجود الحق لأنه ما ثم وجود إلاّ هو وهو قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الحجر: الآية ٨٥] وهو الوجود الصرف فانطلق عليه ما تعطيه حقائق الأعيان، فحدث الحدود، وظهرت المقادير، ونفذ الحكم والقضاء، وظهر العلوّ والسفل والوسط والمختلفات والمتقابلات، وأصناف الموجودات أجناسها وأنواعها وأشخاصها وأحوالها وأحكامها في عين واحدة، فتميزت الأشكال فيها وظهرت أسماء الحق، وكان لها الأثر فيما ظهر في الوجود غيرة أن تنسب تلك الآثار إلى أعيان الممكنات في الظاهر فيها.

وإذا كانت الآثار للأسماء الإلهية والاسم هو المسمّى فما في الوجود إلاّ الله فهو الحاكم وهو القابل فإنه قابل التوب فوصف نفسه بالقبول ومع هذا فتحرير هذه المسألة عسير جداً، فإنّ العبارة تقصر عنها والتصوّر لا يضبطها لسرعة تفلتها وتناقض أحكامها فإنها مثل قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ فنفى ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فأثبت ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فنفى كون محمد وأثبت نفسه عين محمد وجعل له اسم الله، فهذا حكم هذه المسألة بل هو عينها لمن تحقق، فهذا معنى ترك العبودية في خصوص العلماء بالله. وأما من نزل منهم عن هذه الطبقة فإنه يقول: لا يصحّ تركها باطناً لوجود الافتقار الذي لا ينكره المحدث من نفسه فلا بدّ أن يذلّه فتلك الذلّة عين العبودية، إلاّ أن يؤخذ الإنسان عن معرفته بنفسه، وأما تركها من باب المعرفة فهو أن العبد إذا نظرته من حيث تصرّفه لا من حيث ما هو ممكن وأطلقت عليه اسم العبودة من ذلك الباب فيمكن في المعرفة تركها من باب التصرّف لا من باب الإمكان، وذلك أن حقيقة العبودية الوقوف عند أوامر السيد وما هنا مأمور إلاّ من يصحّ منه الفعل بما أمر به، والأفعال خلق الله فهو الآمر والمأمور، فأين التصرّف الحقيقي الذي به يسمّى العبد عبداً قائماً بأوامر سيده أو منازعاً له فيتصف بالأباق، فبقي المسمّى عبداً على ظهور الاقتدار الإلهي بجريان الفعل على ظاهره وباطنه، إما بموافقة الأمر أو بخالفته، وإذا كان هذا على ما ذكرناه فلا عبودية

تصريف فهو أعني العبد موجود بلا حكم، وهذا مقام تحقيقه عند جميع علماء الذوق من أهل الله إلاّ طائفة من أصحابنا وغيرهم ممّن ليس منّا يرون خلاف ذلك وأن الممكن له فعل، وأن الله قد فوّض إلى عباده أن يفعلوا بعض الممكنات من الأفعال فكلفهم فعلها فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٣] ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦] ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] وأمثال هذا، فإذا أثبتوا أن للعبد فعلاً لم يصح ترك عبودية التصريف. وأما عبودية الإمكان فأجمعوا على كونها وأنه لا يتصوّر تركها فإن ذلك ذاتي للممكن، وبعض أصحابنا يلحظ في ترك العبودية كون الحق قوى العبد وجوارحه فإنه يغيب عن عبوديته في تلك الحال، فهو ترك حال لا ترك حقيقة. انتهى الجزء الواحد ومائة.

(الجزء الثاني ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثاني والثلاثون ومائة
في معرفة مقام الاستقامة

[نظم: الكامل]

لـلـمـسـتـقـيـم ولايـةٌ مَـخْـصُـوصـةٌ ... شملتْ جميعَ الكون في تخصيصها
لـلـلـمُـسـتَـقـيـم تـنـزَّلـتْ أرواحُـه ... بـالطِّيـب المكنونِ في تَـنـصيـصِـهَـا
الاسـتـقـامـةُ نـزَّلَـتْ أربـابَـهـا ... مـنـهـا مـنـازلَ لـم تُـنَـلْ بـخـصـوصِـهَـا
هـي نَـعْـتُـهُ سـبـحـانَـه فـي قـصَّـةٍ ... قـد قـالـهـا فـانـظُـرْهُ في مَـنـصـوصِـهَـا

جاءت هذه الأبيات لزوم ما لا يلزم من غير قصد وكذلك أمثالها، فإنما أنطق ممّا يجريه الله فينا من غير تعمّل ولا روية.

اعلم وفقك الله أن الله أخبر عن نبيه ورسوله عليه السلام في كتابه أنه قال: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] فوصف نفسه بأنه على صراط مستقيم، وما أخطأ هذا الرسول في هذا القول، ثم إنه ما قال ذلك إلاّ بعد قوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] فما ثم إلاّ من هو مستقيم على الحقيقة على صراط الرب، لأنه ما ثم إلاّ من الحق آخذ بناصيته، ولا يمكن إزالة ناصيته من يد سيده وهو على صراط مستقيم، ونكر لفظ دابة فعم فأين المعوج حتى تعدل عنه؟ فهذا جبر وهذه استقامة، فالله يوفقنا لإنزال كل حكمة في موضعها، فهنالك تظهر عناية الله بعيده ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٨] وهي أحكام الطريقة التي في قوله: ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ فكلها مجعولة بجعل الله، فمن مشى في غير طريقه التي عين الله له المشي عليها فقد حاد عن سواء السبيل التي عين الله له المشي عليها، كما أن ذلك الآخر لو ترك سبيله التي شرع الله له المشي عليها وسلك سبيل هذا سميناه حائداً عن سبيل الله، والكل بالنسبة إلى واحد واحد على صراط مستقيم فيما شرع

له، ولهذا خط رسول الله ﷺ خطاً وخط عن جنبتي ذلك الخط خطوطاً، فكان ذلك الخط شرعه ومنهاجه الذي بعث به وقيل له: قل لأمتك تسلك عليه ولا تعدل عنه، وكانت تلك الخطوط شرائع الأنبياء التي تقدّمته والنواميس الحكمية الموضوعة، ثم وضع يده على الخط وتلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ فأضافه إليه ولم يقل صراط الله ووصفه بالاستقامة وما تعرّض لنعت تلك الخطوط بل سكت عنها ثم قال: ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ الضمير يعود على صراطه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ يعني شرائع من تقدمه ومناهجهم من حيث ما هي شرائع لهم إلاَّ إن وجد حكم منها في شرعي فاتبعوه من حيث ما هو شرع لنا لا من حيث ما كان شرعاً لهم ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ يعني تلك الشرائع عن سبيله أي عن طريقه الذي جاء به محمد ﷺ، ولم يقل عن سبيل الله لأنّ الكل سبيل الله إذ كان الله غايتها ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣] أي تتخذون تلك السبيل وقاية تحول بينكم وبين المشي على غيره من السبل وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟﴾ من أي شرع كان إذا كان له الزمان والوقت ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ على طريقهم التي شرع الله لهم المشي عليها ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وهذا التنزّل هو النبوّة العامة لا نبوّة التشريع ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ بالبشر أي ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٠] فإنكم في طريق الاستقامة، ثم قالوا لهم هؤلاء المبشرون من الملائكة ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي نحن كنا ننصركم في الحياة الدنيا في الوقت الذي كان الشيطان يلقي إليكم بلمته العدول عن الصراط الذي شرع لكم المشي عليه، فكنا ننصركم عليه باللمة التي كنتم تجدونها في وقت التردّد بين الخاطرين هل يفعل أو لا يفعل؟ نحن كنا الذين نلقي إليكم ذلك في مقابلة إلقاء العدوّ فنحن أيضاً أولياؤكم ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣١] بالشهادة لكم أنكم كنتم تأخذون بلمتنا وتدفعون بها عدوّكم، فهذه ولايتهم في الآخرة وولايتهم أيضاً بالشفاعة فيهم فيما غلب عليهم الشيطان في لمته، فيكون العبد من أهل التخليط فتشفع الملائكة فيه حتى لا يؤاخذ بعمل الشيطان فهذا معنى قوله: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من شهادتنا لها وشفاعتنا فيها في هذا الموطن ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣١] من الدعة ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٢] بشهادتنا وشفاعتنا حيث قبلها فأسعدكم الله بها فستركم في كنفه وأدخلكم في رحمته، هذا معنى الاستقامة المتعلقة بالنجاة.

وأما الاستقامة التي تطلبها حكمة الله فهي السارية في كل كون، قال تعالىٰ مصدقاً لموسىٰ عليه السلام: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فكل شيء في استقامة حاصلة، فاستقامة النبات أن تكون حركته منكوسة، واستقامة الحيوان أن تكون حركته أفقية، وإن لم يكن كذلك لم ينتفع بواحد منهما، لأن حركة النبات إن لم تكن منكوسة حتى يشرب الماء بأصولها لم تعط منفعة إذ لا قوّة له إلاّ كذلك، وكذلك الحيوان لو كانت حركته إلى العلوّ وقام على رجلين مثلنا لم يعط فائدة الركوب وحمل الأثقال على ظهره، ولا حصلت به المنفعة التي تقع بالحركة الأفقية، فاستقامته ما خلق له، فهي الحركة المعتبرة التي تقع بها المنفعة

المطلوبة، وإلاَّ فالنبات والحيوان لهما حركة إلى العلو وهو قوله: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ [سورة ق: الآية ١٠] فلولا الحركة ما نما علواً، وإنما غلبنا عليه الحركة المنكوسة للمنفعة المطلوبة فافهم ذلك، فإن المتكلمين في هذا الفنّ ما حرّروا الكلام في حقيقة هذه الحركات، فالحركة في الوسط مستقيمة لأنها أعطت حقيقتها كحركة الأرض وحركة الكرة، والحركة من الوسط حركة العروج، والحركة إلى الوسط حركة النزول، فحركة النزول ملكية وإلهية، وحركة العروج حركة بشرية وكلها مستقيمة، فما ثم إلاَّ استقامة لا سبيل إلى المخالفة، فإن المخالفة تشاجر، ألا ترى أنه ما وقع التحجير على آدم إلاَّ في الشجرة أي لا تقرب التشاجر، والزم طريقة إنسانيتك وما تستحقه، واترك الملك وما يستحقه، والحيوان وما يستحقه، وكل ما سواك وما يستحقه، ولا تزاحم أحداً في حقيقته فإن المزاحمة تشاجر وخلاف، ولهذا لما قرب من الشجرة خالف نهي ربّه فكان مشاجراً فذهبت عنه في تلك الحال السعادة العاجلة في الوقت، وما ذهبت عنه استقامة التشاجر فإنه وفاها حقّها بمخالفة النهي الإلهيّ.

اعوجاج القوس استقامته لما أريد له، فما في الكون إلاَّ استقامة، فإن موجده وهو الله تعالىٰ على صراط مستقيم من كونه رباً، فإن دخلت السبل بعضها على بعض واختلطت فما خرجت عن الاستقامة: استقامة الأخلاط واستقامة ما وجدت له، فهي في الاستقامة المطلقة التي لها الحكم في كل كون وهي قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ وهو على صراط مستقيم ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] أي تذلّل له في كل صراط يقيمك فيه لا نتذلل لغيره فإن غيره عدم ومن قصد العدم لم تظفر يداه بشيء، ثم إنه جاء بضمير الغائب في قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ أي لا تقل أنت المدرك فإن الأبصار لا تدركه، إذ لو أدرك الغيب ما كان غيباً، فاعبد ذاتاً منزّهة مجهولة لا تعرف منها سوى نسبتك إليها بالافتقار ولهذا تمّم فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي اعتمد عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] قطع بهذا ظهر المدّعين في هذا المقام إذا لم يكن صفتهم ولا حالهم ولا وصل إليهم علمه. فالاستقامة سارية في جميع الأعيان من جواهر وأعراض وأحوال وأقوال كما قال: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٦] وهي نعت إلهيّ وكوني جعلنا الله ممّن لم يعدل عن استقامته إلاَّ باستقامته آمين بعزّته.

وأما الاستقامة بلسان عامّة أهل الله فهي أن تقول: الاستقامة عامّة في الكون كما قررنا، فما ثم طريق إلاَّ وهو مستقيم، لأنه ما ثم طريق إلاَّ وهو موصل إلى الله، ولكن قال الله تعالىٰ لنبيه ولنا: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [سورة هود: الآية ١١٢] لم يخاطبه بالاستقامة المطلقة فإنه قد تقرّر أن ﴿إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٣] وأنه غاية كل طريق، ولكن الشأن إلى أيّ اسم تصل وتصير من الأسماء الإلهية فينفذ في الواصل إليه أثر ذلك الاسم من سعادة ونعيم أو شقاوة وعذاب، فمعنى الاستقامة الحركات والسكنات على الطريقة المشروعة، والصراط المستقيم هو الشرع الإلهيّ، والإيمان بالله رأس هذا الطريق، وشعب الإيمان منازل هذا الطريق التي بين أوّله وغايته وما بين المنزلين أحواله وأحكامه.

ولما كان الصراط المستقيم ممّا تنزلت به الملائكة المعبر عنها بالأرواح العلوية وهي

الرسل من الله إلى المصطفين من عباده المسمّين أنبياء ورسلاً جعل الله بينها وبين من تنزل عليه من هؤلاء الأصناف نسباً جوامع بينهما بتلك النسب يكون الإلقاء من الملائكة، وبها يكون القبول من الأنبياء، فكل من استقام بما أنزل على هؤلاء المسمّين أنبياء ورسلاً من البشر بعد ما آمن بهم أنهم رسل الله وأنهم أخذوا ما جاؤوا به عن رسل آخرين ملكيين تنزلت الملائكة عليهم أيضاً بالبشرى وكانت لمن هذه صفته جلساء.

ولما كانت هذه الأرواح العلوية حية بالذات كان الاسم الذي تولاها من الحضرة الإلهية الاسم الحيّ كما كان المتولي من الأسماء الإلهية لمن كانت حياته عرضية مكتسبة الاسم المحيي، فما عقل الملك قط إلاّ حياً بخلاف البشر فإنهم كانوا أمواتاً فأحياهم ثم يميتهم ثم يحييهم ولأهل هذه الحياة العرضية من العناصر ركن الماء قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [سورة هود: الآية ٧] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] فالماء أصل العناصر، والاسطقسات والعرش الملك وما تم الملك وكمل إلاّ في عالم الاستحالة وهو عالم الأركان الذي أصله الماء، ولولا عالم الاستحالة ما كان الله يصف نفسه بأنه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] فالعالم يستحيل والحق في شأن حفظ وجود أعيانه يمدّه بما به بقاء عينه من الإيجاد، فهو الشأن الذي هو الحق عليه وليس لغير عالم الاستحالة هذه الحقيقة.

ولما صار الماء أصلاً لكل حيّ حياته عرضية كان من استقام سقاه الله ماء الحياة، فإن كان سقي عناية كالأنبياء والرسل حيي به من شاء الله، وإن كان سقي ابتلاء لما فيه من الدعوى كان بحكم ما أريد بسقيه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [سورة الجن: الآية ١٦، ١٧] فهذا سقي ابتلاء، وإنما طلبت الاستقامة من المكلف في القيام بفرائض الله عليه، فإن المكلف من جهة الحقيقة ملقى طريح عند باب سيده تجري عليه تصاريف الأقدار، وما أودع الله في حركات هذه الأكوار ممّا يجيء به الليل والنهار من تنوّع الأطوار بين محو وإثبات لظهور آيات بعد آيات، وقد جعل الله المكلف محلاً للحياة والحركات، وطلب منه القيام من تلك الرقدة بما كلفه من القيام بحقه، فأصعب ما يمرّ على العارفين أمر الله بالاستقامة وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ [سورة هود: الآية ١١٢] أي لا ترتفعوا عن أمره بما تجدونه في نفوسكم من خلقكم على الصورة الإلهية فتقولوا: مثلنا لا يكون مأموراً فلا يعرف العلماء بالله هل وافق أمر الله إرادته فيهم أنهم يمتثلون أمره أو يخالفونه، فلهذا صعب عليهم أمر الله واشتدّ وهو قوله عليه السلام: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ**» فإنها السورة التي نزل فيها: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ وأخواتها ممّا فيها هذه الآية أو ما في معناها فهم من ذلك على خطر، وطريق الاستقامة لا تتقيد مراتبه ولا تنضبط كما قال ﷺ: «**اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا**» يعني طريق الاستقامة وما أحصيتم منها فلن تحصوا ما لكم في ذلك من الأجر والخير، والظاهر إنما أراد لن تحصوا طرق الاستقامة فإنها كثيرة لن يسعها أحد منكم على التعيين، ولهذا اتبع هذا القول بقوله: «**اعْمَلُوا وَخَيْرُ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاةُ وَإِذا لَمْ تَسْتَطِيعُوا إِحْصَاءَ**

طُرُقِ الاسْتِقَامَة فَخُذُوا الأَفْضَلَ مِنْهَا» وينظر إلى الاسم الحيّ المحيي بهذه العبادات الاسم القيوم ولهذا قيل للمكلف: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٣] ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٩] فالقيوم أخو الحيّ الملازم له، قال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] وقال: ﴿الٓمٓ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١ . ٢] وقال: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [سورة طه: الآية ١١١] فما جاء الاسم الحيّ إلاّ والقيوم معه، فتدبّر هذا الباب فإنه يحتوي على أسرار إلهية.

الباب الثالث والثلاثون ومائة

في مقام ترك الاستقامة

[نظم: السريع]

ألا إلـى الله تَـصـيـرُ الأمـوز — فـلا تـغـرَّنَّـكَ دارُ الـغـروز
وكـلُّ مـا خـالـف مـا قـالـه — سـبـحـانَـه فـإنـه قَـوْلُ زوز
فـكـلُّ مُـعْـوَجٍّ لـه غـايـةٌ — إلـيـه حـقـاً فـي جـمـيـع الأمـوز
فـلا تـعـيِّـنْ واحـداً إنـه — حُـكْـمٌ بـجـهـل حـاصـلٍ أو قُـصُـوز
فَـصَّـلَـتِ الأشـيـاءُ أغـراضَـنـا — إلـى سـعـيـدٍ وإلـى مـن يَـبُـوز
ورجـع الـكـلُّ إلـى قَـوْلـهِ — ألا إلـى الله تـصـيـرُ الأمـوز

اعلم علمك الله أن ترك الاستقامة من أعلام الإقامة عند الله والحضور معه في كل حال كما قالت عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها في حق النبيّ ﷺ من أنه كان يذكر الله على كل أحيانه، فهو في الدنيا موصوف بصفة أرض الآخرة ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [سورة طه: الآية ١٠٧] ولما كانت الاستقامة تتميز بالاعوجاج ولا اعوجاج فلا استقامة مشهودة: [مجزوء الكامل]

فـالـكـلُّ فـي عـيـن الـوجـو — دِ عـلـى طـريـقٍ واحـدِ
والـكـلُّ فـي عـيـن الـرِّضَـى — مـن مـؤمـنٍ أو جـاحـدِ

وقد يكون مشهد صاحب هذا الشهود النظر في إمكان العالم والإمكان سبب مرضه والمرض ميل والميل ضدّ الاستقامة، والإمكان للعالم نعت ذاتيّ لا يتصوّر زواله لا في حال عدمه ولا في حال وجوده، فالمرض له ذاتيّ فالميل له ذاتيّ فلا استقامة فالعالم مرضه زمانة لا يرجى رفعها، إلاّ أن الكون محل لوجود المغالطات لأمور تقتضيها الحكمة ويطلبها العقل السليم لعلمه بما يصلح الكون إذ شرع التكليف ولم يكن في الوسع أن تكون آحاد العالم على مزاج واحد، فلما اختلفت الأمزجة كان في العالم العالم والأعلم والفاضل والأفضل، فمنه من عرف الله مطلقاً من غير تقييد، ومنهم من لا يقدر على تحصيل العلم بالله حتى يقيده بالصفات التي لا توهم الحدوث وتقتضي كمال الموصوف، ومنهم من لا يقدر على العلم بالله حتى يقيده بصفات الحدوث فيدخله تحت حكم ظرفية الزمان وظرفية المكان والحد والمقدار.

ولما كان الأمر في العلم بالله في العالم في أصل خلقه وعلى هذا المزاج الطبيعي المذكور أنزل الله الشرائع على هذه المراتب حتى يعمّ الفضل الإلهيّ جميع الخلق كله فأنزل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وهو لأهل العلم بالله مطلقاً من غير تقييد، وأنزل قوله تعالىٰ: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢] ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] وهذا كله في حق من قيده بصفات الكمال. وأنزل تعالىٰ من الشرائع قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣] و﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [سورة القمر: الآية ١٤] ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٧] فعمت الشرائع ما تطلبه أمزجة العالم، ولا يخلو المعتقد من أحد هذه الأقسام والكامل المزاج هو الذي يعمّ جميع هذه الاعتقادات ويعلم مصادرها ومواردها ولا يغيب عنه منها شيء، فمثل هذا لا تتعين له الاستقامة لأنه لا يرى لهذه الحال ضدّاً تتميز به هذه الحالة لأنه فيها، والكون إذا كان في الشيء لا يدركه عيناً ورؤية بصر وإن عرفه كما لا يدرك الهواء للقرب المفرط كذلك لا يدرك الحق للقرب المفرط فإنه أقرب إلينا من حبل الوريد ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٣] فسبحان من خلق العالم للسعادة لا للشقاء، فكان الشقاء فيه عرضاً عرض له ثم يزول، وذلك لأن الله تعالىٰ ما خلق العالم لنفس العالم وإنما خلقه لنفسه فقال فيه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] ونحن من الأشياء، ثم قال في حقنا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فما من أحد منّا يتعزز على الله ولا يتكبر عليه وإن تكبر بعضنا على بعض، وما من صاحب نحلة ولا ملة ولا نظر إلاّ وتسأله عن طلبه فتجده مستوفر الهمة على طلب موجده لأنه خلقه للمعرفة به.

واختلفت أحوالهم في إدراك مطلوبهم لاختلاف أمزجتهم، ونزلت الشرائع تصوّب نظر كل ناظر ويتجلى لأهل الكشوف والكل أهل كشف، لكن بعضهم لا يدري أن مطلوبه قد أدركه وهو الذي خشع له، وآخر قد علم أنه لا يرى سوى مطلوبه، فالكل في عين الوجود والشهود ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الطور: الآية ٤٧] فرحم الله الجميع، وهذا معنى قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] وسيرد إن شاء الله في منزل الإنعام والآلاء من هذا الكتاب ما أشرنا إليه في هذا الكلام، فإنا جعلنا فيه أن الوجود مدرسة وأن الحق سبحانه هو رب هذه المدرسة وملقي الدروس فيها على المتعلمين وهم العالم، والرسل هم المعيدون، والورثة هم المذنبون وهم معيدو المعيدين.

والعلوم التي يلقيها للمتعلمين في هذه المدرسة وإن كثرت فهي ترجع إلى أربعة أصناف: صنف يلقي عليهم دروس موازين الكلام في الألفاظ والمعاني ليميزوا بها الصحيح من السقيم، وإن كان الكل صحيحاً عند العلماء بالله وإنما يسمّى سقيماً بالنظر إلى ضدّه أو

غرض ما معين. والعلم الثاني هو العلم بتنقيح الأذهان وتدريب الأفكار وتهذيب العقول لأن رب المدرسة إنما يريد أن يعرفهم بنفسه وهو الغاية المطلوبة التي لأجلها وضع هذه المدرسة وجمع هؤلاء الفقهاء فاستدرجهم للعلم به شيئاً بعد شيء، وبعضهم تجلّى لهم ابتداء فعرفوه لصحة مزاجهم كالملائكة والأجسام المعدنية والنباتية والحيوانية، وما احتجب إلاّ عن الثقلين ففيهما وضع هذه العلوم ليتدربوا بها للعلم به وهو لا يزال خلف حجاب المعيدين، والعقول ستر مسدل وباب مقفل. ودروس يلقيها أيضاً ليعلمهم بذلك ما سبب وجود هذه الهياكل واختلافات أمزجتها وبما امتزجت، وما سبب عللها وأمراضها وصحتها وعافيتها، ومن أي شيء قامت، وما يصلحها ويفسدها، وما معنى الطبيعة فيها وأين مرتبتها من العالم؟ وهل هي أمر وجودي عيني أو هي أمر وجودي عقلي؟ وهل يخرج عنها شيء أو صنف من العالم أو لا حكم لها إلاّ في الأجسام المركبة التي تقبل الحل والتركيب والكون والفساد وما أشبه هذا الفنّ. والدرس الرابع هو ما يلقيه من العلم الإلهيّ وما يجب أن يكون عليه هذا المفتقر إليه الذي هو الله سبحانه وما يستحيل أن ينعت به وما يجوز فعله في خلقه، وما ثم درس خامس أصلاً لأنه ليس وراء الله مرمى، غير أن كل نوع من أنواع هذه العلوم ينقسم إلى علوم جزئية كثيرة يتسع المجال فيها، فمن وقف مع شيء منها ولم يحضر من الدروس إلاّ درسها كان ناقصاً عن غيره، ومن ارتفعت همته وعلم أن هذه الدروس ليس المطلوب منها نفسها ولا وضعت لعينها وإنما المقصود منها تحصيل العلم بالله الذي هو رب هذه المدرسة جعل في همته طلب هذا العلم الإلهيّ، فمنهم من طلبه بمقدمات هذه العلوم وهو طلب عقلي، ومنهم من طلبه من المعيد واقتصر عليه فإنه رأى بينه وبين المدرس وصلة ورأى رسولاً يخرج إليه من خلف الحجاب يعرّفه بأمور يلقيها على الحاضرين وأوقات يدخل المعيد إليه ثم يخرج من عنده فقال هذا الطالب: العلم بالله من جهة هذا المعيد أحق وأوثق للنفس من أن تتخذ دليلاً نظرياً أو فكرياً مما تقدم من هذه العلوم الأخر، فلما أخذ علمه من المعيد كان وارثاً وصار معيداً للمعيد وهو المذنب ويسمّى في الشرع الوارث وهم ورثة الأنبياء.

الباب الرابع والثلاثون ومائة

في معرفة مقام الإخلاص

[نظم: السريع]

مـن أَخْـلَـصَ الـديـنَ فـذاك الـذي لـنـفـسـه الـرحـمـنُ يـسـتَـخْـلِـصُـهْ

فـكـلُّ نـقـصـانٍ إذا لـم يـكـن فـي كـونـه فـإنـه يـنـقُـصُـهْ

اعلم أن الاسم الأحد ينطلق على كل شيء من ملك وفلك وكوكب وطبيعة وعنصر ومعدن ونبات وحيوان وإنسان مع كونه نعتاً إلهياً في قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ١] وجعله نعتاً كونياً في قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١١٠] وما من صنف ذكرناه من هؤلاء الأصناف الذين هم جميع ما سوى الله وقد حصرناهم إلاّ وقد

عبد منهم أشخاص، فمنهم من عبد الملائكة، ومنهم من عبد الكواكب، ومنهم من عبد الأفلاك، ومنهم من عبد العناصر، ومنهم من عبد الأحجار، ومنهم من عبد الأشجار، ومنهم من عبد الحيوان، ومنهم من عبد الجن والإنس، فالمخلص في العبادة التي هي ذاتية له أن لا يقصد إلاّ من أوجده وخلقه وهو الله تعالىٰ، فتخلص له هذه العبادة، ولا يعامل بها أحداً ممّن ذكرناه أي لا يراه في شيء ممّا ذكرناه لا من حيث عين ذلك الشيء ولا من حيث نسبة الأحدية له، فإن الناظر أيضاً له أحدية فليعبد نفسه فهو أولى له، ولا يذل لأحدية مثله، إذ ولا بدّ من ذلّته لغير أحدية خالقه، فيكون أعلى همة ممّن ذلّ لأحدية مخلوق مثله، وما من شيء من المخلوقات إلاّ وفيه نفس دعوى ربوبية لما يكون عنه في الكون من المنافع والمضار، فما من شيء في الكون إلاّ وهو ضار نافع، فهذا القدر فيه من الربوبية العامة وبها يستدعي ذلة الخلق إليه. ألا ترى الإنسان على شرفه على سائر الموجودات بخلافته كيف يفتقر إلى شرب دواء يكرهه طبعاً لعلمه بما فيه من المنفعة له فقد عبده من حيث لا يشعر كرهاً وإن كان من الأدوية المستلذة لمزاج هذا المريض وهو قد علم أن استعماله ينفعه فقد عبده من حيث لا يشعر طوعاً ومحبة، وكذا قال الله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [سورة الرعد، الآية ١٥].

وخذ الوجود كله على ما بينته لك فإنه ما من شيء في الكون إلاّ وفيه ضرر ونفع، فاستجلب بهذه الصفة الإلهية نفوس المحتاجين إليه لافتقارهم إلى المنفعة ودفع المضار، فأداهم ذلك إلى عبادة الأشياء وإن لم يشعروا ولكن الاضطرار إليها يكذبهم في ذلك، فإن الإنسان يفتقر إلى أخس الأشياء وأنقصها في الوجود وهو مكان الخلاء عند الحاجة يترك عبادة ربه، بل لا يجوز له في الشرع أداؤها وهو حاقن فيبادر إلى الخلاء ولا سيما إذا أفرطت الحاجة فيه واضطرته بحيث تذهب بعقله ما يصدق متى يجد إليه سبيلاً، فإذا وصل إليه وجد الراحة عنده وألقى إليه ما كان أقلقه، فإذا وجد الراحة خرج من عنده وكأنه قط ما احتاج إليه وكفر نعمته واستقذره وذمّه، وهذا هو كفر بالنعمة والمنعم.

ولما علم الله ما أودعه في خلقه وما جعل في الثقلين من الحاجة إلى ما أودع الله في الموجودات وفي الناس بعضهم لبعض قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي لا يشوبه فساد ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [سورة الكهف: الآية ١١٠] أي لا يذل إلاّ لله لا لغيره وأمر أن نعبده ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩] وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] وهو الدين المستخلص من أيدي ربوبية الأكوان، فإذا لم ير شيئاً سوى الله وأنه الواضع أسباب المضار والمنافع لجأ إلى الله في دفع ما يضره ونيل ما ينفعه من غير تعيين سبب فهذا معنى الإخلاص، ولا يصحّ وجود الإخلاص إلاّ من المخلصين بفتح اللام، فإن الله إذا اعتنى بهم استخلصهم من ربوبية الأسباب التي ذكرناها، فإذا استخلصهم كانوا مخلصين بكسر اللام، وإنما أضاف إليهم الإخلاص ابتلاءً ليرى هل يحصل لهم امتنان بذلك على الحق أم لا؟ وقد وجد في قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ﴾ فإن منّوا بذلك وبخوا ونبهوا بقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ

﴿يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٧] في دعواكم أنكم مؤمنون فعراهم من هذه الصفة أن تكون لهم كسباً، فينبغي للعاقل أن لا يأمن مكر الله في إنعامه، فإن المكر فيه أخفى منه في البلاء، وأدنى المكر فيه أن يرى نفسه مستحقاً لتلك النعمة وأنها من أجله خلقت فإن الله ليس بمحتاج إليها فهي لي بحكم الاستحقاق، هذا أدنى المكر الذي تعطيه المعرفة، ويسمّى صاحبه عارفاً في العامة وهو في العارفين جاهل، إذ قد بيّنا فيما قبل أن الأشياء إنما خلقت له تعالىٰ لتسبح بحمده، وكان انتفاعنا بها بحكم التبعية لا بالقصد الأول، ففطر العالم كله على تسبيحه بحمده وعبادته، ودعا الثقلين إلى ذلك، وعرف أن لذلك خلقهم لا لأنفسهم ولا لشيء من المخلوقات مع ما في الوجود من وقوع الانتفاع بها بعضها من بعض. وقال تعالىٰ في الحديث الغريب الصحيح: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ**» فطلب من عباده إخلاص العمل له، فمنهم من أخلصه له جملة واحدة فما أشرك في العمل بحكم القصد فما قصد به إلاَّ الله، ولا أشرك في العمل نفسه بأنه الذي عمل بل عمله خلق لله، فالأول عموم والثاني خصوص وهو غاية الإخلاص، ولا يصحّ إخلاص إلاَّ مع عمل أعني في عمل، فإنه لا بدّ من شيء يكون مستخلصاً بفتح اللام وحينئذ يجد الإخلاص محلاً يكون لذلك العمل يسمّى به العمل خالصاً والعامل مخلصاً، والله الموفق لذلك.

الباب الخامس والثلاثون ومائة

في معرفة ترك الإخلاص وأسراره

[نظم: السريع]

من أخلَصَ الدينَ فقد أشرَكا وقَيَّدَ المُطْلَقَ من وَصْفِهِ
من يَجْهَلِ الأمرَ فذاك الذي يُدرك ذاتَ المِسْك من عَرْفِهِ

قال رجل للجنيد: ومن العالم حتى يذكر مع الله وكان من أهل الأحوال وقال تعالىٰ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [سورة النمل: الآية ٦٠] وقال بعضهم: رؤية الإخلاص منك في العمل مجوسية محضة يريد الشرك، وإنما ينبغي أن يشاهد المكلف مجرى العمل ومنشئه، وكان أبو مدين يأمر أصحابه بإظهار الطاعات فإنه لم يكن عنده فاعل إلاَّ الله، والتخليص يوذن بالمنازع ولا بدّ للمنازع أن يطلب من المكلف أن يكون عبداً له، والعمل من جملة أفعال الله الذي المكلف مظهرها، فأجهل الناس من يجعل موجد الفعل تحت طاعة من يفعل من أجله وهو إمّا إبليس وإمّا الرياء إذا كان المكلف يقوم إلى العمل بهذه النية والمنازع ما هو هناك، فالمخلص أثبت العدم وجوداً وجهل الأمر على ما هو في نفسه، فمن حكم عليه ما ذكرناه ورأى نواصي كل دابة بيد الله ورأى ربه على صراط مستقيم، ومن أخذ بناصيتك لم يعدل بك عن طريقه الذي هو عليه، فإذن لم يكن الإخلاص إلاَّ عبارة عن رؤيته في مشهد ما معين لا في كل مظهر وهو في كل مظهر، ولا يقدر صاحب هذه الحال أن يرى حجاباً بينه وبين مشهوده، فلا يتمكن له أن يميز شيئاً من شيء، فإن العين واحدة وهي على صراط مستقيم.

الباب السادس والثلاثون ومائة
في معرفة مقام الصدق وأسراره

[نظم: السريع]

الصِّدْقُ سيفُ الله في أرْضِهِ ... فاصدُقْ تَرَى الصادقَ من عَرْضِهِ
فإن أتى الدجَّالُ فاضربْ به ... هامَتَهُ بالحدِّ من عَرْضِهِ
فالسيفُ محصورٌ بحدَّيْهِ في ... نَفْلٍ من الفعلِ وفي فَرْضِهِ
ولا تَقُلْ هذا محالٌ فقد ... يَفْرِضُهُ الفارضُ في فَرْضِهِ
فكم غَنيٍّ يُظْهِرُ الفقرَ إذ ... يَسْتَقْرِضُ المسكينَ من قَرْضِهِ

الصدق شدة وصلابة في الدين، والغيرة لله من أحواله، ولصاحبه المتحقق به الفعل بالهمة وهو قوّة الإيمان، قيل لأبي يزيد: ما اسم الله الأعظم الذي به تنفعل الأشياء؟ فقال: أروني الأصغر حتى أريكم الأعظم ما هو إلاً الصدق أصدق وخذ أي اسم شئت أسماء الله كلها عظيمة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٥] أي أصدق حبّاً لله من حبّ المشركين لمن جعلوهم شركاء والصادق من أسمائه، وقال تعالىٰ: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٨] ولهذا له الدعوى، فلا يكون الصادق صادقاً ما لم يقم الصدق به، فإذا قام به كان له ذوقاً وكان كونه صادقاً حال صدقه وهو قد تسمّى بالصادق، فلهذا يسألهم هل صدقهم هو النعت الإلهي الذي به تسمّى الله بالصادق أم لا؟ فإن كان هو طالبهم بأن يقوموا بأحكامه قيامه، فلا يغلبهم شيء ولا يقاومهم في حال صدقهم، فيكون الله صدقهم كما كان سمعهم وبصرهم النسبة واحدة، فإن لم يحكموا هذا المقام ولا وجدوا منه هذه الحال فما هو هذا الصدق الذي هو النعت الإلهيّ، بل هو أمر ظهر بصورة الصدق ظهور الشبهة بصورة الدليل، وكما لا وجه للشبهة لا حقيقة لهذا الصدق، وهذا معنى قول الله: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٩] فلا يؤثر فيهم عوارض يوم القيامة، بل تخاف الناس ولا يخافون، وتحزن الناس ولا يحزنون، وقال في حق طائفة: ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٢١] هذا حكمه في النطق فكيف في جميع الأحوال؟

والصدق إذا جاء من خارج جاء بغير صورته، فإنه ظهر في مادة إمكانية فلم يؤثر أثراً في كل من جاء إليه، فإن كان في المحل صدق الإيمان ميّزه وعرفه في المادة التي ظهر فيها فقبله وعمل بمقتضاه فكان نوراً على نور ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ [سورة الفتح: الآية ٤] كما زاد من ليست له حالة الصدق ﴿رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٥] والصدق بذاته مؤثر حيث ظهر عينه ظهر حكمه، ومن ليست له هذه الحال المؤثرة في الوقت فهو غائب عن صدقه في ذلك الوقت ولا بدّ ويدعيه من مكان بعيد. فالصدق من حيث تعلّقه بالكون هو حال، ومن حيث تعلّقه من الصادق بالله هو مقام، فمن حيث هو مقام لا يكون عنه أثر فإن تعلّقه بالله، والله ليس بمحل لتأثر الأكوان فليكون صاحبه صادق التوجّه إلى الله، فإن ظهر عمّن هذه صفته

أثر في الكون فعن غير تعمّل ولا قصد، إنما ذلك إلى الله يجريه على لسانه أو يده ولا علم له به، فإن أثر على علم وادّعى أنه صادق مع الله فهو إمّا جاهل بالأمر وإما كاذب وهذا ليس من صفة أهل الله، فحال الصدق يناقض مقامه، ومقامه أعلى من حاله في الخصوص، وحاله أشهر وأعلى في العموم، وكان للإمام عبد القادر على ما ينقل إلينا من أحواله حال الصدق لا مقامه وصاحب الحال له الشطح وكذلك كان رضي الله عنه، وكان للإمام أبي السعود بن الشبلي تلميذ عبد القادر مقام الصدق لا حاله، فكان في العالم مجهولاً لا يعرف ونكرة لا تتعرف، نقيض عبد القادر عجزاً محققاً لتمكنه في مقام الصدق مع الله، كما كان عبد القادر محققاً متمكناً في حال الصدق فرضي الله عنهما، فما سمعنا في زماننا من كان مثل عبد القادر في حال الصدق، ولا مثل أبي السعود في مقام الصدق، فالصدق الذي هو نعت إلهيّ لا يكون إلاّ لأهل الله، والصدق الذي في معلوم الناس سار في كل صادق من مؤمن وكافر، وهذا الصدق للصدق الإلهيّ كالظل للشخص فهو ظله، ولهذا يظهر أثره في كل صادق من كل ملة ولو لم يكن ظلاله ما صحّ عنه أثر، فاجعل بالك لما أشرنا إليه وبسطناه، فالناس عنه في عماية وعن أمثاله من المقامات والأحوال: [الوافر]

فلولا الصدقُ ما كان الوجودُ ... ولولاه لما كان الشُّهودُ

الباب السابع والثلاثون ومائة

في معرفة مقام ترك الصدق وأسراره

[نظم: البسيط]

الصِّدقُ يَخْرجُ عن ضَعْفِ العُبُودة إذ ... هو الصدوقُ الشديدُ القَهْرِ للنفْسِ
وكلُّ ما حالَ بين العبد في طَبَقٍ ... وضَعْفِهِ فاتركَنْهُ خِيْفَةَ اللَّبْسِ
إذ ليس يَقْهَرُ إلاَّ من يماثِلُهُ ... ولا يماثِلُه شخصٌ من الإنْسِ
وهو الأتمُّ وجوداً من مُغَايِرِهِ ... وكلُّ غَيْرٍ ففي قَيْدٍ وفي حَبْسِ
فإنه أَحَدٌ وخَلْقُهُ عددٌ ... والفَضْلُ ليس له حُكمٌ بلا جِنْسِ

لما كان الصدق يطلب المماثلة وإن كان محموداً فرجال الله أنفوا من الاتصاف به مع حكمه فيهم وظهور أثره عليهم، غير أنه ليس مشهوداً لهم، ثم نظروا إليه من كونه نعتاً إلهياً فلم يجدوا له عيناً هناك ورأوا تعلق الصدق الإلهيّ إنما هو فيما وعد لا في كل ما أوعد. ومن شرط النعت الإلهيّ عدم التقييد فيما هو متعلق له، فعلموا أنه نعت إضافي لاختصاصه ببعض متعلقاته، فلما رأوه على هذا أوجبوا ترك مشاهدته فإنهم كالناظرين في أمر معدوم لا وجود له، والصدق وإن كان نسبة وليست له عين موجودة فله درجات، فدرجاته في العارفين من أهل الأسرار مائة وخمس وتسعون درجة، وفي العارفين من أهل الأنوار مائتان وخمس وعشرون، وفي الملامية من أهل الأسرار مائة وأربع وستون درجة، وفي الملامية من أهل الأنوار مائة وأربع وتسعون درجة، وأنا أعطيك أصلاً مطرداً في كل ما أذكره من ترك كل ما نثبته إنما أريد بذلك

ترك شهوده لا ترك أثره، فإن حكمه لا يتمكن أن يقول فيه ليس فإنه موجود مشهود لكل عين، فعلى هذا تأخذ كل ما أذكره في هذا الكتاب من التروك فاعلم ذلك.

الباب الثامن والثلاثون ومائة

في معرفة مقام الحياء وأسراره

[نظم: البسيط]

إن الحَياءَ من الإيمان جاء به ... لَفظُ النبيّ وخَيرٌ كلُّهُ فبهِ
فليتَّصِفْ كل من يَرْعَى مَشاهِدَهُ ... وليس يعرف هذا غيرُ مُنْتَبِهِ
مُسْتَيْقِظٍ غيرِ نوَّامٍ ولا كَسِلٍ ... مُراقبٍ قَلْبَهُ لدى تَقَلُّبِهِ
إن الحييَّ من اسماءِ الإله وقد ... جاء التخلُّق بالأسماء فاحْظَ بهِ

ورد في الخبر أن الحييّ اسم من أسماء الله تعالىٰ، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦] يعني في الصغر، وهو من صفات الإيمان ومن صفات المؤمن، ومن أسمائه تعالىٰ المؤمن، فالحييّ نعت للمؤمن، فإن الحياء من الإيمان، والحياء خير كله، والحياء لا يأتي إلاّ بخير، وهذه كلها أخبار صحيحة، وحقيقتها أعني هذه الصفة الترك لأن الترك من كل موجود بقاء على الأصل، والعمل فرع وجودي زائد على الأصل، فلهذا قيل فيه خير كله فالحياء نعت سلبي، فالعبد إذا ترك ما لله لله وما يقول الكون إنه للعبد من الأمور الوجودية يتركه أيضاً لله على حقيقة ما يترك ما هو لله بالإجماع من كل نفس لله، فقد استحيا من الله حق الحياة، ومن ترك ما لله لله خاصة فقد استحيا من الله ولكن لا حق الحياء، وذلك أن النعوت التي نعت الحق بها نفسه من المسمّى أخبار التشبيه وآيات التشبيه على ما يزعم علماء الرسوم وأنه تنزّل إلهيّ رحمة بالعباد ولطفاً إلهياً، وهو عندنا نعت حقيقي لا ينبغي إلاّ له تعالىٰ، وأنه في العبد مستعار كسائر ما يتخلق به من أسمائه فإنه ﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٤] ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥] بالمستهزئين من عباده باستهزاء ومكر هو له ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٢٥] وهو لا يصف نفسه بالحوادث، فدل أن هذه النعوت بحكم الأصالة لله، وما ظهرت في العبد الإلهيّ إلاّ لكونه خلق على الصورة من جميع الوجوه.

ولما عرف العارفون هذا ورأوا قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] وهذه النعوت الظاهرة في الأكوان التي يعتقد فيها علماء الرسوم أنها حق للعبد من جملة الأمور التي ترجع إلى الله تركوها لله لاستحيائهم من الله حق الحياء وهو من نعوت الاسم المؤمن، والمؤمن المصدق بأن هذه النعوت له أزلاً، وإن لم يظهر حكمها إلاّ في المحدثات فالحياء يدخل في الصدق ولهذا قال: الحياء من الإيمان.

وأما قوله ﷺ في الحياء: «**إِنَّهُ لا يَأْتِي إلاَّ بِخَيْرٍ**» فهي كلمة صحيحة صادقة، فإن البقاء على الأصل لا يأتي إلاّ بخير فإنها لا تصحبها دعوى، فهو قابل لكل نعت إلهيّ يريد الحق أن

ينعته به، وما في المحل ضد يرده ولا مقابل يصده، فيبقى الحق يفعل ما يريد بغير معارض ولا منازع. وأما نعت الحق به فهو تركه العبد يتصف بنعوت الحق ويسلمها له ولا يخجله فيها بل يصدقه ويعلي بها رتبته ولا يكذبه في دعواه فإنه مجلاه فهذا من كون الحق حيًّا.

ورد في الخبر أن شيخاً يوم القيامة يقول الله له: يا عبدي عملت كذا وكذا، لأمور لم يكن ينبغي له أن يعملها، فيقول: يا رب ما فعلت، وهو قد فعل، فيقول الحق: سيروا به إلى الجنة، فتقول الملائكة التي أحصت عليه عمله: يا ربنا ألست تعلم أنه فعل كذا وكذا؟ فيقول: بلى ولكنه لما أنكر استحييت منه أن أكذب شيبته. فإذا كان الحق يستحي من العبد أن يكذب شيبته ويوقره فالعبد بهذه الصفة أولى، وللحياء درجات عند العارفين وعند الملاميين فدرجاته في العارفين إحدى وخمسون درجة، وفي الملاميين عشرون درجة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الثاني ومائة.

(الجزء الثالث ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل: لما كان الحياء صفة تنسب إلى الإيمان فهو من ذات الإيمان، كان أثره من ظاهر صورة الإنسان في الوجه، إذ الوجه ذات الشيء وعينه وحقيقته، فالحياء ينقسم كما ينقسم الإيمان إلى بضع وسبعين شعبة، أرفعها لا إله إلاَّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والمناسبة بين العالي والدون أن الشرك أذى في طريق التوحيد إماطته الأدلة العقلية والإنباءات الشرعية لما جعلته في طريق التوحيد الشبه المضلة والأهواء الشيطانية، وصورة الحياء الذي يدرك الموحد في توحيده ويزيل الأذى من طريق الخلق تلفظه بنفي الإله قبل وصوله إلى إيجابه إلى من يستحقه وهو قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ والنفي عدم فوقع الحياء من العبد المؤمن حيث بدأ بالعدم وهو عينه، لأن المحدث نعته تقدم حال العدم عليه، ثم استفاد الوجود الذي هو بمنزلة الإيجاب لما وقع عليه النفي ولم يتمكن للمحدث أن يقول إلاَّ هذا لأنه لا يصحّ العدم بعد الوجود ولا النفي بعد الإثبات، فإنه لو تجلّى له الحق ابتداء لم ينفه في الشريك لأنه كان يراه عينه لو كان له وجود، وإن لم يكن له وجود فيكون نظر الموحد عند وقوعه على وجود الحق لا يتمكن أن يرى مع هذا الوجود عدماً، فكان لا يتلفظ بكلمة التوحيد أبداً ولا يرى نفسه أبداً، فمن رحمة الله تعالىٰ بالإنسان أنه أشهده أولاً نفسه فرأى في نفسه قوى ينبغي أن لا تكون إلاَّ لمن هو إله، فلما حقق النظر بعقله ونظر إلى العوارض الطارئة عليه بغير إرادته ومخالفة أغراضه ووجد الافتقار في نفسه علم قطعاً أن عين وجوده شبهة، وأن هذه الصفات لا ينبغي أن تكون لمن هو إله، فنفى تلك الألوهة التي قامت له من نفسه فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ ثم إنه لما أمعن النظر وجد نفسه قائماً بغيره غير مستقل في وجوده فأوجب فقال عند ذلك: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فلما أثبت نظر إلى هذا الذي أثبته فرآه عين صورة ما نفاه مرتبطاً به ارتباط الظل بالشخص بنور العلم الذي فتح عينه إلى هذا الإدراك، وقد كان نفاه بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ فاستحى

كيف أطلق ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ ولهذا جعلته طائفة من أذكار العموم، وكان بعض شيوخنا لا يقول في ذكره سوى لفظة الله كان لا يقول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة الصافات: الآية ٣٥] فسألته عن ذلك فقال: إن روحي بيد الله ما هي في حكمي وفي كل نفس أنتظر الموت واللقاء، وكل حرف من حروف الكلام نفس، فيمكن إذا انصرف أن تكون المفارقة في انصرافه ولا يأتي من الله بعده نفس آخر، فإذا قلت: لا، أو عشت حتى أقول: لا إله ثم أفارق قبل الوصول إلى الإيجاب فأقبض في وحشة النفي لا في أنس الإيجاب فلهذا عدلت إلى ذكر الجلالة إذ ليس لي مشهود سواه، فمن كان هذا حاله فلا بد أن يستحي في قوله: لا إله إلاَّ الله وهو أشد الحياء فكانت أرفع شعب الإيمان، فكانت أرفع شعب الحياء من الله حيث نظر إلى نفسه قبل نظره إلى خالقه وهو قوله ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] إذ كان عين ما نفى عين ما أثبت، فإنه ما نفى إلاَّ الإله، ولا أثبت إلاَّ الإله.

وأما حياؤه في إماطته الأذى عن طريق الخلق فإنه مأمور بإماطته، ثم إنه يرى وجه الحق فيه بالضرورة لأنه أدنى المراتب فهو بمنزلة الآخر من الأسماء الإلهية وإليه ينظر كما كان لا إله إلاَّ الله الاسم الأول وجاءت الهوية فأخذت الاسمين لها فقالت: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] فبقي متردداً بين حق ما يستحقه الاسم الآخر الظاهر في كون هذا أذى في طريق الخلق ويرى أن الخلق متصرفون بأسماء إلهية بين هذين الاسمين، فلا تقع عين هذا المؤمن إلاَّ على الله أولاً وآخراً وما بينهما والأمر متوجه عليه بالإماطة، فيستحي من الأمر أن لا يبادر لما أمره به من الإماطة، ويستحي من الاسم الآخر الذي يراه في عين الأذى، فإذا أدركه هذا الحياء ناداه الاسم من الأذى: يا فلان بي تميط هذا الأذى عن طريق الخلق فأنا في الأذى كما أنا في الإماطة ما أزلته بغيري فلا تستحي، انظر في قوله: أدناها إماطة الأذى فعلق الأذى بالإماطة وهو آخر درجات الإيمان، فنحن في عين الإماطة ما نحن غيرها، فيتجبر عند ذلك صاحب هذه الحال فيميطه به كما نفى الإله بالإله.

وإذا كان حال العبد في حيائه من الله في الأول والآخر والأعلى والأدون انحصرت المتوسطات بين هذين الطرفين، فكان معصوم الحال محفوظ المقام كالصلاة تحريمها التكبير وتحليلها التسليم، فظهرت المنة في الطرفين ليسلم الوسط بينهما وسبب ذلك الحصر فتبين لك بعدما أوقفتك عليه من الحقائق أن الحياء من الله أن يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك، فعمّ بهذا جميع شعب الإيمان وهو مقام يصحبه الأمر والنهي والتكليف، فإذا انقضى زمان التكليف كان ينبغي له أن يزول وليس الأمر كذلك، فاعلم أنه من حقيقة وجود الحياء وجود العلم بما يجب لله تعالىٰ وأنت القائم به والمطلوب عقلاً وشرعاً، ومحال أن يقدر مخلوق على الوفاء بما يجب لله تعالىٰ عليه من تعظيمه عقلاً وشرعاً، ولا بد له من لقاء ربه وشهوده ومقامه هذا، فالحياء يصحبه في الدنيا والآخرة لأنه لايزال ذاكراً لما يجب عليه، وذاكراً لعدم قيامه في حق الله بما يجب له، وقد ورد في الخبر ما يؤيّد هذا أن الحق إذا تجلّى لعباده يوم الزور الأعظم ويرفع

الحجب عن عباده، فإذا نظروا إليه جلّ جلاله قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، فهذا الاعتراف أوجبه الحياء من الله عزّ وجلّ، فالحياء أنطقهم بذلك.

الباب التاسع والثلاثون ومائة

في معرفة مقام ترك الحياء

[نظم: الكامل]

تَـرْكُ الـحـيـاء تـحـقُّـقٌ وتَـخَـلُّـقٌ ... جـاءت بـه الآيـاتُ فـي الـقـرآنِ

فـلـه الـنَّـفَـاسَـةُ والـنـزاهـةُ عـنـدنـا ... إذ لا تُـخَـافُ بـمـنـزل الـعُـدْوانِ

هـذي هـي الـدنـيـا وأنـتَ إمـامُـهـا ... وعـبـيـدُهـا بـالـنَّـقْـص والـرُّجـحَـانِ

فـإذا فـهـمـتَ الأمـر يـا هـذا فـكُـنْ ... مـثـلَ الـلـسـان بـقـيَّـةَ الـمـيـزانِ

لا تَـعْـدِلَـنَّ إلـى الـشـمـال فـإنـه ... نَـقْـصٌ ومِـلْ طـلـبـاً إلـى الأيْـمـانِ

فـهـوَ الـكـمـالُ لـمـن تـحـقَّـق حَـالـةَ الـ ... إسـلام والإيـمـان والإحـسـانِ

ترك الحياء في موطنه نعت إلهيّ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦] وسبب ذلك من وجهين: إما أن يكون ما في الوجود إلاّ الله فالوجود كله عظيم فلا يترك منه شيء لأنّ الحياء ترك فهو نعت سلبي وترك الترك تحصيل فهو نعت ثبوتي، فلا إله نعت سلبي وإلاّ الله نعت ثبوتي، فما جئنا بالسلب إلاّ من أجل الإثبات، فما جئنا بالحياء إلاّ من أجل تركه، فإن الحياء للتفرقة، وترك الحياء لأحدية الجمع لا للجمع هذا هو الوجه الواحد. وإما أن يكون في الوجود أعيان الممكنات التي لا قيام لها إلاّ بالله، فينبغي أن لا يترك شيء منها لارتباط كل شيء منها بحقيقة إلهية هي تحفظه، وقد ثبت أن الممكنات لا تتناهى، فالحقائق والنسب الإلهية لا نهاية لها، ولا يصحّ أن يكون في الإلهيات تفاضل لأن الشيء لا يفضل نفسه، ولا مفاضلة في هذه الأعيان إلاّ بما تنتسب إليه لأنه لا فضل لها من ذاتها ولا مفاضلة هناك فلا مفاضلة هنا، فكما هو الأول هو الآخر، كذلك العقل الأوّل الجماد، وكما هو الظاهر هو الباطن، كذلك ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٣] فما ثم تافه ولا حقير، فإن الكل شعائر الله ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة الحج: الآية ٣٢، ٣٣] زمان نظركم في نفوسكم بها، والأجل المسمى هو أن يكشف لكم عنكم أنكم ما هم أنتم إذ من حقيقته عدم الوجود فالوجود له معار، فإذا تبين لك أنكم ما هو أنتم وهو الأجل المسمى كان محلها وهو محلها إلى البيت العتيق وهو القديم الذي لا يقبل الحدوث، فرأيتم أن الصفة تطلب موصوفها، فزلتم أنتم من كونكم شعائر الله، وصار الحق دليلاً على نفسه، إذ كان من المحال أن يدل شيء على شيء دلالة علم محقق فلا أدل من الشيء على نفسه، ولهذا إذا حددت الأمر الظاهر ترده غامضاً ولهذا لا تطلب حدود الأمور الظاهرة، كمن يطلب حدّ النهار وهو فيه وهو أوضح الأشياء لا يقدر أن يجهله، وإذا كان الأمر كما ذكرنا فلا يستحي فلا حياء ولا حكم له بل يضرب الأمثال

ويقيم الإشكال ويعلم لمن يخاطب ومن يفهم عنه ممّن لا يفهم ولكل فهم، فلو وجد عند السامع ما هو أخفى من البعوضة لجاء بها كما قد جاء بذلك مجملاً بقوله: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦] فأمرك وعلمك في هذه الآية أن لا تترك شيئاً إلاّ وتنسبه إلى الله، ولا يمنعك حقارة ذلك الشيء ولا ما تعلق به من الذم عرفاً وشرعاً في عقدك، ثم تقف عند الإطلاق فلا تطلق ما في العقد على كل شيء ولا في كل حال وقف عند ما قال لك الشارع: قف عنده، فإن ذلك هو الأدب الإلهي الذي جاء به الشرع والأدب جماع الخير، وفي إيراد الإلفاظ يستعمل الحياء لأنك تترك بعضها كما أمرت، وفي العقد لا تترك شيئاً لا تنسبه إلى الله وهو مقام ترك الحياء، فعامل الله تعالى بحسب المواطن كما رسم لك ولا تنازع ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] فإنك إذا قلت ذلك لم تزل في مزيد جانياً ثمرة الوجوب.

الباب الأربعون ومائة

في معرفة مقام الحرية وأسراره وهو باب خطر

[نظم: البسيط]

عَبْدُ الهوى آبقٌ عن مِلْك مَوْلاهُ ... وليس يخرج عنه فهو تَيَّاهُ
الحرُّ من مَلَكَ الأكوانَ أجمَعَهَا ... وليس يملكه مالٌ ولا جَاهُ
فإن تعرَّضَ للتكوين أبْطَلَ ما ... قد كان من أصله من مِلْكِ مَوْلاهُ

اعلم وفقك الله أن الحرية مقام ذاتي لا إلهيّ ولا يتخلص للعبد مطلقاً فإنه عبد الله عبودية لا تقبل العتق، وأحلناها في حق الحق من كونه إلهاً لارتباطه بالمألوه ارتباط السيادة بوجود العبد والمالك بالملك والملك بالملك، انظر في قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِئَاخَرِينَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٣] فنبّه بإتيان قوم آخرين على هذا الارتباط، فإنه يلزم من حقيقة الإضافة عقلاً ووجوداً تصوّر المتضايفين، فلا حرية مع الإضافة والربوبية والألوهية إضافة، ولما لم يكن بين الحق والخلق مناسبة ولا إضافة بل هو ﴿غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وذلك لا يكون لذات موجودة إلاّ لذات الحق، فلا يربطها كون، ولا تدركها عين، ولا يحيط بها حدّ، ولا يفيدها برهان، وجدانها في العقل ضروري، كما أن نفي صفات التعلق التي تدخلها تحت التقييد نظري، فإذا أراد العبد التحقق بهذا المقام فإنه مقام تحقق لا مقام تخلق، ونظر أنه لا يصحّ له ذلك إلاّ بزوال الإفتقار الذي يصحبه لإمكانه، ويرى أن الغيرة الإلهية تقتضي أن لا يتصف بالوجود إلاّ الله لما يقتضيه الوجود من الدعوى، فعلم بهذا النظر أن نسبة الوجود إلى الممكن محال، لأن الغيرة حدّ مانع من ذلك فنظر إلى عينه فإذا هو معدوم لا وجود له وأن العدم له وصف نفسي فلم يخطر له الوجود بخاطر فزال الافتقار وبقي حراً في عدميته حرية الذات في وجودها.

ثم إنه أراد أن يعرف ما يناسب الأسماء الإلهية التي لهذه الذات من ذات الممكن المعدوم، فرأى أن كل عين من عيون الممكنات على استعداد لا يكون في غيره ليقع التمييز بين

الأعيان، فما وقع بين ذات الممكن وذات الحق بالوجود للحق الواجب والعدم للممكن الواجب فجعل هذه الاستعدادات له بمنزلة الأسماء للحق والوجود في أعيان الممكنات لله تعالىٰ، فإذا ظهر في عين من أعيان الممكنات لنفسه باسم ما من الأسماء الإلهية أعطاه استعداد تلك العين اسماً حادثاً تسمى به فيقال: هذا عرش، وهذا عقل، وهذا قلم ولوح وكرسي وفلك وملك ونار وهوى وماء وأرض ومعدن ونبات وحيوان وإنسان ما بين أجناس وأنواع.

ثم سرت هذه الحقيقة في الأشخاص فيقال: زيد وعمرو، وهذا الفرس، وهذا الحجر، وهذه الشجرة، هذا كله أعطاه استعداد أعيان الممكنات، فاستدللت بآثارها في الوجود على ما هي عليه من الحقائق في ذاتها، كما استدللت بآثار الأسماء في الوجود على الأسماء الإلهية، وما للمسمّى عين يقع عليها الإدراك، فإذا وقف الممكن مع عينه كان حراً لا عبودية فيه، وإذا وقف مع استعداداته كان عبداً فقيراً، فليس لنا مقام في الحرية المطلقة إلاَّ أن يكون مشهدنا ما ذكرناه فلا تحدّث نفسك بغير هذا، ومن لا يشهد هذا المقام فإنه لا يعلم أبداً مدلول قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي هو غني عن الدلالة عليه، إذ لو أوجد العالم للدلالة عليه لما صحّ له الغنى عنه، فعالم المعرفة من نصب العالم دليلاً وعلى من يدل، وهو أظهر وأجلى من أن يستدل عليه بغير أو يتقيد تعالىٰ بسوى، إذ لو كان الأمر كذلك لكان للدليل بعض سلطنة وفخر على المدلول، ولو نصّبه المدلول دليلاً لم ينفك هذا الدليل عن مرتبة الزهو بكونه أفاد الدال به أمراً لم يتمكن للمدلول أن يوصل إليه إلاَّ به، فكان يبطل الغنى والحرية وهما ثابتان لله تعالىٰ، فما نصب الأدلة عليه وإنما نصبها على المرتبة ليعلم أنه لا إله إلاَّ هو، فهذا لسان الخصوص في الحرية. وأما لسان العموم فالحرية عند القوم من لا يسترقه كون إلاَّ الله فهو حر عن ما سوى الله، فالحرية عبودة محققة لله، فلا يكون عبداً لغير الله الذي خلقه ليعبده فوفى بما خلق له فقيل فيه: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٣٠] أي رجاع إلى العبودة التي خلق لها لأنه خلق محتاجاً إلى كل ما في الوجود، فما في الوجود شيء إلاَّ ويناديه بلسان فقر هذا العبد: أنا الذي يفتقر إليّ فارجع إليّ، فإذا كان عالماً بالأمور علم أن الحق عند من ناداه وأنه فقير إلى ذلك السبب لكونه مستعداً لهذا الفقر إليه فإذا بحقيقته افتقر، ثم نظر إلى معطي ما هو محتاج إليه في هذا السبب فرآه الاسم الإلهيّ فما افتقر إلاَّ إلى الله من اسمه ولا افتقر إلاَّ بنفسه من أثر استعداده، فعلم ما الفقر ومن افتقر ومن افتقر إليه؟ فلهذا أمر ﷺ أن يقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] فقد نبهتك على ما فيه كفاية في الحرية وأسرارها ممّا لا تجده في غير هذا الكتاب من مصنفات غيرنا.

الباب الواحد والأربعون ومائة

في مقام ترك الحرية

[نظم: البسيط]

مَن لَيس ينفكُّ عن حاجاتِه أبداً   كيفَ التحرُّرُ والحاجاتُ تَطلُبُهُ

فهو الفقيرُ إلى الأشياء أجمَعِها ... فالفقرُ مذهبُه والفقر مَكْسَبُهُ
لذا تَسَمَّى بأعيان الكيان لنا ... حتى تعيَّنَ في المنطوق مَذْهَبُهُ
فليس في الكون حرٌّ حيث يطلبنا ... من كل وجهٍ ومنه نحن نطْلُبُهُ

اعلم وفقك الله أن ترك الحرية عبودة محضة خالصة تسترق صاحبها الأسباب لتحققه بعلم الحكمة في وضعها فهو يذل تحت سلطانها، فصاحبها كالأرض يطؤها البر والفاجر، وتعطي منفعتها المؤمن والكافر تؤثر فيه تأثير الدعاء من الكون في الحق إجابة دعائه تحققاً بمولاه حين رأى هذا المقام يصحبه مع الغنى المنسوب إليه، فكيف حال من يجوع مركبه ويعرى ويظمأ ويضحي وهو مأمور بحفظه والنظر في شأنه وما يصلحه قد ولاّه الله عليه وأنزله خليفة فيه وليس في قوّته أن يقوم بحقه إلاَّ أن تمكنه الأسباب من نفسها، فبالضرورة يخضع في تحصيلها لأداء حق الله فيه المتوجه عليه، فإن الله يقول له: إن لنفسك عليك حقاً، ولعينك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، ومن توجهت عليه الحقوق فأنى له الحرية: [مخلع البسيط]

فكلُّ كون عليه حَقٌّ ... فهو عبيدٌ لذلك الحَقْ
وليس حراً فكنْ عليماً ... به خبيراً كَمَنْ تَحَقَّقْ
ولا تَكُنْ مثل من تأبَّى ... عن أمر مولاه إذ تَخَلَّقْ
الله ربٌّ وأنت عبدٌ ... له فكنه فالكون أسْبَقْ
قد قلتُ ذا حين كان سمعي ... ومقولي حين كنتُ أَنْطُقْ
ومن يكُنْ مثْلَ ما ذكرنا ... فذلك العالِمُ الموفَّقْ

فهو عبد نفسه ما دامت تطلبه بحقها، وعبد عينه ما دام يطلبه بحقه، وعبد زوره ما دام يطلبه بحقه، والنعم الإلهية تطلبه بشكر المنعم بها عليه، والتكليف قائم، والاضطرار لازم، إن رام دفعه لا يندفع يؤثر فيه المدح والثناء فيقول: الحمد لله المنعم المفضل، ويملكه الذمّ والجفاء والأذى فيقول: الحمد لله على كل حال، فتغير حمده لتغير الأحوال، فلو تغيرت الأحوال لتغير حمده لكان حراً عنها، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر الصديق: «**مَا أَخْرَجَكَ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الجُوعُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَأَنَا أَخْرَجَنِي الجُوعُ**»، فجاء مع من كان معه من أصحابه إلى دار الهيثم بن أبي التيهان فذبح لهم وأطعمهم فما أخرجهم إلاَّ من حكم عليهم لما توجه له حق عليهم وهو الجوع، والجوع أمر عدمي فموجود يؤثر فيه المعدوم كيف حاله مع الموجود، ومثل هؤلاء المشهود لهم بالحرية ولهذا الذوق ما خرجوا إلاَّ لطلب أداء ما عليهم من الحقوق لأنفسهم، فقد استرقهم الجوع ولو لم يخرجوا وسكنوا لكانوا تحت قهر الصبر وما تطلبه هذه الحال، فغاية نسبة الفضل إليهم أنهم خرجوا كما قلنا يلتمسون أداء حقوق نفوسهم بالسعي فيها إذ كانوا متمكنين من ذلك وأعلى من هذا فلا يكون، فإن قعدوا مع التمكن اتصفوا بالظلم والجهل بالحكم الإلهي، وأنى تعقل الحرية فيمن هذه صفته في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فواقع لا يقدر على إنكاره جحده ويجحده من نفسه وإن لم يركن إلى الأسباب ولا يعتمد عليها، وغايته أن يعتمد على الله في استعمالها فهو عبد معلول لأنه توجه خاص، وكذلك في الآخرة

عبد شهوته لكونه تحت سلطانها تحكم فيه، ولا معنى للعبودية إلاّ هذا دخوله تحت الأحكام ورق الأسباب.

ولما أبصر هذا العارف من نفسه علم أن الحرية حديث نفس وحال عرضي لا ثبات له مع الصحو، ثم إن ترك الحريّة نعت إلهيّ فكيف يصحّ له الخروج عنه وغايته أن يكون فيه بصورة حق يلتمس الدعاء ويطلب التوبة من عباده وسؤال المغفرة منهم ويذمّهم إن لم يأتوا بما التمسه منهم حتى قال: لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون ثم يتوبون فيغفر لهم، فقد نبهتك عن أسرار هذا المقام، إن وقفت معها عرفت نفسك وعرفت ربك وما تعدّيت قدرك، وإن كان للحريّة درجات في عباد الله فغير الأحرار أعظم عند الله درجة وأكمل وصفاً، والأصل معهم حفيظ يحفظ عليهم ترك الحريّة والاسترقاق لما تعطيه الحكمة. فإن قلت: فكم للحريّة من الدرجات؟ فنقول: لها في العارفين من أهل الأنس ستمائة درجة وتسع وأربعون درجة. وفي العارفين من أهل الأدب أربع وخمسون درجة ومائتا درجة. وفي الملامية من أهل الأنس ستمائة وثمان عشرة درجة. وفي الملامية من أهل الأدب ثلاث وعشرون ومائتا درجة، وهذه الدرجات بأعيانها لمن ترك الحريّة وزيادة ما يعطيه الترك من الدرجات لقيامه بالحكمة وحفظ الأصل لإبقاء الحرية.

الباب الثاني والأربعون ومائة
في معرفة مقام الذكر وأسراره

[نظم: البسيط]

الذِّكْرُ سِتْرٌ على مذكوره أبداً ... وكلُّ ذكرٍ فأحوالٌ وأسماءُ
وليس ثَمَّ سوى ما قلته فإذا ... نظرْتَ فيه بدَتْ للعين أشياءُ
تدري بها كلَّ من قام الوجودُ به ... وذلك الحقُّ لا عَقْلٌ ولا مَاءُ

الذكر نعت إلهيّ وهو نفسي وملئي في الحق وفي الخلق، ومع كونه نعتاً إلهياً فهو جزاء ذكر الخلق قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] فجعل وجود ذكره عن ذكرنا إياه وكذلك حاله فقال تعالى: «**إنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيرٍ مِنْهُمْ**» فأنتج الذكر الذكر، وحال الذكر حال الذكر، وليس الذكر هنا بأن نذكر اسمه بل لنذكر اسمه من حيث ما هو مدح له وحمد، إذ الفائدة ترتفع بذكر الاسم من حيث دلالته على العين لا في حقك ولا في حقه. فإن قلت: فقد رجح أهل الله ذكر لفظة الله الله وذكر لفظة هو على الأذكار التي تعطي النعت ووجدوا لها فوائد. قلت: صدقوا وبه أقول ولكن ما قصدوا بذكرهم الله الله نفس دلالته على العين، وإنما قصدوا هذا الاسم أو الهو من حيث إنهم علموا أن المسمّى بهذا الاسم أو هذا الضمير هو من لا تقيده الأكوان ومن له الوجود التام، فإحضار هذا في نفس الذاكر عند ذكر الاسم بذلك وقعت الفائدة فإنه ذكر غير مقيد، فإذا قيده بلا إله إلاّ الله لم ينتج له إلاّ ما تعطيه هذه الدلالة، وإذا قيده بسبحان الله لم يتمكن له

أن يحضر إلاّ مع حقيقة ما يعطيه التسبيح، وكذلك الله أكبر والحمد لله ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، وكل ذكر مقيد لا ينتج إلاّ ما تقيد به لا يمكن أن يجني منه ثمرة عامّة، فإن حالة الذكر تقيده، وقد عرفنا الله أنه ما يعطيه إلاّ بحسب حاله في قوله: «**إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي**» الحديث، فلهذا رجحت الطائفة ذكر لفظة الله وحدها أو ضميرها من غير تقييد، فما قصدوا لفظة دون استحضار ما يستحقه المسمّى، وبهذا المعنى يكون ذكر الحق عبده باسم عام لجميع الفضائل اللائقة به التي تكون في مقابلة ذكر العبد ربه بالاسم الله، فالذكر من العبد باستحضار، والذكر من الحق بحضور لأنا مشهودون له معلومون وهو لنا معلوم لا مشهود، فلهذا كان لها الاستحضار وله الحضور، فالعلماء يستحضرونه في القوّة الذاكرة، والعامة تستحضره في القوّة المتخيلة، ومن عباد الله العلماء بالله من يستحضره في القوّتين يستحضره في القوّة الذاكرة عقلاً وشرعاً، وفي القوّة المتخيلة شرعاً وكشفاً، وهذا أتم الذكر لأنه ذكره بكله، ومن ذلك الباب يكون ذكر الله له.

ثم إن الله ما وصف بالكثرة شيئاً إلاّ الذكر، وما أمر بالكثرة من شيء إلاّ من الذكر قال: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] وقال: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤١] وما أتى الذكر قط إلاّ بالاسم الله خاصة معرى عن التقييد فقال: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ﴾ وما قال بكذا، وقال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] ولم يقل: بكذا، وقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٣] ولم يقل بكذا، وقال: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ [سورة الحج: الآية ٣٦] ولم يقل بكذا. وقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٨] ولم يقل بكذا. وقال ﷺ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ لا يَبْقَى عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ مَنْ يَقُولُ اللَّهَ اللَّهَ**» فما قيده بأمر زائد على هذا اللفظ لأنه ذكر الخاصة من عباده الذين يحفظ الله بهم عالم الدنيا وكل دار يكونون فيها، فإذا لم يبق في الدنيا منه أحد لم يبق للدنيا سبب حافظ يحفظها الله من أجله فتزول وتخرب، وكم من قائل: الله باق في ذلك الوقت، ولكن ما هو ذاكر بالاستحضار الذي ذكرناه، فلهذا لم يعتبر اللفظ دون الاستحضار ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٦] لأنهم لم يسمعوا بذكر شركائهم واشمأزت قلوبهم هذا مع علمهم بأنهم هم الذين وضعوها آلهة ولهذا قال قل سموهم، فإنهم إن سموهم قامت الحجة عليهم، فلا يسمى الله إلاّ الله، ودرجات الذكر عند العارفين من أهل الله إحدى وخمسون وتسعمائة درجة وعند الملامية تسع مائة وعشرون درجة.

الباب الثالث والأربعون ومائة

في معرفة مقام ترك الذكر

[نظم: البسيط]

لا يترك الذكرَ إلاّ من يشاهده ... وليس يشهده من ليس يَذْكرهُ
فقد تحيَّرْتُ في أمري وفيه فأيـ ... ـن الحقُّ بينهما عيناً فأوثِرُهُ

ما إن ذَكَرْتُكَ إلاَّ قام لي عَلَمٌ فحين أبصره في الحين يَسْتُرُهُ
فلا أزال مع الأحوال أشهده ولا أزال مع الأنفاس أذْكُرهُ
ولا يزال لدَى الأعيان يَشْهَدُني ولا يزال مع الأسماء يَظْهَر هُو

لا يكتب هنا هو إلاّ بالواو لتعرف الهوية لا أنه ضمير اعلم وفقك الله أن الذكر أفضل من تركه، فإن تركه إنما يكون عن شهود، والشهود لا يصحّ أن يكون مطلقاً والذكر له الإطلاق، ولكن الذكر الذي ذكرناه لا الذكر بالتسبيح والتهليل وغيره من الذكر المقيد، فلو كان ترك الذكر لا عن شهود كنا ننظر هل كان سبب تركه مما يقتضي الإطلاق فتحكم فيه بالتساوي والأحوال مقيدة بلا شك، وإن كان الإطلاق تقييداً لأنه قد تميز عن المقيد وسرى في المقيدات كيف ما قلت وبنفس ما تميز فقد تقيد بما تميز به فالإطلاق تقييد، وأعظم ما يقال فيه أنه مجهول لا يعرف، فما خرج بهذا الوصف عن التقييد لأنه قد تميز عن المعلوم، فعلى كل حال ما ثم إلاّ مقيد، وما ثم في ما لا ثم إلاّ مقيد، فالعدم هو ما لا ثم وهو متميز عن الوجود، والوجود متميز عن العدم، فما ثم معلوم ولا مجهول إلاّ وهو متميز، فالتقييد له الحكم وما بقي إلاّ تقييد متفاضل أعلاه تقييد في إطلاق وهو ذكر الله والجهل به والحيرة فيه: [الوافر]

وتَرْكُ الذكر أَوْلَى بالشُّهودِ فذِكْرُ الله أولى بالوجودِ
فكنْ إن شئتَ في جُودِ الشُّهودِ وكن إن شئت في فَضْلِ الوجودِ

الباب الرابع والأربعون ومائة

في معرفة مقام الفكر وأسراره

[نظم: البسيط]

إن التفكُّرَ في الآيات والعِبَر ليس التفكُّرُ في الأحكام والقَدَرِ
إن التفكُّرَ حالٌ لستُ أجهله فالله قرَّره في الآي والسُّوَرِ
لولا التفكُّرُ كان الناسُ في دَعَةٍ وفي نعيم مع الأرواح في سُرُرِ
الفكرُ نعتٌ طبيعيٌّ وليس له حكمٌ على أحدٍ يدري سوى البشرِ
ولو يكون الذي قلناه ما نظرتْ بالغاً عيني إلى الأحوال والصورِ
به المؤثِّرُ والأسماءُ قائمةٌ تنفُذُ الأمرَ في بَدْو وفي حَضَرِ

اعلم وفّقك الله أن الفكر ليس بنعت إلهيّ إلاّ إذا كان بمعنى التدبير والتردّد في الأولى فحينئذ يكون نعتاً إلهياً، وأمّا الفكر بمعنى الاعتبار فهو نعت طبيعي، ولا يكون في أحد من المخلوقين سوى هذا الصنف البشري وهو لأهل العبر الناظرين في الموجودات من حيث ما هي دلالات لا من حيث أعيانها ولا من حيث ما تعطى حقائقها، قال تعالىٰ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩١] فإذا تفكروا أفادهم ذلك التفكّر علماً لم يكن عندهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩١] فما

عدلوا إلى الاستجارة به من عذاب النار إلاَّ وقد أعطاهم الفكر في خلق السموات والأرض علماً أشهدهم النار ذلك العلم فطلبوا من الله أن يحول بينهم وبين عذاب النار، وهكذا فائدة كل مفكر فيه إذا أعطى للمفكر علماً ما يسأل الله منه بحسب ما يعطيه، فمقام الفكر لا يتعدى النظر في الإله من كونه إلهاً، وفيما ينبغي أن يستحقه من له صفة الألوهية من التعظيم والإجلال والافتقار إليه بالذات، وهذا كله يوجد حكمه قبل وجود الشرائع، ثم جاء الشرع به مخبّراً وآمراً فأمر به وإن أعطته فطرة لبشر ليكون عبادة يؤجر عليها، فإنه إذا كان عملاً مشروعاً للعبد أثمر له ما لا يثمر له إذا اتصف به لا من حيث ما هو مشروع، وليس للفكر حكم ولا مجال في ذات الحق لا عقلاً ولا شرعاً، فإن الشرع قد منع من التفكّر في ذات الله، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٨] أي لا تتفكروا فيها، وسبب ذلك ارتفاع المناسبة بين ذات الحق وذات الخلق، وأهل الله لما علموا مرتبة الفكر وأنه غاية علماء الرسوم وأهل الاعتبار من الصالحين وأنه يعطي المناسبات بين الأشياء تركوه لأهله وأنفوا منه أن يكون حالاً لهم كما سيأتي في باب ترك الفكر، والفكر حال لا يعطي العصمة ولهذا مقامه خطر، لأن صاحبه لا يدري هل يصيب أو يخطىء لأنه قابل للإصابة والخطأ، فإذا أراد صاحبه أن يفوز بالصواب فيه غالباً في العلم بالله فليبحث عن كل آية نزلت في القرآن فيها ذكر التفكّر والاعتبار، ولا يتعدّى ما جاء من ذلك في غير كتاب ولا سنّة متواترة، فإن الله ما ذكر في القرآن أمراً يتفكّر فيه ونص على إيجاد عبرة أو قرن معه التفكّر إلاَّ والإصابة معه والحفظ وحصول المقصود منه الذي أراده الله لا بدّ من ذلك، لأن الحق ما نصبه وخصّه في هذا الموضع دون غيره إلاَّ وقد مكّن العبد من الوصول إلى علم ما قصد به هناك فقد ألقيت بك على الطريق وهكذا وجده أهل الله.

فإنّ تعديت آيات التفكّر إلى آيات العقل أو آيات السمع أو آيات العلم أو آيات الإيمان واستعملت فيها الفكر لم تصب جملة واحدة فالتزم الآيات التي نصبها الحق ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣] ولا تتعدى بالأمور مراتبها، ولا تعدل بالآيات إلى غير منازلها، وإذا سلكت على ما قلته لك حمدت مسعاك وشكرتني على ذلك، فابحث على كل آية عبرة وتفكّر تسعد إن شاء الله تعالىٰ.

وكذلك الآيات التي فيها النظر من هذا الباب الفكري مثل قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [سورة الغاشية: الآية ١٧] ومثل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٥] وكذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [سورة الفيل: الآية ١] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٥] الآية. وكذلك آيات التدبّر من هذا الباب مثل قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [سورة محمد: الآية ٢٤] واجعل بالك إذا ذكر الله شيئاً من ذلك بأي اسم ذكره، فلا تتعدّى التفكّر فيه من حيث ذلك الاسم إن أردت الإصابة للمعنى المقصود لله مثل قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فانظر فيه من حيث ما هو قرآن لا من حيث ما هو كلام الله، ولا من حيث ما هو فرقان، ولا من حيث ما هو ذكر من قوله:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩] فكل اسم له حكم وما عينه الحق في الذكر إلاّ حتى يفهمه عباده ويعلمهم كيف ينزلون الأشياء منازلها، فتلك الحكمة وصاحبها الحكيم، وقد مدح الله من شرفه بالحكمة فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٨] وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [سورة ص: الآية ٢٠] وقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩] فإن حكمها يسري في جميع الأشياء وهو أن الحكيم لا يتعدّى بالشيء قدره ولا منزلته.

الباب الخامس والأربعون ومائة
في معرفة مقام ترك الفكر وأسراره

[نظم: البسيط]

تَرْكُ التفكُّر تسليمٌ لخالقه ... فلا تفكّرْ فإن الفكرَ مَغلُولُ
إن لم تفكّرْ تكنْ روحاً مطهرةً ... جليسَ حقٍّ على الأذْكَار مجبولُ
إن لم تفكّرْ تكنْ روحاً مطهرةً ... مثل الملائك لم يَحْجُبْكَ تَفْصيلُ
عن الإله الذي يعطي مَوَاهِبَه ... جوداً وذاك الذي يعطيه تَنْزِيلُ
إما لقاءٌ أو القاءٌ فتعلمه ... أو الكتابةُ أعطتها التَّفَاصيلُ
فبالتَّفَكُّر وُكِّلْنا لأنفسنا ... لولاه ما كان إشراكٌ وتَعْطيلُ
إن التَّفَكُّر أمرٌ قد خُصِصْتُ به ... لأنني جامعٌ والجَمْعُ تحصيلُ
لصورة الحقِّ والأسماءِ أجمعِها ... وكل عينٍ فما في الحق تبديلُ
وفي المَوَاطِنِ كُلِّفْنا بخدمته ... أتت بذلك أخبارٌ وتنزيلُ

التاركون للفكر رجال أرادوا رفع اللبس عنهم فيما يريدون العلم به ليلحقوا بوراثة من قيل فيه: وما ينطق عن الهوى، وبما فطر عليه من فطر من المخلوقات كالملائكة، ومن شاء الله من المخلوقين الذين فطروا على العلم بالله والموحى إليهم ابتداء من الله وعناية بهم، ولأن الأفكار على الغلط، والطائفة الأخرى نزحت إلى ترك التفكّر لأن التفكّر جولان في أحد أمرين: إما في المخلوقات، وإما في الإله، وأعلى درجات جولانه في المخلوقات أن يتخذها دليلاً، والمدلول يضاد الدليل فلا يجتمع دليل ومدلوله عند الناظر أبداً، فرأوا ترك التفكّر والاشتغال بالذكر إذ هما مشروعان، فإنه لو مات في حال الفكر في الآيات لمات في غير الله وإن كان يطلبها لله ولكن لا يكون له مشهود إلاّ هي وإن كان جولانه في الإله ليتخذه دليلاً على المخلوقات والكائنات كما يراه بعضهم فقد طلبه لغيره وهو سوء أدب مع الله حيث ما قصد النظر فيه إلاّ ليدله على حكم الكائنات ولو استندت إليه فما طلبه لعينه، وإن ظنّ أنه يجول بفكره فيه ليتخذه دليلاً عليه فهذا غلط بين فإنه لا ينظر فيه إلاّ وهو عالم به، فإن نظر فيه بمعنى هل يصحّ أن يكون دليلاً على نفسه فهذا غاية الجهل، فإنه لا شيء أدل من الشيء على نفسه، فلما رأوا مثل هذا النظر تركوه، فإذا تفكّر من هذه صفته كان مثل الذي يشكر الخلق

لإحسانهم فشكرهم عبادة لأن الله أمر بشكرهم، كذلك أمرهم بالتفكّر فيتفكّرون فيما أمرهم أو عين لهم أن يتفكّروا فيه امتثالاً لأمره، ويكون ما ينتجه من العلم في حكم التبع لأن علوم الفكر بكل وجه ما تقوم مقام علوم الذكر والوحي والوهب الإلهيّ في الرفعة والمكانة. انتهى الجزء الثالث ومائة.

(الجزء الرابع ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب السادس والأربعون ومائة
في معرفة مقام الفتوة وأسراره

اعلم أيدك الله: [البسيط]

إن الفُتُوَّةَ ما ينفكُّ صاحبُها مقدَّماً عند رب الناس والناسِ
إن الفَتَى من له الإيثارُ تَخلِيَةً فحيث كان فمحْمُولٌ على الرَّاسِ
ما إن تُزَلْزِلُهُ الأَهْوَا بقوَّتها لكونه ثابتاً كالشَّامخ الراسي
لا حُزْنَ يحكمه لا خوفَ يَشْغَلُهُ عن المكارم حالَ الحرب والبَاسِ
انظر إلى كَسْرِهِ الأصنامَ منفرداً بلا مُعينٍ فذاك اللَّيِّنُ القاسي

الفتوة نعت إلهيّ من طريق المعنى، وليس له سبحانه من لفظها اسم إلهيّ يسمّى به كما ثبت شرعاً ودليل عقل أنه له الغنى عن العالم على الإطلاق، فبالشرع قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] ودليل العقل لو لم يكن وجوده واجباً لنفسه مع اتصافه بالوجود لكان ممكناً لأنه متصف بالوجود، ولو كان ممكناً لافتقر إلى المرجح في وجوده، فلم يكن يصحّ له اسم الغني على الإطلاق، ولو افتقر بنوع ما فليس بغني مطلق ولكان من جملة العالم، فيكون علامة تدل على مرجحه فهو غني على الإطلاق، ومن له هذا الغنى ثم أوجد العالم فما أوجده لافتقاره إليه، وإنما أوجد العالم للعالم إيثاراً له على انفراده بالوجود وهذا هو عين الفتوة. ومن الفتوة الإلهية الخبران القرآني والنبوي، فأما القرآن فقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] وصورة الفتوة هنا أنه خلقهم لينعمهم بالوجود ويخرجهم من شر العدم ويمكنهم من التخلق بالأسماء الإلهية ويجعل منهم خلفاً، وهذا كله إيثار لهم على انفراده بكل ما استخلفهم فيه.

ثم علم أن الامتنان يقدح في النعمة عند المنعم عليه فستر ذلك إيثاراً لهم بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فأظهر أنه خلقهم من أجله لا من أجلهم. وفي الخبر النبويّ الموسوي أنه تعالى خلق الأشياء من أجلنا وخلقنا من أجله وستر بهذا قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] ليفهم الجميع بإعلامه أنهم يسبحون بحمده حتى لا نشم فيه رائحة الامتنان، ففي الخبر الموسوي: حكم الفتوة أنه خلق الأشياء من أجلنا إيثاراً لنا على

انفراده بالوجود كما خلقنا. وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ غطاء حتى لا يشم فيه رائحة المنة مثل قوله في حقنا ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ سواء.

وأما الخبر النبويّ الثاني من الخبرين فما روى عن رسول الله ﷺ عن الله سبحانه أنه قال: «**كُنتُ كَنزاً لَم أُعرَف فَأَحبَبتُ أَن أُعرَف فَخَلَقتُ الخَلقَ وَتَعَرَّفتُ إِلَيهِم فَعَرَفُونِي**» ففي قوله: كنت كنزاً إثبات الأعيان الثابتة التي ذهبت إليها المعتزلة وهي قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فهذا الخبر من الفتوة كيف كنى عن نفسه أنه أحب أن يعرف، ومن هذه صفته غطى على ما يجب له من الغنى المطلق، لأن المحبة لا تتعلق إلاّ بمعدوم، وقد يكون ذلك المعدوم في معدوم أو في موجود فإن كان في معدوم فلا بدّ أيضاً من وجوده حتى يظهر فيه ما أحب إيجاده، وإن كان في موجود فأظهر فيه ما أحببته فلا بدّ أن يكون ما ذكره ستراً على الغنى المطلق وإيثار الجناب، هذا المحبوب حيث تعلق به من له الغنى فيورثه عزّة في نفسه حيث كان مقصوداً لمن له صفة الغنى وكان سبب الوجود أن الوجود والعلم طلباً بالحال من الله كمال مرتبتهما في التقسيم العقلي فأوجدهما منه لظهور الكمال الوجوديّ والعلمي هذا أصله منة منه، فأعرض عن هذا ونسب وجود العالم لمحبته أن يعرف حتى لا يشم منه كمال الوجود والعلم رائحة المنة أيضاً كما ذكر في القرآن سواء.

وإذا كان الحق قد نزل مع عباده في مكارم الأخلاق التي هي الفتوة إلى هذا الحدّ فالعبد أولى بهذه الصفة أن يتخلق بها، فالفتوة على الحقيقة إظهار الآلاء والمنن وستر المنة والامتنان كما قال: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٤] تخلّقاً إلهياً فإنه سبحانه تصدق علينا بالوجود والمعرفة به وما منّ علينا بذلك. وأما قوله: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٧] معناه أنه لو منّ لكان المنّ لله لما منّوا عليه ﷺ بالإسلام، قال الله تعالىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٧] قال الله لمحمد ﷺ: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾ ثم آثر محمداً ﷺ على نفسه سبحانه حتى لا يجعل له نعتاً فيما أجرى عليه لسان ذمّ فقال له قل لهم: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٧] ولو شاء لقال: بل أنا أمن عليكم أن هداكم الله بي للإيمان الذي رزقكم بتوحيده وأسعدكم به، فما جعله تعالىٰ محلاً للمنّ، هذا من الفتوة الإلهية التي لا يشعر بها، فحكمها موجود في الحق وإطلاقها لم يرد لا في كتاب ولا سنّة، كما يعلم قطعاً أنه لا فرق بين قولنا علمت الشيء وعرفته وأنا عالم بالشيء أو عارف، ومع هذا ورد إطلاق اسم العالم والعليم والعلام عليه تعالىٰ، وما ورد إطلاق الاسم العارف عليه فما يلزم من الأمر الذي لله منه حكم أن يطلق عليه منه اسم، فأسماؤه من حيث إطلاقها عليه موقوفة على ورودها منه فلا يسمّى إلاّ بما سمّي به نفسه، وإن علم فيه مدلول ذلك الاسم فالتوقيف في الإطلاق أولى، وما فعل هذا سبحانه كله إلاّ ليعلم الخلق الأدب معه إذا وقد علم أن من أهل الله من له شطحات ليتأدّبوا فلا يشطحوا فإن الشطح نقص بالإنسان لأنه يلحق نفسه فيه بالرتبة الإلهية ويخرج عن حقيقته فيلحقه الشطح بالجهل بالله وبنفسه، وقد وقع من الأكابر ولا أسميهم لأنه صفة نقص.

وأما رعاع الناس فلا كلام لنا معهم فإنهم رعاع بالنظر إلى هؤلاء السادة، وإذا وقع مثل هذا من السادة فعليهم يقع العتب منا، وقد يشطح أيضاً الأدنى على الأعلى كمثل الشطحات على مراتب الأنبياء وهي أعظم عند الله في المؤاخذة من شطحهم على الله، فإن مرتبة الإله تكذبهم بالحال وعند السامع، وأمّا شطحتهم على الأنبياء فموضع شبهة يمكن أن تقبل الصحة في نفس الأمر فيغتر بها السامع الحسن الظن به الذي لا معرفة عنده بمراتب أصناف الخلق عند الله، فيغار الله لذلك حيث هو حق للغير، وما يؤثر من الضلالة في الناس، فيؤاخذ صاحب الشطحة بها ولا سيما إن ظهرت منه في حال صحو، وكذلك من الشطحات المنقولة عن السادة رؤية فضيلة جنسهم من البشر على الملائكة جهلاً منهم وهم مسؤولون مؤاخذون بذلك عند الله والعالم بالله المكمل هو الذي يحمي نفسه أن يجعل لله عليه حجة بوجه من الوجوه، ومن أراد أن يسلم من ذلك فليقف عند الأمر والنهي وليرتقب الموت ويلزم الصمت إلاّ عن ذكر الله من القرآن خاصة، فمن فعل ذلك فلم يدع للخير مطلباً ولا من الشر مهرباً، وقد استبرأ لنفسه وأعطى كل ذي حق حقه كما أعطى الله كل شيء خلقه، وهذا هو العاقل مقصود الحق من العالم، وما فوق هذه المرتبة مرتبة لمخلوق أصلاً، هذا قد مشى من الفتوة طرف صالح في حكمها في الجناب الإلٰهي.

وإذا كان الحق يا ولي مع غناه وما له من صفات الجلال ونعوت الكمال قد أريتك ماله من هذه النسبة في إيثاره إياك فأنت أولى بهذه الصفة أن تتصف بها في حقه خاصة لا في حق الخلق كما اتصف هو بها في حق الخلق هذا هو عمدتها فينا، فالفتى من لا يراعي الخلق ولا يتفتى عليهم، فإن التفتي عليهم إنما هو لله كما ذكرنا، فيكون هذا العبد يطلب التفتي على جانب الحق إيثاراً له على الخلق، فلا يتفتى على الخلق إلاّ بصفة حق أو أمر حق، فيكون الحق المتفتي لا هذا العبد، هكذا هو التخلق بالفتوة وإلاّ فلا، إذ كان من المحال أن تسري الفتوة من الفتى في إيثار الغير من غير تأذي الغير لأن الأغراض مختلفة والأهواء متقابلة رياحها زوابع غير لواقح بل هي عقيم تدمر ولا توجد، فما من حالة يرضاها زيد منك إلاّ ويسخطها عمرو، فإذا كان الأمر هكذا فاترك الخلق بجانب إن أردت تحصيل هذا المقام وارجع إلى الله في أصل الفتوة فإن أصلها أن تخرج عن حظ نفسك إيثاراً لحظ غيرك، لا تخرج عن حظ غيرك إيثاراً لحظ غيرك فهذا ليس من الفتوة، ولو كانت الفتوة هذا ما صحّ لها وجود، فإذا تعارضت الأمور فرجح جانب الحق وزلّ عن حظك لما يستحقه جلاله، إذ قد عاملك بصفة الفتوة مع غناه فأنت مع فقرك أحوج إلى ذلك، ومن إيثارك إياه أنه إن طلب منك أن تطلب منه أجراً على ما تفتيت به عليه فمن الفتوة أن تطلب الأجر، فإن امتثالك أمره خروجك عن حظك فيحصل لك حظك بترك حظك مع تحقيق الوصف بالفتوة. إبراهيم عليه السلام جاد بنفسه على النار إيثاراً لتوحيد ربه، فإن كان ذلك عن أمر إلهيّ فهو أعظم في الفتوة، وإن لم يكن عن أمر إلهيّ فهو فتى على كل حال، فإنه من آثر أمر ربه على هوى نفسه فهو الفتى.

فحقيقة الفتوة أن يؤثر الإنسان العلم المشروع الوارد من الله على ألسنة الرسل على هوى نفسه وعلى أدلة عقله وما حكم به فكره ونظره إذا خالف علم الشارع المقرر له. هذا هو الفتى، فيكون بين يدي العلم المشروع كالميت بين يدي الغاسل، ولا ينبغي أن يقال هنا يكون بين يدي الحق كالميت بين يدي الغاسل فإنه غلط ومزلة قدم، فإن الشرع قيدك فقف عند تقييده فما أوجب عليك ممّا هو له أن تنسبه إلى نفسك أو إلى مخلوق من المخلوقات سوى الله، فمن الفتوة أن تنسبه إلى ذلك لا إلى الله حقيقة كما أمرك، وإن دلّك على خلاف ذلك عقلك فارم به وكن مع العلم المشروع، وما أوجب أن تنسبه إليه سبحانه فانسبه إليه تعالىٰ، وما خيّرك فيه فإن شئت أن تقف ولا تعين وإن شئت نظرت بما يتعلق بالمخير فيه من حمد فانسبه إليه، وما تعلق به من ذمّ فانسبه إلى نفسك أدباً مع الله فإن الأدب عبارة عن جماع الخير فما زلت عن مقام الفتوة.

كان الشيخ أبو مدين رحمه الله إذا جاءه مأكول طيب أكله، وإذا جاءه مأكول خشن أكله، وإذا جاع وجاءه نقد علم أن الله قد خيّره إذ لو أراد أن يطعمه أي صنف شاء من المأكولات جاء به إليه فيقول: هذا النقد ثمن المأكول جاء به الله للتخير والاختيار فينظر في ذلك الوقت ما هو الأحب إلى الله من المأكولات بالنظر إلى صلاح المزاج للعبادة لا إلى الفرض النفسي واتباع الشهوة، فإن وافقه كل مأكول حينئذ يرجع إلى موطن الدنيا، وما ينبغي أن يعامل به من الزهد في ملذوذاتها مع صلاح المزاج الذي يقوم بصلاحه العبادة المشروعة، فيعدل بحكم الموطن إلى شظف العيش الذي تكرهه النفس لعدم اللذة به ويكتفي بلذة الحاجة فإنه يتناوله عند الضرورة، فإن لذة الضرورة ما فوقها لذة لأن الطبع يطلبها، وإذا حصل للطبع طلبه التذّ به، فالفتى هو من ذكرناه، ويسري فعله وتصرفه في الجماد والنبات والحيوان وفي كل موجود ولكن على ميزان العلم المشروع. وإن ورد عليه أمر إلهيّ فيما يظهر له يحل له ما ثبت تحريمه في نفس الأمر من الشرع المحمدي فقد لبس فيه فيتركه ويرجع إلى حكم الشرع الثابت، فإنه قد ثبت عند أهل الكشف بأجمعهم أنه لا تحليل ولا تحريم ولا شيء من أحكام الشرع لأحد بعد انقطاع الرسالة والنبوّة من أهل الله، فلا يعوّل عليه صاحب ذلك، ويعلم قطعاً أنه هوى نفسي إذ كان ذلك الأمر المحلل أو المحرم في نفس الأمر هذا شرطه، ولا يمنع التعريف الإلهيّ لأهل الله بصحة الحكم المشروع في غير المتواتر بالمنصوص عليه، وأما في المتواتر المنصوص إذ ورد التعريف بخلافه فلا يعوّل عليه، هذا لا خلاف فيه عند أهل الله من أهل الكشف والوجود، فإنه من المنتمين إلى الله من يطرأ عليهم التلبيس في أحوالهم من حيث لا يشعرون، وهو مكر خفي وكيد متين إلهيّ واستدراج من حيث لا يشعرون.

فإياك أن ترمي ميزان الشرع من يدك في العلم الرسمي والمبادرة لما حكم به، وإن فهمت منه خلاف ما يفهمه الناس ممّا يحول بينك وبين إمضاء ظاهر الحكم به فلا تعول عليه فإنه مكر نفسي بصورة إلهية من حيث لا تشعر، وقد وقعنا بقوم صادقين من أهل الله ممّن

التبس عليهم هذا المقام ويرجحون كشفهم وما ظهر لهم في فهمهم ممّا يبطل ذلك الحكم المقرر فيعتمدون عليه في حق نفوسهم ويسلمون ذلك الحكم المقرر في الظاهر للغير، وهذا ليس بشيء عندنا ولا عند أهل الله، وكل من عوّل عليه فقد خلط وخرج عن الانتظام في سلك أهل الله ولحق بالأخسرين أعمالاً ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٤] وربما يبقى صاحب هذا الكشف على العمل بظاهر ذلك الحكم ولا يعتقده في حق نفسه فيعمله تقريراً للظاهر ويقول: ما أعطي من نفسي لهذا الأمر المشروع إلاّ ظاهري فإني قد اطلعت على سرّه فحكمه على سرّي خلاف حكمه في ظاهري فلا يعتقده في سرّه عند العمل به، فمن عمل على هذا منه ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥] ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦] وخرج عن أن يكون من أهل الله، ولحق بـ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٣] فهو يظنّ أنه في الحاصل وهو في الفائت، فتحفظوا يا إخواننا من غوائل هذا المقام ومكر هذا الكشف فقد نصحتكم ونصحت هذه الطائفة ووفيت بالأمر الواجب عليّ فيه، فمن لم يعلم الفتوة كما ذكرناها فما علمها.

الباب السابع والأربعون ومائة
في معرفة مقام ترك الفتوة وأسراره

[نظم: البسيط]

تَرْكُ الفُتُوَّة إيثارٌ لخالقنا ... هو الفُتُوَّةُ إن حقّقتَ معناهَا
فنَفْيُهَا عينُ إثباتٍ لها فمتى ... أمتَّها جاء ذاك الموتُ أَحْياهَا
فليس يعدمها إلاّ الفَنَاءُ فكُنْ ... من أهله فيكون الحقُّ مَأْواهَا

اعلم أن ترك الفتوة مشيك في حق نفسك، وحظها إذا مشيت في ذلك عن أمر الله لا لما يقتضيه طبع النفس كنت صاحب فتوة، فصاحب هذا المقام صاحب فتوة لا فتوة متصف بالنقيضين، فالفتوة مثل الحب في الحكم سواء، فإن الحب يقضي في المحب الاتصاف بالنقيضين إذا اتفق أن يكون أحد النقيضين محبوباً للمحبوب ممّا يكرهه المحب لكون الحب لا يطلبه ولا يقتضيه. فاعلم أن الإنسان إنما يرغب في الأعمال التي نصّ الشارع على عملها، أو تركها إن كانت من التروك، ليكون بامتثال ما كلف على حدّ ما أعطاه الكشف والإيمان والعقل في أعلى المراتب ولا يكون ذا همة دنية، فإذا تعرّض له في وقت عملان أعني أمرين من فعل أو ترك عمد إلى أفضلهما. وقد ورد الخبر: «**أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ شَخْصاً وَلَمْ يُقْتَلْ بِهِ فَأَمْرُهُ إِلَىٰ اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ**». وقال فيمن قتل نفسه: بادرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة، ولم يجعله في المشيئة ولا جعل لعمله كفارة في ماله، فعلمنا أن حق النفس في حقّه آكد عليه، وأعظم في الحرمة من حق غيره. والفتوة العمل في حق الغير إيثاراً على نفسه، وقد قدم الشارع في غير ما موضع أن حق نفس الإنسان عليه أوجب من حق الغير عند الله، والفتى

هو الماشي في الأمور بأمر غيره لا بأمر نفسه، وفي حق غيره لا حق نفسه، لكن بأمر ربه، فهما طرفان: أحدهما يسوغ وهو المشي في الأمور عن أمر الله، والشطر الآخر لا يسوغ في كل موطن.

فالعارف إذا أقيم في مقام أداء الحقوق إلى أصحابها وتعينت الحقوق عليه لأصحابها لم يتمكن له أن يتفتى مطلقاً فيؤثر الغير على الإطلاق فإنه بأداء حق نفسه يبدأ، وإذا بدأ به قدح في شرط الفتوة، وإذا لم يبدأ به قدح في الطرف الآخر من الفتوة الذي هو امتثال أمر الله فيبقى هالكاً، والتخليص من ذلك أن يقول: أنا مؤمن والله تعالىٰ: ﴿اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١١] فنفسي للحق لا لي فأبدأ بها وأوثرها على غيرها من النفوس من كونها لله لا لي، فلهذا تكمل الفتوة في تركها المعلوم عند المحجوبين عن إدراك حقائق الأمور فإن مالكها أمرني بتقديمها في أداء الحقوق.

وأما حكاية صاحب السفرة وهي أن شيخاً من المشايخ جاءه أضياف فأمر تلميذه أن يأتيه بسفرة الطعام فأبطأ عليه فسأله: ما أبطأ بك؟ فقال: وجدت النمل على السفرة فلم أر من الفتوة أن أخرجهم فتربصت حتى خرجوا من نفوسهم، فقال له الشيخ: لقد دققت، فجعل هذا الفعل من تدقيق باب الفتوة. ونعم ما قال، ونعم ما فاته، فلو قال أحد لهذا الشيخ: كيف شهد له بالتدقيق في الفتوة على جهة المدح والأضياف متألمون بالتأخير والانتظار ومراعاة الأضياف أولى من مراعاة النمل، فإن قال الشيخ: النمل أقرب إلى الله من حيث طاعتهم لله من الإنسان لما يوجد فيه من المخالفة وكراهة بعض الأمور التي هي غير مستلذة. قلنا: وجلد الإنسان وجوارحه وشعره وبشره ناطق بتسبيح الله تعالىٰ كالنمل، ولهذا تشهد يوم القيامة على النفس الناطقة الكافرة الجاحدة، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [سورة فصلت: الآية ٢١] وقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [سورة النور: الآية ٢٤] فهم عدول وشهادتهم مقبولة، فكان الأولى مراعاة الأضياف الذين أمر الشارع بتعجيل تقديم الطعام لهم، فلو تفتى هذا الخادم وترك السفرة للنمل واستأذن الشيخ وعرفه بالقصة ونظر في تقديم أمر آخر للأضياف كان أولى وأدق في الفتوة.

الباب الثامن والأربعون ومائة

في معرفة مقام الفراسة وأسرارها

[نظم: البسيط]

إن الفراسةَ نورُ النَّقْلِ جاء به ... لفظُ النبيِّ الرسولِ المصطفَى الهادي
ربُّ الفراسة من كان الإله له ... عيناً وسمعاً وذاك الناشىء الشَّادي
وما النهايةُ إلاَّ أن يقوم به ... عَكْسُ القضية في غَيْبٍ وإشهادِ

الفراسة من الافتراس فهو نعت إلهيّ قهري حكمه في الشوارد خوفاً من صاحب هذه الصفة، والشرود سببه خوف طبيعي، إما على النفس أن تفارق بدنها الذي ألفته وظهر سلطانها

فيه، وإما من حيث ما ينسب إليها من الذمّ الذي يطلقه عليها المفترس بالفراسة الطبيعية أو بالفراسة الإلهية، فلهذا لا تتعلق إلاَّ بالشاردين، لأن الغالب على العالم الجهل بنفوسهم وسبب جهلهم التركيب، فلو كانوا بسائط غير مركبين من العناصر لم يتصفوا بهذا الوصف، فاعلم أن الفراسة إذا اتصف بها العبد له في المتفرس فيه علامات بتلك العلامات يستدل، والعلامات منها طبيعية مزاجية وهي الفراسة الحكمية، ومنها روحانية نفسية إيمانية وهي الفراسة الإلهية وهو نور إلهي في عين بصيرة المؤمن يعرف به إذ يكشف له ما وقع من المتفرس فيه أو ما يقع منه أو ما يؤول إليه أمره، ففراسة المؤمن أعمّ تعلّقاً من الفراسة الطبيعية، فإن الفراسة غاية ما تعطي من العلوم العلم بالأخلاق المذمومة والمحمودة، وما يؤدّي إلى العجلة في الأشياء والريث فيها والحركات البدنية كلها. وسأورد في هذا الباب طرفاً منهما أعني من الفراستين بعد تحقيق ماهيتهما.

والفراسة الإلهية تتعلق بعلم ما تعطيه الفراسة الطبيعية وزيادة وهي أنها تعطي معرفة السعيد من الشقي، ومعرفة الحركة من الإنسان المرضية عند الله من غير المرضية التي وقعت منه من غير حضور صاحب هذا النور، فإذا حضر بين يديه بعد انقضاء زمان تلك الحركة وقد ترك ذلك العمل في العضو الذي كان منه ذلك العمل علامة لا يعرفها إلاَّ صاحب الفراسة فيقول له فيها بحسب ما كانت الحركة من طاعة ومعصية كما اتفق لعثمان رضي الله عنه وذلك أنه دخل عليه رجل فعندما وقعت عليه عينه قال: يا سبحان الله ما بال رجال لا يغضون أبصارهم عن محارم الله؟ وكان ذلك الرجل قد أرسل نظره فيما لا يحل له، إما في نظره إلى عورة إنسان، أو نظر في قعر بيت مسكون وما أشبه ذلك، فقال له الرجل: أوحي بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: لا ولكنها فراسة، ألم تسمع إلى قول رسول الله ﷺ: «**اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ**» وعندما دخلت عليّ رأيت ذلك في عينيك، فهذا معنى قولنا: إنها تترك علامة في العضو الذي كان منه ذلك العمل المحمود أو المذموم.

والفراسة الطبيعية تعطي معرفة المعتدل في جميع أفعاله وأقواله وحركاته وسكناته، ومعرفة المنحرف في ذلك كله فيفرق بالنظر في أعضائه ونشأة كل عضو بين الأخرق والعاقل والذكي والفطن والفدم الغمر والشبق وغير الشبق والغضوب وغير الغضوب والخبيث وغير الخبيث والخداع المحتال والسليم المسلم والنزق وغير النزق وما أشبه هذا.

فاعلم أولاً أن الفراسة الإيمانية وبها نبدأ أنها نور إلهيّ يعطاه المؤمن لعين البصيرة يكون كالنور لعين البصر، وتكون العلامة في المتفرس فيه كنور الشمس الذي تظهر به المحسوسات للبصر، فكما يفرق البصر بما فيه من النور وبما كشف له نور الشمس من المحسوسات فيعرف صغيرها من كبيرها، وحسنها من قبيحها، وأبيضها من أسودها من أحمرها من أصفرها، ومتحرّكها من ساكنها، وبعيدها من قريبها، وعاليها من أسفلها، كذلك نور الفراسة الإيمانية يعرف محمودها من مذمومها، وإنما أضيف نور الفراسة إلى الله الذي هو الاسم الجامع لأحكام الأسماء لأنه يكشف المحمود والمذموم، وحركات السعادة في الدار الآخرة،

وحركات الشقاء، إلى أن يبلغ بعضهم إذا رأى وطأة شخص في الأرض وهو أثره والشخص ليس بحاضر يقول: هذا قدم سعيد، وهذا قدم شقي، مثل ما يفعله القائف الذي يتبع الأثر فيقول صاحب هذا الأثر: أبيض مثلاً أعور العين، ويصف خلقته كأنه رآه، وما طرأ عليه في خلقه من الأمور العوارض يرى ذلك كله في أثره من غير أن يرى شخصه ويحكم في الأنساب، ويلحق الولد بأبيه إذا وقع الاختلاف فيه لعدم المناسبة في الشبه الظاهر المعتاد بين الآباء والأبناء، فأضاف نور الفراسة إلى الله لأجل هذا، فلو أضافها إلى الاسم الحميد مثلاً لم ير صاحب هذا النور إلاّ المحمود السعيد خاصة، وكذلك لو أضاف إلى أي اسم إلهيّ لكان بحسب ما تعطي حقيقة ذلك الاسم، فلما أضاف ذلك النور إلى الله أدرك به الخيرات والشرور الواقعة في الدنيا والآخرة والمذام والمحامد ومكارم الأخلاق وسفسافها، وما تعطيه الطبيعة، وما تعطيه الروحانية. ويفرق بهذا النور بين الأحكام الشرعية وهي خمسة أحكام ويعرف بهذا النور لمن استند صاحب تلك الحركة من الأسماء الإلهية، ومن ينظر إليه من الأرواح العلوية وماله من الآيات من الحركات الكوكبية لأنّ الله ما جعل سباحتها في الأفلاك باطلاً، بل لأمور أودعها الله تعالىٰ في المجموع فيها وفي حركاتها وفي قطعها في البروج المقدّرة في الفلك الأقصى وهو قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] فهي تؤدّي في تلك السباحة ما أمنت عليه من الأمور التي يطلبها العالم العنصري.

واعلم أن الطبيعة التي خلقها الله تعالىٰ دون النفس وفوق الهباء، فلما أراد الله إيجاد الأجسام الطبيعية وما ثم عندنا إلاّ جسم طبيعي أو عنصريّ والعناصر أجسام طبيعية وإن تولد عنها أجساد أخر فكل ذلك من آثار الله فيما خلق الله الطبيعة عليها، والطبيعة عبارة عن أمور أربعة إذا تألفت تألفاً خاصاً حدث عنه ما يناسب تلك الألفة بتقدير العزيز العليم، فلذلك اختلفت أجسام العالم لاختلاف ذلك المزاج، فأعطى كل جسم في العالم بحسب ما اقتضاه مزاجه، وما زال الأمر ينزل إلى أن خلق الله العناصر وهي الأركان، فضم الحرارة إلى اليبوسة على طريق خاص، فكان من ذلك المزج ركن النار الذي يعبر عنه أيضاً بعنصر النار، ثم الهواء كذلك، ثم الماء، ثم التراب، ثم جعل سبحانه يستحيل بعضها إلى بعض بوسائط وبغير وسائط، فإذا تنافر العنصران من جميع الوجوه استحال إلى المناسب، ثم استحال ذلك المناسب إلى المناسب إليه الآخر الأقرب الذي كان منافراً للمستحيل الأوّل، فقبل الاستحالة إليه بوساطة هذا المناسب الأقرب من سخافة أو كثافة.

ثم خلق الله الجسم الحيواني من أربع طبائع وهما: المرّتان والدم والبلغم وجعل سبحانه في هذه الأخلاط قوى روحانية تظهر آثارها في الجسم المركب عنها، فإن كانت هذه الأخلاط في الجسم الظاهر عنها على الاعتدال أو قريب من الاعتدال أعطت ما يعطيه الاعتدال من الأمور المستحسنة المحمودة والحركات الاقتصادية في الأمور، وإن لم تكن فيه على الاعتدال أعطت بحسب ما انحرفت إليه وظهر في البدن سلطان الأقوى والأكثر من هذه الأخلاط، فيطرأ على الجسم من ذلك علل وعلى النفس من ذلك أخلاق، فالطبيب يداوي

العلل بأن يزيد في الناقص من هذه الأخلاط وينقص من الزائد منها حتى يحصل الاعتدال، والطبيب الإلهيّ يداوي الأخلاق ويسوس الأغراض النفسية بالذكرى والموعظة والتنبيه على معالي الأمور، وما قامت به من السعادة والمحمدة عند الله وعند الناس وعند الأرواح العلى، فتتأيّد بذلك النفس الناطقة وتكون لها هذه الذكرى كالمعينة على صلاح هذا المزاج المنحرف، فتعين الطبيب المدبر لطبيعة هذا البدن وإصلاح ما اختلّ منه، ولهذا بعض الأطباء يأمرون المرضى لأمراض خاصة باستعمال سماع الألحان المطربة والأماكن المستحسنة المتنوّعة الأزهار وخرير المياه وتغاريد الطير كالبلبل وأمثاله، كل ذلك طب روحانيّ يؤدّي إلى صلاح المزاج يعين الطبيب عليه.

وثم علل أخر لا تحتمل الأصوات بل تصلح بنقيض ما ذكرناه، وذلك كله بحسب الخلط الغالب الأقوى وضعف المناقض المقابل له، وهذه العلل منها أصلية في نفس المزاج والخلقة مثل الجحوظة في العينين أو الغؤورة المفرطة أو الأنف الدقيق جدّاً أو الغليظ جدّاً، أو المتسع الثقب المنتفخ أو نقيضه، أو البياض الشديد أو السواد الشديد، أو الجعودة في الشعر أو السبوطة فيه الكثيرة، أو الزرقة الشديدة في العين الفيروزجية، أو الكحولة الغائية، وكذلك سائر الأعضاء في عدم الاعتدال وهو الانحراف من الاعتدال إلى أحد الميلين كما ذكرنا، فإن خلق الإنسان يكون بحسب ما هي هذه الأعضاء عليه من اعتدال وانحراف، فإذا جاء هذا الطبيب الإلهيّ وهو النبيّ أو الوارث أو الحكيم فيرى ما تقتضيه هذه النشأة التي انقادت إليه وجعلت زمامها في يديه ليربيها ويسعى في سعادتها، أو يردّها إلى خلاف ما تقتضيه نشأته إن كان منحرفاً بأن يبين لها مصارف ذلك الانحراف التي يحمدها الله ويكون فيها سعادة هذه النفس، فإنه لا يتمكن له أن ينشأها نشأة أخرى، فقد فرغ ربك من خلق ومن خلق ولم يبق بأيدينا إلاّ تبيين المصارف، فالمعتدل النشأة إذا كان جاهلاً بالأمور السعادية عند الله التي تحتاج إلى موقف وهو رسول الله ﷺ يسأل العلماء عن الأمور التي تعطي السعادة عند الله.

وأما مكارم الأخلاق فلا يحتاج فيها إلى موقف، فإن مزاج نشأته واعتدالها لا تعطيه إلاّ مكارم الأخلاق، بل يحتاج إلى الموقف في بعض الأمور في استعمال الانحراف، وهو في ذلك مكلف لما يكون في ذلك الانحراف من المصالح إما دنيا وإما آخرة وإما المجموع فإن مزاج نشأته واعتدالها لا تعطيه إلاّ مكارم الأخلاق، بل إما دنيا وإما آخرة وإما المجموع.

وأما المنحرف فتصدر منه مذامّ الأخلاق وسفسافها وطلب نفوذ الأغراض القائمة به، ولا يبالي ما يؤول إليه أمره في نيلها، فالطبيب السؤوس يستدرجه حالاً بعد حال بتبيين المصارف كما ذكرناه، فإذا جاء صاحب الفراسة الإيمانية وكان عالماً بما يكون فيه المصلحة لهذا المتفرس فيه ورأى منه حركة تؤدّي إلى مذموم أو تكون تلك الحركة قد وقعت منه مذمومة ساسه حتى يتمكن منه إلى أن يسلم إليه نفسه ليتحكم فيها، فإن كان منحرفاً كان في سلوكه صاحب مجاهدة ورياضة، وإن كان معتدلاً كان في سلوكه طيب النفس ملتذاً صاحب فرح وسرور تهون عليه الأمور الصعاب على غيره ولا تكلف عنده في شيء من مكارم

الأخلاق، فإذا صفت نفسه وزكت ولحقت بالعالم المطهر ونظرت بالعين الإلهيّ وسمعت به وتحرّكت بقوّته عرفت مصادر الأمور ومواردها وما تنبعث عنه وما تؤول إليه، فذلك المعبر عنه بالفراسة الإيمانية وهي موهبة من الله تعالىٰ ينالها السليم الطبع وغير السليم.

وأصل الاعتدال والانحراف في العالم وفي الموجب لغلبة بعض الأصول على بعضها التي لها الحكم في المركبات هي من آثار العلم الإلهيّ الذي منه يرحم الله من يشاء ويغفر ويعذب ويكره ويرضى ويغضب، وأين الغضب من الرضى، وأين العفو من الانتقام، وأين السخط من الرضوان، وكل ذلك جاءت به الأخبار الإلٰهيّة في الكتب المنزّلة، وعلمها أهل الكشف مشاهدة عين، ولولا ما وردت على ألسنة الأنبياء والرسل ونزلت بها الكتب من الله على أيديهم وأيّدوا بالمعجزات ليثبت صدقهم عند الأجانب لأجل هذه الأمور الإلهيّة حتى تقبل منهم إذا وردوا بها، فإن أدلة العقول تحيلها في الجناب الإلهيّ، فلو نطق بها مشاهد لها مكاشف بها من غير تأييد آية تدل على صدقه جهل وطعن في نظره، وأقيمت الدلالات العقلية على فساد عقله وفكره وحكم خياله عليه، وأن الله لا ينبغي أن يوصف بهذه الأوصاف، فهذا كان سبب نزولها على أيدي الرسل والكتب ليستريح إليها المشاهد ويأنس بكلامه إذا أتى بمثل هذا النوع، فلأجل هذه الأمور وردت الشرائع، ولأجل الأحكام التي لا توافق أغراض الرؤساء والمقدّمين لو سمعوها من غير الرسول فلما أنسوا بها من الرسل وألفت النفوس أحكام النواميس الإلهيّة واستصحبتها هان على الملوك والرؤساء أن يتلمذوا للصالحين ويدخلوا نفوسهم تحت أحكامهم، وإن شق عليهم فهم يرجحون علمهم بذلك على ما يدركونه من مشقة خلاف الغرض، فإنه على هذا الشرط أدخل نفسه، فحجته قائمة على نفسه فسبحان العليم الحكيم، ولولا شرف العلم ما شرفت الفراسة لأنّ الفراسة لولا ما تعطي العلم ما شرّفت ولا كان لها قدر، فالعلم أشرف الصفات وبه تحصل النجاة إذا حكمه الإنسان على نفسه، وتصرّف في أموره بحسب حكمه: رب زدني علماً، رب زدني علماً، رب زدني علماً واستعملني له، واجعله الحاكم عليّ والناظر إليّ، إذ أنت العلم والعالم والمعلوم لك لا لنا فأعطنا منه على قدرنا. وأما الفراسة المذكورة عند الحكماء فأنا أذكر منها طرفاً على ما أصّلوه وما جرّبوه واختبروه، ثم اعتباره في الصفات بما تقتضيه طريقنا في هذا الكتاب مختصراً كافياً إن شاء الله تعالىٰ.

اعلم أن الله تعالىٰ إذا أراد أن يخلق إنساناً معتدل النشأة ليكون جميع حركاته وتصرّفاته مستقيمة وفق الله الأب لما فيه صلاح مزاجه، ووفق الأمّ أيضاً لذلك، فصلح المني من الذكر والأنثى وصلح مزاج الرحم واعتدلت فيه الأخلاط اعتدال القدر الذي به يكون صلاح النطفة ووقت الله لإنزال الماء في الرحم طالعاً سعيداً بحركات فلكية جعلها الله علامة على الصلاح فيما يكون في ذلك من الكائنات، فيجامع الرجل امرأته في طالع سعيد بمزاج معتدل فينزل الماء في رحم معتدل المزاج فيتلقاه الرحم ويوفق الله الأمّ ويرزقها الشهوة إلى كل غذاء يكون فيه صلاح مزاجها وما تتغذى به النطفة في الرحم، فتقبل النطفة التصوير في مكان معتدل ومواد معتدلة وحركات فلكية مستقيمة، فتخرج النشأة وتقوم على أعدل صورة، فتكون نشأة

صاحبها معتدلة ليس بالطويل ولا بالقصير لين اللحم رطبه بين الغلظ والرقة أبيض مشرباً بحمرة وصفرة معتدل الشعر طويله ليس بالسبط ولا الجعد القطط، في شعره حمرة ليس بذاك السواد، أسيل الوجه أعين عينه مائلة إلى الغور والسواد معتدل، عظيم الرأس سائل الأكتاف في عنقه استواء معتدل اللبة، ليس في وركه ولا صلبه لحم خفي الصوت صاف ما غلظ منه وما رقّ ممّا يستحب منه غلظه أو رقته في اعتدال طويل البنان للرقة سبط الكف قليل الكلام والصمت إلاّ عند الحاجة، ميل طبائعه إلى الصفراء والسوداء، في نظره فرح وسرور، قليل الطمع في المال، ليس يريد التحكّم عليك ولا الرياسة ليس بعجلان ولا بطيء، فهذا قالت الحكماء أعدل الخلقة وأحكمها، وفيها خلق سيدنا محمد ﷺ ليصحّ له الكمال في النشأة كما صحّ له الكمال في المرتبة، فكان أكمل الناس من جميع الوجوه ظاهراً وباطناً.

فإن اتفق أن يكون في الرحم اختلال مزاج فلا بدّ أن يؤثر ذلك الاختلال في نشأة الإنسان في الرحم في عضو من أعضائه، أو في أكثر الأعضاء أو في أقلها بحسب ما تكون المادّة في الوقت لذلك العضو من القوّة الجاذبة التي تكون في النطفة، فيخرج ذلك إما في كلية النشأة، وإما في بعض أعضائها، فمن ذلك والله الموفق أن البياض الصادق مع الشقرة والزرقة الكثيرة دليل على القحة والخيانة والفسوق وخفة العقل، فإن كان مع ذلك واسع الجبهة ضيق الذقن أزعر أوجن كثير الشعر على الرأس فقال أهل الفراسة من الحكماء: إن التحفّظ ممّن هذه صفته كالتحفظ من الأفاعي القتالة، فإن كان الشعر خشناً دلّ على الشجاعة وصحة الدماغ، وإن كان ليناً دلّ على الجبن وبرد الدماغ وقلة الفطنة، وإن كان الشعر كثيراً على الكتفين والعنق دل على الحمق والجراءة، وإن كثر على الصدر والبطن دلّ على وحشية الطبع وقلة الفهم وحب الجور، والشقرة دليل على الجبن وكثرة الغضب وسرعته والتسلّط، والأسود من الشعر يدل على السكون الكثير في العقل والأناة وحب العدل، والمتوسط بين هذين يدل على الاعتدال، وإن كانت الجبهة منبسطة لا غضون فيها دلّ على الخصومة والشغب والرقاعة والصلف، فإن كانت الجبهة متوسطة في النتوء والسعة وكانت فيها غضون فهو صدوق محب فهم عالم يقظان مدبر حاذق، ومن كان عظيم الأذنين فهو جاهل إلاّ أنه يكون حافظاً، ومن كان صغير الأذنين فهو سارق أحمق، وإن كان الحاجب كثير الشعر دلّ على الغيّ وغث الكلام، فإن امتدّ الحاجب إلى الصدغ فصاحبه تياه صلف، ومن رقّ حاجبه فاعتدل في الطول والقصر وكانت سوداء فهو يقظان، فإن كان العين أزرق فهي أردأ العيون، وأردأ الزرق الفيروزجية، فمن عظمت عيناه وجحظت فهو حسود وقح كسلان غير مأمون، وإن كانت زرقاء كان أشدّ وقد يكون غاشاً، ومن كانت عيناه متوسطة مائلة إلى الغور والكحلة والسواد فهو يقظان فهم ثقة محب، فإذا أخذت العين في طول البدن فصاحبها خبيث، ومن كانت عينه جامدة قليلة الحركة كالبهيمة ميت النظر فهو جاهل غليظ الطبع، ومن كان في عينه حركة بسرعة وحدّة نظر فهو محتال لص غادر، ومن كانت عينه حمراء فهو شجاع مقدام، فإن كان حواليها نقط صفر فصاحبها أشرّ الناس وأرداهم، وإن كان أنفه دقيقاً فصاحبه نزق، ومن

كان أنفه يكاد يدخل في فمه فهو شجاع، ومن كان أفطس فهو شبق، ومن كان أنفه شديد الانتفاخ فهو غضوب، وإذا كان غليظ الوسط مائلاً إلى الفطوسة فهو كذوب مهذار، وأعدل الأنوف ما طال غير طول فاحش، ومن كان أنفه متوسط الغلظ وقناه غير فاحش فهو دليل على العقل والفهم، ومن كان واسع الفم فهو شجاع، ومن كان غليظ الشفتين فهو أحمق، ومن كان متوسط الشفتين في الغلظ مع حمرة صادقة فهو معتدل، ومن كانت أسنانه ملتوية أو ناتئة فهو خداع متحيل غير مأمون، ومن كانت أسنانه منبسطة خفافاً بينهما فلج فهو عاقل ثقة مأمون مدبر، ومن كان لحم الوجه منه منتفخ الشدقين فهو جاهل غليظ الطبع، ومن كان نحيف الوجه أصفر فهو رديء خبيث خداع شكس، ومن طال وجهه فهو وقح، ومن كانت أصداغه منتفخة وأوداجه ممتلئة فهو غضوب، ومن نظرت إليه فاحمر وخجل وربما دمعت عيناه أو تبسم تبسماً لا يريده فهو لك متودّد محب فيك لك في نفسه مهابة، وإن كان ذا صوت جهر دلّ على الشجاعة، والمعتدل بين الكد والتأنّي والغلظ والرقة دلّ على العقل والتدبير والصدق وسرعة الكلام، ورقته يدل على الكذب والقحة والجهل، الغلظ في الصوت دليل على الغضب وسوء الخلق، الغنة في الصوت دليلة على الحمق وقلة الفطنة وكبر النفس، التحرّك الكثير دليل على الصلف والهذر والخداع والوقار في الجلسة، وتدارك اللفظ وتحريك اليد في فضول الكلام دليل على تمام العقل والتدبير وصحة العقل، قصر العنق دليل على الخبث والمكر، طول العنق ورقته دليل على الحمق والجبن والصياح فإن انضاف إليهما صغر الرأس فإنه يدل على الحمق والسخف، غلظ العنق يدل على الجهل وكثرة الأكل، اعتدال العنق في الطول والغلظ دليل على العقل والتدبير وخلوص المودّة والثقة والصدق، البطن الكبير يدل على الحمق والجهل والجبن، لطافة البطن وضيق الصدر يدلان على جودة العقل وحسن الرأي، عرض الكتفين والظهر يدلان على الشجاعة وخفة العقل، انحناء الظهر يدل على الشكاسة والنزاقة، استواء الظهر علامة محمودة، بروز الكتفين دليل على سوء النية وقبح المذهب، إذا طالت الذراعان حتى يبلغ الكف الركبة دلّ على الشجاعة والكرم ونبل النفس، وإذا قصرت فصاحبها جبان محب في الشرّ، الكف الطويلة مع الأصابع الطوال تدل على النفوذ في الصنائع وحكام الأعمال وتدبير الرياسة، اللحم الغليظ في القدم يدل على الجهل وحب الجور، القدم الصغير اللين يدل على الفجور، رقة العقب تدل على الحسن، غلظ العقب يدل على الشجاعة، غلظ الساقين مع العرقوبين دليل على البله والقحة، من كانت خطاه واسعة بطيئة فهو منجح في جميع أعماله مفكّر في عواقبه والضدّ للضدّ.

فهذا ما نقلته من أقوال الحكماء من أهل التجربة من العلماء بالطبيعة، وهذه النعوت قد تكثر وتقل، والحكم للغالب، وقد تتساوى في الشخص فيدفع هذا حكم هذا بأن يكون في الشخص حكم أحدها بوجه في قضية خاصة، وحكم أحدها بوجه آخر في قضية خاصة. وبالجملة فإن الرياضة واستعمال العلم مؤثر في إزالة حكم كل صفة مذمومة ممّا ذكر، ومن جرب وجد صحة ما قلناه فإن العادة طبيعة خامسة لها أثر في الطبيعة الأصلية، هذا كله مجرب.

وصل محقق الاعتبار فيما ذكرناه من العلامات التي أعطت الطبيعة حكمها فيه وشهدت لها التجارب: فاعلم أن لطيفة الإنسان المدبرة جسده لما كان لها وجه إلى النور المحض الذي هو أبوها، ووجه إلى الطبيعة وهي الظلمة المحضة التي هي أمّها، كانت النفس الناطقة وسطاً بين النور والظلمة، وسبب توسطها في المكانة لكونها مدبرة كالنفس الكلية التي بين العقل والهيولى الكل وهو جوهر مظلم، والعقل نور خالص، فكانت هذه النفس الناطقة كالبرزخ بين النور والظلمة تعطي كل ذي حق حقه، فمتى غلب عليها أحد الطرفين كانت لما غلب عليها، وإن لم يكن لها ميل إلى أحد الجانبين تلقت الأمور على الاعتدال وأنصفت وحكمت بالحق، فلنذكر في هذا الوصل اعتبار ما مشى في علامات الفراسة في الجسد فنقول: أما البياض المفرط فاستفراغ الإنسان في النظر في عالم النور بحيث لا يبقى في استفراغه ما يدبر به عالم طبيعته كأبي عقال المغربي وأمثاله فيفسد سريعاً قبل حصول الكمال، وكذلك اعتبار السواد المفرط وهو استفراغه في عالم شهوته وطبيعته بحيث أن يحول بينه وبين النظر في علوم الأنوار وهي العلوم الإلهية فهذا مذموم الحال بلا خلاف، فإذا كان وقتاً ووقتاً ووفى كل ذي حق حقه كما قال ﷺ: **«لِي وَقْتٌ لاَ يَسَعُنِي فِيهِ غَيْرُ رَبِّي»** فذلك الإمام العادل.

وأما اعتبار الطول والقصر فهو مدة إقامته في النظر في أحد العالمين، فإما مدة ممتدة وهي الطول أو قليلة وهي القصر، وينبغي من ذلك أن تكون المدة بقدر الحاجة. وأما اعتدال اللحم في الرطوبة وبين الغلظ والرقة فهو اعتدال للإنسان في البرزخيات بين المعنى والحسّ كاللحم بين العظم والجلد. وأما اعتدال الشعر فهو إقامته بين البسط والقبض. وأما كونه أسيل الوجه فهي الطلاقة والبشاشة. وأما كونه أعين فصحة النظر في الأمور. وأما كون عينه مائلة إلى الغور والسواد فهو النظر في المغيبات واستخراج الأمور الخفية. وأما الجحوظة فهو ميله إلى استنباط العلوم من عالم الشهادة وهم أهل الاعتبار. وأما اعتدال عظم الرأس فتوفير العقل. وأما كونه سائل الأكتاف فاحتمال الأذى في الغيبة من غير أثر. وأما استواء العنق فالاستشراف على الأشياء من غير ميل إليها. وأما الطول الزائد في العنق فهو الاستشراف على ما لا ينبغي مثل التجسّس. وأما القصر المفرط فهو التفريط فيما ينبغي أن يستشرف عليه. وأما اعتدال اللبة فاستقامة العبارة بالوزن الذي تقع به المنفعة عند المخاطب. وأما قلة اللحم في الورك والصلب فهو نظره في الأمور التي يتورك عليها ويعول عليها أن يخلصه إلى أحد الطرفين فإنه إن كانت برزخية قد تقدر به في غالب الأمر، وأما كونه خفي الصوت فهو حفظ السرّ في موضع الجهر. وأما صفاء الصوت فهو أن لا يزيد فيه شيئاً. وأما طول البنان فللطافة التناول. وأما بسط الكف فرمي الدنيا من غير تعلق. وأما قلة الكلام والضحك فنظره إلى مواقع الحكمة فيتكلم ويضحك بقدر الحاجة. وأما كون ميل طباعه إلى المرتين فهو أن يغلب عليه في الصفراء الجنوح إلى العالم العلوي وفي السوداء إلى العالم السفلي، واستخراج ما أخفى فيه من قرة أعين ممّا تحجب الطبيعة أكثر العقول في النظر فيها لما يسبق في أذهانهم من ذم الطبيعة، وأما كونه في نظره فرح وسرور فهو استجلاب نفوس الغير إليه بالمحبة. وأما

كونه قليل الطمع في المال فهو البعد عن كل ما يميل به إلى ما لا فائدة له فيه. وأما كونه ليس يريد التحكّم عليك ولا الرئاسة فهو شغله بكمال عبوديته لا به. وأما كونه ليس بعجلان ولا بطيء أي ليس بسريع الأخذ مع القدرة ولا عاجز.

وكذلك أيضاً لما نظرنا إلى أرباب الفراسة الحكمية وجدناهم راجعين في ذلك إلى طرفين وواسطة وقسموا الأمور إلى محمود ومذموم أعني الأخلاق وجعلوا الخير كله في الوسط وجعلوا الانحراف في الطرفين فقالوا في الأبيض الشديد البياض والأشقر الأزرق وما سمعت من الذمّ وأنه غير محمود، وكذلك الشديد السواد والرقيق الأنف جداً مذموم كل هذا والمعتدل بينهما الغير مائل إلى أحد الطرفين مثلاً خارجاً عن الحد هو المحمود على نحو ما تقدم. فلما رأيناهم قد قصروها على ما ذكرنا نظرنا إلى ذلك في هذا العالم الإنساني أين ظهر الحسن والقبح فقلنا: لا حسن يقع به المنزلة عند الله، ولا قبح يقع باجتنابه الخير من الله إلاّ ما حسنه الشرع وقبحه.

فلما رأينا الحمد والذم على الفعل من جهة ما شرعاً نظرنا كيف نجمع طرفين وواسطة لنجعل الطرفين مخالفاً لحكم الوسط الذي هو محل الاعتدال فنقول: لا يخلو الإنسان أن يكون واحداً من ثلاثة بالنظر إلى الشرع وهو: إما أن يكون باطنياً محضاً وهو القائل بتجريد التوحيد عندنا حالاً وفعلاً وهذا يؤدي إلى تعطيل أحكام الشرع كالباطنية والعدول عما أراد الشارع بها، وكل ما يؤدي إلى هدم قاعدة دينية مشروعة فهو مذموم بالإطلاق عند كل مؤمن. وإما أن يكون ظاهرياً محضاً متغلغلاً متوغلاً بحيث أن يؤدّيه ذلك إلى التجسيم والتشبيه، فهذا أيضاً مثل ذلك ملحق بالذم شرعاً، فإما أن يكون جارياً مع الشرع على فهم اللسان حيثما مشى الشارع مشى، وحيثما وقف وقف قدماً بقدم، وهذه حالة الوسط وبه صحّت محبة الحق له، قال تعالىٰ أن يقول نبيه ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] فاتباع الشارع واقتفاء أثره يوجب محبة الله للعباد وصحة السعادة الدائمة، فهذا وجه مقابلة النسختين، فإن قال قائل: هذا مجمل فكيف يعرف تفصيله؟ فإنا إذا رأينا رجلاً ساكناً يشهد الصلوات والجماعات وهو مع ذلك منافق مصر فنقول: إن السكون وشهود الصلوات وشبه ذلك من عالم الشهادة وكونه كافراً بذلك في قلبه فهو من عالم الغيب، ونحن إذا حصلت لنا الفراسة الذوقية الإيمانية كما ذكرناها وكما نتمّها إن شاء الله تعالىٰ حكمنا بكونه كافراً في نفوسنا وأبقينا ماله ودمه معصوماً شرعاً لظهور كلمة التوحيد، فمعاملتنا له على هذا الحد وما كلفنا غير هذا.

ثم لتعلم وفّقك الله أن العالم العلوي بالجملة هو المحرك عالم الحسّ والشهادة وتحت قهره حكمة من الله تعالىٰ لا لنفسه استحق ذلك، فعالم الشهادة لا يظهر فيه حكم حركة ولا سكون ولا أكل ولا شرب ولا كلام ولا صمت إلاّ عن عالم الغيب، وذلك أن الحيوان لا يتحرك إلاّ عن قصد وإرادة وهما من عمل القلب، والإرادة من عالم الغيب، والتحرّك وما شاكله من عالم الشهادة، وعالم الشهادة كلما أدركناه بالحسّ عادة، وعالم الغيب ما أدركناه بالخبر الشرعي أو النظر الفكري ممّا لا يظهر في الحسّ عادة فنقول: إن عالم الغيب يدرك بعين البصيرة، كما أن عالم الشهادة يدرك بعين البصر، وكما أن البصر لا يدرك عالم الشهادة

ما عدا الظلمة ما لم يرتفع عنه حجاب الظلم أو ما أشبهه من الموانع، فإذا ارتفعت الموانع وانبسطت الأنوار على المحسوسات واجتمع نور البصر والنور المظهر أدرك المبصر بالبصر المبصرات، كذلك عين البصيرة حجابه الريون والشهوات وملاحظة الأغيار من العالم الطبيعي الكثيف إلى أمثال هذه الحجب فتحول بينه وبين إدراك الملكوت أعني عالم الغيب، فإذا عمد الإنسان إلى مرآة قلبه وجلاها بالذكر وتلاوة القرآن فحصل له من ذلك نور ولله نور منبسط على جميع الموجودات يسمّى نور الوجود، فإذا اجتمع النوران فكشف المغيبات على ما هي عليه وعلى ما وقعت في الوجود غير أن بينهما لطيفة معنى فذلك أن الحسّ يحجبه الجدار والبعد المفرط والقرب المفرط، وعين البصيرة ليس كذلك لا يحجبه شيء إلاً ما ذكرنا من الران والكن وأشباه ذلك، إلاً أنه أيضاً ثم حجاباً لطيفاً أذكره وهو أن النور الذي ينبسط من حضرة الجود على عالم الغيب في الحضرات الوجودية لا يعمّها كلها ولا ينبسط منه عليها في حق هذا المكاشف إلاً على قدر ما يريد الله تعالىٰ، وذلك هو مقام الوحي، دليلنا على ذلك لأنفسنا ذوقنا له، ولغيرنا قوله: ﴿قُلْ مَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٩] مع غاية الصفاء المحمدي وهو قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١] فمهما ظهر ممّن حصل في هذا المقام شيء من ذلك على ظاهره في حق شخص ما فتلك الفراسة وهي أعلى درجات المكاشفة وموضعها من كتاب الله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٧٥] من السمة وهي العلامة كما قلنا ولا يخطىء أبداً بخلاف الفراسة الحكمية، وثم كشف آخر في الفراسة وذلك أن الله جعل في العالم حضرة السمات فيها صور بني آدم وأحوالهم في أزمانهم إلى حين انفصالهم وهي مخبوءة عن جميع الخلائق العلوي والسفلي إلاً عن القلم واللوح، فإذا أراد الله اصطفاء عبد وأن يخصّه بهذا المقام طهر قلبه وشرحه وجعل فيه سراجاً منيراً من إيمانه خاصة يسرجه من الأسماء الإلهية الاسم المؤمن المهيمن وبيده هذه الحضرة وذلك السراج من حضرة الألوهة يأخذه الاسم المؤمن، فإذا استنار القلب بذلك النور الإلهي وانتشر النور في زوايا قلبه مع نور عين البصيرة بحيث يحصل له إدراك المدركات على الكشف والمشاهدة لوجود هذه الأنوار، فإذا حصل القلب على ما ذكرناه جعل في ساحة من ساحات هذا القلب تلك الحضرة التي ذكرناها، فمن هناك يعرف حركات العالم وأسراره. انتهى الجزء الرابع ومائة.

(الجزء الخامس ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب التاسع والأربعون ومائة
في معرفة مقام الخلق وأسراره

[نظم: البسيط]

كَوْنُ التَّخَلُّقِ في الإنسان والخُلُقِ   مثْلُ التكحُل في العينين والكَحَلِ

وإن تَضاعَفَ فيه أجْرُه فمتى ... ينال مرتبةَ الأملاك والرُسُلِ
ذاك الوحيدُ الذي يحيا الزمانُ به ... فهو المرتِّبُ للأحكام والدُّوَلِ
تَنْحَطُّ من عزِّها غُلْبُ الرقابِ له ... وهو المثبِّتُ للأعراض والعِلَلِ

قال رسول الله ﷺ: «**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَنْهَاكُمْ عَنِ الرِّبَا وَيَأْخُذَهُ مِنْكُمْ**» وهو حديث صحيح، فأدخل نفسه معنا فيما نهانا عنه في الحكم، فالأخلاق كلها نعوت إلهية فكلها مكارم وكلها في جبلة الإنسان ولذلك خوطب بها، فإن بعض من لا معرفة له بالحقائق يقول إنها في الإنسان تخلق وفي الحق خلق، فهذا من قائله جهل بالأمور إن لم يطلق ذلك مجازاً، أو بالنظر إلى تقدم وجود الحق على وجود العبد لأنه واجب الوجود لنفسه، والإنسان موجود بربه، فاستفاد الوجود فاستفاد الخلق منه، فإذا راعى هذا الأصل فقال بالتخلق كان صحيح المقصد، وإن أراد بالتخلق أن ما هو للحق حقيقة واتصف به العبد إن لم يكن عنده إلاَّ في الوقت الذي اتصف به فسمّاه لذلك تخلّقاً لا خلقاً وما يكون خلقاً إلاَّ ما جبل عليه في أصل نشأته فلا علم له بنشأة الإنسان ولا بإعلام النبيّ ﷺ بأن الله خلق آدم على صورته، ويلزم هذا القائل أن يكون ما جعله من الصفات حقيقة للعبد، ثم رأينا الحق قد اتصف به أن يكون ذلك في الله تخلّقاً من الله بما هو حق للإنسان، وهذا لا يقول به من عنده أدنى شيء من العلم. والصحيح في هذه الأخلاق الإلهية أنها كلها في جبلة الإنسان، وتظهر لمن يعرفها في كل إنسان على حد ما تظهر في الجناب الإلهيّ، فإن كل خلق من هذه الأخلاق لا يصحّ أن تعمّ المعاملة به جميع الأكوان لا من جانب الحق ولا من جانب الإنسان فهو كريم على الإطلاق، وكذلك الإنسان كريم على الإطلاق.

ومع كون الحق كريماً على الإطلاق فمن أسمائه المانع، ومن أسمائه الضار، ومن أسمائه المذلّ، ويغفر ويعذب من يشاء، ويؤتي الملك وينزع الملك وينتقم ويجود، وهو مع هذا التقييد في حق قوم دون قوم مطلق الصفة، وكذا هي في الإنسان فهي خلق أصلي له لا تخلق، ولا يصحّ أن تعم من الإنسان هذه الأخلاق مع كونها مطلقة في حقّه، كما لم يصحّ أن تعمّ من الله في جميع الخلق مع كونه تعالىٰ مطلق الوصف بها، ولا يصحّ في هذه الصفات الاستعارة إلاَّ مجازاً كما قلنا من حيث إنه تعالىٰ كان بهذه الصفات وما كنا، فلما كنا كنا بها لا أنا اكتسبناها ولا استعرناها منه فإنها صفة قديمة لله أي نسبة اتصف بها الحق ولا عالم، والصفة لا بدّ لها من موصوف بها فإنها من حقيقتها لأن تقوم بنفسها، ويؤدّي القول باستعارتها إلى قيامها بنفسها وإلى خلو الحق عنها وإلى أن يكون الحادث محلاً لوجود القديم فيه، وهذا كله ما لا يقول به أحد من العلماء بالله، فجميع ما يظهر من الإنسان من مكارم أخلاق وسفساف أخلاق كلها في جبلته وهي له حقيقة لا مجاز ولا معارة، كما أنه سبحانه جميع ما سمّى به الحق نفسه لا وما وصف به نفسه من صفات الأفعال من خلق وإحياء وإماتة ومنع وعطاء وجعل ومكر وكيد واستهزاء وفصل وقضاء وجميع ما ورد في الكتب المنزّلة ونطقت به الرسل من ضحك وفرح وتعجّب وتبشبش وقدم ويد ويدين وأيد وأعين وذراع كل ذلك نعت

صحيح فإنه كلامه تعالىٰ عن نفسه وكلام رسله عنه وهو الصادق وهم الصادقون بالأدلة العقلية، ولكن على حدّ ما يعلمه وعلى حدّ ما تقبله ذاته وما يليق بجلاله لا يزد شيئاً من ذلك ولا نحيله ولا نكفيه ولا نقول بنسبة ذلك كله إليه كما ننسبه إلينا نعوذ بالله، فإننا ننسبه إلينا على حد علمنا بنا، فنعرف كيف ننسبه والحق يتعالىٰ أن تعرف ذاته، فيتعالىٰ أن يعرف كيف تنسب إليه ما نسبه إلى نفسه، ومن ردّ شيئاً أثبته الحق لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله فقد كفر بما جاء به من عند الله وبمن جاء به وبالله، ومن آمن ببعض ذلك ورد بعضه فقد كفر حقاً ومن آمن بذلك وشبهه في نسبة ذلك إليه تعالىٰ مثل نسبتها إلينا أوتوهم ذلك أو خطر على باله أو تصوّره أو جعل ذلك ممكناً فقد جهل وما كفر، هذا هو العقد الصحيح من غير ترجيح.

غير أن ثمَّ أسماء تطلق على العبد ولا تطلق على الجناب الإلهيّ وإن كان المعنى يشمل ذلك، كالبخيل يطلق على العبد ولا يطلق على الحق وهو منع، ومن أسمائه المانع ومن بخل فقد منع هذا هو الحق غير أنا نلتمس له وجهاً وهو أن نقول: كل بخل منع وما كل منع بخل، فمن منع المستحق حقُّه فقد بخل، والحق قرّر قول موسىٰ أن الله أعطى كل شيء خلقه، فما بخل عليك من أعطاك خلقك ووفاك حقّك فمنع ما لا يستحقه الخلق ليس بمنع بخل، فبهذا القدر نجعل التفرقة بين المنعين، وكذلك اسم الكاذب ممّا اختصّ به العبد. ولا ينبغي أن يطلق على الحق فهو الصادق بكل وجه، كما أن العبد صادق وكاذب، وصادق أيضاً بكل وجه، ولكن نسبة الصدق إلى العبد بكل وجه معروف عندنا لعلمنا بنا ونسبتها إلى الحق مجهولة لنا فهو الصادق كما ينبغي أن يضاف إليه الصدق، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥]. وقال: ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة، فقيد نزوله بالزمان، والتقييد بالزمان تقييد بالانتقال، وكل ذلك مجهول النسبة ثابت الحكم متوجّه كما ينبغي لجلاله، وكذلك الاسم الجاهل من أسماء الكون ولا يليق بالجناب الإلهيّ، فالإله عالم من حيث إنه موصوف بالعلم، والعبد عالم من حيث إنه موصوف بالعلم، وجاهل من حيث خصوص تعلّق علمه ببعض الأشياء دون بعض، والحق مطلق العلم عامّ التعلّق، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] فحدّد خلاف المعقول.

وأشارت السوداء أن الله في السماء حين قال لها رسول الله ﷺ: «**أَيْنَ اللَّهُ**» وأثبت لها الإيمان في إشارتها، وهذا خلاف دليل العقل، فقد عرف من الله ما لم نعرف ومع هذا فنقول: إن الله هو العالم بنفسه وهو الصحيح، فما من اسم تسمّى العبد به ولم يتسم الحق به وكان في الخلق نعت نقص وسفساف خلق إلاّ والعقل والحق قد منع أن يطلق على الله ذلك الاسم أو ينسب إليه ذلك الخلق، ومع هذا فإنه يخبر بأمور وفصول تقابل أدلة العقول فهو الفعّال لما يشاء، والجاعل في خلقه ما يشاء لا احتكام عليه وهو الحاكم ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٣] وقد نبهناك على أمر جليل وعلم عظيم وسرّ غامض خفي لا يعلمه إلاّ الله، ومن أعلمه من المخلوقين أحاله عقل وورد به نقل وبعد عنه فهم وقبله فهم.

فإن تدبرت فصول هذا الباب وقفت على لباب المعرفة الإلهية وتحققت قوله ﷺ: «**مَنْ**

عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» وقد أوجدتك أنك محل لكل صفة محمودة ومذمومة، ثم أعلمتك معنى الحمد والذمّ وحدّدتك وأطلقتك ذلك لتعلم أنك العالم الذي لا يعلم، وهو سبحانه العالم الذي يعلم ولا يعلم، فلا يعلم ما هو العبد عليه وأعني بالعبد العالم كله والإنسان إلاَّ الله تعالىٰ هو يعلمه، ثم أعلم بعض عبيده، فمنا من علم نفسه، ومنا من جهل نفسه، ومنا من تخيّل أنه علم نفسه، ومنا من علم من نفسه بعض ما هو عليه في نفسه، وبذلك القدر ينسب إليه أنه علم من ربه، فإنه «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وكما لا يجتمع الدليل والمدلول لا تجتمع أنت وهو في حدّ ولا حقيقة فإنه الخالق وأنت المخلوق وإن كنت خالقاً، وهو المالك وأنت المملوك وإن كنت مالكاً، فلا يحجبنك الاشتراك في الأخلاق فإنك المخلوق وهو الخلاّق، فهذا مقام الخلق قد أبنته، وما عدا هذا مّما تشير إليه الصوفية من التخلّق فهو تلفيق من الكلام وقولهم في التخلّق بالأسماء كذلك، ونحن قد أطلقنا مثل ما أطلقوه، ولكن عن علم محقق وإطلاق مطلق بأدب إلهيّ عن تحقّق، فهو في الحقيقة خلق لا تخلّق كما أفهمتك، وأكثر من هذا الإيضاح والبيان الذي يطلبه هذا المقام فلا يكون، فإنا ما تعدينا فيه حدود الله في عبارتنا ولا ذكرنا شيئاً ما نسبه إلى نفسه فما خرجنا عن كلامه وما أنزله على الصادقين من عباده ﴿هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٣٠] بل ﴿هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة يوسف: الآية ٨٣] فهو العليم ولا عالم، وهو الحكيم في ترتيب العالم، فالعالم والعليم أعمّ، والحكيم تعلق خاص للعلم فهذا هو التحقّق بالخلق الإلهيّ.

وأما الأخلاق التي تحتاج إلى معرفتها أهل السلوك وكلنا سالك إذ لا تصحّ نهاية فهو أن نقول: إن العرف والشرع قد وردا بمكارم الأخلاق وسفساف الأخلاق وأمرنا بإتيان مكارمها وإجتناب سفسافها. ثم إن الشرع قد نبّه على أنها على قسمين: من الأخلاق ما يكون في جبلة الإنسان كما قال رسول الله ﷺ للأشج أشج عبد القيس: «**إِنَّ فِيكَ لَخصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ: الحِلْمُ وَالأَنَاةُ**» وفي لفظ آخر لغير مسلم: «**فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَشَيْءٌ جُبِلْتُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا**» أو كما قال. ومنها مكتسبة، فالمكتسب هو الذي يعبر عنه بالتخلق وهو التشبّه بمن هي فيه هذه الأخلاق الكريمة جبلية في أصل خلقه، ولا شك أن استعمال مكارم الأخلاق صعب لملاقاة الضدّ في استعمالها في الكون، فإن الغرضين والإرادتين من الشخصين إذا تعارضتا وطلب كل واحد منهما منك أن تصرف معه كريم خلق بقضاء غرضه ولا يتمكن لك الجمع بينهما فمهما أرضيت الواحد أسخطت الآخر، وإذا تعذّر الجمع واستحال تعميم الرضى وتصريف الخلق الكريم مع كل واحد منهما تعين على الإنسان أن يخرج عن نفسه في ذلك ويجعل الحكم فيه للشرع فيتخذه لهذا الباب ميزاناً وإماماً، فاجعل إمامك ما يرضي الله وفيما يرضي الله، ولتصرف خلقك الكريم مع الله خاصة فهو الصاحب والخليفة وهو أولى أن يعامل بمكارم الأخلاق، فما قدّمه الله قدّمه، فإن ذلك التقديم هو تصريف الحق لذلك الخلق مع ذلك العبد وفي ذلك المحل، فتصريف خلقك مع الله أولى من تصريفه مع الكون بل هو واجب لا أولى، فإن جميع الخلق من الملائكة والرسل والمؤمنين يحمدونك على ذلك الفعل والخلق الذي عاملت به ذلك الشخص الذي قدمه الحق وأوجب

عليك أن تعامله به، وما يذمك فيه إلاَّ صاحب ذلك الغرض إذا لم يكن مؤمناً ومراعاة الأصل أولى، وإذا لم تتخلق بمكارم الأخلاق على ما رسمته لك لم يصحّ لك هذا المقام ويذمّك فيه كل مخلوق، ألا ترى شاهد الزور فإنه أوّل من يتجرح عنده ولا يعتقد فيه ويذمّه في باطنه من شهد له وقد أسخط الله وملائكته ورسله والمؤمنين.

وليست مكارم الأخلاق إلاَّ ما يتعلق منها بمعاملة غيرك لا غير، وما عدا ذلك فلا يسمّى مكارم خلق، وإنما هي نعوت يتخلق بها لتصحيح الصورة أو النسبة لا غير، هذا هو ربط هذا الباب في السالكين والمخلصين سعادة الأبد، وتفاصيل تصاريف الأخلاق مع الموجودات تكثر لو بيّناها وكيفياتها لم يحصرها كتاب. وبعد أن أعطيناك أصلاً فيها تعتمد عليه فاعمل به وهو أن تنظر إلى حكم الشرع في كل حركة منك في حق كل موجود فتعامله بما قال لك الشارع عامله به على الوجوب أو الندب ولا تتعداه تكن في ذلك محمود النقيبة مأموناً معظماً عند الله صاحب نور إلهيّ.

نكتة: فإن كنت فعالاً بالهمة أرضيت جميع الموجودات عنك إذ كان لك التصرّف في الكل وهو مقام عزيز يعلم ويعقل، ولكن ما حصله أحد من خلق الله فهو مخصوص بالحق، ولا يظهر به الحق إلاَّ إذا أخذ أهل النار منازلهم وأهل الجنة منازلهم رضي الكل بما هم فيه بإرضاء الحق، فلا يشتهي واحد منهم يخرج عن منزلته وهو بها مسرور وهو سرّ عجيب ما رأينا أحداً نبّه عليه من خلق الله وإن كانوا قد علموه بلا شك وما صانوه والله أعلم إلاَّ صيانة لأنفسهم ورحمة بالخلق، لأن الإنكار يسرع إليه من السامعين، ووالله ما نبهت عليه هنا إلاَّ لغلبة الرحمة عليّ في هذا الوقت، فمن فهم سعد ومن لم يفهم لم يشق بعدم فهمه وإن كان محروماً والسلام.

الباب الخمسون ومائة

في معرفة مقام الغيرة التي هي الستر وأسراره

[نظم: السريع]

ما أعجبَ الغَيْرَةَ في العالم ... ووَصْفُنَا الله بها أَعْجَبُ
وقولنا الله غيورٌ على ... ما قرَّر الشرعُ وما نَذْهَبُ
وقد قبلناه ولكنَّه ... من أصعب الأمر الذي يُنْسَبُ
وأنه من حيثُ أفكارُنا ... فرضٌ مُحَالٌ عينه يُنْصَبُ
والكَشْفُ مثلُ الشَّرْع في قوله ... وشأنُ ربِّ الكَشْف لا يُحجَبُ
والأمرُ حقٌ وهو أعجوبةٌ ... من أجلها عقولُهم تَهْرُبُ
قد جعل الشِّبْلِيُّ في حكمه ... أن لها حكماً وذا أصْعَبُ
وهو من أهل الكَشْفِ في عِلْمنا ... ضَرْبُ مثال عندنا يُضْرَبُ
وعند أهل الفكر في زَعْمِهِمْ ... على الذي يُعْطيهِمُ المَذْهَبُ
بأنها من عالِم زَلَّةٌ ... وهي إلى حكم العَمَى أقْرَبُ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن الغيرة نعت إلهيّ، وورد في الخبر أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي سَعْدٍ: **«إِنَّ سَعْداً لَغَيُورٌ وَأَنَا أَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي وَمِنْ غَيْرَتِهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ»** وفي هذا الحديث مسألة عظيمة بين الأشاعرة والمعتزلة وهو حديث صحيح، فالغيرة أثبتها الإيمان ولكن بأداة مخصوصة وهي اللام الأجلية أو من أو الباء، وتستحيل بأداة على وهي التي وقعت من الشبلي إمّا غلطة وإمّا قبل أن يعرف الله معرفة العارفين، فالغيرة في طريق الله هي الغيرة لله أو بالله أو من أجل الله، والغيرة على الله محال، فتحقيق كونها نعتاً إلهياً وهو نعت يطلب الغير ولذا سميت غيرة، فلولا ملاحظة الغير ما سمّيت غيرة ولا وجدت، فالإله القادر يطلب المألوه المقدور وهو الغير فلا بدّ من وجود ما يطلب الإله وجوده، فأوجد العالم على أكمل ما يكون الوجود فإنه لا بدّ أن يكون كذلك لاستحالة إضافة النقص إلى الكامل الاقتدار فلذلك قال: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] وهو الكمال، فلو لم يوجد النقص في العالم لما كمل العالم، فمن كمال العالم وجود النقص الإضافي فيه، فلذلك قلنا: إنه وجد على أكمل صورة بحيث أنه لم يبق في الإمكان أكمل منه لأنه على الصورة الإلهية. وورد في الخبر: **«إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ»** فكان في قوّة الإنسان من أجل الصورة أن ينسى عبوديته ولذلك وصف الإنسان بالنسيان فقال في آدم ﴿فَنَسِيَ﴾ [سورة طه: الآية ٨٨] والنسيان نعت إلهيّ، فما نسي إلاّ من كونه على الصورة فما زلنا ممّا كنّا فيه، قال تعالىٰ: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٧] كما يليق بجلاله.

فلما علم الحق أن هذا العبد بما كمله الله به من القوّة الإلهية بالصورة الكمالية لا بدّ أن يدّعي في نعوت ما هو حق لله لطلب الصورة الكمالية لذلك النعت وهو من بعض النعوت الإلهية فغار الحق من المشاركة في بعض نعوت الجلال وشغل الإنسان بما أباح له من باقي النعوت الإلهية، فلما علم أيضاً أنه لا يقف عند ذلك وأنه لا بدّ أن يعطي الصورة الكمالية حقّها في الاتصاف بالنعوت الإلهية وأنها تتعدى ما حجر عليها مثل العظمة والكبرياء والجبروت فقال: الصورة الكمالية حقّها في الاتصاف بالنعوت الإلهية وأنها تتعدّى ما حجر عليها مثل العظمة والكبرياء والجبروت فقال: **«الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي مَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ»** وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [سورة غافر: الآية ٣٥] فهذا هو عين الغيرة، غار على هذه النعوت أن تكون لغير الله فحجرها، وكذلك تحجرت على الحقيقة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ فلا يدخل مع هذا الطابع قلب كون من الأكوان تكبر على الله ولا جبروت لأجل هذا الطبع، فعلم كل من أظهر من المخلوقين دعوى الألوهية كفرعون وغيره وتكبّر وتجبّر كل ذلك في ظاهر الكون، وهذا الذي ظهرت منه صفة الكبرياء مطبوع على قلبه أن يدخل فيه الكبرياء على الله، فإنه يعلم من نفسه افتقاره وحاجته وقيام الآلام به من ألم جوع وعطش وهواء ومرض التي لا تخلو هذه النشأة الحيوانية عنه في هذه الدار، وتعذر بعض الأغراض أن تنال مرادها وتألمه لذلك، ومن هذه صفته من المحال أن يتكبر في نفسه على ربه، فهذا معنى الطابع الذي طبع الله على قلب المتكبر الذي يظهر لكم به من الدعوى الجبار يجبركم على ما يريد فمنكم المطيع والمخالف ولو هلك

بمخالفته، ولهذا يرجى حكم السعادة في المآل ولو بعد حين، فإن القلوب ما يدخلها كبرياء على الله لكن يدخلها بعضهم على بعض، قال تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧] وإذا علمت السماء أنها أكبر من خلق الناس كانت موصوفة بالكبرياء على الناس وذلك الكبرياء لا يقدح فيها فهذا معنى الغيرة الإلهية، فلا رافع لما حجره، فلا يتكبر على الله فيما بينه وبين الله أحد من خلق الله هذا محال وقوعه، والقدر الذي وقع عليه التحجير الظاهر عليه وقع الذمّ لمن انتهكه وأضافه إلى نفسه وكذبوا على الله فيه.

وأما الغيرة لله ومن أجل الله وبالله فهو أن يرى الإنسان ما حدّه الحق أن يتعداه الخلق فيقوم به صفة الغيرة لله لا لنفسه، ومن أجل الله لا من أجل نفسه، إذ علم أن الخلق عبيد الله، وأنه من حكم العبد أن لا يتعدى حد ما رسم له سيده، وأما أن يغار على الله فإن الغيرة ستر يحجب المغار عليه حتى لا يكون إلاّ عنده خاصة، وطريق الله مبني على أن ندعو الخلق إلى الله، وأن نردّهم إليه ونحببه إليهم ونعرفهم به وبمكانته، وبهذا أمرنا، والغيرة الكونية تأبى ذلك كله لجهلها بالمغار عليه الذي لا يستحق الغيرة عليه، ولولا الوقوع فيمن انتمى إلى الله وجهل بعض ما ينبغي لله وقصد بذلك الخير ولكن ما علم طريقه وإلاّ كنا نذكر جهل هذا القائل بالغيرة على الله، ولكن يكفي تنبيهنا على أن هذا ليس بصحيح، وإنما التبس على مثل هؤلاء الغيرة لله بالغيرة على الله، وما علموا ما بينهما من الفرقان.

ذكر في باب الغيرة القشيري في رسالته عن بعضهم أنه قيل له: متى تستريح؟ قال: إذا لم أر له ذاكراً، وليس هذا بغيرة، فالقشيري أخطأ حيث جعل مثل هذا في باب الغيرة من كتابه، وتخيّل أن الشبلي في حال رؤية الذاكرين الله على الغفلة وبعدم الحرمة مثل من يذكره بلغو الأيمان والأيمان الفاجرة، وذكر الله في طلب المعاش في الأسواق فغار أن يذكر بهذه الصفة لما لم يوف المذكور حقّه من الحرمة عند الذكر، والشبلي ما يبعد أن يكون هذا قصده بذلك القول في بدء أمره وفي وقت حجابه عن معرفة ربه. وأما مع المعرفة فلا يكون هذا يعني قوله إذا لم أر له ذاكراً، وأن معنى ذلك عندنا في حق كبراء العارفين أن الذكر لا يكون مع المشاهدة، فلا بدّ للذاكر أن يكون محجوباً وإن كان الله جليس الذاكر ولكنه من وراء حجاب الذكر، وكل من هو خلف حجاب من مطلوبه فإنه لا راحة عنده، فإذا رفع الحجاب وقعت المشاهدة وزال الذكر بتجلي المذكور، فلذلك قال: إنما أستريح إذا لم أر له ذاكراً، فطلب أن تكون مشاهدته تمنعه عن إدراك الذاكرين، أو تمنى للذاكرين أن يكونوا في مقام الشهود الذي يمنعهم من الذكر، إذ المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، على هذا يخرج قول هذا الرجل إن كان من العارفين، وعلى ذوق آخر وهو أنه لا يستريح إلاّ إذا رأى إن الذكر هو الله لا الكون إذا كان الحق لسانه كما هو سمعه وبصره ويده فيستريح لأنه رأى أنه قد ذكره من يعلم كيف يذكره، إذ كان هو الذاكر نفسه بلسان عبده فاستراح عند ذلك فلم ير له ذاكراً غيره.

وأما غيرة الرسول وأكابر الأولياء فغيرتهم لله كما قلنا وهي غيرة أدب، والغيرة كتمان ما ينبغي أن يكتم لعدم احترامه لو ظهر عند من لا يقدر قدره كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ

قَدْرِهِۦٓ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٧] فمن الغيرة ستر مثل هذا، ومن الغيرة الإلهية ستره لضنائنه من أهل الخصوص في كنف صونه فلا يعرفون وذلك رحمة بالخلق، فإنه تعالىٰ لو أبدى مكانتهم ورتبتهم العلية لمن علم منه أنه لا بدّ أن يجري الأذى على يديه في حق هذا المقرب المجتبى ثم جرى منه ذلك الأذى في حقّه لكان عدم احترام للجناب الإلهيّ حيث لم يعظم ما عظمه الله فسترهم عن العلم بهم فما احترموهم وآذوهم لجهلهم بهم وذلك لما قدره الله، ولهذا تسأل هذا الذي آذى ذلك العبد المقرب من نبيّ أو صديق فتقول له من غير تعيين: ما عندك في أولياء الله؟ فيجد عنده من الحرمة لهم والتبرّك بذكرهم والخضوع تحت أقدامهم لو وجدهم، فإذا قلت له: هذا منهم وهو منهم لم يقم عنده تصديق بذلك ولو جئته بأمر معجز، وكل آية ما قدر يعتقد أن ذلك آية ولا أعطته علماً فما آذى إلاّ من جهل لا من علم، وممّا يؤيد ما ذكرناه أنه لو حسن الظنّ بشخص وتخيّل أنه من أولياء الله وليس كذلك في نفس الأمر عظّمه واحترمه، هذا في فطرة كل مخلوق، فما قصد أحد انتهاك حرمة الله في أوليائه وهذا من غيرة الحق. فإن قلت: فقد آذوا الله مع علمهم بأنه الله. قلنا في الجواب عن ذلك: ما علموا أن ذلك أذى وأنهم تأوّلوا فأخطأوا في نفس الأمر لحكم الشبهة التي قامت لهم وتخيّلوا أنها دليل وهي في نفس الأمر ليست كذلك، وهذه كلها من الحق في عباده أمور مقدرة لا بدّ من وقوعها، فمن غيرته حجابهم عن العلم به وبالخاصة من عباده، فجناب الله وأهل الله على الإطلاق محترمون ما لم تعين أو يتأوّل فاعلم ذلك.

الباب الحادي والخمسون ومائة
في معرفة مقام ترك الغيرة وأسراره

[نظم: الرجز]

مَن يُوقَ شُحَّ نفسه فهو الذي ... بنوره في كل أمر يُهتَدَى
وغَيرَةُ العبد إذا حقَّقتَها ... شُحٌّ طبيعيٌّ من اسباب الرَّدَى
وغَيرَة الحقّ إذا عَلِمتَها ... من رؤية الغَير ولا غيرٌ بَدَا
فلا تَقُلْ بغَيرة فإنها ... مشتقَّةٌ من غير فاتركها سُدَى
وأين عينُ الغير وهو عَدَمٌ ... فاسلُكْ هُدِيتَ الرُّشدَ أسبابَ الهُدَى
وانسُبْ إلى الباريء ما قال وما ... جاء به شَرعٌ ولكن ابتَدَا
ممّا لَوَ انَّ العقلَ يبقى وحدَهُ ... ما قاله معتقداً وقدّدا
فإن يكن بَعدُ سؤالٌ قاله ... فهو دواءٌ وهو بالبرهان دا
فالحقُّ ما قرّره الشرعُ ولو ... دلَّ على كل مُحَالٍ وبَدا
فالمؤمنُ الحقُّ بهذا مؤمنٌ ... وكل من أوَّلَهُ قَدِ اعتَدَى
لأنه ظنٌّ وبعضُ الظنِّ قد ... يكون إثماً قائداً نحو الرَّدَى

إذا اقتضى نظر العبد العارف ظهور الحق في أعيان الممكنات الثابتة وأنها ما استفادت

منه الوجود وإنما استفادت منه ما ظهر ممّا هي عليه من الحقائق عند ظهوره فيها، فأعطته كل وصف ونعت اتصف به ممّا تضيفه بطريق الحقيقة إلى الإنسان أو العالم كيفما شئت. قلت: ومن جملة النعوت الغيرة المحكوم بها في نسبة ما ظهر به الظاهر لظهور آخر لحكم آخر من عين آخر، فإذا كانت العين واحدة فلا غيرة إذ لا غير، وإذا نزلت عن هذا النظر إلى قوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] لم يصحّ وجود الغيرة، فإن الغيرة متعلقها النسب أو قل الأعمال وهي كلها لله، فعلى من تقع الغيرة وما هو، ثم إذ كانت النسب والأعمال كلها لله والغيرة المعلومة الظاهرة في الكون شحّ طبيعيّ والشحّ في ذلك الجناب العالي وفي الأرواح العلى لا يصحّ، فإذا ظهرت فمن النفس الحيوانية ولهذا توجد الغيرة في الحيوانات، وأصلها ضيق الملك وفقد الغرض، فالكرم المطلق لا يكون معه غيره أصلاً.

الباب الثاني والخمسون ومائة

في مقام الولاية وأسرارها

[نظم: البسيط]

إن الولايةَ عندَ العارفين بها ... نَعْتُ اشتراكٍ ولكنْ فيه إشْرَاكُ
حِبَالَةٌ نُصِبَتْ للعارفين بها ... صَيْدُ العقول وسيْفُ الشَّرْعِ بتَّاكُ
والعبدُ ليس له في حُكْمِها قَدَمٌ ... وكيف يَقْضي بشيء فيه إشراكُ
إن تنصروا الله ينصُركُم فقد نَزَلَتْ ... وعينُ تحقيقها ما فيه إدراكُ
وما الإلهُ بمحتاجٍ لنصرتنا ... وقد أتتْكُمْ به رُسْلٌ وأَمْلاكُ
فَسَلِّمَنْهُ إلى من جَاء منه وقُلْ ... العَجْزُ عن دَرَكِ الإدراك إدراكُ

الولاية نعت إلهيّ وهو للعبد خلق لا تخلق، وتعلّقه من الطرفين عام، ولكن لا يشعر بتعلّقه عموماً من الجناب الإلهيّ، وعموم تعلّقه من الكون أظهر عند الجميع، فإن الولاية نصر الوليّ أي نصر الناصر، فقد تقع لله وقد تقع حمية وعصبية، فلذلك هو عام التعلّق. ولما كان هذا النعت للإله كان عام التعلّق، وهكذا كل نعت إلهيّ لا بدّ أن يكون عام التعلّق، وإن لم يكن كذلك فليس بنعت إلهيّ، لكن بعض النعوت مثل نعت الولاية لا ينسبه الله لنفسه إلاّ بتعلّق خاص للمؤمنين خاصة والصالحين من عباده وهو ذو النصر العام في كل منصور. ولما كان نعتاً إلهياً هذا النصر المعبر عنه بالولاية وتسمّى سبحانه به وهو اسمه الولي وأكثر ما يأتي مقيداً كقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٧] سرى في كل ما ينسب إليه إلهية ممّا ليس بإله، ولكن لما تقرر في نفس المشرك أن هذا الحجر أو هذا الكوكب أو ما كان من المخلوقات أنه إله وهو مقام محترم لذاته تعين على المشرك احترام ذلك المنسوب إليه لكون المشرك يعتقد أن تلك النسبة إليه صحيحة ولها وجه.

ولما علم الله سبحانه أن المشرك ما احترم ذلك المخلوق إلاّ لكونه إلهاً في زعمه نظر

الحق إليه لأنه مطلوبه، فإذا وفى بما يجب لتلك النسبة من الحق والحرمة وكان أشد احتراماً لها من الموحد وتراءى الجمعان كانت الغلبة للمشرك على الموحد، إذ كان معه النصر الإلهيّ لقيامه بما يجب عليه من الاحترام لله، وإن أخطأ في النسبة وقامت الغفلة والتفريط في حق الموحّد فخذل ولم تتعلق به الولاية لأنه غير مشاهد لأيمانه، وإنما قاتل ليقال فما قاتل لله فإن الله يقول: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم: الآية ٤٧] فأي شخص صدق في احترام الألوهية واستحضرها وإن أخطأ في نسبتها ولكن هي مشهودة كان النصر الإلهيّ معه غيرة إلهية على المقام الإلهيّ فإنه العزيز الذي لا يغلب، فما جعل نصره واجباً عليه للموحد وإنما جعله للمؤمن بما ينبغي للألوهية من الحرمة ووفى بها من وفى، وهذا من أسرار الولاية التي لا يشعر بها كل عالم فإن هذا لسان خصوص، وأما لسان العموم في هذه الآية وهو: ﴿نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فنقول: إن الموحّد إذا أخلص في إيمانه وثبت نصر على قرنه بلا شك فإذا طرأ عليه خلل ولم يكن مصمت الإيمان وتزلزل خذله الحق وما وجد في نفسه قوّة يقف بها لعدوه من أجل ذلك الخلل فانهزم، فلما رآه عدوه منهزماً تبعه وظهرت الغلبة للعدو وعلى المؤمن فما نصر الله العدو، وإنما خذل المؤمن لذلك الخلل الذي داخله فلما خذله لم يجد مؤيّداً فانهزم فبالضرورة يتبعه عدوه فما هو نصر للعدو وإنما هو خذلان للمؤمن لما ذكرناه، هذا لسان العموم في هذه المسألة، فالولاية من الله عامة في مخلوقاته من حيث ما هم عبيده، وبهذه الولاية تولاهم في الإيجاد.

ولما كان متعلق الولاية المؤمنين لذلك أشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] ولم يقل لهم ألست بواحد لعلمه بأنه إذا أوجدهم أشرك بعضهم ووحد بعضهم واجتمعوا في الإقرار بالربوبية له وزاد المشرك الشريك. ثم إنه سبحانه من عموم ولايته أن تولاهم بالوجود في أعيانهم ويحفظ الوجود عليهم وبتمشية أغراضهم، وتولاهم بما رزقهم ممّا فيه قوام عيشهم ومصالحهم عموماً، ووفق من وفق منهم بولايته لوضع نواميس جعلها في نفوسهم من غير تنزّل الذي هو الشرع، فوضعها حكماء زمانهم وذوو الرأي منهم العلماء بما يصلح العالم فتولاهم سبحانه بأن قرّر في أنفسهم ما ينبغي أن تكون به المصلحة لهم مراعاة لكل جزء منهم، فإن كل جزء من العالم مسبّح لله تعالىٰ من كافر وغير كافر، فإن أعضاء الكافر كلها مسبحة لله ولهذا يشهد عليه يوم القيامة جلده وسمعه وبصره ويده ورجله، غير أن العالم لا يفقهون هذا التسبيح وسريان هذه العبادة في الموجودات وهذا من توليه سبحانه.

ثم إنه تولاهم بإنزال الشرائع الصادقة المعرفة بمصالح الدنيا والآخرة، ثم تولاهم بما أوجد من الرحمة فيهم التي يتعاطفون بها بعضهم على بعض في الوالدين بأولادهم في تربيتهم، وبالأولاد على والديهم من البرّ بهم والاعتماد عليهم، وبما جعل من شفقة المالكين على مماليكهم وعلى ما يملكونه من الحيوانات، وتولّى الحيوان بما جعل فيهم من عطف الأمهات على أولادها في كل حيوان يحتاج الولد إلى تدبير أمه، وتولاهم بالأغراض ليهون عليهم المشقات، ويسمّى مثل هذا تسخيراً فيخرج الشخص لنيل غرضه فيما يزعم وهو من

حيث التولي الإلهي ما خرج إلاّ في حق الغير وهو يتوهم أنه في حق نفسه كالتجار وأمثالهم فألقى في نفس التاجر المسافر طلب الربح في تجارته فقام طيباً نشيط النفس واشترى من البضاعات ما يحتاج إليه أهل ذلك البلد الذي يقصده، فيجوب الأمصار ويركب البحار ويتعدّى الأماكن القريبة من أجل حاجة أهل البلد الذي يقصده بما جعل الله في قلبه من ذلك بولايته، فإذا وصل إلى ذلك البلد باع بربح أو خسارة ونال أصحاب تلك المدينة أغراضهم ووصلوا إلى حوائجهم، وهذا المسخر يتخيل في نفسه أنه ليس بمسخر وإنما سافر ليكسب، فلو خرج بنية التسخير وجعل الكسب تبعاً كان مستريح الخاطر إن كسب وإن لم يكسب، فلهذا قلنا إن ولاية الله عامة التعلّق لا تختص بأمر دون أمر، ولهذا جعل الوجود كله ناطقاً بتسبيحه عالماً بصلاته فلم يتول الله إلاّ المؤمنين وما ثم إلاّ مؤمن والكفر عرض، عرض للإنسان بمجيء الشرائع المنزّلة، ولولا وجود الشرائع ما كان ثم كفر بالله يعطي الشقاء ولذلك قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٥] وما جاءت الشرائع إلاّ من أجل التعريف بما هي الدار الآخرة عليه، ولو كانت مقصورة على مصالح الدنيا لوقع الاكتفاء بالنواميس الحكمية المشروعة التي ألهم الله من ألهم من عباده لوضعها لوجود المصالح، فهذه ولاية الحق وأسرارها وهي الولاية العامة وولاية الولاية الكونية البشرية والملكية منها ويكفي هذا القدر.

ولما جعلهم الله أولياء بعضهم لبعض فقال في المؤمنين: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٧٣] والمؤمنات، وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٧٣] فجعل الولاية بينهم تدور، قال عن نفسه: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الجاثية: الآية ١٩] لأنه قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٧] من طغى إذا ارتفع، وقال في حق نفسه: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥] وهم يعتقدون في الطاغوت الألوهية كما تقدم فلذلك رفعوه، فما عبدوا إلاّ الرفيع الدرجات ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٠] فاجعل بالك وتدبره تعثر على قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣]. انتهى الجزء الخامس ومائة.

(الجزء السادس ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثالث والخمسون ومائة

في معرفة مقام الولاية البشرية وأسرارها

[نظم: البسيط]

مِنْ صُورةِ الحقِّ نلنا من ولايته ... جميعِها فَلَنا في الحرب إقدامُ
لنا الخلافةُ في الدنيا محقَّقةً ... وما لها في جنان الخُلْد أحكامُ
إنا على النِّصْفِ من جنَّاتنا أبداً ... وما لنا في كثيب العين أقدامُ
وهو الكمالُ كمالُ الذات يجمعنا ... فيه ابتهاجٌ بنا ما فيه آلامُ

ودار دنيـاك أمـراضٌ وعـافيـةٌ — تعصي الأوامرَ فيها وهو عَلاَّمُ
يقول افعلْ فلا تسمَعْ مقالتَه — ولا يرى منه عند النَّقْض إبرامُ
لذاك قلنا فلم تسمَعْ مقالتَنا — وفيه لله إتقان وإحكامُ
لو قال من قال كُنْ بنَعْتِ خالِقِهِ — بَدَتْ لعينك أرواحٌ وأجسامُ
لذاك خصَّ من الألفاظ لفْظَةَ كُنْ — لها الوجودُ وما في الكون إعدامُ

الولاية البشرية قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة محمد: الآية ٧] وقوله أمراً: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [سورة الصف: الآية ١٤] فعلمنا أنه لو لم يكن ثم مقابل لوجود الحق ولوجوب وجوده يطلبنا ذلك المقابل بالنصر لنكون في قبضته وملكه على وجود الحق ما قال الله لنا: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ على هذا المقابل المنازع وهذه تعرف بالمقابلة المعقولة. ولما كان الحق تعالىٰ له صفة الوجود وصفة وجوب الوجود النفسي وكان المقابل يقال له العدم المطلق وله صفة يسمّى بها المحال فلا يقبل الوجود أبداً لهذه الصفة فلاحظ له في الوجود، كما لاحظ للوجوب الوجود النفسي في العدم. ولما كان الأمر هكذا كنا نحن في مرتبة الوسط نقبل الوجود لذاتنا ونقبل العدم لذاتنا ونحن لما نقبل عليه فيحكم فينا بما يعطيه حقيقته ونكون ملكاً له ويظهر سلطانه فينا، فصار العدم المحال يطلبنا أن نكون ملكاً له، وصار الحق الواجب الوجود لنفسه يطلبنا لنكون ملكه ويظهر فينا سلطانه ونحن على حقيقة نقبل بها الوصفين، ونحن إلى العدم أقرب نسبة منا إلى الوجود، فإنا معدومون ولكن غير موصوفين بالمحال، لكن نعتنا في ذلك العدم الإمكان وهو أنه ليس في قوتنا أن ندفع عن نفوسنا الوجود ولا العدم، لكن لنا أعيان ثابتة متميزة عليها يقع الخطاب من الطرفين فيقول العدم لنا: كونوا على ما أنتم عليه من العدم لأنه ليس لكم أن تكونوا في مرتبتي، ويقول الحق لكل عين من أعيان الممكنات: ﴿كُن﴾ فيأمره بالوجود فيقول الممكن: نحن في العدم قد عرفناه وذقناه وقد جاءنا أمر الواجب الوجود بالوجود وما نعرفه وما لنا فيه قدم، فتعالوا ننصره على هذا المحال العدمي لنعلم ما هذا الوجود ذوقاً فكانوا عند قوله: ﴿كُن﴾ فلما حصلوا في قبضته لم يرجعوا بعد ذلك إلى العدم أصلاً لحلاوة لذة الوجود وحمدوا رأيهم ورأوا بركة نصرهم الله على العدم المحال. فالعالم من حيث جوهريته ناصر لله فهو منصور أبداً.

وجاءت الأعراض فقبلت الوجود فلما ذاقته وعلمته دعاها العدم إلى نفسه وقال لها: إليّ مردّك لأنك عرض ولا بقاء لك في الوجود، إذ العارض حقيقته أنه لا بقاء له فارجع إليّ عن أمري، فلذلك دلّ دليل العقل أن العرض ينعدم لنفسه، إذ الفاعل لا يفعل العدم لأنه حكم لا شيء موجود، فانعدمت الأعراض في الزمان الثاني من زمان وجودها، فحصلت في قبضة العدم المحال فلم ترجع بعد ذلك إلى الوجود بل يوجد الله أمثالها فتشبهها في الحدّ والحقيقة وما هي أعيان تلك التي وجدت وانعدمت للاتساع الإلهي، فهذه ولاية ما سوى الله أي نصر ما سوى الله لله، وهذا من أسرار الولاية البشرية ومدركها عسير، فإن مبناه على العلم بمراتب المعلومات، فإذا فهمت هذا فاعلم أن الولاية البشرية على قسمين: خاصة وعامة، فالعامة

توليهم بعضهم بعضاً بما في قوتهم من إعطاء المصالح المعلومة في الكون فهم مسخرون بعضهم لبعض، الأعلى للأدنى والأدنى للأعلى، وهذا لا ينكره عاقل فإنه الواقع، فإن أعلى المراتب الملك، فالملك مسخّر في مصالح الرعايا والسوقة، والرعايا والسوقة مسخّرون للملك، فتسخير الملك الرعايا ليس عن أمر الرعايا، ولكن لما تقتضيه المصلحة لنفسه وتنتفع الرعايا بحكم التبع لا أنهم المقصودون بذلك الانتفاع الذي يعود عليهم من التسخير، وتسخير الرعايا على الوجهين: الوجه الواحد يشاركون فيه الملك من أنهم لا يبعثهم على التسخير إلاّ طلب المنفعة العائدة عليهم من ذلك كما يفعله الملك سواء، والتسخير الثاني ما هم عليه من قبول أمر الملك في العسر واليسر والمنشط والمكره وبهذا ينفصلون عن تسخير الملوك فهم أذلاء أبداً لا يرتفع لهم رأس مع حاجة الملوك إليهم وهذا هو القسم العام.

وأما القسم الخاص فهو ما لهم من الولاية التي هي النصرة في قبول بعض أحكام الأسماء الإلهية على غيرها من الأسماء الأخر بمجرّد أفعالهم وما يظهر في أكوانهم لكونهم قابلين لآثار الأسماء فيهم، فينزلون بهذه الولاية منازل الحقائق الإلهية، فيكون الحكم لهم مثل ما هو الحكم للأسماء بما هم عليه من الاستعداد، وهذه الولاية في أصحاب الأحوال أظهر في العامة من ظهورها في أصحاب المقامات، وهي في أصحاب المقامات في الخصوص أظهر من ظهورها في أصحاب الأحوال ولكن مدركها عسير، فإن صاحب المقام على العادة المستمرة وهو متغير في كل زمان مع كل نفس لأنه في كل نفس في شأن إلهيّ لا علم لكل أحد به مع قيامه به من حيث لا يشعر فلا يحمد عليه، وهذا الخاص يحمد عليه وصاحب الحال خارق للعادة فتحيد إليه الأبصار وتقبل عليه النفوس وهو ثابت مدة طويلة على حالة واحدة لا يشعر لتغيرها عليه ويحجبه عن معرفة ذلك حبّه لسلطنته التي أعطاها الحال فهو على النقيض من صاحب المقام، ولو استشعر بنقصه في مرتبته لما رغب في الحال فإنه يدل على جهله.

ولصاحب هذا المقام أحوال مختلفة: منها حال الأمانة، وحال الدنو، وحال القرب، وحال الكشف، وحال الجمع، وحال اللطف، وحال القوّة، وحال الحماسة، وحال اللين، وحال الطيب، وحال النظافة، وحال الأدب، فإذا تجلى في السلطنة ارتاض وقيل فيه سلطان، وإذا تجلى في الجلال تأدّب فهو أديب، وفي تجلّي الجمال نظيف، وفي تجلّي العظمة طاهر زكي قدوس، وإذا تجلّى في الطيب عطر عرفه، وفي الهيبة جعله سيداً، وفي اللطف ذوّبه، وفي الحسن عشقه فروحنه، فللأولياء التفريع والإقبال، ولهم الستور والحجاب إذا قرّبهم صانهم وسترهم وخبأهم فجهلوا، وإذا عاقبهم وليسوا بأنبياء أظهر عليهم خرق العوائد فعرفوا فحجبوا الخلق عن الله وهم مأمورون بدعوتهم إلى الله، فالحق لأصحاب المقامات من الأولياء مطيع ولكلامهم سميع، لهم جميع المقامات والأحوال، وهم ذكران الرجال لا يلحقهم عيب ولا يقوم بهم فيما هم فيه ريب، لهم الآخرة مخلصة كما هي لله، ولهم الدنيا ممتزجة كما هي لسيدهم، فهم بصفات الحق ظاهرون ولذلك جهلوا.

الباب الرابع والخمسون ومائة
في معرفة مقام الولاية الملكية

[نظم: البسيط]

إن الولايةَ تَوْقيفٌ على الخبرِ ... من المهيمن في الأملاك والبَشَرِ
وفي ملائكة التَّسْخير أَظْهَرَها ... ربُّ العباد مِنَ أهل النَّفْع والضَّرَرِ
أما ملائكةُ التَّهْيَام ليس لهم ... فيها نصيبٌ على ما جاء في الخَبرِ
مُهَيَّمُون سكارَى من محبَّته ... لا يعلمون بعينٍ لا ولا أَثَرِ
الله أكْرَمهم الله قرَّبَهم ... الله خَصَّهُمُ بالمَشْهد الخَطِرِ
إني فَدَيْتُهُمُ من كل حادثةٍ ... لا يعلمون بها بالسَّمْع والبَصَرِ

اعلم أن الملائكة ثلاثة أصناف: صنف مهيم لما أوجدهم تجلّى لهم في اسمه الجميل فهيمهم وأفناهم عنهم فلا يعرفون نفوسهم ولا من هاموا فيه ولا ما هيمهم فهم في الحيرة سكارى، وهم الذين أوجدهم الله من أينية العماء الذي ما فوقه هواء وما تحته هواء، وهم وجميع الملائكة أرواح خلقهم الله في هياكل أنوار كسائر الملائكة، إلاّ أن هؤلاء الملائكة ليس لهم من الولاية إلاّ ولاية الممكنات التي ذكرناها في شرح: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة محمد: الآية ٧]. والصنف الثاني الملائكة المسخرة ورأسهم القلم الأعلى وهو العقل الأوّل سلطان عالم التدوين والتسطير وكان وجودهم مع العالم المهيم، غير أنه حجبهم الله عن هذا التجلي الذي هيم أصحابهم لما أراد الله أن يهبه هذا الصنف المسخّر من رتبة الإمامة في العالم، وله ولاية تخصّه وتخصّ ملائكة التسخير. والصنف الثالث: ملائكة التدبير وهي الأرواح المدبرة للأجسام كلها الطبيعية والنورية والهبائية والفلكية والعنصرية وجميع أجسام العالم، ولهؤلاء ولاية أيضاً فأما ملائكة التسخير فولايتهم أعني نصرتهم للمؤمنين إذا أذنبوا وتوجهت عليهم أسماء الانتقام الإلهية، وتوجهت في مقامات تلك الأسماء أسماء الغفران والعفو والتجاوز عن السيئات فتقول الملائكة ما قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [سورة غافر: الآية ٧] ما يزيدون على ذلك في حق المؤمن العاصي غير التائب اتكالاً منهم على علم الله فيما قصدوه في ذلك الكلام أدباً مع الله سبحانه حيث إنه استحق جناب الله على أهل الله أن يغار من أجله ويدعي على من عصاه ولم يقم بأمره وما ينبغي لجلاله، فإن الملائكة أهل أدب مع الله فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾ بقولك: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] وهؤلاء العصاة من الداخلين في عموم لفظة كل، وعلماً من قوله: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] فهذا مثل قول العبد الصالح الذي أخبرنا الله بقوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٨] فتأدّب مع الله في هذا القول لما عصى قومه الله تعالىٰ ولم يتوبوا فعلم الله منه أنه تأدّب مع الله وأنه عرّض بالمغفرة لما علم أن رحمته سبقت غضبه، غير أن نفس

الملائكة أقوى في الأدب لأنهم أعلم بالله من هذا العبد وما ينبغي لجلال الله فلم يقولوا: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وإنما قالوا: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فهذا يسمّى تعريض تنبيه على أن الحق بهذه المثابة كما أخبر عن نفسه فقولهم: ﴿رَّحْمَةً﴾ [سورة غافر: الآية ٧] فقدّموا ذكر الرحمة لأنه تعالىٰ قدّمها لما ذكر عبده خضراً فقال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] قبل أن يذكر ما أعطاه.

ثم ذكر بعد ذلك الذي أعطاه من أجل رحمته به فقال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] فلهذا قدّمت الملائكة الرحمة وسكتت عن ذكر العصاة في دعائها، فبين كلمة عيسىٰ في حق قومه، وبين دعاء الملائكة في حق العبيد العصاة من الأدب بون كثير لمن نظر واستبصر، ولهذا قام النبيّ محمد ﷺ بهذه الآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٨] ليلة كاملة ما زال يردّدها حتى طلع الفجر، إذ كانت كلمة غيره فكان يكرّرها حكاية وقصده معلوم في ذلك، كما قيل في المثل: إياك أعني فاسمعي يا جارة. ولم يقم ليلة كاملة بآية قول الملائكة لأن مناسبته لعيسىٰ أقرب، ومناسبة عيسىٰ للملائكة أقرب، لأن جبريل توجّه على أمه مريم في إيجاد عيسىٰ بشراً سوياً، فسلك محمد ﷺ طريقاً بين طريقين في طلب المغفرة لقومه، فهذا استنصارهم الله في حق المؤمنين العصاة، وأما نصرتهم بالدعاء لمن تاب منهم فهو قولهم: ربنا ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [سورة غافر: الآية ٧] فصرّحوا بذكرهم لما كان هؤلاء قد قاموا في مقام القرب الإلهيّ بالتوبة وقرعوا بابها في رجعتهم إلى الله والملائكة حجبة الحق، فطلبوا من الله المغفرة لهم لما اتصفوا بالتوبة وهذا من الأدب.

ثم إنهم لما عرفت الملائكة أن بين الجنة والنار منزلة متوسطة وهي الأعراف، فمن كان في هذه المنزلة ما هو في النار ولا في الجنة، وعلمت من لطف الله بعباده أنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، فقالت الملائكة بعد قولهم: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ أي لا تنزلهم في الأعراف بل أدخلهم الجنة ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ الواو هنا بمعنى مع، يقولون مع من صلح ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة غافر: الآية ٨] كما قال العبد الصالح: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٨] ولم يقل واحد منهم: إنك أنت الغفور الرحيم أدباً مع الجناب الإلهيّ من الطائفتين، فاجتمعوا بذكر هذين الاسمين في حضرة الأدب مع الله، ثم زادت الملائكة في نصرتها للملائكة الموكلين بقلوب بني آدم، وهم أصحاب اللمات ينصرونهم بالدعاء على أعدائهم من الشياطين أصحاب اللمات الموكلين المسلطين على قلوب العباد المنازعين لما تلقى الملائكة على قلوب بني آدم في لماتها فقالوا: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ نصرة للملائكة على الشياطين، ثم تلطفوا في السؤال بقولهم: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ [سورة غافر: الآية ٩] ثم من نصرتهم لمن في الأرض من غير تعيين مؤمن من غيره قول الله تعالىٰ عنهم: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥] مطلقاً من غير تعيين أدباً مع

الله والأرض جامعة، فدخل المؤمن وغيره في هذا الاستغفار.

ثم إن الله بشّر أهل الأرض بقبول استغفار الملائكة بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥] ولم يقل: الفعّال لما يريد، ولهذا أيضاً قلنا: إن مآل عباد الله إلى الرحمة وإن سكنوا النار فلهم فيها رحمة لا يعلمها غيرهم، وربما تعطيهم تلك الرحمة إن لو شمّوا رائحة من روائح الجنة تضرّروا بها كما تضرّ رياح الورد والطيب بأمزجة المحرورين، فهذا كله من ولاية الملائكة فعمّ نصرهم بحمد الله فنعم الإخوان لنا.

وأما نصرهم المؤمنين على الأعداء في القتال فإنهم ينزلون مدداً بالدعاء، وفي يوم بدر نزلوا مقاتلين خاصة وكانوا خمسة آلاف وفيه استرواح إذ ليس بنص بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْـرَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٠] فكانوا من الملائكة أو هم الملائكة الذين قالوا في حق آدم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] فأنزلهم في يوم بدر فسفكوا الدماء حيث عابوا آدم بسفك الدماء فلم يتخلفوا عن أمر الله. وقوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٢٦] أي من عادة البشرية أن تسكن إلى الكثرة، إذ كان أهل بدر قليلين والمشركون كثيرين، فلما رأوا الملائكة وهم خمسة آلاف والمسلمون ثلاثمائة والمشركون ألف رجل اطمأنت قلوب المؤمنين بكثرة العدد مع وجود القتال منهم فما اطمأنوا به برؤيتهم وحصل لهم من الأمان في قلوبهم حتى غشيهم النعاس إذ كان الخائف لا ينام، وما ذكر في الكثرة أكثر من خمسة آلاف لأنّ الخمسة من الأعداد تحفظ نفسها وغيرها وليس لغيرها من الأعداد هذه المرتبة، فحفظ الله دينه وعباده المؤمنين بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين أي أصحاب علامات يعرفون بها أنهم من الملائكة، أو الملائكة الذين قالوا في حقّنا نسفك الدماء فنصرونا على الأعداء بما عابوه علينا إذ أمرهم الله بذلك، ولولاية الملائكة وجوه ومواقف متعددة، ولكن ذكرنا حصر المراتب التي نبّه الله عليها فنصروا أسماء الله وهو أعلى المقامات، ونصروا ملائكة اللمات، ونصروا المؤمنين، ونصروا التائبين، ونصروا من في الأرض، وما ثم من يطلب نصرهم أكثر من هذا، فانحصرت مراتب النصر.

ثم إن الله أثنى عليهم بأنهم يسبحون بحمد ربهم استفتاحاً إيثاراً لجناب الله، ثم بعد ذلك يستغفرون وهو الذي يليق بهم تقديم جناب الله، ولهذا ما قام رسول الله ﷺ في مقام للناس يخطبهم إلاّ قدم حمد الله والثناء عليه ثم بعد ذلك يتكلم بما شاء ولذلك قال: «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لاَ يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللَّهِ ـ أَوْ قَالَ بِذِكْرِ اللَّهِ ـ فَهُوَ أَجْذَمُ**»» أي مقطوع عن الله، وإذا كان مقطوعاً عن الله فإن شاء الله قبله، وإن شاء لم يقبله، وإذا بدىء فيه بذكر الله فكان موصولاً به غير مقطوع عن الله، أي ليس بأجذم فذكر الله مقبول فالموصول به مقبول بلا شك.

ثم إنه من علم الملائكة أنهم ما يسبحون في هذه الأحوال إلاّ بحمد ربهم والرب

المصلح ولا يرد الإصلاح إلاّ على فساد وما ذكر الله عنهم أنهم يسبحون بحمد غيره من الأسماء الإلهية إذ قال الله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٢] فعلموا أن المتوجه على العالم إنما هو الاسم الرب، إذ كان الغالب على عالم الأرض سلطان الهوى وهو الذي يورث الفساد الذي قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] فعلموا ما يقع لعلمهم بالحقائق، وكذا وقع الأمر كما قالوه، وإنما وقع الغلط عندهم في استعجالهم بهذا القول من قبل أن يعلموا حكمة الله في هذا الفعل ما هي، وحملهم على ذلك الغيرة التي فطروا عليها في جناب الله، لأن المولد من الأضداد المتنافرة لا بدّ فيه من المنازعة، ولا سيما المولد من الأركان فإنه مولد من مولد من مولد من مولد، ركن عن فلك عن برج عن طبيعة عن نفس، والأصل الأسماء الإلهية المتقابلة، ومن هنالك سرى التقابل في العالم فنحن في آخر الدرجات، فالخلاف فيما علا عن رتبة المولد من الأركان أقل وإن كان لا يخلو، ألا ترى إلى الملأ الأعلى كيف يختصمون وما كان لرسول الله ﷺ علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون حتى أعلمه الله بذلك، وسبب ذلك أن أصل نشأتهم أيضاً تعطي ذلك، ومن هذه الحقيقة التي خلقوا عليها قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] وهو نزاع خفيّ للربوبية من خلف حجاب الغيرة والتعظيم، وأصل النزاع والتنافر ما ذكرناه من الأسماء الإلهية المحيي والمميت والمعزّ والمذلّ والضار والنافع، ولا ينبغي أن يكون الإله إلاّ من هذه أسماؤه مضاف إليها مشيئته وإرادته المقيدتان بلو، وهو حرف امتناع فيه سرّ خفيّ لأهل العلم بالله، فإذا علمت هذا أقمت عذر العالم عند الله، ولهذا كانت الملائكة تبدأ في نصرتها ودعائها بتسبيح ربها والثناء عليه بمثل هذه الأسماء تعريضاً أن أصل ما هم فيه من حقائق قوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٦] ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٨] أي الكل بيدك، وحينئذ يستغفرون إقامة لعذرهم عند الله ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣].

فكل علم في العالم مستنبط من العلم الإلهي فهو العلم العام ولا يعرفه إلاّ نبيّ أو وليّ مقرّب مجتبى من ملك وبشر. وأما النظر العقلي فإنه لا يصل إلى هذا العلم أبداً من حيث فكره ونظره في الأدلة التي يستقل بها، فهذا قد أريتك بعض ما هي عليه الولاية الملكية إلى ما فوق ذلك من تسخيرهم في إنزال الوحي ومصالح العالم من هبوب رياح ونشء سحاب وإنزال مطر إذ كانوا الصافات، والزاجرات، والتاليات، والمرسلات، والناشرات، والفارقات، والملقيات، والنازعات، والناشطات، والسابحات، والسابقات، والمدبرات، والمقسمات، وهؤلاء كلهم من ملائكة التسخير، وولاية كل صنف من مرتبته التي هو فيها.

وأما ملائكة التدبير وهم الأرواح المدبرة أجسام العالم المركب، وهذه المدبرة هي النفوس الناطقة، فإن الولاية فيها نصرتها لله فيما جعل في أخذها به سعادتها وسعادة جسدها الذي أمرت بتدبيره فيأتي الطبع فيزيد نيل غرضه فينظر العقل ما حكم الشرع الإلهيّ في ذلك

الغرض، فإن رآه محموداً عند الله أمضاه، وإن رآه مذموماً نبّه النفس عليه وطلب منها النصرة على قمع هذا الغرض المذموم فساعدته فنصرت العقل بقبول الخير، وذلك لتكون كلمة الله المشروعة هي العليا على كلمة الله في الذين كفروا التي هي السفلى، كما كانت الصدقة تقع في يد السائل وهي السفلى، والسائل قوله: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ﴾ [سورة المزمل: الآية ٢٠] والصدقة تقع بيد الرحمن قبل وقوعها بيد السائل المتلفظ بحروف السؤال، واليد العليا هي المنفقة خير من اليد السفلى وهي السائلة، والمال لله سبحانه هو الغني ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧١] ونحن مستخلفون فيه بل نحن الخزائن والخزنة لهذا المال، فتحقق ما أومأنا إليه في هذا الباب فإنه نافع جداً، ومزيل جهلاً عظيماً، ومورث أدباً إلهياً فيه سعادة أبدية لمن وقف عنده وفهمه وعمل به.

الباب الخامس والخمسون ومائة
في معرفة مقام النبوّة وأسرارها

[نظم: الكامل]

بين الولاية والرسالة بَرْزَخٌ ... فيه النبوّةُ حُكْمُها لا يُجْهَلُ
لكنها قسمان إن حقّقْتَها ... قسمٌ بتَشْريع وذاك الأولُ
عند الجميع وثَمَّ قسمٌ آخرٌ ... ما فيه تشريعٌ وذاك الأَنْزَلُ
في هذه الدنيا وأما عندما ... تبدو لنا الأخرى التي هي مَنْزِلُ
فيزول تشريعُ الوجود وحُكْمُهُ ... وهناك يظهر أنَّ هذا الأفْضَلُ
وهو الأعمُّ فإنه الأصلُ الذي ... لله فهو نَبا الوليُّ الأكْمَلُ

النبوّة نعت إلهيّ يثبتها في الجناب العالي الاسم السميع، ويثبت حكمها صفة الأمر الذي في الدعاء المأمور به، وإجابة الحق عباده فيما يسألونه فيه، فإنها أيضاً من الله في حق العبد سؤال إلهيّ بصفة افعل ولا تفعل، ونقول نحن: سمعنا وأطعنا، ويقول هو سبحانه: سمعت وأجبت، فإنه قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] وصيغة الأمر من العبد في الطلب: اغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَاعْفُ عَنَّا وَارْزُقْنَا وشبه ذلك. وصيغة النهي من العبد في الدعاء: لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ لاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ.

وليست النبوّة بمعقول زائد على هذا الذي ذكرنا إلاّ أنه لم يطلق على نفسه من ذلك اسماً كما أطلق في الولاية، فسمّي نفسه وليّاً وما سمّى نفسه نبياً مع كونه أخبرنا وسمع دعاءنا فهو من الوجهين بهذه المثابة، ولهذا قال ﷺ: «**إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدِ انْقَطَعَتْ**» وما انقطعت إلاّ من وجه خاص انقطع منها مسمّى النبيّ والرسول ولذلك قال: «**فَلا رَسُولَ بَعْدِي وَلاَ نَبِيَّ**» ثم أبقى منها المبشرات وأبقى منها حكم المجتهدين وأزال عنهم الاسم، أبقى الحكم وأمر من لا علم له بالحكم الإلهي أن يسأل أهل الذكر فيفتونه بما أدّاه إليه اجتهادهم، وإن اختلفوا كما اختلفت الشرائع ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٨] وكذلك لكل مجتهد

جعل له شرعة من دليله ومنهاجاً وهو عين دليله في إثبات الحكم، ويحرم عليه العدول عنه، وقرّر الشرع الإلهيّ ذلك كله. فحرّم الشافعيّ عين ما أحلّه الحنفيّ وأجاز أبو حنيفة عين ما منعه أحمد بن حنبل. فأجاز هذا ما لم يجز هذا: فاتفقوا في أشياء واختلفوا في أشياء، وكل في هذه الأمة شرع مقرّر لنا من عند الله، مع علمنا أن مرتبتهم دون مرتبة الرسل الموحى إليهم من عند الله. فالنبوّة والرسالة من حيث عينها وحكمها ما نسخت، وإنما انقطع الوحي الخاص بالرسول والنبيّ من نزول الملك على أذنه وقلبه وتحجير لفظ اسم النبيّ والرسول، فلا يقال في المجتهد إنه نبيّ ولا رسول، كما حجر الاجتهاد على الأنبياء فيما شرعه، والمجتهد وإن كان يرشد الناس بما أدّاه إليه دليله واجتهاده فلا يطلق عليه هذا الاسم فهو لفظ خاص بالأنبياء والرسل ما هو لله ولا للأولياء بل هو اسم خاص للعبودية التي هي عين القرب من السيد وعدم مزاحمة السيد في رتبته بخلاف الولاية فإن العبد مزاحم له في اسم الوليّ تعالىٰ، ولهذا شقّ على المستخلصين من العبيد انقطاع اسم النبيّ واسم الرسول لما كان من خصائصها ولم يكن له في الأسماء الإلهية عين.

وإذا كانت النبوّة نعتاً إلهياً في أحكامها ومنها أوجب الحق على نفسه ما أوجب لأن الوجوب للشرع ما هو لغير الشرع فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] هذا من حكم الشرع فاعلم ذلك وتثبت في معرفة ما ذكرناه فإنه سهل المرتقى صعب النزول عنه، هكذا رأيته في الواقعة ليلة أردت أن أقيد هذا الباب، فما تكلمنا في هذا الباب بما تكلمنا به إلاّ بما شاهدناه في الواقعة ورأينا فيها باب اسم الرسول والنبيّ مغلقاً على يميني والمعراج بإدراجه منه إلى الطريق الشارع الذي يمشي الناس عليه وأنا عند الباب واقف وليس فوق ذلك المقام الذي أوقفني الحق فيه مقام لأحد إلاّ ما في داخل ذلك المغلق الموثق الغلق ومع غلقه ما ينحجب عني ما وراءه إلاّ أنه لا قدم لأحد فيه إلاّ الكشف، ولقد طلع إلي شخص فلما وصل بسهولة ورآه توعر عليه النزول وحار ولم يقدر على الثبات فيه فتركني وسلك الطريق الذي عليه جئت أنا إلى ذلك الموضع وراح وتركني راجعاً، واستيقظت على هذه الحالة فقيدت ما أودعته في هذا الباب، ورأيت في هذه الليلة رسول الله ﷺ وهو يكره إدخال الجنازة في المسجد، ويكره أيضاً أن يستر الميت من الذكران بثوب زائد على كفنه، وأمر أن يسلب عنه ويترك على نعشه في كفنه وأن لا يستر في تابوت أصلاً، وأمرني إذا كان البرد أن أسخن الماء للغسل من الجنابة ولا أصبح على جنابة، ورأيته يشكر على الجماع ويستحسن ذلك من فاعله، هذا كله رأيته في هذه الليلة.

ورأيت أحمد بن حنبل في هذه الليلة وذكرت له أن رسول الله ﷺ أمرني أن أسخن الماء للغسل من الجنابة فقال لي: هكذا ذكر البخاري أنه رأى النبيّ ﷺ في النوم فأمره بذلك. ورأى الفربري البخاري في النوم فأمره بذلك. ورآني الفربري في النوم وعلمت أنه رآني في النوم ورأيته أنا في نومه فذكر لي أن البخاري ذكر له هذا فعلمته أنا من قول الفربري وثبت عندي، وها أنا في النوم قد قلته لك فاعمل به، واستيقظت فأمرت أهلي أن يسخنوا لي ماء واغتسلت مع الفجر وهذه كلها من المبشرات.

وأما النبوّة التي هي غير مهموزة فهي الرفعة ولم يطلق على الله منها اسم ولها في الإله اسم رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده. ولها أيضاً الاسم العلي والأعلى وهي النبوة المهموزة وهي مولدة عن النبوّة التي هي الرفعة، فالقصر الأصل والمد زيادة، ألا ترى العرب في ضرورة الشعر تجوز قصر الممدود لأنه رجوع إلى الأصل، ولا تجوز مدّ المقصور لأنه خروج عن الأصل، والروح بينه تعالىٰ وبين من شاء من عباده بالبشارة والنذارة، وللأولياء في هذه النبوّة مشرب عظيم كما ذكرنا ولا سيما والنبيّ ﷺ قد قال فيمن حفظ القرآن: «إن النبوّة قد أدرجت بين جنبيه» فإنها له غيب وهي للنبيّ شهادة، فهذا هو الفرقان بين النبيّ والوليّ في النبوّة، فيقال فيه نبيّ، ويقال في الوليّ وارث، والوراثة نعت إلهيّ فإنه قال عن نفسه: ﴿خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٩] فالوليّ لا يأخذ النبوّة من النبيّ إلاّ بعد أن يرثها الحق منهم ثم يلقيها إلى الوليّ ليكون ذلك أتم في حقه حتى ينتسب في ذلك إلى الله لا إلى غيره، وبعض الأولياء يأخذونها وراثة عن النبيّ وهم الصحابة الذين شاهدوه أو من رآه في النوم، ثم علماء الرسوم يأخذونها خلفاً عن سلف إلى يوم القيامة فيبعد النسب. وأما الأولياء فيأخذونها عن الله تعالىٰ من كونه ورثها وجاد بها على هؤلاء فهم أتباع الرسل بمثل هذا السند العالي المحفوظ الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢].

قال أبو يزيد: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحيّ الذي لا يموت. قال الله تعالىٰ لنبيّه ﷺ في مثل هذا المقام لما ذكر الأنبياء عليهم السلام في سورة الأنعام: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠] وكانوا قد ماتوا وورثهم الله وهو خير الوارثين. ثم جاد على النبيّ ﷺ بذلك الهدى الذي هداهم به فجعله ﷺ مقتدياً بهداهم والموصل الله، ونعم السند ونعم المولى ونعم النصير. وهذا عين ما قلناه في علم الأولياء اليوم بهدي النبيّ ﷺ وهدي الأنبياء أخذوه عن الله ألقاه في صدورهم من لدنه رحمة بهم وعناية سبقت لهم عند ربهم كما قال في عبده الخضر: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] وهذه النبوّة سارية في الحيوان مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٨] وكلهم بهذه المثابة، فمن علمه الله منطق الحيوانات وتسبيح النبات والجماد وعلم صلاة كل واحد من المخلوقات وتسبيحه علم أنّ النبوّة سارية في كل موجود يعلم ذلك أهل الكشف والوجود، لكنه لا ينطلق من ذلك اسم نبيّ ولا رسول على واحد منهم إلاّ على الملائكة خاصة الرسل منهم وهم المسمّون ملائكة، وكل روح لا يعطي رسالة فهو روح لا يقال فيه ملك إلاّ مجازاً كالأرواح المخلوقة من أنفاس المؤمنين الذاكرين الله يخلق الله من أنفاسهم أرواحاً يستغفرون لصاحب ذلك الذكر إلى يوم القيامة، وكذلك من أعمالهم كلها المحمودة التي فيها أنفاسهم، ولقد رأيته ﷺ في مبشرة وهو يقول ويشير إلى الكعبة: يا ساكني هذا البيت لا تمنعوا أحداً طاف به وصلّى في أي وقت شاء من ليل أو نهار، فإن الله يخلق له من صلاته ملكاً يستغفر له إلى يوم القيامة، وهؤلاء كلهم أرواح مطهرة، فمن أرسل منهم في أمر سمّي ملكاً.

الباب السادس والخمسون ومائة
في معرفة النبوّة البشرية وأسرارها

[نظمم : البسيط]

إن الـــنـبــــوّة إخـبـــارٌ لأرواحٍ ... مُـقَـيَّـدين بـأرواحٍ وأشْـبـاحِ
لـهـا الـقُـصُـورُ عـلـيـهـم كـلـمـا وَرَدَتْ ... بـكـل وَجْـهٍ مـن الـتَّـشْـريـع وَضَّـاحِ
وقـد تـكـون بـلا شَـرْعٍ مُـخَـبِّـرَةً ... بـمـا يـكـون مِـنَ اتْـراحٍ وأفـراحِ

اعلم أن النبوّة البشرية على قسمين: قسم من الله إلى عبده من غير روح ملكي بين الله وبين عبده، بل إخبارات إلٰهيّة يجدها في نفسه من الغيب، أو في تجليات لا يتعلق بذلك الإخبار حكم تحليل ولا تحريم، بل تعريف إلٰهيّ ومزيد علم بالإله، أو تعريف بصدق حكم مشروع ثابت أنه من عند الله لهذا النبيّ الذي أرسل إلى من أرسل إليه، أو تعريف بفساد حكم قد ثبت بالنقل صحته عند علماء الرسوم، فيطلع صاحب هذا المقام على صحة ما صحّ من ذلك وفساد ما فسد، مع وجود النقل بالطرق الضعيفة، أو صحة ما فسد عند أرباب النقل، أو فساد ما صحّ عندهم، والإخبار بنتائج الأعمال، وأسباب السعادات، وحكم التكاليف في الظاهر والباطن، ومعرفة الحد في ذلك والمطلع، كل ذلك ببينة من الله وشاهد عدل إلٰهيّ من نفسه، غير أنه لا سبيل أن يكون على شرع يخصّه يخالف شرع نبيّه ورسوله الذي أرسل إليه وأمرنا باتباعه فيتبعه على علم صحيح وقدم صدق ثابت عند الله تعالىٰ.

ثم إن لصاحب هذا المقام الاطلاع على الغيوب في أوقات، وفي أوقات لا علم له بها، ولكن من شرطه العلم بأوضاع الأسباب في العالم، وما يؤول إليه الواقف عندها أدباً والواقف معها اعتماداً عليها، كل ذلك يعلمه صاحب هذا المقام، وله درجات الاتباع، وهو تابع لا متبوع، ومحكوم لا حاكم. ولا بدّ له في طريقه من مشاهدة قدم رسوله وإمامه لا يمكن أن يغيب عنه حتى في الكثيب، وهذا كله كان في الأمم السالفة، وأما هذه الأمّة المحمدية فحكمهم ما ذكرناه وزيادة، وهو أن لهم بحكم شرع النبيّ محمد ﷺ أن يسنوا سنّة حسنة ممّا لا تحل حراماً ولا تحرم حلالاً، وممّا لها أصل في الأحكام المشروعة وتسنينه إياها ما أعطاه له مقامه، وإنما حكم به الشرع وقرّره بقوله: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً**» الحديث، كمسألة بلال في الركعتين بعد الأذان، وإحداث الطهارة عند كل حدث، وركعتين عقيب كل وضوء، والقعود على طهارة، وركعتين بعد الفراغ من الطعام، وصدقة على وجه خاص بسنّة، وكل أدب مستحسن ممّا لم يعينه الشارع، فلهذه الأمّة تسنينه ولهم أجر من عمل بذلك غير أنهم كما قلنا لا يحلّون حراماً ولا يحرّمون حلالاً، ولا يحدثون حكماً، ثم لهم الرفعة الإلٰهية العامة التي تصحبهم في الدنيا والآخرة.

والقسم الثاني من النبوّة البشرية هم الذين يكونون مثل التلامذة بين يدي الملك ينزل عليهم الروح الأمين بشريعة من الله في حق نفوسهم يتعبدهم بها فيحلّ لهم ما شاء ويحرم

عليهم ما شاء ولا يلزمهم إتباع الرسل، وهذا كله كان قبل مبعث محمد ﷺ، فأمّا اليوم فما بقي لهذا المقام أثر إلاً ما ذكرناه من حكم المجتهدين من العلماء بتقرير الشرع لذلك في حقهم، فيحلّون بالدليل ما أدّاهم إلى تحليله اجتهادهم وإن حرمه المجتهد الآخر، ولكن لا يكون ذلك بوحي إلهيّ ولا بكشف، والذي لصاحب الكشف في هذه الأمّة تصحيح الشرع المحمّدي ما له حكم الاجتهاد، فلا يحصل لصاحب هذا المقام اليوم أجر المجتهدين ولا مرتبة الحكم، فإن العلم بما هو الأمر عليه في الشرع المنزّل يمنعهم من ذلك، ولو ثبت عند المجتهد ما ثبت عند صاحب هذا المقام من الكشف بطل اجتهاده وحرم عليه ذلك الحكم، ولذلك ليس للمجتهد أن يفتي في الوقائع إلاً عند نزولها لا عند تقدير نزولها، وإنما ذلك للشارع الأصلي لاحتمال أن يرجع عن ذلك الحكم بالاجتهاد عند نزول ما قدر نزوله، ولذلك حرم العلماء الفتيا بالتقليد، فلعل الإمام الذي قلّده في ذلك الحكم الذي حكم به في زمانه لو عاش إلى اليوم كان يبدو له خلاف ما أفتى به فيرجع عن ذلك الحكم إلى غيره، فلا سبيل أن يفتي في دين الله إلاً مجتهد أو بنص من كتاب أو سنّة لا بقول إمام لا يعرف دليله، وإذا كان الأمر على ما ذكرناه فلم يبق في هذه الأمّة المحمدية نبوّة تشريع، فلا نطيل الكلام فيها أكثر من هذا، ولكن نطيل الكلام إن شاء الله أكثر من هذا في باب الرسالة البشرية لتقرير حكم المجتهدين والأمر الإلهيّ بسؤالهم فيما جهل من حكم الله في الأشياء. انتهى الجزء السادس ومائة.

(الجزء السابع ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب السابع والخمسون ومائة
في معرفة مقام النبوّة الملكية

[نظم: البسيط]

أوحى الإلهُ إلى الأَمْلاكَ تَعْبُدُهُ ... بأمره ما لهم في النَّهْي من قَدَمِ
وهم عبيدُ اختصاص لا يقابله ... ضدٌ وقد مُنحوا مَفَاتِحَ الكَرَمِ
لا يعرفون خروجاً عن أوامره ... ورأسُهم ملكٌ سمّاه بالقَلَمِ
أعطاه من عِلْمه ما لا يقدّره ... خلقٌ وأنَّ له في رُتْبة القِدَمِ
حكماً كما قال في العُرجون خالقنا ... في سورة القلب جلّ الله من حَكَمِ
هم أنبياءٌ أحبَّاءٌ بأجمعهم ... بلا خلافٍ وهم من جُمْلة الأُمَمِ
لكل شخصٍ من الأملاك مرتبةٌ ... معلومةٌ ظهرت للعين كالعَلَمِ
وهم على فضلهم على التَّفاضُل في ... تقريبهم ولهم جَوَامِعُ الكَلِمِ

قال الله تعالىٰ لإبليس: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [سورة ص: الآية ٧٥] وهم أرفع

الأرواح العلوية وليسوا بملائكة من حيث الاسم فإنه موضوع للرسل منهم خاصة، فمعنى الملائكة الرسل وهو من المقلوب وأصله مألكة والألوكة الرسالة والمألكة الرسالة، فما تختص بجنس دون جنس، ولهذا دخل إبليس في الخطاب بالأمر بالسجود لما قال الله للملائكة: ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٤] لأنه ممّن كان يستعمل في الرسالة فهو رسول فأمره الله فـ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٤] وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢] فالرسالة جنس حكم يعمّ الأرواح الكرام البررة السفرة والجن والإنس، فمن كل صنف من أرسل ومنه من لم يرسل، فالنبوءة الملكية المهموزة لا ينالها إلاّ الطبقة الأولى الحافون ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ ولهذا ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٥] وأفراد من ملائكة الكرسي والسموات وملائكة العروج، وآخر نبي من الملائكة إسماعيل صاحب سماء الدنيا، وكل واحد منهم على شريعة من ربه متعبد بعبادة خاصة وذلك قولهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٦٤] فاعترفوا بأن لهم حدوداً يقفون عندها لا يتعدّونها، ولا معنى للشريعة إلاّ هذا، فإذا أتى الوحي إليهم وسمعوا كلام الله بالوحي ضربوا بأجنحتهم خضعاناً يسمعونه كسلسلة على صفوان فيصعقون ما شاء الله، ثم ينادون فيفيقون فيقولون: ماذا؟ فيقال لهم: ربكم، فيقولون الحق، وهو قوله تعالىٰ في حقّهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٣] فجاؤوا في ذكرهم بالاسم العلي في كبريائه إن كان من قولهم فإنه محتمل أن يكون قول الله أو يكون حكاية الحق عن قولهم والعالون هم الذين قالوا لهؤلاء الذين أفاقوا ربكم وهم الذين نادوهم وهم العالون، فلهذا جاء بالاسم العليّ لأن كل موجود لا يعرف الحق إلاّ من نفسه ولذلك قال ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» فجاء بمن وهي نكرة فعم كل عارف من كل جنس وعلّق المعرفة بالربوبية، وكذا قال العالون لهؤلاء الذين صعقوا حين استفهموهم ربكم وما قالوا إلهكم وهم العالون فقالوا: ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٣].

واعلم أن العبادة في كل ما سوى الله على قسمين: عبادة ذاتية وهي العبادة التي تستحقها ذات الحق وهي عبادة عن تجلّ إلهيّ وعبادة وضعية أمرية وهي النبوّة، فكل من عبده عن أمره ووقف عند حدّه كـ ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [سورة الصافات: الآيات ١ ـ ٣] ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [سورة المرسلات: الآية ٥] ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [سورة النازعات: الآيات ٢ ـ ٥] ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [سورة المرسلات: الآية ١] وهم صنف من الملائكة التاليات ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ [سورة المرسلات: الآيات ٣ ـ ٤] ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [سورة الذاريات: الآية ٤] وهم إخوان المدبرات من الملائكة حضرتهم متجاورة، وكل هؤلاء أنبياء ملكيون عبدوا الله بما وصفهم به، فهم في مقامهم لا يبرحون إلاّ من أمر منهم بأمر يبلغه.

وسيأتي في الرسالة الملكية وهو قول جبريل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [سورة مريم: الآية ٦٤] فهم تحت تسخير رب محمد ﷺ من الاسم الذي يخصّه، ولله ملائكة في الأرض سياحون فيها يتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلس ذكر نادى بعضهم بعضاً: هلموا إلى

بغيتكم وهم الملائكة الذين خلقهم الله من أنفاس بني آدم، فينبغي للمذكر أن يراقب الله ويستحي منه ويكون عالماً بما يورده وما ينبغي لجلال الله، ويجتنب الطامات في وعظه، فإن الملائكة يتأذون إذا سمعوا في الحق وفي المصطفين من عباده ما لا يليق وهم عالمون بالقصص، وقد أخبر ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا كَذَبَ الكِذْبَةَ تَبَاعَدَ عَنْهُ المَلَكُ ثَلاثِينَ مِيلاً مِنْ نَتْنِ مَا جَاءَهُ فَتَمْقُتُهُ المَلائِكَة**» فإذا علم المذكر أن مثل هؤلاء يحضرون مجلسه فينبغي له أن يتحرى الصدق ولا يتعرض لما ذكره المؤرخون عن اليهود من زلآت من أثنى الله عليهم واجتباهم ويجعل ذلك تفسيراً لكتاب الله ويقول: قال المفسرون، وما ينبغي أن يقدم على تفسير كلام الله بمثل هذه الطوام كقصة يوسف وداود وأمثالهم عليهم السلام ومحمد ﷺ بتأويلات فاسدة وأسانيد واهية عن قوم قالوا في الله ما قد ذكر الله عنهم، فإذا أورد المذكر مثل هذا في مجلسه مقتته الملائكة ونفروا عنه ومقته الله، ووجد الذي في دينه رخصة يلجأ إليها في معصيته ويقول: إذا كانت الأنبياء قد وقعت في مثل هذا فمن أكون أنا؟ وحاشا والله الأنبياء مما نسبت إليهم اليهود لعنهم الله، فينبغي للمذكر أن يحترم جلساءه ولا يتعدّى ذكر تعظيم الله بما ينبغي لجلاله ويرغب في الجنة ويحذر من النار وأهوال الموقف والوقوف بين يدي الله من أجل من عنده من البطالين المفرطين من البشر، وقد ذكرنا في شرح كلام الله فيما ورد من ذكر الأنبياء عليهم السلام من التنزيه في حقهم ما هو شرح على الحقيقة لكلام الله، فهؤلاء المذكورون نقلة عن اليهود لا عن كلام الله لما غلب عليهم من الجهل، فواجب على المذكر إقامة حرمة الأنبياء عليهم السلام، والحياء من الله أن لا يقلد اليهود فيما قالوا في حق الأنبياء من المثالب ونقلة المفسرين خذلهم الله، ومنها مراعاة من يحضر مجلسه من الملائكة السياحين، فمن يراعي هذه الأمور ينبغي أن يذكر الناس ويكون مجلسه رحمة بالحاضرين ومنفعة.

الباب الثامن والخمسون ومائة
في مقام الرسالة وأسرارها

[نظم: الوافر]

ألا إن الرسالةَ بَرْزَخيَّهْ ... ولا يَحتاج صاحبُها لنيَّهْ
إذا أعطَتْ بُنَيَّتُه قواها ... تلقَّتْها بقوَّتها البُنَيَّهْ
فيُضحي مقْسِطاً حكماً عليماً ... سؤوساً في تَصاريف البريَّهْ
يُصَرِّفُهم ويصْرفه إليها ... كما تعطي مراتبها العَليَّهْ
فمن فَهِمَ الذي قلناه فيها ... نَفَى أحكامَ كَسْبٍ فَلْسَفيَّهْ
وأن الاختصاص بها مَنُوطٌ ... كما دلَّتْ عليه الأشعريَّهْ
وما من شرطها عملٌ وعلمٌ ... ولا من شرطها نَفْسٌ زكيَّهْ
ولكنَّ العوائدَ أن تراه ... على خَيْرٍ وأحوالٍ رَضِيَّهْ

اعلم أن الولاية هي المحيطة العامة وهي الدائرة الكبرى، فمن حكمها أن يتولى الله

من شاء من عباده بنبوّة وهي من أحكام الولاية وقد يتولاه بالرسالة وهي من أحكام الولاية أيضاً، فكل رسول لا بدّ أن يكون نبياً، وكل نبيّ لا بدّ أن يكون ولياً، فكل رسول لا بدّ أن يكون ولياً، فالرسالة خصوص مقام في الولاية، والرسالة في الملائكة دنيا وآخرة لأنهم سفراء الحق لبعضهم وصنفهم ولمن سواهم من البشر في الدنيا والآخرة. والرسالة في البشر لا تكون إلاّ في الدنيا وينقطع حكمها في الآخرة، وكذلك تنقطع في الآخرة بعد دخول الجنة والنار نبوّة التشريع لا النبوّة العامة، وأصل الرسالة في الأسماء الإلهيّة، وحقيقة الرسالة إبلاغ كلام من متكلم إلى سامع فهي حال لا مقام، ولا بقاء لها بعد انقضاء التبليغ وهي تتجدّد وهو قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] فالإتيان به هو الرسالة، وحدوث الذكر عند السامع المرسل إليه هو الكلام المرسل به، وقد يسمّى الكلام المرسل به رسالة وهو علم يوصله إلى المرسل إليه، ولهذا ظهر علم الرسالة في صورة اللبن والرسل هو اللبن، لكن للرسالة مقام عند الله منه يبعث الله الرسل، فلهذا جعلنا للرسالة مقاماً وهو عند الكرسي ذلك هو مقام الرسالة ونبوّة التشريع وما فوق ذلك فنبوّة لا رسالة، فالرسل لا يفضل بعضهم بعضاً من حيث ما هم رسل، وإنما فضل الله بعض الرسل على بعض وبعض النبيين على بعض.

وما من جماعة يشتركون في مقام إلاّ وهم على السواء فيما اشتركوا فيه، ويفضل بعضهم بعضاً بأحوال أخر ما هي عين ما وقع فيه الاشتراك، وقد يكون ما يقع به المفاضلة يؤدّي إلى التساوي وهو مذهب أبي القاسم بن قسي من الطائفة ومن قال بقوله، فيكون كل واحد من الرسل فاضلاً من وجه مفضولاً من وجه، فيفضل الواحد منهم بأمر لا يكون عند غيره، ويفضل ذلك المفضول بأمر ليس عند الفاضل، فيكون المفضول من ذلك الوجه الذي خصّ به يفضل على من فضله، وعندنا قد لا يكون التساوي ويجمع لواحد جميع ما عند الجماعة، فيفضل الجماعة بجمع ما فضل به بعضهم على بعض لا بأمر زائد، فهو أفضل من كل واحد واحد ولا يفاضل فيكون سيد الجماعة بهذا المجموع، فلا ينفرد في فضله بأمر ليس عند آحاد الجنس، هكذا هو في نفس الأمر في كل جنس، فلا بدَّ من إمام في كل نوع من رسول ونبيّ ووليّ ومؤمن وإنسان وحيوان ونبات ومعدن وملك، وقد نبهنا على ذلك قبل هذا في الاختيارات.

فمقام الرسالة الكرسي لأنه من الكرسي تنقسم الكلمة الإلهية إلى خبر وحكم، فللأولياء والأنبياء الخبر خاصة، ولأنبياء الشرائع والرسل الخبر والحكم، ثم ينقسم الحكم إلى أمر ونهي، ثم ينقسم الأمر إلى قسمين: إلى مخيّر فيه وهو المباح، وإلى مرغب فيه، ثم ينقسم المرغب فيه إلى قسمين: إلى ما يذمّ تاركه شرعاً وهو الواجب والفرض، وإلى ما يحمد بفعله وهو المندوب ولا يذمّ بتركه. والنهي ينقسم قسمين: نهي عن أمر يتعلق الذمّ بفاعله وهو المحظور، ونهي يتعلق الحمد بتركه ولا يذمّ بفعله وهو المكروه.

وأما الخبر فينقسم قسمين: قسم يتعلق بما هو الحق عليه، وقسم يتعلق بما هو العالم عليه. والذي يتعلق بما هو الحق عليه ينقسم قسمين: قسم يعلم وقسم لا يعلم، فالذي لا

يعلم ذاته، والذي يعلم ينقسم قسمين: قسم يطلب نفي المماثلة وعدم المناسبة وهو صفات التنزيه والسلب مثل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] والقدّوس وشبه ذلك، وقسم يطلب المماثلة وهو صفات الأفعال، وكل اسم إلهيّ يطلب العالم، وهذه الأقسام كلها مجموع الرسالة وبه أتت الرسل، والرسالة إذا ثبتت وثبت أنها اختصاص إلهيّ غير مكتسبة يثبت بها كون الحق متكلماً أي موصوفاً بالكلام فإنه مبلغ ما قيل له قل، ولو كان مبلغاً ما عنده أو ما يجده من العلم في نفسه لم يكن رسولاً ولكان معلماً، فكل رسول معلم وما كل معلم رسول، وما سميت رسالة إلاَّ من أجل هذه الأقسام التي تحتوي عليها، ولولا هذه الأقسام لم تكن رسالة، لأن الأمر الواحد من غير معقولية سواه لا تقع الفائدة بتبليغه عند المرسل إليه لأنه لا يعقله، ولهذا لا يعقل الذات الإلهية لأنها لا سوى لها ولا غير، وتعقل الألوهية والربوبية لأن سواها المألوه والمربوب، فتنبه لما أشرنا إليه تعثر على العلم المخزون ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [سورة المرسلات: الآية ١] تنبيه على التتابع والكثرة ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [سورة الصافات: الآية ٣] يتلو بعضها بعضاً، فالرسالة يتلو بعضها بعضاً ولهذا انقسمت والله الهادي.

الباب التاسع والخمسون ومائة

في مقام الرسالة البشرية

[نظم: البسيط]

إن الرسولَ لسانُ الحقِّ للبَشَرِ ... بالأمر والنَّهْي والإعلام والعِبَرِ
هم أذكياءُ ولكنْ لا يُصَرِّفهم ... ذاك الذكاءُ لما فيه من الغَرَرِ
ألا تراهم لتَأْبير النخيل وما ... قد كان فيه على ما جاء من ضَرَرِ
هم سالمون من الأفكار إن شرعوا ... حكماً بِحِلٍّ وتَحْريم على البَشَرِ
إن الرسالةَ في الدنيا قَدِ انقطعَتْ ... في وقتنا للذي قد جَاء في الخَبَرِ
وقد مضى حكمُها دنيا وآخرةً ... وما لها في وجود العين من أَثَرِ
لولا التكاليفُ لم يُخْتَصَّ صاحبُها ... عن غيره لوجود الوَحْي والنَّظَرِ
النَّحْلُ يوحَى إليه دائماً أبداً ... إلى القيامة في السُّكْنَى وفي الثَّمَرِ

الرسالة نعت كوني متوسط بين مرسل ومرسل إليه والمرسل به قد يعبر عنه بالرسالة، وقد تكون الرسالة حال الرسول، وهي بالجملة ليست بمقام وإنما هي نسبة حال، وتنقطع بانقطاع التبليغ بالفعل، ويزول حكمها بانقضاء التبليغ، قال تعالىٰ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٩] وأوجب عليه ذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٧] فالرسالة هنا هي التي أرسل بها وبلّغها، وهكذا وردت في القرآن حيثما وردت، ولا يقبلها الرسول إلاَّ بوساطة روح قدسي أمين ينزل بالرسالة على قلبه وأحياناً يتمثل له الملك رجلاً، وكل وحي لا يكون بهذه الصفة لا يسمّى رسالة بشرية، وإنما يسمّى وحياً أو إلهاماً أو نفثاً أو إلقاء أو وجوداً، ولا تكون الرسالة إلاَّ كما

ذكرنا، ولا يكون هذا الوصف إلاّ للرسول البشري، وما عدا هذا من ضروب الوحي فإنه يكون لغير النبيّ والرسول، والفرق بين النبيّ والرسول أن النبيّ إذا ألقى إليه الروح ما ذكرناه اقتصر بذلك الحكم على نفسه خاصة ويحرم عليه أن يتبع غيره فهذا هو النبيّ، فإذا قيل له: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إما لطائفة مخصوصة كسائر الأنبياء، وإما عامة للناس ولم يكن ذلك إلاّ لمحمد ﷺ لم يكن لغيره قبله، فسمّي بهذا الوجه رسولاً والذي جاء به رسالة، وما اختصّ به من الحكم في نفسه وحرّم على غيره من ذلك الحكم هو نبيّ مع كونه رسولاً، وإن لم يخصّ في نفسه بحكم لا يكون لمن بعث إليهم فهو رسول لا نبيّ، وأعني نبوة الشرائع التي ليست للأولياء، فكل رسول لم يخصّ بشيء من الحكم في حق نفسه فهو رسول لا نبيّ، وإن خصّ مع التبليغ فهو رسول ونبيّ، فما كل رسول نبيّ على ما قلناه، ولا كل نبيّ رسول بلا خلاف.

ثم إن الورثة وهم الأتباع الذين أمروا بالتبليغ كمعاذ وعلي ودحية رسل رسول الله ﷺ ولا يزال كل متأخر مأموراً بالتبليغ ممّن أمر بالتبليغ متصل الطريق مأموراً عن مأمور إلى رسول الله ﷺ يسمّى رسولاً، ولكن ما هي الرسالة التي انقطعت والرسالة التي انقطعت هي تنزل الحكم الإلهيّ على قلب البشر بوساطة الروح كما قررناه، فذلك الباب هو الذي سدّ، والرسالة والنبوّة التي انقطعت، وأما الإلقاء بغير التشريع فليس بمحجور، ولا التعريفات الإلهية بصحة الحكم المقرّر أو فساده فلم تنقطع، وكذلك تنزّل القرآن على قلوب الأولياء ما انقطع مع كونه محفوظاً لهم ولكن لهم ذوق الإنزال وهذا لبعضهم.

ولهذا ذكر عن أبي يزيد أنه ما مات حتى استظهر القرآن أي أخذه عن إنزال وهو الذي نبّه النبيّ ﷺ فيمن حفظ القرآن، يعني على هذا الوجه أن النبوة قد أدرجت بين جنبيه ولم يقل في صدره، وهذا معنى استظهار القرآن أي أخذه عن ظهر، فله مثل هذا التنزّل مستمر فيمن شاء الله من عباده، لكن على هذا النعت والصفة وهو قوله تعالىٰ: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥] فالرسل مبشرون ومنذرون، والورثة منذرون خاصة لا مبشرون لكنهم مبشرون اسم مفعول، فإذا بشّر الوليّ أحداً بسعادة فما هو من هذا الباب، بل البشارة في ذلك بتعيين السعيد، وبشارة الأنبياء متعلقة بالعمل المشروع وهو أنه من عمل كذا كان له كذا في الجنة أو نجاه الله من النار بعمل كذا، هذا لا يكون إلاّ للرسل ليس للوليّ فيه دخول، وله أن يعطي تعيين السعيد لا من حيث العمل فيقول في الكافر وهو في حال كفره إنه سعيد، وفي المؤمن في حال إيمانه إنه شقيّ فيختم لكل واحد بالسبب الموجب لسعادته أو شقاوته تصديقاً لقول الوليّ هذا القدر بقي للأولياء من نبوّة الإخبار لا من نبوّة التشريع، ولها من الحروف ياء العلة وله الدعوى والآيات وصاحبها مسؤول، وله الكشف في أوقات وهو قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [سورة القيامة: الآية ١٦] وهي وإن نزلت من الكرسي فإذا رجعت فلا تتعدى سدرة المنتهى.

والرسالة تنزل معاني وتعود إلى السدرة صوراً ينشئها العبد إنشاء، وهذا له من الاسم الخلاّق الذي أعطى ومعراجها براقي ورفرفي ولكن من السموات، ورئيس أرواحها النازلين

بها جبريل وهو أستاذ الرسل وهو الموكل بهذا المقام وما يتصور لهذا المقام نسخ، وإنما الأشخاص تختلف، وكل شخص يجري فيه إلى أجل مسمّى، ولهذا جاء: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [سورة المرسلات: الآية ١] وقال: رسلنا تترى ولا يقع فيها تفاضل، وإنما التفاضل بين المرسلين لا من كونهم مرسلين بل من مقام آخر، ولا يشترط على الرسول فيها إقامة الدليل للمرسل إليه بل لها الجبر، ولهذا مع وجود الدليل ما نجد وقوع الإيمان في محل المرسل إليه من كل أحد بل من بعضهم، فلو كان لنفس الدليل لعم ونراه يوجد ممّن لم يرد ليلاً، فدل أن الإيمان نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده لا لعين الدليل فلهذا لم نشترط فيه الدليل، فالإيمان علم ضروري يجده المؤمن في قلبه لا يقدر على دفعه، وكل من آمن عن دليل فلا يوثق بإيمانه فإنه معرض للشبه القادحة فيه لأنه نظري لا ضروري، وقد نبهتك في هذا على سرّ غامض لا يعرفه كل أحد ولا تشترط أيضاً في حقّه العصمة إلاً فيما يبلغه عن الله خاصة ويلزمه تبيين ما جاء به حتى يفهم عنه لإقامة الحجة على المبلغ إليه، فإن عصم من غير هذا فمن مقام آخر وهو أن يخاطب العباد المرسل إليهم بالتأسي به فيكون التأسّي به أصلاً، فإن انفرد بأمر لزمه أن يبينه لا بدّ من ذلك كما قال في نكاح الهبة خالصة لك من دون المؤمنين، ومن شرط صاحب هذا المقام طهارة القلب من الفكر فله الراحة فإنه لا يشرع إلاً ما يوحى به إليه، وأما مشورته لأصحابه ففي غير ما شرع له وليس للرسول من حيث رسالته المشاورة، فإذا انضاف إلى رسالته أن تكون جامعة فلمقام الخلافة المشورة، ولما كان رسول الله ﷺ من الخلفاء قيل له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] فينبغي لك أن تعرف الفرق بين الخلافة والرسالة.

الباب الستون ومائة

في معرفة الرسالة الملكية

[نظم: الطويل]

تنزَّلَتِ الأملاكُ ليلاً على قلبي ... ودارتْ عليه مثلَ دائرة القُلْبِ
حذاراً مِنَ ٱلقاء اللعين إذا يرى ... نزولَ علوم الغَيْب عيناً على قَلْبِ
وذلك حِفْظُ الله في مثل طَوْرنا ... وعصْمَتُه في المرسَلين بلا رَيْبِ
فنحن وإياهم مصانون بالحِمَى ... تخاطبُنا الأسماءُ من حَضْرةِ القُرْبِ
ويفترق الصِّنْفان عند رُجوعهم ... من المَشْهد الأعلَى إلى عَالَم التُّرْبِ
فيظهر هذا بالرسالة واضعاً ... حدوداً وأحكاماً عن الرُّوح والرَّبّ
وذلك مأمورٌ بسَتْر مَقَامِهِ ... وإن كان قد داناه في الذَّوْق والشُّرْبِ
فسبحان من أعطى الوجودَ بجوده ... وقسَّمه قسمين للكشف والحَجْبِ
فأشهد ذا فضلاً وسَبْقَ عِنَايةٍ ... وأوقف ذا خلف الحجاب بلا ذَنْبِ
فقفْ وتأدَّبْ واتَّعِظْ ثم ولا تَقُلْ ... حُجِبْتُ بلا ذنب وهذا من الذنْبِ
ألا إنما العُقْبَى لمن بات سرُّه ... يرى البُعْدَ والتَّقْريبَ في الذنب والعَتْبِ

قال تعالىٰ: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [سورة عبس: الآية ١٣، ١٤] يعني التذكرة التي هي الرسالة ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ [سورة عبس: الآية ١٥] والسفرة هم الرسل من الملائكة هنا، كذلك ما يجودون به على المرسلين إليهم في رسالتهم ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [سورة عبس: الآية ١٦] أي محسنين، فهؤلاء هم سفراء الحق إلى الخلق بما يريد أن ينفذه فيهم من الحكم من عالم الأركان، فإذا أراد الله إنفاذ أمر في خلقه أوحى إلى الملك الأقرب إلى مقام تنفيذ الأوامر وهو الكرسي فيلقي إليه ذلك الأمر على وجوه مختلفة، ثم يأمره بأن يوحي به إلى من يليه ويوحي إليه أن يوحي إلى من يليه أن يوحي به إلى من يليه من أعلى إلى أدنى إلينا، هذا من حد انقسام الكلمة، وأما من أحدية الكلمة فهو نزولها من رتبة زلفى إلى مقام أدنى إلى مكان أزهى إلى محل أسنى إلى رفرف أبهى إلى عرش أعلى إلى كرسي أجلى، فتنقسم هناك الكلمة، أي يتعين هنالك ما أريد بها من حكم أو خبر، ثم تنزل إلى سدرة المنتهى إلى سماء فسماء إلى السماء الدنيا، فينادى بملك الماء فيودع تلك الرسالة فيضعها في الماء، وينادى ملائكة اللمات وهم ملائكة القلوب فيلقنوها فيجعلها لمات في قلوب العباد فتعرف الشياطين ما جاءت به الملائكة فتأتي بأمثاله إلى قلوب الخلق فتنطق الألسنة بما تجده في القلوب وهي الخواطر قبل التكوين بأنه كان كذا واتفق كذا لما لم يكن، فما يكون منه بعد الكلام به فذلك ممّا جاءت به الملائكة، وما لم يكن فهو ممّا ألقته الشياطين، ويسمّى ذلك في العالم الأرجاف، وتراه العامة مقدّمات التكوين.

وأما ملك الماء فيلقي ما أوحي به إليه في الماء فلا يشرب الماء حيوان إلاّ ويعرف ذلك السرّ إلاّ الثقلين، ولكن لا يعرف من أين جاء ولا كيف حصل، ومن هذا المنزّل هو البلاء الذي ينزل في كانون فلا يجد إناء فيه ماء غير مغطّى إلاّ دخل فيه. ومن هذا الباب ما يجده الإنسان من بغض شخص وحبّ شخص من غير سبب ظاهر معلوم له ويكون بالسماع وبالرؤية، وورد خبر في مثل هذا ومن هذا الباب السياسة الحكمية لمصالح العالم التي لم يأت بها شرع عند فقد الأنبياء عليهم السلام وأزمنة الفترات تنزل بها ملائكة الإلهام واللمات على قلوب عقلاء الزمان وحكماء الوقت فيلقونها في أفكارهم لا على أسرارهم فيضعونها ويحملون الناس عليها والملوك وما فيها شيء من الشرك، فهذه هي الرسالة الملكية التي فيها مصالح العالم في الدنيا، وهي البدع الحسنة التي أثنى الله على من رعاها حق رعايتها ابتغاء رضوان الله، وثم رسالات أخر أيضاً على أيدي الملائكة بتسخير العالم بعضه لبعض مطلقاً.

الباب الأحد والستون ومائة

في المقام الذي بين الصدّيقية والنبوّة وهو مقام القربة

[نظم: البسيط]

جـمـاعـةٌ مـن رجـال الله أنـكـرَهُ ... وليس من شأنهم إنكارُ ما جَهِلُوا
هـو الـمَـقَـامُ الـذي قـامت شَـوَاهِـدُه ... في الحَرْق والقَتْل والباقي الذي فَعَلُوا
لـو أنـهـم دبَّـروا الـقـرآن لاحَ لـهـم ... وجهُ الحقيقة فيما عنه قد غَفَلُوا

وما تخصَّصَ عنهم في مَقَامِهِمُ ... إلاَّ الذين عن الرحمن قد عَقَلُوا
ومنه أيضاً أبو بكر ومِيْزَتُهُ ... بالسرِّ لو نظروا في حكمنا كَمُلُوا
فليس بين أبي بكر وصاحبه ... إذا نظرتَ إلى ما قلته رَجُلُ
هذا الصحيحُ الذي دلَّتْ دلائِلُهُ ... في الكَشْف عند رجالِ الله إذ عَمِلُوا

القربة نعت إلهيّ وهو مقام مجهول أنكرت آثاره الخاصة من الرسل عليهم السلام مع الافتقار إليه منهم، وشهادة الحق لصاحبه بالعدالة والاختصاص وهو مقام الخضر مع موسىٰ، وما أذهله إلاَّ سلطان الغيرة التي جعل الله في الرسل عليهم السلام على مقام شرع الله على أيديهم فللّه أنكروا، وتكرّر منه عليه السلام الإنكار مع تنبيه العبد الصالح في كل مسألة، ويأبى سلطان الغيرة إلاَّ الاعتراض لأن شرعه ذوق له، والذي رآه من غيره أجنبيّ عنه وإن كان علماً صحيحاً، ولكن الذوق أغلب والحال أحكم، ولذلك قيل لرسول الله ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] ولم يقل له قل ربّ زدني حالاً، فلو زاد حالاً لزاد إنكاراً، وكلما زاد علماً زاد إيضاحاً وكشفاً واتساعاً وانشراحاً وتنزّهاً في الوجوه التي سفرت من براقعها وظهرت من وراء ستورها وكللها، فارتفع الضيق والحرج وشوهد الكمال في النقص، ولما حصلت في هذا المقام السنيّ قلت مشيراً ومنبهاً: [الطويل]

وإني لأهوَى النَّقْصَ مَنْ أجل مَنْ أهوَى ... لأنَّ به كان الكمالُ لمن يَدْري
وما جاء بالنُّقْصان إلاَّ مخافةً ... من العينِ مثل البَدْر من آخر الشَّهْرِ
وما نَقَصَ البدرُ الذي تُبْصرونه ... ولكنه بدرٌ لمن غاصَ بالفكْرِ
يراه تماماً كاملاً في ضِيائه ... على أكملِ الحالات في البَطْن والظَّهْرِ
فلو لم يكنْ في الكون نقصٌ محقَّقٌ ... لكان الوجودُ الحقُّ ينقص في القَدْرِ
فبي كان للحق الوجودِ كَمَالُه ... مع النقص فانظُرْ ما تضَمَّنه شِعْري
غزالٌ من الفردوس جاء منقَّباً ... مِنَ اجلي وما يخْفى على الله ما يَجْري
فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً ... بمن وحَيَاةِ الحبِّ قد ضَمَّه صَدْري
أَهيم بها حباً على كل حالةٍ ... حياةً وموتاً في القيامة والحَشْرِ
لقد سَفَرَتْ يوماً فلاحَتْ مَحَاسنٌ ... تخبِّر عنها أنها ليلةُ القَدْرِ
سجَدْتُ لها حباً فلما رأيتُها ... علمتُ بأني ما تعلَّقت بالغَيْرِ
فكبَّرتُ إجلالاً لكوني هَويتُني ... فسرى الذي قد كان هَيَّمه جَهْري
وحقَّقْتُ أني عينُ من قد هَويتُه ... فلم أخْشَ من بَيْنٍ ولم أخْشَ من هَجْرِ
فبغدادُ داري لا أرَى لي موطناً ... سواها فإن عَزَّتْ جَنَحْتُ إلى مِصْري

هذا المقام دخلته في شهر محرّم سنة سبع وتسعين وخمسمائة وأنا مسافر بمنزل أبحيسل ببلاد المغرب فتهت به فرحاً ولم أجد فيه أحداً، فاستوحشت من الوحدة وتذكرت دخول أبي يزيد بالذلّة والافتقار فلم يجد في ذلك المنزل من أحد وذلك المنزل هو موطني فلم أستوحش فيه لأن الحنين إلى الأوطان ذاتي لكل موجود، وأن الوحشة مع الغربة، ولما دخلت هذا

المقام وانفردت به وعلمت أنه إن ظهر عليّ فيه أحد أنكرني فبقيت أتتبع زواياه ومخادعه ولا أدري ما اسمه مع تحققي به وما خصّ الله به من أتاه إياه، ورأيت أوامر الحق تترى علي وسفراءه تنزل إليّ تبتغي مؤانستي وتطلب مجالستي، فرحلت وأنا على تلك الحال من الاستيحاش بالانفراد والأنس إنما يقع بالجنس، فلقيت رجلاً من الرجال بمنزل يسمّى آنجال فصليت العصر في جامعه، فجاء الأمير أبو يحيىٰ بن واجتن وكان صديقي وفرح بي وسألني أن أنزل عنده فأبيت ونزلت عند كاتبه وكانت بيني وبينه مؤانسة، فشكوت إليه ما أنا فيه من انفرادي بمقام أنا مسرور به، فبينا هو يؤانسني إذ لاح لي ظل شخص فنهضت من فراشي إليه عسى أجد عنده فرجاً فعانقني فتأملته فإذا به أبو عبد الرحمن السلميّ قد تجسدت لي روحه بعثه الله إليّ رحمة بي فقلت له: أراك في هذا المقام، فقال: فيه قبضت وعليه مت فأنا فيه لا أبرح، فذكرت له وحشتي فيه وعدم الأنيس، فقال: الغريب مستوحش، وبعد أن سبقت لك العناية الإلهيّة بالحصول في هذا المقام فاحمد الله ولمن يا أخي يحصل هذا، ألا ترضى أن يكون الخضر صاحبك في هذا المقام وقد أنكر عليه موسىٰ حاله مع ما شهد الله عنده بعدالته ومع هذا أنكر عليه ما جرى منه، وما أراه سوى صورته فحاله رأى وعلى نفسه أنكر، وأوقعه في ذلك سلطان الغيرة التي خصّ الله بها رسله، ولو صبر لرأى، فإنه كان قد أعدّ له ألف مسألة كلها جرت لموسىٰ وكلها ينكرها على الخضر.

قال شيخنا أبو النجا المعروف بأبي مدين: لما علم الخضر رتبة موسىٰ وعلو قدره بين الرسل امتثل ما نهاه عنه طاعة لله ولرسوله فإن الله يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [سورة الحشر: الآية ٧] فقال له في الثانية: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ [سورة الكهف: الآية ٧٦] فقال: سمعاً وطاعة، فلما كانت الثالثة ونسي موسىٰ حالة قوله: ﴿إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٤] وما طلب الإجارة على سقايته مع الحاجة فارقه الخضر بعدما أبان له علم ما أنكره عليه ثم قال له: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] لأنه كان على شرعة من ربه ومنهاج وفي زمانها بخلاف حاله بعد بعث محمد ﷺ فإنه الفرى كل الصيد في جوفه، فقلت له: يا أبا عبد الرحمن لا أعرف لهذا المقام اسماً أميزه به، فقال لي: هذا يسمّى مقام القربة فتحقق به فتحققت به فإذا به مقام عظيم لعلماء الرسوم من أهل الاجتهاد فيه قدم راسخة لكنهم لا يعرفون أنهم فيه، ورأيت الإمداد الإلهيّ يسري إليهم من هذا المقام، ولهذا ينكر بعضهم على بعض ويخطىء بعضهم بعضاً لأنهم ما حصل لهم ذوقاً ولا يعلمون ممّن يستمدّون مشاهدة وكشفاً، فكل واحد منهم على حق، كما أنه لكل نبيّ تقدّم هذا الزمان المحمديّ شرعة ومنهاجاً، والإيمان بذلك كله واجب على كل مؤمن وإن لم نلتزم من أحكامهم إلاّ ما لزمناه، فالمجتهدون من علماء الشريعة ورثة الرسل في التشريع وأدلتهم تقوم لهم مقام الوحي للأنبياء، واختلاف الأحكام كاختلاف الأحكام إلاّ أنهم ليسوا مثل الرسل لعدم الكشف، فإن الرسل يشد بعضهم من بعض، وكذلك أهل الكشف من علماء الاجتهاد، وأما غير أهل الكشف منهم فيخطىء بعضهم بعضاً، ولو قال الخضر لموسىٰ

من أول ما صحبه: ما أفعل شيئاً ممّا تراني أفعله عن أمري ما أنكره عليه ولا عارضه ولقد أنطقه الله بقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٩] والصبر لا يكون إلاّ على ما يشق عليه، فلو قدّم الصبر على المشيئة كما يفعل المحمديّ لصبر ولم يعترض، فإن الله قدّمه في الإعلام تعليماً لمحمد ﷺ، فمن أراد أن يحصل علم الله في خلقه فليقف عند ترتيب حكمته في الأشياء، فيقدّم ما قدم الله ويؤخّر ما أخّر الله، فإن من أسمائه المقدّم والمؤخّر، فإذا أخّرت ما قدمه أو قدمت ما أخّره فهو نزاع خفي يورث حرماناً، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٣، ٢٤] فأخّر الاستثناء وقدمه موسىٰ فلم يصبر فلو أخّره لصبر، وهذه الآية مذكورة باللسان العبرانيّ في التوراة، فالله الله يا إخواننا من أهل هذه الملة المحمدية قفوا على مشاعر الله التي بيّنها لكم ولا تتعدوا ما رسم لكم، ألا تراه ﷺ لما صعد على الصفا في حجة الوداع قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٨] ثم قال: «**أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ**» وما قال ذلك إلاّ تعليماً لنا ولزوم أدب مع الله، ولولا أنه جائز له أن يبدأ بالمروة في سعيه لما قال هذا، ورجح ما بدأ الله به على ما في المسألة من التخيير من أجل الواو، فإنه ما بدأ الله به إلاّ لسرّ يعلمه، فمن لم يبدأ به حرم فائدته. وقال ﷺ: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**» وتقديم الصفا في السعي من المناسك.

ولقد رويت في هذا المعنى حكاية عجيبة عن يهودي أخبرني بها موسىٰ بن محمد القرطبي القباب المؤذن بالمسجد الحرام المكيّ بالمنارة التي عند باب الحزورة وباب أجياد رحمه الله سنة تسع وتسعين وخمسمائة قال: كان رجل بالقيروان أراد الحج فتردّد خاطره في سفره بين البرّ والبحر فوقتاً يترجح له البر ووقتاً يترجح له البحر فقال: إذا كان صبيحة غد أول رجل ألقاه أشاوره فحيث يرجح لي أحكم به، فأول من لقي يهودياً فتألم ثم عزم وقال: والله لأسألنه، فقال: يا يهودي أشاورك في سفري هذا هل أمشي في البرّ أو في البحر؟ فقال له اليهودي: يا سبحان الله وفي مثل هذا يسأل مثلك؟ ألم تر أن الله يقول لكم في كتابكم: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [سورة يونس: الآية ٢٢] فقدم البرّ على البحر، فلولا أن لله فيه سرّاً وهو أولى بكم ما قدمه وما أخّر البحر إلاّ إذا لم يجد المسافر سبيلاً إلى البرّ، قال: فتعجبت من كلامه وسافرت في البرّ يقول الرجل: فوالله ما رأيت سفراً مثله، ولقد أعطاني الله فيه من الخير فوق ما كنت أشتهي.

وقد أنكر أبو حامد الغزالي هذا المقام وقال: ليس بين الصديقية والنبوّة مقام، ومن تخطّى رقاب الصدّيقين وقع في النبوّة باب مغلق فكان يقول: لا تتخطوا رقاب الصديقين، ولا شك أن الأنبياء أصحاب الشرائع هم أرفع عباد الله من البشر، ومع هذا لا يبعد أن يخصّ الله المفضول بعلم ليس عند الفاضل، ولا يدل تميزه عنه أنه بذلك العلم أفضل منه بل قال له: يا موسىٰ أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، وما قال له أنا أفضل منك بل علم حق موسىٰ وما ينبغي له وامتثل أمره فيما نهاه عنه من صحبته احتراماً منه لمقام موسىٰ وعلو منزلته، وسكوت موسىٰ عنه حين فارقه ولم يرجع عن نهيه لأنه علم أن الخضر ممّن لم يسمع نهي موسىٰ عليه السلام، ولا سيما وقد قال له: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ

أَمْرِيۚ﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] فعلم موسىٰ أنه ما فارقه إلاَّ عن أمر ربّه، فما اعترض عليه في فراقه إياه، وحصل لموسىٰ مقصوده ومقصود الحق في تأديبه، فعلم أن لله عباداً عندهم من العلم ما ليس عنده، ولم يكن إلاَّ علم كون من الأكوان من علوم الكشف وهو من أحوال المريدين أصحاب السلوك، فكيف لو كان من العلوم المتعلقة بالجناب الإلهيّ؟

أما من العلم المحكم أو المتشابه ومن هذا المقام حصل لأبي بكر الصديق السرّ الذي وقر في نفسه وظهرت قوّة ذلك السرّ مع وقته. وقول عائشة لرسول الله ﷺ في مرضه حين أمر أن يصلي بالناس إنه رجل أسيف ورسول الله ﷺ يعرف منه بالسرّ الذي حصل عنده ما لا تعرفه الجماعة فما بقي أحد يوم مات رسول الله ﷺ إلاَّ ذهل في ذلك اليوم وخولط في عقله وتكلّم بما ليس الأمر عليه إلاَّ أبو بكر الصديق فما طرأ عليه من ذلك أمر بل رقى المنبر وخطب الناس وذكر موت النبيّ ﷺ فقال: من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت ثم تلا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٠] ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٤] الآية، فسكن جأش الناس حتى قال عمر: والله ما كأني سمعت بهذه الآية إلاَّ في ذلك اليوم، وهذا قوله ﷺ: «**إِذَا وَجَبَ ـ يَعْنِي المَوْت ـ فَلاَ تَبْكِيَنَّ بَاكِيَةٌ**» وأما قبل وقوع الموت فالبكاء محمود، وكذا فعل أبو بكر لما قام رسول الله ﷺ فقال: «**مَا تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ خُيِّرَ فَاخْتَارَ لِقَاءَ اللَّهِ**» فبكى أبو بكر وحده دون الجماعة، وعلم أن رسول الله ﷺ قد نعى لأصحابه نفسه، فأنكر الصحابة على أبي بكر بكاءه وهو كان أعلم، فلما مات ﷺ بكى الناس وضجوا إلاَّ أبا بكر امتثالاً لقوله ﷺ: «**إذا وجب فلا تبكين باكية**» هذا كله من السرّ الذي أعطاه هذا المقام، فالذي ينبغي أن يقال: ليس بين محمد ﷺ وأبي بكر رجل لا أنه ليس بين الصديقية والنبوّة مقام، فإن الصديق تابع بطريق الإيمان فما أنكره متبوعه أنكر وما قرره متبوعه قرّر، هذا حظ الصديق من كونه صديقاً، ومن كون مقام آخر لا يحكم عليه حال الصديقية فاعلم ذلك.

انتهى السفر الرابع عشر بانتهاء الجزء السابع ومائة من الفتوحات المكية.

[السفر الخامس عشر]
(الجزء الثامن ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثاني والستون ومائة
في معرفة الفقر وأسراره

[نظم: البسيط]

الفَقْرُ أمرٌ يَعُمُّ الكونَ أجْمَعَهُ ... عيناً وحكماً ولكن ليس يَنْطلِقُ
إلاَّ على مُمْكنٍ أسماءُ خالقِه ... تَبْغيه فهي لهذا الأمر تَسْتَبِقُ
إن القويَّ بالاستعداد قُوَّتُه ... مثلُ الضعيف ففي الأحكام تَتَّفِقُ

إن الحقائقَ تجري في مَيادنها وكلُّ حق له في نفسه طَلَقُ
إن الفقيرَ الذي استولَتْ خَصَاصَتُه عليه في كل شيء ثَوْبُه خَلَقُ
في كل حالٍ من الأحوال تُبْصرهُ كأنه طَبَقٌ من فوقه طَبَقُ
وليس يمنعه عن عين مُوجِدِهِ على طريقته الآفاتُ والعُلَقُ

ومن ذلك: [البسيط]

الفَقْرُ حكمٌ ولكنْ ليس يدركه إلاَّ الذي جلَّ عن أهلٍ وعن وَلَدِ
الفَقْرُ حكمٌ يعمُّ الكونَ أجمَعَه ولا أُحَاشي من الأعيان من أَحَدِ
لأنها كلُّها بالذات تَطْلُبه والفقرُ يَطْلُبها بالذات في البَلَدِ
فكلُّها عددٌ لأنها عددٌ والكلُّ شَفْعٌ سوى المدعوِّ بالأَحَدِ
وما سواه من الأعيان فهو كما قلناه كالواهِبِ المِحْسَانِ والصَّمَدِ
سبحانه جلَّ أن يَحْظَى به أَحَدٌ فلا يُولَد في عَقْلٍ وفي جَسَدِ

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] يعني بأسمائه، كما نحن فقراء إلى أسمائه، ولذلك أتى بالاسم الجامع للأسماء الإلهية حقيقة سرّه ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] فلو اتصفوا اتصفوا بحقيقة سنكتب ما قالوا سببه: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ نزاهته ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٢٠] بيانه، ودليله الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه جزاؤه ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٧]﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٥]، وباب الفقر ليس فيه ازدحام لاتساعه وعموم حكمه، والفقر صفة مهجورة وما يخلو عنها أحد وهي في كل فقير بحسب ما تعطيه حقيقته وهي ألذ ما ينالها العارف، فإنها تدخله على الحق ويقبله الحق لأنه دعاه بها، والدعاء طلب وتقرّب منها أختها وهي الذلّة. قال أبو يزيد: قال لي الحق: تقرّب إليّ بما ليس لي الذلّة والافتقار، فذلّه وحجبه فهاتان صفتان في اللسان نعتان للممكنات ليس لواجب الوجود منهما نعت في اللسان، تعالىٰ الله حجاب مسدل وباب مقفل مفتاحه معلّق عليه يراه البصير ولا يحسّ به الأعمى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة الزمر: الآية ٩] وفي هذه الآية أعني آية قوله: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تسمّى الحق لنا باسم كل ما يفتقر إليه غيرة منه أن يفتقر إلى غيره، فالفقير هو الذي يفتقر إلى كل شيء ولا يفتقر إليه شيء، وهذا هو العبد المحض عند المحققين فتكون حاله في شيئية وجوده كحاله في شيئية عدمه دواء نافع لداء عضال، قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: الآية ٩] قضية في عين قضية عامة ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٧] تنبيه على شرف الرتبة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [سورة الإنسان: الآية ١] مع وجود عينه لأن الحين الدهري أتى عليه، فالفقر احتياج ذاتي من غير تعيين حاجة لجهله بالأصلح له ومن أسماء الله المانع وهو قد أعطى كل شيء خلقه حتى الغرض لما خلقه فينا أعطاه خلقه، فلا نزال أصحاب أغراض فما يمنع إلاَّ للمصلحة، كما يملي لقوم ليزدادوا

إثماً، فقد أعطاهم الإثم كما أعطى الإثم خلقه فالحق لا يتقيد إنعامه، والقوابل تقبل بحسب استعداداتها فمنعه عطاء لعلمه بالمصالح لذلك.

حكي عن بعضهم أنه سئل عن الفقير ما هو؟ فقال: من ليست له إلى الله حاجة يعني على التعيين ونبّه أن الاحتياج له ذاتي، والله قد أعطى كل شيء خلقه، فقد أعطاك ما فيه المصلحة لك لو علمت فما بقي لصاحب هذا المقام ما يسأل الله فيه، وما شرع السؤال إلاَّ لمن ليس له هذا الشهود ورآه يسأل الأغيار فغار فشرع له أن يسأله ولما سبق في علمه أنه يخلق قوماً ويخلق فيهم السؤال إلى الأغيار ويحجبهم عن العلم به أنه المسؤول في كل عين مسؤولة يفتقر إليها من جماد ونبات وحيوان وملك وغير ذلك من المخلوقات، أخبرنا أن الناس فقراء إلى الله أي هو المسؤول على الحقيقة فإنه ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىۡءٍ﴾ [سورة يس: الآية ٨٣] فالفقر إلى الله هو الأصل، فالعلماء بالله هم الذين يحفظون أحوالهم.

وصل: الغنيّ بالله فقير إليه، فالنسبة بلفظ الفقر إلى الله أولى من النسبة بالغنى، لأن الغنى نعت ذاتيّ يرفع المناسبة بين ذات الحق والخلق، وكل طلب فيؤذن بمناسبة، فإن الحاصل لا يبتغى فلا يكون الطلب إلاَّ في شيء ليس عند الطالب في حال الطلب، ولهذا لا يتعلق إلاَّ بالعدم الذي هو عين المعدوم، وقد يكون ذلك المطلوب في عين موجودة ولا عين موجودة ما في الكون إلاَّ طالب، فما في الكون إلاَّ فقير لما طلب، ويتميز الفقر عن سائر الصفات بأمر لا يكون لغيره وهو أنه صفة للمعدوم والموجود، وكل صفة وجودية من شرطها أن تقوم بالموجود، ألا ترى الممكن في حال عدمه يفتقر إلى المرجح فإذا وجد افتقر أيضاً إلى استمرار الوجود له وحفظه عليه فلا يزال فقيراً ذا فقر في حال وجوده وفي حال عدمه، فهو أعمّ المقامات حكماً، فالذي يكتسب من هذه الصفة إضافة خاصة وهي الفقر إلى الله لا إلى غيره وبه يثني عليه، وهو الذي يسعده ويقرّبه إلى الله، ويشركه في هذه الإضافة كل وصف جبل عليه الإنسان مثل البخل والحرص والشره والحسد وغير ذلك تشرف وتعلو بالإضافة والمصرف وتتضع وتسفل بالإضافة والمصرف، لا فقر أعظم من فقر الملوك لأنه مفتقر إلى مشاعلي وإلى كل ما يصحّ له به الملك، وهو فقير إلى ملكه الذي يبقى عليه اسم الملك.

قيل للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله سنة إحدى وثمانين وخمسمائة لما ذكر أبو القمح المنجم أن ريحاً عظيمة في هذه السنة تكون لا تمرّ على شيء إلاَّ جعلته كالرميم، فأشار عليه بعض جلسائه أن يتخذ في الأرض سرباً يكون فيه ليلة هبوب تلك الريح، فقال: ويهلك الناس؟ قيل له نعم، فقال: إذا هلك الناس فعلى من أكون ملكاً أو سلطاناً، لا خير في الحياة بعد ذهاب الملك، دعني أموت ملكاً والله لا فعلت، فانظر ما أحسن هذا. فكل موجود إضافي متحقق بالفقر وإن لم يشعر بذلك، وإن وجده فلا يعلم أن ذلك هو المسمّى فقراً، وإذا كان حكمه هذا فالفقر إلى الله تعالىٰ الذي بيده ملكوت كل شيء ثابت وموجود ولذلك الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] أي

سنوجبه أي سيعلمون أنّ الفقر نعت واجب لا يشكون فيه وجوباً ذاتياً من أجل قولهم: ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ لأنهم انحجبوا عما هو الأمر عليه من فقرهم، ولذلك كانوا كافرين فستروا ما هم به عالمون ذوقاً من أنفسهم لا يقدرون على إنكاره، وإن باهتوا فالحال يكذبهم فقالوا ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] وليسوا بأغنياء، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] وليس بفقير من حيث ذاته ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وقد تقدّم في مواضع من هذا الكتاب معنى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وأنه ليس مثل قوله ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] ولا مثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [سورة محمد: الآية ٣٨] فإذا علمت أن الفقر بهذه المثابة فالزم استحضاره في كل نفس وعلى كل حال وعلّق فقرك بالله مطلقاً من غير تعيين فهو أولى بك، وإن لم تقدر على تحصيل عدم التعيين فلا أقلّ أن تعلّقه بالله تعالىٰ مع التعيين، أوحى الله تعالىٰ إلى موسىٰ: يا موسىٰ لا تجعل غيري موضع حاجتك وسلني حتى الملح تلقيه في عجينك، هذا تعليم الله نبيه موسىٰ عليه السلام، ولقد رأيته سبحانه وتعالىٰ في النوم فقال لي: وكلني في أمورك فوكلته فما رأيت إلاّ عصمة محضة لله الحمد على ذلك، جعلنا الله تعالىٰ من الفقراء إليه به فإن الفقر إليه تعالىٰ به هو عين الغنى لأنه الغنيّ وأنت به فقير، فأنت الغنيّ به عن العالمين فاعلم ذلك.

الباب الثالث والستون ومائة

في معرفة مقام الغنى وأسراره

[نظم: البسيط]

إن الغنى صفةٌ سلبيَّةٌ ولذا تمتاز عن نِسَب الأسماء رُتْبَتُها
يخُصُّه حكمُها والعينُ في عَدَم منها وليس لها كونٌ فينعتُهَا
إن الدلالةَ في التحقيق مَجْهَلَةٌ ممّن يقول بها والعقلُ يُثْبِتُهَا
لذاك قال غنيٌّ في تَنَزُّله عن عالم الكون جاءت فيه آيتُهَا
في العنكبوت فدبِّرْه تجِدْهُ على ما قلت من نَفْي ما تُعطي دلالتُهَا
وليس يعرف إلاّ من علامَتُه دنيا وآخرة والشرعُ مُثْبِتُهَا

اعلم أيّدك الله أن الغنى صفة ذاتية للحق تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٦] أي المثنى عليه بهذه الصفة. وأمّا الغنى للعبد فهو غنى النفس بالله عن العالمين. قال رسول الله ﷺ: «**لَيسَ الغِنَىٰ عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ لَكِنَّ الغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ**» خرّجه الترمذيّ والعرض المال، وهذه كلمة نبوية صحيحة، فإنّ غنى الإنسان عن العالم لا يصحّ، ويصحّ غناه عن المال، فإن الله سبحانه قد جعل مصالح العبد في استعمال أعيان بعض الأشياء وهي من العالم، فلا غنى له عن استعمالها فلا غنى له عن العالم فلذلك خصّصه بالمال، فلا يوصف بالغنى عن العالم إلاّ الله تعالىٰ من حيث ذاته جلّ وتعالىٰ، والغنى في الإنسان من العالم فليس الإنسان بغنيّ عن الغنى فهو فقير إليه.

واعلم أنّ الغنى وإن كان بالله والعزّة وإن كانت بالله فإنهما صفتان لا يصحّ للعبد أن يدخل بهما على الله تعالىٰ، وإن كان بالله فيهما فلا بدّ أن يتركهما فيدخل فقيراً ذليلاً، ومعنى الدخول التوجّه إلى الله، فلا يتوجه إلى الله بغناه به ولا بعزّته به، وإنما يتوجه إلى الله بذلّه وافتقاره، فإن حضرة الحق لها الغيرة ذاتية فلا تقبل عزيزاً ولا غنياً وهذا ذوق لا يقدر أحد على إنكاره من نفسه. قال تعالىٰ مؤدّباً لنبيه ﷺ في ظاهر الأمر وهو يؤدّبنا به لنتعلم ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [سورة عبس: الآية ٥ ـ ٦] فكان مشهود محمد ﷺ الصفة الإلهية وهو الغنى فتصدّى لها لما تعطيه حقيقتها من الشرف، والنبيّ في ذلك الوقت في حال الفقر في الدعوة إلى الله وأن تعمّ دعوته، وعلم أن الرؤساء والأغنياء تبع الخلق لهم أكثر من تبع من ليس له هذا النعت، فإذا أسلم من هذه صفته أسلم لإسلامه خلق كثير، والنبيّ ﷺ له على مثل هذا حرص عظيم، وقد شهد الله تعالىٰ عندنا له بذلك فقال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي عنادكم يعزّ عليه للحق المبين ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨] في أن تسلموا وتنقادوا إلى ما فيه سعادتكم وهو الإيمان بالله وما جاء من عند الله، ومع هذا الحضور النبويّ أوقع العتب عليه تعليماً ولنا وإيقاظاً له، فإنّ الإنسان محل الغفلات وهو فقير بالذات، وقد استحق الجاه والمال أن يستغني بهما من قاما به ولذلك قال: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ وما قال: أما من هو غنيّ فإنه على التحقيق ليس بغنيّ بل هو فقير لما استغنى به فقال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَنِي فَأَحْسَنَ أَدَبِي**» فمن مكارم الأخلاق الإقبال على الفقراء والإعراض عن الأغنياء بالعرض من جاه أو مال، فإذا رأى ممّن هذه صفته الفقر والذلّة بنزوله عن هاتين المرتبتين وجب على أهل الله الإقبال عليه، فإنهم إن أقبلوا عليه وهم مستحضرون لما هم عليه من الجاه والمال تخيلوا أن إقبال أهل الله عليهم لجاههم ولما لهم فيزيدون رغبة في بقاء ما هم عليه، فلذلك منع الله أهله أن يقبلوا عليهم إلاّ بصفة الزهد فيهم، فإذا اجتمع في مجلس أهل الله من هو فقير ذليل منكسر وغنيّ بماله ذو جاه في الدنيا أظهر القبول والإقبال على الفقير أكثر من إظهاره على الغنيّ ذي الجاه لأنه المقصود بالأدب الذي أدّب الله تعالىٰ به نبيّه ﷺ، غير أن صاحب هذه الصفة يحتاج إلى ميزان الحق في ذلك، فإن غفل عنه كان الخطأ أسرع إليه من كل شيء، وصورة الوزن فيه أن لا يرى في نفسه شغوفاً عليه ولا يخاطبه أعني لا يخاطب هذا الغنيّ ولا ذا الجاه بصفة قهر تذلّه، فإنه لا يذلّ تحتها بل ينفر ويزيد عظمة وأنت مأمور بالدعوة إلى الله فادعوه كما أمر الله نبيه ﷺ أن يدعو الناس تعليماً له ولنا فإنا مخاطبون بالدعاء إلى الله كما قال: ﴿ٱدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] وقال له: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥] وقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] هذه هي الصفة اللازمة التي ينبغي أن يكون الداعي عليها، ولا يجعل في نفسه عند دعائه لمن هذه نعوته من عباد الله طمعاً فيما في أيديهم من عرض الدنيا ولا فيما هو عليه من الجاه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة المنافقون: الآية ٨] فلا تخلعنّ ثوباً ألبسكه الله، وليس له تصرّف إلاّ في هذا الموطن فهذا معنى الحكمة، وما عتب الله نبيه ﷺ في الأوّل إلاّ

لعزّة قامت بنفس أولئك النفر مثل الأقرع بن حابس وغيره فقالوا: لو أفرد لنا محمد مجلساً جلسنا إليه فإنا نأنف أن نجالس هؤلاء الأعبد يعنون بذلك بلالاً وخباباً وغيرهما فرغب النبيّ ﷺ لحرصه على إيمانهم ولعلمه أنه يرجع لرجوعهم إلى الله بشر كثير فأجابهم إلى ما سألوا وتصدّى إليهم لما حضروا وأعرض عن الفقراء فانكسرت قلوبهم لذلك فأنزل الله ما أنزل جبراً لقلوب الفقراء فانكسر الباقي من نفوس أولئك الأغنياء الأعزاء، وقيل له: ما عليك إلاّ البلاغ وليس عليك هداهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٢] ونزل الله عليه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [سورة عبس: الآية ١] الآيات، وأنزل عليه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٨] الآيات وفيها: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٩] ثم ذكر ما للظالمين عند الله في الآخرة.

فطريقة الإرشاد والدعاء إلى الله ميزانها الغنى بالله عمّا في أيديهم وما يكون بسببهم، فإن لم تكن في نفسك بهذه المثابة فلا تدع واشتغل بدعاء نفسك إلى الاتصاف بهذه الصفات المحمودة عند الله، ولا تتعدّ الحدّ الذي أنت عليه ولا تخط في غير ما تملكه فتكون غاصباً، والصلاة في الدار المغصوبة لا تجوز بخلاف، والدعاء إلى الله صلاة والإخلاص فيها الحرية عن استرقاق من يدعوهم إليه، فهذا هو محل الغنى بالله، وهنا يستعمل فإن عدلت به إلى غير هذا فقد أخسرت الميزان والله يقول: ﴿وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٩] ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٨] فتخرجوه عن حدّه وهو قوله: ﴿لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧١] والغلو والطغيان هما الرفعة فوق الحد الذي يستحقه المتغالي فيه. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والستون ومائة
في معرفة مقام التصوف

اعلم [نظم: البسيط]

أن التصوُّف تشبيهٌ بخالقنا ... لأنه خَلْقٌ فانظُرْ تَرَى عَجَبَا
كيف التخلُّق والمَكْرُ الخفيُّ له ... في خلقه وبهذا القَدْر قد حُجِبَا
وذمَّهُ في صفات الخلق فاعتَبِرُوا ... فيه فذا مَثَلٌ للعقل قد ضُرِبَا
إن الحديدَ إذا ما الصُّنْعُ يَدْخله ... في غير منزلَةٍ يردُه ذَهَبَا
كذلك الخُلُقُ المَذْمومُ يرجع محـ ... ـموداً إذا هو للرحمن قد نُسِبَا
إن التصوُّفَ أخلاقٌ مطهَّرَةٌ ... مع الإله فلا تَعْدُلْ به نَسَبَا

قال أهل طريق الله: التصوّف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوّف. وسئلت عائشة أمّ المؤمنين عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «**كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ**» وأن الله أثنى عليه بما أعطاه من ذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: الآية ٤] ومن شرط المنعوت بالتصوّف أن يكون حكيماً ذا حكمة، وإن لم يكن فلاحظ له في هذا اللقب فإنه حكمة كله فإنه

أخلاق، وهي تحتاج إلى معرفة تامة وعقل راجح وحضور وتمكن قوي من نفسه، حتى لا تحكم عليه الأغراض النفسية، وليجعل القرآن أمامه صاحب هذا المقام فينظر إلى ما وصف الحق به نفسه وفي أي حالة وصف نفسه بذلك الذي وصف نفسه، ومع من صرف ذلك الوصف الذي وصف به نفسه، فليقم الصوفيّ بهذا الوصف بتلك الحال مع ذلك الصنف، فأمر التصوّف أمر سهل لمن أخذه بهذا الطريق، ولا يستنبط لنفسه أحكاماً ويخرج عن ميزان الحق في ذلك، فإنه من فعل ذلك لحق ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٣ و ١٠٤] فإن الله لا يقيم له ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٥] كما أنهم لم يقيموا للحق هنا وزناً فعادت عليهم صفتهم فما عذبهم بغيرهم، فتأمّل قوله تعالىٰ في كتابه فإنه ما ذكر صفة قهر وشدّة إلاَّ وإلى جانبها صفة لطف ولين حيثما كان من كتاب الله.

ثم إن أفرد صفة منها ولم يذكر إلى جانبها ما يقابلها اطلبها تجد مقابلها في موضع آخر مفرداً أيضاً، فذلك المفرد المقابل هو لهذا المفرد المقابل والغالب الجمعية قال تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٩] ثم أردف بالمقابل فقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٥٠] وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ ثم أردف بالمقابل فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٦٧] وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ ثم أردف قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٦] وتتبع هذا تجده كما ذكرناه لك. ثم إنه ما ذكر نعتاً من نعوت أهل السعادة إلاَّ وذكر إلى جانبه نعتاً من نعوت أهل الشقاء إما بتقديم أو تأخير، قال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [سورة عبس: الآية ٣٨، ٣٩] في أهل السعادة، ثم عطف فقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [سورة عبس: الآية ٤٠ ـ ٤٢] وقال تعالىٰ في حال أهل السعادة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [سورة القيامة: الآية ٢٢، ٢٣] ثم عطف فقال في أهل الشقاء: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [سورة القيامة: الآية ٢٤ ـ ٢٥] والوجوه هنا عبارة عن النفوس الإنسانية لأن وجه الشيء حقيقته وذاته وعينه لا الوجوه المقيدة بالأبصار فإنها لا تتصف بالظنون، ومساق الآية يعطي أن الوجوه هنا هي ذوات المذكورين.

وقال في الأشقياء: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [سورة الغاشية: الآية ٢ ـ ٤] ثم عطف بالسعداء فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [سورة الغاشية: الآية ٨ ـ ١٠] وقال في أحوال السعداء: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [سورة الحاقة: الآية ١٩] فذكر خيراً، ثم عطف وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [سورة الحاقة: الآية ٢٥] فذكر شراً. وكذلك قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٨] ثم عطف وقال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٩] وقال في العناية: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا﴾ ثم عطف فقال: ﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٩] ثم عطف: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ١٠] وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [سورة الليل: الآية ٥ ـ ٧] ثم عطف وقال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ

بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [سورة الليل: الآية ٨ ـ ١٠] فالصوفي من قام في نفسه وفي خلقه، وفي خلقه قيام الحق في كتابه وفي كتبه ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٩] فقد رميت بك على الطريق، وليس التصوّف بشيء زائد عند القوم سوى ما ذكرته لك وبينته، ولكن الله أنزل الميزان والعلم بالمواطن وبالأحوال، فلا تخرج شيئاً عن مقتضى ما تطلبه الحكمة ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ﴾ فالتخلق به والوقوف عنده يزيل المرض النفسيّ لا بدّ من ذلك ولكن للمؤمنين ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٢] لأنهم يعدلون به عن موطنه ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٣] فيعمّمون الخاص ويخصّصون العامّ، فسمّوا ظالمين قاسطين. والحكماء هم المقسطون ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩] وما وصفه الله بالكثرة فإن القلة لا تدخله، وسبب وصفه بالكثرة لأن الحكمة سارية في الموجودات لأن الموجودات وضع الله، ثم خلق الإنسان وحمّله الأمانة بأن جعل له النظر في الموجودات والتصرّف فيها بالأمانة ليؤدي إلى كل ذي حق حقه، كما أنّ الله أعطى كل شيء خلقه، فجعل الإنسان خليفة في الأرض دون غيره من المخلوقين، فهو أمين على خلق الله فلا يعدل بهم عن سنّة الله، فالموجودات بيد الإنسان أمانة عرضت عليه فحملها، فإن أدّاها فهو الصوفي، وإن لم يؤدّها فهو الظلوم الجهول، والحكمة تناقض الجهل والظلم، فالتخلق بأخلاق الله هو التصوّف، وقد بيّن العلماء التخلّق بأسماء الله الحسنى وبيّنوا مواضعها وكيف تنسب إلى الخلق ولا تحصى كثرة، وأحسن ما تصرف فيه مع الله خاصة، فمن تفطن وصرفها مع الله أحاط علماً بتصريفها مع الموجودات فذلك المعصوم الذي لا يخطىء أبداً، والمحفوظ من أن يتحرك أو يسكن سدى، جعلنا الله من الصوفية القائمين بحقوق الله والمؤثرين جناب الله.

الباب الخامس والستون ومائة

في معرفة مقام التحقيق والمحققين

[نظم: مجزوء الكامل]

الحقُّ في حقِّ الطبيعَهْ ... كالآل تبصره بِقِيْعَهْ

فتظنُّه ماءً فتأ ... تِ لعين مائك أن تُضيعَهْ

انظُرْ وحقِّقْ ما رأيـ ... تَ فربما كانت خَديعَهْ

صُورُ التجلِّي هكذا ... الحقُّ فيها كالوَديعَهْ

وأتَتْ بها نُكْراً وإقـ ... راراً نصوصٌ في الشريعَهْ

لا تلتفِتْ للقاع وانظُـ ... ـرْ في منازلك الرَّفيعَهْ

تَجِدِ المُعَمَّى ينجلي ... من خلف أستار بديعَهْ

في غير شكْلٍ لا ولا ... صُوَرٍ تؤلِّفها الطَّبيعَهْ

فـإذا رأيـتَ الـحـقَّ فـاز جِـعْ والـتـزمْ سَـدَّ الـذَّريـعَـهْ
وانـطُـقْ بـمـا نـطـق الـحـ ـديـثُ بـه مـن الـفـاظ شـنـيـعَـهْ
وإذا الـغـريـزةُ نـازعـتـ ـك فـقـل لـهـا كُـونـي مُـطـيـعَـهْ
كـونـي الـكَـتُـومـةَ لا تـكـو نـي بـيـن صـحـبـك بـالـمـذيـعَـهْ
وإذا دُعِـيْـتِ بـمـثـل ذا كـونـي الـمـجـيـبـةَ والـسَّـمـيـعَـهْ
جَـمِّـلْ صـنـيـعَـكَ فـي الـقَـبُـو ل فـقـد تُـجَـازَى بـالـصَّـنـيـعَـهْ

اعلم أيّدك الله أن التحقيق هو المقام الذي لا يقبل الشبه القادحة فيه، وصاحب هذا النعت هو المحقق، فالتحقيق معرفة ما يجب لكل شيء من الحق الذي تطلبه ذاته فيوفيه ذلك علماً، فإن اتفق أن يعامله به حالاً فهو الذي ظهر عليه سلطان التحقيق، وإن لم يظهر عليه فهو عالم بأنه أخطأ، ولا يقدح ذلك الخطأ في تحقيقه لأنه بصير بنفسه وبما أخطأ فيه لأنه أخطأ عن تعمّل، وهنا سرّ إلهيّ وهو أن الله هو الحكيم المطلق وهو الواضع للأمور في مواضعها وهو ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فليس في الكون خطأ بنسبة الترتيب لله. وقد علم رب هذا التحقيق والمحقق به أن الأمر هكذا هو، وقد علم أنه أخطأ ولكن بالنسبة إلى ما أمر به لا بالنسبة إلى ما هو الأمر عليه من حيث إن الله هو الواضع له في ذلك المحل المسمّى هنا الفعل خطأ، فصاحب التحقيق مأجور في خطئه، أي مثنى عليه عند الله كالمجتهد ما هو مخطىء في نفس الأمر فإن حكمه مقرّر، وإنما خطؤه بالنسبة إلى غيره، حيث لم يوافق دليله دليل غيره وكل شرع وكل حق، فهكذا منزلة التحقيق والمحققين.

ومن شرط صاحب هذا المقام أن يكون الحق سمعه وبصره ويده ورجله وجميع قواه المصرفة له، فلا يتصرّف إلاّ بحق في حق لحق، ولا يكون هذا الوصف إلاّ لمحبوب، ولا يكون محبوباً حتى يكون مقرّباً، ولا يكون مقرّباً إلاّ بنوافل الخيرات، ولا تصحّ له نوافل الخيرات إلاّ بعد كمال الفرائض، ولا تكمل الفرائض إلاّ باستيفاء حقوقها ولذلك منعنا أن تصحّ لأحد على التعيين نافلة إلاّ بإخبار أو مشاهدة، وذلك أن الفرائض تستغرقها بالتكميل منها، فإنه قد ورد في الصحيح عن الله تعالىٰ أنه يقول يوم القيامة: انظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامّة كتبت له تامّة، وإن كان انتقص منها شيئاً قال: أنظروا هل لعبدي من تطوّع؟ فإن كان له تطوّع وهو النافلة قال: أكملوا لعبدي فريضته من تطوّعه.

قال رسول الله ﷺ: «**ثُمَّ تُؤخَذُ الأَعْمَالُ عَلَىٰ ذَاكُمْ**» وما شهد الله بنافلة لأحد إلاّ لرسول الله ﷺ. فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٩] وهو مقام القرب والسيادة المشهودة للكون، فمن كان الحق سمعه فلا تدخل عليه شبهة فيما يسمع بل يدري ما سمع، ومن سمع وبمن سمع، وما يقتضيه ذلك المسموع فيعمل بحسب ذلك فلا يخطى سمعه، وكذلك إذا كان الحق بصره علم بمن أبصر وما أبصر فلم يدخل في نظره شبهة ولا في حسّه غلط ولا في عقله حيرة فهو لله بالله، وكذلك في جميع حركاته وسكناته حركات عن تحقيق من محقق، ولا ينظر في ذلك إلى تخطئة الغير فيها فإنه من

المحال قطعاً أن يكون في الوجود أمر يوافق أغراض الجميع، فإنّ الله خلق نظرهم متفاوتاً، وما جعل في موجوداته من تفاوت في نفس الأمر كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [سورة الملك: الآية ٣] فمنع أن يكون هناك تفاوت بل أراه الأمور على وضع الحكمة الإلهية، فمن أعطى هذا العلم فقد أعطى ما يجب لكل أحد من خلق الله، وهذا مقام عزيز قلّ أن ترى له ذائقاً إلاّ من كان له هذا المقام، وعلامة صاحب هذا المقام أن يكون عنده لكل ما يسمّى خطأ في الوجود وجه إلى الحق يعرفه ويعرف به إن سئل عنه عند من يعرف منه القبول عليه هذه علامته، وهو الذي يرى ربه بكل عقيدة وبكل عين وفي كل صورة، وليس هذا إلاّ لصاحب هذا المقام، فإذا ادعاه أحد ووقع أمر في العالم يقع فيه الإنكار ولا يكون عند مدعي هذا المقام له مخرج لحق جملة واحدة فدعواه في هذا المقام محال، فإنّ صاحب هذا المقام يعلم أين وجه الحق في ذلك الأمر الذي صحبه النكر، وأكثر ما يكون ذلك في العقائد والأمور الشرعية، وما عدا هذين الموضعين فإنه يسهل وجود الحق فيما يقع فيه الإنكار العرضي ولا يلزم من إظهار حق ذلك الأمر أن يكون لسان الحمد يجري عليه ليس ذلك المطلوب بل هو مذموم مثلاً مع كونه حقاً، فما كل حق محمود شرعاً ولا عقلاً، وإنما المراد بالتحقيق علم ما يستحقه كل أمر عدماً كان أو وجوداً حتى الباطل يعطيه حقّه ولا يتعدّى به محله، ومن كان هذا نعته فهو الإمام المبين وهو مجلى العالمين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وفي هذا الباب قلت أخاطب نفسي: [مجزوء الرجز]

يا نفسُ كوني للذي ... أوْرِدُهُ مُوَافِقَهْ
والتزمي وانتظمي ... مع النفوس الصّادقَهْ
فإنها موقوفَةٌ ... على شُهودِ السّابقَهْ
جَنبَ براهين النُّهى ... فإنّ منها الحالِقَهْ
فما له فَرُدَّهُ ... إليك بالموافَقَهْ
من سيِّىء لا يُرتَضَى ... لا تُنعَتي بالخَالِقَهْ
حضْرَةُ فِعلِ الله لا ... تَحتَمِلُ المُشَاقَقَهْ
نَفْسَكَ غالِطْ عندها ... لا تركَبِ المُحَاقَقَهْ
شَقْوَتُها مقرونةٌ ... بالبحث والمُضَايَقَهْ
لا تلْتَفِتْ لما يُرَى ... من الأمور الخارقَهْ
ما لم تكُنْ مسلِّماً ... لها على المُطابَقَهْ
إن الحكيمَ المُجتَبَى ... في حَلْبة المُسَابَقَهْ
يجري على حِكْمته ... مع العقول الفارقَهْ
في حَضْرة النُّور التي ... لها الشُّموسُ الشارقَهْ

فاعلم أيّدك الله أنّ من التحقيق أن تعطي المغالطة في موضعها حقها، فإن لها في كتاب الله موضعاً وهو قوله في عمال الكفار: ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ [سورة النور: الآية ٣٩]

والحق هو الذي أعطاه في عين هذا الرائي صورة الماء وهو ليس بالماء الذي يطلبه هذا الظمآن فتجلّى له في عين حاجته، فإذا جاءه لم يجده شيئاً فنكر وما قال لم يجده الماء، فإن السراب لم يكن ذلك المحل الذي جاء إليه محل السراب، ولو كان لقال وجد السراب وما كان سراباً إلاّ في عين الرائي طالب الماء فرجع هذا الرائي لنفسه لما لم يجد مطلوبه في تلك البقعة، فوجد الله عنده فلجأ إليه في إغاثته بالماء أو بالمزيل لذلك الظمأ القائم به، فبأي أمر أزاله فهو المعبّر عنه بالماء، فلما نفى عنه اسم الشيء جعل الوجود له سبحانه لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فما هو شيء بل هو وجود، فأنظر ما أدق هذا التحقيق، فهذا كنار موسىٰ فتجلّى له في عين حاجته فلم تكن ناراً، كما قلنا: [البسيط]

كنارِ موسىٰ يراها عَيْنَ حاجته وهو الإلهُ ولكنْ ليس يَدْريهِ

الباب السادس والستون ومائة

في معرفة مقام الحكمة والحكماء

[نظم: الكامل]

إنَّ الحكيمَ مرتِّبُ الأشياء في أعين الأكوان والأسْمَاءِ
يجري مع العلم القديم بحُكْمِهِ في الحِكْمةِ المُزدانة الغَرَّاءِ
فتراه يعطي كلَّ شيء خَلْقَهُ في حالة السَّرَّاء والضَّرَّاءِ
وعن العَوَارض لا يزال مُنَزَّهاً في بدء ما تَهْوَى من الأشياءِ
لكنه المَعْصومُ في أفعاله في كل ما يجري من الأَهْوَاءِ

اعلم أيّدك الله أن الحكمة علم بمعلوم خاص وهي صفة تحكم ويحكم بها ولا يحكم عليها، واسم الفاعل منها حكيم فلها الحكم، واسم الفاعل من الحكم الذي هو أثرها حاكم وحكم، وبهذا سمّى الرسن الذي يحكم به الفرس حكمة، فكل علم نه هذا النعت فهو الحكمة، والأشياء المحكوم عليها بكذا تطلب بذاتها واستعدادها ما يحتاج إليه فلا يعطيها ذلك إلاّ من نعته الحكمة واسمه الحكيم، فهل للاستعدادات حكم في هذا المسمّى حكيماً أو الحكمة لها الحكم أو المجموع؟ فأما الاستعداد على الانفراد فلا أثر له فإنا نرى من يستحق أمراً ما باستعداده وهو بين يدي عالم لكنه ليس بحكيم فلا يعطيه ما يستحقه لكونه جاهلاً، وقد يمنعه ما يستحقه مع كونه موصوفاً بالعلم بما يستحقه ذلك الأمر وما يفعل فلا بالمجموع ولا بالإنفراد، فعلمنا أن ذلك راجع إلى أمر رابع ما هو الحكمة، ولا العليم بالحكمة، ولا استعداد الأمر الذي يطلب الحكمة، وذلك الأمر الزائد هو الذي يبعثه على إعطاء ذلك الأمر حقّه لعلمه بما يستحقه وحينئذ يسمّى حكيماً، وما لم يكن منه ذلك فهو عالم بالحكمة، وبما تستحقه وما يستحقه ذلك الأمر باستعداده فلا يسمّى حكيماً إلاّ بوجود هذا الاستعمال وهو قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] من اسمه الحكيم، فبالإعطاء الذي تعطيه الحكمة يسمّى حكيماً فهو علم تفصيليّ عملي.

والعلم بالمجمل علم تفصيليّ فإنه فصله عن العلم التفصيليّ، ولولا ذلك لم يتميز المجمل من المفصل، فمن الحكمة العلم بالمجمل والتجميل والمفصل والتفصيل، قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ عملاً ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [سورة ص: الآية ٢٠] في المقال، فالحكيم يجري مع كل حال وموطن بحسب ذلك الحال وذلك الموطن، وليس هذا إلاّ للملامية خاصة، فهم المجهولون في الدنيا لأنهم لا يتميزون بأمر يخرجهم عن حكم ما يعطيه موطن الدنيا، فإن قام به حال يناقض الموطن من وجه وهو حال النبوّة أعني الرسالة فإنه لا بدّ أن يحكم عليه الحال وهو الذي تعطيه الحكمة، فيتميز في موطن الدنيا بأنه عند الله بمكان ولم يكن له ذلك، ولكن حال التبليغ يطلب الدلالة على صحة ما يدعو إليه فهذا هو حكم الحال، فإن كان ولياً دون رسول تعين عليه الجري بحكم الموطن لا بحكم الحال، فإن ظهر من هذا الوليّ ما يدل على منزلته من ربه بما يعطي من التمكن والتصرّف في العالم وليس برسول فهو رعونة وصاحب نقص، فإن ظهر بعلم غريب فهل يكون مثل صاحب الحال النفسيّ المؤثر أم لا؟ قلنا: لا، فإن العلم الذي لا يكون معه أثر كوني سوى نفسه لا يقوم عند العامة ولا عند الخاصة له ذلك الوزن، ولا لصاحبه ذلك التميز إلاّ عند الأكابر من أهل الله وممّن له تحقق واستشراف على ذلك المقام الأعلى، ولذلك قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] من أجل الموطن وما أظهر آية في دعائه إلى الله في كل وقت ولا عند كل مدعوّ مع حاجته إلى ذلك، ولكن لما كان مأموراً بالتبليغ ما عليه إلاّ البلاغ فإن شاء الحق أيّده بالمعجزات، وإن شاء زاد دعاؤه من أرسل إليهم فراراً ممّا دعاهم إليه من توحيده كنوح عليه السلام فأخبر فقال: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [سورة نوح: الآية ٥] وللحكماء السياسة في العالم بالطريقة المشروعة التي شرع الله لعباده ليسلكوا فيها فيقودهم ذلك السلوك إلى سعادتهم. انتهى الجزء الثامن ومائة.

(الجزء التاسع ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب السابع والستون ومائة

في معرفة كيمياء السعادة

[نظم: البسيط]

إن الأكاسيرَ بُرهَانٌ يدلُّ على ... ما في الوجود من التَّبْديل والغِيَرِ
إن العدوَّ بإكسير العِناية إذ ... يُلْقَى عليه بميزان على قَدَرِ
في الحين يخرج صِدْقاً من عَداوته ... إلى ولايته بالحُكْم والقَدَرِ
فَصَحِّحِ الوزنَ فالميزانُ شِرْعَتُنا ... وقد أَبَنْتُ فكُنْ فيه على حَذَرِ

الـكِـيـمـيَـاءُ مـقـاديـرٌ مُـعَـيَّـنَـةٌ   لأنَّ كَـمْ عَـدَدٌ فـي عـالـم الـصُّـوَرِ
فـكـن بـه فَـطِـنـاً إن كـنـتَ ذا نَـظَـرٍ   ولا تـردَّنَّـكَ الأَهْـوَا عـن الـنَّـظَـرِ
تَـلْـحَـقْ بـرتـبـة أمـلاكٍ مـطـهَّـرةٍ   وتَـرْتَـقـي رُتَـبـاً عـن عـالـم الـبَـشـرِ

الكيمياء عبارة عن العلم الذي يختص بالمقادير والأوزان في كل ما يدخله المقدار والوزن من الأجسام والمعاني محسوساً ومعقولاً، وسلطانها في الاستحالات أعني تغيّر الأحوال على العين الواحدة فهو علم طبيعيّ روحانيّ إلهيّ، وإنما قلنا إلهيّ لورود الاستواء والنزول والمعية وتعدّد الأسماء الإلهية على المسمّى الواحد باختلاف معانيها: [البسيط]

فـالأمـرُ مـا بـيـن مَـطْـويٍّ ومَـنْـشُـورِ   كـالـكَـيْـف والـكَـمِّ أحـوالُ الـمـقـاديـرِ
تـاهَـتْ مـراكـبُـنـا عـلـى بَـسَـائـطـهـا   تِـيْـهَ امـتـيـازٍ بـسـرٍّ غـيـر مَـقْـهُـورِ
والـوحـيُ يـنـزل أحـكـامـاً يُـشَـرِّعُـهَـا   والـحـكـم مـا بـيـن مَـنْـهِـيٍّ ومَـأْمـورِ

فعلم الكيمياء العلم بالإكسير وهو على قسمين أعني فعله: إما إنشاء ذات ابتداء كالذهب المعدني، وإما إزالة علة ومرض كالذهب الصناعي الملحق بالذهب المعدني كنشأة الآخرة والدنيا في طلب الاعتدال. فاعلم أن المعادن كلها ترجع إلى أصل واحد، وذلك الأصل يطلب بذاته أن يلحق بدرجة الكمال وهي الذهبية، غير أنه لما كان أمراً طبيعياً عن أثر أسماء إلهية متنوعة الأحكام طرأت عليه في طريقه علل وأمراض من اختلاف الأزمنة وطبائع الأمكنة مثل حرارة الصيف، وبرد الشتاء، ويبوسة الخريف، ورطوبة الربيع، ومن البقعة كحرارة المعدن وبرده. وبالجملة فالعلل كثيرة، فإذا غلبت عليه علة من هذه العلل في أزمان رحلته ونقلته من طور إلى طور وخروجه من حكم دور إلى حكم دور واستحكم فيه سلطان ذلك الموطن ظهرت فيه صورة نقلت جوهرته إلى حقيقتها فسمّي كبريتاً أو زئبقاً وهما الأبوان، لما يظهر من التحامهما وتناكحهما من معادن لعلل طارئة على الولد، فهما إنما يلتحمان ويتناكحان ليخرج بينهما جوهر شريف كامل النشأة يسمّى ذهباً فيشرف به الأبوان، إذ كانت تلك الدرجة مطلوبة لكل واحد من الأبوين من حيث جوهريتهما، إلاّ أن ذلك الأصل في الإلهيات نفس وفي الطبيعة بخار إلاّ أنّ الأبوين أمر وطبيعة.

وإنما قلنا إن ذلك الأمر كان مطلوباً للأبوين من حيث جوهرهما ومن حيث صورتهما لأن الحكم في الجوهر الهيولانيّ إنما هو للصور، فلما حالت العلة التي طرأت عليه في معدنه فصيرته كبريتاً وزئبقاً علمنا أيضاً أن في قوّتهما إذا لم يطرأ عليهما علة تخرجهما عن سلطان حكم اعتدال الطبائع وتعدل بهما عن طريقه أن الولد الخارج بينهما الذي يستحيل أعيانهما إليه أنهما يلحقان بدرجة الكمال وهو الذهب الذي كان مطلوباً لهما ابتداء، فإذا التحما وتناكحا في المعدن بحكم طبيعة ذلك المعدن الخاص وحكم قبوله لأثر طبيعة الزمان فيه وهو على صراط مستقيم مثل الفطرة التي فطر الله الناس عليها وأبواه هما اللذان يهوّدان الولد أو ينصرانه أو يمجسانه، كذلك إذا كثرت فيه كمية الأب الواحد لعرض معدني من عرض زماني غلب بذلك إحدى الطبائع على أخواتها، فزاد وأربى ونقص الباقي عن مقاومة الغالب حكم على الجوهر

فردّه لما تعطيه حقيقة ذلك الطبع، وعدل به عن طريق الاعتدال التي هي المحجة التي تخرج بك إلى المدينة الفاضلة الذهبية الكاملة التي من حصل فيها لم يقبل الاستحالة إلى الأنقص عنها، فإذا غلب عليه ذلك الطبع قلب عينه فظهرت صورة الحديد أو النحاس أو القصدير أو الآنك أو الفضة بحسب ما يحكم عليه.

ومن هنا تعرف قوله تعالىٰ في الاعتبار: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٥] أي تامّة الخلقة وليس إلاّ الذهب، وغير تامّة الخلقة وهي بقية المعادن، فتتولاه في ذلك الوقت روحانية كوكب من الكواكب السيارة السبعة وهو ملك من ملائكة تلك السماء يجري مع ذلك الكوكب المسخّر في سباحته، لأنّ الله هو الذي وجهه إلى غاية يقصدها عن أمر خالقه إبقاء لعين ذلك الجوهر، فيتولى صورة الحديد ذلك الملك الذي جواده هذا الكوكب السابح من السماء السابعة من هنا وصورة القزدير وغيره، وكذلك كل صورة معدنية يتولاها ملك يكون جواده هذا الكوكب السابح في سمائه وفلكه الخاص به الذي وجهه فيه ربه تعالىٰ، فإذا جاء العارف بالتدبير نظر في الأمر الأهون عليه، فإن كان الأهون عليه إزالة العلة من الجسد حتى يردّه إلى المجرى الطبيعيّ المعتدل الذي انحرف عنه فهو أولى، فإنّ الكوكب السابح يراه صاحب الرصد وقتاً في المنزلة عينها، ووقتاً عادلاً عنها منحرفاً فوقها أو تحتها، فيعمد العارف بالتدبير إلى السبب الذي ردّه حديداً أو ما كان، ويعلم أنه ما غلب الجماعة إلاّ بما فيه من الكمية، فنقص من الزائد وزاد في الناقص، وهذا هو الطب والعامل به العالم هو الطبيب فيزيل عنه بهذا الفعل صورة الحديد مثلاً أو ما كان عليه من الصور، فإذا ردّه إلى الطريق أخذ يحفظ عليه تقويم الصحة وإقامته فيها فإنه قد يعافى من مرضه وهو ناقه فيخاف عليه فهو يعامله بتلطيف الأغذية ويحفظه من الأهوية ويسلك به على الصراط القويم إلى أن يكسو ذلك الجوهر صورة الذهب، فإذا حصلت له خرج عن حكم الطبيب وعن علته، فإنه بعد ذلك الكمال لا ينزل إلى درجة النقصان ولا يقبله، ولو رامها الطبيب لم يتمكن له ذلك، فإنّ القاضي ما عنده نص في هذه المسألة حتى يحكم فيها بما يراه، وسبب ذلك على الحقيقة أنّ القاضي عادل ولا يحكم إلاّ على من خرج عن طريق الحق وهذا الذهب عليه فلا يقضي عليه بشيء لأنه لم يتوجّه للخصم عليه حق فهذا سببه. فمن لزم طريق الحق ارتفع عن درجة الحكم عليه وصار حاكماً على الأشياء، فهذه طريقة إزالة العلل، وما رأيت عليها أحداً يعرف ذلك ولا نبّه عليه ولا أشار، ولا تجده إلاّ في هذا الباب أو في كلامنا.

وأما إذا أراد صاحب هذه الصنعة إنشاء العين المسمّى إكسيراً ليحمله على ما يشاء من الأجساد المعدنية فيقلبها لما تحكم به طبيعة ذلك الجسد القابل والدواء واحد الذي هو الإكسير، فمن الأجساد من يرده الإكسير إلى حكمه فيكون إكسيراً يعمل عمله وهو المسمّى بالنائب، فيقوم في باقي الأجساد المعدنية ويحكم بحكمه، مثل أن يأخذ وزن درهم أو أيّ وزن شاء من عين الإكسير فيلقيه على ألف وزن من أيّ جسد شئت من الأجساد، فإن كان قزديراً أو حديداً أعطاه صورة الفضة، وإن كان نحاساً أو رصاصاً أسود

أو فضة أعطاه صورة الذهب، وإن كان الجسد زيبقاً أعطاه قوّته وتركه نائباً عنه يحكم في الأجساد حكمه ولكن بوزن يخالف وزن باقي الأجساد، وذلك وزن درهم من الإكسير فيلقيه على رطل الحكمة خاصة من الزيبق فيردّه إكسيراً كله، فيلقي من ذلك النائب وزناً على ألف وزن من بقية الأجساد مثل الإكسير فيجري في الحكم مجراه، فهذه صورة الإنشاء، والأولى صنعة إزالة المرض.

وإنما جئنا بهذا لنعلمك بارتباط الحكمة في مسمّى الكيمياء بين الطريقين، ولماذا سميت كيمياء السعادة، لأن فيها سعادة لا بد وزيادة ما عند الناس من أهل الله خير منها وهو أنه يعطيك درجة الكمال الذي للرجال، فإنه ما كل صاحب سعادة يعطي الكمال، فكل صاحب كمال سعيد وما كل سعيد كامل، والكمال عبارة عن اللحوق بالدرجات العلى وهو التشبّه بالأصل، ولا يتخيل أن قول النبيّ ﷺ **«كمل من الرجال كثيرون»** أنه أراد الكمال الذي ذكره الناس وإنما هو ما ذكرناه، وذلك بحسب ما يعطي الاستعداد العلمي في الدنيا، فلنتكلم إن شاء الله على كيمياء السعادة بعد هذا التمهيد، والله الموفق لا رب غيره.

وصل في فصل: اعلم أن الكمال المطلوب الذي خلق له الإنسان إنما هو الخلافة، فأخذها آدم عليه السلام بحكم العناية الإلهية وهو مقام أخص من الرسالة في الرسل لأنه ما كل رسول خليفة، فإن درجة الرسالة إنما هي التبليغ خاصة قال تعالىٰ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٩] وليس له التحكم في المخالف إنما له تشريع الحكم عن الله أو بما أراه الله خاصة، فإذا أعطاه الله التحكم فيمن أرسل إليهم فذلك هو الاستخلاف والخلافة والرسول الخليفة، فما كل من أرسل حكم، فإذا أعطى السيف وأمضى الفعل حينئذ يكون له الكمال فيظهر بسلطان الأسماء الإلهية، فيعطي ويمنع، ويعزّ ويذلّ، ويحيي ويميت، ويضرّ وينفع، ويظهر بأسماء التقابل مع النبوّة لا بدّ من ذلك، فإن ظهر بالتحكّم من غير نبوّة فهو ملك وليس بخليفة، فلا يكون خليفة إلاّ من استخلفه الحق على عباده لا من أقامه الناس وبايعوه وقدموه لأنفسهم وعلى أنفسهم، فهذه هي درجة الكمال.

وللنفوس تعمل مشروع في تحصيل مقام الكمال وليس لهم تعمّل في تحصيل النبوّة، فالخلافة قد تكون مكتسبة، والنبوّة غير مكتسبة، لكن لما رأى بعض الناس الطريق الموصل إليها ظاهر الحكم ومن شاء الله يسلك فيه تخيّل أنّ النبوّة مكتسبة وغلط، فلا شك أن الطريق يكتسب، فإذا وصل إلى الباب يكون بحسب ما يخرج له في توقيعه، وهنالك هو الاختصاص الإلهيّ، فمن الناس من يخرج له توقيع بالولاية، ومنهم من يخرج له توقيع بالنبوّة وبالرسالة، وبالرسالة والخلافة، ومنهم من يخرج له توقيع بالخلافة وحدها، فلما رأى من رأى أن هؤلاء ما خرج لهم هذا التوقيع إلاّ بعد سلوكهم بالأفعال والأقوال والأحوال إلى هذا الباب تخيّل أن ذلك مكتسب للعبد فأخطأ.

واعلم أن النفس من حيث ذاتها مهيأة لقبول استعداد ما تخرج به التوقيعات الإلهية، فمنهم من حصل له استعداد توقيع الولاية خاصة فلم يزد عليها، ومنهم من رزق استعداد ما

ذكرناه من المقامات كلها أو بعضها، وسبب ذلك أن النفوس خلقت من معدن واحد كما قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [سورة النساء: الآية ١] وقال بعد استعداد خلق الجسد: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] فمن روح واحد صحّ السر المنفوخ في المنفوخ فيه وهو النفس، وقوله: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٨] يريد الاستعدادات، فيكون بحكم الاستعداد في قبول الأمر الإلهيّ، فلما كان أصل هذه النفوس الجزئية الطهارة من حيث أبوها ولم يظهر لها عين إلاّ بوجود هذا الجسد الطبيعيّ فكانت الطبيعة الأب الثاني خرجت ممتزجة فلم يظهر فيها إشراق النور الخالص المجرّد عن المواد ولا تلك الظلمة الغائية التي هي حكم الطبيعة، فالطبيعة شبيهة بالمعدن، والنفس الكلية شبيهة بالأفلاك التي لها الفعل، وعن حركاتها يكون الانفعال في العناصر، والجسد المكوّن في المعدن بمنزلة الجسم الإنساني، والخاصية التي هي روح ذلك الجسد المعدني بمنزلة النفس الجزئية التي للجسم الإنساني وهو الروح المنفوخ، وكما أن الأجساد المعدنية على مراتب لعلل طرأت عليهم في حال التكوين مع كونهم يطلبون درجة الكمال التي لها ظهرت أعيانهم، كذلك الإنسان خلق للكمال، فما صرفه عن ذلك الكمال إلاّ علل وأمراض طرأت عليهم إما في أصل ذواتهم، وإما بأمور عرضية فاعلم ذلك. فلنبتدىء بما ينبغي أن يليق بهذا الباب وهو أن نقول:

إن النفوس الجزئية لما ملكها الله تدبير هذا البدن واستخلفها عليه وبين لها أنها خليفة فيه لتتنبه على أن لها موجداً استخلفها فيتعين عليها طلب العلم بذلك الذي استخلفها هل هو من جنسها أو شبيه بها بضرب ما من ضروب المشابهة أو لا يشبهها؟ فتوفرت دواعيها لمعرفة ذلك من نفسها، فبينما هي كذلك على هذه الحالة في طلب الطريق الموصلة إلى ذلك وإذا بشخص قد تقدمها في الوجود من النفوس الجزئية فأنسوا به للشبه فقالوا له: أنت تقدمتنا في هذه الدار فهل خطر لك ما خطر لنا؟ قال: وما خطر لكم؟ قالوا: طلب العلم بمن استخلفنا في تدبير هذا الهيكل فقال: عندي بذلك علم صحيح جئت به ممّن استخلفكم وجعلني رسولاً إلى جنسي لأبين لهم طريق العلم الموصل إليه الذي فيه سعادتهم، فقال الواحد: إياه أطلب فعرفني بذلك الطريق حتى أسلك فيه. وقال الآخر: لا فرق بيني وبينك فأريد أن استنبط الطريق إلى معرفته من ذاتي ولا أقلدك في ذلك، فإن كنت أنت حصل لك ما أنت عليه وما جئت به بالنظر الذي خطر لي فلماذا أكون ناقص الهمة وأقلدك؟ وإن كان حصل لك باختصاص منه كما خصّنا بالوجود بعد أن لم نكن فدعوى بلا برهان، فلم يلتفت إلى قوله وأخذ يفكر وينظر بعقله في ذلك، فهذا بمنزلة من أخذ العلم بالأدلة العقلية من النظر الفكري.

ومثال الثاني مثال أتباع الرسول ومقلديه فيما أخبر به من العلم بصانعهم، ومثال ذلك الشخص الذي اختلف في اتباعه هذان الشخصان مثال الرسول المعلم فشرع هذا المعلم يبين الطريق الموصل إلى درجة الكمال والسعادة على ما اقتضاه نظر الشخص الواحد من الشخصين اللذين نظرا في شأن هذا المعلم وهو الذي لم يتبعه، ولكن ما وقعت الموافقة معه إلاّ في بعض ما يقتضيه الأمر الطبيعي من مخالفة الطبع، ولا كل مخالفة الطبع إلاّ بوزن خاص

ومقدار معين، وبهذا سمّي كيمياء لدخول التقدير والوزن، فلما رأى ذلك هذا الشخص فرح بذلك حيث استقل به دون تقليده، ورأى أن له شفوفاً على صاحبه الذي قلّده فاغتر به. وأما المقلد فبقي على ما كان عليه من تقليد المعلم، وزاد غير المقلد وهو ذلك الشخص بما رأى من الموافقة زهداً في تقليد هذا الشخص وانفراداً بنظره من أجل هذه الموافقة، فسلك الرجلان أو الشخصان إن كانا امرأتين أو أحدهما امرأة في الطريق الواحد بحكم النظر والآخر بحكم التقليد وأخذا في الرياضة وهي تهذيب الأخلاق والمجاهدة وهي المشاق البدنية من الجوع والعبادات العملية البدنية كالقيام الطويل في الصلاة والدؤب عليها، والصيام والحج والجهاد والسياحة هذا بنظره، وهذا بما شرع له أستاذه ومعلمه المسمّى شارعاً، فلما فرغا من حكم أسر الطبيعة العنصرية وما بقي واحد منهما يأخذ من حكم الطبيعة العنصرية إلاَّ الضروري الذي يحفظ به وجود هذا الجسم الذي بوجوده واعتداله وبقائه يحصل لهذه النفس الجزئية مطلوبها من العلم بالله الذي استخلفها خاصة، فإذا خرجا عن حكم الشهوات الطبيعية العنصرية وفتح لهما باب السماء الدنيا تلقى المقلد آدم عليه السلام ففرح به وأنزله إلى جانبه، وتلقى صاحب المستقل روحانية القمر فأنزله عنده.

ثم إن صاحب النظر الذي هو نزيل القمر في خدمة آدم عليه السلام وهو كالوزير له مأموراً من الحق بالتسخير له ورأى جميع ما عنده من العلوم لا يتعدّى ما تحته من الأكر ولا علم له بما فوقه وأنه مقصور الأثر على ما دونه، ورأى آدم أن عنده علم ما دونه وعلم ما فوقه من الأمكنة وأنه يلقي إلى نزيله ممّا عنده ممّا ليس في وسع القمر أن يعرفه، وعلم أنه ما أنزله عليه إلاَّ عناية ذلك المعلم الذي هو الرسول، فاغتمّ صاحب النظر وندم حيث لم يسلك على مدرجه ذلك الرسول واعتقد الإيمان به، وأنه إذا رجع من سفرته تلك أن يتبع ذلك الرسول ويستأنف من أجله سفراً آخر.

ثم إن هذا التابع نزيل آدم علمه أبوه من الأسماء الإلهية على قدر ما رأى أنه يحمله مزاجه، فإن للنشأة الجسمية العنصرية أثراً في النفوس الجزئية، فما كلها على مرتبة واحدة في القبول فتقبل هذه ما لا تقبل غيرها، وفي أول سماء يقف من علم آدم على الوجه الإلهي الخاص الذي لكل موجود سوى الله الذي يحجبه عن الوقوف مع سببه وعلته، وصاحب النظر لا علم له بذلك الوجه أصلاً، والعلم بذلك الوجه هو العلم بالإكسير في الكيمياء الطبيعية فهذا هو إكسير العارفين، وما رأيت أحداً نبّه عليه غيري، ولولا أني مأمور بالنصيحة لهذه الأمة بل لعباد الله ما ذكرته، فعلم كل واحد منهما ما لهذا الفلك من الحكم الذي ولاّه الله به في هذه الأركان الأربعة والمولدات، وما أوحى الله في هذه السماء من الأمر المختصّ بها في قوله ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] وما علم صاحب النظر نزيل القمر من ذلك إلاَّ ما يختص بالتأثيرات البدنية والاستحلالات في أعيان الأجسام المركبة من الطبيعة العنصرية، وحصل التابع ما فيها من العلم الإلهي الحاصل للنفوس الجزئية ممّا هو لهذا الفلك خاصة، وما نسبة وجود الحق من ذلك، وما له فيهم من الصور، ومن أين صحّت الخلافة

لهذه النشأة الإنسانية، ولا سيّما وآدم المنصوص عليه صاحب هذه السماء، فعلم التابع صورة الاستخلاف في العلم الإلهيّ، وعلم صاحب النظر الاستخلاف العنصري في تدبير الأبدان وعلل الزيادة والربو والنموّ في الأجسام القابلة لذلك والنقص، فكل ما حصل لصاحب النظر حصل للتابع، وما كل ما حصل للتابع حصل لصاحب النظر، فما يزداد صاحب النظر إلاّ غماً على غم، وما يصدق متى ينقضي سفره ويرجع إلى بدنه، فإنهم في هذا السفر مثل النائم فيما يرى في نومه وهو يعرف أنه في النوم فلا يصدق متى يستيقظ ليستأنف العمل ويستريح من غمّه، وإنما يتقلق خوفاً ممّا حصل له في سفره أن يقبض فيه فلا يصحّ له ترق بعد ذلك، فهذا هو الذي يزعجه.

والتابع ليس كذلك فإنه يرى الترقي بصحبه حيث كان من ذلك الوجه الخاص الذي لا يعرفه إلاّ صاحب هذا الوجه، فإذا أقاما في هذه السماء ما شاء الله وأخذا في الرحلة وودع كل واحد منهما نزيله وارتقيا في معراج الأرواح إلى السماء الثانية، وفي هذه السماء الأولى هو النائب السابع الإلهيّ الموكل بالنطفة الكائنة في الأرحام التي تظهر فيها هذه النشأة الإنسانية، وهو يتوكل بها في الشهر السابع من سقوط النطفة، والطفل في هذا الشهر الجنين يزيد وينمو في بطن أمه بزيادة القمر ويذبل وتقل حركته في بطن أمه في نقص القمر وذلك هو العلامة، فإن ولد في هذا الشهر لم يكن في القوّة مثل الذي يولد في الشهر السادس. فإذا قرعا السماء الثانية وفتحت لهما صعدا فنزل التابع عند عيسىٰ عليه السلام وعنده يحيىٰ ابن خالته، ونزل صاحب النظر عند الكاتب فلما أنزله الكاتب عنده وأكرم مثواه اعتذر إليه وقال له: لا تستبطئني فإني في خدمة عيسىٰ ويحيىٰ عليهما السلام وقد نزل بهما صاحبك فلا بدّ لي من الوقوف عندهما حتى أرى ما يأمراني به في حق نزيلهما، فإذا فرغت من شأنه رجعت إليك، فيزيد صاحب النظر غماً إلى غمّه وندامة حيث لم يسلك مسلك صاحبه ولا ذهب في مذهبه، فأقام التابع عند النبيّ الخالة ما شاء الله فأوقفاه على صحة رسالة المعلم رسول الله ﷺ بدلالة إعجاز القرآن فإنها حضرة الخطابة والأوزان، وحسن مواقع الكلام، وامتزاج الأمور، وظهور المعنى الواحد في الصور الكثيرة، ويحصل له الفرقان في مرتبة خرق العوائد.

ومن هذه الحضرة يعلم علم السيمياء الموقوفة على العمل بالحروف والأسماء لا على البخورات والدماء وغيرها، ويعرف شرف الكلمات وجوامع الكلم وحقيقة ﴿كُن﴾واختصاصها بكلمة الأمر لا بكلمة الماضي ولا المستقبل ولا الحال، وظهور الحرفين من هذه الكلمة مع كونها مركبة من ثلاثة، ولماذا حذفت الكلمة الثالثة المتوسطة البرزخية التي بين حرف الكاف وحرف النون وهي حرف الواو الروحانية التي تعطي ما للملك في نشأة المكون من الأثر مع ذهاب عينها، ويعلم سرّ التكوين من هذه السماء، وكون عيسىٰ يحيي الموتى، وإنشاء صورة الطير ونفخه في صورته وتكوين الطائر طائراً هل هو بإذن الله أو تصوير عيسىٰ خلق الطير ونفخه فيه هو بإذن الله؟ وبأيّ فعل من الأفعال اللفظية يتعلق قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ [سورة المائدة، الآية ١١٠]وبإذن الله هل العامل فيه يكون أو تنفخ؟ فعند أهل الله العامل فيه يكون،

وعند مثبتي الأسباب وأصحاب الأحوال العامل فيه تنفخ، فيحصل لمن دخل هذه السماء واجتمع بعيسىٰ ويحيىٰ علم ذلك ولا بدّ، ولا يحصل ذلك لصاحب النظر، وأعني حصول ذوق وعيسىٰ روح الله ويحيي له الحياة، فكما أن الروح والحياة لا يفترقان كذلك هذان النبيان عيسىٰ ويحيىٰ لا يفترقان لما يحملانه من هذا السرّ، فإن لعيسىٰ من علم الكيمياء الطريقين: الإنشاء وهو خلقه الطير من الطين والنفخ وظهر عنه الصور باليدين والطيران بالنفخ الذي هو النفس فهذه طريقة في علم الكيمياء الذي قدّمناه في أوّل الباب.

والطريق الثانية إزالة العلل الطارئة وهو في عيسىٰ إبراء الأكمه والأبرص وهي العلل التي طرأت عليهما في الرحم الذي هو من وظيفة التكوين، فمن هنا يحصل لهذا التابع علم المقدار والميزان الطبيعيّ والروحانيّ لجمع عيسىٰ بين الأمرين، ومن هذه السماء يحصل لنفس هذا التابع الحياة العلمية التي يحيي بها القلوب كقوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٢] وهي حضرة جامعة فيها من كل شيء، وفيها الملك الموكل بالنطفة في الشهر السادس، ومن هذه الحضرة يكون الإمداد للخطباء والكتاب لا للشعراء. ولما كان لمحمد ﷺ جوامع الكلم خوطب من هذه الحضرة وقيل: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ [سورة يس: الآية ٦٩] لأنه أرسل مبيناً مفصلاً، والشعر من الشعور فمحله الإجمال لا التفصيل وهو خلاف البيان. ومن هنا تعلم تقليبات الأمور، ومن هنا توهب الأحوال لأصحابها، وكلما ظهر في العالم العنصري من النيرنجيات الأسمائية فمن هذه السماء.

وأما الفلقطيرات فمن غير هذه الحضرة، ولكن إذا وجدت فأرواحها من هذه السماء لا أعيان صورها الحاملة لأرواحها، فإذا حصل علم هذه الكائنات وسرعة الإحياء فيها من شأنه أن لا يقبل ذلك إلاّ في الزمان الطويل، فإن ذلك من علم عيسىٰ لا من الأمر الموحى به في ذلك الفلك، ولا في سباحة كوكبه، وهو من الوجه الخاص الإلهيّ الخارج عن الطريق المعتادة في العلم الطبيعيّ الذي يقتضي الترتيب النسبيّ الموضوع بالترتيب الخاص، وهذه مسألة يغمض دركها، فإن العالم المحقق يقول بالسبب فإنه لا بدّ منه، ولكن لا يقول بهذا الترتيب الخاص في الأسباب، فعامّة هذا العلم إما ينفون الكل وإما يثبتون الكل، ولم أر منهم من يقول ببقاء السبب مع نفي ترتيبه الزماني، فإنه علم عزيز يعلم من هذه السماء، فما يكون عن سبب في مدة طويلة يكون عن ذلك السبب في لمح البصر أو هو أقرب، وقد ظهر ذلك فيما نقل في تكوين عيسىٰ عليه السلام، وفي تكوين خلق عيسىٰ الطائر، وفي إحياء الميت من قبره قبل أن يأتي المخاض للأرض في إبراز هذه المولدات ليوم القيامة وهو يوم ولادتها، فألق بالك واشحذ فؤادك عسى أن يهديك ربك سواء السبيل.

ومن هذه السماء قوله في ناشئة الليل إنها ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٦] فإذا حصل التابع هذه العلوم وانصرف الكاتب إلى نزيله وردّ النظر إليه أعطاه من العلم المودع في مجراه ما يعطيه استعداده ممّا له من الحكم في الأجسام التي تحته في العالم العنصري لا من أرواحه، فإذا كمل فذلك قراه يطلب الرحيل عنه فجاء إلى صاحبه التابع وخرجا يطلبان السماء

الثالثة، وصاحب النظر بين يدي التابع مثل الخادم بين يدي مخدومه، وقد عرف قدره ورتبة معلمه وما أعطاه من العناية أتباعه لذلك المعلم، فلما قرعا السماء الثالثة فتحت فصعدا فيها فتلقى التابع يوسف عليه السلام، وتلقى صاحب النظر كوكب الزهرة فأنزلته وذكرت له ما ذكره من تقدّم من كواكب التسخير فزاده ذلك غماً إلى غمه، فجاء كوكب الزهرة إلى يوسف عليه السلام وعنده نزيله وهو التابع وهو يلقي إليه ما خصّه الله به من العلوم المتعلقة بصور التمثّل والخيال، فإنه كان من الأئمة في علم التعبير، فأحضر الله بين يديه الأرض التي خلقها الله من بقية طينة آدم عليه السلام وأحضر له سوق الجنة وأحضر له أجساد الأرواح النورية والنارية والمعاني العلوية، وعرّفه بموازينها ومقاديرها ونسبها ونسبها، فأراه السنين في صور البقر، وأراه خصبها في سمنها، وأراه جدبها في عجافها، وأراه العلم في صورة اللبن، وأراه الثبات في الدين في صورة القيد، وما زال يعلمه تجسد المعاني والنسب في صورة الحس والمحسوس وعرّفه معنى التأويل في ذلك كله، فإنها سماء التصوير التام والنظام.

ومن هذه السماء يكون الإمداد للشعراء والنظم والإتقان والصور الهندسية في الأجسام وتصويرها في النفس من السماء التي ارتقى عنها. ومن هذه السماء يعلم معنى الإتقان والإحكام والحسن الذي يتضمن بوجوده الحكمة، والحسن الغرضي الملائم لمزاج خاص. وفي هذه السماء هو النائب الخامس الذي يتلقى تدبير النطفة في الرحم في الشهر الخامس. ومن الأمر الموحى من الله في هذه السماء حصل ترتيب الأركان التي تحت مقعر فلك القمر فجعل ركن الهواء بين النار والماء، وجعل ركن الماء بين الهواء والتراب، ولولا هذا الترتيب ما صحّ وجود الاستحالة فيهن ولا كان منهن ما كان من المولدات ولا ظهر في المولدات ما ظهر من الاستحالات، فأين النطفة من كونها استحالت لحماً ودماً وعظاماً وعروقاً وأعصاباً؟ ومن هذه السماء رتب الله في هذه النشأة الجسمية الأخلاط الأربعة على النظم الأحسن والإتقان الأبدع، فجعل ممّا يلي نظر النفس المدبرة المرّة الصفراء ثم يليها الدم ثم يلي الدم البلغم ثم يلي البلغم المرّة السوداء وهو طبع الموت، ولولا هذا الترتيب العجيب في هذه الأخلاط لما حصلت المساعدة للطبيب فيما يرومه من إزالة ما يطرأ على هذا الجسد من العلل أو فيما يرومه من حفظ الصحة عليه. من هذه السماء ظهرت الأربعة الأصول التي يقوم عليها بيت الشعر، كما قام الجسد على الأربعة الأخلاط وهما السببان والوتدان: السبب الخفيف والسبب الثقيل، والوتد المفروق والوتد المجموع، فالوتد المفروق يعطي التحليل، والوتد المجموع يعطي التركيب، والسبب الخفيف يعطي الروح، والسبب الثقيل يعطي الجسم، وبالمجموع يكون الإنسان، فانظر ما أتقن وجود هذا العالم كبيره وصغيره.

فإذا حصلا هذه العلوم هذان الشخصان وزاد التابع على الناظر بما أعطاه الوجه الخاص من العلم الإلهيّ، كما اتفق في كل سماء لهما، انتقلا يطلبان السماء الوسطى التي هي قلب السموات كلها، فلما دخلاها تلقى التابع إدريس عليه السلام وتلقى صاحب النظر كوكب الشمس فجرى لصاحب النظر معه مثل ما تقدّم فزاد غماً إلى غمه، فلما نزل التابع بحضرة

إدريس عليه السلام علم تقليب الأمور الإلهية ووقف على معنى قوله عليه السلام: «**القَلْبُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ**» وبماذا يقلبانه، ورأى في هذه السماء غشيان الليل النهار والنهار الليل، وكيف يكون كل واحد منهما لصاحبه ذكراً وقتاً وأنثى وقتاً، وسر النكاح والالتحام بينهما، وما يتولد فيهما من المولدات بالليل والنهار، والفرق بين أولاد الليل وأولاد النهار، فكل واحد منهما أب لما يولد في نقيضه وأمّ لما يولد فيه، ويعلم من هذه السماء علم الغيب والشهادة، وعلم الستر والتجلي، وعلم الحياة والموت، واللباس والسكن والمودّة والرحمة، وما يظهر من الوجه الخاص من الاسم الظاهر في المظاهر الباطنة، ومن الاسم الباطن في الظاهر من حكم استعداد المظاهر، فتختلف على الظاهر الأسماء لاختلاف الأعيان. ثم رحلا يطلبان السماء الخامسة فنزل التابع بهارون عليه السلام ونزل صاحب النظر بالأحمر فاعتذر الأحمر لصاحبه ونزيله في تخلّفه عنه مدة اشتغاله بخدمة هارون عليه السلام من أجل نزيله، فلما دخل الأحمر على هارون وجد عنده نزيله وهو يباسطه فتعجب الأحمر من مباسطته فسأل عن ذلك فقال: إنها سماء الهيبة والخوف والشدة والبأس وهي نعوت توجب القبض، وهذا ضيف ورد من أتباع الرسول تجب كرامته، وقد ورد يبتغي علماً ويلتمس حكماً إلهياً يستعين به على أعداء خواطره خوفاً من تعدّي حدود سيده فيما رسم له، فأكشف له عن محياها وأباسطه حتى يكون قبوله لما التمسه على بسط نفس بروح قدس ثم ردّ وجهه إليه وقال له: هذه سماء خلافة البشر فضعف حكم إمامها وقد كان أصلها أقوى المباني فأمر باللين بالجبابرة الطغاة فقيل لنا: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [سورة طه: الآية ٤٤] وما يؤمر بلين المقال إلاَّ من قوّته أعظم من قوّة من أرسل إليه وبطشه أشدّ، لكنه لما علم الحق أنه قد طبع على كل قلب مظهر للجبروت والكبرياء وأنه في نفسه أذلّ الأذلاء أمرا أن يعاملاه بالرحمة واللين لمناسبة باطنه واستنزال ظاهره من جبروته وكبريائه ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٤٤] ولعل وعسى من الله واجبتان، فيتذكر بما يقابله من اللين والمسكنة ما هو عليه في باطنه ليكون الظاهر والباطن على السواء، فما زالت تلك الخميرة معه تعمل في باطنه مع الترجي الإلهيّ الواجب وقوع المترجي، ويتقوى حكمها إلى حين انقطاع يأسه من أتباعه، وحال الغرق بينه وبين أطماعه، لجأ إلى ما كان مستسراً في باطنه من الذلّة والإفتقار ليتحقق عند المؤمنين وقوع الرجاء الإلهيّ فقال: ﴿ءَامَنتُ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٠] فأظهر حالة باطنه وما كان في قلبه من العلم الصحيح بالله وجاء بقوله الذي آمنت به بنو إسرائيل لرفع الإشكال عند الإشكال كما قالت السحرة لما آمنت: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٤٧، ٤٨] أي الذي يدعوان إليه فجاءت بذلك لرفع الارتياب، وقوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٠] خطاب منه للحق لعلمه أنه تعالى يسمعه ويراه، فخاطبه الحق بلسان العتب وأسمعه الآن أظهرت ما قد كنت تعلمه ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩١] في أتباعك، وما قال له: وأنت من المفسدين فهي كلمة بشرى له عرّفنا بها لنرجو رحمته مع إسرافنا وإجرامنا، ثم قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٢] فبشره قبل قبض روحه ﴿بِبَدَنِكَ

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [سورة يونس: الآية ٩٢] يعني لتكون النجاة لمن يأتي بعدك آية علامة، إذا قال ما قالته تكون له النجاة مثل ما كانت لك، وما في الآية أن بأس الآخرة لا يرتفع ولا أن إيمانه لم يقبل، وإنما في الآية أن بأس الدنيا لا يرتفع عمّن نزل به إذا آمن في حال رؤيته إلاّ قوم يونس، فقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ إذ العذاب لا يتعلق إلاّ بظاهرك، وقد أريت الخلق نجاته من العذاب، فكان ابتداء الغرق عذاباً فصار الموت فيه شهادة خالصة بريئة لم تتخللها معصية، فقبضت على أفضل عمل وهو التلفظ بالإيمان، كل ذلك حتى لا يقنط أحد من رحمة الله والأعمال بالخواتم، فلم يزل الإيمان بالله يجول في باطنه وقد حال الطابع الإلهيّ الذاتيّ في الخلق بين الكبرياء واللطائف الإنسانية فلم يدخلها قط كبرياء.

وأما قوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [سورة غافر: الآية ٨٥] فكلام محقق في غاية الوضوح، فإن النافع هو الله فما نفعهم إلاّ الله. وقوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾ [سورة غافر: الآية ٨٥] يعني الإيمان عند رؤية البأس الغير المعتاد، وقد قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [سورة الرعد: الآية ١٥] فغاية هذا الإيمان أن يكون كرهاً وقد أضافه الحق إليه سبحانه، والكراهة محلها القلب، والإيمان محله القلب، والله لا يأخذ العبد بالأعمال الشاقة عليه من حيث ما يجده من المشقة فيها بل يضاعف له فيها الأجر. وأما في هذا الموطن فالمشقة منه بعيدة بل جاء طوعاً في إيمانه وما عاش بعد ذلك كما قال في راكب البحر عند ارتجاجه: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٦٧] فنجاهم، فلو قبضهم عند نجاتهم لماتوا موحدين، وقد حصلت لهم النجاة فقبض فرعون ولم يؤخر في أجله في حال إيمانه لئلا يرجع إلى ما كان عليه من الدعوى.

ثم قوله تعالىٰ في تتميم قصته هذه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٢] وقد أظهرت نجاتك آية أي علامة على حصول النجاة، فغفل أكثر الناس عن هذه الآية وقضوا على المؤمن بالشقاء. وأما قوله: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [سورة هود: الآية ٩٨] فما فيه نص أنه يدخلها معهم بل قال الله: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ [سورة غافر: الآية ٤٦] ولم يقل أدخلوا فرعون وآله، ورحمة الله أوسع من حيث أن لا يقبل إيمان المضطر، وأي اضطرار أعظم من اضطرار فرعون في حال الغرق والله يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [سورة النمل: الآية ٦٢] فقرن للمضطر إذا دعاه الإجابة وكشف السوء عنه، وهذا آمن لله خالصاً، وما دعاه في البقاء في الحياة الدنيا خوفاً من العوارض أو يحال بينه وبين هذا الإخلاص الذي جاءه في هذه الحال، فرجح جانب لقاء الله على البقاء بالتلفظ بالإيمان وجعل ذلك الغرق نكال الآخرة والأولى، فلم يكن عذابه أكثر من غم الماء الأجاج وقبضه على أحسن صفة، هذا ما يعطي ظاهر اللفظ وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [سورة النازعات: الآية ٢٦] يعني في أخذه ﴿نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [سورة النازعات: الآية ٢٥]، وقدّم ذكر الآخرة وأخّر الأولى ليعلم أن ذلك العذاب أعني عذاب الغرق هو نكال الآخرة فلذلك قدّمها في الذكر على الأولى وهذا هو الفضل العظيم.

فانظر يا ولي ما أثرت مخاطبة اللين وكيف أثمرت هذه الثمرة، فعليك أيها التابع باللين في الأمور فإنّ النفوس الأبية تنقاد بالاستمالة، ثم أمره بالرفق بصاحبه صاحب النظر، وكان سبب هذا الأمر من هارون لأنه حصل له هذا ذوقاً من نفسه حين أخذ موسىٰ برأسه يجره إليه فأذاقه الذلّ بأخذ اللحية والناصية فناداه بأشفق الأبوين فقال: يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ولا ﴿تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٠] لما ظهر عليه أخوه موسىٰ بصفة القهر، فلما كان لهٰرون ذلّة الخلق مع براءته ممّا أذل فيه تضاعفت المذلة عنده فناداه بالرحم، فهذا سبب وصيته لهذا التابع، ولو لم يلق موسىٰ الألواح ما أخذ برأس أخيه، فإنّ في نسختها الهدى والرحمة تذكرة لموسىٰ، فكان يرحم أخاه بالرحمة وتتبين مسألته مع قومه بالهدى، فلما سكت عنه الغضب أخذ الألواح فما وقعت عينه ممّا كتب فيها إلاّ على الهدى والرحمة فقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥١]. ثم أمره أن يجعل ما تقتضيه سماؤه من سفك الدماء في القرابين والأضاحي ليلحق الحيوان بدرجة الأناسي إذ كان لها الكمال في الأمانة، ثم خرج من عنده بخلعة نزيله وأخذ بيد صاحبه وقد أفاده ما كان في قوّته من المعارف بما يقتضيه حكمه في الدور لا غير.

وانصرفا يطلبان السماء السادسة فتلقاه موسىٰ عليه السلام ومعه وزيره البرجيس فلم يعرف صاحب النظر موسىٰ عليه السلام فأخذه البرجيس فأنزله ونزل التابع عند موسىٰ فأفاده اثني عشر ألف علم من العلم الإلهيّ سوى ما أفاده من علوم الدور والكور، وأعلمه أن التجليّ الإلهيّ إنما يقع في صور الاعتقادات وفي الحاجات فتحفظ، ثم ذكر له طلبه النار لأهله فما تجلّى له إلاّ فيها إذ كانت عين حاجته فلا يرى إلاّ في الافتقار، وكل طالب فهو فقير إلى مطلوبه ضرورة، وأعلمه في هذه السماء خلع الصور من الجوهر وإلباسه صوراً غيرها ليعلمه أن الأعيان أعيان الصور لا تنقلب فإنه يؤدي إلى إنقلاب الحقائق، وإنما الإدراكات تتعلق بالمدركات تلك المدركات لها صحيحة لا شك فيها، فيتخيل من لا علم له بالحقائق أن الأعيان انقلبت وما انقلبت، ومن هنا يعلم تجلي الحق في القيامة في صورة يتعوّذ أهل الموقف منها وينزهون الحق عنها ويستعيذون بالله منها وهو الحق ما هو غيره وذلك في أبصارهم، فإنّ الحق منزّه عن قيام التغيير به والتبديل. قال عليم الأسود لرجل وقف فضرب بيده عليم إلى أسطوانة في الحرم فرآها الرجل ذهباً ثم قال له: يا هذا إن الأعيان لا تنقلب ولكن هكذا تراه لحقيقتك بربك، يشير إلى تجلي الحق يوم القيامة وتحوّله في عين الرائي.

ومن هذه السماء يعلم العلم الغريب الذي لا يعلمه قليل من الناس، فأحرى أن لا يعلمه الكثير وهو معنى قوله تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام وما علم أحد ما أراد الله إلاّ موسىٰ ومن اختصه الله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ [سورة طه: الآية ١٧، ١٨] والسؤال عن الضروريات ما يكون من العالم بذلك إلاّ لمعنى غامض. ثم قال في تحقيق كونها عصا ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ١٨] كل ذلك من كونها عصا، أرأيتم أنه أعلم الحق تعالىٰ بما ليس معلوماً عند الحق، وهذا جواب علم ضروري عن

سؤال عن معلوم مدرك بالضرورة فقال له: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ١٩] يعني عن يدك مع تحققك أنها عصا ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ﴾ يعني تلك العصا ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٢٠] فلما خلع الله على العصا أعني جوهرها صورة الحية استلزمها حكم الحية وهو السعي حتى يتبين لموسىٰ عليه السلام بسعيها أنها حية، ولولا خوفه منها خوف الإنسان من الحيات لقلنا: إن الله أوجد في العصا الحياة فصارت حية في الحياة فسعت لحياتها على بطنها، إذ لم يكن لها رجل تسعى به فصورتها لشكلها عصا صورة الحيات، فلما خاف منها للصورة قال له الحق: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ وهذا هو خوف الفجأة إذ كان، ثم قال له: ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ الضمير يعود على العصا ﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٢١] فجواهر الأشياء متماثلة وتختلف بالصور والأعراض والجوهر واحد أي ترجع عصا مثل ما كانت في ذاتها، وفي رأي عينك كما كانت حية في ذاتها، وفي رأي عينك ليعلم موسىٰ من يرى وما يرى وبمن يرى، وهذا تنبيه إلهي له ولنا، وهو الذي قاله عليم سواء من أن الأعيان لا تنقلب، فالعصا لا تكون حية ولا الحية عصا، ولكن الجوهر القابل صورة العصا قبل صورة الحية فهي صور يخلعها الحق القادر الخالق عن الجوهر إذا شاء، ويخلع عليه صورة أخرى.

فإن كنت فطناً فقد نبهتك على علم ما تراه من صور الموجودات وتقول هو ضروري من كونك لا تقدر على إنكاره، وقد بان لك أن الاستحالات محال، ولله أعين في بعض عباده يدركون بها العصا حية في حال كونها عصا وهو إدراك إلهيّ وفينا خيالي، وهكذا في جميع الموجودات سواء، انظر لولا قوّة الحسّ ما قلت هذا جماد لا يحسّ ولا ينطق وما به من حياة، وهذا نبات، وهذا حيوان يحسّ ويدرك، وهذا إنسان يعقل هذا كله أعطاه نظرك، ويأتي شخص آخر يقف معك فيرى ويسمع تسليم الجمادات والنبات والحيوان عليه وكلا الأمرين صحيح، وبالقوة التي تستدل بها على إنكار ما قاله هذا بها بعينها يستدل هذا الآخر، فكل واحد من الشخصين دليله عين دليل الآخر والحكم مختلف، فوالله ما زالت حية عصا موسى وما زالت عصا كل ذلك في نفس الأمر لم تخط رؤية كل واحد ما هو الأمر عليه في نفسه، وقد رأينا ذلك وتحققناه رؤية عين، فهو الأوّل والآخر من عين واحدة، وهو في التجلي الأوّل لا غيره، وهو في التجلي الآخر لا غيره، فقل إله، وقل عالم، وقل أنا، وقل أنت، وقل هو، والكل في حضرة الضمائر ما برح وما زال، فزيد يقول في حقك هو، وعمرو يقول عنك أنت، وأنت تقول عنك أنا، فأنا عين أنت وعين هو، وما هو أنا عين أنت ولا عين هو، فاختلفت النسب، وهنا بحور طامية لا قعر لها ولا ساحل، وعزّة ربي لو عرفتم ما فهت به في هذه الشذور لطربتم طرب الأبد ولخفتم الخوف الذي لا يكون معه أمن لأحد تدكدك الجبل عين ثباته وإفاقة موسىٰ عين صعقته: [البسيط]

انظُرْ إلى وجهه في كل حادثةٍ   من الكيان ولا تُعْلِمْ به أَحَدا

أيها التابع المحمدي لا تغفل عما نبهتك عليه، ولا تبرح في كل صورة ناظراً إليه، فإن المجلّى أجلى، ثم أخذ بيده البرجيس وجاء به إلى صاحب النظر فعرّفه ببعض ما يليق به ممّا

علمه التابع من علم موسىٰ بما يختص من تأثيرات الحركات الفلكية في النشآت العنصرية لا غير فارتحلا من عنده المحمدي على رفرف العناية وصاحب النظر على براق الفكر، ففتح لهما السماء السابعة وهي الأولى من هناك على الحقيقة، فتلقاه إبراهيم الخليل عليه السلام، وتلقى صاحب النظر كوكب كيوان فأنزله في بيت مظلم قفر موحش وقال له: هذا بيت أخيك يعني نفسه فكن به حتى آتيك، فإني في خدمة هذا التابع المحمدي من أجل من نزل عليه وهو خليل الله، فجاء إليه فوجده مسنداً ظهره إلى البيت المعمور والتابع جالس بين يديه جلوس الابن بين يدي أبيه وهو يقول له: نعم الولد البارّ، فسأله التابع عن الثلاثة الأنوار فقال: هي حجتي على قومي، آتانيها الله عناية منه بي لم أقلها إشراكاً لكن جعلتها حبالة صائد أصيد بها ما شرد من عقول قومي، ثم قال له: أيها التابع ميّز المراتب واعرف المذاهب وكن على بينة من ربك في أمرك ولا تهمل حديثك فإنك غير مهمل ولا متروك سدى، اجعل قلبك مثل هذا البيت المعمور بحضورك مع الحق في كل حال، واعلم أنه ما وسع الحق شيء ممّا رأيت سوى قلب المؤمن وهو أنت، فعندما سمع صاحب النظر هذا الخطاب قال: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٥٦] وعلم ما فاته من الإيمان بذلك الرسول وأتباع سنته ويقول: يا ليتني لم أتخذ عقلي دليلاً ولا سلكت معه إلى الفكر سبيلاً، وكل واحد من هذين الشخصين يدرك ما تعطيه الروحانيات العلى وما يسبح به الملأ الأعلى بما عندهما من الطهارة وتخليص النفس من أسر الطبيعة وارتقم في ذات نفس كل واحد منهما كل ما في العالم فليس يخبر إلاّ بما شاهده من نفسه في مرآة ذاته، فحكاية الحكيم الذي أراد أن يُرِيَ هذا المقام للملك فاشتغل صاحب التصوير الحسن بنقش الصور على أبدع نظام وأحسن إتقان، واشتغل الحكيم بجلاء الحائط الذي يقابل موضع الصور وبينهما ستر معلق مسدل، فلما فرغ كل واحد من شغله وأحكم صنعته فيما ذهب إليه جاء الملك فوقف على ما صوّره صاحب الصور فرأى صوراً بديعة يبهر العقول حسن نظمها وبديع نقشها، ونظر إلى تلك الأصبغة في حسن تلك الصنعة فرأى أمراً هاله منظره، ونظر إلى ما صنع الآخر من صقالة ذلك الوجه فلم ير شيئاً فقال له: أيها الملك صنعتي ألطف من صنعته، وحكمتي أغمض من حكمته، ارفع الستر بيني وبينه حتى ترى في الحالة الواحدة صنعتي وصنعته، فرفع الستر فانتقش في ذلك الجسم الصقيل جميع ما صوّره هذا الآخر بألطف صورة ممّا هو ذلك في نفسه فتعجب الملك.

ثم إن الملك رأى صورة نفسه وصورة الصاقل في ذلك الجسم فحار وتعجب وقال: كيف يكون هكذا؟ فقال: أيها الملك ضربته لك مثلاً لنفسك مع صور العالم إذا أنت صقلت مرآة نفسك بالرياضات والمجاهدات حتى تزكو وأزلت عنها صدأ الطبيعة وقابلت بمرآة ذاتك صور العالم انتقش فيها جميع ما في العالم كله، وإلى هذا الحدّ ينتهي صاحب النظر وأتباع الرسل وهذه الحضرة الجامعة لهما، ويزيد التابع على صاحب النظر بأمور لم تنتقش في العالم جملة واحدة من حيث ذلك الوجه الخاص الذي لله في كل ممكن محدث ممّا لا ينحصر ولا ينضبط ولا يتصوّر، يمتاز به هذا التابع عن صاحب النظر.

ومن هذه السماء يكون الاستدراج الذي لا يعلم والمكر الخفي الذي لا يشعر به والكيد المتين والحجاب والثبات في الأمور والتأني فيها، ومن هنا يعرف معنى قوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧] لأنّ لهما في الناس درجة الأبوّة فلا يلحقهما أبداً. قال تعالىٰ: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٤] ومن هذه السماء يعلم أن كل ما سوى الإنس والجان سعيد لا دخول له في الشقاء الأخروي، وأن الإنس والجان منهم شقيّ وسعيد، فالشقي يجري إلى أجل في الأشقياء لأن الرحمة سبقت الغضب، والسعيد إلى غير أجل، ومن هنا يعرف تفضيل خلق الإنسان وتوجّه اليدين على خلق آدم دون غيره من المخلوقات، ويعلم أنه ما ثم جنس من المخلوقات إلاَّ وله طريقة واحدة في الخلق لم تتنوّع عليه صنوف الخلق تنوّعها على الإنسان فإنه تنوّع عليه الخلق، فخلق آدم يخالف خلق حوّاء، وخلق حوّاء يخالف خلق عيسىٰ، وخلق عيسىٰ يخالف خلق سائر بني آدم وكلهم إنسان، ومن هنا زيّن للإنسان﴿ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾[سورة فاطر: الآية ٨]، وعند تجلي هذا التزيين يشكر الله تعالىٰ التابع على تخلّصه من مثل هذا.

وأمّا صاحب النظر فلا يجد فرجاً إلاَّ في هذا التجلي يعطيه الحسن في السوء وهو من المكر الإلهيّ، ومن هنا تثبت أعيان الصور في الجوهر التي تحت هذا الفلك إلى الأرض خاصة، ومن هنا تعرف ملة إبراهيم أنها ملة سمحاء ما فيها من حرج، فإذا علم هذه المعاني ووقف على أبوّة الإسلام أراد صاحب النظر القرب منه فقال إبراهيم للتابع: من هذا الأجنبيّ معك؟ فقال: هو أخي، قال: أخوك من الرضاعة أو أخوك من النسب؟ قال: أخي من الماء، قال: صدقت لهذا لا أعرفه لا تصاحب إلاَّ من هو أخوك من الرضاعة، كما أني أبوك من الرضاعة، فإن الحضرة السعادية لا تقبل إلاَّ إخوان الرضاعة وآباءها وأمّهاتها فإنها النافعة عند الله، ألا ترى العلم يظهر في صورة اللبن في حضرة الخيال هذا لأجل الرضاع، وانقطع ظهر صاحب النظر لما انقطع عنه نسب أبوّة إبراهيم عليه السلام ثم أمره أن يدخل البيت المعمور فدخله دون صاحبه وصاحبه منكوس الرأس، ثم خرج من الباب الذي دخل ولم يخرج من باب الملائكة وهو الباب الثاني لخاصية فيه وهو أنه من خرج منه لا يرجع إليه.

ثم ارتحل من عنده يطلب العروج، ومسك صاحبه صاحب النظر هناك وقيل له قف حتى يرجع صاحبك فإنه لا قدم لك هنا هذا آخر الدخان، فقال: أسلم وأدخل تحت حكم ما دخل فيه صاحبي، قيل له: ليس هذا موضع قبول الإسلام إذا رجعت إلى موطنك الذي منه جئت أنت وصاحبك فهناك إذا أسلمت وآمنت واتبعت سبيل من أناب إلى الله إنابة الرسل المبلغين عن الله قبلت كما قبل صاحبك فبقي هنالك، ومشى التابع فبلغ به سدرة المنتهى فرأى صور أعمال السعداء من النبيين وأتباع الرسل، ورأى عمله في جملة أعمالهم، فشكر الله على ما وفقه إليه من أتباع الرسول المعلم، وعاين هنالك أربعة أنهار منها نهر كبير عظيم وجداول صغار تنبعث من ذلك النهر الكبير، وذلك النهر الكبير تتفجر منه الأنهار الكبار

الثلاثة، فسأل التابع عن تلك الأنهار والجداول فقيل له: هذا مثل مضروب أقيم لك، هذا النهر الأعظم هو القرآن، وهذه الثلاثة الأنهار الكتب الثلاثة: التوراة والزبور والإنجيل، وهذه الجداول الصحف المنزّلة على الأنبياء، فمن شرب من أي نهر كان أو أي جدول فهو لمن شرب منه وارث وكل حق فإنه كلام الله، والعلماء ورثة الأنبياء بما شربوا من هذه الأنهار والجداول، فاشرع في نهر القرآن تفز بكل سبيل للسعادة فإنه نهر محمد ﷺ الذي صحت له النبوّة وآدم بين الماء والطين، وأوتي جوامع الكلم وبعث عامّة ونسخت به فروع الأحكام ولم ينسخ له حكم بغيره، ونظر إلى حسن النور الذي غشي تلك السدرة فرأى قد غشاها منه ذاك الذي غشي، فلا يستطيع أحد أن ينعتها للغشاء النوري الذي لا تنفذه الأبصار بل لا تدركه الأبصار.

ثم قيل له: هذه شجرة الطهور فيها مرضاة الحق، ومن هنا شرع السدر في غسل الميت للقاء الله الماء والسدر ليناله طهور هذه السدرة، وإليها تنتهي أعمال بني آدم السعادية، وفيها مخازنها إلى يوم الدين، وهنا أوّل أقدام السعداء. والسماء السابعة التي وقف عندها صاحبك منتهى الدخان ولا بدّ لها ولمن هو تحتها من الاستحالة إلى صور كانت عليها أو على أمثالها قبل أن تكون سماء.

ثم قيل لهذا التابع: ارق فرقي في فلك المنازل فتلقاه من هنالك من الملائكة والأرواح الكوكبية ما يزيد على ألف وعشرات من الحضرات تسكنها هذه الأرواح، فعاين منازل السائرين إلى الله تعالىٰ بالأعمال المشروعة. وقد ذكر من ذلك الهرويّ في جزء له سمّاه منازل السائرين يحتوي على مائة مقام كل مقام يحتوي على عشرة مقامات وهي المنازل، وأما نحن فذكرنا من هذه المنازل في كتاب لنا سميناه مناهج الارتقاء يحتوي على ثلاثمائة مقام كل مقام يحتوي على عشرة منازل ففيه ثلاثة آلاف منزل، فلم يزل يقطعها منزلة منزلة بسبع حقائق هو عليها كما يقطع فيها السبع الدراري ولكن في زمان أقرب حتى وقف على حقائقها بأجمعها، وقد كان أوصاه إدريس بذلك، فلما عاين كل منزل منها رآها وجميع ما فيها من الكواكب تقطع في فلك آخر فوقها فطلب الإرتقاء فيه ليرى ما أودع الله في هذه الأمور من الآيات والعجائب الدالة على قدرته وعلمه، فعندما حصل على سطحه حصل في الجنة الدهماء فرأى ما فيها ممّا وصف الله في كتابه من صفة الجنات وعاين درجاتها وغرفها، وما أعد الله لأهلها فيها ورأى جنته المخصوصة به، واطلع على جنات الميراث، وجنات الاختصاص، وجنات الأعمال، وذاق من كل نعيم منها بحسب ما يعطيه ذوق موطن القوّة الجنانية، فلما بلغ من ذلك أمنيته رقي به إلى المستوى الأزهى والستر الأبهى، فرأى صور آدم وبنيه السعداء من خلف تلك الستور فعلم معناها، وما أودع الله من الحكمة فيها وما عليها من الخلع التي كساها بني آدم، فسلمت عليه تلك الصور فرأى صورته فيهنّ فعانقها وعانقته واندفعت معه إلى المكانة الزلفى فدخل فلك البروج الذي قال الله فيه فأقسم به: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [سورة البروج: الآية ١] فعلم أن التكوينات التي تكون في الجنان من حركة هذا الفلك، وله الحركة

اليومية في العالم الزماني، كما أن حركة الليل والنهار في الفلك الذي فيه جرم الشمس، والتكوينات التي تكون في جهنم من حركة فلك الكواكب وهو سقف جهنم أعني مقعره وسطحه أرض الجنة والذي يسقط من الكواكب وينتثر ضوءها فتبقى مظلمة وفعلها المودع فيها باق، وهذا كله سبب التبديل الذي يقع في جهنم ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [سورة النساء: الآية ٥٦] كل ذلك بإذن الله مرتب الأشياء مراتبها. كما أن الشمس إذا حلّت بالحمل جاء زمن الربيع فظهرت زينة الأرض وأورقت الأشجار وازّينت ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٥] وإذا حلّت بالجدي أظهرت النقيض.

والقوابل تقبل بحسب ما هي عليه من المزاج، فمهما اختلف مزاجها كان قبولها لما يحدث الله عند هذه الحركات الفلكية بحسب ما هي عليه، وكذلك في الجنان في كل حين من خلق جديد ونعيم جديد حتى لا يقع ملل، فإن كل شيء طبيعيّ، وإذا توالى عليه أمر ما من غير تبدّل لا بدّ أن يصحب الإنسان فيه ملل فإنّ الملل نعت ذاتي له، فإن لم يغذه الله بالتجديد في كل وقت ليدوم له النعيم بذلك وإلاّ كان يدركهم الملل، فأهل الجنان يدركون في كل نظرة ينظرونها إلى ملكهم أمراً وصورة لم يكونوا رأوها قبل ذلك فينعمون بحدوثها، وكذلك في كل أكلة وشربة يجدون طعماً جديداً لذيذاً لم يكونوا يجدونه في الأكلة الأولى فينعمون بذلك وتعظم شهوتهم، والسبب في سرعة هذا التبدّل وبقائه أن الأصل على ذلك فيعطى في الكون بحسب ما تعطيه حقيقة مرتبته ليكون خلافاً على الدوام، ويكون الكون فقيراً على الدوام، فالوجود كله متحرّك على الدوام دنيا وآخرة لأن التكوين لا يكون عن سكون، فمن الله توجهات دائمة وكلمات لا تنفذ وهو قوله ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٦] فعند الله التوجّه وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ وكلمة الحضرة وهي قوله لكل شيء يريده ﴿كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] بالمعنى الذي يليق بجلاله، وكن حرف وجودي فلا يكون عنه إلاّ الوجود ما يكون عنه عدم، لأن العدم لا يكون لأن الكون وجود.

وهذه التوجهات والكلمات في خزائن الجود لكل شيء يقبل الوجود، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢١] وهو ما ذكرناه. وقوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢١] من اسمه الحكيم، فالحكمة سلطانة هذا الإنزال الإلهيّ وهو إخراج هذه الأشياء من هذه الخزائن إلى وجود أعيانها وهو قولنا في أوّل خطبة هذا الكتاب: الحمد لله الذي أوجد الأشياء عن عدم وعدمه وعدم العدم وجود، فهو نسبة كون الأشياء في هذه الخزائن محفوظة موجودة لله ثابتة لأعيانها غير موجودة لأنفسها، فبالنظر إلى أعيانها هي موجودة عن عدم، وبالنظر إلى كونها عند الله في هذه الخزائن هي موجودة عن عدم العدم وهو وجود، فإن شئت رجحت جانب كونها في الخزائن فنقول: أوجد الأشياء من وجودها في الخزائن إلى وجودها في أعيانها للنعيم بها أو غير ذلك، وإن شئت قلت: أوجد الأشياء عن عدم بعد أن تقف على معنى ما ذكرت لك فقل ما شئت، فهو الموجد لها على كل حال في الموطن الذي ظهرت فيه لأعيانها.

وأما قوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٦] فهو صحيح في العلم لأن الخطاب هنا لعين الجوهر، والذي عنده أعني عند الجوهر من كل موجود إنما هو ما يوجده الله في محله من الصفات والأعراض والأكوان وهي في الزمان الثاني أو في الحال الثاني كيف شئت قل من زمان وجودها أو حال وجودها تنعدم من عندنا وهو قوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ وهو يجدّد للجوهر الأمثال أو الأضداد دائماً من هذه الخزائن، وهذا معنى قول المتكلمين: إن العرض لا يبقى زمانين، وهو قول صحيح خبر لا شبهة فيه لأنه الأمر المحقق الذي عليه نعت الممكنات، وبتجدّد ذلك على الجوهر يبقى عينه دائماً ما شاء الله وقد شاء أنه لا يفنى فلا بدّ من بقائه، فيعلم التابع من هذه الحضرة التكوينات الجنانية وجميع ما ذكرناه.

وأما صاحب النظر رفيق التابع فما عنده خبر بشيء من هذا كله لأنه تنبيه نبويّ لا نظر فكري، وصاحب النظر مقيد تحت سلطان فكره وليس للفكر مجال إلاّ في ميدانه الخاص به وهو معلوم بين الميادين، فإنه لكل قوّة في الإنسان ميدان يجول فيه لا يتعدّاه، ومهما تعدّت ميدانها وقعت في الغلط والخطأ ووصفت بالتحريف عن طريقها المستقيم. وقد يشهد الكشف البصري بما تعثر فيه الحجج العقلية، وسبب ذلك خروجها عن طورها، فالعقول الموصوفة بالضلال إنما أضلتها أفكارها، وإنما ضلت أفكارها لتصرّفها في غير موطنها، وإنما تصرف ما تصرّف منها في غير موطنه وجال في غير ميدانه ليظهر فضل بعض الناس على بعضهم. وإنما ظهر الفضل في العالم ليعلم أن الحق له عناية ببعض عباده، وله خذلان في بعض عباده، وليعلم أن الممكن لم يخرج عن إمكانه، وأن المرجح له نظر خصوصي لمن شاء من هذه القوىٰ بما يشاء ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [سورة الروم: الآية ٥٤].

ثم يخرج بالتابع مع حامله إلى الكرسي فيرى فيه انقسام الكلمة التي وصفت قبل وصولها إلى هذا المقام بالوحدة، ويرى القدمين اللتين تدلتا إليه، فينكب من ساعته إلى تقبيلهما القدم الواحدة تعطي ثبوت أهل الجنات في جناتهم وهي قدم الصدق، والقدم الأخرى تعطي ثبوت أهل جهنم في جهنم على أي حالة أراد وهي قدم الجبروت، ولهذا قال في أهل الجنان: «عطاء غير مجذوذ» فما وصفه بالانقطاع. وقال في أهل جهنم الذين شقوا ليحكم هذا القدم الجبروتي: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] ما قال إن الحال التي هم فيها لا تنقطع كما قال في السعداء، والذي منع من ذلك قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] وقوله: «إن رحمتي سبقت غضبي في هذه النشأة»، فإن الوجود رحمة في حق كل موجود، وإن تعذب بعضهم ببعض فتخليدهم في حال النعيم غير منقطع، وتخليدهم في حال الانتقام موقوف على إرادة، فقد يعود الانتقام منهم عذاباً عليهم لا غير ويزول الانتقام، ولهذا فسّره في مواضع بالألم المؤلم وقال: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٧٣] ﴿هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٥٠] وفي مواضع لم يقيد العذاب بالأليم وأطلقه فقال: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٢] يعني وإن زال الألم، وقال في عذاب جهنم ولم ينعته بأنه أليم وقال: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ من كونه عذاباً ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي في العذاب

﴿مُبْلِسُونَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٧٥] أي مبعدون من السعادة العرضية في هذا الموطن، لأن الإبلاس لفظة مختصة بأهل جهنم في بعدهم، فلهذا جاء بذكر الإبلاس ليوقع هذا الاصطلاح اللغوي في موضعه عند أهله ليعلموه، فإنه لموطن جهنم لغة ليست لأهل الجنان، والإبلاس منها، فيعرف التابع من هذا المقام ما لكل دار.

ثم إنه يفارق هذا الموضع ويزج به في النور الأعظم فيغلبه الوجد، وهذا النور هو حضرة الأحوال الظاهر حكمها في الأشخاص الإنسانية، وأكثر ما يظهر عليهم في سماع الألحان فإنها إذا نزلت عليهم تمر على الأفلاك، ولحركات الأفلاك نغمات طيبة مستلذة تستلذ بها الأسماع كنغمات الدولاب، فتكسو الأحوال وتنزل بها على النفوس الحيوانية في مجالس السماع، فإن كانت النفس في أي شيء كانت من تعلق بجارية أو غلام أو يكون من أهل الله فيكون تعلّقه حب جمال الإلهيّ متخيل اكتسبوه من ألفاظ نبوية مثل قوله في الصحيح: «**إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحبُّ الجَمَالَ**» وقوله في التجريد: «**اعْبُد اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» فيأخذه الوجد على ما تخيله، ومنهم من يغمره الحال لا من حضرة التخيّل بل يجد أمراً لا يُكَيَّفُ ولا يدخل تحت الحصر والمقدار.

ومنهم من تهب عليه من هذه الأحوال التي تعطي الوجد روايح على نفوس غير عاشقة إلاً بنسبة جزئية لا كلية، فتعطيه من الحكم لذلك معنى يسمى التواجد، ثم يخرج من ذلك النور إلى موضع الرحمة العامة التي وسعت كل شيء وهو المعبر عنه بالعرش، فيجد هنالك من الحقائق الملكية إسرافيل وجبريل وميكائيل ورضوان ومالك، ومن الحقائق الملكية البشرية آدم وإبراهيم ومحمداً سلام الله عليهم، فيجد عند آدم وإسرافيل علم الصور الظاهرة في العالم المسمّاة أجساماً وأجساداً وهياكل، سواء كانت نورية أو غير نورية، ويجد عند جبريل ومحمد عليهما السلام علم الأرواح المنفوخة في هذه الصور التي عند آدم وإسرافيل، فيقف على معاني ذلك كله ويرى نسبة هذه الأرواح إلى هذه الصور وتدبيرها إياها، ومن أين وقع فيها التفاضل مع انبعاثها من أصل واحد، وكذلك الصور، علم من هذه الحضرة ذلك كله ويعلم من هذه الحضرة علم الأكاسير التي تقلب صور الأجساد بما فيه من الروح، وينظر إلى ميكائيل وإبراهيم عليهما السلام فيجد عندهما علم الأرزاق وما يكون به التغذي للصور والأرواح، وبماذا يكون بقاؤها، ويقف على كون الإكسير غذاء مخصوصاً لذلك الجسد الذي يردّه ذهباً أو فضة بعدما كان حديداً أو نحاساً وهو صحة ذلك الجسم، وإزالة مرضه الذي كان قد دخل عليه في معدنه فصيّره حديداً أو غير ذلك، وكل هذا من هذه الحضرة يعلمه.

ثم ينظر إلى رضوان ومالك فيجد عندهما علم السعادة والشقاء والجنة ودرجاتها وجهنم ودركاتها وهو علم المراتب في الوعد والوعيد، ويعلم حقيقة ما تعطى كل واحدة منهما، وإذا علم هذا كله علم العرش وحملته وما تحت إحاطته وهو منتهى الأجسام، وليس وراءه جسم مركّب ذو شكل ومقدار، فإذا علم هذا كله عرج به معراجاً آخر معنوياً في غير صورة متخيلة إلى مرتبة المقادير، فيعلم منها كميات الأشياء الجسمية وأوزانها في الأجسام المقدرة من

المحيط إلى التراب وما فيهنّ وما بينهنّ من أصناف العالم الذين هم عمار هذه الأمكنة. ثم ينتقل إلى علم الجوهر المظلم الكل الذي لا جزء له ولا صورة فيه وهو غيب كل ما وراءه من العالم، ومنه ظهرت هذه الأنوار والضياءات في عالم الأجسام وهي الأنوار المركبة سلخت من هذا الجوهر فبقي مظلماً كما سلخ النهار من الليل فبانت الظلمة، وهذا هو أصل الظلمة في العالم وأصل العالم في الأحكام الناموسية.

ثم ينتقل من هذا المقام إلى حضرة الطبيعة البسيطة فيعلم حكمها في الأجسام مطلقاً من اختلاف تركيباتها وأحوالها، ومن أين وقع الغلط لبعض الطبيعيين فيما غلطوا فيه من العلم بأحكامها، وذلك لجهلهم بالعلم بذاتها، فصاحب هذا الكشف يعلم ذلك كله. ثم ينتقل من النظر في ذلك إلى شهود اللوح المحفوظ وهو الموجود الانبعاثي عن القلم وقد رقّم الله فيه ما شاءه من الكوائن في العالم، فيعلم هذا التالي لما في هذا اللوح علم القوتين وهما: علم العلم وعلم العمل، ويعلم الانفعالات الانبعاثية، ومن كون هذا الروح لوحاً يعلم ما سطره فيه من سماه لوحاً بالقلم الإلهي ممّا أملاه الحق عليه، وكتابته فيه نقش صور المعلومات التي يجريها الله في العالم في الدنيا إلى يوم القيامة خاصة، وهي علوم محصورة مسطرة صوراً كصور الحروف المرقومة في الألواح، والكتب المسمّاة كلمات، وعدد أمهاتها ما يكون من ضرب درجات الفلك في مثلها سواء من غير زيادة ولا نقصان. ومن هنا جعل الله في الفلك الذي تقطع فيه الكواكب بسباحتها ثلاثمائة درجة وستين درجة، وفيها انحصرت السنة في الدار الدنيا بسباحة الشمس والقمر، قال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٥] وتتكرر بالسنين من أوّل وجودها وما هو تكرار على الحقيقة إلى أن ينتهي إلى قدر ما خرج من ضرب الثلاثمائة والستين في مثلها من السنين يكون عمر عالم الدنيا، ثم يملي أمراً آخر وعلوماً تختص بالقيامة وبالموازين أيضاً إلى أجل مسمّى يتميز في الدارين وهو انتهاء مدة الانتقام على أهل دار الشقاء خاصة، ثم يستأنف فيه كتابة العذاب في هذه الدار مع الخلود الدائم في الدارين لأهلها، غير أنه لا بدّ مهما كانت الكتابة أن تجري إلى أجل مسمّى لاستحالة دخول ما لا يتناهى في الوجود.

ثم ينتقل هذا التابع من هذا المقام إلى مشاهدة القلم الأعلى فيحصل له من هذا المشهد علم الولاية، ومن هنالك هو ابتداء مرتبة الخلافة والنيابة، ومن هناك دونت الدواوين وظهر سلطان الاسم المدبّر والمفصل وهو قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] وهذا هو علم القلم، ويشاهد تحريك اليمنى إياه التحريك المعنويّ اللطيف ومن أين يستمدّ وأنه من ذاته له علم الإجمال والتفصيل، والتفصيل يظهر بالتسطير وهو عين ذواته، فلا افتقار له إلى معلم يستمد منه سوى خالقه عزّ وجلّ وكتابته نقش ولهذا تثبت فلا تقبل المحو، وبهذا سمّي اللوح بالمحفوظ يعني عن المحو، فلو كانت كتابته مثل الكتابة بالمداد قبلت المحو كما يقبله لوح المحو في عالم الكون بالقلم المختص به الذي هو بين أصبعي الرحمن، فيفرّق من هذا المشهد بين الأقلام والألواح وأنواع الكتبة ويعلم علم الأحكام والأحكام، ومن هنا يعلم

أنه لم يبق في الإمكان ما ينبغي أن يكون دليلاً على الله إلاً وقد ظهر من كونه دليلاً وإن كثرت الأدلة فيجمعها كمالية الدلالة خاصة.

ثم ينظر عن يمين هذا المشهد فينظر إلى عالم الهيمان وهو العالم المخلوق من العماء، ثم ينتقل إلى العماء وهو مستوى الاسم الرب كما كان العرش مستوى الرحمن، والعماء هو أوّل الأينيات ومنه ظهرت الظروف المكانيات والمراتب فيمن لم يقبل المكان وقبل المكانة ومنه ظهرت المحال القابلة للمعاني الجسمانية حسراً وخيالاً وهو موجود شريف الحق معناه وهو الحق المخلوق به كل موجود سوى الله وهو المعنى الذي ثبتت فيه واستقرت أعيان الممكنات، ويقبل حقيقة الأين وظرفية المكان ورتبة المكانة واسم المحل ومن عالم الأرض إلى هذا العماء ليس فيها من أسماء الله سوى أسماء الأفعال خاصة ليس لغيرها أثر في كون ممّا بينهما من العالم المعقول والمحسوس، غير أن صاحب التابع الذي هو صاحب النظر لما تركه صاحبه بالسماء السابعة ورحل عنه امتدت منه رقيقة على غير معراج التابع ظهرت للتابع في الفلك المكوكب وفقدها في الجنة، ثم ظهرت له في فلك البروج ثم فقدها أيضاً في الكرسي وفي العرش، ثم ظهر له في مرتبة المقادير وفي الجوهر المظلم، ثم فقده في الطبيعة ثم ظهر له في النفس من جهة كونها نفساً لا من جهة كونها لوحاً، ثم ظهر له في العقل الإبداعي من كونه عقلاً لا من كونه قلماً، ثم فارقه بعد ذلك فلم ير له عيناً، ومن هذا العماء يبتدي بالترقي والمعراج في أسماء التنزيه إلى أن يصل إلى الحضرة التي يشهد فيها أن التنزيه يحدّه ويشير إليه ويقيده ويستشرف على العالم بأسره المعنويّ والروحانيّ والجسميّ والجسمانيّ، فلا يجد في مشهده ذلك ما ينبغي أن ينزّه عنه من ظهر فيه ويرى ارتباطه به ارتباط المرتبة بصاحبها، فلا يتمكن له التنزيه الذي كان يتخيله، ولا يتمكن له التشبيه فإنه ليس ثم بمن: [الطويل]

فـمـا ثَـمَّ إلاّ الله لا شـيءَ غـيـره ومـا ثَـمَّ إلاّ وحـدةُ الـوَحَـدَاتِ

ثم فارق أسماء الأفعال وتسلمته أسماء التنزيه فرأى صاحبه صاحب النظر يوافقه إلى أن وصل إلى الحضرة التي لا تقبل التنزيه ولا التشبيه فيتنزه عن الحدّ بنفي التنزيه وعن المقدار بنفي التشبيه، فيفقد رفيقه صاحب النظر هنالك، ثم ينقلب يطلب ما منه خرج فسلك به الحق تعالىٰ طريقاً غير طريقه الأولى وهو طريق لا يتمكن أن ينقال ولا يعرفه إلاّ من شاهده ذوقاً، ورجع صاحبه على معراجه ذلك إذ لم يكن تابعاً إلى أن وصل إلى جسده فاجتمع مع رفيقه فبادر من حينه صاحب النظر إلى الرسول إن كان حاضراً أو لوارثه فيبايعه بيعة الإيمان والرضوان على بينة من ربه وآية من نفسه، وتلاه شاهد منه وهو التابع فآمن بالله من حيث ما شرع له الإيمان به لا من حيث دليله فوجد عنده وفي قلبه نوراً لم يكن يجده قبل ذلك، فرأى في اللمحة الواحدة وهو في مكانه بذلك النور جميع ما رآه مع التابع في معراجه الأول ولم يقف بل ترقى مرقى التابع حتى بلغ العماء والغاية القصوى، ورأى الشيء في الأشياء، ورأى وجوب وجود ما أحال وجوده فكرة وعقلاً وهو في مكانه ذلك لم يبرح، وأعطى إكسير

التكوين ورأى حشر الأجساد من طور إلى طور باختلاف حكم ولاختلاف دور، فتغيرت الأشكال وتقلبت الأحوال ورأى ما قلناه في مثل ذلك: [مجزوء الرجز]

إذا السماءُ انفطَرتْ حقيقةً تَصوَّرتْ
تطلبُ بانكِدارها جبالَ صَخرٍ سُيِّرتْ
سَعَّرها مُوقِدُها لجنَّةٍ قد أزلِفتْ
قلتُ لها ما تبتغي قالت وحوشٌ حُشِرَتْ
فمن لها بها لها إذا النجومُ انكَدَرَتْ
تَنظُرُ في تسييرها جحيمَ نارٍ سُعِّرَتْ
يدخلها طائفةٌ من قبرها قد بُعثِرَتْ
وإن ترى نفسيَ ما قد قدَّمتْ وأخَّرَتْ

ولما أسلم صاحب النظر وآمن ورأى من مقامه جميع ما رآه التابع في معراجه مشاهدة عين سأل أن يرى مقام المجرمين وهم المستحقون تلك الدار التي دخلوها بحكم الاستحقاق، وعلموا أن العلم أشرف حلة وأن الجهل أقبح حلية، وأنّ جهنم ليست بدار لشيء من الخير، كما أن الجنة ليست بدار لشيء من الشر، ورأى الإيمان قد قام بقلب من لا علم له بما ينبغي لجلال الله، ورأى العلم بجلال الله وما ينبغي له قد قام بمن ليس عنده شيء من الإيمان، وهذا العالم بعدم الإيمان قد استحق دار الشقاء وأنّ الجاهل المؤمن قد استحق بالإيمان دار السعادة والدرجات في مقابلة الدركات، فسلب هذا العالم المستحق دار الشقاء علمه حتى كأنه ما علمه أو لم يعلم شيئاً فيتعذب بجهله أشدّ منه من عذابه بحسّه وهو أشدّه عليه، فخلع علمه على هذا الجاهل المؤمن الذي دخل الجنة بإيمانه فنال المؤمن بذلك العلم الذي خلع عن هذا الذي استحق الإقامة بدار الشقاء درجة ما يطلبه ذلك العلم فيتنعم به نفساً وجسماً، وفي الكثيب عند الرؤية ويعطي ذلك الكافر جهل هذا المؤمن الجاهل فينال بذلك الجهل درك ذلك من النار، وتلك أشدّ حسرة تمر عليه فإنه يتذكر ما كان عليه من العلم ولا يعلم ذلك الآن ويعلم أنه سلبه، ويكشف الله عن بصره حتى يرى مرتبة العلم الذي كان عليه في الجنان، ويرى حلة علمه على غيره ممّن لم يتعب في تحصيله ويطلب شيئاً منه في نفسه فلا يقدر عليه، وينظر هذا المؤمن ويطلع على سواء الجحيم فيرى شرّ جهله على ذلك العالم الذي ليس بمؤمن فيزيد نعيماً وفرحاً فما أعظمها من حسرة. واتفق لي في هذه المسألة عجباً وذلك أن بعض علماء الفلاسفة سمع مني هذه المقالة فربما أحالها في نفسه أو استخف عقلي في ذلك فأطلعه الله بكشف لم يشك فيه في نفسه بحيث أن تحقق الأمر على ما قلناه فدخل عليّ باكياً على نفسه وتفريطه وكانت لي معه صحبة فذكر لي الأمر وأناب واستدرك الفائت وآمن وقال لي: ما رأيت أشدّ منها حسرة، وتحقق قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة هود: الآية ٤٦] وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٥] فهذا قد جمع بين خطاب لطف ولين وعنف وشدّة لأن الواحد شيخ فخاطبه باللطف والآخر شاب فخاطبه

بالشدّة، نفعنا الله بالعلم وجعلنا من أهله، ولا يجعلنا ممّن يسعى بخيره في حق غيره ويشقى آمين بعزّته. انتهى الجزء التاسع ومائة.

(الجزء العاشر ومائة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الباب الثامن والستون ومائة في معرفة مقام الأدب وأسراره

[نظم: الكامل]

إن الأديبَ هو الحكيمُ لأنه ... مجموعُ خَيْرٍ والمسابُ مُجَمَّعُ
فإذا رأيتَ نُعوتَه في خَلْقِهِ ... كنهاً ففيك لكل نَعْتٍ مَوْضِعُ
لا ترعوي عنها فأنتَ مِنَ أهلها ... والحقُّ يعطي ما يشاء ويَمْنَعُ
أدباءُ أهل الله خَيْرٌ كلُّهم ... فلذاك تبصرها تضرُّ وتَنْفَعُ
مثل الإساءة يَرَى العَليلُ صَنِيعَهُمْ ... حسناً وتَكْره نَفْسُه ما يَصْنَعُ

اعلم أيّدك الله أن الله يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فالأديب إِمَّعَة لما عنده من السعة، فهو مع كل مقام بحسب ذلك المقام، ومع كل حال بحسب ذلك الحال، ومع كل خلق ومع كل غرض، فالأديب هو الجامع لمكارم الأخلاق والعليم بسفسافها لا يتصف بها، بل هو جامع لمراتب العلوم محمودها ومذمومها، لأنه ما من شيء إلاّ والعلم به أولى من الجهل به عند كل عاقل، فالأدب جماع الخير وهو ينقسم إلى أربعة أقسام في اصطلاح أهل الله.

القسم الأوّل: أدب الشريعة وهو الأدب الإلهيّ الذي يتولى الله تعليمه بالوحي والإلهام به أدّب نبيه ﷺ، وبه أدّبنا نبيه ﷺ فهم المؤدّبون المؤدّبون. قال رسول الله ﷺ: «**إن الله أدّبني فأحسن أدبي**».

والقسم الثاني: أدب الخدمة وهو ما اصطلحت عليه الملوك في خدمة خدمها وملك أهل الله هو الله فقد شرع لنا كيفية الأدب في خدمته وهو معاملتنا إياه فيما يختص به دون معاملة خلقه، فهو خصوص في أدب الشريعة لأن حكم الشريعة يتعلق بما هو حق لله وبما هو حق للخلق.

والقسم الثالث: أدب الحق وهو الأدب مع الحق في اتباعه عند من يظهر عنده ويحكم به فترجع إليه وتقبله ولا تردّه ولا تحملك الأنفة إن كنت ذا كبر في السن أو المرتبة وظهر الحق عند من هو أصغر منك سناً أو قدراً، أو ظهر الحق عند معتوه تأدّبت معه وأخذته عنه واعترفت بفضله عليك فيه، هذا هو الاتصاف، وما رأيت من تحقق بهذا خلقاً في عمري إلاّ سيد واحد يقال له أبو عبد الله بن جبير لقيته بمدينة سبتة وقصر كتامة وهو جزء من آداب الشريعة فإن أدب الشريعة هو الأم لباقي الأقسام.

والقسم الرابع: أدب الحقيقة وهو ترك الأدب بفنائك وردّك ذلك كله إلى الله. وسيأتي في الباب الذي يلي هذا الباب وهو في المقامات كالوهب في أصناف العطاء، وهو أن يعطي

لينعم لا لسبب آخر، وكذا المأدبة الاجتماع على طعام ما له سبب إلاّ الدعوة إليه خاصة من غير تقييد من صفة وليمة أو ختان أو ضيافة أو عقيقة وغير ذلك، وكذا جامع الخير لا لسبب بل لكون جامع ذلك له نفس فاضلة خيرة بالذات فذلك هو الأديب.

وللأدب حال ومقام وهذا باب معرفة مقامه، فمقامه هو ما يثبت له دائماً وليس ذلك إلاّ الأدب مع الحق فإنه له الدوام في الدنيا والآخرة، وما فاز به إلاّ أهل الفتوة من الملامية لا غير سلكوا فيه كل مسلك واستخرجوا كنوزه وحصلوا فوائده كما قال الله تعالىٰ أنه: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهو كل عالم علوي ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ وهو كل عالم سفلي، السماء من عالم الصلاح، والأرض من عالم الفساد، ومنه اشتقت اسم الأرضة لما تفسده في الثياب والورق والخشب، ويسمّى أيضاً السوس والعث ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الروم: الآية ٨] من العالم، فهذا الحق المخلوق به هذا العالم هو الذي نتأدب معه فإنه سبب وجود أعيان العالم، وبه يحكم الله يوم القيامة بين عباده وفي عباده، وبه أنزل الشرائع فقال لرسوله داود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦]. وإن كان مخلوقاً بالحق فإنه ممّا بين السماء والأرض أو هو عين الأرض، فمقام الأدب العمل بالحق والوقوف عند الحق، وإياك أن تتوهم من هذا القول أن الصدق هو الحق من حيث إنك تقول: قال حقاً إذا صدق في قوله وقال صدقاً، بل الحق حاكم على الصدق وعلى الكذب بالحسن والقبح، فالحق في موطن يحمد الصدق وفي موطن يذمّه وينهى عنه ويثني على الكذب الذي هو ضده ويحرض عليه ويوجب العمل به، وفي موطن آخر يذم الكذب وينهى عنه ويحمد الصدق ويأمر به، وهذا مقام الأدب الذي ينفع صاحبه في كل موطن فالزمه وتتبع مواضعه ودلائله في الشرائع وفي أفعال الرسول المتأسّى بها لا غير لا ما اختصّ به فإنه ليس بأدب مع الحق.

وأما مقام أدب الخدمة فهو أن يعطي ذات المخدوم كان ما كان ما تستحقه من حيث عينها خاصة. وهو أن تقف مع ما تطلبه بذاتها فتبادر إليه من قبل أن تأمرك به أو تسائلك فيه حتى لا يظهر عليها ذلّة المسألة، ولو كان أكبر منك وسألك في أمر فهو من حيث سؤاله إياك في ذلك الأمر أن تفعله إظهار حاجة إليك ولو عادت عليك منفعته، ولكن مقام السؤال يقتضي ذلك، فمقام أدب الخدمة الحضور دائماً مع كل ذات مشهودة لك تنظر فيما تستحقه بما يعطيه الزمان أو المكان أو الحال، فتقوم لها بذلك من غير سؤال ولا تنبه من أحد سوى حضورك، فهذا مقام أدب الخدمة.

وأما مقام أدب الشريعة فهو أن تقوم بأمرها خاصة لا بما تعطيك ذاتها إلاّ إن أمرتك بذلك، فيكون قيامك بما تعطيك ذاتها من حيث أمرها لا غير، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [سورة الحشر: الآية ٧] وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩] وكل خدمة عن أمر فمن أدب الشريعة لا من أدب الخدمة.

وأما مقام أدب الحقيقة فإنا نذكره إن شاء الله. ومن أدب الشريعة أخذك لأحكامها المشروعة والوقوف عند رسومها وحدودها واتصافك بها لمجرّد الخدمة والاشتغال لا لتحلية النفس بالعلم بها دون العمل، ومن آداب الخدمة أن لا يشغلك ولا يبعثك عليها ما تنتجه لك من

المخدوم من القبول وملاحظات التأميل، فإن شغلك ذلك فما خدمت سوى غرضك ونفسك. ومن آداب الحق أن لا يتعدى علمك في الأشياء علمه فيها وهو الموافقة وإن أعطاك علمك خلاف ذلك، ولا سيّما فيما أضافه الحق إلى الخلق من الأعمال فأضفها أنت إلى من أضافها الله اترك علمك لعلمه فإنه العليم وأنت العالم وهو الصادق فيما يخبر، فما أضاف أمراً إلى من أضافه إلاّ وينبغي لذلك المضاف إليه تلك الإضافة، فلا ترجح علمك على علمه من حيث قيام الدليل لك على أنه لا فاعل إلاّ الله فليس هذا من الأدب فصاحب الموافقة له كل تجلّ وشهود فاعلم ذلك.

الباب التاسع والستون ومائة
في معرفة مقام ترك الأدب وأسراره

[نظم: الكامل]

أَضِفِ الأمورَ إلى الإله جميعَها ... وإذا فعلْتَ فلا يُقال أديبُ
نَسَبَ الخليلُ إليه علّةَ نفسه ... وشفاءَها لله وهو مُصيبُ
وكذاك أستاذُ المكلَّم عندما ... خَرَقَ السفينةَ والجدارَ عجيبُ
فالعبدُ إن نظرَ الأمور بنفسه ... تُبْصِره يخطىء تارةً ويُصيبُ
فانظرْ بربك في الأمور فإنه ... فيها فتَخْضُرُ تارةً وتَغيبُ

قال تعالىٰ آمراً: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] في معرض الذمّ لهم، أي هو الذي حسن الحسن وقبح القبيح. وقال تعالىٰ مخبراً: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٠] وذكر المذموم والمحمود. وقال تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] ذلك الأوّل في الباطن فإنه في الإرادة، وهذا في الظاهر إذ لا يعتبر إلاّ بعد الوقوع، فالتارك للأدب أديب من حيث لا يعلم فإنه مع الكشف وبحكمه لا مع الذي هم المحجوبون فيه فهو يعاين علم الله في جريان المقادير قبل وقوعها فيبادر إليها فينطلق عليه بلسان الموطن أنه غير أديب مع الحق فإنه مخالف بل هذا هو غاية الأدب مع الحق ولكن أكثر الناس لا يشعرون.

ومنهم من يقام في الإدلال كعبد القادر الجيلي ببغداد سيد وقته. ومنهم من يكون وقته في ذلك كنت سمعه وبصره، والأدب يستدعي الغير، وثم مقام يفني الأغيار فيزول الأدب لأنه ما ثم مع من، وأما بلسان عامة الطريق وخواص أكثرهم فإن مقام ترك الأدب مع الحقيقة هو الواقع المشروع في العموم والخصوص وهو مقام جليل لا يقف معه إلاّ الذكران من أهل الله وفحول أصحاب المقامات لا أصحاب الأحوال، والقرآن كله نزل في هذا المقام إلاّ آيات مفردات قد ذكرناها في أوّل الباب، وما يحار في هذا المقام إلاّ رجلان: مكاشف به ومشاهد له، فالحقيقة تطلبه والحق الموضوع يطلبه، والأدب مع أحدهما ترك الأدب مع الآخر، وحصلت أنت في مقام الترجيح وليس لك ذلك، فمن الرجال من يترك أدب الحق الموضوع من اعتقاده وباطنه ويترك أدب الحقيقة من ظاهره، ويكون أديباً مع الحق في ظاهره غير أديب

مع الحقيقة في ظاهره، ويكون أديباً مع الحقيقة في باطنه غير أديب مع الحق في باطنه لما رأوا أن النجاة في ذلك والسعادة، وأن عكس الأمر شقاء فهو يطرد ولا ينعكس.

وثم طائفة تقول: إنّ الأدب مع الحق الذي هو الشرع أدب مع الحقيقة، فمن تركه هنا تركه هنا، ولا يعرفون من وجه، وذلك لأن الحق المشروع بين الأمر الذي لأجله حكم بالمنع فقال: «**ومن غيرته حرم الفواحش**» لا أنه جعلها فواحش بالتحريم، وهذا المذهب أدخل في باب الحكمة، ومذهب المخالف أدخل في أحدية العين، ولهذا المقام رجال ولمخالفه رجال، وبالجملة فهو موضع حيرة لا يخلص لهؤلاء من جميع الوجوه ولا لهؤلاء من جميع الوجوه، فإن الإخبارات الإلهية أكثرها تعارض الأدلة العقلية في هذا الباب، وأية حيرة أعظم من هذه الحيرة، وهذا هو المتشابه الذي ينبغي أن يقول فيه من لم يطلعه الله على العلم به ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧] وهم الآخذون بلب العقل لا بقشره، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السبعون ومائة

في معرفة مقام الصحبة وأسراره

[نظم: مجزوء الخفيف]

صُـحْـبَـةُ الله بـالأدبْ ... صـحـبـةُ الله فـي الـسَّـبَـبْ
صُـحْـبَـةُ الـكـون كُـلِّـهِ ... بـالـذي فـيـه مـن نَـسَـبْ
فـإذا مـا عـلـمـتَ ذا ... أجْـلِ أن شـئـتَ فـي الـطَّـلَـبْ
لـم يـزَلْ كـلُّ مـن يَـرى ... صُـحْـبَـةَ الـحـقِّ فـي تَـعَـبْ
ذلَّ مَـنْ يَـصْـحَـبُ الإلـ ... ـهَ عـلـى صـحـة الـنَّـسَـبْ

اعلم أن الصحبة نعت إلهيّ للخبر الوارد: «**أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ**». يقول النبيّ ﷺ في سفره لله والخليفة في الأهل، كما جعل الله الرسول خليفة في العالم جعله العالم إذا فارقوا أهلهم خليفة في أهلهم وهو قوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٩] وأوحى إلى من أوحى إليهم: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢] يقول له: فالصحبة تطلب أعيان الأغيار ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] والمعية صحبة عامّة، والخلة صحبة خاصة، وسيرد بابها إن شاء الله، غير أن في الصحبة أمراً يتعذر من وجه في الجناب الإلهيّ وهو المناسبة والمشاكلة، إما من كل وجه، وإما من أكثر الوجوه ولا مناسبة كما يرد في باب مقام ترك الصحبة فلا صحبة وقد وردت الصحبة فلا بدّ لها من وجه يستدعيها فإنه إخبار إلهيّ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢] فلا تثبت الصحبة إلاّ إذا لم تأخذ في حدّها الكفاءة، فإذا أزلت الكفاءة في الصحبة ثبتت الصحبة في الجناب الإلهيّ، فهو تعالى يصحبنا في كل حال نكون عليه، ونحن لا نصحبه إلاّ في الوقوف عند

حدوده، فما نصحب على الحقيقة إلاّ أحكامه لا هو، فهو معنا ما نحن معه لأنه يعرفنا ونحن لا نعرفه، لذا أتى يصحبنا ولم يجيء نصحبه، فإنه يحفظنا له لا لنا من هذه الحقيقة نطلبه لنا لا له، فإن طالبناه طالبناه ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] فشرع تعالىٰ لنا ما شرع فقال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٦] وهو قولنا نطلبه لنا لا له. وقال: ﴿ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] تحقيقاً لطلبنا إياه لنا لا له، وحقيقة طلبه إيانا له لا لنا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فأوجدنا له لا لنا، فطلبناه لنا لا له بما خلقنا له ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [سورة القيامة: الآية ٢٩].

فأمر الصحبة عظيم وشأنها كبير وما يرعاها إلاّ الأكابر، وأحسن ما بلغني في رعي حقّها والقيام به ما حكي عن الحجاج رحمه الله أنه أمر بضرب عنق شخص فقال له: أمر أحبّ أن أذكره للأمير قبل أن يقتلني، فقال له الحجاج: قل، قال: أيها الأمير لا أحب أن أقوله لك إلاّ حتى تتركني مكتوفاً بحالي أمشي معك في إيوانك هذا من أوّله إلى آخره وما على الأمير في ذلك من بأس ولا يحول ذلك بينه وبين ما يريده مني ويقضي لي بهذا حاجة، فقال لحاجبه: اصعد به إليّ، وقام الحجاج يسايره في الإيوان ويصغي إليه ليرى ماذا يقول له، فلما بلغ معه إلى آخر الإيوان وعاد إلى مكانه قال: أيها الأمير إن الكريم يراعي حق صحبة ساعة وقد صحبني الأمير وصحبته في هذه المشية والأمير أولى من رعى حق الصحبة، فقال الحجاج: خلوا سبيله فوالله لقد صدق ولقد نبّه عاقلاً فلو قتلته لكنت ألأم الناس، ثم أمر أن يجزل له في الأعطية وخيّره في صحبته والإقامة عنده، فما أدري بعد ذلك هل أقام عنده أم لا؟ فهذا من حسن ما يسمع في حق الصحبة من الوفاء به والرعاية، هذا من الحجاج، فلا بدّ لعبيد الله أن يخلصوا مع الله نفساً واحداً يصحّ به إطلاق الصحبة مع الله، فلا بدّ أن يرعى الله حق ذلك النفس.

وأما صحبة أهل الله بعضهم مع بعض أو صحبتهم للخلق أو صحبة الخلق إياه فهم يطالبون أنفسهم بحق ما يجب للصاحب على الصاحب، فإن كان عين الحق له حقاً عنده لزمه الوفاء به امتثالاً لأمر سيده ووقوفاً عند حدّه، وإن كان لم يأته في ذلك أمر وأبيح له وجعل له الاختيار في ذلك فليرجح مع صاحبه مكارم الخلق بترك غرضه وعمله لغرض صاحبه ما لم يسخط الله في واجب معين فصحبة الله أولى، وكذلك في صحبة غير الأشكال وغير الجنس، مثل صحبته لما يملكه من الدواب والأشجار وما يصحبه من ذلك وإن لم يملكه، فإن رأى شجرة ذابلة لاحتياجها إلى الماء وإن لم يكن مالكها حاضراً وقدر على سقيها في صحبة تلك الساعة حيث استظل بها أو استند إليها طلباً لراحة من تعب أو وقف عندها ساعة لشغل طرأ له فهذه كلها صحبة وهو قادر على الماء فتعين عليه رعي حق الصحبة أن يسقيها لذلك لا لأجل صاحبها ولا طمعاً فيما تثمر، سواء أثمرت أو لم تثمر، أو كانت مملوكة أو مباحة، وكذلك الحيوانات المؤذية وغير المؤذية فإنه في كل ذي كبد رطبة أجر، وقد وردت في ذلك أخبار نبوية: من سقي البغيّ الكلب فشكر الله فعلها فغفر لها. وكوالي بخارى وكان ظالماً فوهبه الله لكلب أحسن في صحبته ثلاثة أيام فنودي كنت كلباً فوهبناك لكلب.

الباب الحادي والسبعون ومائة
في معرفة مقام ترك الصحبة

[نظم: السريع]

مِن تَرَكَ الصُّحْبَةَ فهو الذي ... يراه مِن قيده الجاهِلُ
وصُحْبَةُ الحقّ على كُنْهِهِ ... يُحيلها العالمُ العاقلُ
فهو مع العالم في أَيْنِهِ ... وما له أَيْنٌ ولا حامِلُ
فانظرْ إلى الحكمة في قوله ... إنِّي مع الأكوان يا غافِلُ
هل هو بالذات على حُكْمِ مَنْ ... يراه أو بالوَصْف يا عاقِلُ

اعلم أيّدك الله لما كانت الصحبة تطلب المناسب وهو يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ودليل العقل يقضي به فله السيادة والعالم عبيد. فخدمة لا صحبة، وإنما امتنعت الصحبة من الطرف الواحد وصحّت من الطرف الآخر لما نذكره، فالحق ليس بصاحب لأحد من المخلوقين إلاّ بالصحبة التي أرادها الشارع في قوله: «**أنت الصاحب في السفر**» بذلك المعنى كما اتخذناه وكيلاً فيما هو ملكه ولأنه الفعّال لما يريد كما قال ما يكون فعالاً لما تريد أنت إلاّ أن توافق إرادتك إرادته ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الإنسان: الآية ٣٠] إن تشاؤوا فمن حيث إنه أراد فعل لا من حيث إنك أردت، والصاحب من يترك إرادته لإرادة صاحبه، وهذا في جناب الحق محال، فلا يصحب الرب إلاّ ربوبيته لكن يصحبه العالم لصحة هذا الشرط منه، فمن صحبه من العالم ترك إرادته وغرضه ومحابه ومراضيه لإرادة سيده، وإن كره ذلك العبد فإن دعواه في الصحبة تجعله أن يوافق ويحمل ذلك، وكذلك النبيّ لا يصحب إلاّ نبوّته، فإنه لا يتمكن للنبيّ أن يكون مع صاحبه بحيث ما يريد صاحبه منه، وإنما هو مع ما يوحى إليه به لا يفعل إلاّ بحسبه فيصحب ولا يصحب ولهذا ليست الصحبة فعل فاعلين، وكذلك الملك لا يصحب سوى ملكه فيصحب أيضاً ولا يصحب، فإن الناس مع الرسول في صحبتهم بحكم ما يشرع لهم ما هم بحكم إرادتهم برهانه ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ٦٥] فلذلك صحبوه وما صحبهم، والورثة أهل الإلقاء الإلهيّ يُصحبون ولا يَصحبون، فإنهم مع ما يلقي الله إليهم، كتقرير حكم المجتهد يحرم عليه العدول عنه، فلا يصحب مؤمن مؤمناً أبداً لأنه لا يمكن له الوفاء معه على الإطلاق بحق الصحبة، فإن المؤمن تحت حكم شرعه، قال رسول الله ﷺ: «**لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ قَطَعْتُ يَدَهَا**» فالمحكوم عليه لا يمكن أن يكون صاحباً لأحد، كالعبد لا يتمكن له أن يصحب غير سيّده لأنه ما هو بحكم نفسه فيمشي على أغراض صاحبه بل هو بحكم سيده، فالصحبة لا تصحّ إلاّ من الطرف الواحد وهو الأدنى وقد نبهناك، فاعلم وقف عند حدّك حتى تعلم أنك صاحب أو مصحوب، فاعمل بحسب ذلك، والكامل من لا يزال صاحباً أبداً.

الباب الثاني والسبعون ومائة
في معرفة مقام التوحيد

[نظم: المديد]

دُمْيَةٌ في القلب قد نُصِبَتْ ... ما لها روحٌ ولا جَسَدُ
كُتِبَتْ فيه عقيدتُها ... بمدادٍ كلُّه جَسَدُ
أَحَدٌ ما مثلُه أَحَدٌ ... بجمال النَّعت مُنفَرِدُ
مَصْدَرُ الأكوان حَضْرَتُه ... وهو لا شَفْعٌ ولا عَدَدُ
الذي قام الوجودُ به ... أمرنا عليه يَنْعَقِدُ
وأنا العبدُ الفقيرُ به ... وهو المِحْسَانُ والصَّمَدُ
فاعجبوا من حكمةٍ وُجِدَتْ ... نَعَّمَ الرحمنُ ما وَجَدُوا
حكمةٌ تحوي على حِكَمِ ... نالها الحُسَّادُ إذ حَسَدُوا
أَبَدٌ يَغْنو إلى أزلٍ ... أزلٌ يمدُّه الأبدُ
كلُّ من يجري إلى أمدٍ ... سَيُرَى وماله أَمَدُ
هكذا التوحيدُ فاعتبروا ... واحد في واحدٍ أَحَدُ

اعلم أن التوحيد التعمّل في حصول العلم في نفس الإنسان أو الطالب بأن الله الذي أوجده واحد لا شريك له في ألوهيته، والوحدة صفة الحق والاسم منه الأحد والواحد، وأما الوحدانية فقيام الوحدة بالواحد من حيث أنها لا تعقل إلاَّ بقيامها بالواحد وإن كانت نسبة وهي نسبة تنزيه، فهذا معنى التوحيد كالتجريد والتفريد، وهو التعمّل في حصول الانفراد الذي إذا نسب إلى الموصوف به سمّي الموصوف به فرداً أو منفرداً أو متفرداً إذا سمّي به، فالتوحيد نسبة فعل من الموحّد يحصل في نفس العالم به أن الله واحد، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٢] وقد وجد الصلاح وهو بقاء العالم ووجوده، فدل على أن الموجد له لو لم يكن واحداً ما صحّ وجود العالم، هذا دليل الحق فيه على أحديته وطابق الدليل العقلي في ذلك، ولو كان غير هذا من الأدلة أدلّ منه عليه لعدل إليه وجاء به وما عرّفنا بهذا ولا بالطريق إليه في الدلالة عليه، وقد تكلف قوم الدلالة عليه بطريق آخر وقدحوا في هذه الدلالة فجمعوا بين الجهل فيما نصبه الحق دليلاً على أحديته وبين سوء الأدب، فأما جهلهم فكونهم ما عرفوا موضع الدلالة على توحيده في هذه الآية حتى قدحوا فيه. وأما سوء الأدب فمعارضتهم بما دخلوا فيها بالأمور القادحة فجعلوا نظرهم في توحيده أتم في الدلالة ممّا دلّ به الحق على أحديته، وما ذهب إلى هذا إلاَّ المتأخرون من المتكلمين الناظرين في هذا الشأن، وأما المتقدمون كأبي حامد وإمام الحرمين وأبي إسحاق الإسفراييني والشيخ أبي الحسن فما عرّجوا عن هذه الدلالة وسعوا في تقريرها وأبانوا عن استقامتها أدباً مع الله تعالىٰ وعلماً بموضع الدلالة منها.

واعلم أن الكلام في توحيد الله من كونه إلهاً فرع عن إثبات وجوده وهذا باب التوحيد فلا حاجة لنا في إثبات الوجود فإنه ثابت عند الذي نازعنا في توحيده. وأما إثبات وجوده فمدرك بضرورة العقل لوجود ترجيح الممكن بأحد الحكمين، ولنا في توحيده طريقان: الطريق الواحدة أن يقال للمشرك: قد اجتمعنا في العلم بأن ثم مخصصاً وقد ثبت عينه وأقل ما يكون واحداً فمن زاد على الواحد فليدل عليه فعليك بالدليل على ثبوت الزائد الذي جعلته شريكاً فليكن الخصم هو الذي يتكلف إثبات ذلك. والطريقة الأخرى قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٢] هذه مقدمة، والمقدمة الأخرى السماء والأرض وأعني بهما كل ما سوى الله ما فسدتا، وهذه هي المقدمة الأخرى، والجامع بين المقدمتين وهو الرابط الفساد، فأنتجنا أحدية المخصص وهي المطلوب.

وإنما قلنا ذلك لأنه لو كان ثم إله زائد على الواحد لم يخل هذا الزائد إما أن يتفقا في الإرادة أو يختلفا، ولو اتفقا فليس بمحال أن يفرض الخلاف لننظر من تنفذ إرادته منهما، فإن اختلفا حقيقة أو فرضاً في الإرادة فلا يخلو إما أن ينفذ في الممكن حكم إرادتهما معاً وهو محال لأن الممكن لا يقبل الضدّين، وإما أن لا ينفذا، وإما أن ينفذ حكم إرادة أحدهما دون الآخر، فإن لم ينفذ حكم إرادتهما فليس واحد منهما بإله وقد وقع الترجيح، فلا بدّ أن يكون أحدهما نافذ الإرادة، وقصر الآخر عن تنفيذ إرادته فحصل العجز، والإله ليس بعاجز، فالإله من نفذت إرادته وهو الله الواحد لا شريك له، وهكذا استدلّ الخليل عليه السلام في الأقوال فأعطاه النظر أن الأفول يناقض حفظ العالم، فالإله لا يتصف بالأفول أو الأفول حادث لطروّه على الآفل بعد أن لم يكن آفلاً، والإله لا يكون محلاً للحوادث لبراهين أخر قريبة المأخذ، وهذه الأنوار قد قبلت الأفول فليس واحد منها بإله وهذه بعينها طريقة قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ وكل دليل لا يرجع إلى هذا المعنى فلا يكون دليلاً.

ثم قال الله تعالىٰ في قصة إبراهيم هذه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٣] ولم يكن له غير هذا، فقوله حجتنا أي مثل حجتنا التي نصبناها دليلاً على توحيدنا وهي قولنا: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ وهذه الأدلة وأمثالها إنما المطلوب بها توحيد الله أي ما ثم إله آخر زائد على هذا الواحد. وأما أحدية الذات في نفسها فلا تعرف لها ماهية حتى يحكم عليها لأنها لا تشبه شيئاً من العالم ولا يشبهها شيء، فلا يتعرض العاقل إلى الكلام في ذاته إلاّ بخبر من عنده، ومع إتيان الخبر فإنا نجهل نسبة ذلك الحكم إليه لجهلنا به بل نؤمن به على ما قاله وعلى ما يعلمه، فإن الدليل ما يقوم إلاّ على نفي التشبيه شرعاً وعقلاً، فهذه طريقة قريبة عليها أكثر علماء النظر.

وأما الموحد بنور الإيمان الزائد على نور العقل وهو الذي يعطي السعادة وهو نور لا يحصل عن دليل أصلاً وإنما يكون عن عناية إلهية بمن وجد عنده ومتعلقه صدق المخبر فيما أخبر به عن نفسه خاصة ليس متعلق الإيمان أكثر من هذا، فإن كشف متعلق الخبر فبنور آخر ليس نور الإيمان لكن لا يفارقه نور الإيمان، وذلك النور هو الذي يكشف له عن أحدية نفسه،

وأحدية كل موجود التي بها يتميز عن غيره، سواء كانت ثم صفة يقع فيها الاشتراك أو لا يكون، لا بدّ من أحدية تخصه يقع بها الامتياز له عن غيره، فلما كشف للعبد هذا النور أحدية الموجودات علم قطعاً بهذا النور أن الله تعالىٰ له أحدية تخصّه، فإما أن تكون عينه فيكون إحدى الذات إحدى المرتبة وهي عينها، وإما أن يكون أحدية المرتبة فيوافق الكشف الدليل النظري ويعلم قطعاً أن الذات على أحدية تخصّها هي عينها وهذا معنى قول أبي العتاهية: [المتقارب]

وفي كلِّ شيء له آيةٌ تَدُلُّ على أنه واحِدُ

وتلك الآية أحدية كل معلوم سواء كان كثيراً أو غير كثير، فإن للكثرة أحدية الكثرة لا تكون لغيرها البتة، والأحدية صفة تنزيه على الحقيقة، فلا تكون بجعل جاعل كما يراه بعض أصحابنا، فمن قال إنه وحّد الواحد ويريد به ما يريد بالوحدة فليس بصحيح، وإن أراد بقوله وحد الواحد ويعني به القائل الثاني فهذا يصحّ، وإنما الواحد من حيث عينه هو واحد لنفسه، فأهل طريق الله رأوا أن التوحيد إذا ثبت أنه عين الشرك فإن الواحد لنفسه لا يكون واحداً بإثباتك إياه واحداً فما أنت أثبته بل هو ثابت لنفسه، وأنت علمت أنه واحد لا أنك أثبت أنه واحد، فلهذا قال من أصحابنا قوله، إذ كل من وحده جاحد لأن الواحد لا يوحد لأنه لا يقبل ذلك لأنه لو قبل ذلك لكان اثنين: وحدته في نفسه، ووحدة الموحد التي أثبتها له، فيكون واحداً بنفسه وواحداً بإثبات الوحدة له من غيره، فيكون ذا وحدتين فينتفي كونه واحداً، وكل أمر لا يصحّ إثباته إلاّ بنفيه فلا يكون له ثبوت أصلاً، فالتوحيد على الحقيقة مناله سكوت خاصة ظاهراً وباطناً، فمهما تكلم أوجد، وإذا أوجد أشرك، والسكون صفة عدمية فيبقى توحيد الوجود له وما دخل الشرك في توحيده إلاّ بإيجاد الخلق لأن الخلق استدعى بحقائقه نسباً مختلفة تطلب الكثرة في الحكم وإن كانت العين واحدة، فما طرأت الآفة في التوحيد إلاّ من الإيجاد، فالتوحيد جنى على نفسه لم تجن عليه الموجودات، وهذا هو علم التوحيد الوهبي الذي لا يدرك بالنظر الفكري، وكل توحيد يعطيه النظر الفكري هو كسبي عند الطائفة.

واعلم أن الشرع ما تعرّض لأحدية الذات في نفسها بشيء وإنما نص على توحيد الألوهية وأحديتها بأنه لا إله إلاّ هو، وإنما ذلك من فضول العقل لأن العقل عنده فضول كثير أدّاه إليه حكم الفكر عليه وجميع القوى التي في الإنسان، فلا شيء أكثر تقليداً من العقل وهو يتخيل أنه صاحب دليل إلهيّ وإنما هو صاحب دليل فكري، فإن دليل الفكر يمشي به حيث يريد، والعقل كالأعمى بل هو أعمى عن طريق الحق، فأهل الله لم يقلدوا أفكارهم فإن المخلوق لا يقلد المخلوق فجنحوا إلى تقليد الله فعرفوا الله بالله، فهو بحسب ما قال عن نفسه ما هو بحسب ما حكم فضول العقل عليه. وكيف ينبغي للعاقل أن يقلد القوة المفكرة وهو يقسم النظر الفكري إلى صحيح وإلى فاسد، ولا بدّ له أن يحتاج إلى فارق بين صحيحه وفاسده، ومحال أن يفرّق بين صحيح نظر الفكر وفاسده بالنظر الفكري، فلا بدّ أن يحتاج إلى الله في ذلك، فالذي نلجأ إليه في تمييز النظر الفكري صحيحه من فاسده حتى نحكم به نلجأ إليه ابتداء في أن يعطينا العلم بذلك المطلوب من غير استعمال فكر، وعليه عولت الطائفة

وعملت به وهو علم الأنبياء والرسل وأولي العلم من أهل الله ولم تتعد بأفكارها محالها، وعلمت أن غايتها في الإدراك الصحيح في زعمها أن تبني أدلتها على الأمور الحسية والبديهية، وقد حكمت بغلط الحس ابتداء في أشياء وبالقدح في البديهيات، ثم رجعت تأخذها مصادرة لتعذر الدلالة عليها، فالرجوع إلى الله أولى في الأمور كلها كما قال ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] وهذا من جملة الأمر، فلا علم إلاّ العلم المأخوذ عن الله، فهو العالم سبحانه وحده، والمعلم الذي لا يدخل على المتعلم منه فيما يأخذه عنه شبهة ونحن المقلدون له، والذي عنده حق فنحن في تقليدنا إياه فيما أعلمنا به أولى باسم العلماء من أصحاب النظر الفكري الذين قلّدوه فيما أعطاهم لا جرم أنهم لا يزالون مختلفين في العلم بالله، والأنبياء مع كثرتهم وتباعد ما بينهم من الأعصار لا خلاف عندهم في العلم بالله لأنهم أخذوه عن الله، وكذلك أهل الله وخاصته، فالمتأخر يصدق المتقدم ويشدّ بعضهم بعضاً، ولو لم يكن ثم إلاّ هذا لكفى ووجب الأخذ عنهم.

وهذا الباب أعني باب التوحيد يعطي المناسبة من وجه، وقد قال بذلك جماعة من أهل الله كأبي حامد وغيره من شيوخنا ولا يعطي المناسبة من وجه، وقد قال به جماعة من أصحابنا كأبي العباس بن العريف الصنهاجي ونفوا المناسبة جملة، والذي أذهب إليه وأقول به على ما أصلناه أوّلاً أن لا نقلد في علمنا بالله وبغير الله إلاّ الله، فنحن بحسب ما يلقي إلينا في حق نفسه، فإن خاطبنا بالمناسبة قلنا بها حيث خاطبنا لا نتعدى ذلك الموضع ونقتصر عليه، وإن خاطبنا برفع المناسبة رفعناها في ذلك الموطن الذي رفعها فيه لا نتعداه فيكون الحكم له لا لنا، فلا نزال نصيب أبداً ولا نخطىء، وهو المعبر عنه بالعصمة في حق الأنبياء عليهم السلام والحفظ في حق الأولياء، ومتى ما لم يخبر عن الله فالإصابة إذا حصلت منه للحق اتفاقية بالنظر إليه مقصودة بالنظر إلى الحق، هذا هو الذي نعتمد عليه، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] على زيادة الكاف رفع للمناسبة الشيئية وتمام الآية ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ إثبات للمناسبة، والآية واحدة، والكلمات مختلفة، فلا نعدل عن هذه المحجة فهي أقوى حجة، وهي ما ذهبنا إليه من تقليد الحق فإنه طريق العلم والنجاة في الدنيا والآخرة، وهي طريق النبيين والمرسلين والقائلين بالفيض من الإلهيين، فإذا جاءك من الله علم فلا تدخله في ميزان الفكر، ولا تجعل لعقلك سبيلاً إلى ذلك فتهلك من ساعتك، فإن العلم الإلهي لا يدخل في الميزان لأنه الواضع له، فكيف يدخل واضعه تحت حكمه؟ النائب لا يحكم على من استخلفه وإنما يحكم على من استخلف عليه، والعلم يناقض العقل فإن العقل قيد والعلم ما حصل عن علامة، وأدل العلامات على الشيء نفس الشيء، وكل علامة سواها فالإصابة فيها بالنظر إلينا اتفاقي، وهذا القدر في هذا الباب على حكم طريقنا كاف في الغرض المقصود، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وصل: في الوتر وهو نوع من أنواع التوحيد. اعلم أن الوتر في لسان العرب هو طلب الثأر، فأحدية الحق إنما اتصفت بالوتر لطلبها الثأر من الأحدية التي للواحد الذي أظهر الاثنين

بوجوده فما زاد إلى ما لا يتناهى من الأعداد، فلما أزال بهذا الظهور حكم الأحدية فصارت أحدية الحق تطلب ثأر الأحدية المزالة التي أذهب عينها هذا الواحد الذي بوجوده ظهرت الكثرة وتطلب الوحدانية فتسمى بالوتر لهذا الطلب، فوكل هذا الواحد من ينوب عنه في الذبِّ عنه فأقام العارف وكيلاً بلسان حق فقال: أيها الحاكم الطالب ثأر الأحدية ما ذهبت الأحدية بل هذا الذي تطلبه ما أعطى الاثنينية ولا الثلاثة ولا الأربعة فصاعداً فإنه لا يعطي ما لا يقتضيه حقيقته، وإنما الذي أعطانا الاثنين أحدية الاثنين وأحدية الثلاثة والأربعة بالغاً ما بلغ العدد، وذلك لتستدل أعيان الأعداد بأحديتها تلك على أحديتك، فما سعت إلاّ في حقك ومن أجلك، إذ تعلم أن الأعداد ما ظهرت في الكون إلاّ من حكم الأسماء الإلهية فإنها كثرة ومع كثرتها فالأحدية لها متحققة، فأراد هذا الواحد أن لا يجهل أعيان الأعداد أحدية الأسماء حتى لا تتوهم الكثرة في جناب الله، فأعطى في كل عدد أحدية ذلك العدد غيرة من وجود الكثرة المذهبة لعين الأحدية والوحدة، فقبل عذره وعلم أنه متخلق في ذلك بأخلاق أحدية الحق في إقامة أحدية الأسماء الكثيرة ومشى عليه اسم الوتر للغيرة، فالله وتر يحب الوتر، وسيأتي في الباب الذي بعد هذا العلم بالكثرة والاشتراك إن شاء الله.

وصل: في الفرد. وأما الفرد فهو من حكم هذا الباب ويسمّى به لانفراده بما يتميز به عن خلقه، فما هو فرد من حيث ما هو واحد، فإنه واحد لنفسه وفرد لتميزه عن أحدية كل شيء، ولا يصحّ الفرد لغيره سبحانه، فإنه كل ما سوى الله فيه اشتراك بعضه مع بعض ويتميز بأحديته ولا ينفرد، فإن صفة الاشتراك تمنع من ذلك، فلا يصحّ اسم الفرد على الحقيقة إلاّ لله الحق خاصة فإنه الفرد من جميع الوجوه، إذ لم تكن له صفة اشتراك كما لسواه من الموجودات، ولذلك تطلب الحدود الموجودات والله لا يطلبه حد ولا يقابله مثل ولا ضد تعالىٰ الله. وأسماؤه كلها لها الفردية فإنها له نسب لا أعيان، فيأخذ الحد ذلك الاسم إذا دلّ على الحادث ولا يأخذه الحد إذا سميت به الله تعالىٰ فتحد اللفظ ولا تحد مدلوله إلاّ إذا كان مدلوله حادثاً لا غير، ولا يلزم من الاشتراك في اللفظ الاشتراك في المعنى لأن اللفظ لك لا له وأنت مشترك فيك، فلهذا قيل: اللفظ الاشتراك، ألا ترى الألفاظ المشتركة كالمشتري ليس الاشتراك إلاّ في إطلاق الاسم ولهذا يقع التفصيل إذا طولب بالحد صاحبه فيقال: أي مشتر تريد المشتري الذي هو كوكب في السماء أو المشتري الذي هو عاقد البيع فإذا حدّه تميز كل عين عن صاحبتها فليس في اللفظ من ماهية المدلول شيء فبهذا تقول في الحق سميع وبصير، وله يد ويدان أو أيد وأعين ورجل، وجميع ما أطلقه على نفسه ممّا لا يتمكن للعقل أن يطلقه عليه لأنه لم يعلم ذلك الإطلاق إلاّ على المحدثات.

ولولا الشرع والأخبار النبوية الإلهية ما جاءت بها ما أطلقناها عقلاً عليه، ومع هذا فننفي التشبيه ولا يتناول أمراً بعينه لجهلنا بذاته، وإنما نفينا التشبيه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] لا بما أعطاه الدليل العقلي حتى لا يحكم عليه إلاّ كلامه تعالىٰ، وبهذا نحب أن نلقاه إذا لقيناه وكشف عن بصائرنا وأبصارنا غطاء العمى إن كان يمكن

كشفه مطلقاً أو يكشف منه ما يمكن كشفه، إما على التساوي في حق الجميع، وإما على التفاضل في حق العباد، فينفرد كل شخص برؤية لا تكون لغيره، ولا يصحّ الكشف في علم التوحيد إلاّ عند من يقول بالمناسبة ولا عند من يقول بنفي المناسبة، لأن التوحيد ليس بأمر وجودي وإنما هو نسبة، والنسب لا تدرك كشفاً وإنما تعلم من طريق الدليل، فإن الكشف رؤية ولا تتعلق الرؤية من المرئي إلاّ بكيفيات يكون المرئي عليها، وهل في ذلك الجناب الإلهي كيفية أم لا؟ فالدليل ينفي الكيفية، فإن كان يريد أنه لا كيفية له في ذاته فلا يكشف، وإن كان يريد أنه لا تعقل كيفيته فيمكن أن يكشف من حيث ما له كيفية لا نعقل لكن يحصل العلم بها عند الكشف، فإن كل كيفية حصلها العقل من نظره في الأشياء فإنها تستحيل عليه عنده مع ثبوت الإيمان بأسمائها لا بمعقوليتها من نزول واستواء ومعية وتقليب وتردّد وضحك وتعجّب ورضى وغضب، فإن جسد الله هذه المعاني في حضرة التمثيل كالعلم في صورة اللبن فذلك له وحينئذ تنال كشفاً وإلاّ فلا تنال أبداً، ولا يعلم من أين أخذتها النبوة هل تلقتها خبراً أو كشفاً؟ فإن كان خبراً فقد وقع التساوي، وإن كان عن كشف فهو بحسب ما ذكرناه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والسبعون ومائة
في معرفة مقام الشرك وهو التثنية

[نظم: السريع]

الشِّرْكُ في الأسماء لا يُجْهَلُ ... عليه أهل الكشف قد عَوَّلُوا
قالوا وما الرحمنُ قلنا لهم ... هو الإلهُ الحَكَمُ الأوّلُ
لا فرقَ بين الله في كَوْنِهِ ... دلَّ على الذَّات يُسْأَلُ
به من الأسماءِ في كلِّ ما ... يَلْفُظُهُ اللافظُ أو يَعْقِلُ
والشِّرْكُ محمودٌ على بابه ... عند الذي يَعلم أو يَجْهَلُ
هو الوجودُ المَحْضُ لا يَمْتري ... فيه إمامٌ حُكْمُه فَيْصَلُ
وإنما المذمومُ منه الذي ... أثْبَتَه في عَقْده المُبْطِلُ

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] فاعلم أن الله تعالىٰ من حيث ذاته فهو الواحد الأحد. وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٠] إذا دعوته عرفت من يجيبك، وما يجيبك هل يجيبك من حيث ذاته أو من حيث نسبة يطلبها ذلك الاسم ما هي عين الذات ولا يجيبك تعالىٰ مع ارتفاع وجود تلك النسبة، فإذا عرفت هذا عرفت أموراً كثيرة في عين واحدة لا تعقل الذات عند الدعاء بهذه الأسماء دون هذه النسب، ولا تعقل النسب دون هذه الذات، فإذا قلت: يا عليم، علمت أن معقوله خلاف معقول يا قدير، وكذلك يا مريد ويا سميع ويا بصير ويا شكور ويا حيّ ويا قيوم ويا غنيّ إلى ما شئت من الأسماء الحسنى، فهذه النسب وإن كثرت

فالمسمّى واحد والمنسوب إليه هذه النسب واحد، فإذاً لا تعقل الكثرة في هذا الواحد إلاّ هكذا، فكل اسم قد شارك الاسم الآخر وغيره من الأسماء الإلهية في دلالته على الذات مع معقولية حقيقة كل اسم أنها مغايرة لمعقولية غيره من الأسماء وتميز كل واحد منها عن صاحبه واشتراكهم في ذات المسمّى وليست هذه الأسماء لغير من تسمّى بها، فالأسماء الإلهية مترادفة من وجه متباينة من وجه مشتبهة من وجه، فالمترادفة: كالعالم والعلام والعليم وكالعظيم والجبار والكبير. والمشتبهة: كالعليم والخبير والمحصي. والمتباينة: كالقدير والحيّ والسميع والمريد والشكور.

وأما الضرب الآخر من الشركة في إيجاد العالم فهو باستعداد الممكن لقبول تأثير القدرة فيه إذ المحال لا يقبل ذلك، فما استقلت القدرة بالإيجاد دون استعداد الممكن، ولا استقل استعداد الممكن دون القدرة الإلهية بالإيجاد، وهذا سار في كل ممكن، ثم اشتراك آخر خصوص في بعض الممكنات وهو إذا أراد إيجاد العرض فلا بدّ من الإقتدار الإلهي والإرادة الإلهية لتخصيص ذلك العرض المعين، ولا بدّ من العلم به حتى يقصده بالتخصيص، ولا بدّ من استعداد ذلك المراد لقبول الإيجاد، ولا بدّ من وجود المحل لصحة إيجاد ذلك العرض، إذ كان من حقيقته أنه لا يقوم بنفسه، فلا بدّ له من محل يقوم به، ولا بدّ لذلك المحل أن يكون على استعداد يقبل وجود ذلك العرض فيه، وهذا كله ضرب من الشركة في الفعل، فهذا معنى الشركة والكثرة المطلوبة في الإلهيات في هذا الباب، ولا يحتمل هذا الباب أكثر ممّا أومأنا إليه من هذه الأصول. وتلخيص هذا الباب أن كل أمر يطلب القسمة فلا يصحّ فيه توحيد، وأعمّه المعلوم فنقول: المعلومات تنقسم بوجه إلى ثلاثة أقسام: إلى واجب وجائز ومستحيل، ثم ما من شيء نذكره بعد هذا من موجود ومعدوم وغير ذلك إلاّ ويقبل القسمة، فأين التوحيد في كل مذكور أو معلوم فلم يبق إلاّ توحيد الكثرة في معلوم معين يسمّى الله، وهو الذي ينبغي أن يكون على كذا وكذا وتذكر ما لا تصحّ الألوهية إلاّ به، وحينئذ يصحّ أن يكون الله ولا يشاركه في هذه الصفات بمجموعها واحد آخر فذلك يعني بقوله واحد بأحدية هذا المجموع مع أحدية العين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والسبعون ومائة
في معرفة مقام السفر وأسراره

[نظم: البسيط]

إن السُّفورَ دليلُ الخَوْف والحَذَرِ ... هذا هو العُرْفُ في الإعراض بالخَبَرِ
فإن رأيتَ فتاةَ الحَيِّ قد سَفَرَتْ ... فكنْ فدَيْتُك من هذا على حَذَرِ
لذا نقول بأن المُمْكناتِ على ... أصولها ما لها عينٌ من الصُّوَرِ
ولا تَقُلْ بحلول إنَّها عَدَمٌ ... وقد يكون لها التكوينُ في السُّوَرِ

قال تعالىٰ في وصف أهل الله: السائحون. والسياحة الجولان في الأرض على طريق

الاعتبار، والقربة إلى الله لما في الأنس بالخلق من الوحشة. فاعلم أن أهل الله ما طلبوا السياحة في الأرض ولزوم الفقر وسواحل البحار إلاّ لما غلب عليهم من الأنس بالجنس الذين هم أشكاله من الأناسي، وهو وإن كان ذلك الأنس في الظاهر فهو استيحاش في الباطن من حيث لا يشعر طالب السياحة، ولا يعلم طالب السياحة أنه ما دعاه إلى ذلك إلاّ الوحشة إلاّ بعد وقوفه على ما تنتج له السياحة، وذلك أن الله خلق الإنسان الذي هو آدم وكل خليفة على صورته نفى عنه المماثلة فقال: إنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وسرت هذه الحقيقة في الإنسان، فإذا جنح إلى الله وتاب استشرفت نفسه على هذه المرتبة أعني نفي المثلية، فلما رأى أمثاله من الناس غار أن يكون له مثل كما غار الحق أن يكون ثم من ينسب إليه الألوهية غيره، فاستوحش من المخلوقين وطلب الانفراد بذاته من أمثاله حتى لا يبقى له أنس إلاّ بذاته وحده ولا يرى له مثلاً، ففرّ بنفسه إلى الأماكن القاصية عن رؤية أمثاله، فلازم الجبال وبطون الأودية وهذه الحالة هي السياحة، فأسفرت له هذه السياحة عن مطلوبه فأنس بذاته فذلك تشبهه بمقام قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [سورة غافر: الآية ١٦] لأنه لم يبق مدّع كان يدعي الألوهية موجوداً كذلك هذا ما بقي له في الفقر الذي هو فيه من يتسمّى بإنسان الذي هو مثله غير الوحش، فالوحش وغير الجنس له بمنزلة العالم من الله فلهذا طلب السفر أي المعنى الذي يظهر ما ذكرناه، ولهذا المعنى أشار الشبلي حين بات عند بعض إخوانه فسامره الشبلي فقال له صاحبه: يا شبلي قم نتعبد، فقال له الشبلي: العبادة لا تكون بالشركة، وكذلك الربوبية لا تكون بالشركة، فبقوة الصورة التي خلق الإنسان عليها طلب الفرار من الناس دون غيرهم من المخلوقين، ولهذا ما ادّعى أحد من الخلق الألوهية إلاّ هذا الجنس الإنسانيّ، فلم يرد السائح أن يرى مثله لهذا الذي ذكرناه، هذا مقام هذا السفر.

وأما السفر في المعقولات بالفكر وفي مراتب المعارف والعلوم فله باب آخر في هذا الكتاب يرد بعد هذا إن شاء الله في باب من أبواب الأحوال، فهذه سياحة الخصوص من أهل الله، وأما سياحة العموم منهم فسبب سياحتهم قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٥٦] فنظروا ما هي أرض الله؟ فقالوا: كل أرض موات لا يكون عليها ملك لغير الله فتلك أرضه الخاصة به المضافة إليه البريئة من الشركة فيها البعيدة من المعمور، فإن الأرض الميتة القريبة من العمران يمكن أن يصل إليها بعض الناس فيحييها فيملكها بأحيائها والبعيدة من العمران سالمة من هذا التخيل فقالوا: ما أمرنا الله بالعبادة فيها إلاّ ولها خصوص وصف، وليس فيها من خصوص الأوصاف إلاّ كونها ليس فيها نفس لغير الله ففيها نفس الرحمن، فإذا عبد الإنسان ربه في مثل هذه الأرض وجد أنساً من تلك الوحشة التي كانت له في العمران، ووجد لذة وطيباً في قلبه وانفراده، وذلك كله من أثر نفس الرحمن الذي نفس الله به عنه ما كان يجده من الغمّ والضيق والحرج في الأرض المشتركة، فهذا الذي أدّى العامة من أهل الله إلى السياحة، ثم إنهم رأوا في هذه الأرض من الآيات والعجائب والاعتبارات ما دعاهم إلى النظر فيما ينبغي لمالك هذه الأرض، فأنار الله قلوبهم بأنوار العلوم،

وفتح لهم في النظر في الآيات وهي العلامات الدالة على عظمة من انقطعوا إليه وهو الله تعالىٰ ورثاً نبوياً من قوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] ثم قال: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] فعرج به إلى السموات إلى أن بلغ به الإسراء إلى حيث قدره الله له من المنازل العالية، فأراه من الآيات ما زاده علماً بالله إلى علمه لذا قرن به ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما خوطب به ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] لما شاهده من الآيات فالسايحون من عباد الله يشاهدون من آيات الله ومن خرق العوائد ما يزيدهم قوّة في إيمانهم ونفسهم ومعرفتهم بالله وأنسابه ورحمة بخلقه وشفقة عليهم، فإذا رأوا قمة جبل شامخ تذكروا علوّا لهم حيث لم يطلبوا من الله إلاَّ الأنفس، وهو الانفراد به في خلوة من أشكالهم حذراً من الشغل بسواهم، وإذا كانوا في بطن واد أو قاع من القيعان ذكرهم ذلك بعبوديتهم وتواضعهم تحت جبروت سلطان خالقهم، فذلّوا في أنفسهم وعرفوا مقدارهم، وعلموا أن ما ينالونه من الرفعة إنما ذلك بعناية الله لا باستحقاق.

ثم إذا كانوا على ساحل بحر تذكروا بالبحر سعة علم الله وسعة عظمته ورحمته، ثم يرون مع هذه العظمة ما تحدث فيه الرياح من تلاطم الأمواج وتداخل بعضها في بعض، فيذكرهم ذلك في جناب الحق تعارض الأسماء الإلهية وتداخل بعضها في بعض في تعلقاتها مثل الاسم المنتقم والسريع الحساب والشديد العقاب عند معصية العاصي، ويجيء أيضاً في مقابلة هذه الأسماء الاسم الغفار والعفوّ والمحسان، فتتقابل الأسماء على هذا العبد العاصي، وكذلك التردّد الإلهيّ يعتبرونه في تموّج هذا البحر فيفتح لهم في بواطنهم في علوم إلهية لا ينالونها إلاَّ في مشاهدة ذلك البحر في سياحتهم، فيكثر منهم التكبير والتعظيم لجناب الله، ثم ما يحصل لهم من خرق العوائد في استئناس الوحوش بهم وإقبالهم عليهم، وفيهم من تكلمه الوحوش بلسانه، وفيهم من يعلم منطقها وترى ما هم عليه من عبادة الله ما يزيدهم ذلك حرصاً واجتهاداً في طاعة ربهم. والحكايات في كتب القوم في ذلك كثيرة جدّاً، ولولا أن كتابنا هذا مبناه على المعارف والأسرار لسقنا من الحكايات ما شاهدناه بنفوسنا في سياحتنا واجتماعنا بهذه الطائفة وما رأينا فيهم من العجائب، وهذا القدر كاف في الغرض المقصود من هذا الباب، حتى يرد الكلام إن شاء الله في السفر ومراتبه فيما بعد عند ذكر المسافر والسالك والطريق. والله يهدي من يشاء إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

الباب الخامس والسبعون ومائة

في مقام ترك السفر

[نظم: البسيط]

احذَرْ بأن تَجعَلِ الأعيانَ واحدةً ... إذا أتتك بها الآياتُ والسُّوَرُ

من قوله أنت عبدي والإلهُ أنا ... وما لنا عندكم عَينٌ ولا أَثَرُ

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا

لُغُوبٌ﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٥] قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فقطع المسافات زيادة تعب بل تعب خاصة فإنه ما يحركني إلاَّ طلبه، فلولا أني جعلته مطلوبي ومقصدي بهذه السياحة والسفر ما طلبته، وقد أخبرني أنه معي في حال انتقالاتي، كما هو معي في حال الإقامة وله في كل شيء وجهة فلماذا أجول؟ فالحركة لتحصيله دليل على عدم الوجدان في السكون، فأطلب وجهه في موضع إقامتي، فإذا عرفته فيه كنت منزلاً من منازل القمر مقصوداً لا قاصداً ولا نازلاً، تطلبني الأسماء ولا أطلبها، وتقصدني الأنوار ولا أقصدها، وقفت مع من لا يجوز عليه التحرّك والانتقال، فصاحب السفر مع قوله: ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا وصاحب الإقامة مع قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] والسكون أولى من الحركة، فإن العبد مأمور بالسكون تحت مجاري الأقدار، وما يأتي به الله إليه في الليل والنهار، وقال في ذم من بادر الأقدار: «**بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ**» والمبادرة حركة، ما قال الله لنا آمراً: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٩] إلاَّ لنسكن ويكون هو سبحانه الذي يتصرف في أمر عبده حتى يوفيه ما قدر له من كل ما يصيبه، حتى أنه لو كان مّما يصيبه السفر والانتقال لنقله الحق بهذه الصفة التي هو عليها من السكون في محفة عناية إلهية لا يعرف الحركة المتعبة مستريحاً مظللاً عليه مخدوماً، هذا سفر تارك السفر إذا كان مقدراً له السفر، وقد ذقنا الأمرين، ورأينا السكون أرجح من الحركة وأقوى في المعرفة مع انتقال الأحوال عليه في كل نفس، وذاك الانتقال عليه لا بدّ منه له، فهو طريق مطرقة يسلك فيها ولا يسلك، فإذا انتقل هو بذاته فلا يزيد شيئاً على تلك الانتقالات عليه إلاَّ التعب خاصة، فكان المسافر يستعجل عذاباً ومشقة، فإن الأمور الجارية على العبد مثل الرزق، والأجل إن لم تأت إليه أتى إليها لا بدّ من ذلك: [الوافر]

ولا مَعْنَى لشكوى الشَّوْق يوماً ... إلى من لا يزول من العَيَانِ

السكون مع المشاهدة والحركة مع الفقد إلاَّ الحركة المأمور بها، لأنك لا تخلو أن تتحرك في طلبه فأنت فاقداً، وفي غير طلبه فأنت خاسر، فالسكون بكل حال أولى من الحركة التي في مقام ذلك السكون، وأنت في مقام أن تتحرك بالله، فالسكون بالله مع الله أولى لراحة الوقت، فإنه والله إن كنت فاقداً له في السكون فأنت في الحركة المحسوسة أفقد بما لا يتقارب ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٥] ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٧] لو لم يكن من شرف السكون إلاَّ ورود الأسماء الإلهية عليك ونزول الحق إليك لأنك إن تحركت إليه حددته، وإن سكنت معه عبدته، الحركة إليه عين الجهل به، والسكون معه عين العلم به، ما أسرى برسول الله ﷺ ليراه، وإنما أسرى به ليريه من آياته من قوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧] فمن رجح ترك السفر فقد أصاب في النظر وقصد عين الخبر إذا كان جليس الذاكر فإلى أين يرحل، فهذا قد أبنت لك عن السفر وتركه، فكن بحسب ما يقع لك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والسبعون ومائة
في معرفة أحوال القوم رضي الله عنهم عند الموت

[نظم: البسيط]

لـلـقـوم عـنـد حُـلـول الـمـوتِ أحـوالُ ... تـنـوَّعـت وهـي أَمْـثـالٌ وأشـكـالُ
فـمـنـهـم مـن يـرى الأسـمـاءَ تَـطْـلُـبُـه ... ومـنـهـم مـن يـرى الأمـلاكَ والـحـالُ
فـي ذاك مـخـتـلـفٌ عـنـد الـوجـود لـمـا ... تُـعْـطي الحقائقُ والتَّفْصيلُ إجمالُ
ومـنـهـم مـن يـرى الأرْسَـالَ مُـقْـبِـلـةً ... إلـيـه تُـتْـحِـفُـه والـرُّسْـلُ أعـمـالُ
ومـنـهـم مـن يـرى الـتَّـنْـزيـه يـطـلـبـه ... وهـو الـذي عـنـده الـتَّـشْـبـيـهُ إضْـلالُ
وكُـلُّـهـم سـعـدوا والـعـيـنُ واحـدةٌ ... وعـنـدهـم فـي جـنـان الـخُـلْـد أشـغَـالُ
هـذا هـو الـحـقُّ لا تـبـغـي بـه بَـدَلاً ... فـهـو الـصـحيحُ الـذي ما فيه إشْكَالُ

قال رسول الله ﷺ: «**يَمُوتُ المَرْءُ عَلَىٰ مَا عَاشَ عَلَيْهِ وَيُحْشَرُ عَلَىٰ مَا عَلَيْهِ مَاتَ**». وقال تعالىٰ: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [سورة ق: الآية ٢٢] يعني عند الموت أي يعاين ما هو أمره عليه الذي ينفرد به أهل الله العابدون ربهم إذا أتاهم اليقين، يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٩] يعني الموت لأنه أمر متيقن لا اختلاف في وقوعه في كل حيوان، وإنما وقع الخلاف في ماهيته، قال شاعرهم:

فـخَـالَـفَ الـنـاسُ حتى لا اتِّـفَـاقَ لـهـم ... إلاَّ على شَجَبٍ والخُلْفُ في الشَّجَبِ

يعني ما هو والشجب الموت، فإذا حضرتهم الوفاة رضي الله عنهم فلا بدّ لهم من مشاهد اثنتي عشرة صورة يشهدونها كلها أو بعضها لا بدّ من ذلك وهنّ: صورة عمله، وصورة علمه، وصورة اعتقاده، وصورة مقامه، وصورة حاله، وصورة رسوله، وصورة الملك، وصورة اسم من أسماء الأفعال، وصورة اسم من أسماء الصفات، وصورة اسم من أسماء النعوت، وصورة اسم من أسماء التنزيه، وصورة اسم من أسماء الذات، وكان الأولى أن تكون هذه الصور كلها بالسين لا بالصاد، فإنها منازل معان إلاَّ أنه لما تجسدت المعاني وظهرت بالأشكال والمقادير لذلك تصورت في صور، إذ كان الشهود بالبصر وحكمت الحضرة بذلك الخيالية البرزخية، فالموت والنوم سواء فيما تنتقل إليه المعاني، فمنهم من يتجلى له عند الموت عمله العمل فيتجلى له عمله في الزينة والحسن على قدر ما أنشأه العامل عليه من الجمال، فإن أتم العمل كما شرع له ولم ينقص منه شيئاً يشينه انتقاصه كان في أتم نشأة حسنة ظهرت من تمام أركان ذلك العمل الظاهرة والباطنة من الحضور وشهود الرب في قلبه وفي قبلته إذا صلّى، وكل عمل مشروع فهو صلاة، ولهذا قال ﷺ عن الله تعالىٰ أنه يقول يوم القيامة: «**انْظُرُوا فِي صَلاةِ عَبْدِي أَتَمَّهَا أَمْ نَقَصَهَا؟ فَإِنْ كَانَتْ تَامَّةً كُتِبَتْ لَهُ تَامةً، وَإِنْ كَان انتقصَ مِنهَا شَيئاً قَالَ: انظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ قَالَ: أَكْمِلُوا لِعَبْدِي فَرِيضَته مِنْ تَطَوُّعِهِ**» ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم، فإن كان العمل غير ذات العامل كمانع الزكاة

وكغاصب أمر ما حرم عليه اغتصابه كسى ذلك المال صورة عمل هذا العبد من حسن أو قبح، فإن كان قبيحاً طوق به كما قال في مانع الزكاة: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨٠] وقال فيه عليه السلام يمثل له ماله شجاعاً أقرع الحديث وفيه يقول له: «**أَنَا كَنْزُكَ فَيُطَوَّقُ**» والكنز من عمل العبد في المال، وهكذا لعباد الله الصالحين فيما يجودون به من الخير بما يرجع إلى نفوسهم وإلى التصرّف في غير ذواتهم فيرى علامات ذلك كله، وهذا داخل تحت قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] وهذا الموطن من بعض مواطن ما يرى فيه عمله فيشاهد العبد الصالح عند الاحتضار عمله الصالح الذي هو لروحه مثل البراق لمن أسرى به عليه فيرفع تلك الروح الطيبة إلى درجاتها حيث كانت من عليين، فإن عباد الله على طبقات في أعمالهم في الحسن والأحسن والجميل والأجمل العلم.

ومنهم رضي الله عنهم من تجلى له عند الموت علمه بالجناب الإلهي وهم رجلان: رجل أخذ علمه بالله عن نظر واستدلال، ورجل أخذ علمه عن كشف وصورة الكشف أتم وأجمل في التجلّي، لأن الكشف واقتناء هذا العلم ينتجه تقوى وعمل صالح وهو قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] فيظهر له علمه عند الموت صورة حسنة أو نوراً يلتبس به فيفرح به، فإن صحبته دعوى في اقتنائه ذلك العلم نفسية فهو في الصورة الجميلة دون من لم تصحبه دعوى في اقتناء ذلك العلم بل يراه منحة إلهية وفضلاً ومنة لا يرى لنفسه تعمّلاً بل يكون ممّن فني عن عمله في عمله فكان معمولاً به، كالآلة للصانع يعمل بها وينسب العمل إليه لا إليها، فيقع الثناء على الصانع العامل بها لا عليها، فهكذا يكون بعض عباد الله في اقتناء علومهم الإلهية، فتكون صورة العلم في غاية من الحسن والجمال الاعتقاد.

ومنهم المعتقد الذي لا علم عنده إلاً أن عقده موافق للعلم بالأمر على ما هو عليه، فكان يعتقد في الله ما يعتقده العالم، لكن عن تقليد لمعلمه من العلماء بالله، ولكن لا بدّ أن يتخيل ما يعتقده، فإنه ليس في قوّته أن يجرده عن الخيال وهو عند الاحتضار، وللاحتضار حال استشراف على حضرة الخيال الصحيح الذي لا يدخله ريب ما هو الخيال الذي هو قوّة في الإنسان في مقدم دماغه، بل هو خيال من خارج كجبريل في صورة دحية، وهو حضرة مستقلة وجودية صحيحة ذات صور جسدية تلبسها المعاني والأرواح فتكون درجته بحسب ما اعتقده من ذلك المقام، فإن كان هذا العبد صاحب مقام قد لحق بدرجة الأرواح النورية فإنها التي ذكر الله عنها أنها قالت: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٦٤] فيظهر له مقامه في صورة فينزل فيها منزلة الوالي في ولايته فيكون بحسب مقامه، وهذه كلها بشارات الحياة الدنيا الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [سورة يونس: الآية ٦٣، ٦٤].

الحال: فإن كان صاحب حال في وقت احتضاره يرد عليه من الله حال يقبض فيه فهو له، كالخلعة لا كالولاية، فيتلبس بها ويتجمل بحسب ما يكون ذلك الحال دلّ على منزلته، والحال قد تكون ابتداء وقد تكون عن عمل متقدم وبينهما فرقان، وإن كان الحال موهوباً على

كل وجه، ولكن الناس على قسمين: منهم من تتقدم له خدمة فيقال: إنه مستحق لما خلع عليه. ومنهم من لم يتقدم له ذلك فتكون المنة والعناية به أظهر لأنه لا يعرف له سبب مع أن الأحوال كلها مواهب والمقامات استحقاق الرسل.

ومنهم من يتجلى له عند الاحتضار رسوله الذي ورثه إذ كان العلماء ورثة الأنبياء، فيرى عيسىٰ عند احتضاره أو موسىٰ أو إبراهيم أو محمداً أو أي نبيّ كان على جميعهم السلام، فمنهم من ينطق باسم ذلك النبيّ الذي ورثه عندما يأتيه فرحاً به لأن الرسل كلهم سعداء، فيقول عند الاحتضار عيسىٰ أو يسميه المسيح كما سمّاه الله وهو الأغلب فيسمع الحاضرون بهذا الولي يتلفظ بمثل هذه الكلمة فيسيؤون الظن به وينسبونه إلى أنه تنصر عند الموت وأنه سلب عنه الإسلام، أو يسمّى موسىٰ أو بعض أنبياء بني إسرائيل فيقولون: إنه تهود وهو من أكبر السعداء عند الله، فإن هذا المشهد لا تعرفه العامة بل يعرفه أهل الله من أرباب الكشوف، وإن كان ذلك الأمر الذي هو فيه اكتسبه من دين محمد ﷺ، ولكن ما ورث منه هذا الشخص إلاّ أمراً مشتركاً كان لنبي قبله وهو قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠] فلما كانت الصورة مشتركة جلى الحق له صاحب تلك الصورة في النبي الذي كانت له تلك الصفة التي شاركه فيها محمد ﷺ مثل قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [سور طٰه، الآية ١٤] وذلك ليتميز هذا للشخص بظهور من ورثه من الأنبياء عمّن ورث غيره، فلو تجلى في صورة محمدية التبس عليه الشخص الذي ورث محمداً ﷺ فيما اختصّ به دون غيره من الرسل الملك.

ومنهم من يتجلى له عند الاحتضار صورة الملك الذي شاركه في المقام فإنهم الصافون، ومنهم المسبحون، ومنهم التالون، إلى ما هم عليه من المقامات، فينزل إليه الملك صاحب ذلك المقام مؤنساً وجليساً تستنزله عليه تلك المناسبة، فربما يسميه عند الموت ويرى من المحتضر تهمماً به وبشاشة وفرحاً وسروراً، وما وصفنا في هذا الاحتضار إلاّ أحوال الأولياء الخارجين عن حكم التلبيس ما ذكرنا من أحوال العامة من المؤمنين فإن ذلك مذاق آخر، وللأولياء هذا الذي نذكره خاصة، فلذلك ما نتعرض لما يطرأ من المحتضر من العامة ممّا يكره رؤيته ويتمعر وجهه ليس ذلك مطلوبنا، ولا يرفع بذلك رأساً أهل الله، وإن تعرض لهم فإنهم عارفون بما يرونه.

أسماء الأفعال: ومنهم من يتجلى له عند الموت هجيره من الأسماء الإلهية، فإن كان من أسماء الأفعال كالخالق بمعنى الموجد والباري والمصوّر والرزاق والمحيي وكل اسم يطلب فعلاً فهو بحسب ما كان عليه في معاملته معه ظهر له بما يناسب ذلك العمل فيراه في أحسن صورة فيقول له: من أنت يرحمك الله؟ فيقول: هجيرك، وسيأتي ذكر الهجيرات من هذا الكتاب في باب أحوال الأقطاب من آخره إن شاء الله.

أسماء الصفات: فإن كان هجيره كل اسم يستدعي صفة كمال كالحي والعالم والقادر والسميع والبصير والمريد فإن هذه الأسماء كلها أسماء المراقبة والحيا، فهم أيضاً بحسب ما

كانوا في حال حياتهم عند هذه الأذكار من طهارة النفوس عن الأعراض التي تتخلل هذه النشأة الإنسانية التي لا يمكن الانفكاك عنها، وليس لها دواء إلاّ الحضور الدائم في مشاهدة الوجه الإلهي الذي له في كل كون عرضي وغير عرضي.

أسماء النعوت: فإن كان هجيره أسماء النعوت وهي أسماء النسب كالأوّل والآخر وما جرى هذا المجرى فهو فيها بحسب ما يقوم به من علم الإضافات في ذكره ربه بمثل هذه الأسماء فيعرفه أن لها عيناً وجودياً كمثبتي الصفات أو لا عين لها.

أسماء التنزيه: ومنهم من يتجلى له عند الاحتضار أسماء التنزيه كالغني، فإن كان مثل هذا الاسم هجيره في مدة عمره فهو فيه بحسب شهوده هل يذكره بكونه غنياً عن كذا ويذكره غنياً حميداً من غير أن يخطر له عن كذا وكذا فيما يماثله من أسماء التنزيه سواء.

أسماء الذات: ومنهم من كان هجيره الاسم الله أو هو، والهو أرفع الأذكار عندهم كأبي حامد. ومنهم من يرى أنت أتم وهو الذي ارتضاه الكتاني مثل قوله: يا حيّ يا قيوم يا لا إله إلاّ أنت. ومنهم من يرى أنا أتم وهو رأي أبي يزيد فإذا احتضر من هذا ذكره فهو بحسب اعتقاده في ذلك من نسبة تلك الكناية من توهم تحديد وتجريد عن تحديد. ومنهم من يرى أن التجريد والتنزيه تحديد ومن المحال أن يعقل أمر من غير تحديد أصلاً فإنه لا يخلو إمّا أن يعقل داخلاً أو خارجاً أو لا داخل ولا خارج، أو هو عين الأمر لا غيره وكل هذا تحديد، فإن كل مرتبة قد تميزت عن غيرها بذاتها ولا معنى للحد إلاّ هذا، وهذا القدر كاف. انتهى الجزء العاشر ومائة.

(الجزء الحادي عشر ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب السابع والسبعون ومائة
في معرفة مقام المعرفة

[نظم: السريع]

مـن ارتـقـى فـي دَرَجِ الـمَـعْـرِفَـهْ ... رأى الـذي فـي نَـفْـسـه مِـنْ صِـفَـهْ
لأنـهـا دلَّـتْ عـلـى واحـدِ ... لـلـفَـرْق بـيـن الـعِـلْـم والـمَـعْـرِفَـهْ
لـهـا وجـودٌ فـي وجـودِ الـذي ... أرسـلـه الـحـقُّ ومـا كَـلَّـفَـهْ
فـهـو إمـامُ الـوقـت فـي حـالِـهِ ... ويـشـتـهـي الـواقـفُ أن يـعـرِفَـهْ
تَـجـري عـلـى الـحِـكْـمـة أحـكـامُـه ... فـي الـرُّتْـبَـة الـعـالـيـة الـمُـشْـرِفَـهْ

اعلم أن المعرفة نعت إلهيّ لا عين لها في الأسماء الإلهية من لفظها، وهي أحدية المكانة لا تطلب إلاّ الواحد، والمعرفة عند القوم محجة، فكل علم لا يحصل إلاّ عن عمل وتقوى وسلوك فهو معرفة لأنه عن كشف محقق لا تدخله الشبه، بخلاف العلم الحاصل عن

النظر الفكري لا يسلم أبداً من دخول الشبه عليه والحيرة فيه والقدح في الأمر الموصل إليه. واعلم أنه لا يصحّ العلم لأحد إلاّ لمن عرف الأشياء بذاته، وكل من عرف شيئاً بأمر زائد على ذاته فهو مقلد لذلك الزائد فيما أعطاه، وما في الوجود من علم الأشياء بذاته إلاّ واحد، وكل ما سوى ذلك الواحد فعلمه بالأشياء وغير الأشياء تقليد، وإذا ثبت أنه يصحّ فيما سوى الله العلم بشيء إلاّ عن تقليد فلنقلد الله ولا سيما في العلم به، وإنما قلنا لا يصحّ العلم بأمر ما فيما سوى الله إلاّ بالتقليد، فإن الإنسان لا يعلم شيئاً إلاّ بقوّة ما من قواه التي أعطاه الله وهي الحواس والعقل، فالإنسان لا بدّ أن يقلد حسّه فيما يعطيه وقد يغلط وقد يوافق الأمر على ما هو عليه في نفسه، أو يقلد عقله فيما يعطيه من ضرورة أو نظر، والعقل يقلد الفكر ومنه صحيح وفاسد فيكون علمه بالأمور بالاتفاق فما ثم إلاّ تقليد.

وإذا كان الأمر على ما قلناه فينبغي للعاقل إذا أراد أن يعرف الله فليقلده فيما أخبر به عن نفسه في كتبه وعلى ألسنة رسله، وإذا أراد أن يعرف الأشياء فلا يعرفها بما تعطيه قواه، وليسع بكثرة الطاعات حتى يكون الحق سمعه وبصره وجميع قواه، فيعرف الأمور كلها بالله ويعرف الله بالله إذ ولا بدّ من التقليد، وإذا عرفت الله بالله والأمور كلها بالله لم يدخل عليك في ذلك جهل ولا شبهة ولا شك ولا ريب، فقد نبهتك على أمر ما طرق سمعك، فإن العقلاء من أهل النظر يتخيلون أنهم علماء بما أعطاهم النظر والحسّ والعقل وهم في مقام التقليد لهم، وما من قوّة إلاّ ولها غلط قد علموه، ومع هذا غالطوا أنفسهم وفرّقوا بين ما يغلط فيه الحسّ والعقل والفكر وبين ما لا يغلط فيه، وما يدريهم لعل الذي جعلوه غلطاً يكون صحيحاً، ولا مزيل لهذا الداء العضال إلاّ من يكون علمه بكل معلوم بالله لا بغيره، وهو سبحانه عالم بذاته لا بأمر زائد، فلا بدّ أن تكون أنت عالماً بما يعلمه به سبحانه لأنك قلدت من يعلم ولا يجهل ولا يقلد في علمه، وكل من يقلد سوى الله فإنه قلد من يدخله الغلط وتكون إصابته بالاتفاق.

فإن قيل لنا: ومن أين علمت هذا وربما دخل لك الغلط وما تشعر به في هذه التقسيمات وأنت فيها مقلد لمن يغلط وهو العقل والفكر؟ قلنا: صدقت ولكن لما لم نر إلاّ التقليد ترجح عندنا أن نقلد هذا المسمّى برسول والمسمّى بأنه كلام الله، وعلمنا عليه تقليداً حتى كان الحق سمعنا وبصرنا، فعلمنا الأشياء بالله وعرفنا هذه التقاسيم بالله، فكان إصابتنا في تقليد هذا بالاتفاق لأنا قلنا مهما أصاب العقل أو شيء من القوىٰ أمراً ما على ما هو عليه في نفسه إنما يكون بالاتفاق، فما قلنا إنه يخطىء في كل حال، وإنما قلنا لا نعلم خطأه من إصابته، فلما كان الحق جميع قواه وعلم الأمور بالله عند ذلك علم الإصابة في القوىٰ من الغلط وهذا الذي ذهبنا إليه ما يقدر أحد على إنكاره فإنه يجده من نفسه، فإذا تقرّر هذا فاشتغل بامتثال ما أمرك الله به من العمل بطاعته ومراقبة قلبك فيما يخطر فيه والحياء من الله والوقوف عند حدوده والانفراد به وإيثار جنابه حتى يكون الحق جميع قواك فتكون على بصيرة من أمرك وقد نصحتك، إذ قد رأينا الحق أخبر عن نفسه بأمور تردها الأدلة العقلية والأفكار الصحيحة مع إقامة أدلتها على تصديق المخبر ولزوم الإيمان بها، فقلد ربك إذ ولا بدّ من

التقليد، ولا تقلد عقلك في تأويله، فإن عقلك قد أجمع معك على التقليد بصحة هذا القول إنه عن الله، فما لك منازع منك يقدح فيما عندك، فلا تقلد عقلك في التأويل، واصرف علمه إلى الله قائله، ثم اعمل حتى تنزل في العلم به كهو، فحينئذ تكون عارفاً، وتلك المعرفة المطلوبة والعلم الصحيح ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢].

وبعد أن تقرّر هذا فلنرجع إلى الطريقة المعهودة في هذا الباب التي بأيدي الناس من أهله، فإن هذه الطريقة التي نبهناك عليها طريقة غريبة فنقول: إن المحاسبي ذكر أن المعرفة هي العلم بأربعة أشياء: الله والنفس والدنيا والشيطان. والذي قال رسول الله ﷺ إن المعرفة بالله ما لها طريق إلاّ المعرفة بالنفس فقال: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» وقال: «أَعْرَفُكُمْ بِنَفْسِهِ أَعْرَفُكُمْ بِرَبِّهِ» فجعلك دليلاً، أي جعل معرفتك بك دليلاً على معرفتك به، فإمّا بطريقة ما وصفك بما وصف به نفسه من ذات وصفات وجعله إياك خليفة نائباً عنه في أرضه. وإمّا بما أنت عليه من الافتقار إليه في وجودك. وأما الأمران معاً لا بدّ من ذلك، ورأينا الله يقول في العلم بالله المعبر عنه بالمعرفة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] فأحالنا الحق على الآفاق وهو ما خرج عنا وعلى أنفسنا وهو ما نحن عليه وبه، فإذا وقفنا على الأمرين معاً حينئذ عرفناه وتبين لنا أنه الحق فدلالة الله أتم، وذلك أنا إذا نظرنا في نفوسنا ابتداء لم نعلم هل يعطي النظر فيما خرج عنا من العالم وهو قوله في الآفاق علماً بالله ما لا تعطيه نفوسنا أو كل شيء في نفوسنا، فإذا نظرنا في نفوسنا حصل لنا من العلم به ما يحصل للناظر في الآفاق، فأما الشارع فعلم أن النفس جامعة لحقائق العالم فجمعك عليك حرصاً منه كما قال فيه: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨] حتى تقرب الدلالة فتفوز معجلاً بالعلم بالله فتسعد به.

وأما الحق فذكر الآفاق حذراً عليك ممّا ذكرناه أن تتخيل أنه قد بقي في الآفاق ما يعطي من العلم بالله ما لا تعطيه نفسك فأحالك على الآفاق، فإذا عرفت عين الدلالة منه على الله نظرت في نفسك فوجدت ذلك بعينه الذي أعطاك النظر في الآفاق أعطاك النظر في نفسك من العلم بالله، فلم تبق لك شبهة تدخل عليك لأنه ما ثم إلاّ الله وأنت وما خرج عنك وهو العالم، ثم علمك كيف تنظر في العالم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٥] ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [سورة الغاشية: الآية ١٧] لآية ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٥] وكل آية طلب منك فيها النظر في الآيات كما قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٤] ويتفكرون، ويسمعون، ويفقهون، وللعالمين وللمؤمنين، ولأولي النهى، ولأولي الألباب.

لما علم أنه سبحانه خلق الخلق أطواراً فعدّد الطرق الموصلة إلى العلم به، إذ كل طور لا يتعدّى منزلته بما ركب الله فيه، فالرسول عليه السلام ما أحالك إلاّ على نفسك لما علم أنه سيكون الحق قواك فتعلمه به لا بغيره فإنه العزيز والعزيز هو المنيع الحمى، ومن ظفر به غيره فليس بمنيع الحمى فليس بعزيز، فلهذا كان الحق قواك، فإذا علمته وظفرت به يكون ما علمه

ولا ظفر به إلاَّهو فلا يزول عنه نعت العزّة وهكذا هو الأمر، فقد سدّ باب العلم به إلاّ منه ولا بدّ، ولهذا ينزّهه العقل ويرفع المناسبة من جميع الوجوه ويجيء الحق فيصدقه في ذلك بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] يقول لنا صدق العقل فإنه ﴿أَعْطَىٰ﴾ ما في قوته لا يعلم غير ذلك فإني أعطيت ﴿كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ والعقل من جملة الأشياء فقد أعطيناه خلقه وتمّم الآية فقال: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] أي بين، فبين سبحانه أمراً لم يعطه العقل ولا قوّة من القويّ، فذكر لنفسه أحكاماً هو عليها لا يقبلها العقل إلاّ إيماناً أو بتأويل يردّها تحت إحاطته لا بدّ من ذلك.

فطريقة السلامة لمن لم يكن على بصيرة من الله أن لا يتأوّل ويسلم ذلك إلى الله على علمه فيه هذه طريقة النجاة، فالحق سبحانه يصدق كل قوّة فيما تعطيه فإنها وفت بجميع ما أعطاها الله وبقي للحق من جانب الحق ذوق آخر يعلمه أهل الله وهم أهل القرآن أهل الله وخاصته فيعتقدون فيه كل معتقد، إذ لا يخلو منه تعالىٰ وجه في كل شيء هو حق ذلك الوجه، ولو لم يكن الأمر كذلك ما كان إلهاً، ولكان العالم يستقل بنفسه دونه وهذا محال، فخلوّ وجه الحق عن شيء من العالم محال، وهذه المعرفة عزيزة المنال فإنها تؤدي إلى رفع الخطأ المطلق في العالم، ولا يرتفع الخطأ الإضافي وهو المنسوب إلى مقابله فهو خطأ بالتقابل وليس بخطأ مع عدم التقابل، فالكامل من أهل الله من نظر في كل أمر على حدة حتى يرى خلقه الذي أعطاه الله ووفاه إياه، ثم يرى ما بين الله لعباده ممّا خرج عن خلق كل شيء فينزل موضع البيان من قوله: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ موضعه وينزل كل خلق على ما أعطاه خالقه، فمثل هذا لا يخطىء ولا يخطىء بإطلاق في الأصول والفروع، فكل مجتهد مصيب إن عقلت في الأصول والفروع وقد قيل بذلك.

وبعد أن تقرّر ما ذكرناه فلنقل إن المعرفة في طريقنا عندنا لما نظرنا في ذلك فوجدناها منحصرة في العلم بسبعة أشياء، وهو الطريق التي سلكت عليه الخاصة من عباد الله: الواحد: علم الحقائق وهو العلم بالأسماء الإلهية. الثاني: العلم بتجلي الحق في الأشياء. الثالث: العلم بخطاب الحق عباده المكلفين بألسنة الشرائع. الرابع: علم الكمال والنقص في الوجود. الخامس: علم الإنسان نفسه من جهة حقائقه. السادس: علم الخيال وعالمه المتصل والمنفصل. السابع: علم الأدوية والعلل. فمن عرف هذه السبع المسائل فقد حصل المسمّى معرفة، ويندرج في هذا ما قاله المحاسبيّ وغيره في المعرفة.

العلم الأوّل: وهو العلم بالحقائق، وهو العلم بالأسماء الإلهية وهي على أربعة أقسام: قسم يدل على الذات وهو الاسم العلم الذي لا يفهم منه سوى ذات المسمّى لا يدل على مدح ولا ذم، وهذا قسم لم نجده في الأسماء الواردة علينا في كتابه ولا على لسان الشارع إلاّ الاسم الله وهو اسم مختلف فيه. وقسم ثان وهو يدل على الصفات وهو على قسمين: قسم يدل على أعيان صفات معقولة يمكن وجودها، وقسم يدل على صفات إضافية لا وجود لها في الأعيان. وقسم ثالث وهو يدل على صفات أفعال وهو على قسمين: صريح ومضمن.

وقسم رابع مشترك يدل بوجه على صفة فعل مثلاً، وبوجه على صفة تنزيه. أما علم الأسماء الإلهية وهو العلم الأوّل من المعرفة فهو العلم بما تدل عليه ممّا جاءت له وهو في هذه الأقسام التي قسمناها حتى نبينها في هذا الباب إن شاء الله، والعلم أيضاً بخواصها والكلام فيه محجور على أهل الله العارفين بذلك لما في ذلك من كشف أسرار وهتك أستار، وتأبى الغيرة الإلهية إظهار ذلك، بل أهل الله مع معرفتهم بذلك لا يستعملونها مع الله، والدليل على ذلك أن رسول الله ﷺ أعلم الناس بها وبإجابة الله تعالىٰ من دعاه بها لما هي عليه من الخاصية في علم الله بها، وقد دعاه رسول الله ﷺ في أمّته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعه ذلك ولم يجبه وإن كان قد عوضه فمن باب آخر وهو أن كل دعاء لا يرد جملة واحدة وإن عوقب صاحبه، ولكن يرد ما دعا به خاصة إذا دعا فيما لا يقتضيه خاصية ذلك الاسم، وأجاب دعاء بلعام بن باعورا في موسىٰ عليه السلام وقومه لما دعاه بالاسم الخاص بذلك وهو قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٥] فلم يكن له من الاسم إلاّ حروفه فنطق بها ولهذا قال: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ فكانت في ظاهره كالثوب على لابسه وكما تنسلخ الحية من جلدها، ولو كان في باطنه لمنعه الحياء والمقام من الدعاء على نبيّ من الأنبياء وأجيب لخاص الاسم وعوقب وجعل مثله كمثل الكلب ونسي حروف ذلك الاسم.

فلو أن رسول الله ﷺ يدعو بالاسم الخاص ويستعمله لأجابه الله في عين ما سأل مع علمنا بأنه علم علم الأوّلين والآخرين وأنه أعلم الناس، فعلمنا أن دعاءه لم يكن بخاص الاسم وتأدّب وسبب ذلك الأدب الإلهي، فإنه لا يعلم ما في نفس الله كما قال عيسىٰ عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٦] فلعل ذلك الذي يدعوه فيه ما له فيه خيرة فعدلوا عليهم السلام إلى الدعاء فيما يريدون من الله بغير الاسم الخاص بذلك المراد، فإن كان لله في علمه فيه رضى وللداعي فيه خيرة أجاب في عين ما سئل فيه، وإن لم يكن عوض الداعي درجات أو تكفيراً في سيئات، ومعلوم عند الخاص والعام أن ثم إسماً عاماً يسمى الاسم الأعظم وهو في آية الكرسي وأوّل سورة آل عمران، ومع علم النبيّ عليه السلام به ما دعا به في ما ذكرناه، ولو دعا به أجابه الله في عين ما سأل فيه، وعلم الله في الأشياء لا يبطل، فلهذا أدّب الله أهله فهذا من علم الأسماء الإلهية.

ومن الأسماء ما هي حروف مركبة، ومنها ما هي كلمات مركبة مثل الرحمن الرحيم هو اسم مركب كبعلبك، والذي هو حروف مركبة كالرحمن وحده. واعلم أن الحروف كالطبائع وكالعقاقير بل كالأشياء كلها، لها خواص بانفرادها، ولها خواص بتركيبها، وليس خواصها بالتركيب لأعيانها ولكن الخاصية لأحدية الجمعية، فافهم ذلك حتى لا يكون الفاعل في العالم إلاّ الواحد لأنه دليل على توحيد الإله، فكما أنه واحد لا شريك له في فعله الأشياء كذلك سرت الحقيقة في الأفعال المنسوبة إلى الأكوان أنها لا تصدر منها إذا كانت مركبة إلاّ لأحدية ذلك التركيب، وكل جزء منها على انفراده له خاصية تناقض خاصية المجموع، فإذا اجتمع اثنان فصاعداً أعطى أثراً لا يكون لكل جزء من ذلك المجموع على انفراده كسواد

المداد حدث السواد عن المجموع لأحدية الجمع، وكل جزء على انفراد لا يعطي ذلك السواد، وهكذا تركيب الكلمات كتركيب الحروف.

ومن هنا تعلم أن الحرف الواحد له عمل ولكن بالقصد كما عمل ش في لغة العرب عند السامع أن يشي ثوبه وهو حرف واحد، وق أن يقي نفسه من كذا، وع أن يعي ما سمعه مع كونه حرفاً واحداً. وأما ﴿كُن﴾ فهو من فعل الكلمة الواحدة لا من فعل الحروف وخاصيته في الإيجاد، وله شروط مع هذا يتأدّب أهل الله مع الله، فجعلوا بدله في الفعل بسم الله، وقد استعمله رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وما سمع منه قبل ذلك ولا بعده، وإنما أراد إعلام الناس من علماء الصحابة بمثل هذه الأسرار بذلك، فالذي نذكر في هذا الباب العلم بما ذكرناه من أقسام الأسماء الإلهية أسماء الذات التي هي كالأعلام، فلا أعرف بيد العالم في كتاب ولا سنّة منها شيئاً إلاَّ الاسم الله في مذهب من لا يرى أنه مشتق من شيء، ثم إنه مع الاشتقاق الموجود فيه هل هو مقصود للمسمّى أو ليس بمقصود للمسمّى كما يسمّى شخصاً بيزيد على طريق العلمية وإن كان هو فعلاً من الزيادة ولكن ما سميناه به لكونه يزيد وينمو في جسمه وفي علمه، وإنما سميناه به لنعرفه ونصيح به إذا أردناه، فمن الأسماء ما يكون بالوضع على هذا الحدّ، فإذا قيلت على هذا فهي أعلام كلها، وإذا قيلت على طريق المدح إن كانت من أسماء المدح فهي أسماء صفات على الحقيقة، ومن شأن الصفة أنها لا يعقل لها وجود إلاَّ في موصوف بها لأنها لا تقوم بنفسها، سواء كان لها وجود عيني أو إضافي لا وجود له في عينه، فهي تدل على الموصوف بها بطريق المدح أو الذمّ وبطريق الثناء، وبهذا وردت الأسماء الحسنى الإلهية في القرآن، ونعت بها كلها ذاته سبحانه وتعالىٰ من طريق المعنى، وكلمة الله من طريق الوضع اللفظي، فالظاهر أن الاسم الله للذات كالعلم ما أريد به الاشتقاق وإن كانت فيه رائحة الاشتقاق كما يراه بعض علماء هذا الشأن من أصحاب العربية.

وأما أسماء الضمائر فإنها تدل على الذات بلا شك وما هي مشتقة مثل: هو، وذا، وأنا، وأنت، ونحن، والياء من إني، والكاف من إنك، فلفظة هو اسم ضمير الغائب، وليست الضمائر مخصوصة بالحق بل هي لكل مضمر، فهو لفظ يدل على ذات غائبة مع تقدم كلام يدل عليه عند السامع، وإن لم يكن كذلك فلا فائدة فيه، ولذلك لا يجوز الإضمار قبل الذكر إلاَّ في ضرورة الشعر لما يتقيد به الشاعر من الأوزان وأنشدوا في ذلك: جزى ربه عني عدي بن حاتم. فأضمر قبل الذكر فإنه أراد أن يقول: جزى عني عدي بن حاتم ربه فلم يتزن فقدّم الضمير من أجل الوزن ومن الضمائر لفظة ذا وهي من أسماء الإشارة مثل قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٢] وكذلك لفظة ياء المتكلم مثل قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [سورة طه: الآية ١٤] وكذلك لفظة أنت وتاء المخاطب مثل قوله: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٧] ولفظة نحن ولفظ إنا مشدّدة ولفظة نا مثل قوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩] وكذلك حرف كاف الخطاب: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سورة غافر: الآية ٨] فهذه كلها أسماء ضمائر وإشارات وكنايات تعمّ كل مضمر ومخاطب ومشار إليه

ومكنى عنه وأمثال هذه، ومع هذا فليست أعلاماً ولكنها أقوى في الدلالة من الأعلام، لأنّ الأعلام قد تفتقر إلى النعوت وهذه لا افتقار لها، وما منها كلمة إلاّ ولها في الذكر بها نتيجة.

وما أحد من أهل الله أهل الأذواق رأيناه نبّه على ذلك في طريق الله للسالكين بالأذكار إلاّ على لفظ هو خاصة وجعلوها من ذكر خصوص الخصوص لأنها أعرف من الاسم الله عندهم في أصل الوضع، لأنها لا تدل إلاّ على العين خاصة المضمرة من غير اشتقاق، وإنما غلبها أهل الله على سائر المضمرات والكنايات لكونها ضمير غيب مطلق عن تعلّق العلم بحقيقته، وقالوا: إن لفظة هو ترجع إلى هويته التي لا يعلمها إلاّ هو، فاعتمدوا على ذلك ولا سيما الطائفة التي زعمت أنه لا يعلم نفسه تعالىٰ الله عن ذلك وما علمت الطائفة أن غير لفظة هو في الذكر أكمل في المرتبة مثل الياء من أني، والنون من نزلنا، ولفظة نحن، فهؤلاء أعلى مرتبة في الذكر من هو في حق السالك لا في حق العارف، فلا أرفع من ذكر هو عند العارفين في حقهم، وكما هي عندهم أعلى في الرتبة من لفظة هو كذلك هي أعلى من أسماء الخطاب مثل كاف المخاطب وتاءه وأنت، فإنه لا يقول أني وأنا ونحن إلاّ هو عن نفسه، فمن قالها به فهو القائل: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] فنتيجته أعظم لأن الذكر يعظم بقدر عظم علم الذاكر ولا أعلم من الله، وباقي أسماء الضمائر مثل هو وذا وكاف الخطاب هي من خواص عين المشار إليه، فهي أشرف من الهو، ومع هذا فما أحد من أهل الله سنّ الذكر بها كما فعلوا بلفظة هو، فلا أدري هل منعهم من ذلك عدم الذوق لهذا المعنى وهو الأقرب فإنهم ما جعلوها ذكراً، فإن قالوا: فإنها تطلب التحديد. قلنا: فذلك سائغ في جميع المضمرات، ونحن نقول بالذكر بذلك كله مع الحضور على طريق خاص.

وقد ورد في الشرع ما يقوي ما ذهبنا إليه من ذلك قوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ قَالَ عَلَىٰ لِسَانِ عَبْدِهِ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**» وقوله عن الله: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَلِسانَهُ وَيَدَهُ وَرِجْلَهُ**» والحق بلا شك هو القائل بالنون وأنا ونحن وأني فلنذكره بها نيابة عنه، أو نذكره به لأنه الذاكر بها على لساني، فهو أتم في الحضور بالذكر وأقرب فتحاً للوقوف على ما تدل عليه. ولهذه الأسماء أيضاً أعني المضمرات خواص في الفعل لم أر أحداً يعرف منها من أهل الله إلاّ لفظة هو، فإذا قلت هو كان هو، وإن لم يكن هو عند قولك هو ولكن يكون هو عند قولك هو، وكذلك ما بقي من أسماء الإضمار، فاعلم ذلك فإنه من أسرار المعرفة بالله ولا يشعر به ولا نبّه أحد عليه من أهل الله غيرة وبخلاً أو خوفاً لما يتعلق به من الحظر لما يظهر فيه من تكوين الله عند لفظة هو من العبد، إذ كان الله يقولها على لسان عبده آية ذلك من كتاب الله: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٠] فإن تكوين الله بلفظ هو من العبد هو ظهوره في مظهر خاص في ذلك الوقت، إذ لا يظهر غيره ولا قال هو إلاّ هو فهو أظهر نفسه، فهو الظاهر المظهر والباطن المبطن والعزيز المعزّ والغنيّ المغني، فقد نبهتك على سر هذا الذكر بهذا الاسم، وعلى هذا تأخذ جميع أسماء الضمائر والإشارات والكنايات، ولكنْ الطهارة والحضور والأدب والعلم بهذه الأمور لا بدّ منه حتى تعرف من تذكر، وكيف تذكر، وممن يذكر، وبمن تذكر، والله خير الذاكرين له ولك.

القسم الثاني: من علم الأسماء الإلهية. وهذا القسم ينقسم قسمين: العلم بأسماء صفات المعاني مثل الحيّ وهو اسم يطلب ذاتاً موصوفة بالحياة والعلم يسمّى الموصوف به عالماً، والقادر للموصوف بالقدرة، والمريد للموصوف بالإرادة، والسميع والبصير والشكور للموصوف بالسمع والبصر والكلام، وهذه كلها معان قائمة بالموصوف أو نسب على خلاف ينطلق عليه منها أسماء، ولها أحكام في الموصوف بها، وتلك الأسماء وإن كانت تدل على ذات موصوفة بصفة تسمّى علماً وقدرة ولكن لها مراتب كمن قام به العلم يسمّى عالماً وعليماً وعلاَّماً وخبيراً ومحصياً ومحيطاً، هذه كلها أسماء لمن وصف بالعلم، ولكن مدلول كونه عالماً خلاف مدلول كونه عليماً وخبيراً، يفهم من ذلك ما لا يفهم من العالم، فإن عليماً للمبالغة فيفهم منه ما لا يفهم من العالم، فإن من يعلم أمراً ما من المعلومات يسمّى عالماً، ولا يسمّى عليماً ولا علاماً إلاَّ إذا تعلّق علمه بمعلومات كثيرة وخبير التعلّق العلم بعد الإبتلاء، قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] وكذا المحصي يتعلق بحصر المعلومات من وجه يصح فهو تعلق خاص يطلبه العلم، وكذلك المحيط له تعلق خاص وهو العلم بحقائق المعلومات الذاتية والرسمية واللفظية، وما يتناهى منها أنه متناه، وما لا يتناهى منها أنه غير متناه، فقد أحاط به علماً أنه لا يتناهى، فإن هنا زلت طائفة كبيرة من أهل العلم، وهكذا تأخذ جميع الصفات كالقادر والمقتدر والقاهر كل ذلك تطلبه القدرة وبين هذه الأسماء فرقان وإن كانت الصفة الواحدة تطلبها فإن القاهر في مقابلة المنازع، والقهار في مقابلة المنازعين، والقادر في مقابلة القابل للأثر فيه مع كونه معدوماً في عينه ففيه ضرب من الامتناع وهي مسألة مشكلة، لأنّ تقدم العدم للممكن قبل وجوده لا يكون مراداً ولا هو صفة نفسية للممكن فهذا هو الإشكال فينبغي أن يعلم.

والمقتدر لا يكون إلاَّ في حال تعلّق القدرة بالمقدور لأنه تعمل في تعلّق القدرة بالمقدور لإيجاد عينه كالمكتسب والكاسب، فقد بان لك الفرقان بين الأسماء وإن كانت تطلب صفة واحدة ولكن بوجوه مختلفة، إذ لا يصحّ الترادف في العالم لأن الترادف تكرار وليس في الوجود تكرار جملة واحدة للاتساع الإلهيّ فاعلم ذلك.

وما وجدنا في الشرع للكلام اسماً إلهياً إلاَّ الشكور والمجيب، فالكلام ما وجدنا اسماً من لفظ اسمه في الشرع، وكذلك الإرادة ليس لها اسم في علمي من لفظ اسمهما غير أن من أسمائها من جهة معناها أسماء الأفعال فإنه قال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] ولها تعلّق صعب التصوّر وهو إرادته أن يقول وليس قوله من الأفعال ولا هو نسبة عدمية ولا صفة عدمية، وكذلك يتصوّر في القدرة أيضاً، وذلك أن يقال الحق قادر أن يكلم عباده بما شاء، فهنا علم ينبغي أن يعرف، وذلك أن الله أدخل تعلّق إرادته تحت حكم الزمان فجاء بإذا وهي من صيغ الزمان فقال: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] والزمان قد يكون مراداً ولا يصحّ فيه إذاً لأنه لم يكن بعد فيكون له حكم، فعلم هذا من علوم غامض الأسماء الإلهية.

ثم اعلم أن الذي يعتمد عليه أهل الله تعالىٰ في أسمائه سبحانه هي ما سمّي به نفسه في

كتبه أو على ألسنة رسله. وأما إذا أخذناها من الاشتقاق أو على جهة المدح فإنها لا تحصى كثرة والله يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٠] وورد في الصحيح: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مِائَةً إِلاَّ وَاحِداً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**» وما قدرنا على تعيينها من وجه صحيح، فإن الأحاديث الواردة فيها كلها مضطربة لا يصحّ منها شيء، وكل اسم إلهيّ يحصل لنا من طريق الكشف أو لمن حصل فلا نورده في كتاب وإن كنا ندعو به في نفوسنا لما يؤدّي إليه ذلك من الفساد في المدعين الذين يفترون على الله الكذب وفي زماننا منهم كثير. ولما فحصنا عن الحفاظ لم نر أحداً اعتنى بها مثل الحافظ أبي محمد علي بن سعيد بن حزم الفارسي، وغاية ما وصلت إليه قدرته ما أذكره من الأسماء الحسنى هذا مبلغ إحصائه فيها من الطرق الصحاح على ما حدثناه علي بن عبد الله بن عبد الرحمن الفرياني عن أبي محمد عبد الحق بن عبد الله الأزدي الإشبيلي، وحدثناه عبد الحق إجازة وغيرواحد ما بين سماع وقراءة وإجازة عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعينيّ عن أبي محمد علي بن حزم الفارسي قال: إنما تؤخذ ـ يعني الأسماء ـ من نص القرآن وممّا صحّ عن النبيّ ﷺ، وقد بلغ إحصاؤنا ما نذكره وهي:

الله، الرحمٰن، الرحيم، العليم، الحكيم، الكريم، العظيم، الحليم، القيوم، الأكرم، السلام، التوّاب، الرب، الوهاب، الأقرب، سميع، مجيب، واسع، العزيز، الشاكر، القاهر، الآخر، الظاهر، الكبير، الخبير، القدير، البصير، الغفور، الشكور، الغفار، القهار، الجبار، المتكبر، المصوّر، البر، المقتدر، الباري، العليّ، الغنيّ، الوليّ، القويّ، الحيّ، الحميد، المجيد، الودود، الصمد، الأحد، الواحد، الأوّل، الأعلى، المتعال، الخالق، الخلاّق، الرزاق، الحق، اللطيف، الرؤوف، العفوّ، الفتاح، المتين، المبين، المؤمن، المهيمن، الباطن، القدوس، الملك، المليك، الأكبر، الأعزّ، السيد، السبوح، الوتر، المحسان، الجميل، الرفيق، المسعر، القابض، الباسط، الشافي، المعطي، المقدم، المؤخر، الدهر.

فهذا الذي روينا عن أشياخنا عن أشياخهم عنه في إحصائه، وعندنا من القرآن أسماء أخر جاءت مضافة وهي عندنا من الأسماء وليست عنده من الأسماء وكذلك في الأخبار، ومن أراد أن يقف على أسماء الله تعالىٰ على الحقيقة فلينظر في قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] وعلى الحقيقة فما في الوجود إلاّ أسماؤه، ولكن حجبت عيون البصائر عن العلم بها أعيان الأكوان فإنه سبحانه الواقي لا غيره فهو المحتجب بكل واق وشبه هذا فهو ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١] وجاعل الملائكة رسلاً، وجاعل الليل سكناً، وجاعل في الأرض خليفة، ونور السموات والأرض، وقيام السموات والأرض، وهو الصبور، وقابل التوب، والسريع الحساب، وشديد العقاب، ورفيع الدرجات، وذو العرش، وذو المعارج، وقد رميت بك على الطريق، فهذا قسم الصفات الدالة على المعاني والنسب والإضافات كالأوّل والآخر والظاهر والباطن.

القسم الثالث: وهو أسماء الأفعال وهي صريح كالمصوّر ومضمن مثل قوله: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٤] وأسماء الأفعال كلها أسماء الإرادة.

القسم الرابع: أسماء الاشتراك كاسمه المؤمن والرب، فالمؤمن المصدّق، والمؤمن معطي الأمان، والرب المالك، والرب المصلح، والرب السيد، والرب المربي، والرب الثابت، فإذا حصل بيدك اسم من الأسماء الإلهية فانظر في أية مرتبة هو من هذه المراتب فادع به من حيث مرتبته لا تخرجه عنها جملة واحدة، ولا تغفل عن دلالته على الذات التي لها هذه النعوت كلها تكن أحديّ العين في عين الكثرة فتكون الواحد الكثير، فإن المراتب والحقائق تطلب الأسماء لمن هي صفاته، حتى إذا دعى بها زهت وعلمت أنّ الله بها عناية حيث أطلق عليه من أحكامها أسماء، وحيث جعل ذاته محلاً لأحكامها، فالحلم معنى معقول يطلق منه اسم على من ظهر فيه حكمه وهو الحليم مع المقدرة والمتجاوز والصفوح والعفوّ، وكذلك مرتبة الكرم معنى معقول يطلق منه اسماً على من ظهر منه حكمه كالكريم والمعطي والجواد والوهاب والمنعم، وهكذا تأخذ جميع الأسماء على حد ما أشرت إليك ولا تتعد بها مراتبها، مع علمك أنه ليس في أسماء الله ترادف وأنها كلها متباينة، فهذا قد أبنت لك عن العلم الأوّل من المعرفة الذي لأهل الله مجملاً مع نبذ من التفصيل فتفهم ذلك.

النوع الثاني من علوم المعرفة وهو علم التجلي: اعلم أن التجلي الإلهيّ دائم لا حجاب عليه، ولكن لا يعرف أنه هو، وذلك أن الله لما خلق العالم أسمعه كلامه في حال عدمه وهو قوله: ﴿كُن﴾ وكان مشهوداً له سبحانه، ولم يكن الحق مشهوداً له، وكان على أعين الممكنات حجاب العدم لم يكن غيره فلا تدرك الموجود وهي معدومة كالنور ينفر الظلمة، فإنه لا بقاء للظلمة مع وجود النور كذلك العدم والوجود، فلما أمرها بالتكوين لإمكانها واستعداد قبولها سارعت لترى ما ثم لأن في قوّتها الرؤية كما في قوّتها السمع من حيث الثبوت لا من حيث الوجود، فعندما وجد الممكن انصبغ بالنور فزال العدم وفتح عينيه فرأى الوجود الخير المحض فلم يعلم ما هو، ولا علم أنه الذي أمره بالتكوين، فأفاده التجلي علماً بما رآه لا علماً بأنه هو الذي أعطاه الوجود، فلما انصبغ بالنور التفت على اليسار فرأى العدم فتحققه فإذا هو ينبعث منه كالظل المنبعث من الشخص إذا قابله النور فقال: ما هذا؟ فقال له النور من الجانب الأيمن: هذا هو أنت فلو كنت أنت النور لما ظهر للظل عين فأنا النور وأنا مذهبه، ونورك الذي أنت عليه إنما هو من حيث ما يواجهني من ذاتك، ذلك لتعلم أنك لست أنا، فأنا النور بلا ظل وأنت النور الممتزج لإمكانك، فإن نسبت إليّ قبلتك وإن نسبت إلى العدم قبلك، فأنت بين الوجود والعدم، وأنت بين الخير والشر، فإن أعرضت عن ظلّك فقد أعرضت عن إمكانك، وإذا أعرضت عن إمكانك جهلتني ولم تعرفني، فإنه لا دليل لك على أني إلهك وربك وموجدك إلاّ إمكانك وهو شهودك ظلك، وإن أعرضت عن نورك بالكلية ولم تزل مشاهداً ظلّك لم تعلم أنه ظل إمكانك وتخيلت أنه ظلّ المحال، والمحال والواجب متقابلان من جميع الوجوه، فإن دعوتك لم تجبني ولم تسمعني، فإنه يصمك ذلك المشهود عن دعائي، فلا تنظر إليّ نظراً يفنيك عن ظلك فتدّعي أنك أنا فتقع في الجهل، ولا تنظر إلى ظلّك نظراً يفنيك عني فإنه يورثك الصمم فتجهل ما خلقتك له فكن تارة وتارة، وما خلق الله

لك عينين إلاّ لتشهدني بالواحدة وتشهد ظلّك بالعين الأخرى، وقد قلت لك في معرض الامتنان: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [سورة البلد: الآية ٨ ـ ١٠] أي بيّنا له الطريقين: طريق النور والظل ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [سورة الإنسان: الآية ٣] فإن العدم المحال ظلمة، وعدم الممكن ظل لا ظلمة، ولهذا في الظل راحة الوجود.

واعلم أن التجلي الأوّل الذي حصل للممكن عندما اتصف بالوجود وانصبغ بالنور هو التجلي للأرواح النورية التي ليست لها هذه الهياكل المظلمة، ولكن لها ظل إمكانها الذي لا يبرح فيها، وهي وإن كانت نوراً بما انصبغت به فظلها فيها لا ظهور له عليها وحكمه فيها لا يزول، وهذه المرتبة كان يريد أن يكون بها رسول الله ﷺ إذ كان يقول في دعائه: «**اللهمّ اجعلني نوراً**» ثم بعد هذا التجلي الإبداعي الذي هيّم بعض الأرواح النورية تجلّ تجلياً لبعض هذه الأرواح المبدعة، فعلم منه في هذا التجلي جميع المراتب التي تظهر عنه في عالم الأنوار والظلم واللطائف والكثائف والبسائط والمركبات والجواهر والأعراض والأزمنة والأمكنة والإضافات والكيفيات والكميات والأوضاع والفاعلات والمنفعلات إلى يوم القيامة. وأنواع العالم ومبلغها مائتا ألف مرتبة وسبع آلاف مرتبة وستمائة مرتبة، وقام هذا العدد من ضرب ثلثمائة وستين في مثلها، ثم أضيف إليها ثمانية وسبعون ألفاً فكان المجموع ما ذكرناه، وهو علم العقل الأوّل وعمر العالم من حين ولي النظر فهي هذا المفعول الإبداعي وما قبل ذلك فمجهول لا يعلمه إلاّ الله تعالىٰ.

فلما علم العقل من هذا التجلي هذه المراتب وهي علومه كان من جملة ذلك انبعاث النفس الكلية عنه وهي أوّل مفعول انبعاثي وهي ممتزجة بين ما انفعل عنها وبين ما انفعلت عنه، فالذي انفعلت عنه نور، والذي انفعل عنها ظلمة وهي الطبيعة، فظهر ظل النفس في ظاهرها ممّا يلي جانب الطبيعة، لكن لم يمتدّ عنها ظلّها كما يمتدّ عن الأجسام الكثيفة، وانتقش فيها جميع ما للعقل من العلوم التي ذكرناها. ولها وجه خاص إلى الله لا علم للعقل به فإنه سرّ الله الذي بينه وبين كل مخلوق لا تعرف نسبته ولا يدخل تحت عبارة ولا يقدر مخلوق على إنكار وجوده فهو المعلوم المجهول، وهذا هو التجلي في الأشياء المبقي أعيانها. وأما التجلي للأشياء فهو تجلّ يفني أحوالاً ويعطي أحوالاً في المتجلى له، ومن هذا التجلي توجد الأعراض والأحوال في كل ما سوى الله، ثم له تجلّ في مجموع الأسماء فيعطي في هذا التجلي في العالم المقادير والأوزان والأمكنة والأزمان والشرائع وما يليق بعالم الأجسام وعالم الأرواح والحروف اللفظية والرقمية وعالم الخيال. ثم له تجلّ آخر في أسماء الإضافة خاصة كالخالق وما أشبهه من الأسماء، فيظهر في العالم التوالد والتناسل والانفعالات والاستحالات والأنساب، وهذه كلها حجب على أعيان الذوات الحاملات لهذه الحجب عن إدراك ذلك التجلي الذي لهذه الحجب الموجد أعيانها في أعيان الذوات، وبهذا القدر تنسب الأفعال للأسباب ولولاها لكان الكشف فلا يجهل ولكن كما قال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩].

ووقوع خلاف المعلوم محال، فبالتجلي تغيّر الحال على الأعيان الثابتة من الثبوت إلى الوجود، وبه ظهر الانتقال من حال إلى حال في الموجودات، وهو خشوع تحت سلطان التجلي، فله النقيضان يمحو ويثبت ويوجد ويعدم، وقد بيّن الله لنا ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٣] فنقله من حال الشموخ إلى حال الخشوع والاندكاك. وقال ﷺ في الحديث الذي صحّحه الكشف: «**إِنَّ اللَّهَ إِذَا تَجَلَّىٰ لِشَيْءٍ خَشَعَ لَهُ**» فالله متجلّ على الدوام، لأن التغيرات مشهودة على الدوام في الظواهر والبواطن والغيب والشهادة والمحسوس والمعقول فشأنه التجلي، وشأن الموجودات التغيير بالانتقال من حال إلى حال، فمنا من يعرفه ومنا من لا يعرفه، فمن عرفه بعده في كل حال، ومن لم يعرفه أنكره في كل حال. ثبت في الصحيح أن النبيّ ﷺ قال: «**الحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ**» فأثنى عليه على كل حال لأنه المعطي بتجليه كل حال، وأوضح من هذا في التبليغ ما يكون مع إقامة الحدود وإنكار ما ينبغي أن ينكر، فإن المنكر بالتغيير أنكر ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] أحوال إلهية في أعيان كيانية بأسماء نسبية عينتها تغييرات كونية، فتجلى إحدى العين في أعيان مختلفة الكون فرأت صورها فيه فشهد العالم بعضه بعضاً في تلك العين، فمنه المناسب وهو الموافق، ومنه غير المناسب وهو المخالف، فظهرت الموافقة والخلاف في أعيان العالم دنيا وآخرة، لأنه لا تزال أعيان العالم تبصر بعضها بعضاً في تلك العين المنجلية، فتنعكس أنوارها عليها بما تكتسبه من تلك العين، فيحدث في العالم ما يحدث دنيا وآخرة عن أثر حقيقة تلك العين لما تعلقت بها أبصار العالم، كالمرآة تقابل الشمس فينعكس ضوءها على القطن المقابل لانعكاس النور فيحدث فيه الحرق، هذا عين ما يظهر في العالم من تأثير بعضه في بعض من شهود تلك العين، فالمؤثر روحاني والذي تأثّر طبيعيّ، وما من شيء تكون له صورة طبيعية في العالم إلاّ ولها روح قدسي، وتلك العين لا تنحجب أبداً، فالعالم في حال شهود أبداً، والتغيير كائن أبداً، لكن الملائم وغير الملائم وهو المعبر عنه بالنفع والضرر، فهذا علم التجلي من أحد أقسام المعرفة إن لم يحصل للإنسان مع بقية إخوانه فليس بعارف ولا حصل له مقام المعرفة.

النوع الثالث من المعرفة: وهو العلم بخطاب الحق عباده بألسنة الشرائع. اعلم وفّقك الله أن ما عدا الثقلين من كل ما سوى الله على معرفة بالله ووحي من الله وعلم بمن تجلّى له مفطور على ذلك سعيد كله، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨] فعمَّ، ثم فصل ليبين للناس ما نزل إليهم فقال: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨] وهو قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [سورة ص: الآية ٢٤] يقول: وما هم قليل يعني أنهم كثير فهو قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨] ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨] وسبب ذلك أن وكّله من حيث نفسه الناطقة الموجودة بين الطبيعة والنور بما جعل الله فيها من الفكر ليكتسب به المعرفة بالله تعالىٰ اختياراً من الله وأعطاها العقل كما أعطى

سائر الموجودات، وأعطاه صفة القبول وعشقه بالقوّة المفكّرة لاستنباط العلوم من ذاته لتظهر فيه قوّة إلهية، فإنه يحب الرياسة والظهور والشفوف على أبناء جنسه لاشتراكهم في ذلك، ثم لما أعطاهم القوّة المفكرة نصب لهم علامات ودلائل تدل على الحدوث لقيامها بأعيانهم، ونصب لهم دلائل وعلامات تدل على القدم الذي هو عبارة عن نفي الأوّلية عن وجوده.

وتلك الدلائل بأعيانها هي التي نصبها للدلالة على الحدوث، فسلبها عن الذات القديمة المسماة الله هو الدليل ليس غير ذلك، فللأدلة وجهان وهي عين واحدة يدل ثبوتها على حدوث العالم وسلبها على موجد العالم، فلما نظر بهذا النظر وقال: عرفت الله بما نصبه من الأدلة على معرفتنا بنا وبه وهي الآيات المنصوبة في الآفاق وفي أنفسنا حتى يتبين لنا أنه الحق وقد تبين، وهو الذي عبرنا عنه بالتجلي، فإن التجلي إنما هو موضوع للرؤية وذلك قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] فذكر الرؤية والآيات للتجلي، فيتبين لهم أنه الحق يعني ذلك التجلي الذي رأوه علامة أنه علامة على نفسه، فيتبين لهم أنه الحق المطلوب ولهذا تمّم فقال في الآية عينها: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] يعني أن يكون دليلاً على نفسه، وأوضح الدلالات دلالة لشيء على نفسه بظهوره، فلما حصلت لعقولهم هذه المعرفة بالتنزيه عمّا نسبوه إلى ذوات العالم وهو دليل واحد العين متردّد في الدلالة بين سلب لمعرفة الله وبين إثبات لمعرفة العالم أقام الحق لهذا الجنس الإنساني شخصاً ذكر أنه جاء إليهم من عند الله برسالة يخبرهم بها فنظروا بالقوّة المفكرة فرأوا أن الأمر جائز ممكن فلم يقدموا على تكذيبه ولا رأوا علامة تدل على صدقه، فوقفوا وسألوه: هل جئت إلينا بعلامة من عنده حتى نعلم أنك صادق في رسالتك؟ فإنه لا فرق بيننا وبينك، وما رأينا لك أمراً تميزت به عنا وباب الدعوى مفتوح، ومن الدعوى ما يصدق ومنها ما لا يصدق، فجاء بالمعجزة فنظروا فيها نظر إنصاف وهي بين أمرين: الواحد أن تكون مقدورة لهم فيدعي الصرف عنها مطلقاً فلا تظهر إلاّ على يدي من هو رسول إلى يوم القيامة هذا إذا كانت معجزة لا آية فقط، فإن المعجزات نصبت للخصم الألد الفاقد نور الإيمان. والأمر الآخر أن تكون المعجزة خارجة عن مقدور البشر بالحسّ والهمة معاً، فإذا أتى بأحد هذين الأمرين وتحققه الناظر دليلاً آمن برسالته وصدقه في مقالته وأخباره عن ربه إذا كانت الدلالة على المجموع بحسب ما وقعت به الدعوى، ولا يمكن في ذوق طريقنا تصديقه مع الدلالة إلاّ بتجلّ إلهيّ لقلبه من اسمه النور، فإذا انصبغ باطنه بذلك النور صدقه فذلك نور الإيمان، وغيره لم يحصل عنده من ذلك النور شيء مع علمه بأنه صادق من حيث الدلالة لا من حيث النور المقذوف في القلب فجحد مع علمه وهو قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: الآية ١٤] ودونهم في هذه الرتبة من قيل فيه: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٣] فذلك نور العلم به لا نور الإيمان، فلما صدقه من صدقه وأظهر صدقه واعتمد على عقله حيث قاده إلى الحق ولم يحصل له ضوء من نور الإيمان يستضيء به وما علم أنه بذلك النور صدقه لا بنور علمه الذي هو عند من جحده مع علمه بصدق دعواه، فلما اعتمد على عقله هذا المصدق وجاء آخر من

المصدقين به أيضاً كشف الله له عن نور إيمانه ونور علمه فكان نوراً على نور.

وجاء ثالث ما عنده من نور العلم النظري شيء ولا يعرف موضع الدلالة من تلك الآية المعجزة وقذف الله في قلبه نور الإيمان فآمن وصدق وليس معه نور علم نظري ولكن فطرة سليمة وعقل قابل وهيكل منور بعيد من استعمال الفكر فسارع في القبول، فقعد هؤلاء الثلاثة الأصناف بين يدي هذا الرسول الذي صدقوه، فأخذ الرسول يصف لهم مرسله الحق تعالىٰ ليعرفهم به المعرفة التي ليست عندهم ممّا كانوا قد أحالوا مثل ذلك على الحق تعالىٰ وسلبه عنه أهل الأدلة النظرية، وأثبتوا تلك الصفات للمحدثات دلالة على حدوثها، فلما سمعوا ما تنكره الأدلة العقلية النظرية وتردّه افترقوا عند ذلك على فرق، فمنهم من ارتدّ على عقبه وشكّ في دليله الذي دلّه على صدقه وأقام له في ذلك الدليل شبهات قادحة فيه صرفته عن الإيمان والعلم به فارتدّ على عقبه. ومنهم من قال: إن في جمعنا هذا من ليس عنده سوى نور الإيمان ولا يدري ما العلم ولا ما طريقه وهذا الرسول لا نشك في صدقه وفي حكمته ومن الحكمة مراعاة الأضعف، فخاطب هذا الرسول بهذه الصفات التي نسبها إلى ربه أنه عليها هذا الضعيف الذي لا نظر له في الأدلة وليس عنده سوى نور الإيمان رحمة به لأنه لا ينبت له الإيمان إلاّ بمثل هذا الوصف، وللحق أن يصف نفسه بما شاء على قدر عقل القابل، وإن كان في نفسه على خلاف ذلك، واتكل هذا المخبر بهذا الوصف، والمراعي حق هذا الأضعف على ما يعرفه من علمنا به وتحققه من صدقنا فيه ووقوفنا مع دليلنا فلا يقدح شيء من هذا فيما عندنا، إذ قد عرفنا مقصود هذا الرسول بالأمر، فثبتوا على إيمانهم مع كونهم أحالوا ما وصف الرسول به ربه في أنفسهم وأقرّوه حكمة واستجلاباً للأضعف.

وفرقة أخرى من الحاضرين قالوا: هذا الوصف يخالف الأدلة ونحن على يقين من صدق هذا المخبر وغايتنا في معرفتنا بالله سلب ما نسبناه لحدوثها، فهذا أعلم بالله منا في هذه النسبة فنؤمن بها تصديقاً له ونكل علم ذلك إليه وإلى الله، فإن الإيمان بهذا اللفظ ما يضرنا، ونسبة هذا الوصف إليه تعالىٰ مجهولة عندنا لأن ذاته مجهولة من طريق الصفات الثبوتية والسلب فما يعول عليه والجهل بالله هو الأصل، فالجهل بنسبة ما وصف الحق نفسه به في كتابه أعظم، فلنسلم ولنؤمن على علمه بما قاله عن نفسه.

وفرقة أخرى من الحاضرين قالوا: لا نشك في دلالتنا على صدق هذا المخبر وقد آتانا في نعت الله الذي أرسله إلينا بأمور إن وقفنا عند ظاهرها وحملناها عليه تعالىٰ كما نحملها على نفوسنا أدّى إلى حدوثه وزال كونه إلهاً وقد ثبت فننظر هل لها مصرف في اللسان الذي جاء به، فإن الرسول ما أرسل إلاّ بلسان قومه، فنظروا أبواباً ممّا يؤول إليها ذلك الوصف ممّا يقتضي التنزيه وينفي التشبيه، فحملوا تلك الألفاظ على ذلك التأويل. فإذا قيل لهم في ذلك: أي شيء دعاكم إلى ذلك؟ قالوا: أمران القدح في الأدلة فإنا بالأدلة العقلية أثبتنا صدق دعواه ولا نقبل ما يقدح في الدلالة العقلية فإن ذلك قدح في الدلالة على صدقه. والأمر الآخر قد قال لنا هذا الصادق إن الله الذي أرسله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ووافق

الأدلة العقلية فتقوى صدقه عندنا بمثل هذا. فإن قلنا ما قاله في الله على الوجه الذي يعطيه ظاهر اللفظ ونحمله عليه كما نحمله على المحدثات ضللنا فأخذنا في التأويل إثباتاً للطريقين.

وفرقة أخرى وهي أضعف الفرق لم يتعدّوا حضرة الخيال وما عندهم علم بتجريد المعاني ولا بغوامض الأسرار ولا علموا معنى قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ولا قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩١] وهم واقفون في جميع أمورهم مع الخيال، وفي قلوبهم نور الإيمان والتصديق وعندهم جهل باللسان، فحملوا الأمر على ظاهره ولم يردّوا علمه إلى الله فيه، فاعتقدوا نسبة ذلك النعت إلى الله مثل نسبته إلى نفوسهم. وما بعد هذه الطائفة طائفة في الضعف أكثر منها فإنهم على نصف الإيمان حيث قبلوا نعت التشبيه ولم يعقلوا نعوت التنزيه من: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

والفرقة الناجية من هؤلاء الفرق المصيبة للحق هي التي آمنت بما جاء من عند الله على مراد الله وعلمه في ذلك مع نفي التشبيه بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فهذه يا وليّ ألسنة الشرائع في العالم فجاء بالصورة في حق الحق، والعين، واليد، والرجل، والسمع، والبصر، والرضى، والغضب، والتردّد، والتبشبش، والتعجب، والفرح، والضحك، والملل، والمكر، والخداع، والاستهزاء، والسخرية، والسعي، والهرولة، والنزول، والاستواء، والتحديد في القرب، والصبر على الأذى، وما جرى هذا المجرى ممّا هو نعت المخلوقين، ذلك لنؤمن عامة ولنعلم أن التجلي الإلهيّ في أعيان الممكنات أعطى هذه النعوت فلا شاهد ولا مشهود إلاّ الله، فألسنة الشرائع دلائل التجليات، والتجليات دلائل الأسماء الإلهية، فارتبطت أبواب المعرفة بعضها ببعض، فكل لفظ جاءت به الشريعة فهو على ما جاءت به، لكن عالمنا يعرف بأي لسان تكلم الشرع؟ ولمن خاطب؟ وبمن خاطب؟ وبما خاطب؟ ولمن ترجع الأفعال؟ وإلى من تنسب الأقوال؟ ومن المتقلب في الأحوال؟ ومن قال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١ - ٣٢] لنقول: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، هذا أراد أن يسمع منا، وقد قلناه والحمد لله.

النوع الرابع من علوم المعرفة: وهو العلم بالكمال والنقص في الوجود. اعلم أنه من كمال الوجود وجود النقص فيه، إذ لو لم يكن لكان كمال الوجود ناقصاً بعدم النقص فيه، قال تعالىٰ في كمال كل ما سوى الله ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فما نقصه شيئاً أصلاً حتى النقص أعطاه خلقه، فهذا كمال العالم الذي هو كل ما سوى الله إلاّ الله، ثم الإنسان فللّه كمال يليق به وللإنسان كمال يقبله. ومن نقص من الأناسي عن هذا الكمال فذلك النقص الذي في العالم لأن الإنسان من جملة العالم، وما كل إنسان قبل الكمال وما عداه فكامل في مرتبته لا ينقصه شيء بنص القرآن، قال ﷺ في الإنسان: «**كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرُونَ، وَمِنَ النِّسَاءِ مَرِيمُ وَآسِيَةُ وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ الطَّعَامِ**» فما ظهر في العالم نقص إلاّ في هذا الإنسان، وذلك لأنه مجموع حقائق العالم وهو المختصر الوجيز والعالم هو المطوّل البسيط، فأما كمال الألوهية فظاهر بالشرائع، وأما بأدلة العقول فلا، فعين ما

يراه العقل كمالاً هو النقص عند الله لو كان كما يقتضيه دليل العقل فجاء العقل بنصف معرفة الله وهو التنزيه وسلب أحكام كثيرة عنه تعالىٰ، وجاء الشارع يخبر عن الله بثبوت ما سلب عنه العقل بدلالته وتقرير ما سلبه عنه، فجاء بالأمرين للكمال الذي يليق به تعالىٰ فحيّر العقول فهذا هو الكمال الإلهيّ، فلو لم يعط الحيرة لما ذكره لكان تحت حكم ما خلق، فإن القوىٰ الحسية والخيالية تطلبه بذواتها لترى موجدها، والعقول تطلبه بذواتها وأدلتها من نفي وإثبات ووجوب وجواز وإحالة لتعلم موجدها، فخاطب الحواس والخيال بتجريده الذي دلّت عليه أدلة العقول والحواس تسمع فحارت الحواس والخيال وقالوا: ما بأيدينا منه شيء، وخاطب العقول بتشبيهه الذي دلّت عليه الحواس والخيال والعقول تسمع فحارت العقول وقالت: ما بأيدينا منه شيء فعلاً عن إدراك العقول والحواس والخيال، وانفرد سبحانه بالحيرة في الكمال فلم يعلمه سواه ولا شاهده غيره فلم يحيطوا به علماً ولا رأوا له عيناً، فآثار تشهد، وجناب يقصد، ورتبة تحمد، وإله منزّه، ومشبه يعبد، هذا هو الكمال الإلهيّ.

وبقي الإنسان متوسط الحال بين كمال الحيرة والحدّ وهو كمال العالم، فبالإنسان كمل العالم، وما كمل الإنسان بالعالم، فلما انحصرت في الإنسان حقائق العالم بما هو إنسان لم يتميز عن العالم إلاّ بصغر الحجم خاصة، وبقيت له رتبة كماله فجميع الموجودات قبلت كمالها، والحق كامل، والإنسان انقسم قسمين: قسم لم يقبل الكمال فهو من جملة العالم غير أنه مجموع العالم جمعية المختصر من الكبير. وقسم قبل الكمال فظهرت فيه لاستعداده الحضرة الإلهية بكمالها وجميع أسمائها، فأقام هذا القسم خليفة وكساه حلّة الحيرة فيه، فنظرت الملائكة إلى نشأة جسده فقالت فيه ما قالت لتنافر حقائقه التي ركب الله فيها جسده، فلما أعلمها الحق بما خلقه عليه وأعطاه إياه حارت فيه فقالت: لا علم لنا والحائر لا علم له، فأعطاه علم الأسماء الإلهية التي لم تسبحه الملائكة بها ولا قدّسته كما قال عليه السلام: «**إِنَّهُ يَحْمَدُ اللَّهَ غَداً فِي القِيَامَةِ عِنْدَ سُؤَالِهِ فِي الشَّفَاعَةِ بِمَحَامِدَ لاَ يَعْلَمُهَا الآنَ يَقْتَضِيهَا المَوْطِنُ**» فإن محامد الله تعالىٰ بحسب ما تطلبها المواطن والنشآت فأعطت نشأة آدم ومن أشبهه من أولاده الأهلية للخلافة في العالم وما كان ذلك لغيرهم، فكان كمال الإنسان بهذا الاستعداد لهذا التجلي الخاص، فظهر بأسماء الحق على تقابلها وأعطاه الحق فيما بيّن له مصارفها، فهو يظهر بما ظهر من استخلفه وهي المسمّى في الخلافة بالحق والعدل، قال الله لداود: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦] فيهوي بمتبعه عن هذه الدرجة التي أهلت لها وأهلت لك ولأمثالك، كما قال أبو العتاهية: [المتقارب]

أَتَـتْـه الـخـلافـةُ مُـنْـقَـادةً ... إلـيـه تُـجَـرِّرُ أذيـالَـهَـا
ولـم تَـكُ تـصْـلُـحُ إلاّ لـهُ ... ولـم يـك يَـصْـلُـح إلاّ لَـهَـا
ولـو رامَـهَـا أحـدٌ غَـيْـرُه ... لَـزُلْـزِلَـتِ الأرضُ زِلْـزَالَـهَـا

فإذا أعطى التحكم في العالم فهي الخلافة، فإن شاء تحكم وظهر كعبد القادر الجيلي، وإن شاء سلم وترك التصرف لربه في عباده مع التمكن من ذلك لا بدّ منه كأبي مسعود بن

الشبلي، إلاَّ أن يقترن به أمر إلهيّ كداود عليه السلام فلا سبيل إلى ردّ أمر الله، فإنه الهوى الذي نهى عن اتباعه، وكعثمان رضي الله عنه الذي لم يخلع ثوب الخلافة عن عنقه حتى قتل لعلمه بما للحق فيه، فإن رسول الله ﷺ نهاه أن يخلع عنه ثوب الخلافة، فكل من اقترن بتحكمه أمر إلهيّ وجب عليه الظهور به ولا يزال مؤيداً، ومن لم يقترن به أمر إلهيّ فهو مخيّر إن شاء ظهر به ظهر بحق وإن شاء لم يظهر فاستتر بحق وترك الظهور أولى، فتلحق الأولياء الأنبياء بالخلافة خاصة ولا يلحقونهم في الرسالة والنبوة فإن بابهما مسدود، فللرسول الحكم فإن استخلف فله التحكّم، فإن كان رسولاً فتحكمه بما شرع، وإن لم يكن رسولاً فتحكمه عن أمر الله بحكم وقته الذي هو شرع زمانه فإنه بالحكم ينسب إلى العدل والجور. انتهى الجزء الحادي عشر ومائة.

(الجزء الثاني عشر ومائة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

النوع الخامس من علوم المعرفة: وهو علم الإنسان بنفسه من جهة حقائقه. اعلم أن الإنسان ما أعطى التحكّم في العالم بما هو إنسان وإنما أعطي ذلك بقوة إلهيّة ربانية، إذ لا تتحكم في العالم إلاَّ صفة حق لا غير وهي في الإنسان ابتلاء لا تشريف، ولو كانت تشريفاً بقيت معه في الآخرة في دار السعداء، ولو كانت تشريفاً ما قيل له: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦] فحجرت عليه والتحجير ابتلاء والتشريف إطلاق، ولا نسب في التحكم إلى عدل ولا إلى جور، ولا وليّ الخلافة في العالم إلاَّ أهل الله، بل ولى الله التحكم في العالم من أسعده الله به ومن أشقاه من المؤمنين، ومع هذا أمرنا الحق أن نسمع له ونطيع ولا نخرج يداً من طاعة وقال: فإن جاروا فلكم وعليهم، وهذه حالة ابتلاء لا حالة شرف، فإنه في حركاته فيها على حذر وقدم غرور، ولهذا يكون يوم القيامة على بعض الخلفاء ندامة، فإذا وقف الإنسان على معرفة نفسه واشتغل بالعلم بحقائقه من حيث ما هو إنسان فلم ير فرقاً بينه وبين العالم، ورأى أن العالم الذي هو ما عدا الثقلين ساجد لله فهو مطيع قائم بما تعين عليه من عبادة خالقه ومنشيه طلب الحقيقة التي يجتمع فيها مع العالم، فلم يجد إلاَّ الإمكان والافتقار والذلة والخضوع والحاجة والمسكنة، ثم نظر إلى ما وصف به الحق العالم كله فرآه قد وصفه بالسجود له حتى ظلّه، ورأى أنه ما وصف بذلك من جنسه إلاَّ الكثير لا الكل، كما وصف كل جنس من العالم فخاف أن يكون من الكثير الذي حق عليه العذاب، ثم رأى أن العالم قد فطروا بالذات على عبادة الله، وافتقر هذا الإنسان إلى من يرشده ويبين له الطريق المقربة إلى سعادته عند الله لما سمع الله يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فعبده بالافتقار إليه كما عبد سائر العالم، ثم رأى أن الله قد حدّ له حدوداً ورسم له أموراً ونهاه أن يتعداها وأن يأتي من أمره سبحانه ما استطاع، فتعين عليه العلم بما شرع الله له ليقيم عبادة الله الفرعية كما أقام العبادة الأصلية، فإن العبادة الأصلية هي التي تطلبها ذوات

الممكنات بما هي ممكنات، والعبادات الفرعية هي أعمال يفتقر فيها العبد إلى إخبار إلهيّ من حيث ما يستحقه سيده وما تقتضيه عبوديته، فإذا علم أمر سيده ونهيه ووفى حق سيده تعالىٰ وحق عبودته فقد عرف نفسه، وكل من عرف نفسه عرف ربه، ومن عرف ربه عبده بأمره، فما ثم من جمع بين العبادتين: عبادة الأمر وعبادة النهي إلاَّ الثقلان فإن الأرواح الملكية لا نهي عندها، ولهذا قال فيهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦] ولم يذكر لهم نهي، وقال في عبادتهم الذاتية: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٨] ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٠] فإن حقيقة نشأتهم تعطي ذلك، فهذه هي العبادة الذاتية، وهي عبادة سارية في كل ما سوى الله.

ولما كان الإنسان مجموع حقائق العالم كما قلنا وعرف نفسه من جهة حقائقه تعين عليه أن يقوم وحده من حيث هو بعبادة جميع العالم، وإن لم يفعل فما عرف نفسه من جهة حقائقه لأنها عبادة ذاتية، وصورة معرفته بذلك أن يشاهد جميع حقائقه كلها في عبادتها كشفاً كما هي عليه في نفسها سواء كوشف بذلك أو لم يكاشف، فهذا الذي أريده بالعلم بحقائقه أي عن الكشف، فإذا شاهدها لم يتمكن له مخالفة أمر سيده فيما أمر به من عبادته بالوقوف عند حدوده ومراسمه فيما دخل فيه وفيما خرج عنه، فإذا قال: سبحان الله بكله على ما رسمنا انتقش في جوهر نفسه جميع ما قاله العالم كله من حيث تلك التسبيحة، وهذه هي النفس الزكية التي تسمي لسان العالم بحيث لو صحّ أن يتعطل شيء من العالم في عبادة ربه لقام هذا العبد العارف بهذا القدر مقامه فيما فرط فيه وسدّ مسده لو تصور هذا، ويجازي هذا العبد من جانب الحق بهذا القدر وهو مجازاة الأصغر بجائزة الأكبر يقول: لو قدرنا العالم كله ما سوى الإنسان غفل عن عبادة الله طرفة عين وكان هذا الإنسان ذاكر الله قائماً بحقه في تلك اللحظة ناب مناب العالم وسدّ مسده، فجوزي بجزاء العالم كله، وإن كان لا يتصور من العالم غفلة فإنه ليس من أهل الغفلة إلاَّ الثقلان خاصة، فانظر ما أعطاك العلم بنفسك وبما أنت عليه من حقائق الكون.

النوع السادس من علوم المعرفة: وهو علم الخيال وعالمه المتصل والمنفصل. وهذا ركن عظيم من أركان المعرفة، وهذا هو علم البرزخ، وعلم عالم الأجساد التي تظهر فيها الروحانيات، وهو علم سوق الجنة، وهو علم التجلي الإلهي في القيامة في صور التبدّل، وهو علم ظهور المعاني التي لا تقوم بنفسها مجسدة مثل الموت في صورة كبش، وهو علم ما يراه الناس في النوم، وعلم الموطن الذي يكون فيه الخلق بعد الموت وقبل البعث وهو علم الصور، وفيه تظهر الصور المرئيات في الأجسام الصقيلة كالمرآة، وليس بعد العلم بالأسماء الإلهية ولا التجلي، وعمومه أتم من هذا الركن فإنه واسطة العقد إليه تعرج الحواس وإليه تنزل المعاني وهو لا يبرح من موطنه، تجبى إليه ثمرات كل شيء، وهو صاحب الإكسير الذي تحمله على المعنى فيجسده في أي صورة شاء لا يتوقف له النفوذ في التصرف والحكم تعضده الشرائع وتثبته الطبائع، فهو المشهود له بالتصرف التام، وله التحام المعاني بالأجسام، يحير الأدلة والعقول، فلنبينه إن شاء الله في هذا الفصل بأوجز ما يمكن وأبلغ، والله الموفق لا رب غيره.

اعلموا يا إخواننا أنه ما من معلوم كان ما كان إلاّ وله نسبة إلى الوجود بأي نوع كان من أنواع الوجود فإنه على أربعة أقسام: فمنها معلوم يجمع مراتب الوجود كلها. ومنها معلوم يتصف ببعض مراتب الوجود ولا يتصف ببعضها، وهذه المراتب الأربعة التي للوجود منها الوجود العيني وهو الموجود في نفسه على أي حقيقة كان من الاتصاف بالدخول والخروج أو بنفيهما فيكون مع كونه موجوداً في عينه لا داخل العالم ولا خارج لعدم شرط الدخول والخروج وهو التحيّز وليس ذلك إلاّ لله خاصة، وأما ما هو من العالم قائم بنفسه غير متحيز كالنفوس الناطقة والعقل الأول والنفس والأرواح المهيمنة والطبيعة والهباء، وأعني بهذه كلها أرواحها، فكل ذلك داخل في العالم، إلاّ أنه لا داخل أجسام العالم ولا خارج عنها فإنها غير متحيزات.

والمرتبة الثانية: الوجود الذهني وهو كون المعلوم متصوراً في النفس على ما هو عليه في حقيقته، فإن لم يكن التصور مطابقاً للحقيقة فليس ذلك بوجود له في الذهن.

والمرتبة الثالثة: الكلام وللمعلومات وجود في الألفاظ وهو الوجود اللفظي، ويدخل في هذا الوجود كل معلوم حتى المحال والعدم فإن له الوجود اللفظي، فإنه يوجد في اللفظ، ولا يقبل الوجود العيني أبداً أعني المحال، وأما العدم فإن كان العدم الذي يوصف به الممكن فيقبل الوجود العيني، وإن كان العدم الذي هو المحال فلا يقبل الوجود العيني.

والمرتبة الرابعة: الوجود الكتابي وهو الوجود الرقمي، وهو نسبته إلى الوجود في الخط أو الرقم أو الكتابة، ونسبة المعلومات كلها من المحال وغير المحال نسبة واحدة، فهذا المحال وإن كان لا يوجد له عين فله نسبة وجود في اللفظ والخط، فما ثم معلوم لا يتصف بالوجود بوجه، وسبب ذلك قوّة الوجود الذي هو أصل الأصول وهو الله تعالىٰ، إذ به ظهرت هذه المراتب وتعينت هذه الحقائق، وبوجوده عرف من يقبل مراتب الوجود كلها ممّن لا يقبلها، فالأسماء متكلماً بها كانت أو مرقومة ينسحب وجودها على كل معلوم، فيتصف ذلك المعلوم بضرب من ضروب الوجود، فما في العلم معدوم مطلق العدم ليس له نسبة إلى الوجود بوجه ما هذا ما لا يعقل فافهم هذا الأصل وتحققه.

ثم اعلم بعد هذا أن حقيقة الخيال المطلق هو المسمّى بالعماء الذي هو أوّل ظرف قبل كينونة الحق، ورد في الصحيح أنه قيل لرسول الله ﷺ: «**أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟ قَالَ: كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَمَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ**» وإنما قال هذا من أجل أن العماء عند العرب هو السحاب الرقيق الذي تحته هواء وفوقه هواء، فلما سماه بالعماء أزال ما يسبق إلى فهم العرب من ذلك، فنفى عنه الهواء حتى يعلم أنه لا يشبهه من كل وجه، فهو أوّل موصوف بكينونة الحق فيه، فإنّ للحق على ما أخبر خمس كينونات: كينونة في العماء وهو ما ذكرناه، وكينونة في العرش، وهو قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] وكينونة في السماء في قوله: «**ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا**» وكينونة في الأرض وهو قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣] وكينونة عامة وهو مع الموجودات على مراتبها

حيثما كانت كما بيّن ذلك في حقنا فقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] وكل هذه النسب بحسب ما يليق بجلاله من غير تكييف ولا تشبيه ولا تصوّر بل كما تعطيه ذاته، وما ينبغي أن ينسب إليها من ذلك ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يصل أحد إلى العلم ولا إلى الظفر بحقيقته ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦] الذي نزل لعباده في كلماته، فقرب البعيد في الخطاب لحكمة أرادها تعالىٰ، ففتح الله تعالىٰ في ذلك العماء صور كل ما سواه من العالم، إلاّ أن ذلك العماء هو الخيال المحقق، ألا تراه يقبل صور الكائنات كلها ويصوّر ما ليس بكائن؟ هذا لاتساعه فهو عين العماء لا غيره، وفيه ظهرت جميع الموجودات وهو المعبر عنه بظاهر الحق في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] ولهذا في الخيال المتصل يتخيل من لا معرفة له بما ينبغي لجلال الله بتصوّره، فإذا تحكم عليه الخيال المتصل فما ظنك بالخيال المطلق الذي هو كينونة الحق فيه وهو العماء؟ فمن تلك القوّة ضبطه الخيال المتصل، ثم جاء الشرع في أماكن يقرر ما ضبطه الخيال المتصل من كينونة الحق في قبلة المصلي وفي مواجهة المصلي إياه فقبله الخيال المتصل وهو من بعض وجوه الخيال المطلق الذي هو الحضرة الجامعة والمرتبة الشاملة، وانتشاء هذا العماء من نفس الرحمن من كونه إلهاً لا من كونه رحماناً فقط، فجميع الموجودات ظهر في العماء بكن أو باليد الإلهية أو باليدين إلاّ العماء فظهوره بالنفس خاصة، ولولا ما ورد في الشرع النفس ما أطلقناه مع علمنا به، وكان أصل ذلك حكم الحب والحب له الحركة في المحب، والنفس حركة شوقية لمن تعشق به وتعلق له في ذلك التنفس لذة وقد قال تعالىٰ كما ورد: «كُنتُ كَنْزاً لَمْ أُعْرَفْ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ» فبهذا الحب وقع التنفس فظهر النفس فكان العماء، فلهذا أوقع عليه اسم العماء الشارع لأنّ العماء الذي هو السحاب يتولد من الأبخرة وهي نفس العناصر لما فيه من حكم الحرارة فلهذا الالتفات سمّاه عماء، ثم نفى عنه الهواء الذي يحيط به كما يحيط بجسم السحاب ويصرّفه الهواء حيث شاء، فنفى أن يكون هذا العماء يتحكم فيه غيره، إذ هو أقرب الموجودات إلى الله الكائن عن نفسه، فلما عمر هذا العماء الخلاء كله الذي هو مكان العالم أو ظرفه، إذ لو انعدم العالم لتبين الخلاء وهو امتداد متوهم في غير جسم، فهذا العماء هو الحق المخلوق به كل شيء، وسمّي الحق لأنه عين النفس والنفس مبطون في المتنفس هكذا يعقل، فالنفس له حكم الباطن، فإذا ظهر له حكم الظاهر فهو الأوّل في الباطن والآخر في الظاهر ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] فإنه فيه ظهر كل شيء مسمّى من معدوم يمكن وجود عينه ومن معدوم يوجد عينه.

ثم ظهر في عين هذا العماء أرواح الملائكة المهيمة وما هم ملائكة بل هم أرواح مطهرة، ثم ما زال يظهر فيه صور أجناس العالم شيئاً بعد شيء وطوراً بعد طور إلى أن كمل من حيث أجناسه، فلما كمل بقيت الأشخاص من هذه الأجناس تتكون دائماً تكوين استحالة من وجود إلى وجود لا من عدم إلى وجود، فخلق آدم من تراب، وخلق بني آدم من نطفة وهي الماء المهين، ثم خلق النطفة علقة فلهذا قلنا في الأشخاص إنها مخلوقة من وجود لا من عدم، فإن الأصل على هذا كان وهو العماء من النفس وهو وجود وهو عين الحق

المخلوق به، وأجناس العالم مخلوقون من العماء، وأشخاص العالم مخلوقون من العماء أيضاً. ومن أنواع أجناسه فما خلق شيء من عدم لا يمكن وجوده بل ظهر في أعيان ثابتة وهو قولنا في أوّل هذا الكتاب: الحمد لله الذي أوجد الأشياء عن عدم وعدمه عن عدم من حيث أنه لم يكن لها عين ظاهرة، وعدمه وعدم العدم وجود، أي وإن لم يكن لها عين فهذه العين من وجود ظهرت على الحقيقة فأعدمت العدم الأوّل الذي أثبته بنسبة ما، فهو من حيث تلك النسبة ثابت، ومن هذه النسبة الأخرى منفي، وإذا تحققت هذا فإن شئت قلت: هو عن عدم، وإن شئت قلت: هو عن وجود بعد علمك بالأمر على ما هو عليه، ولولا قوّة الخيال ما ظهر من هذا الذي أظهرناه لكم شيء فإنه أوسع الكائنات وأكمل الموجودات، ويقبل الصور الروحانيات وهو التشكل في الصور المختلفة من الاستحالة الكائنة، والاستحالة منها ما فيها سرعة كاستحالة الأرواح صوراً جسدية، والمعاني صوراً جسدية تظهر في كون هذا العماء، وثم استحالات فيها بطء كاستحالة الماء هواء والهواء ناراً والنطفة إنساناً والعناصر نباتاً وحيواناً، فهذه كلها وإن كانت استحالات فما لها سرعة استحالة الصور في القوة المتخيلة في الإنسان وهو الخيال المتصل، ولا في استحالات صور الأرواح في صور الأجسام أجساداً، كالملائكة في صور البشر فإن السرعة هنالك أقوى، وكذا زوالها أسرع من استحالات الأجسام بعد الموت إلى ما تستحيل إليه.

ثم إذا فهمت هذا الأصل علمت أن الحق هو الناطق والمحرك والمسكن والموجد والمذهب، فتعلم أن جميع الصور بما ينسب إليها ممّا هو له خيال منصوب، وأن حقيقة الوجود له تعالىٰ، ألا ترى إلى واضع خيال الستارة ما وضعه إلاَّ ليتحقق الناظر فيه علم ما هو أمر الوجود عليه فيرى صوراً متعدّدة حركاتها وتصرّفاتها وأحكامها لعين واحدة ليس لها من ذلك شيء، والموجد لها ومحرّكها ومسكنها بيننا وبينه تلك الستارة المضروبة وهو الحدّ الفاصل بيننا وبينه به يقع التمييز فيقال فيه إله، ويقال فينا عبيد وعالم أي لفظ شئت، ثم إن هذا العماء هو عين البرزخ بين المعاني التي لا أعيان لها في الوجود، وبين الأجسام النورية والطبيعة كالعلم والحركة هذا في النفوس وهذه في الأجسام، فتتجسد في حضرة الخيال كالعلم في صورة اللبن، وكذلك تعيين النسب وإن كانت لا عين لها لا في النفس ولا في الجسم كالثبات في الأمر نسبة إلى الثابت فيه يظهر هذا الثبات في صورة القيد المحسوس في حضرة الخيال المتصل، وكالأرواح في صور الأجسام المتشكلة الظاهرة بها كجبريل في صورة دحية، ومن ظهر من الملائكة في صور الذر يوم بدر هذا في الخيال المنفصل وكالعصا والحبال في صور الحيات تسعى كما قال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ يعني إلى موسىٰ ﴿مِن سِحْرِهِمْ﴾ أي من علمهم بما فعلوه ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٦٦] فأقاموا ذلك في حضرة الخيال، فأدركها موسىٰ مخيلة ولا يعرف أنها مخيلة بل ظن أنها مثل عصاه في الحكم ولهذا خاف فقيل له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٦٨] فالفرقان بين الخيال المتصل والخيال المنفصل أن المتصل يذهب بذهاب المتخيل، والمنفصل حضرة ذاتية قابلة دائماً للمعاني والأرواح فتجسدها

بخاصيتها لا يكون غير ذلك، ومن هذا الخيال المنفصل يكون الخيال المتصل، والخيال المتصل على نوعين: منه ما يوجد عن تخيل، ومنه ما لا يوجد عن تخيل، كالنائم ما هو عن تخيل ما يراه من الصور في نومه، والذي يوجد عن تخيل ما يمسكه الإنسان في نفسه من مثل ما أحسّ به أو ما صورته القوّة المصوّرة إنشاء لصورة لم يدركها الحسّ من حيث مجموعها، لكن جميع آحاد المجموع لا بدّ أن يكون محسوساً، فقد يندرج المتخيل الذي هو صورة الملك في صورة البشر، وهو من الخيال المنفصل في الخيال المتصل فيرفعه في الخيال المتصل وهو خيال بينهما صورة حسية لولاها ما رفع مثالها الخيال المتصل، ومن هذا الباب التجلي الإلهيّ في صور الاعتقادات وهذا ممّا يجب الإيمان به.

خرّج مسلم في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدريّ وهو حديث طويل وفيه: «**حَتَى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ فَيَأْتِيهِمْ رَبُّ العَالَمِينَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي أَدْنَىٰ صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا قَالَ: فَيقُولُ: مَاذَا تَنْتَظِرُونَ؟ لِتَتْبَعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيهِم وَلم نُصَاحِبْهُمْ، قَالَ: فيقولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، قَالَ: فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنكَ لاَ نُشْرِكُ بِاللَّهِ شيئاً مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً حَتَىٰ إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَن يَنْقَلِبَ فيقولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُم آيَةٌ تَعرِفُونَهُ بها؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ قَالَ: فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ فَلا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلاَّ أَذِنَ لَهُ بِالسُّجُودِ، ولاَ يَبْقَى مَنْ كانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءَ وَرِيَاءَ إِلاَّ جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّما أَرَادَ أَنْ يَسْجُد خَرَّ عَلَى قَفَاهُ ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُؤوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيها أَوَّلَ مَرَّةٍ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ قالَ: فَيَقُولُونَ: نَعَمْ أَنْتَ رَبُّنَا**» الحديث، فانظر نظر المنصف في هذا الخبر من تحوّل الحق سبحانه في الصور وهو سبحانه لا غيره، فأنكر في صورة وأقرّ به في صورة والعين واحدة والصور مختلفة، فهذا عين ما أردناه من اختلاف الصور في العماء أعني صور العالم، فالصور بما هي صور هي المتخيلات، والعماء الظاهرة فيه هو الخيال، وفي هذا الحديث شفاء لكل صاحب علة إذا استعمله بالنظر السديد على الإنصاف وطلب الحق، وهكذا تجليه على القلوب وفي أعيان الممكنات فهو الظاهر وهو الصور بما تعطيه أعيان الممكنات باستعداداتها فيمن ظهر فيها، فالممكنات هو العماء، والظاهر فيه هو الحق، والعماء هو الحق المخلوق به، واختلاف أعيان الممكنات في أنفسها في ثبوتها، والحكم لها فيمن ظهر فيها، وهكذا أيضاً تجلّى الحق للنائم في حال نومه ويعرف أنه الحق ولا يشك وكذلك في الكشف، ويقول له عابر الرؤيا: حقاً رأيت وهو في الخيال المتصل فما أوسع حضرة الخيال، وفيها يظهر وجود المحال بل لا يظهر فيها على التحقيق إلاّ وجود المحال، فإن الواجب الوجود وهو الله تعالىٰ لا يقبل الصور، وقد ظهر بالصورة في هذه الحضرة فقد قبل المحال الوجود الوجود في هذه الحضرة، وفيها يرى الجسم في مكانين، كما رأى آدم نفسه خارجاً عن قبضة الحق فلما بسط الحق يده فإذا فيه آدم وذريته الحديث، فهو في القبضة وهو عينه خارج عن القبضة فلا تقبل هذه الحضرة إلاّ وجود المحالات. وكذلك الإنسان في بيته نائم ويرى نفسه على صورته المعهودة في مدينة أخرى وعلى حالة أخرى تخالف حاله الذي هو عليها وهو

عينه لا غيره لمن عرف أمر الوجود على ما هو عليه، ولولا هذه الرائحة ما قدر العقلاء على فرض المحال عند طلب الدلالة على أمر ما لأنه لو لم يقبل المحال الوجود في حضرة مّا ما صحّ أن يفرض ولا يقدر فإذا قلت مثل هذا لمن فرضه ينسى بالخاصية حكم ما فرضه ويقول: لا يتصوّر وجود المحال، وهو يفرض وجوده ويحكم عليه بما يحكم على الواقع فلو لم يتصوّره ما حكم عليه، وإذا تصوّره فقد قبل الوجود بنسبة ما فتحقق ما قلناه تجد الحق.

ومن هذا الباب مشاهدة المقتول في سبيل الله في المعركة وهو في نفس الأمر حي يرزق ويأكل يدركه المؤمن بإيمانه والمكاشف ببصره، وكالميت في قبره يشاهده ساكتاً وهو متكلم يسأل ويجيب، فإن قلت لمن يرى هذا إثم إنه خيّل له يقول لك: بل أنت خيل لك أنه ساكت وهو متكلم وخيل لك أنه مضطجع وهو قاعد، ويعضده في قوله الإيمان بالخبر الصحيح الوارد فهو أقوى في الدلالة منك فعينه أتم نظراً من عينك، والكامل النظر الذي هو أكمل من الاثنين يقول لكل واحد: صدقت هو ساكت متكلم مضطجع قاعد مقتول حيّ، وكل صورة مشهودة فيه من الباب الذي ذكرناه، ومن ذلك الصورة في المرآة، وكل جسم صقيل إن كان الجسم الصقيل كبيراً كبرت الصورة المرئية فيه، ثم إذا نظرت إلى الصورة من خارج وجدتها غير متنوعة فيما ظهر فيها من التنوّع بتنوّع المرائي حتى في تموجّ الماء تظهر الصورة متموجة، وكل عين أي كل نظرة تقول للأخرى إنها في مقام الخيال وأن الحق بيدها وتصدق كل نظرة منها، فتعلم قطعاً أن الصورة المرئية في المرائي والأجسام الصقيلة إنما ظهورها في الخيال كرؤية النائم وتشكل الروحاني سواء، وأنها ليست في المرآة ولا في الحسّ، فإنها تخالف صورة الحسّ من حيث تعلّقه الخاص به دون المرآة، وليس في الوجود في الغيب والشهادة إلاّ ما ذكرناه.

وكذلك إدراكات الجنة فاكهتها ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٣٣] مع وجود الأكل وارتفاع الحجر فيأكلها من غير قطع بمجرد القطف وقربه من الشخص وعدم امتناعها من القطف ووجود الأكل، وبقاء العين في غصن الشجرة فتشاهدها غير مقطوعة وتشهدها قطفاً في يدك تأكلها وتعلم، ولا تشك أن عين ما تأكله هو عين ما تشهده في غصن شجرته غير مقطوع. وكذلك سوق الجنة تظهر فيه صور حسان إذا نظر إليها أهل الجنان، فكل صورة يشتهيها دخل فيها فيلبسها ويظهر بها في ملكه ولعينه وهو يراها في السوق ما انفصلت ولا فقدت، ولو اشتهاها كل من في الجنة دخل فيها وهي على حالها في السوق ما برحت، فهذا كله نظير الحقائق كالبياض في كل أبيض بذاته لا أنه انقسم ولا تجزأ بل حقيقة البياضية معقولة ما انتقص منها شيء مع وجودها في كل أبيض، وكذلك الحيوانية في كل حيوان، والإنسانية في كل إنسان، فيعترف بهذا جميع العقلاء وينكرون ما ذكرناه من هذه الأمور في التجلي وغيره، فما جاء من ذلك في الكتاب والسنّة اعترف به المؤمنون وساعدوا أهل الكشف وأنكره أصحاب النظر، وإن قبلوه قبلوه بتأويل بعيد أو بتسليم لمن قاله إذا كان القائل الله أو رسوله، فإن ظهر عنك مثله جهلوك وأنكروا ذلك ونسبوك إلى فساد الخيال فهم يعترفون بما أنكروه فإنهم أثبتوا الخيال وفساده، ولا يدلّ

فساده على عدمه، وإنما هو فساده حيث لم يطابق عنده الصحيح الذي هو صحيح، وسواء عندنا قلت فيه صحيح أو فاسد قد ثبت عينه، وأن تلك الصورة في الخيال فدعها تكون صحيحة أو فاسدة ما أبالي ولم يكن مقصودنا إلاّ إثبات وجود الخيال، لم تتعرّض إلى صحة ما يظهر فيه ولا إلى فساده، فقد ثبت أن الحكم له بكل وجه، وعلى كل حال في المحسوس والمعقول والحواس والعقول، وفي الصور والمعاني، وفي المحدث وفي القديم وفي المحال وفي الممكن وفي الواجب، ومن لا يعرف مرتبة الخيال فلا معرفة له جملة واحدة، وهذا الركن من المعرفة إذا لم يحصل للعارفين فما عندهم من المعرفة رائحة.

ثم إنه ممّا يؤيّد ما ذكرناه أنك لا تشك أنك مدرك لما أدركته أنه حق محسوس لما تعلق به الحسّ، وأن الحديث الوارد عن النبيّ ﷺ في قوله: «**النَّاسُ نِيَامٌ إِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا**» فنبّه أن ما أدركتموه في هذه الدار هو مثل إدراك النائم بل هو إدراك النائم في النوم وهو خيال، ولا تشك أن الناس في البرزخ بين هذه الدار والدار الآخرة وهو مقام الخيال، فانتباهك بالموت هو كمن يرى أنه استيقظ في النوم في حال نومه فيقول في النوم: رأيت كذا وكذا وهو يظن أنه قد استيقظ، ويعضد هذا الخبر قوله تعالىٰ في حق الميت: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [سورة ق: الآية ٢٢] أي تدرك ما لم تكن أدركته بالموت فهو يقظة بالنسبة لما كنت عليه في حال الحياة الدنيا، ثم إذا بعثت في النشأة الآخرة يقول المبعوث: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا﴾ [سورة يس: الآية ٥٢] فكان كونه في مدة موته كالنائم في حال نومه، مع كون الشارع سمّاه يقظة، وهكذا كل حال تكون فيه لا بدّ لك من الانتقال عنه وتبقى مثل ما كنت عليه في خيالك المتصل وفي قوّة كونه كان على الحقيقة في الخيال المنفصل إذ لو كان حقيقة ما تغيّر ولا انتقل، فإن الحقائق لا تتبدل، وحقيقة الخيال التبدّل في كل حال والظهور في كل صورة فلا وجود حقيقي لا يقبل التبديل إلاّ الله فما في الوجود المحقق إلاّ الله، وأما ما سواه فهو في الوجود الخيالي، وإذا ظهر الحق في هذا الوجود الخيالي ما يظهر فيه إلاّ بحسب حقيقته لا بذاته التي لها الوجود الحقيقيّ، ولهذا جاء الحديث الصحيح بتحوله في الصور في تجليه لعباده وهو قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ [سورة القصص: الآية ٨٨] فإنه لا يبقى حالة أصلاً في العالم لا كونية ولا إلهية إلاّ وجهه يريد ذاته، إذ وجه الشيء ذاته فلا تهلك أين الصورة التي تحوّل فيها من الصورة التي تحوّل عنها، هذا حظ الصورة التي تحوّل عنها من نسبة الهلاك إليها، فكل ما سوى ذات الحق فهو في مقام الاستحالة السريعة والبطيئة، فكل ما سوى ذات الحق خيال حائل وظل زائل، فلا يبقى كون في الدنيا والآخرة وما بينهما ولا روح ولا نفس ولا شيء ممّا سوى الله، أعني ذات الحق على حالة واحدة بل تتبدل من صورة إلى صورة دائماً أبداً وليس الخيال إلاّ هذا فهذا هو عين معقولية الخيال، انظره في الأصل حيث قال في العماء فشبه بالسحاب والتشبيه تخيل، والعماء هو جوهر العالم كله، فالعالم ما ظهر إلاّ في خيال فهو متخيل لنفسه فهو هو وما هو هو.

وممّا يؤيد ما ذكرناه ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ فنفى عين ما أثبت أي تخيلت أنك رميت ولا شك أنه رمى ولهذا قال: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ ثم قال: الرمي صحيح ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة

الأنفال: الآية ١٧] أي ظهرت يا محمد بصورة حق فأصابت رميتك ما لا تصيبه رمية البشر، كما نفخ عيسىٰ في صورة الطير فكان طيراً، فظهر في نفخ عيسىٰ النفخ الإلهيّ وهو قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] والنفخ نفس والعماء عين ذلك النفس فهو نفخ في وجود الحق، فتشكل منه خلق في حق، فكان الحق المخلوق به ما ظهر من صور العالم فيه، وما ظهر من اختلاف التجلي الإلهيّ فيه، وهذا القدر كاف فيما ذهبنا إليه من علم الخيال، وقد تقدّم في هذا الكتاب معرفة الأرض التي خلقت من بقية طينة آدم عليه السلام وهي ما ظهر من صور العالم فيها، فالعلم بتلك الأرض جزء من هذه المسألة.

النوع السابع من المعرفة وهو علم العلل والأدوية. ويحتاج إليه من يربي من الشيوخ، ولا تنفع هذه الأدوية إلاّ فيمن يقبل استعمالها، فإن لم يستعملها العليل فلا يظهر لها أثر، فلنبين إن شاء الله العلل بطريق الحصر لأمهاتها، ثم نذكر الأدوية المختصة بها العلل في هذه الطريقة ليس لها محل إلاّ النفوس خاصة لا حظ للعقول فيها البتة ولا للأبدان، فإن علل العقول معروفة، وعلل الأجسام معروفة، وأدوية علل الأجسام موقوفة على الأطباء، وأدوية علل العقول اتخاذ الخلوات بالميزان الطبيعي، وإزالة التفكّر فيها، ومداومة الذكر ليس غير ذلك، وما بقي لنا الخوض فيه إلاّ علل النفوس وهي ثلاثة أمراض: مرض في الأقوال، ومرض في الأفعال، ومرض في الأحوال. وأما مرض الاعتقادات فهو مرض العقول وقد ذكرناه، فلنذكر أمراض الأقوال، فمنها التزام قول الحق وهو من أكبر الأمراض دواؤه معرفة المواطن التي ينبغي أن يصرفه فيها، فإن الغيبة حق وقد نهى عنها، والنميمة حق وقد نهى عنها، وما يفعله الرجل مع أهله في فراشه إذا أفضى إليها فيقول في ذلك حقاً، وهذا القول من الكبائر والنصيحة في الملأ بالحق حق وهو فضيحة، ولا تقع إلاّ من الجهلاء وأصحاب الأغراض لأن الفائدة المطلوبة من النصيحة حصول المنفعة وثبوت الودّ، فإذا وقع النصح في الملأ لم يحصل القبول وأثمر عداوة وذمّه الله فإنه يخجل بتلك النصيحة في الملأ، ويجعل الشخص الذي خاطبه بالنصح في الملأ يكذب في اعتذاره عن ذلك ويجد عليه فيه، ويكون ذلك سبباً إلى فساد كبير، فلو نصحه في خلوة بطريقة حسنة بأن يظهر له عيب نفسه في نفس الأمر ولا يشعره أنه يقصده بذلك ليعلمه إن كان جاهلاً بقبح ذلك الأمر الذي نصحه فيه شكره في نفسه وأحبه ودعى له وأثمر له الخير وكان في ميزانه فما كل حق مأمور به ولا مستحسن شرعاً ولا عرفاً، وكذلك من يجبه الناس بما يكرهون وإن كان حقاً فإنه يدل على لؤم الطباع والجهل وقلة الحياء من الله فإنه بعيد أن يسلم في نفسه من عيب يكون فيه لا يرضي الله، فلو اشتغل بالنظر في عيبه لشغله ذلك عن عيب غيره، ومن التزم تتبع حركات صاحبه بحيث أن يقيد عليه أنفاسه فهو من أشد الأمراض، فإنه شغل بما لا يعنيه وغفلة عن نفسه والنفس تخزنه عندها في زمان صداقته ليوم مّا وهو لا يشعر، ويحجبه عن هذا الشعور محبته فيه في الوقت، فإذا وجد في نفسه أدنى كراهة في صاحبه أو إعراض لملل أو هفوة صدرت منه في حقه أخرج ما كان عنده مخزوناً من القبائح التي كان خبأها عنده واختزنها له في نفسه في تتبعه فيقول له

في معرض التوبيخ: ألم تقل كذا في يوم كذا؟ ألم تفعل كذا في يوم كذا؟ ثم إذا عدد عليه ما كان اختزنه يقول له: وهذا كله يدل على قلة الدين أو عدم الدين وأنا كنت أرى منك هذا كله وأقول: لعل له في هذا وجهاً ولا وجه لك فيه في الشرع، وهذا خلاف الحق فيسمعه ما يكره وما كان غافلاً عنه، وما كان يعلم أن هذا يحصى عليه أنفاسه ويرجع عليه من أكبر الأعداء، وأصل هذا كله من التتبع لمثالبه واختزانه إياها في خزانة نفسه وذلك لسوء الطبع ودناءة الأصل والفرع، وهذا يوجد في الأصحاب والأصدقاء كثيراً وقد قيل في ذلك: [مجزوء الكامل]

احـذَرْ عـدوَّكَ مـرةً ... واحـذَرْ صـديـقَـك ألـفَ مَـرَّهْ
فَـلَـربَّـمـا هَـجَـرَ الـصـديـقُ فـكـان أعـرفَ بـالـمَـضَـرَّهْ

وهذا كله وبال يعود على قائله وإن كان حقاً. ومن أمراض الأقوال السؤال عن أحوال الناس وما يفعلون، ولم جاء فلان؟ ولم مشى فلان؟ والسؤال عن كل ما لا يعني، وسؤاله عن أهله ما فعلوا في غيبته دواه التأسي برسول الله ﷺ في كونه ما أتى أهله من سفره ليلاً ونهيه أصحابه عن ذلك حتى لا يفجأهم فيرى منهزماً يكره، والاستئذان من هذا الباب إبقاء للستر فإنه قد علم أن لكل أحد هنات، وأيضاً فما كل ما يعمله الإنسان وإن كان خيراً يحب أن يعلمه منه كل أحد، فإذا ألحّ هذا السائل عن العلم به أضر بالمسؤول حيث جعله ينطبق بما لا يريده أو يكذب، فإن لم ينطق أثر في نفس السائل حزازة ويقول: لو كنت عنده بمكانة ما ستر عني ما سألته عنه فنقص من خلوص مودته التي كانت له في نفسه، ولو حصلت له تهمة في نفسه تؤدّيه إلى مثل هذا الفعل فليس له ذلك شرعاً ولا عقلاً ولا مروءة، وهذا باب قلّ أن يقع إلاّ من خبيث الباطن لا دين له سيىء السريرة، قال ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ**».

ومن أمراض الأقوال الامتنان والتحدّث بما يفعله من الخير مع الشخص على طريق المن، والمن الأذى دواؤه لما كان يسوءه ذلك ويحبط أجر رب النعمة، فإن الله تعالىٰ قد أبطل ذلك العمل بقوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٤] وأي أذى أعظم من المن فإنه أذى نفسي، ودواؤه أنه لا يرى أوصل إليه ممّا كان في يديه إلاّ ما هو له في علم الله، وأن ذلك الخير إنما كان أمانة بيده ما كان له لكنه لم يكن يعرف صاحبها، فلما أخرجها بالعطاء لمن عين الله في نفس الأمر حينئذ يعرف صاحب تلك الأمانة، فشكر الله على أدائها، ومن أعطى هذا النظر فلا تصحّ منه منة أصلاً.

ومن أمراض الأقوال أيضاً أن يفعل الرجل الخير مع بعض أولاده لأمر في نفسه، وبعض أولاده ما فعل معهم ذلك الخير، فيقول له قائل بحضور من لم يفعل معه ذلك من أولاده: لِمَ لَمْ تفعل مثل ذلك مع هذا الولد الآخر؟ فهذا من فضول الكلام حيث قاله بحضور ولده، ويثمر في نفس الولد عداوة لأبيه، ولا يقع مثل هذا إلاّ من جاهل كثير الفضول فإنها كلمة شيطانية وليس لها دواء بعد وقوعها. وأما قبل وقوعها فداؤها أن ينظر في قول النبي ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ**» ومن أمراض الأقوال أيضاً أن يقول

الإنسان: أنا أقول الحق ولا أبالي عزّ على السامع ذلك أو لم يعزّ عليه من غير أن ينظر إلى فضول القول ومواطنه، ثم يقول: قلت لفلان الحق وعزّ عليه سماعه ويزكي نفسه ويجرح غيره وينسى قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٤] وهو دواء هذه العلة الدواء ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ ولها مواطن وصفة مخصوصة وهو أن يأمره في السرّ لا في الجهر، فإن الجهر علة لا يشعر بها لأنه قد يعطيها لغير الله، ثم قال: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٤] وقول المعروف هو القول في موطنه الذي عينه الله ويرجو حصول الفائدة به في حق السامع فهذا معنى ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ فمن لم يفعل فهو جاهل وإن ادّعى العلم، ثم قال: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٤] فيعلم أن مراد الله التوادد والتحابب فيسعى في ذلك، وإن لم يجعل الكلام في موضعه أدّى إلى التقاطع والتنافر والتدابر، ثم بعد هذا كله قال في حق المتكلم: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٤] ولا يكون ذلك إلاّ ممّن يعلم ما يرضي الله ولا يعلم ما يرضي الله إلاّ بالعلم بما شرع الله في كتابه وعلى لسان رسوله، فيرى عندما يريد أن ينطق بالأمر هل نطقه به في ذلك الموطن يرضي الله من جميع الوجوه، فإن وجد وجهاً يقدح فيه فالكل غير مقبول وغير مرضي عند الله فإنه لا يحتلم التجزي ولا الانقسام وهذا موضع غلط، ودواءه ما قلنا من العمل المشروع والعلم بما يرضي الله.

ومن أمراض الأقوال أيضاً تغيير المنكر على شخص معين من سلطان وغيره دون أن يعمّ دواءه معرفة الميزان في ذلك وبراءته في نفسه من كل منكر يعلم أن الشرع ينكره عليه في مذهبه واجتهاده لا غير ولا يلزمه ما هو عند غيره منكر وعنده مباح، ثم الذي هو عنده منكر ينظر إلى من يغير عليه ذلك إن كان ممّن هو عنده معروف كالنبيذ عند الحنفيّ المتخذ من التمر إذا رآه يشربه أو يتوضأ به وهو عنده حرام فلا يغيره إلاّ على من يعتقد تحريمه خاصة أو يكون من المنكر المجمع عليه فهذا هو الميزان، وتفاريع الأقوال كثيرة، وحصر عللها وأدويتها في أمرين: الواحد أن تتكلم إذا اشتهيت أن تسكت وتسكت إذا اشتهيت أن تتكلم. والأمر الآخر: أن لا تتكلم إلاّ فيما إن سكت عنه كنت عاصياً وإن لم فلا، وإياك والكلام عندما تستحسن كلامك وتستحليه، فإن الكلام في ذلك الوقت من أكبر الأمراض وما له دواء إلاّ الصمت لا غير إلاّ أن تشهد على رفع الستر، هذا هو الضابط.

وصل: وأما أمراض الأفعال فهو أن يكون أداؤك لذلك الفعل الذي هو عبادة كالصلاة مثلاً في الملأ أحسن من أدائك في السرّ، يقول ﷺ في مثل هذه الفعلة: «**تِلْكَ اسْتِهَانَةٌ اسْتَهَانَ بِهَا رَبَّهُ فِي رَجُلٍ حَسَّنَ صَلاتَهُ فِي المَلإِ وَأَسَاءَهَا فِي الخُلْوَةِ**» وهذا من أصعب الأمراض النفسية ودواءه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [سورة العلق: الآية ١٤] ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣] ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٧] وأمثال هذه الآيات والأخبار، ولهذا دواء آخر ولكن يغمض تركيبه، وهو أن ينوي بتحسينه تعليم الجاهل وتذكرة الغافل. ومن الأمراض الفعلية أيضاً ترك العمل من أجل الناس وهو الرياء عند الجماعة، وأما العمل من أجل الناس

فذلك شرك ما هو رياء عند السادة من أهل الله ودواؤه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] وما أشبه هذه الآية، فاعلم ذلك.

وصل: وأما أمراض الأحوال فصحبة الصالحين حتى يشتهر في الناس أنه منهم وهو في نفسه مع شهوته، فإن حضروا سماعاً وهو قد تعشق بجارية أو غلام والجماعة لا تعلم بذلك فأصابه وجد وغلب عليه الحال لتعلّقه بذلك الشخص الذي في نفسه فيتحرّك ويصيح ويتنفس الصعداء ويقول: الله الله، أو هو هو، ويشير بإشارات أهل الله، والجماعة تعتقد في حاله أنه حال إلهيّ مع كونه ذا وجد صحيح وحال صحيحة ولكن فمن دوائه ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ١٠] وما أشبه هذه الآية من الأخبار. ومن أمراض الأحوال أيضاً أن يلبس دون ما في نفسه دواؤه أن يلبس ما في نفسه ممّا يحل له لباسه وأمثال هذا، فمن عرف هذه العلل وأدوائها واستعملها مع نفسه نفعها.

حُكي عن الشيخ روزبهار أنه كان قد ابتلي بحب امرأة مغنية وهام فيها وجداً وكان كثير الزعقات في حال وجده في الله بحيث إنه كان يشوش على الطائفين بالبيت في زمن مجاورته فكان يطوف على سطوح الحرم وكان صادق الحال، ولما ابتلي بحب هذه المغنية لم يشعر به أحد، وانتقل حكم ذلك الذي كان عنده بالله بها، وعلم أن الناس يتخيلون فيه أن ذلك الوجد لله على أصله فجاء إلى الصوفية وخلع الخرقة ورمى بها إليهم وذكر للناس قصته وقال: لا أريد أن أكذب في حالي، ولزم خدمة المغنية، فأخبرت المرأة بحاله ووجده بها وأنه من أكابر أهل الله فاستحت المرأة وتابت إلى الله ممّا كانت فيه ببركة صدقه ولزمت خدمته وأزال الله ذلك التعلّق بها من قلبه، فرجع إلى الصوفية ولبس خرقته ولم ير أن يكذب مع الله في حاله، فهكذا صدقهم، فهذا حصر الأمر، فإن الإنسان لا يخلو أن يقام في قول أو فعل أو حال وما ثمَّ رابع، وكذلك صاحب القيام في حال الوجد إذا قام بوجده ثم زال عنه جلس من حينه ولا يتواجد فإن تواجد ولم يقل للحاضرين أنه متواجد فهو صاحب مرض فهذا جماع هذه المسألة، وتفاريع الأقوال والأفعال والأحوال كثيرة فليحذر من الكذب في ذلك وليلزم الصدق ولا يظهر للناس إلاّ بما يظهر لله في الموطن الذي ينبغي، فإن العلم بحكم الله في تفاصيل هذه الأمور شرط في أهل الله ولا بدّ من ذلك، فما عبد الله من لم يعلم حكمه فإن الله ما اتخذ ولياً جاهلاً، فهذا قد ذكرنا جماع أبواب المعرفة وفصولها التي إذا حصلها الإنسان سمي عارفاً خاصة، فإن زاد على هذا العلم بالله وما يجب له وما يجوز عليه وما يستحيل ويفرق بين علمه بذاته وبين علمه بكونه إلهاً فهذا مقام العلماء بالله لا مقام العارفين، فإن المعرفة محجة وطريق والعلم حجة، والعلم نعت إلهيّ، والمعرفة نعت كيانيّ نفسي ربانيّ، وهذا الباب للمعرفة، غير أن أصحابنا من أهل الله قد أطلقوا على العلماء بالله اسم العارفين، وعلى العلم بالله من طريق الذوق معرفة، وحدّوا هذا المقام بنتايجه ولوازمه التي تظهر عن هذه الصفة في أهلها.

سئل الجنيد عن المعرفة والعارف فقال: لون الماء لون إنائه، أي هو متخلق بأخلاق الله حتى كأنه هو وما هو هو وهو هو، فالعارف عند الجماعة من أشعر الهيبة نفسه والسكينة وعدم

العلاقة الصارفة عنه، وأن يجعل أوّل المعرفة لله وآخرها ما لا يتناهى، ولا يدخل قلبه حق ولا باطل، وأن توجب له الغيبة عن نفسه لاستيلاء ذكر الحق، فلا يشهد غير الله ولا يرجع إلى غيره فهو يعيش بربه لا بقلبه، وأن تكون المعرفة إذا دخلت قلبه تفسد أحواله التي كان عليها بأن تقلبها إليه تعالىٰ لا بأن تعدمها، فإنها عندهم كما قال الله تعالىٰ عن قول بلقيس: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٣٤] وعندنا ليس كذلك، بل يجعلوا أعزّة أهلها بالله بعدما كانت بغير الله، وذلتها لله لا لغير الله، فلا حال عندهم للعارف لمحو رسومه وفناء هويته وغيبة أثره، وأنه لا تصحّ المعرفة وفي العبد استغناء بالله، وأن العارف أخرس منقطع مقتطع منقمع عاجز عن الثناء على معروفه، وأنه خائف متبرم بالبقاء في هذا الهيكل وإن كان منوّراً لما عرّفه الشارع أن في الموت لقا الله فتنغصت عليه الحياة الدنيا شوقاً إلى ذلك اللقاء، فهو صافي العيش كدر طيب الحياة في نفس الأمر لا في نفسه، قد ذهب عنه كل مخلوق وهابه كل ناظر إذا رأى ذكر الله، وأنه ذو أنس بالله، وأن يكون مع الله بلا فصل ولا وصل، حيي في قلبه، تعظيم قلبه مرآة للحق، حليم محتمل فارغ من الدنيا والآخرة ذو دهش وحيرة، يأخذ أعماله عن الله ويرجع فيها إلى الله، بطنه جائع وبدنه عار، لا يأسف على شيء إذ لا يرى غير الله، طيار تبكي عينه ويضحك قلبه، فهو كالأرض يطأها البر والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء وكالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب، لا تمييز عنده، لا يقضي وطره من شيء، بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه، يضيع ماله ويقف مع ما للحق لا يشتغل عنه طرفة عين، عرف ربه بربه مهدي في أحواله، لا يلحظه الأغيار، ولا يتكلم بغير كلام الله، مستوحش من الخلق ذو فقر وذلة يورث غنى وعزّة، معرفته طلوع حق على الأسرار ومواصلة الأنوار، حاله فوق ما يقول استوت عنده الحالات في الفتح فيفتح له على فراشه كما يفتح له في صلاته وإن اختلفت الواردات بحسب المواطن، دائم الذكر ذو لوامع يسقط التمييز لا يكدّره شيء، ويصفو به كل شيء تضيء له أنواع العلم فيبصر بها عجائب الغيب، مستهلك في بحار التحقيق، صاحب أمواج تغط فترفع وتحط صاحب وقت واستيفاء حقوق المراسم الإلهية على التمام، نعته في تحوّله من صفة إلى صفة دائم لا يتعمّل ولا يجتلب أحيد الوقت يسع الأشياء ولا تسعه، يرجو ولا يرجى، رحيم مؤنس مشاهد جلال الحق وجمال الحضرة أمّعة مع كل وارد، يصادف الأمور من غير قصد له وجود في عين فقد، ذو قهر في لطف ولطف في قهر، حق بلا خلق مشاهد قيام الله على كل شيء، فإن عنه به باق معه به غائب عن التكوين حاضر مع المكوّن، صاح بغيره سكران بحبه جامع للتجلي، لا يفوته ما مضى بما هو فيه، ثابت المواصلة محكم للعبادة في العادة مع إزالة العلل، طائع بذاته قابل أمر ربه منزّه عن الشبيه، تجري عليه منه أحكام الشرع في عين الحقيقة ذو روح وريحان، قلبه طريق مطرقة لكل سالك صاحب دليل وكشف وشهود يكرم الوارد ويتأدّب مع الشاهد، بريء من العلل صاحب إلقاء وتلق، مضنون به مستور بولهه، محبوس في الموقف ذاهب تحت القهر، رجوعه سلوك وحجابه شهود، سرّه لا يعلم به زره، كلما

ظهر له وجه علم أنه بطن عنه، وجه منفرد بلا انفراد، متواتر الأحوال بحكم الأسماء، أمين بالفهم قابل للزيادة موحّد بالكثرة صاحب حديث قديم، يعلم ما وراء الحجب من غير رفع حجاب، ذو نور طامس، شعاعاته محرقة وفجآت وارداته مقلقة يرد عليه ما لا يعرف، متمكن في تلوينه لكون خالقه كل يوم في شأن، مجرد بكله عن السوى، واقف بالحق في موطنه، مريد لكل ما يراد منه ذو عناية إلهية تجذبه، سالك في سكون مقيم في سفره صاحب نظرة ونظر يجد ما لا تسعه العبارة من دقائق الفهم عن الله من غير سبب، مهذب الأخلاق غير قائل بالاتحاد، ذاهب في كل مذهب بغير ذهاب، مقدس الروح عن رعونات النفوس، معلوم المراتب في البساط مؤمن بالناطق في سرّه مصغ إليه راغب فيما يرد به مشفق ممّا في باطنه مظهر خلاف ما يخفي لمصلحة وقته ولهه لا يحكم عليه غريب في الملأ الأعلى والأسفل، ذو همة فعالة مقيدة غير مطلقة، غيور على الأسرار أن تذاع، لا يسترقه شيء يطالع بالكوائن على طريق المشورة باستجلاء في ذلك يجده يمنعه ذلك من الانزعاج لأنه لا يقتضيه مقام الكون له جماع الخير يتحكم بالمشيئة لا بالاسم، قد استوت طرفاه فأزله مثل أبده تدور عليه المقامات ولا يدور عليها، له يدان يقبض بهما ويبسط في عالم الغيب والشهادة عن أمر الحق ولاية وخلافة، حمال أعباء المملكة يستخرج به غيابات الأمور ينشيء خواطره أشخاصاً على صورته محفوظ الأربعة فريد من النظراء له في الملكوت وقائع مشهودة ونعوت العارف أكثر من أن تحصى.

فهذه بعض إشارات الطائفة في حقيقة العارف والمعرفة، جئنا بها لنعلم مقاصدهم في ذلك حتى لا يقول أحد عنا أنا قد انفردنا بطريق لم يسلكوا عليها بل الطريق واحدة وإن كان لكل شخص طريق تخصه، فإن الطرق إلى الله تعالىٰ على عدد أنفاس الخلائق، يعني أن كل نفس طريق إلى الله وهو صحيح، فعلى قدر ما يفوتك من العلم بالأنفاس ومراعاتها يفوتك من العلم بالطرق، وبقدر ما يفوتك من العلم بالطرق يفوتك من غاياتها، وغاية كل طريق هو الله فإنه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣].

وأما صفة العارف عندنا من الموطن الإلهيّ الذي يشهده العارفون من الحق في وجودهم وهو شهود عزيز، وذلك أن يكون العارف إذا حصلت له المعرفة قائماً بالحق في جمعيته نافذ الهمة مؤثراً في الوجود على الإطلاق من غير تقييد، لكن على الميزان المعلوم عند أهل الله مجهول النعت والصفة عند الغير من جميع العالم من بشر وجن وملك وحيوان لا يعرف فيحد ولا يفارق العادة فيميز حامل الذكر مستور الحال عام الشفقة على عباد الله، يفرق في رحمته بين من أمر برحمته حتى يجعل له خصوص وصف عارف بإرادة الحق في عباده قبل وقوع المراد، فيريد بإرادة الحق لا ينازع ولا يقاوم ولا يقع في الوجود ما لا يريده وإن وقع ما لا يرضى وقوعه بل يكرهه شديد في لين، يعلم مكارم الأخلاق في سفسافها فينزلها منازلها مع أهلها تنزيل حكيم، بريء ممّن تبرأ الله منه محسّ إليه مع البراءة منه، مصدق بكل خبر في العالم كما يعلم عند الغير أنه كذب فهو عنده صدق مؤمن عباد الله من غوائله مشاهد

تسبيح المخلوقات على تنوّعات أذكارها، لا تظهر إلاّ لعارف مثله، إذا تجلّى له الحق يقول: أنا هو لقوّة التشبّه في عموم الصفات الكونية والإلهية، إذا قال: بسم الله كان عن قوله ذلك كل ما قصده بهمته، لا يقول: ﴿كُن﴾ أدباً مع الله، يعطي المواطن حقها كبير بحق صغير لحق متوسط مع حق جامع لهذه الصفات في حال واحدة، خبير بالمقادير والأوزان لا يفرّط ولا يفرط، يتأثّر مع الأنات لتغير الأحوال فلا يفوته من العالم ولا ممّا هو عليه الحق في الوقت شيء ممّا يطلبه العالم في زمن الحال، يشاهد نشأ الصور من أنفاسه بصورة ما هو عليه في قلبه عند خروج النفس، فإذا ورد عليه النفس الغريب من خارج لتبريد القلب خلع على ذلك النفس خلعة الوقت فينصبغ ذلك النفس بذلك النور الذي يجد في القلب يستر مقامه بحاله وحاله بمقامه، فيجهله أصحاب الأحوال بمقامه، ويجهله أصحاب المقامات بحاله، له عنف على شهوته إذا لم يروجه الحق في طبيعتها يبذل لك لا له عطاءه غير معلول، لا يمن إذا أمتن، ويمتن بقبول المن، لا يؤاخذ الجاهل بجهله، فإن جهله له وجه في العلم لا يشعر المعطي من عنده حين ما يعطيه يعرّفه أن ذلك أمانة عنده أمر بإيصالها إليه لا يعرّفه أن ذلك من عند الله، يفتح مغاليق الأمور المشكلة بالنور المبين، يأكل من فوقه ومن تحت رجله، يضم القلوب إليه إذا شاء من حيث لا تشعر، ويرسلها إذا شاء من حيث لا تشعر، يملك أزمة الأمور وتملكه بما فيها من وجه الحق لا غير، ينظر إلى العلو في أسفل بنظره، وينظر إلى السفل فيعلو ويرتفع بنظره، ويحجر الواسع ويوسع المحجور، يسمع كل مسموع منه لا من حيثية ذلك المسموع، ويبصر كل مبصر منه لا من حيث ذلك المبصر، يقضي بين الخصمين بما يرضي الخصمين، فيحكم لكل واحد لا عليه مع تناقض الأمر، يميل إلى غير طريقه في طريقه لحكمة الوقت، يغلب ذكر النفس على ذكر الملأ من أجل المفاضلة غيرة أن يفاضل الحق، فإنه ذاكر بحق في حق، الأمور كلها عنده ذوقية لا خبرية، يعرف ربه من نفسه، كما علم الحق العالم من علمه بنفسه، لا يؤاخذ بالجريمة فإن الجريمة استحقاق والمجرم المستحق عظمته في ذلّته وصغاره، لا ينتقل عن ذلته في موطن عظمته دنيا وآخرة، هو في علمه بحسب علمه، إن اقتضى العمل عمل وإن اقتضى أن لا عمل لم يعمل، عنده خزائن الأمور بحكمه ومفاتيحها بيده، ينزل بقدر ما يشاء، ويخرج ما يشاء من غير اشتعار، غوّاص في دقائق الفهوم عند ورود العبارات، له نعوت الكمال، له مقام الخمسة في حفظ نفسه وغيره، ينظر في قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ فلا يتعداه، يدبر أمور الكون بينه وبين ربه كالمشير العالم الناصح في الخدمة القائم بالحرمة، لا أينية لسره، لا يبخل عند السؤال، ينظر في الآثار الإلهية الكائنة في الكون ليقابلها بما عنده لما سمع الله يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] يسمع نداء الحق من ألسنة الخلق، يسع الأشياء ولا تسعه سوى ربه فهو إبنه وعينه، مرتب للأوامر الإلهية الواردة في الكون، ثابت في وقت التزلزل لا تزلزله الحادثات، ليست في الحضرة الإلهية صفة لا يراها في نفسه، يظهر في أيّ صورة شاء بصفة الحياة مع الوقوف عند المحدود، يعرف حقّه من حق خالقه، يتصرف في

الأشياء بالاستحقاق ويصرف الحق فيها بالاستخلاف، له الاقتدار الإلهي من غير مغالبة، لا تنفذ فيه همم الرجال ولا يتوجه للحق عليه حق، يتولى الأمور بنفسه لا بربه لأنه لا يرى نفسه لغلبته ربه، عليه تعود عليه صفات التنزيه مع وجود التشبيه، يحصي أنفاسه بمشاهدة صورها فيعلم ما زاد وما نقص في كل يوم وليلة، ينظر في المبدء والمعاد فيرى إلتقاء طرفي الدائرة، يلقي الكلمة في المحل القابل فيبدل صورته وحاله في أي صورة كان، ما يطأ مكاناً إلاّ حيي ذلك المكان بوطأته لأنه وطئه بحياة روحية، إذا قام قام لقيامه ربه ويغضب لغضبه ويرضى لرضاه، فإن حالته في سلوكه كانت هكذا فعادت عليه ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٦٠] لا يخطر له خاطر في شيء إلاّ تكوّن، ولا يعرف ذلك الشيء أنه كونه، له على الأشياء شرف العما لا شرف الاستواء، فهو وحيد في الكون غير معروف العين، من لجأ إليه خسر، ولا تقتضى حاجته إلاّ به، فإنه ظاهر بصورة العجز وقدرته من وراء ذلك العجز، لا يمتنع عن قدرته ممكن، كما لا يمتنع عن قدرة خالقه محال ليصحّ الامتياز، فهذا وإن تأخّر بظاهره فهو متقدم بباطنه، ليجمع في شهوده بين الأوّل والآخر والباطن والظاهر، يحسن للمسيء والمحسن، يرجع إلى الله في كل أمر، ولا ينتقم لنفسه ولا لربه إلاّ بأمره الخاص، فإن لم يأمره عفى بحق لشهوده السابقة في الحال، القليل عنده كثير، والكثير عنده قليل، يجري مع المصالح فيكون الحق له ملكاً، يسبح أسماء الله بتنزيهها عن أن تنالها أيدي الغافلين غيرة على الجناب الإلهي من حيث كونها دلائل عليه دلالة الاسم على المسمّى، إن ولي منصباً يعطي العلو لم ير فيه متعالياً بالله فأحرى بنفسه، يعدل في الحكم ولا يتصف بالظلم، جامع علوم الشرع من عين الجمع، مستغن عن تعليم المخلوقين بتعليم الحق، يعطي ما تحصل به المنفعة ولا يعطي ما تكون به المضرة، إن عاقب فتطهير لا تبقى مع نور عدله ظلمة جور، ولا مع نور علمه ظلمة جهل، يبين عن الأمور بلسان إلهي فيكشف غامضها ويجليها في منصتها، يخترع من مشاهدة صورة موجده لا من نفسه، وليس هذا الكل عارف إلاّ لمن يعلم المصارف، فإنه مشهد ضنين له البقاء في التلوين، يرث ولا يورث بالنبوّة العامة، يتصرّف ويعمل ما ينبغي كما ينبغي لما ينبغي، يؤذى فيحلم عن مقدرة، وإذا آخذ فبطشه شديد لأنه خالص غير مشوب برحمة. قال أبو يزيد: بطشي أشد، فهذه صفة العارف عندي فتحقق فإن موطن هذا المأخذ عزيز والله ذو الفضل العظيم.

وصل: في تسمية هذا المقام بالمعرفة وصاحبه بالعارف.

اختلف أصحابنا في مقام المعرفة والعارف ومقام العلم والعالم، فطائفة قالت: مقام المعرفة ربانيّ، ومقام العلم إلهيّ، وبه أقول، وبه قال المحققون كسهل التستري وأبي يزيد وابن العريف وأبي مدين. وطائفة قالت: مقام المعرفة إلهيّ ومقام العلم دونه، وبه أيضاً أقول، فإنهم أرادوا بالعلم ما أردناه بالمعرفة، وأرادوا بالمعرفة ما أردناه بالعلم، فالخلاف فيه لفظي، وعمدتنا قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة المائدة: الآية ٨٣] فسماهم عارفين وما سماهم علماء. ثم ذكرهم

فقال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ﴾ لم يقولوا إلهنا ﴿ءَامَنَّا﴾ ولم يقولوا علمنا ولا شاهدنا فأقرّوا بالاتباع ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٨٣] وما قالوا نحن من الشاهدين. وقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ﴾ ولم يقولوا ونقطع ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ ولم يقولوا إلهنا ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ﴾[المائدة: ٨٤] ولم يقولوا مع عبادك ﴿ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٨٤] كما قالت الأنبياء. فقال الله لهؤلاء الطائفة التي صفتهم هذه: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ﴾ محل شهوات النفوس فأنزلناهم حيث أنزلهم الله. وقد استوفينا القول في الفرق بين المعرفة والعلم في كتاب مواقع النجوم، وبيّنا فيه أن القائل بمقام المعرفة إذا سألته عنه أجاب بما يجيب به المخالف في مقام العلم، فوقع الخلاف في التسمية لا في المعنى، ثم حدث لهم في هذا المقام خلاف آخر هل الموصوف به مالك جميع المقامات أم لا؟ والصحيح أنه ليس من شرطه التحكّم وإن ملك جميع المقامات بما يعطيه من الأحوال والتصرف في العالم، وإنما شرطه أن يعلم، فإذا أراد التحكم نزل إلى الحال لأن التحكم للأحوال إذا علم أن نزوله غير مؤثر في مقامه، ولهذا لا ينزلون إلى الحال إلاّ عن أمر إلهيّ، فإذا سمع من شيخ محقق في هذا الطريق أن صاحب هذا المقام مالك جميع المقامات فإنه يريد بالعلم لا بالحال، وقد يعطي الحال ولكن ما هو بشرط، فإن قال أحد إنه شرط فهو مدع لا معرفة له بطريق الله ولا بأحوال الأنبياء وأكابر الأولياء ويرد عليه هذا القول، فإن الكامل كلما علا في المقام نقص في الحال أعني في الدنيا، وأما في الآخرة فلا، كما أن المشاهدة تغني عن رؤية الأغيار كذلك المقام يذهب بالأحوال لأن الثبوت يقابل الزوال. انتهى الجزء الثاني عشر ومائة.

(الجزء الثالث عشر ومائة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

واعلموا أن الله تعالىٰ لما خلق القوّة المسمّاة عقلاً وجعلها في النفس الناطقة ليقابل بها الشهوة الطبيعية إذا حكمت على النفس أن تصرفها في غير المصرف الذي عين لها الشارع فعلم الله أنه قد أودع في قوّة العقل القبول لما يعطيه الحق ولما تعطيه القوّة المفكرة، وقد علم الله أنه جعل في القوّة المفكرة التصرف في الموجودات والتحكم فيها بما يضبطه الخيال من الذي أعطته القوىٰ الحسيّة، ومن الذي أعطته القوّة المصورة ممّا لم تدركه من حيث المجموع بالقوّة الحسية، فعلم أنه لا بدّ أن تحكم عليه القوّة المفكرة بالتفكّر في ذات موجده وهو الله تعالىٰ، فأشفق عليها من ذلك لما علمه من قصورها عن درك ما ترومه من ذلك فخاطبها قرآناً: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣٠] يقول: ما حذرناكم من النظر في ذات الله إلاّ رحمة بكم وشفقة عليكم لما نعلم ما تعطيه القوّة المفكرة للعقل من نفي ما نثبته على ألسنة رسلي من صفاتي فتردونها بأدلتكم فتحرمون الإيمان فتشقون شقاوة الأبد، ثم أمر رسول الله ﷺ أن ينهانا أن نفكر في ذات الله كما فعل بعض عباد الله فأخذوا يتكلمون في ذات الله من أهل النظر، واختلفت مقالاتهم في ذات الله وكل تكلم بما اقتضاه نظره، فنفى

واحد عين ما أثبته الآخر، فما اجتمعوا على أمر واحد في الله من حيث النظر في ذاته وعصوا الله ورسوله بما تكلموا به ممّا نهاهم الله عنه رحمة بهم فرغبوا عن رحمة الله ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٤] فقالوا: هو علة، وقال آخرون: ليس بعلة، قال آخرون ذات الحق: لا تصحّ أن تكون جوهراً ولا عرضاً ولا جسماً بل عين أنيتها عين ماهيتها وأنها لا تدخل تحت شيء من المقولات العشرة وأطنبوا في ذلك وكانوا كما جاء في المثل: اسمع جعجعة ولا أرى طحناً، ثم جاء الشرع بنقيض ما دلت عليه العقول فجاء بالمجيء والنزول والاستواء والفرح والضحك واليد والقدم، وما قد روينا في صحيح الأخبار ممّا هو من صفات المحدثات، ثم جاء بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] مع ثبوت هذه الصفات، فلو استحالت كما يدل عليه العقل ما أطلقها على نفسه، ولكان الخبر الصدق كذباً إذ ما بعث الله رسولاً ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤] ما أنزل إليهم ليفهموا، وقد بيّن ﷺ وبلغ وأشهد الله على أمته أنه بلغ، فجهلنا النسبة بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ خاصة، وفهمنا معقول هذه الألفاظ الواردة وأن المعقول منها واحد بالنظر إلى الوضع، فتختلف نسبتها باختلاف المنسوب إليه ما تختلف حقائقها لأن الحقائق لا تتبدّل، فمن وقف مع هذه الألفاظ ومعانيها وقال بعدم علم النسبة إلى الحق فهو عالم مؤمن، ومن نسبها على وجه من وجوه المصارف الخارجة عن التجسيم فلا مؤمن ولا عالم، فلو أنصف هذا الناظر في ذات الله ما نظر في ذات الله وآمن بما جاء من عند الله، إذ قد دلّه دليل على صدق المخبر وهو الرسول، فهذا منعني في هذا الباب من الكلام في ذات الله بما تعطيه أدلة العقول، وعدلنا إلى علم ذلك بما جاء من النقول مع نفي المماثلة في النسبة والعلم الصحيح بحقيقة الصفة الواردة الموصوف بها ذاتاً مجهولة وقد نصحتك، فاعلم واثبت على ما جاءتك به الشريعة تسلم فهو أعلم بنفسه وأصدق في قوله، وما عرفنا إلاّ بما هو عليه ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠ ـ ١٨٢].

الباب الثامن والسبعون ومائة
في معرفة مقام المحبة

[نظم: البسيط]

الحبُّ يُنْسَبُ للإنسان واللهِ ... بِنِسْبةٍ ليس يدري علمُنا ما هِي
الحبُّ ذوقٌ ولا تُدْرَى حقيقتُه ... أليس ذا عجب والله واللهِ
لوازمُ الحبِّ تكسوني هويَّتُها ... ثوبَ النقيضَيْن مثل الحاضر السَّاهي
بالحبِّ صحَّ وجوبُ الحقِّ حيث يُرَى ... فينا وفيه ولسنا عَيْنَ أشْباهِ
أستغفرُ الله ممّا قلتُ فيه وقد ... أقولُ من جهة الشُّكر لله

وممّا يتضمن هذا الباب أيضاً قولنا: [البسيط]

أحببتُ ذاتيَ حُبَّ الواحد الثاني والحبُّ منه طبيعيٌّ وروحاني
والحبُّ منه إلهيٌّ أتتك به ألفاظ نور هُدًى في نصّ قرآنِ
وقد سألت وما أدري سؤالكُمُ عن أي حب ولا عن أي ميزان
فكل حبٍّ له بدءٌ يحققُهُ علمي سوى حبِّ ربٍّ ما له ثاني
وكل حب له بدءٌ وليس له نهايةٌ غير حبِّ الطَّبْع واثنانِ
لا يُوصفان إذا حقَّقتَ شأنَهُما وما هما بنهاياتٍ ونُقصانِ
فغايةُ الحب في الإنسان وُصلَتُه روحاً بروح وجُثماناً بجُثمانِ
وغايةُ الوَصْل بالرحمن زَنْدَقةٌ فإن إحسانَه جُزءُ إحسانِ
إن لم أصوِّره لم تَعلمْ بمن كَلِفَتْ نفسي وتَصويرُه ردٌّ لبُرهانِ

وممّا يتضمنه هذا الباب أيضاً قولنا: [الرمل]

أنا محبوبُ الهَوَى لو تعلموا والهَوَى محبوبُنا لو تفهَمُوا
فإذا أنتُمْ فهمتُمْ غَرَضي فاحْمَدوا الله تعالىٰ واعلَمُوا
ما لِقَومي عن كلامي أَعْرضوا أَبِهِمْ عن دَرْك لفظي صَمَمُ
ما لقومي عن عَيَانٍ ما بَدَى من حبيبي في وجودي قد عَمُوا
لستُ أهْوَى أحداً من خَلْقِهِ لا ولا غير وجودي فافهَمُوا
مذ تألَّهتُ رجعتُ مظهراً وكذا كنتُ فبي فاعْتَصِمُوا
أنا حَبْلُ الله في كَوْنِكُمُ فالزموا البابَ عَبِيداً واخْدُمُوا
وإذا قلتُ هَوِيتُ زينباً أو نظاماً أو عَناناً فاحكُمُوا
أنَّه رمزٌ بديعٌ حَسَنٌ تحته ثوبٌ رفيعٌ مُعْلَمُ
وأنا الثَّوبُ على لابِسِهِ والذي يَلْبَسُه ما يعْلَمُ
ليس في الجُبَّةِ شيءٌ غير ما قاله الحلاَّجُ يوماً فانعَمُوا
وحَيَاةِ الحبِّ لو أشهده لاعترانيَ لشُهُودي بَكَمُ
ما يرى عينَ وجودِ الحقِّ من أَضَلَّهُ في كلِّ حالٍ عَدَمُ

وممّا يتضمنه هذا الباب قولنا: [البسيط]

إن الوجودَ لَحَرْفٌ أنتَ معناه وليس لي أملٌ في الكون إلاَّ هُو
الحرفُ معنًى ومعنَى الحرفِ ساكِنُه وما تشاهدُ عَيْنٌ غيرَ معناهُ
والقلبُ من حيثُ ما تُعْطيه فِطْرتُه يجولُ ما بين مَغْنَاه ومَغْنَاهُ
عزَّ الإلهُ فما يحويه من أحدٍ وبعد هذا فإنا قد وَسِعْنَاهُ
وما أنا قلتُ بل جاء الحديثُ به عن الإلهِ وهذا اللَّفْظُ فَحْوَاهُ
لما أراد الإلهُ الحقُّ يسكُنُه لذاك عدَّلَهُ خلقاً وسَوَّاهُ
فكان عَيْنُ وجودي عَيْنَ صورته وَحَيٌّ صحيحٌ ولا يدريه إلاَّ هُو
الله أكبرُ لا شيءٌ يُمَاثِلُهُ وليس شيءٌ سواه بل هو إيَّاهُ

فما تَرَى عينُ ذي عَيْنٍ سوى عدم فصَحَّ أن الوجودَ المُدْرَكَ الله
فلا يرى الله إلاَّ الله فاعتبروا قولي ليُعْلَمَ مَنْحَاه ومَغْزَاهُ

وممّا يتضمنه هذا الباب أيضاً قولنا في واقعة رأيت الحق فيها يخاطبني بمعنى ما في هذه الأبيات وسمّاني باسم ما سمعت به قط إلاَّ منه تعالىٰ في تلك الواقعة وهو نرديار فسألته تعالىٰ عن تفسير هذا اللفظ فقال: ممسوك الدار وهي هذه الأبيات، وقد تقدمت في هذا الكتاب بأطول ممّا هي هنا وما سقت منها هنا إلاَّ ما وقع: [الطويل]

مَسَكْتُكَ في داري لإظهار صورتي فسُبْحانَكُم مُجْلَى وسُبْحَانَ سُبْحَانَا
فما نظرتْ عيناك مثليَ كاملاً ولا نظرتْ عَيْنٌ كمثلك إنسانَا
فلم يَبْقَ في الإمكان أكملُ منكُمُ نَصَبتُ على هذا من الشَّرْع بُرْهَانَا
فأيُّ كمالٍ كان لم يَكُ غيركُمْ على كل وجهٍ كان ذلك ما كانَا
ظهَرْتُ إلى خلقي بصورة آدم وقرَّرْتُ هذا في الشرائع إيمانَا
فلو كان في الإمكان أكملُ منكُمُ لكان وجودُ النَّقص فيَّ إذا كانَا
لأنك مخصوصٌ بصورة حَضْرتي وأكْمَلُ مني ما يكونُ فقد بَانَا

وممّا ضمنته هذا الباب أيضاً قولنا: [البسيط]

الله أكبرُ أن يَحْظَى به أَحَدٌ وهو الحبيبُ العَليُّ السَّيِّدُ الصَّمَدُ
الشمسُ تدركنا والشمسُ ندركها نَعَمْ ومنها إلينا العَطْفُ والرَّفَدُ
وإننا لنراها وهي ظاهرةٌ مثل التَّجَلِّي ولم يظفَرْ به أَحَدُ
النورُ يمنعنا من أن نُكَيِّفَها فكيف من لا له كَيْفٌ فيَتَّحِدُ
الكيفُ والكمُّ من نَعْتِ الجُسوم وما هناك جسمٌ ولا حالٌ ولا عَدَدُ

وممّا يتضمنه هذا الباب أيضاً قولنا: [البسيط]

بادِرْ لجَبْرِ الذي قد فات من عُمُرِكْ ولتتَّخذْ زادَكَ الرَّحمنَ في سَفَرِكْ
وقل له بالهوى يا مُنْتَهَى أملي ما أشْوَقَ السرَّ والمعنى إلى خَبَرِكْ
لقد علمتُ بأني حين أبصِرُ مَنْ كان الوجودُ به ما زلتُ من نَظَرِكْ
لولا الفناءُ ونَفْيُ المِثْل عنك وما قد جاء عنك من الإحراق من بَصَرِكْ
ما كان لي أملٌ في غير مَشْهَدِكُمْ ولا قرأتُ كتاباً ليس في سِيَرِكْ
إني سألتُكَ يا من لا شَبيهَ له أمراً أراد به المَخْتُومَ من قَدَرِكْ
فقال لي من قضائي أن تَرَى قَدَري يردُّه قَدَري والكلُّ من أثَرِكْ
قد جاءكُمْ عن نبيٍّ في إزالة ما قَضَيْتُه وبما يزيد في عُمُرِكْ
لكم كلامٌ نفيسٌ كلُّه دُرَرٌ وذا من الدرِّ فلْنُلْحِقْه في دُرَرِكْ

وممّا يتضمنه هذا الباب في حب الحب قولنا: [الطويل]

ولما رأيتُ الحبَّ يَعْظُمُ قَدْرُهُ وما لي به حتى المَمَات يَدَانِ

تعشَّقْتُ حُبَّ الحبِّ دهري ولم أقلْ كفاني الذي قد نلْتُ منه كَفَاني
فأبْدَى ليَ المَحْبُوبُ شَمْسَ اتِّصالِهِ أَضَاءَ بها كَوْني وعَيْنَ جِنَاني
وذاب فؤادي خِيفَةً من جلالِهِ فوقَّعَ لي في الحين خَطَّ أَمَانِ
ونزَّهَني في رَوْضِ أُنْسِ جَمَالِه فغِبْتُ عن الأرواح والثَّقَلانِ
وأحْضَرَني والسرُّ مني غائبٌ وغيَّبني والأمرُ منِّيَ داني
فإن قلتُ أنا واحدٌ فوجوده وإن أثبتوا عيني فمُزْدَوجانِ
ولكنَّه مَزْجٌ رقيقٌ منزَّهٌ يُرَى واحداً والعلمُ يَشْهَد ثاني
فقلتُ له وهو القَؤُولُ وأنه عبارته المُثْلَى جَرَتْ بلسانِ
أيا من بَدَى في نفسه لنَفيسه ولا عَدَدٌ فالعينُ منِّيَ فاني
فنفْسَك شاهدْت النَّفيسةَ مُنْعِماً بنفسك وانظر في المِراةِ تَراني
فيا غائباً من كان هذا مَقَامُه يُرَى في جنان النَّاعِمات بجانِ
فلا والذي طارتْ إلى حُسْنِ ذاته قلوبٌ فأفناها عن الطيَرانِ

اعلم وفّقك الله أن الحب مقام إلهيّ فإنه وصف به نفسه وتسمّى بالودود، وفي الخبر بالمحب، وممّا أوحى الله به إلى موسىٰ في التوراة: يا ابن آدم إني وحقي لك محب فبحقي عليك كن لي محباً، وقد وردت المحبة في القرآن والسنّة في حق الله وفي حق المخلوقين، وذكر أصناف المحبوبين بصفاتهم، وذكر الصفات التي لا يحبها الله، وذكر الأصناف الذين لا يحبهم الله فقال تعالىٰ لنبيه ﷺ آمراً أن يقول لنا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] وقال في ذكر الأصناف الذين يحبهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] ﴿يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٨] ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] ﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٦] ويحب الشاكرين ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٤] ﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [سورة الصف: الآية ٤] كما نفى عن نفسه أن يحب قوماً لأجل صفات قامت بهم لا يحبها، ففحوى الخطاب أنه سبحانه يحب زوالها ولا تزول إلاّ بضدها ولا بدّ فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٤] ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٥] وضده الصلاح فعين ترك الفساد صلاح وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [سورة القصص: الآية ٧٦] ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٨] ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٠] ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤١] ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة الروم: الآية ٤٥] ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٨] ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٨٧].

ثم إنه سبحانه حبّب إلينا أشياء منها بالتزيين ومنها مطلقة فقال ممتناً علينا ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [سورة الحجرات: الآية ٧] وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [سورة آل عمران:

الآية ١٤] الآية، وقال في حق الزوجين: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [سورة الروم: الآية ٢١] ونهانا أن نلقي بالمودّة إلى أعداء الله فقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [سورة الممتحنة: الآية ١] والمحبة الواردة في القرآن كثيرة.

وأما الأخبار فقوله ﷺ عن الله أنه قال: «**كُنْتُ كَنْزاً لَم أُعرَف فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعرَف فَخَلَقْتُ الخَلْقَ وَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِمْ فَعَرَفُونِي**» فما خلقنا إلا له لا لنا، لذلك قرن الجزاء بالأعمال فعملنا لنا لا له، وعبادتنا له لا لنا، وليست العبادة نفس العمل، فالأعمال الظاهرة في المخلوقين خلق له فهو العامل، ويضاف إليه حسنها أدباً مع الله مع كونها كل من عند الله لأنه قال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٧ ـ ٨] ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] وقال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٢] فدخلت أعمال العباد في ذلك.

وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَقولُ: مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ بِأَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِمْ وَلاَ يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَوافِلِ حَتَىٰ أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ**» الحديث. ومن هذا التجلّي قال من قال بالاتحاد، وبقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] وبقوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] وفي الخبر: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ كُلَّ مفتن تَواب**» وفي الخبر: «**وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ**» وفي الخبر: «**أَحبّوا اللَّه لِمَا أَسْدَىٰ إِلَيْكُمْ مِنْ نِعَمِهِ**» وفي الخبر: «**إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُمْدَحَ**» وقال عليه السلام: «**حبّب إليّ من دنياكم ثلاث**» الحديث، والأخبار في هذا الباب كثيرة جداً، واعلم أن مقامها شريف وأنها أصل الوجود: [مجزوء الرمل]

وَعَنِ الحبِّ صَدَرْنَا ... وعلى الحبِّ جُبِلْنَا
فلذا جئناهُ قَصْداً ... ولهذا قد قُبِلْنَا

ولهذا المقام أربعة ألقاب: منها الحب وهو خلوصه إلى القلب وصفاؤه عن كدورات العوارض فلا غرض له ولا إرادة مع محبوبه.

واللقب الثاني: الودّ وله اسم إلهيّ وهو الودود، والودّ من نعوته وهو الثابت فيه، وبه سمّي الودّ ودّاً لثبوته في الأرض.

واللقب الثالث: العشق وهو إفراط المحبة، وكنى عنه في القرآن بشدة الحب في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٥] وهو قوله: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [سورة يوسف: الآية ٣٠] أي صار حبها يوسف على قلبها كالشغاف وهي الجلدة الرقيقة التي تحتوي على القلب فهي ظرف له محيطة، وقد وصف الحق نفسه في الخبر بشدة الحب غير أنه لا يطلق على الحق اسم العشق، والعاشق والعشق التفاف الحب على المحب حتى خالط جميع أجزائه، واشتمل عليه اشتمال الصماء مشتق من العشقة.

واللقب الرابع: الهوى وهو استفراغ الإرادة في المحبوب والتعلّق به في أوّل ما يحصل في القلب وليس لله منه اسم، ولحصوله سبب نظرة أو خبر أو إحسان وأسبابه كثيرة، ومعناه في الخبر الإلهي الصحيح حب الله عبده إذا أكثر نوافل الخيرات، وكذلك اتباع الرسول فيما

شرع، وهذا منزلته فينا مسمّى الهوى، قال بعضهم في الحب المولد عن الخبر: [البسيط]

يا قَوْمُ أذني لبعض الحَيِّ عاشقةٌ ... والأذنُ تعْشَقُ قبل العَيْن أحْيَانَا

ولنا في الحب المولد عن النظر والخبر في الغزليات: [البسيط]

حُبِّي لغيرك مَوْقُوفٌ على النَّظَرِ ... إلاّ هواك فمَبْنَاه على الخَبَرِ
الله يعلم أني ما عَلِمْتُ لها ... على الذي قيل لي أُخْتاً من البَشَرِ
فَبُغْيَتي من عُزْلتي أن أفوزَ بها ... وأن تَجُودَ علي عينيَّ بالنَّظَرِ

ولنا أيضاً في هذا المعنى: [مجزوء الرجز]

حقيقتي هِمْتُ بها ... وما رآها بَصَري
ولو رآها لَغَدَا ... قَتيلَ ذاك الحَوَرِ
فعندما أبصَرْتُها ... صِرْتُ بحُكْم النَّظَرِ
فَبِتُّ مَسْحوراً بها ... أهيمُ حتَّى السَّحَرِ
يا حَذَري من حَذَري ... لو كان يُغْني حَذَري
حُكْمُ القَضَاء والقَدَرْ ... وإنَّما هَيَّمني
واللَّهِ ما هَيَّمني ... جمالُ ذاك الخَفَرِ
يا حُسْنَها من ظَبْيَةٍ ... تَرْعَى بذات الخَمَرِ
إذا رَنَتْ أو عَطَفَتْ ... تَسْبي عقولَ البَشَرِ
تَفْتَرُّ عن ظُلَم وعن ... حَبِّ غَمَام نَثِرِ
كأنما أنْفَاسُها ... أعرافُ مِسْكٍ عَطِرِ
كأنها شَمْسُ ضُحَى ... في النُّور أو كالقَمَرِ
إن سَفَرَتْ أبرزَهَا ... نورُ صباحٍ مُسْفِرِ
أو سَدَلَتْ غيَّبَها ... ظلامُ ذاك الشَّعَرِ
يا قمراً تحت دُجَى ... خذي فؤادي وَذَرِ
عيني لكَيْ أبصركم ... إذ كان حَظِّي نَظَري
فإنَّ مَبْنَى كَلَفي ... بحبِّها من خَبَري

ولنا أيضاً في هذا المعنى: [البسيط]

الأذنُ عاشقةٌ والعينُ عاشقةٌ ... شَتَّانَ ما بين عَشْقِ العينِ والخَبَرِ
فالأذنُ تعشق ما وَهْمي يُصَوِّره ... والعينُ تعشق مَحْسُوساً من الصُّوَرِ
فصاحبُ العين إن جاء الحبيبُ له ... يوماً ليُبْصرَه يَلْتَذُّ بالنَّظَرِ
وصاحبُ الأذن إن جاء الحبيبُ له ... في صورة الحِسِّ ما يَنْفَكُّ عن غِيَرِ
إلاّ هَوَى زَيْنَبٍ فإنه عَجَبٌ ... قَدِ اسْتَوَى فيه حَظُّ السَّمْعِ والبَصَرِ

وألطف ما في الحب ما وجدته وهو أن تجد عشقاً مفرطاً وهوى وشوقاً مقلقاً وغراماً ونحولاً، وامتناع نوم، ولذة بطعام ولا يدري فيمن ولا بمن ولا يتعين لك محبوبك وهذا

ألطف ما وجدته ذوقاً، ثم بعد ذلك بالاتفاق، أما يبدو لك تجلّ في كشف فيتعلق ذلك الحب به، أو ترى شخصاً فيتعلق ذلك الوجد الذي تجده به عند رؤيته فتعلم أن ذلك كان محبوبك وأنت لا تشعر، أو يذكر شخص فتجد الميل إليه بذلك الهوى الذي عندك فتعلم أنه صاحبك، وهذا من أخفى دقائق استشراف النفوس على الأشياء من خلف حجاب الغيب، فتجهل حالها ولا تدري بمن هامت ولا فيمن هامت ولا ما هيمها، ويجد الناس ذلك في القبض والبسط الذي لا يعرف له سبب، فعند ذلك يأتيه ما يحزنه فيعرف أن ذلك القبض كان لهذا الأمر، أو يأتيه ما يسرّه فيعرف أن ذلك البسط كان لهذا الأمر، وذلك لاستشراف النفس على الأمور من قبل تكوينها في تعلّق الحواس الظاهرة وهي مقدمات التكوين، ويشبه ذلك أخذ الميثاق على الذرية بأنه ربنا فلم يقدر أحد على إنكاره بعد ذلك، فتجد في فطرة كل إنسان افتقاراً لموجود يستند إليه وهو الله ولا يشعر به، ولهذا قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] يقول لهم ذلك الافتقار الذي تجدونه في أنفسكم متعلقه الله لا غيره ولكن لا تعرفونه، فعرفنا الحق به، ولما ذقنا هذا المقام قلنا فيه: [الطويل]

عَلِقْتُ بمن أهواه عشرين حِجَّةً ... ولم أَدْرِ من أَهوى ولم أَعْرِفِ الصَّبْرَا
ولا نَظَرَتْ عيني إلى حُسْنِ وَجْهِهَا ... ولا سَمِعَتْ أذنايَ قَطُّ لها ذِكْرَا
إلى أن تَرَاءى البَرْقُ من جانب الحِمَى ... فَنَعَّمَنِي يوماً وعذَّبني دَهْرَا

ولنا أيضاً في هذا المعنى ذوقاً فإنا لا نعبر إلاّ عمّا ذقناه: [الطويل]

عَلِقْتُ بمن أَهْوَاه من حَيْثُ لا أدري ... ولا أدري من هذا الذي قال لا أَدْري
فقد حِرْتُ في حالي وحَارَتْ خَواطري ... وقد حَارَتِ الحَيْرَاتُ فيَّ وفي أَمْري
فبَيْنا أنا من بعدِ عشرين حِجَّةً ... أُتَرجِمُ عن حبٍّ يعانقه سِرِّي
ولم أدر مَنْ أهوى ولا أعرفُ اسْمَهُ ... ولا أدر من هذا الذي ضَمَّه صَدْري
إلى أن بدا لي وَجْهُهَا من نِقَابها ... كمثل سَحَابِ اللَّيْلِ أَسْفَرَ عن بَدْرِ
فقلتُ لهم من هذه قِيلَ هذه ... كمثل عَيْنِ القلب بِنْتُ أخ الصَّدْرِ
فكَبَّرْتُ إجلالاً لها ولأصلها ... فَلَيْلي بها أَرْبَى على ليلَةِ القَدْرِ

ولنا في هذا المعنى ذوقاً في أوّل دخولي إلى الشام وجدت ميلاً مجهولاً مدّة طويلة في قصة طويلة إلهية متخيلة في صورة جسدية فقلنا نخاطبها في ذلك بالحال ولسانه: [الطويل]

أقولُ وعندي من هَوَاك الذي عِنْدي ... مَقَالَةُ من قال الحبيبُ له قُلْ لي
ولما دَخَلْتُ الشامَ خُولِطتُ في عقلي ... فلم أَرَ قبلي في الهوى عاشقاً مِثْلي
عَشِقْتُ وما أدري الذي قد عَشِقْتُه ... أخالقي المَحْبُوبُ أم هو من شَكْلي
ولا سمعَتْ أذناي قَطُّ بذكره ... فهل قال هذا عاشقٌ غيرنا قَبْلي
فجُبْتُ بلادَ الله شرقاً ومَغْرباً ... لعلي أَرَى شخصاً يُوافِقُني عَلّي
فلم أر إلاّ ذا حبيبٍ معين ... يُلازمه طبعاً مُلازَمَةَ الظِّلِّ
فقلتُ إلهي إن قلبي مُهَيَّمٌ ... ولم أَدْرِ فانظُرْ في مقامي وفي ذُلِّي

فنَادَى مُنَادي الحبِّ من بين أضلعي ... لقد غُصْتَ يا مِسْكينُ في أَبْحُرِ الجَهْلِ
ألا فاستَمِعْ قولي وخُذْ سرَّ حِكْمتي ... فإنِّيَ من أهلِ التَّعاليم والفَضْلِ
بسبعٍ وعشرٍ ثم خمسينَ بعدها ... إذا أنتَ حَصَّلْتَ اثنتين على وَصْلي
يقومُ لكُمْ شَكْلٌ بديعٌ مربَّعٌ ... تماماً على الوَصْلِ الذي فيه والفَصْلِ
كَمِثْلِ اسمِهِ الله بياناً مُحَقَّقاً ... فكان اسمُ مَحْبُوبي على صورة الأَصْلِ
فذاك اسمُ مَنْ تَهْواه إن كنتَ عالماً ... وهذا من العِلْمِ المُضَافِ إلى البُخْلِ
فإن كنتَ ذا فَهْمٍ فلا تَبْتَغي سوى ... مُثَلَّثَةِ التَّرْبيعِ جَامِعَةِ الشَّمْلِ
فَثُلَيْثُها بَيْتٌ وبَيَتٌ مُصَحَّفٌ ... لها حُسْنُ إدلالٍ يدلُّ على دَلِّي
فبيتُ إليّ العينِ ثم لمَاجِدٍ ... هما أهلُ بيتٍ للسَّمَاحَةِ والبَذْلِ*
وأوَّلُه حرْفٌ نزيهٌ مسَبَّعٌ ... من السِّتَّةِ الأعلام من أحرف الفَصْلِ

وهذا ألطف ما يكون من المحبة، ودونه حب الحب وهو الشغل بالحب عن متعلَقه. جاءت ليلى إلى قيس وهو يصيح: ليلى ليلى ويأخذ الجليد ويلقيه على فؤاده فتذيبه حرارة الفؤاد فسلمت عليه وهو في تلك الحال فقالت له: أنا مطلوبك، أنا بغيتك، أنا محبوبك، أنا قرّة عينك، أنا ليلى. فالتفت إليها وقال: إليك عني، فإن حبك شغلني عنك. هذا ألطف ما يكون، وأرق في المحبة، ولكن هو دون ما ذكرناه في اللطف.

وكان شيخنا أبو العباس العريبيّ رحمه الله يسأل الله أن يرزقه شهوة الحب لا الحب، واختلف الناس في حدّه فما رأيت أحداً حدّه بالحدّ الذاتي بل لا يتصوّر ذلك، فما حدّه من حدّه إلاَّ بنتائجه وآثاره ولوازمه، ولا سيما وقد اتصف به الجناب العزيز وهو الله. وأحسن ما سمعت فيه ما حدثنا به غير واحد عن أبي العباس ابن العريف الصنهاجيّ قالوا: سمعناه يقول وقد سئل عن المحبة فقال: الغيرة من صفات المحبة، والغيرة تأبى إلاَّ الستر فلا تحدّ.

واعلم أن الأمور المعلومات على قسمين: منها ما يحد، ومنها ما لا يحد، والمحبة عند العلماء بها المتكلمين فيها من الأمور التي لا تحد، فيعرفها من قامت به ومن كانت صفته ولا يعرف ما هي ولا ينكر وجودها. واعلم أن كل حب لا يحكم على صاحبه بحيث أن يصمه عن كل مسموع سوى ما يسمع من كلام محبوبه، ويعميه عن كل منظور سوى وجه محبوبه، ويخرسه عن كل كلام إلاَّ عن ذكر محبوبه وذكر من يحب محبوبه، ويختم على قلبه فلا يدخل فيه سوى حب محبوبه، ويرمي قفله على خزانة خياله فلا يتخيل سوى صورة محبوبه، إما عن رؤية تقدمته، وإما عن وصف ينشىء منه الخيال صورة فيكون كما قيل: [الطويل]

خَيَالُكَ في عيني وذكْرُكَ في فمي ... ومَثْوَاكَ في قلبي فأَيْنَ تَغِيبُ

فبه يسمع، وله يسمع، وبه يبصر، وله يبصر، وبه يتكلم، وله يتكلم، ولقد بلغ بي قوّة الخيال أن كان حبي يجسد لي محبوبي من خارج لعيني كما كان يتجسد جبريل لرسول الله ﷺ فلا أقدر أنظر إليه، ويخاطبني وأصغي إليه وأفهم عنه، ولقد تركني أياماً لا

* في الأصل:
فبيت إليَّ لعين عين وثم بيت لماجد... الخ. فتأمل.

أسيغ طعاماً، كلما قدّمت لي المائدة يقف على حرفها وينظر إليّ ويقول لي بلسان أسمعه بأذني: تأكل وأنت تشاهدني فأمتنع من الطعام ولا أجد جوعاً وامتلىء منه حتى سمنت وعبأت من نظري إليه فقام لي مقام الغذاء، وكان أصحابي وأهل بيتي يتعجبون من سمني مع عدم الغذاء لأني كنت أبقى الأيام الكثيرة لا أذوق ذواقاً، ولا أجد جوعاً ولا عطشاً، لكنه كان لا يبرح نصب عيني في قيامي وقعودي وحركتي وسكوني.

واعلم أنه لا يستغرق الحب المحب كله إلاّ إذا كان محبوبه الحق تعالىٰ أو أحداً من جنسه من جارية أو غلام، وأما ما عدى من ذكرته فإنه لا يستغرقه حبّه إياه، وإنما قلنا ذلك لأن الإنسان لا يقابل بذاته كلها إلاّ من هو على صورته إذا أحبّه، فما فيه جزء إلاّ وفيه ما يماثله، فلا تبقي فيه فضلة يصحو بها جملة واحدة فيهيم ظاهره في ظاهره وباطنه في باطنه، ألا ترى الحق قد تسمّى بالظاهر والباطن؟ فتستغرق الإنسان المحبة في الحق وفي أشكاله وليس ذلك فيما سوى الجنس من العالم فإنه إذا أحبّ صورة من العالم إنما يستقبله بالجزء المناسب ويبقى ما بقي من ذاته صاحية في شغلها، وأما استغراق حبّه إذا أحبّ الله فلكونه على صورته كما ورد في الخبر، فيستقبل الحضرة الإلهية بذاته كلها، ولهذا تظهر فيه جميع الأسماء الإلهية، ويتخلق بها من ليست عنده صفة الحب ويكونها من عنده صفة الحب، فلهذا يستغرق الإنسان الحب، وإذا تعلّق بالله وكان الله محبوبه فيفنى في حبّه في الحق أشدّ من فنائه في حب أشكاله، فإنه في حب أشكاله فاقد في غيبته ظاهر المحبوب، وإذا كان الحق هو المحبوب فهو دائم المشاهدة، ومشاهدة المحبوب كالغذاء للجسم به ينمي ويزيد، فكلما زاد مشاهدة زاد حباً، ولهذا الشوق يسكن باللقا والاشتياق يهيج باللقاء، وهو الذي يجده العشاق عند الاجتماع بالمحبوب، لا يشبع من مشاهدته ولا يأخذ نهمته منا لأنه كلما نظر إليه زاد وجداً به وشوقاً مع حضوره معه كما قيل: [الطويل]

ومن عَجَبٍ أني أحنُّ إليهمُ ... وأسأل شوقاً عنهُمُ وهُمُ مَعِي
وتبكيهمُ عيني وهم في سوادها ... وتَشْتَاقُهم نفسي وهم بين أَضْلُعِي

وكل حب يبقى في المحب عقلاً يعقل به عن غير محبوبه أو تعقّلاً فليس بحب خالص وإنما هو حديث نفس، قال بعضهم: ولا خير في حب يدبر بالعقل. وحكايات المحبين في هذا الباب أكثر من أن تحصى، ولنا في ازدياد المحبة مع المشاهدة والشوق: [الطويل]

أَغيبُ فيُفْني الشوقُ نفسي فألتقي ... فلا أَشْتَفِي فالشَّوْقُ غيباً ومَحْضَرَا
ويُحدث لي لُقْيَاهُ ما لم أظنَّه ... مكانَ الشِّفَا داءً من الوجْد آخَرَا
لأني أرى شخصاً يَزيدُ جَمَالُه ... إذا ما التقيناه نحوةً وتَكَبُّرَا
فلا بدَّ من وَجْدٍ يكون مقارناً ... لما زاد من حُسْنٍ نظاماً مُحرَّرَا

أشير إلى تجليه سبحانه في صور مختلفة في الآخرة لعباده وفي الدنيا لقلوب عباده، كما ورد في صحيح مسلم من تحوُّله سبحانه في الصور، كما ينبغي لذاته من غير تشبيه ولا تكييف، فوالله لولا الشريعة التي جاءت بالخبر الإلهيّ ما عرف الله أحد، ولو بقينا مع الأدلة

العقلية التي دلّت في زعم العقلاء على العلم بذاته بأنه ليس كذا وليس كذا ما أحبه مخلوق، فلما جاء الخبر الإلهيّ بألسنة الشرائع بأنه سبحانه كذا وأنه كذا من أمور تناقض ظواهرها الأدلة العقلية أحببناه لهذه الصفات الثبوتية، ثم بعد أن أوقع النسب وثبت السبب والنسب الموجبات للمحبة قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فثبت الأسباب الموجبة للحب التي نفاها العقل بدليله، وهذا معنى قوله: «**فخلقت الخلق فتعرفت إليهم فعرفوني**» فما يعرف الله إلاّ بما أخبر به عن نفسه من حبّه إيانا ورحمته بنا، ورأفته وشفقته وتحببه ونزوله في التحديد لنمثله تعالىٰ ونجعله نصب أعيننا في قلوبنا وفي قبلتنا وفي خيالنا حتى كأنا نراه لا بل نراه فينا لأنا عرفناه بتعريفه لا بنظرنا.

ومنا من يراه ويجهله، فكما أنه لا يفتقر إلى غيره كذلك والله لا يحب في الموجودات غيره، فهو الظاهر في كل محبوب لعين كل محب، وما في الموجود إلاّ محب، فالعالم كله محب ومحبوب، وكل ذلك راجع إليه، كما أنه لم يعبد سواه، فإنه ما عبد من عبد إلاّ بتخيل الألوهية فيه ولولاها ما عبد، يقول تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] وكذلك الحب ما أحب أحد غير خالقه، ولكن احتجب عنه تعالىٰ بحب زينب وسعاد وهند وليلى والدنيا والدرهم والجاه وكل محبوب في العالم، فأفنت الشعراء كلامها في الموجودات وهم لايعلمون، والعارفون لم يسمعوا شعراً ولا لغزاً ولا مديحاً ولا تغزلاً إلاّ فيه من خلف حجاب الصور، وسبب ذلك الغيرة الإلهية أن يحب سواه، فإن الحب سببه الجمال وهو له لأن الجمال محبوب لذاته، والله جميل يحب الجمال فيحب نفسه، وسببه الآخر الإحسان وما ثم إحسان إلاّ من الله، ولا محسن إلاّ الله، فإن أحببت للإحسان فما أحببت إلاّ الله فإنه المحسن، وإن أحببت للجمال فما أحببت إلاّ الله تعالىٰ فإنه الجميل، فعلى كل وجه ما متعلق المحبة إلاّ الله، ولما علم الحق نفسه فعلم العالم من نفسه فأخرجه على صورته فكان له مرآة يرى صورته فيه فما أحب سوى نفسه، فقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] على الحقيقة نفسه أحب إذ الاتباع سبب الحب، واتباعه صورته في مرآة العالم سبب الحب لأنه لا يرى سوى نفسه، وسبب الحب النوافل وهي الزيادات، وصورة العالم زيادة في الوجود فأحب العالم نافلة فكان سمعه وبصره حتى لا يحب سوى نفسه، وما أغمضها من مسألة، وما أسرع تفلتها من الوهم، فإنه اتفق في الوجود أمر غريب، وذلك أن ثم أموراً يتحقق بها العقل ويثبت عليها ولا يتزلزل وتتفلت من الوهم ولا يقدر يبقى على ضبطها مثل هذه المسألة يثبتها العقل ولا يقدر يزول عنها، وتتفلت من الوهم ولا يقدر على ضبطها، وثم أمور أخر بالعكس تتفلت من العقل وتثبت في الوهم ويحكم عليها ويؤثر فيها، كمن يعطيه العقل بدليله أن رزقه لا بدّ أن يأتيه سعى إليه أو لم يسع فيتفلت هذا العلم عن العقل ويحكم عليه الوهم بسلطانه أنك إن لم تسع في طلبه تمت فيغلب عليه فيقوم يتعمل في تحصيله، فحقه من جهة عقله زائل، وباطله من جهة وهمه ثابت لا يتزلزل، وكمن يرى حية أو أسداً على صورة لا يتمكن فيما يعطيه العقل أن يصل ضرره إليه فيغيب عن ذلك الدليل ويتوهم

ضرره فينفر منه ويتغير وجهه وباطنه بحكم الوهم وسلطانه وهذا موجود، فللوهم سلطان في مواطن، وللعقل سلطان في مواطن.

فلنذكر في هذا الباب إن شاء الله من لوازم الحب ومقاماته ما تيسّر فنقول: إن الحب تعلّق خاص من تعلّقات الإرادة، فلا تتعلق المحبة إلاً بمعدوم غير موجود في حين التعلّق يريد وجود ذلك المحبوب أو وقوعه، وإنما قلت أو وقوعه لأنها قد تتعلق بإعدام الموجود وإعدام الموجود في حال كون الموجود موجوداً ليس بواقع، فإذا عدم الموجود الذي تعلقت به المحبة فقد وقع، ولا يقال وجد الإعدام فإنه جهل من قائله، وقولنا يريد وجود ذلك المحبوب وأن المحبوب على الحقيقة إنما هو معدوم، فذلك أن المحبوب للمحب هو إرادة أوجبت الاتصال بهذا الشخص المعين كائناً من كان، إن كان ممّن شأنه أن يعانق فيحب عناقه، أو ينكح فيحب نكاحه، أو يجالس فيحب مجالسته، فما تعلق حبّه إلاً بمعدوم في الوقت هذا الشخص فيتخيل أن حبّه متعلق بالشخص وليس كذلك، وهذا هو الذي يهيجه للقائه ورؤيته، فلو كان يحب شخصه أو وجوده في عينه فهو في شخصيته أو في وجوده فلا فائدة لتعلق الحب به. فإن قلت: إنا كنا نحب مجالسة شخص أو تقبيله أو عناقه أو تأنيسه أو حديثه ثم نرى تحصل ذلك والحب لا يزول مع وجود العناق والوصال فإذاً متعلق الحب قد لا يكون معدوماً. قلنا: أنت غالط إذا عانقت الشخص الذي تعلقت المحبة بعناقه أو مجالسته أو موآنسته، فإن متعلق حبك في تلك حال ما هو بالحاصل وإنما هو بدوام الحاصل واستمراره، والدوام والاستمرار معدوم ما دخل في الوجود ولا تتناهى مدته، فإذا ما تعلق الحب في حال الوصلة إلاً بمعدوم وهو دوامها وما أحسن ما جاء في القرآن قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] بضمير الغائب والفعل المستقبل، فما أضاف متعلق الحب إلاً لغائب ومعدوم وكل غائب فهو معدوم إضافي.

فمن أوصاف المحبة أن يجمع المحب في حبه بين الضدين ليصحّ كونه على الصورة لما فيه من الاختيار، وهذا هو الفرق بين الحب الطبيعي والروحاني والإنسان يجمعهما وحده والبهائم تحب ولا تجمع بين الضدين بخلاف الإنسان، وإنما جمع الإنسان في حبّه بين الضدين لأنه على صورته وقد وصف نفسه بالضدين وهو قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] وصورة جمع الحب بين الضدين أن الحب من صفاته اللازمة له حب الاتصال بالمحبوب، ومن صفاته اللازمة حب ما يحبه المحبوب فيحب المحبوب الهجر، فإن أحب المحب الهجر فقد فعل ما لا تقتضيه المحبة فإن المحبة تطلب الاتصال، وإن أحب الاتصال فقد فعل ما لا تقتضيه المحبة، فإن المحب يحب ما يحب محبوبه ولم يفعل، فالمحب محجوج على كل حال، وغاية الجمع بينهما أن يحب حب المحبوب للهجر لا الهجر ويحب الاتصال، ولا تخرج هذه المسألة على أكثر من هذا كالراضي بالقضاء فيصحّ له اسم الرضا بالقضاء مع كونه لا يرضى بالمقضي إذا كان المقضي به كفراً، كذا ورد الشرع، وهكذا في مسألة الحب يحب المحب الاتصال بالمحبوب، ويحب حب المحبوب الهجر لا

يحب الهجر لأن الهجر ما هو عين حب المحبوب الهجر، كما أن القضاء ما هو عين المقضي، فإن القضاء حكم الله بالمقضي لا عين المقضي فيرضى بحكم الله، وحب الحيوان ليس كذلك لأنه حب طبيعي لا روحاني فيطلب الاتصال بمن يحب خاصة ولا يعلم أن محبوبه له حب في كذا لا علم له بذلك، فلهذا قسمنا الحب الذي هو صفة للإنسان إلى نوعين: فيه حب طبيعيّ وبه يشارك البهائم والحيوانات، وحب روحانيّ وبه ينفصل ويتميز عن حب الحيوان، وإذا تقرّر هذا وصل، فاعلم أن الحب منه إلهيّ وروحانيّ وطبيعيّ وما ثم حب غير هذا، فالحب الإلهيّ هو حب الله لنا وحبنا الله أيضاً قد يطلق عليه أنه إلهيّ، والحب الروحانيّ هو الذي يسعى به في مرضاة المحبوب لا يبقى له مع محبوبه غرض ولا إرادة بل هو بحكم ما يراد به خاصة، والحب الطبيعيّ هو الذي يطلب به جميع نيل أغراضه سواء سر ذلك المحبوب أو لم يسرّه، وعلى هذا أكثر حب الناس اليوم، فلنقدّم أوّلاً الكلام على الحب الإلهيّ في وصل، ثم يتلوه وصل في الحب الروحانيّ، ثم يتلوه وصل ثالث في الحب الطبيعيّ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الوصل الأوّل: في الحب الإلهيّ: وهو أن يحبنا لنا ولنفسه أما حبه إيانا لنفسه فهو قوله: «أحببت أن أعرف فخلقت الخلق فتعرّفت إليه فعرفوني» فما خلقنا إلاّ لنفسه حتى نعرفه. وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فما خلقنا إلاّ لنفسه. وأمّا حبّه إيانا لنا فلما عرفنا به من الأعمال التي تؤدّينا إلى سعادتنا ونجاتنا من الأمور التي لا توافق أغراضنا ولا تلائم طباعنا، خلق سبحانه الخلق ليسبحوه فنطقهم بالتسبيح له والثناء عليه والسجود له، ثم عرفنا بذلك فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] أي بالثناء عليه بما هو عليه وما يكون منه، وعرفنا أيضاً فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [سورة النور: الآية ٤١] فلزم ذلك وثابر عليه وخاطب بهذه الآية نبيه ﷺ الذي أشهده ذلك ورآه فقال له: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم يقل: ألم تروا فإنا ما رأينا فهو لنا إيمان وهو لمحمد ﷺ عيان، وكذا قال له أيضاً لما أشهده سجود كل شيء: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨] فما ترك أحداً فإنه ذكر من في السموات ومن في الأرض فذكر العالم العلويّ والسفليّ فأشهده سجود كل شيء، فكل من أشهده الله ذلك ورآه دخل تحت هذا الخطاب، وهذا تسبيح فطريّ ذاتيّ عن تجلّ تجلى لهم فأحبوه فانبعثوا إلى الثناء عليه من غير تكليف بل اقتضاء ذاتي، وهذه هي العبادة الذاتية التي أقامهم الله فيها بحكم الاستحقاق الذي يستحقه، وكذلك قال في أهل الكشف وهم عامّة الإنس وكل عاقل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٨] هذا حظ النعيم البصري، ثم أخبر أن ذلك التفيؤ يميناً وشمالاً أنه سجود لله وصغار وذلة لجلاله فقال: ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ فوصفهم بعقليتهم أنفسهم حتى سجدوا لله داخرين، ثم أخبر فقال متمماً: ﴿وَلِلَّهِ

يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ أي ممّن يدب عليها يقول يمشي وهم يعني أهل السموات ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني التي ليست في سماء ولا أرض، ثم قال: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٩] يعني عن عبادة ربهم. ثم وصفهم بالخوف ليعلمنا أنهم عالمون بمن سجدوا له.

ثم وصف المأمورين منهم أنهم يفعلون ما يؤمرون، وهم الذين قال فيهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦] ثم قال في الذين هم عند ربهم ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٨] أي لا يملون، كل ذلك يدل على أن العالم كله في مقام الشهود والعبادة إلاّ كل مخلوق له قوّة التفكّر وليس إلاّ النفوس الناطقة الإنسانية والجانية خاصة من حيث أعيان أنفسهم لا من حيث هياكلهم، فإن هياكلهم كسائر العالم في التسبيح له والسجود، فأعضاء البدن كلها بتسبيحه ناطقة، ألا تراها تشهد على النفوس المسخرة لها يوم القيامة من الجلود والأيدي والأرجل والألسنة والسمع والبصر وجميع القوى ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [سورة غافر: الآية ١٢] وهذا كله من حكم حبّه إيانا لنفسه، فمن وفى شكره، ومن لم يوف عاقبه، فنفسه أحب، وتعظيمه والثناء عليه أحب، وأما حبّه إيانا لنا فإنه عرّفنا بمصالحنا دنيا وآخرة، ونصب لنا الأدلة على معرفته حتى نعلمه ولا نجهله، ثم إنه رزقنا وأنعم علينا مع تفريطنا بعد علمنا به وإقامة الدليل عندنا، على أن كل نعمة نتقلب فيها إنما ذلك من خلقه وراجعة إليه، وإنه ما أوجدها إلاّ من أجلنا لننعم بها ونقيم بذلك وتركنا نرأس ونربع. ثم أنه بعد هذا الإحسان التامّ لم نشكره والعقل يقضي بشكر المنعم، وقد علمنا أنه لا محسن إلاّ الله، فمن إحسانه أن بعث إلينا رسولاً من عنده معلماً ومؤدّباً فعلمنا بمالنا في نفسه، فشرع لنا الطريق الموصل إلى سعادتنا وأبانه وحذرنا من الأمور المردية واجتناب سفساف الأخلاق ومذامها، ثم أقام الدلالة على صدقه عندنا فجاء بالبينات وقذف في قلوبنا نور الإيمان وحبّبه إلينا وزيّنه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان فآمنا وصدقنا ثم منّ علينا بالتوفيق فاستعملنا في محابه ومراضيه، فعلمنا أنه لولا ما أحبنا ما كان شيء من هذا كله، ثم أن رحمته سبقت غضبه وإن شقي من شقي، فلا بدّ من شمول الرحمة والعناية والمحبة الأصلية التي تؤثر في العواقب.

ولما سبقت المحبة وحقّت الكلمة وعمّت الرحمة وكانت الدار الدنيا دار امتزاج وحجاب بما قدّره العزيز العليم خلق الآخرة ونقلنا إليها وهي دار لا تقبل الدعاوى الكاذبة، فأقرّ الجميع بربوبيته هناك، كما أقرّوا بربوبيته في قبضة الذر من ظهر آدم، فكنا في الدار الدنيا وسطاً بين طرفين: طرفي توحيد وإقرار، وفي الوسط وقع الشرك مع ثبوت الوجود فضعف الوسط ولذلك قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] فنسبوا العظمة والكبرياء إلى الله تعالىٰ في شركهم. ثم أخبر تعالىٰ أنه طبع على قلب كل من ظهر في ظاهر لقومه بصفة الكبرياء والجبروت، وما جعل ذلك في قلوبهم بسبب طابع العناية فهم عند نفوسهم بما يجدونه من العلم الضروري أذلاء صاغرين لذلك الطابع، فما دخل الكبرياء على

الله قلب مخلوق أصلاً، وإن ظهرت منه صفات الكبرياء فثوب ظاهر لا بطانة له منه، وهذا كله من رحمته ومحبته في خلقه ليكون المآل إلى السعادة، فلما ضعف الوسط وتقوّى الطرفان غلب في آخر الأمر وامتلأت الداران وجعل في كل واحدة منهما نعيماً لأهلها يتنعمون به بعدما طهرهم الله بما نالوه من العذاب لينالوا النعيم على طهارة، ألا ترى المقتول قوداً كيف يطهره ذلك القتل من ظلم القتل الذي قتل من قتل به فالسيف محاء، وكذلك إقامة الحدود في الدنيا كلها تطهير للمؤمنين حتى قرصة البرغوت والشوكة يشاكها، وثم طائفة أخرى تقام عليهم حدود الآخرة في النار ليتطهروا ثم يرحمون في النار لما سبق من عناية المحبة وإن لم يخرجوا من النار، فحب الله عباده لا يتصف بالبدء ولا بالغاية فإنه لا يقبل الحوادث ولا العوارض، لكن عين محبته لعباده عين مبدأ كونهم متقدميهم ومتأخريهم إلى ما لا نهاية له، فنسبة حب الله لهم نسبة كينونته كانت معهم أينما كانوا في حال عدمهم وفي حال وجودهم، فكما هو معهم في حال وجودهم هو معهم في حال عدمهم لأنهم معلومون له مشاهد لهم محب فيهم لم يزل ولا يزال لم يتجدد عليه حكم لم يكن عليه بل لم يزل محباً خلقه كما لم يزل عالماً بهم، فقوله: «فأحببت أن أعرف» تعريفاً لنا ممّا كان الأمر عليه في نفسه كل ذلك كمالاً يليق بجلاله لا يعقل تعالىٰ إلاَّ فاعلاً خالقاً وكل عين فكانت معدومة لعينها معلومة له محبوباً له إيجادها ثم أخذت له الوجود بل أحدث فيها الوجود بل كساها حلة الوجود فكانت هي ثم الأخرى ثم الأخرى على التوالي والتتابع من أوّل موجود المستند إلى أولية الحق، وما ثم موجود آخر بل وجود مستمر في الأشخاص فالآخر في الأجناس والأنواع، وليس الأشخاص في المخلوقات إلاَّ في نوع خاص متناهية في الآخرة وإن كانت الدنيا متناهية، فالأكوان جديدة لا نهاية لتكوينها لأن الممكنات لا نهاية لها فأبدها دائم كما الأزل في حق الحق ثابت لازم، فلا أوّل لوجوده فلا أوّل لمحبته عباده سبحانه ذكر المحبة يحدث عند المحبوب عند التعريف الإلهيّ لا نفس المحبة، القرآن كلام الله لم يزل متكلماً ومع هذا قال معرّفاً: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] فحدث عندنا الذكر لا في نفسه من سيدنا ومالكنا ومصلحنا ومغذينا وما يأتينا ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٥] فحدث عندنا الذكر من الرحمن لا في نفسه، فالرحمة والنعمة والإحسان في البدء والعاقبة والمآل، ولم يجر لاسم من أسماء الشقاء ذكر في الإتيان إنما هو رب أو رحمن ليعلمكم ما في نفسه لكم.

تكملة في الحب الإلهيّ: وهي كوننا نحب الله فإن الله يقول: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] ونسبة الحب إلينا ما هو نسبة الحب إليه والحب المنسوب إلينا من حيث ما تعطيه حقيقتنا ينقسم قسمين: قسم يقال فيه حب روحاني والآخر حب طبيعيّ، وحبنا الله تعالىٰ بالحبين معاً وهي مسألة صعبة التصور، إذ ما كل نفس ترزق العلم بالأمور على ما هي عليه، ولا ترزق الإيمان بها على وفق ما جاء من الله في إخباره عنه، ولذلك امتن الله بمثل هذا على نبيه ﷺ فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] فنحن بحمد الله ممّن شاء

من عباده وما بقي لنا بعد التقسيم في حبنا إياه إلاّ أربعة أقسام وهي: إما أن نحبه له أو نحبه لأنفسنا أو نحبه للمجموع أو نحبه ولا لواحد ممّا ذكرناه، وهنا يحدث نظر آخر وهو لماذا نحبه، إذ وقد ثبت أنا نحبه فلا نحبه له ولا لأنفسنا ولا للمجموع، فما هو هذا الأمر الرابع؟ هذا فصل، وثم تقسيم آخر وهو وإن أحببناه فهل نحبه بنا أو نحبه به أو نحبه بالمجموع أو نحبه ولا بشيء ممّا ذكرناه؟ وكل هذا يقع الشرح فيه والكلام عليه إن شاء الله، وكذلك نذكر في هذه التكملة ما بدء حبنا إياه وهل لهذا الحب غاية فيه ينتهي إليها أم لا؟ فإن كانت له غاية فما تلك الغاية؟ وهذه مسألة ما سألني عنها أحد إلاّ امرأة لطيفة من أهل هذا الشأن، ثم نذكر أيضاً إن شاء الله هل الحب صفة نفسية في الحب أو معنى زائد على ذاته وجوديّ أو هو نسبة بين المحب والمحبوب لا وجود لها؟ كل ذلك تحتاج إليه هذه التكملة، فاعلم أن الحب لا يقبل الاشتراك، ولكن إذا كانت ذات المحب واحدة لا تنقسم، فإن كانت مركبة جاز أن يتعلق حبها بوجوه مختلفة ولكن لأمور مختلفة وإن كانت العين المنسوب إليها تلك الأمور المختلفة واحدة أو تكون تلك الأمور في كثيرين فيه فتتعلق المحبة بكثيرين فيحب الإنسان محبوبين كثيرين، وإذا صحّ أن يحبّ المحب أكثر من واحد جاز أن يحب الكثير كما قال أمير المؤمنين: [الكامل]

ملكُ الثَّلاث الآنساتِ عَنَاني وحَلَلْن من قلبي بكلِّ مَكَانِ

هنا سرّ خفي في قوله عناني فأفرد وما أعطى لهؤلاء المحبوبين من نفسه أعنة مختلفة، فدلّ أن هذا المحب وإن كان مركباً فما أحب إلاّ معنى واحداً قام له. في هؤلاء الثلاثة أي ذلك المعنى موجود في عين كل واحدة منهن، والدليل على ذلك قوله في تمام البيت: وحللن من قلبي بكل مكان، فلو أحب من كل واحدة معنى لم يكن في الأخرى لكان العنان الذي يعطي لواحدة غير العنان الذي يعطي الأخرى، ولكان المكان الذي تحلّه الواحدة غير المكان الذي تحلّه الأخرى، فهذا واحد أحب واحداً، وذلك الواحد المحبوب موجود في كثيرين فأحبّ الكثير لأجل ذلك، وهذا كحبّنا الله تعالىٰ له، ومنا من يحبه لنفسه ومنّا من يحبه للمجموع وهو أتم في المحبة لأنه أتم في المعرفة بالله والشهود، لأن منّا من عرفه في الشهود فأحبه للمجموع ومنّا من عرفه لا في الشهود ولكن في الخبر فأحبّه له، ومنا من عرفه في النعم فأحبّه لنفسه، ومنّا من أحبه للمجموع وذلك أن الشهود لا يكون إلاّ في صورة والصورة مركبة والمحب ذو صورة مركبة فيسمع من وجه فيحبه للخبر مثل قوله على لسان نبيّه: هل واليت لي ولياً أو عاديت فيّ عدوّاً؟ فإذا أحببت الأشياء من أجله وعاديت الأشياء من أجله فهذا معنى حبّنا له ليس غير ذلك، فقمنا بجميع ما يحبه منّا أن نقوم به عن طيب نفس، ويكون من لا يشاهده من صورتي في حكم التبع كما هي الجوارح منّا وحيوانيتنا بحكم النفس الناطقة لا تقدر على مخالفتها لأنها كالآلات لها تصرّفها كيف تريد في مرضاة الله وفي غير مرضاته.

وكل جزء من جوارح الإنسان إذا ترك بالنظر إلى نفسه لا يتمكن له أن يتصرّف إلاّ فيما يرضي الله فإنه له وجميع ما في الوجود بهذه المثابة إلاّ الثقلان وهو قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا

﴿يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] يريد بذلك التسبيح الثناء على الله لا للجزاء لأنه في عبادة ذاتية لا يتصوّر معها طلب مجازاة، فهذا من حبّه له سبحانه، إلاَّ بعض النفوس الناطقة لما جعل لها في معرفة الله القوّة المفكرة لم تفطر على العلم بالله ولهذا قبض عليها في قبض الذرية من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم شهادة قهر فسجدت لله كرهاً لا طوعاً من أجل القبض عليها، ثم أرسلها مسرّحة من تلك القبضة الخاصة وهي مقبوض عليها من حيث لا تشعر فتخيلت أنها مسرّحة، فلما وجدت مدبرة لهذا الهيكل المظلم جرت في الأمور بحسب ما يعطيها غرضها لا تحب من الأمور إلاَّ ما يلائم طبعها، وغفلت عن مشهد الإقرار بالربوبية عليها لموجدها، فبينا هي كذلك إذ قالت لها القوّة المفكرة: جميع القوىٰ قد استعملتها وغفلت عني وتركتني وأنا من بعض آلاتك وما لك بي عناية فاستعمليني فقالت لها: نعم لا تؤاخذيني فإني جهلت رتبتك وقد أذنت لك في التصرّف فيما تعطيه حقيقتك حتى أتحقق بما أنت عليه فأصرّفك فيه وأستعملك، فقالت: سمعاً، ثم ردّت وجهها القوّة الفكرية إليها كالمعلمة وقالت لها: لقد غفلت عن ذاتك وعن وجودك أنت لم تزالي هكذا موجودة لذاتك أو لم تكوني ثم كنت، قالت النفس: لم أكن ثم كنت، قال الفكر: فهذا الذي كوّنك عينك أو غيرك فكري وحققي واستعمليني فلهذا العمل أنا، ففكرت النفس فعلمت بما أعطاها الدليل أنها لم توجد لعينها وأنها موجودة لغيرها، فالفقر للموجد لها ذاتيّ بما تجده في نفسها ممّا يقوم بها من الآلام الطبيعية فتفتقر إلى الأسباب المعتادة لإزالة تلك الآلام، فبذلك الافتقار علمت أنها فقيرة في وجود لعينها للسبب الموجد لها، فلما ثبت لها حدوثها وثبت أن لها سبباً أوجدها ثم فكرت فعلمت أن ذلك السبب لا ينبغي أن يشبهها فيكون فقيراً مثلها وأنه لا يناسب هذه الأسباب المزيلة لآلامها لمشاهدتها حدوث هذه الأسباب بعد أن لم تكن وقبولها للاستحالات والفساد فثبت عندها أن لها موجداً أوجدها، وأوجد كل من يشبهها من الحوادث والأسباب المزيلة لآلامها فتنبهت أن ثم أمراً ما لولاه لبقيت ذات مرض وعلة، فمن رحمته بها أوجد لها هذه الأسباب المزيلة آلامها، وقد كانت تحب هذه الأسباب وتجري إليها بالطبع فانتقل تعلق ذلك الحب في السبب الموجد تلك الأسباب وقالت: هو أولى بي أن أحبه ولكن لا أعلم ما يرضيه حتى أعامله به، فحصل عندها حبّه فأحبته لما أنعم عليها من وجودها وجود ما يلائمها، وهنا وقفت وهي في ذلك كله غافلة ناسية إقرارها بربوبية موجدها في قبضة الذر، فبينا هي كذلك إذ جاءها داع من خارج من جنسها ادّعى أنه رسول من عند هذا الذي أوجدها فقالت له: أنت مثلي وأخاف أن لا تكون صادقاً فهل عندك من يصدقك؟ فإن لي قوّة مفكرة بها توصلت إلى معرفة موجدي، فقام لها بدليل يصدقه في دعواه ففكرت فيه إلى أن ثبت صدقه عندها فآمنت به، فعرّفها أن ذلك الموجد الذي أوجدها كان قد قبض عليها وأشهدها على نفسها بربوبيته وأنها شهدت له بذلك فقالت: ما عندي من ذلك خبر ولكن من الآن أقوم بواجب ذلك الإقرار فإنك صادق في خبرك ولكن ما أدري ما يرضيه من فعلي، فلو حددت حدوداً، ورسمت لي مراسم أقف عندها حتى تعلم أني ممّن وفى بشكره على ما أنعم به عليّ

فرسم لها ما شرع فقامت بذلك شكراً، وإن خالف غرضها ولم تفعل ذلك خوفاً ولا طمعاً لأنه لما رسم لها ما رسم ابتداء وعرفها أن وقوفها عند تلك المراسم يرضيه وما ذكر لها ما لها في ذلك من الثواب وما عليها إن خالفت من العقاب فبادرت هذه النفس الزكية لمراضيه في ذلك فقالت: لا إله إلاّ الله كما قيل لها، ثم بعد ذلك عرفها بما لها في ذلك من الثواب الجزيل والإنعام التام، وما لمن خالف شرعه من العقاب فانضاف إلى عبادتها إياه حباً ورضى خاصة عبادة أخرى تطلبها رغبة في الثواب ورهبة من العقاب، فجمعت في عبادتها بين أمرين: بين عبادة له وعبادة رغبة ورهبة، فأحبته له ولنفسها من حيث ما هي كثيرة بطبيعتها وروحانيتها، فتعلقت الرغبة والرهبة من حيث طبيعتها وتعلقت عبادتها إياه محبة له من روحانيتها، فإن أحبت شيئاً من الموجودات سواه فإنما تحبه من روحانيتها له ومن طبيعتها النيل غرضها.

فلما رآها الحق على ذلك وقد علم أن من حقيقتها الانقسام وقد جمعت بين الحبين وهو قد وصف نفسه بالغيرة فلم يرد المشاركة وأراد أن يستخلصها لنفسه فلا تحب سواه، فتجلّى لها في صورة طبيعية وأعطاها علامة لا تقدر على إنكارها في نفسها وهي المعبر عنها بالعلم الضروري، فعلمت أنه هو هذه الصورة فمالت إليه روحاً وطبعاً، فلما ملكها وعلم أن الأسباب لا بدّ أن تؤثر فيها من حيث طبيعتها أعطاها علامة تعرفه بها ثم تجلى لها بتلك العلامة في جميع الأسباب كلها فعرفته فأحبت الأسباب من أجله لا من أجلها فصارت بكلها له لا لطبيعتها ولا لسبب غيره، فنظرته في كل شيء فزهت وسرّت ورأت أنها قد فضلت غيرها من النفوس بهذه الحقيقة فتجلى لها في عين ذاتها الطبيعية والروحانية بتلك العلامة، فرأت أنها ما رأته إلاّ به لا بنفسها وما أحبته إلاّ به لا بنفسها، فهو الذي أحبّ نفسه ما هي أحبته، ونظرت إليه في كل موجود بتلك العين عينها فعلمت أنه ما أحبه غيره، فهو المحب والمحبوب والطالب والمطلوب، وتبين لها بهذا كله أن حبّها إياه له ولنفسها فما شاهدته في هذه المرتبة الأخرى من حبّها إياه إنما كان به لا بها ولا بالمجموع، وما ثم أمر زائد إلاّ العدم.

فأرادت أن تعرف ما قدر ذلك الحب وما غايته فوقفت على قوله: كنت كنزاً لم أعرف فأحببت أن أعرف وقد عرفته لما تجلى لها في صورة طبيعية فعلمت أنه يستحق من تلك الصورة التي ظهر لها فيها اسم الظاهر والباطن، فعلمت أن الحب الذي أحب به أن يعرف إنما هو في الباطن المنسوب إليه، وعلمت أن المحب من شأنه إذا قام بالصورة أن يتنفس لما في ذلك التنفس من لذة المطلوب، فخرج ذلك النفس عن أصل محبة في الخلق الذي يريد التعرف إليهم ليعرفوه، فكان العماء المسمّى بالحق المخلوق به، فكان ذلك العماء جوهر العالم، فقبل صور العالم وأرواحه وطبائعه كلها وهو قابل إلى ما لا يتناهى، فهذا بدء حبه إيانا.

وأما حبنا إياه فبدؤه السماع لا الرؤية وهو قوله لنا ونحن في جوهر العماء: ﴿كُن﴾ فالعماء من نفسه والصور المعبر عنها بالعالم من كلمة ﴿كُن﴾ فنحن كلماته التي لا تنفد، قال تعالىٰ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ وهي عيسىٰ ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧١] وهو

النفس، وتلك الحقيقة سارية في الحيوان، فإذا أراد الله إماتته أزال عنه النفس، فبالنفس كانت حياته، وسيأتي في باب النفس صور التكوينات عنه في العالم، فلما سمعنا كلامه ونحن ثابتون في جوهر العماء لم نتمكن أن نتوقف عن الوجود فكنا صوراً في جوهر العماء فأعطينا بظهورنا في العماء الوجود للعماء بعدما كان معقولي الوجود حصل له الوجود العيني، فهذا كان سبب بدء حبنا إياه، ولهذا نتحرك ونطيب عند سماع النغمات لأجل كلمة ﴿كُن﴾ الصادرة من الصورة الإلهية غيباً وشهادة، فشهادة صورة كلمة ﴿كُن﴾ إثنان: كاف ونون، وهكذا عالم الشهادة له وجهان: ظاهر وباطن، فظاهره النون وباطنه الكاف، ولهذا مخرج الكاف في الإنسان أدخل لعالم الغيب فإنه من آخر حروف الحلق بين الحلق واللسان والنون من حروف اللسان وغيب هذه الكلمة هو الواو بين الكاف والنون وهي من حروف الشفتين فلها الظهور وهي حرف علة لا حرف صحيح، ولهذا وجد عنه التكوين لأنه حرف علة، ولما كان من حروف الشفتين بامتداد النفس من خارج الشفتين إلى ظاهر الكون لهذا كان ظهور الحكم في الجسم للروح، فظهرت منه الأفعال والحركات من أجل روحه، وكان روحه غيباً لأن الواو لا وجود لها في الشهادة لأنها حذفت لسكونها وسكون النون فهي تعمل من خلف الحجاب فهي غائبة العين ظاهرة الحكم، فغاية حبنا إياه أن نعلم حقيقة ما حبنا؟ هل هو صفة نفسية للمحب أو معنوية فيه؟ أو نسبة بين المحب والمحبوب وهي العلاقة التي تجذب المحب لطلب الوصلة بالمحبوب؟ فقلنا: هي صفة نفسية للمحب. فإن قيل: نراها تزول. قلنا: من المحال زوالها إلاّ بزوال المحب من الوجود والمحب لا يزول من الوجود فالمحبة لا تزول، وإنما الذي يعقل زواله إنما هو تعلقه بمحبوب خاص يمكن أن يزول ذلك التعلّق الخاص، وتزول تلك العلاقة بذلك المحبوب المعين، وتتعلق بمحبوب آخر وهي متعلقة بمحبوبين كثيرين، فتنقطع العلاقة بين المحب ومحبوب خاص وهي موجودة في نفسها فإنها عين المحب فمن المحال زوالها، فالحب هو نفس المحب وعينه لا صفة معنى فيه يمكن أن ترتفع فيرتفع حكمها، فالعلاقة هي النسبة بين المحب والمحبوب، والحب هو عين المحب لاغيره، فصف بالحب من شئت من حادث وغيره فليس الحب سوى عين المحب، فما في الوجود إلاّ محب ومحبوب، لكن من شأن المحبوب أن يكون معدوماً ولا بدّ فيجب إيجاد ذلك المعدوم أو وقوعه في موجود ولا بدّ لا في معدوم، هذا أمر محقق لا بدّ منه، فالعلاقة التي في المحب إنما هي في ذلك الموجود الذي يقبل وجود ذلك المحبوب أو وقوعه لا وجوده إذا كان المحبوب لا يمكن أن يتصف بالوجود ولكن يتصف بالوقوع، مثال ذلك أن يحب إنسان إعدام أمر موجود لما في وجوده من الضرر في حقّه كالألم فإنه أمر وجودي في المتألم فيحب إعدامه فمحبوبه الإعدام وهو غير واقع، فإذا زال الألم فإزالته عدمه بعد وجوده بانتقاله إلى العدم، فلهذا قلنا في مثل هذا بالوقوع لا بالوجود، فالمحبوب معدوم أبداً ولا تصح محبة الموجود جملة واحدة إلاّ من حيث العلاقة إذ لا تتعلق إلاّ بموجود يظهر فيه وجود ذلك المحبوب المعدوم، وقد بيّناه قبل هذا في هذا الباب، فقد تبين لك في هذه التكلمة ماهية

الحب وبدؤه وغايته وبما أحب المحب وحبه لمحبوبه أو لنفسه، كل ذلك قد تبين، فلنعدل إلى الكلام في الوصل الثاني إن شاء الله تعالىٰ، فقد حصل في الحب الإلهيّ ما فيه غنية على قدر الوقت. انتهى الجزء الثالث عشر ومائة.

(الجزء الرابع عشر ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الوصل الثاني: في الحب الروحاني وهو الحب الجامع في المحب أن يحب محبوبه لمحبوبه ولنفسه، إذ كان الحب الطبيعيّ لا يحب المحبوب إلاَّ لأجل نفسه. فاعلم أن الحب الروحاني إذا كان المحب موصوفاً بالعقل والعلم كان بعقله حكيماً وبحكمته عليماً، فرتب الأمور ترتيب الحكمة ولم يتعد بها منازلها، فتعلم إذا أحب ما هو الحب وما معنى المحب وما حقيقة المحبوب وما يريد من المحبوب وهل لمحبوبه إرادة واختيار فيحب ما يحب المحبوب أم لا إرادة له فلا يحب إلاَّ لنفسه؟ أو الموجود الذي لا يريد وجود محبوبه إلاَّ في عين ذلك الموجود، فبهذا القدر نقول في الموجود أنه محبوب وإن لم يكن إلاَّ فيه لا عينه، فذلك الموجود إن كان ممّن يتصف بالإرادة فيمكن أن يحبه له لا لنفسه، وإن لم يتصف بالإرادة فلا يحب المحب محبوبه إلاَّ لنفسه أعني لنفس المحب لا لمحبوبه، فإن محبوبه غير موصوف بأن له محبة في شيء أو غرضاً، لكن الذي يوجد فيه هذا المحبوب قد يكون ذا إرادة فيتعين على المحب أن يحب محبوب ذلك الموجود فيحبه له، ولكن بحكم التبع هذا تعطيه المحبة فإن المحب يطلب بذاته الوصلة بعد طلبه وجود محبوبه فإن عين وجود محبوبه عين وصلته لا بدّ من ذلك وهو قولنا: [المتقارب]

زمــانُ الــوجــودِ زمــانُ الــوصــالْ　　　زمــانُ الــودادِ كُــلُــوا واشْــرَبُــوا

وهذا البيت من قصيدة لنا في مجلى حقيقة تجلت لنا في حضرة شهودية وهي: [المتقارب]

تــعــجَّبْــتُ مــن زيــنــبٍ فــي الــهــوى　　　ولــيــس لــنــا غَــيْــرَهــا مَــذْهَــبُ
فــلــمــا تَــجَــلَّــى لــنــا نــورُ مَــنْ　　　أنــار الــحَــشَــى فــانْــجَــلَــى الــغَــيْــهَــبُ
بــذلــتُ لــهــا نَــفْــسَــهــا ضِــنَّــةً　　　بــهــا والــهــوى أبــداً مُــتْــعِــبُ
فــلــم يَــكُ بــيــن حُــصــول الــهَــوَى　　　ونَــيْــلِ الــمُــنَــى أَمَــدٌ يُــضْــرَبُ

لأنه عندما يحصل الهوى يقع التنفس والتنهّد فيخرج النفس بشكل ما تصوّر في نفس المحب من صورة المحبوب فيظهره صورة من خارج يشاهدها فيحصل له مقصوده ونعيمه بها من غير زمان كما تقدم في ذكر وجود العماء فتممنا وقلنا بعد هذا في القصيدة عينها: [المتقارب]

تــعــجَّــبْــتُ مــن رحــمــة الله بــي　　　ومــن مــثــل ذا يَــنْــبَــغــي تَــعْــجَــبُــوا
زمــانُ الــوداد زمــانُ الــوجــودِ　　　زمــانُ الــوصــالِ كــلــوا واشْــربُــوا

فــأيــنَ الــغَــرامُ وأيــنَ الــسَّــقَــامُ وأيــنَ الــهُــيَــامُ ألا فــاعْــجَــبُــوا
مــطــهَّــرَةُ الــثَّــوْبِ مَــحْــجُــوبــةٌ فــلــيــســت إلــى أحــدٍ تُــنْــسَــبُ

فإن المحبوب كما قلنا لا بدّ أن يكون معدوماً وفي حال عدمه فهو طاهر الثوب في أوّل ما يوجد لأنه ما اكتسب منه ممّا يشينه ويدنسه في أوّل ظهوره ووجوده، فالأصل الطهارة وهو قوله: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ**» وهي الطهارة. وقولنا: محجوبة هو عدمها الذي قلنا من شهود الوجود. وقولنا: فليست إلى أحد تنسب لأن المعدوم لا ينسب ولكن المحب يطلبه لنفسه، ثم تمنا فقلنا وهو آخر القصيدة: [المتقارب]

فــقــد وَجَــبَ الــشُّــكْــرُ لله إذ هــي الــبِــكْــرُ لــي وأنــا الــثَّــيِّــبُ

لأن المحبوب وجد عن عدم فهو بكر، وقد كنت أحببت قبل ذلك فأنا ثيب، فإذا كان المحبوب الذي هو المعدوم إذا وجد لا يوجد في موجود يتصف بالإرادة لم يتصف هذا المحب بأنه يريده له فيحبه لنفسه بالضرورة كالحب الطبيعيّ، فإذا كان المحبوب لا يوجد إلاّ في موجود متصف بالإرادة كالحق تعالىٰ أو جارية أو غلام وما ثم من يتعلق به حب المحب إلاّ من ذكرناه فحينئذ يصحُّ أن يحب ما يحب هذا الموجود الذي لا يوجد محبوبه إلاّ فيه، فإن اتفق أن يكون ذلك لا يريد ما أحب هذا المحب بقي المحب على أصله في محبته محبوبه لأن محبوبه ما له إرادة كما قلنا، فلا يلزم من هذا أن يحب ما أحب هذا الموجود الذي لا يحب ما يحبه هذا المحب، إذ كان ذلك الموجود ما هو عين المحبوب وإنما هو محل لوجود ذلك المحبوب، وليس في قوّة المحب إيجاد ذلك المحبوب في هذا الوجود إلاّ إن أمكنه من نفسه.

وأما إن كان المحبوب ممّن لا يكون وجوده في موجود فلا يتمكن له إيجاد المحبوب البتة إلاّ أن تقوم من الحق به عناية فيعطيه التكوين كعيسىٰ عليه السلام ومن شاء الله من عباده، فإذا أعطى هذا فبالضرورة يحمله الحب على إيجاد محبوبه، وهذه مسألة لا تجدها محققة على ما ذكرناه فيها في غير هذا الكتاب، لأني ما رأيت أحداً حقق فيها ما ذكرناه وإن كان المحبون كثيرين بل كل من في الوجود محب ولكن لا يعرف متعلق حبه، وينحجبون بالموجود الذي يوجد محبوبه فيه فيتخيلون أن ذلك الموجود محبوبهم وهو على الحقيقة بحكم التبعية، فعلى الحقيقة لا يحب أحد محبوباً لنفس المحبوب وإنما يحبه لنفسه هذا هو التحقيق، فإن المعدوم لا يتصف بالإرادة فيحبه المحب له ويترك إرادته لإرادة محبوبه، ولما لم يكن الأمر في نفسه على هذا لم يبق إلاّ أن يحبه لنفسه فافهم.

فهذا هو الحب الروحاني المجرد عن الصورة الطبيعية فإن تلبس بها وظهر فيها كما قلنا في الحب الإلهيّ وهو في الروحانيّ أقرب نسبة لأنه على كل حال صورة من صور العالم، وإن كان فوق الطبيعة فاعلم أنه إذا قبل الروح الصورة الطبيعية في الأجساد المتخيلة لا في الأجسام المحسوسة التي جرت العادة بإدراكها فإن الأجساد المتخيلة أيضاً معتادة الإدراك، لكن ما كل من يشهدها يفرق بينها وبين الأجسام الحقيقية عندهم، ولهذا لم يعرف الصحابة جبريل حين نزل في صورة أعرابيّ، وما علمت أن ذلك جسد متخيل حتى عرّفهم النبي ﷺ

لما قال لهم: هذا جبريل ولم يقم بنفسهم شك أنه عربي، وكذلك مريم حين تمثل لها الملك بشراً سوياً لأنه ما كانت عندها علامة في الأرواح إذا تجسدت، وكذا يظهر الحق لعباده يوم القيامة فيتعوّذون منه لعدم معرفتهم به، فكان الحكم في الجناب الإلهيّ والروحاني في الصور سواء في حق المتجلى له من الجهل به، فلا بدّ لمن اعتنى الله به من علامة بها يعرف تجلي الحق من تجلي الملك من تجلي الجان من تجلي البشر إذا أعطوا قوّة الظهور في الصور كقضيب البان وأمثاله، فإذا كان البشر بهذه النشأة الترابية العنصرية له قوة التحوّل في الصور في عين الرائي وهو على صورته فهذا التحوّل في الأرواح أقرب، فاعلم من ترى وبماذا ترى وما هو الأمر عليه؟ وقد بيّنا ذلك في باب المعرفة في علم الخيال فانظره هناك، فإذا تجلّى الروح في صورة طبيعية مشى الحكم عليها كما ذكرناه في الحب الإلهي، سواء من حيث قبول تلك الصورة للظاهر والباطن لا تعدل عن ذلك المجرى فاعلم ذلك، فيجمع الروحاني بين الحب الطبيعي والروحاني وبين الحب لنفسه ولمحبوبه إن كان محبوبه كما قلنا ذا إرادة، ويتبين لك بما قررناه أن الناس لا يعرفون ما يحبون، وأنه يندرج محبوبهم في موجود ما فيتخيلون أنهم يحبون ذلك الموجود وليس كذلك، فاعلم قدر ما أعلمتك به واشكر الله حيث خلصك من الجهل بي، وهذا القدر كاف في الغرض المقصود، فإن فيه تفاريع كثيرة وغرضنا في هذا الكتاب تحصيل الأصول والحمد لله.

الوصل الثالث: في الحب الطبيعي وهو نوعان: طبيعي وعنصري، ونسينا أن نذكر غاية الحب الروحاني فلنذكره في الحب الطبيعي لتعلقه بالصورة الطبيعية فغايته الاتحاد، وهو أن تصير ذات المحبوب عين ذات المحب، وذات المحب عين ذات المحبوب وهو الذي تشير إليه الحلولية ولا علم لها بصورة الأمر، فاعلم أن الصورة الطبيعية على أي حال كان ظهورها جسماً أو جسداً بأي نسبة كانت فإن المحبوب الذي هو المعدوم وإن كان معدوماً فإنه ممثل في الخيال فله ضرب من ضروب الوجود المدرك بالبصر الخيالي في الحضرة الخيالية بالعين الذي تليق بها، فإذا تعانق الحبيبان وامتص كل واحد منهما ريق صاحبه وتخلل ذلك الريق في ذات كل واحد من الحبيبين وتنفس كل واحد من الصورتين عند التقبيل والعناق فخرج نفس هذا فدخل في جوف هذا ونفس هذا في جوف هذا وليس الروح الحيواني في الصور الطبيعية سوى ذلك النفس وكل نفس فهو روح كل واحد من المتنفسين وقد حيي به من قبله في حال التنفيس والتقبيل فصار ما كان روحاً لزيد هو بعينه يكون روحاً لعمرو، وقد كان ذلك النفس خرج من حب فتشكل بصورة حب فصحبته لذة المحبة، فلما صار روحاً في هذا الذي انتقل إليه، وصار نفس الآخر روحاً في هذا الآخر عبر عن ذلك بالاتحاد في حق كل واحد من الشخصين وصحّ له أن يقول: أنا من أهوى ومن أهوى أنا. وهذا غاية الحب الروحاني في الصور الطبيعية وهو قوله في القصيدة في أوّل هذا الباب: روحاً بروح وجثماناً بجثمان.

ثم نرجع إلى الحب الطبيعي فنقول: إن الحب الطبيعيّ هو العام، فإن كل ما تقدّم من الحب في الموصوفين به قبلوا الصور الطبيعية على ما تعطيه حقائقهم، فاتصفوا في حبهم بما

تتصف به الصور الطبيعية من الوجد والشوق والاشتياق، وحب اللقاء بالمحبوب ورؤيته والاتصال به، وقد وردت أخبار كثيرة صحاح في ذلك يجب الإيمان بها مثل قوله: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ**» مع كونه ما زال من عينه ولا يصحّ أن يزول عن عينه فإنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٧] و ﴿رَقِيبًا﴾ومع هذا فجاء باللقاء في حقه وفي حق عبده، ووصف نفسه بالشوق إلى عباده، وأنه أشد فرحاً ومحبة في توبة عبده من الذي ضلّت راحلته عليها طعامه وشرابه في أرض دوبة ثم يجدها بعدما يئس من الحياة وأيقن بالموت فكيف يكون فرحه بها؟ فالله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الشخص براحلته مع غناه سبحانه وقدرته ونفوذ إرادته في عباده، ولكن انظر في سرّ قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فتعلم أنه ما تعدّى بالأمور استحقاقها وأن مرتبة العلم ما فوقها مرتبة وقد قال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [سورة ق: ٢٩] لأنه خلاف المعلوم فوقوعه محال، فالأمر وإن كان ممكناً بالنظرإليه فليس بممكن بالنظر إلى علم الله فيه بوقوع أحد الإمكانين وأحدية المشيئة فيه، وما تعلقت المشيئة الإلهية بكونه فلا بدّ من كونه، وما لا بدّ من وقوعه لا يتصف بالإمكان بالنظر إلى هذه الحقيقة، ولهذا عدل من عدل من الناظرين في هذا الشأن من إطلاق اسم الممكن عليه إلى اسم الواجب الوجود بالغير وهو أولى في التحقيق لأحدية المشيئة ولهذا قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٣٧] حيث ما قاله، ولو حرف امتناع لامتناع فقد سبقت المشيئة بما سبقت كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٧١] فكان اسم وجوب الوجود بالغير أكمل في نسبة الأمر من اسم الممكن، إذ ما ثم إلاّ أمر واحد كلمح بالبصر فزال الاحتمال فزال الإمكان، فما ثم إلاّ وجوب مطلق أو وجوب مقيد.

ثم نرجع ونقول: اعلم أن الحب الطبيعيّ من ذاته إذا قام بالمحب أن لا يحب المحبوب إلاّ لما له فيه من النعيم به واللذة فيحبه لنفسه لا لعين المحبوب، وقد تبين لك فيما تقدم أن هذه الحقيقة سارية في الحب الإلهيّ والروحانيّ، فأما بدء الحب الطبيعيّ فما هو للإنعام والإحسان، فإن الطبع لا يعرف ذلك جملة واحدة، وإنما يحب الأشياء لذاته خاصة فيريد الاتصال بها والدنو منها وهو سار في كل حيوان وهو في الإنسان بما هو حيوان، فيحبه الحيوان في نفس الأمر لقوام وجوده به لا لأمر آخر، ولكن لا يعرف معنى قوام وجوده، وإنما يجد داعية من نفسه للاتصال بموجود معين ذلك الاتصال هو محبوبه بالأصالة، وذلك لا يكون إلاّ في موجود معين، فيحب ذلك الوجود بحكم التبعية لا بالأصالة، فاتصاله اتصال محسوس وقرب محسوس وهو قولنا: وجثماناً بجثمان، فهذا هو غاية الحب الطبيعيّ، فإن كان نكاحاً عين محبوبه في موجود ما، فغايته حصول ذلك المحبوب في الوجود فيطلب ويشتاق للمحل الذي يظهر فيه عين محبوبه ولا يظهر إلاّ بينهما لا في واحد منهما لأنها نسبة بين اثنين، وكذلك إن كان عناقاً أو تقبيلاً أو مؤانسة أو ما كان، ولا فرق بين أن تقول طبيعة الشيء أو حقيقته كل ذلك سائغ في العبارة عنه وهو في الإنسان أتم من غيره لأنه جامع حقائق العالم والصورة الإلهية فله نسبة إلى الجناب الأقدس فإنه عنه ظهر، وعن قوله: ﴿كُن﴾

تكوّن، وله نسبة إلى الأرواح بروحه وإلى عالم الطبيعة والعناصر بجسمه من حيث نشأته، فهو يحب كل ما تطلبه العناصر والطبيعة بذاته، وليس إلاَّ عالم الأجسام والأجساد والأرواح، ومنها أجسام عنصرية وكل جسم عنصريّ فهو طبيعيّ، ومنها أجسام طبيعية غير عنصرية، فما كل جسم طبيعيّ عنصريّ، فالعناصر من الأجسام الطبيعية لا يقال فيها عنصرية، وكذلك الأفلاك والأملاك، ولهذا عرفنا أن الملأ الأعلى يختصمون فيدخلون في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [سورة هود: الآية ١١٨] وهم يخالفون هؤلاء المرحومين مخالفيهم ولذلك خلقهم أي من أجل الخلاف خلقهم لأنّ الأسماء الإلهية متفاضلة، فمن هناك صدر الخلاف أين الضار من النافع والمعزّ من المذل والقابض من الباسط؟ وأين الحرارة من البرودة؟ وأين الرطوبة من اليبوسة؟ وأين النور من الظلمة؟ وأين العدم من الوجود؟ وأين النار من الماء؟ وأين الصفراء من البلغم؟ وأين الحركة من السكون؟ وأين العبودية من الربوبية؟ أليست هذه متقابلات فلا يزالون مختلفين، وأين التحليل من التحريم في العين الواحدة للشخصين؟ فيحرم على هذا ما يحلّ لهذا، فيتوارد حكمان مختلفان على عين واحدة، فانظر حكم الطبيعة المتضادة من أين صدرت وما كان سبب وجودها متقابلة من العلم الإلهيّ لتعلموا أنه ليس بيد أحد من المخلوقين ممّا سوى الله من الأمر شيء لا في الدنيا ولا في الآخرة، حتى أن الآخرة ذات دارين: رؤية وحجاب، فالحمد لله الذي أبان لنا عن الأمور ومصادرها ومواردها وجعلنا من العارفين بها، فالله يجعلنا ممّن أسعده بما علمه، فقد تبين لك أن المحبوب هو الاتصال بموجود ما من كثيرين أو قليلين، ومع كونه مؤانسة ومجالسة وتقبيلاً وعناقاً وغير ذلك بحسب ما تقتضيه حقيقة الموجود فيه عين المحبوب، وبحسب حقيقة المحب، فالمحبوب واحد العين متنوّع وهو حب الاتصال خاصة، إما بحديث أو ضم أو تقبيل، هذا تنوّعه في واحد أو كثيرين، فلا يصحّ أن يحب المحب اثنين أصلاً لأنّ القلب لا يسعهما. فإن قلت: هذا يمكن أن يصحّ في حب المخلوق، وأما في حب الخالق فلا فإنه قال: يحبهم فأحب كثيرين قلنا: الحب معقول المعنى وإن كان لا يحد فهو مدرك بالذوق غير مجهول ولكن عزيز التصوّر وهو مجهول النسبة إلى الله تعالىٰ، فإنّ الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فقولك: وأما في حب الحق فلا، هذا تحكم منك فإنه لا يقول هذا إلاّ من يعرف ذات الحق وهي لا تعرف فلا تعرف النسبة وتعرف المحبة، فإنه ما خاطب عباده إلاّ بلسانهم وبما يعرفونه في لغتهم من كل ما ينسبه إلى نفسه ووصف أنه عليه ولكن كيفية ذلك مجهولة.

وصل: وأما القسم الثاني وهو الحب العنصري فهو وإن كان طبيعياً فبين القسمين فارق، وذلك أن الطبيعيّ لا يتقيد بصورة طبيعية دون صورة طبيعية وهو مع كل صورة كما هو مع الأخرى في الحب مثل الكهرباء مع ما يتعلق بها ومسكه بالخاصية، وأما العنصري فهو الذي يتقيد بصورة طبيعية وحدها كقيس ليلى، وقيس لبنى، وكثير عزة، وجميل بثنية، ولا يكون هذا إلاّ لعموم المناسبة بينهما كمغناطيس الحديد ويشبهه في الحب الروحانيّ، ﴿وَمَا مِنَّآ

﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٦٤]، ويشبهه من الحب الإلهيّ التقييد بعقيدة واحدة دون غيرها، كما يشبه الروحانيّ الطبيعيّ في الطهارة، ويشبه الإلهيّ الطبيعيّ في الذي يراه في جميع العقائد عيناً واحدة.

وصل: واعلم أن الحب كما قلناه وإن كان له أربعة ألقاب، فلكل لقب حال فيه ما هو عين الآخر فلنبين ذلك كله، فمن ذلك الهوى ويقال على نوعين وهما في الحب: النوع الواحد سقوطه في القلب وهو ظهور من الغيب إلى الشهادة في القلب يقال: هوى النجم إذا سقط يقول تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ١] فهو من أسماء الحب في ذلك الحال، والفعل منه هَوِيَ يَهْوَى بكسر عين الفعل في الماضي وفتحها في المستقبل، والاسم منه هوى وهو الهوى، وهذا الاسم هو الفعل الماضي من الهويّ الذي هو السقوط، يقال: هوى بفتح عين الفعل في الماضي يهوي بكسرها في المستقبل والاسم منه هويّ، وسبب حصول المعنى الذي هو الهوى في القلب أحد ثلاثة أشياء أو بعضها أو كلها، إما نظرة أو سماع أو إحسان وأعظمها النظر وهو أثبتها فإنه لا يتغير باللقاء، والسماع ليس كذلك فإنه يتغير باللقاء فإنه يبعد أن يطابق ما صوّره الخيال بالسماع صورة المذكور، وأما حب الإحسان فمعلول تزيله الغفلة مع دوام الإحسان لكون عين المحسن غير مشهودة. وأما الهوى الثاني: فلا يكون إلاّ مع وجود حكم الشريعة وهو قوله لداود: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦] يعني لا تتبع محابك بل اتبع محابي وهو الحكم بما رسمته لك، ثم قال: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي يحيرك ويتلفك ويعمي عليك السبيل الذي شرعته لك وطلبت منك المشي عليه وهو الحكم به، فالهوى هنا محاب الإنسان، فأمره الحق بترك محابه إذا وافق غير الطريق المشروعة له. فإن قلت: فقد نهاه عمّا لا يصحّ أن ينتهي عنه فإن الحب الذي هو الهوى سلطانه قوي ولا وجود لعين العقل معه. قلنا: ما كلفه إزالة الهوى فإنه لا يزول، إلاّ أن الهوى كما قلنا يختلف متعلقه ويكون في موجودين كثيرين، وقد بيّنا أن الهوى الذي هو الحب حقيقته حب الاتصال في موجود ما أو كثيرين، فطلب منه تعالىٰ أن يعلّقه بالحق الذي شرع له وهو سبيل الله كما يعلقه بسبل كثيرة ما هي سبيل الله، فهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ فما كلّفه ما لا يطيق، فإن تكليف ما لا يطاق محال على العالم الحكيم أن يشرعه، فإن احتججت بتكليف الإيمان من سبق في علم الله أنه لا يؤمن كأبي جهل وأمثاله قلنا: الجواب من وجهين: الوجه الواحد أني لست أعني بتكليف ما لا يطاق إلاّ ما جرت العادة به أنه لا يطيقه المكلف مثل أن يقول له: اصعد إلى السماء بغير سبب واجمع بين الضدّين فقم في الوقت الذي لا يقوم، وإنما كلفه ما جرت العادة به أن يطيقه وهو اعتقاد الإيمان أو التلفظ به، وكلاهما يجد كل إنسان في نفسه التمكن من مثل هذا كسباً أو خلقاً كيفما شئت فقل، ولهذا تقوم الحجة به لله على العبد يوم القيامة وقد قال قل: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] فلو كلّفه ما ليس في وسعه عادة لم يصحّ قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ بل كان يقول: ولله أن يفعل ما يريد، كما قال: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾ ومعنى ذلك أنه لا يقال للحق: لم كلفتنا

ونهيتنا وأمرتنا مع علمك بما قدّرته علينا من مخالفتك؟ هذا موضع ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٣] فإنه يقول لهم: هل أمرتكم بما تطيقونه أو بما لا تطيقونه عندكم؟ فلا بدّ أن يقولوا بما جرت العادة به أن نطيقه فقد كلفهم ما يطيقونه فثبت أن ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ فإنهم جاهلون بعلم الله فيهم زمان التكليف.

والجواب الثاني قد تقدم من أنه لا بدّ من الإيمان به وقد وقع في قبض الله الذرية. ويظهر حكمه في الآخرة فلا يبقى إلاً مؤمن وهو في الدار الدنيا معترف بوجوده، وإن أشرك فما يشرك إلاً بموجود، ولهذا ما طلب منه إلاً توحيد الأمر له خاصة وهو محبوب الحق وهو معدوم منهم، وهو يحب توحيده أن يظهر في هؤلاء الموجودين، فهو وإن أحب واحداً فأحبه من كثيرين، فمن اتصف به أحبه الله لكون محبوبه وهو التوحيد ظهر فيه، ومن أبغضه فلكون محبوبه لم يظهر فيه وهو التوحيد، فمآل الكل إلى الإيمان، وقد قرّرنا ذلك في سبق الرحمة غضب الله فقد تبين لك معنى الهوى. وأما الحب فهو أن يتخلص هذا الهوى في تعلّقه بسبيل الله دون سائر السبل، فإذا تخلص له وصفا من كدورات الشركاء من السبل سمّي حباً لصفائه وخلوصه، ومنه سمي الحب الذي يجعل فيه الماء حباً لكون الماء يصفو فيه ويروق وينزل كدره إلى قعره، وكذلك الحب في المخلوقين إذا تعلق بجناب الحق سبحانه وتخلص له من علاقته بالأنداد الذين جعلها المشركون شركاء لله في الألوهة سمّي ذلك حباً بل قال فيه تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٥] وسبب ذلك أنه إذا كشف الغطاء ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٦] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٧] فزال حبّهم إياهم في ذلك الموطن وبقي المؤمنون على حبهم لله، فكانوا أشدّ حباً لله بما زادوا على أولئك في وقت رجوعهم عن حبهم آلهتهم حين لم تغن عنهم من الله شيئاً فلا يبقى مع المشركين يوم القيامة إلاً حبهم لله خاصة فإنهم في الدنيا أحبوه وأحبوا شركاءهم على أنهم آلهة، ولولا ذلك التوهم والغلط ما أحبوهم فكان محبوبهم الألوهة، وتخيّلوها في كثيرين فأحبّوه وأحبّوا الشركاء، فإذا كان في القيامة كما ذكرنا لم يبق عندهم سوى حبّهم لله تعالىٰ فكانوا في الآخرة أشدّ حباً لله منهم له في الدنيا لكون حبّهم كان منقسماً فاجتمع عليه في الآخرة لما لم يعاين محبوبه وهو الألوهة إلاً فيه خاصة، فلذلك كان سبق الرحمة وقوّة الطرفين وضعف الواسطة بما فيها من الشركة، وقد بيّنا ذلك كله فيما تقدم، فهذا الفرق بين الحب والهوى.

وأما العشق فهو إفراط المحبة أو المحبة المفرطة وهو قوله في: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وهو مع صفاته لو أخذ الذي هو مسمّى الحب وظهوره في حبة القلب الذي أيضاً به سمّي حباً، فإذا عمّ الإنسان بجملته وأعماه عن كل شيء سوى محبوبه وسرت تلك الحقيقة في جميع أجزاء بدنه وقواه وروحه وجرت فيه مجرى الدم في عروقه ولحمه وغمرت جميع مفاصله فاتصلت بوجوده وعانقت جميع أجزائه جسماً وروحاً ولم يبق فيه متسع لغيره وصار نطقه به وسماعه منه ونظره في كل شيء إليه ورآه في كل صورة وما يرى شيئاً إلاً ويقول: هو

هذا، حينئذ يسمّى ذلك الحب عشقاً، كما حكي عن زليخا أنها افتصدت فوقع الدم في الأرض فانكتب به: يوسف يوسف، في مواضع كثيرة حيث سقط الدم لجريان ذكر اسمه مجرى الدم في عروقها كلها، وهكذا حكي عن الحلاج لما قطعت أطرافه انكتب بدمه في الأرض الله الله حيث وقع ولذلك قال رحمه الله: [السريع]

مـا قُـدَّ لـي عـضـوٌ ولا مـفـصَـلٌ   إلاَّ وفـيـه لـكـم ذِكْـرُ

فهذا من هذا الباب، وهؤلاء هم العشاق الذين استهلكوا في الحب هذا الاستهلاك وهو الذي يسمّى بالغرام، وسيأتي ذكره في نعت المحبين إن شاء الله.

وأما الودّ فهو ثبات الحب أو العشق أو الهوى أية حالة كانت من أحوال هذه الصفة فإذا ثبت صاحبها الموصوف بها عليها ولم يغيره شيء عنها ولا أزاله عن حكمها وثبت سلطانها في المنشط والمكره وما يسوء ويسر في حال الهجر والطرد من الموجود الذي يحب أن يظهر فيه محبوبه ولم يبرح تحت سلطانه لكونه مظهر محبوبه سمّي لذلك وداً وهو قوله تعالىٰ: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٩٦] أي ثباتاً في المحبة عند الله وفي قلوب عباده، هذا معنى الودّ. وللحب أحوال كثيرة جداً في المحبين سأذكرها إن شاء الله مثل: الشوق والغرام والهيام والكلف والبكاء والحزن والكبد والذبول والانكسار، وأمثال ذلك ممّا يتصف به المحبون ويذكرونه في أشعارهم مفصلة إن شاء الله.

وقد يقع في الحب أغاليط كثيرة أوّلها ما ذكرناه وهو أنهم يتخيلون أن المحبوب أمر وجودي وهو أمر عدميّ يتعلق الحب به أن يراه موجوداً في عين موجودة، فإذا رآه انتقل حبّه إلى دوام تلك الحال التي أحبّ وجودها من تلك العين الموجودة، فلا يزال المحبوب معدوماً وما يشعر بذلك أكثر المحبين إلاّ أن يكونوا عارفين بالحقائق ومتعلقاتها وقد بيّنا ذلك، وأكثر كلامنا في هذا الباب إنما هو في المحبة المفرطة، فإنها تذهب بالعقول أو تورث النحول والفكر الدائم والهم اللازم والقلق والأرق والشوق والاشتياق والسهاد وتغيير الحال وكسوف البال والوله والبله، وسوء الظن بالمحبوب أعني الموجود الذي تحب ظهور محبوبك فيه الذي تزعم العامة فيه أنه المحبوب لها ونحن فيه على نوعين: طائفة منا نظرت إلى المثال الذي في خيالها من ذلك الموجود الذي يظهر محبوبه فيه ويعاين وجود محبوبه وهو الاتصال به في خياله فيشاهده متصلاً به اتصال لطف ألطف منه في عينه في الوجود الخارج، وهو الذي اشتغل به قيس المجنون عن ليلى حين جاءته من خارج فقال لها: إليك عني لئلا تحجبه كثافة المحسوس منها عن لطف هذه المشاهدة الخيالية فإنها في خياله ألطف منها في عينها وأجمل وهذا ألطف المحبة، وصاحب هذا النعت لا يزال منعماً لا يشكو الفراق، ولنا في هذا النعت اليد الطولى بين المحبين، فإن مثل هذا في المحبين عزيز الوجود لغلبة الكثافة عليهم، وسبب ذلك عندنا أنه من استفرغ في حب المعاني المجردة عن المواد فغايته إذا كثفها أن ينزلها إلى الخيال ولا ينزل بها أكثر، فمن كان أكثف حاله الخيال فما ظنك بلطافته في المعاني، وهذا الذي حاله هذا هو الذي يمكن أن يحب الله، فإن غايته في حبه إياه إذا لم يجرده عن التشبيه

أن ينزله إلى الخيال وهو قوله عليه السلام: «**اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»فإذا أحببنا ونحن بهذه الصفة موجوداً نحب ظهور محبوبنا فيه من المحسوسات عالم الكثائف نلطفه بأن نرفعه إلى الخيال لنكسوه حسناً فوق حسنه ونجعله في حضرة لا يمكنه الهجر معها ولا الانتقال عنها فلا يزال في اتصال دائم، ولنا في ذلك: [الخفيف]

مـا لـمَـجْـنُـونِ عـامـر مـن هـواه ... غـيـرُ شـكْـوَى الـبِـعَـادِ والإغْـتِـرابِ
وأنـا ضِـدُّه فـإنَّ حـبـيـبـي ... فـي خَـيَـالـي فـلـم أَزَلْ فـي اقْـتِـرَابِ
فـحـبـيـبـي مِـنِّـي وفِـيَّ وعـنـدي ... فـلـمـاذا أقـول مـا بـي ومـا بِـي

أما قولنا يذهب الحب بالعقول فإنهم قالوا: ولا خير في حب يدبر بالعقل. وقال أبو العباس المقراني الكساد: الحب أملك للنفوس من العقول. وإنما قالوا ذلك لأن العقل يقيد صاحبه، والحب من أوصافه الضلال والحيرة والحيرة تنافي العقل، فإن العقل يجمعك والحيرة تفرقك. قال إخوة يوسف ليعقوب: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [سورة يوسف: الآية ٩٥] يريدون حيرته في حب يوسف، والحيرة تفرق ولا تجمع، ولهذا وصفت المحبة بالبث وهو تفرق هموم المحب في وجوه كثيرة، قال تعالىٰ: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [سورة النساء: الآية ١] وكذلك قوله: ﴿هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [سورة الواقعة: الآية ٦] والمحب في حكم محبوبه فلا تدبير له في نفسه وإنما هو يحكم ما يعطيه ويأمره به سلطان الحب المستولي على قلبه، ومن ضلالته في حبه أنه يتخيل في كل شخص أن محبوبه حسن عنده وأنه يرى منه مثل ما يراه هذا المحب، وهذا من الحيرة وعلى هذا جرى المثل: حسن في كل عين من تود. يعني عندك أيها المحب تتخيل أن كل من يرى محبوبك يحسن عنده كما يحسن عندك، ومن ضلالة المحب أنه يتحير في الوجوه التي يرى أنه يحصل محبوبه منها فيقول: أفعل كذا لنصل بهذا الفعل إلى محبوبي أو كذا وكذا، فلا يزال يحار في أي الوجوه يشرع لأنه يتخيل أن وجود اللذة بمحبوبه في الحسّ أعظم منها في الخيال، وذلك لغلبة الكثافة على هذا المحب، ويغفل عن لذة التخيل في حال النوم فإنه أشد من التذاذه بالخيال لأنه أشد اتصالاً به من الخيال، والاتصال بالخيال أشد من الاتصال بالخارج وهو المحسوس، فلذته بمعنى أشدّ اتصالاً من الخيال، فيحار المحب في تحصيل الوجوه التي بها يصل إلى الاتصال من خارج، ويسأل عن ذلك من يعرف أن عنده خبراً من هذا الشأن عسى يجد عنده حيلة في ذلك ولا سيما وقد سمع في ذلك في قول القائل: لو صحّ منك الهوى أرشدت للحيل. يعني فيما تصنع حتى تتصل بالمحبوب.

وصل: فأوّل ما أذكره من نعوت المحبين ما حدثنا به يونس بن يحيىٰ بن أبي الحسن الهاشميّ العباسي القصار بمكة تجاه الركن اليمانيّ من الكعبة المعظمة سنة تسع وتسعين وخمسمائة قال: أخبرنا ابن عبد الباقي أخبرنا أحمد بن أحمد أخبرنا أحمد بن عبد الله حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر حدثنا أبو بكر الدينوري المفسّر سنة ثمان وثمانين ومائتين حدثنا محمد بن أحمد الشمساطيّ قال: سمعت ذا النون يقول: إنّ لله عباداً ملأ قلوبهم من صفاء محض محبته وفسح أرواحهم بالشوق إلى رؤيته، فسبحان من شوّق إليه أنفسهم وأدنى منه

فهمهم وصفت له صدورهم، فسبحان موفقهم ومؤنس وحشتهم وطبيب أسقامهم، إلهي لك تواضعت أبدانهم، وإلى الزيادة منك انبسطت أيديهم، فأذقتهم من حلاوة الفهم عنك ما طيبت به عيشهم، وأدمت به نعيمهم ففتحت لهم أبواب سماواتك، وأبحت لقلوبهم الجولان في ملكوتك، بل ما نسيت محبة المحبين، وعليك معوّل شوق المشتاقين، وإليك حنت قلوب العارفين، وبك أنست قلوب الصادقين، وعليك عكفت رهبة الخائفين، وبك استجارت أفئدة المقصرين، قد يئست الراحة من فتورهم، وقلّ طمع الغفلة فيهم، فهم لا يسكنون إلى محادثة الفكرة فيما لا يعنيهم، ولا يفترون عن التعب والسهر، يناجونه بألسنتهم، ويتضرعون إليه بمسكنتهم، يسألونه العفو عن زلاتهم، والصفح عما وقع من الخطاء في أعمالهم، فهم الذين ذابت قلوبهم بفكر الأحزان، وخدموه خدمة الأبرار، ومن نعوتهم رضي الله عنهم النحول، وهو نعت يتعلق بكثائفهم وبلطائفهم. فأما تعلّقه بلطائفهم فإنّ أرواح المحبين وإن لطفت عن إدراك الحواس ولطفت عن تصوير الخيال، فإنّ الحب يلطفها لطافة السراب لمعنى أذكره، وذلك أن السراب ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ [سورة النور: الآية ٣٩] وذلك لظمئه لولا ذلك ما حسبه ماء لأنّ الماء موضع حاجته فيلجأ إليه لكونه مطلوبه ومحبوبه لما فيه من سرّ الحياة، فإذا جاءه لم يجده شيئاً، وإذا لم يجده شيئاً وجد الله عنده عوضاً من الماء، فكان قصده حسّاً للماء والله يقصد به إليه من حيث لا يشعر، فكما أنه تعالىٰ يمكر بالعبد من حيث لا يشعر، كذلك يعتني بالعبد في الالتجاء إليه والرجوع إليه والاعتماد عليه بقطع الأسباب عنه عندما يبديها له من حيث لا يشعر، فوجود الله عنده عند فقد الماء المتخيل له في السراب هو رجوعه إلى الله لما تقطعت به الأسباب، وتغلقت دون مطلوبه الأبواب، رجع إلى من بيده ملكوت كل شيء، وهو كان المطلوب به من الله هذا فعله مع أحباه يردّهم إليه اضطراراً واختياراً، كذلك أرواحهم يحسبونها قائمة بحقوق الله التي فرضها عليها وأنها المتصرّفة عن أمر الله محبة لله وشوقاً إلى مرضاته ليراها حيث أمرها، فإذا كشف لها الغطاء واحتدّ بصرها وجدت نفسها كالسراب في شكل الماء، فلم تر قائماً بحقوق الله إلاّ خالق الأفعال وهو الله تعالىٰ، فوجدت الله عين ما تخيلت أنه عينها فذهبت عينها عنه وبقي المشهود الحق بعين الحق، كما فني ماء السراب عن السراب والسراب مشهود في نفسه وليس بماء، كذلك الروح موجود في نفسه وليس بفاعل، فعلم عند ذلك أن المحب عين المحبوب وأنه ما أحبّ سواه ولا يكون إلاّ كذلك، وألطف من هذا النحول في الأرواح فلا يكون.

وأما النوع المتعلق من النحول بكثائفهم فهو ما يتعلق به الحسّ من تغيّر ألوانهم وذهاب لحوم أبدانهم لاستيلاء جولان أفكارهم في أداء ما كلفهم المحبوب أداءه ممّا افترضه عليهم، فبذلوا المجهود ليتصفوا بالوفاء بالعهود، إذ كانوا عاهدوا الله على ذلك وعقدوا عليه في أيمانهم به وبرسوله وسمعوه يقول آمراً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [سورة المائدة: الآية ١] وقال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٠] ولا تنقضوا الميثاق ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ﴾ [سورة النحل: الآية ٩١] فهذا سبب نحول أجسامهم.

ومن نعوت المحبين الذبول وهو نعت صحيح في أرواحهم وأجسامهم، أمّا في أجسامهم فسببه ترك ملاذ الأطعمة الشهية التي لها الدسم والرطوبة وهي مستلذة للنفوس وتورث في الأجسام نضرة النعيم، فلما رأوا رضي الله عنهم أن الحبيب كلفهم القيام بين يديه ومناجاته ليلاً عند تجليه ونوم النائمين ورأوا أنّ الرطوبات الحاصلة في أجسامهم تصعد منها أبخرة إلى الدماغ تخدر الحواس وتغمرها فيغلبهم النوم عمّا في نفوسهم من القيام بين يدي محبوبهم لمناجاته في خلواتهم حين ينامون، ثم إن تلك الأبخرة تورث قوّة في أبدانهم تؤدّي تلك القوّة الجوارح إلى التصرف في الفضول الذي حجر عليهم التصرّف فيه محبوبهم، فتركوا الطعام والشراب إلاّ قدر ما تمس الحاجة إليه من ذلك فقلت الرطوبة في أجسامهم فزالت عنه نضرة النعيم وذبلت شفاههم واسترخت أبدانهم وراح نومهم وتقوى سهرهم فنالوا مقصودهم من القيام بين يديه ووجدوا المعونة على ذلك بما تركوه فذلك هو ذبول الأجسام. وأما ذبول أرواحهم فإنّ لهم نعيماً بالمعارف والعلوم لأن لهم نسبة إلى أرواح الملأ الأعلى ليأنسوا بالجنس رغبة في المعاونة لما سمعوا الله تعالىٰ يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ فتخيلوا أنهم المخاطبون بذلك وليس الأمر كذلك، فإن الذين خوطبوا بذلك هم الذين يليق بهم أن يتعاونوا على الإثم والعدوان ولذلك أردف بالنهي فقال: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢] وهذا ليس من صفات الملأ الأعلى، فلما عرفوا غلطهم في ذلك عدلوا عن هذه الآية إلى قوله: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢٨] أي احبسوا نفوسكم مع الله، فلما فارقوا الجنس بهذه الآية ذبلت أرواحهم وقد كانت في نضرة النعيم بمجالسة الجنس لأنها تعلقت بمن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فلم تعرف بينها وبينه مناسبة مثلية فتتعلق بها فقالت لها المعرفة بالله: هو ما خاطبك سبحانه إلاّ بلسانك ولحنك ولغتك وما تواطأ عليه أهل ذلك اللسان الذين أنت منهم، فارجع إلى مفهوم ما خاطبك به فإنه لم يخرجه عن حقيقة مدلوله ولا تنال بجهلك النسبة إليه من ذلك، فإن تلك الصفة التي خاطبك بها تطلبه بذاتها لأنه وصف نفسه بها ولا تكون صفاته إلاّ بمناسبة خاصة منّا إليه، فإذا تعلقت أنت بتلك الصفة ولزمتها بالضرورة تحصلك عنده فتعلم عند ذلك صورة نسبتها إليه علم ذوق وتجلّ إلهيّ فيزيد ذبولك حتى تصير كالنقطة المتوهمة كما قال بعضهم: [مجزوء الكامل]

أصبحتُ فيك من الضّنا كالنُّقطة المُتَوهَّمَهْ

وهي التي لا وجود لها إلاّ في الوهم، فهذا نعتهم في الذبول. وقد روينا في خبر مؤيد بكشف أن إسرافيل عليه السلام وهو من أرفع الأرواح العلوية يتضاءل في نفسه كل يوم لاستيلاء عظمة الله على قلبه سبعين مرة حتى يصير كالوضع كما يحشر المتكبرون في نفوسهم على عباد الله يوم القيامة كأمثال الذر ذلة وصغاراً، وذلك لما ظهروا به في الدنيا من التعاظم والتكبّر، فهذا نعت ذبولهم في أرواحهم وأجسامهم.

ومن نعوت المحبين أيضاً الغرام وهو الاستهلاك في المحبوب بملازمة الكمد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٥] أي مهلكاً لملازمة شهود المحبوب،

فإن الغريم هو الذي لزمه الدين وبه سمّي غريماً ومقلوبه أيضاً الرغام وهو اللصوق بالتراب فإن الرغام التراب يقال: رغم أنفه إذ كان الأنف محل العزّة قوبل بالرغام في الدعاء فألصقوه بالتراب فيكون الغرام حكمه في المغرم من المقلوب فهو موصوف بالذلّة لأن التراب أذلّ الأذلاء ولهذا وصفت الأرض بأنها ذلول على طريق المبالغة لكون الأذلاء يطؤونها، ولما لازم الحب قلوب المحبين والشوق قلوب المشتاقين والأرق نفوس الأرقين وكل صفة للحب موصوفها منه سمّي صاحب هذه الملازمات كلها مغرماً وسمّيت صفته غراماً، فهو اسم يعمّ جميع ما يلزم المحب من صفة الحب، فليس للمحب صفة أعظم إحاطة من الغرام.

ومن نعوت المحبين الشوق وهو حركة روحانية إلى لقاء المحبوب، وحركة طبيعية جسمانية حسيّة إلى لقاء المحبوب إذا كان من شكله ذلك المحبوب، فإذا لقيه أي محبوب كان فإنه يجد سكوناً في حركة فيتحير لماذا ترجع تلك الحركة مع وجود اللقاء ويراها تتزيد ويدركه معها خوف في حال الوصلة فيجد الخوف متعلقه توقع الفرقة ويجد الحركة الاستباقية تطلب استدامة حالة الوصلة وذلك يهيج باللقاء كما قيل في الشوق: [الوافر]

وأبرَحُ ما يكون الشَّوْقُ يوماً ... إذا دَنَتِ الديارُ من الديارِ

وقال الآخر فيما ذكرناه من الخوف في حال الوصلة: [الوافر]

وأبكي إن نَأوا شوقاً إليهم ... وأبكي إن دَنَوْا خَوْفَ الفِراقِ

هذا جزاء من أحبّ غير عينه وجعل وجود عين محبوبه فيما هو خارج عنه، فلو أحب الله لم تكن هذه حالته، فمحب الله لا يخاف فرقة، وكيف يفارق الشيء لازمه وهو في قبضته لا يبرح وبحيث يراه محبوبه وهو أقرب إليه من حبل الوريد ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧]. أين الفراق وما في الكون إلاّ هو؟ يقول الله تعالىٰ: «**مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً**» الحديث، فهكذا ينبغي أن تعرف يا أخي قدر من أحبك لله أو لنفسه إذا كان الحق مع غناه عن العالم إذا أحبه عبده سارع إليه بالوصلة وقرّبه وأدنى مجلسه وجعله من خواص جلسائه، فأنت أولى بهذه الصفة، إذا أحبك شخص فقد أعطاك السيادة عليه وجعل نفسه محلاً لتحكمك فيه، فينبغي لك إن كنت عاقلاً أن تعرف قدر الحب وقدر من أحبك، ولتسارع إلى وصلته تخلقاً بأخلاق الله مع محبته، فإنه من بدأك بالمحبة فتلك يد له عليك لا تكافئها أبداً، وذلك لأن كل ما يفعله من الحب بعد ابتدائه معه فإنما هو نتيجة عن ذلك الحب الذي أحبك ابتداء.

ومن نعوت المحبين الهيام وهم المهيمون الذين يهيمون على وجوههم من غير قصد جهة مخصوصة، والمحبون لله أولى بهذه الصفة، فإن الذي يحب المخلوق إذا هام على وجهه فهو لقلقه ويأسه من مواصلة محبوبه، ومحب الله متيقن بالوصلة، وقد علم أنه سبحانه لا يتقيد ولا يختص بمكان يقصد فيه لأن حقيقة الحق تأبى ذلك ولذلك قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥] وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فمحبه مهيم في كل واد وفي كل حال لأن محبوبه الحق فلا يقصده في وجه معين بل يتجلى له في

أي قصد قصده على أي حالة كان، فهم أحق بصفة الهيمان من محبي المخلوقين، فهو تعالىٰ المشهود عند المحبين من كل عين، والمذكور بكل لسان، والمسموع من كل متكلم، هكذا عرفه العارفون، وبهذه الحقيقة تجلّى للمحبين.

ومن نعوت المحبين الزفرات وهي نار نور محرقة يضيق القلب عن حملها فتخرج منضغطة لتراكمها ممّا يجده المحب من الكمد فيسمع لخروجها صوت تنفس شديد الحرارة، كما يسمع لصوت النار صوت يسمّى ذلك الصوت زفرة، ولا يكون ذلك إلاّ في الجسم الطبيعيّ خاصة، وقد يكون في الصورة المتجسدة، ولهذا تتصف الصورة المتجسدة عن المعنى المجرد إذا ظهر فيها، وقيل: هذه صورته بالغضب والرضى كالأجسام الطبيعية، كما قال ﷺ عن نفسه: **«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ وَأَرْضَىٰ كَمَا يَرْضَىٰ البَشَرُ»** وإذا كان الجناب الإلهي الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ قد وصف نفسه بالرضى والغضب في هاتين الصفتين وفي أمثالهما ممّا وصف الحق بها نفسه ومن تلك الحقيقة ظهرت في العالم، ولهذا قلنا إن الله سبحانه علمه بنفسه علمه بالعالم لا يكون إلاّ هكذا، فكل حقيقة ظهرت في العالم وصفة فلها أصل إلهيّ ترجع إليه لولا ذلك الأصل الإلهيّ يحفظ عليها وجودها ما وجدت ولا بقيت، ولا يعلم ذلك إلاّ الآحاد من أهل الله فإنه علم خصوص، قال تعالىٰ: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [سورة النساء: الآية ٩٣] ثم ورد في الخبر ما هو أشد من هذا لمن عقل عن الله وهو ما ورد في الحديث الصحيح من قول الأنبياء في القيامة: **«إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»** فهذا أشدّ من ذلك حيث اتصف غضبه بالحدوث والزوال، وفي ذلك المقام يقول محمد ﷺ فيمن بدل من أصحابه بعده: **«سحقاً سحقاً»** لاقتضاء الحال والموطن، فإن صاحب السياسة يجري في أحكامه بحسب الأحوال والمواطن.

ومن نعوت المحبين الكمد وهو أشدّ حزن القلب لا يجري معه دمع إلاّ أن صاحبه يكون كثير التأوّه والتنهّد، وهو حزن يجده في نفسه لا على فايت ولا تقصير، وهذا هو الحزن المجهول الذي هو من نعوت المحبين ليس له سبب إلاّ الحب خاصة، وليس له دواء إلاّ وصال المحبوب، فيفنيه شغله به عن الإحساس بالكمد، وإن لم تقع الوصلة بالمحبوب اتصال ذوات فيكون المحبوب ممّن يأمره فيشغله القيام بأوامره وفرحه بذلك عن الكمد، فأكثر ما يكون الكمد إذا لم يقع بينه وبين المحبوب ما يشغله عن نفسه، وليس للمحب صفة تزول مع الاشتغال غير الكمد، ونعوت المحبة كثيرة جدّاً مثل الأسف، الوله، البهت، الدهش، الحيرة، الغيرة، والخرس، السقام، القلق، الخمود، البكاء، التبريح، والوجد، والسهاد، وما ذكره المحبون في أشعارهم من ذلك، وكلامنا في هذا الباب ما يختصّ بحب الله لعباده وحب العباد لله لا غير ذلك، فالله سبحانه قد ذكر أقواماً بأنه يحبهم لصفة قامت بهم أحبهم لأجلها كما سلب محبته عن قوم لصفات قامت بهم، ذكر ذلك في كتابه وعن لسان رسول الله ﷺ. انتهى الجزء الرابع عشر ومائة بانتهاء السفر الخامس عشر.

[السفر السادس عشر]
(الجزء الخامس عشر ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

فمن ذلك الاتباع لرسوله ﷺ فيما شرع قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] فاعلم أن لله محبتين أو تعلقين: محبته لعباده الذي هو خصوص إرادة التعلّق الأول حبّه إياهم ابتداء بذلك الحب وفقهم للاتباع اتباع رسله سلام الله على جميعهم، ثم أنتج لهم ذلك الاتباع تعلقين من المحبة لأن الاتباع وقع من طريقين من جهة أداء الفرائض والتعلّق الآخر من جهة ملازمة النوافل، قال ﷺ فيما يرويه عن ربه عزّ وجلّ أنه قال الحديث وفيه: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيهِ وَلاَ يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنتُ لَهُ سَمعاً وَبَصَراً وَيَداً وَمُؤَيِّداً**» وإذا كان الحق سمع العبد وقواه في النوافل فكيف بالحب الذي يكون من الحق له بأداء الفرائض؟ وهو أن يكون الحق يريد بإرادة هذا العبد المجتبى، ويجعل له التحكّم في العالم بما شاء بمشيئته تعالىٰ الأولية التعلّق التي بها وفّقه فاندرج هذا التعلّق في الأوّل وهو قوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [سورة الإنسان: الآية ٣٠] وكل صفة ذكرها الحق أنه يحب من أجلها من قامت به فما حصلت له تلك الصفة إلاّ بالاتباع، فإن رسول الله ﷺ سنّها وذلك عن الله فإنه ما ينطق عن الهوى وأنه يفعل به وبنا، فنفى أن يكون الفعل له ولنا كما يراه بعضهم وهو قوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٩] فهو قوله: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٩] ومعنى الاتباع أن نفعل ما يقول لنا فإن قال: اتبعوني في فعلي اتبعناه، وإن لم يقل فالذي يلزمنا الاتباع فيما يقول فينتج لنا الاتباع فيما أمرنا به ونهانا عنه، والوقوف عند حدوده أن نتبعه في أفعاله في خلقه وهي المسمّاة كرامة وآية أي علامة على صدق الاتباع، والرسل أيضاً تابعون فإنه يقول عليه السلام: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ فيكون ما يظهر عليه من الاتباع في فعل الله نتيجة اتباعه لأوامر الله آية، ويكون لنا ذلك كرامة وهو الفعل بالهمة والتوجّه من غير مباشرة، فيظهر على يد هذا العبد من خرق العوائد مّما لا ينبغي أن يكون إلاّ على ذلك الوجه من غير سبب إلاّ مجرّد الإرادة إلاّ لله تعالىٰ، فإن ذلك الفعل إذا ظهر عن سبب موضوع ظاهر لم يكن من هذا الباب كطيران الطائر بسبب ظاهر وإن كان لا يمسكه إلاّ الله، أي الله الذي وضع له أسباب الإمساك في الهواء، والإنسان إذا اخترق الهواء ومشى فيه بمجرد الإرادة لا بسبب ظاهر معتاد أشبه فعل الحق في تكوين الأشياء بالإرادة، فهذا الفارق بينه وبين وقوع ذلك بالأسباب، وأصله التحقق بالاتباع، والمتبع في التشريع إنما هو الله، والمتبع في الفعل بالإرادة إنما هو الله، والكل بعناية الله ومشيئته ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦].

ومن ذلك حبّه سبحانه التوّابين، فالتوّاب صفته، ومن أسمائه تعالىٰ يقول عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٨] فما أحبّ إلاّ اسمه وصفته، وأحبّ العبد لاتصافه بها، ولكن إذا اتصف بها على حدّ ما أضافها الحق إليه، وذلك أن الحق يرجع على عبده في كل حال يكون العبد عليه ممّا يبعده من الله وهو المسمّى ذنباً ومعصية ومخالفة، فإذا أقيم العبد في حق من أساء إليه من أمثاله وأشكاله فرجع عليه بالإحسان إليه والتجاوز عن إساءته فذلك هو التواب ما هو الذي رجع إلى الله، فإنه لا يصحّ أن يرجع إلى الله إلاّ من جهل أن الله معه على كل حال، وما خاطب الحق بقوله: ﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨١] إلاّ من غفل عن كون الله معه على كل حال كما قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] فإن رجعت إليه من حيث حساب أو سؤال فذلك رجوع في الحقيقة من حال أنت عليه حال ما أنت عليها.

ولما كانت الأحوال كلها بيد الله أضيف الرجوع إلى الله على هذا الوجه، فالراجع إلى الله إنما يرجع من المخالفة إلى الموافقة ومن المعصية إلى الطاعة، فهذا معنى حب التوّابين، فإذا كنت من التوّابين على من أساء في حقك كان الله تواباً عليك فيما أسأت من حقه فرجع عليك بالإحسان، فهكذا فلتعرف حقائق الأمور وتفهم معاني خطاب الله عباده وتميز بين المراتب فتكون من العلماء بالله وبما قاله، وجاء ذكره لهذه المحبة في التوّابين عقب ذكر الأذى الذي جعله في المحيض، وكذلك قال عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ كُلَّ مُفْتَنٍ تَوَّابٍ**» أي مختبر يريد أن يختبره الله بمن يسيء إليه من عباد الله فيرجع عليهم بالإحسان إليهم في مقابلة إساءتهم وهو التواب، لا أن الله يختبر عباده بالمعاصي، حاشا الله أن يضاف إليه مثل هذا وإن كانت الأفعال كلها لله من حيث كونها أفعالاً وما هي معاصي إلاّ من حيث حكم الله فيها بذلك، فجميع أفعال الله حسنة من حيث ما هي أفعال فافهم ذلك.

ومن ذلك حبّه للمتطهرين قال تعالىٰ: ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] فالتطهير صفة تقديس وتنزيه وهي صفته تعالىٰ، وتطهير العبد هو أن يميط عن نفسه كل أذى لا يليق به أن يرى فيه وإن كان محموداً بالنسبة إلى غير وهو مذموم شرعاً بالنسبة إليه، فإذا طهر نفسه من ذلك أحبه الله تعالىٰ كالكبرياء والجبروت والتفخر والخيلاء والعجب، فمنها صفات لا تدخل القلب جملة واحدة للطابع الإلهيّ الذي على القلوب وهو قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [سورة غافر: الآية ٣٥] فيظهر في ظاهره الكبرياء والجبروت على من استحق من قومه، إما في زعمه وتحيله، وإما في نفس الأمر وهو في قلبه معصوم من ذلك الكبرياء والجبروت لأنه يعلم عجزه وذلّته وفقره لجميع الموجودات، وأن قرصة البرغوث تؤلمه والمرحاض يطلبه لدفع ألم البول والخراءة عنه، ويفتقر إلى كسيرة خبز يدفع بها عن نفسه ألم الجوع، فمن صفته هذه كل يوم وليلة كيف يصحّ أن يكون في قلبه كبرياء وجبروت؟ وهذا هو الطبع الإلهيّ على قلبه فلا يدخله شيء من ذلك.

وأمّا ظهور ذلك على ظاهره فمسلم، ولكن جعل الله لها مواطن يظهر فيها بهذه الأوصاف ولا يكون مذموماً، وجعل لها مواطن يذمّه فيها، فمن طهر ذاته عن أن ترى عليه

هذه النعوت في غير مواطنها فهو متطهر ويحبه الله، كما نفى محبته عن كل مختال فخور، فإنه لا يظهر بهذه الصفة إلاّ من هو جاهل والجهل مذموم، ولهذا نهى الله نبيه ﷺ أن يكون جاهلاً. وقال لنوح عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [سورة هود: الآية ٤٦] فإنه لا يخلو أن يفتخر على مثله أو على ربه وخالقه، فإن افتخر على مثله فقد افتخر على نفسه، والشيء لا يفتخر على نفسه، ففخره واختياله جهل، ومحال أن يفتخر على خالقه لأنه لا بدّ أن يكون عارفاً بخالقه أو غير عارف بأن له خالقاً، فإن عرف وافتخر عليه فهو جاهل بما ينبغي أن يكون لخالقه من نعوت الكمال، وإن لم يعرف كان جاهلاً فما أبغضه الله ولم يحبه إلاّ لجهله، إذ لم يكن هذا في غير موطنه إلاّ لجهله، والجهل موت والعلم حياة وهو قوله تعالىٰ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٢] يعني بالعلم ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ وذلك نور الإيمان والكشف الذي أوحى الله به إليه أو امتن به عليه، فالمتطهر من مثل هذه النعوت محبوب لله فافهم.

ومن ذلك حبّه المطهرين قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٨] وهم الذين طهروا غيرهم كما طهروا نفوسهم، فتعدّت طهارتهم إلى غيرهم فقاموا فيها مقام الحق نيابة عنه، فإنه المطهر على الحقيقة والحافظ والعاصم والواقي والغافر، فمن منع ذاته وذات غيره أن يقوم بها ما هو مذموم في حقّها عند الله فقد عصمها وحفظها ووقاها وسترها عن قيام أمثال هذه بها، فهو مطهر لها بما علمها من علم ما ينبغي لينفر عنه بنور العلم وحياته ظلمة الجهالة وموتها، فيكون في ميزانه يوم القيامة ومن الأنوار التي تسعى بين يديه وهو محبوب عند الله مخصوص بعناية وولاية إلهية واستخلاف، والولاة الخلفاء من المقربين ممّن استخلفهم عليهم لأنهم موضع مقصور من استخلفهم دون غيرهم، وكل إنسان وال على جوارحه فما فوق ذلك، وقد أعلمه الله بما هي الطهارة التي يطهر بها رعاياه.

ومن ذلك حبّه للصابرين وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٦] وهم الذين ابتلاهم الله فحبسوا نفوسهم عن الشكوى إلى غير الله الذي أنزل بهم هذا البلاء ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ﴾ عن حمله لأنهم حملوه بالله وإن شقّ عليهم لا بدّ من ذلك وإن لم يشق عليهم فليس ببلاء ﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٦] لغير الله في إزالته ولجؤوا إلى الله في إزالته كما قال العبد الصالح: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٣] فرفع الشكوى إليه لا إلى غيره، فأثنى الله عليه بأنه وجده صابراً ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [سورة ص: الآية ٣٠] مع هذه الشكوى، فدل أن الصابر يشكو إلى الله لا إلى غيره بل يجب عليه ذلك لما في الصبر إن لم يشك إلى الله من مقاومة القهر الإلهيّ وهو سوء أدب مع الله، والأنبياء عليهم السلام أهل أدب وهم على علم من الله فإنك تعلم أن صبرك ما كان إلاّ بالله ما كان من ذاتك ولا من حولك وقوّتك فإن الله يقول: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٧] فبأي شيء تفتخر وهو ليس لك؟ فما ابتلى الله عباده إلاّ ليلجؤوا في رفع ذلك إليه ولا يلجؤوا في رفعه إلى غيره، فإذا فعلوا ذلك كانوا من الصابرين وهو

محبوب الله. ومن أسمائه تعالىٰ النعتية الصبور فما أحب إلاّ من رأى خلعته عليه، ثم إن هنا سراً وأقامك فيه مقامه، فإن الصبر لا يكون إلاّ على أذى، وقد عرفنا أن في خلقه من يؤذي الله ورسوله ونعتهم لنا لنعرفهم فندفع ذلك الأذى عنه تعالىٰ بمقاتلتهم أو بتعليمهم إن كانوا جاهلين طالبين العلم وقد سمّى نفسه صبوراً، وقد رفع إلينا ما أوذي به وعرفنا بهم لنذب عنه وندفع الأذى مع الاتصاف بالصبور لنعلم أنا إذا شكونا إليه ما نزل من البلاء وسألناه في رفعه عنا وسؤالنا إياه لا يزول عنا اسم الصبر فلا تزول عنا محبته كما لم يزل عنه اسم الصبور بتعريفه إيانا من أذاه حتى ندفع عنه، فإنه ورد في الصحيح: «**لَيسَ أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَىٰ أَذَى مِنَ اللَّهِ**» فاجعل بالك لما نبهناك عليه.

ومن ذلك حب الشاكرين، فوصف الحق نفسه في كتابه إنه يحب الشاكرين﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٤] والشكر نعمته فإنه شاكر عليم، فما أحب من العبد إلاّ ما هو صفة له ونعت، والشكر لا يكون إلاّ على النعم لا على البلاء كما يزعم بعضهم ممّن لا علم له بالحقائق لأنه تعالىٰ أبطن نعمته في نقمته ونقمته في نعمته، فالتبس على من لا علم له بالحقائق أي بحقائق الأمور فتخيل أنه يشكر على البلاء وليس بصحيح، كشارب الدواء المكروه وهو من جملة البلاء ولكن هو بلاء على من يهلك به وهو المرض الذي لأجله استعمله، فالألم هو عدوّ هذا الدواء، إياه يطلب، ولكن لما قام البلاء بهذا المحل الواجد للألم ورد عليه المنازع الذي يريد إزالته من الوجود وهو الدواء فوجد المحل لذلك كراهة، وعلم أنه في طيّ ذلك المكروه نعمة لأنه المزيل للألم، فشكر الله تعالىٰ على ما فيه من النعمة وصبر على ما يكره من استعماله لعلمه بأنه طالب ذلك الألم حتى يزيله، فما سعى إلاّ في راحة هذا المحل فتفطن لهذا، فلهذا كان شاكراً، فلما شكره على ما في هذا المكروه من النعمة الباطنة زاده نعمة أخرى وهي العافية وإزالة المرض وتصبره الدواء الكره عليه ولذلك قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٧] فزاده العافية، وكذلك أيضاً لما أوذي الحق وسعينا في إزالة ذلك المؤذي بأن آذيناه أو سسناه حتى رجع عن الأمر الذي كان يؤذي الحق به، فإن كنا قد آذينا هذا المؤذي بقتال وأمثاله كان ذلك للحق بمنزلة شرب الدواء الذي يكرهه المريض في الحال ويراه نعمة لما فيه من إزالة ذلك الأمر المؤذي، وإنما قلنا ذلك لأن الكل من فعله وقضائه وقدره، وقد أوحى الله لنبيه داود أن يبني له بيتاً يعني بيت المقدس فكلما بناه تهدم فقال له ربه فيما أوحى إليه أنه لا يقوم على يديك فإنك سفكت الدماء، فقال له: يا رب ما كان ذلك إلاّ في سبيلك، فقال: صدقت ما كان إلاّ في سبيلي ومع هذا أليسوا عبيدي؟ فلا يقوم هذا البيت إلاّ على يد مطهرة من سفك الدماء، فقال: يا رب اجعله مني، فأوحى الله إليه أنه يقوم على يد ولدك سليمان فبناه سليمان عليه السلام، فهذا عين ما نبهتك عليه إن تفطنت، ومن هنا تعرف الأمر على ما هو عليه، وأن مبني الأمر الإلهي أبداً على هو لا هو، فإن لم تعرفه كذا فما عرفته ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فهذا عين ما قلناه من أنه هو لا هو، وهنا حارت عقول من لم يشاهد الحقائق على ما هي

عليه، فلما أزال العبد هذا الأذى عن جناب الحق وإن كان فيه ما في استعمال الدواء شكره الله على ذلك، والشكر يطلب المزيد، فطلب من عباده سبحانه بشكره أن يزيدوه فزادوه في العمل وهو قوله عليه السلام: «**أَفَلاَ أَكونُ عَبْداً شَكُوراً**» فزاد في العبادة لشكر الله له شكراً، فزاد الحق في الهداية والتوفيق في موطن الأعمال حتى إلى الآخرة حيث لا عمل ولا ألم على السعداء.

وأمّا التنبيه على استعمال الدواء الكره في إماطة الأذى عن الله فقد أبان عنه الحق في قوله في قبضه نسمة عبده المؤمن فوصف نفسه تعالىٰ بأنه يكره مساءة عبده لكون العبد يكره الموت ولا بدّ له منه مع أنه وصفه نفسه بأنه كاره لذلك، فهذا عين كراهة ما يجده المريض في شرب الدواء، لأن مرتبة العلم تعطي ذلك فإنه وقوع خلاف المعلوم محال، فلا بدّ من وجوب وجود العالم لما تعطيه الحقائق الإلهية وأين الإمكان من الوجوب! فاشحذ فؤادك واعلم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٨] فأردف وصفه نفسه بالشكر وصفه بالعلم، فزد في عملك تكن قد جازيت ربك على شكره إياك على ما عملت له، وذلك العمل هو الصوم فإنه له ودفع الأذى عنه وهو قوله: «هل واليت فيّ ولياً أو عاديت فيّ عدوّاً». وهو قوله: «وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتجالسين فيّ»، والمتباذلين فيّ، والله يجعلنا ممن أنعم عليه فرأى نعمة الله عليه في كل حال فشكر.

ومن ذلك حب المحسنين وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٤] والإحسان صفته وهو المحسن المجمل فصفته أحب وهي الظاهرة في نفسه، والإحسان الذي به يسمّى العبد محسناً هو أن يعبد الله كأنه يراه أي يعبده على المشاهدة، وإحسان الله هو مقام رؤيته عباده في حركاتهم وتصرّفاتهم وهو قوله: ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فشهوده لكل شيء هو إحسانه فإنه بشهوده يحفظه من الهلاك، فكل حال ينتقل فيه العبد فهو من إحسان الله إذ هو الذي نقله تعالىٰ ولهذا سمّي الإنعام إحساناً فإنه لا ينعم عليك بالقصد إلاّ من يعلمك، ومن كان علمه عين رؤيته فهو محسن على الدوام فإنه يراك على الدوام لأنه يعلمك دائماً، وليس الإحسان في الشرع إلاّ هذا وقد قال له: فإن لم تكن تراه فإنه يراك، أي فإن لم تحسن فهو المحسن، وهذا تعليم النبيّ ﷺ لجبريل بحضور الصحابة من باب قولهم: إياك أعني فاسمعي يا جارة، فالمخاطب غير مقصود بذلك العلم فإنه عالم به، والمقصود به من حضر من السامعين، وبهذا فسّره رسول الله ﷺ فقال في هذا الحديث: هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم، ومن ذلك حب المقاتلين في سبيل الله بوصف خاص قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [سورة الصف: الآية ٤] يريد لا يدخله خلل فإن الخلل في الصفوف طرق الشياطين والطريق واحدة وهي سبيل الله، وإذا قطع هذا الخط الظاهر من النقط ولم يتراص لم يظهر وجود للخط والمقصود وجود الحظ، وهذا معنى الرص لوجود سبيل الله، فمن لم يكن له تعمّل في ظهور سبيل الله فليس من أهل الله، وكذلك صفوف المصلين لا

تكون في سبيل الله حتى تتصل وتتراص الناس فيها، وحينئذ يظهر سبيل الله في عينه، فمن لم يفعل وأدخل الخلل كان ممّن سعى في قطع سبيل الله وإزالته من الوجود، فأراد الله من عباده في مثل هذا أن يجعلهم من الخالقين ولذلك قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] ولا يكون السبيل إلاّ هكذا، كالخط الموجود من النقط المتجاورة التي ليس بين كل نقطتين حيز فارغ لا نقطة فيه وحينئذ تظهر صورة الحظ، كذلك الصف لا يظهر فيه سبيل الله حتى يتراص الناس فيه فهو يطلب الكثرة وهو في جناب الله تراص أسمائه تبارك وتعالىٰ، فيظهر عن تراصها سبيل الخلق فيكون الحيّ وإلى جانبه العليم ولا يكون بينهما فراغ لاسم آخر، ويكون إلى جانبه المريد، ويكون إلى جانبه القائل، ويكون إلى جانبه القادر، ويكون إلى جانبه الحكم، وإلى جانبه المقيت، وإلى جانبه المقسط، وإلى جانبه المدبر، وإلى جانبه المفصل، وإلى جانبه الرازق، وإلى جانبه المحيي، فهكذا يكون صف الأسماء الإلهية لإيجاد سبيل الخلق الذي يكون بهذا التراص وجوده، فإذا ظهرت هذه السبيل وليست بزائدة على تراص هذه الأسماء فاتصف الخلق بهذه الأسماء لأنها بتراصهاوهو حالها عن طريق الخلق، فلا تزال ظاهرة في الخلق لا تعقل إلاّ هكذا، فالعالم حيّ عالم مريد قائل قادر حكم مقيت مقسط مدبر مفصل هكذا إلى بقية الأسماء الإلهية، وهو المعبر عنه في الطريق بالتخلق بالأسماء فتظهر في العبد كما تظهر في إيجاد الطريق المستقيم بتراصها، فإن دخلها في الكون خلل زال سبيل الله وظهرت سبل الشياطين التي تتخلل خلل الصفوف كما ورد في الخبر، فَاجْعَلْ بَالَكَ لِمَا نَبَّهْتُكَ عَلَيْهِ.

فإذا قام العبد بأسماء الحق مقام الأسماء في إيجاد الخلق وقاتل بهذه الصفة الأعداء الذين هم بمنزلة الشياطين التي تتخلل خلل الصف فبالضرورة ينصرون لأنه لم يبق هناك خلل يدخل منه العدوّ فأحب الله من هذه صفتهم، وكذا الإنسان وحده هو صف في كل ما هو فيه متحرك، فتكون حركاته كلها لله لا يتخللها شيء لغير الله فلا يقاومه أحد، فإن الأعداء أبصارهم إليه محدقة ينظرون في حركاته وأفعاله عسى يجدون خللاً يدخلون عليه منه، فيقطعون بينه وبين الله بقطع سبيل الله وكل فعل خط فإنه مجموع أسماء إلهية وصفات محمودة والأفعال كثيرة فيكثف الأمر ويعظم وتظهر صور المركبات في العالم، إذ كل خطين فما زاد سطح، وكل سطحين جسم، وكل جسم فمركب من ثمانية وهو صورة كمال ظهرت عن ذات وسبع صفات فغاية التركيب الجسم وليس وراءه مرتبة، وقد قام على ثمانية بلا خلاف بين الجميع، وما زاد على هذا فهو أجسم أي أكثر سطوحاً، وإذا كان أكثر سطوحاً كان أكثر خطوطاً، وإذا كان أكثر خطوطاً كان أكثر نقطاً، فلم يزد على ما تركب منه الجسم الذي هو أوّل الأجسام مادّة غير ما قبله الأوّل أو كان به الجسم الأوّل، فمن تراص في صفّه كان خلاقاً، قال تعالىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] فأثبت لهم هذا الوصف وجعل نفسه أحسن لأوليته في ذلك إذ لولاه ما ظهرت أعيان هؤلاء الخالقين، فأثبت ما أثبت الله ولا تزله فتحرم فائدة العلم بموافقة الحق فتكون من المخالفين فتكون من

الجاهلين، فمن كان بهذه الصفة كان محبوباً لله تعالىٰ، ومن كان محبوباً لم يدر أحد ما يعطيه محبه إذ لنفسه يعطي، وقد تعرّضت هنا مسألة يجب بيانها وهي أن الله أحب أولياءه والمحب لا يؤلم محبوبه وليس أحد بأشدّ ألماً في الدنيا ولا بلاء من أولياء الله رسلهم وأنبيائهم وأتباعهم المحفوظين المعانين على اتباعهم، فمن أي حقيقة استحقوا هذا البلاء مع كونهم محبوبين؟ فلنقل إن الله قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] والبلاء أن لا يكون أبداً إلاّ مع الدعوى، فمن لم يدع أمراً مّا لا يبتلى بإقامة الدليل على صدق دعواه، فلولا الدعوى ما وقع البلاء، غير أن الرسول ما يطالب بالدليل فإنه ما ادّعى ولهذا يقال: ليس على النافي إقامة دليل، وليس الأمر كذلك بل عليه الدليل إذا ادّعى النفي، فإن ادّعى النفي في أمر مّا فذلك ثبوت عين الدعوى، فيطالب النافي من حيث دعواه على إقامة الدليل لأنه مثبت. ولما أحبّ الله من أحبّ من عباده رزقهم محبته من حيث لا يعلمون، فوجدوا في نفوسهم حبّاً لله فادعوا أنهم من محبي الله فابتلاهم الله من كونهم محبين وأنعم عليهم من كونهم محبوبين، فإنعامه دليل على محبته فيهم ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] وابتلاؤه إياهم لما ادعوه من حبهم إياه، فلهذا ابتلى الله أحبابه من المخلوقين. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ومن ذلك حب الجمال هو نعت إلهيّ، ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**» فنبهنا بقوله جميل أن نحبه فانقسمنا في ذلك على قسمين: فمنا من نظر إلى جمال الكمال وهو جمال الحكمة فأحبه في كل شيء لأن كل شيء محكم وهو صنعة حكيم، ومنا من لم تبلغ مرتبته هذا وما عنده علم بالجمال إلاّ هذا الجمال المقيد الموقوف على الغرض وهو في الشرع موضع قوله: «**اعْبدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» فجاء بكاف الصفة فتخيل هذا الذي لم يصل إلى فهمه أكثر من هذا الجمال المقيد فقيده به كما قيده بالقبلة فأحبه لجماله، ولا حرج عليه في ذلك فإنه أتى بأمر مشروع له على قدر وسعه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] وبقي علينا حبّه تعالىٰ للجمال. فاعلم أن العالم خلقه الله في غاية الإحكام والإتقان كما قال الإمام أبو حامد الغزالي من أنه لم يبق في الإمكان أبدع من هذا العالم، فأخبر أنه تعالىٰ «خلق آدم على صورته»والإنسان مجموع العالم، ولم يكن علمه بالعالم تعالىٰ إلاّ علمه بنفسه إذ لم يكن في الوجود إلاّ هو فلا بدّ أن يكون على صورته، فلما أظهره في عينه كان مجلاه فما رأى فيه إلاّ جماله فأحب الجمال، فالعالم جمال الله فهو الجميل المحب للجمال، فمن أحب العالم بهذا النظر فقد أحبّه بحب الله، وما أحبّ إلا جمال الله، فإن جمال الصنعة لا يضاف إليها وإنما يضاف إلى صانعه، فجمال العالم جمال الله وصورة جماله دقيق أعني جمال الأشياء، وذلك أن الصورتين في العالم وهما مثلا شخصان ممّن يحبهما الطبع وهما جاريتان أو غلامان قد اشتركا في حقيقة الإنسانية فهما مثلان، وكمال الصورة التي هي أصول من كمال الأعضاء والجوارح وسلامة المجموع والآحاد من العاهات والآفات ويتصف أحدهما بالجمال فيحبه كل من رآه، ويتصف الآخر بالقبح فيكرهه كل من رآه، فما هو الجمال الذي انطلق عليه اسم الجمال حتى أحبه كل من رآه؟ فقد وكلناك في علم ذلك إلى نفسك ونظرك، فهذا إذا وقع حب الشخص من

مجرّد الرؤية خاصة لا بعد الصحبة والمعاشرة، فدبّر وانظر تعثر إن شاء الله على عين الأمر في وصف الحق نفسه بأنه جميل وبحبه للجمال مع خلقه المكروه والمضار وما لا يلائم الطباع ولا يوافق الأغراض، فهذا قد ذكرنا طرفاً من الصفات التي يحب الله من اتصف بها وهي كثيرة جداً، فقد نبهناك بما ذكرناه على مأخذها وكيف يتصرّف الإنسان فيها، فلنذكر طرفاً من نعوت الحب الذي ينبغي أن يكون المحب عليها إن شاء الله وبها يسمّى محباً فهي كالحدود للحب.

فمن ذلك أنه موصوف بأنه مقتول تالف سائر إليه بأسمائه طيار دائم السهر كامن الغم راغب في الخروج من الدنيا إلى لقاء محبوبه، متبرّم بصحبة ما يحول بينه وبين لقاء محبوبه، كثير التأوّه يستريح إلى كلام محبوبه وذكره بتلاوة ذكره، موافق لمحاب محبوبه، خائف من ترك الحرمة في إقامة الخدمة، يستقل الكثير من نفسه في حق ربه، يستكثر القليل من حبيبه، يعانق طاعة محبوبه ويجانب مخالفته، خارج عن نفسه بالكلية لا يطلب الدية في قتله، يصبر على الضراء التي ينفر منها الطبع لما كلفه محبوبه من تدبيره، هائم القلب مؤثر محبوبه على كل مصحوب ملتذ في دهش جاوز الحدود بعد حفظها غيور على محبوبه منه يحكم حبه فيه على قدر عقله، جرحه جبار، لا يقبل حبه الزيادة بإحسان المحبوب ولا النقص بجفائه، ناس حظه وحظ محبوبه غير مطلوب بالآداب، مخلوع النعوت، مجهول الأسماء كأنه سال وليس بسال، لا يفرق بين الوصل والهجر هيمان متيم في إدلال، ذو تشويش خارج عن الوزن، يقول عن نفسه إنه عين محبوبه، مصطلم مجهود، لا يقول لمحبوبه: لم فعلت كذا أو قلت كذا مهتوك الستر سرّه علانية فضيحة الدهر لا يعلم الكتمان لا يعلم أنه محب كثير الشوق ولا يدري إلى من، عظيم الوجد ولا يدري فيمن، لا يتميز له محبوبه، مسرور محزون موصوف بالضدين، مقامه الخرس حاله يترجم عنه لا يحب العوض، سكران لا يصحو مراقب متحر لمراضيه مؤثر في المحبوب الرحمة به والشفقة لما يعطيه شاهد حاله ذو أشجان كلما فرغ نصب لا يعرف التعب، روحه عطية وبدنه مطية لا يعلم شيئاً سوى ما في نفس محبوبه قرير العين لا يتكلم إلاّ بكلامه، هم المسمّون بحملة القرآن لما كان المحبون جامعين جميع الصفات كانوا عين القرآن كما قالت عائشة وقد سُئِلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «**كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ**» لم تجب بغير هذا. وسُئِل ذو النون عن حملة القرآن من هم؟ فقال: هم الذين أمطرت عليهم سحاب الأشجان، وأنصبوا الركب والأبدان، وتسربلوا الخوف والأحزان، وشربوا بكأس اليقين، وراضوا أنفسهم رياضة الموقنين، فكان قرّة أعينهم فيما قلّ وزجا وبلغ وكفا وستر ووارى، كحلوا أبصارهم بالسهر، وغضوها عن النظر، وألزموها العبر، وأشعروها الفكر، فقاموا ليلهم أرقاً، واستهلت آماقهم نسقاً، صحبوا القرآن بأبدان ناحلة، وشفاه ذابلة، ودموع زائلة، وزفرات قاتلة، فحال بينهم وبين نعيم المتنعمين، وغاية آمال الراغبين، فاضت عبراتهم من وعيده، وشابت ذوائبهم من تحذيره، فكان زفير النار تحت أقدامهم، وكان وعيده نصب قلوبهم.

ومن ألطف ما روينا في حال المحب عن شخص من المحبين دخل على بعض الشيوخ

فتكلم الشيخ له على المحبة فما زال ذلك الشخص ينحل ويذوب ويسيل عرقاً حتى تحلل جسمه كله وصار على الحصير بين يدي الشيخ بركة ماء ذاب كله، فدخل عليه صاحبه فلم ير عند الشيخ أحداً فقال له: أين فلان؟ فقال الشيخ: هوذا، وأشار إلى الماء ووصف حاله، فهذا تحليل غريب واستحالة عجيبة حيث لم يزل ينحف عن كثافته حتى عاد ماء، فكان أولاً حياً بماء فعاد الآن يحيي كل شيء لأن الله قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] فالمحب على هذا من يحيا به كل شيء.

وأخبرني والدي رحمه الله أو عمّي لا أدري أيهما أخبرني أنه رأى صائداً قد صاد قمرية حمامة أيكة فجاء ساق حر وهو ذكرها فلما نظر إليها وقد ذبحها الصائد طار في الجوّ محلقاً إلى أن علا ونحن ننظر إليه حتى كاد يخفى عن أبصارنا ثم إنه ضم جناحيه وتكفن بهما وجعل رأسه ممّا يلي الأرض ونزل نزولاً له دويّ إلى أن وقع عليها فمات من حينه ونحن ننظر إليه، هذا فعل طائر، فيأيها المحب أين دعواك في محبة مولاك؟

وحدّثنا محمد بن محمد عن هبة الرحمن عن أبي القسم بن هوازن قال: سمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت أحمد بن علي يقول: سمعت إبراهيم بن فاتك يقول: سمعت سمنوناً وهو جالس يتكلم في المسجد في المحبة وجاء طير صغير قريباً منه ثم قرب فلم يزل يدنو حتى جلس على يده ثم ضرب بمنقاره الأرض حتى سال منه الدم ومات. هذا فعل الحب في الطائر قد أفهمه الله قول هذا الشيخ فغلب عليه الحال وحكم عليه سلطان الحب موعظة للحاضرين وحجة على المدعين، لقد أعطانا الله منها الحظ الوافر إلاّ أنه قوّانا عليه، والله إني لأجد من الحب ما لو وضع في ظني على السماء لانفطرت، وعلى النجوم لانكدرت، وعلى الجبال لسيّرت، هذا ذوقي لها، لكن قواني الحق فيها قوّة من ورثته وهو رأس المحبين أني رأيت فيها في نفسي من العجائب ما لا يبلغه وصف واصف، والحب على قدر التجلّي والتجلّي على قدر المعرفة، وكل من ذاب فيها وظهرت عليه أحكامها فتلك المحبة الطبيعية، ومحبة العارفين لا أثر لها في الشاهد فإن المعرفة تمحو آثارها لسرّ تعطيه لا يعرفه إلاّ العارفون، فالمحب العارف حيّ لا يموت روح مجرد لا خبر للطبيعة بما يحمله من المحبة، حبّه إلهيّ وشوقه ربانيّ مؤيد باسمه القدّوس عن تأثير الكلام المحسوس، برهان ذلك هذا الذي ذاب حتى صار ماء، لو لم يكن ذا حب ما كان هذا حاله فقد كان محباً ولم يذب حتى سمع كلام الشيخ فثار كامن حبه فكان منه ما كان، فالحب لا حكم له في المحب حتى يثيره كلام متكلم حب طبيعيّ لأن الطبيعة هي التي تقبل الاستحالة والإثارة إذ قد كان موصوفاً بالحب قبل كلام الشيخ ولم يذب هذا الذوبان الذي صيّره ماء بعدما كان عظماً ولحماً وعصباً، فلو كان إلهيّ الحب ما أثرت فيه كلمات الحروف ولا هزّت روحانيته هذه الظروف، فاستحى من دعواه في الحب وقام في قلبه نار الحياء فما زال يحلله إلى أن صار كما حكى، فلا يلحق التغيير في الأعيان وانتقل في أطوار الأكوان إلاّ صاحب الحب الطبيعيّ، وهذا هو الفرقان بين الحب الروحانيّ الإلهيّ وبين الحب الطبيعيّ.

والحب الروحانيّ وسط بين الحب الإلهيّ والطبيعي فيما هو إلهيّ يبقى عينه، وبما هو طبيعيّ يتغير الحال عليه ولا يفنيه، فالفناء أبداً من جهة الحب الطبيعيّ، وبقاء العين من جانب الحب الإلهيّ جبريل لما كان حبّه روحانياً وهو روح وله وجه إلى الطبيعة من حيث جسميته، لأن الأجسام الطبيعية الخارجة عن العناصر لا تستحيل بخلاف الأجسام العنصرية فإنها تستحيل لأنها عن أصول مستحيلة، والطبيعة لا تستحيل في نفسها لأن الحقائق لا تنقلب أعيانها، فغشي على جبريل ولم يذب عين جوهر جسمه كما ذاب صاحب الحكاية فغشي عليه من حيث ما فيه من حب الطبيعة وبقي العين منه من حيث حبّه الإلهيّ، فالمحب الإلهيّ روح بلا جسم، والمحب الطبيعيّ جسم بلا روح، والمحب الروحانيّ ذو جسم وروح، فليس للمحب الطبيعيّ العنصري روح يحفظه من الاستحالة، فلهذا يؤثر الكلام في المحبة في المحب الطبيعيّ، ولا يؤثر في المحب بالحب الإلهيّ، ويؤثر بعض تأثير في المحب بالحب الروحانيّ حدّثنا محمد بن إسماعيل اليمني بمكة قال: حدثنا عبد الرحمن بن علي قال: أنبأنا أبو بكر بن حبيب العامري قال: أنبأنا علي بن أبي صادق قال: أخبرنا أبو عبد الله بن باكويه الشيرازي قال: أخبرنا بكران بن أحمد قال: سمعت يوسف بن الحسين قال: كنت قاعداً بين يدي ذي النون وحوله ناس وهو يتكلم عليهم والناس يبكون وشاب يضحك فقال له ذو النون: ما لك أيها الشاب؟ الناس يبكون وأنت تضحك! فأنشأ يقول: [الخفيف]

كلُّهم يعبدونَ من خَوْفِ نارٍ ... وَيَرَوْنَ النجاةَ حظاً جَزيلاَ
ليس لي في الجنان والنارِ رأيٌ ... أنا لا أبْتَغي بحبِّي بَديلاَ

فقيل له: فإن طردك فماذا تفعل؟ فقال: [الخفيف]

فإذا لم أَجِدْ من الحبِّ وصلاً ... رُمْتُ في النار منزلاً ومَقِيلا
ثم أزْعَجْتُ أهلَها ببكائي ... بُكْرةً في ضَريعها وأصيلا
معْشَرَ المشركين نوحوا عليَّ ... أنا عَبْدٌ أحببتُ مولًى جليلا
إن لم أكُنْ في الذي ادَّعيْتُ صدوقاً ... فجزاني منه العذابَ الوبيلا

وخدمت أنا بنفسي امرأة من المحبات العارفات بإشبيلية يقال لها فاطمة بنت ابن المثنى القرطبي خدمتها سنين وهي تزيد في وقت خدمتي إياها على خمس وتسعين سنة، وكنت أستحي أن أنظر إلى وجهها وهي في هذا السن من حمرة خديها وحسن نعمتها وجمالها تحسبها بنت أربع عشرة سنة من نعمتها ولطافتها، وكان لها حال مع الله، وكانت تؤثرني على كل من يخدمها من أمثالي وتقول: ما رأيت مثل فلان إذا دخل عليّ دخل بكله لا يترك منه خارجاً عني شيئاً، وإذا خرج من عندي خرج بكله لا يترك عندي منه شيئاً. وسمعتها تقول: عجبت لمن يقول: إنه يحب الله ولا يفرح به وهو مشهوده عينه إليه ناظرة في كل عين لا يغيب عنه طرفة عين، فهؤلاء البكاؤون كيف يدعون محبته ويبكون أما يستحيون إذا كان قربه مضاعفاً من قرب المتقربين إليه والمحب أعظم الناس قربة إليه فهو مشهوده فعلى من يبكي إن هذه لأعجوبة. ثم تقول لي: يا ولدي ما تقول فيما أقول؟ فأقول لها: يا أمي القول قولك،

قالت: إني والله متعجبة لقد أعطاني حبيبي فاتحة الكتاب تخدمني فوالله ما شغلتني عنه. فذلك اليوم عرفت مقام هذه المرأة لما قالت: إن فاتحة الكتاب تخدمها، فبينا نحن قعود إذ دخلت امرأة فقالت لي: يا أخي إن زوجي في شريش شذونة أخبرت أنه يتزوج بها فماذا ترى؟ قلت لها: وتريدين أن يصل؟ قالت: نعم، فرددت وجهي إلى العجوز وقلت لها: يا أم ألا تسمعين ما تقول هذه المرأة؟ قالت: وما تريد يا ولدي؟ قلت: قضاء حاجتها في هذا الوقت وحاجتي أن يأتي زوجها، فقالت: السمع والطاعة إني أبعث إليه بفاتحة الكتاب وأوصيها أن تجيء بزوج هذه المرأة، وأنشأت فاتحة الكتاب فقرأتها وقرأت معها فعلمت مقامها عند قراءتها الفاتحة وذلك أنها تنشئها بقراءتها صورة مجسدة هوائية فتبعثها عند ذلك، فلما أنشأتها صورة سمعتها تقول لها: يا فاتحة الكتاب تروحي إلى شريش وتجيئي بزوج هذه المرأة ولا تتركيه حتى تجيئي به، فلم يلبث إلاَّ قدر مسافة الطريق من مجيئه فوصل إلى أهله وكانت تضرب بالدف وتفرح فكنت أقول لها في ذلك فتقول لي: إني أفرح به حيث اعتنى بي وجعلني من أوليائه واصطنعني لنفسه، ومن أنا حتى يختارني هذا السيد على أبناء جنسي، وعزّة صاحبي لقد يغار عليّ غيرة ما أصفها ما ألتفت إلى شيء باعتماد عليه عن غفلة إلاَّ أصابني ببلاء في ذلك الذي التفت إليه ثم أرتني عجائب من ذلك فما زلت أخدمها بنفسي وبنيت لها بيتاً من قصب بيدي على قدر قامتها فما زالت فيه حتى درجت، وكانت تقول لي: أنا أمك الإلهية ونور أمك الترابية، وإذا جاءت والدتي إلى زيارتها تقول لها: يا نور هذا ولدي وهو أبوك فبريه ولا تعقيه.

أخبرنا يونس بن يحيىٰ بمكة سنة تسع وتسعين وخمسمائة قال: أخبرنا أبو بكر بن الغزال قال: أخبرنا أبو الفضل بن أحمد قال: أخبرنا أحمد بن عبد الله قال: حدثنا عثمان بن محمد العثماني قال: حدثنا محمد بن إبراهيم المذكر حدثنا محمد بن يزيد قال: سمعت ذا النون يقول: خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام فبينا أنا أطوف إذ أنا بشخص متعلق بأستار الكعبة وإذا هو يبكي ويقول في بكائه: كتمت بلائي من غيرك، وبحت بسري إليك، واشتغلت بك عمّن سواك، عجبت لمن عرفك كيف يسلو عنك، ولمن ذاق حبك كيف يصبر عنك، ثم أنشأ يقول: [الكامل]

ذوَّقْتَني طَعْمَ الوصال فَزِدْتَني ... شَوْقاً إليك مُخامِرَ الأحْشاءِ

ثم أقبل يخاطب نفسه فقال: أمهلك فما ارعويت، وستر عليك فما استحييت، وسلبك حلاوة المناجاة فما باليت، ثم قال: عزيزي ما لي إذا قمت بين يديك ألقيت عليّ النعاس ومنعتني حلاوة مناجاتك لم قرة عيني لمه؟ ثم أنشأ يقول: [الكامل]

روَّعْتَ قلبي بالفراق فلم أجِدْ ... شيئاً أمرَّ من الفراق وأوْجَعَا
حَسْبُ الفراق بأن يفرِّقَ بيننا ... ولطالما قد كنتُ منه مُرَوَّعا

قال ذو النون: فأتيت إليه فإذا به امرأة.

حكاية محب أذاع سرّ محبوبه: أخبرنا محمد بن إسماعيل بن أبي الصيف، حدثنا

عبد الرحمن بن علي، أخبرنا المحمدان ابن ناصر وابن عبد الباقي، وحدثني أيضاً عنهما يونس بن يحيىٰ قالا: أخبرنا حمد بن أحمد أخبرنا أحمد بن عبد الله، حدثنا أحمد بن محمد المتوكلي، حدثنا أحمد بن علي بن ثابت، أخبرنا علي بن القاسم الشاهد قال: سمعت أحمد بن محمد بن عيسىٰ الرازي قال: سمعت يوسف بن الحسين يقول: كان شاب يحضر مجلس ذي النون المصري مدة ثم انقطع عنه زماناً ثم حضر عنده وقد اصفرّ لونه ونحل جسمه وظهرت آثار العبادة عليه والاجتهاد فقال له ذو النون: يا فتى ما الذي أكسبك خدمة مولاك واجتهادك من المواهب التي منحك بها ووهبها لك واختصّك بها؟ فقال الفتى: يا أستاذ وهل رأيت عبداً اصطنعه مولاه من بين عبيده واصطفاه وأعطاه مفاتيح الخزائن ثم أسر إليه سرّاً أيحسن أن يفشي ذلك السرّ؟ ثم أنشأ يقول: [البسيط]

مَنْ سارروه فأبدى السرَّ مجتهداً ... لم يَأْمَنوه على الأسرار ما عَاشَا
وباعدوه فلم يَسْعَدْ بقُرْبِهِمُ ... وأَبْدَلوه من الإيناس إيحَاشَا
لا يَصْطَفُون مذيعاً بعضَ سرِّهِمُ ... حاشى وِدَادَهُمْ من ذلكُمْ حَاشَا

يقول: لا يصحّ لاجتهاد في سرّ المحبوب المحب بل ينتظر أمر محبوبه، فإن أمره بإذاعته أذاعه، وإن لم فالأصل الكتمان، ولقد منحني الله سرّاً من أسراره بمدينة فاس سنة أربع وتسعين وخمسمائة فأذعته فإني ما علمت أنه من الأسرار التي لا تذاع فعوتبت فيه من المحبوب، فلم يكن لي جواب إلاّ أني قلت له: تولّ أنت أمر ذلك فيمن أودعته إياه إن كانت لك غيرة عليه فإنك تقدر ولا أقدر، وكنت قد أودعته نحواً من ثمانية عشر رجلاً فقال لي: أنا أتولى ذلك، ثم أخبرني أنه سله من صدورهم وسلبهم إياه وأنا بسبتة، فقلت لصاحبي عبد الله الخادم: إن الله أخبرني أنه فعل كذا وكذا فقم بنا نسافر إلى مدينة فاس حتى نرى ما ذكر لي في ذلك، فسافرت فلما جاءتني تلك الجماعة وجدت الله قد سلبهم ذلك وانتزعه من صدورهم فسألوني عنه فسكت عنهم، وهذا من أعجب ما جرى لي في هذا الباب، فللّه الحمد حيث لم يعاقبني بالوحشة التي قالها هذا الشاب لذي النون، ولما كان طريق الله ذوقاً تخيّل هذا الشاب أن الذي عامله به الحق هكذا يعامل به جميع الخلق، فذوقه صحيح وحكمه في ذلك على الله ليس بصحيح، وهذا يقع في الطريق كثيراً إلاّ من المحققين فإنه لا يقع لهم مثل هذا لمعرفتهم بمراتب الأمور وحقائقها وهو علم عزيز المنال.

وروينا عن ذي النون من حديث محمد بن يزيد عن ذي النون قال: قلت لامرأة: متى يحوي الهموم قلب المحب؟ قالت: إذا كان للتذكار مجاوراً وللشوق محاضراً، يا ذا النون، أما علمت أن الشوق يورث السقام وتجديد التذكار يورث الحزن؟ ثم قالت: [الخفيف]

لم أذُقْ طِيْبَ طَعْمِ وَصْلِكَ حتى ... زالَ عني محبَّتي للأنام

قال فأجبتها: [الكامل]

نِعْمَ المحبُّ إذا تزايَدَ وصلُهُ ... وعَلَتْ محبَّتُه بعقْبِ وِصالِ

فقالت: أوجعتني أوجعتني، أما علمت أنه لا يوصل إليه إلاّ بترك من دونه، قلت: لو قالت لي مثل هذا قلت لها: إذا كان ثم.

وحدّثنا غير واحد منهم ابن أبي الصيف عن عبد الرحمن بن علي قال: أخبرنا إبراهيم ابن دينار قال: حدّثنا إسماعيل بن محمد أنبأنا عبد العزيز بن أحمد أخبرني أبو الشيخ عبد الله بن محمد قال: سمعت أبا سعيد الثقفي يحكي عن ذي النون قال: كنت في الطواف فسمعت صوتاً حزيناً وإذا بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول: [مجزوء الرمل]

أنتَ تَدْري يا حبيبي ... يا حبيبي أنتَ تَدْري
ونُحولُ الجسم والرُّو ... ح يَبُوحان بسرِّي
يا عزيزي قد كَتَمْتُ الحـ ... ـبَّ حتى ضَاقَ صَدْري

قال ذون النون: فشجاني ما سمعت حتى انتحبت وبكيت، وقالت: إلهي وسيدي ومولاي بحبك لي ألا غفرت لي، قال: فتعاظمني ذلك وقلت: يا جارية أما يكفيك أن تقولي بحبي لك حتى تقولي بحبك لي، فقالت: إليك يا ذا النون أما علمت أن لله قوماً يحبهم قبل أن يحبوه؟ أما سمعت الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] فسبقت محبته لهم قبل محبتهم له، فقلت: من أين علمت أني ذو النون؟ فقالت: يا بطَّال جالت القلوب في ميدان الأسرار فعرفتك، ثم قالت: انظر من خلفك، فأدرت وجهي فلا أدري السماء اقتلعتها أم الأرض ابتلعتها، قلت: يقرب حديث هذه الجارية من حال موسىٰ عليه السلام مع ربه﴿انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٣] لله تعالىٰ ميادين تسمّى ميادين المحبة كلها ثم يختص كل ميدان منها باسم من نعوت المحبة مثل ميدان الوجد وميدان الشوق وكل حال يكون فيه جولان وحركة فله ميدان هذا أمر كلي، وكذلك أيضاً للمعارف حضرات ومجالس ما هي ميادين إلاّ إذا أشهدك سبحانه في معرفته تفرقة في أعيان الأكوان، فإن شاهدت أنه العين الظاهرة فيها بأسمائها فتلك ميادين الأسرار، وإن شاهدت معيته للأكوان بأسمائه فتلك ميادين الأنوار، وإن اختلط عليك الأمر فترى أمراً فتقول: هو هو، ثم ترى أمراً فتقول: ما هو هو، ثم ترى أمراً فتقول: لا أدري أهو هو أم لا هو هو؟ فتلك ميادين الحضرة، ولكل عين كون علامة يعرفها من جال في هذه الميادين، فيعرف بتلك العلامة من قامت به في عالم الشهادة في هذه الهياكل المظلمة بالطبع المنوّرة بالمعرفة، فمن هناك يسمونهم بأسمائهم مثل حال هذه الجارية.

وروينا من حديث موسىٰ بن علي الأخميمي عن ذي النون أنه لقي رجلاً باليمن كان قد رحل إليه في حكاية طويلة وفيها: ثم قال له ذون النون: رحمك الله ما علامة المحب لله؟ فقال له: حبيبي إن درجة الحب درجة رفيعة، قال: فأنا أحب أن تصفها لي، قال: إن المحبين لله شقّ لهم عن قلوبهم فأبصروا بنور القلوب عزّ جلال الله فصارت أبدانهم دنياوية، وأرواحهم حجبية، وعقولهم سماوية، تسرح بين صفوف الملائكة وتشاهد تلك الأمور

باليقين، فعبدوه بمبلغ استطاعتهم حباً له لا طمعاً في جنة ولا خوفاً من نار، فشهق الفتى شهقة كانت فيها نفسه. قلنا: كان هذا القائل من العارفين فإنه ذكر ما يدل على ذلك وهي ثلاثة ألقاب ليس في الكون إلاّ هي فقال: أبدانهم دنياوية لأنه قال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٤] فلا بدّ أن يترك له من حقائقه من يكون معه في الدنيا إذ كان الإنسان مجموع العالم وليس إلاّ بدنه لأنه أقرب إليه من حبل الوريد وهو عرق بدني، فلو مشى بكله لكان ناقص الحال، والثاني عقولهم سماوية لأن العقول صفات تقييد، فإن العقل يقيد إذا كان من العقال والسموات محال الملائكة المقيدة بمقاماتها فقالت: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٦٤] فلا تتعدّاه، قد حبسه فيه من أوجده له ولهذا فسّره بأن قال: تسرح بين صفوف الملائكة فهم بعقولهم في السموات وما في الكون المركب إلاّ سماء وأرض، والثالث أرواحهم حجبية لأنه لما سوّى سبحانه الصورة البدنية احتجب بل حجبها عن ظهوره في عينها ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] فظهرت أرواحهم عن هذا الروح الحجابيّ، فهم مشاهدون أصلهم عالمون بأنه حجاب ليعلموا من هو الظاهر في أعيانهم ومن المسمّى فلاناً ولم سمّي، وهنا أسرار دقيقة، وحكايات المحبين العارفين كثيرة. انتهى الجزء الخامس عشر ومائة.

(الجزء السادس عشر ومائة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصل: نختم به هذا الباب يسمّى عندنا مجالي الحق للعارفين المحبين في منصات الأعراس لإعطاء نعوت المحبين في المحبة، فمن ذلك منصة ومجلى نعت المحب بأنه مقتول وذلك لأنه مركب من طبيعة وروح: [الكامل]

والروحُ نورٌ والطبيعةُ ظُلْمَةٌ ... وكلاهما في عينه ضِدَّانِ

والضدّان متنافران والمتنافران متنازعان كل واحد يطلب الحكم له وأن يرجع الملك إليه، والمحب لا يخلو إما أن تغلب الطبيعة عليه فيكون مظلم الهيكل فيحب الحق في الخلق فيدرج النور في الظلمة اعتماداً على الأصل في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٧] والنهار نور، فعلم أنهما متجاوران وإن كانا ضدين، وأن أحدهما يجوز أن يكون مبطوناً في الآخر، فما يضرني أن أحب الحق في الخلق لأجمع بين الأمرين، وأما إن غلب عليه الروح فيكون منوّر الهيكل فيحب الخلق في الحق لقوله: «**أحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ**» فأحبته في النعم عن أمره فمشهوده الحق، ومهما وقعت الغيرة بين الضدّين ورأى كل ضدٍ أن مطلوبه ربما يتخلص لضدّه يقول: أقتله حتى لا يظهر به ضدّي دوني، فإن قتلته الطبيعة مات وهو محبّ للأكوان، وإن قتله الروح كان شهيداً حياً عند ربه يرزق، فهو مقتول بكل حال كل محب في العالم وإن كان لا يشعر بذلك.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه تالف وذلك أنه خلقه الله من اسمه الظاهر والباطن فجعله عالم غيب وشهادة وخلق له عقلاً يفرق به بين حكم الاسمين لإقامة الوزن بين العالمين

في ذاته، ثم تجلى له في اسمه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فحيره فلم يعطه هذا التجلي إقامة الوزن ولا سيما وقد قال له: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فتلف من حيث لم ير حالاً توجب العدل وإقامة الوزن فخرج عن حدّ التكليف إذ لا يكلف إلاَّ عاقل لما تقيد بعقله فهذا نعت المحب بأنه تالف.

منصة ومجلى: نعته بأنه سائر إليه بأسمائه وذلك أنه تجلّى له في أسماء الكون وتجلّى له في أسمائه الحسنى، فتخيل في تجليه بأسماء الكون أنه نزول من الحق في حقه ولم يك ذلك من أفقه، فلما تخلق بأسمائه الحسنى غلبه ما جرت عليه طريقة أهل الله من التخلق وهو يتخيل أن أسماء الكون خلقت له لا لله وأن منزلة الحق فيها بمنزلة العبد في أسمائه الحسنى فقال: لا أدخل عليه إلاَّ بأسمائي، وإذا خرجت إلى خلقه أخرج إليهم بأسمائه الحسنى تخلقاً، فلما دخل عليه بما يظن أنها أسماؤه وهي أسماء الكون عنده رأى ما رأته الأنبياء من الآيات في إسرائها ومعارجها في الآفاق وفي أنفسهم، فرأى أن الكل أسماؤه تعالىٰ وأن العبد لا اسم له حتى أن اسم العبد ليس له وأنه متخلق به كسائر الأسماء الحسنى، فعلم أن السير إليه والدخول عليه والحضور عنده ليس إلاَّ بأسمائه، وأن أسماء الكون أسماؤه، فاستدرك الغلط بعدما فرط ما فرط، فجبر له هذا الشهود ما فاته حين فرّق بين العابد والمعبود، وهذا مجلى عزيز في منصة عظمى كانت غايته أبي يزيد البسطامي دونها، فإن غايته ما قاله عن نفسه تقرّب إليّ بما ليس لي، فهذا كان حظّه من ربه ووراه غاية وكذلك هو فإنه غايته لا الغاية، وهذه طريقة أخرى ما رأيتها لأحد من الأولياء ذوقاً إلاَّ للأنبياء والرسل خاصة من هذا المجلى وصفوه سبحانه بما يسمّى في علم الرسوم صفات التشبيه، فيتخيلون أن الحق وصف نفسه بصفات الخلق فتأوّلوا ذلك، وهذا المشهد يعطي أن كل اسم للكون فأصله للحق حقيقة وهو للخلق لفظاً دون معنى وهو به متخلق فافهم.

منصة ومجلى: [الكامل]

نَعْتُ المحبِّ بأنه طيَّارُ ... عِلْمٌ صحيحٌ ما عليه غُبَارُ

هذا بيت غير مقصود هو ما ذكرناه من أسماء الكون كان يتخيل أن تلك الأسماء وكره فلما تبين له أنه في غير وكره ظهر فطار عن كونه ووكره وحلق في جوّ كرنه اسماً حقه فهو في كل نفس يطير منه إلى نفس آخر لأن عين الأسماء كلها لمن ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] فما من يوم وإلاَّ والمحب يطير فيه من شأن إلى شأن هذا يعطيه شهوده.

منصّة ومجلى: نعت المحب بأنه دائم السهر لما رأى أن المحبوب ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] علم أن ذلك من مقام حبّه لحفظ العالم ودعاه إلى هذا النظر كون الحق يتجلّى في الصور وللصور أحكام، ومن أحكام بعض الصور النوم، ورآه في مثل هذه الصورة ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ من حيث هذه الصورة فعلم أن ذلك من مقام حبّه لحفظ العالم، وإذا كان المحب جليس محبوبه ومحبوبه بهذه الصفة فالنوم عليه حرام، فالمحب

يقول مع الفراق أن النوم عليه حرام فكيف مع الشهود والمجالسة؟ قال بعضهم في سهر الفراق: [الكامل]

النومُ بَعْدَكُمُ عليَّ حرامُ مَنْ فارقَ الأحبابَ كيفَ يَنَامُ

فالنوم مع المشاهدة أبعد وأبعد.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه كامن الغم أي غمّه مستور لا ظهور له، فسبب ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩١] ثم يرى في شهوده أنه لا تتحرك ذرة إلاَّ بإذنه إذ هو محرّكها بما تتحرّك فيه، ويرى في شهوده ما يقابل الكون به خالقه من سوء الأدب، وما لا ينبغي أن يوصف به ممّا مدلوله العدم فيريد أن يتكلم ويبدي ما في نفسه من الغيرة التي تقتضيها المحبة، ثم يرى أن ذلك بإذنه لأنه ممّن يرى الله قبل الأشياء مقام أبي بكر فيسكن، ولا يتمكن له أن يظهر غمّه لأن الحب حكم عليه بأن ذلك الذي يعامل به المحبوب لا يليق به، ويرى أنه سلط خلقه عليه بما أنطقهم به وما عذرهم وأرسل الحجاب دونهم فكمن غمّ هذا المحب في الدنيا فإنه في الآخرة لا غم له، ولهذا يطلب الخروج من الدنيا.

منصّة ومجلى: نعت المحب بأنه راغب في الخروج من الدنيا إلى لقاء محبوبه هو لما ذكرناه في هذا الفصل قبله لأن النفس من حقيقتها طلب الاستراحة والغم تعب وكمونه أتعب والدنيا محل الغموم، والذي تختص به هذه المنصة رغبته في لقاء محبوبه وهو لقاء خاص عينه الحق إذ هو المشهود في كل حال، ولكن لما عيّن ما شاء من المواطن وجعله محلاً للقاء مخصوص رغبنا فيه ولا نناله إلاَّ بالخروج من الدار التي تنافي هذا اللقاء وهي الدار الدنيا، خير النبيّ ﷺ بين البقاء في الدنيا والانتقال إلى الأخرى فقال: الرفيق الأعلى، فإنه في حال الدنيا في مرافقة أدنى. وورد في الخبر: «**أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ ـ يَعْنِي بِالْمَوْتِ ـ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ**» فلقيه في الموت بما يكرهه وهو أن حجبه عنه، وتجلّى لمن أحب لقاه من عباده، ولقاء الحق بالموت له طعم لا يكون في لقائه بالحياة الدنيا، فنسبة لقائنا له بالموت نسبة قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] والموت فينا فراغ لأرواحنا من تدبير أجسامها، فأرادوا حب هذا المحب أن يحصل ذلك ذوقاً، ولا يكون ذلك إلاَّ بالخروج من دار الدنيا بالموت لا بالحال، وهو أن يفارق هذا الهيكل الذي وقعت له به هذه الألفة من حين ولد وظهر به بل كان السبب في ظهوره، ففرّق الحق بينه وبين هذا الجسم لما ثبت من العلاقة بينهما وهو من حال الغيرة الإلهية على عبيده لحبه لهم، فلا يريد أن يكون بينهم وبين غيره علاقة، فخلق الموت وابتلاهم به تمحيصاً لدعواهم في محبته، فإذا انقضى حكمه ذبحه يحيىٰ عليه السلام بين الجنة والنار، فلا يموت أحد من أهل الدارين، فهذا سبب رغبتهم في الخروج من الدنيا إلى لقاء المحبوب، لأن الغيرة نصب ويحيىٰ الموت بالذبح حياة خاصة كما حكمنا بعد الموت فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه متبرم بصحبة ما يحول بينه وبين لقاء محبوبه، هذا النعت أعم من الأوّل في المحب، فإن العارف ما يحول بينه وبين لقاء محبوبه إلاَّ العدم وما

هو ثم وليس الوجود سواه فهو شاهده في كل عين تراه، فليس بين المحب والمحبوب إلاً حجاب الخلق، فيعلم أن ثم خالقاً ومخلوقاً، فلم يقدر على رفع صحبة هذه الحقيقة فإنها عينه، والشيء لا يرتفع عن نفسه، ونفسه تحول بينه وبين لقاء محبوبه، فهو متبرم بنفسه لكونه مخلوقاً، وصحبته لنفسه ذاتية لا ترتفع أبداً، فلا يزال متبرماً أبداً فلهذا يتبرم، لأنه يتخيل أنه إذا فارق هذا الهيكل فارق التركيب فيرجع بسيطاً لا ثاني له فينفرد بأحديته فيضربها في أحدية الحق وهو اللقاء، فيكون الحق الخارج بعد الضرب لا هو فهذا يجعله يتبرم، والعارف المحب لا يتبرم من هذا لمعرفته بالأمر على ما هو عليه كما ذكرناه في رسالة الاتحاد.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه كثير التأوّه وهو قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٤] وصف الحق من كونه اسمه الرحمن أن له نفساً ينفس به عن عباده، وفي ذلك النفس ظهر العالم، ولذلك جعل تكوين العالم بقول: ﴿كُن﴾ والحرف مقطع الهواء فالهواء يولده ما هو هو لأنه لا يظهر الحرف إلاً عند انقطاع الهواء والهواء نفس، ولهذا الهواء في العناصر هو نفس الطبيعة ولهذا يقبل الحروف وهو ما يظهر فيه من الأصوات عند الهبوب، والظاهر من تلك الأصوات حرف الهاء والهمزة وهما أقصى المخارج مخارج الحروف فإنهما ممّا يلي القلب وهما أوّل حروف الحلق بل حروف الصدر فهما أوّل حرف يصوّره المتنفس وذلك هو التأوّه لقربه من القلب الذي هو محل خروج النفس وانبعاثه، فيظهر عنه جميع الحروف كما يظهر العالم بالتكوين عن قول: ﴿كُن﴾ وهو سرّ عجيب سأذكره في باب النفس بفتح الفاء إن شاء الله، فإذا تجلّى الحق من قلب المحب ونظرت إليه عين البصيرة لأن القلب وسع الحق ورأى ما يقع من الذم على هذه النشأة الطبيعية وهي تحتوي على هذه الأسرار الإلهية وأنها من نفس الرحمن ظهرت في الكون فذمّت وجهل قدرها فكثر منه التأوّه لهذه القادحة لما يرى في ذلك من الوضوح والجلاء، والناس في عماية عن ذلك لا يبصرون، فيتأوّه غيرة على الله وشفقة على المحجوبين لكون النبيّ ﷺ جعل كمال الإيمان في المؤمن أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، فلهذا يتأسف على من حرمه الله هذا الشهود ويتأوّه لحبه في محبوبه من أجل ما يراه من عمى الخلق عنه، ومن شأن المحب الشفقة على المحبوب لأن الحب يعطي ذلك.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه يستريح إلى كلام محبوبه وذكره بتلاوة ذكره قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩] فسمّىٰ كلامه ذكراً. فاعلم أن أصل وجود الكون لم يكن عن صفة إلهية إلاً عن صفة الكلام خاصة، فإن الكون لم يعلم منه إلاً كلامه وهو الذي سمع فالتذّ في سماعه فلم يتمكن له إلاً أن يكون، ولهذا السماع مجبول على الحركة والاضطراب والنقلة في السامعين لأن السامع عندما سمع قول: ﴿كُن﴾ انتقل وتحرّك من حال العدم إلى حال الوجود فتكوّن، فمن هنا أصل حركة أهل السماع وهم أصحاب وجد ولا يلزم فيمن (. . .)، فإن الوجد لذاته يقتضي ما يقتضي، وإنما المحبوب يختلف، فالحب والوجد والشوق وجميع نعوت الحب وصف للحب كان المحبوب ما كان، إلاً أني اختصصت في هذا الكتاب الحب المتعلق بالله الذي هو المحبوب على الحقيقة، وإن كان غير

مشعور به في مواطن عند قوم ومشعوراً به عند قوم وهم العارفون، فما أحبوا إلاّ الله مع كونهم يحبون أرواحهم وأهليهم وأصحابهم فاعلم ذلك، حتى أن بعض الصالحين حكى لنا عنه أنه قال: إن قيساً المجنون كان من المحبين لله وجعل حجابه ليلى وكان من المولهين، وأخذت صدق هذا القول من حكايته التي قال فيها لليلى: إليك عني فإن حبك شغلني عنك وما قرّبها ولا أدناها. ومن شأن الحب أن يطلب المحب الاتصال بالمحبوب وهذا الفعل نقيض المحبة، ومن شأن المحب أن يغشى عليه عند فجأة ورود المحبوب عليه ويدهش وهذا يقول لها: إليك عني وما دهش ولا فني، فتحقق عندي بهذا الفعل صدق ما قاله هذا العارف في حق قيس المجنون وليس ببعيد، فللّه ضنائن من عباده، فمن هناك استراح المحبون إلى كلام المحبوب وذكره والقرآن كلامه وهو ذكر فلا يؤثرون شيئاً على تلاوته لأنهم ينوبون فيه عنه فكأنه المتكلم كما قال: فأجره حتى يسمع كلام الله، والتالي إنما هو محمد ﷺ، فأهل القرآن هم أهل الله وخاصته فهم الأحباب المحبون.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه موافق لمحابّ محبوبه هذا ما يكون إلاّ من نعوت المحبين لله خاصة لكونه تعالىٰ لا يحدّ ولا يتقيد وهو المتجلي في الاسم القريب كما يتجلّى في الاسم البعيد فهو البعيد القريب، قال المحب: وكل ما يفعل المحبوب محبوب. فإذا فعل البعد كان محبوبه البعد عن المحبوب لأنه محبوب المحبوب، فإنه أحبه لحب المحبوب لا بنفسه، ولا يحبه بحب المحبوب لا بنفسه حتى يكون المحبوب صفة له، وإذا كان المحبوب من صفات المحب قام به، وإذا قام به فهو في غاية الوصلة في عين البعد أوصل منه به في القرب لأنه في القرب بصفة نفسه لا بصفة محبوبه لأنه لا يقوم بالمحل علتان لمعلول واحد هذا لا يصحّ، فما يحب القرب إلاّ لنفسه كما لا يحب البعد إلاّ بمحبوبه، فهو في حب البعد أتم منه محبة في حب القرب، ولنا في هذا المعنى: [الوافر]

هَوًى بينَ المَلاَحةِ والجَمَالِ ... يُقَاسيهِ القويُّ من الرجالِ
ويَضْعُفُ عنه كلُّ ضعيفِ قلبٍ ... تَقَلَّبَ في النَّعيمِ وفي الدَّلالِ
وتَقْليبي مع الهُجْرانِ عندي ... أَلَذُّ من العِنَاقِ مع الوِصَالِ
فإني في الوصالِ عُبَيْدُ نفسي ... وفي الهُجْرانِ عَبْدٌ للمَوَالي
وشُغْلي بالحبيبِ بكلِّ وجْهٍ ... أحبُّ إليَّ من شُغْلي بحالي

ففي هذا الشعر إيثار مآثره المحبوبة، ويتضمن ما أشرنا إليه في كلامنا قبله. وأما قولنا إن المحبوب صفة المحب فيما ذكرناه فهو قوله تعالىٰ: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ**» فجعل عينه سمع العبد وبصره فأثبت أنه صفته، فما أحب المحب البعد إلاّ بمحبوبه، وهذا غاية الوصلة في عين البعد.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه خائف من ترك الحرمة في إقامة الخدمة وذلك أنه لا يخاف من هذا إلاّ عارف متوسط لم يبلغ التحقيق في المعرفة إلاّ أنه يشعر به من غير ذوق سوى ذوق الشعور وهو محب، والمحب مطيع لمحبوبه في جميع أوامره، وتحقيق الأمر

يعطي أن الآمر عين المأمور والمحب عين المحبوب، إلاّ أن الظاهر يظهر بحسب ما تعطيه حقيقة المظهر، وبالمظاهر تظهر التنوّعات في الظاهر وتختلف الأحكام والأسامي، وبها يظهر الطائع والعاصي، فالذي هو في مقام الشعور ولم يحصل في حد أن ينزل الأشياء منازلها في الظاهر يخاف أن يصدر منه ما يناقض الحرمة في خدمته إذ يقول: ليس إلاّ هو، كما يذهب إلى ذلك من يرى الأعيان عيناً واحدة ولكن لا يعرف كيف، فلا يزال يسيء الأدب لأنه أخذ ذلك عن غير ذوق، وهذا مذهب من يرى أن المدبر أجسام الناس روح واحدة، وأن عين روح زيد هو عين روح عمرو، وفيه من الغلط ما قد ذكرناه في غير هذا الموضع، وهو أنه يلزم ما يعلمه زيد لا يجهله عمرو لأن العالم من كلّ واحد عين روحه وهو واحد، والشيء الواحد لا يكون عالماً بالشيء جاهلاً به، فيخاف المحب إن صدرت منه قلة حرمة بهفوة وغلط أن يستند فيها بعد وقوعها إلى ما ذكرناه فيحصل في قلّة المبالاة بما يظهر عليه من ذلك، والمحبة تأبى إلاّ حرمة المحبوب وإن كان المحب مدلاً بحبه لغلبة الحب عليه وأنه يرى نفسه عين محبوبه فيقول: أنا من أهوى ومن أهوى أنا. فهذا سبب خوفه لا غير.

منصة ومجلى: نعت المحب أن يستقل الكثير من نفسه في حق ربه ويستكثر القليل من حبيبه، وذلك أنه يفرق بين كونه محباً لما يرى في نفسه من الانكسار والذلة والدهش والحيرة التي هي أثر الحب في المحبين، ويرى نخوة المحبوب وتيهه ورياسته وإعجابه عليه، فيرى أنه إذا أعطاه جميع ما يملكه فهو قليل لما أعطاه من نفسه، وأن حق محبوبه أعظم عنده من حق نفسه بل لا يرى لنفسه حقاً، وإن كان في الحقيقة ما يسعى إلاّ في حق نفسه هكذا تعطيه المحبة. كان لبعض الملوك مملوك يحبه اسمه إياس فدخل على الملك بعض جلسائه ورأى قدمي المملوك في حجر الملك والملك يكبسهما فتعجب فقال إياس: يا هذا ما هذه أقدام إياس هذه قلب الملك في حجره يكبسه، هذا معنى قولنا: إن المحب في حق نفسه يسعى، فإنه له في ذلك الفعل لذة عظيمة لا ينالها إلاّ بذلك الفعل، فالمحبوب ممتن عليه إذا مكّنه ممّا تقع للمحب به لذة من المحبوب، فيرى المحب أي شيء جاء من المحبوب فهو كثير فهو إنعام سيد على عبد، وأي شيء كان من المحب في حق المحبوب ولو كان تلف الروح والمهجة في رضاه لكان قليلاً لأنه طاعة عبد لسيد محسان ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩١] فالمحبوب غنيّ فقليله كثير والمحب فقير فكثيره قليل ولكن وإن كان هذا نعت المحب عندهم فهو نعت محب ناقص المعرفة كثير الحب على عماية، لأن المحب إذا كان المخلوق ليس له شيء يملكه حتى يستقل أو يستكثر، وأما إذا كان المحب الله فإنه يستكثر القليل من عبده وهو قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦] ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] وأما استقلاله الكثير في حق أحبابه من عباده فإن ما عند الله ما له نهاية، ودخول ما لا نهاية له في الوجود محال، فكل ما دخل في الوجود فهو متناه، فإذا أضيف ما تناهى إلى ما لا يتناهى ظهر كأنه قليل أو كأنه لا شيء وإن كان كثيراً، وهنا نظر يطول فاقتصرنا.

منصة ومجلى: نعت المحب يعانق طاعة محبوبه ويجانب مخالفته، قال شاعرهم: [الكامل]

تَعْصِي الإِلٰهَ وأنت تُظْهِرُ حُبَّه ... هذا محالٌ في القياس بَديعُ
لو كان حبُّكَ صادقاً لأطَعْتَهُ ... إن المحبَّ لمن يحبُّ مُطيعُ

المحب عبد والعبد من وقف عند أوامر سيده وتجنب مخالفة أوامره ونواهيه، فلا يراه حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره، لا يزال ماثلاً بين يديه، فإذا أمره رأى هذا المحب أنه قد امتنّ عليه حيث استعمله وأمره وأن هذا من عنايته به، وإن فقد رؤيته ومشاهدته فيما شغله به فهو في نعيم ولذة بكونه يتصرّف في مراسيم سيده وعن إذنه، فإن كان المحب الله فأمر المحبوب له دعاؤه ورغبته فيما يعن له ويحبه، ثم أنه يكره أشياء فيدعوه بصفة النهي مثل قوله ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٨] ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] فهذا سؤال بصفة نهي، فقد وقع منه الأمر والنهي لسيده وإجابة الحق هذا العبد من حيث هو محب لهذا العبد كالطاعة من العبد لأوامر سيده ومجانبة مخالفته.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه خارج عن نفسه بالكلية. اعلم أن نفس الشخص الذي يتميز به عن كثير من المخلوقات إنما هو إرادته، فإذا ترك إرادته لما يريد به محبوبه فقد خرج عن نفسه بالكلية فلا تصرّف له، فإذا أراد به محبوبه أمراً ما وعلم هذا المحب ما يريده محبوبه منه أو به سارع أو تهيأ لقبول ذلك، ورأى أن ذلك التهيؤ والمسارعة من سلطنة الحب الذي تحكم فيه فلم ير المحبوب في محبه من ينازعه فيما يريده به أو منه لأنه خرج له عن نفسه بالكلية فلا إرادة له معه، ولكن مع وجود نفسه وطلبه الاتصال به، وإن لم يكن كذلك فهو في مرتبة الجماد الذي لا إرادة له، فما له لذة إلاّ اللذة التي متعلقها التذاذ محبوبه بما يراه منه في قبوله المحب الله. أوحى الله إلى موسىٰ: يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك يعني الدنيا والآخرة لأنه العين المقصودة وهو رأس الأحباء محمد ﷺ فالكلّ في تسخير هذه النشأة الإنسانية الأفلاك وما تحتوي عليه والكواكب وما في سيرها هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر حتى نهاية الأمر وهو التجلّي الإلهيّ يوم الزور الأعظم، فهذا معنى خروج المحب عن نفسه بالكلية في كل ما يمكن أن يحتاج إليه المحبوب وما لا حاجة للمحبوب به ولا يعود عليه منه لذة وابتهاج فلا يدخل تحت هذا الباب.

منصة ومجلى: نعت المحب لا يطلب الديّة في قتله لأنا قد وصفناه أوّلاً بأنه مقتول قتل المحب شهادة فقتله حياته والحي لا دية فيه إنما يُودَى القتيل الذي يموت فله شرعت الدية. المحب الله، كون العبد محبوباً إرادته نافذة لا إرادة للمحب تنازع إرادته؛ المقتول لا إرادة له، ومن كان بإرادة محبوبه فلا إرادة له، وإن كان مريداً ولا ديّة له لأن الحي لا ديّة فيه والحياة الذاتية له وهو حب الفرائض إذا أدّاها أحبه الله، ففي النوافل يكون سمع العبد وبصره، وفي

الفرائض يكون العبد سمع الحق وبصره، ولهذا ثبت العالم، فإن الله لا ينظر إلى العالم إلاً ببصر هذا العبد فلا يذهب العالم للمناسبة، فلو نظر إلى العالم ببصره لاحترق العالم بسبحات وجهه، فنظر الحق العالم ببصر الكامل المخلوق على الصورة هو عين الحجاب الذي بين العالم وبين السبحات المحرقة.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه يصبر على الضراء التي ينفر منها الطبع لما كلفه محبوبه من تدبيره الإنسان مجموع الطبع والنور، فالطبع يطلبه والنور يطلبه، وكلف النور أن يغتبن ويترك كثيراً ممّا ينبغي له وتطلبه حقيقته لما يطلبه الطبع من المصالح، وأمر النور الذي هو الروح أن يوفيه حقه وهو قوله ﷺ لمن قال له: من أبرّ؟ قال: أمّك ثلاث مرات، ثم قال له في الرابعة: ثم أباك، فرجح برّ الأم على برّ الأب والطبيعة الأم وهو قوله ﷺ: «**إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقّاً**» وَهِيَ النَّفْسُ الحَيَوَانِيَّةُ «**وَلِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقّاً**» فهذا كله من حقوق الأمّ التي هي طبيعة الإنسان وأبوه هو الروح الإلهيّ وهو النور، فإذا ترك أموراً كثيرة من محابه من حيث نوريته فإنه يتصف بأنه مضرور وهو مأمور بالصبر، فهذا معنى يصبر على الضرّاء وإن كانت حقيقته تنفر من ذلك ولكن أمر الله أوجب، ثم قال له في صبره: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٧] فإن الله تسمّى بالاسم الصبور فكأنه قال له: أنا على عزّة جلالي قد وصفت نفسي بأني أؤذى وأني أحلم وأصبر وتسميت بالصبور وأنا غير مأمور ولا محجور عليّ، فأدخلت نفسي تحت محاب خلقي، وتركت ما ينبغي لي لما ينبغي لخلقي إيثاراً لهم ورحمة مني بهم، فأنت أحق بأن تصبر على الضرّاء بي أي بسبب أمري وبسبب كوني صبوراً على أذى خلقي حين وصفوني بما لا يقتضيه جلالي، وهذا من كون الله محباً في هذا المجلى، وأما كونه كذلك لما كلفه محبوبه من تدبير نشأته الطبيعية فإذا كان المحبوب الخلق والمحب الحق فصورة التكليف ما يطلبه العبد من سيده إذا عرف أنه محبوب لسيده من تدبير مصالحه بشرط الموافقة لأغراضه ومحابه فيفعل الحق معه ذلك، فهذا ذلك المعنى الذي نعت به المحب.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه هائم القلب لما كان القلب سمي بذلك لكثرة تصرّفاته وتقليبه كثرت وجوهه وتوجهاته وهذه صفة الهائم ولا سيما إذا كان الحق يظهر له في كلّ وجه يتوجه إليه، وفي كل مصرف يتصرّف فيه، فإنه ناظر إلى عين محبوبه في كل وجه المحب الله ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] ما تردّدت في شيء أنا فاعله، كثرة الوجوه في الأمر الواحد تؤدّي إلى التردّد أيها يفعل وكلها رضى المحبوب، فنحن لا نعرف الأرضى وهو يعرف الأرضى في حقنا، غير أنا نعرف الأرضى ما بين النوافل والفرائض فنقول: الفرائض أرضي ولكن إذا اجتمعت بحكم التخيير كالكفارة التي فيها التخيير لا يعرف الأرضى إلاً بتعريف مجدّد، وكذلك الأرضى في النوافل لا يعرف إلاّ بتوقيف والنوافل كثيرة وما منها إلاً مرضي من وجه وأرضى من وجه، فلا بدّ من تعريف جديد، ففي مثل هذا يكون المحب هائم القلب أي حائراً في الوجوه التي يريد أن يتقلب فيها.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه مؤثر محبوبه على كلّ مصحوب لما كان العالم كله

كل جزء منه عنده أمانة للإنسان وقد كلف بأداء الأمانة وأماناته كثيرة، ولأدائها أوقات مخصوصة له في كل وقت أمانة، منها ما نبّه عليه أبو طالب من أن الفلك يجري بأنفاس الإنسان بل بنفس كل متنفس، والمقصود الإنسان بالذكر خاصة لأنه بانتقاله ينتقل الملك ويتبعه حيث كان؛ لا يزال العالم يصحبه الإنسان لهذه العلة، ثم إن الإنسان مفتقر لهذه الأمانات التي عند العالم، ومع افتقاره إليها فإن المحبين من رجال الله العارفين شغلوا نفوسهم بما أمرهم به محبوبهم فهم ناظرون إليه حباً وهيماناً قد تيّمهم بحبه وهيّمهم بين بعده وقربه، فمن هنا نعتوا بأنهم آثروه على كلّ مصحوب لأنه صاحبهم لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] وكل من في العالم يصحبه أيضاً لأجل الأمانة التي بيده، فيؤثر الإنسان لمحبته لله جناب الله على كل مصحوب، قيل لسهل: ما القوت؟ قال: الله، قيل له: ما نريد إلاّ ما تقع به الحياة، قال: الله، فلم ير إلاّالله، فلما ألحوا عليه وقالوا له: إنما نريد ما به عمارة هذا الجسم فلما رآهم ما فهموا عنه عدل إلى جواب آخر فقال: دع الديار إلى بانيها إن شاء عمرها وإن شاء خرّبها، يقول: ليس من شأن اللطيفة الإنسانية صحبة هذا الهيكل الخاص ولا بدّ تشتغل هي بما كلفها المحبوب الذي هو عين حياتها ووجودها، وأي بيت أسكنها فيه سكنته، هذا إن كان يقول بعدم التجريد عن النشأة الطبيعية كما نقول وكما أعطاه الكشف، وإن كان يقول بالتجريد عن الطبيعة وارتفاع العلاقة فهو على كل حال ممّن يؤثر الله على كل مصحوب.

المحب الله آثر الإنسان من كونه محبوبه على جميع العالم فأعطاه الصورة الكاملة ولم يعطها لأحد من أصناف العالم، وإن كان موصوفاً بالطاعة والتسبيح لله فقد آثره على كل مصحوب قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] أعطاه جميع الأسماء كلها الإلهية فسبحه بكل اسم إلهيّ له بالكون تعلق ومجده وعظمه لا اسم القصعة والقصيعة الذي ذهب إليه من لا علم له بشرف الأمور، ولذلك قالت الملائكة: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] ولا يقدس ولا يسبح إلاّ بأسمائه، فأعلمهم بأن لله أسماء في العالم ما سبحته الملائكة ولا قدسته بها وقد علمها آدم، فلما أحضر ما أحضره من خلقه ممّا لا علم للملائكة به فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] التي تسبحوني بها وتقدسوني ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٢] فقال لآدم: ﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٣] علموا أن لله أسماء لم يكن لهم بها علم يسبحه بها هؤلاء الذين خلقهم وعلمها آدم فسبح الله بها، كما قال للملائكة لما طافت به بالبيت: ما كنتم تقولون؟ قالت الملائكة: كنا نقول في طوافنا به قبلك سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، فقال لهم آدم: وأنا أزيدكم لا حول ولا قوّة إلاّ بالله أعطاها الله إياه من كنز من تحت العرش لم تكن الملائكة تعلم ذلك، فلو أراد المفسر بقوله حتى القصعة والقصيعة الاسم الإلهيّ المتوجه على الصغير والكبير فسبحه الصغير في تصغيره بما لا يسبحه به الكبير في تكبيره أصاب، وإنما قصد لفظة القصعة والقصيعة ولا شرف في مثل هذا فإنه راجع لما

يصطلح عليه، إذ لها في كلّ لسان اسم مركب من حروف لا يشبه الاسم الآخر، فليس المراد إلاّ ما تقع به الفائدة التي يماثل بها قول الملائكة في فخرها على الإنسان أنها مسبحة ومقدسة، فأراها الله تعالىٰ شرف آدم من حيث دعواها وهو ما ذكرناه ليس غيره، وما ثم في المخلوقات أشرف من الملك، ومع هذا فقد فضل عليه الإنسان الكامل بعلم الأسماء فهو في هذه الحضرة وهذا المقام أفضل فهذا حد إيثار الحق له.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه محو في إثبات، أمّا إثباته فظهر في تكليفه ومن العبادات الفعلية في صلاته فقسمها بينه وبين عبده فأثبته، وأما محوه في هذا الإثبات فقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] وقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٢٨] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٤] وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] وقوله: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٧] فهذا في غاية البيان من كتاب الله محو في إثبات، فالمحب ما له تصرّف إلاّ فيما يصرف فيه قد حيّره حبه الآن يريد سوى ما يريده به، والحقيقة في نفس الأمر تأبى إلاّ ذلك، وكل ما يجري منه فهو خلق لله وهو مفعول به لا فاعل فهو محل جريان الأمور عليه، فهو محو في إثبات المحب الله محو في إثبات لا تقع العين إلاّ على فعل العبد فهذا محو الحق، ولا يعطي الدليل العقلي والكشف إلاّ وجود الحق لا وجود العبد ولا الكون، فهذا إثبات الحق فهو محو في عالم الشهادة إثبات في حضرة الشهود.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه قد وطأ نفسه لما يريده به محبوبه، وذلك أن الحب لما حال بينه وبين رؤية الأسباب ولم يبق له نظر إلاّ إلى جناب محبوبه تعالىٰ جهل ما يحتاج العالم إليه فيه، ولا بدّ له في نفس الأمر أن يؤدّي إليه ما يطلبه به من حقوقه كما قال ﷺ: «**وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**» فأتى بما يدخل فيه جميع العالم وهو الزيارة وهذا من جوامع كلمه، فوطأ هذا المحب نفسه لما يريده به محبوبه، فعلم ما للعالم من الحقوق عليه من جهة ما أراده به محبوبه من تصريفه فيما صرفه والحق حكيم فلا يحرّكه إلاّ في العمل الخاص، وأداء الحق الخاص فيما يطلبه به من كان من العالم في ذلك الوقت، فيعرف العالم من الله فيربح شهود الحق وهو قول الصديق: «**مَا رَأَيْتُ شَيْئاً إِلاَّ رَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ**» فشاهد عين العالم في شهود الله المحب الله لما كان في نفس الأمر أن الحق سبحانه لا تقبل ذاته التصريف فيها وجعل في نفوس العالم الافتقار إليه فيما فيه بقاؤهم ومصالحهم وتمشية أغراضهم، فكأنه قد وطأ نفسه لجميع ما يريدونه منه وما يريدونه به، ولهذا إذا سألوه فيما لم يجيء وقته قال لهم: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] فهو الفاعل في كلّ حال، وليست ذاته بمحل لظهور الآثار، فقد وقعت التوطئة أنه مهيىء لما يحتاج إليه الكون لا لنفسه، وله في كلّ ما أوجده تسبيح هو غذاء ذلك الموجود، فلهذا أخبر سبحانه أنه ما من شيء إلاّ وهو يسبح بحمده وقد ذكرناه في مقام الفتوة.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه متداخل الصفات وذلك أن المحب يطلب الاتصال

بالمحبوب ويطلب اتباع إرادة المحبوب، وقد يريد المحبوب ما يناقض الاتصال، فقد تداخلت صفات المحب في مثل هذا المحب الله هو الأوّل من عين ما هو آخر، فدخلت آخريته على أوّليته ودخلت أوّليته على أخريته، وما ثم إلاّ عينه، فأوّليته عينه وآخريته عبده وهو محبوبه فقد تداخلت صفاته في صفات محبوبه. فإن قلت عبد لم تخلص، وإن قلت سيد لم تخلص، وأنت صادق في الأمرين فهذا حكم التداخل.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه ما له نفس مع محبوبه يقول ما هو مستريح مع محبوبه لأنه مراقب محبوبه في كل نفس يرى أين محابه فيتصرّف فيها، فلا يبرح ذا عناء ببذل المجهود في رضى المحبوب ورضاه مجهول فلا راحة للمحب، فهذا معنى قولهم: ما له نفس أي لا يستريح من التنفيس وهو إزالة الكرب والشدّة، وهذا نعت المحب الصادق في حبه المحب الله قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] ولا يتصرّف إلاّ في حق عباده، ولا يقصد من عباده إلاّ أحبابه، وينتفع الباقي بحكم التبعية، يأكلون فضلات موائدهم فشغله بمصالحهم دنيا وآخرة، غير أنه موصوف بأنه لا يمسه لغوب يقول تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [سورة ق: الآية ٣٨] وهو قوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق: الآية ١٥] يعني في كل نفس هو تعالىٰ في خلق جديد في عباده وهو قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وقال في أهل السعادة: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٨] مع كونهم في كل حال يتصرّفون في حق الله لا في حق نفوسهم، ثم إن ذلك يعود عليهم لا يقصدونه من أجل عوده عليهم بل الحقائق تعطي ذلك فلهذا وصف المحب بأنه لا نفس له مع محبوبه.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه كله لمحبوبه وذلك أنه مجموع وبحكم جمعيته ظهر عينه فآحاده لله إذ الأحدية لله وليس المجموع سوى هذه الآحاد فكله لله، فإن كل واحد من المجموع إذا ضربته في الواحد الحق كان الخارج من ذلك واحد الحق فهذا معنى كله لمحبوبه وهو واحد المجموع لأن المجموع له أحدية، وعلى هذا يخرج إذا كان المحب الله، فالكلّ في حق الله مع أحديته، إنما ذلك الأسماء الإلهية وهي التسعة والتسعون فظهرت الكثرة في الأسماء فصحّ اسم الكل، وآحاد هذا الكل عين كل اسم على حدة يطلب من العبد ذلك الاسم حقيقة واحدة يظهر سلطانه فيها ولا تكون إلاّ واحدة فتضرب الواحد في الواحد فيظهر في الشاهد واحد العبد وهو المحبوب فكله لله لأن الأسماء كلها تظهر أحكامها في العبد والأسماء لله، فالكل للعبد المحبوب عند الله فما في الحضرة الإلهية شيء إلاّ للعبد المحبوب فإن الله بذاته غنيّ عن العالمين، فهو غني عن الكثرة وعن الدلالة عليه.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه يعتب نفسه بنفسه في حق محبوبه وذلك أن المحب يرى أنه يعجز عمّا لمحبوبه عليه من الحقوق التي أوجبها حبه عليه ولا علم له بطريق الإحاطة بمحاب محبوبه فيجهد في أنه يعمل بقدر ما علم من ذلك ثم يقول لنفسه: لو صدقت في حبك لكشف لك عن جميع محابه فإنك في دار التكليف وهي دار محصورة ومحاب الحبيب

فيها معينة، بخلاف الآخرة فإنك مسرح العين فيها لأنها كلها محابه فلا عتاب هناك، فلهذا عتب المحب هنا نفسه بنفسه في حق محبوبه. المحب الله وصف نفسه بالتردّد في حق حبه للعبد المؤمن، إذ من حق المحبوب أن لا يعمل له المحب ما يكرهه والمحبوب يكره الموت، والحق يكره مساءته من حيث ما هو محبوب له، فهذا معنى العتب ولا بدّ له من الموت لما سبق من العلم ولكن لجهل العبد بماله في اللقاء من الخير بخلاف المحبين فإنهم يحبون الموت لا للراحة بل للالتقاء مع المحبوب، ومن المحبين من يغلب عليه رضى المحبوب ويرى أنه لا يحصل ذلك على حالة يعرف بها قدر حب المحب إلاّ بوجود التحجير وتمييز ما يرضي ممّا يسخط ولا يكون له ذلك إلاّ في دار التكليف، وأما في الآخرة فلا تحجير فيقع التساوي فيرتفع تميز قدر المحب في تصرّفه من غير المحب فيكره بعض المحبين الموت لهذا المعنى وهذا لصدقهم في المحبة. والمحب الله أيضاً: في هذه الحقيقة وقد قضى بالموت على الجميع وكان غرض هذه الطائفة المخصوصة التي تريد التمييز أن لا يرتفع عنها التحجير لتعلم قدر محبتها لسيدها على غيرها من الطوائف، ويأبى سبق العلم بالكائن إلاّ أن يكون فهذا القدر يسمّى عتباً في حق الحق يميزه قوله تعالىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] لا بل يميزه ويختار خاصة، والذي يفهم أيضاً من قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ [سورة هود: الآية ١١٨] فهذا وأمثاله موجب العتب لا الإرادة ولا العلم فإن الحكم لهما فتفطن لما ذكرناه فكل ذلك أسرار إلهية غاروا عليها أصحابنا لما رأوا من عظيم قدرها وهو كما قالوه، غير أن هذا الذي أبرزنا منها بالنظر إلى ما عندنا من العلم بالله قشر، فهذا سبب إقدامنا على إبرازه ولما فيه من المنفعة في حق العباد.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه ملتذ في دهش. الدهش سببه فجأة المحبوب وهو المعبر عنه بالهجوم وسيأتي له باب في هذا الكتاب، ولما كان الحق دعا قلوب العباد إليه وشرع لهم الطريق الموصلة المشروعة وتعرّف إليهم بالدلالات فعرفوه وتحبّب إليهم بالنعم فأحبوه فلما تجلى لهم على غير موعد عندما دخلوا عليه وهم غير عارفين بأنهم في حال دخول عليه فجأهم تجليه فعرفوه بالعلامة فدهشوا لفجأة التجلي والتذوا لعلمهم بالعلامة في نفوسهم أنه حبيبهم ومطلوبهم فهذا التذاذهم في دهش. المحب الله: وصف نفسه بالاختيار وأنه على كل شيء قدير وأنه لو شاء فعل وأنه لا مكره له وهو الصادق في قوله وما حكم به على نفسه، وهو أيضاً المقيت فقد ترتبت الأمور ترتيب الحكمة فلا معقب لحكمه فهو في كل حال يفعل ما ينبغي كما ينبغي لما ينبغي فعل حكيم عالم بالمراتب فتأتيه أسئلة السائلين وما يوافق توقيت الإجابة في عين ما سألوه فيه وقد تقرر أنه لا مكره له، ولا بدّ من التوقف عند هذا السؤال لمناقضته إذا أجابه ترتيب الحكمة فهذا المقدار يسمّى دهشاً، وأما التذاذه فإن السائل في ذلك محبوب فهو يحب سؤاله ودعاءه كما قد ورد في الخبر: أن شخصين محبوب لله وبغيض سألا الله في حاجة فأوحى الله للملك أن يقضي حاجة البغيض مسرعاً حتى يشتغل عن سؤاله لكونه يبغضه ويبغض صوته ويقول للملك: توقف عن حاجة فلان فإني أحب أن

أسمع صوته وسؤاله فإني أحبه، فهذا مقضي الحاجة على بغض، وهذا غير مقضي الحاجة مع حب وعناية، فلو كشف لهذا المحبوب هذا السرّ في وقت تأخّر الإجابة ما وسعه شيء من الفرح بذلك فالتوقف عن الإجابة كتوقف الداهش لصدق قوله في أنه لا مكره له والالتذاذ علمه بأنه لا بدّ من وصوله إلى ما طلب وفرحه به فسبحان العزيز الحكيم.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه جاوز الحدود بعد حفظها. هذا معين في أحباء أهل بدر فإنهم ممّن جاوزوا الحدود بعد حفظها فقال لهم: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وأما في غير المعينين في العموم وهم معينون في الخصوص وقد عين الحق صفتهم فهو ما ذكر الله سبحانه في قوله: أذنب عبد ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب فقال في الرابعة أو في الثالثة: اعمل ما شئت فقد غفرت لك، فأباح له وأخرجه من التحجير في الدنيا إذ كان الله لا يأمر بالفحشاء، فما عصى الله صاحب هذه الصفة بل تصرف فيما أباحه الله له، وقد كان قبل هذه الصفة من أهل الحدود فجاوزها بعد حفظها، فهذا أعطاه شرف العلم مع وجود عقل التكليف بخلاف صاحب الحال فإن حكم صاحب الحال حكم المجنون الذي ارتفع عنه القلم فلا يكتب لا له ولا عليه وهذا يكتب له ولا عليه، فهذا قدر ما بين العلم والحال، فما أشرف العلم فالمحب إذا كان صاحب علم هو أتم من كونه صاحب حال، فالحال في هذه الدار الدنيا نقص وفي الآخرة تمام، والعلم هنا تمام وفي الآخرة تمام وأتم. المحب الله: لما علم من عباده المحبين له أنهم غير مطالبين لله ما أوجبه لهم على نفسه جاوزوا الحدود بعد حفظها فأعطاهم ما أوجبه على نفسه وهو حفظها ثم أعطاهم بغير حساب وهو مجاوزته الحدود، فإن الحدّ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ومجاوزة الحدود الزيادة في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة يونس: الآية ٢٦] وهو حفظ الحد وزيادة وهي ما جاوز الحد، هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه غيور على محبوبه منه. وهذا أحق ما يوجد في حق من يحب الله، وهذا مقام الشبلي أدّاه إلى ذلك تعظيم محبوبه في نفسه وحقارة قدره، فرأى أنه لا يليق بذلك الجناب العزيز إدلال المحبين، فإن المحبين لهم إدلال في الحضرة الإلهية إلاّ المحبين الموصوفين بالغيرة فإنهم لا إدلال لهم لما غلب عليهم من التعظيم فهم الموصوفون بالكتمان وسببه الغيرة والغيرة من نعوت المحبة فهم لا يظهرون عند العالم بأنهم من المحبين، وهذا مقام رسول الله ﷺ فإنه وصف نفسه بأنه أغير من سعد بعدما وصف سعداً بأنه غيور فأتى ببنية المبالغة في غيرة سعد، ثم ذكر أنه ﷺ أغير من سعد فستر محبته وما لها من الوجد فيه بالمزاح وملاعبة الصغير وإظهار حبه فيمن أحبه من أزواجه وأولاده وأصحابه، هذا كله من باب الغيرة، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ [سورة الكهف: الآية ١١٠] فلم يجعل عند نفسه أنه من المحبين فجهلته طبيعته وتخيلت أنه معها لما رأته يمشي في حقها أو يؤثرها، ولم تعلم بأن ذلك عن أمر محبوبه إياه بذلك فقيل: إن محمداً ﷺ يحب عائشة والحسن والحسين وترك الخطبة يوم الجمعة ونزل إليهما لما رآهما يعثران في أذيالهما وصعد بهما وأتم خطبته، هذا

كله من باب الغيرة على المحبوب أن تنتهك حرمته، وأن هذا ينبغي أن يكون الأمر عليه تعظيماً للجناب الأقدس أن يعين، ثم لا يظهر ذلك الاحترام من الكون فسدل ستر الغيرة في قلوب عباده المحبين المحب الله، قال ﷺ في هذا الحديث: «وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي» ومن غيرته حرّم الفواحش ليفتضح المحبون في دعواهم محبته فغار أن يدعي فيه الكاذب دعوى الصادق ولا يكون ثم ميزان يفصل بين الدعوتين فحرّم الفواحش، فمن ادّعى محبته وقف عند حدوده فتبين الصادق من الكاذب والكل بالله قائم فغار على محبوبه منه فأضاف الأفعال إليه لا إلى العبد حتى لا ينسب نقص للعبد.

منصة وجلى: نعت المحب بأنه يحكم حبه فيه على قدر عقله لأن عقله قيده فعقله قيده، وما خاطب تعالىٰ إلاّ العقلاء وهم الذين تقيدوا بصفاتهم وميزوها عن صفات خالقهم، فلما وقع التباين حصل التقييد فكان العقل، ولهذا أدلة العقول تميز بين الحق والعبد والخالق والمخلوق، فمن وقف مع عقله في حال حبه لم يتمكن أن يقبل من سلطان الحب إلاّ ما يقتضيه دليله النظري، ومن وقف مع قبول عقله لا مع نظر عقله فقبل من الحق ما وصف به نفسه تحكم فيه سلطان الحب بحسب ما قبله عقله من ذلك فالعقل بين النظر والقبول، فحكم الحب في العقل الناظر والقابل ليس على السواء فافهم فإن هنا أسراراً، المحب الله نسبة العقل إلينا نسبة العلم إليه فلا يكون إلاّ ما سبق به علمه كما لا يكون منا إلاّ قدر ما اقتضاه عقلنا فحكم حبه في خلقه لا يجاوز علمه، وحكم حبنا فيه لا يجاوز عقلنا نظراً أو قبولاً فافهم.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه مثل الدابة جرحه جبار.

حكي أن خطافاً راود خطافة كان يحبها في قبة لسليمان عليه السلام وكان سليمان عليه السلام في القبة فسمعه وهو يقول لها: لقد بلغ مني حبك أن لو قلت لي اهدم هذه القبة على سليمان لفعلت، فاستدعاه سليمان عليه السلام وقال له: ما هذا الذي سمعته منك؟ فقال: يا سليمان لا تعجل عليّ إن للمحب لساناً لا يتكلم به إلاّ المجنون وأنا أحب هذه الأنثى فقلت ما سمعت، والعشاق ما عليهم من سبيل فإنهم يتكلمون بلسان المحبة لا بلسان العلم والعقل، فضحك سليمان ورحمه ولم يعاقبه. فهذا جرح قد جعله جباراً وأهدره ولم يؤاخذه به، كذلك المحب لله كل ما أعطاه إدلال الحب وصدق المودّة من الخلل في ظاهر الأمر لا يؤاخذ به المحب فإن ذلك حكم الحب. والحب مزيل للعقل، وما يؤاخذ الله إلاّ العقلاء لا المحبين فإنهم في أسره، وتحت حكم سلطان الحب المحب الله جرحه جبار هو الصادق وتوعد على الخطيئة بما توعد به ثم عفا ولم يؤاخذ من غير توبة من العاصي بل امتناناً منه وفضلاً، فاهدر ما كان له أن يأخذ به كان ما اجترحه المسيء جباراً، وما توعده به الحق من وقوع الانتقام به جبار لأنه عفا عنه من غير سبب البهيمة لا تقصد ضرر العبادة ولا تعقل، فجرحها جبار المحب محكوم عليه فغيره هو القاتل فجرحه جبار ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩].

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه لا يقبل حبّه الزيادة بإحسان المحبوب ولا النقص

بجفائه. هذا الحكم لا يكون إلاَّ في محب أحبه لذاته عن تجلّ تجلّى له فيه من اسمه الجميل فلا يزيد بالبر ولا ينقص بالإعراض، بخلاف حب الإحسان والنعم فإنه يقبل الزيادة والنقص وهو الحب المعلول، قالت المحبة: لو قطعتني إرباً إرباً لم أزدد فيك إلاَّ حباً، يعني أنه لا ينقص حبنا لذلك وهو قول المرأة المحبة يقال إن هذا قول رابعة العدوية المشهورة التي أربت على الرجال حالاً ومقاماً وقد فصلت وقسمت رضي الله عنها وهو أعجب الطرق في الترجمة عن الحب: [المتقارب]

أحـبُّـكَ حُـبَّـيْـنِ حـبَّ الـهـوى ... وحـبـاً لأنَّـك أهـلٌ لـذَاكْ
فـأمّـا الـذي هـو حـبُّ الـهَـوَى ... فـشُـغْـلـي بـذكْـرِك عـمَّـنْ سـوَاكْ
وأمّـا الـذي أنـتَ أهـلٌ لـه ... فـكَـشْـفُـكَ لـلـحُـجْـبِ حـتـى أراكْ
فـلا الـحَـمْـدُ فـي ذا ولا ذاك لـي ... ولـكـنْ لـكَ الـحَـمْـدُ فـي ذا وذاكْ

وقالت الأخرى جارية عتاب الكاتب: [الخفيف]

يـا حـبـيـبَ الـقـلـوب مـن لـي سـواكَـا ... ارْحَـم الـيـومَ زائـراً قـد أتـاكَـا
أنـتَ سُـؤلـي وبُـغـيَـتـي وسُـروري ... قـد أبَـى الـقـلـبُ أن يـحـبَّ سـواكَـا
يـا مُـنَـايَـا وسـيِّـدي واعْـتِـمَـادي ... طـالَ شَـوْقـي مَـتَـى يـكـونُ لـقَـاكَـا
لـيـس سُـؤلـي مـن الـجِـنـانِ نـعـيـمـاً ... غـيـرَ أنـي أريـدُهـا لأراكَـا

ولنا في هذا النعت: [الوافر]

نـعـيـمُـك أو عَـذَابُـك لـي سَـوَاءٌ ... فـحـبُّـكَ لا يَـحُـول ولا يَـزيـدُ
فـحُـبِّـي فـي الـذي تَـخْـتَـارُ مـنـي ... وحـبُّـك مـثـلُ خَـلْـقِـكَ لـي جَـديـدُ

هذا ميزان الاعتدال وهو الميزان الإلهي لا تؤثر فيه العوارض ولا يتأثر بالأحوال المحب الله لا ينتفع بالطاعة ولا يتضرر بالمخالفة، من أحبه من عباده لم تضرّه الذنوب ولا قدحت في منزله بل بشره فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٣] فقدم العفو على السؤال عندنا وعلى العتاب عند غيرنا: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢] فقدم المغفرة على الذنب وليس يذنب عنده، وإنما ذكره لتعرف العناية الإلهية بأحبابه لا ذنب لمحبوب ولا حسنة لمحب عند نفسه ومع هذا كله فإنه مقام خفيّ غير جليّ سريع التفلت في المحب يتصوّر فيه المطالبة مع الأنفاس مدعيه حافظ لميزانه إن أخلّ به قامت الحجة عليه من الجانبين، فلا يحفظه إلاَّ ذو معرفة تامّة وذو حب صادق قوي السلطان ثابت الحكم.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه غير مطلوب بالآداب. إنما يطلب بالأدب من كان له عقل وصاحب الحب ولهان مدله العقل لا تدبير له فهو غير مؤاخذ في كل ما يصدر عنه، إذا كان المحب الله فهو الكبير المالك مشرع الآداب في العقلاء مؤدّب أوليائه كما قال ﷺ: «**إنّ اللَّهَ أَدَّبَني فَأَحْسَنَ أَدبي**» والسيد لا يقال يتأدّب مع غلامه وإنما يقال: السيد يعطي ما يستحقه العبد المحبوب عنده المكرم لديه منة منه وفضلاً، فالسيد غير مطالب بالأدب مع عبده وإن كان محبوباً له.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه ناس حظه وحظ محبوبه استفرغه الحب فأنساه المحبوب وأنساه نفسه، وهذا هو حب الحب والحقيقة الإلهية التي صدرت منها هذه الحقيقة لا تنقال، نعم تنقال إلاَّ أنها من الأسرار التي لا تذاع فمن كشفها عرفها ولا يجوز له أن يعرف بها وآيتها من كتاب الله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٧] ومن نسي صورته نسي نفسه.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه مخلوع النعوت. المحب لا نعت له يقيد به ولا صفة، فإنه بحيث يريد محبوبه أن يقيمه فيه فنعته ما يراد به، وما يراد به لا يعرفه، فهو مخلوع النعوت المحب الله هو كامل لذاته لا يكمل بالزائد فلا نعت له ولا صفة لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠].

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه مجهول الأسماء، قال الشاعر: [السريع]

لا تَـدْعُـنـي إلاَّ بـيـا عَـبْـدَهـا ... فـإنـه أَشْـرَفُ أسـمـائـي

فهذا مثل قولهم فيه إنه مخلوع النعوت، فالعبودية له ذاتية فما له اسم معين سوى ما يسميه به محبوبه، فبأي اسم سمّاه ودعاه به أجابه ولبّاه، فإذا قيل للمحب: ما اسمك؟ يقول: سل المحبوب فما سماني به فهو اسمي لا اسم لي، أنا المجهول الذي لا يعرف والنكرة التي لا تتعرّف المحب الله لا اسم له يدل على ذاته، وإنما المألوه الذي هو محبوبه نظر إلى ماله فيه من أثر فسمّاه بآثاره فقبل الحق ما سمّاه به فقال المألوه: يا الله، قال الله له: لبيك، قال المربوب: يا رب، قال له الرب: لبيك، قال المخلوق له: يا خالق، قال الخالق: لبيك، قال المرزوق: يا رزاق، قال الرزاق: لبيك، قال الضعيف: يا قويّ، قال القويّ: أجبتك. فأحوالنا تدعوه دعاء تحقيق فيتخذها أسماء، ولهذا تختلف ألفاظها وتركيب حروفها بحسب اللسان والمعنى الموجب للاسم معقول عند المخلوقين فيقول العربيّ: يا الله للذي يقول له الفارسيّ أي خداي، ويقول له الروميّ: ايشا، ويقل له الأرمنيّ أي إصفاج، ويناديه التركي: أي تنكري، ويناديه الإفرنجي: أي كر يطور، ويقول له الحبشيّ: واق، فهذه ألفاظ مختلفة لمعنى واحد مقصود من كل مخلوق، فلهذا قلنا إنه مجهول الأسماء إذ الأسماء دلائل، فالمحبوب بأي اسم دعا محبه أجابه.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه كأنه سال وليس بسال، وهذا النعت يسمّى البهت والسبات ولا يكون له هذا إلاَّ في حال الاستغراق فيما عنده من حب محبوبه، حتى أن محبوبه ربما يكون بإزائه ولا يعرفه به ويناديه ولا يعرف صوته مع نظره إليه فهو كالسالي في حاله وهو في غاية الهيمان فيه، المحب الله يقول: و﴿اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] ويطالبهم بأنفاسهم أن يكون تنفسهم بذكره وأنه سميع الدعاء.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه لا يفرق بين الوصل والهجر لشغله بما عنده من محبوبه فهو مشهوده دائماً أو يكون كما قال القائل: [البسيط]

فاللَّيْلُ إن وصَلَتْ كالليل إن هَجَرَتْ ... أشكو من الطُّول ما أشكو من القِصَرِ

فهو في الحالتين صاحب شكوى فما تغير عليه الحال في عذاب دائم، وأما نحن فعلى

المذهب الأوّل ما لنا شغل إلاّ به فهو مشهودنا لا نعرف غيره ولا نشهد سواه ولنا في ذلك: [البسيط]

شُغْلي بها وَصَلَتْ ليلاً وإن هَجَرَتْ فما أُبالي أَطَالَ اللّيلُ أم قَصُرَا

المحب الله الكلمة الإلهية واحدة قال تعالىٰ ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٠] لا تفريق عنده، فبعده عين قربه وقربه عين بعده، فهو البعيد القريب ما عنده وصل بنا فيقبل الفصل ولا هجر فيقبل الوصل: [الوافر]

فَعَيْنُ الوَصْلِ عَيْنُ الهَجْرِ فيه وما يَدْريه إلاّ مَنْ رآهُ

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه متيم في إدلال المتيم الذي تعبده الحب وأذلّه مع إدلال يجده عنده ولا يعرف سببه سوى ما تعطي الحقائق من أن المحب يعطي المحبوب سيادته عليه فكأنه ولاّه ومن حالته هذه فلا بدّ أن تشمّ منه رائحة إدلال في إذلال وخضوع وهذا يعطيه مقام الحب. المحب الله: عبدي جعت فلم تطعمني، ظمئت فلم تسقني، مرضت فلم تعدني، من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت منه ذراعاً، فضاعف التقريب ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ١١] تضاعف الأجر إدلال والسؤال سؤال.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه ذو تشويش، وسبب ذلك جهله بما في نفس المحبوب، فلا يدري بأيّ حالة يكون معه، أما إذا كان الحق محبوبه فإنه قد عرف ذلك بما شرع له فلا يبقى عليه تشويش في قلبه إلاّ فيما منحه من الأسرار وما حاباه به من اللطائف، وهو يحب أن يحببه إلى خلقه حتى تجتمع الهمم والقلوب كلها عليه، ولا يتمكن له ذلك إلاّ بإذاعة أسراره، لأنّ النفوس مجبولة على حب المنح والهبات والعطايا، ثم إنه لا يعلم هل يرضى إذاعة تلك الأسرار ربه أم لا؟ فهذا سبب تشويش قلوب المحبين لله. المحب الله نفذ الأمر الإلهيّ بأن يؤمن من سبق علمه فيه أنه لا يؤمن وقوله وعلمه واحد، فمن أي حقيقة قال آمراً من علم أنه لا يمتثل أمره فقد عرضه للمعصية و﴿هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٣٠] فمن هنا صدر التشويش في العالم واختلاف الأغراض والمنازعات.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه خارج عن الوزن، التصرّفات على الوزن المعتبر في الحكمة يطلب الفكر الصحيح، والمحب لا فكرة له في تدبير الكون وإنما همّه وشغله بذكر محبوبه قد أفرط فيه الخيال فلا يعرف المقادير، فإن كان محبوبه الله لما وسعه قلبه فذلك الخارج عن الوزن فلا يزنه شيء، ألا ترى إلى التلفظ بذكره وهي لفظة لا إله إلاّ الله لا تدخل الميزان، ولما دخلت بطاقتها من حيث ما هي مكتوبة في الميزان لصاحب السجلات طاشت السجلات وما وزنها شيء، ولو وضعت أصناف العالم ما وزنتها وهي لفظة من قائل لم يتصف بالمحبة فما ظنك بقول محب؟ فما ظنك بحاله؟ فما ظنك بقلبه الذي هو أوسع من رحمة الله وسعته إنما كانت من رحمة الله، فهذا من أعجب ما ظهر في الوجود أن اتساع القلب من رحمة الله وهو أوسع من رحمة الله، يقول أبو يزيد: لو أن العرش وما حواه مائة

ألف ألف مرة في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحسّ بها فكيف حال المحب؟ المحب الله تعالىٰ عن الموازنة محبوب الحق عند الحق لأن المحب لا يفارق محبوبه وما عند الله باق فالمحبوب باق وما يبقى ما يوازنه ما يفنى.

منصة ومجلى: نعت المحب بكونه يقول عن نفسه إنه عين محبوبه لاستهلاكه فيه فلا يراه غير إله. قال قائلهم في ذلك: أنا من أهوى ومن أهوى أنا. وهذه حالة أبي يزيد. المحب الله أحب بعض عباده فكان سمعه وبصره ولسانه وجميع قواه.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه مصطلم مجهود لا يقول لمحبوبه لم فعلت كذا؟ لم قلت كذا؟ قال أنس بن مالك رضي الله عنه: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله لِمَ لَمْ تفعله؟ لأنه كان يرى تصريف محبوبه فيه وتصريف المحبوب في المحب لا يعلل بل يسلم لا بل يستلذ لأن المحب مصطلم بنار تحرق كلّ شيء تجده في قلبه ما سوى محبوبه غيره، فهو يبذل المجهود ولا يرى أنه وفى، ولا يخطر له أنه تحرّك فيما يرضى محبوبه، المحب الله في هذا الموطن لا تتحرك ذرة إلاَّ بإذنه فكيف يقول لِمَ وما فعل إلاَّ هو، يقول المحب لمحبوبه: أنا يدك اللازم له لكل محبوب تجلّ لا يكون لغيره فما يجتمع عنده اثنان ولا يصحّ، فهذا الاصطلام ونعته بالمجهود ما نسب إليه من التردّد.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه مهتوك الستر سرّه علانية فضيحة الدهر لا يعلم الكتمان، قال المحب الصادق: [الكامل]

مـن كـان يَـزْعُـمُ أَنْ سَـيَـكْـتُـمُ حُـبَّـه ... حـتـى يُـشَـكِّـكَ فـيـه فـهـو كَـذُوبُ
الـحـبُّ أغْـلَـبُ لـلـفـؤاد بـقَـهْـره ... مـن أن يـرى لـلـسَّـتْـر فـيـه نَـصـيـبُ
وإذا بـدا سـرُّ الـلَّـبـيـب فـإنـه ... لـم يَـبْـدُ إلاَّ والـفَـتَـى مَـغْـلُـوبُ
إنـي لأحْـسُـدُ ذا هـوًى مُـتَـحَـفِّـظـاً ... لـم تَـتَّـهِـمْـه أعـيـنٌ وقُـلـوبُ

الحب غلاب لا يبقي ستراً إلاَّ هتكه ولا سراً إلاَّ أعلنه، زفراته متصاعدة، وعبراته متتابعة، تشهد عليه جوارحه بما تحمله من الأسقام والسهر وتنم به أحواله، إن تكلم تكلم بما لا يعقل، ما له صبر ولا جلد، همومه مترادفة، وغمومه متضاعفة. المحب الله إذا أحب الله العبد أوحى إلى الملك أن ينادي به في السموات إن الله أحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض فتقبله البواطن، وإن أنكرته الظواهر من بعض الناس فلأغراض قامت بهم فإنهم في هذا الشأن مثل سجودهم لله كل من في العالم ساجد لله وكثير من الناس ما قال كلهم، وهكذا حب هذا العبد في قلوبهم وإن وضع له القبول في الأرض فتحبه بقاع الأرض كلها وجميع ما فيها وكثير من الناس على أصلهم في السجود لله سواء.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه لا يعلم أنه محب كثير الشوق لا يدري لمن، عظيم الوجد لا يدري فيمن، لا يتميز له محبوبه، القرب المفرط حجاب فيجد آثار الحب وقد لبسته صورة محبوبه ممّا يحكم في خياله فيطلبه من خارج فلا يجد ما عانق من صورته في نفسه

لكثافة الظاهر عن لطف الباطن، المحب مع المعنى الذي يأخذه من المحبوب ويرفعه في نفسه، وذلك المعنى المرفوع عند المحب منه هو الذي يقلقه ويزعجه فهو فيه ولا يدري أنه هو فيه فلا يطلبه إلاَّ به اللطيف يغيب عن الحواس يقول ولا يعقل ما يقول ولا بقوله: قلبي عند محبوبي: [المديد]

ضاعَ قلبي أين أَطْلُبُهُ ... ما أرى جسمي له وَطَنا

ولا بقوله محبوبي في قلبي لا أدري في أي الحالتين هو أصدق يجمع بين الضدين هو عندي ما هو عندي. المحب الله تجلى الله لآدم ويداه مقبوضتان فقال: يا آدم اختر أيتهما شئت، قال: إخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة فبسطها فإذا فيها آدم وذريته الحديث. فآدم في القبضة وآدم خارج القبضة، هكذا صورة المحبوب مع المحب هو فيه ما هو فيه، فنعوته كثيرة لا تحصى وليس لها حد فيبلغ بالبحث والاستقصا، غير أن مشارب الحب متنوعة باختلاف المحبوب، فإن عقلت عني فقد رميت بك على الطريق فإياك والتشبيه فالحب والوجد والشوق والكمد حقيقة واحدة لها نسب مختلفة لاختلاف المتعلق، فهي نعوت تحكم سلطانها فيمن قامت به لا يرجع منها إلى المحبوب نعت ولا له فيها حكم إلاَّ أن يكون محباً فافهم، وهذا القدر كاف على الإيجاز في نعت المحبين في الجانبين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء السادس عشر ومائة.

(الجزء السابع عشر ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب التاسع والسبعون ومائة
في معرفة مقام الخلة

[نظم: السريع]

بخلَّة الكون يُسَدُّ الخَلَلْ ... بخلَّة الحقِّ فأكرمْ بِهْ
من نَعْت حقّ ورَسُولَيْ هُدًى ... وما له في الخَلْق من مُشْبِهْ
إن عجزَتْ عنه نفوسُ الوَرَى ... فأنتَ من عَالَمِه قُمْ بِهْ

الخلة نعت إلهي يقول قائلهم: [الخفيف]

وتخلَّلْتَ مَسْلَكَ الروح مني ... وبذا سُمِّي الخليلُ خليلاَ

يعضده حال الحلاج وزليخا انكتب بدم زليخا يوسف حيث وقع، وبدم الحلاج الله الله حيث وقع فأنشد: [السريع]

ما قُدَّ لي عضوٌ ولا مفْصَلُ ... إلاَّ وفيه لكم ذِكْرُ

إذا تخللت المعرفة بالله أجزاء العارف من حيث ما هو مركب فلا يبقى فيه جوهر فرد إلاَّ وقد حلّت فيه معرفة ربه فهو عارف به بكل جزء فيه، ولولا ذلك ما انتظمت أجزاؤه ولا ظهر

تركيبه ولا نظرت روحانيته طبيعته، فبه تعالىٰ انتظمت الأمور معنى وحساً وخيالاً، وكذلك أشكال خيال الإنسان لا تتناهى وما ينتظم منها شكل إلاَّ بالله، ويكون حكمها في تلك الحضرة في المعرفة بالله حكم ما ذكرناه في الصورة الحسية والروحانية هكذا في كل موجود، فإذا أحسّ الإنسان بما ذكرناه وتحقق به وجوداً وشهوداً كان خليلاً من حصل في هذا المقام كان حاله في العالم نعت الحق فبه يرزق مع كفر النعم ويملي ليزداد ذلك الشخص إثماً فيظهر عظم المغفرة وسلطان العفو والتجاوز.

حكاية: نزل ضيف من غير ملة إبراهيم عليه السلام بإبراهيم عليه السلام فقال له إبراهيم عليه السلام: وحد الله حتى أكرمك وأضيفك، فقال: يا إبراهيم من أجل لقمة أترك ديني ودين آبائي فانصرف عنه، فأوحى الله إليه: يا إبراهيم صدقك. لي سبعون سنة أرزقه وهو يشرك بي فتريد أنت منه أن يترك دينه ودين آبائه لأجل لقمة، فلحقه إبراهيم عليه السلام وسأله الرجوع إليه ليقريه واعتذر إليه فقال له المشرك: يا إبراهيم ما بدا لك؟ فقال: إن ربي عتبني فيك وقال لي: أنا أرزقه منذ سبعين سنة على كفره بي وأنت تريد منه أن يترك دينه ودين آبائه لأجل لقمة، فقال المشرك: أو قد وقع هذا؟ مثل هذا ينبغي أن يعبد! فأسلم ورجع مع إبراهيم عليه السلام إلى منزله، ثم عمّت كرامته خلق الله من كل وارد ورد عليه فقيل له في ذلك فقال: تعلمت الكرم من ربي رأيته لا يضيع أعداءه فلا أضيعهم، فأوحى الله إليه: أنت خليلي حقاً، قال رسول الله ﷺ: «**الْمَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**» قال الشاعر: [الطويل]

عَن المرءِ لا تَسْأَلْ وسَلْ عن قرينه ... وكلُّ خليلٍ بالمُقَارن مُقْتَدِ
إذا كنتَ في قومٍ فصاحِبْ خِيَارَهُمْ ... ولا تَصْحَبِ الأرْدَى فتَرْدَى مَعَ الرَّدي

قيل لبعضهم: من أحب الناس إليك؟ قال: أخي إذا كان خليلي، علامة الخليل أن يسد خلة صاحبه بما أمكنه فإذا لم يستطع قاسمه في همه كما قيل: [الوافر]

خليلي من يُقَاسِمُني هُمُومي ... ويَرْمي بالعَدَاوة مَنْ رَمَاني

وقال الآخر: [مخلع البسيط]

ما أنا إلاَّ لِمَنْ بَغَاني ... أرى خليلي كما يَرَاني

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [سورة الممتحنة: الآية ١] وقد قلنا بأن الخليل على دين خليله وهؤلاء الموصوفون بأنهم أعداء الله مع كون الله يحسن إليهم فذلك لجهلهم به وحجب الأسباب دونه في أعينهم فلا يعلمون إلاَّ ما شاهدوه، فمن أراد تحصيل هذا المقام وأن يكون خليلاً للرحمن يجمع بين الآية في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ مع جهل الأعداء به أن الإحسان منه تعالىٰ وهو محسن إليهم مع عداوتهم ولم يجعل في قلوبهم الشعور بذلك فينبغي للإنسان الطالب مقام الخلة أن يحسن عامة لجميع خلق الله كافرهم ومؤمنهم طائعهم وعاصيهم، وأن يقوم في العالم مع قوته مقام الحق فيهم من شمول الرحمة وعموم لطائفه من حيث لا يشعرهم أن ذلك

الإحسان منه، ويوصل الإحسان إليهم من حيث لا يعلمون، فمن عامل الخلق بهذه الطريقة وهي طريقة سهلة فإني دخلتها وذقتها فما رأيت أسهل منها ولا ألطف وما فوق لذتها لذة، فإذا كان العبد بهذه المثابة صحّت له الخلة، وإذا لم يستطع بالظاهر لعدم الموجود أمدهم بالباطن فدعا الله لهم في نفسه بينه وبين ربه، هكذا تكون حالة الخليل فهو رحمة كله، ولولا الرحمة الإلهية ما كان الله يقول: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦١] وما كان الله يقول حتى يعطوا الجزية أليس هذا كله إبقاء عليهم، ولولا ما سبقت الكلمة وكان وقوع خلاف المعلوم محالاً ما تألمت ذرة في العالم، فلا بدّ من نفوذ الكلمة ثم يكون المآل للرحمة التي وسعت كل شيء، فهو في الدنيا يرزق مع الكفر ويعافي ويرحم فكيف مع الإيمان والاعتراف في الدار الآخرة على الكشف كما كان في قبض الذرية فعقابهم وعذابهم تطهير وتنظيف كأمراض المؤمنين وما ابتلوا به في الدنيا من مقاساة البلايا وحلول الرزايا مع إيمانهم، ثم دخول بعض أهل الكبائر النار مع إيمانهم وتوحيدهم إلى أن يخرجوا بالشفاعة، ثم إخراج الحق من النار من لم يعمل خيراً قط حتى الساكنين في جهنم لهم فيها حال يستعذبونها وبهذا سمّي العذاب عذاباً، فالخليل على عادة خليله وهو قوله ﷺ: **«المَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ»** أي على عادة خليله، قال امرؤ القيس: [الطويل]

كدينكَ من أمِّ الحُوَيْرِثِ قبلها ... وجارتِها أمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ

يقول: كعادتك فمن كانت عادته في خلق الله ما عوّدهم الله من لطائف مننه وأسبغ عليهم من جزيل نعمه وأعطف بعضهم على بعض، فلم يظهر في العالم غضب لا تشوبه رحمة ولا عداوة لا تتخللها مودّة، فذلك يستحق اسم الخلة لقيامه بحقها واستيفائه شروطها لو لم يكن من عظيم الرجاء في شمول الرحمة إلاّ قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] فإذا استقرّت الرحمة في العرش الحاوي على جميع أجسام العالم فكل ما يناقضها أو يريد رفعها من الأسماء والصفات فعوارض لا أصل لها في البقاء لأن الحكم للمستولي وهو الرحمن فإليه يرجع الأمر كله، فابحث على صفات إبراهيم عليه السلام وقم بها عسى الله أن يرزقك بركته فإنه بالخلة قام بها ما هي أوجبت له الخلة، فلهذا دللناك على التخلق بأخلاق الله، وقد قال ﷺ: **«بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ»** ومعنى هذا أنه لما قسمت الأخلاق إلى مكارم وإلى سفساف وظهرت مكارم الأخلاق كلها في الشرائع على الأنبياء والرسل وتبين سفسافها من مكارمها عند الجميع وما في العالم على ما يقوم عليه الدليل ويعطيه الكشف والمعرفة إلاّ أخلاق الله فكلها مكارم فما ثم سفساف أخلاق، فبعث رسول الله ﷺ بالكلمة الجامعة إلى الناس كافة وأوتي جوامع الكلم، وكل نبيّ تقدمه على شرع خاص، فأخبر ﷺ أنه بعث ليتمم مكارم الأخلاق لأنها أخلاق الله، فالحق ما قيل فيه أنه سفساف أخلاق بمكارم الأخلاق فصار الكل مكارم أخلاق، فما ترك ﷺ في العالم سفساف أخلاق جملة واحدة لمن عرف مقصد الشرع فأبان لنا مصارف لهذا المسمّى سفساف أخلاق من حرص وحسد وشره وبخل وفزع وكل صفة مذمومة، فأعطانا لها مصارف إذا أجريناها على تلك المصارف عادت مكارم أخلاق وزال عنها اسم الذم وكانت محمودة فتمم الله به مكارم الأخلاق، فلا ضد له كما

أنه لا ضد للحق، وكل ما في الكون أخلاقه فكلها مكارم ولكن لا تعرف، وما أمر الله باجتناب ما يجتنب منها إلاَّ لاعتقادهم فيها أنها سفساف أخلاق، وأوحى إلى نبيه أن يبين مصارفها ليتنبهوا، فمنا من علم ومنا من جهل، فهذا معنى قوله: إنه بعث ليتمم مكارم الأخلاق وبه كان خاتماً.

الباب الثمانون ومائة

في معرفة مقام الشوق والاشتياق وهو من نعوت المحبين العشاق

[نظم: الكامل]

شَوْقٌ بتحصيل الوصال يَزُولُ ... والاشتِيَاقُ مع الوِصَال يكونُ
إن التَّخَيُّلَ للفراق يُديمُه ... عند اللِّقَاء فَرَبُّه مَغْبُونُ
من قالَ هَوِّنْ صَعْبَه قُلنا له ... ما كلُّ صعبٍ في الوجود يَهُونُ
هو مِنْ صفاتِ العِشْقِ لا من غيره ... والعِشْقُ داءٌ في القُلوب دَفينُ
ما حُكْمُ هذا النَّعْت إلاَّ هَهُنا ... وهناك يذهب عَيْنُهُ ويَبِينُ

يقول بعض العشاق: [الوافر]

فأبكي إن نَأَوْا شوقاً إليهم ... وأبكي إن دَنَوْا خَوْفَ الفِراقِ

الشوق يسكن باللقاء فإنه هبوب القلب إلى غائب، فإذا ورد سكن، والاشتياق حركة يجدها المحب عند اجتماعه بمحبوبه فرحاً به لا يقدر يبلغ غاية وجده فيه، فلو بلغ سكن لأنه لا يشبع منه فإن الحسّ لا يفي بما يقوم في النفس من تعلّقها بالمحبوب، فهو كشارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً، قال عليه السلام: «**مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْم وَطَالِبُ دُنْيَا**» من حيث ما هو محب في تحصيل كل واحد منهما وما للعلم غاية ينتهي إليها فلهذا لا يشبع، وكذلك الدنيا فإنها مشتهى النفوس والشهوة تطلبها وقد تجلّى ذلك المشتهى في صورة قريبة تسمّى دنيا فتعلقت الشهوة بها، ثم تنتقل إلى الآخرة في الجنة فتتبعها الشهوة فلا تشبع أبداً لأنها صورة لا يتناهى أمدها، ولولا الشهوة ما طابت الجنة فالشوق ما سكن والاشتياق ما بقي ولنا في هذا الباب: [الرمل]

ليس يصفو عَيْشُ من ذاق الهَوَى ... دون أن يَلْقَى الذي يعْشَقُهُ
فإذا أبْصرَه يَسْكُنُه ... ذلك المعنى الذي يُقْلِقُهُ
وهو معنًى حُكْمُه مختلِفٌ ... عندَ مَنْ يعرف ما أَطْلَقَهُ

ولما كان الحب لا يتعلق إلاَّ بمعدوم كما قدمناه في باب المحبة، كذلك الشوق لا يصحّ أن يتعلق بحاضر وإنما متعلقه غائب غير مشهود له في الحال، ولذا كان الشوق من أوصاف المحبة، ولهذا يطرد وينعكس فيقال: كل محب مشتاق وكل مشتاق محب، ومن ليس بمشتاق فليس بمحب، ومن ليس بمحب فليس بمشتاق، وقد ورد خبر لا علم لي بصحته: إن الله تعالىٰ ذكر المشتاقين إليه وقال عن نفسه أنه أشد شوقاً إليهم كما يليق بجلاله، فشوقه إليهم أن ينيلهم

الراحة بلقاء من اشتاقوا إليه، والوقت المقدر الذي لا يتبدل لم يصل، فلا بدّ من تأخّر وجود ما وقع الشوق الإلهي إليه هذا إن صحّ الخبر، ولا علم لي به لا من الكشف ولا من رواية صحيحة إلاّ أنه مذكور مشهور، وقد اتصفت الجنة بالاشتياق إلى علي وسلمان وعمار وبلال، وتكلم الناس في ذلك من حيث اشتقاق أسماء هؤلاء من العلو والسلامة والعمران والاستبلال ولكن ما هو محقق فإن الشوق أمر ذوقي، ولو خطر لي هذا الخبر حين رأيت الجنة لسألتها عن شوقها لهؤلاء دون غيرهم فإنها أعرف بالسبب الذي أدّاها إلى الشوق لهؤلاء الأربعة، وكذلك النبي ﷺ قد رأيته مراراً وسألته عن أشياء وما خطر لي أن أسأله عن شوق الجنة لهؤلاء بل شغلني ما كان أهم علي منه والشوق علم ذوق يعرفه كل مشتاق من نفسه.

الباب الأحد والثمانون ومائة

في معرفة مقام احترام الشيوخ

[نظم: البسيط]

مـا حُـرْمَـةُ الـشـيـخ إلاّ حُـرْمَـةُ الله ... فـقُـمْ بـهـا أدبـاً لله بـالله

هـم الأدلاَّءُ والـقُـرَبَـى تـؤيِّـدهُـمْ ... عـلـى الـدَّلالـة تـأيـيـداً عـلـى الله

الـوارثـون هُـمُ لـلـرُّسْـلِ أجْـمَـعِـهـم ... فـمـا حـديـثُـهـم إلاّ عـن الله

كـالأنـبـيـاء تَـراهُـمْ فـي مَـحَـارِبِـهِـمْ ... لا يَـسْـأَلـون مـن الله سـوى الله

فـإن بـدا مـنـهُـمُ حـالَ تَـوَلُّـهِـهِـمْ ... عـن الـشَّـريـعـة فـاتْـركْـهـم مَـعَ الله

لا تـتَّـبِـعْـهُـمْ ولا تَـسْـلـكْ لـهـم أثـراً ... فـإنـهـم طُـلَـقَـاءُ الله فـي الله

لا نـقـتـدي بـالـذي زالَـتْ شـريـعَـتُـه ... عـنـه ولـو جـاءَ بـالأنْـبَـا عـنِ الله

ولما رأينا في هذا الزمان جهل المريدين بمراتب شيوخهم قلنا في ذلك: [مجزوء الكامل]

جُـهِـلَـتْ مـقـاديـرُ الـشُّـيـوخْ ... أهـلِ الـمَـشَـاهـد والـرُّسُـوخْ

واسْـتُـنْـزِلَـتْ ألـفـاظُـهُـمْ ... جـهـلاً وكـان لـهـا الـشُّـمُـوخْ

الشيوخ نوّاب الحق في العالم كالرسل عليهم السلام في زمانهم، بل هم الورثة الذين ورثوا علم الشرائع عن الأنبياء عليهم السلام غير أنهم لا يشرعون، فلهم رضي الله عنهم حفظ الشريعة في العموم ما لهم التشريع، ولهم حفظ القلوب ومراعاة الآداب في الخصوص، هم من العلماء بالله بمنزلة الطبيب من العالم بعلم الطبيعة، فالطبيب لا يعرف الطبيعة إلاّ بما هي مدبرة للبدن الإنساني خاصة والعالم بعلم الطبيعة يعرفها مطلقاً وإن لم يكن طبيباً، وقد يجمع الشيخ بين الأمرين، ولكن حظ الشيخوخة من العلم بالله أن يعرف من الناس موارد حركاتهم ومصادرها، والعلم بالخواطر مذمومها ومحمودها، وموضع اللبس الداخل فيها من ظهور الخاطر المذموم في صورة المحمود، ويعرف الأنفاس والنظرة ويعرف ما لهما وما يحويان عليه من الخير الذي يرضي الله ومن الشر الذي يسخط الله، ويعرف العلل والأدوية، ويعرف الأزمنة والسنّ والأمكنة والأغذية وما يصلح المزاج وما يفسده، والفرق بين الكشف الحقيقي

والكشف الخيالي، ويعلم التجلّي الإلهي، ويعلم التربية وانتقال المريد من الطفولة إلى الشباب إلى الكهولة، ويعلم متى يترك التحكّم في طبيعة المريد ويتحكم في عقله، ومتى يصدّق المريد خواطره، ويعلم ما للنفس من الأحكام وما للشيطان من الأحكام وما تحت قدرة الشيطان، ويعلم الحجب التي تعصم الإنسان من إلقاء الشياطين في قلبه، ويعلم ما تكنه نفس المريد ممّا لا يشعر به المريد، ويفرق للمريد إذا فتح عليه في باطنه بين الفتح الروحاني وبين الفتح الإلهي، ويعلم بالشم أهل الطريق الذين يصلحون له من الذين لا يصلحون، ويعلم التحلية التي يحلي بها نفوس المريدين الذين هم عرائس الحق وهم له كالماشطة للعروس تزينها، فهم أدباء الله عالمون بآداب الحضرة وما تستحقه من الحرمة.

والجامع لمقام الشيخوخة أن الشيخ عبارة عمّن جمع جميع ما يحتاج إليه المريد السالك في حال تربيته وسلوكه وكشفه إلى أن ينتهي إلى الأهلية للشيخوخة، وجميع ما يحتاج إليه المريد إذا مرض خاطره وقلبه بشبهة وقعت له لا يعرف صحتها من سقمها، كما وقع لسهل في سجود القلب، وكما وقع لشيخنا حين قيل له: أنت عيسىٰ ابن مريم فيداويه الشيخ بما ينبغي، وكذلك إذا ابتلي من يخرج ليسمع من الحق من خارج لا من نفسه بمحرم يؤمر بفعله أو ينهى عن واجب، فيكون الشيخ عارفاً بتخليصه من ذلك حتى لا يجري عليه لسان ذنب مع صحة المقام الذي هو فيه فهم أطباء دين الله، فمهما نقصهم شيء ممّا يحتاجون إليه في التربية فلا يحل له أن يقعد على منصة الشيخوخة، فإنه يفسد أكثر ممّا يصلح ويفتن كالمتطبب، يعل الصحيح ويقتل المريض، فإذا انتهى إلى هذا الحد فهو شيخ في طريق الله يجب على كل مريد حرمته والقيام بخدمته والوقوف عند مراسمه لا يكتم عنه شيئاً ممّا يعلم أن الله يعلمه منه يخدمه ما دامت له حرمة عنده، فإن سقطت حرمته من قلبه فلا يقعد عنده ساعة واحدة فإنه لا ينتفع به ويتضرر، فإن الصحبة إنما تقع المنفعة فيها بالحرمة، فمتى ما رجعت الحرمة له في قلبه حينئذ يخدمه وينتفع به فإن الشيوخ على حالين: شيوخ عارفون بالكتاب والسنّة قائلون بها في ظواهرهم متحققون بها في سرائرهم، يراعون حدود الله ويوفون بعهد الله، قائمون بمراسم الشريعة لا يتأوّلون في الورع، آخذون بالاحتياط مجانبون لأهل التخليط، مشفقون على الأمة، لا يمقتون أحداً من العصاة، يحبون ما أحب الله ويبغضون ما أبغض الله ببغض الله، لا تأخذهم في الله لومة لائم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر المجمع عليه، يسارعون في الخيرات ويعفون عن الناس، يوقرون الكبير ويرحمون الصغير، ويميطون الأذى عن طريق الله وطريق الناس، يدعون في الخير بالأوجب فالأوجب، يؤدّون الحقوق إلى أهلها، يبرّون إخوانهم بل الناس أجمعهم، لا يقتصرون بالجود على معارفهم جودهم مطلق الكبير لهم أب والمثل لهم أخ وكفؤ والصغير لهم ابن، وجميع الخلق لهم عائلة، يتفقدون حوائجهم، إن أطاعوا رأوا الحق موفقهم في طاعتهم إياه، وإن عصوا سارعوا بالتوبة والحياء من الله ولاموا نفوسهم على ما صدر منهم، ولا يهربون في معاصيهم إلى القضاء والقدر فإنه سوء أدب مع الله، هينون لينون ذوو مقة ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٩] في نظرهم رحمة لعباد الله كأنهم يبكون، الهم عليهم أغلب من

الفرح لما يعطيه موطن التكليف، فمثل هؤلاء هم الذين يقتدى بهم ويجب احترامهم، وهم الذين إذا رُؤوا ذكر الله.

وطائفة أخرى من الشيوخ أصحاب أحوال عندهم تبديد ليس لهم في الظاهر ذلك التحفّظ تسلم لهم أحوالهم ولا يصحبون ولو ظهر عليهم من خرق العوائد ما عسى أن يظهر لا يعوّل عليه مع وجود سوء أدب مع الشرع فإنه لا طريق لنا إلى الله إلاَّ ما شرعه، فمن قال بأن ثم طريقاً إلى الله خلاف ما شرع فقوله زور، فلا يقتدى بشيخ لا أدب له وإن كان صادقاً في حاله ولكن يحترم، واعلم أن حرمة الحق في حرمة الشيخ وعقوقه في عقوقه، هم حجاب الحق الحافظون أحوال القلوب على المريدين، فمن صحب شيخاً ممّن يقتدى به ولم يحترمه فعقوبته فقدان وجود الحق في قلبه، والغفلة عن الله وسوء الأدب عليه يدخل عليه في كلامه ويزاحمه في رتبته، فإن وجود الحق إنما يكون للأدباء والباب دون غير الأدباء مغلق، ولا حرمان أعظم على المريد من عدم احترام الشيوخ، قال بعض أهل الله في مجالس أهل الله: من قعد معهم في مجالسهم وخالفهم في شيء ممّا يتحققون به في أحوالهم نزع الله نور الإيمان من قلبه، فالجلوس معهم خطر، وجليسهم على خطر، واختلف أصحابنا في حق المريد مع شيخ آخر خلاف شيخه هل حاله معه من جانب الحق مثل شيخه أم لا؟ فكلهم قالوا بوجوب حرمته عليه، ولا بدّ هذا موضع إجماعهم، وما عدا هذا فمنهم من قال: حاله معه على السواء من حاله مع شيخه، ومنهم من فصل وقال: لا تكون الصورة واحدة إلاَّ بعد أن يعلم المريد أن ذلك الشيخ الآخر ممّن يقتدى به في الطريق، وأما إذا لم يعرف ذلك فلا، ولهذا وجه وللآخر وجه النبيّ ﷺ يقول للمرأة: إنما الصبر عند الصدمة الأولى وكانت قد جهلت أنه رسول الله ﷺ، والمريد لا يقصد إلاَّ الحق، فإذا ظهر مقصوده حيث ظهر قال به وأخذه، فإن الرجال إنما يعرفون بالحق لا يعرف الحق بهم، والأصل أنه كما لم يكن وجود العالم بين إلهين ولا المكلف بين رسولين مختلفي الشرائع ولا امرأة بين زوجين، كذلك لا يكون المريد بين شيخين إذا كان مريد تربية، فإن كانت صحبة بلا تربية فلا يبالي بصحبة الشيوخ كلهم لأنه ليس تحت حكمهم، وهذه الصحبة تسمّى صحبة البركة غير أنه لا يجيء منه رجل في طريق الله فالحرمة أصل في الفلاح.

الباب الثاني والثمانون ومائة

في معرفة مقام السماع

[نظم: الكامل]

خُذْهَا إليكَ نصيحةً من مُشْفِقِ ... ليس السَّمَاعُ سوى السماع المُطْلَقِ
واحذَرْ من التَّقْييد فيه فإنه ... قولٌ يفند عند كلِّ مُحَقِّقِ
إن السَّمَاعَ من الكتاب هو الذي ... يدريه كلُّ معلَّم ومُطَرَّقِ
إن التَّغَنِّي بالقُرَانِ سَمَاعُنا ... والحقُّ ينطق عند كَلِّ منطقِ

والله يَسْمعُ ما يقول عبيدُه — من قولِهِ فَسَماعُه بتَحَقُّقِ
أصلُ الوجود سمَاعُنا من قَوْلِ كُنْ — فبه نكون ونحن عَيْنُ المَنْطقِ
انظُرْ إلى تَقْديمه في آيةٍ — تَعْثُرْ على العلم الشَّريفِ المُزْهِقِ
فالسَّمْعُ أشْرَفُ ما تَحَقَّقَ عارفٌ — بتَعَلُّقٍ وتَحَقُّقٍ وتَخَلُّقِ

قال تعالىٰ: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة النور: الآية ٢١] وقال: ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحج: الآية ٦١] فقدمه على العلم، والبصر أوّل شيء علمناه من الحق وتعلق به منا القول منه والسماع منا فكان عنه الوجود، وكذلك نقول في هذا الطريق: كل سماع لا يكون عنه وجد وعن ذلك الوجد وجود فليس بسماع، فهذه رتبة السماع التي يرجع إليها أهل الله ويسمعون، فقوله تعالىٰ للشيء قبل كونه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] هو الذي يراه أهل السماع في قول القائل وتهيؤ السامع المقول له ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ للتكوين بمنزلة الوجد في السماع، ثم وجوده في عينه عن قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ بمنزلة الوجود الذي يجده أهل السماع في قلوبهم من العلم بالله الذي أعطاهم السماع في حال الوجد، فمن لم يسمع سماع وجود فما سمع، ولهذا جعل القوم الوجود بعد الوجد، ولما لم يصحّ الوجود أعني وجود العالم إلاّ بالقول من الله والسماع من العالم لم يظهر وجود طرق السعادة، وعلم الفرق بينها وبين طرق الشقاء إلاّ بالقول الإلهي والسماع الكوني، فجاءت الرسل بالقول جميعهم من قرآن وتوراة وإنجيل وزبور وصحف فما ثم إلاّ قول وسماع غير هذين لم يكن، فلولا القول ما علم مراد المريد ما يريده منا، ولولا السمع ما وصلنا إلى تحصيل ما قيل لنا، فبالقول نتصرف، وعن القول نتصرف مع السماع، فهما مرتبطان لا يصحّ استقلال واحد منهما دون الآخر وهما نسبتان، فبالقول والسماع نعلم ما في نفس الحق إذ لا علم لنا إلاّ بإعلامه وإعلامه بقوله، ولا يشترط في القول الآلة ولا في السماع، بل قد يكون بآلة وبغير آلة، وأعني بآلة القول اللسان وآلة السماع الأذن، فإذا علمت مرتبة السماع في الوجود وتميزه عن غيره من النسب فاعلم أن السماع عند أهل الله مطلق ومقيد، فالمطلق هو الذي عليه أهل الله ولكن يحتاجون فيه إلى علم عظيم بالموازين حتى يفرقوا بين قول الامتثال وبين قول الابتلاء وليس يدرك ذلك كل أحد، ومن أرسله من غير ميزان ضلّ وأضلّ، والمقيد هو السماع المقيد بالنغمات المستحسنات التي يتحرك لها الطبع بحسب قبوله، وهو الذي يريدونه غالباً بالسماع لا السماع المطلق، فالسماع على هذا الحد ينقسم على ثلاثة أقسام: سماع إلهيّ، وسماع روحاني، وسماع طبيعي. فالسماع الإلهيّ بالأسرار وهو السماع من كل شيء، وفي كل شيء، وبكل شيء، والوجود عندهم كله كلمات الله وكلماته لا تنفد، ولهم في مقابلة هذه الكلمات أسماع لا تنفد تحدث لهم هذه الأسماع في سرائرهم بحدوث الكلمات وهو قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] فمنهم من أعرض بعد السماع، ومنهم من وقف عندما سمع، وهذا مقام لا يعلمه كل أحد وما في الوجود إلاّ هو ولكن يجهل ولا يعلم وهو يتعلق بأسماء

الله تعالىٰ على كثرتها، فلكل اسم لسان، ولكل لسان قول، ولكل قول منا سمع والعين واحد من القائل والسامع، فإن كان نداء أجبنا وامتثلنا وكان من قوله أن قال لنا: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠] فكما قال، وسمعنا أمرنا عندما جعل فينا قوّة القول أن نقول فيسمع هو تعالىٰ فمنا من يقول به كما قال: إن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فكلام صاحب هذا المقام كله نيابة، ومنا من يقول بنفسه في زعمه وما هو كذلك في نفس الأمر، فإن الله عند لسان كل قائل، فكما أنه ليس في الوجود إلاّ الله كذلك ما ثم قائل ولا سامع إلاّ الله، وكما قسمنا قولنا بين من يقول بالله ويقوله بنفسه، كذلك سماعنا منا من يسمع بربه وهو قوله: «**كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به**»، ومنا من يسمع بنفسه في زعمه والأمر على خلافه فهذا هو السماع الإلهيّ وهو سار في جميع المسموعات.

وأما السماع الروحاني فمتعلقه صريف الأقلام الإلهية في لوح الوجود المحفوظ من التغيير والتبديل، فالوجود كله رق منشور والعالم فيه كتاب مسطور، فالأقلام تنطق وآذان العقول تسمع والكلمات ترتقم فتشهد وعين شهودها عين الفهم فيها بغير زيادة، ولا ينال هذا السماع إلاّ العقول التي ظهرت لمستوى، ولما كان السماع أصله على التربيع وكان أصله عن ذات ونسبة وتوجّه وقول فظهر الوجود بالسماع الإلهيّ، كذلك السماع الروحاني عن ذات ويد وقلم وصريف قلم، فيكون الوجود للنفس الناطقة في سماع صريف هذه الأقلام في ألواح القلوب بالتقليب والتصريف، وكذلك السماع الطبيعي مبناه على أربعة أمور محققة، فإن الطبيعة مربعة معقولة من فاعلين ومنفعلين، فأظهرت الأركان الأربعة أيضاً، فظهرت النشأة الطبيعية على أربعة أخلاط وأربع قوىٰ قامت عليها هذه النشأة، وكل خلط منها يطلب بذاته من يحركه لبقائه وبقاء حكّه فإن السكون عدم، فأوجد في نفوس العلماء حين سمعوا صريف الأقلام ما ينبغي أن يحرك به هذه النشأة الطبيعية فأقاموا لها أربع نغمات لكل خلط من هذه الأخلاط نغمة في آلة مخصوصة وهي المسماة في الموسيقي وهو علم الألحان والأوزان بالبم والزير والمثنى والمثلث كل واحد من هذه يحرك خلطاً من هذه الأخلاط ما بين حركة فرح وحركة بكاء وأنواع الحركات، وهذا لها بما هي نشأة طبيعية لا بما هي روحانية، فإن الحركة في النشأة الطبيعية والسماع الطبيعي لا يكون معه علم أصلاً، وإنما صاحبه يجد طرباً في نفسه أو حزناً عند سماع هذه النغمات من هذه الآلات ومن أصوات القوالين ولا يجد معها علماً أصلاً، فإنه ليس هذا حظ السماع الطبيعي مع الحال الصحيح، والوجد الصحيح الذي يطلبه الطبع وهو سماع الناس اليوم، والسماع الروحاني يكون معه علم ومعرفة في غير مواد جملة واحدة، والسماع الإلهيّ يكون معه علم ومعرفة في مواد وفي غير مواد عام التعلّق يجده في السماع الطبيعي والروحاني لكن بالسمع الإلهي الذي يخصّ الطبع والعقل خاصة، ومنهم من يعلم ذلك، ومنهم من لا يعلمه مع كونه يجده ولا يقدر على إنكار ما يجد، فسماع الحق مطلق كما أن وجوده مطلق وتمييزه عسير.

وللنغمات في الكلام الإلهي والقول أصل تستند إليه وهو أقوى الأصول، ولهذا لها القوة

والتأثير في الطباع، فلا يستطيع أحد أن يدفع عن نفسه عند ورود النغمة وتعلق السمع بها إذا صادفت محلها ذلك الطرب أو الأثر الذي يجده السامع في نفسه فسلطانها قوي وذلك لقوة أصلها الذي تستند إليه، فإن الأسماء الإلهية وإن كانت لعين واحدة فمعلوم عند أهل الله ما بينها من التفاوت، ولما كان التفاوت معقولاً فيها وعلم ذلك بآثارها علمنا أن الحقائق الإلهية التي استندت إليها هذه النغمات أقوى من الذي استند إليه الكلام، فإنا نسمع قارئاً يقرأ أو منشداً ينشد شعراً فلا نجد في نفوسنا حركة لذلك بل ربما نتبرم من ذلك في أوقات لأنه جاء على غير الوزن الطبيعي، فإذا سمعنا تلك الآية أو الشعر من صاحب نغمة وفي حقها في الميزان أصابنا وجد وحركنا ووجدنا ما لم نكن نجد، فلهذا فرقنا بين ما استندت إليه النغمات الطبيعية وبين ما استند إليه القول هذا ميزان المحسوس، وأما ميزان العقل فينظر حكمة الترتيب الإلهيّ في العالم، فإن كان من أهل السماع الإلهي فينظر ترتيب الأسماء الإلهية فيكون سماعه من هناك، وإن كان من أهل السماع الروحاني فينظر ترتيب آثارها في العالم الأعلى والأسفل فيجد في كل مسموع فإن المسموعات كلها نغم عنده، فمنهم من تكون له حركة محسوسة، ومنهم من لا تكون له، وأما الحركة الروحانية فلا بدّ منها، ولله طائفة خرجت عن الحركات الروحانية إلى الحركات الإلهية وهو قول الجنيد: وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب ولكن في الحال التي تحسبها جامدة فتنسب الحركة إلى هذا الشخص نسبتها إلى الجناب الأقدس في فرحه بتوبة عبده وتبشبشه لمن أتى بيته، فهذه أحوال إلهية يجب الإيمان بها، ولا يعقل لها كيفية إلاّ من خصّه الله بها وكانت حركته في سماعه إلهية وهي من العلوم التي تنال ولا تنقال، وليس الخير بالنزول إلى السماء الدنيا كل ليلة يشبه هذا الفرح ولا التبشبش لأن هذا الفرح عن سبب كوني ظهر وجوده سمع الحق عليه والنزول إلى السماء الدنيا عن أمر يتوقع لا عن أمر واقع، فالأول يلحق بباب السماع والثاني لا يلحق به فاعلم ذلك، وقد ربطنا السماع بما يجب له وحققناه ولم نترك منه فصلاً ولا قسماً إلاّ ذكرناه بأوجز عبارة ليوقف عنده وحكاياته كثيرة لا يحتاج إلى إيرادها، فإن كتابنا هذا مبناه على تحقيق أصول الأمور لا على الحكايات فإن الكتب بها مشحونة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والثمانون ومائة

في معرفة مقام ترك السماع

[نظم: البسيط]

أَلـلَّـهُ أَلـلَّـهُ لا عـقـلٌ يـصـوِّرُهُ ... والـوَهْـمُ يـعـبـده فـي صـورة الـبَـشَـرِ

فـالـشَّـرْعُ يُـطْـلـقـه وقـتـاً ويَـحْـصُـرُه ... والـكـونُ يُـثْـبِـتُـه فـي سـائـر الـصُّـوَرِ

تَـرْكُ الـسَّـمـاع مَـقَـامٌ لـيـس يُـدْركـه ... إلاّ الـقـويُّ مـن الأقـوام فـي الـخَـبَـرِ

إن قـال كُـنْ فـلِـمَـنْ والـعـيـنُ واحـدةٌ ... ولـم يـكـن غَـيْـرُه فـي الـعـيـن والأَثَـرِ

فـمـا لـكُـنْ عـنـد هـذا الـقـول مـن أَثَـرِ ... بـل عَـيْـنُ كُـنْ لـم تـكـن إن كـنـتَ ذا نَـظَـرِ

ولم يَقُلْ بسَمَاع القَوْلِ غيرُ فتًى ... متيَّم بمعاني الآي والصُّوَرِ
لولا الكلامُ لما كان السَّمَاعُ وقَدْ ... جاء الكَلامُ فكُنْ منه على حَذَرِ

السماع المطلق لا يمكن تركه، والذي يتركه الأكابر إنما هو السماع المقيد المتعارف وهو الغناء، قيل لسيدنا أبي السعود بن الشبلي البغدادي: ما تقول في السماع؟ فقال: هو على المبتدىء حرام والمنتهي لا يحتاج إليه، فقيل له: فلمن؟ فقال: لقوم متوسطين أصحاب قلوب. وجاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: «**يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَضْرِبَ بَيْنَ يَدَيْكَ بِالدُّفِّ فَقَالَ لَهَا: إِنْ كُنْتِ نَذَرْتِ وَإِلاَّ فَلاَ**» فهو وإن كان مباحاً فالتنزيه عنه عند الأكابر أولى. وكان أبو يزيد البسطامي يكرهه ولا يقول به. وقيل لابن جريج فيه فقال: ليتني أخرج منه رأساً برأس لا عليّ ولا لي. وأمّا مذهبنا فيه فإن الرجل المتمكن من نفسه لا يستدعيه وإذا حضر لا يخرج بسببه وهو عندنا مباح على الإطلاق لأنه لم يثبت في تحريمه شيء عن رسول الله ﷺ، فإن كان الرجل ممّن لا يجد قلبه مع ربه إلاّ فيه فواجب عليه تركه أصلاً فإنه مكر إلهيّ خفي، ثم إن كان يجد قلبه فيه وفي غيره وعلى كل حال ولكنه يجده في النغمات أكثر فحرام عليه حضوره، ولا أعني بالنغمات المسموعة في الشعر فقط وإنما أعني بوجود النغمة في الشعر وفي غيره حتى في القرآن إذا وجد قلبه فيه لحسن صوت القارىء ولا يجد قلبه فيه عندما يسمعه من قارىء غير طيب الصوت فلا يعوّل على ذلك الوجد ولا على ما يجد فيه من الرقة في الجناب الإلهيّ فإنه معلول وتلك رقة الطبيعة، فإن كان عارفاً بالتفصيل ويفرق بين سماعه الإلهيّ والروحاني والطبيعي ما يلتبس عليه ولا يخلط ولا يقول في سماع الطبيعة أنه سماعه بالله فمثل هذا لا يحجر عليه وتركه أولى، ولا سيما إن كان ممّن يقتدى به من المشايخ فيستتر به المدعي الكاذب أو الجاهل بحاله وإن لم يقصد الكذب.

الباب الرابع والثمانون ومائة

في معرفة مقام الكرامات

[نظم: البسيط]

بعضُ الرجالِ يَرَى كَوْنَ الكراماتِ ... دليلَ حقٍّ على نَيْلِ المَقَاماتِ
وأنها عَيْنُ بُشْرَى قد أتَتْكَ بها ... رُسْلُ المُهَيْمِنِ من فَوْق السَّمْواتِ
وعندنا فيه تَفْصيلٌ إذا علمَتْ ... به الجماعةُ لم تَفْرَحْ بآياتِ
كيف السرورُ والاستدراجُ يَصْحَبُها ... في حقِّ قوم ذوي جَهْلٍ وآفاتِ
وليس يدرون حقاً أنهم جهلوا ... وذا إذا كان مِنْ أقْوَى الجَهَالاتِ
وما الكرامةُ إلاّ عِصْمَةٌ وُجِدَتْ ... في حال قَوْلٍ وأفعالٍ ونِيَّاتِ
تلك الكرامةُ لا تبغي بها بَدَلاً ... واحذَرْ من المَكْر في طَيِّ الكَرَامَاتِ

اعلم أيّدك الله أن الكرامة من الحق من اسمه البرّ ولا تكون إلاّ للأبرار من عباده جزاء وفاقاً، فإن المناسبة تطلبها وإن لم يقم طلب ممّن ظهرت عليه وهي على قسمين: حسيّة

ومعنوية، فالعامة ما تعرف الكرامة إلاّ الحسيّة مثل الكلام على الخاطر والأخبار بالمغيبات الماضية والكائنة والآتية والأخذ من الكون والمشي على الماء واختراق الهواء وطيّ الأرض والاحتجاب عن الأبصار وإجابة الدعاء في الحال، فالعامّة لا تعرف الكرامات إلاّ مثل هذا. وأما الكرامة المعنوية فلا يعرفها إلاّ الخواص من عباد الله والعامة لا تعرف ذلك، وهي أن تحفظ عليه آداب الشريعة، وأن يوفق لإتيان مكارم الأخلاق واجتناب سفسافها، والمحافظة على آداء الواجبات مطلقاً في أوقاتها، والمسارعة إلى الخيرات، وإزالة الغل والحقد من صدره للناس والحسد وسوء الظنّ، وطهارة القلب من كل صفة مذمومة، وتحليته بالمراقبة مع الأنفاس، ومراعاة حقوق الله في نفسه وفي الأشياء، وتفقد آثار ربه في قلبه، ومراعاة أنفاسه في خروجها ودخولها فيتلقاها بالأدب إذا وردت عليه، ويخرجها وعليها خلعة الحضور، فهذه كلها عندنا كرامات الأولياء المعنوية التي لا يدخلها مكر ولا استدراج، بل هي دليل على الوفاء بالعهود وصحة القصد والرضى بالقضاء في عدم المطلوب ووجود المكروه، ولا يشاركك في هذه الكرامات إلاّ الملائكة المقرّبون وأهل الله المصطفون الأخيار.

وأما الكرامات التي ذكرنا أن العامة تعرفها فكلها يمكن أن يدخلها المكر الخفيّ، ثم إنا إذا فرضناها كرامة فلا بدّ أن تكون نتيجة عن استقامة أو تنتج استقامة لا بدّ من ذلك وإلاّ فليست بكرامة، وإذا كانت الكرامة نتيجة استقامة فقد يمكن أن يجعلها الله حظ عملك وجزاء فعلك، فإذا قدمت عليه يمكن أن يحاسبك بها، وما ذكرناه من الكرامات المعنوية فلا يدخلها شيء ممّا ذكرناه، فإن العلم يصحبها وقوّة العلم وشرفه تعطيك أن المكر لا يدخلها، فإن الحدود الشرعية لا تنصب حبالة للمكر الإلهيّ، فإنها عين الطريق الواضحة إلى نيل السعادة والعلم يعصمك من العجب بعملك، فإن العلم من شرفه أنه يستعملك وإذا استعملك جرّدك منه وأضاف ذلك إلى الله وأعلمك أن بتوفيقه وهدايته ظهر منك ما ظهر من طاعته والحفظ لحدوده، فإذا ظهر عليه شيء من كرامات العامة ضجّ إلى الله منها وسأل الله ستره بالعوائد وأن لا يتميز عن العامة بأمر يشار إليه فيه ما عدا العلم لأن العلم هو المطلوب وبه تقع المنفعة ولو لم يعمل به فإنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فالعلماء هم الآمنون من التلبيس، فالكرامة من الله تعالىٰ بعباده إنما تكون للوافدين عليه من الأكوان ومن نفوسهم لكونهم لم يروا وجه الحق فيهما، فأسنى ما أكرمهم به من الكرامات العلم خاصة لأن الدنيا موطنه، وأما غير ذلك من خرق العادات فليست الدنيا بموطن لها، ولا يصحّ كون ذلك كرامة إلاّ بتعريف إلهيّ لا بمجرّد خرق العادة، وإذا لم تصحّ إلاّ بتعريف إلهيّ فذلك هو العلم، فالكرامة الإلهية إنما هي ما يهبهم من العلم به عزّ وجلّ.

سُئِل أبو يزيد عن طيّ الأرض فقال: ليس بشيء فإن إبليس يقطع من المشرق إلى المغرب في لحظة واحدة وما هو عند الله بمكان. وسُئِل عن اختراق الهواء فقال: إن الطير يخترق الهواء والمؤمن عند الله أفضل من الطير فكيف يحسب كرامة من شاركه فيها طائر؟ وهكذا علل جميع ما ذكرناه ثم قال: إلهي إن قوماً طلبوك لما ذكروه فشغلتهم به وأهلتهم له،

اللهم مهما أهلتني لشيء فأهلني لشيء من أشيائك، يقول من أسرارك، فما طلب إلاً العلم لأنه أسنى تحفة وأعظم كرامة، ولو قامت عليك به الحجة فإنه يجعلك تعترف ولا تحاجج فإنك تعلم ما لك وما عليك وما له، وما أمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ أن يطلب منه الزيادة من شيء إلاً من العلم لأن الخير كله فيه وهو الكرامة العظمى، والبطالة مع العلم أحسن من الجهل مع العمل، وأسباب حصول العلم كثيرة، ولا أعني بالعلم إلاً العلم بالله والدار الآخرة وما تستحقه الدار الدنيا وما خلقت له ولأيّ شيء وضعت حتى يكون الإنسان من أمره على بصيرة حيث كان، فلا يجهل من نفسه ولا من حركاته شيئاً، والعلم صفة إحاطية إلهية فهي أفضل ما في فضل الله كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] رحمة منا، فاعلم أن العلم من معدن الرحمة فقد أعلمتك ما هي الكرامة وأنها التعريف الإلهيّ بأن هذا الذي أتحفك به كرامة منه لا ينقص لك حظاً من آخرتك، ولا هو جزاء لشيء من عملك إلاً لمجرّد قدومك، وأن قدومك عليه لم يكن إلاً لجهلك به حيث لم تره في أوّل قدم كما اتفق لأبي يزيد لما خرج في طلب الحق من بسطام في أوّل أمره فلقيه بعض الرجال فقال له: ما تطلب يا أبا يزيد؟ قال: الله، قال له: الذي تطلبه تركته ببسطام، فتنبّه أبو يزيد كيف يطلبه وهو تعالىٰ يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فلا علم ولا إيمان، فإذا حرمك الله تحصيل علم مشاهدته فلا أقل من الإيمان به، فلهذا قلنا ما قدم عليه إلاً من جهله، فلما لم يكن لهذه الطائفة همّ إلاً به وبطلبه كانوا وافدين عليه فأتحفهم بما أتحفهم به وعرّفهم أن ذلك جائزة الوفود خاصة، ومهما لم يعلموا ذلك منه بإعلامه إياهم وإلاً فيخاف من المكر الإلهيّ في ذلك أو نقص حظ أخروي يتمنون في الآخرة أنهم لم يعطوا شيئاً من ذلك في الدنيا.

الباب الخامس والثمانون ومائة

في معرفة مقام ترك الكرامات

[نظم: الكامل]

تَـرْكُ الـكَـرَامـة لا يـكـون دلـيـلاً فـأَصِـخْ لـقـولـي فـهـو أَقْـوَمُ قِـيـلاً
إن الـكـرامـةَ قـد يـكـون وجـودُهـا حَـظَّ الـمـكـرَّم ثـم سَـاءَ سـبـيـلاً
فـاحْـرِصْ عـلـى العِلْـم الـذي كُلِّـفْتَـهُ لا تـتَّـخِـذْ غَـيْـرَ الإلـه بَـديـلاً
سـتْـرُ الـكـرامـة واجـبٌ مُـتَـحَـقِّـقٌ عـنـد الـرجـالِ فـلا تَـكُـنْ مَـخْـذُولاً
وظُـهُـورُهـا فـي الـمُـرْسَـلـيـن فَـريـضةٌ وبـهـا تَـنَـزَّلَ وَحْـيُـهُ تَـنْـزِيـلاً

كما أن الآيات والكرامات واجب على الرسول إظهارها من أجل دعواه، كذلك يجب على الوليّ التابع سترها، هذا مذهب الجماعة لأنه غير مدّع ولا ينبغي له الدعوى فإنه ليس بمشرّع وميزان الشرع موضوع في العالم قد قام به علماء الرسوم أهل الفتاوى في دين الله، فهم أرباب التجريح والتعديل، وهذا الوليّ مهما خرج عن ميزان الشرع الموضوع مع وجود عقل التكليف عنده سلم له حاله للاحتمال الذي في نفس الرحمن في حقه، وهو أيضاً موجود

في الميزان المشروع، فإن ظهر بأمر يوجب حدّاً في ظاهر الشرع ثابت عند الحاكم أقيمت عليه الحدود ولا بدّ ولا يعصمه ذلك الاحتمال الذي في نفس الأمر من أن يكون من العبيد الذين أبيح لهم فعل ما حرم على غيرهم شرعاً فأسقط الله عنهم المؤاخذة ولكن في الدار الآخرة فإنه قال في أهل بدر ما قد ثبت من إباحة الأفعال لهم، وكذلك في الخبر الوارد: «**افْعَلْ مَا شِئْتَ فَقَد غَفَرْتُ لَكَ**» ولم يقل أسقطت عنك الحد في الدنيا، فالذي يقيم عليه الحدّ مأجور وهو في نفسه غير مأثوم وكالحلاج ومن جرى مجراه، ثم إن ترك الكرامة قد يكون ابتداء من الله وهو أنه عزّ وجلّ لا يمكن هذا الوليّ في نفسه من شيء من ذلك جملة واحدة مع كونه عنده من أكابر عباده وأعني خرق العوائد الظاهرة لا العلم بالله، وقد يكون هذا الوليّ أعطاه الله تعالىٰ في نفسه التمكّن من ذلك فيترك ذلك كله لله فلا يظهر عليه منه شيء أصلاً، وقد رأينا ممن هو على هذا القدم جماعة كما قال سيدنا أبو السعود بن الشبل عاقل زمانه وقد سأله بعض من لا يكتمه من حاله شيئاً: هل أعطاك الله التصرّف وهو أصل الكرامات؟ فقال: نعم منذ خمس عشرة سنة وتركناه تظرفاً فالحق بتصرف لنا، يريد رضي الله عنه أنه امتثل أمر الله في اتخاذه عزّ وجلّ وكيلاً فقال له السائل: ما ثم؟ فقال: الصلوات الخمس وانتظار الموت الرجل مثل ساعي الطير فم مشغول وقدم تسعى، وكان يقول: ما أعجبني فيما قيل إلاّ قوله: [الطويل]

وأَثْبَتَ في مُسْتَنْقع الموت رِجْلَهُ وقال لها من دونَ أَخْمَصِكِ الحَشْرُ

هكذا هو الرجل وإلاّ فلا يدّعي أنه رجل، وفي حين تقييدي هذا الوجه من هذه النسخة خاطبني الحق في سري: من اتخذني وكيلاً فقد ولاّني ومن ولاّني فله مطالبتي وعليَّ إقامة الحساب فيما ولاّني فيه، فانعكس الأمر وتبدّلت المراتب، هذا صنع الله مع عباده الذين ارتضاهم واصطفاهم، وما فوق هذا الامتنان امتنان ترتقي الهمة إلى طلبه، فالعبد المحقق لا تخرجه هذه الرتبة عن علمه بقدره، فما يتخذ الله وكيلاً إلاّ من كان الحق قواه وجوارحه إذ يستحيل تبدّل الحقائق، فالعبد عبد والرب رب، والحق حق والخلق خلق.

فإذا ظهر خرق عادة على مثل هذا فما هي كرامة عندنا لأن الكرامة تعود على من ظهرت عليه، وإنما يتفق لمن هذا مقامه مثل ما اتفق لنا في مجلس حضرنا فيه سنة ست وثمانين وخمسمائة وقد حضر عندنا شخص فيلسوف ينكر النبوّة على الحدّ الذي يثبتها المسلمون وينكر ما جاءت به الأنبياء من خرق العوائد وأن الحقائق لا تتبدّل، وكان زمان البرد والشتاء وبين أيدينا منقل عظيم يشتعل ناراً فقال المنكر المكذب: إن العامة تقول: إن إبراهيم عليه السلام ألقي في النار فلم تحرقه والنار محرقة بطبعها الجسوم القابلة للإحراق وإنما كانت النار المذكورة في القرآن في قصة إبراهيم الخليل عبارة عن غضب نمرود عليه وحنقه فهي نار الغضب وكونه ألقي فيها لأن الغضب كان عليه وكونها لم تحرقه أي لم يؤثر فيه غضب الجبار لما ظهر به عليه من الحجة بما أقامه من الأدلة فيما ذكر من أفول الأنوار وأنها لو كانت آلهة ما أفلت فركب له من ذلك دليلاً، فلما فرغ من قوله قال له بعض الحاضرين ممّن كان له هذا المقام والتمكن: فإن أريتك أنا صدق ما قاله الله تعالىٰ في النار أنها لم تحرق إبراهيم وأن الله

جعلها عليه كما قال برداً وسلاماً وأنا أقوم لك في هذا المقام مقام إبراهيم عليه السلام في الذب عنه لا أن ذلك كرامة في حقي، فقال المنكر: هذا لا يكون، فقال له: أليست هذه هي النار المحرقة؟ قال: نعم، قال: تراها في نفسك ثم ألقى النار التي في المنقل في حجر المنكر وبقيت على ثيابه مدة يقلبها المنكر بيده، فلما رآها ما تحرقه تعجب ثم ردّها إلى المنقل، ثم قال له: قرب يدك أيضاً منها فقرب يده فأحرقته فقال له: هكذا كان الأمر وهي مأمورة تحرق بالأمر وتترك الإحراق كذلك والله تعالىٰ الفاعل لما يشاء، فأسلم ذلك المنكر واعترف، فمثل هذا يظهر على تارك الكرامات فإنه يقيمها في زمانه نيابة عن الرسول ﷺ في المعجزة والآية على صدقه فجاء بها لإقامة الدليل على صدق الشارع والدين لا على نفسه أنه وليّ لله بخرق هذه العادة، فهذا معنى ترك الكرامات ولها رجال وهم الملامية خاصة، وأما الصوفية فيظهرون بها وهي عند الأكابر من رعونات النفوس إلاّ على حدّ ما ذكرناه.

الباب السادس والثمانون ومائة

في معرفة مقام خرق العادات

[نظم: البسيط]

خَرْقُ العوائد أقسامٌ مقسَّمَةٌ — أتى بها النَّظرُ الفكريُّ مَحْصُورة
منها معيَّنَةٌ بالحق قائمةٌ — كالمعجزات على الإرسال مَقْصُورَهْ
وما سواها من الأقسام مُحْتَمَلٌ — وليس للعلم في تَعْيينه صُورَهْ
وكلُّها في كتاب الله بَيِّنَةٌ — فقِفْ عليه تَجِدْهَا فيه مَسْطُورَهْ
بُشْرَى وسحرٌ ومَكْرٌ أو عَلامَتُه — وكلُّها في كتاب الله مَذْكُورَهْ
فهذه خمسةٌ أقسامُها انحَصَرتْ — للناظرين وفي الأكوان مَشْهُورَهْ

اعلم أن مقام خرق العادات على وجوه كثيرة منها ما يكون عن قوى نفسية فإن أجرام العالم تنفعل للهمم النفسية هكذا جعل الله تعالىٰ الأمر فيها، وقد تكون عن حيل طبيعية معلومة كالفلقطيرات وغيرها وبابها معلوم عند العلماء، وقد تكون عن نظم حروف بطوالع وذلك لأهل الرصد، وقد تكون بأسماء يتلفظ بها ذاكرها فيظهر عنها ذلك الفعل المسمّى خرق عادة في ناظر عين الرائي لا في نفس الأمر، وقد تكون في نفس الأمر على قدر قوّة ذلك الاسم، وهذه كلها تحت قدرة المخلوق بجعل الله، وثم خرق عوائد مختصة بالجناب الإلهي ليس للعبد فيها تعمل ولا قوّة ولكن يظهرها الله عليه أو تظهر عنه بأمر الله وإعلامه وهي على مراتب: منها ما تسمى معجزة ولها شروط ونعت خاص معلوم، ومنها ما تسمّى آية لا معجزة، ومنها ما تكون كرامة، ومنها ما تكون مؤيّدة، ومنها ما تكون منبهة وباعثة، ومنها ما يكون جزاء، ومنها ما يكون مكراً واستدراجاً، وكلها لها علامات عند أهل الله مع كون هؤلاء لا علم لهم بشيء من ذلك بخلاف الصنف الأوّل فإنهم على علم بما يصدر منهم، وما من شيء ممّا ذكرناه في الصنف الثاني المضاف عمله إلى الله تعالىٰ إلاّ والاحتمال يدخله هل هو

عن عناية أو لا عن عناية إلاّ المعجزة والآية فإنها عن عناية ولا بدّ أنها الصدق المخبر والمؤيدة كذلك، وما عدا هذين فيتطرق إليه الاحتمال كما ذكرنا.

ثم نرجع إلى ما تقضي به طريقنا أن خرق العادة في الأولياء لا يكون إلاّ لمن خرق العادة في نفسه بإخراجها عن حكم ما تعطيه حقيقتها وهو تصرفها في المباح، أو ما يلقي إليها الشيطان بالتزيين من إتيان المحظور أو ترك الواجب، فمن خرق في نفسه هذه العادة خرق الله له عادة في الكون بأمر يسمّى كلاماً على الخاطر أو مشياً في الهواء أو ما كان، وقد ذكرنا فصول هذه الكرامات وبيّنا مراتبها وما ينتجها في كتاب مواقع النجوم ما سبقنا إليه في علمنا أعني إلى ترتيبه لا إلى علم ما فيه، وهو كتاب صحيح الطريق عظيم الفائدة صغير الجرم بنيناه على المناسبة، فإن المناسبة أصل وجود العالم وخرق العوائد من العالم.

وقد جعل الله آياته في العالم معتادة وغير معتادة، فالمعتادة لا يعتبرها إلاّ أهل الفهم عن الله خاصة، وما سواهم فلا علم لهم بإرادة الله فيها، وقد ملأ الله القرآن من الآيات المعتادة من اختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وإخراج النبات وجري الجواري في البحر، واختلاف الألسنة والألوان والمنام بالليل والنهار لابتغاء الفضل، وكل ما ذكر في القرآن أنه آية لقوم يعقلون، ويسمعون، ويفقهون، ويؤمنون، ويعلمون، ويوقنون، ويتفكرون، ومع هذا كله فلا يرفع بذلك أحد من الناس رأساً إلاّ أهل الله وهم أهل القرآن خاصة الله، وأما الآيات الغير المعتادة وهي خرق العوائد فهي التي تؤثر في نفوس العامة مثل الزلازل والرجفات والكسوف ونطق حيوان ومشي على ماء واختراق هواء وإعلام بكوائن في المستقبل تقع على حدّ ما أعلم، والكلام على الخواطر والأكل من الكون وإشباع القليل من الطعام الكثير من الناس هذا تعتبره العامة خاصة، ومتى لم يكن خرق العادة عن استقامة أو منبهاً وباعثاً على الرجوع إلى الله ويرجع وليس له فيه تعمل فهو مكر واستدراج من حيث لا يعلم وهذا هو الكيد المتين تحف الله مع المخالفات، وفيه سرّ عجيب للعارفين لولا ما في إذاعته من الضرر في العموم لذكرناه، وما كل ما يدرى يقال، وليس خرق العوائد إلاّ أوّل مرّة، فإذا عاد ثانية صار عادة، وأما في الحقيقة فالأمر جديد أبداً وما ثم ما يعود فما ثم خرق عادة، وإنما هو أمر يظهر زيّ مثله لا عينه فلم يعد فما هو عادة فلو عاد لكان عادة وانحجب الناس عن هذه الحقيقة، وقد نبهتك على ما هو الأمر عليه إن كنت تعقل ما أقول، فالألوهة أوسع من أن تعيد، ولكن الأمثال حجب على أعين العمى الذين ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وهو وجود عين المثل الثاني ﴿هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٧] فهم ﴿فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [سورة ق: الآية ١٥] فالممكنات غير متناهية، والقدرة نافذة، والحق خلاق، فأين التكرار إذ لا يعقل إلاّ بالإعادة فالإعادة خرق العادة.

انتهى الجزء الثالث من الفتوحات المكية، ويليه الجزء الرابع

أوله: الباب السابع والثمانون ومائة في معرفة مقام المعجزة

فهرس محتويات
الجزء الثالث
من
الفتوحات المكية

فهرس المحتويات

BEIRUT

DET KONGELIGE BIBLIOTEK
130012697040

الفتوحات المكية

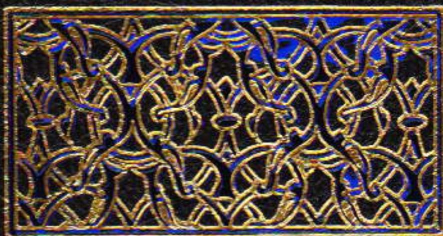

للشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين محمد بن علي
بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي "المعروف بابن عربي"
المتوفى سنة ٦٣٨ هـ

ضبطه وصححه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدين

المجلد الرابع

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الفتوحات المكيّة

تأليف

الشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين
محمد بن عليّ بن محمّد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي
المعروف بابن عربي
المتوفى سنة ٦٣٨هـ

ضبطه وصحّحه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدّين

الجزء الرّابع

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2275-4

http://www.al-ilmiyah.com.lb/
e-mail : sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com

الفُتُوحَاتُ المَكِّيَة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب السابع والثمانون ومائة
في معرفة مقام المعجزة وكيف يكون هذا المعجز كرامة لمن كان له معجزاً لاختلاف الحال

[نظم: البسيط]

مـا كـان مـعـجـزةً فـلا سـبـيـلَ إلـى ... ظُـهُـوره مـرّةً أخـرى إلـى الأبَـدِ
لا فـي وِلـيّ ولا فـي غـيـره فـإذا ... حقَّقْتَ قولي فلا تَعْدِلْ عن الرَّشَدِ
ولـو تَـحَـدَّى بـه خَـلْـقٌ لأكْـذَبَـهُ ... صِدْقُ المُقَدَّم في الأدنى وفي البَعَدِ
لـذلـك اخـتَـلَـفَـتْ في الأنـبياء فـلـم ... يَـظْـهَـرْ لـهـا أثـرٌ مـن بَـعْـدُ فـي أَحَـدِ

اختلف الناس فيما كان معجزة لنبيّ هل يكون كرامة لوليّ أم لا؟ فالجمهور أجاز ذلك إلاَّ الأستاذ أبا إسحاق الإسفرايني فإنه منع من ذلك وهو الصحيح عندنا، إلاَّ أنا نشترط أمراً لم يذكره الأستاذ وهو أن نقول: إلاَّ إن قام الوليّ بذلك الأمر المعجز على تصديق النبيّ لا على جهة الكرامة به فهو واقع عندنا بل قد شهدناه، فيظهر على الوليّ ما كان معجزة لنبيّ على ما قلناه، ولو تنبّه لذلك الأستاذ لقال به ولم ينكره فإنه ما خرج عن بابه، فإن الذي وقع فيه الخلاف أنه هل يكون كرامة لوليّ؟ وهذا ليس بكرامة لوليّ إلاَّ أن الذين أجازوا ذلك قالوا بشرط أن لا يظهر عليه بالطريق التي ظهرت على يد الرسول الذي بها سميت معجزة، وجوّزوا أن الوليّ لو تحدّى بذلك على ولايته لجاز أن يخرق الله له تلك العادة، والكاذب لو تحدّى بها على كذبه وهو صادق في أنه كاذب فجائز أن يخرق الله له تلك العادة على صدقه أنه كاذب، فإن الفارق عندهم حاصل وهو وجه يقال، والصحيح ما ذهب إليه الأستاذ وهو الذي يعطيه الدليل النظري إلاَّ أن يقول الرسول في وقت تحدّيه بالمنع في الوقت خاصة أو في مدة حياته خاصة، فإنه جائز أن يقع ذلك الفعل كرامة لغيره بعد انقضاء زمانه الذي اشترطه، وأما إن أطلقه فلا سبيل إلى ما قاله الأستاذ، وهذا التفصيل الذي ذكرناه يقتضيه الدليل النظري للطائفتين، على أنا ما رأينا أحداً تنبّه إلى هذا في علمنا ولا ذكره والله أعلم.

والإعجاز على ضربين: الضرب الواحد أن يأتي بأمر لا يكون مقدور البشر ولا يقدر عليه إلاَّ الله وذلك عزيز أعني الوصول إلى العلم به كإحياء الموتى لا يقدر عليه إلاَّ الله، ولكن الوصول إليه على طريق العلم أنه حيّ في نفس الأمر عزيز فإنا رأينا عصا موسىٰ عليه السلام حية وعصيّ السحرة حيات ولم تفرق العامّة بين الحياتين، فلهذا قلنا: إن الوصول إلى علم

ذلك عزيز؛ والضرب الآخر وهو الذي يمكن أن يكون أقرب وهو الصرف فيدعي في ذلك أن الذي هو مقدور لكم في العادة إذا أتيت أنا به على صدق دعواي، فإن الذي أرسلني يصرفكم عنه فلا تقدرون على معارضته، فكل من في قدرته ذلك يجد في نفسه العجز في ذلك الوقت فلا يقدر على إتيان ما كان قبل هذه الدعوى يقدر عليه وهذا أرفع للبس من الأوّل، فهذا معنى الأمر المعجز ومع هذا فقد وقع وعرف أنه معجزة وحصل العلم به عند الناظر بصدق هذا الرسول وما رزق الإيمان به وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، فتعلم أن الإيمان لا تعطيه إقامة الدليل بل هو نور إلهي يلقيه الله في قلب من شاء من عباده، وقد يكون عقيب الدليل وقد لا يكون هناك دليل أصلاً كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء السابع عشر ومائة.

(الجزء الثامن عشر ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثامن والثمانون ومائة

في معرفة مقام الرؤيا وهي المبشرات

[نظم: البسيط]

بالصِّدْق رؤيا الرجالِ الصادقين ومَنْ ... يُصَاحِبِ الضدَّ لم تَصْدُقْ له رؤيَا
الصِّدْقُ بالعَذْوة القُصْوَى مَنَازِلُه ... وضِدُّه ضِدُّه بالعَذْوة الدُّنيَا
هي النُّبوَّةُ إلاّ أنها قَصُرَتْ ... عن نَسْخ شَرْعٍ وهذي رتبةٌ عُلْيَا
إني رأيتُ سيوفاً للهوى انْتُضِيَتْ ... وفي يميني سَيفٌ للهوَى دُنْيَا
فما تركتُ لها عَيْناً ولا أثراً ... بذلك السيفِ في الأُخرى وفي الدنْيَا

اعلم أيّدك الله أن للإنسان حالتين: حالة تسمّى النوم، وحالة تسمّى اليقظة، وفي كلتا الحالتين قد جعل الله له إدراكاً يدرك به الأشياء تسمّى تلك الإدراكات في اليقظة حساً، وتسمّى في النوم حسّاً مشتركاً، فكل شيء تبصره في اليقظة يسمّى رؤية، وكل ما تبصره في النوم يسمّى رؤيا مقصوراً، وجميع ما يدركه الإنسان في النوم هو ممّا ضبطه الخيال في حال اليقظة من الحواس وهو على نوعين: إما ما أدرك صورته في الحسّ، وإما ما أدرك أجزاء صورته التي أدركها في النوم بالحسّ لا بدّ من ذلك، فإن نقصه شيء من إدراك الحواس في أصل خلقته فلم يدرك في اليقظة ذلك الأمر الذي فقد المعنى الحسيّ الذي يدركه به في أصل خلقته فلا يدركه في النوم أبداً، فالأصل الحسّ والإدراك به في اليقظة والخيال تبع في ذلك، وقد يتقوّى الأمر على بعض الناس فيدركون في اليقظة ما كانوا يدركونه في النوم وذلك نادر وهو لأهل هذا الطريق من نبيّ ووليّ هكذا عرفناه.

فإذا علمت هذا فاعلم أيضاً أن النبوّة خطاب الله تعالىٰ أو كلام الله تعالىٰ كيفما شئت قلت لمن شاء من عباده في هاتين الحالتين من يقظة ومنام، وهذا الخطاب الإلهيّ المسمّى نبوّة على ثلاثة أنواع: نوع يسمّى وحياً، ونوع يسمعه كلامه ﴿مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١] ونوع بوساطة رسول فيوحي ذلك الرسول من ملك أو بشر بإذن الله ما يشاء لمن أرسله إليه وهو كلام الله، إذ كان هذا الرسول إنما يترجم عن الله كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١] فالوحي منه ما يلقيه إلى قلوب عباده من غير واسطة فأسمعهم في قلوبهم حديثاً لا يكيف سماعه ولا يأخذه حدّ ولا يصوّره خيال، ومع هذا يعقله ولا يدري كيف جاء ولا من أين جاء ولا ما سببه، وقد يكلمه من وراء حجاب صورة ما يكلمه به، وقد يكون الحجاب بشريته، وقد يكون الحجاب كما كلّم موسىٰ من الشجرة من جانب الطور الأيمن له لأنه لو كلّمه من الأيسر الذي هو جهة قلبه ربما التبس عليه بكلام نفسه، فجاءه الكلام من الجانب الذي لم تجرِ العادة أن تكلمه نفسه منه وقد يكلمه بوساطة رسول من ملك كقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ١٩٣] يعني بالقرآن الذي هو كلام الله، وقد يكون بوساطة بشر وهو قوله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] فأضاف الكلام إلى الله، وما سمعته الصحابة ولا هذا الأعرابي إلاّ من لسان رسول الله ﷺ، وليست النبوّة بأمر زائد على الإخبار الإلهيّ بهذه الأقسام والقرآن خبر الله وهو النبوّة كلها لأنه الجامع لجميع ما أراد الله أن يخبر به عباده، وصحّ في الحديث: «**أَنَّهُ مَنْ حَفِظَ القُرْآنَ فَقَدْ أُدرِجَتِ النُّبُوَّةُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ**».

فإذا تقرّر ما ذكرناه فاعلم أن مبدأ الوحي الرؤيا الصادقة وهي لا تكون إلاّ في حال النوم، قالت عائشة في الحديث الصحيح: «**أَوَّلُ مَا بُدِىءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحِي الرُّؤْيَا الصَّادِقَة**» فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح، وسبب ذلك صدقه ﷺ فإنه ثبت عنه أنه قال: «**أَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثاً**» فكان لا يحدث أحداً ﷺ بحديث عن تزوير يزوّره في نفسه بل يتحدث بما يدركه بإحدى قواه الحسيّة أو بكلها ما كان يحدّث بالغرض ولا يقول ما لم يكن ولا ينطق في اليقظة عن شيء يصوّره في خياله ممّا لم ير لتلك الصورة بجملتها عيناً في الحسّ، فهذا سبب صدق رؤياه، وإنما بدىء الوحي بالرؤيا دون الحسّ لأن المعاني المعقولة أقرب إلى الخيال منها إلى الحسّ، لأن الحسّ طرف أدنى والمعنى طرف أعلى وألطف، والخيال بينهما والوحي معنى، فإذا أراد المعنى أن ينزل إلى الحسّ فلا بدّ أن يعبر على حضرة الخيال قبل وصوله إلى الحسّ، والخيال من حقيقته أن يصوّر كل ما حصل عنده في صورة المحسوس لا بدّ من ذلك، فإن كان ورود ذلك الوحي الإلهيّ في حال النوم سمّي رؤيا، وإن كان في حال اليقظة سمّي تخيّلاً أي خيّل إليه فلهذا بدىء الوحي بالخيال، ثم بعد ذلك انتقل الخيال إلى الملك من خارج، فكان يتمثل له الملك رجلاً أو شخصاً من الأشخاص المدركة بالحسّ، فقد ينفرد هذا الشخص المراد بذلك الوحي بإدراك هذا الملك، وقد يدركه الحاضرون معه، فيلقي على سمعه حديث ربّه وهو الوحي، وتارة ينزل على

قلبه ﷺ فتأخذه البرحاء وهو المعبر عنه بالحال فإن الطبع لا يناسبه فلذلك يشتدّ عليه وينحرف له مزاج الشخص إلى أن يؤدّي ما أوحى به إليه ثم يسرّي عنه فيخبر بما قيل له، وهذا كله موجود في رجال الله من الأولياء، والذي اختصّ به النبيّ من هذا دون الوليّ الوحي بالتشريع، فلا يشرع إلاَّ النبيّ ولا يشرع إلاَّ رسول خاصة، فيحلل ويحرّم ويبيح ويأتي بجميع ضروب الوحي. والأولياء ليس لهم من هذا الأمر إلاَّ الإخبار بصحة ما جاء به هذا الرسول وتعيينه حتى يكون هذا التابع على بصيرة فيما تعبده به ربه على لسان هذا الرسول، إذ كان هذا الوليّ لم يدرك زمانه حتى يسمع منه كما سمع أصحابه، فصار هذا الوليّ بهذا النوع من الخطاب بمنزلة الصاحب الذي سمع من لفظ رسول الله ﷺ ما شرع، ولذلك جاء في القرآن: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] وهم هؤلاء الذين ذكرناهم، فرب حديث صحيح من طريق رواية الثقات عندنا ليس بصحيح في نفس الأمر، فنأخذه على طريق غلبة الظنّ لا على العلم، وهذه الطائفة التي ذكرناها تأخذه من هذا الطريق، فنكون من عدم صحة ذلك الخبر الصحيح عندنا على بصيرة أنه ليس بصحيح في نفس الأمر وبالعكس وهو أن يكون الحديث ضعيفاً من أجل ضعف الطريق من وضاع فيه أو مدلس، وهو في نفس الأمر صحيح، فتدرك هذه الطائفة صحته فتكون فيه على بصيرة، فهذا معنى قوله تعالىٰ: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ وهم هؤلاء، فهم ورثة الأنبياء لاشتراكهم في الخبر وانفراد الأنبياء بالتشريع، قال تعالىٰ: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فجاء بمن وهي نكرة ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥] فجاء بما ليس بشرع ولا حكم بل بإنذار، فقد يكون الوليّ بشيراً ونذيراً ولكن لا يكون مشرّعاً، فإن الرسالة والنبوّة بالتشريع قد انقطعت فلا رسول بعده ولا نبيّ أي لا مشرع ولا شريعة فاعلم ذلك. فلنرجع إلى ما بوّبنا عليه.

ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبوةَ قَدِ انقَطَعَتْ فَلاَ رَسُولَ بَعْدِي وَلاَ نَبِيَّ**»، قال: فشق ذلك على الناس فقال: لكن المبشرات، فقالوا: يا رسول الله وما المبشرات؟ فقال: رؤيا المسلم وهي جزء من أجزاء النبوّة. هذا حديث حسن صحيح من حديث أنس بن مالك حدثنا به إمام المقام بالحرم المكي الشريف تجاه الركن اليماني الذي فيه الحجر الأسود سنة أربع وستمائة شيخنا مكين الدين أبو شجاع زاهر بن رستم الأصفهاني البزار وغيره عن أبي الفتح عبد الملك بن أبي القاسم بن أبي سهل الكرخي الهروي قال: أخبرني أبو عامر محمود بن القاسم الأزدي وأبو نصر عبد العزيز بن محمد الترياقي وأبو بكر أحمد بن أبي حاتم الغورجي التاجر قالوا: أخبرنا محمد بن عبد الجبار الجراحي قال: أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي قال: أخبرنا أبو عيسىٰ محمد بن عيسىٰ الترمذي قال: حدثنا الحسن بن محمد الزعفراني، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد، حدثنا المختار بن فلفل، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ وذكر هذا الحديث. قال: وفي الباب عن أبي هريرة وحذيفة وابن عباس وأم كرز فأخبر ﷺ أن الرؤيا جزء من أجزاء النبوّة، فقد بقي للناس من النبوّة هذا وغيره، ومع هذا لا يطلق اسم النبوّة ولا النبي إلاَّ على

المشرع خاصة، فحجر هذا الاسم لخصوص وصف معين في النبوّة، وما حجر النبوّة التي ليس فيها هذا الوصف الخاص وإن كان حجر الاسم فنتأدّب ونقف حيث وقف ﷺ بعد علمنا بما قال وما أطلق وما حجر فنكون على بيّنة من أمرنا، وإذا علمت هذا فلنقل أن الرؤيا ثلاث: منها بشرى وهي ما نحن بصدده في هذا الباب، ورؤيا ممّا يحدث المرء به نفسه في اليقظة فيرتقم في خياله فإذا نام أدرك ذلك بالحسّ المشترك لأنه تصوّره في يقظته فبقي مرتسماً في خياله فإذا نام وانصرفت الحواس إلى خزانة الخيال أبصرت ذلك، وسيأتي علم ذلك كله وصورته. والرؤيا الثالثة من الشيطان.

ورويناه في هذا حديثاً صحيحاً من حديث أبي عيسىٰ الترمذي قال: حدثنا نصر بن علي، حدثنا عبد الوهاب الثقفي، حدثنا أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذِب، وَأَصْدَقُهُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُهُمْ حَدِيثاً، وَرُؤْيَا الْمُسْلِمِ جُزْءٌ مِن سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّة، وَالرؤيَا ثَلاثٌ: فَالرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ بُشْرَىٰ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَرُؤْيَا مِن تَخزِينِ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الرَّجُلُ بِهِ نَفْسَهُ، وَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ وَليَتْفُلْ وَلاَ يُحَدِّثْ بِهِ النَّاسَ**» الحديث وقال فيه: حديث صحيح. وفي حديث أبي قتادة عن رسول الله ﷺ: «**إِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ شَيْئاً يَكْرَهُهُ فَلْيَنفُثْ عَن يَسَارِهِ ثَلاثَ مَرَاتٍ وَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا فَإِنَّهَا لاَ تَضُرهُ**» وهو حديث حسن صحيح. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**إِنَّ رُؤْيَا الْمُسْلِمِ عَلَىٰ رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ يُحَدِّثْ بِهَا فَإِذَا حَدَّثَ بِهَا وَقَعَتْ**» فاعلم أن الله ملكاً موكلاً بالرؤيا يسمّى الروح وهو دون السماء الدنيا وبيده صور الأجساد التي يدرك النائم فيها نفسه وغيره، وصور ما يحدث من تلك الصور من الأكوان، فإذا نام الإنسان أو كان صاحب غيبة أو فناء أو قوّة إدراك لا يحجبه المحسوسات في يقظته عن إدراك ما بيد هذا الملك من الصور فيدرك هذا الشخص بقوّته في يقظته ما يدركه النائم في نومه، وذلك أن اللطيفة الإنسانية تنتقل بقواها من حضرة المحسوسات إلى حضرة الخيال المتصل بها الذي محله مقدم الدماغ، فيفيض عليها ذلك الروح الموكل بالصور من الخيال المنفصل عن الإذن الإلهي ما يشاء الحق أن يريه هذا النائم أو الغائب أو الفاني أو القوي من المعاني متجسدة في الصور التي بيد هذا الملك، فمنها ما يتعلق بالله وما يوصف به من الأسماء فيدرك الحق في صورة، أو القرآن أو العلم أو الرسول الذي هو على شرعه، فهنا يحدث للرائي ثلاث مراتب أو إحداهن: المرتبة الواحدة أن تكون الصورة المدركة راجعة للمرئي بالنظر إلى منزلة ما من منازله وصفاته التي ترجع إليه، فتلك رؤيا الأمر على ما هو عليه بما رجع إليه، والمرتبة الثانية أن تكون الصورة المرئية راجعة إلى حال الرائي في نفسه، والمرتبة الثالثة أن تكون الصورة المرئية راجعة إلى الحق المشروع والناموس الموضوع أي ناموس كان في تلك البقعة التي ترى تلك الصورة فيها في ولاة أمر ذلك الإقليم القائمين بناموسه، وما ثم مرتبة رابعة سوى ما ذكرناه.

فالأولى وهي رجوع الصورة إلى عين المرئي فهي حسنة كاملة ولا بدّ لا تتصف بشيء

من القبح والنقص، والمرتبتان الباقيتان قد تظهر الصورة فيهما بحسب الأحوال من الحسن والقبح والنقص والكمال، فلينظر إن كان من تلك الصورة خطاب فبحسب ما يكون الخطاب يكون حاله وبقدر ما يفهم منه في رؤياه، ولا يعول على التعبير في ذلك بعد الرجوع إلى عالم الحسّ إلاّ إن كان عالماً بالتعبير أو يسأل عالماً بذلك، ولينظر أيضاً حركته أعني حركة الرائي مع تلك الصورة من الأدب والاحترام أو غير ذلك، فإن حاله بحسب ما يصدر منه في معاملته لتلك الصورة فإنها صورة حق بكل وجه، وقد يشاهد الروح الذي بيده هذه الحضرة وقد لا يشاهده، وما عدا هذه الصورة فليست إلاّ من الشيطان إن كان فيه تحزين أو ممّا يحدث المرء به نفسه في حال يقظته، فلا يعول على ما يرى من ذلك، ومع هذا وكونها لا يعول عليها إذا عبرت كان لها حكم ولا بدّ يحدث لها ذلك من قوّة التعبير لا من نفسها، وهو أن الذي يعبرها لا يعبرها حتى يصورها في خياله من المتكلم، فقد انتقلت تلك الصورة عن المحل الذي كانت فيه حديث نفس أو تحزين شيطان إلى خيال العابر لها وما هي له حديث نفس، فيحكم على صورة محققة ارتسمت في ذاته فيظهر لها حكم أحدثه حصول تلك الصورة في نفس العابر كما جاء في قصة يوسف مع الرجلين وكانا قد كذبا فيما صوراه، فكان ممّا حدثا به أنفسهما فتخيلاه من غير رؤيا وهو أبعد في الأمر إذ لو كان رؤيا لكان أدخل في باب التعبير، فلما قصاه على يوسف حصل في خيال يوسف عليه السلام صورة من ذلك لم يكن يوسف حدث بذلك نفسه فصارت حقاً في حق يوسف، وكأنه هو الرائي الذي رأى تلك الرؤيا لذلك الرجل وقاما له مقام الملك الذي بيده صور الرؤيا، فلما عبر لهما رؤياهما قالا له: أردنا اختبارك وما رأينا شيئاً، فقال يوسف: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [سورة يوسف: الآية ٤١] فخرج الأمر في الحسّ كما عبر.

ثم إن الله تعالىٰ إذا رأى أحد رؤيا فإن صاحبها له فيما رآه حظ من الخير والشر بحسب ما تقتضي رؤياه أو يكون الحظ في ناموس الوقت في ذلك الموضع، وأما في الصورة المرئية فلا، فيصور الله ذلك الحظ طائراً وهو ملك في صورة طائر كما يخلق من الأعمال صوراً ملكية روحانية جسدية برزخية، وإنما جعلها في صورة طائر لأنه يقال: طار له سهمه بكذا والطائر الحظ قال الله عزّ وجلّ: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [سورة يس: الآية ١٩] أي حظكم ونصيبكم معكم من الخير والشرّ، وبجعل الرؤيا معلقة من رجل هذا الطائر وهي عين الطائر، ولما كان الطائر إذا اقتنص شيئاً من الصيد من الأرض إنما يأخذه برجله لأنه لا يد له وجناحه لا يتمكن له الأخذ به فلذلك علّق الرؤيا برجله فهي المعلقة وهي عين الطائر، فإذا عبرت سقطت لما قيلت له وعندما تسقط ينعدم الطائر لأنه عين الرؤيا فينعدم بسقوطها ويتصوّر في عالم الحسّ بحسب الحال التي تخرج عليه تلك الرؤيا فترجع صورة الرؤيا عين الحال لا غير فتلك الحال إما عرض أو جوهر أو نسبة من ولاية أو غيرها هي عين صورة تلك الرؤيا وذلك الطائر، ومنه خلقت هذه الحالة ولا بدّ سواء كانت جسماً أو عرضاً أو نسبة أعني تلك الصورة كما خلق آدم من تراب ونحن من ماء مهين، حتى إذا دلّت الرؤيا على وجود ولد فذلك الولد مخلوق من

عين تلك الرؤيا ماء في صلب أبيه، وإن كان الماء قد نزل في الرحم تصورت فيه تلك الرؤيا ولداً فهو ولد رؤيا، وإن لم تتقدم له رؤيا فهو على أصل نشأته كما هو سائر الأولاد. فاعلم ذلك فإنه سرّ عجيب وكشف صحيح، وكل ولد يكون عن رؤيا ترى له تمييزاً على غيره، ويكون أقرب إلى الأرواح من غيره إن جعلت بالك هكذا تبصره، وكل مخلوق من حالة أو عرض أو نسبة من ولاية أو غيرها يكون عن رؤيا يكون له ميّز على من ليس عن رؤيا، وانظر ذلك في رؤيا آمنة أم رسول الله ﷺ يبد لك صحة ما ذكرناه، فكان ﷺ عين رؤيا أمّه ظهرت في ماء أبيه بتلك الصورة التي رأته أمه، ولذلك كثرت المرائي فيه ﷺ فتميز عن غيره، ولا يعرف ما قلناه إلاّ أهل العلم بصورة الكشف وهو من أسرار الله في خلقه.

وإن أردت تأنيساً لما ذكرناه فانظر في علم الطبيعة إذا توحمت المرأة وهي حامل على شيء خرج الولد يشبه ذلك الشيء، وإذا نظرت عند الجماع أو تخيّل الرجل صورة عند الوقاع وإنزال الماء يكون الولد على خلق صورة ما تخيّل، ولذلك كانت الحكماء تأمر بتصوير صور الفضلاء من أكابر الحكماء في الأماكن بحيث تنظر إلى تلك الصورة المرأة عند الجماع والرجل فتنطبع في الخيال فتؤثر في الطبيعة فتخرج تلك القوّة التي كانت عليها تلك الصورة في الولد الذي يكون من ذلك الماء وهو سرّ عجيب في علم الطبيعة. وانظر في تكوين عيسىٰ عليه السلام عن مشاهدة مريم جبريل في صورة بشر كيف جمع بين كونه روحاً يحيي الموتى وبين كونه بشراً إذا كان الروح به تحيا الأجسام الطبيعية، وأقوى من ذلك ما فعله السامريّ من قبضه أثر جبريل لما علم أن الروح تصحبه الحياة حيث حلّ فرمى ما قبضه في العجل فخار العجل بذلك الأثر المقبوض من وطء الروح، ولو رماه في شكل فرس لصهل أو في شكل إنسان نطق، فإن الاستعداد لما ظهر بالحياة إنما كان للقابل، ومن هنا تعرف صورة الظاهر في المظاهر، وأن المظاهر تعطى باستعدادها في الظاهر فيها ما يظهر به من الصور الحاملة والمحمولة، ولهذا أظهر الله هذه الحكمة لتقف من ذلك على ما هو الأمر عليه، ثم إن تسمية النبي ﷺ لها بشرى ومبشرة لتأثيرها في بشرة الإنسان، فإن الصورة البشرية تتغير بما يرد عليها في باطنها ممّا تتخيله من صورة تبصرها أو كلمة تسمعها إما بحزن أو فرح، فيظهر لذلك أثر في البشرة لا بدّ من ذلك فإنه حكم طبيعي أودعه الله في الطبيعة فلا يكون إلاّ هكذا.

تكملة: للرؤيا مكان ومحل وحال، فحالها النوم وهو الغيبة عن المحسوسات الظاهرة الموجبة للراحة لأجل التعب الذي كانت عليه هذه النشأة في حال اليقظة من الحركة وإن كان في هواها قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [سورة النبأ: الآية ٩] يقول: وجعلنا النوم لكم راحة تستريح به النفوس وهو على قسمين: قسم انتقال وفيه بعض راحة أو نيل غرض أو زيادة تعب، والقسم الآخر قسم راحة خاصة وهو النوم الخالص الصحيح الذي ذكر الله أنه جعله راحة لما تعبت فيه هذه الآلات والجوارح والأعضاء البدنية في حال اليقظة، وجعل زمانه الليل وإن وقع بالنهار، كما جعل النهار للمعاش وإن وقع بالليل ولكن الحكم للغالب. فأما قسم الانتقال فهو النوم الذي يكون معه الرؤيا فتنقل هذه الآلات من ظاهر الحسّ إلى باطنه

لبرى ما تقرر في خزانة الخيال الذي رفعت إليه الحواس ما أخذته من المحسوسات وما صورته القوّة المصورة التي هي من بعض خدم هذه الخزانة لترى هذه النفس الناطقة التي ملكها الله هذه المدينة ما استقرّ في خزانتها كما جرت العادة في الملوك إذا دخلوا خزائنهم في أوقات خلواتهم ليطلعوا على ما فيها وعلى قدر ما كمل لهذه النشأة من الآلات التي هي الجوارح والخدام الذين هم القوىٰ الحسيّة يكون الاختزان، فثم خزانة كاملة لكمال الحياة، وثم خزانة ناقصة كالأكمة فإنه لا ينتقل إلى خزانة خياله صور الألوان، والخرس لا ينتقل إلى خزانة الخيال صور الأصوات ولا الحروف اللفظية، هذا كله إذا عدمها في أصل نشأته. وأما إذا طرأت عليه هذه الآفات فلا فإنه إذا انتقل بالنوم إلى باطن النشأة ودخل الخزانة وجد صور الألوان التي اختزنها فيها قبل طرق الآفة، وكذلك كل ما أعطته قوّة من قوى الحسّ الذين هم جباة هذه المملكة، ولله تجلّ في هذه الخزانة في صورة طبيعية بصفات طبيعية مثل قوله ﷺ: «رأَيْتُ رَبِّي فِي صُورَةِ شَابٍّ» وهو ما يراه النائم في نومه من المعاني في صور المحسوسات لأن الخيال هذه حقيقته أن يجسد ما ليس من شأنه أن يكون جسداً وذلك لأن حضرته تعطي ذلك، وما ثم في طبقات العالم من يعطي الأمر على ما هو عليه سوى هذه الحضرة الخيالية فإنها تجمع بين النقيضين، وفيها تظهر الحقائق على ما هي عليه، لأن الحق في الأمور أن تقول في كل أمر تراه أو تدركه بأي قوّة كان الإدراك أن ذلك الذي أدركته هو لا هو كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فلا تشك في حال الرؤيا في الصورة التي تراها أنها عين ما قيل لك أنه هو، وما تشك في التعبير إذا استيقظت أنه ليس هو، ولا تشك في النظر الصحيح أن الأمر هو لا هو، قيل لأبي سعيد الخراز: بم عرفت الله؟ قال: بجمعه بين الضدّين، فكل عين متصفة بالوجود فهي لا هي، فالعالم كله هو لا هو، والحق الظاهر بالصورة هو لا هو، فهو المحدود الذي لا يحدّ، والمرئيّ الذي لا يرى، وما ظهر هذا الأمر إلاّ في هذه الحضرة الخيالية في حال النوم أو الغيبوبة عن ظاهر المحسوسات بأيّ نوع كان وهي في النوم أتمّ وجوداً وأعمه لأنه للعارفين والعامة، وحال الغيبة والفناء والمحو وشبه ذلك ما عدا النوم لا يكون للعامة في الإلهيات، فما أوجد الله شيئاً من الكون على صورة الأمر على ما هو عليه في نفسه إلاّ هذه الحضرة فلها الحكم العامّ في الطرفين كما للممكن قبول النقيضين فيكون له ذلك ذوقاً، فإن الذي يستحيل عليه العدم وإن كان له العلم بالعدم لا يكون علمه ذاتياً وهو الذي يسمّى ذوقاً بخلاف الممكن فإنّ العدم له ذوق، والذي يستحيل عليه الوجود والعلم به لا ذوق له في الوجود رأساً والممكن له في الوجود ذوق، فأوجد الله هذه الحضرة الخيالية ليظهر فيها الأمر الذي هو الأصل على ما هو عليه.

فاعلم أن الظاهر في المظاهر مظاهر الأعيان هو الوجود الحق وأنه ما هو لما ظهر به من الأشكال والنعوت التي أعيان الممكنات عليها، وجعل هذه الحضرة كالجسر بين الشطين للعبور عليه من هذا الشط إلى هذا الشط، فجعل النوم معبراً وجعل المشي عليه عبوراً قال تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٤٣] وجعل إدراك ذلك في حالة تسمّى

راحة وهي النوم من حقيقة قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [سورة ق: الآية ٣٨] فأضاف العمل إليه وذكر في الخلق أنه بيديه وبأيد وبيده وبقوله، ثم أعلمنا أنه وإن اتصف بالعمل أنه لم يؤثر فيه تعب فقال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [سورة ق: الآية ٣٨] وقال: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٣٣] فمن هذه الحقيقة ظهرت الأعمال العظيمة المحرجة المتعبة في النوم الذي هو راحة البدن أي الطبيعة مستريحة في هذه الحال من الحركات الحسية الظاهرة، فهذا هو العمل العظيم في راحة من حيث لا يشعر أنه في راحة، ولا سيما إذا رأى في النوم أموراً هائلة مفزعة، فإذا استيقظ وجد الراحة فعلم أنه كان في راحة من حيث لا يشعر، ومنهم من يعلم في النوم أنه في النوم، والناس فيه على طبقات، وإنما سمينا هذه الحالة بانتقال لأنّ المعاني تنتقل من تجريدها عن الموادّ إلى لباس الموادّ، كظهور الحق في صور الأجسام والعلم في صورة اللبن وما أشبه ذلك.

والانتقال الثاني انتقال الحواس من الظاهر المحسوس إلى هذه الحضرة بالظاهر المحسوس، ولكن له في هذه الحضرة ثبوته الذي له في حضرة اليقظة فإنه سريع التبدّل في هذه الحضرة، كما يتبدّل في اليقظة في صور مختلفة في باطنه لا في ظاهره، فباطنه في اليقظة هي هذه الحضرة ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٧] لها فإنّ الليل لا يعطي للناظر في نظرة سوى نفسه فهو يدرك ولا يدرك به فإنه غيب وظلمة، والغيب والظلمة يدركان ولا يدرك بهما، والضوء يدرك ويدرك به وهو حال اليقظة، فلهذا تعبر الرؤيا ولا يعبر ما أدركه الحسّ، فإذا ارتقى الإنسان في درج المعرفة علم أنه نائم في حال اليقظة المعهودة وأن الأمر الذي هو فيه رؤيا إيماناً وكشفاً، ولهذا ذكر الله أموراً واقعة في ظاهر الحسّ وقال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا﴾ [سورة الحشر: الآية ٢] وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ [سورة آل عمران الآية ١٣] أي جوزوا واعبروا ممّا ظهر لكم من ذلك إلى علم ما بطن به وما جاء له، قال عليه السلام: «**النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ**» ولهذا قلنا إيماناً. وقد ذكرنا هذا المقام مستوفى في باب المعرفة من هذا الكتاب وقد تقدم وهو الباب السابع والسبعون ومائة، فالوجود كله نوم ويقظته نوم، فالوجود كله راحة والراحة رحمة فوسعت كل شيء فإليها المآل تقول الملائكة لله: وسعت كل شيء رحمة وعلماً، وهنا سرّ ان بحثت عليه انتهيت إليه وهو رحمته بالأسماء الحسنى في ظهور آثارها، فمنتهى علمه منتهى رحمته.

ثم أرجع وأقول: وإن حصل في الطريق تعب فهو تعب في راحة كالأجير يحمل التعب أو يستلذه لما يكون في نفسه من راحة الأجرة التي لأجل حصولها عمل فيحجبه عن التعب وجود راحة الأجرة فإذا قبضها دخل في راحة النوم بالليل فركدت جوارحه عن الحركة فوجد الراحة فانتقل من راحة الأجرة إلى راحة النوم، فعلى التحقيق أن صور العالم للحق من الاسم الباطن صور الرؤيا للنائم والتعبير فيها كون تلك الصور أحواله فليس غيره، كما أن صور الرؤيا أحوال الرائي لا غيره فما رأى إلاّ نفسه فهذا هو قوله أنه ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الروم: الآية ٨] وهو عينه وهو قوله في حق العارفين: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ

﴿ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة النور: الآية ٢٥] أي الظاهر فهو الواحد الكثير، فمن اعتبر الرؤيا يرى أمراً هائلاً ويتبين له ما لا يدركه من غير هذا الوجه ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا أصبح في أصحابه سألهم: هل رأى أحد منكم رؤيا، لأنها نبوّة فكان يحب أن يشهدها في أمته، والناس اليوم في غاية الجهل بهذه المرتبة التي كان رسول الله ﷺ يعتني بها ويسأل كل يوم عنها، والجهلاء في هذا الزمان إذا سمعوا بأمر وقع في النوم لم يرفعوا به رأساً وقالوا: بالمنامات يريد أن يحكم، هذا خيال وما هي إلاّ رؤيا، فيستهونوا بالرائي إذا اعتمد عليها، وهذا كله لجهله بمقامها وجهله بأنه في يقظته وتصرّفه في رؤيا وفي منامه في رؤيا، فهو كمن يرى أنه استيقظ في نومه وهو في منامه وهو قوله عليه السلام: «النَّاسُ نِيَامٌ» فما أعجب الأخبار النبوية لقد أبانت عن الحقائق على ما هي عليه وعظمت ما استهونه العقل القاصر فإنه ما صدر إلاّ من عظيم وهو الحق، فهذا معنى قولنا في التقسيم: إنه قسم الانتقال.

وأما القسم الآخر من النوم فهو قسم الراحة وهو النوم الذي لا يرى فيه رؤيا فهو لمجرّد الراحة البدنية لا غير فهذا هو حال الرؤيا، وبقي معرفة المكان والمحل، فأما المحل فهو هذه النشأة العنصرية لا يكون للرؤيا محل غيرها فليس للملك رؤيا وإنما ذلك للنشأة العنصرية الحيوانية خاصة، ومحلها في العلم الإلهيّ الاستحالات في صور التجلي، فكل ما نحن فيه رؤيا الحق في راحة ارتفاع الإعياء والتعب لا غير. وأما المكان فهو ما تحت مقعر فلك القمر خاصة، وفي الآخرة ما تحت مقعر فلك الكواكب الثابتة، وذلك لأنّ النوم قد يكون في جهنم في أوقات ولا سيما في المؤمنين من أهل الكبائر وما فوق فلك الكواكب فلا نوم وأعني به هذا النوم الكائن المعروف في العرف. وأما الذي ذهبنا إليه أوّلاً في معرفة حال النوم فذلك أمر آخر قد بيّناه وصورة مكانه هكذا فانظر إلى ما صوّرناه في الهامش وهو هذا.(١) هذا صورة مكان الرؤيا وهو يشبه بالقرن وهو الصور: أعلاه واسع وأسفله ضيق مقلوب النشء فإن الذي يلي الرأس منه هو الأعلى وهو الأوسع، والذي هو الأضيق منه هو الأسفل وهو الذي بعد عن الأصل فذلك القرن مكان الرؤيا، فإذا خرج عن هذا الصور خرج عن مكان الرؤيا المعلومة في العرف، فلا يرى بعد هذا رؤيا لأنه لا تقوم به صفة نوم فهو في راحة الأبد، وهذا القدر كاف فيما نرومه من التعريف بمقام الرؤيا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. والذي سكتنا عنه عظيم لأنّ الفكر يعجز عن تصوّره من أكثر الناس ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٦] كما أن ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة هود: الآية ١٧] وإلى العلم يرجع الفقه والعقل في قوله: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٩] ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٢].

انتهى الجزء الثامن عشر ومائة.

---

(١) لم نجد بالهامش الصورة التي أشار إليها.

(الجزء التاسع عشر ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

أبواب الأحوال

الباب التاسع والثمانون ومائة

في السالك والسلوك

[نظم: الكامل]

إن السُّلوكَ هو الطريقُ الأقْوَمُ ... فإذا اسْتَقَمْتَ فأنتَ فيه السَّالِكُ

اشتُقَّ من سلْكِ اللآلي لَفْظُهُ ... فحُسَامُه عَضْبُ المَضَارب بَاتِكُ

لا تَمنَعَنْكَ عن السلوك مَضَايِقٌ ... من خَلْفِهِنَّ أرائكٌ ودَرَانكُ

لا تسْلُكَنَّ لغايةٍ ونهايةٍ ... طُرقَ المُحَال بمُثْبِتِيها فَاتِكُ

اعلم وفّقك الله أن السلوك انتقال من منزل عبادة إلى منزل عبادة بالمعنى، وانتقال بالصورة من عمل مشروع على طريق القربة إلى الله إلى عمل مشروع بطريق القربة إلى الله بفعل وترك، فمن فعل إلى فعل، أو من ترك إلى ترك، أو من فعل إلى ترك، أو من ترك إلى فعل، وما ثم خامس للصورة وانتقال بالعلم من مقام إلى مقام، ومن اسم إلى اسم، ومن تجلّ إلى تجلّ، ومن نفس إلى نفس، والمنتقل هو السالك وهو صاحب مجاهدات بدنية ورياضات نفسية قد أخذ نفسه بتهذيب الأخلاق، وحكم على طبيعته بالقدر الذي يحتاج إليه من الغذاء الذي يكون به قوام مزاجها واعتدالها ولا يلتفت إلى جوع العادة والراحة المعتادة فإن الله ما كلف نفساً إلاّ وسعها، فإذا بذلت الوسع في طاعة الله لم يقم عليها حجة، غير أن السالكين في سلوكهم على أربعة أقسام: منهم سالك يسلك بربه، وسالك يسلك بنفسه، وسالك يسلك بالمجموع، وسالك لا سالك، فيتنوّع السلوك بحسب قصد السالك ورتبته في العلم بالله.

فأما السالك الذي يسلك بربه فهو الذي يكون الحق سمعه وبصره وجميع قواه فإن عينه ثابتة، ولهذا أعاد الضمير عليه لوجوده في قوله: «كنت سمعه» فهذه الهاء هي عينك الذي الحق سمعها وبصرها وما سلكت إلاّ بهذه القوىٰ، وهذه القوىٰ قد أخبر الحق أنه لما أحبك كان سمعك وبصرك فهو قواك فبه سلكت في طاعته التي أمرك بأن تعمل نفسك فيها وتحلّي ذاتك بها. وهي زينة الله وهو سبحانه الجميل والزينة جمال فهو جمال هذا السالك فزينته ربه فبه يسمع وبه يبصر وبه يسلك ولا مانع من ذلك، ولهذا قال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣٢] لما أحبهم حين تقربوا إليه بنوافل الخيرات زيّنهم به فكان

قواهم التي سلكوا بها ما كلفهم من الأعمال وهو قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] وهي كلمة تطلبها المجازاة فاستعانوا بالله على عبادته بأن كان قواهم كما أنه بوجود أعيانهم، وإن كان وجودهم قد استفادوه منه لم يتمكن خلق الأعمال التي هي محاب الله إلاَّ في وجود أعيانهم، فحصل لديهم ضرب من الإعانة على إيجاد الأعمال التي لا تقوم بنفسها، فلما عملوا بها وما زالوا يطلبون الاستعانة منه على ذلك جزاء وفاقاً أعانهم بنفسه بأن قال لهم: بي تسمعون وتبصرون وتبطشون، وغير ذلك من القوىٰ التي هم عليها ليست غير الحق بإخبار الحق، والناس في عماية لا يعرفون من هذه صورته، فكثيراً ما يسيئون الأدب على من هذه صفته، فتكون إساءة ذلك الأدب مع الله، فالاحتياط تعظيم عباد الله، فإنه ما من شخص إلاَّ ويمكن أن يكون هو ذلك العبد، فإن الأمر غيب ما هو بمحسوس حتى يتميز إلاَّ عند أهله، فوجب مراعاة كل مؤمن على كل مكلف، فإنه إذا فعل ذلك أحرز الأمر واستبرأ لنفسه ولا يقال له: لم فعلت كذا؟ فإنه قصد جميل، فإن وافق محله وإلاَّ فقد وفى الأمر حقّه لقصده احترام الجناب الإلهيّ لما دخل في المسألة من الإمكان لكل شخص شخص، وهذا لا يكون إلاَّ للأدباء من أهل الله.

والقسم الآخر: السالك بنفسه وهو المتقرب إلى ربّه ابتداء بالفرائض ونوافل الخيرات الموجبين لمحبة الحق من أتى بهما لتحصيل المحبتين فهو يجهد فيما كلفه الحق ويبذل استطاعته وقوّته فيما أمره به ربه ونهاه من عبادة ربه في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦] ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٢] وإن كانوا قد سمعوا هذا الخبر الإلهي واعتقدوه إيماناً به ولكن ما حصل لهم هذا ذوقاً فيكون الحق قواهم، فهم سالكون بنفوسهم في جميع مراتب السلوك من حال وعمل ومقام واسم وتجلّ، وما يصحّ فيه الانتقال من أمر إلى أمر، وهذا هو سلوك الأدباء من أهل الله، وذلك أن الله كلّف عباده فعلموا أن ثم حقيقة تقتضي أن تكون المخاطبة بالتكليف وما ثم إلاَّ هم فيعلمون أنهم المرادون، وإن لم يتعين عندهم بأيّ حقيقة توجه عليهم الخطاب فيسلكون بنفوسهم في العموم مع علمهم بأن الأمر لا بدّ فيه من نسبة خاصة أو عين موجودة تستحق التكليف، فيبذلون المجهود ويوفون بالعقود وإن جهلوا المقصود إلى أن يفتح الله لهم كما فتح لمن سلك بربه.

وأما السالك بالمجموع فهو السالك بعد أن ذاق كون الحق سمعه وبصره وعلم سلوكه أوّلاً بنفسه على الجملة من غير شهود نفسه على التعيين، فلما علم أن الحق سمعه وعلم أن السامع بالسمع ما هو عين السمع ورأى ثبوت هذا الضمير وعاين على من عاد فعلم أن نفسه وعينه هي السميعة بالله والناظرة بالله والمتحركة بالله والساكنة بالله، وأنها المخاطبة بالسلوك والانتقال فسلك بالمجموع.

وأما القسم الرابع وهو سالك لا سالك فهو أنه رأى نفسه لم تستقل بالسلوك ما لم يكن الحق صفة لها، ولا تستقل الصفة بالسلوك ما لم تكن نفس المكلف موجودة ويكون كالمحل

لها فيبدو له أنه سالك بالمجموع، فإذا تبين له أن بالمجموع ظهر السلوك بأن له أن المظهر لا وجود له عيناً وأن الظاهر تقيد بحكم استعداد المظهر ورأى الحق يقول: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] وكذلك لو قال: وما رمى لصحّ كما صحّ في الطرف الأوّل. فمن وقف على هذا العلم من نفسه علم أنه سالك لا سالك.

ثم اعلم أن السالكين الذين ذكرناهم على مراتب، فمنهم السالك منه إليه، ومنهم السالك منه إليه فيه، ومنهم السالك منه إليه فيه به، ومنهم السالك منه لا فيه ولا إليه، ومنهم السالك إليه لا منه ولا فيه، ومنهم السالك لا منه ولا إليه ولا فيه وهو موصوف بالسلوك وبأنه سالك، ومنهم السالك من غير سفر، ومنهم السالك المسافر وهو في الباب الذي يلي هذا الباب، فكل مسافر سالك وما كل سالك مسافر كما سنذكره إن شاء الله بعد هذا الباب في باب المسافر. وأنواع السلوك كثيرة وما ذكرنا منها إلاّ القليل، فأمّا السالك منه إليه فهو المنتقل من تجلّ إلى تجلّ. وأما السالك إليه منه فيه فهو السالك من اسم إلهيّ إلى اسم إلهيّ في اسم إلهيّ. وأما السالك منه إليه فيه به فهو السالك من اسم إلهيّ من اسم إلى اسم في اسم. وأما السالك منه لا فيه ولا إليه فهو الذي خرج من عند الله في الكون إلى الكون. وأما السالك إليه لا منه ولا فيه فهو الفار إليه في الكون من الكون كفرار موسىٰ عليه السلام. وأما السالك لا منه ولا فيه ولا إليه فهو المنتقل في الأعمال الصالحة من الدنيا إلى الآخرة وهم الزهاد غير العارفين، وكلما ذكرناه قد يكون على التقسيم الذي تقدّم في حرف الباء من أنه سلك بربه أو بنفسه إلى نهاية التقسيم فيه. وللسلوك مراتب وأسرار يطول النظر فيها ويخرجنا عن المقصود في هذا الكتاب من الاقتصاد والاقتصار على الضروري من العلم الذي يحتاج إليه أهل طريق الله أن يبينه لهم من فتح عليه به من أمثالنا، وهذا الكتاب مع طوله واتساعه وكثرة فصوله وأبوابه ما استوفينا فيه خاطراً واحداً من خواطرنا في الطريق فكيف الطريق؟ ولا أخللنا بشيء من الأصول التي يعوّل عليها في الطريق فحصرناها مختصرة العبارة بين إيماء وإيضاح.

الباب التسعون ومائة

في معرفة المسافر وهو الذي أسفر له سلوكه عن أمور مقصودة له وغير مقصودة وهو مسافر بالفكر والعمل والاعتقاد

[نظم: الطويل]

إلى أينَ أو مِنْ أينَ أنتَ مُسَافِرُ ... وذاك لَعَمْرُ الله أمرٌ يُنَافِرُ
قضيَّةَ معقولِ الدَّليلِ وشَرْعِهِ ... فلا تَكُ ممَّنْ للإله يُسَافِرُ
ولا تُخْلِهِ من كلِّ كَوْنٍ فإنه ... هو العينُ إلاّ أنه العَبْدُ حَائِرُ
ففيه فَسَافِرْ لا إليه ولا تكُنْ ... جهولاً فكَمْ عَقْلٍ عليه يُثَابِرُ

اعلم أيّدك الله أن المسافر في طريق الله رجلان: مسافر بفكره في المعقولات والاعتبارات، ومسافر بالأعمال وهم أصحاب اليعملات. فمن أسفر له طريقه عن شيء فهو

مسافر ويجب عليه قصر الصلاة على الله وهو مخيّر في الصوم، ومن لم يسفر له طريقه عن شيء فهو سالك متصرّف في طرق مدينته وشوارعها غير مسافر فليصم وليتم صلاته. فلنذكر حالة المسافر في الطريق والله المؤيّد والموفق إن شاء الله.

المسافر من سافر بفكره في طلب الآيات والدلالات على وجود صانعه فلم يجد في سفره دليلاً على ذلك سوى إمكانه، ومعنى إمكانه هو أن ينسب إليه وإلى جميع العالم الوجود فيقبله أو العدم فيقبله، فإذا تساوى في حقّه الأمران لم تكن نسبة الوجود إليه من حيث ذاته بأولى من نسبة العدم، فافتقر إلى وجود المرجح الذي رجح له أحد الوصفين على الآخر، فلما وصل إلى هذا المنزل وقطع هذه المنهلة وأسفرت له عن وجود مرجحه أحدث سفراً آخر في علم ما ينبغي لهذا الصانع الذي أوجده فأسفر له الدليل على انفراده بصفات التنزيه تنزيه ما هو عليه هذا الممكن من الافتقار، وأن هذا المرجح واجب الوجود لنفسه لا يجوز عليه ما جاز على هذا الممكن، ثم انتقل مسافراً إلى منزلة أخرى فأسفر له عن أن هذا الواجب الوجود لنفسه يستحيل عليه العدم لثبوت قدمه، وأنه من ثبت قدمه استحال عدمه لأنه لو كان عدمه لنفسه لما كان واجب الوجود لنفسه، ولو انعدم بمعدم فلا بدّ أن يكون ذلك المعدم له وجوداً أو عدماً محال أن يكون عدماً فبقي أن يكون وجوداً، وإذا كان وجوداً فلا بدّ أن يكون المعدم شرطاً أو ضداً، وأنّ كل واحد من هذين إمّا أن يكون واجب الوجود أيضاً لنفسه فمن المحال وجود هذا الذي دلّ الدليل على وجوب وجوده لنفسه، ثم يساق الدليل على مساق الأدلة في المعقولات، ثم يسافر في منزلة أخرى إلى أن ينفي عنه كل ما يدل على حدوثه، فيحيل أن يكون هذا المرجح جوهراً متحيزاً أو جسماً أو عرضاً أو في جهة، ثم يسافر في علم توحيده بوجود العالم وبقائه وصلاحه، إذ لو كان معه إله آخر لم يوجد العالم على تقدير الاتفاق والاختلاف كما يعطيه النظر، ثم ينتقل مسافراً أيضاً إلى منزلة تعطيه العلم بما يجب لهذا المرجح من العلم بما أوجده وخلقه، والإرادة لذلك ونفوذها وعدم قصورها وعموم تعلّق قدرته بإيجاد هذا الممكن وحياة هذا المرجح لأنها الشرط في ثبوت هذه النعوت له وإثبات صفات الكمال من الكلام والسمع والبصر بأنه لو لم يكن على ذلك لكان مؤوفاً لأنّ القابل لأحد الضدين إذا عرى عن أحدهما لم يعر عن الآخر، فإذا عرف هذا سافر إلى منزلة أخرى يعلم منها وتسفر له عن إمكان بعثة الرسل ثم يسافر فيعلم أنه قد بعث رسلاً وأقام لهم الدلالة على صدقهم فيما ادعوه من أنه بعثهم، ولما تقرّر هذا وكان هو ممّن بعث إليه هذا الرسول فآمن به وصدقه واتبعه فيما رسم له حتى أحبه الله فكشف له عن قلبه وطالع عجائب الملكوت وانتقش في جوهر نفسه جميع ما في العالم وفرّ إلى الله مسافراً من كل ما يبعده منه ويحجبه عنه إلى أن رآه في كل شيء، فلما رآه في كل شيء أراد أن يلقي عصا التسيار ويزيل عنه اسم المسافر فعرّفه ربه أن الأمر لا نهاية له لا دنيا لا آخرة، وأنك لا تزال مسافراً كما أنت على ذلك لا يستقرّ بك قرار كما لم تزل تسافر من وجود إلى وجود في أطوار العالم إلى حضرة ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] ثم لم تزل تنتقل من منزلة إلى منزلة إلى أن نزلت في

هذا الجسم الغريب العنصريّ فسافرت به كل يوم وليلة تقطع منازل من عمرك إلى منزلة تسمّى الموت، ثم لا تزال مسافراً تقطع منازل البرازخ إلى أن تنتهي إلى منزلة تسمّى البعث فتركب مركباً شريفاً يحملك إلى دار سعادتك، فلا تزال فيها تتردد مسافراً بينها وبين كثيب المسك الأبيض إلى ما لا نهاية له. هذا سفرك بهيكلك وأمّا في المعارف فمثل ذلك وكذلك لا تزال مسافراً بالأعمال البدنية والأنفاس من عمل إلى عمل ما دام التكليف، فإذا انتهت مدة التكليف فلا تزال مسافراً سفراً ذاتياً تعبده لذاته لا بأمره ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] فسافر به ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وقد ذكرنا هذا السفر في جزء لنا سميناه الإسفار عن نتائج الأسفار، وقال تعالىٰ في المسافرين: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٥] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾ [سورة الروم: الآية ٩] ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [سورة النور: الآية ٦٤] فهذا معنى المسافر.

الباب الحادي والتسعون ومائة
في معرفة السفر والطريق وهو توجه القلب إلى الله بالذكر عن مراسم الشرع بالعزائم لا بالرخص ما دام مسافراً

[نظم: البسيط]

تَوَجُّهُ القلب بالأذكار مرتحلاً ... على مراسم دينِ الله عُنْوَانُ
على التَّحَقُّقِ إن القلب في سَفَرٍ ... عزماً وفيه دلالاتٌ وبُرهانُ
وكلُّ مُتَّصفٍ بالسَّيْر راحتُه ... مَعْدومةُ العينِ والأحوالُ سُلْطَانُ
الربُّ ينزلُ من عَرْشٍ إلى فَلَكٍ ... أدنى أتاكَ به وَحْيٌ وفُرْقَانُ
إليكَ وحدكَ دونَ الخَلْقِ كُلِّهِم ... وفي تَنَزُّلِهِ للكون تِبْيَانُ
على محبَّته فينا وصورتُه ... تدعوه منِّي فلا يَحْجُبْكَ إنسانُ
وأنتَ حقٌّ وذاك الحقُّ أنزَلَه ... في مظْهَرٍ قَيَّدَتْهُ فيه أرْكَانُ

اعلم أيّدك الله أن السفر حال المسافر والطريق هو ما يمشي فيه ويقطعه بالمعاملات والمقامات والأحوال والمعارف، لأنّ في المعارف والأحوال الأسفار عن أخلاق المسافرين ومراتب العالم ومنازل الأسماء والحقائق، ولهذا استحقت هذا اللقب، وقد مشى الكلام في السالك والسلوك بما قد وقفت عليه، والإنسان لما كان مجموع العالم ونسخة الحضرة الإلهية التي هي ذات وصفات وأفعال احتاج إلى مطرق يطرق له السلوك عليها والسفر فيها ليرى العجائب ويقتني العلوم والأسرار فإنه سفر تجارة فكان المطرق الشارع والطريق المطرقة الشريعة، فمن سافر في هذه الطريق وصل إلى الحقيقة، فثم سفر بحق وسفر بخلق، فالسفر بالحق على نوعين: سفر ذات وسفر صفة، والإنسان الكامل يسافر هذه الأسفار كلها، فيسافر بربه عن كشف إلهيّ ومعية محققة يكون فيها مع الحق كما هو الحق معنا أينما كنا، وقد عين سبحانه لنفسه أماكن كما يليق بجلال ووصف نفسه بتردده فيها، فإذا كان العبد معه سافر بسفره فيسفر له أنه هو كما أسفر له أنه ليس هو، فالسفر الرباني من العماء إلى العرش فيظهر

في العرش بالاسم الرحمن، ثم ينزل معه بالاسم الرب كل ليلة إلى السماء الدنيا، ثم ينزل بالاسم الإله إلى الأرض، ثم يصحبه بالهوية مع كل واحد من الكون، ثم يسافر معه بالصحبة في سفر الكون، ثم يتخلف معه بالخلافة في الأهل، ثم يسافر صحبة القرآن في سفره من كونه صفة الله إلى السماء الدنيا، ثم يصحبه في سفره ثلاثاً وعشرين سنة، ثم يصحب الأسماء الإلهية في سفرها في الكون، ثم يصحبه الكون في سفره من العدم إلى الوجود، ثم يصحب الأنبياء في سفرهم، فيصحب آدم في سفره من الجنة إلى الأرض، ثم يصحبه في سفره في سبعمائة عمرة وثلاثمائة حجة، ثم يصحب إدريس في سفره إلى المكان العلي، ثم يصحب نوحاً في سفره في سفينة نجاته إلى الجودي، ثم يصحب إبراهيم عليه السلام في جميع أسفاره، وكذلك كل نبي وملك كأسفار جبريل إلى كل نبي ورسول، وكسفر ميكائيل والملائكة بالعروج والنزول وسفر السياحين منهم، وسفر الكواكب في سيرها، وسفر الأفلاك في حركاتها، وسفر العناصر في استحالاتها، وسفر التجلي في صوره إلى أن يقف على حقائق هذا كله ذوقاً من نفسه لا يرتاب ولا يشك ويجرد من ذاته في كل سفر ما يناسب صاحب ذلك السفر من حق وخلق، فهذا هو سفر العارفين وطرق العلماء بالله الراسخين.

الباب الثاني والتسعون ومائة

في معرفة الحال

[نظم: البسيط]

الحال ما يَهَبُ الرحمنُ من مِنَحٍ ... عنايةٌ منه لا كَسْبٌ ولا طَلَبُ
تَغَيُّرُ الوصف برهانٌ عليه فكنْ ... على ثَبَاتٍ فإنّ الحالَ تَنْقَلِبُ
ولا تقولنَّ إن الحالَ دائمةٌ ... فإن قوماً إلى ما قُلْتَه ذَهَبُوا
أبو عُقَالٍ إمامٌ سيدٌ سَنَدٌ ... في الحالِ كان له في حاله عَجَبُ
دامَتْ عليه إلى وقتِ البُدور منَ الـ ... ـمئينَ أيامُها ما أُسْدِلَتْ حُجُبُ
وزاد مِيْقَات موسىٰ في إقامته ... على المئين كذا جاءت به الكتبُ

الحال عند الطائفة ما يرد على القلب من غير تعمّل ولا اجتلاب فتتغير صفات صاحبه له واختلف في دوامه، فمنهم من قال بدوامه، ومنهم من منع دوامه وأنه لا بقاء له سوى زمان وجوده كالعرض عند المتكلمين ثم يعقبه الأمثال فيتخيل أنه دائم وليس كذلك وهو الصحيح لكنه يتوالى من غير أن يتخلل الأمثال ما يخرجه عنه، فمنهم من أخذه من الحلول فقال بدوامه وجعله نعتاً دائماً غير زائل فإذا زال لم يكن حالاً وهذا قول من يقول بدوامه، قال بعضهم: ما أقامني الله منذ أربعين سنة في أمر فكرهته، قال الإمام: أشار إلى دوام الرضى وهو من جملة الأحوال. هذا الذي قاله الإمام يحتمل ولكنه في طريق الله بعيد، وإنما الذي ينبغي أن يقال في قول هذا السيد إنه أقام أربعين سنة ما أقامه الله في ظاهره ولا في باطنه في حال مذموم شرعاً بل لم تزل أوقاته عليه محفوظة بالطاعات وما يرضي الله، ولقد لقيت شخصاً صدوقاً صاحب

حال على قدم أبي يزيد البسطامي بل أمكن في شغله له إدلال في أدب فقال لي يوماً: لي خمسون سنة ما خطر لي في نفسي خاطر سوء يكرهه الشرع فهذه عصمة إلهية، فيكون كلام ذلك السيد من هذا القبيل والأحوال مواهب لا مكاسب.

اعلم أن الحال نعت إلهيّ من حيث أفعاله وتوجهاته على كائناته، وإن كان واحد العين لا يعقل فيه زائد عليه قال تعالىٰ عن نفسه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وأصغر الأيام الزمن الفرد الذي لا يقبل القسمة فهو فيه في شؤون على عدد ما في الوجود من أجزاء العالم الذي لا ينقسم كل جزء منه بهذا الشرط فهو في شأن مع كل جزء من العالم بأن يخلق فيه ما يبقيه سوى ما يحدثه ممّا هو قائم بنفسه في كل زمان فرد، وتلك الشؤون أحوال المخلوقين وهم المحال لوجودها فيهم فإنه فيهم يخلق تلك الشؤون دائماً فلا يصحّ بقاء الحال زمانين لأنه لو بقي زمانين لم يكن الحق في حق من بقي عليه الحال خلاقاً ولا فقيراً إليه وكان يتصف بالغنى عن الله وهذا محال، وما يؤدّي إلى المحال محال، وهذا مثل قول القائلين بأن العرض لا يبقى زمانين وهو الصحيح، والأحوال أعراض تعرض للكائنات من الله يخلقها فيهم عبر عنها بالشأن الذي هو فيه دنيا وآخرة، هذا أصل الأحوال الذي يرجع إليه في الإلهيات، فإذا خلق الله الحال لم يكن له محل إلاّ الذي يخلقه فيه فيحل فيه زمان وجوده، فلهذا اعتبره من اعتبره من الحلول وهو النزول في المحل وقد وجد، ثم أنه ليس من حقيقته أن يبقى زمانين، فلا بدّ أن ينعدم في الزمان الثاني من زمان وجوده لنفسه لا ينعدم بفاعل يفعل فيه العدم، لأنّ العدم لا ينفعل لأنه ليس شيئاً وجودياً ولا بانعدام شرط ولا بضدّ لما في ذلك كله من المحال، فلا بدّ أن ينعدم لنفسه أي العدم له في الزمان الثاني من زمان وجوده حكم لازم، والمحل لا بقاء له دونه أو مثله أو ضده، فيفتقر في كل زمان إلى ربه في بقائه فيوجد له الأمثال أو الأضداد، فإذا أوجد الأمثال يتخيل أن ذلك الأول هو على أصله باقٍ وليس كذلك.

وإذا كان الحق ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وكل شأن عن توجّه إلهيّ والحق قد عرفنا بنفسه أنه يتحول في الصور، فلكل شأن يخلقه بصورة إلهية، فلهذا ظهر العالم على صورة الحق، ومن هنا نقول: إن الحق علم نفسه فعلم العالم، فمثل هذا اعتبر من اعتبر الحال من التحول والاستحالة فقال بعدم الدوام فلا يزال العالم مذ خلقه الله إلى غير نهاية في الآخرة، والوجود في أحوال تتوالى عليه الله خالقها دائماً بتوجهات إرادية تصحبها كلمة الحضرة المعبر عنها بكن، فلا تزال الإرادة متعلقة وهو المتوجه، ولا تزال ﴿كُن﴾ ولا يزال التكوين، هكذا هو الأمر في نفسه حقاً وخلقاً.

وقد يطلقون الحال ويريدون به ظهور العبد بصفة الحق في التكوين ووجود الآثار عن همته وهو التشبه بالله المعبر عنه بالتخلق بالأسماء وهو الذي يريده أهل زماننا اليوم بالحال ونحن نقول به ولكن لا نقول بأثره لكن نقول: إنه يكون العبد متمكناً منه بحيث لو شاء ظهوره لظهر به، لكن الأدب يمنعه لكونه يريد أن يتحقق بعبوديته ويستتر بعبادته فلا ينكر عليه أمر

بحيث إذا رؤي في غاية الضعف ذكر الله عند رؤيته فذلك عندنا ولي الله فيكون في الكون مرحمة وهو قول النبيّ ﷺ في أولياء الله: «**إنَّهُمُ الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ**» مِنْ صَبْرِهِم عَلَىٰ البَلاَءِ ومحنة الله لهم الظاهرة فلا يرفعون رؤوسهم لغير الله في أحوالهم، فإذا رىء منهم مثل هذه الصفة ذكر الله بكونه اختصهم لنفسه ومن لا علم له بما قلناه، يقول الوليّ صاحب الحال الذي إذا رؤي ذكر الله هو الذي يكون له التكوين والفعل بالهمة والتحكم في العالم والقهر والسلطان وهذه كلها أوصاف الحق، فهؤلاء هم الذين إذا رؤوا ذكر الله وهذا قول من لا علم له بالأمور، وأن مقصود الشارع إنما هو ما ذكرناه، وأما هذا القول الآخر فقد ينال التحكم في العالم بالهمة من لا وزن له عند الله ولا قيمة وليس بوليّ، وإنما سُئِل النبيّ وأجاب بهذا عن أولياء الله فقيل له: من أولياء الله؟ فقال: «**الَّذِينَ إذا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ**» لما طحنتهم البلايا وشملتهم الرزايا فلا يتزلزلون ولا يلجؤون لغير الله رضى بما أجراه الله فيهم وأراده بهم، فإذا رأتهم العامة على مثل هذا الصبر والرضى وعدم الشكوى للمخلوقين ذكرت العامة الله وعلمت أن لله بهم عناية. وأصحاب الآثار قد يكونون أولياء وقد تكون تلك الآثار التكوينية عن موازين معلومة عندنا وعند من يعرف همم النفوس وقوّتها وانفعال أجرام العالم لها، ومن خالط العزابية ورأى ما هم عليه من عدم التوفيق مع كونهم يقتلون بالهمة ويعزلون ويتحكمون لقوّة هممهم، وأيضاً لما في العالم من خواص الأسماء التي تكون عنها الآثار التكوينيات عند من يكون عنده علم ذلك مع كون ذلك الشخص مشركاً بالله فما هو من خصائص أولياء الله تعالىٰ التأثير في الكون فما بقي إلاّ ما ذكرناه.

الباب الثالث والتسعون ومائة

في معرفة المقام

[نظم: البسيط]

إن المقامَ من الأعمال يُكْتَسَبُ ... له التعمُّلُ في التحصيل والطَّلَبُ
به يكونُ كمالُ العارفينَ وَمَا ... يَرُدُّهم عنه لا سِتْرٌ ولا حُجُبُ
له الدوامُ وما في الغَيْب من عَجَبٍ ... الحكمُ فيه له والفَضْلُ والنَّدَبُ
هو النهايةُ والأحوالُ تابعةٌ ... وما يُجَلِّيه إلاَّ الكدُّ والنَّصَبُ
إن الرسولَ مِنَ أجلِ الشُّكرِ قد وَرِمَتْ ... أقدامُه وَعَلاَه الجَهْدُ والتَّعَبُ

اعلم أن المقامات مكاسب وهي استيفاء الحقوق المرسومة شرعاً على التمام، فإذا قام العبد في الأوقات بما تعين عليه من المعاملات وصنوف المجاهدات والرياضات التي أمره الشارع أن يقوم بها وعين نعوتها وأزمانها وما ينبغي لها وشروطها التمامية والكمالية الموجبة صحتها، فحينئذ يكون صاحب مقام حيث أنشأ صورته كما أمر كما قيل له: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٣] فأقاموا نشأتها صورة كاملة فخرجت طائراً ملكاً روحاً مقدساً فلم يكن له استقرار دون الحق، ثم ينتقل هذا العبد إلى مقام آخر لينشىء أيضاً صورته، وبهذا يكون العبد

خلاقاً، هذا معنى المقام، ولم يختلف أحد من أهل الله أنه ثابت غير زائل كما اختلفوا في الحال، وليس الأمر عندنا على إطلاق ما قالوه بل يحتاج إلى تفصيل في ذلك، وذلك لاختلاف حقائق المقامات فإنها ما هي على حقيقة واحدة، فمن المقامات ما هو مشروط بشرط، فإذا زال الشرط زال كالورع لا يكون إلاَّ في المحظور أو المتشابه، فإذا لم يوجد أحدهما أو كلاهما فلا ورع، وكذلك الخوف والرجاء والتجريد الذي هو قطع الأسباب وهو ظاهر التوكل عند العامة. ومن المقامات ما هو ثابت إلى الموت ويزول كالتوبة ومراعاة التكليفات المشرّعة، ومن المقامات ما يصحب العبد في الآخرة إلى أوّل دخول الجنة، كبعض المقامات المشروطة من الخوف والرجاء، ومن المقامات ما يدخل معه الجنة كمقام الإنس والبسط والظهور بصفات الجمال، فالمقام هو ما يكون للعبد فيه إقامة وثبات وهو عنده لا يبرح، فإن كان مشروطاً وجاء شرطه أظهره ذلك الوقت لوجود شرطه فهو عنده معد فلذلك قيل فيه إنه ثابت لا أنه يستعمل في كل وقت فافهم.

الباب الرابع والتسعون ومائة
في معرفة المكان

[نظم: الكامل]

نَفْيُ المُقَام هو المكانُ وإنه ... لليثربيّ بسورة الأحزابِ
من كان فيه يكونُ مجهولاً لذا ... ما نالَهُ أحدٌ بغير حجابِ
ربُّ المكان هو الذي يُدْعَى إذا ... دُعيَ الرجالُ بسيِّدِ الأحْبَابِ
وله الوسيلةُ لا تكون لغَيْرِهِ ... وهو المُقَدَّمُ من أُولي الألْبَابِ
وهو الإمامُ وما له من تابع ... وهو المُصَرِّفُ حاجبُ الحُجَّابِ

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ١٣] وقال تعالىٰ في إدريس: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٥٧] والمكان نعت إلهيّ في العموم والخصوص أما في العموم فقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] وأما في الخصوص فقوله: «وَسِعَني قَلْبُ عَبْدي المؤمن». وأما عموم العموم فأن يكون بحيث أنت وهو قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فذكر الأينية، والمكان في الذوات كالمكانة في المراتب والمكان عند القوم منزلة في البساط هي لأهل الكمال الذين جازوا المقامات والأحوال والجلال والجمال فلا صفة لهم ولا نعت ولا مقام كأبي يزيد. اعلم أن عبور المقامات والأحوال هو من خصائص المحمديين ولا يكون إلاَّ لأهل الأدب جلساء الحق على بساط الهيبة مع الأنس الدائم لأصحابه الاعتدال والثبات والسكون، غير أن لهم سرعة الحركات في الباطن في كل نفس ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [سورة النمل: الآية ٨٨] إن تجلّى لهم الحق في صورة محدودة أطرقوا فرأوه في إطراقهم مقلباً أحوالهم على غير الصورة التي تجلّى لهم فيها فأورثهم الإطراق فهم بين تقييد وإطلاق لا مقام يحكم عليهم

فإنه ما ثم فهم أصحاب مكان في بساط النشأة وهم أصحاب مكانة في عدم القرار، فهم من حيث مكانتهم متنوّعون، ومن حيث مكانهم ثابتون، فهم بالذات في مكانهم، وهم بالأسماء الإلهية في مكانتهم، فمن الأسماء لهم المقام المحمود والمكانة الزلفى في اليوم المشهود والزور والوفود، ومن الذات لهم المكان المحدود والمعنى المقصود والثبات على الشهود وحالة الوجود ورؤيته في كل موجود في سكون وخمود يشهدونه في العماء بالعين التي يشهدونه بها في الاستواء بالعين التي يشهدونه بها في السماء الدنيا بالعين التي يشهدونه بها في الأرض بالعين التي يشهدونه بها في المعية بالعين التي يشهدونه بها في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ وهذا كله من نعوت المكان.

وأما شهودهم من حيث المكانة فتختلف عيونهم باختلاف النسب، فالعين التي يشهدونه بها في كذا ليست العين التي يشهدونه بها في أمر آخر، والمشهود في عين واحدة والشاهد من عين واحدة والنظرة تختلف باختلاف المنظور إليه، فمنا من يرى اختلاف النظر لاختلاف المنظور، ومنا من يرى اختلاف المنظور لاختلاف النظر وكل له شرب معلوم، فالمكان يطلب فرغ ربك، والمكانة تطلب: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] و: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] فجاء بلفظ الثقلين إعلاماً من خاطب ومن يريد ونحن مركبون من ثقيل وخفيف، فالخفيف للمكانة والثقيل للمكان ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ فثبتت الرحمة فلم تزل وأثرت في النزول إلى السماء الدنيا، فما نزل ليسلط عذاباً وإنما نزل ليقبل تائباً ويجيب داعياً ويغفر لمستغفر ويعطي سائلاً، فذكر هذا كله ولم يذكر شيئاً من القهر لأنه نزل من عرش الرحمن، فالمكان رحمة حيث كان لأنّ فيه استقرار الأجسام من تعب الانتقال، ألا تراهم في حال العذاب كيف وصفهم بالانتقال بتبديل الجلود والتبديل انتقال إلى أن يفرغ الميقات والأمر الحقيقيّ للمكانة، فإنه لا يصحّ الثبوت على أمر واحد في الوجود، فالمكان ثبوت في المكانة كما نقول في التمكين إنه تمكين في التلوين لا أن التلوين يضاد التمكين كما يراه من لا علم له بالحقائق، وللتمكين باب يرد بعد هذا إن شاء الله.

الباب الخامس والتسعون ومائة

في معرفة الشطح

[نظم: الكامل]

الشَّطْحُ دَعْوَى في النفوس بطَبْعها ... لبقيَّةٍ فيها مِنَ آثارِ الهَوَى

هذا إذا شَطَحَتْ بقولٍ صادقٍ ... من غيرِ أمرٍ عند أرباب النُّهَى

اعلم أيّدك الله أن الشطح كلمة دعوى بحق تفصح عن مرتبته التي أعطاه الله من المكانة عنده أفصح بها عن غير أمر إلهيّ لكن على طريق الفخر بالراء، فإذا أمر بها فإنه يفصح بها تعريفاً عن أمر إلهيّ لا يقصد بذلك الفخر، قال عليه السلام: **«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخر»** يقول: ما قصدت الافتخار عليكم بهذا التعريف لكن أنبأتكم به لمصالح لكم في ذلك

ولتعرفوا منة الله عليكم برتبة نبيكم عند الله، والشطح زلة المحققين إذا لم يؤمر به فيقولها كما قالها عليه السلام ولهذا بيّن فقال: «وَلاَ فَخْرَ» فإني أعلم أني عبد الله كما أنتم عبيد الله، والعبد لا يفتخر على العبد إذا كان السيد واحداً، وكذا نطق عيسىٰ فبدأ بالعبودية وهو بمنزلة قوله عليه السلام: «وَلاَ فَخْرَ» فقال لقومه في براءة أمه ولما علم من نور النبوّة التي في استعداده أنه لا بدّ أن يقال فيه إنه ابن لله فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [سورة مريم: الآية ٣٠] فبدأ في أوّل تعريفه وشهادته في الحال الذي لا ينطق مثله في العادة فما أنا ابن لأحد، فأمي طاهرة بتول ولست بابن لله، كما أنه لا يقبل الصاحبة لا يقبل الولد، ولكني عبد الله مثلكم ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٣٠] فنطق بنبوّته في وقتها عنده وفي غير وقتها عند الحاضرين، لأنه لا بدّ له في وقت رسالته أن يعلم بنبوّته كما جرت عادة الله في الأنبياء قبله، فهم مأمورون بكل ما يظهر عليهم ومنهم من الدعاوى الصادقة التي تدل على المكانة الزلفى والتميز عن الأمثال والأشكال بالمرتبة المثلى عند الله ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ أي محلاً وعلامة على زيادات الخير عندكم ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [سورة مريم: الآية ٣١] يعني في كل حال من الأحوال ما تختص البركة بسببي فيكم في حال دون حال، وذكرها كلها بلفظ الماضي وهو يريد الحال والاستقبال، فما كان منه في الحال فنطقه شهادة ببراءة أمه وتنبيهاً وتعليماً لمن يريد أن يقول فيه إنه ابن الله فنزّه الله وهو نظير براءة أمه ممّا نسبوا إليها، فهو في جناب الحق تنزيه، وفي جناب الأم تبرئة، ويدل لفظ الماضي فيه ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أن يكون له التعريف بذلك من الله كما كان لمحمد ﷺ لما قال: «كُنْتُ نَبِياً وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ» فعلم مرتبته عند الله وآدم ما وجدت صورته البدنية، وأعلم عيسىٰ بلفظ الماضي أن الله آتاه الكتاب وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام في عالم التكليف والتشريع وهو قوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٣١] يريد حياة التكليف في ظاهر الأمر عند السامعين ويريد عندنا هذا، وأمراً آخر وهو قوله تعالىٰ في عيسىٰ أنه كلمة الله والكلمة جمع حروف، وسيأتي علم ذلك في باب النفس بفتح الفاء فأخبر أنه آتاه الكتاب يريد الإنجيل ويريد مقام وجوده من حيث ما هو كلمة والكتاب ضم حروف رقمية لإظهار كلمة أو ضم معنى إلى صورة حرف يدل عليه فلا بدّ من تركيب، فلهذا ذكر أنّ الله أعطاه الكتاب مثل قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥٠] ويريد بالوصية بالصلاة والزكاة العبادة، كما تدل على العمل هي على العبادة أدل لأنها لا تفتقر في كونها عبادة إلى بيان، وإذا أريد بها العمل احتيج إلى تعيين ذلك العمل وبيان صورته حتى يقيم نشأته هذا المكلف به، فإذا كانت العبادة دل على أنه لا يزال حياً أينما كان وإن فارق هذا الهيكل بالموت فالحياة تصحبه لأنها صفة نفسية له، ولا سيما وقد جعله روح الله ثم ذكر أنه برّ بوالدته أي محسن إليها، فأول إحسانه أنه برّأها ممّا نسب إليها في حالة لا يشكون في أنه صادق في ذلك التعريف، ثم تمّم فقال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ [سورة مريم: الآية ٣٢] فإنّ الجبروت وهو العظمة يناقض العبودة وهو قوله إنه ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ويريد بقوله: ﴿جَبَّارًا﴾ أي لا أجبر الأمة التي أرسل إليها بالكتاب والصلاة والزكاة إنما أنا مبلغ عن الله لا غير ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [سورة الغاشية:

الآية ٢٢] فأكون جباراً فأجبر وأبلغ عن الله كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٧] ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [سورة النور: الآية ٥٤] ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [سورة الغاشية: الآية ٢١، ٢٢] فقوله: ﴿مُذَكِّرٌ﴾ والمذكر لا يكون إلاَّ لمن كان على حالة منسية، ولو لم يكن كذلك لكان معلماً لا مذكراً، فدل أنه لا يذكرهم إلاَّ بحال إقرارهم بربوبيته تعالىٰ عليهم حين قبض الذرية من ظهر آدم في الميثاق الأوّل ثم قال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ بما نطقت فيكم به من أني عبد الله فسلمت من انتساب وجودي إلى سفاح أو نكاح ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ [سورة مريم: الآية ٣٣] فأسلم من وقوع القتل الذي ينسب إلى من يزعم أنه قتلني وهو قول بني إسرائيل: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٥٧] فأكذبهم الله فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ١٥٧] فقال لهم: إنّ السلام عليه يوم يموت سالماً من القتل، إذ لو قتل قتل شهادة والشهيد حيّ غير ميت ولا يقال فيه أنه ميت كما ورد النهي عن ذلك عندنا، وكذلك لم يزل الأمر فأخبر أنه يموت ولا يقتل، فذكر السلام عليه يوم يموت، ثم ذكر أن السلام عليه يوم يبعث حياً يعني في القيامة، وهو موطن سلامة الأبرياء من كل سوء مثل الأنبياء وغيرهم من أهل العناية فهو صاحب سلامة في هذه المواطن كلها، وما ثم موطن ثالث ما هي إلاَّ حياة دنيا وحياة أخرى بينهما موت، فهذه كلها لو لم تكن عن أمر إلهي لكانت من قائلها شطحات، فإنها كلمات تدل على الرتبة عند الله على طريق الفخر بذلك على الأمثال والأشكال، وحاشا أهل الله أن يتميزوا عن الأمثال أو يفتخروا.

ولهذا كان الشطح رعونة نفس فإنه لا يصدر من محقق أصلاً، فإن المحقق ما له مشهود سوى ربه، وعلى ربه ما يفتخر وما يدعي بل هو ملازم عبوديته مهيأ لما يرد عليه من أوامره فيسارع إليها وينظر جميع من في الكون بهذه المثابة، فإذا شطح فقد انحجب عمّا خلق له وجهل نفسه وربه، ولو انفعل عنه جميع ما يدعيه من القوّة فيحيي ويميت ويولي ويعزل وما هو عند الله بمكان بل حكمه في ذلك حكم الدواء المسهل أو القابض يفعل بخاصية الحال لا بالمكانة عند الله، كما يفعل الساحر بخاصية الصنعة في عيون الناظرين فيخطف أبصارهم عن رؤية الحق فيما أتوا به، وكل من شطح فعن غفلة شطح، وما رأينا ولا سمعنا عن وليّ ظهر منه شطح لرعونة نفس وهو وليّ عند الله إلاَّ ولا بدّ أن يفتقر ويذل ويعود إلى أصله ويزول عنه ذلك الزهوّ الذي كان يصول به فذلك لسان حال الشطح، هذا إذا كان بحق هو مذموم فكيف لو صدر من كاذب؟ فإن قيل: وكيف صورة الكاذب في الشطح مع وجود الفعل والأثر منه؟ قلنا: نعم ما سألت عنه، أما صورة الكاذب في ذلك فإن أهل الله ما يؤثرون إلاَّ بالحال الصادق إذا كانوا أهل الله، وذلك المسمّى شطحاً عندهم حيث لم يقترن به أمر إلهيّ أمر به كما تحقق ذلك عن الأنبياء عليهم السلام، فمن الناس من يكون عالماً بخواص الأسماء فيظهر بها الآثار العجيبة والانفعالات الصحيحة ولا يقول إن ذلك عن أسماء عنده وإنما يظهر ذلك عند الحاضرين أنه من قوّة الحال والمكانة عند الله والولاية الصادقة وهو كاذب في هذا كله، وهذا لا يسمّى شطحاً ولا صاحبه شاطحاً بل هو كذب محض ممقوت، فالشطح كلمة صادقة

صادرة من رعونة نفس عليها بقية طبع تشهد لصاحبها يبعده من الله في تلك الحال، وهذا القدر كاف في حال معرفة الشطح.

الباب السادس والتسعون ومائة

في معرفة الطوالع

[نظم: الكامل]

لا تَنْظُرَنَّ إلى طَوَالِع نوره ... فطَوَالِعُ التَّوْحِيدِ ما لا تُبْصَرُ

لو أبصرتها كان شِرْكَ ثابتاً ... فبِه المُحَنَّكُ ذو الحِجَى يَتَحيَّرُ

إن المُجرِّبَ للأمور هو الذي ... بمِجَنِّه يَلْقَى فلا يَتَأَثَّرُ

ومِجَنُّهُ نَصْرُ الإله فعَيْنُه ... فبه يراه وعَيْنُه لا تُبْصِرُ

الطَّمْسُ رفْعُ الحُكْم ليس ذَهَابُه ... فهي الوجودُ وما سواها مَظْهَرُ

الطوالع عند الطائفة المصطلح عليها أنوار التوحيد تطلع على قلوب العارفين فتطمس سائر الأنوار، وهذه أنوار الأدلة النظرية لا أنوار الأدلة الكشفية النبوية، فالطوالع تطمس أنوار الكشف، وذلك أن التوحيد المطلوب من الله الذي طلبه من عباده وأوجب النظر فيه إنما هو توحيد المرتبة وهو كونه إلهاً خاصة فلا إله غيره، وعلى هذا يقوم الدليل الواضح، وعند بعض العقول فضول من أجل القوى التي هي آلاته، فتعطيه في بعض الأمزجة أمزجة تراكيبها فضولاً يؤديه ذلك الفضول إلى النظر في ذات الله، وقد حجر الشرع التفكّر في ذات الله، فزلّ هذا العقل في النظر في ذلك وتعدّى وظلم نفسه، فأقام الأدلة على زعمه وهي أنوار الطوالع، على أن ذات الإله لا ينبغي أن تكون كذا ولا أن تكون على كذا، ونفت عنه جميع ما ينسب إلى المحدثات حتى يتميز عندها فجعلته محصوراً غير مطلق بما دلت عليه أنوار أدلته، ثم عدلت بعد ذلك إلى الكلام في ذوات صفاته، فاختلف في ذلك أشعة أنوارهم أعني طرق أدلتهم على ما ذكر في علم النظر، ثم عدلوا إلى النظر في أفعاله فاختلفوا في ذلك بحسب اختلاف أشعة أنوارهم ممّا قد ذكر وسطر، وليس هذا الكتاب بمحل لما تعطيه أدلة الأفكار فإنه موضوع لما يعطيه الكشف الإلهي فلهذا لم نسردها على ما قررها أهلها في كتبهم، ثم عدلوا إلى النظر في السمعيات وهو علمنا الذي نعول عليه في الحكم الظاهر، ونأخذ بالكشف الإلهي عند التعمّل بالتقوى، فيتولى الله تعليمنا بالتجلي فنشهد ما لا تدركه العقول بأفكارها ممّا ورد به السمع وأحاله العقل وتأوّله عقل المؤمن وسلّمه المؤمن الصرف، فجاءت أنوار الكشف بأن هذه الذات التي حجر التفكّر فيها فرأيناها على النقيض ممّا دلت عليه العقول بأفكارها، فيشاهد صاحب الكشف يمين الحق ويده ويديه والعين والأعين المنسوبة إليه والقدم والوجه.

ثم من النعوت الفرح والتعجب والضحك والتحوّل من صورة إلى صورة هذا كله شاهدوه، فالله الذي يعبده المؤمنون وأهل الشهود من أهل الله ما هو الذي يعبده أهل التفكّر

في ذات الله، فحرموا العلم لكونهم عصوا الله ورسوله في أن فكروا في ذات الله وتعدوا مرتبة الكلام والنظر في كونه إلهاً واحداً إلى ما لا حاجة لهم به، وقد فعل ذلك من ينتمي إلى الله كأبي حامد وغيره وهي مزلة قدم، وإن كان جعل ذلك ستراً له فإنه قد نبّه في مواضع على خلاف ما أثبته وبالجملة أساء الأدب، فمن حكم على نفسه فكره ونظره وأدخل عقله تحت سلطان نظره في ذلك وتخيّل أنه على نور من ربه في نظره فطمس بأنوار أدلته أعين أنوار ما جاء به أهل الشهود والكشف، فما جاء من ذلك عن رسول ونبي في كتاب أو سنّة وكان صاحب هذه الأنوار النظرية مؤمناً صادقاً في إيمانه تأوّل ذلك في حق الرسول حتى لا يرجع عن النظر بنور فكره لأن اعتماده عليه وهو الذي أنشأ في نفسه رباً يعبده كما ينبغي لنظره فعبد عقله، ثم أنه نقل الأمر في التأويل لقصوره من التشبيه بالأجسام لحدوثها إلى التشبيه بالمعاني المحدثة أيضاً فما انتقل من محدث إلاً إلى محدث، فكان فضيحة الدهر عند المؤمنين والذين شاهدوا الأمر على ما هو عليه، وأصل ذلك كله أنه نتيجة عن معصية الله إذ قد نهاه رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى عن التفكّر في ذات الله فلم يفعل، جعلنا الله وإياكم من أهل الشهود والوجود، فيا ليت هذا المؤمن إذا لم يكن من أهل الشهود أن يسلم الأمر إلى الله على علم الله فيه ولا يتعدى، وأما إذا جاء بمثل هذه العلوم غير الرسول عند هذا الناظر كفره وزندقه وجهله وبهذا بعينه آمن به لما جاءه به الرسول فأي حجاب أعظم من هذا الحجاب؟ فيقول له: الأمر على كذا، فيقول: هذا كفر، فإذا قلت له: كذا ورد في الصحيح عن النبي عليه السلام ما هو قولي سكت وقال بعد أن جاء عن النبي ﷺ فله تأويل ننظر فيه فلا يقبله ذلك القبول لولا رائحة هذا النظر الذي يرجوه في تأويله فما أبعده عن الحق المبين، وقد يريد أصحابنا بالطوالع طوالع أنوار الشهود فتطمس أنوار الأدلة النظرية فما كان ينفيه عقلاً مجرداً عاد يثبته كشفاً ولم يبق لذلك النور الفكري في عقله عيناً ولا أثراً ولا جعل له عليه سلطاناً، فهذا معنى الطوالع.

الباب السابع والتسعون ومائة
في معرفة الذهاب

[نظم: الوافر]

قـلـوبُ الـعـاشـقـيـن لـهـا ذَهَـابُ ... إذا هـي شـاهَـدَتْ مَـنْ لا تَـراهُ
وذا مـن أَغـجَـبِ الأشـيـاءِ فـيـنـا ... نَـراهُ ومـا نَـراهُ إذا نَـرَاهُ
دلـيـلـي إذ يـقـولُ رمَـيْـتَ عـبـدي ... فـلا تَـعـجَـبْ فـمـا الـرَّامـي سـواهُ
كـذا قَـدْ جـاء فـي الـقـرآن نـصّـاً ... لأمـرِ فـي حُـنَـيْـنِ قـد دَهـاهُ

حال الذهاب عند الطائفة غيبة القلب عن حسّ كل محسوس بمشاهدة المحبوب، وذلك يا ولي أن القلب والباطن لا يتمكن للعارف فكيف للمحب أن يمر عليه نفس ولا حال لا يكون المحبوب فيه مشهوداً له بعين قلبه ووجوده، وما بقي حجاب إلاّ في الحسّ بإدراكه

المحسوسات حيث يراها ليست عين محبوبه فيحجبه فيطلب اللقاء لأجل هذا الحجاب، فإذا ذهب المحسوس عن حسّه في ظاهر الصورة كما يذهب في حق النائم انصرف الحسّ إلى الخيال، فرأى مثال محبوبه في خياله وقرب من قلبه فرآه من غير مثال، لأنّ الخيال ما بينه وبين المعنى واسطة ولا درجة، كما أنه ليس بينه وبين المحسوس واسطة ولا درجة فهو واسطة العقد إليه ينزل المعنى وإليه يرتفع المحسوس فهو يلقى الطرفين بذاته، فإذا انتقل العارف أو المحب من المحسوس إلى الخيال قرب من معنى المحبوب فشاهده في الخيال ممثلاً ذا صورة وشاهده وهو في الخيال لما عدل بنظره إلى حضرة المعاني المجاورة لحضرة الخيال عاين المعنى مجرداً عن المثال والصورة، ثم نظر إلى المثال وإلى المحسوس فعلم أنه لو تصوّر هذا المعنى في المحسوس لكان جميع صور المحسوسات صورته، فغاب هذا المشاهد عن شهود كل محسوس أنه غير صورة محبوبه بل كل محسوس صورة محبوبه ولا بدّ، فذهب عنه صورة المحسوس أنها غير صورة محبوبه فصار يشاهده في كل شيء فهذا هو الذهاب، ومنه المذهب الذي هو الطريق سمّي مذهباً للذهاب فيه فهذا المحب ذاهب في صور المحسوسات كلها أنها صورة عين محبوبه، فلا يزال في اتصال دائم في عالم الحسّ وفي حضرة الخيال وفي حضرة المعاني، فله الذهاب في هذه الحضرات كلها وصارت مذهباً له حتى نفسه في جملة الصور ولهذا يقول: [الرمل]

أنــا مَــنْ أَهْــوَى ومــن أهــوى أَنَــا

ومثل هذا قلنا في قصيدة: [مخلع البسيط]

أنــا مُــحِــبِّــي أنــا حــبــيــبــي ... أنــا فَــتَــايَ أنــا فَــتَــاتِــي

وقد قلنا في هذا الباب أيضاً من قصيدة: [مخلع البسيط]

فــإنــنــي مــا عَــشِــقْــتُ غــيــري ... فــعَــيْــنُ فَــضْــلــي هــو اتِّــصَــالــي

الباب الثامن والتسعون ومائة

في معرفة النفس بفتح الفاء

[نظم: المديد]

نَــفَــسُ الأكْــوَان مــن نَــفَــسِــهْ ... وهــو وَحْــيُ الــحــقّ فــي جَــرَسِــهْ

وكــلامُ الــحــقّ شــاهِــدُه ... أثــرٌ فــي الــكــون مــن نَــفَــسِــهْ

إنَّ مــوســىٰ قَــبْــلُ أبْــصَــرَهُ ... فــي اشْــتِــعَــال الــنَّــار فــي قَــبَــسِــهْ

مَــعْــدِنُ الــرَّاحــات فــيــه فَــمَــنْ ... نَــاظِــرٌ فــيــه وفــي حَــرَسِــهْ

كان رسول الله ﷺ قبل أن يعرف بعصمته من الناس وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٧] إذا نزل منزلاً يقول: من يحرسنا الليلة مع كونه يعلم أنّ الله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سورة هود: الآية ٥٧] وقال عليه السلام لما اشتدّ عليه كرب ما يلاقي من الأضداد: «**إِنَّ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ يِأْتِينِي مِنْ قبلِ اليَمَنِ**» فكانت الأنصار. اعلم أن الموجودات هي

كلمات الله التي لا تنفد، قال تعالىٰ في وجود عيسىٰ عليه السلام أنه ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧١] وهو عيسىٰ عليه السلام، فلهذا قلنا: إن الموجودات كلمات الله من حيث الدلالة السمعية، إذ كان لا يصدقنا كل أحد فيما ندعي فيه الكشف أو التعريف الإلهي، والكلمات المعلومة في العرف إنما تتشكل عن نظم الحروف من النفس الخارج من المتنفس المتقطع في المخارج، فيظهر في ذلك التقاطع أعيان الحروف على نسب مخصوصة فتكون الكلمات.

وبعد أن نبهتك على هذا لتجعل بالك لما نورده في هذا الباب فاعلم أن الله سبحانه ما استوى على عرشه إلاً بالاسم الرحمن إعلاماً بذلك أنه ما أراد بالإيجاد إلاً رحمة بالموجودين ولم يذكر غيره من الأسماء، وذكر الاستواء على أعظم المخلوقات إحاطة من عالم الأجسام فإن الآلام ليس محلها إلاً التركيب، وأمّا البسائط فلا تقبل في ذاتها قيام معنى بها بل هي عين المعنى يدل على شمول الرحمة للعالم، وإن طرأت عوارض البلايا فإنها رحمة كما ذكرنا في شرب الدواء الكريه ليس المقصود منه عذاب من شربه ولا إيلامه، وإنما المقصود من استعماله ما يؤول إليه من استعمله من الراحة والعافية.

ثم اعلم بعد هذا أن الحق تسمّى بالظاهر والباطن، فالظاهر للصور التي يتحوّل فيها، والباطن للمعنى الذي يقبل ذلك التحوّل والظهور في تلك الصور، فهو ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ من كونه الباطن ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٩] من كونه الظاهر، وقد أعلمتك أن العالم نسخة إلهية على صورة حق ولذلك قلنا: علم الله بالأشياء علمه بنفسه فلذلك حكمنا عليه بالصورة، وبذا وردت الأسماء الإلهية، وورد في الصحيح أن الله خلق آدم على صورته وهو الإنسان الكامل المختصر الظاهر بحقائق الكون كله حديثه وقديمه، وجعل سبحانه النفس يخرج من القلب للأمر الذي قد علم وقررناه، فيجد المخارج إذا قصد المتنفس الكلام، وإن لم يقصد الكلام كان النفس بالحرف الهاوي خاصة وما هو عندنا من الحروف، وهو يهوي على ثلاث مراتب هوياً ذاتياً يعبر عنه بالألف، وهو المسمّى عند القراء الحرف الهاوي، فإذا مرّ بالأرواح العلوية في هويه حدث له منها واو العلة وهو امتداد الهواء من المتنفس عن ضم الحرف وهو إشباع حركة الضم، وإذا مرّ بالأجسام الطبيعية السفلية في هويه حدث له من ذلك ياء العلة وهو امتداد الهواء من المتنفس عن خفض الحرف وهو إشباع حركة الخفض لأنّ الخفض من العالم الأسفل وما لهذا النفس في هويه أكثر من هذه الثلاث المراتب فاعلم ذلك، فحدثت رسالة الملك بالواو المضموم ما قبلها، وحدثت رسالة البشر بالياء المكسور ما قبلها، وكان الألف على الأصل عن الله وهو سبب الأسباب كلها.

ولما ذكر الله عن نفسه أنه الظاهر وأنه الباطن وأن له كلاماً وكلمات، ذكر أن له نفساً من الاسم الرحمن الذي به استوى على العرش ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٥٩] وهو العارف من عباد الله من نبيّ وغيره ممّن شاء الله من عباده لأنه قال: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩] فنكر الأمر ولم يعرفه فهو نكرة في معرفة يعلمها هو لا غيره، لأنّ الأمور

معينة عنده مفصلة ليس في حقّه إجمال ولا يصحّ ولا مبهم مع علمه بالمجمل في حق من يكون في حقه الأمر مجملاً ومبهماً وغير ذلك، فلما علمنا أن له نفساً وأنه الباطن وأن له كلاماً وأن الموجودات كلماته علمنا أن الله ما أعلمنا بذلك إلاَّ لنقف على حقائق الأمور بأنا على الصورة، فنقبل جميع ما تنسبه الألوهة إليها على ألسنة رسلها وكتبها المنزلة، وجعل النطق في الإنسان على أتم الوجود، فجعل له ثمانية وعشرين مقطعاً للنفس يظهر في كل مقطع حرفاً معيناً ما هو عين الآخر ميّزه المقطع مع كونه ليس غير النفس، فالعين واحدة من حيث أنها نفس وكثيرة من حيث المقاطع، وجعلها ثمانية وعشرين لأن العالم على ثمانية وعشرين من المنازل التي تجول السيارة فيها وفي بروجها وهي أمكنتها من الفلك المستدير كأمكنة المخارج للنفس لإيجاد العالم وما يصلح له، ولكل عالم أعطت هذه المقاطع التي أظهرت أعيان الحروف، ثم قسم هذه المقاطع إلى ثلاثة أقسام: قسم أقصى عن الطرف الأقصى الآخر فالأقصى الواحد يسمى حروف الحلق وهو على طبقات، والأقصى الثاني حروف الشفتين وما بينهما حروف الوسط، فإنّ الحضرة الإلهية على ثلاث مراتب: باطن وظاهر ووسط، وهو ما يتميز به الظاهر عن الباطن وينفصل عنه وهو البرزخ فله وجه إلى الباطن ووجه إلى الظاهر بل هو الوجه عينه فإنه لا ينقسم وهو الإنسان الكامل أقامه الحق برزخاً بين الحق والعالم فيظهر بالأسماء الإلهية فيكون حقاً، ويظهر بحقيقة الإمكان فيكون خلقاً، وجعله على ثلاث مراتب: عقل وحسّ وهما طرفان وخيال وهو البرزخ الوسط بين المعنى والحسّ.

فلما عرّفنا الله أنه باطن وظاهر وله نفس وكلمة وكلمات نظرنا ما ظهر من ذلك ولم ينسب إلى ذاته النفس وما يحدث عنه فقلنا عين النفس هو العماء، فإن نفس المتنفس المقصود بالعبارة عنه ما يتنزل منزلة الريح وإنما يتنزل منزلة البخار، فالنفس هذا حقيقته حيث كان فكان عنه العماء كما يحدث العماء عن بخار رطوبات الأركان فيصعد ويعلو فيظهر منه العماء أوّلاً ثم بعد ذلك يكثف والهواء يحمله والريح تسوقه فما هو عين الهواء وإنما هو عين البخار، ولذلك جاء في صفة العماء الذي كان فيه ربنا قبل خلق الخلق أنه عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء، فذكر أن له الفوق وهو كون الحق فيه والتحت وهو كون العالم فيه فلم يكن ثم غير نفس الحق ففيه يكون الهواء، وجرت الرياح ما بين زعزع ورخاء وهي الحروف الشديدة والرخوة، وظهر عن هذا النفس أصوات الرعود كالحروف المجهورة وهبوب النسيم وهي الحروف المهموسة، وظهرت الطباق في الأفلاك كالحروف المطبقة من تنفس الإنسان بالقول إذا قصده وهو في الإلهيات إذا أردناه أن نقول له ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فالحروف المطبقة في النفس الإلهي وجود سبع سموات طباقاً، وكل موجود في العالم على جهة الإنطباق وأبرز في هذا النفس الإلهيّ افتتاح الوجود بالكون إذ كان ولا شيء معه وجعلها في المتنفس حقيقة الحروف المنفتحة، ثم لما أوجد العالم وفتح صورته في العماء وهو النفس الذي هو الحق المخلوق به مراتب العالم وأعيانه وأبان منازله جعل منه عالم الأجسام كالحروف المنسفلة لأنها من جانب الطبيعة وهو حدّ

الكون المظلم، وجعل منه عالم الأرواح وهو الحروف المستعلية في المتنفس بالنفس ألا وكل ذلك كلمات العالم، فتسمى في الإنسان حروفاً من حيث آحادها، وكلمات من حيث تركيبها، كذلك أعيان الموجودات حروف من حيث آحادها، وكلمات من حيث امتزاجاتها، وجعل في النفس الإلهيّ علة الإيجاد من جانب الرحمة بالخلق ليخرجهم من شرّ العدم إلى خير الوجود فكان بالحرف الهاوي. ثم أبان لهم أيضاً بوجود ما يؤدّي إلى السعادة ببعثة الرسول الملكي والبشري إرسال رحمة فكانت حروف اللين في المتنفس الإنساني. ثم أوجد في هذا النفس الصوت عند خروجه من الباطن إلى الظاهر بطريق الوحي الذي شبهه رسول الله ﷺ سلسلة على صفوان، فكان في تنفس الإنسان حروف الصفير، ثم أنفش ذلك النفس الإلهيّ على أعيان العالم الثابتة ولا وجود لها فكان مثل ذلك في الكلام الإنساني حروف التفشي.

ثم إن النفس الإلهيّ استطالت عليه الأكوان بالدعوى والتحكم حيث عدّدت وكثرت ما هو إحدى العين وهو في نفس المتنفس الإنساني الحرف المستطيل وهو الضاد وحده لأنه طال حتى أدرك مخرج اللام، ثم إن هذا النفس الإلهيّ في إيجاد الشرائع قد جعل طريقاً مستقيماً وخارجاً عن هذه الاستقامة المعينة ويسمّى ذلك تحريفاً وهو قوله: ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٥] مع كونه ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] يقول: وإن تعدد فالنفس يجمعه فسمّي ذلك التحريف في نفس المتنفس الإنساني الحرف المنحرف، فخالط أكثر الحروف وهو اللام وليس لغيره هذه المرتبة وهو كبعض الأحكام الذي تجتمع فيه الشرائع. ثم إنه ظهر في النفس الإلهيّ في الصور الأمثال فلم يقع التمييز فتخيل فيه التكرار والحقيقة تعطي أنه لا تكرار، فظهر في عالم الحروف البشرية الحرف المكرّر وهو الراء، فإذا كان النفس يحمل الروائح فيعرف أن خروجه على المشام وهو المسمّى في الحروف في النطق الإنساني حروف الغنة لأنها من الخيشوم وتمّت مراتب الحروف بكمالها، والحمد لله. انتهى الجزء التاسع عشر ومائة.

(الجزء العشرون ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

وقد رأينا من رجال الروائح جماعة وكان عبد القادر الجيلي منهم يعرف الشخص بالشم.

أخبرني صاحبي أبو البدر عنه أن ابن قائد الأواني جاء إليه وكان ابن قائد يرى لنفسه حظاً في الطريق، فأخذ عبد القادر يشمه نحو ثلاث مرات ثم قال له: لا أعرفك فكان ذلك تربية في حقه فعلت همة ابن قائد إلى أن التحق بالأفراد. والنفس أبداً أكثر ما يظهر حكمه في المحبين العشاق وهو مقامهم ومرتبتهم ويضيفون ذلك إلى نفس الرياح لا إلى نفس الأرواح كما قال بعضهم: [السريع]

نـاشَـدْتُـكَ اللهَ نَـسِـيـمَ الـصَّـبَـا ... مـن أيـن هـذا الـنَّـفَـسُ الـطَّـيِّـبُ
هَـلْ أودَعَـتْ بُـرْدَاكَ عـنـد الـضُّـحَـى ... مـكـانَ أَلْـقَـتْ عـقْـدَهَـا زَيْـنَـبُ

أو نـاسَمَـتْ ريَّـاك رَوْضَ الـحِـمَـى وذَيْـلَـهـا مـن فـوقـهـا تَـسْـحَـبُ
فَـهَـاتِ أتْـحِـفْـنـي بـأخـبـارهـا فَـعَـهْـدُك الـيـومَ بـهـا أقـرَبُ

هذه الأبيات على لطافتها ورقتها من أكثف ما قيل في عشق الأرواح، لأن نسيم الأرواح ألطف من نسيم الرياح، لأنها بعيدة المناسبة عن عالم الطبيعة، والرياح ليست كذلك، فالأرواح إذا تنسمت لا تسوق إلاً طيباً فإنها تهب من الحضرة الذاتية من الغيب الأقدس، فلا تأتي إلاّ بكل طيب وطيبة، والرياح ليست كذلك لأنها من عالم الطبيعة، فإن مرت على خبيث جاءت بخبيث، وإن مرت بطيب جاءت بطيب، ونسيم الأرواح إذا مرّ بخبيث ردّه طيباً، وإذا مرّ بطيب زاده طيباً، فلو كان هذا القائل عاشقاً حقيقةً لا يتكلم بدعوى زور لم يجعل الطيب من زينب وإن كانت طيبة، فلو ذكر أن طيبها زاد به طيب المكان طيباً، وجعل محبوبته تنم بأسرارها الرياح فليست بمنيعة الحمى، وعالم الطبيعة يخترقها وهو الريح، وأخذ يهجو الريح حيث تعجب من أين له هذا النفس الطيب، فلو ساق الطيب بطريق المفاضلة بأن يقول: من أين هذا النفس الأطيب فإنه لم يكن الريح بأمر زائد على نفس محبوبته إذا حققت لأنها عين الطيب حيث ظهر طيب، وسألني بعض أصحابي أن أشرح له هذه الأبيات ولو قالها عارف من المحبين الإلهيين فأجبته إلى ذلك، فأنا أشرحها إن شاء الله. ثم أعود إلى الكلام على تحقيق النفس في هذا الباب فنقول والله يقول الحق وهو يهدي السبيل :

قوله يخاطب نسيم الصبا: «ناشدتك الله»: اعلم أن الصبا هي ريح القبول والصبا الميل والميل قبول، وسميت الصبا قبولاً لأن العرب لما أرادت أن تعرف الرياح حتى تجعل لها أسماء تذكرها بها لتعرف فاستقبلت مطلع الشمس، فكل ريح هبت عليها من جهة مطلع الشمس استقبلته إذ كان وجهها إلى تلك الجهة فسمتها قبولاً، وما أتى إليها من الريح عن دبر في حال استقبالها ذلك سمته دبوراً وهي الريح الغربية، وما أتاها منها في هبوبها عن الجانب الأيمن سمته جنوباً، وعن جانب الشمال سمته شمالاً، وكل ريح بين جهتين من هذه الجهات تهب سمتها نكباء من النكوب وهو العدول أي عدلت عن هذه الأربع الجهات، والنسيم أوّل هبوب الريح والشيء المستلذ إذا فاجأك ابتداء فهو ألذ من استصحابه مثل قوله: أحلى من الأمن عند الخائف الوجل. ولهذا نعيم الجنان جديد في كل نفس، فلذلك ما ناشد إلاً النسيم لالتذاذه به وجعله نسيم الصبا لأنها ريح شرقية قبول، فأعطته الريح من أخبارها بما جاءت به من طيبها ما يعطيه قبولها لو أقبلت ورؤيتها لو طلعت عليه كما تطلع الشمس لأن الصبا ريح شرقية والشروق طلوع الشمس والإشراق ضوء الشمس. وقوله: ناشدتك أي طالبتك مقسماً بالله والناشد الطالب فهو كالمستفهم، وهذا يدلك على قلة معرفته بمحبوبه حيث جعل له أمثالاً لقوله: من أين هذا النفس الطيب، فإنه ثم من له أنفاس طيبة، فلو استفرغ في شغله بمحبوبه ولم ير مشهوداً له سواه ما استفهم، إذ كل من استفهم فقد أحضر ذلك في ذهنه، فهذا شاعر أحضر الاشتراك في ذهنه فشهد على نفسه بنقصان المعرفة إن كان عارفاً ونقصان المحبة إن كان محباً عاشقاً، فإن أراد من المحبوب كثرة وجوهه وتجليه في أعيان متعدّدة

كالأسماء الإلهية لله مع كونه ذاتاً واحدة ومع هذا فله تسعة وتسعون اسماً فما فوق ذلك فيريد في أي اسم كان لما هبت هذه الريح وهي نسمة قبول إلهيّ لطيفة الهبوب أورثت في القلب لطفاً ورقة بهبوبها فاستفهم الريح لما جاءت به من الطيب المستلذ فقال: [السريع]

هل أودَعتْ بُرْدَاكَ عند الضُّحَى ... مكانَ ألقَتْ عَقْدَها زينبُ

اعلم أن هذا البيت من أدل دليل على أنه ليس بمحب، وأن هذا القول هو إلى هجاء المحبوب أقرب منه إلى الثناء والمدح، وذلك أنه لما جاءته الريح بهذا النفس الطيب أضاف ذلك الطيب إلى ما حصل للمكان الذي ألقت عقدها زينب فيه فهو ثناء على العقد، فإنه يريد أن عقدها كان عنبرية ذا طيب فطاب المكان بذلك العقد، وما ذكر أن العقد إنما اكتسب الطيب من روائح زينب أو عرفها أو أنفاسها، فلو سلك في كلامه أن طيب المكان ممّا تنفست فيه زينب، فلو قال مثل ما قلنا: [السريع]

هل أودَعتْ بُرْدَاكَ عند الضُّحَى ... طيبَ مَكانٍ طَيَّبَتْ زينبُ
أنفاسُه من طِيبِ أنفاسِها ... فَطِيبُها من طِيبِهِ أعْجَبُ

ولنا هذا المعنى في غير هذا الرويّ: [البسيط]

ما الطِّيبُ في المِسْك إلاَّ طيبُ رَيَّاهَا ... والنورُ في الشَّمس إلاَّ من مُحَيَّاهَا
الخُلْدُ مَأوى الحسانِ الحورِ تَسْكُنُه ... وذاتُها لجِنَان الخُلْدِ مَأواهَا

وأمّا قوله بعد هذا: [السريع]

أو نَاسَمَتْ رَيَّاكَ روضَ الحِمَى ... وذَيْلُها من فوقه تَسْحَبُ

فهذا مثل الأوّل جعل الطيب للروض من ذيل زينب لما سحبته على ذلك المكان طاب من طيب ذيلها، وطيب ذيلها من طيب طيبت ثيابها به مثل العقد سواء، فما ذكر ما يدل على أن طيب هذه الأماكن من طيب أنفاسها، وإذا كان هذا فلا يطيب إلاَّ من ليس بطيب أو ليس له ذلك الطيب ولذا قلنا: لو قال النفس الأطيب لا الطيب لكان أشعر وأثبت في المدح، ثم قوله للنسيم: [السريع]

فهاتِ أتْحِفْني بأخبارها ... فعَهْدُكَ اليومَ بها أقربُ

كلام غير محقق فإن نسيم الريح ما له عهد قريب إلاَّ بالمكان وروض الحمى لا بزينب، والطيب للمكان من العقد وللروض من الذيل، فلم ينقل هذا النسيم شيئاً من طيبها المختص بذاتها ولو كانت مشهودة للنسيم حين هب على المكان والروض بقوله: وذيلها، فذكر ما يدخله الاحتمال في الحال فإنه يحتمل أن يكون الحال في قوله: وذيلها، أي في حال مرورها أكسبت هذا الروض الطيب من ذيلها، ويحتمل أن يكون شهود الريح لها في حال مرورها على روض الحمى وهذا بعيد والأوّل أقرب، فإنه لو مرّ بها مشاهداً لها في حال انسحاب ذيلها على الروض لنقل طيب ذيلها الأطيب الروض من ذيلها، فدل أنه ما شاهدها نسيم الريح، وإذا لم يشاهدها فليس عهده بها قريباً، وإنما عهده قريب بالمكان الذي مرّت عليه. ثم فيه من النقص بقوله «أقرب» وصفها بالأمر العام في كل طيب إذ المكان الذي يبقى فيه

الطيب إنما يكون قريب العهد بالطيب في جلوسه فيه أو مروره عليه وهذا ليس بمخصوص بها، بل قال إن طيبها في المكان لا يزول بعد أن اكتسبه منها وأنه بها بعيد عهد ومع هذا فالطيب باق لقوّة سلطانه لكان أشعر، والنسيم ما نقل إليه إلاَّ طيب المكان والروض فكان ينبغي أن يصدق، فكان يقول: فعهدك اليوم به أقرب يعني بالمكان أو بكل واحد منهما يعني الروض والمكان، أو يقول بهم أقرب فكذب بقوله بها أقرب، ثم إنه لا يلزم طيب المكان ولا طيب الروض من إلقاء العقد ولا من طيب الذيل، قد يكون طيب الروض من الزهر وطيب المكان من أمر آخر مع وجود العقد فيه وانسحاب الذيل على الروض فهو قاصر بكل وجه، فهذا شعر لطيف اللفظ مليح وهو بالمعنى ليس بشيء، لأنّ جمال الشعر والكلام أن يجمع بين اللفظ الرائق والمعنى الفائق فيحار الناظر والسامع فلا يدري اللفظ أحسن أو المعنى أو هما على السواء، فإنه إذا نظر إلى كل واحد منهما أذهله الآخر من حسنه، وإذا نظر فيهما معاً حيراه، فما يستحسن مثل هذا الشعر إلاَّ ذو قلب كثيف، فإن اللفظ لطيف والمعنى كثيف، وإذا كان المعنى قبيحاً عند الصحيح النظر لم يحجبه حسن اللفظ عن قبح المعنى، فإن مثاله عندي مثال من يحب صورة في غاية الحسن منقوشة في جدار مزينة بأنواع الأصبغة تامة الخلق لا روح لها، فإن المعنى للفظ كالروح للصورة هو جمالها على الحقيقة، انظر في إعجاز القرآن تجده كما ذكرنا حسن النظم مع توفير المعنى وحسن مساقه وجمع المعاني بعضها إلى بعض في اللفظ الحسن النظم الوجيز مع وجود تكرار القصة الموجب للملل، ولا تجد هذا في القرآن فتجد مع تكرار القصة الواحدة مثل قصص الأمم كآدم وموسىٰ ونوح وغيرهم ممّا تكرّر بزيادة لفظ أو نقصه ما تجد إخلالاً في المعنى جملة واحدة، وسبب ذلك أنه قول حق ما فيه تزوير.

ولما أتينا على تنبيه ما في قول هذا الشاعر مع كونه لم يخرج عن حقيقة هذا الباب في ذلك فإنه باب النفس بفتح الفاء والشعر من الكلام فهو من باب الأنفاس، فثم أنفاس يخرج معها تحقيق المعاني على ما هي عليه في تركيب بعضها مع بعض، وثم أنفاس بالعكس. فلنرجع إلى النفس الرحماني الذي ظهر عنه حروف الكائنات وكلمات العالم على مراتب مخارج الحروف من نفس المتنفس الإنساني الذي هو أكمل النشآت كلها في العالم وهي ثمانية وعشرون حرفاً لكل حرف اسم عينه المقطع مقطع نفسه، فأوّلها الهاء وآخرها الواو، ومنها حروف مفردة المخرج كالحرف المستطيل والمنحرف والمكرّر، ومنها مشتركة في المخرج كحروف الصفير، وإن كان بين المشترك تفاوت فهو قريب بعضها من بعض يجد اللافظ الصحيح اللفظ في حال التلفظ بها الفرق بين الحرفين المشتركين كالطاء والتاء والدال، فهذه الثلاثة وإن كانت من مخرج واحد فهو على التقارب لا على التحقيق، ولهذا اختلفت الألقاب عليه لاختلاف أحوالها في المخارج، فيكون للحرف الواحد ألقاب متعددة لدرجات له في النفس عند التكوين منه في مقطع الحرف يمتاز به عن الذي يقاربه في المخرج الذي أوجب له أن يقال فيه أنه مشترك كحرف الصاد غير المعجمة مثلاً فإنه من الحروف

المهموسة، ويشارك الكاف في الهمس وهو من حروف الصفير، فهو يشارك الزاي في الصفير وهو من الحروف المطبقة، فهو يشارك الطاء في الإطباق وهو من الحروف الرخوة، فهو يشارك العين في الرخاوة وهو من الحروف المستعلية، فهو يشارك القاف في الاستعلاء فهذا حرف واحد اختلف عليه ألقاب كثيرة لظهوره في مراتب متعددة قابل بذاته كل مرتبة صالح لها فاختلفت الاعتبارات فاختلفت الأسماء، كذلك نقول في العقل الأوّل عقلاً لمعنى يخالف المعنى الذي لأجله نسميه قلما يخالف المعنى الذي لأجله نسميه روحاً يخالف المعنى الذي لأجله نسميه قلباً: [البسيط]

والعينُ واحدةٌ والحُكْمُ مختلفٌ لذا تَنَوَّعَتِ الأرواحُ والصُّوَرُ

كذلك الحق أصل الوجود الواحد الأحد الذي لا يقبل العدد، فهو وإن كان واحد العين فهو المسمّى بالحي القيوم العزيز المتكبر الجبار إلى تسعة وتسعين اسماً لعين واحدة وأحكام مختلفة، فما المفهوم من الاسم الحيّ هو المفهوم من الاسم المريد ولا القادر ولا المقتدر كما قلنا في حرف الصاد وكذلك سائر الحروف، فخرجت الحروف من نفس المتنفس الإنساني الذي هو أكمل النشآت وبه ظهرت وبنفسه جميع الحروف، فكان على الصورة الإلهية بالنفس الرحماني، وظهور حروف الكائنات وعالم الكلمات سواء، وكلها النفس الإنساني ثمانية وعشرين حرفاً محققة لما صدر من النفس الرحماني أعيان الكلمات الإلهية ثمانياً وعشرين كلمة لكل كلمة وجوه فصدر عن نفس الرحمن وهو العماء الذي كان فيه ربنا قبل أن يخلق الخلق، فكان العماء كالنفس الإنساني وظهور العالم في امتداده في الخلاء بحسب مراتب الكائنات كالنفس الإنساني من القلب وامتداده إلى الفم، وظهور الحروف في الطريق والكلمات كظهور العالم من العماء الذي هو نفس الحق الرحماني في المراتب المقدّرة في الامتداد المتوهم لا في جسم وهو الخلاء الذي ملأه العالم، فكما كان أوّل حرف ظهر من أعيان العالم من هذا النفس لما طلب الخروج إلى الغاية وهو نهاية الخلاء كما كان غاية امتداد النفس إلى الشفتين فظهرت الهاء أوّلاً والواو آخراً وليس وراء ذلك حرف يعقل، فكانت أجناس العالم منحصرة وأشخاصه لا تتناهى وجوداً فإنها تحدث ما دام السبب موجوداً والسبب لا ينقضي، فإيجاد أشخاص النوع لا ينقضي.

فأما حصر العالم على عدد الحروف من أجل النفس في ثمانية وعشرين لا تزيد ولا تنقص، فأوّل ذلك العقل وهو القلم وهو قول النبيّ ﷺ: **«إِنَّهُ أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ العَقْل»** وفي خبر آخر: **«أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ القَلَم»** الحديث، فكان أوّل خلق خلقه الله من النفس الذي هو العماء القابل لفتح صور العالم فيه العقل وهو القلم، ثم النفس وهو اللوح، ثم الطبيعة، ثم الهباء، ثم الجسم، ثم الشكل، ثم العرش، ثم الكرسي، ثم الأطلس، ثم فلك الكواكب الثابتة، ثم السماء الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، ثم الخامسة، ثم السادسة، ثم السابعة، ثم كرة النار، ثم كرة الهواء، ثم كرة الماء، ثم التراب، ثم المعدن، ثم النبات، ثم الحيوان، ثم الملك، ثم الجنّ، ثم البشر، ثم المرتبة، والمرتبة هي الغاية في كل موجود،

كما أن الواو غاية حروف النفس، وقصدت ذكر أسماء العالم لا ترتيب وجوده كما قصد في: أبجد هوّز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ، حصر الحروف لا ترتيب وجودها في المخارج، ولكل موجود ممّا ذكرنا مرتبة وأحكام ونسب معلومة عند العلماء بالله، وكل واحد له مقام معلوم يتميز به لا يكون للآخر، كما أن له أموراً يشترك فيها مع غيره خلقاً وحكماً. فأما في الخلق فكأشخاص النوع الواحد، وأنواع الجنس الواحد مثل الأفلاك تشترك في الاستدارة الفلكية وفي الجسمية من حيث التركيب، وما ذكرنا إلاَّ ما يختص بعالم الدنيا، كما أنه ما ذكرنا من الحروف إلاَّ ما يختص بالنفس الإنساني اليوم إذ لا نتكلم إلاَّ في وجود، فإنا لا نحيط بالله علماً، فتكلمنا على قدر ما أعطانا من العلم به، وليس في الإمكان أبدع ممّا خلق لأنه الصادق وقد قال: إنه خلق العالم على صورته وأكمل منه فلا يكون فأكمل من هذا العالم فلا يكون. وقد وقعت لنا واقعة في هذا الباب من الحق قد تقدم ذكرها.

ثم لتعلم أن أقرب شبه بالنفس بل هو عين النفس حروف العلة وهو الألف والواو المضموم ما قبلها والياء المكسور ما قبلها، وليست هذه الثلاثة الحروف من الحروف الصحاح المحققة في الحرفية هي أجل من ذلك وإطلاق الحرف عليها بطريق المجاز، وما يدل عليها إلاَّ الحرف إذا انفتح وأشبع الفتحة، أو ضم فأشبع الضمة، أو كسر فأشبع الكسرة، فذلك الدليل على إبراز هذه الحروف، كما كان العالم من أجل حدوثه الذي هو بمنزلة إشباع الحركات في الحروف دليلاً على وجود الحق سواء فافهم ما ذكرناه. وثم إن الحروف لها خواص هي عليها أعطتها لها المخارج فهي في النفس مجموعة إذ هو يجمعها وفي أعيان الحروف والكلمات مفترقة، فإذا جرى النفس من أول الحروف إلى غايتها فإنه يفعل كل حرف يتأخر وجوده لتأخر مخرجه عند انقطاع النفس ما يفعله كل حرف في مخرج تقدمه فهو يحوي على قوّة كل حرف تقدمه، لأن النفس مرّ في خروجه على تلك المخارج إلى أن انقطع عند هذا المخرج فنقل معه مرتبة كل حرف، فظهرت في قوّة الحرف المتأخر، وآخر الحروف الواو، ففي الواو قوّة جميع الحروف، كما أن الهاء أقل في العمل من جميع الحروف فإن لها البدو، فكلمة هو جمعت جميع قوى الحروف في عالم الكلمات، فلهذا كانت الهوية أعظم الأشياء فعلاً، وكذلك الإنسان آخر غاية النفس، والكلمات الإلهية في الأجناس، ففي الإنسان قوّة كل موجود في العالم فله جميع المراتب ولهذا اختصّ وحده بالصورة، فجمع بين الحقائق الإلهية وهي الأسماء وبين حقائق العالم فإنه آخر موجود، فما انتهى لوجوده النفس الرحماني حتى جاء معه بقوّة مراتب العالم كله، فيظهر بالإنسان ما لا يظهر بجزء جزء من العالم ولا بكل اسم اسم من الحقائق الإلهية، فإن الاسم الواحد ما يعطي ما يعطي الآخر ممّا يتميز به، فكان الإنسان أكمل الموجودات والواو أكمل الحروف، وكذا هي في العمل عند من يعرف العمل بالحروف، فكل ما سوى الإنسان خلق إلاَّ الإنسان فإنه خلق وحق، فالإنسان الكامل هو على الحقيقة الحق المخلوق به أي المخلوق بسببه العالم، وذلك لأنّ الغاية هي المطلوبة بالخلق المتقدم عليها، فما خلق ما تقدم عليها إلاَّ لأجلها وظهور عينها ولولا ما ظهر

ما تقدمها، فالغاية هو الأمر المخلوق بسببه ما تقدم من أسباب ظهوره وهو الإنسان الكامل، وإنما قلنا الكامل لأنّ اسم الإنسان قد يطلق على المشبه به في الصورة كما تقول في زيد إنه إنسان، وفي عمرو إنه إنسان، وإن كان زيد قد ظهرت فيه الحقائق الإلهية وما ظهرت في عمرو، فعمرو على الحقيقة حيوان في شكل إنسان كما أشبهت الكرة الفلك في الاستدارة وأين كمال الفلك من الكرة؟ فهذا أعني بالكامل، فحاز الإنسان جميع المراتب برتبته، كما حازت الواو جميع قوىٰ الحروف، فدل أن الواو كانت المطلوبة بالكلام لتوجد، فوجد بسببها جميع ما وجد في الطريق باستعداد المخارج من الحروف حتى انتهى إلى الواو.

ثم لتعلم أن نفس المتنفس لم يكن غير باطن المتنفس فصار النفس ظاهراً وهو أعيان الحروف والكلمات، فلم يكن الظاهر بأمر زائد على الباطن فهو عينه، واستعداد المخارج لتعيين الحروف في النفس استعداد أعيان العالم الثابتة في نفس الرحمان، فظهر عين الحكم الاستعدادي الذي في العالم الظاهر في النفس فلهذا قال تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] وقال للنفس المطمئنة: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً﴾ [سورة الفجر: الآية ٢٨] كما قال: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] أي إن لم ترجعي راضية من ذاتك وإلاَّ أجبرت على الرجوع إلى ربك، فتعلم أنك ما أنت أنت، وإذا رجعت راضية فهي النفس العالمة المرضية عند الله فدخلت في عباده فلم تنسب ولا انتمت إلى غيره ممّن اتخذ إلهه هواه ودخلت في جنته أي في كنفه وستره، فاستترت هذه النفس به فكان هو الظاهر وهي غيب فيه فهي باطنة، إذ كانت هي عين النفس والنفس باطن، فقامت للرحمن بهذا النعت من الدخول في الستر المضاف إليه بقوله: ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [سورة الفجر: الآية ٣٠] مقام الروح للجسم الصوري فإنه ستر عليه، فالجسم المشهود والحكم للروح، فالظاهر الحق والحكم للروح وهو استعداد العالم الذي أظهر الاختلاف في الحق الظاهر، فهذا معنى قوله: ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ وأضافه إلى نفسه: [الكامل]

فالربُّ والمَرْبُوبُ مرْتَبِطانِ ... ثَنَّى الوجودَ به وليس بثَانِ
ما إن رأيتُ ولا سمِعْتُ بمثله ... إلاَّ الذي قالوه في العُمَرانِ

والقمران. يريدون أبا بكر وعمر ﴿والشمس والقمر﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] فأثبت بالضمير ونفى بالفعل الذي هو خلق كما انتفى أبو بكر، فلم يظهر له اسم في العمران وأثبته ضمير التثنية وهو قولهم: العمران، فسبحان من أخفى عنه حكمته فيه فظهر في الوجود العليم الذي لا يعلم كالرامي الذي ما رمى، فالحروف ليست غير النفس ولا هي عين النفس، والكلمة ليست غير الحروف وما هي عين الحروف: [الكامل]

والجَمْعُ حالٌ لا وجودَ لعَيْنه ... وله التَّحكُّمُ ليس للآحادِ

وصل: واعلم أن الله لما قال: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] فجعل الأسماء الحسنى لله كما هي للرحمن، غير أن هنا دقيقة وهي أن الاسم له معنى وله صورة، فيدعى الله بمعنى الاسم، ويدعى الرحمن بصورته لأنّ

الرحمن هو المنعوت بالنفس، وبالنفس ظهرت الكلمات الإلهية في مراتب الخلاء الذي ظهر فيه العالم فلا ندعوه إلاّ بصورة الاسم، وله صورتان صورة عندنا من أنفاسنا وتركيب حروفنا وهي التي ندعوه بها وهي أسماء الأسماء الإلهية وهي كالخلع عليها، ونحن بصورة هذه الأسماء التي من أنفاسنا مترجمون عن الأسماء الإلهية، والأسماء الإلهية لها صور من نفس الرحمن من كونه قائلاً ومنعوتاً بالكلام، وخلف تلك الصور المعاني التي هي لتلك الصور كالأرواح، فصور الأسماء الإلهية التي يذكر الحق بها نفسه بكلامه وجودها من نفس الرحمن ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وأرواح تلك الصور هي التي للاسم الله خارجة عن حكم النفس لا تنعت بالكيفية، وهي لصور الأسماء النفسية الرحمانية كالمعاني للحروف.

ولما علمنا هذا وأمرنا أن ندعوه بأسمائه الحسنى وخيّرنا بين الله والرحمن فإن شئنا دعوناه بصورة الأسماء النفسية الرحمانية وهي الهمم الكونية التي في أرواحنا، وإن شئنا دعوناه بالأسماء التي من أنفاسنا بحكم الترجمة وهي الأساء التي يتلفظ بها في عالم الشهادة، فإذا تلفظنا بها أحضرنا في نفوسنا أما الله فننظر المعنى، وأما الرحمن فننظر صورة الاسم الإلهي النفسي الرحماني كيفما شئنا فعلنا، فإن دلالة الصورتين منا ومن الرحمن على المعنى واحد سواء علمنا ذلك أو لم نعلمه.

ولما كان ذكر أسمائه عين الثناء عليه ذكرنا في هذا الباب ما هو فينا مثل كلمة ﴿كُن﴾ منه وذلك البسملة، يقول أهل الله: إن بسم الله منّا في إيجاد الأفعال بمنزلة ﴿كُن﴾ منه، ولما كان القرآن ذكراً وجامعاً لأسمائه صوراً ومعاني جعلنا التلاوة في هذا الباب من جملة الأذكار، فلا نذكر من الأذكار إلاّ ما يختص بالقرآن، فنذكره بكلامه من حيث علمه بذلك لا من حيث علمنا، فيكون هو الذي يذكر نفسه لا نحن، ولما كان دعاؤنا بأسمائه القرآنية وكنا ذاكرين تالين وجب علينا التعوّذ وهو من الذكر فيعيذنا، وسقنا من الأذكار الحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا إله إلاّ الله ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، فلنذكر فهرست ما أنا ذاكره في هذا الباب من فصول ما يتكلم عليه ممّا يختص بالنفس الإلهيّ، ومراتب الذاكرين من العالم في الذكر، لأن الذاكرين هم أعلى الطوائف لأنه جليسهم، ولهذا ختم الله بذكرهم صفات المقرّبين من أهل الله ذكرانهم وإناثهم فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] وما ذكر بعد الذاكرات شيئاً، والذكر من نعوت كونه متكلماً وهو نفس الرحمن الذي ظهرت فيه حقائق حروف الكائنات وكلمات الحضرة.

ذكر فهرست الفصول وهي خمسون فصلاً

الفصل الأوّل: في ذكر الله نفسه بنفس الرحمن وبه أوجد العالم من كونه أحبّ ذلك.

الفصل الثاني: في كلام الله وكلماته.

الفصل الثالث: في ذكر التعوّذ.

الفصل الرابع: في الذكر بالبسملة.

الفصل الخامس: في كلمة الحضرة وهي كلمة ﴿كُن﴾.

الفصل السادس: في الذكر بالحمد.

الفصل السابع: في الذكر بالتسبيح.

الفصل الثامن: في الذكر بالتكبير.

الفصل التاسع: في الذكر بالتهليل.

الفصل العاشر: في الذكر بالحوقلة.

الفصل الحادي عشر: في الاسم البديع وتوجّهه على إيجاد العقل والعقول وهو القلم الأعلى، ومن الحروف على الهمزة وتفاصيل الهمزة، ومن المنازل على الشرطين والإمداد الإلهيّ النفسي ومراتبه الذاتية والزائدة.

الفصل الثاني عشر: في الاسم الباعث وتوجهه على إيجاد اللوح المحفوظ وهو النفس الكلية وهو الروح المنفوخ منه في الصور المسوّاة بعد كمال تعديلها، فيهبها الله بذلك النفخ أيّ صورة شاء وتوجهه على إيجاد الهاء من الحروف وهاء الكنايات وتوجهه على إيجاد البطين من المنازل.

الفصل الثالث عشر: في الاسم الباطن وتوجهه على خلق الطبيعة وما يعطيه من أنفاس العالم وحصرها في أربع حقائق وافتراقها واجتماعها وتوجهه على إيجاد العين المهملة وإيجاد الثريا من المنازل.

الفصل الرابع عشر: في الاسم الآخر وتوجهه على خلق الجوهر الهبائي الذي ظهر فيه صور الأجسام وما يشبه هذا الجوهر في عالم التركيب، وإيجاد الحاء المهملة من الحروف، وإيجاد الدبران من المنازل المقدرة.

الفصل الخامس عشر: في الاسم الظاهر وتوجهه على إيجاد الجسم الكل، وإيجاد الغين المعجمة من الحروف، وإيجاد الميسان وهي الهقعة من المنازل.

الفصل السادس عشر: في الاسم الحكيم وتوجهه على إيجاد الشكل وحرف الخاء المعجمة والتحية من المنازل.

الفصل السابع عشر: في الاسم المحيط وتوجهه على إيجاد العرش والعروش المعظمة والمكرّمة والممجدة، وحرف القاف من الحروف والذراع من المنازل.

الفصل الثامن عشر: في الاسم الشكور وتوجهه على إيجاد الكرسي والقدمين وحرف الكاف والنثرة.

الفصل التاسع عشر: في الاسم الغنيّ وتوجهه على إيجاد الفلك الأطلس فلك البروج

وحدوث الأيام بوجود حركته واستعانته بالاسم الدهر على ذلك وحرف الجيم والطرف.

الفصل العشرون: في الاسم المقدّر وتوجهه على إيجاد فلك الكواكب الثابتة والجنات وتقدير صور الكواكب في مقعر هذا الفلك وكونه أرض الجنة وسقف جهنم وحرف الشين المعجمة والجبهة.

الفصل الحادي والعشرون: في الاسم الرب وتوجهه على إيجاد السماء الأولى والبيت المعمور وسدرة المنتهى وإبراهيم الخليل ويوم السبت، وحرف الياء بالنقطتين من أسفل، والخرثان من المنازل المقدرة وخانس هذه السماء وكوكبها.

الفصل الثاني والعشرون: في الاسم العليم وتوجهه على إيجاد السماء الثانية وخانسها ويوم الخميس وموسىٰ عليه السلام، وحرف الضاد المعجمة والصرفة من المنازل.

الفصل الثالث والعشرون: في الاسم القاهر وتوجهه على إيجاد السماء الثالثة وخانسها ويوم الثلاثاء وحرف اللام والعوّا.

الفصل الرابع والعشرون: في الاسم النور وتوجهه على إيجاد السماء الرابعة وهي قلب جسم العالم المركب وإيجاد الشمس وحدوث الليل والنهار في عالم الأركان وروح إدريس عليه السلام وقطبيته وحرف النون والسماك الأعزل ويوم الأحد ونفخ الروح الجزئي عند كمال تصوير النطف.

الفصل الخامس والعشرون: في الاسم المصوّر وتوجهه على إيجاد السماء الخامسة وخانسها والتصوير والحسن والجمال ويوسف عليه السلام، وحرف الراء والغفر ويوم الجمعة.

الفصل السادس والعشرون: في الاسم المحصي وتوجهه على إيجاد السماء السادسة وخانسها وعيسىٰ عليه السلام والاعتدال، وحرف الطاء المهملة والزبانا ويوم الأربعاء.

الفصل السابع والعشرون: في الاسم المتين وتوجهه على إيجاد السماء الدنيا والقمر وآدم عليه السلام والمد والجزر، وحرف الدال المهملة والإكليل ويوم الاثنين.

الفصل الثامن والعشرون: في الاسم القابض وتوجهه على إيجاد الأثير وما يظهر فيه من ذوات الأذناب والاحتراقات، ومن الحروف حرف التاء المنقوطة باثنتين من فوق والقلب من المنازل.

الفصل التاسع والعشرون: في الاسم الحيّ وتوجهه على إيجاد ما ظهر في ركن الهواء، وحرف الزاي من الحروف ومن المنازل الشولة.

الفصل الثلاثون: في الاسم المحيي وتوجهه على إيجاد ما ظهر في الماء، وحرف السين المهملة والنعائم.

الفصل الحادي والثلاثون: في الاسم المميت وتوجهه على إيجاد التراب وحرف الصاد المهملة والبلدة.

الفصل الثاني والثلاثون: في الاسم العزيز وتوجهه على إيجاد المعادن وحرف الظاء المعجمة والذابح.

الفصل الثالث والثلاثون: في الاسم الرزاق وتوجهه على إيجاد النبات، وحرف الثاء المعجمة بثلاث ومن المنازل بلع.

الفصل الرابع والثلاثون: في الاسم المدل وتوجهه على إيجاد الحيوان، وحرف الذال المعجمة ومن المنازل السعود.

الفصل الخامس والثلاثون: في الاسم القويّ وتوجهه على إيجاد الملائكة، وحرف الفاء والأخبية.

الفصل السادس والثلاثون: في الاسم اللطيف وتوجهه على إيجاد الجن، حرف الباء المعجمة بواحدة والفرع المقدم.

الفصل السابع والثلاثون: في الاسم الجامع وتوجهه على إيجاد الإنسان، وحرف الميم والمؤخر.

الفصل الثامن والثلاثون: في الاسم رفيع الدرجات وتوجهه على تعيين الرتب والمقامات والمنازل، وحرف الواو ومن المنازل الرشا.

الفصل التاسع والثلاثون: في النقل وأين مقامه في الأنفاس.

الفصل الأربعون: في معرفة الجلي والخفي من الأنفاس وهو بمنزلة الإدغام والإظهار في الكلام.

الفصل الحادي والأربعون: في الاعتدال والانحراف في النفس وهو بمنزلة الفتح والإمالة وبين اللفظين.

الفصل الثاني والأربعون: في الاعتماد على الناقص والميل إليه، وهو في الكلام معرفة الوقف على هاء التأنيث وهو من باب الأنفاس أيضاً.

الفصل الثالث والأربعون: في الإعادة وهي التكرار وأين هو في النفس.

الفصل الرابع والأربعون: في اللطيف من النفس يرجع كثيفاً وما سببه والكثيف يرجع لطيفاً من النفس وما سببه وعليه مبنى أصوات الملاحن.

الفصل الخامس والأربعون: في الاعتماد على أصناف المحدثات وهو في باب النفس الإنساني الوقف على أواخر الكلم في اللسان.

الفصل السادس والأربعون: في الاعتماد على العالم من حيث ما هو في كتاب مسطور في رق الوجود المنشور في عالم الأجسام الكائن من الاسم الظاهر.

الفصل السابع والأربعون: في الاعتماد على الوعد قبل كونه، وهو الاعتماد على المعدوم لصدق الوعد وهو في الأنفاس السكوت على الساكن قبل الهمزة.

الفصل الثامن والأربعون: في الاعتماد على الكائنات وما يظهر منها من الفتوح وهو الأينية في الطريق وكيف يرجع المعلول صحيحاً والصحيح عليلاً.

الفصل التاسع والأربعون: فيما يعدم ويوجد ممّا يزيد على الأصول التي هي بمنزلة النوافل مع الفرائض.

الفصل الخمسون: في الأمر الجامع لما يظهر في النفس من الأحكام في كل متنفس حقاً وخلقاً وحيواناً ونطقاً، وبه تمام باب النفس على الاقتصاد والاختصار إن شاء الله. ثم اللواحق وهي الأقسام الإلهية التي نفس الله بها عن عباده وهي من نفس الرحمن.

الفصل الأول: في ذكر الله نفسه بنفس الرحمن. ورد في الحديث الصحيح كشفاً لغير الثابت نقلاً عن رسول الله ﷺ عن ربه جلّ وعزّ أنه قال ما هذا معناه: «**كُنْتُ كَنْزاً لَمْ أُعْرَفْ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ الخَلْقَ وَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِمْ فَعَرَفُونِي**»: ولما ذكر المحبة علمنا من حقيقة الحب ولوازمه ممّا يجده المحب في نفسه، وقد بيّنا أن الحب لا يتعلق إلاّ بمعدوم يصحّ وجوده وهو غير موجود في الحال والعالم محدث والله كان ولا شيء معه، وعلم العالم من علمه بنفسه، فما أظهر في الكون إلاّ ما هو عليه في نفسه، وكأنه كان باطناً فصار بالعالم ظاهراً، وأظهر العالم نفس الرحمن لإزالة حكم الحب وتنفس ما يجد المحب، فعرف نفسه شهوداً بالظاهر، وذكر نفسه بما أظهره ذكر معرفة وعلم وهو ذكر العماء المنسوب إلى الرب قبل خلق الخلق وهو ذكر العام المجمل، وأن كلمات العالم بجملتها مجملة في هذا النفس الرحماني وتفاصيله غير متناهية، ومن هنا يتكلم من يرى قسمة الجسم عقلاً إلى ما لا يتناهى مع كونه قد دخل في الوجود، وكل ما دخل في الوجود فهو متناه، والقسمة لم تدخل في الوجود فلا تتصف بالتناهي، وهؤلاء هم الذين أنكروا الجوهر الفرد الذي هو الجزء الذي لا ينقسم، وكذلك العماء وإن كان موجوداً فتفاصيل صور العالم فيه على الترتيب دنيا وآخرة غير متناهي التفصيل، وذلك أن النفس الرحماني من الاسم الباطن يكون الإمداد له دائماً، والذكر له في الإجمال دائماً، فهو في العالم كآدم في البشر. لما علم آدم الأسماء كلها أعلمنا بهذا أن العماء من حيث ما هو نفس رحماني قابل لصور حروف العالم وكلماته هو حامل الأسماء كلها، وكلمات الله ما تنفد، فذكر الله لا ينقطع، والرحمن يذكر الله بأسمائه وهو أيضاً مسمّى بها ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] ويذكر نفسه من كونه متكلماً ومفصلاً، فذكر الرحمن مجمل وذكر الله مفصل.

الفصل الثاني: في كلام الله وكلماته. الكلام والقول نعتان لله، فبالقول يسمع المعدوم وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] وبالكلام يسمع الموجود وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٦٤] وقد يطلق الكلام على الترجمة في لسان المترجم، وينسب الكلام إلى المترجم عنه في ذلك، فالقول له أثر في المعدوم وهو الوجود، والكلام له أثر في الموجود وهو العلم، والموصوف بالتبديل في قوله: ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٥] وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة الفتح: الآية ١٥] هو في الترجمة فإنها تقبل التبديل والمعاني تابعة للكلام، فلا يفهم من الأمر الذي حرف به وبدل المعنى الذي يفهم من الأصل، ولذلك ألحق التبديل والتحريف بالأصل، وإن كان لا يقبل التحريف ولا التبديل لأنه كلام إلهي لا يحكى ولا يوصف بالوصف الذاتي، فإذا وقع التجلي في أي صورة كانت فلا تخلو أن تكون من الصور

المنسوب إليها الكلام في العرف أو لا تكون، فإن كانت من الصور المنسوب إليها الكلام فكلامها من جنس الكلام المنسوب إليها لحكم الصورة على التجلي مثل قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [سورة النمل: الآية ١٦] ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ [سورة النمل: الآية ١٨] وإن كان ممّا لا ينسب إليه الكلام في العرف فلا يخلو إما أن تكون ممّن ينسب إليها القول بالإيمان مثل قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٩] وقوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] وقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [سورة النور: الآية ٢٤] وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢١] وإما أن لا تكون ممّن نسب إليه قول ولا نطق، وهو الذي نسب إليه التسبيح الذي لا يفقه وما قال لا يسمع، إذ الكلام أو القول هو الذي من شأنه أن يتعلق به السمع والتسبيح، لو كان قولاً أو كلاماً لنفى عنه سمعنا وإنما نفى عنه فقهنا وهو العلم، والعلم قد يكون عن كلام وقول وقد لا يكون، فإذا تجلّى في مثل هذه الصور فيكون النطق بحسب ما يريده المتجلي ممّا يناسب تسبيح تلك الصورة لا يتعداه، فيفهم من كلام ذلك المتجلي تسبيح تلك الصورة وهو علم عجيب قليل من أهل الله من يقف عليه فيكون الكلام المنسوب إلى الله عزّ وجلّ في مثل هذه الصور بحسب ما هي عليه، هذا إذا وقع التجلي في المواد النورية والطبيعية، فإن وقع التجلي في غير مادة نورية ولا طبيعية وتجلّى في المعاني المجردة فيكون ما يقال في مثل هذا أنه كلام، فمن حيث أثره في المتجلى له لا من حيث إنه تكلم بكذا، وتلك الآثار كلها من طبقات الكلام الذي تقدم تسمّى كلمات الله جمع كلمة وهي أعيان الكائنات قال تعالىٰ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧١] وهو عين عيسىٰ لم يلق إليها غير ذلك ولا علمت غير ذلك، فلو كانت الكلمة الإلهية قولاً من الله وكلاماً لها مثل كلامه لموسىٰ عليه السلام لسرت ولم تقل: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٢٣] فلم تكن الكلمة الإلهية التي ألقيت إليها إلاّ عين عيسىٰ روح الله وكلمته وهو عبده فنطق عيسىٰ ببراءة أمه في غير الحالة المعتادة ليكون آية، فكان نطقه كلام الله في نفس الرحمن، فنفس الله عن أمه بذلك ما كان أصابها من كلام أهلها بما نسبوها إليه ممّا طهرها الله عنه، ومن هنا قالت المعتزلة: إن المتكلم من خلق الكلام وفيما ليس من شأنه أن يتكلم فذلك كلام الله مثل الجماد والنبات وحالة عيسىٰ إلاّ القائلين بالشكل الغريب فيجعلون مثل هذا من الأشكال الحادثة في الكون، فقد بيّنا لك معنى كلام الله وكلماته.

وكلام الله تعالىٰ علمه وعلمه ذاته، ولا يصحّ أن يكون كلامه ليس هو، فإنه كان يوصف بأنه محكوم عليه للزائد على ذاته وهو لا يحكم عليه عزّ وجلّ، وكل ذي كلام موصوف بأنه قادر على أن يتكلم متمكن في نفسه من ذلك، والحق لا يوصف بأنه قادر على أن يتكلم فيكون كلامه مخلوقاً، وكلامه قديم في مذهب الأشعري، وعين ذاته في مذهب غيره من العقلاء، فنسبة الكلام إلى الله مجهولة لا تعرف، كما أن ذاته لا تعرف، ولا يثبت الكلام للإله إلاّ شرعاً ليس في قوّة العقل إدراكه من حيث فكره، فافهم أن النفس للرحمن، والكلام لله والقول، وهو انتهاء النفس إلى عين كلمة من الكلمات، فيظهر عينها بعد بطونها

وتفصيلها بعد إجمالها. فإن قلت: فائدة الكلام الإسماع وما في الوجود إلاّ الله وهو متكلم فمن أسمع؟ قلنا: ليس من شرط السامع أن يكون موجوداً فإنه يقول للمعدوم في حال عدمه: ﴿كُن﴾ فيكون المعدوم عندما يتعلق بسمعه الثبوتي كلام الله وأمره بالوجود، وكذلك المرئي علة رؤيته جواز رؤيته الوجود بل الاستعداد والتهيؤ، سواء كان موجوداً أو معدوماً. والجواب الآخر كما أنه تكلم من حيث ما هو منعوت بالكلام يسمع كلامه من كونه سميعاً وهما نسبتان مختلفتان. فإن قلت: ففائدة سماع الكلام حصول العلم وهو عالم لذاته. قلنا: ما كل كلام موضوع لحصول ما لا يعلم، فإن المتكلم يثني على نفسه بما هو عالم به أنه عليه فلا يستفيد بل هو للابتهاج بالكمال الذاتي، فالحق لم يزل متكلماً وإن حدث في الكون فلا يدل على حدوثه في نفس الأمر، قال تعالىٰ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] يعني عندهم وإن كان قد تكلم به مع غيره قبل هذا مثل ما في التوراة وغيرها ممّا هو في القرآن، هذا إذا قلنا إنه يريد كلام الله الذي هو صفة له، وإن كان الظاهر أن السامع إنما سمع كلام المترجم عن الله كما قال إن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فلنذكر فصول الأذكار الإلهية ما تيسر منها من المذكورة في القرآن فنبدأ بالتعوّذ من أجل أنه من أذكار القرآن.

الفصل الثالث في ذكر التعوّذ: قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٨] وقال ﷺ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**» والحق هنا هو الذاكر بالقرآن نفسه، فالتعوّذ يكون باسم إلهيّ من اسم إلهيّ وهو الذي نبّه عليه ﷺ بقوله: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**» فإن كان التالي أعني الذاكر بالقرآن ممّن للشيطان عليه سبيل حينئذ يجب عليه أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فاستعاذة الحق بما هو عليه من صفات التقديس والتنزيه ممّا ينسب إليه ممّا لا يليق به كما قال تعالىٰ الله عمّا يقول الظالمون ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٣] ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ فوقع العياذ برب العزة ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] يريد ممّا يطلق عليه ممّا لا ينبغي لجلاله من الصاحبة والولد والأنداد، فهذا كله عياذ إلهيّ لأنه كلامه، وأمّا الاستعاذة به منه فهو ما ورد من تجليه في صورة تنكر فيتعوّذ المتجلي له منها بتجلّ في صورة يعرف وهو عين الصورة الأولى والثانية، وقد بيّنا لك في هذا الكتاب أنه الظاهر في مظاهر الأعيان فهو المستعيذ به منه، ومن هذا الباب قوله: «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ**» هو قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٦] ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٠] فيتعوّذ بالناصر من الخاذل وبالنافع من الضار، وهو القائل على لسان العبد ما ظهر عنه من التعوّذ.

الفصل الرابع في ذكر البسملة: البسملة قولك: بسم الله، وهو للعبد كلمة حضرة الكون للتكوين بمنزلة كلمة الحضرة في قوله ﴿كُن﴾ فينفعل عن العبد بالبسملة إذا تحقق بها ما ينفعل عن كن فكأنه يقول: بسم الله يكون ظهور الكون، فهو إخبار عن حقيقة اقترن بها صدق

محبوب كان الحق سمعه ولسانه فيكون عنه ما يكون عن ﴿كُن﴾ وهو قوله: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٠] فبإذني متعلق بقوله: فتنفخ ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٠] وإذ تخرج الموتى بإذني أي بأمري لما كنت لسانك وبصرك تكوّنت عنك الأشياء التي ليست بمقدورة لمن لا أقول على لسانه، فالتكوين في الحالين لي، فبسم الله عين كن.

الفصل الخامس في كلمة الحضرة الإلهية: وهي كلمة كن. لله تجلّ في صور تقبل القول والكلام بترتيب الحروف، كماله تجلٍّ في غير هذا قد ذكرناه في التجلي الإلهيّ الذي خرجه مسلم في الصحيح قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ فقولنا هو كونه متكلماً ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فكن عين ما تكلم به، فظهر عنه الذي قيل له كن فأضاف التكوين إلى الذي يكون لا إلى الحق ولا إلى القدرة، بل أمر فامتثل السامع في حال عدمه شيئية وثبوته أمر الحق بسمع ثبوتي فأمره قدرته وقبول المأمور بالتكوين استعداده فظهرت الأعيان في النفس الرحماني ظهور الحروف في النفس الإنساني، والشيء الذي يكون إنما هو الصورة الخاصة كظهور الصورة المنقوشة في الخشب أو الصورة في الماء المهين أو الصورة في الضلع أو الصورة في الطين أو الصورة. فإن قلت: عن وجود صدقت، وإن قلت: لم أكن صدقت. [مخلع البسيط]

فـلـو رأيـتَ الـذي رأيـنـا ... مـا قُـلْـتَ إلاّ أنـا هـو أنـتـا
فـاعـلَـمْ بـأن الـذي سـمـعْـتَـا ... مـن قَـوْلِ كُـنْ مـنـه قـد خُـلِـقْـتَـا
فـظَـاهِـر الأمْـر كـان قَـوْلٌ ... وبـاطِـن الأمـر أنـتَ كُـنْـتَـا
والـشَّـكْـلُ عـيـنُ الـذي بـدا لـي ... وهـو الـوجـودُ الـذي رأيْـتَـا
قـد أثْـبَـتَ الـشَّـيءَ قَـوْلُ ربـي ... لـو لـم يَـكُـنْ ذاك مـا وُجِـدْتَـا
فـالـعَـدَمُ الـمَـحْـضُ لـيس فـيـه ... ثُـبُـوتُ عَـيْـنٍ فَـقُـلْ صَـدَقْـتَـا
لـو لـم تَـكُـنْ ثـمَّ يـا حـبـيـبـي ... إذ قـال كُـنْ لـم تَـكُـنْ سـمـعْـتَـا
فـأيَّ شـيء قَـبِـلْـتَ مـنـه ... الـكـونَ أو كَـوْنَ عَـيْـنِ أنْـتَـا

فكلمة الحضرة كلمات كما قال﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٠] فلم يكرّر فعين الأمر عين التكوين، وما ثم أمر إلهيّ إلاّ ﴿كُن﴾ وكن حرف وجودي عند سيبويه من واجب الوجود لا يقبل الحوادث، فالأمر في نفسه صعب تصوّره من الوجه الذي يطلبه الفكر سهل في غاية السهولة من الوجه الذي قرّره الشرع، فالفكر يقول: ما ثم شيء ثم ظهر شيء لا من شيء، والشرع يقول وهو القول الحق. [مخلع البسيط]

بـل ثَـمَّ شـيءٌ فـصَـارَ كَـوْنَـا ... وكـان غَـيْـبـاً فـصـار عَـيْـنَـا

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [سورة الغاشية: الآية ١٧] يعني السحاب الكائن من الأبخرة هنا الصاعدة للحرارة التي فيها، والأبخرة نفس عنصريّ وليس بشيء زائد على السحاب، ولم يكن سحاباً في المتنفس بل هو شيء فظهر سحاباً فتكاثف ثم تحلل ماء فنزل

فتكون بخاراً فصعد فكان سحاباً، فانظر ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [سورة النور: الآية ٤٣] ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [سورة النبأ: الآية ١٤] فينشئه ﴿سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ [سورة الروم: الآية ٤٨] وهو تعدّد الأعيان ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٤٨] فبما في السحاب من الماء يثقل فينزل كما صعد بما فيه من الحرارة فإن الأصغر يطلب الأعظم، فإذا ثقل اعتمد على الهواء فانضغط الهواء فأخذ سفلاً فحكّ وجه الأرض فتقوت الحرارة التي في الهواء فطلب الهواء بما فيه من الحرارة القوية الصعود يطلب الركن الأعظم فوجد السحاب متراكماً فمنعه من الصعود تكاثفه فأشعل الهواء فخلق الله في تلك الشعلة ملكاً سمّاه برقاً فأضاء به الجوّ، ثم انطفأ بقوّة الريح كما ينطفىء السراج فزال ضوءه مع بقاء عينه فزال كونه برقاً وبقي العين كوناً يسبح الله، ثم صدع الوجه الذي يلي الأرض من السحاب فلما مازجه كان كالنكاح فخلق الله من ذلك الالتحام ملكاً سمّاه رعداً فسبح بحمد الله فكان بعد البرق لا بدّ من ذلك ما لم يكن البرق خلباً، فكل برق يكون على ما ذكرناه لا بدّ أن يكون الرعد يعقبه، لأن الهواء يصعد مشتعلاً فيخلقه ملكاً يسميه برقاً وبعد هذا يصدع أسفل السحاب فيخلق الله الرعد مسبحاً بحمد ربه لما أوجده ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] وثم بروق وهي ملائكة يخلقها الله في زمان الصيف من حرارة الجوّ لارتفاع الشمس فتنزل الأشعة الشمسية فإذا أحرقت ركن الأثير زادت حرارة فاشتعل الجوّ من أعلى وما ثم سحاب لأنّ قوّة الحرارة تلطف الأبخرة الصاعدة عن كثافتها فلا يظهر للسحاب عين، وهنالك حكم الشين المعجمة من الحروف ولهذا سمّي حرف التفشي، فخلق الله من ذلك الاشتعال بروقاً خلباً لا يكون معها رعد أصلاً، وهذه كلها حوادث ظهرت أعيانها عن كلمة ﴿كُن﴾ في أنفاس.

وإنما جئنا بمثل هذا تأنيساً لك لتعلم ما فتح الله من الصور والأعيان في هذا النفس العنصريّ المسمّى بخاراً لتكون لك عبرة إن كنت ذا بصر فتجوز بالنظر في هذا إلى تكوين العالم من النفس الرحمانيّ الظاهر من محبة الله أن يعرفه خلقه، فما في العالم أو ما هو العالم سوى كلمات الله، وكلمات الله أمره وأمره واحدة وهو كلمح بالبصر أو هو أقرب لأنه ما ثم أسرع من لمح البصر، فإنه زمان التحاظه هو زمان إلتحاقه بغاية ما يمكن أن ينتهي إليه في التعلّق، وكذلك قوّة السمع دون ذلك، فتدبر يا أخي كلام الله، وهذا القرآن العزيز وتفاصيل آياته وسوره، وهو أحديّ الكلام مع هذا التعداد، وهو التوراة والفرقان والإنجيل والزبور والصحف، فما الذي عدّد الواحد أو وحّد العدد؟ انظر كيف هو الأمر؟ فإنك إذا علمته علمت كلمة الحضرة، وإذا علمت كلمة الحضرة علمت اختصاصها من الكلمات بكلمة ﴿كُن﴾ لكل شيء مع اختلاف ما ظهر، ومن الحروف الظاهرة بالكاف والنون، ومن الحروف الباطنة بالواو، وكيف حكم العارض على الثابت بمساعدته عليه، فردّه غيباً بعدما كان شهادة، فإن السكون هو الحاكم من النون وهو عرض لأن الأمر الإلهيّ عرض له فسكنه فوجد سكون

الواو فاستعان عليها بها كما يستعين العبد بربه على ربه، فلما اجتمع ساكنان وأرادت النون الاتصال بالكاف لسرعة نفوذ الأمر حتى يكون أقرب من لمح بالبصر كما أخبر فزالت الواو من الوسط فباشرت الكاف النون، فلو بقيت الواو لكان في الأمر بطء، فإن الواو لا بدّ أن تكون واو علة لأجل ضمة الكاف، فلا يصل النفس إلى النون الساكنة بالأمر إلاّ بعد تحقق ظهور واو العلة فيبطىء الأمر وهي واو علة، فيكون الكون عن علتين: الواو والأمر الإلهيّ وهو لا شريك له، وإذا جاز أن يبطىء المأمور عن التكوين زماناً واحداً وهو قدر ظهور الواو لو بقيت ولا تحذف لجاز أن يبقى المأمور أكثر من ذلك فيكون أمر الله قاصراً فلا تنفذ إرادته وهو نافذ الإرادة، فحذف الواو من كلمة الحضرة لا بدّ منه والسرعة لا بدّ منها، فظهور الكون عن كلمة الحضرة بسرعة لا بدّ منه، فظهر الكون فظهرت الواو في الكون لتدل أنها كانت في ﴿كُنْ﴾ وإنما زالت لأمر عارض فعملت في الغيب فظهرت في الكون لما ظهر الكون بصورة ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] قبل حذف الواو ليدل على أن الواو لم تعدم وإنما غابت لحكمة ما ذكرناه، فليس الكون بزائد على ﴿كُنْ﴾ بواوها الغيبية فظهر الكون على صورة كن، وكن أمره، وأمره كلامه، وكلامه علمه، وعلمه ذاته، فظهر العالم على صورته، فخلق آدم على صورته، فقبل الأسماء الإلهية، وقد بيّنا ما فيه الكفاية للعاقل في كلمة الحضرة والله يضرب الأمثال لعباده.

الفصل السادس في الذكر بالتحميد: الحمد ثناء عام ما لم يقيده الناطق به بأمر، وله ثلاث مراتب: حمد الحمد، وحمد المحمود نفسه، وحمد غيره له، وما ثم مرتبة رابعة في الحمد، ثم في الحمد بما يحمد الشيء نفسه أو يحمده غيره تقسيمان: إما أن يحمده بصفة فعل، وإما أن يحمده بصفة تنزيه، وما ثم حمد ثالث هنا، وأما حمد الحمد له فهو في الحمدين بذاته، إذ لو لم يكن لما صحّ أن يكون لها حمد. [الوافر]

فَحَمْدُ الحَمْدِ يُعطي الحَمْدَ فيه ... ولولا الحمدُ ما كان الحَميدُ

ثم إن الحمد على المحمود قسمان: القسم الواحد أن يحمد بما هو عليه وهو الحمد الأعمّ. والقسم الثاني: أن يحمد على ما يكون منه وهو الشكر وهو الأخص، فانحصرت أقسام التحميدات والمحامد وتعيين الكلمات التي تدل على ما ذكرناه لا تتناهى، فإن النبي ﷺ يقول في المقام المحمود: **«فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لاَ أَعْلَمُهَا الآنَ»** وقال: **«لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ»** لأَنَّ مَا لاَ يَتَنَاهَى لاَ يَدْخُلُ فِي الوُجُودِ. ولما كان كل عين حامدة ومحمودة في العالم كلمات الحق الظاهرة من نفس الرحمن ونفس الرحمن ظهور الاسم الباطن والحكم الغيب وهو الظاهر والباطن رجعت إليه عواقب الثناء، فلا حامد إلاّ الله، ولا محمود إلاّ الله، وحمد الحمد صفته لأن الحمد صفته وصفته عينه إذ لا يتكثر: [المتقارب]

فَحَمْدُ الحَمْدِ هو فليس إلاّ هُو ... ولا يَكْمُلُ بالزائد تعالىٰ اللّٰهُ

فما حَمَدَ الله إلاّ الإلٰهُ ... ومَحْمودُه عَيْنُه لا سِوَاهُ

فمن حمد الله على هذا النحو فقد حمده، ومن نقصه من ذلك شيئاً فهو بقدر ما نقصه،

فإن كنت حامداً لله فلتحمده بهذا الحضور وهذا التصور، فيكون الجزاء من الله لمن هذا حمده عينه فافهم.

الفصل السابع: في الذكر بالتسبيح. التسبيح التنزيه ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [سورة النصر: الآية ٣] هذا أمر ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] خبر التسبيح قسم من أقسام الحمد، ولهذا فإن الحمد يملأ الميزان على الإطلاق ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] وغير ذلك من الأذكار تحت حيطة الحمد، فإذا ظهر التسبيح فانظر كيف تسبحه، فإن الجهل يتخلل هذا المقام تخللاً خفياً لا يشعر به فإنه كما قال ﷺ لحسان بن ثابت لما أراد أن يهجو قريشاً ينافح بذلك عن رسول الله ﷺ لما هجته قريش وهو منها فنفسها هجت ولم تعلم بذلك وعلم بذلك رسول الله ﷺ فإنه العالم الأتم، وقد علم رسول الله ﷺ أن الذي انبعث إليه حسان بن ثابت من هجاء قريش أن ذلك ممّا يرضي الله لحسن قصده في ذلك، وما علم ذلك رسول الله ﷺ إلاّ لما رأى روح القدس الذي يجيئه قد جاء إلى حسان بن ثابت يؤيّده من حيث لا يشعر ما دام ينافح عن عرض رسول الله ﷺ، وإنما أقرّ الله ذلك إعلاماً لقريش بأن أعمالهم تعود عليهم، إذ كان الهجاء ممّا عملته ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٢] ليعلموا صدق رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «**إنّي مِنهُمْ فَانْظُرْ مَا تَقُولُ وَكَيفَ تَقولُ؟ وَائتِ أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّهُ أَعْرَفُ بِالأَنْسَابِ فَيُخْبِرِكَ حَتّى لاَ تَقُولَ كَلاماً يَعُودُ على رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَكُونَ قَدْ وَقَعْتَ فِيما وَقَعُوا فِيهِ**»، فَقَالَ لَهُ حَسّانُ بنُ ثَابِتٍ: وَاللَّهِ لأَسُلَّنَّكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ العَجينِ؛ لأنه لا يعلق بها شيء من العجين، وهكذا باب التسبيح فإنه تنزيه، والتنزيه عبارة عن العدم ليس بتنزيه، وإنما يكون التنزيه عن كل صفة تدل على الحدوث لاتصافه بالقدم، وصفات الحدوث إنما هي للمحدثات وهنا زلّت الأقدام في العلم بالمحدثات ما هي المحدثات وما في الوجود إلاّ الله، فإن الموجودات كلمات الله وبها يثنى على الله، فإذا نزّه المنزّه ربه ولا ينزهه إلاّ عما هو صفة للمحدث والمحدث ليس له من نفسه شيء ولا عينه له وإنما هي لمن أظهرها، فإذا نزّه الحق عن شيء لا يثنى عليه إلاّ به وبأمثاله فقد تركت من الثناء عليه ما كان ينبغي لك أن تثني عليه به، فإذا سبحته فتحقق عن أي شيء تنزهه إذ ما ثم إلاّ هو، فإن نفس الرحمن هو جوهر الكائنات، ولهذا وصف الحق نفسه بما هو من صفات المحدثات ممّا تحيله الأدلة النظرية العقلية.

واحذر أن تسبحه بعقلك، واجعل تسبيحه منك بالقرآن الذي هو كلامه فتكون حاكياً لا مخترعاً ولا مبتدعاً، فإن كان هناك ما يقدح كنت أنت بريء الساحة من ذلك إذ ما سبحه إلاّ كلامه وهو أعلم بنفسه منك وهو يحمد ذاته بأتم المحامد وأعظم الثناء كما قال ﷺ: «**أَنْتَ كَمَا أَثْنَيتَ عَلَى نَفْسِكَ**» وقد أثنى على نفسه بما يقول فيه دليل العقل أنه لا يجوز عليه ذلك وينزهه عنه، وهذا غاية الذم وتكذيب الحق فيما نسبه إلى نفسه وعلمك بأنك أعرف به منه، فاحذر أن تنزهه عن أمر ثبت في الشرع أنه وصف له كان ما كان، ولا تسبحه تسبيحة واحدة بعقلك جملة واحدة وقد نصحتك فإن الأدلة العقلية كثيرة التنافر للأدلة الشرعية في الإلهيات،

فسبح ربك بكلام ربك وبتسبيحه لا بعقلك الذي استفاده من فكره ونظره، فإنه ما استفاد أكثر ما استفاد إلاّ الجهل فتحفظ ممّا ذكر لك فإنه داء عضال قليل فيه الشفاء، فذمّ بذم الله، وامدح بمدح الله، وارحم برحمة الله، والعن بلعنة الله، تفز بالعلم وتملأ يديك من الخير والتسبيح ثناء كل موجود في العالم لا غير التسبيح، وهذا هو الذي أضلّ العقلاء، وهو من المكر الإلهيّ الخفي، وغابت عقولهم عن قوله تعالىٰ بحمده وهو ما ذكرناه فقال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] وما قال يحمد ولا يكبر ولا يهلل فإنها كلها ثناء بإثبات وجودي، والتسبيح ثناء بعدم، فدخله المكر الإلهي فأثر في العقول المفكرة فجاء العارفون فوجدوا الله قد قيد تسبيح كل شيء بحمده المضاف إليه، فسبحوه بما أثنى على نفسه، فما استنبطوا شيئاً بخلاف الناظرين بعقولهم في الإلهيات ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] لأنهم نسوا بحمده حجتهم عن ذلك أدلة عقولهم إذ ستر الله عنها ذلك بستر أفكارهم، فلم يؤاخذهم على ذلك لقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٤] مع ما فيه من سوء الأدب من وجه لما كان الشفيع فيهم عند الله قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وفيه غلطوا فقبل الله فيهم سؤال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ فعفا عنهم فيما توقفوا فيه أو أحالوه ممّا أثبته الحق لنفسه من استواء ومعية وظرفية ونزول وغير ذلك ممّا لا يحصى كثرة ممّا نطقت به كتبه ورسله، فقد أفهمتك كيف تسبح ربك وألقيت بك على الطريق فاذكرني عند ربك.

الفصل الثامن: في الذكر بالتكبير. قال تعالىٰ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] وذكر الله القرآن فاذكره بالقرآن لا تكبره بتكبيرك إذ قد أمرك أن تكبره فقال: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١١] عن الولد والشريك والوليّ، ولا تغفل في هذا التكبير عن قوله: ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١١] فقيده فإنه يقول: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٧] فما نصرناه من ذلّ فلهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١١] فإنه قد دعاك إلى نصرته ليوفي الصورة التي خلقك عليها حقها لأنه يقول: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فمن إعطائه الصورة التي خلقك عليها خلقها الذي هو عين حقها أن يطلب منها نصرته فإنه الناصر فقال: ﴿كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [سورة الصف: الآية ١٤] والناصر هو الوليّ فلهذا قيده، فإذا كبرته عن الوليّ فاعلم عن أيّ وليّ تكبره، وكذلك أيضاً الشريك في الملك، وعلى هذه المسألة تبتني مسألة العبد هل يملك أو لا يملك؟ فمن رأى شركة الأسباب التي لا يمكن وجود المسببات إلاّ بها لم يثبت الشريك في الملك لأن السبب من الملك وهو كالآلة والآلة يوجد بها ما هو ملك للموجد كما هي الآلة ملك للموجد، وما تملك الآلة شيئاً، فلهذا قيد التكبير عن الشريك في الملك لا في الإيجاد، لأن الله تعالىٰ أوجد الأشياء على ضربين: ضرب أوجده بوجود أسبابه مثل صنائع العالم كالتابوت للنجار، والحائط للبناء، وجميع صنائع العالم والكل صنعته تعالىٰ، والإضافة إلى النجار وإن كان النجار ما استقلّ في عمل التابوت بيده فقط بل بآلات متعدّدة من الحديد وغير ذلك فهذه أسباب النجارة، وما أضيف عمل

التابوت إلى شيء منها بل أضيف التابوت من كونه صنعة لصانعه ولم يصنع إلاّ بالآلة، ثُمَّ ثَمَّ إضافة أخرى وهو إن كان النجار صنع في حق نفسه أضيف التابوت إليه لأنه ملكه وهو قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢] وإن كان الخشب لغيره فالتابوت من حيث صنعته يضاف إلى النجار، ومن حيث الملك يضاف للمالك لا إلى النجار، فالنجار آلة للمالك، والله ما نفى إلاّ الشريك في الملك لا الشريك في الصنعة ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤].

وأمّا الضرب الثاني فهو ما أوجده لا بسبب وهو إيجاده أعيان الأسباب الأول، فإذا كبرت ربك عن الوليّ والشريك فقيده في ذلك بما قيده الحق ولا تطلق فيفتك خير كثير وعلم كبير، وكذلك قوله: ﴿وَكَبِّرْهُ﴾ أن يتخذ ولداً فإن الولد للوالد ليس بمتخذ لأنه لا عمل له فيه على الحقيقة، وإنما وضع ماء في رحم صاحبته وتولى إيجاد عين الولد سبب آخر والمتخذ الولد إنما هو المتبنى كزيد لما تبناه رسول الله ﷺ فقال لنا: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١١] لأنه لو اتخذ ولداً لاصطفى ممّا يخلق ما يشاء فكان يتبنى ما شاء فما فعل فعل من لم يتخذ ولداً. وقوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٣] ذلك ولد الصلب فليس له تعالىٰ ولد ولا تبنى أحداً، فنفى عنه الولد من الجهتين لما ادّعت طائفة من اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأرادوا التبني فإنهم عالمون بآبائهم، وقالوا في المسيح إنه ابن الله إذ لم يعرفوا له أباً ولا تكوّن عن أب لجهلهم بما قال الله من تمثّل الملك لمريم ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٧] وجعله الحق تعالىٰ روحاً إذ كان جبريل روحاً، فما تكوّن عيسىٰ إلاّ عن اثنين، فجبريل وهب لها عيسىٰ في النفخ فلم يشعروا لذلك، كما ينفخ الروح في الصورة عند تسويتها، فما عرفوا روح عيسىٰ ولا صورته، وأن صورة عيسىٰ مثل تجسد الروح لأنه عن تمثل، فلو تفطنت لخلق عيسىٰ لرأيت علماً عظيماً تقصر عنه أفهام العقلاء، فإذا كبرت ربك فكبره كما كبر نفسه تعالىٰ عمّا يقول الظالمون ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٣] وهم الذين يكبرونه عمّا لم يكبر نفسه في قوله: يفرح بتوبة عبده ويتبشبش إلى من جاء إلى بيته ويباهي ملائكته بأهل الموقف ويقول: «**جعت فلم تطعمني**» فأنزل نفسه منزلة عبده، فإن كبرته بأن تنزههُ عن هذه المواطن فلم تكبره بتكبيره بل أكذبته، فهؤلاء هم الظالمون على الحقيقة، فليس تكبيره إلاّ ما كبر به نفسه، فقف عند حدّك ولا تحكم على ربك بعقلك.

الفصل التاسع في الذكر بالتهليل: هذا هو ذكر التوحيد بنفي ما سواه وما هو ثم، فإن لم يكن ثم ونفيت النفي فقد أثبت، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] فما عبد فيما عبد إلاّ الله، وهذا التوحيد على ستة وثلاثين أعني الواردة في القران من حيث ما هو كلام الله، فمنه ما هو توحيد الواحد ولهذا يرى بعض العلماء الإلهيين أن الله هو الذي وحد الواحد ولولا توحيده لم يكن، ثم من يقال فيه أنه واحد فوحدانيته أظهرت الواحد ومنه ما هو توحيد الله وهو توحيد الألوهية، ومنه ما هو توحيد الهوية، ولنذكر هذا كله في هذا الفصل وما له تعالىٰ في هذا التهليل من الأسماء الإلهية ولا

نزيد على ما ورد في القرآن من ذلك وهو ستة وثلاثون موضعاً وهي عشر درجات الفلك الذي جعل الله إيجاد الكائنات عند حركاته من أصناف الموجودات من عالم الأرواح والأجسام والنور والظلمة، فهذه الستة وثلاثون حق الله ممّا يكون في العالم من الموجودات، فإنها ممّا تكون في عين التلفظ الإنساني بالقرآن، فهو كالعشر فيما سقت السماء وهو المسمّى الأعلى من قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلى: الآية ١] فالتهليل عُشر الذكر وهو زكاته لأنه حق الله فهو عشر ثلثمائة وستين درجة فمن ذلك:

التوحيد الأوّل: وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٣] فهذا توحيد الواحد بالاسم الرحمن الذي له النفس فبدأ به لأن النفس لولاه ما ظهرت الحروف، ولولا الحروف ما ظهرت الكلمات، فنفى الألوهية عن كل أحد وحده الحق تعالىٰ إلاَّ أحديته، فأثبت الألوهية لها بالهوية التي أعاد على اسمه الواحد، وأوّل نعت نعته به الرحمن لأنه صاحب النفس، وسمّى مثل هذا الذكر تهليلاً من الإهلال وهو رفع الصوت، أي إذا ذكر بلا إله إلاَّ الله ارتفع الصوت الذي هو النفس الخارج به على كل نفس ظهر فيه غير هذه الكلمة، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيّونَ مِنْ قَبْلِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**» وما قالها إلاَّ نبي لأنه ما يخبر عن الحق إلاَّ نبي، فهو كلام الحق، فأرفع الكلمات كلمة لا إله إلاَّ الله وهي أربع كلمات نفي ومنفي وإيجاب وموجب، والأربعة الإلهية أصل وجود العالم، والأربعة الطبيعية أصل وجود الأجسام، والأربعة العناصر أصل وجود المولدات، والأربعة الأخلاط أصل وجود الحيوان، والأربع الحقائق أصل وجود الإنسان، فالأربعة الإلهية: الحياة والعلم والإرادة والقول وهو عين القدرة عقلاً والقول شرعاً. والأربع الطبيعة: الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة، والأربعة العناصر: الأثير والهواء والماء والتراب. والأربعة الأخلاط: المرتان والدم والبلغم. والأربع الحقائق: الجسم والتغذي والحسّ والنطق. فإذا قال العبد: لا إله إلاَّ الله على هذا التربيع كان لسان العالم ونائب الحق في النطق فيذكره العالم والحق يذكره، وهذه الكلمة إثنا عشر حرفاً، فقد استوعبت من هذا العدد بسائط أسماء الأعداد وهي إثنا عشر: ثلاث عقود العشرات والمئين والآلاف ومن الواحد إلى التسعة، ثم بعد هذا يقع التركيب بما لا يخرجك عن هذه الآحاد إلى ما لا يتناهى فقد ضمّ ما يتناهى وهو هذه الإثنا عشر ما لا يتناهى وهو ما يتركب منها فلا إله إلاَّ الله، وإن انحصرت في هذا العدد في الوجود فجزاؤها لا يتناهى فبها وقع الحكم بما لا يتناهى، فبقاء الوجود الذي لا يلحقه عدم بكلمة التوحيد وهي لا إله إلاَّ الله فهذا عمل نفس الرحمن فيها ولهذا ابتدأ به في القرآن وجعله توحيد الأحد لأن عن الواحد الحق ظهر العالم.

التوحيد الثاني: من نفس الرحمن ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] فهذا توحيد الهوية وهو توحيد الابتداء، لأن الله فيه مبتدأ ونعته في هذه الآية بصفة التنزيه عن حكم السنة والنوم، لما يظهر به من الصور التي يأخذها السنة والنوم كما يرى الإنسان ربه في المنام على صورة الإنسان التي من شأنها أن تنام، فنزّه نفسه ووحدها في هذه الصورة، وإن

ظهر بها في الرؤيا حيث كانت فما هي ممّن تأخذها سنة ولا نوم، فهذا هو النعت الأخص بها في هذه الآية، وقدم الحيّ القيوم لأن النوم والسنة لا يأخذ إلاّ الحي القائم أي المتيقظ إذ كان الموت لا يرد إلاّ على حي، فلهذا قيل في الحق إنه الحي الذي لا يموت، كذلك النوم والسنة، والسنة أول النوم كالنسيم للريح فإن النوم بخار وهو هواء والنسيم أوله، والسنة أوّل النوم فلا يرد إلاّ على متصف باليقظة، فهذا توحيد التنزيه عمّن من شأنه أن يقبل ما نزّه عنه هذا الإله الحيّ القيوم، ولولا التطويل لذكرنا تمام الآية بما فيها من الأسماء الإلهيّة.

التوحيد الثالث: من نفس الرحمن وهو ﴿الٓمٓ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [سورة آل عمران: الآيتان١، ٢]، وهذا توحيد حروف النفس وهو الألف واللام والميم، وقد ذكرنا من حقائق هذه الحروف في الباب الثاني من هذا الكتاب ما فيه غنية، وهذا التوحيد أيضاً توحيد الإبتداء، وله من أسماء الأفعال منزل الكتاب بالحق من الله المسمّى بالحيّ القيوم، فبين أنه منزل الكتاب بالحق من الله المسمّى بالحيّ القيوم، فبين أنه منزل الأربعة الكتب يصدّق بعضها بعضاً لأن أكثر الشهود أربعة، والكتب الإلهية وثائق الحق على عباده وهي كتب مواصفه وتحقيق بماله عليهم وما لهم عليه ممّا أوجبه على نفسه لهم فضلاً منه ومنة، فدخل معهم في العهدة فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٠] فأدخلنا تحت العهد إعلاماً بأنا جحدنا عبوديتنا له، إذ لو كنا عبيداً لم يكتب علينا عهده فإنا بحكم السيد، فلما أيقنا بخروجنا عن حقيقتنا وادّعينا الملك والتصرّف والأخذ والعطاء كتب بيننا وبينه عقوداً وأخذ علينا العهد والميثاق وأدخل نفسه معنا في ذلك، ألا ترى العبد المكاتب لا يكاتب إلاّ أن ينزل منزلة الأحرار، فلولا توهم رائحة الحريّة ما صحّت مكاتبة العبد وهو عبد، فإن العبد لا يكتب عليه شيء ولا يجب له حق فإنه ما يتصرّف إلاّ عن إذن سيده، فإذا كان العبد يوفى حقيقة عبوديته لم يؤخذ عليه عهد ولا ميثاق، ألا ترى العبد الآبق يجعل عليه القيد وهو الوثاق لأباقه، فهذا بمنزلة الوثائق التي تتضمن العهود والعقود التي لا تصحّ بين العبد والسيد، فمن أصعب آية تمرّ على العارفين كل آية فيها: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [سورة المائدة: الآية ١] أو ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٤] فإنها آيات أخرجت العبيد عن عبوديتهم لله.

التوحيد الرابع: من نفس الرحمن قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦] هذا توحيد المشيئة ووصف الهوية بالعزة وهو قوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٣] فهو عزيز الحمى، إذ كان هو الذي صوّرنا في الأرحام من غير مباشرة، إذ لو باشر لضمّه الرحم كما يضم القابل للصورة، ولو لم يكن هو المصوّر لما صدقت هذه النسبة وهو الصادق فإنه ما أضاف التصوير إلى غيره فقال: ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي كيف أراد، فظهر في هذه الكيفية أن مشيئته تقبل الكيفية مع نعته بالعزة ثم بالحكمة، والحكيم هو المرتب للأشياء التي أنزلت منازلها، فالتصوير يستدعيه إذ كان هو المصوّر لا الملك مع العزّة التي تليق بجلاله، فحيّر العقول السليمة التي تعرف جلاله، وأما أهل التأويل فما حاروا ولا أصابوا أعني في خوضهم في التأويل، وإن وافقوا العلم فقد

ارتكبوا محرّماً عليهم يسئلون عنه يوم القيامة هم وكل من تكلم في ذاته تعالىٰ ونزّهه عمّا نسبه إلى نفسه ورجح عقله على إيمانه وحكم نظره في علم ربه ولم يكن ينبغي له ذلك وهو قوله تعالىٰ: « كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ »، وذكر بعض ما كذبه فيه لا كله، وأبقى له ضرباً من الرجاء حيث أضافه إليه في الحديث الذي يقول فيه عبدي فإن قال ابن آدم وهو الأصحّ في الرواية فأبعده عن نفسه وأضافه إلى ظاهر آدم عليه السلام لأن المعصية بالظاهر وقعت وهو القرب من الشجرة والأكل ونسي ولم يجد له عزماً وهو عمل الباطن فبرأ باطنه منها ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٦٩] مجتبى كما قال تعالىٰ.

التوحيد الخامس: من نفس الرحمن وهو قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] هذا توحيد الهوية والشهادة على الاسم المقسط وهو العدل في العالم وهو قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فوصف نفسه بإقامة الوزن في التوحيد، أعني توحيد الشهادة بالقيام بالقسط، وجعل ذلك للهوية، وكان الله الشاهد على ذلك من حيث أسماؤه كلها فإنه عطف بالكثرة وهو قوله: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ فعلمنا حيث ذكر الله ولم يعين اسماً خاصاً أنه أراد جميع الأسماء الإلهية التي يطلبها العالم بالقسط إذ لا يزن على نفسه، فلم يدخل تحت هذا إلاَّ ما يدخل في الوزن فهذا توحيد القسط، وقد روينا في ذلك حديثاً ثابتاً وهو ما حدّثناه يونس بن يحيىٰ عن أبي الوقت عبد الأوّل الهروي عن ابن المظفر الداوديّ عن أبي محمد الحمويّ عن الفربريّ عن البخاري عن أبي اليمان عن شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفِقْ أُنفِقْ عَلَيْكَ**». وقال: «**يَدُ اللَّهِ مَلأى لاَ يُغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**» وقال: «**أَرَأَيْتُم مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماءِ، وَبِيَدِهِ المِيزَان يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ**» خرجه مسلم أيضاً عن أبي هريرة وقال يمينه لم يقل يده، وقال بيده الأخرى وهو حديث صحيح، فإذا قام العبد بالقسط في تهليل ربه صدقه ربه فقال مثل قوله فهذا من تزكية الله عبده.

حدّثنا غير واحد منهم ابن رستم مكين الدين أبو شجاع الأصفهاني إمام المقام بالحرم المكيّ الشريف وعمر بن عبد المجيد الميانشيّ عن أبي الفتح الكرخيّ عن الترياقيّ أبي نصر عن عبد الجبار بن محمد عن المحبوبي عن أبي عيسىٰ الترمذي عن سفيان بن وكيع عن إسماعيل بن محمد عن جحادة عن عبد الجبار بن عباس عن الأغرابي مسلم قال: أشهد على أبي سعيد وأبي هريرة أنهما شهدا على النبيّ ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ لاَ إِلٰه إلاَّ اللَّهُ واللَّهُ أَكْبَرُ صَدَّقَهُ رَبُّهُ وَقَالَ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا وَأَنَا أَكْبَرُ، وَإِذَا قَالَ: لاَ إِلٰه إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ: لا إِلٰه إِلاَّ أَنَا وَأَنَا وَحْدِي، وَإِذَا قَالَ: لاَ إِلٰه إِلاَّ اللَّه لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، قَالَ اللَّهُ: لاَ إِلٰه إِلاَّ أنا لِي المُلْكُ وَلِيَ الحَمْدُ، وَإذا قَالَ: لاَ إِلٰه إِلاَّ اللَّه وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّه، قَالَ اللَّهُ: لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِي**» وكان يقول: «**مَنْ قَالَهَا فِي مَرَضِهِ ثُمَّ مَاتَ لَمْ تَطْعَمْهُ النَّارُ**». فمن أعطى الحق من نفسه لربه ولغيره ولنفسه من نفسه بإقامة الوزن على نفسه في ذلك فلم يترك لنفسه

ولا لغيره عليه حقاً جملة واحدة قام في هذا المقام بالقسط الذي شهد به لربه فإنها شهادة أداء الحقوق من يكتمها فإنه آثم قلبه، وما كان له من حق تعين له عند غيره أسقطه ولم يطالب به إذ كان له ذلك فوقع أجره على الله.

ثم يؤيّد ما ذكرناه في إعطاء الحق في هذه الشهادة قوله بعد قوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] فشهد الله لنفسه بتوحيده وشهد لملائكته وأولي العلم أنهم شهدوا له بالتوحيد، فهذا من قيامه بالقسط وهو من باب فضل من أتى بالشهادة قبل أن يسألها، فإنّ الله شهد لعباده أنهم شهدوا بتوحيده من قبل أن يسأل منه عباده ذلك، وبيّن في هذه الآية أن الشهادة لا تكون إلاّ عن علم لا عن غلبة ظنّ ولا تقليد إلاّ تقليد معصوم فيما يدّعيه، فتشهد له بأنك على علم كما نشهد نحن على الأمم أن أنبياءها بلغتها دعوة الحق ونحن ما كنا في زمان التبليغ ولكنا صدّقنا الحق فيما أخبرنا به في كتابه عن نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وقوم موسىٰ وشهادة خزيمة، وذلك لا يكون إلاّ لمن هو في إيمانه على علم بمن آمن به لا على تقليد وحسن ظنّ فاعلم ذلك.

التوحيد السادس: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٧] هذا أيضاً توحيد الإبتداء وهو توحيد الهوية المنعوت بالاسم الجامع للقضاء والفصل، فمن رحمة الله أنه قال: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ فما نجتمع إلاّ فيما لا نفترق فيه وهو الإقرار بربوبيته سبحانه، وإذا جمعنا من حيث إقرارنا له بالربوبية فهي آية بشرى وذكر خير في حقنا بسعادة الجميع، وإن دخلنا النار فإن الجمعية تمنع من تسرمد الانتقام لا إلى نهاية لكن يتسرمد العذاب وتختلف الحالات فيه، فإذا انتهت حالة الانتقام ووجدان الآلام أعطى من النعيم والاستعذاب بالعذاب ما يليق بمن أقرّ بربوبيته ثم أشرك ثم وحّد في غير موطن التكليف، والتكليف أمر عرض في الوسط بين الشهادتين لم يثبت، فبقي الحكم للأصلين الأوّل والآخر، وهو السبب الجامع لنا في القيامة، فما جمعنا إلاّ فيما اجتمعنا: [الخفيف]

فإذا استَعْذَبوا العذابَ أُريحوا ... من أليمِ العذابِ وهو الجَزَاءُ

قال أبو يزيد الأكبر البسطاميّ: [الوافر]

وكلُّ مآربي قد نِلْتُ منها ... سوى مَلْذوذِ وَجْدي بالعَذَابِ

لم يقل بالألم، ولنا في هذا الباب نظم كثير.

التوحيد السابع: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٢] هذا توحيد الرب بالاسم الخالق وهو توحيد الهوية، فهذا توحيد الوجود لا توحيد التقدير، فإنه أمر بالعبادة ولا يأمر بالعبادة إلاّ من هو موصوف بالوجود وجعل الوجود للرب، فجعل ذلك الاسم بين الله وبين التهليل، وجعله مضافاً إلينا إضافة خاصة إلى الرب، فهي إضافة خصوص لنوحده في سيادته ومجده وفي وجوب وجوده فلا يقبل العدم كما يقبله الممكن فإنه الثابت وجوده لنفسه، ويوحد أيضاً في ملكه بإقرارنا بالرق له، ولنوحده توحيد المنعم لما أنعم به علينا من تغذيته إيانا في ظلم

الأرحام وفي الحياة الدنيا، ولنوحده أيضاً فيما أوجده من المصالح التي بها قوامنا من إقامة النواميس ووضع الموازين ومبايعة الأئمة القائمة بالدين، وهذه الفصول كلها أعطاها الاسم الرب فوحدناه ونفينا ربوبية ما سواه، قال يوسف لصاحبي السجن: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [سورة يوسف: الآية ٣٩].

التوحيد الثامن: من نفس الرحمن قوله تعالىٰ: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٦] هذا توحيد الإتباع وهو من توحيد الهوية، فهو توحيد تقليد في علم، لأنه نصب الأسباب وأزال عنها حكم الأرباب لما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] فلو قالوا ما نتخذهم وأبقوا العبودية لجناب الله تعالىٰ لكان لهم في ذلك مندوحة بوضع الأسباب الإلهية المقرّرة في العالم، فأمر ﷺ أن يعرض عن الشرك لا عن السبب فإنه قال في مصالح الحياة الدنيا ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٩] فعلل، ولام العلة في القرآن كثير، وهذا أيضاً فيه ما في السابع من توحيد الاسم الرب وعمّم إضافة جميعنا إليه، وهنا خصّص به الداعي، فكأنه توحيد في مجلس محاكمة، فيدخل فيه توحيد المقسط لإقامة الوزن في الحكم بين الخصماء بين ذلك قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٦] وخصّ به الداعي لمجيئه بالتوحيد الإيماني لا التوحيد العقلي، وهو توحيد الأنبياء والرسل، لأنها ما وحدت عن نظر وإنما وحدت عن ضرورة علم وجدته في نفسها لم تقدر على دفعه، فترك المشركين وآلهتهم وانفرد بغار حرّاء يتحنث فيه من غير معلم إلاّ ما يجده في نفسه حتى فجئه الحق وهو قوله: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٦] أي إنه لا يقبل الشريك فأعرض عنهم حتى يستحكم الإيمان وأقمه بنفس الرحمن فاجعل له أنصاراً وآمرك بقتال المشركين لا بالإعراض عنهم.

التوحيد التاسع: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٨] توحيد الهوية في الاسم المرسل وهو توحيد الملك ولهذا نعته بأنه يحيي ويميت، إذ الملك هو الذي يحيي ويميت ويعطي ويمنع ويضر وينفع، فمن أعطى أحيا ونفع، ومن منع أضرّ وأمات، ومن منع لا عن بخل كان منعه حماية وعناية وجوداً من حيث لا يشعر الممنوع، وكان الضرر في حقه حيث لم يبلغ إلى نيل غرضه لجهله بالمصلحة فيما حماه عنه النافع، ومات هذا الممنوع لكونه لم تنفذ إرادته كما لا تنفذ إرادة الميت، فهذا منع الله وضرره وإماتته فإنه المنعم المحسان، فأرسل الرسل بالتوحيد تنبيهاً لإقرارهم في الميثاق الأوّل فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٧] فمن وحده بلسان رسوله لا من لسانه جازاه الله على توحيده جزاء رسوله، فإن وحده لا بلسان رسوله بل بلسان رسالته جازاه مجازاة إلهية لا تعرف يدخل تحت قوله: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. انتهى الجزء العشرون ومائة.

(الجزء الحادي والعشرون ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

التوحيد العاشر: من نفس الرحمن قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٣١] هذا توحيد الأمر بالعبادة وهو من أعجب الأمور كيف يكون الأمر فيما هو ذاتي للمأمور؟ فإن العبادة ذاتية للمخلوقين ففيم وقع الأمر بالعبادة، فأما في حق المؤمنين فأمرهم أن يعبدوه من حيث أحدية العين لما قال في حق طائفة: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] فما هي هذه الطائفة التي أمرت أن تعبد إلهاً واحداً؟ فلا تنظروا في الأسماء الإلهية من حيث ما تدل على معان مختلفة فتتعبدهم معانيها فتكون عبادتهم معلولة حيث رأوا أن كل حقيقة منهم مرتبطة بحقيقة إلهية يتعلق افتقارها القائم بها إليها وهي متعدّدة، فإن حقيقة الطلب للرزق إنما تعبد الرزاق، وحقيقة الطلب للعافية إنما تعبد الشافي فقيل لهم: لا تعبدوا إلاّ إلهاً واحداً، وهو أن كل اسم إلهي وإن كان يدل على معنى يخالف الآخر فهو أيضاً يدل على عين واحدة تطلبها هذه النسب المختلفة. وأما من حمل العبادة هنا على الأعمال فلا معرفة له باللسان، فالعمل صورة والعبادة روح لتلك الصورة العملية التي أنشأها المكلف. وأما غير المؤمنين وهم المشركون فهم الذين نسبوا الألوهة إلى غير من يستحقها ووضعوا اسمها على غير مسمّاها وادّعوا الكثرة فيها، كما ادّعوا الكثرة في الإنسانية فدعواهم فيها صحيحة وما عرفوا بطلانها في الإلهية، ولذلك تعجبوا من توحيدها فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٥] وما علموا أن جعل الألوهة في الكثيرين أعجب فقيل لهم: وإن كنتم ما عبدتم كل من عبدتموه إلاّ بتخيلكم أن الألوهة صفته فما عبدتم غيرها ليس الأمر كذلك فإنكم شهدتم على أنفسكم أنكم ما تعبدونها إلاّ لتقربكم إلى الله زلفى فأقررتم مع شرككم أن ثم إلهاً كبيراً هذه الآلهة خدمتكم إياها تقربكم من الله، فهذه دعوى بغير برهان وهو قوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧] وهذه أرجى آية للمشرك عن نظر جهد الطاقة وتخيّله في شبهه أنها برهان فيقوم له العذر عند الله، فإذ وقد اعترفوا أنهم عبدوا الشريك ليقربهم إلى الله زلفى فتح القائل على نفسه باب الاعتراض عليه بأن يقال له: ومن أين علمتم أن هذه الحجارة أو غيرها لها عند الله من المكانة بحيث إنْ جعلها معبودة لكم كما قال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٣] فالذين عبدوا من ينطق ويدعي الألوهة أقرب حالاً من عبادة من لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً، وهذا قول إبراهيم لأبيه وهو الذي قال فيه تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٣] وأبوه من قومه وهذه وغيرها من الحجة التي أعطاها الله فأمرهم الله أن لا يعبدوا إلاّ إلهاً واحداً لا إله إلاّ هو في نفس الأمر سبحانه أي هو بعيد أن يشرك في ألوهته فهذا توحيد الأمر.

التوحيد الحادي عشر: من نفس الرحمن قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٩] هذا توحيد الاستكفاء وهو من توحيد الهوية لما قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢] فأحالنا علينا بأمره فبادرنا لامتثال أمره، فمنا من قال: لولا أن الله قد علم أن لنا مدخلاً صحيحاً في إقامة ما كلفنا من البرّ والتقوى ما أحالنا علينا، ومنا من قال: التعاون الذي أمرنا به على البرّ والتقوى أن يردّ كل واحد منا صاحبه إلى ربه في ذلك ويستكفي به فيما كلفه وهو قوله: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢٨] خطاب تحقيق ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٣] خطاب ابتلاء، فإذا سمع القوم الذين قالوا إن لنا مدخلاً محققاً في العمل ولهذا أمرنا بالتعاون ما قاله من جعله خطاب ابتلاء أو حمله على الردّ إلى الله في ذلك لما علمنا أن نقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ وهو قول موسىٰ لقومه، مع أنهم ما طلبوا معونة الله إلاً وعندهم ضرب من الدعوى، ولكن أعلى من أصحاب المقام الأوّل وأقرب إلى الحق، فتولوا عنهم في هذا النظر ولم يقولوا به، فكيف حالهم مع من هو مشهده ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] فقال تعالىٰ لهم: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عمّا دعوتموهم إليه ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي في الله الكفاية ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ فإذا كان رب العرش والعرش محيط بعالم الأجسام وأنت من حيث جسميتك أقل الأجسام فاستكف بالله الذي هو رب مثل هذا العرش، ومن كان الله حسبه انقلب بنعمة من الله وفضل لم يمسسه سوء وجاء في ذلك بما يرضي الله، والله ذو فضل عظيم على من جعله حسبه، والفضل الزيادة أي ما يعطيه على موازنة عمله بل أزيد من ذلك ممّا يعظم عنده إذا رآه ذوقاً.

ومن أعجب ما رأيت من بعض الشيوخ من أهل الله ممّن كان مثل أبي يزيد في الحال وربما أمكن منه فيه فقعدت مع هذا الشخص يوماً بجامع دمشق وهو يذكر لي حاله مع الله وما يجري له معه في وقائعه فقال لي: إن الحق ذكر له عظم ملكه، قال الشيخ: فقلت له: يا رب ملكي أعظم من ملكك، فقال لي: كيف تقول وهو أعلم؟ فقلت له: يا رب لأن مثلك في ملكي فإنك لي تجيبني إذا دعوتك وتعطيني إذا سألتك وما في ملكك مثلك، قال: فقال لي: صدقت وما رأيت أحداً ذهب إلى ما يقارب هذا المذهب أو هو هو سوى محمد بن عليّ الترمذي الحكيم فإنه يقول في هذا المقام: مقام ملك الملك، وقد شرحناه في مسائل الترمذي في هذا الكتاب التي سأل عنها أهل الله في كتاب ختم الأولياء ثم بكى هذا الشيخ أدباً مع الله ويقول: يا أخي هو يجزئني عليه ويباسطني فكنت أقول له: إذا كان يفرح بتوبة عبده كما قاله عنه رسوله ﷺ فكيف يكون نظره إلى العارفين به؟

التوحيد الثاني عشر: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٠] هذا توحيد الاستغاثة وهو توحيد الصلة فإنه جاء بالذي في هذا التوحيد وهو من الأسماء الموصولة، وجاء بهذا ليرفع اللبس عن السامعين كما فعلت السحرة لما آمنت برب العالمين فقالت: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [سورة

الأعراف: الآية ١٢٢] لرفع اللبس من أذهان السامعين، ولهذا توعدهم ثم تمّم وقال: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٠] لما علم أن الإله هو الذي ينقاد إليه ولا ينقاد هو لأحد. قال علي بن أبي طالب: أهللت بما أهلّ به رسول الله ﷺ وهو لا يعرف بما أهلّ به فقبل منه مع كونه أهلّ على غير علم محقق، فأحرى إذا كان على علم محقق فاعلم بذلك فرعون ليعلم قومه برجوعه عمّا كان ادّعاه فيهم من أنه ربهم الأعلى فأمره إلى الله فإنه آمن عند رؤية البأس وما نفع مثل ذلك الإيمان فرفع عنه عذاب الدنيا إلاّ قوم يونس ولم يتعرض للآخرة. ثم إن الله صدّقه في إيمانه بقوله: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [سورة يونس: الآية ٩١] فدل على إخلاصه في إيمانه، ولو لم يكن مخلصاً لقال فيه تعالىٰ كما قال في الأعراب ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٤] فقد شهد الله لفرعون بالإيمان وما كان الله ليشهد لأحد بالصدق في توحيده إلاّ ويجازيه به وبعد إيمانه، فما عصى فقبله الله إن كان قبله طاهراً، والكافر إذا أسلم وجب عليه أن يغتسل فكان غرقه غسلاً له وتطهيراً حيث ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ﴾ في تلك الحالة ﴿نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [سورة النازعات: الآية ٢٥] وجعل ذلك ﴿لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [سورة النازعات: الآية ٢٦] وما أشبه إيمانه إيمان من غرغر فإن المغرغر موقن بأنه مفارق قاطع بذلك، وهذا الغرق هنا لم يكن كذلك لأنه رأى البحر يبساً في حق المؤمنين فعلم أن ذلك لهم بإيمانهم فما أيقن بالموت بل غلب على ظنه الحياة فليس منزلته منزلة من حضره الموت فقال: ﴿إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٨] ولا هو من الذين يموتون وهم كفار فأمره إلى الله تعالىٰ. ولما قال الله له: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [سورة يونس: الآية ٩٢] كما كان قوم يونس، فهذا إيمان موصول، وقدم الهوية لبعيد ضميريه عليه ليلحق بتوحيد الهوية.

التوحيد الثالث عشر: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [سورة هود: الآية ١٤] هذا توحيد الاستجابة، وهو توحيد الهو وهو توحيد غريب، فإن قوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾ يعني المدّعين لكم يعني الداعين ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ فالضمير في فاعلموا يعود على الداعين وهم عالمون بأنه إنما أنزل بعلم الله، ولو أراد المدعين لقال فيعلموا بالياء كما قال: ﴿يَسْتَجِيبُوا۟﴾ بياء الغيبة، ثم قال: ﴿وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي واعلموا أنه لا إله إلاّ هو كما علمتم أنه إنما أنزل بعلم الله، ثم قال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وقد كانوا مسلمين، وهذا كله خطاب الداعين إن كانت هل على بابها، وإن كانت هنا مثل ما هي في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ [سورة الإنسان: الآية ١] اعتماداً على قرينة الحال فأخرجت عن الاستفهام، وإلاّ فما هذا خطاب الداعين إلاّ أن يكون مثل قولهم: إياك أعني فاسمعي يا جاره. فالخطاب لزيد والمراد به عمرو ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٥] ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٤] ومعلوم أنه مغفور له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر وهو على بينة من ربه في مآله، فعلمنا بقرائن الأحوال أنه المخاطب والمراد غيره لا هو، وحكمة ذلك مقابلة الإعراض

بالإعراض لأنهم أعرضوا عن قبول دعوة الداعين، فأعرض الله عنهم بالخطاب والمراد به هم فأسمعهم في غيرهم.

وأمّا فائدة العلم في ذلك فهي أن تقول لما علم الله أن قوماً لا يؤمنون ارتفعت الفائدة في خطابهم وكان خطابهم عبثاً فأخبرهم الله تعالىٰ أن نزول الخطاب بالدعوة لمن ليس يقبله في علم الله أنه إنما أنزل بعلم الله أي سبق في علم الله إنزاله فلا بدّ من إنزاله لأن تبدّل المعلوم محال كما قال ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] لأنه سبق في علم الله أن تكون خمس صلوات في العمل وخمسون في الأجر، فما زال يحط من الخمسين بعلم الله إلى أن انتهى إلى علم الله بإثبات الخمس فمنع النقص من ذلك وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ وهكذا يكون الله علمه في الأشياء سابق لا يحدث له علم بل يحدث التعلّق لا العلم، ولو حدث العلم لم تقع الثقة بوعده لأنا لا ندري ما يحدث له. فإن قلت: فهذا أيضاً يلزم في الوعيد. قلنا: كذا كنا نقول ولكن علمنا أنه ما أرسل رسولاً ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤] وبما تواطؤا عليه من كل ما هو محمود فيعاملهم بذلك في شرعهم كذا سبق علمه، وهذا لسان عربيّ مبين، وممّا يتمدح به أهل هذا اللسان بل هو مدح في كل أمة التجاوز عن إنفاذ الوعيد في حق المسيء والعفو عنه والوفاء بالوعد الذي هو في الخير وهو الذي يقول فيه شاعر العرب: [الطويل]

وإنــي إذا أَوْعَــدْتُــه أو وَعَــدْتُــه   لَمُـخْـلِـفُ إيـعادي ومُـنْـجِـزُ مَـوْعِـدي

فكان إنزال الوعيد بعلم الله الذي سبق بإنزاله ولم يكن في حق قوم إنفاذه في علم الله، ولو كان في علم الله لنفذ فيهم كما ينفذ الوعد الذي هو في الخير لأن الإيعاد لا يكون إلاّ في الشرّ، والوعد يكون في الخير وفي الشرّ معاً، يقال: أوعدته في الشرّ ووعدته في الشرّ والخير، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ فما بيّن لهم تعالىٰ التجاوز عن السيئات في حق من أساء من عباده والأخذ بالسيئة من شاء من عباده ولم يفعل ذلك في الوعد بالخير، فأعلمنا ما في علمه، فكما هو واحد في ألوهيته هو واحد في أمره، فما أنزل إلاّ بعلم الله سواء نفذ أو لم ينفذ.

التوحيد الرابع عشر: من نفس الرحمن وهو قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٠] هذا توحيد الرجعة وهو توحيد الهوية، أخبر أنهم يكفرون بالرحمن لأنهم جعلوا هذا الاسم إذ لم يكن عندهم ولا سمعوا به قبل هذا فلما قيل لهم: ﴿ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ﴾ هذا الاسم ﴿نُفُورًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٠] فإنهم لا يعرفون إلاّ الله الذين يعبدون الشركاء ليقربوهم إلى الله زلفى، ولما قيل لهم: اعبدوا الله لم يقولوا: وما الله؟ وإنما أنكروا توحيده، وقد نقل أنهم كانوا يعرفونه مركباً الرحمن الرحيم اسم واحد كبعلبك ورام هرمز، فلما أفرده وبغير نسب أنكروه فإنه يقال في النسب بعليّ فقال لهم الداعي الرحمن هو ربي ولم يقل هو الله وهم لا ينكرون الرب، ولما كان الرحمن له النفس وبالنفس حياتهم فسره بالرب لأنه المغذي وبالغذاء

حياتهم، فلا يفرقون من الرب ويفرقون من الله، ولهذا عبدوا الشركاء ليشفعوا لهم عند الله إذ بيده الاقتدار الإلهيّ والأخذ الشديد وهو الكبير عندهم المتعالي فهم معترفون مقرّون به، فتلطف لهم بالعبارة بالاسم الرب ليرجعوا فهو أقرب مناسبة بالرحمن قال لموسىٰ وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٤٤] والترجي من الله واقع كما قالوا في عسى فإنهما كلمتا ترج ولم يقل لهما لعله يتذكر أو يخشى في ذلك المجلس ولا بدّ ولا خلصه للاستقبال الأخراوي فإن الكل يخشونه في ذلك الموطن، فجاء بفعل الحال الذي يدخله الاحتمال بين حال الدنيا وبين استقبال التأخير للدار الآخرة، وذلك لا يكون مخلصاً للمستقبل إلاً بالسين أو سوف، فالذي ترجى من فرعون وقع لأن ترجيه تعالىٰ واقع، فآمن فرعون وتذكر وخشي كما أخبر الله وأثر فيه لين قول موسىٰ وهارون ووقع الترجي الإلهي كما أخبر، فهذا يدلك على قبول إيمانه لأنه لم ينص إلاً على ترجي التذكر والخشية لا على الزمان، إلاً أنه في زمان الدعوة ووقع ذلك في زمان الدعوة وهو الحياة الدنيا وأمر نبيه أن يقول بحيث يسمعون: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في أمركم ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٠] أي مرجعي في أمركم عسى يهديكم إلى الإيمان، فما أغلظ لهم بل هذا أيضاً من القول اللين لتتوفر الدواعي من المخاطبين للنظر فيما خاطبهم به، إذ لو خاطبهم بصفة القهر وهو غيب لا عين له في الوقت إلاً مجرّد إغلاظ القول لنفرت طباعهم وأخذتهم حمية الجاهلية لمن نصبوهم آلهة فأبقى عليهم وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٧] ولم يقل للمؤمنين، وكان سبب نزولها أن دعا على رعل وذكوان وعصية شهراً كاملاً في كل صلاة بأن يأخذهم الله فعتبه الله في ذلك، وفيه تنبيه على رحمة الله بعباده لأنهم على كل حال عباده معترفون به معتقدون لكبريائه طالبون القربة إليه، لكنهم جهلوا طريق القربة، ولم يوفوا النظر حقّه ولا قامت لهم شبهة قوية في صورة برهان، فكانوا يدخلون بها في مفهوم قوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧] ويريد بالبرهان هنا في زعم الناظر، فإنه من المحال أن يكون ثم دليل في نفس الأمر على إله آخر، ولم يبق إلاً أن تظهر الشبهة بصورة البرهان فيعتقدانها برهان وليس في قوّته أكثر من هذا.

التوحيد الخامس عشر: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [سورة النحل: الآية ٢] هذا توحيد الإنذار وهو توحيد الإنابة استوى في هذا التنزّل في التوحيد رسل البشر والمرسلون إليهم، فإن الملائكة هي التي نزلت بالإنذار من أجل أمر الله لهم بذلك، والروح هنا ما نزلوا به من الإنذار ليحيي بقبوله من قبله من عباده كما تحيي الأجسام بالأرواح، فحييت بهذا الروح المنزل رسل البشر فأنذروا به، فهذا توحيد عظيم نزل من جبار عظيم بتخويف وتهديد مع لطف خفيّ في قوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ أي فاجعلوني وقاية تدفعون بي ما أنذرتكم به هذا لطفه ليس معناه فخافوني لأنه ليس لله وعيد وبطش مطلق شديد ليس فيه شيء من الرحمة واللطف، ولهذا قال أبو يزيد

وقد سمع قارئاً يقرأ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [سورة البروج: الآية ١٢] فقال: بطشي أشد، فإن بطش المخلوق إذا بطش لا يكون في بطشه شيء من الرحمة، بل ربما ما يقدر أن يبلغ في المبطوش به ما في نفسه من الانتقام منه لسرعة موت ذلك الشخص، ولما كانت الرحمة منزوعة عن بطشه قال: بطشي أشد، وسبب ذلك ضيق المخلوق فإنه ما له الاتساع الإلهيّ، وبطش الله وإن كان شديداً ففي بطشه رحمة بالمبطوش به وبطش المخلوق ليستريح من الضيق والحرج الذي يجده في نفسه بما يوقعه بهذا به المبطوش فيطلب في بطشه الرحمة بنفسه في الوقت وقد لا ينالها كلها بخلاف الحق تعالىٰ فإن بطشه لسبق العلم يأخذ هذا المبطوش به للسبب الموجب له لا غير والمنتقم لغيره ما هو كالمنتقم لنفسه.

التوحيد السادس عشر: من نفس الرحمن وهو قوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٧، ٨] هذا توحيد الأبدال فإنه أبدل الله من الرحمن وهذا في المعنى بدل المعرفة من النكرة لأنهم أنكروا الرحمن، وفي اللفظ بدل المعرفة من المعرفة، وهو من توحيد الهوية القائمة بأحكام الأسماء الحسنى، لا أن الأسماء الحسنى تقوم معانيها بها، بل هي القائمة بمعاني الأسماء كما هو قائم على كل نفس بما كسبت، كذلك هو قائم بكل اسم بما يدل عليه وهذا علم غامض ولهذا قال في هذا التوحيد: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ لما قال: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ﴾ فالأخفى عن صاحب السرّ هو ما لا يعلمه ممّا يكون لا بدّ أن يعلمه خاصة وما تسمّى إلاّ بأحكام أفعاله من طريق المعنى فكلها أسماء حسنى، غير أنه منها ما يتلفظ بها ومنها ما يعلم ولا يتلفظ بها لما هو عليه حكمها في العرف من إطلاق الذم عليها فإنه يقول: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] وقدم الفجور على التقوى عناية بنا إلى الخاتمة والغاية للخير، فلو أخّر الفجور على التقوى لكان من أصعب ما يمرّ علينا سماعه، فالفجور يعرّض للبلاء، والتقوى محصل للرحمة وقد تأخّر التقوى فلا يكون إلاّ خيراً، وقال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥] ولا يشتق له منه اسم لما ذكرناه فله الأسماء الحسنى في العرف، وحسن غيرها مبطون مجهول في العرف إلاّ عند العارفين بالله، ويندرج في هذا العلم بسبب الألف واللام التي هي للشمول جميع ما ينطلق عليه اسم السرّ وما هو أخفى من ذلك السرّ، ومن السرّ النكاح قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٥] أي نكاحاً فإن الله أيضاً يعلمه، وإن كانت الآية تدل بظاهرها على ما يحدّث المرء به نفسه لقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ﴾ ذلك، ويعلم ما تحدث به نفسك وهو قوله: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] ومع هذا فإن الألف واللام لها حكم في مطلق اسم السرّ فيعلم ما ينتجه النكاح وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [سورة لقمان: الآية ٣٤] فإنه الخالق ما فيها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ لعلمه بالسرّ ﴿الْخَبِيرُ﴾ [سورة الملك: الآية ١٤] لعلمه بما هو أخفى. ومن هذه الحضرة نصب الأدلة على معرفته وجعل في نفوس العلماء تركيب المقدمات على الوجه الخاص والشرط الخاص، فأشبهت المقدمات النكاح من الزوجين بالوقاع ليكون منه الإنتاج، فالوجه الخاص الرابط بين

المقدمتين وهو أن واحداً من المقدمتين يتكرّر فيهما ليربط بعضهما ببعض من أجل الإنتاج، والشرط الخاص أن يكون الحكم أعمّ من العلة أو مساوياً لها حتى يدخل هذا المطلوب تحت الحكم، ولو كان الحكم أخص لم ينتج وخرج عنه كقولهم: كل ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، فالحادث هنا هو الحكم، والمقدمة الأخرى والأجسام لا تخلو عن الحوادث، فالحوادث هو الوجه الخاص الجامع بين المقدمتين فأنتج أن الجسم حادث ولا بدّ فالحكم أعمّ لأن العلة الحوادث القائمة به، والحكم كونه حادثاً، وما كل حادث يقال فيه إنه لا يخلو عن الحوادث فهذا حكم أعمّ من العلة فالنتيجة صحيحة، ثم الاستفصال في تصحيح المقدمتين معلوم الطريق في ذلك، وإنما قصدنا التمثيل لا معرفة حدوث الأجسام ولا غيرها، وإذا علمت أن الإيجاد لا يصحّ إلاّ على ما قررناه وهو بمنزلة السرّ في النكاح ينتقل إلى العلم بما هو أخفى من السرّ كما تنتقل ممّا ضربت لك به المثل إلى كون الحق أوجد العالم على هذا المساق وظهر العالم عن ذات موصوفة بالقدرة والإرادة فتعلقت الإرادة بإيجاد موجود ما وهو التوجه مثل اجتماع الزوجين فنفذ الاقتدار فأوجد ما أراد فكان أخفى من السرّ لجهلنا بنسبة هذا التوجّه إلى هذه الذات ونسبة الصفات إليها لأنها مجهولة لنا لا تعرف، فيعرف التوجّه والصفة من حيث عينه وعين الصفة، ويجهل كيفية النسبة لجهلنا بالمنسوب إليه لا بالمنسوب، فهذا توحيد الموجد للأشياء مع كثرة النسب فهو واحد في كثير فأوقع الحيرة هذا العلم في هذا المعلوم إلاّ لمن كشف الله عن عينه غطاء الستر فأبصر الأمر على ما هو عليه فحكم بما شاهد، واختلفوا هل يجوز وقوع مثل هذا أو لا يجوز؟

التوحيد السابع عشر: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [سورة طٰه: الآية ١٣، ١٤] هذا توحيد الاستماع وهو توحيد الإنابة وقوي بالجمع إذ قد قرىء «وأنا اخترناك» فكثّر ثم أفرد فقال إنني و«إن» كلمة تحقيق، فالانية هي الحقيقة، ولما كان حكم الكناية بالياء يؤثر في صورة الحقيقة نظرت من في الوجود على صورتها فوجدت نوناً من النونات فقالت لها: قني بنفسك من أجل كناية الياء لئلا تؤثر في صورة حقيقتي فيشهد الناظر والسامع التغيير في الحقيقة أن الياء هي عين الحقيقة، فجاءت نون الوقاية فحالت بين الياء ونون الحقيقة فأحدثت الياء الكسر في النون المجاورة لها فسميت نون الوقاية لأنها وقت الحقيقة بنفسها، فبقيت الحقيقة على ما كانت عليه لم يلحقها تغيير فقال: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ ولولا نون الوقاية لقال: إني أنا الله، فغيرها، وتغيير الحقيقة بالضمير في الآن هو مقام تجليه في الصور يوم القيامة وما ثم إلاّ صورتان خاصة لا ثالثة لهما صورة تنكر وصورة تعرف ولو كان ما لا يتناهى من الصور فإنها محصورة في هذا الحكم إما أن تنكر أو تعرف لا بدّ من ذلك، فإذا قرىء: «وأنا اخترتك» كان أحق بالآية وأنسب وأنفى للتغيير، فإنه ما زال التوحيد يصحبها إلى آخر الآية في قوله: ﴿فَٱعْبُدْنِى﴾ [سورة طٰه: الآية ١٤] وإذا قرىء بالجمع ظهر التغير بالانتقال في العين الواحدة من الكثير إلى الواحد، فمساق الآية يقوّي «وأنا اخترناك» لأنه عدد أموراً تطلب أسماء مختلفة، فلا بدّ من التغيير والتجلي في كل صورة يدعى

إليها، وكان جملة ما تحصل من الصور في هذه الواقعة لموسىٰ على ما روي إثنتي عشرة ألف صورة يقول له في كل صورة: يا موسىٰ، ليتنبه موسىٰ على أنه لو أقيم لصورة واحدة لاتسق الكلام ولم يقل في كل كلمة يا موسىٰ، فاعلم ذلك، فإن هذا التوحيد في هذه الآية من أصعب ما يكون لقوله: «وأنَّا اخترناك» فجمع ثم أفرد ثم عدد ما كلم به موسىٰ عليه، السلام، فهذا توحيد الجمع على كل قراءة، غير أن قوله: وأنا اخترناك قرأ بها حمزه على رب العزّة في المنام فقال له ربه: وأنا اخترناك فهي قراءة برزخية فلهذا جمع لأنه تجلّ صوري في منام، فلا بدّ أن تكون القراءة هكذا، فإذا أفردتها بعد الجمع فلأحدية الجمع لا غير.

التوحيد الثامن عشر: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ٩٨] هذا توحيد السعة من توحيد الهوية وهو توحيد تنزيه لئلا يتخيل في سعته الظرفية للعالم من أجل الاسم الباطن والظاهر، ونفس الرحمن والكلمات التي لا تنفد والقول فقال: إن سعته علمه بكل شيء لا أنه طرف لشيء، وسبب هذا التوحيد لما جاء في قصة السامريّ وقوله عن العجل لما نبذ فيه ما قبضه من أثر الرسول فكان العجل ظرفاً لما نبذ فيه، فلما خار العجل قال: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٨٨] فقال الله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ﴾ [سورة الكهف: الآية ١١٠] لا تركيب فيه ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ٩٨] أي هو عالم بكل شيء أكذب السامريّ في قوله ثم نصب لهم الدلالة على كذب السّامري مع كون العجل خار فقال مثل ما قال إبراهيم في الأصنام: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [سورة طه: الآية ٨٩] أي إذا سُئِل لا ينطق والله يكون متصفاً بالقول ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً أي لا ينتفعون به لأنه قال: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [سورة طه: الآية ٩٧] ومن لا يدفع الضرر عن نفسه كيف يدفع عن غيره؟ وإذا حرقه ونسفه لم ينتفع به فإنه لو أبقاه دخلت عليهم الشبهة بما يوجد في الحيوان من الضرر والنفع. وفي إقامة هذه الأدلة أمور كبار قال تعالىٰ عن اليهود أنهم قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٤] وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] وأصمنا عن إدراك هذا القول إلاّ بطريق الإيمان، وأعمانا عن توجهه على إيجاد الأشياء بما نصب من الأسباب فأنزل المطر فنزل وحرثت الأرض وبذر الحب وانبسطت الشمس وطلع الحب وحصد وطحن وعجن وخبز ومضغ بالأسنان وابتلع ونضج في المعدة وأخذه الكبد فطبخه دماً ثم أرسل في العروق وانقسم على البدن فصعد منه بخار فكان حياة ذلك الجسم من أجل ذلك النفس، فهذه أمهات الأسباب مع تحريك الأفلاك، وسير الكواكب، وإلقاء الشعاعات على مطارح الأنوار مع نظير النفس الكلية بإذن الله مع إمداد العقل لها، هذه كلها حجب موضوعة أمهات سوى ما بينها من دقائق الأسباب، فيحتاج السمع إلى شق هذه الحجب كلها حتى يسمع قول: ﴿كُن﴾ فخلق في المؤمن قوة الإيمان فسرت في سمعه فأدرك قول ﴿كُن﴾ وسرت في بصره فشاهد المكون للأسباب وفعل هذا كله من نفس الرحمن ليرحم بها من عبد غير الله إذا استوفى منه حقوق

لشركاء الذين يتبرؤون منهم يوم القيامة، فإذا استوفى حقوقهم بالعقوبة والانتقام رجع الأمر إليه على الإنفراد وانقضت الأيام التي استوجب الشركاء فيها حقوقهم، فلما انفرد ورجع الأمر إليه رحمهم فيما هو حق له بهذه الحجب التي ذكرناها لعلمه بما وضع وبأنه أنطق ألسنتهم بما قالوه وخلق في نفوسهم ما تخيلوه، فسبحانه من حكم عدل لطيف خبير يفعل ما ينبغي كما ينبغي لما ينبغي لا إله إلاّ هو فعّال لما يريد.

التوحيد التاسع عشر: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٥] هذا توحيد الإقتدار والتعريف وهو من توحيد الإناية وهو توحيد عجيب، ومثل هذا يسمّى التعريض أي كذا فكن أنت مثل قوله ما يقال لك إلاّ ما قد قيل للرسل من قبلك، وجاء بالعبادة ولم يذكر الأعمال المعينة فإنه قال: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٨] وذلك تعيين الأعمال وهي التي ينتهي فيها مدة الحكم المعبر عنه بالنسخ في كلام علماء الشريعة، وما ثم من الأعمال العامة السارية في كل نبوة إلاّ إقامة الدين والاجتماع عليه وكلمة التوحيد وهو قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [سورة الشورى: الآية ١٣] وبوّب البخاري على هذا باب ما جاء أن الأنبياء دينهم واحد وليس إلاّ التوحيد وإقامة الدين والعبادة، ففي هذا اجتمعت الأنبياء عليهم السلام، واختصاص هذا الوحي بالإناية دلّ على أنه كلام إلهيّ بحذف الوسائط فما أوحى إليهم منهم فإنه لا يقول أنا إلاّ من هو متكلم، فإن قيل فقد قال أنه ينزل بمثل هذا الملائكة، فهذا لا يبعد أن تأخذه الرسل من وجهين إذا نزلت به الملائكة يكون على الحكاية كما قال: [الوافر]

سَمِعْتُ النَّاسُ يَنْتَجِعُون غيثاً فقلتُ لِصَيْدَحَ انْتَجِعي بلالا

فرفع السين من« الناس» على الحكاية، فلو كان هذا السامع انتجاعهم لنصب السين فهذا قوله: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [سورة النحل: الآية ٢] ونزلت به الملائكة، وإذا ورد مثل هذا معرى عن القرائن أو النص عليه حمل على ما هو الأصل عليه فما يقول أنا إلاّ المتكلم، ألا ترى ما ذكرناه في الحديث المتقدم أن الله يصدق عبده في موطن، كما يحكى عنه في موطن فقال في التصديق: «**إذا قال العبد: لا إله إلاّ الله والله أكبر صدقه ربه فقال لا إله إلاّ أنا وأنا أكبر**» فهو القائل بالإناية لا غيره.

وأما حكايته ما قال فهو قوله: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٠] بهذا اللفظ عينه، فإن حكى على المعنى فمثل قوله عن فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ [سورة غافر: الآية ٣٦] فإنه قالها بلسان القبط ووقعت الترجمة عنه باللسان العربي والمعنى واحد، فهذه الحكاية على المعنى، فهكذا فلتعرف الأمور إذا وردت حتى يعلم قول الله من قول ما يحكيه لفظاً أو معنى كل إنسان بما هو عليه فقول الله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٨١] وانتهى كلام الله. ثم حكى معنى قولهم مترجماً عنهم

أقررنا وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ﴾ إلى هنا قول الله ﴿ءَامَنَّا﴾ حكاية ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ﴾ إلى هنا قول الله ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤] حكاية فإذا ذكرت فاعلم بلسان من تذكّر، وإذا تلوت فاعلم بلسان من تتلو وما تتلو وعمّن تترجم؟

التوحيد العشرون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٧] هذا توحيد الغم وهو توحيد المخاطب وهو توحيد التنفيس، كما نفس الرحمن عن محمد ﷺ بالأنصار فقال: «**إِنَّ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ يأتِينِي مِنْ قِبَلِ اليَمَنِ**» فكانت الأنصار التي تكونت من ذلك النفس الرحماني وهي كلمات الحق كما نفّس الله عن يونس بالخروج من بطن الحوت فعامل قومه بما عاملهم به من كونه كشف عنهم العذاب بعدما رأوه نازلاً بهم فآمنوا أرضاه الله في أمته ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٨] ولم يفعل ذلك مع أمة قبلها إذ كان غضبه لله ومن أجله وظنه بربه أنه لا يضيق عليه وكذلك فعل، ففرج الله عنه بعد الضيق ليعلم قدر ما أنعم الله به عليه ذوقاً كما قيل: أحلى من الأمن عند الخائف الوجل. فدلّ على أن يونس كان محبوباً بالله حيث خصّ قومه من أجله بما لم يخصّ به أمّة قبلها وعرفنا بذلك فقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٨] فأمدّ لهم في التمتع في مقابلة ما نالوه من الألم عند رؤية العذاب، فإنه معلوم من النفوس الإنسانية أن ليالي الأنس والوصال قصار، وإن كانت في نفس الأمر لها مدة طويلة وليالي الهجران والعذاب طوال، وإن كانت في نفس الأمر قصار كما ذكروا في تفسير أيام الدجال أنه أول يوم كسنة لشدة فجأة البلاء يطول عليهم ثم كشهر ثم كجمعة، فإذا استصحبوه كان كسائر الأيام المعلومة التي لا يطوّلها حال ولا يقصرها حال، وكما قيل في يوم القيامة إن مقداره خمسون ألف سنة لهول المطلع وما يرى الخلق فيه من الشدة وهو عند الآمنين الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر في الإمتداد كركعتي الفجر، وأين زمان ركعتي الفجر من زمان خمسين ألف سنة؟ فلما اشتدّ البلاء على قوم يونس وكانت اللحظة الزمانية عندهم في وقت رؤية العذاب كالسنة أو أطول ذكر أنه تعالىٰ جعل في مقابلة هذا الطول الذي وجدوه في نفوسهم أن متعهم إلى حين، فبقوا في نعيم الحياة الدنيا زماناً طويلاً لم يكن يحصل لهم ذلك لولا هذا البلاء، فانظر ما أحسن إقامة الوزن في الأمور وقد قيل: إن الحين الذي جعله غاية تمتعهم أنه القيامة والله أعلم، ورأينا من رأى منهم رجلاً رأينا أثر رجله في الساحل وكان أمامي بقليل فلم ألحقه فاكتلت طول قدمه في الرمل ثلاثة أشبار وثلثي شبر وكان من قوم يونس، وبعث إلينا بكلام عن حوادث تحدث بالأندلس حيث كنا سنة خمس وثمانين وسنة ست وثمانين وخمسمائة فما ذكر شيئاً إلاّ رأيناه وقع كما ذكر، فانظر في هذه العناية الإلهية بهذا النبي وما جاء به من الاعتراف في توحيده.

التوحيد الحادي والعشرون: من نفس الرحمن ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٦] هذا توحيد الحق وهو توحيد الهوية قال تعالىٰ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [سورة الدخان: الآية ٣٨] وهو قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٥] فلا إله إلاّ هو من نعت الحق، فالأمر الذي ظهر فيه موجود العالم هو الحق وما ظهر إلاّ في نفس الرحمن وهو العماء فهو الحق رب العرش الذي أعطاه الشكل الإحاطي لكونه بكل شيء محيطاً، فالأصل الذي ظهر فيه صور العالم بكل شيء من عالم الأجسام محيط، وليس إلاّ الحق المخلوق به، فكأنه لهذا القبول كالظرف يبرز منه وجود ما يحوي عليه طبقاً عن طبق عيناً بعد عين على الترتيب الحكمي، فأبرز ما كان فيه غيباً ليشهده فيوحده مع صدوره عنه فيحار إن عدده فما ثم غيره وإن وحده فيرى أن عينه ليس هو، فأوجد طرفين وواسطة لتميز الأعيان في العين الواحدة، فتعدّدت الصور وما تعدّدت الخشبية ولا العودية، فالعودية في كل صورة بحقيقتها من غير تبعيض وهذه الصورة ما هي هذه الصورة وليس ثم شيء زائد على العودية فقيل: ما ثم شيء، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [سورة ص: الآية ٢٧] ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩] قيل: فأين هو؟ قال: في عين التمييز فلا أقدر على إنكار التمييز ولا أقدر أثبت سوى عين واحدة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٦].

التوحيد الثاني والعشرون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة النمل: الآية ٢٦] هذا توحيد الخبء وهو من توحيد الهوية، لما كان الخبء النباتيّ تخرجه الشمس من الأرض بما أودع الله فيها الحرارة ومساعدة الماء بما أعطى الله فيه من الرطوبة فجمع بين الحرارة ومنفعل البرودة حتى لا تستقل الشمس بالفعل فظهرت الحياة في الحيّ العنصري وكان الهدهد دون الطير قد خصّه الله بإدراك المياه، كان يرى للماء السلطنة على بقية العناصر تعظيماً لنفسه وحماية لمقامه حيث اختصّ بعلمه ليشهد له بالعلم بأشرف الأشياء حيث كان العرش المستوي عليه الرحمن على الماء، فكان يحامي عن مقامه، ووجد قوماً يعبدون الشمس وهي على النقيض من طبع الماء الذي جعل الله منه كل شيء حيّ وعلم أنه لولا حرارة الشمس ما خرج هذا الخبء وأنها مساعدة للماء، فأدركته الغيرة في المنافر فوشى إلى سليمان عليه السلام بعابديها وزاد للتغليظ بقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النمل: الآية ٢٤] ينبهه على موضع الغيرة، والشمس وإن أخرجت خبء الأرض بحرارتها فهي تخبأ الكواكب بإشراقها وتظهر المحسوسات الأرضية بشروقها فلها حالة الخبء والإظهار، وبها حد الليل والنهار، فزاحمت من يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون، فابتلى الله الماء فأصبح غوراً، وابتلى الشمس فأمست آفلة، ففجر العيون فأظهر خبء الماء وفار التنور فأظهر خبء الشمس فأخرج الخبء في السموات والأرض فوسع كل شيء رحمة وعلماً فاستوى على العرش العظيم، إذ حكم على فلك الشمس بدورته وعلى الماء باستقراره وجريته فهما في كل درجة في خبء وظهور، فوحده الظهور بظهوره، ووحده الخبء بسدل ستوره، فعلم سبحانه ما يخفون وما يعلنون ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

التوحيد الثالث والعشرون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [سورة القصص: الآية ٧٠] هذا توحيد الاختيار وهو من توحيد الهوية، لما كان العالم كلمات الله تعالىٰ كانت نسبة هذه الكلمات إلى النفس الرحماني الطاهرة فيه نسبة واحدة، فكان يعطي هذا الدليل أنه لا يكون في العالم تفاضل ولا مختار بفضل عند الله على غيره، ورأينا الأمر على غير هذا خرج في الوجود عاماً في الموجودات فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٠] وقال: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] وقال: ﴿فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٥٥] وقال: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ [سورة الرعد: الآية ٤] مع كونها تسقى بماء واحد، فما ثم آية أحق بما هو الوجود عليه من التفاضل من هذه الآية حيث قال: ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ﴾ [سورة الرعد: الآية ٤] فظهر الاختلاف عن الواحد في الطعم بطريق المفاضلة، والواقع من هذا كثير في القرآن من تفضيل كل جنس بعضه على بعض حتى القرآن وهو كلام الله يفضل على سائر الكتب المنزّلة وهي كلام الله، والقرآن نفسه يفضل بعضه على بعض مع نسبته إلى الله أنه كلامه بلا شك، فآية الكرسي سيدة آي القرآن وهي قرآن، وآية الدين قرآن، فما أعجب هذا السر، فعلمنا من هذا أن الحكمة التي يقتضيها النظر العقلي ليست بصحيحة، وأن حكمة الله في الأمور هي الحكمة الصحيحة التي لا تعقل وإن كانت لا تعلم فما تجهل لكن لا تعين بمجرد فكر ولا نظر بل ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩]. ولقد رأيت في حين تقييدي لهذا التوحيد الذي يعطي التفاضل واقعة عجيبة أعطيت رقاً منشوراً عرضه فيما يعطي البصر ما يزيد على العشرين ذراعاً، وأما طوله فلا أحققه وهو على هذا الشكل المصور في الهامش:

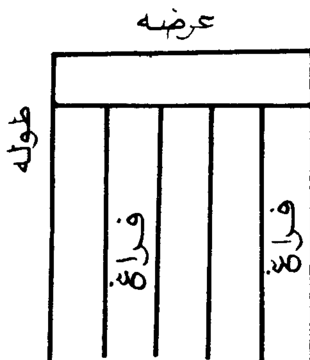

وهو جلد واحد جلد كبش تنظره فتراه أبيض عند القراءة، وتنظر إليه في غير قراءة فتراه أخضر، فإذا قرأته تراه جلداً، وإذا لم تقرأه تراه شقة لا أدري حريراً أو كتاناً وهو صداق أهلي فيقال لي: هذا صداق إلهيّ لأهلك، ولا أسأل عن الزوج ولا أعلم أنها خرجت عن عصمة نكاحي وأنا فارح بهذا الأمر مسرور غاية السرور، ثم يؤتى بسرقة حرير خضراء تنبعث من الكتاب كأنها منه تكوّنت فيها ألف دينار ذهباً عيناً كل دينار ثقيل لا أدري ما وزنه فيقال: قسمه على أهلها خمسة دنانير لكل شخص، فأوّل ما آخذ أنا منها خمسة دنانير عليها نور ساطع أعظم من ضياء أضوأ كوكب في السماء، له شعاع، وأرى نفس ذلك

الكتاب هو عين أهلي ما كتابها غيرها وأنا بكل جسمي راقد عليها متكىء فكنت أنظر إلى رقم ذلك الكتاب فأجده بخط زين الدين عبد الله بن الشيخ عبد الرحمن المعروف بابن الأستاذ قاضي مدينة حلب كتبه عن إملاء القاضي الكبير بهاء الدين بن شداد، والصداق من أوله إلى آخره مسجع الألفاظ تسجيعاً واحداً على رويّ الراء المفتوحة والهاء، فضبطت منه بعد البسملة: الحمد لله الذي جعل قرآنه وفرقانه وتوراته وإنجيله وزبوره رقوم هذا الكتاب المكنون وسطوره. وأودعه كل آية في الكتب وسوره. وأظهره في الوجود في أحسن صوره. وجعل أعلامه في العالم العلوي والسفليّ مشهوره. وآياته غير متناهية ولا محصورة. وكلماته بكل لسان في كل زمان وغير زمان مذكورة. هكذا على هذا الرويّ إلى آخره إن كان له آخر بخط مثل الذر، فلما رددت إلى حسّي وجدتني أكتب هذا الفصل من فصول التوحيد وإذا به توحيد الاختيار، فعلمت أن ذلك عين هذا الفصل وأن لأهلي من هذا الفصل أوفر حظ وأعظم نصيب.

فلما رأينا التفاضل والاختيار وقع في العالم حتى في الأذكار الإلهية المشروعة كما ذكرنا علمنا أن ثم أمراً معقولاً ما هو عين النفس ولا هو غير النفس الذي تتكوّن فيه الكلمات وهي أعيان الكائنات، فإذا بذلك عين المشيئة فيها ظهر هذا التفضيل في الواحد والتفضيل في المتساوي، والواحد لا يتصف بالتفضيل والمتساوي لا ينعت بالتفضيل، فعلمنا أن سرّ الله مجهول لا يعلمه إلاّ هو فوجدناه توحيد الاختيار في حضرة السرّ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ﴾ وهو حمد الإجمال ﴿وَٱلْآخِرَةِۖ﴾ [سورة القصص: الآية ٧٠] وهو حمد التفضيل، فتميزت المحامد في العين الواحدة فكان حمدها عينها، فما أعجب مقام هذا التوحيد لمن شاهده، وتعجبت من اسم أهلي في الواقعة واسمها مريم ومعنى هذا الاسم معلوم في اللسان الذي فيه سميت وهي محرّرة لله حاملة لروح الله محل لكلمة الله مثنيّ عليها بكلام الله مبرأة بشهادة ما سقط من التمر في هزّها جذع النخلة اليابس ونطق ابنها في المهد بأنه عبد الله وهما شاهدان عدلان عند الله فكانت كلها لله وبالله وعن الله، ولهذا غبطها زكريا نبي الله فتمنى مثلها على الله، فأعطاه يحيى حصوراً مثلها لم يجعل له سميا من قبل من أنبياء الله، فخصّه بالأولية من أسماء الله، فانظر في بركة هذا الاسم في وجود الله بين عباد الله، فهذا ما كان إلاّ من اختيار الله ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ﴾ [سورة القصص: الآية ٦٨] ما كان لهم الخيرة بل هي لله ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧].

التوحيد الرابع والعشرون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ﴾ [سورة القصص: الآية ٨٨] هذا توحيد الحكم بالتوحيد الذي إليه رجوع الكثرة إذ كان عينها وهو توحيد الهوية، فنهى كونه أن يدعو مع الله إلهاً فنكر المنهيّ عنه إذ لم يكن ثم إذ لو كان ثم لتعين، ولو تعين لم يتنكر، فدل على أنه من دعا مع الله إلهاً آخر فقد نفخ في غير ضرم واستسمن ذا ورم وكان دعاؤه لحماً على وضم، ليس له متعلق يتعين ولا حق يتضح ويتبين، فكان مدلوله دعائه العدم المحض فلم يبق إلاّ من له الوجود

المحض، فكل شيء يتخيل فيه أنه شيء فهو هالك في عين شيئته عن نسبة الألوهية إليه لا عن شيئته، فوجه الحق باق وهو ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٧] والآلاء الجسام، فما دعا من دعا إلاَّ إلى معروف فما هو الذي نكر فما هو عين ما ذكر، فالحق الخالص من كان في ذاته يعلم فلا يجهل ويجهل فلا يحاط به علماً، فعلم من حيث إنه لا يحاط به علماً وجهل من حيث إنه لا يحاط به علماً فعلم من حيث جهل فالعلم به عين الجهل به، فما ثم من يقبل الأضداد في وصفه إلاَّ الله.

التوحيد الخامس والعشرون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة فاطر: الآية ٣] هذا توحيد العلة وهو من توحيد الهوية، لو لم يوحد بالعلة كما يوحد بغيرهما لم يكن إلهاً لأن من شأن الإله أن لا يخرج عنه وجود شيء إذ لو خرج عنه لم يكن له حكم فيه وقد قال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] فلا بدّ أن يكون له توحيد العلة وهو أن يعبد بهذا التوحيد لسبب لكون العابد في أصل كونه مفتقراً إلى سبب، فلم يخرج عن حقيقته وسببه رزقه الذي به بقاء عينه، فتخيله المحجوب في الأسباب الموضوعة وهو تخيل صحيح أنه في الأسباب الموضوعة لكن بحكم الجعل لا بحكم ذاتها، فجاعل كونها رزقاً هو الله الذي ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بما ينزل منها من أرزاق الأرواح ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بما يخرج منها من أرزاق الأجسام، فهو الرازق الذي بيده هذا الرزق، غير أن الحجب لما أرسلها الله على بعض أبصار عباد الله ولم يدركوا إلاَّ مسمّى الرزق لا مسمّى الرازق قالوا هذا فقيل لهم ما هو هذا هو في هذا مجعول من الذي خلقكم، فكما خلقكم هو رزقكم فلا تعدلوا به ما هو له ومنه فأنتم ومن اعتمدتم عليه سواء، فلا تعتمدوا على أمثالكم فتعتمدوا على الكثرة، والاعتماد على الكثرة يؤدّي إلى عدم حصول ما وقع فيه الاعتماد، إذ كل واحد من الكثيرين يقول غيري يقوم له بذلك فلا يقوم له شيء فيدعوه الحال الصحيح إلى التفرّغ والتجرّد إلى واحد على علم من ذلك الواحد أنه تجرّد إليه وتفرغ ممّا سواه فتعين القيام به عليه، فأدّى إلى حصول المطلوب من وراء حجاب في حق قوم، وعلى الشهود والكشف في حق آخرين وهم أهل الله وخاصته.

التوحيد السادس والعشرون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٣٥] هذا توحيد التعجّب وهو توحيد الله لا توحيد الهوية، فقوله: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي يستعظمون ذلك ويتعجبون منه كيف يصحّ في الكون لا إله إلاَّ الله، والشيء لا يكون إلاَّ على صورة واحدة وعين واحدة، والصور كثيرة مختلفة بالحد والحقيقة وبيدها المنع والعطاء وذلك لله ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٥] أي الكثرة في عين الواحد ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [سورة القصص: الآية ٣٦] فما أنكروه ولا ردّوه بل استعظموه واستكبروه وتعجبوا كيف تكون الأشياء شيئاً واحداً، واستكبروا مثل هذا الكلام من مثل هذا الشخص حيث علموا أنه منهم وما شاهد إلاَّ ما شاهدوه، فمن أين له هذا الذي ادّعاه؟ فحجبهم الحسّ عن معرفة النفس والاختصاص الإلهيّ

فامتثلوا أمر الله من حيث لا يشعرون لأنه الآمر عباده بالاعتبار وهو التعجّب فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣] وقال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢] فاعتبروا كما أمروا فهم من أولي الأبصار وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [سورة ص: الآية ٧] لما جاءهم التعريف بهذا على يدي واحد منهم ولم يعرفوا العناية الإلهية والاختصاص الربانيّ، والاختلاق لم يكن فيما تعجبوا منه لأنه لو أحالوه بالكلية ما تعجبوا، وإنما نسبوا الاختلاق لمن جاء به إذ كان من جنسهم، وممّا يجوز عليه ذلك حتى يتبين لهم برؤية الآيات فيعلمون أنه ما اختلق هذا الرسول وأنه جاءه من عند الله الذي عبد هؤلاء هذه المسمّاة آلهة عندهم على جهة القربة إلى الله الكبير المتعالي فأنزلوهم بمنزلة الحجبة للملك وأعطوهم اسمه كما يعطى اسم الولاية لكل وال، وإن كان الوالي هو الله فالولاة كثيرون، فكأنه أخبرهم عن الله أنه ما ولى هؤلاء الذي يعبدون بل آباؤكم نصبوهم آلهة هذا الإله الذي أدعوكم إليه تعرفونه وأنه اسمه الله لا تنكرونه وأنتم القائلون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] فسميتموه فسموا آلهتكم فتعرفوا عند ذلك الأمر الحق بيد من هو؟ هل هو بأيديكم أو بيدي؟ يقول الرسول: فلما عرفوا قوله وتحققوه علموا أنهم في فضيحة لأنهم إذا سمّوهم لم يسموهم الله ولا عقلوا من أسمائهم مسمّى الله فإنهم عارفون بأسمائهم فقالوا مثل ما قال قوم إبراهيم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٥] فتلك الحجة الإلهية عليهم منهم فما حاجهم إلاّ بهم ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٣].

التوحيد السابع والعشرون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦] هذا توحيد الإشارة فما في الكون مشار إليه إلاّ هو ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ لأن الإشارة لا تقع من المشير إلاّ لأمر حادث عنده، وإن لم يكن في عينه في نفس الأمر حادثاً ولكنه يعلم أنه حدث عنده وما يحدث أمر عند من يحدث عنده إلاّ ولا بدّ أن يجهل أمره عندما يحدث عنده لشغله بحدوثه عنده وأثره فيه فيشير إليه في ذلك الوقت، وفي تلك الحالة رفيقه وهو على نوعين، إذ ماله رفيق سوى اثنين: إمّا عقله السليم، وإما شرعه المعصوم، وما ثم إلاّ هذا لأنه ما ثم من يقول له في هذه الإشارة ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلاّ أحد هذين القرينين: إما العقل السليم أو الشرع المعصوم، وما عدا هذين فإنه يقول له خلاف ما قال هذان القرينان فيقول له: هذا الدهر وتصرّفه، ويقول الآخر: هذه الطبيعة وأحكامها، ويقول الآخر: هذا حكم الدور، فيصرفه كل قائل إلى ما يراه فهو قول هذين القرينين ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤] بالقرآن ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦] الخارجين عن حكم هذين القرينين ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤].

التوحيد الثامن والعشرون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [سورة غافر: الآية ٣] هذا توحيد الصيرورة وهو من توحيد الهوية وهو على

الحقيقة مقام الإيمان لأن المؤمن من اعتدل في حقّه الخوف والرجاء واستوت فيهما قدماه فلم يحكم فضله في عدله ولا عدله في فضله، فكما تجلى في شديد العقاب تجلّى في الطول الأعم المؤيد بغافر الذنب وقابل التوب ولم يجعل للشديد العقاب مؤيداً وذلك للدعوى في الشدّة، فوكل إلى ما ادعاه فهو غير معان ومن لم يدع فهو معان فإنها ولاية في الخلق، ولأنه جاء بالشدة في العقاب ولم يجىء في الطول مثل هذه الصفة، فلهذا شدّد أزره بـ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [سورة غافر: الآية ٣]، فأشار إلى ذوي الأفهام من عباده بإعانة ذي الطول بغافر الذنب وقابل التوب على الشديد العقاب إلى ترك الدعوى، فإن الشديد في زعمه أنه لا يقاوم، ولو علم أن ثم من يقاومه ما ادّعى ذلك فنبّه تعالىٰ عباده على ترك الدعوى، فيكون الحق يتولى أمورهم بنفسه وعصمهم في حركاتهم وسكناتهم ليقفوا عند ذلك ويعلموا أنه الحق.

التوحيد التاسع والعشرون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٢] هذا توحيد الفضل وهو من توحيد الهوية لأنه جاء بعد قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٠] فيكون هذا التوحيد شكراً لما تفضل به الله على الناس مع قوله: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧] أراد في المنزلة فإن الجرم يعلمه كل أحد ولكن ما تفطن الناس لقوله تعالىٰ: ﴿أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ من كونهم ناساً ولم يقل: أكبر من آدم ولا من الخلفاء، فإنه ما خلق على الصورة من كونه من الناس، إذ لو كان كذلك لما فضل الناس بعضهم بعضاً ولا فضلت الرسل بعضهم بعضاً، ففضل الصورة لا يقاومها فضل فقوله: ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إذ كان الفاضل ممّن له أيضاً هذا الاسم، والمراد بالفضل العام والخاص فوحده بلسان العموم والخصوص فظهر توحيد الفضل من حضرة الكرم والبذل.

التوحيد الثلاثون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٥] هذا توحيد الحياة وهو توحيد الكل، وهو من توحيد الهوية الخالصة، والحياة شرط في كل متنفس، فلهذا هذا العالم حيّ بما فيه من الأبخرة الصاعدة منه، فتوحيد الحياة توحيد الكل، فإنه ما ثم إلاَّ حيّ فإنه ما ثم إلاَّ الحق وهو المسبح نفسه بما أعطى الرحمن في نفسه من الكلام الإلهيّ فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ١٧] وما ثم إلاَّ العالم وما من شيء من العالم إلاَّ وهو مسبح بحمده ولا ثناء أكمل من الثناء بالأحدية فإن فيها عدم المشاركة، فالتوحيد أفضل ثناء وهو لا إله إلاَّ الله فلهذا قلنا أنه توحيد الحياة وتوحيد الكل وهو إخلاص التوحيد لله من الله ومن العالم.

التوحيد الحادي والثلاثون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [سورة الدخان: الآية ٨] هذا توحيد البركة لأنه في السورة التي ذكر

فيها أنه أنزله في ليلة مباركة وهي ليلة القدر الموافقة ليلة النصف من شعبان المخصوصة بالآجال ولهذا نعت هذا التوحيد بأنه يحيي ويميت وهو قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤] أي محكم فتظهر الحكم فيه التي جاءت بها الرسل الإلهيون ونطقت بها الكتب الإلهية رحمة بعباد الله عامة وخاصة، فكل موجود يدركها وما كل موجود يعلم من أين صدرت فهي عامة الحكم خاصة العلم، إذ كانت الاستعدادات من القوابل مختلفة، فأين نور الشمس من نور السراج في الإضاءة؟ ومع هذا فأخذ الشمس من السراج اسمه وافتقر إليه مع كونه أضوأ منه وجعل نبيه في هذا المقام سراجاً منيراً وبه ضرب الله المثل في نوره الذي أنار به السموات والأرض فمثل صفته بصفة المصباح، ثم ذكر ما أوقع به التشبيه ممّا ليس في الشمس من الإمداد والاعتدال مع وجود الاختلاف بذكر الشجرة من التشاجر الموجود في العالم لاختلاف الألسنة والألوان التي جعل الله فيها من الآيات في خلقه، وذكر المشكاة وما هي للشمس فنور السموات والأرض الذي هو نور الله مشكاة يعرفها من وحدّه بهذا التوحيد المبارك الذي هو توحيد البركة، وفي هذه المشكاة مصباح وهو عين النور الذي تحفظه هذه المشكاة من اختلاف الأهواء وحكمها فيما يقع في السرج من الحركة والاضطراب، وإذا تقوّت الأهواء أدّى إلى طفي السرج كذلك يغيب الحق بين المتنازعين ويخفى ويحصل فيه الحيرة لما نزلت ليلة القدر تلاحَى رجلان فارتفعت فإنها لا تقبل التنازع، ولما كانت الأنبياء لا تأتي إلاَّ بالحق وهو النور المبين لذلك قال عليه السلام« عَنْدَ نَبِيّ لا يَنْبَغِي تَنَازُع »فلا ينازع من عنده نور، ثم إن لهذا المصباح الذي ضرب به المثل فللنور الإلهي زجاجة يعرفك هذا التوحيد ما هي تلك الزجاجة وليس ذلك للشمس، والزجاجة تشبه الكوكب الدري فإذا كان المحل الذي ظهر فيه المصباح مشبه بالكوكب الدريّ الذي هو الشمس فكيف يكون قدر السراج في المنزلة وهو صاحب المنزل؟ ثم قال في هذا السراج أنه توقد أي يتوقد ويضيء ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] فلا بدّ للنور الإلهيّ من حقيقة بها يقع التشبيه بالشجرة كما جاء في اختلاف الأسماء الإلهية من الضار النافع، والمعز المذل، والمحيي المميت، وأسماء التقابل. ثم إن هذه الشجرة ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] فوصفها بالاعتدال فلهذا كان السراج المذكور الذي وقع به التشبيه هو السراج الذي في المشكاة والزجاجة فيكون محفوظاً عن الحركة والاضطراب لكون الشجرة لا شرقية ولا غربية، فهذا كله لا يوجد في غير السراج ولا بدّ أن يعتبر هذا كله في النور الإلهيّ.

التوحيد الثاني والثلاثون: من نفس الرحم هو قوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ١٩] هذا توحيد الذكرى وهو توحيد الله. فاعلم أن الإنسان لما جبله الله على الغفلات رحمة به فيغفل عن توحيد الله بما يطالعه في كل حين من مشاهدة الأسباب التي يظهر التكوين عندها وليس ثمة إدراك يشهد به عين وجه الحق في الأسباب التي يكون عنها التكوين وهو لاستيلاء الغفلة، وهذا الغطاء يتخيل أن التكوين من عين الأسباب، فإذا جاءته الذكرى على أي وجه جاءته علم بمجيئها أنها

تدل لذاتها على أنه لا إله إلاّ الله، وأن تلك الأسباب لولا وجه الأمر الإلهيّ فيها أو هي عين الأمر الإلهيّ ما تكوّن عنها شيء أصلاً، فلما كان هذا التوحيد بعد ستر رفعته الذكرى أنتج له أن يسأل ستر الله للمؤمنين والمؤمنات فإن لرفع الستر ووجود الكشف عند الرفع أو العلم بأنه عين الستر لا غيره لذة لا يقدر قدرها فهي من منن الله على عبده.

التوحيد الثالث والثلاثون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٢] هذا توحيد العلم وهو من توحيد الهوية، وهو توحيده من حيث التفرقة لأنه ميّز بين الغيب والشهادة وجمع بين العلم والرحمة وهذا لا يكون إلاّ في العلم اللدني، وهو العلم الذي ينفع صاحبه، قال في عبده الخضر: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] وهو قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ثم قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] من قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فعلم الرحمة يكون معه اللين والعطف وهو الذي من لدنه والغصن اللدن هو الرطيب ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ٤٠] فعظمه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ وما أرسل إلاّ بالعلم ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٧] فجعل إرساله رحمة فهو علم يعطي السعادة في لين ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فالعلم وإن كان شريفاً فإن له معادن أشرفها ما يكون من لدنه، فإنّ الرحمة مقرونة به ولها النفس الذي ينفس الله به عن عباده ما يكون من الشدّة فيهم.

التوحيد الرابع والثلاثون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٣] هذا توحيد النعوت، وهو من توحيد الهوية المحيطة فله النعوت كلها نعوت الجلال، فإن صفات التنزيه لا تعطي الثبوت والأمر وجودي ثابت، فلهذا قدم الهوية وأخّرها حتى إذا جاءت نعوت السلب وحصلت الحيرة في قلب السامع منعت الهوية بإحاطتها أن يخرج السامع إلى العدم فيقول: فما ثم شيء وجوديّ إذ قد خرج عن وجود العقل والحسّ فيلحقه بالعدم فتمنعه الهوية فإن الضمير لا بدّ أن يعود على أمر مقرّر فافهم.

التوحيد الخامس والثلاثون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٣] هذا توحيد الرزايا والرجوع فيها إلى الله ليزول عنه ألمها إذ رأى ما أصيب فيه قد حصل بيد من يحفظ عليه وجوده، ولهذا أثنى الله على من يقول إذا أصابته مصيبة ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٦] فهم لله في حالهم، وهم إليه راجعون عند مفارقة الحال، فمن حفظ عليه وجوده وحفظ عليه ما ذهب منه وكان ما حصل عنده أمانة إلى وقتها فما أصيب ولا رزي، فتوحيد الرزايا أنفع دواء يستعمل ولذلك أخبر بما لهم منه تعالىٰ في ذلك فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ والرحمة لا يكون معها ألم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٧] يقول: الذين تبين لهم الأمر على ما هو عليه في نفسه قسمين: مصيبة في حقه لنزولها به وفي حق من ليس له هذا الذوق لنزول ألمها في قلبه فيتسخط فيحرم خيرها.

التوحيد السادس والثلاثون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٩] هذا توحيد الوكالة وهو من توحيد الهوية في هذا التوحيد، ملك الله العالم الإنساني جميع ما خلقه له من منافعه وأمره أن يوكل الله في ذلك ليتفرّغ الإنسان لما خلق له من عبادة ربه في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] وأين هذا المقام من قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٧] فجعل الإنفاق بأيديهم والملك لله، وفي هذا القدر الذي أمرهم به من الإنفاق فيه أمرهم أن يتخذوه وكيلاً فلا تنافر بين المقامين، فالملك لله والإنفاق للعبد، بحث الأمر وما أطلق له في ذلك، وفي الإنفاق أمر الله أن يوكل الله في ذلك لعلمه بمواضع الإنفاق والمصارف التي ترضى رب المال في الإنفاق، فنزل الشرائع أبانت له مصارف المال فأنفق على بصيرة بنظر الوكيل، فمن أنفق فيما لم يأمره الوكيل بالإنفاق فيه فعلى المنفق قيمة ما استهلك من مال من استخلفه فيه ولا شيء له فإنه مفلس بحكم الأصل فلا حكم عليه، فأعطاه هذا التوحيد رفع الحكم عنه فيما أتلف من مال من استخلفه، وهذا آخر تهليل ورد في القرن الذي وصل إلينا وهو ستة وثلاثون مقاماً قد ذكرناها بكمالها مبينة إلهية قرآنية ذكر الله بها نفسه وأمرنا أن نذكره بها فامتثلنا، فلما ذكرناه بها علمنا من لدنه علماً، وكان ذكرها رحمة منه بنا، فهذا قد أدينا العشر الواجب علينا مكملاً فوقع في يد الحق فيتولى تربيته إلى وقت اللقاء ورد الأمانات إلى أهلها . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

الفصل العاشر في الذكر بالحوقلة: وهو قول: لا حول ولا قوّة إلاَّ بالله، وهو ذكر كل حامل بقدر ما حمل، فالذاكرون به على طبقات كما أنهم في الصورة على طبقات، فمن كان أكثر دخولاً كان أكثر دؤوباً على هذا الذكر، والذي حاز الكمال فيها كان شرطه أن لا يفتر من هذا الذكر بالقول، كما أنه لا يفتر عنه بشاهد الحال، وهو كل مكلف في العالم، والعالم كله مكلف وما كلف به من العالم، ومن العالم ما هو مجبور فيما كلف حمله وهو المعبر عنه بفرائض الأعيان وفرائض الكفاية ما لم يقم واحد به فيسقط الفرض عن الباقي، ومن العالم ما لم يجبر في الحمل وإنما عرض عليه فإن قبله فما قبله إلاَّ لجهله بقدر ما حمل من ذلك كالإنسان لما عرضت عليه الأمانة﴿ وَحَمَلَهَا﴾ كان لذلك﴿ ظَلُومًا﴾ لنفسه﴿جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] بقدرها، ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ لما عرضت عليهنّ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] لمعرفتهنّ بقدر ما حملوا فلم يظلموا أنفسهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة يونس: الآية ٤٤] فما وصف أحد من المخلوقات بظلمه لنفسه إلاَّ الإنسان، فكان خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس في المنزلة، فإنهنّ كن أعلم بقدر الأمانة من الإنسان، فبهذا كن أيضاً أكبر من خلق الناس في المنزلة من العلم فإنهن ما وصفن بالجهل كما وصف الإنسان، وكذلك لما أمرنا بالإتيان أمر وجوب فإن لم يجبن جيء بهن على كره ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] لعلمهنّ بأن الذي أمرهنّ قادر على الإتيان بهنّ على كره منهنّ فقلن ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ فالإتيان حاصل والطوع في معرض الاحتمال أن يكنّ

صدقن في دعواهنّ، فإن كان الحق القائل فما كذبا بل صدقا، وإن كان القول بالواسطة فيحتمل ما قلناه، فالعالم منا إذا قال لا حول ولا قوّة إلاّ بالله يقولها على امتثال الأمر الإلهيّ والاقتداء، فالاقتداء قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] إذا كان الحق المتكلم وهي الاستعانة بالأسباب التي لا يمكن رفعها ولا وجود المسبب إلاّ بوجودها، والأمر قوله: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢٨] على حمل هذه المشقات بلا حول ولا قوّة إلاّ بالله. انتهى الجزء الحادي والعشرون ومائة.

(الجزء الثاني والعشرون ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الحادي عشر: في الاسم الإلهيّ البديع وتوجهه على كل مبدع وعلى إيجاد العقل الأول وهو القلم، وتوجهه على إيجاد الهمزة من الحروف ومراتبها، وتوجهه على إيجاد الشرطين من المنازل، وتوجهه بالإمداد الإلهيّ النفسيّ بفتح الفاء الذاتيّ منه والزائد وسبب زيادته:

قال الله تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٧] لكونهما ما خلقا على مثال متقدّم، وأوّل ما خلق الله العقل وهو القلم فهو أوّل مفعول إبداعيّ ظهر عن الله تعالىٰ، وكل خلق على غير مثال فهو مبدع بفتح الدال وخالقه مبدعه بكسر الدال، فلو كان العلم تصوّر المعلوم كما يراه بعضهم في حد العلم لم يكن ذلك المخلوق مبدعاً بفتح الدال لأنه على مثال في نفس من أبدعه أوجده عليه مطابقاً له، وذلك الذي في نفس الحق منه على قول صاحب هذا الحد للعلم لم يزل واجب الوجود في نفس الحق فلم يبتدعه في نفسه كما يفعله المحدث إذا ابتدع ولا وجد في العين إلاّ على الصورة التي قامت في نفس المصوّر لمثلها لا لها إذ ليس محلاً لما يخلقه فما هو بديع وهو بديع، فليس في نفسه صورة ما أبدع ولا تصوّرها، وهذه مسألة مشكلة فإن من المعلومات ما يقبل التصوّر، ومنها ما لا يقبل التصوّر وهو معلوم فما حد العلم تصوّر المعلوم، وكذلك الذي يعلم قد يكون ممّن يتصوّر لكونه ذا قوّة متخيلة، وقد يكون ممّن يعلم ولا يتصوّر لكونه لا يجوز عليه التمثّل فهو تصوّر من خارج ولا يقبل الصورة في نفسه لما صوّره من خارج لكن يعلمه. واعلم أوّلاً أن الإبداع لا يكون إلاّ في الصور خاصة لأنها التي تقبل الخلق فتقبل الابتداع، وأما المعاني فليس شيء منها مبتدعاً لأنها لا تقبل الخلق فلا تقبل الإبتداع فهي تعقل ثابتة الأعيان، هذه هي حضرة المعاني المحققة.

وثم صور تقبل الخلق والإبتداع تدل عليها كلمات هي أسماء لها فيقال تحت هذا الكلام أو لهذه الكلمة معنى تدل عليه، ويكون ذلك المعنى الذي تتضمنه تلك الكلمة صورة لها وجود عيني ذو شكل ومقدار كلفظ زيد، فهذه كلمة تدل على معنى يفهم منها وهو الذي وضعت له وهو شخص من الأناسي ذو قامة منتصبة وطول وعرض وجهات، فمثل هذا يسمى

معنى لهذه الكلمة، فهذا المعنى يقبل الخلق ولسنا نريد بالمعاني إلاً ما لا يقبل الخلق، وكل ما لا يقبل الخلق فإنه لا يقبل المثل، فلا يقبل المثل إلاً الصورة خاصة المادية وغير المادية، وأعني بالمادية المركبة وهي الأجسام على تنوّع ضروبها، وأعني بغير المادية كالبسائط التي لا جزء لها سوى عينها ولكنها تقبل المجاورة فتقبل التركيب فينشأ لذلك صور مختلفة إلى ما لا يتناهى، فالأوّل منها وإن كان صورة فهو المبدع، والثاني ليس بمبدع فإنه على مثاله ولكنه مخلوق، فهو بالخلق الأوّل بديع وبالخلق الثاني المماثل للخلق الأوّل خالق، فأوّل ما خلق الله العقل أظهره في نفس الرحمن في العماء في أوّل درجته التي هي في نفس الإنسان المخلوق على صورة الهمزة، فهي أوّل مبدع من حروف تنفس الإنسان ولها وجوه وأحكام مثل ما للعقل في النفس، فمن ذلك الإمداد الإلهيّ الذي في قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٧] وفي قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [سورة يونس: الآية ٢٦] والزيادة حيث وقعت من الخير والشر، ولا تعقل الزيادة إلاً بعد عقل الأصل، فإذا علم مقداره علم الزائد لئلا يتخيل في الزائد أنه أصل، فأقل الزيادة مثل الأصل إلى رابع درجة وليس فوقها زيادة، وكل زيادة زائدة على الزيادة مثل الأصل سواء مثاله الأصل وجود عين العقل والزائد وجود النفس وهو على قدر العقل، ثم الطبيعة وهي على قدر العقل، ثم الهباء وهو على مقدار العقل، ثم الجسم الكل وهو الرابع وليس وراءه شيء إلاً الصور، وكذلك المد الطبيعيّ بمنزلة العقل مثل مد الألف من قال وشبهه فهذا سار في كل موجود، فإن له من الحق إمداداً به بقاؤه، فما زاد على ما به بقاؤه وظهور عينه فلسبب آخر.

ولما كان العقل أوّل موجود جعل سبباً لكل إمداد إلهيّ في الوجود، كذلك الهمزة في النفس الإنسانيّ أوجبت الإمداد في الصوت سواء تأخرت أو تقدمت، وتنتهي الزيادة في ذلك على المد الطبيعيّ إلى أربع مراتب، كل زيادة على قدر الأصل التي هي الألف الطبيعية في كل ممدود، مثال ذلك أ ا من في قراءة أبي عمرو، و أ ا ا من في قراءة ابن عامر والكسائي، و أ ااا من في قراءة عاصم، وأ اااا من في قراءة ورش وحمزة. وكذلك جاء، وجاء، وجااء، وجاااء، على ما ذكرناه، فهذا الإمداد الإلهيّ قبل الموجب له وبعده هو بحسب المعرفة بالله، فمن لم يعرف الله بدليل العالم عليه كان الإمداد متقدماً على العلم بالله من حيث لا يعلم العبد، فهو يتقلب في نعمة الله ولا علم له بالمنعم من هو على التعيين، ومن عرف العالم بالله كان الإمداد متأخراً لأنه علم الله فرآه قبل إمداده وإن كان علمه به من إمداده ولكن ذلك هو المد الطبيعيّ، فالإمداد في النفس الرحمانيّ إيجاد النعم على التضعيف بالزيادة منها ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦١] كما هو في النفس الإنسانيّ مد الصوت طلباً للوصول إلى الموجب أو خروجاً من عند الموجب بالإمداد الإلهيّ لعين الحرف المطلوب وهو العين المقصود بذلك النعيم من الكائنات، كما يطلب الوصول إلى حرف الميم بالمد من ا ا من، وإلى حرف الدال من آادم، فاعلم ذلك. وكذلك توجه هذا الاسم على إيجاد الشرطين من المنازل ليبين بذلك عين البروج المقدرة في الفلك الأطلس إذ ليس لها علامة تعرف بها،

فجعل لها هذه المنازل علامة على تلك المقادير تقطع في هذا الفلك الأطلس الجواري الخنس الكنس فيعرف بالمنازل كم قطعت من ذلك الفلك، ولهذه المنازل أيضاً وكل كوكب في الفلك المكوكب قطع في هذا الأطلس، لكن لا يبلغ عمر الشخص الواحد إلى الشعور به، وقد نقل إلينا أن بعض أهرام مصر وجد تاريخ عمله والنسر في الأسد وهو اليوم في الجدي فانظر ما مرّ عليها من السنين، ويقول أصحاب تسيير الكواكب: إن هذه الكواكب الثابتة تقطع في كل ستين سنة من الفلك درجة واحدة، ونقلت عن بعضهم مائة سنة، فمتى يدرك الحسّ انتقاله كما يدرك انتقال الجواري الخنس الكنس.

ثم إنا نعود إلى كلامنا في العقل الأوّل ومنزلته في النفس الرحمانيّ منزلة الهمزة من حروف الإنسان فنقول: إن الله لما خلق الملائكة وهي العقول المخلوقة من العماء وكان القلم الإلهيّ أوّل مخلوق منها اصطفاه الله وقدمه وولاّه على ديوان إيجاد العالم كله وقلّده النظر في مصالحه وجعل ذلك عبادة تكليفه التي تقربه من الله فما له نظر إلاّ في ذلك وجعله بسيطاً حتى لا يغفل ولا ينام ولا ينسى، فهو أحفظ الموجودات المحدثة وأضبطه لما علمه الله من ضروب العلوم، وقد كتبها كلها مسطرة في اللوح المحفوظ عن التبديل والتحريف، وممّا كتب فيه فأثبته علم التبديل أي علم ما يبدّل وما يحرف في عالم التغيير والإحالة فهو على صورة علم الله لا يقبل التبديل، فلما ولاّه الله ما ولاّه أعطاه من أسمائه المدبر والمفصل من غير فكر ولا روية وهو في الإنسان الفكر والتفكر، فإذا انفرد بذلك في نفسه كان له حكم، وإذا دبر مع غيره كان له حكم، يقال له في عالم الإنسان المشاورة، يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ آمراً ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] فحكم التدبير الذي يدبر به ولايته على أقسام، سواء انفرد بالتدبير أو طلب المشاركة بحكم المشورة، والسبب الموجب للمشورة كون الحق له وجه خاص في كل موجود لا يكون لغير ذلك الموجود، فقد يلقي إليه الحق سبحانه في أمر ما ما لا يلقيه لمن هو أعلى منه طبقة، كعلم الأسماء لآدم مع كون الملأ الأعلى عند الله أشرف منه، ومع هذا فكان عند آدم ما لم يكن عندهم، وقد ذكرنا في هذا الكتاب دليل تفضيل الملأ الأعلى من الملائكة على أعلى البشر، أعطاني ذلك الدليل رسول الله ﷺ في رؤيا رأيتها وقبل تلك الرؤيا ما كنت أذهب في ذلك إلى مذهب جملة واحدة، وإذا كان هذا فقد ينفرد في أمور نصبها في العالم بما هو مدبر ومفصل لا عن فكر فإنه ليس من أهل الأفكار، وقد يشاركه في تدبيره عقل آخر مثل النفس الكلية التي أذكرها في الفصل الذي يلي هذا إن شاء الله، فمثل هذا هو حظ المشورة في عالم الخلق، وسبب ذلك توفية الألوهة ما تستحقه لما علم أن لله تعالىٰ في كل موجود وجهاً خاصاً يلقي إليه منه ما يشاء ممّا لا يكون لغيره من الوجوه، ومن ذلك الوجه يفتقر كل موجود إليه وإن كان عن سبب.

فإن قلت: فقد أعلمه الله علمه في خلقه حين قال له: اكتب علمي في خلقي إلى يوم القيامة. قلنا: الجواب على هذا من وجهين: الوجه الواحد وإن علم ما يكون فمن جملة ما أعلمه به من الكون مشورته ومشاركة غيره له في تدبيره كما نعلم أن الله يعلم ما يكون من

خلقه ولكنه قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] وأعلم من الله فلا يكون، وقد جاء مثل هذا في حق الله. والوجه الآخر في الجواب وهو أنّا قد علمنا أن لله في كل كائن وجهاً يخصه وذلك الوجه الإلهيّ لا يتصف بالخلق وقال للقلم: اكتب علمي في خلقي، وما قال له: اكتب علمي في الوجه الذي مني لكل مخلوق على انفراده، فهو سبحانه يعطي بسبب وهو الذي كتبه القلم من علم الله في خلقه، ويعطى بغير سبب وهو ما يعطيه من ذلك الوجه، فلا تعرف به الأسباب ولا الخلق، فوقعت المشورة ليظهر عنها أمر يمكن أن يكون من علم ذلك الوجه فيلقى إليه من شاوره في تدبيره علماً قد حصل له من الله من حيث ذلك الوجه الذي لم يكتب علمه ولا حصل في خلقه، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] يعني على إمضاء ما اتفقتم عليه في المشورة أو ما انفردت به دونهم. وقوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾في مثل هذا ما لم يقع الفعل فإن العزم يتقدم الفعل فقيل له: توكل على الله فإنه ما يدري ما لم يقع الفعل ما يلقي الله في نفسك من ذلك الوجه الخاص الإلهيّ الخارج عن الخلق وهو الأمر الإلهيّ فإن له الخلق والأمر، فما كان من ذلك الوجه فهو الأمر، وما كان من غير ذلك الوجه فهو الخلق. وكذلك جرى الأمر في حركات الكواكب فيعطي كل كوكب في الدرجة الفلكية على انفراده من الحكم ما لا يعطيه إذا اجتمع معه في تلك الدرجة كوكب آخر أو أكثر، فاجتماعهم بمنزلة المشورة وعدم اجتماعهم بمنزلة ما ينفرد به، فيكون عن الاجتماع ما لا يكون عن الانفراد، بـ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] ممّا تنفرد به ومما لا تنفرد به فذلك ما يحدث من الاجتماع فإنه خارج عن الأمر الذي تنفرد به كل سماء.

ثم في الاجتماعات أحوال مختلفة فيكون ما يحدث بحسب اختلاف الأحوال، والأحوال هنالك في القرانات كالأغراض عندنا، فكل يقول بحسب غرضه ونظره ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٤] ثم ينزل الأمر إلى النفس الإنسانيّ فيكون حكم الحرف الواحد خلاف حكمه إذا اجتمع مع غيره، فالقاف في قِ مفرد يدل على الأمر بالوقاية، فإذا اجتمع مع لام جاء منه صورة تسمّى قل فحدث للقاف أمر بالقول وأين هو من الأمر بالوقاية، وكذلك لو اجتمع بحرف الميم ظهر من هذا الاجتماع صورة قم فحدث للقاف أمر بالقيام، وهكذا ما زاد على حرف من حروف متصلة لإبراز كلمة أو منفصلة لإبراز كلمات فتحدث أمور لحدوث هذه الكلمات فيقول السيد لعبده: قل فيحدث في العبد القول فيقول أو قم فيقوم فيظهر من المأمور حركة تسمّى قياماً عن ظهور صورة ذلك الاجتماع، فهكذا تحدث الكائنات في النفس الرحمانيّ، فتظهر أعيان الكلمات وهو المعبر عنها بالعالم، فالكلمة ظهورها في النفس الرحمانيّ، والكون ظهورها في العماء فيما هو للنفس يسمّى كلمة وأمر أو ما هو في العماء يسمّى كوناً وخلقاً وظهور عين فجاء بلفظة ﴿كُن﴾ لأنها لفظة وجودية فنابت مناب جميع الأوامر الإلهية، كما نابت الفاء والعين واللام الذي هو فعل في الأوزان مناب جميع الأوزان وجميع الموزونات من الأسماء والأفعال، فهي حروف وزن الكلمة ووزن عين

الموجود، فكن قامت مقام قل وقم وخذ وقص واخرج وادخل واقترب وجميع ما يقع به الأمر، فيكون إن كان أمر قيام فقيام، وإن كان أمر قعود فقعود إلى جميع الأعيان، فتحدث الكلمة في النفس فيحدث الكون في العماء على الميزان صلة في ذلك، وهذه الصلة في أنواع ما يحدثه التدبير على الإنفراد وبالمشورة في الكون، فأمّا ما يحدث من ذلك على الانفراد وهو إذا حكم على المدبر اسمان إلهيان أو خاطران في حق أصحاب الخواطر وهو في الإلهيات التردّد، ولا يخلو هذا المدبر في هذه الحال وغيرها من الأحوال أن يكون تحت حكم اسم إلهيّ من الأسماء السبعة المتحكمة في النفس، وما يظهر فيه من الكلمات وهو الاسم الجامع والنافع والعاصم وهو الواقي والسريع والستار، وهذه الخمسة الأسماء هي التي تعطي مقام العبودية في العالم، والاسم البصير والبارىء وهما اللذان يعطيان مقام الحريّة في الاسم الجامع، فمنه يكون الإمداد لأهل الفضائل، وهم الذين يثابرون على مكارم الأخلاق، ومن هذا الاسم قال رسول الله ﷺ: «**بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ**». ويمدّ أيضاً أهل الجمع والوجود والحماية وترك المؤاخذة بالجرائم فيذبون عن أصحابها ما يريد بهم الاسم المنتقم والمعاقب فهو معطي الأمان وهو قوله تعالىٰ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الزمر: الآية ٥٣] وفعله أبداً لا يكون إلاّ فيمن هو في مقام العبودية.

وأما الاسم الإلهيّ النافع فمنه يكون الإمداد للعلماء بالله على مراتبهم، وأكثر ما يكون إمداده فيهم في علماء الأرواح وهو قوله تعالىٰ: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] أي نور هداية، ويمد أيضاً أهل الجود من أصناف الكرماء خاصة وهم الذين يجودون بالعطاء قبل السؤال من كل ما يقع به المنفعة للمعطي إياه وهو مختص العطاء، وإمداد هذا الاسم بالذين أقامهم الله في مقام العبودية والعبودة، فإنّ رجال الله على إحدى حالتين: إما حال عبودية أو حال حرية، وقد تقدم لك باب العبودية وباب الحرية في هذا الكتاب.

وأما الاسم الواقي فهو الاسم العاصم من أمر الله، فمنه يكون الإمداد للصديقين وأصحاب الأسرار وأهل النظر والأفكار في مباحثهم في المناظرات لاستخراج الفوائد في مجالس أهل الله من غير منازعة، ولا يمدّ هذا الاسم إلاّ لأرباب مقام العبودية، وأهل الاستكفاء بالله وهم المتوكلون على الله توكل العبد على سيده، لا توكل الابن على أبيه، ولا الميت على غاسله، ولا الأجير على من آجره، ولا توكل الموكل على وكيله.

وأما الاسم السريع فإنه مثل الواقي في أنه لا يمدّ إلاّ أهل هذا التوكل الخاص، ومن هو في مقام العبودية ويكون إمداده للمنفقين بالخلف وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سورة سبأ: الآية ٣٩] ويمد أيضاً أهل البقاء لأهل الفناء وعنه يأخذون وإليه يلجؤون.

وأما الاسم الستار وهو الغفار والغفور والغافر فهو في الإمداد مثل السريع والواقي في العبد والمتوكلين، ومن هذا الاسم يكون الإمداد لأهل الاكتساب والقائلين بالأسباب مع الاعتماد على الله، غير أنهم وإن اعتمدوا على الله فما في ظاهرهم الاكتفاء بالله وهكذا كل ذي

سبب وإن كان من المتوكلين، فما كل متوكل يظهر منه الاكتفاء بالله في ظاهره، وهذا الاسم يمدّ أيضاً أصحاب المنازل والمنازلات، ولهم أبواب في هذا الكتاب نحواً من مائتي باب ترد فيما بعد إن شاء الله.

وأمّا الاسم الباري فمنه يكون الإمداد للأذكياء المهندسين أصحاب الاستنباطات والمخترعين الصنائع والواضعين الأشكال الغريبة، عن هذا الاسم يأخذون وهو الممد للمصوّرين في حسن الصورة في الميزان، وأعجب ما رأيت من ذلك في قونية من بلاد يونان في مصور كان عندنا اختبرناه وأفدناه في صنعته من صحة التخيل ما لم يكن عنده فصوّر يوماً حجلة وأخفى فيها عيباً لا يشعر به وجاء بها إلينا ليختبرنا في ميزان التصوير وكان قد صورها في طبق كبير على مقدار صورة الحجلة في الجرم، وكان عندنا بازي فعندما أبصرها أطلقه من كان في يده عليها فركضها برجله لما تخيل أنها حجلة في صورتها وألوان ريشها فتعجب الحاضرون من حسن صنعته فقال لي: ما تقول في هذه الصورة؟ فقلت له: هي على غاية التمام إلاّ أن فيها عيباً خفياً وكان قد ذكره للحاضرين فيما بينه وبينهم، فقال لي: وما هو هذه أوزانها صحيحة، قلت له: في رجليها من الطول عن موازنة الصورة قدر عرض شعيرة، فقام وقبل رأسي وقال: بالقصد فعلت ذلك لأجربك، فصدقه الحاضرون وقالوا إنه ذكر ذلك لهم قبل أن يوقفني عليها، فتعجبت من وقوع البازي عليها وطلبه إياها، ويمد أيضاً هذا الاسم أرباب الجود في وقت المسغبة خاصة لا المنفقين على الإطلاق من غير تقييد، وهذا الاسم لا ينظر من الرجال إلاّ لمن أقيم في مقام الحرية ما بينه وبين من أقيم في العبودية إمداد.

وأما الاسم البصير فإنه يمد أهل الحرية والعبودة وأمداد أهل الحرية أكثر ونظره إليهم أعظم، وهذا الاسم والاسم الباري يمدان أهل الفصاحة والعبارات ولهما أعجاز القرآن وحسن نظم الكلام الرائق هذا لهذين الاسمين، ويمدّ هذا الاسم البصير أصحاب المنازل والمنازلات في بصائرهم، وهم الذين تعملوا في اكتسابها الذين أكلوا من تحت أرجلهم ما أنزلوها بطرق العناية من غير عمل لأن أهل هذا المقام على نوعين: فطائفة نزلت هذه المنازل عن تعمّل واكتسبتها، وطائفة نزلتها بالإنزال الإلهي عناية من غير تعمّل ولا تقدم عمل بل باختصاص إلهيّ، ويمدّ أيضاً هذا الاسم أهل التفرقة وهم الذين يميزون ما تعطيه أعيان المظاهر في الظاهر باستعداداتها وهو مقام عجيب لا يعرفه أكثر أهل التفرقة، وأكثر علم أهل التفرقة العلم بمعاني الأسماء الإلهية من حيث معانيها لا من وجه دلالتها على الذات، فهذا حصر ما تعطيه هذه الأسماء وحصر من تعطيه. ومنتهى العالم في هذا الباب الذي شاهدناه كشفاً ألفاً من العالمين لا زائد على ذلك، والذي شاهدناه ذوقاً وجاريناهم قدماً بقدم وسابقناهم وسبقناهم في حضرتين: حضرة النكاح وحضرة الشكوك ستة عشر عالماً من ثماني حضرات وباقي العالم كشفاً وتعريفاً لا ذوقاً، فدخلنا في كل ما ذكرناه في هذه الإمدادات الإلهية ذوقاً مع عامة أهل الله، وزدنا عليهم باسم إلهيّ وهو الآخر أخذنا منه الرياسة وروح الله الذي يناله المقربون من قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [سورة

الواقعة: الآية ٨٨ ـ ٨٩] ونلت هذه المقامات في دخولي هذه الطريقة سنة ثمانين وخمسمائة في مدة يسيرة في حضرة النكاح مع أهل الصفاء، وفي حضرة الشكوك مع أهل القهر والغلبة من أجل الاختلال في الشروط وهي المواثيق التي أخذت على العالم بالله، فمنا من غدر ومنا من وفى، فكنا ممّن وفى بحمد الله، وهذه علوم غريبة وأذواق عزيزة لقينا من أربابها رجالاً بالمغرب ورجالاً بالإسكندرية ورجلين أو ثلاثة بدمشق ورجلاً بسيواس كان قد نقصه من هذا المقام شيء قليل فعرضه علينا فأتممناه له حتى تحقق به في زمان يسير، وكان غريباً لم يكن من أهل البلاد كان من أهل أخلاط، ولكل طائفة ممّن ذكرنا ممّن هم تحت إحاطة هذه الأسماء الإلهية التميز في ثلاث حضرات: حضرة عليا، وحضرة وسطى، وحضرة سفلى، وحضرة مشتركة، فلا تخلو هذه العقول المدبرة أن تكون في إحدى هذه الحضرات في زمان مرور الخواطر عليها أو الأسماء المتقابلة أو المتقاربة، فالمتقابلة كالضار والنافع أو المعزّ والمذلّ أو المحيي وللميت. ومثل المقاربة: كالعليم والخبير أو القدير والقاهر أو الكبير والعظيم، وما جرى هذا المجرى في عالم الخلق والأمر، وها أنا إن شاء الله أذكر ما يحدث من حكم ذلك كله في العالم.

تفصيل: أما تفصيل ما ذكرناه فهو أن نقول بعد أن تعلم أن كل من ذكرنا من هؤلاء الطبقات فإنما هم أهل الأنفاس خاصة من أهل الله لا غيرهم أن المدبر من عالم الأنفاس إذا أراد تنفيذ أمر ما برزخي يطلب تنفيذه حكمين والأمر واحد، فإن الاسم الجامع والنافع والبصير والقائلين بالجود على مسغبة ينظرون إلى الحكم الأسهل فيحكمون به على ذلك الأمر، والعلماء بالله يجعلون التوحيد بين الحكمين ويحكم بالأسهل من الحكمين، وأما الباري والسريع والواقي والغفور فإنهم يسلكون طريق التحقيق في ذلك فيعطي كل حكم حقه لا يراعي جانباً دون جانب، ولا يحكمون بذلك إلاّ المكملون من رجال الله، فإن كان أحد الحكمين برزخياً والآخر سفلياً فالاسم الجامع والنافع والبصير يحكمون بما فيه رفع الحرج، غير أن الاسم البصير وأهل الجود يجعلان التوحيد بين الحكمين حتى يرفعان الاشتراك، وبقية الأسماء السبعة وجميع الطبقات الخارجين عن طبقات هؤلاء الأسماء الثلاثة يسلكون مسلك الاعتدال فيوفون الحقوق على ما تعطي المراتب، مثال الأول البرزخي: أن ترى الحق في صورة يدركها الحسّ فالمحققون يعطون الألوهية حقّها ويعطون الحضرة التي ظهر الحق فيها بهذه الصورة حقها. والطائفة الأخرى تحكم على الحق بالصورة وتقول: لولا أنه على حقيقة تقبلها ما صحّ أن يظهر بها إذ لم تكن غيره في وقت التجلي. وأما الذين جعلوا التوحيد بين الحكمين فقالوا الحق على ما هو عليه في نفسه، وهذه الصورة ظهرت بالحق لا أن الحق ظهر بها، وجعلوا التوحيد فاصلاً بين الحق والصورة، وهكذا في الحالة الثانية ومثال ذلك في الحالة الثانية هو تجلّي من يقول في رؤيته جميع الأكوان: ما رأيت إلاّ الله من حيث أن البرزخ لا يتعين فيه الصور إلاّ من عالم الطبيعة وهو المحسوس والحكم كما قررناه، فإن كان الأمر بين حكم برزخي وصورة عليا كرؤية الحق في صورة ملك فالجامع والبصير والنافع يرفعون الحرج فيما

وقع فيه التشبيه ويوفون حق أحد الحكمين وهو الحكم الذي يلي جانب العزّة، وأصحاب الجود الإلهي يعتبرون التوحيد فيبرزونها مع رفع الحرج، فالتوحد مثل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ورفع الحرج تمام الآية وهو: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١].

مرتبة أخرى: إذا ظهر أمران إلهيان في صورتين مختلفتين والأمران برزخيان فالحكم الإلهي في ذلك وهو أن ترى صورة الحق في البرزخ وصورة الملك في البرزخ على صورة أنسيين كصورة موسىٰ وهارون مثلاً، أو ترى الحق في صورة شخصين معاً في رؤيا واحدة في عالم البرزخ مثل أن ترى الحق في صورة شاب وشيخ في حال واحدة ولا شك أنها الحق ليس غيره، فحكم العلم من العلماء بالله وأهل الجود الإلهي في هذه الواقعة أن هذا إمداد إلهيّ لهذه الصورة التي ظهر فيها الحق وأهل الجود أيضاً والفضلاء أصحاب الزيادات من العلم الإلهي مع الاسم البصير من الأسماء الإلهية يزيلون الحق بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ويتأولون الصورة بما يليق بها، وما بقي من الأسماء الإلهية والطبقات من أهل الله أرباب المقامات والتحقيق يتركون الحق حقاً بما يليق به، والصورة صورة بما يليق بها وهو الأولى عندي.

مرتبة أخرى: نبي من الأنبياء كعيسىٰ روح الله وكلمته يظهر حقاً من كونه كلمة الله وظهر ملكاً من كونه روح الله، فالحكم في هذه الواقعة عند العلماء بالله وأهل الجود من أهل الله يلحقون الملك بذلك النبي وينزهون الحق عن تلك الصورة. وأما الراسخون في العلم وهم أهل الزيادات ويوافقهم أيضاً أهل الجود الإلهي يقولون: الجناب الإلهي أقبل للصور من العالم فيلحقون بصورة ذلك النبي ويبقون صورة الملك على ما هي عليه لا يتأولونها ولا سيما في عيسىٰ فإنه تمثل لأمه بشراً سوياً حين أعطاها عيسىٰ، وأما الاسم الإلهي البصير فإنه يسقط صورة الحق من ذلك تنزيهاً ويبقى ما بقي على حاله.

مرتبة أخرى: ملك من الملائكة ظهر في صورة محسوسة وظهر في مقام حق وقال: أنا الحق كما سمع موسىٰ الخطاب من الشجرة ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [سورة طه: الآية ١٤] فحكم العلماء العارفون وأهل الجود الإلهي يقولون في الصورة المحسوسة أنها ملك، وفي مقام الحق أنه حق، وأما أهل الزيادات من العلماء بالله وأهل الجود الإلهي يوافقونهم على حكمهم أيضاً، يحكمون على الحق بالملكية والاسم البصير الإلهي يسقط بحكمه الحق من أجل ما دخله من التشبيه ويبقى ما بقي على ما هو عليه، وجميع أهل الله يقولون: لما كان الحق يقبل الصور لم يبعد على الصور أن تدعي فيه وتقول: أنا الحق فالذي يعتمد عليه في هذه المسألة أن يعطي الحق من جهة الشرع حقه لا من جهة العقل، ويعطي الحسّ حقه ويعطي الملك حقه، ومع هذا فلا بدّ عند غير المحققين أن يصحبوا التوحيد بين الحكمين مخافة الاشتراك والمحقق لا يبالي فإنه قد عرف ما ثم.

مرتبة أخرى: إذا كانت إحدى الصورتين علوية والأخرى برزخية فالأسماء الثلاثة: الجامع والبصير والنافع يرفعون الحرج في الصورة البرزخية وغيرها ولا يعطون كل ذي حق

حقه من الصورتين. واعلم أن جميع ما ذكرناه هو حكم العقل في الأمور، فتارة يعطي التشديد فيها، وتارة يعطي اليسر فيها، وتارة يعطي كل ذي حق حقه، فيكون في كل حكم بحسب ما يتجلى له الحق فيه، سواء كان ذلك في الإلهيات أو في الطبيعيات أو فيما تركب منهما في الجمع والفرق والفناء والبقاء والصحو والسكر والغيبة والحضور والمحو والإثبات.

إفصاح بما هو الأمر عليه: اعلم أن الأمر حق وخلق، وأنه وجود محض لم يزل ولا يزال، وإمكان محض لم يزل ولا يزال، وعدم محض لم يزل ولا يزال، فالوجود المحض لا يقبل العدم أزلاً وأبداً، والعدم المحض لا يقبل الوجود أزلاً وأبداً، والإمكان المحض يقبل الوجود لسبب ويقبل العدم لسبب أزلاً وأبداً، فالوجود المحض هو الله ليس غيره، والعدم المحض هو المحال وجوده ليس غيره، والإمكان المحض هو العالم ليس غيره ومرتبته بين الوجود المحض والعدم المحض، فيما ينظر منه إلى العدم يقبل العدم، وبما ينظر منه إلى الوجود يقبل الوجود، فمنه ظلمة وهي الطبيعة، ومنه نور وهو النفس الرحمانيّ الذي يعطي الوجود لهذا الممكن، فالعالم حامل ومحمول، فبما هو حامل هو صورة وجسم وفاعل، وبما هو محمول هو روح ومعنى ومنفعل، فما من صورة محسوسة أو خيالية أو معنوية إلاّ ولها تسوية من جانب الحق وتعديل كما يليق بها وبمقامها وحالها وذلك قبل التركيب أعني اجتماعها مع المحمول الذي تحمله، فإذا سوّاها الرب بما شاءه من قول أو يد أو يدين أو أيد وما ثم سوى هذه الأربعة لأنّ الوجود على التربيع قام وعدله وهو التهيؤ والاستعداد للتركيب والحمل تسلمه الرحمن فوجه عليه نفسه وهو روح الحق في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] وهو عين هذا النفس قبلته تلك الصورة.

واختلف قبول الصور بحسب الاستعداد، فإن كانت الصورة عنصرية واشتعلت فتيلتها بذلك النفس سميت حيواناً عند ذلك الاشتعال، وإن لم يظهر لها اشتعال وظهر لها في العين حركة وهي عنصرية سميت نباتاً، وإن لم يظهر لها اشتعال ولا حركة أعني في الحسّ وهي عنصرية سميت معدناً وجماداً، فإن كانت الصورة منفعلة عن حركة فلكية سميت ركناً وهي على أربع مراتب، ثم انفعلت عن هذه الأركان صورة مسوّاة معدلة سميت سماء وهي على سبع طبقات، فوجه الرحمن عزّ وجلّ نفسه على هذه الصور فحييت حياة لا يدركها الحسّ ولا ينكرها الإيمان ولا النفس، ولذلك لم يقبل الاشتعال، فكل موضع كان في هذه السموات قبل الاشتعال سمّي نجماً فظهرت النجوم وتحرّكت أفلاكها بها فكانت كالحيوان فيما اشتعل منها وكالنبات فيما تحرك منها، وإن كانت الصورة عن حركة معنوية وقوّة عملية وتوجّه نفسي سميت جسماً كلاً وعرشاً وكرسياً وفلكاً فلك برج وفلك منازل، وتوجّه الرحمن بنفسه على هذه الصور فما قبل منها الاشتعال سمّي نجوماً وهي له كالحدق في وجه الإنسان، وما لم يقبل الاشتعال سمّي فلكاً، فإن كانت الصورة عقلية انبعثت انبعاثاً ذاتياً عن عقل مجرّد تطلب باستعدادها ما تحمله توجّه الرحمن عليها عند تسويتها التي سواها ربها بنفسه، فما اشتعل منها سمّي نور علم، وما تحرك منها ولم يشتعل سمّي عملاً، والذات الحاملة لهاتين القوتين نفساً،

فإن كانت الصورة الإلهية فلا تخلو إمّا أن تكون جامعة فهي صورة الإنسان، أو غير جامعة فهي صورة العقل، فإذا سوّى الرب الصورة العقلية بأمره وصور الصورة الإنسانية بيديه توجّه عليهما الرحمن بنفسه فنفخ فيهما روحاً من أمره، فأما صورة العقل فحملت في تلك النفخة بجميع علوم الكون إلى يوم القيامة وجعلها أصلاً لوجود العالم وأعطاه الأولية في الوجود الإمكاني. وأما صورة الإنسان الأوّل المخلوق باليدين فحمل في تلك النفخة علم الأسماء الإلهية ولم يحملها صورة العقل فخرج على صورة الحق. وفيه انتهى حكم النفس إذ لا أكمل من صورة الحق ودار العالم وظهر الوجود الإمكاني بين نور وظلمة وطبيعة وروح وغيب وشهادة وستر وكشف، فما ولي من جميع ما ذكرناه الوجود المحض كان نوراً وروحاً، وما ولي من جميع ما ذكرناه العدم المحض كان ظلمة وجسماً وبالمجموع يكون صورة. فإن نظرت العالم من نفس الرحمن قلت: ليس إلاّ الله. وإن نظرت في العالم من حيث ما هو مسوّى ومعدل قلت: المخلوقات ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ من كونك خلقاً ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ من كونك حقاً ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] لأنه الحق، فبالنفس كان العالم كله متنفساً والنفس أظهره وهو للحق باطن وللخلق ظاهر، فباطن الحق ظاهر الخلق، وباطن الخلق ظاهر الحق، وبالمجموع تحقق الكون، وبترك المجموع قيل حق وخلق، فالحق للوجود المحض والخلق للإمكان المحض، فما ينعدم من العالم ويذهب من صورته فمما يلي جانب العدم، وما يبقى منه ولا يصحّ فيه عدم فممّا يلي جانب الوجود ولا يزال الأمران حاكمين على العالم دائماً، فالخلق جديد في كل نفس دنيا وآخرة، فنفس الرحمن لا يزال متوجهاً، والطبيعة لا تزال تتكون صوراً لهذا النفس حتى لا يتعطل الأمر الإلهي إذ لا يصحّ التعطيل، فصور تحدث وصور تظهر بحسب الاستعدادات لقبول النفس، وهذا أبين ما يمكن في إبداع العالم؛ والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

الفصل الثاني عشر: من هذا الباب في الاسم الإلهي الباعث وتوجهه على إيجاد اللوح المحفوظ وهو النفس الكلية وهو الروح المنفوخ منه في الصور المسوّاة بعد كمال تعديلها فيهبها الله بذلك النفخ أية صورة شاء من قوله: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٨] وتوجهه على إيجاد الهاء من الحروف وهاء الكنايات وتوجهه على إيجاد البطين من المنازل المقدرة.

اعلم أن هذه النفس هي اللوح المحفوظ وهو أول موجود انبعاثي، وأوّل موجود وجد عند سبب وهو العقل الأوّل وهو موجود عن الأمر الإلهيّ والسبب، فله وجه إلى الله خاص عن ذلك الوجه قبل الوجود، وهو وكل موجود في العالم له ذلك الوجه، سواء كان لوجوده سبب مخلوق أو لم يكن. واعلم أن الأسباب منها خلقية ومنها معنوية نسبية، فالأسباب الخلقية كوجود مخلوق ما على تقدّم وجود مخلوق قبله له إلى وجوده نسبة ما بأي وجه كان، إمّا بنسبة فعلية أو بنسبة بخاصية لا بدّ من ذلك وحينئذ يكون سبباً وإلاّ فليس بسبب، وقد يكون ذلك الأثر في غير مخلوق كقوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] فالسؤال

سبب في وجود الإجابة كان المجيب ما كان، ومن هذه الحقيقة نزل قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] أي أحدثت بعض هذه الأمور السؤالات.

وأما السبب المعنويّ فهو من جهة المسبب بفتح الباء اسم مفعول، ومن المسبب اسم فاعل، فمن جهة المسبب اسم المفعول استعداده لقبول الأثر فيه، إذ لو لم يكن فيه استعداد لما وقع فيه الأثر فذلك الاستعداد أمنع من المحال فما يكون، ومع هذا فله استعداد في قبول الفرض فيه، فلهذا نفرض المحال في بعض المسائل وإن كان لا يقبل لوجود لنستخرج من ذلك الفرض علماً لم يكن عندنا، فلولا استعداده لقبول الفرض ما تمكن للعقل أن يفرضه، فالممكن أقبل لعين الوجود، والسبب الذي من جهة المسبب اسم فاعل، فما ذكر الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ فأثبت عينه، وقوله: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فأثبت الإرادة والتعلّق بالمراد، فلا بدّ من هذا شأنه أن يكون عالماً حياله اقتدار على ما يريد تكوينه، فهذه كلها استعدادات نسبية معنوية، إلاَّ العين الذي هو المسبب فإنه سبب وجودي لا يكون علة لكن هو شرط ولا بدّ، ولما خلق الله هذا العقل الأوّل قلما طلب بحقيقته موضع أثر لكتابته فيه لكونه قلماً فانبعث من هذا الطلب اللوح المحفوظ وهو النفس فلهذا كانت أوّل موجود انبعاثيّ لما انبعثت من الطلب القائم بالقلم، ولم يكن في القوّة العقلية الاستقلال بوجود هذا اللوح، فتأيّد بالاسم الباعث وبالوجه الخاص الذي انبعثت عنه هذي النفس، فألقى العقل إليها جميع ما عنده إلى يوم القيامة مسطراً منظوماً وهو موجود ثالث بين اللوح والقلم مرتبته وبعد اللوح وجوده، وجعل الله في القلم الإلقاء لما خلق فيه، وجعل في اللوح القبول لما يلقي إليه، فكان ما ألقى إليه وما ضمّه اللوح من الكلمات المخلوقة في ذات القلم واللوح بعد فراغه من الكتابة مائتي ألف آية وتسعاً وستين ألف آية ومائتي آية، وهو ما يكون في الخلق إلى يوم القيامة من جهة ما تلقيه النفس في العالم عند الأسباب، وأما ما يكون من الوجوه الخاصة الإلهية في الموجودات فذلك يحدث وقت وجوده لا علم لغير الله به ولا وجود له إلاَّ في علم الله. وهذا جميع ما حصله العقل من النفس الرحمانيّ من حيث ما كلمه به ربه تعالىٰ كما كلم موسىٰ ربه باثنتي عشرة ألف كلمة في كل كلمة يقول له: يا موسىٰ، وصورة التلقي الإلهيّ للعقل تجلّ رحمانيّ عن محبة من المتجلي والمتجلى له.

ومن هذا المقام جعل الله بين الزوجين المودّة والرحمة ليسكن إليها، وجعل الزوجة مخلوقة من عين الزوج ونفسه كما قال: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ [سورة الروم: الآية ٢١] أي علامة ودليلاً ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعلمون أنه الحق. وفائدة هذا التفكر أن الإنسان إذا تزوج بالمرأة ووجد السكون إليها وجعل الله بينهما المودّة والرحمة علم أن الله يريد التحامهما فإذا ارتفع السكون من أحدهما إلى صاحبه أو منهما وزالت المودّة وهي ثبوت هذا السكون وبهذا سمّي الحب وداً لثبوته، وتسمّى بالودود لثبوت حبه من أحب من عباده وزالت الرحمة من بينهما أو من أحدهما بصاحبه فأعرض عنه، فيعلم أن الله قد أراد طلاقهما فيبادر لذلك فيفوز عند الله بهذا

المقام، فإن لجّ وعاند يحرم القرب الإلهيّ فإن الحضرة الإلهية لا تقبل اللجاج والمعاندة، وقد ثبت في الشرع ما ثبت وما يعرف ما قلناه إلاً أهل التفكر من عباد الله، فإن الله ما جعله آية إلاً لهم، فجعل سبحانه سبب حصول هذه العلوم في ذات العقل التجلي ومنة تلقي ذلك، وكان سبب التجلي الحب فإنه أصل سبب وجود العالم والسماع سبب كونه، وقد بيّنا هذا في باب السماع والمحبة.

وأما صورة تلقي النفس ما عندها من العلوم فهو على وجهين هي وكل موجود عن سبب ويختلف باختلاف تنوّع الأسباب، الوجه الواحد: إذا كان التلقي لكل موجود عند سبب من وجهه الخاص به فلا يكون إلاً عن تجلّ إلهيّ سواء علمه المتجلى له أو لم يعلمه، فإن علمه كان من العلماء بالله وإن لم يعلمه كان من أهل العناية وهو لا يشعر أنه معتنى به، فإن أكثر الناس لا يعلمون حديث هذا الوجه الخاص ولا يعرفونه فإنه علم خاص لا يعطيه الله إلاً لمن اختصه واصطنعه لنفسه من عباده. وأما الوجه الآخر من التلقي فهو ما يستفيده من السبب ولا تحصى طرقه، فإن الأسباب مختلفة، فأين سببية العقل فيما يظهر على النفس من توجهه وتلقيها من سببية السماء فيما يظهر على الأرض من النبات من توجهها عليها بما تلقيه من الغيث فيها وتلقيها لذلك، ولكل حركة فلكية ونظر كوكب في العالم العلويّ وإمداد الطبيعة، كل ذلك أسباب لوجود زهرة تظهر على وجه الأرض، أين هذا من توجه سببية العقل؟ فلهذا قلنا ما تنحصر أسبابه مع كونها منحصرة في نفس الأمر فمن النفس إلى آخر ركن في العالم، وبعض المولدات ما بين النفس وآخر ركن من الأفلاك والكواكب والحركات في وجود عين تلك الزهرة والورقة أثر وحكم عن أمر إلهيّ قد يعلمه السبب الحادث وقد لا يعلمه وهي أسباب ذاتية كلها، ومنها عرضية كإلقاء المدرس الدرس على الجماعة فهذا من الأسباب العرضية، وهو كل ما كان للسبب فيه إرادة، وما عدا ذلك فهو ذاتيّ، فالعلاقة التي بين الأسباب والمسببات لا تنقطع فإنها الحافظة لكون هذا سبباً وهذا مسبباً عنه.

ولما أوجد الله هذه النفس الكلية من نفس الرحمن بعد العقل كوجود الهاء بعد الهمزة و الهمزة بعد الهاء في النفس الإنساني المخلوق على الصورة فهو في النفس الرحماني نفس كلية، وفي النفس الإنساني هاء وضمير وكناية، فهي تعود من حيث ما هي ضمير على من وجدها فإنها عين الدلالة عليه فافهم، فإن الدلالة لا تكون إلاً في الثاني فإنه يطلب الأوّل وليس الأوّل يطلب الثاني بحكم الدلالة، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وهو الثاني فإنه موضع الدلالة، وقال في الأوّل: ﴿**ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [سورة آل عمران: آية ٩٧] فنزّهه عن الدلالة، ولهذا لا يصحّ أن يكون علة وإليه الدلالة بقوله ﷺ: «**كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ**» فهو غني عن الدلالة، وفي هذه الرتبة أوجد الله البطين من المنازل التي تنزلها الجواري والكواكب البطيئة الحركة، وأعطى الله هذه النفس قوّتين: قوّة علمية وقوّة عملية، فبالقوّة العلمية تظهر أعيان الصور، وبالقوّة العملية تعلم المقادير والأوزان، ومن الوجه الخاص يكون القضاء والقدر لهذا، ولا يعرف ذلك إلاً بعد وقوعه إلاً من عرفه الله بذلك،

فحكم القضاء والقدر لا يعرف إلاَّ ممّا ذكرناه بخلاف المقادير والأوزان فإن ذلك في علم النفس، ونسبة هذه النفس إلى كل صورة في العالم نسبة واحدة من غير تفاضل، إلاَّ أن الصور تقبل من ذلك بحسب استعداداتها التي هي عليها في ذاتها فيظهر التفاضل، وأما هناك فلا تفاضل إلاَّ بينها وبين العقل.

ولما بينت لك حصر الآيات في الكلام الإلهيّ الظاهرة في النفس الرحمانيّ كالآيات في القرآن العزيز وفي الكتب المنزّلة والصحف المرسلة فإن لها سوراً تجمع تلك الآيات وتفصل بعضها من بعض كما جاءت سور القرآن وهي منازله المعلومة الجامعة للآيات، كما الآيات جامعات للكلمات، كما الكلمات جامعة للحروف، كما هي الحروف ظروف المعاني، فسور هذه الآيات عشر سور من غير زيادة ولا نقصان، فمنها سورة الأصل وهي السورة التي تتضمن كل آية تدل على عين قائمة بنفسها في العالم الحاملة غيرها، السورة الثانية: سورة المحمول وهي تتضمن كل آية تدل على عين لا تقوم بنفسها بل تفتقر إلى محل وعين يظهر وجودها بذلك المحل، وقد تكون تلك العين لازمة، وقد تكون عرضية على قدر ما تعطيه حقيقتها. والسورة الثالثة: سورة الدهر. والرابعة: سورة الاستواء وله أصلان: الأصل الأوّل ظرفية العماء، والأصل الثاني ظرفية العرش، فالأول ظرفية المعاني، والثاني ظرفية السور. والسورة الخامسة: سورة الأحوال. والسورة السادسة: سورة المقدار. والسورة السابعة: سورة النسب. والسورة الثامنة: سورة التوصيل والأحكام والعبارات والإشارات والإيماء وما يقع به الإفهام بين المخاطبين وهو نطق العالم وقول كل قائل وهي الأسماء الإلهية التي علم الله آدم، فمنها ما كانت الملائكة تعلمه وما اختصّ آدم إلاَّ بالكل، وما عرض من المسميات إلاَّ ما كانت الملائكة تجهله. والسورة التاسعة: سورة الآثار الوجودية. والسورة العاشرة: سورة الكائنات وهي الانفعالات الإلهية والكونية، فهذه عشر تتضمن هذه الآيات، فمن علمها كشفاً علم الحق والخلق، ومن علمها دلالة لم يكمل في علمها كمال أصحاب الكشف، ولا تقل هذا رمز بل هذا كله تصريح وإيضاح يعرفه كل عاقل إذا حقق النظر فيه أن الآيات كلها محصورة في هذه السور قديماً وحديثاً، والنفس الكلية هي التي ظهرت عنها معرفة هذه السور لأنها كانت محل إلقاء القلم الإلهيّ إليها، فهي أول منكوح لناكح كوني، وكل ما دونها فهو من عالم التولد العقل أبوه والنفس أمه فافهم ولا تلحق بمن قال الله فيهم: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق: الآية ١٥] وهم الذين أعرضوا عن كل ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢]، وقد قلنا في مرتبتنا في هذا: [مجزوء الرمل]

أنـا فـي خَـلْـقٍ جـديـدِ ... كـلَّ يـوم فـي مَـزيـدِ
وأنـا مـن حـيـثُ حُـبِّـي ... بـيـن وَجْـدٍ ووجـودِ
شـاكـراً شُـكْـرَ مُـحـبٍّ ... قـائـلٍ هـل مـن مَـزيـدِ
فـأنـا واحـدُ وقـتـي ... فـي وجـودي وشُـهُـودي
يـا رفـيـعَ الـدَّرجـاتِ ... فـي مَـنَـازل الـسُّـعـودِ

ارفَعِ اللهمَّ عني — في مَعَارج الصُّعودِ
كلَّ سترٍ في طريقي — في هُبوطي وصُعودي
واجْعَلِ اللَّهُمَّ حَظِّي — في اسمكَ الله الوَدودِ

الفصل الثالث عشر: في الاسم الإلهيّ الباطن وتوجهه على خلق الطبيعة وما تعطيه من أنفاس العالم وحصرها في أربع حقائق وافتراقها واجتماعها وتوجهها على إيجاد العين المهملة من الحروف وإيجاد الثريا من المنازل المقدّرة. اعلم أن الطبيعة في المرتبة الثالثة عندنا من وجود العقل الأوّل وهي معقولة الوجود غير موجودة العين، فمعنى قولنا مخلوقة أي مقدرة لأنّ الخلق التقدير وما يلزم من تقدير الشيء وجوده، قال الشاعر: [الكامل]

وَلأَنْتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبَعْـ — ـضُ الناس يَخْلُقُ ثم لا يَفْري

وهو من الثلاثيّ لأنه قصد المدح وليس من الرباعيّ، فإن الرباعيّ لا يقال إلاّ في معرض الذمّ والهجاء، فما كل من قدر أمراً أوجده، ومن هذه الحقيقة الإلهية ظهر في الوجود النظريّ عند العلماء فرض المحال في العلوم فهو يقدر ما لا يصحّ وجوده وقد يقدر ما يصحّ وجوده ولا يوجد، وكذلك قال هذا العربيّ وبعض الناس يعد بالخير ولا يفعله، وأنت أيها الملك ما ترى مصلحة إلاّ وتفعلها، فالخالق له معنيان: المقدر والموجد، فمن خلق فقد قدر أو أوجد فقدر سبحانه مرتبة الطبيعة أنه لو كان لها وجود لكان دون النفس، فهي وإن لم تكن موجودة العين فهي مشهودة للحق، ولهذا ميّزها وعين مرتبتها، وهي للكائنات الطبيعية كالأسماء الإلهية تعلم وتعقل وتظهر آثارها ولا تجهل ولا عين لها جملة واحدة من خارج، كذلك الطبيعة تعطي ما في قوّتها من الصور الحسيّة المضافة إليها الوجودية ولا وجود لها من خارج، فما أعجب مرتبتها وما أعلى أثرها، فهي ذات معقولة مجموع أربع حقائق يسمّى أثر هذه الأربع في الأجسام المخلوقة الطبيعية: حرارة ويبوسة وبرودة ورطوبة، وهذه آثار الطبيعة في الأجسام لا عينها، كالحياة والعلم والإرادة والقول في النسب الإلهية، وما في الوجود العينيّ سوى ذات واحدة، فالحياة تنظر إلى الحرارة، والعلم ينظر إلى البرودة، والإرادة تنظر إلى اليبوسة، والقول ينظر إلى الرطوبة، ولهذا وصفه باللين فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [سورة طه: الآية ٤٤] فهو يقبل اللين والخشونة والإرادة يبوسة فإنه يقول: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] وقال: «وجدت برد أنامله فعلمت»، فلهذا جعلنا العلم للبرودة في الطبيعة وكذلك الحياة للحرارة، فإن الحي الطبيعي لا بدّ من وجود الحرارة فيه. وأما الذي تعطيه من نفس العالم فهو ما تقع به الحياة في الأجسام الطبيعية من نموّ وحسّ لا غير ذلك، وكل نفس غير هذا فما هو من الطبيعة بل علته أمر آخر وهي الحياة العقلية حياة العلم وهي عين النور الإلهي والنفس الرحماني.

ثم لتعلم أن مسمّى النفس من هذه الحقيقة الوجودية لا يكون إلاّ إذا كانت للرحمن أو بما يماثله من الأسماء الإلهية، وقد تكون حقيقة لأسماء أخر تقتضي النقيض، فلا تكون

عند ذلك نفساً من التنفيس في حق ذلك الكائن منه، فهو وإن كان حقيقة فكونه نفساً باعتبار خاص يقع به التنفيس أما في حق من ينفس الله عنه من الكائنات ما يجده من الضيق والحرج. وأما في حق من هو صفته من حيث نفوذ إرادته. وأما إذا لم ينظر من هذه الجهة فهو عبارة عن حياة من وصف به من حيث حقيقته لا غير. ألا ترى النفس الحيواني يرفع وجوده فيه اسم الموت به سمّي نفساً، فإن الموت صفة مكروهة من حيث الألفة المعهودة إذ كان الموت مفرقاً فيكون مكروهاً عنده، فإذا نظر من يلقاه في ذلك الموت وهو الله فيكون تحفة عند ذلك، ويكون اسم النفس به أحق في هذا الشهود. ولما كان لها وجود أعيان الصور لهذا كان لها من الحروف العين المهملة لأنّ الصورة الطبيعية لا روح لها من حيث الطبيعة، وأنها روح للصور الطبيعية من الروح الإلهي، وكان لها وجود الثريا وهي سبع كواكب لأنّ الطبيعة في المرتبة الثالثة وهي أربع حقائق كما تقدم فكان من المجموع سبعة وظهرت عنها الثريا وهي سبعة أنجم، كما كان للعقل ثلاث نسب ووجوه فوجدت عنه الكثرة التي ذكرها بعض أهل النظر في سبب صدور الكثرة عن العقل الأوّل مع كونه واحداً، فكان الشرطين ثلاثة أنجم، والنفس مثل العقل في ذلك فكان البطين ثلاثة أنجم، ومن كون النفس ثانية كان البطين في المرتبة الثانية من الشرطين، وعن هذه السبعة التي ظهرت في الطبيعة ظهرت المسبعات في العالم، وهي أيضاً السبعة الأيام أيام الجمعة، اعتبر ذلك محمد بن سيرين رحمه الله جاءته امرأة فقالت له: أرأيت البارحة القمر في الثريا؟ فقال: أنا قمر هذا الزمان في هذه البلدة والثريا سبعة أنجم وبعد سبعة أقبر، فإن الثريا من الثرى وهو اسم للأرض، فمات إلى سبعة أيام، فانظر ما أعجب هذا، وبينا أنا أقيد هذه المسألة من الكلام في الطبيعة إذ غفوت فرأيت أمي وعليها ثياب بيض حسنة فحسرت عنها ذيلها إلى أن بدا لي فرجها فنظرت إليه ثم قلت: لا يحل لي أن أنظر إلى فرج أمي فسترته وهي تضحك، فوجدت نفسي قد كشفت في هذه المسألة وجهاً ينبغي أن يستر فسترته بألفاظ حسنة بعد كشفه قبل أن أرى هذه الواقعة، فكانت أمي الطبيعة، والفرج ذلك الوجه الذي ينبغي ستره، والكشف إظهاره في هذا الفصل، والتغطية بذلك الثوب الأبيض الحسن ستره بألفاظ وعبارات حسنة.

ثم إني أيضاً كما أنا في كلامي على الطبيعة في هذا الفصل أخذتني سنة فرأيت كأني على فرس عظيم وقد جئت إلى ضحضاح من الماء أرضه حجارة صغار فأردت عبوره فرأيت أمامي رجلاً على فرس شهباء يعبر وإذا فيه مثل الساقية عميقة مردومة بتلك الحجارة لا يشعر بها حتى يغرق فيها وإذا بذلك الفارس قد غرق فيها فرسه وقد نشب إلى أن وصل الماء إلى كفل فرسه ثم خلص إلى الجانب الآخر فنظرت من أين أعبر فوجدت مبنياً عليه مجازاً ذا أدراج من الجهتين للرجالة لا يمكن للفرس أن يصعد عليه فيصعد فيه بأدراج متقاربة جدّاً وأعلاه عرض شبر وينزل من الجانب الآخر بأدراج فركضت جنب فرسي والناس يتعجبون ويقولون: ما يقدر فرس على عبوره وأنا لا أكلمهم، ففهم الفرس عني ما أريده منه فصعد برفق فلما وصل إلى أعلاه وأراد الانحدار توقف وخفت عليه وعلى نفسي من الوقوع فنزلت من عليه وعبرت وأخذت بعنانه وما زال من يدي فعبر الفرس وتخلصنا إلى الجانب الآخر

والناس يتعجبون، فسمعت بعض الناس يقولون: لو كان الإيمان بالثريا لنالته رجال من فارس، فقلت: ولو كان العلم بالثريا لنالته العرب والإيمان تقليد فكم بين عالم وبين من يقلد عالماً فقالوا: صدق، فالعربيّ له العلم والإيمان، والعجم مشهود لهم بالإيمان خاصة في دين الله، ورددت إلى نفسي فوجدتني في مسألة في الطبيعة تطابق هذه الرؤيا، فتعجبت من هاتين الواقعتين في هذا الفصل، ونظرت في كواكب المنازل من كوكب واحد كالصرفة إلى اثنين كالذراع، إلى ثلاثة كالبطين، إلى أربعة كالجبهة، إلى خمسة كالعوا، إلى ستة كالدبران، إلى سبعة كالثريا، إلى تسعة كالنعائم، ولم أر للثمانية وجوداً في نجوم المنازل، فعلمت أنه لما لم تكن للثمانية صورة في نجوم المنازل لهذا كان المولود إذا ولد في الشهر الثامن يموت ولا يعيش، أو يكون معلولاً لا ينتفع بنفسه، فإنه شهر يغلب على الجنين فيه برد ويبس وهو طبع الموت وله من الجواري كيوان وهو بارد يابس، فلذلك لم أر للثمانية وجوداً في المنازل، ثم علمت أن السيارة لا نزول لها ولا سكون بل هي قاطعة أبداً، وقد يكون مرورها على عين كواكب المنزلة، وقد يكون فوقها وتحتها على الخلاف الذي في حدّ المنزلة ما هو فسميت منزلة مجازاً، فإن الذي يحل فيها لا استقرار له وأنه سابح كما كان قبل وصوله إليها في سباحته، فراعى المسمّى ما يراه البصر من ذلك، فإنه لا يدرك الحركة ببصره إلاّ بعد المفارقة، فبذلك القدر يسميها منزلة لأنه حظ البصر فغلبه.

واعلم أن الطبيعة هذا حكمها في الصور لا يمكن أن تثبت على حالة واحدة فلا سكون عندها، ولهذا الاعتدال في الأجسام الطبيعية العنصرية لا يوجد فهو معقول لا موجود، ولو كانت الطبيعة تقبل الميزان على السواء لما صحّ عنها وجود شيء ولا ظهرت عنها صورة، ثم نشأة الصور الطبيعية دون العنصرية إذا ظهرت أيضاً لا تظهر، والطبيعة معتدلة أبداً، بل لا بدّ من ظهور بعض حقائقها على بعض لأجل الإيجاد، ولولا ذلك ما تحرّك فلك ولا سبح ملك ولا وصفت الجنة بأكل وشرب وظهور في صور مختلفة، ولا تغيّرت الأنفاس في العالم جملة واحدة، وأصل ذلك في العلم الإلهيّ كونه تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] واليوم الزمن الفرد، والشأن ما يحدث الله فيه، فمن أين يصحّ أن تكون الطبيعة معتدلة الحكم في الأشياء وليس لها مستند في الإلهيات؟ فهذا قد أبنت لك وجود الطبيعة. انتهى الجزء الثاني والعشرون ومائة.

(الجزء الثالث والعشرون ومائة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الفصل الرابع عشر: في الاسم الإلهيّ الآخر وتوجهه على خلق الجوهر الهبائي الذي ظهرت فيه صور الأجسام وما يشبه هذا الجوهر في عالم المركبات وتوجهه على إيجاد حرف الحاء المهملة من الحروف وإيجاد الدبران من المنازل.

اعلم أن هذا الجوهر مثل الطبيعة لا عين له في الوجود، وإنما تظهره الصورة، فهو معقول غير موجود الوجود العينيّ، وهو في المرتبة الرابعة من مراتب الوجود، كما هو الحاء

المهملة في المرتبة الرابعة من مخارج الحروف في النفس الإنسانيّ، غير أن الحرف له صورة لفظية في القول محسوسة للسمع، وليس لهذا الجوهر الهبائي مثل هذا الوجود، وهذا الاسم الذي اختصّ به منقول عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وأمّا نحن فنسميه العنقاء فإنه يسمع بذكره ويعقل ولا وجود له في العين، ولا يعرف على الحقيقة إلاّ بالأمثلة المضروبة، كما أن كون الحق ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لم يعرف بحقيقته، وإنما عرفنا الحق به بضرب المثل فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] الآية، فذكر الأمور التي تنبغي للمصباح المشبه به ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو الذي أنارت به العقول العلوية وهو قوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والصور الطبيعية وهو قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ كذلك هذا المعقول الهبائي لا يعرف إلاّ بالمثل المضروب، وهو كل أمر يقبل بذاته الصور المختلفة التي تليق به وهو في كل صورة بحقيقته وتسميه الحكماء الهيولى وهي مسألة مختلف فيها عندهم، ولسنا ممّن يحكى أقوالهم في أمر ولا أقوال غيرهم، وإنما نورد في كتابنا وجميع كتبنا ما يعطيه الكشف ويمليه الحق هذا طريقة القوم، كما سُئِل الجنيد عن التوحيد فأجاب بكلام لم يفهم عنه، فقيل له: أعد الجواب فإنا ما فهمنا، فقال جواباً آخر، فقيل له: وهذا أغمض علينا من الأوّل فأمله علينا حتى ننظر فيه ونعلمه، فقال: إن كنت أجريه فأنا أمليه، أشار إلى أنه لا تعمّل له فيه، وإنما هو بحسب ما يلقي إليه ممّا يقتضيه وقته، ويختلف الإلقاء باختلاف الأوقات، ومن علم الاتساع الإلهيّ علم أنه لا يتكرّر شيء في الوجود، وإنما وجود الأمثال في الصور يتخيل أنها أعيان ما مضى وهي أمثالها لا أعيانها، ومثل الشيء ما هو عينه.

واعلم أن هذا المعقول الرابع من وجود العقل فيه تظهر العين التي تقبل حكم الطبيعة وهو الجسم الكل الذي يقبل اللطيف والكثيف والكدر والشفاف، وهو الذي يأتي ذكره في الفصل الثاني بعد هذا، وهذا المعقول إنما قيدنا مرتبته بأنها الرابعة من حيث نظرنا إلى قبوله صورة الجسم خاصة، وإنما بالنظر إلى حقيقته فليست هذه مرتبته ولا ذلك الاسم اسمه، وإنما اسمه الذي يليق به الحقيقة الكلية التي هي روح كل حق، ومتى خلى عنها حق فليس حقاً ولهذا قال عليه السلام: «**لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةٌ**» فجاء باللفظ الذي يقتضي الإحاطة إذا تعرى عن القرائن المقيدة وهو لفظة كل كمفهوم العلم والحياة والإرادة، فهي معقولة واحدة في الحقيقة، فإذا نسب إليها أمر خاص لنسبة خاصة حدث لها اسم، ثم إنه إذا نسب ذلك الأمر الخاص إلى ذات معلومة الوجود وإن لم يعلم حقيقتها فنسب إليها ذلك الأمر الخاص بحسب ما تقتضيه تلك الذات المعينة، فإن اتصفت تلك الذات بالقدم اتصف هذا الأمر بالقدم، وإن اتصفت بالحدوث اتصف هذا الأمر بالحدوث، والأمر في نفسه لا يتصف بالوجود إذ لا عين له، ولا بالعدم لأنه معقول، ولا بالحدوث لأنّ القديم لا يقبل الاتصاف به، والقديم لا يصحّ أن يكون محلاً للحوادث ولا يوصف بالقدم، لأن الحادث يقبل الاتصاف به، والحادث لا يوصف بالقديم، ولا يصحّ أن يكون القديم حالاً في المحدث فهو لا قديم ولا حادث، فإذا اتصف به الحادث سمّي حادثاً، وإذا اتصف به القديم سمّي قديماً وهو قديم في القديم

حقيقة، وحادث في المحدث حقيقة، لأنه بذاته يقابل كل متصف به كالعلم يتصف به الحق والخلق، فيقال في علم الحق أنه قديم فإن الموصوف به قديم، فعلمه بالمعلومات قديم لا أوّل له، ويقال في علم الخلق أنه محدث فإن الموصوف به لم يكن ثم كان فصفته مثله، إذ ما ظهر حكمها فيه إلاَّ بعد وجود عينه فهو حادث مثله، والعلم في نفسه لا يتغير عن حقيقته بالنسبة إلى نفسه وهو في كل ذات بحقيقته وعينه وما له عين وجودية سوى عين الموصوف فهو على أصله معقول لا موجود، ومثاله في الحسّ البياض في كل أبيض والسواد في كل أسود هذا في الألوان، وكذلك في الأشكال التربيع في كل مربع، والاستدارة في كل مستدير، والتثمين في كل مثمن، والشكل بذاته في كل متشكل، وهو على حقيقته من المعقولية، والذي وقع عليه الحسّ إنما هو المتشكل لا الشكل والشكل معقول، إذ لو كان المتشكل عين الشكل لم يظهر في متشكل مثله، ومعلوم أن هذا المتشكل ليس هو المتشكل الآخر، فهذا مثل مضروب للحقائق الكلية التي اتصف الحق والخلق بها، فهي للحق أسماء وهي للخلق أكوان، فكذلك هذا المعقول الرابع لصور الطبيعة يقبل الصور بجوهره وهو على أصله في المعقولية والمدرك الصورة لا غيرها، ولا تقوم الصورة إلاَّ في هذا المعقول، فما من موجود إلاَّ وهو معقول بالنظر إلى ما ظهرت فيه صورته موجود بالنظر إلى صورته، ألا ترى الحق تعالىٰ ما تسمّى باسم ولا وصف نفسه بصفة ثبوتية إلاَّ والخلق يتصف بها وينسب إلى كل موصوف بحسب ما تعطيه حقيقة الموصوف وإنما تقدمت في الحق لتقدم الحق بالوجود، وتأخرت في الخلق لتأخر الخلق في الوجود، فيقال في الحق إنه ذات يوصف بأنه حيّ عالم قادر مريد متكلم سميع بصير، ويقال في الإنسان المخلوق إنه حيّ عالم قادر متكلم سميع بصير بلا خلاف من أحد، والعلم في الحقيقة والكلام وجميع الصفات على حقيقة واحدة في العقل، ثم لا ينكر الخلاف بينهم في الحكم فإن أثر القدرة يخالف أثر غيرها من الصفات، وهكذا كل صفة والعين واحدة، ثم حقيقة الصفة الواحدة واحدة من حيث ذاتها، ثم يختلف حدّها بالنسبة إلى اختصاص الحق بها وإلى اتصاف الخلق بها، وهذه الحقيقة لا تزال معقولة أبداً لا يقدر العقل على إنكارها ولا يزال حكمها موجوداً ظاهراً في كل موجود: [السريع]

فـكـلُّ مـوجـودٍ لـهـا صـورةٌ　　فـيـه ولا صـورةَ فـي ذاتـهَـا
فـحـكْـمُـهـا لـيس سـوى ذاتِـهـا　　وذلـك الـحـكـمُ مـن آيـاتـهَـا
تـجـتـمـع الأضـدادُ فـي وصـفـهـا　　فـنَـفْـيُـهـا فـي عَـيْـن إثْـبَـاتـهَـا

فالمعنى القابل لصورة الجسم هو المذكور المطلوب في هذا الفصل وهو المهيأ له، والجسم القابل للشكل هو هباء لأنه الذي يقبل الإشكال لذاته فيظهر فيه كل شكل وليس في الشكل منه شيء وما هو عين الشكل، والأركان هباء للمولدات وهذا هو الهباء الطبيعيّ، والحديد وأمثاله هباء لكل ما تصوّر منه من سكين وسيف وسنان وقدّوم ومفتاح وكلها صور أشكال، ومثل هذا يسمّى الهباء الصناعيّ، فهذه أربعة عند العقلاء والأصل هو الكل وهو الذي وضعنا له هذا الفصل، وزدنا نحن حقيقة الحقائق وهي التي ذكرناها في هذا الفصل التي

تعمّ الخلق والحق، وما ذكرها أحد من أرباب النظر إلاّ أهل الله، غير أن المعتزلة تنبهت على قريب من ذلك فقالت: إنّ الله قائل بالقائلية وعالم بالعالمية وقادر بالقادرية لما هربت من إثبات صفة زائدة على ذات الحق تنزيهاً للحق فنزعت هذا المنزع فقاربت الأمر، وهذا كله أعني ما يختص بهذا الفصل من حكم الاسم الآخر الظاهر التي هي كلمة النفس الرحمانيّ وهو الذي توجه على الدبران من المنازل وكواكبه ستة وهو أوّل عدد كامل فهو أصل كل عدد كامل، فكل مسدّس في العالم فله نصيب من هذه الكمالية، وعليه أقامت النحل بيتها حتى لا يدخله خلاء، ومن أهل الله من يراه أفضل الأشكال فإنه قارب الاستدارة مع ظهور الزوايا وجعله أفضل، لأن الشكل المسدّس كبيوت النحل لا يقبل الخلل مع الكثرة فيظهر الخلوّ، والمستدير ليس كذلك وإن أشبهه غيره في عدم قبول الخلل كالمربع فإنه يبعد عن المستدير والاستدارة أوّل الأشكال التي قبل الجسم وجعل بعضها في جوف بعض لأن الخلاء مستدير، ولو لم يكن كذلك ما استدار الجسم لأنه ما ملأ إلاّ الخلاء، فلا يقبل استدارة أخرى من خارج فإنه ما ثم خلاء غير ما عمره الجسم، فلو عمر بعض الخلاء لم يقبل سوى الشكل المسدّس، وإنما وصف بالكمال لأنه يظهر عن نصفه وثلثه وسدسه فيقوم من عين أجزائه.

الفصل الخامس عشر: من النفس الرحماني في الاسم الإلهيّ الظاهر وتوجهه على إيجاد الجسم الكل، ومن الحروف على حرف الغين المعجمة، ومن المنازل على رأس الجوزاء وهي الهقعة وتسمّى الميسان.

اعلم أن الله تعالىٰ لما جعل في النفس القوّة العملية أظهر الله بها صورة الجسم الكل في جوهر الهباء فعمّر به الخلاء والخلاء امتداد متوهم في غير جسم، ولما رأينا هذا الجسم الكل لم يقبل من الأشكال إلاّ الاستدارة علمنا أن الخلاء مستدير، إذ كان هذا الجسم عمر الخلاء، فالخارج عن الجسم لا يتصف بخلاء ولا ملأ، ثم إن الله فتح في هذا الجسم صور العالم وجعل هذا الجسم لما أوجده مستديراً لما عمر به جميع الخلاء كانت حركته في خلائه فما هي حركة انتقال عنه، وإنما حركته فيه بكله كحركة الرحى تنظر في حركتها بجميعها فتجدها لم تنتقل عن موضعها وتنظر إلى حركة كل جزء منها فتجده منتقلاً عن حيّزه إلى حيّز آخر بحركة الكل، وهكذا كل حركة مستديرة فهي متحركة ساكنة لأنها ما أخلت حيّزها بالانتقال من حيث جملتها ولا سكنت فتتصف بالسكون وهذا لا يكون إلاّ في المستدير، وأما غير المستدير فلا يسمّى لشكله فلكاً أي مستديراً، وهذا هو أوّل الصور الطبيعية، فأظهرت الطبيعة فيه حكمها، فقبل الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة بحكم التجاوز في النقيضين خاصة فتحرك بغلبة الحرارة عليه، فإن الاعتدال لا يظهر عنه شيء أصلاً، ولهذا وصف الحق نفسه بالرضا، والغضب، والرحمة، والانتقام، والحلم، والقهر، فالاعتدال لا يصحّ معه وجود ولا تكوين، ألا ترى أنه لولا التوجّه الإلهي على إيجاد كون ما ما وجد؟ ولولا ما قال له: ﴿كُنْ﴾ ما تكوّن، فلما كانت كمية الحرارة أكثر من غيرها في الجسم أعطته الحركة، وما ثم خلاء إلاّ ما عمره هذا الجسم ولا بدّ له من الحركة فتحرك في مكانه وهي حركة الوسط لأنه ليس خارجه خلاء فيتحرك إليه،

والحركة تطلبها الحرارة وهي حركة في الجميع من انتقال، وأظهر الله صور العالم كله في هذا الجسم على استعدادات مختلفة في كل صورة وإن جمعها جسم واحد وحاكم واحد فقبلت الصور الأرواح من النفس الرحماني كما قبلت الحروف المعاني عند خروجها لتدل على المعنى الذي خرجت له، وظهر حكم الزمان بالحركة فظهرت الصور بالترتيب فقبلت التقدّم والتأخّر الزماني، وظهر حكم الأسماء الإلهية بوجود هذه الصور وما تحمله.

وقد ذكرنا في عقلة المستوفز ترتيب وجود العالم كيف كان، ولله كما ذكرنا فيه وجه خاص وفي كل ما وجد فيه، وعن ذلك الوجه الخاص وجد ولا يعرف السبب قط ذلك الوجه الخاص الذي لمسببه المنفعل عنه ولا عقل ولا نفس إلاّ الله خاصة وهو رقيقة الجود، فتحرك بالوجود الإلهي لا بفعل النفس وهي حركة النفس الرحماني لإيجاد الكلمات، فسوّى العرش ووحد فيه الكلمة الرحمانية، ثم أوجد صورة الكرسي وانقسمت فيه الكلمة وتدلت إليه القدمان، ولهذا التدلي انقسمت الكلمة فله الخلق والأمر، وكان انقسامها إلى حكم وخبر، ثم أدار الفلك الأطلس بتوجه خاص لحكمة أخفاها عمن شاء وأظهرها وقسمه على إثني عشر مقداراً فعمت المقادير وجعلها بروجاً لأرواح ملكية على طبائع مختلفة سمّي كل برج باسم ذلك الملك الذي جعل ذلك المقدار برجاله يسكنه كالأبراج الدائرة بسور البلد وكمراتب الولاة في الملك، وهي البروج المعلومة عند أهل التعاليم، ولكل برج ثلاث وجوه: فإن العقل الأوّل له ثلاث وجوه وإن كان واحداً، وما من حقيقة تكون في الأول إلاّ ولا بدّ أن يتضمنها الثاني ويزيد بحكم لا يكون للأوّل إذا كان المتقدم غير الله، وأما الله فهو مع كل شيء فلا يتقدمه شيء ولا يتأخر عنه شيء، وليس هذا الحكم لغير الله، ولهذا له إلى كل موجود وجه خاص لأنه سبب كل موجود، وكل موجود واحد(١) لا يصحّ أن يكون اثنين وهو واحد(٢) فما صدر عنه إلاّ واحد(٣) فإنه في أحدية كل واحد(٤) وإن وجدت الكثرة

---

(١) (قوله: وكل موجود واحد، إلى قوله: وهو ممّا أخطأت فيه) اشتملت هذه الجملة من كلام الشيخ على مسألتين: الأولى وحدة كل موجود، والثانية أحدية الوجود. (قوله: وكل موجود واحد) يعني باعتبار الوجه الخاص به الذي لا يشاركه فيه غيره من سائر الموجودات.

(٢) (قوله: لا يصحّ أن يكون اثنين وهو واحد) يعني أنه لما كان لكل موجود وجه خاص كان لا يصحّ أن يكون هذا الموجود اثنين وهو واحد لما فيه من اجتماع النقيضين، إذ الفرض أنه واحد من حيث حقيقته اثنان من حيث صورته، لأن حقيقة كل موجود هو وجهه الخاص به، وإن قلنا زيد مثل عمرو وهذه الحبة من البر مثل هذه فما هي مثلية حقيقية، إذ زيد غير عمرو، وهذه الحبة غير الآخرى ضرورة فما تميز به زيد عن عمرو والحبة عن الأخرى هو أثر وجهها الخاص وهو حقيقتها.

(٣) (قوله: فما صدر عنه إلاّ واحد) يعني من حيث إنّ الوجه الخاص لا يتكرر في صورتين أبداً.

(٤) (قوله: فإنه في أحدية كل موجود) يعني أنه لما ثبت أنه ما صدر عنه إلاّ واحد من حيث الوجه الخاص، والوجه معنى لا يقوم بنفسه ولا ينفصل عن المتوجه به تعالى فلا بدّ أن تكون الذات المقومة لكل وجه خاص سارية في أحدية كل موجود.

فبالنظر[١] إلى أحدية الزمان الذي هو الظرف فإن وجود الحق في هذه الكثرة في أحدية كل واحد فما ظهر منه إلاً واحد، فهذا معنى لا يصدر عن الواحد إلاً واحد، ولو صدر عنه جميع العالم لم يصدر عنه إلاً واحد، فهو مع كل واحد من حيث أحديته، وهذا لا يدركه إلاً أهل الله. وتقوله الحكماء[٢] على غير هذا الوجه وهو ممّا أخطأت فيه، وجعل الله لكل وال ساكن في هذا البرج أحكاماً معلومة عن دورات محصورة ليس هذا الفصل موضع حصرها ولا تعيينها. ثم فتح الله صورة الفلك المكوكب وبعده الأرض والماء والهواء والنار عن حركة فلك البروج وشعاعات كواكب الفلك المكوكب، ثم علا الدخان من نار الأركان لما كانت ناراً مركبة فأظهر في ذلك الدخان صور السموات أفلاكاً مستديرة وجعل في كل فلك كوكباً، كما سيأتي ذكر ذلك كله إن شاء الله تعالىٰ، وعن هذا الاسم الإلهي أوجد في النفس الإنساني الغين المعجمة ومنزلة الهقعة.

الفصل السادس عشر: في الاسم الإلهيّ الحكيم وتوجهه على إيجاد الشكل، وحرف الخاء المعجمة ومنزله النحية من المنازل وتسمّى الهنعة الشكل القيد، وبه سمّي ما تقيد به الدابة في رجلها شكالاً، والمتشكل هو المقيد بالشكل الذي ظهر به، يقول الله ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٤] أي ما يعمل إلاً ما يشاكله، وإلى هذا يرجع معناه. يقول: ذلك الذي ظهر منه يدل على أنه في نفسه عليه والعالم كله عمل الله فعمله على شاكلته، فما في العالم شيء لا يكون في الله والعالم محصور في عشر لكمال صورته، إذ كان موجوداً على صورة موجده، فجوهر العالم لذات الموجد وعرض العالم لصفاته وزمانه لأزله ومكانه لاستوائه وكمّه لأسمائه وكيفه لرضاه وغضبه ووضعه لكلامه وإضافته لربوبيته، وأن يفعل

(١) (قوله: وإن وجدت الكثرة فبالنظر إلخ) يعني أنه لا يقدح في قولنا: كل موجود واحد، وفي قولنا: ما صدر عنه إلاً واحد وجود الكثرة، فإن سبب وجودها في المدارك البشرية والعقول النظرية، إنما هو النظر إلى أحدية الزمان وأنه امتداد واحد لا كثرة فيه ولا جزء بالفعل، وقد ظهرت فيه الأشياء مترتبة متكثرة بالتقدم والتأخر، يقال: هذا قبل هذا وهذا بعد دورات هذا، وهذا مع هذا، مع كون الزمان جامعاً، فإن الوهم يخيل أن الزمان شيء والموجودات الزمانية مظروفة فيه وهو ظرف لها، فمن شهود الزمان مع أحديته وظرفيته للموجودات المترتبة جاءت الكثرة، وأما من أخرج من سجن الزمان وفكت القيود عن نظره فإنه يرى وجوداً واحداً متجلياً بلا بداية إلى غير نهاية بلا قيد زماني أو مكاني، وموجوداته حاضرة لديه، وهو عين الموجودات الاعتبارية الخيالية العارضة له بحسب المدارك لا غير، فتوحدت الكثرة بهذه الوحدة الحقيقية، وصحّ قولنا ما ظهر عن الواحد إلاً واحد. ومثال ذلك الشخص الواحد فإنه لا يتكثر ولا يتعدد بأعضائه وحواسه الظاهرة والباطنة المتعددة فهو واحد مع هذه الأشياء.

(٢) (قوله: وتقوله الحكماء إلخ) يعني لأن الحكماء تقول في معنى ما صدر عن الواحد إلاً واحد أنه تعالىٰ أول ما خلق العقل الأول، ووجود العقل الأول الذي هو موجود به وجود حادث، وأن العقل الأول هو الفاعل في كل ما سواه من الموجودات يخلق لها وجودات حادثة إلى غير ذلك من أقوالهم في العقل، وأهل الله تعالىٰ يقولون: أول ما صدر عن الحق تعالىٰ الوجود المفاض والعقل الأول وغيره من المخلوقات سواء في هذا الوجود المفاض، أهـ تقرير سيدي عبد القادر ونقلت من خطه.

لإيجاده، وأن ينفعل لإجابته من سأله، فعمل العالم على شاكلته ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٤] وإنه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] فالعالم على صراط مستقيم. اعوجاج القوس استقامته فلا تعجب، ألا ترى الخلاء حكم على الجسم بالاستدارة فأظهره فلكاً مستديراً؟ فتلك شاكلته، فحكمت عليه شاكلة الموطن، جبريل ظهر في صورة دحية فجهل فقيل فيه إنسان وهو ملك وعلم من علمه ملكاً والصورة إنسان فلم يؤثر علم الملكية منه في صورة إنسانيته ولم يؤثر الجهل بها فيها فالأشكال مقيدة أبداً، هذا ما أعطاه الاسم الحكيم مرتب الأمور مراتبها ومنزل الأشياء مقاديرها، وظهر من النفس الإنسانيّ في المخارج حرف الخاء المعجمة، ومن المنازل النحية، وما من شيء ظهر في تفاصيل العالم إلاً وفي الحضرة الإلهية صورة تشاكل ما ظهر أي يتقيد بها ولولا هي ما ظهر، ألا ترى الفلك الأطلس كيف ظهر من الحيرة في الحق لأنّ المقادير فيه لا تتعين للتماثل في الأجزاء كالأسماء والصفات للحق لا تتعدد، فالحيرة ما ظهرت إلاً في الفلك الأطلس حيث قيل: إن فيه بروجاً ولا تتعين فوضع على شكل الحيرة، ووضع الفلك المكوكب بالمنازل على شكل الدلالات على ما وقعت فيه الحيرة، فاستدل بالمنازل على ما في الأطلس من البروج فهو على شكل الدلالة، وجعل تنوّع الأحكام بنزول السيارة في المنازل، والبروج بمنزلة الصور الإلهية التي يظهر فيها الحق فبما للأطلس فيها من الحكم تجهل، ويقال: ليس لله صورة بالدلالة العقلية، وبما للمنازل فيها من الدلالات تعلم، ويقال هذا هو الحق فانظر حكم الأشكال ما فعل، ومنه لأشكال في المسائل فإنه يعطي الحيرة في المعلوم، وشكل الشيء شبهه، والشكل يألف شكله، والضد يجهل ضده. والدنيا للامتزاج، والآخرة للتخليص، فهي على شكل لقبضتين.

الفصل السابع عشر: في الاسم المحيط وتوجهه على إيجاد العرش، والعرش الممجدة والمعظمة والمكرمة، وحرف القاف، ومن المنازل الذراع. اعلم أن العرش أحاط بالعالم لاستدارته بما أحاط به من العالم، وكل ما أحاط به فيه الاستدارة ظاهرة حتى في المولدات، وانظر في تشبيه النبيّ ﷺ في الكرسيّ أنه في جوف العرش كحلقة في فلاة من الأرض، فشبهه بشكل مستدير وهو الحلقة والأرض، وكذلك شبه السموات في الكرسي كحلقة، والأركان الكرية في جوف الفلك الأدنى كذلك، ثم ما تولد عنها لا يكون أبداً في صورته إلاً مستديراً أو مائلاً إلى الاستدارة معدناً كان أو نباتاً أو حيواناً، وذلك لأنّ الحركة دورية، فلا تعطي إلاً ما يشاكلها، فالعرش أعظم الأجسام من حيث الإحاطة فهو العرش العظيم جرماً وقدراً، وبحركته أعطى ما في قوّته لمن هو تحت إحاطته وقبضته فهو العرش الكريم لذلك، وبنزاهته أن يحيط به غيره من الأجسام كان له الشرف فهو العرش المجيد.

ثم إنه ما استوى عليه الاسم الرحمن إلاً من أجل النفس الرحماني، وذلك أن المحاط به في ضيق من علمه بأنه محاط به من حيث صورته، فأعطاه النفس الرحماني روحاً من أمره، فكان مجموع كل موجود في العالم صورته وروحه المدبر له، وجعل روحه لا داخلاً في

الصورة ولا خارجاً عنها لأنه غير متحيز فانتفى المشروط والشرط، فإن النفس الذي صدرت عنه الأرواح لا داخل في العالم ولا خارج عنه، فإذا نظر الموجود في كونه محاطاً به ضاق صدره من حيث صورته، وإذا نظر في نفسه من حيث روحانيته نفس الله عنه ذلك الضيق بروحه لما علم أنه لا توصف ذاته بأنه محاط به إحاطة العرش بالصور فزال عنه، وأورثه ذلك الإبتهاج والسرور والفرح بذاته من حيث روحه، فلهذا كان الاستواء بالاسم الرحمن، وإحاطة هذا العرش من الإحاطة الإلهية بالعلم في قوله: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] فهو من ورائهم محيط، وليس وراء الله مرمى لرام ووراء العالم الله فهو المنتهى وما له انتهاء ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦] فالكلمة في العرش من النفس الرحماني واحدة وهو الأمر الإلهي لإيجاد الكائنات، فالنفس سار إلى منتهى الخلاء، فبه حيي كل شيء، فإن العرش على الماء فقبل الحياة بذاته فخلق الله تعالىٰ منه كل شيء حي أفلا يؤمنون بما يرونه من حياة الأرض بالمطر وحياة الأشجار بالسقي حتى الهواء إن لم يكن فيه مائية وإلاً أحرق.

واعلم أن هذا العرش قد جعل الله له قوائم نورانية لا أدري كم هي لكني أشهدتها ونورها يشبه نور البرق، ومع هذا فرأيت له ظلاً فيه من الراحة ما لا يقدر قدرها، وذلك الظل ظل مقعر هذا العرش يحجب نور المستوى الذي هو الرحمن، ورأيت الكنز الذي تحت العرش الذي خرجت منه لفظة لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم فإذا الكنز آدم صلوات الله عليه، ورأيت تحته كنوزاً كثيرة أعرفها، ورأيت طيوراً حسنة تطير في زواياه، فرأيت فيها طائراً من أحسن الطيور فسلم عليّ فألقى لي فيه أن آخذه صحبتي إلى بلاد الشرق وكنت بمدينة مراكش حين كشف لي عن هذا كله فقلت: ومن هو؟ قيل لي: إن محمداً الحصار بمدينة فاس سأل الله الرحلة إلى بلاد الشرق فخذه معك فقلت: السمع والطاعة فقلت له وهو عين ذلك الطائر: تكون صحبتي إن شاء الله، فلما جئت إلى مدينة فاس سألت عنه فجاءني فقلت له: هل سألت الله في حاجة؟ فقال: نعم سألته أن يحملني إلى بلاد الشرق فقيل لي: إن فلاناً يحملك وأنا أنتظرك من ذلك الزمان، فأخذته صحبتي سنة سبع وتسعين وخمسمائة وأوصلته إلى الديار المصرية ومات بها رحمه الله. فإن قلت: والملائكة الحافون من حول العرش ما بقي لهم خلاء يتصرّفون فيه والعرش قد عمر الخلاء. قلنا: لا فرق بين كونهم حافين من حول العرش وبين الاستواء على العرش فإنه من لا يقبل التحيّز لا يقبل الاتصال والانفصال. ثم إن الملائكة الحافين من حول العرش فما هو هذا الجسم الذي عمر الخلاء وإنما هو ذلك العرش الذي يأتي الله به للفصل والقضاء يوم القيامة، وهذا العرش الذي استوى عليه هو عرش الاسم الرحمن أما سمعته يقول: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٥] عند الفراغ من القضاء فذلك يوم القيامة تحمله الثمانية الأملاك وذلك بأرض الحشر، ونسبة العرش إلى تلك الأرض نسبة الجنة إلى عرض الحائط في قبلة رسول الله ﷺ وهو في صلاة الكسوف،

وهذا من مسائل ذي النون المصريّ في إيراد الواسع على الضيق من غير أن يوسع الضيق أو يضيق الواسع، ومن عرف المواطن هان عليه سماع مثل هذا.

الفصل الثامن عشر: في الاسم إلهي الشكور وتوجهه على إيجاد الكرسيّ والقدمين، ومن الحروف حرف الكاف، ومن المنازل النثرة.

قال تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] قال بعض أهل المعاني: يريد العلم ونقلوه لغة إلاّ أنه في هذه الآية ليس إلاّ جسم محسوس هو في العرش كحلقة ملقاة في فلاة إلاّ أنه كالعرش لا حركة فيه، ومن هذا الكرسيّ تنقسم الكلمة الإلهية إلى حكم وخبر وهو للقدمين الواردين في الخبر كالعرش لاستواء الرحمن، وله ملائكة قائمون به لا يعرفون إلاّ الرب تعالىٰ، فإن ظرفية العماء للرب والعرش للرحمن والكرسيّ لضمير الكناية عن الله تعالىٰ، وهذه الثلاثة الأسماء هي أمّهات اسماء، وإذا تتبعت القرآن العزيز وجدت هذه الأسماء الثلاثة: الله والرب والرحمن دائرة فيه، وله ما بين سماء وسماء كرسي سوى هذا الكرسي الأعظم، وسمّي منسوباً أي لا يعقل إلاّ هكذا بخلاف غيره من الموجودات، ومن هنا كان للرب الذي لا يعقل إلاّ مضافاً وغيره الذي هو الاسم الله والرحمن قد ورد غير مضاف إلاّ الرب، فلا يرد حيث ورد إلاّ مضافاً فإنه يطلب المربوب بذاته ﴿رَبَّنَآ﴾ [سورة الصافات: الآية ٣١] ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [سورة الصافات: الآية ٥] ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ [سورة المزمل: الآية ٩] فأثرت هذه الحقيقة في المرتبة المكانية الذي هو الكرسي فورد منسوباً والنسبة إضافة، وجاء في الدرجة الثالثة وهي أوّل الإفراد. ولما كان الرب الثابت فكذلك الكرسيّ حكم عليه الاسم الإلهيّ بالثبوت، فالثبوت أيضاً الموصوف به العرش يؤذن بأن الاسم الرحمن ثابت الحكم في كل ما يحوي عليه وهو قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] فمآل الكل إلى الرحمة وإن تخلل الأمر آلام وعذاب وعلل وأمراض مع حكم الاسم الرحمن فإنما هي أعراض عرضت في الأكوان دنيا وآخرة من أجل أن الرحمن له الأسماء الحسنى، ومن الأسماء: الضار والمذل والمميت فلهذا ظهر في العالم ما لا تقتضيه الرحمة ولكن لعوارض، وفي طيّ تلك العوارض رحمة ولو لم يكن إلاّ تضاعف النعيم والراحة عقيب زوال حكمه ولهذا قيل: أحلى من الأمن عند الخائف الوجل، فما تعرف لذات النعم إلاّ بأضدادها، فوضعت لاقتناء العلوم التي فيها شرف الإنسان، فكانت كالطريق الموصلة أو الدليل الموصل إلى مدلوله ذوقاً، وحصول العلم بالأذواق أتم منه بطريق الخبر، ألا ترى الحق وصف نفسه على ألسنة رسله بالغضب والرضا، ومن هاتين الحقيقتين ظهر في العالم اكتساب العلوم من الأذواق الظاهرة كالطعوم وأشباهها، والباطنة كالآلام من الهموم والغموم مع سلامة الأعضاء الظاهرة من كل سبب يؤدّي إلى ألم، فانظر ما أعجب هذا فثبت العرش لثبوت الرحمة السارية التي ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فلها الإحاطة وهي عين النفس الرحماني، فبه ينفس الله كل كرب في خلقه، فإن الضيق الذي يطرأ أو يجده العالم كونه أصلهم في القبضة، وكل مقبوض عليه محصور، وكل محصور محجور عليه، والإنسان لما وجد على الصورة لم يحتمل التحجير،

فنفس الله عنه بهذا النفس الرحماني ما يجده من ذلك، كما كان تنفسه من حكم الحب الذي وصف به نفسه في قوله: «أحببت أن أعرف»، فأظهره في النفس الرحماني، فكان ذلك التنفس الإلهي عين وجود العالم فعرفه العالم كما أراد، فعين العالم عين الرحمة لا غيرها، فاشحذ فؤادك فما يكون العالم رحمة للحق ويكون الحق يسرمد عليه الألم الله أكرم وأجل من ذلك، فانظر ما أعجب ما أعطاه مقام الكرسي من انقسام الكلمة الإلهية فظهر الحق والخلق، ولم يكن يتميز لولا الكرسي الذي هو موضع القدمين الواردتين في الخبر، وعن هذا الاسم وجد في النفس الإنساني حرف الكاف، وفي فلك المنازل منزلة النثرة لما وجد فلكها.

الفصل التاسع عشر: في الاسم الغني وتوجهه على إيجاد الفلك الأطلس وهو فلك البروج واستعانته بالاسم الدهر وإيجاد حرف الجيم من الحروف والطرف من المنازل.

اعلم أن هذا الاسم جعل هذا الفلك أطلس لا كوكب فيه متماثل الأجزاء مستدير الشكل، لا تعرف لحركته بداية ولا نهاية، وما له طرف بوجوده حدثت الأيام السبعة والشهور والسنون، ولكن ما تعينت هذه الأزمنة فيه إلاَّ بعدما خلق الله في جوفه من العلامات التي ميزت هذه الأزمنة، وما عين منها هذا الفلك سوى يوم واحد وهي دورة واحدة عينها مكان القدم من الكرسي فتعينت من أعلى فذلك القدر يسمى يوماً، وما عرف هذا اليوم إلاَّ الله تعالىٰ لتماثل أجزاء هذا الفلك وأوّل ابتداء حركته، وكان ابتداء حركته وأوّل درجة من برج الجوزاء يقابل هذا القدم وهو من البروج الهوائية، فأوّل يوم في العالم ظهر كان بأوّل درجة من الجوزاء، ويسمّى ذلك اليوم الأحد، فلما انتهى ذلك الجزء المعين عند الله من هذا الفلك إلى مقارنة ذلك القدم من الكرسي انقضت دورة واحدة هي المجموع، قابلت أجزاء هذا الفلك كلها من الكرسي موضع القدم منه فعمّت تلك الحركة كل درجة ودقيقة وثانية وما فوق ذلك في هذا الفلك، فظهرت الأحياز وثبت وجود الجوهر الفرد المتحيز الذي لا يقبل القسمة من حركة هذا الفلك، ثم ابتدأ عند هذه النهاية بانتقال آخر في الوسط أيضاً إلى أن بلغ الغاية مثل الحركة الأولى بجميع ما فيه من الأجزاء الأفراد التي تألف منها لأنه ذو كميات، وتسمّى هذه الحركة الثانية يوم الاثنين إلى أن كمل سبع حركات دورية كل حركة عينتها صفة إلهية والصفات سبع لا تزيد على ذلك، فلم يتمكن أن يزيد الدهر على سبعة أيام يوماً فإنه ما ثم ما يوجبه، فعاد الحكم إلى الصفة الأولى فأدارته ومشى عليه اسم الأحد، وكان الأولى بالنظر إلى الدورات أن تكون ثامنة، لكن لما كان وجودها عن الصفة الأولى عينها لم يتغير عليها اسمها، وهكذا الدورة التي تليها إلى سبع دورات، ثم يبتدىء الحكم كما كان أول مرة عن تلك الصفة ويتبعها ذلك الاسم أبد الآبدين دنيا وآخرة بحكم العزيز العليم، فيوم الأحد عن صفة السمع فلهذا ما في العالم إلاَّ من يسمع الأمر الإلهي في حال عدمه بقوله: ﴿كُنْ﴾ ويوم الاثنين وجدت حركته عن صفة الحياة وبه كانت الحياة في العالم فما في العالم جزء إلاَّ وهو حيّ ويوم الثلاثاء وجدت حركته عن صفة البصر فما في العالم جزء إلاَّ وهو يشاهد خالقه من حيث عينه لا من حيث عين خالقه. ويوم الأربعاء وجدت حركته عن صفة الإرادة فما في

العالم جزء إلاَّ وهو يقصد تعظيم موجده. ويوم الخميس وجدت حركته عن صفة القدرة فما في الوجود جزء إلاَّ وهو متمكن من الثناء على موجده. ويوم الجمعة وجدت حركته عن صفة العلم فما في العالم جزء إلاَّ وهو يعلم موجده من حيث ذاته لا من حيث ذات موجده، وقيل: إنما وجد عن صفة العلم يوم الأربعاء وهو صحيح فإنه أراد علم العين وهو علم المشاهدة، والذي أردناه نحن إنما هو العلم الإلهي مطلقاً لا العلم المستفاد، وهذا القول الذي حكيناه أنه قيل ما قاله لي أحد من البشر بل قاله لي روح من الأرواح فأجبته بهذا الجواب فتوقف فألقى عليه أن الأمر كما ذكرناه. ويوم السبت وجدت حركته عن صفة الكلام فما في الوجود جزء إلاَّ وهو يسبح بحمد خالقه ولكن لا نفقة تسبيحه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة فاطر: الآية ٤١] فما في العالم جزء إلاَّ وهو ناطق بتسبيح خالقه عالم بما يسبح به ممّا ينبغي لجلاله قادر على ذلك قاصد له على التعيين لا لسبب آخر، فمن وجد عن سبب مشاهدة عظمة موجده حي القلب سميع لأمره فتعينت الأيام أن تكون سبعة لهذه الصفات وأحكامها، فظهر العالم حياً سميعاً بصيراً عالماً مريداً قادراً متكلماً فعمله على شاكلته كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ والعالم عمله فظهر بصفات الحق. فإن قلت فيه أنه حق صدقت فإن الله قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ وإن قلت فيه أنه خلق صدقت فإنه قال: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فعرى وكسى وأثبت ونفى فهو لا هو وهو المجهول المعلوم، ولله الأسماء الحسنى، وللعالم الظهور بها في التخلق فلا يزاد في الأيام السبعة ولا ينقص منها، وليس يعرف هذه الأيام كما بيناها إلاَّ العالم الذي فوق الفلك الأطلس لأنهم شاهدوا التوجهات الإلهيات من هناك على إيجاد هذه الأدوار وميّزوا بين التوجهات فانحصرت لهم في سبعة ثم عاد الحكم فعلموا النهاية في ذلك. وأما من تحت هذا الفلك فما علموا ذلك إلاَّ بالجواري السبعة، ولا علموا تعيين اليوم إلاَّ بفلك الشمس حيث قسمته الشمس إلى ليل ونهار، فعين الليل والنهار اليوم.

ثم إن الله تعالىٰ جعل في هذا الفلك الأطلس حكم التقسيم الذي ظهر في الكرسي لما انقسمت الكلمة فيه بتدلي القدمين إليه وهما خبر وحكم، والحكم خمسة أقسام: وجوب وحظر وإباحة وندب وكراهة. والخبر قسم واحد وهو ما لم يدخل تحت حكم واحد من هذه الأحكام، فإذا ضربت اثنين في ستة كان المجموع اثني عشر، ستة إلهية وستة كونية لأنها على الصورة، فانقسم هذا الفلك الأطلس على اثني عشر قسماً عينها ما ذكرناه من انقسام الكلمة في الكرسي، وأعطى لكل قسم حكماً في العالم متناهياً إلى غاية ثم تدور كما دارت الأيام، سواء إلى غير نهاية فأعطى قسماً منها اثنتي عشر ألف سنة وهو قسم الحمل كل سنة ثلاثمائة وستون دورة مضروبة في اثني عشر ألفاً، فما اجتمع من ذلك فهو حكم هذا القسم في العالم بتقدير العزيز العليم الذي أوحى الله فيه من الأمر الإلهي الكائن في العالم، ثم تمشى على كل قسم بإسقاط ألف حتى تنتهي إلى آخر قسم وهو الحوت وهو الذي يلي الحمل، والعمل في كل قسم بالحساب كالعمل الذي ذكرناه في الحمل، فما اجتمع من ذلك فهو الغاية، ثم يعود الدور كما بدا ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩] فالمتحرك ثابت العين والمتجدّد إنما

هي الحركة، فالحركة لا تعود عينها أبداً لكن مثلها، والعين لا تنعدم أبداً فإن الله قد حكم بإبقائها فإنه أحب أن يعرف، فلا بدّ من إبقاء أعين العارفين وهم أجزاء العالم، وهذا الفلك هو سقف الجنة، وعن حركته يتكون في الجنة ما يتكون وهو لا ينخرم نظامه، فالجنة لا تفنى لذاتها أبداً ولا يتخلل نعيمها ألم ولا تنغيص وإن كانت طبائع أقسام هذا الفلك مختلفة، فما اختلفت إلاّ لكون الطبيعة فوقه، فحكمت عليه بما تعطيه من حرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة، إلاّ أنه لما كان مركباً ولم يكن بسيطاً لم يظهر فيه حكم الطبيعة إلاّ بالتركيب، فتركب الناري من هذه الأقسام من حرارة ويبوسة، وتركب الترابي منها من برودة ويبوسة، وتركب الهوائي منها من حرارة ورطوبة، وتركب المائي منها من برودة ورطوبة، فظهرت على أربع مراتب لأن الطبيعة لا تقبل منها إلاّ أربعة تركيبات لكونها متضادة وغير متضادة على السواء، فلذلك لم تقبل إلاّ أربع تركيبات كما هي في عينها على أربع لا غير، وإن كانت الطبيعة في الحقيقة اثنين لأنها عن النفس، والنفس ذات قوتين: علمية وعملية، فالطبيعة ذات حقيقتين فاعلتين من غير علم، فهي تفعل بعلم النفس لا بعلمها إذ لا علم لها ولها العمل فهي فاعلة بالطبع غير موصوفة بالعلم، فهي من حيث الحرارة والبرودة فاعلة، ثم انفعلت اليبوسة عن الحرارة والرطوبة عن البرودة، فكما كانت الحرارة تضاد البرودة كان منفعل الحرارة يضاد منفعل البرودة، فلهذا ما تركب من المجموع سوى أربع فظهر حكمها في أقسام هذا الفلك بتقدير العزيز العليم، ثم جعلها على التثليث كل ثلث أربع، فإذا ضربت ثلاثة في أربعة كان المجموع إثني عشر، فلكل برج ثلاثة أوجه مضروبة في أربعة أبراج كان المجموع إثني عشر وجهاً، والأربعة الأبراج قد عمّت تركيب الطبائع لأنها منحصرة في ناري وترابي وهوائي ومائي، فإذا ضربت ثلاث مراتب في إثني عشر وجهاً كان المجموع ستة وثلاثين وجهاً وهو عشر الدرج أي جزء من عشرة، والعشرة آخر نهاية الأحقاب، والحقبة السنة، فأرجو أن يكون المآل إلى رحمة الله في أي دار شاء، فإن المراد أن تعمّ الرحمة الجميع حيث كانوا، فيحيى الجميع بعدما كان منه من لا يموت ولا يحيا وذلك حال البرزخ.

واعلم أن هذا الفلك يقطع بحركته في الكرسي كما يقطعه من دونه من الأفلاك، ولما كان الكرسي موضع القدمين لم يعط في الآخرة إلاّ دارين: ناراً وجنة فإنه أعطى بالقومين فلكين: فلك البروج وفلك المنازل الذي هو أرض الجنة وهما باقيان، وما دون فلك المنازل يخرب نظامه وتبدّل صورته ويزول ضوء كواكبه كما قال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤٨] وقال: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [سورة المرسلات: الآية ٨] فما ذكر من السموات إلاّ المعروفة بالسموات وهي السبع السموات خاصة، وأما مقعر فلك المنازل فهو سقف النار، ومن فعل هاتين القدمين في هذا الفلك ظهر في العالم من كل زوجين اثنين بتقدير العزيز لوجود حكم الفاعلين من الطبيعة، والقوتين من النفس، والوجهين من العقل، والحرفين من الكلمة الإلهية ﴿كُن﴾ من الصفتين الإلهية في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وهي الصفة الواحدة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وهي الصفة

الأخرى، فمن نزّه فمن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ومن شبه فمن ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فغيب وشهادة غيب تنزيه وشهادة تشبيه، فافهم إن كنت تفهم واعلم ما الحقيقة التي حكمت على الثنوية حتى أشركوا وهم المانية مع استيفائهم النظر وبذل الاستطاعة فيه، فلم يقدروا على الخروج من هذه الاثنينية إلى العين الواحدة وما ثم إلاَّ الله ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧] فلم يعذر لأنه نزل عن هذه الدرجة فقلد فنجا صاحب النظر وهلك المقلد، فإنه استند إلى أمر محقق في الصفة والكلمة فأضله الله على علم وختم على سمعه فلم يسمع ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٣] وختم على قلبه فلم يعلم أنه إله واحد لأنه لم يشاهد تقليب قلبه، وجعل على بصره غشاوة فلم يدرك فردية الكلمة بالواو التي بين الكاف والنون فمنعته الغشاوة من إدراكها فلم يشاهد إلاَّ اثنين: الكاف والنون لفظاً وخطاً، والكاف كافان: كاف ﴿كُن﴾ وهي كاف الإثبات وكاف﴿وَلَمْ يَكُن﴾ وهي كاف النفي، وفي هذه الكاف طلعت لنا الشمس سنة تسعين وخمسمائة فأثبتنا نفي التشبيه بطلوع الشمس في﴿وَلَمْ يَكُن﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٤]، ومن لم تطلع له فيه شمس قال بالتعطيل والشمس طالعة، ولا بدّ في لم يكن نصف القرص منها ظاهر والنصف فيها مستتر، والغشاوة منعت هذا الرائي أن يدرك طلوعها فقال بالتعطيل وهو النفي المطلق، فما من ناظر إلاَّ وله عذر والله أجل من أن يكلف نفساً ما ليس في وسعها: [الطويل]

فـكـلُّـهُـمُ فـي رحـمـة الله خـالـدٌ مـوحِّـدُه أو ذو الـشَّـريـكِ وجَـاحِـدُ

ومن هذا الاسم وجد حرف الجيم والطرف من المنازل، وسيأتي الكلام على كل واحد من هذه الحروف والمنازل في بابها.

الفصل العشرون في الاسم المقدر: وتوجهه على إيجاد فلك المنازل والجنات وتقدير صور الكواكب في مقعر هذا الفلك وكونه أرض الجنة وسقف جهنم، وله حرف الشين المعجمة من الحروف، ومنزلة جبهة الأسد.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٩] ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [سورة يس: الآية ٣٨] فالمنازل مقادير التقاسيم التي في فلك البروج عينها الحق تعالىٰ لنا إذ لم يميزه البصر بهذه المنازل، وجعلها ثماني وعشرين منزلة من أجل حروف النفس الرحمانيّ، وإنما قلنا ذلك لأن الناس يتخيلون أن الحروف الثمانية والعشرين من المنازل حكم هذا العدد لها وعندنا بالعكس، بل عن هذه الحروف كان حكم عدد المنازل، وجعلت ثماني وعشرين مقسمة على إثني عشر برجاً ليكون لكل برج في العدد الصحيح قدم، وفي العدد المكسور قدم، إذ لو كان لبرج من هذه البروج عدد صحيح دون كسر أو مكسور دون صحيح لم يعم حكم ذلك البرج في العالم بحكم الزيادة والنقص والكمال وعدم الكمال، ولا بدّ من الزيادة والنقص لأنّ الاعتدال لا سبيل إليه، لأن العالم مبناه على التكوين، والتكوين بالاعتدال لا يصحّ، فلا بدّ من عدد مكسور صحيح في كل برج، فكان لكل برج منزلتان وثلث، فثم برج يكون له منزلتان صحيحتان وثلث منزلة كسر، وثم برج يكون له منزلة صحيحة في الوسط،

ويكون في آخره كسر، وفي أوله كسر، فيلفق من الكسرين منزلة صحيحة مختلفة المزاج وثلث منزلة، وإنما قلنا مختلفة المزاج فإن كل منزلة على مزاج خاص فإذا جمع جزء منزلة إلى جزء أي منزلة أخرى ليكمل بذلك عين منزلة لأن المنزلة مثلثة كالبرج له ثلاثة وجوه، ومن وجوه منازله سبعة وجوه، فكل برج ذو سبعة أوجه وله من نفسه ثلاثة أوجه فكان المجموع عشرة أوجه، فالمنزلة الصحيحة ذات مزاج واحد، والمنزلة الكائنة من منزلتين بمنزلة المولد من اثنين يحدث له مزاج آخر ليس هو في كل واحد من الأبوين وفيه سرّ عجيب وهو أحدية المجموع، فإن لها من الأثر ما ليس لأحدية الواحد، ألا ترى أن العالم ما وجد إلاّ بأحدية المجموع؟ وأن الغنى لله ما ثبت إلاّ بأحدية الواحد، فهذا الحكم يخالف هذا الحكم بلا شك، فالثريا لها مزاج خاص وقد أخذ الحمل منها ثلثها، وجاء الثور يحتاج إلى منزلتين وثلث فأخذ منزلة الدابران صحيحة بمزاج واحد أحديّ وبقي له منزلة وثلث لم يجد منزلة صحيحة ما يأخذ فأخذ ثلثي الثريا وأضاف إلى ذلك ثلثي الهقعة فكملت له منزلة واحدة بأخذية المجموع فتعطيه هذه المنزلة عين حكم الثريا وعين حكم الهقعة ثم يأخذ الثلث الثاني من الهقعة فلا يعمل من الهقعة إلاّ بالثلث الوسط، وأما الثلث الأوّل المضاف إلى ثلثي الثريا لكمال المنزلة فإنه يحدث لهذا الثلث ويحدث لثلث الثريا بكمال وصورة منزلة ما هي عين واحدة منهما حكم ليس هو لثلثي أحدهما ولا لثلث الآخر، فهذا هو السبب الذي يكون لأجله للبرج ثلاثة أوجه، فمنه برج خالص وبرج ممتزج، وهل كل برج يكون من ثلثين وثلثين وهي بروج معلومة يعينها لك تقسيم المنازل عليها، وقد تكون المنزلة المركبة قامت من منزلة سعيدة ونحسة فتعطي بالمجموع سعداً، ولا يظهر لنحس الأخرى أثر، وقد تعطي نحساً ولا يظهر لسعد الأخرى أثر، بخلاف المنزلة الصحيحة فإنها تجري على ما خلقت له، فإن الله أعطاها خلقها كما أعطى للمركبة خلقها، فكل علامة ودليل على برج لا بدّ فيه من التركيب ويكون بالتثليث، فإن الدليل أبداً مثلث النشأة لا بدّ من ذلك مفردان وجامع بينهما وهو الوجه الثالث لا بدّ من ذلك في كل مقدمتين من أجل الإنتاج كل اب، وكل ب ج، فتكرّرت الباء فقام الدليل من ألف باء جيم، فالوجه الجامع الباء لأنه تكرّر في المقدمتين فأنتج كل ألف جيم وهو كان المطلوب الذي ادعاه صاحب الدعوى، فإنه ادّعى أن كل ألف جيم فنوزع فساق الدليل بما اعترف به المنازع فإنه علم أن كل اب وسلم أن كل ب ج، فثبت عنده صحة قول المدعي أن كل اج فمن هنا ظهرت البراهين في عالم الإنسان، وعن هذه التقاسيم التي أعطت المنازل في البروج.

وبعد أن علمت هذا فاعلم أن هذا الفلك الأطلس لما قام له الكرسيّ مقام العرش وفوق الأطلس الكرسيّ والعرش أعطت هذه الثلاثة وجود فلك المنازل كما أعطت المقدمات المركبة من ثلاث النتيجة، وكما حملت النتيجة قوىٰ الثلاث اللاتي في المقدمتين حمل فلك الكواكب قوّة الأطلس والكرسيّ والعرش، والكرسيّ هو الوجه الجامع بين المقدمتين لأنه الوسط بين العرش والأطلس فله وجه إلى كل واحد منهما، فمن قوّة العرش اتحدت أو

توحدت فيه الكلمة الإلهية فكان أهل الجنة وهم أهل هذا الفلك المكوكب يقولون للشيء كن فيكون، ومن قوّة الكرسيّ كان لكل إنسان فيه زوجتان لأنه موضع القدمين، ومن قوّة الفلك الأطلس غابت إنسانيته في ربه فتكوّنت عنه الأشياء ولا تتكوّن إلاّ عن الله وغابت الربوبية في إنسانيته، فالتذّ بالأشياء وتنعم وأكل وشرب ونكح فهو خلق حق فجهل كما أن الفلك الأطلس مجهول، فلهذا قلنا إن هذا الفلك قد حصّل قوّة ما فوقه لأنه مواد عنه، وهكذا كل ما تحته أبداً المولد يجمع حقائق ما فوقه حتى ينتهي إلى الإنسان وهو آخر مولد، فتجمع فيه قوى جميع العالم والأسماء الإلهية بكمالها فلا موجود أكمل من الإنسان الكامل، ومن لم يكمل في هذه الدنيا من الأناسيّ فهو حيوان ناطق جزء من الصورة لا غير لا يلحق بدرجة الإنسان، بل نسبته إلى الإنسان نسبة جسد الميت إلى الإنسان، فهو إنسان بالشكل لا بالحقيقة، لأنّ جسد الميت فاقد في نظر العين جميع القوى، وكذلك هذا الذي لم يكمل وكماله بالخلافة فلا يكون خليفة إلاّ من له الأسماء الإلهية بطريق الاستحقاق أي هو على تركيب خاص يقبلها، إذ ما كل تركيب يقبلها، وهذا من الأسرار الإلهية التي تجوزها العقول وهي محال كونها.

ولما خلق الله هذا الفلك كون في سطحه الجنة فسطحه مسك وهو أرض الجنة، وقسم الجنات على ثلاثة أقسام للثلاثة الوجوه التي لكل برج جنات الاختصاص وهي الأولى، وجنات الميراث وهي الثانية، وجنات الأعمال وهي الثالثة، ثم جعل في كل قسم أربعة أنهار مضروبة في ثلاثة يكون منها اثنا عشر نهراً، ومنها ظهر في حجر موسىٰ اثنتا عشرة عيناً لاثني عشر سبطاً﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٠] ، النهر الواحد نهر الماء الذي هو غير آسن يقول غير متغير وهو علم الحياة، ونهر الخمر وهو علم الأحوال، ونهر العسل وهو علم الوحي على ضروبه، ولهذا تصعق الملائكة عندما تسمع الوحي كما يسكر شارب الخمر ونهر اللبن وهو علم الأسرار واللب الذي تنتجه الرياضات والتقوى، فهذه أربعة علوم، والإنسان مثلث النشأة: نشأة باطنة معنوية روحانية، ونشأة ظاهرة حسيّة طبيعية، ونشأة متوسطة جسدية برزخية مثالية، ولكل نشأة من هذه الأنهار نصيب كل نصيب نهر لها مستقل يختلف مطعمه باختلاف النشأة، فيدرك منه بالحسّ ما لا يدركه بالخيال، ويدرك منه بالخيال ما لا يدركه بالمعنى، وهكذا كل نشأة، فللإنسان إثنا عشر نهراً في جنة الاختصاص أربعة، وفي جنة الميراث مثلها، وفي جنة الأعمال مثلها لمن له جنة عمل، إما من نفسه وإما ممّن أهدى له من الأعمال شيئاً، فيحصل للإنسان من العلوم في كل جنة بحسب حقيقة تلك الجنة وبحسب مأخذ النشآت منه، فإنها تختلف مآخذها، وتختلف العلوم، وتختلف الجنات لتختلف الأذواق، ونفس الرحمن فيها دائم لا ينقطع، تسوقه ريح تسمّى المثيرة، وفي الجنة شجرة ما يبقى بيت في الجنة إلاّ دخل فيه منها تسمى المؤنسة يجتمع إلى أصلها أهل الجنة في ظلها يتحدثون بما ينبغي لجلال الله بحسب مقاماتهم في ذلك بطريق الإفادة، فيحصل بينهم لكل واحد علم لم يكن يعرفه فتعلو منزلته بعلو ذلك العلم، فإذا قاموا من تحت تلك الشجرة وجدوا لهم درجات ومنازل لم يكونوا يعرفونها في جناتهم فيجدون من اللذة بها ما لا يقدر

قدرة فيتعجبون ولا يعرفون من أين ذلك فتهب عليهم الريح المثيرة من نفس الرحمن تخبرهم أن هذه الدرجات التي حصلتموها هي منازلكم في منازل العلم الذي اكتسبتموه تحت الشجرة المؤنسة في ناديكم هذه منازله، فيحصل لكل واحد منزل يعلمه فلا يمر لهم نفس إلاَّ ولهم فيه نعيم مقيم جديد، فهذا ما يحوي عليه سطح هذا الفلك وأمثال هذا، ووجدت هذه الجنان بطالع الأسد وهو برج ثابت فلها الدوام وله القهر، فلهذا يقول أهله للشيء كن فلا يأبى إلاَّ أن يكون، لأنه ليس في البروج من له السطوة مثله، فله القهر على إبراز الأمور من العدم إلى الوجود.

وأما مقعر هذا الفلك فجعله الله محلاً للكواكب الثابتة القاطعة في فلك البروج، ولها من الصور فيه ألف صورة وإحدى وعشرون صورة، وصور السبعة الجواري في السموات السبع، فمبلغ الجميع ألف وثمان وعشرون صورة كلها تقطع في فلك البروج بين سريع وبطيء، ويوم كل كوكب منها بقدر قطعه فلك البروج فأسرعها قطعاً القمر، فإن يومه ثمانية وعشرون يوماً من أيام الدورة الكبرى التي تقدر بها هذه الأيام وهي الأيام المعهودة عند الناس كما أشار إلى ذلك تعالىٰ في قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج: الآية ٤٧] يعني هذه الأيام المعروفة، فأقصر أيام هذه الكواكب يوم القمر ومقداره ثمانية وعشرون يوماً ممّا تعدون، وأطول يوم لكوكب منه مقداره ست وثلاثون ألف سنة ممّا تعدون، ويوم ذي المعارج من الأسماء الإلهية خمسون ألف سنة، ويوم الاسم الرب كألف سنة ممّا تعدون، ولكل اسم إلهيّ يوم، فإذا أردت أن تعرف جميع أيام صور الكواكب أعني مقدارها من الأيام المعروفة فاضرب ألفاً وأحداً وعشرين في ستة وثلاثين ألف سنة فما خرج فذلك حصر أيام الكواكب من الأيام المعروفة، فإن يوم كل واحد منها ست وثلاثون ألف سنة، ثم تضيف إلى المجموع أيام الجواري السبعة فما اجتمع فهو ذلك، ثم تأخذ هذا المجموع وتضربه فيما اجتمع من سني البروج وسني ما اجتمع من ضرب ثلثمائة وستين في مثلها فما خرج لك من المجموع فهو عدد الكوائن في الدنيا من أوّل ما خلقها الله إلى انقضائها، فاعلم ذلك. والمجموع من ضرب ثلثمائة وستين في مثلها مع سنيّ البروج مائتا ألف وسبعة آلاف وستمائة، وفي هذا المجموع تضرب ما اجتمع من عدد أيام الكواكب كلها، فهذا تقدير الكواكب التي وقّتها وقدرها العزيز العليم، فيبقى في الآخرة في دار جهنم حكم أيام الكواكب التي في مقعر هذا الفلك والجواري السبعة مع انكدارها وطمسها وانتثارها، فتحدث عنها في جهنم حوادث غير حوادث إنارتها وثبوتها وسير أفلاكها بها وهي ألف وثمانية وعشرون فلكاً كلها تذهب، وتبقى السباحة للكواكب بذاتها مطموسة الأنوار، ويبقى في الآخرة في الجنة حكم البروج وحكم مقادير العقل عنها يحدث في الجنان ما يحدث ويثبت.

وأما كثيب المسك الأبيض الذي في جنة عدن الذي تجتمع فيه الناس للرؤية يوم الزور الأعظم وهو يوم الجمعة فأيامه من أيام أسماء الله ولا علم لي ولا لأحد بها، فإن الله أسماء استأثر بها في علم غيبه فلا تعلم أيامها، فعدن بين الجنات كالكعبة بيت الله بين بيوت الناس،

والزور الأعظم فيه كصلاة الجمعة، والزور الخاص كالصلوات الخمس في الأيام، والزور الأخلص الأخص كمساجد البيوت لصلاة النوافل، فتزور الحق على قدر صلاتك وتراه على قدر حضورك، فأدناه الحضور في النية عند التكبير وعند الخروج من الصلاة، وأعظمه استصحاب الحضور إلى الخروج من الصلاة وما بينهما في كل صلاة، فهنا مناجاة وهناك مشاهدة وهنا حركات وهناك سكون، ولهذا الاسم من الحروف الشين المعجمة، ومن المنازل الجبهة. انتهى الجزء الثالث والعشرون ومائة.

(الجزء الرابع والعشرون ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الحادي والعشرون: في الاسم الرب وتوجهه على إيجاد السماء الأولى والبيت المعمور والسدرة والخليل ويوم السبت وحرف الياء بالنقطتين من أسفل والخرتان وكيوان.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] فما طلب الزيادة من العلم إلاّ من الرب، ولهذا جاء مضافاً لاحتياج العالم إليه أكثر من غيره من الأسماء لأنه اسم لجميع المصالح وهو من الأسماء الثلاثة الأمّهات فجاء ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ﴾ [سورة الدخان: الآية ٨] ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الدخان: الآية ٧] ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [سورة المعارج: الآية ٤٠] ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ١٧] ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢٨] ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ وهو المتخذ وكيلاً. وهذا الاسم أعطى السدرة نبقها وخضرتها ونورها منه ومن الاسم الله، وأعطى الاسم الرحمن من نفسه عرفها كما قال في الجنة عرفها لهم يعني بالنفس من العرف وهي الرائحة، ومن الاسم الله أصولها وزقومها لأهل جهنم، وقد جلّل الله هذه السدرة بنور الهوية فلا تصل عين إلى مشاهدتها فتحدها أو تصفها والنور الذي كساها نور أعمال العباد ونبقها على عدد نسم السعداء، لا بل على عدد أعمال السعداء، لا بل هي أعيان أعمال السعداء، وما في جنة الأعمال قصر ولا طاق إلاّ وغصن من أغصان هذه السدرة داخل فيه، وفي ذلك الغصن من النبق على قدر ما في العمل الذي هو الغصن صورته من الحركات، وما من ورقة في ذلك الغصن إلاّ وفيها من الحسن بقدر ما حضر هذا العبد مع الله في ذلك العمل، وأوراق الغصن بعدد الأنفاس في ذلك العمل، وشوك هذه السدرة كله لأهل الشقاء وأصولها فيهم والشجرة واحدة ولكن تعطي أصولها النقيض ممّا تعطيه فروعها من كل نوع، فكل ما وصفنا به الفروع حد النقيض في الأصول هذا كثير الوقوع في علم النبات. كما حكي أن أبا العلا بن زهر وكان من أعلم الناس بالطب ولا سيما بعلم الحشائش. وأبا بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة وكان دون ابن زهر في معرفة الحشائش إلاّ أنه كان أفضل منه في العلم الطبيعيّ وكان يتخيل في زعمه أنه أعلم من ابن زهر في علم الحشائش فركبا يوماً فمرّا بحشيشة فقال ابن زهر لغلامه: اقطع لنا من هذه الحشيشة وأشار إلى حشيشة معينة فأخذ شيئاً منها وفتلها في يده وقرّبها من أنفه كأنه يستنشقها ثم قال لأبي بكر: انظر ما

أطيب ريح هذه الحشيشة، فاستنشقها أبو بكر فرعف من حينه فما ترك شيئاً يمكن في علمه أن يقطع به الرعاف ممّا هو حاضر إلاّ وعمله وما نفع حتى كاد يهلك وأبو العلاء يتبسم ويقول: يا أبا بكر عجزت؟ قال: نعم، فقال أبو العلا لغلامه: استخرج لي أصول تلك الحشيشة فجاء بها فقال له: يا أبا بكر استنشقها فاستنشقها أبو بكر فانقطع الدم عنه فعلم فضله عليه في علم الحشائش.

وأسعد الناس بهذه السدرة أهل بيت المقدس، كما أن أسعد الناس بالمهدي أهل الكوفة، كما أنه أسعد الناس برسول الله ﷺ أهل الحرم المكي، كما أنه أسعد الناس بالحق أهل القرآن. وإذ أكل أهل السعادة من هذه الشجرة زال الغل من صدورهم ومكتوب على ورقها: سبوح قدوس رب الملائكة والروح، وإلى هذه السدرة تنتهي أعمال بني آدم، ولهذا سميت سدرة المنتهى، وللحق فيها تجلّ خاص عظيم يقيد الناظر ويحير الخاطر وإلى جانبها منصة وتلك المنصة مقعد جبريل عليه السلام، وفيها من الآيات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما قال رسول الله ﷺ فيها: «**أَنَّها غَشِيَهَا مِنْ نُورِ اللَّهِ مَا غَشِيَ**» فلا يستطيع أحد أن ينعتها إنما ينظر الناظر إليها فيدركه البهت.

وأوجد الله في هذه السماء البيت المعمور المسمّى بالضراح وهو على سمت الكعبة كما ورد في الخبر: «**لَوْ سَقَطَتْ مِنهُ حَصَاةٌ لَوَقَعَتْ عَلَى الكَعْبَةِ**» وهذا البيت في هذه السماء والسماء ساكنة لا حركة فيها ولهذا لا ينتقل البيت من سمت الكعبة لأنّ الله جعل هذه السموات ثابتة مستقرة هي لنا كالسقف للبيت ولهذا سمّاها السقف المرفوع، إلاّ أنه في كل سماء فلك وهو الذي تحدثه سباحة كوكب ذلك السماء، فالكواكب تسبح في أفلاكها لكل كوكب فلك فعدد الأفلاك بعدد الكواكب، يقول تعالىٰ: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٣] وأجرام السموات أجرام شفافة وهي مسكن الملائكة والأفلاك لولا سباحة الكواكب ما ظهر لها عين في السموات فهي فيها كالطرق في الأرض تحدث كونها طريقاً بالماشي فيها فهي أرض من حيث عينها طريق من حيث المشي فيها، وهذا البيت له بابان يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك ثم يخرجون على الباب الذي يقابله ولا يعودون إليه أبداً يدخلون فيه من الباب الشرقي لأنه باب ظهور الأنوار ويخرجون من الباب الغربي لأنه باب ستر الأنوار المذهبة فيحصلون في الغيب فلا يدري أحد حيث يستقرّون، وهؤلاء الملائكة يخلقهم الله في كل يوم من نهر الحياة من القطرات التي تقطر من انتفاض جبريل لأنّ الله قد جعل له في كل يوم غمسة في نهر الحياة، وبعدد هؤلاء الملائكة في كل يوم تكون خواطر بني آدم، فما من شخص مؤمن ولا غيره إلاّ ويخطر له سبعون ألف خاطر في كل يوم لا يشعر بها إلاّ أهل الله وهؤلاء الملائكة الذين يدخلون البيت المعمور يجتمعون عند خروجهم منه مع الملائكة الذين خلقهم الله من خواطر القلوب، فإذا اجتمعوا بهم كان ذكرهم الاستغفار إلى يوم القيامة، فمن كان قلبه معموراً بذكر الله مستصحباً كانت الملائكة المخلوقة من خواطره تمتاز عن الملائكة التي خلقت من خواطر قلب ليس له هذا المقام، وسواء كان الخاطر فيما ينبغي أو فيما لا

ينبغي فالقلوب كلها من هذا البيت خلقت فلا تزال معمورة دائماً، وكل ملك يتكونّ من الخاطر يكون على صورة ما خطر سواء.

وخلق الله في هذه السماء كوكباً وأوحى فيها أمرها وأسكنها إبراهيم الخليل وجعل لهذا الكوكب حركة في فلكه على قدر معلوم، من أعجب المسائل مسألة هذه الحركات فإنها من خفيّ العلم فإنه يعطي أنه لا يستحيل مؤثر فيه بين مؤثرين، لأنّ مثل هذه الحركة لهذا الكوكب يكون عن حكمين مختلفين: حكم قسري وحكم إراديّ أو طبيعيّ، وذلك له مثال ظاهر وهو أنه إذا كان حيوان على جسم قاصداً جهة بحركته من هذا الجسم وتحرّك الجسم إلى غير تلك الجهة فتحرك الحيوان إلى جهة حركة هذا الجسم مع حركته إلى النقيض فيجمع بين حركتين متقابلتين معاً في زمان واحد، فهو يقطع في ذلك الجسم الذي هو عليه والجسم يقطع به في جسم آخر فيقطع الحيوان فيه بحكم التبعية كنملة على ثوب مطروح في الأرض تمشي فيه مشرقة ويجذب جاذب ذلك الثوب إلى جهة الغرب فتكون متحرّكة إلى جهة الشرق في الآن الذي تتحرّك فيه بتحرّك الثوب إلى جهة الغرب فهي حركة قهرية لها غالبة عليها وهاتان حركتان متقابلتان في آن واحد، فانظر هل لاجتماع الضدين وجوه في هذه المسألة أم لا؟ فإن الكواكب تقطع في الفلك في رأي العين من الغرب إلى الشرق، والفلك الأكبر المحيط يقطع بها من الشرق إلى الغرب، فالكوكب متحرّك من الشرق إلى الغرب في الآن الذي هو فيه متحرّك من الغرب إلى الشرق، ففلكه الذي تحدثه حركته شرقاً عين فلكه الذي تحدثه حركته غرباً، فهذه مثل مسألة الجبر في عين الاختيار، فالعبد مجبور في اختياره، ومن هذه المسألة تعرف أفعال العباد لمن هي منسوبة بحكم الخلق هل ينفرد بها أحد القادرين أو هل هي لقادرين؟ لكل قادر فيها نسبة خاصة بها وقع التكليف، ومن أجلها كان العقاب والثواب، وقد ذكرنا ما لهذا الفلك من الأثر في قلوب العارفين وذكر غيرنا، وذكرنا ما له من الأثر في عالم الخلق من الكون والفساد وهو عالم الأركان والمولدات كل ذلك من هذا النفس الرحماني لأنه يعطي الحركات والحركة سبب الوجود، ألا ترى الأصل لولا توجه الإرادة وهي حركة معنوية والقول وهو حركة معنوية، وبها سميت اللفظة لفظة لهذه الحركة ما ظهر وجود.

ومن هذا الفلك أعطى الله وجود يوم السبت وهو يوم الأبد فليله في الآخرة لا انقضاء له، ونهاره أيضاً في المحل الثاني لا انقضاء له وفيه تحدث الأيام السبعة ومنها السبت، وهذا من أعجب الأمور أيضاً أن الأيام التي منها السبت تحدث في يوم السبت فهو من جملة الأيام وفيه يظهر الأيام. ولهذا مستند في الحقيقة الإلهية وذلك أن الترمذي خرج في غريب الحسان عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: **«لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ فَقَالَ لَهُ الحَقُّ: قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ فَقَالَ: الحَمْدُ للَّهِ فَحَمِدَ اللَّه بِإِذْنِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَرْحَمُكَ رَبُّكَ يَا آدَمُ لِهٰذا خَلَقْتُكَ»** هذه الزيادة ليست من الترمذي، ثم رجعنا إلى حديث الترمذي: **«يَا آدَمُ اذْهَبْ إِلى أُولٰئكَ المَلائِكَةِ إِلى مَلإٍ منهم جُلُوسٍ فَقُلْ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ، قَالُوا: وَعَلَيكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، ثُمَّ رَجعَ إِلى رَبِّهِ فَقَالَ: إِنَّ هٰذِهِ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ بَنِيكَ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُ وَيَدَاهُ مَقْبُوضَتَانِ: اخْتَرْ**

أَيَّهَما شِئْتَ قالَ: اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي وَكِلْتَا يدي رَبِّي يَمِينٌ مُبارَكَةٌ وَبَسَطَهَا وإِذَا فِيها آدَمُ وَذُرِّيَتُهُ» الحديث، فهذا آدم في تلك القبضة في حال كونه خارجاً عنها وهكذا عين هذه المسألة. وإذا نظرت وجدت العالـم مع الحق بهذه المثابة موضع حيرة هو لا هو ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فختم بما به بدأ، فياليت شعري من الوسط فإنه وسط بين نفي وهو قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ وبين إثبات وهو قوله: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ وهو قوله: ما أنت إذ أنت لكن الله أنت، فهذا معنى قولنا في كلامنا في الظاهر والمظاهر وأنه عينه مع اختلاف صور المظاهر فنقول في زيد أنه واحد مع اختلاف أعضائه فرجله ما هي يده وهي زيد في قولنا زيد وكذلك أعضاؤه كلها وباطنه وظاهره وغيبه وشهادته مختلف الصور وهو عين زيد ما هو غير زيد، ثم تضاف كل صورة إليه ويؤكد بالعين والنفس والكل والجمع، وفي هذا الفلك عين الموت ومعدن الراحة وسرعة الحركة في ثبات وطرح الزينة والأذى وله حصل هذا الكوكب في برج الأسد وهو نقيضه في الطبع ونظيره في الثبوت، ومن هنا يعرف قول من قال: إن المثلين ضدان هل أخطأ أو أصاب؟ وإذا نزل الكوكب في البرج هل يمتزج الحكم فيكون للمجموع حكم ما هو لكل واحد منهما على انفراد أو يغلب حكم المنزلة والبرج على الكوكب النازل فيه، أو يغلب حكم الكوكب على البرج أو يتصف أحدهما بالأكثر في الحكم والآخر بالأقل مع وجود الحكمين؟ فعندنا لا يحكم واحد في آخر، وإن حكم جمعيتهما يظهر في المحكوم فيه ولكل واحد منهما قوّة في ذلك المحكوم فيه بذلك الحكم لأنه عنهما صدر ذلك الحكم من حالة تسمّى الاجتماع كما يكون ذلك في الاقترانات بين الكواكب، وهذا نوع من الاقتران وليس باقتران ولكنه نزول في منزل.

الفصل الثاني والعشرون: في الاسم العليم وتوجهه على إيجاد السماء الثانية وخانسها ويوم الخميس وموسىٰ عليه السلام، وحرف الضاد المعجمة والصرفة من المنازل.

قال الله تعالىٰ آمراً لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] الكلام في كون هذه السماء وباقي السموات والأفلاك كما تقدم، غير أني أشير إلى ما يختص به كل سماء خاصة من الحكم، فأمّا هذه السماء فأوحى الله فيها أمرها وتفصيل أمر كل سماء يطول، وقد ذكرنا من ذلك طرفاً جيداً في التنزلات الموصلية، فمن أمرها حياة قلوب العلماء بالعلم واللين والرفق وجميع مكارم الأخلاق ولذلك لـم ينبه أحد من سكان السموات من أرواح الأنبياء عليهم السلام رسول الله ﷺ ليلة فرض الله على أمته ﷺ خمسين صلاة غير موسىٰ عليه السلام فإنه قال له: راجع ربك، فإنه كان أعلم منه بهذه الأمور لذوقه مثله في بني إسرائيل وما ابتلي به منهم فتكلم عن ذوق وخبرة، فكل شيخ لا يتكلم في العلوم عن ذوق ومجلى إلهيّ لا عن كتب ونقل فليس بعالم ولا أستاذ فلولاه لكان الفرض علينا في الصلاة خمسين صلاة مع كونه أرسله الله رحمة للعالمين، ومن كثر تكليفه قلّت رحمته فقيض الله له في مدرجة إسرائه موسىٰ عليه السلام فخفف الله عن هذه الأمة به ﷺ، فهذا ما كان إلاً من حكم أمر هذه السماء الذي أوحى الله فيها أمرها ولها من الأيام يوم الخميس، فكل سر يكون للعارفين وعلم وتجلّ

فمن حقيقة موسىٰ من هذه السماء، وكل أثر يظهر في الأركان والمولدات يوم الخميس فمن كوكب هذه السماء وحركة فلكها مجملاً من غير تفصيل ولها الضاد المعجمة ومن المنازل الصرفة، فأما وجود الحروف المذكورة في كل سماء فلتلك السماء أثر في وجودها، وأما قولنا أن لها من المنازل الصرفة أو كذا لكل سماء فلسنا نريد أن لها أثراً في وجود المنزلة كما أردنا بالحرف، وإنما أريد بذلك أن هذا الكوكب الخاص بهذا الفلك أوّل ما أوجده الله وتحرّك أوجده في المنزلة التي نذكرها له بعينها فهي منزلة سعده حيث ظهر فيها وجوده، فهذا معنى قولي له من المنازل كذا ولكل سماء وفلك أثر في معدن من المعادن السبعة يختص به وينظر إلى ذلك المعدن بقوته.

الفصل الثالث والعشرون: في الاسم القاهر. توجه هذا الاسم الإلهيّ على إيجاد السماء الثالثة، فأظهر عينها وكوكبها وفلكه وجعلها مسكن هارون عليه السلام، وبهذا الاسم الإلهيّ أوحى فيها أمرها وكان وجود كوكبها حركة فلكه في منزلة العوا يوم الثلاثاء، فمن الأمر الموحى فيها إهراق الدماء والحميات، وعن حركة هذا الفلك ظهر حرف اللام من الحروف اللفظية، فكل علم وسرّ من الأسرار الإلهيّة يظهر على العارفين يوم الثلاثاء فهو من هذه السماء من روح هارون، وكل أثر في الأركان والمولدات فمن أمر هذا الفلك وحركة كوكبه فإن الله لما أوحى في كل سماء أمرها أوحى بالاسم الإلهيّ الخاص بذلك فذلك الاسم هو الممدّ لها.

الفصل الرابع والعشرون: في الاسم النور. وتوجه هذا الاسم الإلهيّ على إيجاد السماء الرابعة وهي قلب العالم وقلب السموات فأظهر عينها يوم الأحد وأسكن فيها قطب الأرواح الإنسانية وهو إدريس عليه السلام، وسمّي الله هذه السماء مكاناً علياً لكونها قلباً، فإن التي فوقها أعلى منها فأراد علوّ مكانة المكان، فلهذا المكان من المكانة رتبة العلو، وأوجدها في منزلة السماك وأظهر كوكبها وفلكه وكوّن حرف النون عنها وأظهر بحركة كوكبها الليل والنهار، فقسم اليوم فتقسم فيه الحكم الإلهيّ في العالم فجعل كل واحد منهما أنثى والآخر ذكراً لإنتاج ما يظهر في الأركان من المولدات، فكل ما ولد وظهر من الآثار عموماً في الأيام كلها بالنهار فأمه النهار وأبوه الليل، وما ظهر من ذلك بالليل فأمه الليل وأبوه النهار فيولج الليل في النهار إذا كان النهار أنثى ويولج النهار في الليل إذا كان الليل أنثى، وقد بيّنا ذلك في كتاب الشأن، فكل ما ظهر من العلم والآثار في المولدات يوم الأحد فمن هذه السماء وساكنها لا بل في كل يوم وفي كل العالم الذي تحت حيطته ولا يخنس كوكبها.

الفصل الخامس والعشرون: في الاسم المصور. توجه هذا الاسم الإلهيّ على إيجاد السماء الخامسة وفلكها وكوكبها، وكان ظهور ذلك في منزلة الغفر، وأوحى فيها إظهار صور الأرواح والأجسام والعلوم في العالم العنصري، واختصّت بالأثر الكامل بطريق التولية بيوم الجمعة، وأسكن فيها يوسف عليه السلام وعنها ظهر حرف الراء.

الفصل السادس والعشرون: في الاسم المحصي. قال تعالىٰ: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾

[سورة الجن: الآية ٢٨] يريد موجوداً وتوجه هذا الاسم الإلهيّ على إيجاد السماء السادسة وكوكبها وفلكها يوم الأربعاء في منزلة الزبانا، وأسكن فيها عيسىٰ عليه السلام، فكل ما ظهر في يوم الأربعاء في العالم العنصري من الآثار الحسيّة والمعنوية وما يحصل للعارفين في قلوبهم من ذلك فمن وحي هذه السماء ومنها ظهر حرف الطاء المهملة.

الفصل السابع والعشرون: في الاسم المبين. توجه هذا الاسم على إيجاد السماء الدنيا وكوكبها وفلكها يوم الاثنين في منزلة الإكليل، وعن حركة هذا الفلك حرف الدال المهملة، وله كل حكم يظهر في العالم يوم الاثنين روحاً وجسماً وهذا كله بنهار ذلك اليوم لا بليله، فإن ليلة كل يوم ما هي الليلة التي يكون ذلك اليوم في صبيحتها ولا الليلة التي تكون بغروب شمسه في ذلك اليوم، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الشأن، وإنما ليلته التي لذلك اليوم هي في أول ساعة من الليل الذي هو حاكم في أول ساعة من النهار، فذلك يوم تلك الليلة، وتلك الليلة ليلة ذلك اليوم فهذا أريد.

اعلم أن هذه السماء الدنيا أوحى الله فيها أمرها وأسكنها آدم وهو الإنسان الفرد أصل هذا النوع وهو قوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [سورة النساء: الآية ١] إلاّ أنه جعله الله أعني الإنسان سريع التغيير في باطنه كثير الخواطر، يتقلب في باطنه في كل لحظة تقلبات مختلفة لأنه على الصورة الإلهيّة وهو سبحانه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] فمن المحال ثبوت العالم زمانين على حالة واحدة، بل يتغير عليه الأحوال والأعراض في كل زمان فرد وهو الشؤون التي هو الحق فيها لمن علم ما قال الله، ولا يظهر سلطان ذلك إلاّ في باطن الإنسان فلا يزال يتقلب في كل نفس في صور تسمى الخواطر لو ظهرت إلى الأبصار لرأيت عجباً، وأسرع الحركات الفلكية حركة هذا الفلك بكوكبه الذي هو القمر، فهو أسرع سير في قطع فلك المنازل من غيره من السيارة وله في كل يوم منزلة فيقطع الفلك في ثمانية وعشرين يوماً، فكان ظهور الأثر في الكون سريعاً لسرعة الحركة فناسب آدم في سرعة خواطره فأسكنه هذه السماء، وجعل نسم بنيه عن يمينه ويساره أسودة يرى شخوصها أهل الكشف، وعن يمينه عليون، وعن يساره السفل، فلا يخفى عنه من أحوال بنيه شيء.

واعلم أن هذه الحقيقة التي جعلته يسمى إنساناً مفرداً هي في كل إنسان ولكن كانت في آدم أتم لأنه كان ولا مثل له، ثم بعد ذلك انتشأت منه الأمثال فخرجت على صورته، كما انتشأ هو من العالم ومن الأسماء الإلهيّة فخرج على صورة العالم وصورة الحق فوقع الاشتراك بين الأناسي في أشياء وانفرد كل شخص بأمر يمتاز به عن غيره كما هو العالم، فبما ينفرد به الإنسان يسمّى الإنسان المفرد، وبما يشترك به يسمّى الإنسان الكبير، ولما كان آدم أبا البشر كانت منه رقيقة إلى كل إنسان ونسبة، ولما كان هو من العالم ومن الحق بمنزلة بنيه منه كانت فيه رقيقة ممن كل صورة في العالم تمتد إليه لتحفظ عليه صورته ورقيقة من كل اسم إلهي تمتد إليه لتحفظ عليه مرتبته وخلافته، فهو يتنوع في حالاته تنوع الأسماء الإلهيّة، ويتقلب في أكوانه تقلب العالم كله، وهو صغير الحجم لطيف الجرم سريع الحركة، فإذا تحرك حرك

جميع العالم، واستدعى بتلك الحركة توجه الأسماء الإلهيّة عليه لترى ما أراد بتلك الحركة فتفضي في ذلك بحسب حقائقها، ولم يكن في الأفلاك أصغر من فلك سماء الدنيا فأسكنه الله فيها للمناسبة، ولصغر هذا الفلك كان أسرع دورة فناسب سرعة الخواطر التي في الإنسان فأسكنه فيه من حيث إنَّه إنسان مفرد خاصة لا من حيث اشتراكه، ثم إنه جعل الله له من بنيه في كل سماء شخصاً وهو عيسىٰ ويوسف وإدريس وهارون ويحيىٰ وموسىٰ وإبراهيم عليهم السلام، فهو ناظر إليهم في كل يوم بما هو أب لهم، وهم ناظرون إليه من حيث ما هم في منازل معينة لا من حيث هم أبناء له.

وهذا الإنسان المفرد يقابل بذاته الحضرة الإلهيّة، وقد خلقه الله من حيث شكله وأعضاؤه على جهات ستة ظهرت فيه، فهو في العالم كالنقطة من المحيط، وهو من الحق كالباطن، ومن العالم كالظاهر، ومن القصد كالأول، ومن النشء كالآخر، فهو أول بالقصد، آخر بالنشء، وظاهر بالصورة، وباطن بالروح، كما أنه خلقه الله من حيث طبيعته وصورة جسمه من أربع، فله التربيع من طبيعته إذ كان مجموع الأربعة الأركان، وأنشأ جسده ذا أبعاد ثلاثة من طول وعرض وعمق فأشبه الحضرة الإلهيّة ذاتاً وصفات وأفعالاً، فهذه ثلاث مراتب: مرتبة شكله وهو عين جهاته، ومرتبة طبيعته، ومرتبة جسمه، ثم إنّ الله جعل له مثلاً وضداً وما ثم سوى هذه الخمسة، واختصّ بالخمسة لأنه ليس في الأعداد من له الاسم الحفيظ إلاّ هي وهي تحفظ نفسها وغيرها بذاتها وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] فثنى وهو قولنا: تحفظ نفسها وغيرها، فأما كونه ضداً فبما هو عاجز جاهل قاصر ميت أعمى أخرس ذو صمم فقير ذليل عدم، وبما هو مثل ظهوره بجميع الأسماء الإلهيّة والكونية فهو مثل للعالم ومثل للحضرة فجمع بين المثليتين وليس ذلك لغيره من المخلوقين، فهو حيّ عالم مريد قادر سميع بصير متكلم عزيز غني إلى جميع الأسماء الإلهيّة كلها والأسماء الكونية، فله التخلق بالأسماء، فله حالات خمس يقابل بها كل ما سواه بحسب ما ينظرون إليه إذ هو الكلمة الجامعة، وأعطاه الله من القوّة بحيث أنه ينظر في النظرة الواحدة إلى الحضرتين فيتلقى من الحق ويلقي إلى الخلق، فمنهم الناظر إليه من حيث شكله فيمده من ذلك المقام بأمور خاصة تختص بالشكل. ومنهم الناظر إليه من حيث طبيعته فيمده من ذلك المقام بأمور خاصة تختص بالطبع، كما يمده الحق في شكله من اسمه المحيط، وفي طبيعته من حياته وعلمه وإرادته وقدرته. ومنهم من ينظر إليه من حيث جسمه فيمده من ذلك المقام بأمور خاصة تختص بالجسم، كما يمده الحق من حضرته بما يظهر في ذاته وصفاته وأفعاله. ومنهم الناظر إليه كفاحاً لا منازعة فيمده من ذلك المقام بأمور خاصة تختص بالمكافحة، كما يمده الحق من اسمه البعيد والمعزّ إن كان ذليلاً، والمذل إن كان عزيزاً. ومنهم الناظر إليه من حيث إنه مثّل له في المرتبة، فإنه بالمرتبة كان خليفة وقد شورك فيها فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٩] وقال: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦] فهم نوّاب الحق في عباده، فيمدّهم من ذلك المقام بأمور خاصة تختص بتلك المثلية، كما

يمدّه الحق من صورته بجميع أسمائه وليس إلاَّ هذه، وقد قسم الله خلقه إلى شقي وسعيد، وجعل مقرّ عباده في دارين: دار جهنم وهي دار كل شقي، ودار جنان وهي دار كل سعيد، وسمّوا هؤلاء أشقياء لأنهم أقيموا فيما يشق عليهم وهو المخالفة، وسمّوا هؤلاء سعداء لأنهم أقيموا فيما يسهل عليهم وهو المساعدة والموافقة، فمن كان مع الله على مراد الله فيه وفي خلقه لم يشق عليه شيء ممّا يحدث في العالم.

حكي عن رابعة رضي الله عنها أنه ضرب رأسها ركن جدار فأدماها فما التفتت فقيل لها في ذلك فقالت: شغلي بموافقة مراده فيما جرى شغلني عن الإحساس بما ترون من شاهد الحال، فما شق عليها ما جرى فلو شق عليها لتعذبت في نفسها منها. فالأشقياء ليس لهم عذاب إلاَّ منهم لأنهم أقيموا في مقام الاعتراض والتعليل لأفعال الله في عباده، ولأيّ شيء كان كذا ولو كان كذا كان أحسن وأليق، ونازعوا الربوبية وشاقوا الله ورسوله فشقاؤهم شقاقهم فهي دار الأشقياء بدخولها في هذه الحال، فإذا طال عليهم الأمد تغيّر الحال لأن طول الأمد له حكم بقوله تعالىٰ: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٦] فإذا طال الأمد على الأشقياء وعلموا أن ذلك ليس بنافع قالوا: فالموافقة أولى فتبدّلت صورهم، فأثر ذلك التبديل هذا الحكم فزالت المشاققة فارتفع العذاب عن بواطنهم فاستراحوا في دارهم ووجدوا في ذلك من اللذة ما لا يعلمه إلاَّ الله لأنهم اختاروا ما اختار الله لهم، وعلموا عند ذلك أن عذابهم لم يكن إلاَّ منهم، فحمدوا الله على كل حال فأعقبهم ذلك أن يحمدوا الله المنعم المتفضل.

ثم إن لهذا الإنسان المفرد الذي هو آدم ولكل إنسان أقيم فيما هو منفرد به نظر آخر إلى منازل السعداء وهي التي عيّنها الفلك المكوكب وهي منازل الجنان ومنازل النار، فإن الجنة مائة درجة والنار مائة درك على عدد الأسماء الإلهيّة فهي بحكم الاشتراك تسعة وتسعون اسماً ينالها كل إنسان بما هو مشارك غيره، والاسم الموفي مائة وهو وتر الغيب كما كانت التسعة والتسعون وتر الشهادة لأن الله وتر يحب الوتر، فالاسم الموفي مائة مفرد منه يتجلى الحق للإنسان المفرد إذا كان مع الأمر الذي يسمّى به إنساناً مفرداً، وإذا كان مع هذا الاسم الفرد كانت منازله ثمانياً وعشرين منزلة لأن حروف نفسه ثمانية وعشرون حرفاً ظهر منها في مقام الجمع والوجود علامات تدل على الحق وهي خمس آلاف علامة وثمانمائة علامة وثمان وثلاثون علامة، وهذه كلها منازل في هذه المنازل، ولهذا يقال يوم القيامة لقارىء القرآن: اقرأ وارق فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ، ولهذا تمدّح أبو يزيد بأنه ما مات حتى استظهر القرآن.

وينبغي لقارىء القرآن إذا لم يكن من أهل الكشف ولا من أهل التعليم الإلهيّ أن يبحث ويسأل علماء الرسوم أي شيء يثبت عندهم أو رأوه أنه كان قرآناً ونسخ لفظه من هذا المصحف العثماني ولا يبالي إذا قالوا له كذا وكذا صحيحاً كان الطريق إلى ذلك أو غير صحيح فينبغي أن يحفظه فإنه يزيد بذلك درجات، وقد اختلفت المصاحف فهذا ينفعه ولا

يضره، فإن هذا الذي بأيدينا هو قرآن بلا شك ونعلم أنه قد سقط منه كثير، فلو كان رسول الله ﷺ هو الذي جمعه لوقفنا عنده وقلنا هذا وحده هو الذي تتلوه يوم القيامة إذا قيل لقارىء القرآن: اقرأ وارق، والاحتياط فيما قلناه، ولكن لا أريد بذلك أنه يصلي به وإنما يحفظه خاصة فإنه ليس بمتواتر مثل هذا، وما نازع أحد من الصحابة في مصحف عثمان أنه قرآن فإذا حصل الإنسان بما انفرد به في منزلة من هذه المنازل فإنها تعطيه حقيقة ما هي عليه ممّا وضعها الله له من الأمور الظاهرة في أفعال العباد في حركاتهم وسكونهم وتصرفاتهم، وما منعني من تعيينها إلاّ ما يسبق إلى القلوب الضعيفة من ذلك ووضع الحكمة في غير موضعها فإن الحافظين أسرار الله قليلون، وإذا وفى الإنسان المفرد علم هذه الأمور ودخل الجنات الثمانية ورأى الكثيب الأبيض وعاين درجات الناس في الرؤية وتميز مراتبهم ومنازلهم في ذلك ونظر إلى التكوينات الجنانية والرقائق الممتدة إليها من فلك البروج علم أن لله أسراراً في خلقه فأراد أن يعرفه آثار ذلك فارتقى بنفسه إلى هذا الفلك ودار معه دورة واحدة لكل برج حتى أكمل اثنتي عشرة دورة ونظر بحلوله في كل دورة ما يعطي من الأثر في جنات النعيم، وفي جهنم، وفي عالم الدنيا، وفي البرزخ، وفي يوم القيامة، وفي أحوال الكائنات العرضيات في العالم والخاصة بجسد الإنسان وروحه والمولدات، وربما نشير إلى شيء من هذه الأسرار متفرقاً في هذا الكتاب في المنازل منه إن شاء الله تعالىٰ.

وجميع الأسماء الإلهيّة المختصة بهذا الإنسان الموصوف بهذه الصفة التي ينزل بها هذه المنازل معلومة محصاة وهي: الرفيع الدرجات، الجامع، اللطيف، القوي، المذل، رزاق، عزيز، مميت، محيي، حي، قابض، مبين، محص، مصوّر، نور، قاهر، عليم، رب، مقدّر، غنيّ، شكور، محيط، حكيم، ظاهر، باطن، باعث، بديع. ولكل اسم من هذه الأسماء روحانية ملك تحفظه وتقوم به، وتحفظها لها صور في النفس الإنساني تسمّى حروفاً في المخارج عند النطق وفي الخط عند الرقم فتختلف صورها في الكتابة ولا تختلف في الرقم، وتسمّى هذه الملائكة الروحانيات في عالم الأرواح بأسماء هذه الحروف فلنذكرها على ترتيب المخارج حتى تعرف رتبتها: فأوّلهم ملك الهاء ثم الهمزة، وملك العين المهملة، وملك الحاء المهملة، وملك العين المعجمة، وملك الخاء المعجمة، وملك القاف وهو ملك عظيم رأيت من اجتمع به، وملك الكاف، وملك الجيم، وملك الشين المعجمة، وملك الياء، وملك الضاد المعجمة، وملك اللام، وملك النون، وملك الراء، وملك الطاء المهملة، وملك الدال المهملة، وملك التاء المعجمة باثنتين من فوقها، وملك الزاي، وملك السين المهملة، وملك الصاد المهملة، وملك الظاء المعجمة، وملك الثاء المعجمة بالثلاث، وملك الذال المعجمة، وملك الفاء، وملك الباء، وملك الميم، وملك الواو. وهذه الملائكة أرواح هذه الحروف، وهذه الحروف أجساد تلك الملائكة لفظاً وخطاً بأي قلم كانت، فبهذه الأرواح تعمل الحروف لا بذواتها أعني صورها المحسوسة للسمع والبصر المتصوّرة في الخيال، فلا يتخيل أن الحروف تعمل بصورها وإنما تعمل بأرواحها، ولكل حرف تسبيح

وتمجيد وتهليل وتكبير وتحميد يعظم بذلك كله خالقه ومظهره وروحانيته لا تفارقه، وبهذه الأسماء يسمون هؤلاء الملائكة في السموات، وما منهم ملك إلاَّ وقد أفادني.

وكذلك هذه الكواكب التي ترونها إنما هي صور لها أرواح ملكية تدبرها مثل ما لصورة الإنسان، فبروحه يفعل الإنسان وكذلك الكوكب والحرف لولا الروح ما ظهر منه فعل، فإن الله سبحانه ما يسوّي صورة محسوسة في الوجود على يد من كان من إنسان أو ريح إذا هبت فتحدث أشكالاً في كل ما تؤثر فيه حتى الحية والدودة تمشي في الرمل فيظهر طريق، فذلك الطريق صورة أحدثها الله بمشي هذه الدودة أو غيرها فينفخ الله فيها روحاً من أمره لا يزال يسبحه ذلك الشكل بصورته وروحه إلى أن يزول فتنتقل روحه إلى البرزخ وذلك قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٦] وكذلك الأشكال الهوائية والمائية لولا أرواحها ما ظهر منها في انفرادها ولا في تركيبها أثر، وكل من أحدث صورة وانعدمت وزالت وانتقل روحها إلى البرزخ فإن روحها الذي هو ذلك الملك يسبح الله ويحمده ويعود ذلك الفضل على من أوجد تلك الصورة الذي كان هذا الملك روحها، فما يعرف حقائق الأمور إلاَّ أهل الكشف والوجود من أهل الله، ولهذا نبّه الله قلوب الغافلين ليتنبهوا على الحروف المقطعة في أوائل السور فإنها صور ملائكة وأسماؤهم، فإذا نطق بها القارىء كان مثل النداء بهم فأجابوه فيقول القارىء: ألف لام ميم، فيقول هؤلاء الثلاثة من الملائكة مجيبين ما تقول؟ فيقول القارىء ما بعد هذه الحروف تالياً، فيقولون: صدقت إن كان خيراً، ويقولون: هذا مؤمن حقاً نطق حقاً وأخبر بحق فيستغفرون له وهم أربعة عشر ملكاً: ألف لام ميم صاد راء كاف هاء ياء عين طاء سين حاء قاف نون، ظهروا في منازل من القرآن مختلفة، فمنازل ظهر فيها واحد مثل: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ ومنازل ظهر فيها اثنان مثل ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿يسٓ﴾ ﴿حمٓ﴾ وهي سبعة أعني الحواميم ﴿طه﴾ ومنازل ظهر فيها ثلاثة وهم ﴿الٓمٓ﴾ البقرة ﴿الٓمٓ﴾ آل عمران ﴿الٓرٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر ﴿طسٓمٓ﴾ الشعراء والقصص والعنكبوت ولقمان والروم والسجدة. ومنها منازل ظهر فيها أربعة هم ﴿الٓمٓصٓ﴾ الأعراف ﴿الٓمٓرٓ﴾ الرعد. ومنازل ظهر فيها خمسة وهي: مريم والشورى، وجميعها ثمان وعشرون سورة على عدد منازل السماء سواء، فمنها ما يتكرّر في المنازل، ومنها ما لا يتكرر، فصورها مع التكرار تسعة وسبعون ملكاً بيد كل ملك شعبة من الإيمان، «وأن الإيمان بضع وسبعون شعبة أرفعها لا إله إلاَّ الله »، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والبضع من واحد إلى تسعة فقد استوفى غاية البضع، فمن نظر في هذه الحروف بهذا الباب الذي فتحت له يرى عجائب، وتكون هذه الأرواح الملكية التي هذه الحروف أجسامها تحت تسخيره، وبما بيدها من شعب الإيمان تمدّه وتحفظ عليه إيمانه، وهذا كله من النفس الرحمانيّ الذي نفس الله به عن خلقه.

واعلم أن هذه الحروف الأربعة عشر التي في أوائل السور كل حرف منها له ظاهر وهو صورته، وله باطن وهو روحه، ولكل حرف ليلة من الشهر أعني الشهر الذي يعرف بالقمر

فإذا مشى القمر وقطع في سيره أربع عشرة منزلة أعطى في كل حرف من هذه الحروف من حيث صورها قوّتين من حيث ذاته ومن حيث نوره، وأعطاه قوّتين أخريين من حيث المنزلة التي نزل بها ومن حيث البرج الذي لتلك المنزلة ولكن بقدر ما لتلك المنزلة من البرج فيصير في ذلك الحرف أربع قوى، فيكون عمله أقوى من عمل كل واحد من أصحاب هذه القوىٰ، ويكون عمله في ظهور أعيان المطلوب، فإذا أخذ القمر في النقص فقد أخذ في روحانية هذه الحروف إلى أن يكملها بكمال المنازل فتلك ثمان وعشرون، والقوىٰ مثل القوىٰ إلاّ أنه يكون العمل غير العمل، فالعمل الظاهر في المنافع والعمل الثاني في دفع المضار، وفي قوّة النور الذي للقمر لهذا الحرف مراتب بحسب المنزلة والبرج الذي تكون فيه الشمس واتصالات القمر بالمنزلة في تسديسها وتربيعها وتثليثها ومقابلتها ومقارنتها، فتختلف الأحكام باختلاف ذلك، هذا للحرف من قوّة النور القمري، فالعمل بالحروف يحتاج إلى علم دقيق، فهذه القوىٰ تحصل للحرف من سير القمر، وقد ذكرنا حرف كل منزلة، وأما لام ألف فمرتبته مرتبة الجوهر وهو من الحروف المركبة أنزلوه منزلة الحرف الواحد لكمال نشأة الحروف، ولهذا الحرف ليلة السرار الذي يكون للقمر، فإن كسف القمر الشمس فذلك أسعد الحالات وأقواها في العمل بلام ألف، وإن لم يكسفها ضعف عمله بقدر ما نزل عنها، وكذلك اتصالات القمر بالخمسة لها أثر في الحرف على ما وقع عليه اتصاله بذلك الكوكب من الأحكام الخمسة كما كان حاله مع الشمس، ويعتبر العامل أيضاً شرف القمر وهبوطه وكونه خالي السير وبعيد النور وكونه مع الرأس وكونه مع الذنب، لأن الله ما قدر هذا ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [سورة يس: الآية ٣٩] واختصه بالذكر سدى، بل ذلك لحكمة إلهية يعلمها من أوتي الحكمة التي هي الخير الكثير الإلهيّ، فإن الستة الباقية قدرها أيضاً منازل في نفس الأمر وما خصّها بالذكر، فلما دخل القمر في الذكر كان له من القوّة الإلهيّة والشرف في الولاية والحكم الإلهيّ ما ليس لغيره فإنه ما ذكر إلاّ بالحروف وبها نزل إلينا الذكر، فكان نسبته إلى الحروف أتم من نسبة غيره، فصار إمداده للحروف إمدادين: إمداد جزاء وشكر لأن بها حصل له الذكر، وإمداداً طبيعياً كإمداد سائر الستة لهذه الحروف، وإنما ذكرنا ما يختص بالقمر دون سائر الستة لأنها في سماء الدنيا وهو موضع القمر وهو في ليلة السرار بارد رطب، وفي ليلة الإبدار حار رطب لما فيه من النور فهو مائيّ هوائيّ وفيما بينهما بحسب ما فيه من النور فإن النور له الشرف، ولما اجتمع النار مع النور في الإحراق وقوّة الفعل في بقية العناصر لهذا افتخر إبليس على آدم وتكبّر عليه، فإن النار لا يقبل التبريد بخلاف بقية الأركان فإن الهواء يسخن وكذلك الماء وكذلك التراب، فللنار في نفس الأركان أثر ليس لواحد منها في النار أثر، وكذلك الماء له أثر في الهواء والتراب فيبرد الهواء ويزيد في رطوبته ويرطب التراب ويزيد في برودتها، وليس للهواء والتراب في هذين العنصرين أثر فأقوى الأركان النار وبعده الماء، فالحرارة للنار والبرودة للماء، ولهذا جعلهما فاعلين، والإثنين الآخرين منفعلين رطوبة الهواء ويبوسة التراب، سبحان الخبير العليم الخلاق مرتب الأمور ومقدرها لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم.

وفي ليلة تقييدي لهذا الفصل وهي الليلة الرابعة من شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وستمائة الموافقة ليلة الأربعاء الذي هو الموفى عشرين من شباط رأيت في الواقعة ظاهر الهوية الإلهيّة وباطنها شهوداً محققاً ما رأيتها قبل ذلك من مشهد من مشاهدنا، فحصل لي من مشاهدة ذلك من العلم واللذة والابتهاج ما لا يعرفه إلاَّ مَن ذاقه، فما كان أحسنها من واقعة ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٢ ـ ٣] وصورتها مثالاً في الهامش كما هو، فمن صوّره لا يبد له، والشكل نور أبيض في بساط أحمر له نور أيضاً في طبقات أربع صورة وأيضاً روحها في ذلك البساط في الطرف الآخر في طبقات أربع، فمجموع الهوية ثمانية في طرفين مختلفين من بساط واحد، فأطراف البساط ما هي البساط ولا غير البساط، فما رأيت ولا علمت ولا تخيلت ولا خطر على قلبي صورة ما رأيت في هذه الهوية، ثم إنها لها حركة خفية في ذاتها أراها وأعلمها من غير نقلة ولا تغير حال ولا صفة.

الفصل الثامن والعشرون: في الاسم الإلهيّ القابض. وتوجهه على إيجاد ما يظهر في الأثير من ذوات الأذناب والإحتراقات ووجود حرف التاء المعجمة باثنتين من فوقها من الحروف، وله من المنازل منزلة القلب الأثير ركن النار، وهذه الأركان وجودها قبل وجود هذه الأفلاك من حيث ما تقول سموات لا من حيث ما هي أفلاك، وهو متصل بالهواء والهواء حار رطب، فيما في الهواء من الرطوبة إذا اتصل بهذا الأثير أثر فيه لتحرّكه اشتعالاً في بعض أجزاء الهواء الرطبة، فبدت الكواكب ذوات الأذناب وذلك لسرعة اندفاعها تظهر في رأي العين تلك الأذناب، وإذا أردت تحقيق هذا فانظر إلى شرر النار إذا ضرب الهواء النار بالمروحة وغيرها يتطاير منها شرر أمثال الخيوط في رأي العين ثم تنطفي، كذلك هذه الكواكب، وجعلها الله من زمان بعث رسول الله ﷺ رجوماً للشياطين، فإن الشياطين وهم كفار الجن لهم عروج إلى السماء الدنيا يسترقون السمع أي ما تقوله الملائكة في السماء وتتحدّث به ممّا أوحى الله به فيها، فإذا سالك الشيطان أرسل الله عليه شهاباً رصداً ثاقباً، ولهذا يعطي ذلك الضوء العظيم الذي تراه ويبقى ذلك الضوء في أثره طريقاً، ورأيت مرة طريقه قد بقي ضوؤه ساعة وأزيد من ساعة وأنا بالطواف رأيته أنا وجماعة الطائفين بالكعبة وتعجب الناس من ذلك وما رأينا قط ليلة أكثر منها ذوات أذناب الليل كله إلى أن أصبح حتى كانت تلك الكواكب لكثرتها وتداخل بعضها على بعض كما يتداخل شرر النار تحول بين أبصارنا وبين رؤية الكواكب فقلنا: ما هذا إلاَّ لأمر عظيم، فبعد قليل وصل إلينا أن اليمن ظهر فيه حادث في ذلك الوقت الذي رأينا هذا وجاءتهم الريح بتراب شبيه التوتيا كثير إلى أن عمّ أرضهم وعلا على الأرض إلى حدّ الركب وخاف الناس وأظلم عليهم الجوّ بحيث أن كانوا يمشون في الطرق في النهار بالسرج وحال تراكم الغمام بينهم وبين نور الشمس، وكانوا يسمعون في البحر بزبيد دوياً عظيماً وذلك في سنة ستمائة أو تسع وتسعين وخمسمائة الشك مني فإني ما قيدته حين رأيت ذلك، وما قيدته في هذا المكان إلاَّ في سنة سبع وعشرين وستمائة ولذلك أصابني الشك لبعد الوقت لكنه معروف عند الخاص والعام من أهل الحجاز

واليمن، ورأينا في تلك السنة عجائب كثيرة، وفي تلك السنة حلّ الوباء بالطائف حتى ما بقي فيها ساكن حلّ بهم من أوّل رجب إلى أوّل رمضان سنة تسع وتسعين وخمسمائة عن تحقيق، وكان الطاعون الذي نزل بهم إذا كانت علامته في أبدانهم ما يتجاوزون خمسة أيام حتى يهلك فمن جاز خمسة أيام لم يهلك، وامتلأت مكة بأهل الطائف وبقيت ديارهم مفتحة أبوابها وأقمشتهم ودوابهم في مراعيها، فكان الغريب في تلك المدّة إذا مرّ بأرضهم فتناول شيئاً من طعامهم أو قماشهم أو دوابهم إذ لم يكن هناك حافظ يحفظه أصابه الطاعون من ساعته، وإذا مرّ ولم يتناول شيئاً سلم فحمى الله أموالهم في تلك المدّة لمن بقي منهم ولمن ورثهم وتابوا وورثوا البنات في تلك السنة وسكنت الفتن التي كانت بينهم، فلما نجاهم الله من ذلك ورفعه عنهم واستمرّ لهم الأمان عادوا إلى ما كانوا عليه من الإدبار، وهذه الكواكب ذوات الأذناب ما تحدث في الأثير وإنما يحدث منه في الهواء تشعله فهو على الحقيقة هواء محترق لا مشتعل، هذا هو الأثير فهو كالصواعق فإنها أهوية محترقة لا شعلة فيها فما تمرّ بشيء إلاّ أثرت فيه، ولا يحدث في هذا الركن شيء سوى ما ذكرناه إلاّ أنه في نفس الأمر ملك كريم له تسبيح خاص وسلطان قويّ والسماء الدنيا في غاية من البرودة لولا أن الله حال بيننا وبين برد هذه السماء بهذه النار التي بين الهواء وبين السماء ما كان حيوان ولا نبات ولا معدن في الأرض لشدة البرد، فسخن الله عالم الأرض والماء والهواء بما ترميه الكواكب من الشعاعات إلى الأرض بوساطة هذا الأثير فسخن العالم فتسري فيه الحياة وذلك بتقدير العزيز العليم لا إله إلاّ هو رب كل شيء ومليكه.

الفصل التاسع والعشرون: في الاسم الإلهيّ الحيّ وتوجهه على إيجاد ما يظهر في ركن الهواء، وله من الحروف حرف الزاي ومن المنازل منزلة الشولة، قال الله تعالىٰ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [سورة ص: الآية ٣٦] فجعلها مأمورة يعلمنا أنها تعقل، ولا يسمّى الهواء ريحاً إلاّ إذا تحرّك وتموّج، فإن اشتدت حركته كان زعزعاً، وإن لم تشتد كان رخاء أي ريحاً لينة، والريح ذو روح يعقل كسائر أجسام العالم وهبوبه تسبيحه تسري به الجواري، ويطفيء السرج، ويشعل النيران، ويحرّك المياه والأشجار، ويموّج البحار، ويزلزل الأرض، ويلعب بالأغصان، ويزجي السحاب، وهو ركن أقوى من الماء، والماء أقوى من النار، والنار أقوى من الحديد، والحديد أقوى من الجبال، والجبال أقوى من الأرض، وما ثم شيء أقوى من الهواء إلاّ الإنسان حيث يقدر على قمع هواه بعقله الذي أوجده الله فيه فيظهر عقله في حكمه على هواه، فإنه لقوّة الصورة التي خلق عليها الرياسة له ذاتية، ولكونه ممكناً الفقر والذلة له ذاتية فإذا غلب فقره على رياسته فظهر بعبوديته ولم يظهر لربوبية الصورة فيه أثر لم يكن مخلوق أشد منه، وهكذا أخبر ﷺ على ما حدثناه محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي الفاسي قال: حدثنا عمر بن عبد المجيد الميانشي، حدثنا عبد الملك ابن قاسم الهرويّ، حدثنا محمود بن القاسم الأزدي، حدثنا عبد الجبار بن محمد الجراحي، حدثنا محمد بن أحمد المحبوبي، حدثنا أبو عيسىٰ

محمد بن عيسىٰ بن سورة الترمذي، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا العوّام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**لَمّا خلَقَ اللّهُ الأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ فَخَلَقَ الجِبَالَ فَقَالَ بِها عَلَيْها فَاسْتَقَرَّتْ فَعَجِبَتِ المَلائِكَةُ مِنْ شِدَّةِ الجِبَالِ فَقَالوا: يَا رَبِّ هَلْ مِنْ خَلقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الجِبَالِ؟ قَالَ: نَعَم الحَدِيدُ، فَقَالوا: يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلقِكَ شيءٌ أَشَدُّ مِنَ الحَدِيدِ؟ قَالَ: نَعَم النَّارُ، قَالُوا: يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: نَعَم الماء، قَالوا: يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الماءِ؟ قَالَ: نَعَم الرِّيحُ، قَالوا: يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ؟ قَالَ: ابنُ آدَمَ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ بِيَمِينِهِ يُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ**» هذا حديث غريب. ففي هذا الحديث علم جوارح الإنسان بالأشياء، ولهذا وصفها الله تعالىٰ يوم القيامة بأنها تشهد فقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النور: الآية ٢٤].

فالهواء موجود عظيم وهو أقرب الأركان نسبة إلى نفس الرحمن فهو أحق بهذا الباب، والهواء هو نفس العالم الكبير وهو حياته وله القوّة والاقتدار، وهو السبب الموجب لوجود النغمات بتحريك الآلات من حركات الأفلاك وأغصان الأشجار وتقاطع الأصوات، فيؤثر السماع الطبيعي في الأرواح فيحدث فيها هيمان وسكر وطرب، فالهواء إذا تحرك أقوى المؤثرات الطبيعية في الأجسام والأرواح، وقد جعل الله هذا الركن أصل حياة العالم الطبيعي، كما جعل الماء أصل الصور الطبيعية، فصورة الهواء من الماء، وروح الماء من الهواء، ولو سكن الهواء لهلك كل متنفس وكل شيء في العالم متنفس، فإن الأصل نفس الرحمن، وجعله الله لطيفاً ليقبل سرعة الحركة فإن العالم المتنفس يحتاج في وقت إلى نفس كثير وفي وقت إلى نفس قليل، ألا ترى الإنسان في زمان الصيف إذا حمى بدنه حرك الهواء بالمروحة ليبرد عنه ما يجده من الحرارة لما في الهواء من برودة الماء من حيث صورته وإن كانت له حركة خفية ولكن لا تكفي المحرور، كما أنه إذا كثر بحيث أن يتأذى منه الإنسان طلب التستر عنه لأنه ليس في قوّة الحيوان تقليله الهواء إلاَّ إذا كان الإنسان هو الذي يثير حركة الهواء فإنه يقدر على تقليله بضعف حركة السبب الذي به أثاره، وأما إذا كان السبب خارجاً عن حكم الإنسان فإنه لا يقدر على تقليله، والهواء هو الذي يسوق الأرواح إلى المشامّ من طيب وخبيث وفيه تظهر صور الحروف والكلمات، فلولا الهواء ما نطق ناطق ولا صوت مصوّت. ولما كان الباريء متكلماً ووصف نفسه بالكلام وصف نفسه بأن له نفساً وإن كان ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ولكن نبّه عباده العارفين أن علمه بالعالم علمه بنفسه، ووصف نفسه سبحانه بأنه ينفخ الأرواح فيعطي الحياة في الصور المسوّاة فجاء بالنفخ الذي يدل على النفس، فحياة العالم بالنفخ الإلهيّ من حيث أن له نفساً فلم يكن في صور العالم أحق بهذه الحياة من الهواء، فهو الذي خرج على صورة النفس الرحماني الذي ينفس الله به عن عباده ما يجدونه من الكرب والغم الذي تعطيه الطبيعة.

وبعد أن عرفتك بمنزلة الهواء من العالم فلنذكر ما يحدث فيه، فما يحدث فيه صور

الجنين في النكاح والثمر في اللقاح قال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٢] وهذا معروف بالمشاهدة في تلقيح الثمار، فالهواء ينكح بما يحمله من روائح الذكورية والعقيم منه ما عدا اللواقح، واللواقح من الرياح ليست مخصوصة بالثمر وإنما هي كل ريح تعطي الصور، والعقيم كل ريح تذهب بالصور، فالهواء الذي يشعل النار من الرياح اللواقح والذي يطفىء السرج من الريح العقيم وإن كانت واحدة في العين فما هي واحدة عند من يرى تجديد العالم في كل نفس ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق: الآية ١٥] وأصل هذا في العلم الإلهيّ أن اللواقح ما تعطيه الربوبية من وجود أعيان المربوبين والعقيم سبحات الوجه المذهبة أعيان الكائنات من خلقه، وممّا وجد من العالم في الهواء البرد والثلج والجليد إذا غلب عليه برد الماء فتشكل البرد من استدارته وجليده من اليبوسة التي تعطيه برد التراب والثلج دون الجليد في اليبوسة والمطر من رطوبته وما يزيده الماء من رطوبته فإنه يزيد في كميتها، ويتكوّن في هذا الهواء في الجبال التي ذكر الله أمرها في قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [سورة النور: الآية ٤٣] وقد بيّناها فيما قبل من هذا الكتاب تغلب الرطوبة في الهواء بما يزيده في رطوبته الماء وتعطيه النار من الحرارة ما يزيد في كمية حرارة الهواء، فيحدث في الجوّ في هذه الجبال تعفين، لأن هذه الأركان مركبة من الأربع الحقائق الطبيعية كل ركن منها، وهذا سبب قبولها صور الكائنات فيها، ولو لم يكن كذلك ما قبلت المولدات، فإذا تعفن ما تعفن من ذلك كوّن الله في ذلك التعفين حيوانات هوائية جوية على صور حيات بيض وحيوانات للاستدارة، أمّا هذه المستديرة فرأيناها، وأما الحيات البيض فرأينا من رآها، وقد وقفنا على ذكرها في بعض كتب الأنواء، وأن البزاة البلنسية إذا علت في الجوّ في أوقات ووقعت بشيء منها نزلت بها على مرأى من أصحابها، وممّن رآها والدي وقد نزل بها البازي من الجوّ في أيام السلطان محمد بن سعد صاحب شرق الأندلس، وهذا الصنف المستدير الذي عايناه من ذلك التكوين يسمّى بالأندلس بالشلمندار وأكثر ما ينزل في الكوانين مع المطر وفيه خواص إذا لعق باللسان، لكن خرجت عني معرفة تلك الخواص في هذا الوقت وهو مجرّب عندنا، وممّا يحدث في هذا الركن ممّا يلي ركن النار منه الصواعق وهي هواء محترق والبروق وهو هواء مشتعل تحدثه الحركة الشديدة والرعود وهو هبوب الهواء تصدع أسفل السحاب إذا تراكم وهو تسبيح، إذ كل صوت في العالم تسبيح لله تعالىٰ حتى الصوت بالكلمة القبيحة هي قبيحة وهي تسبيحة بوجه يعلمه أهل الله في أذواقهم لمن عقل عن الله، وهذا الملك المسمّى بالرعد هو مخلوق من الهواء كما خلقنا نحن من الماء وذلك الصوت المسمّى عندنا بالرعد تسبيح ذلك الملك وفي ذلك الوقت يوجده الله فعينه نفس صوته ويذهب كما يذهب البرق وذوات الأذناب، فهذه حوادث هذا الركن في العالم العنصريّ، وله حرف الزاي وهو من حروف الصفير فهو مناسب له لأن الصفير هواء بشدة وضيق وله الشولة وهي حارة فافهم.

الفصل الثلاثون: في الاسم الإلهيّ المحيي وتوجهه على إيجاد ما يظهر في ركن الماء،

وله حرف السين المهملة من الحروف، وله من المنازل المقدرة منزلة النعائم قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١١] فأعاد الضمير من به الأقدام على المطر، والرجز بالسين القذر عند القرّاء وهو هنا القذر المعنوي لأنه مضاف إلى الشيطان، فلا يدل إلاً على ما يلقيه من الشبه والجهالات والأمور التشكيكية ليقذر بها محل هذا القلب، فيذهب الله ذلك بما في الماء المنزّل من الحياة العلمية بالبراهين والكشف، فإذا زال ذلك القذر الشبهي بهذا الماء المنزّل من عند الله زال الوسخ الجهلي وارتفع الغطاء عن القلب، فنظر بعينه في ملكوت السموات والأرض فربط ذاته بما أعطاه العلم، فعلم ما أريد به في كل نفس ووقت، فعامله بما أعطاه العلم المنزّل الذي طهره به في ذلك الماء الذي جعل نزوله في الظاهر علامة على فعله في الباطن، فكان من مواطنه مقابلة الأعداء، فأدّاه ما عاينه وربط قلبه به إن ثبتت قدمه يوم الزحف عند لقاء الأعداء فما ولّوا مدبرين، وأنزل الله نصره وهو تثبيت الأقدام، فهذا ما أعطاه الله في الماء من القوّة الإلهية حيث أنزله منزلة الملائكة بل أتم من الملائكة، وإنما قلنا بل أتم فإن الله جعل الماء سبب تثبيت أقدام المجاهدين المؤمنين فقال: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١١] فأنزله منزلة المعين على ما يريد، وقال في الملائكة: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٢] لما علم من ضعفهم أعلمهم أن الله معهم من حيث أنيته ليتقوى جأشهم فيما يلقونه في قلوب المؤمنين المجاهدين أن يثبتوا ويصابروا العدوّ ولا ينهزموا وهذه من لمات الملائكة فقال لهم: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٢] أي اجعلوا في قلوبهم أن يثبتوا ثم أعانهم فقال: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٢] أخبرهم بذلك ليلقوا في نفوس المجاهدين هذا الكلام فإنه من الوحي، فيجد المجاهد في نفسه ذلك الإلقاء وهو وحي الملك في لمته فأنظركم بين مرتبة الماء ومرتبة هؤلاء الملائكة والماء، وإن كان من الملائكة فهو ملك عنصريّ، وأصله في العنصر من نهر الحياة الطبيعية الذي فوق الأركان، وهو الذي ينغمس فيه جبريل كل يوم غمسة، وينغمس فيه أهل النار إذا خرجوا منها بالشفاعة، فهذا الماء العنصريّ من ذلك الماء الذي هو نهر الحياة، وهذه الملائكة التي تقوّي قلوب المجاهدين وتثبتهم وتوحي إليهم قوله: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥١] هم الملائكة الذين يدخلون البيت المعمور الذي في السماء السابعة المخلوقين من قطرات ماء نهر الحياة في انتفاض الروح الأمين من انغماسه، ولهذا قرن الملائكة بالمجاهدين في التثبيت مع الماء المنزّل لنثبت به الأقدام، فقد أبان الله في هذه عن مرتبة الماء من مراتب الملائكة ليعقلها العالمون من عباد الله ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٣] فجعل الله من الماء كل شيء حيّ.

وهذا الركن هو الذي يعطي الصور في العالم كله وحياته في حركاته، ثم إن هذا الركن جعله الله مالحاً لما فيه من مصالح العالم، فإنه بما فيه من الملوحة يصفي الجوّ من الوخم

والعفونات التي تطرأ فيه من أبخرة الأرض وأنفاس العالم، وذلك أن الأرض بطبعها ما تعطي التعفين لأنها باردة يابسة، فيحصل فيها من الماء رطوبات عرضية تكثر، فإذا كثرت وسخنتها أشعة الكواكب مثل الشمس وغيرها بمرور هذه الأشعة على الأثير، ثم بما في جوّ الأرض من حركات الهواء المنضغط، فإن الحركة سبب موجب لظهور الحرارة، ويظهر ذلك في الحمامات في الأرض الكبريتية، فإذا تضاعفت كمية الحرارة على هذه الرطوبات صعدت بها علواً بخاراً، فمن هنالك يطرأ التعفين في الجوّ فيذهب ذلك التعفين ما في البحر من الملوحة فيصفو الجوّ وذلك من رحمة الله بخلقه فلا يشعر بذلك إلاّ العلماء من عباد الله.

ثم إن الله جعل للبقاع في الماء حكماً وأصل ذلك الحكم من الماء هذا هو العجب، فجعل من الأرض سباخاً تعطي ماء مالحاً إذا عظم ذلك منها، وتعطي فعاماً ومراً وزعاقاً، كما تعطي أيضاً عذباً فراتاً، كل ذلك بجعل الله تعالىٰ، وأصل هذا كله ممّا أعطى الماء الأرض من الرطوبات، وأعطاها الهواء والحركات من الحرارة، وتختلف أمزجة الأرض، فمن الماء عذب فرات لمصالح العباد فيما يستعملونه من الشرب وغير ذلك، ومنه ملح أجاج لمصالح العباد فيما يذهب به من عفونات الهواء، فما من ركن إلاّ وقد جعله الله مؤثراً ومؤثراً فيه أصل ذلك في العلم الإلهيّ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] وكل مؤثر فيه من العالم فمن الإجابة الإلهية. وأما اسم الفاعل من ذلك فهو معلوم عند كل أحد، فما نبهنا إلاّ على ما يمكن أن يغفل عنه أكثر الناس كما قال في أشياء ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٧].

ثم إن الله عزّ وجلّ ما جعل التكوينات التي هي دواب البحر في البحر الملح إلاّ في العذب منه خاصة، فلولا وجود الهواء فيه والماء العذب ما تكون فيه حيوان، ألا ترى البخار الصاعد من الأنهار والبحار ولا سيما في زمان البرد، ذلك هو النفس يصعد من الأرض ومن البحر كما يخرج النفس من المتنفس يطلب ركنه الأعظم فيستحيل ماء ويلحق بعنصره منه على قدر ما سبق في علم الله من ذلك، فهو دولاب دائر منه يخرج وإليه يرجع بعضه أصله في العلم الإلهيّ أن الله كان ولا شيء وأوجد الأشياء وأظهر فيها الدعاوى بما جعل فيها من استحالات بعضها إلى بعض، وبما أعطاها من القوى التي تفعل بها، وقال بعد هذا كله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ فجعل صعود البخار من الماء وهو ماء استحال هواء يسمّى بخاراً ليقع الفرق بين الهواء الأصلي وبين الهواء المستحيل، ثم يصير غماماً متراكماً، ثم ينزل ماء كما كان أوّل مرة، فعاد إلى أصله الذي خرج منه ثم يعود الدور، فلهذا شبهناه بالدولاب وقلنا إنه يرجع، وذلك بتقدير العزيز العليم. انتهى الجزء الرابع والعشرون ومائة.

(الجزء الخامس والعشرون ومائة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الفصل الحادي والثلاثون: في الاسم إلهيّ المميت وتوجهه على إيجاد ما يظهر في

الأرض، وله حرف الصاد المهملة ومن المنازل البلدة، قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [سورة فصلت: الآية ٩] وقال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٠] وهي أوّل مخلوق من الأركان، ثم الماء، ثم الهواء، ثم النار، ثم السموات، وأخبر تعالىٰ عنها بأمور تقضي أنها تعقل فوصفها بالقول والإباية وقال لها وقالت له، ونعتها بالطاعة والأخذ بالأحوط ليدل بذلك على علمها وعقلها، وجعلها محلاً لتكوين المعادن والنبات والحيوان والإنسان وجعلها حضرة الخلافة والتدبير فهي موضع نظر الحق، وسخّر في حقها جميع الأركان والأفلاك والأملاك، وأنبت فيها ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٥] من كل ذكر وأنثى، وما جمع لمخلوق بين يديه سبحانه إلاّ لما خلق منها وهي طينة آدم عليه السلام خمرها بيديه وهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وأقامها مقام العبودية فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [سورة الملك: الآية ١٥] وجعل لها مرتبة النفس الكلية التي ظهر عنها العالم، كذلك ظهر عن هذه الأرض من العالم المولدات إلى مقعر فلك المنازل، وهذا الركن لا يستحيل إلى شيء ولا يستحيل إليه شيء وإن كان بهذه المثابة بقية الأركان، ولكنه في هذا الركن أظهر حكماً منه في غيره.

واعلم أن كل معلوم يدخله التقسيم فإنه يدخل في الوجود الذهني لا بدّ من ذلك، وقد يكون هذا الداخل في الوجود الذهني ممّن يقبل الوجود العينيّ، وقد يكون ممّن لا يقبل الوجود العينيّ كالمحال، والذي يقبل الوجود العينيّ لا يخلو إما أن يكون قائماً بنفسه وهو المقول عليه لا في موضوع، وإما أن لا يكون، فأما قسم ما يكون قائماً بنفسه فلا يخلو إما أن يكون متحيزاً أو غير متحيز. وأما قسم لا في موضوع غير متحيز فلا يخلو إما أن يكون واجب الوجود لذاته وهو الله تعالىٰ، وإما أن يكون واجباً بغيره وهو الممكن، وهذا الممكن إما أن يكون متحيزاً أو غير متحيز، والقسمة فيما هو قائم بنفسه من الممكنات، فغير المتحيز كالنفوس الناطقة المدبرة لجوهر العالم النورانيّ والطبيعي والعنصري، والمتحيز إما أن يكون مركباً ذا أجزاء، وإما أن لا يكون ذا أجزاء، فإن لم يكن ذا أجزاء فهو الجوهر الفرد، وإن كان ذا أجزاء فهو الجسم. وأمّا القسم الذي هو في موضوع وهو الذي لا يقوم بنفسه ولا يتحيز إلاّ بحكم التبعية فلا يخلو إما أن يكون لازماً للموضوع أو غير لازم في رأي العين، وأما في نفس الأمر فلا شيء ممّا لا يقوم بنفسه يكون باقياً في نفس الأمر زائداً على زمان وجوده، لكن منه ما تعقبه الأمثال ومنه ما يعقبه ما ليس بمثل، فأما الذي يعقبه الأمثال فهو الذي يتخيل أنه لازم كصفرة الذهب وسواد الزنجيّ، وأما الذي لا تعقبه الأمثال فهو المسمّى بالعرض واللازم يسمّى صفة، وليست المعلومات التي لها وجود عيني سوى ما ذكرناه.

واعلم أن العالم واحد بالجوهر كثير بالصورة، وإذا كان واحداً بالجوهر فإنه لا يستحيل، وكذلك الصورة أيضاً لا تستحيل لما يؤدّي إليه من قلب الحقائق، فالحرارة لا تكون برودة، واليبوسة لا تكون رطوبة، والبياض لا يستحيل سواداً، والتثليث لا يصير تربيعاً، لكن الحار قد يوجد بارداً إلاّ في زمان كونه حاراً، وكذلك البارد قد يوجد حاراً لا في زمان كونه

بارداً، وكذلك الأبيض قد يكون أسود بمثل ما ذكرنا، والمثلث قد يكون مربعاً فبطلت الاستحالة، فالأرض والماء والهواء والأفلاك والمولدات صور في الجوهر فصور تخلع عليه فيسمّى بها من حيث هيئة وهو الكون، وصور تخلع عنه فيزول عنه بزوالها ذلك الاسم وهو الفساد، فما في الكون استحالة يكون المفهوم منها أن عين الشيء استحال عيناً آخر إنما هو كما ذكرنا، والعالم في كل زمان فرد يتكوّن ويفسد، ولا بقاء لعين جوهر العالم لولا قبول التكوين فيه، فالعالم يفتقر على الدوام، أما افتقار الصور فلبروزها من العدم إلى الوجود، وأما افتقار الجوهر فلحفظ الوجود عليه، إذ من شرط وجوده وجود تكوين ما هو موضوع له لا بدّ من ذلك، وكذلك حكم الممكن القائم بنفسه الذي لا يتحيز هو موضوع لما يحمله من الصفات الروحانية والإدراكات التي لا بقاء لعينه إلاّ بها، وهي تتجدّد عليه تجدّد الأعراض في الأجسام، وصورة الجسم عرض في الجوهر، وأما الحدود إنما محلها الصور فهي المحدودة، ولا بدّ أن يوجد في حدّها الجوهر الذي تظهر فيه، وبهذا القدر يسمون الصور جوهراً لكونهم يأخذون الجوهر في حدّ الصورة.

وبالجملة فالنظر في هذه الأمور عن غير طريق الكشف الإلهيّ لا يوصل إلى حقيقة الأمر على ما هي عليه لا جرم أنهم لا يزالون مختلفين، ولهذا عدلت الطائفة السعيدة المؤيدة بروح القدس إلى التجرّد عن أفكارها والتخلص عن قيد قواها واتصلت بالنور الأعظم فعاينت الأمر على ما هو عليه في نفسه إذ كان الحق عزّ وجلّ بصرها فلم تشاهد إلاّ حقاً كما قال الصديق: «**مَا رَأَيْتُ شَيْئاً إلاّ رَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ**» فيرى الحق ثم يرى أثره في الكون وهو الوقوف على كيفية الصدور، فكأنه عاين الممكنات في حال ثبوتها عندما رشّ على ما رشّ منها من نوره الأعظم، فاتصفت بالوجود بعدما كانت تنعت بالعدم، فمن هذا مقامه، فقد ارتفع عنه غطاء العمى والحيرة ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [سورة ق: الآية ٢٢] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [سورة ق: الآية ٣٧] فما جعل العلم إلاّ في الشهود، فالحاكم يحكم بغلبة ظنّه، والشاهد يشهد بعلم لا بظنّ.

ثم اعلم أن أجسام العالم تنقسم إلى لطيف وكثيف وشفاف وكدر ومظلم ومنور، وإلى كبير وصغير، وإلى مرئي وغير مرئي، فالوجود كله عطاء: [مجزوء المديد]

ليس عند الله مَنْعُ … كلُّ ما منه عَطَاءْ
فأنا ما بين شيئَيـ … ـن غَطَاءٌ ووِطَاءْ
فإذا ما قيل مَنْعٌ … لم يكن إلاّ عَطَاءْ
وأنا لكل ما في الكـ … ـون من خَيْرٍ وِعَاءْ

فالرجل الذي رأى الحق حقاً فاتبعه وحكم الهوى وقمعه، فإذا جاع جوع اضطرار وحضر بين يديه أشهى ما يكون من الأطعمة تناول منه بعقله لا بشهوته، ودفع به سلطان ضرورته، ثم أمسك عن الفضل غنى نفس وشرف همة، فذلك سيد الوقت فاقتد به، وذلك صورة الحق أنشأها الله صورة جسدية بعيدة المدى لا يبلغ مداها ولا يخفى طريق هداها،

وهذا هو طبع الأرض، فهي الذلول التي لا تقبل الاستحالة، فيظهر فيها أحكام الأركان ولا يظهر لها حكم في شيء تعطي جميع المنافع من ذاتها هي محل كل خير فهي أعزّ الأجسام، لا تزاحم المتحرّكات بحركتها لأنها لا تفارق حيّزها يظهر فيها كل ركن سلطانه، وهي الصبور القابلة الثابتة الراسية، سكن ميدها جبالها التي جعلها الله أوتادها لما تحرّكت من خشية الله، آمنها الله بهذه الأوتاد فسكنت سكون الموقنين، ومنها تعلم أهل اليقين يقينهم، فإنها الأم التي منها أخرجنا وإليها نعود ومنها نخرج تارة أخرى، لها التسليم والتفويض، هي ألطف الأركان معنى، وما قبلت الكثافة والظلمة والصلابة إلاّ لستر ما أودع الله فيها من الكنوز لما جعل الله فيها من الغيرة فحار السعاة فيها فلم يخرقوها ولا بلغوا جبالها طولاً، أعطاها صفة التقديس فجعلها طهوراً في أشرف الحالات، وذلك عند الاضطرار لما أقامها مقامه مثل الظمآن يرى السراب فيحسبه ماء فإذا جاءه لم يجده شيئاً، يعني ماء، ووجد الله عنده فما وجد الله إلاّ عند الضرورة، كذلك طهارة الأرض لا تكون إلاّ لفاقد الماء على ما كان من الأحوال، فانظر ما أشرف منزلها، ثم أنزلتها منزلة النقطة من المحيط فهي تقابل بذاتها كل جزء من المحيط، وينظر إليها كل جزء من المحيط، فكل خط منها يخرج إلى المحيط على السواء والاعتدال لأنها ما تعطي إلاّ بحسب صورتها، وكل خط من المحيط إليها يقصد، فلو زالت زال المحيط، ولو زال المحيط لم يلزم زوالها، فهي الدائمة الباقية في الدنيا والآخرة، أشبهت نفس الرحمن في التكوين.

واعلم أن الله تعالىٰ قد جعل هذه الأرض بعدما كانت رتقاً كالجسم الواحد كما كانت السماء ففتق رتقها وجعلها سبعة أطباق كما فعل بالسموات، وجعل لكل أرض استعداد انفعال لأثر حركة فلك من أفلاك السموات وشعاع كوكبها، فالأرض الأولى وهي التي نحن عليها للفلك الأوّل من هناك ثم تنزل إلى أن تنتهي إلى الأرض السابعة والسماء الدنيا، ولذلك قال عليه السلام فيمن غصب شبراً من الأرض« طوّقه الله به من سبع أرضين »لأنه إذا غصب شيئاً من الأرض كان ما تحت ذلك المغصوب مغصوباً إلى منتهى الأرض، ولو لم تكن طباقاً بعضها فوق بعض لبطل معقول هذا الخبر، وكذلك الخبر الوارد في سجود العبد على الأرض طهر الله بسجدته إلى سبع أرضين وقال تعالىٰ: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي كل واحدة منهما مرتوقة ثم قال: ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] يعني فصل بعضها من بعض حتى تميزت كل واحدة عن صاحبتها كما قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [سورة الملك: الآية ٣] ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] الظاهر يريد طباقاً ثم قال: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] أي بين السموات والأرض، ولو كانت أرضاً واحدة لقال بينهما هذا هو الظاهر وهو الذي يعطيه الكشف، والأمر النازل بينهنّ هذا الأمر الإلهيّ الذي يكون بين السماء الدنيا والأرض التي نحن عليها ينزل من السماء ثم يطلب أرضه وهو قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] فذلك الأمر هو الذي ينزل إلى أرضه بما أوحى الله فيه على عامر تلك الأرض من الصور والأرواح.

وجعل هذه الأرض سبعة أقاليم، واصطفى من عباده المؤمنين سبعة سمّاهم الأبدال لكل بدل إقليم يمسك الله وجود ذلك الإقليم به، فالإقليم الأوّل: ينزّل الأمر إليه من السماء الأولى من هناك وتنظر إليه روحانية كوكبه، والبدل الذي يحفظه على قلب الخليل عليه السلام. والإقليم الثاني: ينزّل الأمر إليه من السماء الثانية وتنظر إليه روحانية كوكبها والبدل الذي يحفظه على قلب موسىٰ عليه السلام. والإقليم الثالث: ينزّل إليه الأمر الإلهيّ من السماء الثالثة وتنظر إليه روحانية كوكبها والبدل الذي يحفظه على قلب هارون ويحيىٰ عليهما السلام بتأييد محمد عليه الصلاة والسلام والإقليم الرابع: ينزّل الأمر إليه من قلب الأفلاك كلها وتنظر إليه روحانية كوكبها الأعظم والبدل الذي يحفظه على قدم إدريس عليه السلام وهو القطب الذي لم يمت إلى الآن والأقطاب فينا نوّابه. والإقليم الخامس: ينزّل إليه الأمر من السماء الخامسة وتنظر إليه روحانية كوكبها والبدل الذي يحفظ الله به ذلك الإقليم على قلب يوسف عليه السلام ويؤيّده محمد ﷺ. والإقليم السادس: ينزّل الأمر إليه من السماء السادسة وتنظر إليه روحانية كوكبها والبدل الذي يحفظه على قلب عيسىٰ روح الله ويحيىٰ عليهما السلام. والإقليم السابع: ينزّل الأمر إليه من السماء الدنيا وينظر إليه روحانية كوكبها والبدل الذي يحفظه على قلب آدم عليه السلام. واجتمعت بهؤلاء الأبدال السبعة بحرم مكة خلف حطيم الحنابلة وجدتهم يركعون هناك فسلمت عليهم وسلموا علينا وتحدثت معهم، فما رأيت فيما رأيت أحسن سمتاً منهم ولا أكثر شغلاً منهم بالله، ما رأيت مثلهم إلاَّ سقيط الرفرف ابن ساقط العرش بقونية وكان فارسياً.

وصل: واعلم أن الفرق الذي بين مزاج العنصر الواحد وامتزاجه بعضه ببعضه أو امتزاجه بعنصر آخر كامتزاج الماء بالتراب فيحدث اسم الطين فما هو تراب وما هو ماء، والامتزاج في العنصر الواحد كالنيل والاسفيداج إذا مزجا بالسحق واختلطت أجزاؤهما وامتزجت امتزاجاً لا يمكن الفصل بينهما، يحدث بينهما لون آخر ما هو لواحد منهما، ويحدث لهذا الامتزاج حكم في آخر الأفعال الطبيعية، وكالماء العذب والماء الملح إذا امتزجا حدث بينهما طعم آخر ما هو ملح ولا عذب، فهذا ما أعطاه الامتزاج في العنصر الواحد، وكذلك الماء بما هو بارد إذا أعطت النار فيه التسخين بحيث أن لا تبقيه بارداً ولا تبلغ به درجتها في السخانة فيكون فاتراً لا حاراً ولا بارداً، فهذا امتزاج لا يشبه امتزاج العنصر بعضه في بعضه ولا امتزاج العنصرين. وأما المزاج فهو ما كان به وجود عين العنصر وهو المسمّى بالطبع فيقال: طبع الماء أو مزاج الماء أن يكون بارداً رطباً والنار حارة يابسة والهواء حاراً رطباً والتراب بارداً يابساً، فما ظهرت أعيان هذه الأركان إلاَّ بهذا المزاج الطبيعيّ، فكل مزاج طبيعيّ، وليس الإمتزاج كذلك فبالامتزاج الذي ذكرناه في عنصر الماء نعلم قطعاً أن أجزاء الماء الملح مجاورة أجزاء الماء العذب، وأجزاء النيل مجاورة أجزاء الإسفيداج مجاورة بالعقل لا يدركها الحسّ ولا يفصلها، ولكن في الإمتزاج يحدث للطبيعة حكم في هذه الصور الظاهرة من الإمتزاج كتركيب الأدوية فكل عقار فيه له نفع على حدّة،

ثم إذا مزج الكل كان بهذه المثابة وكان للطبيعة في المجموع حكم ولا بدّ، فإذا جعل الكل في إناء واحد وصبّ على الجميع ماء واحد أعطى كل عقار في كل جوهر من ذلك الماء قوّة فيكون في الجوهر الواحد من الماء قوّة كل واحد من العقاقير ما لم تتضاد القوىٰ، فهذا وإن كان إمتزاجاً فما هو مثل ذلك الإمتزاج ولا بلغ حكمه حكم المزاج، فهذه حالة معقولة بين المزاج وبين الامتزاج لا يقال فيه مزاج ولا امتزاج، وكذلك الأرض وإن كانت سبعة طباق فقد يعسر في الحسّ الفصل بينهنّ مع علمنا بأن كل واحدة منهن لا تكون بحيث الأخرى، كما لا يكون الجوهر بحيث جوهر آخر وعرضه يكون بحيث موضوعه وحامله، فهكذا يكون كون الأشياء وفسادها وما يلحقها من التغيير. انتهى الجزء الخامس والعشرون ومائة.

(الجزء السادس والعشرون ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل: وأما ما يلحق الأجسام العنصرية من لواحق الطبيعة في الأجسام فكثير، فمن ذلك حركة العنصر وسكونه هل هو مخالف لحركة الفلك وسكونه لو فرض سكونه؟ أو هل سكونه كسكون السماء الذي لا يقول به إلاَّ أهل هذا الشأن منا؟ فأما حركة الفلك وهو من الأجسام الطبيعية فإنه يتحرك بمحرك ليس هو، وهكذا كل متحرك في العالم وساكن ما هو متحرك لذاته ولا ساكن لذاته بل بمحرك ومسكن، وذلك المحرك له لا بدّ أن يكون محركاً له بذاته أو محركاً له بما هو يريد تحريكه، فأما من يرى أن محركه يحركه لذاته فهو القائل بخلق الحركة في الجسم والحركة تعطي لذاتها فيمن قامت به التحرّك فهي محركة المتحرك لذاتها، والسكون مثل ذلك وإن كان المحرك بما هو يريد تحريكه فقد يحركه بواسطة وبغير واسطة أي بواسطة لا تتصف بأنها مريدة لتحريكه، ولو كانت ذا إرادة كالمجبور فيمن كان ذا إرادة أو تحريك الغصن بتحريك الريح التي تحدثه حركة المروحة من حركة يد الذي يروّحه بها وبغير واسطة، كإنسان هزّ عصا في يده فاضطربت، أو يكون المتحرك هو المتحرك بالإرادة في ذاته كتحرك الإنسان في الجهات التحرّك الإرادي، فالفلك عندنا متحرك تحرك الإنسان في الجهات لأنه يعقل ويكلف ويؤمر كما قال عليه السلام في ناقته أنها مأمورة وقال عليه السلام في الشمس أنها تستأذن في الطلوع وحينئذ تطلع فيؤذن لها فإذا جاء وقت طلوعها من مغربها يقال لها: ارجعي من حيث جئت فتصبح طالعة من مغربها فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها، فالفلك متحرك بالإرادة ليعطي ما في سمائه من الأمر الإلهيّ الذي يحدث أشياء في الأركان والمولدات، وبتلك الحركات الفلكية يظهر الزمان، فالزمان لا يحكم في مظهره وإنما يحكم فيما دونه، فلا حكم للزمان في حركات الفلك لأنه المظهر عينه، وللحوادث الظاهرة والطارئة في الأفلاك والسموات والعالم العلوي أسباب غير الزمان، وحركات الفلك مرتبة متتالية الأجزاء على طريقة واحدة كتحرّك الرحى، فكل جزء لا يفارق مجاوره، وحركة الأركان

ليست كذلك، فإن حركة العنصر متداخلة بعضها في بعض يزول كل جزء عن الجزء الذي كان يجاوره ويعمر أحيازاً غير أحيازه التي كان فيها، فأسباب حركة العنصر تخالف أسباب حركة الفلك لأن حركة الفلك ما تعرف سوى ما تعطيه في الأركان من التحريك وشعاعات كواكبها بما أودع الله فيها من العقل والروح والعلم تعطي في أشخاص كل نوع من المولدات على التعيين من معدن ونبات وحيوان وجنّ وملك مخلوق من عمل أو نفس بقول من تسبيح وذكر أو تلاوة، وذلك لعلمها بما أودع الله لديها وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] فمن لا كشف له يرى أن ذلك كله الكائن عن سريانها أنها مسخرات في حركاتها لإيجاد هذه الأمور، كتحريك الصانع للآلات لإيجاد صورة ما يريد إيجادها، كالصورة في الخشب وغيره، ولا تعرف الآلات شيئاً من ذلك ولا ما صدر عنها، وإن كانت تلك الصور لا تظهر إلاّ بهذه الآلات، هكذا يزعم من يذهب إلى غير ما ذهبنا إليه وذهب إليه أهل الله من أهل الكشف والوجود، ونحن نقول: إن آلة النجار ربما تعلم أكثر ممّا يعلم الصانع بها فإنها حية ناطقة عالمة بخالقها مسبحة بحمد ربها عالمة بما خلقت له عند أهل الكشف، فإن المكاشف إذا كشف الله عن بصره وسمعه تناديه أشجار الأرض ونجمها بمنافعها ومضارها كما قالت الأحجار لداود عليه السلام يقول كل حجر: يا داود خذني فأنا أقتل جالوت، وقال له الحجر الآخر: خذني فإني أجعل الكسرة في ميمنة عسكره، فقد علم كل حجر ما خلق له فأخذ داود تلك الأحجار فوقع الأمر كما ذكرت.

ولما لم يبلغ بعض الناس هذه الدرجة ولا طولع بها أنكرها ولم يكن ينبغي له ذلك، فما من متحرك في العالم إلاّ وهو عالم بما إليه يتحرك إلاّ الثقلين فقد يجهلون ما يتحركون إليه، بل يجهلون إلاّ من شاء الله من أهل الكشف من مريد وغيره، قال الله للسماء والأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] وإتيان الأرض حركة وانتقال لما دعيت إليه فجاءت طائعة، فكل جزء في الكون عالم بما يراد منه فهو على بصيرة حتى أجزاء بدن الإنسان، فما يجهل منه إلاّ لطيفته المكلفة الموكلة إلى استعمال فكرها أو تنظر بنور الإيمان حتى يظهر ذلك النور على بصرها فيكشف ما كان خبراً عندها، فإذا كانت حركة العنصر تخالف حركة الفلك بالتداخل وبما يطرأ عليها من السكون في بعض أجزاء العنصر لا في كله فنعلم قطعاً أن حكم الحركة في العنصر يخالف حكم حركة الفلك، فحكم حركة العنصر أي عنصر كان فإن كان بين عنصرين كالهواء والماء أو لا يكون بين عنصرين كالنار والأرض فحركة الهواء العنصري يظهر فيه من الأثر بحسب ما يباشر منه ما فوقه وما تحته وكذلك عنصر الماء. وأما حركة النار فلا تؤثر فيه إلاّ الهواء، وحركة الأرض لا تؤثر فيه إلاّ الماء والهواء، وبهذا يفارق هذا العنصر عنصر النار، فإذا أثر النار التسخين فيما عداه من الأركان فيأخذ أمرين: إما بوساطة شعاع الكوكب الأعظم وهو الشمس فإن شعاعها يمر على الأثير فيكتسب زيادة كميات في حرارته أو بوساطة النار المحمولة في الفحم أو الحطب، وهذه الآثار التي تظهر في العنصر من غيره إن لم يكن له إمداد من العنصر الذي ظهر عنه ذلك

الأثر، والأغلب عليه حكم العنصر الذي ظهر فيه الأثر فأفسده، فهذا من أنواع الكون والفساد الظاهر في أجسام العناصر.

ثم لتعلم أن التحقيق في الحركة والسكون أنهما نسبتان للذوات الطبيعية المتحيزة المكانية أو القابلة للمكان إن كانت في الإمكان وذلك أن المتحيز لا بدّ له من حيّز يشغله بذاته في زمان وجوده فيه، فلا يخلو إمّا أن يمر عليه زمان ثان أو أزمنة وهو في ذلك الحيز عينه فذلك المعبر عنه بالسكون، أو يكون في الزمان الثاني في الحيز الذي يليه، وفي الزمن الثالث في الحيز الذي يلي الحيز الثاني، فظهوره وإشغاله لهذه الأحياز حيزاً بعد حيز لا يكون إلاّ بالانتقال من حيز إلى حيز، ولا يكون ذلك إلاّ بمنقل، فإن سمّى ذلك الانتقال حركة مع عقلنا أنه ما ثم إلاّ عين المتحيز والحيز وكونه شغل الحيز الآخر المجاور لحيزه الذي شغله أوّلاً فلا يمنع، ومن ادّعى أن ثم عيناً موجودة تسمّى حركة قامت بالمتحيز أوجبت له الانتقال من حيز إلى حيز فعليه بالدليل فما انتقل إلاّ بمنقل، أما إن كان ذا إرادة فبإرادته أو بمنقل غيره نقله من حيز إلى حيز، وكذلك الاجتماع والافتراق نسبتان للمتحيزات، فالاجتماع كون متحيزين متجاورين في حيزين لا يعقل بينهما ثالث، والافتراق أن يعقل بينهما ثالث أو أكثر فاعلم ذلك.

ثم إن الزمان والمكان من لواحق الأجسام الطبيعية أيضاً، غير أن الزمان أمر متوهم لا وجود له تظهره حركات الأفلاك أو حركات المتحيزات إذا اقترن بها السؤال بمتى، فالحيز والزمان لا وجود له في العين أيضاً، وإنما الوجود لذوات المتحركات والساكنات. وأما المكان فهو ما تستقر عليه المتمكنات لا فيه، فإن كانت فيه فتلك الأحياز لا المكان، فالمكان أيضاً أمر نسي في عين موجودة يستقر عليها المتمكن أو يقطعه بالانتقالات عليه لا فيه، فإن اتصلت المتحيزات بطريق المجاورة على نسق خاص لا يكون فيه تداخل فذلك الاتصال، فإن توالت الانتقالات حالاً بعد حال فذلك التتابع والتتالي من غير أن يتخللها فترة، فإن دخل بعضها على بعض ولم يفصل الداخل بين المتصلين فذلك الالتحام، فما دخل في الوجود منه وصف بالتناهي، وما لم يدخل قيل فيه أنه لا يتناهى إن فرض متتالياً أبداً، وإن أعطت هذه الانتقالات استحالة كان الكون والفساد، فانتقال الشيء من العدم إلى الوجود يكون كوناً، وإزالة ما ظهر عنه من صورة الكون يسمّى فساداً، فإذا انتقل من وجود إلى وجود يسمّى متحركاً، وأما ما يلحق هذه الأجسام من الألوان والأشكال والخفة والثقل واللطف والكثافة والكدورة والصفا واللين والصلابة وما أشبه ذلك من لواحقه فإنه يرجع إلى أسباب مختلفة.

فأما الألوان فعلى قسمين: منها ألوان تقوم بنفس المتلون، ومنها ألوان تظهر لناظر الرائي وما هي في عين المتلوّن لاختلاف الأشكال، وما يعطيه النور في ذلك الجسم فإنه بالنور يقع الإدراك، وكذلك الأشكال مثل الألوان ترجع إلى أمرين: إلى حامل الشكل وإلى حسّ المدرك له، وأما ما عداه ممّا ذكرناه من لواحق الأجسام فهي راجعة إلى المدرك لذلك لا إلى أنفسها ولا إلى الذات الموصوفة التي هي الأجسام الطبيعية هذا عندنا، فإن اللطيفة كالهواء لا تضبط صورة النور والجسم الكثيف يظهره ورأينا من لا يحجبه الكثائف وصورتها

عنده صورة اللطائف في نفوذ الإدراك، فإذا ما هي كثائف إلاً عند من ليس له هذا النفوذ، فمنا من لا يحجبه الجدران ولا يثقله شيء فصار مآل هذه الأوصاف إلى المدرك، ولو كانت لذوات الأجسام لوقع التساوي في ذلك كما وقع التساوي في كونها أجساماً، فإذاً ليس حكم اللواحق يرجع إلى ذوات الأجسام عندنا، وأما عند الطبيعيين فإنهم وإن اختلفوا فما هم على طريقنا في العلم بهذا.

واعلم أن الشيء الواحد العين إذا ظهرت عنه الآثار المختلفة فإن ذلك من حيث القوابل لا من حيث عينه، ومن هنا إذا حققت هذه المسألة يبطل قول الحكيم: لا يصدر عن الواحد إلا واحد، وصورة ذلك في العنصر الذي نحن بصدده أن النار بما هي نار لا يتغير حكمها من حيث ذاتها وتجد آثارها مختلفة الحكم فتنير أجساماً ولا تنير أجساماً مع أن إنارتها بالاشتعال، فالهواء لها مساعد وتعقد أشياء وتسيل أشياء وتسود وتبيض وتسخن وتحرق وتنضج وتذيب الجوامد وهي على حقيقة واحدة، واستعداد القوابل مظهر اختلاف الآثار منها في الحكم. فالعين واحدة والحكم مختلف. ويدرك العلم ما لا يدرك البصر.

واعلم أن الأشياء بآحادها لها حكم وبامتزاجاتها تحدث لها أحكام لم تكن ولا لواحد منها، ولا يدري على الحقيقة من هو المؤثر من أحد الممتزجين هل هو لواحد أو هل لكل واحد فيه قوّة؟ والذي حدث لا يقدر على إنكاره، فإنا نعرف سواد المداد حدث بعد أن لم يكن من امتزاج الزاج والعفص فهل الزاج صبغ العفص وهو المؤثر؟ والعفص هو المؤثر فيه اسم مفعول، ولو كان ذلك لبقي الزاج على حاله إذا كان غير ممتزج وينصبغ ماء العفص والمشهود خلاف ذلك، وكذلك القول في العفص، فلم يبق إلاً حقيقة المزج وهي التي أحدثت السواد ما هو لواحد بعينه حقيقة ما قلناه في الإلهيات ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] ويأتي الله يوم القيامة للفصل والقضاء وبيده الميزان يخفض ويرفع الله ولا عالم هل يتصف بوقوع هذا الفعل فظهر بالعالم ما لم يظهر ولا عالم فليس الحكم على السواء، فقال النبي ﷺ: «**كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ**» ولم يقل وهو الآن على ما عليه كان كيف يقول ذلك ﷺ وهو أعلم الخلق بالله وهو الذي جاء من عند الله بقوله: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ وفرغ ربك من كذا وكذا، وينزل ربنا إلى السماء، وقد كان ولا سماء ولا عالم هل كان يوصف بالنزول إلى من أو من أين ولا أين، ثم أحدث الأشياء فحدثت النسب فاستوى ونزل وأخذ الميزان فخفض ورفع، بذا وردت الأخبار التي لا تردها العقول السليمة من الأهواء والإيمان بها واجب والكيف غير معقول فهو الواحد الواجد الأحد الماجد الذي ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١].

لولا وجود النفس واستعدادات المخارج في المتنفس ما ظهر للحروف عين، ولولا التأليف ما ظهر للكلمات عين، فالوجود مرتبط بعضه ببعض، فلولا الحرج والضيق ما كان للنفس الرحماني حكم، فإن التنفيس هو إزالة عين الحرج والضيق فالعدم نفس الحرج والضيق، فإنه يمكن أن يوجد هذا المعدوم، فإذا علم الممكن إمكانه وهو في حال العدم كان

في كرب الشوق إلى الوجود الذي تعطيه حقيقته ليأخذ بنصيبه من الخير، فنفس الرحمن بنفسه هذا الحرج فأوجده فكان تنفيسه عنه إزالة حكم العدم فيه، وكل موجود سوى الله فهو ممكن فله هذه الصفة، فنفس الرحمن هو المعطي صور الممكنات الوجود كما أعطى النفس وجود الحروف، فالعالم كلمات الله من حيث هذا النفس كما قال: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧١] وهو عين عيسىٰ عليه السلام، وأخبر أن كلمات الله لا تنفد فمخلوقاته لا تزال توجد ولا يزال خالقاً.

وكذلك لما رأينا في هذه الأجسام العنصرية أموراً مختلفة الصور مختلفة الأشكال مختلفة المزاج، ومع هذا ما يخرجها ذلك الاختلاف عن حقيقة كونها يجمعها حد واحد وحقيقة واحدة، كأشخاص الحيوان على اختلاف أنواعه وأشكاله، كالطير لا يخرجه ما ظهر فيه من اختلاف المقادير والأشكال والألوان عن كونه طيراً، فعلمنا أن هذا الاختلاف ما هو لكونه إنساناً ولا لكونه طيراً، فإن الإنسانية في كل واحد واحد من أشخاصها مع ظهور الاختلاف، فلا بدّ لذلك من حقائق أخر معقولة أوجبت لها ذلك الاختلاف، فبحثنا عن ذلك في العلم الإلهيّ الذي هو مطلوبنا إذ كان الوجود مرتبطاً به فوجدناه تعالىٰ لا يكرر تجلياً ويظهر في صورة ينكر فيها وفي صورة يعرف فيها وهو الله تعالىٰ في الصورتين الأولى والآخرة وفي كل صور التجلي، فقامت صور التجلي في الألوهة مقام اختلاف أحوال صور أشخاص النوع في النوع، فعلمنا أن تغيّر أشخاص النوع من هذه الحقيقة الإلهية، فعلمنا أنا ما علمنا من الحق إلا ما أشهدنا، وأن الله تجلّى للنوع من حيث ما هو نوع فلم يتغير عن نوعيته كما لم يزل إلهاً في ألوهته، ثم يظهر لذلك النوع في صور مختلفة اقتضتها ذاته تعالىٰ، فظهر في أشخاص النوع اختلاف صور على وزنها ومقدارها، فلولا أنه في استعداد هذا النوع المتغير بالشخص في الأشكال والألوان والمقادير التي لا تخرجه عن نوعيته لما قبل هذا التغيير ولكان على صورة واحدة، وإذا كان الكثيف مع كثافته مستعداً لقبول الصور المختلفة بصنعة الصانع فيه كالخشب وما تصور منه بحسب ما يقوم في نفس الصانع من الصور المختلفة فاللطيف أقبل للاختلاف كالماء والهواء، فما كان ألطف كان أسرع بالذات لقبول الاختلاف، فتبين لك أن اختلاف صور العالم من أعلاه لطفاً إلى أسفله كثافة لا يخرج كل صورة ظهر فيها عن كونه نفس الرحمن، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [سورة نوح: الآية ١٧] فالأرض واحدة، وأين صورة النجم من صورة الشجر على اختلاف أنواعها؟ من صورة الإنسان؟ من صور الحيوان؟ وكل ذلك من حقيقة عنصرية ما زالت عنصريتها باختلاف ما ظهر فيها، فاختلاف العالم بأسره لا يخرجه عن كونه واحد العين في الوجود، فزيد ما هو عمرو وهما إنسان فهما عين الإنسان لا غيره، فمن هنا تعرف العالم من هو وصورة الأمر فيه إن كنت ذا نظر صحيح ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢١] ما ثم إلاّ النفس الناطقة وهي العاقلة والمفكرة والمتخيلة والحافظة والمصورة والمغذية والمنمية والجاذبة والدافعة والهاضمة والماسكة والسامعة والباصرة والطاعمة والمستنشقة واللامسة والمدركة لهذه الأمور، واختلاف هذه

القوىٰ، واختلاف الأسماء عليها، وليست بشيء زائد عليها بل هي عين كل صورة، وهكذا تجده في صور المعادن والنبات والحيوان والأفلاك والأملاك، فسبحان من أظهر الأشياء وهو عينها: [الطويل]

فـمـا نـظـرَتْ عـيـنـي إلـى غـيـرِ وَجْـهِـهِ ... ومـا سـمـعَـتْ أُذنـي خـلافَ كـلامـهِ
فـكـلُّ وجـودٍ كـان فـيـه وجـودُه ... وكـل شـخَـيْـصٍ لـم يـزَلْ فـي مَـنَـامـهِ
فـتَـعْـبـيـرُ رؤيـا نـالـهـا فـي مَـنَـامِـنَـا ... فـمـن لامَ فـلـيـلْـحَـقْ بـه فـي مـلامِـهِ

وممّا يتعلق بهذا الباب وبباب ركن الماء ما يظهر فيهما من السخانة عن الشعاعات النورية المنفهقة من ذات الشمس أين أصلها في العلم الإلهي، فإن الأجسام الأرضية والمائية إذا اتصلت بها أشعة الأنوار الشمسية والكوكبية يرى بعض الأجسام يسخن عند انبساط الشعاع عليه، وبعض الأجسام على برده لا يقبل التسخين مع اختراق الشعاعات ذلك الجسم كدائرة الزمهرير، وما علا من الجوّ لا أثر لحر الشعاعات فيه، فاعلم أن للوجه الإلهي سبحات محرقات لولا الحجب لأحرقت العالم، فلا تخلو هذه الحجب إما أن تكون من العالم ولا شكّ أن السبحات لو لم تنبسط على الحجب لما كانت حجباً عنها، ولو اقتضت السبحات الإحراق احترقت الحجب، ثم لا تخلو الحجب أن تكون كثيفة أو لطيفة، فإن كانت لطيفة لم تحجب كما لم يحجب الهواء اتصال شعاع الشمس بالأجسام الأرضية، وإن كانت كثيفة كالجدران وأشباهها فلا خفاء أن الجدار يسخن بشعاع الشمس إذا كان متراص الأجزاء غير مخلخل، ثم إن النور لا تحجبه الظلمة لأنه ينفرها فلا تجتمع به لكن تجاوره من خلف الحجاب الموجد للظلمة التي تباشر النور، فالظلمة تجاور الشعاع والموجد للظلمة يقبل انبساط الشعاع عليه، فلا تكون الظلمة حجاباً بهذا الاعتبار وقد ثبت كونها حجاباً، وكون النور حجاباً على نور الوجه، والنور يتقوّى بالنور لا يحجبه، فافهم حقيقة سبحات الوجه وأنها دلائل ذاتية إذا ظهرت أحرقت نسباً لا أعياناً، فتبين أنها عين تلك الأعيان أعني الوجه فزال الجهل الذي كانت ثمرته أن العالم ما هو عين الوجه، فبقي العالم على صورته لم تذهبه السبحات بل أثبتته وأبانت عن وجه الحق ما هو فكان الحجاب معنوياً فاحترقت النسبة.

الفصل الثاني والثلاثون: في الاسم الإلهيّ العزيز وتوجهه على إيجاد المعادن، وله حرف الظاء المعجمة، ومن المنازل سعد الذابح.

اعلم أن الذات لما اختصت بسبع نسب تسمّى صفات إليها يرجع جميع الأسماء والصفات، وقد ذكرنا رجوعها إليها في كتاب إنشاء الجداول كما ذكرها من تقدّم قبلنا، غير أني زدت على من تقدم بإلحاق الاسم المجيب مع الاسم الشكور لصفة الكلام، فإن المتقدمين قبلنا ما ألحقوا بالاسم الشكور الاسم المجيب، وكانت السموات سبعاً والسيارة سبعة والأرضون سبعة والأيام سبعة، جعل الله تكوين المعادن في هذه الأرض عن سباحة هذه السبعة الدراري بسبعة أفلاكها في الفلك المحيط فأوجد فيها سبعة معادن. ولما كان الاسم العزيز المتوجه على إيجادها ولم يكن لها مشهود سواه عند وجودها أثر فيها عزّة ومنعاً فلم

يقو سلطان الاستحالة التي تحكم في المولدات والأمهات من العناصر يحكم فيها بسرعة الإحالة من صورة إلى صورة مثل ما يحكم في باقي المولدات، فإن الاستحالة تسرع إليهم ويظهر سلطانها فيهم بزيادة ونقص وخلع صورة منهم وعليهم، وهذا يبعد حكمه في المعادن، فلا تتغير الأحجار مع مرور الأزمان والدهور إلاّ عن بعد عظيم، وذلك لعزّتها التي اكتسبتها من الاسم الإلهيّ العزيز الذي توجه على إيجادها من الحضرة الإلهية. ثم إن هذا الاسم طلب بإيجادها رتبة الكمال لها حتى تتحقق بالعزّة فلا يؤثر فيها دونه اسم إلهيّ نفاسة منه لأجل انتسابها إليه. وعلم العلماء بأن وجودها مضاف إليه فلم يكن القصد بها إلاّ صورة واحدة فيها عين الكمال وهو الذهبية، فطرأت عوارض لها في الطريق من الاسم الضارّ وإخوانه، فأمرض أعيانهم وعدل بهم عن طريقهم حكمت عليهم بذلك المرتبة التي مروا عليها، ولا يتمكن لاسم أن يكون له حكم في مرتبة غيره، فإن صاحب المنزل أحق بالمنزل، وهم أرباب الأدب الإلهي ومعلمو الأدب، فبقي الاسم العزيز في هذه المرتبة يحفظ عين جوهر المعدن، وصاحب المرتبة من الأسماء يتحكم في صورته لا في عين جوهره.

وللأسماء الإلهية في المولدات والعناصر سدنة من الطبائع ومن العناصر يتصرّفون في هذه الأمور بحكم صاحب المرتبة الذي هو الاسم الإلهيّ وهم المعدن وحرارته وبرد الشتاء وحرارة الصيف والحرارة المطلقة والبرودة والرطوبة واليبوسة، ولكل واحد ممّا ذكرناه حكم يخصّه يظهر في جوهر المولدات والعناصر فيسخف ويكثف ويبرد ويسخن ويرطب وييبس، ورتبة الكمال من تعتدل فيه هذه الأحكام وتتمانع ولا يقوى واحد منهم على إزالة حكم صاحبه، فإذا تنزّه الجوهر عن التأثير فخلع صورته عنه ومنع نفسه من ذلك فذلك حكم رتبة الكمال وليس إلاّ الذهب في المعدن، وأما سائر الصور فقامت بها أمراض وعلل أخرجتهم عن طريق الكمال، فظهر الزئبق والأسرب والقزدير والحديد والنحاس والفضة، كما ظهر الياقوت الأصفر والأكهب في جوهر الياقوت، ولما فارقت المعدن الذي هو موطنها في ركن الأرض بقيت على مرضها ظاهرة بصورة الاعتلال دائماً، فالحاذق النحرير من علماء الصنعة إذا عرف هذا وأراد أن يلحق ذلك المعدن برتبة الكمال ولا يكون ذلك إلاّ بإزالة المرض وليس المرض إلاّ زيادة أو نقصاً في الجوهر، وليس الطب إلاّ زيادة تزيل حكم النقص أو نقصاً يزيل حكم الزيادة، وليس الطبيب إلاّ أن يزيد في الناقص أو ينقص من الزائد فينظر الحاذق من أهل النظر في طب المعادن ما الذي صيّره حديداً أو نحاساً أو ما كان، وحال بينه وبين الذهبية أن يصل إلى منزلتها ويظهر صورتها فيه، فيفوز بدرجة الكمال، ويحوز صفة العزّة والمنع عن التأثير فيه.

وتساعد هذا الطبيب سباحة الأنوار السبعة في أفلاكها أعني الدراري وهي: القمر والكاتب والزهرة والشمس والأحمر والمشتري وكيوان بما في قوّتها لما يعطيه بعضها من اختلاف الزمان، وحكم كل زمان يخالف حكم الذي يليه من وجه ويوافقه من وجه ويخالفه من جميع الوجوه، ولا يمكن أن يوافقه من جميع الوجوه إذ لو وافقه لكان عينه ولم يكن اثنان

وهما اثنان بلا شك، فالموافقة من جميع الوجوه لا تكون، ولكرور هذه الأزمان وتوالي الجديدين أثر في الأركان وأثر في عين الولد في تسوية جوهره وتعديله، فإذا سوّاه وعدّله وهو أن يصيّره جوهراً قابلاً لأي صورة يريد الحق أن يركبه فيها والصور مختلفة، فاختلفت المعادن كما اختلف النبات بالصورة، كما اختلف الحيوان بالصورة وهو من حيث الجوهر الطبيعي واحد العين، ولهذا يعمه من حيث جوهره حد واحد، وما تختلف الحدود فيه إلاّ من أجل الصورة، وكذلك في الآباء والأمّهات، بل جوهر العالم كله واحد بالجوهرية، والعين تختلف بالصور وما يعرض له من الأعراض فهو المجتمع المفترق والواحد الكثير صورة الحضرة الإلهية في الذات والأسماء، فيرد الحاذق الجوهر المعلول الذي عدلت به علته عن طريق الكمال إلى طريقه ليتمكن من تدبيره وحفظ بقاء صحته عليه، ويحفظه ممّا بقي له في طريقه من منازل التغييرات الحائلة بينه وبين رتبة الكمال، وإنما فعل الله هذا بهذ الجوهر في الطريق وسلّط عليه من يعله ويمرضه حتى يحول بينه وبين بلوغه إلى رتبة الكمال المعدني لمصالح هذا النوع الإنساني لعلمه بأنه يحتاج إلى آلات وأمور لا بدّ له منها، ولا يكون له هذه الآلات إلاّ بقيام هذه الأمراض بهذا الجوهر وعدوله عن الطريق، وحال الله سبحانه بين الأطباء وبين العلم بإزالة هذه الأمراض من هذا الجوهر إلاّ الأمناء منهم الذين علم الله منهم أنهم يبقون الحكمة على ما وضعها الله في العالم، فيبقي الحديد حديداً لما فيه من المنافع التي لا تكون في الذهب ولا في غيره من المعادن كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٥] يريد أنه أنزله عن رتبة الكمال لأجل ما فيه من منافع الناس، فلو صحّ من مرضه لطغى وارتفع ولم توجد تلك المنافع وبقي الإنسان الذي هو العين المقصودة معطل المنافع المتعلقة بالحديد التي لا تكون إلاّ فيه، ففيه كما قال الله: ﴿بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٥] وهكذا سائر المعادن فيها منافع للناس وقد ظهرت واستعملها الإنسان، فانظر ما أشدّ عناية الله بهذا النوع الإنساني وهو غافل عن الله كافر لنعمه متعرض لنقمه. ولما علم الله أن في العالم الإنسانيّ من حرمه الله الأمانة ورزقه إذاعة الأسرار الإلهية وسبق في علمه أن يكون لهذا الذي هو غير أمين رزقه في علم التدبير رزقه الشحّ به على أبناء جنسه بخلاً وحسداً ونفاسة أن يكون مثله غيره فترك العمل به غير مأجور فيه ولا موافق لله.

ثم إن الله كثر المعادن ولم يجعل لهذا الإنسان أثر، إلاّ فيما حصل بيده منها وما عسى أن يملك من ذلك فيظهر في ذلك القدر تدبيره وصنعته ليعلم العقلاء الحكماء أنه غير أمين فيما أعطاه الله فإنه ما أذن له في ذلك من الله. ثم إن الله جعل للملوك رغبة في ذلك العلم، فإذا ظهر به من ليس بأمين عندهم سألوه العلم فإن منعهم إياه قتلوه حسداً وغيظاً، وإن أعطاهم علم ذلك قتلوه خوفاً وغيرة. ولما علم العالم أن ما له مع الملوك إلا مثل هذا لم يظهر به عندهم ولا عند العامة لئلا يصل إليهم خبره لا أمانة وإنما ذلك خوفاً على نفسه، فلا يظهر في هذه الصنعة عالم بها جملة واحدة والمتصوّر فيها بصورة العلم يعلم في نفسه أنه ما عنده شيء وأنه لا بدّ أن يظهر للملك دعواه الكاذبة فيأمن غائلته في الغالب من القتل ويقنع بما

يصل إليه من جهته من الجاه والمال للطمع الذي قام بذلك الملك، فما ظهر عالم بهذه الصنعة قط ولا يظهر غيرة إلهية مع كونه قد رزقه الله الأمانة في نفسه.

ومن هذا الاسم الإلهيّ وجود الأحجار النفيسة كاليواقيت واللآلىء من زبرجد وزمرد ومرجان ولؤلؤ وبلخش، وجعل في قوّة الإنسان إيجاد هذا كله أي هو قابل أن يتكوّن عنه مثل هذا ويسمّى ذلك في الأولياء خرق عادة، والحكايات في ذلك كثيرة ولكن الوصول إلى ذلك من طريق التربية والتدبير أعظم في المرتبة في الإلهيات ممّن يتكوّن عنه في الحين بهمته وصدقه، فإن الشرف العالي في العلم بالتكوين لا في التكوين لأن التكوين إنما يقوم مقام الدلالة على أن الذي تكوّن عنه هذا بالتدبير عالم وصاحب خرق العادة لا علم له بصورة ما تكوّن عنه بكيفية تكوينها في الزمن القريب والعالم يعلم ذلك.

الفصل الثالث والثلاثون: في الاسم الإلهيّ الرزاق وتوجهه على إيجاد النبات من المولدات، وله من الحروف الثاء المعجمة بالثلاث، وله من المنازل سعد بلع.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٨] وقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [سورة الواقعة: الآيات ٧١ ـ ٧٣] فجعلها للعلماء تذكرة فجاء بالاسم الرزاق بهذه البنية للمبالغة لاختلاف الأرزاق وهي مع كثرتها واختلافها منه لا من غيره، وأن المرزوقين مختلف قبولهم للأرزاق، فما يتغذى به حيوان ما قد لا يصلح أن يكون لحيوان آخر لأن المراد بتناول الرزق بقاء المرزوق، فإذا أكل ما فيه حتفه فما تغذى به وما هو رزق له وإن كان به قوام غيره فلذلك تسمّى ببنية المبالغة في ذلك، ونعت هذا الرزاق بذي القوّة المتين ولو نعت به الله لقال: ذا القوّة المتين فنصب، ولا يتمكن نعت الاسم الله من حيث دلالته فإنه جامع للنقيضين، فهو وإن ظهر في اللفظ فليس المقصود إلاّ اسماً خاصاً منه تطلبه قرينة الحال بحسب حقيقة المذكور بعده الذي لأجله جاء الاسم الإلهيّ، فإذا قال طالب الرزق المحتاج إليه: يا الله ارزقني، والله هو المانع أيضاً فما يطلب بحاله إلاّ الاسم الرزاق فما قال بالمعنى إلاّ يا رزاق ارزقني، ومن أراد الإجابة في الأمور من الله فلا يسأله إلاّ بالاسم الخاص بذلك الأمر، ولا يسأل باسم يتضمن ما يريده وغيره ولا يسأل بالاسم من حيث دلالته على ذات المسمّى، ولكن يسأل من حيث المعنى الذي هو عليه الذي لأجله جاء وتميز به عن غيره من الأسماء تميز معنى لا تميز لفظ.

واعلم أن الأرزاق منها معنويّ ومنها حسيّ، والمرزوقين منهم معقول ومنهم محسوس، ورزق كل مرزوق ما كان به بقاؤه ونعيمه إن كان ممّن يتنعم وحياته إن كان ممّن يوصف بأنه حيّ، وليست الأرزاق لمن جمعها وإنما الأرزاق لمن تغذى بها، يحكى أنه اجتمع متحرّك وساكن فقال المتحرّك: الرزق لا يحصل إلاّ بالحركة، وقال الساكن: الرزق يحصل بالحركة والسكون وبما شاء الله وقد فرغ الله منه، فقال المتحرّك: فأنا أتحرّك وأنت اسكن حتى أرى من يرزق، فتحرّك المتحرّك فعندما فتح الباب وجد حبة عنب فقال: الحمد

لله غلبت صاحبي فدخل عليه وهو مسرور فقال له: يا ساكن تحرّكت فرزقت ورمى بحبة العنب إلى الساكن فأخذها الساكن فأكلها وحمد الله وقال: يا متحرّك سكنت فأكلت والرزق لمن تغذّى به لا لمن جاء به، فتعجب المتحرّك من ذلك ورجع إلى قول الساكن، والمقصود من هذه الحكاية أن الرزق لمن تغذى به، فأوّل رزق ظهر عن الرزاق ما تغذّت به الأسماء من ظهور آثارها في العالم وكان فيه بقاؤها ونعيمها وفرحها وسرورها، وأول مرزوق في الوجود الأسماء فتأثير الأسماء في الأكوان رزقها الذي به غذاؤها وبقاء الأسماء عليها، وهذا معنى قولهم: إن للربوبية سرّاً لو ظهر لبطلت الربوبية، فإن الإضافة بقاء عينها في المتضايفين، وبقاء المضافين من كونهما مضافين إنما هو بوجود الإضافة، فالإضافة رزق المتضايفين وبه غذاؤهما وبقاؤهما متضايفين، فهذا من الرزق المعنويّ الذي يهبه الاسم الرزاق وهو من جملة المرزوقين، فهو أوّل من تغذّى بما رزق، فأوّل ما رزق نفسه ثم رزق الأسماء المتعلقة بالرزق الذي يصلح لكل اسم منها وهو أثره في العالم المعقول والمحسوس، ثم نزل في النفس الإلهيّ بعد الأسماء فوجد الأرواح الملكية فرزقها التسبيح، ثم نزل إلى العقل الأوّل فغذاه بالعلم الإلهيّ والعلم المتعلق بالعالم الذي دونه، وهكذا لم يزل ينزل من عين ما يطلب ما به بقاؤه وحياته إلى عين حتى عمّ العالم كله بالرزق فكان رزاقاً، فلما وصل إلى النبات ورأى ما يحتاج إليه من الرزق المعين فأعطاه ما به غذاؤه فرأى جلّ غذائه في الماء فأعطاه الماء له ولكل حيّ في العالم وجعله رزقاً له، ثم جعله رزقاً لغيره من الحيوان فهو والحيوان رزق ومرزوق، فيرزق فيكون مرزوقاً ويرزق به فيكون رزقاً وهكذا جميع الحيوان يتغذى ويتغذى به فالكل رزق ومرزوق.

وإنما أعطى الماء رزقاً لكل حيّ لأنه بارد رطب والعالم في عينه غلبت عليه الحرارة واليبوسة، وسبب ذلك أن العالم مقبوض عليه قبضاً لا يتمكن له الانفكاك عنه لأنه قبض إلهيّ واجب على كل ممكن فلا يكون إلاّ هكذا، والانقباض في المقبوض يبس بلا شك فغلب عليه اليبس فهو يطلب بذاته لغلبة اليبس ما يلين به ويرطب فتراه محتاجاً من حيث يبسه إلى الرطوبة، وأما احتياجه إلى البرودة فإن العالم مخلوق على الصورة، ورأى أن من خلق على صورته مطلق الوجود يفعل ما يريد، فأراد أن يكون بهذه المثابة ويخرج عن القبض عليه فيكون مسرح العين غير مقبوض عليه في الكون والإمكان يأبى ذلك، والصورة تعطيه القوّة لهذا الطلب ولا ينال مطلوبه فيدركه الغبن فيحمي فتغلب الحرارة عليه فيتأذى فيخاف الإنعدام فيجنح إلى طلب البرودة ليسكن بها ما يجده من ألم الحرارة ويحيي بها نفسه، ويبس القبض الذي هو عليه يطلب الرطوبة، فنظراً لاسم الرزاق في غذاء يحيا به يكون بارداً ليقابل به الحرارة وسلطانها ويكون رطباً فيقابل به سلطان اليبس فوجد الماء بارداً رطباً فجعل منه ﴿كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾ في كل صنف صنف بما يليق به قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] أي يصدّقون بذلك، وإنما قرن به الإيمان لجواز خلافه عقلاً الذي هو ضدّ الواقع من أنه لو غلب عليه خلاف ما غلب عليه أهلكه، فلا بدّ أن تكون حياته

في نقيض ما غلب عليه، ألا ترى لو غلب عليه البرد والرطوبة هلك ولـم يكن له حياة إلاً الحرارة واليبس فكان يقال في تلك الحال: وجعلنا من النار كل شيء حيّ ولو غلب عليه البرد واليبس لكانت حياته بالهواء فيقال في تلك الحال: وجعلنا من الهواء كل شيء حيّ، ولو أفرطت فيه الحرارة والرطوبة لكانت حياته بالتراب وكان يقال لتلك الحالة: وجعلنا من التراب كل شيء. ثم هذا ما يحتمله التقسيم في هذا لو كان، فلما كان الواقع في العالم غلبة الحرارة واليبوسة عليه لما ذكرناه من سبب الصورة والقبض ثار عليه سلطان الحرارة واليبس فلم تكن له حياة إلاً ببارد رطب فكان الماء فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ وينظرون في قولنا من الماء فيعلمون طبع الماء وأثره وفيمن يؤثر وماذا يدفع به فيعلم أن العالم موصوف بنقيض ما يقتضيه الماء فيحكم عليه به، فيعلم الناظر من طبع الدواء ما يقابل به طبع المرض الذي نزل بهذا المريض، فنفس الرحمن عنه ما كان يجده هذا المريض فهذا من النفس الرحمانيّ، فالأرزاق كلها عند المحقق أدوية، لأن العالم كله يخاف التلف على نفسه لأن عينه ظهر عن عدم وقد تعشق بالوجود، فإذا قام به من يمكن عنده إذا غلب عليه أن يلحقه بالعدم سارع إلى طلب ما يكون به بقاؤه وإزالة حكم مرضه أو توقّع مرضه فذلك رزقه الذي يحيا به، ودواؤه الذي فيه شفاؤه أيّ نوع كان في الشخصيات، وكل ما يقبل النمو فهو نبات والذي ينمو به هو رزقه.

ثم إن الرزق على نوعين في الميزان الموضوع في العالم لإقامة العدل وهو الشرع. النوع الواحد: يسمّى حراماً. والنوع الآخر: يسمّى حلالاً وهو بقية الله التي جاء نصها في القرآن قال تعالىٰ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة هود: الآية ٨٦] فهذه هي التي بقيت للمؤمنين من قوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩] والإيمان لا يقع إلاً بالشرع، وجاء هذا القول في قصة شعيب صاحب الميزان والمكيال، فهذا علم مستفاد من الإعلام الإلهيّ والرزاق هو الذي بيده هذا المفتاح، فرزق الله عند بعض العلماء جميع ما يقع به التغذي من حلال وحرام فإن الله يقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [سورة هود: الآية ٦] وهو ظاهر لا نص، وقال: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [سورة هود: الآية ٦٤] ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٢] وقد نهانا عن التغذي بالحرام، فلو كان رزق الله في الحرام ما نهانا عنه، فإذن ما هو الحرام رزق الله وإنما هو رزق ورزق الله هو الحلال وهو بقية الله التي أبقاها لنا بعد وقوع التحجير وتحريم بعض الأرزاق علينا، ولتعلم من جهة الحقيقة أن الخطاب ليس متعلقه إلاً فعل المكلف لا عين الشيء الممنوع التصرّف فيه، فالكل رزق الله والمتناول هو المحجور عليه لا المتناول بفتح الواو، فإن الرزاق لا يعطيك إلاً رزقك وما يعطي الرزاق لا يطعن فيه، فلهذا علّق الذم بفعل المكلف لا بالعين التي حجر عليه تناولها، فإن المالك لها لم يحجر عليه تناولها والحرام لا يملك، وهذه مسألة طال الخبط فيها بين علماء الرسوم.

وأما قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [سورة النحل: الآية ١١٤] من العامل في

الحال فظاهر الشرع يعطي أن العامل رزقكم فإن «من» هنا في قوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ للتبيين لا للتبعيض فإنه لا فائدة للتبعيض فإن التبعيض محقق مدرك ببديهة العقل لأنه ليس في الوسع العاديّ أكل الرزق كله، وإذا كانت للتبيين وهي متعلقة بكلوا فبين أن رزق الله هو الحلال الطيب، فإن أكل ما حرم عليه فما أكل رزق الله فتدبر وانظر ما به حياتك فذلك رزقك ولا بدّ ولا يصحّ فيه تحجير وسواء كان في ملك الغير أو لم يكن، وهذه إشارة في تلخيص المسألة وهي التي يطلبها الاسم الرزاق، فإن المضطرّ لا حجر عليه وما عدا المضطرّ فما تناول الرزق لبقاء الحياة عليه وإنما تناوله للنعيم به وليس الرزق إلاّ ما تبقى به حياته عليه، فقد نبهت خاطرك إلى فيصل لا يمكن ردّه من أحد من علماء الشريعة، فإن الله يقول: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٣] بعد التحجير، وقال: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٩] وذلك هو الرزق الذي نحن بصدده وهو الذي يعطيه الرزاق جعلنا الله من المرزوقين الذين لا يكونون أرزاقاً، فإن الله أنبتنا من الأرض نباتاً.

وصل: ثم اعلم أن الحركات في النبات على ثلاثة أقسام، وأن الرأس من النبات هو الذي يطلب الحركات فحيثما توجه من الجهات نسب إليها، فإذا قابل غيرها كان نكساً في حقه، ثم اعتبر العلماء الجهات بوجود الإنسان وجعلوا الاستقامة في نشأته وحركته إلى جهة رأسه فسمّوا حركته مستقيمة، وكل نبات إنّما يتحرك إلى جهة رأسه، فكل حركة تقابل حركة الإنسان على سمتها تسمّى منكوسة وذلك حركة الأشجار، وإذا كانت الحركة بينهما يقابل المتحرّك برأسه الأفق كانت حركته أفقية، فالنبات الذي لا حسّ له وله النمو حركته كلها منكوسة بخلاف شجر الجنة فإن حركة نبات الجنة مستقيمة لظهور حياتها فإنها الدار الحيوان والنبات الذي له حس على قسمين: منه ماله الحركة المستقيمة كالإنسان، ومنه من له الحركة الأفقية كالحيوان وبينهما وسائط، فيكون أوّل الإنسان وآخر الحيوان، فلا يقوى قوّة الإنسان ولا يبقى عليه حكم الحيوان كالقرد والنسناس، كما بين الحيوان والنبات وسط مثل النخلة، كما بين المعدن والنبات وسط مثل الكماة، فحركة النبات منكوسة ومنها مخلقة وغير مخلقة، فالمخلقة تسمّى شجراً وهو كل نبات قام على ساق، وغير المخلقة يسمّى نجماً وهو كل نبات لم يقم على ساق بل له الطلوع والظهور على وجه الأرض خاصة وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٦] أي ما قام على ساق من النبات وما لم يقم على ساق فتمام الخلق في النبات القيام على ساق، فلذلك كان النجم غير مخلق كما جاء في خلق الإنسان، ومن خلق من نطفة في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٥] ويدخل الكل في حكم ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥٠] فأعطى غير المخلقة خلقها كما أعطى المخلقة خلقها، كما أنه من كمال الوجود وجود النقص فيه.

ولما حكم العلماء على حركة النبات على ما قرّرناه من الانتكاس ما وفوا النظر حقّه بل حركته عندنا مستقيمة فإنه ما تحرّك إلاّ للنمو، وما تحرّك حيوان ولا إنسان هذه الحركة التي لنموه إلاّ من كونه نباتاً، ولا يقال في النبات إنه مختلف الحركات من حيث هو نبات، وإنما

تختلف الحركات إذا كانت لغير النموّ مثل الحركات في الجهات، فإن الحركات في الجهات من المتحرك إنما ذلك نسبة إرادة التحرّك لذلك الجسم من المحرك، وقد يكون المحرك عين المتحرك مثل حركة الاختيار، وقد تكون الحركة في المتحرك عن متحرك آخر ولذلك الآخر آخر حتى ينتهي إلى المحرك أو المتحرك بالقصد لما ظهر من هذه الحركات. وأما الحركة للزيادة في الأجسام فمن كون الجسم نباتاً في حيوان كان أو في غيره فهي حركة واحدة وهي حركة عن أصل البزرة التي عنها ظهر الجسم بحركة النماء فيتسع في الجهات كلها بحسب ما يعطيه الإمداد في تلك الجهة، فقد تكون حركته إلى جهة اليمين تعطي نموّاً أقل من حركته إلى الفوق وكذلك ما بقي، وقد أخبر النبيّ ﷺ: **«أَنَّ النَّشأَةَ تَقُومُ عَلَى عُجْبِ الذَّنَبِ»** فإذا أظهرت الرجل والساق والفخذ والمقعدة فعن حركة منكوسة، وما ظهر من عجب الذنب إلى وجود الرأس فعن حركة مستقيمة، وما ظهر في الاتساع عن جهة اليمين والشمال والخلف والأمام فعن حركة أفقية وكل ذلك عندنا حركة مستقيمة، وإنما الحركة المنكوسة عندنا كل حركة في متحرك يكون بخلاف ما يقتضيه طبعه، وذلك لا يكون إلاّ في الحركة القهرية لا في الحركة الطبيعية، فإذا تحرك كل جسم نحو أعظمه فتلك حركته الطبيعية المستقيمة كحركة اللهب نحو الأثير وجسم الحجر نحو الأرض، فإذا تحرك الجسم الناري نحو الأرض والسفل وتحرّك الحجر نحو العلو كانت الحركة منكوسة وهي الحركة القسرية، فإذا انتهى النموّ في الجسم بحيث أن لا يقبله الجسم من الوجه الذي لا يقبله ثم تحرك ذلك الجسم في ذلك الوجه فما حركته حركة إنبات ونموّ كالجسم الذي قد تناهى في الطول إلى غايته فيه على التعيين فما له حركة نموّ في تلك الجهة، فإذا تحرك إلى جهة الطول تحرك بكله لا للطول بل للانتقال من مكانه إلى مكان الطول سفلاً أو علواً، وانظر فيما حررناه في حركة النبات في أنها ليست بحركة منكوسة فإذا البذرة تمدّ فروعاً إلى جهة الفوق وتمدّ فروعاً إلى جهة التحت، وغذاؤها ليس أخذ النبات له من الفروع التي في التحت المسمّاة أصولاً، وإنما أخذ النبات الغذاء من البذرة التي ظهرت عنها هذه الفروع ولهذا يحصل اليبس في بعض فروع التحت كما يحصل في الفروع الظاهرة الحاملة الورق والثمر مع وجود النموّ والحياة في باقي العروق والفروع كما ينقسم الدم من الكبد في العروق إلى سائر الأعضاء علواً وسفلاً، فالذي ينبغي أن يقال في الحركات المعنوية والحسية أنها ثلاث حركات: حركة من الوسط وهي التي تعطي ما ظهر عن الأصل الذي منه تنشأ الأجسام الطبيعية، وحركة إلى الوسط وهي الإمداد الإلهي، وحركة في الوسط وهي ما به بقاء عين الأصل، وما من نبات إلاّ وهو دواء وداء، أي فيه منفعة ومضرة بحسب قبول الأمزجة البدنية وما هي عليه من الاستعداد، فيكون المضر لبعض الأمزجة عين ما هو نافع لمزاج غيرها، فلو كان لعينه لم يختلف حكمه وإنما كان للقابل والقابل نبات كما هو نبات، فما أثر بضرره ولا نفعه إلاّ في نفسه من كونه نباتاً وإن كثرت أشخاصه وتميزت بالشخصية، وإنما نبهنا بهذا على أعيان أشخاص العالم وما أثر بعضه في بعضه والعين واحدة بالحدّ الذاتي كثير بالصور العرضية، وقد أعلمتك في غير موضع من هو عين العالم الظاهر

وأنه غير متغير الجوهر، ولمن هو الحكم الذي ظهر به التغيير في هذه العين، وأنه مثل ظهور التغيير في صور المرآة لتغيير هيئات الرائي، وقد يكون لتغيير المتجليات في أنفسها، والمرآة محل ظهور ذلك لعين الرائي، فالعماء الذي هو النفس الإلهيّ هو القابل لهذه الصور كلها فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل الرابع والثلاثون: في الاسم الإلهي المذلّ وتوجهه على إيجاد الحيوان، وله من الحروف الذال المعجمة، ومن المنازل سعد السعود.

قال تعالىٰ: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٧٢] وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [سورة الجاثية: الآية ١٣] فدخل الحيوان في ذلك، وهذا حكم الاسم المذلّ في العالم بالتسخير، حتى في المسخَّر له جعل الله بعضه مسخراً لبعض من الاسم المذلّ، فإن أصل الكل مخلوق من الأرض وهي الذلول بالجعل الإلهيّ كما هي العزيزة بالأصالة، وجعل علة تسخير بعضها لبعض مع كون العالم مسخراً لنا رفعة لبعضنا على بعض بالدرجة التي يحتاج إليها المسخَّر المفعول، قال تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣٢]. فاعلم أيّدك الله بروح منه أني ما أتكلم في هذه الموجودات في هذا النفس الإلهي إلاَّ من حيث حكم الاسم الإلهيّ الذي أذكره مع ذلك الموجود من العالم خاصة وبعض ما له فيه من الأثر.

فاعلم أن التسخير قد يكون إذلالاً وقد يكون للقيام بما يحتاج إليه ذلك المسخَّر له بالحال، وهذا الفرقان بين التسخيرين بما تعطيه حقيقة المسخر والمسخَّر له، فالعبد الذي هو الإنسان مسخَّر لفرسه ودابته فينظر منها في سقيها وعلفها وتفقد أحوالها ممّا فيه صلاحها وصحتها وحياتها، وهي مسخَّرة له بطريق الإذلال لحمل أثقاله وركوبه واستخدامه إياها في مصالحه، وهكذا في النوع الإنساني برفع الدرجات بينهم، فبالدرجة يسخر بعضهم بعضاً، فتقتضي درجة الملك أن يسخر رعيته فيما يريده بطريق الإذلال للقيام بمصالحه لافتقاره إلى ذلك، وتقتضي درجة الرعايا والسوقة أن تسخر الملك في حفظها والذب عنها وقتال عدوّها والحكم فيما يقع بينها من المخاصمات وطلب الحقوق، فهذه سخرية قيام لا سخرية إذلال اقتضتها درجة السوقة ودرجة الملك والمذل من الأسماء هو الحاكم في الطرفين.

ثم يأتي الكشف في هذه المسألة بأمر عجيب ينطق به القرآن ويشهده العيان فقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣] وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [سورة الجاثية: الآية ١٣] وقال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٦] فإنه في الأرض وهو في السماء، وهو في الصخرة، ومعنا أينما كنا، فإن الخالق لا يفارق المخلوق، والمذلّ لا يفارق الإذلال إذ لو فارقه لفارقه هذا الوصف وزال ذلك الاسم، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] أي يتذلّلوا إلي ولا يتذللون إليّ إلاَّ حتى يعرفوا مكانتي وعزّتي، فخلقهم باسم المذلّ لأنه خلقهم لعبادته، ووصف نفسه بأنه القيوم

القائم على كل نفس بما كسبت وقال: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] فوصف نفسه بأنه يحفظ ما في السموات وما في الأرض، فبالدرجة يكون حافظاً لما يطلبه العالم من حفظ الوجود عليه، وبالدرجة يكون العالم محفوظاً له، فإذا علمت أن السيد يسخّر عبده بالدرجة والعبد يسخر سيده بالحال وما يفعل ذلك السيد للعبد بطريق الجبر من العبد والإذلال وإنما يفعله لثبوت سيادته عليه فما سخّره للعبد إلاً حظ نفسه، ألا ترى أنه يزول عن السيد اسم السيد إذا باع عبده أو هلك؟ فانظر في حكم هذا الاسم ما أعجبه، وإنما اختصّ بالحيوان لظهور حكم القصد فيه ولأنه مستعد للإبابة لما هو عليه من الإرادة، فلما توجه عليه الاسم المذلّ صار حكمه تحت حكم من لا إرادة له ولا قدرة لما تعطي هاتان الصفتان من العزّة لمن قامتا به، فأصحب الله من شاء صفة الافتقار والفاقة والحاجة، فذلّ لكل ذلول يرى أن له عنده حاجة يفتقر إليه فيها وينحط عن رتبة عزّه بسببها، فربط الله الوجود على هذا وكان به صلاح العالم، فليس في الأسماء من أعطى الصلاح العام في العالم ولا من له حكم في الحضرة الإلهية مثل هذا الاسم المذلّ، فهو ساري الحكم دائماً في الدنيا والآخرة، فمن أقامه الحق من العارفين في مشاهدته وتجلّى له فيه ومنه فلا يكون في عباد الله أسعد منه بالله ولا أعلم منه بأسرار الله على الكشف، وهذا القدر من الإيماء في هذا الفصل كاف في علم التسخير الإلهيّ والكونيّ، فإنه ألحق السيد بالعبيد وألحق العبيد بالسيد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل الخامس والثلاثون: في الاسم الإلهيّ القويّ وتوجهه على إيجاد الملائكة، وله من الحروف حرف الفاء، ومن المنازل المقدّرة سعد الأخبية.

قال الله تعالىٰ: ﴿عَلَيۡهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦] وقال في الملائكة: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦] وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] وإلاً ما آتاها والأمر تكليف، فظهرت القوّة في الملائكة بإمداد الاسم القويّ فإنه بقوّته أمدّهم، وليس في العالم المخلوق أعظم قوّة من المرأة لسرّ لا يعرفه إلاً من عرف فيم وجد العالم، وبأي حركة أوجده الحق تعالىٰ وأنه عن مقدّمتين، فإنه نتيجة والناكح طالب والطالب مفتقر والمنكوح مطلوب والمطلوب له عزّة الإفتقار إليه والشهوة غالبة، فقد بان لك محل المرأة من الموجودات، وما الذي ينظر إليها من الحضرة الإلهية، وبماذا كانت ظاهرة القوّة، وقد نبّه الله على ما خصّها به من القوّة في قوله في حق عائشة وحفصة: ﴿وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ أي تتعاونا عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ أي ناصره ﴿وَجِبۡرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [سورة التحريم: الآية ٤] هذا كله في مقاواة امرأتين، وما ذكر إلاً الأقوياء الذين لهم الشدّة والقوّة، فإن صالح المؤمنين يفعل بالهمة وهو أقوى الفعل، فإن فهمت فقد رميت بك على الطريق، فأنزل الملائكة بعد ذكره نفسه وجبريل وصالح المؤمنين منزلة المعينين ولا قوّة إلاً بالله. فدلّ أن نظر الاسم القويّ إلى الملائكة أقوى في وجود القوّة فيهم من غيرهم فإنه منه أوجدهم، فمن يستعان عليه فهو فيما يستعان فيه أقوى ممّا يستعان به، فكل ملك خلقه الله من أنفاس النساء هو أقوى الملائكة فإنه من نفس الأقوى، فتوجه الاسم الإلهيّ القوي في وجود

القوّة على إيجاد ملائكة أنفاس النساء أعطى للقوّة فيهم من سائر الملائكة، وإنما اختصّت الملائكة بالقوّة لأنها أنوار وأقوى من النور فلا يكون لأن له الظهور وبه الظهور، وكل شيء مفتقر إلى الظهور، ولا ظهور له إلاّ بالنور في العالم الأعلى والأسفل، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] وقيل: «**إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمّا قِيلَ لَهُ: أرأيتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ ﷺ: نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**» وقال: «**لأحرَقَتْ سبحاتُ وَجْهِهِ مَا أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**» والسبحات الأنوار فهي المظهرة للأشياء والمغنية لها، ولما كان الظل لا يثبت للنور والعالم ظل والحق نور فلهذا يفنى العالم عن نفسه عند التجلي، فإن التجلي نور وشهود النفس ظل، فيفنى الناظر المتجلي له عن شهود نفسه عند رؤية الله، فإذا أرسل الحجاب ظهر الظل ووقع التلذّذ بالشاهد، وهذا الفصل علم فيه عظيم لا يمكن أن ينقال ولا سرّه أن يذاع، من علمه علم صدور العالم علم كيفية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل السادس والثلاثون: في الاسم الإلهيّ اللطيف وتوجهه على إيجاد الجنّ، وله من الحروف حرف الباء المعجمة بواحدة، ومن المنازل المقدم من الدالي.

قال الله تعالى في الجان ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٧] فوصفهم باللطافة، وخلقهم الله من مارج من نار والمرج الاختلاط فهم من نار مركبة فيها رطوبة المواد ولهذا يظهر لها لهب وهو اشتعال الهواء فهو حار رطب، والشياطين من الجنّ هم الأشقياء المبعدون من رحمة الله منهم خاصة، والسعداء بقي عليهم اسم الجن وهم خلق بين الملائكة والبشر الذي هو الإنسان وهو عنصري ولهذا تكبر، فلو كان طبيعياً خالصاً من غير حكم العنصر ما تكبر وكان مثل الملائكة وهو برزخي النشأة له وجه إلى الأرواح النورية بلطافة النار منه، فله الحجاب والتشكّل، وله وجه إلينا به كان عنصرياً ومارجاً، فأعطاه الاسم اللطيف أنه يجري من ابن آدم مجرى الدم ولا يشعر به، ولولا تنبيه الشارع على لمة الشيطان ووسوسته في صدور الناس ما علم غير أهل الكشف أن ثم شيطاناً، ومن حكم هذا الاسم اللطيف في الشياطين من الجن قوله تعالى لإبليس: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٦٤] قال إبليس ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة ص: الآية ٨٢، ٨٣] يعني الذين اصطنعهم الحق لنفسه، فجعل من لطفه لإبليس متعلقاً يتعلق به في موطن خاص يعرفه العارفون بالله.

ثم أخبر الله أن الشيطان يعدهم الفقر لقوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ فأدرج الرحمة من حيث لا يشعر بها، ولو شعر إبليس بهذا الاستدراج الرحماني ما طلب الرحمة من عين المنة ولكن حجبته قرائن الأحوال عن اعتبار الحق صفة الأمر الإلهي فالاسم اللطيف أورث الجانّ الاستتار عن أعين الناس فلا تدركهم الأبصار إلاّ إذا تجسدوا، وجعل سماعهم القرآن إذا تلي عليهم أحسن من سماع الإنس، فإن الإنسان وجد عن الاسم الجامع فما انفرد بخلق الاسم اللطيف الإلهيّ دون مقابله من الأسماء، فلما تلا عليهم رسول الله ﷺ سورة الرحمن فما قال

في آية منها ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ١٣] إلاّ قالت الجنّ: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، ثم تلاها بعد ذلك ﷺ على الإنس من أصحابه فلم يظهر منهم من القول عند التلاوة ما ظهر من الجن، فقال ﷺ لأصحابه: «**إني تلوتُ هٰذه السُّورَةَ عَلَى الجِنّ فَكَانُوا أَحْسَنَ اسْتِمَاعاً لَهَا مِنْكُمْ**» وذكر الحديث. ويقول الله عزّ وجلّ آمراً ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٤] وأخبر عن الجن فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الأحقاف: الآيات ٢٩ ـ ٣١] وما قال الله ولا روى عن أحد من الإنس أنه قال مثل هذا القول، فأثر فيهم الاسم اللطيف هذه الآثار في المؤمنين منهم والشياطين.

وهل حكي عن أحد من كفار الإنس قول مثل قول إبليس وهو قوله: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٣٩، ٤٠] لما قال الله له: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٢] فقطع يأسه منهم أن يكون له عليهم سلطان وحكم فيهم، فهم المعصومون والمحفوظون في الباطن وفي الظاهر من الوقوع عن قصد انتهاك حرمة الله، فخواطر المعصومين والمحفوظين كلها ما بين ربانية أو ملكية أو نفسية، وعلامة ذلك عند المعصوم أنه لا يجد تردداً في أداء الواجب بين فعله وتركه، ويجد التردّد بين المندوب والمكروه ولا في ترك واجب تركه لا يجد فيه التردد لأن التردد في مثل هذين هو من خاطر الشيطان، فمن وجد من نفسه هذه العلامة علم أنه معصوم فقوله: ﴿أَغْوَيْتَنِى﴾ عن تخلّق من قوله: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ والتزيين الذي جاء به من قوله: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ فإنه يتضمنه فما خرج في أفعاله في العباد عن الأمر اللطيف الذي تجعله قرائن الأحوال وعيداً وتهديداً وللظاهر تعلق بالحكم لاستواء الرحمن على العرش واتساع الرحمة وعمومها حيث لم تبق شيئاً إلاّ حكمت عليه ومن حكمها كان قوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ الآيات، فتدبر يا وليّ حكم هذا الاسم في الجان مؤمنهم وكافرهم إن لم تكن من أهل الكشف والوجود فتتبع ما ذكر الله في القرآن من أخبارهم وحكايات أفعالهم وأقوالهم مؤمنهم وكافرهم، ومن أثر الاسم اللطيف لطف إبليس في آدم في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ١٢٠] فصدقه وهو الكذوب ولم يكن كذبه إلاّ في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ثم علّل فقال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ [سورة ص: الآية ٧٦] فجمع بين الجهل والكذب فإنه ما هو خير منه لا عند الله ولا في النشأة وفضل بين الأركان ولا فضل بينها في الحقائق فتلطف في الإغواء تلطف المستدرج في الاستدراج، والماكر في المكر، والخادع في الخداع: [البسيط]

إن اللَّطيفَ من الأسماء معلومُ ... ولُطْفُه ظاهرٌ في الخَلْق مَوْسُومُ
هو اللَّطيفُ فما يبدو لنَاظِرِنا ... وكيف يُدرك لطفَ الذات مَعْدومُ
لُطْفُ اللَّطيف بنا نَعْتٌ له ولنا ... فاللُّطْفُ في عينه عليه مَحْكُومُ

ثم اعلم أن نسبة الأرواح النارية في الصورة الجرمية أقرب مناسبة للتجلي الإلهيّ في الصور المشهودة للعين من الجسم الإنساني، وما قرب من النسب إلى ذلك الجناب كان أقوى في اللطافة من الأبعد، فلا تزال صورة الروح الناري مجهولة عند البشر لا تعلم إلاّ بإعلام إلهيّ فإنه إعلام لا يدخله ما يخرجه عن الصدق، وكذلك إعلام الأرواح الملكية، وأما لو وقع الإعلام من الجن لم نثق به لأنه عنصري الأصل، وكل موجود عنصري يقبل الاستحالة مثل أصله والموجود عن الطبيعة من غير وساطة لا يقبل الاستحالة فلهذا لا يدخل إخباره الكذب فلطافته أخفته حتى جهلت صورته. فإن قلت: فالأرواح الملكية جعلت لها الاسم الإلهيّ القوي مع وجود هذا اللطف فيها من الاسم الإلهيّ اللطيف. قلنا: صدقت لتعلم أني ما قصدت الاسم الإلهيّ المعين في إيجاد صنف من أصناف الممكنات إلاّ لكون ذلك الاسم هو الأغلب عليه وحكمه أمضى فيه، مع أنه ما من ممكن يوجد إلاّ وللأسماء الإلهية المتعلقة بالأكوان فيه أثر، لكن بعضها أقوى من بعض في ذلك الممكن المعين وأكثر حكماً فيه، فلهذا ننسبه إليه كما نسبت يوم السبت لصاحب السماء السابعة، والأحد لصاحب السماء الرابعة، وهكذا كل يوم لصاحب سماء، ومع هذا فلكل صاحب سماء في كل يوم حكم وأثر لكن صاحب اليوم الذي ننسبه إليه أكثر حكماً وأقواه فيه من غيره فاعلم هذا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل السابع والثلاثون: في الاسم الإلهيّ الجامع وتوجهه على إيجاد الإنسان، وله من الحروف حرف الميم، وله من المنازل المقدرة الفرع المؤخر الاسم الجامع هو الله، ولهذا جمع الله لنشأة جسد آدم بين يديه فقال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص: الآية ٧٥] وأما خلق الله السماء بأيد فتلك القوّة فإن الأيد القوّة، قال تعالىٰ: ﴿دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [سورة ص: الآية ١٧] أي صاحب القوّة ما هو جمع يد، وقد جاء في حديث آدم قوله: «اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة». فلما أراد الله كمال هذه النشأة الإنسانية جمع لها بين يديه وأعطاها جميع حقائق العالم وتجلّى لها في الأسماء كلها، فحازت الصورة الإلهية والصورة الكونية وجعلها روحاً للعالم، وجعل أصناف العالم له كالأعضاء من الجسم للروح المدبّر له، فلو فارق العالم هذا الإنسان مات العالم، كما أنه إذا فارق منه ما فارق كان فراقه لذلك الصنف من العالم كالخدر لبعض الجوارح من الجسم فتتعطل تلك الجارحة لكون الروح الحساس النامي فارقها، كما تتعطل الدنيا بمفارقة الإنسان، فالدار الدنيا جارحة من جوارح جسد العالم الذي الإنسان روحه، فلما كان له هذا الاسم الجامع قابل الحضرتين بذاته فصحّت له الخلافة وتدبير العالم وتفصيله، فإذا لم يحز إنسان رتبة الكمال فهو حيوان تشبه صورته الظاهرة صورة الإنسان، وكلامنا في الإنسان الكامل فإن الله ما خلق أوّلاً من هذا النوع إلاّ الكامل وهو آدم عليه السلام، ثم أبان الحق عن مرتبة الكمال لهذا النوع فمن حازها منه فهو الإنسان الذي أريده، ومن نزل عن تلك الرتبة فعنده من الإنسانية بحسب ما تبقى له، وليس في الموجودات من وسع الحق سواه وما وسعه إلاّ بقبول الصورة، فهو مجلّى الحق والحق مجلّى حقائق

العالـم بروحه الذي هو الإنسان، وأعطى المؤخر لأنه آخر نوع ظهر، فأوليته حق وآخريته خلق، فهو الأوّل من حيث الصورة الإلهية، والآخر من حيث الصورة الكونية، والظاهر بالصورتين والباطن عن الصورة الكونية بما عنده من الصورة الإلهية، وقد ظهر حكم هذا في عدم علم الملائكة بمنزلته مع كون الله قد قال لهم إنه خليفه فكيف بهم لو لم يقل لهم ذلك؟ فلم يكن ذلك إلاّ لبطونه عن الملائكة وهم من العالم الأعلى العالم بما في الآخرة وبعض الأولى، فإنهم لو علموا ما يكون في الأولى ما جهلوا رتبة آدم عليه السلام مع التعريف وما عرفه من العالم إلاّ اللوح والقلم وهم العالون ولا يتمكن لهم إنكاره، والقلم قد سطره واللوح قد حواه، فإن القلم لما سطره سطر رتبته وما يكون منه، واللوح قد علم علم ذوق ما خطه القلم فيه، قال الله تعالىٰ لإبليس: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [سورة ص: الآية ٧٥] على طريق استفهام التقرير بما هو به عالم ليقيم شهادته على نفسه بما ينطق به فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [سورة ص: الآية ٧٦] فاستكبر عليه لا على أمر الله وما كان من العالين فأخذه الله بقوله وكان من الكافرين نعمة الله عليه حين أمره بالسجود لآدم وألحقه بالملأ الأعلى في الخطاب بذلك فحرمه الله لشؤم النشأة العنصرية، ولولا أن الله تعالىٰ جمع لآدم في خلقه بين يديه فحاز الصورتين وإلاّ كان من جملة الحيوان الذي يمشي على رجليه ولهذا قال ﷺ: **«كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرونَ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ آسيةُ امرأةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ ابنةُ عِمْرَانَ»** فالكمل هم الخلائف، واستخدم الله له العالم كله، فما من حقيقة صورية في العالم الأعلى والأسفل إلاّ وهي ناظرة إليه نظر كمال أمينة على سر أودعها الله إياه لتوصله إليه، وقولي صورية أي لها صورة معينة في العالم تحوز مكانها ومكانتها، وهذا القدر من الإشارة إلى حكم هذا الاسم الإلهي الجامع في هذا النوع كاف في حصول الغرض من نفس الرحمن فإنه حاز العماء كله، ولهذا كان له حرف الميم من حيث صورته وهو آخر الحروف، وليس بعده إلاّ الواو الذي هو للمراتب فيدخل فيه الحق والخلق لعموم الرتبة فلنذكرها في الفصل الذي يلي هذا الفصل وأي اسم لها فنقول.

الفصل الثامن والثلاثون: في الاسم الإلهي رفيع الدرجات ذي العرش وتوجهه على تعيين المراتب لا على إيجادها لأنها نسب لا تتصف بالوجود إذ لا عين لها، ولها من الحروف حرف الواو، ومن المنازل المقدرة الرشا، وهو الحبل الذي للفرع.

اعلم أن المراتب كلها إلهيّة بالأصالة وظهرت أحكامها في الكون، وأعلى رتبة إلهية ظهرت في الإنسان الكامل، فأعلى الرتب رتبة الغنى عن كل شيء، وتلك الرتبة لا تنبغي إلاّ لله من حيث ذاته، وأعلى الرتب في العالم الغنى بكل شيء، وإن شئت قلت: الفقر إلى كل شيء وتلك رتبة الإنسان الكامل، فإن كل شيء خلق له ومن أجله وسخّر له لما علم الله من حاجته إليه فليس له غنى عنه، والحاجة لا تكون إلاّ لمن بيده قضاؤها، وليس إلاّ الله الذي بيده ملكوت كل شيء، فلا بدّ أن يتجلى لهذا الإنسان الكامل في صورة كل شيء ليؤدي إليه من صورة ذلك الشيء ما هو محتاج إليه وما يكون به قوامه. ولما اتصف الله لعباده بالغيرة

أظهر حكمها فأبان لهم أنه المتجلي في صورة كل شيء حتى لا يفتقر إلاّ إليه خاصة فقال عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] فافهم وتحقق ركون الناس إلى صور الأسباب وافتقارهم إليها، وأثبت الله افتقار الناس إليه لا إلى غيره ليبين لهم أنه المتجلي في صور الأسباب، وأن الأسباب التي هي الصور حجاب عنه ليعلم ذلك العلماء لعلمهم بالمراتب.

واعلم أن لكل اسم من الأسماء مرتبة ليست للآخر، ولكل صورة في العالم رتبة ليست للصورة الأخرى، فالمراتب لا تتناهى وهي الدرجات وفيها رفيع وأرفع، سواء كانت إلهية أو كونية فإن الرتب الكونية إلهية فما ثم رتبة إلاّ رفيعة وتقع المفاضلة في الرفعة، ومن هنا تعرف مآل الثقلين عرفان ذوق، فإن مآلهم لا بدّ أن يكون إلى مرتبة إلهية، وما عدا الثقلين فمآلهم معروف عند العلماء الإلهيين، ومآل الثقلين لا يعلم مرتبته إلاّ الخصوص من العلماء بالله، وإنما كان لها الواو لأن الواو لها الستة من مراتب العدد وهي أول عدد كامل، والكمال في العالم إنما كان بالمرتبة فأعطيناه الواو، ومن المنازل الرشا وهو الحبل والحبل الوصل وبه يكون الاعتصام كما هو بالله فأنزل الحبل منزلته، فلولا أن رتبة الحبل أعطت ذلك ما ثبت قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٣] كما قال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] فافهم أين جعل رتبة الحبل وبأي اسم قرنه وإلى أي اسم أضافه. واعلم أنه لولا الصور ما تميزت الأعيان، ولولا المراتب ما علمت مقادير الأشياء ولا كانت تنزل كل صورة منزلتها كما قالت عائشة: أنزلوا الناس منازلهم، وبالرتبة علم الفاضل والمفضول، وبها ميّز بين الله والعالم، وبها ظهرت حقائق ما هي عليه الأسماء الإلهية من عموم التعلّق وخصوصه، فلنذكر في هذا الفصل مناسبة الأسماء الإلهيّة التي ذكرناها للحروف التي عيناها والمنازل التي أوردناها ليرتبط الكل بعضه ببعضه، فكما جمع العماء صور الموجودات الذي هو النفس الإلهيّ كذلك جمع الحروف النفس الإنساني كما جمع الفلك المنازل المقدرة لنزول الدراري فيها المبينة مقادير البروج في الفلك الأطلس فنقول:

إني ما قصدت بهذا المساق ترتيب إيجاد العالم وأنه وجد هذا بعد هذا، فإن ترتيب إيجاد العالم قد ذكرناه في هذا الكتاب وأنه على خلاف ما يقوله حكماء الفلاسفة، وإنما قصدنا معرفة ما أثرت الأسماء الإلهية في الممكنات في ممكن ممكن منها سواء تقدم على المذكور قبله أو تأخر، ورتبة الموجودات على ما هي الآن عليه في وصفها وتقييدها، وذكرنا المنازل على ما هي الآن عليه في وضعها وترتيب الحروف على مخارجها، ولا يلزم من هذا ترتيبها في الكلمات المؤلفة منها فقد تكون الكلمة الأولى من حروف الوسط مثل كلمة ﴿كن﴾ وقبلها حروف مخارجها متقدمة عليها، فتنظر الاسم الإلهي الذي يقتضي أن يكون له الأثر في العالم ابتداء فتجده البديع لأنه لم يتقدم العالم عالم يكون هذا على مثاله، فالبديع له الحكم في ابتداء العالم على غير مثال وليس المبدىء كذلك، والمعيد يطلب المبدىء ما يطلب البديع، والبديع له الحكم في النشأة الآخرة فينا، كما كان له الحكم في النشأة الدنيا فإنها على

غير مثال هذه النشأة وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٦٢] يعني أنها كانت على غير مثال سبق وقال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩] أي على غير مثال، فالبديع حيث كان حكمه ظاهر نفي المثال وما انتفى عنه المثال فهو أول، فأعطيناه أوّل الزمان اليومي وهو الذي ظهر بوجود الشمس في الحمل وأوله الشرطين، وأعطيناه من الحروف الهاء فإنها أول حرف ظهر في المخرج الأوّل، والاسم أعطى العين الموجودة، والعين الموجودة ظهر بها الزمان الذي هو مقارنة حادث لحادث يسأل عنه بمتى، فإن كان الموجود ذا نفس في مادة أعطى الحرف وترتيب المنازل بحلول الشمس لإظهار أعيان الفصول التي بها قوام المولدات، فالحروف تحكم على الكلمات، والكواكب تحكم على فصول الزمان، والأسماء تحكم في الموجودات، والأعيان مقسمة بين فاعل ومنفعل، فإذا فهمت هذا نسبت كل اسم إلهيّ إلى متعلقه غالباً وإن كان لغيره فيه حكم، وقد تقدم الكلام في مثل هذا ومتعلقه موجود ما أو حكم في موجود ثم ربط الوجود بعضه ببعضه بين فاعل ومنفعل وجوهر وعرض ومكان وزمان وإضافة وغير ذلك من تقاسيم الأشياء فيه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل التاسع والثلاثون: في النقل في الأنفاس. اعلم أن المراد بالنقل أن ينقل حكم الآخر إلى الأوّل ويجعل محله من الأول آخراً وقد كان في الآخر أولاً، ويزيل من الآخر عين ما ظهر فيه هذا الحكم والعين واحدة فإنه قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] والهوية واحدة العين، وانتقل الحكم من آخر إلى أول في عين واحدة، ولا يكون هذا النقل الخاص في هذا الباب إلاَّ نقل الموجود من حال شدة إلى حال رخاء ومن عسر إلى يسر، فالنقل تسهيل طريق إلى وجود الرحمة، وهذا النقل يظهر في ثلاث مراتب: المرتبة الأولى: أن يظهر في الصور الممثلة على صورة المحسوس فيكون لها حكم المحسوسات وليست بمحسوسات وهي من وجه محسوسات فينتقل إليها ذلك الحكم ليعلم أن للظهور في صورة ما من الموجود المنزّه عن التأثير حكم الصورة التي ظهر فيها، فانتقل الحكم إلى الذي كان لا يقبله قبل هذا لظهوره بالصورة التي هذا الحكم لها، كما انتقل حكم البشر إلى الروح لما ظهر بصورة البشر فأعطى الولد الذي هو عيسىٰ وليس ذلك من شأن الأرواح ولكن انتقل حكم الصورة إليها بقبوله للصورة، فمن ظهر في صورة كان له حكمها، ومن هنا تعرف مرتبة الإنسان الكامل الذي خلقه الله على صورته، ولتلك الصورة حكم فتبع الحكم الصورة فلم يدع الألوهية لنفسه أحد من خلق الله إلاَّ الإنسان الذي ظهر بأحكام الأسماء والنيابة فكان ملكاً مطاعاً كفرعون وغيره، وقد يظهر حكم النقل في مرتبة المعرفة وهي المرتبة الثانية، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» وذلك بنقل الحكم الذي كان لنفسه إلى ربه لما علم أنه ما في الوجود إلاَّ الله. والمرتبة الثالثة: الانتقال في جميع المراتب، فينتقل حكم المنزلة للنازل فيها كانت المنزلة ما كانت ممّا تحمد أو تذم، وإذا انتقل الحكم انتقل الحكم فيها بحسب ما تقرر في العرف والوضع العادي والشرعي، ألا ترى الروح الجني إذا لبس

صورة الحية والحكم فيها منا القتل قتلناه لصورته، ولو علمنا أنه جان ما قتلناه، كما انتقل حكم الصورة في الجان فحكمت عليه أنه حية عاملناه فحكمنا في تلك الصورة، روينا حديثاً عن شخص من جن وفد نصيبين الذين وفدوا على رسول الله ﷺ أنه قال: «**قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِهٰؤُلاءِ الوَفْدِ مِنَ الجِنِّ لَمَا كَانَ لَهُم الظُّهُورُ فِي أَيِّ صورَةٍ شَاؤُوا فَحَكَمَ عَلَيهِمْ أَنَّهُ مَنْ تَصَوَّرَ فِي غَيْرِ صُورَتِهِ فَقُتِلَ فَلاَ عَقْلَ فِيهِ وَلاَ قَوَدَ**» فإنه من قتل حية أو عقرباً لا يقتل به ولا تؤخذ فيه دية، فمن ظهر في صورة من هذا حكمه انسحب عليه هذا الحكم.

الفصل الأربعون: في الجلي والخفي من الأنفاس. فالجلي ما ظهر والخفي ما استتر، ولا يكون الاستتار والخفاء إلاَّ في الأمثال، وأما في غير الأمثال فلا، لأن غير المثل لا يقبل صورة من ليس مثله، ألا ترى قوله عليه السلام حين قال: إن الله قال على لسان عبده: «سمع الله لمن حمده» لأنه قال فيه أنه خلقه على صورته فجعله مثلاً، ثم نفى أن يماثل ذلك المثل فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] أي ليس مثل مثله شيء، فنفى أن يماثل المثل فاستتر الحق بصورة العبد في قوله: سمع الله لمن حمده، فإن المترجم عنه اسم مفعول يستتر بظهور المترجم اسم فاعل في باب المماثلة له فيما يطلبه من الأمور التي لا صورة لها في المترجم لهم من حيث ما يعرفها المترجم عنه في لسانه، فيظهر المترجم عنه بصورة المترجم عنه المعنوية وبصورة المترجم لهم المحسوسة فيظهر بالصورتين فإنه سمّاه عبداً وهو عبد قائل عن حق، فكان لسانه لسان حق في قوله: سمع الله لمن حمده، وما زال عن كونه عبداً في ذلك فالله تعالىٰ يظهرنا وقتاً ويستر نفسه فيما هو له ووقتاً يظهر نفسه ويسترنا بحسب المواطن حكمة منه، فالكامل من أهل الله ينظر مراد الله في الوقائع، فأي عين أراد الله ظهورها أظهر وأي عين أراد الله سترها سترها، والأدب يقضي بأمر كلي أن ما حسن عرفاً وشرعاً نسبه للحق فأظهر الحق فيه وجلاه للبصائر والأبصار، وما قبح عرفاً وشرعاً نسبه إلى نفسه إن شاء وأظهر نفسه فيه، وجلاه أو نسبه إلى الشيطان إن شاء وأظهر عين الشيطان فيه وجلاه، فيكون باطنه حقاً لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] وكل من عند الله، ولكن مع هذا كله لا بدّ أن لم يكن مثلاً يصيره مثلاً وحينئذ يستره وإلاَّ فما يستتر فإنه ما ثم مثل إلاَّ الإنسان فهو يقبل الاستتار وما عدا الإنسان فلا يقبله فإنه ليس بمثل، فإذا أردت أن تستره في الحق صيرته مثلاً وحينئذ يقبل الستر بالصيرورة، فالأسباب كلها خلاف إلاَّ الإنسان قال الله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] فجلاه باسمه وكان ظاهراً فستره ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [سورة الفتح: الآية ١٠] فأظهره بكاف الخطاب ثم ستره ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] كما إنه ميّز وعينّ وفرّق فقال: ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩] حكماً وإلى الرسول عيناً، فمن أهل الله من يقيم مثل هذا إذا ورد نشأة ذات روح وجسد فيستر بالحركة المحسوسة فعل الروح بصراً ويستر بالمحرك فعل الجسد بصيرة، وفيها يكون الإنسان خالقاً ويكون الحق أحسن الخالقين، ومن أهل الله من لا يرى إلاَّ الله فلا ستر عنده، ومن أهل الله من

لا يرى إلاَّ الخلق فلا ظهور عنده وكل مصيب، وأهل الأدب هم الكمل فيحكمون في هذا الأمر بما حكم الله من ستر وتجلّ وإخفاء وإظهار كما قدمنا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل الحادي والأربعون: في الاعتدال والانحراف من النفس. اعلم أن أهل الله في هذا الباب على ثلاثة أقسام: قسم يرى أن الحق لا يميل ولا يمال إليه، وهم الذين يحدّون الحب بالليل الدائم من المحب للمحبوب. وقسم يرى أن خلق الإنسان على الصورة يعطي الاعتدال وإن لم يكن الاعتدال فما هو على الصورة فيميل حيث مال الحق مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣] في شرع خاص ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣] فجعل هذا التعريف وصية ليعمل بها، وهذا عين الميل عن قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] وعن وقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] فأهل الاعتدال هم القائمون بين الانحرافين، وأهل الانحراف عن هذا الاعتدال هم الذين يثبتون في الأفعال الكونية علواً وسفلاً حقاً بلا خلق وهم طائفة، وطائفة أخرى يثبتونها خلقاً بلا حق حقيقة من الطائفتين لا على طريق المجاز، وهم الذين يقولون إنه ما صدر عن الحق إلاَّ واحد، وعن الترجيح في رفع التجريح، والنظر في الخطاب الإلهيّ، ففي أي موضع جعل الحكم لأحد الانحرافين جعلناه، وفي أي موضع عدل إلى الاعتدال عدلنا، وهذا نعت الأدباء مع الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل الثاني والأربعون: في الاعتماد على الناقص والميل إليه.

هذا باب الاعتماد على الأسباب كلها إلاَّ السبب الإنساني الكامل، فإنه من اعتمد عليه فما اعتمد على ناقص لظهوره بالصورة، وما عداه من الأسباب فهو ناقص عن هذه المرتبة نقص المرأة عن الرجل بالدرجة التي بينهما، وإن كملت المرأة فما كمالها كمال الرجل لأجل تلك الدرجة، فمن جعل الدرجة كون حوّاء وجدت من آدم فلم يكن لها ظهور إلاَّ به فله عليها درجة السببية فلا تلحقه فيها أبداً، وهذه قضية في عين، ونقابلها بمريم في وجود عيسىٰ فإذا الدرجة ما هي سبب ظهورها عنه، وإنما المرأة محل الانفعال والرجل ليس كذلك، ومحل الانفعال لا يكون له رتبة أن يفعل فلها النقص، ومع النقص يعتمد عليها ويمال إليها لقبولها الانفعال فيها، وعندها فما وضع الله الأسباب سدى إلاَّ لنقول بها ونعتمد عليها اعتماداً إلهياً أعطت الحكمة الإلهية ذلك مع نظرنا إلى الوجه في كل منفعل بها سواء شعر السبب بذلك الوجه أو لم يشعر، فالحكيم الإلهي الأديب من ينزل الأسباب حيث أنزلها الله، فمن يشاهد الوجه الخاص في كل منفعل يقول: إن الله يفعل عندها لا بها، ومن لا يشاهد الوجه الخاص يقول: إن الله يفعل الأشياء بها، فيجعل الأسباب كالآلة يثبتها ولا يضيف إليها، كالنجار الذي لا يصل إلى عمل صورة تابوت أو كرسي إلاَّ بآلة القدّوم والمنشار وغيرهما من الآلات ممّا لا يتم فعله إلاَّ بها لا عندها فتثبتها ولا تضيف صنعة التابوت إليها، وإنما يثبت ذلك للنجار وصاحب التدبير والعلم بما ظهر عنه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل الثالث والأربعون: في الإعادة الإعادة.

تكرار الأمثال أو العين في الوجود وذلك جائز وليس بواقع أعني تكرار العين للاتساع الإلهيّ، ولكن الإنسان ﴿فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق: الآية ١٥] فهي أمثال يعسر الفصل فيها لقوّة الشبه، فالإعادة إنما هي في الحكم مثل السلطان يولي والياً ثم يعزله ثم يوليه بعد عزله، فالإعادة في الولاية والولاية نسبة لا عين وجودي، ألا ترى الإعادة يوم القيامة إنما هي في التدبير، فإن النبيّ ﷺ قد ميّز بين نشأة الدنيا ونشأة الآخرة والروح المدبر لنشأة الدنيا عاد إلى تدبير النشأة الآخرة فهي إعادة حكم ونسبة لا إعادة عين فقدت ثم وجدت، وأين مزاج من يبول ويغوط ويتمخط من مزاج من لا يبول ولا يغوط ولا يتمخط، والأعيان التي هي الجواهر ما فقدت من الوجود حتى تعاد إليه بل لم تزل موجودة العين ولا إعادة في الوجود لموجود فإنه موجود، وإنما هي هيئات وإمتزاجات نسبية. وأما قولنا بالجواز في الإعادة في الهيئة والمزاج الذي ذهب فلقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [سورة عبس: الآية ٢٢] وما شاء فإن المخبر عن الله فرّق بين نشأة الدنيا ونشأة الأخرى، وفرّق بين نشأة أهل السعادة ونشأة أهل الشقاء، فنشأة أهل السعادة لها اللطف والرقة ولا سيما للمتشرعين المنكسرة قلوبهم الناظرين إلى الرسول دائماً بعين حق مع شهود بشريته وأنه من الجنس، ومن عادة الجنس الحسد إذا ظهر التفوق وقد ارتفع عن هؤلاء، ولهم فتح البركات من السماء والأرض، كما لأهل الشقاء فتح العذاب والزيادة لما زادوا هنا من المرض في قلوبهم عند ورود الآيات الإلهيّة لإثبات الشرائع فكلاهما أهل فتح ولكن بماذا؟ فاعلم ذلك فإنه في علم الأنفاس دقيق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل الرابع والأربعون: في اللطيف من النفس يرجع كثيفاً وما سببه والكثيف يرجع لطيفاً وما سببه كالملحن في الرفع والخفض في صوته.

اعلم أن اللطف من المحال أن يرجع كثافة فإن الحقائق لا تنقلب ولكن اللطيف يرجع كثيفاً كالحار يرجع بارداً والبارد حاراً، فاعلم أن الأرواح لها اللطافة، فإذا تجسدت وظهرت بصورة الأجسام كثفت في عين الناظر إليها، والأجسام لها الكثافة شفافها وغير شفافها، فإذا تحوّلت في الصور في عين الرائي أو احتجبت مع الحضور فقد تروحنت أي صار لها حكم الأرواح في الاستتار، وتتنوّع الصور عليها كما تتنوع عليها الأعراض بحمرة الخجل وصفرة الوجل، وهو أنموذج منبيء أن لها قوّة التحوّل في الصور إذا قامت بها أسباب ذلك، فأما سبب كثافة الأرواح وهي من عالم اللطف فلكونهم خلقوا من الطبيعة، وإن كانت أجسامهم نورية فمن نور الطبيعة كنور السراج، فلهذا قبلوا الكثافة فظهروا بصور الأجسام الكثيفة، كما أثر فيهم الخصام حكم الطبيعة لما فيها من التقابل والتضاد والضدّ، والمقابل منازع لمقابله كقول رسول الله ﷺ فيما حكى الله عنه: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [سورة ص: الآية ٦٩] فوصفهم بالخصومة. فمن هذه الحقيقة التي أورثتهم الخصومة تجسدوا في صور الأجسام الكثيفة.

وأما الكثيف يرجع لطيفاً فسببه التحليل، فإن الكثائف من عالم الاستحالة، وكل ما يقبل الاستحالة يقبل الصور المختلفة والمتضادّة، وأظهر ما يكون ذلك في أهل التلحين، فالصوت بما هو صوت لا تتبدّل صورته فيغلظه الملحن في موضع ويرققه في موضع بحسب الرتبة التي يقصدها ليؤثر بذلك في طبيعة السامعين ما شاء من فرح وسرور وانبساط، أو حزن وهم وانقباض، ولهذا جعلوا ذلك في الموسيقي في أربعة: في البم والزير والمثنى والمثلث، فإن المحل الذي يريدون أن تؤثر فيه هذه الأصوات مركب من مشاكلتها من مرتين ودم وبلغم فيهيج سماع هذا الصوت ما يشاكله من الأخلاط التي هو عليها السامع، فيكون الحكم بسبب معين يقصده الملحن حتى يكون له ذلك سبباً إلى معرفة الأصل في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ فهو قصد الملحن ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فأتى بالكلام الذي هو الصوت الممتد والمنقطع في المخارج لإظهار أعيان الحروف التي تقع بها الفائدة عند السامع، ألا ترى إلى صوت السنانير وإن لم يكن لهم حروف تتقطع في نفسها يغيرون أصواتهم لتغير أحوالهم ليعرفوا السامع ما يقصدونه بذلك الصوت، فعند الجوع يرق صوت السنور ويخفي ويلطف، وعند الهياج يغلظ ويجهر ويتتابع، فيعلم من صوته أنه هائج أو أنه جائع فيؤثر ذلك في نفس السامع بحسب قبوله إما رقة وحناناً فيطعمه وإما غير ذلك.

ثم إن في هذا الباب يظهر تجلي الحق في الصور التي ينكر فيها أو يرى فيها في النوم، فيرى الحق في صورة الخلق بسبب حضرة الخيال، فإن الحضرات تحكم على النازل فيها وتكسوه من خلعها ما تشاء أين هذا التجلي من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ ومن: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] فالحكم للحضرة والموطن لأنّ الحكم للحقائق والمعاني توجب أحكامها لمن قامت به، وإذا كان هذا الحكم في العلم الإلهيّ فظهوره في أعيان المحدثات أقرب مأخذاً لوجود المناسبة الإمكانية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل الخامس والأربعون: في الاعتماد على أصل المحدثات.

أصل المحدثات هو ما ترجع إليه بعد فراغها من النظر في ذاتها وهو في قول الشارع: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وقد تكون المعرفة بالله الحاصلة بعد المعرفة بالنفس علماً بالعجز عن البلوغ إلى ذلك، فيحصل لهم العلم بأنه ثم من لا يعلم فترك العلامة علامة فقد تميز عن خلقه بسلب لا بإثبات، وقد تكون المعرفة به من كونه إلهاً فيعلم ما تستحقه المرتبة فيجعلون ذلك صفة لمن قامت به تلك المرتبة وظهر فيها، فيكون علمهم بما تقتضيه الرتبة علمهم بصاحبها إذ هو المنعوت بها فهو المنعوت بكل ما ينبغي لها أن توصف به، وعلى الحقيقة يعلم أن هذا علم بالمرتبة لا به، لكن يعلم أنه ما في وسع الممكن أكثر من هذا في باب النظر وإقامة الأدلة، فإن كشف الله عن بصر الممكن بتجلّ يظهر له به الحق يعلم عند ذلك ما هو الأمر عليه فيكون بحسب ما يعلمه، ومن أهل النظر من يروم هذا الحكم الذي ذهب إليه صاحب التجلي ولكن لا يقوى فيه لأنه خائف من الغلط في ذلك لعدم الذوق فهو يرومه ولا يظهر به، والمعتمدون على هذا الأصل على طبقات لاختلافهم في أحوالهم، فمنهم من

يعتمد عليه في كل شيء عند ظهور ذلك الشيء، ومنهم من يعتمد عليه في الأشياء قبل ظهور الأشياء، ومنهم من تردّه الأشياء إليه فيعتمد عليه بعد أن كان يعتمد على الأشياء، وذلك كله راجع إلى استعداداتهم.

واعلم أن هذا الباب يتضمن علم السكون والحركة أي علم الثبوت والإقامة وعلم التغيير والانتقال، قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٣] أي ما ثبت فإن نعت القديم ثابت ونعت المحدثات يثبت لثبوتها ويزول لزوالها ويتغير عليها النعت لقبولها التغيير لأنها كانت معدومة فوجدت فقبلت الوجود فلم تثبت على حالة العدم، فلما كان أصلها قبول التنقل من حال إلى حال تغيرت عليها النعوت فلم تثبت إلاّ على التغيير لا على نعت معين، والسكون أيضاً لما كان عديم الحركة لا يصحّ فيه دعوى أضافه الحق إليه، والحركة لما كانت الدعوى تصحبها أي تصحب لمن ظهر بها لم يقل تعالىٰ أنه له ما تحرّك فإن الدعوى تدخلها من المحرّكين والوجه الثبوت لا العدم فله الثبوت وللعالم الزوال وإن ثبت فإن ذلك ليس من نفسه وإنما ذلك من مثبته، قال النبي ﷺ لما بلغه قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. قال: «هٰذا أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَتْهُ العَرَبُ» وإن كانت الأشياء موجودة فهي في حكم العدم لجواز ذلك عليها وإن لم يقع، والاعتماد لا نشك أنه سكون إلى من يعتمد عليه لا بدّ من ذلك ولا يعتمد إلاّ على من له ثبوت الوجود ولا يقبل التغيير ولا الانتقال من حال الثبوت، ومن علم أنه يقبل الانتقال من الثبوت لا يعتمد عليه لأنه يخون المعتمد عليه ذلك الاعتماد لارتباطه بمن لا ثبوت له، فلا يعتمد على محدث إلاّ عن كشف وإعلام إلهيّ، فيكون اعتمادنا على من له نعت الثبوت كاعتمادنا على الشرائع فيما يجب الإيمان به، فلولا التعريف الإلهيّ بما أظهره من الآيات على صدقه لم نثبت على ذلك، كما لا نثبت على الحكم ثبوت من لا ينتقل لجواز النسخ وكل ذلك شرع يجب الإيمان به، فإن النسخ لما كان عبارة عن انتهاء مدّة ذلك الحكم أعقبه حكم آخر لا أن الأوّل استحال بل انقضى لانقضاء مدته لارتباطه في الأصل بمدة يعلمها الله معينة، وإن لم نعلم نحن ذلك فلا نعتمد على سبب محدث عادي إلاّ بإعلام من الله أنه يثبت حكمه، كالإيمان الذي تثبت معه السعادة فيعتمد عليه فنقول: إن السعادة مرتبطة بالإيمان بالله وبما جاء من عنده لإعلام الحق بذلك، ولا يعتمد عليه في بقائه بالشخص الذي نراه مؤمناً فإنه قد يقوم به أمر عارض يحول بينه وبين الإيمان الذي يعطي السعادة فتنتفي السعادة عنه لانتفاء الإيمان بخلاف العلم، فإن العلم له الثبوت ولا تؤثر فيه الغفلات فإنه لا يلزم العالم الحضور مع علمه في كل نفس لأنه والٍ مشغول بتدبير ما ولاّه الله عليه فيغفل عن كونه عالماً بالله، ولا يخرجه ذلك عن حكم نعته بأنه عالم بالله مع وجود الضد في المحل من غفلة أو نوم ولا جهل بعد علم أبداً إلاّ إن كان العلم قد حصل عن نظر في دليل عقلي، فإن مثل ذلك ليس عندنا بعلم لتطرق الشبه على صاحبه وإن وافق العلم، وإنما العلم من لا يقبل صاحبه شبهة وذلك ليس إلاّ علم الأذواق فذلك الذي نقول فيه أنه علم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل السادس والأربعون: في الاعتماد على العالم من كونه هو الكتاب المسطور في رق الوجود المنشور في عالم الأجرام الكائن من الاسم الله الظاهر.

اعلم أن هذا الاعتماد لا يصحّ إلاّ أن يكون صاحبه صاحب علم بتعريف إلهيّ، وذلك أن العالم إنما جئنا به بهذه اللفظة لنعلم أنا نريد به جعله علامة، ولما ثبت أن الوجود عين الحق وأن ظهور تنوّع الصور فيه علامة على أحكام أعيان الممكنات الثابتة فسميت تلك الصور الظاهرة بالحكم في عين الحق ظهور الكتاب في الرق عالماً وأظهرها الاسم الإلهيّ الظاهر بل ظهر بها، فهذا باب يتميز فيه الحق من الخلق، وإن تنوّع الصور لم يؤثر في العين الظاهرة فيها هذه الصور، كما لا يتغير الجوهر عن جوهريته بما يظهر عليه من الأحوال والأعراض، فإن ذلك الظاهر حكم المعنى المبطون الذي لا وجود له إلاّ بالحكم في عين الناظر، فأحكامه لا موجودة ولا معدومة وإن كانت ثابتة فيعتمد على العالم بأنه علامة لا على الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وإنما هو علامة على ثبوت المعاني التي لها هذه الأحكام الظاهرة في عين حق، فالعالم علامة على نفسه، وهكذا كل شيء، فلا شيء أدل من الشيء على نفسه فإنها دلالة لا تزول والدلالات الغريبة تزول ولا تثبت، فمن اعتمد على العالم من هذا الوجه فقد اعتمد على أمر صحيح لا يتبدّل ولا يكون الاعتماد على الحقيقة إلاّ عليه على هذا الوجه، فإن الحق إذا كان كل يوم في شأن فلا يدرى ما يكون ذلك الشأن، فلا يقدر على الاعتماد على من لا يعلم ما في نفسه، فالكامل من أهل الله من يتنوّع لتنوّع الشؤون فإن الحق ما يظهر في الوجود إلاّ بصور الشؤون، فيكون اعتماد هذا الشخص اعتماداً إلهياً أي هو متصف في ذلك بنعت الحق في قبوله الشؤون التي تظهر للعالم بها، وهذا من العلم المضنون به على غير أهله فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل السابع والأربعون: في الاعتماد على الوعد قبل كونه وهو الاعتماد على المعدوم لصدق الوعد.

اعلم أن هذا الباب ممّا نفس الله به عن عباده وهو نفس الرحمن، فإن الخبر الصدق إذا لم يكن حكماً لا يدخله نسخ، وقد ورد بطريق الخبر الوعد والوعيد فجاء نفس الرحمن بثبوت الوعد ونفوذه والتوقف في نفوذ الوعيد في حق شخص شخص، وذلك لكون الشريعة نزلت بلسان قوم الرسول ﷺ فخاطبهم بحسب ما تواطؤوا عليه، فمما تواطؤوا عليه في حق المنعوت بالكرم والكمال إنفاذ الوعد وإزالة حكم الوعيد فقال أهل اللسان في ذلك على طريق المدح: [الطويل]

وإنـــي إذا أوعَـــدْتُـــه أو وَعَـــدْتُـــهُ لَـمُـخْـلـفُ إيـعـادي ومُـنْـجـزُ مَـوْعـدي

وقد ورد في الصحيح: «**لَيسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يُمْدَحَ**» والمدح بالتجاوز عن المسيء غاية المدح فالله أولى به تعالىٰ، والصدق في الوعد ممّا يتمدح به قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ فذكر الوعد وأخبر عن الإيعاد في تمام الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤٧] وقال في الوعيد بالمشيئة وفي الوعد بنفوذه ولا بدّ، ولم يعلقه بالمشيئة في حق المحسن لكن في حق المسيء علّق المشيئة بالمغفرة والعذاب فيعتمد على وعد الله، فلا ظهور له إلاّ بوجود ما وعد به وهو بعد ما وجد، والاعتماد عليه لا بدّ منه لما يعطيه التواطؤ في اللسان وصدق الخبر الإلهيّ بالدليل والله عند ظنّ عبده به فليظن به خيراً، والظن هنا ينبغي أن يخرج مخرج العلم كما ظهر ذلك في قوله عن الثلاثة الذين خلفوا وظنوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه أي علموا وتيقنوا، وقال أهل اللسان في ذلك: فقلت لهم ظنوا بالغي مدجج. أي تيقنوا واعلموا فإن الظن لما كانت مرتبته برزخية لها وجه إلى العلم وإلى نقيضه ثم دلّت قرائن الأحوال على وجه العلم فيه حكمنا عليه بحكم العلم وأنزلناه منزلة اليقين مع بقاء اسم الظن عليه لا حكمه، فإن الظن لا يكون إلاّ بنوع من ترجيح يتميز به عن الشك، فإن الشك لا ترجيح فيه والظن فيه نوع من الترجيح إلى جانب العلم، وكذا قال: **«أَنَا عِنْدَ ظَن عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِيَ خَيْراً»** فأبانَ أن في الظن ترجيحاً ولا بدّ إما إلى جانب الخير وإما إلى جانب الشر، والله عند ظن عبده به، ولكن ما وقف هنا لأن رحمته سبقت غضبه فقال معلماً: «فليظن بي خيراً» على جهة الأمر، فمن لم يظن به خيراً فقد عصى أمر الله وجهل ما يقتضيه الكرم الإلهيّ، فإنه لو وقع التساوي من غير ترجيح كالشك لكان من أهل من يقول أن عدله لا يؤثر في فضله ولا فضله في عدله، فلما كان الظن يدخله الترجيح أمرنا الحق أن نرجح به جانب الخير في حقنا ليكون عند ظننا به فإنه رحيم، فمن أساء الظن بأمر فإن العائد عليه سوء ظنه لا غير ذلك، والله يجعلنا من أهل العلم، وإن قضى علينا بالظن فنظن الخير بالله وقد فعل بحمد الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل الثامن والأربعون: في الاعتماد على الكنايات وما يظهر منها من الفتوح وهي المعبر عنها بالأنية في الطريق وكيف يعتل الصحيح ويصحّ المعتل.

اعلم أيّدك الله أن كل ما سوى الله فإنه معتل بالذات صحيح بالعرض، فإن الصحة تعرض للمحدث إذا أحبه الله حب سبب كحبه لأصحاب التقرّب بالنوافل فيكون الحق سمعهم وبصرهم، فيزول عنه المرض والاعتلال ويصحّ فينفذ بصره في كل مبصر وسمعه في كل مسموع، وأما الصحيح بالذات المعتل بالعرض فهو الذي يرى أن الوجود ليس سوى عين الحق فهو من حيث عينه لا تقوم به العلل، غير أنه لما ظهر في أعين الناظرين إليه في صور مختلفة حكمت عليه بذلك أحكام أعيان الممكنات ظهر معتلاً بحكم العرض الذي عرض لا عين الناظرين إليه وهو في نفسه على ما هو عليه، كما يعرض للنور في عين الناظر صور الألوان وهو في نفسه غير متلون، فهذا قد عاد الصحيح معتلاً. وأما الاعتماد على الكنايات لأنها أعرف المعارف، والاعتماد لا يكون إلاّ على معروف لأجل التعيين، فلو كان منكراً لم يتميز ولم يتعين فيكون الاعتماد على غير معتمد، والأسماء لا تقوى قوّة الكنايات فلا يخيب المعتمد على الكنايات وقد يخيب المعتمد على الأسماء لأنها لا تقوى قوّة الكنايات في

المعرفة، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة لأنه لا يتغير، والأسماء قد تنتقل وتستعار، فمن اعتمد على الاسم في حال كونه معاراً أو منتقلاً يخيب المعتمد عليه، فالمستعار كالاشتعال الذي هو اسم مخصوص نعت من نعوت أحوال النار المركبة فاستعير للشيب في قوله: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [سورة مريم: الآية ٤] وأما الانتقال فمثل قوله: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [سورة الكهف: الآية ٧٧] فنقل اسم المريد لمن ليس من شأنه أن يريد، فإن اعتمد على هذا الاسم في حال نقله خاب المعتمد عليه، والكنايات ليست كذلك ولها فتوح المكاشفة بالحق وفتوح الحلاوة في الباطن كما للأسماء فتوح العبارة.

الفصل التاسع والأربعون: فيما يعدم ويوجد ممّا يزيد على الأصول كالنوافل مع الفرائض.

اعلم أنه لا يسمّى بالزائد من تطلبه الذات لكمال حقيقتها، فما زاد على ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥٠] فهو زائد وهو إذا عدم لم يتأثر المعدوم عنه بعدمه، وإن وجد لم يزد الموجود فيه في ذاته شيئاً لم يكن عليه مثل الأحوال عند أصحاب المقامات إن وجدت فيهم لم يزد ذلك في مكانتهم، وإن عدمت لم ينقص عدمها من مكانتهم ولذلك هي مواهب.

الفصل الخمسون: في الأمر الجامع لما يظهر في النفس من الأحكام في كل متنفس حقاً مشبهاً وخلقاً وحياة ونطقاً وما نفس به من الأقسام الإلهية.

اعلم أن الإمداد الإلهيّ للموجودات لا ينقطع فإذا قصر فمن القابل لا من جانب الممد، فإن أضيف عدم الإمداد في أمر معين إلى جانب الحق فذلك القصر إمداد المصلحة في حق ذلك الممنوع فإنه العالم بمصالح المخلوقات، ولهذا ينبغي للعلماء بالله أن لا يعينوا عند سؤالهم حاجة بعينها وليسألوا ما لهم فيه الخير من غير تعيين، فكم من سائل عين فلما قضيت حاجته لحكمة يعلمها الله أدركه الندم بعد ذلك على ما عين وتمنّى أنه لم يعين، فالإمداد تنفس رحماني والإمداد الإلهيّ في الموجودات طبيعيّ ومزاد، فالطبيعيّ ما تمسّ الحاجة إليه لقوام ذاته ودفع ألم يقوم به، والمزاد ما يزيد على هذا ممّا لا يحتاج في نفسه إليه، هذا إذا كان من أهل الله القائلين بالريّ عند الشرب، ومن لا يقول بالري فما ثم إمداد مزاد بل كله طبيعيّ، والمزاد على قسمين: وهو ما يمده به الحق ممّا يحتاج إليه الغير وفيه يقول الله آمراً نبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٤] وهذا المزاد إن كان عن طلب من الغير وهو الموجب للزيادة مثل ما هو في نفس القارىء في آمن وآدم أو يكون، وإن كان إمداد من الله لهذا العبد ليمدّ به من يعلم الله أنه محتاج إليه ليشرف الواسطة بذلك فيجد هذا العبد في نفسه علماً لا يقتضيه حاله فيعلم أن المراد به التعليم والإمداد للغير، ومثاله في نفس القارىء: جاء وشاء ودابة وطامة، وهو الموجب للزيادة في الإمداد، فدابة وطامة صورتان تدبرهما روح واحدة وهو التضعيف، والهمزة نصف حرف عند بعضهم وهو الاسم

الظاهر، والألف نصف حرف وهو الاسم الباطن، فالمجموع حرف واحد وهو السبب الموجب لزيادة الإمداد لما يعلم الممد من حاجته إلى ذلك أو لطلبه، وعلى كل حال فنفس الرحمن فيه موجود والزيادة في الإمداد على قدر الحاجة أو الطلب فيفضل بعضه على بعض، فالمفضول قصر وجزر عن المد الأطول الأفضل فاعلم ذلك، فالمد إمداد محسوس ظاهر، والجزر إمداد معنوي يطلق عليه اسم النقيض فاعلم ذلك.

وصل: إذا اجتمع عارفان في حضرة شهودية عند الله ما حكمهما؟

وهذه مسألة سألني عنها شيخنا يوسف بن يخلف الكومي سنة ست وثمانين وخمسمائة فقلت له: يا سيدي هذه مسألة تفرض ولا تقع إلاَّ إذا كان التجلي في حضرة المثل كرؤيا النائم وكحال الواقعة، وأما في الحقيقة فلا، لأن الحضرة لا تسع اثنين بحيث أن يشهد معها غيرها بل لا يشهد عينها في تلك الحضرة فأحرى أن يشهد عيناً زائدة، ولكن يتصوّر هذا في تجلي المثال، فإذا اجتمعا فلا يخلو كل واحد منهما أن يجمعهما مقام واحد أعلى أو أدنى أو متوسط أو لا يجمعهما، فإن جمعهما مقام واحد فلا يخلو إما أن يكون ذلك المقام ممّا يقتضي التنزيه أو التشبيه أو المجموع، وعلى كل حال فحكم التجلي من حيث الظهور واحد، ومن حيث ما يجده المتجلي له مختلف الذوق لاختلافهما في أعيانهما، لأن هذا ما هو هذا، لا في الصورة الطبيعية، ولا الروحانية، ولا في المكانية، وإن كان هذا مثل لهذا ولكن هذا ما هو هذا، فغايتهما إما أن يتحقق كل واحد منهما بمعرفته بنفسه، ونفس هذا غير هذا، فيحصل من العلم لهذا ما لم يحصل لهذا، فنعلم أنهما وإن اجتمعا في عين الفرق أو يتحقق الواحد بمعرفته بنفسه ويفنى الآخر عن مشاهدة ذاته فيختلفان في عين الجمع، أو يعطي الواحد ما يعطي المراد، ويعطي الآخر ما يعطي المريد، فعلى كل وجه هما مختلفان في الوجود متفقان في الحال والشهود، فإن اقتضى المقام التنزيه لكل واحد منهما فغاية تنزيه كل واحد منهما أن ينزهه عن صورة ما هو عليها في نفسه فهما مختلفان بلا شك وإن كانا مثلين، وإن اقتضى ذلك المقام التشبيه فالحال مثل الحال، وكذلك إن اقتضى المجموع فإن المجموع إنما هو جمع طرفين في حضرة وسطى فالحال الحال، فلا يجتمعان أبداً في الوجود وإن اجتمعا في الشهود، وإن لم يجمعهما مقام واحد وكان كل واحد في مقام ليس للآخر وظاهر بصورة ما هي لصاحبه وإن اجتمعا في الصورة، إلاَّ أنهما أعطيا من القوّة بحيث أن يشهد كل واحد منهما حضور صاحبه في بساط ذلك المشهود لكون المشهود تجلى في صورة مثالية، وهذا التجلي والشهود هو الذي يجمع فيه صاحبه بين الخطاب والشهود إن شاء المشهود. وأما في غير هذه الحضرة فلا يجتمع شهود وخطاب ولا رؤية غير، وحكمهما إذا كانا بهذه المثابة حكم من جمعهما مقام واحد في معرفته بنفسه أو فناء أحدهما أو يقام أحدهما مراداً والآخر مريداً، فيخبر المريد عن قهر وشدة، ويخبر المراد عن لين وعطف وما ثم إلاَّ هذا، ولا يخبر واحد منهما عمّا حصل لصاحبه، فإن الإلقاء لكل واحد منهما إنما يكون بالمناسب الذي يقتضيه

المزاج الخاص به الذي كان سبب اختلاف صور أرواحهما في أصل النشأة، فإذا رجع إلى أصحابه من هذه حاله يقول وإن كان أحدهما في المغرب والآخر في المشرق لأصحابه في هذه الساعة أشهد فلان وعاينته وعرفت صورته ومن حليته كذا وكذا فيصفه بما هو عليه من الصفات، فمن لا علم له بالحقائق منهما فإنه يقول: وأعطاه الحق مثل ما أعطاني، والأمر ليس كذلك فإن كل واحد منهما لم يحصل له إسماع ما للآخر وذلك لافتراقهما في المناسب كما قدمنا وإن كان من أهل الحقائق والمعرفة التامّة ويقال له: فما حصل له؟ فيقول: لا أدري فإني لا أعرف إلاَّ ما تقتضيه صورتي وما أنا هو فإن الحق لا يكرر صورة.

وصل: ولما كان هذا الباب يضم كل ذي نفس حقاً وخلقاً احتجنا أن نبين فيه ما نفس الرحمن به عن نفسه لما وصف نفسه بأنه أحب أن يعرف، ومعلوم أن كل شيء لا يعلم شيئاً إلاَّ من نفسه وهو يحب أن يعرفه غيره ولا يعرفه ذلك الغير إلاَّ من نفسه، فإن لم يكن العارف على صورة المعروف فإنه لا يعرفه، فلا يحصل المقصود الذي له قصد الوجود، فلا بدّ من خلقه على الصورة لا بدّ من ذلك، وهو تعالىٰ الجامع للضدّين بل هو عين الضدين ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] فخلق الإنسان الكامل على هذه المنزلة، فالإنسان عين الضدين أيضاً لأنه عين نفسه في نسبته إلى النقيضين، فهو الأول بجسده، والآخر بروحه، والظاهر بصورته، والباطن بموجب أحكامه، والعين واحدة فإنه عين زيد وهو عين الضدين فزيد هو عين الأخلاط الأربعة المتضادة والمختلفة ليس غيره وذو الروح النفسي والمركب الطبيعيّ، وهنا قال الخراز: عرفت الله بجمعه بين الضدين. فقال صاحبنا تاج الدين الأخلاطي حين سمع هذا منا: لا بل هو عين الضدين وقال الصحيح، فإن قول الخراز يوهم أن ثم عيناً ليست هي عين الضدين لكنها تقبل الضدين معاً، والأمر في نفسه ليس كذلك بل هو عين الضدين إذ لا عين زائدة، فالظاهر عين الباطن والأوّل والآخر والأول عين الآخر والظاهر والباطن فما ثم إلاَّ هذا، فقد عرفتك بالنشأة الإنسانية أنها على الصورة الإلهية، وسيرد الكلام في خلق الإنسان من حيث مجموعه الذي به كان إنساناً في الباب الحادي والستين وثلثمائة في فصل المنازل في منزل الاشتراك مع الحق في التقدير.

وصل: الأقسام الإلهية من نفس الرحمن الواردة في القرآن والسنّة، فإن بها نفس الله عن المقسوم له ما كان يجده من الحرج والضيق الذي يعطيه في الموجودات قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] وإرادته مجهولة التعلّق لا يعرف مرادها إلاَّ بتعريف إلهيّ، فإذا أكّده بالقسم عليه والإيلاء كان أرفع للحرج من نفس المقسوم له، كما نفس الله عن المؤمنين غير الموقنين بقسمه على الرزق وما وعد به من الخير المطلق والمقيد بالشروط لمن وقعت منه ووجدت فيه أنه لحق مثل ما أنكم تنطقون، فنفس الله عنهم بذلك وحصل لهم اليقين وما بقي لهم بعد إلاَّ الاضطراب الطبيعيّ، فإنّ الآلام الطبيعية المحسوسة ما في وسع الإنسان رفعها إذا حصلت بخلاف الآلام النفسية فإنه في وسعه رفعها، فوقع التنفيس

بالقسم أن الرزق من الله لا بدّ منه، وبقي في قلب بعض الموقنين بذلك من الحرج تعيين وقت حصوله ما وقع به التعريف ولو وقع لم يرفع الاضطراب الطبيعيّ، فلما علم الحق أنه لا ينفس في تعيين الأوقات لذلك لم يوقع بها التعريف، فإن الطبع أملك والحسّ أقوى في الذوق من النفس، وسبب ذلك أن المحسوس على صورة واحدة لا تتبدل، والنفس تقبل التحوّل في الصور، فلذلك لا يرتفع حكم الطبع في وجود الآلام الحسيّة لثبوته، وترتفع الآلام النفسية لسرعة تبدّلها في الصور، ولا يفنى أحد عن الآلام الطبيعية إلاّ بوارد إلهيّ أو روحاني قوي يرفع عنه ألم الطبع إن قام به، ويكون موجب ذلك الوارد إما أمر محسوس أو معقول لا يتقيد، كورود غائب عليه يحبه فيفنيه شغله بما حصل له من الفرح بوروده عن ألم الجوع والعطش الذي كان يجده قبل رؤية هذا الغائب أو السماع بقدومه فهذا موجب محسوس، والموجب المعقول معلوم عند العلماء، فظهر في الأقسام الإلهيّة نفس الرحمن غاية الظهور، وأعطى هذا القسم عند العلماء تعظيم المقسوم به، إذ لا يكون القسم إلاّ بمن له مرتبة في العظمة، فعظم الله بالقسم جميع العالم الموجود منه والمعدوم إذ كانت أشخاصه لا تتناهى فإنه أقسم به كله في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [سورة الحاقة: الآيتان ٣٨و٣٩] وهو الموجود الغائب عن البصر والمعدوم، ودخل في هذا القسم المحدث والقديم، غير أنه لما علم الله عظمته في قلوب عباده موحدهم ومشركهم ومؤمنهم وكافرهم وقد أقسم لهم بالمحدثات وبغير نفسه وعلم أنه قد تقرر عندهم أنه لا يكون القسم إلاّ بعظيم عند المقسم فبالضرورة يعتقد العالم تعظيم المحدثات ولا سيما وقد أيّد ذلك في بعض المحدثات بقوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ وهي محدثات ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٢] ومن صفات الحق الغيرة، فحجر من كونه غيوراً علينا أن نقسم بغيره مع اعتقادنا عظمة الغير بتعظيم الله، فهذا التحجير دواء نافع لما أورثه القسم بالمحدثات في القلوب الضعيفة البصائر عن إدراك الحقائق من العلل والأمراض والأقسام كثيرة ولا فائدة في ذكرها مع ما ذكرناه من الأمر الجامع لها فهو يغني عن تفصيلها، فإن الكتاب يطول بذكرها وكل إنسان إذا وقف على قسم منها عرف فيما وقع وما نفس الله به وعمّن نفس الله به من أوّل وهلة، وإنما ينبغي لنا أن نذكر ما يغمض على بعض الأفهام أو أكثرها لحصول الفوائد العزيزة المنال عند أكثر الناس.

وصل: ومن نفس الرحمن تشريع الاجتهاد في الحكم في الأصول والفروع ومراعاة الاختلاف وثبوت الحكم من جانب الحق بإثباته إياه أنه حكم شرعيّ في حق المجتهد تحرم عليه مخالفته مع التقابل في الأحكام، فقرّر الحكمين المتقابلين وجعل المجتهدين في ذلك مأجورين فشرع المجتهد من الشرع الذي أذن الله فيه لهذه الأمة المحمدية أن يشرعه، ولا أدري هل خصّت به أو لم يزل ذلك فيمن قبلها من الأمم، والظاهر أنه لم يزل في الأمم، فإن نفس الرحمن يقتضي العموم ولا سيما وقد جاء في القرآن ما يدل على أن ذلك لم يزل في الأمم في قوله تعالىٰ: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٧] وما ابتدعوها إلاّ باجتهاد منهم

وطلب مصلحة عامة أو خاصة، وأثنى على من رعاها حق رعايتها وذكر هذا في بني إسرائيل، وكذلك في قوله في الأصول: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧] يعني في زعمه فإنه في نفس الأمر ليس إلاَّ إله واحد، ولهذا قرّر ﷺ حكم المجتهد سواء أصاب أو أخطأ بعد توفيته حق الاجتهاد جهد طاقته وما رزقه الله من قوّة النظر في ذلك وقرّر له الأجر مرة واحدة إن أخطأ ومرتين إن أصاب، فاعلم أن المجتهد قد يخطىء ما هو الأمر عليه في نفسه ومع هذا قد تعبده به وأعطاه على ذلك أجر الاجتهاد لما فيه من المشقة لأنه من الجهد والجهد بذل الوسع خاصة، فإن الله ما كلف عباده إلاَّ وسعهم في نفس الأمر، ولم يخص ﷺ في الاجتهاد فرعاً من أصل بل عم، فمن خصّص ذلك بالفروع دون الأصول فهو من الاجتهاد أيضاً تخصيص ذلك وتعميمه وكلاهما مأجور في اجتهاده.

وصل: ومن نفس الرحمن أيضاً قوله تعالىٰ حكاية عن معصوم في قوله عن الخطأ وهو رسول الله ﷺ: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] فاخرج وضيق المتسع فنفس الله بتمام الآية والتعريف بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] فقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٦] بالألف واللام اللذين للعهد وهو هذا الصراط الذي عليه الرب أن يكون مشهوداً لنا في وقت مشى الحق فيه بنا فإنه صراط من أنعم عليه ومن غضب الله عليه، وأصله في السبيل التي فرقته عن سبيله وهو الصراط الذي هو عليه حجبته عن شهوده فلا يشهده إلاَّ سعيد وإن لم يشهده وآمن به وجعله كأنه يشهده فهو سعيد، ومعلوم أن تصرف كل دابة قد يتعلق به لسان حمد أو ذم لأمور عرضية في الطريق عينتها الأحوال وأحكام الأسماء، والأصل محفوظ في نفس الأمر تشهده الرسل سلام الله عليهم والخاصة من عباد الله.

وصل: ومن نفس الرحمن الذي نفس الله به عن عباده المؤمنين بالرسل قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فنفس الله بذلك عن قلوب كان قد قام بها أن الله تعالىٰ لا يعلم الجزئيات، وإن كان القائل بذلك قد قصد التنزيه لكنه ممّن اجتهد فأخطأ، إن قال ذلك عن اجتهاد فله الأجر فإن الأمر لا يتغير عمّا هو عليه في نفسه، ولا يؤثر فيه حكم المجتهد لا بالإصابة ولا بالخطأ، وإذا لم يتغير الأمر في نفسه بتغير الاجتهاد فالحكم له فلا يكون منه في العقبى إلاَّ الخير، فإنه الخير المحض الذي لا شرّ فيه، فما عند المجتهدين من التغيير من جهته إلاَّ ما تغيّروا به من نفوسهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: الآية ١١] وما غيّروا به أنفسهم فذلك تغيير الله بهم لأنهم ما خرجوا عمّا أعطاهم الله فإن الله ما كلف نفساً إلاَّ ما آتاها، فما آتاها في هذا الوقت إلاَّ ما سمّاه تغييراً، فهو معهم في حال تغيّرهم إلى أن ينقضي مدته فيبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وهو مشاهدة ما هو الأمر عليه في نفسه، فنفس الله عنهم بما بدا لهم منه وما يبدو من الخير إلاَّ الخير، كما قال المعتزلي الذي كان يقول بإنفاذ الوعيد فيمن مات عن غير توبة فلما مات وهو على هذا الاعتقاد وحصل له بعد الموت شهود الأمر على ما هو به رؤي في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: وجدنا الأمر أهون ممّا

كنا نعتقده، وأخبر أنه رحم ولم ينفذ فيه الوعيد الذي كان يعتقد نفوذه في أمثاله، وليس أنباء الحق عباده يوم القيامة بما عملوه من الجرائم واجترحوه من الآثام على جهة التوبيخ والتقرير، وإنما ذلك على طريق الإعلام باتساع رحمة الله حيث نالها لاتساعها من لا يستحقها، وذلك بشفاعة أعيان تلك الأفعال المسمّاة جرائم، فإن فاعلها لما كان سبباً في إيجاد أعيانها من كونها أفعالاً وأقام نشأتها وهي معصية في حقه لكنها نشأة مطيعة مسبحة ربها عزّ وجلّ تستغفر للسبب الموجب لوجودها فيجيب الله دعاءها واستغفارها لصاحبها فإنه لا علم لها بأنها معصية أو طاعة فإنها غير مكلفة بذلك ولا خلقت له فيقبل الله شفاعتها فيه، فيكون مآله إلى الرحمة التي وسعت كل شيء، وما في العالم إلاّ من هو منشيء صور أعمال منعوتة في الشرع بطاعة ومعصية ولا طاعة ولا معصية، فإذا انتشأت فلا غذاء لها إلاّ التسبيح بحمد الله، وهنا أعني في هذه الحضرة تتساوى أعمال الطاعة والمعصية فإن كونها طاعة ومعصية ما هو عينها، وإنما ذلك حكم الله فيها وهي مقبولة السؤال عند الله فإنها من أصناف المعتنى بهم المفطورين على تعظيم الله تعالىٰ والثناء عليه بما هو أهله، ولولا أنه ما كان معنا أينما كنا ما ظهرت أعيان هذه الأعمال إذ هو منشئها فينا بنا أو عندنا على حسب ما يعطيه نظر كل ناظر، فقل كيف شئت، وهذا القدر كاف في باب النفس الرحماني، وما رأيت أحداً ممّن غير من أهل هذا الشأن تكلم عليه مثلنا ولا فصله تفصيلنا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والتسعون ومائة

في السر

[نظم: الكامل]

السرُّ تَثْبيتُ المراتب فافتَكِرْ ... فهو الدليلُ على ثُبُوت الواحدِ
بالفرد صحَّ وجودُنا في عيننا ... في غائبٍ إن كان أو في شاهدِ
إن الإشارةَ بالحقيقة تُيِّمَتْ ... وهي الدليلُ على انتفاء الواجِدِ
والحالُ يطلبه المرادُ بكونه ... فيه بحكم لا يكونُ بزائدِ
والعالِمُ النِّحْريرُ إن قامت به ... صِفَةُ العلوم فَحُكْمُه كالفَاقِدِ

اعلم أن السرّ عند الطائفة على ثلاث مراتب: سرّ العلم، وسرّ الحال، وسرّ الحقيقة. فأما سرّ العلم فهو حقيقة العلماء بالله لا بغيره من الأسماء، فإن سرّ العلم بالله هو جمع الأضداد بالحكم في العين الواحدة من حيث ما هو منسوب إليه، كذا ممّا له ضد من ذلك بعينه ينسب إليه ضده، وهذا سرّ لا يعلمه إلاّ من وجده في نفسه فاتصف به فحكم على عينه بحكم حكم عليه أيضاً بضده من حيث حكم ضده لا من نسبة أخرى ولا من إضافة، ولهذا جعله الله سرّ العلم لأن العلم كل علم حصل عن دلالة لأنه مشتق من العلامة، ولذلك أضيف العلم إلى الله بالأشياء لأنه علم نفسه فعلم العالم فهو دليل وعلامة على العالم، كما كان العالم علامة عليه في علمنا به وهو قوله ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» فجعلك لك دليلاً

عليه فعلمته كما كانت ذاته دليلاً عليك له فعلمك فأوجدك، فهذا من خفي سرّ العلم الذي لا يعلمه إلاّ العلماء بالله، فإذا كان الحق سمع العبد وبصره وعلمه علمته به وجعلته دليلاً وعلامة على نفسه وهذا هو سرّ الحال، ومنه نفخ عيسىٰ في الصورة التي أنشأها من الطين فكانت طيراً، وبسر العلم دعاء إبراهيم عليه السلام الأطيار فأتته سعياً، فإن كان قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٠] العامل فيه تنفخ فهو سرّ الحال، وإن كان العامل فيه ﴿فَيَكُونُ﴾ فهو سرّ العلم وهذا لا يعلمه إلاّ صاحبه وهو عيسىٰ عليه السلام، وسرّ العلم أتم من سرّ الحال لأن سرّ العلم هو لله وهو الذي ظهر به إبراهيم الخليل عليه السلام فإنه ما زاد على أن دعاهن ولم يذكر نفخاً فكان كقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] وسرّ الحال لا يكون إلاّ من نعوت الخلق ليس من نعوت الحق، فسرّ العلم أتم وحكمه أعمّ. فالحال من جملة معلومات العلم وممّن هو تحت إحاطته، ولو كان الحال أتم من العلم لكان الحق قد أمر نبيه بطلب الأنقص ويكون الحق قد ترك وصفه بالأتم وهذا محال، فليس الشرف إلاّ لسر العلم.

وأما سرّ الحقيقة فهو أن تعلم أن العلم ليس بأمر زائد على ذات العالم، وأنه يعلم الأشياء بذاته لا بما هو مغاير لذاته أو زائد على ذاته، فسرّ الحقيقة يعطي أن العين والحكم مختلف، وسرّ الحال يلبس فيقول القائل بسرّ الحال أنا الله وسبحاني وأنا من أهوى ومن أهوى أنا، وسرّ العلم يفرق بين العلم والعالم، فبسرّ العالم تعلم أن الحق سمعك وبصرك ويدك ورجلك مع نفوذ كل واحد من ذلك وقصوره وأنك لست هو عينه، وبسرّ الحال ينفذ سمعك في كل مسموع في الكون إذا كان الحق سمعك حالاً وكذلك سائر قواك، وبسرّ الحقيقة تعلم أن الكائنات لا تكون إلاّ لله وأن الحال لا أثر له فإن الحقيقة تأباه، فإن السبب وإن كان ثابت العين وهو الحال. فما هو ثابت الأثر، فللحقيقة عين تشهد بها ما لا يشهد بعين الحال وتشهده عين الحال وعين العلم، وللعلم عين يشهد بها ما لا يشهده بعين الحال وتشهد ما يشهده عين الحال، فعين الحال أبداً تنقص عن درجة عين العلم وعين الحقيقة، ولهذا لا تتصف الأحوال بالثبوت فإن العلم يزيلها والحقيقة تأباها، ولذلك الأحوال لا تتصف بالوجود ولا بالعدم فهي صفات لموجود لا تتصف بالعدم ولا بالوجود، فبالحال يقع التلبيس في العالم، وبالعلم يرتفع التلبيس وكذلك بالحقيقة، فهذا سرّ العلم وسرّ الحال وسرّ الحقيقة قد علمت الفرقان بينهم في الحكم.

هذا معنى السرّ عند الطائفة، فإذا ثبت أمر في العالم كان ما كان وظهر حكمه فسرّه معناه إذا ظهر لمن ظهر له بطل عنده ذلك الثبوت الذي كان يحكم به قبل هذا على ذلك الأمر في كل أمر يكون له ثبوت في العالم، وبهذه المثابة ثبوت الأسباب كلها في العالم، فسرّ الربوبية إما المربوب وإمّا النسب أو الصفات التي من شأن من نسبت إليه أو قامت به عند من يرى أنها صفات أن يكون رباً فليس هو رب بالذات على هذا النحو، وهذا معنى قول سهل بن عبد الله: للربوبية سرّ لو ظهر لبطلت الربوبية، وكذلك قوله أيضاً: إن للربوبية سرّاً

لو ظهر لبطل العلم، وأن للعلم سرّاً لو ظهر لبطلت النبوّة، وإن للنبوّة سرّاً لو ظهر لبطلت الأحكام، فسرّ الحق لو ظهر لبطل الاختصاص والنبوّة اختصاص فتبطل النبوّة ببطلان الاختصاص ويبطل حكم العلم من حيث أنه صفة للذات حتى أعطاه حكم العالم وهو الحال فيبطل العلم لا يبطل العالم، وسرّ النبوة إزالة رفيع الدرجات لأنه ما ثم على من والمعارج للأنبياء إنما هي في هذه الدرجات، فسرّ النبوة الإخبار بما هو الأمر عليه وما هو الأمر عليه لا يقبل التبديل وإذا لم يقبل التبديل بطل الحكم، فإن الحكم يثبت التخيير والتخيير يناقض التبديل، فإذا بطل التخيير بطل الحكم فبطل معنى النبوة فهذا سرّها، فمن ظهر له أسرار هذه الأمور وعلمها علم الحق فيها ولم يبطل عنده شيء فهو أقوى الأقوياء في التمكن الإلهيّ، فهو عبد في مقام سيد وسيد في صورة عبد.

الباب الموفي مائتين

في حال الوصل

[نظم: البسيط]

لـو فـاتَـنـا مـا فـاتَ لـم تَـكُ صـورةٌ والـوَصْـلُ فـيـنـا دَرْكُ ذاك الـفـائـتِ
مـا فـات إلاَّ كَـوْنُـنـا لـم نَـبْـغِـهِ فـإذا ابْـتَـغَـيْـنَـا كـان ثَـبْـتَ الـثَّـابـتِ
وبـه تَـفَـاضـلـتِ الـرجـالُ فـمـنـهُـمُ حَـيٌّ وذاك الـحـيُّ عَـيْـنُ الـمـائـتِ
والـمَـيْـتُ مـنـا لـيـس يـعـرف مَـوْتَـه والـنـاطقُ الـمـعـصـومُ عَـيْـنُ الـصّـامـتِ

اعلم أن الوصل في اصطلاح القوم إدراك الفائت وهو إدراك السالف من أنفاسك وهو قوله تعالىٰ: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠] والعلة في ذلك أن كل حال له نفس يتضمن ذلك النفس جميع ما سلف من أنفاس ذلك المتنفس من حيث ما كانت عليه تلك الأنفاس من الأحكام، فله فائدة المجموع وما يتميز به من غيره وهو قول الطائفة: لو أن شخصاً أقبل على الله دائماً ثم أعرض عنه طرفة عين كان ما فاته في تلك اللحظة أكثر ممّا ناله، وهذه المسألة حيرت العارفين بالوصل إذا صحّ لم يعقبه الفصل هذا هو الحق، فإن الحق سبحانه لا يقبل وصله الانفصال ولا تجلّى لشيء ثم انحجب عنه لأن العالم بما هو به عالم لا يكون بخلاف حكم علمه، فالحق مع الكون في حال الوصل دائماً وبهذا كان إلهاً وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] أي على أي حال كنتم من عدم ووجود وكيفيات، فهكذا هو في نفس الأمر، والذي يحصل لأهل العناية من أهل الله أن يطلعهم الله ويكشف عن بصائرهم حتى يشهدوا هذه المعية وذلك هو المعبر عنه بالوصل أعني شهود هذا العارف، فقد اتصل العارف بشهود ما هو الأمر عليه فلا يتمكن أن ينقلب هذا الوصل فصلاً كما لا ينقلب العلم جهلاً، فإنه يعطيك هذا المشهد الكيفية فيه على ما هي عليه، فهذا يا أخي معنى الوصل عند الطائفة في اصطلاحهم، جعلنا الله وإياكم من أهل الوصل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الحادي ومائتان

في حال الفصل

[نظم: البسيط]

الفَضْلُ فَوْتُ الرَّجَا إن كنتَ تَعْقِلُهُ ... ودَعْ يفوتك فالمَرْجُوُّ قد حَصَلاَ
من غَيْرِ ما هو مَرْجُوٌّ لطالبهِ ... وهو الدليلُ لعبد الله إذ كَمُلاَ
لا بدّ منا ومنه والدليلُ لنا ... الفرقُ ما بين مَنْ يَدْري ومَنْ جَهِلاَ

اعلم أن الفصل عند الطائفة فوت ما ترجوه من محبوبك، وعندنا الفصل هو تمييزك عنه بعد كونه سمعك وبصرك، فإن وقع لك التمييز قبل هذا فليس هو الفصل المذكور في هذا الباب، فإن المراد به هنا الفصل الذي يكون عن الوصل وهذا هو الذوق، وقبل الذوق قد يخطر للعبد من الرجاء أن يكون الحق فيتفق أن يطلع على إحالة هذه الكينونة، فيكون أيضاً هذا من الفصل المبوّب عليه في هذا الباب وما ثم أعلى من هذا الرجاء، ثم ينزل من هذا إلى ما يرجوه من التحقق بالأسماء والصفات والنعوت في الأكوان علوّها وسفلها، فكل ما فاتك من هذه الأمور فهو فصل أيضاً من هذا الباب، ولكن من شرط هذا الفصل والوصل أن يكون من مقام المحبة وإن كانت من طريق الإرادة، فإن المحبة وإن كانت عين الإرادة فهي تعلق خاص كالشهوة لها تعلق خاص وهي إرادة، وكذلك العزم حال خاص في الإرادة والهمّ والنية، والقصد كل ذلك أحوال للإرادة. واعلم أن الرجاء من صفات المؤمنين من حيث ما هو مؤمن والفعل تابع له فهو من أحوال المؤمنين ما هو من أحوال العارفين فإنهم على بصيرة من أمرهم فلا رجاء عندهم، وهكذا نعت كل من هو من أمره على بصيرة كما قال: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٣] وكما يئس الكفار من أصحاب القبور، فالفصل الذي يكون للعارفين ما هو فوت ما يرجى، وإنما هو تحقيق ما يقع به التمييز بين الحقائق، ولا يكون ذلك إلاّ للعلماء بترتيب الحكمة في الأمور، فيعطي كل ذي حق حقه كما فصل كل شيء بما يتميز به عن أن يشترك مع غيره، فأما في الأسماء الإلهية فبما تدل عليه من حيث ما هي عدد فلما قبلت الكثرة احتيج إلى الفصل إما في ذات المسمّى من نسبة معانيها إليه، وإما من حيث ما تظهر فيه آثارها فيحدث لها الكثرة من المؤثر فيه لا من اسم الفاعل الذي هو المؤثر، فتكون الآثار تكثر النسب إلى العين الواحدة، فذلك الفصل في الآثار لا في الأسماء ولا في المسمّى ولا في المؤثر فيه، فهذا تحقيق الفصل في المعرفة عند العارفين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني ومائتان

في حال الأدب

[نظم: الكامل]

أَدَبُ الشريعة ان تَقُومَ برَسْمِها ... فتكونَ مَكْتُوباً من الأُدَباءِ
فإذا فَنِيتَ من القيام وأنتَ في ... جَهْدٍ فأنتَ به من الخُدَمَاءِ
وإذا دفَعْتَ لكل طالبِ حَقِّهِ ... ما يستحقُّ لحِقْتَ بالأُمناءِ
وأتيْتَ بالشَّرْع المطهَّرِ حُكْمُهِ ... وبذاك قالوا جُمْلَةُ القُدَماءِ

اعلم أن الأدب على أقسام. أما أدب الشريعة فهو أن لا يتعدّى بالحكم موضعه في جوهر كان أو في عرض، أو في زمان أو في مكان، أو في وضع أو في إضافة، أو في حال أو في مقدار، أو في مؤثر أو في مؤثر فيه، وانحصرت أقسام محل ظهور أدب الشريعة، فأمّا أدبها في الذوات القائمة بأنفسها فبحسب ما هي عليه من معدن ونبات وحيوان وإنسان وعروض، وما يقبل التغيير منه وما لا يقبل التغيير، وما يقبل الفساد وما لا يقبل الفساد، فيعلم حكم الشرع في ذلك كله فيجريه فيه بحسبه. وأما آدابها في الأعراض فهو ما يتعلق بأفعال المكلفين من وجوب وحظر وندب وكراهة وإباحة. وأما الآداب الزمانية فما يتعلق بأوقات العبادات المرتبطة بالأوقات، فكل وقت له حكم في المكلف ومنه ما يضيق وقته ومنه ما يتسع. وأما الآداب المكانية كمواضع العبادات مثل بيوت الله الذي ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ [سورة النور: الآية ٣٦].

وأما الآداب الوضعية فهي أن لا يسمّى الشيء بغير اسمه ليتغير عليه حكم الشرع بتغير الاسم، فيحلل ما كان محرّماً أو يحرّم ما كان محللاً كما قال عليه السلام: «**سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَظْهَرُ فِيهِ أَقْوَامٌ يُسَمُّونَ الخَمرَ بِغَيْرِ اسْمِهَا**» وذلك ليستحلوها بالاسم. كما سُئِل مالك عن خنزير البحر فقال: هو حرام، فقيل له: إنه من جملة سمك البحر، فقال: أنتم سميتموه خنزيراً فانسحب عليه لأجل الاسم حكم التحريم، كما سمّوا الخمر نبيذاً أو ربا أو تزيزاً فاستحلوها بالاسم. وأما أدب الإضافة فمثل قول خضر: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [سورة الكهف: الآية ٧٩] وقوله: ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا﴾ [سورة الكهف: الآية ٨١] للاشتراك بين ما يحمد ويذم، وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] لتخليص المحمدة فيه فيكتسب الشيء الواحد بالنسبة ذماً، وبالإضافة إلى جهة أخرى حمداً وهو عينه وتغيّر الحكم بالنسبة.

وأما آداب الأحوال كحال السفر في الطاعة وحاله في المعصية فيختلف الحكم بالحال، وحال السفر أيضاً من حال الإقامة في صوم رمضان وفطره والمسح على الخفين في التوقيت وعدم التوقيت. وأما الآداب في الأعداد فهو ما يتعلق بعدد أفعال الطهارة ومقاديرها والزكاة وعدد الصلوات وما لا يزاد فيه ولا ينقص بحسب حكم الشرع في ذلك، وكذلك توقيت ما يغتسل به ويتوضأ به كالمدّ والصاع هذا أدبه في العدد. وأما الأدب في المؤثر كحكمه في القاتل والغاصب وكل ما أضيف إليه فعل ما من الأفعال. وأما أدبه في المؤثر فيه كالمقتول قوداً هل بصفة ما قتل به أو بأمر آخر؟ وكالمغصوب إذا وجد بغير يد الذي باشر الغصب هذا قسم أدب الشريعة.

وأما قسم أدب الخدمة فإما أن يكون أعلى إلى أدنى أو من أدنى إلى أعلى، فأما خدمة

الأعلى إلى من هو دونه فالقيام بمصالحه ومراعاتها والتنبيه في ذلك على ما وقعت فيه المغفلة والتعريف بما جهل منها وتعيينه أوقاتها وأمكنتها وحالاتها وإيضاح مبهماتها والإفصاح عن مشكلاتها بإقامة أعلامها، كالأستاذ مع التلميذ والعالم مع الجاهل والسلطان مع الرعية. وأما خدمة الأدون من هو أعلى منه فبامتثال أوامره ونواهيه والوقوف عند مراسمه وحدوده والمبادرة إلى محابه والمسارعة إلى مراضيه ومراقبة إشاراته وموافقة أغراضه هذا قسم أدب الخدمة. وأما قسم أدب الحق فهو إعطاؤه ما يستحقه ممّا ينبغي له وإعطاؤه ما يستحقه مني، كما أنه أعطاني خلقي حين ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فإذا أعطيته ما يستحقه بما هو هو وأعطيته ما يستحقه منك بما أنت له فقد قمت بآداب الحق في إعطائه كل شيء خلقه هذا قسم آداب الحق. وأما قسم آداب الحقيقة فحاله أن يراه في الأشياء عينها لا هي، ثم يحكم على ما يراه من الزيادة والنقص بما أعطته استعدادات الأشياء فينسب ذلك إليها لا إليه كمالاً كان أو نقصاً أو موافقاً أو مخالفاً لا يحاشي شيئاً فإن حال الحقيقة يعطي ما قلناه، فإذا كان حالك في كل مقام ما ذكرناه فقد قمت بالأدب وأخذت الخير أجمعه بكلتا يديك وملأتهما خيراً وهذا غاية وسع المخلوق ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٣] والكلام على الأحوال لا يحتمل البسط وتكفي فيه الإشارة إلى المقصود ومهما بسطت القول فيه أفسدته، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث ومائتان

في حال الرياضة

[نظم: الطويل]

إذا هــذَّب الإنــسـانُ أخــلاق نــفــسـه   وأَخْـرَجَـهـا عـن طَـبْـعـهـا ومُـرَادِهَـا
وذاكَ مُـحَـالٌ عـنـدنـا كَـوْنُـه فـمـا   يُـرَى راضَـهـا مَـنْ راضَـهـا بـعـنـادِهَـا
فـإن كـنـتَ ذا عـلـم فـإن مَـصَـارفـاً   لـهـا عـيَّـنَـتْ بـالـشـرع عـنـد فَـسَـادِهَـا

اعلم أن الرياضة عند القوم من الأحوال وهي قسمان: رياضة الأدب ورياضة الطلب، فرياضة الأدب عندهم الخروج عن طبع النفس، ورياضة الطلب هي صحة المراد به أعني بالطلب، وعندنا الرياضة تهذيب الأخلاق، فإن الخروج عن طبع النفس لا يصحّ، ولما كان لا يصحّ بين الله لذلك الطبع مصارف فإذا وقفت النفوس عندها حمدت وشكرت ولم تخرج بذلك عن طبعها، فرياضتها اقتصارها على المصارف التي عينها لها خالقها، فإن عين الشيء المزاجي ليس غير مزاجه، فلو خرج الشيء عن طبعه لم يكن هو، ولهذا يكون قول من قال: رياضة الطلب صحة المراد به فإنه إذا كان الشيء مراداً به أمر ما والمريد لذلك الأمر هو موجد ذلك الشيء وقد عينه له وعرفه به وأن ذلك القدر يريد منه فتصرف فيه بطبعه على ذلك الحدّ كان صاحب رياضة لأنه لو تصرف في نقيض ما أريد منه لكان تصرفه فيه بطبعه أيضاً، فما كان التهذيب فيه إلاّ صرفه عن الإطلاق في التصرف إلى التقييد، فإن أراد صاحب القول في رياضة

الأدب أنه الخروج عن طبع النفس بمعنى ما كان لها فيه التصرف مطلقاً صار مقيداً، فحمل هذا الشخص نفسه على ما قيدها به خالقها من التصرف فيه، ودخلت تحت التحجير بعدما كانت مسرحة فهو الذي ذكرناه، وإن أراد غير ذلك فليس إلاّ ما قلناه، وذلك أن الرياضة تذليل النفس وإلحاقها بالعبودية ولذا سميت الأرض أرضاً وذلولاً. فالرياضة عندنا من صير نفسه أرضاً أي مثل الأرض يطؤها البرّ والفاجر ولا يؤثر عندها تمييزاً بل تحمل البارّ حباً لما هو عليه من مراضي سيده، وتحمل الفاجر حمل الله إياه بكونه يرزقه على كفره بنعمه وجحده إياها ونسيان رب النعمة فيها.

وإلى الرياضة يرجع مسمّى الرضى على الحقيقة إن تفطنت، لأن النفس تطلب بذاتها الكثير من الخير لأن الأصل على ذلك، فإن الله تعالىٰ ما طلب إلاّ الممكنات وهي غير متناهية ولا أكثر ممّا لا يتناهى، وما لا يتناهى لا يدخل في الوجود دفعة ولكن يدخل قليلاً قليلاً لا إلى نهاية، فإذا نسبت إليه ما توجه إليه طلبه من الكثرة ثم رضي من ذلك باليسير والتدريج لعلمه أن ما لا يتناهى لا يمكن حصوله في الوجود رضي بذلك القدر الذي يدخل منه فمتعلق الرضى لا يكون إلاّ بالقليل، ولا يكون مخلوق بأعظم قدراً من خالقه. وإذا كانت هذه صفة الحق فهي بالعبد أولى، فما عند الله لا يتناهى، ومطلب هذا العبد من الله ما عنده ولا يتمكن دخوله في الوجود إلاّ قليلاً قليلاً لا إلى نهاية، فرضي بذلك القدر العبد وهو قليل بالنسبة إلى متعلق علمه بما عند الله، فرضي عن الحق ورضي الحق عنه، فوقع الاقتصار من العالم بما لا يتناهى على ما أعطى من ذلك ممّا يتناهى رياضة منه عن مطلق تعلق علمه من ذلك، إذ قد علم أيضاً أن ما لا يتناهى لا يدخل في الوجود، فحقيقة الرياضة ترجع إلى هذا لأن الآدميّ لما خلق على الصورة زهت نفسه وتخيلت أن التحجير لا يصحّ على من له العزّة، وما علمت أن العزّة تحجير فإن العزّة حمى والحمى تحجير فعين ما ادّعت به الإطلاق ذلك بعينه قيدها، فلما أشهدها الحق حضرة عزّه ونفوذ اقتداره ومع نفوذ اقتداره لم يعطه الإمكان من نفسه إلاّ قدر ما يحصل منه في الوجود انكسرت النفس وصار ما كانت تصول به أورثها ما أشهدها ذلة وانكساراً فإنها تقبل الذلّة لجهلها فارتاضت والحق لعلمه على عزّه، فرياضة العلم أنفع الرياضات، فما أزالها العلم عن الصورة ولكن أولاً جهلت ما هي الصورة عليه وما هي الحقائق عليه، فما أشرف العلم لو لم يكن من شرف العلم إلاّ تجّلي الحق في صورة تنكر، ثم تحوّله في صورة تعرف وهو هو في الأولى والثانية، وأن موطن تلك المشاهدة لا يتمكن في نفس الأمر إلاّ أن تكون مقيدة لأن الذي يشهد وهو عين العبد مقيد بإمكانه فلا يتمكن له شهود الإطلاق ولا بدّ من الشهود، فظهر له المشهود مقيداً بالصورة ومقيداً بالتحوّل في الصور ولأنه مقيد بالوجوب الذاتي، فالكل في عين التقييد إن عقلت عنا، وإنما تقيد بالتحوّل ليفتح له في نفسه العلم بأن الأمر لا يتناهى وما لا يتناهى لا يدخل تحت التقييد، فإنه من قبل التحوّل إلى صورة من صورة قبل التحوّل إلى صور لا نهاية لها، أو إلى صور لا يمكن لذلك المتحوّل أن يتجاوزها إلى غيرها، فخرج عن حدّ التقييد بالتقييد ليعلم أن مشهوده مطلق

الوجود فيكون شهوده أيضاً مطلقاً إطلاق مشهوده، فأفاده التحوّل من صورة إلى صورة علماً لم يكن عنده فعلم عند ذلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة النور: الآية ٢٥] فأعلى رياضة العبد العالم أن لا ينكره في صورة ولا يقيده بتنزيه بل له التنزيه على الإطلاق عن تنزيه التقييد.

الباب الرابع ومائتان

في التحلي ـ بالحاء المهملة ـ

[نظم: البسيط]

لـولا الـتَّـحَـلِّـي لـمـا كُـنَّـا بـحَـضْـرَتـه ... مُـسْـتَـخْـلَـفـيـن عـلـى نـورٍ بـأنـبـائِـهِ

إن الـتَّـخَـلُّـقَ بـالأسـمـاء حِـلْـيَـةُ مـن ... صـافـى الـمُـسَـمَّـى فـصـافـاه بـأسـمـائـهِ

كَـمِـثْـل طَـيْـفُـورَ إذ صـحَّـتْ خـلافَـتُـه ... والأمـرُ جـاء بـهـا فـي عـيـن أَنْـبَـائِـهِ

نَـفَـاه مـمـلـوكُـه سـبـعـاً لـمَـصْـلَـحـةٍ ... عـادتْ عـلـيـه وهـذا مِـنَ اشـيـائـهِ

فـإنـه سـألَ الـرحـمـنَ مـا وقَـعَـتْ ... بـه الأمـورُ عـلـى تَـرْتـيـبِ نَـعْـمـائـهِ

فـالله يَـرْزقـنـي صِـدْقـاً ويَـفْـتَـحُ لـي ... بـابـاً ويـمـنَـحُـنـي شُـكْـراً لآلائـهِ

اعلم أن التحلي بالحاء المهملة في اصطلاح الطائفة التشبّه بأحوال الصادقين في أقوالهم وأفعالهم، وهذا في الطريق عندنا مدخول ومن أسماء الله الصادق، وأن الصادقين من أحوالهم التحلي بالحاء المهملة فلا بدّ من معرفة ما يتحلى به، فهل تحلّوا بما هو لغيرهم فتزينوا بما ليس لهم فهم لابسو أثواب زور؟ أو تحلّوا بما هو لهم فهم صادقون؟ والتحلي عندنا هو التزيّن بالأسماء الإلهية على الحدّ المشروع بحيث أن يعسر التمييز، وهم الذين إذا رؤوا ذكر الله كعرش بلقيس لما قامت لها شبهة بعد المسافة فقالت: كأنه هو، ولو شاهدت الاقتدار الإلهيّ لعلمت أنه هو كما كان هو من غير زيادة، وإذا حصل الإنسان في هذا المقام بهذا التحلّي ولم يحجبه هذا التحلّيَ في حال تزينه به وأنه له حقيقة ما استعاره بل ذلك ملكه وماله ولا منعه عن شهود عبوديته لربه وأن نسبة ما ظهر به ممّا هو نعت لخالقه ما كان تشبهاً وإنما كان تزيناً فذلك التحلي، ويقول الحكماء في هذه الحالة أنه التشبّه بالإله جهد الطاقة، وهذا القول إذا حققته جهل من قائله لأن التشبّه في نفس الأمر لا يصحّ، فمن قامت به صفة فهي له وهو مستعد لقيامها به فباستعداد ذاته اقتضاها فما تشبه أحد بأحد بل الصفة في كل واحد كما هي في الآخر، وإنما حجب الناس التقدم والتأخر وكون الصورة واحدة، فلما رأوها في المتقدم ثم رأوها في المتأخر قالوا: إن المتأخر تشبه بالمتقدم في هذه الصورة وما علموا أن حقيقتها في المتأخر حقيقتها في المتقدم، ولو كان الأمر كما قالوه لزاحمت العبودية الربوبية ولبطلت الحقائق، فما تحلّى العبد إلاَّ بما هو له ولا ظهر الحق إلاَّ بما هو له لا من صفات التنزيه ولا من صفات التشبيه كل ذلك له، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان ما وصف نفسه به من ذلك كذباً وتعالىٰ الله بل هو كما وصف نفسه من العزّة والكبرياء والجبروت والعظمة ونفى المماثلة كما وصف نفسه بالنسيان والمكر والخداع والكيد والفرح والمعية وغير ذلك، فالكل

صفة كمال لله تعالىٰ فهو موصوف بها كما تقتضيه ذاته، وأنت موصوف بها كما تقتضيها ذاتك: [البسيط]

والـعـيـنُ واحـدةٌ والـحُـكْـمُ مـخـتـلـفٌ والـعَـبْـدُ يَـعْـبُـدُ والـرحـمـنُ مَـعْـبُـودُ

فليس التحلي في الحقيقة تشبه فإنه محال في نفس الأمر وما قال به إلاَّ من لا معرفة له بالحقائق وكذلك كنا ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [سورة القصص: الآية ٨٢] فتعين علينا أن نبين للخلق ما بينه الحق لنا، هكذا أخذ العهد علينا فيما يجوز لنا الإبانة عنه والإفصاح به. وأما ما أخذ الله علينا العهد على كتمانه فنشاهده من الخلق ولا نخبرهم بما هو، فهم بحكم ما يتخيلون ونحن بحكم ما نعلم، ولو عرّفناهم بذلك ما قبلوا لأن استعدادهم لا يعطي القبول كما قال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٣] فما حجبناه عنهم إلاَّ رحمة بهم فإن الله سبحانه لم يترك منفعة لعباده إلاَّ وقد أبانها لهم واختلف استعدادهم في القبول، وما أبان الله عن نفسه بما أبان ممّا وصف به نفسه ممّا تنزهه عنه العقول بأدلتها إلاَّ ليعلم أنه ما ثم شيء من الموجودات ولا عين خارج عنه بل كل صفة تظهر في العالم لها عين في جناب الحق والكل مرتبط به، وكيف لا يرتبط به وهو ربه وموجده. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس ومائتان

في التخلي ـ بالخاء المعجمة ـ

[نظم: البسيط]

لولا المراتبُ في المشروع ما ظَهَرَتْ حـقـائـقُ الـحـقِّ والأعـيـانُ تَـشْـهَـدُهُ
كيف التَّخَلِّي وما في الكون من أحدٍ سـواهُ وهـو الـذي فـي الـكـون نَـعْـبُـدُهُ
وذاك يـمـنـعـنـا مـن أن نُـقَـيِّـدَهُ فـنـحـنُ نُـعْـدِمُـه وقـتـاً ونُـوجِـدُهُ
فكلُّ ما في وجودِ الكونِ من عَرَضٍ عـلـى اعـتـقـاداتـنـا فـالله مُـوجِـدُهُ
فـاشْـهَـدْهُ إن كـنـتَ ذا عـيـنٍ ومـعـرفـةٍ فـي كـل شـيءٍ وإن الـشـيءَ يُـفْـقِـدُهُ

اعلم أن التخلي ـ بالخاء المعجمة ـ عند القوم اختيار الخلوة والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق، وعندنا التخلي عن الوجود المستفاد لأنه في الاعتقاد هكذا وقع، وفي نفس الأمر ليس إلاَّ وجود الحق والموصوف باستفادة الوجود هو على أصله ما انتقل من إمكانه فحكمه باق وعينه ثابتة والحق شاهد ومشهود، فإنه تعالىٰ لا يصحّ أن يقسم بما ليس هو لأنّ المقسوم به هو الذي ينبغي له العظمة فما أقسم بشيء ليس هو، وقد ذكرنا ذلك في باب النفس بفتح الفاء، فمما أقسم به وشاهد ومشهود فهو الشاهد والمشهود وهو ما استفاد الوجود بل هو الموجود. فإن قلت: فمن هذا الذي جهل هذا الأمر حتى تعلمه ولا يقبل الإعلام إلاَّ موجود؟ قلنا: الجواب عليك من نفس اعتقادك فإنك المؤمن بأنه تعالىٰ قال للشيء: ﴿كُن﴾ فما خاطب ولا أمر إلاَّ من يسمع ولا وجود له عندك في حال الخطاب فقد أسمع من لا وجود له، فهو الذي يعلمه ما ليس عنده فيعلمه وهو في حال عدمه يقبل التعليم كما سمع الخطاب

عندك فقبل التكوين وما هو عندنا قبوله للتكوين كما هو عندك، وإنما قبوله للتكوين أن يكون مظهراً للحق، فهذا معنى قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ لا أنه استفاد وجوداً إنما استفاد حكم المظهرية فيقبل التعليم كما قبل السماع لا فرق، ولقد نبهتك على أمر عظيم إن تنبهت له وعقلته فهو عين كل شيء في الظهور ما هو عين الأشياء في ذواتها سبحانه وتعالىٰ بل هو هو والأشياء أشياء، فبعض المظاهر لما رأت حكمها في الظاهر تخيلت أن أعيانها اتصفت بالوجود المستفاد فلما علمنا أن ثم في الأعيان الممكنات من هو بهذه المثابة من الجهل بالأمر تعين علينا مع كوننا على حالنا في العدم مع ثبوتنا أن نعلم من لا يعلم من أمثالنا ما هو الأمر عليه، ولا سيما وقد اتصفنا بأنا مظهر فتمكنا بهذه النسبة من الإعلام لمن لا يعلم فأفدناه ما لم يكن عنده فقبله، فممّا أعلمناه أنه ما استفاد وجوداً بكونه مظهراً فتخلّى عن هذا الاعتقاد لا عن الوجود المستفاد لأنه ليس ثم، فلهذا عدلنا في التخلي أنه التخلي عن الوجود المستفاد.

وأمّا أهل السلوك الذين لا علم لهم بذلك ولا بمن هو الظاهر المشهود ولا بمن هو العالم فآثروا الخلوة لينفردوا بالحق لما حجبتهم الكثرة المشهودة في الوجود عن الله جنحوا إلى التخلي، وهذا ممّا يدلك على أنهم ما تركوا الأشياء من حيث صورها فإنه لا يتمكن لهم ذلك، فإنهم في خلوتهم لا بدّ أن يشاهدوا صور ما تخلوا فيه من جدار وباب وسقف وآلات قام بيت الخلوة منها ووطاء وغطاء ومأكول ومشروب، فالصور لا يتمكن له التخلي عنها فلم يبق الهرب إلاّ ممّا يطرأ من هذه الصور من الكلام المفهوم لا من الأفعال، لأن صاحب الخلوة لو كانت معه الحيوانات لم يزل في خلوة ولا يشغله عن مطلوبه إلاّ أن يخاف من ضررها، كذلك أيضاً لو كان في الجدار ميل لخاف من تهدمه وسقوطه عليه، فإذا ما اختار التخلي إلاّ لأجل الكلام الذي تتكلم الناس به، فلو فهم ما يتكلم الناس به على الوجه الذي وضعه الحق فيهم لزاد علماً بما لم يكن عنده، ولو صلّى صلاة واحدة أعني ركعة واحدة لما طلب التخلي فإنه إذا سمع قول العبد: سمع الله لمن حمده، وأن ذلك القول لله لسرت الحقيقة في جميع ما يسمع، فكلام الناس كله يفيد العارفين علماً بالله، ولهذا من كرامات الصالحين أن يسمعهم الله نطق الأشياء فلو لم يفدهم ذلك علماً لم يكن ذلك إكراماً من الله بهم، فمن رزق الفهم عن الله استوت عنده الخلوة والجلوة بل ربما تكون الجلوة أتم في حقه وأعظم فائدة، فإنه في كل لحظة يزيد علوماً بالله لم تكن عنده.

الباب السادس ومائتان

في حال التجلي ـ بالجيم ـ

[نظم: مخلع البسيط]

لـلـغَـيْـبِ نـورٌ عـلـى الـبَـصَـائـرْ ... يُـظْـهِـرُ مـا كـان فـي الـسَّـرَائـرْ
لـكـل قـلـبٍ مـن كـل شـخـصٍ ... أحْـضَـرَه الـحـقُّ فـي الـمَـحَـاضِـرْ
فـشـاهَـدَ الأمـرَ كـيـف يـجـري ... وعـايَـنَ الـحُـكْـمَ فـي الـمَـقَـادِرْ

فـعـنـده أولٌ وظـاهِـرْ وعـنـدنـا بـاطـنٌ وآخِـرْ
قـسَّـمـه كـالـصـلاة فـيـنـا عـيـنـاً لـعـيـنِ فـاشْـكُـرْ وبـادِرْ
مـا بـيـن عَـبْـدٍ حـبـيـسِ عَـجْـزِ وبـيـن ربٍّ عـلـيـه قـادرْ
بـفـضـلـه قـد سَـرَى إلـيـنـا مـا يَـحْـمَـدُ الله فـي الـضـمـائِـرْ

اعلم أن التجلي عند القوم ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب وهو على مقامات مختلفة: فمنها ما يتعلق بأنوار المعاني المجرّدة عن المواد من المعارف والأسرار. ومنها ما يتعلق بأنوار الأنوار. ومنها ما يتعلق بأنوار الأرواح وهم الملائكة. ومنها ما يتعلق بأنوار الرياح. ومنها ما يتعلق بأنوار الطبيعة. ومنها ما يتعلق بأنوار الأسماء. ومنها ما يتعلق بأنوار المولدات والأمهات والعلل والأسباب على مراتبها، فكل نور من هذه الأنوار إذا طلع من أفق ووافق عين البصيرة سالماً من العمى والغشي والصداع والرمد وآفات الأعين كشف بكل نور ما انبسط عليه، فعاين ذوات المعاني على ما هي عليه في أنفسها، وعاين ارتباطها بصور الألفاظ والكلمات الدالة عليها وأعطته بمشاهدته إياها ما هي عليه من الحقائق في نفس الأمر من غير تخيّل ولا تلبيس، فمنها أنوار نسعى بها، ومنها أنوار نسعى إليها، ومنها أنوار نسعى منها، ومنها أنوار تسعى بين أيدينا، ومنها أنوار تكون خلفنا يسعى بها من يقتدي بنا، ومنها أنوار تكون عن أيماننا تؤيدنا، ومنها أنوار تكون عن شمائلنا تقينا، ومنها أنوار تكون فوقنا تنزل علينا لتفيدنا، ومنها أنوار تكون تحتنا نملكها بالتصرف فيها، ومنها أنوار نكونها هي أبشارنا وفي أبشارنا وأشعارنا وفي أشعارنا وهي غاية الأمر.

فأما أنوار المعاني المجرّدة عن الموادّ فكل علم لا يتعلق بجسم ولا جسمانيّ ولا متخيل ولا بصورة ولا نعلمه من حيث تصوّره بل نعقله على ما هو عليه ولكن بما نحن عليه، ولا يكون ذلك إلاّ حتى أكون نوراً فما لم أكن بهذه المثابة فلا أدرك من هذا العلم شيئاً وهو قوله في دعائه ﷺ: «**واجعَلْنِي نُوراً**» والله يقول: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] فما أنارت إلاّ به كما قال: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٩] يعني أرض المحشر يقول: ما ثم شمس، وعدم النور ظلمة ولا بدّ من الشهود فلا بدّ من النور وهو يوم يأتي فيه الله للفصل والقضاء فلا يأتي إلاّ في اسمه النور فتشرق الأرض بنور ربها وتعلم كل نفس بذلك النور ما قدمت وأخرت لأنها تجده محضراً يكشفه لها ذلك النور، ولولا ما هي النفوس عليه من الأنوار ما صحّت المشاهدة، إذ لا يكون الشهود إلاّ باجتماع النورين، ومن كان له حظ في النور كيف يشقى شقاء الأبد والنور ليس من عالم الشقاء، وما من نفس إلاّ ولها نور تكشف به ما عملت، فما كان من خير سرّت به وما كان من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] حيث جعل لهم أنواراً يدركون بها، وقد علموا أن النور لا حظ له في الشقاء فلا بدّ أن يكون المآل إلى الملايم وحصول الغرض وذلك هو المعبر عنه بالسعادة لأنه قال: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨٥] فعمّ وما خصّ نفساً من نفس وذكر الخير والشر، فالوجود نور والعدم ظلمة فالشر عدم ونحن في الوجود فنحن

في الخير وإن مرضنا فإنا نصحّ فإن الأصل جابر وهو النور، وهكذا صفة كل نور إنما جاء ليظهر ما طلع عليه فلا تدرك الأشياء إلاَّ بك وبه فلهذا لا يصحّ نتيجة أي لا تكون إلاَّ بين اثنين أصلها الاقتدار الإلهيّ وقبول الممكن للانفعال، لو نقص واحد من هاتين الحقيقتين لما ظهر للعالم عين فقد أعطيناك أمراً كلياً في هذه الأنوار فلا تتكلف بسطها مخافة التطويل، والأحوال لا تحتمل الإسهاب فلنذكر مبهمات الأنوار، فأما النور الذي نسعى به فهو ما تقدّم ذكره من أنوار المعلومات التي اكتفينا بذكر واحد منها ليكون تنبيهاً وأنموذجاً لما سكتنا عنه.

وأما النور الذي بين أيدينا فهو نور الوقت والوقت ما أنت به فنوره ما أنت به فانظر فيه كيفما كان فهو مشهودك الحاكم عليك والقائم بك، وهو عين الاسم الإلهيّ الذي أنت به قائم في الحال لا حكم له في ماض ولا مستأنف.

وأما النور الذي عن يمينك فهو المؤيد لك والمعين على ما يطلبه منك النور الذي بين يديك وهو الذي طلبت من الله في حال صلاتك في قولك: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] والصلاة نور وهي النور الذي بين يديك فهو وقتك الذي أنت به فلما قلت: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أيّدك بالنور من عن يمينك فإن اليمين القوّة، يقول الشاعر: [الوافر]

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لمجدٍ تلقَّاها عَرَابةُ باليمينِ

وأما النور الذي عن يسارك فهو نور الوقاية والجنة من الشبه المضلة المؤثرة في النفوس الجهالات والالتباس والتشكيك الذي يخطر للناظر الباحث في الاعتقاد في الله وفيما أخبر به عن نفسه وهو على نوعين: نور إيمان ونور دليل، ونور الدليل على نوعين: نور نظر فكريّ ونور نظر كشفيّ، فيعلم الأمر على ما هو عليه في نفسه، فهذا فائدة النور الذي يأتي عن الشمال، وأما النور الذي خلفنا فهو النور الذي يسعى بين يدي من يقتدي بنا ويتبعنا على مدرجتنا، فهو لهم من بين أيديهم وهو لنا من خلفنا فيتبعنا على بصيرة من أجل ذلك النور الذي يخرجهم عن التقليد قال: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] فهو بالنور الذي بين يديه يدعو على بصيرة، والداعي المتبع له يدعو بالنور الذي خلفه ليكون هذا المتبع أيضاً على بصيرة فيما يدعو إليه مثل من اتبعه، وبذلك النور يرى من خلفه مثل ما يرى من بين يديه، وهذا مقام نلته سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بمدينة فاس في صلاة العصر وأنا أصلي بجماعة بالمسجد الأزهر بجانب عين الجبل فرأيته نوراً يكاد يكون أكشف من الذي بين يدي غير أني لما رأيته زال عني حكم الخلف وما رأيت لي ظهراً ولا قفا ولم أفرق في تلك الرؤية بين جهاتي بل كنت مثل الأكرة لا أعقل لنفسي جهة إلاَّ بالفرض لا بالوجود وكان الأمر كما شاهدته، مع أنه كان قد تقدم لي قبل ذلك كشف الأشياء في عرض حائط قبلتي وهذا كشف لا يشبه هذا الكشف.

وأما النور الذي من فوقي فهو تنزّل نور إلهيّ قدسي بعلم غريب لم يتقدمه خبر ولا يعطيه نظر، وهذا النور هو الذي يعطي من العلم بالله ما تردّه الأدلة العقلية إذا لم يكن لها إيمان، فإن كان لها إيمان نورانيّ قبلته بتأويل لتجمع بين الأمرين.

وأما النور الذي من تحتنا فهو النور الذي يكون تحت حكمنا وتصريفنا لا يقترن معه فينا أمر إلهيّ نقف عنده فلا نصرفه إلاّ فيه.

وأما الأنوار التي نسعى بها فهي أنوار المعية من جانب الحق في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] لذلك قلنا من جانب الحق فإنه لا يختص بهذه المعية شيء من خلق الله دون غيره، ولها الاسم الحفيظ والمحيط، فإن لله مع بعض عباده معية اختصاص مثل معيته مع موسىٰ وهارون في قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٤٦] فهذه بشرى لهما حتى لا يخافا فإنهما قالا: ﴿إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾ أي يتقدم ويرتفع بالحجة إذ له الملك والسلطان فآمنهما الله ممّا خافا منه، ومن هنا تعرف مرتبة محمد ﷺ وعلوّها على رتبة غيره من الرسل، فإن الله أخبر عن محمد ﷺ في حال خوف الصديق عليه وعلى نفسه فقال لصاحبه يؤمنه ويفرّحه إذ هما في الغار وهو كنف الحق عليهما: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٠] فقام النبيّ ﷺ في هذا الإخبار مقام الحق في معيته لموسىٰ وهارون وناب منابه هكذا تكون العناية الإلهية، فهذا هو النور الذي يسعى به وهو لا يزال ساعياً، فلا يزال الحق معه حافظاً وناصراً لا خاذلاً، ولهذا وقع الإخبار لنا من الله على لسان رسوله ﷺ أنا إذا أتينا بنوافل الخيرات لا بفرائضها أحبنا الحق فكان سمعنا الذي نسمع به ورجلنا التي نسعى بها إلى جميع قوانا وأعضائنا، فهذا ما أعطت النوافل فينا من الحق، فأين أنت ممّا تعطيه الفرائض؟ فكم بين عبودية الاضطرار وعبودية الاختيار تقع المشاركة مع الحق في عبودة الاختيار في أحاديث نزوله في الخطاب إلى عبده مثل الشوق والجوع والعطش والمرض وأشباه ذلك، وعبودة الاضطرار لا تقع فيها مشاركة فهي مخلصة للعبد، فمن أقيم فيها فلا مقام فوقها، يقول الله لأبي يزيد: تقرّب إليّ بما ليس لي الذلة والافتقار، فعين القربة هنا هو عين البعد من المقام فافهم.

وأمّا النور الذي نسعى منه فهو نور الحقيقة سواء علمها أو لم يعلمها فيكشفها بهذا النور ويكشف أنه سعي منه ثم ينكشف له النور الذي يسعى إليه وهو الشريعة، فصاحب هذا المقام هو المعصوم المحفوظ المعتني به العالم الذي لا يجهل لاتصافه بالعلم الذي لا جهل فيه، فإن ثم عبيداً يسعون من نور الشريعة إلى نور الحقيقة ويخاف عليهم، وهؤلاء الذين يسعون على كشف من نور الحقيقة إلى نور الشريعة آمنون من هذا المكر الإلهيّ فهم على بصيرة من أمرهم وهؤلائك تحت خطر عظيم يمكن أن يعصموا فيه ويمكن أن يخذلوا فاعلم ذلك.

وأمّا أنوار المولدات فهي أنوار تعطيه بذاتها علماً صحيحاً من العلم بالله يكشف بها نسبة الحق، وصورته في صور أعيان المعادن والنبات والحيوان وهم لا يعلمون، وما زاد الإنسان على هؤلاء إلاّ بكشفه ذلك، فالمولدات في هذا المقام بمنزلة قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] والإنسان فيه بمنزلة: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٠]﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٤٦]، فإنه صورة كل شيء في نفس الأمر، فمن علمه وكشفه بهذا النور كان من أهل الاختصاص، فهو يرى الأشياء أعياناً بصورة حقية،

وأخبرني من أثق بنقله في هذه المسألة أن شخصاً كان بدمشق له هذا المقام لا يزال رأسه بين ركبتيه فإذا نظر إلى الأشياء في رفع رأسه لا يزال يقول: أمسكوه أمسكوه والناس لا يعلمون ما يقول فيرمونه بالتوله، وأما أنا فذقته لله الحمد على ذلك.

وأما أنوار الأسماء فهي التي تظهر مسمياتها حقاً وخلقاً ممّا يتعلق بالذات والصفات والأفعال في الإلهيات منها ما يتعلق بأجناس الممكنات وأشخاصها منها من الأسماء التي وضعها الحق لها وبلغتها الرسل لا ما وقع عليه الاصطلاح، وهذه الأنوار التي كانت لآدم عليه السلام حين علم جميع الأسماء بالوضع الإلهيّ لا بالاصطلاح، وفي ذلك تكون الفضيلة والاختصاص، فإن لله أسماء أوجد بها الملائكة وجميع العالم، ولله أسماء أوجد بها جامع حقائق الحضرة الإلهية وهو الإنسان الكامل ظهر ذلك بالنص في آدم وخفي في غيره فقال للملائكة في فضل آدم وفي فضل هذا المقام وقد أحضر للملائكة المسميات أعني أعيانهم ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] أي بالأسماء الإلهية التي صدروا عنها فلم يعلموا ذلك ذوقاً، فإن علوم الأكابر ذوقاً فإنه عن تجلٍّ إلهيّ فقال الله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٣] فأنبأهم آدم بأسماءهم الإلهية التي أوجدتهم وأسندوا إليها في إيجاد أعيانهم لا أسماء الاصطلاح الوضعي الكوني فإنه لا فائدة فيه إلاً بوجه بعيد أضربنا عن ذكره حين علمنا أنه لم يكن المقصود، فإنا ما نتكلم ولا نترجم إلاً عمّا وقع من الأمر لا عمّا يمكن فيه عقلاً، وهذا الفرق بين أهل الكشف فيما يخبرون به وهم أهل البصائر وبين أهل النظر العقليّ، والفائدة إنما هي فيما وقع لا فيما يمكن فإن ذلك علم لا علم وما وقع فهو علم محقق.

وأما أنوار الطبيعة فهي أنوار يكشف بها صاحبها ما تعطيه الطبيعة من الصور في الهباء وما تعطيه من الصور في الصورة العامة التي هي صورة الجسم الكل، وهذه الأنوار إذا حصلت على الكمال تعلق علم صاحبها بما لا يتناهى وهو عزيز الوقوع عندنا، وأما عند غيرنا فهو ممنوع الوقوع عقلاً، حتى أن ذلك في الإله مختلف فيه عندهم، وما رأينا أحداً حصل له على الكمال ولا سمعنا عنه ولا حصل لنا، وإن ادّعاها إنسان فهي دعوى لا يقوم عليها دليل أصلاً مع إمكان حصول ذلك، وأنوار الطبيعة مندرجة في كل ما سوى الحق وهي نفس الرحمن الذي نفس الله به عن الأسماء الإلهية وأدرجها الله في الأفلاك والأركان وما يتولد من الأشخاص إلى ما لا يتناهى.

وأمّا أنوار الرياح فهي أنوار عنصرية أخفاها شدّة ظهورها فغشيت الأبصار عن إدراكها وما شاهدتها إلاً في الحضرة البرزخية وإن كان الله قد أتحفنا برؤيتها حساً بمدينة قرطبة يوماً واحداً اختصاصاً إلهياً وورثاً نبوياً محمدياً، وهذه الأنوار الرياحية لها سلطان وقوّة على جميع بني آدم إلاً أهل الله، فإن هذه الأنوار تندرج في أنوارهم اندراج أنوار الكواكب في نور الشمس وذلك لضعف نور البصر، وإذا غشيت هذه الأنوار من شاء الله من العامّة لا تغشاه إلاً كالسحاب المظلم، وإذا غشيت أهل الله لا تغشاهم إلاً وهي أنوار على هيئتها.

وأما أنوار الأرواح فمنا من يجعلها أنوار العقول ومنا من يجعلها أنوار الرسل، ولها

القوّة والسلطان والنفوذ في الكون لا يقف لها شيء غير أن لها حدوداً تقف عندها لا تتعداها، إذا شاهدها العبد يكشف بها ما غاب من العلوم المضنون بها على غير أهلها وهي أنوار سبوحية قدوسية تنزل من الحق المخلوق به إلى سدرة المنتهى، وتطرح شعاعاتها على قلوب العارفين أهل الشهود التام، فقلوبهم مطارح شعاعات هذه الأنوار، وليس في هذا الصنف الإنسانيّ أكمل منهم في العلم، فإن هذه الأنوار لا يقف لها حجاب إلاَّ المشيئة الإلهية خاصة، وقليل من عباد الله من تطرح على قلبه هذه الأنوار شعاعاتها على الكشف وهي مجالي الصادقين من عباد الله تعالىٰ.

وأمّا أنوار الأنوار فهي السبحات التي لو كشف الحق الحجاب الذي يسترها عنا لاحترقنا. هي أشعة ذاتية إذا انبسطت ظهرت أعيان الممكنات، فالممكنات هي الحجاب بيننا وبينها، وهذا هو النور العظيم لا الأعظم إليه الإشارة بقوله تعالىٰ في حق أهل الكتب الإلهية المنزّلة بالأعمال المشروعة بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ وهم الموسويون ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ وهم العيسويون ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وهم أصحاب الصحف وما بقي من الكتب ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وهي علوم خارجة عن الكسب ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٦] وهي علوم دخلت تحت الكسب فهي من علوم التحت والفوق، وأنه إذا كان النور بهذه الصفة لم يكن من تحتنا بل يكون هو الذي يصرفنا. وأما النور الذي يكون من تحتنا فهو الذي نحكم عليه وهو المعبر عنه بالأكل من تحت الأرجل. وأما النور الذي هو عين ذاتنا فهو كما دعا فيه ﷺ: «**واجعَلْنِي نُوراً**» فهو عين ذاته، ورواية: «**وَاجْعَلْ لِي نُوراً**» هو جميع ما ذكرنا من الأنوار. وأما قوله: «**اجْعَلْنِي نُوراً**» فهو مشاهدة نور ذاته إذ لا يشهد إلاَّ به فإن ذاته ما قبلت هذه الأنوار من هذه الجهات الست إلاَّ لعدم إدراكها نور نفسها الذي قال في ذلك رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**»و ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] ومثله بما مثله وهو أنت عين ذلك الممثل والمثل فتشاهد الأنوار منفهقة منك يتنوّر بذاتك عالم سمواتك وأرضك فما تحتاج إلى نور غريب تستضيء به فأنت المصباح والفتيلة والمشكاة والزجاجة، وإذا عرفت هذا عرفت الزيت وهو الإمداد الإلهيّ وعرفت الشجرة، وإذا كانت الزجاجة كالكوكب الدريّ وهو الشمس هنا فما ظنك بالمصباح الذي هو عين ذاتك. فلا يكن يا أخي دعاؤك أبداً إلاَّ أن يجعلك الله نوراً، وهنا سرّ عجيب أنبهك عليه من غير شرح لأنه لا يحتمل الشرح وهو أن الله يضرب الأمثال لنفسه ولا تضرب له الأمثال، فيشبه الأشياء ولا تشبهه الأشياء فيقال: مثل الله في خلقه مثل الملك في ملكه، ولا يقال: مثل الملك في ملكه مثل الله في خلقه فإنه عين ما ظهر وليس ما ظهر هو عينه فإنه الباطن كما هو الظاهر في حال ظهوره، فلهذا قلنا هو مثل الأشياء وليست الأشياء مثله إذ كان عينها وليست عينه، وهذا من العلم الغريب الذي تغرب عن وطنه وحيل بينه وبين سكنه فأنكرته العقول لأنها معقولة غير مسرحة، وهذا أنموذج من تجلي أنوار الأنوار.

وأما أنوار المعاني المجرّدة عن المواد فلا تنتقال فإنه لو انقالت لدخلت في الموادّ لأن

العبارات من المواد، وقد قلنا إنها مجرّدة لذاتها عن المواد لا أنها تجردت لأنها لو تجردت لكسوناها المواد إذا شئنا ولم تمتنع لأنها قد كانت فيها فهي تعلم خاصة ولا تقال ولا تحكى ولا تقبل التشبيه ولا التمثيل.

وأما أنوار الأرواح فهي أنوار روح القدس الجامع، فمن أرسل من هذه الأرواح كان ملكاً، ومن لم يرسل بقي عليه اسم الروح مع الاسم الخاص به العلم في الطائفتين المرسلين وغير المرسلين، فهو روح خالص لم يشبه ما يخرجه عن نفسه، وهو روح ذو روح في روحيته، وليس إلاّ الأرواح المهيمة، وأرواح الأفراد منا تشبهها بعض شبه، فلا يقع التجلي في أنوار أرواح إلاّ للأفراد، ولهذا قال الخضر لموسىٰ: ﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٨] لأنه من الأفراد، وأن الأنبياء يقع لهم التجلي في أنوار الأرواح الملائكة وليس للأفراد هذا التجلي بل هو مخصوص بالأنبياء والرسل وهو قول خضر: أنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا لأنه ليس له هذا التجلي الملكي. ثم نبّهه على أنه ما فعل الذي فعل عن أمره فإنه ليس له أمر وما هو من أهل الأمر وهو مقام غريب في المقامات، لو أن الله تعالىٰ يبيح لنا كشفه للخلق لظهر علم لا يقوم له كون، هذا قد ظهر من أثره ثلاث مسائل من شخص قد شهد الله عند نبيه بعدالته وزكاه وصار تبعاً له وبيّن له ما قد سمعت وأدخل نفسه في أتباعه تحت شرطه، وهو مثل موسىٰ كليم الله ونجيه، وأين كلامه مع ربه من كلامه مع الخضر؟ فاختلف التجلي في الكلام، ومع هذا لم يصبر لأنه قدم الاستثناء ولم يقدمه لما أنكر عليه فإنه من شأن النبيّ أن يكون متبعاً كما هو متبع سواء، وكذلك قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٩] ما قال أن أفعل أو أقول إلاّ ما أشهد، ما قال هكذا فكل مقام له مقال ولسان.

وأما أنوار الرياح فهي تجليات الاسم البعيد، وهي تجليات لا ينبغي أن يذكر اسمها ولا تكون إلاّ لأهل الإلهام، وللتجلي في أنوار الملائكة في هذا مدخل ولكن في الباطن لا في الظاهر خاصة وهم ملائكة اللمات والإلهام خاصة والإلقاء في هذا التجلي على النفوس، ومن هذا التجلي تكون الخواطر وهي رياحية كلها لأن الرياح تمر ولا تثبت، فإن قال أحد بثبوتها فليست ريحاً ولذلك توصف بالمرور وتسمّى بالخواطر وهي من راح يروح والرائح ما هو مقيم. وأما التجلي في الأنوار الطبيعية فهو التجلي الصوري المركب، فيعطي من المعارف بحسب ما ظهر فيه من الصور وهو يعمّ من الفلك إلى أدنى الحشرات وهو السماء والعالم فهو تجلٍ في السماء والعالم، ومن هذا التجلي تعرف المعاني واللغات وصلاة كل صورة وتسبيحها، وهو كشف جليل نافع مؤيد فيه يرى المكاشف موافقة العالم وأنه ما ثم مخالفة، ومن هنا يرى كل شيء يسبح بحمده، وصاحب هذا المقام يرى على الشهود صور أعماله تكون حية مسبحة لله ذات روح ينفخ فيها صاحب هذا المقام، وإن كانت في ظاهر الكون مخالفة ومعصية فإنها مخالفة صحيحة إلاّ أنها حية ناطقة تستغفر لصاحبها لأنه سوّى نشأتها مخلقة، وقد تمدح الله بأنه ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [سورة الأعلىٰ: الآية ٢] ومن

تسوية نشأتها مخلقة أنه لم يخرجها عن كونها معصية، فلو أخرجها عن كونها معصية كانت غير مخلقة وشقي صاحبها وكان تسبيحها لعنة صاحبها فإنه أباح ما حرّم الله فخرج عن الإيمان بذلك، فلاحظ له في الإسلام إلاَّ أن يجدد إسلامه ويتوب، وهذا تنبيه لم يزل أصحابه يكتمونه غيرة منهم وضعفاً، والتنبيه عليه أولى لأنها نصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، فلا توجد أبداً معصية مخلقة إلاَّ من مؤمن، ومن أعطى الشيء خلقه فقد جرى على السنن الإلهيّ، فإن الله أعطى كل شيء خلقه، فأعطى المعصية خلقها والطاعة خلقها فهكذا تكون صفة المؤمن.

وأما أنوار الأسماء فإنها تعين أسماء المعلومات، فهو نور ينبسط على المعدومات والموجودات فلا يتناهى امتداد انبساطها وتمشي العين مع انبساطها فينبسط نور عين صاحب هذا المقام فيعلم ما لا يتناهى كما لا يجهل ما لا يتناهى بتضاعف الأعداد، وهذا علامة من يكون الحق بصره، فالأسماء كلها موجودة، والمسميات منها ما هي معدومة العين لذاتها ومنها ما هي متقدمة العدم لذاتها وهي التي تقبل الوجود، والأحوال لا تقبل الوجود مع إطلاق الاسم على كل ذلك، فللأسماء الإحاطة والإحاطة لله لا لغيره، فمرتبة الأسماء الإلهية وما فضل آدم الملائكة إلاَّ بإحاطته بعلم الأسماء فإنه لولا الأسماء ما ذكر الله شيئاً ولا ذكر الله شيء فلا يذكر إلاَّ بها، ولا يذكر ويحمد إلاَّ بها، فما زاحم صفة العلم في الإحاطة إلاَّ القول والقول كله أسماء ليس القول غير الأسماء، والأسماء علامات ودلائل على ما تحتها من المعاني، فمن ظهر له نور الأسماء فقد ظهر له ما لا يمكن ذكره، لا أقول غير ذلك، ولولا أن الحق أطلق لفظة الكل على الأسماء في صفة ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] لقلنا من المحال أن يظهر انبساط نور الأسماء على المسميات لعين، ولكن من فهم قول الله تعالىٰ ثم عرضهم على الملائكة فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] وأشار علم ما التزمناه من الأدب، وما أراد الله بلفظة كل في هذا التشريف.

وأما أنوار المولدات والأمهات والعلل والأسباب فهو تجلّ إلهيّ من كونه مؤثراً ومن كونه مجيباً إذا سُئِل، وغافراً إذا استغفر، ومعطياً إذا سُئِل، وبهذا التجلّي وهذه الأنوار تعلم قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [سورة الفتح: الآية ١٠] وقوله أيضاً عزّ وجلّ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] وقوله تبارك وتعالىٰ: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ تَقَعُ بِيَدِ الرَّحْمٰنِ**» وقوله: ﴿وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [سورة الحديد: الآية ١٨] وقوله عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ**» فافهم.

الباب السابع ومائتان

في حال العلة

[نظم: الكامل]

إن العليلَ إلى الطبيب رُكُونُهُ مَهْمَا أحسَّ بعلَّةٍ في نَفْسِهِ

فَـتـــراه يَـــعْـــبُـــده ومـــا هـــو ربُّـــهُ حَـذَراً عـلـيـه أن يـحـلَّ بـرَمْـسِـهِ
فسألتُ ما سبَبُ الرُّكونِ فقيل لي مـا كـان إلاّ كَـوْنَـه مـن جِـنْـسِـهِ

اعلم أن العلة عند القوم تنبيه من الحق، ومن تنبيهات الحق قوله على لسان نبيه ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**» وفي رواية يصححها الكشف، وإن لم تثبت عند أصحاب النقل على صورة الرحمن فارتفع الإشكال وهو الشافي من هذه العلة يقول تعالىٰ: ﴿**لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾ [سورة النحل: الآية ٤٤] فعلمنا أن كل رواية ترفع الإشكال هي الصحيحة وإن ضعفت عند أهل النقل، وإذا كان الله هو الشافي والمعافي فهو الطبيب كما قال الصديق: الطبيب أمرضني، فسبب حنين صاحب العلة إلى الطبيب ما ذكرناه في الشعر وهو خلقه على الصورة، ثم أيّد هذا الخبر وهذا النظر الكشفيّ قول الله تعالىٰ: «**مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي**» ولما فسّر قال: مرض فلان فأنزل نفسه فيما أصاب فلاناً عناية منه بفلان، وهذه كلها علل لمن عقل عن الله، فالعلة إثبات السبب والحق عين السبب إذ لولاه ما كان العالم فهو الخالق الباريء المصوّر الشافي، فإذا كان هو عين العلة في قوله: منك، من قوله: أعوذ بك منك، فما شفاه إلاّ منه إذ لا شافي إلاّ الله فهو الشافي من كل علة، فإن الله وضع الأسباب فلا يقدر على رفعها، ووضع الله لها أحكاماً فلا يمكن ردّها وهو مسبب الأسباب، فخلق الداء والدواء، وما جعل الشفاء إلاّ له خاصة، فالشفاء علة لإزالة المرض وما كل علة شفاء، فكل مسبب سبب وما كل سبب مسبب، لكن قد يكون مسبب الحكم لا مسبب العين كقوله: ﴿**أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ**﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] فالعلة إذا كانت بمعنى السبب لها حكم، وإذا كانت بمعنى المرض لها حكم، فهي بمعنى المرض داء، وهي بمعنى السبب حكمة، فالعلة تنبيه من الحق لعبده على كل حال، فوقتاً ينبهه من رقدة غفلته بأمر ينزل به وذلك هو الداء والمرض، فإذا فقد العافية أحسّ بالألم فعلم أن مصيبة نزلت به فشرع الله له أن يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا يرجع إلاّ من خرج، ووقتاً ينبهه من رقدة غفلته بحكمة تظهر له في نفسه من غير أن يكون ذا مرض نفساني، فإذا كان الحق عين علته فلا يكون إلاّ من تجلّ إلٰهيّ فجأة، فإن لله فجآت على قلوب عباده ترد عليهم من غير استدعاء ولا تقدّم سبب معين عنده وإن كان عن سبب في نفس الأمر ولكن لا علم له بذلك، غير أن القوم ما عدلوا إلى هذا الاسم الذي هو العلة إلاّ لما رأوا العلة مرتبطة بمعلولها والمعلول مربوطاً بعلته، وعلموا أن العالم ملك لله، والملك مربوط حقيقة وجوده ملكاً بالملك، والملك الله، والملك لا يكون ملكاً على نفسه فهو مربوط بالملك، فلما ظهر التضايف في كون العالم مربوباً ومملوكاً عدلوا إلى اسم العلة ولم يعدلوا إلى اسم السبب ولا إلى اسم الشرط. ولما كان بعض التنبيهات الإلهية آلاماً ونوازل تكرهها النفوس بالطبع عدلوا إلى اسم يجمع التنبيهات كلها فعدلوا إلى العلة، فإن المرض يسمّى علة وهو من أقوى المنبهات في الرجوع إلى الله لما يتضمنه من الضعف، ثم إن الله جعل الأسباب حجباً عن الله وركنت النفوس إليها ونسي الله فيها وانتقل الاعتماد عليها من الخلق والعلة وإن كانت عين السبب، ولكن لاختلاف الاسم حكم فالعلة على النقيض من

السبب فإنها منبهة بذاتها على الله، فكان اسم العلة بالمنبه أولى، فكل سبب لا يردك إلى الله ولا ينبهك عليه ولا يحضره عندك فليس بعلة: [الطويل]

فدائي هو الداءُ العُضَالُ لأنه ... ينبِّهُني في كل حالٍ على نَفْسي
فما علَّتي غيري وما عِلَّتي أنا ... ولستُ بذي فَضْلٍ ولست بذي جِنْسِ
ولستُ على علم فأعرفُ من أنا ... ولستُ على جَهْلٍ بذاتي ولا لَبْسِ
فما أنا من تَعْنِّي ولا أنا غَيْرَهُ ... ولكنني في الطرح في الضرب كالأُسِّ

ولما كانت العلة التنبّه الإلهيّ فتنبيهات الحق لا تنحصر إلاَّ من طريق ما، وهو أن التنبيه الإلهيّ لا يخلو إما أن يكون من خارج أو من داخل، فإن كان من خارج فقد يثبت وقد لا يثبت، وإن كان من داخل فإنه يثبت ولا بدّ كإبراهيم بن أدهم فإنه نودي من قربوس سرجه فالتفت نحوه فإذا النداء من قلبه فتخيل أنه من قربوس سرجه. وكصاحب القنبرة العمياء حين انشقت لها الأرض عن سكرجتين ذهب وفضة في الواحدة ماء وفي الأخرى سمسم فأكلت من السمسم وشربت من الماء فكانت القنبرة العمياء نفسه مثلت له في هذه الصورة لأنها كانت في حال عمى من المخالفة مع ما هو عليه من نعمة الله فعلم ذلك فرجع إلى الله، فهذه أمثلة ضربت لهم، فالصورة تظهر من خارج والأمر عنده في حاله ولذلك ثبتوا، وقد يكون التنبيه الإلهيّ من واقعة، ومن الواقعة كان رجوعنا إلى الله وهو أتم العلل، لأن الوقائع هي المبشرات وهي أوائل الوحي الإلهيّ وهي من داخل فإنها من ذات الإنسان، فمن الناس من يراها في حال نوم ومنهم من يراها في حال فناء، ومنهم من يراها في حال يقظة، ولا تحجبه عن مدركات حواسه في ذلك الوقت، وإنما سميت علة لأنها تورث ألماً في النفس على ما فاته من الحق الذي خلق له، ويتوهم أنه لو مات في حال المخالفة كيف يكون وجهه عند الله ولو غفر له، أما كان يستحي منه حيث عصاه بنعمته، ومن نعمته عليه أنه أمهله ولم يؤاخذه بما كان منه كما قلنا في نظم لنا: [مخلع البسيط]

يا مَنْ يراني ولا أراهُ ... كَمْ ذا أراه ولا يَرَاني

فقال لي بعض إخواني: كيف تقول إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك؟ فقلت له في الحال مرتجلاً: [مجزوء الرجز]

يا من يراني مُجْرِماً ... ولا أراه آخِذَا
كم ذا أراه مُنْعِماً ... ولا يَرَاني لائذَا

فلو لم يكن في المخالفة إلاَّ الاستحياء لكان عظيماً بل هو أعظم من العقوبة، فالمغفرة أشدّ على العارفين من العقوبة، فإن العقوبة جزاء فتكون الراحة عقيب الاستيفاء فهو بمنزلة من استوفى حقّه، والغفران ليس كذلك فإنك تعرف أن الحق عليك متوجه وأنه أنعم عليك بترك المطالبة فلا تزال خجلاً ذا حياء أبداً، ولهذا إذا غفر الله للعبد ذنبه حال بينه وبين تذكره وأنساه إياه فإنه لو تذكره لاستحيا، ولا عذاب على النفوس أعظم من الحياء حتى يود صاحب الحياء أنه لم يكن شيئاً كما قالت الكاملة: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [سورة مريم:

الآية ٢٣] هذا حياء من المخلوق كيف نسبوا إليها ما لا يليق ببيتها ولا بأصلها ولهذا قالوا: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٢٨] فبرأها الله ممّا نسبوا إليها لما نالها من عذاب الحياء من قومها، فكيف الحياء من الله فيما يتحققه العبد من مخالفة أمر سيده؟ فإن قلت: وهل يمكن أن يعصى على الكشف؟ قلنا: لا، قيل: فقول أبي يزيد لما قيل له: أيعصى العارف والعارف من أهل الكشف؟ فقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٨] فجوّز. قلنا: هكذا يكون أدب العارفين مع الحق في أجوبتهم حيث قال: إن كان الله قدّر عليهم في سابق علمه ذلك فلا بدّ منه وهي معصية فلا بدّ من الحجاب كما قال ﷺ: «**إذَا أَرَادَ اللَّهُ إنْفَاذَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ سَلَبَ ذَوِي العُقُولِ عُقُولَهُم حَتّى إذَا أَمْضَى فِيهِمْ قَدَرَهُ رَدَّهَا عَلَيهِمْ لِيَعْتَبِروا**» وكذلك حال العارف إذا أراد الله وقوع المخالفة منه ومعرفته تمنعه من ذلك فيزين الله له ذلك العمل بتأويل يقع له فيه وجه إلى الحق لا يقصد العارف به انتهاك الحرمة كما فعل آدم، كالمجتهد يخطىء فإذا وقع منه المقدور أظهر الله له فساد ذلك التأويل الذي أدّاه إلى ذلك الفعل كما فعل بآدم فإنه عصى بالتأويل، فإذا تحقق بعد الوقوع أنه أخطأ علم أنه عصى، فعند ذلك يحكم عليه لسان الظاهر بأنه عاص وهو عاص عند نفسه. وأما في حال وقوع الفعل منه فلا لأجل شبهة التأويل كالمجتهد في زمان فتياه بأمر مّا اعتقاداً منه أن ذلك عين الحكم المشروع في المسألة وفي ثاني حال يظهر له بالدليل أنه أخطأ فيكون لسان الظاهر عليه أنه مخطىء في زمان ظهور الدليل لا قبل ذلك، فإن كان العارف ممّن قيل له على لسان الشارع افعل ما شئت فقد غفرت لك فما عصى لا ظاهراً ولا باطناً عند الله وإن كان لسان الظاهر عليه بالمعصية لأنه لم يدرك نسخ ذلك بالإباحة من الشارع، فلسان الظاهر كمجتهد مخطىء يرى إصابة غيره من المجتهدين خطأ اعتماداً منه على دليله، فمن كان هذا مقامه فما فعل فعلاً يوجب له الحياء مع لسان الظاهر عليه بالمعصية، فمن تنبيهات الحق التوفيق لإصابة الأدلة كما هي في نفس الأمر ليكون على بصيرة وهو المعتني به في أوّل قدم، فإذا أورثته العلة علة طهرته، فإذا وقع التطهير أنسي ما كان عليه من المخالفة وشغل بما توجه إليه مبسوطاً لا مقبوضاً، ولذلك قال بعضهم في حدّ التوبة، أن تنسى ذنبك، ومعنى ذلك عند هذا القائل: إن الله تعالىٰ إذا قبل توبتك أنساك ذنبك فلم يذكرك إياه فإنك إن ذكرته أحضرته بينك وبين الحق وهو قبيح الصورة فجعلت بينك وبين الحق صورة قبيحة، تؤذن بالبعد، فهذا فائدة النسيان لما قال الله لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢] لم يزل جبريل ينزل عليه في صورة دحية وكان أجمل أهل زمانه يقول له بصورة الحال: يا محمد ما بيني وبينك إلاّ صورة الحسن والجمال، فإن جبريل كان بينه وبين الله، وكان من جمال دحية أنه لما ورد إلى المدينة وخرج الناس إليه نساء ورجالاً فما رأته حامل إلاّ ألقت ما في بطنها لما أدركها في نفسها ممّا رأته من حسن صورته، فالله ينسي التائبين من العارفين ذنوبهم السالفة ولهذا غفرت أي سترت عنهم، والستر على نوعين: إما أن تستر عنهم جملة واحدة، وإما أن تبدّل بحسنة فتحسن صورة تلك السيئة بالتوبة فتظهر له حسنة كما قال:

﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠] أي يردّ قبحها حسناً. فمن تنبيهات الحق قوله تعالىٰ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ فإذا علموا ذلك أسرعوا في الرجعة إلى الله وسارعوا إليها، فهذا قد أبنت لك معنى حال العلة عند الطائفة وما تؤثر في الرجال.

الباب الثامن ومائتان

في حال الانزعاج

[نظم: الطويل]

إذا انتبه القلبُ السليمُ من النَّوْم ... تحرَّكَ تَحْريكَ انزعاج من الوَجْدِ
إلى طَلَبِ الأُنْسِ الذي قد أَقَامَهُ ... فأوّلُ ما يَلْقَى التَّحَقُّقُ بالزُّهْدِ
فيُدْعَى بعبدٍ وهو سيِّدُ وَقْتهِ ... وشتَّانَ ما بين السيادة والعَبْدِ
فيَفْنَى به عنه ليبقى بربِّه ... نزيهاً عن الفَضْل المُقوِّم والحَدِّ
مع الحدِّ للعهد الذي كان بينَهُمْ ... وذلك بُرْهانٌ على كَرَم الودِّ

اعلم أن الانزعاج عند الطائفة حال انتباه القلب من سنّة الغفلة والتحرّك للأنس والوجد، فالانزعاج حكم العلة على هذا أي العلة أورثته هذا الانزعاج، وهو اندفاع النفس من حال صحّ لها إلى أصلها الذي خرجت عنه لأنه من ذلك الأصل دعاها والأصل طاهر، فهو اندفاع بشهوة شديدة وقوّة.

ولهذا الانزعاج أسباب مختلفة: فمنهم من تزعجه الرغبة. ومنهم من تزعجه الرهبة. ومنهم من يزعجه التعظيم. فأما انزعاجه للأنس والوجد فقد يكون فهماً، وقد يكون لقاء، وقد يكون إلقاء، وقد يكون تلقياً، فمن ذلك ما يكون عن خاطر إلهيّ، وعن خاطر ملكيّ، وعن خاطر شيطانيّ، وعن خاطر نفسيّ، ولكن لا يكون لهذا الوليّ عن النفس والشيطان إلاّ بفهم يرزقه الله فيه عناية من الله لا أن الشيطان له عليه سلطان بل الشيطان في خدمته وهو لا يشعر، وساع بما يلقي إليه في سرّه في ارتقاء درجة هذا الوليّ من حيث لا يعلم الشيطان، وهذا من مكر الله الخفي بإبليس لأنه يسعى في ترقّي درجات العارفين من حيث يتخيل أنه ينزلهم عنها.

وإذا كان الأمر على هذا فلنقل أن حال العلة إذا تحقق في العبد أظهر في النفس انزعاجاً ولا بدّ، وانزعاجه أوّلاً إنما هو ليفارق الحال التي كان عليها لما كشف الله عن بصيرته بالعلة فرأى نفسه في محل البعد فانزعج لذلك رغبة في مفارقة ذلك الموطن من غير تعيين حضرة من حضرات القرب، فإذا فارق ذلك الموطن بقدم واحدة وزال عن شهوده أخذ نفسه ساعة واستراح وهو ما يجده المريد من اللذة وحلاوة التوبة التي تهوّن عليه ركوب الشدائد وتسهل عليه صعوبة طريقه، يجد كل أحد هذا من نفسه في هذا الحال لا يقدر على إنكاره، فإذا فارق موطن المخالفة بإنزعاجه واستراح حينئذ يتهدى على نفسه ويفتح عينيه ويعلم أنه قد تخلص ممّا كان فيه فحينئذ يقوم له ما يؤثر عنده الإنزعاج إليه، فأوّل الإنزعاج أبداً في هذا الطريق إنما

هو منه، وفي ثاني حال يظهر حكم الانزعاج إليه، فإن أقيم له في أوّل نظرة ما يستحقه جلال الله من التعظيم أو كان هذا الرجل ممّن تقدّم له العلم بالله من حيث الأدلة النظرية فيكون إنزعاجه تعظيماً لله لا رغبة فيما عنده بل ينزعج لأداء حق ما تعين عليه لله تعالىٰ وما تعطيه مرتبة العبد من سيده فما هو مشغول بما ينعم عليه ويرغبه فيه من لذات نفسه، بل يرى ما لله عليه من الحقوق فيجهد نفسه في أداء ذلك وهو قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٢] فيعلم أن أحداً لا يطيق ذلك، وأن قدر الله أجل وأعلى وأنزه أن يقدره أحد فيؤدّيه ذلك إلى النظر في نفسه، وما آتاه الله من القوّة في ذلك لما علم أن قدر الله ليس في وسع المخلوق القيام به وسمع الله يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] وقال: ﴿إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧] وقال: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦] فانزعج إلى القيام بحق الله على قدر الاستطاعة وما في وسعه.

ويتفاضل عباد الله في ذلك على نوعين: على قدر ما يكشف لهم من جلال الله، وعلى قدر أمزجتهم. فإن الله قد جعل نفس الإنسان وعقله بحكم مزاج جسده، فإن نفس الإنسان لا تدرك شيئاً إلاَّ بوساطة هذه القوىٰ التي ركب الله في هذه النشأة فهي للنفس كالآلة، فإن كانت الآلة مستقيمة على الوزن الصحيح ظهر حسن الصنعة بها إذا كانت النفس عالمة بالصنعة وعلمهم على قدر ما يكشف لهم الحق من ذلك في سرائرهم، فمنهم من يكشف له فيما تطلبه الذات، ومنهم من يكشف له فيما تطلبه الأسماء من حيث الدلالات النظرية، ومنهم من يكشف له فيما تطلبه الأسماء من حيث ما جاءت به الشرائع من المقابل والمقارن، فمنهم من يقام على رأس الستين ألفاً من المنازل الإلهية، ومنهم من يقام على رأس مائة ألف وعشرين ألفاً من المنازل، ومنهم من يقام على رأس تسعين ألفاً منحصرة في ستة مقامات لا سابع لها ولا يشارك عبد في شيء من هذه المنازل بل يكون فيها كل إنسان منفرداً وهو قول الطائفة: إن الله لا يتجلى في صورة واحدة لشخصين قد علم كل أناس مشربهم، فهم وإن اجتمعوا في العدد فما لهم اجتماع في الذوق لأنهم لم يجتمعوا في المزاج، ولو اجتمعوا في المزاج وهو محال ما تميزوا ولكان العين واحدة، وثم موطن يعطي الظهور في صاحب المنزل الذي كان على رأس الستين ألفاً خلاف هذا وهو في تلك الدرجة عينها فيكون له بدل الستين ألفاً عدد آخر يكون مبلغه ثلاثة آلاف ألف، ويكون لصاحب التسعين ألفاً أربعة ألف ألف وخمسمائة ألف، ويكون لصاحب المائة ألف وعشرين ألفاً ستة آلاف ألف وهذا لا يكون إلاَّ لأهل الصعود الذين قال الله فيهم: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٠] وكل من أسري به سواء كان إسراء روحانياً أو بالجسم فإن له من المنازل هذا العدد الكثير وأما العدد الذي هو أقل منه فذلك للمريدين الذين هم في مقام التربية لا غير. وأما حصرهم في ستة لا غير فمن طريقين: الطريقة الواحدة نشأتهم القائمة على ست جهات يأتي الشيطان من الأربعة منها وتبقى الاثنان لا سبيل للشيطان عليهما، ومن هناك يكون مآل الناس إلى عموم الرحمة وشمولها لهاتين الجهتين.

وأما الستة المعنوية فالصفات الستة التي هي النسب الإلهية التي يتعلق الممكن بها والنسبة السابعة ما هي متوجهة على الممكن وإنما ظهرت لصحة هذه الستة خاصة لا لأمر آخر وهي نسبة كونه حياً، إذ بهذه النسبة ثبتت الستة. ولما كانت الحدود تحفظ الأشياء ولا سيما الحدود الذاتية جعلت خمسة لما كانت الخمسة لها الحفظ فاتسعت الحدود فأعطيت الحدود مقام الخمسة، ولتكون الأعيان تامّة كاملة النشأة ما فيها نقص، وهذا كله إذا لاح للعبد على بعد انزعج إلى طلبه ليحصله إذ كان فيه تعظيم جناب الحق الذي هو مقصود هذا العبد، فهذا حكم من أزعجه التعظيم.

وأما حكم من أزعجته الرغبة فيما عند الله فإن مشهده: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [سورة القصص: الآية ٦٠] ومشهد صاحب التعظيم: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [سورة طه: الآية ٧٣] فاعلم أن انزعاج الرغبة بحسب ما تعشق به ورغب فيه وهو على نوعين: متخيل وغير متخيل، والمتخيل على نوعين: النوع الواحد ما أدركه ببعض حواسه أو بجملتها أو أدركه من طريق الخبر فحمله على المعهود من صفة الجنة وما فيها. وغير المتخيل هو ما رغبه فيه من حيث الإجمال وهو ما تحوي عليه الجنة أو تتضمنه ممّا لا عين رأته ولا أذن سمعته ولا خطر على قلب بشر، فقد سمع أن فيها هذا، فمثل هذا لا يمكن تخيله، فكلما تخيله فقد خطر على قلب بشر فليس ذلك ومن طبع النفس أنها تحب أن تعلم ما لم تكن تعلم، فهي تحب المزيد بالطبع إلاّ أنه يختلف تعلقها بما تستزيد منه، فالذي تتعشق به منه تطلب المزيد لا من غيره، فإن كان الراغب صاحب محبة لله فلا يخلو إما أن يكون عالماً بالله أو غير عالم بالله، من المحال أن يكون غير عالم بالله لأنه محب والمحب يطلب بذاته محبوباً يتعلق به من قام به حتى يسمّى محباً، فلا بدّ أن يكون عالماً به، غير أن العلماء به على مراتب: منهم مؤمنون خاصة فعلموه من جهة الخبر والأخبار متقابلة فحار المحب فلم ينضبط له صورة في محبوبه. ومنهم من رجح في الخبر ما أعطاه الخيال فأحب محدوداً متصوراً تعلق به فمثل هذا يزعجه طلب الوجد والأنس والوصال والرؤية والحديث على الطريقة المعهودة في الأشكال والأجناس وهو يتجلى فيها. ومنهم العلماء به من حيث التجلي بالعلامة فهم فيه بحسب علامتهم. ومنهم العلماء به عن نظر فكريّ فلا يقيدوه ويؤمنوا بكل تجلّ يعطي التقييد والتحديد فيفوتهم من الله خير كثير فمحبوبهم أقرب إليهم من حبل الوريد ولكن لا يعلمون أنه هو، فمحبوبهم لا يزال ظاهراً لهم وهم لا يعرفونه.

وهذه الطائفة على نوعين: طائفة تقول: إنا نطمع أن نرى محبوبنا، وطائفة تقول: محال رؤية محبوبنا لكن ليس بمحال علمنا به، إذ ليست الرؤية مطلوبة لذاتها وإنما هي طريق إلى حصول علم عند الرائي بالمرئي فبأيّ وجه حصل فهو ذاك وقد علمناه، ومن علمنا به أن رؤيته من حيث إدراك البصر محال فيئسوا من ذلك فهم في نعيم اليأس، والآخرون في نعيم الطمع، فالطائفتان يجتمعان في الانزعاج للفهم عنه تعالىٰ ممّا خاطبهم به في المسمّى قرآناً أو

حديثاً نبوياً أو ممّا ظهر في العالم من آثار القدرة المؤدّية إلى عظمته وكبريائه ولطفه وحنانه، كل آية وسورة وصورة بما تعطي، فيتفاضلون في الفهم فيطلبون المزيد من العلم وهم الأكابر، ومنهم من يقول: قد رويت، فلا يطلب المزيد، ورأيت منهم جماعة وهم أجهل الطوائف، ورأيت أئمة من الأشاعرة على هذه القدم يرون أنهم يعرفون الله كما يعلم نفسه سبحانه من غير مزيد، فهؤلاء مستريحون بجهلهم قد يئسنا من فلاحهم، ويجتمعان أيضاً في الانزعاج إلى اللقاء، فمنهم من ينزعج إلى لقائه، ومنهم من ينزعج إلى لقاء ما يريد منه، ويجتمعان أيضاً في الانزعاج إلى الإلقاء وإلى التلقي، وينقسمون في ذلك على أقسام: فمنهم المتلقي عموماً وهو الكبير من الرجال، ومنهم المتلقي من الملك ومن الله المعرض عمّا يجيء به غير الخاطر الإلهيّ وغير الملك، ومنهم من يتلقى الخاطر النفسيّ مضافاً إلى هذين الخاطرين، ومنهم من يرجح تلقي الخاطر الشيطانيّ على الملكيّ والنفسيّ لكونه مقابلاً لأنه إلقاء عدو محض فيلقى خلاف الحق فيريد هذا المتلقي أن يقف على خلاف الحق من حيث ما هو خلاف عند الشيطان ولهذا ألقاه، وهذا المتلقي حق كله لأنه نور كله بل هو عين النور فيعرف أن إبليس جهل ما عنده من الحق حيث تخيل أنه ليس بحق، فأخذه هذا المتلقي حقاً من صورة شيطانية، فلم يحصل ما أعطاه الشيطان في صورة ملك ولا في صورة نفس إنسانية، وزال حكم الشيطان منه حين قبله هذا المتلقي، فإن الشيطان يظن أنه لو همّه أن الذي ألقي إليه أمري وجود وهو عدم عند الشيطان وما علم مرتبة هذا المتلقي وأنه ما تلقّى منه إلاّ أمراً وجودياً، فإذا رآه قد تعشق به عند أخذه ولم ير له انحطاط مرتبة ولا أثر جهل تعجب ونظر من أين أتى عليه في أمره وما الذي صيّر ذلك المعدوم موجوداً؟ فعلم أن الجهل إنما قام به لا بالمتلقي، وأنه هو الذي ألقى إليه الأمر الوجوديّ على أنه موهوم الوجود لا محقق، فرأى أنه قد سعى في مزيد علوّ رتبته بما أفاده من العلم وهو لا يريد ذلك بل قصد ما يليق به، فما علم أنه لعنه الله محل للوجود وإنما تخيل أنه محل لإيهام الوجود لا لتحققه، فيكون هذا المتلقي في هذا التلقي خلاقاً وهذا أكمل مراتب الأخذ في التلقي.

وأما انزعاج الرهبة فمثل الرغبة إما رهبة منه وهو قوله: وأعوذ بك منك، وإما رهبة ممّا يكون منه من عذاب حسيّ أو عذاب حجاب وهو عذاب الجهل أو التزيّن، وليس في الحجب أكثف ولا أقوى من حجاب التزيّن لأن من زيّن له جهله فمن المحال طلب الحاصل في زعمه لأنه حاصل عنده وليس بحاصل في نفس الأمر، فمن أراد أن يعتصم من التزيّن فليقف عند ظاهر الكتاب والسنّة لا يزيد على الظاهر شيئاً فإن التأويل قد يكون من التزيّن، فما أعطاه الظاهر جرى عليه وما تشابه منه وكل علمه إلى الله وآمن به فهذا متبع ليس للتزيّن عليه سبيل ولا يقوم عليه حجة عند الله، فإن كان من أهل البصائر فهو يدعو إلى الله على بصيرة ويتكلم على بصيرة فقد برىء من التزين فهو صاحب علم صحيح، وكان من أهل الزينة لا من أهل التزيّن، فالانزعاج إلى الله قد يكون رهبة من هذا أيضاً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع ومائتان

في المشاهدة

[نظم: الوافر]

إذا أُشْـهِـدْتَ فـاثْـبُـتْ يـا غـلامُ ... يـصـحُ لـك الـمـكـانـةُ والـمَـقَـامُ
فـتَـشْـهَـدُه بـعـقـلـك فـي حـجـابٍ ... ومَـشْـهَـدُه قـويٌّ لا يُـرَامُ
وتَـشْـهَـدُه بـه فـي كـل شـيءٍ ... ولـيـس لـه الـوَرَاءُ ولا الأمَـامُ
تَـؤمُّ بـه وتَـقْـصُـده ومـا هُـوْ ... بـمَـقْـصُـودٍ لـنـا وهـو الإمـامُ
وتـسْـكُـنُ عـنـد رؤيـتـه سُـكـونـاً ... يـكـون بـه الـتـحـقُّـقُ والـسَّـلامُ

المشاهدة عند الطائفة رؤية الأشياء بدلائل التوحيد ورؤيته في الأشياء وحقيقتها اليقين من غير شك، قالت بلقيس: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٢] وهو كان لم يكن غيره، فطلبنا عين السبب الموجب لجهلها به حتى قالت: كأنه هو، فعلمنا أن ذلك حصل لها من وقوفها مع الحركة المعهودة في قطع المسافة البعيدة، وهذا القول الذي صدر منها يدل عندي أنها لم تكن كما قيل متولدة بين الإنس والجان، إذ لو كانت كذلك لما بعد عليها مثل هذا من حيث علمها بأبيها، وما تجده في نفسها من القوّة على ذلك حيث كان أبوها من الجان على ما قيل، فهذا شهود حاصل وعين مشهودة وعلم ما حصل، لأن متعلق العلم المطلوب هنا إنما هو نسبة هذا العرش المشهود إليها كما هو في نفس الأمر ولم تعلم ذلك، كما أن أصحاب النبي ﷺ لما رأت جبريل في صورة دحية ما قالت كأنه هو وإنما قالت هو دحية ولم يكن في نفس الأمر دحية، وهذا على النقيض من قصة بلقيس، واشتركا في الشهود وعدم العلم بالمشهود من حيث نسبته لا من حيث ما شوهد، والسبب في هذا الجهل أنهم ما علموا من دحية إلاّ الصورة الجسدية لا غير، فما علموا دحية على الحقيقة وإنما علموا صورة الجسم التي انطلق عليها اسم دحية، وعلى الحقيقة ما انطلق الاسم إلاّ على الجملة، فتخيلوا لما شاهدوا الصورة أن الكل تابع لهذه الصورة وليس الأمر كذلك، فإن البصر يقصر عن إدراك الفارق بين القوّتين في الشبه إذا حضر أحدهما دون الآخر، فلو حضرا معاً عنده لفرق بينهما بالمكان، والمسألة في نفسها شديدة الغموض ولا سيما في العلم الإلهيّ، لأن النفس الناطقة التي هي روح الإنسان المسماة زيداً لا يستحيل عليها أن تدبر صورتين جسميتين فصاعداً إلى آلاف من الصور الجسمية، وكل صورة هي زيد عينها ليست غير زيد، ولو اختلفت الصور أو تشابهت لكان المرئي المشهود عين زيد كما تقول في جسم زيد الواحد مع اختلاف أعضائه في الصورة من رأس وجبين وحاجب وعين ووجنة وخدّ وأنف وفم وعنق ويد ورجل وغير ذلك من جميع أعضائه أي شيء شاهدت منه تقول فيه: رأيت زيداً وتصدق. كذلك تلك الصور إذا وقعت ويدبرها روح واحد إلاّ أن الخلل وقع هنا عند الرؤية لعدم اتصال الصور كاتصال الأعضاء في الجسم الواحد، فلو شاهد الاتصال الذي بين الصور لقال في كل صورة

شهدها هذا زيد كما يفعل المكاشف إذا شاهد نفسه في كل طبقة من طباق الأفلاك لأن له في كل فلك صورة تدبر تلك الصور روح واحدة وهي روح زيد مثلاً، وهذا شهود حق في خلق.

قالت الطائفة في المشاهدة: أنها تطلق بإزاء ثلاثة معان: منها مشاهدة الخلق في الحق وهي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد كما قدمناه. ومنها مشاهدة الحق في الخلق وهي رؤية الحق في الأشياء. ومنها مشاهدة الحق بلا الخلق وهي حقيقة اليقين بلا شك.

فأما قولهم رؤية الأشياء بدلائل التوحيد فإنهم يريدون أحدية كل موجود ذلك عين الدليل على أحدية الحق، فهذا دليل على أحديته لا على عينه. وأما إشارتهم إلى رؤية الحق في الأشياء فهو الوجه الذي له سبحانه في كل شيء وهو قوله: ﴿إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فذلك التوجه هو الوجه الذي له في الأشياء، فنفى الأثر فيه عن السبب إن كان أوجده عند سبب مخلوق. وأما قولهم حقيقة اليقين بلا شك ولا ارتياب إذا لم تكن المشاهدة في حضرة التمثّل كالتجلي الإلهيّ في الدار الآخرة الذي ينكرونه فإذا تحوّل لهم في علامة يعرفونه بها أقرّوا به وعرفوه وهو عين الأول المنكور وهو هذا الآخر المعروف فما أقرّوا إلاَّ بالعلامة لا به، فما عرفوا إلاَّ محصوراً فما عرفوا الحق، ولهذا فرقنا بين الرؤية والمشاهدة، وقلنا في المشاهدة أنها شهود الشاهد الذي في القلب من الحق وهو الذي قيّد بالعلامة، والرؤية ليست كذلك ولهذا قال موسىٰ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ وما قال اشهدني فإنه مشهود له ما غاب عنه، وكيف يغيب عن الأنبياء وليس يغيب عن الأولياء العارفين به فقال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٣] ولم يكن الجبل بأكرم على الله تعالىٰ من موسىٰ، وإنما أحاله على الجبل لما قد ذكر سبحانه في قوله: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧] والجبل من الأرض وموسىٰ من الناس، فخلق الجبل أكبر من خلق موسىٰ من طريق المعنى أي نسبة الأرض والسماء إلى جانب الحق أكبر من خلق الناس من حيث ما فيهم من سماء وأرض، فإنها في السماء والأرض معنى وصورة وهما في الناس معنى لا صورة، والجامع بين المعنى والصورة أكبر في الدلالة ممّن انفرد بأحدهما ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧] فالحمد لله الذي جعلنا من القليل الذي يعلم ذلك، فجمع الجبل بين الصورة والمعنى فهو أكبر من جبل موسىٰ المعنوي إذ هو نسخة من العالم كما هو كل إنسان، فإذا كان الجامع بين الأمرين وهو الأقوى والأحق باسم الجبل صار دكاً عند التجلي، فكيف يكون موسىٰ حيث جبليته التي هي فيه معنى لا صورة. ولما كانت الرؤية لا تصحّ إلاَّ لمن يثبت لها إذا وقعت والجبل موصوف بالثبوت في نفسه وبالإثبات لغيره إذ كان الجبل هو الذي يسكن ميد الأرض، ويقال: فلان جبل من الجبال إذا كان يثبت عند الشدائد والأمور العظام فلهذا أحاله على الجبل الذي من صفاته الثبوت، فإن ثبت الجبل إذا تجليت إليه فإنك ستراني من حيث ما فيك من ثبوت الجبل: [مخلع البسيط]

فرؤيةُ الله لا تُطَاقُ فإنها كلُّها مَحَاقُ

فلو أطاق الشهود خلق أطاقه الأرض والطباق
فلم تكن رؤيتي شهوداً وإنما ذلك انفهاق

قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت ربك؟ قال: «نورٌ أنّى أراه» وذلك أن الكون ظلمة والنور هو الحق المبين، والنور والظلمة لا يجتمعان كما لا يجتمع الليل والنهار، بل كل واحد منهما يغطي صاحبه ويظهر نفسه، فمن رأى النهار لم ير الليل، ومن رأى الليل لم ير النهار، فالأمر ظاهر وباطن، وهو الظاهر والباطن، فحق وخلق، فإن شهدت خلقاً لم تر حقاً، وإن شهدت حقاً لم تر خلقاً، فلا تشهد خلقاً وحقاً أبداً، لكن يشهد هذا في هذا وهذا في هذا شهود علم لأنه غشاء ومغشى.

الباب العاشر ومائتان
في المكاشفة

[نظم: المتقارب]

إذا الحقُّ أعطاك أسماءَهُ فخُذْهَا أمانَةَ مَنْ قد فَهِمْ
بأن الأمانةَ محمولَةٌ وحامِلُها جاهلٌ قد ظُلِمْ
فإن أنتَ أُفْهِمْتَ مقْصُودَهُ فأنت المكاشَفُ فلتَلْتَزِمْ
بأحكامها فمتى ما دَعَى بها فأجِبْ أمرَه واحْتَشِمْ
مِنَ أجْلِ التَّصَرُّف فيها ولم يكن ينبغي لك أن تَحْتَكِمْ
فإنك عَبْدٌ وأسماؤه ربوبيَّةٌ عَرَضَتْ فاحْتَرِمْ
مقامَ الأمانة أو رُدَّها إلى ربِّها أوّلاً واعتَصِمْ
بما زادك الحالُ في أمرها وحقِّقْ إشارتَها واغتَنِمْ
فهذي مُكاشَفَةٌ تُرْتَضَى وصاحبُها سيدٌ قد عُصِمْ

اعلم أن المكاشفة عند القوم تطلق بإزاء الأمانة بالفهم، وتطلق بإزار تحقيق زيادة الحال، وتطلق بإزاء تحقيق الإشارة. اعلم أن المكاشفة متعلقها المعاني، والمشاهدة متعلقها الذوات، فالمشاهدة للمسمّى والمكاشفة لحكم الأسماء، والمكاشفة عندنا أتم من المشاهدة، إلاَّ لو صحّت مشاهدة ذات الحق لكانت المشاهدة أتم وهي لا تصح، فلذلك قلنا: المكاشفة أتم لأنها ألطف، فالمكاشفة تلطف الكثيف، والمشاهدة تكثف اللطيف، وبقولنا هذا تقول طائفة كبيرة من أهل الله مثل أبي حامد وابن فورك والمنذري، وقالت طائفة بالنقيض، وإنما قلنا إنها أتم لأنه ما من أمر تشهده إلاَّ وله حكم زائد على ما وقع عليه الشهود لا يدرك إلاَّ بالكشف، فإن أقيم لك ذلك الأمر في الشهود من حيث ذاته صحب ذلك المشهود حكم ولا بدّ لا يدرك إلاَّ بالكشف هكذا أبداً، فالمكاشفة إدراك معنوي فهي مختصة بالمعاني، ومثال ذلك إذا شاهدت متحركاً يطلب بالكشف محركه لأنه يعلم أن له محركاً كشفاً ولهذا يتعلق العلم بمعلومين، ويتعلق البصر الذي هو للمشاهدة بمعلوم واحد، فيدرك بالكشف ما لا يدرك

بالشهود، ويفصل الكشف ما هو مجمل في الشهود، فالمكاشفة كما قلنا على ثلاثة معان: مكاشفة بالعلم ومكاشفة بالحال ومكاشفة بالوجد.

فأما مكاشفة العلم فهي تحقيق الأمانة بالفهم وهو أن تعرف من المشهود لما تجلى لك ما أراد بذلك التجلي لك لأنه ما تجلى لك إلاّ ليفهمك ما ليس عندك. فالمشاهدة طريق إلى العلم، والكشف غاية ذلك الطريق وهو حصول العلم في النفس، وكذلك إذا خاطبك فقد أسمعك خطابه وهو شهود سمعي فإن المشاهدة أبداً للقوى الحسيّة لا غير والكشف للقوى المعنوية فما أسمعك إلاّ لتفهم عنه، وإذا أفهمك بأي نوع تجلّى لك من إدراك صور الحواس فإنما ذلك الفهم أمانة منه عندك لتلك الأمانة أهل لا ينبغي لك أن تودعها إلاّ لأهلها وإن لم تفعل فأنت خائن. وقال عليه السلام: **«المَجَالِسُ بِالأَمَانَةِ»** أي لا تحدث بما وقع في المجالس إلاّ لمن أعطاك الله الفهم منها من ينبغي أن تتحدث معه بما وقع فيها فذلك أهلها، وإذا حدثك إنسان ورأيته يلتفت فاعلم أن ذلك الحديث أمانة أودعها إياك، فحظ المشاهدة ما أبصرت وما سمعت، وما طعمت وما شممت وما لمست، وحظ الكشف ما فهمت من ذلك كله وما فهمت فهو أمانة، وإذا كان أمانة حكم عليك الأمر الإلهيّ بأدائها إلى أهلها أوردها وردها إن تتناساها إذ ما قد علمت لا تقدر على جهله فتجعل نفسك كأنك ما أبصرت وما سمعت، وهذا باب صعب جداً على العارفين يحتاج إلى أدب وحفظ ومراعاة حدّ فإنه ليس بينه وبين الكذب إلاّ حجاب واحد، وكذلك الخيانة ليس بينه وبينها إلاّ حجاب واحد، ومراعاة الحدّ تحول بينك وبين الخيانة والكذب، فأما علم هذا فهو إذا سألك من يكرم عليك عما تحملته أمانة من شهود بصرك أو سمعك أو ما كان من قوى حواسك والسائل ليس من أهله، ومعنى ليس من أهله أن الذي أعطاك هذه الأمانة علمت منه لمن أراد أن توصلها إليه، فإن أجبت السائل لكرامته عليك فقد خنت وإن لم تجب وعدلت في الجواب إلى أمر آخر يقنع به السائل ولو عرف ما سترت عنه عزّ عليه ذلك فقد كذبت كمسألة الخليل في الكذبات الثلاث أثرت عنده في القيامة، فاستحيى من الله أن يكلمه في فتح باب الشفاعة مع القصد الجميل في ذلك والصدق في دلالة اللفظ ولكن لم يكن ذلك مقصود المخاطب فسمّى كذباً فانظر ما أخطر هذا الموضع، وإن قلت ما عندي خبر كذبت أشد من التعريض والحق أحق أن يتبع، وجواب الصادقين عن ذلك الذين آثروا الحق على غيره أن يقولوا للسائل: إن الذي سألت عنه لنا وجوه في الجواب عنه فلا أدري عن أي وجه سألت لتعلمه، فإن قال لك: فصل الوجوه قل له أنت أبِنْ لي عن مقصودك، فإذا قال لك مقصوده من الجواب فإن كان ممّا يدخل في الأمانة فقل له أنه أمانة أخذ علينا العهد في حفظها وحق الله أحق أن يراعى ولا تستحي في ذلك منه وإن كرم عليك أو كان ذا سلطان ولا يكون السموأل اليهودي المحجوب أوفى منك وأنت العارف المشاهد حتى ضرب به المثل في الوفاء، وإن ذكر هذا السائل وجه مطلوبه من حيث لا تعلق له بالأمانة فأجبه ولا بدّ لينتفع ولا تعطه ما ليس في وسعه حمله فيعود وباله عليك، فهذا معنى قولهم تحقيق الأمانة بالفهم.

وأما المكاشفة بالحال وهي تحقيق زيادة الحال فاعلم أن كل متصف بصفة في كل وقت فإن تلك الصفة هي حاله في ذلك الوقت أي صفة كانت، ولهذا لا يأتي الحال إلاّ بعد تمام الكلام أي لو لـم تذكر لأفاد الكلام دونها، فإن كانت هي المقصودة بالإخبار عنها فما أفاد الكلام بالنظر إلى قصد المخبر تقول: رأيت زيداً، فاستقل الكلام وتمّ، ثم بعد ذلك زدت راكباً فتقول: رأيت زيداً راكباً، أي في حال ركوبه فإن كان مقصودك التعريف برؤيتك إياه راكباً فما تمّ الكلام بهذا الاعتبار أي ما حصلت الفائدة التي اعتبرتها وقصدتها، ولكن حصلت فائدة بالجملة وهي رؤية زيد أنك رأيته ولـم تذكر على أي حالة، فهذا معنى تحقيق زيادة الحال أن يتحقق أن الحال زائدة على ما تقع به الفائدة مطلقاً من غير نظر إلى قصد، وهذا راجع إلى الأوّل الذي هو تحقيق الأمانة بالفهم، فلو لقيك أحد سألك: هل رأيت زيداً؟ فقلت له: رأيته، ثم زدت حالاً لم يسألك عنها فقلت له مسافراً وكان في نفسه عند سؤاله هل رأيت زيداً حتى يعلم أنه في البلد فيجتمع به، فلما قلت له مسافراً أعلمته بهذه الزيادة التي هي زيادة الحال بسفره فأرحته من طلب الاجتماع به إذ لا يتمكن له ذلك مع كونه ليس في البلد فهذا وأمثاله من زيادة الحال، وأما في طريق أهل الله فزيادة الحال هي أن تشهد ذاتاً مّا على حال مّا فتطلع من ذلك الحال إلى ما يؤول إليه أمره لأجل ذلك الحال فسمّي مثل هذا زيادة الحال ومكاشفة بالحال مثال ذلك أن تشاهد ذاتاً مّا على حال خاص من حركة أو سكون أو صفة ملايمة طبع الناظر أو غير ملايمة فتعرف من ذلك الحال أمراً زائداً وهو أن ذلك الحال يؤدّي في حق المدرك له ودّاً أو بغضاً أو كراهة أو ما كان، فهذه زيادة الحال التي أعطاك، وبهذا يقع العلم بالمنزلة عند الله قال بعضهم: إني لأعرف متى يحبني ربي فقيل له: ومن أين لك معرفة ذلك؟ فقال: هو عرفني به، فقيل له: أَوَحْيٌ بعد رسول الله ﷺ؟ قال قوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] وأنا في هذه الساعة في حال اتباع لما شرع وهو صادق القول فأعطاني الحال إن الله محب لي في هذه الساعة لكوني مجلى لما أحب وهو تعالىٰ ناظر إلى محبوبه ومحبوبه ما أنا عليه، فأضاف تعلّق المحبة التي تصيرني محبوباً بالاتباع.

وأما المكاشفة بالوجد وهي تحقيق الإشارة أعني إشارة المجلس لا الإشارة التي هي نداء على رأس البعد لأنه لا يبلغ مداها الصوت وذلك أن مجالس الحق على نوعين: النوع الواحد لا يتمكن فيه إلاّ الخلوة به تعالىٰ فهذا لا تقع فيه الإشارة وذلك إذا جالسته من حيث هو له على علمه به. والنوع الثاني ما تمكن فيه المشاركة في المجلس وهو إذا تجلّى للعبد في صورة أمكن أن تحضر في تلك المجالسة جماعة قلّوا أو كثروا ولو كان واحداً زائداً على هذا الجليس ففي مثل هذا المجلس تكون الإشارة فإن الجليس الآخر فما زاد لا يمكن أن يجتمعا على قدم واحدة حتى لو اطلع كل واحد من الجلساء على حال الآخر مع الله ما احتمله وكفر به وأنكره وقال هذا إبليس، فلا بدّ إذا وقع الإفهام من الله لكل جليس له في هذه الحضرة والمجلس الصوري أن يكون بالإشارة لا بالتصريح، فيفهم كل إنسان من تلك الإشارة ما في وسعه، فالكلمة عنده تعالىٰ واحدة وبالنظر إلى الجلساء كلمات كثيرة فينصرف كل جليس

راضياً يزعم أنه أخصّ من الباقين، ولله رجال أعطاهم من الفهم والاتساع وحفظ الأمانة أن يفهموا عن الله في مثل هذه المجالس جميع إشارات كل مشار إليه وهم الذين يعرفونه في تجلي الإنكار والشاهدون إياه في كل اعتقاد، والحمد لله الذي جعلنا منهم أنه وليّ ذلك، وهذا القدر كافٍ، انتهى السفر السابع عشر بانتهاء الباب العاشر ومائتين.

[السفر الثامن عشر]

الباب الحادي عشر ومائتان

في اللوائح

[نظم: البسيط]

لَوائحُ الحقِّ ما تبدو لأَسْرارِ من السُّمُوِّ ومن حالٍ إلى حالِ
وقد تكون بما يبدو لناظِرِهِ من غيرِ جارحةٍ بالعِلْم والحَالِ
من النُّعُوت التي يُعْطيكَ شاهِدُها دليلَها أنها في الآل كالآلِ

اعلم أن اللوائح عند القوم ما يلوح إلى الأسرار الظاهرة من السموّ من حال إلى حال، وعندنا ما يلوح للبصر إذا لم يتقيد بالجارحة من الأنوار الذاتية والسبحات الوجهية من جهة الإثبات لا من جهة السلب، وما يلوح من أنوار الأسماء الإلهية عند مشاهدة آثارها فيعلم بأنوارها، أما السموّ من حال إلى حال هو أن لا يرجع إلى الحال الذي انتقل عنه في الحال الذي هو فيه إذا انتقل عنه إلى ما هو فوقه، والمراد بذلك ما يأتي به الحال من الواردات الإلهية والمعرفة بالله وهي المنازل ما هي الكرامات، فإن الأحوال قد تعود مراراً ولكن لا يحمد صاحبها فيها إلاّ إذا زادته علماً بالله لم يكن عنده لا بدّ من ذلك وتلك الزيادة هي اللائحة، فإن لم ترقه تلك الزيادة في الحال فليست بلائحة مع صحة الحال، والحال كونك باقياً أو فانياً أو صاحياً أو سكران أو في جمع أو تفرقة أو في غيبة أو في حضور والأحوال معروفة وهي الأبواب التي ذكرناها في هذا الفصل، وفيها أمر الله نبيه ﷺ أن يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] يرقى به عنده منزلة لم تكن له، وهذه الأحوال لا يختص بها البشر ولا موطن الدنيا بل هي دائمة أبداً في الدنيا والآخرة وهي لكل مخلوق، فاللوائح كأنها مبادي الكشوف ولهذا قد تثبت وقد يسرع زوالها إلاّ أنه لا بدّ لها فيمن تلوح له من زيادة علم يرقى به درجة عند الله تعالىٰ هذا يشترط في اللوائح، وقلنا من شرط اللائحة أن يكون الإدراك بالبصر لا بالبصيرة في الحال الذي لا يتقيد البصر بالجارحة المقيدة بالجهة المخصوصة بل بحقيقة البصر المنسوب إلى النفس الناطقة، ثم يزاد إلى ذلك أمر آخر وهو أن يكون الحق بصره فهو الشاهد له والبينة من ربه على أن بصره لم يتقيد بالجارحة.

وقد صحّ هذا المقام عن رسول الله ﷺ كما صحّ عنه لما سئل عن رؤية ربه بعينه المقيدة ذات الطبقات فقيل له: هل رأيت ربك؟ أراد السائل رؤية البصر المقيدة بالجارحة فقال: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ» أي نور هذا الإدراك يضعف عن ذلك النور الإلهيّ، وإن كان للبصر

المقيد إدراك في النور الإلهيّ على حدّ مخصوص، فإن النور الإلهيّ كما قبل التشبيه بالمصباح الوارد في القرآن على الصفات المخصوصة المذكورة كذلك يقبل إدراك البصر إياه إذا حصل تلك الشرائط كلها فتدبرها في نفسك ويخرج قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٣] على وجهين: الوجه الواحد أنه نفى أن تدركه الأبصار على طريق التنبيه على الحقائق وإنما يدركه المبصرون بالأبصار لا الأبصار. والوجه الثاني لا تدركه الأبصار المقيدة بالجارحة كما قرّرنا فإذا لم تتقيد أدركته وهو عين النور الذي وقع فيه التشبيه بالمصباح وهو النور الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فلا يقبل التشبيه لأنه لا صفة له، وكل من له صفة فإنه يقبل التشبيه لأن الصفات تتنوّع في القابلين لها بحسب ما تعطيه حقيقة الموصوف كالعلم يتصف به الحق والسمع والبصر والقدرة والإرادة والقول وغير ذلك من الصفات ويتصف بها المخلوق، ومعلوم أن نسبتها إلى المخلوق لا تكون على حد نسبتها إلى الخالق بل نسبتها إلى البشر تخالف نسبتها إلى الملك وكلاهما مخلوقان فاعلم ذلك.

فهذه اللوائح التي تلوح للبصر مشاهد ذاتية ثبوتية ما هي سلبية، فإن الوصف السلبيّ ليس من إدراك البصر بل ذلك من إدراك العقول وما يدرك بالعقل لا يدخل في اللوائح، وأما ما يلوح من أنوار الأسماء الإلهية عند مشاهدة آثارها فتعلم بأنوارها أي تظهرها أنوارها فالاسم الإلهيّ روح لأثره وأثره صورته والبصر لا يقع من الاسم إلاّ على أثره الذي هو صورته كما تقع على صورة زيد الجسمية، ويصحّ أن يقال: رأى زيداً من غير تأويل ويصدق مع كون زيد له روح مدبرة غيب فيه لها صورة وهي جسديتها فأثر الأسماء الإلهية صور الأسماء، فمن شاهد الآثار فقد صدق في أنه شاهد الأسماء فلوائحها أن تجمع بين نسبة ذلك الأثر المشهود وبين الاسم الذي هو روح صورة ذلك الأثر كما ترى شخصاً ولكن لا تعرف أنه زيد المطلوب عندك، ويراه آخر ممّن يعرفه فيعرف أنه رأى زيداً فهذا العارف هو صاحب اللوائح والآخر ليس هو من أصحاب اللوائح لأنه ما لاح له ارتباط الاسم بهذه الصورة، والفرق بين الشخصين المدركين معلوم، فما كل مَن رأى علم ما رأى، فهذه اللوائح الحالية لمن أراد معرفتها على الاختصار والاقتصاد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني عشر ومائتان

في التلوين

[نظم: البسيط]

إن التَّلوُّنَ من حالٍ إلى حالِ ... دليلُ صِدْقٍ على العالي من الحالي

(ضد العاطل)

فمَنْ تحقَّقَ بالأنفاس يعرفُه ... بالحالِ فيه كمثْلِ الحالِ في الحالِ

(الوقت)

فـالـفـعْـلُ مـاضٍ وآتٍ ثـمَّ بـيـنـهـمـا فـعـلٌ يـسـمَّـى بـفـعـل الآن والـحـالِ

(حال أهل النحو)

فـالـحـالُ زائـلـةٌ والـحـالُ دائـمـة وهو الصحيحُ الذي قد قيل في الحالِ

(حال أهل النظر)

اعلم أن التلوين عند أكثر الجماعة مقام ناقص وهو تلون العبد في أحواله وأنشدوا في ذلك: [مجزوء الرمل]

كـلَّ يـوم تـتـلـوَّنْ غـيـرُ هـذا بـك أجـمَـلْ

إلى أن قال بعضهم: علامة الحقيقة رفع التلوين بظهور الاستقامة فلو لم يزد بظهور الاستقامة لكان قد نبّه على علم غامض محقق، فلما زاد هذه اللفظة أفسد الأمر والتحق في حدّه بالقائلين بنقصه، وقالت طائفة: بل التلوين هو علامة على صاحبه بأنه متحقق محقق كامل إلهيّ وهو الذي ارتضيه وهو مذهبي وبه أقول وعلى قدر تمكنه في التلوين يكون كماله وبهذا نجد التمكين فنقول: التمكين في التلوين هو التمكين، فمن لم يتمكن لم يتلون الأمر عنده وآيته من كتاب الله كل يوم هو في شأن فنكر وقالت: هذه الطائفة في التلوين بزيادة لو سكتت عنها لكان أولى إذ ليس للتقييد بها تلك الفائدة وهو قولها، لأن في التلوين إظهار قدرة القادر فيكشف منه العبد الغيرية وهذه الزيادة إجمالية تدل على ما ذهبنا إليه والتلوين نعت إلهي، وكل نعت إلهي كمال إذ لا يتصوّر في ذلك الجناب نقص أصلاً بوجه ولا نسبة وما تكمل المقامات والأمر إلاَّ أن تكون من النعوت الإلهية فإن الكمال لله على الإطلاق وهو قوله في استشهادنا: ﴿يَسْئَلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وليس التلوين غير هذا فيدخل في مذهبنا مذهب الجماعة فإنه أعم وأكبر إحاطة ولا يدخل مذهبنا في مذهبهم.

اعلم أنه من علم أن الاتساع الإلهي لا يقتضي أن يكون شيء في الوجود مكرراً علم أن التلوين هو الصحيح في الكون فإنه دليل على السعة الإلهيّة، فمن لم يقف من نفسه ولا من غيره على اختلاف آثار الحق فيه في كل نفس فلا معرفة له بالله وما هو من أهل هذا المقام وهو من أهل الجهل بالله وبنفسه وبالعلم فليبك على نفسه فقد خسر حياته، وما أورثهم هذا الجهل إلاَّ التشابه، فإن الفارق قد يخفى بحيث لا يشعر به، فلا أقل أن يعلم أن ثم ما لا يشعر به فيكون عالماً بأنه متلون في نفسه ولا يعرف فيما تلون ولا ما ورد عليه، قال تعالى: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًاۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥] أي يشبه بعضه بعضاً، فيتخيل أن الثاني عين الأوّل وليس كذلك بل هو مثله، والفارق بين المثلين في أشياء يعسر إدراكه بالمشاهدة إلاَّ من شاهد الحق أو تحقق بمشاهدة الحرباء فلا دليل من الحيوانات على نعت الحق بكل يوم هو في شأن أدل من الحرباء، فما في العالم صفة ولا حال تبقى زمانين ولا صورة تظهر مرتين والعلم يصحب الأوّل والآخر، فهو الأوّل والآخر والظاهر والباطن، فلون ووحد الهوية في الكثرة، فمن لم

يقدر على تقرير الوحدة في الكثرة جعل هذه الصفات نسباً وإضافات لوجوه مختلفة وهذا مذهب النظار. وأما الطائفة فأقرّت الهوية والوحدة وجعلت الوجه الذي هو منه أوّل هو عينه منه آخر وظاهر وباطن، صرّح بذلك أبو سعيد الخرّاز، فرجال الله ما أثبتوا للحق إلاّ ما هم عليه ولا يثبت في الكون، وفي جميع المخلوقات إلاّ ما هو الحق عليه، فارتبط الكل بالكل وضرب الواحد في الواحد فلم يتضاعف بل هو عين ما ضرب، وكذلك ما يضرب في الواحد أو يضرب الواحد فيه من واحد أو كثرة لا يتضاعف بل هو عين ما ضرب فهكذا الأمر، فالتلوين ضرب الواحد في الكثرة فلا يظهر سوى عين تلك الكثرة المضروب فيها الواحد أو المضروبة في الواحد والحق واحد بلا شك وضرب الشيء في الشيء نسبته إليه، ونحن كثيرون عن عين واحدة جلّت وتعالت انتسبت إلينا إيجاداً وانتسبنا إليها وجوداً، فمن عرف نفسه خلقاً وموجوداً عرف الحق خالقاً موجداً، فإذا نظرت إلى أحدية العالم ضربت الواحد في الواحد، وإذا نظرت إلى العالم ضربت الواحد في الكثير والعالم أثر أسمائه والأثر كما قدمنا صورة الاسم في اللوائح، فما ضربت أحدية الحق إلاّ في صور أسمائه فما زلّت عنه فلم يخرج بعد الضرب إلاّ هو والأسماء كثيرة، كذا ورد الخبر الإلهي فيها من التسعة والتسعين فما فوقها ممّا يعلم وممّا لا يعلم والعين واحدة والألوان مراتب والتلوين نسبة إليها، فإن قلت: واحد، صدقت. وإن قلت: كثيرون، صدقت، فإن أسماء الله كثيرة لمعان مختلفة والله الهادي.

الباب الثالث عشر ومائتان

في حال الغيرة

شعر في المعنى: [البسيط]

إن التغيُّر حالٌ كَوْنُهُ خَطِرٌ ... ما بين علم وحكم يَذْهَبُ الناسُ

إن قالَ ماذا بحُكْمِ ردَّهُ عِلْمٌ ... من الحقيقةِ ردّاً فيه إفلاسُ

كذاك ذو الكمِّ ممَّنْ فهوَ أجهلُ مَنْ ... لم يَهْده في ظلام الليل نِبْرَاسُ

وضِنَّةُ الحقِّ أوْلى أن تنزِّهَهُ ... عنها فليس لذاك الحُكْمِ إيناسُ

اعلم أنه لما كانت الغيرة عند الطائفة على ثلاثة مقامات: غيرة في الحق وغيرة على الحق وغيرة من الحق، كان لها ثلاثة أحوال بحسب ما تنسب إليه من أجل التجانس. فأما الغيرة فأصلها مشاهدة الغير إذا ثبت أن ثم غيراً، فإذا ثبت صحّ ما قلناه عنهم من التفاصيل وأعني بثبوته عين وجود الغير لا عين معقوليته فإنه معقول بلا شك، ولكن هل هو موجود العين هذا الغير المعقول أم لا؟ فمن قال بالظاهر في المظاهر لم يقل بوجود الغير مع ثبوت حكمه وحاله المعبر عن ذلك بالغيرة وهو أثر استعداد المظاهر في الظاهر والغير موجب الكثرة عيناً أو حالاً لا بدّ من ذلك والكثرة معقولة بلا شك ولكن هل لها وجود عيني أم لا؟ فيه نظر، فمن قال: إن هذه الكثرة الظاهرة في العين أحوال مختلفة قائمة بعين واحدة لا وجود لها إلاّ في تلك العين فهي نسب فلا حقيقة لها عينية في الوجود العينيّ، ومن قال: إن لها أعياناً لم

يقل بالعين الواحدة ولا بالظاهر في المظاهر لأن الكثير مشهود لا الكثرة، فالكثرة معقولة والكثير موجود مشهود، فمن هنا ظهر حكم حال الغيرة في الأشياء واتصف بالغيرة الإله، والشيء لا يكون غير نفسه إلاً إذا كان الشيء أشياء فيكون كل شيء غيراً للشيء الآخر والحق ليس بأشياء فلا يقبل الغير، وقد اتصف بأنه غيور ومن غيرته حرم الفواحش فتدبر ما ذكرناه حتى تعرف ما الفاحشة، وما الفعل المسمّى فاحشة وغير فاحشة، فالغير على الحقيقة ثابت لا ثابت هو لا هو.

فأما حال الغيرة في الحق وهي الغيرة التي تكون عند رؤية المنكر والفواحش وهي التي اتصف الحق بها والملأ الأعلى والرسل وصالحوا المؤمنين على أن الغيرة مركوزة في الطبع فلا بدّ منها إلاً أنها تنقسم إلى محمود ومذموم وكلامنا في المحمود منها وهي الغيرة في الحق وهي من أشكل المسائل فإنه تعالىٰ من غيرته حرم الفواحش، ثم إذا وقعت الفواحش في الكون لم نره يسرع بالأخذ عليها لا دنيا ولا آخرة، فعلمنا أن ثم مانعاً أقوى يمنع من ذلك يكون ذلك المانع أعظم إحاطة، وتكون نسبته إلى الغيرة نسبة العلم الإلهي إلى القدرة الإلهية، فإن القدرة وإن تعلقت بما لا يتناهى من الممكنات فلا تشك أن العلم أكثر إحاطة منها لأنه يتعلق بها، وبالممكنات والواجبات والمستحيلات والكائنات وغير الكائنات مع ما يعطي الدليل أن ما لا يتناهى لا يفضل ما لا يتناهى، كذلك السبب الموجب لترك المؤاخذة على ما يقع عمّن يأتي ما وقعت عليه الغيرة، ولا بدّ أن يكون أقوى من حال الغيرة هذا كله في حق الحق. وأما في حق المخلوق فلا بدّ من تغيير النفس وهو مكلف بها في الحق لا بدّ من ذلك، ومذموم من لم يجد ذلك من المكلفين فإنه مخاطب بتغييره من يده بالفعل إلى لسانه بالقول إلى وجود ذلك في النفس وهو أضعف الإيمان في الزمان لا في نفس الغيور، فحال الغيرة هو ما يجده الغيور من اختلاف الأمر عليه في نفسه عند وقوع ما لا يرضي الله، سواء وقع ذلك منه أو من غيره بل من هذه صفته هو معصوم، فإن من وقع منه ما يوجب الغيرة ولا يغار وإذا رأى ذلك من الغير أدركته الغيرة فليست بغيرة حقية إلهية، وإنما هي غيرة نفسية لا قربة فيها إلى الله تعالىٰ، تلك هي الغيرة الإلهية الصحيحة ولكن لا يشعر بها كثير من أهل الله إلاً من عرف الحق حق معرفته، فإن الله هو الغيور الأعظم في الغيرة من المخلوق، وهو الفاعل للأمر الذي يوجب الغيرة ولا يؤاخذ على ذلك أخذ عموم، فكذلك من توجد منه الغيرة في حق زيد لفعل خاص، وإذا وقع منه ذلك الفعل لا يجد غيرة فلهذا قلنا: صاحب هذا الحال أحق وأقرب للاتّصاف بالنعت الإلهيّ بالغيرة من الذي يغار مطلقاً في حق نفسه وغيره، ومن أجل ذلك سمّي معصوماً أو محفوظاً، فلم يقع منه ما يوجب الغيرة وهو السعيد في العموم المثنى عليه في الشرع، والآخر يذم كما يذم الجبار من المخلوقين وإن كان الجبروت وصفاً إلهياً، كذلك خصوص الغيرة لا ينبغي للمؤمن أن يتصف بذلك بل تعمّ غيرته في الحق وحينئذ يحمده الله تعالىٰ ويثني عليه، فقد نبهتك على سرّ من أسرار الغيرة لتستريح إليه إن تفطنت له ولا تستعمله فتشقى بل كن لله غيوراً في الحق مطلقاً من غير تقييد.

وأما حال الغيرة على الحق وهي كتمان السرائر والأسرار وتلك حالة الأخفياء الأبرياء من الملامية المجهولين المجهولة مقاماتهم فلا يظهر عليهم أمر إلهيّ يعرف به أن الله عناية بهم، فأحوالهم تستر مقامهم لحكمة الموطن فإنهم لا يظهرون في محل النزاع إذ كان سيدهم وهو الله تعالىٰ قد نوزع في ألوهيته في هذه الدار، وهذه الطائفة متحققة بسيدها، فمنعهم ذلك التحقق أن يظهروا في الموطن الذي استتر سيدهم فيه فجروا مع العامة على ما هي العامة عليه من ظاهر الطاعات التي لم تجر العادة في العرف أن يسمّوا بها أنهم من أهل الله لأنهم ما ظهر منهم ما يتميزون به عن العامة من الأفعال، كما ظهر من بعض الأولياء من خرق العوائد في الأحوال، أو من تتبع تغيير المنكرات إذا بدت تغييراً يتميز به عن التغيير العام بحيث أن يشار إليه فيه فهذه حال الغيرة على الحق.

وأما حال الغيرة من الحق وهي ضنته بأوليائه حيث سترهم عن سائر عباده فحبب إليهم الستر ووفقهم للمعرفة بحكم الموطن فاتصفوا بصفة سيدهم فكانوا عنده خلف حجب العوائد فهم ضنائن الله وعرائسه فهم عنده كهو عندهم، فما يشاهدون سواه ولا ينظر هو إلاَّ إليهم، فمن أراد أن يعرفهم فليسلك مسلك الغيرة على الحق فينتظم في سلكهم، وأما قول بعضهم في الغيرة على الحق أن يذكر بألسنة الغافلين فكل لسان ذكره فليس بغافل بل له ثمرة صحيحة ينالها الذاكر وهو اللسان، وإن لم تقرن به نية من نفس صاحب ذلك اللسان فما ذكره ذاكر بغفلة قط بل ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] مثل هؤلاء، فصاحب هذا القول لا حظَّ له في الرجولة، وكذلك قول الآخر أغار على ذلك الجمال الأنزه عن نظر مثلي يا ليت شعري، وأي نظر لك وأين الموجود الذي له نظر من ذاته وهل ينظره إلاَّ هو يا أيها المشرك أما تستحي أن تقول مثل هذا القول فحال الغيرة من الحق أن تكون حقاً وتقوم فيها بنسبتها إلى الحق فتنظر ما الغيرة منه فتكون على ذلك ومع هذا على كل وجه فإنه يطلب ثبوت الغير والتفرقة بين الأشياء والتميز فتحفظ في ذلك من إثبات وجود عين زائدة أو من نفي عيون كثيرة في غير وجود عينيي، فأثبت الكثرة في الثبوت وأنفها من الوجود، وأثبت الوحدة في الوجود وأنفها من الثبوت، فاعلم ذلك.

الباب الرابع عشر ومائتان

في حال الحرية

[نظم: المتقارب]

إذا كـان حـالُ الـفـتـى عَـيْـنَـهُ فـذلـك حُـرٌّ وإن لَـمْ يـكُـنْ
وإن كـان مـا لـم يَـكُـنْ لـم يَـكُـنْ بـأكـوانِـهِ كـائـنٌ يـشـتـكِـنْ
فـحُـرِّيـةُ الـعـبْـدِ مَـغْـلُـولَـةٌ ولا رقَّ إلاَّ لـمَـنْ قـال كُـنْ
فـيـا أيـهـا الـحـرُّ لا تـفـتـقِـرْ فـجَـنْـبُـكَ مـن فـقـره قـد وَهَـنْ
ولا بـدَّ مـنـه فـمـاذا تَـرَى ولا بـدَّ مـنـك فـقـد آن أنْ

أَضُمَّ غناه إلى فَقْرِنا وذلك عندي مِنَ اقوَى الجُنَنْ

اعلم أن الحرية عند الطائفة الاسترقاق بالكلية من جميع الوجوه، فتكون حراً عن كل ما سوى الله وهي عندنا إزالة صفة العبد بصفة الحق، وذلك إذا كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه وما هو عبد إلاَّ بهذه الصفات التي أذهبها الحق بوجوده مع ثبوت عين هذا الشخص والحق لا يكون مملوكاً، فكان هذا المحل حراً إذ لا معنى له من عينه ما لم يكن موصوفاً بهذه الصفات وهي الحق عينها لا صفات الحق عينها، فثبت عين الشخص بوجود الضمير في قوله: كنت سمعه فهذه الهاء عينه والصفة عين الحق لا عينه فثبتت الحرية لهذا الشخص، فهو محل لأحكام هذه الصفات التي هي عين الحق لا غيره كما يليق بجلاله، فنعته سبحانه بنفسه لا بصفته، فهذا الشخص من حيث عينه هو ومن حيث صفته لا هو: [الطويل]

فوصْفُكَ معدومٌ وعينُك ظاهرُ وأنتَ له آلٌ كما هو آخِرُ
وأنتَ له مَلْكٌ ولستَ بعبدِهِ فما أنتَ مزجورٌ وما أنت زاجِرُ

وعلى الحقيقة لا يقال في الحق إنه حر لكن يقال: إنه ليس بعبد إذ كان لا يعرف إلاَّ بالنعت السلبي لا بالنعت الثبوتي النفسي، لكن للمظاهر حكم فيه من حيث ما هو ظاهر فيها فينسب إليه جميع ما ينسب إلى المظهر من نعوت نقص عرفي ونعوت كمال وتمام: [السريع]

وليس إلاَّ الحقّ لا غيره فعَيْنُه الظاهرُ نَعْتُ العبيدْ
ولا تقُلْ بأنه عَيْنُهم بل قلْ كما قلته لا تزيدْ

وألسنة الشرائع الإلهية بهذا نطقت حقيقة لا مجازاً، والأدلة العقلية النظرية تنفي مثل هذا عن الجناب الإلهيّ، وإذا وردت به الشرائع فإن فحول علمائهم يتأولون مثل هذا لعدم الكشف إذ لم يكن الحق بصرهم:

تقلَّدوا الفكرَ على قُصُورهِ وما استضاؤوا ساعةً بنورهِ
[الرجز]

فسبحانَ من أخْفَى عن العين ذاتَهُ وأظْهَرَها في خَلْقه بصفاتِهِ
[الطويل]

فلا حرٌّ ولا عبْدُ فأينَ العَهْدُ والوعْدُ
فللَّهِ وجودُ الأمْدِ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ
[الهزج]

واعلم أن الحر مَن ملك الأمور بأزمتها ولم تملكه وصرفها ولم تصرفه وهذا غير موجود في الجنابين، فإن الله يقول: ادعوني أستجب لكم، وطلب منا الإجابة لما دعانا فحصل التصريف من جانب الحق ومن جانب العبد، فلولا دعاء العبد وسؤاله ما كان الحق مجيباً والإجابة نعته، فقد ظهر من العبد صورة تصرف في الحق، وقد ظهر من الحق تصرف في العبد لا صورة تصرف، فهذا القدر بين الحق والعبد، ولا يكون حراً مطلق الحرية من هذا

نعته، ففي الحقيقة ليس للحرية وجود عين، فإن الإضافات تمنع من ذلك، لكن حقيقة الحرية في غنى الذات عن العالمين مع ظهور العالم عنه لذاته لا لأمر آخر فهو غني عن العالمين فهو حر والعالم مفتقر إليه، فالعالم عبيد فلا حرية لهم أبداً، فإذا طلبتهم الألوهة بما كلفتهم به من الأحكام التي لا ظهور للألوهية إلاّ بها ظهرت الإضافات، فصار الأمر موقوفاً من الطرفين كل طرف على صاحبه، فامتنعت الحرية أن تقوم بواحد من المضافين، فمن قد قال: إن الحق معروف فلا يدري كما من قال: إن الحق مجهول فلا يدري، فهذا حال الحرية قد استوفيناه مختصراً قريب المأخذ والمتناول.

الباب الخامس عشر ومائتان

في معرفة اللطيفة وأسرارها

[نظم: الوافر]

إذا عـزَّتْ عـن الـشَّـرح الـمـعـانـي ... فـتـلـك لـطـائـفُ الـرَّحْـمٰـنِ فـيـنَـا
يُـشَـارُ بـهـا إلـيـنـا مـن بـعـيـدٍ ... فـنَـحْـيَـى مـن إشـارتـهـا سِـنـيـنَـا
وأن الله يـمـنـحـهَـا قـلـوبـاً ... يُـهَـيِّـمُـهـا الـهـوى حـيـنـاً فـحـيـنَـا
ومـا ذاك الـهَـوَى الـمـذمـومَ لـكـنْ ... هـو الـحـبُّ الـذي مـنـه ابْـتُـلـيـنَـا

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح القدس أن أهل الله يطلقون لفظ اللطيفة على معنيين: يطلقونه ويريدون به حقيقة الإنسان، وهو المعنى الذي البدن مركبه ومحل تدبيره وآلات تحصيل معلوماته المعنوية والحسية، ويطلقونه أيضاً ويريدون به كل إشارة دقيقة المعنى تلوح في الفهم لا تسعها العبارة وهي من علوم الأذواق والأحوال، فهي تعلم ولا تنقال لا تأخذها الحدود وإن كانت محدودة في نفس الأمر، ولكن ما يلزم من له حدّ وحقيقة في نفس الأمر أن يعبر عنه، وهذا معنى قول أهل الفهم: إن الأمور منها ما يحدّ ومنها ما لا يحدّ، أي تتعذر العبارة عن إيضاح حقيقته وحده للسامع حتى يفهمه وعلوم الأذواق من هذا القبيل، ثم يتوسعون في اللطائف فيسمون كل معنى دقيق عزيز المثال، وإن قيل ينفرد به أفراد الرجال لطيفة. ومن الأسماء الإلهية الاسم اللطيف، ومن حكم هذا الاسم الإلهيّ إيصال أرزاق العباد المحسوسة والمعنوية المقطوعة الأسباب من حيث لا يشعر بها المرزوق وهو قوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [سورة الطلاق: الآية ٣] ومن الاسم اللطيف قوله عليه السلام في نعيم الجنة: «**فِيها مَا لاَ عَينٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**» فاعلم وفقك الله أن اللطيفة التي تحصل للعبد من الله من حيث لا يشعر إذا أوصلها العبد بهمته لتلميذه، أو لمن شاء من عباد الله من حيث لا يشعر ذلك الشخص عن قصد من الشيخ حينئذ يقال فيه إنه صاحب لطيفة، ولا يصحّ هذا إلاّ للمتخلق بالاسم الإلهيّ اللطيف، فإن وقع الشعور بها فليس بصاحب لطيفة، وإن وقع للتلميذ أو للموصل إليه ذلك المعنى أنه وصل إليه من هذا الشيخ عن علم محقق لا عن

حسبان ولا حسن ظنّ ولا تخمين، فذلك الشيخ ليس بصاحب لطيفة في تلك المسألة، فإنه من شأن صاحب هذا المقام العزّة والمنع أن يشعر به أن ذلك من عنده على تفصيل ما وقع منه الإيصال لا على الإجمال، كما تعلم أن الرزاق هو الله على الإجمال، ولكن ما تعرف كيف إيصال الرزق للمرزوق على التفصيل والتعيين الذي يعلمه الحق من اسمه اللطيف، فإن علم فمن حكم اسم آخر إلهيّ لا من الاسم اللطيف وليس ذلك بلطيفة فلا بدّ من الجهل بالإيصال، ولهذا المعنى سميت حقيقة الإنسان لطيفة لأنها ظهرت بالنفخ عند تسوية البدن للتدبير من الروح المضاف إلى الله في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] وهو النفس الإلهيّ وقد مضى بابه فهو سرّ إلهيّ لطيف ينسب إلى الله على الإجمال من غير تكييف، فلما ظهر عينه بالنفخ عند التسوية وكان ظهوره عن وجود لا عن عدم فما حدث إلاَّ إضافة التولية إليه بتدبير هذا البدن مثل ظهور الحرف عن نفس المتكلم، وأعطى في هذا المركب الآلات الروحانية والحسية لإدراك علوم لا يعرفها إلاَّ بوساطة هذه الآلات، وهذا من كونه لطيفاً أيضاً فإنه في الإمكان العقليّ فيما يظهر لبعض العقلاء من المتكلمين أن يعرف ذلك الأمر من غير وساطة هذه الآلات وهذا ضعيف في النظر، فإنا ما نعني بالآلات إلاَّ المعاني القائمة بالمحل، فنحن نريد السمع والبصر والشم لا الأذن والعين والأنف وهو لا يدرك المسموع إلاَّ من كونه صاحب سمع لا صاحب أذن، وكذلك لا يدرك المبصر إلاَّ من كونه صاحب بصر لا صاحب حدقة وأجفان فإذا إضافات هذه الآلات لا يصحّ ارتفاعها، وما بقي لماذا ترجع حقائقها؟ هل ترجع لأمور زائدة على عين اللطيفة أو ليست ترجع إلاَّ إلى عين اللطيفة؟ وتختلف الأحكام فيها باختلاف المدركات والعين واحدة وهو مذهب المحققين من أهل الكشف والنظر الصحيح العقلي، فلما ظهر عين هذه اللطيفة التي هي حقيقة الإنسان كان هذا أيضاً عين تدبيرها لهذا البدن من باب اللطائف لأنه لا يعرف كيف ارتباط الحياة لهذا البدن بوجود هذا الروح اللطيف لمشاركة ما تقتضيه الطبيعة فيه من وجود الحياة التي هي الروح الحيواني فظهر نوع اشتراك، فلا يدري على الحقيقة هذه الحياة البدنية الحيوانية هل هي لهذه اللطيفة الظاهرة عن النفخ الإلهيّ المخاطبة المكلفة أو للطبيعة أو للمجموع إلاَّ أهل الكشف والوجود فإنهم عارفون بذلك ذوقاً، إذ قد علموا أنه ما في العالم إلاَّ حيّ ناطق بتسبيح ربه تعالىٰ بلسان فصيح ينسب إليه بحسب ما تقتضيه حقيقته عند أهل الكشف، وأما ما عدا أهل الكشف فلا يعلمون ذلك أصلاً فهم أهل الجماد والنبات والحيوان، ولا يعلمون أن الكل حيّ ولكن لا يشعرون، كما لا يشعرون بحياة الشهداء المقتولين في سبيل الله قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٤].

ثم إن تدبير هذه اللطيفة هذا البدن لبقاء الصحبة لما اقتنته من المعارف والعلوم بصحبة

هذا الهيكل ولا سيما أهل الهياكل المنوّرة وهنا ينقسم أهل الله إلى قسمين: قسم يقول بالتجريد عند مفارقة هذا البدن فإنها تكتسب من خلقها وعلومها ومعارفها أحوالاً وهيئات يعلمون بها في عالم التجريد من أخواتها فتطلب درجة الكمال، وهذا الصنف وإن كان من أهل الله فليس من أهل الكشف بل الفكر عليه غالب والنظر العقليّ عليه حاكم. والقسم الآخر من أهل الله وهم أهل الحق لا يبالون بالمفارقة متى كانت لأنهم في مزيد علم أبداً دائماً، وأنهم ملوك أهل تدبير لموادّ طبيعية أو عنصرية دنيا وبرزخاً وآخرة، وهم المؤمنون القائلون بحشر الأجساد وهؤلاء لهم الكشف الصحيح، فإن اللطيفة الإلهية لم تظهر إلاَّ عن تدبير وتفصيل وهيكل مدبر هو أصل وجودها مدبرة فلا تنفك عن هذه الحقيقة، ومن تحقق ما يرى نفسه عليه في حال النوم في الرؤيا يعرف ما قلناه، فإن الله ضرب ما يراه النائم في نومه مثلاً وضرب اليقظة من ذلك النوم مثلاً آخر للحشر، والأوّل ما يؤول إليه الميت بعد مفارقة عالم الدنيا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٦] ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٧]. فنحن في ارتقاء دائم ومزيد علم دنيا وبرزخاً وآخرة، والآلات مصاحبة لا تنفك في هذه المنازل والمواطن والحالات عن هذه اللطيفة الإنسانية.

ثم إن الشقاء لهذه اللطيفة أمر عارض يعرض لها كما يعرض المرض في الدنيا لها لفساد هذه الأخلاط بزيادة أو نقص، فإذا زيد في الناقص أو نقص من الزائد وحصل الاعتدال زال المرض وظهرت الصحة، كذلك ما يطرأ عليها في الآخرة من الشقاء، ثم المآل إلى السعادة وهي استقامة النشأة في أي دار كان من جنة أو نار، إذ قد ثبت أنه لكل واحد من الدارين ملؤها، فالله يجعلنا ممّن حفظت عليه صحة مزاج معارفه وعلومه، فهذا طرف من حقيقة مسمّى اللطيفة الإنسانية، بل كل موجود من الأجسام له لطيفة روحانية إلهية تنظر إليه من حيث صورته لا بدّ من ذلك وفساد الصورة والهيئة موت حيث كان.

وأما اصطلاحهم اللطيفة على المعنى الآخر الذي هو كل إشارة تلوح في الفهم لا تسعها العبارة فاعلم أن أهل الله قد جعلوا الإشارة نداء على رأس البعد وبوحاً بعين العلة، ولكن في التقسيم في الإشارات يظهر فرقان، وذلك أن الإشارة التي هي نداء على رأس البعد فهو حمل ما لا تبلغه العبارة، كما أن الإشارة للذي لا يبلغه الصوت لبعد المسافة وهو ذو بصر فيشار إليه بما يراد منه فيفهم، فهذا معنى قولهم: نداء على رأس البعد، فكل ما لا تسعه عبارة من العلوم فهو بمنزلة من لم يبلغه الصوت فهو بعيد عن المشير وليس ببعيد عمّا يراد منه، فإن الإشارة قد أفهمته ما يفهمه الكلام أو يبلغه الصوت، وقد علمت قطعاً أن المشير إذا كان الحق فإنه بعيد عن الحد الذي يتميز به العبد فهذا بعد حقيقي لا بدّ منه ولا يكون الأمر إلاَّ هكذا، فلا بدّ من الإشارة وهي اللطيفة فإنه معنى لطيف لا يشعر به، ثم إنه وإن لم يكن بعد فهو بوح بعين العلة وذلك أن الأصم يكون قريباً من المتكلم ولكن قربه لا تقع به الفائدة لأنه لا يصل إليه الصوت لعلة الصمم فيشير إليه مع القرب، كما يقول الحق على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فهذا غاية القرب مع وجود العلة وظهورها، وأكثر من هذا القرب ما يكون فإنه

هو مع قوله: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ففرّق وفصل، وأين هذا ممّن جعل قوله قوله وأنه المتكلم والقائل لا هو، فهذا قرب معلول فهو قولهم وبوح بعين العلة، ولهذا سمّيت لطيفة لأنها أدرجت الرب في العبد فقال تعالىٰ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] وكان المتكلم محمداً ﷺ بكلام الله، وقال تعالىٰ: «كنت سمعه وبصره ولسانه»، وهذا من ألطف ما يكون ظهور رب في صورة خلق عن إعلام إلهيّ لا تعرف له كيفية ولا تنفك عنه بينية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ثم إنه من هذا الباب حنين الأمهات إلى أولادها وعطفها عليهم، والحنين إلى الأوطان والشوق إلى الآلاف وهي مناسبات في الجملة بين الأمرين إذا أراد الشخص أن يعرف عللها لم يقدر على ذلك ولكن يقارب إلاَّ من حصل له التعريف الإلهيّ فذلك عالم بما هو الأمر عليه تلقاه من أصل الوجود بل من عين الوجود إذا لحق وهو الوجود ليس إلاَّ.

الباب السادس عشر ومائتان

في معرفة الفتوح وأسراره

[نظم: البسيط]

إن الفُتُوحَ هو الراحاتُ أجمَعُهَا ... وهو العذابُ فلا تَفْرَحْ إذا وَرَدَا
حتَّى تَرَى عَيْنَ ما يأتي به فإذا ... رأيتَه فاتَّخذْ ما شئْتَهُ سَنَدَا
الريحُ بُشْرَى من الرحمن بين يَدَيْ ... ما شاء من رحمةٍ فيها إذا قَصَدَا
وقد تكونُ عَذَاباً ما استعدَّ له ... كريح عادٍ بنَقْلٍ ثابتٍ شَهِدَا
فالمكرُ منه خفيٌّ فاستعدَّ له ... عسى تحوزُ بذاك الفوْزَ والرَّشَدَا

اعلم أيّدنا الله وإياك بما أيّد به الخاصة من عباده أن الفتوح عند الطائفة على ثلاثة أنواع: النوع الواحد فتوح العبارة في الظاهر قالوا: وذلك سببه إخلاص القصد، وهو صحيح عندي وقد ذقته وهو قوله عليه السلام: «**أوتيتُ جَوَامِعَ الكَلِم**» ومنه إعجاز القرآن، وقد سألت في الواقعة عن هذه المسألة فقيل لي: لا تخبر إلاَّ عن صدق وأمر واقع محقق من غير زيادة حرف أو تزوير في نفسك، فإذا كان كلامك بهذه الصفة كان معجزاً. وأمّا النوع الثاني من الفتوح فهو فتوح الحلاوة في الباطن قالت الطائفة: هو سبب جذب الحق بأعطافه. وأما النوع الثالث فهو فتوح المكاشفة بالحق قالت الطائفة: هو سبب المعرفة بالحق، والجامع لذلك كله أن كل أمر جاءك من غير تعمّل ولا استشراف ولا طلب فهو فتوح ظاهراً كان أو باطناً، وله علامة في الذائق الفتوح وهي عدم الأخذ من فتوح الغير أو نتائج الفكر، ومن شرط الفتوح أن لا يصحبه فكر ولا يكون نتيجة فكر، وكان شيخنا أبو مدين يقول في الفتوح: اطعمونا لحماً طرياً كما قال الله تعالىٰ: لا تطعمونا القديد أي لا تنقلوا إلينا من الفتوح إلاَّ ما يفتح به عليكم في قلوبكم، لا تنقلواإلينا فتوح غيركم يرفع بهذا همة أصحابه لطلب الأخذ من الله تعالىٰ، فاعلموا يا إخواننا أن مقام الفتوح محتاج إلى ميزان حقيقي وهو مقام فيه مكر خفيّ

واستدراج، فإن الله قد ذكر الفتح بالبركات من السماء والأرض وذكر الفتح بالعذاب هذا حتى لا يفرح العاقل بالفتح عند فتح الباب حتى يرى ما يفتح له، قال بعضهم عند الموت: هذا باب كنت أقرعه منذ كذا وكذا سنة هو ذا يفتح لي ولا أدري بماذا قالت عاد، هذا عارض ممطرنا حجبتهم العادة قيل لهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٢٤] فلا تغتر بالفتح إذا لم تدر ما ثمة. ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤].

ولما كان الفتح الإلهيّ على نوعين في العالم: فتح عن قرع وفتح ابتداء لا عن قرع، فأما فتح القرع فيعلم أهل الله بماذا يفتح فإن القرع هو دليلهم على ما يفتح به وليس مطلوب القوم بالفتوح هذا النوع وإنما مطلوبهم بالفتوح ما يكون ابتداء من غير تعمل لذلك، وإن كان يطلبه العمل من العبد الذي هو عليه بحكم التضمن، ولكن ما يخطر للعبد العامل ذلك جملة واحدة فيكون الفتح في حقه إذا ورد ابتداء، وإذا ورد الفتح على اختلاف ضروبه كما قررناه تعين على هذا العبد إقامة الوزن بالقسط كما أمره الله في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٩] فيقيم الوزن هذا العبد بين حاله الذي هو عليه وبين الفتح، فإن كان الفتح مناسباً للحال فهو نتيجة حاله فيقيم عند ذلك وزناً آخر وهو أن ينظر في مقدار الفتح وقوّة الحال فإن ساواه فهو نتيجة بلا شك، فليحذر هذا العبد مكر الله في هذا الفتح فإنه نتيجة في غير موطنها، فربما عجلت له عطيته وانقلب إلى الدار الآخرة صفر اليدين، فإن كان الفتح ممّا يعطي أدباً وترقياً فليس بمكر بل هو عناية من الله تعالىٰ بهذا العبد حيث زاده فتحاً يؤدّيه إلى زيادة خير عند الله تعالىٰ. وإن أقام الوزن بين مقدار الفتح وقوّة الحال ورأى الفتح فوق الحال فينزل منه مقدار قوّة الحال وما زاد فذلك هو الفتوح الذي ذكرته الطائفة، هذا أصل ينبغي أن يعلم ويتحقق وله شواهد يعلمها الذائق له، وإن لم يدخل الفتح في ميزان الحال جملة واحدة وبقي حاله موفوراً عليه كان ذلك الفتح هو الفتح المطلوب عند القوم.

وبعد أن تقرر هذا فلنذكر كل نوع من أنواع الفتوح، أما الفتوح في العبارة فإنه لا يكون إلاّ للمحمدي الكامل من الرجال ولو كان وارثاً لأي نبي كان، وأقوى مقام صاحب هذا الفتح الصدق في جميع أقواله وحركاته وسكونه إلى أن يبلغ به الصدق أن يعرف صاحبه وجليسه ما في باطنه من حركة ظاهرة، لا يمكن لصاحب هذا الفتح أن يصوّر كلاماً في نفسه ويرتبه بفكره ثم ينطق به بعد ذلك، بل زمان نطقه زمان تصوّره لذلك اللفظ الذي يعبر به عمّا في نفسه زمان قيام ذلك المعنى في نفسه وصورته، وليس لغير صاحب هذا الفتح هذا الوصف، ويكون التنزّل على صاحب هذا الفتح من المرتبة التي نزل فيها القرآن خاصة من كونه قرآناً لا من كونه فرقاناً ولا من كونه كلام الله، فإن كلام الله لا يزال ينزل على قلوب أولياء الله تلاوة، فينظر الوليّ ما تلى عليه مثل ما ينظر النبي فيما أنزل عليه فيعلم ما أريد به في تلك التلاوة، كما يعلم النبي ما أنزل عليه فيحكم بحسب ما يقتضيه الأمر هكذا هو الشأن، ولهذا التنزّل في قلب الوليّ حلاوة نذكرها في النوع الثاني من الفتح، فلا تقع التلاوة لصاحب هذا الفتح إلاّ من كون المتلوّ قرآناً لا غير، فيفتح الله له في العبارة فيعرب بقلمه أو بلفظه عمّا في نفسه بحيث أن

يوضح المقصود عند السامع إذا كان السامع ممّن ألقى السمع، ومن علامة صاحب هذا الفتح عند نفسه استصحاب الخشوع وتوالي الاقشعرار عليه في جسده بحيث أن يحسّ بأجزائه قد تفرقت، فإن لم يجد ذلك في نفسه فيعلم أنه ليس ذلك الرجل المطلوب ولا هو صاحب هذا الفتح، وهذا فتح ما رأيت له في عمري فيمن لقيته من رجال الله أثراً في أحد، وقد يكون في الزمان رجال لهم هذا الفتح ولم ألقهم غير أني منهم بلا شك عندي ولا ريب فللّه الحمد على ذلك، وسيرد في فصل المنازل في منزل القرآن فرقان ما بين أسمائه، فإنه القرآن والفرقان والنور والهدى وغير ذلك من الأسماء الموضوعة له، ومهما تصوّر المتكلم المعبر عمّا في نفسه ما يتكلم به قبل العبارة ويرتب التعبير عن الأمر في نفسه ويحسنه ويتمعنه بحيث أن يحسن عند كل من يسمع تلك العبارة فليس هو بصاحب فتح، فإنه من شأن الفتوح أن يفجأ ويأتي بغتة من غير شعور، هكذا كل فتوح يكون في هذا الطريق. ثم إنه من حقيقة صاحب هذا الفتح شهود ما يعبر عنه وشهود من يسمع منه وبما يسمع منه، فيعطيه من العبارة ما يليق بذلك السمع الخاص، فإن لم يكن بهذا الوصف فليس هو بصاحب فتح في العبارة، وهذا معنى قولنا إن سببه الإخلاص.

النوع الثاني من الفتوح الذي هو فتح الحلاوة في الباطن وهو سبب جذب الحق بأعطافه، فهذه الحلاوة وإن كانت معنوية فإن أثرها عند صاحبها يحسّ به كما يحسّ ببرد الماء البارد، وصورة الإحساس بها كصورة الإحساس بكل محسوس، وطريقها في الحسّ من الدماغ ينزل إلى محل الطعم فيجدها ذوقاً، فيجد عند حصول هذا الذوق استرخاء في الأعضاء والمفاصل وخدراً في الجوارح لقوّة اللذة واستفراغاً لطاقته، ومن أصحاب هذا الفتح من تدوم معه هذه الحلاوة ساعة ويوماً، وأكثر من ذلك ليس لبقائها زمان مخصوص فإنه اختلف علينا بقاؤها، فوقتاً نزلت علينا في قضية فدامت معنا ساعة ثم ارتفعت ثم نزلت في واقعة أخرى فدامت أياماً ليلاً ونهاراً حينئذ ارتفعت، فإذا ارتفعت زال ذلك الخدر من الجوارح، وهذه الحلاوة لا يمكن أن يشبهها لذة من اللذات المحسوسة لأنها غريبة لكونها معنوية في غير مادة محسوسة، فما تشبه حلاوة العسل ولا حلاوة الجماع ولا حلاوة شيء محسوس، كما أنها أيضاً لا تشبه حلاوة حصول العلوم المعشوقة للطالب بل هي أعلى وأجلّ، وأثرها في الحسّ أعظم من أثر الحلاوة المركبة في المواد المحسوسة كحلاوة كل حلو، وتميزها عن لذات المعاني إنما هو بما لها من الأثر في الحسّ فافهم ذلك.

ولما سماني الحق عبداً بأسمائه وفتح لي في هذه الحلاوة ما رأيت أشد أثراً منها في الاسم العزيز، فلما ناداني بيا عبد العزيز ومعنى ذلك أن يقام الإنسان عبداً في كل اسم إلهيّ ليحصل الفرقان بين الحقائق لتحصيل العلوم الإلهية وجدت لهذا النداء من الحلاوة ما لم أجد لغيره من الأسماء، ونظرت في سبب ذلك فوجدت أن مقام العزّة يقتضي أن يكون الأمر كذلك، وهذه الحلاوة وإن تميزت عن حلاوة المحسوسات والمعاني فهي متنوعة في نفسها، فحلاوة أمر مّا منها خلاف حلاوة أمر آخر يجد الذائق الفرق بينهما كحلاوة السكر يجد

الإنسان الفرق بينها وبين حلاوة العسل وإن اشتركا في الحلاوة وكذلك الأمر هنا، ولا تحصل هذه الحلاوة لأحد من أهل الله إلاَّ بالعطف الإلهيّ، فإذا ورد العطف الإلهيّ على العبد رزقه الله وجدان هذه الحلاوة في باطنه فيجذبه إليه تعالىٰ لأن النفس مجبولة على الميل إلى كل ما تستلذه، ومن أشدّ حلاوة من هذا الفتح مرّ عليّ في هذا الزمان لما تلى عليّ ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [سورة القلم: الآية ١] فلم أجد لذة أعظم من لذة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: الآية ٤] فهذه أعظم بشرى وردت عليّ. ثم إنه تليت عليّ مرتين في زمانين متتابعين فزادني إعجاباً بها تكرار التلاوة عليّ بها، وتكرار التلاوة فينا مثل تكرار نزول الآية أو السورة على الرسول مرتين، كما جاء في نزول سورة والمرسلات وغيرها أنها نزلت مرتين، فإذا عطف الحق على عبده بهذه الحلاوة فجذبه إليه بها ليمنحه علماً لم يكن عنده فإن لم يجد علماً فليس بجذب ولا تلك حلاوة فتح فذلك من علامات فتح الحلاوة، وإنما يفعل الحق ذلك لتكون حركة العبد معلولة لأنه معلول في الأصل وذلك لإقامة حجة الله عليه، فإن العبد يزهو بالقوّة الإلهية التي عنده، فربما يرى أن له تنزيهاً بانجذابه إلى الحق دون غيره من العبيد، ويزعم أن ذلك إيثار منه لجناب الحق، فجعل الله انجذابه عن حلاوة، فإن زها كما قلنا قامت الحجة علينا بأنه ما أخذ به إلى الحق إيثار جناب الحق بل وجدان الحلاوة والالتذاذ فلنفسه سعى ولله المنة وحده لا منة لأحد على الله، وله الحجة البالغة لا حجة لأحد على الله، وكل من قال بغير هذا من أهل الله فإنما قالها شطحاً لا حقيقة لغلبة الحال عليه فهو لسان حاله لا لسانه، فإذا أفاق قال: سبحانك تبت إليك.

فإن قلت: فما معنى الجذب هنا مع كونه معه؟ قلنا: ليس أحد مع الحق من حيث ما هو الحق لنفسه وإنما هم مع الحق من حيث ما أقامه الحق فيه، فيكون من الحق الجذب بهذه الحلاوة من الحال التي أقامه الحق فيها لحال آخر يفيده فيه علماً لم يكن عنده ذوقاً هكذا على الدوام إلى ما لا نهاية له، وسمّاه جذباً لأنّ العبد لا بدّ أن يتعشق بحاله ويألفه فلا ينجذب عنه إلاَّ بما هو أعجب إليه منه، فلهذا فتح له في الحلاوة لتخلصه ممّا وقف معه، فإذا انجذب إلى الحق صحبه حاله الذي كان عليه أيضاً لأنه لا يفارقه إذ المعلوم لا يجهل فبقي حكم الجذب، إنما متعلقه أن لا يتركه يقف مع حاله فيقتصر عليه فيحدث له التشوّق إلى تحصيل أمر آخر ليس عنده مع صحبته لما كان عليه من الحال فاعلم ذلك. وليس كل أهل الله على هذا القدم الذي ذكرناه، وإنما هذا الذي ذكرناه حال الأكابر منهم، فإن جماعة من أهل الله يشغلهم ما رجعوا إليه عمّا كانوا عليه، فإن الله قد رفع بعضهم على بعض وفضل كل صنف بعضه على بعض فقال: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٍۖ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٥٥].

واعلم أن أصل وجدان هذه الحلاوة فينا من الجناب الإلهيّ من الحلاوة الإلهيّة التي يتضمنها صريح قوله عليه السلام: «لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ» الحديث، فمن هناك نشأت هذه الحلاوة في باطن أهل الله، فإن فهمت فقد رميت بك على الطريق، ولا يعرف هذا إلاَّ

العارفون بالله المنعوت في الشرع لا المدلول عليه بالعقل، وهكذا جميع ما يأتي من مثل هذا الباب، وليس للضحك الإلهيّ ولا التبشبش مدخل في هذه الحلاوة بل ذلك للفرح فلا تخلط ولا تقس فإن طريق الله لا تدرك بالقياس، فما كل أمر يشبه أمراً له حكم ذلك المشبه ليس الأمر كذلك، وإنما له منه حكم ما وقع الشبه به كالحمصة تشبه اللؤلؤة في الاستدارة وما لكل واحدة منهما حكم الأخرى، كما تختلف العلل أيضاً مع أحدية المعلول إذا كان المعلول محمولاً كالاستدارة التي وقع التمثيل بها وهي أمر محمول في المستدير، كان المستدير ما كان فعلة استدارة الفلك ليست علة استدارة اللؤلؤ، فاختلفت العلل لاختلاف محال المعلول والمعلول الاستدارة، فاحذر من القياس في العلم الإلهيّ، بل إن تحققت الأمور لم يصحّ وجود القياس أصلاً، وإنما هو من الأمور التي غلط فيها أهل النظر في أن حملوا حكم المقيس عليه على المقيس، فهذا قد بيّنا في هذا النوع من الفتح قدر ما تقع به الكفاية لمن أراد تحصيله ذوقاً من نفسه فإذا ذاقه علم ما يحتمله من البسط.

وأما النوع الثالث من الفتوح وهو فتوح المكاشفة الذي هو سبب معرفة الحق اعلم أوّلاً أن الحق أجل وأعلى من أن يعرف في نفسه لكن يعرف في الأشياء، فالمكاشفة سبب معرفة الحق في الأشياء والأشياء على الحق كالستور، فإذا رفعت وقع الكشف لما وراءها فكانت المكاشفة فيرى المكاشف الحق في الأشياء كشفاً، كما يرى النبي ﷺ من وراءه من خلف ظهره فارتفع في حقّه الستر وانفتح الباب مع ثبوت الظهر والخلف فقال: «**إني أَرَاكُم مِن خَلْفِ ظَهري**» وقد ذقنا هذا المقام ولله الحمد فلا يعرف الحق في الأشياء إلاّ مع ظهور الأشياء وارتفاع حكمها، فأعين العامة لا تقع إلاّ على حكم الأشياء، والذين لهم فتوح المكاشفة لا تقع أعينهم في الأشياء إلاّ على الحق، فمنهم من يرى الحق في الأشياء، ومنهم من يرى الأشياء والحق فيها وبينهما فرقان، فإن الأوّل ما تقع عينه عند الفتح إلاّ على الحق فيراه في الأشياء، والثاني تقع عينه على الأشياء فيرى الحق فيها لوجود الفتح، وأصل ظهور هذا الفتح من الجناب الإلهيّ حالة قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] فيرفع الابتلاء حجاب الدعوى الذي كان يدعيه الكون، فيكون الكشف وهو التعلّق الخاص من العلم الإلهيّ بما وقع الأمر عليه، فعلم صدق دعوى الكون من كذبه، فمن هذه الصفة الإلهيّة ظهر فتح المكاشفة إذ لا يظهر في الوجود حكم إلاّ وله أصل في الجناب الإلهيّ إليه استناده، ولا يصحّ أن يكون الأمر إلاّ هكذا، فإنه قد ذكرنا في غير ما موضع أن علم الله بالأشياء من علمه بنفسه فخرج العالم على صورته فلا يشذ عنه حكم أصلاً، فهو سبحانه رب كل شيء ومليكه، فالأشياء مرتبطة به في كل حال، وما هو في كل حال مرتبط بالأشياء، ولهذا غلط من غلط من أصحابنا ومن بعض النظار في أنهم عرفوا الله ثم عرفوا الأشياء فهم عرفوا الله من حيث أنه واجب الوجود لذاته وأنه لا يصحّ أن يكون ثم واجب الوجود لذاته فصحّت أحدية واجب الوجود، هذا كله صحيح لا نزاع فيه عند المنصف، ولكن ليس المقصود إلاّ علم كونه رباً لهذا العالم، هذا لا يعرفه ما لم تتقدم له معرفته بالعالم، هذا ما يعطيه علم الكمل من

رجال الله من أهل الحق ولهذا قال عليه السلام: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» ما قال: من عرف ربه عرف نفسه، لأنه من حيث نفسه واجب الوجود وله الغنى المطلق، فلا التفات للغنى المطلق إلى غير ذاته، إذ لو التفت لم يصحّ ما قرره فلا يعلم أنه بإله للعالم، فإذا أراد أن يعلم أنه إله العالم نظر في العالم فرأى فيه حقيقة الافتقار بإمكانه إلى المرجح، فلم يجد إلاً هذا الواجب الوجود لذاته الذي أثبته بدليله قبل أن ينظر في هذه المسألة الأخرى فأضافه إليه فقال: هذا الواجب هو رب هذا العالم، وبغير هذا الطريق في النظر فلا يعرف أنه إله العالم.

ثم إن أهل النظر انحجبوا عمّا ثبت في نفوسهم من افتقارهم حين صرفوا النظر إلى معرفة واجب الوجود لذاته، فإن ثبت عندهم بالدليل أظهر لهم إمكانهم وافتقارهم من حيث لا يشعرون أن ذلك الواجب الوجود هو إلههم فقالوا: علمنا بالله متقدم على علمنا بالعالم وصدقوا ما قالوا علمنا بإلهنا أنه إلهنا متقدم على علمنا بنا فلم يشعروا بما وقعوا فيه من الغلط وعلمت بذلك الأنبياء فجعلت العالم دليلاً عليه، وأعظم فتح المكاشفة في مثل هذه المسألة أن يرى الحق فيكون عين رؤيته إياه عين رؤيته العالم للارتباط المحقق فيكشف العالم من رؤيته الله تعالىٰ، ولكن هذه الدقيقة ليست لأهل النظر لأن النظر ليس في قوّته ذلك وإنما هو من خصائص الكشف، هذا أبلغ ما يمكن أن تحقق به هذه المسألة من تقدّم العلم بالله من كونه إلهاً للعالم على العلم بالعالم، فهذا لا يعرف إلاً من فتوح المكاشفة، وما رأيت أحداً من المتقدّمين من أهل الله تعالىٰ نبّه في هذا الفتوح الكشفيّ على هذه المسألة على التعيين، فأحمد الله تعالىٰ حيث أجرى على لساني الإبانة عن هذه المسألة فإنه ما كان في نفسي أن أشير إليها فأحرى أن أصرّح بها، وإنما الغيرة غلبت عليّ والحرص على نصح العباد الذين أمرني الحق بنصحهم على التخصيص أدّاني إلى شرح هذا القدر في فتوح المكاشفة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع عشر ومائتان
في معرفة الرسم والوسم وأسرارهما

[نظم: السريع]

الـرَّسْـمُ مـا أعـطَـيْـتَـه مـن أَثَـرْ ... والـوَسْـمُ مـا دلَّ عـلـيـه الـخَـبَـرْ
أن ديـاراً قـد عـفـى رسـمـهـا ... مـا فـيـهـمـا لـعـاقـلٍ مُـعْـتَـبَـرْ
والـوَسْـمُ لـلـتـمـيـيـز إن كـنـت ذا ... مـعـرفـةٍ وصـحَّ مـنـك الـنَّـظَـرْ
وعـنـهـمـا أخـبَـرَنـا قَـوْلُـه ... سـيـمـاهُـمُ فـي وجـهـهـم مـن أَثَـرْ
فـي أزل كـان لـهـم كـلُّ مـا ... أظـهـره ربُّ الـقـضـاء والـقَـدَرْ
فـسـلـم الأمـرَ إلـى عِـلْـمِـهِ ... وكُـن بـه فـي حِـزب مَـنْ قـد شَـكَـرْ
فـإنـه أَوْلَـى بـنـا لا تَـكُـنْ ... فـي حـزب مـن يَـجْـحَـدُ أو مـن كَـفَـرْ

اعلم أن الوسم والرسم عند الطائفة نعتان يجريان في الأبد بما جريا في الأزل، يريدون

بما سبق في علم الله لا أنهما جريا في الأزل ويستبين تحقيق الإشارة إليهما، فالوسم بالواو من السمة وهي العلامة الإلهيّة على العبد أو في العبد تكون دلالة على أنه من أهل الوصول والتحقق. وأما الرسم بالراء فهو أثر الحق على العبد الظاهر عليه عند رجوعه من حال مّا قد ادعاه أو مقام فيصدقه هذا الأثر الظاهر عليه في دعواه، فاعلموا أيّدنا الله وإياكم بروح منه أن الوسم فينا كالأسماء لله دلالات عليه ليعرف بها، فلما كثرت المعاني وتعددت نسبتها جعل للذات المنسوبة إليها هذه المعاني أسماء بإزاء كل معنى اسماً يدل عليه ويعرف به لتحصيل الفوائد من العلماء بذلك المتعلقة بها، فجعل الله لكل حال ومقام علامة تسمى وسماً تدل على ذلك المقام والحال دلالة ترفع الإبهام والإجمال والاشتراك، وتكون تلك الدلالة نعتاً لذلك المعنى الذي له الحكم من هذه الذات، فلا يزال يجري في الأبد أي يظهر دائماً كما لم يزل في الأزل.

وهنا نكتة بديعة وذلك أنا قد قدمنا أن العالم على صورة الحق ومن علمه بنفسه تعلق العلم بالعالم فكان العالم مشهوداً للحق أزلاً وإن لم يكن موجوداً، والوسم من جملة العالم على حكمه ومرتبته فهو مشهود له أزلاً يجري بحسب ما هو عليه في الأبد، هذا هو تحقيق شأنه وكذلك الرسم، فجميع ما هو العالم عليه في الأبد إنما هو على صورة ما ظهر به في الأزل إذ لا يختلف شهود الحق فيه، وقد كان مشهوداً له في الأزل حيث لم يكن موجوداً عينياً، فقد شاهد هذا الرسم والوسم أزلاً يجريان في العالم كما هما في الأبد عليه فافهم ذلك، وليس الوسم ولا الرسم بجعل جاعل في الأصل بل ظهرا هنا في الأبد بجعل جاعل وهو الله تعالىٰ، ولا بدّ لكل حال ومشهد ومقام من أثر فيمن قام به ذلك لأثر هو الرسم، فالأثر من حيث ظهوره في المؤثر فيه بفتح الثاء يسمى رسماً وهو بعينه من حيث أنه دلالة على صدق صاحب ذلك الحال أو المشهد أو المقام أو ما كان يسمى وسماً، فعين مسمّى الوسم هو عين مسمّى الرسم، ويختلفان من حيث الحكم، فالوسم عين الرسم من وجه وليس هو عينه من وجه إذا اعتبرت الحكم، فالرسم في الجناب الإلهيّ الذي صدر عنه هذا الرسم في الكون هو كون الحق يظهر فيه أثر الإجابة عند سؤال السائلين إذ لا يكون مجيباً إلاّ عن سؤال، فلما أوجب السؤال الإجابة كانت الإجابة أثراً في المجيب فهذا هو الرسم الإلهيّ ودليلنا عليه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] ولما كان الأمر في نفسه بهذه المثابة في الجناب الإلهيّ ظهر في العالم الأثر أيضاً إذ لو لم يكن كذلك لظهر في العالم أمر لا مستند له في الجناب الإلهيّ فيناط به الجهل به إذ قد تقرّر أن علمه بالعالم علمه بنفسه، فلهذه الحقيقة الإلهيّة استناد الرسم والوسم، وقد يكون قول الطائفة في الوسم والرسم بما جريا في الأزل حكمهما في الجناب الإلهيّ إذ كان العالم ظاهراً بصورة حق، ولا يحتمل البسط في هذا الباب أكثر من هذا، وأمّا التفصيل فيه فيطول بطول العالم والعالم لا يتناهى الأثر فيه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن عشر ومائتان
في معرفة القبض وأسراره على الاختصار والإجمال

[نظم: السريع]

لـلـقَـبْـضِ أسـبـابٌ ولـكـنَّـهـا ... تُـعْـلَـمُ أوقـاتـاً وقـد تُـجْـهَـلُ
فـكـلُّ مـا تُـعْـلَـمُ أسـبـابُـه ... فـحُـكْـمُـه الـسَّـبَـبُ الأوّلُ
وكـلُّ مـا تُـجْـهَـل أسـبـابُـه ... فـلا تَـقُـلْ أدنـى ولا أفـضَـلُ
فـأفـضـلُ الـقَـبْـضِ إلـيـه الـذي ... يـعـرفـه الأمْـثَـلُ فـالأمْـثَـلُ
كَـقَـبْـضِـهِ الـظـلَّ إلـيـه وذا ... عـلـيـه أهـلُ الله قـد عَـوَّلـوا

اعلم أن الطائفة قالت في القبض إنه عبارة عن حال الخوف في الوقت، فإن الأسف في الماضي والخوف والحذر في المستقبل والقبض للمعنى الحاصل في الوقت، وبعضهم نزع في القبض إلى نتائجه فقال: القبض وارد يرد على القلب يوجب إشارة إلى عتاب أو زجر باستحقاق تأديب. وقال بعضهم: القبض حال ينتجه الخوف وقد يكون الخوف مشعوراً به وقد لا يكون، فاعلموا أيّدكم الله أن القبض في الجناب الإلهيّ الذي عنه صدر القبض في الكون هو ما اتصف به الحق سبحانه من صفات المخلوقين ولا سيما في قوله: «ووسعني قلب عبدي»، ثم تجليه لكل معتقد فيه في صورة اعتقاده فيه فصار الحق كأنه محصور مقبوض عليه بالاعتقادات، وهي العلامة التي بين الله وبين عامة عباده، ولو لم يكن كذلك لم يكن إلهاً وهو إله العالم بلا شك فلا بدّ من اتصافه بهذه السعة والعالم متباين الاستعداد، ولا بدّ له من الاستناد، فلا يزال يعبد كل جزء من العالم الله من حيث استعداده، فلا بدّ أن يتجلى له الحق بحسب استعداده للقبول ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] فقد قبض بكلتا يديه على ما اعتقده ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] فلو كان تسبيحهم راجعاً إلى أمر واحد لم يجهل أحد تسبيح غيره. وقد قال الله: إن تسبيح الأشياء لا يفقه، فدل على أن كل شيء يسبح إلهه بما تقرر عنده منه ممّا ليس عند الآخر. ولما كان في قضية العقل أن الله عزّ وجلّ لا يكون محصوراً وفي قضية الوقوع وجود الحصر وصف نفسه في آخر الآية بأنه حليم، فلم يؤاخذ مع القدرة من زعم أن الحق على وصف كذا خاصة وما هو على وصف كذا، ووصف نفسه في آخر هذه الآية بأنه غفور لما ستر به قلوبهم عن العلم به إلاّ من شاء من عباده فإنه أعطاه العلم به على الإجمال وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] لأنه عين كل شيء بدليل العلامة التي ثبتت عنه، والشيء لا يكون مثلاً لعينه لأنه عين كل شيء في كل ظل وكل فيء، وكل طائفة سوى أهل الله قد نزهته أن يكون كذا ولهذا أخبر عنهم فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ أي ينزه ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي بالثناء عليه والتنزيه البعد، وما ذكر الله أنه أمرهم بتسبيحه بل أخبر أنهم يسبحون بحمده، فاجعل بالك لقول الله في تلاوتك لما يقوله ربك عن نفسه وما يقوله العالم عنه وفرّق ولا تحتج فيه إلاّ بما قاله عن نفسه لا بما

يحكيه من قول العالم فيه تكن من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته. وحقيقة حال القبض الإلهيّ في إخباره تعالىٰ عن نفسه: « ما تردّدت في شيء أنا فاعله تردّدي في قبض عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بدّ له من لقائي»، فوصف نفسه بالكراهة وكل كاره فحاله القبض، فافهم ما نبهتك عليه تعثر على الحق.

وقد حصل في هذا الخبر أمران موجبان للقبض وهما: التردّد والكراهة والغضب المنسوب إليه والغضب حكم قبض بلا شك، ولكن لما كان الجناب الإلهيّ في اعتقاد العامة يضيق المجال فيه الذي وسعه الشارع لم نقدر على إيضاح الأمر على ما هو عليه ذلك الجناب الإلهيّ إذ له الاتساع الذي لا ينبغي إلا له ومن أسمائه الواسع وهو من أعظم الأسماء إحاطة وهو الاسم الذي يتضمن الأسماء الإلهيّة التي تطلبها الأكوان كلها لاتساعه وهي أكثر من أن تحصى كثرة، وأعيانها معلومة عند أهل الله تعالىٰ في قوله عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فمن كحل عين بصيرته بكحل الكشف علم ما قلناه، وكل أثر وخبر ورد فيه القهر الإلهيّ فإنه من باب القبض الإلهيّ، ومن هناك ظهر القبض فينا، فمن وفى مقام القبض حالاً وذوقاً كان قبضه إلهياً بلا شك.

وأما القبض الذي هو عن حال الخوف كما يراه بعضهم فذلك قبض خاص يتعلق بالنفس وسواء خاف صاحبه على نفسه أو على غيره، فإن كان خوفه على غيره صحبه الإشفاق إذ كان آمناً على نفسه، وكخوف الأنبياء على أممهم يوم القيامة فهم وأمثالهم ممّن يحزنهم الفزع الأكبر من أجل أممهم وهم ممّن لا يحزنهم الفزع الأكبر من أجل أنفسهم، والقبض حال خوف أبداً إلاّ القبض المجهول سببه فإنه أيضاً مجهول الخوف، فإذا ورد القبض المجهول على قلب العارف سكن تحته ولم يتحرك رأساً حتى ينقدح له السبب، فيعمل عند ذلك بحسب ما تقتضيه حقيقة ذلك السبب من الأثر فيه في أي جانب ظهر من حق وخلق وهو من المقامات المستصحبة إلى أول قدم يلقيه في الجنة فيرتفع عنه ولا يتصف به أبداً، كما يرتفع بعض حكم الأسماء الإلهيّة الموجودة هنا وفي الآخرة بانقضاء مدة حكمها فلا تجد قابلاً فترتفع بارتفاع حكمها إذ كانت عين حكمها، ومن هنا تعلم أن أعيان الأسماء الإلهيّة هي أعيان أحكامها، ولذلك تبقى أعيانها ما بقيت أحكامها وتفنى بفناء أحكامها، فلو كانت الأسماء الإلهيّة راجعة إلى ذات المسمّى موجودة قائمة بها لم يصحّ فناؤها ولا فناء أحكامها، ولو كانت أيضاً راجعة إلى ذات المسمّى لكان حكمها كذلك فلم يبق أن تكون إلاّ لنسب وإضافات لا وجود لها في عينها، فلذلك قلنا إنها عين أحكامها فتزول بزوال الحكم وتثبت بثبوته.

الباب التاسع عشر ومائتان
في معرفة البسط وأسراره

[نظم: البسيط]

البَسْطُ حالٌ ولكن ليس يَدْريهِ		إلاّ الإلهُ الذي أقامنا فيهِ

لـه الـتَّـحَـكُّـمُ فـي الأكـوان أجْـمَـعِـهـا بـه الـوجـودُ الـذي تـبـدو مَـعَـانـيـهِ
ولـيـس يَـحْـجُـبـه عـنـا سـوى قَـدَرٍ وهـو الـذي عـن عيـونِ الـخَلْقِ يُخْفيهِ
الـبَـغْـيُ حـكـمٌ لـه إن كـنـتَ ذا نـظـرٍ جـاء الـكـتـابُ بـه لـو كـنـتَ تَـدْريـهِ
في عـالـم الـخَلْق هذا الحكـمُ ليس له فـي عـالـم الأمـر هـذا فـي تَـجَـلِّـيـهِ

اعلم وفّقك الله أن البسط عند الطائفة عبارة عن حال الرجاء في الوقت، وقال بعضهم: القبض والبسط أخذ وارد الوقت بحكم قهر وغلبة، والبسط عندنا حالٌ حكم صاحبه أن يسع الأشياء ولا يسعه شيء، حقيقة البسط لا تكون إلاّ لرفيع المنزلة رفيع الدرجات، فينزل بالحال إلى حال من هو في أدنى الدرجات فيساويه وهو في الجناب الإلهيّ في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ﴾ [سورة المزمل: الآية ٢٠] وأعظم في النزول ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٥] ولأجل هذا البسط قال من قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] وهذا القول تصديق قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الشورى: الآية ٢٧] ومن البسط الإلهيّ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٢٨] ولولا البسط الإلهيّ ما تمكن لأحد من خلق الله أن يتخلق بجميع الأسماء الإلهيّة، وأعظم تعريف في البسط الإلهيّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ [سورة النجم: الآية ٣٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فلما تمكن مثل هذا البسط في قلوب العباد ربما أثر في قلوبهم بغياً فتعدوا منزلتهم، فلما علم الحق أنه ربما أثر ذلك مرضاً في قلوب بعض العباد جعل دواءه تمام الآية وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] فأنزل الداء والدواء وهذا من نشر رحمته لأن الأدنى في مرتبة تقتضي أن لا يكون صاحب بسط، فإن انبسط فليس له إلاّ أن يجول في غير ميدانه فيكون البسط من الأدنى سوء أدب. ولما علم الحق هذا أمر عباده بالتخلق بمكارم الأخلاق وأثنى عليهم بها وجعل ذلك من أعظم أعمال العباد فظهروا بها عن الأمر الإلهيّ فكان بسطهم عبادة وقربة إلى الله، وهذا من نشر رحمته واتساع مغفرته وعموم تفضله، فبسط العباد بسط عن قبض وبسط الحق لا عن قبض بل له البسط ابتداء، ثم بعد ذلك يكون القبض الإلهيّ وهو قوله ﷺ: «**إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ سَبَقَت غَضَبَهُ**» فمن رحمته وبسطه أوجد الخلق، ولا يكون حكم القبض والبسط إلاّ مع ثبوت الأغيار، ولولا الأغيار لم يتحقق بسط ولا قبض فتحقق ذلك.

واعلم أن أعظم بسط العبد أن يكون خلاقاً، فإن تأدّب في هذا البسط فهو المذكور الداخل في عموم قوله تعالىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] فأضاف الحسن إلى الخالقين غير أن الله أحسن الخالقين إذ كان هذا النعت من خصوص وصف الإله لأنه قال تعالىٰ في الردّ على عبدة الأوثان: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ﴾ [سورة النحل: الآية ١٧] فنفى الخلق عن الخلق فلو لم يرد عموم نفي الخلق عن الخلق لم تقم به حجة على من عبد فرعون وأمثاله ممّن أمر من المخلوقين أن يعبد من دون الله، ولم يكن هؤلاء ممّن يدخل في عموم الخالقين من قوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] فإنهم لم يتصفوا بالإحسان

في الخلق فإن الإحسان في العباد أن تعبد الله كأنك تراه فتعلم من هو الخالق على الحقيقة، فلما كان هذا النعت من خصوص وصف الإله وقد أضاف الخلق إلى الخلق انفرد هو بالنظر إلى ما أثبت من الخلق للخلق بالأحسن في ذلك فقال: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ وهو معنى قوله تعالىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ والبركة الزيادة فزاد أحسن في قوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ وما أحسن قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٥٨، ٥٩] ولم يقل أأنتم تخلقون منه ولا فيه وإنما قال تخلقونه فأراد عين إيجاده منياً خاصاً، والاسم المصوّر هو الذي يتولى فتح الصورة فيه أي صورة شاء من الجنس أو غيره وهو قوله: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٨] فهو الاسم المصوّر، وهنا أسرار من علوم الطبيعة لما جعل الله فيها من الاشتراك في التكوين فهل هي سبب من جملة الأسباب التي تفعل لعينها بذاتها فيكون الحق يفعل بها لا عندها، أو تكون من الأسباب التي يفعل الحق مسببها عندها لا بها ويتفاوت هنا نظر النظار، وأمّا أهل الكشف فيعلمون ذلك ابتداء عند الكشف من غير نظر لعلمهم بمرتبة الطبيعة، وأن منزلتها منزلة جميع الحقائق والحقائق لا تتبدّل، فيجرونها مجراها وينزلونها منزلتها، فبسط العلماء بالله هو عين العلم بالله، فإذا علموا علموا من انبسط ومن له البسط وعلموا من انقبض ومن له القبض فيبقى عندهم كل أمر على أصله وحقيقته لا تبديل عندهم في ذلك ولا تحويل لأنهم على سنة الله ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [سورة فاطر: الآية ٤٣] فأهل سنة الله لهم البسط المحقق لأن البسط نشر والنشر ظهور، ولولا الظهور ما أدركت الأشياء: [الوافر]

فَبَسْطُ العارفين على يَقينٍ ... وبَسْطُ الخَلْق تَخْمينٌ وحَدْسُ

إذا خشعت الأصوات للرحمن فكيف يكون الحال مع الجبار؟ [الطويل]

خُشوعَ حياءٍ لا خُشوعَ مَهانةٍ ... وهَيْبَةَ إجلالٍ وقَبْضَ تَأَدُّبِ

قال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [سورة طٰه: الآية ١٠٨] حكم اقتضاه الموطن.

واعلم أيها الوليّ الحميم أن الخلق كان في قبض الحق للحق، فلما انبسط ظهر للعالم، قال الله تعالىٰ لآدم ويداه مقبوضتان: يا آدم اختر أيتهما شئت، فقال آدم: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة فبسطها فإذا فيها آدم وذريته، ولو فتح الأخرى لكان فيها سائر العالم، فانظر إلى كون الإنسان في اليمين الحق إذ علم آدم أن بين اليدين فرقاناً ولذلك قال أدباً: وكلتا يدي ربي يمين مباركة، فاختار القوّة نظراً إلى نفسه لما علم أنه على الصورة وأنه خليفة فعلم أن القوّة له فاختار الأقوى بأدب، ولما كان الخلق مطوياً في الحق لم ير نفسه وهو مشهود لله، فلما كان البسط الإلهيّ ظهر العالم لنفسه فرأى نفسه ورأى من كان في قبضته عن شهود نفسه فعلم من أين صدر وكيف صدر وما علم هل له رجوع أم لا؟ فقيل له: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة هود: الآية ٣٤] وعلم أن الرجوع إنما هو ردّ إلى الأصل وقد علم أصل الوجود فعلم إلى أين يرجع، وقد كان في الأصل لا

يعلم نفسه، فعلم أنه يرجع إلى منزله لا بعلم نفسه مع ظهور عينه كما لم يشهد نفسه إذ كان في قبضة موجده، فيكون مآل العارفين ورجوعهم مع ثبوت عينهم إلى أن الحق عينهم لا هم، وهذا مقام لا يكون إلاً للعارفين فهم مقبوضون في حال بسطهم، ولا يصحّ لعارف قط أن يكون مقبوضاً في غير بسط ولا مبسوطاً في غير قبض وما سوى العارف إذا كان في حال قبض لا يكون له حال بسط، وإذا كان في حال بسط لا يكون له حال قبض، فالعارف لا يعرف إلاً بجمعه بين الضدين فإنه حق كله كما قال أبو سعيد الخرّاز وقد قيل له: بم عرفت الله؟ فقال: بجمعه بين الضدين لأنه شاهد جمعهما في نفسه، وقد علم أنه على صورته وسمعه يقول: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] وبهذه الآية احتجّ في ذلك، ثم نظر إلى العالم فرآه إنساناً كبيراً في الجرم ورآه قد جمع بين الضدين، فإنه رأى فيه الحركة والسكون والاجتماع والإفتراق، ورأى فيه الأضداد وهو أيضاً على صورة العالم كما هو على صورة الحق، فانظر ما أعجب هذه اللفظة من أبي سعيد، ولهذا المقام كان يشير ذو النون المصري في مسائله من إيراد الكبير على الصغير وإدخال الواسع في الضيق من غير أن يوسع الضيق أو يضيق الواسع، وقد ذكرنا هذه المسألة في معرفة الخيال من باب المعرفة من هذا الكتاب مستوفاة، فبسط العلماء بالله من البسط المنسوب إلى الحق بل هو عين البسط المنسوب إلى الحق لأنهم إليه رجعوا: [المتقارب]

فـلـم يَـكُـنِ الـبَـسْـطُ إلا لـهُ ... فـهُـمْ أهـلُ مَـحْـوٍ وإن أثْـبـتُـوا

وهذا القدر كافٍ في تحقيق البسط من العلم الإلهيّ.

الباب العشرون ومائتان
في معرفة الفناء وأسراره

[نظم: مجزوء الكامل]

إن الـفَـنَـاءَ أخـو الـعَـدَمْ ... ولـه الـتَّـسَـلْـطُـنُ إن حَـكَـمْ
ثـم الـفـنـاءُ عـن الـفَـنَـا ... ءِ حِـجـابُ مـا يـنـفـي الـظُّـلَـمْ
هـي لـفْـظَـةٌ مـا تَـحْـتَـهـا ... عَـيْـنٌ ولـكـنْ تُـخْـتَـكَـمْ
هـو عـن كـذا لا غَـيْـرهِ ... فـبـعَـنْ لـه فـيـنـا قَـدَمْ
فَـشَـبـيـهُـهُ بـل عَـيْـنُـه ... مـا قِـيـلَ فـي عَـدَمِ الـعَـدَمْ
مـا زال تَـطْـلُـبـه الـرِّجـا ... لُ فَـمَـنْ يـقـوم بـه عُـصِـمْ
فـيـه إذا سُـلْـطـانُـه ... يُـمْـضـيـه تَـخْـصـيـنُ الـحِـكَـمْ

اعلم أن الفناء عند الطائفة يقال بإزاء أمور، فمنهم من قال: إن الفناء فناء المعاصي. ومن قائل: الفناء فناء رؤية العبد فعله بقيام الله على ذلك. وقال بعضهم: الفناء فناء عن الخلق وهو عندهم على طبقات منها الفناء عن الفناء وأوصله بعضهم إلى سبع طبقات، فاعلموا أيّدنا الله وإياكم بروح القدس أن الفناء لا يكون إلاً عن كذا، كما أن البقاء لا يكون إلاً بكذا ومع

كذا، فعن للفناء لا بدّ منه، ولا يكون الفناء في هذا الطريق عند الطائفة إلاً عن أدنى بأعلى، وأما الفناء عن الأعلى فليس هو اصطلاح القوم وإن كان يصحّ لغة. فأما الطبقة الأولى في الفناء فهي أن تفنى عن المخالفات فلا تخطر لك ببال عصمة وحفظاً إلهياً، ورجال الله هنا على قسمين: القسم الواحد رجال لم يقدر عليهم المعاصي فلا يتصرفون إلاً في مباح وإن ظهرت منهم المخالفات المسماة بالمعاصي شرعاً في الأمة إلاً أن الله وفّق هؤلاء فكانوا ممّن أذنبوا فعلموا أن لهم رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، فقيل لهم على سماع منهم لهذا القول: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، وكأهل بدر ففنيت عنهم أحكام المخالفات فما خالفوا، فإنهم ما تصرّفوا إلاً فيما أبيح لهم، فإن الغيرة الإلهية تمنع أن ينتهك المقرّبون عنده حرمة الخطاب الإلهيّ بالتحجير، وهو غير مؤاخذ لهم لما سبقت لهم به العناية في الأزل، فأباح لهم ما هو محجور على الغير، وسائر من ليس له هذا المقام لا علم له بذلك فيحكم عليه بأنه ارتكب المعاصي وهو ليس بعاص بنص كلام الله المبلغ على لسان رسول الله ﷺ، وكأهل البيت حين أذهب عنهم الرجس ولا رجس أرجس من المعاصي وطهرهم تطهيراً وهو خبر والخبر لا يدخله النسخ وخبر الله صدق وقد سبقت به الإرادة الإلهيّة، فكل ما ينسب إلى أهل البيت ممّا يقدح فيما أخبر الله به عنهم من التطهير وذهاب الرجس، فإنما ينسب إليهم من حيث اعتقاد الذي ينسبه لأنه رجس بالنسبة إليه، وذلك الفعل عينه ارتفع حكم الرجس عنه في حق أهل البيت، فالصورة واحدة فيهما والحكم مختلف.

والقسم الآخر رجال اطلعوا على سرّ القدر وتحكمه في الخلائق وعاينوا ما قدر عليهم من جريان الأفعال الصادرة منهم من حيث ما هي أفعال لا من حيث ما هي محكوم عليها بكذا أو كذا، وذلك في حضرة النور الخالص الذي منه يقول أهل الكلام: أفعال الله كلها حسنة ولا فاعل إلاً الله فلا فعل إلاً لله، وتحت هذه الحضرة حضرتان: حضرة السدفة وحضرة الظلمة المحضة، وفي حضرة السدفة ظهر التكليف وتقسمت الكلمة إلى كلمات وتميز الخير من الشر، وحضرة الظلمة هي حضرة الشرّ الذي لا خير معه وهو الشرك والفعل الموجب للخلود في النار وعدم الخروج منها وإن نعم فيها، فلما عاين هؤلاء الرجال من هذا القسم ما عاينوه من حضرة النور بادروا إلى فعل جميع ما علموا أنه يصدر منهم وفنوا عن الأحكام الموجبة للبعد والقرب، ففعلوا الطاعات ووقعوا في المخالفات، كل ذلك من غير نية لقرب ولا انتهاك حرمة، فهذا فناء غريب أطلعني الله عليه بمدينة فاس ولم أر له ذائقاً مع علمي بأن له رجالاً ولكن لم ألقهم ولا رأيت أحداً منهم، غير أني رأيت حضرة النور وحكم الأمر فيها، غير أنه لم يكن لتلك المشاهدة فينا حكم بل أقامني الله في حضرة السدفة وحفظني وعصمني فلي حكم حضرة النور وإقامتي في السدفة وهو عند القوم أتم من الإقامة في حضرة النور، فهذا معنى قول بعضهم في الفناء أنه فناء المعاصي.

وأما النوع الثاني من الفناء فهو الفناء عن أفعال العباد بقيام الله على ذلك من قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآيِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٣] فيرون الفعل لله من خلف حجب

الأكوان التي هي محل ظهور الأفعال فيها وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ [سورة النجم: الآية ٣٢] أي ستره واسع، والأكوان كلها ستره وهو الفاعل من خلف هذا الستر وهم لا يشعرون، والمثبتون من المتكلمين أفعال العباد خلقاً لله يشعرون ولكن لا يشهدون لحجاب الكسب الذي أعمى الله به بصيرتهم كما أعمى بصيرة من يرى الأفعال للخلق حين أوقفه الله مع ما يشاهده ببصره، فهذا لا يشعر وهو المعتزلي، وذلك لا يشهد وهو الأشعري، فالكل على بصره غشاوة.

وأما النوع الثالث فهو الفناء عن صفات المخلوقين بقوله تعالىٰ في الخبر المروي النبوي عنه: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ**» وكذا جميع صفاته والسمع والبصر وغير ذلك من أعيان الصفات التي للعبد أو الخلق قل كيف شئت، وعرف الحق أن نفسه هي عين صفاتهم لا صفته، فأنت من حيث صفاتك عين الحق لا صفته، ومن حيث ذاتك عينك الثابتة التي اتخذها الله مظهراً أظهر نفسه فيها لنفسه فإنه ما يراه منك إلاّ بصرك وهو عين نظرك، فما رآه إلاّ نفسه وأفناك بهذا عن رؤيته فناء حقيقة شهودية معلومة محققة لا يرجع بعد هذا الفناء حالاً إلى حال يثبت لك أن لك صفة محققة ليست عين الحق، وصاحب هذا الفناء دائماً في الدنيا والآخرة لا يتصف في نفسه ولا عند نفسه بشهود ولا كشف ولا رؤية مع كونه يشهد ويكشف ويرى، ويزيد صاحب هذا الفناء على كل مشاهد وراء ومكاشف أنه يرى الحق كما يرى نفسه لأنك رأيته به لا بك، وهذا مشهد عزيز لم أر له بالحال ذائقاً فإنه دقيق، فمن زعم أنه ذاقه ثم رجع بعد ذلك إلى حسّه ونفسه وأثبت لنفسه صفة ليست هي عين الحق التي علمها فليس عنده خبر بما قاله ولا يعرف من شاهد ولا ما شاهد، ثم إن صاحب هذا الفناء مهما فرق بين صفاته في حال الفناء فرأى غير ما سمع، وسمع غير ما سعى، وسعى غير ما شمّ وطعم، وطعم غير ما علم، وعلم غير ما قدر وميّز وفرّق بين هذه النسب وادّعى أنه صاحب هذا النوع من الفناء فليس هو، وإذا توحدت عنده العين فسمع بما به رأى بما به تكلم بما به علم وسعى وشمّ وطعم وأحسّ ولم يختلف عليه الإدراك باختلاف الحكم فهو صاحب هذا الفناء ذوقاً صحيح الحال.

وأما النوع الرابع من الفناء فهو الفناء عن ذاتك، وتحقيق ذلك أن تعلم أن ذاتك مركبة من لطيف وكثيف، وأن لكل ذات منك حقيقة وأحوالاً تخالف بها الأخرى، وأن لطيفتك متنوّعة الصور مع الآنات في كل حال، وأن هيكلك ثابت على صورة واحدة وإن اختلفت عليه الأعراض، فإذا فنيت عن ذاتك بمشهودك الذي هو شاهد الحق من الحق وغير الحق ولا تغيب في هذه الحال عن شهود ذاتك فيه فممّا أنت صاحب هذا الفناء، فإن لم تشهد ذاتك في هذا الشهود وشاهدت ما شاهدت فأنت صاحب هذا النوع من الفناء، وإنما قلنا شاهدت ما شاهدت ولم نخصص شهود الحق وحده فإن صاحب هذا الفناء قد يكون مشهوده كوناً من الأكوان وهو حال يعصم ذات الإنسان من التأثر، أخبرني الأستاذ النحوي عبد العزيز بن زيدان بمدينة فاس وكان ينكر حال الفناء وكان يختلف إلينا وكانت فيه إنابة، فلما كان ذات

يوم دخل عليّ وهو فارح مسرور فقال لي: يا سيدي الفناء الذي تذكره الصوفية صحيح عندي بالذوق قد شاهدته اليوم، قلت له: كيف؟ قال: ألست تعلم أن أمير المؤمنين دخل اليوم من الأندلس إلى هذه المدينة؟ قلت له: بلى، قال: اعلم أني خرجت أتفرج مع أهل فاس فأقبلت العساكر فلما وصل أمير المؤمنين ونظرت إليه فنيت عن نفسي وعن العسكر وعن جميع ما يحسّه الإنسان وما سمعت دوي الكوسات ولا صوت طبل مع كثرة ذلك ولا البوقات ولا ضجيج الناس ولا رأيت ببصري أحداً من العالم جملة واحدة سوى شخص أمير المؤمنين، ثم إنَّه ما أزاحني أحد عن مكاني ووقفت في طريق الخيل وازدحام الناس وما رأيت نفسي ولا علمت أني ناظر إليه بل فنيت عن ذاتي وعن الحاضرين كلهم بشهودي فيه، ولما انحجب عني ورجعت إلى نفسي أخذتني الخيل وازدحام الناس فأزالوني عن موضعي وما تخلصت من الضيق إلاَّ بشدّة، وأدرك سمعي الضجيج وأصوات الكوسات والبوقات فتحققت أن الفناء حق وأنه حال يعصم ذات الفاني من أن يؤثر فيه ما فني عنه، هذا يا أخي فناء في مخلوق فما ظنك بالفناء في الخالق، فإن شاهدت في هذا الفناء تنوّع ذاتك اللطيفة ولم تشاهد معها سواها ففناؤك عنك بك لا بسواك، فأنت فان عن ذاتك ولست فانياً عن ذاتك، فإنك لك بك مشهود من حيث لطيفتك، وإنك لك بك مفقود من حيث هيكلك، فإن شاهدت مركبك في حال هذا الفناء فمشهودك خيال ومثال ما هو عينك ولا غيرك بل حالك في هذا الفناء حال النائم صاحب الرؤيا.

وأمّا النوع الخامس من الفناء وهو فناؤك عن كل العالم بشهودك الحق أو ذاتك، فإن تحققت من تشهد منك علمت أنك شاهدت ما شاهدته بعين حق والحق لا يفنى بمشاهدة نفسه ولا العالم، فلا تفنى في هذه الحال عن العالم وإن لم تعلم من يشهد منك كنت صاحب هذا الحال وفنيت عن رؤية العالم بشهود الحق أو بشهود ذاتك، كما فنيت عن ذاتك بشهود الحق أو بشهود كون من الأكوان، فهذا النوع يقرب من الرابع في الصورة وإن كان يعطي من الفائدة ما لا يعطيه النوع الرابع المتقدّم.

وأما النوع السادس من الفناء فهو أن تفنى عن كل ما سوى الله بالله، ولا بدّ وتفنى في هذا الفناء عن رؤيتك، فلا تعلم أنك في حال شهود حق إذ لا عين لك مشهودة في هذا الحال، وهنا يطرأ غلط لبعض الناس من أهل هذا الشأن وأبينه لك إن شاء الله حتى يتخلص لك المقام، وإن الله ألهمني لهذا البيان، وذلك أن صاحب هذا الحال إذا فني عن كل ما سوى الله بشهود الله فيما يقول فلا يخلو في شهوده ذلك، إما أن يرى الحق في شؤونه أو لا يراه في شؤونه، فإنه لا يزال في شؤون إذ لا غيبة له عن العالم ولا عن أثر فيه، فإن شاهده في شؤونه فما فني عن كل ما سوى الله، وإن شاهده في غير شؤونه بل في غناه عن العالم فهو صحيح الدعوى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وهذا المشهد كان للصدّيق فإنه قال: ما رأيت شيئاً إلاَّ رأيت الله قبله، فأثبت أنه رآه ولا شيء، ثم أقيم في مشهد آخر فرأى صدور الشيء عنه وقد كان رآه ولا شيء، فجعل تلك الرؤية قبل هذا الشهود فقال: ما رأيت شيئاً إلاَّ رأيت الله قبله، فقد أبنت لك الأمر على ما هو عليه.

وأما النوع السابع من الفناء فهو الفناء عن صفات الحق ونسبها، وذلك لا يكون إلاَّ بشهود ظهور العالم عن الحق لعين هذا الشخص لذات الحق ونفسه لا لأمر زائد يعقل، ولكن لا من كونه علة كما يراه بعض النظار، ولا يرى الكون معلولاً وإنما يراه حقاً ظاهراً في عين مظهر بصورة استعداد ذلك المظهر في نفسه، فلا يرى للحق أثراً في الكون، فما يكون له دليل على ثبوت نسبة ولا صفة ولا نعت، فيفنيه هذا الشهود عن الأسماء والصفات والنعوت، بل إن حققه يرى أنه محل التأثر حيث أثر فيه استعداد الأعيان الثابتة من أعيان الممكنات، وممّا يحقق هذا كونه تعالىٰ وصف نفسه في كتابه وعلى ألسنة رسله بما وصف به المخلوقات المحدثات. وإما أن تكون هذه الصفات في جنابه حقاً ثم نعتنا بها، وإما أن تكون لنا حقاً ونعت نفسه بها توصلاً لنا، وخبره بها صدق لا كذب وإن كنا نحن فيها الأصل فهو مكتسب، وإن كان هو الأصل فقد كسبنا إياها، وهذه من أغمض نتائج العلم بالله فإنه أضاف إليه نعوت المحدثات كلها بأخبار قديم أزلي، فمنها ما أشار به في أخباره بأنه مكتسب لبعضها مثل قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] ومنها ما ذكره ولم يقيد باكتساب ولا غيره ومن هذا الباب ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠] واسألوني أعطكم واستغفروني أغفر لكم ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] وأما قولهم: الفناء عن الفناء فما هو نوع ثامن وإنما هو الفاني إذا لم يعلم في فنائه أنه فان، فذلك الفناء عن الفناء كصاحب الرؤيا الذي لا يعلم أنه في رؤيا، فهو حال تابع في كل نوع يقوم من أنواع الفناء، وحال الفناء لا ينال بتعمّل أي لا يقصد وأدناه درجة حكمه في المتفكر، فإذا استغرق الإنسان الفكر في أمر ما من أمور الدنيا أو في مسألة من العلم فتحدّثه ولا يسمعك وتكون بين يديه ولا يراك وترى في عينه جموداً في تلك الحالة، فإذا عثر على مطلوبه أو طرأ أمر يردّه إلى إحساسه حينئذ يراك ويسمعك، فهذه أدنى درجاته في العالم، وسبب ذلك ضيق المحدث فإنه لا شيء أوسع من حقيقة الإنسان ولا شيء أضيق منها، فأما اتساع القلب فإنه لا يضيق عن شيء ولكن عن شيء واحد، وأما ضيقه فإنه لا يسع خاطرين معاً فإنه أحدي الذات فلا يقبل الكثرة، فهو من حيث هذه الحقيقة في الحكم الإلهيّ في معنى قوله: ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وفي الرتبة الأخرى في قوله: فأحببت أن أعرف، وهذا القدر كاف في معرفة هذا الباب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والعشرون ومائتان

في معرفة البقاء وأسراره

[نظم: البسيط]

إذا رأيتَ قيامَ الله جَلَّ على ... كلِّ النفوسِ بما فيها من الأثَرِ
ذاكَ البقاءُ الذي قال الرجالُ به ... وأنتَ باقٍ به إن كنتَ ذا نَظَرِ

فكُنْ به لا تكُنْ بالفكر مُتَّصفاً فإنما الغَيْرُ مُشْتَقٌّ من الغِيَرِ
وأينَ غَيْرٌ وما في الكون أَجْمَعِهِ سوى الوجودِ الذي تَدْعوه بالبَشَرِ
فإنه اسمٌ يَعُمُّ الكونَ أجمَعَه عيناً وعلماً فلا تَخْرُجْ عن الصُّوَرِ

اعلم أن البقاء عند بعض الطائفة بقاء الطاعات كما كان الفناء فناء المعاصي عند صاحب هذا القول، وعند بعضهم البقاء بقاء رؤية العبد قيام الله على كل شيء، وهذا قول من قال في الفناء إنه فناء رؤية العبد فعله بقيام الله تعالىٰ على ذلك، وعند بعضهم البقاء بقاء بالحق وهو قول من قال في الفناء إنه فناء عن الخلق.

اعلم أن نسبة البقاء عندنا أشرف في هذا الطريق من نسبة الفناء لأن الفناء عن الأدنى في المنزلة أبداً عند الفاني، والبقاء بالأعلى في المنزلة أبداً عند الباقي، فإن الفناء هو الذي أفناك عن كذا فله القوّة والسلطان فيك، والبقاء نسبتك إلى الحق وإضافتك إليه، أعني البقاء في هذا الطريق عند أهل الله فيما اصطلحوا والفناء نسبتك إلى الكون فإنك تقول: فنيت عن كذا، ونسبتك إلى الحق أعلى فالبقاء في النسبة أولى لأنهما حالان مرتبطان، فلا يبقى في هذا الطريق إلاّ فان ولا يفنى إلاّ باق، والموصوف بالفناء لا يكون إلاّ في حال البقاء، والموصوف بالبقاء لا يكون إلاّ في حال الفناء، ففي نسبة البقاء شهود حق وفي نسبة الفناء شهود خلق لأنك لا تقول: فنيت عن كذا إلاّ مع تعقلك من فنيت عنه، ونفس تعقلك إياه هو نفس شهودك إياه، إذ لا بدّ من إحضاره في نفسك لتعقل حكم الفناء عنه، وكذلك البقاء لا بدّ من شهود من أنت باق به، ولا يكون البقاء في هذا الطريق إلاّ بالحق، فلا بدّ من شهود الحق فإنه لا بدّ من إحضارك إياه في قلبك وتعقلك إياه، فحينئذ تقول: بقيت بالحق، وهذه النسبة أشرف وأعلى لعلوّ المنسوب إليه، فحال البقاء أعلى من حال الفناء وإن تلازما وكانا للشخص في زمان واحد، فلا خفاء عند ذي نظر سليم في الفرق بين النسبتين في الشرف والمنزلة.

شرح هذا المقام يتضمنه شرح باب الفناء: وذلك أن ننظر في كل نوع من أنواع الفناء إلى السبب الذي أفناك عن كذا فهو الذي أنت باق معه هذا جماع هذا الباب، إلاّ أن هنا تحقيقاً لا يكون إلاّ في الفناء، وذلك أن البقاء نسبة لا تزول ولا تحول، حكمه ثابت حقاً وخلقاً وهو نعت إلهيّ، والفناء نسبة تزول وهو نعت كياني لا مدخل له في حضرة الحق، وكل نعت ينسب إلى الجانبين فهو أتم وأعلى من النعت المخصوص بالجانب الكوني إلاّ العبودة فإن نسبتها إلى الكون أتم وأعلى من نسبة الربوبية والسيادة إليه. فإن قلت: فالفناء راجع إلى العبودة ولازم. قلنا: لا يصحّ أن يكون كالعبودة فإن العبودة نعت ثابت لا يرتفع عن الكون، والفناء قد يفنيه عن عبودته وعن نفسه، فحكمه يخالف حكم العبودة، وكل أمر يخرج الشيء عن أصله ويحجبه عن حقيقته فليس بذلك الشرف عند الطائفة فإنه أعطاك الأمر على خلاف ما هو به فألحقك بالجاهلين، والبقاء حال العبد الثابت الذي لا يزول فإنه من المحال عدم عينه الثابتة، كما أنه من المحال اتصاف عينه بأنه عين الوجود بل الوجود نعته بعد أن لم تكن، وإنما قلنا هذا لأن الحق هو الوجود ولا يلزم أن تكون الصفة عين الموصوف بل هو

محال والعبد باقي العين في ثبوته ثابت الوجود في عبودته دائم الحكم في ذلك ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [سورة مريم: الآية ٩٣] ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٦] فنحن عنده وهو عندنا، فالحق النفاد والبقاء بمن ألحقته هذه الآية والنفاد فناء والبقاء نعت الوجود من حيث جوهره، والفناء نعت العرض من حيث ذاته، بل نعت سائر المقولات ما عدا الجوهر، وقد أومأنا إلى ما فيه غنية لمن كان له قلب أو ألقى السمع لخطاب الحق وهو شهيد.

الباب الثاني والعشرون ومائتان
في معرفة الجمع وأسراره

[نظم: البسيط]

إذا سمعتَ بحقٍّ أو نظرتَ به ... فهو السَّميعُ البصيرُ الواحدُ الأَحَدُ
وأنتَ لا فيه والأعيانُ قائمةٌ ... والنفسُ والعقلُ والأرواحُ والجَسَدُ
فإن أخذتَ بجَمْعِ الجَمْعِ تَصْحَبُه ... به فأنتَ هناك السَّيدُ الصَّمَدُ
وإن علمتَ بهذا واتَّصَفْتَ به ... حالاً عليك جميعُ الأمر يَنْعَقِدُ

اعلم أن الجمع عند بعض الطائفة إشارة من أشار إلى حق بلا خلق، وقال أبو علي الدقاق: الجمع ما سلب عنك، وقالت طائفة منهم: الجمع ما أشهدك الحق من فعله بك حقيقة. وقال قوم: الجمع مشاهدة المعرفة وحجته ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٦] وقال بعضهم: الجمع إثبات الخلق قائماً بالحق، وجمع الجمع الفناء عن مشاهدة كل شيء سوى الحق. وقال بعضهم: الجمع شهود الأغيار بالله وجمع الجمع الاستهلاك بالكلية وفناء الإحساس بما سوى الله عند غلبات الحقيقة. وقال بعضهم: الجمع مشاهدة تصريف الحق الكل، ومن نظم القوم في الجمع والفرق: [المتقارب]

جمعتُ وفرَّقْتُ عني به ... ففَرْطُ التَّواصُلِ مَثْنَى العَدَدْ

فهذا قد ذكرنا بعض ما وصل إلينا من قولهم في الجمع وجمع الجمع، والجمع عندنا أن تجمع ما له عليه ممّا وصفت به نفسك من نعوته وأسمائه، وتجمع ما لك عليك ممّا وصف الحق به نفسه من نعوتك وأسمائك، فتكون أنت أنت، وهو هو، وجمع الجمع أن تجمع ماله عليه وما لك عليه وترجع الكل إليه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٣] فما في الكون إلاَّ أسماؤه ونعوته، غير أن الخلق ادعوا بعض تلك الأسماء والنعوت ومشى الحق دعواهم في ذلك فخاطبهم بحسب ما ادعوه، فمنهم من ادعى في الأسماء المخصوصة به تعالي في العرف. ومنهم من ادعى في ذلك وفي النعوت الواردة في الشرع ممّا لا يليق عند علماء الرسوم إلاَّ بالمحدثات. وأما طريقنا فما ادعينا في شيء من ذلك كله بل جمعناها عليه، غير أنا نبهنا أن تلك الأسماء حكم آثار استعداد أعيان الممكنات فيه وهو سرّ خفي لا يعرفه إلاَّ من عرف أن الله هو عين الوجود،

وأن أعيان الممكنات على حالها ما تغير عليها وصف في عينها، ويكفي العاقل السليم العقل قولهم الجمع فإنه لفظ مؤذن بالكثرة والتمييز بين الأعيان الكثيرة، فمن حيث التمييز كان الجمع عين التفرقة وليست التفرقة عين الجمع إلاّ تفرقة أشخاص الأمثال فإنه جمع وتفرقة معاً، وأن الحد والحقيقة بجمع الأمثال كالإنسانية، وأشخاص ذلك النوع يتصفون بالتفرقة، فزيد ليس بعمرو، وإن كان كل واحد منهما إنساناً، وهكذا جميع الأمثال وأشخاص النوع الواحد. قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] على وجوه كثيرة قد علم الله ما يؤول إليه قول كل متأول في هذه الآية وأعلاها قولاً أي ليس في الوجود شيء يماثل الحق أو هو مثل للحق، إذ الوجود ليس غير عين الحق فما في الوجود شيء سواه يكون مثلاً له أو خلافاً هذا ما لا يتصور، فإن قلت: فهذه الكثرة المشهودة. قلنا: هي نسب أحكام استعدادات الممكنات في عين الوجود الحق، والنسب ليست أعياناً ولا أشياء، وإنما هي أمور عدمية بالنظر إلى حقائق النسب، فإذا لم يكن في الوجود شيء سواه فليس مثله شيء لأنه ليس ثم، فافهم وتحقق ما أشرنا إليه، فإن أعيان الممكنات ما استفادت إلاّ الوجود، والوجود ليس غير عين الحق لأنه يستحيل أن يكون أمراً زائداً ليس الحق لما يعطيه الدليل الواضح، فما ظهر في الوجود بالوجود إلاّ الحق، فالوجود الحق وهو واحد، فليس ثم شيء هو له مثل لأنه لا يصحّ أن يكون ثم وجودان مختلفان أو متماثلان، فالجمع على الحقيقة كما قررناه أن تجمع الوجود عليه فيكون هو عين الوجود، وتجمع حكم ما ظهر من العدد والتفرقة على أعيان الممكنات أنها عين استعداداتها، فإذا علمت هذا فقد علمت معنى الجمع وجمع الجمع ووجود الكثرة، وألحقت الأمور بأصولها وميزت بين الحقائق، وأعطيت كل شيء حكمه كما أعطى الحق كل شيء خلقه، فإن لم تفهم الجمع كما ذكرناه فما عندك خبر منه.

وأما إشارات الطائفة التي سردناها فإن لهم في ذلك مقاصد أذكرها إن شاء الله مع معرفتهم بما ذهبنا إليه أو معرفة الأكابر منهم. وأما قول من قال منهم إن الجمع حق بلا خلق فهو ما ذهبنا إليه أن الحق هو عين الوجود، غير أنه ما تعرّض لما أعطته استعدادات أعيان الممكنات في وجود الحق حتى اتصف بما اتصفت به. وأما قول الدقاق في الجمع إنه ما سلب عنك فإنه يقتضي مقامه أن يريد سلب ما وقعت فيه الدعوى منك وهو له كالتخلق بالأسماء الحسنى ونسبة الأفعال إليك وهي له، هذا يعطيه حال الدقاق لا الكلام، فإنه لو قال غيره هذه الكلمة ربما قالها على أنه يريد بقوله ما سلب عنك عين الوجود فإنه الذي سلب عنك إذ كان عين الوجود. وأما قول الآخر إن الجمع ما أشهدك الحق من فعله بك حقيقة فإنه يريد أنك محل لجريان أفعاله والأمر في الحقيقة بالعكس، بل هو المنعوت بحكم آثار استعدادات أعيان الممكنات فيه، إلاّ أن يريد بقوله من فعله بك أي بك ظهر الفعل ولم يتعرض لذكر فيمن ظهر الأثر فقد يمكن أن يريد ذلك وهو ما ذهبنا إليه وما تعطيه الحقائق، فلو علمنا من هو صاحب هذا القول حكمنا عليه بحاله كما حكمنا على الدقاق لمعرفتنا بمقامه وحاله.

وأما قول من قال: الجمع مشاهدة المعرفة، فاعلم أن المعرفة بالله تعطي أن للعبد نسبة إلى العمل صحيحة أثبتها الحق ولذلك كلفه بالأعمال، وللحق تعالىٰ نسبة إلى العمل أثبتها الحق لنفسه وشرع لعبده أن يقول في عمله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] وقال موسىٰ كليم الله وأعلم الخلق بالله رسل الله فقال لقومه: استعينوا بالله واصبروا، ولا فرق عندنا بين ما يقوله الله أو يقوله رسول الله من نعت الله في الصحة والنسبة إليه، وقال الله: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، ثم فصل سبحانه وبين ما يقول العبد ويقول الله فنسب القول إلى العبد نسبة صحيحة والقول عمل وهو طلب العون من الله في عمله ذلك فصحّت المشاركة في العمل، فهذا قد جمعت في العمل بين الله وبين العبد، فهذا معنى الجمع، فقد قررت أن عين العبد مظهر بفتح الهاء، وأن الظاهر هو عين الحق، وأن الحق أيضاً عين صفة العبد، وبالصفة وجد العمل والظاهر هو العامل، فإذاً ليس العمل إلاّ لله خاصة، قلنا: وعندما قررنا ما ذكرته قررنا أيضاً أن عين العبد لها استعداد خاص مؤثر في الظاهر وهو الذي أدّى إلى اختلاف الصور في الظاهر الذي هو عين الحق، فذلك الاستعداد جعل الظاهر أن يقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يخاطب ذلك الظاهر بأثر استعداد هذا العين المصلية حكم الاسم المعين أن يعينه على عمله، فإن عين الممكن إذا كان استعداده يعطي عجزاً وضعفاً ظهر حكمه في الظاهر، فقول الظاهر هو لسان عين الممكن بل قول الممكن بلسان الظاهر كما أخبر الحق أنه قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فأعطت المعرفة أن تجمع العمل على عامله لما وقع في ذلك من الدعاوي بما قد ذهب إليه أصحاب النظر القائلين بإضافة الأفعال إلى العباد مجردة، والقائلين بإضافة الأفعال إلى الله مجردة، والحق بين الطائفتين أي بين القولين، فللعبد إلى العمل نسبة على صورة ما قررناها من أثر استعداد عين الممكن في الظاهر، وللحق نسبة إلى العمل على صورة ما قررناه من قبول الظاهر لتأثير العين فيه، فإن العبد قال على لسان أثره في الظاهر: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذا مذهبنا في الجمع، فإن كان صاحب القول في الجمع أراد أنه مشاهدة المعرفة ويعرف معنى مشاهدة المعرفة فهو على ما قلناه، فنحن إنما تكلمنا على معنى مشاهدة المعرفة لا على مقام قائلها، إذ لهذه اللفظة وجوه نازلة عمّا ذهبنا إليه في شرحها فشرحناها على أتم الوجوه وأكملها، وهو الذي الأمر عليه في نفسه، ومن أجل بعض تلك الوجوه اعترضنا على قائل هذه اللفظة في مختصر هذا الكتاب، وإلى ما قررناه وذهبنا إليه في الجمع ترجع أقوال الجماعة التي ذكرناها وحكيناها في أوّل الباب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والعشرون ومائتان

في معرفة حال التفرقة

[نظم: البسيط]

إذا جَـمَـعْـتَ فـقـد أثـبـتَّ تَـفْـرِقَـةً ... كـمـا تـحـقَّـقْـتَ قـرآنـاً وفُـرْقَـانَـا

والـعـيـنُ واحـدةٌ والـحـكـمُ مـخـتـلـفٌ ... وقـد أقـمـتُ عـلـى مـا قُـلْـتُ بُـرْهـانَـا

فالجَمْعُ والفَرْقُ حالٌ ناقصٌ أبداً فاعدلْ وكُنْ واحداً إن كنتَ إنسانَا
والزَمْ طريقةَ جبريل وصاحبِه إذ قرَّرا لك إسلاماً وإيمانَا
وثمَّ جاء بما قد صَحَّ بعدهما فقرَّرا لك إحساناً وإحسانَا
فتلك أربعةٌ لا خامس لها سوى المؤيّدِ جلَّ الحقُّ سُبْحَانَا

اعلم أن التفرقة عند بعض القوم إشارة من أشار إلى خلق بلا حق، وعند أبي عليّ الدقاق: الفرق ما ينسب إليك، وعند بعضهم: الفرق ما أشهدك الحق من أفعالك أدباً، وعند بعضهم: الفرق مشاهدة العبودية، وقيل: الفرق إثبات الخلق، وقيل: التفرقة شهود الأغيار لله، وقيل: التفرقة مشاهدة تنوّع الخلق في أحوالهم، ومستند مقام التفرقة من العلم الإلهيّ نعت الحق ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] وهو انقضاء المدة التي سبق في علم الله مقدارها وهو زمان الحياة الدنيا في كل شخص شخص.

واعلم أن أصل الأشياء كلها التفرقة وأوّل ما ظهرت في الأسماء الإلهيّة فتفرّقت أحكامها بتفرّق معانيها، حتى لو نظر الإنسان فيها من حيث دلالتها كلها على العين مع الفرقان المعلوم بين معانيها التي يعقل فيها من أنه سميت هذه العين بكذا لكذا، ولا سيما إذا كانت الأسماء تجري مجرى النعوت على طريق المدح والتفرقة أظهر، وبالتفرقة تعرف إلينا سبحانه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [سورة النحل: الآية ١٧] ففرّق بين من يخلق ومن لا يخلق، وحدود الأشياء أظهرته التفرقة بين الأشياء، وبالتفرقة ظهرت المقامات والأحوال وكثرت مراتب الخلق وتميزت بها، فللّه ثمانون عبداً حققهم بحقائق الإيمان، ولله مائة عبد حققهم بحقائق النسب الإلهيّة والأسماء، ولله ستة آلاف عبد ويزيدون حققهم بحقائق النبوّة المحمدية، ولله ثلاثمائة عبد حققهم بحقائق الأخلاق الإلهيّة، ففرّق عزّ وجلّ بين عباده بالمراتب وعين الجمع هو عين التفرقة إذ هو دليل على الكثرة، وإنما سمّي جمعاً من أجل العين الواحدة التي تجمع هذه التفرقة. فقول من قال في التفرقة إنها إشارة من أشار إلى خلق بلا حق، فمشهوده ما أعطته الحدود، والحدود لم يكن لها ظهور إلاّ في الخلق، إذ كان الحق لا يعرف لأنه الغنيّ عن العالمين، أي هو المنزّه عن أن تدل عليه علامة، فهو المعروف بغير حدّ المجهول بالحدّ والحدود، أظهرت التفرقة بين الخلق، وكل إنسان من أهل الذوق لا يتعدى في أخباره منزلة شهوده وذوقه لأنهم أهل صدق لا يخبرون أبداً إلاّ عن شهود لا عن خبر.

وأما قول الدقاق: الفرق ما نسبت إليك، فهو ما ذكرناه، فإنه ما نسب إليك إلاّ الحدود إذ الحق لا ينسب إليه حد، وجميع ما ينسب إلى العبد فمآله إلى الفناء والعدم، وما ينسب إلى الحق فمآله إلى البقاء والوجود، فكن ممّن ينسب إلى الحق ولا ينسب إلى الخلق وهو معنى قوله تعالىٰ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ فوصف بالنفاد ما نسبه إلينا وما لفظة تدل على كل شيء كذا قاله سيبويه ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٦] فمن كان عند الله منا صحّ له البقاء، ومن كان عند الخلق صحّ له النفاد. ألا ترى من هو عبد لغير الله من المماليك إذا جاء الموت ارتفع

الملك إذا كان للسيد عليه فنفد، فكل ما نسب إلى المخلوق فإنه ينفد بالموت أو بالشهادة، وكل ما ينفد فقد فارق من كان عنده، وهذا لا يوجد في الحق فإنه لا يفارقه شيء لأنه معنا وإليه تصير الأمور، فهذا معنى قوله: الفرق ما ينسب إليك.

وأما قول من قال: الفرق ما أشهدك الحق من أفعالك أدباً، يشير إلى الأفعال التي لا يعطي الأدب أن تنسب إلى الله، وإن كانت من الله لا إلى الأفعال التي تنسب إلى الله أدباً وحقيقة، وأفعال العباد لا بقاء لها عند العبد سوى زمان وجودها خاصة، وتزول عنه في الزمان الذي يلي زمان وجودها، فهذا معنى قول الدقاق فاجتمعا في المعنى، غير أن هذا القائل خصّص بعض الأفعال بقوله أدباً، فإذا نسبت أعيان هذه الأفعال إلى الله اتصفت بالبقاء لا لأعيانها بل لكونها مشهودة لله ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾ كما يبقى الفعل عندك ما دام مشهوداً لك، فإذا لم تشهده زال عينه عن شهودك ولهذا قال: ما أشهدك الحق من أفعالك ولم يتعرض لما يشهدك كما أنه لم يتعرض إلى المحمود من أفعالك مع كونه ينسب إليك فقال أدباً.

وأمّا قول من قال: الفرق مشاهدة العبودية فإنه نسب العبد إلى الصفة القائمة به ولا ينبغي أن تنسب إلاّ إلى الله، والعبودية صفة للعبد، فمن شاهد عبوديته كان لمن شاهد، ولهذا ينسب عباد الله إلى العبودة لا إلى العبودية، فهم عبيد الله من غير نسبة بخلاف نسبتهم إلى العبودية فإن الحق لا يقبل نسبة العبودية لأنه عين صفة العبد لا عين العبد، فمن شاهد العبودية فلم يشاهد كونه عبد الله ففرّق بين ما ينسب إلى الصفة وبين ما يضاف إلى الله، قال أهل اللسان: رجل بين الخصوصية والخصوصة، وبين العبودية والعبودة، والعبودية نسبة إليها، والعبودة نسبة إلى السيد.

وأما قول من قال: الفرق إثبات الخلق فهو كما تقدم في معنى قولهم إشارة إلى خلق بلا حق غير أن بينهما فرقاناً فإنه قال إثبات الخلق ولم يقل وجود الخلق، لأن عين وجود الخلق عين وجود الحق والخلق من حيث عينه هو ثابت وثبوته لنفسه أزلاً، واتصافه بالوجود أمر حادث طرأ عليه قد عرفناك بما يعقل من هذه اللفظة، فقوله: إثبات الخلق، أي في الأزل وقع الفرق بين الله والخلق، فليس الحق هو عين الأعيان الثابتة، بخلاف حال اتصافها بالوجود فهو تعالىٰ عين الموصوف بالوجود لا هي، فلهذا قال هذا القائل في الفرق أنه إثبات الخلق.

وأما قول من قال: إن الفرق شهود لأغيار اللّه، أراد من أجل الله فهذه لام العلة، فيشاهد في عين وجود الحق أحكام الأعيان الثابتة فيه فلا يظهر إلاّ بحكمها، ولهذا ظهرت الحدود وتميزت مراتب الأعيان في وجود الحق فقيل: أملاك، وأفلاك، وعناصر، ومولدات، وأجناس، وأنواع، وأشخاص، وعين الوجود واحد والأحكام مختلفة لاختلاف الأعيان الثابتة التي هي أغيار بلا شك في الثبوت لا في الوجود فافهم.

وأما قول من قال: التفرقة شهود تنوّعهم في أحوالهم، يريد ظهور أحكامهم في وجود الحق فإنها متنوّعة والحق لا يقبل التنوّع، فثبت أن ذلك حكم الأعيان، والمشهود لهذا العبد التنوّع فالمشهود له الأعيان ففرّق بينها وبين الوجود. وأما قول من قال في التفرقة: [المتقارب]

جـمـعـت وفـرّقـت عـنّـي بـه ... فـفـرط الـتّـواصـل مـثـنـى الـعـدد

فإنه أراد ظهور الواحد في مراتب الأعداد، فظهرت أعيان الاثنين والثلاثة والأربعة إلى ما لا يتناهى بظهور الواحد، وهذه غاية الوصلة أن يكون الشيء عين ما ظهر، ولا يعرف أنه هو كما رأيت النبي ﷺ في المنام وقد عانق أبا محمد بن حزم المحدث فغاب الواحد في الآخر فلم نر إلاّ واحداً وهو رسول الله ﷺ، فهذه غاية الوصلة وهو المعبر عنه بالاتحاد أي الاثنين عين للواحد ما في الوجود أمر زائد، كما أن زيداً هو عين عمرو، بل عين أشخاص هذا النوع الإنسانيّ في الإنسانية، فهو هو من حيث الإنسانية وليس هو هو من حيث الشخصية، فانعطاف الواحد بنفسه على مرتبة الاثنين هو عين ظهور الاثنين وما ثم سوى عين الواحد وهكذا ما بقي من الأعداد التي لا تتناهى، فتحقق معنى التفرقة إن كنت ذا لب سليم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والعشرون ومائتان
في معرفة عين التحكم

عين التحكم عند القوم التصرف لإظهار الخصوصية بلسان الانبساط في الدعاء، وهذا ضرب من الشطح وقريب منه لما يتوهم من دخول النفس فيه إلاّ أن يكون عن أمر إلهيّ فلا مؤاخذة على صاحبه فيه: [الكامل]

مـهـمـا تـحـكّـم عـارفٌ فـي خـلـقـه ... عـن غـيـر أمْـرٍ فـالـرُّعـونـةُ قـائـمـهْ
تـرْكُ الـتّـحـكُّـم نـعْـتُ كـل مـحـقّـق ... لـزمَ الـحـيـاءَ ولـو أتـتْـهُ راغِـمَـهْ
مـا لـلـرجـال الـصـمِّ أعـيـانِ الـورَى ... الـمُـصْـطَـفـيـن لـه نـفـوسٌ حـاكـمَـهْ
بـل هـم عـبـيـدٌ لـم يـزالـوا خُـشّـعـاً ... فـي كـل حـالٍ فـالـشـهـادةُ دائـمَـهْ
إن الـتّـحـكُّـمَ فـي الـحـجـاب مـقـامُـهُ ... خلفَ الستور المُرْسَلاتِ المُظْلمَهْ

فإذا كان عن أمر إلهيّ بتعريف فالإنسان فيه عبد ممتثل أمر سيده بطريق الوجوب، فإن عرض عليه عين التحكم من غير أمر عرض الأمانة وقبله فليس هناك بل مرتبته مرتبته في قبول الأمانة المعروضة التي قال الله فيمن حملها ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] ظلوماً لنفسه جهولاً بقدر ما تحمل لأنه جهل ما في علم الله فيه، هل هو ممّا يؤدّي الأمانة إلى أهلها أم لا؟ فعين التحكّم مخصوص بالرسل في إظهار المعجزات والتحدّي بها عن الأمر الإلهيّ فإنهم مرسلون بالدلالات على أنهم رسل الله، فهم مخبرون بالحال أنهم المصطفون الأخيار لا بالقصد، ثم قد يقع منهم بعد ثبوت الرسالة قول خارج عن مقتضى الدلالة، ولا يكون منهم إلاّ عن أمر إلهيّ يؤذن ذلك القول بمرتبة القائل عند الله مثل قوله ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» فلما كان في قوّة هذا اللفظ إظهار الخصوصية عند الله ومن هو مشغول بالله ما عنده فراغ لمثل هذا، ومن شغل أهل الله بالله امتثال أمر الله فأخبر عليه السلام حين عمّ فقال: «**ولا فَخْرَ**» أي ما قصدت الفخر، أي هكذا أمرت أن أعرفكم، فإن العارف كيف يفتخر

والمعرفة تمنعه ومشاهدة الحق تشغله، ولا يظهر مثل هذا ممّن ليس بمأمور به إلاَّ عن رعونة نفس أو فناء لغلبة حال يستغفر الله من ذلك إذا فارقه ذلك الحال الذي أفناه، وقد يظهر مثل هذا من صاحب الغيرة خاصة وهو مذهب شيخنا أبي مدين وقد ظهر منه مثل ذلك من باب الغيرة، فلا يدل على إظهار الخصوصية وذلك بأن يرى الإنسان دعوة الرسل تردّ ويتوقف في تصديقها، ولا سيما عند من ينفي النبوّة التي نثبتها فيقوم هذا العبد مقام وجود الرسول فيدعي ما يدعيه الرسول من إقامة الدلالة على صدق الرسول في رسالته نيابة عنه، فيأتي بالأمر المعجز على طريق التحدي للرسول لا لنفسه فيظهر منه ذلك، وهذا لا يدل على مقام الخصوصية عند الله فهو خارج عن عين التحكم وليس بخارج من حيث ما هو تحكيم لكنه خارج من حيث ما هو تحكيم خاص، وقد يكون عين التحكيم في رجل يكون له مقام الإدلال مع الحق، ويكون عنده تعريف إلهيّ بمقامه المعلوم كالملائكة في قوله تعالىٰ عنهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٦٤ ـ ١٦٦] فأثنوا على أنفسهم بعد معرفتهم وتعريفهم بمقامهم، فلا ينقصهم هذا الثناء ولا يحط مرتبتهم، وإذا لم يؤثر عين التحكيم في المقام فلا بأس به وتركه أعلى لأنه على كل حال فراغ، وما وقع مثل هذا من جبريل إلاَّ لكونه معلماً رسول الله صلوات الله عليهما، والمعلم ينبّه التلميذ بمرتبته لتعلو همته ليلحق بمعلمه، ومنهم من يبلغ في التحكيم أن يقسم على الله في أمر فيبر الحق قسمه ومع هذا يستغفر الله، فلولا أن فيه رائحة ما استغفر. والحكايات في التحكيم عن الصالحين كثيرة ولا سيما ما يحكى عن عبد القادر الجيلي رحمه الله كان ببغداد أدركناه بالسنّ، وكالذي سجد وحلف أن لا يرفع رأسه من سجدته حتى ينزل الغيث فأبر الله قسمه، وكالذي وقف على رأس بئر وقد عطش ولم يكن له حبل ولا ركوة فقال: لئن لم تسقني لأغضبن ففاض الماء على فم البئر فسئل على من تغضب؟ فقال: على نفسي فأمنعها الماء.
وأما عين التحكيم عندنا فأمر هين في شهود المعرفة فإن التحكيم للظاهر في المظهر فما تحكم إلاَّ من له التحكم، فمهما ظهر الظاهر به دلّ على أن استعداد المظهر أعطى هذا فيفرّق بينه وبين ما يعطيه مظهر آخر من عدم التحكيم، وهذه طريقة انفردنا بإظهارها في الوجود لأنها تقرّب على أهل الله مأخذ الأمور ولا تستعظم شيئاً ممّا ظهر فإنه ما ظهر إلاَّ ممّن له الأمر من قبل ومن بعد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والعشرون ومائتان

في معرفة الزوائد

اعلم أن الزوائد في اصطلاح الصوفية من أهل الله تعالىٰ زيادات الإيمان بالغيب واليقين: [الوافر]

إذا مـا أُنـزلـتْ بـالـنـور سُـورَهْ يـزيـد الـمـؤمـنـون بـهـا سُـرورَا
فـعـلْـمُ الـغـيـبِ أَنْـفَـسُ كـلِّ عـلـمٍ وكـان الـعـلـمُ أجْـمَـعُـه حُـضُـورَا

وإدراكُ الـغـيـوبِ بـلا دلـيـلٍ ... سوى الرحمنِ لا يُعْطي ثُبُورَا
وما للغيبِ عند الحقِّ عينٌ ... ولو جَلَّى لك الاسمَ الخَبيرَا
لقد حجبَ العبادَ وكلَّ عقلٍ ... بحتى نعلَمَ الجَلْدَ الصَّبُورَا

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٤، ١٢٥] فلا بدّ من الزوائد في الفريقين وهي الشؤون التي الحق عليها وفيها في كل يوم أي في كل نفس الذي هو أصغر الأيام، غير أن الزوائد التي اصطلح عليها أهل الله هي ما تعطي من ذلك سعادة خاصة وعلماً بغيب يزيده يقيناً مثل قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٠] يقول: بلى آمنت ولكن وجوه الأحياء كثيرة متنوّعة، كما كان وجود الخلق، فمن الخلق من أوجدته عن ﴿كُن﴾ ومنهم من أوجدته بيدك، ومنهم من أوجدته بيديك، ومنهم من أوجدته ابتداء، ومنهم من أوجدته عن خلق آخر، فتنوّع وجود الخلق وإحياء الخلق بعد الموت إنما هو وجود آخر في الآخرة فقد يتنوّع وقد يتوحد، فطلبت العلم بكيفية الأمر هل هو متنوّع أو واحد؟ فإن كان واحداً فأيّ واحد هو من هذه الأنواع؟ فإذا أعلمتني به اطمأنّ قلبي وسكن بحصول ذلك الوجه والزيادة من العلم ممّا أمرت بها قال تعالىٰ آمراً: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] فأحاله على الكيفية بالطيور الأربعة التي هي مثال الطبائع الأربع إخباراً بأن وجود الآخرة طبيعيّ يعني حشر الأجساد الطبيعية، إذ كان ثم من يقول: لا تحشر الأجسام وإنما تحشر النفوس بالموت إلى النفس الكلية مجرّدة عن الهياكل الطبيعية، فأخبر الله إبراهيم أن الأمر ليس كما زعم هؤلاء فأحاله على أمر موجود عنده تصرّف فيه إعلاماً أن الطبائع لو لم تكن مشهودة معلومة مميزة عند الله لم تتميز، فما أوجد العالم الطبيعي إلاَّ من شيء معلوم عنده مشهود له نافذ التصرف فيه، فجمع بعضها إلى بعض فأظهر الجسم على هذا الشكل الخاص، فأبان لإبراهيم بإحالته على الأطيار الأربعة وجود الأمر الذي فعله الحق في إيجاد الأجسام الطبيعية والعنصرية، إذ ما ثم جسم إلاَّ طبيعي أو عنصري، فأجسام النشأة الآخرة في حق السعداء طبيعية، وأجسام أهل النار عنصرية لا تفتح لهم أبواب السماء، فلو فتحت خرجوا عن العناصر بالترقي.

وأما حشر الأرواح التي يريد أن يعقلها إبراهيم من هذه الدلالة التي أحاله الحق عليها في الطيور الأربعة فهي في الإلهيات كون العالم يفتقر في ظهوره إلى إله قادر على إيجاده، عالم بتفاصيل أمره، مريد إظهار عينه، حيّ لثبوت هذه النسب التي لا تكون إلاَّ لحيّ، فهذه أربعة لا بدّ في الإلهيات منها، فإن العالم لا يظهر إلاَّ ممّن له هذه الأربعة، فهذه دلالة الطيور له عليه السلام في الإلهيات في العقول والأرواح وما ليس بجسم طبيعي، كما هي دلالة على تربيع الطبيعة لإيجاد الأجسام الطبيعية والعنصرية. ثم قوله: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٠]

أي ضمهنّ والضم جمع عن تفرقة وبضم بعضها إلى بعض ظهرت الأجسام ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٠] وهو ما ذكرناه من الصفات الأربع الإلهيات وهي أجبل لشموخها وثبوتها فإن الجبال أوتاد ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٠] ولا يدعى إلاّ من يسمع وله عين ثابتة فأقام له الدعاء بها مقام قوله: ﴿كُن﴾ في قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فزاد يقينه طمأنينة بعلمه بالوجه الخاص من الوجوه الإمكانية ومن الزوائد ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] فتزيد علماً لم يكن عندك بعلمك إياه الحق تعالىٰ تشريفاً منحك إياه التقوى، فمن جعل الله وقاية حجبه الله عن رؤية الأسباب بنفسه فرأى الأشياء تصدر من الله، وقد كان هذا العلم مغيباً عنك فأعطاك العلم به زيادة الإيمان بالغيب الذي لو عرض على أغلب العقول لردّته ببراهينها فهذه فائدة هذا الحال. ومن الزوائد أن تعلم أن حكم الأعيان ليس نفس الأعيان، وأن ظهور هذا الحكم في وجود الحق وينسب إلى العبد بنسبة صحيحة وينسب إلى الحق بنسبة صحيحة فزاد الحق من حيث الحكم حكماً لم يكن عليه، وزاد العين إضافة وجود إليه لم تكن يتصف به أزلاً، فانظر ما أعجب حكم الزوائد، ولهذا عمّت الفريقين فزادت السعيد إيماناً وزادت الشقيّ رجساً ومرضاً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والعشرون ومائتان

في معرفة الإرادة

الإرادة عند القوم لوعة يجدها المريد من أهل هذه الطريقة تحول بينه وبين ما كان عليه ممّا يحجبه عن مقصوده. [نظم: المديد]

لَوْعَةٌ في القلب مُخرِقَةٌ ... هي بدءُ الأمر لو عَلِمُوا
فلهذا حنَّ صاحبُها ... للذي عنه العبادُ عَمُوا
فإذا يبدو لناظِرِهِ ... يَعْتَرِيه البَهْتُ والصَّمَمُ
فتراهُ دائماً أبداً ... بلهيبِ النار يَضْطَلِمُ
كل شيء عنده حَسَنٌ ... وبهذا كلُّهم حَكَمُوا

والإرادة عند أبي يزيد البسطامي ترك الإرادة وذلك قوله: أريد أن لا أريد، فأراد محو الإرادة من نفسه، وقال هذا القول في حال قيام الإرادة به، ثم تمّم وقال: لأني أنا المراد وأنت المريد، يخاطب الحق، وذلك أنه لما علم أن الإرادة متعلقها العدم والمراد لا بدّ أن يكون معدوماً لا وجود له ورأى أن الممكن عدم، وإن اتصف بالوجود لذلك قال: أنا المراد أي أنا المعدوم وأنت المريد فإن المريد لا يكون إلاّ موجوداً. وأمّا الإرادة عندنا فهي قصد خاص في المعرفة بالله وهي أن تقوم به إرادة العلم بالله من فتوح المكاشفة لا من طريق الدلالة بالبراهين العقلية، فتحصل له المعرفة بالله ذوقاً وتعليماً إلهياً فيما لا يمكن ذوقه وهو قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] وقالت المشايخ في الإرادة: إنها ترك ما

عليه العادة، وقد تكون عادة زيد ما هي عادة عمرو فيترك عمرو عادته بعادة زيد لأنها ليست عادة له.

ثم اعلم في مذهبنا أنك إذا علمت أن الإرادة متعلقها العدم وعلمت أن العلم بالله مراد للعبد، وعلمت أنه لا يحصل العلم به على ما يعلم الله به نفسه لأحد من المخلوقين مع كون الإرادة من المخلوقين لذلك موجودة، فالإرادة للعبد ما دام في هذا المقام لازمة لازم حكمها وهو التعلّق بالمعدوم والعلم بالله كما قلنا لا يصحّ وجوده، فالعبد حكم الإرادة فيه أتم من كونها فيمن يدرك ما يريد، فليست الإرادة الحقيقية إلاَّ ما لا يدرك متعلقها فلا يزال عينها متصفاً بالوجود ما دام متعلقها متصفاً بالعدم، فإن الإرادة إذا وجد مرادها أو ثبت زال حكمها وإذا زال حكمها زال عينها، وينبغي للإرادة فينا أن لا تزول فإن مرادها لا يكون. وأما من يتكوّن عن إرادته ما يريد فلا تصحبه الإرادة وجوداً وإنما بقيت الإرادة هناك لأن متعلقها آحاد الممكنات وآحادها لا تتناهى فوجودها هناك لا يتناهى ولكن يختلف تعلقها باختلاف المرادات. والذي يشير إليه أهل الله في تحقيق الإرادة أنها معنى يقوم بالإنسان يوجب له نهوض القلب في طلب الحق المشروع ليتصف به بالعمل ليرضى الله بذلك فيكون ممّن رضي الله عنهم ورضوا عنه، فصاحب الإرادة يسعى في أن يكون بهذه المثابة، ثم ما زاد على هذا ممّا يناله أهل الله من الفتوح والكشف والشهود وأمثال هذه الأحوال فذلك من الله ليست مطلوبة لصاحب الإرادة التي يقتضيها طريق الله، إنما جلّ إرادتهم أن يكونوا على حال مع الله يرضي الله في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم إيثاراً لجناب الحق لا رغبة في نعيم ينالونه بذلك ولا فراراً من ضده دنيا ولا آخرة بل هم على ما شرع لهم، ولله الأمر فيهم بما يشاء، لا تخطر لهم حظوظ نفوسهم بخاطر، هذا أتم ما توجبه الإرادة في المريد، وإن خطر لهم حظ في ذلك فما خرجوا عن حكم الإرادة، ولكن يكون صاحب الحظ النفسيّ ناقص المقام بالنظر إلى الأوّل مع كونه صاحب إرادة كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٥٥] مع أن النبوّة موجودة فما زالوا من النبوّة مع فضل بعضهم على بعض.

وأما معنى قول الطائفة في الإرادة أنها لوعة يجدها المريد تحول بينه وبين ما كان عليه ممّا يحجبه عن مقصوده فصحيح، غير أنه ثم أمر تعطيه المعرفة بالله إذا حصل له العلم بالله من طريق الكشف والتعليم الإلهيّ فلا يبقى شيء يتصف به العبد يحجبه عن مقصوده إذا كان مقصوده الحق فهو يشهده في كل عين وفي كل حال ولا ينال هذا المقام إلاَّ من رضي الله عنه، ومن علامات صاحب هذا المقام معانقة الأدب إلاَّ أن يسلب عنه عقله بهذه المشاهدة فلا يطالب بالأدب كالبهاليل وعقلاء المجانين لأنه طرأ عليهم أمر إلهي ضعفوا عن حمله فذهب بعقولهم في الذاهبين، وحكمهم عند الله حكم من مات على حالة شهود ونعت استقامة وبقي من حالته هذه حكمه حكم الحيوان ينال جميع ما يطلبه حكم طبيعته من أكل وشرب ونكاح وكلام من غير تقييد ولا مطالبة عليه عند الله مع وجود الكشف وبقائه عليهم كما يكشف الحيوان وكل دابة حياة الميت على النعش وهو يخور ويقول سعيدهم: قدموني

قدموني، ويقول الشقيّ: إلى أين تذهبون بي؟ ويشاهدون عذاب القبر ويرون ما لا يراه الثقلان، كذلك هذا الذي ذهب الله بعقله فيه حكمه حكم الحيوان وكل دابة وكما هو الميت على حكم ما مات عليه، كذلك هذا البهلول هو على حكم ما ذهب عنده عقله فهو معدود في الأموات بذهاب عقله، معدود في الأحياء بطبعه، فهو من السعداء الذين رضي الله عنهم كمسعود الحبشيّ وعلي الكردي وجماعة رأيناهم بهذه المثابة بالشام وبالمغرب وهم من عباد الله على مثل هذا الحال نفعنا الله بهم، ومهما ردّ على من هذه حاله عقله وهو في الحياة الدنيا فإنه من حينه يلازم الآداب الشرعية ويعانقها، ومن أبقى عليه عقله كان عند القوم أتم وأعلى. قيل للشيخ أبي السعود بن الشبل: ما تقول في هؤلاء المجانين من أهل الله؟ فقال رضي الله عنه: هم ملاح ولكن العاقل أملح، يشير إلى أن العناية بمن أبقي عليه عقله أتم، فهذا أصل ما يرجع إليه مجموع أقوال أهل الله في الإرادة المصطلح عليها عندهم وإن اختلفت عباراتهم فهم بين أن ينطقوا في ذلك بأمر كليّ أو بأمر جزئيّ بحسب ذوقه، وما يترجح عنده في حاله فإنهم لا يتعدّون في العبارة عن الشيء ما يعطيه ذوقهم ولا يتصنعون ولا يتعملون ولا يأخذون شيئاً في تحقيق ذلك عن فكرهم بل ما يتعدّى نطقهم ذوقهم ووجودهم، فهم أهل صدق وعلم محقق لا تدخله شبهة عندهم، ومن فكر فليس منهم، ويصيب ويخطئ وليس صاحب الفكر بصاحب حال ولا ذوق. وأما أهل الاعتبار فيكون منهم أصحاب أذواق ويعتبرون عن ذوق لا عن فكر، وقد يكون الاعتبار عن فكر فيلتبس على الأجنبيّ بالصورة فيقول في كل واحد أنه معتبر ومن أهل الاعتبار، وما يعلم أن الاعتبار قد يكون عن فكر وعن ذوق.

والاعتبار في أهل الأذواق هو الأصل وفي أهل الأفكار فرع، وصاحب الفكر ليس من أهل الإرادة إلاّ في الموضع الذي يجوز له الفكر فيه إن كان ثم ممّا لا يمكن أن يحصل الأمر المفكر فيه إلاّ به بفتح الكاف فحينئذ يأخذه من بابه، وهل ثم أمر بهذه المثابة لا يمكن أن ينال من طريق الكشف والوجود أم لا؟ فنحن نقول ما ثم ونمنع من الفكر جملة واحدة لأنه يورث صاحبه التلبيس وعدم الصدق، وما ثم شيء إلاّ ويجوز أن ينال العلم به من طريق الكشف والوجود والاشتغال بالفكر حجاب وغيرنا يمنع هذا، ولكن لا يمنعه أحد من أهل طريق الله بل مانعه إنما هو من أهل النظر والاستدلال من علماء الرسوم الذين لا ذوق لهم في الأحوال، فإن كان لهم ذوق في الأحوال كأفلاطون الإلهيّ من الحكماء فذلك نادر في القوم وتجد نفسه يخرج مخرج نفس أهل الكشف والوجود، وما كرهه من كرهه من أهل الإسلام إلاّ لنسبته إلى الفلسفة لجهلهم بمدلول هذه اللفظة والحكماء هم على الحقيقة العلماء بالله وبكل شيء ومنزلة ذلك الشيء المعلوم ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٣٠] ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩] والحكمة هي علم النبوّة كما قال في داود عليه السلام وأنه ممّن آتاه الله الملك والحكمة فقال: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥١].

والفيلسوف معناه محب الحكمة لأن سوفيا باللسان اليوناني هي الحكمة وقيل هي

المحبة، فالفلسفة معناه حب الحكمة وكل عاقل يحب الحكمة، غير أن أهل الفكر خطؤهم في الإلهيات أكثر من إصابتهم سواء كان فيلسوفاً أو معتزلياً أو أشعرياً أو ما كان من أصناف أهل النظر، فما ذمّت الفلاسفة لمجرّد هذا الاسم وإنما ذمّوا لما أخطأوا فيه من العلم الإلهيّ ممّا يعارض ما جاءت به الرسل عليهم السلام بحكمهم في نظرهم بما أعطاهم الفكر الفاسد في أصل النبوّة والرسالة ولماذا تستند فتشوش عليهم الأمر، فلو طلبوا الحكمة حين أحبوها من الله لا من طريق الفكر أصابوا في كل شيء، وأما ما عدا الفلاسفة من أهل النظر من المسلمين كالمعتزلة والأشاعرة فإن الإسلام سبق لهم وحكم عليهم ثم شرعوا في أن يذبّوا عنه بحسب ما فهموا منه فهم مصيبون بالأصالة مخطؤون في بعض الفروع بما يتأوّلونه ممّا يعطيهم الفكر والدليل العقليّ من أنهم إن حملوا بعض ألفاظ الشارع على ظاهرها في حق الله ممّا أحالته أدلة العقول كان كفراً عندهم فيؤوّلونه، وما علموا أن لله قوّة في بعض عباده تعطي حكماً خلاف ما تعطي قوّة العقل في بعض الأمور وتوافق في بعض، وهذا هو المقام الخارج عن طور العقل فلا يستقل العقل بإدراكه ولا يؤمن به إلاَّ إذا كانت معه هذه القوّة في الشخص، فحينئذ يعلم قصوره ويعلم أن ذلك حق فإن القوى متفاضلة تعطى بحسب حقائقها التي أوجدها الله عليها، فقوّة السمع لو عرض عليها حكم البصر أحالته والبصر كذلك مع غيره من القوىٰ، والعقل من جملة القوىٰ بل هو المستفيد من جميع القوىٰ ولا يفيد العقل سائر القوىٰ شيئاً ومن صحّ له حكم الإرادة المصطلح عليها عند أهل الله عرف هذه المقامات كلها والمراتب كشفاً وعرف صورة الغلط في الأشياء وأنه واقع في النسب والوجوه، وكل غالط إنما غلط في النسبة حيث نسبها إلى غير جهتها فيأخذها أهل الله فيجعلون تلك النسبة في موضعها ويلحقونها بمنسوبها وهذا معنى الحكمة، فأهل الله من الرسل والأولياء هم الحكماء على الحقيقة وهم أهل الخير الكثير جعلنا الله من أهل الإرادة وممّن جمع بين العادة وترك العادة من حيث ما تعطيه الشهادة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والعشرون ومائتان

في معرفة حال المراد

[نظم: البسيط]

إن المرادَ هو المجذوبُ بالحَالِ ... في كل حالٍ على حِلٍّ وترْحَالِ
يمشي به وهو في بيضاءَ في دَعَةٍ ... على المقاماتِ من حالٍ إلى حَالِ
عنايةً منه والرحمنُ يَحْرُسُه ... بعينه فهو في نُعْمَى وإقْبَالِ

اعلموا أن المراد في اصطلاح القوم هو المجذوب عن إرادته مع تهيؤ الأمور له، فهو يجاوز الرسوم والمقامات من غير مشقة بل بالتذاذ وحلاوة وطيب تهون عليه الصعاب وشدائد الأمور، وينقسم المرادون هنا إلى قسمين: القسم الواحد أن يركب الأمور الصعبة وتحلّ به البلايا المحسوسة والنفسية ويحسّ بها ويكره ذلك الطبع منه غير أنه يرى ويشاهد ما له في

ذلك في باطن الأمر عند الله من الخير مثل العافية في شرب الدواء الكريه، فيغلب عليه مشاهدة ذلك النعيم الذي في طيّ هذا البلاء فيلتذ بما يطرأ عليه من مخالفة الغرض وهو العذاب النفسيّ ومن الآلام المحسوسة لأجل هذه المشاهدة كعمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه من أصحاب هذا المقام فقال في ذلك: ما أصابني الله بمصيبة إلاّ رأيت أن لله عليّ فيها ثلاث نعم: النعمة الواحدة حيث لم تكن تلك المصيبة في ديني. والنعمة الثانية حيث لم تكن مصيبة أكبر منها إذ في الجائز أن يكون ذلك. والنعمة الثالثة ما عند الله لي فيها من تكفير الخطايا ورفع الدرجات، فأشكر الله تعالىٰ عند حلول كل مصيبة. وهنا فقه عجيب في طريق القوم تعطيه الحقائق لمن عرف طريق الله، فإنّ البلاء لا يقبل الشكر والنعمة لا تقبل الصبر، فإن شكر من قام به البلاء فليس مشهوده إلاّ النعم فيجب عليه الشكر، وأن صبر من قامت به النعماء فليس مشهوده إلاّ البلاء وهو ما فيها من تكليف طلب الشكر عليها من الله وما كلفه من حكم التصرّف فيها فمشهوده يقتضي له الصبر والحق سبحانه يردف عليه النعم وهو في شهوده ينظر ما لله عليه فيها من الحقوق فيجهد نفسه في أدائها، فلا يلتذ بما يحسب الناس أنه به ملتذ فيصبر على ترادف النعماء عليه فهو صاحب بلاء فليس المعتبر إلاّ ما يشهده الحق في وقته فهو بحسب وقته إما صاحب شكر أو صاحب صبر فهذا حال القسم الواحد من المرادين. وأما القسم الآخر فلا يحسّ بالشدائد المعتادة بل يجعل الله فيه من القوّة ما يحمل بها تلك الشدائد التي يضعف عن حملها غيرها من القوىٰ كالرجل الكبير ذي القوّة فيكلف ما يشق على الصغير أن يحمله فما عنده خبر من ذلك بل يحمله من غير مشقة فإنه تحت قوّته وقدرته، ويحمله الصغير بمشقة وجهد فهذا ملتذ بحمله فارح بقوّته يفتخر بها لا يجد ألماً ولا يحسّ به كما قال أبو يزيد في بعض مناجاته: [الوافر]

أريـــدكَ لا أريــدكَ لـــلـــثَّـــوَابِ ولــكــنِّـــي أريــدكَ لــلــعِــقَــابِ
وكــلُّ مــآربــي قــد نِــلْــتُ مــنــهــا ســوى مَــلْــذُوذِ وَجْــدي بــالــعَــذَابِ

فطلب اللذة بما جرت العادة به أن يثمر عذاباً خرقاً للعادة فما طلب العذاب، يقول أهل الله: ليس العجب من ورد في بستان وإنما العجب من ورد في قعر النيران، يقول صاحب هذا الكلام: ليس العجب ممّن يلتذ بما جرت العادة أن يلتذ به الطبع وإنما العجب أن يلتذ بما جرت العادة أن يتألم به الطبع.

ذكر أن بعض المحبين جنى جناية فجلده الحاكم مائة جلدة فما أحسّ بتسع وتسعين منها فما استغاث فلما كان في السوط المكمل مائة استغاث فقيل له في ذلك فقال: العين التي كنت أعاقب من أجلها كانت تنظر إليّ فكنت أتنعم بالنظر إليها فما كنت أحسّ بمواقع السوط من ظهري فلما كان في السوط الموفى مائة غابت عني فأحسست بموقع السوط فاستغثت. ورأيت المرأة الصالحة بمكة فاطمة بنت التاج ضربها أبوها ضرباً مبرحاً من غير جناية فما أحسّت بذلك وكانت تحسّ بشيء يحول بين ظهرها ومواقع السياط فيقع السوط في ذلك الحائل وتسمع وقع السوط بأذنها وتتعجب حيث لا تحسّ به.

وقد جرى لنا مثل هذا في بدايتنا في حكاية طويلة، فهذا المراد قد يعطيه الله اللذة دائماً بكل شيء يقوم به من بلاء ونعمة، فإن النعيم ليس بشيء زائد على عين اللذة القائمة بالشخص، كما أن البلاء ليس بشيء زائد على وجود عين الألم، وأما الأسباب الموجبة لهما فغير معتبرة عندنا فليس صاحب البلاء إلاّ من قام به الألم، وليس صاحب النعمة سوى من قامت به اللذة، ويكون السبب ما كان معتاداً أو غير معتاد، وهذا القسم قد يجعل الله فيه أن يكون مراداً له في نفسه جميع ما يريد الله أن ينزله به، فإذا أعطاه الله مرادة ولا بدّ من ذلك فإن ذلك مراد لله تعالىٰ فإنه يلتذ بوقوع مراده، فتكون الشدائد والمكاره المضادة مرادة له فتحل به فيحملها بما عنده وما جعل الله فيه من القوّة، فقد يكون حال المراد بهذه المثابة وأهل البداية في هذا الطريق كلهم عند حصول التوبة ملتذون بكل شدة تطرأ عليهم فهي شدة عند غيرهم وهي ملذوذة هينة عندهم، ولهذا أهل النهاية من العارفين يحنون إلى البداية لأجل هذه اللذة فإنهم لا يجدونها في النهاية فإنهم أهل تمييز متحققون بالحق فهم أهل غضب ورضى فيحنون إلى البداية لأجل ما فيها من الالتذاذ، وكلما كمل الرجل أعطاه الله التمييز في الأمور وحقّقه بالحقائق إذ الموطن يعطي ذلك، فلو كان مزاج الدنيا على مزاج الجنة لم يعطَ إلاّ نسيماً مجرداً أو على مزاج النار لم يعط إلاّ ألماً، فلما كان ممتزجاً وقتاً هكذا ووقتاً هكذا كان العارفون بحسب الموطن، وإذا علمت هذا فاعلم أنه يكون أيضاً من أحوال المراد رفع التمني والطمع والإخلاص من نفسه مع المبالغة في الأعمال فيشاهدها من حيث ما هو محل لجريانها ويجعلها من جملة الأقدار الجارية عليه وذلك لفنائه عمّا ينسب إليه من الحول والقوّة فليس له مقام ولا يحكم عليه حال، فإنه لا يرى المقام ولا الحال لنظره إلى رب المقام والحال بعين رب المقام والحال متفرج في جريان الأقدار عليه وظهورها فيه وهو مع نفسه كأنه لا داخل فيها ولا خارج عنها.

وصل: وأما كون هذا الشخص سمّي مراداً ليس معناه أنه مراد لما أريد به وإنما معناه أنه محبوب، فإن المحبوب لا يكون معذباً بشيء فلا بدّ أن يحول المحب بين ما يؤلم محبوبه وبين محبوبه وإن لم يفعل ذلك فليس بمحب ولا ذلك محبوباً، وكذا وقع أنّ الله ما ابتلى من ابتلى من عباده المحبوبين عنده من كونهم محبوبين وإنما رزقهم من جملة ما رزقهم أن جعلهم محبين له، فلما ادّعوا محبته ابتلاهم من كونهم محبين لا من كونهم محبوبين فافهم، فالمحبوب له الإدلال والمحب له الخضوع فالمراد هو المحبوب فلا يذوق بلاء، وأما المراد الذي يكون مراداً لما أريد به فإنه لا بدّ أن يرزق الإرادة لما أريد به فلا يقع له إلاّ ما هو مراد له وقد ذكرناه، وما كل مراد لما أريد به يكون له إرادة فيما أريد به، فمن يكون له إرادة ذلك فهو المراد المصطلح عليه في هذا الطريق، فالمراد لما أريد به هو حال يعمّ الخلق أجمعه ما فيه اختصاص، ومن يكون له إرادة فيما أريد به فذلك خصوص وهو المطلوب بهذه اللفظة وهذا الاسم في هذا الطريق عند أهل الله فيكون مراداً مريداً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، فإن الكلام في باب الإرادة والمراد والمريد يطول.

الباب الثامن والعشرون ومائتان

في حال المريد

فاعلم يا وليّ وفقك الله أنه: [البسيط]

لـيـس الـمـريـدُ الـذي قـامَـتْ إرادتُـهُ   بـه ولـكـنَّـه مـن يَـنْـقَـضِـي غَـرَضُـهْ
فـإن أرادَ أمـوراً لـيـس يُـذركُـهـا   فـإن حـاكـمَـه فـي صَـرْفِـه مَـرَضُـهْ
ولـيـس إذ ذاك مـن أَهْـلِ الـطـريـقِ ولا   في حكمه جَوْهَرٌ في الكون أو عَرَضُهْ

لفظة المريد عند المحققين من أهل الله تطلق بإزاء المنقطع إلى الله المؤثر جناب الله الساعي في محاب الله ومراضيه، وقد يطلقونها بإزاء المتجرد عن إرادته، وأعظم مراتب المريد عندهم وعندنا أن يكون نافذ الإرادة لا عن كشف، فإن كان عن كشف فليس بمريد وإنما هو عالم بما يكون، كما أنه ليس من شرط المراد أن تكون له إرادة فيما يقع في الوجود به وبغيره أن يكون ما يقع مشهوداً له في إرادته فيريده قبل وقوعه بل قد لا يكون ذلك وليس بشرط، وإنما حاله أن الأمر إذا وقع في الوجود يرضى به ويلتذّ بوقوعه ولا يردّه بخاطره ولا يكرهه، فاعلم أنه من أعلمه الله مراده فيما يكون عناية منه فإنه مطلوب بالتأهب لذلك ولا سيما فيما يقع به لا بغيره فيتلقاه بالصفة التي يطلبها ذلك الواقع شرعاً من رضى أو صبر أو شكر، فإن كان مع هذا الإعلام يكون مريداً لذلك فتلك إرادة موافقة، ويكون مريداً لقيام الإرادة به لا لنفوذ إرادته، فإنه لا ينبغي في الطريق أن يسمّى مريداً إلاَّ من تنفذ إرادته وهو الله أو من أعطاه الله ذلك من خلقه، وما سمعنا أنه نال هذا المقام أحد من خلق الله فإنه قد صحّ عندنا كشفاً ونقلاً أنه لا مقام أعلى من مقام محمد ﷺ ومع هذا قد سأل الله في أشياء منها أن لا يجعل الله بأس أمته بينها فلم يقبل سؤاله في ذلك قال ﷺ: «**فَمَنَعَنِيهَا**» فإذا لم يكمل مقام نفوذ الإرادة له ﷺ فكيف يناله غيره؟ فإنه ممّن انفرد الله به، فمن أطلعه الله على مراداته فما أراد إلاَّ ما يقع فيظهر نفوذ إرادته وما يعلم الناس ما هو مشهوده الذي أشهده الحق فهم يتخيلون أن ذلك المراد الواقع من أثر همته وليس كذلك، فالمريد من انقطع إلى الله تعالىٰ عن نظر واستبصار وطلب مرضاة الله وتجرّد عن إرادته، إذ علم أنه ما يقع في الوجود إلاَّ ما يريده الله لا ما يريده الخلق فيقول هذا المريد: فلماذا أتعنّى وأريد ما لا أعلم أنه يقع أم لا يقع، فإنه لا علم لي بما في علم الله تعالىٰ من ذلك، فإن وقع ما أريد فلكونه مراد الله فبماذا أفرح؟ وإن لم يقع فلا بدّ من انكسار الخيبة فاستعجل الهمّ وربما ينجر معه عدم الرضى لعدم وقوع المراد، فالأولى أن لا يريد إلاَّ ما يريده الحق كان ما كان على الإجمال، فمتى وقع تلقيته بالقبول والرضى فيتجرد عن إرادته فلا يبقى له إرادة إلاَّ على هذا الحكم.

وأما الذي يطلعه الله من المريدين على مراد الله في العالم فإن ذلك قد يكون على أحد طريقين: الطريق الواحدة بإخبار إلهيّ وكشف لما يكون. والطريق الثانية أن يرزقه الله علم ما تعطيه حقائق الأشياء وترتيبها الإلهيّ الذي رتبت عليه فيريد عند ذلك أمراً مّا فلا تخطئ له

إرادة بل يقع مراده على حسب ما تعلق به، فهذا مريد بالحق كما كان سميعاً بصيراً بالحق إذ كان الحق سمعه وبصره فتكون أيضاً إرادته، ومهما أخطأت إرادته فليس بمريد على الحقيقة، إذ لا فائدة في أن لا يكون مريداً إلاَّ من قامت به الإرادة، وإنما الفائدة في أن لا يكون مريداً إلاَّ من تنفذ إرادته، فالمريد في هذه الطريقة يحمل المشاق والشدائد، والمكاره مشاق وشدائد ومكاره غير ملتذّ بها بل يحملها من أجل الله أو أجل ما له فيها أي في حملها من السعادة الأبدية أعلاها وأن يشكر الله فعله فيكون ممّن أثنى الله عليه، فيتجرع الغصص ويصبر عليها لعلمه بما في طيّ ذلك من الخير الإلهيّ، وقد يكون بعض رجال الله مريداً من وجه مراداً من وجه فتختلف أحواله فتختلف أحكامه، فإذا التذّ بالواقع المكروه كان مراداً، وإذا تألم بالواقع المحبوب كان مريداً فكيف حاله بالمكروه؟ فهذا حال المريد قد بيّناه مفصلاً لمن يعقل من أهل الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والعشرون ومائتان

في حال الهمة

[نظم: المتقارب]

إذا كـنـتَ فـي هِـمَّـةٍ فـاتَّـئِـدْ ... فـإن الـوجـودَ لـهـا مـسْـتـعِـدّ
ولا تـفـتـحَـنَّ بـهـا مُـغْـلـقـاً ... ولا تَـكُ مـمَّـنْ بـهـا يَـسْـتَـبِـدّ
ولا تَـرْكَـنَـنَّ إلـيـهـا وكُـنْ ... كـمـا أنـتَ فـي بـاطـنِ الـمُـعْـتَـقَـدْ

فباطن المعتقد كون الله هو الفاعل للأشياء لا أثر فيها لهمة مخلوق ولا لسبب ظاهر ولا باطن، لعلمه بأن الأسباب إنما جعلها الله ابتلاء ليتميز من يقف عندها ممّن لا يرى وقوع الفعل إلاَّ بها ممّن لا يرى ذلك، ويرى الفعل لله من ورائها عندها لا بها.

اعلم أن الهمة يطلقها القوم بإزاء تجريد القلب للمنى، ويطلقونها بإزاء أوّل صدق المريد، ويطلقونها بإزاء جمع الهمم بصفاء الإلهام فيقولون: الهمة على ثلاث مراتب: همة تنبه، وهمة إرادة، وهمة حقيقة. فاعلم أن همة التنبّه هي تيقّظ القلب لما تعطيه حقيقة الإنسان ممّا يتعلق به التمنّي سواء كان محالاً أو ممكناً فهي تجرد القلب للمنى فتجعله هذه الهمة أن ينظر فيما يتمناه ما حكمه فيكون بحسب ما يعطيه العلم بحكمه، فإن أعطاه الرجوع عن ذلك رجع، وإن أعطاه العزيمة فيه عزم، فيحتاج صاحب هذه الهمة إلى علم ما تمناه. وأما همة الإرادة وهي أوّل صدق المريد فهي همة جمعية لا يقوم لها شيء وهذه الهمة توجد كثيراً في قوم يسمون بأفريقية العزابية يقتلون بها من يشاؤون، فإن النفس إذا اجتمعت أثرت في أجرام العالم وأحواله ولا يعتاض عليها شيء حتى أدّى من علم ذلك ممّن ليس عنده كشف ولا قوّة إيمان أن الآيات الظاهرة في العالم على أيدي بعض الناس إنما ذلك راجع إلى هذه الهمة ولها من القوّة بحيث أن لها إذا قامت بالمريد أثراً في الشيوخ الكمل فيتصرفون فيهم بها، وقد يفتح على الشيخ في علم ليس عنده ولا هو مراد به بهمة هذا المريد الذي يرى أن ذلك عند هذا

الشيخ، فيحصل ذلك العلم في الوقت للشيخ بحكم العرض ليوصله إلى هذا الطالب صاحب الهمة إذ لا يقبله إلاّ منه، وذلك لأن هذا المريد جمع همته على هذا الشيخ في هذه المسألة، والحكايات في ذلك مشهورات مذكورة، وأثر هذه الهمة في الإلهيات قول الله تعالىٰ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِيَ بِي فَلْيَظُنَّ بِي خَيْراً**» فمن جمع همته على ربه أنه لا يغفر الذنب إلاّ هو وأن رحمته وسعت كل شيء كان مرحوماً بلا شك ولا ريب، قال تعالىٰ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢٣] لأنهم ظنوا ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢] فلهذا قلنا إنه لا بدّ من علم ما تتعلق به هذه الهمة، فإن تعلقت بمحال لم يقع وعاد وبالها على صاحبها فأثر في نفسه بهمته، وإن تعلقت بما ليس بمحال وقع ولا بدّ وهنا من هذه الطائفة تعلقت بالمحال وهو نفي العلم عن الله ببعض أعمال العباد فعذبهم الله بأعمالهم فظنهم أرداهم، وهذه مسألة لا يمكن أن أوفيها حقّها لاتساعها وما يدخل فيها ممّا لا ينبغي أن يقال ولا يذاع، غير أن لها النفوذ حيث وجدت، فإذا لم تجتمع ودخلها خلل فليس لها هذا الحكم، فلو أن هؤلاء الذين ظنوا بربهم أنه ﴿ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ يظنون أن الله لا يؤاخذ على الجريمة لما هو عليه من الصفح والتجاوز وتحجبهم جمعيتهم على هذا عن بطشه تعالىٰ وشديد عقابه لم يؤاخذهم فإن ظنهم إنما تعلق بممكن.

وأمّا همة الحقيقة التي هي جمع الهمم بصفاء الإلهام فتلك همم الشيوخ الأكابر من أهل الله الذين جمعوا هممهم على الحق وصيّروها واحدة لأحدية المتعلق هرباً من الكثرة وطلباً لتوحيد الكثرة أو للتوحيد، فإن العارفين أنفوا من الكثرة لا من أحديتها في الصفات كانت أو في النسب أو في الأسماء وهم متميزون في ذلك أي هم على طبقات مختلفة، وأن الله يعاملهم بحسب ما هم عليه لا يردّهم عن ذلك إذ لكل مقام وجه إلى الحق، وإنما يفعل ذلك ليتميز الكثير الاختصاص بالله الذي اصطنعه الله لنفسه من عباد الله عن غيره من العبيد، فإن الله أنزل العالم بحسب المراتب لتعمير المراتب، فلو لم يقع التفاضل في العالم لكان بعض المراتب معطلاً غير عامر، وما في الوجود شيء معطل بل هو معمور كله، فلا بدّ لكل مرتبة من عامر يكون حكمه بحسب مرتبته، ولذلك فضل العالم بعضه بعضاً، وأصله في الإلهيات الأسماء الإلهية أين إحاطة العالم من إحاطة المريد من إحاطة القادر؟ فتميز العالم عن المريد والمريد عن القادر بمرتبة المتعلق، فالعالم أعمّ إحاطة فقد زاد وفضّل على المريد والقادر بشيء لا يكون للمريد ولا للقادر من حيث إنه مريد وقادر فإنه يعلم نفسه تعالىٰ ولا يتصف بالقدرة على نفسه ولا بالإرادة لوجوده، إذ من حقيقة الإرادة أن لا تتعلق إلاّ بمعدوم والله موجود، ومن شأن القدرة أن لا تتعلق إلاّ بممكن أو واجب بالغير وهو واجب الوجود لنفسه، فمن هناك ظهر التفاضل في العالم التفاضل المراتب، فلا بدّ من تفاضل العامرين لها، فلا بدّ من التفاضل في العالم إذ هو العامر لها الظاهر بها، وهذا ممّا لا يدرك كشفاً بل إدراكه بصفاء الإلهام، فيكشف المكاشف عمارة المراتب بكشفه للعامرين لها ولا يعلم التفاضل إلاّ بصفاء الإلهام الإلهيّ، فقد نبهناك على معرفة الهمة بكلام مبسوط في إيجاز فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي ثلاثين ومائتين

في الغربة

[نظم: الطويل]

تـغـرَّبْ عـن الأوطـانِ والـحـالِ والـحـقِّ ... عَسَاكَ تَحُوزُ الأمرَ في مَقْعَد الصِّدْقِ
وكُـنْ نـافـذاً فـي كـل أمـرٍ تَـرُومُـهُ ... ولا تَـذْهَـشَـنْ إن جاءك الحقُّ بـالحـقِّ
ولولا وجودُ الفَتْقِ في الأرض والسَّمَا ... لـمـا دارتِ الأفـلاكُ مـن شـدَّة الـرَّتْـقِ
كـذاك سـمـواتُ الـعـقـول وأرضُـهـا ... وأعني بهـا الطَّبْعَ المؤثِّرَ في الخَلْقِ
فـدارتْ بـأفـلاكِ الـقـوى ثـم أبْـرَزَتْ ... مـعـارفَـهـا لـلـسـامـعـيـن من الـنُّـطْـقِ

اعلم أن الغربة عند الطائفة يطلقونها ويريدون بها مفارقة الوطن في طلب المقصود ويطلقونها في اغتراب الحال، فيقولون في الغربة الاغتراب عن الحال من النفوذ فيه، والغربة عن الحق غربة عن المعرفة من الدهش، أما غربتهم عن الأوطان بمفارقتهم إياها فهو لما عندهم من الركون إلى المألوفات، فيحجبهم ذلك عن مقصودهم الذي طلبوه بالتوبة وأعطتهم اليقظة وهم غير عارفين بوجه الحق في الأشياء فيتخيلون أن مقصودهم لا يحصل لهم إلاَّ بمفارقة الوطن وأن الحق خارج عن أوطانهم، كما فعل أبو يزيد البسطامي لما كان في هذا المقام خرج من بسطام في طلب الحق فوقع به رجل من رجال الله في طريقه فقال له: يا أبا يزيد ما أخرجك عن وطنك؟ قال: طلب الحق، قال له الرجل: إن الذي تطلبه قد تركته ببسطام، فتنبّه أبو يزيد ورجع إلى بسطام ولزم الخدمة حتى فتح له فكان منه ما كان فهؤلاء هم السائحون، فجعل الله سياحة هذه الأمة الجهاد في سبيل الله.

واعلم أن هذا الأمر ليس باختيار العبد وإنما صاحب هذا الأمر يطلب وجود قلبه مع ربه في حاله، فإذا لم يجده في موضع يقول: ربما أن الله تعالىٰ لم يقدر أن يظهر إلى قلبي في هذا الموضع، فيرحل عنه رجاء الحصول لما علم أن الله تعالىٰ قد رتّب أموراً واقتضى علمه أزلاً أنه لا يكون كذا إلاَّ بموضع كذا وبطالع كذا وبسبب كذا، فلما حكم عليه هذا الإمكان وفقد قلبه في بعض المواطن عن وجود متقدم أولاً عن وجود رحل عن ذلك الموطن رجاء حصول البغية، هذا سبب اغترابهم عن الأوطان وأمثاله، فإن بعضهم قد يفارق وطنه لما كان فيه من العزّة فإذا رأى أنه قد زاد عزّاً بالزهد والتوبة أو لم يكن مذكوراً فاشتهر بالتوبة والخير فأورثه عزّاً في قلوب الناس فوقع الإقبال عليه بالتعظيم فيفر يغترب عن وطنه إلى مكان لا يعرف فيه لمعرفته بنفسه مع ربه، فإن تعظيم الناس للشخص سم قاتل مؤثر فيه أثراً يؤديه إلى الهلاك، وهذا أيضاً من الأسباب المؤدية إلى مفارقة الموطن والاغتراب عن الأهل، فحيث وجد قلبه مع الله أقام.

أخبرني شيخي أبو الحسين ابن الصائغ الزاهد المحدث بسبتة قال: سمعت شيخنا أبا عبد الله محمد بن رزق رحمه الله في سياحة كنا معه فيها أقرأ عليه بعض أجزاء الحديث وكان

صاحب رواية يقول: مررت في سياحتي بمسجد خراب في فلاة من الأرض فقلت: أدخل أركع فيه ركعتين فدخلته فوجدت قلبي فقعدت فيه سنتين فأين زمان ركعتين من سنتين؟ فمطلوبهم بالغربة عن الأوطان وجود القلب مع الله، فحيثما وجدوه قاموا في ذلك الموضع.

قال بعضهم: كنت ماراً إلى مكة فرأيت في الطريق شاباً تحت شجرة وهو يصلي في البرية وحده فقلت له: ألا تمشي إلى مكة؟ فقال لي: كنت أسير إلى مكة عام أول فلما مررت بهذه الشجرة وجدت قلبي فلي هنا سنة لا أبرح من هذا الموضع إلاَّ إن فقدت قلبي، قال: فبعد سنة مررت بذلك الموضع وبتلك الشجرة فلم أجد الشاب فمشيت غير بعيد فإذا بالشاب قائم يصلي فسلمت عليه فعرفني فقلت له: رأيتك قد تركت تلك السمرة، فقال لي: لما فقدت قلبي أخذت في طريقي الذي نويت أولاً أريد مكة فانتهيت إلى هذا الموضع فوجدت قلبي فأنا به أيضاً مقيم، فقلت له: من أين طعامك وشرابك؟ قال: من عنده يجيئني به في الوقت الذي يريد أن يغذيني، قال: فتركته وانصرفت وما أدري ما انتهى إليه أمره بعد ذلك، فقد يطلبون بالغربة وجود قلوبهم مع الله.

وأما غربة العارفين عن أوطانهم فهي مفارقتهم لا مكانهم فإن الممكن وطنه الإمكان فيكشف له أنه الحق والحق ليس وطنه الإمكان فيفارق الممكن وطن إمكانه لهذا الشهود، ولما كان الممكن في وطنه الذي هو العدم مع ثبوت عينه سمع قول الحق له: ﴿كُنْ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فسارع إلى الوجود فكان ليرى موجده، فاغترب عن وطنه الذي هو العدم رغبة في شهود من قال له: ﴿كن﴾ فلما فتح عينه أشهده الحق أشكاله من المحدثات ولم يشهد الحق الذي سارع إلى الوجود من أجله، وفي هذه الحال قلت: [الطويل]

إذا ما بدا الكونُ الغريبُ لنَاظري حَنَنْتُ إلى الأوطانِ حَنَّ الرَّكَائبِ

يقول: فأردت الرجوع إلى العدم، فإني أقرب إلى الحق في حال اتصافي بالعدم مني إليه في حال اتصافي بالوجود لما في الوجود من الدعوى وطلب حالة الفناء عن الحق للبقاء بالحق هو أن يرجع إلى حالة العدم التي كان عليها، فهذه غربة أيضاً موجودة واقعة عن وطن بغير اختيار العبد، ومن غربة العارفين بالله غربتهم عن صفاتهم عند وجودهم الحق عين صفاتهم وهذه غربة حقيقية، فإن الصفة مضافة إليهم بكلام الله وهو الصادق فهم أهل صفة، ولكن ما هي تلك الصفة وإلى من تضاف حقيقة؟ فإن العالم يضاف إلى الله بأنه عبد الله، كما أن الله مضاف إلى العالم فإنه رب العالمين فإضافة العبد مستندة إلى إضافة الحق، فأول غربة اغتربناها وجوداً حسيّاً عن وطننا غربتنا عن وطن القبضة عند الإشهاد بالربوبية لله علينا، ثم عمرنا بطون الأمهات فكانت الأرحام وطننا فاغتربنا عنها بالولادة فكانت الدنيا وطننا واتخذنا فيها أوطاناً فاغتربنا عنها بحالة تسمّى سفراً وسياحة إلى أن اغتربنا عنها بالكلية إلى موطن يسمّى البرزخ فعمرناه مدة الموت فكان وطننا، ثم اغتربنا عنه بالبعث إلى أرض الساهرة فمنا من جعلها وطناً أعني القيامة ومنا من لم يجعله وطناً فإنه ظرف زماني، والإنسان في تلك الأرض كالماشي في سفره بين المنزلتين ويتخذ بعد ذلك أحد الموطنين: إما الجنة وإما النار،

فلا يخرج بعد ذلك ولا يغترب، وهذه هي آخر الأوطان التي ينزلها الإنسان ليس بعدها وطن مع البقاء الأبدي.

وأما قولهم في الغربة إنها الاغتراب عن الحال من النفوذ فيه، فتلك غربة أخرى، وذلك أن أصحاب الأحوال لا شكّ أن لهم النفوذ والتحكّم وبها يكون خرق العوائد لهم المشهورة في العالم، فإذا اطلعوا على أن الحال لا أثر له فيما ظهر له من الفعل عند قيامه بهم فيما أعطاه الكشف لم يرضوا به فاغتربوا عنه وقالوا: الوقوف معه وبال على صاحبه، فيرون أن الغربة عنه غاية السعادة وأنه من أعظم حجاب يحجب به الإنسان وأنه موضع المكر والاستدراج، فإن العاقل لا يقف في مواطن إمكان المكر فيها بل ينبغي له أن لا يقف إلاّ في موضع يكون على بصيرة فيه كما فعل موسىٰ في غربة الوطن ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢١] فاغترب بجسمه عن وطنه خوفاً منهم، فلو كان مثل خروج محمد ﷺ من مكة إلى المدينة مهاجراً لم يكن خوفه منهم، بل كان مشهوده خوفه من الله أن يسلطهم عليه فوهب له مع الرسالة التي كانت له قبل هجرته السيادة على العالمين فإن الهجرة كانت له مطلوبة وهي الاغتراب عن وطنه، فعلامة صدق المريد في غربته عن وطنه حصول مقصوده، فإذا لم يحصل فخلل في غربته إذا طلبه وجده فليس بصادق، وإذا فارقه بالكلية ظاهراً وباطناً فلا بدّ من حصول المقصود، فمن تعلق قلبه بوطنه في حال غربته فما اغترب الغربة المطلوبة.

وأما الغربة عن الحق التي هي من حقيقة الدهش عن المعرفة فاعلم أن الإمكان موطنه غير موطن الوجوب بل هما موطنان للواجب والممكن، وموطن الممكن العدم أولاً وهو موطنه الحقيقي، فإذا اتصف بالوجود فقد اغترب عن وطنه بلا شك، وكان في حال سكناه في وطنه مشاهداً للحق فإنه جار له إذ وصف العدم له أزلاً وصف الوجود لله أزلاً فاغترب عن وطنه بالوجود ففارق مجاورة الحق ولزم الحدوث بهذه الغربة والحق غير متصف بهذه الصفة ولم يتصف الحق بالحدوث أزلاً في حال عدمه فاغترب عن الحق بحدوثه، ولما حصل له الوجود الحادث ووقعت المشاركة في الوجود بينه وبين الحق دهش فإنه رأى ما لا يعرفه فإنه عرف نفسه متميزاً عن الحق بحال العدم، فلما فارق هذا الحال بالوجود أدركه الدهش عن المعرفة الأولى، وهذه الغربة حال رجلين: رجل لم يأنس بهذا المقام ولا وصل إليه بطريق استدراج وترق من حال إلى حال بل أتاه بغتة فجاءه ما لم يعهده ولا ألفه فرأى نفسه تضعف عن حمله فيخاف من عدم عينه فيدهش عن تحصيل تلك المعرفة ويرجع إلى حسّه عاجلاً فيتغرب عن الحق في تلك الرجعة، ورأينا من أهل هذا المقام أبا العباس أحمد العصاد المعروف بمصر بالحريري وما رأينا غيره. وأما الرجل الآخر فهو رجل ما من معرفة ترد عليه إلاّ وتدهشه لعظيم ما يرى ممّا هو أعلى ممّا حصل له وأمكن، فيتغرب عن الحق الذي كان بيده ويحصل من هذه المعرفة حقاً يقوم به إلى وقت تجلّ آخر يعطي فيه معرفة تدهشه لما ذكرناه فيتغرب أيضاً عن الحق الذي حصل له في هذه المعرفة دائماً أبداً دنيا وآخرة.

وأما العارفون المكملون فليس عندهم غربة أصلاً وإنهم أعيان ثابتة في أماكنهم لم يبرحوا عن وطنهم، ولما كان الحق مرآة لهم ظهرت صورهم فيه ظهور الصور في المرآة فما هي تلك الصور أعيانهم لكونهم يظهرون بحكم شكل المرآة ولا تلك الصور عين المرآة لأن المرآة ما في ذاتها تفصيل ما ظهر منهم وما هم فما اغتربوا وإنما هم أهل شهود في وجود، وإنما أضيف إليهم الوجود من أجل حدوث الأحكام إذ لا تظهر إلاّ من موجود، فمرتبة الغربة ليست من منازل الرجال فهي منزلة أدنى ينزلها المتوسطون والمريدون. وأما الأكابر فما يرون أنه اغترب شيء عن وطنه بل الواجب واجب والممكن ممكن والمحال محال فتعين وطن كل مستوطن، ولو قامت غربة بهم لانقلبت الحقائق وعاد الواجب ممكناً والممكن واجباً والمحال ممكناً والأمر ليس كذلك، والغربة عند العلماء بالحقائق في هذا المقام غير موجودة ولا واقعة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والثلاثون ومائتان

في المكر

[نظم: السريع]

يُسْتَدرجُ العاقلُ في عَقْلِهِ ... من حيثُ لا يعلمه الماكِرُ
ومَكْرُه عاد عليه وما ... يدري بذاكَ الفَطِنُ الخَابِرُ
فمن أراد الأمنَ من مَكْرِهِ ... ليحصلَ الباطنُ والظاهرُ
يُحَقِّقُ الميزانَ من شَرْعِهِ ... فيُعْلَمُ الرابحُ والخاسِرُ

اعلم أن المكر يطلقه أهل الله على أرداف النعم مع المخالفة وإبقاء الحال مع سوء الأدب وإظهار الآيات من غير أمر ولا حدّ. واعلم أنه من المكر عندنا بالعبد أن يرزق العبد العلم الذي يطلب العمل ويحرم العمل به وقد يرزق العمل ويحرم الإخلاص فيه، فإذا رأيت هذا من نفسك أو علمته من غيرك فاعلم أن المتصف به ممكور به، ولقد رأيت في واقعة وأنا ببغداد سنة ثمان وستمائة قد فتحت أبواب السماء ونزلت خزائن المكر الإلهيّ مثل المطر العام وسمعت ملكاً يقول: ماذا نزل الليلة من المكر، فاستيقظت مرعوباً ونظرت في السلامة من ذلك فلم أجدها إلاّ في العلم بالميزان المشروع، فمن أراد الله به خيراً وعصمه من غوائل المكر فلا يضع ميزان الشرع من يده وشهود حاله وهذه حالة المعصوم والمحفوظ. فأما إرداف النعم مع المخالفة فهو موجود اليوم كثير في المنتمين إلى طريق الله، وعاينت من الممكور بهم خلقاً كثيراً لا يحصي عددهم إلاّ الله وهو أمر عام. وأما إبقاء الحال مع سوء الأدب فهو في أصحاب الهمم وهم قليلون على أنا رأينا منهم جماعة بالمغرب وبهذه البلاد وهو أنهم يسيؤون الأدب مع الحق بالخروج عن مراسمه مع بقاء الحال المؤثرة في العالم عليهم مكراً من الله، فيتخيلون أنهم لو لم يكونوا على حق في ذلك لتغير عليهم الحال نعوذ بالله من مكره الخفي، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٢]

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٣] وقال: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٥٠] وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [سورة الطارق: الآية ١٥ ـ ١٦] وهو من كاد من أفعال المقاربة أي كاد أن يكون حقاً لظهوره بصفة حق، فهو كالسحر المشتق من السحر الذي له وجه إلى الليل ووجه إلى النهار، فيظهر للممكور به وجه النهار منه فيتخيل أنه الحق نعوذ بالله من الجهل.

واعلم أن المكر الإلهي إنما أخفاه الله عن الممكور به خاصة لا عن غير الممكور به ولهذا قال: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأعاد الضمير على المضمر في ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ وقال: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فمضمرهم هو المضمر في مكروا فكان مكر الله بهؤلاء عين مكرهم الذي اتصفوا به وهم لا يشعرون، ثم قد يمكر بهم بأمر زائد على مكرهم فإنه أرسله سبحانه نكرة فقال: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ فدخل فيه عين مكرهم ومكر آخر زائد على مكرهم، وقد يكون المكر الإلهي في حق بعض الناس من الممكور بهم يعطي الشقاء وهو في العامّة، وقد يكون يعطي نقصان الحظ وهو المكر بالخاصة وخاصة الخاصة لسرّ إلهيّ وهو أن لا يأمن أحد مكر الله لما ورد في ذلك من الذمّ الإلهيّ في قوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٩٩] ومن خسر ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦] فأخفى المكر الإلهيّ وأشده ستراً في المتأوّلين ولا سيما إن كانوا من أهل الاجتهاد وممّن يعتقد أن كل مجتهد مصيب وكل من لا يدعو إلى الله على بصيرة وعلم قطعيّ فما هو صاحب اتباع لأن المجتهد مشرع ما هو متبع إلاّ على مذهبنا، فإن المجتهد إنما يجتهد في طلب الدليل على الحكم لا في استنباط الحكم من الخبر بتأويل يمكن أن يكون المقصود خلافه، فإذا أمكن فليس صاحبه ممّن هو على بصيرة، وإن صادف الحق بالتأويل فكان صاحب أجرين بحكم الاتفاق لا بحكم القصد فإنه ليس على بصيرة، وإن لم يصادف الحق كان له أجر طلب الحق فنقص حظه، فهذا مكر إلهيّ خفي بهذا العالم المتأوّل فإنه من المتأهلين أن يدعو إلى الله على بصيرة بتعليم الله إياه إذا كان من المتقين، فمكر العموم الإلهيّ في إرداف النعم على أثر المخالفات وزوالها عند الموافقات فلا يؤخذ بها، فإن كان من علماء عامّة الطريق فيرى أن ذلك من حكم قوّة الصورة التي خلق عليها فيدعي القهر والتأثير في الحكم الإلهيّ بالوعيد، ويرى أن عموم الحكمة أن يعطي الأسماء الإلهية حقها، فيرى أن الاسم الغفار والغفور وأخواته ليس له حكم إلاّ في المخالفة، فإن لم تقم به مخالفات لم يعط بعض الأسماء الإلهيّة حقها في هذه الدار ويحتج لنفسه بقول الله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [سورة الزمر: الآية ٥٣] وكذلك يفعل وهذا النظر كله لا يخطر له عند المخالفة وإنما يخطر له ذلك بعد وقوع المخالفة، فلو تقدّمها هذا الخاطر لمنع من المخالفة فإنه شهود والشهود يمنعه من انتهاك الحرمة الشرعية ولهذا ورد الخبر: «**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِنفَاذَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ سَلَبَ ذَوِي الْعُقُولِ عُقُولَهُمْ حَتَّى إِذَا أَمْضَى فِيهِمْ قَضَاءَهُ وَقَدَره رَدَّهَا عَلَيْهِمْ لِيَعْتَبِروا**» فمنهم من يعتبر ومنهم من لا يعتبر

كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فمنهم من عبده ومنهم من أشرك به، فما يلزم نفوذ حكم العلة في كل معلول، فلو أبقى عليهم عقلهم ما وقع منهم ما وقع كذلك لو كان المشهود له عند إرادة وقوع المخالفة للأسماء الإلهيّة لمنعه الحياء من المسمّى أن ينتهك حرمة خطابه في دار تكليفه، فالمخالف يقاوم القهر الإلهيّ ومن قاوم القهر الإلهي هلك، فإذا أردف النعم على من هذه حالته تخيل أن ذلك بقوّة نفسه ونفوذ همته وعناية الله به حيث رزقه من القوّة ما أثر بها في الشديد العقاب وغاب عن الحليم وعن الإمهال وعدم الإهمال، فإن لم يقصد انتهاك الحرمة بقوّة ما هو عليه من حكم اسم إلهيّ فليس بممكور به مثل عصاة العامّة عن غفلة وندامة بعد وقوع مخالفة، فالصبر على إرداف النعم لما في طيّها من المكر الإلهيّ أعظم من الصبر على الرزايا والبلايا، فإن الله يقول لعبده: مرضت فلم تعدني، ثم قال في تفسير ذلك: أما إن فلاناً مرض فلم تعده فلو عدته لوجدتني عنده كما يجده الظمآن المضطر عندما يسفر له السراب عن عدم الماء فيرجع إلى الله بخلاف النعم فإنها أعظم حجاب عن الله إلاَّ من وفّقه الله.

وأما مكر الله بالخاصة فهو مستور في إبقاء الحال عليه مع سوء الأدب الواقع منه وهو التلذّذ بالحال والوقوف معه، وما يورث من الإدلال فيمن قام به والهجوم على الله وعدم طلب الانتقال منه وما قال الله لنبيه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] وما أسمعنا ذلك إلاَّ تنبيهاً لنقول ذلك ونطلبه من الله، ولو كان خصوصاً بالنبي لم يسمعنا أو كان يذكر أنه خاص به كما قال في نكاح الهبة فللحال لذة وحلاوة في النفس يعسر على بعض النفوس طلب الانتقال من الأمر الذي أورثه ذلك الحال بل لا يطلب المزيد إلاَّ منه وجهل أن الأحوال مواهب.

وأما المكر الذي في خصوص الخصوص وهو في إظهار الآيات وخرق العوائد من غير أمر ولا حدّ الذي هو ميزانها فإنه لما وجب على الأولياء سترها كما وجب في الرسل إظهارها إذا مكّن الوليّ منها وأعطي عين التحكيم في العالم يطلب الممكور به لنقص حظ عن درجة غيره يريد الحق ذلك به، وجعل فيهم طلباً لطريق إظهارها من حيث لا يشعر أن ذلك مكر إلهيّ يؤدّي إلى نقص حظ، فوقع الإلهام في النفس بما في إظهار الآيات على أيديهم من انقياد الخلق إلى الله عزّ وجلّ، وإنقاذ الغرقى من بحار الذنوب المهلكة وأخذهم عن المألوفات، وأن ذلك من أكبر ما يدعى به إلى الله، ولهذا كان من نعت الأنبياء والرسل، ويرى في نفسه أنه من الورثة، وأن هذا من ورث الأحوال فيحجبهم ذلك عمّا أوجب الله على الأولياء من ستر هذه الآيات مع قوتهم عليها وغيبهم عن ما أوجب الله على الرسل من إظهارها لكونهم مأمورين بالدعاء إلى الله ابتداء، والوليّ ليس كذلك إنما يدعو إلى الله بحكاية دعوة الرسول ولسانه لا بلسان يحدثه كما يحدث لرسول آخر والشرع مقرّر من عند العلماء به، فالرسول على بصيرة في الدعاء إلى الله بما أعلمه الله من الأحكام المشروعة، والوليّ على بصيرة في الدعاء إلى الله بحكم الاتباع لا بحكم التشريع فلا يحتاج إلى آية ولا بينة، فإنه لو قال ما يخالف حكم الرسول لم يتبع في ذلك ولا كان على بصيرة فلا فائدة لإظهار الآية، بخلاف

الرسول فإنه ينشئ التشريع وينسخ بعض شرع مقرر على يد غيره من الرسل فلا بدّ من إظهار آية وعلامة تكون دليلاً على صدقه أنه يخبر عن الله إزالة ما قرّره الله حكماً على لسان رسول آخر إعلاماً بانتهاء مدة الحكم في تلك المسألة، فيكون الوليّ مع خصوصيته قد ترك واجباً فنقصه من مرتبته ما يعطيه الوقوف مع ذلك الواجب والعمل به، فلا شيء أضرّ بالعبد من التأويل في الأشياء، فالله يجعلنا على بصيرة من أمرنا ولا يتعدّى بنا ما يقتضيه مقامنا، والذي أسأل الله تعالىٰ أن يرزقنا أعلى مقام عنده يكون لأعلى وليّ فإن باب الرسالة والنبوّة مغلق، وينبغي للعالم أنه لا يسأل في المحال وبعد الإخبار الإلهيّ يغلق هذا الباب فلا ينبغي أن نسأل فيه، فإن السائل فيه يضرب في حديد بارد إذ لا يصدر هذا السؤال من مؤمن أصلاً قد عرف هذا، ويكفي الوليّ من الله أن جعله على بصيرة في الدعاء إلى الله تعالىٰ من حيث ما يقتضيه مقام الولاية والاتباع كما جعل الرسول يدعو إلى الله على بصيرة من حيث ما يقتضيه مقام الرسالة والتشريع ويعصمنا من مكره ولا يجعلنا من أهل النقص، ويرزقنا المزيد والترقي دنيا وآخرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والثلاثون ومائتان

في مقام الاصطلام

[نظم: الكامل]

لـلاصْطِـلامِ عـلـى الـقـلـوبِ تَـحَـكُّـمُ ... ولـه عـلـى كـل الـنُّـعـوت تَـقَـدُّمُ
يـعـطـي الـتَّـحَـيُّـرَ فـي الـعـقـولِ وجـودُهُ ... وهـو الـسـبـيـلُ مـن الإلـه الأقْـوَمُ
مـن قـال زِدْنـي فـيـك تَـحَـيُّـراً ... ذاك الـمـؤمَّـلُ والـنـبـيُّ الأعْـلَـمُ
لـولاه مـا عُـرِفَ الإلـهُ ولا دَرَتْ ... أَلْـبَـابُ أهـلِ الله أيـن هُـمُ هُـمُ

الاصطلام في اصطلاح القوم وله يرد على القلب سلطانه قويّ فيسكن من قام به تحته، وهو أن العبد إذا تجلّى له الحق في سرّه في صورة الجمال أثر في نفسه هيبة، فإن الجمال نعت الحق تعالىٰ والهيبة نعت العبد، والجمال نعت الحق، والأنس نعت العبد، فإذا اتصف العبد بالهيبة لتجلّي الجمال فإن الجمال مهوب أبداً كان عن الهيبة أثر في القلب وخدر في الجوارح، حكم ذلك الأثر اشتعال نار الهيبة فيخاف لذلك سطوته فيسكن، وعلامته فيه في الظاهر خدر الجوارح وموتها، فإن تحرك من هذه صفته فحركته دورية حتى لا يزول عن موضعه فإنه يخيل إليه أن تلك النار محيطة به من جميع الجهات فلا يجد منفذاً فيدور في موضعه كأنه يريد الفرار منه إلى أن يخف ذلك عنه بنعت آخر يقوم به وهو حال ليس هو مقام. ولما كان هذا الاصطلام نعت الشبلي كان يدور لضعفه وخوفه غير أن الله كانت له عناية منه فكان يرده إلى إحساسه في أوقات الصلوات، فإذا أدّى صلاة الوقت غلب عليه حال الاصطلام بسلطانه فقيل للجنيد عنه فقال: أمحفوظ عليه أوقات الصلوات؟ فقيل: نعم، فقال الجنيد: الحمد لله الذي لم يجر عليه لسان ذنب، فما أحسن قول الجنيد لسان ذنب فإنه أخيد

وقته فليس بصاحب ذنب والغريب يشهده تاركاً للصلاة، ومن أعجب حكم الاصطلام الجمع بين الضدين فإن الخدر ينفي الحركة فهو مخدور الجوارح بل هو محرّك يدار به وهو صاحب خدر هكذا يحسّه من نفسه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والثلاثون ومائتان

في الرغبة

[نظم: المجتث]

رَغِبْتُ عنه وفيه ... من أجل ما يَقْتَضِيهِ
مَقَامُ من هُوَ مِثْلي ... في كلِّ ما يَرْتَضِيهِ
لله سَيْفُ حُسَام ... لِلْكُلِّ إذ يَنْتَضِيهِ

الرغبة في اصطلاح القوم على ثلاثة أنحاء: رغبة محلها النفس متعلقها الثواب، ورغبة محلها القلب متعلقها الحقيقة، ورغبة محلها السرّ متعلقها الحق. فأما الرغبة النفسية فلا تكون إلاّ في العامة وفي الكمل من رجال الله لعلمهم بأن الإنسان مجموع أمور أنشأه الله عليها طبيعية وروحانية وإلهية، فعلم أن فيه من يطلب ثواب ما وعد الله به فرغب فيه له إثباتاً للحكم الإلهيّ. وأما العامّة فلا علم لها بذلك، فيشترك الكامل والعامي في صورة الرغبة، ويتميز في الباعث كل واحد عن صاحبه، كالخوف يوم الفزع الأكبر يشترك فيه الرسل عليهم السلام وهم أعلى الطوائف، والعوام وهم المذنبون والعصاة، فالرسل عليهم السلام خوفاً على أممها لا على أنفسها فإنهم الآمنون في ذلك الموطن، والعامة تخاف على نفوسها فيشتركان في الخوف ويفترقان في السبب الموجب له، كان بعض الكمل قد برّد ماء في الكوز ليشربه فنام فرأى في الواقعة المبشرة حوراء من أحسن ما يكون من الحور العين قد أقبلت فقال لها: لمن أنت؟ فقالت: لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان ثم تناولت الكوز وهو ينظر إليها فكسرته فكانت له فلما استيقظ وجد الكوز مكسوراً فترك خزفه في موضعه لم يرفعه حتى عفى عليه التراب تذكرة له، فعلم أن فيه من يطلب ربه وفيه من يطلب تلك الجارية ولذلك استفهمها فأعطى كل ذي حق حقه فلم يكن ظلوماً لنفسه، فإن من المصطفين من عباد الله من يكون ظالماً لنفسه أي من أجل نفسه يظلم نفسه بأنه لا يوفيها حقها لنزوله في العلم عن رتبة من يعلم أن حقائقه التي هو عليها لا تتداخل ولا تتعدّى كل حقيقة مرتبتها ولا تقبل إلاّ ما يليق بها، فلا تقبل العين إلاّ السهر والنوم وما يختص بها، ولا تقبل من الثواب إلاّ المشاهدة والرؤية، والأذن لا تقبل في الثواب إلاّ الخطاب إذ ليس الشهود للسمع، والكامل يسعى لقواه على قدر ما تطلبه وهو إمام ناصح لرعيته ليس بغاش لها، فإن ظلمها فإنما يظلمها لها في زعمه وذلك لجهله بما علم غيره من ذلك كسلمان الفارسي وأخيه في الله أبي الدرداء في حالهما فرجح رسول الله ﷺ سلمان فإنه كان يعطي كل ذي حق حقّه فيصوم ويفطر ويقوم وينام، وكان أبو الدرداء مع كونه مصطفى ظالماً لنفسه يصوم فلا يفطر، ويقوم فلا ينام.

وأما الرغبة القلبية في الحقيقة فإن الحقيقة في الوجود التلوين والمتمكن في التلوين هو صاحب التمكين ما هو المقابل للتلوين لأن الحقيقة تعطي أن يكون الأمر هكذا لأن الله كل يوم في شأن فهو في التلوين، فهذا القلب يرغب في شهود هذه الحقيقة، وجعل الله محلها القلب ليقرب على الإنسان تحصيلها لما في القلب من التقليب ولم يجعلها في العقل لما في العقل من التقييد، فربما يرى أنه يثبت على حالة واحدة لو كانت هذه الرغبة في العقل بخلاف كونها في القلب فإنه يسرع إليه التقليب فإنه بين أصابع الرحمن فلا يبقى على حالة واحدة في نفس الأمر، فيثبت على تقليبه في أحواله بحسب شهوده وما يقلبه الأصابع فيه.

وأما الرغبة السرية التي متعلقها الحق فنعني بالحق هنا ما يظهر للخلق في الأعمال المشروعة، فيرغب السرّ في هذا الحق لما يندرج في ذلك، أو يظهر به من المعارف الإلهيّة التي تتضمنها الأحكام المشروعة ولا تكشف إلاّ بالعمل بها، فإن الظاهر أقوى من الباطن حكماً أي هو أعمّ، لأن الظاهر له مقام الخلق والحق والباطن له مقام الحق بلا خلق، إذ الحق لا يبطن عن نفسه وهو ظاهر لنفسه، فمن علم ذلك رغب سرّه في الحق، فإن الله ربط العالم به وأخبر عن نفسه أن له نسبتين: نسبة إلى العالم بالأسماء الإلهية المثبتة أعيان العالم ونسبة غناه عنه، فمن نسبة غناه عنه يعلم نفسه ولا نعلمه فلم يبطن عن نفسه، ومن نسبة ارتباط العالم به للدلالة عليه علم أيضاً نفسه وعلمناه، فعمّ الظاهر النسبتين فكان أقوى في الحكم من الباطن، فرغب السرّ في الحق لعلمه بأنه مدرك نسبة الغنى لا يدركها إلاّ هو فقطع يأسه وأراح نفسه وطلب ما ينبغي له أن يطلب، فنفخ في ضرم ولم يكن لحماً على وضم، جعلنا الله ممّن رأى الحق حقاً فاتبعه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والثلاثون ومائتان

في الرهبة

[نظم: البسيط]

الرَّهبةُ الخوفُ من سَبْقٍ وتَقْليبِ ... ومن وعيدٍ لصدْقِ المُخبرِ الصَّادقِ

دلَّ الدليلُ عليه من مُضَايَفَةٍ ... فالراهبُ الخائفُ المُسَارعُ السَّابقُ

يَسيرُ في ظلمةٍ عَمْيَاءَ غاسِقَةٍ ... سَيْرَ المُريبِ وسَيْرَ الوالهِ العاشقِ

يَسْري بِهمَّتِهِ خوفاً فتُبْصره ... يخافُ في سَيْره من فَجْأةِ الطَّارقِ

الرهبة عند القوم تقال بإزاء ثلاثة أوجه: رهبة من تحقيق الوعيد، ورهبة من تقليب العلم، ورهبة من تحقيق أمر السبق. فالأوّل: إذا جاء الوعيد بطريق الخبر والخبر لا يدخله النسخ فهو ثابت. والثاني: تقليب العلم ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٩]. والثالث: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] وأما الرهبة المطلقة من غير تقييد بأمر ما معين فهي كل خوف يكون بالعبد حذراً أن لا يقوم بحدود ما شرع له، سواء كان حكماً مشروعاً إلهياً أو حكماً حكمياً كما قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٧] أي هم

شرعوها لأنفسهم ما أوجبناها عليهم ابتداء، فاعتبرها الحق وآخذهم بعدم مراعاتها، فما كتبها الله عليهم إلاّ ابتغاء رضوان الله، فأثنى على المراعين لها ليحسن القصد والنية في ذلك، وفي الكلام تقديم وتأخير كأنه يقول: فما رعوها حق رعايتها إلاَّ ابتغاء رضوان الله يعني المراعين لها، وفي شرعنا من هذه الرهبانية من سنّ سنّة حسنة وهذا هو عين الابتداع، ولما جمع عمر بن الخطاب الناس على أبيّ في قيام رمضان قال: نعمت البدعة هذه فسمّاها بدعة ومشت السنّة على ذلك إلى يومنا هذا، فلما اقترن بالأعمال المشروعة وجوب القيام بحقها كالنذر خاف المكلف فقامت الرهبة به فأدته إلى مراعاة الحدود فسمّي راهباً وسمّيت الشريعة رهبانية، ومدح الله الرهبان في كتابه، فمن الناس من علّق رهبته بالوعيد فخاف من نفوذه كالمعتزلي القائل بإيفاد الوعيد فيمن مات عن غير توبة.

فاعلم أن هنا نكتة أنبهك عليها وذلك أنه من المحال أن يأتي مؤمن بمعصية توعد الله عليها فيفزع منها إلاَّ ويجد في نفسه الندم على ما وقع منه، وقد قال ﷺ: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**» وقد قام به الندم فهو تائب فسقط حكم الوعيد لحصول الندم، فإنه لا بدّ للمؤمن أن يكره المخالفة ولا يرضى بها وهو في حال عمله إياها فهو من كونه كارهاً لها مؤمن بأنها معصية ذو عمل صالح، وهو من كونه فاعلاً لها ذو عمل سيىء فغايته أن يكون من الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فقال تعالىٰ عقيب هذا القول: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٢] وعسى من الله واجبة ورجوعه عليهم إنما هو بالمغفرة ويرزقهم الندم عليها، والندم توبة فإذا ندموا حصلت توبة الله عليه فهو ذو عمل صالح من ثلاثة أوجه: الإيمان بكونها معصية، وكراهته لوقوعها منه، والندم عليها وهو ذو عمل سيىء من وجه واحد وهو ارتكابه إياها، ومع هذا الندم فإن الرهبة تحكم عليه سواء كان عالماً بما قلناه أو غير عالم، فإنه يخاف وقوع مكروه آخر منه، ولو مات على تلك التوبة فإن الرهبة لا تفارقه وينتقل تعلقها من نفوذ الوعيد إلى العتاب الإلهيّ والتقرير عند السؤال على ما وقع منه فلا يزال مستشعراً وهو نوع من أنواع الوعيد فإن الله يقول: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [سورة الزلزلة: الآية ٧، ٨] فلا بدّ أن يوقف عليه، فهو يرهب من هذا التوبيخ برؤية ذلك العمل القبيح الذي لا بدّ له من رؤيته ولم يتعرّض الحق في هذه الآية للمؤاخذة به فالرؤية لا بدّ منها، فإن كان ممّن غفر له يرى عظيم ما جنى وعظيم نعمة الله عليه بالمغفرة هذا يعطيه الخبر الإلهيّ الصدق الذي لا يدخله الكذب فإنه محال على الجناب الإلهيّ، فإن نظر العالم إلى أن خطاب الحق لعباده إنما يكون بحسب ما تواطؤوا عليه، وهذا خطاب عربي لسائر العرب بلسان ما اصطلحوا عليه من الأمور التي يتمدحون بها في عرفهم، ومن الأمور التي يذمونها في عرفهم، فعند العرب من مكارم الأخلاق أن الكريم إذا وعد وفا، وإذا أوعد تجاوز وعفا، وهي من مكارم أخلاقهم وممّا يمدحون بها الكريم، ونزل الوعيد عليهم بما هو في عرفهم لم يتعرض في ذلك لما تعطيه الأدلة العقلية من عدم النسخ لبعض الأخبار ولاستحالة الكذب بل المقصود إتيان مكارم الأخلاق، قال شاعرهم: [الطويل]

وإني إذا أَوْعَدتُه أو وَعَدْتُه لمُخْلِفُ إيعادي ومُنجزُ مَوْعِدي

مدح نفسه بالعفو والتجاوز عمن جنى عليه بما أوعد على ذلك من العقوبة بالعفو والصفح، ومدح نفسه بإنجاز ما وعد به من الخير، يقال في اللسان: وعدته في الخير والشر، ولا يقال: أوعدته بالهمز إلاَّ في الشر خاصة والله يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤] أي بما تواطأوا عليه، والتجاوز والعفو عند العرب ممّا تواطأوا على الثناء به على من ظهر منه، فالله أولى بهذه الصفة، فقد عرفنا الله إن وعيده ينفذه فيمن شاء ويغفر لمن شاء، ومع هذه الوجوه فلا يتمكن زوال الرهبة من قلب العبد من نفوذ الوعيد لأنه لا يدري هل هو ممّن يؤاخذ أو ممّن يعفى عنه؟ وقد قدمنا ما يجده المخالف عقيب المخالفة من الندم على ما وقع منه وهو عين التوبة، فالحمد لله الذي جعل الندم توبة ووصف نفسه تعالىٰ بأنه التوّاب الرحيم، أي الذي يرجع على عباده في كل مخالفة بالرحمة له فيرزقه الندم عليها فيتوب العبد بتوبة الله عليه لقوله: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ ليتوبوا﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٨].

وأما الرهبة الثانية التي هي لتحقيق تقليب العلم فيخاف من عدم علمه بعلم الله فيه هل هو ممّن يستبدل أم لا؟ قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [سورة محمد: الآية ٣٨] فقد أعطى السبب وهو التولّي، وقد أعطى العلامة وهو عدم التولي عن الذكر لا عن الله فإن التولّي عن الله لا يصحّ، ولهذا قال لنبيه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [سورة النجم: الآية ٢٩] كيف يتولّى عمّن هو بالمرصاد والكل في قبضته وبعينه. ولما كان مشهده تقليب العلم بتقليب المعلوم فإن العلم يتعلق به بحسب بما هو عليه، فتغير التعلّق لتغيّر المتعلق لا لتغيّر العلم، فرهبته من تقليب العلم عين رهبته ممّا يقع منه، فإن العلم لا حكم له في التقليب على الحقيقة، وإنما التقليب لموجد عين الفعل الذي يوقع الرهبة في القلب وهو كونه قادراً، ويتعلق العلم بذلك الانقلاب والمنقلب إليه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] أي إذا ظهر منكم عند الابتلاء بالتكليف ما يكون منكم من مخالفة أو طاعة يتعلق العلم مني عند ذلك به كان ما كان وحضرة تقليب العلم قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٩] فذكر المحو بعد الكتابة ويثبت ما شاء ممّا كتبه ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٩] وهي السابقة التي لا تتبدّل ولا تمحى، فلما علم عزّ وجلّ ما يمحو من ذلك بعد كتابته وما يثبت أضيف التقليب إلى العلم، والتحقيق ما ذكرناه من تغيير التعلّق وعدم التقليب في العلم.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧] فما أراد هنا تعلّق علمه تعالىٰ بأنهم يختانون أنفسهم وإنما المستقبل هنا بمعنى الماضي، فإن اللسان العربي يجيء فيه المستقبل ببنية الماضي إذا كان متحققاً كقوله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [سورة النحل: الآية ١] وشبهه، وقد كان الحق كلفهم قبل هذا التعريف أن لا يباشر الصائم امرأته ليلة صومه، فمنهم من تعدّى حدّ الله في ذلك، فلما علم الله ذلك عفا عمّن وقع

منه ذلك وأحلّ له الجماع ليلة صومه إلاَّ أن يكون معتكفاً في المسجد فما خفف عنهم حتى وقع منهم ذلك ومن من شأنه مثل هذا الواقع فإنه لا يزال يتوقع منه مثله فأبيح له رحمة به، حتى إذا وقع منه ذلك كان حلالاً له ومباحاً وتزول عنه صفة الخيانة فإن الدين أمانة عند المكلف.

وأما الرهبة لتحقيق أمر السبق فلقوله تعالىٰ: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٤] وإن كان يسوغ في هذه الآية أن كلمات الله عبارة عن الموجودات كما قال في عيسىٰ إنه كلمته ألقاها إلى مريم، فنفى أن يكون للموجودات تبديل بل التبديل لله ولا سيما وظاهر الآية يدل على هذا التأويل وهو قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ [سورة الروم: الآية ٣٠] أي ليس لهم في ذلك تبديل، وهذه بشرى من الله بأن الله ما فطرنا إلاَّ على الإقرار بربوبيته، فما يتبدّل ذلك الإقرار بما ظهر من الشرك بعد ذلك في بعض الناس لأن الله نفى عنهم أن يكون لهم تبديل في ذلك بل هم على فطرتهم، وإليها يعود المشرك يوم القيامة عند تبري الشركاء منهم، وإذا لم يضف التبديل إليهم فهي بشرى في حقّهم بمآلهم إلى الرحمة، وإن سكنوا النار فبحكم كونها داراً لا كونها دار عذاب وآلام، بل يجعلهم الله على مزاج ينعمون به في النار، بحيث لو دخلوا الجنة بذلك المزاج تألّموا لعدم موافقة مزاجهم لما هي عليه الجنة من الاعتدال، فمن حقّت عليه كلمة الله بأمر فإنه يعمل في غير معمل ويطمع في غير مطمع، قال رسول الله ﷺ فيمن يعمل بعمل أهل الجنة حتى يقرب منها بعمله فيما يبدو للناس فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخل النار وكذلك الآخر ثم قال: «**وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيم**» فذكر في هذا الحديث لمن هي السابقة وأن الخاتمة هي عين حكم السابقة، ولهذا كانَ بعضهم يقول: أنتم تخافون من الخاتمة وأنا أخاف السابقة، وإنما سميت سابقة من أجل تقديمها على الخاتمة، فهذا معنى موجود لم يظهر حكمه إلاَّ بعد زمان، فهو من بعض ما يمكن أن يستند إليه القائل بالكمون والظهور، ولا سيما والشارع قد نبّه عليه في الحديث بقوله في عمل أهل النار أعمال السعداء فقال فيما يبدو للناس وكذلك في عمل أهل الجنة أعمال الأشقياء فيما يبدو للناس والذي عندهم وهم فيه في بواطنهم خلاف ما يبدو للناس فعلم الله ذلك منهم، فهذا معنى ما ظهر له حكم في الظاهر مع وجوده عندهم والمراؤون من هذا القبيل، غير أن هنا بشرى فيما يذهب إليه، وذلك أن العلماء قد علموا أن الحكم للسابق فإن اللاحق متأخر عنه، ولهذا السابق يحوز قصب السبق وقصب السبق هنا آدم وذريته، وقد تجارى غضب الله ورحمته في هذا الشأو فسبقت رحمته غضبه فجازتنا، ثم لحق الغضب فوجدنا في قبضة الرحمة قد حازتنا بالسبق فلم ينفذ للغضب فينا حكم التأبيد بل تلبس بنا للمشاهدة بعض تلبس لما جمعنا مجلس واحد أثر فينا بقدر الاستعداد منا لذلك، فلما انفصلت الرحمة من الغضب من ذلك المجلس أخذتنا الرحمة بحيازتها إيانا وفارقنا غضب الله، فحكمه فينا أعني بني آدم غير مؤبّد وفي غيرنا من المخلوقين ما أدري ما حكمه فيهم من

الشياطين والله أعلم، وصاحب هذا الذوق ما يرهب السابقة فإن رحمة الله لا يخاف منها إلاّ في دار التكليف، فرهبة السبق إنما متعلقها سبق مخصوص لا سبق الرحمة، وذلك السبق عرضيّ ليس بدائم إذا كان سبق شقاوة لأنه ليس له أصل يعضده فإن أصله غضب الله وهو لا حق لا سابق، وأما سبق السعادة فما هو عرضي فيزول لأن له أصلاً يعضده ويقوّيه وهو رحمة الله التي سبقت غضبه، ولهذا السبق الجزئي العرضيّ السعادي يبقى والشقاوي لا يبقى فاعلم ذلك. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والثلاثون ومائتان

في التواجد وهو استدعاء الوجد

[نظم: البسيط]

إن التَّواجُدَ لا حالٌ فتَحْمَدُه ... ولا مَقَامٌ له حُكْمٌ وسُلطانُ

يُزري بصاحبه في كل طائفةٍ ... وما له في طريقِ القَومِ ميزانُ

بل ذمَّهُ القومُ لما كان مَنْقَصَةً ... والنَّقْصُ ما فيه في التَّحْقيقِ رُجْحَانُ

وكلُّ ما هو فيه من يقوم بهِ ... فإنه كلَّه زورٌ وبُهْتَانُ

اعلم أن التواجد استدعاء الوجد لأنه تعمّل في تحصيل الوجد، فإن ظهر على صاحبه بصورة الوجد فهو كاذب مراء منافق لا حظ له في الطريق، ولهذا لم تسلمه الطائفة إلاّ لمن أعلم الجماعة التي يكون فيها أنه متواجد لا صاحب وجد، ولا يسلم له ذلك إلاّ إذا اتفق أن يعطى الحال بقرينته أن يوافق أهل الوجد في حركاتهم عن إشارة من شيخ يكون له حكم في الجماعة أو حرمة عندهم، فإن خرج عن هذه الشروط فلا يجوز له أن يقوم متواجداً ولا أن يظهر عليه من ذلك أثر، وكل وجد يكون عن تواجد فليس بوجد، فإن من حقيقة الوجد أن يأتي على القلب بغتة يفجأه وهو الهجوم على الحقيقة، فالوجد كسب فهو له والتواجد تكسب، واكتساب الوجد عن التواجد اكتساب لا كسب، وهذه بشرى من الله حيث جعل المخالفة اكتساباً والطاعة كسباً فقال لها يعني للنفس ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] فأوجبه لها، وقال في الاكتساب: ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] فما أوجب لها إلاّ الأخذ بما اكتسبته، فالاكتساب ما هو حق لها فتستحقه فتستحق الكسب ولا تستحق الاكتساب، والحق لا يعامل إلاّ بالاستحقاق، فالعفو من الله يحكم على الأخذ بالجريمة، فالتواجد الذي عند أهل الله إظهار صورة وجد من غير وجد على طريق الموافقة لأهل الوجد مع تعريفه لمن حضر أنه ليس بصاحب وجد لا بدّ من هذا ومع هذا الصدق فتركه أولى لأن مراعاة حق الله أولى من مراعاة الخلق، إذ مراعاة الخلق إن لم تكن عن مراعاة أمر الحق بها وإلاّ فهي مداهنة، والمداهنة نعت مذموم لا ينبغي لأهل الله أن تتصف بشيء لا يكون للحق فيه أمر بوجوب إن كان فعلاً، أو يكون لذلك الفعل نعت إلهيّ في النعوت فتستند إليه فيه ولو كان مذموماً في الخلق فإنه محمود في جانب الحق لظهور الحق به لأمر يقتضيه الحكم، فمستنده

الإلهيّ قول نوح لقومه: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [سورة هود: الآية ٣٨] وقول الله: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [سورة السجدة: الآية ١٤] ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [سورة الجاثية: الآية ٣٤] فوصف نفسه بالنسيان، ويظهر حكم مثل هذا المقصود من ألحق به هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون؟ فموضع الاستشهاد من هذا الموافقة في الصورة فانسحب الاسم عليه في الجناب الإلهيّ كما انسحب عليه في الجناب الكونيّ، ولم يكن الغرض كون ذلك الأمر محموداً أو مذموماً وإنما المراد ظهور الموافقة الإلهيّة، فلما رأى أهل الله ظهور الموافقة الإلهيّة سامحوا في التواجد واشترطوا التعريف لما يعطيه مقام الصدق الذي عليه اعتماد القوم. فإن قلت: فهذه الموافقة الإلهيّة والنبوية إنما وقعت في دارين ومجلسين مختلفين والتواجد في مجلس واحد. قلنا: صدقت فيما ذكرته في عين ما استشهدنا به فنحن ما قصدنا إلاّ الموافقة، فإن أردت حصول الأمر من الجانبين في وقت واحد فذلك موجود في مكر الله بالماكرين من حيث لا يشعرون فلا يكون ذلك إلاّ في الدنيا، فإنهم في الآخرة يعرفون أن الله مكر بهم في الدنيا بما بسط لهم فيها ممّا كان فيه هلاكهم، فهنا وقع المكر بهم حيث وقع المكر منهم بل في بعض الوقائع أو أكثرها بل كلها أن عين مكرهم هو مكر الله بهم وهم لا يشعرون.

ولما دخل عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ فوجده وأبا بكر يبكيان في قضية أسارى بدر فقال لهما عمر بن الخطاب: اذكرا لي ما أبكاكما؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجده تباكيت أي أوافقكما في إرسال الدموع، والتباكي كالتواجد إظهار صورة من غير حقيقة فهي صورة بلا روح غير أن لها أصلاً معتبراً ترجع إليه وهو ما ذكرناه. فإن قلت: فكيف تعطي الحقائق إظهار حكم معنى في الظاهر من غير وجود ذلك المعني فيمن ظهر عليه حكمه؟ قلنا: هذا موجود في الإلهيات في قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧] والرضى إرادة وقد نفى أن يكون مرضياً عنده فقد نفى أن يكون مراداً له، فقد ظهر حكم معنى نفاه الحق عن نفسه، فكذلك حكم الوجد في التواجد مع نفي الوجد عنه. ولمسألة الرضى معنى دقيق ذكرناه في كتاب المعرفة وهو جزء لطيف فلينظر هناك، وإنما جئنا به هنا صورة لم نذهب به مذهب التحقيق الذي لنا في الأشياء وإنما أخرجناه مخرج البرهان الجدليّ الموضوع لدفع حجة الخصم لا لإقامة البرهان على الحق، فالوجد الظاهر في التواجد هو حكم وجد متخيل في نفس المتواجد، فهو حكم محقق في حضرة خيالية، وقد بيّنا أن الخيال حضرة وجودية وأن المتخيلات موصوفة بالوجود، فما ظهر المتواجد بصورة حكم الوجد إلاّ لهذا الوجد المتخيل في نفسه فما ظهر إلاّ عن وجود فله وجه إلى الصدق، ولهذا يجب على المتواجد التعريف بتواجده ليعلم السامع من أهل المجلس أن ذلك عن الوجد المتخيل لا عن الوجد القائم بالنفس في غير حضرة الخيال له والخيال حكم صحيح في الحسّ كصاحب الصفراء إذا كان في موضع يتخيل السقوط منه فيسقط فهذا سقوط عن تخيّل ظهر حكمه في الحسّ، وكذلك المتواجد قد يحكم عليه الوجد المتخيل بحيث أن يفنيه عن الإحساس كما يفنى صاحب الوجد

الصحيح، ولكن بينهما فرقان في النتيجة قد ذكرناه في شرح ما لا يعوّل عليه في الطريق، فإن نتيجة الوجد الصحيح مجهولة، ونتيجة الوجد الخياليّ إذا حكم مقيدة معلومة يعلمها صاحبها، إن كان من أهل هذا الشأن فإنه ما ينتج له إلاَّ ما يناسب خياله في الوجد وهو معلوم، والوجد الصحيح مصادفة من حيث لا يشعر صاحبه فلا يدري بما يأتيه به، وقد ذكرنا في التواجد ما فيه غنية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والثلاثون ومائتان

في الوجد

[نظم: الوافر]

إذا أفـنـاكَ عـنـكَ ورودُ أمـرٍ فـذاك الـوَجْـدُ لـيـس بـه خَـفَـاءُ
لـه حـكـمٌ ولـيـس عـلـيـه حـكـمٌ نـعَـمْ ولـه الـتَّـلـذُّذُ والـفَـنَـاءُ
وذا مـن أعْـجَـبِ الأشـيـاءِ فـيـهِ فـإنَّ مـزاجَـهُ عَـسَـلٌ ومـاءُ

اعلم أن الوجد عند الطائفة عبارة عما يصادف القلب من الأحوال المفنية له عن شهوده وشهود الحاضرين، وقد يكون الوجد عندهم عبارة عن ثمرة الحزن في القلب، قال الأستاذ: وبالجملة فهو حسن، الوجد حال والأحوال مواهب لا مكاسب، ولهذا كان وجد المتواجد إذا أورثه التواجد الوجد لانفعال نفسه لما يجتلبه مكتسباً والحال لا يكتسب عند القوم فلذلك لا يعول على وجد المتواجد، فنظير الوجد في الأحوال عند القوم كمجيء الوحي إلى الأنبياء يفجؤهم ابتداء، كما ورد في الحديث: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يَزَلْ يَتَحَنَّثُ فِي غَارِ حِرَاءٍ حَتَّى فَجَأَهُ الوَحْيُ**» ولم يكن ذلك مقصوداً له، فكذلك أهل الوجد إنما هم في سماع من الحق في كل ناطق في الوجود، وما في الكون إلاَّ ناطق، فهم متفرّغون للفهم عن الله في نطق الكون، وسواء كان ذلك في نغم أو غير نغم، وبصوت أو غير صوت، فيفجؤهم أمر إلهيّ وهم بهذه المثابة فيفنيهم عن شهودهم أنفسهم وعن شهودهم أنهم أهل وجد وعن شهود كل محسوس، فإذا حصل لهم ذلك فذلك هو الوجد عند القوم، ولا بدّ لصاحبه من فائدة يأتي بها فإن جاء بغير فائدة ولا مزيد علم فذلك نوم القلب من حيث لا يشعر، فإن الذي يأتيه في تلك الفجأة إنما يأتيه من الله ليفيده علماً بما ليس عنده ممّا تشرف به نفسه وتكمل وتربى على غيرها من النفوس فإنه لا يرد إلاَّ على نفس طاهرة زكية هذا حكمه في هذا الطريق.

وأمّا الوجد العام فهو ما ذكرناه في حدّه في أوّل الباب، فلا يشترط فيه طهارة ولا غيرها إلاَّ في هذا الطريق، ولما كان يظهر في العموم مع عدم الطهارة لهذا لا يكون الوجد شاهد صدق إلاَّ على نفسه أنه وجد خاصة لا أنه وجد في الله، ولهذا يلتبس على الأجانب فلا يفرّقون بين أهل الله فيه وبين المتصوّرين بصورة أهل الله وإن كانوا ليسوا منهم فالحال الحال، ولهذا أهل الله في السماع المقيد بالنغم من شرطهم أن يكونوا على قلب واحد وأن لا يكون فيهم من ليس من جنسهم، فلا يحضرون إلاَّ مع الأمثال أو مع المؤمنين بأحوالهم المعتقدين

فيهم، ومستنده الإلهيّ كون الحق نعت نفسه بأن قاتل نفسه بادره بنفسه وإن كان ما بادره إلاّ به ولكن هكذا ورد في النعوت الإلهية فنقرّه ولا بدّ، فإنه أراد الله بذلك المحل أمراً مّا فيما كلفه به فجاء ذلك الأمر الإلهيّ الشرعيّ لمجيء زمانه ووقته، فصادف المحل على غير ما تعطيه حقيقة ذلك الوارد بالوارد الذي فجأه الحاكم على المحل مع علمنا أنه ما نفذ فيه إلاّ علم الله فيه، ولكن تعمير المراتب أدّى إلى اختلاف المذاهب فصار الحق هنا صاحب وجد وموجدة على من قتل نفسه مبادراً كما جاء عنه في غضبه على من غضب عليه، ففني المقام الإلهيّ هنا عن شهود نفسه بأنه غني عن العالمين، إذ المقامات تتجاور ولا تتداخل فكل مقام له حكم، وقد بيّن الله لعباده في أخباره الصادقة في كتبه وعلى ألسنة رسله ما هو عليه بما ينسب إليه، فمن الآداب أن تنسب إليه ما نسبه إلى نفسه، وإن ردته الأدلة العقلية فإن بالدليل العقلي أيضاً قد علمنا أن بعض الكون لا يعرفه على حدّ ما يعرف نفسه فهو المجهول المعروف لا إله إلاّ هو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فإن قلت: فالمصادفة تقضي بعدم العلم بما صادف فأين مستنده الإلهي؟ فنقول في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] مع علمه بما يكون منهم فبتلك النسبة تجري هنا وقد وردت، والوجد يفنى كما يفنى الفناء والغيبة ولا بدّ لصاحب هذه الأحوال ممّن يحضرون معه ويتصفون بالبقاء معه والشهود له وإن لم يكونوا بهذه المثابة فما هو المطلوب بهذه الألفاظ، واختلفوا في الوجد هل يملك أم لا يملك؟ فذكر القشيري عن بعضهم أنه كان يملك وجده، وكان إذا ورد عليه وعنده من يحتشمه ويلزم الأدب معه أمسك وجده، فإذا خلا بنفسه أرسل وجده وجعل ذلك كرامة له أنتجها احترام من يجب احترامه، وعندنا أن الوجد لا يملك وذلك الذي أرسله ما هو عين ما ورد عليه مع حضور من احترمه، فإن المعدوم ماله عين يملكها المحدث، فلما خلا ذلك الرجل ظهر حكم الوجد فيه في ذلك الوقت فتخيل أنه مالك لوجده كما يملك القاعد قيامه أي بما هو مستعد للقيام لا أن القيام وجد فيه فلم يقم فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والثلاثون ومائتان

في الوجود

[نظم: الوافر]

وجـودُ الـحـقِّ عـيـنُ وجـودِ وَجْـدي ... فـإنـي بـالـوجـودِ فَـنِـيـتُ عَـنْـهُ
وحُـكْـمُ الـوَجْـدِ أفـنَـى الـكـلَّ عـنـي ... ولا يُـدْرَى لـعَـيْـنِ الـوَجْـد كُـنْـهُ
ووجـدانُ الـوجـود بـكـل وَجْـهٍ ... بـحـالٍ أو بـلا حـالٍ فَـمِـنْـهُ

اعلم أن الوجود عند القوم وجدان الحق في الوجد، يقولون: إذا كنت صاحب وجد ولم يكن في تلك الحال الحق مشهوداً لك وشهوده هو الذي يفنيك عن شهودك وعن شهودك الحاضرين فلست بصاحب وجد، إذ لم تكن صاحب وجود للحق فيه. واعلم أن وجود الحق

في الوجد ما هو معلوم، فإن الوجد مصادفة ولا يدري بما تقع المصادفة، وقد يجيء بأمر آخر، فلما كان حكمه غير مرتبط بما يقع به السماع كان وجود الحق فيه على نعت مجهول، فإذا رأيتم من يقرّر الوجد على حكم ما عيّنه السماع المقيد والمطلق فما عنده خبر بصورة الوجد وإنما هو صاحب قياس في الطريق، وطريق الله لا تدرك بالقياس فإنه ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وكل نفس في استعداد ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٧٤].

واعلم أنه إنما اختلف وجود الحق في الوجد عند الواجدين لحكم الأسماء الإلهية ولحكم الاستعدادات الكونية، فكل نفس من الكون له استعداد لا يكون لغيره، وصاحب النفس بفتح الفاء هو الموصوف بالوجد فيكون وجده بحسب استعداده، والأسماء الإلهيّة ناظرة رقيبة وليس بيد الكون من الله إلاّ نسب أسمائه ونسب عنايته، فوجود الحق في الوجد بحسب الاسم الإلهيّ الذي ينظر إليه، والأسماء الإلهيّة راجعة إلى نفس الحق، وقد شهد روح الله بشهادة تعمّ الكون في الله فقال: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٦] على الوجهين، الوجه الواحد: أن تكون النفس هنا نفس عيسىٰ عينه أو تكون نفس الحق، فإذا جهل العبد ما هي عليه نفسه من حكم الاستعداد الذي به يقبل الوجود الحق الخاص فهو بما ينظر إليه من الأسماء الإلهيّة في المستأنف أجهل، فإذا ظهر لصاحب الوجد وجود الحق عند ذلك الظهور يعلم ما تجلّى له من الأسماء فيخبر عند رجوعه عن وجود معين وشهود محقق، وأما غير صاحب الوجد فحكمه بحسب الحال التي يقام فيها، والضابط لباب العلم بالله أنه لا يعلم شيء من ذلك إلاّ بإعلام الله في المستأنف. وأما في الحال والماضي فإعلام الله به وقوعه مشهوداً لمن وقع به عن ذوق لا عن نقل إلاّ أن يكون الناقل مقطوعاً بصدقه، ويكون القول أيضاً في الباب نصاً جلياً لا يحتمل إن لم يكن بهذه المثابة وإلاّ فلا يعلم أصلاً، وإن وقع العلم به من شخص في وقت فبحكم المصادفة، ومثل هذا لا يسمّى علماً عند أحد من أهل النظر، وإن كان الشاعر قد سمّاه علماً في قصة ابن عمر أو من كان من الصحابة في حديث الفاتحة فقال: ليهنك العلم، مع كونه مصادفة. واعلم أن الذي يتقيد به وجود الحق في صاحب الوجد إنما هو بحسب الوجد والوجد ليس بمعلوم وروده لمن ورد عليه حتى ينزل به، فوجود الحق في كل صاحب وجد بحسب وجده.

ثم إن الوجد عند العارفين يخرج عن حكم الاصطلاح بل يرسلونه في العموم، فما عندهم صاحب وجد صحيح كان فيمن كان إلاّ وللحق في ذلك الوجد وجود يعرفه العارفون بالله، فيأخذون عن كل صاحب وجد ما يأتي به في وجده من وجوده، وإن كان صاحب ذلك الوجد لا يعرف أن ذلك وجود الحق فإن العارف يعرفه فيأخذ منه ما يأتي به صاحب كل وجد من وجود، وأن الحق تجلّى في ذلك الوجد بصورة ما قيده به هذا المخبر عن وجود ما وجده في وجده، وهذا ذوق عزيز هو حق في نفس الأمر معتبر مقطوع به عند أرباب هذا الشأن لا عند كلهم، وقد أنبأ الحق عن نفسه في ذلك بتغير الصور والنعوت عليه لتغير أحوال العباد،

ومعلوم أنه ما تغيرت أحوال الكون في الثقلين إلاّ لتغيّر حكم الأسماء، وتغيرت الصور والتجليات لتغير أحوال الكون، فالأمر منه بدأ وإليه يعود، فللعبد أثر بوجه ما قرّره الحق له فلا يرفع عنه حكم ما قرّره الحق، ومن فعل ذلك فقد نازع الحق وهو القهار في مقابلة المنازعين، فالعلماء بالله يقهرون بالله ولا يتجلى لهم الله في اسم قاهر ولا قهار في نفوسهم، وإنما يرونه في هذا الاسم في صورة الأغيار فيعرفونه منهم لا من نفوسهم لأنهم محفوظون من المنازعة بينهم وبين أشكالهم فكيف بينهم وبين الله؟ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والثلاثون ومائتان

في الوقت

[نظم: البسيط]

الـوقـتُ مـا أنـتَ مـوصـوفٌ بـه أبـداً فـلا تـزالُ بـحُـكْـم الـوقـتِ مَـشْـهُـودَا
فـالله يـجـعـل وقـتـي مـنـه مَـشْـهَـدَه فـإن فـي الـوقـتِ مَـذْمُـوماً ومَـحْـمـودَا
لـه الـشـؤونُ مـن الـرحـمـن وهـي بـنـا تـقـومُ شَـرْعـاً وإيـمـانـاً وتَـوْحـيـدَا

اعلم أن القوم اصطلحوا على أن حقيقة الوقت ما أنت به وعليه في زمان الحال، وهو أمر وجودي بين عدمين، وقيل: الوقت ما يصادفهم من تصريف الحق لهم دون ما يختارون لأنفسهم، وقيل: الوقت ما يقتضيه الحق ويجريه عليك، وقيل: الوقت مبرد يسحقك ولا يمحقك، وقيل: الوقت كل ما حكم عليك، ومدار الكل على أنه الحاكم، ومستند الوقت في الإلهية وصفه نفسه تعالىٰ أنه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] فالوقت ما هو به في الأصل إنما يظهر وجوده في الفرع الذي هو الكون فتظهر شؤون الحق في أعيان الممكنات، فالوقت على الحقيقة ما أنت به، وما أنت به هو عين استعدادك، فلا يظهر فيك من شؤون الحق التي هو عليها إلاّ ما يطلبه استعدادك، فالشأن محكوم عليه بالأصالة، فإن حكم استعداد الممكن بالإمكان أدّى إلى أن يكون شأن الحق فيه الإيجاد، ألا ترى أن المحال لا يقبله؟ فأصل الوقت من الكون لا من الحق وهو من التقدير، ولا حكم للتقدير إلاّ في المخلوق، فصاحب الوقت هو الكون فالحكم حكم الكون كما قررنا في ظهور الحق في أعيان الممكنات بحسب ما تعطيه من الاستعداد فتنوعه بها وهو في نفسه الغني عن العالمين.

ولما كانت أذواق القوم في الوقت تختلف لذلك اختلفت عباراتهم عنه والوقت حقيقة كل ما عبّروا به عنه وهكذا كل مقام وحال، ليس يقصدون في التعبير عنه الحدّ الذاتي وإنما يذكرونه بنتائجه وما يكون عنه ممّا لا يكون إلاّ فيمن ذلك المقام أو الحال نعته وصفته، فمن أحكامه فيهم وفي غيرهم أن الله قد رتب لهم أموراً معتادة يتصرّفون فيها بحكم العادة ممّا لا جناح عليهم فيها أو ممّا قد اقترن به خطاب من الحق بأنه قربة فيختارون لأنفسهم فعل ذلك على جهة القربة إن كان من القرب أو على كونه مرفوع الحرج فيصادفهم من الحق أمر لم يكن

في خاطرهم ولا اختاروه لأنفسهم، فيعلمون أن الوقت أعطى ذلك الأمر وأن الله اختاره لهم فإنه القائل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي يقدر ويوجد ثم قال: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ [سورة القصص: الآية ٦٨] ونفى أن تكون لهم الخيرة فقال: ما كان لهم الخيرة، وعندنا أن ما هنا اسم وهو في موضع نصب على أنه مفعول بقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ الذي كان لهم الخيرة يعني فيه، فإذا علم العبد ذلك سلم الحكم فيه لله واستسلم، وكان بحكم وقت ما يمضيه الله فيه لا بحكم ما يختاره لنفسه في المنشط والمكره، ويرى أن الكل له فيه خير فيعامله الله في كل ذلك بخير، فإن كان وقته يعطي نعمة وكان عقده مع الله مثل هذا رزقه الشكر عليها والقيام بحق الله فيها وأعين عليها، وإن كان بلاء رزق الصبر عليه والرضا به وجعل الله له مخرجاً من حيث لا يحتسب، كرجل يريد أن يسبح الله مائة ألف تسبيحة فيحتاج إلى زمان طويل في ذلك مع ما فيه من التعب والتفرّغ إليه من الحضور فيعثر على خبر صدق أن النبيّ ﷺ جعل قول الإنسان: سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله رضاء نفسه، سبحان الله مداد كلماته ثلاث مرات، والحمد لله مثل ذلك، والله أكبر مثل ذلك، ولا إله إلاّ الله مثل ذلك، أفضل ممّا أراده هذا العبد، فقال هذا القول الذي جاءه بحكم المصادفة وإن لم يكن عنده منه خبر وترك ما كان يريد أن يذكره وعلم أن الذي اختار الله له بهذا التعريف في هذا الوقت أعظم ممّا اختاره لنفسه. وقد وقع هذا من رسول الله ﷺ مع عجوز مرّ عليها والحديث مشهور.

فإذا اقتضى الحق أمراً وكان له بك عناية أجراه عليك ورزقك القيام بحقه، فالعاقل من أهل الله من يرى أن الخير كله الذي يكون للعبد هو فيما اقتضاه الحق فيما شرع لعباده وبعث به رسوله ﷺ، فمن استعمله الله في اقتضاء الحق المشروع فما بعد عناية الله به من عناية لمن عقل عن الله. فالوقت المعلوم من جانب الحق هو عين ما خاطبك به الشرع في الحال، فكن بحسب قول الشارع في كل حال تكن صاحب وقت وهو علامة على أنك من السعداء عند الله، وهذا عزيز الوجود في أهل الله هو لآحاد منهم من أهل المراقبة لا يغفلون عن حكم الله في الأشياء.

وهنا زلّت أقدام طائفة من أهل الحضور مع الله في كل شيء فهم لا يغفلون عن الله طرفة عين ولكنهم يغفلون عن حكم الله في الأشياء أو في بعضها أو أكثرها، فمن لم يغفل عن حكم الله في الأشياء فما غفل عن الله فقد جمعوا بين الحضور مع الله ومع حكمه فهم أكثر علماً وأعظم سعادة، وهم أصحاب الوقت الذي يعطي السعادة. وبعض رجال الله علم أن الله لا يعدم الأشياء القائمة بأنفسها بعد وجودها ولا يتصف بإعدام أحوالها ولا إعراضها بعد وجودها، وإنما الأشياء تكون على أحوال فتزول تلك الأحوال عنها فيخلع الله عليها أحوالاً غيرها أمثالاً كانت أو أضداداً مع جواز إعدام الأشياء بمسكه الإمداد بما به بقاء أعيانها، لكن قضى القضية أن لا يكون الأمر إلاّ هكذا ولذلك قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ١٩] ولكن ما فعل فإن الإرادة والمشيئة ما تحدث له إذ ليس محلاً للحوادث فمشيئته

أحدية التعلق لكنه في الأشياء بين أن يجمعها أو يفرقها كلاً أو بعضاً وهي الأكوان، فالوقت على الحقيقة عند الكامل جمع وتفرقة دائماً، ومن الناس من يشهد التفرقة خاصة في الجمع ولا يشهد جمع التفرقة فيتخيل أن ذلك عين الوقت، فإذا سئل عن الوقت يشبهه بالمبرد فيقول الوقت مبرد يسحقك ولا يمحقك، يقول: يفرق جمعيتك ولا يذهب عينك، فمن عرف الوقت وأن الحكم له فيه سكن تحت ما حكم به عليه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والثلاثون ومائتان

في الهيبة

[نظم: البسيط]

إن الجمالَ مَهُوبٌ حيثما كانا ... لأن فيه جَلالَ المُلْكِ قد بَانَا
الحُسْنُ حلْيَتُه واللُّطفُ شيمَتُه ... لذاك نشهده روحاً ورَيْحَانَا
فالقلبُ يشهده يَسْطُو بخالقِهِ ... والعينُ تَشْهَدُه بالذَّوْقِ إنسانَا

اعلم أن الهيبة حالة للقلب يعطيها أثر تجلّي جلال الجمال الإلهيّ لقلب العبد، فإذا سمعت من يقول: إن الهيبة نعت ذاتيّ للحضرة الإلهيّة فما هو قول صحيح ولا نظر مصيب، وإنما هي أثر ذاتي للحضرة إذا تجلّى جلال جمالها للقلب، وهي عظمة يجدها المتجلي له في قلبه إذا أفرطت تذهب حاله ونعته ولا تزيل عينه، فلما تجلّى ربه للجبل جعله ذلك التجلّي دكاً فما أعدمه ولكن أزال شموخه وعلوه، وكان نظر موسىٰ في حال شموخه، وكان التجلّي له من الجانب الذي لا يلي موسىٰ، فلما صار دكاً ظهر لموسىٰ ما صير الجبل دكاً ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٣] لأن موسىٰ ذو روح له حكم في مسك الصورة على ما هي عليه، وما عدا الحيوان فروحه عين حياته لا أمر آخر، فكان الصعق لموسىٰ مثل الدك للجبل لاختلاف الاستعداد، إذ ليس للجبل روح يمسك عليه صورته، فزال عن الجبل اسم الجبل ولم يزل عن موسىٰ بالصعق اسم موسىٰ ولا اسم الإنسان، فأفاق موسىٰ ولم يرجع الجبل جبلاً بعد دكّه لأنه ليس له روح يقيمه، فإن حكم الأرواح في الأشياء ما هو مثل حكم الحياة لها، فالحياة دائمة في كل شيء، والأرواح كالولاة وقتاً يتصفون بالعزل، ووقتاً يتصفون بالولاية، ووقتاً بالغيبة عنها مع بقاء الولاية، فالولاية ما دام مدبراً لهذا الجسد الحيواني والموت عزله والنوم غيبته عنه مع بقاء الولاية عليه، فإذا علمت أن الهيبة عظمة وأن العظمة راجعة لحال المعظم بكسر الظاء اسم فاعل علمت أنها حالة القلب فهو نعت كياني، ومستنده في الإلهية من العلوم التي لا تنقال ولا تذاع ولا يعرفه إلاّمن علم أن الوجود هو الحق وأنه المنعوت بكل نعت، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٢] يعني تلك العظمة، ولما كانت العظمة تعطي الحياء والحياء نعت إلهيّ فإن الله يستحي من ذي الشيبة يوم القيامة لعظيم حرمة الشيب عنده تعالىٰ، فقد نعت نفسه بأن بعض الأشياء تعظم عنده كما قال: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [سورة النور: الآية ١٥] فقد قامت به

العظمة لذلك الذي هان على الجاهل بقدره من الافتراء على بيت رسول الله ﷺ والألفاظ لما كانت محجورة من الشارع علينا فلا نطلقها إلاّ حيث أمرنا بإطلاقها، فوقع الفرق بين الهيبة والعظمة، فنطلق العظمة في ذلك ولا نطلق الهيبة ولا الخوف ولا القبض فاعلم ذلك، والله سبحانه يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأربعون ومائتان

في الأنس

[نظم: البسيط]

الأنسُ بالأنس لا بالصُور يجمعنا فاحذَرْ فإنك مَمْكُورٌ ومَخْدوعُ
لا تَقْفُ ما لستَ تدريه وتَجْهَلُه فإن وذَكَ مَفْروقٌ ومَجْمُوعُ
أنت الإمامُ ولكنْ فيكَ حكمَتُه تُغطي بأنك مَخْلوقٌ ومَصْنُوعُ
فكيف يأنَسُ من تُفْني شَوَاهِدُه أكوانَه وهو في الأسْمَاع مَسْمُوعُ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن الأنس عند القوم ما تقع به المباسطة من الحق للعبد، وقد تكون هذه المباسطة على الحجاب وعلى الكشف، والأنس حال القلب من تجلّي الجمال وهو عند أكثر القوم من تجلّي الجمال وهو غلط من جملة ما غلطوا فيه، لأن لهم أغاليط في العبارة لعدم التمييز بين الحقائق، فما كل أهل الله رزقوا التمييز والفرقان مع الشهود الصحيح، ولكن الشأن في معرفة ما هو هذا الذي وقع عليه الشهود، وقد رأينا جماعة ممّن شهد حقاً ولكن ما عرف ما شهد وحمله على خلاف طريقه، فلا بدّ مع التجلّي من تعريف إلهيّ إما بصفاء إلاّ لها، وإما بما شاءه الحق من أنواع التعريف، وللأنس بالله علامة عند صاحبه فإنه موضع يغلط فيه كثير من أهل الطريق، فيجدون أنساً في حال ما يكون عليه فيتخيل أن ذلك أنس بالله، فإذا فقد ذلك الحال فقد الأنس بالله، فعندنا وعند الجماعة أن أنسه كان بذلك الحال لا بالله، لأن الأنس بالله إذا وقع لم يزل موجوداً عنده في كل حال، ولذلك يقول القوم: من أنس بالله في الخلوة وفقد ذلك الأنس في الملأ فأنسه كان بالخلوة لا بالله.

واعلم أنه لا يصحّ الأنس بالله عند المحققين، وإنما يكون الأنس باسم إلهيّ خاص معين لا بالاسم الله، وهكذا جميع ما يكون من الله لعباده لا يصحّ أن يكون من حكم الاسم الله لأنه الاسم الجامع لحقائق الأسماء الإلهيّة، فلا يقع أمر لشخص معين في الكون إلاّ من اسم معين، بل ولا يظهر في الكون كله أعني في كل ما سوى الله شيء يعمّه إلاّ من اسم خاص معين لا يصحّ أن يكون الاسم الله فإنه من أحكامه أيضاً الغنى عن العالمين، كما أنه من أحكامه ظهور العالم وحبّه سبحانه لذلك الظهور، والغنى عن العالم لا يفرح بالعالم والله يفرح بتوبة عبده، فالاسم الله تعلم مرتبته ولا يتمكن ظهور حكمه في العالم لما فيه من التقابل، هذه مسألة عظيمة جليلة القدر صعبة التصوّر في الإلهيات، فإن الشيء إذا اقتضى أمراً لذاته فمن المحال أن تتصف الذات بالغنى عن ذلك الأمر كما لا تتصف

بالافتقار إليه، وقد ورد الغنى عن العالمين، فإن جعلناه غنياً عن الدلالة كأنه يقول: ما أوجدت العالم ليدل علي ولا أظهرته علامة على وجودي، وإنما أظهرته ليظهر حكم حقائق أسمائي وليست لي علامة على سوائي فإذا تجليت عرفت بنفس التجلي، والعالم علامة على حقائق الأسماء لا علّي، وعلامة أيضاً على أني مستنده لا غير، فالعالم كله ذو أنس بالله، ولكن بعضه لا يشعر أن الأنس الذي هو عليه هو بالله لأنه لا بدّ أن يجد أنساً بأمر ما بطريق الدوام أو بطريق الانتقال بأنس يجده بأمر آخر، وليس لغير الله في الأكوان حكم فأنسه لم يكن إلاّ بالله وإن كان لا يعلم، والذي ينظر فيه أنه أنس به فذلك صورة من صور تجليه، ولكن قد يعرف وقد ينكر فيستوحش العبد من عين ما أنس به وهو لا يشعر لاختلاف الصور، فما فقد أحد الأنس بالله ولا استوحش أحد إلاّ من الله، والأنس مباسطة، والاستيحاش انقباض، وأنس العلماء بالله إنما هو أنسهم بنفوسهم لا بالله إذ قد علموا أنهم ما يرون من الله سوى صورة ما هم عليه، ولا يقع أنس عندهم إلاّ بما يرون وغير العارفين لا يرون الأنس إلاّ بالغير فتدركهم الوحشة عند انفرادهم بنفوسهم، وكذلك الاستيحاش إنما يستوحشون من نفوسهم لأن الحق مجلاهم فهم بحسب ما يرونه فيهم بل فيه من أحوالهم فيقع الحكم فيهم بالأنس أو بالوحشة، وحقيقة الأنس إنما تكون بالمناسب، فمن يقول بالمناسبة يقول بالأنس بالله، ومن يقول بارتفاع المناسبة يقول: لا أنس بالله ولا وحشة منه، وكل واحد بحسب ذوقه فإنه الحاكم عليه، ومن له الإشراف من أمثالنا على المقامات والمراتب ميّز وعرف كل شخص من أين تكلم ومن نطقه، وأنه مصيب في مرتبته غير مخطئ بل لا خطأ مطلقاً في العالم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والأربعون ومائتان

في معرفة الجلال

[نظم: البسيط]

إن الجلالَ على الضدَّين يَنطلقُ ... وهو الذي بنُعوتِ القَهرِ أَشْهَدَهُ
له العُلوُّ ولا عُلوٌّ يُماثِلُه ... له النُّزولُ فكلُّ الخَلْقِ يَجْحَدُهُ
إني بكلِّ الذي قد قُلْتُ أعرفُهُ ... وليس غيرَ الذي قد قلتُ أقصدُهُ

اعلم أن الجلال نعت إلهيّ يعطي في القلوب هيبة وتعظيماً وبه ظهر الاسم الجليل، وحكم هذا الاسم من أعجب الأحكام، فإن له حكم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] و ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] وله حكم قوله على لسان رسوله ﷺ: «**مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي وَجعتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي وَظَمِئْتُ فَلَمْ تَسْقِنِي**» فأنزل نفسه منزلة من هذه صفته من الافتقار إلى العبيد، وكذلك نزوله في قوله: «**وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي**» ومن هذا الباب فرحه بتوبة عبده وتعجبه من الشاب الذي لا صبوة له وتبشبشه بالذي يأتي إلى المسجد للصلاة، هذا كله وأمثاله من نعوت التنزيه والتشبيه يعطيه حكم

الجلال والاسم الإلهيّ الجليل، ولهذا قلنا أنه يدل على الضدّين كالجون ينطلق على الأبيض والأسود، وكذلك القرء ينطلق على الحيض والطهر، ومن حضرة الجلال نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩١] فمن وصفه إنما وصف نفسه ولا يعرف منه إلاَّ نفسه لأن ربّ العزّة لا يعينه وصف ولا يقيده نعت ولا يدل على حقيقته اسم خاص، وإن لم يكن الحكم ما ذكرناه فما هو ربّ العزّة، فإن العزيز هو المنيع الحمى، ومن يوصل إليه بوجه ما من وصف أو نعت أو علم أو معرفة فليس بمنيع الحمى، ولذلك عمّ بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ولحضرة الجلال السبحات الوجهية المحرقة، ولهذا لا يتجلى في جلاله أبداً، لكن يتجلى في جلال جماله لعباده فبه يقع التجلي فيشهدونه مظهر ما ظهر من القهر الإلهيّ في العالم: [الكامل]

إن الجليلَ هو الذي لا يُعْرَفُ ... وهو الذي في كلِّ حالٍ يُوصَفُ
فهو الذي يبدو فيُظْهِرُ نفْسَه ... في خَلْقِهِ وهو الذي لا يُعْرَفُ

والجلال لا يتعلق به إلاَّ العلماء بالله وما له أثر إلاَّ فيهم وليس للمحبين إليه سبيل، هذا إذا كان بمعنى العلو والعزّة، وأنه إذا كان بالمعنى الذي هو ضدّ العزّة والعلو فإنّ المحبين يتعلقون به كما يتعلق به العارفون وحضرته من العماء إلى قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٤] وأما قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فذلك من أسمائه المؤثرة فينا خاصة والحافظة لنا والرقيبة علينا. وأما الأسماء التي تختص بالعالم الخارج عن الثقلين فأسماء أخر ما هي الأسماء التي معنا أينما كنا، وقد بيّنا في شرح الأسماء الحسنى معنى الاسم الجليل على الوجهين مختصراً في جزء لنا في شرحها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والأربعون ومائتان
في الجمال

[نظم: الطويل]

جميلٌ ولا يُهْوَى جَليٌّ ولا يُرَى ... وتَشْهَدُه الألبابُ من حيثُ لا تَدْري
ولا تُدركُ الأبصارُ منه سوى الذي ... تُنَزِّهه عنه عقولُ ذوي الأَمْرِ
فإن قلتَ محجوبٌ فلستَ بكاذبٍ ... وإن قلتَ مشهودٌ فذاك الذي أدري
فما ثَمَّ محبوبٌ سواه وإنما ... سُلَيْمَى وليلى والزَّيَانِبُ للسَّتْرِ
فهنَّ ستورٌ مُسْدلاتٌ وقد أتَى ... بذلك نَظْمُ العاشقين مع النَّثْرِ
كمجنونِ ليلى والذي كان قَبْلَه ... كبشرٍ وهند ضَاقَ من ذِكْرهم صَدْري

اعلم أن الجمال الإلهيّ الذي تسمّى الله به جميلاً ووصف نفسه سبحانه بلسان رسوله أنه يحب الجمال في جميع الأشياء وما ثم إلاَّ جمال، فإن الله ما خلق العالم إلاَّ على صورته وهو جميل فالعالم كله جميل وهو سبحانه يحب الجمال، ومن أحب الجمال أحب الجميل،

والمحب لا يعذب محبوبه إلاَّ على إيصال الراحة أو على التأديب لأمر وقع منه على طريق الجهالة، كما يؤدّب الرجل ولده مع حبّه فيه، ومع هذا يضربه وينتهره لأمور تقع منه مع استصحاب الحب له في نفسه، فمآلنا إن شاء الله إلى الراحة والنعيم حيث ما كنا، فإن اللطف الإلهيّ هو الذي يدرج الراحة من حيث لا يعرف من لطف به، فالجمال له من العالم، وفيه الرجاء والبسط واللطف والرحمة والحنان والرأفة والجود والإحسان والنقم التي في طيّها نعم، فله التأديب فهو الطبيب الجميل، فهذا أثره في القلوب، وأثره في الصور ما يقع به العشق والحب والهيمان والشوق ويورث الفناء عند المشاهدة، ومن هذه الحضرة تنتقل صورة تجليه فيها إلى المشاهد فينصبغ بها انتقال فيض كظهور نور الشمس في الأماكن ويسمّى ذلك النور شمساً وإن لم يكن مستديراً ولا في فلك، ثم يفيض الإنسان من تلك الصورة التي ظهر فيها عن الفيض الإلهيّ على جميع ملكه في ردّه إلى قصره، فينصبغ ملكه كله بصورة جمال لم يكن، فلا يفقد الإنسان في ملكه صورة ما شاهدها من ربه في رؤيته، فهو عند العلماء بالله تجلّ دائم دنيا وآخرة لا ينقطع، وعند العامّة في الجنة خاصة لكونهم لا يعرفون الله معرفة العارفين، وليس لتجلي الجلال في الجنة حكم أصلاً، وإنما محله الدنيا والبرزخ والقيامة، وبهِ تبقى النار والشقاء في الأشقياء مدّة بقائهم فيه إلى أن يرتفع الشقاء وتغلب الرحمة، فلا يبقى لتجلي الجلال في التعلق حكم، وتنفرد به الملائكة بطريق الهيبة والعظمة والخوف والخشوع والخضوع والله أعلم.

الباب الثالث والأربعون ومائتان
في الكمال

[نظم: البسيط]

لـيس الـكـمـالُ الـذي بـالـنَّـقْص تَـعْرفُهُ ... إن الـكـمـالَ الـذي بـالـنَّـقْـص مَـوْصُـوفُ
الـعـلـمُ يـشْـهَـدُه والـعـيـنُ تُـنْـكِـرُه ... لأنـه عَـدَمٌ والـنَّـقْـصُ مَـعْـروفُ
لـو لـم يـكـنْ لـم تَـكُـنْ عـينٌ ولا صفةٌ ... ولا وجـودٌ ولا حـكـمٌ وتَـصْـريـفُ
ألا تَـرَى الـتَّـسْـتُـرِيَّ الـحَـبْـرَ أثـبـتـه ... وهـو الـصوابُ الـذي ما فيه تَـحْـريـفُ

أراد بقول سهل إن لكذا سراً لو ظهر بطل، كذا أعلم أن الكمال الذي لا يقبل الزيادة لا يكون إلاَّ لله من كونه غنياً عن العالمين. وأما الكمال الذي يقبل الزيادة فمثل قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: ٣١] كما أمر نبيه أن يقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٤] فالكمال هو وقوف الإنسان على الصورة الرحمانية بطريق الإحاطة لذلك عند مقابلة النسخة حرفاً حرفاً، فيؤثر ولا يتأثر، ولا يميل ولا يؤثر، عدل في فضل ولا فضل في عدل، بل يرتفع الفضل والعدل، ويبقى الوجود والشهود وقبول القوابل بحسب استعدادها روحاً وجسماً، فلا ينسب إليه من حيث هو حكم أصلاً، وجميع النسب تتصف به القوابل، وهو على الوجه الواحد الذي يليق به، لا يقبل التغيّر ولا التأثّر، كما لا يقبل النور من حيث ذاته وعينه ألوان

الزجاج مع أنك تنظر إلى النور أحمر وأصفر وأخضر متنوّعاً بتنوّع ألوان الزجاج، فالنور ما انصبغ بالألوان ولكن هكذا تشهده العين، والعلم يقضي بأنه على صورته التي كان عليها ما تأثر في عينه بشيء من ذلك، ألا تنظر إليه في المساحة الهوائية التي بين موضع الزجاج وموضع النور المنعكس المتلوّن هل ترى في النور في هذه المساحة لوناً من تلك الألوان مع كونه قد انبسط على الزجاج؟ وحينئذ عمر المساحة الهوائية التي بين ما يظهر من الألوان وبين الزجاج وكقوس قزح، فالكامل من لا يقبل الزائد ونحن في مزيد علم دنيا وآخرة فالنقص بنا منوط، فكما لنا بوجود النقص فيه، فلنا كمال واحد وللحق كمالان: كمال مطلق وكمال يقول به حتى نعلم، فنسختنا من كمال حتى نعلم لا من الكمال المطلق فافهم فإنه سرّ عجيب في العلم الإلهيّ فنشهده تعالىٰ من كونه إلهاً لا من كونه ذاتاً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والأربعون ومائتان
في الغيبة

[نظم: البسيط]

أغيبُ عنه ولي عينٌ تُشاهِدُه ... في حَضْرةِ الغيبِ والغُيَّابُ ما حَضَرُوا
ما في الوجودِ سواهُ في شَهادته ... وَغَيْبِه فانظروا في الغَيْب وافْتَكِرُوا
فتلكَ غَيْبَةُ مَنْ هاتيكَ حَالتُه ... فغَيْبَةُ القلب حالٌ ليس تُعْتَبَرُ
عمَّنْ تغيب وما في الكون من أحدٍ ... سوى الوجودِ فلا عينٌ ولا أَثَرُ

اعلم أن الغيبة عند القوم غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لشغل القلب بما يرد عليه، وإذا كان هذا فلا تكون الغيبة إلاّ عن تجلّ إلهيّ، ولا يصحّ أن تكون الغيبة على ما حدّوه عن ورود مخلوق فإنه مشغول غائب عن أحوال الخلق وبهذا تميزت الطائفة عن غيرها، فإن الغيبة موجودة الحكم في جميع الطوائف، فغيبة هذه الطائفة تكون بحق عن خلق حتى تنسب إليه على جهة الشرف والمدح وأهل الله في الغيبة على طبقات، وإن كانت كلها بحق فغيبة العارفين غيبة بحق عن حق، وغيبة من دونهم من أهل الله غيبة بحق عن خلق، وغيبة الأكابر من العلماء بالله غيبة بخلق عن خلق، فإنهم قد علموا أن الوجود ليس إلاّ الله بصور أحكام الأعيان الثابتة الممكنات، ولا يغيبه إلاّ صورة حكم عين في وجود حق، فيغيب عن حكم صورة عين أخرى تعطى في وجود الحق ما لا تعطى هذه، والأعيان وأحكامها خلق، فما غاب إلاّ بخلق عن خلق في وجود حق، فالعامّة مصيبة لبعض هذه المسألة، فإنها ينقصها منها في وجود حق، وغيبتها إنما هي بخلق عن خلق مثل الكمل من رجال الله، وما في الأعيان عين يكون حكمها مشاهدة للكل فلا تتصف بالغيبة، ولما لم تكن ثم عين لها وصف الإحاطة بالحضور مع الكل وأن ذلك من خصائص الإله فلا بدّ من الغيبة في العالم والحضور، وقد أومأنا إلى ما فيه كفاية في هذا الباب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والأربعون ومائتان

في الحضور

وهو الحضور مع الله جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه مع الغيبة هكذا هو عند القوم: [المتقارب]

حضوري مع الحقِّ في غَيْبتَي … حُضُوري به فهو الحاضِرُ
هو الباطنُ الحقُّ في غَيْبَتي … وعند حُضُوري هو الظَّاهِرُ
فإنْ فُتُّهُ فأنا أوّلٌ … وإن فاتَني فأنا الآخِرُ

اعلم أنه لا تكون غيبة إلاَّ بحضور، فغيبتك من تحضر معه لقوّة سلطان المشاهدة، كما أن سلطان البقاء يفنيك لأنه صاحب الوقت، والحكم والتفصيل في الحضور في أهله كما ذكرناه في الغيبة سواء، فكل غائب حاضر وكل حاضر غائب لأنه لا يتصوّر الحضور مع المجموع وإنما هو مع آحاد المجموع، لأن أحكام الأسماء والأعيان تختلف والحكم للحاضر، فلو حضر بالمجموع لتقابلت وأدّى إلى التمانع وفسد الأمر، فلا يصحّ الحضور مع المجموع لا عند من يرى حضوره بحق ولا عند من يرى حضوره بخلق، فإن حكم الأعيان مثل حكم الأسماء في التقابل والاختلاف وظهور السلطان، فتدبر ما ذكرناه تجد العلم إن شاء الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والأربعون ومائتان

في السكر

[نظم: مجزوء الكامل]

السُّكْرُ أقعَدَني على العز … شِ المحيطِ المُسْتَدِيز
وأنا بقاع قَرْقَرٍ … من كل ما يُغْني فَقيز
والسُّكْرُ من خَمْرِ الهَوَى … والسُّكْرُ من نَظَر المُديز
قد قالَ قَبْلي شاعرٌ … وهو العليمُ به الخَبيزْ
فإذا سَكِرْتُ فإنني … ربُّ الخَوَرْنَقِ والسَّديزْ
وإذا صَحَوْتُ فإنني … ربُّ الشُّوَيْهَةِ والبَعيزْ

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [سورة محمد: الآية ١٥] وهو علم الأحوال، ولهذا يكون لمن قام به الطرب والالتذاذ، وأما حدّهم له بأنه غيبة بوارد قويّ فما هو غيبة إلاَّ عن كل ما يناقض السرور والطرب والفرح وتجلّي الأمانيّ صوراً قائمة في عين صاحب هذا الحال، ورجال الله تعالىٰ في حال السكر على مراتب نذكرها إن شاء الله، فسكر طبيعيّ وهو ما تجده النفوس من الطرب والالتذاذ والسرور والابتهاج بوارد الأمانيّ إذا قامت الأمانيّ له في خياله صوراً قائمة لها حكم وتصرف يقول شاعرهم: [مجزوء الكامل]

فـــإذا ســـكـــرت فـــإنـــنـــي رب الـــخـــورنـــق والـــسَّـــديـــر

فإنه كان يرى ملكه لذينك غاية مطلوبه، فلما سكر قامت له صورة الخورنق والسَّدير ملكاً له يتصرّف فيه في حضرة تخيله وخياله أعطاه إياه حال السكر فإن له أثراً قوياً في القوّة المتخيلة، فالواقفون من أهل الله مع الخيال لهم هذا السكر الطبيعيّ، فإنهم لا يزالون يراقبون ما تخيلوا تحصيله من الأمور المطلوبة لهم من الله حتى يتقوّى عندهم ذلك ويحكم عليهم، مثل قوله عليه السلام: «**اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» وقوله ﷺ أيضاً: «**إِنَّ اللَّهَ فِي قِبْلَةِ المُصَلِّي**» وقول الصاحب لرسول الله ﷺ وقد سأله ﷺ عن حقيقة إيمانه حين قال: أنا مؤمن حقاً، فقال رضي الله عنه: كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً يعني في يوم القيامة، فجاء بما تعطيه حضرة الخيال، فإذا تقوّى مثل هذا التخيل أسكر النفس وقامت له صورة ما تخيل ينظر إليها بعينه ويخبر عنها كرؤية صاحب الرؤيا سواء وتلقى إليه ويصغي إليها وهو لا يعلم أنه يخاطب ويشاهد صورة خيالية بل يقطع أن ذلك شهود حسيّ، فإذا صحا من ذلك السكر ارتفع عنه ذلك الأمر من حيث صورته مع بقاء تخيله عند بعض الناس ممّن يتذكر ذلك في الذهن كما يرتفع عنه صورة ما رأى في النوم بالانتباه.

ومن أهل هذا المقام من يبقي الله له تلك الصورة المتخيلة في حال صحوه فيثبتها له محسوسة بعدما كانت متخيلة، كالجنة التي خيلها إبليس في الخيال المنفصل لسليمان عليه السلام ليفتنه بها ولا علم لسليمان عليه السلام بذلك فسجد شكراً لله تعالىٰ حيث أتحفه بها فأبقاها الله له جنة محسوسة يتنعم بها ورجع إبليس خاسراً لأنه أراد بذلك فتنته، وما علم أن أهل الله إذا وقع لهم مثل هذا أنه يحدث ذلك عبادة لله عندهم، هذا والمخيل عدوّ فكيف حالهم إذا كان خيالهم منهم وليسوا بأعداء نفوسهم فإنهم يسعون في خلاصها ونجاتها، فإذا كان سكرهم الطبيعي أثمر لهم مثل هذا فما ظنك بما فوقه من مراتب الإسكار؟

وأما السكر العقلي فهو شبيه بالسكر الطبيعي في رد الأمور إلى ما تقتضيه حقيقته لا إلى ما يقتضيه الأمر في نفسه، ويأتي الخبر الإلهي عن الله لصاحب هذا المقام بنعوت المحدثات أنها نعت لله فيأبى قبولها على هذا الوجه لأنه في سكرة دليله وبرهانه، فيرد ذلك الخبر لما يقتضيه نظره مع جهله بذات الحق، وهل تقبل هذا النعت أو لا تقبله؟ بل تخيل أنها لا تقبله فيمد رجله هذا العقل لسكره في غير بساطه فوقع في الحق بسكره ويعذره الحق في ذلك، لأن السكران غير مؤاخذ بما ينطق، فجرد عن الله ما نسبه الحق لنفسه، فإذا صحا هذا العاقل عن سكره بالإيمان لم يرد الخبر الصدق والقول الحق وقال: إن الحق أعلم بنفسه وبما ينسبه إليه من العقل، فإن العقل مخلوق والمخلوق لا يحكم على الخالق فإنه ما من مصنوع إلاّ ويجهل صانعه، فإن الشقة تجهل صانعها وهو الحائك، كذلك الأركان مع الأفلاك، وكذلك الأفلاك مع النفس، والنفس مع العقل، وكذلك العقل مع الله، وغاية ما علم من علم منهم افتقاره إليه واستناده في وجوده إلى صانعه ولا يحكم عليه بشيء، ولا سيما إن أخبر الصانع عن نفسه بأمور فليس للمصنوع إلاّ قبولها فإن ردّها فلسكر قام به، فخمره الذي يشرب إنما هو دليله

وبرهانه، ويقويه على ذلك ما تعطيه بعض الأخبار الإلهية من النعوت في حقّه الموافقة لبرهانه ودليله فهذا سكر عقلي، فالسكر الطبيعي سكر المؤمنين، والسكر العقلي سكر العارفين، وبقي سكر الكمل من الرجال وهو السكر الإلهيّ الذي قال فيه رسول الله ﷺ: **«اللَّهُمَّ زِدْنِي فِيكَ تَحَيُّراً»** والسكران حيران، فالسكر الإلهيّ ابتهاج وسرور بالكمال وقد يقع في التجلي في الصور سكر بحق قال بعضهم: [مخلع البسيط]

وأَسْكَرَ القَوْمَ دَوْرُ كَأْسٍ وكانَ سُكْرِي مِنَ المُدِيرِ

فمن أسكره الشهود فلا صحو له البتة، وكل حال لا يورث طرباً وبسطاً وإدلالاً وإفشاء أسرار إلهية فليس بسكر، وإنما هو غيبة أو فناء أو محق، ولا يقاس سكر القوم في طريق الله على سكر شارب الخمر فإنه ربما أورث بعض من يشربه غماً وبكاء وفكرة وذلك لما يقتضيه مزاج ذلك الشارب ويسمونه سكران، ومثل هذا لا يكون في سكر الطريق، وقليل من الناس من يفرق بين الحيوان والسكران، وعندنا في العلم الطبيعي أن شارب الخمر إذا أورثه غماً وبكاء وحزناً وفكرة وإطراقاً لما يقتضيه طبعه ومزاجه فليس بسكران ولا هو صاحب سكر، فإن بعض الأمزجة لا تقبل السكر ولا أثر له فيها، فغيبة السكران ليست عن إحساسه وإنما غيبته عن مقابل الطرب لا غير، ونظير هؤلاء الذين لا يطربون نظير أصحاب الفكرة والغيبة والفناء، ويفارق السكر سائر الغيبات لأن الصحو لا يكون إلاّ عن سكر والسكر يتقدم صحوه، وليس الحضور مع الغيبة كذلك ولا الفناء مع البقاء كذلك، لكنه مثل الصعق مع الإفاقة والنوم مع اليقظة، فإن النوم مقدم على الانتباه والغشية متقدمة على الإفاقة، وإنما ذكرنا هذا التفصيل من أجل مذهبهم في حدّ السكر أنه غيبة بوارد قوي فأطلقوا عليه اسم الغيبة، فيتخيل من لا ذوق له أن حكمه حكم الغيبة، فيقيس فيخطئ في تربيته للمريد إن كان من المتشيخين فيلتبس عليه الأمر فلا يفرق في حال المريد بين سكره وغيبته وفنائه، والسكران في هذا الطريق لا يغيب عن إحساسه، فإن غاب كما يراه الحنفيون في سكر شارب الخمر فقد انتقل عندنا من حال السكر إلى حال فناء أو غيبة أو محق ولم يعقب سكره صحو بل انتقل من حال سكر إلى حال فناء أو غيره من الأحوال المغيبة عن بعضه أو كله، ولا يتخيل أن السكر لما كان على هذه المراتب المتميزة أنه يمكن أن يكون لصاحب هذه الحال سكران أو يجمعها كلها لما هو عليه من الحقائق كما قررنا في بعض المسائل من جمع الإنسان لأمور كثيرة لحقائق تطلبها منه، ولا سيما وقد أنشد بعض من أسكره الخمر والهوى فقال: [الكامل]

سُكْرَانِ سُكْرُ هوًى وسُكْرُ مُدَامَةٍ فَتَى يفيقُ فتى به سُكْرَانِ

فأخبر أنه قام به سكران وسكر أهل الله ليس كذلك فإن المعرفة تمنع منه، فإن السكران الإلهي لا يتمكن أن يكون له السكر العقلي فإن الشهود يمنع من ذلك، والسكران بالسكر العقلي لا يتمكن له أن يتمكن منه السكر الطبيعي فإن دليله ينفيه، فإنه إذا كان يردّ حكم السكر الإلهيّ فكيف يقبل حكم السكر الطبيعي؟ وإنما السكران من أهل الله يرتقي في سكره من سكر إلى سكر لا يجمع بينهما مثل ما قال هذا الشاعر، وما استشهد به في الطريق إلاّ صاحب

قياس لا صاحب ذوق، فمن أسكره السكر الطبيعي ثم جاءه السكر العقلي فإن السكر الطبيعي يفارق المحل بالضرورة ويزول حكمه عن صاحبه، وما هو الأمر في هذه الإسكارات بالتدريج قد يوهب الإنسان السكر ابتداء أعني السكر الإلهي فلا يمكن أن يكون له ذوق السكر العقلي أبداً لكنه قد يكون له العلم به وبمرتبته من غير أن يكون له أثر فيه وهو الذوق، وقد يوهب السكر العقلي ابتداء ذوقاً فلا يتمكن له أن يكون له ذوق في السكر الطبيعي، لكن قد يتنقل إلى السكر الإلهيّ ذوقاً فيزول عنه حكم السكر العقلي ذوقاً وحالاً، ويبقى له العلم به من طريق الذوق لأنه قد تقدمه ذوقه قبل أن ينتقل، فهكذا هو الأمر في سكر أهل الطريق في الإلهيات، وأما في غير الإلهيات فقد يمكن أن يجمع بين السكرين في الصورة، وإذا حققت الأمر فيه وجدته على خلاف ذلك، فإنه قد يتخيل في الإنسان أنه إذا علم شيئاً فهو صاحب ذوق له وليس الأمر كذلك فإن الذوق لا يكون إلاَّ عن تجلّ والعلم قد يحصل بنقل الخبر الصادق الصحيح فهكذا فلتعرف طريق الله يا وليّ فقد أعطيتك ميزان الأمور في هذه المقامات وأريتك مستندها، وما تجد هذا البيان في غير هذا الكتاب في كلام هذه الطائفة إلاَّ أن تكون إشارات منهم إلى ذلك في بعض ما ينقل عنهم فإنهم عالمون به ضرورة إذا كانوا أصحاب ذوق وهم أصحاب ذوق، إذ لا يكون منهم إلاَّ من هو صاحب ذوق، فالطبع يشهده فيسكر، والعقل يشهده فيسكر، والسر يشهده فيسكر، ولا تجتمع هذه الإسكارات أبداً لأحد في وقت واحد وإن كان الكل من أهل الله، كما أن الظالم لنفسه ما هو مقتصد فيما هو ظالم ولا سابق فيما هو مقتصد مع كون كل واحد منهم مصطفى من ورثة الكتاب الإلهيّ، بل يعطي الكشف الصحيح أنه لا يكون ظالماً لنفسه من ذاق الاقتصاد، وكذا ما بقي من غير تقييد فإن حكم الأذواق في الأمور وحصول العلم عنها ما هو مثل حكم سائر الطرق فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ولو شاء لهداكم أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الباب السابع والأربعون ومائتان

في الصحو

[نظم: البسيط]

الصَّحْوُ يأتي بعين العلمِ والأدبِ إن لم يكنْ صَيْلَماً للحُكْم والسَّبَبِ
ووارِدُ الصَّحْو أقْوَى عند طائفةٍ من واردِ السُّكرِ إذ يُغْني عن الطَّرَبِ
واللَّهْوُ تحيا به كلُّ النفوس وما في واردِ الصَّحْو من لهوٍ ومن لَعبِ
لذاك قوَّاه أقوامٌ وأضْعَفَهُ قومٌ وعندي فحُكْمُ الوقت للنَّسَبِ

اعلم أن الصحو عند القوم رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة بوارد قوي، واعلم أنهم قد جعلوا في حدّ السكر أنه وارد قوي، وكذلك الصحو أنه وارد قوي، وما قالوا إنه أقوى، وذلك أن المحل الموصوف بالسكر والصحو لهذين الواردين مع استوائهما في القوّة فيتمانعان، بل وارد السكر أولى فإنه صاحب المحل فله المنع، ولكن لا يتمكن لورود وارد

على محل إلاّ بنسبة واستعداد من المحل يطلب بتلك النسبة أو الاستعداد ذلك الوارد المناسب وإن تساوت الواردات، فإذا جاء الوارد وفي المحل غيره فوجد النسبة والاستعداد يطلبه حكم عليه وأزال عنه حكم الوارد الآخر الذي كان فيه لا لقوته وضعف الآخر بل للنسبة والاستعداد. واعلم أنه لا يكون صحو في هذا الطريق إلاّ بعد سكر، وأمّا قبل السكر فليس بصاحٍ ولا هو صاحب صحو، وإنما يقال فيه ليس بصاحب سكر بل يكون صاحب حضور أو بقاء وَغير ذلك.

ثم اعلم أن صحو كل سكران بحسب سكره على ميزان صحيح، فلا بدّ أن يأتي بعلم محقق استفاده في غيبة سكره، فإن كان صحوه صيلماً فما كان قط سكران سكر الطريق إذ العلم شرط في الصاحي من السكر هكذا هو طريق أهل الله، لأنّ الجود الإلهيّ ما فيه بخل ولا في قدرته عجز، فإذا صحا كتم ما ينبغي أن يكتم وأذاع ما ينبغي أن يذاع، وقوله في حال صحوه مقبول لأنه شاهد عدل، وقول السكران وإن كان شاهد عدل فإنه لا يقبل إذا ناقض قول الصاحي وإن كان حقاً، ولكن إذا قيل الحق في غير موطنه لم يقبل وربما عاد وباله على قائله مع كونه حقاً إذ كل قول حق لا يكون محموداً عند الله، وهذا معلوم مقرّر في شرع الله في العموم والخصوص كالشبليّ والحلاج، فقال الشبليّ: شربت أنا والحلاج من كاس واحد فصحوت وسكر فعربد فحبس حتى قتل، والحلاج في الخشبة مقطوع الأطراف قبل أن يموت فبلغه قول الشبليّ فقال: هكذا يزعم الشبليّ لو شرب ما شربت لحلّ به مثل ما حلّ بي أو قال مثل قولي، فقبلنا قول الشبليّ ورجحناه على قول الحلاج لصحوه وسكر الحلاج، فالصحو بالله والسكر بالله لا بدّ فيه من علم بالله، وما لا يعطي علماً فليس بصحو الطريق ولا سكره، وقد تقدم تقسيم السكر فذلك التقسيم يرد على الصحو فإنه لكل سكر صحوان لم يمت صاحب السكر في حال سكره فيكون صحوه في البرزخ، ومنهم من يبقى على سكره في البرزخ إلى البعث.

واعلم أنه إن تقدم للعبد سكر طبيعيّ أو عقليّ ثم أزالهما أو أحدهما السكر الإلهيّ فالسكر الإلهيّ صحو من هذا السكر الذي كان في المحل، وإن لم يتقدم لصاحب السكر الإلهيّ في المحل سكر عقليّ ولا طبيعيّ فليس سكره الإلهيّ بصحو بل هو حال سكر ورد عليه، ومعنى الصحو أنه ينكشف له حق الله في الأمور التي استفادها في حال سكره فيعلم عند صحوه ما ينبغي أن يذاع منها في العموم والخصوص وما ينبغي أن يستر، فإن كان قد أذاع منها في حال سكره شيئاً فيعطيه الصحو أن يستغفر الله من ذلك وعذره مقبول، وإنما يستغفر لأنّ السكران لا بدّ أن يبقى فيه من الإحساس ما يكون معه الطرب، فلو لم يبق معه إحساس لكان مثل النائم يرتفع عنه القلم أي لا يلزمه الاستغفار، وهذا الفرق بين السكران والمجنون، وإن كان كل واحد منهما من أهل الإحساس فإن المجنون ارتفع عنه الحكم ولم يرتفع عن السكران، ومن حاله الاستغفار ممّا ظهر منه ما هو مثل حال من لم يقع منه ما يوجب الاستغفار، فإن الاستغفار عندنا في طريق الله يكون في مقامين: المقام الواحد ما ذكرناه وهو

أن يبدو منه ما ينبغي أن يكون مستوراً فيجب عليه الاستغفار من ذلك، وقد يقع الاستغفار ممّن لم يبد منه شيء يوجب الاستغفار فيستغفر من هذا مقامه أي يطلب أن يستره الله في كنف عنايته أن يحكم عليه حال من شأنه إذا لم يستره الله في كنف عنايته أن يبدو منه بحكم ذلك الحال ما ينبغي أن يستر، وهذا هو المقام الثاني الذي لأهل الاستغفار، فيبتدؤون بطلب الستر من الله عن حكم حال يوجب عليهم الاعتذار من وقوعه، وهذا هو استغفار الأكابر من الرجال المعصومين، ولذلك ما سمع من نبي قط في حال نزول الوحي عليه كلام حتى يسري عنه، فإذا صحا حينئذ يخبر بما يجب، ولهذا ما نقل عن نبي قط أنه ندم على ما قاله ممّا أوحي إليه فيه، وأمّا ما كان عن نظر من غير وارد وحي فقد يمكن أن يرجع عن ذلك ويندم على ما جرى منه في ذلك، وقد وقع منه مثل هذا في أسارى بدر وسوق الهدي في حجة الوداع وغير ذلك.

ولما كان في الصحو انكشاف لمراتب الأمور قدمناه في الفضيلة على السكر أي صاحبه مقبول الحكم لمعرفته بالمواطن، وإن كان السكران صاحب حق، ألا ترى الصحو في السماء إذا أصحت، أي زال غيمها وانكشفت لتعطي الشمس من حرارتها لما يخرج من الأرض من النبات وتسخين العالم لأنّ لها أثراً في ذلك، كما أعطى الغيم ما في قوّته من الرطوبة في الأرض لأجل ذلك النبات فأفاد حال السكر وحال الصحو في الطبيعة، فإذا لم تقع فائدة عند السكران في الطريق ولا عند الصاحي منه فما هو من أهل الطريق بل يكون كالصحو الذي معه القحط المسمّى صيلماً وهو الذي أشرنا إليه في الأبيات في أوّل هذا الباب، فصحو السكر كله أدب وعلم والناس فيه متفاضلون تفاضلهم في السكر: [مخلع البسيط]

فكلُّ سُكْرٍ له احْتِكَامٌ وكلُّ صَحْوٍ له ثَبَاتُ

واعلم أن من الصاحين من يصحو بربه، ومنهم من يصحو بنفسه، والصاحي بربه لا يخاطب في صحوه إلاّ ربّه ولا يسمع إلاّ منه، فلا يقع له عين إلاّ على ربه في جميع الموجودات وهو على أحد مقامين: إما أن يكون يرى الحق من وراء حجاب الأشياء بطريق الإحاطة مثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ [سورة البروج: الآية ٢٠] وإما أن يرى الحق عين الأشياء وهنا ينقسم رجال الله على قسمين: قسم يرى الحق عين الأشياء في الأحكام والصور، وقسم يرى الحق عين الأشياء من حيث ما هو قابل لحكم الصور وأحكامها لا من حيث عين الصور، فإن الصور من جملة أحكام الأعيان الثابتة، فتختلف أحوال رجال الله في صحوهم بالله، وأما من صحا بنفسه فإنه لا يرى إلاّ أشكاله وأمثاله ويقول: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] خاصة ولا يعطي مقامه ولا حاله أن يتم الآية ذوقاً وإن تلاها وهو قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وصاحب الذوق الأوّل يقول: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ ذوقاً وتلاوة فيرى صاحب صحو النفس أن الحق في عزلة عنه كما يراه من جعله في قبلته إذا صلّى ولا يراه أنه هو المصلي، وهذا القدر من الإشارة في معرفة الصحو كاف، والصحو والسكر من الألفاظ المحجورة المختصة بالأكوان فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والأربعون ومائتان
في الذوق

[نظم: البسيط]

لـكـلِّ مـبـدإٍ مَـجْـلَـى فـي تَـجَـلِّـيـهِ ذوقٌ يـنـبِّـىءُ عـن مَـغـنَـى تَـخَـلِّـيـهِ
إن الـتَّـجَـلّـيَ بـالأسـمـاء يـحْـكُـمُـهـا وذلـك الـحـكـمُ مـن أعـلَـى تَـوَلِّـيـهِ
إذا تـــدلَّـــى إلـــى أمـــرٍ يـــعـــنُّ لـــه كـــان الـــدنـــوُّ إلـــيـــنـــا فـــي تَـــدَلِّـــيـــهِ
لـمـا تَـلَـقَّـاه قـلـبـي فـي مَـنَـازِلِـهِ كـان الـتَّـرقِّـي بـه إلـى تَـجَـلِّـيـهِ

اعلم أن الذوق عند القوم أوّل مبادي التجلي وهو حال يفجأ العبد في قلبه، فإن أقام نفسين فصاعداً كان شرباً، وهل بعد هذا الشرب ري أم لا؟ فذوقهم في ذلك مختلف فيه، وقد ذكر عن بعضهم أنه شرب فارتوى نقل عنه ذلك، ونقل عن أبي يزيد أن الري محال، وكل نطق بحاله، ولكل صاحب قول وجه عندنا صحيح في الطريق، وعندنا في هذه المسألة تفصيل يرد إن شاء الله فيما بعد في باب الشرب أو الريّ أو في باب عدم الري إن ذكرنيه الله فابحث عليه في آخر هذه الأبواب من هذا الكتاب.

اعلم أن قولهم أوّل مبادئ التجلي إعلام أن لكل تجلّ مبدأ هو ذوق لذلك التجلي، وهذا لا يكون إلاّ إذا كان التجلي الإلهيّ في الصور أو في الأسماء الإلهية أو الكونية ليس غير ذلك، فإن كان التجلي في المعنى فعين مبدئه عينه ماله بعد المبدأ حكم يستفيده الإنسان بالتدريج، كما يستفيد معاني تلك الصورة المتجلي فيها أو معاني الأسماء كلها كل اسم منها، فيرى في المبدأ ما لا يراه من ذلك الاسم بعد ذلك، وصاحب المعنى مبدأ كل شيء عينه فلا يستفيد منه بعد هذه الإفادة الكلية، فله التفصيل في التعبير عن ذلك الأمر الواحد وهو المراد بقولنا في صدر هذا الكتاب: [الكامل]

حتَّى بـدَتْ لـلـعـيـن سُـبْـحَـةُ وجْـهِـهِ وإلـــى هَـــلُـــمَّ لَـــمْ تـــكُـــنْ إلاَّ هِـــيَ

فكان مبدؤها عينها، وكل ما نأتي به بعد ذلك في جميع كلامنا إنما هو تفصيل لذلك الأمر الكلي تتضمنه تلك النظرة في تلك العين الواحدة وأكثر الناس على خلاف هذا الذوق ولهذا لا ينتظم كلامهم، ويطلب الناظر فيه أصلاً يرجع إليه جميع أقوالهم فلا يجد، وكلامنا مرتبط بعضه ببعضه لأنه عين واحدة وهذا تفصيلها، ويعرف ما قلناه من يعرف مناسبة آي القرآن في نسق بعضها إلى بعض، فيعرف الجامع بين الآيتين وإن كان بينهما بعد ظاهر فذلك صحيح، ولكن لا بدّ من وجه جامع بين الاسمين مناسب هو الذي أعطى أن تكون هذه الآية مناسبة لما جاورها من الآيات لأنه نظم إلهيّ، وما رأينا أحداً ذهب إلى النظر في هذا إلاَّ الرمانيّ من النحويين فإن له تفسير للقرآن أخبرني من وقف عليه أنه نحا في القرآن هذا المنحى وما وقفت عليه، لكني رأيت بمراكش ببلاد المغرب أبا العباس السبتي صاحب الصدقات يسلك هذا المسلك وفاوضته فيه وكان من أصحاب الموازين.

ثم اعلم أن الذوق يختلف باختلاف التجلي، فإن كان التجلي في الصور فالذوق خيالي، وإن كان في الأسماء الإلهية والكونية فالذوق عقلي، فالذوق الخياليّ أثره في النفس، والذوق العقليّ أثره في القلب، فيعطي حكم أثر ذوق النفس المجاهدات البدنية من الجوع والعطش وقيام الليل، وذكر اللسان، والتلاوة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، ورمي ما تملكه اليدان، كان وحده لا تكون له عائلة ولا شيخ، فإن كان بين يدي شيخ معتبر يربيه فيرمي ما بيده بين يدي ذلك الشيخ ويخرج عنه بالكلية ظاهراً وباطناً ولا يبقى له ملكاً، وإن كره ذاك بباطنه لضعفه أو أدركته فيه مشقة فلا ينظر بإخراج ذلك من يده الالتذاذ بذلك، بل إذا أخرجه عن مشقة أخرجه بنظر صحيح ثابت لا يتمكن له في نفسه إزالة ما نواه في ذلك، وإذا أخرجه عن يده بلذة فما أخرجه بعقله، فإن ارتفعت اللذة يمكن أن يدركه الندم بخلاف الكاره، فإنه إذا أخرجه مع الكره ثم بدا له في نفسه بالعناية الإلهية ما أزال الكره عنه انتقل إلى حالة الالتذاذ بذلك فهو أثبت في المقام، وهكذا كان خروجنا عمّا بأيدينا، ولم يكن لنا شيخ نحكمه في ذلك ولا نرميه بين يديه، فحكمنا فيه الوالد رحمه الله لما شاورناه في ذلك، فإنا تركنا ما بأيدينا ولم نسند أمره إلى أحد لأنا لم نرجع على يد شيخ ولا كنت رأيت شيخاً في الطريق بل خرجت عنه خروج الميت عن أهله وماله، فلما شاورنا الوالد وطلب منا الأمر في ذلك حكمناه في ذلك، ولم أسأل بعد ذلك ما صنع فيه إلى يومي هذا، هذا ما يعطي حكم ذوق النفس ولا بدّ منه لكل طالب، وأصله إتيان أبي بكر بجميع ما يملكه إلى النبي ﷺ حين قال له: ائتني بما عندك، وأتاه عمر بشطر ماله فإنه ﷺ ما حدّ لهم في ذلك، ولو حدّ لهم في ذلك ما تعدّى أحد منهم ما حدّه له رسول الله ﷺ، وإنما أراد ﷺ أن تتميز مراتب القوم عندهم فقال لأبي بكر: ما تركت لأهلك؟ فقال: الله ورسوله، وهذا غاية الأدب حيث قال: ورسوله، فإنه لو قال: الله لم يتمكن له أن يرجع في شيء من ذلك إلاّ حتى يردّه الله عليه من غير واسطة حالاً وذوقاً، فلما علم ذلك قال: ورسوله، فلو ردّ إليه رسول الله ﷺ من ماله شيئاً قبله لأهله من رسول الله ﷺ فإنه تركه لأهله، فما حكم فيه إلاّ من استنابه رب المال، فانظر ما أحكم هذا وما أشدّ معرفة أبي بكر بمراتب الأمور، وتخيل عمر أنه يسبق أبا بكر في ذلك اليوم لأنه رأى إتيانه بشطر ماله عظيماً. ثم قال لعمر بن الخطاب: ما تركت لأهلك؟ قال: شطر مالي، فقال رسول الله ﷺ: بينكما ما بين كلمتيكما، قال عمر: فعلمت أني لا أسبق أبا بكر أبداً، والإنسان ينبغي أن يكون عالي الهمة يرغب في أعلى المراتب عند الله ويوفي كل مرتبة حقها، فلم يردّ رسول الله ﷺ على أبي بكر شيئاً من ماله تنبيهاً للحاضرين على ما علمه من صدق أبي بكر في ذلك، فإن رسول الله ﷺ قد علم منه الرفق والرحمة، فلو ردّ شيئاً من ذلك عليه تطرّق الاحتمال في حق أبي بكر أنه خطر له رفق رسول الله ﷺ فعوض رسول الله ﷺ أهل أبي بكر بما يقتضيه نظره ﷺ. وجاءه عبد الرحمن بن عوف بجميع ماله فردّه عليه كله وقال: أمسك عليك مالك فإنه ما دعاه إلى ذلك ولو دعاه إلى ذلك لقبله منه كما قبله من أبي بكر.

ويعطي حكم ذوق العقل الرياضات النفسية وتهذيب الأخلاق فتتضمن الرياضة المجاهدات البدنية ولا تتضمن المجاهدة الرياضات والرياضات أتم في الحكم، فإن النبيّ ﷺ بعث ليتمم مكارم الأخلاق، فمن جبل عليها فهو منوّر الذات مقدس ومن لم يجبل عليها فإن الرياضة تلحقه بها وتحكم عليه والرياضة تذليل الصعب من الأمور، فمن ذلّل صعباً فقد راضه وأزال عن النفس جموحها فإنها تحب الرياسة والتقدم على أشكالها، والرياضة تمنع النفس من هذا الخاطر وسلطانه ولا ترى لها شفوفاً على غيرها لاشتراكها معهم في العبودية وإحاطة القبضة بالكل فبماذا ترأس فتمتثل أمر الله من حيث أنها مخاطبة من عند الله بذلك، وتود أن يكون كل مخاطب من العبيد مسارعاً إلى امتثال أمر سيده إيثاراً لجنابه ما يخطر لها في المسارعة أن تسبق غيرها من النفوس، فيكون لها بذلك مزية على غيرها لا يقتضي مقام الرياضة ذلك، فإن الرياضة خروج عن الأغراض النفسية مطلقاً من غير تقييد.

وأما الذوق الذي مبدؤه نفس عينه كما قدمنا فلا يحتاج إلى رياضة ولا مجاهدة، فإن الرياضة لا تكون إلاَّ في صعب الانقياد كثير الجموح أو منعوت بالجموح، والمجاهدة إحساس بالمشقة، وهذه العين التي ذكرناها ما تركت صعباً فتحكم عليه الرياضات فهو ذلول في نفسه أعطته ذلك مشاهدة تلك العين دفعة.

وأما الإحساس بالمشقات البدنية فذلك حسّ الطبع لا حسّ النفس، فهو صاحب لذة في مشقة يحكم فيها بحكم ما عين الله له من الحقوق حيث قال له على لسان المبين عنه وهو رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقاً وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقاً وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقاً وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقاً فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**» فالذائق لهذه العين حكمه ما شرع له ليس له ولا عنده رياضة في قبول ذلك أصلاً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. والذوق يعطيك بعد ذلك التجلي العلم ومنه تحقيق ميزانه ومرتبته فيتأدب معه بما يستحقه في النظر إليه فإنه نظير العين فيما لا مساغ لها فيه، وهو الذي يورث عندك الظمأ إذا لم تكن مؤمناً فإن كنت مؤمناً فالإيمان يعطيك الظمأ ويشتد عطشك ويقل على قدر إيمانك، ومن ليس بمؤمن لا ظمأ عنده البتة لشرب التجلّي، وإن أدركه العطش للعلم فمن حيث النظر الفكري، وأما العلوم التجلي فليس إلاَّ الإيمان ولا يحصل إيمان إلاَّ والظمأ يصحبه فيزيد بالذوق فافهم.

الباب التاسع والأربعون ومائتان

في الشرب

[نظم: البسيط]

الشُّرْبُ بينَ مَقَام الذَّوْقِ والرَّيِّ ... مثل القَضيَّة بينَ النَّشْر والطَّيِّ
إن الحقوقَ التي للحقِّ قائمةٌ ... عليكَ فاحذَرْ إذا ما كنتَ في الغَيِّ
أنتَ الغنيُّ به إذ كان عَيْنَكُمُ ... فلا سبيلَ إلى مَطْلٍ ولا لَيِّ

إذا تَنَاظَرتِ العُشَّاقُ فـي مَـيٍّ غَيْلانُ لـم يـكُ مثـلي في محبَّتهِ
فـإنـنـي حـاتِـمِـيُّ الأصْـلِ مـن طَـيٍّ وصْلُ الوفاء وهَجْرُ المَطْل من شِيَمي

اعلم أيّدك الله أن الشرب هو ما تستفيده في النفس الثاني مضافاً إلى ما استفدته في نفس الذوق بالغاً ما بلغ على مذهب من يرى الري ومن لا يراه. واعلم أن الشرب قد يكون عن عطش وقد يكون عن التذاذ لا عن عطش كشرب أهل الجنة بعد شربهم من الحوض الذي قام لهم مقام الذوق فشربهم من الحوض عن ظمأ ثم لا يظمؤون بعد ذلك أبداً، فإن أهل الجنة لا يظمؤون فيها وهم يشربون فيها شرب شهوة والتذاذ لا شرب ظمأ ولا دفع ألمه. واعلم أن الشرب يختلف باختلاف المشروب، فإن كان المشروب نوعاً واحداً فإنه يختلف باختلاف أمزجة الشاربين وهو استعدادهم، فمن الناس من يكون مشروبه ماء، ومنهم من يكون مشروبه لبناً، ومنهم من يكون مشروبه خمراً، ومنهم من يكون مشروبه عسلاً بحسب الصورة التي يتجلّى فيها ذلك العلم، فإن هذه الأصناف صور علوم مختلفة قد ذكرناها في جزء لنا سميناه مراتب علوم الوهب، ودليلنا على ما قلناه أنها علوم رؤيا النبيّ ﷺ فإنه قال: «**أُرِيتُ كَأَني أُوتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ فَشَرِبْتُ مِنْهُ حَتى رَأَيْتُ الرِّيَّ يَخْرجُ مِنْ أَظَافِرِي ثُمَّ أعْطَيتُ فَضْلي عُمَرَ، قالوا: فَمَا أَوَّلْتَهُ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قَالَ: العِلْمُ**» فهذا علم تجلّى في صورة لبن، كذلك تتجلى العلوم في صور المشروبات.

ولما كانت الجنة دار الرؤية والتجلي وما ذكر الله فيها سوى أربعة أنهار ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [سورة محمد: الآية ١٥] ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ [سورة محمد: الآية ١٥] ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [سورة محمد: الآية ١٥] ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [سورة محمد: الآية ١٥] علمنا قطعاً أن التجلي العلمي لا يقع إلاَّ في أربع صور: ماء، ولبن، وخمر، وعسل، ولكل تجلّ صنف مخصوص من الناس وأحوال مخصوصة في الشخص الواحد، فمنه ما هو لأصحاب المنابر وهم الرسل، ومنه ما هو لأصحاب الأسرة وهم الأنبياء، ومنه ما هو لأصحاب الكراسي وهم الورثة الأولياء العارفون، ومنه ما هو لأصحاب المراتب وهم المؤمنون، وما ثم صنف خامس، وكل صنف يفضل بعضه على بعضه كما قال الله في ذلك: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] وقوله: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٥٥] فإن الأعمال كانت هنا في زمن التكليف مقسمة على أربع جهات، ولذلك لما علم إبليس بهذه الجهات قال: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧] ولم يذكر بقية الجهات لأنه لم يقترن بها عمل فإنها للتنزل الإلهيّ والوهب الربانيّ الرحمانيّ الذي له العزّة والمنع والسلطان، فالعلوم وإن كثرت فإن هذه الأربعة تجمعها وهي مجال إلهية في منصات ربانية في صور رحمانية، وهي في حق قوم مع الأنفاس دائماً، وهم الذين لا يقولون بالري وفي حق قوم إلى أمد معين عينه لهم قوله تعالىٰ يوم الزور والرؤية ردّوهم إلى قصورهم وهم الذين يقولون بالري في هذه المشروبات كلها وفي بعضها، والمتنوع في الكل من الناس من يكون مشروبه واحداً ممّا ذكرناه لا ينتقل عنه أبداً.

ومنهم من يتنوّع في المشروبات وهو الأتم، وكان رسول الله ﷺ يحب مزج الماء

باللبن فيشربه ومزج العسل باللبن، وما بقي إلاّ الخمر وليست دار الدنيا بمحل لإباحته في شرع محمد ﷺ الذي مات عليه، فلم يمكن لنا أن نضرب به المثل بالفعل كما ضرب النبي ﷺ بالفعل بشرب اللبن بالماء وشرب العسل باللبن فشربه رسول الله ﷺ خالصاً وممزوجاً بما هو حلال له، ولذلك أيضاً كان رسول الله ﷺ يقول في اللبن إذا شربه: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ**» لأنه تقوم معه صورة ضرب المثل به في العلم في حديث الرؤيا الصحيح وهو مأمور بطلب الزيادة من العلم بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] فكان اللبن مذكراً له بطلب الزيادة منه، وكان يقول في سائر الأطعمة: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَأَطْعِمْنَا خَيْراً مِنْه**» وكان ﷺ: «**إِذَا شَرِبَ مَاءَ زَمْزَمَ تَضَلَّعَ مِنْهُ**» وكان يحب الحلوى والعسل، فهذه كلها أعني المشروبات وضعها الله ضرب أمثلة لأصناف علوم تتجلى للعارفين في صور هذه المحسوسات، وخصّ الخمر بالجنة دون الدنيا، وقرن به اللذة للشاربين منه، ولم يقل ذلك في غيره من المشروبات وذلك لأنه ما في المشروبات من يعطي الطرب والسرور التام والإبتهاج إلاّ شرب الخمر فيلتذ به شاربه وتسري اللذة في أعضائه وتحكم على قواه الظاهرة والباطنة، وما في المشروبات من له سلطان وتحكم على العقل سوى الخمر، فهو للعلم الإلهيّ الذوقي الذي تمجه العقول من جهة أفكارها ولا يقبله إلاّ الإيمان، كما أن علم العلماء في علم هذا الطريق تهمة لأن علم هذا الطريق له أثر فيها فهو الحاكم المؤثر في غيره من أصناف العلوم، ولا يؤثر فيه غيره لقوّة سلطانه لأنه مؤثر في العقل، والعقل أقوى ما يكون، وكذلك يزيل حكم الوهم والوهم سلطان قوي، وليس يزيل حكمه من المشروبات إلاّ الخمر، فلا يقف لقوّة سلطانه عقل ولا وهم، وأعظم قوّة من هاتين في الإنسان ما يكون، ألا ترى إلى السكران يلقي نفسه في المهالك التي يقضي العقل والوهم باجتنابها، فحكم العلم المشبه به في العلوم حكمه، فلو أبيح في هذه الشريعة مع ما أعطى الله هذه الأمّة من الكشف والفتوح والإمداد في العلوم وثبوت القدم فيها لظهرت أسرار الحق على ما هي عليه وبطلت أشياء كثيرة كان الشرع من علم اللبن قد قررها، فهذا التجلي في صورة الخمر لا يحصل في الدنيا إلاّ للأمناء فيلتذون به في بواطنهم ولا يظهر عليهم حكمه وهو ما أشار إليه سهل بن عبد الله التستريّ بقوله: إن للربوبية سرّاً لو ظهر لبطلت النبوّة، وإن للنبوّة سرّاً لو ظهر لبطل العلم، وإن للعلم سرّاً لو ظهر لبطلت الأحكام، فلو وقع التجلي في صورة الخمر وظهر هذا العلم في العموم ولم يكن الإنسان في طبعه ومزاجه على مزاج أهل الجنة لظهرت الأسرار بإظهاره إياها في العالم، فأدّى ظهورها إلى فساد لقوّة سلطانه في الإلتذاذ والابتهاج والفرح ومغيب حكم العقول عن شاربه، ولهذا ضرب الله مثلاً فيمن حصل له هذا التجلي في الدنيا ولم يظهر عليه حكمه مثل الأنبياء وأكابر الأولياء كالخضر والمقرّبين من عباده، فخلق بعض الأجسام البشرية هنا على مزاج لا يقبل السكر ليعلم أن ثم لله عباداً حصل لهم هذا التجلي الإلهيّ في صورة الخمر وهم على استعداد يعطي الكتمان وعدم الإفشاء.

واعلم أن من أعطاه الله المعاني مجردة عن الخطاب أو النصوص في الخطاب فهو عن

تجليه في صورة الماء غير الآسن وهو العلم الإلهيّ الذي لا تعلّق له بالطبيعة. ومن أعطاء الله العلم بأسرار الشرع وأحكامه وعلم حكمة قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤] وعرف ميزان الأحكام بعلم الأوقات والأحوال فيحرم في شرع ما يحلل في غيره فذلك من علم تجليه في صورة اللبن، أعني الحليب منه الذي لم يتغير طعمه بعقده أو مخضه أو تربيبه، ومن أعطاه الله العلم بالكمال والأحوال والجمال فإنه عن تجلّي العلم في صورة الخمر، ومن أعطاه الله العلم بطريق الوحي والإيمان وصفاء الإلهام وعمّ علمه كل شيء ممّا يصحّ أن يعلم حتى يعلم أنه ما لا يصحّ أن يعلم لا يعلم فذلك العلم عن التجلّي في صورة العسل، فإذا كان شربه شيئاً من هذه المشروبات أو كلها كان محصلاً لما شرب كالنبي الذي قال: فعلمت علم الأوّلين والآخرين، ولم يذكر أنه اختصّ به، فلما لم يذكر الاختصاص أبقى الباب غير مغلق لمن أراد الدخول منه إلى نيل هذا المقام، فالواجب على كل عاقل أن يتعرض لنفحات الجود الإلهيّ، فإن لله نفحات فتعرضوا لها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخمسون ومائتان

في الريّ

[نظم: البسيط]

الـريُّ قـال بـه قـومٌ ولـيـس لـهـم   عـلـمٌ بـأنَّ وجـودَ الـريّ مَـعْـدُومُ
لـو كـان ريٌّ تَـنَـاهَـى الأمـرُ وانـقـطـعَـتْ   أمـداده وزيـاداتٌ وتَـعْـلـيـمُ
فـالأمـرُ لـيـس لـه حـدٌّ يُـحـيـطُ بـه   لـكنَّه الـرزقُ في الأشـخـاصِ مَقْسُومُ

الريّ ما يحصل به الاكتفاء ويضيق المحل عن الزيادة منه. اعلم أنه لا يقول بالريّ إلاّ من يقول بأن ثم نهاية وغاية وهم المكشوف لهم عالم الحياة الدنيا ونهاية مدّتها، وهم أهل الكشف في اللوح المحفوظ المعتكفون على النظر فيه، أو من كان كشفه في نظرته ما هو الوجود عليه، ثم يسدل الحجاب دونه ويرى التناهي إذ كل ما دخل في الوجود متناه، وليس لصاحب هذا الكشف من الكشف الأخروي شيء، فمن رأى الغاية قال بالري وعلّق همته بالغاية، وهؤلاء هم الذين قال فيهم شيخنا أبو مدين: إنه من رجال الله من يحن في نهايته إلى البداية، وذلك لأنّ الله ما كشف لهم عن حقيقة الأمر على ما هو عليه كالقائلين برجوع الشمس في طول النهار وما هو رجوع في نفس الأمر، والقائلون بالريّ هم القائلون بالدور لما يرونه من تكرار أيام الجمعة والشهور، والذين لا يقولون بالريّ هم الذين يسمون النهار والليل الجديدين وليس عندهم تكرار جملة واحدة، فالأمر له بدء وليس له غاية، لكن فيه غايات بحسب ما تتعلق به همم بعض العارفين فيوصلهم الله إلى غاياتهم، ومن هناك يقع لهم التجديد فيه لا عليه، فيفوتهم خير كثير من الحكم وعلم كبير في الإلهيات، بل يفوتهم من علم الطبيعة خير كثير، فإن تركيبها لا نهاية له في الدنيا والآخرة، ويحجبهم عن عدم الريّ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٥] فسمّاه رجوعاً وذلك لكونه شغلهم عنه

بالنظر في ذواتهم وذوات العالم عند صدورهم من الله، فإذا وفوا النظر فيما وجد من العالم تعلقوا بالله فتخيلوا أنهم رجعوا إليه من حيث صدورهم عنه، وما علموا أن الحقيقة الإلهية التي صدروا عنها ما هي التي رجعوا إليها بل هم في سلوك دائماً إلى غير نهاية، وإنما نظروا لكونهم رجعوا إلى النظر في الإله بعدما كانوا ناظرين في نفوسهم لما لم يصحّ أن يكون وراء الله مرمى، وسبب الريّ الحقيقيّ أنه لما لم يتمكن أن يقبل من الحق إلاّ ما يعطيه استعداده وليس هناك منع فحصل الاكتفاء بما قبله استعداد القابل وضاق المحل عن الزيادة من ذلك فقال صاحب هذا الذوق: ارتويت، فما يقول بالريّ إلاّ من هو واقف مع وقته وناظر إلى استعداده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والخمسون ومائتان

في عدم الريّ

وقال به قوم: [نظم: الرمل]

عَــدَمُ الــريِّ دلــيــلٌ واضــحٌ   أن أحــكــامَ الــتَّــنَــاهِــي لا تَــكُــونْ
قــال بــالــريِّ رجــالٌ غــلــطــوا   ورأوا أن الــذي قِــيــلَ يَــهُــونْ
وهُــمُ لــو عــرفــوا مــقْــدَارَهُ   ورأوا مــا يَــقْــتَــضِــي كُــنْ فــيــكــونْ
لــم يــقــولــوا مــثْــلَ هــذا وأتَــوْا   لــلــذي أنْــكَــرَهُ يَــعْــتَــذرونْ

أمر الله تعالىٰ نبيه أن يقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٤] ومن طلب الزيادة فما ارتوى، وما أمره إلى وقت معين ولا حدّ محدود بل أطلق فطلب الزيادة والعطاء دنيا وآخرة، يقول النبيّ ﷺ في شأن يوم القيامة: «**فَأَحْمَدُهُ**» يعني إذا طلب الشفاعة «**بِمَحَامِدَ يُعلِّمُنِيها اللَّهُ لاَ أَعْلَمُها الآنَ**» فالله لا يزال خلاقاً إلى غير نهاية فينا، فالعلوم إلى غير نهاية، وليس غرض القوم من العلم إلاّ ما يتعلق بالله كشفاً ودلالة، وكلمات الله لا تنفد وهي أعيان موجوداته، فلا يزال طالب العلم عطشاناً أبداً لا ريّ له، فإن الاستعداد الذي يكون عليه يطلب علماً يحصله، فإذا حصل أعطاه ذلك العلم استعداداً لعلم آخر كونيّ أو إلهيّ، فإذا علم بما حصل له أن ثم أمراً يطلبه استعداده الذي حدث له بالعلم الحاصل عن الاستعداد الأوّل يعطش إلى تحصيل ذلك العلم، فطالب العلم كشارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً، والتكوين لا ينقطع، فالمعلومات لا تنقطع، فالعلوم لا تنقطع، فأين الريّ؟ فما قال به إلاّ من جهل ما يخلق فيه على الدوام والاستمرار، ومن لا علم له بنفسه لا علم له بربه، قال بعض العارفين: النفس بحر لا ساحل له، يشير إلى عدم النهاية، وكل ما دخل في الوجود أو اتصف بالوجود فهو متناه، وما لم يدخل في الوجود فلا نهاية له وليس إلاّ الممكنات، فلا يصحّ أن يعلم إلاّ محدث، فإن المعلوم لم يكن ثم كان ثم يكون آخر أيضاً، فلو اتصف المعلوم بالوجود لتناهى واكتفي به، فلا تعلم من الله إلاّ ما يكون منه ويوجده فيك إما إلهاماً أو كشفاً عن حدوث تجلّ، وهذا كله معلوم محدث فلا علم لأحد إلاّ بمحدث ممكن مثله، والممكنات لا تتناهى لأنها غير

داخلة في الوجود دفعة واحدة بل توجد مع الآنات، فلا يعلم الله إلاَّ الله، ولا يعلم الكون المحدث إلاَّ محدثاً مثله يكوّنه الحق فيه، قال تعالىٰ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] وهو كلامه وحدث فيهم فتعلق علمهم به فما تعلق إلاَّ بمحدث وذلك الذي يتخيله من لا علم له من أنه علم الله فلا صحة له لأنه لا يعلم الشيء إلاَّ بصفته النفسية الثبوتية وعلمنا بهذا محال، فعلمنا بالله محال، فسبحان من لا يعلم إلاَّ بأنه لا يعلم، فالعالم بالله لا يتعدّى رتبته، ويعلم ما يعلم أنه ممّن لا يعلم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الباب الثاني والخمسون ومائتان

في المحو

[نظم: البسيط]

لـلـمَـحْـوِ حُـكْـمٌ إلـهـيٌّ يـقـولُ بـه ... فـي سـورة الـرَّعْـد والـبرهـانُ يَـحْـمِـلُـهُ
الـمَـحْـوُ يُـثْـبِـتُـه الإثـبـاتُ وهـو لـه ... ضـدٌّ وهـل بـوجـود الـضـدِّ تَـعْـقِـلُـهُ
الـمَـحْـوُ ثَـبْـتٌ ولـكـنْ حُـكْـمُـه عَـدَمٌ ... فـابـحَـثْ عـلـى عـالِـمٍ بـه يُـفَـصِّـلُـهُ

اعلم أن المحو عند الطائفة رفع أوصاف العادة وإزالة العلة وما ستّره الحق ونفاه قال تعالىٰ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٩] فثبت المحو وهو المعبر عنه بالنسخ عند الفقهاء، فهو نسخ إلهيّ رفعه الله ومحاه بعدما كان له حكم في الثبوت والوجود وهو في الأحكام انتهاء مدّة الحكم، وفي الأشياء انتهاء المدّة فإنه تعالىٰ قال: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] فهو يثبت إلى وقت معين ثم يزول حكمه لا عينه فإنه قال: ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فإذا بلغ جريانه الأجل زال جريانه، وإن بقي عينه فالعادة التي في العموم يمحوها الله عن الخصوص، فمنهم من تمحى عن ظاهره، ومنهم من تمحى عن باطنه وتبقى عليه أوصاف العادة وهو الكامل مع كونه صاحب محو، كما أنه يكون المسخ في القلوب وهم اليوم كثير. وكان في بني إسرائيل ظاهراً بالصورة فمسخهم الله قردة وخنازير وجعل ذلك في هذه الأمّة في باطنها تمييزاً لها، ولكن لا تقوم الساعة حتى يظهر في صورها شيء من ذلك مع خسف وقذف، كذا ورد الخبر عن رسول الله ﷺ.

ومن العادة الركون إلى الأسباب والعلل، فصاحب المحو يزول عنه الركون إلى الأسباب لا الأسباب، فإن الله لا يعطل حكم الحكمة في الأشياء والأسباب حجب إلهية موضوعة لا ترفع أعظمها حجابا عينك، فعينك سبب وجود المعرفة بالله تعالىٰ، إذ لا يصحّ لها وجود إلاَّ في عينك، ومن المحال رفعك مع إرادة الله أن يعرف فيمحوك عنك فلا تقف معك مع وجود عينك وظهور الحكم منه كما محا الله رسول الله ﷺ في حكم رميه مع وجود الرمي منه فقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ فمحاه ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فأثبت السبب ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] وما رمى إلاَّ بيد رسول الله ﷺ وفي الصحيح: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ**» فإزالة العلة في المحو إنما هي في الحكم لا في العين، إذ لو زالت العلة والسبب لزال وهو لا

يزول، فمن الحكمة إبقاء الأسباب مع محو العبد من الركون إليها على حكم نفي أثرها في المسببات، فالأسباب ستور وحجب ولا يكون محو أبداً إلاَّ فيما له أثر وإلاَّ فليس بمحو، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والخمسون ومائتان

في معرفة الإثبات وهو إحكام العادات وإثبات المواصلات

[نظم: الطويل]

إلى حَضْرَةِ الإثْبَاتِ أعْمَلْتُ هِمَّتي ... من المَحْوِ لما أن دَعَاني إمامُهَا
فلما أتينا حَضْرَةً لم نَزَلْ بها ... بهادٍ وَحَادٍ خَلْفَها وأمامَها
إلى أن تراءتْ بين سَلْعٍ وحَاجِرٍ ... وقد ساقها شَوْقاً إليَّ غَرَامُهَا

الإثبات هو الأمر المقرّر الذي عليه جميع العالم، فمن طلب من غير نبي أو مشدّ لنبي رفع حكم العوائد فقد أساء الأدب وجهل، وأما هذا الذي يسمونه خرق عادة هو عادة إذ كان ثبوت خرق العادة عادة فما محوت العادات إلاَّ بإثباتها، غير أن صاحب الإثبات لا بدّ أن تكون له وصلة بالحق ولهذا يثبت أحكام العادات فإن صاحبه وضعها، ومن شرط الصحبة الموافقة فكيف يصحبه ويكون مواصلاً له ويحكم عليه بإزالة ما يرى الحكمة في ثبوته؟ ولا سيما وقد علم صاحب هذا المقام أن الله حكيم عليم بما يجريه ويثبته، فيثبت ما أثبته صاحبه، وإن لم يفعل وطلب غير ذلك فهو منازع، ومن نازعك فما هو بصاحب لك ولا أنت بصاحب له إن نازعته، وكان إلى العناد أقرب، فصاحب الإثبات دائم المواصلة مع الحق فإنه يثبت أحكام العادات لأنه يشهده فيها، فلا يمكن له مع هذا أن يطلب رفع أحكامها ولا محوها، فهذا مقام الإثبات على غاية الإيجاز والبيان، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والخمسون ومائتان

في معرفة الستر وهو ما سترك عمّا يفنيك

[نظم: البسيط]

والله ما تُسْدَلُ الأستارُ والكُلَلُ ... إلاَّ مِنَ أجلِ الذي تَحْظى به المُقَلُ
وقد يكونُ حَذاراً من تأمُّلِهَا ... أو للذي يَقْتَضيه الطَّبْعُ والمَلَلُ
إذا نَظَرْتَ الذي يحويه من عِبَرٍ ... أساساً لها قامَتِ الأغراضُ والمِلَلُ
لولا السُّتورُ التي تُخْفي ضَنَائنَها ... لم يُدْرَ ما كان لي غَرَضٌ ولا أمَلُ
والله ما تُرْسَلُ الأستارُ والكُلَلُ ... إلاَّ لأمرٍ عظيمٍ خَطْبُهُ جَلَلُ

الستر غطاء الكون والوقوف مع العادات ونتائج الأعمال، وقد أعلمناك أن الأسباب حجب إلهية لا يصحّ رفعها إلاَّ بها، فعين رفعها سدلها، وحقيقة محوها إثباتها، والستر رحمة عامة إلهية في حق العامة لما قدر عليهم من المخالفة لأوامره، فلا بدّ لهم من إيقاعها ومع

الكشف والتجلي فلا تقع أبداً فلا بدّ من الستر، ولهذا أهل التجلي العلمي رفع عنهم الحجر فلم يبق في حقهم تحجير بل أبيح لهم ما شاؤوه في تصرفهم، فإنه ورد في صحيح الخبر أن الله يقول لمن أذنب فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب: «**اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ**» فأباح لمن هذه صفته ما حجره على غيره، ومن المحال أن يأمره بإتيان ما حجر عليه الإتيان به، فإن الله لا يأمر بالفحشاء فأسدل الستور دون أهل الحجر، هذا حكمه في العامة، وأما في الخاصة فقول القائل: [الطويل]

فأنتَ حجابُ القلبِ عن سرِّ غَيْبِهِ ... ولـولاكَ لـم يُـطْـبَـعْ عـلـيـه خِـتَـامُـهُ

فجعلك عين ستره عليك، ولولا هذا الستر ما طلبت الزيادة من العلم به، فأنت المتكلم والمخاطب من خلف ستر الصورة التي كلمك منها، فانظر في بشريتك تجدها عين سترك الذي كلمك من ورائه فإنه يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١] وقد يكلمك منك فأنت حجاب نفسك عنك وستره عليك، ومن المحال أن تزول عن كونك بشراً فإنك بشر لذاتك، ولو غبت عنك أو فنيت بحال يطرأ عليك فبشريتك قائمة العين فالستر مسدل فلا تقع العين إلاّ على ستر لأنها لا تقع إلاّ على صورة، وهذا لما تقتضيه الألوهية من الغيرة والرحمة فأما الغيرة فإنه يغار أن يدركه غير فيكون محاطاً لمن أدركه ﴿بِكُلِّ شَىۡءٍ مُّحِيطُۢ﴾ والمحاط فلا يكون محيطاً لمن أحاط به. وأما الرحمة فإنه علم أن المحدثات لا تبقى لسبحات وجهه بل تحترق بها فسترهم رحمة بهم لإبقاء عينهم.

ثم إن الله أيضاً أسدل للعالمين ستور نتائج أعمالهم بقوله: إن عمل كذا ينتج لعامله كذا فيقف العامل مع النتيجة لا رغبة فيها إذا كان من أهل الخصوص، وإنما يرغب من يرغب فيها ليصحّح بها وبشهودها عمله الذي كلفه به سيده. وأما العامة فلرغبتها فيها وتعشقها بها، فلما جعل الله علامات تدل على صحة الأعمال في العاملين رغبت الخاصة في مشاهدة نتائج الأعمال ليكونوا على بصيرة في أمورهم إذ كان مطلوبهم وهمهم القيام بما أشهدهم عليه من الحقوق وليست الحقوق سوى الأعمال التي كلفهم، وقد يسدل الستر خوفاً من نفوذ العين وإصابته، ويدخل في هذا سدل الحجب من أجل السبحات الوجهية المحرقة أعيان الممكنات وأما في حق بعض الناس ممّن ليست له تلك القدم في العلم بالله فلا يعلم أن لله تجلياً في كل نفس ما هو على صورة التجلي الأوّل، فلما غاب عنه هذا الإدراك ربما استصحب تجلياً ودام عليه شهوده والطبع يطلبه بحقيقته فيدركه الملل، والملل في هذا المقام عدم احترام بالجناب الإلهيّ فإنهم ﴿فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [سورة ق: الآية ١٥] مع الأنفاس، وهم يتخيلون أن الأمر ما تغير، فسدل الستر من أجل الملل الذي يؤدّي إلى عدم الاحترام لما حرمهم الله العلم بهم وبالله فهم يتخيلون أنهم هم في كل نفس وهم هم من حيث جوهريتهم لا من حيث ما يتصفون به، ولا تقل إن الأمر ليس كذلك، هذا من الأسرار الإلهية التي قد حجب الله عن إدراكها خلقاً كثيراً من أهل الله أرباب فتوح المكاشفة فكيف حال غيرهم فيها؟ فالستر لا بدّ منه إذ لا بدّ منك فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والخمسون ومائتان
في معرفة المَحْقِ وهو فناؤك في عينه
وفي معرفة مَحْقِ المَحْقِ وهو ثبوتك في عينه

[نظم: الوافر]

فَنَاءُ الكون في الأعيان مَحْقُ   وعَيْنُ الكون حقٌّ ثم خَلْقُ
فإن قام الدليلُ على وجودي   يقومُ بذاتِ من يَبْغيه مَحقُ
وإني بالذي يَحْويه كَوْني   مِنَ أسماءِ الحقيقةِ فيَّ شِقُّ

هذا المحق. وأما محق المحق فهو: [المديد]

إن مَحْقَ المَحْقِ إبْدَارُ   وهو في التَّحْقيقِ إنذَارُ
فإذا أبصَرْتَ طَلْعَتَهُ   فيَّ لم تُدرِكْه أبْصَارُ
قالَ للحَدَّاد حين أتَى   دونَه حُجُبٌ وأسْتَارُ
من أنا فقال خالِقُنَا   ودليلي فيكَ آثارُ

اعلم أن المحق ظهورك في الكون به بطريق الاستخلاف والنيابة عنه فلك التحكم في العالم، ومحق المحق ظهورك بطريق الستر عليه والحجاب، فأنت تحجبه في محق المحق، فيقع شهود الكون عليك خلقاً بلا حق لأنهم لا يعلمون أن الله أرسل ستراً دونهم حتى لا ينظرون إليه، فمحق المحق يقابل المحق ما هو مبالغة في المحق وإنما هو مثل عدم العدم، فإذا أقيم العبد خروجه عن حضرة الحق إلى الخلق بطريق التحكيم فيهم من حيث لا يشعرون، وقد يشعرون في حق بعض الأشخاص، من هذا النوع كالرسل عليهم السلام الذين جعلهم الله خلائف في الأرض يبلغون إليهم حكم الله فيهم وأخفى ذلك في الورثة فهم خلفاء من حيث لا يشعر بهم، ولا يتمكن لهذا الخليفة المشعور به وغير المشعور به أن يقوم في الخلافة إلاّ بعد أن يحصل معاني حروف أوائل السور سور القرآن المعجمة مثل ألف لام ميم وغيرها الواردة في أوائل بعض سور القرآن، فإذا أوقفه الله على حقائقها ومعانيها تعينت له الخلافة وكان أهلاً للنيابة، هذا في علمه بظاهر هذه الحروف، وأما علمه بباطنها فعلى تلك المدرجة يرجع إلى الحق فيها فيقف على أسرارها ومعانيها من الاسم الباطن إلى أن يصل إلى غايتها، فيحجب الحق ظهوره بطريق الخدمة في نفس الأمر، فيرى مع هذا القرب الإلهيّ خلقاً بلا حق كما يرى العامّة بعضهم بعضاً، فيحكم في العالم عند ذلك بما تقتضيه حقيقته بما هو نسخة كونية للمناسبة التي بينه وبين العالم، فلا يعلم العالم هذا القرب الإلهيّ، وهذا هو محق المحق الذي يصل إليه رجال الله، فهو يشهد الله بالله، ويشهد الكون بنفسه لا بالله، ويكون في هذا المقام متحققاً من حروف أوائل السور المعجمة بالألف والراء خاصة مع علمه بما بقي منها، غير أن الحكم فيه للألف والراء في هذا المقام حيثما وقعا من السور.

وأما حكمه في العالم في هذا المقام فمن باقي هذه الحروف من لام وميم وصاد وكاف وهاء وياء وعين وطاء وسين وحاء وقاف ونون، فبهذه الحروف يظهر في العالم في مقام محق

المحق، وبالألف والراء يظهر في المحق وهم الأولياء الذين قال فيهم النبي ﷺ: **«إذا رُؤوا ذُكِرَ الله»** وذلك لأن عين تجليهم بهذين الحرفين في الصورة الظاهرة عين تجلي الحق، فمن رآهم رأى الحق، فهم إذا رؤوا ذكر الله لتحققهم بصفته، فهم يشاهدون الحق فيه إذا تجلّى لهم في صورة حق، ولقد رأيته في هذا التجلي، ورأيت كثيرين من أهل الله لا يعرفونه وينكرونه، وتعجبت من ذلك حتى أعلمت بأنهم وإن كانوا من أهل الله من حيث إنهم عاملون بأوامر الله لا عالمون فهم أهل إيمان، ولما كان بين رتبة الألف من هذه الحروف وبين الراء ثلاث مراتب لذلك لم تقو الراء قوّة الألف، فإنّ الألف لا تحمل الحركة ولا تقبلها والراء ليست كذلك.

واعلم أن محق المحق أتمّ عند أهل الله في الدنيا والمحق أتم في الآخرة، ومحق المحق لا يفوز به إلاّ أخص أهل الله، وهو للعقول المنوّرة هياكلها، والمحق يفوز به الخصوص وهو للنفوس المنوّرة جعلنا الله ممّن محق محقه فانفرد به حقّه، وهذه التي تسمّى خلوة الحق فإنه لا يشهد ولا يرى، وإن علمه بعض الناس فلا يكون مشهوداً له، ومن هذه الحقيقة اتخذ أهل الله الخلوة للإنفراد لما رأوه تعالىٰ اتخذها للانفراد بعبده، ولهذا لا يكون في الزمان إلاّ واحد يسمّى الغوث والقطب وهو الذي ينفرد به الحق ويخلو به دون خلقه، فإذا فارق هيكله المنوّر انفرد بشخص آخر لا ينفرد بشخصين في زمان واحد، وهذه الخلوة الإلهية من علم الأسرار التي لا تذاع ولا تفشى، وما ذكرناها وسميناها إلاّ لتنبيه قلوب الغافلين عنها بل الجاهلين بها، فإني ما رأيت ذكرها أحد قبلي ولا بلغني مع علمي بأن خاصة أهل الله بها عالمون، وقد ورد خبر صحيح في التنبيه على هذا يوم القيامة حيث الجمع الأكبر في انفراد العبد مع ربه وحده فيضع كنفه عليه ويقرّره على ما كان منه ثم يقول له: إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أسترها عليك هنا ثم يأمر به إلى الجنة، فنبّه على الانفراد بالله، ونبهناك نحن على الانفراد الإلهيّ بالعبد، وذلك العبد عين الله في كل زمان لا ينظر الحق في زمانه إلاّ إليه، وهو الحجاب الأعلى، والستر الأزهى، والقوام الأبهى.

الباب السادس والخمسون ومائتان

في معرفة الإبدار وأسراره

[نظم: البسيط]

بَدْرُ الرجوع إلى بَدْر السُّلوكِ عَمَى ... فـانـظُرْ بـهَـلْ وبـلَـمْ وثـمَّ كـيـف وَمَـا
فـإن تـعـالـىٰ وجـودٌ عـن مَـطَـالِـبـهـا ... لا فـرقَ بـيـن اسـتـوى فيـه وبـيـن عَـمَـا
مـن لا يـؤثّـرُ فـي تـوحـيـده نَـسَـبٌ ... ذاك الـذي حـارَ فـي تَـوْحـيـدِهِ الـقُـدَمَـا
ومـا رأيـنـا لـعـقـلٍ فـي تَـقَـلُّـبِـه ... فـي حَـضْـرةِ الـذات فـي تَـوْحيـده قَـدَمَـا

اعلم أنه لا يقال في مذكور هل هو موجود أم لا حتى يكون خفي الوجود، ومن كان وجوده ظاهراً لكل عين فإنه يرتفع عنه طلب هل فإنه استفهام، والاستفهام لا يكون إلاّ عن جهالة بحال ما استفهم عنه، وكذلك لا يقال لم إلاّ في معلول، ولا يقال ما إلاّ في محدود،

ولا يقال كيف إلاّ في قابل للأحوال، والحق منزّه عن هذه الأمور المعقولة من هذه المطالب، فهو منزّه الذات عن هذه المطالب، بل لا يجوز عليه لا في حق من يرى أن الوجود هو الله ولا في حق من لا يراه، فإن الذي يرى أن الوجود هو الله فيرى أن حكم ما ظهر به الحق إنما هو أحكام أعيان الممكنات، فما وقعت هذه المطالب إلاّ على مستحقها، فإنه ما طلبت عين الحق إلاّ من حيث ظهورها بحكم عين الممكن، فعين الممكن هو المطلوب والتبس على الطالب، وأما من لا يرى أن عين الوجود هو الحق فلا تجوز عليه المطالب.

ثم نرجع فنقول: أما الأبدار الذي نصبه الله مثالاً في العالم لتجليه بالحكم فيه فهو الخليفة الإلهيّ الذي ظهر في العالم بأسماء الله وأحكامه، والرحمة والقهر والانتقام والعفو، كما ظهر الشمس في ذات القمر فأناره كله فسمّي بدراً، فرأى الشمس نفسه في مرآة ذات البدر فكساه نوراً سمّاه به بدراً، كما رأى الحق في ذات من استخلفه فهو يحكم بحكم الله في العالم، والحق يشهده شهود من يفيده نور العلم، قال تعالىٰ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] وعلمه جميع الأسماء وأسجد له الملائكة لأنه علم أنهم إليه يسجدون، فإن الخليفة معلوم أنه لا يظهر إلاّ بصفة من استخلفه فالحكم لمن استخلفه. قال الحق لأبي يزيد في بعض مكاناته مع الحق: أخرج إلى الخلق بصفتي فمن رآك رآني ومن عظمك عظمني، فتعظيم العبيد لتعظيم سيدهم لا لنفوسهم فهذا سرّ الإبدار، فنصب الله صورة البدر مع الشمس مثلاً للخلافة الإلهيّة، وأن الحق يرى نفسه في ذات من استخلفه على كمال الخلقة، فإنه لا يظهر له إلاّ في صورته وعلى قدره، ومن يرى أن الحق مرآة العالم وأن العالم يرى نفسه فيه جعل العالم كالشمس والحق كالبدر وكلا المثلين صحيح واقع.

واعلم أن الله قصد ضرب الأمثال للناس فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ [سورة الرعد: الآية ١٧، ١٨] الآية، فالعالم كله بما فيه ضرب مثل ليعلم منه أنه هو فجعله دليلاً عليه وأمرنا بالنظر فيه، فما ضرب الله في العالم من المثل صورة القمر مع الشمس فلا يزال الحق ظاهراً في العالم دائماً على الكمال فالعالم كله كامل، وجعل الله للعالم وجهين: ظاهراً وباطناً فما نقص في الظاهر من إدراك تجليه أخذه الباطن وظهر فيه فلا يزال العالم بعين الحق محفوظاً أبداً ولا ينبغي أن يكون إلاّ هكذا، وأحوال العالم مع الله على ثلاث مراتب: مرتبة يظهر فيها تعالىٰ بالاسم الظاهر فلا يبطن عن العالم شيء من الأمر وذلك في موطن مخصوص وهو في العموم موطن القيامة ومرتبطة يظهر فيها الحق في العالم في الباطن فتشهده القلوب دون الأبصار ولهذا يرجع الأمر إليه، ويجد كل موجود في فطرته الاستناد إليه والإقرار به من غير علم به ولا نظر في دليل، فهذا من حكم تجليه سبحانه في الباطن ومرتبطة ثالثة له فيها تجلّ في الظاهر والباطن، فيدرك منه في الظاهر قدر ما تجلّى به، ويدرك منه في الباطن قدر ما تجلّى به، فله تعالىٰ التجلي الدائم العام في العالم على الدوام، وتختلف مراتب العالم فيه لاختلاف مراتب العالم في نفسها، فهو يتجلى بحسب استعدادهم، فمن فهم هذا علم أن الإبدار لا يزال فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والخمسون ومائتان

في معرفة المحاضرة وهي حضور القلب بتواتر البرهان ومجاراة ألأسماء الإلهية بما هي عليه من الحقائق التي تطلبها الأكوان

[نظم: المديد]

محاضَرةُ الأسماء في حَضْرة الذّاتِ دليلٌ على الماضي دليلٌ على الآتي
أقولُ بها والكونُ يعطي وجودَها لوجْدانِ آلام ووجدانِ لَذّاتِ
فلولا وجودُ المَحْو ما صحّ عندنا ولا عند من يدري وجودٌ لإثباتِ

المحاضرة صفة أهل الاعتبار والنظر المأمور به شرعاً، فما يفرغون من نظر في دليل بعد إعطائه إياهم مدلوله إلاّ ويظهر الله لهم دليلاً آخر فيشتغلون بالنظر فيه إلى أن يوفى لهم ما هو عليه من الدلالة، فإذا حصلوا مدلوله أراهم الحق دليلاً آخر هكذا دائماً وهو قوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] فذكر أنه يريهم آيات ما جعل ذلك آية واحدة، ثم قال: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] وهو عثورهم على وجه الدليل وحصول المدلول، وهذه مسألة تختلف فيها فتوح المكاشفة، فمنهم من يعطي الدليل ومدلوله كشفاً ولا يعطي أبداً ذلك المدلول دون دليله، حتى زعم بعض العلماء به أن علوم الوهب التي من شأنها أن لا تدرك في النظر إلاّ بالدليل العقليّ لا توهب لمن وهبت إلاّ بأدلتها فإنها بها مرتبطة ارتباطاً عقلياً. ومنهم من يقول: إنه قد يعطي الله ما يشاء من العلوم التي لا تدرك في العقل إلاّ بالأدلة بغير دليلها لأن المقصود ما هو الدليل وإنما المقصود مدلوله، فإذا حصل بوجه من الحق من غير الدليل الذي يرتبط به في النظر العقليّ فلا حاجة للدليل، إذ قد علمنا أن الدليل يقابل حصول المدلول في النفس وأنهما لا يجتمعان وهذا غلط، وإنما الذي لا يجتمع مع المدلول النظر في الدليل لا عين الدليل، فإن الناظر في الدليل فاقد واجد ومحصل للمدلول، وقد تكون المحاضرة من العبد مع الأسماء الإلهيّة والكونية من حيث أن الأسماء الكونية قد وسم الحق بها نفسه، والأسماء الإلهيّة قد وسم الكون بها نفسه واستحق الجنابان الأسماء جميعها، وهذا ممّا يقوي حديث خلق العالم على الصورة، فإذا حضرت الأسماء الحسنى وأسماء الكون وجرت في ميدان المفاخرة فإن الله يستهزىء بالمنافقين وبأهل الاستهزاء بالجناب الإلهيّ ويمكر سبحانه بالماكرين ويعجب ممّن قهر الطبيعة على قوّتها في الحكم، وهذا كله سمات المحدثات، وقد وسم الحق بها نفسه كما وسمها بكونه قديراً وخلاقاً وعليماً وغير ذلك، فالكل عند طائفة أصل للأصل النسبي الذي أوجد العالم، وبعضهم فرق فجعل خلاف الأسماء الحسنى أصلاً في الكون منقولاً في الجناب الإلهيّ، وحكم هذه المحاضرة في كل شخص بحسب ما يتقوّى عنده ويعطيه النظر، فتختلف أحوال أهل الله في ذلك وهو قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣] والتفكّر في ذات الله محال، فلا يبقى إلاّ التفكّر في الكون ومتعلّق الفكرة

الأسماء الحسنى وسمات المحدثات، فالأسماء كلها أصل في الكون على هذا النظر، فإذا وقف على محاضرة الأسماء ومناظرتها علم من أثر في وجود الكون بعد أن لم يكن هل أثر فيه الحق الوجود أو استعداده أو المجموع، هذه فائدة المحاضرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والخمسون ومائتان

في معرفة اللوامع وهي ما ثبت من أنوار التجلِّي وقتين وقريباً من ذلك

[نظم: المديد]

لَمَعَتْ أنوارُ توحيدي ... عند تَغْريدي بتَجْريدي
كُلَّما أبْدَتْ لوامِعَها ... أذنَتْ فينا بتَخْديدي
كل مَخْدودٍ يؤولُ إلى ... حلِّ تركيبٍ وتَبْديدِ
فَضْلُه من جنسه عَلَمٌ ... ظاهرٌ بنَقْصِ تَوْحيدي

اللوامع فوق الذوق فإنها تزيد على المبدأ ودون الشرب فإن الشرب قد ينتهي إلى الري وقد لا ينتهي، فإذا ثبتت أنوار التجلي وقتين وقريباً من ذلك فهي اللوامع، وهذا لا يكون في التجلي الذاتي وإنما يكون في تجلي المناسبات، فإذا تجلى في المناسبات دام بقدر ثبوت تلك المناسبة، والمناسبات صغيرة الزمان قصيرة في الثبوت، لأنّ الشؤون الإلهيّة لا تتركها، وما سوى الأعيان القائمة بأنفسها أعراض سريعة الزوال، وإنما ثبتت وقتين وقريباً من ذلك، لأنّ الوقت الأوّل لظهورها، والوقت الثاني لإفادة ما تعطيه ممّا لمعت له، فإن المحل يدهش عند لمعانها، وهو حديث عهد بالتجلي الذي فارقه، فتتربص هذه اللوامع حتى يزول الدهش والتعلّق بما كان عليه فيقبل ما أتته به هذه اللوامع وأعني بتربصها تواليها، فإذا حصل القبول مضى حكمها فزالت وجاء غيرها مثلها أو خلافها، وصاحبها أبداً سريع الرجوع إلى عالم الحسّ، ولا تردّ هذه اللوامع إلاّ بعلوم إلهية لا تعلق لها بعلوم الكون فهي إلهية مجرّدة هذه ميزانها، فإن وجد الإنسان علماً يكون في حاله فما هي لوامع لأن ضروب التجلي كثيرة متنوّعة الحكم فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والخمسون ومائتان

في معرفة الهجوم والبواده فالهجوم ما يرد على قلب بفوت الوقت من غير تصنع منك، والبواده ما يفجأ القلب من الغيب على سبيل الوهلة وهو إما موجب فرح أو ترح

[نظم: البسيط]

نورُ البَوَادِهِ فَجَآتُ الغُيوب على ... قلبٍ تَقَلَّب في ظَلْمَائه زَمَنَا
وواردات هُجوم الكَشْفِ تُوْرِثُها ... حالاً فتُلْحِقُهُ بحالة الزَّمْنَى

لـو أنـهـا وردتْ لـروح نَـشْـأتـنـا ... مـا دبَّـرتْ روحَـنـا نـفـسـاً ولا بَـدَنَـا

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن البواده والهجوم والصحو والسكر والذوق والشرب وأمثالها إنما هي واردات الغيب ترد على القلوب فتؤثر فيها أحوالاً مختلفة فيمن قامت به ويسمّون ذلك الحال بالوارد، وليس للعبد تعمّل في تحصيل هذه الواردات، مع أنها ما ترد إلاّ على قلب مستعدّ لقبولها فإذا ورد الوارد على القلب فجأة من غير تصنع فيعطيه ذلك الوارد حسرة فوت الوقت فإنه منبّه لمن غفل عن حكم وقته فيه، فلم يتأدّب مع وارد وقته أراد الحق أن ينبّهه عناية منه به فبعث إليه هذا الوارد رسولاً من الله يكشف له عن فوت وقته وأنه ممّن أساء الأدب مع الله فيندمه على ما كان منه من فوت الوقت، فيجبر له هذا الندم فضيلة ما فاته من وقته حتى يكون كأنه ما فاته شيء، وهذا غلط عظيم فيتزين وقته بزينة ندمه، كما كان يتزين بزينة أدبه معه لو حضر معه ولم يفته، فهذه فائدة الهجوم يجبر الوقت الذي فاته، ولنا في ذلك: [البسيط]

بَـادِرْ لـجَبْـرِ الـذي قـد فـاتَ مـن عُـمُـرِكْ ... ولـتـتَّـخـذْ زادَكَ الـرَّحْـمٰـنَ فـي سَـفَـرِكْ

وأما البواده فهي أيضاً فجأة إلهية تفجأ القلوب من حضرة الغيب بحكم الوقت، ولا تأتي في اصطلاحهم هذه البواده إلاّ أن تعطي فرحاً في القلب أو حزناً فتضحك وتبكي وهو قول أبي يزيد: ضحكت زماناً وبكيت زماناً يريد أنه كان في حكم البواده، ثم قال: وأنا اليوم لا أضحك ولا أبكي، يعرف بانتقاله من تأثّر حال البواده فيه إلى حال العظمة، ولا تكون البواده إلاّ فيمن يتصف، ومن لا وصف له لا بديهة له، غير أنه لما كانت البواده من حضرة الهو لم يعرف متى تأتي، فإذا وردت إنما ترد فجأة وبغتة فتعطى ما وردت به وتنصرف. وأما البديهة التي تعرفها الناس فليست تتقيد بفرح ولا ترح فما هي التي اصطلح عليها القوم وهي عينها إلاّ أن القوم ما سمّوا بديهة إلاّ ما أوجب فرحاً أو ترحاً، وأما إذا لم يوجب ذلك فأحوالهم فيها أحوال الناس، غير أن أهل الطريق يعلمون أن البواده إذا وردت لا يخطئ حكمها البتة ولها الإصابة في كل ما ترد به، ولهذا إذا سأل الشيوخ تلاميذهم عن مسألة على تعليم الأخذ عن الله لا يتركونه يفكر في الجواب فيكون جوابهم نتيجة فكر، وإنما يقولون لا تجب إلاّ بما يخطر لك فيما سئلت عنه عند السؤال، فتنظر إلى قلبك ما ألقى فيه عند ورود السؤال فاذكره ببادئ الرأي، فإن لم يفعل فلا يقبل منه الجواب، وإن أصاب عن فكر ونظر فإنّ الله لا يغفل في كل نفس عن قلب أحد من عباده بل هو الرقيب عليه، فيهبه في كل نفس بحسب ما يريده سبحانه، فأصحاب القلوب المراقبين قلوبهم من أجل آثار ربهم فيها يجيبون بورود الوارد في كل نفس، فيعملون بمقتضاه إن وافق الميزان الشرعي الذي قد شرع لسعادتهم، وإن لم يوافق طريق السعادة فإنّ لهم لهذا الوارد أخذاً مخصوصاً فيأخذونه تنبيهاً من الحق وتعريفاً لا مؤثراً في ظاهرهم ولا باطنهم، فهذا قد بيّنا معنى البواده والهجوم عند القوم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي ستين ومائتين

في معرفة القرب وهو القيام بالطاعات وقد يطلقونه ويريدون به قرب قاب قوسين وهما قوسا الدائرة إذا قطعت بخط أو أدنى

[نظم: البسيط]

إذا قـطـعـتَ بـخـطٍّ أُكْـرَةً فـبـدا ... قوسان ذلك قُرْبُ الحقِّ فاعتبروا
إلى الحقيقة أدنَى منهما فإذا ... ما حُزْتَه لاحَ ما يَقْضي به النَّظَرُ
إن المعارجَ للأرواح نِسْبَتُها ... خلافُ نِسْبَةٍ ما يَسْري به البَصَرُ

قال تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] فوصف نفسه بالقرب من عباده، والمطلوب بالقرب إنما هو أن يكون صفة العبد فيتصف بالقرب من الحق اتصاف الحق بالقرب منه كما قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] والرجال يطلبون أن يكونوا مع الحق أبداً في أي صورة تجلى، وهو لا يزال متجلياً في صور عباده دائماً، فيكون العبد معه حيث تجلّى دائماً، كما لا يخلو العبد عن أينية دائماً، والله معه أينما كان دائماً، فأينية الحق صورة ما يتجلى فيها، فالعارفون لا يزالون في شهود القرب دائمين لأنهم لا يزالون في شهادة الصور في نفوسهم وفي غير نفوسهم وليس إلاّ تجلي الحق. وأما القرب الذي هو القيام بالطاعات فذلك القرب من سعادة العبد بالفوز من شقاوته وسعادة العبد في نيل جميع أغراضه كلها ولا يكون له ذلك إلاّ في الجنة، وأما في الدنيا فإنه لا بدّ من ترك بعض أغراضه القادحة في سعادته، فقرب العامة والقرب العام إنما هو القرب من السعادة فيطيع ليسعد، وقرب العارفين ما ذكرناه، فهو يتضمن السعادة وزيادة، ولولا الأسماء الإلهيّة وحكمها في الأكوان ما ظهر حكم القرب والبعد في العالم، فإن كل عبد في كل وقت لا بدّ أن يكون صاحب قرب من اسم إلهيّ صاحب بعد من اسم آخر لا حكم له فيه في الوقت، فإن كان حكم ذلك الاسم الحاكم في الوقت المتصف بالقرب منه يعطي للعبد فوزاً من الشقاء وحيازة لسعادته فذلك هو القرب المطلوب عند القوم وهو كل ما يعطي العبد سعادة، وإن لم يعط ذلك فليس بقرب عند القوم، وإن كان قرباً من وجه آخر لا من حيث ما وقع عليه الاصطلاح أخبر رسول الله ﷺ عن ربّه في هذا الباب أن الله يقول: «**مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ بِأَحَبَّ إِليَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيهِمْ، وَلاَ يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِليَّ بالنَّوافِلِ حَتى أُحِبَّهُ فإذا أَحْبَبْتُهُ كُنتُ لَهُ سَمْعاً وَبَصَراً وَيَداً ومُؤَيِّداً**» وقال سبحانه في الخبر الصحيح: «**مَنْ تَقَرَّبَ إِليّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيهِ ذِراعاً وَمَنْ تَقَرَّبَ إِليَّ ذِراعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ باعاً، وَمَنْ أَتَانِي يَسْعَى أَتَيتُهُ هَرْوَلَةً**» وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] وقال في حق الميت: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] ومعناه عندنا لا تميزون، يقول: تبصرون ولكن لا تعرفون ما تبصرون فكأنكم لا تبصرون.

اعلم أن القرب من الله على ثلاثة أنحاء: قرب بالنظر في معرفة الله جهد الاستطاعة أصاب

في ذلك أو أخطأ بعد بذل الوسع في الاجتهاد في ذلك فقد يعتقد المجتهد فيما ليس ببرهان أنه برهان فيجازيه الله مجازاة أصحاب البراهين الصحيحة، وقد نبّه سبحانه على ما يفهم منه ما ذكرناه وهو قوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧] وقد رأى بعض العلماء أن الاجتهاد يسوغ في الفروع والأصول، فإن أخطأ فله أجر، وإن أصاب فله أجران. والنوع الآخر: قرب بالعلم. والنوع الثالث: قرب بالعمل وينقسم على قسمين: قرب بأداء الواجبات، وقرب بالمندوبات في عمل الظاهر والباطن، فأما قرب العلم فأعلاه توحيد الله في ألوهته فإنه لا إله إلاّ هو، فإن كان عن شهود لا عن نظر وفكر فهو من أولي العلم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] لأن الشهادة إن لم تكن عن شهود وإلاّ فلا، فإن الشهود لا يدخله الريب ولا الشكوك، وإن وحّده بالدليل الذي أعطاه النظر فما هو من هذه الطائفة المذكورة فإنه ما من صاحب فكر وإن أنتج له علماً إلاّ وقد يخطر له دخل في دليله وشبهة في برهانه يؤدّيه ذلك إلى التحيّر والنظر في ردّ تلك الشبهة، فلذلك لا يقوى صاحب النظر في علم ما يعطيه لنظر قوة صاحب الشهود، وهذا الصنف إذا قضى الله عليه بدخول النار لأسباب أوجبت له ذلك فهو الذي يخرجه الحق من النار بعد شفاعة الشافعين، وأما قرب العمل فهو علم ظاهر وهو ما يتعلق بالجوارح، وعلم باطن وهو ما يتعلق بالنفس، فأعمّ الأعمال الباطنة الإيمان بالله وما جاء من عنده لقول الرسول لا للعلم بذلك، وعمل الإيمان يعمّ جميع الأفعال والتروك، فما من مؤمن يرتكب معصية ظاهرة أو باطنة إلاّ وله فيها قربة إلى الله من حيث إيمانه بها أنها معصية فلا يخلص أبداً لمؤمن عمل سيء دون أن يخالطه عمل صالح قوله تعالىٰ فيمن هذه صفته ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٢] وما ذكر لهم قربة فما تاب هنا في هذه الآية عليهم ليتوبوا وإنما هو رجوع بالعفو والتجاوز، وعسى من الله واجبة عند جميع العلماء، فالشرط المصحّح لقبول جميع الفرائض فرض الإيمان ثم يتقرب العبد بأداء الفرائض، فمن حصل له هنا ثمرتها كان سمعاً للحق وبصراً فيريد الحق بإرادته على غير علم منه أن مراده مراد لله وقوعه، فإن علم فليس هو صاحب هذا المقام هذا ميزان أداء الفرائض وهو أحب ما يتقرب به إلى الله، وأما قرب النوافل فإنه أيضاً يحبه الله، ومحبة الله أعطته أن يكون الحق سمعه وبصره، هذا ميزانها في قرب النوافل.

ولما كانت المحبة لها مراتب متميزة في المحب قيل محب وأحب، وقد وصف الله نفسه بأحب في قوله بأحب إليّ من أداء ما افترضته عليه. وفي النوافل قال: أحببته من غير مفاضلة، وافترض عليه الإيمان به وبما جاء من عنده فالمؤمن له مرتبة الحب والأحب.

وأما عمل الجوارح فإنه قرب أيضاً، ولا بدّ أن تجني الجارحة ثمرتها أي ثمرة عملها في حق كل إنسان من غير تقييد، ولكن هم في ذلك على طبقات مختلفة في أي دار كانوا أو من أي صنف كانوا، وسواء قصد القرب بذلك العمل أو لم يقصد فإن العمل يطلب ميزانه وقد وقع من الجارحة فهو حق لها والنية حق للنفس، حتى إنه لو ذكر الله بيمين فاجرة يقتطع بها حق امرئ لكان للجارحة أجر ذكر الله لما جرى على اللسان وعلى النفس وما نوته من ذلك،

والتنبيه على ما ذكرناه كون حكم ظاهر الشرع أسقط عنه بيمينه حق الطالب، فإذا كان أثرها في الظاهر بهذه القوّة في الدنيا فما ظنك بما تجنيه تلك الجارحة الذاكرة ربها في الأخرى، فإن الجارحة لا خبر لها بما نوته النفس من ذلك، فحظها النطق بذكر الله لا تدري أن ذلك الذكر يعود منه وبال على النفس أم لا، ولا تدري هل هو مشروع أم غير مشروع؟ ولذلك إذا شهدت الجوارح والجلود بما وقع منها من الأعمال على النفس المدبرة لها ما تشهد بوقوع معصية ولا طاعة وإنما شهادتها بما عملته، والله يعلم حكمه في ذلك العمل، ولهذا إذا كان يوم القيامة ﴿تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النور: الآية ٢٤] ولم يشهدوا بكون ذلك العمل طاعة ولا معصية، فإن مرتبتهم لا تقتضي ذلك، فالإنسان من حيث هيكله سعيد كله، ومن حيث نفسه إن كان مؤمناً فهو صاحب تخليط.

وأما قرب الله منه فعلى نوعين: النوع الواحد قرب رحمة وعطف وتجاوز ومغفرة وإحسان. والنوع الآخر قرب لا يمكن كشفه لكن نومئ إليه فنقول: لا يخلو الحق مع كل عبد عندما يتجلى له أن يظهر له في مادة أو في غير مادة، فإن تجلى له في مادة وهي الصورة تبع القرب تلك المادة في مجلس الشهود وحضرة الرؤية، وإن تجلى له في غير مادة كان قرب المنزلة والمرتبة كقرب الوزير والقاضي والوالي وصاحب الحسيّة من الملك فإنه قرب متفاضل، وقد يدني مجلس الأدون ليساره بأمر ينفذ في مرتبته ويكون الأعلى أبعد منه مجلساً في ذلك المجلس، ولا يقتضي قربه في ذلك المجلس بأنه أعلى رتبة من الأعلى منه، فإن حكم المواد يخالف حكم النفوس في الصورة، وإذا علمت هذا فقد قربت من العلم بقرب الحق والقرب بين الاثنين على حد واحد، فمن قرب منك فقد اتصفت بأنك منه قريب، وفي نفس الأمر ليس للبعد من الله سبيل، وإنما البعد أمر إضافي يظهر في أحكام الأسماء الإلهيّة، فزمان حكم الاسم الإلهيّ في الشخص هو زمان اتصافه بالقرب من البعد وقرب العبد منه، والاسم الإلهيّ الذي ما له حكم الوقت في الشخص هو منه بعيد، كيف يتصف بالبعد عنك أو تتصف بالبعد منه من أنت في قبضته؟ ألم يفتح لآدم يده اليمنى تعالىٰ وكلتا يديه يمين مباركة فبسطها فإذا فيها آدم وذريته؟ وهل يؤبد شقاء من هو في يمين الحق؟ لا والله، وكانت القبضة الأخرى جميع العالم، فانظر في اختيار آدم يمين الحق للتمييز مع كونه يعرف أن كلتي يدي ربه يمين مباركة وليس إلاّ ما ذكرناه، ولولا ما كان التجلي لآدم في صورة مادية ما اتصفت اليدان بالقبض والبسط، وقد نبهتك على معرفة القرب حتى تشهده من نفسك مع الله إن كنت من أهل التجلي في هذه الدار، وإذا وقع التجلي في المواد جاءت الحدود بغير شك، فجاء الشبر والذراع والباع والسعي والهرولة بحسب ما يقتضيه الحال، فإن قرب المواد تابع للأحوال، فعلى قدر الحال يكون القرب في المادة بين القريبين ليعلم بذلك القرب أن حاله أعطى ذلك فهو ترجمان عن الأحوال.

وأما القرب من الله بحياز الصورة فليس ذلك إلاّ للخلفاء خاصة سواء كانوا رسلاً أو لم يكونوا، فإن الرسالة ليست بنعت إلهيّ وإنما هي نسبة بين مرسل ومرسل إليه لينوب عنه فيما يريد أن يبلغه إلى هذا الشخص المرسل إليه، فالرسول خليفة ونائب في التبليغ خاصة، وتتمة الخلافة

والنيابة إنما هي في الحكم بما تقتضيه حقائق الأسماء الإلهيّة من القهر والإرعاد والإبراق والأخذ والرحمة والعفو والتجاوز والانتقام والحساب والمصادرة، وما ثم أصعب في الإلهيات من المصادرة إذا لم تقع عن حساب أو تجاوز في الأخذ حد الاستحقاق وذلك في قوله: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٣] والأخذ والتجاوز بعد التقرير، والحساب والسؤال في قوله: ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٣] وقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] فقرب بالصورة على نوعين في الخلافة: النوع الواحد خلافة عن تعريف إلهيّ بمنشور وخلافة لا عن تعريف إلهيّ مع نفوذ الأحكام منه، ولا يسمّى مثل هذا القرب على طريق الأدب بلسان الأدباء خلافة ولا هو خليفة وبالحقيقة هو خليفة وتلك خلافة فالخلفاء متفاضلون أيضاً فيها، والخلافة بغير التعريف أتم في القرب المعنوي. فإن الخليفة بالتعريف والأمر الظاهر يبعد من المستخلف في الصورة، فإن حكمه في العالم لم يكن عن أمر من غيره بل هو حاكم لنفسه، فمن حكم في العالم بنفسه ونفذ حكمه فيه من غير أمر إلهيّ ولا استخلاف بتعريف ولا منشور فهو أقرب من الصورة الإلهيّة ممّن عقدت له الخلافة عن أمر إلهيّ بتعريف ومنشور، لكنه أقرب إلى السعادة المطلوبة له من ذلك الذي لم يقترن بخلافته أمر إلهيّ، والقرب إلى السعادة هو المطلوب عند العلماء بالله، وهذا القدر كاف في معرفة القرب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والستون ومائتان

في معرفة البعد

اعلم أن البعد هو الإقامة على المخالفة، ويطلق أيضاً على البعد منك. [نظم: المجتث]

البُعْدُ منكَ دُنُوٌّ ... وَتْرٌ وشَفْعٌ وتَوٌّ
لما رأيتُ إماماً ... يقول للقوم سَوُّوا
صُفُوفَكُم في صلاةٍ ... لها العُلاَ والدُّنُوُّ
علمتُ أنَّ وجودي ... له البَقَا والسُّمُوُّ

واعلم أن البعد يختلف باختلاف الأحوال فيدل على ما يراد به قرائن الأحوال، وأن الأحوال وجميع ما ذكرناه فيما يكون قرباً إذا لم يكن صفة للعبد فعدمه عين البعد، هذا هو الجامع لهذا الباب الذي أشار إليه القوم.

وأما حكم البعد عندنا فقد يكون على خلاف ما قرروه بعد مع تقريرنا ما قرروه بعداً أنه بعد بلا شك، إلاَّ أنّا زدنا فيه أموراً أغفلتها الجماعة لا أنهم جهلوا ما نذكره، إلاَّ أنهم ما ذكروه في معرفة البعد وأدخلوه في باب القرب، وذلك أن القرب اجتماع والبعد افتراق، وما يقع به الاجتماع غير ما يقع به الافتراق فالبعد غير القرب، فإذا اجتمع أمران في شيء ما فذلك غاية القرب، لأن عين كل واحد منهما عين الآخر فيما وقع فيه الاجتماع، فإذا تميز كل واحد من العينين عن صاحبه بنعت لا يكون عليه الآخر فقد تميز عنه، وإذا تميز عنه فذلك البعد لأنه ليس عينه من حيث ما هو عليه ممّا وقع له به الافتراق ويظهر ذلك في حدود الأشياء، وإذا

وقع البعد اختلف الحكم، وقد يكون البعد بنعت عرضي كالمكان والزمان والحد والمقدار والأكوان والألوان في حق من تطلب ذاته هذه النعوت، فإذا عقل أمران لا اجتماع بين واحد منهما مع الآخر وافترقا من جميع الوجوه كلها فذلك غاية البعد، فلا أبعد من العالم من الله لأنه ما ثم من حيث ذاته شيء يجمع بينهما وهذا موجود في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وكان الله ولا شيء معه.

ثم ننزل في درجة البعد دون هذا فنقول: العبد لا يكون سيداً لمن هو عبد له فلا شيء أبعد من العبد من سيده، فالعبودية ليست بحال قربة وإنما يقرب العبد من سيده بعلمه أنه عبد له، وعلمه بأنه عبد له ما هو عين عبوديته، فعبوديته تقتضي البعد عن السيد وعلمه بها يقضي بالقرب من السيد، قال الله لأبي يزيد البسطامي لما حار في القرب وما عرف بماذا يتقرب إليه فقال له الحق في سرّه: يا أبا يزيد تقرّب إليّ بما ليس لي الذلّة والافتقار، فنفى سبحانه عن نفسه هاتين الصفتين الذلة والافتقار وما نفاه عنه فإنه صفة بعد منه، فمن قامت به تلك الصفة التي تقتضي البعد فهو بحيث هي وهي تقتضي البعد. وقال أبو يزيد لربه في وقت آخر: بمَ أتقرب إليك؟ فقال له الحق: اترك نفسك وتعال، وإذا ترك نفسه فقد ترك حكم عبوديته لما كانت العبودية عين البعد من السيادة، فالعبد بعيد من السيد، فطلب منه في الذلّة والإفتقار القرب بالعبودية، وطلب منه في ترك النفس القرب بالتخلق بأخلاق الله وهو ما يكون به الاجتماع، فالتجلي في غير مادة تجلي البعد وفي المواد تجلي القرب، وأما البعد من الأسماء الإلهية فكل اسم لا يكون العبد تحت حكمه في الوقت.

واعلم أن الأسماء الإلهيّة إذا ظهر بها العبد عن الأمر الإلهيّ فهو في قرب النيابة عن الله لا في قرب الحقيقة، وإذا ظهر ببعضها عن غير أمر إلهيّ فهو في عين البعد المستعاذ منه في قوله ﷺ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**» لأن حقيقة المخلوق لا تتمكن في حال شهوده لمخلوقيته أن يكون خالقاً، والكبرياء والجبروت صفة للحق، فإذا قامت بالعبد فقد قام به الحق فاستعاذ منه وما ثم أعظم منه يستعاذ به فاستعاذ به، فأين كبرياء الحق وجبروته من صفته بأنه يفرح بتوبة عبده ويصف نفسه بجوع عبده وعطشه ومرضه؟ فبمثل هذا استعاذ، ومن مثل ذلك الآخر استعاذ، والمنعوت بهما واحد العين وهو الله فاستعاذ به منه فقال: وأعوذ بك منك، وهذا غاية ما يصل إليه تعظيم المحدث إذا عظم جناب الله. وأما بعد المخالفة فهو بعد العبد عن سعادته وعن الأسماء الإلهيّة التي تقتضي الموافقة في القرب بالطاعات، وإن كان في المخالفة قريباً من الأسماء الإلهيّة التي تطلب الأكوان من حيث التكليف فإنها محصورة في عفو ومؤاخذة فهو قريب بالمؤاخذة منه، فالمخالفة تطلب الرحمة وتتعرّض للعقوبة وهو سبحانه على مشيئته في ذلك، فلم يبق في بعد المخالفة إلاّ البعد عن سعادته إما بنقصان حظ عن غيره أو مؤاخذة بالجريمة، وأما البعد منك الذي ذكرته الطائفة فهو قوله لأبي يزيد: اترك نفسك وتعال، ومن ترك نفسه بعد عنها، وقد بيّنا لك في هذا الباب معنى هذا القول، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والستون ومائتان

في معرفة الشريعة ؛ الشريعة: التزام العبودية بنسبة الفعل إليك

[نظم: البسيط]

إن الشريعة حدٌّ ما له عِوَجُ ... عليه أهلُ مَقامات العُلَى دَرَجُوا

عَلَوْا معارجَ من عَقْلٍ ومن هِمَمٍ ... لحضرةٍ دخلوا فيها وما خَرجُوا

جاؤوا بأمرٍ عظيم القَدْر منه وما ... عليهم في الذي جاؤوا به حَرَجُ

الشريعة السنّة الظاهرة التي جاءت بها الرسل عن أمر الله، والسنن التي ابتدعت على طريق القربة إلى الله كقوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٧] وقول الرسول ﷺ: «من سنّ سنة حسنة» فأجاز لنا ابتداع ما هو حسن وجعل فيه الأجر لمن ابتدعه ولمن عمل به، وأخبر أن العابد لله بما يعطيه نظره إذا لم يكن على شرع من الله معين أنه يحشر أمة وحده بغير إمام يتبعه فجعله خيراً وألحقه بالأخيار كما قال في إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٠] وذلك قبل أن يوحى إليه. قال عليه السلام: «**بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ**» فمن كان على مكارم الأخلاق فهو على شرع من ربه وإن لم يعلم ذلك، وسمّاه النبي ﷺ خيراً في حديث حكيم بن حزام وأنه كان يتبرر في الجاهلية بأمور من عتق وصدقة وصلة رحم وكرم وأمثال ذلك فقال له رسول الله ﷺ لما سأله عن ذلك: «**أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ**» فسمّاه خيراً وجازاه الله به، فالشريعة إن لم تفهم هكذا وإلاّ فما فهمت الشريعة. وأما تتمة مكارم الأخلاق فهي تعريتها ممّا نسب إليها من السفسفة، فإن سفساف الأخلاق أمر عرضي، ومكارم الأخلاق أمر ذاتي، لأن السفساف ليس له مستند إلهيّ فهو نسبة عرضية مبناها الأغراض النفسية، ومكارم الأخلاق لها مستند إلهيّ وهو الأخلاق الإلهيّة، فتتمة النبي ﷺ مكارم الأخلاق ظهر في تبيينه مصارفها، فعين لها مصارف تكون بها مكارم أخلاق وتعري بذلك عن ملابس سفساف الأخلاق فما في الكون إلاّ شريعة.

ثم اعلم أن الشريعة أتت بلسان ما تواطأت عليه الأمة التي شرع الله لها ما شرع، فمنه ما كان عن طلب من الأمة، ومنه ما شرعه ابتداء من الأحكام ولهذا كان يقول ﷺ: «**اتْرُكُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ**» فإن كثيراً من الشريعة نزل بسؤال من الأمة لو لم يسألوه ما نزل، وأسباب الأحكام دنيا وآخرة معلومة عند العلماء بأسباب النزول والحكم، يقال: شرعت الرمح قبله أي قصدته به مستقبلاً، والشريعة من جملة الحقائق فهي حقيقة لكن تسمّى شريعة وهي حق كلها، والحاكم بها حاكم بحق مثاب عند الله لأنه حكم بما كلف أن يحكم به وإن كان المحكوم له على باطل والمحكوم عليه على حق، فهل هو عند الله كما هو في الحكم أو كما هو في نفس الأمر؟ فمنا من يرى أنه عند الله كما هو في الحكم، ومنا من يرى أنه عند الله كما هو في نفس الأمر، وفي هذه المسألة نظر يحتاج إلى سبر أدلة، فإن العقوبة قد أوقعها الله في رمي المحصنات وإن صدقوا إذا لم يأتوا بأربعة شهداء، وقال في

قضية خاصة في ذلك كان الرامي كاذباً فيها فقال: ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ﴾ [سورة النور: الآية ١٣] كما قرّر في الحكم: ﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ [سورة النور: الآية ١٣] فقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ هل يريد بهذه الإشارة هذه القضية الخاصة أو يريد عموم الحكم في ذلك؟ فجلد الرامي إنما كان لرميه ولكونه ما جاء بأربعة شهداء، وقد يكون الشهداء شهداء زور في نفس الأمر وتحصل العقوبة بشهادتهم في المرمى فيقتل، وله الأجر التام في الأخرى مع ثبوت الحكم عليه في الدنيا وعلى شهود الزور والمفتري العقوبة في الأخرى وإن حكم الحق في الدنيا بقوله: وشهادة شهود الزور فيه ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وإِنَّكُمْ لَتَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ أَحَدَكُمْ يَكُونُ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنَ الآخَرِ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ فَلاَ يَأْخُذْهُ فَإِنَّما أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**» فقد قضى له بما هو حق لأخيه وجعله له حقاً مع كونه معاقباً عليه في الآخرة كما يعاقب على الغيبة والنميمة مع كونهما حقاً، فما كان حق في الشرع تقترون به السعادة، ولما كان الشريعة عبارة عن الحكم في المشروع له والتحكم فيه بها كان المشروع له عبداً فالتزم عبوديته لكون الحكم لا يتركه يرفع رأسه بنفسه، فما له من حركة ولا سكون إلاً وللشرع في ذلك حكم عليه بما يراه، فلذلك جعلت الطائفة الشريعة التزام العبودية فإن العبد محكوم عليه أبداً. وأما قولهم بنسبة الفعل إليك فإنك إن لم تفعل ما يريده السيد منك وإلاً فما وجب عليك الأخذ به، ولذلك رفع القلم عمّن لا عقل له، ويكفي هذا القدر في علم الشريعة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والستون ومائتان

في معرفة الحقيقة وهي سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه أنه الفاعل بك فيك منك لا أنت ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ [هود: ٥٦]

[نظم: البسيط]

إن الحقيقةَ تُعْطي واحداً أبَدا ... والعقلُ بالفكر يَنْفي الواحدَ الأحَدَا
فالذاتُ ليس لها ثانٍ فيَشْفَعُها ... والكونُ يطلبُ من آثاره العَدَدَا
والكلُّ ليس سوى عينٍ محقّقَةٍ ... لا أهلَ فيها ولا أباً ولا وَلَدَا

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن الحقيقة هي ما هو عليه الوجود بما فيه من الخلاف والتماثل والتقابل إن لم تعرف الحقيقة هكذا وإلاّ فما عرفت، فعين الشريعة عين الحقيقة والشريعة حق ولكل حق حقيقة، فحق الشريعة وجود عينها، وحقيقتها ما تنزل في الشهود منزلة شهود عينها في باطن الأمر فتكون في الباطن كما هي في الظاهر من غير مزيد، حتى إذا كشف الغطاء لم يختل الأمر على الناظر، قال بعض الصحابة لرسول الله ﷺ: أنا مؤمن حقاً، فادّعى حق الإيمان وهو من نعوت الباطن فإنه تصديق والتصديق محله القلب فآثاره في الجوارح إذا كان تصديق له أثر، فإن كانت تصديق ما له أثر فلا يلزم ظهوره على الجوارح كما قال، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه، فنسب الصدق إلى الفرج وهو عضو ظاهر، فقال له

رسول الله ﷺ: فما حقيقة إيمانك؟ فقال: كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وقد كان صدق رسول الله ﷺ في قوله: «إِنَّ عَرْشَ رَبِّهِ يَبْرُزُ يَوْمَ القِيَامَةِ» فجعله هذا السامع مشهود الوقوع في خياله فقال: كأني أنظر إليه أي هو عندي بمنزلة من أشاهده ببصري، فلما أنزله منزلة الشهود البصري والوجود الحسّي عرفنا أن الحقيقة تطلب الحق لا تخالفه، فما ثم حقيقة تخالف شريعة لأن الشريعة من جملة الحقائق، والحقائق أمثال وأشباه، فالشرع ينفي ويثبت فيقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فنفى وأثبت معاً كما يقول: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وهذا هو قول الحقيقة بعينه فالشريعة هي الحقيقة، فالحقيقة وإن أعطت أحدية الألوهة فإنها أعطت النسب فيها، فما أثبتت إلاَّ أحدية الكثرة النسبية لا أحدية الواحد، فإن أحدية الواحد ظاهرة بنفسها، وأحدية الكثرة عزيزة المنال لا يدركها كل ذي نظر، فالحقيقة التي هي أحدية الكثرة لا يعثر عليها كل أحد.

ولما رأوا أنهم عاملون بالشريعة خصوصاً وعموماً ورأوا أن الحقيقة لا يعلمها إلاَّ الخصوص فرّقوا بين الشريعة والحقيقة، فجعلوا الشريعة لما ظهر من أحكام الحقيقة، وجعلوا الحقيقة لما بطن من أحكامها لما كان الشارع الذي هو الحق قد تسمّى بالظاهر والباطن، وهذان الاسمان له حقيقة، فالحقيقة ظهور صفة حق خلف حجاب صفة عبد، فإذا ارتفع حجاب الجهل عن عين البصيرة رأى أن صفة العبد هي عين صفة الحق عندهم، وعندنا أن صفة العبد هي عين الحق لا صفة الحق، فالظاهر خلق والباطن حق والباطن منشأ الظاهر، فإن الجوارح تابعة منقادة لما تريد بها النفس، والنفس باطنة العين ظاهرة الحكم، والجارحة ظاهرة الحكم لا باطن لها لأنه لا حكم لها، فينسب الاعوجاج والاستقامة للماشي بالممشى به لا إلى من مشى به، والماشي بالخلق إنما هو الحق وذكر أنه على صراط مستقيم، فالاعوجاج قد يكون استقامة في الحقيقة كإعوجاج القوس فاستقامته التي أريد لها اعوجاجه، فما في العالم إلاَّ مستقيم لأن الآخذ بناصيته هو الماشي به وهو على صراط مستقيم، فكل حركة وسكون في الوجود فهي إلهيّة لأنها بيد حق وصادرة عن حق موصوف بأنه على صراط مستقيم بإخبار الصادق، فإن الرسل لا تقول على الله إلاَّ ما تعلمه منه فهم أعلم الخلق بالله، وليس للكون معذرة أقوى من هذه، فمن رحمة الرسل بالخلق تنبيه الخلق على مثل هذا، ولما حكاها الحق عنه يسمعنا مقالته علمنا أن ذلك من رحمته بنا حيث عرّفنا بمثل هذا، فكان تعريفه إيانا بما قاله رسوله بشرى من الله لنا من قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة يونس: الآية ٦٤] وكانت البشرى من كلمات الله ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٤] ومن باب الحقيقة كونه عين الوجود وهو الموصوف بأن له صفات من كون الموجودات ذات صفات، ثم أخبر أنه من حيث عينه عين صفات العبد وأعضائه فقال: كنت سمعه، فنسب السمع إلى عين الموجود السامع وأضافه إليه وما ثم موجود إلاَّ هو فهو السامع والسمع، وهكذا سائر القوىٰ والإدراكات ليست إلاَّ عينه، فالحقيقة عين الشريعة فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والستون ومائتان

في معرفة الخواطر والخواطر ما يرد على القلب

والضمير من الخطاب من غير إقامة وهو من الواردات التي لا تعمل لك فيها فإذا أقامت فهي حديث نفس ما هي خواطر: [المتقارب]

إذا كان واردُنا خاطراً يمرُّ بنا ثمَّ لا يَرْجِعُ
فما في الوجودِ سوى خاطرٍ وما فيه ردٌّ ولا مَدْفَعُ
تُجَدَّدُ أعيانُنا كلما تُجَدَّد أعراضُنا فاسمعُوا
فما ثَمَّ عينٌ سوى واحدٍ وآخرُ في إثْره يَتْبَعُ

اعلم أن الله سفراء إلى قلب عبده يسمّون الخواطر لا إقامة لهم في قلب العبد إلاَّ زمان مرورهم عليه، فيؤدّون ما أرسلوا به إليه من غير إقامة، لأن الله خلقهم على صورة رسالة ما أرسلوا به، فكل خاطر عينه عين رسالته، فعندما يقع عليه عين القلب فهمه، فأما يعمل بمقتضى ما أتاه به أو لا يعمل، وجعل الله بينه وبين هذا القلب طرقاً خمسة عليها تمشي هذه الخواطر إلى القلب، وهذه الطرق أحدثها الله لما أحدث الشرائع، فلولا الشرائع ما أحدثها وجعلها كالهالة للقمر محيطة به، فسمّى الطريق الواحد وجوباً وفرضاً، وسمّي الثاني ندباً، والثالث حظراً، والرابع كراهة، والخامس إباحة، وخلق الملك الموكل بالقلب يحفظه عن أمر الله بذلك، وعين له من الطرق طريق الوجوب والندب، وجعل في مقابلته شيطاناً أقعده إلى جانبه عن غير أمر الله المشروع حسداً منه لما رأى من اعتناء الله بهذه النشأة الإنسانية دونه وشفوفه عليه، وعلم ما يفضي إليه من السعادة إذا قام بحق ما شرع له من فعل وترك، وجعل مثل ذلك على طريق الحظر والكراهة سواء، وجعل على طريق الإباحة شيطاناً لم يجعل هناك ملكاً في مقابلته، وجعل قوىٰ النفس كلها وجبلتها مستفرغة لذلك الطريق، وأمرها الله بحفظ ذاتها من ذلك الطريق من الشيطان، وجعل الله في هذه النفس الإنسانية صفة القبول تقبل بها على كل من يقبل إليها، وقبل إحداث الشرائع من آدم إلى زماننا إلى انقضاء الدنيا لم يكن ثم شيء ممّا ذكرناه من ملك حافظ وشيطان منازع مناقض، بل كان الأمر كما يؤول إليه عند ارتفاع الشرائع من الله إلى عبده، ومن العبد إلى الله من غير تحجير ولا حكم من هذه الأحكام، بل يتصرّف بحسب ما تعطيه إرادته ومشيئته، ثم خلق الله لهذه النفس الإنسانية صفة المراقبة لمن يرد من هذه الطرق عليها، وأوحى إليها إلهاماً أن بينه وبينها سفراء يأتون إليها من هذه الطرق ولا إقامة لهم عندها، وقد أنشأنا ذواتهم من صورة رسالتهم حتى إذا رأيتهم علمت بالمشاهدة ما بعثهم الله به إليك فتيقظ ولا تغفل عنهم فإنهم يمرّون بساحتك ولا يثبتون ويقول الحق قلت لهؤلاء السفرة: إني أوجدت في هذا المرسل إليه صفتين: صفة سميتها الغفلة وصفة سميتها اليقظة والانتباه، فإن وجدتموه متصفاً باليقظة فهو الغرض المقصود، وإن وجدتموه متصفاً بالغفلة

فأقرعوا عليه بابه فإنه يتيقظ فإن لم يتيقظ فإنكم لا تفوتونه، فإني جعلت له بصراً حديداً يدرك به صورتكم فيعلم ما بعثتكم به، وإن لم يتيقظ لنقركم فاتركوه وتعالوا إلينا، وقد ملك الله هذا الملك الموكل بالحفظ والقرين الملازم والنفس قوّة التصوّر والتشكل لما يرون، فيشكلون أمثاله حتى كأنه هو وليس هو، وجعل هذه الأمثال في المرتبة الثانية فصاعداً في المراتب لا قدم لهم في المرتبة الأولى، فالمرتبة الأولى لها الصدق ولا تخطئ، فلا تعمل النفس بمقتضى ذلك الخاطر الأوّل فتخطئ ولا تكذب أبداً.

وأما التي على صورة الخواطر الأول فقد تصدق وتخطئ بحسب قوة التصوير وحفظ أجزاء الصورة، وكذلك النظرة الأولى والحركة الأولى والسماع الأوّل، وكل أوّل فهو إلهيّ صادق، فإذا أخطأ فليس بأوّل، وإنما ذلك حكم الصورة التي وجدت في المرتبة الثانية، وأكثر مراقبة الأمور الأول لا يكون إلاّ في أهل الزجر وقد رأيناه منهم وفي أهل الله خاصة، فهو في أهل الله رتبة عاصمة وحافظة من الخطأ والكذب، وهو في الزاجر قوّة مراقبة وعلم وشهود، واسم هذا الخاطر الأوّل عندهم الهاجس ونقر الخاطر والسبب الأوّل فما يمرّ من هؤلاء السفرة الكرام البررة على هذه الطرق المعينة لهذا القلب يلقى من هو عليه من ملك وشيطان ونفس فيأخذه من بادر إليه من هؤلاء بالتلقي، فإن أخذه الملك وهو ممّا يقتضي وجود عمل سعادي أوحى إليه الملك في سرّه اعمل كذا وكذا، فيقول له الشيطان: لا تعمله وأخره إلى وقت كذا طمعاً منه في أن لا يقع منه ما يؤدي إلى سعادته، وهو ما يجده الإنسان من التردّد في فعل الخير وتركه، وفي فعل الشر وتركه، وكذلك إذا جاءه على طريق الإباحة، فذلك التردّد في فعل المباح وتركه إنما هو بين النفس والشيطان لا بين الملك والشيطان، فإن لمة الملك ولمة الشيطان المقابلة إنما تكون في الأربعة الطرق من الأحكام، وأما في المباح فلمة الشيطان خاصة وما له منازع إلاّ النفس، وإنما كان للنفس المباح دون غيره لأنها جبلت على جلب المنافع ودفع المضار، والأمر أبداً يتقدّم النهي في لمة الملك والشيطان، فصاحب الأمر في الشر هو الشيطان فله التقدم، وصاحب الأمر في الخير إنما هو الملك فله التقدم، فلا يرد نهي إلاّ بعد أمر، ولا عكس في مثل هذا في هذه الحضرة، وأصله في الإنسان من آدم عليه السلام، فإن الأمر تقدمه بسكنى الجنة والأكل منها حيث شاء، ثم نهاه عن قرب شجرة مشار إليها أن تقربها، فوقع التحجير والنهي في قوله: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٥] لا في الأكل، فما حجر عليه الأكل وإنما حجر عليه القرب منها الذي كان قد أطلقه في ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ فما أكلا منها حتى قربا منها فأخذا بالقرب لا بالأكل، وكان له بعد المؤاخذة الإلهيّة ما أعطته خاصية تلك الشجرة لمن أكل من ثمرها من الخلد ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ١٢٠] وكان ذريته فيه لما وقع منه ما وقع ثم أهبط للخلافة وحواء للنسل لأنها محل التكوين، فخرجت الذرية بعد أن تاب الله عليه بكله وذريته فيه وأسعد الله الكل، فله النعيم في أي دار كان منهم ما كان بعد عقوبة وآلام تقوم بهم دنيا وآخرة، فأما الدنيا فالكل لا بدّ من ألم أدناه استهلال المولود حين ولادته صارخاً لما يجده عند المفارقة للرحم وسخانته فيضربه الهواء

عند خروجه من الرحم فيحسّ بالألم فيبكي، فإن مات فقد أخذ بحظه من البلاء، ثم يعيش فلا بدّ له في الحياة الدنيا من الآلام فإن الحيوان مجبول على ذلك، فإذا نقل إلى البرزخ فلا بدّ من ألم السؤال، فإذا بعث فلا بدّ له من ألم الخوف على نفسه أو على غيره، فإذا دخل الجنة ارتفع ذلك عنه أعني حكم الآلام وصحبه النعيم دائماً، وإذا دخل النار صحبه الألم ما شاء الله، فإذا نفذت مشيئته فيه بما كان من الآلام أعقبه فيها نعيماً بالعناية التي أدركته وهو في صلب أبيه آدم لما تاب عليه ليأخذ حظه من الألم واللذة كما أخذ أبوه فله نصيب من توبة أبيه، وبقيت أسماء الانتقام في حق من شاء الله من سوى هذا المسمّى إنساناً تحكم بحسب حقائقها، فإن رحمته ما سبقت غضبه إلاَّ في هذه النشأة الإنسانية، وأما ما عداها فمن كون رحمته ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] لا من السبق، فللإنسان دون غيره الرحمة الواسعة والرحمة السابقة فتطلبه الرحمة من وجهين، وليس لغير الإنسان هذا الحكم من الرحمة فهي أشد عناية بالإنسان منها بغيره.

ثم نرجع إلى ما كنا بصدده من معرفة الخواطر فنقول: وبعد أن أعلمتك بحقائقها فتختلف آثارها في النفس باختلاف من يتعرض لها في طريقها، فإن لم يتعرض لها أحد ممّن ذكرنا فذلك خاطر العلم لا يكون خاطر عمل ألبتة وهو الخاطر الرباني، وخواطر الأعمال والتروك تكون ملكية وشيطانية ونفسية لا غير ذلك ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] فأحرى قديماً ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا﴾ عملاً أو تركاً لمجيئه على يد شيطان ﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] عملاً أو تركاً لمجيئه على يد ملك، فمن راقب خواطره من طرقها فقد أفلح فإنه يعلم من يأخذها، ومن يتعرض إليها من القاعدين لها كل مرصد، ومن غفل عن طرقها وما شعر بها حتى وجدها في المحل كما تجدها العامة عمل بمقتضاها وهو عمل الجاهل بالشيء، فإن كان خيراً فبحكم المصادفة، وإن كان شراً فكذلك، لأن الخاطر الأوّل الذي أتاه بالعلم بمن يأتي بعده من الخواطر وعلى يد من يأتيه لم يشعر به ولا علمه ولا شاهده ففاته حكمه، فلما فجئته هذه الخواطر العملية على حين غفلة وعدم تيقظ ومراقبة لطرقها عمل بمقتضاها فكان خيره وشره مصادفة.

ورأيت ابن الحجازي المحتسب بمدينة فاس ولم يكن صاحب علم بالشريعة يوفقه الله لإصابة الحكم وأعرف من صلاحه أنه ما فاتته تكبيرة الإحرام خلف الإمام في الصلوات كلها بجامع القرويين إلى أن مات، فكانت أحكامه في حسبته تجري على السداد إلهاماً من الله فكان يقول: إني لأعجب من أمري ما اشتغلت بعلم أحكام الشريعة وأوافق حكم الشرع في جميع أحكامي، ولم يقدر أحد من علماء الشريعة يأخذ عليه في حكم لم يقل به مجتهد، هذا وحده رأيته من عامة الناس معتنى به ولم يكن من أهل الطريق بل كان حريصاً على الدنيا مكباً عليها كسائر عامّة الناس، لكن كان منوّر الباطن ولا يشعر بذلك، والخواطر كلها خطابات إلهية ما هي تجليات، ولهذا ينشئها الله صوراً تحدث في العماء الذي هو النفس الإلهيّ، فمن شهدها ولا يرزقه الله علماً بما ذكرناه يتخيل أن الخواطر تجلّ إلهيّ لما يرى من الصورة، وهذا هو

السبب في تسميتها خواطر وأنها لا تثبت كما لا تثبت صورة الحرف في الوجود بعد نطق اللسان به فما له سوى زمان النطق به ثم ينعدم ويبقى في فهم السامع مثال صورته، فيتخيل أن الخاطر باق كما تخيل ذو النون في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] فقال: كأنه الآن في أذني فما ذلك هو الكلام الذي سمع وإنما ذلك الباقي ممّا أخذ الفهم من صورة الكلام فثبت في النفس، والقليل من أهل الله من يفرق بين الصورتين.

ولما كانت الخواطر من الخطاب الإلهيّ لذلك دعا من دعا من أهل الله الخلق إلى الله على بصيرة، فإن الدعاء على بصيرة لا يكون إلاّ بالتعريف الإلهيّ، والتعريف الإلهيّ لا يكون إلاّ كلاماً لا غير ذلك ليرتفع الإشكال، ولو كان التكوين عن غير كلمة ﴿كُن﴾ لم يكن له ذلك الإسراع في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ بفاء التعقيب وهي جواب الأمر، لأن الذي يكون كان على بصيرة لأنه خطاب، فلو كان غير خطاب لم يكن له هذا الحكم، ولكن أين النفوس المراقبة العالمة المحسّة التي تعرف الأمر على ما هو عليه، وغاية الناظر في هذا الأمر أن يجعل ما هو خطاب حق في النفس أن ذلك المعبر عنه بالعلم الضروري خلقه الله في محل هذا الشخص لا غير، وصاحب الكشف الصحيح يدري أن الله ما خلق له العلم الضروري بالأمر إلاّ بعد إسماعه إياه كلامه، فيعلم عند ذلك ما أراد الحق بذلك الخطاب، فذلك العلم هو العلم الضروري ولكن ما يشعر به إلاّ أهل الشعور من أصحاب الأسرار الإلهيّة من أهل الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والستون ومائتان

في معرفة الوارد

[نظم: المتقارب]

تَعَشَّقْتُ بالصادر الواردِ ... تَعَشُّقَ شَفْعِيَ بالواحدِ
وأسماؤه كلُّها واردٌ ... سراعاً لتَخْفَى على الرَّاصدِ
وتعطي بآثارها هِمَّةً ... إلى كل قلبٍ لها قاصدِ

الوارد عند القوم وعندنا ما يرد على القلب من كل اسم إلهيّ، فالكلام عليه بما هو وارد لا بما ورد، فقد يرد بصحو وبسكر وبقبض وببسط وبهيبة وبأنس وبأمور لا تحصى وكلها واردات، غير أن القوم اصطلحوا على أن يسمّوا الوارد ما ذكرناه من الخواطر المحمودة، فاعلم يا أخي أن الوارد بما هو وارد لا يتقيد بحدوث ولا قدم، فإن الله قد وصف نفسه مع قدمه بالإتيان، والورود إتيان، والوارد قد تختلف أحواله في الإتيان، فقد يرد فجأة كالهجوم والبواده، وقد يرد غير فجأة عن شعور من الوارد عليه بعلامات وقرائن أحوال تدل على ورود أمر معين يطلبه استعداد المحل، وكل وارد إلهيّ لا يأتي إلاّ بفائدة، وما ثم وارد إلٰهي كونياً كان أو غير كوني، والفائدة التي تعمّ كل وارد ما يحصل عند الوارد عليه من العلم من ذلك الورود ولا يشترط فيه ما يسرّه ولا ما يسوءه فإن ذلك ما هو حكم الوارد، وإنما حكم الوارد

ما حصل من العلم وما وراء ذلك، فمن حيث ما ورد به لا من حيث نفسه، فيأتي الله يوم القيامة للفصل والقضاء بين الناس، فمن الناس من يقضى له بما فيه سعادته، ومن الناس من يقضى له بما فيه شقاوته، والإتيان واحد والقضاء واحد، والمقضى به مختلف.

والوارد لا يخلو إما أن يكون متصفاً بالصدور في حال وروده فيكون وارداً من حيث من ورد عليه صادراً من حيث من صدر عنه، فلا بدّ أن يكون هذا الوارد محدثاً من الله، وإن لم يتصف بالصدور في حال وروده فإنه وارد قديم، والورود نسبة تحدث له عند العبد الوارد عليه، فالواحد صادر وارد، والآخر وارد لا غير، وما ثم قديم يرد غير الأسماء الإلهية، فإن وردت من حيث العين فلا تختلف في الورود، وإن وردت من حيث الحكم فتختلف باختلاف الأحكام فإنها مختلفة الحقائق إلاّ ما تكون عليه من دلالتها على العين فلا تختلف، وسواء كان الوارد قديماً أو محدثاً، فإن الذي ورد به لا بدّ أن يكون محدثاً، وهو الذي يبقى عند الوارد عليه، وينصرف الوارد ولا بدّ من انصرافه، وسبب ذلك بقاء الحرمة عليه فإنه لا بدّ من وارد آخر يرد عليه، فلا بدّ من القبول عليه من هذا الشخص والإعراض عمّن يكون هناك، فيقع عدم وفاء باحترام الوارد الأوّل، فلهذا يرحل بعد أداء ما ورد به، فإذا ورد الوارد الثاني وجده مفرغاً له فاستقبله وما ثم خاطر يجذبه عنه بتعلقه به، فكل وارد يصدر عنه بحرمته وحشمته فيثني عليه خيراً عند الله فيكون ذلك الثناء سعادته، والواردات على الحقيقة إذا كانت محدثة فما هي سوى عين الأنفاس، والذي ترد به من الأمور والأحكام هي التي تعرفها أهل الطريق بالواردات، فإن الأنفاس هي الحاملة لصور هذه الواردات، فليست الواردات المحدثة فإنها بأنفسها بل هي صور الأنفاس، فتختلف صورها باختلاف أحكام الأسماء الإلهيّة فيها، فالوارد لها كالتحيّز للعرض بحكم التبعية للجوهر فيه، فالجوهر هو المتحيز لا العرض، كذلك النفس هو الوارد لا الصورة، والفائدة في الصورة كالرسالة في الرسول، فوارد بعلم ووارد بعمل، ووارد جامع لهما، ووارد بحال، ووارد بعلم وحال، ووارد بعمل وحال، ووارد بعلم وعمل وحال، وذلك كوارد الصحو والسكر وأمثاله وهو أقوى الواردات، وإذا كان الوارد غير محدث فهو المعبر عنه بارتفاع الوسائط بين الله وبين عبده، فهو تجلّ من الوجه الخاص الذي لكل مخلوق، فما ينقال ما يعطيه ولا ما يحصل له فيه، وقليل من أهل الله من يكون له ذلك وليس في الواردات مثله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والستون ومائتان

في معرفة الشاهد وهو بقاء صورة المشاهد في نفس المشاهد

اسم فاعل، فصورة المشهود في القلب هي عين الشاهد وبه يقع النعيم للمشاهد:

[نظم: المتقارب]

مُشَاهدةُ الحقّ من علمنا ... تَحْصِيلُ شَاهِدِها في القُلوبْ
فيُدْركها بعيون الحِجَى ... موفَّقَةً خلف ستْر الغُيوبْ

ويطلعه بدْرُ [ما] تمَّ عُلاً على شَمْسه في مَهَبُ الجَنوبْ

ولما كان الشاهد حصول صورة المشهود في النفس عند الشهود فيعطي خلاف ما تعطيه الرؤية فإن الرؤية لا يتقدمها علم بالمرئي والشهود يتقدمه علم بالمشهود وهو المسمّى بالعقائد، ولهذا يقع الإقرار والإنكار في الشهود، ولا يكون في الرؤية إلاّ الإقرار ليس فيها إنكار، وإنما سمّى شاهداً لأنه يشهد له ما رآه بصحة ما اعتقده، فكل مشاهدة رؤية وما كل رؤية مشاهدة ولكن لا يعلمون، فما يرى الحق إلاّ الكمَّل من الرجال ويشهده كل أحد ولا يكون عن الرؤية شاهد، وقال الله تعالىٰ في إثبات الشاهد: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [سورة هود: الآية ١٧] وفي هذه الآية وجوه كلها مقصوده لله، فيكون العبد على كشف من الله لما يريده به أو منه، وذلك لا يكون له إلاّ بإخبار إلهيّ وإعلام بالشيء قبل وقوعه وهو قول الصديق: «**مَا رَأَيْتُ شَيْئاً إِلاّ رَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ**» ثم إنّ ذلك الأمر لا يكون له عين إلاّ من اسم إلهيّ يكون له إثر ذلك الاسم، فيقوم الاسم في قلب العبد ويحضر فيه فيشهده العبد ثم يرى ظهور ذلك الأثر ووجوده في نفسه أو في الآفاق الذي تقدم له به الإعلام الإلهي، فيسمّى ذلك الاسم شاهداً حيث شهده هذا العبد متعلق ذلك الأثر المعلوم عنده، وهذا لا يكون إلاّ للكمل من الرجال، فهم أصحاب شهود في كل أثر يشهدون لهم به بعد العلم به الإلهيّ على طريق الخبر، وإنما قلنا في الوجوه أنها مقصودة لله فليس يتحكم على الله ولكنه أمر محقق عن الله، وذلك أن الآية المتلفظ بها من كلام الله بأي وجه كان من قرآن أو كتاب منزّل أو صحيفة أو خبر إلهيّ، فهي آية على ما تحمله تلك اللفظة من جميع الوجوه أي علامة عليها مقصودة لمن أنزلها بتلك اللفظة الحاوية في ذلك اللسان على تلك الوجوه، فإن منزلها عالم بتلك الوجوه كلها، وعالم بأن عباده متفاوتون في النظر فيها، وأنه ما كلفهم من خطابه سوى ما فهموا عنه فيه، فكل من فهم من الآية وجهاً فذلك الوجه هو مقصود بهذه الآية في حق هذا الواجد له، وليس يوجد هذا في غير كلام الله وإن احتمله اللفظ فإنه قد لا يكون مقصوداً للمتكلم به، لعلمنا بقصور علمه عن الإحاطة بما في تلك اللفظة من الوجوه، فإن كان من أهل الله الذين يقولون ما في الوجود متكلم إلاّ الله وهم أهل السماع المطلق منه فتكون تلك الوجوه كلها مقصودة لأن المتكلم الله والشخص المقول على لسانه تلك الكلمة مترجم كما قال على لسان عبده في الصلاة: سمع الله لمن حمده، فالمتكلم هنا هو الله والمترجم العبد، ولهذا كان كل مفسر فسّر القرآن ولم يخرج عمّا يحتمله اللفظ فهو مفسر، ومن فسّره برأيه فقد كفر، كذا ورد في حديث الترمذي، ولا يكون برأيه إلاّ حتى يكون ذلك الوجه لا يعلمه أهل ذلك اللسان في تلك اللفظة ولا اصطلحوا على وضعها بإزائه، وهنا إشارة نبوية في قوله: «**فَقَدْ كَفَرَ**» ولم يقل أخطأ فإن الكفر الستر، ومن لا يرى متكلماً إلاّ الله من أهل الله، وقد جعل هذا التفسير لهذه الآية مضافاً إلى رأيه فقد ستر الله عن بعض عباده في هذا الوجه مع كونه حقاً لإضافته إلى رأي المفسر، لأن أهل اللسان ما اصطلحوا على وضع ذلك اللفظ بإزاء ذلك الوجه ولا استعاروه له لا بدّ من هذا الشرط والمتكلم الله به وبالوجه،

والإصابة حق إذا أضيفت إلى الحق، فلذلك قال عليه السلام: «فَقَدْ كَفَرَ» ولم يقل أخطأ ولله أن يستر ما شاء، وإضافة الخطأ إليه محال فإنه لا يقبله لإحاطة علمه بكل معلوم، ويكفي هذا القدر في معرفة الشاهد عند القوم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والستون ومائتان

في معرفة النفس بسكون الفاء وهو عندهم ما كان معلولاً من أوصاف العبد وهو المصطلح عليه في الغالب

[نظم: مخلع البسيط]

النـفـسُ مـن عـالـم الـبَـرَازِخْ فـكـلُّ سـرٍّ مـنـهـا يَـبـيـنْ
مَـقـامُـهـا فـي الـعـلـوم شـامِـخْ وكـلُّ صَـعْـبٍ بـهـا يَـهُـونْ
وروحُـهـا فـي الـعَـمـاء راسـخْ يُـمِـدُّه روحُـه الأمـيـنْ
مَـنْـسُـوخُـهـا بـالـنـكـاح نـاسـخْ وسـرُّه فـي الـوَرَى دفـيـنْ
سـامـي الـعُـلَـى مـجـدُهـا وبـاذِخْ سُـبْـحـانَـه مـا يَـشَـا يـكـونْ

اعلم أنه لما كان الغالب في اصطلاح القوم بالنفس أنه المعلول من أوصاف العبد اقتصرنا على الكلام فيه خاصة في هذا الباب فإنهم قد يطلقون النفس على اللطيفة الإنسانية، وسنومئ في هذا الباب إن شاء الله إلى النفس ولكن بما هي علة لهذا المعلول. فاعلم أن لفظة النفس في اصطلاح القوم على الوجهين من عالم البرازخ حتى النفس الكلية، لأن البرزخ لا يكون برزخاً إلاّ حتى يكون ذا وجهين لمن هو برزخ بينهما ولا موجود إلاّ الله، وقد جعل ظهور الأشياء عند الأسباب فلا يتمكن وجود المسبب إلاّ بالسبب، فلكل موجود عند سبب وجه إلى سببه ووجه إلى الله فهو برزخ بين السبب وبين الله، فأوّل البرازخ في الأعيان وجود النفس الكلية فإنها وجدت عن العقل والموجد الله فلها وجه إلى سببها ولها وجه إلى الله فهي أوّل برزخ ظهر، فإذا علمت هذا فالنفس التي هي لطيفة العبد المدبرة هذا الجسم لم يظهر لها عين إلاّ عند تسوية هذا الجسد وتعديله، فحينئذ نفخ فيه الحق من روحه فظهرت النفس بين النفخ الإلهيّ والجسد المسوّى، ولهذا كان المزاج يؤثر فيها وتفاضلت النفوس فإنه من حيث النفخ الإلهيّ لا تفاضل وإنما التفاضل في القوابل، فلها وجه إلى الطبيعة ووجه إلى الروح الإلهيّ فجعلناها من عالم البرازخ، وكذلك المعلول من أوصاف العبد من عالم البرازخ فإنه من جهة النفس مذموم عند القوم وأكثر العلماء، ومن كونه مضافاً إلى الله من حيث هو فعله محمود، فكان من عالم البرازخ بين الحمد والذم لا من حيث السبب، بل الذم فيه من حيث السبب لاعينه، فكل وصف يكون لنفس العبد لا يكون الحق للنفس في ذلك الوصف مشهوداً عند وجود عينه فهو معلول فلذلك قيل فيه أنه نفس أي ما شهد فيه سوى نفسه، وما رآه من الحق كما يراه بعضهم فيكون الحق مشهوداً له فيه، وكذلك إذا ظهر عليه هذا الوصف لعلة كونية لا تعلّق لها بالله في شهودها ولا خطر عندها نسبة ذلك إلى الله فهو معلول لتلك العلة

الكونية التي حركت هذا العبد لقيام هذا الوصف به، كمن يقوم مريد العرض من إعراض الدنيا لا يحركه قولاً أو فعلاً إلاَّ ذلك الغرض، وحبّه لا يخطر له جانب الحق في ذلك بخاطر فيقال: هذه حركة معلولة أي ليس لله فيها مدخل في شهودك كما قال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٧] يعني فداء أسارى بدر، فأرسل الخطاب عامّاً في اعراض الدنيا ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٧] فالعرض القريب هو السبب الظاهر الأوّل الذي لا تعرف العامة مشهوداً سواه، والأمر الأخروي غيب عنها وعن أصحاب الغفلة لأنه مشهود بعين الإيمان، وقد يغيب الإنسان في وقت عن معرفة كونه مؤمناً لشغله بشهود أمر آخر لغفلته، ولو مات على تلك الحالة لمات مؤمناً بلا شك مع غفلته، فإن الغافل من إذا استحضر حضر والجاهل ليس كذلك لا يحضر إذا استحضر فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والستون ومائتان

في معرفة الروح وهو الملقي إلى القلب علم الغيب على وجه مخصوص

[نظم: البسيط]

الروحُ روحان روحُ الياء والأمرِ والحكمُ يثبتُ بين النَّهي والأمرِ
وما سواهُ فأخبارٌ منبِّئةٌ أن الكوائنَ بين السرِّ والجهرِ
وعالمُ البَرزَخ الأعلى يُخلِّصه عِنايةُ حالِهِ من قَبْضة الأسْرِ

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥] وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[سورة الشعراء: الآية ١٩٣و١٩٤] فذكر الإنذار، وهكذا في قوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ﴾ وكذلك: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾ [سورة النحل: الآية ٢] فما جاء إلاَّ بالإعلام، وفيه ضرب من الزجر حيث ساق الإعلام بلفظة الإنزال فهو إعلام بزجر فإنه البشير النذير، والبشارة لا تكون إلاَّ عن إعلام، فغلب في الإنزال الروحاني باب الزجر والخوف لما قام بالنفوس من الطمأنينة الموجبة إرسال الرسل ليعلموهم أنهم عن الدنيا إلى الآخرة منقلبون وإلى الله من نفوسهم راجعون.

وأما قولنا روح الياء فأردنا قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] بياء الإضافة إلى نفسه ينبهه على مقام التشريف أي إنك شريف الأصل فلا تفعل إلاَّ بحسب أصلك لا تفعل فعل الأراذل، وروح الأمر قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ أي من أين ظهر فقيل له: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٥] فما كان سؤالاً عن الماهية كما زعم بعضهم فإنهم ما قالوا ما الروح وإن كان السؤال بهذه الصيغة محتملاً، ولكن قوىٰ الوجه الذي ذهبنا إليه في السؤال ما جاء في الجواب من قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ ولم يقل هو كذا فعلوم الغيب تنزل بها الأرواح على قلوب العباد، فمن عرفهم تلقاهم بالأدب وأخذ منهم بالأدب، ومن لم يعرفهم أخذ علم الغيب ولا يدري ممّن كالكهنة وأهل الزجر وأصحاب الخواطر، وأهل الإلهام

يجدون العلم بذلك في قلوبهم ولا يعرفون من جاءهم به، وأهل الله يشاهدون تنزل الأرواح على قلوبهم ولا يرون الملك النازل إلاً أن يكون المنزل عليه نبياً أو رسولاً، فالوليّ يشهد الملائكة ولكن لا يشهدها ملقية عليه، أو يشهدون الإلقاء ويعلمون أنه من الملك من غير شهود، فلا يجمع بين رؤية الملك والإلقاء منه إليه إلاً نبيّ أو رسول، وبهذا يفترق عند القوم ويتميز النبيّ من الوليّ أعني النبيّ صاحب الشرع المنزّل، وقد أغلق الله باب التنزّل بالأحكام المشروعة، وما أغلق باب التنزّل بالعلم بها على قلوب أوليائه، وأبقى لهم التنزّل الروحاني بالعلم بها ليكونوا على بصيرة في دعائهم إلى الله بها كما كان من اتبعوه وهو الرسول ولذلك قال: ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] فهو أخذ لا يتطرق إليه تهمة عندهم، ولهذا قال القشيريّ في الثناء على علم أهل الله: ما ظنّك بعلم علم العلماء فيه تهمة لأن غيرهم من العلماء ما هم على بصيرة لا في الفروع ولا في الأصول، أما في الفروع فللاحتمال في التأويل، وأما في الأصول فلما يتطرّق إلى الناظر صاحب الدليل إلى دليله من الدخل عليه فيه والشبه من نفسه أو من نفس غيره فيتهم دليله لهذا الدخل وقد كان يقطع به، وأهل البصائر من الله لا يتصفون بهذا في علمهم، وذلك العلم هو حق اليقين أي حق استقراره في القلب أن لا يزلزله شيء عن مقرّه، وهذا القدر كاف في علم الروح الملقى.

وأما كيفية الإلقاء فموقوفة على الذوق وهو الحال ولكن أعلمك أنه بالمناسبة لا بدّ أن يكون قلب الملقى إليه مستعداً لما يلقى إليه، ولولاه ما كان القبول وليس الاستعداد في القبول وإنما ذلك اختصاص إلهيّ، نعم قد تكون النفوس تمشي على الطريق الموصلة إلى الباب الذي يكون منه إذا فتح هذا الإلقاء الخاص وغيره، فإذا وصلوا إلى هذا الباب وقفوا حتى يروا بماذا يفتح في حقهم، فإذا فتح خرج الأمر واحد العين وقبله من خلف الباب بقدر استعدادهم الذي لا تعمل لهم فيه، بل اختصّ الله كل واحد باستعداد، وهناك تتميز الطوائف والأتباع من غير الأتباع والأنبياء من الرسل والرسل من الأتباع المسمّين في العرف أولياء، فيتخيل من لا علم له أن سلوكهم إلى الباب سبب به وقع الكسب لما حصل لهم عند الفتح ولو كان ذلك لتساوي الكل وما تساوى، فما كان ذلك إلاً بالاستعداد الذي هو غير مكتسب، ومن هنا أخطأ من قال باكتساب النبوّة من النظار، ولا يقول باكتسابها إلاً من يرى أنها ليست من الله، وإنما هي فيض من العقل والأرواح العلوية على بعض النفوس المنعوتة بالصفاء والتخلص من أسباب الطبيعة، فانتقش فيها صور ما في العالم لصفائها وصفاؤها مكتسب فما حصله صفاؤها فهو مكتسب وهذا غلط بل الصفاء صحيح، ونقش صور ما في العالم صحيح في نفس من لها هذه الصفة من الاطلاع، وكون هذا الشخص دون غيره من أهل الصفاء مثله رسولاً ونبياً وصاحب تشريع دون غيره اختصاص إلهيّ ينقشه في نفسه ما في صور العالم، فإن اللوح المحفوظ هو العام لما ذكرناه، ففيه منقوش صورة الرسول ورسالته، وصورة النبي ونبوته، وصورة الوليّ وولايته، فإذا صفت النفس وانتقش فيها ما في اللوح لم يلزم أن يكون رسولاً

بل انتقش فيها من يكون رسولاً وتميزت الأشياء عندها، وهذا خلاف ما توهموه ممّا يحصل بصفاء النفوس، فانتقشت فيها المراتب وأصحابها علواً وسفلاً.

وأما حكم الاستعداد الذي يقبل الإلقاء بالمناسبة التي هي الحبل الإلهيّ الحاصل في القلب الموجود بالاستعداد إذا اتصل بحضرة الحق نزل الإلقاء عليه وهو الطريق فيتنوّر القلب بما حصل فيه من علم الغيب ولا سيما إذا كان من العلم بالله الذي لا تعلق له بالكون كالعلم بأنه ﴿غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وبتنزيهه عن الأوصاف وبـ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ومثال الاستعداد والتنزّل والحبل المتصل مثل الفتيلة إذا بقي فيها النار خرج من ذلك النار شبه دخان يطلب الصعود بطبعه إلى فوق ويكون هناك سراج موقد فيضع الفتيلة الخارج منها الدخان تحت السراج وعلى سمته بحيث يتصل ذلك الدخان بسرعة فيتصل برأس الفتيلة فتتقد الفتيلة فتظهر صورة السراج المنير الذي منه نزل النور إليها، وينظر هل انتقص من السراج شيء أو هل حلّ منه فيه شيء؟ فلا تجد مع وجود الصورة كأنه هو، فمن علم سرّ هذا علم معنى قوله: «**إن الله خَلَقَ آدم عَلى صُورَته**»، وعلم أن الاستعداد إذا كان على المقابلة وصحة المناسبة وتعلّقت الهمة الخاصة به أنه ينزل عليه بحسب ذلك ويكون النور الحاصل في الفتيلة في العظم الجرمي والصغر بحسب كبر جرمها وصغره، وتكون إضاءته بحسب صفائها وصفاء دهنها، وتكون إقامته فيها بحسب كثرة دهنها وقلته فإنه الممد لبقائه، فإن فهمت ما قلناه في هذا التشبيه فقد علمت علماً لا يعلمه إلاّ العلماء بالله، وتحققت إلقاء الروح على القلب علم الغيب كيف يكون وأي قلب يقبل ذلك وما يكون عليه من الصفات، وتعلم أن همة الأدنى تؤثر في الأعلى إذا تعلّقت به، كما وقع الجواب من الله للعبد إذا دعاه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والستون ومائتان

في معرفة علم اليقين وهو ما أعطاه الدليل الذي لا يقبل الدخل ولا الشبهة، ومعرفة عين اليقين وهو ما أعطته المشاهدة والكشف ومعرفة حق اليقين وهو ما حصل في القلب من العلم بما أريد له ذلك الشهود

[نظم: الكامل]

عِلْمُ اليَقِين بعَيْنه وبحَقِّهِ تبدو دلائلُه على الأكْوَانِ
لولا وجودُ العَيْن في مَلَكُوتِهِ ما قام تَوْحيدٌ على بُرْهانِ
فانظرْ إلى حقِّ اليقين وَعَيْنِه في عالَم الأرواحِ والأبْدَانِ
تَجِدِ الذي عنه تَكَوَّن سرُّه في كل ما يَبْدو مِن الأعْيَانِ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أنا قد علمنا علماً يقيناً لا تدخله شبهة أن في العالم بيتاً يسمّى الكعبة ببلدة تسمّى مكة لا يتمكن لأحد الجهل بهذا ولا أن يدخله شبهة ولا يقدح في دليله دخل، فاستقرّ العلم بذلك فأضيف إلى اليقين الذي هو الاستقرار أن لله بيتاً يسمّى الكعبة بقرية

تسمّى مكة تحج الناس إليه في كل سنة ويطوفون به، ثم شوهد هذا البيت عند الوصول إليه بالعين المحسوسة، فاستقر عند النفس بطريق العين كيفيته وهيئته وحاله، فكان ذلك عين اليقين الذي كان قبل الشهود علم يقين، وحصل في النفس برؤيته ما لم يكن عندها قبل رؤيته ذوقاً، ثم فتح الله عين بصيرته في كون ذلك البيت مضافاً إلى الله مطافاً به مقصوداً دون غيره من البيوت المضافة إلى الله، فعلم علة ذلك وسببه بإعلام الله لا بنظره واجتهاده، فكان علمه بذلك حقاً يقيناً مقرراً عنده لا يتزلزل، فما كل حق له قرار، ولا كل علم ولا كل عين فلذلك صحّت الإضافة، فلو كان علم اليقين وعينه وحقه نفس اليقين ما صحّت الإضافة، لأن الشيء الواحد لا يضاف إلى نفسه، لأنّ الإضافة لا تكون إلاّ بين مضاف ومضاف إليه فتطلب الكثرة حتى يصحّ وجودها، ومن لم يفرق بين اليقين والعلم ويقول إن العلم هو اليقين، وقد ورد في كتاب الله مضافاً، احتاج إلى طلب وجه في ذلك تصحّ له به الإضافة ليؤمن بما جاء من عند الله فقال: قد يكون المعنى واحداً، ويدل عليه لفظان مختلفان، فيضاف أحد اللفظين إلى الآخر فإنهما غيران بلا شك في الصورة مع أحدية المعنى، ولفظة العلم ما هي لفظة اليقين، فأضيف العلم إلى اليقين لهذا التغاير، فصحّت الإضافة في الألفاظ لا في المعنى، وإنما احتال من احتال هذه الحيلة لقصور فهمه عمّا تدل عليه الألفاظ في الموضوعات من المعاني، فلو علم ذلك لعلم أن مدلول لفظة العلم غير مدلول لفظة اليقين، وإذا تقرّر هذا فقد علمت معنى علم اليقين وعينه وحقّه.

ثم بعد هذا فاعلم أن اليقين في هذه المسألة هو المطلوب، ولهذا أضيفت هذه الثلاثة إليه وكان مدارها عليه، فمن ثبت له القرار عند الله في الله بالله مع الله فلا بدّ له من علامة على ذلك تضاف إلى اليقين لأنها مخصوصة به ولا تكون علامة إلاّ عليه فذلك هو علم اليقين، ولا بدّ من شهود تلك العلامة وتعلّقها باليقين واختصاصها به فذلك هو عين اليقين، ولا بدّ من وجوب حكمة في هذه العين وفي هذا العلم فلا يتصرّف العلم إلاّ فيما يجب له التصرّف فيه، ولا تنظر العين إلاّ فيما يجب لها النظر إليه وفيه، فذلك هو حق اليقين الذي أوجبه على العلم والعين.

وأما اليقين فهو كل ما ثبت واستقرّ ولم يتزلزل من أي نوع كان من حق وخلق فله علم وعين وحق أي وجوب حكمه إلاّ الذات الإلهية، فيقينها ما له سوى حق اليقين وصورة حقها أي الوجوب علينا منها السكوت عنها وترك الخوض فيها لأنها لا تعلم، فما ثم علم يضاف إلى اليقين ولا يشهد فلا تضاف العين إلى اليقين، ولها الحكم على العالم كله بترك الخوض فيها فلها الحق فأضيف إليها فلا يضاف إلى اليقين إلاّ ما يقبله، فإن كان ممّا تدل عليه علامة أضيف إليه العلم، وإن لم يكن فلا يضاف إليه، وإن كان ممّا يشهد أضيفت إليه العين، وإن لم يكن فلا تضاف إليه، وإن كان ممّن له في نفس الأمر حكم واجب على أحد من المخلوقين حتى على نفسه مثل قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] أضيف إليه الحق فقيل حق اليقين لوجوبه، وإن لم يكن شيء ممّا ذكرناه فلا يضاف إلى شيء ممّا تقدم، فقد أعطيتك أمراً كلياً في هذه المسألة في كل متيقن، فلك النظر في حقيقة ذلك اليقين وهذا القدر كاف، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى السفر الثامن عشر.

الفصل الرابع
في المنازل
[السفر التاسع عشر]
الباب السبعون ومائتان
في معرفة منزل القطب والإمامين من المناجاة المحمدية

[نظم: مخلع البسيط]

مَـنـزلـةُ الـقُـطـب والإمَـامَـهْ ... مَـنـزلـةٌ مـا لـهـا عَـلامَـهْ
يَـمْـلـكـهـا واحـدٌ تَـعَـالـىٰ ... عـن صِـفَـةِ الـسَّـيْـر والإقـامَـهْ
يـعـلـوه فـي لَـوْنـه اصْـفـرارٌ ... فـي أَيْـمَـن الـخـدِّ مـنـه شَـامَـهْ
خَـفِـيَّـةٌ مـا لـهـا نُـتُـوٌّ ... أيَّـده الله بـالـسـلامَـهْ
تَـوَّجـه الله بـالـمـعـالـي ... فـي عـالَـم الأمـر فـي الـقـيـامَـهْ

اعلم أيّدك الله بروح منه أن ممّن تحقق بهذا المنزل من الأنبياء صلوات الله عليهم أربعة: محمد وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام. ومن الأولياء اثنان وهما: الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ، وإن كان لمن عدا هؤلاء المذكورين منه شرب معلوم على قدر مرتبته من الإمامة. فاعلم أن الأقطاب والصالحين إذا سمّوا بأسماء معلومة لا يدعون هناك إلاّ بالعبودية إلى الاسم الذي يتولاهم قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [سورة الجن: الآية ١٩] فسمّاه عبد الله وإن كان أبوه قد سمّاه محمد أو أحمد، فالقطب أبداً مختص بهذا الاسم الجامع فهو عبد الله هناك، ثم إنهم يفضل بعضهم بعضاً مع اجتماعهم في هذا الاسم الذي يطلبه المقام، فيختص بعضهم باسم ما غير هذا الاسم من باقي الأسماء الإلهية فيضاف إليه وينادى في غير مقام القطبية كموسىٰ صلّى الله عليه وسلّم اسمه عبد الشكور، وداود عليه السلام اسمه الخاص به عبد الملك، ومحمد ﷺ اسمه عبد الجامع، وما من قطب إلاّ وله اسم يخصه زائد على الاسم العام الذي له الذي هو عبد الله، سواء كان القطب نبياً في زمان النبوّة المقطوع بها أو وليّاً في زمان شريعة محمد ﷺ، وكذلك الإمامان لكل واحد منهما اسم يخصّه ينادى به كل إمام في وقته هناك، فالإمام الأيسر عبد الملك، والإمام الأيمن عبد ربه، وهما للقطب الوزيران، فكان أبو بكر رضي الله عنه عبد الملك، وكان عمر رضي الله عنه عبد ربه في زمان رسول الله ﷺ إلى أن مات ﷺ فسمّي أبو بكر عبد الله، وسمّي عمر عبد الملك، وسمّي الإمام الذي ورث مقام عمر عبد ربه ولا يزال الأمر على ذلك إلى يوم القيامة.

وكان الحسن والحسين رضي الله عنهما أمكن الناس في هذا المقام من غيرهما ممّن

اتصف به، وجرت السنّة الإلهية في القطب إذا ولي المقام أن يقوم في مجلس من مجالس القربة والتمكين وينصب له فيه تخت عظيم لو نظر إلى بهائه الخلق لطاشت عقولهم فيقعد عليه ويقف بين يديه الإمامان اللذان قد جعلهما الله له ويمدّ يده للمبايعة الإلهية والاستخلاف وتؤمر الأرواح الملكية والجن والبشر الروحاني بمبايعته واحداً بعد واحد، فإنه جلّ جناب الحق أن يكون مصدر الكل وارد وأن يرد عليه إلاّ واحد بعد واحد، فكل روح يبايعه في ذلك المقام يسأله أعني يسأل الروح القطب عن مسألة من المسائل فيجيبه أمام الحاضرين ليعرفوا منزلته من العلم فيعرفون في ذلك الوقت أي اسم إلهيّ يختصّ به، وقد أفردنا لهذه المبايعة كتاباً كبيراً سميناه مبايعة القطب في حضرة القرب، وذكرنا فيه معاني مسائل كثيرة ممّا سئل عنها فأجاب، ولا تبايعه إلاّ الأرواح المطهرة المقربة، ولا يسأله من الأرواح المبايعة من الملائكة والجن والبشر إلاّ أرواح الأقطاب الذين درجوا خاصة، فذكرنا في ذلك الكتاب سؤالاتهم وجوابه عليها موفى، وهكذا هي حالة كل قطب يبايع في زمانه. فلنذكر في هذا الباب من بعض أحواله العامّة لكل قطب دون الأحوال الخاصة به ليعلم الواقف على كتابي هذا صاحب الذوق المشاهد إياه أنا ما عدلنا في كتابنا هذا عن الطريقة التي لا يجهلها كل عارف من أهل هذا الشأن، فلو ذكرنا الحال الخاص به ربما كان يقول: هذه دعوى، فلنبدأ أوّلاً بحال الإمام الأقصى ثم الإمام الأدنى، ثم القطب.

فأمّا الإمام الأقصى وهو عبد ربه فإن حاله البكاء شفقة على العالم لما يراهم عليه من المخالفات وينظر إلى توجه الأسماء الإلهيّة التي تقتضي العقاب والأخذ، ولا يتجلى له من الأسماء الإلهيّة ما تقتضيه المخالفات من العفو والتجاوز فلهذا يكثر بكاؤه، فلا يزال داعياً لعباد الله رحيماً بهم سائلاً الله سبحانه أن يسلك بهم طريق الموافقات، ولقد عاينت في بعض سياحاتي هذا الإمام فما رأيت ممّن رأيت من الصالحين أشدّ خوفاً منه على عباد الله ولا أعظم رحمة فقلت له: لم لا تأخذك الغيرة لله؟ فقال: إني لا أريد أن يغار لله من أجلي ولكن أريد أن يسأل الله من أجلي ليرحمني ويتجاوز فلا أحب لعباد الله إلاّ ما أحبه لنفسي، ولا ينبغي للصادق مع الله أن يتصوّر في صورة حال لا يعطيه مقامه، ولهذا الإمام قوّة سلطان على الشياطين الملازمين أهل الخير والصلاح ليصرفوهم عن طريقهم فإذا وقع نظر الشيطان على هذا الإمام وهو عند بعض الصالحين يحتال كيف يصرفه عن طريقته يذوب كما يذوب الرصاص في النار فيناديه الإمام باسمه عسى يسلم فيدبر هارباً، فلا يزال ذلك الصالح محفوظاً من إلقاء هذا الصنف من الشياطين إليه ما يخرجه عن صلاحه ما دام هذا الإمام حاضراً ناظراً إليه وإن كان ذلك الصالح لا يعرفه ولا يعرف ما جرى، وقد عاينا هذه الطائفة فيدفع الله عن عباده بهذا الإمام الشرور التي تختص بالصالحين من عباده خاصة عناية منه بهم.

ومن خاصية هذا الإمام التصديق بكل خبر مخبر به عن الله سواء كان ذلك المخبر صادقاً في أخباره أو مفترياً، فإن هذا الإمام يصدقه لكونه ناظراً إلى الاسم الإلهيّ الذي يتولى هذا المخبر في أخباره، فإن كان صادقاً فأخباره عن كشف محقق فيستوي هو والإمام في

ذلك، وإن لم يكن له كشف وأخبر عمّا وقع عنده وهو لا يدري من أوقعه ويقصد الكذب فإن هذا الإمام يصدقه في أخباره، والمخبر معاقب من الله محروم بقصده الكذب وهو في نفس الأمر ليس كذلك، فوبال قصده عاد عليه فعذب أن آخذه الله بذلك. ومن أحوال هذا الإمام أن يسأل دائماً الانتقال إلى مقام المشاهدة من الأحوال ومقام الصلاح من المقامات وله اطلاع دائم إلى الجنان، وإنما خصّه الله بهذا الإطلاع إبقاء عليه فيقابل ما هو عليه من البكاء والحزن المؤدّي إلى القنوط بما يراه ويطلعه الله عليه من سرور الجنان ونعيم أهله فيه ويعاين اشتياق أهله إليه وانتظارهم لقدومه، فيكون ذلك سبباً لاعتداله، ومقام هذا الإمام الإحسان الأوّل وهو قول جبريل عليه السلام لرسول الله عليه الصلاة والسلام: ما الإحسان؟ وجوابه ﷺ: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»، والذي بعده ليس لهذا الإمام، وبيد هذا الإمام مصالح العالم وما ينتفعون به وهو يربي الأفراد ويغذيهم بالمعارف الإلهية، ويقسم المعارف على أهلها بميزان محقق على قدر ما يرى فيه صلاح ذلك العارف لتحيا بتلك المعرفة نفسه، وله السيادة على الثقلين والحكم والتصرّف فيهما بما تعطيه المصلحة لهم، ومن خصائص هذا الإمام الإقامة على كل ما يحصل له من الأحوال والمقامات وليس ذلك لكل أحد فما يتصف بحال فينتقل عنه ولا بمقام، وغير هذا الإمام إذا انتقل إلى مقام أو حال حكم عليه سلطان ذلك المقام والحال وغيبه عما انتقل عنه وهذا الإمام ليس كذلك، فإن المقام الذي انتقل عنه محفوظ عليه لا يغيب عنه قوّة إلهية خصّه الله بها ولروحه من الأجنحة مائتا جناح وأربعة أجنحة أي جناح نشر منها طار به حيث شاء، وله قدم في المرتبة الثالثة والأولى، ويدعى في بعض الأحايين بالبر الرحيم، وكانت بدايته من المرتبة الثالثة ونهايته إلى المرتبة الأولى، فكان طريقته من غايته إلى بدايته بخلاف السلوك المعروف، فرجع القهقرى بقطع المقامات والدرجات والمنازل، فمن نهايته إلى بدايته تسعة عشر منزلاً فيها منزل البداية والنهاية، فتمّ منزل درجاته مائة اثنتان وعشرة وتسعون وعشرون وثلاثة وأربعة وثلاثون وخمسة وأربعون وستة وخمسون وسبعة وستون وثمانية وسبعون وثمانون وتسعة ومائتان. ولما كانت المراتب أربعاً لا زائد عليها وكل مرتبة تقتضي أموراً لا نهاية لها من علوم وأسرار وأحوال، فالمرتبة الأولى إيمان، والثانية ولاية، والثالثة نبوّة، والرابعة رسالة، والرسالة والنبوّة وإن انقطعت في هذه الأمة بحكم التشريع فما انقطع الميراث منهما، فمنهم من يرث نبوّة، ومنهم من يرث رسالة ونبوّة معاً.

وإذ قد ذكرنا ما لهذا الإمام الأقصى فلنذكر ما للإمام الأدنى وهو عبد الملك فنقول والله يقول الحق وهو يهدي السبيل: إن لهذا الإمام من جهة روحانيته من الأجنحة تسعين جناحاً أي جناح نشر منها طار به حيث شاء، وكانت بدايته ونهايته في المرتبة الثانية ليس له قدم في باقي المراتب الثلاثة، فلم يكن له منازل ولا درجات ولا مقامات يقطعها، ولهذا الإمام الشدّة والقهر وله التصرّف بجميع الأسماء الإلهيّة التي تستدعي الكون مثل: الخالق والرازق والملك والبارىء على بعض وجوهه وغير ذلك، وليس له تصرّف بأسماء التنزيه

بخلاف الإمام الذي تقدم ذكره، ويلجأ إليه في الشدائد والنوازل الكبار فيفرجها الله على يده فإن الله قد جعل له عليها سلطاناً وله الكرم وليس له الإيثار لنزاهته عن الحاجة إلى ما يقع به الإيثار، وله الإنعام على الخلق من حيث لا يشعرون، ولقد أنعم علي هذا ببشارة بشرني بها وكنت لا أعرفها في حالي وكانت حالي فأوقفني عليها ونهاني عن الإنتماء إلى من لقيت من الشيوخ وقال لي: لا تنتم إلاَّ لله فليس لأحد ممّن لقيته عليك يد ممّا أنت فيه بل الله تولاك بعنايته، فاذكر فضل من لقيت إن شئت ولا تنتسب إليهم وانتسب إلى ربك، وكان حال هذا الإمام مثل حالي سواء لم يكن لأحد ممّن لقيه عليه يد في طريق الله إلاَّ لله، هكذا نقل لي الثقة عندي عنه، وأخبرني الإمام بذلك عن نفسه عند اجتماعي به في مشهد برزخي اجتمعت به فيه لله الحمد والمنة على ذلك، وولاة أمور الخلق راجعون إلى هذا الإمام فيولي ويعزل ويدفع الله به الشرور، وله سلطان قوي على الأرواح النارية من الشياطين المبعودين من رحمة الله، ويجتمع مع الإمام الأوّل الأقصى في درجة واحدة من خمس درجات وينفرد عنه الإمام الأقصى بأربع درجات، وقد ذكرنا من أحواله في جزء لنا في معرفة القطب والإمامين ما فيه كفاية، فلنقتصر على ما قد ذكرناه رغبة في الاختصار.

وإذ قد ذكرنا من أحوال الإمامين هذا القدر فلنذكر أيضاً من حديث القطب ما تقع به الكفاية في هذه العجالة إن شاء الله، فأما القطب وهو عبد الله وهو عبد الجامع فهو المنعوت بجميع الأسماء تخلقاً وتحققاً، وهو مرآة الحق، ومجلى النعوت المقدسة، ومجلى المظاهر الإلهية، وصاحب الوقت وعين الزمان وسرّ القدر، وله علم دهر الدهور الغالب عليه الخفاء محفوظ في خزائن الغيرة ملتحق بأردية الصون، لا تعتريه شبهة ولا يخطر له خاطر يناقض مقامه، كثير النكاح راغب فيه محب للنساء، يوفي الطبيعة حقها على الحدّ المشروع له، ويوفي الروحانية حقّها على الحدّ الإلهيّ، يضع الموازين ويتصرّف على المقدار المعين، الوقت له ما هو للوقت، هو لله لا لغيره، حاله العبودية والافتقار، يقبح القبيح، ويحسن الحسن، يحب الجمال المقيد في الزينة والأشخاص، تأتيه الأرواح في أحسن الصور، يذوب عشقاً، يغار لله ويغضب لله، لا تتقيد له المظاهر الإلهية بالتدبير بل له الإطلاق فيها، فتظهر له في تدبير المدبر روحانيته من البشر المحسوس من خلف حجاب الشهادة والغيب، لا يرى من الأشياء إلاَّ وجه الحق، فيها يضع الأسباب ويقيمها ويدل عليها ويجري بحكمها، ينزل إليها حتى تحكم عليه وتؤثر فيه، لا يكون فيه ربانية بوجه من الوجوه، مصاحب لهذا الحال دائماً، إن كان صاحب دنيا وثروة تصرّف فيها تصرّف عبد في مال سيد كريم وإن لم يكن له دنيا وكان على ما يفتح له لم تستشرف له نفس بل يقصد بنفسه عند الحاجة إلى بعض ما تحتاج إليه طبيعته بيت صديق ممّن يعرفه يعرض عليه ما تحتاج إليه طبيعته كالشفيع لها عنده فيتناول لها منه قدر ما تحتاج إليه وينصرف، لا يجلس عن حاجته إلاَّ من ضرورة، فإذا لم يجد لجأ إلى الله في حاجة طبيعته لأنه مسؤول عنها لكونه والياً عليها، ثم ينتظر الإجابة من الله فيما سأله، فإن شاء أعطاه ما سأل عاجلاً أو آجلاً، فمرتبته الإلحاح في السؤال والشفاعة في حق طبيعته

بخلاف أصحاب الأحوال فإن الأشياء تتكوّن عن همتهم وطرحهم الأسباب عن نفوسهم، فهم ربانيون، والقطب منزّه عن الحال ثابت في العلم مشهود فيه فيتصرّف به، فإن أطلعه الحق على ما يكون أخبر بذلك على جهة الافتقار والمنة لله لا على جهة الافتخار، لا تطوى له أرض، ولا يمشي في هواء ولا على ماء، ولا يأكل من غير سبب، ولا يطرأ عليه شيء ممّا ذكرناه من خرق العوائد، وما تعطيه الأحوال إلاّ نادراً لأمر يراه الحق فيفعله، لا يكون ذلك مطلوباً للقطب، يجوع اضطراراً لا اختياراً ويصبر عن النكاح، كذلك لعدم الطول يعلم من تجلي النكاح ما يحرّضه على طلبه والتعشّق به، فإنه لا يتحقق له ولا لغيره من العارفين عبوديته أكثر ممّا يتحقق له في النكاح لا في أكل ولا في شرب ولا في لباس لدفع مضرة، ولا يرغب في النكاح للنسل بل لمجرد الشهوة، وإحضار التناسل في نفسه لأمر مشروع، والتناسل في ذلك للأمر الطبيعي لحفظ بقاء النوع في هذه الدار، فإن نكاح صاحب هذا المقام كنكاح أهل الجنة لمجرّد الشهوة، إذ هو التجلي الأعظم الذي خفي عن الثقلين إلاّ من اختصه الله به من عباده، وعلى هذا يجري نكاح البهائم لمجرّد الشهوة، لكن غاب عن هذه الحقيقة كثير من العارفين فإنه من الأسرار التي لا يقف عليها إلاّ القليل من أهل العناية، ولو لم يكن فيه من الشرف التام الدال على ما تستحقه العبودية من الضعف إلاّ ما يجد فيه من قهر اللذة المفنية له عن قوّته ودعواه، فهو قهر لذيذ إذ القهر مناف للالتذاذ به في حق المقهور، لأن اللذة في القهر من خصائص القاهر لا من خصائص المقهور إلاّ في هذا الفعل خاصة، وقد غاب الناس عن هذا الشرف وجعلوه شهوة حيوانية نزهوا نفوسهم عنها مع كونهم سمّوها بأشرف الأسماء وهو قولهم حيوانية أي هي من خصائص الحيوان، وأي شرف أعظم من الحياة، فما اعتقدوه قبحاً في حقهم هو عين المدح عند العارف المكمل هذا مضى بسبيله.

وأما حب القطب الجمال المقيد المندرج في الجمال المطلق فذلك لقربه في المناسبة إلى الجمال، فلا يحتاج فيه إلى غور بعيد وقوّة يشق بها حجاب قبح الطبع إلى إدراك الجمال الإلهيّ المودع في ذلك القبح، فالجمال المقيد يعطيه بأوّل وهلة مقصوده حتى يتفرّغ إلى أمر آخر آكد عليه من مقاومة القبح الطبيعيّ لإدراك الجمال المطلق، إذ الأنفاس عزيزة في دار التكليف، ويريد أن لا يكون له نفس إلاّ وقد تلقاه بأحسن أدب وصرفه بأحسن خلعة وزينة، وقد غاب عن هذا القدر من المعرفة جماعة من العارفين وأنفت نفوسهم من ذلك لمشاركة أهل الأغراض من العامة فيه، وما علموا أن هذا الرجل له مشاهدة الجمال المطلق في الجمال المقيد وفي غيره بخلاف العامة.

واعلم أن القطب هو الرجل الكامل الذي قد حصل الأربعة الدنانير الذي كل دينار منها خمسة وعشرون قيراطاً وبها توزن الرجال، فمنهم ربع رجل ونصف وثمن وسدس ونصف سدس وثلاثة أرباع ورجل كامل، فالدينار الواحد للمؤمن الكامل، والدينار الثاني للوليّ الخاص، والدينار الثالث للنبوّتين، والدينار الرابع للرسالتين أعني الأصلية بحكم الأبوة والوراثة بحكم البنوة، فمن حصل الثاني كان له الأوّل، ومن حصل الثالث كان له الثاني

والأوّل، ومن حصل الرابع حصل الكل، والقطب من الرجال الكمل، وإنما قلنا من الرجال الكمل من أجل الأفراد فإنهم مكملون، ومن أحوال القطب تقرير العادات والجري عليها ولا يظهر عليه خرق عادة دائماً كما يظهر على صاحب الحال، ولا يكون خرق العادة مقصوداً له بل تظهر منه ولا تظهر عنه، إذ لا اختيار له في ذلك كما قال العارف أبو السعود بن الشبل في الرجل يتكلم على الخاطر وما هو مع الخاطر فيكون في حقه بحكم الاتفاق الوجودي وفي حق الله بحكم الإرادة والقصد، فقد بيّنا بحمد الله الضروري الخاص من أحوال القطب وبيّنا رتبته لمن جهلها، وأن الرجولية ليست فيما يتخيله الجهال من عامّة الطريق بطريق الله، فينحجبون بالحال عمّا يقتضيه العلم والمقام فيقولون: كل علم لا يكون بالحال فليس بشيء، فقل له: لا تقل ذلك يا أخي فإنه خلاف الأمر وإنما الصحيح أن تقول: كل علم لا يكون عن ذوق فليس بعلم أهل الله، فأراك لا تفرق بين الحال والذوق، وما ثم علم قط إلاّ عن ذوق لا يكون غير هذا، والمتمكن في العبودة لا حال له البتة يخرجه عن عبودته، فلو لم يكن في الأحوال من النقص إلاّ أنها تخرج العبد عن مقامه إلى ما لا يستحقه ولا هو حق له حتى أنه لو مات في حال الحال لمات صاحب نقص وحشر صاحب نقص، فليست الأحوال من مطالب الرجال لكن الأذواق مطالبهم وهي لهم لما يحصل لهم فيها من العلوم بمنزلة الأدلة لأصحاب النظر فيها، فالله يجعلنا ممّن فهم ففهم عن الله مراده، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وفي هذا الباب من العلوم علم ما يستند إليه من الحضرة الإلهية، وعلم نسبة بني آدم إلى الله من أسماء مخصوصة، وعلم ما يتقى ويحذر من العالم الروحاني، وعلم رجعة العالم الروحاني من أين وإلى أين، وعلم الصدور البشري.

الباب الأحد والسبعون ومائتان
في معرفة منزل «عند الصباح يحمد القوم السرى»
من المناجاة المحمدية وهو أيضاً من منازل الأمر

[نظم: الرجز]

مـا لَـفْـظَـةٌ يـقـولـهـا كـلُّ الـورى   عـنـدَ الـصـباحِ يَـحْـمَـدُ الـقـوم الـسُّـرَى
مـاذا تَـرَى فـي قَـوْلـهـم يـا مَـنْ يَـرَى   كـلَّ الأنـــام فـــي الإمـــام والـــوَرَا
قـد خـابَ فـي أنـبـائـه مَـنِ افْـتَـرَى   عـلـى الإلـهِ عـالـمـاً بـمـا جَـرَى

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن هذا المنزل منزل علم السرى وأهله، ويتضمن معرفة عالم الخلق والظلال، ومنه يعرف كسوف القمر أهل الكشف وأنه من الخشوع الطارىء عن القمر من التجلي، ويتعلق بهذا المنزل علم هاروت وماروت من علم السحر وعلم طلوع الأنوار.

اعلم وفقك الله للقبول أن الأنوار على قسمين: أنوار أصلية وأنوار متولدة عن ظلمة الكون كنور قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٧]

وكقوله عزّ وجلّ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٦] ينظر إلى ذلك: ﴿إِلَيْهَا﴾ [سورة الروم: الآية ٢١] ليكون له على النور ولادة، والنور المتكلم عليه في هذا المنزل هو النور المولد الزماني، وهذا المنزل مخصوص بالإمام الواحد من الإمامين اللذين للقطب وهو المسمّى بعبد ربه، وتارة يكون هذا النور ذكراً وتارة يكون أنثى، فإذا غشي الليل النهار فالمتولد منه هو النور المطلوب، وهذا النور المولد الذي شرعنا فيه هو نور العصمة للنبي والحفظ للولي وهو يعطي الحياء والكشف التام فإنه يكشف ويكشف به، والنور الأصلي يكشف ولا يكشف به لأنه يغلب على نور الأبصار فتزول الفائدة التي جاء لها النور، ولهذا تلجأ نفوس العارفين بالأنوار ومراتبها إلى هذا النور المولد من الظلمة للمناسبة التي بيننا وبينه من خلق أرواحنا، فإن الأرواح الجزئية متولدة عن الروح الكلي المضاف إلى الحق والأجسام الطبيعية الظلمانية بعد تسويتها وحصول استعدادها للقبول، فيظهر بينهما في الجسم الروح الجزئي الذي هو روح الإنسان ينفلق عنه الجسم كانفلاق الصباح من فالق الإصباح في الليل، فتقع المناسبة بين هذا النور وبين روح الإنسان فلذلك يأنس به ويستفيد منه، وهكذا أجرى الله العادة ولم يعط من القوّة أكثر من هذا ولو شاء لفعل، وهكذا جرت المظاهر الإلهية المعبر عنها بالتجليات، فإن النور الأصلي مبطون فيها غيب لنا، والصور التي يقع فيها التجلي محل لظهور المظهر فتقع الرؤية منا على المظاهر، ولهذا هي المظاهر مقيدة بالصور ليكون الإدراك منا بمناسبة صحيحة، فإن المقصود من ذلك حصول الفائدة به وبما يكون منه، وهذا منزل عال كبير القدر العالم به متميز على أبناء جنسه وهو سار في الأشياء، فكما أنه سبحانه ذكر أنه فالق الإصباح كذلك هو فالق الحب والنوى بما يظهر منهما، فما وقعت الفوائد إلاّ بمثل هذا النور، وكانت الأنبياء عليهم السلام تتخذه وقاية تتقي به حوادث الأكوان التي هي ظلم الأغيار.

وكما تبين لك قدر هذا النور المولد ومنزلته فلنبين ما يتخذ له وقاية، وذلك أن الوقاية لا تكون إلاّ من أجل الأمور التي يكرهها الإنسان طبعاً وشرعاً، وهي أمور مخصوصة بعالم الخلق والتركيب الطبيعي لا بعالم الأمر، وقد بينا في هذا الكتاب وغيره ما نريده بعالم الأمر وعالم الخلق والكل لله تعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤] فخصّه بالاسم الرب دون غيره. ولما كان عالم الخلق والتركيب يقتضي الشر لذاته لهذا قال عالم الأمر الذي هو الخير الذي لا شرّ فيه حين رأى خلق الإنسان وتركيبه من الطبائع المتنافرة والتنافر هو عين التنازع والنزاع أمر مؤد إلى الفساد ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] من غير تعرّض لمواقع الأحكام المشروعة، وكذلك وقع مثل ما قالوه ورأوا الحق سبحانه يقول: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٤] وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٥] فكرهوا ما كره الله، وأحبوا ما أحب الله، وجرى حكم الله في الخلق بما قدره العزيز العليم، فما ظهر من عالم التركيب من الشرور فمن طبيعته التي ذكرتها الملائكة، وما ظهر منه من خير فمن روحه الإلهيّ الذي هو

النور المولد فصدقت الملائكة ولذلك قال: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٩] وإذا كان عالم الخلق بهذه المثابة فواجب على كل عاقل أن يعتصم بهذا النور المذكور في هذا المنزل، فالشرور كلها مضافة إلى عالم الخلق، والخير كله مضاف إلى عالم الأمر.

واعلم أن الطبيعة لما تألفت واجتمعت لظهور عالم الخلق بعد أن كانت متنافرة ليظهر بذلك شرف هذا النور بما يكون فيه من الخير مع تولده من هذا التركيب لقوته وغلبة عالم الأمر على نشأته دخلت في الوجود الحسيّ فسميت جسماً وحيواناً ونباتاً وجماداً، وما من شيء من هذا كله إلاَّ والفساد والتغيير موجود فيه في كل حال، ولولا هذا النور الاعتصامي لهلك عالم الخلق جملة واحدة، فأمر الله سبحانه أن يلجأ إليه بالدعاء في دفع هذه المكاره كلها، فيؤيد الله هذا الروح بما يعطيه من هذا النور من الاسم الرب ليدفع به ما تقع له به المضرة من جانب ظلمة الطبع.

واعلم أن مسمّى الشر على الحقيقة ومسمّى الخير إنما هو راجع إما لوضع إلهيّ جاءت به ألسن الشرائع، وإما لملائمة مزاج فيكون خيراً في حقه، أو منافرة مزاج فيكون شراً في حقه، وإما لكمال مقرّر اقتضاه الدليل فيكون خيراً، أو نقص عن تلك الدرجة فيكون شراً، وإما لحصول غرض فيكون خيراً في نظره، أو عدم حصوله فيكون شراً في نظره، فإذا رفع الناظر نظره عن هذه الأشياء كلها لم تبق إلاَّ أعيان موجودات لا تتصف بالخير ولا بالشر، هذا هو المرجوع إليه عند الإنصاف والتحقيق، ولكن ما فعل الله سبحانه إلاَّ ما قد حصل في الوجود من كمال ونقص وملايمة ومنافرة وشرائع موضوعة بتحسين وتقبيح، وأغراض موجودة في نفوس تنال وقتاً ولا تنال وقتاً، وما خلا الوجود من هذه المراتب، وكلام المتكلم إنما هو بما حصل في الوجود لا بالنظر الآخر المنسوب إلى جانب الحق، ثم أصل هذا الأمر كله إنما هو من جانب وجود واجب الوجود لذاته وهو الخير المحض الذي لا شر فيه، ومن جانب العدم المطلق الذي في مقابلة الوجود المطلق، وهذا العدم هو الشر المحض الذي لا خير فيه، فما ظهر من شر في العالم فهذا أصله لأنه عدم الكمال أو عدم الملايمة أو عدم حصول الغرض فهي نسب، وما ظهر من خير فالوجود المطلق فاعله ولذلك قال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] وما هو موصوف بأنه عندك فليس هو عينك، والإعدام والإيجاد بين إرادته سبحانه وقدرته ولهذا قلنا: إن الخير فعل الحق، ولم نقل في الشر فعلاً وإنما قلنا إن ذلك العدم المطلق أصله، فحررنا العبارة عنه ليعرف العاقل الناظر في كتابي هذا ما أردناه.

وإذ قد تبين هذا الأصل النافع في هذا الباب فلنقل: وممّا يلجأ إليه في دفع ما يكره من الأفعال ما تتلوه الشياطين على ملك سليمان من علم السحر الذي مزجوه بما أنزل على الملكين هاروت وماروت من علم الحق فعلم الحق من ذلك هو العلم بالأمور التي تسمّى معجزات، فإن الحق معجز وهو النور الذي يستند إليه، وعلم الباطل من ذلك علم الخيال الذي قال فيه: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٦٦] ولهذا سمّي السحر سحراً مأخوذ من السحر وهو اختلاط الضوء والظلمة، فالسحر له وجه إلى الظلمة وليس ظلاماً

خالصاً، وله وجه إلى الضوء وليس ضوءاً خالصاً، كذلك السحر له وجه إلى الحق وهو ما ظهر إلى بصر الناظر فإنه حق، وله وجه إلى الباطل لأنه ليس الأمر في نفسه على ما أدركه البصر فلهذا سمته العرب سحراً وسمّي العامل به ساحراً لا العالم به، ولهذا سمّي كيداً من كاد يكيد أي كاد يقارب الحق، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [سورة الطارق: الآية ١٥] أي يقاربون الحق فيما يظهر لكم، وكاد من أفعال المقاربة، تقول العرب: كاد العروس يكون أميراً أي قارب أن يكون أميراً، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ [سورة طه: الآية ٦٩] أي فعلوا ما يقارب الحق في الصورة الظاهرة للبصر، فإذا لم يكن حقاً ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [سورة يونس: الآية ٣٢] أي كيف تصرفون عن معرفة هذه الحقائق؟ وممّا يتعلق بهذا العلم من الشر مقلوب الحمد ولهذا قال: ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٢] فإنّ مقلوب الحمد كفر وهو الذمّ، إذ الحمد هو الثناء على المحمود بما هو عليه من الخلال، وبما يكون منه ممّا تعطيه مكارم الأخلاق والذم في مقابلة ما ذكرناه، قال تعالىٰ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ أي من المعلمين ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٢] والله قد كره ذلك وقد ذمّه وندب إلى الألفة وانتظام الشمل.

ولما علم سبحانه أن الافتراق لا بدّ منه لكل مجموع مؤلف لحقيقة خفيت عن أكثر الناس شرع الطلاق رحمة بعباده ليكونوا مأجورين في أفعالهم محمودين غير مذمومين إرغاماً للشياطين، ومع هذا فقد ورد في الخبر النبوي أنه ﷺ قال: «**مَا خَلَقَ اللَّهُ حَلالاً أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ الطَّلاَقِ**» لأنه رجوع إلى العدم إذ كان بائتلاف الطبائع ظهر وجود التركيب وبعدم الإئتلاف كان العدم، فكانت الأسماء الإلهية معطلة التأثير، فمن أجل هذه الرائحة كره الفرقة بين الزوجين، فعدم عين الاجتماع أي هذه الحالة ارتفعت بافتراق هذين الزوجين وإن بقيت أعيانهما، وإن كان الاجتماع والافتراق والحركة والسكون الحاصل من ذلك راجع إلى نسب معقولة لا أعيان موجودة كما يراه بعضهم، وبهذا النور الخاص بهذا المنزل يندفع جميع ما ذكرناه من الشرور، وما لم نذكره ممّا ينطلق عليه اسم شر بالإضافة إلى ما قرّرناه من الكمال والملايمة وغير ذلك، وهذا القدر من السحر الذي يعطي التفرقة هو الذي يدفعه سبب وجود هذا النور في هذا المنزل خاصة وعند الخروج من هذه السدف والظلم بالإدلاج فيها حتى يطلع لك الصباح وتشرق الأنوار وذلك عالم الآخرة حيث كان حينئذ تحمد مسعاك، وما فاتك بذلك السهر في سيرك من لذة النوم والاضطجاع والسكون، فوضعوا لذلك لفظاً مطابقاً وهو قولهم: عند الصباح يحمد القوم السرى، والصباح عبارة عن هذا النور، ومن حصل له هذا النور كان الناس فيه بين غابط وحاسد، فالغابط من طلب من الله أن يكون له مثل ما حصل لهذا من هذه الحال من غير أن يسلب ذلك عن صاحبه، والحاسد من يطلب زوال هذا الأمر من صاحبه ولا يتعرّض في طلبه لنيله جملة واحدة، فإن طلب مع طلب إزالته من ذلك نيله فبه يقع الاشتراك بين الغابط والحاسد، وما يقع به الاشتراك غير ما يقع به الامتياز، فطلب نيل ذلك محمود وهو الغبط، وطلب إزالته مذموم وهو الحسد، فلذلك فصلنا فيه هذا التفصيل، وإن كان

الشرع قد أطلق لفظ الحسد في موضع الغبط فقال ﷺ: «**لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ وَيُفَرِّقُهُ يَميناً وَشِمَالاً**» وفي هذا سرّ وتنبيه على فضل الكرم والعطاء لغير عوض، فإنه من أعطى لعوض فهو شراء ليس بكرم إذ الكريم من لا يطلب المعاوضة فلذا قال: «**يميناً وشمالاً**» ولو عنى بالشمال الإنفاق في معصية من زنا أو غيره فليس بكرم لأنه يحصل به عوضاً هو أحب إليه من المال، فإن قيل: إن العوض له لازم فإن الثناء بالكرم لازم لذي الكرم. قلنا: هذا لا يقع إلاّ من الجاهل لأن الثناء الحسن من لوازم الكرم سواء طلبه أو لم يطلبه، فاشتغاله بطلب الحاصل جهل فإن الحاصل لا يبتغى واللازم للشيء لا بدّ له منه وإلاّ فليس بلازم، فإن فعل ذلك التحق بأصحاب الأعواض ولم يتصف عند ذلك بالكرم ولا لبسه. والرجل الآخر: «**رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْماً فَهُوَ يَبُثُّهُ فِي النَّاسِ**» أي يفرقه فيهم الحديث كما قاله عليه السلام، فإنا أوردناه من جهة المعنى وبعض ألفاظه ﷺ فسمّاه حسداً، وقد يسمّى الشيء باسم الشيء بما يقاربه أو يكون منه بسبب.

وبعد أن فصلنا ما أردنا ارتفع الإشكال فيما قصدناه، ونحن إنما أردنا ما أراد الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [سورة الفلق: الآية ٥] وليس الشرّ في طلب نيل مثله وإنما الشرّ في طلب زواله ممّن هو عنده. ولما قلنا إنّ عبد الرب له خمس درجات وأنه يزيد على عبد الملك بأربع درجات كان هذا المنزل على خمس درجات والدرجة السادسة التي لهذا المنزل فيها خلاف بين أهل هذا الشأن، فمنهم من جعلها درجة مستقلة بنفسها لكنها فاصلة بين مقامين من المقامات الإلهية وليس هو مذهبنا، ومنهم من جعلها درجة سادسة في عين هذا المقام وهو مذهبنا، وهذه الدرجة تتضمن منزلاً واحداً من منازل الغيب بالإجماع من أهل هذا الشأن، وقيل: ثلاث منازل بخلاف بينهم. فأمّا ابن برجان فانفرد دون الجماعة بإظهار المنزل الثاني في هذه الدرجة من منازل الغيب ولم أعلم ذلك لغيره وله وجه في ذلك ولكن فيه بُعد عظيم، وإن كنا نحن قد ذهبنا إلى هذا المذهب في بعض كتبنا ولكن ليس في وجوده تلك القوّة وإنما يظهر عند صنعة التحليل، والكلام على المفردات من علم هذا الطريق وهو ممّا يتعلق بمعرفة الهوية، ولهذه الدرجة تسعة عشر منزلاً من منازل الشهادة كل منزل من هذه المنازل يمنع ملكاً من التسعة عشر الذين على النار فلا يصيب صاحب هذه الدرجة من النار شيء قال تعالىٰ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [سورة المدثر: الآية ٣٠] فلوجود هذه المنازل في هذه الدرجة جعلت ملائكة النار تسعة عشر، ولا نعكس فنقول: من أجل هؤلاء الملائكة جعلت هذه المنازل تسعة عشر فإن الأمر لم يكن كذلك، ولم تكن هذه المنازل بحكم الجعل بخلاف الملائكة فإن هذه الدرجة اقتضت هذه المنازل لذاتها. وقال في الملائكة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ [سورة المدثر: الآية ٣١] فكانوا بحكم الجعل، وكانوا في عالم الشهادة، لأن النار محسوسة مشهودة، وتتضمن هذه الدرجة السادسة من العلوم علم الأسماء الإلهيّة المتعلقة بالكون، ولها صورة في العموم من حيث الإيجاد وفي الخصوص من حيث السعادة. واعلم أنه ما من منزل من هذه المنازل التي في هذا الكتاب إلاّ وله هذه الدرجة، وتختلف آثارها باختلاف المنازل

إلاَّ منزلاً واحداً من منازل القهر وسيأتي ذكره إن شاء الله، وكنا قد ذكرنا في كتاب هياكل الأنوار هذا المنزل وما يختص به وما يعطيه هيكله فلينظر هناك وهو الهيكل الثاني عشر ومائة، وهذه العجالة تضيق عن أسرارها في كل منزل من هذه المنازل المودعة فيه أعني في هذا الكتاب، وكذلك المنازلات.

والفرق بين المنزل والمنازلات ما نبينه لك، وذلك أن المنزل عبارة عن المقام الذي ينزل الحق فيه إليك، أو تنزل أنت فيه عليه، ولتعلم الفرق بين إليك وعليه. والمنازلة أن يريد هو النزول إليك ويجعل في قلبك طلب النزول عليه فتتحرك الهمة حركة روحانية لطيفة للنزول عليه فيقع الاجتماع به بين نزولين: نزول منك عليه قبل أن تبلغ المنزل، ونزول منه إليك أي توجه اسم إلهيّ قبل أن يبلغ المنزل، فوقوع هذا الاجتماع في غير المنزلين يسمّى منازلة، وهنا يكون لصاحب هذه الحالة أحد ثلاثة أمور: إما تحصل الفائدة عند اللقاء المطلوبة لذلك الاسم من هذا العبد ولهذا العبد من ذلك الاسم فينفصل عنه الاسم إلى مسمّاه ويرجع العبد إلى مقامه الذي منه خرج. وإما أن يحكم عليه الاسم الإلهيّ بالرجوع إلى ما منه خرج ويكون ذلك الاسم الإلهيّ معه إلى أن يوصله إلى ما منه خرج. وإما أن يأخذه الاسم الإلهيّ معه ويعرج به إلى مسمّاه، وأيّ الأمرين حصل من هذا الذي ذكرنا فيسمّى عندنا هذا المنزل الذي رجعا إليه بهذه الصفة الخاصة منزل المنازلات لأنه يعطي من الأحكام خلاف ما يعطيه إذا لم يكن نزوله عن منازلة، يعرف هذا أهل الأذواق وأهل الشرب والريّ، وقد جعلنا في هذا الكتاب من المنازلات ما تقف عليه إن شاء الله.

واعلم أن المنازل لا ينطلق عليها هذا الاسم إلاَّ عند النزول فيها، فإنْ أقام فيها ولم ينتقل عنها حدث لها اسم الموطن لاستيطانه فيها واسم المسكن لسكونه إليها وعدم انتقاله إلى منزل، إلاَّ أنه لا بدّ له أن ينتقل في نفس هذا المنزل في دقائقه بحيث لا يخرج عنه، كمثل الذي يتصرّف في بيوت الدار التي هو ساكنها فما دام العارف مستصحباً لاسم واحد إلهيّ مع اختلاف تصرّفه فيه كان موطناً له من حيث الجملة، ومن المحال أن يقيم أحد نفسين على حالة واحدة فلا بدّ له من الانتقال في كل نفس، ولهذا منع بعضهم من أهل الله أن يكون الاسم موطناً أو مسكناً لأنه تخيل أن لكل نفس وكل حال اسماً إلهيّاً، ولم يدر أن الاسم الإلهيّ قد يكون له حكم أو يكون له أحكام كثيرة مختلفة، فيكون موطناً لهذا الشخص ما دام يتصرّف تحت أحكامه. فأما قولهم من المحال بقاؤه نفسين على حكم واحد على أن يكون واحد نعتاً لحكم فصحيح. وأما إن أرادوا استحالة بقائه نفسين على حكم واحد على طريق الإضافة إضافة الحكم إلى الواحد فليس بصحيح، فإن الوجوه لهذا الاسم الإلهيّ، فالغفار يستره عن كذا وكذا، وكذا وكذا بحسب المطالب التي تطلبه في كل نفس ممّا يصحّ أن يستره عنها الاسم الغفار على التتالي والتتابع من غير أن يتخللها ما يطلب اسماً آخر، ولهذا صحّت فيه المبالغة لأنه يكثر منه ذلك، وهكذا الخلاق والرزاق، وجميع الأسماء التي لها حكم في الكون إذا توالى على الإنسان ما يطلب هذا الاسم ولا بدّ فالأسماء الإلهيّة منازل بوجه،

ومساكن ومواطن بوجه، وقد بيّنا في هذا الباب على طريق الإشارة وضيق الوقت ما تقع به الفائدة لصاحب الذوق، وما نودع كل باب ممّا عندنا فيه إلاّ نقطة من بحر محيط هذا بالنظر إلى ما عندنا فيه فكيف هو بالنظر إلى ما هو عليه في نفسه هو البحر الذي لا ساحل له، وهذا المنزل من منازل الأمر، وهذه المنازل الأمرية وإن كانت سبعة في العدد فمن حيث الأمهات وإنما هي أكثر من ذلك، ولا بدّ لنا إن تفرّغنا إليها من حصرنا إياه حتى يعلم إلى كم تنتهي من جناب الحق، فإن فيها فوائد جمة هي مثبوتة في كتبنا، والله سبحانه يقول الحق وهو يهدي السبيل. وفي هذا المنزل من العلوم: علم إخراج المغيبات بالأسماء الإلهية، وعلم الخلق، وعلم الغيب الداخل في الشهادة، وعلم الشبه، وعلم نفث الروح في الروع.

الباب الثاني والسبعون ومائتان

في معرفة منزل تنزيه التوحيد

[نظم: الطويل]

بتنزيه تَوْحيدِ الإله أقولُ وذلك نور ما لديه أُفولُ

وتَنْزيهُه ما بين ذاتٍ ورتبةٍ وإن الذي يدري به لَقليلُ

تَنَزَّه عن تنزيه كل مُنَزِّهِ فمن شاء قولاً فليَقُلْ بيقولُ

فإن وجودَ الحق في حَرْفِ غَيْبِهِ فحرفُ حُضورِ ما عليه قَبُولُ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن المراد بلفظة تنزيه التوحيد أمران: الواحد أن يكون التوحيد متعلق التنزيه لا الحق سبحانه. والأمر الآخر أن يكون التنزيه مضافاً إلى التوحيد على معنى أن الحق تعالىٰ قد ينزّه بتنزيه التوحيد إياه لا بتنزيه من نزّهه من المخلوقين بالتوحيد مثل حمد الحمد، فإن قيام الصفة بالموصوف ما فيها دعوى، ولا يتطرّق إليها احتمال، والواصف نفسه أو غيره بصفة ما يفتقر إلى دليل على صدق دعواه فيتعلق بهذا فصول تدل عليها آيات من الكتاب منها هل يصحّ الإضمار قبل الذكر في غير ضرورة الشعر أم لا؟ فالشاعر يقول: جزى ربه عني عدي بن حاتم. فأضمر قبل الذكر، ولكن الشعر موضع الضرورة، ومن فصول هذا المنزل الأمر بتوحيد الله فلا يكون فيه توحيد الحق نفسه ويتعلق به التقليد في التوحيد لأن الأمر لا يتعلق بمن يعطيه الدليل ذلك إلاّ أن يكون متعلق الأمر الاستدلال لا التعريف على طريق التسليم أو الاستدلال بالتنبيه على موضع الدلالة مثل قوله: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٩١] وكقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٢] وكقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٣] ومن فصول هذا المنزل قوله تعالىٰ: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [سورة الجن: الآية ٣] لعدم الكفاءة إذ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٤] فلو كانت الكفاءة موجودة لجاز ذلك قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢١] فجعل الكفاءة بالدين، وقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [سورة الزمر: الآية ٤] فجعله من قبيل الإمكان فقال: ﴿لَّاصْطَفَىٰ﴾ [سورة الزمر: الآية

٤] والاصطفاء جعل والمجعول ينافي الكفاءة للجاعل، وأين مرتبة الفاعل من المفعول؟ ومن فصول هذا المنزل التنزيه أن يكون مدركاً بالمقدمات التي تنتج وجوده أو المعرفة به تعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

ومن فصول هذا المنزل أنه لا يكون مقدّمة لإنتاج شيء للتركيب الذي يتصف به المقدمات والسبب الرابط في المقدمات فيستدعي المناسبة، والمناسبة بين الخلق والحق غير معقولة ولا موجودة، فلا يكون عنه شيء من حيث ذاته، ولا يكون عن شيء من حيث ذاته، وكل ما دلّ عليه الشرع أو اتخذه العقل دليلاً إنما متعلقه الألوهة لا الذات، والله من كونه إلهاً هو الذي يستند إليه الممكن لإمكانه، فلنذكر ما يتعلق بفصول هذا المنزل على الاختصار إن شاء الله.

اعلم أن هذا المنزل هو الرابع من منازل العظمة في حق أصحاب البدايات وهو الحادي عشر والعاشر ومائة في حق الأكابر الروحانيين، ولما كانت الحضرة الإلهية تنقسم إلى ثلاثة أقسام: ذات، وصفات، وأفعال، كان هذا المنزل أحدها وهو الثالث منها، ولما كانت الصفات على قسمين: صفة فعل، وصفة تنزيه، كان هذا المنزل صفة التنزيه منهما، فأما تنزيه التوحيد فهو أن هذا التوحيد الذي ننسبه إلى جناب الحق منزّه أن ينسب إلى غير الحق فهو المنزه على الحقيقة لا الحق، وإنما قلنا هذا لأنه يجوز أن يوصف به غير الحق فيما يعطيه اللفظ كما وقعت المشاركة في إطلاق لفظة الوجود والعلم والقدرة وسائر الأسماء في حق الحق والخلق، فهذا المنزل ينزّه هذا التوحيد المنسوب إلى الله أن يوصف به غيره فإنه توحيد الذات من جميع الوجوه، ولا يوصف بهذا التوحيد غيره لا في اللفظ ولا في المعنى، وكانت ذات الحق المنسوب إليها هذا التوحيد لا يتعلق بها تنزيه لأنه لا يجوز عليها فتبعد عن وصفها الذي يجوز عليها إذ كانت في نفس الأمر منزهة لا بتنزيه منزّه، وأما إذا كان تنزيه التوحيد متعلقه الحق سبحانه فيكون منزهاً من حيث ذاته بلسان عين هذا الوصف الذي هو التوحيد له كثناء لسان صفة الكرم بالكريم لقيامه به لا بقول القائل، ودليل الناظر أنه سبحانه واحد فقد كان له هذا الوصف ولا أنت وله هذا الوصف وأنت أنت، وإذا كان هذا الأمر على هذا الحدّ فما ثم موجود يصحّ أن يضمر قبل الذكر إلاّ من يستحق الغيب المطلق الذي لا يمكن أن يشهد بحال من الأحوال، فيكون ضمير الغيب له كالاسم الجامد العلم للمسمّى يدل عليه بأوّل وهلة من غير أن يحتاج إلى ذكر متقدم مقرر في نفس السامع يعود عليه هذا الضمير، فلا يصحّ أن يقال هو إلاّ في الله خاصة، فإذا أطلق على غير الله فلا يطلق إلاّ بعد ذكر متقدم معروف بأيّ وجه كان ممّا يعرف به فيقال هو، وعين محل هذا الضمير مشهود عند من لا يصحّ أن يقال فيه هو لحضوره عنده فيزول عنه اسم الهو بالنظر إلى ذلك، ويثبت له اسم الهو بالنظر إلى من غاب عنه.

فإن قيل: إذا صحّ ما قررته فإنه سبحانه مشهود لنفسه فيزول عنه الهو بالنظر إلى شهوده نفسه، فإذا الهو ليس له بمنزلة الاسم العلم كما زعمت. قلنا: وإن شهد نفسه فإن الهوية

معلومة غير مشهودة وهي التي ينطلق عليها اسم الهو، هذا على مذهبنا وهو مذهب أهل الحق كيف وثم طائفة تقول: إنه لا يعلم نفسه فلا يزال الهو له منا ومنه، قال تعالىٰ في أوّل سورة الإخلاص لنبيه عليه السلام: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ١] فابتدأ بالضمير ولم يجر له ذكر متقدم يعود عليه في نفس القرآن، وإن كانت اليهود قد قالت له: انسب لنا ربك؛

فربما يتوهم صاحب اللسان أن هذا الضمير يعود على الرب الذي ذكرته اليهود، ولتعلم أن هذا الضمير لا يراد به الرب الذي ذكرته اليهود لأن الله يتعالىٰ أن يدرك معرفة ذاته خلقه ولذلك قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ وما ذكر في السورة كلها شيئاً يدل على الخلق بل أودع تلك السورة التبري من الخلق فلم يجعل المعرفة به نتيجة عن الخلق فقال تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٣] ولم يجعل الخلق في وجوده نتيجة عنه كما يزعم بعضهم بأيّ نسبة كانت فقال تعالىٰ: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٣] ونفى التشبيه بأحدية كل أحد بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٤] وأثبت له أحدية لا تكون لغيره، وأثبت له الصمدانية وهي صفة تنزيه وتبرئة، فارتفع أن يكون الضمير يعود على الرب المذكور المضاف إلى الخلق في قولهم له ﷺ: أنسب لنا ربك، فأضافوه إليه لا إليهم، ولما نسبه ﷺ بما أنزل عليه لم يضفه لا إليه ولا إليهم بل ذكره بما يستحقه جلاله، فإذاً ليس الضمير في هو الله يعود على من ذكر، وأين المطلق من المقيد؟ فهوية المقيد ليست هوية المطلق، فهوية المقيد نسبة تتعلق بالكون فتتقيد به إذ تقيد الكون بها فيقال: خالق ومخلوق، وقادر ومقدور، وعالم ومعلوم، ومريد ومراد، وسميع ومسموع، وبصير ومبصر، ومكلم ومكلم، والحيّ ليس كذلك فهو هويته لا تعلق له بالكون وليس القيوم كذلك، فإذا عرفت ما ذكرناه عرفت أن الإضمار قبل الذكر لا يصحّ إلاّ على الله وبعد الذكر تقع فيه المشاركة، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢] فأعاد الضمير على الله المذكور في أوّل الآية.

واعلم أن التوحيد الذي يؤمر به العبد أن يعلمه أو يقوله ليس هو التوحيد الذي يوحد الحق به نفسه، فإن توحيد الأمر مركب، فإن المأمور بذلك مخلوق ولا يصدر عن المخلوق إلاّ ما يناسبه وهو مخلوق عن مخلوق، فهو أبعد في الخلق عن الله من الذي وجد عنه هذا التوحيد على كل مذهب من نفاة الأفعال عن المخلوقين ومثبتيها لأنّ النفاة قائلون بالكسب وغير النفاة قائلون بالإيجاد، فكيف يليق بالجناب العزيز ما هو مضاف إلى الخلق؟ وإن كنا تعبدنا به شرعاً فنقرّره في موضعه ونقوله كما أمرنا به على جهة القربة إليه مع ثبوت قدمنا فيما أشهدنا الحق من المعرفة به من كونه لا يعرف في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وفيما ذكره في سورة الإخلاص وفي عموم قوله بالتسبيح الذي هو التنزيه ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] والعزّة تقتضي المنع أن يوصل إلى معرفته. ومن أسرار هذا المنزل قوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [سورة الزمر: الآية ٤] فإن كان لو حرف امتناع ولكنه امتناع شيء لامتناع غيره فهو عدم لعدم، فإذا جاء حرف لا بعد لو كان لو حرف امتناع لوجود ولم يأت في هذه الآية لا فنفى الإرادة أن تتعلق باتخاذ الولد، ولم يقل أن يلد ولداً فإنه يقول:

﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ والولد المتخذ يكون موجود العين من غير أن يكون ولداً فيتبنى بحكم الاصطفاء والتقريب في المنزلة أن ينزله من نفسه منزلة الولد من الوالد الذي يكون له عليه ولادة، والحقيقة تمنع من الولادة والتبني لأن النسبة مرتفعة عن الذات، والنسبة الإلهيّة من الله لجميع الخلق نسبة واحدة لا تفاضل فيها إذ التفاضل يستدعي الكثرة فلهذا أتى بلفظة لو ولم يجعل بعدها لفظة لا فكان حرف امتناع، أي لم يقع ذلك ولا يقع لامتناع الذات أن توصف بما لا تستحقه ولهذا قال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ بعد قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ [سورة الجن: الآية ٣] فوصفه بالعلوّ عن قيام هذا الوصف لعظمة الرب المضاف إلى المربوب بالذكر، فكيف بالرب من غير إضافة لفظية؟ فكيف بالاسم الله؟ فكيف بالذات من غير اسم؟ فأعظم من هذا التنزيه ما يكون.

وأما نفي الكفاءة والمثل فربما يتوهم من لا معرفة له بالحقائق أنه لو وجدت الكفاءة جاز وقوع الولد بوجود الصاحبة التي هي كفؤ فليعلم أن الكفاءة مشروعة لا معقولة، والشرع إنما لزمها من الطرف الواحد لا من الطرفين، فمنع المرأة أن تنكح ما ليس لها بكفؤ ولم يمنع الرجل أن ينكح ما ليس بكفؤ له، ولهذا له أن ينكح أمته بملك اليمين وليس للمرأة أن ينكحها عبدها والحق ليس بمخلوق وهو الوالد لو كان له ولد، والكفاءة من جهة الصاحبة لا تلزم فارتفع المانع لوجود الولد لا لعدم الكفاءة، بل لما تستحقه الذات من ارتفاع النسب والنسب ولما تستحقه أحدية الألوهة إذ الولد شبيه بأبيه، فبطل مفهوم من حمل ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [سورة الجن: الآية ٣] على جواز ذلك إذ كان متخذاً وكان المفهوم منه ومن نفي الكفء والمثل ما ذكرناه.

ولما كان التنزيه للذات على ما قرّرناه بطل أن تكون المعرفة به القائمة بنا نتيجة عن معرفتنا بنا لاستنادنا إليه من حيث إمكاننا، وأن ذلك لا يتضمن معرفة ذاته بالصفة الثبوتية النفسية التي هو عليها بالأصح من ذلك إلاّ الاستناد لذات منزّهة عمّا ينسب إلينا مجهولة عندنا ما ينسب إليها من حيث نفسيتها فلا يعرف سبحانه أبداً، وإذا كانت المعرفة به من النزاهة والعلوّ بهذا الحدّ فأحرى أن يكون وجوده معلولاً لعلة تتقدّمه في الرتبة أو مشروطاً بشرط متقدم أو محققاً لحقيقة حاكة أو مدلولاً لدليل يربطه به وجه ذلك الدليل، فلا جامع سبحانه بيننا وبينه من هذه الجوامع الأربعة، فالتحقت المعرفة به منا بوجوده في النزاهة والرفعة عن الإدراك لها، وكما لم يصحّ أن ينتجه شيء فلا تكون هويته أيضاً من حيث هويته لا من حيث مرتبته تنتج شيئاً، إذ لو ارتبط به شيء من حيث هويته لارتبطت هويته بذلك الشيء، فلا يصحّ أن يكون علة لمعلول، ولا شرطاً لمشروط، ولا حقيقة لمحقق، ولا دليلاً لمدلول، ولا سيما وقد قال سبحانه: ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ مطلقاً وما فيها، فلو كان حقيقة لولد محققاً، ولو كان دليلاً لولد مدلولاً، ولو كان علة لولد معلولاً، ولو كان شرطاً لولد مشروطاً، فهو سبحانه المستند المجهول الذي لا تدركه العقول ولا تفصل إجماله الفصول، فهذا أيضاً وجه من وجوه تنزيه التوحيد.

وأما ما يتعلق بالواحد والأحد من التوحيد في أحديته فإن لفظ الأحدية جاءت ثابتة

الإطلاق على من سواه فقال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [سورة الكهف: الآية ١١٠] وإن كان المفهوم منه بالنظر إلى تفسير المعاني على طريق أهل الله أنه لا يعبد من حيث أحديته لأن الأحدية تنافي وجود العابد فكأنه يقول: لا يعبد إلاّ الرب من حيث ربوبيته. فإن الرب أوجدك فتعلق به وتذلل له ولا تشرك الأحدية مع الربوبية في العبادة فتتذلل لها كما تتذلل للربوبية فإن الأحدية لا تعرفك ولا تقبلك، فيكون تعبد في غير معبد، وتطمع في غير مطمع، وتعمل في غير معمل، وهي عبادة الجاهل، فنفى عبادة العابدين من التعلّق بالأحدية فإن الأحدية لا تثبت إلاّ لله مطلقاً، وأما ما سوى الله فلا أحدية له مطلقاً، فهذا هو المفهوم من هذه الآية عندنا من حيث طريقنا في تفسير القرآن، ويأخذ أهل الرسوم من ذلك قسطهم أيضاً تفسيراً للمعنى، فيحملون الأحد المذكور على ما اتخذوه من الشركاء وهو تفسير صحيح أيضاً، فالقرآن هو البحر الذي لا ساحل له إذ كان المنسوب إليه يقصد به جميع ما يطلبه الكلام من المعاني بخلاف كلام المخلوقين، وإذا علمت هذا علمت المراد بقوله جلّ ثناؤه لنبيه عليه السلام: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي لا يشارك في هذه الصفة. وأما الواحد فإنا نظرنا في القرآن هل أطلقه على غيره كما أطلق الأحدية؟ فلم أجده وما أنا منه على يقين، فإن كان لم يطلقه فهو أخص من الأحدية ويكون اسماً للذات علماً لا يكون صفة كالأحدية فإن الصفة محل الاشتراك، ولهذا أطلقت الأحدية على كل ما سوى الله في القرآن، ولا يعتبر كلام الناس واصطلاحهم وإنما ينظر ما ورد في القرآن الذي هو كلام الله، فإن وجد في كلام الله لفظ الواحد كان حكمه حكم الأحدية للاشتراك اللفظي فيه، وإن كان لا يوجد في كلام الله لفظ الواحد يطلق على الغير فيلحقه بخصائص ما تستحقه الذات ويكون كالاسم الله الذي لم يتسم به أحد سواه.

وممّا يتعلق بهذا المنزل من التنزيه الخاص به ما يحصل من المعارف التي ذكرناها في كتاب مواقع النجوم في التجلي الصمداني، ولا نريد بذلك ما أراد العارف أبو عبد الله البستي في كتابه الذي جعله في عبد الرب وعبد الصمد فإن الصمد الذي نريده لا يضاف ولا يضاف إليه، فإن المتضايفين لا بدّ أن يكون لهما بينية فيكون بينهما نسبة رابطة بها يصحّ أن تكون الإضافة محققة لهما، فالصمد الذي أراده البستيّ بعبد الصمد هو الذي يلجأ إليه ويتعلق به ويقابل بالتوجه، ولهذا أنهت الشريعة للمصلي إذا استتر بأصطوانة أو عصا أو مؤخرة رحل أو ما هو مثلها أن يصمد إليها صمداً ولكن ينحرف عنها قليلاً يميناً أو شمالاً، وليس من أوصاف التنزيه من يصمد إليه ولكنه من أوصاف الكرم، فالصمدية المطلقة عن هذا التقييد هي التي تستحق أن تكون صفة تنزيه إذ لا تعلق للكون بها وهي المطلوبة في هذا المنزل وشرحها في اللغة مذكور، واعلم أن هذا المنزل وإن كان يطلب الأحدية والتنزيه من جميع الوجوه فإنه يظهر في الكشف الصوري المقيد بالمظاهر كالبيت القائم على خمسة أعمدة عليها سقف مرفوع محيط به حيطان لا باب فيها مفتوح فليس لأحد فيه دخول بوجه من الوجوه، لكن خارج البيت عمود قائم ملصق إلى حائط البيت يتمسح به أهل الكشف كما يقبلون ويتمسحون بالحجر الأسود الذي جعله الله خارج البيت وجعله يميناً له وأضافه إليه لا إلى البيت، كذلك

هذا العمود لا يضاف إلى هذا المنزل وإن كان منه إلاّ أنه ليس هو خاصاً به فإنه موجود في كل منزل إلهيّ، وكأنه ترجمان بيننا وبين ما تعطيه المنازل من المعارف، وقد نبّه على ذلك ابن مسرة الجبلي في كتاب الحروف له، وهذا العمود له لسان فصيح يعبر لنا عمّا تحويه المنازل فنستفيد منه علم ذلك، ومن المنازل ما ندخل فيه ونمشي في زواياه فنجد الأمر على حدّ ما عرفناه فيه، ومن المنازل ما لا سبيل لنا إلى الدخول فيه مثل هذا المنزل فنأخذ من هذا العمود التعريف بحكم التسليم فإنه قد قام الدليل لنا على عصمته فيما يخاطبنا به في عالم الكشف كالرسول في عالم الحسّ فهو لسان حق، ومن الناس من يلحقه بأعمدة البيت فإن بعض الحائط عليه ولا يظهر لنا منه إلاّ وجه واحد وسائره مستور في الحائط فيقول بعض المكاشفين: إن البيت قائم على ستة أعمدة فلا تناقض بين مثبتي الخمسة والستة في قيام البيت عليها، فقد بينا لك ذلك حتى لا تتخيل أن الحق في أحد القولين ومع إحدى الطائفتين، فكل طائفة منهما صادقة فلهذا أخبرتك بكيفية ذلك، وهكذا جميع ما يظهر للناس أنهم اختلفوا فيه، فليس بين القوم بحمد الله خلاف فيما يتحققون به بل هم في شغلهم أصحّ وأحق من أهل الحسّ فيما يدركونه بحواسهم.

واعلم أن الدخول لهذا المنزل من الدينار الثاني الذي للرجولية والنهاية فيه إلى الدينار الرابع وهو تمام الرجولية التي بها يسمّى الشخص رجلاً كما قد قدمناه في ترتيب الإيمان والولاية والنبوّة والرسالة ولا خامس لها يكون خامس خمسة بل قد يكون لها خامس أربعة فاعلم ذلك، وإذا تفطنت إلى ما فصله الحق تعالىٰ عرفت أنت تفصيله فيما أجمله في قوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] يعني الاثنين ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] يعني السبعة فما فوقها من الأفراد، ففصل الحق بقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] ولم يقل ولا أربعة إلاّ هو خامسهم فعرفنا من أدنى ذلك وأكثر أنه يريد الإفراد يشفعها بما ليس منها، فتحققنا أن الغيرة حكمت هنا فلم تثبت لأحد فردية إلاّ شفعتها هوية الحق حتى لا تكون الأحدية إلاّ له، فلا يشفع فرديته مخلوق ويشفع هو فردية المخلوقين ولذلك قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] ولم يقل وأنتم معه لأنه مجهول المصاحبة فيعلم سبحانه كيف يصحبنا ولا نعرف كيف نصحبه، فالمعية له ثابتة فينا منفية عنا فيه فلم يقل: ولا أربعة إلاّ هو خامسهم ولا اثنين إلاّ هو ثالثهما لأن الغيرة لا تتعلق بالشفعية في الأكوان لأن الشفع لها حقيقة، وإنما تتعلق بالوترية إذا نسبت إلى الأكوان وهي لا تستحقها فنوترها بالحق ليكون الظهور له تعالىٰ في الأشياء، وهذا من أقوى الدلائل على وصفه تعالىٰ بالغيرة لأنها مشتقة من رؤية الغير لأنه يستدعي المشاركة والله بريء من مشاركة الغير، فهو بريء أن يكون غير الأحد أو يكون أحد غير إله، قال ﷺ: «**لا أَحَدَ ـ أَوْ كما قالَ ـ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ**» فوصفه بالغيرة وحكمها في هذا المقام قوي، فهذا قد ذكرنا نبذاً ممّا يعطيه هذا المنزل على ضيق الوقت، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. وفي هذا المنزل من العلوم علم الأحدية والفرق بينها وبين الوحدانية وعلم النسب الإلهيّ يقول الله

تعالىٰ يوم القيامة: «اليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي»، أين المتقون وعلم البسائط والعلم الضروري وعلم التماثل؛ والحمد لله رب العالمين.

الباب الثالث والسبعون ومائتان

في معرفة منزل الهلاك للهوى والنفس من المقام الموسوي

[نظم: الهزج]

هَلاكُ الخَلْقِ في الرِّيح　　إذا ما هبَّ في اللَّوْحِ
ولاذَ بغير مَوْلاهُ　　إلهِ الجسم والرُّوحِ
وَوَعَّرَ مَسْلكاً سهلاً　　بما قد جاء في نُوحِ
وفي لوطٍ فيا نَفْسي　　على ما قُلْتُه نُوحي
ولولا العِشْقُ آداه　　بريقٌ من سَنَا يُوحي

اعلم أن الله تعالىٰ لما خلق الأفلاك وعمرها بالأملاك، وقدّر للكواكب السبعة السيارة فيها منازل تجري فيها إلى أجل مسمّى، تعين الزمان بجريانها وسباحتها، وخلق المكانة قبل الأمكنة، ومدّ منها رقائق إلى أمكنة مخصوصة في السموات السبعة والأرض، ثم أوجد المتمكنات في أمكنتها على قدر مكانتها، فكان من تقدير الله العزيز العليم أن خلق عقلاً من العقول إعلاماً بما أودعه فيه من صفة القدرة لا من صفة غيرها خصّه بذلك على أبناء جنسه وذلك من الاسم الظاهر الذي يختص بهذا العقل، فألقى إليه ذلك بضرب من القهر سار فيه مودة لها ثلج وبرد وسرور فتفجرت فيه خمسة أنهار من العلم من الاسم الأوّل والآخر الذي يختصّ به هذا العقل، ثم جرت هذه الأنهار في الاسم الباطن الذي له فتقدست أوّليته على سائر الأوّليات وآخريته على سائر الآخريات، وكذلك ظاهره وباطنه، وصدر عن أم الكتاب الذي عنده حضرة تسمّى أم الجمع، أدخلني الحق إياها فرأيتها ورأيت ظاهرها وباطنها وعاينت مكان هذا العقل منها نكتة سوداء مستورة نقية ما بين حمرة وصفرة وعاينت الرقيقة التي بين المكانة وهذا المكان المعين، ورأيت موسىٰ وهارون ويوسف عليهم السلام ناظرين إلى هذا العقل، وفرّع سبحانه من هذه الحضرة الجامعة التي اختصها لنفسه حضرات لا يعلم عددها إلاّ الله في السماء والأرض وما بينهما وما تحت الثرى إلى حد الاستواء، كل هذه الحضرات للحق إليها نظر خاص رفعها بذلك على غيرها، فلها عند من يعرفها ممّن عرفه الحق بها حرمة وبرّ وإكرام، تسمّى هذه الحضرات مقامات التنزيه، إذا دخلتها الروحانيات العلى اكتسبت من أحوال التنزيه الإلهيّ ما لا يعلم قدره إلاّ الله، وحصل لهم من الخضوع والخشوع والذلة والإفتقار ما لم يكن لهم قبل دخولهم، ومن هذه الحضرات وفي هذه المقامات يحصل لهم رؤية وجه الحق في كل شيء على التمام والكمال، لكن من الرجال من يشاهدها ومن الرجال من يعطيهم هذه الحال ولا يعرفها ولا يدري في أيّ رتبة حصلت له على قدر ما سبق به علم الله فيه فمنهم ومنهم، فلنرجع إلى ذلك العقل الذي ذكرناه الذي له

أثر انفعال بمكانته في هذا المنزل، ونذكر ما كان له وما كان عنه وبسببه ممّا يختص بهذا المنزل عند كل من شاهده وشخص سبحانه مقام الصدق والصفاء وعين فيه اثنتين وسبعين مرقاة كل مرقاة منها تعطي علوماً لمن يرقى فيها للصفاء الذي استلزمته هذه الصورة فهي علوم كشف إلى أن ينتهي إلى ذروتها، فتقابله حضرة الأم بذاتها فتعطيه من التنزيه الإلهيّ والثناء بالوحدانية والصدق والقهر والنصر والإخلاص والذلّة.

ولما أدخلني الله هذه المراقي رأيته سبحانه قد حجبها عن الأعين بظلمة الطبيعة حجاباً لا يرفع، فليس اليوم لراق فيها قدم موضوعة لكنه يكاشف بها من خلف ظلمة الطبع ولا يحصل له فيها قدم كذا رأيته، ورأيت معي من حقائق العارفين جملة كثيرة على مراتب مختلفة من عال وأعلى وهم فيها بهذه المثابة، فأمر لهذا العقل المخصوص بهذا المنزل أن يرقى فيما شخصه ممّا ذكرناه، واجتمعت العقول إليه وأنا أنظر ما يصنع وما يقول لأستفيد منه، ثم رأيته شخص ولم يتكلم ولا أدري بأمر إلهيّ أشخص، فرأيت عليه حين رجع أثر كآبة وقهر وإنزعاج، فعلمت أنه في مقام إنذار من الإنذارات الحق للأرواح. روي في خبر أن جبريل وميكائيل عليهما السلام قعدا يبكيان فأوحى الله إليهما ما هذا البكاء؟ فقالا: إنّا لا نأمن من مكرك، فأوحى الله إليهما كذلك فلتكونا، فلما ألقي إلينا ما ألقي إليه بخشوع وذلّة واتفق أني اطلعت على اليسار فرأيت الهوى والشهوة وهما يتناجيان، وقد أعطى الله من القوّة النافذة لهذا الهوى ما يظهر بها على أكثر العقول إلاَّ أن يعصم الله تعالىٰ فوقف الهوى في ذلك الموقف وقال: أنا الإله المعبود عند كل موجود وأعرض عن العقل وما جاء به من النقل فاتبعته الشياطين والشهوة بين يديه حتى توسط بحبوحة النار ففرش له فراش من القطران واعتمد على أمر تخيل أنه ينجيه من عذاب الله فحال الله بينه وبين من اعتمد عليه واستند إليه فهلك ومن تبعه بنعيم السعداء، وكان مشهداً كريماً هائلاً مفزعاً ما صدقنا التخلص منه أنا وكل عارف حضره معنا في ذلك اليوم.

ثم إني أردت أن أحيط بما في هذا المنزل من المراتب والحقائق والأسرار والعلوم فأخذ بيدي ذلك العقل صاحب هذا المنزل وبسببه ظهر هذا المنزل وقال لي: هذا منزل الهلاك ومصرع الهلاك، فرأيت فيه خمسة أبيات: في البيت الأوّل أربع خزائن على الخزانة الأولى ثلاثة أقفال وعلى الثانية مثل ذلك وعلى الثالثة ستة أقفال وعلى الرابعة ثلاثة أقفال فأردت فتحها فقال لي: سر حتى ترى ما في كل بيت من الخزائن وبعد ذلك تفتح أقفالها وتعرف ما فيها، ثم أخذ بيدي وقمنا فخرجنا إلى البيت الثاني فدخلته فرأيت فيه أربع خزائن: على الخزانة الأولى ستة أقفال وعلى الخزانة الثانية ثلاثة أقفال وعلى الخزانة الثالثة أربعة أقفال وعلى الخزانة الرابعة ستة أقفال، ثم أخذ بيدي فخرجنا من ذلك البيت فدخلت البيت الثالث فرأيت فيه ثلاث خزائن: على الخزانة الأولى خمسة أقفال وعلى الخزانة الثانية أربعة أقفال وعلى الخزانة الثالثة ستة أقفال، ثم أخذ بيدي فخرجنا من ذلك البيت وكل ذلك أدخل من باب وأخرج من باب آخر فدخلت البيت الرابع وإذا فيه ثلاث خزائن: على الخزانة الأولى

سبعة أقفال وعلى الخزانة الثانية خمسة أقفال وعلى الثالثة خمسة أقفال، ثم أخذ بيدي فخرجنا منها فدخلت البيت الخامس فرأيت فيه ثلاث خزائن: على الخزانة الأولى سبعة أقفال وعلى الخزانة الثانية ثلاثة أقفال وعلى الخزانة الثالثة خمسة أقفال، ثم أخذ بيدي وخرجنا نطلب البيت الأوّل لنفتح تلك الأقفال فنبصر ما تحوي عليه تلك الخزائن من الودائع. فدخلت البيت الأوّل إلى الخزانة الأولى فرأيت معلقاً على كل قفل مفتاحه وبعض الأقفال عليه مفتاحان وثلاثة، فرأيت على القفل الأوّل ثلاثة مفاتيح تحوي تلك المفاتيح على أربعمائة حركة فمددت يدي وفتحت ذلك القفل، ثم رأيت على القفل الثالث كذلك ثلاثة مفاتيح تحوي على أربعمائة حركة ففتحت الثالث ورجعت إلى الثاني وعليه مفتاحان وهو قفل مطبق فهما قفلان في قفل واحد يحوي على أربع حركات في حركتين، فلما فتحت الأقفال وأطلعت في الخزائن بدا لي من صور العلوم على قدر حركات مفاتيح تلك الخزانة لا تزيد ولا تنقص، فرأيت علوماً مهلكة ما اشتغل بها أحد إلاّ هلك من علوم العقل المخصوصة بأرباب الأفكار من الحكماء والمتكلمين، فرأيت منها ما يؤدّي صاحبها إلى الهلاك الدائم، ورأيت منها ما يؤدّي صاحبه إلى هلاك ثم ينجو، غير أنه ليس لنور الشرع فيها أثر البتة قد حرمت صاحبها السعادة فيها من علوم البراهمة كثير ومن علوم السحر وغير ذلك، فحصلت جميع ما فيها من العلوم لنجتنبها وهي أسرار لا يمكن إظهارها وتسمّى علوم السرّ، وكان ممّن اختصّ بها من الصحابة رضي الله عنهم حذيفة بن اليمان خصّه بها رسول الله ﷺ فلذلك كان بين الصحابة يقال له صاحب علم السرّ وبه كان يعرف أهل النفاق، حتى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استحلفه يوماً بالله هل فيّ من ذلك شيء؟ قال: لا ولا أقوله لأحد بعدك، وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة بحضور حذيفة حتى يرى حذيفة يقول بالصلاة عليها فإن صلّى حذيفة صلّى عمر وإلاّ فلا، فمن علمها ليحذرها فقد سعد، ومن علمها يعتقدها ويعمل عليها فقد شقي، فلما حصلتها وأحطت بها علماً ونزّهت نفسي بما عصمني الله به من العناية الإلهية عن العمل بها والإتصاف بأثرها شكرت الله على ذلك، وفي هذه المقامات هلك كثير من سالكي هذه الطريقة لأنهم يرون علوماً تتعشق بها النفوس ويكونون بها أرباباً ويكونون بها أشياخاً، والنفوس تطلب الشفوف والرياسة على أبناء جنسها فيخرجون بها فيستعملونها في عالم الملك فيضلون ويضلون فأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل.

ثم إني انتقلت إلى الخزانة الثانية فرأيت على قفلين منها مفاتيح والقفل الثالث لا مفتاح عليه فرأيت على القفل الأوّل ثلاثة مفاتيح تحوي على عشر حركات ففتحته، ثم جئت القفل الثاني فوجدت عليه مفتاحاً واحداً يحوي على أربع حركات فأخذته وفتحت به القفل، ثم جئت إلى القفل الثالث فلم أر عليه مفتاحاً فحرت ولم أدر كيف أصنع فقيل لي: اقرأ على كل قفل لا مفتاح له: إن ربك هو الفتاح العليم، ثم قيل لي: هذا القفل مفتاحه من مفاتيح الغيب لا يعلمه إلاّ هو فقلت ذلك فانفتح القفل وانفتحت الخزانة فرأيت صور العلوم على عدد حركات المفاتيح، ورأيت صورة علم زائد على ما رأيت من الصور التي ظهرت على عدد

حركات المفاتيح فقلت: ما هذا العلم؟ فقال: العلم الساري في المعلومات والعلوم فجميع العلوم معلومات بهذا العلم لا بأنفسها، فعلمت أن أبا المعالي الجوينيّ لما قال: إذ بالعلم يعلم العلم كما يعلم به سائر المعلومات، وأراد أن العلم الذي به يعلم معلوم ما به يعلم نفس العلم وليس الأمر كما زعم بل يعلم العلم بهذا العلم الساري فتكون العلوم به معلومة وهو لا يعلم فاعلم ذلك، فهذا هو الذي أعطاه الكشف كشف المعاني لا كشف الصور، وهذه العلوم التي رأيت في هذه الخزانة الثانية علوم القدرة والاقتدار والعلوم التي تتكوّن عنها الأشياء وتظهر بها الأعيان المضافة إلى الأكوان، وهي أعيان أفعال منسوبة إلى العباد، فهذا المنزل يحكم عليها بالهلاك بسبب العلم الساري الذي صحبها وهو هلاك إضافة ونسبة لا هلاك عين، فالذي هلك إنما هو نسبة هذه الأفعال إلى العباد فيعطيه هذا المنزل أن هذه النسبة ليست بصحيحة وهو عين هلاكها، وأطلعه العلم الساري أنها أفعال الله، فأعيان أفعال العباد بريئة من الهلاك، فحصلت من هذه الحركة علوم التكوين وسرقوا له: ﴿كُنْ﴾ الساري في كل متكوّن.

ثم إني انتقلت إلى الخزانة الثالثة التي عليها ستة أقفال ومفاتيحها على أقفالها، فعلى القفل الأوّل مفتاح واحد يحوي على حركة واحدة، وعلى الثاني مفتاحان يحويان على حركتين، وعلى الثالث مفتاحان يحويان على عشر حركات، وعلى الرابع مفتاح واحد يحوي على ثلاثين حركة، وعلى الخامس مفتاح واحد يحوي على خمس حركات، وعلى السادس مفتاحان يحويان على حركتين، فأخذت المفاتيح وفتحت الأقفال فلما انفتحت الخزانة رأيت جهنم تحطم بعضها بعضاً وفي وسطها روضة خضراء ورأيت رجلاً قد أخرج من النار ووقف به في تلك الروضة ساعة ثم ردّ إلى النار فيعذب بستة أنواع من العذاب ثم يعاد إلى الروضة ساعة ثم يخرج منها إلى النار فيعذب بستة أنواع من العذاب، فحصلت من علم ما يتقى به ذلك العذاب المؤلم والنار المحرقة من ماء شربته من تلك الروضة كانت في تلك الشربة عصمتي.

ثم انتقلت إلى الخزانة الرابعة فرأيت على القفل الأوّل منها مفتاحاً واحداً له ست حركات هندسية، وعلى القفل الثاني ثلاثة مفاتيح تحوي الثلاثة المفاتيح على أربعمائة حركة بصنعة معلومة، وعلى القفل الثالث وهو قفلان في قفل يعرف بالقفل المطبق مفتاحان يحويان على حركتين في أربع حركات، ففتحت الأقفال فرأيت بقية علوم الخزانة الأولى من هذا البيت، غير أن تلك العلوم التي في الخزانة الأولى من هذا البيت يتعلق إهلاكها بأعيان الصفات، وهذه العلوم التي في الخزانة الرابعة يتعلق إهلاكها بأعيان الذوات الموصوفين بتلك الصفات الهالكة، فحصلت علومها أيضاً لأتقيها وأجتنب الأفعال التي تطلبها بالخاصية، وصور العلوم فيها أيضاً على قدر ما تحويه المفاتيح من الحركات، وهكذا هي علوم هذا المنزل كلها عددها على عدد حركات مفاتيحها، ولها تفاصيل وأحوال أضربنا عن ذكرها مخافة التطويل.

ثم انتقلنا إلى البيت الثاني لأطلع أيضاً على ما في خزائنه وهي أربع خزائن، فجئت الخزانة الأولى فإذا عليها ستة أقفال، على القفل الأوّل مفتاح واحد يحوي على أربعين

حركة، ولم أر للقفل الثاني مفتاحاً ففتحته بالاسم، ورأيت على القفل الثالث مفتاحاً واحداً يحوي على حركة واحدة، وفتحت القفل الرابع بمفتاحين وجدتهما عليه يحويان على تسعمائة حركة كل حركة لا تشبه الأخرى، وفتحت القفل الخامس بمفتاحين وجدتهما عليه يحويان على خمسين حركة هندسية، وجئت القفل السادس فلم أر عليه مفتاحاً ففتحته بالاسم، وقد يظهر لبعض المكاشفين الداخلين هذا المنزل هذا القفل السادس وعليه مفتاحان يحويان على عشر حركات وعدم المفتاح أصحّ من وجوده لهذا القفل في حضرة الخطاب الفهواني، والذي يرى له المفتاح فإنما يراه من اللوح المحفوظ، فلما فتحت هذه الخزانة رأيت صور العلوم المخزونة فيها على عدد حركات المفاتيح سواء لا ينقص ولا يزيد وهي علوم الفناء عن الأمر الذي يستند إليه من لا معرفة له بربه سبحانه وتعالىٰ، فحصلت جميع ما فيها من العلوم من علوم الفناء وكأنها تدل على حصر الأمور التي يستند إليها.

ثم خرجت من هذه الخزانة وجئت الخزانة الثانية فرأيت عليها ثلاثة أقفال على القفل الأوّل مفتاح وعلى الثاني مفتاحان وعلى الثالث مفتاح، تحوي هذه المفاتيح على مائة وخمس وعشرين حركة ففتحت الخزانة فإذا علوم من صور علوم لا تؤخذ إلاً عنه فهي ما آخذ عزيزة المثال فحصلتها كلها في لحظة واحدة.

ثم جئت الخزانة الثالثة فإذا عليها أربعة أقفال على القفل الأوّل والثالث والرابع مفتاح مفتاح تحوي هذه المفاتيح على إحدى وسبعين حركة والقفل الثاني لا مفتاح له، ففتحت تلك الأقفال بالمفاتيح والاسم فإذا صور العلوم التي أضلّ بها السامريّ قومه وما هدى فحصلتها لأتقي شرّها وأخذت بها مصرفاً مرضياً عند الله لا تبعة فيه.

ثم جئت الخزانة الرابعة وعليها ستة أقفال، على القفل الأوّل والثاني والرابع والخامس مفتاح مفتاح والثالث لا مفتاح له والسادس عليه مفتاحان يحوي جميع المفاتيح على ثلثمائة وتسع وستين حركة، ففتحت الأقفال بالاسم الإلهيّ والمفاتيح فرأيت صور العلوم التي تحويه وهي العلوم التي تنال بالكسب لا بطريق الوهب وهي العلوم المدركة بالفكر، فحصلتها بطريق العمل حتى لا تبرح مكتسبة.

ثم إني خرجت إلى البيت الثالث فدخلته فرأيت فيه ثلاث خزائن، فقصدت الخزانة الأولى فإذا عليها خمسة أقفال على القفل الثاني ثلاثة مفاتيح والقفل الخامس لا مفتاح له، وبقية الأقفال عليها مفتاح مفتاح، ففتحتها بالاسم والمفاتيح فرأيت فيها صور علوم الاصطلام وهي من علوم الأحوال فحصلتها من طريقها، وخرجت عنها وقصدت الخزانة الثانية فرأيت عليها أربعة أقفال، القفل الثاني والرابع لا مفتاح عليه والقفل الأوّل عليه مفتاحان يحويان على خمسين حركة، والقفل الثالث عليه مفتاح يحوي على مائتي حركة، ففتحتها بالاسم والمفاتيح فإذا هي تحوي على علوم الخوف والمجاهدة وأحوال الشوق والاشتياق وعلم السعير من جهنم لا علم الزمهرير، وعلم ما يكون عنه نضج الجلود في جهنم إذ لا يكون عن النار ولا عن الزمهرير بل عذاب متولد بينهما من مجاورة كل واحد منهما لصاحبه، فيتولد من

امتزاجهما حالة ثالثة ليس هي عين واحد منهما تلك الحالة الحادثة هي العذاب الذي به ينضج الجلود في جهنم، وعلم تبديلها من أيّ حضرة تبدّل وهو مشهد عظيم، فإن التبديل قد ورد النص به في الجلود والسموات والأرض ونفاه عن الخلق فقال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [سورة الروم: الآية ٣٠] ونفاه عن القول الإلهيّ فقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] وقال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٤] كل هذا تتضمنه هذه الخزانة.

ثم جئت الخزانة الثالثة فرأيت عليها ستة أقفال فيها شبه بأقفال الخزانة التي خرجت منها إلى هذه، فالقفل الثاني لا مفتاح له، والقفل الأوّل له مفتاحان، والقفل الثالث عليه ثلاثة مفاتيح، والقفل الرابع والخامس لكل واحد منهما مفتاح، والقفل السادس عليه مفتاحان تحوي هذه المفاتيح على ألف ومائة وسبع وثلاثين حركة، ففتحتها بالاسم والمفاتيح فإذا فيها صور علوم الإرتقاءات والمعارج، ومعرفة اليوم الذي مقداره خمسين ألف سنة، ولكن إذا كانت الإرتقاءات والمعارج من المريدين لا من المرادين فتكون عن شوق ومجاهدة ورياضة ومكابدة.

ثم جئت إلى البيت الرابع فدخلته فإذا فيه ثلاث خزائن، الخزانة الأولى عليها سبعة أقفال القفل الثاني منها لا مفتاح عليه والقفل الأوّل له مفتاح فيه ست حركات، والقفل الثالث يحوي مفتاحه على أربعين حركة، وبقية الأقفال تحوي على ستمائة حركة وست حركات، فجميع حركات مفاتيحها ستمائة وإثنان وخمسون حركة، ففتحتها فإذا فيها علم النكاح وكيف يصحب الإنسان زوجته إذا كانت لا تعينه على طاعة ربه ويقف على قوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢] وهل يستعين الإنسان في عبادة ربه في وضوئه بغيره من صبّ الماء عليه إذا توضأ فإن بعض العلماء كره ذلك، وقد رأى النفيس ابن وهبان السلمي في واقعته كراهة ذلك من النبي ﷺ وأخبرني به، فمن هذه الخزانة يعرف ذلك. ثم جئت الخزانة الثانية فرأيت عليها خمسة أقفال، القفل الثاني منها مطبق والقفل الثالث لا مفتاح له والأوّل له مفتاح وكذلك الثاني والخامس، وأما الرابع فله ثلاثة مفاتيح تحوي هذه المفاتيح على أربعمائة وثمان وسبعين حركة ففتحتها فإذا هي تناسب التي قبلها وتزيد عليها بأمور ليست فيها، ثم جئت الخزانة الثالثة فإذا عليها خمسة أقفال، القفل الأوّل لا مفتاح له، والثاني والثالث والرابع ذو مفتاح مفتاح والخامس مفتاحان، تحوي هذه المفاتيح على ست وأربعين حركة ففتحتها فإذا هي معرفة الحجارة التي توقد بها النار في الآخرة وكيف تكون الحجارة تقبل الوقود وهي يابسة واليابس لا يقبل الوقود في علم الطبائع، وهل يجوز ما طبعه أمر ما أن يزال عنه طبعه مع بقاء عينه وذاته، فإن في هذا العلم زلّ كثير وجهل ممّن أثبت ذلك ونفاه، وكلتا الطريقتين غير محمودتين ولا صحيحتين، وكل واحد منهما أثبته من غير وجهه ونفاه من غير وجهه قال تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٩] وشبه هذا.

ثم جئت البيت الخامس فرأيت فيه ثلاث خزائن، الخزانة الأولى عليها سبعة أقفال، القفل الأوّل والثاني والثالث والرابع لكل واحد منها مفتاحان، والخامس والسادس لكل واحد

مفتاح، والسابع لا مفتاح له، تحوي هذه المفاتيح على مائة وثلاث عشرة حركة ففتحتها فإذا فيها علوم الحسّ والمحسوس، والخيال والمتخيل، والفكر وما يفكر فيه، والحافظ والمحفوظ، والعقل والمعقول، وجميع القوى التي تدرك بها العلوم ومعرفة الجماعات، والأنوار، والاستشرافات، ومجاري الأرواح في طرق السموات، ومجاري الطبيعة في الحيوانات والنبات والجماد، وما يختص به عالم الأنفاس من العلوم، ويقف على نفس الرحمن الذي أتى من قبل اليمن إلى رسول الله ﷺ. ثم جئت الخزانة الثانية فرأيت عليها ثلاثة أقفال، على الأوّل والثالث مفتاح مفتاح وعلى الثاني مفتاحان تحوي هذه المفاتيح على أربعين حركة ففتحتها فإذا فيها علم الأسباب العامة في الوجود والخاصة بأهل الله، وأسباب النزول المضافة إلى الله التي يعتمد عليها ويوصل إلى الله من يعتمد عليها، وطرد من يتركها من باب الله ومن سعادته، وهي علوم شريفة زهد فيها أكثر الناس فشقي، واستعملها بعض الناس فسعد، وتحوي على علم الشرائع المنزلة لا علم الشريعة الحكمية. ثم جئت الخزانة الثالثة فرأيت عليها خمسة أقفال، القفل الأوّل عليه مفتاح وكذلك بقية الأقفال، وتحوي أقفالها على أربعمائة وأربع وثلاثين حركة ففتحتها فإذا فيها صور علوم الإلتفاف، إلتفاف الأرواح بالأجساد، وإلتفاف أرواح المحبين والمحبوبين، وإلتفاف الساقين، وإلتفاف اللام بالألف ومعنى قوله: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [سورة القيامة: الآية ٢٩] وإلتفاف المتضايفين، وهذه كلها علوم الارتباطات، رب ومربوب، وإله ومألوه، وقادر ومقدور، وعالم ومعلوم، فهذه الخزانة تتضمن جميع العلوم. فهذا قد ذكرنا جميع ما يحويه هذا المنزل من خزائن العلوم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢١] غير أني تركت عند الدخول إلى هذا المنزل بيتاً واحداً في دهليز هذا المنزل لا يفتح لكل أحد وقد فتح لي ودخلته وعرفت ما فيه وهو يتضمن ويخزن فيه جميع مفاتيح الخزائن كلها التي تتضمنها هذه المنازل التي في هذا الكتاب، وهو يحوي على أمور جليلة، وللعارف به تحقق في إيجاد الكائنات عنه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وقد نبهنا على بعض ما في هذا المنزل من العلوم.

الباب الرابع والسبعون ومائتان
في معرفة منزل الأجل المسمّى من العالم الموسوي

[نظم: الطويل]

أَتتْكَ فُتوحُ الكون بالبَلَد القَفْرِ ... مؤيّدةً بالعزِّ والقَسْر والنَّصْرِ
وبالليلة الغرَّاء جاءت رَكائبٌ ... من العالَم العُلْويِّ في كَنَف الغَفْرِ
فراجِعْ إذا راجَعْتَ ربَّك وحدَه ... بتَنْزيهِ إيمانٍ تَولَّد عن ذِكْرِ
يُراجِعْكَ من عرشٍ وإن شاء من عَمًى ... بغير هواءٍ حَارَ في كونه فِكْري

قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗا﴾ [سورة الأنعام: الآية ٢] وهو نهاية عمر كل حي يقبل الموت وأجل مسمّى عنده، وهو ميقات حياة كل من كان قبل الموت في حياته الآولى وهو المعبر

عنه بالبعث ولذلك قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٢] يعني فيه، فإن الموت لا يمترون فيه فإنه مشهود لهم في كل حيوان مع الأنفاس، وإنما وقعت المرية في البعث وهو الأجل المسمّى المذكور، وإنما لم يجعل أجل الموت مسمّى لأن الله يقول: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٨] فاستثنى طائفة لا يصعقون فلا يموتون، فإمّا أن يكونوا لكونهم على حقائق لا تقبل الموت فيكون استثناء منقطعاً، وإمّا أن يكونوا على مزاج يقبل الموت لكن لم يسمعوا النفخ فلم يدركهم فلم يصعقوا فيكون استثناء متصلاً.

فاعلم أيها السامع أن أهل الله إذا جذبهم الحق إليه سبحانه من مريد ومراد جعل في قلوبهم داعية إلى طلب سعادتهم فبحثوا عليها وفحصوا عنها ووجدوا في قلوبهم رقة وخشوعاً وطلباً للسلامة ممّا الناس عليه من التكالب والتحاسد والتدابر والتنافر، فإذا وفوا مكارم الأخلاق أو قاربوا ذلك وجدوا في أنفسهم داعية إلى الخلوات والانفراد عن الناس، فمنهم من أخذ في السياحة ولازم الجبال والفلوات، ومنهم من كانت سياحته في البلاد كل ما أنس به أهل بلدة أو عرف فيها رحل عنها إلى غيرها، ومنهم من عزل في مسكنه بيتاً وانفرد به واحتجب عن الناس، كل ذلك ليقع له التفرّد بالحق الذي دعاه إليه والأنس به لا ليعلم ولا ليجد كوناً من الأكوان من خرق عادة في ظاهر الحسّ أو في سرّه، فلا يزال على كل ما ذكرناه إلى أن ينقدح له في نفسه لبعضهم، أو في خياله لبعضهم، أو من خارج لبعضهم من جانب الحق ما يحول بينه وبين نفسه ويستوحش من ذلك الوارد عليه ويطلب الأنس بالمخلوق في تلك الساعة، فإذا سكت حكم الوارد عنه وعاد إلى حسّه اشتاق إليه اشتياقاً شديداً، واستفرغ في محبة ذلك الوارد استفراغاً عظيماً، ووجد حلاوته عند فقده، وسرت اللذة في حسّه وروحه، ويأتيه في ذلك الوارد خطاب وتعريف بحاله أو بما يدعي إليه، كإبراهيم بن أدهم حين نودي من قربوس سرجه: ليس لهذا خلقت ولا بهذا أمرت. وآخر قيل له: إن كنت تطلبني فقد فقدتني في أوّل قدم. وآخر قيل له: أنت عبدي. فإن كان صاحب هذا الانقطاع من أصحاب الجبال والقفار جعل له الأنس في الحيوان، وإن كان سائحاً في البلدان جعل له الأنس في الحركة ما بين المدينتين، وإن كان ممّن لزم بيته جعل له الأنس في الروحانيات وكل هذا ابتلاء، إلاّ أن يجعل الله له الأنس في الأرواح النورية الملكية، فهذا يرجى فلاحه بل يتحقق وهي بشرى من الله سارعت إليه عناية منه به، وما عدا هذا فهو على خطر عظيم فليعمل في قطعه.

ثم إنه منهم من يظلم عليه الجوّ عند الوارد فيجد لذلك غماً وضيق صدر وعصراً في قلبه فليصبر فإنه يعقبه اتساع وانشراح، ثم لا تزال الأرواح تلزمه في عالم خياله في أكثر حالاته وتظهر له في الحسّ في أوقات فلا يرمى بذلك ولا يزهد فيه ويتعمل في إزالة التعلّق به ويقف مع الفائدة التي يأتيه بها فذلك المطلوب، فإن سمع خطاباً من وراء حجاب نفسه ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [سورة ق: الآية ٣٧] ويع ما يسمع، فإن اقتضى الكلام جواباً على قدر

فهمك فلتجب بقدر فهمك، فإن رزقت العلم بذلك فهي العناية الكبرى، وإن لم يقتض جواباً فلتحصل ما قيل لك في خزانة حفظك فإن له موطناً يحتاج إليه فيه ولا بدّ، فيكون عندك بحكم الاستعداد لذلك الوقت، فإن الله سبحانه يقول: أعددت، فإذا كان الحق مع نفوذ قدرته في الآن قد أعدّ أموراً لأوقات ظهور أحكامها فالمخلوق أولى بهذا وقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢١] و«إنْ» هنا بمعنى ما فعمّ بها وبشيء وجعله مخزوناً في خزائن غيبه عنا ولهذا قلنا: إن الكون صادر من وجود وهو ما تحويه هذه الخزائن إلى وجود وهو ظهورها من هذه الخزائن لا نفسها بالنور الذي تكشف به نفسها، فإنها في ظلمة الخزائن محجوبة عن رؤية ذاتها فهي في حال عدمها وقال: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢١] فما يتميز عنده إلاَّ ما هو موجود له، ولا يجري القدر إلاَّ في عين مميزة عن غيرها، وليس هذا صفة المعدوم من كل وجه، فدل ذلك كله على وجود الأعيان لله تعالىٰ في حال اتصافها بالعدم لذاتها، وهذا هو الوجود الأصلي الإضافيّ والعدم الإضافيّ، فثبتت الأحوال للعالم ولكل ما سوى الله، وأن الوجود ليس عين الموجود إلاَّ في حق الحق سبحانه حتى لا يكون معلولاً لوجوده، فإنه لو كان معلولاً لوجوده لكان حالاً له: تعالىٰ الله عن ذلك ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤] فإذا خلص الإنسان بعد خروجه من ظلمة طبعه وهواه إلى نور عقله وهداه أربعين صباحاً ظهر عنه مثل ما ظهر له، وأخذ عنه مثل ما أخذ، وتلك أوّل درجة الدينار الثالث وأوّل قيراط منه، ولا يزال فيه حتى يجب عليه أن يطلب على من يأخذ عنه، فإذا وجب عليه ذلك وجوباً شرعياً كفروض الأعيان كلها كان ذلك أوّل قيراط من الدينار الرابع وسمّي رجلاً عند ذلك، وإن لم يحصل له هذا الوجوب فليس برجل، فكمال الرجولية فيما ذكرناه وسواء كان ذكراً أو أنثى وأمّا الكمال الذاتيّ وهو غير كمال الرجولية فهو أن لا يتخلل عبوديته في نفسه ربانية بوجه من الوجوه، فيكون وجوداً في عين عدم وثبوتاً في عين نفي ولذلك أوجده الحق، فكمال الرجولية عارض وكمال العبودة ذاتيّ، فبين المقامين ما بين الكمالين.

وأما درجات منازل هذين الكمالين فمعلومة عندنا حيث هي، فدرجة الكمال الذاتيّ في نفس الحق، ودرجات الكمال العرضيّ في الجنان، فلهؤلاء النور ولهؤلاء الأجور، قال تعالىٰ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٧] يعني من كمالهم العرضي وما يستحق الأجر من كل أمر عرضيّ، ولهم نورهم من كمالهم الذاتي ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] وتقول الرسل قاطبة وهم الكمل بلا خلاف ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة يونس: الآية ٧٢] فإن ذلك المقام يعطي الأجر ولا بدّ، فيقع التفاضل في الكمال العرضي ولا يقع في الكمال الذاتي. قال تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] وقال: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٣] ولم يقل لهم درجات عند الله، فجعلهم أعيان الدرجات لأنهم عين الكمال الذاتيّ، وبالكمال العرضيّ لهم الدرجات الجنانية، فاعلم ذلك جعلنا الله ممّن جمع بين الكمالين، فإن حرمنا الجمع فالله يجعلنا من أهل الكمال الذاتي بمنّه

وكرمه، وأنا أرجو من الله أني قد حصلته تحصيلاً لا يحال بي دونه بحسن ظني بربي فما أعلاه من مشهد.

فإذا حصل للعبد هذا الكمال العرضي ورأى الإجابة الكونية لندائه من غير طلب دليل ولا برهان علم قطعاً أن الحق قد تجلّى لقلوب عباده، وأنه سبحانه قد رفع الوساطة في أمره بينه وبين قلوب عباده، فإن أمره سبحانه برفع الوسائط لا يتصوّر أن يعصى لأنه بكن إذ كن لا تقال إلاّ لمن هو موصوف بلم يكن، وما هو موصوف بلم يكن ما يتصوّر منه إباية، وإذا كان الأمر الإلهيّ بالوساطة فلا يكون بكن فإنها من خصائص الأمر العدمي الذي لا يكون بواسطة، وإنما يكون الأمر بما يدل على الفعل، فيؤمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فيقال له: أقم الصلاة وآت الزكاة، فاشتق له من اسم الفعل اسم الأمر، فيطيعه من شاء منهم ويعصيه من شاء منهم، فإذا أطاعوه كما قد ذكرنا بهذا التجلي الإلهيّ لقلوب عباده الذي لا يحتاج فيه المأمور إلى دليل ولا برهان لوجود الإجابة من نفسه ضرورة لأن الضرورة إنما تصوّرت هنا لكون الإنسان لا يقدر على دفع ما تكون في نفسه، فإنّ ﴿كُن﴾ إنما تعلقت بما تكون في نفس الإنسان، فكان الحكم لما تكون فيمن تكون، فآمن ولا بدّ، أو صلّى ولا بدّ، أو صام ولا بدّ، على حسب ما تعطيه حقيقة الأمر الذي تعلق به ﴿كُن﴾ وقد يرد أمر الواسطة ولا يرد الأمر الإلهيّ، فلا يجد المخاطب آلة يفعل بها فيظهر كأنه عاص وإنما هو عاجز فاقد في الحقيقة لأنه ما تكوّن فيه ما أمر به أن يتكوّن عنه ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥].

واعلم أن الفتوح الإلهيّ الذي يتعلق بالكون مثل النصر على الأعداء والقهر لهم والرحمة بالأولياء والعطف عليهم إنما هو من نتائج الرجولة لا من غيرها، فإذا حصل هذا المقام وأكمل نشأته ناداه الحق في سرّه من كماله سبحانه لكمال العبد الذاتي، فنزّه ذات موجده عن الكمال العرضي وهو الكمال الإلهي، فإن الكمال الإلهي بالفعل فهو في نفوذ الاقتدار في المقدورات، ونفوذ الإرادة في المرادات، وظهور أحكام الأسماء الإلهية والكمال الذاتي للذات الغنى المطلق عن هذا كله، فيكون العبد في هذا المقام لا يشهد ذات موجده من كونها موصوفة بالألوهة، وإنما مشهده غناها عمّا تستحقه الألوهة من الآثار الكونية فيفتقر إليها افتقاراً ذاتياً، فهو في عبادته تلك صاحب عبادة ذاتية من غير اقتران أمر بها لأن الأمر إنما متعلقه الأمور العارضة لا الذاتية، فلا يقال للعبد كن عبداً فإنه عبد لذاته، وإنما يقال له: اعمل كذا أيها العبد، وعمله أمر عرضي، والعمل متعلق الأمر من العبد، وقد يعمل وقد لا يعمل، وهذا المنزل يعطي جميع ما ذكرناه، ويكون تنزيهه لذات موجده بما يستحقه من الثناء الذي يليق بالكمال الذاتيّ، ثم أنه بما فيه من الكمال العرضي الذي هو كمال الرجولة قد يصدر عنه الثناء بما يستحقه الإله عارضاً بعارض ولكن لا بطريق التنزيه، فإن طريق التنزيه إنما هو للذات كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] للكمال الذاتيّ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] للكمال الإلهيّ لطلب المسموع والمبصر، وكل طالب يستدعي مطلوباً، والمستدعى فاقد لما استدعاه من أحوال هذا العبد ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [سورة

التغابن: الآية ٦] فلسان الأدب أن يقال: طلبك لك لا له، وفي هذا ينبغي أن يقال ما قيل: [الهزج]

كـتـابٌ فـيـه مـا فـيـهِ بـديـعٌ فـي مَـعَـانـيـهِ
إذا عـايَـنْـتَ مـا فـيـه رأيـتَ الـدُّرَّ يَـحْـويـهِ

وهو هذا المنزل، وهذا الكلام الذي سردناه، والكتاب الذي سطرناه ففيه ما فيه لسان الحقيقة يدل على أن الأمر فوق ما ذكر وسطر وليس في قوّة الترجمة عنه، والعبارة أكثر ممّا ظهر والله أكبر من ذلك، ثم ستر هذا اللسان الحقيقي بقوله: بديع في معانيه، فكأنه يقول في قوله «ما فيه» على طريق التعجب به والفرح ولهذا نبّه على ذلك بما ذكره في البيت الثاني، ثم إن الثناء على الله في هذا المنزل خاصة إنما هو بما تستحقه الربوبية لما خصصتك به من الفضل على أبناء جنسك لا بما تستحقه بما فضلت به على غيرك وما أنعمت به على سواك، فإن هذا المنزل لا يتضمن مثل هذا الثناء، فيستعين العبد في هذا المنزل على تنزيه الحق بثناء الربوبية على نفسها من جهة ما خصصتك به. ثم إنّ العبد بعد استفراغ طاقته في الثناء على ربه بربه من جهة نعمته عليه لاح له علم إلهيّ في فلاة نفسه عن يمين طريقه، فعرف أنه قد زلّ عن طريق ينبغي أن يسلك أيضاً عليها، وهنا مسألة دقيقة وهي تختص بهذا المنزل، وذلك أنه لما قيد ثناءه على ربه بما خصّه به ربه هل ذلك نقص في المعرفة أو في معرفته أو ليس في الوسع إلاّ ما وقع؟ وإذا لم يكن في الوسع فقد أتى بكمال ما في الوسع، وذلك أنه إذا أثنى على ربه بما كان منه سبحانه لغير هذا العبد المثنى فلا يخلو إما أن يثني عليه بما تحققه علماً في نفسه ولا يكون إلاّ كذلك فقد صار هو منعوتاً بذلك العلم، وإن لم تقم به تلك الأوصاف التي وقع بها الثناء على الغير فوصفه بالعلم بذلك ثناء منه على ربه بما خصّه به من العلم بذلك وهو صفة إلهية، فإن الحق سبحانه يثني على عبده بما ليس هو الحق عليه ولا هي صفته، فالثناء على الله من ذلك وصفه سبحانه بالعلم بذلك والخلق له فيثني على العبد بالطاعة، وليست من صفات الحق كذلك هذا العبد إذا أثنى على ربه بما أعطى لغيره، فثناؤه على ربه بما أعطاه في نفسه هو ما حصل له من ربه من العلم بذلك، فإذن فما أثنى على ربه إلاّ بما خصّه به سواء أثنى على ربه بما أعطاه سبحانه لغيره أو لم يذكر الغير ولا تعرض له، فتحقق هذه المسألة فإنها من الحقائق والحقائق لا تقبل التبديل، وهذا المنزل من حصل فيه يعطيه ما ذكرناه، فإذا لاح له ذلك العلم الذي ذكرناه ستره نظره إليه عمّا هو عليه، وعرف أن ذلك العلم يدل على أمر غيبي ينبغي له أن يبقيه في غيبه ولا يظهره، ويرجع من حال الخطاب بالمواجهة والحضور إلى الخطاب بالغيبة فإنه أنزه، لأن الحقائق تعطي أنك ما حضرت إلاّ معك، فإن الأمر إذا أعطى للحاضر في حضوره مع من حضر أنه لا يتمكن أن يحضر معه إلاّ على حدّ ما تعطيه مرتبتك فمعك حضرت لا معه، فإنه ما تجلّى لك منه إلاّ قدر ما تعطيه مرتبتك، فافهم ذلك تنتفع به. ولا يغب هذا عنك في رجوعك إليه ممّا رجعت عنه لئلا تتخيل إنك رجعت إلى أعلى منك فإنك ما رجعت منك إلاّ إليك، والحق سبحانه لا يرجع إليك إلاّ بك لا به، لأنه

ليس في الوسع أن يطيقه مخلوق، ولهذا تتنوّع رجعاته وتختلف تجلياته وتكثر مظاهره ولا تتكرر، وهو في نفسه منزّه عن التكثر والتغير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فيما ينسب إلى ذاته.

قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٧١] ليتوبوا فرجوع العباد إليه نتيجة رجوعه إليهم بإعطاء ما رجعوا به إليه، فإذا رجعوا إليه ضاعف لهم الرجوع الإلهي الذي ينتجه رجوعهم إليه الذي هو في نفسه ينتجه رجوعه الأوّل إليهم، فالرجوع الإلهيّ الأوّل رجوع عناية وتفضل، والرجوع الثاني الذي أنتجه رجوعهم إليه سبحانه في قوله: «**مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً**» فمقدار الشبر من الذراع في الرجوع رجوع استحقاق يستحقه رجوعهم إليه، والشبر الثاني الذي به كمال الذراع من الرجوع رجوع منه لترجيح الوزن والوصف بالفضل والترغيب والتحضيض على معاملة الكريم، فالرجوع الإلهيّ الثاني يتضمن أمرين: رجوع الاستحقاق منه بمنزلة الجسد، ورجوع المنة منه بمنزلة الروح للجسد الذي به حياته، فإنه وإن كان الاستحقاق بما أوجبه الحق على نفسه فإن الحقيقة تعطي أن لا يستحق العبد شيئاً على سيده، فمن منته سبحانه على عبده أن أوجب له على نفسه ليأنس العبد بما أوجبه الحق عليه من طاعته ليسارع بأداء ما وجب عليه، فإذا حصل العبد في هذا المقام فليس وراءه مرمى لرام، ويعلم أن الله قد أراد أن ينقله من عالم شهادته إلى عالم غيبه، ليكون له غيبة شهادة في موطن آخر غير هذا الموطن له حكم آخر وهو الموطن الذي تكون فيه المظاهر الإلهية وهو أوسع المواطن، فلهذا عبر عن هذا المنزل بالأجل المسمّى لأنه أجل البعث إليه من عالم الشهادة المقيد بالصورة التي لا تقبل التحوّل في الصور لكن تقبل التغيير، وهو زوال عينها بغيرها لذلك الغيب الذي كانت به فيدبر الروح الغيبي صورة ذلك الغير، فلهذا قلنا: يقبل التغيير ولا يقبل التحويل فإن الحقائق لا تتبدّل، فانتقاله إلى موطن التحوّل في الصور يسمّى أجلاً مسمّى أي معلوم النهاية، وكان من المقام الموسوي دون غيره لأنه لم يرد في الخبر أنه عليه السلام رأى في إسرائه من جمع بين صورتين سوى موسىٰ عليه السلام فرآه في السماء وكان بينهما ما كان وهو في قبره يصلي والنبيّ يراه ﷺ عليهما في الحالتين معاً، ولا يقال في مثل هذا الكشف أن الآن لا يتسع لأمرين متعارضين في الشخص الواحد فصحيح ما يقول، ولكن أين الآن هنا؟ إنما ذلك لمن تقيد بالزمان وتعين بالمكان، فإذا كان الموجود لا يتقيد بالزمان ولا بالمكان فلا يستحيل هذا الوصف عليه، وإذا فهمت ما أشرنا إليه لم يعارض ما ذهبنا إليه وذكرناه كون الإسراء وقع بالليل وهو الزمان، وكون موسىٰ عليه السلام في القبر والسماء وهما المكان، فإنك أنت تسلم من مذهبك أن الجسم لا يكون في مكانين وأنت تؤمن بهذا الحديث، فإن كنت مؤمناً فقلد، وإن كنت عالماً فلا تعترض فإن العلم يمنعك، وليس لك الاختبار فإنه لا يختبر إلاّ الله، ولا تتأوّل أن الذي في الأرض غير الذي في السماء، فإن النبي عليه السلام ما قال: رأيت روح موسىٰ ولا جسد موسىٰ، وإنما قال: رأيت موسىٰ في السماء، ومعلوم أنه مدفون في الأرض، وكذلك سائر من رآه من الأنبياء عليهم السلام،

فالمسمّى موسىٰ إن لم يكن عينه، فالإخبار عنه كذب أنه موسىٰ هذا وأنت القائل: رأيتك البارحة في النوم وأنت تقول كذا وكذا، والمرئيّ معلوم أنه كان في منزله على حالة غير الحال التي رآه عليها أو عليها ولكن في موطن آخر، ولا تقول له رأيت غيرك ثم تنكر علينا مثل هذا، وإنما تختلف الحضرات والمواطن، وتختلف الأحوال والعين واحدة.

فهذا قد ذكرنا بعض ما يحوي عليه هذا المنزل وسكتنا عن بيوته وخزائنه، فما من منزل إلاّ وله بيوت وخزائن وأقفال ومفاتيح، ولكن يطول ذكرها في كل منزل، وربما إذا بيّناها يدعيها الكاذب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. وفي هذا المنزل علم إتيان المعاني في الصور وعلم الفتوح وله باب قد تقدّم، وعلم الوافدين على الحق، وعلم التنزيه، وعلم الستر والتجلي، وعلم الرجوع الإلهيّ على من يرجع هل يرجع على عباده أو على أسمائه؟

الباب الخامس والسبعون ومائتان

في معرفة منزل التبري من الأوثان من المقام الموسويّ وهو من منازل الأمر السبعة

[نظم: السريع]

مـــنـــازلُ الأمـــر بـــالـــنِّـــدَا ... مـــنـــازلٌ مـــا لـــهـــا انْـــتِـــهَـــاءُ
يـــا أيُّ يـــا أيُّ لا تـــفـــارِقْ ... فـــكَـــوْنُـــكـــم مـــا لـــه انْـــقِـــضَـــاءُ
وأيُّ أيِّ يـــكـــونُ مـــنـــه ... لـــوَجْـــهِـــه بـــيْـــنَـــنَـــا رآءُ
عَـــسَـــاكِـــرٌ لـــلـــحـــروف جـــاءتْ ... يَـــضـــيـــق عـــن حَـــمْـــلـــهـــا الـــفَـــضَـــاءُ
أرمَـــاحُـــهَـــا كـــلُّـــهـــا نـــجـــومٌ ... أيَّـــدَهـــا الأمـــرُ والـــقَـــضَـــاءُ
سَـــفَـــائِـــنٌ بـــحـــرُهـــا عـــمـــيـــقٌ ... قـــد مَـــخَـــرَتْ ريـــحُـــهـــا رُخَـــاءُ
فَـــلْـــتـــلْـــتـــزِمْ يـــا أُخَـــيَّ عـــلـــمـــاً ... ضـــاقَ لـــه الأرضُ والـــســـمـــاءُ
ولْـــتَـــتْـــرُكِ الـــغَـــيْـــرَ فـــي عـــمـــاهُ ... بـــمَـــشْـــهَـــدٍ مـــا هـــو الـــعَـــمَـــاءُ

اعلم أن الذلّة والافتقار لا تكون من الكون إلاّ لله تعالىٰ، فكل من تذلّل وافتقر إلى غير الله تعالىٰ واعتمد عليه وسكن في كل أمره إليه فهو عابد وثن، وذلك المفتقر إليه يسمّى وثناً ويسميه المفتقر إلهاً، وألطف الأوثان الهواء وأكثفها الحجارة وما بينهما، ولهذا قال المشركون لما دعوا إلى توحيد الإله في ألوهته: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٥] فالناس يحملون قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أنه من قول الكفار حيث دعاهم إلى توحيد إله وهم يعتقدون كثرتها، وهو عندنا من قول الحق أو قول الرسول. وأما قول الكفار فانتهى في قوله: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ والتعجب أنه بأوّل العقل يعلم الإنسان أن الإله لا يكون بجعل جاعل فإنه إله لنفسه، ولهذا وقع التوبيخ بقوله تعالىٰ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٥] والإله في ضرورة العقل لا يتأثر، وقد كان هذا خشبة يلعب بها أو حجراً يستجمر به ثم أخذه وجعله إلهاً يذل ويفتقر إليه ويدعوه خوفاً وطمعاً، فمن مثل هذا يقع التعجّب مع وجود العقل

عندهم، فوقع التعجّب من ذلك ليعلم من حجب العقول عن إدراك ما هو لها بديهي وضروري ذلك لتعلموا أن الأمور بيد الله وأن الحكم فيها لله وأن العقول لا تعقل بنفسها وإنما تعقل ما تعقله بما يلقي إليها ربها وخالقها ولهذا تتفاوت درجاتها، فمن عقل مجعول عليه قفل، ومن عقل محبوس في كن، ومن عقل طلع على مرآته صدأ، فلو كانت العقول تعقل لنفسها لما أنكرت توحيد موجدها في قوم وعلمته من قوم، والحدّ والحقيقة فيهما على السواء فلهذا جعلنا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ليس من قول الكفار.

فاعلم يا أخي أن هذا المنزل هو منزل من منازل الستر والكتمان، وتقرير الألوهة في كل من عبد من دون الله لأنه ما عبد الحجر لعينه وإنما عبد من حيث نسبة الألوهة إليه، ولهذا ذكرنا أنه من منازل الكتمان والستر، قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٧] فما ذكروا قط إلاَّ الألوهية وما ذكروا الأشخاص، ولكن لم يقبل الله منهم العذر بل قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي الذي انفرد بهذا الاسم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٩٨] وهو قوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤] وهو كل من دعاكم إلى عبادة نفسه أو عبدتموه وكان في وسعه أن ينهاكم عن ذلك فما نهاكم فمثل هؤلاء يكونون من حصب جهنم، فالموحد يعبد الله من طريقين: من طريق الذات من كونها تستحق وصف الألوهة، ومن طريق الألوهة، فالسعيد الجامع بينهما لأن العابد مركب من حرف ومعنى، فالحرف للحرف والمعنى للمعنى، فلذلك لم نعبد الذات معراة عن وصفها بالألوهية، ولم تعبد الألوهية من غير نسبتها إلى موصوف بها، فلم تقم العبادة إلاَّ على ما تقتضيه حقيقة العبد وهو التركيب لا على ما تقتضيه حقيقة الحق وهو الأحدية، ولهذا يكون القائل في عبادته وفاء لحق الله غير مصيب إذا أراد الذات فإن حقيقتها الأحدية، وقد يمكن أن يصح قول من قال: إنما أعبده وفاء لحق الربوبية لا لحقيقتها إذ كل حق لها حقيقة، فالحق من ذلك به تتعلق العبادة من العابد، والحقيقة هي الأحدية التي لا تتعلق ولا يتعلق بها، ولهذا كانت الألف في الوضع الإلهيّ بالخط العربي إذا تقدمت في الكلمة لا تتصل ولا يتصل بها، وإذا تأخرت اتصل بها بعض الحروف ممّن لا علم له بالأحدية المطلقة التي تستحقها هذه الذات إلاَّ خمسة أحرف لا غير من جميع الحروف وهي: الدال والذال والراء والزاي والواو، وهي خمسة أحوال من اتصف بها عرف الأحدية، وكانت عبادته ذاتية لم يقترن بها أمر وهي عبادة المعنى للمعنى، فإن الأمر عبادة الحرف للحرف، فلا يخطر لعابد المعنى فرق بين الذات والألوهية ولا كثرة، بل يرى عيناً واحدة تستحق ما هو عليه هذا العارف من حيث معناه لا من حيث حرفه، وهذا مقام الجلال والعظمة وأحدية العبد التي أعطته معرفة الأحدية الذاتية والتنزيه والغنى، فهذه أحوال خمسة تدل عليها الحروف الخمسة التي لا تتصل بها الألف الواقعة في أواخر الكلم مثل جبيرا وعزيزا وأحدا وإذا وعلوا، فدلّت الألف في أوّل الكلمة من عدم الاتصال على قوله: «كان الله ولا شيء معه» وهو على ما عليه كان مع وجود الأشياء من عدم الاتصال كما لم تتصل الألف بالكلمة،

ودلّ عدم اتصال الحروف الخمسة بها في آخر الكلمة على حال معرفة مقام بعض العباد من العلماء بالله دون غيرهم حيث رفعوا النسبة بينهم وبين الله تعالىٰ، وأنهم مشاهدون لما ذكرناه من الجلال والعظمة والأحدية والتنزيه والغنى، وما عدا هذه الطائفة جعلوا نسبة ورابطة بين الإله والمألوه، وما فرقوا بين المرتبة والذات لما لم يعرفوا الله إلاّ من نفوسهم بحكم الدلالة لاستناد الممكن إلى المرجح فطلبوه وطلبهم، ولهم من الحروف كل حرف اتصل بالألف في آخر الكلمة.

ولهؤلاء الأكابر أيضاً قسم وحظ وافر في منزل هذه الحروف التي اتصلت من حيث حرفيتهم لا من حيث معناهم، وهؤلائك جهلوا هذا القدر الفارق بينهم لكنهم ستروا ذلك عن العامّة وانفردوا به عن أشكالهم ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٥] ولأجل هذا قال الجنيد سيد هذه الطائفة: لا يبلغ أحد درج الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق بأنه زنديق، فإن هذا المقام يضرّ بمن ليس من أهله كما يضرّ رياح الورد بالجعل، لأن الحال التي هم عليها لا تقبل هذا المقام ولا يقبلها، فإذا رآهم الناس في العموم لم يعرفوهم لأنه ليس على حرفهم أمر ظاهر يتميز به عن العامّة، وإذا رآهم الناس في الخصوص كالفقهاء وأصحاب علم الكلام وحكماء الإسلام قالوا بتكفيرهم، وإذا رآهم الحكماء الذين لم يتقيدوا بالشرائع المنزّلة مثل الفلاسفة قالوا: إن هؤلاء أهل هوس قد فسدت خزانة خيالهم وضعفت عقولهم، فلا يعرفهم سواهم ومن اقتطعهم من خلقه إليه، قال تعالىٰ في المعنى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩١] ولهؤلاء حظ وافر في هذه الآية حيث جهلهم العامّ والخاص والمسلم وغير المسلم، فهم الضنائن المصانون بحجب الغيرة فلا يعرفهم إلاّ الحق، وهل يعرف بعضهم بعضاً؟ فيه توقف، وهم المطلوبون من العباد ألحقنا الله بهم وأرجو أن أكون منهم.

وأمّا تبرّي المسلم ممّن استند إليه المشرك فليس تبرؤه إلاّ من النسبة ومن المنسوب إليه لا من المنسوب، فاجتمع المشرك والمسلم في المنسوب وافترقا في المنسوب إليه والنسبة، ولهذا لم تضرب الجزية على المشرك، وفرق بينه وبين الكفار من أهل الكتب المنزلة، فإن المشرك قادح في الحق وفي الكون بشركه فلم يكن له مستند يعصمه من القتل لأنه قدح في التوحيد وفي الرسل، والكفار من أهل الكتاب لم يقدحوا في التوحيد ولا في الكون أعني الرسل، لكن قدحوا في رسول معين لهوى أو شبهة قائمة بنفوسهم أدّاهم ما قام بهم إلى جحود الحق ظلماً وعلوّاً مع اليقين به. وأمّا لشبهة قامت بهم لم يثبت صدق صاحب الدعوى عندهم، فلهذا كان لهم في الجملة مستند صحيح عندهم لا في نفس الأمر يعصمهم من القتل، فضربت عليهم الجزية وتركوا على دينهم ليقيموه أو يقيموا بعضه على قدر ما يوفقون إليه، وهنا نكتة لمن فهم أن دينهم مشروع لهم بشرعنا حيث قرّرهم عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا سمع أن الروم قد ظهرت على فارس يظهر السرور في وجهه مع كون الروم كافرين به ﷺ، ولكن الرسول لعلمه ﷺ كان منصفاً لأنه علم أن مستند الروم لمن استند إليه

أهل الحق لأنهم أهل كتاب مؤمنون به، لكنهم طرأت عليهم شبهة من تحريف أئمتهم ما أنزل عليهم حالت بينهم وبين الإيمان والإقرار بنبوّة محمد ﷺ أو بعمومها، وكلامنا مع المنصف منهم من علمائهم فعذرهم الشرع لهذا القدر الذي علمه منهم وراعى فيهم جناب الحق تعالىٰ حيث وحدوه، وما أشركوا به حين أشرك به فارس وعبدة الأوثان وقدحت في توحيد الإله وما يستحقه من الأحدية، وهكذا حال العارفين من أهل هذا المقام.

وأما قول رسول الله ﷺ في أمره إيانا بمخالفة أهل الكتاب إنما هو في كونهم آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه وأرادوا أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً، فأمرنا بمخالفتهم في أمور من الأحكام معينة وفيما ذكرناه، ولو أمرنا بمخالفتهم على الإطلاق لكنا مأمورين بخلاف ما أمرنا به من الإيمان فلا تصحّ مخالفتهم على الإطلاق، فهذا المراد بقوله ﷺ: «**خَالِفُوا أَهْلَ الكِتَابِ**» واعلم أن كل مشرك كافر، فإن المشرك باتباع هواه فيمن أشرك واتخذه إلهاً وعدوله عن أحدية الإله يسترها عن النظر في الأدلة والآيات المؤدية إلى توحيد الإله فسمّي كافراً لذلك الستر ظاهراً وباطناً، وسمّي مشركاً لكونه نسب الألوهية إلى غير الله مع الله فجعل لها نسبتين فأشرك، فهذا الفرق بين المشرك والكافر. وأما الكافر الذي ليس بمشرك فهو موحد غير أنه كافر بالرسول وببعض كتابه، وكفره على وجهين: الوجه الواحد أن يكون كفره بما جاء من عند الله مثل كفر المشرك في توحيد الله، والوجه الآخر أن يكون عالماً برسول الله وبما جاء من عند الله أنه من عند الله ويستر ذلك عن العامة والمقلدة من أتباعه رغبة في الرياسة، وهو الذي أراد عليه السلام بقوله في كتابه إلى قيصر: «**فَإِنْ تَوَلَّيتَ فَإِنَّ عَلَيكَ إِثم الأَرِيسِيِّينَ**» يعني الأتباع.

واعلم أن التأيّه والندا مؤذن بالبعد عن الحالة التي يدعوه إليها من يناديه من أجلها فيقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٦] فلبعدهم ممّا أيه بهم أن يؤمنوا به لذلك أيه بهم، فإن كانوا موصوفين في الحال بما دعاهم إليه فيتعلق البعد بالزمان المستقبل في حقهم أي أثبتوا على حالكم الذي ارتضاه الدين لكم في المستقبل كما قال يعقوب لبنيه: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٢] في حال حياتهم، فأمرهم بالإسلام في المستقبل أي بالثبوت عليه، والإستقبال بعيد عن زمان الحال، فيكون التأيّه أيضاً بما هو موجود في الحال أن يكون باقياً في المستقبل، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [سورة المائدة: الآية ١] وهم في حال الوفاء بعقد الأيمان فإنه نعتهم في تأيّهه بهم بالأيمان، فكان البعد في العقود إذا قبلوها متى قبلوها.

واعلم أن النداء الإلهي يعم المؤمن والكافر والطائع والعاصي والأرواح والروحانيين، ولا يكون النداء إلاّ من الأسماء الإلهية ينادي الاسم الإلهي من حكم عليه اسم إلهي غيره إذا علم أنه قد انتهت مدة حكمه فيه فيأخذه هذا الاسم الذي ناداه كذلك دنيا وآخرة، فجميع من سوى الله تعالىٰ منادى يناديه اسم إلهيّ لحال كوني يطلبه به ليوصله إليه، فإن أجاب سمّي مطيعاً وكان سعيداً، وإن لم يجب سمّي عاصياً وكان شقياً، فإن قال قائل: كيف يكون النداء

من اسم إلهيّ ويقف الكون عن إجابته مع ضعفه وقبوله للاقتدار الإلهيّ؟ قلنا: لم تكن إبايته عن إجابته من حيث نفسه وحقيقته لأنه مقهور دائماً، ولكن لما كان تحت قهر اسم إلهيّ لم يتركه ذلك الاسم أن يجيب من ناداه، فالتنازع وقع بين الأسماء الإلهيّة وهم أكفاء، والحكم لصاحب اليد وهو الاسم الذي هو في يده في وقت نداء الاسم الآخر فلهذا كان أقوى للحال. فإن قلت: فلماذا يؤاخذ بالإباية؟ قلنا: لأنه ادّعى الإباية لنفسه ولم يضفها إلى الاسم الإلهيّ الذي هو تحت قهره. فإن قلت: فالأمر باق فإنه إنما أبى لقهر اسم إلهيّ كانت الإباية عنه في هذا المدعوّ. قلنا: صدقت ولكنه جهل ذلك فأخذ بجهله فإن الجهل له من نفسه. فإن قلت: فإن جهله من اسم إلهيّ حكم عليه. قلنا: الجهل أمر عدمي لا وجودي والأسماء الإلهيّة تعطي الوجود ما تعطي العدم، فالعدم للمدعوّ من نفسه والجهل عدم العلم، فلم يدر المعترض ما اعترض به، والأسماء الإلهيّة لا تعطي إلاّ الوجود فلم يلزم ما ذكرته، وانقطع الاعتراض من هذا القائل بما ذكرناه.

وإذا ثبت أن النداء يعمّ فالمنادى به أيضاً يعمّ، ولكن نداء الحق لا يكون إلاّ بما يكون في إجابته السعادة للعبد، وأما النداء بما يكون فيه الشقاوة للعبد فذلك ليس نداء الحق والنداء من صفة الكلام، فكل فعل يفعله العبد ينقسم إلى أمرين: إلى فعل فيه سعادة ذلك العبد وهو الذي يقترن به نداء الحق تعالىٰ، وفعل لا يقترن به سعادة العبد فليس عن نداء الحق لكنه عن إرادة الحق وخلقه لا عن ندائه وأمر شرعه، ونفي السعادة فيه على قسمين: الواحد أن يكون فعلاً لا يقترن به شقاوة ولا سعادة، أو يكون فعلاً تقترن به شقاوة، والفعل الذي تقترن به الشقاوة على قسمين: قسم تقترن به على الأبد وهي شقاوة الشرك، وشقاوة لا تقترن به على الأبد وهو كل فعل لا يكون شركاً ولا نداء للحق فيه البتة، فهذا المنزل هو منزل النداء لا منزل الأفعال، وسيأتي إن شاء الله منازل الأفعال، ويشتبه على بعض العارفين هذا المنزل وإخوانه بمنزل الأفعال لكونه يرى النداء بالأفعال وليس المنزل واحداً في ذلك بل النداء له منزل والفعل له منزل.

واعلم أن النداء على مراتب لكل مرتبة أداة معينة، فالأدوات الهمزة ويا وأيا وهيا وأي مسكنة الياء فأقربها الهمزة في الرتبة وأبعدها هيا، والنداء قد يصحبه التنبيه وقد لا يصحبه التنبيه، فإذا كان النداء بأي فهو نكرة فلا بدّ من التنبيه لأن النداء إنما يطلب التعريف وهو بنفس المنادى، فلا بدّ أن يصحب هاء التنبيه لأي في النداء لأن التنبيه تعريف، ثم يردف التنبيه باسم المنادى ليعرف المنادى أنه منادى دون غيره، فإن كان اسمه ناقصاً كالذين فلا بدّ له من صلة وهو الذي يصفه به ليتم به المقصود، ولا بدّ من رابط بين هذه الصلة والموصول ليعلم أنه المراد بذلك النداء، وإن لم يردف باسم ناقص لم يحتج إلى ما ذكرناه فيقال: يا أيها الناس وأمثال هذا، وأما إذا لم يقترن بالنداء أي فإن النداء يتصل باسم المنادى، وقد يكون منادى منكوراً مطولاً مثل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ [سورة يس: الآية ٣٠] ومثل قوله: يا عجباً. قال الشاعر: [الرجز]

يـا عَـجَـبـاً لـهـذه الـفَـلِـيْـقَـهْ هـل تُـذْهِـبـيـن الـقُـرَّ بـالـرَّبـيـقَـهْ

وقد يكون منادى يعرف مثل: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سورة سبأ: الآية ١٠] ولا يكون ما بعد النداء أبداً إلاَّ منصوباً إما لفظاً وإما معنى، ولهذا عطف بالمنصوب على الموضع في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ [سورة سبأ: الآية ١٠] بالنصب عطفاً على موضع ﴿يَٰجِبَالُ﴾ وإن كان مرفوعاً في اللفظ فقد يراعى اللفظ في أوقات ولهذا قرىء أيضاً والطير بالرفع، ولكل فصل من هذه الفصول حقائق إلهية لولا التطويل لذكرناها فصلاً فصلاً، فتركناها لمن يقف على كلامنا من العارفين كالتنبيه لهم على ما يتضمنه منزل النداء من المعاني الإلهية وأن الكون مرتبط بعضه ببعض ارتباط المعاني بالكلمات، وربما جعلوا الواو من أدوات النداء ولكن خصّوها بنداء خاص لحال خاص بخلاف سائر الأدوات، فخصّوها بالانتداب فينادون الميت: واجبلاه واسنداه، وبه يعذب الميت الملك يطعنه في خاصرته أن هكذا كنت، ويقولون: وازيداه واسلطاناه، ولا بدّ في هذا النداء من إدخال الهاء هاء السكت في آخره لأنه ليس من شرط هذا النداء أن يقال بعده شيء فلهذا أدخل هاء السكت عليه فيكتفي به فيقول: واجبلاه واحزناه، ولا يحتاج إلى أمر آخر. وإذا قلت: يا زيد وناديته بسائر حروف النداء من غير نداء الندبة فلا بدّ أن تذكر السبب الذي ناديته من أجله فتقول: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ﴾ [سورة المائدة: الآية ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ﴾ [سورة النساء: الآية ١] فلا تكون هاء السكت إلاَّ في نداء الندبة خاصة، وأما النداء المرخم فإنهم يريدون به تسهيل الكلام ليخف على المنادي ليصل إلى المقصود مسرعاً بما حذفه من الكلمة، فإن الترخيم التسهيل، ومنه رخيم الدلال في وصف المعشوق المستحسن أي هو سهل، ومثل الترخيم في المرخم هو أن تحذف الآخر من اسم المنادى فتقول إذا ناديت من اسمه حارث: يا حار هلم فحذفت آخر الكلمة طلباً للتسهيل.

ولتعلم أن الأسماء وأسماء الأفعال على قسمين: معرب ومبني فما تغير آخره بدخول العوامل سمّي معرباً، والإعراب التغيير يقال: أعربت معدة الرجل إذا تغيرت، وقد تغير هذا الاسم من حال إلى حال، هذا بعض وجوه اشتقاقه من كونه سمّي معرباً. والمبني هو كل اسم لفعل كان أو لغير فعل ثبت على صفة واحدة لفظه، ولم يؤثر فيه دخول العوامل التي تحدث التغيير في المعرب عليه فسمّي مبنياً من البناء لثبوته وعدم قبوله للتغيير، وهذا له باب في الصفة الثبوتية للإله من كونه ذاتاً، ومن ثبوت نسبة الألوهية إليه دائماً، والمعرب له باب في المعارف الإلهية من قوله: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] فهذا الفرق بين المعرب والمبني، فإذا رخم الاسم فقد ينتقل إعرابه إلى آخر ما يبقى من حروف الكلمة فتقول: يا حار هلم بعدما كانت الراء مكسورة نقل إليها حركة الثاء ليعرف السامع أنه قد حذف من الاسم حرف، فإنه إنما يعرف المنادى اسمه إذا كان اسمه حارثاً بالثاء، فإذا حذف الثاء ربما يقول ما هو أنا، فإذا نقل إلى الراء حركة الثاء علم أنه المقصود، كذلك إذا نودي العبد باسم إلهيّ ربما يقع في نفسه أنه جدير بذلك الاسم فينقل

وصف عبوديته إلى ذلك الاسم الإلهيّ الذي نودي به هذا العبد فيعرف أنه المقصود من كونه عبداً لاستصحاب الصفة له هذا إذا نقل، وإذا لم ينقل حركة المحذوف من الاسم لما بقي وترك على حاله كان القصد في ذلك قصداً آخر وهو ترك كل حق على حقيقته حتى لا يكون لكون أثر في كون، ولا يظهر لكون خلعة على كون ليكون المنفرد بذلك هو الله تعالىٰ، فإن الضمة التي على الثاء من حارث هي لباسه، فإذا خلعها على الراء في الترخيم فقد خلع كون على كون، فربما قصده المخلوع عليه بالعبودية له والثناء عليه، والخلع على الحقيقة إنما هو للمتكلم المنادى لا لحرف الثاء، فالمنادى هو الذي خلع على الراء الرفع الذي كان لحرف الثاء لما أزال عينه من الوجود كخلع القطبية والإمامة من الشخص الذي فقد عينه إلى الشخص الذي قام في ذلك المقام، إذ كان الله هو الذي أقامه لا هذا الإمام الذي درج، فهذا قد بيّنا في هذا المنزل بعض ما عندنا من أسرار ليقع التنبيه على ما فيه للطالب إن شاء الله تعالىٰ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والسبعون ومائتان
في معرفة منزل الحوض وأسراره من المقام المحمدي

[نظم: البسيط]

الحَوْضُ منزلُ وصفِ الماءِ بالكَدَرِ — وهي العلومُ التي تختَصُّ بالبَشَرِ
فالماءُ في العين صافٍ ما به كَدَرٌ — والقَعْرُ يُظْهِرُ ما فيه من الكَدَرِ
وعلّةُ الرَّنْق كَوْن الفكر يُنْتِجُه — فاطلبْ من العلم ما يسمو عن الفِكَرِ
إن الخيالَ إذا جاءته قَيَّدها — بالفكر في عالَم الأجساد والصُّوَرِ
والفكرُ من صُوَرٍ وقتاً يخلِّصها — لكنه غيرُ معصوم من الضَّرَرِ
فاطلبْهُ بالذِّكر لا بالفكر تَحْظَ به — منزَّهاً خالصاً من شائب الغِيَرِ

اعلم أيّها الوليّ الحميم نوّر الله بصيرتك وحسّن سريرتك أن العلوم على قسمين: موهوبة وهو قوله تعالىٰ: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٦] وهي نتيجة التقوى كما قال تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] وقال: ﴿إِن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩] وقال: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ١، ٢] ومكتسبة وإليها الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٦] يشير إلى كدّهم واجتهادهم وهم أهل الاقتصاد والضمير في أرجلهم يعود على الذين ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وهم الذين أقاموا كتاب الله ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٦] وهم المسارعون في الخيرات ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٦١] فمنهم من سبق بالخيرات، ومنهم من أقام الكتاب من رقدته، فإن التأويل من العلماء أضجعه بعدما كان قائماً، فجاء من وفّقه الله فأقامه من رقدته أي نزّهه عن تأويله والتعمّل فيه بفكره فقام بعبادة ربه وسأله أن يوقفه على مراده من تلك الألفاظ التي حواها الكتاب والتعريف من المعاني المخلصة عن المواد فأعطاهم

الله العلم غير مشوب قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧] يعلمهم الحق ما يؤول إليه هذا اللفظ المنزّل المرقوم وما أودع فيه منَ المعاني من غير فكر فيه، إذ كان الفكر في نفسه غير معصوم من الغلط في حق كل أحد ولهذا قال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧، ٨] يعني بالفكر فيما أنزلته ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى الأخذ منك علم ما أنزلته إلينا ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٨] فسأله من جهة الوهب لا من جهة الكسب، ولهذا جعلنا الضمير يعود على الذين أكلوا من فوقهم.

يقول: ومن تحت أرجل هؤلاء أمم منهم أمة مقتصدة وهم أهل الكسب وهم الذين يتأوّلون كتاب الله ولا يقيمونه بالعمل الذي نزل إليه ولا يتأدبون في أخذه وهم على قسمين القليل منهم المقتصد في ذلك وهو الذي قارب الحق، وقد يصيب الحق فيما تأوّله بحكم الموافقة لا بحكم القطع، فإنه ما يعلم مراد الله فيما أنزله على التعيين إلاّ بطريق الوهب وهو الإخبار الإلهيّ الذي يخاطب به الحق قلب العبد في سرّه بينه وبينه ومن لم يقتصد في ذلك وتعمّق في التأويل بحيث أنه لم يترك مناسبة بين اللفظ المنزّل والمعنى، أو قرّر اللفظ على طريق التشبيه ولم يردّ علم ذلك إلى الله فيه وهم الذين قال الله فيهم في الآية عينها: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٦] وأيّ سوء أعظم من هذا؟ وهؤلاء هم القسم الثاني. ولما شاهد الرسول هذا الأمر وقد بعث رحمة بما نزل به ورأى الكثير لم تصبه هذه الرحمة وأن علة ذلك إنما كان تأويلهم بالوجهين من التشبيه أو البعد عن مدلول اللفظ بالكلية تحير في التبليغ وتوقف حتى يرى هل يوجب ذلك عليه ربه أم لا؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٦] وقيل له: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٨] وقيل له: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٢] فيما يجري منهم من خير وشرّ، وقيل له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [سورة القصص: الآية ٥٦] فعلم الرسول أن المراد منه التبليغ لا غير، فبلغ ﷺ وما أخفى ممّا أمر بتبليغه شيئاً أصلاً فإنه معصوم محفوظ قطعاً في التبليغ عن ربه ما أمر بتبليغه وما خصّ به فهو فيه على ما يقتضيه نظره، فالتقدير في الآية على التفسير ومن تحت أرجلهم أمم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون. ولهذا قال لنبيه: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٦] وقال: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٢].

فأشرف العلوم ما ناله العبد من طريق الوهب، وإن كان الوهب يستدعيه استعداد الموهوب إليه بما اتصف به من الأعمال الزكية المشروعة، ولكنه لما لم يكن ذلك شرطاً في حصول هذا العلم لذلك تعالىٰ هذا العلم عن الكسب، فإن بعض الأنبياء تحصل لهم النبوّة من غير أن يكونوا على عمل مشروع يستعدون به إلى قبولها، وبعضهم قد يكون على عمل مشروع فيكون ذلك عين الاستعداد، فربما يتخيل من لا معرفة له أن ذلك الاستعداد لولاه ما حصلت النبوّة فيتخيل أنها اكتساب والنبوّة في نفسها اختصاص إلهيّ يعطيه لمن شاء من عباده

وما عنده خبر بشرع ولا غيره ولا يعرف من هو ولا بما هو الأمر عليه، فلو كان الاستعداد ينتج هذا العلم لوجد ذلك في الأنبياء ولم يقع الأمر كذلك، فإن النبوّة غير مكتسبة بلا خلاف بين أهل الكشف من أهل الله، وإن كان اختلف في ذلك أهل الفكر من العقلاء فذلك من أقوى الدلالات عندنا على أن الفكر يصيب العاقل به ويخطىء، ولكن خطأه أكثر من إصابته لأنّ له حدّاً يقف عنده، فمتى ما وقف عند حدّه أصاب ولا بدّ، ومتى جاوز حدّه إلى ما هو لحكم قوّة أخرى يعطاها بعض العبيد قد يخطىء ويصيب، عصمنا الله وإياكم من غلطات الأفكار، وجعلنا من الذاكرين المذكورين بفضله لا رب غيره، ولنا فيما ذكرناه آنفاً نظم كتبت به إلى بعض الإخوان سنة إحدى وستمائة من مدينة الموصل في النبوّة أنها اختصاص من الله تعالىٰ ولذلك لا يشوب رائقها كدر: [الوافر]

ألا إن الرسالةَ بَرزخيَّهْ ... ولا يحتاجُ صاحبُها لنيَّهْ
إذا أعطَتْ بُنَيَّتَهُ قواها ... تلقَّتْها بقوَّتها البُنَيَّهْ
وأن الاختصاصَ بها مَنُوطٌ ... كما دلّت عليه الأشعَريَّهْ
وهذا الحقُّ ليس به خَفَاءٌ ... فدَعْ أحْكامَ كُتْبِ فَلْسَفيَّهْ

في أبيات كثيرة، ولكن قصدنا إلى الأمر الذي يطلبه هذا الموضع منها، ولتعلم أن سبب ظهور الأكدار إنما هو قرار الماء وسكونه لطلب الراحة من الحركة في غير موضعها ومحلها، ولذلك كنينا عن هذه الحالة بالحوض لأنّ فيه قرار الماء وسكونه، وقد قلنا في باب الغزل والنسيب أصف نزاهة المعشوق في نفسه: [الخفيف]

روَّحَتْ كلَّ من أَشَبَّ بها ... نَقْلَةٌ عن مراتب البَشَرِ
غَيْرَةً أن يُشَابَ رائقُها ... بالذي في الحِياض من كَدَرِ

أريد أن المحب إذا تعشق من صفته هذه حكم عليه هذا المعشوق فنقله إليه وكساه من ملابسه، فأخرجه عن الذي يقتضيه عالم الطبيعة من كدر الشبه إذا كان المعشوق علماً، والشبهات والحرام إذا كان المعشوق عملاً، والشهوات الطبيعية إذا كان المعشوق روحاً مجرداً عن المواد، وعن البشرية إذا كان المعشوق ملكاً، وعمّا سوى الله إذا كان المحبوب هو الله، فالمحب الصادق من انتقل إلى صفة المحبوب لا من أنزل المحبوب إلى صفته، ألا ترى الحق سبحانه لما أحبنا نزل إلينا في ألطافه الخفية بما يناسبنا ممّا يتعالى جدّه وكبرياؤه عن ذلك، فنزل إلى التبشبش بنا إذا جئنا إلى بيته نقصد مناجاته، وإلى الفرح بتوبتنا ورجوعنا إليه من إعراضنا عنه، والتعجّب من عدم صبوة الشاب من الشاب الذي هو في محل حكم سلطانها، وإن كان ذلك بتوفيقه وإلى نيابته عنا في جوعنا وعطشنا ومرضنا، وإنزاله نفسه إلينا منزلتنا لما جاع بعض عبيده قال للآخرين: جعتُ فلم تطعمني، ولما عطش آخر من عباده قال سبحانه لعبد آخر: ظمئتُ فلم تسقني، ولما مرض آخر من عباده قال لآخر من عباده: مرضتُ فلم تعدني، فإذا سأله هؤلاء العبيد عن هذا كله يقول لهم: أما إن فلاناً مرض فلو عدته لوجدتني عنده، أما أنه جاع فلان فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي، أما أنه عطش فلان فلو

سقيته لوجدت ذلك عندي، والخبر صحيح. فهذا من ثمرة المحبة حيث نزل إلينا، فلهذا قلنا: إن الصدق في المحبة يجعل المحب يتصف بصفة المحبوب، وكذا العبد الصادق في محبته ربه يتخلق بأسمائه فيتخلق بالغنى عن غير الله، وبالعزّ بالله تعالىٰ، وبالعطاء بيد الله تعالىٰ، وبالحفظ بعين الله تعالىٰ، وقد علم العلماء التخلق بأسماء الله ودوّنوا في ذلك الدواوين، وسبب ذلك لما أحبوه اتصفوا بصفاته على حدّ ما يليق بهم.

ثم نرجع إلى ما كنا بسبيله فنقول ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤] إن العلوم وأعني بها المعلومات إذا ظهرت بذواتها للعلم وأدركها العلم على ما هي عليه في ذواتها فذلك العلم الصحيح والإدراك التام الذي لا شبهة فيه البتة، وسواء كان ذلك المعلوم وجوداً أو عدماً أو نفياً أو إثباتاً أو كثيفاً أو لطيفاً أو رباً أو مربوباً أو حرفاً أو معنى أو جسماً أو روحاً أو مركباً أو مفرداً، أو ما أنتجه التركيب، أو نسبة أو صفة أو موصوفاً، فمتى ما خرج شيء ممّا ذكرناه عن أن يبرز للعلم بذاته وبرز له في غير صورته فبرز العدم له في صورة الوجود وبالعكس، والنفي في صورة الإثبات وبالعكس، واللطيف في صورة الكثيف وبالعكس، والرب بصفة المربوب والمربوب بصفة الرب، والمعاني في صور الأجسام كالعلم في صورة اللبن، والثبات في الدين في صورة القيد، والإيمان في صورة العروة، والإسلام في صورة العمد، والأعمال في صور الأشخاص من الجمال والقبح، فذلك هو الكدر الذي يلحق العلم فيحتاج من ظهر له هذا إلى قوّة إلهيّة تعديه من هذه الصورة إلى المعنى الذي ظهر في هذه الصورة فيتعب، وسبب ذلك حضرة الخيال والتمثّل والقوّة المفكرة، وأصل ذلك هذا الجسم الطبيعي وهو المعبر عنه بالحوض في هذا المنزل، وقعر هذا الحوض هو خزانة الخيال، وكدر ماء هذا الحوض المستقر في قعره هو ما يخرجه الخيال والتخيل عن صورته، فيطرأ التلبيس على الناظر بما ظهر له، فما يدري أي معنى لبس هذه الصورة فيتحير ولا يتخلص له ذلك أبداً من نظره إلاّ بحكم الموافقة وهو على غير يقين محقق فيما أصاب من ذلك إلاّ بإخبار من الله، ولهذا لما قام أبو بكر الصديق في هذا المقام وسأل تعبير الرؤيا وأمره النبي ﷺ بتعبيرها فلما فرغ سأل النبي ﷺ فيما عبره هل أصاب أو أخطأ؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**أَصَبْتَ بَعْضاً وَأَخْطَأْتَ بَعْضاً**» فما علم الصديق إصابته للحق في ذلك من خطئه، فلهذا قلنا: إن المصيب في مثل هذا ليس على يقين فيما أصابه، فلهذا جنح العارفون وامتنعوا أن يأخذوا العلم إلاّ من الله بطريق الوهب الذي طريقه في الأولياء الذكر لا الفكر، فإن أعطوا المعاني مجردة وبرزت لهم المعلومات بذواتها في صورها التي هي حقائقها فهو المقصود، وإن أبرزها الحق لهم عند الذكر وهذا الطلب في غير صورها وحجب عنهم ذواتها أعطوا من القوّة والنور النفوذ في تلك الصور إلى ما وراءها، وهو الذي أريدت له هذه الصور وقيد بها، فمشهوده على كل حال المعاني التي هي المقصود وهي في عالم الألفاظ والعبارات بمنزلة المنصوص، والمحكم الذي لا إشكال فيه ولا تأويل، والآخر بمنزلة الظواهر التي تحمل المعاني المتعددة وما يعرف الناظر مقصد المتكلم بها منها.

واعلم أن هذه العلوم إذا أعطاها الله العبد في غير صورها وأعلمه ما أراد بها فوقف على عينها من تلك الصورة في تلك الصورة فهو المشبه بالحوض لأنه يدرك الماء ويدرك الكدر الذي في قعر الحوض ويلبس الماء، ولا بدّ في ناظر العين لون ذلك الكدر حمرة كان أو صفرة أو ما كان من الألوان، فتبصر الماء أحمر أو أصفر وغير ذلك من الألوان، ولهذا قال الجنيد وقد سئل عن المعرفة والعارف فقال: لون الماء لون إنائه، ولما قبل الماء هذا اللون صار في العين مركباً من متلوّن ولون، وهو في نفس الأمر شيء آخر فيعلم الماء ويعلم أن ذلك لون الوعاء، كذلك التجليات في المظاهر الإلهية حيث كانت، فأما العارف فيدركها دائماً والتجلي له دائم والفرقان عنده دائم فيعرف من تجلّى ولماذا تجلّى، ويختص الحق دون العالم بكيف تجلّى، لا يعلمه غير الله لا ملك ولا نبي، فإن ذلك من خصائص الحق لأن الذات مجهولة في الأصل، فعلم كيفية تجليها في المظاهر غير حاصل ولا مدرك لأحد من خلق الله، هذا هو العلم الذي لا ينتج غيره فهو منقطع النسل لا عقب له، وما عدا هذا من العلوم فقد يكون العلم بالنظر فيه ينتج علماً آخر ولا يكون إلاّ هكذا وهو الأكثر بل هو الذي بأيدي الناس، فإن المقدمات إن لم يحصل لك العلم بها وبما ينتج منها ممّا لا ينتج وبالسبب الرابط بينهما، فبعد حصول هذا العلم ينتج لك العلم بما أعطاه هذا التركيب الخاص وهو التناسل الذي يكون في العلوم بمنزلة التناسل الذي يكون في النبات والحيوان وهذا هو تناسل المعاني، ولهذا قبلت المعاني الصور الجسدية لأن الأجسام محل التوالد.

فإن قلت: فالذي يكون من العلوم لا ينتج فكان ينبغي أن لا يقبل الصورة. قلنا: إنما قبل الصورة من كونه نتيجة عن منتج ونتاج وهو في نفسه عقيم لا ينتج أصلاً، كالعقيم الذي يكون في الحيوان مع كونه متولداً من غيره ولكن لا يولد له لأنه على صفة قامت به تقتضي له ذلك، ولذلك جاء الحق في تنزيه نفسه عن الأمرين فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٣] وهذا تنزيه الذات فلا تتعلق ولا يتعلق بها، والنتاج إنما وقع وظهر في المرتبة، فطلب الرب المربوب والقادر المقدور. فإن قلت: فإذا كان الأمر على ما ذكرت في ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فكانت المظاهر تبطل وهي موجودة فما جوابك؟ قلنا: المظاهر للمرتبة لا للذات، فلا يعبد إلاّ من كونه إلهاً ولا يتخلق بأسمائه وهي عين العبادة له إلاّ من كونه إلهاً، ولا يفهم من مظاهره في مظاهره إلاّ كونه إلهاً فاعلم ذلك، ولو كانت المظاهر تظهرها الذات من كونها ذاتاً علمت، ولو علمت أحيط بها، ولو أحيط بها حدت، ولو حدت انحصرت، ولو انحصرت ملكت، وذات الحق تتعالىٰ علوّاً كبيراً عن هذا كله، فعلمنا أنه ليس بين الذات وبين هذه المظاهر نسبة يتعلق العلم بها من حيث نسبة المظهر إليها أصلاً، وإذا لم يحصل مثل هذا العلم في نفوس العلماء بالله وتعالىٰ عن ذلك فأبعد وأبعد أن تعلم نسبة الذات إلى المظاهر فإن قلت: أن النسبة واحدة ولكن لها طرفان من حيث الذات طرف ومن حيث المظهر طرف. قلنا: ليس الأمر كما تظن في أن النسبة واحدة بين المتضايفين، فإن نسبة الولد إلى الوالد نسبة بنوّة والبنوّة انفعال، ونسبة الوالد إلى الولد نسبة أبوّة والأبوّة فاعلية، وأين أن

يفعل من أن ينفعل هيهات فليست النسبة واحدة ولا لها طرفان أصلاً فإنها غير معقولة الانقسام، أعني هذه النسبة الخاصة وهو الطرف الذي جعلته أنت للنسبة بخيالك، فذلك الطرف هو النسبة التي تذكر إذ الطرفان للشيء الموصوف بهما يؤذنان بقسمته والمعنى لا ينقسم فإنه غير مركب، والذي ينتجه هذا العلم المشبه بالحياض مناجاة الحق من جهة الصدر وهو مناجاتك إياه في صدورك عنه حين أمرك بالخروج إلى عباده بالتبليغ إن كنت رسولاً، وبالتثبيت إن كنت وارثاً، وهذه المناجاة لا تكون منه إليك إلاَّ فيك لا في غيرك، فمنك تعرفه لا من غيرك لأنك الحجاب الأقرب والستر المسدل عليه، ومن كونك ستراً وحجاباً حددته، فمعرفتك به في هذا الموطن عين عجزك عن معرفته، وإن شئت قلت عين الجهل به، ونريد بالجهل عدم العلم.

وأما الغير فحجاب أبعد بالنظر إليك فإن الله ما وصف نفسه إلاَّ بالقرب إليك، وهكذا قربه من غيرك إلى ذلك الغير كقربه إليك، فوصفه بالقرب إليك أبعد بالنظر إلى غيرك إذا أراد العلم به منك، كما أنت إذا أردت العلم به من غيرك قال تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] فأثبت قربه إلى الأشياء ونفى العلم بكيفية قربه من الأشياء بقوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] فعمّ البصيرة والبصر إذ كان إدراك البصر في الباطن يسمّى بصيرة والذات واحدة، واختلف عليها المواطن فسمّى في إدراك المحسوس بصراً وفي إدراك المعاني بصيرة، فالمدرك واحد العين فيهما، ولما كان على الحوض الذي يكون في الدار الآخرة كؤوس كثيرة على عدد الشاربين منه وأن الماء في الإناء على صورة الإناء شكلاً ولوناً علمنا قطعاً أن العلم بالله سبحانه على قدر نظرك واستعدادك وما أنت عليه في نفسك، فما اجتمع اثنان قط على علم واحد في الله من جميع الجهات لأنه ما اجتمع في اثنين قط مزاج واحد ولا يصح لأنه لا بدّ في الاثنين ممّا يقع به الامتياز لثبوت عين كل واحد، ولو لم يكن كذلك لم يصحّ أن يكونا اثنين، فما عرف أحد من الحق سوى نفسه، فإذا عامل من تجلّى له بما عامله به وقد ثبت أن عمله يعود عليه لن ينال الله من ذلك شيء، قال ﷺ: **«إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تَرِدُّ عَلَيْكُمْ فَيَكْسُوكُمُ الحَقُّ مِنْ أَعْمَالِكُمْ حُلَلاً عَلَى قَدْرِ مَا حَصَّنْتُمُوهَا وَاعْتَنَيْتُمْ بِأُصُولِهَا»** فمن لابس حرير أو من لابس مشاقة كتان وقطن وما بينهما فلا تلم إلاَّ نفسك، ولا تلم الحائك فما حاك لك إلاَّ غزلك.

فإن قلت: كيف تقول: لن ينال الله من ذلك شيء وقد قال سبحانه: ﴿يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٧] فلتعلم أن المراد بإثبات النَّيل هنا وعدم النَّيل في جانب الحق أن الله سبحانه ما يناله شيء من أعمال الخلق ممّا كلفهم العمل فيه نيل افتقار إليه وتزيّن به ليحصل له بذلك حالة لم يكن عليها ولكن يناله التقوى، وهو أن تتخذوه وقاية ممّا أمركم أن تتقوه به على درجات التقوى ومنازله فقد قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤] ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٨] ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦] فمعنى يناله التقوى أنه يتناولها منك ليلبسك إياها بيده تشريفاً لك حيث خلع عليك بغير واسطة إذ لبسها غير المتقي

من غير يد الحق، وسواء كانت الخلعة من رفيع الثياب أو دنيئها فذلك راجع إليك فإنه ما ينال منك إلاً ما أعطيته، وإن جمع ذلك التقوى فإنه لا يأخذ شيئاً سبحانه من غير المتقي، فلهذا وصف نفسه بأن التقوى تناله من العباد، وإنما وصف الحق سبحانه بأن التقوى تصيبه، واللحوم والدماء لا تصيبه لما كانت الإصابة بحكم الاتفاق لا بحكم القصد أضاف النيل إلى المخلوق لأنه يتعالىٰ أن يعلم فيقصد من حيث يعلم، ولكن إنما يصاب بحكم الاتفاق مصادفة والحق منزّه أن يعلم الأشياء بحكم الإصابة فيكون علمه للأشياء اتفاقاً، فإذا ناله التقوى من المتقي وخدم بين يديه وجعل ذاته بين يديه مستسلماً لما يفعله فيه فيخلع سبحانه عند ذلك من العلم على المتقي، ومن شأن هذا العلم أن يحصل من الله تعالىٰ للعبد بكل وجه من وجوه العطاء حتى يأخذ كل آخذ منه بنصيب، فمنهم من يأخذه من يد الكرم، ومنهم من يأخذه من يد الجود، ومنهم من يأخذه من يد السخاء، ومنهم من يأخذه من يد المنة والطول إلاَّ الإيثار فإنه ليس له يد في هذه الحضرة الإلهية إذ كان لا يعطى عن حاجة، لكن الأسماء الإلهية لما كانت تريد ظهور أعيانها في وجود الكون وأحكامها يتخيل أن إعطاءها من حاجة إلى الأخذ عنها فتتنسم من هذا رائحة الإيثار وليس بصحيح، وإنما وقع في ذلك طائفة قد أعمى الله بصيرتهم، ولذلك العارفون اتصفوا بأصناف العطاء في التخلق بالأسماء لا بالإيثار، فإنهم في ذلك أمناء لا يؤثرون، إذ لا يتصور الإيثار الحقيقي لا المجازي عندهم، والعارف لا يقول أعطيتكم وإنما يقول أعطيتك لأنه لا يشترك اثنان في عطاء قط فلهذا يفرد ولا يجمع، فالجمع في ذلك توسع في الخطاب والحقيقة ما ذكرناه، وللكلام في هذا المنزل مجال رحب لا يسعه الوقت، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. [السريع]

منازلُ الخَوْض وأسرارِهِ ... مراتبُ العلم وأنوارِهِ
وهو من العلم الذي لم يَزَلْ ... صَفَاؤه شِيبَ بأكدارِهِ
محلُّه الطبعُ الذي رَتْقُه ... يُلحِقُه القَعْرُ بأغبارِهِ

الباب السابع والسبعون ومائتان

في معرفة منزل التكذيب والبخل وأسراره من المقام الموسوي

[نظم: البسيط]

العلمُ علمان علمُ الدين في الصُّوَرِ ... الظاهراتِ من الأرواح في البَشَرِ
وعلمُ حقٍّ بتحقيقٍ يؤيِّده ... ما أودَعَ الله في الآيات والسُّوَرِ
من كلِّ ناظرةٍ بالعين ناضرةٍ ... فاللامُ ناظرةٌ بالفاء في خَبَرِ
هذي منازلُ أنوارِ سُبَاعيةٍ ... الخُنَّسُ تَخْنُسُ دون الشمسِ والقَمَرِ
منها ليَظْهَر ما في الغَيْب من عَجَبٍ ... فكلُّ منزلةٍ تسعى على قَدَرِ
إن الصفاتِ التي جاء الكتابُ بها ... تقدَّسَتْ على مَجَال العقل والفِكَرِ
وكيف يُدْرِكُ من لا شيءَ يُشْبِهُهُ ... من يأخذُ العلمَ عن حسٍّ وعن نَظَرِ

فـالـعـلـمُ بـالله عـيـنُ الـجـهـلِ فـيـه بـه والـجـهـلُ بـالله عـيـنُ الـعـلـمِ فـاعْـتَـبِـرِ
ولـيـس فـي الـكـون مـعـلـومٌ سـواه فـمـا تـقـول يـا أيـهـا الـمـغـلـوبُ عَـن حَـصَـرِ
إن الـظـهـورَ إذا جـاز الـحـدودَ خَـفَـا كـذلـك الأمـرُ فـانـظُـرْ فـيـه وافْـتَـكِـرِ

اعلم أيّها الوليّ الحميم نوّر الله بصيرتك أن العلم بالجزاء عن نور الإيمان لا عن نور العقل، فإن ارتباط الجزاء بالأعمال في الدنيا والآخرة لا يعلم إلاّ من طريق الإيمان والكشف، فأما تسميتنا إياه علماً أعني علم الإيمان وإن كان عين التصديق بخبر المخبر فمثل هذا لا يكون علماً لزواله لو رجع المخبر عنه تقديراً وحينئذ فله وجهان: الواحد أن المؤمن يجده ضرورة في نفسه لو رام الانفكاك عنه لم يقدر على ذلك فهو عنده من العلوم الضرورية عند كل عقل عنده الإيمان، والوجه الآخر أن الإيمان له نور يكشف به ما وقع الأخبار به، كما يكشف المدلول العقل بالنظر الصحيح في الدليلِ الشاذ بل أكمل، لأن العقل إن لم يستند في دليله وبرهانه إلى العلوم الضرورية في ذلك وإلاّ فليس ببرهان عنده ولا هو علم. وعلم الإيمان علم ضروري وهو مستند العقل في الحق المطلوب، فالإنسان إذا سئل عن الجزاء من جهة علمه النظري لم يقل إنّه جزاء وإما اقتضت الحركة الفلكية وجود هذه الواقعة في عالم الكون والفساد بحسب القابل لها منه، واتفق أيضاً أنه كان قبل ذلك حركة أخرى اقتضت لهذا القابل من عالم الكون والفساد وجود أمر ما ظهر منه، فنوسب بين الواقعتين الأولى والثانية بأمر عرضيّ أو أمر وضعيّ مقرّر في نفوس العامة، فسمّوا الواقعة الآخرة جزاء للواقعة الأولى لمن قامت به ليس غير ذلك، فما يدرك تلك الرابطة إلاّ أهل الكشف الإلهي وإن أدركها أهل النظر العقلي لأنه قد يدرك الرابطة من كونها فعلاً لا من كونها جزاء، ولا سبيل إلى رفع ذلك جملة واحدة، وأهل الكلام من علماء النظر يجوزون رفعها بنور عقولهم وصدقوا، فإن نور العقل لا يتعدى قوّته فيما يعطيه، ونور الإيمان فوق ذلك يعطي أيضاً بحسب قوّته، وما جعل الله فيه ممّا لا يدركه العقل معرّى عن الشرط، فإن العقل يقول: إن كان سبق العلم به فلا بدّ منه عقلاً، فأدخل الشرط، والإيمان ليس كذلك فإنه عن كشف محقق لا مرية فيه.

ثم إن طائفة من العقلاء الذين ذكرناهم وهي التي أثبتت الفعل ولم تصدق أنه جزاء أنكروا ذلك دنيا وآخرة، فأما دنيا فلما ذكرناه، وأما آخرة فانقسموا في ذلك قسمين: فطائفة منهم أثبتوا الآخرة على وجه يخالف وجه الإيمان وهم الذين أنكروا الإعادة في الأجسام الطبيعية، وطائفة نفت الآخرة جملة واحدة فأحرى الجزاء، فأما الطائفة التي أثبتت الآخرة وأنكرت الجزاء فما أنكرت إلاّ الجزاء الحسيّ من نعيم الجنان وجعلت الجزاء الروحانيّ كون الأرواح لما فارقت تدبير أجسادها وتخلصت من أسر الطبيعة، وكانت في هذه المدة قد اكتسبت من الأخلاق الكريمة والعلوم الإلهية والروحانية هيئة حسنة ألحقتها بالرتبة الملكية، فلما انفصلت عن الطبيعة انفصالاً يسمّى الموت التحقت بالملائكة ودام لها ذلك مؤبداً، فكان ذلك الدوام لها في هذه الرتبة الملكية ثمرة جنتها ممّا حصلته في حال سجنها في تدبير جسمها الطبيعيّ فذلك المسمّى جزاء في الشرع وما ثم غيره، وأهل الإيمان بالله

وما جاء من عنده وهم أصحابنا، وأهل الكشف منا أيضاً الذين عملوا بنور الإيمان قد جمعنا مع هؤلاء فيما ذكروه من الجزاء الروحانيّ للنفوس التعليمية، وانفردنا عنهم بالإعادة في الأجسام الطبيعية على مزاج مخصوص يقتضي لها البقاء في دار الكرامة، والجزاء الحسيّ من اللباس والزينة والأكل والشرب والنكاح ورفع الخبائث من منزل الجنان كالأمور المستقذرة طبعاً، والأرواح النتنة طبعاً وذلك في حال السعداء، وأما في حال الأشقياء فالإعادة أيضاً لهم في الأجساد الطبيعية، ولكن على مزاج يقارب مزاج الدنيا في الذهاب والزوال بالعلل المنضجة للجلود المذهبة لأعيانها وإيجاد غيرها مع بقاء العين المعذبة بذلك، فليست تشبه إعادة الأشقياء إعادة السعداء وإن اشتركا في الإعادة، فمرض الأشقياء في دار الشقاء زمانة مؤبدة إلى غير نهاية مدة أعمارهم التي لا انقضاء لها، كالزمانة التي كانت للزمنى في الدنيا مدة أعمارهم، وتعلم كل طائفة من هؤلاء أن بعض الذي هم فيه جزاء بما كانوا يعملون، وإنما قلنا بالبعض لأن الجنان ثلاث: جنة جزاء العمل، وجنة ميراث وهي التي كان يستحقها المشرك لو آمن، وجنة اختصاص غير هاتين، ولا أدري جنة الاختصاص هل تعمّ أم هي لخصائص من عباد الله، والذين ما عملوا خيراً قط مشروعاً فلهم جنة الميراث، ولا أدري هل لهم جنة اختصاص أم لا كما قلنا. وأما جنة الأعمال المشروعة من كونها مشروعة لا من كونها موجودة فليس لهم فيها نصيب، فإنهم قد يكون منهم من فيه مكارم الأخلاق ولكن لم يعمل بها من كونها مشروعة.

فإذا تقرر ما ذكرناه فاعلم أن الطائفة التي لم يحصل لها الإيمان بعلم الجزاء يحرمون من العلوم الموهوبة قبول كل علم لا يقوم لهم فيه من نفوسهم ميزان من عمل عملوه، فإذا جاءهم الفتح في خلواتهم وسطعت عليهم الأنوار الإلهية بالعلوم المقدسة عن الشوب القادح ينظرون ما كانوا عليه من الأعمال وما كانوا عليه من الاستعداد التعملي، فيأخذون من تلك العلوم قدر ما أعطتهم موازينهم ويقولون: هذا من عند الله، وما لم يدخل لهم في موازينهم من هذه العلوم دفعوا بها، وهذا من أعجب الأمور الإلهية في حق هذه الطائفة أنها غير قائلة بعلم الجزاء، ولا تأخذ من العلوم إلاّ ما أعطتها موازينهم من الأعمال والاستعدادات التعملية، وهذا نقيض ما بني عليه الأمر عند أهل الطريق، وهذا كشف خاص خصّ به أمثالنا لله الحمد على ذلك.

وأما نحن ومن جرى مجرانا من أهل الطريق فلا نرمي بشيء ممّا يرد علينا من ذلك ولا ندفع به جملة واحدة سواء اقتضاه عملنا واستعدادنا التعمّلي أو لم يقتضه، فإن الاقتضاء غير لازم عندنا في كل شيء بل أوجد الله ما يريد في أي محل يريد، ولو نوّر الله بصائر هذه الطائفة التي ذكرناها لرأت واتعظت بحالها فإنها لا تصدق بالجزاء ولا تقبل من العلوم إلاّ ما أعطاه ميزان الجزاء من نفوسهم وهم لا يشعرون وهو موضع حيرة، كما أنا لا نرمي أيضاً بشيء ممّا أعطانا الله على يد واسطة مذمومة كانت تلك الواسطة أو محمودة كما فعل سليمان

عليه السلام، أو بارتفاع الوسائط سواء كان ذلك منهياً عنه أو مأموراً به، فإن الله قد أعطانا من القوّة وعلم السياسة بحيث نعلم كيف نأخذ، وإذا أخذنا كيف نتصرف به وفيه وفي أي محل نتصرف به، وهذا مخصوص بأهل السماع من الحق دائماً وهو طريقنا وعليه عمل أكابرنا، ويحتاج إلى علم وافر وعقل حاضر ومشاهدة دائمة وعين لا تقبل النوم ولا تعرفه، وتتحقق بذلك تحقيقاً يسري معها حساً وفي حال نومها خيالاً وفي حال فنائها وغيبتها تحققاً، وهو مقام عزيز مخصوص بالأفراد منا، وعلم الأنبياء أكثره من هذه العلوم التي ليس لها مستند، ولهذا كانت النبوّة اختصاصاً من الله لا بعمل ولا بتعمّل، ونحن ورثنا هذا المقام من عين المنة، فحصلنا من العلوم التي لا مستند لها يطلبها ما عدا النبوّة كثيراً تعرفها أسرارنا دون نفوسنا فلذلك لا يظهر علينا منها شيء فإنه لا تعلّق لها بالكون.

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ٦ ـ ٨] فاختلف أصحابنا في هذه الأحوال الثلاثة وما يشبهها هل هي استعدادات لما حصل من الإيواء والهدى والغنى أم ليست استعداداً؟ ومنا من قال: لا يكون استعداد إلاّ عن تعمّل فيه وهم الأكثرون، ومنهم من قال الاستعداد من أهل لتحصيل أمر ما سواء كان عن تعمّل أو غير تعمّل، فالخلاف لفظيّ وهو الخلاف الذي ينسب إلى أهل هذه الطريقة، وقد يكون الاستعداد معلوماً للشخص الذي هو صاحبه أنه استعداد وقد لا يكون، والتحقيق في ذلك ما نذكره، وذلك أن حقيقة الاستعداد ما هو الطلب أن يكون معداً لأمر ما عظيم من الله يحصل له فهذا يسمّى تعمّلاً لأنه استفعال مثل استخراج واستطلاق واسترسال، وأما كونه معدّاً لما حصل له فلا بدّ أن يكون في نفسه على ذلك لا بجعل جاعل وأخفاه العدم الممكن والعدم المحال، فلولا أن العدم الممكن هو معد في نفسه لقبول أثر المرجح ما كان له الترجيح إلى أحد الجانبين في وقت وترجيح الجانب الآخر في وقت آخر، والعدم المحال لولا ما هو في نفسه معد لعدم قبول ما يضادّ ما هو عليه في نفسه لقبله، وكذلك من ثبت له الوجوب الوجوديّ لذاته، فهذا تحقيق المسألة في الاستعداد، والفرق بينه وبين الإعداد والإعداد لا بدّ منه، وجوديّ وعدميّ ولا وجوديّ ولا عدميّ كالنسب، فهذا الفصل من هذا المنزل قد استوفيناه، وبقي من فصوله ما نذكره وذلك معرفة العلم الذي يطلبه الفقير بافتقاره ومسكنته ما هو وإذا حصل هل يقع له به الغنى أم لا؟ وهل إلى ذلك طريقة معلومة لقوم أم لا؟ وهل العالمون بها يتعين عليهم أن يحرضوا الناس على سلوكها أم لا؟.

فاعلم أن الافتقار في كل ما سوى الله أمر ذاتي لا يمكن الانفكاك عنه ذوقاً وعلماً صحيحاً إلاّ أنه تختلف مقاصده في تعيين ما يفتقر إليه هذا الفقير وما هو المعنى الذي يفتقر إليه فيه. فاعلم أن الفقر والمسكنة لما ثبت في العلم أنها صفة ذاتية كان متعلقها الذي افتقرت فيه طلبها استمرار كونها واستمرار النعيم لها على أكمل الوجوه بحيث أنه لا يتخلله النقيض، فأهل هذه الطريقة لم يروا ذلك حالاً وعقداً إلاّ من الله تعالىٰ، فافتقروا إليه في ذلك دون غيره

سبحانه، ولا يصحّ الافتقار لهم إليه في وجودهم لأنهم موجودون، وإنما كان ذلك الافتقار منهم لوجودهم في حال عدمهم فلهذا أوجدهم، فمتعلق الإفتقار أبداً إنما هو العدم ليوجده لهم إذ بيده إيجاد ذلك، وأما غيرنا فرأوا ذلك من الله عقداً لا حالاً وهم المسلمون الأكثرون عالمهم وجاهلهم، ومن الناس من يرى ذلك أصلاً لا عقداً أو لا حالاً وهم القائلون بالعلل والمعلولات وهم أبعد الطوائف من الله، ومن الناس من لا يرى ذلك من الله لا أصلاً ولا عقداً ولا حالاً وهم المعطلة. وما من طائفة ممّا ذكرنا إلاّ وتجد الافتقار من ذاتها، ومن المحال أن يقع الغنى من الله لأحد من هؤلاء الطوائف على الإطلاق أبداً، ولكن قد يقع لهم الغنى المقيد دائماً لا ينفكون عنه.

وأما فرض الطريق إليه فهو ذاتي أيضاً من حيث هو طريق، وإنما الذي يتعلق به الاكتساب سلوك خاص في هذا الطريق لمن يفتقر إليه، وإذا كان السلوك بهذه المثابة تعين التحريض عليه وتبيينه لمن جهله، فمن عدل عن تبيينه لمن يستحقه وهو عالم به فهو صاحب حرمان وخذلان، وقد نبّه عليه السلام على مرتبة من مراتب ذلك بقوله ﷺ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْم فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَام مِنْ نَار**» والسؤال قد يكون لفظاً وحالاً، والمسؤول عنه الذي تعلّق به الوعيد لا بدّ أن يكونَ واجباً عليه السؤال عنه، فلا بدّ أن يجب على العالم الجواب عنه وسؤالات الافتقار كلها بهذه المثابة، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] ففي هذا الخطاب تسمية الله بكل اسم هو لمن يفتقر إليه فيما يفتقر إليه فيه وهو من باب الغيرة الإلهيّة حتى لا يفتقر إلى غيره والشرف فيه إلى العالم بذلك، وفي هذا الخطاب هجاء للناس حيث لم يعرفوا ذلك إلاّ بعد التعريف الإلهيّ في الخطاب الشرعي على ألسنة الرسل عليهم السلام، ومع هذا أنكر ذلك خلق كثير وخصّوه بأمور معينة يفتقر إليه فيها لا في كل الأمور من اللوازم التابعة للوجود التي تعرض مع الآنات للخلق، وكان ينبغي لنا لو كنا متحققين بفهم هذه الآية أن نبكي بدل الدموع دماً حيث جهلنا هذا الأمر من نفوسنا إلى أن وقع به التعريف الإلهيّ، فكيف حال من أنكره وتأوّله وخصّصه؟ فهذا قد بينا نبذة من الفصل الثاني المتعلق بهذا المنزل.

وأما الفصل الثالث من فصول هذا المنزل فاعلم أن الله تعالىٰ قد عرف عباده أن له حضرات معينة لأمور دعاهم إلى طلب دخولها وتحصيلها منه وجعلهم فقراء إليها، فمن الناس من قبلها ومن الناس من ردّها جهلاً بها، فمنها حضرة المشاهدة وهي على منازل مختلفة وإن عمتها حضرة واحدة، فمنهم من يشهده في الأشياء، ومنهم قبلها، ومنهم بعدها، ومنهم معها، ومنهم من يشهده عينها على اختلاف مقامات كثيرة فيها يعلمها أهل طريق الله أصحاب الذوق والشرب، ومنها حضرة المكالمة، ومنها حضرة الكلام، ومنها حضرة السماع، ومنها حضرة التعليم، ومنها حضرة التكوين وغير ذلك، فإنها كثيرة لا يتسع هذا التصنيف لذكرها، فحضرة المكالمة من خصائص هذا المنزل، فمن عدل عنها فقد حرم ما يتضمنه من المعارف

الإلهية والالتذاذ بالمحادثة الربانية، وكان ممّن قيل فيه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] ﴿مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ على حسب التجلي ﴿مُّحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٥] وهي طائفة معينة، وأخرى ﴿اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] فأهل طريقنا لم يشتغلوا عند ورود هذا الكلام بما يلهيهم عمّا يتضمنه من الفوائد، فإن اقتضى جواباً أجابوا ربهم، وإن اقتضى غير ذلك بادروا إلى فعل ما يقتضيه ذلك الخطاب، وهم يسارقون النظر في تلك الحالة إلى المتكلم لتقرّ أعينهم بذلك كما تنعمت نفوسهم من حيث السماع، غير أنهم لا يتحققون بالنظر في هذه الحال لمعرفتهم بأن مراد الحق فيهم الفهم عنه فيما يكلمهم به فيخافون من النظر مع شوقهم أن يفنيهم عن الذي طولبوا به من الفهم، فيكونون ممّن آثروا حظوظ نفوسهم على ما أراده الحق منهم، فهم في كلا الحالين عبيد فقراء، غير أن الأدب في كل حضرة من هذه الحضرات الوفاء بما تستحقه الحضرة التي يقام العبد فيها، ولمطلوبه حضرة أخرى هي غير هذه فلا يستعجل فيحرم ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١] ينوب عنه في الكلام وهو الترجمان، قال تعالىٰ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] يريد على لسان الترجمان الذي هو رسول الله ﷺ، فسمعت بعض الشيوخ يقول: ما دام في بشريته فالكلام له من وراء حجاب، ولكن إذا خرج عن بشريته ارتفع الحجاب، وهذا الشيخ هو عبد العزيز بن أبي بكر المهدوي المعروف بابن الكره سمعته منه بمنزله بتونس رحمه الله فأصاب فيه وأخطأ، فأما إصابته فإثباته وتقريره للكلام من وراء الحجاب وأنه لم يجمع بينه وبين المشاهدة، وأما خطؤه فقوله: ارتفع الحجاب ولم يقيد وإنما يقال: ارتفع حجاب بشريته، ولا شك أن خلف حجاب بشريته حجباً أخر، فقد يرتفع حجاب البشرية ويقع الكلام من الله لهذا العبد خلف حجاب آخر أعلاها من الحجب وأقربها إلى الله وأبعدها من المخلوق المظاهر الإلهية التي يقع فيها التجلي إذا كانت محدودة معتادة المشاهدة، كظهور الملك في صورة رجل فيكلمه على الاعتدال للعادة والحدّ وقد تجلّى له وقد سدّ الأفق فغشي عليه لعدم المعتاد وإن وجد الحدّ فكيف بمن لم ير حدّاً ولا اعتاد، فقد تكون المظاهر غير محدودة ولا معتادة، وقد تكون محدودة لا معتادة، وقد تكون محدودة معتادة وتختلف أحوال المشاهدين في كل حضرة منها، فمن عدل عن حضرة المكالمة فقد لحق بأهل الخسران وإن سعد ولكن بعد شقاء عظيم، وأن من الناس من أصحاب الدعاوي في هذه الطريقة الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ١٠] حين أفلح من زكّاها فيزعمون أنهم يكلمون الله في خلقه ويسمعون منه في خلقه، وهو في نفسه مع نفسه ما عنده خبر من ربه لأنه لا يعرفه ولا يعرف كيف يسمع منه ولا ما يسمع منه. فأصحاب الدعاوى في هذه الطريقة كالمنافقين في المسلمين فإنهم شاركوهم في الصورة الظاهرة وبانوا بالبواطن فهم معهم لا معه ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٩] وهو والله من عنده، ولكن من غير الوجه الذي يزعمون، ولهذا شقوا بما قالوه وإن كانوا لا يعتقدونه، وسعد الآخر بقوله: إنه من عند الله

واعتقاده ذلك على غير الوجه الذي يعطي الشقاء، فالقول واحد والحكم مختلف، فسبحان من أخفى علمه عن قوم وأطلع عليه آخرين ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦] ولا يكون الأمر إلاَّ هكذا فإنه هكذا وقع ولا يقع إلاَّ ما علم أنه يقع كذا فإنه في نفس الأمر كذا لا يجوز خلافه، وهنا عقدة لا يحلها إلاَّ الكشف الاختصاصيّ لا تحلها العبارة.

وإذا فهمت هذا فاعلم أنه من آخر فصول هذا المنزل التعاون على البرّ والتقوى فإنه يكون عنه علم شريف يتعلق بمعرفة الأسباب الموضوعة في العالم، وإن رفعها عيناً لا يصحّ إذا كان السبب علة، فإن لم يكن علة فقد يصحّ رفع عينه مع بقاء لازمه لكن لا من حيث هو لازم له بل من حيث عين اللازم، فهو لما هو لازم له على الطريقة المختصة لا يرتفع وهو من حيث عينه وإن كان لازماً لغيره فيكون أثره لعينه فيوجد حكمه لعينه، ففي الأسباب التي ترفع ويوجد اللازم يفعل لعينه كالغذاء المعتاد على الطريقة المختصة به يلازمه الشبع بالأكل منه، وقد يكون الشبع من غير غذاء ولا أكل، ومثل السبب العليّ وجود اتصاف الذات بكونها شابعة لوجود الشبع، فلو رفعت الشبع ارتفع كونه شابعاً، فمن الأسباب ما يصحّ رفعها وما لا يصحّ، وتقرير الكل في مكانه وعلى حدّه على ما قرّره واضعه هو الأولى بالأكابر، وينفصلون عن العامة بالاعتماد، فلا اعتماد للأكابر في شيء من الأشياء إذا وصفوا بالاعتماد إلاَّ على الله، فمن منع وجود الأسباب فقد منع ما قرّر الحق وجوده فيلحق به الذمّ عند الطائفة العالية وهو نقص في المقام، كمال في الحال، محمود في السلوك، مذموم في الغاية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والسبعون ومائتان

في معرفة منزل الألفة وأسراره من المقام الموسوي والمحمدي

[نظم: الرمل]

مـنـزلُ الألُـفَـة لا يـدخـلـهُ ... غـيـرُ مـوجـودٍ عـلـى صـورتـهِ
فـتـراهُ عـنـدمـا تُـبْـصـرهُ ... نـازلاً فـيـه عـلـى سُـورتـهِ
حـاكـمـاً فـيـه بـمـا يَـعْـلـمُـهُ ... جـاريـاً فـيـه عـلـى سـيـرَتـهِ
فـاصـطـفـاه الـحـقُّ مـرآةً لـه ... فـلـهـذا زاد فـي سَـوْرتـهِ
فـنـهـاه الله إعـلامـاً لـه ... أن ذاك الـنَّـهْـيَ مـن غَـيْـرَتـهِ
عـنـدمـا حـجَّـرَ مـا كـان لـه ... مُـطـلـقـاً نُـزِّه عـن خَـيْـرَتـهِ
أكـل الـمَـنْـهـيَّ عـنـه فـبَـدَتْ ... رتـبـةُ الأكْـل فـي عَـوْرتـهِ
فـدرى حـيـن رآهـا أنـهـا ... زَلَّـةٌ جـاءتـه مـن جِـيْـرَتـهِ

لا يتآلف اثنان إلاَّ لمناسبة بينهما، فمنزل الألفة هي النسبة الجامعة بين الحق والخلق، وهي الصورة التي خلق عليها الإنسان، ولذلك لم يدع أحد من خلق الله الألوهية إلاَّ الإنسان ومن سواه ادّعيت فيه وما ادّعاها، قال فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [سورة النازعات: الآية ٢٤] وما في

الخلق من يملك سوى الإنسان، وما سوى الإنسان من ملك وغيره لا يملك شيئاً يقول تعالىٰ في إثبات الملك للإنسان: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٣] وما ثم موجود من يقرّ له بالعبودية إلاّ الإنسان فيقال: هذا عبد فلان، ولهذا شرع الله له العتق ورغبه فيه وجعل له ولاء العبد المعتق إذا مات عن غير وارث، كما أن الورث لله من عباده، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [سورة مريم: الآية ٤٠] وما ثم موجود يقبل التسمية بجميع الأسماء الإلهية إلاّ الإنسان وقد ندب إلى التخلّق بها، ولهذا أعطى الخلافة والنيابة وعلّم الأسماء كلها، وكان آخر نشأة في العالم جامعة لحقائق العالم ممّا اختصّ الله بها ملكه كله وصورته، ومن نشأته أيضاً الطبيعية القائمة من الأربع الطبائع مع القوّة الناطقة التي اختصّ بها في طبيعته دون غيره ممّا خلق من الطبيعة كالصورة الإلهية القائمة على أربع الذي لا يعطي الدليل العقليّ غيرها وهي: الحياة والعلم والقدرة والإرادة، فبهذه صحّ إيجاد العالم له وكان هو إلهاً بها، إذ لو جرّد عن هذه النسب لما كان إلهاً للعالم، وهو المثل المقرر في القرآن الذي لا يماثل في قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] أي ليس مثل مثله شيء، فأثبت المثلية له بالإنسان تنزيهاً له تعالىٰ، أي إذا كان المثل المفروض لا يماثل فهو تعالىٰ أبعد وأنزه أن يماثل. وفي السنّة خلق آدم على صورته ونفى بهذه الآية أن يماثل هذ المثل وجعل له غيباً وشهادة.

ولما كان الإنسان بهذه المثابة كانت الألفة بينه وبين ربه فأحبه وأحبه، ولهذا ورد أن السماء والأرض يعني العلو والسفل ما وسعه ووسعه قلب العبد المؤمن التقيّ الورع، وهذا من صفة الإنسان لا من صفة الملك هذا وإن شورك الإنسان في كل ما ذكرناه إلاّ أن الإنسان امتاز عن الكل بالمجموع وبالصورة فاعلم هذا فلا تصحّ العبودية المحضة التي لا يشوبها ربوبية أصلاً إلاّ للإنسان الكامل وحده، ولا تصحّ ربوبية أصلاً لا تشوبها عبودة بوجه من الوجوه إلاّ لله تعالىٰ، فالإنسان على صورة الحق من التنزيه والتقديس عن الشوب في حقيقته فهو المألوه المطلق، والحق سبحانه هو الإله المطلق، وأعني بهذا كله الإنسان الكامل، وما ينفصل الإنسان الكامل عن غير الكامل إلاّ برقيقة واحدة وهي أن لا يشوب عبوديته ربوبية أصلاً. ولما كان للإنسان الكامل هذا المنصب العالي كان العين المقصودة من العالم وحده، وظهر هذا الكمال في آدم عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] فأكدها بالكل وهي لفظة تقتضي الإحاطة، فشهد له الحق بذلك كما ظهر هذا الكمال في محمد ﷺ أيضاً بقوله: «**فَعَلِمْتُ عِلمَ الأوّلِين وَالآخِرِينَ**» فدخل علم آدم في علمه فإنه من الأوّلين، وما جاء بالآخرين إلاّ لرفع الاحتمال الواقع عند السامع إذا لم يعرف ما أشرنا إليه من ذلك وهو ﷺ أنه قد أوتي جوامع الكلم بشهادته لنفسه.

واختلف أصحابنا في أيّ المقامين أعلى من شهد له الحق أو من شهد لنفسه بالحق كيحيىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، فأما مذهبنا في ذلك فإن الشاهد لنفسه الصادق في شهادته أتمّ وأعلى وأحق لأنه ما شهد لنفسه إلاّ عن ذوق محقق بكماله، فيما شهد لنفسه به مرتفعة شهادته

تلك عن الاحتمال في الحال، فقد فضل على من شهد له برفع الاحتمال والذوق المحقق فهذا المقام أعلى، وليس من شأن المنصف الأديب العالم بطريق الله أن يتكلم في تفاضل الرجال وإن علم ذلك فيمنعه الأدب فلهذا قلنا الأديب وإنما يتكلم في تفاضل المقامات فيخرج عن العهدة في ذلك ويسلم له الحال عن المطالبة فيه، إذ كانت المقامات ليس لها طلب وكان الطلب للموصوفين بها، فالأديب حاله ما ذكرناه.

وهذا الذي ذكرناه كله يشهده من حصل في هذا المنزل وله من الحروف ألفة اللام بالألف وهو أوّل حرف مركب من الحروف فوحده الشكل فلم يعرف الألف من اللام فألحق بالمفردات فكأنهما حرف واحد لما تعذر الانفصال ولم يتميز شكل اللام فيه من شكل الألف فلم يدركه البصر. فإن قيل: إن السمع يدركه بقوله لا، فليعلم أن اللام تحتمل الحركة والألف لا تحتمل الحركة فلم يتمكن النطق بالألف فينطق باللام مشبعة الحركة لظهور الألف ليعلم أنه أراد لام الألف لا لام غيره من الحروف حتى يرقمه الراقم على صورته الخاصة به، فلا تمتاز الألف من اللام لتمكن الألفة، كذلك الإنسان إذا كان الحق سمعه وبصره كما ورد في الخبر يرتبط بالحق ارتباط اللام بالألف ولهذا تقدّم في حروف شهادة التوحيد في لفظة لا إله إلاّ الله فنفى بحرف الألفة ألوهة كل إله أثبته الجاهل المشرك لغير الله فنفى ذلك بحرف يتضمن العبد والرب فإنه يتضمن مدلول اللام والألف كما قال عليه السلام: «**آمَنْتُ بِهٰذا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**» فشركهما معه بنفسه في الإيمان ولم يكونا حاضرين أو كانا فناب عنهما، فلما شهد الحق لنفسه بالتوحيد شهد عنه وعن عبده بذلك فأتى بحرف لام ألف، ولهذا سمّي لام ألف، ولم يقل لام الألف بالتعريف فسمّى باسم الحرفين لئلا يتخيل السامع إذا جاء به معرفاً أنه أراد الإضافة وما أراد هذا الحرف المعين، فجرى مجرى رام هرمز وبعلبك ولم يجر مجرى عبد الله وعبد الرحمن، ولهذا اختلف في موضع الإعراب من بعلبك ورام هرمز وبلال أباد، ولم يختلف في موضع الإعراب من عبد الله وعبد الرحمن لأن المسمّى بذلك قصد به الإضافة ولا بدّ، فمن أجرى هذه الأسماء مجرى الاسم المضاف جعل محل الإعراب آخر الاسم الأوّل، ومن أجراه مجرى زيد جعل محل الإعراب آخر الاسم الثاني، كذلك وقع الاختلاف في حرف لام ألف إذا وقع في الخط في تعيين أيّ فخذ من هذا الحرف هو اللام وأي فخذ هو الألف، واختلفت مراعاة الناس في ذلك، فمن قاس الخط على اللفظ كان اللام عنده الذي يبتدىء به الكاتب سواء كان الفخذ المتقدم في الترتيب أو المتأخر، ومن لم يحمله على النطق به بقي على الخلاف وجعل له التخيير في ذلك، فيجعل أيّ شيء أراد اللام من الفخذين وأيّ شيء أراد الألف، إذ كان كل واحد منهما على صورة الآخر للالتفاف الذي أخرج اللام عن حقيقته كذلك الإنسان الكامل والحق في الصورة التي تنزلت منزلة الالتفاف، فإن نسبت الفعل إلى قدرة العبد كان لذلك وجه في الإخبار الإلهيّ، وإن نسبت الفعل إلى الله كان لذلك وجه في الإخبار الإلهيّ.

وأما الأدلة العقلية فقد تعارضت عند العقلاء، وإن كانت غير متعارضة في نفس الأمر،

ولكن عسر وتعذر على العقلاء تمييز الدليل من الشبهة، وكذلك في الإخبار الإلهيّ يتعذر، وكذلك في حقيقة العبد يتعذر لتعلق الأمر به، فلا يؤمر إلاَّ من له قدرة على فعل ما يؤمر به وتمكن من ترك ما ينهى عنه فيعسر نفي الفعل عن المكلف الذي هو العبد لارتفاع حكمة الخطاب في ذلك، والإخبار الآخر والوجه الآخر العقلي يعطي أن الفعل المنسوب إلى العبد إنما هو لله فقد تعارضا خبراً وعقلاً، وهذا موضع الحيرة وسبب وقوع الخلاف في هذه المسألة بين العقلاء في نظرهم في أدلتهم وبين أهل الأخبار في أدلتهم، ولا يعرف ذلك إلاَّ أهل الكشف خاصة من أهل الله، وكون الإنسان على الصورة يطلب وجود الفعل له والتكليف يؤيده والحسّ يشهد له فهو أقوى في الدلالة، ولا يقدح فيه رجوع كل ذلك إلى الله بحكم الأصل فإنه لا ينافي هذا التقرير. ولهذا ضعفت حجة القائلين بالكسب لا من كونهم قالوا بالكسب فإن هؤلاء أيضاً يقولون به لأنه خبر شرعيّ وأمر عقليّ يعلمه الإنسان من نفسه، وإنما تضعف حجتهم في نفيهم الأثر عن القدرة الحادثة.

وبعد أن علمت هذا الفصل من منزل الألفة فلنشرع فيما يرجع إلى تحقيقه في غير هذا النمط ممّا يتضمنه على جهة الإفصاح عنه. فاعلم أن هذا المنزل هو منزل سفر الأبدال السبعة المجتمعين المتألفين مع القبض الذي هم عليه بعضهم عن بعض، وإنكار بعضهم على بعض مع وجود الصفاء فيما بينهم، ولهم سفران في باب المعرفة: سفر منهم إلى الإله في مظاهره، وسفر آخر منهم أيضاً إلى الذات، فسفرهم إلى الإله من ربوبيتهم، وسفرهم إلى الذات من ذواتهم، فإذا أرادوا السفر إلى الذات قصدوا اليمن، وإذا أرادوا السفر إلى الإله قصدوا الشام وبلاد الشمال، وأي جهة قصدوا فإنّ استعدادهم على السواء في القدر الذي يحتاجون إليه، وإن تنوّع فإن الأغذية تتنوّع بتنوّع الجهات، فلا يؤخذ من الزاد إلى كل جهة إلاَّ ما يصلح مزاج المسافر إلى تلك الجهة لئلا يحول بينه وبين مقصده مرض للأهواء المختلفة في الجهات وأثرها في المزاج، فلا بدّ أن يختلف الاستعداد، على أن إقامتهم قليلة في السفرين ويعودون إلى مواطنهم، فإذا قصدوا اليمن لم يقيموا فيه سوى أربعة وعشرين يوماً يحصلون فيها مرادهم ويرجعون إلى سنة أخرى، وإذا قصدوا الشمال لم يقيموا فيه إلا ستة أيام يحصلون فيها مرادهم ويرجعون إلى سنة أخرى وسفرهم روحانيّ لا جسمانيّ.

فأما العلوم التي يستفيدونها في سفرهم إلى اليمن فعلوم الاصطلام وعلم السبحات من وراء الحجب علم ذوق. وأما العلوم التي يستفيدونها في سفرهم إلى الشمال فعلوم زيادات اليقين بما يتجلى لهم، وعلم العبودية والقبض وما تنتجه الخلوات علم ذوق، وموطنهم الذي يستقرّون فيه مكة، فإن التنزّل في روحانيتها أتمّ التنزّل لأنها كما قال تعالىٰ: ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٢] وقال: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة القصص: الآية ٥٧] فعمّ وقال فيه: ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [سورة القصص: الآية ٥٧] فما أضافه إلى غيره فهي علوم وهب تحيا بها أرواحهم ولم يقل ذلك في غير مكة، ولا تحصل هذه العلوم التي أشرنا إليها إلاَّ لمن كان حاله الذلة والافتقار، ومقامه الجلال والقبض والهيبة والخوف، فإذا كانت أوصاف العبد ما ذكرناه منحه

الله العزّة والغنى في حاله والجمال والبسط والأنس به، والرجاء في غيره لا في نفسه، فإنه في حق نفسه من ربه في أمان لأنه قد بشر كما قال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة يونس: الآية ٦٤] وبشارة الحق حق لا يدخلها نسخ فيؤمن بوجودها المكر ولكن إذا كان نصاً، وفي هذا المنزل ذوق عجيب لا يكون في غيره، وهو أنه إذا كنت في حال من الأحوال فإن الحق يهبك في تلك الحال علماً من ذلك الحال لا تخرج عنه مثل الذي ينتقل من العلم بالشيء إلى معاينة ذلك الشيء فلم يحصل له إلاّ مزيد وضوح في عين واحدة، كذلك هذا المنزل وهو منزل منه يعلم الجمع بين الضدين وهو وجود الضد في عين ضده، وهذا العلم أقوى علم تعلم به الوحدانية لأنه يشاهد حالاً لا يمكن أن يجهله إنّ عين الضد هو بنفسه عين ضده، فيدرك الأحدية في الكثرة لا على طريقة أصحاب العدد فإن تلك طريقة متوهمة، وهذا علم مشهود محقق.

وممّن تبرز في هذا المنزل المبارك أبو سعيد الخراز من المتقدمين، وكنت أسمع ذلك عنه حتى دخلته بنفسي وحصل لي ما حصل فعرفت أنه الحق وأن الناس في إنكارهم ذلك على حق فإنهم ينكرونه عقلاً، وليس في قوّة العقل من حيث نظره أكثر من هذا، ومن أعطى ما في وسعه من حيث ما تقتضيه تلك الجهة فقد وفى الأمر حقه، وهذا الذي استقر عليه قدمنا وثبت، فلا ننكر على مدع ما يدعيه إلاّ الإنكار الذي أمرنا به فننكره شرعاً، وهذا الإنكار حقيقة أيضاً لا نشهد إلاّ هيئة يجب الإنكار بها وفيها كما أنكرنا ذلك عقلاً، فللشرع قوّة لا يتعدّى بها ما تعطيه حقيقتها كما فعلنا في العقل، وللذوق قوّة نعاملها به أيضاً كما عاملنا سائر ما نسب إليه القوىٰ بحسب قوّته فنحن مع الوقت، فننكر مع العقل ما ينكره العقل لأنّ وقتنا العقل، ولا ننكره كشفاً ولا شرعاً وننكر مع الشرع ما ينكره الشرع لأن وقتنا الشرع، ولا ننكره كشفاً ولا عقلاً. وأما الكشف فلا ينكر شيئاً بل يقرر كل شيء في رتبته، فمن كان وقته الكشف أنكر عليه ولم ينكر هو على أحد، ومن كان وقته العقل أنكر وأنكر عليه، ومن كان وقته الشرع أنكر وأنكر عليه فاعلم ذلك.

واعلم أن لهذا المنزل حالاً لا يكون لغيره وهو أنه يعطي تحصيل هوية الأسماء الإلهية وهذا خلاف ما تعطيه حقيقة الهو، فإن الهو من حقيقته أنه لا يتحصل ولا يشاهد أبداً إلاّ في هذا المشهد والمنزل، فإن عين الظاهر فيه هو بنفسه عين الباطن، غير أن هوية الحق لا تدخل في هذا المنزل، وإنما قلنا ذلك في هوية الأسماء الإلهية من كون هويتها لا من أنانيتها. واعلم أن هذا المنزل إذا دخلته تجتمع فيه مع جماعة من الرسل صلوات الله عليهم فتستفيد من ذوقهم الخاص بهم علوماً لم تكن عندك فتكون لك كشفاً كما كانت لهم ذوقاً، فيحصل لك منهم علم الأدلة والعلامات، فلا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء إذا تجلى لك إلاّ تميزه وتعرفه حين يجهله غيرك ممّن لم يحصل في هذا المنزل وهو علم كشف لأنك تشهده بالعلامة لا تراه من نفسك لأنه ليس بذوق لك، ويحصل لك منهم علم القدم وهو علم عزيز به يكون ثباتك على ما يحصل لك من الأسرار والعلوم بعد انفصالك عن الحضرات التي يحصل لك فيها ما يحصل من العلم والأسرار، فكثير من الناس من نسي ما شاهده، فإذا

حصل له هذا العلم من هذا النبي يثبت فيه ثبات الأنبياء، ويحصل لك منهم أيضاً علم الشرائع في العالم ومن أين مأخذها وكيف أخذت؟ ولماذا اختلفت في بعض الأحكام؟ وفي ماذا اتفقت واجتمعت؟ حتى أن صاحب هذا الكشف لو لم يكن مؤيداً في كشفه لادّعى النبوّة، ولكن الله أيّد أولياءه وعصمهم عن الغلط في دعوى ما ليس لهم لخروجهم عن حظوظ نفوسهم عند الخلق، لكنهم لا يخرجون عن حظوظها عند الحق، ولا يصحّ أن يطلب الحق للحق وإنما يطلب للحظ، فإن فائدة الطلب التحصيل للمطلوب والحق لا يحصل لأحد فلا يصحّ أن يكون مطلوباً لعالم فلم يبق إلاّ الحظ، ومن هذا العلم يداوى العشاق إذا أفرطت فيهم المحبة، من هذه الحضرة يستخرج لهم دواء الراحة ممّا هم فيه من العذاب الذي يعطيه العشق من القلق والكمد والانزعاج، ويحصل من مشاهدة هؤلاء الأنبياء أيضاً علم ما يحتاج إليه نواب الحق في عباده من الرحمة والقهر والشدة واللين، وما يعاملون به الخلق، وما يعاملون به أنفسهم إذا كانوا نوّاباً فيستفيد هذا كله وإن لم يحصل له درجة النيابة في العامّة، ولكنه نائب الله في عالمه الخاص به الذي هو نفسه وأهله وولده إن كان ذا أهل وولد، ويحصل له منهم السرّ الذي به يحيى الجاهل من موت جهله وما يحيي الله به الموتى فإنه راجع إلى منزل الألفة لأن الحياة للشيء إنما تكون لتألفها به ونظرها إليه من اسمه الحيّ الذي ليس عن تأليف، ويحصل أيضاً علم الخلق التام في قوله «مخلقة» ولا يحصل له في هذا المنزل علم غير المخلقة، وإنما يحصل ذلك لمن حصل من منزل آخر.

وفي هذا المنزل يعلم من هؤلاء الأنبياء العلم التصورّي وهو العلم بالمفردات التي لم تتركب، ومن هذا المنزل تلبس المعاني الصور فيصور المسائل العالم في نفسه ثم يبرزها إلى المتعلمين في أحسن صورة وهي المخلقة، فإن أخطأ فمن غير هذا المنزل، ومن هذا المنزل يعلم سبب العشق الحاصل في العاشق ما هو وما الرابطة بين العاشق والمعشوق حتى التفّ به على الاختصاص دون غيره، ولماذا يراه في عينه أجمل ممّن هو أجمل منه في علمه؟ ولماذا يكون تحت سلطان المعشوق وإن كان عبده؟ ولماذا ينتقل الحكم على السيد للعبد إذا كان معشوقاً له فيكون تحت أمره ونهيه لا يقدر في نفسه أن يتصور مخالفته فيما يأمره به عبده، وكيف انتقلت السيادة إليه وانتقلت العبودية إلى الآخر السيد ظاهرة الحكم بالتصرّف فيه؟ ولماذا يتخيل أنه يراه أعظم عنده من نفسه وأن سعادته في عبوديته وذلّته بين يديه مع أنه يحب الرياسة بالطبع؟ ولماذا أثر في طبعه؟ وتتبين له قوّة الأرواح على الطبع وأن العشق روحانيّ فردّه إلى ما تقتضيه حقيقة الروح، فإن الروح لا رياسة عنده في نفسه ولا يقبل الوصف بها، ويعلم هل ينقسم العشق إلى طبع وروح أو هو من خصائص الروح؟ أو هو من خصائص الطبع لوجوده من الحيوان والنبات؟ ويعلم لماذا كان العشق من الإنسان لجارية أو غلام بحيث أن يفنى فيه ويكون بهذه المثابة التي ذكرناها، ولا يستفرغ هذا الاستفراغ في حب من ليس بإنسان من ذهب وفضة وعقار وعروض وغير ذلك وهو علم شريف، ولماذا يستفرغ مثل هذا الاستفراغ في محبة الحق وحده دون ما ذكرناه ويعلم هل محبته للحق جزئية أم كلية؟ ومعنى

ذلك أنه هل أحبه بكله من حيث طبعه وروحه أو من حيث روحه فقط؟ لأن الحب الطبيعيّ لا يليق أن يتعلق من المحب بذلك الجناب، وهل لذلك الجناب مظهر يمكن أن يتعلق به الحب الطبيعيّ أم لا؟ كل ذلك من خصائص علم هذا المنزل، وممّا يستفيد من علوم هذا المنزل علم الزمان ولماذا يرجع؟ هل لأمر وجوديّ أو لأمر عدميّ؟ وهل الليل والنهار زمان أو دليل على أن ثم زماناً، وهل حدث الليل والنهار في زمان، ومن هذا المنزل يعلم ترتيب الهياكل الموضوعة لاستنزال الأرواح وصورها وأشكالها وبنائها وما ينقش عليها وما ينفعل عنها وكم مدتها بعد معرفته هل لها مدة أم لا؟ ويعلم علم الحروف والنجوم من حيث خصائصها وطبائعها وتأثيراتها التي فطرها الله عليها وفيمن تؤثر وبماذا تحتجب عن تأثيرها؟ وإذا قيدت بماذا يطلق من قيدته عن تقييدها، وإذا أطلق بماذا يقيد من إطلاقه، ويعلم من هذا المنزل ما أردناه بقولنا: [البسيط]

الحقُّ ما بين مجهولٍ ومَعْروفِ　　　فالناسُ ما بين مَتْروكٍ ومَألوفِ
والشَّأنُ ما بين وصَّافٍ ومَوْصوفِ　　　فالحالُ ما بين مَقْبولٍ ومَضْروفِ

فهذا بعض ما يحويه هذا المنزل وهو كثير، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والسبعون ومائتان

في معرفة منزل الاعتبار وأسراره من المقام المحمدي

[نظم: الطويل]

تَجلِّيه في الأفعال ليس بمُمْكنٍ　　　لدينا وعند الغَيْر ذلك جَائِزُ
ويحتجُ في ذاك الجوازِ بفعْلِهِ　　　وكيف يرى في الفَعْلِ والعبدُ عاجِزُ
فمن قائلٍ الحقُّ في الكون ظاهرٌ　　　ومن قائلٍ الحقُّ في المَنْع ناجِزُ
وتَحْقيقُ هذا الأمر عَجْزٌ وحَيْرةٌ　　　ولا يَنْجَلي إلاَّ لمن هو فَائزُ

اعلم أن التجلي الذاتي ممنوع بلا خلاف بين أهل الحقائق في غير مظهر، والتجلي في المظاهر وهو التجلي في صور المعتقدات كائن بلا خلاف، والتجلي في المعقولات كائن بلا خلاف وهما تجلي الاعتبارات، لأنّ هذه المظاهر سواء كانت صور المعقولات أو صور المعتقدات فإنها جسور يعبر عليها بالعلم، أي يعلم أن وراء هذه الصور أمراً لا يصحّ أن يشهد ولا أن يعلم، وليس وراء ذلك المعلوم الذي لا يشهد ولا يعلم حقيقة ما يعلم أصلاً. وأما التجلي في الأفعال أعني نسبة ظهور الكائنات والمظاهر عن الذات التي تتكوّن عنها الكائنات وتظهر عنها المظاهر وهو قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الكهف: الآية ٥١] فالحق سبحانه قرّر في اعتقادات قوم وقوع ذلك، وقرر في اعتقادات قوم منع وقوع ذلك، وهو سبحانه قد ذكرنا أنه يتجلى في صور المعتقدات، فمن عرف أن أفعال نفسه وغيره مخلوقة لله مع أنه يشاهدها عن قدرته ويعلم أنها عن القدرة الإلهية مع أنه لا يشهد تعلّق قدرته أو قدرة غيره بمقدوره حالة إيجاده وإبرازه من العدم إلى الوجود يمنع أن يتجلى الحق في الأفعال إلاّ على حد ما وقع هنا فمنع وقوع هذا التجلي، ومن عرف أن أفعال نفسه مخلوقة له

لا للقدرة القديمة مع أنه أيضاً لا يعرفها مشاهدة إلاّ حال وجودها، ولا يرى صاحب هذا الاعتقاد إذا أنصف تعلّق قدرته بإيجادها وإنما يشهد تعلّق الجارحة بالحركة القائمة قال بوقوع هذا التجلي، ففيه خلاف بين أهل هذا الشأن لا يرتفع دنيا ولا آخرة، غير أن الدنيا تقتضي بحالها أن يتنازعوا في هذا الأمر وغيره، وفي الجنة لا نزاع في ذلك لأن كل واحد قد قرّره الحق على اعتقاده وأبقى عليه، وهمّه في تلك الدار أنه متجلّ له في أفعاله، وأبقى على الآخر علمه أنه لا يتجلّى في أفعاله مع حصول تجلّي من أبقى عليه وهمّه لمن أبقى علمه عليه بالمنع، فصاحب المنع يشاهد من الحق ما يشاهده من يقول بوقوع التجلي في الأفعال فيعرف ما يشهد في ذلك التجلي، كما يعرف هنا من يعقل معقولاته الصادرة عنه، وذلك الآخر لا يعلم من الله هذا الذي يعلمه من يقول بالمنع، فحصل من هذا أن الأمر مشكل، فهو سبحانه المثبت لذلك والنافي له فيما خاطبنا به هنا في كتبه وعلى ألسنة رسله وقرّره في أفكار النظار لتأخذه العقول على حدّ ما قرّره في الأفكار من المنع لذلك أو وقوعه، وهذا الحجاب لا يرتفع أبداً، والتكليف محقق من حيث إن الأفعال مكتسبة بلا خلاف بين الطائفتين، وإنما الخلاف في الإيجاد عن أي القدرتين كان قال تعالىٰ: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤٥] وهو أقوى حجة للقائلين بالوقوع، وهو أقوى حجة للقائلين بالمنع ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٥] فقرن الرؤية بإلى وجعل المرئيّ الكيف، فيقول صاحب المنع: لما لم نشهد هنا ذات الحق وهو يكيف مدّ الظل ولا رأيناه وإنما رأينا مدّ الظلال عن الأشخاص الكثيفة التي تحجب الأنوار أن تنبسط على الأماكن التي تمتد فيها ظلال هذه الأشخاص، علمنا أن الرؤية في هذا الخطاب إنما متعلقها العلم بالكيف المشهود الذي ذكرناه، وأن ذلك من الله سبحانه لا من غيره، أي إنّه لو أراد أن تكون الأشخاص الكثيفة منصوبة والأنوار في جهة منها بمنع تلك الأشخاص انبساط النور على تلك الأماكن فيسمّى منعها ظلالاً أو يقبض تلك الظلال عن الانبساط على تلك الأماكن ولا يخلق فيها نوراً آخر ولا ينبسط ذلك النور المحجوب على تلك الأماكن لما قصرت إرادته عن ذلك كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٦] وهو رجوع الظل إلى الشخص الممتد منه ببروز النور حتى يشهد ذلك المكان، فجعل المقبوض إنما كان قبضه إلى الله لا إلى الجدار، وفي الشاهد وما تراه العين أن سبب انقباض الظل وتشميره إلى جهة الشخص الكثيف إنما هو بروز النور، فما في المسائل الإلهية ما تقع فيها الحيرة أكثر ولا أعظم من مسألة الأفعال، ولا سيما في تعلق الحمد والذمّ بأفعال المخلوقين، فيخرجها ذلك التعلّق أن تكون أفعال المخلوقين لغير المخلوقين حال ظهورها عنهم، وأفعال الله كلها حسنة في مذهب المخالف الذي ينفي الفعل عن المخلوق ويثبت الذم للفعل بلا خلاف ولا شك عنده في تعلّق الذم بذلك الفعل من الله وسببه الكسب لما وقع مخالفاً لحمد الله فيه مأموراً كان يفعله فلم يفعله أو منهياً عن فعله ففعله، وهذا فيه ما فيه، وفي مثل هذه المسائل قلت: [المديد]

حَـيْـرةٌ مِـنْ حَـيْـرةٍ صَـدَرتْ ... لـيـت شـعـري ثـم مـن لا يَـحَـارْ

أنـــا إن قـــلـــتُ أنـــا قـــال لا وهـــو إن قـــال أنـــا لا يُـــعَـــارْ
أنـــا مَـــجْـــبُـــورٌ ولا فـــعـــلَ لـــي والـــذي أفـــعَـــلُـــه بـــاضـــطـــرَارْ
والـــذي أُسْـــنِـــدُ فِـــعْـــلـــي لـــه لـــيـــس فـــي أفْـــعَـــالـــهِ بـــالـــخَـــيَـــارْ
فـــأنـــا وهـــو عـــلـــى نُـــقْـــطَـــةٍ ثـــبـــتَـــتْ لـــيـــس لـــهـــا مِـــنْ قَـــرارْ

فقد أوقفناك بما ذكرناه في هذا الباب على ما يزيدك حيرة فيه، وبعد أن ذكرنا ما ذكرنا فاعلم أن هذا المنزل هو على الحقيقة منزل حيرة ومقام غيرة، ومن علوم هذا المنزل وهو داخل في باب الحيرة اتصاف العدم بالكينونة وهي تقتضيه، واتصاف الحق بجعل الموجودات في العدم وخلق العدم بحيث أن يقال: فعل الفاعل لا شيء ولا شيء لا يكون فعلاً، وقد نسبه الحق إليه فقال ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي يلحقكم بالعدم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ١٩] فانظر كيف أضاف الإلحاق بالعدم إلى المشيئة ولم يضفه إلى القدرة التي يقع الخلق والجعل بها، والكتب الإلهية من هذا مشحونة ويحتوي عليها هذا المنزل، والصحيح في ذلك أن الموجودات إذا كانت كما قد ذكر لها أعيان ثابتة حال اتصافها بالعدم الذي هو للممكن لا للمحال، فكما أبرزها للوجود وألبسها حاله وعرّاها عن حال العدم فيسمّى بذلك موجداً وتسمّى هذه العين موجودة، لا يبعد أن يردّها إلى ما منه أخرجها وهي حالة العدم، فيتصف الحق بأنه معدم لها، وتتصف هي بأنها معدومة، ولا يتعرّض إلى العلم بأية صفة حصل ذلك، فإن سئلنا ألحقنا حصول الأمرين والحالتين بالمشيئة ويسلم ذلك الخصمان، وإذا سئلنا عن إلحاق تلك العين بالوجود نسبنا ذلك إلى القدرة والمشيئة ويسلم الخصمان لنا ذلك، فإذا فهمت ما أردناه فألحق الكل بالمشيئة وهو الأولى والأوجه حتى تسلم من النزاع في صنف الخبر من ذلك حتى لا يتصوّر نزاع فيه من جميع الطوائف، ومن هذا الباب: ذهب الله بنورهم، أي أزاله عن أبصارهم، ولكن لا يلزم من ذهابه عن أبصارهم إلحاقه بالعدم لولا أن المفهوم منه أن الله أعدم النور من أبصارهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون.

ومن علوم هذا المنزل بعث الحق تعالىٰ الجماعة لأمر يقوم به الواحد منهم أعني من تلك الجماعة، ومن علوم هذا المنزل وجود العلم عن النظرة والضربة والرمية، وكيف تقوم هذه الأمور مقام كلام العالم للمتعلم وذوقنا من هذا الفن ذوق النظرة. فاعلم أنه كما يتضمن النظر بنور الشمس جميع المرئيات على كثرتها وبعدها في غير زمان مطوّل بل عين زمان اللمحة زمان بسط النور على المبصرات عين زمان إدراك البصر لها عين زمان تعلّق العلم بما أدركه البصر من غير ترتيب زمانيّ ولا امتداد، وإن كان الترتيب معقولاً مثل ترتيب العلة والمعلول مع تساوقهما في الوجود، كذلك اللحظة أو الضربة أو الرمية تتضمن العلوم التي أودع الله فيها، فإذا وقعت من الضارب أو الرامي أو اللاحظ أدرك من العلم جميع ما في قوّة تلك الضربة مثل ما أعطت اللحظة بنور الشمس جميع ما في قوّة تلك اللحظة من المبصرات، وليس القصور من الضربة وغيرها فإنها تتضمن ما لا نهاية له من العلوم كما تشرق الشمس على أكثر ممّا يدركه البصر، وإنما القصور في قلب المدرك مثل القصور في المبصر عن إدراك

جميع ما أشرقت عليه الشمس، وهذا كله في آن واحد إن كان المدرك ممّن يتقيد بالزمان كالأرواح التي لا تتصف بالتحيز، فتدرك ما تدركه في غير زمان ممّا يدرك في زمان وفي غير زمان، ولهذه الإشارة بقوله ﷺ: «**إنَّ الحقَّ ضَرَبَهُ بِيَدِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ أَوْ فِي ظَهْرِهِ فَوَجَدَ بَرْدَ الأَنَامِلِ بَيْن ثَدْيَيْهِ أَوْ فِي صَدْرِهِ فَعَلِمَ عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ**» فسبحان معلم من شاء بما شاء كيف شاء لا إله إلاّ هو العليم القدير. وكذلك من هذا الباب لما رمى التراب في وجوه الأعداء يوم حنين فأصابت عيون القوم فانهزموا، فانظر ما تضمنته تلك الرمية وما تضمنته تلك الضربة.

وأما النظرة فما رويتها عن أحد ولا سمعتها عن أحد لكني رأيتها من نفسي، نظرت نظرة فعلمت ما تضمنته من العلوم، وأعطيت نظرة فنظرت بها فعلمت بها من نظرت إليه من جميع ما تضمنته تلك النظرة من العلوم، وهذا هو علم الأذواق، ومن هنا يعلم قول من قال: يسمع بما به يبصر بما به يتكلم هذا مضى. وأما فائدة ما يقوم به الواحد بما نبعث به الجماعة فللإنعام الإلهيّ بتلك الجماعة وعناية الحق بهم حيث جعل لهم نصيباً في ذلك الخير لا لقصور القدرة عن إبلاغ الواحد ذلك الأمر دون الجماعة إلاّ أن تكون حقائق النسب، فإن ذلك ترتيب حقيقي لا وضعي، كتقدّم الحيّ على العالم، ودخول المريد تحت إحاطة العالم، ودخول القادر تحت إحاطة المريد، فلا يقوم المريد بما يختص به القادر، ولا يقوم العالم بما يختص به المريد، ولا يقوم الحيّ بما يختص به العالم، ولا يقوم العالم بما يختص به الحيّ، ولا يقوم المريد بما يختص به العالم، ولا يقوم القادر بما يختص به المريد، وعين العالم هو عين الحيّ عين المريد عين القادر، وعين الحياة هي عين العلم عين الإرادة عين القدرة، وعين الحياة هي عين الحيّ عين العالم عين المريد عين القادر، وكذلك ما بقي فالنسب مختلفة والعين واحدة، والمعلوم صفة وحال وموصوف، فالجمع في عين الوحدة مندرج حكماً لا عيناً، فإنه ما ثم أعيان موجودة لهذا المجموع، وإنما هي عين واحدة لها نسب مختلفة تبلغ ما بلغت، فهذا هو السريان الوجودي في الموجودات، فهذا من قيام الواحد بما تقوم به الجماعة بين موجود ومعقول، فهذا المنزل يتضمن ما ذكرناه.

ومن علوم هذا المنزل معرفة استحالات العناصر والمولدات بعضها إلى بعض بنسبة رابطة بين المستحيل والمستحال إليه، فإن ارتفعت تلك النسبة الرابطة لم يستحل شيء إلى شيء فإنه مناف له من جميع الوجوه، ولهذا كانت النسبة بين الرب والمربوب موجودة وبها كان رباً له ولم يكن بين المربوب وذات الرب نسبة، فلهذا لم يكن عن الذات شيء كما تقول أصحاب العلل والمعلولات، فلا تتوجه الذات على إيجاد الأشياء من كونها ذاتاً، وإنما تتوجه على الأشياء من نسبة القدرة إليها وعدم المانع وذلك مسمّى الألوهة، كذلك الطبائع رتبها الله ترتيباً عجيباً لأجل الاستحالات، فجعل عنصر النار يليه الهواء، وعنصر الهواء يليه الماء، وعنصر الماء يليه التراب، فبين الماء والنار منافرة طبيعية من جميع الوجوه، وبين الهواء والتراب منافرة من جميع الوجوه طبيعية، فجعل بينهما الوسائط لكونها ذات وجهين لكل واحد ممّا يلي الطرفين مناسبة خاصة، فإذا أراد الحق أن يحيل الماء ناراً وهو منافر طبعاً أحاله

أوّلاً هواء ثم أحال ذلك الهواء ناراً، فما أحال الماء ناراً حتى نقله إلى الهواء من أجل التناسب، وكذلك جميع الاستحالات كلها في عالم الطبيعة. وأما في الإلهيات فقد أشرنا إليه في هذه المسألة وفي هذا الكتاب في وصف ذات المخلوق بصفة ذات الخالق، ووصف ذات الخالق بصفة ذات المخلوق، ثم تجرّد ذات الخالق عمّا تقتضيه ذات المخلوق، وتجرّد ذات المخلوق عمّا تقتضيه ذات الخالق، فلولا النسبة الموجودة بين الرب والمربوب ما دلّ عليه ولا قبل الاتصاف بصفته لا هذا ولا هذا، وبتلك النسبة كان الحق مكلفاً عباده وآمراً وناهياً، وبها بعينها كان الخلق مكلفاً مأموراً منهياً، فحقق ما نبهناك عليه إن كنت ذا قلب وألقيت السمع وأنت شهيد لما ذكرناه، فإن لم تكن كذلك فاتك خير كثير وعلم نافع جليل القدر لكنه عظيم الخطر إلاّ أن يعصم الله.

ومكر إلهيّ خفيّ في هذا المنزل صدر عن الاسم القاهر والقادر موجود من عالم الغيب في عالم الحسّ بيده حسام القهر صلتاً يطلب به موجوداً تعلّق باسم رحمانيّ مثل طلب موسىٰ فرعون وطلب نمروذ وفراعنة الأنبياء للأنبياء عليهم السلام، كل ذلك صفات تقوم للعارف في ظاهره وباطنه يكاشفها من نفسه، فإذا صال رجال الاسم القاهر التجأ العارف إلى الاسم الباطن فشفع له عند القاهر فتبادر جماعة من الأسماء الإلهية من أجل الاسم الباطن تعظيماً له لقربه من الهو، وقاموا معه بالاسم القائم على الاسم الظاهر لبعد منزلته من الهوَ، فأقام لهم الاسم من عالم الغيب جماعة في عالم البرزخ فإنه أشد قوّة في التأثير من عالم الحسّ، فإنه يؤثر في عالم الحسّ ما يؤثره الحسّ، والحسّ لا يقدر يؤثر في الخيال، ألا ترى النائم يرى في الخيال أنه ينكح فينزل منه الماء في عالم الحسّ، ويرى ما يفزعه فيتأثر لذلك جسم النائم بحركة أو صوت يصدر منه أو كلام مفهوم أو عرق لقوّة سلطانه عليه، ويظهر الخيال في صورة الحسّ ما ليس في نفسه بمحسوس ويلحقه بالحسّ، وليس في قوّة الحسّ أن يرد المحسوس بعينه متخيلاً، فيحصل لهذا العارف علوم من عين تلك الجماعة البرزخية يطلع بها على معرفة تلك الشبهة القادحة في سعادته لو ثبتت ومات عليها، ولا بدّ في هذا المنزل من هذه الشبهة وهذه الأدلة.

فصل: واعلم أنه ما من منزل من المنازل ولا منازلة من المنازلات ولا مقام من المقامات ولا حال من الحالات إلاّ وبينهما برزخ يوقف العبد فيه يسمّى الموقف، وهو الذي تكلم منه صاحب المواقف محمد بن عبد الجبار النفري رحمه الله في كتابه المسمّى بالمواقف الذي يقول فيه: أوقفني الحق في موقف كذا، فذلك الاسم الذي يضيفه إليه هو المنزل الذي ينتقل إليه أو المقام أو الحال أو المنازلة إلاّ قوله: أوقفني في موقف وراء المواقف، فذلك الموقف مسمّى بغير اسم ما ينتقل إليه، وهو الموقف الذي لا يكون بعده ما يناسب الأوّل، وهو عندما يريد الحق أن ينقله من المقام إلى الحال، ومن الحال إلى المقام، ومن المقام إلى المنزل، ومن المنزل إلى المنازلات، أو من المنازلات إلى المقام، وفائدة هذه المواقف أن العبد إذا أراد الحق أن ينقله من شيء إلى شيء يوقفه ما بين ما ينتقل عنه وبين ما ينتقل إليه،

فيعطيه آداب ما ينتقل إليه ويعلمه كيف يتأدّب بما يستحقه ذلك الأمر الذي يستقبله، فإن للحق آداباً لكل منزل ومقام وحال ومنازلة إن لم يلزم الآداب الإلهية العبد فيها وإلا طرد، وهو أن يجري فيها على ما يريده الحق من الظهور بتجليه في ذلك الأمر أو الحضرة من الإنكار أو التعريف، فيعامل الحق بآداب ما تستحقه، وقد ورد الخبر الصحيح في ذلك في تجليه سبحانه في موطن التلبيس وهو تجليه في غير صور الاعتقادات في حضرة الاعتقادات، فلا يبقى أحد يقبله ولا يقربه بل يقولون إذا قال لهم أنا ربكم: نعوذ بالله منك فالعارف في ذلك المقام يعرفه، غير أنه قد علم منه بما أعلمه أنه لا يريد أن يعرفه في تلك الحضرة من كان هنا مقيد المعرفة بصورة خاصة يعبده فيها، فمن أدب العارف أن يوافقهم في الإنكار، ولكن لا يتلفظ بما تلفظوا به من الاستعاذة منه فإنه يعرفه، فإذا قال لهم الحق في تلك الحضرة عند تلك النظرة: هل كان بينكم وبينه علامة تعرفونه بها؟ فيقولون نعم، فيتحوّل لهم سبحانه في تلك العلامة مع اختلاف العلامات، فإذا رأوها وهي الصورة التي كانوا يعبدونه فيها حينئذٍ اعترفوا به، ووافقهم العارف بذلك في اعترافهم أدباً منه مع الله وحقيقة وأقرّ له بما أقرّت الجماعة، فهذه فائدة علم المواقف وما ثم منزل ولا مقام كما قلنا إلاّ وبينهما موقف إلاّ منزلان أو حضرتان أو مقامان أو حالان أو منازلتان كيف شئت قل ليس بينهما موقف، وسبب ذلك أنه أمر واحد، غير أنه يتغير على السالك حاله فيه فيتخيل أنه قد انتقل إلى منزل آخر أو حضرة أخرى فيحار لكونه لم ير الحق أوقفه والتغيير عنده حاصل، فلا يدري هل ذلك التغيّر الذي ظهر فيه هل هو من انتقاله في المنزل أو انتقاله عنه، فإن كان هنالك عارف بالأمر عرفه، وإن لم يكن له أستاذ بقي التلبيس، فإنه من شأن هذا الأمر أن لا يوقفه الحق كما فعل معه فيما تقدّم وكما يفعل معه فيما يستقبل، فيخاف السالك من سوء الأدب في الحال الذي يظهر عليه هل يعامله بالأدب المتقدم أوله أدب آخر؟ وهذا لمن أوقفه الحق من السالكين، فإذا لم يوقفه الحق في موقف من هذه المواقف ولم يعطه الفصل بين ما ينتقل إليه وعنه كان عنده الانتقالات في نفس المنزل الذي هو فيه، فإنه ما ثم عند صاحب هذا الذوق إلاّ أمر واحد فيه تكون الانتقالات وهو كان حال المنذري صاحب المقامات، وعليها بني كتابه المعروف بالمقامات وأوصلها إلى مائة مقام في مقام واحد وهو المحبة، فمثل هذا لا يقف ولا يتحير ولكن يفوته علم جليل من العلم بالله وصفاته المختصة بما ينتقل إليه، فلا يعرف المناسبات من جانب الحق إلى هذا المنزل فيكون علمه علم إجمال قد تضمنه الأمر الأوّل عند دخوله إلى هذه الحضرات، ويكون علم صاحب المواقف علم تفصيل، ولكن يعفى عنه ما يفوته من الآداب إذا لم تقع منه وتجهل فيه ولا يؤثر في حاله بل يعطي الأمور على ما ينبغي، ولكن لا يتنزل منزلة الواقف ولا يعرف ما فاته فيعرفه الواقف وهو لا يعرف الواقف، فلهذا المنزل الذي نحن فيه موقف يجهل لا بل يحار فيه صاحب المواقف، لأن المناسبة بين ما يعطيه الموقف الخاص به وبين هذا المنزل بعيدة ممّا بني المنزل عليه، وكذلك الذي يأتي بعده، غير أن النازل فيه وإن كان حائراً فإنه يحصل له من الموقف في تلك الوقفة إذا ارتفعت المناسبة

بين المنزل والوقفة أن المناسبة ترجع بين الوقفة والنازل فيعرف ما تستحقه الحضرة من الآداب مع ارتفاع المناسبة فيشكر الله على ذلك، فصاحب المواقف متعوب لكنه عالم كبير، والذي لا موقف له مستريح في سلوكه غير متعوب فيه، وربما إذا اجتمعا ورأى من لا موقف له حال من له المواقف ينكر عليه ما يراه فيه من المشقة، ويتخيل أنه دونه في المرتبة، فيأخذ عليه في ذلك ويعتبه فيها ويقول له: الطريق أهون من هذا الذي أنت عليه، ويتشيخ عليه وذلك لجهله بالمواقف، وأما صاحب المواقف فلا يجهله ولا ينكر عليه ما عامله به من سوء الأدب ويحمله فيه ولا يعرّفه بحاله ولا بما فاته من الطريق، فإنه قد علم أن الله ما أراده بذلك ولا أهله فيقبل كلامه وغايته أن يقول له: يا أخي سلم إليّ حالي كما سلمت إليك حالك، ويتركه، وهذا الذي نبهتك عليه من أنفع ما يكون في هذا الطريق لما فيه من الحيرة والتلبيس فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثمانون ومائتان

في معرفة منزل ما لي وأسراره من المقام الموسوي

[نظم: الخفيف]

قلتُ ما لي فقال ما لكَ عَبْدي ... قلت ما لي فقال ما لكَ عِنْدي
قلتُ لما أضفته لي ملكاً ... لِمَ خصَّصْتَه بقولكَ عِنْدي
قال لما علمتُ أنك عندي ... كان ما تحتَ مِلْكِ عندِكَ عندي
قلتُ إن كان عَيْنُ أنَّك أني ... صحَّ ما قلتَ إن عندَكَ عندي
وكما قلتَ إن عندَكَ عندي ... فلنَقُلْ نحن إن عندكَ عندي
وهو أولى فإن ذاتيَ ظَرْفٌ ... وتعالَيْتَ أنت فالعِنْدُ عندي

هذا منزل عال ليس بينه وبين موقفه مناسبة فترجع المناسبة إلى الواقف كما كان في المنزل الذي قبله من هذا المنزل، قال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [سورة يوسف: الآية ٦٧] ومن هذا المنزل قال محمد ﷺ وقد نزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢١٤] فوقف على الصفا وجاء الناس يهرعون إليه فقال لأكرم الناس عليه: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْت مُحَمَّدٍ انْظُرِي لِنَفْسِكِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً**» وقال مثل هذه المقالة لجميع الأقربين وكان عمّه أبو لهب حاضراً فنفخ في يده وقال: ما حصل بأيدينا ممّا قاله شيء، وصدق أبو لهب فإنه ما نفعه الله بإنذاره ولا أدخل قلبه منه شيئاً لما أراد به من الشقاء فأنزل الله فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [سورة المسد: الآية ١، ٢] فإنه كان معتمداً على ماله، فمن اعتمد على غير الله في أموره خسر، والقائلون بالأسباب إذا اعتمدوا عليها وتركوا الاعتماد على الله لحقوا بالأخسرين أعمالاً، وإذا أثبتوا الأسباب واعتمدوا على الله ولم يتعدّوا فيها منزلتها التي أنزلها الله فيها فأولئك الأكابر من رجال الله الذين ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٧] وأثبت لهم الحق

الرجولة في هذا الموطن، ومن شهد له الحق بأمر فهو على حق في دعواه إذا ادّعاه، ومن أثبت الأسباب بإثبات الحق وركن إليها ركون الطبع واضطرب عند فقدها في نفس الاعتماد على الله فذلك من متوسط الرجال، وإذا وقع الاضطراب في النفس فإن أحسّ بالفقد واضطرب المزاج فذلك من خصائص الرجال الأكابر، وإن لم يضطرب المزاج ولم يحسّ بالفقد فذلك حال الاعتماد على الله وهو مقام المتوسطين أصحاب الأحوال، ومن هذا المنزل قيل للنبيّ ﷺ في فتح مكة لما وقف بين يديه رجل ممّن كان النبي ﷺ يريد قتله فلما قضى حاجته منه وانصرف قال النبيّ ﷺ: «**لِمَ لَمْ تَقْتلُوه حِينَ وَقَفَ بَيْنَ يَدَيَّ؟ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: هَلاَّ أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِطَرْفِكَ؟ فَقَالَ ﷺ: مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ عَيْنٍ**» وهي حالة لا يسلم منها، وغاية أن يسلم منها من سلم في الشرّ، وأما في الخير فإنهم ربما اتخذوها في الخير طريقاً محموداً فيومىء الكبير في حق الحاضر إلى بعض من يمتثل أمره أن يجيء إليه بخلعة أو بمال يهبه لذلك الحاضر يكون ذلك إيماء بالعين لا تصريحاً باللفظ من غير شعور من يومىء في حقه بذلك الخير ولا يقع مثل هذا وإن كان خيراً من نبيّ، وسببه أن لا تعتاده النفس فربما تستعمله في الشرّ لاستصحابها إياه في الخير، إذ كانت النفس من طبعها أن تسترقها العادة، وإنما سميت خائنة عين لأن الإفصاح عمّا في النفس إنما هو لصفة الكلام ليس هو من صفة العين، وإن كان في قوّة العين الإفصاح بما في النفس بالإشارة، ولكن إنما لها النظر، والذي عندها من صفة الكلام إنما هو أمانة بيدها للكلام، فإذا تصرّفت في تلك الأمانة بالإيماء والإشارة لمن تومىء إليه في أمر ما فقد خانت الكلام فيما أمنها عليه من ذلك، فلهذا سميت خائنة الأعين، فوصفت بالخيانة والخيانة التصرّف في الأمانة، فإن الأمانة ليست بملك لك، وإنك مأمور بأدائها إلى أهلها، فإذا اقتضى المنزل الأمر بخير وشرّ في حق شخص وفي قوّة العين الإفصاح عن ذلك لمن يشير إليه به، فعلمت أن ذلك صفة للكلام فلم تفعل وردّت تلك الأمانة إلى اللسان فنطق فقد أدّت هذه العين الأمانة إلى أهلها ولم تخن فيها، قال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [سورة غافر: الآية ١٩] أي يعلم أنها خيانة وكيف هي خيانة ولم يقل يعلم ما أشارت به الأعين وما أومأت، فإن المشار إليه يعلم ذلك فلا يكون مدحاً، ولكن لا يعلم كل أحد أنها خيانة إلاّ من أعلمه الله بذلك وقد أعلمنا بها فعلمناها، فهي في الخير خيانة محمودة، وفي الشرّ خيانة مذمومة، وما زالت عن كونها خيانة في الحالين.

وبعد أن بيّنا لك هذا الأمر فتحفظ منها ما استطعت أن تفعلها مع الحضور فإنك لست بمعصوم فاستعمل الحضور عسى تفوز بهذا المقام. فإن قلت: قد أشارت من شهد لها بالكمال ومنعت من الكلام وهي مريم إلى عيسىٰ أن يسألوه عن شأنه، قلنا بعد ذلك نالت الكمال لا في ذلك الوقت، ألا ترى زكريا قيل له: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤١] والرمز ما يقع بالإشارة، فإن الإشارة صريحة في الأمر المطلوب بل هي أقوى في التعريف من التلفظ باسم المشار إليه في مواطن يحتاج المتكلم فيها إلى قرينة حال، حتى لو قال شخص لآخر: كلم زيداً بكذا وكذا وزيد حاضر احتمل أن يفهم عنه

السامع زيداً آخر غير هذا، والمتكلم إنما أراد الحاضر، فإذا ترك التلفظ باسمه وأشار إليه بيده أو بعينه فقال كلم هذا مشيراً إليه كان أفصح وأبعد من الإبهام والنكر، والحرف إنما هو لفظ مجمل يحتمل التوجيه فيه إلى أمور مثل ما رمز الشاعر في التعريف بالنار من غير أن يسميها فقال: [الوافر]

وطائرةٍ تطير بلا جناحٍ ... وتأكلُ في المساء وفي الصباحِ
وتمشي في الغُصون لها صِياحٌ ... وهزٌّ في الحُسام لدَى الكفاحِ
تفرُّ الأسْدُ منه في الفَيافي ... وتغلب للصَّوارم والرِّماحِ
وتجلس بين أفخاذ العَذارى ... وتَكْشفُ ما خَفِي تَحْتَ الوِشاحِ
إذا ماتَتْ تَجارَحَ والداها ... فترجع حيَّةً عند الجِراحِ

يريد بالوالدين الزناد، فهذا هو الرمز في النار، وقال الآخر في العين فأحسن: [الوافر]

وطائرةٍ تطير بلا جَنَاحٍ ... تفوقُ الطائرين وما تَطيرُ
إذا ما مسَّها الحجر استكَنَّتْ ... وتُنْكِرُ أن يلامسَها الحريرُ

يريد بالحجر الإثمد. واعلم أنه من أقام في نفسه معبوداً يعبده على الظنّ لا على القطع خانه ذلك الظنّ وما أغنى عنه من الله شيئاً، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [سورة النجم: الآية ٢٨] وقال في عبادتهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [سورة النجم: الآية ٢٣] فما نسب إليهم قط أنهم عبدوا غير الله إلاَّ على طريق الظنّ لا على جهة العلم، فإن ذلك في نفس الأمر ليس بعلم، فمن هنا تعلم أن العلم سبب النجاة، وإن شقي في الطريق فالمآل إلى النجاة، فما أشرف مرتبة العلم، ولهذا لم يأمر الله نبيه ﷺ أن يطلب من الله تعالىٰ الزيادة من شيء إلاَّ من العلم فقال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] فمن فهم ما أشرنا إليه علم أهل السعادة من أهل الشقاء ولم تؤثر فيه الأمور العرضية التي توجب الشقاء في الطريق، فلو علم المشرك ما يستحقه الحق من نعوت الجلال لعلم أنه لا يستحق أن يُشرك به، ولو علم المشرك أن الذي جعله شريكاً لا يستحق أن يوصف بالشركة لله في ألوهته لما أشرك فما أخذ إلاَّ بالجهل من الطرفين، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٥] وقال: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة هود: الآية ٤٦] فلو اقتصر المشرك على الشركة في الفعل لا في الألوهة لكان في الأمر سعة، فإن إضافة الأفعال إلى المخلوقين فيه إشكال ويعذر صاحبه فيمن هو ذو فعل، فإذا أضافوا الأفعال إلى من يعلمون أنه ليس بفاعل فبالجهل أخذوا وبه وقع التوبيخ فقيل لهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٥] وقال في حق ذي فعل: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٧٩] فنسب الإضلال لفرعون وما نسبه إلى قومه فإنه عندهم ذو فعل وفي نفس الأمر كذلك وقوله: ﴿وما هدى﴾ أي ما بين لهم طريق الحق فإنه موضع لبس لكونه ذا أفعال، فلو كان المعبود جماداً ما وقع اللبس.

فإن قيل: فإن اتخذوا إلهاً من له فعل بالخاصية من جماد ونبات أيعذرون؟ قلنا: لا يعذرون فإن خاصيته لا تكون سارية في كل شيء حتى تضاف إليه الأفعال كما تضاف إلى

الله، وبهذا القدر من الجهل أخذوا عبدة المخلوقين ذوي الأفعال كفرعون وغيره، فإن القدرة التي له لا تزيد على قدرة العابد إياه فهي قاصرة عن سريانها في جميع الأفعال، فإن القدرة الحادثة لا تخلق المتحيزات من أعيان الجواهر والأجسام فعبدوا من لم يخلق أعيانهم ولهذا وبّخهم بقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٧].

فإن قيل: فإن أقدر أحد على جهة خرق العادة على خلق جوهر فعبده أحد لذلك هل يعذر أم لا؟ قلنا: لا يعذر فإنه يشهد أنه يقبل الحوادث ولا يخلو عنها، وما لا يخلو عن الحوادث يستحيل أن يتقدمها على الجملة، وإذا لم يتقدّم الحوادث على الجملة كان حادثاً مثلها، ومن شأن الإله أن يكون أقدم من كل ما يحدث على الجملة، فلا بدّ أن يكون الحادث متأخراً عنه بأيّ نسبة كان من نسب التأخر، فلما فاته هذا القدر من العلم وكان جاهلاً به لم يعذر وأخذ بذلك وأصله إنما كان الجهل بذلك، فمن استند إلى معبود موضوع فإنما استند إليه بظنّه لا بعلمه فلذلك أخذ به فشقي إلاّ أن يعطي المجهود من نفسه في نفي الشريك، فلم يعط فكره ولا نظره ولا اجتهاده نفيه جملة واحدة ولم يبعث إليه رسول ولم تصل إليه دعوته، فإن جماعة من أهل النظر قالوا بعذر من هذه حالته وهو مأجور في نفس الأمر مع أنه مخطىء وليس بصاحب ظنّ بل هو قاطع لا عالم، والقطع على الشيء لا يلزم أن يكون عن علم، وربما يستروح من قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧] إن الله يعذره.

ولا شك أن المجتهد الذي أخطأ في اجتهاده في الأصول يقطع أنه على برهان فيما أدّاه إليه نظره، وإن كان ليس ببرهان في نفس الأمر فقد يعذره الله تعالىٰ لقطعه بذلك عن اجتهاده، كما قطع الصاحب أنه رأى دحية وكان المرئيّ جبريل فهذا قاطع على غير علم فاجتهد فأخطأ فإنه غير ذاكر لما نقصه من التقسيم، فإنه لو قال: إن لم يكن روحاً تجسد وإلاّ فهو دحية بلا شك، فتدبر ما قرّرناه في مثل هذا فإن النبيّ ﷺ يقول في المجتهد إذا اجتهد فأصاب: «**فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِنْ أَخطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**» ولم يفصل بين الاجتهاد في الأصول والفروع، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٥] ويلحق بهذا الباب طوائف ممّن أوجب أكثر العلماء عليهم العذاب وحكموا عليهم بالشقاء من غير دليل واضح يفيد العلم، فأنزلوهم منازل الأشقياء بالظنّ والقطع على غير علم في نفس الأمر، فالإله لا يكون بالحسبان، فثبت بما ذكرناه أنه من ظنّ لم ينج من عذاب في الإله. فإن قيل: يقول الله: أنا عند ظنّ عبدي بي. قلنا له: هو مذهبنا، فإنه قال بي فقد أثبته، وما قال أنا عند ظنّ العبد بمن جعله إلهاً، فمتعلق الظنّ كان عنده بالله فيما يظنه من سعادة أو شقاء، فإنه عالم بالله صاحب ظنّ في مؤاخذته على الذنب أو العفو عنه.

وبعد أن تقرّر هذا فلتعلم أن الجنة جنتان: جنة حسيّة وجنة معنوية، فالمحسوسة تتنعم بها الأرواح الحيوانية والنفوس الناطقة، والجنة المعنوية تتنعم بها النفوس الناطقة لا غير وهي جنة العلوم والمعارف ما ثم غيرهما. والنار ناران: نار محسوسة ونار معنوية، فالنار

المحسوسة تتعذب بها النفوس الحيوانية والنفوس الناطقة. والنار المعنوية تتعذب بها النفوس الناطقة لا غير والفرق بين النعيمين والعذابين أن العذاب الحسيّ والنعيم الحسيّ يكون بالمباشرة للذي يكون عن مباشرته الألم القائم بالروح الحيوانيّ، والعذاب المعنويّ لا يكون بمباشرة للنفوس الناطقة وإنما هو بما حصل لها من العلم بما فاتها من العمل والعلم المؤدّي إلى سعادة الروح الحيوانيّ الذي يتضمن سعادة النفس الناطقة. وأما نار الفكر الذي يتعلق ألمه بالحسّ وبالنفس فهي نار معنوية، فإن حصل العلم عنها أعقبها نعيم جنة معنوية، وإن لم يحصل العلم عنها لم يزل صاحبها معذباً ما دام مفكراً ولا نعيم له معنويّ، وإذا زال الفكر عنه بأي وجه زال من غير حصول علم فذلك النعيم الذي تجده النفس إنما هو الراحة من فقد نار التفكّر المسلّط على قلبه فهي راحة حسيّة لا معنوية فاعلم ذلك.

واعلم أن هذا المنزل يتضمن علم عقل ما ليس بحيوان في الإدراك الحسيّ العادي عن الله تعالىٰ ما يأمره به مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] وقوله تعالىٰ: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] فجمعهما جمع من يعقل، وأثبت لها ما أثبت للحي العالم السميع القادر، وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ [سورة البلد: الآية ٢٠] فأخبر أنها مسلطة ولا يقبل التسليط إلاّ من يعقل وأنها محرقة بالطبع فإنه لو لم تحرق بالطبع ما قبلت الإرسال على الكفار، إذ لو كان الحرق فيها بغير الطبع لما تصورت منها المخالفة لأن المخالف إنما هو الاحتراق، فهو أمر آخر يفتقر وجوده إلى إيجاد موجده، والحق ما خاطب إلاّ النار، والإحراق عرض والعرض يفتقر إلى وجود في غير عين النار، فإنه إن وجد في النار فإنه لا ينتقل إلى الجسم المسلّط عليه النار لأن العرض لا ينتقل إذ لو انتقل لخلا عن المحل وقام بنفسه والعرض لا يقوم بنفسه فمن المحال تحريق الجسم المحرق بالنار، فيكون خطاب النار بالإحراق عبثاً، وقد وقع الخطاب على النار بالتسليط، فعلى من وقع فبطل أن يكون الحق يتكلم بالعبث، فكيف يخرج هذا الخطاب وعلى من يقع إذا لم يكن الإحراق للنار بالطبع؟ وهكذا كل جماد ونبات وحيوان خوطب لا بدّ أن يكون حياً عاقلاً قابلاً لما يخاطب به من شأنه أن يعقل ما قيل له افعل قبولاً ذاتياً تابعاً لوجود عينه، فهذا قد نبهتك على هذا النوع من الإدراك الذي يتضمنه هذا المنزل.

واعلم أن جميع ما يحويه هذا المنزل من العلوم لا يوصل إليها إلاّ بالتعريف الإلهيّ بوساطة روحانية الأنبياء لهذا المكاشف، وتلك الأرواح لا يعلمها من الله إلاّ بوسائط لغموضها ودقتها، فمن جملة ما يحويه علم كسر المكسور إلى ما لا نهاية له، ومعلوم من طريق العقل أن المكسور محصور فهو متناه لنفسه فكيف يقبل الكسر إلى ما لا يتناهى؟ وهذه مسألة تشبه بمسألة انقسام الجسم إلى ما لا نهاية له عقلاً لا حساً عند الحكماء لإبطال إثبات الجوهر الفرد الذي تنتهي إليه قسمة الجسم في مذهب المتكلمين، فمن هذا المنزل تعرف الحق عند من هو من هاتين الطائفتين وتطلع من هذا المنزل على علم قيام العذاب وحمله في

غير أجسام المعذبين وعذاب المعذبين به مع كونه غير قائم بهم وهو من أشكل المسائل كيف يوجب المعنى حكمه لغير من قام به، فتشبه أيضاً هذه المسألة مسألة من يقول: إن الله إذا أراد أن يمضي أمراً خلق إرادة لا في محل ثم أراد بها إمضاء ذلك الأمر فقد أوجب المعنى حكمه لمن لم يقم به عند مثبتي الصفات أعياناً لها أحكام وهم المتكلمون.

والفرق بين هذه المسألة وبين مسألتنا أن العذاب محمول في أجسام وحكمه في أجسام أخر غير الأجسام القائم بها العذاب، والعذاب المحمول في هذه الأجسام لا تتعذب به وهو قائم بها وهي متصفة به من كونها محلاً له لا من كونها معذبة به، والوجه الجامع بين المسألتين وجود الحكم المضاف إلى المعنى في غير المحل الذي قام به ذلك المعنى، وهل العلم مثل الإرادة في هذا الباب وغيره من الصفات أم لا؟ فيقوم العلم بزيد ولا يعلم به زيد ويعلم به عمر وهذا محال عقلاً، ولكن هذا المنزل يحكم بوقوع ذلك، فإن أردت تأنيس النفس لقبول ما أعطاه هذا المنزل في هذه المسألة فانظر ما أنت مجمع عليه مع أصحابك أن الحق سبحانه يتعالى عن الحلول في الأجسام، فإن الإنسان إنما يبصر ببصره القائم بجارحة عينه في وجهه، ويسمع بسمعه القائم بجارحة أذنه، ويتكلم بالكلام الموجود في تحريك لسانه وتسكينه وشفتيه ومخارج حروفه من صدره إلى شفتيه. ثم إن هذا الشخص يعمل بطاعة الله تعالىٰ الزائدة على فرائضه من نوافل الخيرات، فينتج له هذا العمل نفي سمعه وبصره وكلامه وجميع معانيه من بطش وسعي التي كانت توجب له أحكامها، فكان ينطلق عليه من أحكامها سميع بصير متكلم إلى غير ذلك، فصار يسمع بالله بعدما كان يسمع بسمعه، ويبصر بالله بعدما كان يبصر ببصره، مع العلم بأن الله يتقدّس أن تكون الأشياء محلاً له أو يكون هو محلاً لها، فقد سمع العبد بما لم يقم به، وأبصر بما لم يقم به، وتكلم بما لم يقم به، فكان الحق سمعه وبصره ويده، فهكذا وجود العذاب في المحال التي لم تقم بها الصفة التي يكون حكمها العذاب، كما قد ثبت أن الصفة تعطي خلاف حكمها في المحل وأنت القائل به ولا فرق بين المسألتين، وقد أنشد في ذلك صاحب محاسن المجالس: [المجتث]

فهل سمعتم بصبٍّ ... سليم طرفٍ سقيمِ
منعَّم بعذابٍ ... معذَّبٍ بنعيمِ

وأنشد أبو يزيد الأكبر طيفور بن عيسىٰ البسطامي يخاطب ربه عزّ وجلّ: [الوافر]

أريدكَ لا أريدكَ للثَّوابِ ... ولكني أريدكَ للعقابِ
وكلُّ مآربي قد نلتُ منها ... سوى مَلْذوذِ وَجْدي بالعَذَابِ

فطلب اللذة في العذاب، وهذا عكس الحقائق في العقل، ولكن أهل الكشف والذوق وجدوا أموراً أحالها العقل وإن كنا نعرف نحن ما قاله القائلان في شعرهما، ومن هذا الباب قال الله للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٩] والنار لا تكون برداً في العقل إذ لو كانت برداً لبطلت الحقائق أن تكون حقائق، فقد جاء الذوق في تجليه بخلاف ما يعطيه العقل وإن كنا نحن نعرف ما قاله الحق في ذلك ولمن خاطب به، ولكن جئنا بذلك تأنيساً للمريد

ليتحقق أن الله على كل شيء قدير وأن قدرته مطلقة على إيجاد المحال لو شاء وجوده كما ذكره في كتابه عن نفسه ما هو محال في العقل بما يعطيه دليله فقال: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٤] فألحقه بدرجة الإمكان بالنسبة إلى المشيئة الإلهية، والعقل قد دلّ على أن ذلك محال لا من كونه لم يرده، فكانت هذه الآية أوّلها جرح جرح به العقل في صحة دليله ليبطله، ثم داوى ذلك الجرح في آخر الآية بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ أي هو المنزّه أن يكون لأحديته ثان، غير أن في قوله: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ أسراراً من اعتبرها لمن يكون قهاراً، وجميع الأفعال إنما هي أحكام أسمائه في الكون فلا فعل لأحد إلاَّ لله، فالأفعال كلها من الاسم القادر والقاهر فما يقهر بالاسم القاهر إلاَّ موجد ذلك الفعل في الكون وهو أثر القاهر فما قهر إلاَّ نفسه وهو أثر الاسم القادر فما قهر إلاَّ الاسم القادر وهو المشارك له في وجود العين، فما قهر القاهر القادر إلاَّ بالاسم القادر، فالقادر نفسه قهر بالاسم القاهر إلاَّ أن يكون القهر بالمنع لا بالإيجاد فيكون عند ذلك القهر مضافاً إلى الاسم المريد، ولكن ما يمنع إلاَّ بالاسم القاهر للعين التي تهيأت لقبول الوجود، فقهرتها المشيئة وأخّرتها عن الوجود لأنّ لها الترجيح، فقد حصلت لك بما أوردته من الأنس في قبول هذه المسألة ما فيه كفاية فيما تعطيه طريقة القوم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والثمانون ومائتان

في معرفة منزل الضم وإقامة الواحد مقام الجماعة من الحضرة المحمدية

[نظم: الوافر]

صلاةُ العصر ليس لها نَظيرٌ لنَظْم الشَّمْلِ فيها بالحبيبِ
هي الوسْطَى لأمرٍ فيه دَوْرٌ محَصَّلَةٌ على أمرٍ عجيبِ
وما للدور من وَسَطٍ تراه ولا طرفين في عِلْم اللَّبيبِ
فكيف الأمرُ فيه فَدَتْكَ نفسي فخُصَّ العبدُ بالعلم الغريبِ

قال رب هذا المنزل: إن الصلاة الوسطى أجرها مقرون إذا لم تصل في جماعة بأجر من وتر أهله وماله، وقد قال العدل عيسىٰ عليه السلام: قلب كل إنسان حيث ماله فاجعلوا أموالكم في السماء تكن قلوبكم في السماء، أي تصدقوا، وإلى هنا انتهت معرفة هذا العدل. وقال الصادق المؤتى جوامع الكلم رسول الله محمد ﷺ: «**الصَّدَقَةُ تَقَعُ بِيَدِ الرَّحْمٰنِ فَيُرْبِيهَا فَيَكُونُ قَلْبُ العَبْدِ حَيثُ مَالُهُ**» وإن حيثيته يد الرحمن وأين يد الرحمن من السماء؟ فقد أجمع العدلان على أن المال له من القلب مكانة علية، وأما الأهل من زوج وولد فلا خفاء على ذي لب أنهم منوطون بالفؤاد، فأما الزوجة فقد جعل الله بينها وبين بعلها المودّة والرحمة والسكون إليها، والسكون صفة مطلوبة للأكابر وهي الطمأنينة، قال إبراهيم: ﴿بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٠] أي يسكن إلى الوجه الذي يحيي به الموتى ويتعين لي إذ

الوجوه لذلك كثيرة، فسكن إليه سكوناً لا يشوبه تحيّر ولا تشويش يعني في معرفة الكيفية، فانظر بماذا قرن النبي ﷺ من فاتته صلاة العصر. وسبب ذلك أن أوائل أوقات الصلوات الأربع محدودة إلاّ العصر فإنها غير محدودة وإن قاربت الحدّ من غير تحقيق فقربت من التنزيه عن تقييد الحدود، إذ كان المغرب محدوداً بغروب الشمس وهو محقق محسوس، والعشاء محدود أوله بمغيب الشفق وهو محقق محسوس أيّ شفق كان على الخلاف المعلوم فيه، والفجر محدود أوله بالبياض المعترض في الأفق المستطير لا المستطيل وهو محقق محسوس، والظهر محدود بزوال الشمس وفيء الظل وهو محقق محسوس، ولم يأت مثل هذه الحدود في العصر فتنزّهت عن الحدود المحققة فجعل النبيّ ﷺ وقتها أن تكون الشمس مرتفعة بيضاء نقية، والحدّ الوارد في ذلك ما يكون في الظهور مثل سائر حدود أوقات الصلوات، فعظم قدرها النبيّ ﷺ للمناسبة في نفي تحقيق الحدود، وكذلك حب المال والأهل لا يضبطه حدّ، يقول القائل في الولد: [السريع]

وإنــمــا أولادُنـــا بـــيـــنَـــنَـــا ... أكـبـادُنـا تـمـشـي عـلـى الأرضِ

فأنزل الولد منزلة النفس، وكما لا يفنى الإنسان في حبّه نفسه للقرب المفرط الذي ما يكون مثله قرب إليه البتة، كذلك لا يفنى الإنسان في حب ولده ولا ماله ولا أهله لأنه منوط بقلبه بمنزلة نفسه للقرب المفرط يخفى ذلك فيه، فإن اتفق أن يطلق امرأته وقد كان حبه إياها كامناً فيه لا يظهر لإفراط القرب أخذه الشوق إليها وهام فيها وحنّ إليها لبعدها عن ذلك القرب المفرط لتعلق الشوق والوجد بها، ولهذا يفنى العاشق في معشوقه الأجنبيّ لأنه ليس له ذلك القرب الظاهر الذي يحول بينه وبين الاشتياق إليه، ولقرب الحق من قلوب العارفين بالعلم المحقق الذوقيّ الذي وجدوه، لهذا صحّوا ولم يهيموا فيه هيمان المحبين لله من كونه تجلّى لهم في جمال مطلق وتجليه للعلماء به في كمال مطلق، وأين الكمال من الجمال؟ فإن الأسماء في حق الكامل تتمانع فيؤدّي ذلك التمانع إلى عدم تأثيرها فيمن هذه صفته، فيبقى منزّهاً عن التأثير مع الذات المطلقة التي لا تقيدها الأسماء ولا النعوت، فيكون الكامل في غاية الصحو كالرسل وهم أكمل الطوائف لأن الكامل في غاية القرب يظهر به في كمال عبوديته مشاهداً كمال ذات موجده، وإذا تحققت ما قلناه علمت أين ذوقك من ذوق الرجال الكمل الذين اصطفاهم الله فيه واختارهم منه ونزّههم عنه، فهم وهو كهو وهم فسماه الكامل منهم العصر لأنه ضمّ شيء إلى شيء لاستخراج مطلوب، فضمت ذات عبد مطلق في عبوديته لا يشوبها ربوبية بوجه من الوجوه إلى ذات حق مطلق لا يشوبها عبودية أصلاً بوجه من الوجوه من اسم إلهيّ بطلب الكون، فلما تقابلت الذاتان بمثل هذه المقابلة كان المعتصر عين الكمال للحق والعبد وهو كان المطلوب الذي له وجد العصر، فإن فهمت ما أشرنا إليه فقد سعدت وألقيتك على مدرجة الكمال فارق فيها، ولهذا المعنى الإشارة في نظمنا في أوّل الباب: [الوافر]

صـلاةُ الـعـصـر لـيـس لـهـا نَـظـيـرٌ ... لـضـمِّ الـشَّـمْـلِ فـيـهـا بـالـحـبـيـبِ

وبعد أن أبنت لك مرتبة الكمال فلنبين لك من هذا المنزل قيام الواحد مقام الجماعة

وهو عين الإنسان الكامل فإنه أكمل من عين مجموع العالم، إذ كان نسخة من العالم حرفاً بحرف ويزيد أنه على حقيقة لا تقبل التضاؤل حين قبلها أرفع الأرواح الملكية إسرافيل، فإنه يتضاءل في كل يوم سبعين مرة حتى يكون كالوضع أو كما قال، والتضاؤل لا يكون إلاّ عن رفعة سبقت ولا رفعة للعبد الكليّ في عبوديته فإنه مسلوب الأوصاف، فلو أنتج لذلك الروح المتضائل حال هذا العبد الكلي في عبوديته لما تكرّر عليه التضاؤل فافهم ما أشرت به إليك، وقد نبهتك بهذا الخبر أن هذا الملك من أعلم الخلق بالله وتكرار تضاؤله لتكرار التجلي، والحق لا يتجلى في صورة مرتين، فيرى في كل تجلّ ما يؤديه إلى ذلك التضاؤل، هذا هو العلم الصحيح الذي تعطيه معرفة الله، ثم لتعلم أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم للصورة التي خصّه بها وهي التي أعطته هذه المنزلة فكان أحسن تقويم في حقّه لا عن مفاضلة أفعل من كذا بل هو مثل قوله: الله أكبر، لا عن مفاضلة بل الحسن المطلق للعبد الكامل كالكبرياء المطلق الذي للحق فهو أحسن تقويم لا من كذا كما هو الحق أكبر لا من كذا لا إله إلاّ هو ولا عبد إلاّ المصمت في عبودته، فإن حاد العبد عن هذه المرتبة بوصف ما ربانيّ، وإن كان محموداً من صفة رحمانية وأمثالها فقد زال عن المرتبة التي خلق لها وحرم من الكمال والمعرفة بالله على قدر ما اتصف به من صفات الحق فليقلل أو يكثر.

واعلم أن للإنسان حالتين: حالة عقلية نفسية مجرّدة عن المادة، وحالة عقلية نفسية مدبرة للمادّة، فإذا كان في حال تجريده عن نفسه وإن كان متلبساً بها حسّاً فهو على حالته في أحسن تقويم، وإذا كان في حال لباسه المادّة في نفسه كما هو في حسّه فهو على حالته في خسر لا ربح في تجارته فيه ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦] وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [سورة الحج: الآية ٦٦] ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٤] ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [سورة العاديات: الآية ٦] ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [سورة العصر: الآية ٢] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] فإذا قال الإنسان الكامل الله نطق بنطقه جميع العالم من كل ما سوى الله ونطقت بنطقه أسماء الله كلها المخزونة في علم غيبه والمستأثرة التي يخصّ الله تعالىٰ بمعرفتها بعض عباده والمعلومة بأعيانها في جميع عباده فقامت تسبيحته مقام تسبيح ما ذكرته فأجره غير ممنون، وسنومىء إلى تحقيق هذا في المنزل التاسع والثمانين ومائتين.

وبعد أن نبهتك على معرفة قيام التوحيد بالواحد القائم مقام الجماعة في الخير والشر فإنه قال تعالىٰ في هذا المقام في الخير والشر: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٢] ومنزلتنا في هذا البيان لأصحابنا من أهل هذا الشأن ومنزلة القابلين لما بيّناه وغير القابلين ما أردف الله به هذه الآية من تعريف الأحوال فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٢] فلنبين إيمان العصاة المعبر عنه بالتوبة وما يلزمه، وذلك أن الإيمان الأصلي هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها وهو

شهادتهم له سبحانه بالوحدانية في الأخذ الميثاقي، فكل مولود يولد على ذلك الميثاق، ولكن لما حصل في حصر الطبيعة بهذا الجسم محل النسيان جهل الحالة التي كان عليها مع ربه ونسيها فافتقر إلى النظر في الأدلة على وحدانية خالقه إذا بلغ إلى الحالة التي يعطيها النظر، وإن لم يبلغ هذا الحدّ فإنّ حكمه حكم والديه، فإن كانا مؤمنين أخذ بتوحيد الله تعالىٰ منهم تقليداً، وإن كانا على أي دين كان ألحق بهما، فمن كان إيمانه تقليداً جزماً كان أعصم وأوثق في إيمانه ممّن أخذه عن الأدلة لما يتطرق إليها إن كان حاذقاً فطناً قويّ الفهم من الحيرة والدخل في أدلته وإيراد الشبه عليها، فلا يثبت له قدم ولا ساق يعتمد عليها فيخاف عليه، فإذا تقدّم إيمانه بتوحيد الله شرك ورثه عن أبويه أو عن نظره أو عن الأمة التي هو فيها فذلك الإيمان هو عين إيمانه الميثاقي لا غيره، وإنما حال بينه وبين العبد حجاب الشرك كالسحابة الحائلة بين البصر والشمس فإذا انجلت ظهر الشمس للبصر، كذلك ظهور الإيمان للعبد عند ارتفاع الشرك إذ كان المشرك مقراً بوجود الحق. فإن قلت: فما حكم المعطل هل يكون إيمانه يوجد في الوقت أم حاله حال المشرك؟ قلنا: المعطل أقرب إلى الإيمان من المشرك، فإنه لا بدّ لكل إنسان أن يجد نفسه مستنداً في وجوده إلى أمر ما لا يدري ما هو فيقال له: ذلك هو الله، فإن حدث له بعد ذلك هل هو واحد أو أكثر من واحد كان في محل النظر في ذلك أو يقلد من يعتقد فيه من الموحدين فما ثم إيمان محدث بل هو مكتوب في قلب كل مؤمن، فإن زال في حق المريد الشقاء فإنما تزول وحدانية المعبود لا وجوده، وبالتوحيد تتعلق السعادة وبنفيه يتعلق الشقاء المؤبد، ولهذا الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في الأخذ الميثاقي آمنوا لقول الرسول إليكم من عندنا، فلولا أن الإيمان كان عندهم ما وصفوا به.

وأما نسبة الأعمال إلى هذا المنزل فهو على ما نقرره وذلك أن النبي ﷺ قال: «**بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ**» ومكارم الأخلاق أعمال وأحوال إضافية، لأن الناس الذين هم محل مكارم الأخلاق على حالتين: حر وعبد، كما أن الأخلاق محمودة وهي التي تسمّى مكارم الأخلاق، ومذمومة وهي التي تسمّى سفساف الأخلاق، والذين تصرف معهم مكارم الأخلاق وسفسافها اثنان وواحد، فالواحد هو الله والإثنان نفسك إذا جعلتها منك بمنزلة الأجنبي وغيرك وهو كل ما سوى الله، وكل ما سوى الله على قسمين وأنت داخل فيهم عنصري وغير عنصري، فالعنصري تصريف الخلق معه حسيّ، وغير العنصري تصريف الخلق معه معنوي، فالأعمال المعبر عنها بالأخلاق على قسمين: صالح وهو مكارمها وغير صالح وهو سفسافها، قال تعالىٰ في القسم الواحد: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٩] وقال في الآخر عمل غير صالح ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة هود: الآية ٤٦] فعلمه الأدب، وإن من الأدب أن تسأل عن علم ما لا يعلم فإذا علم فإن كان من أهل الشفاعة والسؤال فيه سأل فيه وإن لم يكن لم يسأل فيه ولكن غلبت عليه رحمة الأبوة، وهي شفقة طبيعية عنصرية فصرفها في غير موطنها فأعلمه الله أن ذلك من صفات الجاهلين، والجهل لا

يكون معه خير، كما أن العلم لا يكون معه شرّ، فقول النبيّ ﷺ: «**بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ**» يريد أنه يعلم ما هي وكيف تصرف وأين تصرف؟ فلتعلم أن المخاطبين بها كما ذكرنا لك حرّ وعبد، فللعبد منها شرب وللحرّ منها شرب، فإذا أضفت الخلق إلى الله تعالىٰ فكل ما سوى الله عبد لله، قال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [سورة مريم: الآية ٩٣].

وإذا أضفت الخلق بعضه إلى بعض فهو بين حرّ وعبد، فأمّا حظ العبد من الأخلاق فاعلم أن السيد على الإطلاق قد أوجب وحرم فأمر ونهى وقد أباح فخير وقد رجح فندب وكره، وما ثم قسم سادس، فكل عمل يتعلق به الوجوب من أمر من السيد الذي هو الله بعمل أو ندب إلى عمل فإن العمل به من مكارم الأخلاق مع الله ومع نفسك إن كان واجباً، وإن كان مندوباً إليه فهو من مكارم الأخلاق مع نفسك، فإن تضمن منفعة الغير ذلك العمل كان أيضاً من مكارم الأخلاق مع غيرك، وترك هذا العمل إذا كان على هذا الحكم من سفساف الأخلاق، وكل عمل يتعلق به التحريم أو الكراهة فالتقسيم فيه كالتقسيم في الواجب والمندوب إليه على ذلك الحدّ، فترك ذلك العمل لاتصافه بالتحريم أو الكراهة من مكارم الأخلاق، وعمله من سفساف الأخلاق، وترك العمل فيه عمل روحانيّ لا جسمانيّ لأنه ترك لا وجود له في العين. وأمّا العمل الذي تعلق به التخيير وهو المباح فعمله من مكارم الأخلاق مع نفسك دنيا لا آخرة، فإن اقترن مع العمل كونك عملته لكونه مباحاً مشروعاً كان من مكارم الأخلاق مع الله ومع نفسك دنيا وآخرة، وكذلك حكمه في ترك المباح على هذا التقسيم سواء، فجميع الأقسام تتعلق بالعبد، وقسم المباح يتعلق بالحرّ، وقسم المكروه والمندوب إليه يتعلق بالحر، وفيه من روائح العبودية شمة لا حقيقة، فهذا قد حصر لك هذا المنزل منازل الشقاء والسعادة وأبانها لك معينة أي عينت لك من أين تعلمها وهو معرفة الشرع الذي أنت عليه.

فإن كان الإنسان ممّن لم تبلغه الدعوة فمكارم الأخلاق في حقّه ما قرّرها العقل من وجود الغرض والكمال، وملايمة المزاج كشكر المنعم الذي هو من مكارم الأخلاق عقلاً وشرعاً، وكفر النعمة من سفساف الأخلاق عقلاً وشرعاً وما كلف الله نفساً إلاّ وسعها سواء بلغتها الدعوة أو لم تبلغها، فإن للشرع في عملها حكماً في نفس الأمر ويعفى عنه فيما أتته من سفساف الأخلاق حيث لم تبلغها الدعوة، والعفو عن ذلك من مكارم الأخلاق الإلهية، فالحق أولى بصفات الكرم من العبد بل هي له حقيقة وفي العبد بعناية التوفيق.

وممّا يتعلق بهذا المنزل من المكارم التعاون على شكر المنعم والتعاون على تلقي البلاء من المبلي بأن لا يستند في ارتفاع البلاء عنه إلاّ لمن أنزله به وهو الله تعالىٰ، فإن أنزله بالغير فهو من سفساف الأخلاق، وإن أنزله بالله كان من مكارم الأخلاق، والعبد في الحالتين طالب رفع البلاء عنه، والبلاء عبارة عن وجوده وإحساسه بالألم لا غير، وفي هذا المقام يغلط كثير من أهل الطريق، فيحبسون نفوسهم عن الشكوى إلى الله فيما نزل بهم، والشبهة في ذلك لهم أنهم يقولون: لا نعترض عليه فيما يجريه علينا فإنه يؤثر في حال الرضا عنه فيقال لهم: قد

حصل مقام الرضا بمجرّد إحساسه وعدم طلب رفعه وذلك حدّ الرضا لا استصحابه، فإن النفس كارهة لوجود الألم، ولذا عبرنا عن البلاء بالألم لا بسببه، وينبغي للعبد أن يسأل الله تعالىٰ أن يرفع عنه ما نزل به لما يؤدّي به إليه من كراهة فعل الله به، ولا بدّ من كراهته طبعاً لأن الألم يوجب حكمه لنفسه، والفعل في إنزاله إنما هو لله فيتضمن كراهة الألم كراهته طبعاً لأن الألم يوجب حكمه وجوده، ووجود الألم لم يكن لنفسه وإنما أوجده الله في هذا العبد فتتعلق الكراهة حالاً وضمناً بالجناب العزيز، فلهذا وقع من الأكابر ﴿رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٣] والتعليم بالسؤال في أن لا يقع منه في المستقبل ما لم يقع في الحال بقوله: قالوا ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] ويتعلق به من سوء الأدب مقاومة القهر الإلهيّ، ومقاومة العبد السيد في أمر ما في سفساف الأخلاق، إذ ليس ذلك من صفات العبودة، فيستعين العبد إذا كان ضعيفاً بأخيه المؤمن في ذلك، ويجب على الآخر معونته بالتعليم والتعزية، فإن المؤمن كثير بأخيه، وإذا انفرد الإنسان بهمه عظم عليه، وإذا وجد من يلقيه إليه ليقاسمه فيه ويستريح عليه ويخف عنه فأعانه الآخر يحسن الإصغاء إليه فيما يلقي إليه من همه، وجوابه إياه بما يسره في ذلك ومشاركته بإظهار التألّم لما ناله، فذلك الصديق الصادق المعين كما قيل: [الوافر]

صديقي من يُقاسمني همومي ... ويَرمي بالعَداوةِ مَنْ رماني

وقال الآخر: [الوافر]

إذا الحَمْلُ الثَّقيلُ تقسَّمَتْهُ ... رقابُ الخَلْق خَفَّ على الرِّقابِ

فهذا قد بيّنا لك بعض ما يحويه هذا المنزل بالإجمال لا بالتفصيل مخافة التطويل، فما تركنا منه شيئاً ولا أعلمناك منه بشيء، وهكذا فعلنا في كل منزل إن شاء الله تعالىٰ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والثمانون ومائتان

في معرفة منزل تزاور الموتى وأسراره من الحضرة الموسوية

[نظم: الطويل]

إذا جهلَتْ أرواحُنا عِلْمَ ذاتِها ... فذلك موتٌ والجُسُومُ قُبورُ

وإن علمَتْ فالحَشْرُ فيها محقَّقٌ ... وكان لها من أجل ذاك نُشُورُ

فما العلمُ إلاّ بين نورٍ وظُلمةٍ ... وكلُّ كلامٍ دون ذلك زُوْرُ

اعلم أن الموت عبارة عن مفارقة الروح الجسد الذي كانت به حياته الحسية وهو طارىء عليهما بعدما كانا موصوفين بالاجتماع الذي هو علة الحياة، فكذلك موت النفس بعدم العلم. فإن قلت: إن العلم بالله طارىء الذي هو حياة النفوس والجهل ثابت لها قبل وجود العلم فكيف يوصف الجاهل بالموت وما تقدمه علم؟ قلنا: إن العلم بالله سبق إلى نفس كل إنسان في الأخذ الميثاقي حين أشهدهم على أنفسهم، فلما عمرت الأنفس الأجسام الطبيعية

في الدنيا فارقها العلم بتوحيد الله فبقيت النفوس ميتة بالجهل بتوحيد الله، ثم بعد ذلك أحيا الله بعض النفوس بالعلم بتوحيد الله، وأحياها كلها بالعلم بوجود الله، إذ كان من ضرورة العقل العلم بوجود الله فلهذا سميناه ميتاً، قال تعالىٰ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا﴾ يعني بما كان الله قد قبض منه روح العلم بالله ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٢] فردّ إليه علمه فحيي به كما ترد الأرواح إلى أجسامها في الدار الآخرة يوم البعث، وقوله: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٢] يريد مقابلة النور الذي يمشي به في الناس وما هو عين الحياة، فالحياة الإقرار بالوجود أي بوجود الله، والنور المجعول العلم بتوحيد الله، والظلمات الجهل بتوحيد الله، والموت الجهل بوجود الله، ولهذا لم يذكر الله في الآية عنا في الأخذ الميثاقي إلاّ الإقرار بوجود الله لا بتوحيده ما تعرض للتوحيد فيها فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] فأقروا له بالربوبية أي أنه سيدهم، وقد يكون العبد مملوكاً لاثنين بحكم الشركة، فأي سيد قال له ألست بربك فلا بدّ أن يقول العبد بلى ويصدق فلهذا قلنا: إن الإقرار إنما كان بوجود الله رباً له أي مالكاً وسيداً، ولهذا أردف الله في الآية حين قال: ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ فلم يكتف حتى قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ يريد العلم بتوحيد الله لا غيره فإنه العلم الذي يقع به الشرف له والسعادة، وما عدا هذا لا يقوم مقامه في هذه المنزلة فتأمل ما قلناه، فقد علمت أن ورود الموت على النفوس إنما كان عن حياة سابقة، إذ الموت لا يرد إلاّ على حيّ، والتفرق لا يكون إلاّ عن اجتماع. وبعد أن علمت هذا فاعلم أنه من خصائص هذا المنزل أن علم الواحد بالكثرة يوجب له الجهل بنفسه لأن الكثرة مشهودة له، وذلك أن الروح لا يعقل نفسه إلاّ مع هذا الجسم محل الكم والكثرة، ولم يشهد نفسه قط وحده مع كونه في نفسه غير منقسم، ولا يعرف إنسانيته إلاّ بوجود الجسم معه، ولهذا إذا سئل عن حدّه وحقيقته يقول: جسم متغذٍّ حساس ناطق، هذا هو حقيقة الإنسان وحدّه الذاتي النفسي، فيأخذ أبداً في حدّه إذا سئل عنه من كونه إنساناً هذه الكثرة، فلا يعقل أحديته في ذاته وإنما يعقل أحدية الجنس لا الأحدية الحقيقية، والذي يحصل له بالإكتساب أنه واحد في عينه علم دليل فكري لا علم ذوق شهودي كشفي، وكذلك العلم بالله إنما متعلقه العلم بتوحيد الألوهة لمسمّى الله لا توحيد الذات، فإن الذات لا يصحّ أن تعلم أصلاً، فالعلم بتوحيد الله علم دليل فكري لا علم شهود كشفي، فالعلم بالتوحيد لا يكون ذوقاً أبداً ولا تعلق له إلاّ بالمراتب، وأين التوحيد في الذات مع ما قد ورد من الصفات المعنوية واختلاف الناس فيها واختلاف أعيانها بالحدّ والحقيقة وأن هذه ليست عين هذه، هذا في العقل وفي الشرع.

ثم انفرد التعريف الإلهيّ باليد والعين والقدم والأصابع وغير ذلك وهذه كلها تنافي توحيد الذات ولا تنافي توحيد الألوهة، ولهذا ورد التنازع في قوله عليه السلام: «**إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الآخِرَ مِنْهُمَا**» لأن أحدية المرتبة لا تقبل الثاني ولا تحمل الشركة، لأن المطلوب الصلاح لا الفساد والإيجاد لا الإعدام، وقال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٢] فوحد الإله وما قال لو كانت ذات الإله تنقسم لفسدتا ما تعرّض

لشيء من ذلك وأن الإله عند المتكلمين مجموع ذوات، فإن الصفات أعيان زائدة موجودة قائمة بذات الحق وبالمجموع يكون إلهاً فأين التوحيد الذي يزعمونه؟ وكذلك العقلاء من الفلاسفة الإله عندهم مجموع نسب فأين الوحدانية عندهم؟ فإنهم يصفونه بالعلم والحياة واللذة والابتهاج بكماله، فالوحدة أمر يسمع واسم على غير مسمّى حقيقي إذا أنصفت فلا إله إلاّ الله الواحد في ألوهيته القهار للمنازعين له في ألوهيته من عباده والمزاحمين له في أفعاله، وما عدا هذين الصنفين فلهم الله الواحد الغفار.

وبعد أن علمت هذا فلا تحجبك هذه الكثرة عن توحيد الله تعالىٰ، ولكن بينت لك متعلق توحيدك وما تعرضنا إلى الذات في عينها لأن الفكر فيها ممنوع شرعاً، قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تَتَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللَّهِ**» وقال تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٨] يعني أن تتفكروا فيها فتحكموا عليها بأمر أنها كذا وكذا، وما حجر الكلام في الألوهة ولا تدرك بفكر، ومشاهدتها من حيث نفسها ممنوعة عند أهل الله، وإنما لها مظاهر تظهر فيها بتلك المظاهر تتعلق رؤية العباد، وقد وردت بها الشرائع وما بأيدينا من العلم به إلاّ صفات تنزيه أو صفات أفعال، ومن زعم أن عنده علماً بصفة نفسية ثبوتية فباطل زعمه فإنها كانت تحده ولا حدّ لذاته، فهذا باب مغلق دون الكون لا يصحّ أن يفتح انفرد به الحق سبحانه، وإذا كان الحق على ما أخبر الرسول ﷺ عن علمه بما علمه الله فقال: «**اللَّهُمَّ إِنِي أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ غَيْبِكَ**» فعنده أسماء لاَ يعلمها إلاّ هو هي راجعة إليه وقد منع باستيئثاره أنه لا يعلمها أحداً من خلقه، وأسماؤه ليست أعلاماً ولا جوامد، وإنما أسماؤه على طريق المحمدة والمدح والثناء، ولهذا كانت حسنى لما يفهم من معانيها بخلاف الأسماء الأعلام التي لا تدل إلاّ على الأعيان المسمّاة بها خاصة لا على جهة المدح ولا جهة الذم، وأعظمها عندنا الاسم الله الذي لا تقع فيه المشاركة، فأين التوحيد مع هذا التعريف الذي يزعمه هذا الزاعم أنه قد حصل على علم التوحيد النفسي؟ وإذا لم يشهد له شرع ولا عقل ولا كشف وما ثم غير هؤلاء وهم عدول فكيف بك بما خرج عن هؤلاء؟ فالزم ما كلفته من زيارة الموتى وهو اللحوق بهم والإنخراط في سلكهم وهو العجز عن إدراك الأمر على ما هو عليه، وإنما نحن متصرّفون في أفعال المقاربة وهي كاد وأخواتها فيقال: كاد العروس يكون أميراً وما هو أمير في نفس الأمر، وكاد زيد يحج أي قارب الحج، وقال تعالىٰ: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ [سورة النور: الآية ٤٠] فوصفه بأنه ما رآها ولا قارب رؤيتها فإنه نفى القرب بدخول لم على يكاد وهو حرف نفي وجزم يدخل على الأفعال المضارعة للأسماء فينفيها، ويتعلق بهذا المنزل علم الزجر والردع لمن قال من الناس أنه قد علم ذات الحق أنه لا ينكشف له جهله بما زعم أنه عالم به إلاّ في الدار الآخرة، فيعلم هناك أن الأمر على خلاف ما كان يعتقده من علمه وأنه لا يعلم دنيا ولا آخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٤٧] فعمّ فبدا لكل طائفة تعتقد أمراً ما ممّا الأمر ليس عليه نفي ذلك المعتقد، وما تعرض في الآية بما انتفى ذلك هل بالعجز أو بمعرفة

النقيض؟ وكلا الأمرين كائن في الدار الآخرة كمن يقول بإنفاذ الوعيد لمن مات عاصياً على غير توبة فيغفر الله له يوم القيامة، فقد بدا له من الله ما لم يكن يعلمه من التجاوز وزال علمه بالمؤاخذة، فكل طائفة يبدو لها من الله بحسب مسألتها، فلو كان العلم في نفس الأمر علم يقين لما تبدّل، وإنما هو حسبان وظن قد احتجب عن صاحبه بصورة علم فهو يقول أنه يعلم، والحق يقول له تظن وتحسب، وأين مقام من مقام؟ فما كل أمر يعلم ولا كل أمر يجهل، فأعلم العلماء من علم ما يعلم أنه يعلم وما لا يعلم أنه لا يعلم.

قال ﷺ: «**لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ**» فقد علم أنه ثم أمر لا يحاط به. وقال الصديق: «العجز عن درك الإدراك إدراك» أي أنه أدرك أن ثم أمراً يعجز عن إدراكه فهذا علم لا علم. فيعلم الإنسان يوم القيامة عجز فكره عن إدراك ما حسب أنه أدركه غير أنه معذب بفكره بنار اصطلامه، فإن حجة الشرع عليه قائمة إذ قد أبان له وأعرب عمّا ينبغي له أن يفكر فيه كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٤] أي أنه يوصل إلى معرفة الرسول بالدليل، وبهذه الآية يستدل على أنه لا بدّ من أن ينصب الله تعالىٰ على يد هذا الرسول دليلاً يصدّقه في دعواه، ولو لم يكن كذلك ما صدق قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ ولا تكون الفكرة إلاّ في دليل على صدقه أنه رسول من عند الله، والدليل هو المنظور فيه الموصل إلى المدلول، فلولا ما نصب الأدلة ما شرع للعقلاء التفكّر ولا طالبهم، وكذلك في معرفتهم به سبحانه فقال لما ذكر أموراً: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٤٢] فإذا تعدّى بالفكر حدّه وفكّر فيما لا ينبغي له أن يفكر فيه عذب يوم القيامة بنار فكره.

ثم إن الإنسان يشغله الفكر فيما لم يشرع له التفكر فيه عن شكر المنعم على النعم التي أنعم الله عليه بها فيكون صاحب عذابين: عذاب الفكر فيما لا ينبغي، وعذاب عدم الشكر على ما أنعم به عليه، ولا نعمة أعظم من نعمة العلم، وإن كانت نعم الله لا تحصى من حيث أسبابها الموجبة لها، وإنما النعيم على الحقيقة وجود اللذة في نفس المنعم عليه بها عند أسباب كثيرة لا تحصى محصورة في أمرين: في وجود ما تكون به اللذة، وفي عدم ما يكون بعدمه اللذة وهي أمور نسبية، كوجود لذة خائف من عدوّ يتوقعه فيهلك ذلك العدوّ فيجد هذا من اللذة عند هلاكه ما لا يقدر قدرها، وذلك لوجود الأمن ممّا كان يحذره، فالأسباب لا تحصى كثرة واللذة واحدة وهي النعمة المحققة، كما أن الألم هو العذاب المحقق وأسبابه لا تحصى فسمّي الشيء باسم الشيء إذا كان مجاوراً له أو كان منه بسبب.

واعلم أن الزيارة مأخوذة من الزور وهو الميل، فمن زار قوماً فقد مال إليهم بنفسه، فإن زارهم بمعناه فقد مال إليهم بقلبه، وشهادة الزور الميل إلى الباطل عن الحق، فزيارة الموتى الميل إليهم تعشقاً لصفة الموت أن تحل به، فإن الميت لا حكم له في نفسه وإنما هو في حكم من يتصرّف فيه، ولا يتصوّر من الميت منع ولا إباية ولا حمد ولا ذم ولا اعتراض بل هو مسلم تسليم حال ذاتي، كذلك ينبغي لزائره أن يكون حاله مع الله حال الميت مع من يتصرّف فيه، وإذا بلغ إلى هذا المقام على الحد المشروع فيه لا على الإطلاق حينئذ يبلغ مبلغ

الرجال، ولا يكون موصوفاً بهذه الصفة على الإطلاق إلاَّ في معناه لا في حسّه الظاهر والباطن، بل ينبغي له أن يكون حياً في أفعاله الظاهرة والباطنة في الأمور التي تعلق بها النهي الإلهيّ ويكون ميتاً بالتسليم لموارد القضاء عليه في كل ذلك لا للمقضى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والثمانون ومائتان

في معرفة منزل القواصم وأسرارها من الحضرة المحمدية

[نظم: الطويل]

إذا كنتَ مَشْغُوفاً بحبِّ المَعَاصِمِ تـذكَّـرْ مـن الآيـات آيَ الـقَـوَاصِـمِ
فـإنَّ لـهـا عـن ذاك زَجْـراً وعـصْـمَـةً وأفـلَـحَ مـن تُـخـيـيـه آيُ الـعَـواصـمِ
وهـذي أمـورٌ لـم أنَـلْـهـا بـفـكـرةٍ ولـكـنـهـا جـاءت عـلـى يَـدِ قـاسـمِ
ويُـعْـطـي إلٰـهُ الـخَـلْـق عـدلاً ومِـنَّـةً بـقَـصْـمَـةِ قَـهَّـارٍ وعِـصْـمَـةِ عـاصِـمِ
فكم بين شَخْصٍ بالملائك مُلْحَقٍ وبـيـن شُـخَـيْـصٍ مُـلـحـقٍ بـالـبـهـائـمِ

اعلم أنه لما وصلت إلى هذا المنزل في وقت معراجي الذي عرج بي ليريني من آياته سبحانه ما شاء ومعي الملك قرعت بابه فسمعت من خلف الباب قائلاً يقول: من ذا الذي يقرع باب هذا المنزل المجهول الذي لا يعرف إلاَّ بتعريف الله؟ فقال الملك: عبداً لحضرة عبدك محمد بن نور، ففتح فدخلت فيه فعرفني الحق جميع ما فيه ولكن بعد سنين من شهودي إياه فكان ذلك شهوداً صورياً من غير تعريف، ثم بعد ذلك وقع التعريف به، ولما عرفني بأنه منزل مجهول قصم ظهري، ولما وقع التعريف به رأيته كله قواصم إلاَّ أن يعصم الله ممّا رأيت فخفت فسكن الله روعي بما جلى لي، فرأيت في هذا المنزل تحوّل الصور الحسيّة في الصور الجسمية كما يتشكل الروحانيون في الصور، فتخيلت أن تلك الصور الأول ذهبت فحققت النظر فيها فلم أدركها حتى أعطيت القوّة عليها، فتحولت فأدركت المطلوب فإذا هو على نوعين في التحوّل: النوع الواحد أن تعطي قوّة تؤثر بها في عين الرائي ما شئته من الصور التي تحب أن تظهر له فيها فلا يراك إلاَّ عليها وأنت في نفسك عن صورتك ما تغيرت لا في جوهرك ولا في صورتك، إلاَّ أنه لا بدّ أن تحضر تلك الصورة التي تريد أن تظهر للرائي فيها في خيالك، فيدركها بصر الرائي في خيالك كما تخيلتها، ويحجبه ذلك النظر في الوقت عن إدراك صورتك المعهودة. هذا طريق، وطريقة أخرى يتضمنها هذا المنزل وذلك أن الصورة التي أنت عليها عرض في جوهرك فيزيل الله ذلك العرض ويلبسك ما أردت أن تظهر به من صور الأعراض من حية أو أسد أو شخص آخر إنساني وجوهرك باقٍ وروحك المدبر جوهرك على ما هو عليه من العقل وجميع القوىٰ، فالصورة صورة حيوان أو نبات أو جماد، والعقل عقل إنسان وهو متمكن من النطق والكلام، فإن شاء تكلم وإن شاء لم يتكلم بأي لسان شاء الحق أن ينطقه به، فحكمه حكم عين الصورة في المعهود.

ومن هذا الباب يعرف نطق الجمادات والنبات والحيوان وهي على صورها وتسمعها كنطق الإنسان، كما أن الروح إذا تجسد في صورة البشر تكلم بكلام البشر لحكم الصورة عليه، وليس في قوّة الروحاني أن يتكلم بكلام غير الصورة التي يظهر فيها بخلاف الإنسان وهو في غير صورة الإنسان، وهذا منزل الممسوخ من هذه الحضرة تمسخ الصورة الحسيّة في الدنيا والآخرة، ومن هذا المنزل تمسخ البواطن فترى الصورة أناسي، وفي الباطن غير تلك الصورة من ملك أو شيطان بصورة حيوان مناسب لما هو باطنه عليه من كلب أو خنزير أو قرد أو أسد، وكل ذلك يخالف ما تطلبه إنسانيته إما عال وإما دون، ومسخ البواطن قد كثر في هذا الزمان كما ظهر المسخ في الصور الظاهرة في بني إسرائيل حين جعلهم الله قردة وخنازير، ولا بدّ في آخر الزمان أن يظهر المسخ في هذه الأمة ولكن في اليهود منها لا في المسلمين، فإن الإيمان يحفظهم فما يمسخ من هذه الأمة إلاّ يهودي أو منافق يظهر الإسلام ويخفي اليهودية، وإنما ألحقنا اليهود بهذه الأمة لأن أمة النبيّ ليست قبيلته، وإنما أمته جميع من بعث إليهم ومحمد ﷺ بعث إلى الناس عامة، فجميع الناس أمته من جميع الملل، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، ومنهم من أسلم. وأما دخول الجن في دينه ﷺ فكان دخولهم في دينه مثل ما كان دخول من لم يبعث إليه نبي في وقته في دين نبي وقته، ثم إن ذلك النبي الذي ما بعث إليه إذا لم يكن ذلك الداخل ممّن بعث إليه نبي آخر تجري أحكامه على من بعث إليه بما بعث به، فإن لكل نبي شرعة ومنهاجاً، فهكذا كان إيمان الجن برسول الله ﷺ. وأما ما ذكرناه من مسخ البواطن فقول النبي ﷺ يخبر عن ربه في صفة قوم من أمته: «**أَنَّهُمْ إِخْوَانُ العَلاَنِيَةِ أَعْدَاءُ السّرِيرَةِ أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ يَلْبَسونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ**» فهذا هو مسخ البواطن أن يكون قلبه قلب ذئب وصورته صورة إنسان، فالله العاصم من هذه القواصم.

وطريقة أخرى في التحوّل في الصورة وهي أن تبقى صورة هذا الشخص على ما كانت عليه ويلبس نفسه صورة روحاني يجد ذلك الروحاني في أي صورة شاء هذا الشخص أن يظهر للرائي فيها ويغيب هذا الشخص في تلك الصورة وهي عليه كالهواء الحافّ به فتقع عين الرائي على تلك الصورة الأسدية أو الكلبية أو القردية أو ما كانت كل ذلك بتقدير العزيز العليم.

وطريقة أخرى وهي أن يشكل الهواء الحافّ به على أي صورة شاء ويكون الشخص باطن تلك الصورة فيقع الإدراك على تلك الصورة الهوائية المشكلة في الصورة التي أراد أن يظهر فيها، ولكن إن وقع من تلك الصورة نطق فلا يقع إلاّ بلسانه المعروف عند الرائي فيسمع النغمة فيعرفها ويرى الصورة فينكرها، لا يتمكن لمن هذه حالته أن يزول عن نغمته، وهذه قوّة الجن لمن يعرفهم فإنهم يظهرون فيما شاؤوه من الصور، والنغمة منهم نغمة جن لا يقدرون على أكثر من ذلك، ومن لا معرفة له بهذا القدر فلا معرفة له بالجن، إلاّ أن ثم أقواماً تلعب الجن بعقولهم فتخيل لهم في عيونهم صوراً مثل ما يخيل الساحر الحبال في صورة حيات ساعية فيحسبون أنهم يرون الجن وليسوا بجن، وتكلمهم تلك الصور فيما يخيل إليهم

وليست الصور بمتكلمة، بخلاف تجسد الجن في أنفسهم، فمن عرف من العارفين نغمات كل طائفة عرف ما رأى ولم يطرأ عليه تلبيس فيما رآه، وقد رأينا جماعة بالأندلس ممّن يرون الجن من غير تشكل وفي تشكلهم منهم فاطمة بنت ابن المثنى من أهل قرطبة وكانت عارفة بهم من غير تلبيس، ورأيت طائفة بمدينة فاس ممّن كانت الجن تخيل لهم صوراً في أعينهم وتخاطبهم بما شاؤوا لتفتنهم وليسوا بجن ولا بشكل جن، منهم أبو العباس الزقاق بمدينة فاس وكان قد لبس عليه الأمر في ذلك فكان يخيل إليه أن الأرواح الجنية تخاطبه ويقطع بذلك وسبب ذلك الجهل بنغمتهم، فكان إذا قعد عندي وحضر مجلسي يبهت ثم يصف ما يرى فأعلم أنه يخيل له، فكان يصل في ذلك إلى حدّ الملاعبة والمصاحبة والمحادثة، وربما يقع بينه وبين ذلك الذي شاهده مخاصمة في أمور ومناكرة فتضره الجن من طريق آخر، وهو يتخيل أن تلك الصور منها صدر الضرر وغلب عليه ذلك رحمه الله، وكان أبو العباس الدهان وجميع أصحابنا يشاهدون ذلك منه، فمن عرف النغمات لم تلتبس عليه صورة أصلاً، وقليل من يعرف ذلك ويغترون بصدق ما يظهر من تلك الصور في أوقات، فهذا قد بيّنا لك مراتب التحوّل في الصور من هذا المنزل. وفيه من هذا الظهور في الصور عجائب جمة تبهر العقول، وأعظمها تغير المزاج إلى مزاج آخر مع بقاء الجوهر لا بدّ منه لحامل لهذه الصورة فإن لم يبق الجوهر فما تحول قط، ولكن هذا جوهر آخر في صورته ما تبدّل ولا هو ذلك، كما أن زيداً ليس عمراً.

ومن هذا المنزل أيضاً وزن أبي بكر الصديق بالأمة فرجح هذا منزل حضرة الوزن بين المخلوقين من كل ما سوى الله، ومن عرف ما في هذا المنزل وشاهد حكمه ورفعت له موازين الخلق على ما وضعهم الله عليه من الحال والمقام عرف فضل الملائكة بعضهم على بعض، وفضل الناس بعضهم على بعض، وفضل الجن بعضهم على بعض، وفضل الحيوان بعضه على بعض، وفضل النبات بعضه على بعض، وفضل الجماد بعضه على بعض، والمفاضلة بين الملائكة والبشر، وبين الجن والبشر، وبين الجماد والنبات والبشر، ويعرف مفاضلة كل جنس مع غير جنسه، ومن هنا يعرف فضل الحجر الأسود مع كونه جماداً وهو يمين الله، فانظر هذه الرتبة وهو جماد، وانظر في فرعون وأبي جهل وهو إنسان. ومن هذا المنزل إذا وقفت على هذه المفاضلات رأيت الجنة فيمن تسري من هؤلاء الأجناس وأنواع الأجناس وأنواع الأنواع إلى آخر درجة وهي أشخاص النوع الأخير، ويشاهد أيضاً سريان النار في الأجناس بين حر وزمهرير، وفي أنواع الأجناس، وأنواع الأنواع، حتى تنتهي إلى أشخاص النوع الأخير، فتحكم على كل من تشاهده بما تشاهده، فإنك إنما تشاهده بمآله لا بوقته، وهنا يقع تلبيس من حضرة خيالية في مقابلة هذه الحضرة، فيشاهد ما يعطيه شاهد الوقت فيحكم عليه بالمآل وهو تلبيس شيطاني من الصفة التي ذكرناها آنفاً من كون الجن والشياطين تخيل للناس صوراً عنهم وعن غيرهم وليس بحقيقة، وهذه المسألة التبس الأمر فيها على أبي حامد الغزالي وغيره.

وممّن التبس عليه الأمر في ذلك من الشيوخ الذين أدركناهم أبو أحمد بن سيد بون بوادي أشت فكان يقول هو وأمثاله: إن الإنسان إنما يطرأ عليه التلبيس ما دام في عالم العناصر فإذا ارتقى عنها وفتحت له أبواب السماء عصم من التلبيس، فإنه في عالم الحفظ والعصمة من المردة والشياطين، فكل ما يراه هنالك حق فلنبين لك الحق في ذلك ما هو، وذلك أن الذي ذهبت إليه هذه الطائفة القائلون بما حكيناه عنهم من رفع التلبيس فيما يرونه لكونهم في محال لا تدخلها الشياطين فهي محال مقدسة مطهرة كما وصفها الله وذلك صحيح أن الأمر كما زعموه، ولكن إذا كان المعراج فيها جسماً وروحاً كمعراج رسول الله ﷺ، وأما من عرج به بخاطره وروحانيته بغير انفصال موت بل بفناء أو قوّة نظر يعطى إياها وجسده في بيته وهو غائب عنه بفناء أو حاضر معه لقوّة هو عليها فلا بدّ من التلبيس إن لم يكن لهذا الشخص علامة إلهية بينه وبين الله يكون فيها على بينة من ربه فيما يراه ويشاهده ويخاطب به، فإن كان له علامة يكون بها على بينة من ربه وإلاّ فالتلبيس يحصل له، وعدم القطع بالعلم في ذلك إن كان منصفاً، وقد يكون الذي شاهده حقاً ويكون معصوماً محفوظاً في نفس الأمر ولكن لا علم له بذلك، فإذا كان على بينة من ربه حينئذ يأمن التلبيس كما أمنته الأنبياء عليهم السلام فيما يلقى إليهم من الوحي في بيوتهم، وذلك أن الشيطان لا يزال مراقباً لحال هذا المريد المكاشف سواء كان من أهل العلامات أو لم يكن فإن له حرصاً على الإغواء والتلبيس، ولعلمه بأن الله قد يخذل عبده بعد عصمته ممّا يلقى إليه فيقول عسى ويعيش بالترجي والتوقع، وإن عصم باطن الإنسان منه ورأى أنوار الملائكة قد حفت بهذا العبد انتقل إلى حسّه فيظهر له في صورة الحسّ أموراً عسى يأخذه بها عما هو بسبيله مع الله في باطنه، وهذا فعله مع كل معصوم محفوظ بأنوار الملائكة حساً في باطنه، وأما إن كان معصوماً في نفس الأمر وليس على باطنه حفظة من الملائكة فإن الشيطان يأتي إلى قلبه، وهذا الشخص بكونه معصوماً في نفس الأمر بالبينة التي هو عليها من ربه لا يقبل منه ما يلقى إليه، هذا إن لم يكن متبحراً في العلم ويكون صاحب مقام مقصور عليه. وأما إن كان صاحب تمكين وتبحر في العلم الإلهيّ أخذ ذلك منه فإنه رسول من الله إليه.

فإن كان محموداً فقلب عينه في مجرد الأخذ حيث أخذه عن الله ولم يلتفت إلى الواسطة لعلمه بمحلها عند الله من الطرد والبعد فينقلب خاسئاً حيث أراد أمراً فلم يتم له بل كان فيه زيادة سعادة لهذا الشخص، ولكن من حرصه على الإغواء يعود إليه المرة بعد المرة، وإن كان الذي أتاه به مذموماً قلب عينه فصار محموداً في حقه بأن يصرفه على المصرف المرضي فينقلب خاسئاً حيث أراد أمراً فلم يتم له بل كان فيه سعادة لهذا الشخص، فإن كان حال هذا الشخص الأخذ من الأرض أقام له الشيطان أرضاً ليأخذ منها، فإما أن يردّه خاسئاً ويفرق بين الأرضين، وإما أن يكون متبحراً فيشكر الله حيث أعطاه أيضاً أرضاً متخيلة كما أعطاه أرضاً محسوسة وينظر سر الله فيها ويأخذ منها ما أودع الله فيها من الأسرار التي لم تخطر ببال إبليس، ويردها الله لهذا الشخص زيادة في ملكه وإن كان حاله السماء فإن الشيطان

يقيم له سماء مثل السماء التي يأخذ منها ويدرج له من السموم القاتلة ما يقدر عليه فيعامله العارف بما ذكرناه في معاملته له بالأرض، وإن لم يكن في هذا المقام لبس عليه وتجرع تلك السموم القاتلة ولحق بالأخسرين أعمالاً، وإن كان حاله في سدرة المنتهى أو في ملك من الملائكة جلى له صورة سدرة مثلها أو صورة مثل صورة ذلك الملك وتسمّى له باسمه، ثم ألقى إليه ما عرف أنه يلقي إليه من ذلك المقام الذي هو فيه ليلبس عليه، فإن كان من أهل التلبيس فقد ظفر به عدوه، وإن كان معصوماً حفظ منه فيطرده ويرمي ما جاء به أو يأخذه من الله دونه ويشكر الله على ما أولاه وما زاده، ثم يرتقي هذا الشخص إلى حال هو أعلى فإن كان حاله العرش أو العماء أو الأسماء الإلهية ألقى إليه الشيطان بحسب حاله ميزاناً بميزان، فإن كان من أهل التلبيس كان كما ذكرناه، وإن لم يكن انقسم أمره إلى ما ذكرناه، فقد أعلمتك أن الشيطان لا يجلي للشخص إلاَّ على ما هي عليه حالته في صورة ذلك على السواء وعلى ما استقرّ في ذهنه ممّا قررته الشريعة، ألا ترى ابن صياد لما أظهر له إبليسه العرش إذ كان حاله وأبصر ذلك العرش على البحر لأنه رأى الله تعالىٰ يقول: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [سورة هود: الآية ٧] فجلى له العرش على البحر وهو قاعد عليه يأخذ عنه ابن صياد ويتخيل أنه يأخذ عن الله، فإن الله قد قال على ما أخبره به رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فقال له رسول الله ﷺ **«ماذا ترى؟»** قال: أرى العرش، قال: **«أين؟»** قال: على البحر، فقال له رسول الله ﷺ: **«ذٰلِكَ عَرْشُ إِبْلِيسَ»** وخبّأ له رسول الله ﷺ سورة الدخان من القرآن فقال له رسول الله ﷺ: **«ما خبأتُ لك؟»** فقال: الدخ والدخ هي لغة في الدخان، فقال له رسول الله ﷺ: **«اخسأ فلن تَغدُوَ قَدرك»**، يعني إنك ممّن لبس عليه الأمر فإنه ﷺ ما خبأ له إلاَّ سورة الدخان وهي تحوي على الدخان وعلى غيره فما خبّأ له الدخان فأتاه باسم السورة لا بما خبّأ له، وما قال سورة الدخان، وإنما قال: الدخ ولم يأت في هذه السورة إلاَّ الدخان لا الدخ وإن كان هو بعينه، فلم يفرق ابن صياد بين سورة الدخان وبين الدخان فجهل فلهذا قال له رسول الله ﷺ: **«اخسَأْ فَلَنْ تَغدُوَ قَدْرَكَ»** حيث جاءه من هذه السورة بما يناسب إبليس الذي عرّفه بذلك وهو أن الشيطان مخلوق من النار، فما رأى من تلك الخبيئة إلاَّ ما يناسبه وما عرف أنها سورة الدخان فألقى إلى ابن الصياد في روعه هذا القدر وذلك أن النبي ﷺ تلفظ باسم السورة عندما عينها في نفسه فسرقها الشيطان واختطفها من لفظه، ولو أضمرها رسول الله ﷺ في نفسه ما عرفها إبليس فإنه ليس له على قلبه ﷺ إطلاع ولا استشراف بخلاف قلب الوليّ، ولهذا أن النبي معصوم من الوسوسة في حال نزول الوحي وفي غيرها لا فرق، ألا ترى الشيطان لما علم أن رسول الله ﷺ بهذه المثابة والعناية من الله في عصمة قلبه من استشراف إبليس عليه جاءه في الصلاة في قبلته بشعلة نار مخيلة فرمى بها في وجهه وغرضه أن يحول بينه وبين الصلاة لما يرى له فيها من الخير فإنه يحسده بالطبع فتأخر النبيّ ﷺ إلى خلف ولم يقطع صلاته وأخبر بذلك أصحابه. وأما الوليّ فقد يلقي إليه في قلبه وقد يسمع منه ما يحدث به نفسه فيطمع أن يلبس عليه حاله كما ذكرناه، فمن كان على بينة من

ربه فقد سعد وارتفع الإشكال، ولا بدّ للبينة التي يكون عليها أن تكون بينة له، وإن لم تكن بينة فلا يقدر أن يحكم بها، فإنه قد تكون علامة لا بينة، فيتخيل أن العلامة هي البينة وليس كذلك، فإن العلامة إذا لم تكن بينة وهو التحقق بها وبها يقطع النبيون والأولياء فيما يرد عليهم من الله.

ولقد أخبرني أبو البدر التماشكي البغدادي وهو من الفقراء الصادقين من أنظفهم ثوباً وأحسنهم عبارة قال لي: جمع بيني وبين الشيخ رغيب الرحبي مجلس وكان من العارفين غير أنه لم يبلغ فيما نقل إلينا مبلغ العارفين المكملين في شغلهم أنه قال له عن رجل الوقت أنه رأى خلعة قد خرجت له من الحضرة وقد أعطى علامة في ذلك الرجل وإلى الآن فما رآه لأنه لم ير تلك العلامة، فقال له أبو البدر رضي الله عن جميعهم: يا شيخ ألم تر بعد ذلك رجالاً كثيرة؟ فقال له: نعم، قال: وكانوا من الأكابر؟ قال: نعم ولكن ما رأيت تلك العلامة في واحد منهم، فقال له أبو البدر: وما يدريك أن واحداً من أولئك الرجال الذين رأيتهم كان هو المقصود بتلك الخلعة وتغرب عليك حتى لا تعرفه؟ فقال له رغيب: قد يكون ذلك فهذا صاحب علامة ولكن ما هو على بينة في علامته، فإن العلامة إنما هي في الباطن لا تزول عنه وهو الذي يكون بها على بينة من ربه في نفسه، فإذا جعلت له العلامة في غيره كان ذلك الغير حاكماً لها إن شاء ظهر له فيها وإن شاء لم يظهر، فلذلك قال رغيب ما قال في العلامة، ولم يبين من كان محل العلامة هل هو أو ذلك الرجل؟ فلما أقرّ بوقوع ما قال له أبو البدر في الدخول عليه في علامته علمنا قطعاً إذا صدقنا رغيباً في دعواه أن العلامة كانت في غيره فإنه ما هو على بينة من ربه فعلامته فيه ما يكون في غيره، فلذلك قد يمكن أن يصحّ ما قال أبو البدر أن يكون الرجل قد دخل عليه فيمن رأى من الرجال وتغرّب عليه، فاعتراض أبي البدر على هذا العارف اعتراض صحيح محرّر في الطريق، وإقرار رغيب في ذلك إقرار صادق يدل على صدق دعواه إلاّ أنه قد يكون هذا الشيخ ممّن ليس على بينة، وقد يكون من أهل البينة، إذ لم يقع في دعواه لفظ البينة وعدل إلى العلامة التي يدخلها الاشتراك.

وأما الشيخ أبو السعود ابن الشبل شيخ أبي البدر المذكور فالموصوف من أحواله أنه كان على بينة من ربه إلاّ أنه كان أعقل أهل زمانه، ولولا ما حكى عنه أبو البدر المذكور أنه انتهر شخصاً في ذكر عبد القادر بغيظ لا بسكون وهدوّ وعرفه أنه يعرف عبد القادر كيف كان حاله في أهله وحاله في قبره لكان عبداً محضاً ولكن عاش بعد هذا، فقد يمكن أنه صار عبداً محضاً لأنه لم ينتهر هذا الشخص لكونه أتى أمراً محرماً في الشرع، وإنما وصف أحوال عبد القادر وعظم منزلته، فلو أنه وقع في محظور شرعي وانتهره وغضب عليه لم يخرجه ذلك عن أن يكون عبداً محضاً، فسبحان من أعطى أبا السعود ما أعطاه، فلقد كان واحد زمانه في شأنه، نعم لو كان هذا الذاكر تلميذاً له لتعين عليه انتهاره إياه لأن انتهاره من تربيته، فإن كان من تلامذته فذلك الانتهار لا يخرجه عن عبوديته، فإن كان ذلك الانتهار من أبي السعود عن أمر إلهيّ خوطب به في نفسه لمصلحة الوقت في حق من كان أو لغيرة من الله على مقام قد

أساء هذا المتكلم فيه الأدب، فانتهاره ذلك ممّا يحقق عبوديته لا يخرجه عنها، وهذا هو الظن بحال أبي السعود لا الذي ذكرناه أولاً، وإنما ذكرنا ذلك وهذا وما بينهما لنستوفي الكلام على المقام بما يقتضيه من الوجوه على كمالها، فلا بدّ أن يكون هذا الشيخ على واحد منها ولم يحكم عليه بواحد منها، فأفدنا الواقف على هذا الكتاب معرفة هذا المقام وأحواله، وإن الله ما أخبرني بحال من أحوال أبي السعود حتى نلحقه بمنزلته، والله أعلم أيّ ذلك كان، إلاّ أني أقطع أن ميزانه بين الشيوخ كان راجحاً، نفعنا الله بمحبته وبمحبة أهل الله، وقد أوردنا من هذا المنزل بعض ما يحويه من القواصم فإنها كلها مخوفة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والثمانون ومائتان

في معرفة منزل المجاراة الشريفة وأسرارها من الحضرة المحمدية

[نظم: الطويل]

تَجارَتْ جيادُ الفكر في حَلْبَة الفَهْم ... تحصَّلَ في ذاك التَّجَاري من العلم
بأسرارِ ذَوْقٍ لا تُنَالُ براحةٍ ... تعالَتْ عن الحال المكيَّف والكَمِّ
أغارَ على جيش الظلام صَبَاحُها ... فأسْفَرَ عن شمسي وأعْلَنَ عن كَتْمي
وأورى زنادُ الفكر ناراً تولَّدَتْ ... من الضَّرب بالروح المولَّدِ عن جسم
فقُمْتُ على ساق الثَّناء مُمَجِّداً ... فجاءتْ بشاراتُ المعارف بالخَتْم
فسبحانَ مَنْ أحيا الفؤادَ بنوره ... وخصَّصَني بالأخذ عنه وبالفَهْم

من هذا الباب قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٦١] والناطق الذي يقوم للذاكرين في قلوبهم وما هو بحكمهم من دوام الذكر الذي يكونون عليه من غير أن يتخلله فترة فيسمعون ناطقاً في قلوبهم يذكر الله فيهم وهم سكوت، أو في حديث من أحاديث النفوس وما يعرفون من ينطق فيهم فذلك الناطق هو القائل لموسىٰ ﷺ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [سورة طه: الآية ١٤] ويسمّى هذا النطق نطق القلب وهو الناطق عندهم، وطائفة تقول: إنه ملك خلقه الله من ذكره الذي كان عليه وأسكنه فيه ينوب عن هذا العبد في ذكره في أوقات غفلاته المتخللة بالذكر، فإن استمرت غفلاته وترك الذكر فقد هذا الناطق، ومن الناس من يرى فيه أن الحق أسمعه نطق قلبه الذي في صدره الذي هو عليه دائماً خرق عادة كرامة لهذا الشخص من الله حيث أسمعه نطق قلبه ليزيد إيماناً بنطق جوارحه كما قال: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ [سورة الفتح: الآية ٤] بما جاء من نطق جوارحهم في آخر الزمان وفي الدار الآخرة، قال رسول الله ﷺ: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتّى يُكَلِّمَ الرَّجُلَ فَخِذُهُ بِمَا فَعَلَ أَهْلُهُ وَحَتّى يُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذَبَةُ سَوْطِهِ**» وقال الله تعالىٰ: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٦٥] وقال: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢٢] وقال هؤلاء يوم القيامة: ﴿لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢١]

ومن زاد على مرتبة هذا الذاكر الذي سمع نطق قلبه بسمعه أسمعه الله نطق جسده كله بل نطق جميع الجمادات والنباتات والحيوانات، فأما الحيوانات فقد يسمع نطقها ويفهم ما تقول بغير طريق الذكر بل بخاصية لحم حيوان أو مرقة لحمه يطلع آكله أو شارب مرقته على غيوب ما يحدث الله في العالم من الحوادث الجزئية والعامة ويسمع ويفهم ما تنطق به جميع الحيوانات، وقد رأيت من رأى من أكل من لحم هذا الحيوان وشرب من مرقته فكانت له هذه الحالة فكان من رآها منه يتعجب، ويكون هذا الحيوان في البرية التي بين مكة والعراق لكن خارجاً عن طريق الركب بأيام في غيضة عظيمة، وشكل هذا الحيوان شكل امرأة تتكلم باللسان العربي يخرج إليها عرب تلك البرية وهم قبيلة معروفة في كل سنة يوماً معلوماً يأتون إلى تلك الغيضة بأيديهم الرماح فيقفون على أفواه سكك تلك الغيضة وتدخل طائفة منهم في الغيضة يتفرقون فيها بالصياح ويلحّون في الطلب على هذا الحيوان لينفروه فيخرج هذا الحيوان عند ذلك هارباً شارداً إما على بعض تلك الأفواه فإن تمكن منه الواقف على تلك السكة طعنه بالرمح فقتله، وإن فاته وتوغل في البرية رجعوا إلى مثل ذلك اليوم من السنة المستقبلة هكذا في كل عام، فإذا ظفروا به قطعوه وقسموا لحمه على الحي كله وطبخ كل واحد منهم قطعته وأكلها وشرب مرقتها وأطعم منها من شاء من أهله وبيته، وإن كان عندهم غريب ممّن قد انقطع من الركب وتاه وحصل عندهم وصادف ذلك اليوم منعوه من أكل لحمها أو شرب مرقتها إلاّ أن يتناوله بسرقة من غير علم منهم، فإن علموا به استفرغوه جبراً بالقيء المفرط فينقص فعل ذلك اللحم منه ولا يذهب بالكلية ويبقى عليه بقية من علم الغيوب، فسبحان من أخفى علم ما أودعه في مخلوقاته عن بعض مخلوقاته، لا إله إلا هو العليم الحكيم.

وكل ما ذكره من ذكره في معنى هذا الناطق وحقيقته فصحيح، فإنه قد يكون هذا الناطق عين قلبه، وقد يكون ملكاً يخلق من ذكره، وقد يكون روحاً يستلزمه، وقد يكون ما أومأنا إليه والفرقان بين ما أومأنا إليه وبين ما قاله غيرنا في تعيينه أنه يحادثه ويخاطبه بما شاء من التعريفات الإلهية والكونية أي بما يتعلق بمعرفة الله وبما يتعلق بالمخلوقين إذا استمر على ذكره ودام على طاعة ربه، وهو الذي قال لصاحب المواقف ما حكاه عنه في مواقفه من القول إن لم يكن هو رحمه الله قد نبّه على مراتب علوم فقال لي وقلت له، فإن بعض العارفين قد يفعل هذا إذ لم يروا قائلاً في الوجود غير الله حالاً ولفظاً وكله علم محقق، غير أنه إذا كان تعبيراً عن مراتب علوم فيتوهم السامع منه إذا قال صاحب هذا المقام قال لي وقلت له إن الحق يكلمه فإن سأله السامع عرفه بالأمر فإنهم أهل صدق إذا كان السائل مؤمناً بما يقوله أهل طريق الله، فإن كان متردّداً في إيمانه بذلك فإنه يسكت عنه في ذلك إن كان ممّن لا تلزمه طاعته شرعاً، فإن كان ممّن تلزمه طاعته شرعاً وليست عنده أهلية لذلك قال له إنما هي عبارات أحوال ونطق حال لا نطق مقال، كما تقول الأرض للوتد: لم تشقني؟ فيقول لها الوتد: سل من يدقني، يعني الدقاق الذي يدق به الوتد، وهذا لسان حال معلوم يضرب مثلاً معروفاً بين الناس.

ثم لتعلم بعد أن بيّنت لك هذا أن المسارع إلى الخيرات السابق لها إن كان يريد المشاهد الإلهيّة والعلوم الربانية فليكثر سهر الليل وليكثر فيه الجمعية دائماً، فإن لاحت له أنوار متفرّقة يتخللها ظلمة ما بين كل نور ونور ولا يكون لتلك الأنوار بقاء تكون سريعة الذهاب فتلك أوّل علامات القبول والفتح، فلا يزال تظهر له تلك الأنوار الشريفة بالمجاهدات والمسارعة فيها وإليها إلى أن يطلع له نور أعظم، فإنه يكشف به الموانع التي تمنع الناس من نيل هذه العلوم، ويكشف أسراراً في مقاماتها ليس فيه منها شيء ولا هو موصوف بها، فيكشف له عن أعماله التي كان عليها من أذكاره ورياضاته ومجاهداته قد أنشأها الله خلقاً روحانياً، فتسابق إلى أخذ تلك الأسرار كما يسبق هو بها فيأخذها وتكسو عاملها بها جزاء وفاقاً له حيث كان سبباً لوجود أعيان ذلك الخلق الذين هم عين أفعاله البدنية من نطق وحركة، وكان الحضور أرواح تلك الصور العملية، فيتصف العامل عند ذلك بالعلم بتلك العلوم والأسرار هكذا يشاهدها إذا أشهدها، وقد يجد تلك العلوم من خلف حجاب الغيب ولا يطلع على الأمر كيف كان وهو كما ذكرنا، قال القائل: [الكامل]

جيشٌ إذا عَطَس الصباحُ على العِدَى ... كانتْ إغارةُ خَيْلِهِ تَشْمِيتَا

ويشاهد موافقات بين صور تلك العلوم وبين صور هذه الأعمال من أجل انتظار الإذن الإلهيّ في ذلك، فإن كان العامل ممّن قد أراد الله أن يفتح له في الدنيا في حصول هذه الأسرار ورد الإذن الإلهيّ بذلك ففتح على هذا العامل في باطنه بعلوم شتى فيقال: فلان قد فتح عليه وإن كان الله يريد أن يخبىء له ذلك إلى الدار الآخرة لمصلحة يراها له في منع ذلك لم تمكن صور الأعمال من خلع تلك العلوم على العامل لكن تلبسها الأعمال إلى أن ينقلب العامل إلى الدار الآخرة فيجدها مخبوءة له في أعماله فيلبسها خلعاً إلهية فيقال في هذا العامل في الدنيا إنه ما فتح له مع كثرة عمله، ويتعجب المتعجبون من ذلك لأنهم يتخيلون أن الفتح أمر لازم، وكذلك هو أمر لازم تطلبه الأعمال وتناله، ولكن متى يكون ذلك صفة للعامل هل في الدنيا أو في الآخرة؟ ذلك إلى الله، فإذا رأيت عامل صدق أو عرفت ذلك من نفسك ولم تر يفتح لك في باطنك مثل ما فتح لمن تراه على صورتك من العمل فلا تتهم فإنه مدّخر لك واطرح عن نفسك التهمة في ذلك، فلا تتهم ولا تجعل نفسك من أهل التهم وقل كما قلت في ذلك: [مجزوء الرجز]

مـا أنـا مـن أهْـلِ الـتُّـهَـمْ ... ولا أنـا مـمَّـنْ أُتَّـهَـمْ
وإنَّـنـي إن قـلـتُ لا ... أقـولُ مـن بـعـد نَـعَـمْ
ولا أقـولُ عَـكْـسَ ذا ... فـإنَّـنـي بَـحْـرٌ خِـضَـمّ
وإنَّـنـي ابـنُ حـاتـم ... بـيـتِ الـسَّـمَـاح والـكَـرَمْ
فـكـم لـنـا مـآثـرٌ ... مَـنْـصـوبـةٌ مـثـلَ الـعَـلَـمْ
لـيُـهْـتَـدَى بـضَـوْئـهـا ... فـي عَـرَب وفـي عَـجَـمْ
مَـعْـلـومـةٌ مـشـهـورةٌ ... مَـذْكـورةٌ بـكـل فَـمْ

مـحـبـوبـةٌ مـشـكـورةٌ سـاريـةٌ وكـم وكَـمْ

وما أحسن قول القائل في مثل ما قلت: [الطويل]

وإنـي إذا أَوْعَـدتُـه أو وَعَـدْتُـه لَمُخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ مَوْعِدي

وهذا من الكرم الإلهي أنه جعل مانعاً في مقابلة الوعيد وإنفاذه وهو العفو والتجاوز، ولم يجعل للوعد بالخير مانعاً من اسم إلهي، وإذا كانت حالة العبد من الكرم بهذه المثابة فالجناب الإلهي أحق بهذه الصفة، وإنما نبهت على أنني ابن حاتم من أجل الكرم الذي جبلت عليه ولي فيه الأصل المؤثل مثل ما قيل: إن الجياد على أعراقها تجري. والأعراق هي الأصول جمع عرق وهو الأصل في لسان العرب.

واعلم أن العارفين يعاملون المواطن بحسب ما تقتضيه وغير العارفين ليس كذلك، فالعارف إن أظهر للناس ما منحه به ربه من المعارف والأسرار لا يظهر ذلك إلاّ من أجل ربه لا على طريق الفخر على أبناء جنسه فحاشاه من ذلك كما قال ﷺ حين أمر أن يعرّف الناس بمنزلته: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ**» هذا الذي قيل له قل ثم قال من نفسه: «**وَلاَ فَخْرَ**» يقول: إني ما قصدت بهذا الكلام الفخر ولكن عرفتكم بالمقام الإلهي عن الإذن. وأما إذا كان تعريف العارف منزلته للناس عن غير أمر إلهي ولا إذن رباني فإنه هوى نفس بتأويل ظهر له وهي زلة وقعت منه ينبغي له أن يتعوذ بالله من شرها، فإن الموطن الدنياوي لا يقتضي الفتح ولا التعريف بالمقام إلاّ للأنبياء خاصة إذا أرسلوا، وأما الأولياء فحصرتهم العبودية المحضة فهم في ستر مقامهم وحالهم لربهم لا لأنفسهم أي من أجل ربهم، وأنهم حاضرون في ذلك مع ربهم، وإن كان العارف من حيث إنسانيته ونفسه محباً في الثناء عليه بمنزلته من سيده ليظهر بذلك الشفوف على أبناء جنسه وهو معذور، فأي فخر أعظم من الفخر بالله؟ ولكن العبد الخالص له الدين الخالص والدين الخالص هو ما يجازيه به ربه من ثنائه عليه بلسان الحق وكلامه لا بلسان المخلوقين، فهو يحب الثناء من الله ليعلم بإعلام الله إياه أنه ما أخلّ بشيء ممّا يقتضيه مقام العبودية أو يستحقه مقام الربوبية ليكون من نفسه على بصيرة، فقد أحب ما تقتضيه إنسانيته ونفسه من حب الثناء، ولكن من الله لا من المخلوق ولا من نفسه على نفسه عند المخلوقين فإنه على غير بصيرة فيه ولا إذن من ربه في ذلك، كما أنه يحب المال لما يستلزمه من الغنى عن الافتقار إلى المخلوقين، فمن كان غناه بربه فهو ماله إذ المال ليس محبوباً لنفسه ولا لادّخاره من غير توهم رفع الحاجة بوجوده فاعلم ذلك، فجميع النفوس محبة للمال في الظاهر وهو الغنى في المعنى، فبأي شيء وقع الغنى في نفس العبد فهو المال المحبوب عنده بل لكل نفس، وفي ذلك قلت: [مخلع البسيط]

بـالـمـال يَـنْـقـاد كـلُّ صَـعْـبٍ مـن عَـالَـم الأرض والـسـمـاءِ

فـحَـبْـسُـه عـالـم حـجـابٌ لـم يـعـرفـوا لـذَّةَ الـعَـطـاءِ

ومنها أعني من هذه القصيدة: [مخلع البسيط]

لا تَـحْـسَـبِ الـمـالَ مـا تـراه مـن عَـسْـجَـدٍ مُـشْـرِقٍ لـرائـي

بَـل هـو مـا كـنـتَ يـا بُـنَـيَّ بـه غـنـيـاً عـن الـسَّـوَاءِ
فـكُـنْ بـربِّ الـعُـلَـى غـنـيـاً وعَـامِـلِ الـحـقَّ بـالـوفـاءِ

ومن هذا المنزل تعلم يا بني ما أكنته القلوب من الأمور وما يجري فيها من الخواطر وما تحدث به نفوسها على طريق الإحصاء لها فيما مضى، حتى أن المتحقق بهذا المنزل يعرف من الشخص جميع ما تضمنه قلبه وما تعلقت به إرادته من حين ولادته وحركته لطلب الثدي إلى حين جلوسه بين يديه ممّا لا يعرفه ذلك الشخص من نفسه لصغره، ولما طرأ عليه من النسيان وعدم الالتفات لكل ما يطرأ في قلبه وما تحدثه به نفسه لقدم الزمان فيعرفه صاحب هذا المنزل منه معرفة صحيحة لا يشك ولا يرتاب فيها لا من نفسه ولا من كل من هو بين يديه أو حاضر في خاطره وهو حال يطرأ على العبد.

وهذا المنزل قد سمعنا من أحوال أبي السعود بن الشبل أنه كان له، حدثنا صاحبنا أبو البدر رحمه الله أن الشيخ عبد القادر ذكر بين يدي أبي السعود وأطنب في ذكره والثناء عليه وكان القائل قصد به تعريف الشيخ أبي السعود والحاضرين بمنزلة عبد القادر وأفرط فقال له الشيخ أبو السعود: كم تقول أنت تحب أن تعرفنا بمنزلة عبد القادر كالمنتهر له والله إني لأعرف حال عبد القادر كيف كان مع أهله وكيف هو الآن في قبره؟ وهذا لا يعلم إلاَّ من هذا المنزل، ولكن لا يحصل له هذا التحصيل الكامل إلاَّ في الرجوع من الحق إلى رؤية المخلوقين بعين الله وتأييده لا بعينه وقوّته. ومن هذا المنزل أيضاً يعلم كم حشر يحشر فيه الإنسان.

فاعلم أن الروح الإنساني أوجده الله حين أوجده مدبراً لصورة طبيعية حسية له سواء كان في الدنيا أو في البرزخ أو في الدار الآخرة أو حيث كان، فأول صورة لبستها الصورة التي أخذ عليه فيها الميثاق بالإقرار بربوبية الحق عليه، ثم إنَّه حشر من تلك الصورة إلى هذه الصورة الجسمية الدنياوية وحبس بها في رابع شهر من تكوين صورة جسده في بطن أمّه إلى ساعة موته، فإذا مات حشر إلى صورة أخرى من حيث موته إلى وقت سؤاله، فإذا جاء وقت سؤاله حشر من تلك الصورة إلى جسده الموصوف بالموت فيحيا به ويؤخذ بأسماع الناس وأبصارهم عن حياته بذلك الروح إلاَّ من خصّه الله تعالىٰ بالكشف على ذلك من نبي أو ولي من الثقلين، وأما سائر الحيوان فإنهم يشاهدون حياته وما هو فيه عيناً، ثم يحشر بعد السؤال إلى صورة أخرى في البرزخ يمسك فيها بل تلك الصورة هي عين البرزخ والنوم والموت في ذلك على السواء إلى نفخة البعث فيبعث من تلك الصورة ويحشر إلى الصورة التي كان فارقها في الدنيا إن كان بقي عليه سؤال، فإن لم يكن من أهل ذلك الصنف حشر إلى الصورة التي يدخل بها الجنة، والمسؤول يوم القيامة إذا فرغ عن سؤاله حشر في الصورة التي يدخل بها الجنة أو النار وأهل النار كلهم مسؤولون، فإذا دخلوا الجنة واستقروا فيها ثم دعوا إلى الرؤية وبادروا حشروا في صورة لا تصلح إلاَّ للرؤية، فإذا عادوا حشروا في صورة تصلح للجنة، وفي كل صورة ينسى صورته التي كان عليها ويرجع حكمه إلى حكم الصورة التي انتقل إليها

وحشر فيها، فإذا دخل سوق الجنة ورأى ما فيه من الصور فأية صورة رآها واستحسنها حشر فيها، فلا يزال في الجنة دائماً يحشر من صورة إلى صورة إلى ما لا نهاية له ليعلم بذلك الاتساع الإلهيّ، فكما لا يتكرّر عليه صور التجلي كذلك يحتاج هذا المتجلي له أن يقابل كل صورة تتجلى له بصورة أخرى تنار إليه في تجليه، فلا يزال يحشر في الصورة دائماً يأخذها من سوق الجنة ولا يقبل من تلك الصور التي في السوق، ولا يستحسن منها إلاّ ما يناسب صورة التجلي الذي يكون له في المستقبل، لأن تلك الصورة هي كالاستعداد الخاص لذلك التجلي، فاعلم هذا فإنه من لباب المعرفة الإلهية، ولو تفطنت لعرفت أنك الآن كذلك تحشر في كل نفس في صورة الحال التي أنت عليها، ولكن يحجبك عن ذلك رؤيتك المعهودة، وإن كنت تحسّ بانتقالك في أحوالك التي عليها تتصرف في ظاهرك وباطنك، ولكن لا تعلم أنها صور لروحك تدخل فيها في كل آن وتحشر فيها ويبصرها العارفون صوراً صحيحة ثابتة ظاهرة العين، وهذا المنزل منزل الخبرة والمهيمن عليه الاسم الرب، وهذه الصور إنما تطلبها الخبرة لإقامة الحجة عليها في موطن التكليف، فالعارف يقدم قيامته في موطن التكليف التي يؤول إليها جميع الناس فيزن على نفسه أعماله ويحاسب نفسه هنا قبل الانتقال، وقد حرّض الشرع على ذلك فقال: «**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا**» ولنا فيه مشهد عظيم عايناه وانتفعنا بهذه المحاسبة فيه فلم تعد علينا في الموطن الذي يحاسب الناس فيه، وما أخذت هذا المقام إلاّ من شيخنا أبي عبد الله بن المجاهد وأبي عبد الله بن قسوم بإشبيلية فإنه كان حالهما، وزدت على ابن قسوم في ذلك بمحاسبة نفسي بالخواطر، وكان الشيخ لا يحاسب نفسه إلاّ على الأفعال والأقوال لا غير، وهذا القدر كاف في التعريف بما يتضمنه هذا المنزل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. قيل لي: قل في آخر كل منزل: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلاّ أنت أستغفرك وأتوب إليك.

الباب الخامس والثمانون ومائتان

في معرفة منزل مناجاة الجماد ومن حصل فيه حصل من الحضرة المحمدية والموسوية نصفها

[نظم: الوافر]

تُناجيني العناصرُ مُفْصِحاتٍ ... بما فيها من العلم الغريبِ
فأعلمُ عند ذاك شُفُوفَ جسمي ... على نفسي وعقلي من قَريبِ
فيا قومي علومُ الكَشْف تَغْلو ... بما تُعطي على عِلْم القُلوبِ
فإنَّ العقلَ ليس له مجالٌ ... بمَيْدان المَشَاهد والغُيوبِ
فكم للفكر من خَطَأ وعَجْزٍ ... وكم للعين من نَظَر مُصيبِ
ولولا العينُ لم يظهَرْ لعقلٍ ... دليلٌ واضحٌ عند اللَّبيبِ

أما قولنا: وكم للعين من نظر مصيب فإنما جئنا به صنعة شعرية لما قلنا قبل في صدر

البيت، وإنما المذهب الصحيح أن العين لا تخطىء أبداً لا هي ولا جميع الحواس، فإن إدراك الحواس الأشياء إدراك ذاتيّ، ولا تؤثر العلل الظاهرة العارضة في الذاتيات، وإدراك العقل على قسمين: إدراك ذاتي هو فيه كالحواس لا يخطىء، وإدراك غير ذاتي وهو ما يدركه بالآلة التي هي الفكر وبالآلة التي هي الحسّ، فالخيال يقلد الحسّ فيما يعطيه، والفكر ينظر في الخيال فيجد الأمور مفردات فيحب أن ينشىء منها صورة يحفظها العقل فينسب بعض المفردات إلى بعض فقد يخطىء في النسبة الأمر على ما هو عليه وقد يصيب، فيحكم العقل على ذلك الحد فيخطيء ويصيب فالعقل مقلد ولهذا اتصف بالخطأ. ولما رأت الصوفية خطأ النظار عدلوا إلى الطريقة التي لا لبس فيها ليأخذوا الأشياء عن عين اليقين ليتصفوا بالعلم اليقيني، فإن الجاهل قد يتصف بالعلم فيما جهله ولا يتصف باليقين، ولهذا جاز أن يضاف العلم إلى اليقين، وليس من إضافة الشيء إلى نفسه لا لفظاً ولا معنى. فأما اللفظ فإن لفظة اليقين ما هي لفظة العلم فجازت الإضافة، ومن طريق المعنى أن اليقين عبارة عن استقرار العلم في النفس والاستقرار ما هو عين المستقر بل الاستقرار صفة للمستقر وهي حقيقة معنوية لا نفسية فليست عين نفس العلم فجازت الإضافة، وإنما قلنا إن الجاهل قد يتصف بالعلم فيما هو جاهل به فهو قوله تعالىٰ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٢٩] فذكر «أعلم» في الصنفين، إنما شرحنا بهذا الكلام ما قلناه في شعرنا فهو يتضمن شرح ما في هذا المنزل فلهذا أوردناه، فلنرجع إلى ما يعطيه هذا المنزل فنقول والله المؤيّد:

اعلم أن من هذا المنزل تسبيح الحصى في كف النبيّ ﷺ، ومن هذا المنزل أكله كتف الشاة، ومن هذا المنزل حبّه جبل أحد، ومن هذا المنزل سلم عليه الحجر، ومنه يشهد للمؤذن مدى صوته من رطب ويابس، ومنه هرب الحجر بثوب موسىٰ عليه السلام حتى أبصرت بنو إسرائيل عورته بريئة ممّا نسبوا إليه فقال: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٦٩] ومنه قالت السموات والأرض لما تعلق بهما الأمر الإلهيّ: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١]. ولما كان طلب حمل الأمانة عرضاً لا أمراً لهذا أبت القبول لعلمها أنها تقع في الخطر فلا تدري ما يؤول إليه أمرها في ذلك، وحكم هذا المنزل في الشرع واسع، فلنذكر بتأييد الله بعض ما يتضمنه هذا المنزل إن شاء الله تعالىٰ.

فأول علم يتضمنه هذا المنزل علم الحركات المعقولة والمحسوسة، فاعلم أن الحركات وهي المعاني التي تكون عنها الانتقالات، واختلف أصحابنا فيها هل هي ذوات موجودة في عينها أم هي نسب؟ وهي عندنا نسب، وهذه النسب تعطي من الأحكام بحسب ما تنسب إليه، فلها نسبة في المتحيزات تخالف نسبتها في غير المتحيزات، ونسبة في الأجسام تخالف نسبتها في الجواهر، وما من موجود إلاّ ولها فيه نسبة خاصة وإن كانت نسبة، قال رسول الله ﷺ: «**يَنزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيا فِي الثُّلُثِ البَاقِي مِنَ اللَيْلِ**» وهو موصوف سبحانه بأنه على عرشه مستو بالمعنى الذي أراده وهو سبحانه معكم أينما كنتم كما يليق به ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ

ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] إلينا، وهو تعالىٰ في العماء ما فوقه هواء وما تحته هواء، فهذا كله يدلك على ما يراد بالانتقالات، فقد يكون ظهور حكم صفة على صفة، وقد يكون الانتقال من حال إلى حال، وقد يكون من حيّز إلى حيّز، وقد يكون من مكان إلى مكان، وقد يكون من منزلة إلى منزلة، فقد أعلمتك أن الانتقال سار في جميع الموجودات على ما تستحقه ذواتها فتختلف كيفيات النسب وكله راجع إلى حكم الحركة، ومن هذا الباب قوله تعالىٰ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] وقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩].

ثم لتعلم بعد أن قرّرنا هذا أن الحركة في المتحركات على قسمين: طبيعية وهي كالنموّ في الناميات وعرضية، والعرضية اختيارية وغير اختيارية، فالاختيارية لا توجد إلاَّ في الحيوان، وغير الاختيارية تكون في الحيوان وغيره، وقسرية وهي التي تقع من غير المتحرك سواء اقتضاها طبعه أو لم يقتضها طبعه، فالجماد والنبات الحركة القسرية فيه لا يقتضيها طبعه، وغير الجماد تكون فيه على خلاف ما يقتضيه اختياره، وقد يكون المحرك من جنس المحرك وقد لا يكون، وقد تكون الحركة قسرية عن حركة قسرية، وقد تكون لا عن حركة قسرية، فالأولى كتحريك الرياح الأغصان، والثانية كرمي الإنسان الحجر علواً في الهواء، ويدق الكلام في هذه المسألة ويخفى فإنها مسألة عظيمة القدر وما هي من العقول ببال، ولها تعلق بباب التولد مثل حركة الخاتم لحركة الأصبع وحركة الكم لحركة اليد، وللحركة سلطان عظيم حكمها مشهود في الأجسام ولوازمها ومعقول في المعاني وما لا يعرف حدّه فلها السريان الأتم في الموجودات، وأوّل حكم لها في كل ما سوى الله خروج الأعيان وانتقالها من حالة العدم إلى حالة الوجود، ولا يصحّ استقرار من موجود أصلاً، فإن الاستقرار سكون والسكون عدم الحركة فافهم.

وبعد أن تقرّر هذا فإن الحركة التي في هذا المنزل التبس على الناس أمرها، فما عرفوا هل هي طبيعية أو قسرية؟ أو طبيعية قسرية؟ أو طبيعية لا قسرية؟ أو قسرية لا طبيعية؟ وإنما تصوّر الخلاف ممّن لم يشهد هذا المنزل ولا دخل فيه وهي عندنا حركة طبيعية اختيارية لإظهار أسرار عن أمر إلهيّ. واختلفوا في السبب الموجب لهذه الحركة هل السبب سبب الحياة أو سببها عالم الأنفاس أو لا سبب لها إلاَّ الأمر الإلهيّ؟ فاعلم أن الأمر في ذلك وجود الأمر الإلهيّ في عالم الأنفاس فتوجه على هذا الكون فحرّكه فقبل الحركة بطبعه كتوجه الهواء على الأشجار ليحركها بهبوبه، فالمشاهد يرى حركة الأغصان لهبوب الرياح، والعلم يرى أن لولا ما أخلت الأغصان أحيازها لم تجد الرياح حيث تهب فلها الحكم فيها بوجه وليس لها الحكم فيها بوجه، وكان المقصود من تحريك الهواء الأشجار إزالة الأبخرة الفاسدة عنها لئلاّ تودع فيها ما يوجب العلل والأمراض في العالم إذا تغذت به تلك الأشجار فيأكلها الحيوان أو تفسد هي في نفسها بتغذيها بذلك، فكان هبوب الرياح لمصالح العالم حيث يطرد الوخم عنه ويصفي الجوّ فتكون الحياة طيبة، فالريح سبب مقصود غير مؤثر في مسببه، وإنما الأثر في ذلك لناصب الأسباب وجاعلها حجاباً عنه ليتبين الفضل بين الخلائق في المعرفة بالله ويتميز

من أشرك ممّن وحّد، فالمشرك جاهل على الإطلاق، فإن الشركة في مثل هذا الأمر لا تصحّ بوجه من الوجوه، فإن إيجاد الفعل لا يكون بالشركة ولهذا لم تلتحق المعتزلة بالمشركين فإنهم وحّدوا أفعال العباد للعباد فما جعلوهم شركاء وإنما أضافوا الفعل إليهم عقلاً وصدقهم الشرع في ذلك، والأشاعرة وحّدوا فعل الممكنات كلها من غير تقسيم لله عقلاً وساعدهم الشرع على ذلك لكن ببعض محتملات وجوه ذلك الخطاب فكانت حجج المعتزلة فيه أقوى في الظاهر، وما ذهبت إليه الأشاعرة في ذلك أقوى عند أهل الكشف من أهل الله وكلا الطائفتين صاحب توحيد، والمشرك إنما جهلناه لكون الموجود لا يتصف إلاّ بإيجاد واحد، والقدرة ليس لها في الأعيان إلاّ الإيجاد، فلا يكون الموجود موجوداً بوجودين، فلا يصحّ أن يكون الوجود عن تعلّق قدرتين، فإن كل واحدة منهما إنما تعطي الوجود للموجود، فإذا أعطته الواحدة منهما وجوده فما للأخرى فيه من أثر فبطل إذا حققت الشركة في الفعل ولهذا هو غير مؤثر في العقائد، فالمشرك الخاسر المشروع مقته هو من أضاف ما يستحقه الإله إلى غير الله فعبده على أنه إله فكأنه جعله شريكاً في المرتبة كإشتراك السلطانين في معنى السلطنة وإن كان هذا لا يحكم في ملك هذا ولكن كل واحد منهما سلطان حقيقة.

وبعد أن عرفت ما يتعلق من العلم بالحركة على قدر ما أعطاه الوقت من التعريف بذلك فلنبين من هذا المنزل لم وجدت هذه الحركة الخاصة؟ فاعلم أنها وجدت لإظهار ما خفي في الغيب من الأخبار التي يثقل كونها على الخلق كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٥] وقال في شأن الساعة: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٧] وذلك أن الغيب إذا ثقل عليه الأمر وضاق عنه ولم يتسع له استراح على عالم الشهادة، فتنفس الغيب تنفس الحامل المثقل، فأبرز في عالم الشهادة ما كان ثقل عليه حمله، وهو في المعنى كما يثقل على الإنسان كتم سرّه وحمل همّه إذا لم يجد من يستريح عليه من إخوانه، فإذا وجد أخاً يبث إليه من همّه الذي هو فيه وثقل عليه ما يجد في بثّه له راحة بما أخذه منه صاحبه فكأنه قاسمه فيه فخف عليه، فإن كان ما وقع له به الهم تحت قدرة من يبثّه إليه من إخوانه فقضى حاجته أزال ذلك الثقل عنه بالكلية، فمثل هذا هو الثقل الذي يكون في الغيب فيستريح على الشهادة، وسبب ذلك كونه ليس له إنما هو أمانة عنده للشهادة، وإذا كان المطلوب من ذلك الأمر الشهادة فإنما هو عند الغيب أمانة، فيكون الغيب مكلفاً بحفظها وأدائها في وقتها إلى الشهادة فبالضرورة يثقل عليه، ألا ترى إلى قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ يعني لنفسه ﴿جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] يعني بقدرها فهي ثقيلة في المعنى وإن كانت خفيفة في التحمّل، فكانت السموات والأرض والجبال في هذه المسألة أعلم من الإنسان ولم تكن في الحقيقة أعلم وإنما الإنسان لما كان مخلوقاً على الصورة الإلهية وكان مجموع العالم اغتر بنفسه وبما أعطاه الله من القوّة بما ذكرناه فهان عليه حملها، ثم إنه رأى الحق قد أهله للخلافة من غير عرض عليه مقامها فتحقق أن الأهلية فيه موجودة ولم تقو السموات على الانفراد ولا الأرض

على الانفراد ولا الجبال على الانفراد قوّة جمعية الإنسان، فلهذا أبين أن يحملنها وأشفقن منها، وما علم الإنسان ما يطرأ عليه من العوارض في حملها فسمّي بذلك العارض خائناً، فإنه مجبول على الطمع والكسل وما قبلها إلاّ من كونه عجولاً، فلو فسح الحق له في الزمان حتى يفكر في نفسه وينظر في ذاته وفي عوارضه لَبانَ له قدر ما عرض عليه، فكان يأبى ذلك كما أبته السماء وغيرها ممّن عرضت عليه.

ولقد روينا فيما رويناه عن الحسن البصري أن رجلاً قدم من سفر فقصد دار الحسن فلما خرج إليه الحسن قال له: إني قدمت من مدينة كذا وحملني فلان صديقك السلام عليك فهو يسلم عليك، فقال له الحسن: متى قدمت؟ قال: الساعة، قال: هل مشيت إلى بيتك قبل أن تأتيني؟ قال: لا هذا دخولي على حالتي إليك لأؤدي أمانتك، قال: يا هذا أما إنك لو مشيت إلى بيتك قبل أن تأتيني ومتّ متّ خائناً، فالعاقل من لا يعد ولا يحمل أمانة، وحكم الأمانة إنما هي لمن توصل إليه لا لمن يحملك إياها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [سورة النساء: الآية ٥٨] ولا شك ولا خفاء أنه في طبع كل شيء القلق ممّا يثقل عليه حتى يخرجه عنه لكونه ليس له ما ثقل عليه وإنما هو أمر زائد، فإذا كان ذلك الأمر له زال ذلك الثقل وفرح به حيث صار ملكه وظهرت له سيادته عليه، ألا ترى أن الإنسان إذا أودعت عنده مالاً كيف يجد ثقله عليه ويتكلف حفظه وصيانته؟ فإذا قال له رب المال: قد وهبته لك وأخرجته عن ملكي وخرجت عنه كيف يرجع حمل ذلك المال عنده خفيفاً ويسرّ به سروراً عظيماً ويعظم قدر ذلك الواهب في نفسه، كذلك العبد أوصاف الحق عنده أمانة لا يزال العارف بكونها أمانة عنده تثقل عليه بمراقبته كيف يتصرّف بها وأين يصرفها؟ ويخاف أن يتصرف فيها تصرف الملاك، فإذا ثقل عليه ذلك ردّها إلى صاحبها وبقي ملتذاً خفيفاً بعبوديته التي هي ملك له بل هي حقيقته، إذ الزائد عليه قد زال عنه وحصل له الثناء الإلهيّ بأداء أمانته سالمة، فقد أفلح من لم يتعد قدره، كما يقال في المثل: ما هلك امرؤ عرف قدره، ومن هذا المنزل يعلم متعلق الاستفهام حيث كان، وذلك أن الاستفهام لا يكون إلاّ مع عدم العلم في نفس الأمر، أو مع إظهار عدم العلم لتقرير المستفهم من استفهمه على ما استفهمه مع علم المستفهم بذلك فيقول المستفهم: أيّ شيء عندك؟ وما لك ضربت فلاناً؟ فعلة الاستفهام عن الأمور عدم العلم.

والباعث على الاستفهام يختلف باختلاف المستفهم، فإن كان عالماً بما استفهم عنه فالمقصود به إعلام الغير حيث ظنّوا وقالوا خلاف ما هو الأمر عليه مثل قوله تعالىٰ لعيسىٰ عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٦] بحضور من نسب إليه ذلك من العابدين له من النصارى، فتبرأ عيسىٰ بحضورهم من هذه النسبة فيقول: ﴿سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٦] فكان المقصود توبيخ من عبده من أمته وجعله إلهاً، فقد وقع في الصورة صورة الاستفهام وهو في الحقيقة توبيخ. ومثل هذا في صناعة العربية إذا أعربوه في الاصطلاح يعربونه همزة تقرير وإنكار لا استفهام وإن قالوا فيه همزة استفهام والمراد به الإنكار، فلهم في إعراب مثل هذا

طريقتان، فينبغي للعبد أن لا يظهر بصفة تؤدّيه إلى أن يستفهم عنه فيها ربه لما تعطيه رائحة الاستفهام في المستفهم من نفي العلم، وذلك الجناب مقدس منزّه عن هذا، فاحذر من هذا المقام ولا تعصم من مثل هذا إلاّ بأن تكون عبوديتك حاكمة عليك ظاهرة فيك على كل حال، فإن استفهمك الحق عن شيء فيكون ذلك ابتداء منه لا سبب لك فيه وهو سبحانه لا يحكم عليه شيء فإنه إن شاء استفهم وإن شاء لم يستفهم، مع نسبة العلم إليه تعالىٰ فيما يستفهم عنه لا بدّ من ذلك.

وللاستفهام أدوات مثل ما وأي والهمزة فيخصّ هذا المنزل من الأدوات بما خاصة دون من وغيرها من الأدوات ليس لغيرها من أدوات الاستفهام في هذا المنزل دخول، وما وقفت إلى الآن على سبب اختصاص هذا المنزل بها دون غيرها وهي في الحكم فيمن تدخل عليه حكم من، والهمزة فإنها تدخل على الأسماء والأفعال والحروف ما ثم إلاّ هذه الثلاث مراتب فعمّت فكان لهذا المنزل عموم الاستفهام، ولا يصحّ أن يظهر في هذا المنزل على هذه الحالة إلاّ أداة ما لان معانيه تطلبها وقد يستفهم بالإشارة، ومن هذا المنزل إفشاء الأسرار وخفي الغيوب لطلب المواطن لها، فيعلم الإنسان من هذا المنزل المواطن التي ينبغي أن يبدي فيها ممّا عنده من الغيوب ويعرف أن موطن الدنيا لا يقتضي ذلك ولهذا لم يظهر من ذلك على الملامية شيء، وأعني بالغيوب هنا كل غيب لا يطلبه الموطن. وأما الغيوب التي يطلبها كل موطن فلا بدّ أن يخرج غيب كل موطن في موطنه إلى الشهادة وهذا حال الملامية إلاّ أن يقترن بإبراز ذلك أمر إلهيّ ولا يقترن به أمر قط إلاّ أن يطلبه حال ما من الأحوال، وأما من غير حال تطلبه فلا، ولهذا جهل الناس مقادير أهل الله تعالىٰ عند الله وبهذا سمّوا أمناء، فإذا اقتضى الموطن إبراز غيبه فالعارف أول من يبادر إلى ذلك ويسارع فيه، وإن لم يفعل كان غاشاً خائناً لا يصلح لشيء، فإن سبق بإظهاره غيره تعين عليه ذلك الوقت إخفاؤه وأن لا يطلع أحد من الخلق على ما عنده فيه إذ قد ناب غيره فيه منابه، فلم يبق لهذا العارف في إظهار ذلك منه إلاّ حظ نفس لا غير، وهذا ليس من شأن خصائص الحق وأهله، فإن جاءه وحي من الله بذلك مع أنه قد ظهر على يد غيره فليبادر لأمر الله وليظهره ويكون فيه كالمؤيد للأوّل.

واعلم أنه ما من جنس من أجناس المخلوقين إلاّ وقد أرسل إليه من ملك وجن وإنسان وحيوان ونبات وجماد، فذكر من الحيوان النحل ومن الجماد السماء والأرض وإن كان الكل عندنا أحياء، ولكن نجري على المعهود المتعارف في الحسّ الغالب وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] وقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٤] وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩] وقال: ﴿لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩٥] وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤] أي بلحنهم، والوحي على ضروب شتى ويتضمنه هذا المنزل، فمنه ما يكون متلقّى بالخيال كالمبشرات في عالم الخيال وهو الوحي في النوم، فالمتلقى خيال، والنازل كذلك، والوحي كذلك، ومنه ما

يكون خيالاً في حسّ على ذي حسّ، ومنه ما يكون معنى يجده الموحى إليه في نفسه من غير تعلّق حسّ ولا خيال بمن نزل به، وقد يكون كتابةً، ويقع كثيراً للأولياء وبه كان يوحى لأبي عبد الله قضيب البان ولأبي زكريا البجائي بالمعرة بدير النقرة ولبقي بن مخلد تلميذ أحمد بن حنبل صاحب المسند ولكن كان أضعف الجماعة في ذلك، فكان لا يجده إلاّ بعد القيام من النوم مكتوباً في ورقة، وممّا يتضمن هذا المنزل خلق الأعراض صوراً ذوات قائمة متحيزة في رأي العين. فاعلم أن الإنسان إذا جاء الله به إليه جمعه عليه جمعية لا تفرقة فيها حتى يهبه الله تعالىٰ في ذلك ما يريد أن يهبه مما سبق في علمه، فإذا خرج عن ذلك المشهد وعن تلك الحالة خرج بما حصل له، وكان قد حصل له أمراً كلياً مجملاً غير مفصل، فيبدو له عند الخروج مفصل الأعيان لكل جزء منه صورة تخصّه فيخرج عن حال جمعيته إلى حال تفرقته فتبادر صور الأعمال إليه دفعة واحدة، وتتعلق كل صورة منها بمن كان أصلاً في وجودها، فإما له وإما عليه، فتتعلق بعينه صور نظره وبأذنه صور تعلق سمعه، وكذلك سائر حواسه في ظاهره، ويتعلق بباطنه صور أعمال باطنه من أعمال فكره وخياله وسائر قواه الباطنة فيه، فإن كانت الصور العملية توجب فرحاً فرح بذلك وبضده، وإن كانت صور الأعمال توجب حزناً وغماً كان الإنسان بحسب ما توجبه الصورة، فإن كان من صورة ما يوجب هذا أو يوجب هذا كان فرح الجزء الذي له صورة العمل المفرح فرحاً من حيثيته لا من حيث النفس المكلفة، فيتنعم ذلك الجزء الإنساني بقدر ذلك، ويحزن الجزء الآخر بصورة عمله أيضاً، والنفس في هذه الحالة تفرح بحكم التبعية لفرح هذا وتحزن بحكم التبعية لحزن هذا في حال واحدة بإقبالين مختلفين، كما كانت تسمع في حال النظر، في حال البطش، في حال السعي، في حال اللمس، في حال الشم، في حال الطعم، ولا يشغلها واحد عن الباقي مع أحدية المدرك، كذلك ينعم من طريق ويحزن من طريق فهو الفرح المحزون وهو الرابح المغبون إلى أن يدخل الجنة، وهذا من أعجب المشاهد، وقليل واجده في هذه الدار من أهل الطريق لعدم كشفهم وتحققهم وقلة علمهم بذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والثمانون ومائتان

في معرفة منزل من قيل له كن فأبى فلم يكن من الحضرة المحمدية

[نظم: البسيط]

شمسُ الفَنَاء بدَتْ في كافِ تكويني ... لعِلْمها أنها بالنور تُفْنيني

وقد أشارتْ ولم أعلَمْ إشارَتَها ... بأن في ذلك الإيماء تَغْنيني

فكنتُ واواً لعين العلم ظاهرةً ... خفيَّةَ العين بين الكاف والنُّونِ

فصَّلتُ في اللوح أسراراً متوَّجةً ... قد كان أجْمَلَها الرحمنُ في النونِ

من هذا المنزل قيدت جزءاً سميته الفناء في المشاهدة، فلنذكر الآن ما يتضمنه هذا المنزل على ما يحوي عليه من الأصول فإن البسط فيه يطول. فاعلم أن مظهر هذا المنزل

اسمه النور ولكن الأنوار على قسمين: نور ما له شعاع ونور شعشعاني. فالنور الشعشعاني إن وقع فيه التجلي ذهب بالأبصار وهو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ حين قيل له: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال ﷺ: «**نورٌ أنَّى أراهُ**» يقول نور كيف أراه يريد النور الشعشعاني، فإن تلك الأشعة تذهب بالأبصار وتمنع من إدراك من تنشق منه تلك الأشعة، وهو أيضاً الذي أشار إليه ﷺ بقوله: «**إنَّ للَّهِ سَبْعِينَ حِجَاباً مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ لَوْ كَشَفَها لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وجْهِهِ مَا أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**» والسبحات هنا هي أنوار حقيقته فإن وجه الشيء حقيقته. وأمّا النور الذي لا شعاع له فهو النور الذي يكون فيه التجلي ولا شعاع له ولا يتعدّى ضوؤه نفسه، ويدركه المبصر في غاية الجلاء والوضوح بلا شك وتبقى الحضرة التي يكون فيها هذا الذي كشفت له في غاية من الوضوح لا يغيب عنه منها شيء في غاية الصفاء، وفي هذا التجلي يقول النبيّ ﷺ: «**تَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيلَةَ البَدْرِ**» فمن بعض ما يريد بهذا التشبيه الذي وقع بالرؤية إدراك ذات القمر لضعف أشعة القمر أن يمنع البصر من إدراك ذاته، والصحيح في ذلك أنه يريد به إذا كسف ليلة بدره فإنه عند ذلك يدرك البصر ذات القمر التي لا تقبل الزيادة ولا النقصان فهو إدراك محقق لذات القمر. ثم قال في نفس الحديث: «**أَوْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ بالظَّهِيرَةِ لَيسَ دُونَها سَحَابٌ**» وفي ذلك الوقت يكون نورها أقوى فتظهر الأشياء كلها بها فيدرك البصر كل ما وقع عليه من الأشياء إدراكه حين كشفت له هذه الشمس، وإذا أراد أن يحقق النظر إلى ذات الشمس في هذه الحالة لا يقدر، فأوقع التشبيه أن هذا التجلي ليس يمنع أن يرى الناس بعضهم بعضاً أي لا يفنى، فلهذا أوقع التشبيه برؤية القمر ليلة البدر وبرؤية الشمس وما اقتصر على واحد منهما، وأكد البقاء في هذا المشهد بقوله: «**لا تُضَارّونَ وَلاَ تُضَامُونَ**» من الضيم والضم الذي هو المزاحمة ومن الضير والإضرار، ولما دخلت هذا المنزل وقع لي فيه التجلي في النور الذي لا شعاع له فرأيته علماً ورأيت نفسي به ورأيت جميع الأشياء بنفسي وبما تحمله الأشياء في ذواتها من الأنوار التي تعطيها حقائقهم لا من نور زائد على ذلك، فرأيت مشهداً عظيماً حسياً لا عقلياً وصورة حقية لا معنى ظهر في هذا التجلي اتساع الصغير لدخول الكبير فيه مع بقاء الصغير على صغره والكبير على كبره، كالجمل يلج في سم الخياط يشاهد ذلك حساً لا خيالاً وقد وسعه ولا تدري كيف ولا تنكر ما تراه، فسبحان من تعالىٰ عن إدراك ما تُكيِّفُه العقول وفضل إدراك البصر عليها ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦] فأظهر عجز العقول بهذا التجلي الذي أظهر به قوّة الأبصار وفضلها على العقول، وأظهر في تجليه في النور الشعشعاني عجز الأبصار وقوّة العقول وفضلها على الأبصار ليتصف الكل بالعجز وينفرد الحق بالكمال الذاتي، فمن عاين هذا المنزل يرى من العجائب والآيات ما لا يمكن أن يحويه غيره، وأول هذا المنزل عند دخولك فيه ترى نفسك مظهراً للحق، فإذا رأيته تتحقق من نفسك أنه ليس هو وهو آخر هذا المنزل، فيتضمن أوله هو مشاهدة، ويخاطبك في هذا التجلي بأنه ليس هو فإنه من التجليات التي لا تفنى عين المشاهدة فتجمع بين الرؤية والخطاب، وآخر هذا المنزل يتضمن الهو وهو في الغيب من غير رؤية وهو

متعلق نظر العقل، فأول هذا المنزل بصري وآخره عقلي وما بينهما، وهذا منزل يتضمن أيضاً ما نذكره.

فاعلم أن الأسرار التي يمنحها الحق عبده من أهل هذه الطريقة على قسمين: منها أسرار تعطيك بذاتها إن تظهرها في الأكوان من غير حرج في ذلك عليك ولا تحتاج في إظهارها للغير إلى إذن إلهيّ، وأسرار لا تعطيك بذاتها هذا الحكم وهي على قسمين: قسم منها تحتاج في إظهاره إلى إذن إلهيّ فإن أظهرته عن غير إذن قوبلت ووقع الحرج والجناح عليك في إظهاره، وقد وقع لي مثل هذا ولكن بحمد الله قوبلت بالعتاب لا بالعقاب رحمة من الله بي وعناية، وأسرار أخر لا يعطيها الحق لأحد بواسطة، فلو طلبت الإذن فيها إذا أطلعك الحق عليها أن توصلها ما أذن لك فإنها أذواق لا تعرفها من غيرك بمجرد العبارة عنها، فإنها ممّا ينفرد الحق بإيصالها من الحق إلى العبد كما يفعل بالأحوال، فلو رام أحد أن يعبر عن الشوق الذي يجده إلى من اشتاق إليه ما أطاق ذلك ولا وصل إلى فهم الآخر منه شيء إلاّ أن يقوم الشوق به مثل ما قام بصاحبه فيعرف عند ذلك حقيقة مسمّى هذا اللفظ وكذلك ما في معناه، وكلذة الجماع التي حرمها العنين لا يتمكن لمن قامت به أن يوصلها بالتعريف إلى العنين، وكذلك كل علم يتعلق بالحواس لا يمكن للعقل أن يصل إلى معرفته بنفسه ولا بالعبارة عنه إلاّ أن يحسّ به الآخر، فالذي يختص بهذا المنزل معرفة الأسرار التي يتوقف إظهارها ممّن قامت به وأعطيته على الإذن الإلهيّ ومعرفة الأسرار الإلهية المستورة خلف حجاب الصور التي لا تظهر إلاّ لمن كان على بينة من ربه في ذلك، فإذا شهدت البينة لها عند العبد قبلها فلا يحتاج إلى شاهد مثل ما يحتاج في غيرها، فإذا حصل العبد في هذا المقام ووهبه الحق من هذه الأسرار وهب تجلّ واطلع على أمور غامضة من العلم بالله سترها في نفسه وكتمها عن غيره وفاء بحق الأمانة وحفظها، ومعرفة بقدرها ومنزلتها، ويطلع على هذه الأسرار معنا من ينسب بعض الأفعال إلى غير الله من المعتزلة والفلاسفة وأهل الشرك الذين عبدوا غير الله مع عبادة الله، فقد ينفردون في أوقات مع الله دون الشريك، وذلك في أوقات الضرورات المهلكة التي يقطعون فيها أن آلهتهم لا تغني عنهم شيئاً فيلجؤون إلى الله في رفعها، فمن تلك الحقيقة المستورة فيهم في حال لا يكون فيه تحت اضطرار حسيّ من ذلك الوجه ينالون هذه الأسرار وإن كانوا أشقياء، فإن نيلهم إياها ممّا يزيد في شقاوتهم حيث عرفوا من بيده الاقتدار وعدلوا عنه وعملوا لغيره ممّا نصبوه بأيديهم وأيدي من هو من جنسهم إلهاً وظهر لهم عجزه وتمادوا على غيّهم كما قال تعالىٰ: ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥].

واعلم أن بينة الله في عباده على قسمين: القسم الواحد هو البينة الحقيقية وهو قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [سورة محمد: الآية ١٤] يعني في نفسه. وأما من تقام له البينة في غيره فقد يمكن أن يقبلها ويمكن أن لا يقبلها، والذي يقبلها إن قبلها تقليداً لم تكن في حقه آية بينة ولا تنفعه، وإنما يكون التقليد فيما يجيء به الرسول من الأحكام لا من البينات

والشواهد على صدقه، وإن لم يقبلها تقليداً فما قبلها إلاَّ أن يكون هو على بينة من ربه في أن تلك آية بينة على صدق دعوى من ظهرت على يديه فيما ادعاه، فعلمت من هذا أن الشيء لا ينفعك إلاَّ إذا كان فيك، ولا يضرك إلاَّ إذا كان فيك، ولهذا نقول في كثير من كلامنا: إن حقيقة العذاب هي وجود الألم فيك لا أسبابه، سواء وقعت الأسباب فيك أو في غيرك، فلا نقول في الأشياء إلاَّ أن تقوم لك منك، وأقلّها أن يقوم بك التصديق بما يتحقق به أهل طريق الله بأنه حق وإن لم تذقه ولا تخالفهم فتكون على بينة من ربك ولا بدّ في كونهم صادقين، وبتلك البينة التي أنت عليها توافقهم في ذلك فأنت منهم في مشرب من مشاربهم، فإنهم أيضاً ممّن يوافق بعضهم بعضاً فيما يتحققون به في الوقت، وإن كان لا يدرك هذا ذوقاً ما أدركه صاحبه فيقرّ له به ويسلمه له ولا ينكره لارتفاع التهمة، ومجالسة هؤلاء الأقوام لغير المؤمن بهم خطر عظيم وخسران مبين كما قال بعض السادة، وأظنه رويماً من قعد معهم وخالفهم في شيء ممّا يتحققون به في سرائرهم نزع الله نور الإيمان من قلبه، فلا يزال الإنسان على الحالة التي هو عليها حتى يقوم له الشاهد بالخروج عنها، فمن كان في حالة الكتم كتم، ومن كان في حالة الإظهار أظهر وأفشى ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٤] من هؤلاء الفرق، فالله يجعلنا وإياكم ممّن هو على بينة من ربه.

فإن تلاه شاهد فحسن ومزيد طمأنينة وتقوية للنفس فيما هي بسبيله، وإن لم يكن ذلك ففي كونه على بينة من ربه كفاية، فإن الشاهد إن لم يكن فيه المشهود له على بينة أنه صادق فيما يشهد له به وإلاَّ فلا يقبله في باطنه، كالشاهد مع صاحب الدعوى إذا كان في دعواه محقاً فهو على بينة في نفسه من ربه أنه صادق ولكن الحاكم يطالبه بالشاهد، فإذا شهد الشاهد له علم المشهود له أنه صادق في شهادته ببينته التي هو عليها أنه على حق في دعواه، وإن كان المدعي ليس بصادق في دعواه فهو على بينة من نفسه ومن ربه أنه غير صادق فيما ادّعاه، فإذا طلبه الحاكم بالشاهد فأتى بشاهد زور فشهد له أنه صادق في دعواه فالمدعى على بينة من نفسه ومن ربه أن ذلك الشاهد الذي شهد له زور وشهد بالباطل ولا يقبله في نفسه وإن قبله الحاكم، فأوّل ما يتجرح شاهد الزور عند من شهد له بما يعلم المشهود له أن الأمر على خلاف ما شهد له به، فلهذا قلنا: إن الشاهد لا نلتزمه إذا كنا لا نقبله ولا نتحقق صدقه ولا كذبه إلاَّ حتى يكون في ذلك على بينة من الله فاعلم ذلك. واعلم بعد أن تقرّر هذا أن الأمر الذي كنى عنه الحق بأنه بينة لك من عنده هو سفير من الله إلى قلبك من خفي غيوبه مختص بك من حضرة الخطاب الإلهيّ، والتعريف من الله أنه من عنده فخذ به وانظر ما يقبله فاقبله وما يدل عليه فاعتمد عليه وما ينفيه فانفه كما يفعل صاحب الفكر في دليله، غير أن صاحب الفكر قد يتخذ دليلاً ما ليس بدليل في نفس الأمر، وقد يتخذ دليلاً ما هو دليل في نفس الأمر، ولكن بالنظر إلى قوّة العقل فقد أعطى ما في قوّته، فلا يكون أبداً من حيث هو عقل إلاَّ أن ذلك دليل وهو دليل، وصاحب البينة من ربه على نور من الله وصراط مستقيم لا يعلم الأشياء بها إلاَّ على ما تكون عليه الأشياء، لا يقبل الشبه إلاَّ شبهاً ذوقاً من صورته لا يتمكن له

أن يلبس فيها عليه بخلاف أصحاب الأفكار، والذي يعطيه هذا السفير منه ما يعطيه ما هو مختص به، ومنه ما يعطيه ما هو مطلوب له ولغيره، ومنه ما هو مطلوب لغيره ولا يعطيه ما ليس له ولا لغيره، وممّا يعطيه ما هو له مقيم وما ليس له بمقيم، فالمقيم كالمقامات وغير المقيم كالأحوال. ثم إن أصحاب هذا المقام يتفرقون فيه ويتنوّعون على نوعين: منهم من يعصم من تأثير هواه، ومنهم من لا يعصم من تأثير هواه فيه، مع أن كل واحد من الطائفتين على علم محقق، فبينتهم التي هم عليها أنه معصوم وأن هواه ليس له عليه سبيل وأنه غير معصوم وأن هواه قد أثر فيه لما سبق في علم الله فيه، وهل ينفعه هذا العلم عند الله في سعادته أم لا؟ فعندنا أنه نافع وعند غيرنا أنه غير نافع، وإنما وقع الخلاف في مثل هذه المسألة بوجود الكشف عند الواجد وعدم الكشف عند المخالف مع الاستناد إلى أمر معارض إمّا عقلي وإمّا سمعي. ثم إن الله تعالى أمر عباده بالإقامة على ما خلقهم له من الذلة والافتقار إليه ببواطنهم عامّة وبظواهرهم على طريقة مخصوصة بينها لهم الشارع وهي جميع الأفعال المقربة إلى الله، سواء اقترنت بها في الصورة الظاهرة عزة أو ذلة وربوبية أو عبودية بخلاف الباطن فإن الباطن يجري على الأمر المحقق الذي هو في نفسه عليه، والظاهر يجري على ما تقتضيه المصلحة في الوقت بك أو بغيرك، فإن ظهر ربوبية وعزة في ظاهر العبد العارف كما ذكرناه لمصلحته فإن الميل في الباطن إلى الذلة والعبودية موجود عنده وهو المعتمد عليه وذلك عارض ولا سيما في موطن التكليف، ومن هذا المنزل ينشيء العبد الأعمال صوراً قائمة يكون فيها خلاقاً بالفعل ولكن مما يقع له به السعادة عند الله، فلا يزال ينشيء تلك الصورة حتى يراها قائمة بين يديه حساً ينظر إليها ويفرح بها، وجميع ما يظهر من تلك الصورة مما تقتضيه السعادة فإنما هو لمنشيء هذه الصورة وهو هذا العبد فهي له كرأس المال وما يكون عنها كالأرباح والأرباح إنما تعود منفعتها على رب المال لا على نفس المال.

ومن هذا المنزل أيضاً يظهر الجود الذاتي الذي لا يمكن دفعه لا اختيار للعبد فيه فيعطي من نفسه لربه ما سأله فيه أن يعطيه مما لو لم يسأله فيه لأعطاه إياه، وهذا من كرم الله حيث علم أنه لا بدّ أن يعطيه ذلك لأنه أمر تقتضيه ذاتك، فسألك في ذلك أن يجازيك على امتثال أمره في ذلك، كما سألك فيما يمكن أن تعطيه وفيما يمكن أن تأباه، فأجرى هذا مجرى هذا جوداً منه وليقوم جزاء ما أعطيته عن أمره مما هو عطاء ذاتي في مقابلة منعته وخالفت فيه أمره مما ليس هو عطاء ذاتياً بل إمكانياً وهي جميع الأعمال المشروعة، فلهذا أمرك بما لا يمكنك الانفكاك عنه، كما لا يمكن للسراج أن يمنع ضوءه، ولكن يتصوّر أن يقال له: اعط الأبصار ضوءك ليدركوا به الأشياء فتجازى من حيث ذلك، وذلك أن تعلم أن حضرة ﴿كن﴾ تتضمن روحاً وجسماً وقد يرتبطان وقد لا يرتبطان، فإذا ارتبطا كان هذا الجسم حياً على هذه الصورة من الكاف والواو والنون، وإذا كان حياً انفعل عنه ما يتوجه عليه لارتباط الروح به وهو الإذن الإلهي كالنفخ من عيسى عليه السلام في الطائر مقارناً للإذن الإلهيّ الذي هو النفخ الإلهيّ، فاندرج النفخ الإذني الإلهي الذي به حيي الطائر وارتبط روحه في النفخ الجسماني القائم

بعيسى، فإذا وجد جسم ﴿كن﴾ من غير ارتباط الروح به لم يكن عنه شيء أصلاً، إذ الميت لا يضاف إليه فعل أصلاً ولا يقوم لعقل فيه شبهه، بخلاف الحي والصورة الجسمية فيهما واحدة، وإذا انفرد روح ﴿كن﴾ دون جسميته انفعلت عنه الأشياء، ومن جملة الأشياء جسمية ﴿كن﴾ الذي هو في عالم الحروف، فإذا عملت ما أوضحناه لك في هذا الكلام وقفت على أمر عظيم من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: ٤٠] ذلك الأمر ولا بدّ، ويقول الحق سبحانه لعباده في كلامه العزيز: أقيموا الصلاة ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٠٠]وجاهدوا ولا يقع شيء من ذلك لأنه قال لهم: اخلقوا وليس من شأنهم أن يخلقوا فتعلق بهم جسم ﴿كن﴾ لا روحها فكانت ميتة يحرم عليهم استعمالها فإذا تعلق الإذن الإلهيّ الذي هو ﴿كن﴾ الحية بإيجاد عين الجهاد أو الرباط أو الصلاة أو أي شيء كان من أفعال العباد تكون في حين التوجه علينا، وليس من شأن الأفعال أن تقوم بنفسها، فكانت الصلاة تظهر في غير مصل، والصيام في غير صائم، والجهاد في غير مجاهد، وهو لا يصح، فلا بدّ من ظهورها في المجاهد والمصلي وغير ذلك، فإذا ظهرت فيه نسب الله الفعل إليه وجازاه عليه منة منه وفضلاً لأنه ما ظهر عين الصلاة إلا في المصلى، فلو لم ينسب الفعل إليه لكان قدحاً في الخطاب والتكليف ومباهتة للحس وكان لا يوثق بالحس في شيء، فحسم الله هذا الأمر بما نسب من هذه الأفعال لمن أظهرها فيه وأضافها إليه وأمرهم بها وليس خلقها لهم وإنما ذلك إلى الله تعالى، فانظر ما أعجب هذا الأمر مع ما يتضمنه من التناقض المحقق والإيمان بالطريقتين المتناقضتين فيه واجب، والاطلاع عليه من باب الكشف مع وجود الإيمان تأييد عظيم وقوّة لمن أعطي ذلك، فإن في هذا الموطن زل كثير من أهل الكشف وهو قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [سورة الجاثية: ٢٣] والعلم كان لا ينبغي أن يصاحبه الضلال ولا يستلزمه وهنا قد وجد فيه ذلك فلا يخلو إما أن ضل بعلم أو لا بعلم والأمر فيه إشكال.

ثم إن هذا المنزل يتضمن الجزاء على الأعمال يعني جزاء من ذكرناه في هذا المنزل من الكاتمين لأسرار الحق الذين أمنهم الله عليها مما لا يظهرونها إلا عن إذن إلهيّ، ومن ذكرناه من الطوائف معهم فجزاؤهم الجلال والعظمة والهيبة، وفي الدنيا الخوف والقبض والوحشة، وفي الأحوال الاصطلام، وفي المحبة الغليل والاشتياق والشوق والكمد والخشية والتحقق بذلك في كل موطن بحسب ذلك الموطن من الدوام وعدم الدوام إلا أنه في ظهور كونه لا يتخلله غفلة ولا فترة أصلاً، فإذا زال المقام زال الحال لزواله، هذا جزاء من حفظ الأمانة ولم يظهرها إلا بأمر الله، وجزاء من أظهرها بإذن الله الإقامة في جوار الله من اسمه الرب لا غيره من الأسماء، ومعرفة العلوم التي تتعلق بمن هو تحت حيطته ودون منزلته لا بمن هو فوقه، وأن هذه الحالة لهم دائمة والمقام لهم دائم في الدنيا والآخرة ولهم الجمال والأنس، ومن الأحوال الرضا، ومن المحبة الوصلة والتعانق والالتذاذ بلثم المحبوب وضمه. ومن خصائص هذا المنزل أن صاحبه لا يبذل المجهود من نفسه في أعماله بل أعماله دون قوّته وطاقته ويقبل

الله منه ذلك فإنه ممن اتقى الله حق تقاته ما هو ممن اتقى الله استطاعته، وصاحب هذا المقام لا يتصوّر منه أن يطلب من الحق ما لم يعطه مما هو جائز أن يحصل له ويمنعه من ذلك الحياء من الله حيث لم يبذل المجهود من نفسه فيما كلفه من الأعمال على جهة الندب، فهو قانع بما أعطاه ربه ولا يجد حسرة فوت لما فاته مع علمه بما فاته، لأن حاله الالتذاذ في ذلك الوقت بما هو فيه من النعيم، وقد بينا أصول هذا المنزل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والثمانون ومائتان

في معرفة منزل التجلي الصمداني وأسراره من الحضرة المحمدية

[نظم: البسيط]

شَخْصُ الزمان له نفْسٌ تدبِّرهُ ... غِيداً معطَّرةً من عالم الأمْرِ
جيمٌ وعينٌ وفاءٌ من منازلها ... جاءت به رُسْلُه في مُحْكَم الذِّكْرِ
لها صلاتان من عِلْم الغُيوبِ وما ... للظُّهر والعَصْرِ ذاك الفَخْر والفَجْرِ

من أراد أن يقف على ما تضمنه هذا المنزل في التجلي الصمداني الذي هو خاص به من المعارف والحقائق والأسرار الضيائية وغيرها فليطالعه في باب القلب من كتاب مواقع النجوم لنا في علم هذا الطريق، فلنذكر في هذا المنزل ما سوى ذلك مخافة التطويل فاعلم أن لهذا المنزل الإنابة وممن تحقق بها أبو يزيد البسطامي وهي الجمعية الذاتية، ولا تكون للعارف من الله إلا عن شهود محقق من خلف حجاب مظهر بشري. واعلم أن القوم قد اصطلحوا على ألفاظ لمعان قرروها في نفوسهم يخاطبون بها بعضهم بعضاً، كما فعلت كل طائفة فيما تنتحله من العلوم كالنحويين وأصحاب العدد والمهندسين والأطباء والمتكليمن والفقهاء وغيرهم، فما اصطلحت عليه هذه الطائفة الهوية والأنية والأنانية لأغراض في نفوسهم، فهذا المنزل من ذلك منزل الأنانة، فالأنية هي عبارة عن الحقيقة من حيث الأحدية، والأنانية التي هنا عبارة عن الحقيقة الأحدية التي هي عين الجمع، فهذا منزل من منازل الغيوب لا ظهور له في الشهادة، لكن المنازل التي في الغيب على ضربين: منازل يكون عنها آثار في الشهادة يستدل بتلك الآثار عليها وإن كانت غيباً سواء ورد بذلك التعريف الإلهيّ أو لم يرد من حيث الخطاب، ومنازل لا يكون عنها في الشهادة أثر فلا تعرف إلا من طريق التعريف الإلهيّ ولا تتحقق تحقق منازل الآثار، وهذه الأنانية من المنازل التي لها آثار في عالم الشهادة والملكوت وآثارها مختلفة وتتقيد باختلاف آثارها، وإن كانت في نفسها مطلقة فتارة تتقيد باسم ضمير مثلها في الرتبة فتحتاج إلى تقييد آخر مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [سورة النساء: ١٦٣] فإنا والنون من أوحينا على مرتبة واحدة من حيث أحدية حقيقة الجمعية والتقييد لأنا الوحي والتقييد للنون من أوحينا ما يذكره بعده من قرآن أوروح أو غير ذلك، وتارة لا يتقيد باسم ضمير مثل قولهم: أنا بني فلان، وكما قيل: [الرجز]

نـحـن بـنـي ضَـبَّـةَ إذ جـدَّ الـوَهَـلْ　　　الـموتُ أحلَى عـنـدنـا مـن الـعَـسَـلْ

وما وقفت على مثل هذا في القرآن فكنا نستشهد به وإنما استشهدت بهذا وإن لم يكن قرآنا فإنه من كلام العرب الذي نزل القرآن بلسانهم، والذي تقيدت به في هذا المنزل الإنزال والإلهيّ لا التنزيل على العارفين من عباده، إما بما أجراه في خلقه أو بما يجريه في خلقه، وإنزاله على قسمين: قسم يكون الإنزال على جهة التعريف بمكانة ما يجريه في خلقه أو ما أجراه ومرتبته فيكون تنزله على قلب العبد من الغيب في الغيب من عين واحد إلى عين واحد لا يقبل التفصيل والقسم الآخر يكون تنزله على قلب العبد وهو مشغول في تدبير هيكله وطبيعته لا تأخذه عن ذلك، وذلك الإنزال من عين جمع إلى عين جمع ليفصل ما نزل عليه لخلقه مما أجراه الله أو يحويه. حكي لنا عن جماعة منهم أبو البدر عن شيخنا عبد القادر رحمه الله أنه قال: إن السنة تأتيني إذا دخلت فتخبرني بما يكون فيها وما يحدث، وكذلك الشهر والجمعة واليوم، وكذلك كان الشيخ أبو يعزى أبو النور ببلاد المغرب كان إذا دخل رمضان جاء يعلمه بما قبل فيه من العمل وممن قبل ويقبل، وإنما قيدته هنا في حق شيخنا أبي يعزى رمضان لأن صاحبنا أبا زيد الرقراقي الأصول أخبرني بشهادة هذا في شهر رمضان إذ كان هذا المخبر عنده في ذلك الوقت فرأى رمضان قد جاءه مخبراً بما ذكرناه فلا تعرف منازل الأكوان عند الله من طريق التعريف الإلهيّ والعناية بهذا المقرب إلا بتعريف الله عباده في أسرارهم بما يلقيه فيها من نفث روح في روع، مثل ما كانت الملائكة تنزل على الأنبياء عليهم السلام بذلك.

واعلم أن المراتب التي يكون الخلق عليها متفاضلة في كل جنس، فالرسل يفضل بعضهم بعضاً، والأنبياء يفضل بعضهم بعضاً، والمحققون يفضل بعضهم بعضاً، والعارفون يفضل بعضهم بعضاً، وهكذا إلى أصحاب الصنائع العلمية، فهذا المنزل يفضل غيره في التجليات الإلهية المشبه رؤيتها برؤية القمر والشمس بألفي تجل وثمان تجليات منطوية مندرجة في الألفين المذكورين، غير أن هذه الثمانية لها خصوص وصف يظهر في تجلي المقامات الذي هو مائة وستة وستون تجلياً، فعند ذلك يظهر سلطان هذه الثمانية من التجليات ويعطي من المعارف ما شاء الله أن يعطي. وأمّا الألفان فهي تجليات سريعة الزوال مكثها قليل ولا تعطي علماً عاماً. وأما المائة والستة والستون فتعطي من العلوم العامّة السارية في الموجودات وبقائها وما يكون عنها وبسببها علماً عاماً مجرّداً خالصاً ثابتاً لا يتزلزل ولا يشتبه، وإن كان حكمه ينتقل منه وفيه ولا يخرج عنه.

واختلف أصحابنا هل ثم تجل في هذه التجليات يتصف بالنقص من حيث الصورة التي يتجلى فيها إذا كانت صورة طبيعية والطبائع رباعية فيكون التجلي الناقص في الصورة الطبيعية في وقت في العنصر الناري فيكون غير كامل في نفسه ولكن يعطى بحسب ما يعطيه عنصره لا يزيد عليه فإذا كان في تجل آخر انضاف إلى تلك الصورة العنصر الثاني إلى أن يكمل العناصر في أربع تجليات، فيقع التجلي في العنصر الرابع بكمال الصورة الطبيعية على صورة مكملة

فيلحق بإخوانه من التجليات والأمر عندنا ليس كذلك، ولا يصح أن يكون هناك تجل ينقص أو يزيد، وإنما هذا الشخص القائل بهذا اظهرت له حالته في عين التجلي فتخيل أن النقص في التجلي وكان النقص فيه، ثم اتفق أنه لما تجلى له التجلي الثاني رأى تلك الصورة التي كان عليها في نفسه قد زاد فيها مالم يكن والنقص والزيادة فيه فحكم على التجلي بذلك.

واعلم أن الأرواح النورية المسخرة لا المدبرة تنزل على قلوب العارفين كما قلناه بالأوامر والشؤون الإلهية والخيرات بحسب ما يريده الحق بهذا العبد فترقيه بما نزلت به إليه ترقية، وتخليصاً إلى الحجاب الأقرب من الحجب البعيدة إلى أن يتولاه الله بارتفاع الوسائط، غير أن هذا القلب إذا فارقته التنزلات الروحية التي يشترك فيها أهل هذه الطريقة والحكماء العاملون على تصفية النفوس وتخليصها من كدر الطبع، وقبل أن يتولى الحق أمره بارتفاع الوسائط يمكث معرّى عن الأمرين مثل الوقفة بين المقامين، ومثل النومة العامّة بين الحس والخيال وهو مقام الحيرة لهذا القلب، فإن كان يأنس إليه ويأخذ عنه قد فقده، والذي يأتي إليه مارآه بعد فيبقى حائراً، ولقد أخبرني صاحبي أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الأنصاري القرطبي وفقه الله عن شيخنا أبي زكريا الحسني ببجاية قال: أخبرني غير واحد من أصحابه وممن حضرموته أن الشيخ خرج إلى الناس وكان في المسجد الجامع معتكفاً في شهر رمضان وقد غير لباسه الذي كان عليه وقد ظهر فيه التغير فقال لهم: ادعوا إليّ فإني قد فقدت الذي كان عندي، ولم يكن بعد قد حصل له شيء مما يأتي وحار في أمره فطلب من الناس الدعاء له فإنه لم يكن من أهل الأذواق الإلهية لغلبة الفقه عليه ما تخلص له الأمر ثم عاد إلى خلوته فأبطأ عليهم خروجه فدخلوا عليه فإذا هو مسجى قد فارق الدنيا، فاشار إليهم بتغيير لباسه أن الذي كان يلبسه قد جرد عنه والحيرة والافتقار إلى دعاء الإخوان دلت على أنه ما كان الحق تولى أمره الذي أومأنا إليه، ففرحت له بذلك لعل الله يكون قد تولاه قبل موته بلحظة فقبضه إليه وهو عنده، وحال العارف في هذه الحيرة والوقفة التضرّع والابتهال إلى الله بالافتقار والخشوع المستعمل في أن يتجلى له حكم توليه إياه بارتفاع الوسائط من الوجه الخاص الذي بين كل موجود وبين ربه الذي لا يعرفه كل عارف.

ومن هذا المنزل يعرف ما ينزل الحق من المعارف على قلوب عباده بإنزال الأرواح إليها، قال تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة غافر: ١٥] ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [سورة النحل: ٢] ولم يقل هو فكان الروح هو الملقى من عند الله إلى قلوب عباده، ويكون أمر الله هو الذي ألقاه، ويكون ذلك الروح صورة قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ فارتفعت الوساطية في هذا المنزل إذ كان عين الوحي المنزل هو عين الروح وكان الملقي هو الله لا غيره، فهذا الروح ليس عين الملك وإنما هو عين المألكة فافهم، فمثل هذا الروح لا تعرفه الملائكة لأنه ليس من جنسها، فإنه روح غير محمول ليس نورانياً والملك روح في نور، وهذا الذوق لنا ولسائر الأنبياء. وأمّا الملائكة فقد يكونون ممن اختص بهم الرسل وهو قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] فهو رسول الرسول.

وأمّا تنزل الأرواح الملكية على قلوب العباد فإنهم لا ينزلون إلا بأمر الله الرب، وليس معنى ذلك أن الله يأمرهم من حضرة الخطاب بالإنزال وإنما يلقي إليهم ما لا يليق بمقامهم في صورة من ينزولون عليه بذلك، فيعرفون أن الله قد أراد منهم الإنزال والنزول بما وجدوه في نفوسهم من الوحي الذي لا يليق بهم، وأن ذلك الوحي من خصائص البشر، ويشاهدون صورة المنزل عليه في الصور التي عندهم تسبيحها، يا من أظهر الجميل وستر القبيح المستور التي تسدل وترفع فيرفعون من تلك الصور من هو صاحبها في الأرض فيبنزلون عليه ويلقون إليه ما ألقى إليهم فيعبر عن ذلك الملقي بالشرع والوحي، فإن كان منسوباً إلى الله بحكم الصفة سمي قرآناً وفرقاناً وتوراة وزبوراً وإنجيلاً وصحفاً، وإن كان منسوباً إلى الله بحكم الفعل لا بحكم الصفة سمي حديثاً وخبراً ورأياً وسنة، وقد ينزلون أيضاً بالأمر الإلهي من حضرة الخطاب، وكلا الوجهين من التنزيل يتضمنه قول جبريل لمحمد صلى الله عليه وسلم لما قال له الحق أن يقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم عن ربه ولهذا جعله من القرآن وهو حكاية الله عن جبريل وجبريل هو الذي نزل به وما أخرجه نزوله به، والحكاية عنه عن أن يكون قرآناً فكان جبريل يحكي عن الله تعالى ما حكى الله تعالى عن جبريل أن لو قال لمحمد ﷺ ذلك لقاله له على هذا الحد في عالم الشهادة وهو قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [سورة مريم: ٦٤] فيما شاهده من قول جبريل لمحمد عليهما السلام وهم أعيان ثابتة في حال عدمهم وخطاباتهم أعيان ثابتة في حال عدمهم له، فهو الإشارة إليه بقوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ فكانت الحكاية أمراً محققاً عن وجود لله محقق لا يتصف بالحدوث، ثم حدث الوجود لتلك الأعيان فأخبرت بما كان منها قبل كونها مما شاهده الحق ولا تشهده لعدم وجودها في عينها. روي عن الزهري أنه حدّث عن شخص من الثقات حديثاً أو حدث عنه فقال المحدّث عنه: لا أعلم هذا الحديث ولا أنا منه على يقين ولكن أنت عندي ثقة، فرواه عنه عن نفسه وقال: حدثني فلان عني وقال: إني قلت له حدثني فلان واتصل الإسناد فتنبه لهذه المسألة في طريق الرواية.

ومما يتضمن هذا المنزل فضل العلم المستور على العلم المشهور، والعلم المستور هو على ضربين: ضرب منه لم يضمن من الشهادة صور كلمات، وضرب ضمن صور كلمات، فمثل العلم المضمن صور كلمات وهو مستور عن أن يتعلق به معرفة عارف على القطع إلا بأخبار إلهي فهو علم ما تشابه من القرآن الذي لا يعلم تأويله إلا الله فهذا من العلوم المستورة، ولكن لا يعرف من صور الكلمات في أي وجه هو مستور فيه. والعلم الثاني المستور هو الذي لم يكن له صورة يحتجب بها من صورة الكلمات، وفضل مثل هذا العلم ومنزلته مجهولة يعلمها الله ومن أعلمه الله وقد يصادف الإنسان العمل بما يقتضيه ذلك العلم وهو لا يعرف ذلك حتى ينتقل إلى الدار الآخرة فيجد ثمرة عمله مرتبطة بمنزلة ذلك العلم المستور فيعلمه عند ذلك، ومما يتعلق بهذا الباب إنزال الهو منزلة الشاهد مع بقاء الهو في ثمرة عمله

مرتبطة بمنزلة ذلك العلم المستور فيعلمه عند ذلك، ومما يتعلق بهذا الباب إنزال الهو منزلة الشاهد مع بقاء الهو في عينه منزهاً، ولا يكون الهو ينزل أبداً إلا في صور مدركة بالحس إما في الحس وإما في الخيال، ويسمى بالهو في حال ظهور الصورة ليعلم أن الهو روح تلك الصورة ومدلولها، فيعلم أن تلك الصورة لا يعلم معناها إلا الله كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأنعام: ٥٩] ومن كان عند الهو كان بحيث الهو والهو غيب، والذي يكون عنده غيب، وإذا كان غيباً عند غيب فلا تعلمه الشهادة وإنما يعلمه الغيب، فلا يعلم ما في الغيب إلا من هو غيب، فمن حيث الصور ينسب إلى الغيب الظرفية، فإذا ارتفعت الصور زال الغيب لأن الحجاب قد ارتفع فلا يتصف بالغيب ولا بالشهادة لأن الشهادة لا تنفك عن الصور، وقد قلنا لا صورة فقد قلنا لاشهادة، والصورة تجعل ذلك الأمر غيباً وقد قلنا بزوال الصورة، فقد رفعنا حكم الغيب عن ذلك الأمر فلا غيب ولا شهادة. وفي هذ المنزل من العجائب والأسرار مالو أظهرناه لتوقفت عقول أكثر علماء هذه الطريقة السليمة عن قبول مثلها، ومن هذا المنزل يتلقى ملك الموت آجال الناس.

واختلف أهل الكشف في آجال الحيوان وفي آجال كل ما سوى الإنسان هل هذا المنزل منزل علمها أم لا؟ وهل لما عدا الحيوان آجال أم لا؟ فاعلم أن الله تعالى جعل لكل صورة في العالم أجلاً تنتهي إليه في الدنيا والآخرة إلا الأعيان القابلة للصور فإنه لا أجل لها بل لها منذ خلقها الله الدوام والبقاء، قال تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة الرعد: ٢] وقال: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [سورة الأنعام: ٢] فجاء بكل وهي تقتضي الإحاطة والعموم، وقد قلنا إن الأعيان القابلة للصور لا أجل لها فبماذا خرجت من حكم كل؟ قلنا ما خرجت وإنما الأجل الذي للعين إنما هو ارتباطها بصورة من الصور التي تقبلها، فهي تنتهي في القبول لها إلى أجل مسمى وهو انقضاء زمان تلك الصورة فإذا وصل الأجل المعلوم عند الله في هذا الارتباط انعدمت الصورة وقبل العين صورة أخرى، فقد جرت الأعيان إلى أجل مسمى في قبول صورة مّا، كما جرت الصورة إلى أجل مسمى في ثبوتها لتلك العين الذي كان محل ظهورها فقد عم الكل الأجل المسمى، فقد قدر الله لكل شيء أجلاً في أمر ما ينتهي إليه، ثم ينتقل إلى حالة أخرى يجري فيها أيضاً إلى أجل مسمى، فإن الله خلاق على الدوام مع الأنفاس، فمن الأشياء ما يكون مدة بقائه زمان وجوده وينتهي إلى أجله في الزمان الثاني من زمان وجوده وهي أقصر مدة في العالم، وفعل الله ذلك ليصح الافتقار مع الأنفاس من الأعيان إلى الله تعالى، فلو بقيت زمانين فصاعداً لاتصفت بالغنى عن الله في تلك المدة، وهذه مسألة لا يقول بها أحد إلا أهل الكشف المحقق منا والأشاعرة من المتكلمين، وموضع الإجماع من الكل في هذه المسألة التي لا يقدرون على إنكارها الحركة إلا طائفتين من يجعل الحركة نسبة لا وجود لها وهو الباقلاني من المتكلمين، وأصحاب الكمون والظهور القائلون به، وإن قال القائلون بالكمون والظهور بذلك فإنهم تحت حيطة كل بهذا المذهب، فإنه جرى في كمونه إلى أجل مسمى وهو زمان ظهوره، فقد انقضت مدة كمونه وجرى في ظهوره إلى

أجل مسمى وهو زمان كمونه، فقد انقضت مدة ظهوره ولا يلزم من جريانهم إلى الأجل أن المراد عدمهم بل يجوز أن يكون له العدم، ويجوز أن يكون الانتقال مع بقاء العين الموصوفة بالجري، ويجوز أن يكون منه أجل يعدمه، ومنه ما يكون له أجل بانتقاله يعدمه وهو الذي نذهب إليه ونقوله به.

واعلم أن لله في هذا المنزل أرواحاً من الملائكة بأيديهم من الخيرات والنعيم الدائم ما لا يدري مقداره إلاّ الله تعالى، قد وكلهم الله على ذلك وجعلهم حفظة عليه وخزاناً لأصحابه من الأناسي يؤدّون ذلك إليه في الوقت الذي قد قرّر لهم الحق ذلك وعينه لهم بالحال التي ينتقل ذلك العبد السعيد إليها، وكذلك له ملائكة خزنة بالنقيض أيضاً معدة لإنسان آخر يؤدّون ذلك إليه في الوقت الذي قرره الحق لهم بالحال التي ينتقل إليها ذلك العبد الشقي كل ذلك بتقدير العزيز العليم.

واعلم أنه ما من كلمة يتكلم بها العبد إلا ويخلق الله من تلك الكلمة ملكاً فإن كانت خيراً ملك رحمة، وإن كانت شرّاً كان ملك نقمة، فإن تاب إلى الله وتلفظ بتوبته خلق الله من تلك اللفظة ملك رحمة وخلع من المعنى الذي دل عليه ذلك اللفظ بالتوبة الذي قام بقلب التائب على ذلك الملك الذي كان خلقه من كلمة الشر خلعة رحمة، وواخى بينه وبين الملك الذي خلقه من كلمة التوبة وهو قوله تُبتُ إلى الله، فإن كانت التوبة عامّة خلع على كل ملك نقمة كان مخلوقاً لذلك العبد من كلمات شرّه خلع رحمة وجعل مصاحباً للملك المخلوق من لفظة توبته فإنه إذا قال العبد: تبت إليك من كل شيء لا يرضيك، كان من هذا اللفظ من الخير جمعية كل شيء من الشرّ فخلق من هذا اللفظ ملائكة كثيرة بعدد كلمات الشرّ التي كانت منه، فإن الإنسان أعطى لفظاً يدل على الإفراد، وأعطى لفظاً يدل على الاثنين، وأعطى لفظاً يدل على الكثرة، فلفظة كل تدل على الكثرة، فعلم أن قوله: تبت إلى الله من كل شيء أنه تبت إلى الله من كذا، تبت إلى الله من كذا، تبت إلى الله من كذا، كما تقول زيدون تريد بذلك زيد وزيد وزيد، هذا أقله إلى ما لا يتناهى كثرة، وكذلك لفظة زيود في جمع التكسير، فلهذا خلق الله من كلمة الجمع ملائكة بعدد ما تعمه تلك الكلمة. وإنما قلنا بأن الملائكة المخلوقة من كلمة الشرّ يخلع عليها خلع الخير وترجع ملائكة رحمة في حق هذا التائب ويصاحب بينها وبين الملائكة المخلوقة من لفظ التوبة عن ذلك الشرّ فإن الكشف أعطى ذلك وصدقه الوحي المنزل بقول الله تعالى في هذا الصنف: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍۗ﴾ [سورة الفرقان: ٧٠] فجعل التبديل في عين السيئة وهو ما ذكرناه.

ولقد أخبرني عبد الكريم بن وحشي المصري وكان من الرجال بمكة رحمه الله سنة تسع وتسعين وخمسمائة قال لي: ركبت البحر من جدة نطلب الديار المصرية فلما مخرنا جئنا ليلة ونحن نجري في وسط البحر وقد نام أهل المركب فإذا شخص من الجماعة قد قام يريد قضاء الحاجة فزلقت رجله ووقع في البحر وأخذته الأمواج فسكت الرائس وما تكلم، وكانت الريح طيبة فما شعر رائس المركب إلاّ والرجل يجيء على وجه الماء حتى دخل المركب وصحبته

طائر كبير فلما وصل إلى المركب طار الطائر ونزل بجامور الصاري على رأس القرية ثم رآه قد مدّ منقاره إلى أذن ذلك الرجل كأنه يكلمه ثم طار، فلم يقل له الرائس شيئاً حتى إذا كان في وقت آخر من النهار أخذه الرائس وأكرمه وسأله الدعاء فقال له الرجل: ما أنا من القوم الذين يسأل منهم الدعاء، فقال له الربان: رأيتك البارحة وما جرى منك، فقال: يا أخي ليس الأمر كما ظننت ولكني لما وقعت في البحر وأخذتني الأمواج تيقنت بالهلاك وعلمت أن الاستغاثة بكم لا تفيد فقلت: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [سورة يس: الآية ٣٨] مستسلماً لقضاء الله، فما شعرت إلاّ وطائر قد قبض عليّ وأقامني من بين الأمواج وحملني على موج البحر إلى أن أدخلني المركب كما رأيت، فتعجبت من صنع الله وبقيت أتطلع إلى الطائر وأقول: يا ليت شعري من يكون هذا الطائر الذي جعله الله سبب نجاتي وحياتي؟ فمدّ الطائر منقاره من أعلى الصاري إلى أذني وقال لي: أنا كلمتك ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ وبه سميت، فكان اسم ذلك الطائر ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ فهذا ممّا أشرنا إليه من خلق الله الملائكة من الكلمات، وتلك الكلمات تكون أسماءهم وبها يتميزون وبها يدعون كانت ما كانت، ويختص بهذا المنزل علوم كثيرة وتجليات يطول الكلام فيها ويكفي هذا القدر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والثمانون ومائتان

في معرفة منزل التلاوة الأولى من الحضرة الموسوية

[نظم: البسيط]

كُنْ للإله كَبِسْمِ الله للبَشَرِ ... من اسمه الربُّ ربُّ الروح والصُّوَرِ
فالخَلْقُ والأمرُ والتَّكوينُ أجْمَعُه ... له فلا فَرْقَ بين العقل والحَجَرِ
كالزاهدِ المُتَعالي في غِنَاه به ... فلا يُميِّزُ بين العين والمَدَرِ
والعارفُ المتعالي في نزاهَتِهِ ... له التميُّزُ بين العين والبَصَرِ
إذ الرُّجوعُ إلى التحقيق شِيْمَةُ من ... يرى المنازلَ في الأعلام والسُّوَرِ

أوّل ما أمر الله به عبده الجمع وهو الأدب وهو مشتق من المأدبة وهو الاجتماع على الطعام، كذلك الأدب عبارة عن جماع الخير كله، قال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَنِي**» أي جمع فيّ جميع الخيرات لأنه قال: «**فَحَسَّنَ أَدَبِي**» أي جعلني محلاً لكل حسن، فقيل للإنسان: اجمع الخيرات فإن الله جعل في الدنيا عبده عاملاً جابياً يجبي له سبحانه جميع ما رسم له، فهو في الدنيا يجمع ذلك فما خلقه الله إلاّ للجمع، فإن جمع ما أمر بجمعه وجباه كان سعيداً ووهبه الحق جميع ما جباه وأنعم عليه فكانت أجرته عين ما جمعه مع الثناء الإلهيّ الحسن عليه بالأمانة والعدل وعدم الظلم والخيانة، وإن كان عبد سوء خان في أمانته فأعطاها غير أهلها وجمع ما لم يؤثر بجمعه ممّا نهى عنه أن يدخل فيه نفسه وترك جمع ما أمر بجمعه، فلما انقلب إلى سيده وحصل في ديوان المحاسبة وقعد أهل الديوان يحاسبونه ورأى شدّة الهول في

حسابه وحساب غيره ورأى الأمناء الذين جبوا على حدّ ما رسم لهم قد سعدوا وأمنوا كثر عليه الغم والحزن، فمنهم من عفى عنه وخلى سبيله لشفاعة شافع، ومنهم من لم يكن له شفيع فعذب وعصر، فمن عرف ما خلق له وعمل عليه استراح راحة الأبد مع أنه في نفسه في زمان جبايته على حذر وخطر، وإن كان هذا فأحسن ما جمعه الإنسان في حياته العلم بالله والتخلّق بأسمائه والوقوف عند ما تقتضيه عبوديته، وأن يوفي ما تستحقه مرتبة سيده من امتثال أوامره، ومنزل هذا الأمر من الأسماء الإلهيّة الاسم الرب وقد نعت الله سبحانه هذا الاسم بالعظمة والكرم والعلوّ في مواضع من كتابه العزيز، وذكر ما جعل تحت حكمه بيده من الأمور وجعل الباء في هذا المنزل سلطاناً عظيماً حيث جعلها واسطة بين الله وعبده، فإن الله تعالىٰ قال لعبده: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلىٰ: الآية ١] فأمره بتنزيهه فقال له العبد مقالة حال بما نسبحه فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٧٤] أي لا تنزهه إلاّ بأسمائه لا بشيء من أكوانه، وأسماؤه لا تعرف إلاّ منه عندنا، وإن كانت هذه المسألة مسألة خلاف بين علماء الرسوم، فإذا لم تعرف أسماؤه إلاّ منه ولا ينزّه إلاّ بها فكأن العبد ناب مناب الحق في الثناء عليه بما أثنى هو على نفسه لا بما أحدثه العبد من نظره، وأي شرف أعظم من شرف من ناب مناب الحق في الثناء عليه والمعرفة به فكان الحق استخلف عبده عليه في هذه الرتبة، فلو أن المثني على الله بأسمائه يعرف قدر هذه المنزلة التي أنزله الله فيها لفني عن وجوده فرحاً بما هو عليه، ثم لا يخلو العبد في هذا الثناء إما أن يثني على الله بأسماء التنزيه أو بأسماء الأفعال، فالمتقدم عندنا من جهة الكشف أن تبتدىء بأسماء التنزيه، وبالنظر العقلي بأسماء الأفعال فلا بدّ من مشاهدة المفعولات، فأوّل مفعول أشاهده الأقرب إليّ وهو نفسي فأثني عليه بأسماء فعله بي وفي، وكلما رمت أن أنتقل من نفسي إلى غيري اطلعت على حادث آخر أحدثه في نفسي بطلب يطلب مني الثناء عليه به فلا أزال كذلك أبد الآبد دنيا وآخرة ولا يكون إلاّ هكذا، فأنظر ما يبقى عليّ من منازل الثناء على الله من مشاهدة ما سواي من المخلوقين، وهذا المشهد يطلب لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، ولهذا التتميم قال الصديق: العجز عن درك الإدراك إدراك.

وبعد الفراغ مني ومن المخلوقين حينئذ أشرع في الثناء عليه بأسماء التنزيه والفراغ من نفسي محال، فالوصول إلى مشاهدة الأكوان بالفراغ من الأكوان محال، فالوصول إلى أسماء التنزيه محال، فإذا رأيت أحداً من العامة أو ممّن يدعي المعرفة بالله يثني على الله بأسماء التنزيه على طريق المشاهدة أو بأسماء الأفعال من حيث ما هي متعلقة بغيره، فاعلم أنه ما عرف نفسه ولا شاهدها ولا أحسّ بآثار الحق فيه، ومن عميَ عن نفسه التي هي أقرب إليه فهو على الحقيقة عن غيره أعمى وأضل سبيلاً. قال تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٢] يعني في الدنيا وسمّاها دنيا لأنها أقرب إلينا من الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يريد القريبة ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤٢] يعني البعيدة ﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٢] ثم لتعلم أنك من جملة أسمائه بل من

أكملها اسماً، حتى أن بعض الشيوخ وهو أبو يزيد البسطامي سأله بعض الناس عن اسم الله الأعظم فقال: أروني الأصغر حتى أريكم الأعظم، أسماء الله كلها عظيمة فاصدق وخذ أي اسم إلهيّ شئت.

ولقيت الشيخ أبا أحمد بن سيد بون بمرسية وسأله إنسان عن اسم الله الأعظم فرماه بحصاة يشير إليه أنك اسم الله الأعظم وذلك أن الأسماء وضعت للدلالة فقد يمكن فيها الاشتراك وأنت أدل دليل على الله وأكبره فلك أن تسبحه بك. فإن قلت: وهكذا في جميع الأكوان. قلنا: نعم إلاّ أنك أكمل دليل عليه وأعظمه من جميع الأكوان لكونه سبحانه خلقك على صورته وجمع لك بين يديه ولم يقل ذلك عن غيرك من الموجودات. فإن قلت: فقد وصف نفسه بالعظمة. قلنا: وقد وصفك بالعظمة وندبك إلى تعظيمه فقال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٢] وأنت أعظم الشعائر فيتضمن قوله تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٧٤] أن تنزهه بوجودك وبالنظر في ذاتك فتطلع على ما أخفاه فيك من قرة أعين فأنت اسمه العظيم، ومن كونك على صورته ثبتت العلاقة بينك وبينه فقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] والمحبة علاقة بين المحب والمحبوب، ولم يجعلها إلاّ في المؤمنين من عباده، ولا خفاء أن الشكل يألف شكله وهو الإنسان الكامل الذي لا يماثل في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ولك حرف لام ألف من الصورة فإنه يلتبس على الناظر أي الفخذين هو اللام وأيهما هو الألف للمشابهة في لا تداخل كل واحد منهما على صاحبه، ولهذا كان لام الألف من جملة الحروف وإن كان مركباً من ذاتين موجودتين في العلم غير مفترقتين في الشكل، ولهذا وقع الإشكال في أفعالنا هل هي لنا أو لله؟ فلا يتخلص في ذلك دليل يعول عليه، فالألف لها الأحدية في المرتبة والأول من العدد، واللام لها المرتبة الثالثة من أوّل مراتب العقد، والثلاثة هي أوّل الأفراد فقد ظهر التناسب بين الأحد والفرد من حيث الوترية، فهو أوّل في الأحدية والإنسان الكامل أوّل في الفردية فاعلم ذلك، ولهذا جاء في نشأة الإنسان أنه علقة من العلاقة والعلقية في ثالث مرتبة من أطوار خلقته فهي في الفردية المناسبة له من جهة اللام في مراتب العدد، قال تعالىٰ: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٢] وهذه أوّل مرتبة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٣] هذي ثانية ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] وهي المرتبة الفردية ولها الجمع، والإنسان محل الجمع لصورة الحضرة الإلهية ولصورة العالم الكبير، ولهذا كان الإنسان وجوده بين الحق والعالم الكبير، وانفصل جميع المولدات ما سوى الإنسان عن وجود الإنسان بأن جميع المولدات ما عداه موجودون عن العالم فهو عن أم بغير أب كوجود عيسىٰ ابن مريم صلوات الله عليه.

وإنما نبهناك على هذا لئلا تقول إن جميع المولدات وجدوا بين الله والعالم، وما كان الأمر كذلك وإلا فلا فائدة لقوله: خلق آدم على صورته، ولو كانت الصورة ما يتوهمه بعض أصحابنا بل شيوخنا من كونه ذاتاً وسبع صفات فإن ذلك ليس بصحيح، فإن الحيوان معلوم أن

له ذاتاً وأنه حي، عالم، مريد، قادر، متكلم، سميع، بصير، فكان يبطل اختصاص الإنسان بالصورة وإنما جاءت على جهة التشريف له، فلم يبق إلاّ أن تكون الصورة غير ما ذكروه. فإن منعت العلم عن الحيوان كابرت الحسّ فإن الحيوان مفطور على العلم وأنه يوحى إليه كما قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٨] فإن نازعت في الكلام قلنا لك: كلامه من جنس ما يليق بمزاجه. وأمّا المكاشف فلا يحتاج معه إلى هذا فإنه يرى ما نرى ويعلم ما نعلم. فإن قلت: فكلامنا هو الحقيقة. قلنا: فالكلام الذي تثبته لنفسك إن أردت به الأصوات والحروف المركبة فكلام الله عندك على خلاف هذا ليس بصوت ولا حرف إن كنت أشعرياً، وإن كنت معتزلياً فالكلام لمن خلقه، وإن كان الكلام عندك عبارة عن كلام النفس فذلك موجود في الحيوان، فصوت السنور إذا طلب ما يأكل خلاف صوته إذا طلب ما ينكح فقد أعرب بصوته عمّا حدثته به نفسه. فإن قلت: إن ذلك الذي في النفس إرادة وليس بكلام. قلنا: وكذلك الإنسان الذي في نفسه إرادة وليس بكلام. فإن قلت: ما استدل به أبو إسحاق الإسفرايني الأستاذ من حديث النفس بما مضى وما مضى لا يكون مراداً إذن فليست إرادة أعني ذلك الذي في النفس. قلنا: ذلك هو العلم بما قد مضى والتبس عليك ولا دليل لهم على كلام النفس أوضح من هذا وهو مدخول كما رأيت، فخرج من هذا أن قوله ﷺ على صورته لا يريد ما ذكره أصحابنا من الذات والصفات وكل الجماعة على ذلك فابحث على هذا الكنز حتى يفتح الله عليك به كما فتح به على من شاء من خلقه في قوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥].

وممّا يختص به هذا المنزل من العلوم أيضاً أن الله لما خلق العقل الأوّل أعطاه من العلم ما حصل له به الشرف على من هو دونه، ومع هذا ما قال فيه أنه مخلوق على الصورة مع أنه مفعول إبداعي كما هي النفس مفعول انبعاثي، فلما خلق الله الإنسان الكامل أعطاه مرتبة العقل الأوّل وعلمه ما لم يعلمه العقل من الحقيقة الصورية التي هي الوجه الخاص له من جانب الحق، وبهذا زاد على جميع المخلوقات، وبها كان المقصود من العالم، فلم تظهر صورة موجود إلاّ بالإنسان والعقل الأوّل على عظمه جزء من الصورة، وكل موجود ممّا عدا الإنسان إنما هو في البعضية، ولهذا ما طغى أحد من الخلائق ما طغى الإنسان وعلا في وجوده فادّعى الربوبية، وأكبر العصاة إبليس وهو الذي يقول: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤٨] عندما يكفر الإنسان إذا وسوس في صدره بالكفر وما ادّعى قط الربوبية، وإنما تكبر على آدم لا على الله، فلولا كمال الصورة في الإنسان ما ادّعى الربوبية، فطوبى لمن كان على صورة تقتضي له هذه المنزلة من العلوّ ولم تؤثر فيه ولا أخرجته من عبوديته، فتلك العصمة التي حبانا الله بالحظ الوافر منها في وقتنا هذا، فالله يبقيها علينا فيما بقي من عمرنا إلى أن نقبض عليها أنا وجميع إخواننا ومحبينا بمنه لا رب غيره. ومن هذا المنزل تعرف عقوبة من لم يعرف قدره وجاز حدّه واحتجب بالصورة عمّا أراد الحق منه في خلقه بما أخبر به في شريعته فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] ثم لتعلم أن علم

القربة في هذا المنزل من وقف عليه وشاهده كان على بينة من ربه فيما يتقرب إليه به وهو ما نبهناك عليه.

وممّا يتضمنه هذا المنزل خاصة علم الجمع بين التقدير والإيجاد، ولا تجد ذلك في منزل من المنازل مفصلاً لا واسطة بينهما، إذ كان التقدير يتقدّم الإيجاد في نفس الأمر في عالم الزمان ولهذا قيل: وبعض الناس يخلق ثم لا يفري. فاعلم أنه لم يكن في الأزل شيء يقدّر به ما يكون في الأبد إلاَّ الهو، فأراد الهو أن يرى نفسه رؤية كمالية تكون لها ويزول في حقه حكم الهو، فنظر في الأعيان الثابتة فلم ير عيناً يعطي النظر إليها هذه الرتبة الإنانة إلاَّ عين الإنسان الكامل فقدرها عليه وقابلها به فوافقت إلاَّ حقيقة واحدة نقصت عنه وهي وجودها لنفسها فأوجدها لنفسها فتطابقت الصورتان من جميع الوجوه، وقد كان قدر تلك العين على كل ما أوجده قبل وجود الإنسان من عقل ونفس وهباء وجسم وفلك وعنصر ومولد، فلم يعط شيء منها رتبة كمالية إلاَّ الوجود الإنساني، وسمّاه إنساناً لأنه أنس الرتبة الكمالية فوقع بما رآه الإنس له فسمّاه إنساناً مثل عمران فالألف والنون فيه زائدتان في اللسان العربي. فإن قلت: فلماذا ينصرف وعمران لا ينصرف؟ قلنا: في عمران علتان وهما اللتان منعتاه من الصرف وهما الزيادة والتعريف أعني تعريف العلمية، والإنسان ليس كذلك فإن فيه علة واحدة وهي الزيادة، وما لفظ الإنسان للإنسان اسم علم وإنما تعريفه إذا سمّي بآدم فلما سمّي بآدم لم ينصرف للتعريف والوزن وإنما سمّي باسم معلول بعلة تمنعه من الصرف الذي هو التصرّف في جميع المراتب ليعلم في صورته الإلهية أنه مقهور ممنوع عبد ذليل مفتقر، إذ كانت الصورة الإلهية تعطيه التصرّف في جميع المراتب ولهذا سمّي بإنسان فرفع وخفض ونصب، وما ثم في الأسماء مرتبة أخرى فهو إنسان من حيث الصورة، ومنها يتصرّف في المراتب كلها ومنع الصرف من حيث هو في قبضة موجده ملك يبقيه ما شاء ويعدمه إن شاء، فبالصورة نال الخلافة والتصريف واسم الإنسانية، فمن إنسانيته ثبت أنه غير يؤنس به، ومن الخلافة ثبت أنه عبد فقير ما له قوّة من استخلفه، بل الخلافة خلعت عليه يزيلها متى شاء ويجعلها على غيره كما قد وقع، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٩] وهي محل الخفض إذ الخفض لا يليق بالجناب العالي، فلهذا أقام له نائباً فيه ليعلم أنه عبد.

فلو استخلف الإنسان في السماء مع وجوده على الصورة لم يشاهد عبوديته في رفعته للصورة والمكان والمكانة فربما طغى ولو طغى ما وقع الأنس به، ولهذا من زاحم قصم. قال الله: «**الكِبْرِيَاءُ رِدَائي وَالعَظَمَةُ إِزَارِي مَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنهُمَا قَصَمْتُهُ**» فالعبد صغير في كبرياء الحق فإن هذا الكبرياء الإلهيّ ألبسه الصغار وهو حقير في عظمة الحق فإن هذه العظمة الإلهية ألبسته الحقارة، فالصغار رداء العبد والحقارة إزاره، فمن نازعه من الأناسي واحدة منهما أي طلب مشاركته فيهما عصم لا قصم ورحم ما حرم ولهذا خلق. فتأمل أيها الإنسان لم سماك إنساناً؟ وتأمل لم سماك خليفة؟ وتأمل لم سمّاك آدم في أوّل صورة ظهرت؟ ولا تتعد ما تعطيه حقيقة هذه الأسماء ولا تغب عنك فتكون من المفلحين، ولهذا ختم الاستخلاف الكامل باسم

منصرف وهو محمد ﷺ ليجبر به ما منع آدم من التصريف، فإنه ما منع إلاَّ لعلة قامت به وهو أوّل في هذا النوع، فعصم باسم غير منصرف ليعلم أنه تحت الحجر مقهور لا ينصرف ولا يتصرف إلاَّ فيما حدّ له، ثم بعد ذلك أعطى التصريف جماعة من الخلفاء كنوح، وشيث، وشعيب، وصالح، ومحمد، وهود، ولوط، وغيرهم، لأنه أمن بالأوّل وقوع ما كان يحذر، ثم إنه تخلل هؤلاء الخلفاء أسماء لا تنصرف كإدريس، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وسليمان، وداود، تنبيهاً للإنسان إذا سلك طريق الله ثم عاد بعد قطع الأسباب والاعتماد على الله إلى القول بالأسباب والوقوف عندها لكون الحق وضعها وربط الأمور بها، وحاله الاعتماد على الله والطبع من عادته الألفة ويسرق صاحبه إلى الركون لمألوفه كما قلنا لأنه إنسان يأنس بمألوفه، فربما يتخلله اعتماد على السبب فيضعف اعتماده على الله تعالىٰ فيتفقد نفسه بقطع الأسباب وقتاً بعد وقت، كما فعل الله بأسماء الخلائف وقتاً دعاهم باسم يقتضي لهم التصريف، ووقتاً دعاهم باسم يمنعهم التصريف تعليماً لهم لئلا يقعوا في محظور محذور، قال تعالىٰ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: الآية ٥] فلهذا كانت هذه الأسماء التي تمنع الصرف في بعض الخلفاء.

وأما الذين أعطوا التصريف فهم على قسمين: منهم من أعطي التصريف ظاهراً ومعنى وهو التصريف الكامل فلهم الاسم الكامل مثل محمد، وصالح، وشعيب، وكل اسم منصرف ظاهر لواحد من هؤلاء الخلفاء، والقسم الآخر أعطي التصريف معنى لا ظاهراً فليست له علة تمنعه من الصرف في المعنى وكان آخره حرف علة منعه ذلك الحرف من التصرف في الظاهر فكان مقصوراً، وسمّي ذلك الاسم مقصوراً كموسىٰ، وعيسىٰ، ويحيىٰ، فقصروا على المعنى دون الظاهر وسميت هذه بالمقصورة أي قصرت عن درجة التصرّف في الظاهر وحبست عنه ومنه ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] وإنما قصر من قصر منهم صيانة لا سجناً فصانوا مثل هؤلاء كما صين من لم ينصرف من الأسماء عناية، ثم إن الله تعالىٰ لما أراد أن لا يحجبهم عنهم طبا في حقهم لما يعلم ما تقتضيه هذه النشأة من العلل إذ كان الكمال لا يطاق حكمه إلاَّ بالعناية الإلهيّة، فكان من العناية الإلهية بهم أن أجرى عليهم الأسماء النواقص ليعلموا أنهم في مرتبة النقص وهو كمالهم عن الكمال الإلهيّ فقال: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٣] يعني محمداً ﷺ فكنى عنه بالذي جاء بالصدق والذي من الأسماء النواقص. ولما علم أن العبد المقرب يتألم بظهور نقصه ويخاف من إلحاقه بالعدم ورجوعه إلى أصله آنسه سبحانه من باب اللطف والكرم فسمى سبحانه نفسه بالأسماء النواقص فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ [سورة غافر: الآية ٦٧] وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٥] وليس في القرآن لله تعالىٰ أكثر من الأسماء النواقص فكان ذلك تأميناً للخلفاء فإنهم قاطعون بأن الحق ليس له مرتبة النقص ولا يقبلها، ومع ذلك قد جرت عليه الأسماء النواقص، فلو أثرت الأسماء لذاتها في المسمّى لأثرت في الله وهي غير مؤثرة فيه إذاً فنرجو أنها لا تؤثر فينا تأثير العدم، ولكن كمالنا في أن تؤثر فينا تأثير وقوفنا مع عجزنا وفقرنا، وهذا

الباب الذي فتحناه علينا في هذا المنزل باب واسع لا يتسع الوقت لإيراد بعض ما يعطيه فليكف هذا القدر منه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى السفر التاسع عشر من الفتوح المكي والحمد لله رب العالمين.

الباب التاسع والثمانون ومائتان

في معرفة منزل العلم الأميّ الذي ما تقدمه علم من الحضرة الموسوية

[نظم: البسيط]

العِلمُ باللهِ تَنزِيهٌ وتَخلِيَةٌ ... والعِلمُ بالفكرِ تَشبِيهٌ وتَضلِيلُ
والعلمُ بالفكرِ إجمالٌ ومَغْلَطَةٌ ... والعلمُ باللهِ تحقيقٌ وتَفصِيلُ
والعلمُ بالفكرِ أعلامٌ مجَرَّدةٌ ... والعلمُ باللهِ تَحويلٌ وتَبدِيلُ
فلا تَغُرَّنكَ أقوالٌ مزَخرَفَةٌ ... فإن مَدلولَها جَهلٌ وتَغلِيلُ
فالفيلسوفُ يرى نَفيَ الإلهِ بما ... تُعطيهِ عِلَّتُه وذاكَ تَعطِيلُ
والأشعريُّ يَرى عيناً مُكَثَّرةً ... وذاكَ علمٌ ولكنْ فيهِ تَمثِيلُ

الأمية عندنا لا تنافي حفظ القرآن ولا حفظ الأخبار النبوية، ولكن الأمية عندنا من لم يتصرف بنظره الفكري وحكمه العقلي في استخراج ما تحوي عليه من المعاني والأسرار، وما تعطيه من الأدلة العقلية في العلم بالإلهيات، وما تعطيه للمجتهدين من الأدلة الفقهية والقياسات والتعليلات في الأحكام الشرعية، فإذا سلم القلب من علم النظر الفكري شرعاً وعقلاً كان أمياً وكان قابلاً للفتح الإلهيّ على أكمل ما يكون بسرعة دون بطء، ويرزق من العلم اللدني في كل شيء ما لا يعرف قدر ذلك إلاّ نبي أو من ذاقه من الأولياء، وبه تكمل درجة الإيمان ونشأته، ويقف بهذا العلم على إصابة الأفكار وغلطاتها، وبأي نسبة ينسب إليها الصحة والسقم وكل ذلك من الله، ويعلم مع حكمه بالباطل أنه لا باطل في الوجود، إذ كان كل ما دخل في الوجود من عين وحكم لله تعالىٰ لا لغيره، فلا عبث ولا باطل في عين ولا حكم، إذ لا فعل إلاّ لله، ولا فاعل إلاّ الله، ولا حكم إلاّ لله، ولا حاكم إلاّ الله، فمن تقدّمه العلم بما ذكرناه فبعيد أن يحصل له من العلم اللدني الإلهيّ ما يحصل للأميّ منا الذي ما تقدّمه ما ذكرناه، فإن الموازين العقلية وظواهر الموازين الاجتهادية في الفقهاء ترد كثيراً ممّا ذكرناه، إذ كان الأمر جلّه ومعظمه فوق طور العقل وميزانه لا يعمل هنالك وفوق ميزان المجتهدين من الفقهاء لا فوق الفقه فإن ذلك عين الفقه الصحيح والعلم الصريح.

وفي قصة موسىٰ والخضر دليل قوي على ما ذكرناه، فكيف حال الفقيه؟ وأين الأينية وما شاكلها التي نسبها الشارع والكشف إلى الإله من الموازين النظرية والبراهين العقلية على زعم العقل وحكم المجتهد، فالرحمة التي يعطيها الله عبده أن يحول بينه وبين العلم النظري والحكم الاجتهادي من جهة نفسه حتى يكون الله يحابيه بذلك في الفتح الإلهيّ والعلم الذي يعطيه من لدنه قال تعالىٰ في حق عبده خضر: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ فأضافه إلى نون الجمع

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ بنون الجمع ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾ بنون الجمع ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ بنون الجمع ﴿عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] أي جمع له في هذا الفتح العلم الظاهر والباطن، وعلم السرّ والعلانية، وعلم الحكم والحكمة، وعلم العقل والوضع، وعلم الأدلة والشبه، ومن أعطي العلم العامّ وأمر بالتصرّف فيه كالأنبياء ومن شاء الله من الأولياء أنكر عليه، ولم ينكر هذا الشخص على أحد ما يأتي به من العلوم وإن حكم بخلافه ولكن يعرف موطنه وأين يحكم به فيعطي البصر حقّه في حكمه وسائر الحواس، ويعطي العقل حكمه وسائر القوىٰ المعنوية، ويعطي النسب الإلهيّة والفتح الإلهيّ حكمهم، فبهذا يزيد العالم الإلهيّ على غيره وهو البصيرة التي نزل القرآن بها في قوله تعالىٰ: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] وهو تتميم قوله تعالىٰ: ﴿بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [سورة الجمعة: الآية ٢] فهو النبي الأميّ الذي يدعو على بصيرة مع أميته، والأميون هم الذين يدعون معه إلى الله على بصيرة فهم التابعون له في الحكم إذ كان رأس الجماعة، والمجتهد وصاحب الفكر لا يكون أبداً على بصيرة فيما يحكم به.

فأما المجتهد فقد يحكم اليوم في نازلة شرعية بحكم فإذا كان في غد لاح له أمر آخر أبان له خطأ ما حكم به بالأمس في النازلة فرجع عنه وحكم اليوم بما ظهر له ويمضي الشارع حكمه في الأوّل والآخر، ويحرم عليه الخروج عمّا أعطاه الدليل في اجتهاده في ذلك الوقت، فلو كان على بصيرة لما حكم بالخطأ في النظر الأوّل بخلاف حكم النبي فإن ذلك صحيح أعني الحكم الأوّل، ثم رفع الله ذلك الحكم بنقيضه وسمى ذلك نسخاً، وأين النسخ من الخطأ؟ فالنسخ يكون مع البصيرة، والخطأ لا يكون مع البصيرة، وكذلك صاحب العقل وهو واقع من جماعة من العقلاء إذا نظروا واستوفوا في نظرهم الدليل وعثروا على وجه الدليل أعطاهم ذلك العلم بالمدلول ثم تراهم في زمان آخر، ويقوم لهم خصم من طائفة أخرى كمعتزلي وأشعري أو برهمي أو فيلسوف بأمر آخر يناقض دليله الذي كان يقطع به ويقدح فيه فينظر فيه فيرى أن ذلك الأوّل كان خطأ، وأنه ما استوفى أركان دليله وأنه أخلّ بالميزان في ذلك ولم يشعر، وأين هذا من البصيرة؟ ولماذا لا يقع له هذا في ضرورات العقل؟ فالبصيرة في الحكم لأهل هذا الشأن مثل الضروريات للعقول، فمثل هذا العلم ينبغي للإنسان أن يفرح به.

حكي عن أبي حامد الغزالي المترجم عن أهل هذه الطريقة بعض ما كانوا يتحققون به قال: لما أردت أن أنخرط في سلكهم وآخذ مآخذهم وأغرف من البحر الذي اغترفوا منه خلوت بنفسي واعتزلت عن نظري وفكري وشغلت نفسي بالذكر فانقدح لي من العلم ما لم يكن عندي ففرحت بذلك وقلت: إنه قد حصل لي ما حصل للقوم، فتأملت فيه فإذا فيه قوّة فقهية ممّا كنت عليه قبل ذلك فعلمت أنه بَعْدُ ما خلص لي فعدت إلى خلوتي واستعملت ما استعمله القوم فوجدت مثل الذي وجدت أولاً وأوضح وأسنى فسررت، فتأملت فإذا فيه قوّة فقهية ممّا كنت عليه وما خلص لي عاودت ذلك مراراً والحال الحال، فتميزت عن سائر النظار

أصحاب الأفكار بهذا القدر ولم ألحق بدرجة القوم في ذلك وعلمت أن الكتابة على المحو ليست كالكتابة على غير المحو، ألا ترى الأشجار منها ما يتقدم ثمره زهره وهو كمرتبة علماء النظر إذا دخلوا طريق الله كالفقيه والمتكلم، ومنه ما لا يتقدم ثمره زهره وهو الأميّ الذي لم يتقدم علمه اللدني علم ظاهر فكري فيأتيه ذلك بأسهل الوجوه، وسبب ذلك أنه لما كان لا فاعل إلاّ الله وجاء هذا الفقيه والمتكلم إلى الحضرة الإلهية بميزانهما ليزنوا على الله وما عرفوا أن الله تعالىٰ ما أعطاهم تلك الموازين إلاّ ليزِنوا بها لله لا على الله فحرموا الأدب، ومن حرم الأدب عوقب بالجهل بالعلم اللدني الفتحي فلم يكن على بصيرة من أمره، فإن كان وافر العقل علم من أين أصيب، فمنهم من دخل وترك ميزانه على الباب حتى إذا خرج أخذه ليزن به لله، وهذا أحسن حالاً ممّن دخل به على الله ولكن قلبه متعلق بما تركه إذ كان في نفسه الرجوع إليه فحرم من الحق المطلوب بقدر ما تعلق به خاطره فيما تركه للالتفات الذي له إليه، وأحسن من هذا حالاً من كسر ميزانه، فإن كان خشباً أحرقه وإن كان ممّا يذوب أذابه أو برده حتى يزول كونه ميزاناً، وإن بقي عين جوهره فلا يبالي، وهذا عزيز جدّاً ما سمعنا أن أحداً فعله، فإن فرضنا وليس بمحال أن الله قوّى بعض عباده حتى فعل مثل هذا كما ذكر أبو حامد الغزالي عن نفسه أنه بقي أربعين يوماً حائراً وهذا خطر ليس حال الأميّ على هذا فإن الأميّ يدخل إلى الله مؤمناً، وهذه الحال التي ذكرها أبو حامد ليست حال القوم وإنما هي حالة من لم يكن على شريعة فأراد أن يعرف ما ثم فسأل فدل على طريق القوم فدخل ليعرف الحق بتعريف الله، فهذا أيضاً طاهر المحل، وأبو حامد كان محله مشغولاً بالحيرة فلم يقوّ قوّة هذا في قبول ما يرد به الفتح الإلهيّ، فإذا اتفق على التقدير أن يفتح على مثل هذا الشخص الذي هو بهذه المثابة أبصر فيما يفتح له به تلك الموازين التي أذهبها فيعجب من ذلك، فلما خرج خرج بها فوزن بها لله لا عليه كما فعلته الأنبياء عليهم السلام، فهو لا يردّ شيئاً ولا يضع شيئاً في غير ميزانه، وارتفع الغلط والشك وعرف معنى قوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٤٧] فجعلها موازين كثيرة ليزن بكل ميزان ما وضع له.

ولما وزن المتكلم بميزان عقله ما هو خارج عن العقل لكونه وراء طوره وهو النسب الإلهيّة لم يقبله ميزانه ورمى به وكفر به وتخيل أنه ما ثم حق إلاّ ما دخل في ميزانه، والمجتهد الفقيه وزن حكم الشرع بميزان نظره كالشافعيّ المذهب مثلاً أراد أن يزن بميزانه تحليل النبيذ الذي قبله ميزان أبي حنيفة فرمى به ميزان الشافعيّ فحرمه وقال: أخطأ أبو حنيفة، ولم يكن ينبغي للشافعيّ المذهب مثلاً أن يقول مثل هذا دون تقييد، وقد علم أن الشرع قد تعبد كل مجتهد بما أدّاه إليه اجتهاده وحرّم عليه العدول عن دليله فما وفى الصنعة حقها، وأخطأ الميزان العام الذي يشمل حكم الشريعة على الإطلاق وهو الذي استند إليه علماء الشريعة بلا خلاف في أصول الأدلة وفي فروع الأحكام، فأما في الأصول فالمثبتون القياس دليلاً أدّاهم إلى ذلك اجتهادهم المشروع لهم، وقد علم المخالف لهم من الظاهرية أن كل مجتهد متعبد بما أعطاه اجتهاده ولكن يقول فيهم إنهم أخطأوا في إثباتهم القياس دليلاً، وليس للظاهرية

تخطئة ما قرره الشرع حكماً فيثبت القياس دليلاً شرعاً ويثبت نفي القياس أن يكون دليلاً شرعاً.

وأما في الفروع فكعلي رضي الله عنه الذي يرى نكاح الربيبة إذا لم تكن في الحجر وإن دخل بأمها لعدم وجود الشرطين معاً وأنه بوجودهما تحرم الربيبة يعني بالمجموع والمخالف لا يرى ذلك، فالميزان العام يمضي حكم كل واحد منهما، ولكن العامل بالميزان العام قليل لعدم الإنصاف، فقد بيّنا في هذا الفصل سبب الحرمان الذي حكم على الفقهاء العقلاء النظار فلم يلجوا باب هذا العلم الشريف الإحاطي الذي يسلم لكل طائفة ما هي عليه، سواء قادهم ذلك إلى السعادة أو إلى الشقاء، ولا يسلم له أحد طريقه سوى من ذاق ما ذاقوه وآمن به كما قال أبو يزيد: إذا رأيتم من يؤمن بكلام أهل هذه الطريقة ويسلم لهم ما يتحققون به فقولوا له يدعو لكم فإنه مجاب الدعوة، وكيف لا يكون مجاب الدعوة والمسلم في بحبوحة الحضرة ولكن لا يعرف أنه فيها لجهله بها، فالله يجعلنا ممّن جعل له نوراً من النور الذي يهدي به من يشاء من عباده، حتى يهدي به إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض من الموازين والصراطات، ألا إلى الله تصير الأمور وترجع، قال تعالىٰ في معرض الامتنان منه على رسوله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ وهو قوله يلقي الروح من أمره ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] وهو عروّ المحل عن كل ما يشغله عن قبول ما أوحى به إليه ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ يعني هذا المنزل ﴿نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ فجاء بمن وهي نكرة في الدلالة مختصة عنده ببعض عباده من نبي أو وليّ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ﴾ بذلك النور الذي هديتك به، فإن كان هذا العبد نبياً فهو شرع، وإن كان ولياً فهو تأييد لشرع النبي وحكمه أمر مشروع مجهول عند بعض المؤمنين به ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] في حق النبيّ طريق السعادة والعلم، وفي حق الوليّ طريق العلم لما جهل من الأمر المشروع فيما يتضمنه من الحكمة، قال تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾ لا يقال فيه قليل، ثم قال: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩] واللب نور في العقل كالدهن في اللوز والزيتون، والتذكّر لا يكون إلاّ عن علم منسي. فتنبّه لما حرّرناه في هذه الآيات تسعد إن شاء الله تعالىٰ.

وبعد أن أبنت لك عن مرتبة هذا العلم من هذا المنزل فلنبين أصل هذا العلم ومادّة بقائه وحجاب مادّته وبماذا يوصل إلى ذلك بتأييد الله وتوفيقه فاعلم أن أصل هذا العلم الإلهيّ هو المقام الذي ينتهي إليه العارفون وهو أن لا مقام كما وقعت به الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ١٣] وهذا المقام لا يتقيد بصفة أصلاً، وقد نبّه عليه أبو يزيد البسطامي رحمه الله لما قيل له: كيف أصبحت؟ فقال: لا صباح لي ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة وأنا لا صفة لي، فالصباح للشروق والمساء للغروب، والشروق للظهور، وعالم الملك والشهادة والغروب للستر وعالم الغيب والملكوت، فالعارف في هذا المقام كالزيتونة المباركة التي لا هي شرقية ولا غربية، فلا يحكم على هذا المقام

وصف ولا يتقيد به وهو حظه من: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] فالمقام الذي بهذه المثابة هو أصل هذا العلم، وبين هذا الأصل وهذا العلم مراتب، فالأصل هو الثبات على التنزيه عن قبول الوصف والميل إلى حال دون حال، ثم ينتج هذا الثبات صورة يتصف بها العارف لها ظاهر ولها باطن، فالباطن منها لا يصل إليه إلاّ بعد المجاهدة البدنية والرياضة النفسية، فإذا وصل إلى سرّ هذا الباطن وهو علم خاص هو لهذا العلم المطلوب كالدهن للسراج والعلم كالسراج، فلا يظهر لهذا العلم ثمرة إلاّ في العلماء به، كما لا يظهر للدهن حكم إلاّ في السراج القائم بالفتيلة، وهنا يقع له اكتساب الأوصاف التي نزهنا الأصل عنها في ذلك المقام، وفي هذا المقام نصفه بها من أجلنا لا من أجله، فهذا الوصف للآثار لا له كان الله ولا شيء معه. وسيأتي الكلام على هذا الأصل في الباب الخمسين وثلاثمائة من هذا الكتاب.

وممّا يتضمنه هذا المنزل علم خلق الأجسام الطبيعية وأن أصلها من النور، ولذلك إذا عرف الإنسان كيف يصفي جميع الأجسام الكثيفة الظلمانية أبرزها شفافة للنورية التي هي أصلها مثل الزجاج إذا خلص من كدروة رمله يعود شفافاً، وجلي الأحجار من هذا الباب ومعادن البلور والمهى، وإنما كان ذلك لأن أصل الموجودات كلها الله من اسمه ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهي ما علا ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] وهي ما سفل، فتأمل في إضافته النور إلى السموات والأرض، ولولا النورية التي في الأجسام الكثيفة ما صحّ للمكاشف أن يكشف ما خلف الجدران وما تحت الأرض وما فوق السموات، ولولا اللطافة التي هي أصلها ما صحّ اختراق بعض الأولياء الجدران ولا كان قيام الميت في قبره والتراب عليه أو التابوت مسمراً عليه مجعولاً عليه التراب لا يمنعه شيء من ذلك عن قعوده، وإن كان الله قد أخذ بأبصارنا عنه ويكشفه المكاشف منا، وقد ورد في ذلك أخبار كثيرة وحكايات عن الصالحين، ولهذا ما ترى جسماً قط خلقه الله وبقي على أصل خلقته مستقيماً قط ما يكون أبداً إلاّ مائلاً للاستدارة لا من جماد ولا من نبات ولا من حيوان ولا سماء ولا أرض ولا جبل ولا ورق ولا حجر، وسبب ذلك ميله إلى أصله وهو النور، فأوّل موجود العقل وهو القلم وهو نور إلهيّ إبداعي وأوجد عنه النفس وهو اللوح المحفوظ، وهي دون العقل في النورية للواسطة التي بينها وبين الله، وما زالت الأشياء تكثف حتى انتهت إلى الأركان والمولدات، وبما كان لكل موجود وجه خاص إلى موجده به كان سريان النور فيه وبما كان له وجه إلى سببه به كان فيه من الظلمة والكثافة ما فيه فتأمل إن كنت عاقلاً، فلهذا كان الأمر كلما نزل أظلم وأكثف، فأين منزلة العقل من منزلة الأرض كم بينهما من الوسائط؟

ثم لتعلم أن جسم الإنسان آخر مولد فهو آخر الأولاد مركب من حمأ مسنون صلصال وهو كما رأيت مائل إلى الاستدارة، وإن كانت له الحركة المستقيمة دون البهائم والنبات، وفيه من الأنوار المعنوية والحسيّة والزجاجية ما فيه ممّا لا تجده في غيره من المولدات بما أعطاه الله من القوىٰ الروحانية فما قبلها إلاّ بالنورية التي فيه، فهي المناسبة لقبول هذه

الإدراكات، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٧] فاعلم أن النور مبطون في الظلمة فلولا النور ما كانت الظلمة، ولم يقل نسلخ منه النور إذ لو أخذ منه النور لانعدم وجود الظلام إن كان أخذ عدم، وإن كان أخذ انتقال تبعه حيث ينتقل إذ هو عين ذاته، النهار من بعض الأنوار المتولدة عن شروق الشمس، فلولا أن للظلمة نوراً ذاتياً لها ما صحّ أن تكون ظرفاً للنهار، ولا صحّ أن تدرك وهي مدركة، ولا يدرك الشيء إن لم يكن فيه نور يدرك به من ذاته وهو عين وجوده واستعداده بقبول إدراك الأبصار بما فيها من الأنوار له واختصّ الإدراك بالعين عادة، وإنما الإدراك في نفسه إنما هو لكل شيء، فكل شيء يدرك بنفسه وبكل شيء.

ألا ترى الرسول ﷺ كيف كان يدرك من خلف ظهره كما كان يدرك من أمامه ولم يحجبه كثافة عظم الرأس وعروقه وعظامه وعصبه ومخه، غير أن الله أعطى الظلمة والكثافة الأمانة، فهي تستر ما تحوي عليه ولهذا لا تظهر ما فيها، فإذا ظهر فيكون خرق عادة لقوّة إلهيّة أعطاها الله بعض الأشخاص، وإذا أمر من أودع الأمانة من أودعها أن يظهرها لمن شاءه المودع وهو الحق تعالىٰ فله أن يؤديها إليه، فلا أمين مثل الأجسام المظلمة على ما تنطوي عليه من الأنوار، وقد نبّه الله على أمانتهم بذكر بعضهم في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [سورة التين: الآية ٣] فسمّاه أميناً وهو أرض ذو جدران وأسوار وتراب وطين ولبن، فوصفه بالأمانة وأقسم به كما أقسم بغيره تعظيماً لمخلوقات الله وتعليماً لنا أن نعظم خالقها ونعظمها بتعظيم الله إياها لا من جهة القسم بها، فإنه لا يجوز لنا أن نقسم بها، ومن أقسم بغير الله كان مخالفاً أمر الله، وهي مسألة فيها خلاف بين علماء الرسوم مشهور أعني القسم بغير الله، فكلما اعوجت الأجسام كانت أقرب إلى الأصل الذي هو الاستدارة، فإن أوّل شكل قبل الجسم الأوّل الاستدارة فكان فلكاً، ولما كان ما تحته عنه كان مثله وما بعد عنه كان قريباً منه، ولو لم تكن الطبيعة نوراً في أصلها لما وجدت بين النفس الكلية وبين الهيولى الكل، والهيولى الذي هو الهباء أوّل ما ظهر الظلام بوجودها فهو جوهر مظلم فيه ظهرت الأجسام الشفافة وغيرها، فكل ظلام في العالم من جوهر الهباء الذي هو الهيولى، وبما هي في أصلها من النور وقبلت جميع الصور النورية للمناسبة فانتفت ظلمتها بنور صورها فإن الصورة أظهرتها، فنسبت إلى الطبع الظلمة في اصطلاح العقلاء، وعندنا ليست الظلمة عبارة عن شيء سوى الغيب، إذ الغيب لا يدرك بالحسّ ولا يدرك به، والظلمة تدرك ولا يدرك بها، فلولا أن الظلمة نور ما صحّ أن ندرك، ولو كانت غيباً ما صحّ أن تشهد، فالغيب لا يعلمه إلاّ هو، وهذه كلها مفاتيح الغيب، ولكن لا يعلم كونها مفاتح إلاّ الله، يقول تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٩] وإن كانت موجودة بيننا لكن لا نعلم أنها مفاتح للغيب، وإذا علمنا بالأخبار أنها مفاتح لا نعلم الغيب حتى نفتحه بها، فهذا بمنزلة من وجد مفتاح بيت، ولا يعرف البيت الذي يفتحه به عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً.

ثم لتعلم بعدما عرّفتك بسريان النور في الأشياء أن الخلق بين شقي وسعيد، فبسريان

النور في جميع الموجودات كثيفها ولطيفها المظلمة وغير المظلمة أقرّت الموجودات كلها بوجود الصانع لها بلا شك ولا ريب، وبماله الغيب المطلق لا تعلم ذاته من طريق الثبوت، لكن تنزه عما يليق بالمحدثات، كما أن الغيب يعلم أن ثم غيباً ولكن لا يعلم ما فيه ولا ما هو، فإذا وردت الأخبار الإلهية على ألسنة الروحانيين ونقلتها إلى الرسل ونقلتها الرسل عليهم السلام إلينا فمن آمن بها وترك فكره خلف ظهره وقبلها بصفة القبول التي في عقله وصدق المخبر فيما أتاه به، فإن اقتضى عملاً زائداً على التصديق به عمله فذلك المعبر عنه بالسعيد وهو ممّا ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] وله الجزاء بما وعده به من الخير في دار القرار والنعيم الدائم الذي لا يجري إلى أجل مسمّى، فينقطع بحلول أجله من حيث الجملة حكماً إلهياً لا يتبدل ولا ينخرم ولا ينتسخ، ومن لم يؤمن بها وجعل فكره الفاسد أمامه واقتدى به ورد الأخبار النبوية إما بتكذيب الأصل وإما بالتأويل الفاسد، فإن كذب المخبر بما أتاه به ولم يعمل بمقتضى ما قيل له إن اقتضى ذلك عملاً زائداً على التصديق به فذلك المعبر عنه بالشقي وهو من جهة ما فيه من الظلمة، كما آمن السعيد من جهة ما فيه من النور، وله الجزاء بما أوعده إن كذب من الشرّ في دار البور وعدم القرار لوجود العذاب الدائم الذي لا يجري إلى أجل مسمّى، وإن كان له أجل في نفس الأمر من حيث الجملة حكماً إلهياً عدلاً كما كان في السعيد فضلاً لا يتبدل ولا ينخرم ولا ينتسخ، وفي هذا خلاف بين أهل الكشف، وهي مسألة عظيمة بين علماء الرسوم من المؤمنين وبين أهل الكشف، وكذلك أيضاً بين أهل الكشف فيها الخلاف هل يتسرمد العذاب عليهم إلى ما لا نهاية له أو يكون لهم نعيم بدار الشقاء فينتهي العذاب فيهم إلى أجل مسمّى؟ واتفقوا في عدم الخروج منها وأنهم بها ماكثون إلى ما لا نهاية له، فإن لكل واحدة من الدارين ملؤها، وتتنوّع عليهم أسباب الآلام ظاهراً لا بدّ من ذلك، وهم يجدون في ذلك لذة في أنفسهم بالخلاف المتقدم باطناً بعدما يأخذ الألم منهم جزاء العقوبة.

حدثني عبد الله المروري في جماعة غيره عن أبي مدين إمام الجماعة أنه قال: يدخل أهل الدارين فيهما السعداء بفضل الله وأهل النار بعدل الله وينزلون فيهما بالأعمال ويخلدون فيهما بالنيات، وهذا كشف صحيح وكلام حر عليه حشمة، فيأخذ جزاء العقوبة الألم موازياً لمدة المعمر في الشرك في الدنيا، فإذا فرغ الأمد جعل لهم نعيم في النار بحيث إنّهم لو دخلوا الجنة تألموا لعدم موافقة المزاج الذي ركبهم الله فيه، فهم يتلذذون بما هم فيه من نار وزمهرير وما فيها من لدغ الحيات والعقارب، كما يلتذ أهل الجنة بالظلال والنور ولثم الحور الحسان لأن مزاجهم يقضي بذلك، ألا ترى الجعل في الدنيا هو على مزاج يتضرّر بريح الورد ويلتذ بالنتن كذلك من خلق على مزاجه، وقد وقع في الدنيا أمزجة على هذا شاهدناها، فما ثم مزاج في العالم إلاّ وله لذة بالمناسب وعدم لذة بالمنافر، ألا ترى المحرور يتألم بريح المسك؟ فاللذات تابعة للملايم والآلام لعدم الملايم، فهذا الأمر محقق في نفسه لا ينكره عاقل، وإنما الشأن هل أهل النار على هذا المزاج بهذه المثابة بعد فراغ المدة أم لا؟ أو هم على مزاج يقتضي لهم الإحساس بالآلام للأشياء المؤلمة، والنقل الصحيح الصريح النص

الذي لا إشكال فيه إذا وجد مفيداً للعلم يحكم به بلا شك فالله على كل شيء قدير، وإن كنت لا أجهل الأمر في ذلك ولكن لا يلزم الإفصاح عنه، فإن الإفصاح عنه لا يرفع الخلاف من العالم، وبعض أهل الكشف قال: إنهم يخرجون إلى الجنة حتى لا يبقى فيها أحد من الناس البتة وتبقى أبوابها تصفق وينبت فيها الجرجير ويخلق الله لها أهلاً يملؤها بهم من مزاجها كما يخلق السمك في الماء، وعالم الهواء في الهواء، وعالم في بطن الأرض لا حياة لهم إلاّ فيها كالخلد، فإذا حصل على ظهر الأرض مات فالغم الذي لنا في ذلك الغم حياتهم، فالسمك إذا خرج إلى الهواء مات وكان في الهواء غمّه فينطفي فيه نور حياته، والإنسان والحيوان البريّ إذا غرق في الماء هلك وكان في الماء غمه ينطفي به نور حياته، وثم حيوان بري بحري يعيش هنا ويعيش هنا كالتماسح وإنسان الماء وكلبه وبعض الطيور وهذا كله بالطبع والمزاج الذي ركبه الله عليه، وقد ذكرنا في هذا المنزل ما فيه كفاية واستوفينا أصوله بعون الله وإلهامه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التسعون ومائتان

في معرفة منزل تقرير النعم من الحضرة الموسوية

[نظم: البسيط]

بالقول نَشْرحُ ذاتَ القول فاعتبروا ... في شَرْحِ ما هو في التَّحْقيق مَشْروحُ
إن الأسامِيَ للمعنى مفاتيحٌ ... وفي العبارات تَعْديلٌ وتَجْريحُ
لا يحصل الشَّوْقُ للمُلقَى إليه إذا ... ما لم يكُنْ منك للإلقاء تَلْويحُ
فاكشفْ معارفَ أهل الله في حُجُبٍ ... لا يحكمنَّكَ تَبْيينٌ وتَصْريحُ
وانطُقْ بما تَغْتَذي به النفوسُ ولا ... تنطُقْ بما يَغْتذي بعلمه الرُّوحُ
فالروح يكتم ما يُلْقَى إليه كما ... تُبْدي النفوسُ الذي تَجْري به الريحُ
إن النفوسَ بما تهواه ناطقةٌ ... والروحُ إن زلَّ بالتصريح مَجْروحُ

اعلم أيّدك الله وإيانا أنّ المنعم إذا أبطل نعمته بالمنّ والأذى لا يكون مشكوراً عند الله على ذلك، وإن شكره المنعم عليه لمعرفته بذله وفقره إليه، فمن مكارم الأخلاق أن لا يمن المنعم بما أنعم به على المنعم عليه ولا سيما مع شكره على ذلك، فإذا احتاج المنعم عليه لأمر وأظهر الذلة والافتقار إلى المنعم في طلب ذلك الأمر الذي مسّت الحاجة فيه إليه وذلك الأمر عند المنعم عليه في النعمة التي أنعم بها المنعم عليه فللمنعم عند ذلك أن يعرّفه بما أنعم به عليه ويقرّره على ذلك، وأن الذي طلب منه موجود في نفس نعمته فلماذا يفتقر في غير موضع الافتقار؟ حينئذ يجوز للمنعم أن يذكر للمنعم عليه نعمته عليه، كرجل وهب رجلاً ألف دينار إنعاماً عليه ثم رآه يفتقر إلى ثوب يلبسه ومركب يركبه وأهل يأنس إليه وقد نسي أو جهل أن إرادة المنعم فيما أنعم به عليه أن ينال جميع ما سأله من تلك النعمة، فللمنعم عند ذلك أن يعرّفه بأن جميع ما تسألني فيه تصل إليه بما وهبتك إياه من المال فلماذا تستعجل

الذلة؟ ففي مثل هذا الموطن يجب التقرير بالنعم على وجه التعليم والتنبيه لا على المنّ والأذى، إلاَّ أن من مكارم الأخلاق إذا قرّره على ما أنعم به عليه أن لا يخيب سؤاله، إما بعطاء في الوقت وإما بوعد فيبسطه بعد انقباضه لما حصل عنده من الخجل تخلقاً إلهياً. فاعلم أن هذا المنزل يتضمن تقرير النعم على ما ذكرت لك، ويتضمن علم التشريح الذي تعرفه الأطباء من أهل الحكمة، والتشريح الإلهيّ التي تتضمنه الصورة التي اختصّ بها هذا الشخص الإنساني من كونه مخلوقاً على صورة العالم وعلى صورة الحق، فعلم تشريحه من جانب العالم علمك بما فيه من حقائق الأكوان كلها علوها وسفلها، طيبها وخبيثها، نورها وظلمتها على التفصيل، وقد تكلم في هذا العلم أبو حامد وغيره وبينه، فهذا هو علم التشريح في طريقنا.

وأما علم التشريح الثاني فهو أن تعلم ما في هذه الصورة الإنسانية من الأسماء الإلهية والنسب الربانية، ويعلم هذا من يعرف التخلق بالأسماء وما ينتجه التخلّق بها من المعارف الإلهيّة، وهذا أيضاً قد تكلم فيه رجال الله في شرح أسماء الله كأبي حامد الغزالي، وأبي الحكم عبد السلام بن برجان الإشبيلي، وأبي بكر بن عبد الله المغافري، وأبي القاسم القشيري، ويتضمن هذا المنزل التكليف ورفعه من حيث ما فيه من المشقة لا من حيث ترك العمل. فاعلم أن الله تعالىٰ أمر عباده بالإيمان به وبما أنزل عليهم على أيدي رسله، وجعل مع الإيمان إلزاماً من المعاني أمرهم الله تعالىٰ أن يحملوها كلها في بواطنهم حملاً معنوياً وجعل محلها القلوب وعين أموراً عملية أنزلها على ظواهرهم، وحملها جوارحهم ممّا فيه كلفة حسية من عمل الأيدي والأرجل وممّا لا يعمل إلاَّ بالأبدان كالصلاة والجهاد، وممّا لا كلفة فيه حسية كغض البصر عن المحرمات والنظر في الآيات ليؤدّي ذلك النظر إلى الاعتبار وتنزيه السمع عن سماع الغيبة والإصغاء إلى الحديث الحسن، فمثل هذا لا كلفة فيه حسية وإنما كلفته نفسية، فإن فيها ترك الغرض وهو ممّا يشق على النفس، وإذا أقيمت هذه الحضرة التي في هذا المنزل ممثلة في صور حسية يقام له توابيت على يمينه وتوابيت على يساره، فالتوابيت التي على يمينه مملوءة دراً وياقوتاً وأحجاراً نفيسة وحللاً ومسكاً وطيباً، ومنها توابيت كبار وصغار، وقيل له لا بدّ لك من حمل هذا إلى موضع معين إلى دار حسنة وروضة مورقة، وقيل له: إذا أوصلت هذه الأحمال إلى هذه الروضة كان أجرك عليها وعلى ما آلمك من ثقلها ما تحوي عليه هذه التوابيت كلها، ولك هذه الدار التي وصلتها بجميع ما تحوي عليه من الملك وهي خمسة أنواع من التوابيت: منها توابيت الأمر الواجب، وتوابيت الأمر المندوب، وتوابيت الأمر المبيح من حيث الإيمان به، وتوابيت النهي الواجب، وتوابيت النهي المكروه، ومن هذه التوابيت ما يختص بك، ومنها توابيت تتعلق بغيرك وكلفت أنت حملها، فكل خطاب شرعي يختص بذاتك لا تتعدّى بالعمل فيه إلى غيرك فهو المختص بك، وكل خطاب شرعي يختص بذاتك وتتعدّى في العمل به إلى غيرك فذلك الذي يتعلق بغيرك، وكلفت أنت حمله كالسعي على العيال وتعليم الجاهل وإرشاد الضال والنصيحة لله ولرسوله

ولأئمة المسلمين وعامتهم، فهذه توابيت أصحاب اليمين، فكما حملت ما هو لك ولغيرك في الدنيا كان لك أجرك وأجر غيرك في الآخرة، ولا ينقص الغير من أجره شيئاً إن كان مؤمناً، وإن لم يكن مؤمناً مثل التكليف الذي يتعلق بك في معاملة أهل الذمّة فلك أجرهم لو كانوا مؤمنين ولا أجر لهم، ولهذا قيد النبي ﷺ هذا الأمر بالعمل فقال: «**مَنْ سَنَّ سُنة حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِها إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**» فالمؤمن لا ينقصه من أجره الأخروي شيء، والذميّ يعطى أجره في الدنيا إما بمنفعة معجلة أو دفع مضرة معجلة يكون ذلك لهذا العامل في الآخرة محققاً، وقد يجمع له بين الدنيا والآخرة، فيرى العامل ما تحمل تلك التوابيت من الأشياء النفيسة ومآلها، وقد حصل له البشرى بأنها له ملك إذا حملها بحيث يفنى في حبها والتعشّق بها فيهون عليه حملها ويخف لحمل الهمة إياها فلا يجد فيها مشقة، وهو حال تلذّذه بالأذى وبما يحسن لأهل الذمّة، وآخر ينظر إلى ثقلها وهو المؤمن الذي لا كشف عنده إلاّ مجرّد تصديق الخبر فيجدها ثقيلة المحمل، فمنهم من يحملها بمشقة وكلفة لغلبة التصديق بما فيها وللحرص الشديد والطمع في أخذها وملكها لكون الآمر يحملها قال له: هي لك في أجر حملك.

ومنهم من ثقلت عليه فأخرج منها جملة طرحها في الأرض ليخف عنه الثقل الذي يجده، فلما خف حمله ببعض ما طرح منها حمل ما بقي وكلما طرحه من ذلك عاد ذلك المطروح حديداً ورصاصاً ونحاساً وزيد في التوابيت التي على شماله والتوابيت التي أقيمت له على شماله كلها مملوءة حديداً ونحاساً وقطراناً وآنكاً وشبه ذلك ممّا يثقل وتكره رائحته وقيل له: هذه التوابيت تحملها على ظهرك على ترتيب ما قرّرناه في توابيت اليمين وتوصلها إلى دار ذات لهب وزمهرير ما تحوي عليه هذه التوابيت ملكك، وهذا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ١٣] وقوله ﷺ: «**مَنْ سَنَّ سُنة سَيِّئَةً فَلَهُ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِها إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**» وإن لم يحضر للمكاشف في هذا المنزل صوراً نزلت على قلبه معاني مجردة عن الموادّ وعرف تفاصيلها وألحق كل شيء منها بمقامه ومحله، ولم يجد لذلك كلفة ولا مشقة لأنه لا غرض له مع إرادة سيده منه فهو في عالم الانفساح والانشراح، وإن ضعفت أجسامهم عن حمل بعض ما كلفوه فقد أمر أن لا يحمل إلاّ وسع نفسه، والنفس هنا عبارة عن إكمال الحسّ لأن النفس المعنوية لا كلفة عليها إلاّ إذا كانت صاحبة غرض فكلفت بما لا غرض لها فيه، فلهذا لم يعذر الإنسان من حيث نفسه ويعذر من حيث حسّه لخروج ذلك عن طاقته في المعهود، ويتعلق بهذا المنزل طرف من العلم بنشء الملائكة وأنهم من عالم الطبيعة مخلوقون مثل الأناسي غير أنهم ألطف، كما أن الجن ألطف من الإنسان مع كونهم من نار من مارجها والنار من عالم الطبيعة، ومع هذا فهم روحانيون يتشكلون ويتمثلون، فلو كانت الطبيعة لا تقبل ذلك لما قبله عالم الجن، وكيف ينكر ذلك ومعلوم قطعاً أن الإنسان من عالم الطبيعة الكثيفة وفيه منها خزانة الخيال في مقدم دماغه يتخيل بها ما شاء من المحالات فكيف من الممكنات؟ فكذلك الملائكة عليهم السلام من عالم الطبيعة وهم

عمار الأفلاك والسموات وقد عرفك الله أنه استوى إلى السماء وهي دخان فسوّاهنّ سبع سموات وجعل أهلها منها وهو قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] ولا خلاف أن الدخان من الطبيعة وإن كانت الملائكة أجساماً نورية، كما أن الجن أجسام نارية، ولو لم يكن النور طبيعياً لما وصف بالإحراق كما توصف النار بالتجفيف والذهاب بالرطوبات، وهذا كله من صفات الطبيعة.

ثم إن الله قد أخبر عن الملأ الأعلى أنهم يختصمون والخصام من الطبيعة لأنها مجموع أضداد والمنازعة والمخالفة هي عين الخصام ولا يكون إلاّ بين الضدين، ومن هذا الباب قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] هذا من طبيعتهم وغيرتهم على الجناب الإلهيّ، فلو وقفوا مع روحانيتهم لم يقولوا مثل هذا حين قال لهم الله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] بل كان جوابهم من حيث ما فيهم من السرّ الإلهيّ أن يقولوا: ذلك إليك سبحانك تفعل ما تريد ونحن العبيد تحت أمرك بالطاعة لمن أمرتنا بطاعته. فبالذي وقع من الإنسان من الفساد وغيره ممّا يقتضيه عالم الطبع به بعينه وقع الاعتراض من الملائكة فرأوه في غيرهم ولم يروه في نفوسهم، وذلك لما قرّرناه من أن التعشق بالغرض يحول بين صاحبه وبين فعل ما ينبغي له أن يفعله، ولهذا قال لهم الله تعالىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] ثم أراهم الله شرفه عليهم بما خصّه به من علم الأسماء الإلهية التي خلق المشار إليهم بها وجهلتها الملائكة فكأنه يقول سبحانه: أجعل علمي حيث شئت من خلقي أكرمه بذلك، فمن هنا تعلم ما ذكرناه، وسيأتي العلم بهذا الأمر محققاً مستوفى في منزله الخاص به، فإن علوم هذه المنازل على قسمين: منها علوم مختصة بالمنزل لا توجد في غيره، ومنها علوم يكون منها في كل منزل طرف.

واعلم أن القلب وإن كان محل السعة الإلهيّة فإن الصدر محل السعة القلبية، إذ كان إنما سمّي صدراً لصدوره ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة الحج: الآية ٤٦] فإن القلب في حال الورود يضيق لما يقتضيه من الجلال والهيبة وما يعطيه القرب الإلهيّ والتجلي، وإذا صدر اتسع وانفسح لأنه كون وهو صادر إلى الكون فينفسخ للمناسبة وتتسع أشعة نوره بانبساطها على الأكوان ويبتهج بكونه خصّ بهذا التعريف الإلهيّ على أبناء جنسه، ولهذا إذا عرض له عارض يقبضه في غير محل القبض ينبّهه الحق يذكره ما أنعم الله به عليه ليتذكر النعمة الإلهيّة عليه فيحول بينه وبين ما كان عليه من الضيق، فهو في الظاهر من إلهيّ وفي المعنى رحمة بهذا القلب، فمن هنا يقرّر الحق عبده على ما متن به عليه. فإن قلت: فإن الله قد ذكر أنه يمنّ على عباده. قلنا: إنما جاء هذا لما امتنوا على رسول الله ﷺ بإسلامهم فقال الله له: قل لهم يا محمد: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٧] أي إذا دخلتم في حضرة المنّ فالمنّ لله لا لكم، فهو من علم التطابق لم يقصد به المنّ، فما كان الله ليقول في المنّ ما قال ويكون منه كما قال ﷺ: «**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَنْهَاكُمْ عنِ الرِّبَا وَيأْخُذَهُ مِنْكُمْ**» وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَدُلَّكُمْ عَلى مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ مِنَ العَفْوِ وَالصَّفْحِ وَيَفْعَلَ مَعَكُمْ خِلاَفَهُ فإذا وقع منكم من سفساف الأخلاق ما

وقع ردّ الحق سبحانه أعمالكم عليكم لا أنه عاملكم بها من نفسه وإنما أعمالكم لم تتعدَّكم، فللّه المنة التي هي النعمة والامتنان الذي هو إعطاء المنة لا المن سبحانه وتعالىٰ. وإذا أراد الله تعالىٰ رفعة عبده عند خلقه ذكر لعباده منزلته عنده إما بالتعريف وإما بأن يظهر على يده وفي حاله ما لا يمكن أن يكون إلاَّ للمقرّب من عباده، فتنطلق له الألسنة وتنطق بعلوّ مرتبته عند سيده مثل فتحه ﷺ باب الشفاعة يوم القيامة الذي اختصّ به على سائر الرسل والأنبياء فيعلو مناره في ذلك الموطن على كل أحد وهنالك تطلب الرياسة والعلوّ، وأما في الدنيا فلا يبالي العارف كيف أصبح ولا أمسى عند الناس لأنهم في محل الحجاب وهو في موطن التكليف، فكل إنسان مشغول بنفسه مطلوب بأداء ما كلف به من العمل.

وممّا يتضمن هذا المنزل علم التنكير وهو التجلي العامّ وعلم التعريف وهو التجلي الخاص وهو مندرج في العامّ كالاسم الرب إذا تجلى فيه الحق لعباده فإنه تجلّ عامّ وإذا تجلّى في مثل قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٢] فهو تجلّ خاص وإن كانت التجليات من الربوبية ولكن بينهما تباين، فإن الحال التي لك مع الملك في مجلس العامّة ليس هو الحال التي لك معه إذا انفردت به، فلهذا مقام وعلم خاص، ولهذا مقام وعلم خاص، والتجلي العامّ أكثر علماً وأنفع، والتجلي الخاص أعظم قربة.

واعلم أن أصل الأمور كلها المعرفة عندنا والنكرة عرض طارىء، فإذا عرض وقع الإبهام والإشكال فالعارف من عرفه في حال التنكير فهو نكرة في العموم وعند هذا هو معرفة في النكرة إذا قال القائل: كلمت اليوم رجلاً، فرجل هنا نكرة وهو عند من كلّمه معرفة بالتعيين في حال الحكم عليه بالنكرة، فالذي يشاهد العارف من الحق في حال النكرة، والإنكار من العالم هو عين المعرفة عنده لكونه أبقاه على الإطلاق الذي يستحقه في حال تقيده به العقائد فيجهله العامّة في التنكير وهو مقام عظيم الفائدة للعارفين. واعلم أن العارف في هذا المنزل لا يتمكن له أن يسأل الحق في أمر إلاَّ من الوجه الأخص لا من الوجه الأعم، ولا يصحّ له سؤال الحق في أمر هو فيه لأنه شغل عمّا يستحقه ذلك الأمر من الأدب، فإذا وفاه حقّه حسّاً كان ممّا يتعلق بالعبادات البدنية، أو معنى كان ممّا يتعلق بالعبادات القلبية، وأراد الحق أن ينقله من تلك العبادة لم يعرف العارف مراد الحق فيه لأيّ مرتبة ينقله هل ينقله إلى واجب آخر أو مندوب أو مباح أو مكروه أو محظور فيبقى واقفاً بين المقام الذي فرغ منه وبين الأمر الذي إليه في علم الله ينتقل، فعند ذلك يأتيه رسول من الله مظهر في سرّه يقول له: إن الله قد أمرك أن تتضرّع إليه وترغبه وتسأله في هذا الأمر الذي ينقلك إليه إن كانت بقيت لك حياة فليكن من الواجبات وهو المراد، فإن لم يكن فمن المندوبات، فإن لم تسبق العناية بالإجابة فمن المباحات، فإن لم يكن ورأيت لوائح تبرق إليك من خلف حجاب الخذلان وتعلم أنك تنتقل إلى محظور أو مكروه فاسأل من الله الحضور معه في ذلك الأمر الذي تنتقل إليه، واسأله أن يجعل فيك من الكراهة لذلك الأمر ولا يحول بينك وبين معرفتك بأنه شيء يسوءك فعله، وأن العلم الإلهيّ لا يتبدّل فيك بوقوعه منك، حتى أنه إذا وقع منك وأنت على

هذه الحالة لم يبق حكم للمعصية فيك جملة وكان الحكم في ذلك للقدر، فإذا توجهت العقوبة على من هذه حالته لما تطلبه المخالفة من وجه من وجوهها توجه العفوّ والغفور والرحيم وهم الأسماء التي تطلبها المخالفة ويعتضدون بالأسماء التي تطلبها الكراهة التي كانت فيك لذلك الفعل والإيمان بالقدر السابق فيها ويد الله مع الجماعة، فتكون الغلبة والحكم لهؤلاء الأسماء التي تعطيه السعادة والخير مع وقوع المعصية، وتكون معصيته بحضوره فيها مع الله حية ذات روح إلهيّ يستغفر له إلى يوم القيامة، ويبدّل الله سيئها حسناً كما بدّل عقوبتها مثوبة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الحادي والتسعون ومائتان

في معرفة منزل صدر الزمان وهو الفلك الرابع من الحضرة المحمدية

[نظم: البسيط]

أقسمتَ بالدهر إن الدَّهْرَ ليس له عينٌ ولكنَّه للعقل مَعْقُولُ
فإن حلفتَ به فاحلفْ على عَدَم لا في وجودٍ فإن الحَنْثَ تعطيلُ
واعلَمْ بأن الذي لا أُمَّ تُؤنسُهُ ولا أبٌ هو في الأحكام مَبْتُولُ
إلاَّ الذي رقيَتْ فيه مَعَارفُه وكان عنه فذاك الشخص مَقبولُ
كما الذي تاهَ في بحرٍ وليس له هادٍ فذلك بالأهواء مَغْلولُ
وإن نُقلْتَ إلى فَقْرٍ بغير غنًى فإنكم لدليلِ العَقْل مَذْلُولُ

اعلم وفّق الله الوليّ الحميم أن لكل شيء صدراً، ومعرفته في هذا الطريق من أرفع العلوم والمعارف، إذ كان العالم وكل جنس على صورة الإنسان وهو آخر موجود، وكان الإنسان وحده على الصورة الإلهية في ظاهره وباطنه، وقد جعل الله له صدراً، فما بين الحق والإنسان الذي له الآخرية وللحق الأوّلية صدور لا يعلم عددها إلاَّ الله، فلنعين منها بعض ما يصل إليه فهمك وما يمكن أن يقبله عقلك، ونسكت عمّا لا يصل إليه فهمك ولا يقبله عقلك، فلنبتدىء أوّلاً بالأعلى وننزل إلى آخر درجة فنقول:

إن الصدر في الرتبة الثانية من كل صورة سواء كانت الصورة جنسية أو نوعية أو شخصية، فصدر الواجبات الحياة الأزلية المنعوت بها الحق عزّ وجلّ، وصدر الأسماء المؤثرة العالم، وصدر صفات التنزيه نفي المثلية، وصدر الأينيات العماء الذي ما فوقه هواء وما تحت هواء، وصدر الوجود الممكنات، وصدر الموجودات العقل الأوّل، وصدر الدهر ما بين الأزل والأبد، وصدر الزمان زمان قبول الهيولى للصورة، وصدر الطبيعة كيفية الجسم الأوّل، وصدر الكيفيات تعلق القدرة بالإيجاد، وصدر الكميات تقسيم المعاني، وصدر الأفلاك الكرسي، وصدر العناصر الماء، وصدر الليل مغيب الشفق الأحمر، وصدر النهار إشراق الشمس لا شروقها، وصدر المولدات الحيوان، وصدر الإنسان معروف، وصدر الأمّة زمان إدريس، وصدر هذه الأمة القرن الأوّل، وصدر الدنيا وجود آدم، وصدر الأيام يوم

الاثنين، وصدر الآخرة البعث، وصدر البرزخ النوم، وصدر النار الموبق، وصدر الجنة النزول في المنازل منها، وصدر العذاب والنعيم رؤية أسبابهما، وصدر الدين فلان رسول الله.

واعلم أن لكل صدر قلباً فما دام القلب في الصدر فهو أعمى لأن الصدر حجاب عليه، فإذا أراد الله أن يجعله بصيراً خرج عن صدره فرأى، فالأسباب صدور الموجودات والموجودات كالقلوب، فما دام الموجود ناظراً إلى السبب الذي صدر عنه كان أعمى عن شهود الله الذي أوجده، فإذا أراد الله أن يجعله بصيراً ترك النظر إلى السبب الذي أوجده الله عنده ونظر من الوجه الخاص الذي من ربه إليه في إيجاده جعله الله بصيراً، فالأسباب كلها ظلمات على عيون المسببات وفيها هلك من هلك من الناس، فالعارفون يثبتونها ولا يشهدونها ويعطونها حقها ولا يعبدونها، وما سوى العارفين يعاملونها بالعكس يعبدونها ولا يعطون حقها بل يغصبونها فيما تستحقه من العبودية التي هي حقها ويشهدونها ولا يثبتونها، فما تسمع أحداً من الناس إلاّ وهو يقول: ما ثم إلاّ الله، وينفي الأسباب، فإذا أخذته بقوله أونزلت به نازلة شاهد السبب وعمي عمّن أثبته وكفر به وآمن بما نفاه، فإذا اتفق لبعض الناس أن تلك النازلة ما ارتفعت بهذا السبب الذي استند إليه وانقطعت به الأسباب حينئذ يكفر بها ويرجع إلى الله خالق الأسباب، فلم يدرِ بماذا كفر ولا بما به آمن، ولم يدر ما معنى السبب ولا غيره، إذ لو علم أن السبب لا يصحّ إلاّ أن يكون عنه المسبب لعلم أن السبب الذي استند إليه في رفعه لهذه النازلة لم يكن سببها بوجه من الوجوه إذ لو كان سببها لرفعها، وإنما كان ذلك السبب في منعه رفع النازلة سبباً في رجوعه إلى الله في رفعها، فلم يزل في المعنى تحت تأثير الأسباب فإن الأسباب محال رفعها، وكيف يرفع العبد ما أثبته الله ليس له ذلك ولكن الجهل عمّ الناس فأعماهم وحيّرهم وما هداهم ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة النور: الآية ٤٦] بالروح الموحى من أمر الله فيهدي به من يشاء من عباده فقد أثبت الهداية بالروح وهذا وضع السبب في العالم، فالوقوف عند الأسباب لا ينافي الاعتماد على الله، ولهذا جعل سبحانه الأسباب مسببات لأسباب غيرها من الأدنى حتى ينتهي فيها إلى الله سبحانه، فهو السبب الأوّل لا عن سبب كان به، نعم سبب الكون المرتبة لا الذات، وسبب المرتبة الكون، فسبب الكون في الإيجاد المرتبة، وسبب المرتبة في المعرفة الكون فافهم.

فلما أضاء النهار للحركة وقعت الولادة للأشياء بها فظهرت الأعيان في عالم الحسّ غالباً، وهبت الرياح في البحار فتلاطمت الأمواج وجرت السفن ورمت البحار ما فيها لتلاطم الأمواج، ولما أظلم الليل للسكون سكنت الرياح وسكنت الأمواج وأمسك البحر ما فيه غالباً وظهرت الولادة في البرزخ فكانت الأحلام ورؤيا المبشرات والمفزعات كالصورة القبيحة الجميلة في صور المولدات في الحسّ من الأفعال والنشآت، وأغلب وقوع هذا في صدر الليل وفي صدر النهار لأن الرياح لا تهب إلاّ بعد طلوع الشمس حينئذ تكون الرياح، كما أن رياح النصر لا تهب إلاّ في صدر العشي وهو بعد الزوال ولهذا يستحب فيه القتال، ولما كان

الليل محلاً للسكون والمسامرة ولا يبيت شخص إلاً مع من يحبه ويسكن إليه غالباً ولا يسامر إلاً من يأنس به لذلك كان الليل أصل المودّة والرحمة حتى إن الذين تعذبهم الملوك لا تعذبهم إلاً بالنهار غالباً وأما الليل فلا لأن المعذب يتعذب بالليل إذا عذب للسهر وعدم النوم والذي يلحقه، فالليل زمان السكون والراحة، والمعذب لا يريد أن يعذب نفسه فيترك العذاب إلى النهار الذي هو محل الحركة، فأصل الودّ والمحبة موجود من الليل وضده موجود بالنهار.

ثم إنّ الغيبة أعني غيبة المحبوب عن المحب غيبة تعليم وتأديب لما تعطيه المحبة، فإن المحب إذا كان صادقاً في دعواه وابتلاه الله بغيبة محبوبه ظهرت منه الحركة الشوقية إلى مشاهدته فيصدق دعواه في محبته فيعظم منزلته وتتضاعف جائزته من التنعيم بمحبوبه، فإن اللذة التي يجدها عند اللقاء أعظم من لذة الاستصحاب كحلاوة ورود الأمن على الخائف لا يقوي قوّتها حلاوة إلاً من المستصحب فهو يزيد به تضاعف النعيم، ولهذا أهل الجنة في نعيم متجدّد مع الأنفاس في جميع حواسهم ومعانيهم وتجليهم فهم في طرب دائمون، فلهذا نعيمهم أعظم النعيم لتوقع الفراق وتوهم عدم المصاحبة، ولجهل الإنسان بهذه المرتبة يطلب الاستصحاب، والعالم يطلب استصحاب تجديد النعيم والفرق بين النعيمين حتى يقع الالتذاذ بنعيم جديد كما هو في نفس الأمر، وإن لم يعرفه كل إنسان ولا شاهدته كل عين ولا عقل فهو متجدّد مع الآنات في نفس الأمر، وللجهل القائم بهذا الشخص لعدم مشاهدته التجديد في النعيم يقع الملل، فلو ارتفع عنه هذا الجهل ارتفع الملل من العالم، فالملل أقوى دليل على جهل الإنسان بالله في حفظ وجوده عليه وتجديد آلائه مع الأنفاس، فالله يحققنا بالكشف الأتم والمشهد الأعم، فما أشرف عين اليقين وما أسعد صاحب مشاهدة الأمور على ما هي عليه، ولكن راعى الله سبحانه بهذا الجهل أصحاب الهموم فهو رحمة في حقهم، فإنهم لو شاهدوا تحديداً لهم في كل زمان فرد لم يزل عذابه كبيراً عندهم وآلامه متضاعفة، فلما حيل بينهم وبين هذه المشاهدة وتخيّلوا أن الهمّ الأوّل هو الذي استصحبهم لم يقم عندهم مقام فجأته في الفعل، وهان عليهم حمله للاستصحاب الذي تخيلوه رحمة من الله بهم وتخفيفاً عنهم إلاً في جهنم، فإن أهلها مع الأنفاس يشاهدون تجديد العذاب، وكلامنا إنما هو في هذه الدار الدنيا محل الحجاب إلاً للعارفين فإن لهم مقام الآخرة في الدنيا فلهم الكشف والمشاهدة وهما أمران يعطيهما عين اليقين وهو أتم مدارك العلم، فالعلم الحاصل عن العين له أعظم اللذات في المعلومات المستلذة فهم في الآخرة حكماً وفي الدنيا حسّاً، وهم في الآخرة مكانة وفي الدنيا مكاناً، ثم يتصل لهم ذلك بالآخرة من القبر إلى الجنة وما بينهما من منازل الآخرة وهو قوله تعالىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة يونس: الآية ٦٤] وهي ما هم فيه من مشاهدة ما ذكرناه وفي الآخرة من القبر إلى الجنة فهو نعيم متصل، فهذا نعيم العارفين وليس لغيرهم هذا النعيم الدائم.

ثم إن الحق سبحانه وتعالىٰ في هذا المنزل أمر عبده المعتنى به أن يكون مع خلقه كما كان الحق معه في مثل هذا المشهد وكل ما يؤدّي إلى سعادتهم، وذلك بالنصيحة والتبليغ ليس

بيده من الأمر غير هذا، فللعارف إيضاح هذا الطريق الموصل إلى هذا المقام والإفصاح عنه وليس بيده إعطاء هذا المقام فإن ذلك خاص بالله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٧] فلما بلغ قيل له: «ما عليك إلاّ البلاغ» ليس عليك هداهم ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [سورة القصص: الآية ٥٦] وما أحسن قوله في الحقائق ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [سورة القصص: الآية ٥٦] فإن العلم إنما يتعلق بالمعلوم على ما هو المعلوم عليه، وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٣] فوظيفة الرسل والورثة من العلماء إنما هي التبليغ بالبيان والإفصاح لا غير ذلك، وجزاهم جزاء من أعطى ووهب والدال على الخير كفاعل الخير، فإن الدلالة على الخير من الخير، فيتضمن هذا المنزل من علم الاستناد، والمستند إليه أعظم الاستنادات وهو الاستناد الإلهيّ وهو استناد الأسماء الإلهية إلى محال وجود آثارها لتعيين مراتبها، واستناد المحال إلى الأسماء الإلهيّة لظهور أعيانها فهذا أعلى الاستنادات وأعلى المستندات إليها وقد رمينا بك على الطريق فأدرج عليه نازلاً وصاعداً، ومن هنا يعرف ما تخبط فيه الناس من تفضيل الفقر على الغنى والغنى على الفقر، والخوض في هذه المسألة من الفضول الذي في العالم والجهل القائم به، فإن الحالات تختلف والمنازل تختلف وكل حالة كمالها في وجود عينها فالله يقول: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥٠] فما تركت هذه الآية لأحد طريقاً إلى الخوض في الفضول لمن فهمها وتحقق بها غير أن الفضول أيضاً من خلق الله فقد أعطى الله الفضول خلقه ثم هدى أي بيّن أن من قام به الفضول فهو المعبر عنه بالمشتغل بما لا يعنيه وجهله بالأمر الذي يعنيه، والفقر في عينه كامل الخلق لا قدم له في الغنى، والغني في حاله كامل الخلق لا قدم له في الفقر، ولو تداخلت الأمور لكان الفقر عين الغنى والغنى عين الفقر، إذ كان كل واحد منهما من مقوّمات صاحبه، والضدّ لا يكون عين الضدّ، وإن اجتمعا في أمر ما فلا يجتمع الغنى والفقر أبداً، فليس للفقر منزلة عند الله في وجوده، وليس للغنى منزلة عند العبد في وجوده، فكما لا يقال الله أفضل من الخلق أو الخلق كذلك لا يقال: الغنى أفضل من الفقر أو الفقر أفضل من الغنى، فالفقر صفة الخلق والغنى صفة الحق، والمفاضلة لا تصحّ إلاّ فيمن يجمعهما جنس واحد، ولا جامع بين الحق والخلق فلا مفاضلة بين الغنى والفقر، قال تعالىٰ في الغنى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وقال في الفقر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] فمن قال بعد علمه بهذا: الغنى أفضل من الفقر أم الفقر أفضل؟ كمن قال: من أفضل الله أم الخلق؟ وكفى بهذا جهلاً من قائله.

وأما الذي بأيدي الناس الذي يسمونه غنى فكيف يكون غنى وأنت فقير إليه غير مستغن في غناك عن غناك، فغناك عين فقرك، وهذا على الحقيقة لا يسمّى غنى، فكيف تقع المفاضلة ما بين ماله وجود حقيقيّ وهو الفقر وبين ما ليس له وجود حقيقي وهو غناك؟ وإذا سمي الإنسان غنياً فهو عبارة عن وجود السبب المؤثر عنده فيما له فيه غرض في الوقت فيكون بذلك السبب غنياً فيما يفتقر إليه لوجوده به فهو الفقير الذاتي في غناه العرضي، وإذا لم

يكن عنده وجود السبب المؤثر فيما افتقر إليه سمّي فقيراً من غير غنى فالفقر له في الحالين معاً لأن ذاته له في الحالين معاً، والأمر إذا كان على هذا فطلب المفاضلة جهل بين الوصف الحقيقيّ والإضافي العرضي، وممّا يتضمنه هذا المنزل ما يلزم العالم والمتعلم والسائل والمسؤول، فلنبين من ذلك طرفاً لمسيس الحاجة إليه فإنه يقع من الناس في غالب الأوقات، وذلك أن الجاهل إذا جاء ليسأل العالم في أمر لا يعلمه من الوجه الذي يسأل عنه ويعلم منه قدر الوجه الذي دعاه إلى السؤال عنه كمن سمع حساً من خلف حجاب فيعلم قطعاً أن خلف الحجاب أمراً لا يدري ما هو، أو لا يدري محل ذلك الحسّ ولعله ليس خلف ذلك الستر، فيسأل من يعلم محل ذلك الستر هل خلفه ما يمكن أن يحسّ أم لا؟ وإذا كان فما هو؟ فيتصوّر السؤال من السائل عمّا لا يعلم لوجه ما معلوم عنده يتضمن ما لا يعلم إلاّ بعد السؤال عنه، وعلى هذا المقام أورد بعض النظار أشكالاً وبهذا القدر ينفصل عن ذلك الإشكال، وليس كتابنا ممّا قصد به النسب الفكرية النظرية وإنما هو موضوع للعلوم الوهبية الكشفية، فجرت العادة عند العلماء القاصرين عمّا ذكرناه أن المتعلم السائل إذا جاء ليسأل العالم عن أمر لا يعلمه، فإن كانت المسألة بالنظر إلى حالة السائل عظيمة قال له: لا تسأل عمّا لا يعنيك وهذا ليس قدرك وتقصر عن فهم الجواب على هذا السؤال، وليس الأمر كذلك عندنا ولا في نفس الأمر، وإنما القصور في المسؤول حيث لم يعلم الوجه الذي تحتمله تلك المسألة بالنظر إلى هذا السائل فيعلمه به ليحصل له الفائدة فيما سأل عنه ويستر عنه الوجوه التي فيها ممّا لا يحتمله عقله ولا يبلغ إليه فهمه، فيسرّ السائل بجواب العالم ويصير عالماً بتلك المسألة من ذلك الوجه وهو وجه صحيح، إن فات علمه للعالم الفهم الفطن فقد فاته من المسألة بقدر ذلك الوجه، فاستوى الفهم الفطن مع القدم في عدم استيعاب وجوه تلك المسألة، فما سأل سائل قط في مسألة ليس فيه أهلية لقبول جواب عنها.

ولقد علمنا رسول الله ﷺ من هذا الباب في تأديب الصحابة ما يتأدّب به في ذلك، وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ وهو بين ظهراني أصحابه فقال: «**يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَنْ ثِيَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ أَخَلْقٌ تُخْلَقُ أَمْ نَسِيجٌ تنسج؟ فَضَحِكَ الحَاضِرُونَ مِنْ سُؤَالِهِ فَغَضِبَ رَسُول اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: أَتَضْحَكُونَ أَنَّ جَاهِلاً سَأَلَ عَالِماً؟ يا هَذا الرَّجل إِنَّها تَشَقَّقُ عَنها ثَمَرُ الجَنَّةِ**» فأجابه بما أرضاه، وعلم أصحابه الأدب مع السائل، فأزال خجله وانقلب عالماً فرحاً. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ١٠] فعمّم، وإن كان المقصود في سبب نزولها السؤال في العلم لأنه تعليم لحال سابق كان لرسول الله ﷺ وهو قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ٧] أي حائراً فأبان لك عن الأمر. فأما السائل إذا جاءك يسألك فإنما هو بمنزلتك حين كنت ضالاً فلا تنهره كما لم أنهرك وبيّن له كما بيّنت لك كما قال له تعليماً لحال سبق له في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ٦] فلم يذلّك ولا طردك بالقهر ليتمك وكسرك ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ﴾ إذا وجدته ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ٩] والطف به وآوه وأحسن إليه. قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَنِي فَحَسَّنَ تَأْدِيبِي**» فينبغي لنا أن نتبع

الآداب الإلهية التي أدّب الله سبحانه بها أنبياءه مثل هذا، ومثل قوله لنوح: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [سورة هود: الآية ٤٦] فرفق به في قوله: ﴿أَعِظُكَ﴾ لشيخوخته وكبر سنه، ومخاطبة الشيوخ لها حد ووصف معلوم، ومخاطبات الشباب لها حد معلوم، وقال في حق محمد رسوله ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٥] فأين ذلك اللطف من هذا القهر؟ فذلك لضعف الشيخوخة، وذا لقوّة الشباب، وأين مرتبة الخمسين سنة من رتبة خمسمائة وأزيد، فوقع الخطاب على الحالات في أوّل الرسل وهو نوح، وفي آخرهم وهو محمد ﷺ وعلى جميع الأنبياء. ومن الآداب الإلهية كل ما ورد في القرآن من افعل كذا ولا تفعل كذا فانظره في القرآن تحظ بالأدب الإلهيّ فاستعمله توفق إن شاء الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والتسعون ومائتان

في معرفة منزل اشتراك عالم الغيب وعالم الشهادة من الحضرة الموسوية

[نظم: البسيط]

اللَيلُ يستر ما في الغَيْب من عَجَبِ ... والشمسُ تُظْهِرُ ما الإظلامُ يَسْتُرهُ
والشخصُ إن كان أُنْثَى ليس يَذْكره ... حتى إذا جاءت الأخرى تُذَكِّرهُ
والجودُ أصلٌ وضدُّ الجود ليس بذي ... أصلٍ ولكنَّ عينَ الجود تُظْهِرهُ
لا شيء يُغْنيك غير الله فارضَ به ... رباً ولا تَكُ ممَّنْ ظلّ يُضْمِرُه
وقم به عَلَماً في رأس رابيةٍ ... وإن شهدتَ هلالاً فهو يُبْدِرُه
وإن دعاك الهوى يوماً لمنقصةٍ ... فإن داعِيَه عن ذاك يَزْجرهُ
عطاؤه منه أُولى وآخرةً ... وليس عن عوضٍ كذاك أذكرُه
إن الجزاءَ وفاقٌ لا على عِوَضٍ ... فإن يَكُنْ عوضٌ فلستُ أوثِرُه

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. اعلموا يا إخواننا أن هذا المنزل من أعظم المنازل قدراً هو منزل النكاح الغيبي وهو نكاح المعاني والأرواح، ويختص بهذا المنزل علم التجلي الإلهيّ المشبه بالشمس ليس دونها سحاب دون التجلي القمري البدري وهو قوله ﷺ: «**تَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيلَةَ البَدْرِ**» وليس لهذا التجلي مدخل في هذا المنزل، وكما ترون الشمس بالظهيرة ليس دونها سحاب وهذا المنزل منزله ومن هنا يعرف وهو مظهر إلهيّ عجيب، ومن هذا المنزل يعرف الجود المقيد بالخوف والجزاء، ومرتبة الصدق وإن قبح، ومرتبة الكذب وإن حسن، والغنى المكتسب وهو الغنى العرضي، وعلامات السعادة وعلامات الشقاء، وخيبة المعتمد على الأمور التي قد نصبها الله للاعتماد عليها، ولماذا يخيب صاحبها مع كون الحق نصبها لهذا وأهلها لها، وعلم الإفصاح عن درجات التقريب الإلهيّ من حضرة اللسن، ومعرفة المقام الذي تتألف فيه الضرتان وتتحابان، ومعرفة الاصطلام اللازم، وصفة من أعطي مقام هذا الاصطلام من المقربين من أمثالهم ممّن لم يعطه، والجود بما يجده العارف من كل شيء ممّا لا

يجب عليه وهو خلق الجود الإلهي، وهل يكون الحق عوضاً ينال بعمل خاص أم لا؟ ولنبين إن شاء الله حقائق هذا المنزل فصلاً فصلاً إيماء وتلويحاً فإنه يطول والله المؤيد لا رب غيره.

فمن ذلك النكاح الغيبي المنتج قال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٢] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٢] وقال: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢] وقد تقدم الكلام على هذا الفصل في فصل المعارف من هذا الكتاب في باب الآباء العلويات والأمهات السفليات فلينظر هنالك، ولنذكر في هذا المنزل ما يتعلق به وهو أن المعاني تنكح الأجسام نكاحاً غيبياً معنوياً فيتولد بينهما أحكامهما، وذلك حجاب على اليد الإلهيّة الغيبية التي ما من شأنها أن تدرك، ومن ذلك جميع الصور الظاهرة في الهباء، الهباء لها كالمرأة والصور لها كالبعل ولا يوجد عنهما إلاّ أعيانهما، وهذا من أعجب الأسرار أن يكون الولد عين الأب والأمّ لمن هو لهما ولد، والأب والأمّ عين الولد لمن هما له أبوان، وهو الذي أشار إليه الحلاج رحمه الله في قوله: ولدت أمي أباها، ولا يكون الوالد عين الولد لمن هو له والد وهو له ولد إلاّ في هذا النكاح، ومن هذا الباب قوله: ﴿كُن﴾ وهي كلمة أمر التكوين، وقال في عيسىٰ أنه كلمة الله، وفي الموجودات أنها كلمات الله، وما له كلمة في الموجودات إلاّ ﴿كُن﴾ وهي عين الموجود فإنه الكلمة وتوجهها على العيون الثابتة، فالأعين لها كالأمّ فظهرت الكلمات وهو وجود تلك الأعيان عن هذا النكاح الغيبي وكان الولد بينهما عينهما ليس غيرهما وهذا ألطف من الأمر الأوّل، فإن الولد هنا عين كلمة الحضرة فكن عين المكوّن وهو منسوب إلى الله، والأوّل في الدرجة الثانية فإنه منسوب إلى الهباء والصورة، وهذا النكاح مدرج فيه فافهم فقد رميت بك على الطريق.

فالجسمانيات كلها أولاد عن نكاح غيبي، والأجسام كلها منها ما هو عن نكاح غيبي، ومنها ما هو عن نكاح غيبي مدرج في نكاح حسي كنكاح الرياح والمياه والحيوانات والنبات والمعادن وما يتولد في الأجسام العنصرية لا الأجسام الطبيعية، فإن العالم الملكي لا يتولد عنه من جنسه شيء إلاّ أن يكون أباً في وقت لأمّ عنصرية بما يلقي إليها، فما ينتج فذلك الولد بينهما قد يخلق ملكاً وهو المعبر عنه بلمة الملك وهو ما يلقيه إلى النفس الإنسانية، فيتولد بينهما تسبيحة أو تهليلة تخرج نفساً من المسبح والمهلل فينفتح في عين ذلك النفس وجوهره صورة ملكية يكون ذلك الملك الملقى أباها والنفس أمها فترتقي تلك الصورة إلى أبيها وتلازمه بالاستغفار لأمه التي هي النفس الإنسانية إلى يوم القيامة، ومن هنا يحكم في الشريعة للوالد بأخذ ولده عن أمه إذا ميّز وعقل بلا خلاف، فإن هذا الملك يخلق عاقلاً ومن أعجب الأنكحة الإعدام، ولهذا اختلف فيه أهل الكشف، فالله سبحانه علّقه بالمشيئة فقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ وعلّق الاقتدار بإيجاد قوم آخرين فقال: ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٣] وكان الله على ذلك ولم يقل ذينك على التثنية، فكانت الإشارة من حيث أحديتها للأقرب وهو الذي أتى به، ومن هذا الباب إرسال الريح العقيم فإنها لإزالة أعيان الصور الظاهرة عن

التأليف لا أعيان الجواهر، فما أنتجت وجوداً فنسب إليها العقم ونفى عنها أن تكون لاقحة، فهذا نكاح لمجرّد الشهوة لا لوجود الولد كنكاح أهل الجنة فما يكون عن كل شهوة كيان، ولا بدّ وجود عيني لنفسه، ومن هنا وقع الخلاف بين أهل الكشف، فمن كشف رجوع أعيان الصور التي كانت موجودة إلى كونها ثابتة غير موجودة قال بأن الريح العقيم قد أنتجت في حضرة الثبوت ما كان قد خرج عنها وهو مشهود للحق وبه تعلقت المشيئة بقوله: ﴿إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي يردكم إلى الحالة التي كنتم موصوفين فيها بالعدم، وإنما كان هذا عقماً لأنه لم يظهر عنه وجود العين لنفسه وإن كان ظاهراً مشهوداً لخالقه، ومن لم يشهد رجوع أعيان الصور الموجودة إلى العدم عند توجّه المشيئة أو هبوب الريح العقيم قال: إن ذلك لا ينتج شيئاً فإن الإيجاد للاقتدار لا للمشيئة فقط وللريح اللاقحة لا للعقيم، إذ لو ظهر شيء وجودي عنها لم تكن عقيماً فهذا سبب الخلاف بين أهل الكشف، فمتعلق النافي عين الوجود، ومتعلق المثبت عين الثبوت، فما تواردا على شيء واحد فلا خلاف في الحقيقة إذ كان هذا الطريق عند المحققين منا لا يتصوَّر فيه خلاف إلاّ أن يكون مثل هذا وهذا خلاف لفظي، فإذا فسّر كل واحد ما أراده بذلك اللفظ ارتفع الخلاف ويكفي ما أومأنا إليه.

ومن هذه المنزل التجلي الشمسي لما وقع التشبّه عند علماء الرسوم في رفع الشك عن الرائي في المرئي بالشمس والقمر ليلة البدر وهو من بعض الوجوه المقصودة في هذا الحديث، ولكن عرف المحققون زائداً على هذا أن المظهرين مختلفان وأن التجلي المشبه بالقمر ليلة البدر مظهر خاص لأنه قال ليلة البدر ولم يقل في إبداره فأضافه إلى الليلة فإني أشاهده بدراً مع وجود الشمس بالنهار، فما أضافه إلى الليلة إلاّ لأمر عرفه المحققون وليس هذا منزل الكلام عليه، ولكن هذا المنزل يتضمن منزل التجلي في الشمس فإن الحق يتعالى عند المحققين أن يتجلى في صورة واحدة مرتين أو لشخصين، فلا تكرار في أمر عند الحق للإطلاق الذي هو عليه، والاتساع الإلهيّ والتكرار مؤدّ إلى الضيق والتقييد، فاعلم أن التجلي الشمسي أي المشبه بالشمس هو يسمّى عندنا التجلي الأوسع وهو التجلي الذي لا يفنى الإنسان عن رؤية نفسه فيه، وقد أومأنا إليه في أوّل هذا الكتاب في باب الأرض التي خلقت من بقية الطينة الآدمية، وهذا التجلي مظهر ذاتي عجيب ونسب التجلي فيه إلى معلوله لا إلى علته مع ظهور العلة في معلولها عيناً محققة مجهولة الكيفية كظهور الشمس في النهار مع كون النهار معلولاً عن ظهور الشمس، ونور السراج عن السراج المنبسط في زوايا الكون، فمثل هذا يسمّى شهود العلة ومعلولها معاً فكل تجلّ لا يغنيك عنك فهو بهذه المثابة، وإنما سمّي أوسع لأن المشاهد يعمّ رؤيته المتجلي والمتجلى فيه وله، وغير الأوسع لا تشاهد غيره لا نفسك ولا غيرك ولا تعلم شهودك ولا ما أنت فيه حتى تعود إليك ويقع الحجاب، فلو قرع الحجاب كان ذلك التجلي مقيداً ضيقاً إذ قيده الحجاب والأوسع يظهر في الحجاب وفي غير الحجاب ويفرق الشاهد بين الصورتين ولهذا يقال فيهم: ردّوهم إلى قصورهم للإشارة إلى عجزهم أي يحبسون فيه، وهنا بحور تحوي على أنواع من نفيس الجواهر لا يدركها إلاّ كل

غوّاص واسع النفس عاشق في الغيب، فقد بيّنت لك المقصود من هذا التجلي الذي يحويه هذا المنزل وفوائده لا تحصى لو ذهبنا نذكرها ما وسعها ديوان، فإن له التأبيد في العالم العلوي في الدنيا وله التأبيد في العالم الأخروي السفلي، وما ثم تجل يجمع فيما يكون عنه بين الضدين من ألم ولذة إلاَّ هذا التجلي وهو كتجلي المحبوب للمحب يعانق غيره ويقبله فهو من نظره في لذة ومن نظره في ألم، ومن هذا المنزل معرفة الجود المقيد بالخوف والجزاء، ومرتبة الصدق وإن قبح، ومرتبة الكذب وإن حسب، والغنى المكتسب وهو الغنى العرضي وعلامات السعادة وعلامات الشقاء.

واعلم أن أسباب العطاء تختلف، فمنهم من يعطي للعوض ويسمّى شراء وبيعاً ففيه من الجود أن المشتري قد أنعمت عليه من كونك بائعاً ما له غرض عظيم في تحصيله وقد أعطاك هو ما هو مستغن عنه، فكل واحد منهما قد جاد على صاحبه بإيصاله إليه ما كان له غرض في تحصيله إذ كان له منع ذلك، فبهذا القدر يلحق بباب الجود من جهة المعطى له اسم مفعول لا من جهة المعطي اسم فاعل، وقد يعطي الإنسان من هذا الباب خوفاً على عرضه أو حلول آلام حسية تحل به، فكأنه يشتري الثناء الحسن والعافية والأمن بذلك العطاء فهو كالأوّل، والفرق بينهما أن الذي اشترى به في الأوّل هو ممّا يمكن أن يكون له فيه غرض، وهذا لا يمكن أن يكون له في الألم وإزالة العافية والأمن غرض أصلاً، ومن يقول بخلاف هذا من أصحابنا إن كان محققاً كأبي يزيد في قوله: [الوافر]

وكـلُّ مـآربـي قـد نـلْـتُ مـنـهـا ... سـوى مَـلْـذوذِ وَجْـدي بـالـعـذابِ

فقد أبان عن مقصوده وهو اللذة وهو ما قلناه وذهبنا إليه، وإن لم يكن محققاً فما هو من أصل طريقنا بالمعنى، وإن ظهر بالصورة فلا كلام لنا معه، ومنهم من يعطي للإنعام وغير ذلك، وليس من هذا المنزل إلاَّ ما ذكرناه خاصة، ومن هذا الباب قول رسول الله ﷺ: **«أَحِبُوا اللَّه لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ»** فأمرنا بمحبته لإنعامه وإحسانه، وهل يكون منه سبحانه في حق العباد أمر وجودي يخرج عن الإنعام بوجه من الوجوه؟ اختلف أصحابنا في ذلك، فمنهم من رأى أن الإنعام فيه عين وجوده ولا يلتفت إلى الأغراض المتعلقة ممّا يعطيه حكم هذا الموجود المنعم عليه بالوجود فإنه قد أنعم على الألم بوجود عينه، وإن كان من يتألم به لا يوافق غرضه فهو نعمة الله على نفسه، ولو توقف الأمر على عموم النعمة على الكل بالعين الواحدة ما كان شيء أصلاً فإن الحقائق تأبى ذلك، فإذا له في كل وجود نعمة، فمن كان مقامه الإيثار يصدق في غرضه بزهده إذا قام به حكم الألم أن يشكر الله على ما أنعم به على الألم من وجود عينه بعد أن لم يكن إيثاراً لجناب الله على غرضه، حيث ظهر في الملك من يساعده على تعظيم الله وشكره لأنه يشاهد شكر الألم لله تعالىٰ على إيجاد عينه، فأعظم شفيع يكون لمن هذه حاله عند الله الألم من الموجودات والاسم المبلي والمسقم من الإلهيات، فيكون نتيجة تلك الشفاعة وجود اللذة ورحلة الألم إما بزوال السبب أو ببقائه فيكون خرق عادة، وهذا من أعظم الخلق الذي يشرف به الإنسان. وأما إيثاره في هذا لإرادة الله فلا يدري

أحد ما يحصل له من اسمه المريد من الخير إلاَّ الله الذي خصّه بهذه الحال الشريفة فهذا هو الصدق مع الله في المعاملة وإن قبح، فإنه لو نزل ذلك الألم بغيره فلا بدّ أن تصحبه هذه الحالة، وقبيح عليه في حق الغير أن يراه يشكر الله على ما قام بذلك الغير من الألم، ولا سيما إن كان محبوباً له أو نبياً أو رسولاً، وبما ينتجه هذا المقام من وجود العافية في ذلك الغير ستر القبح الذي كان لبسه هذا المحقق. وأما من ترك العطاء في مثل هذا الموطن الذي ذكرناه فأنت تعرف ممّا بيناه لك ما سبب ذلك الترك وما المشهود لهذا التارك في وقت الترك؟ فإنه يندرج علم ذلك كله فيما قرّرناه فابحث عنه فإنه يطول إن أوردناه، وقد أعطيناك المفتاح وعيّنا لك قفله فافتح ما شئته من ذلك.

وأما الغنى المكتسب في هذا الباب فهو حكمه فإن الإنسان إذا استغنى عن الغير كان دليلاً على جهله بالحقائق إذ كان الغير لا أثر له فيه فقد علّق غناه بغير متعلق، وإن استغنى عن الله تعالىٰ فأجهل وأجهل، فإنه خرج بهذا الوصف عن العلم المحقق وعن الإسلام فلا أخسر منه لأنه لا أجهل منه فالاستغناء لا يصحّ حقيقة، فإذا أضيف الغنى إلى أحد فهي إضافة عرضية لا ذاتية، ولهذا هو الاسم الغنيّ للحق تعالىٰ وصف سلبي سلب عنه الافتقار إلى العالم، ومن افتقر إلى شيء لم يستغن عنه البتة، فالاستغناء على الحقيقة إنما هو بالأسباب من حيث النسب أي من حيث أنها نسب، فكل نسبة أذهبت عنك ضدها فهي الحاكمة عليك، وهل تسمّى بغني أم لا؟ فلك النظر فيها بحسب ما تعطيك حقيقة تلك النسبة، فإن كانت أغنتك عن غيرها فهي غنى وأنت غني بها، وإن لم تغنك فما هي غنى ولا أنت غني بها، فالشبع مثلاً بمجرّد حقيقته لا يقال فيه إنك قد استغنيت به عن الجوع من حيث حقيقة الجوع لأن الجوع ليس مطلوباً لك حتى تستغني بالشبع عنه، ولكن إن كان الجوع إذا قام بك أعطاك من الصفاء والرقة واللطافة والتحقق بالعبودة والافتقار ما يعطيه حقيقته فأنت طالب له غير مستغن عنه، فإن أعطاك الشبع ما أعطاك الجوع من كل ما ذكرناه فقد استغنيت بالشبع عن الجوع إذا الجوع ليس مطلوباً لنفسه وإنما هو مطلوب لما ذكرناه، فإذا وجدنا ذلك في ضده فلا حاجة لنا به إذ الطبع يرده كما أن الطبع يوجده، ولذلك كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجوع ويقول: «**إِنَّهُ بِئْس الضَّجِيع**» وذلك لأنه أيضاً وإن أعطى ما ذكرناه ولكن لا يقطع أن يكون افتقاره ذلك إلى الله بل قد يكون لغير الله، فلذا قال رسول الله ﷺ فيه: «**إِنَّهُ بِئْس الضَّجِيع**» في العموم، فإنْ شيوخ الطريق يقولون: لو بيع الجوع في السوق لزم المريد أن يشتريه، ومن نظر منهم إلى ما نظره النبيّ ﷺ جعله من أغاليط أهل الطريق كأبي عبد الرحمن السلمي إذ عمل أوراقاً فيما غلطت فيه الصوفية وهو مذهبنا، وللجوع حدّ ومقدار وهو الجوع المحقق بخلاف الجوع المتخيل، فما وقعت الاستعاذة النبوية إلاَّ من الجوع المحقق فإنه يكون به الإنسان عاصياً للشرع ظالماً لنفسه إذا كان اختياراً، ولهذا كان رسول الله ﷺ لا يجوع قط إلاَّ اضطراراً وهو حال العلماء بالله لأنهم من صفتهم العدل، وقد أبنت لك ما فيه كفاية فإنه تلويح يغني عن التصريح.

وأما أعمال السعادة فعلاماتها أن يستعمل الإنسان في الحضور مع الله في جميع حركاته وسكناته، وأن تكون مشاهدة نسبة الأفعال إلى الله تعالىٰ من حيث الإيجاد والارتباط المحمود منها، وأما الارتباط المذموم منها فإن نسبه إلى الله فقد أساء الأدب وجهل علم التكليف وبمن تعلق ومن المكلف الذي قيل له افعل، إذ لو لم يكن للمكلف نسبة إلى الفعل بوجه ما لما قيل له افعل وكانت الشريعة كلها عبثاً وهي حق في نفسها، فلا بدّ أن يكون للعبد نسبة صحيحة إلى الفعل من تلك النسبة قيل له افعل وليس متعلقها الإرادة كالقائلين بالكسب وإنما هو سبب اقتداري لطيف مدرج في الاقتدار الإلهيّ الذي يعطيه الدليل كاندراج نور الكواكب في نور الشمس، فتعلم بالدليل أن للكواكب نوراً منبسطاً على الأرض لكن ما ندركه حساً لسلطان نور الشمس، كما يعطي الحسّ في أفعال العباد أن الفعل لهم حساً وشرعاً وأن الاقتدار الإلهيّ مندرج فيه يدركه العقل ولا يدركه الحسّ، كاندراج نور الشمس في نور الكواكب فإن نور الكواكب هو عين نور الشمس والكواكب لها مجلى، فالنور كله للشمس والحسّ يجعل النور للكواكب فيقول: قد اندرج نور الكواكب في نور الشمس، وعلى الحقيقة ما ثم إلاّ نور الشمس فاندرج نوره في نفسه إذ لم يكن ثم نور غيره، والمرائي وإن كان لها أثر فليس ذلك من نورها وإنما النور يكون له أثر من كونه بلا واسطة في الكون، ويكون له أثر آخر في مرآة تجليه بحكم يخالف حكمه من غير تلك الواسطة، فنور الشمس إذا تجلى في البدر يعطي من الحكم ما لا يعطيه من الحكم بغير البدر لا شك في ذلك، وكذلك الاقتدار الإلهيّ إذا تجلّى في العبيد فظهرت الأفعال عن الخلق فهو وإن كان بالاقتدار الإلهيّ ولكن يختلف الحكم لأنه بوساطة هذا المجلى الذي كان مثل المرآة لتجليه وكما ينسب النور الشمسي إلى البدر في الحسّ والفعل لنور البدر وهو للشمس، فكذلك ينسب الفعل للخلق في الحسّ والفعل إنما هو لله في نفس الأمر ولاختلاف الأثر تغير الحكم النوري في الأشياء، فكان ما يعطيه النور بوساطة البدر خلاف ما يعطيه بنفسه بلا واسطة، كذلك يختلف الحكم في أفعال العباد، ومن هنا يعرف التكليف على من توجه وبمن تعلق، وكما تعلم عقلاً أن القمر في نفسه ليس فيه من نور الشمس شيء وأن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها وإنما كان لها مجلى وأن الصفة لا تفارق موصوفها والاسم مسماه كذلك العبد ليس فيه من خالقه شيء ولا حلّ فيه، وإنما هو مجلى له خاصة ومظهر له.

وكما ينسب نور الشمس إلى البدر كذلك ينسب الاقتدار إلى الخلق حساً والحال الحال، وإذا كان الأمر بين الشمس والبدر بهذه المثابة مع الخفاء وأنه لا يعلم ذلك كل أحد فما ظنك بالأمر الإلهيّ في هذه المسألة مع الخلق أخفى وأخفى؟ فمن وقف على هذا العلم فهو من أعلى علامات السعادة، وفقد مثل هذا من علامات الشقاء، وأريد بهذا سعادة الأرواح وشقاوتها المعنوية، وأما السعادة الحسية والشقاوة فعلاماتهما الأعمال المشروعة بشروطها وهو الإخلاص قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ [سورة البينة: الآية ٥] ويكفي هذا القدر من العلامات مجملاً والله الموفق لا رب غيره.

وأما خيبة المعتمد على الأمور التي نصبها الله للاعتماد عليها ولماذا يخيب صاحبها مع كون الحق نصبها لهذا الأمر وأهلها له؟ فاعلم أيها الأخ الوليّ أن الأمور التي نصبها الحق للاعتماد عليها ما خرجت عنه ولكن جعلها هذا الخائب أرباباً من دون الله، فاعتمد عليها لذواتها لا على من جعلها فأضرّ به الجهل كما ذكرناه آنفاً، فالآثار الظاهرة عن نور الشمس في مرآة البدر إذا نظر فيه الناظر واعتمد على الشمس في ذلك من حيث هذا المجلى الخاص الذي ربط الله الأثر به فهذا لا يخيب فإنه أعطى الأمر حقه وهذا لا ينكسف البدر في حقه أبداً، والذي يخيب هو الذي ينكسف البدر في حقه فيبقى في ظلمة جهله مع وجود ذات المرآة القمرية، فيكون هذا الخائب مع ذلك المظهر في الظلمات، فإن القمر قد حجب في حق هذا الشخص الذي كان يعتمد عليه ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٩٨] وهي الظلمة فإن الظلمة جهنم، وأية ظلمة وأي جهنم أعظم من الجهل وبها شبه الله في قوله ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ [سورة النور: الآية ٤٠] فقال: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [سورة النور: الآية ٤٠] وهو جهل على جهل، وهو من جهل ولا يعلم أنه جهل، فنفى عنه أن يقارب رؤية يده فكيف إن يراها وأدخل اليد هنا دون غيرها لأنها محل وجود الاقتدار وبها يقع الإيجاد أي إذا أخرج اقتداره ليراه لم يقارب رؤيته لظلمة الجهل لأنه لو رآه لرآه عين الاقتدار الإلهيّ، ألا تراه إذا أخرجه في النور الذي هو العلم رأى يده وهو اقتداره، فعلم أن الاقتدار الكوني هو اقتدار الحق لارتفاع الظلمات المتراكمة التي كانت بعضها فوق بعض ولهذا وقع التشبيه بأشد الظلمات، فإن ظلمة الجوّ تقترن معها ظلمة البحر، تقترن معها ظلمة الموج، تقترن معها ظلمة تراكم الموج، تقترن معها ظلمة السحاب التي تحجب أنوار الكواكب فلا يبقى للنور ظهور لا في عينه ولا في مجلى من مجاليه، فظلمة الليل ظلمة الطبع، وظلمة البحر ظلمة الجهل وهو فقد العلم، وظلمة الفكر ظلمة الموج، وظلمة الموج المتراكم ظلمة تداخل الأفكار في الشبه، وظلمة السحاب ظلمة الكفر، فمن جمع هذه الظلمات ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [سورة النساء: الآية ١١٩] وهذه حالة المعطلة لا غيرهم.

وأما ما يتضمنه هذا المنزل من علم الإفصاح عن درجات القرب الإلهيّ من حضرة اللسن فاعلم أن ذلك معرفة علم الشارع المترجم عن الله الذي أمرنا بالإيمان بمحكمه ومتشابهه ولنقبل جميع ما جاء به، فإن تأوّلنا شيئاً من ذلك على أنه مراد المتكلم به في نفس الأمر زال عنا درجة الإيمان فإن الدليل حكم على الخبر فيعطل حكم الإيمان وجاء العلم الصحيح من المؤمن يقول لصاحب هذا الدليل: أما القطع منك بأن هذا الذي أعطاك نظرك هو مقصود المفصح بما أفصح به فهو عين الجهل وفقد العلم الصحيح، وإن صادف العلم وقد زال عنك الإيمان والسعادة مرتبطة بالإيمان وبالعلم الصحيح عن علم والعلم الصحيح هو الذي يبقى معه الإيمان فعلى العارف أن يبين طريق السعادة نيابة عن الله تعالىٰ في خلقه كنيابة القمر عن الشمس في إيصال النور، فالأنبياء المرسلون عليهم السلام هم التراجمة عن الحق والورثة على درجتهم بما يعطيهم الله من الفهم فيما جاءت به الرسل من كتاب وسنّة، فهذا هو علم الإفصاح مختصر.

وأمّا علم تألف الضرتين فاعلم أن أبا سعيد الخراز قيل له: بم عرفت الله؟ فقال: بجمعه بين الضدين وتلا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] أي هو أوّل من عين ما هو آخر وظاهر من حيث ما هو باطن، لأن الحيثية في حقه واحدة وكل ضدين ضرتان، وهذا لا يدرك من قوّة العقل فإن قوّة العقل لا تعطيه، وإنما يدرك هذا من المقام الذي وراء طور العقل الذي كان من ذلك الطور أعطى الواجبات وجوبها، والجايزات جوازها، والمستحيلات إحالتها، والأحديات أحديتها، فهو الذي جعل الواحد واحداً، كما جعل الواجب واجباً بإعطائه الوجوب، وليس في قوّة العقل إدراك ما ذكرناه من حيث فكره، فهذا علم صحيح إلهيّ لا عقلي، فإذا اجتمع الضدان في العلم الإلهيّ فقد تألفت الضرتان وتحابا إذ كانا لعين واحدة فتدبر هذا الفصل بنور الإيمان لا بنور العقل فإنه مردود عقلاً غير مقبول، وكما لم يكن في قوّة البصر أن يدرك المعقولات ولم يتعد حدّه كذلك العقل ليس في قوّته أن يدرك ما يعطيه البصر بذاته من غير واسطة البصر، فإذا عجزت قوّة العقل أن تستقل بعلم المبصرات من حيث ما هي مبصرات وهي مخلوقة وقوّة البصر مخلوقة، فمن له بإدراك ما يخرج عن طوره إلى ما هو أعلى في نسبته إلى الحق، وقد عجز عن إدراك ما خرج عن طوره إلى ما هو أنزل درجة وهو الحسّ في زعمه، ومن افتقر إلى مخلوق مثله في أمر فهو إلى الخالق أفقر، ويكفي هذه الإشارة فيما يعرفه العارفون من ذلك.

وأما معرفة الاصطلام اللازم وصفة من أعطي مقام هذا الاصطلام من المقرّبين من أمثالهم ممّن لم يعطه فاعلم أن الاصطلام نار ترد على قلوب المحبين تحرق كل شيء تجده ما سوى المحبوب، وقد تذهب في أوقات بصورة المحبوب من نفس المحب وهو الوقت الذي يطلب المحب أن يتخيل محبوبه فلا يقدر على تخيله ولا يقيم صورته لقوّة سلطان حرقة لهيب نار الحب، فيقال فيه في ذلك الحال مصطلم وهو الذي أراد القائل بقوله: [السريع]

أودِعْ فــؤادي حُــرَقــاً أَوْ دعِ ... ذاتَـك تُـوذي أنـت فـي أضْـلُـعـي
وارمِ سـهـامَ الـحـبِّ أو كُـفَّـهـا ... أنـت بـمـا تَـرمـي مُـصَـابٌ مـعـي
مَـوْقِـعُـهـا الـقـلـبُ وأنـت الـذي ... مَـسْـكَـنُـه بـذاك الـمَـوْضِـعِ

ومن هذه الحال قال قيس بن الملوح مجنون بني عامر صاحب ليلى وكان قد جاءته ليلى وهو مصطلم يأخذ الجليد ويلقيه على صدره فتذيبه من ساعته حرارة الفؤاد وهو يصيح: ليلى ليلى طلباً لها لفقد صورتها من خياله فنادته: يا قيس أنا مطلوبك أنا ليلى، فلم يكن لها في نفسه صورة متخيلة يعرفها بها إلاّ أنه لما سمع منها اسمها قال لها: إليك عني فإن حبك شغلني عنك، فهذا حال الاصطلام، وهو نعت لازم للحضرة الإلهية مؤثر، ولكل اسم إلهيّ مشهود فيه جمال الحق يحول بين العبد وبين تكييف الحق، ويذهب بكل صورة يضبطها أو يتخيلها، ولهذا قال ﷺ: «**أَلِظُوا بيا ذا الجَلالِ وَالإِكْرَام**» من الإلظاظ وهو المثابرة، وقرن الجلال بالإكرام، وما ورد الجلال قط في النبوّيات إلاّ والإكرام مصاحب له ليبقى رسم العبد ولا يذهب بعينه، فالجلال الذي هو جلال الجمال يكسوك الهيبة فتهاب المقام وهو الذي

يجده المحب والعارف في نفسه من تعظيم المحبوب فيؤثر جنابه على كل شيء، فإكرام الله به أنه يؤثره على كل شيء، وثم اصطلام يزول في الوقت وهو ما يرد على القلب من مشاهدة المحبوب في صورة الخيال، فما دام هذا الخيال دام اصطلامه، والجلال يمحو هذه الصورة من النفس غيرة من تقييده بصورة وله الإطلاق، فيزول اصطلام تلك الصورة المقيدة بزوالها، ويبقى الاصطلام اللازم الذي هو أثر الجلال في النفس، فيرى المحب يكذب الصورة المتخيلة في نفسه التي تقول له: أنا محبوبك، ويعرض عنها إجلالاً لمحبوبه أن يقيده لمعرفته بأن محبوبه لا يتقيد، فلهذا يحترق في نفسه حيث يريد أن يتمنى أن يضبط ما لا ينضبط لينعم به، ولهذا كان العلم أشرف من المحبة، وبه أمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ أن يسأله الزيادة منه لأنه عين الولاية الإلهية به يتولى الله عباده وبه يكرمهم وبه يعرفون أنه لا يعرف. وأما المحب إذا لم يكن عارفاً فهو يخلق في نفسه صورة يهيم فيها ويعشقها، فما عبد ولا اشتاق إلاً لمن هو تحت حيطته، ولا يزيله عن هذا المقام إلاً المعرفة، فحيرة العارف في الجناب الإلهيّ أعظم الحيرات لأنه خارج عن الحصر والتقييد: [الوافر]

تَـفَـرَّقَـتِ الـظِّـبـاءُ عَـلـى خِـدَاشٍ　　　فـمـا يـدري خِـداشٌ مـا يَـصـيـدُ

فله جميع الصور وما له صورة تقيده، ولهذا كان يقول ﷺ: **«اللَّهُمَّ زِدْني فِيكَ تَحَيُّراً»** لأَنَّهُ المَقَامُ الأَعْلَى وَالمَنْظَرُ الأَجْلَى، وَالمَكَانَةُ الزُّلْفَى، وَالمظْهَرُ الأَزْهَى، والطَّرِيقَةُ المُثْلَى، ومن هذه الحضرة صدر الإنذار فعدم القرار وحلّ البوار بساحة الكفار، فلم يبق ستر ولا حجاب إلاً مزقه وخرقه هذا المشهد الأسنى، فإن الستر يقيد المستور، والحجاب يحدّ المحجوب، ولا حدّ لذاته ولا تقييد لجلاله فكيف يستره شيء أو تغيب له عين تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر، فمن قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فقد صدق لأنه ما ثم موجود لا يغيب له عين ولا يحصره أين إلاً الله، فجميع الصور الحسية والمعنوية مظاهره فهو الناطق من كل صورة لا في كل صورة، وهو المنظور بكل عين، وهو المسموع بكل سمع، وهو الذي لم يسمع له كلام فيعقل، ولا نظر إليه بصر فيحدّ، ولا كان له مظهر فيتقيد، فالهو له لازم لا إله إلاً هو العزيز الحكيم يمحو وهو عين ما يمحو، قال: ويثبت وهو عين ما يثبت، فليس كمثله شيء في هذا الحكم، وبه شهد له العلم الصحيح الموهوب.

فعلم الدليل ينفيه إذ لم يكن بيده منه ولا له تعلق بسوى صفات السلب والتنزيه، وعلم الكشف يثبته ويبقيه ولا يبدو له مظهر إلاً ويراه فيه، والعلمان صحيحان فهو لكل قوّة مدركة بحسبها ليعرفها أنها ما زالت عن منصبها وأنها لم تحصل بيدها من العلم بالله إلاً ما هي عليه في نفسها فذاتها عرفت ونفسها وصفت، فخرج عن التقييد والحدود بظهوره فيها ليكون هو المعبود، فقد قضى أن لا يعبد إلاً إياه، فكانت الأصنام والأوثان مظاهر له في زعم الكفار فأطلقوا عليها اسم الإله فما عبدوا إلاً الإله، وهو الذي دلّ عليه ذلك المظهر، فقضى حوائجهم وسقاهم وعاقبهم، إذ لم يحترموا ذلك الجناب الإلهيّ في هذه الصورة الجمادية فهم الأشقياء، وإن أصابوا أو لم يعبدوا إلاً الله فانظر إلى هذا السريان الوجودي في هذه

المظاهر كيف سعد به قوم وشقي به آخرون. قال بعضهم: كل ما تخيلته في نفسك أو صوره وهمك فالله بخلاف ذلك فصدق وكذب وأظهر وحجب. وقال الآخر: لا يكون الحق مدلولاً لدليل ولا معقولاً للعقول لا تحصله العقول بأفكارها ولا تستنزله المعارف بأذكارها، فإذا ذكر فبه يذكر وبه يفكر ويعقل، فهو عقل العقلاء، وفكرة المفكرين، وذكر الذاكرين، ودليل الدالين، لو خرج عن شيء لم يكن.

ولو كان في شيء لم يكن، فهذا قد أبنت لك ما أثره الاصطلام اللازم، وأن العلماء هم المقرّبون الذين أدركوا هذا المشهد الأحمى وهذه المعرفة العظمى، ومن سواهم فقد نصب له علامة يعبدها وحقيقة يشهدها وهي ما انطوى عليه اعتقاده لدليل قام عنده أو قلد صاحب دليل فهو عند نفسه قد ظفر بمطلوبه واعتكف على معبوده وسكن إليه واستراح من الحيرة وكفر بما ناقض ما عنده وكفر بلا شك غيره ممن اعتقد غير معتقده، فلهذا يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً دنيا وآخرة. والعالم المحقق لما هو الأمر في عينه يتفرّج في ذاته، وفي العالم ظاهره وباطنه فهو العين المصيبة، وهو المثل المنزّه المنصوص عليه الذي نفى الحق أن يماثل أو يقابل بقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي ليس مثل مثله شيء، فالكاف كاف الصفة ما هي زائدة كما يرى بعضهم، فبعض العلماء يرى في ذلك أن لو فرض له مثل لم يماثل ذلك المثل فأحرى أن يماثل هو في نفسه، وعند بعضهم نفي المثل عن المثل المحقق الذي ذكرناه. سئل الجنيد عن المعرفة والعارف فقال: لون الماء لون إنائه، فأثبت الماء والإناء، فأثبت الحرف والمعنى والإدراك ونفي الإدراك ففرق وجمع فنعم ما قال.

وبعد أن أبنت لك عن مرتبة الاصطلام اللازم فلنبين لك ما بقي من هذا المنزل وهو العلم بالجود الإلهيّ الخارج عن الوجوب، وهل يكون الحق عوضاً ينال بعمل خاص أم لا؟ فاعلم أن لله جوداً مقيداً وجوداً مطلقاً، فإنه سبحانه قد قيد بعض جوده بالوجود فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] أي أوجب وفرض على نفسه الرحمة لقوم خواص نعتهم بعمل خاص، وهو أنه ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] فهذا جود مقيد بالوجوب لمن هذه صفته، وهو عوض عن هذا العمل الخاص، والتوبة والإصلاح من الجود المطلق فجلب جوده بجوده، فما حكم عليه سواه ولا قيده غيره، والعبد بين الجودين: عرض زائل وعرض مائل.

قال سهل بن عبد الله عالمنا وإمامنا: لقيت إبليس فعرفته وعرف مني أني عرفته فوقعت بيننا مناظرة فقال لي وقلت له وعلا بيننا الكلام وطال النزاع بحيث أنْ وقفت ووقف وحرت وحار، فكان من آخر ما قال لي: يا سهل الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] فعم ولا يخفى عليك أني شيء بلا شك لأن لفظة «كل» تقتضي الإحاطة والعموم وشيء أنكر النكرات فقد وسعتني رحمته، قال سهل: فوالله لقد أخرسني وحيرني بلطافة سياقه وظفره بمثل هذه الآية، وفهم منها ما لم نفهم، وعلم منها ومن دلالتها ما لم نعلم، فبقيت حائراً متفكراً وأخذت أتلو الآية في نفسي فلما جئت إلى قوله تعالىٰ فيها:

﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] الآية سررت وتخيلت أني قد ظفرت بحجة وظهرت عليه بما يقصم ظهره وقلت له: يا ملعون إن الله قد قيدها بنعوت مخصوصة يخرجها من ذلك العموم فقال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ فتبسم إبليس وقال: يا سهل ما كنت أظن أن يبلغ بك الجهل هذا المبلغ ولا ظننت أنك ها هنا، ألست تعلم يا سهل أن التقييد صفتك لا صفته؟ قال سهل: فرجعت إلى نفسي وغصصت بريقي وأقام الماء في حلقي ووالله ما وجدت جواباً ولا سددت في وجهه باباً وعلمت أنه طمع في مطمع وانصرف وانصرفت ووالله ما أدري بعد هذا ما يكون فإن الله سبحانه ما نص بما يرفع هذا الإشكال فبقي الأمر عندي على المشيئة منه في خلقه لا أحكم عليه في ذلك بأمد ينتهي أو بأمد لا ينتهي.

فاعلم يا أخي أني تتبعت ما حكي عن إبليس من الحجج فما رأيت أقصر منه حجة ولا أجهل منه بين العلماء، فلما وقفت له على هذه المسألة التي حكى عنه سهل بن عبد الله تعجبت وعلمت أنه قد علم علماً لا جهل فيه فهو أستاذ سهل في هذه المسألة، وأمّا نحن فما أخذناها إلاّ من الله فما لإبليس علينا منة في هذه المسألة بحمد الله ولا غيرها، وكذا أرجو فيما بقي من عمرنا وهي مسألة أصل لا مسألة فرع، فإبليس ينتظر رحمة الله أن تناله من عين المنة، والجود المطلق الذي به أوجب على نفسه سبحانه ما أوجب وبه تاب على من تاب وأصلح، فالحكم لله العليّ الكبير عن التقييد في التقييد، فلا يجب على الله إلاّ ما أوجبه على نفسه، فالعارف كذلك في جوده لا يتقيد ولا يعطي واجباً يجب عليه، فإن وجوب العطا إنما سببه الملك ولا ملك للعارف مع الله، فالمال الذي بيد العارف هو لله ليس له، والزكاة تجب في عين المال على رب المال ولا رب له سواه سبحانه، فقد أوجب على نفسه أن يخرج من هذا المال مقداراً معيناً هو حق لطائفة من خلقه أوجبه لهم على نفسه في هذا المال الذي بيد العارف، فيخرج العارف من هذا المال حق تلك الطائفة نيابة عن رب المال، كما يخرج الوصي عن اليتيم بحكم الوكالة فإنه وليّه، ومن هذا الباب زلت طائفة في كشفها لهذا المقام فلم تؤدّ زكاة ما بيدها من المال، ورأيت منهم جماعة مع كونهم يخرجون ما هو أكثر من الزكاة ولا يزكونه ويقولون: إن الله تعالىٰ لا يجب عليه شيء وهذا المال لله ليس لي ويدي فيه عارية، وأنا في هذه المسألة حنفي المذهب، فكما لا يجب على وليّ اليتيم إخراج الزكاة عن اليتيم لأن اليتيم لا تجب عليه الزكاة في ماله لأنه المخاطب فلا أزكيه، فقد بينت لك وفقك الله الجود الإلهيّ وتقسيمه.

وأما هل يكون الحق عوضاً لعمل خاص أم لا؟ فاعلم أن مالك بن أنس رضي الله عنه يقول في الرجل يعطي الرجل هدية ثم إن المعطى له لا يكافئه فيطلبه بالمكافأة عند الحاكم فللحاكم أن يفصل عليه الأمر لما فيه من الإجمال ليترتب الحكم على التعيين فيقول له: حين أعطيته هذه الهدية ما ابتغيت بها؟ هل ابتغيت بها جزاء من الجنة أو معاوضة في الدنيا أو ابتغيت بها وجه الله؟ فإن قال الخصم: ابتغيت بها الأجر في الآخرة من الجنة أو المعاوضة في الدنيا حكم على المعطى إياه برد عين ما أخذه منه إن كانت عينه باقية، وإن كانت العين قد

ذهبت حكم له بالقيمة على الخلاف في ذلك هل تعتبر القيمة في الشيء في زمان العطا أو في زمان القضا، وإن قال: إنما أعطيتها ابتغاء وجه الله لم يحكم له بشيء في ذلك وقال: ليس بيد صاحبك ما قصدته بهديتك، فمن وجه أثبته عوضاً عنها فيما يظهر فإنه لم يصرح مالك بأكثر من هذا، ومن وجه ينفي أن يكون عوضاً فإنه لا يماثله في القدر شيء من مخلوقاته والكل نعمته غير أنه المعاوضة على الله لهذا المعطي في الدار الآخرة ممّا يناسب هديته، فإن زاد على ذلك فمن باب المنة، وقد قيل: [البسيط]

لكل شيء إذا فارقته عِوَضٌ ... وليس لله إن فارقت من عِوَضِ

والتحقيق في هذه المسألة أن الحق من حيث ذاته ووجوده لا يقاومه شيء ولا يصحّ أن يراد ولا يطلب لذاته، وإنما يطلب الطالب ويريد المريد معرفته أو مشاهدته أو رؤيته، وهذا كله منه ليس هو عينه، وإذا كان منه لا عينه فقد يصحّ أن يكون عوضاً فيكون عمله في الدنيا الذي هو الحضور مع الله في قوله: «اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» فيكون هذا العمل جزاؤه عند الله رؤيته وهي أرفع المنازل، فهي للحاضر هنا في عمله جزاء، وهي لغير الحاضر زيادة ومنّة، فهو عند هذا ليس عوضاً وهو عند الآخر عوض، فيكون الحضور في الدنيا من الجود المطلق من عين المنّة، وتكون الرؤية من الجود المقيد جزاء بما وجبه على نفسه، فمن جوده شهدت جوده فما خرج عنه شيء ولا أوجب مخلوق عليه شيئاً لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم. فإذا أعطى العبد ابتداء لغيره لا جزاء يستحقه ذلك الغير فيكون هذا المعطي لأجل ذلك الاستحقاق تحت قيد الحق فيكون عطاه مثل هذا لا عن استحقاق لا يطلب بذلك إلاّ وجه الله سواء طلبه بنيته أو لم يطلبه، فإن حالة العطاء المبتدأ يعطي ذلك فإنه اتصف فيه بصفة الحق من الجود المطلق حيث لم يكن عطاؤه جزاء، ولما كان حاله هذا فكما أن الله تعالىٰ يطلب الجزاء على ما امتن به من النعم على عباده وهو الشكر عليها ومعرفة النعم منه ويجازى هو على ذلك الشكر وعلى تلك المعرفة، كذلك يعطي هذا العبد المنعم على غيره ابتداء إطلاق لسان المنعم عليه بالشكر والثناء عليه، ثم يتولى الله جزاءه به لا بالجنة حتى اتصف بهذا العطاء بصفته تعالىٰ، فهذا قد أبنت محتملات ما يتضمنه هذا المنزل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والتسعون ومائتان
في معرفة منزل سبب وجود عالم الشهادة
وسبب ظهور عالم الغيب من الحضرة الموسوية

[نظم: الوافر]

إذا ما الشمسُ كان لها شُعاعٌ ... فذاك النورُ من قِبَلي أتاها
إذا ما الموتُ حلَّ بكل نفسٍ ... فذاك الموتُ من ربٍّ بَرَاهَا
إذا ما جنَّةُ المَأوى تجلَّتْ ... مزيَّنَةً إلينا في حُلاهَا

نَعِمْنا بالرياح لما حَوَتْهُ ... من الطِّيبِ المُمَسَّك في شَذاهَا
وإن طُمِسَتْ نجومٌ في سماءٍ ... فذاك الطَّمْسُ أورثَها زَهَاهَا
وإن دخلتْ نفوسٌ في نفوسٍ ... فإن دُخُولَها فيها مُنَاهَا
وعمَّارُ القفار لها شُرودٌ ... من الصَّيْد الذي يفني ذَمَاهَا
ولو أن الرَّسُولَ يرى نُفوساً ... تردُّ رسالتَيْه لما أتاهَا
ولو عرضَتْ عليه الحُجُبُ عما ... يجيء به المنازعُ ما أبَاهَا
ولو أن الجواريَ سابحاتٌ ... إلى أَمَدٍ لحُقِّقَ مُنْتَهَاهَا
ولو أن اللَّيالِيَ مُرْسِلاتٌ ... غدائرَها لما شَقُّوا دُجَاهَا
ولو أن الصَّباحَ يَرى وجوهاً ... مُنَوَّرَةَ الجوانبِ من ضُحَاهَا
لأخْجَلَه ومات بها غراماً ... وهيَّمَه وتيَّمه هَوَاهَا
ولو أن الهلالَ يكون بَدْراً ... لأربعةٍ وعَشْرٍ ما تَلاهَا
ولو أن البحارَ تكون ماءً ... فُراتاً لم يَلَذَّ به سواهَا
ولو أن الأراضيَ ذاتُ سَطْحٍ ... لما قال المُهَيْمِنُ قد دحاهَا
وأظْهَرَ فيه زينةَ كلِّ شيءٍ ... وأخْفَى حكمةً فيه ثراهَا
ولو أن الديارَ بها أنيسٌ ... لكان أنيسَها ربٌّ بناهَا
ولكنْ لا يصحُّ الأنسُ عندي ... بذاتٍ ما لها صفةٌ تراهَا
ولو أن العَوَاليَ في سَفَالٍ ... لكان سَفَالُها أعلى ذُرَاهَا
ولو أن الرَّواسيَ شامخاتٌ ... لكان شُموخُها ممَّنْ عَلاهَا
ولكنَّ الشموخَ لها مقامٌ ... به ربُّ البريَّةِ قد حَبَاهَا
ولو أن الصَّحيفةَ قَيَّدتْ مَنْ ... يُقَيِّدُها لريّ قد مَحَاهَا
ولو أن الجحيمَ تكون ناراً ... بلا بَرْدٍ مَشَيْتُ على هَواهَا
ولكن العذابَ وجودُ ضدٍّ ... تراه النفسُ ذَوْقاً في جَنَاهَا
ولو أن المحبَّةَ ذاتُ شَخْصٍ ... لأضْعَفَ شَوْقُها منها قُوَاهَا
ولو نَظَرَ المشرِّعُ حين تخلو ... بمن تَهْواه شَرْعاً ما نَهَاهَا
ولو أن السماءَ بلا نجوم ... لنَوَّرَها قليلٌ من سَنَاهَا
ولو أن الرياحَ جَرَتْ رُخَاءً ... لزَعْزَعَها وافْقَدَها رُخَاهَا
ولو أن المياهَ تَغُور غَوْراً ... لأحْيَا العالمينَ ندا يَدَاهَا
ولو أن السَّحابَ حَمَتْ حياها ... عن الكُفَّار أغْنَاهم حَيَاهَا
ولو أن الجبالَ تسيرُ سَيْراً ... لكان سَمَاؤها منها ثَرَاهَا
ولو أن العيونَ تَرَى سَنَاها ... بلا حُجُبٍ لحلَّ بها عَمَاهَا
ولو أن الملوكَ تراكَ عَيْناً ... إذا أقْبَلْتُمُ حلَّتْ حَبَاهَا
ولو نَطَق الكتابُ بكل حَمْدٍ ... على أحدٍ من الدنيا عَنَاهَا

ولو أن المُغيرَ يُغيرُ صُبْحاً عليها في الفلاة لما سَبَاهَا
ويَثْبتُ في مواقفَ مُهْلِكاتٍ لقوّتها إذا أمرٌ دَهَاهَا
لقد أقسمْتُ بالسَّبْع المَثَانِي ومن سُوَرِ الحروف بعين طَه
لقد أبصَرْتُ عينَ الشمس تَخْفَى عن الأبصار إذ تُعْطِي نَدَاهَا
فتُبْصِرُ جوَّها بيدي سَحَاباً وتُبْصِرُ أرضَها تزهو رُبَاهَا
وتُظْهِرُ حُسْنَها لعَمَى عيونٍ ويُخْفي طَرْفُها عنا عَنَاهَا
ولما قِيلَ قد رحلَتْ وغابَتْ وقد تركَتْ خليفَتَها أخَاهَا
أجَبْتُ رسولَها لما أتاني ليسأل أن تكلِّمَني شفَاهَا
فقلتُ السِّتْرُ أوْلَى بي لأني رأيتُ فناءَ عيني في فَنَاهَا
فما رحلَتْ لبغْضٍ كان منها ولكن كان عن حادٍ حَدَاهَا
أجابَتْهُ لأمرٍ واعتناءٍ به جُودُ المُهَيْمِنِ قد حَذَاهَا
فصار الكلُّ مُفْتَقراً إليها وصار الكونُ يَرْغَبُ في جِدَاهَا
فكم من حُفْرةٍ قد كنتُ فيها ولولاها لمِلْتُ على شَفَاهَا
لعلَّةِ شَهْوةٍ لو أن عيسَىٰ تؤيِّده الأُسَاةُ لما شَفَاهَا
وكم من طَعْمَةٍ أكلَتْ بحرْصٍ لشهوتها ولم تَبْلُغْ أنَاهَا
وكم من شَهْوةٍ نظرتْ إلينا ونلناها عُصِمْنَا من أذاهَا
ولم تَكُ نفسُنا يوماً نوتها وكان العقلُ قد أخْفَى نَواهَا
مَخَافةَ أن تطالبه نفوسٌ بها والعقلُ يَحْذرُ من جَفَاهَا
ولا خطرَتْ له يوماً ببالٍ ولا حكَمَتْ عليه ولا نَوَاهَا
ولكنَّ الشريعةَ أثبتَتْها إلى أهلِ السعادة في خَسَاهَا
فنالوها ولم تُعْقِبْ حجاباً وصانَهُمُ المُهَيْمِنُ عن زَكَاهَا

اعلم أيّدنا الله وإياك أن هذه القصيدة وكل قصيدة في أوّل كل باب من هذا الكتاب ليس المقصود منها إجمال ما يأتي مفصلاً في نثر الباب والكلام عليه، بل الشعر في نفسه من جملة شرح ذلك الباب، فلا يتكرر في الكلام الذي يأتي بعد الشعر، فلينظر الشعر في شرح الباب كما ينظر النثر من الكلام عليه، ففي الشعر من مسائل ذلك الباب ما ليس في الكلام عليه بطريق النثر وهي مسائل مفردات تستقل كل مسألة في الغالب بنفسها إلاّ أن يكون بين المسألتين رابط، فيطلب بعضها بعضاً كالإنسان فإنه يطلب الكلام في الحيوان بما فيه من الإحساس، ويطلب النبات بما فيه من النموّ والغذاء، ويطلب الجماد بما فيه ممّا لا يحسّ كالأظفار والشعر، فيتعلق بالنبات لنموّها ويتعلق بالجماد لعدم إحساسها، وما في الوجود شيء أصلاً لا يكون بينه وبين شيء آخر ارتباط أصلاً حتى بين الرب والمربوب، فإن المخلوق يطلب الخالق والخالق يطلب المخلوق، ولذا كان العلم من العالم على صورة المعلوم وخرج المعلوم على صورة العلم وإن لم يكن كذلك فمن أين يقع التعلّق؟ فلا تصحّ

المنافرة من جميع الوجوه أصلاً، فلا بدّ أن تتداخل المسائل للارتباط الذاتي الذي في الوجود بين الأشياء كلها، فافهم ما أشرت به إليك في هذا الارتباط فإنه ينبىء عن أمر عظيم إن لم تتحققه زلّت بك قدم الغرور في مهواة من التلف، فإنه من هنا تعرف ما معنى قول من قال بحدوث العالم ومن قال بقدم العالم مع الإجماع من الطائفتين بأنه ممكن، وأن كل جزء منه حادث وليس له مرتبة واجب الوجود بنفسه، وإنما هو عند بعضهم واجب الوجود بغيره، إما لذات الموجد عند بعضهم، وإما لسبق العلم بوجوده عند آخرين.

ولولا صحة الارتباط الذي أشرنا إليه لما صحّ أن يكون العالم أصلاً وهو كائن، فالارتباط كائن والمنافرة وعدم المنافرة من وجه آخر، فكل حقيقة إلهية لها حكم في العالم ليس للأخرى وهي نسب، فنسبة العالم إلى حقيقة العلم غير نسبته إلى حقيقة القدرة، فحكم العلم فيه لا مناسبة بينه وبين المقدور، وإنما مناسبته بينه وبين المعلوم، والأمر من كونه معلوماً يغاير كونه مقدوراً، فإذا نظرته على هذا النسق قلت: لا مناسبة بين الله وبين عباده، وإذا نظرت بالعين الأخرى أثبت النسبة فإنها موجودة في الكل فاحكم بحسب ما تراه وما يغلب عليك في الوقت، وإذا تبينت الحقائق لذي عينين فليقل ما حدّ له الشرع أن يقول ولا يقل بعقله، فإن إطلاق الألفاظ منها ما هو محجور علينا مع صحة المعنى، ومنها ما هو مباح لنا مطلقاً مع فساد المعنى، كإطلاق نسبة الظرفية لمن لا يقبل الظرفية، وكنسبة استفادة العلم لمن لا يستفيد علماً، فالإطلاق مشروع والوجه المنافي معقول، كما حجر إطلاق نسبة الولد وأدخله تحت حكم لو، وكما حجر تبديل القول الإلهيّ في قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] وأدخله تحت لو، ولا يدخل تحت لو إلاّ الممكن، والعقل يدل على الإحالة في الولد دلالة عقلية، ويدل على الإمكان في هداية الناس أجمعين دلالة عقلية، ويدل على إحالة هداية الناس أجمعين لما سبق في العلم من الاختلاف دلالة عقلية، وتدل لفظة لو على أنه مخيّر في نفسه إن شاء شاء أمراً ما، وإن شاء لم يشأ ذلك الأمر، وهذا ورد به الإخبار الإلهيّ ويحيله العقل، وقد أمرنا الله بالعلم به وجعل الآيات دلائل لأولي الألباب ولكن ما هي دلائل عليه خاصة فلا يخلو الأمر في أمره إيانا بالعلم به هل نسلك في ذلك دلالة الشارع والوقوف عند إخباره تقليداً أو نسلك طريقة النظر فيكون معقولاً؟ أو نأخذ من دلالة العقل ما يثبت به عندنا كونه إلهاً؟ ونأخذ من دلالة الشرع ما نضيفه إلى هذا الإله من الأسماء والأحكام، فنكون مأمورين في العلم به سبحانه شرعاً وعقلاً وهو الصحيح، فإن الشرع لا يثبت إلاّ بالعقل، ولو لم يكن كذلك لقال كل أحد في الحق ما شاء ممّا تحيله العقول وما لا تحيله، وهم قد فعلوا ذلك مع الإيمان بالشرع، ودخلوا بالتأويل في أمور لا حاجة لهم بها، ولو استغنوا عنها لم يطالبهم العقل بذلك ولا سألهم الشرع عن ترك ذلك، بل يسألهم الشرع عن فعل ذلك وهم فيه على خطر، ولا حجة على ساكت إلاّ إذا وجب عليه الكلام فيما سكت فيه.

وقد اندرج في هذا الكلام جميع ما ذكرناه في القصيدة التي في أوّل الباب، فإنه جميع ما عدد فيها من الأمور تطلب حقائق إلهية تستند إليها وتنافر حقائق إلهية، فممّا يتضمن هذا

المنزل تجلّي الحجاب بين كشفين، وتجلّي الكشف بين حجابين، وما في المنازل منزل يتضمن هذا الضرب من التجلّي إلاّ هذا المنزل، فإن التجلّي المنفرد في المظهر من غير بينية يعطي ما لا يعطيه في البينية، والتجلي المفرد الذاتي في غير المظهر يعطي ما لا يعطيه في البينية، وهذا التجلّي الواقع في البينية يعطي الحصر بين أمرين، وكل محصور محدود بمن حصره، وهذا أعجب المعارف في هذا الطريق أن يكون التجلّي الذاتي الذي له الإطلاق محصوراً، فهو كما يقال عن القاعد في حال قعوده إنّه قائم، فظاهر الأمر أنه لا يتصوّر، فسبحان من تنزّه عن الأضداد وقبلتها أوصافه، قال ﷺ: «**تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ بِالظَّهِيرَةِ**» فإن كان أراد النهار بهذا اللفظ فقد عمّ التجليات الذاتية، وإن اختلفت في حكم التجلي كاختلاف صفة تنزيهه باسمه الغنيّ عن الفقر وصفة تنزيهه بالأحدية عن الشريك بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١١] كذلك التجليات الذاتية البصرية مثل هذه التجليات الذاتية العقلية، وإن كان أراد بالظهيرة وقتاً معيناً في النهار وهو الأظهر في المعنى المحقق واللفظ، وعليه أولى أن يحمل هذا القول، فإن النهار كله تجلّ ذاتي لأن الشمس فيه ظاهرة بذاتها فإن النهار جلاها للأبصار، وإن كان النهار معلولاً عنها فظهرت بذاتها من أوّل شروقها إلى حال غروبها، ولها تجلٍ وحكم في كل دقيقة يعرفها من يعرفها ويجهلها من يجهلها، والذي يعرف الكل من ذلك ما امتدّ زمانه، فيفرّقون ما بين حكمها في طلوعها وشروقها، وحكمها في إشراقها، وحكمها في ضحاها، وحكمها في زوالها وهو أوّل غشيها، وحكمها في عصرها، وحكمها في قبض ضوئها وقلة سلطانه عمّا كان عليه فيما يقابله من أوّل النهار وصدره، وحكمها عند سقوطها ولكل تجلّ وإن كان ذاتياً حكم ليس للآخر، فما عدا الطرفين فهو تجلّ ذاتي بين تجليين ذاتيين إلاّ الطرفين فهو تجلّ ذاتي عقيب تجلّ حجابي، والطرف الآخر تجلّ ذاتي يعقبه تجلّ حجابي، فهو تجلّ ذاتي بين تجلّ ذاتي وحجابي، وقد رمينا بك على الطريق فافهم من حالات تغير الأحكام الشمسية في هذه الآنات ووقوع التشبيه منها في آن معين وهو الظهيرة وحالة الصحو وعدم السحاب بينها وبين الرائي، وخذ أنت في الآنات الباقية آثار التجلي الذاتي.

فاعلم أن النور المنبسط على الأرض الذي هو من شعاع الشمس الساري في الهواء ليس له حقيقة وجودية إلاّ بنور البصر المدرك لذلك، فإذا اجتمعت العينان عين الشمس وعين البصر استنارت المبصرات وقيل: قد انبسط الشمس عليها، ولذلك يزول ذلك الإشراق بوجود السحاب الحائل، لأن العين فارقت هذه العين الأخرى بوجود السحاب وهي مسألة في غاية الغموض لأني أقول: لو أن الشمس في جوّ السماء وما في العالم عين تبصر من حيوان ما كان لها شعاع منبسط في الأرض أصلاً، فإن نور كل مخلوق مقصور على ذاته لا يستنير به غيره، فوجود أبصارنا ووجود الشمس معاً أظهر النور المنبسط، ألا ترى الألوان تنقلب في الجسم الواحد المتلوّن بالخضرة مثلاً أو الحمرة إذا اختلفت منك كيفيات النظر إليه من الاستقامات والانحرافات كيف يعطيك ألواناً مختلفة محسوسة تدركها ببصرك لا وجود لها في

الجسم المنظور إليه في الشمس ولا تقدر تنكر ذلك، ولا سيما إذا كان الجسم المنظور إليه في الشمس فقد أدركت ما لا وجود له حقيقة بل نسبة، كذلك النور المنبسط على الأرض، وكتقلب الحرباء في لون ما تكون عليه من الأجسام على التدريج شيئاً بعد شيء ما هي مثل المرآة تقبل الصورة بسرعة ولا هي جسم صقيل، وإدراك تقلبها في الألوان محسوس، مع علمك بأن تلك الألوان لا وجود لها في ذلك الجسم الذي أنت ناظر إليه ولا في أعيانها في علمك، كذلك العالم مدرك لله في حال عدمه فهو معدوم العين مدرك لله يراه فيوجده لنفوذ الاقتدار الإلهيّ فيه، ففيض الوجود العيني إنما وقع على تلك المرئيات لله في حال عدمها، فمن نظر إلى وجود تعلّق رؤية العالم في حال عدمه وأنها رؤية حقيقية لا شك فيها وهو المسمّى بالعالم، ولا يتصف الحق بأنه لم يكن يراه ثم رآه بل لم يزل يراه، فمن قال بالقدم فمن هنا قال، ومن نظر إلى وجود العالم في عينه لنفسه ولم يكن له هذه الحالة في حال رؤية الحق إياه قال بحدوثه، ومن هنا تعلم أن علة رؤية الرائي الأشياء ليس هو لكونها موجودة كما ذهب إليه من ذهب من الأشاعرة، وإنما وجه الحق في ذلك إنما هو استعداد المرئي لأن يرى سواء كان موجوداً أو معدوماً، فإن الرؤية تتعلق به.

وأما غير الأشاعرة من المعتزلة فإنها اشترطت في الرؤية البصرية أموراً زائدة على هذا تابعة للوجود ولهذا صرفت الرؤية إلى العلم خاصة، فأما تجلّي الذات بين تجليين حجابيين فلا بدّ أن يظهر في ذلك التجلي الذاتي من صور الحجابين أمر للرائي، فيكون ذلك التجلي له كالمرآة يقابل بها صورتين فيرى الحجابين بنور ذلك التجلي الذاتي في مرآة الذات، كما تشهد الفقر في حال تنزيهك الحق عنه سبحانه الغنيّ الحميد، وإن لم يكن الأمر كذلك فكيف تنزّهه عمّا ليس بمشهود لك عقلاً؟ فهكذا صورة الحجاب في الذات عند التجلي، وأوضح من هذا فلا يمكن، فإذا أدرك العارف صورة هذين الحجابين أو صورة الحجاب والتجلي الذاتي الذي هذا التجلي الذاتي الآخر بينهما أو أدرك التجليين الذاتيين في مجلى الحجاب الواقع بينهما فليكن ذكره وعمله بحسب ما تعطيه تلك الصورتان في ذلك المجلى، والعلة في أنه لا يدرك أبداً في التجلي أيّ تجلٍّ كان إلاّ صورتين لا بدّ منهما لكون الواحد يستحيل أن يشهد في أحديته.

ولما كان الإنسان لا تصحّ له الأحدية وهو في الرتبة الثانية من الوجود فله الشفعية لهذا لا يشاهد في التجلي إلاّ الصورتين الذي هو المجلى بينهما، فلا يرى الرائي من الحق أبداً حيث رآه إلاّ نفسه، فهذا التجلي يعرفك بنفسك وبنفسه، فإن كان التجلي بين حجابين كانت الصورتان عملاً، إن كان في الدنيا فيكون عمل تكليف مشروع، وإن كان في الآخرة فيكون عمل نعيم في منكوح أو ملبوس أو مأكول أو مشروب أو تفرّج بحديث أو كل ذلك أو ما أشبه ذلك بحسب الحجاب، ولهذا إذا رجع الناس من التجلي في الدار الآخرة يرجعون بتلك الصورة ويرون ملكهم بتلك الصورة وبها يقع النعيم ويظهر أن النعيم متعلقه الأشياء وليس كذلك، وإنما متعلق النعيم وجود الأشياء أو إدراكها على تلك الصور الحجابية التي أدركها في

المجلى الذاتي، وإن كان التجلي تجلياً حجابياً بين تجليين ذاتيين كتجلي القمر بين الضحى والظهيرة وتجلي الليل بين نهارين كانت الصورتان في ذلك المجلى الحجابي علماً لا عملاً ولكن من علوم التنزيه، فتتحلى به النفس وتنعم به النعيم المعنوي وتلك جنتها المناسبة لها فافهم.

وإن كان التجلي الذاتي بين تجلّ حجابي وذاتي كانت الصورتان صورة علم لا صورة عمل، فالتجلي الذاتي في الذاتي صورة علم تنزيه لا غير، وصورة التجلي الحجابي فيه صورة علم تشبيه وهو تخلّق العبد بالأسماء الإلهية وظهوره في ملكه بالصفات الربانية، وفي هذا المقام يكون المخلوق خالقاً ويظهر بأحكام جميع الأسماء الإلهية، وهذه مرتبة الخلافة والنيابة عن الحق في الملك، وبه يكون التحكم له في الموجودات بالفعل بالهمة والمباشرة والقول. فأما الهمة فإنه يريد الشيء فيتمثل المراد بين يديه على ما أراده من غير زيادة ولا نقصان. وأما القول فإنه يقول لما أراده ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] ذلك المراد، أو يباشره بنفسه إن كان عملاً، كمباشرة عيسىٰ الطين في خلق الطائر وتصويره طائراً وهو قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص: الآية ٧٥] فللإنسان في كل حضرة إلٰهية نصيب لمن عقل وعرف، وإن كان التجلّي الحجابي بين تجلّ حجابي وذاتي فالتجلّي الحجابي في الحجابي علم ارتباطه بالحق من حيث ما هو دليل عليه وكونه سبباً عنه وأنه على صورته ونسبة الشبه به. وأما صورة التجلّي الذاتي فهو علم تجلي الحق في صفات المخلوق من الفرح والتعجب والتبشبش واليد والقدم والعين والناجذ واليدين والقبضة واليمين والقسم للمخلوق بالمخلوقين وبنفسه واتصافه بحجب النور والظلم وبحصر سبحاته المحرقة خلف تلك الحجب النورية والظلمية، وقد حصرت لك مقام التجليات في أربع وليس ثم غيرها أصلاً.

ولما أعطت الحقيقة في التجليات الإلهية أنها لا تكون إلاّ في هذه الأربع في العالم كانت الموجودات كلها على التربيع في أصلها الذي ترجع إليه، فكل موجود لا بدّ أن يكون في علمه علم تنزيه أو علم تشبيه، وفي عمله إما في عمل صناعي أو عمل فكري روحاني، ولا تخلو من هذه الأربعة الأقسام، وكذا الطبيعة أعطت بذاتها لحكم هذه التجليات، فإن الموجودات إنما خرجت على صورة هذه التجليات، فكانت الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة وهي في كل جسم بكمالها، غير أنه قد تكون في الجسم على التساوي في القوّة وهو سبب بقاء ذلك الجسم، وقد لا تكون في الجسم على السواء في القوّة، فتكون العلل لذلك الجسم مستصحبة وحالات الأمراض تنقلب عليه بحسب غلبة بعضها على بعض، فإن أفرطت كان الموت وإفراطها منها، فإن السبب الموجب لإفراطها إنما وقع منها بمأكول يأكله الإنسان أو الحيوان، فما يكون الغالب في ذلك المأكول أو المباشر يزيد في كمية ما يناسبه من الجسم إن كان حاراً قوي الحرارة، وإن كان بارداً قوي البرودة، وكذلك ما بقي.

ثم إنه لما ألّف بين هذه الأربعة لم يظهر إلاّ أربعاً ولا قبلت إلاّ أربعة وجوه، فإن حقائق تلك التجليات الأربعة أعطت أن لا تأتلف من هذه الأربع إلاّ وزنها في العدد، ولهذا كانت

منها المنافرة من جميع الوجوه والمناسبة كما ذكرناه في الإلهيات في أوّل هذا الباب، وتلك الحقيقة الإلهية حكمت على العالم أن يكون بتلك المثابة إذ كان المعلوم على صورة العلم وعلمه ذاته فافهم، فالمنافرة كالحرارة والبرودة وكذلك الرطوبة واليبوسة، فلذلك لا تجتمع الحرارة والبرودة ولا الرطوبة واليبوسة في حكم أبداً، وأوجد الله العناصر أربعة عن تأليف هذه الطبائع، فكان النار عن الحرارة واليبوسة، ثم لم يجعل ما يليه ما ينافره من جميع الوجوه بل جعل إليه ما يناسبه من وجه وإن فارقه من وجه، فكان الهواء له جاراً بما يناسبه من الحرارة، وإن نافره بالرطوبة فإن للوساطة أثراً وحكماً لجمعها بين الطرفين فقويت على المنافرة لهما، فالهواء حارّ رطب فيما هو حارّ يستحيل إلى النار بالمناسب وغلب الوساطة وبما هو رطب يستحيل إلى الماء بالمناسب، ثم جاور الهواء من الطرف الأسفل الماء، فقبل الهواء جوار النار للحرارة، وقبل جوار الماء للرطوبة وإن نافره بالبرودة كما نافره الهواء بالحرارة، وكذلك جاور بين التراب وبين الماء للبرودة الجامعة لمجاورتهما، فما ظهر عنها إلاّ أربعة لذلك الأصل. وكذلك الجسم الحيواني المولد جعل أثر النار فيه الصفراء، وأثر الهواء الدم، وأثر الماء البلغم، وأثر التراب السوداء، فركب الجسم على أربع طبائع، وكذلك القوى الأربعة الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة.

وكذلك قرن السعادة والشقاء بالأربعة: باليمين والشمال والخلف والأمام، لأن الفوقية لا يمشي الجسم فيها بطبعه، والتحتية لا يمشي فيها الروح بطبعه، والإنسان والحيوان مركب منهما، فما جعلت سعادته وشقاوته إلاّ فيما يقبله طبعه في روحه وجسمه وهي الجهات الأربع، وبها خوطب، ومنها دخل عليه إبليس فقال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧] ولم يقل من فوقهم ولا من تحتهم لما ذكرناه، فإبليس ما جاءه إلاّ من الجهات التي تؤثر في سعادته إن سمع منه وقبل ما يدعوه إليه، وفي شقاوته إن لم يسمع منه ولم يقبل ما دعاه إليه، فسبحان العليم الحكيم مرتب الأشياء مراتبها. وهكذا فعل العالم الجسمانيّ العلوي فجعل البروج التي جعل الأحكام عنها في العالم على أربع: نارية وترابية وهوائية ومائية. وكذلك جعل أمّهات المطالب أربعة: هل وما ولِمَ وكيف. وكذلك أمّهات الأسماء المؤثرة في العالم وهو: العالم والمريد والقادر والقائل. فعلمه بكونه يكون في وقت كذا على حالة كذا دون ذلك لا يمكن، فهذا العلم علّق الإرادة بتعين ذلك الحال، فالقائل علّق القدرة بإيجاد تلك العين فعلم فأراد وقال فقدر فظهرت الأعيان عن هذه الأربعة، فالحرارة للعلم واليبوسة للإرادة، والبرودة للقول، والرطوبة للقدرة. فللحرارة التسخين، ولليبوسة التجفيف، وللرطوبة التليين، وللبرودة التبريد. قال تعالىٰ: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٩] فذكر المنفعلين دون الفاعلين لدلالتهما على من كانا منفعلين عنهما وهما الحرارة انفعل عنها اليبوسة وكذلك البرودة انفعل عنها الرطوبة، فانظر ما أعطته هذه التجليات بحصرها فيما ذكرناه.

وكذلك العالم سعيد مطلق، وشقي مطلق، وشقي ينتقل إلى سعادة، وسعيد ينتقل إلى

شقاوة، فانحصرت الحالات في أربع، ومنه: الأوّل والآخر والظاهر والباطن، وما ثم خامس، وهذه نعوت نسبته مع العالم. ومراتب العدد أربعة لا خامس لها وهي: الآحاد والعشرات والمئات والآلاف، ثم يقع التركيب وتركيبها كتركيب الطبائع لوجود الأركان سواء.

واعلم يا أخي أنه ليلة تقييدي لبقية هذا المنزل من بركاته رأيت رسول الله ﷺ وقد استلقى على ظهره وهو يقول: ينبغي للعبد أن يرى عظمة الله في كل شيء حتى في المسح على الخفين ولباس القفازين، وكنت أرى في رجليه ﷺ نعلين أسودين جديدين وفي يديه قفازين وكأنه يشير إليّ مسروراً بما وضعته في هذا المنزل من العلم بما يستحقه جلال الله ثم يقول: ما دام البدر طالعاً فالنفوس في البساتين نائمة وفي جواسقها آمنة، فإذا كان الظلام ولم يطلع البدر خيف من اللصوص، فينبغي أن يدخل الإنسان المدينة حذراً من اللصوص، فكنت أفهم عنه من هذا الكلام أنه يريد أن النفوس إذا كان شهود الحق غالباً عليها محققة به وفيه عند من يدخل بساتين معرفة الله والكلام في جلاله على ضروبه وكثرة فنونه، فشبه الحق بالبدر، وشبه ما تحويه البساتين من ضروب الفواكه بما تحوي عليه الحضرة الإلهية من معارف الأسماء الإلهيّة وصفات الجلال والتعظيم، وفهمت منه في المنام من قوله إذا غاب البدر وذلك شهود الحق في الأشياء والحضور معه والنية الخالصة فيه كان ظلام الجهل والغفلة عن الله والخطأ وخيف من اللصوص يريد الشبه المضلة الطارئة لأصحاب النظر الفكري وأصحاب الكشف الصوري، فذكر ذلك خوفاً على النفوس إذا اشتدت في الكلام على ما يستحقه جناب الحق فليدخل المدينة يريد فليتحصن من ذلك بالشرع الظاهر وليلزم الجماعة وهم أهل البلد فإن يد الله مع الجماعة. ثم رأيته ﷺ يتقلق قلقاً عظيماً بجميع أعضائه لعظيم ما هو فيه من السرور بما يتضمنه هذا المنزل من المعرفة وكانتا في الليل والبدر طالع حتى كان منه في النهار أرى البدر يضيء في كبد السماء وقائل يقول: لم ير رسول الله ﷺ في قلق عظيم لما يرد عليه من الله ويشهده، واستيقظت فقيدت الرؤيا في هذا المنزل واستبشرت بما رأيته لله الحمد على ذلك.

ويتضمن هذا المنزل علوماً جمّة، وما من منزل إلاّ ويحتمل ما يحوي عليه من المعارف مجلدات كثيرة، فقلت لأصحابي في هذه الليلة: إنما أجعل من المنزل بعض ما يحوي عليه من المعارف مسألة من مسائله، فسألني بعض أصحابي قال: إذا كان الأمر على هذا فنبهنا على عدد ما يحويه من المسائل بذكر رؤوس أصولها خاصة لنعرفها من غير تفصيل مخافة التطويل، فقلت: إن شاء الله ربما أفعل ذلك فيما بقي علينا من هذه المنازل في هذا الكتاب، فكانت عليّ هذه الليلة ليلة مباركة. فاعلم أن هذا المنزل يتضمن علم التجلي في النجوم على كثرتها في كل نجم منها في آن واحد برؤية واحدة وعلم تداخل التجليات وعلم تجلي التابع والمتبوع، وهل يحصل للتابع ذوق من تجلي المتبوع أم لا؟ فإن المتبوع إنما جاء يدعو إلى الله ما جاء يدعو إلى نفسه فقال: ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦٤] وقال: ﴿أَدْعُوٓا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] فجعل للتابع نصيباً في الدعاء إلى

الله، فكل علم يستقل به الإنسان من كونه عاقلاً لا يحتاج فيه إلى غيره من رسول ولا دال عليه كالعلم بتوحيد الله وما يجب له، وكذلك ما يحصل له من الفيض الإلهيّ في الكشف في خلواته وطهارة نفسه بمكارم الأخلاق، فمثل هذا يكون له من التجلي مثل ما للمتبوع لأنه ليس بتابع إنما هو ذو بصيرة، إما لدليل عقل سار أو لكشف محقق هو فيه مثل المتبوع، وكل إنسان ما له هذا المقام وكان الذي عنده من العلم بالله أخذه إيماناً من المتبوع ومشى عليه، ويكون ذلك العلم ممّا لا يمكن أن يحصل إلاّ على طريقة الرسول ﷺ وهو علم التقرّب إلى الله من كونه قربة لا من كونه علماً. وكذلك الأعمال البدنية والقلبية على طريق القربة لا تعلم إلاّ من المتبوع، فإذا كان التجلي في هذا المقام لصاحب هذا العلم فلا يلحق فيه التابع المتبوع أبداً، فهو للمتبوع تجلّ شمسي وهو للتابع تجلّ قمري ونجومي فاعلم ذلك.

وممّا يتضمنه هذا المنزل تجلي الحق لأهل الشقاء في غير الاسم الرب مع أن الله ما جعل الحجاب إلاّ في يومئذ مخصوصاً، وفي اسم الرب المضاف إليهم لا في إطلاق الاسم فهم في الحجاب في زمان مختص من اسم مضاف خاص بهم، فلا يمنع تجليه في هذا الاسم الخاص لهم في غير ذلك الزمان وفي اسم الرب المطلق وفي غيره من الأسماء قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ فأضافه إليهم يومئذ ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ١٥] فجعله زماناً معيناً فافهم. ويتضمن هذا المنزل أنه ليس كل تجلّ يقع به النعيم، وأن النعيم بالتجلي إنما يقع للمحبين المشتاقين الذين وفوا بشروط المحبة، ويتضمن هذا المنزل بطون عالم الشهادة في الغيب فيرجع ما كان شهادة غيباً وما كان غيباً شهادة، وهكذا ذهب إليه بعض العارفين في نشأة الآخرة أن الأجسام تكون مبطونة في الأرواح، وأن الأرواح تكون لها ظروفاً ظاهرة بعكس ما هي في الدنيا، فيكون الظاهر في الدار الآخرة، والحكم للروح لا للجسم، ولهذا يتحوّلون في أية صورة شاؤوا لغلبة الروحية عليهم وغيبية الجسم فيها، كما هم اليوم عندنا الملائكة وعالم الأرواح يظهرون في أية صورة شاؤوا، ومن منازل أصحاب الكشف الذين أنكروا حشر الأجسام فإنهم أبصروا في كشفهم الأمر الواقع في الدار الآخرة ورأوا أرواحاً تتحول في الصور كما يريدون، وغيب عنهم ما تحوي عليه تلك الأرواح من الجسمية كما غاب عنهم في هذه الدار في البشر الروحانية المبطونة في الأجسام فكانت الأجسام قبوراً لها، وفي الآخرة بالعكس الأرواح قبور الأجسام فلهذا أنكروا ذلك، والكشف التام الذي فزنا به وأصحابنا هنا وفي الآخرة أنا كشفنا الأرواح هنا وغلب الأجسام الطبيعية عليها في الصورة الظاهرة، فلا يرى من الأرواح في ظاهر الأجسام إلاّ آثارها، ولولا الموت والنوم ما عرف غير المكاشف أن ثم أمراً زائداً على ما يشاهده في الظاهر، ومع وجود الموت والسكون وظهور الجسم عرياً عمّا كان له من الآثار ذهبت طائفة إلى هذا المذهب وهم الحشيشية، فما رأت أن ثم خلف هذه الصورة الظاهرة شيئاً أصلاً، فكيف بهؤلاء لو لم يكن موت في العالم.

ويتضمن هذا المنزل معرفة العالم العلوي وترتيب صورته في تركيبه وأنه على خلاف ما يذكره أصحاب علم الهيئة وإن كان ما قالوه يعطيه الدليل، ويجوز أن يكون الله يرتبه على ذلك

ولكن ما فعل، مع أنه يعطي هذا الترتيب ما يعطيه ما ذهب إليه أصحاب علم الهيئة، ويتضمن علم ما أودع الله في العالم السفلي في ترتيبه من الأمور، ويتضمن معرفة المكلفين ومن أين كلفت وما يحرّكهم، ويتضمن علم القربات، ويتضمن علم سبب قصم الجبابرة المتكبرين على الله، ويتضمن إلحاق الحيوان بالإنسان في العلم بالله، ويتضمن علم العواقب ومآل كل عالم، فقد ذكرت رؤوس مسائله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والتسعون ومائتان

في معرفة المنزل المحمدي المكي من الحضرة الموسوية

[نظم: الخفيف]

حــرَّم الله قَــلْــبَ كــل نــبــيٍّ   وكــذا قــيــل قَــلْــبَ كــلِّ ولــيِّ
ورثــوه وورَّثــوه بــيــنــهــم   فــي عــلــوم وفــي مــقــام عَــلِــيِّ
فــإذا مــا نــسَــبْــتَ لــلــشَّــرْع عــلــمــاً   فــاطْــلُــبِ الــعِــلْــمَ فــي حُــروفِ الــرَّويِّ
وبــحــارٍ لــهــا مَــعَــارفُ نــورٍ   فــي شــريــفٍ مُــحَــقَّــقٍ ودنــيِّ
ونــبــيٍّ مــطــهَّــرٍ ورســولٍ   وفــقــيــرٍ مُــمَــرْدكٍ وغَــنــيِّ
ونــعــيــم مــرتَّــبٍ فــي عــلــوٍّ   وعــذابٍ مُــقَــسَّــم فــي رُكِــيِّ

اعلم أن هذا المنزل يتضمن علم مرتبة العالم عند الله بجملته، وهل العدم له مرتبة عند الله يتعين تعظيمه من أجلها أم لا؟ وهل من خلق من أهل الشقاء المغضوب عليه له مرتبة تعظيم عند الله أم لا؟ وهل التعظيم الإلهيّ له أثر في المعظم بحيث أن يسعد به أم لا؟ وما سبب تعظيم الله العالم؟ وهل لمن عظم العالم من الخلق صفة يعرف بها أم لا؟ وما الأسماء الإلهية التي تضاف إلى المخلوقين في مذهب من يقول: ما أقسم الله قط إلاّ بنفسه لكن أضمره تارة وأظهره في موطن آخر ليعلم أنه مضمر فيما لم يذكر، وجميع ما يتعلق بهذا الفن يتضمنه هذا المنزل، إن ذكرناها على التفصيل طال الكلام، وممّا يتضمن هذا المنزل علم خلق الإنسان من العالم، وهل الحيوان مشارك له في هذا الخلق أم هو خصيص به، ولم خصّ بهذا الضرب من الخلق؟ وإن كان يشاركه الحيوان فيه فلم عين الإنسان بالذكر وحده؟ ولماذا ذكرت لفظة الإنسان في القرآن حيثما ذكرت ونيط بذكرها إما الذم وإما الضعف والنقص؟ وإن ذكر بمدح أعقبه الذم منوطاً به فالذم كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [سورة العصر: الآية ٢] ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [سورة العاديات: الآية ٦] والضعف والنقص مثل قوله: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٢] وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [سورة البلد: الآية ٤] والذمّ العاقب للمدح كقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين: الآية ٤] هذا مدح ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ [سورة التين: الآية ٥] هذا ذمّ. ويتضمن علم مآل أصحاب الدعاوى التي تعطيها رعونة الأنفس، ويتضمن تقرير النعم الحسية والمعنوية، ويتضمن التخلق بالأسماء، ويتضمن علم القوّة التي أعطيها الإنسان وأن لها أثراً، وفي ذلك ردّ على الأشاعرة وتقوية

للمعتزلة في إضافة الأفعال إلى المكلفين، ويتضمن علم ما يقع فيه التعاون، ويتضمن علم مآل من عرف الدليل وتركه لهوى نفسه، فهذا جميع رؤوس ما يتضمنه هذا المنزل من المسائل، وهي تتشعب إلى ما لا يحصى كثرة إلاَّ عن مشقة كبيرة. فأما مرتبة العالم عند الله بجملته فاعلم أن الله تعالىٰ ما خلق العالم لحاجة كانت له إليه، وإنما خلقه دليلاً على معرفته ليكمل بذلك ما نقص من مرتبة الوجود ومرتبة المعرفة، فلم يرجع إليه سبحانه من خلقه وصف كمال لم يكن عليه بل له الكمال على الإطلاق، ولا أيضاً كان العالم في خلقه مطلوباً لنفسه لأنه ما طرأ عليه من خلقه صفة كمال بل له النقص الكامل على الإطلاق، سواء خلق أو لم يخلق، بل كان المقصود ما ذكرناه مرتبة الوجود، ومرتبة المعرفة أن تكمل بوجود العالم وما خلق الله فيه من العلم بالله لما أعطاه التقسيم العقلي، فإن وصف العالم بالتعظيم فمن حيث نصب دليلاً على معرفة الله وأن به كملت مرتبة الوجود ومرتبة المعرفة، والدليل يشرف بشرف مدلوله. ولما كان العلم والوجود أمرين يوصف بهما الحق تعالىٰ كان لهما الشرف التامّ، فشرف العالم لدلالته على ما هو شريف، فإن قال القائل: كان يقع هذا بجوهر فرد يخلقه في العالم إن كان المقصود الدلالة. قلنا: صدقت وذلك أردنا إلاَّ أن لله تعالىٰ نسباً ووجوهاً وحقائق لا نهاية لها، وإن رجعت إلى عين واحدة فإن النسب لا تتصف بالوجود فيدخلها التناهي، فلو كان كما أشرت إليه لكان الكمال للوجود والمعرفة بما يدل عليه ذلك المخلوق الواحد فلا يعرف من الحق إلاَّ ما تعطيه تلك النسبة الخاصة، وقد قلنا إنّ النسب لا تتناهى فخلق الممكنات لا تتناهى فالخلق على الدوام دنيا وآخرة، فالمعرفة تحدث على الدوام دنيا وآخرة ولذا أمر بطلب الزيادة من العلم، أتراه أمره بطلب الزيادة من العلم بالأكوان؟ لا والله ما أمر إلاَّ بالزيادة من العلم بالله بالنظر فيما يحدثه من الكون فيعطيه ذلك الكون عن أية نسبة إلهية ظهر، ولهذا نبّه ﷺ القلوب بقوله في دعائه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ غَيْبِكَ**» والأسماء نسب إلهيّة، والغيب لا نهاية له، فلا بدّ من الخلق على الدوام، والعالم من المخلوقين لا بدّ أن يكون علمه متناهياً في كل حال أو زمان، وأن يكون قابلاً في كل نفس لعلم ليس عنده محدث متعلق بالله أو بمخلوق يدل على الله ذلك العلم فافهم.

فإن قال القائل: فالأجناس محصورة بما دلّ عليه العقل في تقسيمه وكل ما يخلق ممّا لا يتناهى داخل في هذا التقسيم العقلي إذ هو تقسيم دخل فيه وجود الحق. قلنا: التقسيم صحيح في العقل وما تعطيه قوّته، كما أنه لو قسم البصر المبصرات لقسمها بما تعطيه قوّته وكذلك السمع وجميع كل قوّة تعطي بحسبها، ولكن ما يدل ذلك على حصر المخلوقات فإنها قسمت على قدر ما تعطي قوّتها، وما من قوّة تعطي أمراً وتحصر القسمة فيه إلاَّ ويخرج عن قسمتها ما لا تعطيه قوّتها، فقوّة السمع تقسم المسموعات ومتعلقها الكلام والأصوات لا غير، فقد خرج عنها المبصرات كلها والمطعومات والمشمومات والملموسات وغيرها. وكذلك أيضاً العقل لما أعطى بقوّته ما أعطى لم يدل ذلك على أنه ما ثم أمور إلهية لا تعطى

العلم بتفاصيلها وحقائقها قوّة العقل، وإن دخلت في تقسيمه من وجه فقد خرجت عنه من وجوه، وجائز أن يخلق الله في عبده قوّة أخرى تعطي ما لا تعطيه قوّة العقل فيرد المحال واجباً والواجب محالاً والجائز كذلك، فمن جهل ما تقتضيه الحضرة الإلهيّة من السعة بعدم التكرار في الخلق والتجليات لم يقل مثل هذا القول ولا اعترض بمثل هذا الاعتراض، فإن قال: لا بدّ أن يكون ما خلق تحت حكم العقل وداخلاً في تقسيمه إما تحت قسمة النفي أو الإثبات. قلنا: صدقت ما تمنع أن يكون ما يعلم ممّا كان لا يعلم إما في قسم النفي أو الإثبات، ولكن ما يدخل تحت ذلك النفي أو الإثبات هل يعطي ما يعطي النفي من العلم؟ أو يعطي ما يعطي الإثبات من العلم؟ أو يعطي أمراً آخر؟ فإن النفي قد أعطى من العلم بالله ما أعطى من حيث ما هو نفي لا من حيث ما هو تحت دلالته من المنفيات التي لا نهاية لها، وأن الإثبات قد أعطى من العلم بالله ما أعطى من حيث ما هو إثبات لا من حيث ما تحت دلالته من المثبتين، فإذاً الإيجاد مستمرّ، والعلم فينا يحدث بحدوث الإيجاد.

والمعلوم الذي تعلق به العلم من ذلك الدليل الخاص ليس هو المعلوم الآخر فهو معلوم لله لا للعالم، فكملت مرتبة ذلك العلم بوجوده في هذا العالم الكوني، وكملت مرتبة الوجود الخاص بهذا الموجود بظهور عينه، والذي يعطيه كل موجود من العلم الذوقي لا يعطيه الآخر، ولقد يجد الإنسان من نفسه تفرقة ذوقية في أكله تفاحة واحدة في كل عضة يعض منها إلى أن يفرغ من أكلها ذوقاً لا يجده إلاّ في تلك العضة خاصة والتفاحة واحدة، ويجد فرقاناً حسياً في كل أكلة منها وإن لم يقدر يترجم عنها، ومن تحقق ما ذكرناه يعلم أن الأمر خارج عن طور كل قوّة موجودة كانت تلك القوّة عقلاً أو غيره، فسبحان من تعلق علمه بما لا يتناهى من المعلومات لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم. قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] وقد بيّن لك في هذه الآية أن العقل وغيره ما أعطاه الله من العلم إلاّ ما شاء ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٠] ولذا قال: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ [سورة طه: الآية ١١١] عقيب قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ أي إذا عرفوا أنهم لا يحيطون به علماً خضعوا وذلّوا وطلبوا الزيادة من العلم فيما لا علم لهم به منه، والوجوه هنا أعيان الذوات وحقائق الموجودات إذ وجه كل شيء ذاته، وكل ما خلق الله من العالم فإنما خلقه الله على كماله في نفسه فذلك الكمال وجهه، قال تعالىٰ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ فقد أكمله ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فأعطى الهدى أيضاً الذي هو البيان هنا خلقه، فأبان الأمر لعبيده على أكمل وجوهه عقلاً وشرعاً، ما أبهم ولا رمز ولا لغز: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة يس: الآية ٦٩] ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٤] ولولا البيان ما فصل بين المتشابه والمحكم ليعلم أن المتشابه لا يعلمه إلاّ الله والمحكم يتعلق به علمنا، فلو لم ينزل المتشابه لنعلم أنه متشابه لكوننا نرى فيه وجهاً يشبه أن يكون وصفاً للمخلوق ويشبه أن يكون وصفاً للخالق فلا يعلم معنى ذلك المتشابه إلاّ الله، فلو لم ينزل المتشابه لم يعلم أن ثم في علم الله ما يكون متشابهاً وهذا غاية البيان حيث أبان لنا أن

ثم ما يعلم وثم ما لا يعلمه إلاّ الله، وقد يمكن أن يعلمه الله من يشاء من خلقه بأي وجه شاء أن يعلمه.

وممّا يتضمن هذا المنزل العلم بالأقسام الإلهيّة التي وردت في الشرائع المتقدمة والمتأخرة لما أقسم وإذا أقسم بمن أقسم هل بنفسه أو بمخلوقاته أو بهذا وقتاً وبهذا وقتاً آخر مثل قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٣] فأقسم بالله وكقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٢] ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢٣] وكقوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ١] ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾ [سورة المرسلات: الآية ١] ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ [سورة الصافات: الآية ١] ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ [سورة النجم: الآية ١] ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾ [سورة الشمس: الآية ١] وغير ذلك من المخلوقين الذين أقامهم في الظاهر مقام أسمائه، فإن كان أضمر فما أضمر من الأسماء، وعلى كل حال فلها شرف عظيم بإضافتها إليه، سواء أظهر الاسم أو لم يظهر. والقسم العام: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [سورة الحاقة: الآية ٣٨ ـ ٣٩] فدخل في هذا القسم من الموجودات جميع الأشياء، ودخل فيه العدم والمعدومات وهو قوله: ﴿وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ وما تبصرونه في الحال والمستقبل، والمستقبل معدوم، فللأشياء نسبة إلى الشرف والتعظيم وكذلك العدم، فأما شرف العدم المطلق فإنه يدل على الوجود المطلق فعظم من حيث الدلالة وهو ممّا يجري على ألسنة الناس وقد نظم ذلك فقيل: وبضدها تتميز الأشياء، فالعدم ميّز الوجود والوجود ميّز العدم.

وأما شرف العدم المقيد فإنه على صفة تقبل الوجود والوجود في نفسه شريف ولهذا هو من أوصاف الحق، فقد شرف على العدم المطلق بوجه قبوله للوجود، فله دلالتان على الحق: دلالة في حال عدمه، ودلالة في حال وجوده، وشرف العدم المطلق على المقيد بوجه وهو أنه من تعظيمه لله، وقوّة دلالته أنه ما قبل الوجود وبقي على أصله في عينه غيرة على الجناب الإلهيّ أن يشركه في صفة الوجود، فينطلق عليه من الاسم ما ينطلق على الله. ولما كان نفس الأمر على هذا شرع الحق للموجودات التسبيح وهو التنزيه، وهو أن يوصف بأنه لا يتعلق به صفات المحدثين، والتنزيه وصف عدمي فشرف سبحانه لعدم المطلق بأن وصف به نفسه فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] تشريفاً للعدم لهذا القصد المحقق منه في تعظيم الله فإنه أعرف بما يستحقه الله من المعدوم المقيد فإنه له صفة الأزل في عدمه، كما للحق صفة الأزل في وجوده، وهو وصف الحق بنفي الأولية، وهي وصف العدم بنفي الوجود عنه لذاته، فلم يعرف الله ممّا سوى الله أعظم معرفة من العدم المطلق.

ولما كان للعدم هذا الشرف وكان الدعوى والمشاركة للموجودات لهذا قيل لنا: ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [سورة مريم: الآية ٩] أي ولم تك موجوداً، فكن معي في حال وجودك من عدم الاعتراض في الحكم والتسليم لمجاري الأقدار كما كنت في حال عدمك، فجعل شرف الإنسان رجوعه في وجوده إلى حال عدمه، فلولا شرف العدم بما ذكرناه ما نبّه الحق الموجود المخلوق على الرجوع إلى تلك الحالة في الحكم لا في العين، ولا يقدر على هذا الوصف من الرجوع إلى العدم بالحكم مع الوجود العيني إلاّ من عرف من أين جاء وما

يراد منه وما خلق له، فقد تبين لك من شرف العدم المطلق ما فيه كفاية. وهذه مسألة أغفلها الناس ولم يعقلوها عن الله حين ذكرها.

ولما تبين أن الشرف للموجودات والمعدومات إنما كان من حيث الدلالة وجب تعظيمها فقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ والشعائر هي الأعلام فهي الدلالات، فمن عظمها فهو تقي في جميع تقلباته، فإن القلوب من التقليب، وما قال سبحانه إن ذلك من تقوى النفوس ولا من تقوى الأرواح ولكن قال: ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٢] لأن الإنسان يتقلب في الحالات مع الأنفاس وهو إيجاد المعدومات مع الأنفاس. ومن يتَّقِ الله في كل تقلب يتقلب فيه فهو غاية ما طلب الله من الإنسان ولا يناله إلاّ الأقوياء الكمل من الخلق لأن الشعور بهذا التقلب عزيز ولهذا قال: ﴿شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي هي تشعر بما تدل عليه، وما تكون شعائر إلاّ في حق من يشعر بها، ومن لا يشعر بها وهم أكثر الخلق فلا يعظمها، فإذن لا يعظمها إلاّ من قصد الله في جميع توجهاته وتصرّفاته كلها، ولهذا ما ذكرها الله إلاّ في الحج الذي هو تكرار القصد. ولما كان القصد لا يخلو عنه إنسان كان ذكر الشعائر في آية الحج وذكر المناسك وهي متعددة أي في كل قصد، فكان سبب القسم بالأشياء طلب التعظيم من الخلق للأشياء حتى لا يهملوا شيئاً من الأشياء الدالة على الله، سواء كان ذلك الدليل سعيداً أو شقياً وعدماً أو وجوداً أي ذلك كان، وإن كان القصد الإلهيّ بالقسم نفسه لا الأشياء بل المقصود الأمران معاً وهو الصحيح، فاعلم أنه ليس المراد بهذا القصد الآخر إلاّ التعظيم لنا والتعريف، فذكر الأشياء وأضمر الأسماء الإلهيّة لتدل الأشياء على ما يريده من الأسماء الإلهيّة فما تخرج عن الدلالة وشرفها فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٥] أي وباني السماء ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٦] أي وباسط الأرض ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ١] أي ومسقط النجم، فاختلفت الأشياء، فاختلفت النسب، فاختلفت الأسماء، وتعينت المختصة بهذا الكون المذكور فعلم من الله ما ينبغي أن يطلق عليه من الأسماء في المعنى فيما أضمره وفي اللفظ فيما أطلق، إذ لو أراد إطلاق ما أضمره عليه لأظهره كما أظهره في قوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢٣] فجاء بالاسم الرب بالنسبة الخاصة المتعلقة بالسماء خاصة، واسم الأرض مضمر لأنه للرب نسبة خاصة في الأرض ليست في السماء ولذلك لم يتماثلا، بل السماء مغايرة للأرض لاختلاف النسب، فنسبة الرب لخلق السماء مغايرة للنسبة الربانية لخلق الأرض، ولولا وجود الواو في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ الذي يعطي التشريك لقلنا باختلاف الاسم الرب لاختلاف النسبة، ولكن الواو منعت والقرآن نزل باللسان العربي والواو في اللسان في هذا الباب إذا ذكر الأوّل ولم يذكر في المعطوف عليه حكم آخر دلّت على التشريك، فإذا قلت: قام زيد وعمرو فلا يريد القائل إذا وقف على هذا من غير قاطع عرضي مثل انقطاع النفس بسعلة تطرأ عليه أو شغل يشغله عن تمام تلفظه في مراده فهو للتشريك ولا بدّ فيما ذكر، فالقاطع منعه أن يقول: وعمر وخارج، أو يقول: وعمر وأبوه قاعد، فهذه الواو واو الإبتداء والحال لا واو العطف، فإذا قال: قام

زيد وخرج عمرو فهذه واو العطف أعني عطف جملة على جملة لا واو التشريك، فلهذا جعلنا الواو في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ للتشريك في الاسم الإلهيّ المذكور الذي هو المعطوف عليه، وكان الإضمار في النسبة التي يقع فيها التغاير فافهم فإنه من دقيق المعرفة بالله.

واعلم أنه لما رأى بعض العارفين تعظيم هذه الأمور مشروعاً ألحق كل ما سوى الله بالسعادة التي هي في حق أصحاب الأغراض من المخلوقين وصولهم إلى أغراضهم التي تخلق لهم في الحال، فلم يبق صاحب هذا النظر أحداً في العذاب الذي هو الألم فإنه مكروه لذاته، وإن عمروا النار فإن لهم فيها نعيماً ذوقياً لا يعرفه غيرهم، فإنه لكل واحدة من الدارين ملؤها، فأخبر الله أنه يملؤها ويخلد فيها مؤبداً، ولكن ما ثم نص بتسرمد العذاب الذي هو الألم لا الحركات السببية في وجود الألم في العادة بالمزاج الخاص المحس للألم، فقد نرى الضرب القطع والحرق في الوجود ظاهراً ولكن لا يلزم عن تلك الأفعال ألم ولا بد، وقد شاهدنا هذا من نفوسنا في هذا الطريق وهذا من شرف الطريق، وفيه يقول أصحابنا: ليس العجب من ورد في بستان فإنه المعتاد، وإنما العجب من ورد في وسط النار لأنه غير معتاد، يريد أنه ليس العجب ممّن يجد اللذة في المعتاد وإنما العجب ممّن يجد اللذة في غير السبب المعتاد وهو كان مطلوب أبي يزيد في قوله: سوى ملذوذ وجدي بالعذاب، ولهذا سمّي عذاباً لأنه يعذب في حال ما عند قوم ما لمزاج يطلبه.

وإذا كان الحق يأمر بتعظيم كل ما سواه ممّا هو مضاف إليه وما ثم إلاّ ما هو مضاف إليه إمّا نصاً أو عقلاً فبعيد أن يتسرمد عليه العذاب الذي هو الألم، وقد كان الله ولا شيء معه ولم يرجع إليه وصف لم يكن عليه ممّا أوجده وخلقه فكذلك هو ويكون، وإنما قلنا هذا من أجل من يقول بنفي اسم من الأسماء الإلهية لا أثر له. قلنا: وإن لم يكن له أثر فليس كماله بوجود الأثر عنه فإن العين واحدة فافهم ذلك، وهذه مسألة من أشكل المسائل في هذا الطريق والله يقول: إن رحمته سبقت غضبه، يريد أن حكمه برحمة عباده سبق غضبه عليهم، ولا يظهر السبق في نفس الشأو فإنه قد يكون الفرس واسع النفس بطيء الحركة، والآخر ضيق النفس سريع الحركة والشأو طويل فلا يزال الواسع النفس، وإن أبطأ في الحضر، يدخل على الضيق النفس حتى يزيد عليه ويتركه خلفه فلا يحكم بالسبق إلاّ في آخر الشأو، فمن حاز قصب السبق فهو السابق، ولهذا يطوّل في المسابقة بين الخيل في المسافة، وهو مشروع في معرض التنبيه على هذا المقام، وآخر المسافة هو الذي ينتهي إليه الحكم بالسبق، والرحمة سبقت غضب الله على خلقه، فهي تحوز العالم في الدارين بكرم الله وما ذلك على الله بعزيز، وإن كانوا في النار فلهم فيها نعيم، فإنهم ليسوا منها بمخرجين، ويصدق قوله تعالىٰ: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي» ويصدق قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة هود: الآية ١١٩] ويصدق قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] وقد أظهرت أمراً في هذه المسألة لم يكن باختياري، ولكن حق القول الإلهيّ بإظهاره فكنت فيه كالمجبور في اختياره، والله ينفع به من يشاء لا إله إلاّ هو، وهذا القدر كافٍ من علم هذا المنزل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والتسعون ومائتان

في معرفة منزل الأعداد المشرفة من الحضرة المحمدية

[نظم: الطويل]

تـفـجَّـرَت الأنـهـارُ مـن ذات أحـجـارِ وغـاصَـتْ بـأرضـي فـي خَـزَائـنِ أسـراري
فـعُـشْـرٌ مـن الـعـلـم الـذي هـو ظـاهـرٌ ومـا قـد كـتَـمْـتُ مـنـه تـسـعـةُ أعـشـارِ
تُـطـالـبـنـي نـفـسـي بـمَـثْـنَـى وجـودهـا ويـطـلـبـنـي وِتْـري الـمـصـابُ بـأوتـارِ
فـحـصَّـنْـتُ نـفـسـي فـي مـديـنـة سـيِّـدٍ بـنـاهـا مـن الـمـاءِ الـمـركَّـب والـنَّـارِ
فـلـم يُـرَ حـصـنٌ مـثـلـه فـي ارتـفـاعـه تـحـصَّـنْـتُ فـيـه خـلـفَ سـبـعـة أسـوارِ
مَـكَـانَـتُـهـا مـا بـيـن ذلٍّ وعـزَّةٍ يُـعـامـلـنـي فـيـهـا عـلـى حَـدِّ مِـقْـداري
إلى أن يـكـون الـنَّـفْـخُ فـي صُـور جِـسْـمِـهِ إلـى صُـور تَـخْـيـيـلِ بـبَـرْزخ أَغْـيَـاري
ويـبـقـى دَوَامُ الأمـر فـيـه مُـخَـلَّـداً إلى أن يـكـون الـبَـعْـثُ مـن قَـبْـر أفـكـاري
فـأشْـهَـدُه عِـلْـمـاً وعَـيْـنـاً وحـالـةً بـمَـشْـهَـدِ أنـوارِ ومَـشْـهَـدِ أَسْـرارِ
مُـنَـوَّعَـةٌ تـلـك الـمـظـاهـرُ عـنـدنـا بـرؤيـة أفـكـارِ ورؤيـة أبـصـارِ

فهرست ما يتضمنه هذا المنزل من العلوم: وذلك علم اللوائح وهي مقدمات الذوق، وهي منزلة عجيبة لا تقبل الغفلة والنسيان، وفيه علم دخول التأنيث في العدد وهو مذكر، وفيه علم المانية من أين ضلت وما وجه الحق الذي عندها حتى قادها إلى هذا الاعتقاد، وهل لها عذر مقبول في ذلك يوم القيامة أم لا؟ وفيه علم الدخول وهو طلب الأوتار ولماذا تطلب ولمن يرجع فضلها؟ وهل المغصوب على نفسه بالقتل هل يرضى بذلك أم لا؟ ولأية حكمة جعل ذلك للولي؟ وهل إذا عفا الوليّ عن الدم هل يسقط حق المقتول يوم القيامة أم مثل الحوالة في الدين إذا قبلها صاحب الحق لم يبقَ له رجوع على الأوّل إن أعسر المرجوع إليه عنه بعد رضا صاحب الدين بالحوالة، وفيه علم قرار الغيب حتى لا يشهد ولماذا يقرّ؟ وفيه علم الغيب الذي يجب أن يشهد وطلبه لذلك من الله. وفيه علم العقل ومرتبة صاحبه. وفيه علم الاعتبار. وفيه علم الانتقال في الأحوال والمقامات. وفيه علم الكيفيات والكميات. وفيه علم التعالي ولماذا يؤدّي وأنه مخصوص بأهل البلادة دون الأذكياء. وفيه علم الصلاح والفساد. وفيه علم ما يترتب على الأعمال سواء وقع التكليف أو لم يقع. وفيه من أين أخذ علم أهل النجوم الحاكمون بها الواقفون على ما أودع الله فيها من الأحكام من العلوم الإلهيّة وشرفه على سائر العلوم وذكر الحيوان الذي إذا أكل أعلاه أعطى بالخاصية لمن أكله علم النجوم، وإذا أكل وسطه أعطى علم النبات، وإذا أكل عجزه وهو ما يلي ذنبه أعطى علم المياه المغيبة في الأرض فيعرف إذا أتى أرضاً لا ماء فيها على كم ذراع يكون الماء فيها، وهذا الحيوان حية ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة، لا يوجد إلاَّ بأحواز شلب من غرب الأندلس، وكان قد وقع بها عندنا عبد الله بن عبدون كاتب أمير المسلمين فقطع رأسها وذنبها بسكين ذي

شعبتين في ضربة واحدة وقسمها ثلاث قطع وكانوا ثلاثة إخوة فأكل عبد الله أعلاها فكان في علم القضاء بالنجوم آية من غير مطالعة كتاب أو توقيف إمام. وأكل أخوهُ عبد المجيد الوسط منها فكان آية في علم النبات وخواصه وتركيباته من غير مطالعة كتاب ولا توقيف أخبرني ولده المنجنيقي بذلك بقونية. وأكل الأخ الثالث القطعة الأخيرة التي تلي الذنب منها فكان آية في استخراج المياه من جوف الأرض، فسبحان من أودع أسراره في خلقه. وفيه علم الفرق في خرق العوائد بين الكرامة والاستدراج. وفيه علم السبب الذي أوجب أن يحب العالم الحيواني الإنساني غير الله وسبب الحب أمران: النسبة والإحسان، والنسبة إلى الله أقرب فإنه مخلوق على الصورة، والإحسان من الله فهو المنعم عليه بإيجاد عينه ثم بكل ما هو فيه فكيف يحب غيره ويفنى فيه؟ وفيه علم الآخرة وما يتعلق بها من حين وقوف الناس على الجسر دون الظلمة إلى أن يدخلوا منازلهم من الشقاء والسعادة، فهذا جميع ما يتضمنه هذا المنزل من العلوم قد نبهتك عليها لترتفع الهمة إلى طلبها، فلنذكر منها مسألة أو أكثر على قدر ما يتسع الكلام مع الاختصار دون الإطالة والإكثار فأقول والله يقول الحق وهو يهدي السبيل:

اعلم أن الله لما خلق الأرواح الملكية المهيمة وهم الذين لا علم لهم بغير الله لا يعلمون أن الله خلق شيئاً سواهم وهم الكروبيون المقرّبون المعتكفون المفردون المأخوذون عن أنفسهم بما أشهدهم الحق من جلاله اختصّ منهم المسمّى بالعقل الأوّل والأفراد منا على مقامهم، فجلال الله في قلوب الأفراد على مثل ذلك فلا يشهدون سوى الحق وهم خارجون عن حكم القطب الذي هو الإمام وهو واحد منهم ولكنه يكون مادته من العقل الأوّل الذي هو أوّل موجود من عالم التدوين والتسطير وهو الموجود الإبداعي، ثم بعد ذلك من غير بعدية زمان انبعث عن هذا العقل موجود انبعاثي وهو النفس وهو اللوح المحفوظ المكتوب فيه كل كائن في هذه الدار إلى يوم القيامة وذلك علم الله في خلقه، وهو دون القلم الذي هو العقل في النورية والمرتبة الضيائية، فهو كالزمرّدة الخضراء لانبعاث الجوهر الهبائي الذي في قوّة هذه النفس، فانبعث عن النفس الجوهر الهبائي وهو جوهر مظلم لا نور فيه، وجعل الله مرتبة الطبيعة بين النفس والهباء مرتبة معقولة لا موجودة، ثم بما أعطى الله من وضع الأسباب والحكم ورتب في العالم من وجود الأنوار والظلم لما يقتضيه الظاهر والباطن، كما جعل الابتداء في الأشياء والانتهاء في مقاديرها بأجل معلوم وذلك إلى غير نهاية، فما ثم إلاّ ابتداءات وانتهاءات دائمة من اسمية الأوّل والآخر، فعن تينك الحقيقتين كان الابتداء والانتهاء دائماً فالكون جديد دائماً، فالبقاء السرمدي في التكوين، فأعطى لهذه النفس لما ذكرناه قوّة عملية عن تلك القوّة أوجد الله سبحانه بضرب من التجلي الجسم الكل صورة في الجوهر الهبائي، وما من موجود خلقه الله عند سبب إلاّ بتجلّ إلهيّ خاص لذلك الموجود لا يعرفه السبب، فيتكون هذا الموجود عن ذلك التجلي الإلهيّ والتوجه الرباني عند توجّه السبب لا عن السبب، ولولا ذلك لم يكن ذلك الموجود وهو قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ فلم

يكن للسبب غير النفخ ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٩] فالطائر إنما كان لتوجه أمر الله عليه بالكون وهو قوله تعالىٰ: ﴿كُن﴾ بالأمر الذي يليق بجلاله، فلما أوجد هذا الجسم الأوّل لزمه الشكل إذ كانت الأشكال من لوازم الأجسام، فأوّل شكل ظهر في الجسم الشكل المستدير وهو أفضل الأشكال وهو للأشكال بمنزلة الألف للحروف يعمّ جميع الأشكال، كما أن حرف الألف يعمّ جميع الحروف بمروره هواء من الصدر على مخارجه إلى أن يجوز الشفتين فهو يظهر ذوات الحروف في المخارج، فإذا وقف في الصدر ظهر حرف الهاء والهمزة في أعيانهما عن حرف الألف، فإذا انتقل من الصدر إلى الحلق ووقف في مراتب معينة في الحلق أظهر في ذلك الوقوف وجود الحاء المهملة ثم العين المهملة ثم الخاء المعجمة ثم الغين المعجمة ثم القاف المعقودة ثم الكاف، وأمّا القاف التي هي غير معقودة فهي حرف بين حرفين بين الكاف والقاف المعقودة ما هي كاف خالصة ولا قاف خالصة ولهذا ينكرها أهل اللسان، فأما شيوخنا في القراءة فإنهم لا يعقدون القاف ويزعمون أنهم هكذا أخذوها عن شيوخهم وشيوخهم عن شيوخهم في الأداء إلى أن وصلوا إلى العرب أهل ذلك اللسان وهم الصحابة إلى النبيّ ﷺ كل ذلك أداء، وأما العرب الذين لقيناهم ممّن بقي على لسانه ما تغيّر كبني فهم فإني رأيتهم يعقدون القاف وهكذا جميع العرب، فما أدري من أين دخل على أصحابنا ببلاد المغرب ترك عقدها في القرآن، وهكذا حديث سائر الحروف إلى آخرها وهو الواو وليس وراء الواو مرتبة لحرف أصلاً، وليس للأشكال في الأجسام حدّ ينتهى إليه يوقف عنده لأنه تابع للعدد والعدد في نفسه غير متناه فكذلك الأشكال.

فأوّل شكل ظهر بعد الاستدارة المثلث، ومن المثلث المتساوي الأضلاع والزوايا تمشي الأشكال في المجسمات إلى غير نهاية، وأفضل الأشكال وأحكمها المسدس، وكلما اتسع الجسم وعظم قبل الكثير من الأشكال، ثم أمسك الله الصورة الجسمية في الهباء بما أعطته الطبيعة من مرتبتها التي جعلناها بين النفس والهباء، ولو لم يكن هنالك مرتبتها لما ظهر الجسم في هذا الجوهر ولا كان له فيه ثبوت، فكانت الطبيعة للنفس كالآلة للصانع التي يفتح بها الصور الصناعية في المواد، فظهر الجسم الكل في هذا الجوهر عن النفس بآلة الحرارة، وظهرت الحياة فيه بمصاحبة الحرارة الرطوبة، وثبتت صورته في الهباء بالبرودة واليبوسة وجعله أعني هذا الجسم الكري على هيئة السرير وخلق له حملة أربعة بالفعل ما دامت الدنيا وأربعة أخر بالقوّة يجمع بين هؤلاء الأربعة والأربعة الآخر يوم القيامة فيكون المجموع ثمانية وسماه العرش وجعله معدن الرحمة فاستوى عليه باسمه الرحمن، وجعله محيطاً بجميع ما يحوي عليه من الملك متحيزاً يقبل الاتصال والانفصال وعمر الأينية الظرفية المكانية، وكان مرتبة ما فوقه بينه وبين العماء الذي ما فوقه هواء وما تحته هواء وهو للاسم الرب، والله هو الاسم الجامع المهيمن على جميع الأسماء الإلهية فصفته المهيمنية وتوحدت الكلمة في العرش فهي أوّل الموجودات التي قبلها عالم الأجسام.

ثم أوجد جسماً آخر في جوهر هذا الهباء، فإن جوهر هذا الهباء هو الذي عمر الخلاء،

فكل ما ظهر من الصور المتحيزة الجسمية والجسمانية فهذا الجوهر هو القابل لها، وإنما قلنا هذا لئلا يتخيل أن الكرسي صورة في العرش وليس كذلك وإنما هو صورة أخرى في الهباء قبلها كما قبل صورة العرش على حدّ واحد ولكن بنسب مختلفة، فسمّى هذا الموجود الآخر كرسياً ودلى إليه القدمين من العرش فانفلقت الرحمة انفلاق الحب فتنوّعت الرحمة في الصفة إلى إطلاق وتقييد فظهرت الرحمة المقيدة وهي القدم الواحدة، وتميزت الرحمة المطلقة بظهور هذه القدم الأخرى، فظهر في هذه القدم انقسام الكلمة الواحدة العرشية التي لم يظهر لها انقسام في العرش إلى خبر وحكم، وانقسم الحكم إلى أمر ونهي، وانقسم الأمر إلى وجوب وندب وإباحة، وانقسم النهي إلى حظر وكراهة، وانقسم الخبر إلى هذه الأقسام وزيادة من استفهام وتقرير ودعاء وإنكار وقصص وتعليم، فتنوعت الألسن وظهرت الملاحن في الكرسي، فظهر تفصيل النغمات التي كانت مجملة في العرش، فهو أوّل طرب ظهر في عالم الأجسام من السماع، ومن هنالك سرى في عالم الأفلاك والسموات والأركان والمولدات.

ثم أوجد الحق أيضاً جسماً آخر مستديراً دون الكرسي في الرتبة وجعله مستديراً فلكياً غير مكوكب قدر فيه سبحانه اثني عشر تقديراً مقادير معينة سمى كل مقدار منها باسم لم يسم به الآخر وهي المعروفة بالبروج وأظهر منها سلطان الطبيعة فجعل منها ثلاثة من اجتماع الحرارة واليبوسة وجعل أحكامها مختلفة وإن كانت على طبيعة واحدة، ولكن المكان المعين من هذا الفلك لما اختلف اختلفت أحكامها من ذلك الوجه، وبما هي على طبيعة واحدة من الحر واليبس اتفقت أحكامها فتعمل بالاتفاق من وجه وبالاختلاف من وجه، ولهذا ظهر عنها الكون والفساد والتغيير والاستحالات، ولست أعني بالفساد الشرور المعتادة عندنا هنا وإنما أعني بالفساد زوال نظم مخصوص يقال فيه فسد ذلك النظام أي زال كما تأكل التفاحة أو تشقها بالسكين إلى أقسام فقد فسد نظامها فذهبت تلك الصورة بظهور صورة أخرى فيها، وعن هذا الفلك يتكوّن جميع ما في الجنة، وعنه يكون الشهوة لأهلها وهو عرش التكوين.

ثم إنّ الله تعالىٰ أوجد في جوف هذا الفلك الأطلس الذي هو محل لهذه الطبائع التي هي آلة النفس العملية فلكاً آخر في جوهر الهباء كما ذكرنا وبالتجلي الإلهيّ كما ذكرنا، إذ لا يكون التكوين إلاً له سبحانه، وهذا الفلك هو فلك الكواكب الثابتة والمنازل التي يقدر بها تقسيم البروج المقدرة في الأطلس، إذ كان الأطلس متشابه الأجزاء وهي ثمانية وعشرون منزلة وهي: النطح، والبطين، والثريا، والدبران، والهنعة، والهقعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والعوّا، والسماك، والغفر، والزبانَى، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، والفرع المقدم، والفرع المؤخر، والرشا، فهذه ثمان وعشرون منزلة معروفة مسماة يحكم لها بطبائع البروج وهي: الحمل، والثور، والجوزاء،

والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت. ولهذا الفلك المكوكب أعني فلك المنازل قطع في الفلك الأطلس فلك البروج، وجعل لكل تقدير في فلك البروج منزلتين وثلث من المنازل المذكورة ولمنازله وجميع كواكبه سباحة في أفلاك لها بطيئة لا يحسّ بها البصر إلاَّ بعد آلاف من السنين، كما ذكر عن أهرام مصر أنها بنيت والنسر في الأسد وهو اليوم في الجدي ونحن في سنة أربع وثلاثين وستمائة، ثم أوجد على سطح هذا الفلك المكوكب الجنة بما فيها بطالع الأسد وهو برج ثابت فلهذا كان لها الدوام، فإن أصحاب هذا الفن قد سمّوا هذه البروج بالأسماء التي ذكرناها ونعتوها بأمور على حسب ما أطلعهم الله عليه من آثارها العجيبة في حركاتها، فعرفوا منها الثابت والمنقلب وذا الجسدين وغير ذلك، وإلى الفلك الأطلس ينتهي علم أهل الأرصاد، وعلى الحقيقة إنما ينتهي إلى المكوكب، فإن حركات الكواكب والكواكب تعين أفلاكها ولولا ذلك ما عرف عددها، وأما الفلك الأطلس فما استدلوا عليه من حيث أدركوه حسّاً كما أدركوا أفلاك الكواكب، وإنما علموا أن هذه الأفلاك لا تقطع إلاَّ في أمر وجودي فلكي مثلها فأثبتوه عقلاً لا حساً وسمّوه أطلساً لكونه لا كوكب فيه يعينه للحسّ، ويبطل عليهم هذا الدليل بحركة أقصى الأفلاك فإن حركتها موجودة ولا تقطع في شيء عندهم أصلاً، فما يدريك يا صاحب الرصد لعل هذا الفلك المكوكب يقطع في لا شيء، والحكماء لم يمنعوا أن يكون فوق الفلك الأطلس أفلاك أخر، إلاَّ أن الراصد لم يبلغ إليها لأنه ما ثم ما يدل عليها بل هي في حكم الجواز عندهم لكن قالوا إن كان هنالك فلك فلا بدّ أن يكون له نفس وعقل ومع ذلك لا بدّ من الانتهاء، ومن هذا الفلك وقع الخلاف بيننا وبين الحكماء من الفلاسفة في ترتيب التكوين، وما نازعونا فيما فوق الأطلس الذي هو الكرسي والعرش وقالوا بالجواز فيه.

فترتيب الأمر عندنا بعد الفلك المكوكب ولم يكن مكوكباً عند خلقه، وإنما ظهرت الكواكب بعد هذا فيه وفي غيره من السموات فيها كانت حركة ما ذكرناه من هذه الأفلاك الموجودة الأربعة التي كملت فيها الطبيعة وظهر سلطانها حسّاً بعدما كان معقولاً، فإن المعاني هي أصل الأشياء فهي في أنفسها معان معقولة غيبية، ثم تظهر في حضرة الحسّ محسوسة، وفي حضرة الخيال متخيلة وهي هي إلاَّ أنها تنقلب في كل حضرة بحسبها كالحرباء تقبل الألوان التي تكون عليها، فأوّل ما أوجد الأرض وهي نهاية الخلاء وهو أقصى الكثائف والظلم وهو نازل إلى الآن دائماً، والخلاء لا نهاية له فإنه امتداد متوهم لا في جسم، فالعالم كله بأسره نازل أبداً في طلب المركز، وهذا الطلب طلب معرفة ومركزه هو الذي يستقرّ عليه أمره فلا يكون له بعد ذلك طلب وهذا غير كائن، فنزوله للطلب دائم مستمرّ وهو المعبر عنه بطلب الحق فالحق هو مطلوبه، وأثر فيه هذا الطلب التجلي الذي حصل له تعشق به فهو يطلبه بحركة عشقية، وهكذا سائر المتحركات إنما حركتها المحبة والعشق لا يصحّ إلاَّ هذا، ومن لا يعشق ذلك التجلي وهو المنعوت بالجمال والجمال معشوق لذاته، ولولا ما تجلى سبحانه في

صورة الجمال لما ظهر العالم، فكان خروج العالم إلى الوجود بذلك العشق، أصل حركته عشقية واستمر الحال. فحركة العالم دائمة لا نهاية لها، ولو كان ثم أمر ينتهي إليه يسمّى المركز يكون إليه النهاية لسكن العالم بعضه على بعض بالضرورة وبطلت الحركة فبطل الإمداد، فأدّى ذلك إلى فناء العالم وذهاب عينه، والأمر على خلاف هذا، وإنما الناس وأكثر الخلق لا يشعرون بحركة العالم ولأنه بكلّه متحرك، فيبقى الترتيب المشهود من البعد والقرب على حاله، فلهذا الشهود يتخيلون سكون الأرض حول المركز.

ثم أوجد ركن الماء وهو كان الموجود الأوّل من الأركان، وإنما ذكرنا الأرض مقدمة من أجل السفل والماء كان أوّل العناصر. فما كثف منه كان أرضاً وما سخف منه كان هواء، ثم ما سخف منه كان ناراً وهو كرة الأثير، فأصل العناصر عندنا الماء، ووافقنا على ذلك بعض الناس من النظار في هذا الفن، لكن مستندنا الكشف فيما ندّعيه من هذا وغيره من العلوم، وقد تكون تلك العلوم ممّا تدرك بالنظر الفكري، فمن أصاب في نظره وافق أهل الكشف، ومن أخطأ في نظره خالف أهل الكشف، والحكماء في هذه المسألة على ستة مذاهب: خمسة منها خطأ والواحد منها صواب وهو الذي وافق الكشف والتعريف الإلهي لأهل خطابه من ملك ونبي وولي، وكان وجود هذه العناصر ببرج السرطان، وما من برج إلاّ وقد جعل له الله مدة في الولاية معلومة مع المشاركة لغيره في مدته، فلجميعها مدة معلومة عندنا نسميها أعني الجملة عمر العالم، فإذا انتهت المدد عاد الأمر ابتداء على حاله من الدوام، فلا عدم يلحقه أبداً من حيث جوهره، ولا يبقى صورة أبداً زمانين، فالخلق لا يزال والأعيان قابلة للخلع عنها وعليها، فالعالم في كل نفس من حيث الصورة في خلق جديد لا تكرار فيه، فلو شاهدته لرأيت أمراً عظيماً يهولك منظره ويورثك خوفاً على جوهر ذاتك، ولولا ما يؤيد الله أهل الكشف بالعلم لتاهوا خوفاً، فلما حصلت العناصر وهي الأركان الأربعة محلاً مهيئاً أنوثياً لقبول التناسل والولادة وظهرت الاحتراقات من عنصر النار في رطوبات الهواء والماء صعد منها دخان يطلب الأعظم الذي هو الفلك الأعلى الأقصى، فوجد فلك الكواكب يمنعه من الرقي إلى الفلك الأعلى فعاد ذلك الدخان يتموّج بعضه في بعض، فتراكم فريق ففتق الله رتقه بسبع سموات، ثم إنّه تتطايرت الشرر من كرة الأثير في ذلك الدخان فقبلت من السموات من الفلك المكوكب أماكن فيها رطوبات طبيعية فتعلقت بها تلك الشرر فانقدت تلك الأماكن لما فيها من الرطوبات فحدثت الكواكب فأضاء الجوّ كما يضيء البيت بالسراج، ألا ترى القادح للزناد يعلق الشرر الحراق بما فيه من الرطوبة فيتقد فيكون منه المصباح ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ [سورة نوح: الآية ١٦] يضيء به العالم وتبصر به الأشياء التي كان يسترها الظلام، فحدث الليل والنهار بحدوث كوكب الشمس والأرض، فالليل ظلمة الأرض الحجابية عن انبساط نور الشمس، والكواكب عندنا كلها مستنيرة لا تستمد من الشمس كما يراه بعضهم، والقمر على أصله لا نور له البتة قد محا الله نوره، وذلك النور

الذي ينسب إليه هو ما يتعلق به البصر من الشمس في مرآة القمر على حسب مواجهة الأبصار منه، فالقمر مجلى الشمس وليس فيه من نور الشمس لا قليل ولا كثير.

ثم إن الله رتب في كل فلك وسماء عالماً من جنس طبيعة ذلك الفلك سماهم ملائكة على مقامات فطرهم الله عليها من التسبيح والتهليل وكل ثناء على الله تعالىٰ، وجعل منهم ملائكة مسخرين لمصالح ما يخلقه في عالم العناصر من المولدات وهي ثلاثة عوالم طبيعية، ويسري في كل عالم مولد من هذه الثلاثة من النفس الكلية صاحبة الآلات أرواح هي نفوس هذه المولدات بها تعلم خالقها ومنشئها، وبها سرت الحياة فيها كلها، وبها خاطبها الحق وكلفها وهو رسول الحق إليها وداع كل شخص منه إلى ربه، فما بطنت حياته سمّي جماداً ونباتاً وانفصل هذان المولدان وتميز بالنمو والغذاء، فقيل في النامي منه نبات وفي غير النامي جماد، وما ظهرت حياته وحسّه سمّي حيواناً والكل قد عمته الحياة فنطق بالثناء على خالقه من حيث لا نسمع، وعلمهم الله الأمور بالفطرة من حيث لا نعلم، فلم يبق رطب ولا يابس ولا حار ولا بارد ولا جماد ولا نبات ولا حيوان إلاّ وهو مسبِّح لله تعالىٰ بلسان خاص بذلك الجنس. وخلق الجان من لهب النار والإنسان ممّا قيل لنا، ونفخ الأرواح في الكل وقدّر الأقوات التي هي الأغذية لهذه المولدات من الإنس والجنّ والحيوان البحري والبرّي والهوائي ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] بما أودع الله في حركات هذه الكواكب واقتراناتها وهبوطها وصعودها في بيوت نحوسها وسعودها، وعن حركاتها وحركات ما فوقها من الأفلاك حدثت المولدات، وعن حركات الأفلاك الأربعة حدثت الأركان، وهذا خلاف ما ذهب إليه غير أهل الكشف من المتكلمين في هذا الشأن، فأودع الله في خزائن هذه الكواكب التي في الأفلاك علوم ما يكون من الآثار في العالم العنصري من التقليب والتغيير فهي أسرار إلهية قد جعل الله لها أهلاً يعرفون ذلك ولكن لا على العلم بل على التقريب والأمر في نفسه صحيح، غير أن الناظر من أهل هذا الشأن قد لا يستوفي النظر حقه لأمر فإنه من غفلة أو غلط في عدد ومقدار لم يشعر بذلك فيحكم فيخطىء فوقع الخطأ من نظره لا من نفس الأمر، وقد يوافق النظر العلم فيقع ما يقوله، ولكن ما هو على بصيرة فيه من حيث تعيين مسألة بعينها.

وهذا العلم لا تفي الأعمار بإدراكه فيعلم أصله من النبوات، فكان أوّل من شرع في تعليم الناس هذا العلم إدريس عليه السلام عن الله فأعلمه ما أوحى في كل سماء وما جعل في حركة كل كوكب، وبيّن له اقترانات الكواكب ومقادير الاقترانات وما يحدث عنها من الأمور المختلفة بحسب الأقاليم وأمزجة القوابل ومساقط نطفه في أشخاص الحيوان، فيكون القران واحداً، ويكون أثره في العالم العنصري مختلفاً بحسب الإقليم وما يعطيه طبيعته، فشروطه كثيرة يعلمها أهل ذلك الشأن، فلما أعطتهم الأنبياء الموازين وعلمتهم المقادير علموا ما يحدث الله من الأمور والشؤون في الزمان البعيد، وعن الزمان البعيد الذي لو وكلهم الله فيه إلى نفوسهم بالحكم المعتاد حتى يتكرّر ذلك عليهم تكراراً يوجب القطع عادة، ورب أمر لا يظهر تكراره الذي يوجب القطع الظني به إلاّ بعد آلاف من السنين، فهذا كان سبب التعريف

الإلهيّ على ألسنة الأنبياء عليهم السلام، فأعلمت الناس بما أوحى الله إليها ما أمن الله عليها هذه الكواكب المسخرة من الحوادث، ولو عرف الجهال المنكرون هذا العلم قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢] لما قالوا شيئاً ممّا قالوه فما علموا تسخيرها وأنها كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣٢] كما سخّر الرياح والبحار والفلك هكذا سخّر الكواكب وهل في هذه المسخرات من الكواكب والأفلاك والرياح والبحار والدواب وكل مسخر عالم بما هو له مسخر أم لا؟ هذا لا يعرفه إلاّ أهل طريقنا خاصة. حكى القشيري أن رجلاً رأى شخصاً راكباً على حمار وهو يضرب رأس الحمار فنهاه عن ذلك فقال له الحمار: دعه فإنه على رأسه يضرب، فمن عرف الجزاء كيف لا يعرف ما سخر له؟ وقد رأينا من مثل هذا كثيراً من الجمادات والحيوانات وقد طال الكلام وهذا القدر كافٍ في معرفة ترتيب العالم الذي هو أحد أقسام ما يحتوي عليه هذا المنزل من العلوم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والتسعون ومائتان
في معرفة منزل انتقال صفات أهل السعادة إلى أهل الشقاء في الدار الآخرة من الحضرة الموسوية

[نظم: الوافر]

غَشِيتُ منازلاً لمَقَام صِدْقٍ — لها في قلب نَازِلِهَا خُشُوعُ
ونارُ الاصْطِلام لها وَقُودٌ — إذا ما ابتزَّ خِلْعَتَها الضَّجيعُ
وأغْذِيةُ العلوم تَزيد حِرْصاً — ولا يَفْنَى لها عَطَشٌ وجوعُ
ولو طَعِمَ الوجودَ لمات جوعاً — ويُخْيِيه الخريفُ أو الربيعُ
بخلْقٍ ثم صلْبٍ في سطوحٍ — يُجَلِّيها لرِفْعَتِها الرَّفيعُ
فعلِّمْ من تشاءُ بغير قَهْرٍ — عسَى وقتاً يكون له رجوعُ

يريد في البيت الخامس قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ [سورة الغاشية: الآية ١٧ - ٢٠] يريد الاعتبار في ذلك. اعلم وفقنا الله وإياك أن درجات الجنة على عدد دركات النار، فما من درج إلاّ ويقابله درك من النار، وذلك أن الأمر والنهي لا يخلو الإنسان إما أن يعمل بالأمر أو لا يعمل، فإن عمل به كانت له درجة في الجنة معينة لذلك العمل خاصة وفي موازنة هذه الدرجة المخصوصة لهذا العمل الخاص إذا تركه الإنسان درك في النار لو سقطت حصاة من تلك الدرجة في الجنة لوقعت على خط استواء في ذلك الدرك من النار، فإذا سقط الإنسان من العمل بما أمر فلم يعمل كان ذلك الترك لذلك العمل عين سقوطه إلى ذلك الدرك قال تعالىٰ: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [سورة الصافات: الآية ٥٥] فالاطلاع على الشيء من أعلى إلى أسفل، والسواء حد الموازنة على الاعتدال، فما رآه إلاّ في ذلك الدرك

الذي في موازنة درجته، فإن العمل الذي نال به هذا الشخص تلك الدرجة تركه هذا الشخص الآخر الذي كان قرينه في الدنيا بعينه، فانظر إلى هذا العدل الإلهيّ ما أحسنه وهما الرجلان اللذان ذكرهما الله في سورة الكهف المضروب بهما المثل وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [سورة الكهف: الآية ٣٢] إلى آخر الآيات في قصتهما في الدنيا، وذكر في الصافات حديثهما في الآخرة في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٥١، ٥٢] وفيها ذكر المعاتبة وفي قوله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [سورة الصافات: الآية ٥٦] لما اطلع عليه ﴿فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [سورة الصافات: الآية ٥٥] وهو قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٠].

وورد في الأخبار الإلٰهية الصحاح عن رسول الله ﷺ عن ربه عزّ وجلّ فيما يقوله لعبده يوم القيامة: «**أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ**» فَلْنُمَثِّل لَكَ مِنْهَا الأُمَّهاتِ التي بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَيْهَا وَهِيَ خَمْسَةٌ: لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ اللَّهَ وَإِقَامُ الصَّلاةِ وَإِيتاءُ الزَّكَاةِ وَصِيَامُ رَمَضَانَ وَحِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ آمَنَ بِهَا كلِّها فَسَعِدَ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ بِهَا كُلّها فَشَقِيَ، وَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِبَعْضِهَا وَكَفرَ بِبَعْضِهَا فَهُوَ مُلْحَقٌ بالكَافِرِ إِلْحَاقَ حَقٍّ وهكذا جميع الأوامر والنواهي التي تقتضيها فروع الشريعة في جميع حركات الإنسان وسكونه في الإيمان بالحكم المشروع فيها والكفر والعمل المشروع فيها بظاهر الإنسان المكلف وباطنه وترك العمل ويحصر ذلك عقد وقول وعمل، وفي مقابلته حل وصمت وترك عمل. هذه مقابلة من وجه في حق قوم ومقابلة أخرى في حق قوم، أو هذا الشخص بعينه وهو عقد مخالف لعقد وقول يخالف قولاً وعمل مخالف لعمل، إذ كان لا يلزم من صاحب الحل أن يكون قد عقد أمراً آخر، فإن الحل إنما متعلقه ذلك العقد الإيماني بذلك المعقود عليه فأسقطه المعطل فلم يرتبط بعقد آخر، وشخص آخر عقد على وجود الشريك لله فحل من عنقه عقد حبل التوحيد وعقد حبل التشريك، فلهذا فصلنا الأمر على ما يكون عليه في الدار الآخرة موازناً لحالة الدنيا، وهذا صورة الشكل في الأمّهات، وعليها نأخذ جميع المأمور بها والمنهي عنها من العمل بالمأمور والقول به والإيمان به وترك ذلك حلاً وعقداً في الكل أو في البعض، وكذلك المنهي عنها من العمل به والقول به والعقد عليه وترك ذلك حلاً وعقداً للكل والبعض صورة درج الجنة ودرك النار والأعراف وهو السور الذي باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، والرقائق النازلة والصاعدة، وضعناها لك لتتصوّرها في ذهنك إن كنت بعيد الفهم، والله المعين لا ربَّ غيره.

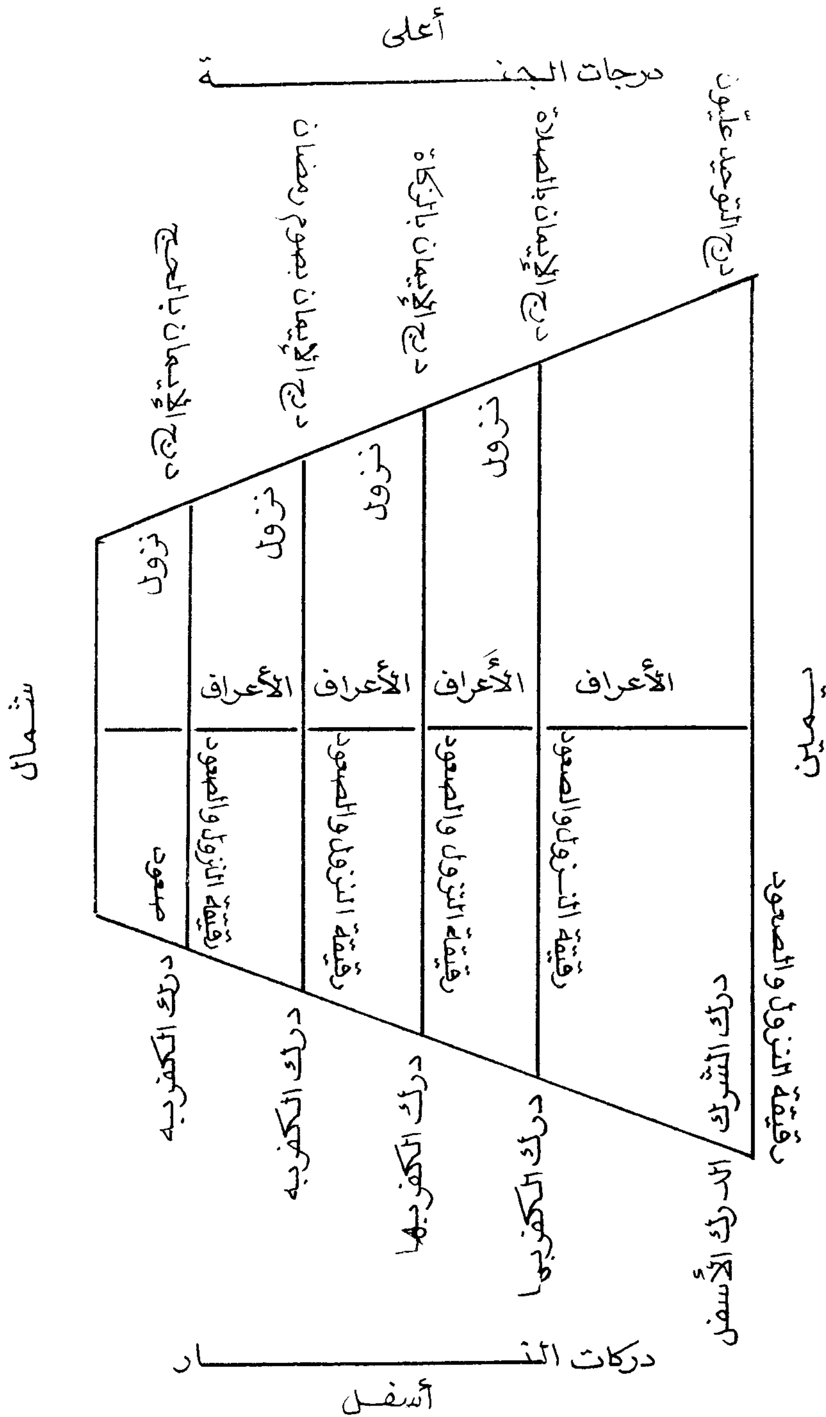
أعلى
درجات الجنة
درج التوحيد عليون
درج الإيمان بالصلاة
درج الإيمان بالزكاة
درج الإيمان بصوم رمضان
درج الإيمان بالحج
نزول
نزول
نزول
نزول
نزول
الأعراف
الأعراف
الأعراف
الأعراف
رقيقة النزول والصعود
رقيقة النزول والصعود
رقيقة النزول والصعود
رقيقة النزول والصعود
صعود
يمين
شمال
رقيقة النزول والصعود
درك الشرك
الدرك الأسفل
درك الكفر به
درك الكفر به
درك الكفر بها
درك الكفر بها
دركات النار
أسفل

وهكذا درج العمل بالأمر والنهي ودرك ترك العمل بهما ودرج القول بالأمر والنهي ودرك تركهما عقداً وحلاً كلاً وبعضاً، وهكذا مناسبات الجزاء كلها لا تختل، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٤] وقال: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤] وقال: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ [سورة هود: الآية ٣٨] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ٢٩] وقال في الجزاء: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ٣٤] ثم بيّن فقال: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ٣٦] فعمّ بالألف واللام ورد الفعل عليهم. وقال تعالىٰ: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٧] ولهذا سمي: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾ [سورة النبأ: الآية ٢٦] ولو لم يكن الأمر كذلك لما كان جزاء، وقد ورد في المتكبرين أنهم يحشرون كأمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم صغاراً لهم وذلّة ولتكبرهم على أوامر الله، فالجنة خير لا شرّ فيها والنار شرّ لا خير فيها، فجميع علم المشرك وعمله وقوله الذي لو كان موحداً جوزي عليه في الجنة بحسبه يعطي ذلك الجزاء للموحد الجاهل بذلك الأمر والعلم المفرط في ذلك العمل التارك لذلك القول والجزاء عليه الذي لو كان مشركاً لحصل له في النار يعطى لذلك المشرك الذي لا حظ له في الجنة، فإذا رأى المشرك ما كان يستحقه لو كان سعيداً يقول: يا رب هذا لي فأين جزاء عملي الذي هذا جزاؤه؟ فإن الأعمال بمكارم الأخلاق والتحريض عليها الذي هو القول يقتضي جزاء حسناً وقع ممّن وقع، فيقول الله له: لما عملت كذا، ويذكر له ما عمل من مكارم الأخلاق والقول بها والعمل بمواقعها، قد جازيتك على ذلك بما أنعمت به عليك من كذا وكذا، فيقرّر عليه جميع ما أنعمه عليه جزاء لا نعمة في خلقه المبتدأة التي ليست بجزاء فيزنها المشرك هنالك بما قد كشف الله من علم الموازنة فيقول صدقت، فيقول الله له: فما نقصتك من جزائك شيئاً والشرك قطع بك عن دخول دار الكرامة فتنزل فيها على موازنة هذه الأعمال ولكن انزل على درجات تلك الأعمال فإن صاحبها منعه التوحيد أن يكون من أهل هذه الدار، فهذا هو من الميراث الذي بين أهل الجنة وأهل النار، ونذكر الكلام في هذا الفصل في باب الجنة والنار من هذا الكتاب، فهذا هو الانتقال الذي بين أهل السعادة وأهل الشقاء، فإن المؤمن هنا في عبادة والعبادة تعطيه الخشوع والذلة والكافر في عزّة وفرحة، فإذا كان في هذا اليوم يخلع عزّ الكافر وسروره وفرحه على المؤمن، ويخلع ذل المؤمن وخشوعه الذي كان لباسه في عبادته في الدنيا على الكافر يوم القيامة قال تعالىٰ: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٥] فإن هذا النظر هو حال الذليل لا يقدر يرفع رأسه من القهر، وذلك الخشوع من الكافر يوم القيامة والذلة والنظر المنكسر الذي لا يرفع بسببه رأسه إنما هو لله تعالىٰ خوفاً منه، وهذا كان حال المؤمن في الدنيا لخوفه من الله، فذلك يوم التغابن حيث يرى الإنسان صفة عزّه وسروره وفرحه على غيره، ويرى ذلّ غيره وغمّه وحزنه على نفسه، فالحكم لله العليّ الكبير.

ويتضمن هذا المنزل من العلوم علم سؤال الحق عباده السعداء عن مراتب الأشقياء

بأيّ اسم يسأل، وعلم المناسبات، وعلم ما تعطيه الأفكار، وعلم الكيفيات وهو على ضربين: ضرب منه لا يعرف إلاّ بالذوق، وضرب منه يدرك بالفكر وهو من باب التوسع في الخطاب لا من باب التحقق، فإن التحقق بعلم الكيفيات إنما هو ذوق، ولقد نبهني الولد العزيز العارف شمس الدين إسماعيل بن سودكين النوري على أمر كان عندي محققاً من غير الوجه الذي نبهنا عليه هذا الولد ذكرناه في باب الحروف من هذا الكتاب وهو التجلي في الفعل هل يصحّ أو لا يصحّ؟ فوقتاً كنت أنفيه بوجه، ووقتاً كنت أثبته بوجه يقتضيه ويطلبه التكليف، إذ كان التكليف بالعمل لا يمكن أن يكون من حكيم عليم يقول: اعمل وافعل لمن يعلم أنه لا يعمل ولا يفعل إذ لا قدرة له عليه، وقد ثبت الأمر الإلهيّ بالعمل للعبد مثل: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٣] ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٠٠] ﴿وَجَـٰهِدُوا۟﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] فلا بدّ أن يكون له في المنفعل عنه تعلق من حيث الفعل فيه يسمّى به فاعلاً وعاملاً، وإذا كان هذا فبهذا القدر من النسبة يقع التجلي فيه، فبهذا الطريق كنت أثبته وهو طريق مرضي في غاية الوضوح يدل أن القدرة الحادثة لها نسبة تعلق بما كلفت عمله لا بدّ من ذلك، ورأيت حجة المخالف واهية في غاية من الضعف والاختلال، فلما كان يوماً فاوضني في هذه المسألة هذا الولد إسماعيل بن سودكين المذكور فقال لي: وأيّ دليل أقوى على نسبة الفعل إلى العبد وإضافته إليه والتجلي فيه إذ كان من صفته من كون الحق خلق الإنسان على صورته، فلو جرّد عنه الفعل لما صحّ أن يكون على صورته ولما قبل التخلّق بالأسماء، وقد صحّ عندك وعند أهل الطريق بلا خلاف أن الإنسان مخلوق على الصورة وقد صحّ التخلّق بالأسماء فلم يقدر أحد أن يعرف ما دخل عليّ من السرور بهذا التنبيه، فقد يستفيد الأستاذ من التلميذ أشياء من مواهب الحق تعالىٰ لم يقض الله للأستاذ أن ينالها إلاّ من هذا التلميذ، كما نعلم قطعاً أنه قد يفتح للإنسان الكبير في أمر يسأله عنه بعض العامة ممّا لا قدر له في العلم ولا قدم، ويكون صادق التوجه في هذا العلم المسؤول عنه، فيرزق العالم في ذلك الوقت لصدق السائل علم تلك المسألة، ولم تكن عنده قبل ذلك عناية من الله بالسائل، وتضمنت عناية الله بالسائل أن حصل للمسؤول علماً لم يكن عنده، ومن راقب قلبه يجد ما ذكرناه، فالحمد لله الذي استفدنا من أولادنا مثل ما استفاده شيوخنا منا أموراً كانت أشكلت عليهم، ويتضمن هذا المنزل علم التبليغ عن الله إلى خلقه من رسول ونبي ووارث، ويتضمن علم السياسة في التعليم بباب اللطف من حيث لا يشعر المطلوب بذلك، ويتضمن علم الجزاء المطلق والمقيد، فالمطلق مجازاة العبد ربه مثل الشكر على المنعم، ومجازاة الله العبد مثل المزيد فيما وقع عليه الشكر من العبد، والمجازاة المقيدة هي جزاء الله العبد في الدار الآخرة فإنها ليست بدار تكليف قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ في موطن التكليف وهو الدنيا ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٠] في الدارين معاً دنيا وآخرة، وهذا القدر كافٍ في هذا الباب إن شاء الله تعالىٰ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والتسعون ومائتان في معرفة منزل ثناء تسوية الطينة الإنسية في المقام الأعلى من الحضرة المحمدية

[نظم: الوافر]

تَـنَـزَّهْ أيـهـا الـخَـلْـقُ الـمُـسَـوَّى عـلـى صـفـة الـمُـسَـوَّى بـالـسَّـوَاءِ
ولا تـنـظُـرْ إلـى مـا حَـالَ مـنـه وجـاء بـه الـرَّسـولُ مـن الـسـمـاءِ
فـإن خـفْـتَ الـرَّجَـا أيّـدتَ فـيـه بـمـا تُـعـطـيـه مَـأْمَـنَـةُ الـرَّجـاءِ
سُـلَـيْـمـانـيَّـةٌ وقـفَـتْ أمـامـي أقـيـمُ بـهـا رُخَـاءً مـن رُخَـاءِ
وقـفـتُ عـلـى الـصَّـفَـا أَعْـنـو لـسرٍّ إلـهـيٍّ بـمَـنْـزلـةِ الـصَّـفـاءِ
وعـانَـقْـتُ الـغـزالـةَ فـي سَـنَـاهـا لأعـلـو فـوقَ مَـنْـزلـةِ الـسّـهَـاءِ
وجـاوزْتُ الـعـقـولَ بـغـيـر حـدٍّ وخـضْـتُ حَـيَـا الـنفـوسِ عـلى حَـياءِ

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] فما من صورة في العالم ـ وما في العالم إلاَّ صور ـ إلاَّ وهي مسبحة خالقها بحمد مخصوص ألهمها إياه، وما من صورة في العالم تفسد إلاَّ وعين فسادها ظهور صورة أخرى في تلك الجواهر عينها مسبحة لله تعالىٰ حتى لا يخلو الكون كله عن تسبيح خالقه، فتسبحه أعيان أجزاء تلك الصورة بما يليق بتلك الصورة، والصور التي في العالم كلها نسب وأحوال لا موجودة ولا معدومة، وإن كانت مشهودة من وجه ما فليست بمشهودة من وجه آخر، وعين زمان فناء تلك الصور عين زمان وجود تلك الصور أي عين فسادها هو عين الأخرى لا أنه بعد الفساد تحدث الأخرى. واعلم إذا علمت هذا أن العالم كله ما عدا الإنس والجان مستوفى الكشف لما غاب عن الإحساس البشري، فلا يشاهد أحد من الجن والإنس ذلك الغيب إلاَّ في وقت خرق العوائد لكرامة يكرمه الله بها أو خاصية أمر ما من الأمور التي تعطي كشف الغيوب، كما أن كل جماد ونبات وحيوان في العالم كله وفي عالم الإنسان والجن وأجسام الملائكة والأفلاك وكل صورة يدبرها روح محسوساً كان ذلك التدبير فيمن ظهرت حياته أو غير محسوس فيمن بطنت حياته كأعضاء الإنسان وجلوده وما أشبه ذلك، كل هؤلاء في محل كشف الغيوب الإلهية المستورة عن الأرواح المدبرة لهذه الأجسام من ملك وإنس وجن لا غير فإنها محجوبة عن إدراك هذا الغيب الإلهيّ إلاَّ بخرق عادة في بعضهم أو في كلهم، وقد عرفت أن الحجر والحيوان والنبات عرف من هذا الباب نبوّة محمد ﷺ وهو من الغيوب الإلهية فيجهل كل روح مثل هذا إلاَّ أن يعرفه الله به إلاَّ من ذكرناهم فإنهم يعرفونه بالفطرة التي فطرهم الله عليها، إذا ظهرنا داهم الحق به في ذواتهم باسمه وإذا حضر بعينه. أخبرني يوسف بن يخلف الكومي من أكبر من لقيناه في هذا الطريق سنة ست وثمانين وخمسمائة رحمه الله قال: أخبرني موسىٰ السرداني وكان من الأبدال المحمولين قال: لما مشيت أنا ورفيقي إلى الجبل المسمّى قاف وهو جبل محيط بالبحر المحيط بالأرض وقد خلق الله حية على شاطىء ذلك البحر بين البحر والجبل دارت بجسمها بالبحر المحيط إلى أن اجتمع رأسها بذنبها فوقفنا عندها فقال لي صاحبي:

سلم عليها فإنها ترد عليك، قال موسىٰ: فسلمت عليها فقالت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، ثم قالت لي: كيف حال الشيخ أبي مدين؟ وكان أبو مدين ببجاية في ذلك الوقت فقلت لها: تركته في عافية وما علمك به؟ فتعجبت وقالت: وهل على وجه الأرض أحد لا يحبه أو يجهله؟ إنه والله مذ اتخذه الله ولياً نادى به في ذواتنا وأنزل محبته إلى الأرض في قلوبنا، فما من حجر ولا مدر ولا شجر ولا حيوان إلاّ وهو يعرفه ويحبه، فقلت لها: والله لقد ثم أناس يريدون قتله لجهلهم به وبغضهم فيه، فقالت: ما علمت أن أحداً يكون على هذه الحال فيمن أحبه الله .

فهذا من ذلك الباب، ومنه شهادة الأيدي والأرجل والجلود والأفواه والألسنة التي هي في نظرنا خرس هي ناطقة في نفس الأمر، فكل مخلوق ما عدا بني آدم في مقام الخشوع والتواضع إلاّ الإنسان فإنه يدعي الكبرياء والعزّة والجبروت على الله تبارك وتعالىٰ، وأما الجن فتدعي ذلك على من دونها في زعمها من المخلوقين كاستكبار إبليس من حيث نشأته على آدم عليه السلام ولذا قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٦١] لأنه رأى عنصر النار أشرف من عنصر التراب وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢] فلم يتكبر على الله عزّ وجلّ، فاختصّ الإنسان وحده من سائر المخلوقات بهذه الصفة، فلما حصلت مثل هذه الدعوى في الوجود وتحققت من المدعى في نفسه وفيمن اعتقد ذلك فيه مثل فرعون ومن استخف من قومه جعل الله في الوجود أفعل من كذا بمعنى المفاضلة كالمقرر لتلك الدعوى والمثبت لها فقال: الله أكبر، فأتى بلفظة افعل. وقال ﷺ: «**الله أعلى وأجلّ**»، فأتى بأفعل، فكل أفعل من كذا المنعوت به جلال الله فسببه مشاركة الدعوى في تلك الصفة لكن منها محمود ومذموم، فالمذموم ما ادّعاه فرعون والمحمود مثل قوله تعالىٰ عن نفسه أنه ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٦٤] ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] فأتى بأفعل وأثنى على الرحماء من عباده بأن جعل نفسه أرحم منهم بخلقه. وأما تقريره العام فإن الرحمة منهم حقيقة أوجدها فيهم فتراحموا بها، وأوجد الكبرياء في الإنسان بالصورة فتكبر به. فإن قلت: إذا ورد أفعل فليس هو المقصود به أفعل من. قلنا: فالله يقول: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] وهو هنا أفعل من بلا شك، وكذلك في حق الإنسان قال تعالىٰ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥٠] فكل موجود فهو على التقويم الذي يعطيه خلقه، وقال في الإنسان إنه خلقه في أحسن تقويم أي التقويم الذي خلقه عليه أفضل من كل تقويم، وما صحّت له هذه الصفة التي فضل بها على غيره إلاّ بكونه خلقه الله على صورته.
فإن قلت: فهذا التغيير الذي يطرأ على الإنسان في نفسه وصورة الحق لا تقبل التغيير. قلنا: الله يقول في هذا المقام: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] وقال ﷺ: «**فرغ ربك**» وقال: يتجلى في أدنى صورة، ثم يتحوّل عند إنكارهم إلى الصورة التي عرفوه فيها بالعلامة التي يعرفونها فقد أضاف إلى نفسه هذا المقام وهو العلي عن مقام التغيير بذاته والتبديل، ولكن التجليات في المظاهر الإلهية على قدر العقائد التي تحدث للمخلوقين مع

الآنات تسمّى بهذا المقام، وإذا كان الأمر على ما ذكرناه وكذلك هو فيصحّ ما ذكرناه ويرتفع الاعتراض الوهمي تعالىٰ الله علواً كبيراً.

وممّا يتضمن هذا المنزل من العلوم علم أسماء الأسماء وأن لها من الحرمة ما للمسمى بأسمائها، فالحروف المرقومة في الصحف أعيان كلام يفهم منها كلام الله الذي هو موصوف به ولماذا يرجع ذلك الوصف علم آخر اختلف الناس فيه ولا حاجة لنا في الخوض في ذلك، فالحق سبحانه من كونه متكلماً يذكر نفسه بأسمائه بحسب ما ينسب إليه الكلام الذي لا تكيف نسبته، ولتلك الأسماء أسماء عندنا في لغة كل متكلم، فيسمّى بلغة العرب الاسم الذي سمّى به نفسه من كونه متكلماً الله، وبالفارسية خداي، وبالحبشية واق، وبلسان الفرنج كربطور، وهكذا بكل لسان. فهذه أسماء تلك الأسماء وتعددت لتعدد النسب فهي معظمة في كل طائفة من حيث ما تدل عليه، ولهذا نهينا عن السفر بالمصحف إلى أرض العدو وهو خط أيدينا أوراق مرقومة بأيدي المحدثات بمداد مركب من عفص وزاج، فلولا هذه الدلالة لما وقع التعظيم لها ولا الحقارة ولهذا يقال: كلام قبيح وكلام حسن في عرف العادة وفي عرف الشرع وأمثال ذلك وسببه مدلول هذه الألفاظ في الاصطلاح والوضع، وهذا علم شريف لا يدركه سوى أهل الكشف على ما هو الأمر عليه، فليس بأيدينا سوى أسماء الأسماء، فإذا وقع التنزيه لأسماء الأسماء فتنزيه العبد الكامل أولى بالحرمة لأجل الصورة ولا سيما الوجه، إذ كان الوجه أشرف ما في ظاهر الإنسان لكونه حضرة جميع القوى الباطنة والظاهرة، ووجه كل شيء ذاته. مرّ رسول الله ﷺ على رجل وهو يضرب وجه غلام له فقال له رسول الله ﷺ: «**اتَّقِ الوَجْهَ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**» وهو محل الإقبال على الله دون غيره من الجهات فهي الجهة العظمى.

ومن علوم هذا المنزل العلم بالفرق بين الخلق والتقدير، فالتقدير متعلق الاسم المدبر والمفصل لا غيرهما من الأسماء وقد قال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] وكلا الإسمين تحت حيطة الاسم العالم ولا دخول للاسم القادر في هذه الحضرة، فإن هذه الأسماء الثلاثة راجعة إلى ذات الحق، ولا يكون الحق مقدوراً لنفسه فلا حكم للاسم القادر هنا، فالاسم المقدر هو المعتبر في هذه المرتبة، والخلق يطلب الاسم القادر عقلاً ويطلب الاسم القائل كشفاً وشرعاً، وإنما قلنا كشفاً ليفرق في ذلك بين الوليّ والنبيّ، لأن كل واحد من هذين الرجلين يقول بهذا بخلاف ما يعطيه النظر الفكري للعقل بدليله، فكما تميّز الاسم القادر من المقدر لفظاً ومعنى كذلك تميز الخلق من التقدير لفظاً ومعنى، فبالتقدير يقع البيان في صور الموجودات على اختلاف ذواتها حسيّة كانت أو معنوية من عالم الحروف الرقمية أو اللفظية أو الفكرية، ومن عالم الأعيان القائمة بأنفسها، ومن عالم الأعيان التي لا تقوم بأنفسها، ويدخل في ذلك عالم النسب فبما في هذه الأعيان من التسوية لذوات أشخاصها في عالم الغيب والشهادة يكون خلقاً، ولا يدخل في هذا عالم النسب لأنها ليست أعياناً وجودية، ولا تتصف بالعدم المطلق لكونها معقولة وبما فيها كلها من التمييز الذي يتضمنه أعيانها عقلاً

كان أو حساً يكون للتقدير لا للخلق، فإذا ظهر عين ما ذكرناه من كل عالم للحسّ أو للعقل عن الاسم الخالق أو المدبر المفصل والمقدر علّق نفع بعضه ببعض فنفعت الأعيان بعضها بعضاً ودعاهم الحق إليه من خلف ستر هذه الأعيان عند توجه بعضها لبعض بالمنافع، فيدعو كل صورة من كل صورة إليه، فمنا من يشعر فيعرف من دعاه، ومنا من يلتبس عليه ذلك ولا يعرف كيف الأمر ويجد في نفسه قوّة الفرقان ولا يبدو له وجه الفرقان، ومنا من لا يلتبس عليه ذلك ويكون أعمى مكفوف البصر أكمه فيقول ما ثم إلاّ ما نشاهد وهي أعيان هذه الصور، فنحن ثلاثة أصناف: صنف سليم النظر حديد الطرف، وصنف قام به غشاء في عينيه فلا يتحقق الصور مع معرفته أن ثم أمراً ما ولكن لا يحقق صورته، ومنا من هو أكمه ما أبصر شيئاً قط فهو مستريح الخاطر، وما ثم صنف رابع.

وتختلف منافع هذه الصور باختلاف القوابل والسائلين، وكل سائل يسأل بحسب حاجته وغرضه، وقد يكون ضرورياً وقد لا يكون، وعلى الحقيقة ما ثم إلاّ ضروري ولهذا يتعين العطاء، فإن السائل ما يسأل إلاّ لغرض أحوجه ذلك الغرض إلى السؤال، فالغرض هو السائل واللسان بالحال أو بالمقال هو المترجم عن ذلك الغرض، وليس لذلك الغرض حياة إلاّ بتحصيل ما سأل فيه، فإن لم ينله هلك، فكان المانع له ممّا سأل فيه كان سبب زوال صورته من العالم، فنقص بمنعه صورة من العالم كانت مسبحة لله تعالىٰ، والمحقق يريد أنه لا زاد ولا ينقص، والأغراض قد تكون مذمومة، وإذا مكنت ممّا تطلبه وقع الإنسان في محظور أشد من قتل هذا الغرض بما منع من سؤاله وكيف التخلص في هذه المسألة، فاعلم أنه لا يخاطب بقضاء الأغراض على الإطلاق من هو مقيد معقول في قبضة عقل التكليف، وإنما هذا المقام لأصحاب الأحوال المغلوب على عقولهم. فإن قلت: فالحفظ أحسن كما قال الإمام في وله الشبلي حين قيل له إنه يرد في أوقات الصلوات فإذا فرغ حكم عليه حال الوله وحال بينه وبين عقله الذي يعطيه الصحو، فقال الإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد سيد هذه الطائفة: الحمد لله الذي لم يجر عليه لسان ذنب ولم يضف إليه الذنب، ولكن يتعلق به لسان الذنب من حيث الصورة عند من لا يعرفه وهو في نفس الأمر غير مذنب، قال بعض أصحابنا: فلولا أن التنزّه عن جريان لسان الذنب أولى وأعظم لما حمد الله على ذلك هذا الإمام. قلنا: ليس الأمر كما زعمت وأن هذا الإمام خاف على من لم يبلغ هذه الرتبة أن يظهر بها وهو غير محقق بها فيخطىء فيقع في الذنب ولهم الشفقة على العالم، وإما أن يكون من طريق الأفضلية، وكيف يكون ذلك وقد أطلق سبحانه ألسنة عباده عليه وعلى رسله بالذم والسب، فلصاحب هذا الوله فيمن ذكرنا أسوة وعزّ فليس في ذلك فضل عندنا.

وممّا يتضمن هذا المنزل علم الرحمة التي أبطنها الله في النسيان الموجود في العالم وأنه لو لم يكن لعظم الأمر وشقّ وفيما يقع فيه التذكّر كفاية، وأصل هذا وضع الحجاب بين العالم وبين الله في موطن التكليف، إذ كانت المعاصي والمخالفات مقدرة في علم الله فلا بدّ من وقوعها من العبد ضرورة، فلو وقعت مع التجلي والكشف لكان مبالغة في قلة الحياء من الله

حيث يشهده ويراه والقدر حاكم بالوقوع فاحتجب رحمة بالخلق لعظيم المصاب، ألا تراهم في الأمور المدبرة بالعقل الجارية على السداد العقلي إذا أراد الله إمضاء قضائه وقدره في أمر ما أخفى في ذلك الأمر حكمته وعلمه الذي أجراه له ممّا لا يقتضيه نظر العقل، فإذا أمضاه ردَّ عليهم عقولهم ليعلموا أن الله قد رحمهم بزوال العقل في ذلك الحين لرفع المطالبة، قال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ نَفَاذَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ سَلَبَ ذَوِي العُقُولِ عُقُولَهُمْ حَتَّى إِذَا أَمْضَى فِيهِمْ قَضَاءَهُ وَقَدَرَهُ رَدَّها عَلَيهِمْ لِيَعْتَبِرُوا**» وقال ﷺ: «**رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ فَلاَ يُؤَاخِذُهُم اللَّهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ**» فأما في الآخرة فمجمع عليه من الكل، وأما في الدنيا فأجمعوا على رفع الذنب، واختلفوا في الحكم وكذلك في الخطأ على قدر ما شرع الشارع في أشخاص المسائل، فمن أفطر ناسياً في رمضان فطائفة أوجبت القضاء عليه مع رفع الإثم، وقوم لم يوجبوا القضاء عليه مع ارتفاع الإثم أيضاً فإن الله أطعمه وسقاه، هذا قول الشارع فيه، فهذا من الرحمة المبطونة فيه أعني في النسيان، وكذلك ما نسي من القرآن ولم يتذكر فينقل إلينا فيكون زيادة علينا في التكليف فرحم عباده بذلك، وقد كان ﷺ يقول: «**اتْرُكُونِي ما تَرَكْتُكُمْ**» وقال: «**لَوْ قُلْتُ نَعَمْ ـ للسَّائِلِ عَنِ الحَجِّ فِي كُلِّ عَامٍ ـ لَوَجَبَتْ**» وكانت الأحكام تحدث بحدوث السؤال عن النوازل، فكان غرض النبيّ ﷺ حين علم ذلك أن يمتنع الناس عن السؤال ويجرون مع طبعهم حتى يكون الحق هو الذي يتولى من تنزيل الأحكام ما شاء، فكانت الواجبات والمحظورات تقل وتبقى الكثرة في قبيل المباحات التي لا يتعلق بها أجر ولا وزر، فأبت النفوس قبول ذلك وأن تقف عند الأحكام المنصوص عليها فأثبتت لها عللاً وجعلتها مقصودة للشارع وطردتها وألحقت المسكوت عنه في الحكم بالمنطوق به بعلة جامعة بينهما اقتضاها نظر الجاعل المجتهد، ولو لم يفعل لبقي المسكوت عنه على أصله من الإباحة والعافية، فكثرت الأحكام بالتعليل وطرد العلة والقياس والرأي والاستحسان: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٤] ولكن بحمد الله جعل الله في ذلك رحمة أخرى لنا لولا أن الفقهاء حجرت هذه الرحمة على العامّة بإلزامهم إياها مذهب شخص معين لم يعينه الله ولا رسوله، ولا دلّ عليه ظاهر كتاب ولا سنّة صحيحة ولا ضعيفة، ومنعوه أن يطلب رخصة في نازلته في مذهب عالم آخر اقتضاه اجتهاده وشدّدوا في ذلك وقالوا هذا يفضي إلى التلاعب بالدين وتخيّلوا أن ذلك دين وقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ**» فالرخص ممّا تصدق الله بها على عباده.

وقد أجمعنا على تقرير حكم المجتهد وعلى تقليد العامي له في ذلك الحكم لأنه عنده عن دليل شرعي سواء كان صاحب قياس أو غير قائل به، فتلك الرخصة التي رآها الشافعي في مذهبه على ما اقتضاه دليله قد قرّرها الشرع، فيمنع المفتي من المالكية المالكي المذهب أن يأخذ برخصة الشافعي التي تعبده بها الشارع، وإنما أضفناها إلى الشارع لأن الشرع قرّرها بمنعه ممّا يقتضيه الدليل في الأخذ به بأمر لا يقتضيه الدليل الذي لا أصل له، وهو ربط الرجل نفسه بمذهب خاص لا يعدل عنه إلى غيره ويحجر عليه ما لم يحجر الشرع عليه، وهذا من

أعظم الطوام وأشق الكلف على عباد الله، فالذي وسع الشرع بتقرير حكم المجتهدين من هذه الأمة ضيقة عوام الفقهاء. وأما الأئمة مثل أبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل والشافعي فحاشاهم من هذا ما فعله واحد منهم قط ولا نقل عنهم أنهم قالوا لأحد اقتصر علينا ولا قلّدني فيما أفتيتك به بل المنقول عنهم خلاف هذا رضي الله عنهم.

وممّا يتضمنه هذا المنزل الفرق بين تعلّق علمه سبحانه بما يسره العبد في نفسه وبين ما يبديه ويظهره، وهل يرجع ذلك إلى نسبة واحدة أونسبتين؟ ويتعلق بهذا الباب ما يريده الحق بقوله تعالىٰ: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**» فهاتان حالتان في الذكر والعلم، فاعلم أن للحق سبحانه غيباً ومظهراً، فبما هو غيب له الاسم الباطن وهو ذكره عبده في نفسه وعلمه بما يسرّه، ومع ذلك الاسم يكون سر العبد الذي يعلمه الحق وذكر النفس الذي يذكر العبد به ربه وبما له المظهر من الاسم الظاهر وهو ذكره تعالىٰ عبده في ملأ من ملائكته أو ملأ الأسماء الإلهية، وعلمه بما يبديه العبد في عالم الشهادة، ومع ذلك الاسم يكون علانية العبد التي يعلمها الحق وذكر العلانية التي يذكر العبد به ربه. وأما العلم بما هو أخفى من السر فهو ما لا يعلمه إلاّ الله وحده لا علم لهذا العبد به ولا يمكن أن يعلمه إلاّ الله وهو علمه بنفسه، وما عدا هذا العلم فهو إما علم سرّ أو علم علانية، فمتعلق العلم ثلاثة أشياء: الجهر والسرّ وما هو أخفى من السرّ، ومتعلق الذكر أمران: ذكر الملأ وهو نوعان: ملأ الأسماء وملأ الملائكة، والأمر الآخر ذكر النفس فتساوى الذكر مع العلم في التقسيم.

وممّا يتضمن هذا المنزل كون الإنسان قد أودع الله فيه علم كل شيء ثم حال بينه وبين أن يدرك ما عنده ممّا أودع الله فيه، وما هو الإنسان مخصوص بهذا وحده بل العالم كله على هذا، وهو من الأسرار الإلهيّة التي ينكرها العقل ويحيلها جملة واحدة وقرّبها من الذوات الجاهلة في حال علمها قرب الحق من عبده وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] ومع هذا القرب لا يدرك ولا يعرف إلاّ تقليداً، ولولا إخباره ما دل عليه عقل، وهكذا جميع ما لا يتناهى من المعلومات التي بعلمها هي كلها في الإنسان وفي العالم بهذه المثابة من القرب وهو لايعلم ما فيه حتى يكشف له عنه مع الآنات، ولا يصحّ فيه الكشف دفعة واحدة لأنه يقتضي الحصر، وقد قلنا إنه لا يتناهى، فليس يعلم إلاّ شيئاً بعد شيء إلى ما لا يتناهى، وهذا من أعجب الأسرار الإلهية أن يدخل في وجود العبد ما لا يتناهى كما دخل في علم الحق ما لا يتناهى من المعلومات وعلمه عين ذاته، والفرق بين تعلّق علم الحق بما لا يتناهى وبين أن يودع الحق في قلب العبد ما لا يتناهى أن الحق يعلم ما في نفسه وما في نفس عبده تعييناً وتفصيلاً، والعبد لا يعلم ذلك إلاّ مجملاً، وليس في علم الحق بالأشياء إجمال مع علمه بالإجمال من حيث إنّ الإجمال معلوم للعبد من نفسه ومن غيره، فكل ما يعلمه الإنسان دائماً وكل موجود فإنما هو تذكر على الحقيقة وتجديد ما نسيه، ويحكم هذا المنزل على أن العبد

أقامه الحق في وقت ما في مقام تعلق علمه بما لا يتناهى وليس بمحال عندنا، وإنما المحال دخول ما لا يتناهى في الوجود لا تعلق العلم به. ثم إن الخلق أنساهم الله ذلك كما أنساهم شهادتهم بالربوبية في أخذ الميثاق مع كونه قد وقع وعرفنا ذلك بالإخبار الإلهيّ، فعلم الإنسان دائماً إنما هو تذكر، فمنا من إذا ذكر تذكر أنه قد كان علم ذلك المعلوم ونسيه كذي النون المصري، ومنا من لا يتذكر ذلك مع إيمانه به أنه قد كان يشهد بذلك ويكون في حقه ابتداء علم، ولولا أنه عنده ما قبله من الذي أعلمه ولكن لا شعور له بذلك ولا يعلمه إلاّ من نور الله بصيرته وهو مخصوص بمن حاله الخشية مع الأنفاس وهو مقام عزيز لأنه لا يكون إلاّ لمن يستصحبه التجلي دائماً، ويتضمن هذا المنزل مسائل ذي النون المشهورة وهي إيجاد المحال العقلي بالنسب الإلهيّة، ويتضمن علم المفاضلة بين المتنافرين من جميع الوجوه، ويتضمن أن كل جوهر في العالم يجمع كل حقيقة في العالم، كما أن كل اسم إلهيّ مسمّى بجميع الأسماء الإلهية وذلك قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] وهذا العلم خاصة انفردت به دون الجماعة في علمي، فلا أدري هل عثر عليه غيري وكوشف به أم لا من جنس المؤمنين أهل الولاية لا جنس الأنبياء. وأما في الأسماء الإلهية فقد قال به أبو القسم بن قسي في خلع النعلين له، فرحم الله عبداً بلغه أن أحداً قال بهذه المسألة عن نفسه كما فعلت أنا أو عن غيره فيلحقها بكتابي هذا في هذا الموضع استشهاد إليّ فيما ادعيته فإني أحب الموافقة، وأن لا أنفرد بشيء دون أصحابي، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والتسعون ومائتان

في معرفة منزل الذكر من العالم العلوي في الحضرة المحمدية

[نظم: البسيط]

زَهْرُ المعارف من زَهْر الرِّياضاتِ ... وزهرُ روضِكَ من زَهْرِ السَّمواتِ
فللجُسوم علومٌ ليس يُشْبِهها ... علمُ النُّفوس لأسبابٍ وآفاتِ
حقائقُ الحقّ لا تَخْفَى مداركُها ... لأن إدراكَها للذات بالذَّاتِ
وما سواها فإدراكٌ بواسطةٍ ... بما يراه مِنَ أعْلام وآياتِ
هَزْلُ الأكابر جِدٌّ عن مُشاهدةٍ ... في طَيِّهِ عندهم مَكْرُ الكراماتِ
إمهالُهم ليس إهمالاً لعِلْمِهِمُ ... بأن ذلك مَرْبوطٌ بأوقاتِ
إن الرجالَ وإن حقَّقْتَ نسبَتَهم ... إلى أبٍ واحدٍ أولادُ عَلاَّتِ
إن قلتَ هُمْ فَهُمْ أو قلت لا فَهُمُ ... لكونهم بين آلامٍ ولَذَّاتِ
لأنه ليس تُفْنيهم مَظاهِرُهُ ... وهي المُعَبِّرُ عنها بالسِّتَاراتِ

اعلم وفقك الله أن شيخنا أبا العباس العريبي كان ممّن تحقق بهذا المنزل وفاوضناه فيه مراراًفكانت قدمه فيه راسخة رحمه الله. واعلم أن هذا المنزل قد جمع بين المشقة الشديدة

والأمور التي لا تُنال إلاّ بالقهر الشديد والآفات المانعة عن إدراك المطلوب، وبين الرفق وارتفاع الآفات والوصول إلى المطلوب بالراحة المستلذة المعشوقة للنفوس، وما بين هاتين الصفتين شدائد عظام، فأوّل علم يتضمن هذا المنزل علم الخروج عن الطبع، فاعلم أن الحركات منها طبيعية ومنها قسرية، فلا تتخيل أن الحركة الطبيعية تعطي لذة، والحركة القسرية تعطي ألماً لخروجك عن الطبع، قد يكون الأمر كذلك وقد يكون على النقيض، فلو وقع الإنسان من علو عظيم لكان نزوله إلى الأرض عن حركة طبيعية، ولكن إذا وصل إلى الأرض ربما تكسرت أعضاؤه وتضاعفت آلامه، وسببه الاضطراب الذاتي وعدم موافقة الاختيار الذي تطلبه ربانيته المودعة فيه التي قيل له أخرج عنها فما فعل، والحركة القسرية هي أن يعرج به فيرى من الآيات والفرح والانفساحات والتنزّه على قدر ما علت به تلك الحركة القسرية التي أخرجته عن طبعه واضطراره ووافقته في اختياره، فلا تفرح بكل ما يقتضيه الطبع فإنه أيضاً ما قبل الحركة القسرية إلاّ بطبعه فالطبع لا يفارقه حكمه في الحركتين.

واعلم أن الصفات التي جبل عليها الإنسان لا تتبدل فإنها ذاتية له في هذه النشأة الدنيا، والمزاج الخاص من الجبن والشح والحسد والحرص والنميمة والتكبر والغلظة وطلب القهر وأمثال هذا، ولما لم يتجه تبدلها بين الله لها مصارف صرفها إليها حكماً مشروعاً، فإن صرفت إليها أحكام هذه الصفات سعدت ونالت الدرجات فجبنت عن إتيان المحارم لما تتوقعه من المضرة وشحت بدينها وحسدت منفق المال وطالب العلم وحرصت على الخير وسعت بين الناس بإيصال الخير، فنمت به كما تنم الروضة بما فيها من الأزهار الطيبة الريح، وتكبرت بالله على من تكبر على أمر الله، وأغلظت القول والفعل في المواطن التي تعلم أن ذلك في مرضاة الله، وطلبت القهر على من ناوى الحق وقاواه، فلم تزل هذه النفس عن صفاتها وصرفتها في المصارف التي يحمدها عليها ربها وملائكته ورسله، فالشرع ما جاء إلاّ بما يساعده الطبع، فلا أدري من أين ينال الإنسان المشقة وما حجر عليه ما يقتضيه طبعه من هذه الصفات بتبيين المصارف، فما هلك الناس إلاّ بسلطان الأغراض، فإنه الذي أدخل الألم عليهم والمكروه، فلو أن الإنسان يصرف غرضه إلى ما أراده له خالقه لاستراح، قيل لأبي يزيد: ما تريد؟ قال: أريد أن لا أريد أي اجعلني مريداً لكل ما تريد حتى لا يكون إلاّ ما يريد الحق سبحانه، فما يريد بعباده إلاّ اليسر، ولا يريد بهم العسر، ويريد لهم الخير وليس إليه الشرّ، كما ورد في الخبر الصحيح: «**وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ**» وإن كان الكل من عند الله بحكم الأصل.

ولما كان خروج الإنسان عن أن يكون مريداً محالاً وأنه أوّل ما كان يقدح ذلك في الطاعات فيفعلها من غير نية مشروعة فلا تكون طاعة، وإنما طلب أبو يزيد الخروج عن الأغراض النفسية التي لا توافق مرضاة الحق عزّ وجلّ. واعلم أن المشي في الظلمة بغير سراج وضوء في طريق كثيرة المهالك والحفر والأوحال والمهاوي والحشرات المؤذية التي لا يتقي شيء من هذا كله إلاّ أن يكون الماشي فيها بضوء يرى به حيث يجعل قدمه ويجتنب به ما

ينبغي أن يجتنب ممّا يضره من مهواة يهوي فيها أو مهلك يحصل فيه أو حية تلدغه، وليس له ضوء سوى نور الشرع الذي قال فيه تعالىٰ: ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [سورة النور: الآية ٤٠] وقال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] فإذا اجتمع نور الشرع مع نور بصر التوفيق والهداية بان الطريق بالنورين، فلو كان نور واحد لما ظهر له ضوء، ولا شك أن نور الشرع قد ظهر كظهور نور الشمس ولكن الأعمى لا يبصره، كذلك من أعمى الله بصيرته لم يدركه فلم يؤمن به، ولو كان نور عين البصيرة موجوداً ولم يظهر للشرع نور بحيث أنْ يجتمع النوران فيحدث الضوء في الطريق لما رأى صاحب نور البصيرة كيف يسلك لأنه في طريق مجهولة لا يعرف ما فيها ولا أين تنتهي به من غير دليل وموقف، فهذا الشخص الماشي في هذه الطريق إن لم يحفظ سراجه من الأهواء أن تطفئه بهبوبها وإلاّ هبت عليه رياح زعازع فأطفأت سراجه وذهب نوره، وهو كل ريح يؤثر في نور توحيده وإيمانه، فإن هبت ريح لينة تميل لسان سراجه وتحيره حتى يتحير عليه الضوء في مشاهدة الطريق فتلك الريح، كمتابعة الهوى في فروع الشريعة وهي المعاصي التي لا يكفر بها الإنسان ولا تقدح في توحيده وإيمانه، فلقد خلقنا لأمر عظيم، ولكن إذا اقتحمنا هذه الشدائد وقاسينا هذه المكاره حصلنا على أمر عظيم وهو سعادة الأبد التي لا شقاء فيها.

وممّا يتضمن هذا المنزل علم الوقت الذي يصحبه فيه القرينان من الملك والشيطان، فاعلم أن الإنسان إذا خلقه الله في أمّة لم يبعث فيها رسول لم يقترن به ملك ولا شيطان ويبقى يتصرف بحكم طبعه ناصيته بيد ربه خاصة، فكل ما يمشي فيه في ذلك الوقت فهو على صراط مستقيم، فإن ربه على صراط مستقيم، قال تعالىٰ: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] فإذا بعث فيهم رسول أو خلق في أمة فيهم رسول لزمه من حين ولادته قرينان: ملك وشيطان من حين يولد لأجل وجود الشرع، وأعطى كل واحد من القرينين لمة يهمزه ويقبضه بها، ولا تقل إن المولود غير مكلف فلماذا يقرن به هذان القرينان؟ فاعلم أن الله ما جعل له هذين القرينين في حق المولود، وإنما ذلك من أجل مرتبة والديه أو من كان فيهمزه القرين الشيطاني فيبكي أو يلعب بيده فيفسد شيئاً ممّا يكره فساده أبوه أو غيره، فتكون تلك الحركة من المولود الغير مكلف سبباً مثيراً في الغير ضجراً وتسخطاً كراهة لفعل الله فيتعلق به الإثم فلهذا يقرن به الشيطان لا لنفسه وكذلك الملك وهو كل حركة تطرأ من المولود ممّا تثير في نفس الغير أمراً موجباً للشرّ أو للخير، فإن كان شراً فمن الشيطان، وإن كان خيراً فمن الملك، وليس للصبي الصغير قط حركة نفسية ولا ربانية حتى يدرك، وإن لم يكن في أمة لها شرع فحركته كلها نفسية من حال ولادته إلى أن يموت ما لم يرسل إليه رسول أو يدخل هو في دين إلهيّ يتقيد به أيّ دين كان مشروعاً من الله أو غير مشروع، حينئذ يوكل به القرينان، إذ لم يكن للعقل أن يشرع القربات، وإن كان على مكارم الأخلاق المعتادة في العرف المحبوبة بالطبع التي يدركها العقل ولكن لا يحكم عليها بحكم

أصلاً يقطع به على الله، وليس له حكم في إثبات الآخرة ولا نفيها، لكن هو متمكن بعقله من النظر في إثبات موجده ولمن يستند في وجوده، وما ينبغي أن يكون عليه موجده من الصفات، وما ينبغي أن يعظه به من نعوت الجلال، لكن لا على جهة المنزلة الأخراوية عنده، ولا يعرف بعقله ما يصير إليه بعد الموت، ولا يدري هذا المدبر لبدنه ما هو ولا أين يذهب من الميت إذا مات، ولولا أن الأمر من آدم كان ابتداؤه بالنبوّة فأخبر بما هنالك ففطنت العقول حيث أعلمت مآل هذه النفوس فذلك الذي حرضها على البحث والنظر في ذلك وحشر النفوس بعد الموت إلى أين يكون وكيف يجمع وصورة ما ينتقل به وإليه، وهل تنتقل مدبرة لمواد أخر أو تتجرّد عن المادة؟ وهل كان لها وجود قبل تسوية البدن في التكوين أم حدثت بحدوث البدن؟ ووقفوا على حكم تأثيرات في العالم فراقبوا الأفلاك وحركات الكواكب ورأوا حدوث الآثار عند تلك الحركات عن تكرار، فعلموا أن ثم نسبة بين هذا الأثر وتلك الحركات، وأما ما لم تدرك الأعمار تكراره فذلك بإعلام النبي عليه السلام الذي كان في زمانهم أتاهم بما أعلمه الله وأطلعه على ما اختزنه في تلك الحركات العلوية من الآثار العنصرية وأعلمهم حكمها في الدنيا والآخرة، وليس مثل هذا كله من مدركات العقول من غير موقف، فلولا التعريف الإلهيّ في هذه الدار والدار الآخرة ما عرف أحد شيئاً ممّا هنالك.

واعلم أن كل مخلوق ما سوى الإنس والجان مفطورون على تعظيم الحق والتسبيح بحمده، وكذلك أعضاء جسد الإنس والجان كلها ولكن لا على جهة التقريب وابتغاء المنزلة العظمى بل التسبيح لهم كالأنفاس في المتنفسين لما تستحقه الذات، وهكذا يكون تسبيح الإنس والجان في الجنة والنار لا على طريق القربة ولا ينتج لهم قربة، بل كل واحد منهم على مقام معلوم، فتصير العبادة طبيعية تقتضيها حقائقهم ويرتفع التكليف ولا يتصوّر منهم مخالفة لأمر الله إذا ورد عليهم، ولا يبقى هنالك نهي أصلاً بعد قوله لأهل النار: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٠٨] وكلامنا إذا نزل الناس منازلهم في كل دار وغلقت الأبواب واستقرت الداران بأهلها الذين هم أهلها وارتفع شأن أرض الحشر وعادت كلها ناراً وصار كل ما تحت مقعر فلك الكواكب الثابتة إلى منتهى أسفل سافلين داراً واحدة تسمّى جهنم تحوي على حرور وزمهرير وبينهما برازخ يكون فيها التكوينات في الجلود التي يقع فيها التبديل عند الإنضاج ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] يريد المدة التي كانت الأرض عليها من يوم خلقها الله إلى يوم التبديل، وكانت العرب التي نزل القرآن بلسانها تطلق هذه اللفظة وتريد بها التأييد وهي منقطعة بالخبر الإلهيّ وتعريف النبي ﷺ إلاّ ما شاء ربك بما يرزقون في النار من اللذة والنعيم بها ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] وفي الجنة ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ من حيث جوهرهما لا من حيث صورتهما، ولهذا قال: عطاء غير مجذوذ، أي غير مقطوع، ويقع الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من زوال صورتهما إذ كانت السماء سماء والأرض أرضاً، فإنا نعلم أن جوهر السماء هو جوهر الدخان وتبدّلت عليه الصور، فالجوهر الذي قبل صورة الدخان هو الذي

قبل صورة السماء كما قبل جوهر الطين، والحجر صورة البيت فإذا تهدم البيت ويبس الطين ذهبت صورة البيت والطين وبقي عين الجوهر، وكذلك العالم كله بالجوهر واحد وبالصور يختلف فاعلم ذلك، فيكون الاستثناء في حق أهل النار لمدة عذابهم، ويكون الاستثناء في حق أهل الجنة على معنى: «**إلاَّ أن يشاء ربك**» وقد شاء أن لا يخرجهم فهم لا يخرجون فإن الله ما شاء ذلك بقوله ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٨] ولم يقل في أهل النار عذاباً غير مجذوذ فافهم. فإن الخبر الصحيح المتواتر قد ورد فقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤٨] ووصف السماء بأنها تصير كالدهان ووصفها بالانشقاق وأنها تمور وقال تعالىٰ: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣٧] أي مثل الدهن الأحمر في اللون والسيلان، فهذا كله أخبار عن ذهاب الصورة لا ذهاب الجوهر.

وممّا يتضمن هذا المنزل علم ما أراد الله من الإنسان أن يشتغل به في حال اعتباره وتفكّره لما يؤدّيه ذلك النظر إليه من المعرفة بخالقه لا بربه، فإنه لكل اسم من أسماء الله في العالم دليل خاص لا يدل على غيره من حيث هو دليل عليه، ومن هنا تعلم أن الأرض خلقت من تموج الماء حتى أزبد فكان ذلك الزبد عين الأرض لأنه انتقل من المائية إلى الزبدية وفي الزبد يكون الأرض، وهذا هو السبب في اختراق الصالحين لها وجلوس الميت في قبره مع ردم الأرض عليه، وحكم كل ما خلق منها حكمها، وحكمها حكم الزبد، وحكم الزبد حكم الماء، والماء يقبل الخرق، وتحرك الأشياء فيه فيجري حكم هذا الأصل في جميع ما وجد عنه سواء كثف كالأرض أو سخف كالهواء والنار، لكن النار للماء بمنزلة ولد الولد، والأرض للماء بمنزلة الولد والهواء، والزبد للماء بمنزلة أولاد الصلب، فالماء لهما أب وهو للنار جد من جهة الهواء وللأرض جد من جهة الزبد، فبين خلق آدم والماء وجود التراب الزبد فهو ولد ولد الولد من حيث كثافته، وكذلك بما فيه من النار وبما فيه من الهواء هو ولد الولد، وأما خلق حواء فبينها وبين الأصل ثلاثة: آدم والتراب والزبد فهي أبعد من الأصل. وأما خلق بني آدم فهم أقرب إلى الأصل من آدم فإنهم مخلوقون من الماء فهم من الماء مثل الزبد فهم أولاد الماء لصلبه والزبد أخ لبني آدم وهو جد لآدم وأب للأرض، فبنو آدم أعمام للأرض، فتكون منزلة آدم من بنيه منزلة ابن الأخ من عم أبيه، ويكون بنو آدم من آدم بمنزلة عم أبيه فهم أولاده وهو ولد ابن أخيهم، فهم في الإسناد من هذا الوجه أقرب إلى السبب الأوّل وهو الجد الأعلى، إلاَّ بما في آدم من الماء الذي صار به التراب طيناً ففيه إلحاق بولد الصلب بمنزلة من نكح امرأة وهي حامل من غيره فسقى زرع غيره فله فيه بما حصل له من ذلك السقي نصيب.

وأما خلق عيسىٰ عليه السلام فبينه وبين الماء أمه وحوّاء وآدم والأرض والزبد إلاَّ من وجه آخر فهو يشبهنا وقليل من يعثر عليه، وقد نبّه الله على ما أومأنا إليه بقوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٧] لما أراد الله فسرت اللذة بالنظر إليه بعدما استعاذت منه وعرفها أنه رسول الحق ليهب لها غلاماً زكيا فتأهبت لقبول الولد فسرت فيها لذة النكاح بمجرد النظر فنزل الماء منها إلى الرحم فتكوّن جسم عيسىٰ من ذلك الماء المتولد عن النفخ الموجب للذة

فيها فهو من ماء أمه، وينكر ذلك الطبيعيون ويقولون إنه لا يتكوّن من ماء المرأة شيء وذلك ليس بصحيح، وهو عندنا أن الإنسان يتكّون من ماء الرجل ومن ماء المرأة، وقد ثبت عن النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى أنه قال: «**إذَا عَلاَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ المَرْأَةِ أَذْكَرَا وَإِذَا عَلاَ مَاءُ المَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ أَنثَا**» وفي رواية: سبق بدل علا، فقد جاء بالضمير المثنى في أذكرا وأنثا، وقد قلنا في كتاب النكاح لنا في هذا الفصل إن المرأة والرجل إذا لم يسبق أحدهما صاحبه في إنزال الماء وأنزلا معاً بحيث أن يختلطا ولا يعلو أحد الماءين على الآخر فإنه من أجل تلك الحالة إذا وقعت على تلك الصورة يخلق الله الخنثى فيجمع بين الذكورة والأنوثة، فإن كانا على السواء من جميع الجهات والاعتدال من غير انحراف ماء من أحدهما كان الخنثى يحيض من فرجه ويمني من ذكره فيعطي الولد ويقبل الولد ممّن ينكحه، وقد روي أنه رؤي رجل ومعه ولدان أحدهما من صلبه والآخر من بطنه، وإن انحرف الماء عن الاعتدال ولم يبلغ مبلغ العلو على الآخر كان الحكم للمنحرف إلى العلو، فإن كان ماء المرأة حاض الخنثى ولم يمن وإن كان ماء الرجل أمنى ولم يحض، فسبحان القدير الخلاق العليم، وهذا من أعجب البرازخ في الحيوان ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] ويكفي علم هذا القدر من هذا المنزل فإنه يتضمن مسائل كثيرة أكثرها في تولد العالم الطبيعي بين حركات الأفلاك وتوجهاتها وتوجهات كواكبها بأشعة النور، وبين قبول العناصر والمولدات لآثار تلك الأنوار، فيظهر من تلك الأحكام إيجاد الأعيان والمراتب والأحوال، وهذا علم كبير طويل، ويتعلق بهذا المنزل علم الابتلاء في غير موطن التكليف، ويتضمن علم الديوان الإلهي، ويتضمن علم وجوب الكلمة الإلهية التي لا تتبدل، ويتضمن علم أنه ما في العالم باطل ولا عبث، وأنه حق كله بما فيه من الحق والباطل، ويتضمن لماذا أخّر الله غالباً العقوبات إلى الدار الآخرة في حق الأكثرين وعجلها في حق آخرين وهو المعبر عنه بإنفاذ الوعيد وهو خبر، والخبر الذي لا يتضمن حكماً لا يدخله النسخ فقد ينفذ ما أوعد به لمن خالفه لأنه لم يخصّ بإنفاذه داراً من دار، بل قال في الدنيا: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ [سورة الروم: الآية ٤١] وهو من جملة إنفاذ الوعيد.

فالذاهبون إلى القول بإنفاذ الوعيد مصيبون، ولكن إنفاذه حيث يعينه الحق تعالىٰ، فإذا أنفذه في الدنيا بمرض وألم نفسي أو حسيّ يدخله على هذا المستحق بالوعيد كان ذلك ستراً له عن عقوبة الآخرة فهو المعبر عن ذلك هنا بالمغفرة أي لا يؤاخذ بها في الآخرة، وهذه أحوال أكثر السعداء والسعداء الذين لا تمسهم النار ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٣] ﴿ٱلَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٢] ولهذا عظم ابتلاء النفوس والبلاء المحسوس في الأمثال من الناس كالأنبياء والذين يأمرون بالقسط من الناس من رد الحق في وجوههم وما يسمعون من الكفرة ممّا يتأذون به في نفوسهم وقد أخبر الله بذلك، وكذلك ما سلط عليهم من القتل والضرب، كل ذلك من إنفاذ الوعيد لخطرات وحركات تقتضيها البشرية والطبع ممّا لا يليق بالمنصب الذي هم فيه لكن هو لائق بالبشر،

ومن هنا يعرف قول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢] فقد قرّر الذنب وأوقع المغفرة، وأفهم من ذلك عباده أنه لا يعاقبهم في الآخرة وما علّق المغفرة بالدنيا لما فيها من الآلام والأمراض النفسية والحسية وهو عين إنفاذ الوعيد في حقهم، ويصحّ قول المعتزلي في هذه المسألة مسألة إيلام البريء، فإن الأشعري يجوّز ذلك على الله ولكن ما كل جائز واقع، وكل ما يحتجون به على المعتزلة فليس هو بذلك الطائل والانفصال عنه سهل، وليس هذا الكتاب موضع إيراد هذا العلم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والتسعون ومائتان

في معرفة منزل عذاب المؤمنين من المقام السرياني في الحضرة المرادية المحمدية

[نظم: الكامل]

إن الـبُـروجَ مـنـازلٌ لـلـمـنـازلِ ... قـد هُـيِّـئـتْ لـلـسَّـبـعـة الأنـوارِ
فـإذا مَـشَـتْ بـالـعـدل فـي أفـلاكـهـا ... تـبـدو لـعَـيْـنـكَ أعـيُـنُ الأغـيَـارِ
فـالـحـقُّ يُـجـري فـي الـمـنـازل حُـكْـمَـه ... والـكـونُ فـي الأكـوار والأدوارِ
والـخَـلْـقُ مـن تـحـت الـمـنـازل ظـاهـرٌ ... والأمـرُ مـن فـوق الـمـنـازل جَـاري
فـيُـقـال فـي لـغـةِ الـكـيـانِ بـأنـه ... أمـرٌ تُـصَـرِّفـه يَـدُ الأقـدارِ
والـكـفُ والـقـلـمُ الـعَـلـيُّ مـخـطِّـطٌ ... فـي الـلَّـوح مـا يَـبْـدو مـن الأسـرارِ

اعلم وفقنا الله وإياك أن هذا المنزل من أعظم المنازل الذي تخافه الشياطين النارية لقوّة سلطانه عليهم وهو منزل عال يتضمن علوماً جمة. اعلم أن الروح الإنساني لما خلقه الله خلقه كاملاً بالغاً عاقلاً مؤمناً بتوحيد الله مقراً بربوبيته، وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ وَأَبَوَاهُ هُمَا اللَّذَانِ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَو يُمَجِّسَانِهِ**» فذكر الأغلب وهو وجود الأبوين فإنه قد يكون يتيماً فالذي يربيه هو له بمنزلة أبويه، فالروح ليس له كمية فيقبل الزيادة في جوهر ذاته بل هو جوهر فرد لا يجوز أن يكون مركباً إذ لو كان كذلك لجاز أن يقوم بجزء منه علم بأمر ما، وبالجزء الآخر جهل بذلك الأمر عينه، فيكون الإنسان عالماً بما هو به جاهل وهذا محال فتركيبه في جوهره محال، فإذا كان هكذا فلا يقبل الزيادة ولا النقصان كما يقبله الجسم لعدم التركيب، ولولا ما هو عاقل بذاته وهو عقل لنفسه ما أقرّ بربوبية خالقه عند أخذ الميثاق منه بذلك، إذ لا يخاطب الحق إلاَّ من يعقل عنه خطابه، هذا هو حقيقة الإنسان في نفسه.

ثم إن الله تعالىٰ جعل له في الجسم الذي جعله الله له ملكاً واستوى عليه جعل فيه قوىٰ وآلات حسية ومعنوية وقيل له: خذ العلوم منها وصرفها على حدّ كذا وكذا، وجعلت له هذه الآلات على مراتب، فالقوىٰ المعنوية كلها قوىٰ كاملة إلاَّ قوّة الخيال فإنها خلقت ضعيفة والقوّة الحساسة، وجعلت هاتان القوّتان تابعة للجسم، فكلما نما الجسم وكبر وزادت كميته

كلما تقوى حسه وخياله، إذ كانت جميع القوىٰ لا تأخذ الأشياء إلاّ من الخيال وهي قوّة هيولانية قابلة لجميع ما يعطيها الحسّ من الصور، وقابلة لما تفتح فيها القوّة المصوّرة من الصور التي تركبها من أمور موجودة قد أمسكها الخيال من القوّة الحساسة، وليس في القوى من يشبه الهيولى في قبول الصور إلاّ الخيال، فإذا تقوّى الخيال حينئذ وجد الفكر حيث يتصرّف ويظهر سلطانه، والوهم كذلك، والعقل كذلك، والقوّة الحافظة كذلك، فلم تكن لطيفة الإنسان من حيث ذاتها مدركة لما تعطيها هذه القوىٰ إلاّ بوساطتها، فلو اتفق أن تعطيها هذه القوىٰ المعلومات من أوّل ما يظهر الولد في عالم الحسّ قبلها الروح الإنساني قبولاً ذاتياً، ألا ترى أن الله قد خرق العادة في بعض الناس في ذلك وهو ما ذكر من صبيّ يوسف حين شهد له بالبراءة، وكلام عيسىٰ عليه السلام حين شهد بالبراءة، وصبي جريج حين شهد له بالبراءة، هذا سبب تأخير التكليف عن الروح الإنساني إلى الحلم الذي هو حد كمال هذه القوىٰ في علم الله، فلم يبق عند ذلك عذر للروح الإنساني في التخلف عن النظر والعمل بما كلفه ربه وأوّل درجات التكليف إذ كان ابن سبع سنين إلى أن يبلغ الحلم، وقد اعتبر الله فعل الصبي في غير زمان تكليفه لو قتل لم يقم عليه الحدّ وحبس إلى أن يبلغ ويقتل بمن قتل في صباه إلاّ أن يعفو ولي الدم، فقد آخذه الله بما لم يعمله في زمان تكليفه، والقصد من هذا التمهيد ليقع الانس بما نورده من عذاب المؤمن، فإن الإنسان كما قلنا خلق مؤمناً، وإن ألحقناهم بآبائهم في دفنهم في قبورهم معهم ورقّهم إذا ملكناهم بطريق الإلحاق لا بطريق الاستحاق تشريفاً وتبييناً لعلوّ مرتبة ظهور الإيمان الذي في الآباء.

وكما أن الكفر عارض كان الاسترقاق عارضاً أيضاً والأصل الحرية والإيمان، فمن إنفاذ الوعيد من حيث لا يشعر به وجود التكليف وهو أوّل العذاب لقيام الخوف بنفس المكلف، فقد عذب عذاباً نفسياً مؤلماً وهو عقوبة ما جرى منه في الزمان الذي لم يكن فيه مكلفاً من الأفعال التي تطرأ بين الصبيان من الأذى والشتم والضرب على طريق التعدي، وكل خير يفعله الصبي يكتب له، وقد قرّر ذلك الشارع حين رفعت امرأة إليه ﷺ صبياً صغيراً وهو في الحج فقالت له: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلِهٰذَا حَج؟ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«نَعَمْ لَهُ حَجٌ وَلَك أَجْرٌ»** وذلك أن لها أجر المعونة التي لا يقدر الصبيّ عليها. وقد ورد عن رسول الله ﷺ: **«أَنَّ الصَّبِيَّ إِذَا حَجَّ قَبْلَ بُلُوغِ التَّكْلِيفِ ثُمَّ مَاتَ قَبْلَ البُلُوغِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ ذٰلِكَ الحَجَّ عَنْ فَرِيضَتِهِ، وَكَذٰلِكَ العَبْدُ إِذا حَجَّ عَبْداً ثُمَّ مَاتَ قَبْلَ العتْقِ»** وهذا الحديث وإن كان قد تكلم فيه من طريق إسناده فإن الحديث الصحيح يعضده، وقد ورد في الصحيح: **«أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي حَقِّ العَبْدِ يَأْتِي بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيهِ نَاقِصاً قَدِ انْتَقَصَ مِنْهُ شَيْئاً أَنْ يُكْمِلَ لَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ مَا نَقَصَ مِنْ ذٰلِكَ»** فقد أقام التطوع مقام الفرض وهو هذا بعينه لأن حج غير المكلف به ليس هو فرض عليه.

قال ﷺ عن الله تعالىٰ في الحديث الصحيح: **«أَنَّهُ أَوَّلُ مَا يَنْظُرُ فِيهِ مِنْ عَمَلِ العَبْدِ الصَّلاةُ فَيَقُولُ اللَّهُ: انْظُرُوا فِي صَلاةِ عَبْدِي أَتَمَّهَا أَمْ نَقَصَهَا فَإِنْ كَانَتْ تَامَّةً كُتِبَتْ لَهُ تَامَّةً وَإِنْ كَانَ انْتَقَصَ مِنهَا شَيْئاً قَالَ: انْظُروا هَلْ لِعَبْدِيَ مِنْ تَطَوُّعٍ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ قَالَ: أَكمِلُوا لِعَبْدِي**

فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ، قَالَ ﷺ: ثُمَّ تُؤْخَذُ الأَعْمَالُ عَلَى ذَاكُمْ» أي فيفعل في الزكاة والصوم والحج مثل ما فعل في الصلاة سواء، فلو لم يعتبر الشرع ذلك لم يحكم بهذا، وكل ما يفعله الصبيّ في غير بلوغ زمان التكليف معتبر في الشرع في الخير وفي الشرّ، غير أن الكرم الإلهيّ جازاه بالخير المعمول في هذا الزمان في الدار الآخرة وادّخر له ذلك. وأمّا الشرّ فلم يدخر له في الآخرة منه شيئاً بل جازاه به في الدنيا من آلام حسية ونفسية تطرأ على الصبيان وهي موجودة لا يقدر أحد على إنكارها وهي عقوبات وعذاب لأمور تطرأ من الصبيان، يعرف هذا القدر أهل طريقنا حكمة أوقفهم الحق عليها وهي في حق المؤمنين كما قلنا عذاب أوجب لهم الكفارة، وفي حق الكفار إذا أدركوا وماتوا وهم كفار وعوقبوا في الآخرة وقد كانوا عذبوا في الدنيا وهم صغار مثل ما تعذب المؤمنون في حال صغرهم فذلك قوله تعالىٰ: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [سورة النحل: الآية ٨٨] يعني الذي عذبوا به في الدنيا وما شاكل هذا، فإن هذا نص في تضاعف العذاب على مراتبه الذي هو واحد من ذلك.

ومن عذاب المؤمنين ما سلّط الله عليهم من أصحاب الأهواء والكفار من الأسر والعذاب والاسترقاق والقتل في الدنيا، كل هذا تكفير لهفوات ومزلات نفسية وحسية على قدر ما وقع منهم، وما يقع هذا من الكفار بالمؤمنين إلاّ لأجل إيمانهم، قال تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟﴾ [سورة الممتحنة: الآية ١] فإن وما بعدها بتأويل المصدر كأنه يقول: يخرجون الرسول وإياكم من أجل إيمانكم. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟﴾ [سورة البروج: الآية ٨] وعليه يخرج تخليد من قتل مؤمناً متعمداً أي قصد قتله لإيمانه.

وممّا يتضمن هذا المنزل علم الابتلاء وليس ذلك إلاّ لله قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٥] وقال عزّ وجلّ أيضاً: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٨] وليس للمؤمن أن يبتلي المؤمن إلاّ بأمر إلهيّ فيكون الابتلاء لله تعالىٰ ومنه لا منهم مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [سورة الممتحنة: الآية ١٠] فالله أمر بذلك فامتثل العبد أمر سيده، كالسلطان يأمر بعذاب شخص فيتولى عذابه من أمر بتعذيبه وإن كان شفيقاً عليه ولكن أمر السلطان واجب أن يمتثل للمرتبة لما يقتضيه من الهيبة، فالابتلاء لا يكون إلاّ لله، وكل من ابتلى أحداً من المؤمنين بغير أمر إلهيّ فإن الله يؤاخذه على ذلك، وبهذا المقام انفرد الاسم الخبير وهو من أعجب أحكام الأسماء، لأن الخبرة إنما جاءت لاستفادة علم المخبر المختبر، وهنا في الجناب الإلهيّ العلم محقق بما يكون من هذا المختبر اسم مفعول فلا يستفيد علماً المختبر اسم فاعل فيظهر أنه لا حكم لهذا الاسم، وكان الأولى به العبد لجهله بما يكون من المختبر اسم مفعول والعبد ممنوع من الاختيار إلاّ بأمر إلهيّ، فقد يسمّى الله تعالىٰ بما يستحقه العبد فحكمه في جناب الحق إفادة العلم للمختبر في نفسه بهذا الاختبار لإقامة الحجة عليه وله، فلهذا لا يلحق الخبير بصفة العلم كما ألحقه أبو حامد والاسفرايني وأكثر الناس، ولو كان كما زعموا لكان نقصاً، وإنما أوقعهم في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] وهو حجة عليهم أن لو كان الأمر على ظاهره فإن الاختبار سبب في تحصيل العلم ما هو نفس العلم وبالخبرة سمي

خبيراً، فإذا حصل العلم سمّي عالماً في ذلك الحال، وغاية من نزّه مثل ابن الخطيب وغيره في قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ تعلق العلم بهذه الحالة وتعلق العلم محدث ولا يؤدّي إلى حدوث العلم، فبقي العلم على حاله من الوصف بالقدم، وإن حدث التعلق فهذا منتهى غايتهم في التنزيه، ويقولون: لو تعلق العلم بما من شأنه أنه سيكون كائناً أو قد كان فقد علم الشيء على خلاف ما هو به، وكذلك لو علم ما هو كائن قد كان أو سيكون أو علم ما كان هو كائن أو سيكون لكان هذا كله جهلاً والله يتعالىٰ عن ذلك، فأدخلوا على الله الزمان من حيث لا يشعرون، والتقدّم في الأشياء والتأخّر، وما علموا أن الله تعالىٰ يشهد الأشياء ويعلمها على ما هي عليه في أنفسها، والأزمنة التي لها من جملة معلوماته مستلزمة لها أحوالها وأمكنتها إن كانت لها ومحالها إن كانت ممّن يطلب المحال وأحيازها، كل ذلك مشهود للحق في غير زمان لا يتصف بالتقدم ولا بالتأخر ولا بالآن الذي هو حد الزمانين، ولهذا لم يرد مع قوله ﷺ عن ربه: «**كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ**» وأتى بكان وهي حرف وجودي لا بفعل ولم يقل وهو الآن فإن الآن نص في وجود الزمان، فلو جعله ظرفاً لهوية الباري تعالىٰ لدخل تحت ظرفية الزمان بخلاف كان، فإن لفظ كان من الكون وهو عين الوجود فكأنه يقول: الله موجود ولا شيء معه في وجوده، فما هي من الألفاظ التي ينجر معها الزمان إلاّ بحكم التوهم، ولهذا لا ينبغي أن يقال كان فعل ماض في إعرابه على طريقة النحويين، وقد بوّب عليها الزجاجي وسمّاها بالحرف الذي يرفع الاسم وينصب الخبر ولم يجعلها فعلاً فينجر معها الزمان الماضي والحال والمستقبل، وبهذا القدر المتوهم الذي يتخيل في هذه الصيغة التي هي كان ويكون وسيكون من الزمان أشبهت الفعل الصحيح الذي هو قام ويقوم وسيقوم وجعلوا قائماً مثل كائن فأجروها مجرى الأفعال من هذا الوجه، وإذا كان أمرها على هذا فيطلق من الوجه الذي لا يقبل به ظرفية الزمان على الله تعالىٰ وهو قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ٩٦] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٧] وما أطلق عليه الآن لما ذكرناه لأنه نص في الزمان اسم علم له ومعناه الظرف، كما جاء الاستواء على العرش بلفظ العرش ولفظ الاستواء وما هو نص في ظرفية المكان بخلاف اسم لفظة المكان فإنه نص بالوضع في ظرفيته، والمتمكن في المكان نص فيه فعدل إلى الاستواء والعرش ليسوغ التأويل الذي يليق بالجناب العالي لمن يتأول ولا بدّ، والأولى التسليم لله فيما قاله، وردّ ذلك إلى علمه سبحانه بما أراده في هذا الخطاب ونفى التشبيه المفهوم منه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] على زيادة الكاف أو فرض المثل إذ كان لا يستحيل فرض المحال.

وممّا يتضمن هذا المنزل علم العالم العلوي المختص بالفلك الأطلس خاصة ومن عماره، وما تسبيحهم وما يتعلق به، وعمن يأخذ ولمن يعطي، من يتلقى منه، والعطاء الذاتي وهو عطاء العلة. والعطاء الإرادي وهو عطاء الاختيار، ومعرفة الآخرة، ومعرفة ما يحصل من التجلي في نفس العبد، وتأثير الضعيف في القويّ، وما تؤدّي إليه الأغراض والأهواء الربانية السارية في العالم التي يدّعيها كل أحد من الحيوان الإنسان وغيره، ومعرفة الصلاح الذي

تسأله الأنبياء من الله، والتصديق الإنساني خاصة ولمن يصدق وبماذا يصدق وماذا يرد وهل يلزمه التصديق بما يحيله دليل العقل وما منزلته عند الله وأين ينتهي بصاحبه؟ وهل المؤمنون فيه على السواء أو يتفاضلون؟ وهل يقبل الزيادة والنقص؟ أو هل ينقص في وقت عند قيام شبهة على ما وقع به التصديق؟ وهل إذا قام به النقص في مسألة من مسائل الإيمان هل يسري ذلك النقص في الإيمان كله أو يؤثر في زواله بالكلية؟ أو هو مقصور على ما وقعت عليه الشبهة؟ ومعرفة سرعة الأخذ الإلهيّ ما سببها؟ فإنه لما أطلعني الله تعالىٰ على إنزال هذه الآية بالإنزال الذي يرد على أمثالنا ممّن ليس بنبيّ فإن القرآن وكل كلام ينزل على التالين والمتكلمين في حال تلاوتهم وكلامهم ولولا ذلك ما تلوا ولا تكلموا، وهنا لطائف إلهيّة لمن نظر، فقيل لي: اقرأ. قلت: وما أقرأ؟ فقيل لي: اقرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٢] فقرأت هذه الآية على ما كنت أحفظها فقيل لي لما وصلت إلى قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ﴾ قيل لي: قل بك، فقلت: ما هو في القرآن ولا نزل كذا، فقيل لي: لا تقل هكذا بل هكذا هو وكذا نزل، قل بك، وشدّد عليّ فقرأت إن أخذه بك أليم شديد، فطلبت معنى ذلك فأقيم لي شخص كنت أعرفه وكان قد افترى عليّ فقيل لي، هذا مأخوذ بك أي بسببك فاقرأ: إن أخذه بك أليم شديد، وهو ممدود بين يدي، فلما فرغ ذلك التنزيل استدعيت بالشخص وقلت له: ما رأيت؟ فتأفف عليّ وأظهر التوبة وخرج عني وهو على حاله من الغرية، فلم يكمل الشهر حتى قتله الله بحجر شدخ رأسه وما أخذ القاتل من ثيابه ولا فرسه ولا ماله شيئاً فشاع الخبر وانتهى إلى السلطان وقرّروا عند السلطان أني كنت سبب قتله فما التفت السلطان، فلما كان بعد ثلاث سنين جاء القاتل واعترف بين يدي السلطان بقتله، فسأله ما سبب ذلك؟ فقال: ما له سبب ولا فعل معي قبيحاً إلاَّ أني مررت عليه وهو نائم في خربة ولجام فرسه في يده فزين لي قتله فعمدت إلى حجر كبير فاقتلعته ووازنت رأسه ورميت عليه الحجر فما تحرك ولا أخذت له شيئاً وما طمعت في شيء من ذلك ولا اكترثت، فقتله السلطان به وبعث إليّ الخبر بذلك، وهذا من أعجب التنزلات وجود مثل هذه الزيادة فيعرف العارف من هذا المنزل من أين صدرت وما اسمها وما منزلتها من كلام الحق، فإن الأخبار النبوية المروية عن الله لا تسمى قرآناً مع أنها من كلام الله، ويتضمن هذا المنزل علم بدء الخلق وإعادته وكيفية إعادته، فإن أهل الكشف اختلفوا في الكيفية، فذهب ابن قسي إلى كيفية انفرد بها، وذهب الآخرون إلى غير ذلك على اختلاف بينهم، وكذلك اختلف فيه علماء النظر الفكري، ويتضمن علم المحبة الإلهية وثبوتها وعلم الستور التي بين المحبوبين وبين ما يؤدّي لو وقع من غيرهم إلى عقوبتهم كما قيل: [الكامل]

وإذا الحبيبُ أتى بذنبٍ واحدٍ جاءتْ مَلاحَتُه بكل شَفيعِ

وعلم العرش وعددها وصفاتها، وعلم الإرادة المضافة إليه وما تأثيرها في حال العارفين وهل هي من نعوت الجلال أو من نعوت الجمال؟ ويتضمن علم الاعتبار، ويتضمن علم الوعيد من أي اسم هو، ويتضمن علم النفس الكلية ولماذا لا يلحقها التغيير؟ وما شرف

القرآن على غيره من الكتب والصحف والأخبار المروية عن الله مع أن ذلك كله كلام الله، وينجر مع هذا العلم في نفس القرآن شرف آية الكرسي على سائر آي القرآن بالسيادة، ويس بالقلبية، وإذا زلزلت بقيامها مقام نصف القرآن، وسورة الكافرون مقام ربع القرآن، وكذلك إذا جاء نصر الله وسورة الإخلاص مقام ثلث القرآن، ويس مقام القرآن عشر مرات، ولماذا يرجع ذلك؟ ومن هو الموصوف بهذا الفضل هل الدليل أو المدلول أو الناظر في الدليل؟ ويكفي هذا القدر من هذا المنزل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

انتهى الجزء الرابع من كتاب الفتوحات المكية بحمد الله وعونه
وحسن توفيقه ويتلوه الجزء الخامس، أوله الباب الموفي ثلاثمائة

فهرس المحتويات

دار الكتب العلمية
DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
BEIRUT

الفتوحات المكية

للشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين محمد بن علي
بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي "المعروف بابن عربي"
المتوفى سنة ٦٣٨ هـ

ضبطه وصححه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدين

المجلد الخامس

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الفتوحات المكية

تأليف

الشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين

محمد بن علي بن محمّد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي

المعروف بابن عربي

المتوفى سنة ٦٣٨هـ

ضبطه وصحّحه ووضع فهارسه

أحمد شمس الدّين

الجزء الخامس

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الموفي ثلاثمائة
في معرفة منزل انقسام العالم العلوي من الحضرة المحمدية

[البسيط]

حَمَلَ المحقّقُ ما يُلْقيه خالقُهُ ... فيه ليُظْهِرَ ما في الغيب من خبَرِ
تمتدُّ منه إلى قلبي رقائقُه ... مِثْلَ امتداد شُعاع الشمس للبَصَرِ
فالضَّمُّ واللَّثْمُ والتعنيقُ يجمعُنا ... مِثْلَ العرائس كالأُنْثَى مع الذَّكَرِ
على الدوام فلا صُبْحٌ يفرِّقنا ... مُنَزَّهين عن الآصال والبُكَرِ
من بيننا تظهر الأسرارُ في حُجُبِ الْـ ... آفاقِ طالعة شمساً بلا غِيَرِ
لا شَرْقَ يُظْهرها لا غَرْبَ يستُرُها ... لا عَيْنَ تُدْركها من أعْيُنِ البَشَرِ
زمانُها الآن لا ماض فتَفْقِدُهُ ... ولا بمُسْتقلٍّ يأتي على قَدَرِ
فيا أُولي الفِكْرِ والألباب قاطبةً ... لا تَعْجَبُوا إنها نتيجةُ العُمُرِ
إنـي لَحَيٌّ بحيٍّ لا حياةَ له ... ولا حياة لنا في عالم السُّوَرِ
إنّ الحياة التي تجري إلى أَمَدٍ ... هي الحياة التي في عالم الصُّوَرِ

اعلم أن هذا المنزل يتضمن شرف الجماد على الإنسان، وشرف الجنّ من المؤمنين في استماع القرآن على المؤمنين من الإنس لمعنى خلقهم الله عليه وخلقه فيهم، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] أترى هذا الكبر في الجرم وعظم الكمية هيهات لا والله فإن ذلك معلوم بالحس، وإنما ذلك لمعنى أوجده فيهم لم يكن ذلك للإنسان يعطيه العلم بالمراتب ومقادير الأشياء عند الله تعالى، فننزل كل موجود منزلته التي أنزله الله فيها من مخلوق وأسماء إلهية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] أترى ذلك لجهلهم لا والله بل الحمل للأمانة كان لمجرّد الجهل من الحامل، وهل نعت الله بالجهل على المبالغة فيه وبالظلم لنفسه فيها ولغيره إلا الحامل لها وهو الإنسان فعلمت الأرض ومن ذكر قدر الأمانة وأن حاملها على خطر، فإنه ليس على يقين من الله أن يوفقه لأدائها إلى أهلها، وعلمت مراد الله بالعرض أنه يريد ميزان العقل، فكان عقل الأرض والجبال والسماء أوفر من عقل الإنسان حيث لم يدخلوا أنفسهم فيما لم يوجب الله عليهم؛ فإنه كان عرضاً لا أمراً، فتتعين عليهم الإجابة طوعاً أو كرهاً أي على مشقة لمعرفتهم تعظيم ما أوجب الله عليهم، فأتوا طائعين حين قال لهما: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ

كَرۡهٗا﴾ [فصلت: ١١] أي تهيآ لقبول ما يلقى فيكما، فلما أتيا طائعين وتهيآ لقبول ما شاء الحق أن يجعل فيهما مستسلمين خائفين، فقدر في الأرض أقواتها وجعلها أمانة عندها حملها إياها جبراً لا اختياراً ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ [فصلت: ١٢] وجعل ذلك أمانة بيدها تؤدّيها إلى أهلها، حملها إياها جبراً لا اختياراً.

ومن معرفتهم أيضاً بما يعطيه حمل الأمانة بالعرض والاختيار من ظلم الحامل إياها لنفسه حيث عرض بها إلى أمر عظيم، وإذا لم يوفق لأدائها كان ظالماً لغيره ولنفسه، وجهل الإنسان ذلك من نفسه ومن قدرها، وإن كان عالماً بقدرها فما هو عالم بما في علم الله فيه من التوفيق إلى أدائها بل هو جهول كما شهد الله فيه، فكان قبول الإنسان الأمانة اختياراً لا جبراً فخان فيها لأنه وكل إلى نفسه، وكان حمل الأرض والسماء لها جبراً لا اختياراً فوفقهما الله إلى أدائها إلى أهلها وعصما من الخيانة وخذل الإنسان، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ طَلَبَ الإِمَارَةَ وُكِّلَ إِلَيْهَا وَمَنْ أُعْطِيَهَا مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ بَعَثَ الله أَوْ وَكَّلَ الله بِهِ مَلَكاً يُسَدِّدُهُ**» ومن شرف الأرض والسماء والجبال على الإنسان قول الله فيهم: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: ٢١] أترى ذلك لجهله بما نزل عليه؟ لا والله إلا بقوة علمه بذلك وقدره، ألا تراه عز وجل يقول لنا في هذه الآية: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] فإنهم إذا تفكروا في ذلك علموا شرف غيرهم عليهم، فإن شهادة الله بمقدار المشهود له بالتعظيم كالواقع منه لأنه قول حق، وعلموا إذا تفكروا جهلهم بقدر القرآن حيث لم تظهر منهم هذه الصفة التي شهد الله بها للجبل.

خرّج أبو نعيم الحافظ في دلائل النبوة: أن الله بعث جبريل عليه السلام إلى نبيه ﷺ بشجرة فيها كوكُري طائر فقعد جبريل في الواحد وقعد رسول الله ﷺ في الآخر وصعدت بهما الشجرة فلما قربا من السماء تدلى لهما أمر شبه الرفرف دراً وياقوتاً، فأما جبريل فغشي عليه حين رآه، وأما النبي ﷺ فما غشي عليه، ثم قال ﷺ: «**فَعَلِمْتُ فَضْلَ جِبْرِيلَ عَلَيَّ فِي العِلْمِ لأَنَّهُ عَلِمَ مَا هُوَ ذَلِكَ فَغُشِيَ عَلَيْهِ وَمَا عَلِمْتُ**» فاعترف ﷺ، فلو علم الإنسان قدر القرآن وما حمله لما كانت حالته هكذا، فانظر إلى ما كان يقاسي ﷺ في باطنه من حمله القرآن لمعرفته به، وما أبقى الله عليه جسده وعصم ظاهره من أن يتصدع كالجبل لو أنزل عليه القرآن إلا لكون الله تعالى قد قضى بتبليغه إلينا على لسانه، فلا بد أنْ يبقي صورته الظاهرة على حالها حتى نأخذه منه، وكذلك بقاء صورة جبريل النازل به، وإنما الكرم فينا ومن شرف من ذكرناه على الإنسان وشرف الإنسان إذا مات وصار مثل الأرض في الجمادية على حاله حياً في الإنسانية قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ [الرعد: ٣١] يعني لكان هذا القرآن، فحذف الجواب لدلالة الكلام عليه، ومعنى ذلك لو أنزلناه على من ذكرناه لسارت الجبال وتقطعت الأرض وأجاب الميت وما ظهر شيء من ذلك فينا وقد كلمنا به.

ومن شرف الجن علينا أن النبي ﷺ حين تلا على أصحابه سورة الرحمن وهم يسمعون

فقال لهم: «**لَقَدْ تَلَوْتُهَا عَلَىٰ إِخْوَانِكُمْ مِنَ الجِنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ اسْتِمَاعاً لَهَا مِنْكُمْ**»، وذكر الحديث وفيه: «**فَمَا قُلْتُ لَهُمْ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إِلاَّ قَالُوا: وَلاَ بِشَيْءٍ مِنْ آلائِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ**» فانظر ما أعلمهم بحقائق ما خوطبوا كيف أجابوا بنفس ما خوطبوا به حتى بالاسم الرب ولم يقولوا يا إلهنا ولا غير ذلك، ولم يقولوا ولا بشيء منها وإنما قالوا من آلائك كما قيل لهم لاحتمال أن يكون الضمير يعود على نعمة مخصوصة في تلك الآية وهم يريدون جميع الآلاء حتى يعم التصديق، فيلحق الإنسان بهؤلاء كلهم من حيث طبيعته لا من حيث لطيفته بما هي مدبرة لهذا الجسم ومتولدة عنه فيدخل عليها الخلل من نشأتها، فجسده كله من حيث طبيعته طائع لله مشفق، وما من جارحة منه إذا أرسلها العبد جبراً في مخالفة أمر إلهيّ إلا وهي تناديه: لا تفعل لا ترسلني فيما حرّم عليك إرسالي إني شاهدة عليك لا تتبع شهوتك وتبرأ إلى الله من فعله بها، وكل قوة وجارحة فيه بهذه المثابة، وهم مجبورون تحت قهر النفس المدبرة لهم وتسخيرها فينجيهم الله تعالى دونه من عذاب يوم أليم إذا آخذه الله يوم القيامة وجعله في النار، فأما المؤمنون الذين يخرجون إلى الجنة بعد هذا فيميتهم الله فيها إماتة كرامة للجوارح حيث كانت مجبورة فيما قادها إلى فعله فلا تحس بالألم وتعذب النفس وحدها في تلك الموتة، كما يعذب النائم فيما يراه في نومه وجسده في سريره وفرشه على أحسن الحالات وأما أهل النار الذين قيل فيهم لا يموتون فيها ولا يحيون فإن جوارحهم أيضاً بهذه المثابة ألا تراها تشهد عليهم يوم القيامة؟ فأنفسهم لا تموت في النار لتذوق العذاب، وأجسامهم لا تحيا في النار حتى لا تذوق العذاب، فعذابهم نفسي في صورة حسية من تبديل الجلود، وما وصف الله من عذابهم كل ذلك تقاسيه أنفسهم فإنه قد زالت الحياة من جوارحهم فهم ينضجون كما ينضج اللحم في القدر، أتراه يحس بذلك؟ بل له نعيم به إذا كان ثم حياة يجعل الله في ذلك نعيماً وإلا ما تحمله النفوس، كشخص يرى بعينه نهب ماله وخراب ملكه وإهانته، فالملك مستريح بيد من صار إليه، والأمير يعذب بخرابه وإن كان بدنه سالماً من العلل والأمراض الحسية ولكن هو أشد الناس عذاباً حتى أنه يتمنى الموت ولا يرى ما رآه، وجميع ما ذكرناه إنما أخبرنا الله به لنتفكر ونتذكر ونرجع إليه سبحانه ونسأله أن يجعلنا في معاملته كمن هذه صفته فنلحق بهم وهو قد ضمن الإجابة لمن اضطر في سؤاله فيكون من الفائزين فأي شرف أعظم من شرف شخص قامت به صفة الله إياها أسعده بها وجعل من خلقه على صورته يسأله تعالى أن يلحق بهم في تلك الصفة، فقد علمت قدر كبره على خلق الناس ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

فكن يا أخي بما أعلمتك ونبهتك عليه من القليل الذي يعلم ذلك جعلنا الله منهم آمين بعزته.

ومما يتضمن هذا المنزل السماع الإلهي وهو أوّل مراتب الكون وبه يقع الختام، فأوّل وجود الكون بالسماع، وآخر انتهائه من الحق السماع، ويستمر النعيم في أهل النعيم والعذاب في أهل العذاب. فأما في ابتداء كون كل مكوّن فإنما ظهر عن قول ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠]

فأسمعه الله فامتثل فظهر عينه في الوجود وكان عدماً، فسبحان العالم بحال من قال له كن فكان، فأوّل شيء ناله الممكن مرتبة السماع الإلهي، فإن ﴿كُن﴾ صفة قول قال تعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ [النحل: ٤٠] والسماع متعلقه القول. وأما في الانتهاء في حق الكفار: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فخاطبهم وهم يسمعون. وأما في حق أهل الجنة فبعد الرؤية والتجلي الذي هو أعظم النعم عندهم في علمهم فيقول: هل بقي لكم شيء؟ فيقولون: يا ربنا وأيّ شيء بقي لنا نجيتنا من النار وأدخلتنا الجنة وملكتنا هذا الملك ورفعت الحجب بيننا وبينك فرأيناك، وأي شيء بقي يكون عندنا أعظم مما نلناه؟ فيقول سبحانه: رضاي عنكم فلا أسخط عليكم أبداً، فأخبرهم بالرضا ودوامه وهم يسمعون، قال: فذلك أعظم نعيم وجدوه، فختم بالسماع كما بدأ، ثم استصحبهم السماع دائماً ما بين بدايتهم وغاية مراتب نعيمهم، فطوبى لمن كانت له أذن واعية لما يورده الحق في خطابه، فالعارف المحقق في سماع أبداً إذ لا متكلم عنده إلا الله بكل وجه، فمن خاطبه من المخلوقين يجعل العارف ذلك مثل خطاب الرسول عن الحق، فيتأهب لقبول ما خاطبه به ذلك الشخص، وينظر ما حكمه عند الله الذي قرره شرعاً فيأخذه على ذلك الحد، قال تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] والمتكلم به إنما كان رسول الله ﷺ، فليس أحد من خلق الله يجوز أن يخبر عن نفسه ولا عن غيره وإنما إخبار الجميع عن الله. فإنه سبحانه هو الذي يخلق فيهم بكل ما يخبرون به، فالكل كلماته، فليس للعبد على الحقيقة إلا السماع وكلام المخلوق سماع، فلا يرمي العارف ولا يهمل شيئاً من كلام المخلوقين، وينزله منزلته خبيثاً ومنكراً وزوراً، كان ذلك القول في حكم الشرع أو طيباً ومعروفاً وحقاً، فالعارف يقبله وينزله في المنزلة التي عينها الله على لسان الشرع والحكمة لذلك القول.

ومن علوم هذا المنزل الغمام الذي يقع الإتيان فيه في تجلي القهر والرحمة، وهو حين تشقق السماء بالغمام أي بسبب الغمام أي لتكون غماماً فتفتح أبواباً كلها فتصير غماماً وقد كان الملائكة عمارها وهي سماء فيكونون فيها وهي غمام، وفيها يأتون يوم القيامة إلى الحشر التقديري والملائكة في ظلل من الغمام والظلل أبوابها يقول الله في ذلك: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ: ١٩] وقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] وهو إتيانهم في ذلك الغمام لإتيان الله للقضاء والفصل بين عباده يوم القيامة، فالعارف إذا شقت سماؤه بالغمام وتنزلت قواه في ذلك الغمام وأتى الله للفصل والقضاء في وجوده في دار دنياه فقد قامت قيامته واستعجل حسابه، فيأتي يوم القيامة آمناً لا خوف عليه ولا يحزن لا في الحال ولا في المستقبل، ولهذا أتى سبحانه بفعل الحال في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] فإن هذا الفعل يرفع الحزن في الحال والاستقبال، بخلاف الفعل الماضي والمخلص للاستقبال بالسين أو سوف.

واعلم أن الأرض في كل نفس لها ثلاثة أحوال: قبول الولد والمخاض والولادة ما لم تقم القيامة، والإنسان من حيث طبيعته مثل الأرض فينبغي له أن يعرف في كل نفس ما يلقي

إليه فيه ربّه وما يخرج منه إلى ربه، وما هو فيه مما ألقي فيه، ولم يخرج منه مع تهيئه للخروج، فإنه مأمور بمراقبة أحواله مع الله في هذه الثلاث المراتب والأحوال، وإلقاء الله إليه تارة بالوسائط وتارة بترك الوسائط، والوسطة تارة تكون محمودة، وتارة مذمومة، وتارة لا محمودة ولا مذمومة، وإن كانت تؤدي هذه الحالة إلى الندم والغبن، فالمحقق يسمع ويأخذ ويعرف ممن يسمع وممن يأخذ وما يلد، ومن يقبل ولده إذا ولد، ومن يربيه؟ هل يربيه ربه أو غير ربه؟ كما ورد في الخبر الصحيح: «**إنَّ الصَّدَقَةَ وَهِيَ مِمَّا يَلِدُها العَبْدُ تَقَعُ بِيَدِ الرَّحْمٰنِ فَالرَّحْمٰنُ قابِلُها فَيُرَبِّيها كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ**» ولم يقل كما يربي أحدكم ولده فإن الولد قد لا ينتفع به إذا كان ولد سوء، فالنفع بالولد غير محقق، بل ربما يطرأ عليه منه من الضرر بحيث أن يتمنى أن الله لم يخلقه، والفلو والفصيل ليس كذلك فإن المنفعة بهما محققة، ولا بد إما بركوبه أو بما يحمل عليه أو بثمنه أو بلحمه يأكله إن احتاج إليه، فشبهه سبحانه بما يتحقق الانتفاع به ليعلم المصدق أنه ينتفع بصدقته ولا بدّ، وأوّل الانتفاع بها أنها تظله يوم القيامة من حرّ الشمس حتى يقضى بين الناس ومما يلده الإنسان الكلمة الطيبة وقد قال ﷺ: «**إنَّ الكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ صَدَقَةٌ**» فتربى أيضاً له ويتولى الحق بنفسه تربية كل ما يلده العبد من النكاح لا من السفاح، وإذا كان الملك يتولى تربية ولد عبده بنفسه هل يقدر ما يصل إليه من الخير من جهة ولده؟ فأول ذلك أن الولد يعرف منزلة أبيه من الملك وأنه ما رباه الملك وأكرمه بذلك إلا لعلوّ رتبة أبيه عنده فيرى المنة لأبيه عليه بذلك، فيكون باراً به محسناً إليه بنفسه إعظاماً لمرتبة الملك وعنايته بأبيه، وعلى هذا تجري أفعال العارفين من عباده، وكل ما تكلمنا فيه من هذا المنزل فهو من خارج بابه لم نتعرّض لما يحوي عليه لضيق الوقت وطلب الاختصار، وما اتفق لي مثل هذا في العبارة عن غيره من المنازل لأني وجدت عند باب هذا المنزل صور علم ما ذكرته ولم نستوف جميع ما رأيته على بابه، فكان هذا القدر مما في هذا المنزل كالغلمان والحدادين والحجاب الذين على باب الملك.

وأمّا فهرست ما يتضمنه هذا المنزل فهو معرفة العالم العلوي والسفلي بين الدارين، وعلم إبراز الغيوب من خلف الحجب ولماذا حجبت؟ ولماذا أخرجت؟ وما أخرج منها وما بقي؟ وما ينتظر إخراجه من ذلك؟ وما لا يصح إخراجه مما هو ممكن أن يخرج فمنعه مانع فما ذلك المانع؟ وهل يخرج عن سماع أو عن غير سماع؟ وإذا كان عن سماع فعن كراهة أو عن محبة وسرور؟ أو ينقسم إلى هذا وإلى هذا بحسب الأحوال التي تعطيها الأوقات.

ومن علوم هذا المنزل أيضاً علم الزيادة في الشيء من نفسه لا من غيره كنشر المطوي وبسط المقبوض وعلم إخراج الكنوز المحسوسة بالأسماء وما تعطيه من الخواص في ذلك بحيث أن يقف العارف بذلك على موضع الكنز فيتكلم بالاسم فيشق الأرض عن المال المكنوز فيها كما تنشق الكمامة عن الزهرة فإذا أبصرها تكلم باسم آخر فيخرج المال بتلك الخاصية، كما ينجذب الحديد إلى المغناطيس حتى لا يبقى من ذلك المال في ذلك الموضع شيء، ويتضمن علم الأعمال المشروعة وأين مآلها وما يلقاه منها، ويتضمن علم السعادة

والشقاء بالعلامات، ويتضمن علم الجهات ولماذا ترجع، واتصاف الحق بالفوقية هل هي فوقية جهة أو فوقية رتبة؟ ويتضمن معرفة أحوال الناس في منازلهم التي ينزلونها في الدار الآخرة وما سبب تلك الأحوال التي يتقلبون فيها في تلك المنازل؟ وهل تتكرّر عليهم بأعيانها في أزمنتها التي كانت فيها أم لا؟ ويتضمن رؤية الله عباده لأية نسبة ترجع، ويتضمن شرف الكواكب والزمان من غير مفاضلة، ويتضمن علم نفي الإيمان مع وجود العلم وهذا من أقلق الأمور عند المحقق وفيها علم البشرى وأنها لا تختص بالسعداء في الظاهر وإن كانت مختصة بالخير فقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] والكلام على هذه البشرى لغة وعرفاً، فأمّا البشرى من طريق العرف فالمفهوم منها الخير ولا بد، ولما كان هذا الشقيّ ينتظر البشرى في زعمه لكونه يتخيل أنه على الحق قيل «بشره» لانتظاره البشرى ولكن كانت البشرى له بعذاب أليم وأما من طريق اللغة فهو أن يقال له ما يؤثر في بشرته، فإنه إذا قيل له خير أثر في بشرته بَسْطَ وجه وضحكاً وفرحاً واهتزازاً وطرباً، وإذا قيل له شّر أثر في بشرته قبضاً وبكاء وحزناً وكمداً واغبراراً وتعبيساً ولذلك قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس ٣٨ - ٤١] فذكر ما أثر في بشرتهم، فلهذا كانت البشرى تنطلق على الخير والشرّ لغة، وأما في العرف فلا، ولهذا أطلقها الله تعالى ولم يقيدها فقال في حق المؤمنين: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] ولم يقل بماذا فإن العرف يعطي أن ذلك بالخير وقرينة الحال. وفيه العلم بالأبد ولماذا يرجع؟ وهل الأبد زماني أو هو عين الزمان؟ وبماذا يبقى الزمان؟ هل يبقى بنفسه أو يبقى بغيره يكون له ذلك الغير كهو معنا ظرفاً لبقائه ودوامه، أو هو أمر متوهم ليس له وجود حقيقيّ عيني؟ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد وثلاثمائة

في معرفة منزل الكتاب المقسوم بين أهل النعيم وأهل العذاب

[البسيط]

إن المُقَرَّبَ من كانت سَجيَّتُهُ ... سَجِيَّةَ البِرِّ والأبرارُ تجهلُهُ
القربُ منزل من لا شيء يشبهه ... عيناً قد أنزله فيه منزلُهُ
إجماله قد علا قُدُساً ومَنْزِلَةً ... ولا لسانَ لمخلوق يُفَصِّلُهُ
إن العوالمَ بالميزان تُدْرِكُها ... فلا تُفَرِّطْ ولا تُفْرِطْ فتُهْمِلُهُ
القربُ أمر إضافيّ فرُبَّ أذى ... يكون قُوتاً لنفس منه تسألُهُ
فَلْيُعْطِهِ سُؤْلَهُ إن كان ذا كَرَم ... ولْيَتَّقِ الشُّحَّ إنَّ الشُّحَّ يقتلُهُ
إنَّ العَذَابَ الذي يأتيك من كَثَبٍ ... قد كُنْتَ بالغير في دنياك تُنْزِلُهُ
ومن أتاه الذي قد كان يفعله ... فكيف يُنْكِره أم كيف يَجْهَلُهُ

قال الله عز وجل: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١ - ٢] على أي قلب ينزل ﴿خَلَقَ

﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ [الرحمن: ٣] فعين له الصنف المنزل عليه ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤] أي نزل عليه القرآن فأبان عن المراد الذي في الغيب ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] ميزان حركات الأفلاك ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦] لهذا الميزان أي من أجل هذ الميزان فمنه ذو ساق وهو الشجر ومنه ما لا ساق له وهو النجم فاختلفت السجدتان ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧] وهي قبة الميزان ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧] ليزن به الثقلان ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٨] بالإفراط والتفريط من أجل الخسران ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٩] مثل اعتدال نشأة الإنسان إذ الإنسان لسان الميزان ﴿وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩] أي لا تفرطوا بترجيح إحدى الكفتين إلا بالفضل، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فاعلم أنه ما من صنعة ولا مرتبة ولا حال ولا مقام إلا والوزن حاكم عليه علماً وعملاً، فللمعاني ميزان بيد العقل يسمى المنطق يحوي على كفتين تسمى المقدمتين، وللكلام ميزان يسمى النحو يوزن به الألفاظ لتحقيق المعاني التي تدل عليه ألفاظ ذلك اللسان، ولكل ذي لسان ميزان وهو المقدار المعلوم الذي قرنه الله بإنزال الأرزاق فقال: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحج: ٢١] ولكن ينزل بقدر ما يشاء، وقد خلق جسد الإنسان على صورة الميزان، وجعل كفتيه يمينه وشماله، وجعل لسانه قائمة ذاته، فهو لأيّ جانب مال، وقرن الله السعادة باليمين، وقرن الشقاء بالشمال، وجعل الميزان يوزن به الأعمال على شكل القبان، ولهذا وصف بالثقل والخفة ليجمع بين الميزان العددي وهو قوله تعالى: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] وبين ما يوزن بالرطل وذلك لا يكون إلا في القبان فلذلك لم يعين الكفتين بل قال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [القارعة: ٦] في حق السعداء ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [القارعة: ٨] في حق الأشقياء، ولو كان ميزان الكفتين لقال: وأما من ثقلت كفة حسناته فهو كذا، وأما من ثقلت كفة سيئاته فهو كذا، وإنما جعل ميزانْ الثقل هو عين ميزان الخفة كصورة القبان، ولو كان ذا كفتين لوصف كفة السيئات بالثقل أيضاً إذا رجحت على الحسنات، وما وصفها قط إلا بالخفة، فعرفنا أن الميزان على شكل القبان، ومن الميزان الإلهيّ قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: ٥٠] وقال ﷺ: «**وُزِنْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ فَرَجَحْتُ وَوُزِنَ أَبُو بَكْرٍ بالأُمَّةِ فَرَجَحَهَا**».

واعلم أن الأمر محصور في علم وعمل، والعمل على قسمين: حسي وقلبي. والعلم على قسمين: عقلي وشرعي، وكل قسم فعلى وزن معلوم عند الله في إعطائه وطلب من العبد لما كلفه أن يقيم الوزن بالقسط فلا يطغى فيه ولا يخسره فقال تعالى: ﴿لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٧٧] وهو معنى ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٨] ولا تقولوا على الله إلا الحق وهو قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٩] فطلب العدل من عباده في معاملتهم مع الله ومع كل ما سوى الله من أنفسهم وغيرهم، فإذا وفق الله العبد لإقامة الوزن فما أبقى له خيراً إلا أعطاه إياه، فإن الله قد جعل الصحة والعافية في اعتدال الطبائع وأن لا يترجح إحداهن على الأخرى، وجعل العلل والأمراض والموت بترجيح بعضهن على بعض، فالاعتدال سبب البقاء، والانحراف سبب الهلاك والفناء، وترجيح الميزان في موطنه هو إقامته، وخفة الميزان

في موطنه إقامته فهو بحسب المقامات، وإذا كان الأمر على ما قرّرناه فاعلم أن المحقق هو الذي يقيم هذا الميزان في كل حضرة من علم وعمل على حسب ما يقتضيه من الرجحان والخفة في الموزون بالفضل في موضعه والاستحقاق، فإن النبي ﷺ ندب في قضاء الدين وقبض الثمن إلى الترجيح فقال: « أرْجِحْ له » حين وزن له فما أعطاه خارجاً عن استحقاقه بعين الميزان فهو فضل لا يدخل الميزان إذ الوزن في أصل وضعه إنما وضع للعدل لا للترجيح، وكل رجحان يدخله فإنما هو من باب الفضل وإن الله لم يشرع قط الترجيح في الشر جملة واحدة وإنما قال: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ﴾ [المائدة: ٤٥] وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] ولم يقل أرجح منها وقال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ﴾ [البقرة: ١٩٤] ولم يقل بأرجح ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠] فرجح في الإنعام.

وما ندب الله عباده إلى فضيلة وكريم خلق إلا وكان الجناب الإلهي الأعلى أحق بذاك، وهذا من سبق رحمته غضبه، فالنار ينزل فيها أهلها بالعدل من غير زيادة، والجنة ينزل فيها أهلها بالفضل فيرون ما لا تقتضيه أعمالهم من النعيم، ولا يرى أهل النار من العذاب إلا قدر أعمالهم من غير زيادة ولا رجحان إلى أن يفعل الله بهم ما يريد بعد ذلك، ولذلك قال في عذابهم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:٧] وما يعلم أحد من خلق الله حكم إرادة الله في خلقه إلا بتعريفه، ألا تراه في حق السعداء يقول عطاء ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٖ﴾ [هود: ١٠٨] والصورة واحدة والمدة واحدة؟ ولم يقل في العذاب إنه غير مجذوذ لكن يقطع بأنهم غير خارجين من النار ولا يعرف حالتهم فيها في حال الاستثناء ما يفعل الله فيهم فلا يقضي في ذلك بشيء مع علمنا بأن رحمته سبقت غضبه، وعلمنا بأن الله يجزي كل نفس بما عملت، وقد قام الدليل على الفضل في أهل السعادة وما جاء مثل ذلك في الأشقياء وهذه مسألة يقف عندها صاحب الفكر أو يحكم بغلبة الظن لا بالقطع إلا صاحب الكشف فإنه يعلم بما أعلمه الله من ذلك، غير أن ابن قسي وهو من أهل هذا الشأن قال: لا يحكم عدله في فضله ولا فضله في عدله، وهذا كلام مجمل، فلا أدري هل قاله عن كشف أو عن اعتبار وفكر؟ وهذا الكلام من وجه ينافي قوله تعالى: « سَبَقَتْ رَحْمَتي غَضَبي »، ومن وجه لا ينافيه، فإن الحقائق تعطي أن الفضل لا يحكم في العدل وأن العدل لا يحكم في الفضل، فإنه ليس كل واحد من النعتين محلاً لحكم الآخر، وإن محل حكم الصفة إنما هو في المفضول عليه أو المعدول فيه، وإنا قد علمنا من الله تعالى أن الله يتفضل بالمغفرة على طائفة من عباده قد عملوا الشرّ ولم يقم عليهم ميزان العدل ولا آخذهم بعدله وإنما حكم فيهم بفضله، ولا يقال في مثل هذا إنه حكم فضله في عدله وهو الذي يليق بابن قسي رحمه الله أنه أنبأ عن حقيقة كما هو الأمر عليه في نفسه، وإذا خالف الكشف الذي لنا كشف الأنبياء عليهم السلام كان الرجوع إلى كشف الأنبياء عليهم السلام، وعلمنا أن صاحب ذلك الكشف قد طرأ عليه خلل بكونه زاد على كشفه نوعاً من التأويل بكفره فلم يقف مع كشفه كصاحب الرؤيا فإن كشفه صحيح وأخبر عما

رأى، ويقع الخطأ في التعبير لا في نفس ما رأى، فالكشف لا يخطىء أبداً، والمتكلم في مدلوله يخطىء ويصيب إلا أن يخبر عن الله في ذلك.

فأما ميزان العلم العقليّ فهو على قسمين: قسم يدركه العقل بفكره وهو المسمى بالمنطق في المعاني وبالنحو في الألفاظ وهذا ليس هو طريق أهل هذا الشأن أعني علم ما اصطلحوا عليه من الألفاظ المؤدية إلى العلم به من البرهان الوجودي والجدلي والخطابي والكلية والجزئية والموجبة والسالبة والشرطية وغير الشرطية وإن اجتمعنا معهم في المعاني ولا بد من الاجتماع فيها، ولكن لا يلزم من الاجتماع في المعنى أن لا يكون ذلك إلا من طريق هذه الألفاظ، وكذلك لا يلزمنا معرفة المبتدأ أو الابتداء، والفاعل والمفعول، والمضاف والمصدر والإضافة واسم كان واسم إن والإعراب والبناء وإن علمنا المعاني، ولكن لا يلزم أن نعرف هذه الألفاظ، فصاحب الكشف على بصيرة من ربه فيما يدعو إليه خلقه، ولكن للعقل قبول كما له فكر، ولذلك القبول في الكشف ميزان قد عرفه فيقيمه في كل معلوم يستقل العقل بإدراكه لكن لا يعلمه هذا الولي من طريق الفكر وميزان المنطق، فالذي دخل في طريقنا من ميزان العلم العقلي هو إذا ورد العلم الذي يحصل عقيب التقوى من قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ومن قوله: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] فالعارف عند ذلك ينظر في تقواه وما اتقى الله فيه من الأمور وما كان عليه من العمل، وينظر في ذلك العلم، ويناسب بينه وبين تقواه في العمل الذي كان عليه فإن موازين المناسبات لا تخطىء، فإذا رأى المناسبة محققة بين العلم المفتوح عليه به وبين ذلك العمل ورأى أن ذلك العمل يطلبه فذلك العلم مكتسب له بعمله، فإذا رآه خارجاً عن الميزان وترتفع المناسبة أو يكون ما زاد من جنس ما حصل ولكن لا يقتضيه قوّة عمله لضعف أو نقص كان في عمله، فما زاد على هذا المقدار فهو من علوم الوهب، وإن كان له أصل في الكسب فيتعين عليه أن يشكر الله سبحانه على ما منحه، فيكون ذلك الشكر يجبر له ما نقص من العمل الذي لو عمله نتج له هذا الذي وهب له، فهذا مسبب قد تقدم سببه بل عاد سبباً لما كان ينبغي أن يكون مسبباً عنه ويزيده الله لذلك الشكر فتحاً في قلبه على الحد الذي ذكرناه، وتؤخذ جميع الأعمال على ذاكم فهذا حد الميزان العقلي في الطريق.

واختلفنا فيما يستقل العقل بإدراكه إذا أخذه الولي من طريق الكشف والفتح هل يفتح له مع دليله أم لا؟ فذهبنا نحن إلى أنه قد يفتح له فيه ولا يفتح له في دليله وقد ذقناه، وذهب بعضهم منهم صاحبنا الشيخ الإمام أبو عبد الله الكتاني بمدينة فاس سمعته يقول: لا بد أن يفتح له في الدليل من غير فكر ويرى ارتباطه بمدلوله، فعلمت أن الله ما فتح عليه في مثل هذا العلم إلا على هذا الحد فقال أيضاً ذوقه فإخباره أنه كذا رآه صحيح، وحكمه أنه لا يكون إلا هكذا باطل، فإن حكمه كان عن نظره لا عن كشفه، فإنه ما أخبر عن الله أنه قال له هكذا أفعله وأن غير هذا الرجل من أهل هذا الشأن قد أدرك ما ذهبنا إليه ولم يعرف دليله العقلي، فأخبر كل واحد بما رآه وصدق في إخباره، وما يقع الخطأ قط في هذا الطريق من جهة الكشف

ولكن يقع من جهة التفقه فيه فيما كشف إذا كان كشف حروف أو صور.

وأما الميزان الشرعي فهو أن الله إذا أعطاك علماً من العلوم الإلهية لا من غيرها فإنا لا نعتبر الغير في هذا الميزان الخاص فننظر في الشرع إن كنا عالمين به وإلا سألنا المحدّثين من علماء الشرائع لا نسأل أهل الرأي فنقول لهم: هل رويتم عن أحد من الرسل أنه قال عن الله كذا وكذا؟ فإن قالوا نعم فوازنه بما علمت وبما قيل لك، واعلم أنك وارث ذلك النبي في تلك المسألة أو ينظر هل يدل عليها القرآن وهو قول الجنيد «علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فهو الميزان»، وليس يلزم في هذا الميزان عين المسألة أن تكون مذكورة في الكتاب أو السنة، وإنما الذي يطلب عليه القوم أن يجمعهما أصل واحد في الشرع المنزل من كتاب أو سنة على أي لسان نبيّ كان من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، فإن أموراً كثيرة ترد في الكشف على الأولياء وفي التعريف الإلهيّ لا تقبلها العقول وترمي بها، فإذا قالها الرسول أو النبيّ عليه السلام قبلت إيماناً وتأويلاً ولا تقبل من غيره وذلك لعدم الإنصاف، فإن الأولياء إذا عملوا بما شرع لهم هبت عليهم من تلك الحضرة الإلهية نفحات جود إلهيّ كشف لهم من أعيان تلك الأمور الإلهية التي قبلت من الأنبياء عليهم السلام ما شاء الله، فإذا جاء بها هذا الولي كفر، والذي يكفره يؤمن بها إذا جاء بها الرسول فما أعمى بصيرة هذا الشخص، وأقل الأمور أن يقول له: إن كان ما تقوله حق أنك خوطبت بهذا أو كشف لك فتأويله كذا وكذا إن كان ذلك من أهل التأويل، وإن كان ظاهرياً يقول له: قد ورد في الخبر النبوي ما يشبه هذا فإن ذلك ليس هو من شرط النبوّة ولا حجره الشارع لا في كتاب ولا سنة.

ومن هذا الباب في هذا المنزل يعلم الإنسان ميزانه من الحضرة الإلهية في قوله: «إن الله خلق آدم على صورته» فقد أدخله الجود الإلهيّ في الميزان فيوازن بصورته حضرة موجده ذاتاً وصفة وفعلاً، ولا يلزم من الوزن الاشتراك في حقيقة الموزونين، فإن الذي يوزن به الذهب المسكوك هو صنجة حديد فليس يشبهه في ذاته ولا صفته ولا عدده، فيعلم أنه لا يوزن بالصورة الإنسانية إلا ما تطلبه الصورة بجميع ما تحوي عليه بالأسماء الإلهية التي توجهت على إيجاده وأظهرت آثارها فيه، وكما لم تكن صنجة الحديد توازن الذهب في حد ولا حقيقة ولا صورة عين كذلك العبد وإن خلقه الله على صورته فلا يجتمع معه في حدّ ولا حقيقة إذ لا حد لذاته والإنسان محدود بحد ذاتي لا رسمي ولا لفظي، وكل مخلوق على هذا الحد، والإنسان أكمل المخلوقات وأجمعها من حيث نشأته ومرتبته، فإذا وقفت على حقيقة هذا الميزان زال عنك ما توهمته في الصورة من أنه ذات وأنت ذات وأنك موصوف بالحيّ العالم وسائر الصفات وهو كذلك، وتبين لك بهذا الميزان أن الصورة ليس المراد بها هذا، ولهذا جمع في صورة واحدة خلق الإنسان ووضع الميزان وأمرك أن تقيمه من غير طغيان ولا خسران وما له إقامة إلا على حد ما ذكرت لك فإنه الله الخالق وأنت العبد المخلوق، وكيف للصنعة أن تكون تعلم صانعها وإنما تطلب الصنعة من الصانع صورة علمه بها لا صورة ذاته وأنت صنعة خالقك، فصورتك مطابقة لصورة علمه بك وهكذا كل مخلوق، ولو لم يكن

الأمر كذلك وكان يجمعكما حد وحقيقة كما يجمع زيداً وعمراً لكنت أنت إلهاً أو يكون هو مألوهاً حتى يجمعكما حد واحد والأمر على خلاف ذلك، فاعلم بأي ميزان تزن نفسك مع ربك ولا تعجب بنفسك، واعلم أنك صنجة حديد وزن بها ياقوته يتيمة لا أخت لها، وإن اجتمعت معها في المقدار فما اجتمعت معها في القدر ولا في الذات ولا في الخاصية تعالى الله، فالزم عبوديتك واعرف قدرك واعلم أنّ الله قد جعل من مخلوقاته من هو أكبر منك وإن كان خلقه من أجلك، ولكن لا يلزم إذا خلق شيئاً من أجلك أن تكون أنت أكبر منه، فإنّ السكين عمل من أجل أمور منها قطع يد السارق، والنار خلقت من أجل عذاب الإنسان، فالإنسان أشرف من النار لأنها خلقت من أجله، فهذا الفصل لا يطرد فلا تدخله ميزانك فأنت أنت وهو هو ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فبهذا قد أعلمتك بالميزان العلمي المشروع والمعقول وما يحتاج إليه من ذلك، فلنبين لك ميزان العمل فاعلم أن العمل منه حسي وقلبي وميزانه من جنسه، فميزان العمل أن ينظر إلى الشرع وكيف أقام صور الأعمال على أكمل غاياتها قلبياً كان ذلك العمل أو حسياً أو مركباً من حس وقلب كالنية والصلاة من الحركات الحسية فقد أقام الشرع لها صورة روحانية يمسكها عقلك، فإذا شرعت في العمل فلتكن عينك في ذلك المثال الذي أخذته من الشارع، واعمل ما أمرت بعمله في إقامة تلك الصورة، فإذا فرغت منها قابلها بتلك الصورة الروحانية المعبر عنه بالمثال الذي حصلته من الشارع عضواً عضواً ومفصلاً مفصلاً، ظاهراً وباطناً؛ فإن جاءت الصورة فيها بحكم المطابقة من غير نقصان ولا زيادة فقد أقمت الوزن بالقسط ولم تطغ فيه ولم تخسره فإن الزيادة في الحد عين النقص في المحدود، فإذا وزنت عملك مثل هذا الوزن كانت صورة عملك مقداراً للجزاء الذي عينه الحق لك عليه، سواء كان ذلك العمل محموداً أو مذموماً، فإن الشرع أيضاً كما أقام لك صورة العمل المحمود لتعمله وبينه لك لتعرفه كذلك أقام لك صورة العمل المذموم لتعرفه وتميزه من المحمود ونهاك أن تعمل عليه صورة تطابقه، فإن خالفت وعملت صورة تطابق تلك الصورة طلبت تلك الصورة موازنتها من الجزاء، فإن اتفق أن يدخلها الحق في الميزان بالجزاء فإنه لا يزيد عليها في المقدار وزن ذرّة أصلاً، هذا إذا أقام الوزن عليه بالجزاء وكان عذابه في النار جزاء على قدر عمله لا يزيد ولا ينقص لا في العمل ولا في مقدار الزمان. والإصرار من الأعمال المنهي عن عملها ولا يزيله إلا التوبة، فإن مات عليه خيف عليه ولم يقطع، وإذا أدخل الحق صورة العمل الصالح الميزان ووزنه بصورة الجزاء رجحت عليه صورة الجزاء أضعافاً مضاعفة وخرجت عن الحد والمقدار منة من الله وفضلاً وهو قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠] كما ذكرناه. وقال في الأخرى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] ولم يجعل للتضعيف في الخير مقداراً يوقف عنده بل

وصف نفسه بالسعة فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١] وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢] وقال: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وغضبه شيء فقد وسعته الرحمة وحصرته وحكمت عليه فلا يتصرّف إلا بحكمها، فترسله إذا شاءت وفيه رائحة الرحمة من أجل المنزل وتمسكه إذا شاءت، ولهذا ليس في البسملة شيء من أسماء القهر ظاهراً بل هو الله الرحمن الرحيم وإن كان يتضمن الاسم الله القهر فكذلك يتضمن الرحمة، فما فيه من أسماء القهر والغلبة والشدة يقابله بما فيه من الرحمة والمغفرة والعفو والصفح وزناً بوزن في الاسم الله من البسملة، ويبقى لنا فضل زائد على ما قابلنا به الأسماء في الاسم الله وهو قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فأظهر عين الرحمن وعين الرحيم خارجاً زائداً على ما في الاسم الله منه فزاد في الوزن فرجع فكأن الله عرّفنا بما يحكمه في خلقه، وأن الرحمة بما هي في الاسم الله الجامع من البسملة هي رحمته بالبواطن، وبما هي ظاهرة في الرحمن الرحيم هي رحمته بالظواهر فعمت فعظم الرجاء للجميع. وما من سورة من سور القرآن إلا والبسملة في أوّلها فأولناها أنها إعلام من الله بالمآل إلى الرحمة فإنه جعلها ثلاثاً: الرحمة المبطونة في الاسم الله والرحمن الرحيم ولم يجعل للقهر سوى المبطون في الاسم الله فلا عين له موجودة كالكناية في الطلاق ينوي فيه الإنسان بخلاف الصريح فافهم. وأما سورة التوبة فاختلف الناس فيها هل هي سورة مستقلة كسائر سور القرآن؟ أو هل هي وسورة الأنفال سورة واحدة؟ فإنهم كانوا لا يعرفون كمال السورة إلا بالفصل بالبسملة ولم يجيء هنا فدل أنها من سورة الأنفال وهو الأوجه وإن كان لتركها وجه وهو عدم المناسبة بين الرحمة والتبري، ولكن ما لهذا الوجه تلك القوّة بل هو وجه ضعيف، وسبب ضعفه أنه في الاسم الله المنعوت بجميع الأسماء ما هو في اسم خاص يقتضي المؤاخذة والبراءة إنما هي من الشريك، وإذا تبرأ من المشرك فلكونه مشركاً لأن متعلقه العدم، فإن الخالق لا يتبرأ من المخلوق، ولو تبرأ منه من كان يحفظ عليه وجوده ولا وجود للشريك فالشريك معدوم فلا شركة في نفس الأمر، فإذا صحت البراءة من الشريك فهي صفة وتبرئه تبرئة لله من الشريك وللرسول من اعتقاد الجهل ووجه آخر في ضعف هذا التأويل الذي ذكرناه وهو أن البسملة موجودة في كل سورة أوّلها ويل وأين الرحمة من الويل؟ ولهذا كان للقراء في مثل هذه السورة مذهب مستحسن فيمن يثبت البسملة من القراء، وفيمن يتركها كقراءة حمزة، وفيمن يخير فيها كقراءة ورش، والبسملة إثباتها عنده أرجح فأثبتناها عند قراءتنا بحرف حمزة في هذين الموضعين لما فيهما من قبح الوصل بالقراءة وهو أن يقول: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] ﴿وَيۡلٞ﴾ [المطففين: ١] فبسملوا هنا وأمّا مذهبنا فيه فهو أن يقف على آخر السورة ويقف على آخر البسملة ويبتدىء بالسورة من غير وصل.

والقراء في هذا الفصل على أربعة مذاهب: المذهب الواحد لا يرونه أصلاً وهو أن يصل آخر السورة بالبسملة ويقف ويبتدىء بالسورة هذا لا يرتضيه أحد من القراء العلماء منهم، وقد رأيت الأعاجم من الفرس يفعلون مثل هذا مما لا يرتضيه علماء الأداء من القراء،

والمذهب الحسن الذي ارتضاه الجميع ولا أعرف لهم مخالفاً من القراء الوقوف على آخر السورة ووصل البسملة بأوّل السورة التي يستقبلها، والمذهبان الآخران وهما دون هذا في الاستحسان أن يقطع في الجميع أو يصل في الجميع، وأجمع الكل أن يبتدىء بالتعوذ والبسملة عند الابتداء بالقراءة في أوّل السورة، وأجمع على قراءة البسملة في الفاتحة جماعة القراء بلا خلاف، واختلفوا في سائر سور القرآن ما لم يبتدىء أحد منهم بالسورة، فمنهم من خير في ذلك كورش، ومنهم من ترك كحمزة ومنهم من بسمل ولم يخير كسائر القراء، ولوجه التخيير والترك وعدم الترك لهذه البسملة حكم عجيبة لا يسع الوقت لذكرها ولأنها خارجة عن مقصود هذا الباب وهي آية حيثما وقعت إلا في سورة النمل في كتاب سليمان عليه السلام فإنها بعض آية ولا أعلم فيها خلافاً.

فهكذا قد أبنت لك عن الميزان العمليّ والعلميّ على التقريب والاختصار، فلنبين لك ما يتضمنه هذا المنزل من الأمور التي لم نذكرها مخافة التطويل: فاعلم أن هذا المنزل يتضمن علم علل هذه الموازين التي ذكرناها، وفيه علم ما يستحقه الرب من التعظيم، وفيه علم الآخرة الذي بين الدنيا ونزول الناس في منازلهم من الجنة والنار، وفيه علم البعث، وفيه علم بعض منازل الأشقياء والسعداء، وفيه علم الستور، وفيه علم الاصطلام، وفيه علم مراتب العالم العلوي والسفلي والطبيعيّ والروحانيّ، وفيه منزل القربة ولنا فيه جزء لطيف، وفيه علم المفاضلة، وفيه علم موازنة الجزاء، وفيه علم التخليص والامتزاج، وفيه معرفة الوصف الذي لا ينبغي أن يتصف به نبي وعصمة الولي من ذلك وهو عزيز، وفيه علم ما يكره في الدنيا ويمقت فاعله وهو محبوب في الآخرة وهو ذلك الفعل بعينه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني وثلاثمائة

في معرفة منزل ذهاب العالم الأعلى ووجود العالم الأسفل من الحضرة المحمدية والموسوية والعيسوية

[مجزوء الرجز]

مَنْزِلُ تَلْقِينِ الحُجَجْ مَنْزِلُ مَنْ كَانَ دَرَجْ
فَلا تَكُنْ كَمِثْلِ مَنْ إنْ فُتِحَ البابُ خَرَجْ
والزَمْ وكُنْ كَمِثْلِ مَنْ إن فُتِحَ البابُ وَلَجْ
مَنْ لاذَ بِاللهِ احْتَمَى ومن أَلَحَّ يَنْدَرِجْ
في كل ما تسألُهُ مِنْ كلِّ ضِيقٍ وفَرَجْ
قد قيل ذا في مَثَلٍ بأَنَّ مَنْ أَدْلَجَ حَجْ
في مثل هذا يا أخي تَفْنَى النفوسُ والمُهَجْ
كم من لَبِيبٍ هالِكٍ في بَحْرِه وَسْطَ اللُّجَجْ
وما على نفس تَرَى فيه الهلاكَ مِنْ حَرَجْ

اعلم أن الغيب ظرف لعالم الشهادة وعالم الشهادة هنا كل موجود سوى الله تعالى مما وجد ولم يوجد أو وجد ثم ردّ إلى الغيب كالصور والأعراض وهو مشهود لله تعالى، ولهذا قلنا إنه عالم الشهادة ولا يزال الحق سبحانه يخرج العالم من الغيب شيئاً بعد شيء إلى ما لا يتناهى عدداً من أشخاص الأجناس والأنواع، ومنها ما يردّه إلى غيبه، ومنها ما لا يرده أبداً، فالذي لا يردّه أبداً إلى الغيب كل ذات قائمة بنفسها وليس إلا الجواهر خاصة، وكل ما عدا الجواهر من الأجسام والأعراض الكونية واللونية فإنها تردّ إلى الغيب ويبرز أمثالها، والله يخرجها من الغيب إلى شهادتها أنفسها فهو ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ [التوبة: ١٠٥] والأشياء في الغيب لا كمية لها إذ الكمية تقتضي الحصر فيقال: كم كذا وكذا؟ وهذا لا ينطلق عليها في الغيب فإنها غير متناهية، فكم وكيف والأين والزمان والوضع والإضافة والعرض وأن يفعل وأن ينفعل كل ذلك نسب لا أعيان لها فيظهر حكمها بظهور الجوهر لنفسه إذا أبرزه الحق من غيبه، فإذا ظهرت أعين الجواهر تبعتها هذه النسب فقيل: كم عين ظهرت؟ فقيل: عشرة أو أكثر أو أقل، فقيل: كيف هي؟ فقيل: مؤلفة فعرض لها الجسمية فصحت الكيفية بالجسمية وحلول الكون واللون، فقيل: أين؟ فقيل في الحيز أو المكان، فقيل: متى؟ فقيل: حين كان كذا في صورة كذا؟ فقيل: ما لسانه؟ فقيل: أعجمي أو عربيّ، فقيل: ما دينه؟ فقيل: شريعة كذا فقيل هل ظهر منه ما يكون من ظهور آباء كما ظهر هو من غيره؟ فقيل: هو ابن فلان، قيل: ما فعل؟ قيل: أكل، قيل: ما انفعل عن أكله؟ قيل: شبع. فهذه جملة النسب التي تعرض للجواهر إذا أخرجها الله من غيبه، فليس في الوجود المحدث إلا أعيان الجوهر والنسب التي تتبعه، فكان الغيب بما فيه كأنه يحوي على صورة مطابقة لعالمه، إذ كان علمه بنفسه علمه بالعالم، فبرز العالم على صورة العالم من كونه عالماً به فصورته من الجوهر ذاته، ومن الكم عدد أسمائه، ومن الكيف قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] و﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] و﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وأمثال هذا فيما أخبر به عن نفسه كثير والأين كان الله في عماء وهو الله في السماء والزمان، كان الله في الأزل والوضع ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فجميع الشرائع وضعه والإضافة خالق الخلق مالك الملك، وأن يفعل بيده الميزان يخفض القسط ويرفعه، وأن ينفعل يدعى فيجيب، ويسأل فيعطي، ويستغفر فيغفر، وهذه كلها صورة العالم، ولك ما سوى الله قد ظهر على صورة موجده فما أظهر إلا نفسه، فالعالم مظهر الحق على الكمال فليس في الإمكان أبدع من هذا العالم إذ ليس أكمل من الحق تعالى، فلو كان في الإمكان أكمل من هذا العالم لكان ثم من هو أكمل من موجده وما ثم إلا الله، فليس في الإمكان إلا مثل ما ظهر لا أكمل منه فتدبر ما قلته فهو لباب المعرفة بالله.

ثم إن الله اختصر من هذا العالم مختصراً مجموعاً يحوي على معانيه كلها من أكمل الوجوه سماه آدم، وقال إنه خلقه على صورته، فالإنسان مجموع العالم وهو الإنسان الصغير، والعالم الإنسان الكبير أو سمِّ الإنسان العالم الصغير كيفما شئت إذا عرفت الأمر كما هو عليه

في نفسه وعينه فانسب إليه واصطلح كما تريد، فلا فضل للإنسان على العالم بجملته، والعالم أفضل من الإنسان لأنه يزيد عليه درجة وهي أن الإنسان وجد عن العالم الكبير فله عليه درجة السببية لأنه عنه تولد، قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] لأن حوّاء صدرت من آدم فلم تزل الدرجة تصحبه عليها في الذكورة على الأنوثة، وإن كانت الأم سبباً في وجود الابن فابنها يزيد عليها بدرجة الذكورة لأنه أشبه أباه من جميع الوجوه، فوجب على الإنسان تعظيم أبويه، فأمه العالم بأسره وأبوه معروف غير منكور والنكاح التوجه فخرج الولد على صورة أبويه، ولما كان الولد لا يدعى إلا لأبيه ولا ينسب إلى أمه لأن الأب له الدرجة وله العلوّ فينسب إلى الأشرف، ولما لم يتمكن لعيسى عليه السلام أن ينسب إلى من وهبه لها بشراً سوياً أعطيت أمه الكمال وهو المقام الأشرف فنسب عيسى إليها فقيل عيسى ابن مريم، فكان لها هذا الشرف بالكمال مقام الدرجة التي شرف بها الرجال على النساء، فنسب الابن إلى أبيه لأجلها، وكمال مريم شهد لها بذلك رسول الله ﷺ ولآسية امرأة فرعون فأما كمال آسية فلشرف المقام الذي ادعاه فرعون فلم يكن ينبغي لذلك المقام أن يكون العرش الذي يستوي عليه إلا موصوفاً بالكمال فحصل لآسية الكمال بشرف المقام الذي شقي به فرعون ولحق بالخسران المبين وفازت امرأته بالسعادة، ولشرف المقام الذي حصل لها به الكمال قالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] فما أنطقها إلا قوة المقام بعندك ولم تطلب مجاورة موسى ولا أحد من المخلوقين ولم يكن ينبغي لها ذلك فإن الحال يغلب عليها فإن الكامل لا يكون تحت الكامل فإن التحتية نزول درجة، ولما كان كمال مريم بعيسى في نسبته إليها لم تقل ما قالت آسية، آسية تقول: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١] حتى لا تنتهك حرمة النسبة، ومريم تقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٣] وهي بريئة في نفس الأمر عند الله فما قالت ذلك من أجل الله كما قالت آسية عندك فقدمته وطلبت جواره والعصمة من أيدي عداته ولكن قالت ذلك مريم حياء من الناس لما علمته من طهارة بيتها وآبائها فخافت من إلحاق العار بهم من أجلها.

ولما ذكرنا أن العالم كان مستوراً في غيب الله وكان ذلك الغيب بمنزلة الظل للشخص فلو سلخ من الظل جميعه أمر ما لخرج على صورة الظل والظل على صورة ما هو ظل له، فالخارج من الظل المسلوخ منه على صورة الشخص، ألا ترى النهار لما سلخ من الليل ظهر نوراً فظهرت الأشياء التي كانت مستورة بالليل ظهرت بنور النهار فلم يشبه النهار الليل وأشبه النور في ظهور الأشياء به، فالليل كان ظل النور والنهار خرج لما سلخ من الليل على صورة النور؟ كذلك العالم في خروجه من الغيب خرج على صورة العالم بالغيب كما قرّرناه، فقد تبين لك من العلم بالله من هذا المقام ما فيه كفاية إن عرفت قدره ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وأما مسألة روح صورة هذا العالم وأرواح صور العالم العلوي والسفلي فها أنا أبسطها لك في هذه المسألة من هذا المنزل في الدرجة الثامنة منه، فإن هذا المنزل يحوي على سبعة عشر صنفاً من العلم هذا أحدها فنقول: إن روح العالم الكبير هو الغيب الذي خرج عنه

فافهم، ويكفيك أنه المظهر الأكبر الأعلى إن عقلت وعرفت قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] وبعد أن بان لك روح العالم الكبير فبقي لك أن تعلم أرواح صور العالم هل هي موجودة عن صورة أو قبلها أو معها؟ ومنزلة الأرواح من صور العالم كمنزلة أرواح صور أعضاء الإنسان الصغير كالقدرة روح اليد والسمع روح الأذن، والبصر روح العين، فاعلم أن الناس اختلفوا في هذه المسألة على ما ذكرنا تفصيله، والتحقيق في ذلك عندنا أن الأرواح المدبرة للصور كانت موجودة في حضرة الإجمال غير مفصلة لأعيانها مفصلة عند الله في علمه، فكانت في حضرة الإجمال كالحروف الموجودة بالقوّة في المداد فلم تتميز لأنفسها وإن كانت متميزة عند الله مفصلة في حال إجمالها، فإذا كتب القلم في اللوح ظهر صور الحروف مفصلة بعدما كانت مجملة في المداد فقيل: هذا ألف وباء وجيم ودال في البسائط وهي أرواح البسائط، وقيل: هذا قام وهذا زيد وهذا خرج وهذا عمرو وهي أرواح الأجسام المركبة، ولما سوّى الله صور العالم أي عالم شاء كان الروح الكل كالقلم واليمين الكاتبة والأرواح كالمداد في القلم والصور كمنازل الحروف في اللوح، فنفخ الروح في صور العالم فظهرت الأرواح متميزة بصورها فقيل: هذا زيد وهذا عمرو وهذا فرس وهذا فيل وهذه حية وكل ذي روح وما ثم إلا ذو روح لكنه مدرك وغير مدرك، فمن الناس من قال: إن الأرواح في أصل وجودها متولدة من مزاج الصورة، ومن الناس من منع من ذلك، ولكل واحد وجه يستند إليه في ذلك، والطريقة الوسطى ما ذهبنا إله وهو قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. وإذا سوّى الله الصور الجسمية ففي أية صورة شاء من الصور الروحية ركبها إن شاء في صورة خنزير أو كلب أو إنسان أو فرس على ما قدّره العزيز العليم، فثم شخص الغالب عليه البلادة والبهيمية، فروحه روح حمار وبه يدعى إذا ظهر حكم ذلك الروح فيقال: فلان حمار، وكذلك كل صفة تدعى إلى كتابها فيقال: فلان كلب، وفلان أسد، وفلان إنسان وهو أكمل الصفات وأكمل الأرواح، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧] وتمت النشأة الظاهرة للبصر ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] من صور الأرواح فتنسب إليها كما ذكرنا وهي معينة عند الله فامتازت الأرواح بصورها. ثم إنه إذا فارقت هذه المواد فطائفة من أصحابنا تقول: إن الأرواح تتجرد عن المواد تجرداً كلياً وتعود إلى أصلها كما تعود شعاعات الشمس المتولدة عن الجسم الصقيل إذا صدىء إلى الشمس، واختلفوا هنا على طريقين: فطائفة قالت: لا تمتاز بعد المفارقة لأنفسها كما لا يمتاز ماء الأوعية التي على شاطىء النهر إذا تكسرت فرجع ماؤها إلى النهر فالأجسام تلك الأوعية والماء الذي ملئت به من ذلك النهر كالأرواح من الروح الكل. وقالت طائفة: بل تكتسب بمجاورتها الجسم هيئات رديئة وحسنة فتمتاز بتلك الهيئات إذا فارقت الأجسام، كما أن ذلك الماء إذا كان في الأوعية أمور تغيره عن حالته إما في لونه أو رائحته أو طعمه، فإذا فارق الأوعية صحبه في ذاته ما اكتسبه من الرائحة أو الطعم أو اللون وحفظ الله عليها تلك الهيئات المكتسبة ووافقوا في ذلك بعض الحكماء وطائفة قالت الأرواح المدبرة لا تزال مدبرة في عالم الدنيا فإذا انتقلت إلى

البرزخ دبرت أجساداً برزخية وهي الصورة التي يرى الإنسان نفسه فيها في النوم، وكذلك هو الموت وهو المعبر عنه بالصور، ثم تبعث يوم القيامة في الأجسام الطبيعية كما كانت في الدنيا وإلى هنا انتهى خلاف أصحابنا في الأرواح بعد المفارقة. وأما اختلاف غير أصحابنا في ذلك فكثير وليس مقصودنا إيراد كلام من ليس من طريقنا.

واعلم يا أخي تولاك الله برحمته أن الجنة التي يصل إليها من هو من أهلها في الآخرة هي مشهودة اليوم لك من حيث محلها لا من حيث صورتها، فأنت فيها تتقلب على الحال التي أنت عليها ولا تعلم أنك فيها فإن الصورة تحجبك التي تجلت لك فيها، فأهل الكشف الذين أدركوا ما غاب عنه الناس يرون ذلك المحل إن كان جنة روضة خضراء، وإن كان جهنماً يرونها بحسب ما يكون فيه من نعوت زمهريرها وحرورها وما أعد الله فيها، وأكثر أهل الكشف في ابتداء الطريق يرون هذا، وقد نبه الشارع على ذلك بقوله: «**بَيْنَ قَبْرِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ**» فأهل الكشف يرونها روضة كما قال، ويرون نهر النيل والفرات وسيحان وجيحان نهر عسل وماء وخمر ولبن كما هو في الجنة، فإن النبي ﷺ أخبر أن هذه الأنهار من الجنة، ومن لم يكشف الله عن بصره وبقي في عمى حجابه لا يدرك ذلك مثل الأعمى يكون في بستان فما هو غائب عنه بذاته ولا يراه. فلم يلزم من كونه لا يراه أنه لا يكون فيه؟ بل هو فيه، وكذلك تلك الأماكن التي ذكر رسول الله ﷺ أنها من النار كبطن محسر بمنى وغيره ولهذا شرع الإسراع في الخروج عنه لأمته فإنه ﷺ يرى ما لا يرون ويشهد ما لا يشهدون، ومن الناس من يستصحبه هذا الكشف، ومنهم من لا يستصحبه على ما قد أراده الله من ذلك لحكمة أخفاها في خلقه، ألا ترى أهل الورع إذا حماهم الله عن أكل الحرام من بعض علاماته عندهم أن يتغير في نظره ذلك المطعوم إلى صورة محرّمة عليه فيراه دماً أو خنزيراً مثلاً فيمتنع من أكله، فإذا بحث عن كسب ذلك الطعام وجده مكتسباً على غير الطريقة المشروعة في اكتسابه؟ فلأهل الله تعالى أعين يبصرون بها، وآذان يسمعون بها، وقلوب يعقلون بها، وألسنة يتكلمون بها غير ما هي هذه الأعين والآذان والقلوب والألسنة عليه من الصورة، فبتلك الأعين يشهدون، وبتلك الآذان يسمعون، وبتلك القلوب يعقلون، وبتلك الألسنة يتكلمون فكلامهم مصيب ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] عن الحق والأخذ به ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] عن الله ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الله، ووالله إن عيونهم لفي وجوههم، وإن سمعهم لفي آذانهم، وإن ألسنتهم لفي أفواههم، ولكن العناية ما سبقت لهم ولا الحسنى، فالحمد لله شكراً حيث أحيانا بتلك القلوب والألسن والآذان والأعين. ولقد ورد في حديث نبوي عند أهل الكشف صحيح وإن لم يثبت طريقه عند أهل النقل لضعف الراوي ولو صدق فيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَوْلاَ تَزْيِيدٌ فِي حَدِيثِكُمْ وَتَمْرِيجٌ فِي قُلُوبِكُمْ لَرَأَيْتُمْ مَا أَرَى وَلَسَمِعْتُمْ مَا أَسْمَعُ**» قال الله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وأكثر من هذا البيان الصريح ما يكون لكن أين من يفرّغ محله لآثار ربه؟ أين من ينقل ما يسمع من غير زيادة فيه؟ هذا قليل جداً والله ولي التوفيق.

واعلم أن هذا المنزل يتضمن علم التحليل وعلم ما يحصل لأهل النار في النار من العلوم إذا دخلوها، وعلم ما يعطيه عالم الطبيعة من الأسرار الإلهية التي لا تعلم من غيره، وعلم السابقة واللاحقة وهي العاقبة، وعلم تركيب البراهين الوجودية، وعلم الإيجاد الروحانيّ والصوري، وعلم السبب المؤدّي إلى الشقاء، وعلم ما يبقى به نظام العالم وحفظ صورته عليه، وعلم التجلي في الحجاب، وعلم الأحكام الإلهية على غير طريق الشارع، وعلم توحيد الأفعال، وعلم إلحاق الأعالي بالأسافل والأسافل بالأعالي وهو أو قريب منه علم التحام الأباعد بالأداني والأداني بالأباعد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث وثلاثمائة

في معرفة منزل العارف الجبرئيليّ من الحضرة المحمدية

[البسيط]

للشَّمْسِ في الفَلَكِ الأقْصى عَلامَاتُ ... يَـدْري بـذلـك أقـوامٌ إذا مَـاتُـوا
تَـسْـري بـه أنـفُـسٌ مُـثْـلَـى مـطـهَّـرةٌ ... لا تَـنْـجَـلـي لـهـم إلاّ إذا بَـاتُـوا
من الخُمُور سُكَارى في مَحَارِبِهِمْ ... وما لـهـم في وُجُـودِ الـسُّـكْـرِ نِـيَّـاتُ
فـلـو أراد زَوَالَ الـسُّـكْـرِ صَـحْـوُهُـمُ ... تُـتْـلَـى عـلـيـهـم مـن الـقـرآن آيَـاتُ

اعلم أيدك الله أن من الأرواح العلوية السماوية المعبر عنها بالملائكة مقدمين لهم أمر مطاع فيمن قدموا عليه من الملأ الأعلى وهم أصحاب أمر لا أصحاب نهي ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وقد نبه الله تعالى على أن جبريل عليه السلام منهم بقوله﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١] ولا يكون مطاعاً إلا من له الأمر فيمن يطيعه. فاعلم أن العارف إذا كان يمدّه من الملأ الأعلى روح من هذه الأرواح الآمرة التي لها التقدّم على غيرها كإسرافيل وإسماعيل وعزرائيل وجبريل وميكائيل والنور والروح وأمثالهم، فإن العارف يكون له أثر في العالم العلويّ والسفليّ بقدر مرتبة ذلك الروح الذي يتولاه من هناك، فمن تولاه إسرافيل يكون له من الأثر بحسب مرتبة إسرافيل وما يكون تحت نظره وأمره، وكذلك كل روح بهذه المثابة له رجل أو امرأة على مقامه وهو الذي تسمعونه من الطائفة من أن فلاناً على قلب آدم أو جماعة على قلب آدم وجماعة على قلب إبراهيم أي لهم من المنازل ما لإبراهيم وآدم من مقام الولاية التي لهم لا من مقام النبوّة وإن كان لهم منها شرب فمن بعض مقاماتها لا كلها كالرؤيا جزء من أجزاء النبوّة وغيرها، وأما النبوّة بالجملة فلا تحصل إلا لنبيّ، وأما الوليّ فلا إلا أن يكون له من ظهره تمده وتقويه وتؤيده، هكذا أخذتها مشاهدة من نفسي وأخبرت أن كل وليّ كذا يأخذها من المكملين في الولاية ويترجم عنها ولكن من حجاب الظهر، ويكون للنبيّ من الفوق أو من الأمام تنزل على قلبه أو يخاطب بها في سمعه، فالولي يجد أثرها ذوقاً وهو فيها كالأعمى الذي يحس بجانبه شخص ولا يعرف من هو ذلك الشخص، ولهذا تقول الطائفة: لا يعرف الله إلا الله، ولا النبيّ إلا النبيّ، ولا الوليّ إلا وليّ مثله، فالنبيّ

ذو عين مفتوحة لمشاهدة النبوّة، والوليّ ذو عين مفتوحة لمشاهدة الولاية ذو عين عمياء لمشاهدة النبوّة فإنها من خلفه، فهو فيها كحافظ القرآن لأنه من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوّة بين جنبيه ولم يقل في صدره ولا بين عينيه ولا في قلبه فإن تلك رتبة النبيّ لا رتبة الوليّ. وأين الاكتساب من التخصيص؟ فالنبوّة اختصاص من الله يختص بها من يشاء من عباده، وقد أغلق ذلك الباب وختم برسول الله محمد ﷺ والولاية مكتسبة إلى يوم القيامة، فمن تعمل في تحصيلها حصلت له، والتعمُّل في تحصيلها اختصاص من الله يختص برحمته من يشاء، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] كما قال تعالى: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فبنور النبوّة تكتسب الولاية، فالأولياء هم ولاة الحق على عباده والخواص منهم الأكابر يقال لهم رسل وأنبياء، ومن نزل عنهم بقي عليه اسم الولاية، فالولاية الفلك المحيط الجامع للكل، فهم وإن اجتمعوا في منصب الولاية فالولاة لهم مراتب، فالسلطان وال على الخلق، والقاضي وال، والمحتسب وال، وأين رتبة السلطان من مرتبة صاحب الحسبة؟ وكلهم لهم الأمر في الولاية، وهكذا ما ذكرناه في حق الأنبياء والرسل والأقطاب كل وليّ على مرتبته، فالسلطنة لا تحصل بالكسب جملة وما عداها يتعمل في تحصيلها، فثم وال يقدم للسلطان خدمة من مال أو متاع فيوليه السلطان المنصب الذي يليق به وخدم عليه وهو بمنزلة من تحصل له الولاية من عند الله بالصدقة والقرض الحسن وصلة الرحم، ومن الناس من يلازم خدمة السلطان في ركوبه وخروجه ويتعرّض له، فإذا أمر السلطان بأمر يفعل ما لم يعين أحداً بادر هذا الشخص لا متثال أوامر السلطان، فيراه السلطان ملازماً مشاهدته مبادراً لأوامره فيوليه، فهذا بمنزلة من تحصل له الولاية من الله بمراقبته والمبادرة لأوامر الله التي ندب إليها لا التي افترضها عليه وهو قوله: «**وَلاَ يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعاً وَبَصَراً وَيَداً وَمُؤَيِّداً**» فهذا معنى الكسب في الولاية. وكذلك من تعرّض للسلطان وخدمه عن أمره وواجهه بالأمر فرأى محافظته على الأوامر السلطانية التى أوجبها عليه لا يغفل عنها ولا يتأوّلها بل يأخذها على الوجوب ويسارع إليها ويسبق إلى امتثالها حين يبطيء عنها ويتأوّلها من هو معه في رتبته فيرى له السلطان ذلك فيوليه ويعطيه النيابة عنه في رعيته، كذلك المسارع إلى ما أوجب الله عليه من الطاعات وافترضها عليه وأخذ أوامره على الوجوب ولم يتأوّل عليه كلامه ولا أمره فإن الله يصطفيه ويوليه أكبر ولاياته، وقد عرفت الكسب ومحله والاختصاص وأهله فاسلك عليه فهو الباب الذي من دخل عليه نجا وتولى ودنا وتدلى ونودي بالأفق الأعلى.

واعلم أن الوليّ الذي تمتد إليه رقيقة روحانية جبرئيلية هو من الأمناء الذين لله تعالى في خلقه الذين لا يعرفون في الدنيا، فإذا كان في الآخرة وظهرت منزلته هناك وما كان ينطوي عليه في هذه الدار مما لا يعرف هنا فإنه كان إما تاجراً في السوق أو بائعاً صاحب حرفة أو صنعة أو والياً من ولاة المسلمين من حسبة أو قضاء أو سلطنة وبينه وبين الله أسرار لا تعرف منه، فيقال عنه يوم القيامة عند ظهور ما كان عنده في الآخرة إن لله أمناء حيث كان هذا عندهم

وما ظهروا به في الدنيا حين ظهر غيرهم بما أعطاه الله من الكشف بالكلام على الخواطر أو على الأرض واختراق الهواء والمشي على الماء والأكل من الكون وما ظهر عليه شيء من ذلك وهو في قوّته وتحت تصريفه، وأبى أن يكون إلا على ما هم عليه عامة المسلمين ألا وهم الملامية من أهل هذا الطريق خاصة كبيرهم وصغيرهم، فيكون هذا الشخص في الأمة المحمدية كجبريل في الأمة الملكية مطاع الباطن، فإن جبريل روح وله الباطن غير مطاع في الظاهر لو أمر لكنه لا يأمر فإنه ما امتاز عن العامة بشيء، فلو امتاز عندهم بخرق عادة تظهر منه مما لا يقتضيها الموطن عظم وامتثل أمره للتفوق الذي ظهر له على العامة، فهذا سبب ردّ أمره لو أمر لكنه لا يأمر ولكنه في الباطن مطاع الأمر، ورأينا من هؤلاء جماعة مثل عبد الله بن تاخمست ومثل ابن جعدون الحناوي وهو من الأوتاد كان كبير الشأن، فهذا العارف الذي له هذا المقام الذي ذكرناه له التمكن من نفسه، ومن مكن من نفسه فهو أقوى خلق الله فإن النفس تريد الظهور في العالم بالربوبية، وصاحب هذا المقام قد خلع الله عليه من أوصاف السيادة وقواه بحيث أن يقول للشيء كن فيكون ذلك الشيء لمكانته من ربه، فكان من قوّته أنه ملك نفسه فلم يظهر عليه من ذلك شيء لا في أقواله ولا في أفعاله ولا عبادته، وهو ممن نص عليه رسول الله ﷺ في الحديث الحسن الغريب: «حين خَلَقَ اللهُ الجبالَ عند مَيْدِ الأرض فَرَسَتْ وسَكَنَ مَيْدُها فقالت الملائكة: يا ربَّنا هل خلقت شيئاً أشدّ من الجبال؟ قال: نَعَم الحديد، قالت: يا ربنا هل خلقت شيئاً أشدّ من الحديد؟ قال: نعم النار، قالت: يا ربنا هل خلقت شيئاً أشدّ من النار؟ قال: نعم الماء، قالت: يا ربنا هل خلقت شيئاً أشد من الماء؟ قال: نعم الهواء، قالت: يا ربنا هل خلقت شيئاً أشد من الهواء؟ قال: المؤمن يتصدّق بيمينه لا تعرف بذلك شماله؛ أو قال: فيخفيها عن شماله». وهذه حالة من ذكرنا، وقد وصفه رسول الله ﷺ بالقوّة وأن له منها أكثر مما ذكره من الأقوياء، فإن النفس مجبولة على حب الرياسة على جنسها هذا في أصل جبلتها وخلقها ومن قيل له اخرج عن جبلتك وطبعك فقد كلف أمراً عظيماً فسبحان من رزقهم من القوّة بحيث أن هان عليهم مثل هذا، وسبب ذلك أنه أعطاهم من المعرفة بالله التي خلقوا لها ما شغلهم الوفاء بحق العبودة عن مثل هذا، فهم على الطريقة المثلى التي اختارها الله لعباده ولهم المكانة الزلفى بثبوتهم عليها مكرمون عند الله، وهذا العارف الذي بهذه المثابة من الأفراد الذين أفردهم الحق إليه واختصهم له وأرخى الحجاب حجاب العادة بينهم وبين الخلق فاستخلصهم لنفسه ورضي عنهم ورضوا عنه، وأعطى صاحب هذا المقام من القوى المؤثرة في العالم الأعلى والأسفل ألفاً ومائتي قوّة، قوّة واحدة منها لو سلطها على الكون أعدمته، ومع هذا التمكن من هذه القوى إذا نزل الذباب عليه لا يقدر على إزالته حياء من الله ومعرفة، فأما المعرفة التي له فيه فإن ذلك الذباب رسول من الحق إليه وهو الذي أنزله عليه فهو يراقب ما جاءه به من العلم، فإذا فرغ من رسالته، إن شاء نهض إن استدعاه خالقه وإن شاء أقام فيكون هذا العارف كرسيّ ذلك الرسول الذبابيّ، فهذا سبب تركه إياه ولا يشرده عن نفسه كما تفعله العامة للمعرفة، . وأما الحياء من الله فإن

في إزالة الذباب راحة للنفس ونعيماً معجلاً وما خلق الله الإنسان في هذه الدار للراحة والنعيم وإنما خلق لعبادة ربه فيستحي أن يراه الله في طلب الراحة من أذى الذباب حيث أن الموطن لا يقتضيه.

فإن قلت: فالمتنعم في الدنيا المباح له التنعم في الحلال؟ قلنا: لا نمنع ذلك في حق غير العارف ولكن العارف تحت سلطان التكليف، فما من نعمة ينعم الله بها عليه باطنة كانت أو ظاهرة إلا والتكليف من الله بالشكر عليها يصحبها، فذلك التكليف ينغص على العارف التنعم بتلك النعمة لاشتغاله بموازنة الشكر عليها، وإذا وفى الشكر عليها فالوفاء به نعمة من الله عليه يجب عليه الشكر عليها، فلا يزال متعوب الخاطر في إقامة الوزن بالقسط أن لا يخسر الميزان، ومن هذه حالته كيف ينعم؟ فظاهرها نعمة وباطنها غصص، وهو لا يبرح يتقلب في نعم الله ظاهراً وباطناً ولا تؤثر عنده إلا ألماً وتنغيصاً، والعامة تفرح بتلك النعم وتتصرّف فيها أشراً وبطراً، والعارف مسدود عليه في الدنيا باب الراحة في قبله، وإن استراح في ظاهره فهو يموت في كل نفس ألف موتة ولا يشعر به، يقول عمر بن الخطاب: «ما ابتلاني الله بمصيبة إلا رأيت لله عليّ فيها ثلاث نعم: إحداها: أن لم تكن في ديني، الثانية: حيث لم تكن أكبر منها، الثالثة: ما وعد الله عليها من الثواب». ومن كان في مصيبة واحدة يرى ثلاث نعم فقد انتقل ألى مصيبة أعظم من تلك المصيبة، فإنه يتعين عليه إقامة ميزان الشكر على ثلاث نعم فابتلاه الله بمصيبة واحدة ليصبر عليها، وابتلته معرفته في تلك المصيبة بثلاث مصائب كلفه الله الشكر عليها حيث أعلمه بتلك النعم في تلك المصيبة الواحدة، فانظر إلى معرفة عمر رضي الله عنه كيف أوجب على نفسه مثل هذا، وانظر إلى ما فيها من الأدب حيث عدل عن النظر فيها من كونها مصيبة إلى رؤية النعم فتلقاها بالقبول لأن النعمة محبوبة لذاتها فرضي، فكان له مقام الرضا والاستسلام والتفويض والصبر والاعتماد على الله، وأين الناس من هذا الذوق الشريف. ولم يحكم أحد من الأولياء ولا قام فيه مثل هذا المقام مثل أبي بكر الصدّيق إلا من لا أعرفه فإنه رضي الله عنه ما ظهر قط عليه مما كان عليه في باطنه من المعرفة شيء لقوته إلا يوم مات رسول الله ﷺ وذهلت الجماعة وقالوا ما حكي عنهم؛ إلا الصديق فإن الله تعالى وفقه لإظهار القوة التي أعطاه لكون الله أهله دون الجماعة للإمامة والتقدم، والإمام لا بد أن يكون صاحياً لا يكون سكران، فقامت له تلك القوّة في الدلالة على أن الله قد جعله مقدم الجماعة في الخلافة عن رسول الله ﷺ في أمته كالمعجزة للنبي ﷺ في الدلالة على نبوّته فلم يتقدم ولا حصل الأمر إلا له عن طوع من جماعة وكره من آخرين، وذلك ليس نقصاً في إمامته كراهة من كره فإن ذلك هو المقام الإلهيّ والله يقول: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] فإذا كان الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء يسجد له كرهاً فكيف حال خليفته ونائبه في خلقه وهم الرسل؟ فكيف حال أبي بكر وغيره؟ فلا بد من طائع وكاره يدخل في الأمر على كره لشبهة تقوم عنده إذا كان ذا دين أو هوى نفس إذا لم يكن له دين، فأما من كره إمامته من الصحابة رضي الله عنهم فما كان عن هوى نفس نحاشيهم من ذلك على

طريق حسن الظنّ بالجماعة، ولكن كان لشبهة قامت عندهم رأى من رأى ذلك أنه أحق بها منه في رأيه وما أعطته شبهته لا في علم الله، فإن الله قد سبق علمه بأن يجعله خليفة في الأرض، وكذلك عمر وعثمان وعليّ والحسن، ولو تقدم غير أبي بكر لمات أبو بكر في خلافة من تقدمه، ولا بد في علم الله أن يكون خليفة فتقدمهم بالزمان بأنه أوّلهم لحوقاً بالآخرة، فكان سبب هذا الترتيب في الخلافة ترتيب أعمارهم، فلا بد أن يتأخر عنها من يتأخر مفارقته للدنيا ليلي الجميع ذلك المنصب، وفضل بعضهم على بعض مصروف إلى الله هو العالم بمنازلهم عنده، فإن المخلوق ما يعلم ما في نفس الخالق إلا ما يعلمه به الخالق سبحانه، وما أعلم بشيء من ذلك فلا يعلم ما في نفسه إلا إذا أوجد أمراً علمنا أنه لولا ما سبق في علم الله كونه ما كان، فالله يعصمنا من الفضول إنه ذو الفضل العظيم. فبهذا قد أبنت لك منزلة العارف من هذا المنزل على غاية الاختصار بطريق التنبيه والإيماء، فإن المقام عظيم فيه تفاصيل عجيبة فلنذكر فهرست ما يتضمنه هذا المنزل من العلوم:

فمن ذلك علم ذهاب النور الأعظم وبقاء حكمه وهو من أعجب الأشياء وجود الحكم مع عدم عين الحاكم، ويتعلق بهذه المسألة فقد النبي ﷺ وبقاء شريعته في المكلفين إلا في مذهب من يقول إن الشارع هو الله وهو موجود، وفيه علم طموس العلوم وما سببها، ومنها سبب عزل أهل المراتب من مراتبهم مع وجود الأهلية منهم ولماذا عزلوا وهم يستحقونها وهل يصح هذا العزل أم لا مع وجود الأهلية؟ وهل للسلطان عزل القاضي العادل إذا ولاه أو لا ينعزل في نفس الأمر إذا جار عليه السلطان وأخره عن الحكم؟ فإن حكم وهو بهذه المثابة هل ينفذ حكمه شرعاً أو لا ينفذ؟ وبعد أن يحكم وهو بهذه المثابة لشخص بأمر ما فيأبى السلطان إمضاءه ويطلب الخصم المحكوم عليه الرجوع إلى القاضي الذي ولاه السلطان فيظهر عند القاضي الثاني أن الحكم للذي كان الحكم عليه عند الأوّل هل لهذا المحكوم له عند القاضي الثاني أن يأخذ ما حكم له به مما كان قد انتزعه منه خصمه بالحاكم الأول أم لا؟ وهل يصح قضاء هذا الثاني أم لا؟ وإن صح فهل هو مستقل فيه كالأوّل أو هو كالنائب عن الأوّل إلا أنه بأمر سلطانيّ أو ينعزل الحاكم الأوّل إذا عزله السلطان من هذا المنزل يعرف ذلك؟ ومن أراد تحقيق هذه المسألة ودليلها فلينظر في النسخ الوارد في الشريعة الواحدة فيصح العزل، ومن نظر في حكم المشرّعين وأن الله ما عزل نبياً رسولاً عن رسالته بغيره في تلك الأمة التي له إلا بعد موته قال لا ينعزل فهو على حسب ما يكشف له فافهم.

ومن علو هذا المنزل علم الجور في العالم من أيّ حضرة صدر وما ثم إلا العدل المحض فمن أين هذا الجور؟ وأيّ حقيقة ترتبط به؟ وأيّ اسم يدل عليه؟ وذهاب الرجال الذين يحفظ الله بهم العالم وعلم نزول الكلم والهمم على مراكب الأعمال لم كان ذلك؟ وعلم البعث الأخرويّ هل هو عام في كل حيوان أو خاص بالإنس والجان؟ وما معنى قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] وعلم الاستحالات العنصرية، وعلم ما يتولد عن تأليف الروح والجسم الطبيعيّ وهل الجسم للروح كالمرأة للبعل في النكاح لما يتولد بينهما أم لا؟

وهل الموت طلاق رجعيّ أو بائن؟ فإن العلماء قالوا: إن المرأة إذا ماتت كانت من زوجها كالأجنبية ولا بد فليس له أن يكشف عليها، وذهب آخرون إلى بقاء حرمة الزوجية فله أن يغسلها وحاله معها كحاله في حياتها، فإن كان رجعياً فإن الأرواح تردّ إلى أعيان هذه الأجسام من حيث جواهرها في البعث، وإن لم يكن رجعياً وكان بائناً فقد تردّ إليها ويختلف التأليف، وقد تنشأ لها أجسام أخر لأهل النعيم أصفى وأحسن ولأهل العذاب بالعكس، وعلم كلام الأطفال من أين ينطقون؟ ومن ينطقهم؟ مثل كلام عيسى في المهد، وصبيّ يوسف عليه السلام، وجريج.

وأما أنا فرأيت في زماننا شخصاً شاباً اسمه والله أعلم عبد القادر بمدرسة ابن رواحة بمدينة دمشق فجاء وسلم فأخبرني عنه جماعة منهم الزكيّ ابن رواحة صاحب المدرسة قالوا: إن أمّ هذا الشاب لما كانت حاملة به عطست فحمدت الله فقال لها من جوفها: يرحمك الله بصوت سمعه كل من حضر هنالك. وأما أنا فكانت لي بنت ترضع وكان عمرها دون السنتين وفوق السنة لا تتكلم فأخذت ألاعبها يوماً فقلت لها: يا زينب فأصغت إليّ فقلت لها: إني أريد أن أسالك عن مسألة مستفتياً ما قولك في رجل جامع امرأته ولم ينزل ماذا يجب عليه؟ قالت لي: يجب عليه الغسل بكلام فصيح وأمّها وجدّتها يسمعان فصرخت جدّتها وغشي عليها.

وعلم النشر بعد الطي كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] وعلم المحو والإثبات، وعلم تضاعف الأنوار، وعلم القرب الإلهية التي تعطي التجلي، وعلم الغيبة والحضور، وعلم النجوم، وعلم الزمان، وعلم تنزيل الشرائع وصفة من ينزل بها ومن تنزل عليه وهل هي من باب الاختصاص أم لا؟ وعلم التأييد والسلطان والنيابة عن الحق في العالم حتى الإنسان في نفسه، وعلم الكشف وما الحجاب الذي بين الناس وبين ما يكشفه هذا المكاشف وهل هو شرط في الطريق أم لا؟ وعلم رؤية الأرواح العلوية وعلامة الصدق فيمن يدعي رؤية الأرواح الصادق فيه من الكاذب، ولنا فيهم علامات تعرف من يصدق منهم ممن يكذب، وعلامات أخر لنا أيضاً في الصادق منهم إذا أخبر عمّا رأى هل هو مخبر عن الأرواح أنفسها أو عن خيالات قامت له فيتخيل أنه رأى الملك أو الجني وهو ما رأى إلا أمثلة في خياله قامت له لقوّة سلطان الخيال عليه خارجة عن وهمه، فلنا في مثل هؤلاء علامات فهو يصدق فيما يراه ويخطىء في الحكم أنه رأى ملكاً أو جاناً وذلك المرئي ليس بملك ولا جان، فهذا من خصائص علم هذا المنزل.

وعلم الوعيد ولماذا يرجع؟ ومن عارض القرآن من أين أتى عليه؟ كالحلاج حين دخل عليه عمرو بن عثمان المكي فقال له: يا حلاج ما تصنع؟ فقال: هو ذا أعارض القرآن، فدعا عليه فكانت المشيخة تقول: ما أصيب الحلاج إلا بدعاء هذا الشيخ عليه، وكالمهذب ثابت بن عنتر الحلوي لقيته بالموصل سنة إحدى وستمائة عارض القرآن وسمعته يتلو منه سوراً وكان في مزاجه اختلال إلا أنه كان من أزهد الناس وأشرفهم نفساً ومات في تلك السنة.

وفي هذا المنزل علم المشيئة المحدثة هل لها أثر في الأفعال كما تقوله الأشاعرة في مسألة الكسب أو لا أثر لها؟ وهل هي مظهر من مظاهر الحق أو تكون في وقت من مظاهر الحق وهي المشيئة التي ينفذ حكمها وفي أوقات لا تكون مظهر الحق فتكون قاصرة؟ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع وثلاثمائة

في معرفة منزل إيثار الغنى على الفقر من المقام الموسويّ وإيثار الفقر على الغنى من الحضرة العيسوية

[الوافر]

غِنَى نَفْسِ المُحَقّق مُسْتعارُ ... وفَقْرُ النفس ذُلٌّ وانْكِسَارُ
فلو أنّ الفقير يكونُ مَلْكاً ... لزار العالمين ولا يُزَارُ
ولو أن الغَنِيَّ يكونُ عَبْداً ... لكان له التَّقَدُّمُ والفَخَارُ
فحُكْمُ الجهل قد عَمَّ البرايا ... ولا تُدْرَى لحُكْمِ العلم دَارُ

ومن هذا المنزل أيضاً قولنا: [البسيط]

الكونُ أعمى لنَقْصٍ كَامِنٍ فيهِ ... والنُّورُ ليس به نَقْصٌ فيُخْفِيهِ
لك الكمالُ ولي ضدُّ الكمالِ لِذَا ... بيني وبينك وَعْدٌ ما نُوَفِّيهِ
قد قلت إنّك معروفٌ بمعرفتي ... وبَحْرُ جهلي عقلي مُغْرَقٌ فيه
هَبْني من الحال ما قد كُنْتُ فيه لكم ... لا لي فإنّ حجابي في تَجَلِّيهِ
إني لأعْجَبُ مني حين أُسْرِيَ بي ... وكيف أَثَّرَ قُرْبي في تَدَلِّيهِ
لولا دُنُوِّي لما قام التَّدَلُّلُ به ... وما أنا علَّةٌ فيما يُؤدّيهِ
فقُلْ لعلمك لا تفرحْ فما ظَفِرَتْ ... يداك إلا بجهل ظاهر فيه

ومن هذا المنزل أيضاً قولنا: [مخلع البسيط]

لولا دُنُوّي لما تَدَلَّى ... ولا تَدَانى ولا تَجَلَّى
فآبَ عنه وُجُودُ عَيْني ... وقد تعالى لما تَحَلَّى
فقُمْتُ في أرضه إماماً ... خليفةً سيِّداً مُعَلَّى
أحكُمُ فيه بحُكْم رَبِّي ... وَهْوَ عن العين ما تَخَلَّى
فعندما تَمَّ لي مرادي ... ناديتُ مولاي قال مَهْلاَ
خُذْني إلى ما خَرَجْتُ منه ... فقال أهلاً بكم وسَهْلاَ

اعلم وفقك الله تعالى أن الله سبحانه يغار لعبده المنكسر الفقير أشد مما يغار لنفسه، فإنه طلب من عباده أن يغاروا لله إذا انتهكت حرماته، غير أن غيرتك لله تعود محمدتها عليك، وغيرته عز وجل لك تعود محمدتها أيضاً عليك، لا عليه، فهو سبحانه وتعالى يثني

عليك بغيرته لك ويثني عليك بغيرتك له، فأنت المحمود على كل حال وبكل وجه، وهذا الفصل أرفع مقام يكون للعبد ليس وراءه مقام أصلاً، فينبغي للعبد أن يغار لنفسه في هذا المقام ولا بد فإن الله يغار له، فإذا حضر ملك مطاع نافذ الأمر وقد جاءك مع عظم مرتبته زائراً وجاءك فقير ضعيف في ذلك الوقت زائراً أيضاً، فليكن قبولك على الفقير وشغلك به إلى أن يفرغ من شأنه الذي جاء إليه، فإن تجلي الحق عند ذلك الفقير أعلى وأجل من تجليه في صورة ذلك الملك فإنك تعاين الحق في الملك المطاع تجلياً في غير موطنه اللائق به على غير وجه التنزيه الذي ينبغي له، أو أتى للعبد برتبة السيادة فإذا ظهر فيها وبها فقد أخل بها وأشكل الأمر على الأجانب فما عرفوا السيد من العبد إذا رأوه على صورته في مرتبته ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٨ ـ ٢٩] أي لا تأخذكم في الله لومة لائم، وكان سبب هذه الآية أن زعماء الكفار من المشركين كالأقرع بن حابس وأمثاله قالوا: ما يمنعنا من مجالسة محمد إلا مجالسته لهؤلاء الأعبد. يريدون بلالاً وخباب بن الأرت وغيرهما فكبر عليهم أن يجمعهم والأعبد مجلس واحد، وكان رسول الله ﷺ حريصاً على إيمان مثل هؤلاء فأمر أولئك الأعبد إذا رأوه مع هؤلاء الزعماء لا يقربوه إلى أن يفرغ من شأنهم، أو إذا أقبل الزعماء والأعبد عنده أن يخلو لهم المجلس، فأنزل الله هذه الآية غيرة لمقام العبودية والفقر أن يستهضم بصفة عز وتأله ظهر في غير محله، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا جالس هؤلاء الأعبد وأمثالهم لا يقوم حتى يكونوا هم الذين يقومون من عنده ولو أطالوا الجلوس، وكان يقول ﷺ: «**إِنَّ الله أَمَرَنِي أَنْ أَحْبِسَ نَفْسِي مَعَهُمْ**» فكان إذا أطالوا الجلوس معه يشير إليهم بعض الصحابة مثل أبي بكر وغيره أن يقوموا حتى يتسرح رسول الله ﷺ لبعض شؤونه، فهذا من غيرة الله لعبده الفقير المنكسر، وهو من أعظم دليل على شرف العبودة والإقامة عليها وهو المقام الذي ندعو له الناس، فإن جميع النفوس يكبر عندهم رب الجاه ورب المال لأن العزة والغنى لله تعالى، فحيثما تجلت هذه الصفة تواضع الناس وافتقروا إليها، ولا يفرقون بين ما هو عز وغنى ذاتيّ وبين ما هو منهما عرضيّ إلا بمجرّد مشاهدة هذه الصفة، ولهذا يعظم في عيون الناس من استغنى عنهم وزهد فيما في أيديهم، فترى الملوك على ما هم عليه من العزة والسلطان كالعبيد بين يدي الزهاد وذلك لغناهم بالله وعدم افتقارهم إليهم في عزهم وما في أيديهم من عرض الدنيا، فإذا التمس الفقير من الغنيّ بالمال شيئاً من عز أو مال سقط من عينه بقدر ذلك مع كونه يبادر لقضاء حاجته حتى لو وزنت مرتبته في قلب الملك قبل طلب تلك الحاجة ووزنتها بعد طلب الحاجة نقصت عنها بقدر ما طلب، فصفة الحق تعالى حيثما ظهرت محبوبة مطلوبة عند الناس الذين لا يفرقون بين ظهورها عند من يستحقها وبين ظهورها عند من لا يستحقها، ولو علم هذا الجاهل أن أفقر الناس إلى المال أكثرهم مالاً وذلك أن صاحب

الفقر المدقع محتاج بالضرورة إلى ما يسد به خلته فهو فقر ذاتيّ والغنيّ بالمال مع كثرة ماله بحيث لو قسمه على عمره وعمر بنيه وحفدته لكفاهم ومع هذا يترك أهله وولده ويسافر بماله ويخاطر به في البحار والأعداء وقطع المفازات إلى البلاد القاصية شرقاً وغرباً في اقتناء درهم زائد على ما عنده لشدة فقره إليه، وربما هلك في طلب هذه الزيادة وغرق ماله أو أخذ، وربما استؤسر في سفره أو قتل، ومع هذه المعضلات كلها لا يترك سفراً في طلب هذه الزيادة، فلولا جهله وشدة فقره ما خاطر بالأنفس في طلب الأخس، فالفقير الزاهد يرى أن هذا الغنيّ أفقر منه بكثير وهو في فقره مذموم، وأن هذا الزاهد لولا غناه بربه عن هذه الأعراض لكان أشد حرصاً في طلبها من التجار والملوك، ولنا في هذا المعنى أبيات منها: [مخلع البسيط]

بالمال يَنْقَادُ كُلُّ صَعْبٍ ... من عَالَمِ الأرض والسَّمَاءِ
يَحْسَبُهُ عَالَمٌ حجاباً ... لم يعرفوا لذَّةَ العَطَاءِ
لولا الذي في النفوسِ منه ... لم يُجِبِ اللهُ في دُعَاءِ
لا تَحْسَبِ المالَ ما تراهُ ... من عَسْجَدٍ مُشْرِقِ الرَّاءِ
بل هو ما كنتَ يا بُنَيْـ ... يَ به غَنِيًّا عن السَّواءِ
فكُنْ بِرَبِّ العلا غنيّاً ... وعَامِلِ الحَقَّ بالوَفَاءِ

ولنا فيه أيضاً من قصيدة: [الكامل]

المَالُ يُصْلِحُ كُلَّ شيء فَاسِدٍ ... وبه يَزُولُ عَنِ الجَواد عِثَارُهْ

وهذه طريقة أغفلها أهل طريقنا، ورأوا أن الغنى بالله تعالى من أعظم المراتب، وحجبهم ذلك عن التحقق بالتنبيه على الفقر إلى الله الذي هو صفتهم الحقيقية، فجعلوها في الغنى بالله بحكم التضمين لمحبتهم في الغنى الذي هو خروج عن صفتهم، والرجل إنما هو من عرف قدره وتحقق بصفته ولم يخرج عن موطنه وأبقى على نفسه خلعة ربه ولقبه واسمه الذي لقبه به وسماه فقال: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] فلرعونة النفس وجهالتها أرادت أن تشارك ربها في اسم الغنيّ، فرأت أن تتسمى بالغنى بالله وتتصف به حتى ينطلق عليها اسم الغنيّ وتخرج عن اسم الفقير، فانظر ما بين الرجلين، وما رأيت أحداً من أهل طريقنا أشار إلى ما ذكرناه أصلاً من غوائل النفوس المبطونة فيها إلا الله تعالى، فهو الذي نبه عباده عليها وبعد هذا فما سمعوا وتعاموا، وكم جهدت أن أرى لأحد في ذلك تنبيهاً عليه فما وجدت، وأسأل من الله تعالى أن لا يجعلنا ممن انفرد بها وأن يشاركنا فيها إخواننا من العارفين، وأما أصحابنا فإنهم أخذوها عنا وتحققوا بها في نفوسهم وما بقي عليهم فيها إلا التخلق بها وأن تكون صفتهم دائماً، ولكن بعد أن عرّفنا أولادنا فعرفوا هذه المرتبة وتنبهوا إلى ما جهل الناس من العارفين من ذلك فقد حصل لهم خير كثير منعهم هذا القدر أن يسيئوا الأدب مع الله تعالى. ومن إساءة الأدب في طريق الله تعالى وهو مما يستدرج الله به العارفين عزة الشيوخ على أتباعهم من المريدين بما افتقروا إليهم فيه من التربية وامتيازهم عنهم، فإن

الشيخ إذا لم يوف هذا المقام حقه يحجبه فقر المريد إليه عن فقره إلى ربه حالاً، ويكون مشهده عند ذلك غناه بالله، والغنى بالله يطلب العزة وحال المحقق صاحب هذا المقام إذا رأى المريدين يفتقرون إليه فيما عنده من الله شكر الله على ذلك حيث ألزم الله به فقراء إليه يثبتونه بصفة فقرهم إليه على فقره إليه الله تعالى، فإنه ربما لو لم يظهر صفة فقرهم إليه نسي فقره إلى الله تعالى، فهكذا هو حال الشيخ المحقق، فينظر هذا الشيخ المريدين المفتقرين إليه بعين من يثبته على طريقه لئلا تزل به القدم فيه، فهو كغريق وجد من يأخذ بيده كيف يكون حب ذلك الغريق فيه حيث أمسك عليه حياته فيرى هذا الشيخ حق المريد عليه أعظم من حقه على المريد، فالمريد هو شيخ الشيخ بالحال، والشيخ هو شيخ المريد بالقول والتربية، وإن كنت عاقلاً فقد نبهتك على الطريق الأنفس فاعمل عليه فما أبقيت لك في النصيحة. ولنا: [الخفيف]

أنا عَبْدٌ والذُّلُّ بالعَبْدِ أَوْلَى ... لا أُرَانِي للْعِزِّ بالحَقِّ أَهْلاَ

فانظروني فكلما قلتُ قولاً ... كان قَوْلِيَ حالاً وعقداً وفِعْلا

إنَّ غيري يقول إنِّيَ عَبْدٌ ... فإذا ما سَبَبْتُهُ قال مَهْلاَ

فيا أيها الولي الحميم لا تنسخ العلم بالظن، فأخسر الأخسرين من كانت حاله هذه عزة الإيمان أعلى وعزة الفقر أولى، فليكن شأنك تعظيم المؤمن الفقير على المؤمن الغني بماله العزيز بجاهه المحجوب عن نفسه، فإن الفقير المؤمن هو مجلى حقيقتك، وأنت مأمور بمشاهدة نفسك حذر الخروج عن طريقها، فالفقير المؤمن مرآتك ترى فيه نفسك، والمؤمن الغني بالمال عنك هو مرآة لك صدئت فلا ترى نفسك فيها فلا تعرف ما طرأ على وجهك من التغيير، فما عتب الله نبيه سدى بل أبان والله في ذلك عن أرفع طريق الهدى وزجر عن طريق الردى فقال كلا ردعاً وزجراً لحالة تحجبك عما ذكرته وقرّرته لك في هذه النصيحة فلا تعدل بالغنى والعزة مستحقهما وهو الله تعالى تكن من العلماء الكُمَّل الذين لم يدنسوا علمهم بغفلة ولا نسيان معذرة، وبعد أن أبنت لك عن الطريقة المثلى التي غاب عنها الرجال الذين شهد لهم بالكمال فاعلم أن الأحوال تملك الإنسان لا بد من ذلك، وإذا سمعت بشخص يملك الأحوال فإنه لا يملك حالاً ما إلا بحال آخر، فالحال الذي أوجب له ملك هذا الحال هو الحاكم عليه في الوقت فإن الوقت له، فإن بعض الناس غلط في هذه المسألة من أهل طريقنا، وجعلوا من الفروق بين الأنبياء عليهم السلام وبين الأولياء ملك الحال فقالوا الأنبياء يملكون الأحوال والأولياء تصرفهم الأحوال وهو غلط كبير من كل وجه، فإن الإنسان لا يخلو أبداً عن حال يكون عليه به يعامل وقته وهو الحاكم عليه.

واعلم أن الله قد قرّر في نفوس الأكابر من رجال الله تعظيم صفات الحق حيثما ظهرت، فإن ظهرت على من هي فيه بحكم العرض كان تعظيم هذا الرجل الولي لصفة الحق لا للمحل الظاهرة فيه، فإن غفل انحجب بالموصوف عن الصفة فعظمها من أجلها وينبغي أن لا يكون ذلك إلا فيمن ألبسه الحق إياها لا فيمن سرقها، فكان كلابس ثوبي زور كالمتشبع بما

لا يملك، وإذا عظم الولي صفة الحق إذا ظهرت له في شخص وبدت له صفته في شخص آخر أعرض عن صفته إعظاماً أن يعرض عن الحق بمشاهدة نفسه فلم يقصد إلا التعظيم، وينجر مع ذلك تعظيم المحل الذي ظهرت فيه صفة الحق وإن كان ليس مقصوداً للمعظم، ومع هذا فالذي نبهناك عليه أولى وأحق بالتقديم من هذا؛ وما أحسن قول النبي ﷺ حيث قال: «**أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ**» أو قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ**» ومنازل الناس والله معلومة، ولم يقل كل أحد منزلته وإنما قال الناس فالصفة التي تعمهم هي التي أمر النبي ﷺ أن ننزلهم فيها وهي التي ذكرناها ونبهناك عليها من الذلة والافتقار، وكل ما ورد في القرآن من وصف الإنسان بما ليس له بحقيقة فإنما هو في مقابلة أمر قد ادعاه من ليس من أهله فقوبل به من جنسه ليكون أنكى في حقه، قال في ذلك عبد الله بن أبيّ ابن سلول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فنخرج منها محمداً وأصحابه فجاء ولده فأخبر بذلك رسول الله ﷺ واستأذنه في قتل أبيه لما سمع الله يقول: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] وكان من المنافقين، فقال رسول الله ﷺ: «**مَا أُرِيدُ أَنْ يُتَحَدَّثَ بِأَنَّ مُحَمَّداً يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**» فأضاف الله العزة لرسوله وللمؤمنين في مقابلة دعوى المنافقين إياها فقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] لمن ينسبون العزة فكيف ينسبونها إلى غير الله من المؤمنين وما حظ الرسول والمؤمن منها، ولم يقل تعالى بإخراجهم وكذلك ما أخرجهم، بل هذا القائل لم يزل بالمدينة إلى أن مات ودفع لكفنه رسول الله ﷺ ثوبه جزاء ليد كانت له عند النبي ﷺ من جهة عمه العباس حين أسره في غزوة بدر فكساه هذا المنافق ثوبه فلم يبق للمنافق يوم القيامة مطالبة للنبي ﷺ. من أجل ذلك، إذا رأيت عارفاً قد وقع في مثل هذا فاعلم أنه ما قصد سوى تعظيم صفة الحق وتصغير نفسه، فإن كنت مثله في المقام أو أكبر منه فاذكره بما عرفتك به، وإذا كان هذا المقام لك وأنت شاهد له فبالضرورة تكون أكبر منه في تلك الحالة وإن كنت نازلاً عنه في غيرها، فعلى كل وجه ذكره، وإن كان حاله الإيمان في ذلك الوقت فإنه يقبل الذكرى، فإن انتهرك وقال لك لمثلي تقول هذا فاعلم أنه قد سقط من عين الله وقد حجبه الله عن عبوديته وعن الإيمان فاتركه فقد فعلت ما فرضه الله عليك وادع له فإن الله قد أعمى بصيرته عن سبيل الله.

واعلم أن هذه الصفة التي نبهتك عليها أعطتنا حالاً ومشاهدة من حضرة القدس فهي مقرّها ولا يتصف بها إلا من له عند الله أرفع المنازل، فإن كان رسولاً فأرفع المنازل في الرسالة، وإن كان نبياً فأرفع المنازل في النبوة، وإن كان ولياً فأرفع المنازل في الولاية، وإن كان مؤمناً فأرفع المنازل في الإيمان، وإن كان نصرانياً أو مجوسياً أو يهودياً أو معطلاً فهو في أرفع المنازل بها في صنفه وفي مقامه: [الكامل]

إنَّ الكبيرَ من الرجال هُو الَّذي ... لا يَدَّعِيهِ مُقَيَّداً ومُسَوَّدَا
ومُهَوَّداً ومُنَصَّراً ومُمَجَّساً ... ومُعَطِّلاً ومُشَرِّكاً ومُوَحِّدَا

ومُنَزِّهاً ومُشَبِّهاً ومُحَيِّزاً ومُمَكِّناً ومُرَوْحِناً ومُجَسِّدا
عَمَّتْ صفاتُ جلاله وجماله كُلَّ الأنام وكان حتى يُقْصَدَا
إن الغَيُورَ هو الذي لا يَنْثَني عن نفسه حَالَ الضلالة والهُدَى

وإن المحل الذي تقوم به هذه الصفة لا بد لصاحبها إن كان على أي ملة كان أو نحلة أن يرجع إلى دين الهدى ويسلم ويؤمن ويبادر إلى مكارم الأخلاق عن كشف محقق وعلم صحيح، فيكون أكمل الناس إيماناً وأعظمهم منزلة عند الله عارفاً بمنازل الرسل والأنبياء عليهم السلام وفضل بعضهم على بعض والأولياء والمؤمنين، فإن الصفة التي قادته إلى الإسلام أعظم الصفات عند الله قدراً في حق العبد، فتنزله المنازل العلية وترفعه في عليين ويتلقاه من الملائكة كل ملك كريم على الله محسن في عبادة ربه هو الذي ينزل إلى هذا العبد من عند الله للمناسبة التي بين هذا الملك وبينه فيأخذ بيده فيرفعه إلى منزل هذه الصفة في عليين، فلا يكون في صنفه أعلى منه منزلة إلا من عمل بعمله فإنه في درجته ومعه، ويكفي هذا القدر من هذا المنزل.

وأما ما يحوي عليه من المسائل والعلوم فعلم كفران النعم وتفاصيل الكفر وأين ينتهي كل كفر بصاحبه مثل كفر الآبق وتارك الصلاة والكافر ببعض ما أنزل الله وعلم البدو وعلم وضع الشرائع وعلم البرازخ وعلم البعث وعلم أقوات الأرض وأمر السموات وما يتولد بين السماء والأرض وبين توجهات الحق والكون وبين كل زوجين وعلم الإنسان والحيوان وعلم الساعة ولم سميت ساعة، وهل هي في كل لسان بهذا المعنى المفهوم من اسم الساعة أم لا؟ وهل للساعة صورة لها إدراك سمع وبصر وتميز أم لا؟ وعلم الصفات المقوّمة لكل مرتبة حتى يمتاز بها أهلها، وعلم الكتابين اللذين خرج بهما رسول الله ﷺ في يديه على أصحابه فقال ﷺ: «**إنَّ فِي الكِتَابِ الوَاحِدِ أَسْمَاءَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَأَسْمَاءَ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ، وَفِي الكِتَابِ الآخَرِ أَسْمَاء أَهْلِ النَّارِ وَأَسْمَاء آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ**» مع صغر حجم الكتابين وكثرة الأسماء، فيعلم من ذلك إيراد الكبير على الصغير من غير تصغير الكبير أو تكبير الصغير، وإلا فأي ديوان يحصر أسماء هؤلاء؟ ويعلم أن الأمر الذي يحيله العقل لا يستحيل نسبة إلهية، فتعلم أن الله قادر على المحال العقلي كإدخال الجمل في سم الخياط مع بقاء هذا على صغره وهذا على كبره، ويشاهد من هذا المنزل المقام الذي وراء طور العقل من حيث ما يستقل بإدراكه من كونه مفكراً، وإلا فعقل الأنبياء عليهم السلام والأولياء قبل هذا الأمر من كونه قابلاً لا من كونه ما ذكرناه، فللعقول حد تقف عنده وليس لله حد يقف عنده بل هو خالق الحدود فلا حد له سبحانه فهو القادر على الإطلاق. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس وثلاثمائة

في معرفة منزل ترادف الأحوال على قلوب الرجال من الحضرة المحمدية

[البسيط]:

حـقـائـقُ الـحَـقِّ بـالأسـمـاء والـحَـالِ تُـقَـلِّـبُ الـكَـوْنَ مـن حَـالٍ إلـى حَـالِ
ولـيـس يـدري بـه إلا الـقُـلُـوبُ ومـا لـلـعَـقْـلِ فـيـه مَـجَـالٌ دون إمْـلالِ
يـخالـفُ العَقْلُ تَقْلِيبَ الوُجُودِ فما لـلـعَـقْـلِ شـيءٌ سـوى قَـيْـدٍ وأغْـلالِ
فـالـعـقـلُ يـشـهـدُ ذاتـاً لا انـتـقـال لـهـا عـنـهـا وقـلـبُـك فـي تـقـلـيـب أحْـوَالِ
إنَّ الـمـظـاهـرَ تـقـلـيـبُ الإلـه لـنـا فـي نـفـسـه وَهْـوُ عـنـدي عـيـنُ إضْـلالِ

اعلم وفقك الله أن هذا المنزل يحوي على علوم كثيرة، منها علم القوّة وهو الرمي بالقوس والدخول فيه وعقد الأصابع على الوتر والسهم وكيفية الإطلاق وسداد السهم والمناضلة، فإن الله تعالى ما اعتنى بشيء من آلة الحرب ما اعتنى بعلم الرمي بالقوس وأقامه في هذا المنزل مرتب المنازل بالاسم القوي وأمرنا في القرآن بالاستعداد به فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فقال رسول الله ﷺ: **«ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ»** وجعله في هذا المنزل على أربع مراتب، وأشهدها أصحاب الأذواق لهذه المنازل لحكمة علمها أهلها ليعلم الإنسان كيف يصيب الفعل ويؤثر من غير مباشرة من الاسم البعيد عن هذا الوصف، ومن هذا العلم ينكشف لك سر القدر وكيف تحكم في الخلائق ولماذا يرجع أصله؟ ولا دليل عليه إلا الرمي بالقوس وهو روح ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] للإيجاد، وروح المشيئة للإعدام.

ويحوي هذا المنزل على علم الأرواح المدبرة للأجسام العلوية والسفلية وما حكمها في الأجسام النورية وأن حكمها فيها تشكلها في الصور خاصة، كما أن حكمها في الأجسام الحيوانية الإنسانية التشكل في القوّة الخيالية مع غير هذا من الأحكام، فإن الأجسام النورية لا خيال لها بل هي عين الخيال والصور تقلباتها عن أرواحها المدبرة لها وهو علم شريف، وكما لا يخلو خيال الإنسان عن صورة كذلك ذات الملك لا تخلو عن صورة وهو علم شريف يحوي على أسرار كثيرة، وبيد هذه الأرواح تعيين الأمور التي يريدها الحق بهذه الأجسام كلها، فالإنسان عالم بجميع الأمور الحقية فيه من حيث روحه المدبر وهو لا يعلم أنه يعلم فهو بمنزلة الساهي والناسي والأحوال تذكره والمقامات والمنازل، وقد قالها الحكيم في التقسيم الرباعي وهو الرجل الذي يدري ولا يدري أنه يدري فذلك الناسي فذكروه، وفي هذا المنزل علم الصيحتين اللتين بالواحدة منهما يصعق العالم أصحاب السماع وبالأخرى يفيقون فيفزعون إلى ربهم تسمى نفخة البعث ونفخة الفزع، وفيه علم القلوب وسرعة تقليبها، وفيه علم البصيرة والبصر وما يتجلى لكل واحد منهما، وفيه علم الإعادة وكيفيته وماذا يرد منه وما لا يرد، وفيه علم الدور والكور وهل يكون ذلك في الصور أو في الأعيان الحاملة للصور؟

وفيه علم اختصاص القيومية بالتبديل، وفيه علم الكلام الإلهيّ المسموع بالأذن لا المسموع بالقلب في المواد الثواني، وفيه علم الكبرياء الموجود في الثقلين خاصة ولما اختص بهما دون سائر الموجودات وما الحقيقة التي أعطتهما ذلك؟ وهل هو في الجنّ كما هو في الإنس؟ أو يختلف السبب فيكون سببه في الإنسان وجوده على الصورة الكاملة، ويكون في الجنّ كونه من نار وعلى من تكبر الإنسان وعلى من تكبر الجان، وفيه علم ما يزول به هذا الكبرياء من العالمين، وفيه علم الإعجاز وتفاضل الأمر المعجز وما يبقى منه وما لا يبقى، وهل له حد ينتهي إليه أم لا؟ ولماذا يرجع هل إلى الصرف أم لغير الصرف؟ فإن كان إلى الصرف فهل إذا انقضى زمان الدعوى في عين ذلك الفعل وانفصل المجلس هل يقدر المنازع على الإتيان بذلك؟ وإذا أتى هل يقدح في الدعوى الأولى من المتحدي أم لا يقدح؟ وفيه ما السبب المانع من الرجوع إلى الحق بعد العلم به؟ وهل ذلك علم أو ليس بعلم؟ وفيه علم ما يفرّ إليه الفار مما يهوله وإلى أين يفر مع علمه بأن الذي يفرّ إليه منه يفرّ فماذا يحركه ويدعوه إلى الفرار مع هذا العلم، وفيه علم الاعتبار ومن أهله ولماذا وضعه الله في العالم وأمر به وما المطلوب منه؟ وفيه علم الخلق ولماذا خلق هل من أجل الإنسان أو من أجل الحيوان أو من أجلهما؟ لو فيه علم الآخرة وما فيها في الموقف، وعلم الجنة والنار، وعلم الصفات التي تطلب كل واحدة منهما وفيه إباحة التشريع للإنسان بالأمر والنهي في نفسه لا في غيره، وأنه إن خالف ما تأمر به نفسه أو تنهى عوقب أو غفر له مثل ما هو حكم الشارع ومن أي حضرة صح له ذلك؟ وهل لها ذوق في النبوّة أو هي نبوّة خاصة لا نبوّة الأنبياء المحجورة؟ وفيه علم منتهى القيامة، وفيه علم طي الزمان. فهذا جميع ما يتضمنه هذا المنزل من أجناس العلوم وتحت كل جنس من العلوم وأنواعها على حسب ما تعطيها تقاسيم كل جنس ونوع منها، فلنذكر منها مسألة واحدة أو ما تيسر كما عملنا في كل منزل، والله المؤيد والعاصم لا رب غيره:

فمن الأحوال التي يتضمنها هذا المنزل حال الإنسان قبل أخذ الميثاق عليه وهو الحال الذي كان فيها ﷺ حين عرّف بنبوّته قبل خلق آدم عليه السلام، وقد ورد ذلك في الخبر عنه ﷺ: فقال: «**كُنْتُ نَبِياً وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ**» فكان له التعريف في تلك الحالة، وذلك أن هذه النشأة الإنسانية كانت مبثوثة في العناصر ومراتبها إلى حين موتها التي يكون عليها في وجود أعيان أجسامها معلومة معينة في الأمر المودع في السموات لكل حالة من أحواله التي تتقلب فيها في الدنيا صورة في الفلك على تلك الحالة قد أخذ الله بأبصار الملائكة عن شهودها مكتنفة عند الله في غيبه معينة له سبحانه لا تعلم السموات بها مع كونها فيها، وقد جعل الله وجود عينها في عالم الدنيا في حركات تلك الأفلاك، فمن الناس من أعطي في ذلك الموطن شهود نفسه ومرتبته، إما على غاياتها بكمالها، وإمّا يشهد صورة مّا من صوره وهو عين تلك المرتبة له في الحياة الدنيا فيعلمها فيحكم على نفسه بها، وهنا شاهد رسول الله ﷺ نبوّته ولا ندري هل شهد صورة جميع أحواله أم لا؟ فالله أعلم، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ [فصلت: ١٢] وهذا من أمرها، وشأنها حفظ هذه الصور إلى وصول وقتها فتعطيها

مراتبها في الحياة الدنيا تلك الصورة الفلكية من غير أن تفقد منها ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يسٓ: ٣٨]. وهذه الصور كلها موجودة في الأفلاك التسعة وجود الصورة الواحدة في المرايا الكثيرة المختلفة الأشكال من طول وعرض واستقامة وتعويج واستدارة وتربيع وتثليث وصغر وكبر، فتختلف صور الأشكال باختلاف المجلى والعين واحدة، فتلك صور المراتب حكمت على تلك العين كما حكمت أشكل المرايا على الصورة، فالعارف من عرف ذاته لذاته من غير مجلى، وإن كان بهذه المثابة لم تؤثر فيه المراتب إذا نالها كما قال ﷺ وهو في المرتبة العليا: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخْرَ**» فلم تحكم فيه المرتبة، وقال في كل وقت وهو في مرتبة الرسالة والخلافة: «**إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**» فلم تحجبه المرتبة عن معرفة نشأته، وسبب ذلك أنه رأى لطيفته ناظرة إلى مركبها العنصريّ وهو متبدد فيها فشاهد ذاته العنصرية فعلم أنها تحت قوّة الأفلاك العلوية ورأى المشاركة بينها وبين سائر الخلق الإنسانيّ والحيوان والنبات والمعادن فلم ير لنفسه من حيث نشأته العنصرية فضلاً على كل من تولد منها وأنه مثل لهم وهم أمثال له فقال: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**» ثم رأى افتقاره إلى ما تقوم به نشأته من الغذاء الطبيعيّ كسائر المخلوقات الطبيعية فعرف نفسه فقال: «**يَا أَبَا بَكْرٍ ما أَخْرَجَكَ؟**» قال: الجوع، قال: «**وَأَنَا أَخْرَجَنِي الجُوعُ**» فكشف عن حجرين قد وضعهما على بطنه يشد بهما أمعاءه وكان يتعوذ من الجوع ويقول: إنه بئس الضجيع ﷺ فقد عرفت أن قوله ﷺ: «**كُنْتُ نَبِيّاً وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ**» إنما كان هذا القول بلسان تلك الصورة التي فيها من جملة صور المراتب، فترجم لنا في هذه الدار عن تلك الصورة. فهذا من أحوال الخلق.

ولنا صور أيضاً فوق هذا لم نذكرها لأنه ليس لنا استرواح من قول شارع ولا من دليل عقلي نركن إليه في تعريفنا إياك بها فسكتنا عنها، وإلا فلنا صورة في الكرسي، وصورة في العرش، وصورة في الهيولى، وصورة في الطبيعة، وصورة في النفس، وصورة في العقل وهو المعبر عنهما باللوح والقلم، وصورة في العماء، وصورة في العدم، وكل ذلك معلوم مرئيّ مبصر لله تعالى، وهو الذي يتوجه عليه خطاب الله إذا أراد إيجاد مجموعنا في الدنيا بكن فنبادر ونجيب إلى الخروج من حضرة العدم إلى حضرة الوجود فينصبغ بالوجود وهو قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨] أي أذلاء خاضعون، ونحن في كل ما ذكرنا لنا حال نتميز به في ذلك المقام وحالنا هو عين صورتنا فيه، فما أوسع ملك الله وما أعظمه، وكل ما ذكرناه في جنب الله كلا شيء.

ومن الأحوال أيضاً التي ترد على قلوبنا حال كوننا في الميثاق الذي أخذه ربنا علينا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أنت ربنا فلولاك ما كان لنا وجود في صورة آدم العنصرية معينين مرئيين متميزين عند الله في علمه ورؤيته، وعندنا ما قلنا بلى أنت ربنا فأخلصنا له التوجه، وكيف لا نخلص ونحن في قبضته مشاهدة عين محصورين، والله بكلّ شيء محيط. فاعلم أن آدم عليه السلام لما أوجده الله وسواه كما سوّى الأفلاك وجميع الحضرات التي ذكرنا جعل لنا في

صورته صوراً مثل ما فعل فيما تقدم من المخلوقات ثم قبض على تلك الصور المعينة في ظهر آدم وآدم لا يعرف ما يحوي عليه، كما أنه كل صورة لنا في كل فلك ومقام لا يعرف بها ذلك الفلك ولا ذلك المقام وأنه للحق في كل صورة لنا وجه خاص إليه من ذلك الوجه يخاطبنا، ومن ذلك الوجه نرد عليه، ومن ذلك الوجه نقر بربوبيته، فلو أخذنا من بين يدي آدم لعلمنا فكان الأخذ من ظهره إذ كان ظهره غيباً له، وأخذه أيضاً معنا في هذا الميثاق من ظهره، فإن له معنا صورة في صورته فشهد كما شهدنا ولا يعلم أنه أخذ منه أو ربما علم، فإنه ما نحن على يقين من أنه لم يعلم بأنه أخذ منه ولا بأنا أخذنا منه، ولكن لما رأينا أن الحضرات التي تقدمته لا تعلم بصورنا فيها قلنا: ربما يكون الأمر هنا كذلك فرحم الله عبداً وقف على علم ذلك أنه علم آدم أو لم يعلم فليحق ذلك في هذا الموضع من هذا الكتاب، فإن بعد عن فهمك ما ذكرناه من تعداد الصور فقد ورد في الخبر المشهور الحسن الغريب: أَنَّ الله تَجَلَّى لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ وَيَدَاهُ مَقْبُوضَتَانِ فَقَالَ لَهُ: يَا آدَمُ اخْتَرْ أَيَّتَهُمَا شِئْتَ، فَقَالَ: اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي وَكِلْتا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ قَالَ: فَبَسَطها فَإِذَا آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ فَنَظَرَ إلى شَخْصٍ مِنْ أَضْوَئِهِمْ أَوْ أَضْوَئِهِمْ فَقَالَ: مَنْ هٰذا يَا رَبِّ؟ فَقَالَ الله لَهُ: هذا ابنك داود، فقال: يا رب كم كتبت له؟ فقال: أربعين سنة، فقال: يا رب وكم كتبت لي؟ فقال الله: ألف سنة، فقال: يا رَبِّ فَقَدْ أَعْطَيْتُهُ مِنْ عُمْرِي سِتِّينَ سَنَةً، قالَ الله لَهُ: أنتَ وذاكَ فما زالَ يعدُّ لِنَفْسِهِ حَتَّى بَلَغَ تسعمائةٍ وأربعينَ سنة فجاءه مَلَكُ المَوْتِ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ فقالَ له آدمُ: إنه بقيَ لي ستونَ سنةً فأوْحَى الله إلى آدمَ: يا آدمُ إنَّكَ وَهَبْتَهَا لابنكَ دَاوِدَ فَجَحَدَ آدمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ قال رسول الله ﷺ: «**فَمِنْ ذٰلِكَ اليَوْم أُمِرَ بِالكِتَابِ وَالشُّهُودِ**» فهذا آدم وذريته صور قائمة في يمين الحق، وهذا آدم خارج عن تلك اليد وهو يبصر صورته وصور ذريته في يد الحق فما لك تقرّ به في هذا الموضع وتنكره علينا؟ فلو كان هذا محالاً لنفسه لم يكن واقعاً ولا جائزاً بالنسبة إذ الحقائق لا تتبدل فاعلم ذلك، وأكثر من هذا التأنيس ما أقدر لك عليه فلا تكن ممن قال الله فيهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] وأخذ الله الصور من ظهر آدم وآدم فيهم وأشهدهم على أنفسهم بمحضر من الملأ الأعلى والصور التي لهم في كل مجلى: ألست بربكم؟ قالوا بلى، فشهد على نطقهم من حضر ممن ذكرنا بالإقرار بربوبيته عليهم وعبوديتهم له، فلو كان له شريك فيهم لما أقرّوا بالملك له مطلقاً، فإن ذلك موضع حق من أجل الشهادة، فنفس إطلاقهم بالملك له بأنه ربهم هو عين نفي الشريك، وإنما قلنا ذلك لأنه لم يجر للتوحيد هنا لفظ أصلاً ولكن المعنى يعطيه.

ولما كان الموت سبباً لتفريق المجموع وفصل الاتصالات وشتات الشمل سمي التفريق الذي هو بهذه المثابة موتاً فقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أي كنتم متفرّقين في كل جزء من عالم الطبيعة فجمعكم وأحياكم ثم يميتكم أي يردكم متفرقين أرواحكم مفارقة لصور أجسامكم، ثم يحييكم الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] بعد مفارقة الدنيا وأن الله سيذكر عباده يوم القيامة بما

شهدوا به على أنفسهم في أخذ الميثاق فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [غافر: ١١] أي كما قبلنا حياة بعد موت وموتاً بعد حياة مرتين فليس بمحال أن نقبل ذلك مراراً، فطلبوا من الله أن يمن عليهم بالرجوع إلى الدنيا ليعملوا ما يورثهم دار النعيم، وحين قالوا هذا لم يكن الأمد المقدر لعذابهم قد انقضى، ولما قدر الله أن يكونوا أهلاً للنار وأنه ليس لهم في علم الله دار يعمرونها سوى النار قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] حتى يدخلوا النار باستحقاق المخالفة إلى أن يظهر سبق الرحمة الغضب فيمكثون في النار مخلدين لا يخرجون منها أبداً على الحالة التي قد شاءها الله أن يقيمهم عليها، وفيها يرد الله الذرية إلى أصلاب الآباء إلى أن يخرجهم الله إلى الحياة الدنيا على تلك الفطرة، فكانت الأصلاب قبورهم إلى يوم يبعثون من بطون أمهاتهم ومن ضلع آبائهم في الحياة الدنيا، ثم يموت منهم من شاء الله أن يموت، ثم يبعث يوم القيامة كما وعد. واختلف أصحابنا في الإعادة هل تكون على صورة ما أوجدنا في الدنيا من التناسل شخصاً عن شخص كما قال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] بجماع وحمل وولادة في آن واحد للجميع وهو مذهب أبي القاسم بن قسي، أو يعودون روحاً إلى جسم وهو مذهب الجماعة؟ والله أعلم.

واعلم أن من الأحوال التي هي أمهات في هذا الباب فإن تفاصيل الأحوال لا تحصى كثرة ولكن نذكر منها الأحوال التي تجري مجرى الأمهات:

فمنها أحوال الفطرة التي فطر الله الخلق عليها وهو أن لا يعبدوا إلا الله فبقوا على تلك الفطرة في توحيد الله، فما جعلوا مع الله مسمى آخر هو الله بل جعلوا آلهة على طريق القربة إلى الله ولهذا قال: ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ﴾ [الرعد: ٣٣] فإنهم إذا سموهم بان أنهم ما عبدوا إلا الله، فما عبد كل عابد إلا الله في المحل الذي نسب الألوهية له فصح بقاء التوحيد لله الذي أقرّوا به في الميثاق وأن الفطرة مستصحبة، والسبب في نسبة الألوهية لهذه الصور المعبودة هو أن الحق لما تجلى لهم في أخذ الميثاق تجلى لهم في مظهر من المظاهر الإلهية فذلك الذي أجرأهم على أن يعبدوه في الصور، ومن قوة بقائهم على الفطرة أنهم ما عبدوه على الحقيقة في الصور وإنما عبدوا الصور لما تخيلوا فيها من رتبة التقريب كالشفعاء، وهاتان الحقيقتان إليهما مآل الخلق في الدار الآخرة وهما الشفاعة والتجلي في الصور على طريق التحوّل، فإذا تمكنت هذه الحالة في قلب الرجل وعرف من العلم الإلهيّ ما الذي دعا هؤلاء الذين صفتهم هذا وأنهم تحت قهر ما إليه يؤولون تضرعوا إلى الله في الدياجي وتملقوا له في حقهم وسألوه أن يدخلهم في رحمته إذا أخذت منهم النقمة حدها وإن كانوا عمار تلك الدار فليجعل لهم فيها نعيماً به، إذ كانوا من جملة الأشياء التي وسعتهم الرحمة العامة، وحاشا الجناب الإلهيّ من التقييد وهو القائل بأن رحمته سبقت غضبه فلحق الغضب بالعدم، وإن كان شيئاً فهو تحت إحاطة الرحمة الإلهية الواسعة، وقد قال ﷺ: «**إنَّ الأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمْ وَسَلامُهُ تَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ إذا سُئِلُوا فِي الشَّفَاعَةِ إنَّ الله قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ**» وهذا من أرجى حديث يعتمد عليه في هذا الباب أيضاً، فإن اليوم الذي أشار إليه

الأنبياء هو يوم القيامة، ويوم القيامة هو يوم قيام الناس من قبورهم لرب العالمين، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] وفي ذلك اليوم يكون الغضب من الله على أهل الغضب، وأعطى حكم ذلك الغضب الأمر بدخول النار وحلول العذاب والانتقام من المشركين وغيرهم من القوم الذين يخرجون بالشفاعة والذين يخرجهم الرحمن كما ورد في الصحيح ويدخلهم الجنة إذ لم يكونوا من أهل النار الذين هم أهلها ولم يبق في النار إلا أهلها الذين هم أهلها، فعمّ الأمر بدخول النار كل من دخلها من أهلها ومن غير أهلها لذلك الغضب الإلهيّ الذي لن يغضب بعده مثله، فلو سرمد عليهم العذاب لكان ذلك عن غضب أعظم من غضب الأمر بدخولها وقد قالت الأنبياء: إن الله لا يغضب بعد ذلك مثل ذلك الغضب، ولم يكن حكمه مع عظم ذلك الغضب إلا الأمر بدخول النار، فلا بد من حكم الرحمة على الجميع، ويكفي من الشارع التعريف بقوله: «**وَأَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا**» ولم يقل أهل العذاب ولا يلزم من كان من أهل النار الذين يعمرونها أن يكونوا معذبينْ بها فإن أهلها وعمارها مالك وخزنتها وهم ملائكة وما فيها من الحشرات والحيات وغير ذلك منْ الحيوانات التي تبعث يوم القيامة ولا واحد منهم تكون النار عليه عذاباً، كذلك من يبقى فيها لا يموتون فيها ولا يحيون وكل من ألف موطنه كان به مسروراً وأشد العذاب مفارقة الوطن، فلو فارق النار أهلها لتعذبوا باغترابهم عما أهلوا له، وأن الله قد خلقهم على نشأة تألف ذلك الموطن فعمرت الداران وسبقت الرحمة الغضب ووسعت كل شيء جهنم ومن فيها والله أرحم الراحمين كما قال عن نفسه.

وقد وجدنا في نفوسنا ممن جبلهم الله على الرحمة أنهم يرحمون جميع عباد الله حتى لو حكمهم الله في خلقه لأزالوا صفة العذاب من العالم بما تمكن حكم الرحمة من قلوبهم وصاحب هذه الصفة أنا وأمثالي ونحن مخلوقون أصحاب أهواء وأغراض، وقد قال عن نفسه جل علاه إنه أرحم الراحمين فلا نشك أنه أرحم منا بخلقه، ونحن قد عرفنا من نفوسنا هذه المبالغة في الرحمة فكيف يتسرمد عليهم العذاب وهو بهذه الصفة العامة من الرحمة؟ إن الله أكرم من ذلك، ولا سيما وقد قام الدليل العقلي على أن الباري لا تنفعه الطاعات ولا تضره المخالفات، وأن كل شيء جَارٍ بقضائه وقدره وحكمه، وأن الخلق مجبورون في اختيارهم، وقد قام الدليل السمعيّ أن الله يقول في الصحيح: «يا عبادي» فأضافهم إلى نفسه، وما أضاف الله قط العباد لنفسه إلا من سبقت له الرحمة أن لا يؤبد عليهم الشقاء وإن دخلوا النار فقال: «**يا عِبادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمُ اجْتَمَعُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذلكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يا عِبادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمُ اجْتَمَعُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذلكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً**»، فقد أخبر بما دل عليه العقل أن الطاعات والمعاصي ملكه وأنه على ما هو عليه لا يتغير ولا يزيد ولا ينقص ملكه مما طرأ عليه وفيه فإن الكل مُلكه ومِلكه، ثم قال من تمام هذا الخبر الصحيح: «**يا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذلكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً**» الحديث، ولا شك أنه ما من أحد إلا وهو يكره ما يؤلمه طبعاً فما

من أحد إلا وقد سأله أن لا يؤلمه وأن يعطيه اللذة في الأشياء، ولا يقدح ما أومأنا إليه فيه قوله في الحديث إذا تعلق به المنازع في هذه المسألة إدخال لو في ذلك فإن السؤال من العالم في ذلك قد علم وقوعه بالضرورة من كل مخلوق، فإن الطبع يقتضيه والسؤال قد يكون قولاً وحالاً كبكاء الصغير الرضيع وإن لم يعقل عند وجود الألم الحسيّ بالوجع أو الألم النفسي بمخالفة الغرض إذا منع من الثدي، وقد أخذت المسألة حقها والأحوال التي ترد على قلوب الرجال لا تحصى كثرة، وقد أعطيناك منها في هذا الباب أنموذجاً وعلى هذا الأسلوب تكون الأحوال المنسوبة إلى الرجال. وأما الأحوال في نفوسها فلها الحكم العامّ في كل شيء ولها الوجود الدائم في كل شيء، ففعل الحال يسمى الدائم ويتعلق بالقديم والمحدث، قال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] فهذا من الحال إن كنت تعلم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى السفر العشرون من الفتوحات المكية.

[السفر الحادي والعشرون]

الباب السادس وثلاثمائة

في معرفة منزل اختصام الملأ الأعلى من الحضرة الموسوية

[البسيط]:

تَخَاصُمُ المَلإِ العُلْويِّ بُرْهَانُ ... مَعَ اعْتِرَاضٍ بَدا منهم ونِسْيَانُ
على تَنَاسُبِنا في أصل خِلْقَتِنَا ... في الطَّبْعِ وَهْوَ كمالٌ فيه نُقْصَانُ
أَنَّ الطبيعة دون النفس مَوْضِعُهَا ... فحُكْمُهَا في الهباء الكل جُثْمَانُ
وإنْ تولَّدَ عن روح وعن فَلَكٍ ... عَنَاصِرُ هي في الأبيات أَرْكَانُ
فكلُّ جسم لهُ رُوحٌ مُدَبِّرَةٌ ... مِنْ طَبْعِهِ فَهْوَ نَوَّامٌ وَيَقْظَانُ
وكُلّ جِسْم فإنَّ الطبعَ يحْكُمُه ... فالجسمُ والروحُ تَنُّورٌ وَبُرْكَانُ
فانْظُرْ ترى عَجَباً إذْ ليس يخرج عن ... حُكْم الطبيعة أملاك وإنسانُ
وما أنا قلتُ هذا بل أَتَتْكَ به ... الأنبياءُ وتوراةٌ وقرآنُ

وأما ما يتضمنه هذا المنزل من العلوم علم المقامات مقامات الملائكة من العالم ومرتبتهم، وهل يعلم ذلك هنا أو في الدار الآخرة؟ وعلم المقام الذي ظهر منه في العالم علم الخلاف الواقع في العالم والجدلي وما له من أحوال الأسماء الإلهية المعارضة كالغفار والمنتقم إذا طلب كل واحد منهما حكمه في العاصي وعلم الأرض ولأي سبب وجدت؟ وعلم الجبال وهل هي من الأرض أم لا؟ وهل وجدت دفعة أو كما ذهبت إليه الحكماء؟ وعلم النكاح الساري في العالم العقليّ والمعنوي والحسي والحيوانيّ وعلم النوم وهل هو في الجنة أم لا؟ وهل له حكم في العالم الإلهيّ؟ وعلم الليل والنهار واليوم والزمان، وعلم السموات، وعلم الشمس، وعلم المولدات، وعلم الغيوب، وعلم الآخرة وما يتعلق به من تفاصيله، وعلم الأسباب الأخروية، وعلم كلام الرحمن وهل ينسب إليه الكلام كما ينسب

إلى الاسم الله أم لا؟ وعلم السكتة العامّة، وعلم ما جاءت به الرسل من التعريفات لا من الأحكام، فهذه أمهات المسائل من العلوم التي يتضمنها هذا المنزل، فلنذكر منها ما يسر الله على لساني، والله المؤيد سبحانه والمعين وعليه أتوكل وبه أستعين:

يقول الله تعالى مخبراً عن نبيه ﷺ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [صَ: ٦٩] ولما قال النبيّ ﷺ في «أن اختصام الملأ الأعلى في الكفارات ونقل الأقدام إلى الصلاة في الجماعات وإسباغ الوضوء في المكاره والتعقيب في المساجد أثر الصلوات» فمعنى ذلك أيّ هذه الأعمال أفضل؟ ومعنى أفضل على وجهين: الواحد أيّ الأعمال أحب إلى الله من هذه الأعمال؟ والوجه الآخر: أي الأعمال أعظم درجة في الجنة للعامل بها؟ وأما أسرار هذه الأعمال فهي التي يطلبها هذا المنزل فاعلم ابتداء أن الملائكة عليهم السلام لو لم تكن الأنوار التي خلقت منها موجودة من الطبيعة مثل السّموات التي عمرتها هؤلاء الملائكة، فإنها كانت دخاناً والدخان والبخار من عالم الطبيعة، فالبخار غايته دون دائرة الزمهرير، وذلك أن الأبخرة، إنما تصعد بما فيها من الحرارة وتنزل عن الدخان بما فيها من الرطوبة، فإن الأبخرة عن الحرارة التي في الأرض فإن هذه العناصر مركبة من الطبائع الأربع غير أنه ما هي في كل واحد منها على الاعتدال فما غلب عليه برده ورطوبته سمي ماء، وكذلك ما بقي فالبخار من الخارج من الماء والأرض وإنما هو بما فيهما من الحرارة، وإنما علا الدخان فوق كرة الأثير لغلبة الحرارة واليبوسة عليه، لأن كمية الحرارة واليبس فيه أكثر من الرطوبة، ولذلك كانت السموات أجساماً شفافة، وخلق الله عمار كل فلك من طبيعة فلكه فلذلك كانت الملائكة من عالم الطبيعة ونعتوا بأنهم يختصمون والخصام لا يكون إلا فيمن ركب من الطبائع لما فيها من التضادّ، فلا بد فيمن يتكوّن عنها أن يكون على حكم الأصل، فالنور الذي خلقت منه الملائكة نور طبيعيّ فكانت الملائكة فيها الموافقة من وجه والمخالفة من وجه، فهذا سبب اختلاف الملأ الأعلى فيما يختصمون فيه. فلو أن الله يعلمهم بما هو الأفضل عنده من هذه الأعمال والأحب إليه ما تنازعوا، ولو أنهم يكشفون ارتباط درجات الجنان بهذه الأعمال لحكموا بالفضيلة للأعلى منها، وإنما الله سبحانه غيب عنهم ذلك، فهم في هذه المسألة بمنزلة علماء البشر إذا قعدوا في مجلس مناظرة فيما بينهم في مسألة من الحيض الذي لا نصيب لهم فيه، بخلاف المسائل التي لهم فيها نصيب، وإنما قلنا ذلك لأن الكفارات إنما هي لإحباط ما خالف فيه المكلف ربه من أوامره ونواهيه، والملائكة قد شهد الله لهم بالعصمة أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون به، وما بلغنا أن عندهم نهي، وإذا لم يعصوا وكانوا مطيعين فليس لهم في أعمال الكفارات قدم فهم يختصمون فيما لا قدم لهم فيه، وكذلك ما بقي من الأعمال التي لا قدم لهم فيها فهم مطهرون فلا يتطهرون فلا يتصفون في طهارتهم بالإسباغ والإبلاغ في ذلك وغير الإسباغ، وكذلك المشي إلى مساجد الجماعات لشهود الصلوات ليس لهم هذا العمل. فإن قلت: فإنهم يسعون إلى مجالس الذكر ويقول بعضهم لبعض: هلموا إلى بغيتكم فاعلم أن الذكر ما هو عين الصلاة، ونحن إنما نتكلم في

عمل خاص في الجماعة ليس لهم فيه دخول مثل ما لبني آدم فإنهم ليسوا على صور بني آدم بالذات وإنما لهم التشكل فيهم، وقد علم جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ الصلوات بالفعل وتلك من جبريل حكاية يحكيها للتعليم والتعريف بالأوقات، وأما التعقيب أثر الصلوات فإنما ذلك للمصلين على هذه الهيئة المخصوصة التي ليست للملائكة فما اختصموا في أمر هو صفتهم، فلهذا ضربنا مسألة الحيض مثلاً، وسبب ذلك أن الملائكة تدعو بني آدم في لماتها إلى العمل الصالح وترغبهم في الأفضل فلهذا اختصمت في الأفضل حتى تأمرهم به.

وبعد أن نبهناك على سبب الخصام فلنبين لك ما اختصموا فيه: فاعلم أن الكفارات إنما شرعت لتكون حجباً بين العبد وبين ما عرّض إليه نفسه من حلول البلايا بالمخالفات التي عملها مأموراً كان بذلك العمل أو منهياً عنه، فإذا جاء المنتقم بالبلاء المنزل الذي تطلبه هذه المخالفة وجدت هذه الأعمال قد سترته في ظهر جناحها واكتنفته وصارت عليه جنة ووقاية والاسم الغفار حاكم هذه الكفارات فلم يجد منفذاً فلم ينفذ فيه الوعيد لغلبة سلطان هذا العمل المسمى كفارة والكفر الستر، ومنه سمي الزراع كافراً لأنه يستر البذر في الأرض ويغطيه بالتراب، وقد أشار إلى ذلك ﷺ حيث قال في الزاني: «**إنَّ الإيمانَ يَخْرُجُ مِنْهُ حَتَّى يَصِيرَ عَلَيْهِ كَالظُّلَّةِ فَإذا أَقْلَعَ رَجَعَ إلَيْهِ الإيمانُ**» وذلك أن الزاني أو المخالف في حال الزنى يطلبه البلاء والعقوبة من الله إما في حال الزنى أو عقبه، فإن كان في حال الزنى فله من البلاء على قدر ما مضى منه، فإنه قد يطرأ عارض يمنعه من تمام الفعل وهو إنزال الماء أو خروج الذكر من الفرج فيجد الإيمان على الزاني كالظلة وهو حجاب قويّ فلا يستطيع النفوذ معه ولا الوصول إليه، فإذا كان الزاني في حال الزنى محفوظاً معصوماً من البلاء لشرف الإيمان في الدنيا فما ظنك به في الآخرة؟ فإنّ صولته في الآخرة أتم من حكمه في الدنيا، فالكفارات كلها جنن هذه مرتبتها لا تزيد عليها، وما زاد على ذلك من درجة في الجنة أو منزلة فهو ما خرج في ذلك العمل من حد كونه كفارة، والكفارة لا ترفع الدرجات وإنما هي عواصم من هذه القواصم.

وأما قوله «كفارات» جمع كفارة ببنية المبالغة إنباء بذلك على أنه لصورة العمل الواحد أنواع كثيرة من البلاء، وذلك لأن العمل يتضمن حركات مختلفة ولكل حركة بلاء خاص من عند الله، فيكون هذا العمل المكفر له في كل بلاء تطلبه المخالفة ستراً يستره به من الوصول إليه والتأثير فيه، فهو وإن كان مفرد اللفظ فهو متكثر في المعنى، وكذلك عمل الكفارة فهو واحد من حيث الاسم، وهو كثير من حيث أجزائه، فإن كان العمل لا يتجزى كالتوبة التي هي مكفرة فالبلاء الخاص الذي تدفعه هذه التوبة هو بلاء واحد لا تعداد فيه ولا كثرة، فإن الأمور الإلهية تجري على موازين إلٰهية قد وضعها الله في العالم ولا سيما في العقوبات فلا تطفيف فيها أصلاً، وإذا كان الشيء الواحد وإن لم يكن معصية كفارات مختلفة مثل الحاج يحلق رأسه لأذى يجده أو المتمتع أو المظاهر أو من حلف على يمين فرأى خيراً منها فإن مثل هذا له كفارات مختلفة أيّ عمل مكفر فعل سقط عنه الآخر فقام هذا العمل الواحد مقام ما بقي مما سقط عنه، فإن كانت اليمين غموساً فإن الكفارة فيه ككفارة سائر الخطايا فيتصوّر خطاب

الملائكة أي كفارات التخيير أولى بأن يفعل أو لماذا تكون كفارة وما عمل شيئاً تجب أو تتوجه فيه العقوبة حتى تكون هذه الكفارة تدفعه فعن أي شيء تستره، فالملأ الأعلى يختصمون في مثل هذا أيضاً، فالعالم صاحب الميزان ينظر في الذي وقع عليه اليمين، فيخرج من الكفارة المخير فيها ما يناسب ما حلف عليه ما لم يكن فيها فمن لم يجد وكذلك في الفداء وهذا كله مما يكون فيه النظر ويؤدّي إلى التنازع، فالظاهر من هذا الأمر أن الملائكة لهم نظر فكريّ يناسب خلقهم، ولهذا من الحقائق الإلهية قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [الرعد: ٢] ثم ختم الآية ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢] أي تثبتون على موازين الحكم. ومما يؤيد هذه الحالة قوله تعالى في الأخبار الإلهية: «**ما تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي**» الحديث، فوصف نفسه بالتردد الذي يوصف به المحدث من القوّة المفكرة وهو في الملائكة اختصامهم فيما ذكرنا، فإن كنت ذا فهم فانظر فيما دللنا به من الخبر الإلهي الصحيح.

وأما قوله في خصامهم في نقل الأقدام أو السعي إلى الجماعات له من الحقائق الإلهية: «**وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً وَمَنْ أَتَانِي يَسْعَى أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**» وقوله تعالى: «**وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**» وقوله: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا**» فافهم مناسبة هذه الصفة العملية من بني آدم من الحقائق الإلهية، فكلامهم في مثل هذه أي الحقائق الإلهية أقرب مناسبة لهذا الفعل فاختلفوا، وكذلك قوله: «إسباغ الوضوء على المكاره» له من الحقائق الإلهية قوله تعالى في الأخبار الإلهية في قبضه نسمة عبده المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته فوصف نفسه بأنه يكره، وكذلك من هذه الحقيقة يسبغ المؤمن الوضوء على كره منه من أجل شدة البرد فله الأجر أجر الكراهة من هذه الحقيقة الإلهية، وكذلك قوله فيما يختصمون فيه التعقيب وهو الجلوس في المسجد بعد الفراغ من الصلاة له من الحقائق الإلهية قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] وما تفرغ لنا إلا منّا قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] فالعبد إذا فرغ من الصلاة فقعد في المسجد يذكر ربه تعالى عقيب الصلاة، فانتقل من مناجاته في حالة ما إلى مناجاته في حالة غيرها في بيت واحد، فمن مقام ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ يكون له الميزان على هذا العمل، فقد ارتبطت هذه الأعمال بالحقائق الإلهية التي وقعت فيها المناظرة بين الملأ الأعلى وفيها تفاصيل يطول ذكرها من المناسبات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع وثلاثمائة
في معرفة منزل تنزُّل الملائكة على الموقف المحمدي من الحضرة الموسوية المحمدية

[الطويل]:

تَنَسَّمْتُ أرواحَ العلى حين هَبَّتِ ... ومَرَّتْ سُحَيْراً بالرياض فَنَمَّتِ
أفي عَالَمِ الأنفاس من هو مِثْلُنا ... وهل حُبُّهُمْ فيها كمثل مَحَبَّتي

فقال لسانُ الحَقِّ إنَّ مسيركم ... على السُّنَّةِ المُثْلَى دليلُ تَتِمَّتي
فأظهرتُ عنكم سِرَّ جُودي ونِقْمَتي ... وأخفيتُ فيكم سِرَّ علمي وحِكْمَتي
فمن كان ذا عين يرى ما جَلَوْتُهُ ... ومن كان أعْمَى فهو من أصل حِيرَتي
فكلُّ مقام فهو من عَيْنِ جُودِهِ ... وكلُّ كيان فهو من أصل نَشْأَتي

اعلم أيها الولي الحميم أن الله جعل من السماء إلى الأرض معارج على عدد الخلائق، وما في السموات موضع قدم إلا وهو معمور بملك يسبح الله ويذكره بما قد حد له من الذكر، ولله تعالى في الأرض من الملائكة مثل ذلك لا يصعدون إلى السماء أبداً وأهل السموات لا ينزلون إلى الأرض أبداً ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١] وأن لله تعالى أرواحاً من الملائكة الكرام مسخرة قد ولاهم الله تعالى وجعل بأيديهم ما أوحى الله في السموات من الأمور التي قد شاء سبحانه أن يجريها في عالم العناصر، وجعل سبحانه معارج الملائكة من الكرسي إلى السموات ينزلون بالأوامر الإلهية المخصوصة بأهل السموات وهي أمور فرقانية، وجعل من العرش إلى الكرسي معارج لملائكة ينزلون إلى الكرسي بالكلمة الواحدة غير منقسمة إلى الكرسي، فإذا وصلت الكلمة واحدة العين إلى الكرسي انفرقت فرقاً على قدر ما أراد الرحمن أن يجري منها في عالم الخلق والأمر، ومن النفس رقائق ممتدة إلى العرش منقسمة إلى فرقتين للقوّتين اللتين النفس عليهما وهو اللوح المحفوظ وهو ذو وجهين، وتلك الرقائق التي بين اللوح والعرش بمنزلة المعارج للملائكة والمعاني النازلة في تلك الرقائق كالملائكة، ومن النفس التي هي اللوح إلى العقل الذي هو القلم توجهات استفادة، ومن العقل إليها توجهات إفادة ذاتية لا اختيار له فيها، يحصل عن تلك التوجهات من العلوم للنفس بما يكون في الكون ما لا يحصى كثرة ومن العقل إلى الله افتقار ذاتي، ومن الله إلى العقل إمداد ذاتي عن تجلٍّ إرادي، فيعلم من علوم التفصيل في ذلك التجلي الإجمالي ما يزيده فقراً إلى فقره وعجزاً إلى عجزه لا ينفك ولا يبرح على هذه الحالة، فينزل الأمر الإلهيّ في ذلك التجلي الإرادي بالإمداد الذاتي إلى العقل، فيظهر في التوجهات العقلية إلى التوجهات النفسية ذلك الأمر الإلهي بصورة عقلية بعدما كان في صورة أسمائية، فاختلفت على ذلك الأمر الإلهيّ الصور بحسب الموطن الذي ينزل إليه فينصبغ في كل منزل صبغة، ثم ينزل ذلك الأمر الإلهي في الرقائق النفسية بصورة نفسية لها ظاهر وباطن وغيب وشهادة، فتتلقاه الرقائق الشوقية العرشية فتأخذه منها فينصبغ في العرش صورة عرشية فينزل في المعارج إلى الكرسي على أيدي الملائكة وهو واحد العين غير منقسم في عالم الخلق، وقد كان نزل من النفس إلى العرش منقسماً انقسام عالم الأمر، فلما انصبغ بأول عالم الخلق وهو العرش ظهر في وحدانيته الخلق وهو أول وحدانية الخلق، فهو من حيث الأمر منقسم ومن حيث الخلق واحد العين، كالصوت الخارج من الصدر إلى خارج الفم عين واحدة لا يظهر فيه كمية أصلاً فتقسمه المخارج إلى حروف متعدّدة تزيد على السبعين وهو عين ذلك الصوت الواحد، فينصبغ ذلك الأمر الإلهي في الكرسي بصورة غير الصورة التي كان عليها، وما من صورة

ينصبغ فيها ويظهر بها إلا والأخرى التي كان عليها مبطونة فيه لا تزول عنه، والأولى أبداً من كل صورة روح للصورة التي تظهر فيها من أول الأمر إلى آخر منزل تلك الروح تمدّ هذه الصورة الظاهرة فينزل الأمر الإلهيّ من الكرسي على معراجه، إلى السدرة إن كان لعالم السموات القصد، وإن كان لعالم الجنان لم ينزل من ذلك الموضع، وظهر سلطانه في الجنان بحسب ما نزل إليه إما في حورها أو في أشجارها أو في ولدانها أو حيث عين له من الجنان، فإذا نزل إلى السموات على معراجه نزلت معه ملائكة ذلك المقام النازل منه ومعه أقوى أنوار الكواكب لا تفارقه فتتلقاه ملائكة السدرة فتأخذه من الملائكة النازلة به، وترجع تلك الملائكة بما تعطيها ملائكة السدرة من الأمور الصاعدة من الأرض، فتأخذها وترجع بها وتبقى أرواح الكواكب معه، فإن كان فيه مما تحتاج الجنة إليه من جهة ما فيها من النبات أخذته من السدرة العلية وفروعها في كل دار في الجنة وهي شجرة النور، وإليها تنتهي حقائق الأشجار العلوية الجنانية والسفلية الأرضية وأصولها شجرة الزقوم، وفروع أصلها كل شجر مرّ وسموم في عالم العناصر، كما أن كل نبات طيب حلو المذاق فمن ظاهر السدرة في الدنيا والجنة، فهذه السدرة عمرت الدنيا والآخرة، فهي أصل النبات والنموّ في جميع الأجسام في الدنيا والجنة والنار، وعليها من النور والبهاء بحيث أن يعجز عن وصفها كل لسان من كل عالم. ثم إن الأمر الإلهيّ يتفرع في السدرة كما تتفرع أغصان الشجرة، ويظهر فيه صور الثمرات بحسب ما يمده من العالم الذي ينزل إليه وقد انصبغ بصورة السدرة، فينزل على المعراج إلى السماء الأولى فيتلقاه أهلها بالترحيب وحسن القبول والفرح، ويتلقاه من أرواح الأنبياء والخلق الذين قبضت أرواحهم بالموت وكان مقرها هنالك، وتتلقاهم الملائكة المخلوقة من همم العارفين في الأرض وتجد هنالك نهر الحياة يمشي إلى الجنة، فإن كان له عنده أمانة ولا بد منها في كل أمر إلهي فإن الأمر الإلهي يعم جميع الموجودات فيلقيه في ذلك النهر مثل ما أعطى السدرة فيجري به النهر إلى الجنان، وفي كل نهر يجده هنالك مما يمشي إلى الجنة، وهنالك يجد النيل والفرات فيلقي إليهما ما أودع الله عنده من الأمانة التي ينبغي أن تكون لهما فتنزل تلك البركة في النهرين إلى الأرض فإنهما من أنهار الأرض، ويأخذ أرواح الأنبياء وملائكة الهمم وعمار السماء الأولى منه ما بيده مما نزل به إليهم ويدخل البيت المعمور فيبتهج به وتسطع الأنوار في جوانبه، وتأتي الملائكة السبعون ألفاً الذين يدخلونه كل يوم ولا يعودون إليه أبداً وهم ملائكة قد خلقهم الله من قطرات ماء نهر الحياة فإن جبريل عليه السلام ينغمس في نهر الحياة كل يوم غمسة فيخرج فينتفض كما ينتفض الطائر فيقطر منه في ذلك الانتفاض سبعون ألف قطرة يخلق الله من كل قطرة ملكاً كما يخلق الإنسان من الماء في الرحم فيخلق سبعين ألف ملك من تلك السبعين ألف قطرة بسبعين ألف ملك الذين يدخلون البيت المعمور كل يوم، قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح في البيت المعمور: «**إِنَّهُ يَدْخُلُه كُلَّ يَوْم سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لا يَعُودُونَ إِلَيْهِ أَبَداً**» فانظر ما أوسع ملك الله. ثم ينصب المعراج من السماء الأولى إلى السماء الثانية فينزل فيه الأمر الإلهي وهو على صورة السماء الأولى فينصبغ بصورة

المعراج الذي ينزل فيه ومعه الملائكة الموكلون به من السماء الأولى ومعه أرواح البروج والكواكب الثابتة كلها وينزل معه ملك من قوّة كيوان لا بد من ذلك، فإذا وصل إلى السماء الثانية تلقته ملائكتها وما فيها من أرواح الخلائق المتوفين وملائكة الهمم وقوّة بهرام الذي في السماء الثانية فيعطيهم ما بيده لهم، وينزل إلى الثالثة وهو على صورة الثانية فينصبغ بصورة السلم الذي ينزل فيه والحال الحال مثل ما ذكرنا إلى أن ينتهي إلى السماء السابعة وهي السماء الدنيا، فإذا أدّى إليهم ما بيده لهم ومعه قوّة صاحب كل سماء فتحت أبواب السماء لنزوله ونزلت معه قوى جميع الكواكب الثوابت والسيارة وقوى الأفلاك وقوى الحركات الفلكية كلها وكل صورة انتقل عنها مبطونة فيه، فكل أمر إلهيّ ينزل فهو اسم إلهيّ عقلي نفسي عرشيّ كرسي، فهو مجموع صور كل ما مرّ عليه في طريقه فيخترق الكور ويؤثر في كل كرة بحسب ما تقبله طبيعتها إلى أن ينتهي إلى الأرض فيتجلى لقلوب الخلق فتقبله بحسب استعداداتها وقبولها متنوع، وذلك هو الخواطر التي تجدها الناس في قلوبهم، فبها يسعون وبها يشتهون وبها يتحركون طاعة كانت تلك الحركة أو معصية أو مباحة، فجميع حركات العالم من معدن ونبات وحيوان وإنسان وملك أرضي وسماوي، فمن ذلك التجلي الذي يكون من هذا الأمر الإلهيّ النازل إلى الأرض فيجد الناس في قلوبهم خواطر لا يعرفون أصلها وهذا هو أصلها ورسله إلى جميع ما في العالم الذي نزل إليه ما نزل معه من قوى الكواكب وحركات الأفلاك، فهؤلاء هم رسل هذا الأمر الإلهي إلى حقائق هؤلاء العالم، فتنمو به الناميات وتحيى به أمور ويموت به أمور، ويظهر التأثيرات العلوية والسفلية في كل عالم بتلك الرسل التي يرسلها في العالم هذا الأمر الإلهيّ فإنه كالملك فيهم، ولا يزال يعقبه أمر آخر ويعقب الآخر آخر في كل نفس بتقدير العزيز العليم، فإذا نفذ فيهم أمره وأراد الرجوع جاءته رسله من كل موجود بما ظهر من كل من بعثوا إليه صوراً قائمة فيلبسها ذلك الأمر الإلهيّ من قبيح وحسن ويرجع على معراجه من حيث جاء إلى أن يقف بين يدي ربه اسماً إلٰهياً ظاهراً بكل صورة فيقبل منها الحق ما شاء ويرد منها ما شاء على صاحبها في صور تناسبها، فجعل مقر تلك الصور حيث شاء من علمه فلا يزال تتابع الرسل إلى الأرض على هذه المعارج كما ذكرنا.

فلنذكر من ذلك حال أهل الله مع هذا الأمر الإلهي إذا نزل إليهم، وذلك أن المحقق من أهل الله يعاين نزوله وتخلفه في الجو في الكور إذا فارق السماء الدنيا نازلاً ثلاث سنين وحينئذ يظهر في الأرض فكل شيء يظهر في كل شيء في الأرض فعند انقضاء ثلاث سنين من نزوله من السماء في كل زمان فرد، ومن هنا ينطق أكثر أهل الكشف بالغيوب التي تظهر عنهم فإنهم يرونها قبل نزولها ويخبرون بما يكون منها في السنين المستقبلة، وما تعطيهم أرواح الكواكب وحركات الأفلاك النازلة في خدمة الأمر الإلهيّ، فإذا عرف المنجم كيف يأخذ من هذه الحركات ما فيها من الآثار أصاب الحكم، وكذلك الكاهن والعرافون إذا صدقوا وعرفوا ما يكون قبل كونه أي قبل ظهور أثر عينه في الأرض، وإلا فمن أين يكون في قوة الإنسان أن يعلم ما يحدث من حركات الأفلاك في مجاريها؟ ولكن التناسب الروحاني الذي بيننا وبين

أرواح الأفلاك العالمين بما تجري به في الخلق ينزل بصورتها التي اكتسبته من تلك الحركات والأنوار الكوكبية على أوزانها، فإن لها مقادير ما تخطىء وهمة هذا المنجم التعالمي وهمة هذا الكاهن قد انصبغت روحانيته بما توجهت إليه همته فوقعت المناسبة بينه وبين مطلوبه فأفاضت عليه روحانية المطلوب بما فيها في وقت نظره فحكم بالكوائن الطارئة في المستقبل. وأمّا العارفون فإنهم عرفوا أن لله وجهاً خاصاً في كل موجود فهم لا ينظرون أبداً إلى كل شيء من حيث أسبابه، وإنما ينظرون فيه من الوجه الذي لهم من الحق فينظر بعين حق فلا يخطىء أبداً، فإذا نزل الأمر الإلهيّ على قلب هذا العارف وقد لبس من الصور بحسب ما مر عليه من المنازل كما قررناه فأول صورة كان ظهر بها للعقل الأول صورة إلهية أسمائية وهي خلف هذه الصور كلها، وهذا العارف همه أبداً مصروف إلى الوجه الخاص الإلهيّ الذي في كل موجود بعين الوجه الخاص الإلهيّ الذي لهذا العارف المحقق، فينظر في ذلك الأمر من حيث الصورة الأولى الإلهية، ويترك الوسائط وينزل من تلك الصورة على جميع الصور من أعلى إلى أسفل، وفي كل صورة ما ينظر إليها إلا من حيث ذلك الوجه الخاص بها بوجهه الخاص به إلى أن ينتهي على جميع الصور، فيعرف من ذلك الأمر الإلهي جميع ما في العالم من العقل الأول إلى الأرض من الأسرار الإلهية حين يعلم الكاهن أو العراف، وأمثال هؤلاء ما يكون في العالم العنصري خاصة من الحوادث، ثم إن العارف يكسو ذلك الأمر الإلهي من حلل الأدب والحضور الإلهي في أخذه منه والنور والبهاء ما إذا صعد به الأمر الإلهي على معراجه تتعجب منه ملائكة السموات العلى فيباهي الله به ملائكته ويقول: هذا عبد جعل في الحضيض وفي أسفل سافلين بالنسبة إليكم فما أثر فيه منزله ولا حكم عليه موطنه ولا حجبته عني كثرة حجبه وخرق الكل ونظر إليّ وأخذ عني فكيف به لو كان مثلكم بلا حجب ظلمانية كثيفة عنصرية؟ فيقول السامعون المخاطبون: سبحانك ذلك فضلك تختص به من تشاء من عبادك منَّة منك ورحمة ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥] فلا يضاهي هذا العبد أحد من خلق الله إلا العقل الأوّل والملائكة المقربون المهيمون، وما ثم قلب بهذه المثابة من هذا العالم إلا قلوب الأفراد من رجال الله كالخضر وأمثاله وهم على قدم محمد ﷺ، فهذا قد ذكرنا يسيراً من صورة تنزل الملائكة على قلب المحمدي الواقف، ويتضمن هذا المنزل من العلوم علم الأرواح العلوية والأرواح البرزخية، وعلم ما يفتح الله به على الصادق في طلب العلم النافع، وعلم التمييز والترجيح، وعلم الإلقاء واللقاء والكتابة، وعلم القرآن، وعلم ما يكون وعلم الغيب، وعلم المقادير، وعلم ردّ الأشياء إلى أصولها، وعلم الذهاب، وعلم الآخرة، وعلم إلحاق الثاني بالأول، وعلم نشوء العالم، وعلم الاستقرار في المكان والمكانة، وعلم الحياة، وعلم طول العالم وعرضه وعمقه ومن أين اكتسبه، وعلم حوادث الجوّ وما سببها وهي الآثار العلوية، وعلم مواطن الصمت والكلام، وعلم الجمع والتفرقة، وهو من علم النسب، وعلم دقائق المكر، وعلم التقوى أي الذي تنتجه التقوى في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وأين منه قوله: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]

وعلم الإحسان أي ما ينتجه الإحسان، وعلم الإمهال من اسمه الحليم، وعلم الحقائق، وعلم الخشوع، وعلم منزلة كلام الله من كلام المخلوقين ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ﴿فإنه أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن وثلاثمائة

في معرفة منزل اختلاط العالم الكلي من الحضرة المحمدية

[الرمل]:

عَجَبي مِنْ قائلٍ كُنْ لِعَدَمْ والذي قيل له لَمْ يَكُ ثَمْ
ثم إن كان فَلِمْ قيل له لتَكُنْ والكونُ ما لا يَنْقَسِمْ
فلقد أَبْطَلَ كُنْ قُدْرَةَ مَنْ دَلَّ بالعقل عليها وحَكَمْ
كيف للعقل دَليلٌ والذي قد بناهُ العقلُ بالكَشْفِ هُدِمْ
فنجاةُ النَّفْسِ في الشَّرْعِ فلا تَكُ إنساناً رأى ثُمَّ حُرِمْ
واعْتَصِمْ بالشرع في الكَشْفِ فَقَد فاز بالخير عُبَيْدٌ قد عُصِمْ
أَهْمِلِ الفِكْرَ ولا تَحفلْ به واتْرُكَنْهُ مثلَ لحم في وَضَمْ
إنَّ للفكر مقاماً فاعْتَضِدْ به فيه تَكُ شخصاً قد رُحِمْ
كلُّ علم يشهدُ الشرعُ له هو علمٌ فبه فَلْتَعْتَصِمْ
وإذا خالفه العقلُ فقُلْ طَوْرَكَ الْزَمْ ما لكم فيه قَدَمْ
إن لله عُلُوماً جَمَّةً نالها من لم يَقُلْ ما ثَمَّ لَمْ
جَهِلَ التكييفَ فيها وانْتَفَى عن حِمَاهَا رفعةً سلطانُ كَمْ
مثل ما قد جهل اللَّوْحَ الذي خَطَّ فيه الحَقُّ مِنْ علم القلمْ

اعلم أن الناس اختلفوا في مسمى الإنسان ما هو؟ فقالت طائفة: هو اللطيفة، وطائفة قالت: هو الجسم، وطائفة قالت: هو المجموع وهو الأولى. وقد وردت لفظة الإنسان على ما ذهبت إليه كل طائفة. ثم اختلفنا في شرفه هل هو ذاتي له أو هو بمرتبة نالها بعد ظهوره في عينه وتسويته كاملاً في إنسانية إما بالعلم وإما بالخلافة والإمامة؟ فمن قال إنه شريف لذاته نظر إلى خلق الله إياه بيديه ولم يجمع ذلك لغيره من المخلوقين وقال: إنه خلقه على صورته فهذا حجة من قال: شرفه شرف ذاتيّ، ومن خالف هذا القول قال: لو أنه شريف لذاته لكنا إذا رأينا ذاته علمنا شرفه والأمر ليس كذلك، ولم يكن يتميز الإنسان الكبير الشريف بما يكون عليه من العلم والخلق على غيره من الأناسي ويجمعهما الحد الذاتيّ فدل أن شرف الإنسان بأمر عارض يسمى المنزلة أو المرتبة، فالمنزلة هي الشريفة والشخص الموصوف بها نال الشرف بحكم التبعية كرتبة الرسالة والنبوّة والخلافة والسلطنة والله يقول: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧] وقال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن

شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] أي قد أتى على الإنسان وقد قالت الملائكة فيه من حيث ذاته ما قالت وصدقت فما علم شرفه إلا بما أعطاه الله من العلم والخلافة، فليس لمخلوق شرف من ذاته على غيره إلا بتشريف الله إياه، وأرفع المنازل عند الله أن يحفظ الله على عبده مشاهدة عبوديته دائماً، سواء خِلع عليه من الخلع الربانية شيئاً أو لم يخلع، فهذه أشرف منزلة تعطى لعبد وهو قوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١] وقوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] فقرن معه تنزيهه، قال بعض المحبين في هذا المقام: [السريع]

لا تَدْعُنِي إلا بيا عَبْدَها ... فإنَّه أشْرَفُ أسْمَائي

فليس لصنعة شرف أعلى من إضافتها إلى صانعها، ولهذا لم يكن لمخلوق شرف إلا بالوجه الخاص الذي له من الحق لا من جهة سببه المخلوق مثله، وفي هذا الشرف يستوي أول موجود وهو القلم أو العقل أو ما سميته وأدنى الموجودات مرتبة، فإن النسبة واحدة في الإيجاد والحقيقة واحدة في الجميع من الإمكان، فآخر صورة ظهر فيها الإنسان الصورة الآدمية وليس وراءها صورة أنزل منها وبها يكون في النار من شقي لأنها نشأة وتركيب تقبل الآلام والعلل، وأما أهل السعادة فينشؤون نشأة وتركيباً لا يقبل ألماً ولا مرضاً ولا خبثاً، ولهذا لا يهرم أهل الجنة ولا يتمخطون ولا يبولون ولا يتغوّطون ولا يسقمون ولا يجوعون ولا يعطشون، وأهل النار على النقيض منهم وهي نشأة الدنيا وتركيبها، فهي أدنى صورة قبلها الإنسان، وقد أتت عليه أزمنة ودهور قبل أن يظهر في هذه الصورة الآدمية وهو في الصورة التي له في كل مقام وحضرة من فلك وسماء وغير ذلك مما تمرّ عليه الأزمان والدهور، ولم يكن قط في صورة من تلك الصور مذكوراً بهذه الصورة الآدمية العنصرية، ولهذا ما ابتلاه قط في صورة من صوره في جميع العالم إلا في هذه الصورة الآدمية، ولا عصى الإنسان قط خالقه إلا فيها، ولا ادّعى رتبة خالقه إلا فيها، ولا مات إلا فيها، ولهذا يقبل الموت أهل الكبائر في النار ثم يخرجون فيغمسون في نهر الحياة فيتركبون تركيباً لا يقبل الألم ولا الأسقام فيدخلون بتلك الصورة الجنة.

واعلم أن الصراط الذي إذا سلكت عليه وثَبَّتَ الله عليه أقدامك حتى أوصلك إلى الجنة هو صراط الهدى الذي أنشأته لنفسك في دار الدنيا من الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، فهو في هذه الدار بحكم المعنى لا يشاهد له صورة حسية، فيمد لك يوم القيامة جسراً محسوساً على متن جهنم أوّله في الموقف وآخره على باب الجنة تعرف عندما تشاهده أنه صنعتك وبناؤك، وتعلم أنه قد كان في الدنيا ممدوداً جسراً على متن جهنم طبيعتك في طولك وعرضك وعمقك وثلاث شعب إذ كان جسمك ظل حقيقتك وهو ظل غير ظليل لا يغنيها من اللهب بل هو الذي يقودها إلى لهب الجهالة ويضرم فيها نارها، فالإنسان الكامل يعجل بقيامته في الموطن الذي تنفعه قيامته فيه وتقبل فيه توبته وهو موطن الدنيا، فإن قيامة الدار الأخرى لا ينفع فيها عمل لأنه لم يكلف فيها بعمل فإنه موطن جزاء لما سلف في الدار الدنيا وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أي بين ما يقتضيه المواطن ليكون الإنسان المخاطب في كل

موطن بما قرن به من العمل بالذي يرضيه، وهو ممزوج بما ينافيه مثل خلق الأجسام الطبيعية سواء، فإن الحرارة تنافر البرودة وإن الرطوبة تنافر اليبوسة، وأراد الحق أن يجمع الكل على ما هم عليه من التضادّ في جسم واحد، فضم الحرارة إلى اليبوسة فخلق منهما المرّة الصفراء، ثم زوج بين الحرارة والرطوبة فكان لهذا المزاج الدم وجعله مجاوراً لهما جعل الرطوبة التي في الدم مما يلي اليبوسة التي في الصفراء بحكم المجاورة حتى تقاومها في الفعل، فلا تترك كل واحدة منهما يظهر سلطانها في المزاج الإنسانيّ الحيوانيّ، فلو جعل الحرارة الدموية تليها فلا بد إن كان يليها من الصفراء إما الحرارة أو اليبوسة، فإن وليتها اليبوسة وهي المنفعلة عن الحرارة فكان اليبس يتقوى سلطانه في الجسم فيؤدّي إلى دخول المرض عليه فيحول المرض بينه وبين ما كلفه رب الجسم أن يشتغل به من العلوم واقتنائها والأعمال الموصلة إلى السعادة، وكذلك لو جاورتها حرارة الصفراء لزادت في كمية الصفراء فيعتل، فلهذا كانت الرطوبة مما يلي الصفراء. ثم إنه تعالى زوج بين البرودة والرطوبة فكان من هذا الاختلاط البلغم فجعل الرطوبة البلغمية مما يلي الحرارة الدموية، ولو لم يكن كذلك لكان كما ذكرناه أوّلاً من دخول العلة والسقم للزيادة في الكمية في ذلك الخلط، ثم زوج بين البرودة واليبوسة فكان من ذلك المزج المرة السوداء، فجعل اليبوسة من السوداء مما يلي الرطوبة من البلغم، ولم يجعل البرودة من السوداء تليها لئلا تزيد في كمية رطوبة البلغم فإن الرطوبة منفعلة عن البرودة، فإذا حصلت بين برودة البلغم وبرودة السوداء تضاعفت وزادت كمية البلغم فدخلت العلة والمرض على الجسم فإنها قابلة للانفعال. فانظر لحكمة الله في هذه النشأة وهذا لبقاء الصحة على هذا الجسم الذي هو مركب هذه اللطيفة ليوصلها إلى ما دعاها إليه ربها عز وجل، فهذا المركب الجسميّ يستولي عليه الروح الإلهيّ فإذا تغشاه حمل فينتج أعمالاً إمّا صالحة وهي المخلقة وإما فاسدة وهي غير المخلقة، وظهرت هذه الأعمال في صور مراكب، فإن كانت صالحة صعدت به إلى عليين قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] أي الأرواح الطيبة فإنها كلمات الله مطهرة، قال تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١] وقال: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] كذلك إذا كان العمل فاسداً يهوي به إلى أسفل سافلين قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] أي هوى به مركبه وقد كان ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٦] فإن عمله يصعد به إلى عليين فيكون له ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦] وهو الأجر المكتسب، ولا يكون الأجر إلا مكتسباً فإن أعطي ما هو خارج عن الكسب لا يقال فيه أجر بل هو نور وهبات، ولهذا قال في حق قوم لهم أجرهم ونورهم، فأجرهم ما اكتسبوه، ونورهم ما وهبهم الحق تعالى من ذلك حتى لا ينفرد الأجر من غير أن يختلط به الوهب حتى يشغل ذلك الوهب العبد عن معاينة سلطان الاستحقاق الذي يعطيه الأجر، إذ كان معاوضة عن عمل متقدم مضاف إلى العبد فلا أجر إلا ويخالطه نور لما ذكرناه، فإن النشأة على هذا الأصل قامت وذلك أن الجسم الطبيعيّ لما تركب وظهر بروحه الحساس لو ترك مستقلاً لأهلكته الدعوى، ولكن جعل الله له روحاً ربانياً من نفس الرحمن

الذي هو الروح الإلهيّ، فظهرت لطيفة الإنسان نوراً فوكلت بالجسم الحيوانيّ، فلهذا قرن الأنوار بالأجور حتى تكون المنة الإلهية تصحب هذا العبد حيث كان ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٠] ولهذا قلنا إن هذا منزل الاختلاط وإن كان يتضمن علوماً جمة منها علم حروف المعاني لا حروف الهجاء، وهل إذا دخل بعضها على بعض هل ينقلها عن مقام الحرفية إلى مقام الاسمية؟ إذ الحرف لا يعمل في مثله، وبماذا يعمل حرف في حرف وليس كل حرف واحد بأقوى من صاحبه مثل دخول «من» على حرف «عن» فقد كان حرف «عن» يعطي معنى التجاوز فصيره حرف «من» يدل على الجهة والناحية كما يدل الاسم، قال الشاعر: [البسيط]

مِـنْ عَـنْ يَـمِـيـنِ الـحُـبَـيَّـا نَـظْـرَةٌ قُـبُـلُ

فالعامل في يمين عن بلا شك، ولكن هل عمل فيه عمل الحرفية لبقاء صورته أو عمل فيه عمل الإضافة وهو عمل الأسماء؟ فيكون عمله من طريق المعنى الذي كساه «من» بدخوله عليه، ويكون عن معمولاً لـ«من» أو يبقى على أصله فنقول بجواز دخول الحروف بعضها على بعض، ونترك عمل الواحد منهما ونجعله زائداً كما نعمله في ما إذا جعلناها زائدة في قوله: [الوافر]

إذا مـا رايـةٌ رُفِـعَـتْ لِـمَـجْـدٍ

فـ«ما» هنا زائدة لأن الكلام يستقل دونها فتقول إذا راية فلا عمل هنا لها، وكذلك حرف إن في قول امرىء القيس: [الطويل]

فـمـا إنْ مِـنْ حَـدِيـثٍ وَلا صَـالِ

فـ«إن» هنا زائدة لا عمل لها فيكون ذلك كذلك ولا مانع، إذ لو حذفنا عن من قوله من عن يمين لم يختل المعنى ولا يخرج الحرف عن بابه إلى باب الاسمية من غير ضرورة، وإذا أبدل الحرف من الحرف هل يعطي معنى ما أبدل منه أو هل يعطي خلافه؟ ومما يتضمن هذا المنزل علم المراكب والركبان، وعلم الزمان، وعلم شرف الكلام، وعلم شرف الذكر على الفكر، وكون الحق وصف نفسه بالذكر وما وصف نفسه بالفكر مع أنه أثبت لنفسه التدبير وهو الفكر، أو يقوم مقام اللازم له ويتضمن علم الخلق والصفات، وعلم البيان، وعلم الأحوال، وعلم الاستعداد، وعلم الإحسان، وعلم التجلي الوسط الأوسط الذي بين الذوق والري في مذهب من يقول بالري، وعلم ثلج برد اليقين من أين حصل؟ وعلم العبودية لله دون غيره من الأشياء وما لهذه العبودية من الآثار في العلوم، وعلم ما يعطيه أداء الواجبات، وعلم الآخرة، وعلم الهبات من العطايا، واختلاف أحوال العطاء، وعلم التقوى وأصناف الوقايات، وعلم نعيم الأرواح وعلم العرش والرفارف والمنابر والأسرة والكراسي والمراتب وأين حظ كل واحد منها ؟ وعلم النقيضين وعلم التداني الأعلى من التداني الأنزل، وعلم الظلالات، وعلم الانقياد بطريق الذلة، وعلم الطواف بالبيت والطائفين ولماذا يطاف به؟ وبماذا يطاف؟ وعلم الاصطلام، وعلم اللآلي والسلوك، وعلم الرتبة الإلهية والدنياوية وتنوعاتها وما المحمود منها، وعلم التحجيل، وعلم تقديس التجلي، وعلم الجزاء الإلهيّ، وعلم تنزيل الغيوب،

وعلم التكليف، وعلم الإرادة، وعلم التبديل والإبدال، وعلم الاختصاص، وفي كل صنف مما ذكرناه من العلوم علوم. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع وثلاثمائة

في معرفة منزل الملامية من الحضرة المحمدية

وهذا مقام رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وممن تحقق به من الشيوخ: حمدون القصار، وأبو سعيد الخرّاز، وأبو يزيد البسطامي، وكان في زماننا هذا أبو السعود بن الشبل، وعبد القادر الجيليّ ومحمد الأوانيّ، وصالح البربريّ، وأبو عبد الله الشرفيّ، ويوسف الشبريليّ، ويوسف بن تعز، وابن جعدون الحناوي، ومحمد بن قسوم، وأبو عبد الله بن المجاهد، وعبد الله بن تاخمست، وأبو عبد الله المهدويّ، وعبد الله القطان، وأبو العباس الحصار، وما يضيق الكتاب عن ذكرهم: [الرمل]

كُلُّ مَنْ أَقْسَمَ بالخَلْقِ فما ... يَلْزَمُ الحِنْثُ له مهما حَنَثْ
فأنا أُقْسِمُ بالله الذي ... أسكنَ الأرواحَ أجداثَ الجُثَثْ
وبآيات الهُدَى من نُوره ... أنّه ما خَلَقَ الخَلْقَ عَبَثْ
وإذا لم يَكُنِ الأمر كما ... قلتُ يا سَنَدي لا تَكْتَرِثْ
خَابَ عَقْلٌ عاهدَ الشَّرْعَ على ... عَقْدِ ما قَرَّرَهُ ثم نَكَثْ
أترى يحصدُ شخصٌ زَرْعَ مَنْ ... بَذَرَ الحَبَّ ونَقَّى وحَرَثْ
لا وَحَقِّ الحَقِّ ما يملكُه ... أخبرَ الرُّوحُ به حين نَفَثْ
أودعَ الأرواح رُوحاً واحداً ... بين زوجين نكاحاً ثم بَثْ
كَتَمَ السِّرَّ الذي فيه له ... غيرةً منه زماناً ثم بَثْ
لم يُسَوِّ اللّهُ في أحكامه ... حِكْمَةً ما بين شَيْخٍ وحَدَثْ
ثم إنْ جاء بحكم جامعٍ ... لهما كان لأمْرٍ قَدْ حَدَثْ
فكأن بالطفل قدْ حلَّ به ... هَرَمٌ والشيخ قد حَلَّ الجَدَثْ
كان حَيّاً ثم مَيْتاً ثم مِنْ ... بَعْدِ مَوْت عاد حَيّاً فبُعِثْ

اعلم وفقك الله أن رجال الله ثلاثة لا رابع لهم: رجال غلب عليهم الزهد والتبتل والأفعال الطاهرة المحمودة كلها وطهروا أيضاً بواطنهم من كل صفة مذمومة قد ذمها الشارع غير أنهم لا يرون شيئاً فوق ما هم عليه من هذه الأعمال ولا معرفة لهم بالأحوال ولا المقامات ولا العلوم الوهبية اللدنية ولا الأسرار ولا الكشوف ولا شيئاً مما يجده غيرهم، فهؤلاء يقال لهم العباد، وهؤلاء إذا جاء إليهم أحد يسألهم الدعاء ربما انتهره أحدهم أو يقول له: أيّ شيء أكون أنا حتى أدعو لك؟ وما منزلتي؟ حذراً أن يتطرّق إليهم العجب وخوفاً من غوائل النفس لئلا يدخله الرياء في ذلك، وإن كان منهم أحد يشتغل بقراءة فكتابه مثل الرعاية للمحاسبي وما جرى مجراه، والصنف الثاني فوق هؤلاء يرون الأفعال كلها لله وأنه لا فعل

لهم أصلاً فزال عنهم الرياء جملة واحدة، وإذا سألتهم في شيء مما يحذره أهل الطريق يقولون: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ٤٠] ويقولون: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] وهم مثل العباد في الجد والاجتهاد والورع والزهد والتوكل وغير ذلك، غير أنهم مع ذلك يرون أن ثم شيئاً فوق ما هم عليه من الأحوال والمقامات والعلوم والأسرار والكشوف والكرامات فتتعلق هممهم بنيلها، فإذا نالوا شيئاً من ذلك ظهروا به في العامة من الكرامات لأنهم لا يرون غير الله وهم أهل خلق وفتوّة وهذا الصنف يسمى الصوفية، وهم بالنظر إلى الطبقة الثالثة أهل رعونة وأصحاب نفوس وتلامذتهم مثلهم أصحاب دعاوى يشمرون على كل أحد من خلق الله ويظهرون الرياسة على رجال الله، والصنف الثالث رجال لا يزيدون على الصلوات الخمس إلا الرواتب لا يتميزون عن المؤمنين المؤدين فرائض الله بحالة زائدة يعرفون بها يمشون في الأسواق ويتكلمون مع الناس لا يبصر أحد من خلق الله واحداً منهم، يتميزون عن العامة بشيء زائد من عمل مفروض أو سنة معتادة في العامة قد انفردوا مع الله راسخين لا يتزلزلون عن عبوديتهم مع الله طرفة عين، ولا يعرفون للرياسة طعماً لاستيلاء الربوبية على قلوبهم وذلتهم تحتها، قد أعلمهم الله بالمواطن وما تستحقه من الأعمال والأحوال وهم يعاملون كل موطن بما يستحقه، قد احتجبوا عن الخلق واستتروا عنهم بستر العوام، فإنهم عبيد خالصون مخلصون لسيدهم مشاهدون إياه على الدوام في أكلهم وشربهم ويقظتهم ونومهم وحديثهم معه في الناس، يضعون الأسباب مواضعها ويعرفون حكمتها حتى تراهم كأنهم الذي خلق كل شيء مما تراهم من إثباتهم الأسباب وتحضيضهم عليها، ويفتقرون إلى كل شيء لأن كل شيء عندهم هو مسمى الله، ولا يفتقر إليهم في شيء لأنه ما ظهر عليهم من صفة الغنى بالله ولا العزة به ولا أنهم من خواص الحضرة الإلهية أمر يوجب افتقار الأشياء إليهم وهم يرون كون الأشياء لا تفتقر إليهم ويفتقرون إليها كون الله قال للناس: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] فهم وإن استغنوا بالله فلا يظهرون بصفة يمكن أن يطلق عليهم منها الاسم الذي قد وصف الله نفسه به وهو الاسم الغني، وأبقوا لأنفسهم ظاهراً وباطناً الاسم الذي سماهم الله به وهو الفقير، وقد علموا من هذا أن الفقر لا يكون إلا إلى الله الغني، ورأوا الناس قد افتقروا إلى الأسباب الموضوعة كلها وقد حجبتهم في العامة عن الله، وهم على الحقيقة ما افتقروا في نفس الأمر إلا إلى من بيده قضاء حوائجهم وهو الله، قالوا: فهنا قد تسمى الله بكل ما يفتقر إليه في الحقيقة والله لا يفتقر إلى شيء، فلهذا افتقرت هذه الطائفة إلى الأشياء ولم تفتقر إليهم الأشياء وهم من الأشياء، والله لا يفتقر إلى شيء ويفتقر إليه كل شيء، فهؤلاء هم الملامية وهم أرفع الرجال وتلامذتهم أكبر الرجال، يتقلبون في أطوار الرجولية وليس ثم من حاز مقام الفتوة والخلق مع الله دون غيره سوى هؤلاء، فهم الذين حازوا جميع المنازل ورأوا أن الله قد احتجب عن الخلق في الدنيا وهم الخواص له فاحتجبوا عن الخلق لحجاب سيدهم، فهم من خلف الحجاب لا يشهدون في الخلق سوى سيدهم، فإذا كان في الدار الآخرة وتجلى الحق

ظهر هؤلاء هناك لظهور سيدهم، فمكانتهم في الدنيا مجهولة العين، فالعباد متميزون عند العامة بتقشفهم وتبعدهم عن الناس وأحوالهم وتجنب معاشرتهم بالجسم فلهم الجزاء.

والصوفية متميزون عند العامة بالدعاوى وخرق العوائد من الكلام على الخواطر وإجابة الدعاء والأكل من الكون وكل خرق عادة لا يتحاشون من إظهار شيء مما يؤدي إلى معرفة الناس به قربهم من الله فإنهم لا يشاهدون في زعمهم إلا الله وغاب عنهم علم كبير، وهذا الحال الذي هم فيه قليل السلامة من المكر والاستدراج والملامية، لا يتميزون عن أحد من خلق الله بشيء فهم المجهولون حالهم حال العوام، واختصوا بهذا الاسم لأمرين: الواحد يطلق على تلامذتهم لكونهم لا يزالون يلومون أنفسهم في جنب الله ولا يخلصون لها عملاً تفرح به تربية لهم لأن الفرح بالأعمال لا يكون إلا بعد القبول وهذا غائب عن التلامذة، وأما الأكابر فيطلق عليهم في ستر أحوالهم ومكانتهم من الله حين رأوا الناس، إنما وقعوا في ذم الأفعال واللوم فيما بينهم فيها لكونهم لم يروا الأفعال من الله وإنما يرونها ممن ظهرت على يده فناطوا اللوم والذم بها، فلو كشف الغطاء ورأوا أن الأفعال لله لما تعلق اللوم بمن ظهرت على يده، وصارت الأفعال عندهم في هذه الحالة كلها شريفة حسنة، وكذلك هذه الطائفة لو ظهرت مكانتهم من الله للناس لاتخذوهم آلهة، فلما احتجبوا عن العامة بالعادة انطلق عليهم في العامة ما ينطلق على العامة من الملام فيما يظهر عنها مما يوجب ذلك، وكأن المكانة تلومهم حيث لم يظهروا عزتها وسلطانها، فهذا سبب إطلاق هذا اللفظ في الاصطلاح عليهم وهي طريقة مخصوصة لا يعرفها كل أحد انفرد بها أهل الله وليس لهم في العامة حال يتميزون بها.

واعلم أن الحكيم من العباد هو الذي ينزل كل شيء منزلته ولا يتعدى به مرتبته، ويعطي كل ذي حق حقه، لا يحكم في شيء بغرضه ولا بهواه، لا تؤثر فيه الأعراض الطارئة، فينظر الحكيم إلى هذه الدار التي قد أسكنه الله فيها إلى أجل، وينظر إلى ما شرع الله له من التصرف فيها من غير زيادة ولا نقصان، فيجري على الأسلوب الذي قد أبين له، ولا يضع من يده الميزان الذي قد وضع له في هذا الموطن، فإنه إن وضعه جهل المقادير، فإما يخسر في وزنه أو يطفف وقد ذم الله الحالتين، وجعل تعالى للتطفيف حالة تخصه يحمد فيها التطفيف فيطفف هناك على علم فإنه رجحان الميزان ويكون مشكوراً عند الله في تطفيفه، فإذا علم هذا ولم يبرح الميزان من يديه لم يخط شيئاً من حكمة الله في خلقه، ويكون بذلك إمام وقته، فأوّل ما يزن به الأحوال في هذا الموطن، فإن اقتضى وزنه للحال إظهار الحق لعباده وتعريف الخلق به عرفهم وذلك في الموطن الذي لا يؤدي ذكره إلى أذى الله ورسوله، فإن الله قد وصف نفسه بأنه يؤذى فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وهذا الذي اقتضى له اسم الصبور واسم الحليم، وقال رسول الله ﷺ: **«لَيسَ شَخْصٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذَى مِنَ الله»** وقد كذب وشتم أخبر الله بذلك في الصحيح من الخبر عن رسول الله ﷺ عن ربه فقال: **«كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ ذٰلِكَ، وَشَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ ذٰلِكَ»** وهذا القول إنما تكلم به

الاسم اللطيف، ولهذا أكسبه هذا اللطف في العتب في دار الدنيا ووقع به التعريف ليرجع المكذب عن تكذيبه والشاتم عن شتمه، فإنه موطن الرجوع والقبول منه، والآخرة وإن كانت موطن الرجوع ولكن ليست موطن قبول، فمن الميزان أن لا يعرّض الحكيم بذكر الله ولا يذكر رسوله، ولا أحد ممن له قدر في الدين عند الله في الأماكن التي يعرفها هذا الحكيم إذا ذكر الله فيها أو رسوله أو أحداً ممن اعتنى الله به كالصحابة عند الشيعة فإن ذلك داع إلى ثلب المذكور وشتمه وإدخال الأذى في حقه، ففي مثل هذا الموطن لا يذكره، ألا تراه ﷺ قد نهانا أن نسافر بالقرآن الذي هو المصحف إلى أرض العدوّ فإنه يؤدي ذلك إلى التعرض لإهانته وعدم حرمته مما يطرأ عليه ممن لا يؤمن به فإنه عدوّ له؟ وهذا مقام الملاميّ لا غيره فالشريعة كلها هي أحوال الملامية.

سئلت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت رضي الله عنها: «**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ**» ثم تلت قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] فالأصل الإلهيّ الذي استندت إليه هذه الطائفة هو ما ذكرناه من أن الحق سبحانه يجب لجلاله من التعظيم والكبرياء ما تستحقه الألوهة، ومع هذا فانظر موطن الدنيا ما اقتضاه في حق الحق من دعوى العبيد فيها الربوبية ومنازعة الحق في كبريائه وعظمته فقال فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وتكبر وتجبر، وسبب ذلك أن الموطن اقتضى أن ينحجب الخلق عن الله إذ لو أشهدهم نفسه في الدنيا لبطل حكم القضاء والقدر الذي هو علم الله في خلقه بما يكون عنهم وفيهم فكان حجابه رحمة بهم وإبقاء عليهم، فإن تجليه سبحانه يعطي بذاته القهر فلا يتمكن معه دعوى، فلما كانت الألوهية تجري بحكم المواطن كان هذا الأصل الإلهيّ مشهود الملامية إذ كانوا حكماء علماء فقالوا: نحن فروع هذا الأصل إذ كان لكل ما يكون في العالم أصل إلهيّ، ولكن ما كل أصل إلهيّ يكون في حق العبد إذا اتصف به محموداً فإن الكبرياء أصل إلهي بلا شك، ولكن إن اتصف به العبد وصير نفسه فرعاً لهذا الأصل واستعمله باطناً فإنه مذموم بكل وجه بلا خلاف، ولكن إن استعمله ظاهراً في موضع خاص قد عين له وأبيح له فيه استعماله صورة ظاهرة لا روح لها منه كان محموداً لنفس الصورة، ولهذا رأت الطائفة أن خرق العوائد واجب سترها على الأولياء، كما أن إظهارها واجب على الأنبياء لكونهم مشرعين لهم التحكم في النفوس والأموال والأهل، فلا بد من دليل يدل على أن التحكم في ذلك لرب المال والنفس والأهل، فإن الرسول من الجنس فلا يسلم له دعواه ما ليس له بأصل إلا بدليل قاطع وبرهان، والذي ليس له التشريع ولا التحكم في العالم بوضع الأحكام فلأيّ شيء يظهر خرق العوائد حين مكنه الله من ذلك ليجعلها دلالة على قربه عنده لا لتعرف الناس ذلك منه، فمتى أظهرها في العموم فلرعونة قامت به غلبت عليه نفسه فيها، فهي إلى المكر والاستدراج أقرب منها إلى الكرامة، فالملامية أصحاب العلم الصحيح في ذلك، فهم الطبقة العليا وسادات الطريقة المثلى والمكانة الزلفى في العدوة الدنيا والعدوة القصوى، ولهم اليد البيضاء في علم المواطن

وأهلها وما تستحق أن تعامل به، ولهم علم الموازين وأداء الحقوق، وكان سلمان الفارسي من أجلهم قدراً وهو من أصحاب رسول الله ﷺ في هذا المقام وهو المقام الإلهي في الدنيا.

ويتضمن هذا المنزل من العلوم هذا العلم وهو علم الحكمة ويتضمن علم المواقف، وعلم الحساب، وعلم الظن، وعلم الإهمال والفرق بينه وبين الإمهال الذي يطلبه الاسم الحكيم، وعلم السابقة إلى المعاصي والمخالفات وهل يكون للإنسان المخالفة عين الموافقة؟ وإن كانت فهل تثمر له هذه المخالفة بهذه المثابة وسرعته إلى فعلها قربة عند الله؟ وهل تحجب المقرب ولا بد وإن سارع إليها عند مباشرة الفعل المخالف للحكم المشروع عن الحكم المشروع فيه أو لا يحجب؟ وأما أن يكون قربة ذلك الفعل المخالف ولكن قد يكون مقر بألا قربة وهو علم كبير لا يعرفه من أهل طريقنا إلا قليل، فإن غوره بعيد وميزانه خفي دقيق ما في الموازين أخفى منه، والأكثر من أهل طريق الله ما شاهده ولا رآه، وإن قيل له أنكره فما ظنك بعلماء الرسوم فما ظنك بالعامة؟ وأما أكابر الحكماء من الفلاسفة فأنكروه جملة واحدة، وسبب إنكارهم مع فضلهم وبعد غورهم أنهم لا يقولون بالاختصاص كما نقول نحن بل الأمور عندهم كلها مكتسبة بالاستعداد، ، فمن هنا خفي عليهم هذا العلم وغيره مما يتعلق بالاختصاص.

ومن علوم هذا المنزل علم السبب الذي أدى القائلين إلى إنكار الدار الآخرة الحسية والمعنوية فإنهم طائفتان بلا شك: طائفة تنكر الحس الأخروي، وطائفة تنكره معنى وحساً.

ومن علومه علم أحوال الموت ولماذا يرجع وما حقيقته وذبحه وصورته في عالم التمثيل كبشاً أملح ومكان ذبحه ولمن تنتقل حياته إذا ذبح؟ وعلم التجلي الموجب لكسوف الكواكب المعنوية والحسية، وعلم حضرة الجمع بين العبد والرب، ومن هذه الحضرة ظهر القائلون بالاتحاد والحلول فإنها حضرة علم تزل فيها الأقدام فإن الشبهة فيه قوية لا يقاومها دليل مركب، وعلم الأسفار ولنا فيه جزء سميناه الإسفار عن نتائج الأسفار يتضمن من العلم الإلهي ونسبة هذا الحكم الإلهيّ إليه ومن العلم الكونيّ ونسبة هذا الحكم الإلهي معنى وحساً شيئاً كثيراً ومن علوم هذا المنزل الإلهي أيضاً لأي اسم إلٰهي ترجع الناس يوم القيامة، وعلم السبب الذي لأجله يسأل العالم غيره عما يعلمه، وسبب جحد العالم ما يعلمه إذا سئل عن العلم به، وعلم كشف الإنسان ما في نفس الملك وهل هو من علم الستر أو الظهور؟ أو منه ما يكون من علم الستر بوجه ومن علم الظهور بوجه؟ وعلم الأدب، وعلم الاقتداء، وعلم السبب الموجب لإيثار الدنيا على الآخرة مع ما فيها من الغموم والأنكار الحسية والمعنوية، وعلم الرؤية في الدار الآخرة وهل هي جائزة أو محال سواء كانت رؤية بصيرة أو بصر؟ وهل الرؤية محلها حقيقة الرائي أو العين المعتاد المعروف وهل الرؤية حكم أو معنى وجودي؟ وهل هي عين الرائي أو غيره كالصفة له؟ وعلم حال النفوس بعد الموت، وعلم الآخرة المعجلة والدنيا المؤجلة، وعلم الإقبال والإعراض، وعلم الوعيد والتقرير، وعلم الاقتدار. وهذا القدر كاف في هذا المنزل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب العاشر وثلاثمائة

في معرفة منزل الصلصلة الروحانية من الحضرة الموسوية

قال رسول الله ﷺ في إنزال الوحي: «**إِنَّهُ يَأْتِيهِ الوَحْيُ مِثْلُ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ**» يقول الراوي: فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً فإن نزول الوحي على الأنبياء له صور مختلفة أشدها وحي الصلصلة؛ شعر: [البسيط]

إنَّ البُرُوجَ لأوضَاعٌ مُقَدَّرةٌ ... وهي المنازلُ للسَّيَّارة الشُّهُبِ
نَظيرُها من وجود السعد يشمله ... هذي إلى الفوز والأخرى إلى العَطَبِ
إذا تَعرَّضت الأَنْواءُ تَطْلُبُني ... حُبّاً لتمنحني ما شئتُ من أدبِ
وجاءت السُّحْبُ والأرواحُ تحملُها ... والرعدُ يفصح عن عُجْم وعَن عَرَبِ
والبرقُ يخلع من أنوار نشأته ... على ظلام الدُّجى ثوباً من الذَّهَبِ
والسُّحْبُ تسكبُ أَمْطارَ الحقائق في ... بيتٍ من الطين والأهواء واللَّهَبِ
والأرضُ تهتزُّ إعجاباً بِزَهْرَتِهَا ... والروضُ يَرْفُلُ في أثوابه القُشُبِ
عِلْمُ الحقائق هذا لا أريد سوى ... العلم بالله والأسماءِ والحُجُبِ
لما تَنَزَّهَ علم ذاته علم ... على الوصول به ناديت مِنْ كَثَبِ
أنتَ الإلهُ الذي لا شيءَ يشبهُه ... إلا الذي جاء في التَّنْزيل والكُتُبِ

اعلم أن الله خلق الأرواح على ثلاث مراتب لا رابع لها: أرواح ليس لهم شغل إلا تعظيم جناب الحق ليس لهم وجه مصروف إلى العالم ولا إلى نفوسهم قد هيمهم جلال الله واختطفهم عنهم فهم فيه حيارى سكارى. وأرواح مدبرة أجساماً طبيعية أرضية وهي أرواح الأناسي وأرواح الحيوانات عند أهل الكشف من كل جسم طبيعي عنصري فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال رسول الله ﷺ: «**يَشْهَدُ لِلْمُؤَذِّنِ مَدَى صَوْتِهِ مِنْ رَطْبٍ وَيَابِسٍ**» وسبح الحصا في كفه ﷺ وفي كف من شاء الله من أصحابه، وقال في أحد: «**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**» فهذه الأخبار كلها تدل على حياة كل شيء ومعرفته بربه، فإن السماء والأرض ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] ونحن نعرف ذلك من طريق الكشف ولو لم يأت في ذلك خبر، وهذه الأرواح المدبرة لهذه الأجسام مقصورة عليها مسخرة بعضها لبعض بما فضل الله بعضهم على بعض كما قال عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] وأرواح أخر مسخرات لنا وهم على طبقات كثيرة، فمنهم الموكل بالوحي والإلقاء، ومنهم الموكل بالأرزاق، ومنهم الموكل بقبض الأرواح، ومنهم الموكل بإحياء الموتى، ومنهم الموكل بالاستغفار للمؤمنين والدعاء لهم، ومنهم الموكلون بالغراسات في الجنة جزاء لأعمال العباد.

فاعلم أن أرواح الأناسي جعل الله لها آلات طبيعية كالعين والأذن والأنف والحنك، وجعل فيها قوى سماها سمعاً وبصراً وغير ذلك، وخلق لهذه القوى وجهين، وجه إلى

المحسوسات عالم الشهادة ووجه إلى حضرة الخيال، وجعل حضرة الخيال محلاً واسعاً أوسع من عالم الشهادة، وجعل فيها قوّة تسمى الخيال إلى قوى كثيرة مثل المصوّرة والفكر والحفظ والوهم والعقل وغير ذلك، وبهذه القوى تدرك النفس الإنسانية جميع ما يعطيها حقائق هذه القوى من المعلومات، فبالوجه الذي للبصر إلى عالم الشهادة تدرك جميع المحسوسات وترفعها إلى الخيال فتحفظها في الخيال بالقوّة الحافظة بعد ما تصوّرها القوّة المصوّرة، وقد تأخذ القوّة المصوّرة أموراً من موجودات مختلفة كلها محسوسة وتركب منها شكلاً غريباً ما أبصرته قط حساً بمجموعه لكن ما فيه جزء، إلا وقد أبصرته، فإذا نام الإنسان نظر البصر بالوجه الذي له إلى عالم الخيال، فيرى ما فيه مما نقله الحس مجموعاً أو مما صوّرته القوّة المصوّرة مما لم يقع الحس على مجموعه قط لا على أجزائه التي تألفت منها هذه الصورة، فتراه نائماً إلى جانبك، وهو يبصر نفسه معذباً أو منعماً أو تاجراً أو ملكاً أو مسافراً، ويطرأ عليه خوف في منامه في خياله فيصيح ويزعق، والذي إلى جانبه لا علم له بذلك ولا بما هو فيه، وربما إذا اشتد الأمر تغير له المزاج فأثر في الصورة الظاهرة النائمة حركة أو زعاقاً أو كلاماً أو احتلاماً، كل ذلك من غلبة تلك القوّة على الروح الحيوانيّ فيتغير البدن في صورته، فإذا تنزلت الأملاك المسخرة بالوحي على الأنبياء عليهم السلام أو تنزل رقائق منها على قلوب الأولياء لأن الملك لا ينزل بوحي على قلب غير نبيّ أصلاً ولا بأمر إلهيّ جملة واحدة، فإن الشريعة قد استقرّت وتبين الفرض والواجب والمندوب والمباح والمكروه، فانقطع الأمر الإلهيّ بانقطاع النبوّة والرسالة، ولهذا لم يكتف رسول الله ﷺ بانقطاع الرسالة فقط لئلا يتوهم أن النبوّة باقية في الأمة فقال عليه السلام: «**إِنَّ النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ قَدِ انْقَطَعَتْ فَلاَ نَبِيَّ بَعْدِي وَلاَ رَسُولَ**» فما بقي أحد من خلق الله يأمره الله بأمر يكون شرعاً يتعبده به، فإنه إن أمره بفرض كان الشارع قد أمره به فالأمر للشارع وذلك وهم منه وادّعاء نبوّة قد انقطعت، فإن قال: إنما يأمره بالمباح قلنا: لا يخلو إما أن يرجع ذلك المباح واجباً في حقه فهذا هو عين نسخ الشرع الذي هو عليه حيث صير بهذا الوحي المباح الذي قرّره الرسول مباحاً واجباً يعصى بتركه، وإن أبقاه مباحاً كما كان فكذلك كان، فأية فائدة في الأمر الذي به جاء هذا الملك لهذا المدعي صاحب هذا المقام؟ فإن قال: ما جاء به ملك لكن الله أمرني به من غير واسطة قلنا هذا أعظم من ذلك فإنك ادّعيت أن الله يكلمك كما كلم موسى عليه السلام ولا قائل به لا من علماء الرسوم ولا من علماء أهل الذوق، ثم إنه لو كلمك أو لو قال لك فما كان يلقي إليك في كلامه إلا علوماً وأخباراً لا أحكاماً ولا شرعاً ولا يأمرك أصلاً، فإنه إن أمرك كان الحكم مثل ما قلنا في وحي الملك، فإن كان ذلك الذي دندنت عليه عبارة عن أن الله خلق في قلبك علماً بأمر ما فما ثم في كل نفس إلا خلق العلم في كل إنسان ما يختص به وليّ من غيره، وقد بينا في هذا الكتاب وغيره ما هو الأمر عليه، ومنعنا جملة واحدة، أن يأمر الله أحداً بشريعة يتعبده بها في نفسه أو يبعثه بها إلى غيره، وما نمنع أن يعلمه الحق على الوجه الذي نقرّره وقرّره أهل طريقنا بالشرع الذي تعبده به على لسان الرسول عليه

السلام من غير أن يعلمه ذلك عالم من علماء الرسوم بالمبشرات التي أبقيت علينا من آثار النبوّة وهي «**الرُّؤيا يَراها الرَّجُلُ المُسْلِمُ أو تُرَى لَه**» وهي حق ووحي ولا يشترط فيها النوم لكن قد تكون في النوم وفي غير النوم، وفي أيّ حالة كانت فهي رؤيا في الخيال بالحس لا في الحس، والمتخيل قد يكون من داخل في القوّة، وقد يكون من خارج بتمثل الروحاني أو التجلي المعروف عند القوم، ولكن هو خيال حقيقي إذا كان المزاج المستقيم المهيأ للحق، فإذا ورد الملك على النبيّ عليه السلام بحكم أو بعلم خبري وإن كان الكل من قبيل الخبر ولقي تلك الصورة الروح الإنساني وتلاقى هذا بالإصغاء وذلك بالإلقاء وهما نوران احتد المزاج واشتعل وتقوّت الحرارة الغريزية المزاجية في النورين وزادت كميتها فتغير وجه الشخص لذلك وهو المعبر عنه بالحال وهو أشد ما يكون، وتصعد الرطوبات البدنية بخارات إلى سطح كرة البدن لاستيلاء الحرارة، فيكون من ذلك العرق الذي يطرأ على أصحاب هذه الأحوال للانضغاط الذي يحصل بين الطبائع من التقاء الروحين، ولقوّة الهواء الحار الخارج من البدن بالرطوبات تغمر المسام فلا يتخلله الهواء البارد من خارج، فإذا سرّي عن النبي وعن صاحب الحال وانصرف الملك من النبي والرقيقة الروحانية من الولي سكن المزاج وانفشت تلك الحرارة وانفتحت المسامّ وقبل الجسم الهواء البارد من خارج فتخلل الجسم فيبرد المزاج فيزيد في كيمة البرودة وتستولي على الحرارة وتضعفها، فذلك هو البرد الذي يجده صاحب الحال ولهذا تأخذه القشعريرة فيزاد عليه الثياب ليسخن، ثم بعد ذلك يخبر بما حصل له في تلك البشرى إن كان ولياً أو في ذلك الوحي إن كان نبياً، وهذا كله إذا كان التنزيل على القلب بالصفة الروحانية، فإن كان نفثاً فهو الإلهام وهذا يكون للولي وللنبي، وأما إن حدث فسمع من غير رؤية فهو المحدث، وأما إن تراءى له الملك إن كان نبياً في زمان وجود النبوّة أو تراءت له الرقيقة رجلاً ممثلاً أو صورة حيوان يخاطبه بما جاء به إليه، فإن كان ولياً فيعرضه على الكتاب والسنة، فإن وافق رآه خطاب حق وتشريف لا غير لا زيادة حكم ولا إحداث حكم، لكن قد يكون بيان حكم أو إعلاماً بما هو الأمر عليه فيرجع ما كان مظنوناً معلوماً عنده، وإن لم يوافق الكتاب والسنة رآه خطاب حق وابتلاء لا بد من ذلك فعلم قطعاً أن تلك الرقيقة ليست برقيقة ملك ولا بمجلى إلهيّ ولكن هي رقيقة شيطانية، فإن الملائكة ليس لها مثل هذا المقام وأنها أجل من ذلك، وأكثر ما يطرأ هذا على أهل السماع من الحق في الخلق، فما بقي للأولياء اليوم بعد ارتفاع النبوّة إلا التعريف وانسدت أبواب الأوامر الإلهية والنواهي، فمن ادّعاها بعد محمد فهو مدع شريعة أوحي بها إليه سواء وافق شرعنا أو خالف، وأما في غير زماننا قبل رسول الله ﷺ فلم يكن تحجير ولذلك قال العبد الصالح خضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾ [الكهف: ٨٢] فإن زمانه أعطي ذلك وهو على شريعة من ربه وقد شهد له الحق بذلك عند موسى وعندنا وزكاه وأما اليوم فإلياس والخضر على شريعة محمد ﷺ إما بحكم الوفاق أو بحكم الاتباع، وعلى كل حال فلا يكون لهما ذلك إلا على طريق التعريف لا على طريق النبوّة. وكذلك عيسى عليه السلام إذا نزل فلا يحكم فينا إلا بسنتنا عرّفه الحق بها على طريق

التعريف لا على طريق النبوّة، وإن كان نبياً فتحفظوا يا إخواننا من غوائل هذا الموطن فإن تمييزه صعب جداً وتستحليه النفوس ويطرأ عليها فيه التلبيس لتعشقها به، وإذا أنس المحل بمثل هذا الإلقاء الذي ذكرناه هان عليه حمله وما يكون فيه كمثله حين يفجأه، وإن الله إذا تكلم بالوحي فكأنه سلسلة على صفوان فتصعق الأرواح عند سماعها ويكون العلم الذي يحصل لها في تلك الصلصلة كالعلم الذي حصل من الضرب بين الكتفين، وكالعلم الحاصل من النظر سؤالاً وجواباً واستفادة علوم كثيرة من مجرّد ضرب أو نظر، وقد رأينا هذا كله بحمد الله من نفوسنا فلا نشك فيه، وما أشبهه إلا بأبواب مغلقة فإذا فتحت الأبواب وتجلى لك ما وراءها أحطت بالنظرة الواحدة علماً بها كما يفتح الإنسان عينه في اللمحة الواحدة فيدرك من الأرض إلى فلك البروج، ثم الذي يجده صاحب هذا الأمر من ثلج برد اليقين ما لا يقدر قدره، ولتلك الحرارة التي قلنا توجد عند الإلقاء كان رسول الله ﷺ يقول عند افتتاح كل صلاة وفي أكثر الأحوال: «**اللَّهُمَّ اغسِلْنِي بِالثَّلْج وَالمَاءِ البَارِدِ وَالبَرَدِ**» فهذه ثلاثة كلها بوارد ليقابل بها حرارة الوحي فإنه محرق، ولولا القوة التي تحصل للقلب من هذا البرد هلك.

واعلم أن هذا المنزل يتضمن من العلوم علم اليقين، وعلم الحجاب، وعلم الوعيد، وعلم الكبرياء الكونيّ المنوط بالحق، وعلم التقديس، وعلم السبب الذي لأجله اتخذت المخلوقات أرباباً من دون الله ولماذا قال أرباباً من دون الله وهم اتخذوها أرباباً مع الله، وعلم ما يحل من الربا، وعلم إيثار الحق وهل يصح هذا مع اعتقادك أن لا فاعل إلا الله فعلى من يؤثره، وعلم أحدية النفخة واختلاف الأثر ولما كان الاشتعال في النار بالنفخ وينطفىء به السراج والهواء أقرب للاشتعال للطافته من الحشيش والفحم، وعلم أحوال الآخرة من جانب ما تحوي عليه من الشدائد خاصة، وعلم المعارضة التي قصدها الحلاج حتى دعا عليه عمرو بن عثمان فلما جرى عليه ما جرى كانت المشيخة تقول: إنما أصيب الحلاج بدعوة الشيخ، وعلم السحر الحقيقي وغير الحقيقي وهل هو في الحالتين خيال أم لا؟ وعلم لماذا يرجع كون الباري له كلام هل لخلقه أو لصفة قائمة به زائدة على ذاته أو نسبة خاصة أو لعلمه؟ ومحل الإعجاز من القرآن ما هو؟ فإن هذا علم عظيم منيع الحمى، وعلم الاصطلام الذي تنتجه معارضة الكلام، وعلم ما تحوي عليه البسملة من الأسرار ولماذا انحصرت في هذه الثلاثة الأسماء، وهذه الحروف المخصوصة دون باقي الحروف وأين محلها من الآخرة؟ وهل تخلق من حروفها ملائكة؟ أي يأتي يوم القيامة كل حرف منها صورة قائمة مثل ما تأتي سورة البقرة وسورة آل عمران وهما الزهراوان يشهدان لقارئهما وإذا وجدت صور هذه الحروف يوم القيامة فمن حيث رقمها أو من حيث التلفظ بها أو منهما، والحروف المشددة منها هل تخلق صورتين أو صورة واحدة؟ وإذا خلقت هذه الحروف صوراً فمن أي شيء تقي قارئها ومن في مقابلتها ووقايتها؟ هل هي عين الشهادة؟ فإن كانت للشهادة فما تشهد إلا لمن رقمها أو من تلفظ بها أنه رقمها أو تلفظ بها وقد رقمها الكافر وتلفظ بها المنافق، وإن كانت تشهد بالإيمان بها الذي محله القلب فما هي بسملة الرقم ولا بسملة اللفظ وليس في النفس

إلا العلم بها والإيمان والإرادة لها، وكذلك يكون الأمر على هذا التقسيم في الزهراوين من رقمها وقراءتها أو من كونها سورة فقط أو من كونها ذات آيات وحروف، وهل الآيات في الصورة كالأعضاء لصورة الحيوان؟ أو هي لها كالصفات النفسية للموصوف لا كالأعضاء؟ هذا كله من علم هذا المنزل، وعلم الضلال والهدى وهل يرجعان إلى نسب أو إلى أعيان موجودة؟ وإن كانت موجودة أعياناً فهل هي مخلوقة أو غير ذلك؟ وإن كانت مخلوقة فهل هما من خلق العباد أو من خلق الله أو بعضها من خلق العبد وبعضها من خلق الله؟ وعلم تسليط المخلوقات بعضهم على بعض من المعاني وغير المعاني فإن الله تعالى لما سمى نفسه ملكاً سمى خلقه جنوداً، وإذا كانوا جنوداً وما ثم إلا الله وخلقه فلمن يحاربون؟ أو هم أجناد زينة لا أجناد محاربة؟ فإن حارب بعضهم بعضاً وهو الواقع فمن أجناد الله من هؤلاء الأجناد؟ فالذين هم أجناد الله فإن الله مليكهم فمن ملك الأجناد الآخرين؟ وهنا من الأسرار الإلهية مهالك، ويرجع علم ذلك لما في أحكام الأسماء الإلهية من المنازعة والتضاد ومنها الموافق والمخالف وكذلك الأرواح الملكية.

وقد روي أن رجلاً من المسرفين على نفسه أراد التوبة وكان من قرية كلها شر وكانت ثم قرية أخرى كلها خير فأراد الهجرة إليها فبينا هو في الطريق جاء أجله فمات فتنازعت ملائكة الرحمة الذين هم أجناد الاسم الرحيم وملائكة العذاب الذين هم أجناد الاسم المنتقم، فلما طال النزاع بينهم فيمن يتسلمه من هاتين الطائفتين الذين هم وزعة الأسماء الإلهية أوحى الله إليهم أن قدروا ما بين القريتين فإلى أيهما كان أقرب كان من أهلها فقدروا ما بين القريتين فوجدوا الرجل قد ناء بصدره لا غير نحو قرية السعادة فحكم له بالسعادة فتسلمته ملائكة الرحمة، ومعلوم أنه ما مشى إلا بعد حصول التوبة في قلبه أو إرادتها إن كان لا يعلم حدها فقد علم الله من ذلك ما علم، وكل خطوة خطاها من أوّل خروجه من قريته فهجرة وحركة محمودة، ومع هذا وقع الحكم بالتقدير المكاني والمكان فما سبب ذلك وما أثره في الكون؟ وهل للحاكم فيه مدخل في الحكم بين الناس وهو الحكم بالاستهام وهو القرعة؟ وعلم الأعمال المشروعة هل لها وجود قبل أن يعمل بها المكلف أو لا وجود لها بل هي عين المكلف؟ وإذا كانت عمله كيف تحكم الصنعة على صانعها من غير حكم النسب إذ لا أثر لها فيه إلا بما ينسب إليه منها من الثناء المحمود أو المذموم، وقد ورد أن كل إنسان مرهون بعمله، فمن الراهن والمرتهن إذا كان المكلف عين الرهن؟ فما أعجب حكم الله في خلقه، فوالله ما عرف الله إلا الله، وهل السعداء والأشقياء على هذا الحكم أو يختص به الأشقياء دون السعداء، وعلم من يخرج الله من النار من غير شفاعة شافع من المخلوقين هل هو إخراج امتناني حتى لا يتقيد؟ أو هل هو عن شفاعة الأسماء الإلهية كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] ومعلوم أنه لا يحشر إلى شيء من كان عند ذلك الشيء، ولما كان الاتقاء والخوف من حكم المتقى منه وهو الاسم الشديد العقاب والسريع الحساب فكان المتقي في حكم أمثال هذه الأسماء الإلهية، فحشرهم الله يوم القيامة إلى الرحمن وزال

عنهم حكم هؤلاء الأسماء الأخر، فإن كان الأمر على هذا فقد يكون خروج شفاعة وإن لم يكن فهو خروج امتنان وهبة. وعلم صور الإعراض عن الحق والكل في قبضته. وعلم ما يتميز به الإنسان من سائر الحيوان كله والنبات والجماد والملائكة مخلوقون في المعارف إلا لطيفة الإنسان وأنها تخالف سائر المخلوقات في الخلق، وهل العقل الذي في الإنسان وجد لاقتناء العلوم أو لدفع الهوى خاصة ماله غير ذلك؟ وهذه المسألة من مسائل سهل بن عبد الله التستري ما رأيت غيره ذكرها ولا وصلت إلينا إلا من طريقه وعلوم هذا المنزل لا تحصى كثرة فاقتصرنا من ذلك على ما ذكرناه فإنه كالأمّهات لما بقي في المنزل من العلوم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الحادي عشر وثلاثمائة

في معرفة منزل النواشىء الاختصاصية الغيبية من الحضرة المحمدية

[الرمل]

دَثِّرُوني زَمِّلُوني قَوْلَ مَنْ خَصَّهُ الرحمنُ بالعلم الحَسَنْ
حين جَلَّى الرُّوحَ بالأُفُقِ له وهو في غَارِ حِرَاء قد سَجَنْ
نَفْسَه فيه لأمْرٍ جاءه في غَيَابَات الفؤادِ المُسْتَكِنْ
لتَجَلٍّ قام في خاطره صُورَةٌ مجموعةٌ من كلِّ فَنْ
سُورةٌ سينيَّةٌ صَادِيَّةٌ جُمِعَ السرُّ لديها والعَلَنْ
فأتى يرجُفُ منها هَيْبَةً غادة تؤنسهُ حتى سَكَنْ
سألتْهُ ما الذي أَقْلَقَهُ قال أمْرٌ قد نَفَى عَنِّي الوَسَنْ
هو أن الله قد أكرمني بالذي أكرم أصحابَ اللَّسَنْ
من رسولٍ ونبيٍّ مُجْتَبَى في علوم وبلاءٍ ومِحَنْ
كُلّما أحْضِرُهُ في خَلَدي حَنَّ قلبيَ لتجلّيه وأنْ
فلذا يُقلِقُني مشهدُه ولذا أزْهَدُ في دندن دن

اعلم أنه ليلة تقييدي هذا الباب رأيت رؤيا سررت بها واستيقظت وأنا أنشد بيتاً كنت قد عملته قبل هذا في نفسي وهو من باب الفخر، وهو: [الكامل]

في كُلِّ عَصْرٍ وَاحِدٌ يَسْمُو به وأنا لباقي العَصْر ذاكَ الوَاحِدُ

وذلك أني ما أعرف اليوم في علمي من تحقق بمقام العبودية أكثر مني، وإن كان ثم فهو مثلي، فإني بلغت من العبودية غايتها فأنا العبد المحض الخالص لا أعرف للربوبية طعماً؛ رئي يوماً عتبة الغلام وهو يخطر في مشيته شغل التائه المعجب بنفسه فقيل له: يا عتبة ما هذا التيه الذي أنت فيه ولم يكن يعرف هذا منك قبل اليوم؟ فقال: وحقيق لمثلي أن يتيه وكيف لا أتيه وقد أصبح لي مولى وأصبحت له عبداً؟ واعلم أنه في كل زمان لا بدّ من واحد فيه في كل مرتبة متبرز حتى في أصحاب الصنائع وفي كل علم لو تفقد ذلك الزمان وجد الأمر على ما

قلناه والعبودية من جملة المراتب، والله سبحانه قد منحنيها هبة أنعم بها عليّ لم أنلها بعمل بل اختصاص إلهي أرجو من الله أن يمسكها علينا ولا يحول بيننا وبينها إلى أن نلقاه بها، فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون.

واعلم أن هذا المنزل منزل النواشىء الاختصاصية وهي عبارة عن بداية وأوّلية كل مقام وحال قال تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] فلو كانت إعادة أرواحنا إلى أجسادنا على هذا المزاج الخاص الذي كان لنا في النشأة الدنيا لم يصح قوله تعالى: ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] فإنه قد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] وقال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] يعني في النشأة الآخرة أنها تشبه النشأة الدنياوية في عدم المثال، فإن الله أنشأنا على غير مثال سبق، وكذلك ينشئنا على غير مثال سبق. فإن قيل: فما فائدة قوله: ﴿تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] ؟ قلنا: يخاطب الأرواح الإنسانية أنها تعود إلى تدبير الأجسام في الآخرة كما كانت في الدنيا على المزاج الذي خلق تلك النشأة عليه ويخرجها من قبرها فيها، ومن النار حين ينبتون كما تنبت الحبة تكون في حميل السيل مع القدرة منه على إعادة ذلك المزاج لكن ما شاء، ولهذا علق المشيئة به فقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ٢٢] يعني ذلك المزاج الذي كان عليه، فلو كان هو بعينه لقال: ثم ينشره.

فنرجع إلى ما نريد أن نبينه من بعض علوم هذا المنزل وهو العلم الذي يدور عليه فنقول: إن العالم عالمان والحضرة حضرتان، وإن كان قد تولد بينهما حضرة ثالثة من مجموعهما، فالحضرة الواحدة حضرة الغيب ولها عالم يقال له عالم االغيب، والحضرة الثانية هي حضرة الحس والشهادة ويقال لعالمها عالم الشهادة ومدرك هذا العالم بالبصر، ومدرك عالم الغيب بالبصيرة، والمتولد من اجتماعهما حضرة وعالم، فالحضرة حضرة الخيال، والعالم عالم الخيال، وهو ظهور المعاني في القوالب المحسوسة، كالعلم في صورة اللبن، والثبات في الدين في صورة القيد، والإسلام في صورة العمد، والإيمان في صورة العروة، وجبريل في صورة دحية الكلبي وفي صورة الأعرابي، وتمثل لمريم في صورة بشر سوي كما ظهر السواد في جسم العفص والزاج عند اجتماعهما ولم يكن لهما ذلك الوصف في حال افتراقهما، ولذلك كانت حضرة الخيال أوسع الحضرات لأنها تجمع العالمين: عالم الغيب وعالم الشهادة، فإن حضرة الغيب لا تسع عالم الشهادة فإنه ما بقي فيها خلاء وكذلك حضرة الشهادة، فقد علمت أن حضرة الخيال أوسع بلا شك وأنت قد عاينت في حسك وعلى ما تعطيه نشأتك في نفسك المعاني، والروحانيين يتخيلون ويتمثلون في الأجساد المحسوسة في نظرك بحيث إذا وقع أثر في ذلك المتصور تأثر المعنى المتصوّر فيه في نفسه، ولا شك أنك أحق بحضرة الخيال من المعاني ومن الروحانيين، فإن فيك القوّة المتخيلة وهي من بعض قواك التي أوجدك الحق عليها فأنت أحق بملكها والتصرف فيها من المعنى، إذ المعنى لا يتصف بأن له قوّة خيال، ولا الروحانيين من الملأ الأعلى بأن لهم في نشأتهم قوّة خيال، ومع هذا فلهم التميز في هذه الحضرة الخيالية بالتمثل والتخيل، فأنت أولى بالتخيل والتمثل منهم

حيث فيك هذه الحضرة حقيقة، فالعامة لا تعرفها ولا تدخلها إلا إذا نامت ورجعت القوى الحساسة إليها، والخواص يرون ذلك في اليقظة لقوّة التحقق بها، فتصور الإنسان في عالم الغيب في حضرة الخيال أقرب وأولى ولا سيما وهو في نشأته له في عالم الغيب دخول بروحه الذي هو باطنه، وله في عالم الشهادة دخول بجسمه الذي هو ظاهره، والروحاني ليس كذلك وليس له دخول في عالم الشهادة إلا بالتمثل في عالم الخيال، فيشهده الحس في الخيال صورة ممثلة نوماً ويقظة، فإن تميز الإنسان في عالم الغيب فله ذلك فإنه يتميز فيه حقيقة لا خيالاً من حيث روحه الذي لا يدركه الحس وهو من عالم الغيب، وإن أراد أن يتروحن بجسمه ويظهر به في عالم الغيب وجد المساعد وهو روحه المرتبط بتدبيره فهو أقرب إلى التمثل في عالم الغيب من الروحاني المتمثل في صورة عالم الشهادة، ولكن هذا المقام يكتسب وينال مثل قضيب البان رحمه الله فلقد كان له هذا المقام، ففي قوّة الإنسان ما ليس في قوّة عالم الغيب، فإن في قوّة الإنسان من حيث روحه التمثل في غير صورته في عالم الشهادة، فيظهر الإنسان في أيّ صورة شاء من صور بني آدم أمثاله، وفي صور الحيوانات والنبات والحجر، وقد وقع ذلك منهم. ولقد أخبرني شيخ من شيوخ طريق الله وهو عندي ثقة عدل وفاوضته في هذه المسألة فقال: أنا أخبرك بما شاهدته من ذلك تصديقاً لقولك، وذلك أني صحبت رجلاً ممن له هذا المقام ولم يكن عندي من ذلك خبر فسألته الصحبة من بغداد إلى الموصل في ركب الحاج عند رجوعه فقال لي: إذا عزمت فلا تبتدئني بشيء من مأكول ومشروب حتى أكون أنا الذي أطلبه منك، فعاهدته على ذلك وكان قد أسنّ فركب في شقة محارة وأنا أمشي على قدمي قريباً منه لئلا تعرض له حاجة إليّ فمرض بعلة الإسهال وضعف فصعب ذلك عليّ وهو لا يتداوى بما يقطعه ويزيل عنه القيام، قال: فقلت له: يا سيدي أروح لي هذا الرجل الذي على سبيل صاحب سنجار آخذ من المارستان دواء قابضاً فنظر إليّ كالمنكر وقال: الشرط أملك فسكت عنه، قال: فزاد به الحال فما قدرت على السكوت، فلما نزل الركب بالليل وأسرجت المشاعل وقصد صاحب سبيل سنجار وكان خادماً أسود وقد وقفت الرجال بين يديه وأصحاب العلل يجيئون إليه، يطلبون منه الأدوية بحسب عللهم وأمراضهم فقلت له: يا مولاي أرح قلبي وفرّج عني بأن تأمرني آتيك بدواء من عند هذا الرجل، قال: فتبسم وقال لي: رح إليه، قال: فجئت إليه ولم يكن يعرفني قبل ذلك ولا كنت أنا على حالة وبزّة توجب تعظيمي، فمشيت إليه وأنا خائف أن يردّني أو ينتهرني لما كان فيه من الشغل، فوقفت على رأسه بين الناس فلما وقعت عينه عليّ قام إليّ وأقعدني وسلم عليّ بفرح وبسط وتبشبش وقال: ما حاجتك؟ فقلت له عن حال الشيخ ومرضه، فاستدعى بالدواء من الوكيل على أكمل ما يمكن واعتذر وقال لي: تعنيت وهلا بعثت إليّ في ذلك؟ وقمت أخرج من الخيمة فقام لقيامي ومشت المشاعل بين يدي فودعته بعدما مشى معي خطوات وأمر المشاعلي أن يمشي بالضوء أمامي فقلت له ما الحاجة وخفت من الشيخ أن يعز ذلك عليه فرجع المشاعلي وجئت فوجدت الشيخ على حاله كما تركته فقال لي: ما فعلت؟ فقلت له:

ببركتك أكرمني وهو لا يعرفني ولا أعرفه ووصفت له تفصيل ما كان منه فتبسم الشيخ وقال لي: يا حامد أنا أكرمتك ما كان الخادم الذي أكرمك لا شك أني رأيتك كثير الجزع عليّ لعلتي فأردت أن أريح سرك فأمرتك أن تمشي إليه وخفت عليك منه لئلا يفعل معك ما يفعله مع الناس من الإهانة والطرد فترجع منكسراً فتجردت عن هيكلي وتصورت لك في صورته فأكرمتك وعظمت قدرك وفعلت معك ما رأيت إلى أن انفصلت وهذا دواؤك لا أستعمله، فبقيت مبهوتاً، فقال لي: لا تعجل ارجع إليه وانظر إلى ما يفعل بك، قال: فجئت إليه وسلمت عليه فلم يقبل عليّ وطردت، فذهبت متعجباً فرجعت إلى الشيخ فقصصت إليه ما جرى لي فقال ما قلت لك فقلت له: عجباً كيف رجعت خادماً أسود؟ فقال: الأمر كما رأيت. ومثل هذه الحكاية عن الرجال كثير. وهذا يشبه علم السيمياء وليس بعلم السيمياء، والفرق بيننا في هذا المقام وبين علم السيمياء أنك إذا أكلت بالسيمياء أكلت ولا تجد شبعاً، والذي يقبض عندك مما تقبضه من هذا العلم إنما ذلك في نظرك ثم تطلبه فلا تجده، وإذا أراك صاحب هذا العلم السيماوي تدخل الحمام ثم ترجع إلى نفسك لا ترى لذلك حقيقة بل كل ما تراه بطريق السيمياء إنما هو مثل ما يرى النائم فإذا انتبه لم يجد شيئاً مما رآه، فإن صاحب علم السيمياء له سلطان وتحكم على خيالك بخواص الأسماء أو الحروف أو القلقطيرات، فإن السيمياء لها ضروب أكثفها القلقطيرات وألطفها التلفظ بالكلام الذي يخطف به بصر الناظر عن الحس ويصرفه إلى خياله فيرى مثل ما يرى النائم وهو في يقظته، وهذا المقام الذي ذكرناه ليس كذلك، فإنك إن أكلت به شبعت وإن مسكت فيه شيئاً من ذهب أو ثياب أو ما كان بقي معك على حاله لا يتغير، وقد وجدنا هذا المقام من نفوسنا وأخذناه ذوقاً في أوّل سلوكنا مع روحانية عيسى عليه السلام، ولهذا قال عليه السلام وقد نهى عن الوصال فقيل له إنك تواصل فقال ﷺ: «**لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنّي أَبِيتُ مَعِي مُطْعِمٌ يُطْعِمُنِي وَسَاقٍ يَسْقِينِي**» وفي رواية: «**يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي**» فلم يكن من تلك الجماعة التي خاطبها في ذلك الوقت من له هذا المقام ولم يقل لست كهيئة الناس، فكان إذا أكل شبع وواصل على قوّة معتادة. ولما كان الأكل في حضرة الخيال لا في حضرة الحس صح أن يكون مواصلاً، وقد رأينا أن جبريل ظهر في صورة الحس رجلاً معروفاً كظهوره في صورة دحية وفي وقت رجلاً غير معروف ولم يبلغنا أنه ظهر في عالم الغيب في الملائكة في صورة غيره من الملائكة، فجبريل لا يظهر في الملائكة وفي عالم الغيب في صورة ميكائيل أو إسرافيل ولهذا قال تعالى عنه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] وقد رأينا من له قوة التمثل من البشر يظهر في البشر في صورة بشر آخر غير صورته، فيظهر زيد في صورة عمرو، وليس للملك ذلك في عالم الغيب، وكما ظهر جبريل في صورة البشر يظهر الإنسان في عالم الغيب عند الملائكة في صورة ملك من الملائكة أيّ صورة ملك شاء، وأعجب من هذا أن بعض الرجال من المحبين من أهل هذه الطريقة دخل على شيخ فتكلم له الشيخ في المحبة وقد رآه بعض الحاضرين قد دخل عليه فما زال ذلك المحب يذوب في نفسه حساً من كلام ذلك الشيخ في المحبة لقوّة

تحقق ذلك المحب إلى أن رجع بين يدي ذلك الشيخ كفاً من ماء فدخل عليه رجال فسألوه عن ذلك المحب أين هو فإنا ما رأيناه خرج ؟ فقال: هذا الماء هو ذلك المحب الذي بين يدي، فنظروا إلى ماء قليل على الحصير بين يدي الشيخ فانظر كيف رجع إلى أصله الذي خلق منه فياليت شعري أين تلك الأجزاء.

فاعلم أن الإنسان في هذا الطريق يعطى من القوّة ما يظهر به في هذه النشأة كما يظهر في النشأة الآخرة التي يظهر فيها على أيّ صورة شاء فإن هذا في أصل هذه الصورة الدنياوية، ولكن لا يصل كل واحد إلى معرفة هذا الأصل وهو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧] وهي هذه النشأة الظاهرة، ثم قال: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] أي هذه النشأة المسواة المعدّلة قابلة لجميع الصور فيجليه الله تعالى في أي صورة شاء، فأعلمنا أن هذه النشأة تعطي القبول لأي صورة كانت، وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] بعد الفراغ من تسوية صورة الإنسان الظاهر فعين له صورة من الصور التي في قوّته وتركيبه أن يقبلها، فإذا علم الإنسان بالكشف الإلهي أنه على أصل وحقيقة تقبل الصور فيتعمل في تحصيل أمر يتوصل به إلى معرفة الأمر، فإذا فتح له فيه ظهر في عالم الشهادة في أي صورة من صور عالم الشهادة شاء، وظهر في عالم الغيب والملكوت في أي صورة من صوره شاء، غير أن الفرق بيننا وبين عالم الغيب أن الإنسان إذا تروحن وظهر للروحانيين في عالم الغيب يعرفون أنه جسم تَرَوْحَنَ، والناس في عالم الشهادة إذا أبصروا روحاً تجسد لا يعلمون أنه روح تجسد ابتداء حتى يعرفوا بذلك كما قال عليه السلام حين دخل عليه الروح الأمين في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر قال الراوي لا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وذكر حديث سؤاله إياه عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وما لها من الشروط فلما فرغ من سؤاله قام ينصرف فلما غاب قال النبي ﷺ لأصحابه: «**أتدرون مَنِ الرَّجُلُ؟**» وفي رواية: «**رُدّوا عليَّ الرَّجُل**» فالتمس فلم يجدوه فقال ﷺ: «**هذا جبْرِيلُ جَاءَ ليعلِّم الناسَ دِينَهُمْ**» غير أن بعض الناس يعرفون الروحانيّ إذا تجسد من خارج من غيره من الناس أو من جنس تلك الصورة التي يظهر فيها وما كل أحد يعرف ذلك، ويفرّقون أيضاً بين الصورة الروحانية المعنوية المتجسدة وبين الصورة الممثلة من داخل بعلامات يعرفونها وقد علمتها وتحققتها، فإني أعرف الروح إذا تجسد من خارج أو من داخل من الصورة الجسمية الحقيقية والعامّة لا تعرف ذلك، والملائكة كلهم يعرفون الإنسان إذا تروحن وظهر فيهم بصورة أحدهم أو بصورة غريبة لم يروا مثلها فيزيدون على عامة البشر بهذا وينقصهم أن يظهروا في عالمهم على صور بعضهم كما نظهر في عالمنا إذا كان لنا هذا المقام في صورة جنسنا، فسبحان العليم الحكيم مقدّر الأشياء والقادر عليها لا إله إلا هو العليم القدير.

واعلم أن أصل هذ الأمر الذي ذكرته في هذه المسألة إنما هو من العلم الإلهيّ في التجلي الإلهيّ، فمن هناك ظهر هذا الأمر في عالم الغيب والشهادة إذ كان العالم بجملته

والإنسان بنسخته والملك بقوّته على صورة مقام التجلي في الصور المختلفة، ولا يعرف حقيقة تلك الصور التي يقع التحوّل فيها على الحقيقة إلا من له مقام التحوّل في أيّ صورة شاء وإن لم يظهر بها، وليس ذلك المقام إلا للعبد المحض الخالص فإنه لا يعطيه مقام العبودية أن يتشبه بشيء من صفات سيده جملة واحدة، حتى أنه يبلغ من قوّته في التحقق بالعبودية أنه يفنى وينسى ويستهلك عن معرفة القوّة التي هو عليها من التحوّل في الصور بحيث أن لا يعرف ذلك من نفسه تسليماً لمقام سيده إذ وصف نفسه بذلك، ولولا هذا الأصل الإلهيّ وأن الحق له هذا وهو في نفسه عليه ما صح أن تكون هذه الحقيقة في العالم، إذ يستحيل أن يكون في العالم أمر لا يستند إلى حقيقة إلهية في صورته التي يكون عليها ذلك الأمر، ولو كان لكان في الوجود من هو خارج عن علم الله، فإنه ما علم الأشياء إلا من علمه بنفسه ونفسه علمه ونحن في علمه كالصور في الهباء، لو كنت تعلم يا فتى من أنت علمت من هو إذ لا يعلم الله إلا من يعلم نفسه، قال ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» فألحق علمك من نفسه وأعلمك أنك لا تعرفه إلا من نفسك، فمن تفطن لهذا المعنى علم ما نقول وما نومىء إليه.

فأمّا حديث التجلي يوم القيامة فأنا أورده إن شاء الله كما ورد في الصحيح، وذلك أنه خرّج مسلم عن أبي سعيد الخدري: أن ناساً في زمن رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نَعَمْ هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ لَيسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدْرِ صَحْواً لَيسَ فِيها سَحَابٌ؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**كَذٰلِكَ لا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ إلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، إذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِتَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كانَتْ تَعْبُدُ فَلاَ يَبْقَى أحد كان يعبد غير الله من الأصْنام والأنْصابِ إلا ويتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَعبر أهلُ الكتابِ قَالَ فَتُدْعَى اليَهُودُ فيقالُ لَهُمْ: ما كُنتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيراً وَنَقُولُ إنَّهُ ابْنُ الله، فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ الله مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: يَا رَبِّ إنَّا عَطِشْنَا فَاسْقِنَا فَيُشَارُ إلَيهِم أَلاَ تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إلَى النَّارِ كَأَنَّها سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضاً فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ ثُمَّ تُدْعَى النَّصَارَى فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ المَسِيحَ وَنَقُولُ إنَّه ابْنُ الله، فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ الله مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ، وَيُقَالُ لَهُمْ مَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا عَطِشْنَا يا رَبِّ فَاسْقِنَا قَالَ: فَيُشَارُ إلَيهِمْ أَلاَ تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُها بَعْضاً فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّى إذَا لَمْ يَبْقَ إلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ فَيَأْتِيهِم رَبُّ العَالَمِينَ تَبَارَكَ وَتَعَالى في أَدْنَى صُورةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا قَالَ: فَيَقُولُ: مَاذَا تَنْتَظِرُونَ؟ لِتَتْبَعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إلَيهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ، قَالَ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بالله مِنْكَ لاَ نُشْرِكُ بالله شَيْئاً مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثَاً حَتَّى إنَّ بَعْضَهُم لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ آيَة تَعْرِفُونَها؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، قَالَ: فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ فَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لله مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إلاَّ أُذِنَ لَهُ بِالسُّجُودِ وَلاَ**

يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً ورِيَاءً إلاَّ جَعَلَ الله ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ ثُمَّ يَرْفعُونَ رُؤُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ في صُورتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيها أَوَّل مرَّةٍ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكم، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ أَنْتَ رَبُّنا قَالَ: ثُمَّ يُضربُ الجِسْرُ على جَهَنَّمَ وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ» الحديث إلى آخره.

وقد طال الكلام، فلنذكر ما يحوي عليه هذا المنزل من العلوم، فمن ذلك علم الاسم القيوم واختلف في أصحابنا هل يتخلق به أم لا؟ فكان الشيخ أبو عبد الله بن جنيد القبرفيقي من كبار مشايخ هذه الطريقة بالأندلس وكان معتزلياً سمعته يمنع التخلق به وفاوضته في ذلك مراراً في محله بحضور أصحابه بقبرفيق من أعمال رنده إلى أن رجع إلى قولنا من التخلق بالقيوم كسائر الأسماء الإلهية، وفيه علم نشء عالم الغيب، وفيه علم مقادير عالم الغيب، وفيه علم وصف كلام الله بالتتابع، وفيه علم تنزل الأرواح وما يجده من تنزل عليه من الثقل وضيق النفس، ولقد كنت انقطعت في القبور مدة منفرداً بنفسي فبلغني أن شيخنا يوسف بن يخلف الكرميّ قال: إن فلاناً وسماني ترك مجالسة الأحياء وراح يجالس الأموات فبعثت إليه لو جئتني لرأيت من أجالس، فصلى الضحى وأقبل إلي وحده فطلب عليّ فوجدني بين القبور قاعداً مطرقاً وأنا أتكلم على من حضرني من الأرواح فجلس إلى جانبي بأدب قليلاً قليلاً فنظرت إليه فرأيته قد تغير لونه وضاق نفسه فكان لا يقدر أن يرفع رأسه من الثقل الذي نزل عليه وأنا أنظر إليه وأتبسم فلا يقدر أن يتبسم لما هو فيه من الكرب، فلما فرغت من الكلام وصدر الوارد خفف عن الشيخ واستراح وردّ وجهه إليّ فقبل بين عينيّ فقلت له: يا أستاذ من يجالس الموتى أنا أو أنت؟ قال: لا والله بل أنا أجالس الموتى، والله لو تمادى عليّ الحال فطست وانصرف وتركني فكان يقول: من أراد أن يعتزل عن الناس فليعتزل مثل فلان، وفيه علم استقامة عالم الغيب وعصمته من المخالفة وأنه عالم الوفاق، وفيه علم ما تواطأت عليه القوى الإنسانية، وعلم ما اختلفت فيه فعين تجمعها وعين تفرقها، وفيه علم الأسماء التي تعطي الذكر في كل ذاكر وما حضرتها وما أثرها، وفيه علم الانفراد بالحق وما الذي يدعوه إلى ذلك وهل يصح في الملأ الانفراد أو لا يصح إلا بكلية الإنسان ظاهراً وباطناً، وفيه علم أسماء الجهات من حضرة الربوبية، وفيه علم توحيد كل حضرة، وفيه علم ملك الملك وهو علم تصريف الخلق الحق وهو مقام عزيز، وفيه علم السياسة في ترك أبناء الجنس، وفيه علم الوعيد وفيه علم الرسالة ومن أين بعثت الرسل ولمن بعثت من صفات الإنسان وما مقام الرسول من المرسل إليه؟ وفيه علم الموطن الذي يلحق الأصاغر بالأكابر بالخاصية وهو علم انطواء الزمان كانطواء ألف سنة من الزمان في يوم من أيام الرب، وانطواء خمسين ألف سنة من الزمان عندنا في يوم من أيام ذي المعارج وهو كاللمحة في عالمه، وكانطواء ثلاثمائة يوم وستين يوماً من أيام الزمان المعلوم في يوم من أيام الشمس، ولكل كوكب من السيارة والثوابت أيام تقدر لها من الأيام الزمانية بقدر اتساعها وهو من علوم هذا المنزل، وفيه علم إثبات المشيئة للعبد من أي حضرة هي وأي اسم إلهي ينظر إليها، وفيه علم تقلب الإنسان في

عالم الغيب بين دخول وخروج، وفيه علم المقادير والأوزان وما يعطى بالكيل والميزان فإنه قد ورد أن العقل يعطى بالمكيال والأعمال بالميزان، وفيه علم الرفق بالكون والتخلق به وما اسمه في الأسماء الإلهية، وفيه علم عجز العالم عن إدراك ما لا يمكن إدراكه ليتميز بذلك العبد فيعرف قدره، وفيه علم السفر والمسافر والطريق، وفيه علم ما يسافر من أجله وهل حصوله من عين المنة أم لا؟ وهل يكون العالم المكتسب من عين المنة؟ وإن كان فبماذا يقع الفرقان بين العلمين وكلاهما من عين المنة؟ وفيه علم إنشاء صور الأعمال، وفيه علم المقارضة الإلهية ولماذا يرجع؟ وما فهمت من ذلك طائفة حتى قالت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] حين قال لهم الله ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ﴾ [المزمل: ٢٠] فقالت: إن رب محمد يطلب منا القرض، وفيه علم الستر ورحمة الاختصاص، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني عشر وثلاثمائة

في معرفة منزل كيفية نزول الوحي على قلوب الأولياء وحفظهم في ذلك من الشياطين من الحضرة المحمدية

[البسيط]

قُلْ لِلَّذي خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقِ ... لَقَد رَبَطْتَ به مَوَاثِقَ العُلَقِ
قل للذي خلق الإنسان من علقٍ ... لقد أتيتَ به جَمْعاً على نَسَقِ
قل للذي خلق الإنسان من علق ... الحَقُّ أبلجُ بين النَّصِّ والعَنَقِ
قل للذي خلق الإنسان من علق ... جعلتُ عَهْدَكَ بالتوحيد في عُنُقي
قل للذي خلق الإنسان من علق ... كيف التَّخَلُّقُ بالأسماء والخُلُقِ
قل للذي خلق الإنسان من علق ... لا تَحْجُبَنِّي فهذا آخرُ الرَّمَقِ
قل للذي خلق الإنسان من علق ... العلمُ عند الْتِجَام الناسِ بالعَرَقِ
قل للذي خلق الإنسان من علق ... أعْلَمْتَني أنّ عَيْنَ الأمر في النَّفقِ
لأنَّ لي بَصَراً لا جَفْنَ يَحْصُرُهُ ... وأنّ لي بصراً قد حُفَّ بالحَدَقِ
قل للذي خلق الإنسان من علق ... لقد جعلت وجود الكون في طَبَقِ
لكنني إذْ رأيتُ الأمْرَ من جهتي ... كان الوجود الذي شاهدتُ عن طبقِ
فالكلُّ في ظُلَمِ الأطْباق مُنْحَصِرٌ ... لذا تراه كثيرَ الشَّوقِ والقَلَقِ
فصاحبُ القَلَقِ المَشْهُودُ ظاهِرُهُ ... يَرَى الحقائقَ في الأسْحَارِ والغَسَقِ
وصاحبُ الغَسَقِ المشهودُ باطِنُهُ ... يرى الحقائق في الأنوار والفَلَقِ
فالكلُّ في حضرة التقييد ما بَرِحُوا ... فإنْ أتاه سِرَاجٌ مِنْهُ لم يُطِقِ
فلا يزال على بَلْوَى تقلُّبُهُ ... فيها وتُزْعِجُه لَوَاعِجُ الحُرَقِ
وزاده عِشْقُهُ فيه مكابدةً ... والعشقُ لفظةٌ اشْتُقَّتْ مِنَ العَشَقِ

أعلاه في جنسه فيه كأسفله فالقيدُ في قَدَم والغلُّ في عُنُقِ
فالرُّوحُ يمسكه جسمٌ يدبِّره والجسمُ يُمْسِكُهُ تَوَافُقُ الفِرَقِ

أريد بتوافق الفرق اجتماع الطبائع التي وجد عنها الجسم.

اعلم أن المعلومات ثلاثة لا رابع لها، وهي: الوجود المطلق الذي لا يتقيد وهو وجود الله تعالى الواجب الوجود لنفسه. والمعلوم الآخر العدم المطلق الذي هو عدم لنفسه وهو الذي لا يتقيد أصلاً وهو المحال وهو في مقابلة الوجود المطلق فكانا على السواء حتى لو اتصفا لحكم الوزن عليهما، وما من نقيضين متقابلين إلا وبينهما فاصل به يتميز كل واحد من الآخر وهو المانع أن يتصف الواحد بصفة الآخر، وهذا الفاصل الذي بين الوجود المطلق والعدم لو حكم الميزان عليه لكان على السواء في المقدار من غير زيادة ولا نقصان، وهذا هو البرزخ الأعلى وهو برزخ البرازخ له وجه إلى الوجود ووجه إلى العدم، فهو يقابل كل واحد من المعلومين بذاته وهو المعلوم الثالث وفيه جميع الممكنات وهي لا تتناهى كما أنه كل واحد من المعلومين لا يتناهى، ولها في هذا البرزخ أعيان ثابتة من الوجه الذي ينظر إليها الوجود المطلق، ومن هذا الوجه ينطلق عليها اسم الشيء الذي إذا أراد الحق إيجاده قال له ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وليس له أعيان موجودة من الوجه الذي ينظر إليه منه العدم المطلق ولهذا يقال له: ﴿كُن﴾ وكن حرف وجوديّ فإنه لو أنه كائن ما قيل له ﴿كُن﴾ وهذه الممكنات في هذا البرزخ بما هي عليه وما تكون إذا كانت مما تتصف به من الأحوال والأعراض والصفات والأكوان، وهذا هو العالم الذي لا يتناهى وما له طرف ينتهي إليه وهو العامر الذي عمر الأرض التي خلقت من بقية خميرة طينة آدم عليه السلام عمارة الصور الظاهرة للرائي في الجسم الصقيل عمارة إفاضة، ومن هذا البرزخ هو وجود الممكنات، وبها يتعلق رؤية الحق للأشياء قبل كونها، وكل إنسان ذي خيال وتخيل إذا تخيل أمراً ما فإن نظره يمتدّ إلى هذا البرزخ وهو لا يدري أنه ناظر ذلك الشيء في هذه الحضرة، وهذه الموجودات الممكنات التي أوجدها الحق تعالى هي للأعيان التي يتضمنها هذا البرزخ بمنزلة الظلالات للأجسام بل هي الظلالات الحقيقية وهي التي وصفها الحق سبحانه بالسجود له مع سجود أعيانها، فما زالت تلك الأعيان ساجدة له قبل وجودها فلما وجدت ظلالاتها وجدت ساجدة لله تعالى لسجود أعيانها التي وجدت عنها من سماء وأرض وشمس وقمر ونجم وجبال وشجر وداوب وكل موجود، ثم لهذه الظلالات التي ظهرت عن تلك الأعيان الثابتة من حيث ما تكوّنت أجساماً ظلالات أوجدها الحق لها دلالات على معرفة نفسها من أين صدرت، ثم إنها تمتد مع ميل النور أكثر من حد الجسم الذي تظهر عنه إلى ما لا يدركه طولاً ومع هذا ينسب إليه، وهو تنبيه أن العين التي في البرزخ التي وجدت عنها لا نهاية لها كما قررناه في تلك الحضرة البرزخية الفاصلة بين الوجود المطلق والعدم المطلق، وأنت بين هذين الظلالين ذو مقدار، فأنت موجود عن حضرة لا مقدار لها ويظهر عنك ظل لا مقدار له، فامتداده يطلب تلك الحضرة البرزخية، وتلك الحضرة البرزخية هي ظل الوجود المطلق من الاسم النور الذي

ينطلق على وجوده فلهذا نسميها ظلاً، ووجود الأعيان ظل لذلك الظل، والظلالات المحسوسة ظلالات هذه الموجودات في الحس، ولما كان الظل في حكم الزوال لا في حكم الثبات وكانت الممكنات وإن وجدت في حكم العدم سميت ظلالات ليفصل بينها وبين من له الثبات المطلق في الوجود وهو واجب الوجود، وبين من له الثبات المطلق في العدم وهو المحال لتتميز المراتب، فالأعيان الموجودات إذا ظهرت ففي هذا البرزخ هي فإنه ما ثم حضرة تخرج إليه ففيها تكتسب حالة الوجود والوجود فيها متناه ما حصل منه والإيجاد فيها لا ينتهي، فما من صورة موجودة إلا والعين الثابتة عينها والوجود كالثوب عليها، فإذا أراد الحق أن يوحي إلى ولي من أوليائه بأمر ما تجلى الحق في صورة ذلك الأمر لهذه العين التي هي حقيقة ذلك الولي الخاص، فيفهم من ذلك التجلي بمجرد المشاهدة ما يريد الحق أن يعلمه به فيجد الولي في نفسه علم ما لم يكن يعلم، كما وجد النبي عليه السلام العلم في الضربة وفي شربه اللبن، ومن الأولياء من يشعر بذلك ومنهم من لا يشعر به، فمن لا يشعر يقول: وجدت في خاطري أمر كذا وكذا ويكون ما يقول على حد ما يقول، فيعرف من يعرف هذا المقام من أي مقام نطق هذا الولي وهو أتم ممن لا يعرف، وتلك حضرة العصمة من الشياطين فهو وحي خالص لا يشوبه ما يفسده، وإن اشتبه عليك أمر هذا البرزخ وأنت من أهل الله فانظر في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠] أي لولا ذلك البرزخ لم يتميز أحدهما عن الآخر ولأشكل الأمر وأدى إلى قلب الحقائق، فما من متقابلين إلا وبينهما برزخ لا يبغيان أي لا يوصف أحدهما بوصف الآخر الذي به يقع التميز وهو محل دخول الجنة التي لا تنال إلا برحمة الله، ولهذا لا يصح أن يكون له عمل وهو حال الدخول إليها، فلا تتصف بأنك قد دخلت ولا بأنك خارج، وهو خط متوهم يفصل بين خارج الجنة وداخلها، فهو كالحال الفاصل بين الوجود والعدم فهو لا موجود ولا معدوم، فإن نسبته إلى الوجود وجدت فيه منه رائحة لكونه ثابتاً، وأن نسبته إلى العدم صدقت لأنه لا وجود له، والعجب من الأشاعرة كيف تنكر على من يقول أن المعدوم شيء في حال عدمه وله عين ثابتة ثم يطرأ على تلك العين الوجود وهي تثبت الأحوال اللهم منكر الأحوال لا يتمكن له هذا. ثم إن هذا البرزخ الذي هو الممكن بين الوجود والعدم سبب نسبة الثبوت إليه مع نسبة العدم هو مقابلته للأمرين بذاته، وذلك أن العدم المطلق قام للوجود المطلق كالمرآة فرأى الوجود فيه صورته فكانت تلك الصورة عين الممكن، فلهذا كان للممكن عين ثابتة وشيئية في حال عدمه، ولهذا خرج على صورة الوجود المطلق، ولهذا أيضاً اتصف بعدم التناهي فقيل فيه إنه لا يتناهى، وكان أيضاً الوجود المطلق كالمرآة للعدم المطلق، فرأى العدم المطلق في مرآة الحق نفسه فكانت صورته التي رأى في هذه المرآة هو عين العدم الذي اتصف به هذا الممكن وهو موصوف بأنه لا يتناهى، كما أن العدم المطلق لا يتناهى فاتصف الممكن بأنه معدوم، فهو كالصورة الظاهرة بين الرائي والمرآة لا هي عين الرائي ولا غيره، فالممكن ما هو من حيث ثبوته عين الحق ولا غيره ولا هو من حيث عدمه عين المحال ولا غيره فكأنه أمر

إضافي، ولهذا نزعت طائفة إلى نفي الممكن وقالت ما ثم إلا واجب أو محال ولم يتعقل لها الإمكان، فالممكنات على ما قررناه أعيان ثابتة من تجلي الحق معدومة من تجلي العدم، ومن هذه الحضرة علم الحق نفسه فعلم العالم وعلمه له بنفسه أزلاً فإن التجلي أزلاً وتعلق علمه بالعالم أزلاً على ما يكون العالم عليه أبداً مما ليس حاله الوجود لا يزيد الحق به علماً ولا يستفيد ولا رؤية تعالى الله عن الزيادة في نفسه والاستفادة.

فإن قلت: فإن أحوال الممكنات مختلفة وإذا كان الممكن في حالة له مقابل لم يكن في الأخرى وبظهور إحداهما تنعدم الأخرى فمن أين كان العلم له بهذه المرتبة؟ قلنا له: إن كنت مؤمناً فالجواب هين وهو أنه علم ذلك من نفسه أيضاً واكتسى الممكن هذا الوصف من خالقه وقد ثبت لك النسخ الإلهي في كلام الحق بما شرع، وقد ثبت عندك تجلي الحق في الدار الآخرة في صور مختلفة فأين الصورة التي تحول إليها من الصورة التي تحول عنها؟ فهذا أصل تقلب الممكنات من حال إلى حال يتنوع لتنوّع الصور الإلهية.

فإن قلت: فهذا التنوّع ما متعلقه هل متعلقه الإرادة؟ قلنا: لا فإنه ليس للإرادة اختيار ولا نطق بها كتاب ولا سنة ولا دل عليها عقل وإنما ذلك للمشيئة فإن شاء كان وإن شاء لم يكن، قال عليه السلام: «**مَا شَاءَ الله كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ**» فعلق النفي والإثبات بالمشيئة، وما ورد مالم يرد لم يكن بل ورد لو أردنا أن يكون كذا لكان كذا فخرج من المفهوم الاختيار، فالإرادة تعلق المشيئة بالمراد وهو قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ [النحل: ٤٠] هذا تعلق المشيئة، وقد ذهب بعض الناس من أهل الطريق أن المشيئة هي عرش الذات وهو أبو طالب أي ملكها أي بالمشيئة ظهر كون الذات ملكاً لتعلق الاختيار بها، فالاختيار للذات من كونها إلهاً فإن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، وهو التردد الإلهي في الخبر الصحيح: «**ما تَرَدَّدْتُ في شيء أنا فاعلُه تَرَدُّدي في قَبْضِ نَسَمَةِ المؤمن يَكْرَهُ المَوْتَ**» والعلم للذات من كونه ذاتاً، ولهذا تظهر رائحة الجبر مع العلم ويظهر الاختيار مع المشيئة، فما حكم وسبق به العلم لا يتبدل عقلاً ولا شرعاً ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٩] ولرائحة الجبر فيه أعقبه ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] لئلا يتوهم متوهم ذلك إذ كان الحكم للعلم فيه فلم أخذ بما هو عليه مجبور غير مختار، ومن علم ما ذكرناه من تجلي الحق في مرآة العدم لظهور صور أعيان الممكنات على صورة الوجوب هان عليه هذا كله وعرف أصله واستراح راحة الأبد، وعلم أن الممكن ما خرج عن حضرة إمكانه لا في حال وجوده ولا في حال عدمه، والتجلي له مستصحب والأحوال عليه تتحوّل وتطرأ، فهو بين حال عدمي وحال وجودي والعين هي تلك العين، وهذا من العلم المكنون الذي قيل فيه: إنّ من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العالمون بالله، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله، ولهذا كان الجن والأرواح لو بعث إليهم أحسن رداً على النبي ﷺ حين كان يقرأ عليهم القرآن من الإنس وكذا قال لأصحابه وذلك لأنهم إلى هذه الحضرة أقرب نسبة وإلى عالم الغيب فإن لهم التحوّل في الصور ظاهراً وباطناً، فكان استماعهم لكلام الله أوثق وأحسن للمشاركة في سرعة التنوّع والتقلب من حال إلى حال وهو

من صفات الكلام، فهم بالصفة إليه أقرب مناسبة وأعلم بكلام الله منا، ألا تراهم لما منعوا السمع وحيل بينهم وبين السماء بالرجوم قالوا: ما هذا إلا لأمر حدث، فأمر زوبعة أصحابه وغيره أن يجولوا مشارق الأرض ومغاربها لينظروا ما هذا الأمر الذي حدث وأحدث منعهم من الوصول إلى السماء، فلما وصل أصحاب زوبعة إلى تهامة مروا بنخلة فوجدوا رسول الله ﷺ يصلي صلاة الفجر وهو يقرأ فلما سمعوا القرآن أصغوا إليه وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فلولا معرفتهم برتبة القرآن وعظم قدره ما تفطنوا لذلك ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١] ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ١ - ٣] وكذلك لما قرأ عليهم سورة الرحمن ليلة الجن ما مر بآية يقول فيها: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ولما تلاها رسول الله ﷺ بعد ذلك على أصحابه من الإنس لم يقولوا شيئاً مما قالته الجن، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«إني تلوتها على إخوانكم من الجن فكانوا أحسن استماعاً لها منكم ما قيل لهم ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا وقالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب»**.

ولقد روينا حديثاً غريباً عن واحد من هذه الجماعة من الجن حدثني به الضرير إبراهيم بن سليمان بمنزلي بحلب وهو من دير الرمان من أعمال الخابور عن رجل حطاب ثقة كان قد قتل حية فاختطفته الجن فأحضرته بين يدي شيخ كبير منهم هو زعيم القوم فقالوا له هذا قتل ابن عمنا قال الحطاب: ما أدري ما تقولون وإنما أنا رجل حطاب تعرضت لي حية فقتلتها، فقالت الجماعة: هو كان ابن عمنا، فقال الشيخ رضي الله عنه: خلوا سبيل الرجل وردوه إلى مكانه فلا سبيل لكم عليه فإني سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول لنا: من تصوّر في غير صورته فقتل فلا عقل فيه ولا قود وابن عمكم تصوّر في صورة حية وهي من أعداء الإنس، قال الحطاب: فقلت له: يا هذا أراك تقول سمعت رسول الله ﷺ هل أدركته؟ قال نعم أنا واحد من جنّ نصيبين الذين قدموا على رسول الله ﷺ فسمعنا منه وما بقي من تلك الجماعة غيري فأنا أحكم في أصحابي بما سمعته من رسول الله ﷺ، ولم يذكر لنا اسم ذلك الرجل من الجن ولا سألت عن اسمه، وقد حدث بهذا الحديث الشيخ الذي حدّثنا به صاحبي شمس الدين محمد بن برنقش المعظمي وبرهان الدين إسماعيل بن محمد الأيدني بحلب أيضاً فإني كنت أحدثهما بهذا الحديث فلما جئنا مدينة حلب بعثتهما إليه ليحدثهما كما حدثني فحدثهما كما حدثني، فكل عالم برزخي هو أعلم بحضرة الإمكان من غيره من المخلوقين لقرب المناسبة.

ويكفي هذا القدر من هذا المنزل فلنذكر ما يحوي عليه هذا المنزل من العلوم وذلك أنه يحوي على علم الأمر الإلهي هل له صفة أم لا؟ وهل من شرطه أو من حقيقته الإرادة أم لا؟

وعلم الوحي وضروبه، وعلم السماع، وعلم العالم البرزخي، وعلم الجبروت، وعلم الهدى، وعلم العظمة الإلهية لماذا ترجع وأين تظهر ومن هو الموصوف بها ولمن هي نسبة ولمن هي صفة؟ وعلم التنزيه وعلى من يعود؟ وعلم الحضرة التي أطلق الله منها ألسنة عباده على نفسه بما لا يليق به في الدليل العقلي، وهل لذلك وجه إلهيّ يستند إليه في ذلك أم لا؟ وهو قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] وأن عيسى ابن الله وكذلك عزير و﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] كما حكى الله عنهم وأمثال هذا، وعلم الظن وحكمه والمحمود منه والمذموم وما متعلقة وعلم الإيمان وعلم ما ينبغي أن يستند إليه ممن لا يستند وما صفته وما يجوز من ذلك مما لا يجوز، وعلم مراتب الكواكب، وعلم منازل الروحانيين من السماء، وعلم أحوال الخلق، وعلم الصديقين، وعلم المسابقة بين الله وبين عبده، وعلم المكر والفتن، وعلم القيام بأوامر الله، وعلم مراتب الغيب وما انفرد به الحق من علم الغيب دون خلقه، وما يمكن أن يعلم من الغيب وهل العلم به يزيل عنه اسم الغيب في حق العالم أم لا؟ وقوله تعالى: ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ [التوبة: ٩٤] لماذا يرجع إطلاق الغيب؟ هل لكونه غيباً عنا أو غيباً في نفسه من حيث لم يصفه بتعلق الرؤية فيكون شهادة؟ وعلم العصمة، وعلم تعلق العلم بما لا يتناهى هل يتعلق به على جهة الإحاطة أم لا؟ وعلم قول النبي ﷺ في الأسماء الحسنى: «**مَنْ أَحْصَاها دَخَلَ الجَنَّة**» وما معنى الإحصاء؟ ولماذا يرجع؟ وهل يدخل تحته ما لا يتناهى كما يدخل تحت الإحاطة أو لا يدخل؟ وما الفرق بين الإحاطة والإحصاء؟ فإن الواحد يحاط به ولا يحصى. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث عشر وثلاثمائة

في معرفة منزل البكاء والنوح من الحضرة المحمدية

[الوافر]

أقـول لآدَمُ أَصْـلُ الـجُـسُـوم ... كـمـا أَصْلُ الـرِّسـالـة شَـرْعُ نُـوحِ
وإنَّ مـحـمَّـداً أصـلٌ شـريـفٌ ... عـزيـزٌ فـي الـوُجُـود لـكـلّ رُوحِ
أنـا وَلَـدٌ لآبـاءٍ كِـرَام ... فـنُـوري فـي الإضـاءة مِـثْـلُ يُـوحِ
إذا حَـضَـرُوا وإخـوانـي وُقُـوفٌ ... لِـخِـدْمَـتِـهِـم حَـنَـنْـتُ إلـى الـمَـسِـيحِ
فـإنّـي كـنـتُ تُـبْـتُ عـلـى يَـدَيْـهِ ... وسـاعَـدَنـي عـلـى قَـتْـل الـمَـسِـيـحِ
وذلـك فـي الـمَـنَـام وكـان مُـوسَـى ... نَـجِـيِّـي فـيـه بـالـقَـوْل الـفَـصِـيـحِ
وأعـطـانـي الـغَـزَالـةَ فـي يَـمـيـنـي ... وأفْـهَـمَ بـالإشـارة والـصَّـريـحِ
وأغْـنَـانـي فـرَوَّحَـنِـي عُـلُـوّاً ... وأفْـقَـرنـي فَـأصْـحَـبَـنـي ضَـرِيـحِـي
فـإنْ حَـضَـرُوا وضَـمَّـهُـمُ مَـقَـامٌ ... إلـيـهـم حـيـن أبـصرهـم جُـنُـوحِـي
فـبِـرُّ الـوالـدَيْـن عـلـيَّ فـرضٌ ... فـيـا نـفـسـي عـلـى الـتَّـفْـريط نُـوحِـي
أنـا ابـنُ مُـحَـمَّـد وأنـا ابْـنُ نُـوحِ ... كـمـا أنّـي ابـنُ آدم فـي الـصَّـحِـيـحِ

فيا من يَفْهَمُ الإلْغازَ هذا لسانُ رُموزنا بالعِلْم يُوحِي

اعلم أيدك الله أن أصل أرواحنا روح محمد ﷺ فهو أوّل الآباء روحاً، وآدم أوّل الآباء جسماً، ونوح أوّل رسول أرسل، ومن كان قبله إنما كانوا أنبياء كل واحد على شريعة من ربه، فمن شاء دخل في شرعه معه ومن شاء لم يدخل، فمن دخل ثم رجع كان كافراً ومن لم يدخل فليس بكافر، ومن أدخل نفسه في الفضول وكذب الأنبياء كان كافراً ومن لم يفعل وبقي على البراءة لم يكن كافراً، وأما قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] ليس بنص في الرسالة وإنما هو نص في أن في كل أمة عالماً بالله وبأمور الآخرة وذلك هو النبيّ لا الرسول، ولو كان الرسول لقال إليها ولم يقل فيها، ونحن نقول: إنه كان فيهم أنبياء عالمون بالله، ومن شاء وافقهم ودخل معهم في دينهم وتحت حكم شريعتهم كان ومن لم يشأ لم يكلف ذلك وكان إدريس عليه السلام منهم ولم يجىء له نص في القرآن برسالته بل قيل فيه صدّيقاً نبياً، فأوّل شخص استفتحت به الرسالة نوح عليه السلام، وأوّل روح إنسانيّ وجد روح محمد، وأوّل جسم إنسانيّ وجد جسم آدم، وللوراثة حظ من الرسالة، ولهذا قيل في معاذ وغيره رسول رسول الله وما فاز بهذه الرتبة ويحشر يوم القيامة مع الرسل إلا المحدثون الذين يروون الأحاديث بالأسانيد المتصلة بالرسول عليه السلام في كل أمة فلهم حظ في الرسالة وهم نقلة الوحي وهم ورثة الأنبياء في التبليغ والفقهاء إذا لم يكن لهم نصيب في رواية الحديث فليست لهم هذه الدرجة ولا يحشرون مع الرسل بل يحشرون في عامة الناس، ولا ينطلق اسم العلماء إلا على أهل الحديث وهم الأئمة على الحقيقة، وكذلك الزهاد والعباد وأهل الآخرة من لم يكن من أهل الحديث منهم كان حكمه حكم الفقهاء لا يتميزون في الوراثة ولا يحشرون مع الرسل بل يحشرون مع عموم الناس ويتميزون عنهم بأعمالهم الصالحة لا غير، كما أن الفقهاء أهل الاجتهاد يتميزون بعلمهم عن العامة، ومن كان من الصالحين ممن كان له حديث مع النبيّ ﷺ في كشفه وصحبه في عالم الكشف والشهود وأخذ عنه حشر معه يوم القيامة وكان من الصحابة الذين صحبوه في أشرف موطن وعلى أسنى حالة، ومن لم يكن له هذا الكشف فليس منهم، ولا يلحق بهذه الدرجة صاحب النوم ولا يسمى صاحباً ولو رآه في كل منام حتى يراه وهو مستيقظ كشفاً يخاطبه ويأخذ عنه ويصحح له من الأحاديث ما وقع فيه الطعن من جهة طريقها فهؤلاء الآباء الثلاثة هم آباؤنا فيما ذكرناه، والأب الرابع هو إبراهيم عليه السلام هو أبونا في الإسلام وهو الذي سمانا مسلمين وأقام البيت على أربع أركان فقام الدليل على أربع مفردات متناسبة وكانت النتيجة تناسب المقدمات، فانظر من كانت هذه مقدماته وهو محمد وآدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام ما أشرف ما تكون النتيجة والولد عن هؤلاء الآباء روح طاهر وجسد طاهر ورسالة وشرع طاهر واسم شريف طاهر، ومن كان أبوه هؤلاء المذكورين فلا أسعد منه وهو أرفع الأولياء منصباً ومكانة. ولما كانت النشأة ظهرت في الجنان أولاً واتفق هبوطها إلى الأرض من أجل الخلافة لا عقوبة المعصية فإن العقوبة حصلت بظهور السوءات، والاجتباء والتوبة قد حصلا بتلقي

الكلمات الإلهية فلم يبق النزول إلا للخلافة، فكان هبوط تشريف وتكريم ليرجع إلى الآخرة بالجم الغفير من أولاده السعداء من الرسل والأنبياء والأولياء والمؤمنين، ولكن الخلافة لما كانت ربوبية في الظاهر لأنه يظهر بحكم الملك فيتصرف في الملك بصفات سيده ظاهراً وإن كانت عبوديته له مشهودة في باطنه فلم تعمّ عبوديته جميعه عند رعيته الذين هم أتباعه وظهر ملكه بهم وبأتباعهم والأخذ عنه فكان في مجاورتهم بالظاهر أقرب وبذلك المقدار يستتر عنه من عبوديته، فإن الحقائق تعطي ذلك، ولذلك كثيراً ما ينزل في الوحي على الأنبياء ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [فصلت: ٦] وهذه آية دواء لهذه العلة، فبهذا المقدار كانت أحوال الأنبياء الرسل في الدنيا البكاء والنوح فإنه موضع تتقى فتنته، ومن كان ذلك حاله أعني التقوى والاتقاء كيف يفرح أو يلتذ من يتقي فإن تقواه وحذره وخوفه أن لا يوفي مقام التكليف حقه وعلمه بأنه مسؤول عنه لا يتركه يفرح ولا يسر بعزة المقام، قال ﷺ: «**أَنَا أَتْقَاكُمْ لله وَأَعْلَمُكُمْ بِمَا أَتَّقِي**» حين قالت له الصحابة في اجتهاده: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر بعد قوله المنزل عليه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وأمثال هذا، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] وقال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] وقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وهذا هو حظ الوراثة من النبوة أن يتولى الله تعليم المتقي من عباده فيقرب سنده فيقول: أخبرني ربي بشرع نبيه الذي تعبّده به ممن أخذه أوحى به إليه فهو عال في العلم تابع في الحكم وهم الذين ليسوا بأنبياء، وتغبطهم الأنبياء عليهم السلام في هذه الحالة لأنهم اشتركوا معهم في الأخذ عن الله، وكان أخذ هذه الطائفة عن الله بعد التقوى بما عملوا عليه مما جاءهم به هذا الرسول، فهم وإن كانوا بهذه المثابة وأنتج لهم تقواهم الأخذ عن الله في موازين الرسل وتحت حوطتهم وفي دائرتهم ووقع الاغتباط في كونهم لم يكونوا رسلاً فبقوا مع الحق دائماً على أصل عبودية لم تشبها ربوبية أصلاً، فمن هنا وقع الغبط لراحتهم وإن كانت الرسل أرفع مقاماً منهم، ألا تراهم يوم القيامة: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ولا يداخلهم خوف البتة والرسل في ذلك اليوم في غاية من شدة الخوف على أممهم لا على أنفسهم، والأمم في الخوف على أنفسهم، وهؤلاء في ذلك اليوم لا أثر للخوف عندهم فإنهم حشروا ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

ثم لتعلم بعد أن عرّفتك بعلوّ منصبك أيها الصديق في اتباع ما شرع لك أن الناس غلطوا في الصادقين من عباد الله المثابرين على طاعة الله، واشترط من لا يعرف الأمر على ما هو عليه ولا ذاق طريق القوم أن الداعي إلى الله إذا كان يدعو إلى الله بحالة صدق مع الله أثر في نفوس السامعين القبول فلا تردّ دعوته، وإذا دعا بلسانه وقلبه مشحون بحب الدنيا وأغراضها وكان دعاؤه صنعة لم يؤثر في القلوب ولا تعدى الآذان فيقولون: إن الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب، وإذا خرج من اللسان لم يتعد الآذان، وهذا غاية الغلط، فوالله ما من رسول دعا قومه إلا بلسان صدق من قلب معصوم ولسان محفوظ كثير الشفقة على رعيته

راغب في استجابتهم لما دعاهم إليه، هذه أحوال الرسل في دعائهم إلى الله تعالى وصدقهم ومع هذا يقول ﷺ: «**إنّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيلاً وَنَهاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إلاَّ فِراراً وَإنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ واسْتَغْشَوا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً**» وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] وقال: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [النور: ٥٤] فلو أثر كلام أحد في أحد لصدقه في كلامه لأسلم كل من شافهه النبيّ عليه السلام بالخطاب، بل كذب وردّ الكلام في وجهه وقوتل، فإن لم يكن لله عناية بالسامع بأن يجعل في قلبه صفة القبول حتى يلقى بها النور الإلهيّ من سراج النبوّة كما وصفه تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] ألا ترى الفتيلة إذا كان رأسها يخرج منه دخان وهي غير مشتعلة فإذا سامتت بذلك الدخان السراج اشتعل ذلك الدخان بما فيه من الرطوبة وتعلق فيه النور من السراج ونزل على طريقه حتى يستقر في رأس الفتيلة التي انبعث منها ذلك الدخان إلى السراج فتشتعل الفتيلة وتلحق برتبة السراج في النورية؟ فإن كانت لها مادة دهن وهي العناية الإلهية بقيت مستنيرة ما دام الدهن يمدها، وذلك النور يذهب برطوبات ذلك الدهن الذي به بقاؤه ولم يبق معه للسراج حديث بعد أن ظهر فيه النور وبقي الإمداد من جانب الحق فلا يدري أحد ما يصل إليه، فإن الأنبياء ما دعت لأنفسها الناس وإنما دعتهم إلى ربها، فأيّ قلب اعتنى الله به وقام به حرقة الشوق إلى ذلك الدعاء مثل احتراق رأس الفتيلة ثم انبعث من هذا الشوق همة إلى ما دعاه إليه الرسول في كلامه مثل انبعاث الدخان من تلك النارية التي في رأس الفتيلة وهي قوّة جاذبة فجذبت من نور النبوّة والوحي والهداية ذلك الاشتعال الذي قام بالدخان فرجع به إلى قلب صاحبه فاهتدى واستنار كما اتقدت هذه الفتيلة ثم فارق النبيّ ومشى إلى أهله نوراً فإن اعتنى الله به وأمده بتوفيقه ثبت له في قلبه نور الهداية بذاك الإمداد ولم يبق للرسول بعد ذلك معه شغل إلا بتعيين الأحكام، إلا أن ذلك النور هو نور الإيمان ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] قال عليه السلام عن ربه: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ولم يقل أدعو إلى نفسي، وإلى حرف موضوع للغاية فإذا أجاب المؤمن مشى إلى ربه على الطريقة التي شرع له هذا الرسول، فلما وصل إلى الله تلقاه الحق تلقي إكرام وهبات ومنح وعطايا فصار يدعو إلى الله على بصيرة كما دعا ذلك الرسول وهو قوله حين قال: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨] فأخبر أن من اتبعه يدعو إلى الله أيضاً على بصيرة، فإن كنت عارفاً بمواقع الخطاب الإلهيّ وتنبيهاته وإشاراته فقد عرّفك بحالك مع رسول ﷺ وبحالك معه وقد جعلك على صورة نبيه ﷺ في نوره وإمداده، وأبان لك أن صورتك معه في هذا الأمر صورته أيضاً مع جبريل عليهما السلام الذي اتقدت فتيلته من سراج جبريل واشتعلت نوراً، وكل واحد من السرج ما انتقل نوره عنه بل هو على نوره في نفسه. وانظر إلى من استندت الرسل بعد أخذها عن جبريل عليه السلام هل كان استنادها إلى جبريل أو إلى الله؟ لا والله بل قيل رسول الله وما قيل رسول جبريل، وكذلك من أخذ عن النبوّة مثل هذا النور ودعا إلى الله على

بصيرة فذلك الدعاء والنور الذي يدعو به هو نور الإمداد لا النور الذي اقتبسه من السراج، فلينسب إلى الله في ذلك لا إلى الرسول فيقال: عبد الله وهو الداعي إلى الله عن أمر الله بوساطة رسول الله بحكم الأصل لا بحكم ما فتح الله به عليه في قلبه من العلوم الإلهية التي هي فتح عين فهمه لما جاء به الرسول ﷺ من القرآن والأخبار لا أن هذا الوليّ يأتي بشرع جديد، وإنما يأتي بفهم جديد في الكتاب العزيز لم يكن غيره يعرف أن ذلك المعنى في ذلك الحرف المتلوّ أو المنقول، فللرسل صلوات الله عليهم وسلامه العلم ولنا الفهم وهو علم أيضاً، فإن حققت يا أخي ما أوردناه في هذا الباب وقفت على أسرار إلهية وعلمت مرتبة عباد الله الذين هم بهذه المثابة أين ينتهي بهم ومع من منهم؟ وعمن يأخذون؟ ومن يناجون؟ وإلى من يستندون؟ وأين تكون منزلتهم في الدار الآخرة؟ وهل لهم شركة في المرتبة في الدار الآخرة كما كان لهم شركة هنا في النورية والإمداد الإلهي أم لا؟ فأمّا في الدنيا فليسوا بأنبياء فإنهم عن الأنبياء أخذوا طريقهم وما بقي الأمر إلا في الإمداد هل أثره إبقاء النور الأوّل أو تتجدد لهم الأنوار مع الآنات من الحق كما يتجدد نور السراج باشتعال الهواء من رطوبات الدهن؟ فليس هو ذلك النور الأوّل ولا هو غيره، ولا ذهب ذلك النور ولا بقي عينه، والناظر يرى اتصال الأنوار صورة واحدة في النورية إلا أنه يعرف أنه لولا إمداد الدهن لطفىء، هذا حظ كل مشاهد من ذلك من حيث النظر والصورة ومن حيث المعنى يزيد على النظر معرفة ما يقع به الإمداد وما أثره في ذلك المشهود فيزيد علماً آخر لم يكن عنده، فمن فقد مثل هذا ينبغي أن يطول نوحه وبكاؤه على نفسه جعلنا الله من أهله وممن دعا إلى الله على بصيرة أو انفرد مع الله على بصيرة إنه المليّ بذلك والقادر عليه. وهذا القدر كاف في هذا الباب وقد حصلت الفائدة فلنذكر ما يحوي عليه هذا المنزل من العلوم.

فاعلم أنه يتضمن علم الحقائق الأسمائية، وعلم الرسالة من حيث المكانة التي أرسل منها لا من حيث إنها رسالة، وعلم التخويف هل يخاف الله أو يخاف ما يكون منه؟ وما مشهود من يخاف الله والخوف إنما هو مما يتعلق بك ويحل فيك والحق تعالى منزه الذات عن الحلول في الذوات فما معنى وأعوذ بك منك؟ وعلم طاعة العباد فيماذا يطاعون وهل لهم في تلك الطاعة نصيب بطريق الاستحقاق أو ليس لهم؟ فإن الله يقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠] هذا مقام، ومقام آخر: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢] ومقام آخر: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩] فهذه مقامات كلها تقتضيها الطاعة ويختلف المطاع وتحقيق ذلك عجيب وتفصيل ما يقع فيه الطاعة كذلك، وهل نسبة الطاعة لأولي الأمر كنسبتها إلى الرسول كنسبتها إلى الله أم لا؟ بل تكون مختلفة، وعلم نتائج المخالفات والموافقات، وعلم الفرق بين الأجلين، ولماذا كان الأوّل أجلاً؟ ولماذا كان الآخر أجلاً؟ هل لعين واحدة أم لأمرين مختلفين؟ وعلم أحوال الناس المدعوّين إلى الله ما الذي يحول بينهم وبين الإجابة مع العلم بصدق الداعي، وما الذي يدعوهم إلى الإجابة والمجلس واحد والداعي واحد والدعوة واحدة؟ وعلم الثواب المعجل الحسيّ والمعنويّ، وعلم الاعتبار، وعلم العالم

العلويّ، والعالم السفليّ، وعلم السر الذي قام في المعبودين من دون الله، وما المناسبة التي جمعت بينهم وبين من عبدهم؟ ولماذا شقوا شقاوة الأبد ولم تنلهم المغفرة ولا خرجوا من النار؟ وعلم الغيرة الإلهية والغيرة من كل غيور ولماذا ترجع؟ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع عشر وثلاثمائة
في معرفة منزل الفرق بين مدارج
الملائكة والنبيين والأولياء من الحضرة المحمدية

[الكامل]

تَتَنَزَّلُ الأمْلاكُ من مَلَكُوتِه ... في قَالبِ الأنوار بالأَسْرَارِ
حتى إذا أَلْقَتْ إليَّ عُلُومَهَا ... بدقائق الأذوارِ والأكْوَارِ
من كُلِّ عِلْمٍ ما له مُتَعَلَّقٌ ... إلا بِنَعْتِ الواحدِ القَهَّارِ
عادت إلى أفْلاكِهَا أمْلاكُهَا ... بألُوكَةٍ من حَضْرَةِ الأَبْرَارِ
قد زَانَها حُسْنُ التَّلَقِّي فَانْثَنَتْ ... بالصُّورَتَيْن حميدةَ الآثارِ
وتَيَقَّنَتْ أنّ المَعَارِفَ إنّما ... وُهِبَتْ لأهْلِ العلمِ بالأسْرارِ
وَقَدِ اشْتَهَتْ طُولَ المقام بساحتي ... لخُرُوجها فيها عَنِ الأطْوَارِ

اعلم أيدك الله أيها الولي الحميم أن الله تعالى لما خلق الخلق قدرهم منازل لا يتعدّونها فخلق الملائكة ملائكة حين خلقهم، وخلق الرسل رسلاً، والأنبياء أنبياء، والأولياء أولياء، والمؤمنين مؤمنين، والمنافقين منافقين، والكافرين كافرين، كل ذلك مميز عنده سبحانه معين معلوم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم ولا يبدّل أحد بأحد، فليس لمخلوق كسب ولا تعمل في تحصيل مقام لم يخلق عليه بل قد وقع الفراغ من ذلك ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يسٓ: ٣٨] فمنازل كل موجود وكل صنف لا يتعدّاها ولا يجري أحد في غير مجراه قال تعالى في شأن الكواكب: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يسٓ: ٤٠] وهكذا كل موجود له طريق تخصه لا يسلك عليها أحد غيره روحاً وطبعاً، فلا يجتمع اثنان في مزاج واحد أبداً، ولا يجتمع اثنان في منزلة واحدة أبداً، فلا يكون الإنسان ملكاً أبداً، ولا الملك إنساناً، ولا الرسول غيره أبداً، ولكل مدرجة عن الله تعالى لكل صنف بل لأشخاص كل نوع خواص تخصها لا ينالها إلا السالك عليها، ولو جاز أن يسلك غيره على تلك المدرجة لنال ما فيها وإن جمع الجنس منزل واحد والنوع منزل واحد، وهكذا كل نوع من الأنواع التي تحت كل جنس من الأجناس، وكذلك كل جنس من الأجناس إلى جنس الأجناس كذلك إلى النوع الأخير، كما تجمع الرسالة الرسل ويفضل بعضهم بعضاً، والأنبياء النبوة ويفضل بعضهم بعضاً، هذا وإن كانت الكواكب تقطع في فلك واحد وهو فلك البروج فلكل واحد منها فلك يخصه يسبح فيه لا يشاركه فيه غيره، فهكذا الأمر في الجميع أعني في المخلوقات وإن جمعهم مقام فإنه يفرّقهم مقام، فالفلك الكبير الذي يجمع العالم كله فلك الأسماء الإلهية فيه يقطع كل شخص في العالم فهي

منازله المقدّرة لا يخرج عنها بوجه من الوجوه، ولكن يسبح فيه بفلكه الخاص به الذي أوجده الحق، فلا يذوق غيره ذوقه من فلك الأسماء، ولو ذاقه لكان هو ولا يكون هو أبداً فلا يجمع اثنين منزل أبداً لاتّساع فلك الأسماء الإلهية. فكلّ من ادعى من أهل الطريق أنه خرج عن الأسماء الإلهية فما عنده علم بما هي الأسماء ولا يعلم ما معنى الأسماء وكيف يخرج عن إنسانيته الإنسان أو عن ملكيته الملك، ولو صح هذا انقلبت الحقائق وخرج الإله عن كونه إلهاً وصار الحق خالقاً والخلق حقاً وما وثق أحد بعلم، وصار الواجب ممكناً ومحالاً والمحال واجباً وانفسد النظام، فلا سبيل إلى قلب الحقائق، وإنما يرى الناظر الأمور العرضية تعرض للشخص الواحد وتنتقل عليه الحالات ويتقلب فيها فيتخيل أنه قد خرج عنها، وكيف يخرج عنها وهي تصرّفه وكل حال ما هو عين الآخر، فطرأ التلبيس من جهله بالصفة المميزة لكل حال عن صاحبه ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وإن سبح الكل في فلك الرسالة فأين قطع الهلال من قطع النسر؟ وذلك أن في الأمر اتساعاً وضيقاً ونشراً وطياً الحس حقيقة واحدة يقطع في فلكها الحواس فأين اللمس من البصر؟ اللمس لا يدرك الملموس كونه خشناً أو ليناً إلا بغاية من القرب، فإذا لمسه عرفه، والبصر عندما تفتح عينك وترسله في المبصرات علواً كان زمان فتحه زمان إدراكه فلك البروج فأين مسافة ما يقطعه البصر من مسافة ما يقطعه اللمس لو أرادت حاسة اللمس تدرك ملوسة فلك البروج أو خشونته لو كان خشناً متى كانت تصل إلى ذلك؟ ومع هذا فقد جمعهما الحس، وكذلك السمع والشم والطعم، فانظر ما بين هذه الحقائق من التباين وطبقاتها من التفاضل، وأين اتساع أفلاكها من اتساع أفلاك القوى الروحانية في الإنسان؟ ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يسٓ: ٣٨].

وإذا علمت هذا علمت أن النبوّة اختصاص إلهيّ وأن الرسالة كذلك والولاية والإيمان والكفر وجميع الأحوال وأن الكسب اختصاص، فإن الملائكة ما لها كسب بل هي مخلوقة في مقاماتها لا تتعداها فلا تكتسب مقاماً وإن زادت علوماً ولكن ليس عن فكر واستدلال لأن نشأتهم لا تعطي ذلك مثل ما تعطيه نشأة الإنسان والقوى التي هم عليها الملائكة المعبر عنها بالأجنحة كما قال عز وجل: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١] وقد صح في الخبر **«أن جبريل له ستمائة جناح»**، فهذه القوة الروحانية ليس لها في كل ملك تصرّف فيما فوق مقام صاحبها مثل الطائر عندنا الذي يهوي سفلاً ويصعد علواً، وأجنحة الملائكة إنما تنزل بها إلى من هو دونها وليس لها قوّة تصعد بها فوق مقامها فإذا نزلت بها من مقامها إلى ما هو دونه رجعت علواً من ذلك الذي نزلت إليه إلى مقامها لا تتعدّاه، فما أعطيت الأجنحة إلا من أجل النزول، كما أن الطائر ما أعطي الجناح إلا من أجل الصعود، فإذا نزل بطبعه وإذا علا بجناحه، والملك على خلاف ذلك إذا نزل بجناحه وإذا علا علا بطبعه، وأجنحة الملائكة للنزول إلى ما دون مقامها، والطائر جناحه للعلوّ إلى ما فوق مقامه وذلك ليعرف كل موجود عجزه، وأنه لا يتمكن له أن يتصرّف بأكثر من طاقته التي أعطاه الله إياها، فالكل تحت ذل الحصر والتقييد والعجز لينفرد جلال الله بالكمال في الإطلاق لا إله إلا هو العليّ الكبير.

فإذا تقرر هذا فاعلم أن للملائكة مدارج ومعارج يعرجون عليها ولا يعرج من الملائكة إلا من نزل فيكون عروجه رجوعاً إلا أن يشاء الحق تعالى فلا تحجير عليه، وإنما كلامنا في الوقع في الوجود، وإنما سمي النزول من الملائكة إلينا عروجاً والعروج إنما هو لطالب العلو لأن الله في كل موجود تجلياً ووجهاً خاصاً به يحفظه ولا سيما وقد ذكر أنه سبحانه وسعه قلب عبده المؤمن، ولما كان للحق سبحانه صفة العلوّ على الإطلاق سواء تجلى في السفل أو في العلوّ فالعلوّ له، والملائكة أعطاهم الله من العلم بجلاله بحيث إذا توجهوا من مقامهم لا يتوجهون إلا لله لا لغيره، فلهم نظر إلى الحق في كل شيء ينزلون إليه، فمن حيث نظرهم إلى ما ينزلون إليه يقال: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [القدر: ٤] ومن حيث إنهم ينظرون إلى الحق سبحانه عند ذلك الأمر الذي إليه وله سبحانه مرتبة العلوّ يقال: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [المعارج: ٤] فهم في نزولهم أصحاب عروج فنزولهم إلى الخلق عروج إلى الحق، وإذا رجعوا منا إلى مقاماتهم يقال إنهم عرجوا بالنسبة إلينا وإلى كونهم يرجعون إلى الحق لغرض ما بأيديهم مما نزلوا إليه، فكل نظر إلى الكون ممن كان فهو نزول، وكل نظر إلى الحق ممن كان فهو عروج فافهم.

ثم إن الله عين للرسل معارج يعرجون عليها ما هي معارج الملائكة، وعين للأتباع أتباع الرسل معارج يعرجون عليها وهم أتباع الأتباع فإن الرسول تابع للملك والولي تابع للرسول، ولهذا قيل للرسول: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤] فهو مصغ تابع للملك ونحن مع الرسول بهذه المثابة، فإذا نزل الملك بالوحي على الرسول وتلقاه منه ألقاه الرسول على التابع وهو الصاحب فتلقاه منه، فإذا عرج الملك عرج بذاته لأنه رجوع إلى أصله، وإذا عرج الرسول ركب البراق فعرج به البراق بذاته، وعرج الرسول لعروج البراق بحكم التبعية والحركة القسرية، فكان محمولاً في عروجه حمله من عروجه ذاتيّ فتميز عروج الرسول من عروج الملك. ثم إنه لما وصل إلى المقام الذي لا يتعدّاه البراق وليس في قوته أن يتعداه تدلى إلى الرسول الرفرف فنزل عن البراق واستوى على الرفرف وصعد به الرفرف وفارقه جبريل فسأله الصحبة فقال: إنه لا يطيق ذلك وقال له: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] فلو أراد الحق صعوده فوق ذلك المقام لكان محمولاً مثل ما حمل الرسول ﷺ. ولما وصل المعراج الرفرفيّ بالرسول ﷺ إلى مقامه الذي لا يتعداه الرفرف زج به في النور زجة غمره النور من جميع نواحيه وأخذه الحال فصار يتمايل فيه تمايل السراج إذا هب عليه نسيم رقيق يميله ولا يطفئه ولم ير معه أحداً يأنس به ولا يركن إليه وقد أعطته المعرفة أنه لا يصح الأنس إلا بالمناسب، ولا مناسبة بين الله وعبده، وإذا أضيفت المؤانسة فإنما ذلك على وجه خاص يرجع إلى الكون، فأعطته ﷺ هذه المعرفة الوحشة لانفراده بنفسه، وهذا مما يدلك أن الإسراء كان بجسمه ﷺ لأن الأرواح لا تتصف بالوحشة ولا الاستيحاش، فلما علم الله منه ذلك وكيف لا يعلمه وهو الذي خلقه في نفسه وطلب عليه السلام الدنو بقوّة المقام الذي هو فيه فنودي بصوت يشبه صوت أبي بكر تأنيساً له به إذ كان أنيسه في المعهود فحنّ لذلك وأنس به وتعجب من ذلك اللسان في ذلك الموطن وكيف جاءه

من العلوّ وقد تركه بالأرض، وقيل له في ذلك النداء: يا محمد قف إن ربك يصلي فأخذه لهذا الخطاب انزعاج وتعجب كيف تنسب الصلاة إلى الله تعالى فتلا عليه في ذلك المقام: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣] فعلم ما المراد بنسبة الصلاة إلى الله فسكن روعه مع كونه سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، ولكن قد وصف نفسه بأنه لا يفعل أمراً حتى يفرغ من أمر آخر فقال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] فمن هذه الحقيقة قيل له: قف إن ربك يصلي أي لا يجمع بين شغلين يريد بذلك العناية بمحمد ﷺ حيث يقيمه في مقام التفرّغ له، فهو تنبيه على العناية به والله أجلّ وأعلى في نفوس العارفين به من ذلك، فإن الذي ينال الإنسان من المتفرّغ إليه أعظم وأمكن من الذي يناله ممن ليس له حال التفرّغ إليه لأن تلك الأمور تجذبه عنه، فهذا في حال النبيّ عليه السلام وتشريفه، فكان معه في هذا المقام بمنزلة ملك استدعى بعض عبيده ليقرّبه ويشرّفه، فلما دخل حضرته وقعد في منزلته طلب أن ينظر إلى الملك في الأمر الذي وجه إليه فيه فقيل له تربص قليلاً فإن الملك في خلوته يعزل لك خلعة تشريف يخلعها عليك فما كان شغله عنه إلا به ولذلك فسر له صلاة الله بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٣] فشرّف بأن قيل له: إنما غاب عنك من أجلك وفي حقك، فلما أدناه تدلى إليه ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١٠ ـ ١١] العين، أي تجلى له في صورة علمه به، فلذلك أنس بمشاهدة من علمه فكان شهود تأنيس في ذلك المقام.

فقد علمت مما أبنته لك معارج الرسل من معارج الملائكة صلوات الله على الجميع، فلهذا المعراج خطاب خاص تعطيه خاصية هذا المعراج لا يكون إلا للرسل، فلو عرج عليه الوليّ لأعطاه هذا المعراج بخاصيته ما عنده وخاصيته ما تنفرد به الرسالة، فكان الولي إذا عرج به فيه يكون رسولاً وقد أخبر رسول الله ﷺ أن باب الرسالة والنبوّة قد أغلق، فتبين لك أن هذا المعراج لا سبيل للولي إليه البتة، ألا ترى النبي ﷺ في هذا المعراج قد فرضت عليه وعلى أمته خمسون صلاة فهو معراج تشريع وليس للوليّ ذلك، فلمّا رجع إلى موسى عليهما السلام قال له: راجع ربك يخفف عن أمتك الحديث إلى أن صارت خمسة بالفعل، وبقيت خمسين في الأجر والمنزلة عند الله والحديث صحيح في ذلك وفيه طول.

واعلم أن معارج الأولياء بالهمم وشاركهم الأنبياء في هذا المعراج من كونهم أولياء ومن كونهم أنبياء ولا رسلاً، فيعرج الولي بهمته وبصيرته على براق عمله ورفرف صدقه معراجاً معنوياً يناله فيه ما يعطيه خواص الهمم من مراتب الولاية والتشريف، فهي ثلاثة معارج متجاورة مختلفة، والمعراج الرابع معراج توجهات الأسماء عليهم، فتفيض الأسماء الإلهية أنوارها على معارج الملائكة، ولكن من أنوار التكاليف والشرائع التي هي الأعمال المقرّبة إلى السعادة خاصة، هذا الذي أريده في هذا الموضع للفرقان بين المعارج، فتسطع معارج الملك بذلك النور فينصبغ به الملك كما تنصبغ الحرباء بالمحل الذي تكون فيه، ثم يفيض الملك على الرسول أي على معراجه فينصبغ به الرسول في باطنه من حيث روحانيته وهو قوله عليه

السلام: «**فَأَعِيَ مَا يَقُولُ**» ثم يفيضه الرسول على أتباعه متنوّعاً خلاف ما أعطاه الملك، فإن الملك إنما يخاطب واحداً والرسول يخاطب الأمة والأمة تختلف أحوالها، فلا بد للرسول أن يقسم ذلك الوحي على قدر اختلاف الأمة فإنه رزق مقسوم، فيتعين لكل ولي قسطه من ذلك الوحي لنفسه، ثم يأخذ منه مما لا يقتضيه حاله ليوصله إلى التابع بعده الذي لم يحضر ذلك المجلس، وهكذا إلى يوم القيامة وهم الورثة في التبليغ، فيعمل على حاله خاصة ويبلغ ما لا يقتضيه حاله. فقد تقتضي حاله تحليل ما حرّمه على غيره، فيكون مضطرّاً إلى الغذاء في وقت تحريم أكل الميتة على غير المضطرّ، وهو في تلك الحال من التبليغ يأكل الميتة على شهود من المبلغ إليه فيقول له: كيف تحرّم علي تناول ما تناولته أنت؟ فيقول له: لأن الحال مختلف، فإن حالة الاضطرار لم تحرّم عليها الميتة، وحالة غير الاضطرار حرّمت عليها الميتة، فيبلغ ما لا يقتضيه حاله ولا يعمل إلا بما يقتضيه حاله، ثم لتعلم إذا رقيت الأولياء في معارج الهمم، فغاية وصولها إلى الأسماء الإلهية فإن الأسماء الإلهية تطلبها، فإذا وصلت إليها في معارجها أفاضت عليها من العلوم وأنوارها على قدر الاستعداد الذي جاءت به، فلا تقبل منها إلا على قدر استعدادها، ولا تفتقر في ذلك إلى ملك ولا رسول فإنها ليست علوم تشريع وإنما هي أنوار فهوم فيما أتى به هذا الرسول في وحيه أو في الكتاب الذي نزل عليه أو الصحيفة لا غير، وسواء علم ذلك الكتاب أو لم يعلمه ولا سمع بما فيه من التفاصيل، ولكن لا يخرج علم هذا الولي عن الذي جاء ذلك الرسول به من الوحي عن الله وكتابه وصحيفته لا بد من ذلك لكل وليّ صديق برسوله إلا هذه الأمة، فإن لهم من حيث صديقيتهم بكل رسول ونبيّ العلم والفتح والفيض الإلهيّ بكل ما يقتضيه وحي كل نبي وصفته وكتابه وصحيفته، وبهذا فضلت على كل أمة من الأولياء، فلا يتعدى كشف الوليّ في العلوم الإلهية فوق ما يعطيه كتاب نبيه ووحيه، قال الجنيد في هذا المقام: «علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة» وقال الآخر: «كل فتح لا يشهد له الكتاب والسنة فليس بشيء»، فلا يفتح لوليّ قط إلا في الفهم في الكتاب العزيز فلهذا قال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقال في ألواح موسى ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] موعظة وتفصلاً لكل شيء فلا يخرج علم الوليّ جملة واحدة عن الكتاب والسنة، فإن خرج أحد عن ذلك فليس بعلم ولا علم ولاية معاً، بل إذا حققته وجدته جهلاً والجهل عدم والعلم وجود محقق، فالوليّ لا يأمر أبداً بعلم فيه تشريع ناسخ لشرعه، ولكن قد يلهم لترتيب صورة لا عين لها في الشرع من حيث مجموعها، ولكن من حيث تفصيل كل جزء منها وجدته أمراً مشروعاً، فهو تركيب أمور مشروعة أضاف بعضها إلى بعض هذا الولي، أو أضيفت له بطريق الإلقاء أو اللقاء أو الكتابة فظهر بصورة لم تظهر في الشرع بجمعيتها، فهذا القدر له من التشريع، وما خرج بهذا الفعل من الشرع المكلف به فإن الشارع قد شرع له أنه يشرع مثل هذا فما شرع إلا عن أمر الشارع فما خرج عن أمره، فمثل هذا قد يؤمر به الولي من هناك، وأما خلاف هذا فلا.

فإن قلت: وأين جعل الله للولي العالم ذلك بلسان الشرع؟ قلنا: قال ﷺ: «**مَنْ سَنَّ**

سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً» فقد سنّ له أن يسن ولكن مما لا يخالف فيه شرعاً مشروعاً ليحل به ما حرم أو يحرم به ما حلل، فهذا حظ الولي من النبوّة إذا سنّ من هنالك، وهو جزء من أجزاء النبوّة كما هي المبشرات من أجزاء النبوّة وكثير من الأشياء على ذلك، فالأسماء الإلهية لها على كل معراج ظهور، ولهذا تخبر كل طائفة ممن ذكرنا عن ربها في أوقات بغير واسطة وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «**لِي وَقْتٌ لا يَسَعُنِي فِيهِ غَيْرُ رَبِّي**» وهذا المقام لكل شخص من الخلق، ألم يقل أن كل مصلّ يناجي ربه فأين الوسائط في هذا المقام؟ وكذلك في الدار الآخرة في الموقف قال ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاّ سَيُكَلِّمُهُ الله كفَاحاً لَيسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ**» وكذا هو الآن غير أن في القيامة يعرف كل أحد أن ربه يكلمه، وفي الدنيا لا يعرف ذلك إلا العلماء بالله أصحاب العلامات فيعرفون كلام الله إياهم، فسبحان من خلقنا أطواراً وجعل لنا على علم الغيب والشهادة دليلاً ليلاً ونهاراً، فمحا آية الليل لدلالتها على الغيب، وجعل آية النهار مبصرة لدلالتها على عالم الشهادة، فمنا من كلم ربه غيباً وهو التجلي المشبه بالقمر ليلة البدر فذلك الأبدار صفتك أي إذا كملت حينئذ كلمك الحق في تجلي القمر بدراً لأنه بذاته مع كل موجود، ومنا من كلمه ربه شهادة وهو التجلي المشبه بالشمس ليس دونها سحاب، قال العارف: [الكامل]

يا مُؤْنِسي بالـلَّيْل إذْ هَجَعَ الـوَرَى ... ومُـحَـدِّثـي مِـنْ بَـيْـنِـهِـمْ بِـنَـهَـارِ

وبعد أن بانت لك المعارج والمدارج وظهرت لك المراتب ومن لها من العالم وامتازت كل طائفة من غيرها بمعراجها فقد نجز بعض الغرض من هذا الباب، فلنذكر أمهات ما يحوي عليه من العلوم فإنه منزل شريف، وهو يحوي على نحو من سبعين علماً أو يزيد على ذلك، فلنذكر منها الأمهات التي لا بد منها، وفي ضمنها يندرج ما بقي: فمنها علم السؤال فإنه ما كل أحد يعلم كيف يسأل فقد يكون للسائل في نفسه أمر مّا ولا يحسن يسأل عنه، فإذا سأل أفسده بسؤاله ووقع له الجواب على غير ما في نفسه، ويتخيل أن المجيب ما فهم عنه، والعيب إنما كان من السائل حيث لم يفهم المسؤول صورة ما في نفسه، ويتصوّر هذا كثير في الدعاوى عند الحكام وتحريرها، قال ﷺ: «**إنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلَيَّ وَلَعَلَّ أَحَدَكُمْ يَكُونُ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنَ الآخَرِ**» ومعناه أكثر إصابة ومطابقة لما في نفسه عند دعواه ممن لا يحسن ذلك، فهو علم مستقل في كل ما يسأل عنه أو يدعي فيه وله شروط معلومة مذكورة، وفيه علم القدر القضاء والحكم، وفيه علم مقامات الأملاك عمار الأفلاك منهم وغير عمارها، وعلم المقادير، وعلم الزمان، وعلم أحوال الناس في القيامة، وعلم النور، وعلم الجسر الذي يكون عليه الناس إذا تبدل الأرض وهو دون الظلمة، وعلم الظلمة، وعلم طبقات جهنم وتفاصيلها وأحوال الخلق فيها، وعلم الإنسان وما جبل عليه وهل ينتقل عما جبل عليه أم يستحيل ذلك؟ وعلم الديمومية، وعلم محادثة الحق، وعلم أداء الحقوق وعلم المحاضرة، وعلم الخوف وعلم الحفظ الإلهي، وعلم مجاوزة الحدود وما يتجاوز منها وما لا يتجاوز

وهل لكل حد مطلع أم لا؟ وعلم مراعاة الأمور إذا تعرضت للإنسان في طريق سلوكه إلى ربه، وعلم ذي الجلال والإكرام، وعلم التفرقة، وعلم الخلق والاختراع ولماذا يرجع؟ وعلم الجهات، وعلم الأسرار، وعلم الكمون والظهور، وعلم الاقتدار الإلهي، وعلم المسابقة بين الحق والخلق، وعلم الإمهال والإهمال وما حكمته؟ وهل الحليم يمهل أو يهمل؟ وعلم البعث، فهذا قد أبنت لك ما ذكرت أن أبينه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس عشر وثلاثمائة

في معرفة منزل وجوب العذاب من الحضرة المحمدية

[الوافر]

إذا حَقَّتْ حَقَائِقُنا اتَّحدْنا ... ولكنْ لا سَبِيلَ إلى الوُصُولِ
إلى هذا المَقَام بِكُل وَجْهٍ ... مِنَ أجْلِ الاسْتواء مَعَ النُّزُولِ
وكيف يصحُّ أن يُرْقَى إليه ... وأين سَنَا الجليل مِنَ الخَلِيلِ
رأيتُ حَبِيبَهُ صَلَّى عليه ... كما صَلَّى على نَفْس الخَليلِ
فعَيْنُ الجَمْع عَيْنُ الفَرْقِ فيه ... كذا جاء الحَدِيثُ عن الرَّسُول
إذا أَفَلَتْ شُمُوسُ العِلْم تاهَتْ ... عُقُولٌ حَظُّها عِلْمُ الدَّلِيلِ
لَوَ اَنَّ الغَيْبَ تَشْهَدُهُ عُيُونٌ ... لكان طُلُوعُهَا عَيْنَ الأُفُولِ

اعلم أيها الولي الحميم أن وجوب العذاب وقوعه بالمعذب، يقال: وجب الحائط إذا سقط ولا يكون السقوط إلا ممن لم يكن له علوّ ذاتي ولم يستحق العلوّ لذاته، فلما علا من هذه صفته لم يكن له حقيقة تمسك عليه علّوه فسقط ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٨٣] والصفات النفسية لا تكون مرادة للموصوف بها، فمن علا بغيره ولم يكن له حافظ يحفظ عليه علوّه سقط وقوتل، فالعالي من أعلى الله منزلته كما قال: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧] فلما كانت الرفعة من الله الذي له العلوّ الذاتي حفظ على كل من أعلى الله منزلته علوّه، ومن علا بنفسه من الجبارين والمتكبرين قصمه الله وأخذه ولهذا قال: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] أي عاقبة العلوّ الذي علا به من أراد علوّاً في الأرض يكون للمتقين أي يعطيهم الله العلوّ في المنزلة في الدنيا والآخرة فأمّا في الآخرة فأمر لازم لا بد منه لأن وعده صدق وكلامه حق، والدار الآخرة محل تميز المراتب وتعيين مقادير الخلق عند الله ومنزلتهم منه تعالى، فلا بد من علوّ المتقين يوم القيامة. وأما في الدنيا فإنه كل من تحقق صدقه في تقواه وزهده فإن نفوس الجبارين والمتكبرين تتوفر دواعيهم إلى تعظيمه لكونهم ما زاحموهم في مراتبهم، فأنزلهم ما حصل في نفوسهم من تعظيم المتقين عن علوّهم وقصدوا خدمتهم والتبرك بهم، وانتقل ذلك العلوّ الذي ظهروا به إلى هذا المتقي وكان عاقبة العلوّ للمتقي، والجبار لا يشعر ويلتذ الجبار إذا قيل فيه إنه قد تواضع ونزل إلى هذا المتقي فيتخيل الجبار أن المتقي هو الأسفل، وأن الجبار نزل إليه بل علوّ الجبار انتقل إلى المتقي من

حيث لا يشعر، ونزل الجبار تحت عُلُوّ هذا المتقي، ولو سئل المتقي عن عُلُوِّه ما وجد عنده منه شيء، فثبت أن العلوّ في الإنسان إنما هو تحققه بعبوديته وعدم خروجه واتصافه بما ليس له بحقيقة، ألا ترى حكمة الله تعالى في قوله: ﴿لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١] أي علا وارتفع وأضاف العلوّ له وما أضافه الحق إلى نفسه، فلما علا للماء وارتفع حمل الله من أراد نجاته من سطوة ارتفاع الماء في أخشاب ضم بعضها إلى بعض حتى كانت سفينة، فدخل فيها كل من أراد الله نجاته من المؤمنين، فعلت السفينة بمن فيها على علوّ الماء وصار الماء تحتها وزال في حق السفينة طغيان الماء فانكسر في نفسه، وسبب ذلك إضافة العلوّ له وإن كان من عند الله وبأمر الله، ولكن ما أضاف الله العلوّ إلا للماء فلو أضاف علوّ الماء إلى الله تعالى لحفظ علوّه عليه، فلم يكن تعلو عليه سفينة ولا يطفو على وجه الماء شيء أبداً فهذا شؤم الدعوى، فسقوط العذاب بالمعذب إنما كان سقوطه من ارتفاعه في نفسه لكونه صفة ملكية للاسم الله المعذب، فأعطته هذه النسمة سمة العلوّ لأنه صفة من له العلوّ وهو الاسم المعذب، فلما رأى الاسم المعذب ما قام في نفس العذاب من العلوّ بسببه أسقطه على المعذب به فزال عن العلوّ الذي كان يزهو به حين كان المعذب موصوفاً به، فلهذا يقال بوجوب العذاب على المعذب.

وتحقيق ذلك أن الأمر الصحيح أن الملك لا يعذب أحداً إلا حتى يقوم به الغضب على ذلك الذي يريد تعذيبه لأمر صدر منه يستوجب به العذاب، فأثر ذلك الأمر في نفس الملك غضباً تأذى به الملك، والملك جليل القدر لا يليق بمكانته لعلوّ منصبه أن يتعذب بشيء، وقد فعل هذا الشخص أمراً أغضب الملك فأنزل الملك العذاب الذي كان يجده الملك في نفسه المعبر عنه بالغضب، أو الذي أثمر الغضب في نفس الملك أوجبه بهذا الشخص أي أسقطه عليه، فإذا وجب العذاب على هذا الشخص وجد الملك راحته بعذاب هذا الشخص وليس الأمر كذلك هنا، وإنما وجود الراحة بزوال العذاب الذي كان في نفس الملك الذي أورثه فعل هذا الشخص فتعذب الملك به، فلما أنزله بهذا الشخص انتقل عنه فوجد الراحة بانتقاله، ويسمى في العامّة التشفي وهو من الشفاء، والشفاء زوال العلة لا نزول العلة التي كانت في العليل بشخص آخر، هذا تحقيق الشفاء والراحة. ثم كونه نزل ذلك الألم بشخص آخر لهذا به لذة فتلك لذة أخرى زائدة على لذة زوال العذاب، والعلوّ هنا حقيقة للاسم الإلهي، فلهذا اتصف العذاب بالسقوط وهو الوجوب قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ١٩] أي وجبت وسقطت.

فإن قلت: هذا يصح في حق المخلوقين كيف يتمشى ذلك في حق الجناب العالي سبحانه؟ قلنا: فلما عجزنا عن معرفة الله ويحق لنا العجز فينبغي لنا إذا تركنا وعقولنا وحقائقنا أن نلتزم ذلك وننفي عنه مثل هذا وغيره، فإن قوة العقل تعطي ذلك غير أن قوة العقل والدليل الواضح قاما للعقل على تصديق الرسول الذي بعثه إلينا في إخباره الذي يخبر به عن ربه بما يكون منه سبحانه في خلقه وبما يكون عليه سبحانه في نفسه ومما يصف به نفسه مما يحيله عليه العقل إذا انفرد بدليله دون الشارع، فالعاقل الحازم يقف ذليلاً مشدود الوسط في خدمة

الشرع قابلاً لكل ما يخبر به عن ربه سبحانه وتعالى مما يكون عليه ومنه، فكان مما قد أخبر الحق عن نفسه أن قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وقال ﷺ: «**لا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى مِنَ الله**» وقال تعالى: «**كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَشَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ**» وقال تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦] وقالت الأنبياء قاطبة: إن الله يوم القيامة يغضب غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وسلم العاقل ذلك كله إلى الله في خبره عن نفسه كما سلم إليه سبحانه أنه يفرح بتوبة عبده، وكل من اتصف بالفرح فيتصف بنقيضه، ووصف نفسه بأنه يتعجب من الشاب ليست له صبوة، ووصف نفسه بأنه يضحك إذا قال هناد يوم القيامة: أتستهزىء بي وأنت رب العالمين؟ ووصف نفسه بأنه يتبشبش لعبده، إذا جاء المسجد يريد الصلاة، ووصف نفسه بأنه يكره لعباده الكفر ويرضى لهم الشكر والإيمان، فهذا كله واجب على كل مسلم الإيمان به، ولا يقول العقل هنا كيف ولا لم كان كذا؟ بل يسلم ويستسلم ويصدق ولا يكيف فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فلما رأيناه وصف نفسه بالغضب والأذى ووصف العذاب بالوجوب والسقوط لا يكون إلا من العلوّ لا ينبغي إلا لله تعالى، فعلمنا أن الأذى الذي وصف الحق به نفسه هو هذا فعلا الأذى بعلوّ من اتصف به، فأسقطه عن ذلك العلوّ على من يستحقه وهو الذي آذى الله ورسوله فحل به العذاب في دار الخزي والهوان.

فإن علمت ما قررناه جمعت بين الإيمان الذي هو الدين الخالص وبين ما تستحقه مرتبتك من التسليم لله في كل ما يخبر به عن نفسه، ولا يتمكن في الإفصاح عن هذا المقام بأكثر من هذا ولا أبلغ إلا أن يخبر الحق بما هو أجلى في النسبة وأوضح، وإنما غاية المخلوق من هذا الأمر بمجرد عقله هذا الذي قررناه إلا عقولاً أدركها الفضول فتأولت هذه الأمور، فنحن نسلم لهم حالهم ولا نشاركهم في ذلك التأويل، فإنا لا ندري هل ذلك مراد الله بما قاله فنعتمد عليه أو ليس بمراده فنرده؟ فلهذا التزمنا التسليم، فإذا سئلنا عن مثل هذا قلنا: إنا مؤمنون بما جاء من عند الله على مراد الله به، وإنا مؤمنون بما جاء عن رسول الله ﷺ ورسله عليهم السلام على مراد رسوله ﷺ ومراد رسله عليهم السلام، ونكل العلم في كل ذلك إليه سبحانه وإليهم، وقد تكون الرسل بالنسبة إلى الله في هذا الأمر مثلنا يرد عليها هذا الإخبار من الله فتسلمه إليه سبحانه وتعالى كما سلمناه ولا تعرف تأويله هذا لا يبعد، وقد تكون تعرف تأويله بتعريف الله تعالى بأيّ وجه كان هذا أيضاً لا يبعد، وهذه كانت طريقة السلف جعلنا الله لهم خلفاً بمنه، فطوبى لمن راقب ربه وخاف ذنبه وعمر بذكر الله قلبه وأخلص لله حبه، فهذا قد أعلمتك بمعنى وجوب العذاب على من وجب عليه وأكثر من هذا فلا يحتمل هذا الباب، فإن مجاله ضيق في العامة، وإن كان المجال فيه رحباً عند أمثالنا بما منحنا الله به من المعرفة بالله، ولكن العقول المحجوبة بالهوى وبطلب الرياسة والنفاسة والعلو على أبناء الجنس يمنعهم ذلك من القبول والانقياد، ونحن فما نحن رسل من الله حتى نتكلف إيصال مثل هذه العلوم بالتبليغ، وما نذكر منها ما نذكر إلا للمؤمنين العقلاء الذين اشتغلوا بتصفية نفوسهم مع الله وألزموا نفوسهم التحقق بذلة العبودية والافتقار إلى الله في جميع

الأحوال فنوّر الله بصيرتهم إمّا بالعلم وإما بالإيمان والتسليم لما جاء به الخبر عن الله وكتبه ورسله، فتلك العناية الكبرى والمكانة الزلفى والطريقة المثلى والسعادة العظمى ألحقنا الله بمن هذه صفته.

وأما ما يتضمن هذا المنزل من العلوم فهو يتضمن علم الحق، ومنه ما كنا بسبيله في شرح وجوب العذاب، وفيه أيضاً علم الاسم الإلهيّ الذي يستفهم منه الحق عباده مثل قوله يوم يجمع الله الرسل فيقول: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمۡ﴾ [القصص: ٦٥] وهو أعلم، ومثل قوله: كيف تركتم عبادي؟ يقوله للملائكة الذين باتوا فينا ثم عرجوا إليه وهو علم شريف، وفيه الزواجر الإلهيّة وهل هي كونية أو إلهية؟ وعلم السبب الموجب لهلاك الأمم عند كفرهم، ومن هلك من المؤمنين بهلاكهم وهلاك المقلدة معهم، كل ذلك في الدنيا، ومن يخرج من هذا الهلاك في الآخرة؟ ولماذا وقع الهلاك بالمؤمنين حين وقع بالكافرين فعم الجميع واختلفت الصفة؟ وهل هذا من الركون كما قال: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [هود: ١١٣] وعلم الركون الموجب لمس النار إياهم هل هو ركون حسيّ أو معنوي؟ وقوله بتضعيف العذاب على الركون وإن قصد خيراً قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥] ما سبب هذا الضعف الذي هو أشد من العذاب المستحق بالأصالة؟ وما مراد الله في مثل هذه الآية التي لا يعلم ما فيها إلا بتعريف الله وهو علم عظيم يتضمنه هذا المنزل؟ ومن أهلك بنفسه ومن أهلك بغيره؟ وما حدّ الهلاك بالغير وما حد الهلاك بالنفس؟ وما مقدار زمانه؟ وهل الهلاك في اختلاف أنواعه لاختلاف الأحوال في الهالكين أو لاختلاف حقائق الأسماء الإلهية حتى يأخذ كل اسم إلهيّ بهذا المقام قسطه من العذاب؟ وما ينعدم من الأسماء بعد وجودها وما يبقى ولا ينعدم بهلاك أو غيره، وعلم الفرق بين من عصى الله وعصى رسوله وعصى أولي الأمر، وما يتضمنه عصيان الرسول وعصيان أولي الأمر من معصية الله، فإن عصيانهم عصيان أمر الله وليس في عصيان الله عصيانهم إلا في الرسول خاصة، فإنه في عصيان الله عصيان رسول الله إذ متعلق المعصية الأمر الإلهيّ والنهي، ولا يعرف ذلك إلا بتبليغ الرسول وعلى لسانه، فإن الله لا يبلغ أمره إلا رسل الله، وليس لغير الرسل من البشر هذا المقام، ومع هذا فللّه أمر يعصى فيه وللرسول أمر يعصى فيه، وثم أمر يجمع فيه معصية الله ورسوله، فكل أمر يتعلق بجناب الله ليس لمخلوق فيه دخول فتلك معصية الله، وكل أمر يتعلق بجناب المخلوق الذي هو رسول الله فتلك معصية الرسول، وكل أمر يتضمن الجانبين فتلك معصية الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الجن: ٢٣] وقال: ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٨] فأفرده، وقال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ﴾ [النساء: ١١٦] فأفرد نفسه، وعلم من يستحق العظمة والصفة التي تطلبها، وعلم التذكير، وعلم السماع من الحق، وعلم الملك وملك الملك، وعلم ملك العزة، وعلم الملك الحامل، وعلم الملك المحمول، وعلم ملك الهباء، وعلم الهول الأعظم، وعلم الكنز الذي تحت العرش قال ﷺ: «**إنَّ لا حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بالله خَرَجَتْ مِنْ كَنْزِ تَحْتَ العَرْشِ**» وما هو الكنز وما

يتضمن من الذكر المكنوز فيه سوى لا حول ولا قوة إلا باالله، وعلم القوّة الإلهية والكونية، وعلم ضم المعاني بعضها إلى بعض في حضرة الكلمات، وهل لها انضمام في أنفسها مجردة عن مواد الكلمات أو ليس لها ضم في أنفسها؟ وإذا لم يكن لها ضم فهل ذلك لاستحالة الأمر في نفسه؟ فلا يقبل الانضمام أو بإرادة الله، وما الفرق بين كتابة المخلوق وكتابة الخالق؟ وهو علم عجيب رأيناه وشاهدناه، فإن النبي ﷺ خرج وفي يديه كتابان مطويان قابض بكل يد على كتاب فسأل أصحابه: أتدرون ما هذان الكتابان؟ فأخبرهم أن فى الكتاب الذي بيده اليمنى أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم وعشائرهم من أوّل من خلقه الله إلى يوم القيامة، وفي اليد الأخرى في الكتاب الآخر أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم وعشائرهم إلى يوم القيامة، ولو أخذ المخلوق يكتب هذه الأسماء على ما هي عليه في هذين الكتابين لما قام بذلك كل ورق في العالم، فمن هنا يعرف كتابة الله من كتابة المخلوقين.

وقد حكي عن بعض البله من أهل الحاج أنه لقي رجلاً وهو يطوف طواف الوداع فأخذ ذلك الرجل يمازح هذا الأبله هل أخذت من الله براءتك من النار؟ فقال الأبله: لا وهل أخذ الناس ذلك؟ قال له: نعم، فبكى ذلك الأبله ودخل الحجر وتعلق بأستار الكعبة وجعل يبكي ويطلب من الله أن يعطيه كتابه بعتقه من النار، فجعل الناس وأصحابه يلومونه ويعرفونه أن فلاناً مزح معك وهو لا يصدقهم بل بقي مستمراً على حاله، فبينا هو كذلك إذ سقطت عليه ورقة من الجوّ من جهة الميزاب فيها مكتوب عتقه من النار، فسر بها وأوقف الناس عليها، وكان من آية ذلك الكتاب أنه يقرأ من كل ناحية على السواء لا يتغير كلما قلبت الورقة انقلبت الكتابة لانقلابها، فعلم الناس أنه من عند الله.

وأما في زماننا فاتفق لامرأة أنها رأت في المنام كأن القيامة قد قامت وأعطاها الله ورقة شجرة فيها مكتوب عتقها من النار، فمسكتها في يدها واتفق أنها استيقظت من نومها والورقة قد انقبضت عليها يدها ولا تقدر على فتح يدها وتحس بالورقة في كفها، واشتد قبض يدها عليها بحث أنه كان يؤلمها، فاجتمع الناس عليها وطمعوا أن يقدروا على فتح يدها فما استطاع أحد على فتح يدها من أشد ما يمكن من الرجال، فسألوا عن ذلك أهل طريقنا فما منهم من عرف سرّ ذلك. وأما علماء الرسم من الفقهاء فلا علم لهم بذلك. وأما الأطباء فجعلوا ذلك لخلط قوي انصب إلى ذلك العضو فأثر فيه ما أثر فقال بعض الناس: لو سألنا فلاناً - يريدون إياي بذلك - ربما وجدنا عنده علماً بذلك، فجاؤوني بالمرأة وكانت عجوزاً ويدها مقبوضة قبضاً يؤلمها فسألتها عن رؤياها فأخبرتني كما أخبرت الناس، فعرفت السبب الموجب لقبض يدها عليها، فجئت إلى أذنها وساررتها فقلت لها: قربي يدك من فمك وانوي مع الله أنك تبتلعين تلك الورقة التي تحسين بها في كفك فإنك إذا نويت ذلك وعلم الله صدقك في ذلك فإن يدك تنفتح، فقربت المرأة يدها من فيها وألزقته وفتحت فاها ونوت مع الله ابتلاع الورقة فانفتحت يدها وحصلت الورقة في فمها فابتلعتها وانفتح يدها، فتعجب الحاضرون من ذلك فسألوني عن علم ذلك فقلت لهم: إن مالك بن أنس إمام دار الهجرة اتفق في زمانه وهو ابن

ثلاث عشرة سنة وكان يقرأ الفقه على شيوخه وكان ذا فطنة وذكاء فاتفق في ذلك الزمان أن امرأة غسلت ميتة فلما وصلت إلى فرجها ضربت بيدها على فرج الميتة وقالت: يا فرج ما كان أزباك، فالتصقت يدها بالفرج والتحمت به فما استطاع أحد على إزالة يدها، فسئل فقهاء المدينة ما الحكم في ذلك؟ فمن قائل بقطع يدها، ومن قائل يقطع من بدن الميتة قدر ما مسكت عليه اليد وطال النزاع في ذلك بين الفقهاء أي حرمة أوجب علينا حرمة الميت فلا نقطع منه شيئاً أو حرمة الحي فلا يقطع، فقال لهم مالك: أرى أن الحكم في ذلك أن تجلد الغاسلة حد الفرية فإن كانت افترت فإن يدها تنطلق، فجلدت الغاسلة حد الفرية فانطلقت يدها فتعجب الفقهاء من ذلك ونظروا مالكاً من ذلك الوقت بعين التعظيم وألحقوه بالشيوخ، كما كان عمر بن الخطاب يلحق عبد الله بن عباس بأهل بدر في التعظيم لعظم قدره في العلم. ولما علمت أنا بما ألقى الله في نفسي أن الله غار على تلك الورقة أن لا يطلع عليها أحد من خلق الله وأن ذلك سر خص الله به تلك المرأة قلت لها ما قلت فانفتحت يدها وابتلعت تلك الورقة.

ويحوي هذا المنزل على علم الجنان والنار، وعلم مواقف القيامة، وعلم الأحوال الأخروية، وعلم الشرائع، وعلم ما السبب الموجب الذي لأجله عرفت الرسل مقاديرها مع علو منزلتهم عند الله، والفرق بين منزلتهم عند الله ومنزلتهم عند الناس المؤمنين بهم وبأي عين ينظر إليهم الحق؟ وبأي اسم يخاطبهم؟ وعلم التنزيه والتقديس والعظمة وما حضرة الربوبية من حضرات بقية الأسماء المقيدة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس عشر وثلاثمائة

في معرفة منزل الصفات القائمة المنقوشة بالقلم الإلهيّ في اللوح المحفوظ الإنساني من الحضرة الإجمالية الموسوية والمحمدية وهما من أسنى الحضرات

[مجزوء الرجز]

سِرُّ الدَّواةِ والقَلَمْ ... عِلْمُ الحُدُوثِ والقِدَمْ
وذاك مخصوصٌ بمَنْ ... نُودِي بعَبْدي فقَدِمْ
لحَضْرَةٍ منْ ذَاتُهُ ... كان له فيها قِدَمْ
وكان من قولهم له ... في رُتْبةِ العِلْم قَدَمْ
وجاء يَسْعَى راكباً ... وماشياً على قَدَمْ
وكان قد مَازَجَهُمْ ... مِزَاجَ لَحْم مَعَ دَمْ
وألْحَقَ الكَوْنَ إذا ... أشْهَدَهُ الحقّ العَدَمْ
فَسِرُّه في كَوْنه ... كَمِثْلِهِ حين عُدِمْ
ولم يكنْ في وَقْتِه ... صَاحِبَ أقدام تُذَمْ
فَشَرْطُ كُلِّ تائِبِ ... عَزْمٌ صحيحٌ ونَدَمْ

لـــمَّـــا أَتَـــى حَـــضْــرَتَـــهُ جـــاء بـــــذُلٌ وخـــــدمْ
وعـــنـــدمـــا أبْـــصَـــرهُ عَـيْـنـاً عـلـى الـعَـرْش حَـزَمْ
فـجَـادَتِ الـعَـيْـنُ لـه إذْ كـان مِـنْ بَـعْـضِ الـخَـدَمْ
وعـنـدمـا يَـخْـرُجُ مـن مـقـامـه ذاك خـدمْ

اعلم أيدك الله أيها الولي الحميم والصفي الكريم نور الله بصيرتك أن رسول الله ﷺ لما كان خلقه القرآن وتخلق بالأسماء وكان الله سبحانه ذكر في كتابه العزيز أنه تعالى استوى على العرش على طريق التمدح والثناء على نفسه إذ كان العرش أعظم الأجسام، فجعل لنبيه ﷺ من هذا الاستواء نسبة على طريق التمدح والثناء عليه به حيث كان أعلى مقام ينتهي إليه من أسري به من الرسل، وذلك يدل أنه أسري به ﷺ بجسمه ولو كان الإسراء به رؤيا لما كان الإسراء ولا الوصول إلى هذا المقام تمدحاً، ولا وقع من الأعراب في حقه إنكار على ذلك، لأن الرؤيا يصل الإنسان فيها إلى مرتبة رؤية الله تعالى وهي أشرف الحالات، وفي الرؤيا ما لها ذلك الموقع من النفوس، . إذ كل إنسان بل الحيوان له قوّة الرؤيا فقال ﷺ عن نفسه على طريق التمدح لكونه جاء بحرف الغاية وهو حتى فذكر أنه أسري به حتى ظهر لمستوى يسمع فيه صريف الأقلام وهو قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] فالضمير في أنه هو يعود على محمد ﷺ فإنه أسري به، فرأى الآيات وسمع صريف الأقلام، فكان يرى الآيات ويسمع منها ما حظه السماع وهو الصوت فإنه عبر عنه بالصريف والصريف الصوت، قال النابغة: [البسيط]

له صَرِيفٌ صَرِيفُ القَعْوِ بالمَسَدِ

فدل أنه بقي له من الملكوت قوة ما لم يصل إليه بجسمه من حيث هو راء ولكن من حيث هو سميع، فوصل إلى سماع أصوات الأقلام وهي تجري بما يحدث الله في العالم من الأحكام، وهذه الأقلام رتبتها دون رتبة القلم الأعلى ودون اللوح المحفوظ، فإن الذي كتبه القلم الأعلى لا يتبدّل، وسمي اللوح بالمحفوظ من المحو فلا يمحى ما كتب فيه، وهذه الأقلام تكتب في ألواح المحو والإثبات وهو قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] ومن هذه الألواح تتنزل الشرائع والصحف والكتب على الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، ولهذا يدخل في الشرائع النسخ، ويدخل في الشرع الواحد النسخ في الحكم وهو عبارة عن انتهاء مدّة الحكم لا على البداء، فإن ذلك يستحيل على الله. وإلى هنا كان يتردّد ﷺ في شأن الصلوات الخمسين بين موسى وبين ربه إلى هذا الحدّ كان منتهاه، فيمحو الله عن أمة محمد ﷺ ما شاء من تلك الصلوات التي كتبها في هذه الألواح إلى أن أثبت منها هذه الخمسة، وأثبت لمصليها أجر الخمسين، وأوحى إليه أنه لا يبدّل القول لديه، فما رجع بعد ذلك من موسى في شأن هذا الأمر ومن هذه الكتابة ثم قضى أجلاً وأجل مسمى، ومن هذه الألواح وصف نفسه سبحانه بأنه تعالى يتردّد في نفسه في قبضه نسمة المؤمن بالموت وهو قد قضى عليه، ومن هذه الحقيقة الإلهية التي كنى عنها بالتردّد الإلهيّ يكون سريانها في

التردّد الكوني في الأمور والحيرة فيها، وهو إذا وجد الإنسان أن نفسه تتردّد في فعل أمر ما هل يفعله أو لا يفعله؟ وما تزال على تلك الحال حتى يكون أحد الأمور التي تردّدت فيها فيكون ويقع ذلك الأمر الواحد ويزول التردّد، فذلك الأمر الواقع هو الذي ثبت في اللوح من تلك الأمور المتردّد فيها، وذلك أن القلم الكاتب في لوح المحو يكتب أمراً ما وهو زمان الخاطر الذي يخطر للعبد فيه فعل ذلك الأمر ثم تمحى تلك الكتابة يمحوها الله فيزول ذلك الخاطر من ذلك الشخص لأنه ما ثم رقيقة من هذا اللوح تمتد إلى نفس هذا الشخص في عالم الغيب، فإن الرقائق إلى النفوس من هذه الألواح تحدث بحدوث الكتابة وتنقطع بمحوها، فإذا أبصر القلم موضعها من اللوح ممحوّاً كتب غيرها مما يتعلق بذلك الأمر من الفعل أو الترك، فيمتد من تلك الكتابة رقيقة إلى نفس ذلك الشخص الذي كتب هذا من أجله فيخطر لهذا الشخص ذلك الخاطر الذي هو نقيض الأول، فإن أراد الحق إثباته لم يمحه، فإذا ثبت بقيت رقيقة متعلقة بقلب هذا الشخص وثبتت، فيفعل ذلك الشخص ذلك الأمر أو يتركه بحسب ما ثبت في اللوح، فإذا فعله أو ثبت على تركه وانقضى فعله محاه الحق من كونه محكوماً بفعله وأثبته صورة عمل حسن أو قبيح على قدر ما يكون، ثم إن القلم يكتب أمراً آخر هكذا الأمر دائماً، وهذه الأقلام هذه مرتبتها، والموكل بالمحو ملك كريم على الله تعالى هو الذي يمحو على حسب ما يأمره به الحق تعالى، والإملاء على ذلك الملك، والأقلام من الصفة الإلهية التي كنى عنها في الوحي المنزل على رسوله بالتردد، ولولا هذه الحقيقة الإلهية ما اختلف أمران في العالم ولا حار أحد في أمر ولا تردّد فيه، وكانت الأمور كلها حتماً مقضياً. كما أن هذا التردّد الذي يجده الناس في نفوسهم حتم مقضي وجوده فيهم إذ كان العالم محفوظاً بالحقائق، وعدد هذه الأقلام التي يجري على حكم كتابتها الليل والنهار ثلاثمائة قلم وستون قلماً على عدد درج الفلك، فكل قلم له من الله علم خاص ليس لغيره، ومن ذلك القلم ينزل العلم إلى درجة معينة من درجات الفلك، فإذا نزل في تلك الدرجة ما نزل من الكواكب التي تقطعها بالسير من الثمانية الأفلاك تأخذ من تلك الدرجة من العلم المودع من ذلك القلم بقدر ما تعطه قوّة روحانية ذلك الكوكب فتحرك بذلك فلكها فيبلغ الأثر إلى الأركان فتقبل من ذلك الأثر بحسب استعداد ذلك الركن، ثم يسري ذلك الأثر من الأركان في المولدات فيحدث فيها ما شاء الله بحسب ما قبلته من الزيادة والنقصان في جسم ذلك المولد أو في قواه وفي روحه وفي علمه وجهله ونسيانه وغفلته وحضوره وتذكره ويقظته، كل ذلك بتقدير العزيز العليم، وتحدث الأيام بحركة الفلك الكبير، ويتعين الليل والنهار في اليوم بحكم الحركة الكبيرة اليومية على حركة فلك الشمس فإنها تحت حوطته، وجعل الأرض كثيفة لا تنفذها أنوار الشمس لوجود الليل الذي هو ظل الأرض، ولهذا يكبر النهار في أماكن ويصغر، وكذلك يكبر الليل ويصغر، وبه تقع الزيادة عندنا بالليل والنهار، وبهذا الليل والنهار الموجودين في المعمور من الأرض بهما تعد أيام الأفلاك وأيام الرب وكل يوم ذكر وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] يعني من أيامنا هذه المعلومة، ونحن نعلم

قطعاً أن الأماكن التي يكون فيها النهار من ستة أشهر والليل كذلك أن ذلك يوم واحد في حق ذلك الموضع، فيوم ذلك الموضع ثلاثمائة يوم وستون يوماً مما نعده، فقد أنبأتك بمكانة هذه الأقلام التي سمع صوت كتابتها رسول الله ﷺ من العلم الإلهيّ ومن يمدها وإلى أي حقيقة إلهية مستندها، وما أثرها في العالم العلوي من الأملاك والكواكب والأفلاك، وما أثرها في العناصر والمولدات وهو كشف عجيب يحوي على أسرار غريبة من أحكام هذه الأقلام تكون جميع التأثيرات في العالم دائماً، لا بد لها أن تكتب وتثبت انتثار الكواكب وانحلال هذه الأجرام الفلكية وخراب هذه الدار الدنياوية وانتقال العمارة في حق السعداء إلى الجنان العلية التي أرضها سطح الفلك الثامن وجهنم إلى أسفل سافلين وهي دار الأشقياء، وقد ذكرنا ذلك في هذا الكتاب في باب الجنة وفي باب النار. وأمّا القلم الأعلى فأثبت في اللوح المحفوظ كل شيء يجري من هذه الأقلام من محو وإثبات ففي اللوح المحفوظ إثبات المحو في هذه الألواح وإثبات الإثبات ومحو الإثبات عند وقوع الحكم وإنشاء أمر آخر، فهو لوح مقدس عن المحو فهو الذي يمده القلم الإلهيّ باختلاف الأمور وعواقبها مفصلة مسطرة بتقدير العزيز العليم، ولقلوب الأولياء من طريق الكشف الإلهيّ الحقيقيّ في التمثيل من هذه الأقلام كشف صحيح، كما مثلت الجنة لرسول الله ﷺ في عرض الحائط وإنما قلنا إن ذلك الممثل حقيقة مع كونه ممثلاً لقول رسول الله ﷺ: «**أَرَأَيْتُمُونِي حِينَ تَقَدَّمْتُ أَرَدْتُ أَنْ أَقْطِفَ مِنْهَا قِطْفاً لَوْ أَخْرَجْتُهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ ما بَقِيَتِ الدُّنْيا**» ولما مثلت له النار تأخر عن قبلته لئلا يصيبه من لهبها، ورأى فيها ابن لحي وصاحب المحجن وصاحبة الهرة وكان ذلك في صلاة كسوف الشمس، وقد قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ فِي قِبْلَةِ المُصَلِّي**» وقد رأى الجنة والنار في قبلته كما أن الحائط في قبلته.

واعلم أن لله تعالى أسماء تختص بالجنة وأهلها، وأن لله تعالى أسماء تختص بالنار وأهلها، وأن الحق يناجيه المصلي من حيث أسمائه لا من حيث ذاته، إذ كانت ذاته تتعالى عن الحد والمقدار والتقييد، فاعلم بما نبهتك عليه أن رسول الله ﷺ ما زال الحق يناجيه في قبلته وفي صلاته، وما أخرجه مشاهدة الجنان والنار ومن فيها وحركته بالتقديم والتأخر عن كونه مصلياً ظاهراً وباطناً، وإنما أخبر النبي ﷺ بهذا كله في حال الصلاة إعلاماً لنا بما يخطر لنا في صلاتنا من مشاهدة أمورنا من بيع وشراء وأخذ وعطاء وتصريف خواطر المصلي في الأكوان المتجلية له في باطنه في حال صلاته، وقد قال عمر عن نفسه إنه كان يجهز الجيش وهو في صلاته، فكان خبر النبي ﷺ لنا بما شاهده في صلاته أن ذلك لا يقدح في الصلاة المشروعة لنا كما يعتقده بعض عامة الفقهاء ممن لا علم له بالأمور، وربما بعض الصالحين يتخيلون أن هذا كله مما يبطل الصلاة ويخرج الإنسان عن الحضور مع الحق ما الأمر على ذلك، بل كل ما يشاهده المصلي في صلاته من الأكوان هو حق وهو من الصلاة لمن عقل ما المراد بالصلاة وكما لم يقدح في صلاته ما تشاهده عينه من المحسوسات التي في قبلته التي ظهرت لبصره بوجودها وذواتها من العوالم وحركاتهم، ولا يخرجه ذلك عن كونه مصلياً بلا خلاف، ويكره للمصلي أن يغمض عينيه في صلاته، فكذلك أيضاً ما يتجلى لعين بصيرته

وقلبه من مثل الخواطر وصور الأمور التي تعرض له في باطنه وهي من عند الله، وعين بصيرته مفتوح مثل عين حسه، فكل صورة ممثلة تجلى له الحق بها في باطنه كما تجلى له في المحسوسات في ظاهره فلا بد أن يدركها بعين بصيرته وقلبه كما أدرك صور المحسوسات ببصره، وكما أنه لم يخرجه ذلك عن كونه مصلياً على ما شرع له مع استقباله القبلة بوجهه، كذلك لا يخرجه ما شاهده في باطنه من صور الأكوان عن كونه مصلياً على حد ما شرع له مع استقباله ربه، وذلك الاستقبال هو المعبر عنه بالنية المطلوبة منه عند الشروع في تلك العبادة، فمن لا علم له بالأمور يقدح هذا عنده، فإن احتج أحد بقوله ﷺ في الركعتين اللتين يصليهما العبد عقيب الوضوء «**لا يُحَدِّث نَفْسَه فيهما بشَيْء**» فليس بحجة، وما فهم ما أراده رسول الله ﷺ وما حقق نظره في لفظه بماذا قيده ﷺ فإنه قيده بالحديث مع نفسه، وهذه الصور التي يرى المصلي نفسه فيها إنما يشاهدها بعين قلبه، وما تعرض الشارع إلا لمن يحدث لا لمن يبصر، لأنه ليس في قوته أن يغمض عين قلبه عما تجلى له الحق من الصور، ثم قيد الحديث منه مع نفسه، فإن تحدث مع ربه أو مع الصورة التي تتجلى له في صلاته فإن ذلك لا يقدح في صلاته، وقد كان رسول الله ﷺ في صلاته إذا مرّ في تلاوته بآية استغفار استغفر وبآية رغبة سأل الله في نيل ما تدل عليه، وما أخرجه شيء من ذلك عن كونه مصلياً، ولا حدثت له نية أخرى تخرجه عن صلاته، كما لم يتحوّل في ظاهره إلى جهة أخرى غير جهة قبلته، فما دام المصلي لم يتحوّل عن قبلته بوجهه ولا أحدث نية خروج عن صلاته فصلاته صحيحة مقبولة ذلك من فضل الله على عباده ورحمته بهم، وما كل إنسان يعلم خطاب الحق عباده وما أراده منهم. وأمّا الحديث المرويّ عن رسول الله ﷺ فيما يقبل من الصلاة عشرها إلى أن وصل إلى نصفها إلى ما عقل منها فلم يصح، ولو صح لما قدح فيما ذكرناه.

واعلم أن هذا المنزل منزل عظيم جليل القدر له بالنبيّ ﷺ اختصاص عظيم، وهذا القدر الذي ذكرنا منه فيه غنية لمن نظر واستبصر فلنذكر ما يحوي عليه من العلوم، فإن أبواب الكتاب كثيرة، ويطول الكلام فيها مع كثرتها فيتعذر تحصيله على من يريده، فاعلم أنه يحوي على علم الإجمال، وهل في علم الله إجمال أو لا يعلم الأشياء إلا على التفصيل؟ وهي غير متناهية، ويحوي على علم التفصيل، ويحوي على العلم الذي بين الإجمال والتفصيل، وهو علم غريب لا يعرفه القليل من العلماء بالله فكيف الكثير؟ وفيه علم الدواوين وترتيبها، وفيه علم الأجور والمستحقين لها مع كونهم عبيداً ولم سمي العبد أجيراً؟ فإنه مشعر بأن له نسبة إلى نسبة الفعل الصادر منه إليه فتكون الإجارة من تلك النسبة، ومنها طلب العون على خدمة سيده، ومن أية جهة تعين الفرض عليه ابتداء قبل الأجرة والأجير لا يفترض عليه إلا حتى يؤجر نفسه، والعبد فرض عليه طاعة سيده، والإنسان هنا مع الحق على حالين: حالة عبودية وحالة إجارة، فمن كونه عبداً يكون مكلفاً بالفرض كالصلاة المفروضة والزكاة وجميع الفرائض ولا أجر له عليها جملة واحدة في أداء فرضه، بل له ما يمتن به عليه سيده من النعم التي هي أفضل من الأجور لا على جهة الأجر. ثم إن الله تعالى ندبه إلى عبادته في أمور

ليست عليه فرضاً فعلى تلك الأعمال المندوبة إليها فرضت الأجور، فإن تقرب العبد بها إلى سيده أعطاه إجارته عليها، وإن لم يتقرب لم يطلب بها ولا عوتب عليها، فمن هنا كان العبد حكمه حكم الأجنبي في الإجارة، فالفرض له الجزاء الذي يقابله فإنه العهد الذي بين الله وعباده، والنوافل لها الأجور وهي قوله تعالى: «**وَلاَ يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعاً وَبَصَراً**» الحديث، فالنافلة أنتجت له المحبة الإلهية ليكون الحق سمعه وبصره، والمحبة الإلهية هي التي أنزلته من الحق منزلة أن يكون الحق سمعه وبصره، والعلة في ذلك أن المتنفل عبد اختيار كالأجير، فإذا اختار الإنسان أن يكون عبد الله لا عبد هواه فقد آثر الله على هواه، وهو في الفرائض عبد اضطرار لا عبد اختيار، فتلك العبودية أوجبت عليه خدمة سيده فيما افترضه عليه، فبين الإنسان في عبوديته الاضطرارية وبين عبوديته الاختيارية ما بين الأجير والعبد المملوك، فالعبد الأصلي ما له على سيده استحقاق إلا ما لا بد منه يأكل من سيده ويلبس من سيده ويقوم بواجبات مقامه، فلا يزال في دار سيده ليلاً ونهاراً لا يبرح إلا إذا وجهه في شغله، فهو في الدنيا مع الله، وفي القيامة مع الله، وفي الجنة مع الله، فإنها جميعها ملك سيده فيتصرف فيها تصرف الملاك، والأجير ما له سوى ما عين له من الأجرة منها نفقته وكسوته وماله دخول على حرم سيده ومؤجره ولا الاطلاع على أسراره ولا تصرف في ملكه إلا بقدر ما استؤجر عليه، فإذا انقضت مدة إجارته وأخذ أجرته فارق مؤجره واشتغل بأهله، وليس له من هذا الوجه حقيقة ولا نسبة تطلب من استأجره إلا أن يمن عليه رب المال بأن يبعث خلفه ويجالسه ويخلع عليه فذلك من باب المنة، وقد ارتفعت عنه في الدار الآخرة عبودية الاختيار، فإن تفطنت فقد نبهتك على مقام جليل تعرف منه من أي مقام قالت الأنبياء مع كونهم عبيداً مخلصين له لم يملكهم هوى أنفسهم ولا أحد من خلق الله، ومع هذا قالوا: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٧٢] فيعلم أن ذلك راجع إلى دخولهم تحت حكم الأسماء الإلهية، فمن هناك وقعت الإجارة فهم في الاضطرار والحقيقة عبيد الذات وهم لها ملك، وصارت الأسماء الإلهية تطلبهم لظهور آثارها فيهم، فلهم الاختيار في الدخول تحت أي اسم إلهيّ شاؤوا، وقد علمت الأسماء الإلهية ذلك، فعينت لهم الأسماء الإلهية الأجور، يطلب كل اسم إلهيّ من هذا العبد الذاتيّ أن يؤثره على غيره من الأسماء الإلهية بخدمته فيقول له: ادخل تحت أمري وأنا أعطيك كذا وكذا، فلا يزال في خدمة ذلك الاسم حتى يناديه السيد من حيث عبودية الذات، فيترك كل اسم إلهيّ ويقوم لدعوة سيده، فإذا فعل ما أمره به حينئذ رجع إلى أي اسم شاء، ولهذا يتنفل الإنسان ويتعبد بما شاء حتى يسمع إقامة الصلاة المفروضة فتحرم عليه كل نافلة، ويبادر إلى أداء فرض سيده ومالكه، فإذا فرغ دخل في أي نافلة شاء فهو في التشبيه في هذه المسألة كعبد لسيده أولاد كثيرة، فهو مع سيده بحكم عبودية الاضطرار إذا أمره سيده لم يشتغل بغير أمره، وإذا فرغ من أداء ذلك طلب أولاد سيده منه أن يسخروه فلا بد أن يعينوا له ما يرغبه في خدمتهم، وكل ولد يحب أن يأخذه لخدمته في وقت فراغه من شغل سيده فيتنافسون في أجره ليستخلصوه إليهم، فهو مخير مع

أي ولد يخدم في ذلك الوقت، فالإنسان هو العبد، والسيد هو الله، والأولاد سائر الأسماء الإلهية، فإذا رأى العبد ملهوفاً فأغاثه فيعلم أنه تحت تسخير الاسم المغيث فيكون له من المغيث ما عين له في ذلك من الأجر، وإذا رأى ضعيفاً في نفسه فتلطف به كان تحت تسخير الاسم اللطيف، وكذلك ما بقي من الأسماء، فتحقق يا وليّ كيف تخدم ربك وسيدك، وكن على علم صحيح في نفسك وفي سيدك تكن من العلماء الراسخين في العلم الحكماء الإلهيين، وتفز بالدرجة القصوى والمكانة العليا مع الرسل والأنبياء.

ويحوي أيضاً هذا المنزل على علم التخلق بالأسماء الإلهية كلها، وأعني بالكل ما وصل إلينا العلم بها وعلم التمييز وأين يناله العبد؟ وتقدير الزمان الذي بينه وبين الوصول إليه، وعلم التفاضل الإلهي بين الله وبين عباده في مثل قوله ﴿أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] و﴿أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١] ما الوجه الذي جمعهم حتى كان الحق في ذلك الوجه أكمل ولا مفاضلة بين الله وخلقه، إذ كان السيد هو الذي لا يكاثر ولا يفاضل والكل عبيد له، ولا مفاضلة بين السيد وعبده من حيث هو عبد بل السيد له الفضل أجمعه، وعلم مراتب أهل التصديق أهل التكذيب من مراتب أهل الكفر والشرك وغيرهم، وعلم التمني أي اسم إلهيّ يطلبه، وعلم الصفات التي يكرهها السيد من العبد وما السبب الموجب للعبد حتى يدخل فيما يكرهه سيده؟ هل من حقيقة هو عليها تطلب ذلك أو هو راجع إلى القضاء والقدر خاصة؟ وعلم القلوب، وعلم العلامات، وعلم الإصرار وبما يتعلق وقد بيناه في كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن في قوله تعالى في آل عمران: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] فانظره هناك، وعلم الجزاء الدنياوي والأخراوي وقد بيناه في التفسير لنا في فاتحة الكتاب في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] وعلم التقوى، وعلم الفرقان، وعلم القرآن، وعلم الشدائد والأهوال ولماذا ترجع؟ وكون أيام الدجال من سنة وشهر وجمعة وسائر أيامه كالأيام المعهودة هل ذلك راجع إلى شدة الفجأة؟ فإن الهم يولد كبيراً ويصغر كلما دام واستصحبه الإنسان هان عليه ما يجد حتى أن المعاقب بالضرب ما يحس به إلا في أول ما يقع به مقداراً قليلاً ثم لما يتخدر موضع الضرب فلا يحس به، وعلم الانفراد بالحق لأهل الشقاء ما فائدته ولماذا يرجع، وعلم المكر والخداع والكيد والاستدراج والفرق بين هذه المراتب وأصحابها، وعلم الصبر، وعلم عقوبة من لم يصبر ومتى يكون صابراً؟ وعلم العناية، وعلم الاجتباء، وعلم منازل الصالحين وهو علم غريب شريف ما رأيت من العارفين من يعرفه إلا الأنبياء خاصة، فالحمد لله الذي منّ علينا بمعرفته وما رأينا ذلك إلا بكون الله امتنّ علينا بالاحترام التام لرسله عليهم السلام وشرائعه المنزلة، وعلم الصلاح يختص بهم، فمكنني الله من جني ثمرته، فقد نبهتك على الطريق الموصلة إلى علم الصلاح الذي أغفل الناس طريقه وجعلوه في الطبقة الرابعة وأخذوا الطريق خطاً مستقيماً وطريق الحق ليس كذلك وإنما هو مستقيم الاستدارة، فإن القوم جهلوا معنى الاستقامة في الأشياء ما هي، فالاستقامة الدائرة أن تكون دائرة صحيحة بحيث أن يكون كل خط يخرج من النقطة إلى المحيط منها

مساوياً لصاحبه وسائر الخطوط، كما أن الاستقامة في الشكل المربع والمثلث أن يكون متساوي الأضلاع بتساوي الزوايا، كما أن الاستقامة في الشكل المثلث المتساوي الساقين أن يكون متساوي الساقين، فكل شيء لم يخرج عما وضع له فهي استقامته، وعلم العين وعلم الفرق بين المعجزة والكرامة والسحر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع عشر وثلاثمائة

في معرفة منزل الابتلاء وبركاته وهو منزل الإمام الذي على يسار القطب

[الطويل]

عَجِبْتُ لِدَارٍ قد بَنَاها وسوّاها وأسْكَنَها رُوحاً كريماً وأبْلاهَا

وخرَّبها تَخْريبَ من لا يقيمُها فمَنْ لي بجَمْع الشَّمل مَن لي ببُقْيَاهَا

وقد كان عَلاَّماً بما قد أقامه فيا ليت شِعْري ما الذي كان أدْراها

ولِمْ لا بَناها أوّلاً وأقامها إقامةَ بَاقٍ لا يزول محياها

وما فَعَلَتْ ما تستحقُّ به الرَّدا فما كان أسناها وما كان أقْواها

لقد عَبَثَتْ فينا وفيها يَدُ البِلَى وبَعْدَ زمانٍ ردَّها ثم علاها

وردّ إليها ذلك الروحَ فاسْتَوَى على عَرْشها ملكاً وخلَّد سكناها

وأورثها عَدْناً وخُلْداً عنايةً فأسْكَنَها فِرْدوْسَها ثم مَأْوَاهَا

اعلم أيّدك الله أيها الوليّ الحميم، والصفيّ الكريم، أن الحياة للأرواح المدبرة الأجسام كلها النارية والترابية والنورية كالضوء للشمس سواء، فالحياة لها وصف نفسي، فما يظهرون على شيء إلا حيي ذلك الشيء وسرت فيه حياة ذلك الروح الظاهر له كما يسري ضوء الشمس في جسم الهواء ووجه الأرض وكل موضع تظهر عليه الشمس، ومن هنا يعلم من هو روح العالم وممن يستمد حياته، وما معنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] ثم مثل فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥] وهي الكوة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] وهو النور إلى آخر التشبيه، فمن فهم معنى هذه الآية علم حفظ الله العالم، فهذه الآية من أسرار المعرفة بالله تعالى في ارتباط الإله بالمألوه والرب بالمربوب، فإن المربوب والمألوه لو لم يتولَّ الله حفظه دائماً لفني من حينه إذ لم يكن له حافظ يحفظه ويحفظ عليه بقاءه، فلو احتجب عن العالم في الغيب انعدم العالم، فمن هنا الاسم الظاهر حاكم أبداً وجوداً والاسم الباطن علماً ومعرفة، فبالاسم الظاهر أبقى العالم، وبالاسم الباطن عرفناه، وبالاسم النور شهدناه، فإذا كانت حياة الإنسان الذي هو مقصودنا في هذا الباب لأنه باب الابتلاء وهو يعم المكلفين من الثقلين فإنه كل ما سوى الثقلين ليسوا مثلنا في حكم العبادة والتكليف، فكلامي على الإنسان وحده من حيث حياته كلامي على كل ما سوى الله، وكلامي على ابتلائه كلامي على كل مكلف من الثقلين، قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] على هنا بمعنى في أي كان العرش في الماء، كما أن الإنسان في الماء أي منه تكوّن، فإن الماء أصل

الموجودات كلها وهو عرش الحياة الإلهية، ومن الماء خلق الله كل شيء حيّ، فإن كل ما سوى الله مسبح بحمد الله ولا يكون التسبيح إلا من حيّ وقد وردت الأخبار بحياة كل رطب ويابس وجماد ونبات وأرض وسماء، وهذه هي التي وقع فيها الخلاف بين أهل الكشف وغيرهم ممن ليس له كشف وبين أهل الإيمان وبين من لا يقول بالشرائع أو من يتأوّل الشرائع على غير ما جاءت له فيقولون إنه تسبيح حال، وأما ما أدرك الحس حياته فلا خلاف في حياته، وإنما الخلاف في سبب حياته ما هو وفي تسبيحه بحمد ربه لماذا يرجع إذ لا يكون التسبيح إلا من حيّ عاقل يعقل ذلك، وما عدا الإنسان والجن من الحيوان ليس بعاقل عند المخالف بخلاف ما نعتقد نحن وأهل الكشف والإيمان الصحيح وأعني بالعقل هنا العلم، فالعرش هنا عبارة عن الملك وكان حرف وجودي فمعناه أن الملك موجود في الماء أي الماء أصل ظهور عينه فهو للملك كالهيولى ظهر فيه صور العالم الذي هو ملك الله والعلم محصور في أعيان ونسب، فالأعيان وجودية والنسب معقولة عدمية، وهذا هو كل ما سوّى الله.

ولما كان الماء أصل الحياة وكل شيء حيّ والنسب تابعة له قرن بين العرش المجعول على الماء وبين خلقه الموت والحياة في الابتلاء فقال: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [هود: ٧] أي يختبركم، والعرش كما ذكرت لك أعيان موجودة ونسب عدمية، وقال: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [الملك: ٢] فالحياة للأعيان والموت للنسب، فظهور الروح للجسم حياة ذلك الجسم كظهور الشمس لاستنارة الأجسام التي ظهرت الشمس لها، وغيبة الروح عن الجسم زوال الحياة من ذلك الجسم وهو الموت، فالاجتماع حياة والفرقة موت، والاجتماع والافتراق نسب معقولة لها حكم ظاهر وإن كانت معدومة الأعيان.

واعلم أن القوى كلها التي في الإنسان وفي كل حيوان مثل قوة الحس وقوّة الخيال وقوّة الحفظ والقوّة المصوّرة وسائر القوى كلها المنسوبة إلى جميع الأجسام علواً وسفلاً إنما هي للروح تكون بوجوده وإعطائه الحياة لذلك الجسم، وينعدم فيها ما ينعدم بتوليه عن ذلك الجسم من ذلك الوجه الذي تكون عنه تلك القوّة الخاصة فافهم، فإذا أعرض الروح عن الجسم بالكلية زال بزواله جميع القوى والحياة وهو المعبر عنه بالموت كالليل بمغيب الشمس، وأما بالنوم فليس بإعراض كليّ وإنما هي حجب أبخرة تحول بين القوى وبين مدركاتها الحسية مع وجود الحياة في النائم، كالشمس إذا حالت السحب بينها وبين موضع خاص من الأرض يكون الضوء موجوداً كالحياة وإن لم يقع إدراك الشمس لذلك الموضع الذي حال بينه وبينها السحاب المتراكم، وكما أن الشمس إذا فارقت هذا الموضع من الأرض وجاء الليل بدلاً منه ظهرت في موضع آخر بنوره أضاء به ذلك الموضع فكان النهار هنالك كما كان هنا، كذلك الروح إذا أعرض عن هذا الجسم الذي كانت حياته به تجلى على صورة من الصور الذي هو البرزخ وهو بالصاد جمع صورة فحييت به تلك الصورة في البرزخ كما قال ﷺ في نسمة المؤمن: «**إِنَّهُ طَيْرٌ أَخْضَرُ**» فذلك الطير كالجسم هنا صورة حييت بهذا الروح الذي كان يحيا به هذا الجسم، وكما تطلع الشمس في اليوم الثاني علينا فتستنير

الموجودات بنورها كذلك الروح يطلع في يوم الآخرة على هذه الأجسام الميتة فتحيا به فذلك هو النشر والبعث.

واعلم أن الصور أوجده الله على صورة القرن وسمي بالصور من باب تسمية الشيء باسم الشيء إذا كان مجاوراً له أو كان منه بسبب، ولما كان هذا القرن محلاً لجميع الصور البرزخية التي تنتقل إليها الأرواح بعد الموت وفي النوم فيه سمي صوراً جمع صورة وشكله شكل القرن أعلاه واسع وأسفله ضيق على شكل العالم أين سعة العرش من ضيق الأرض وتنتقل القوى مع الروح إلى تلك الصورة البرزخية نوماً وموتاً ولهذا تكون دراكة بجميع القوى سواء فقد أعلمتك بما هو الأمر عليه، ومن هنا زل القائلون بالتناسخ لما رأوا أو سمعوا أن الأنبياء قد نبهت على انتقال الأوراح إلى هذه الصور البرزخية وتكون فيها على صور أخلاقها ورأوا تلك الأخلاق في الحيوانات تخيلوا في قول الأنبياء والرسل والعلماء أن ذلك راجع إلى هذه الحيوانات التي في الدار الدنيا وأنها ترجع إلى التخليص، وذكروا ما قد علمت من مذهبهم فأخطؤوا في النظر وفي تأويل أقوال الرسل وما جاء في ذلك من الكتب المنزلة، ورأوا النائم يقرب من هذا الأمر الذي شرعوا فيه، فاستروحوا من ذلك ما ذهبوا إليه فما أتى عليهم إلا من سوء التأويل في القول الصحيح وهذا معنى قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي يختبر عقولكم بالموت والحياة ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] بالخوض فيهما والنظر، فيرى من يصيب منكم ومن يخطىء كأهل التناسخ، وجعل ذلك كله دليلاً واضحاً ونصبه برهاناً قاطعاً على اسمه الحيّ واسمه النور واسمه الظاهر والباطن والأول والآخر ليعلم نسبة العالم من موجده وأنه غير مستقل بنفسه، وأن افتقاره إلى الله افتقار ذاتيّ لا ينفك عنه طرفة عين، وأن النسب دائمة الحكم لبقاء وجود الأعيان وهو العزيز المنيع الحمى عن أن يدركه خلقه أو يحاط بشيء من علمه إلا بما شاء، وهو الغفور الذي ستر العقول عن إدراك كنهه أو كنه جلاله.

واعلم يا وليّ نَوَّرَ الله بصيرتك بعد أن تقرّر عندك أن حياة الأجسام كلها من حياة الأرواح المدبرة لها وبانفصالها عنها يكون الموت فيزول نظامهما إذ القوى الماسكة لها زالت بزوال الروح المدبر الذي وكله الله بتدبيرها، فاعلم أن الحياة في جميع الأشياء حياتان، حياة عن سبب وهي الحياة التي ذكرناها ونسبناها إلى الأرواح، وحياة أخرى ذاتية للأجسام كلها حياة الأرواح للأرواح غير أن حياة الأرواح يظهر لها أثر في الأجسام المدبرة بانتشار ضوئها فيها وظهور قواها التي ذكرناها، وحياة الأجسام الذاتية لها ليست كذلك فإن الأجسام ما خلقت مدبرة فبحياتها الذاتية التي لا يجوز زوالها عنها فإنها صفة نفسية لها بها تسبح ربها دائماً سواء كانت أرواحها فيها أو لم تكن، وما تعطيها أرواحها إلا هيئة أخرى عرضية في التسبيح بوجودها خاصة وإذا فارقتها الروح فارقها ذلك الذكر الخاص وهو الكلام المتعارف بيننا المحسوس تسبيحاً كان أو غيره، فيدرك المكاشف الحياة الذاتية التي في الأجسام كلها، وإذا اتفق على أيّ جسم كان أمر يخرجه عن نظامه مثل كسر آنية أو كسر حجر أو قطع شجر، فهو مثل قطع يد إنسان أو رجله يزول عنه حياة الروح المدبر له ويبقي عليه حياته الذاتية له، فإنه

لكل صورة في العالم روح مدبرة وحياة ذاتية تزول الروح بزوال تلك الصورة كالقتيل، وتزول الصورة بزوال ذلك الروح كالميت الذي مات على فراشه ولم تضرب عنقه، والحياة الذاتية لكل جوهر فيه غير زائلة، وبتلك الحياة الذاتية التي أخذ الله بأبصار بعض الخلق عنها بها تشهد الجلود يوم القيامة على الناس والألسنة والأيدي والأرجل وبها تنطق فخذ الرجل في آخر الزمان فتخبر صاحبها بما فعل أهله، وبها تنطق الشجرة في آخر الزمان إذا اختفى خلفها اليهود حين يطلبهم المسلمون للقتل فتقول للمسلم إذا رأته يطلب اليهودّي: يا مسلم هذا يهودي خلفي فاقتله إلا شجرة الغرقد فإنها تستر اليهوديّ إذا لاذ بها فلعنها رسول الله ﷺ، ولا يقال إن الشجرة إنما رأفت مع من استند إليها كما يراه أصحاب الخلق الكريم فلتعلم أن حق الله أحق بالقضاء وتصريف الخلق الكريم مع الله هو الأوجب على كل مؤمن، ألا تراه يقول: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] وإنما كانت هذه الحياة في الأشياء ذاتية لأنها عن التجلي الإلهيّ للموجودات كلها لأنه خلقها لعبادته ومعرفته، ولا أحد من خلقه يعرفه إلا أن يتجلى له فيعرفه بنفسه إذ لم يكن في طاقة المخلوق أن يعرف خالقه كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] والتجلي دائم أبداً مشاهد لكل الموجودات ظاهر ما عدا الملائكة والإنس والجنّ فإن التجلي لهم الدائم إنما هو فيما ليس له نطق ظاهر كسائر الجمادات والنبات. وأما التجلي لمن أعطي النطق والتعبير عما في نفسه وهم الملائكة والإنس والجن من حيث أرواحهم المدبرة لهم وقواها فإن التجلي لهم من خلف حجاب الغيب، فالمعرفة للملائكة بالتعريف الإلهيّ لا بالتجلي، والمعرفة للإنس والجن بالنظر والاستدلال والمعرفة لأجسامهم ومن دونهم من المخلوقات بالتجلي الإلهيّ، وذلك لأن سائر المخلوقات فطروا على الكتمان فلم يعطوا عبارة التوصيل وأراد الحق ستر هذا المقام رحمة بالمكلفين إذ سبق في علمه أنهم يكلفون، وقد قدر عليهم المعاصي وقدر على بعضهم الاعتراض فيما لم يكن ينبغي لهم كالملائكة حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] وجرى ما جرى في قصة آدم معهم فلهذا وقع الستر عنهم لأنهم لو عصوه بالقضاء والقدر على التجلي والمشاهدة لكان عدم احترام عظيم وعدم حياء وكانت المؤاخذة عظيمة فكانت الرحمة لا تنالهم أبداً، فلما عصوه على الستر قامت لهم الحجة في المعذرة، ولهذا كانت الغفلة من الرحمة التي جعلها الله لعباده والنسيان ليجدوا بذلك حجة لو اعترض عليهم ويجدون بها عذراً، ولهذا ما كلف الله أحداً من خلقه إلا الملائكة والإنس والجنّ وما عداهم فإن دوام التجلي لهم أعطاهم الحياة الذاتية الدائمة وهم في تسبيحهم مثلنا في أنفاسنا دوام متوال من غير مشقة نجده في تنفسنا بل الأنفاس عين الراحة لنا بل لولاها لمتنا، ألا ترى المخنوق إذا حيل بينه وبين خروج نفسه مات ووجد الألم، فعلى هذا الحد هو تسبيح كل شيء إن فهمت فالحق على الحقيقة هو مدبر العالم كما قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ [الرعد: ٢] يعني الدلالات على توحيده، فيعطي كل خلق دلالة تخصه على توحيد موجده كما قال القائل: [المتقارب]

وفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ على أنَّهُ وَاحِدُ

وهي هذه الآيات التي يفصلها فيقسمها على خلقه بحسب ما فطرهم الله تعالى عليه، فهو سبحانه روح العالم وسمعه وبصره ويده، فبه يسمع العالم، وبه يبصر، وبه يتكلم، وبه يبطش، وبه يسعى إذ لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم، ولا يعرف هذ إلا من تقرّب إلى الله بنوافل الخيرات كما ورد في الصحيح من الأخبار النبوية الإلهية: «**فَإذَا تَقرَّبَ العَبْدُ إلَيْهِ تَعَالَى بِالنَّوافِلِ أَحَبَّهُ وَإذَا أَحَبَّهُ قَالَ الله تَعَالَى: فَإذَا أَحْبَبْتُهُ كُنتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ**» وفي رواية: «**كُنْتُ لَهُ سَمْعاً وَبَصراً وَيَداً وَمُؤيِّداً**» فقوله: «كنت» يدل على أنه كان الأمر على هذا وهو لا يشعر، فكانت الكرامة التي أعطاه هذا التقرب الكشف والعلم بأن الله كان سمعه وبصره فهو يتخيل أنه يسمع بسمعه وهو يسمع بربه كما كان يسمع الإنسان في حال حياته بروحه في ظنه لجهله وفي نفس الأمر إنما يسمع بربه، ألا ترى نبيه الصادق في أهل القليب كيف قال ما أنتم بأسمع منهم حين خاطبهم ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤] وكان قد جَيَّفُوا فما من أحد من المخلوقات إلا وهو يسمع ولكن فطروا على منع توصيل ما يعلمون ويسمعون، وهذه الحياة التي تظهر لأعين الخلق عند خرق العوائد في إحياء الموتى كبقرة موسى وغيرها فالاسم الظاهر هو العالم إن تحققته فإنه للحق بمنزلة الجسم للروح المدبرة والاسم الباطن لما خفي عن الموجودات في نسبة الحياة لأنفسهم، وبالمجموع يكون الإنسان إذ حده حيوان ناطق فالحيوانية صورته الظاهرة، فإن الحيوانية مطابقة في الدلالة للجسم المتغذي الحساس إلا أنها أخصر فرجحوها في عالم العبارة للاختصار لأنها تساويها في الدلالة وهو ناطق من حيث معناه، وليس معناه سوى ما ذكرناه، فالعالم كله عندنا الذي هو عبارة عن كل ما سوى الله حيوان ناطق لكن تختلف أجسامه وأغذيته وحسه، فهو الظاهر بالصورة الحيوانية وهو الباطن بالحياة الذاتية الكائنة عن التجلي الإلهيّ الدائم الوجود، فما في الوجود إلا الله تعالى وأسماؤه وأفعاله، فهو ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ [الحديد: ٣] من الاسم الظاهر، وهو ﴿ٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣] من الاسم الباطن، فالوجود كله حق ما فيه شيء من الباطل، إذ كان المفهوم من إطلاق لفظ الباطل عدماً ما فيما ادّعى صاحبه أنه وجود فافهم، ولو لم يكن الأمر كذلك لانفرد الخلق بالفعل، ولم يكن الاقتدار الإلهيّ يعم جميع الممكنات، بل كانت الإمكانات تزول عنه، فسبحان الظاهر الذي لا يخفى، وسبحان الخفيّ الذي لا يظهر، حجب الخلق به عن معرفته وأعماهم بشدّة ظهوره، فهم منكرون مقرون متردّدون حائرون مصيبون مخطئون، والحمد لله الذي منّ علينا بمثل هذه المشاهد وجلا لأبصارنا هذه الحقائق، فلم تقع لنا عين إلا عليه، ولا كان منا استناد إلا إليه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].

ومن أراد أن يعرف حقيقة ما أومأت إليه في هذه المسألة فلينظر في خيال الستارة وصوره ومن الناطق في تلك الصور عند الصبيان الصغار الذين بعدوا عن حجاب الستارة المضروبة بينهم وبين اللاعب بتلك الأشخاص والناطق فيها فالأمر كذلك في صور العالم والناس أكثرهم أولئك الصغار الذين فرضناهم فتعرف من أين أتى عليهم، فالصغار في ذلك

المجلس يفرحون ويطربون، والغافلون يتخذونه لهواً ولعباً، والعلماء يعتبرون ويعلمون أن الله ما نصب هذا إلا مثلاً ولذلك يخرج في أوّل الأمر شخص يسمى الوصاف فيخطب خطبة يعظم الله فيها ويمجده، ثم يتكلم على كل صنف صنف من الصور التى تخرج بعده من خلف هذه الستارة، ثم يعلم الجماعة أن الله نصب هذا مثلاً لعباده ليعتبروا وليعلموا أن أمر العالم مع الله مثل هذه الصور مع محركها، وأن هذه الستارة حجاب سر القدر المحكم في الخلائق، ومع هذا كله يتخذونه الغافلون لهواً ولعباً وهو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الأعراف: ٥١] ثم يغيب الوصاف وهو بمنزلة أوّل موجود فينا وهو آدم عليه السلام، ولما غاب كان غيبته عنا عند ربه خلف ستارة غيبه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن عشر وثلاثمائة

في معرفة منزل نسخ الشريعة المحمدية وغير المحمدية بالأعراض النفسية عافانا الله وإياكم من ذلك بمنِّه

[الرمل]

أنـا إنْ فـارقـتُ نَـفْـسـي قَـامَ لـي ... مِثْلُها في الحُسنْ من غير البَشَرْ
ذاتُ حُـسْـنٍ وبَـهَـاءٍ وسَـنًـا ... لـيس مـنـهـا بـدَلِـيـل الشَّـرْع شَرْ
فـكـأنَّ الـشَّـمْـسَ فـي ذاك الـسَّـنَـا ... وكـأنَّ الـشَّـهْـدَ فـي ذاك الأثَـرْ
مـن رأى الـشِّـبْـلَ إلـى جـانـبـه ... أسَـدٌ عـنْ نَـاب شِـدْقَـيْـهِ كَـشَـرْ
حَـذَراً مـنـه عـلـى أشْـبَـالِـهِ ... طَـالـبـاً كُـلَّ خَـؤُونٍ وأشِـرْ
صـار يـسـتـعْـذِبُ فـي مَـرْضَـاتِـهِ ... صَـبْـراً لـصَـبْـرٍ ويَـسْـتَـحْـلي الـعُـشَـرْ
فَـلْـتُـتَـرْجِـمْ بـكَـلام حَـسَـنٍ ... لا تَـكُـنْ مـمَّـنْ هَـذَى ثـم فَـشَـرْ
لا يَـرَى الـحَـقَّ عُـبَـيْـدٌ لـم يَـكُـنْ ... يُـبْـصِـرُ الـمَـعْـنَـى مـن الـحَـرْفِ نـشَرْ
فـإذا أبْـصَـرَهُ قَـامَ بـه ... ورَأى الـكَـوْنَ فـقـيـراً فـنـشـر
رَحْـمَـةَ الله عـلـى عَـالَـمِـهِ ... ودَعَـا الـخَـلْـقَ إلـيـه وحَـشَـرْ

اعلم أيها الولي الحميم أنا روينا في هذا الباب عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً أصاب من عرضه فجاء إليه يستحله من ذلك فقال له: يا ابن عباس إني قد نلت منك فاجعلني في حل من ذلك، فقال: «أعوذ بالله أن أحل ما حرّم الله إن الله قد حرّم أعراض المسلمين فلا أحلها ولكن غفر الله لك» فانظر ما أعجب هذا التصريف وما أحسن العلم، ومن هذا الباب حلف الإنسان على ما أبيح له فعله أن لا يفعله أو يفعله، ففرض الله تحلّة الإيمان وهو من باب الاستدراج والمكر الإلهي إلا لمن عصمه الله بالتنبيه عليه فما ثم شارع إلا الله تعالى، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ١٠٥] ولم يقل بما رأيت، بل عتبه سبحانه وتعالى لما حرم على نفسه باليمين في قضية عائشة وحفصة فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ﴾ [التحريم: ١] فكان هذا مما أرته

نفسه، فهذا يدلك أن قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أنه ما يوحي به إليه لا ما يراه في رأيه، فلو كان الدين بالرأي لكان رأي النبي ﷺ أولى من رأي كل ذي رأي فإذا كان هذا حال النبي ﷺ فيما أرته نفسه فكيف رأي من ليس بمعصوم ومن الخطأ أقرب إليه من الإصابة؟ فدل أن الاجتهاد الذي ذكره رسول الله ﷺ إنما هو طلب الدليل على تعيين الحكم في المسألة الواقعة لا في تشريع حكم في النازلة، فإن ذلك شرع لم يأذن به الله ولقد أخبرني القاضي عبد الوهاب الأزدي الإسكندري بمكة سنة تسع وتسعين وخمسمائة قال: رأيت رجلاً من الصالحين بعد موته في المنام فسألته ما رأيت، فذكر أشياء منها قال: ولقد أريت كتباً موضوعة وكتباً مرفوعة فسألت ما هذه الكتب المرفوعة؟ فقيل لي: هذه كتب الحديث، فقلت: وما هذه الكتب الموضوعة؟ فقيل لي: هذه كتب الرأي حتى يسأل عنها أصحابها فرأيت الأمر فيه شدة.

اعلم وفقك الله أن الشريعة هي المحجة البيضاء محجة السعداء وطريق السعادة من مشى عليها نجا ومن تركها هلك، قال رسول الله ﷺ لما نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣] خط رسول الله ﷺ في الأرض خطاً وخط خطوطاً عن جانبي الخط يميناً وشمالاً ثم وضع أصبعه على الخط وقال تالياً: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وأشار إلى تلك الخطوط التي خطها عن يمين الخط ويساره ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وأشار إلى الخط المستقيم.

ولقد أخبرني بمدينة سلا مدينة بالمغرب على شاطىء البحر المحيط يقال لها منقطع التراب ليس وراءها أرض رجل من الصالحين الأكابر من عامة الناس قال: رأيت في النوم محجة بيضاء مستوية عليها نور سهلة ورأيت عن يمين تلك المحجة وشمالها خنادق وشعاباً وأودية كلها شوك لا تنسلك لضيقها وتوعر مسالكها وكثرة شوكها والظلمة التي فيها ورأيت جميع الناس يخبطون فيها عشواً ويتركون المحجة البيضاء السهلة، وعلى المحجة رسول الله ﷺ ونفر قليل معه يسير وهو ينظر إلى من خلفه وإذا في الجماعة متأخر عنها لكنه عليها الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن قرقور المحدث كان سيداً فاضلاً في الحديث اجتمعت بابنه فكان يفهم عن النبي ﷺ أنه يقول له: ناد في الناس بالرجوع إلى الطريق فكان ابن قرقور يرفع صوته ويقول في ندائه ولا من داع ولا من مستدع: هلموا إلى الطريق هلموا قال فلا يجيبه أحد ولا يرجع إلى الطريق أحد.

واعلم أنه لما غلبت الأهواء على النفوس وطلبت العلماء المراتب عند الملوك تركوا المحجة البيضاء وجنحوا إلى التأويلات البعيدة ليمشوا أغراض الملوك فيما لهم فيه هوى نفس ليستندوا في ذلك إلى أمر شرعي مع كون الفقيه ربما لا يعتقد ذلك ويفتي به، وقد رأينا منهم جماعة على هذا من قضاتهم وفقهائهم، ولقد أخبرني الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد وقع بيني وبينه في مثل هذا كلام فنادى بمملوك وقال: جئني بالحرمدان فقلت له: ما شأن الحرمدان؟ قال أنت تنكر علي ما يجري في بلدي ومملكتي من المنكرات والظلم وأنا والله أعتقد مثل ما تعتقد أنت فيه من أن ذلك كله منكر

ولكن والله يا سيدي ما منه منكر إلا بفتوى فقيه وخط يده عندي بجواز ذلك فعليهم لعنة الله. ولقد أفتاني فقيه هو فلان وعين لي أفضل فقيه عنده في بلده في الدين والتقشف بأنه لا يجب علي صوم شهر رمضان هذا بعينه بل الواجب علي شهر في السنة والاختيار لي فيه أي شهر شئت من شهور السنة، قال السلطان: فلعنته في باطني ولم أظهر له ذلك وهو فلان وسماه ولي رحم الله جميعهم فلتعلم أن الشيطان قد مكنه الله من حضرة الخيال وجعل له سلطاناً فيها، فإذا رأى الفقيه يميل إلى هوى يعرف أنه يردي عند الله زين له سوء عمله بتأويل غريب يمهد له فيه وجهاً يحسنه في نظره ويقول له: إن الصدر الأوّل قد دانوا الله بالرأي، وقاس العلماء في الأحكام واستنبطوا العلل للأشياء وطردوها وحكموا في المسكوت عنه بما حكموها به في المنصوص عليه للعلة الجامعة بينهما والعلة من استنباطه، فإذا مهد له هذه السبيل جنح إلى نيل هواه وشهوته بوجه شرعي في زعمه، فلا يزال هكذا فعله في كل ما له أو لسلطانه فيه هوى نفس، ويرد الأحاديث النبوية ويقول: لو أن هذا الحديث يكون صحيحاً، وإن كان صحيحاً يقول: لو لم يكن له خبر آخر يعارضه وهو ناسخ له لقال به الشافعي إن كان هذا الفقيه شافعياً، أو لقال به أبو حنيفة إن كان الرجل حنفياً، وهكذا أقوال أتباع هؤلاء الأئمة كلهم ويرون أن الحديث والأخذ به مضلة، وأن الواجب تقليد هؤلاء الأئمة وأمثالهم فيما حكموا به وإن عارضت أقوالهم الأخبار النبوية فالأولى الرجوع إلى أقاويلهم وترك الأخذ بالأخبار والكتاب والسنة فإذا قلت لهم: قد روينا عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: إذا أتاكم الحديث يعارض قولي فاضربوا بقولي الحائط وخذوا بالحديث فإن مذهبي الحديث وقد روينا عن أبي حنيفة أنه قال لأصحابه: حرام على كل من أفتى بكلامي ما لم يعرف دليلي، وما روينا شيئاً من هذا عن أبي حنيفة إلا من طريق الحنفيين، ولا عن الشافعي إلا من طريق الشافعية، وكذلك المالكية والحنابلة، فإذا ضايقتهم في مجال الكلام هربوا وسكتوا، وقد جرى لنا هذا معهم مراراً بالمغرب وبالمشرق، فما منهم أحد على مذهب من يزعم أنه على مذهبه فقد انتسخت الشريعة بالأهواء. وإن كانت الأخبار موجودة مسطرة في الكتب الصحاح وكتب التواريخ بالتجريح والتعديل موجود والأسانيد محفوظة مصونة من التغيير والتبديل، ولكن إذا ترك العمل بها واشتغل الناس بالرأي ودانوا أنفسهم بفتاوى المتقدمين مع معارضة الأخبار الصحاح لها فلا فرق بين عدمها ووجودها إذ لم يبق لها حكم عندهم وأي نسخ أعظم من هذا؟ وإذا قلت لأحدهم في ذلك شيئاً يقول لك: هذا هو المذهب وهو والله كاذب، فإن صاحب المذهب قال له إذا عارض الخبر كلامي فخذ بالحديث واترك كلامي في الحش فإن مذهبي الحديث، فلو أنصف لكان على مذهب الشافعي من ترك كلام الشافعي للحديث المعارض فالله يأخذ بيد الجميع.

وبعد أن تبين ما قررناه فاعلم أن الإنسان إذا زهد في غرضه ورغب عن نفسه وآثر ربه أقام له الحق عوضاً من صورة نفسه صورة هداية إلهية حقاً من عند حق حتى يرفل في غلائل النور وهي شريعة نبيه ورسالة رسوله، فيلقى إليه من ربه ما يكون فيه سعادته، فمن الناس من

يراها على صورة نبيه، ومنهم من يراها على صورة حاله، فإذا تجلت له في صورة نبيّه فليكن عين فهمه فيما تلقي إليه تلك الصورة لا غير، فإن الشيطان لا يتمثل على صورة نبيّ أصلاً، فتلك حقيقة ذلك النبيّ وروحه أو صورة ملك مثله عالم من الله بشريعته فما قال له فهو ذاك، ونحن قد أخذنا عن مثل هذه الصورة أموراً كثيرة من الأحكام الشرعية لم نكن نعرفها من جهة العلماء ولا من الكتب، فلما عرضت ما خاطبتني به تلك الصورة من الأحكام الشرعية على بعض علماء بلادنا ممن جمع بين الحديث والمذاهب فأخبرني بجميع ما أخبرته به أنه روي في الصحيح عن النبيّ ﷺ ما غادر حرفاً واحداً وكان يتعجب من ذلك حتى أنه من جملة ذلك رفع اليدين في الصلاة في كل خفض ورفع ولا يقول بذلك أهل بلادنا جملة واحدة وليس عندنا من يفعل ذلك ولا رأيته، فلما عرضته على محمد بن علي بن الحاج وكان من المحدثين روى لي فيه حديثاً صحيحاً عن رسول الله ﷺ ذكره مسلم ووقفت عليه بعد ذلك في صحيح مسلم لما طالعت الأخبار ورأيت بعد ذلك أن فيه رواية عن مالك بن أنس رواها ابن وهب، وذكر أبو عيسى الترمذي هذا الحديث وقال: وبه يقول مالك والشافعي، وكذا اتفق لي في الأخذ من صورة نبيّي ﷺ ما يعرض عليّ من الأحكام المشروعة التي لم يكن لنا علم بها، وأما إذا ظهرت له على غير صورة رسوله فتلك الصورة راجعة إلى حاله لا بد من ذلك، أو إلى منزلة الشرع في ذلك الوقت في ذلك الموضع الذي رآه فيه مثل الرؤيا سواء إلا أن هذا الإنسان يراها في اليقظة والعامة ترى ذلك في النوم، فلا يأخذ عن تلك الصورة إذا تجلت بهذه المثابة شيئاً من الأحكام المشروعة، وكل ما أتى به من العلوم والأسرار مما عدا التحليل والتحريم فلا تحجير عليه فيما يأخذه منها لا في العقائد ولا في غيرها، فإن الحضرة الإلهية تقبل جميع العقائد إلا الشرك فإنها لا تقبله، فإن الشريك عدم محض والوجود المطلق لا يقبل العدم، والشريك لا شك أنه خارج عن شريكه بخلاف ما يعتقد فيه مما يتصف به الموصوف في نفسه فلهذا قلنا: لا يقبل الشريك لأنه ما ثم شريك حتى يقبل، وإن كان قد جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧] فافهم هذه الإشارة فإن الشبهة تأتي في صورة البرهان، فهذا ذم للمقلدة لا لأصحاب النظر وإن أخطؤوا.

ثم اعلم أن الغرض هو عين الإرادة إلا أنه إرادة للنفس بها تعشق وهوى فثبتت فسميت غرضاً إذ كان الغرض هو الإشارة التي تنصبها الرماة للمناضلة، ولما كانت السهام من الرماة تقصدها وهي ثابتة لا تزول سميت الإرادة التي بهذه المثابة غرضاً لثبوتها في نفس من قامت به لتعشقه بذلك الأمر، ولا يبالي من سهام أقوال الناس فيه لذلك وسواء كان ذلك الغرض محموداً أو مذموماً، لكنهم اصطلحوا على أنه إذا قيل فيه غرض نفسيّ ونسبوه إلى النفس أن يكون مذموماً، وإذا عري عن هذه النسبة قد يكون محموداً وقد يكون مذموماً ولهذا وصف الحق بأن له إرادة ولم يتصف بأن له غرضاً، لأن الغرض الغالب عليه تعلق الذم به وهو عرض يعرض للنفس فأعجم القضاء والقدر عينه فسمي غرضاً لما ذكرناه لما يقوم بصاحبه من اللجاج في إمضائه وهو عين العلة التي لأجلها كان وقوع ذلك الفعل أو تركه إن كان الغرض تركه، والعلة

مرض والأغراض أمراض النفوس وإنما قلنا بأنه أمر يعرض للنفس لأن النفس إنما خلق لها الإرادة لتريد بها ما أراد الله أن تأتيه من الأمور أو تتركه على ما حد لها الشارع، فالأصل هو ما ذكرناه، فلما عرض لهذه الإرادة تعشق نفسيّ بهذا الأمر ولم تبال من حكم الشرع فيه بالفعل أو الترك حتى لو صادف الأمر الشرعيّ بإمضائه لم يكن بالقصد منه، وإنما وقع له بالاتفاق كون الشارع أمره به ففعله صاحب هذه الصفة لغرضه لا لحكم الشارع، فلهذا لم يحمده الله على فعله، إلا إن سأل قبل إمضاء الغرض هل للشرع في إمضائه حكم يحمد؟ فيفتيه المفتي بأن الشارع قد حكم فيه بالإباحة أو بالندب أو بالوجوب فيمضيه عند ذلك فيكون حكماً شرعياً وافق هوى نفس فيكون مأجوراً عليه والأوّل ليس كذلك، فإن الأوّل هوى نفس وغرض وافق حكم شرع محمود فلم يمضه للشرع على طريق القربة فخسر، فانظر يا وليّ في أغراضك النفسية إذا عرضت لك ما حكمها في الشرع؟ فإذا حكم عليك الشرع بالفعل فافعله أو بالترك فاتركه، فإن غلب عليك بعد السؤال ومعرفتك بحكم الشرع فيه بالترك ولم تتركه واعتقدت أنك مخطىء في ذلك فأنت مأجور من وجه من بحثك وسؤالك عن حكم الشرع فيه قبل إمضائه، ومن اعتقادك أوّلاً في الشرع حتى سألت عن حكمه في ذلك الأمر، ومن اعتقادك بعد العلم بأنه حرام يجب تركه، ومن استنادك إلى أن الله غفور رحيم يعفو ويصفح بطريق حسن الظن بالله، ومن كونك لم تقصد انتهاك حرمة الله، ومن كونك معتقداً لسابق القضاء والقدر فيك بإمضاء هذا الأمر كمسألة موسى مع آدم عليهما السلام، فهذه وجوه كثيرة أنت مأجور من جهتها في عين معصيتك، وأنت مأثوم فيها من وجه واحد وهو عين إمضاء ذلك الأمر الذي هو هوى نفسك، وإن زاد إلى تلك الوجوه أنك يسوؤك ذلك الأمر كما قال رسول الله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَبَخٍ عَلَى بَخٍ**» وهذا كله إنما جعله الله للمؤمن إرغاماً للشيطان الذي يزين للإنسان سوء عمله، فإن الشيطان يأمر بالفحشاء، فوعد الله بالمغفرة وهي الستر الذي يجعله الله بين المؤمن العاصي وبين الكفر يرديه عند وقوع المعصية فيعتقد أنها معصية ولا يبيح ما حرم الله وذلك من بركة ذلك الستر، ثم ثم مغفرة أخرى وهو ستر خلف سترين، ستر عليه في الدنيا لم يمض فيه حد الله المشروع في تلك المعصية وإن ستر عليه في الآخرة لم يعاقبه عليها، فالستر الأول محقق في الوقت قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٨] فهذه المغفرة لأمره بالفحشاء، والفضل لما وعد به الشيطان من الفقر في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [البقرة: ٢٦٨] فأراح الله المؤمن حيث ناب عنه الحق سبحانه في مدافعة ما أراد الشيطان إمضاءه في المؤمن، فدفع الله عن عبده المؤمن وعداً إلهياً دفع به وعداً شيطانياً، والله لا يقاوم ولا يغالب، فالمغفرة متحققة والفضل متحقق، وباء الشيطان بالخسران المبين، ولهذه الحقيقة أمرنا الله أن نتخذه وكيلاً في أمورنا، فيكون الحق هو الذي يتولى بنفسه دفع مضار هذه الأمور عن المؤمنين، وما غرض الشيطان المعصية لعينها وإنما غرضه أن يعتاد العبد طاعة الشيطان فيستدرجه حتى يأمره بالشرك الذي فيه شقاوة الأبد، وذلك لا يكون إلا برفع الستر الاعتصاميّ الحائل بين العبد والشرك، والله تعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع عشر وثلاثمائة

في معرفة تنزل سراح النفس عن قيد وجه مّا من وجوه الشريعة بوجه آخر منها وأن ترك السبب الجالب للرزق من طريق التوكل سبب جالب للرزق وأن المتصف به ما خرج عن رق الأسباب ومن جلس مع الله من كونه رزاقاً فهو معلول

[البسيط]

لله بين السَّمَا والأرض تَنْزِيلُ ... مِنْ أمْره فيه تَبْدِيلٌ وتَحْوِيلُ
يَنْحَطُّ مِنْ صُوَرٍ في طَيِّهَا صُوَرٌ ... يَمْحُو بها صُوَراً لهنّ تَمْثِيلُ
وصُورَةُ الحقّ فيه أنْ يكونَ على ... ما الحقُّ فيه وإنْ لم فَهْوَ تَضْلِيلُ
الهُو يصاحب مجَلَّى الحَقِّ في صُوَرٍ ... وهو الصحيح الّذي ما فيه تَعْليلُ
هذا مقامُ ابْنِ عَبَّاسٍ وحالتنا ... وقد أَتَى فيه قرآنٌ وتَنْزِيلُ
فلا تَغُرَّنْكَ حالٌ لستَ تعرفُها ... فإنَّها لك تَسْبيحٌ وتَهْليلُ
وقُلْ بها والتَزِمْهَا إنَّها سَنَدٌ ... أقْوَى يؤيِّدُه شَرْعٌ ومَعْقُولُ
تقضي به صُحُفٌ مُتْلَى مُطَهَّرَةٌ ... منها زَبُورٌ وتوراةٌ وإنجيلُ
فاشْهدْ هُدِيتَ عُلُوماً عَزّ مُدْرَكُها ... على العُقُولِ فوَجْهُ الحقّ مَقْبُولُ
يحارُ عَقْلُكَ فيها أن يُكَيِّفَهَا ... فإنه تحت قَهْرِ الحِسِّ مَغْلُولُ
فالحسُّ أفضلُ ما تُعْطَاهُ مِنْ مِنَحٍ ... وصاحبُ الفِكْرِ مَنْصُورٌ ومَخْذُولُ

اعلم وفقك الله أيها الوليّ الحميم تولاك الله برحمته وفتح عين فهمك أنه من كانت حقيقته أن يكون مقيداً لا يصح أن يكون مطلقاً بوجه من الوجوه ما دامت عينه فإن التقييد صفة نفسية له، ومن كانت حقيقته أن يكون مطلقاً فلا يقبل التقييد جملة واحدة، فإنه صفته النفسية أن يكون مطلقاً، لكن ليس في قوّة المقيد أن يقبل الإطلاق لأن صفته العجز، وأن يستصحبه الحفظ الإلهيّ لبقاء عينه فالافتقار يلزمه، وللمطلق أن يقيد نفسه إن شاء، وأن لا يقيدها إن شاء فإن ذلك من صفة كونه مطلقاً إطلاق مشيئة، ومن هنا أوجب الحق على نفسه ودخل تحت العهد لعبده فقال في الوجوب: ﴿قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢] أي أوجب فهو الموجب على نفسه ما أوجب غيره عليه ذلك فيكون مقيداً بغيره، فقيد نفسه لعبيده رحمة بهم ولطفاً خفياً وقال في العهد: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] فكلفهم وكلف نفسه لما قام الدليل عندهم بصدقه في قيله ذكر لهم ذلك تأنيساً لهم سبحانه وتعالى، ولكن هذا كله أعني دخوله في التقييد لعباده من كونه إلهاً لا من كونه ذاتاً، فإن الذات غنية عن العالمين والملك ما هو غنيّ عن الملك إذ لو لا الملك ما صح اسم الملك، فالمرتبة أعطت التقييد لا ذات الحق جل وتعالى، فالمخلوق كما يطلب الخالق من كونه مخلوقاً، كذا الخالق يطلب المخلوق من كونه خالقاً ألا ترى العالم لما كان له العدم من نفسه لم يطلب الخالق ولا المعدم فإن العدم له من ذاته، وإنما طلب الخالق من كون مخلوقاً، فمن هنا قيد نفسه تعالى

بما أوجب على نفسه من الوفاء بالعهد ولما كان المخلوق بهذه المثابة لذلك تعشق بالأسباب ولم يتمكن له إلا الميل إليها طبعاً فإنه موجود عن سبب وهو الله تعالى، ولهذا أيضاً وضع الحق الأسباب في العالم لأنه سبحانه علم أنه لا يصح اسم الخالق وجوداً وتقديراً إلا بالمخلوق وجوداً وتقديراً، وكذلك كل اسم إلهيّ يطلب الكون مثل الغفور والمالك والشكور والرحيم وغير ذلك من الأسماء، فمن هنا وضع الأسباب وظهر العالم مربوطاً بعضه ببعضه، فلم تنبت سنبلة إلا عن زارع وأرض ومطر وأمر بالاستسقاء إذا عدم المطر تثبيتاً منه في قلوب عباده لوجود الأسباب، ولهذا لم يكلف عباده قط الخروج عن السبب فإنه لا تقتضيه حقيقته، وإنما عين له سبباً دون سبب فقال له: أنا سببك فعليّ فاعتمد وتوكل كما ورد: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] فالرجل من أثبت الأسباب، فإنه لو نفاها ما عرف الله ولا عرف نفسه، وقال ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» ولم يقل عرف ذات ربه، فإن ذات الرب لها الغنى على الإطلاق، وأتى للمقيد بمعرفة المطلق، والرب يطلب المربوب بلا شك ففيه رائحة التقييد فبهذا عرف المخلوق ربه، ولذلك أمره أن يعلم أنه لا إله إلا هو من كونه إلهاً لأن الإله يطلب المألوه وذات الحق غنية عن الإضافة فلا تتقيد. فإثبات الأسباب أدل دليل على معرفة المثبت لها بربه، ومن رفعها رفع ما لا يصح رفعه، وإنما ينبغي له أن يقف مع السبب الأوّل وهو الذي خلق هذه الأسباب ونصبها، ومن لا علم له بما أشرنا إليه لا يعلم كيف يسلك الطريق إلى معرفة ربه بالأدب الإلهي، فإن رافع الأسباب سيىء الأدب مع الله، ومن عزل من ولاه الله فقد أساء الأدب وكذب في عزل ذلك الوالي، فانظر ما أجهل من كفر بالأسباب وقال بتركها، ومن ترك ما قرّره الحق فهو منازع لا عبد وجاهل لا عالم، وإني أعظك يا وليّ أن تكون من الجاهلين الغافلين، وأراك في الحين تكذب نفسك في ترك الأسباب، فإني أراك في وقت حديثك معي في ترك الأسباب ورميها وعدم الالتفات إليها والقول بترك استعمالها يأخذك العطش فتترك كلامي وتجري إلى الماء فتشرب منه لتدفع بذلك ألم العطش، وكذلك إذا جعت تناولت الخبز فأكلت وغايتك أن لا تتناوله بيدك حتى يجعل في فمك فإذا حصل في فمك مضغته وابتلعته فما أسرع ما أكذبت نفسك بين يدي، وكذلك إذا أردت أن تنظر أفتقرب إلى فتح عينك فهل فتحتها إلا بسبب؟ وإذا أردت زيارة صديق لك سعيت إليه والسعي سبب في وصولك إليه فكيف تنفي الأسباب بالأسباب؟ أترضى لنفسك بهذه الجهالة؟ فالأديب الإلهيّ العالم من أثبت ما أثبته الله في الموضع الذي أثبته الله، وعلى الوجه الذي أثبته الله، ومن نفى ما نفاه الله في الموضع الذي نفاه الله وعلى الوجه الذي نفاه الله ثم تكذب نفسك إن كنت صالحاً في عبادتك ربك أليست عبادتك سبباً في سعادتك وأنت تقول بترك الأسباب فلم لا تقطع العمل؟ فما رأيت أحداً من رسول ولا نبيّ ولا وليّ ولا مؤمن ولا كافر ولا شقيّ ولا سعيد خرج قط عن رق الأسباب مطلقاً أدناها التنفس، فيا تارك السبب لاتتنفس فإن التنفس سبب حياتك، فأمسك نفسك حتى تموت فتكون قاتل نفسك فتحرم عليك الجنة، وإذا فعلت هذا فأنت تحت حكم السبب، فإن ترك التنفس سبب لموتك

وموتك على هذه الصورة سبب في شقائك فما برحت من السبب، فما أظنك عاقلاً إن كنت تزعم أن ترفع ما نصبه الله وأقامه علماً مشهوداً ودع عنك ما تسمع من كلام أهل الله تعالى فإنهم لم يريدوا بذلك ما توهمته بل جهلت ما أرادوه بقطع الأسباب كما جهلت ما أراده الحق بوضع الأسباب، وقد ألقيت بك على مدرجة الحق وأبنت لك الطريقة التي وضعها الله لعباده وأمرهم بالمشي عليها فاسلك وعلى الله قصد السبيل، ولو شاء لهداكم أجمعين.

وبعد هذا فاعلم أن العبد تارة يقيمه الحق في معصيته وتارة يقيمه في طاعته، فأنا أبين لك من أين وقع للعبد هذا القبول للأمرين، ونبين لك رتبة الإنسان من العالم، وأن الإنسان له أمثال من جنسه، والعالم بجملته ليس له مثل، وما يتعلق بهذه المسألة من الحقائق والأسرار بعد أن نجمع معاني ما أريد تفصيلها في نظم يكون لك كالأم الجامعة المختصرة الضابطة لرؤوس المسائل حتى إذا أردت أن تبسطها لغيرك نبهك هذا النظم على عيونها فقلنا في ذلك نكني عن العبد: [البسيط]

إذا عَصَى اللّهَ قد وَفَّى حقيقتَه ... وإن أطاعَ فقد وَفَّى طَرِيقَتَهُ
لولا القَبُولُ لما كان الوُجُودُ له ... والخَلْقُ يطلب بالمعنى خَليقَتَهُ
إنَّ المُحَالَ دليلٌ إن نظرتَ فلا ... تَعْدِلْ به حجةً فاعْلَمْ حقيقتَهُ
لا يقبل الكَوْن والإمكان يقبله ... فكلّ أمر فقد وَفَّى سَلِيقَتَهُ
لذاك فُزْنا من الأعلى بصُورَتِهِ ... عنايةً منه أعطاها خَلِيقَتَهُ
لو كان للكَوْنِ مِثْلٌ عَقَّ تَكْرِمَةً ... له ليُطْعِمَهُ جُوداً عَقِيقَتَهُ
لكنّه مُفْرَدٌ والحقُّ ليس له ... عَيْنُ التَّغَذِّي فما أعْطاهُ صُورتَهُ

اعلم وفقك الله أيها الوليّ الحميم أن العالم لما كان ممكناً ولم يكن محالاً قبل حاله الوجود والمحال لا يقبل الوجود فخالفت حقيقته الممكن بقبولها للوجود حقيقة المحال الذي لا يقبله، ولما أوجد الله العالم إنساناً كبيراً وجعل آدم وبنيه مختصر هذا العالم، ولهذا أعطاه الأسماء كلها أي كل الأسماء المتوجهة على إيجاد العالم وهي الأسماء الإلهية التي يطلبها العالم بذاته إذ كان وجوده عنها فقال ﷺ: «**إنَّ الله خَلَقَ آدمَ عَلَى صُورَتِهِ**» إذ كانت الأسماء له وعنها وجد العالم، فالعالم بجملته إنسان كبير، ولما كرمه الله بالصورة طلب العالم والأمثال الشكر من الإنسان على ذلك، فكانت العقيقة التي جعل الله على كل إنسان شكراً لما خصه به من الوجود على هذه الحالة وجعلها في سابعه، إذ كان على حالة لا تقبل التغذي منها لئلا يكون قد سعى لنفسه فأكلها الأمثال وكل إنسان مرهون بعقيقته، وينبغي له إذا عق عن نفسه في كبره، أن لا يأكل منها شيئاً ويطعمها الناس ولذلك لم يعق العالم بجملته عن نفسه وإن كان على الصورة لأنه ما ثم من يأكل عقيقته فإنه ما ثم إلا الله، والعالم والمعقّ عنه لا يأكل منها والحق يتنزه عن الغذاء والأكل، وليست هذه المنزلة إلا لله فكانت عقيقة العالم تعود عبثاً فجعل سبحانه بدلاً من هذا الشكر الذي هو العقيقة التسبيح بحمده شكراً على ما أولاه من وجوده على صورته فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]

فبعنايته الأزلية بنا أعطانا الوجود على الصورة ولم يعطنا السورة التي هي منزلته، فإن منزلته الربوبية ومنزلتنا المربوبية، ولذلك قلنا إن العالم لا يعق عن نفسه بنسك فإنه لا يأكله والحق لا يكون له ذلك ولا ينبغي له، فكانت عقيقته التسبيح بحمده لأن التسبيح ينبغي له، ولما كانت طبيعة الممكن قبلت الوجود فظهر في عينه بعد أن لم يكن سماه خلقاً مشتقاً من الخليقة وهي طبيعة الأمر وحقيقته أي مطبوعاً على الصورة وهي خليقته ولما أوجده الله على صورته وأوجده لعبادته، فكان ما أوجده عليه خلاف ما أوجده له فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧] وهو ما أشرنا إليه في العقيقة أنه سبحانه لا ينبغي له أن يطعم، فاشترك الجن مع الإنس فيما وجد له لا فيما وجد عليه.

ولما كانت صورة الحق تعطي أن لا تكون مأمورة ولا منهية لعزتها سرت هذه العزة في الإنسان طبعاً فعصى ظاهراً وباطناً من حيث صورته لأنه على صورة من لا يقبل الأمر والنهي والجبر، ألا ترى إبليس لما لم يكن على الصورة لم يعص باطناً فيقول للإنسان اكفر فإذا كفر يقول إبليس: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] وما استكبر إلا ظاهراً على آدم فقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف: ١٢] والنار أقرب في الإضاءة النورية إلى النور، والنور اسم من أسماء الله والطين ظلمة محضة فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] أي أقرب إليك من هذا الذي خلقته من طين، وجهل إبليس ما فطر الله آدم عليه في أن تولى خلقه بيديه كمالاً للصورة الإلهية التي خلق عليها، ولم يكن عند إبليس ولا الملائكة من ذلك ذوق، فاعترض الكل الملائكة بما قالت وإبليس بما قال، فمعصية الإنسان بما خلق عليه وطاعته بما خلق له قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي يتذللوا لعزتي ويعرفوا منزلتي من منزلتهم، فطريقة الإنسان العبادة فإنه عبد والعبد مقيد بسيده كما أن السيد مقيد بوجه بعبده فإنه المسود و﴿ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] فلم يلحق الممكن بدرجة المحال فزها عليه بقبوله الوجود الذي هو صفة إلهية ولم يلحق بدرجة الوجود المطلق لأن وجوده مستفاد مقيد، فإذا نظر إلى المحال ودرجته وما حصل له من ربه من الوجود ونظر في نفسه قبوله وامتيازه من المحال أدركه الكبرياء فعصى وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وادّعى الألوهة وما ادّعاها أحد من الجن. وإذا نظر إلى افتقاره إلى واجب الوجود واستفادته الوجود منه ومنته به عليه وجب الشكر عليه فذل وأطاع ربه، فطاعته من وجه ما خلق له ومعصيته من وجه ما خلق عليه، وشهوده المحال الذي ليس له هذه المرتبة، فلو لم يكن المحال رتبة ثالثة ما وجد الممكن على من يزهو، فإن الشيء لا يزهو على نفسه، والمفتقر لا يزهو على المفتقر إليه فلم يكن يتصوّر أن تقع معصية من الممكن، فانظر ما أعجب ما تعطيه الحقائق من الآثار، والحمد لله على أن علمنا ما لم نكن نعلم، وفهمنا ما لم نكن نفهم، وكان فضل الله علينا عظيماً. وهذا القدر كاف في هذا الباب.

ويحتوي هذا المنزل على علم الدعاء، وعلم النبوّة وعلم خطاب الكل في عين الواحد، وعلم الزمان وعلم التقوى، وعلم التعدي، وعلم البرهان وتركيبه، وعلم مكارم

الأخلاق، وعلم منزلة نفس الإنسان عند الله من غيره، وعلم العجز وعلم الإيمان، وعلم الأنفاس وعلم التوكل، وعلم الغيب، وعلم الميزان، وعلم التقديس، وعلم حضرة الشكوك، وعلم من تقدّس بعد الخبث، وعلم التكوين، وعلم التعليم، وعلم الحياة الآخرة، وعلم الإجارة من غيره، وعلم الرحمة، وعلم الشدة، وعلم الربح والخسران، وعلم مدارك العقول، وعلم نهاية االمطلب، وعلم الأمر الإلهي، وعلم العالم، وعلم الاقتدار الإلهيّ، وعلم الإحاطة، وهل ينتهي علم الله في العالم أم لا؟ وما رأيت قائلاً به إلا شخصاً واحداً بمكة كان يرى هذا الرأي وهو مذهب معروف، لكني ما كنت رأيت قائلاً به فإنه ما من مذهب إلا وقد رأيت قائلاً به، فالله يسلك بنا سواء السبيل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي عشرين وثلاثمائة

في معرفة منزل تسبيح القبضتين وتمييزهما

[البسيط]

مَنْ عَامَلَ الحَقَّ بالإخلاص قد رَبِحَا ... وإن يَكُنْ فيه شِرْكٌ فَهْوَ قد سَمَحَا
العلمُ علمان موهوبٌ ومُكْتَسَبٌ ... وخَيْرُ علم يَنَالُ العبدُ ما مَنَحَا
كذاك مَعْلُومُ عِلْمِ الكَسْبِ ليس له ... في الوَزْنِ حَظٌّ لأنّ العبد ما كَدَحَا
يَغْتَمُّ قلبُك إن خَفَّتْ موازنُه ... كما يُسَرُّ إذا ميزانُه رَجَحَا
فاقْدَحْ زِنَادَكَ لا تكسلْ فليس لمن ... يسعى إلى الحقّ قَدْرٌ غيرُ ما قَدَحَا
الفكرُ في ذات من لا شيء يشبهُه ... جهلٌ فلا تلتفتْ للعقل إن جَنَحَا
وادخُلْ على باب تفريغ المَحَلِّ ترى ... عِلْمَ العَيَان إذا ما بابُه فُتِحَا

اعلم أن دار الأشقياء وملائكة العذاب وهم في تعظيم الله وتمجيده كما هم ملائكة النعيم في دار النعيم لا فرق كلهم عبد مطيع الواحد ينعم لله والآخر ينتقم لله، وكذلك القبضتان وهما العالمان: عالم السعادة وعالم الشقاوة ما منهم جارحة ولا فيهم جوهر فرد إلا وهو مسبح لله مقدس لجلاله غير عالم بما تصرفه فيه نفسه المدبرة له المكلفة التي كلفها الله تعالى عبادته والوقوف بهذه الجوارح وبعالم ظاهره عندما حدّ له، فلو علمت الجوارح ما تعلمه النفس من تعيين ما هو معصية وما هو طاعة ما وافقته على مخالفة أصلاً فإنها ما تعاين شيئاً من الموجودات إلا مسبحاً لله مقدّساً لجلاله، غير أنها قد أعطيت من الحفظ القوّة العظيمة فلا تصرفها النفس في أمر إلا وتحتفظ على ذلك الأمر وتعلمه، والنفس تعلم أن ذلك طاعة ومعصية، فإذا وقع الإنكار يوم القيامة عند السؤال من هذه النفس يقول الله لها: نبعث عليك شاهداً من نفسك فتقول في نفسها: من يشهد عليّ؟ فيسأل الله تعالى الجوارح عن تلك الأفعال التي صرفها فيها فيقول للعين: قولي فيما صرفك، فتقول له: يا رب نظر بي إلى أمر كذا وكذا، وتقول الأذن: أصغى بي إلى كذا وكذا، وتقول اليد: بطش بي في كذا وكذا، والرجل كذلك، والجلود كذلك، والألسنة كذلك، فيقول الله له: هل تنكر شيئاً من ذلك؟

فيحار ويقول: لا، والجوارح لا تعرف ما الطاعة، ولا المعصية فيقول الله: ألم أقل لك على لسان رسولي وفي كتبي: لا تنظر إلى كذا ولا تسمع كذا ولا تسع إلى كذا ولا تبطش بكذا، ويعين له جميع ما تعلق من التكليف بالحواس ثم يفعل كذلك في الباطن فيما حجر عليه من سوء الظن وغيره، فإذا عذبت النفس في دار الشقاء بما يمس الجوارح من النار وأنواع العذاب، فأما الجوارح فتستعذب جميع ما يطرأ عليها من أنواع العذاب ولذا سمي عذاباً لأنها تستعذبه كما يستعذب ذلك خزنة النار حيث ينتقم لله، وكذلك الجوارح حيث جعلها الله محلاً للانتقام من تلك النفس التي كانت تحكم عليها.

والآلام تختلف على النفس الناطقة بما تراه في ملكها وبما تنقله إليها الروح الحيوانيّ، فإن الحس ينقل للنفس الآلام في تلك الأفعال المؤلمة، والجوارح ما عندها إلا النعيم الدائم في جهنم مثل ما هي الخزنة عليه ممجدة مسبحة لله تعالى مستعذبة لما يقوم بها من الأفعال كما كانت في الدنيا، فيتخيل الإنسان أن العضو يتألم لإحساسه في نفسه بالألم وليس كذلك إنما هو المتألم بما تحمله الجارحة، ألا ترى المريض إذا نام لا شك أن النائم حيّ والحس عنده موجود والجرح الذي يتألم به في يقظته موجود ومع هذا لا يجد العضو ألماً لأن الواجد للألم قد صرف وجهه عن عالم الشهادة إلى البرزخ فما عنده خبر فارتفعت عنه الآلام الحسية وبقي في البرزخ على ما يكون عليه، إما في رؤيا مفزعة فيتألم، أو في رؤيا حسنة فيتنعم، فينتقل معه الألم أو النعيم حيث انتقل، فإذا استيقظ المريض وهو رجوع نفسه إلى عالم الشهادة قامت به الآلام والأوجاع، فقد تبين لك إن كنت عاقلاً من يحمل الألم منك ومن يحس به ممن لا يحمله ولا يحس به، ولو كانت الجوارح تتألم، لأنكرت كما تنكر النفس وما كانت تشهد عليه قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢] وقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] فاسم كان هو النفس تسأل النفس عن سمعه وبصره وفؤاده كما قرّرناه يقال له: ما فعلت برعيتك؟ ألا ترى الوالي الجائر إذا أخذه الملك وعذبه عند استغاثة رعيته به كيف تفرح الرعية بالانتقام من واليها؟ كذلك الجوارح يكشف لك يوم القيامة عن فرحها ونعيمها بما تراه في النفس التي كانت تدبرها في ولايتها عليه لأن حرمة الله عظيمة عند الجوارح. ألا ترى العصاة من المؤمنين كيف يميتهم الله في النار إماتة كما ينام المريض هنا فلا يحس بالألم عناية من الله بمن ليس من أهل النار حتى إذا عادوا حمماً أخرجوا من النار، فلو كانت الجوارح تتألم لوصفها الله بالألم في ذلك الوقت ولم يرد بذلك كتاب ولا سنة فإن قلت: فما فائدة حرقها حتى تعود حمماً؟ قلنا: كل محل يعطي حقيقته فذلك المحل يعطي هذا الفعل في الصور، ألا ترى الإنسان إذا قعد في الشمس يسود وجهه وبدنه؟ والشقة إذا نشرت في الشمس وتتبعت بالماء كلما نشفت تبيض؟ فهل أعطى ذلك إلا المحل المخصوص والمزاج المخصوص فلم يكن المقصود العذاب ولو كان لم يمتهم الله فيها إماتة، فإن محل الحياة في النفوس يطلب النعيم أو الألم بحسب الأسباب المؤلمة والمنعمة، فالقوابل هي الموصوفة بما ذكرناه، وإذا

أحياهم الله تعالى وأخرجهم ونظروا إلى تغير ألوانهم وكونهم قد صاروا حمماً ساءهم ذلك فينعم الله عليهم بالصورة التي يستحسنونها فينشئهم عليها ليعلموا نعمة الله عليهم حين نقلهم مما يسوؤهم إلى ما يسرهم، فقد علمت يا أخي من يعذب منك ومن يتنعم وما أنت سواك، فلا تجعل رعيتك تشهد عليك فتبوء بالخسران وقد ولاك الله الملك وأعطاك اسماً من أسمائه فسماك ملكاً مطاعاً فلا تجر ولا تحف فإن ذلك ليس من صفة من ولاك، وأن الله يعاملك بأمر قد عامل به نفسه فأوجب على نفسه كما أوجب عليك، ودخل لك تحت العهد كما أدخلك تحت العهد، فما أمرك بشيء إلا وقد جعل على نفسه مثل ذلك هذا لتكون له الحجة البالغة، ووفى بكل ما أوجبه على نفسه وطلب منك الوفاء بما أوجبه عليك هذا كله إنما فعله حتى لا تقول: أنا عبد قد أوجب عليّ كذا وكذا ولم يتركني لنفسي بل أدخلني تحت العهد والوجوب، فيقول الله له: هل أدخلتك فيما لم أدخل فيه نفسي؟ ألم أوجب على نفسي كما أوجبت عليك؟ ألم أدخل نفسي تحت عهدك كما أدخلتك تحت عهدي وقلت لك: إن وفيت بعهدي وفيت بعهدك؟ قال تعالى قل يا محمد: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] وهذا معنى قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] وهل يحكم الله إلا بالحق؟ ولكن جعل الحق نفسه في هذه الآية مأموراً لنبيّه عليه السلام، فإن لفظة احكم أمر وأمره سبحانه أن يقول له ذلك قال تعالى قل يا محمد: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ وأكثر من هذا النزول الإلهيّ إلى العباد ما يكون. فيا أيها العبد أليس هذا من كرمه؟ أليس هذا من لطفه؟ ألم يف سبحانه بكل ما أوجبه على نفسه؟ ألم يف بعهد كل من وفى له بعهده؟ ألم يصفح وعفا عن كثير مما لو شاء آخذ به عباده؟ أين أنت؟ أين نظرك من هذا الفضل العظيم من رب قاهر قادر لا يعارض ولا يغالب؟

واعلم أن سبب وصف القبضتين بالتسبيح كونهما مقبوضتين للحق تعالى فجعل القبضتين في يده فقال: «هؤلاء للنار ولا أبالي، وهؤلاء للجنة ولا أبالي»، فهم ما عرفوا إلا الله، فهم يسبحونه ويمجدونه لأنهم في قبضته ولا خروج لهم عن القبضة، ثم إن الله بكرمه لم يقل فهؤلاء للعذاب ولا أبالي وهؤلاء للنعيم ولا أبالي وإنما أضافهم إلى الدارين ليعمروهما وكذا ورد في الخبر الصحيح: «**إنَّ الله لَمَّا خَلَقَ الجَنَّةَ وَالنَّارَ قَالَ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا لَهَا عَلَيَّ مَلْؤُهَا**» أي أملؤها سكاناً، إذ كان عمارة الدار بساكنها كما قال القائل: وعمارة الأوطان بالسكان، لأنها محل ولا تكون محلاً إلا بالحلول فيها، ولهذا يقول الله لجهنم: «هل امتلأت؟» فتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠] فإذا وضع الجبار فيها قدمه قالت: قطني قطني، وفي رواية: «قط قط» أي قد امتلأت فقد ملأها بقدمه على ما شاءه سبحانه من علم ذلك فيخلق الله فيها خلقاً يعمرونها، قال تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٢] أي سابقة بأمر قد أعلمهم به قبل أن يعطيهم ذلك ثم أعطاهم فصدق فيما وعدهم به، وقد وعد النار بأن يملأها فكونه إذ يملأها بقدمه أي بسابقة قوله أنه سيملؤها فصدق لها في ذلك بأن خلق فيها خلقاً يعمرونها وأضاف القدم إلى الجبار لأن هذا الاسم للعظمة والنار موجودة من العظمة والجنة موجودة من الكرم، فلهذا اختص اسم الجبار بالقدم للنار وأضافه إليه فيستروح من هذا عموم

الرحمة في الدارين، وشمولها حيث ذكرهما ولم يتعرّض لذكر الآلام وقال بامتلائهما وما تعرض لشيء من ذلك، وهذا كله من سلطان قوله لعباده: إن رحمته سبقت غضبه، فالسابقة حاكمة أبداً، ويقال: لفلان في هذا الأمر سابقة قدم فتلك بشرى إن شاء الله، وأن السكنى لأهل النار في النار لا يخرجون منها كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [التغابن: ١٠] يعني في النار، و﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [التغابن: ٩] يعني في الجنة، ولم يقل فيه فيريد العذاب. فلو قال عند ذكر العذاب خالدين فيه أشكل الأمر ولما أعاد الضمير على الدار لم يلزم العذاب.

فإن قال قائل: فكذلك لا يلزم النعيم كما لم يلزم العذاب قلنا: وكذلك كنا نقول، ولكن لما قال الله تعالى في نعيم الجنة أنه: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] أي عطاء غير مقطوع، وقال: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣] لهذا قلنا بالخلود في النعيم والدار ولم يرد مثل هذا قط في عذاب النار فلهذا لم نقل به. فإن قلت: فقد قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ١٠١] قلنا: إنما ذلك في موطن من مواطن الآخرة والضمير يعود على الوزر لا على العذاب، فإذا أقيموا في حمل الأثقال التي هي الأوزار يحملونها كما قال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ﴾ [العنكبوت: ١٣] ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣] وهو زمان مخصوص فيقول ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ﴾ [طه: ١٠١] أي في حمل الوزر من الموضع الذي يحملونه من خروجهم من قبورهم إلى أن يصلوا به إلى النار فيدخلونها، فهم خالدون فيه في تلك المدة لا يفتر عنهم ولا يأخذه من على ظهورهم غيرهم قال تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا خَٰلِدِينَ فِيهِۖ﴾ [طه: ١٠٠،١٠١] فأعاد الضمير على الوزر وجعله ليوم القيامة هذا الحمل، ويوم القيامة مدته من خروج الناس من قبورهم إلى أن ينزلوا منازلهم من الجنة والنار وينقضي ذلك اليوم فينقضي بانقضائه جميع ما كان فيه ومما كان فيه الخلود في حمل الأوزار، فلما انقضى اليوم لم يبق للخلود ظرف يكون فيه، وانتقل الحكم إلى النار والجنان والعذاب والنعيم المختص بهما، وما ورد في العذاب شيء يدل على الخلود فيه كما ورد في الخلود في النار ولكن العذاب لا بد منه في النار، وقد غيب عنا الأجل في ذلك وما نحن منه من جهة النصوص على يقين، إلا أن الظواهر تعطي الأجل في ذلك ولكن كميته مجهولة لم يرد بها نص، وأهل الكشف كلهم مع الظواهر على السواء فهم قاطعون من حيث كشفهم فيسلم لهم إذ لا نص يعارضهم، ونبقى نحن مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] وأي شيء أراد فهو ذلك، ولا يلزم أهل الإيمان أكثر من ذلك إلا أن يأتي نص بالتعيين متواتر يفيد العلم فحينئذ يقطع المؤمن وإلا فلا، فسبحان المسبح بكل لسان والمدلول عليه بكل برهان.

وهذا المنزل يتضمن علوماً جمة منها علم التنزيه الذي يليق بكل عالم فإن التنزيه يختلف باختلاف العوالم وإن كل عالم ينزه الحق على قدر علمه بنفسه فينزهه من كل ما هو عليه، إذ كان كل ما هو عليه محدث فينزه الحق عن قيام الحوادث به أعني الحوادث المختصة به، ولهذا يختلف تنزيه الحق باختلاف المنزهين، فيقول العرض مثلاً سبحان من لا يفتقر في

وجوده إلى محل يكون ظهوره به، ويقول الجوهر: سبحان من لا يفتقر في وجوده إلى موجد يوجده، ويقول الجسم: سبحان من لا يفتقر في وجوده إلى أداة تمسكه، فهذا حصر التنزيه من حيث الأمهات لأنه ما ثم إلا جوهر أو جسم أو عرض لا غير، ثم كل صنف يختص بأمور لا تكون لغيره فسبح الله من تلك الصفات ومن ذلك المقام، والإنسان الكامل يسبح الله بجميع تسبيحات العالم لأنه نسخة منه إذ كشف له عن ذلك.

ويتضمن هذا المنزل من العلوم علم تمييز الأشياء ويتضمن علم الحق المخلوق به الذي يشير إليه عبد السلام أبو الحكم بن برجان في كلامه كثيراً، وكذلك الإمام سهل بن عبد الله التستري، ولكن يسميه سهل بالعدل، ويسميه أبو الحكم الحق المخلوق به أخذه من قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] وله فيه كلام كبير شاف ويتضمن علم الصورة وهل هي عرض أو جوهر؟ فإن الناس اختلفوا في ذلك، وفيه علم الرجعة، وفيه علم العلم أي بماذا يعلم العلم، وفيه علم الغيب والشهادة، وفيه علم الورود والصدور، وفيه علم الاعتبار وما حده، وفيه علم الأذواق وهي أول مبادىء التجلي، وفيه علم العلل ومراتبها ومن يجوز أن يوصف بها ممن لا يجوز، وفيه علم تجلي الزعامة وهل مدلولها العلم أم لا؟ وقوله عليه السلام: «**الزَّعِيمُ غَارِمٌ**» وزعيم القوم ما رتبته ولم سمي زعيماً؟ وفيه علم الإيمان، وفيه علم النور دون غيره ولكن النور المنزل لا غير، وفيه علم الخبرة والمخابرة، وفيه علم المتاجر المربحة وأزمنتها والخسران، وفيه علم الوعد والوعيد، وفيه علم الإذن الإلهيّ وفيما ذا يكون؟ وهل هو عام أو خاص؟ والفرق بين الأمر والإذن وهل يعصي في الإذن كما يعصي في الأمر أم لا؟ وفيه وصف العلم بالإحاطة، وفيه علم التوحيد لماذا يرجع، وفيه علم التوكل، وفيه علم مراتب الخلق في الولاية والعداوة، وفيه علم الإنذار والتحذير ومن يحذر منه وما يحذر منه، وفيه علم الفرق بين الاستطاعة والحق، وفيه علم شرف صفة الكرم، وفيه علم سبب الطلب الإلهيّ من العباد، وفيه علم نتائج الشكر، وفيه علم الفرق بين الحلم والعفو، وفيه علم ترتيب الأشياء، وفيه علم الحجاب الإلهيّ الأحمى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والعشرون وثلاثمائة

في معرفة منزل من فرق بين عالم الشهادة وعالم الغيب وهو من الحضرة المحمدية

[البسيط]

لِلْعَقْلِ نُورٌ وللإيمانِ أنوارُ — إنّ البصائرَ للأبصارِ أبْصَارُ
العينُ والسمعُ والإحساسُ أجمعُه — للعقلِ في الكَسْبِ أعوانٌ وأنصارُ
بالعينِ تُبْصِرُ علمَ الغيبِ لا بحِجًى — لا يحجُبَنَّكَ أوهامٌ وأفكارُ
من لم يحصِّلْ علومَ الغيبِ عن بَصَرٍ — فإنها خَلْفَ سَتْرِ الصَّوْنِ أبْكارُ
قالوا اعْتَبِرْ إنّ في الأكوانِ معرفةً — الدَّارُ تَجْهَلُ رَبَّ الدارِ يا دَارُ

اعلم أيها الوليّ الحميم أن الوجود مقسم بين عابد ومعبود، فالعابد كل ما سوى الله

تعالى وهو العالم المعبر عنه والمسمى عبداً، والمعبود هو المسمى الله وما في الوجود إلا ما ذكرناه، فكل ما سوى الله عبد لله مما خلق ويخلق، وفيما ذكرناه أسرار عظيمة تتعلق بباب المعرفة بالله وتوحيده وبمعرفة العالم ورتبته، وبين العلماء، في هذه المسألة من الخلاف ما لا يرتفع أبداً ولا يتحقق فيه قدم يثبت عليه، ولهذا قدر الله السعادة لعباده بالإيمان وفي العلم بتوحيد الله خاصة، ما ثم طريق إلى السعادة إلا هذان، فالإيمان متعلقه الخبر الذي جاءت به الرسل من عند الله وهو تقليد محض نقبله سواء علمناه أو لم نعلمه، والعلم ما أعطاه النظر العقليّ أو الكشف الإلهيّ وإن لم يكن هذا العلم يحصل ضرورة حتى لا تقدح فيه الشبه عند العالم به وإلا فليس بعلم.

ثم نقول: والعالم عالمان ما ثم ثالث: عالم يدركه الحس وهو المعبر عنه بالشهادة، وعالم لا يدركه الحس وهو المعبر عنه بعالم الغيب، فإن كان مغيباً في وقت وظهر في وقت للحس فلا يسمى ذلك غيباً، وإنما الغيب ما لا يمكن أن يدركه الحس لكن يعلم بالعقل إما بالدليل القاطع وإما بالخبر الصادق وهو إدراك الإيمان، فالشهادة مدركها الحس وهو طريق إلى العلم ما هو عين العلم، وذلك يختص بكل ما سوى الله ممن له إدراك حسيّ والغيب مدركه العلم عينه وفيما ذكرناه تاهت العقول وحارت الألباب.

ثم إن الإنسان إذا دخل هذه الطريقة التي نحن عليها وأراد أن يتميز في علمائها وساداتها فينبغي له أن لا يقيد نفسه إلا بالله وحده وهو التقييد الذاتي له الذي لا يصح له الانفكاك عنه جملة واحدة وهي عبودية لا تقبل الحرية بوجه من الوجوه وملك لا يقبل الزوال، وإذا لم يقيد الإنسان نفسه إلا بما هو مقيد به في ذاته وهو كما قلنا تقييده بالله الذي ﴿خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٩، ٢٠] فينبغي له إذ كانت له هذه المرتبة ولا بد أن لا يقف بنفسه إلا في البرزخ وهو المقام المتوهم الذي لا وجود له إلا في الوهم بين عالم الشهادة والغيب بحيث أن لا يخرج شيء من الغيب المغيب الذي يتصف في وقت بالشهادة لا بالغيب الذي لا يستحيل عليه أن يكون شهادة بوجه من الوجوه إلا وهذا الواقف يعلمه، فإذا برز إلى عالم الشهادة وأدركه فلا يخلو إما أن يبقى في عالم الشهادة أو لا يبقى كالأعراض، فإن لم يبق فلا بد أن يفارق الشهادة، وإذا فارق الشهادة فإنه يدخل إلى الغيب الذي لا يمكن أن يدرك أبداً شهادة، ولا يكون له رجوع بعد ظهوره إلى الغيب الذي خرج منه لأن مقام الغيب الذي خرج منه هو الغيب الإمكانيّ، والذي انتقل إليه بعد حصوله في الشهادة الغيب المحاليّ، فذلك الغيب المحاليّ لا يظهر عنه أبداً شيء يتصف بالشهادة، ولما لم يكن هذا الذي انتقل إليه يتصف بالشهادة وقتاً ما أو حالاً ما لذلك دخل في ذلك الغيب ولم يرجع إلى الغيب الذي خرج منه، وإذا وقف الإنسان في هذا المقام وتحقق به أخذه الحق وأوقفه بينه وبين كل ما سواه من نفسه ومن غيره أعني من نفس العبد، فيرى نفسه وعينه وهو خارج عنها في ذلك المقام الذي أوقفه ويراها مع من سواه من العالم وهو عينه، كما رأى آدم نفسه وذريته في قبضة الحق وهو خارج عن قبضة الحق التي رأى نفسه فيها في حال رؤيته نفسه خارجاً عنها كما ورد في الخبر

الإلهيّ، فإذا وقف في هذا المقام وهو أرفع مقامات الكشف وكل مقام فهو دونه؛ وهذا كان مقام الصديق رضي الله عنه الذي فضل به على من شهد له رسول الله ﷺ أنه فضل عليه إما من الحاضرين أو من الأمة لا يدرى أي ذلك أراد ﷺ إلا من جاءه الخبر الصدق في كشفه لا غير. فإذا وقف في هذا المقام استشرف على الغيبين: الغيب الذي يوجد منه الكائنات، والغيب الذي ينتقل إليه بعض الكائنات بعد اتصافها بالشهادة، وهذه مسألة جليلة القدر لا يعلمها كثير من الناس، أعني هذه الأمور التي خرجت من الغيب إلى الشهادة ثم انتقلت إلى الغيب وهي الأعراض الكونية هل هي أمور وجودية عينية أو هي أحوال لا تتصف بالعدم ولا بالوجود ولكن تعقل فهي نسب وهي من الأسرار التي حار الخلق فيها فإنها ليست هي الله ولا لها وجود عينيّ فتكون من العالم أو تكون مما سوى الله، فهي حقائق معقولة إذا نسبتها إلى الله عز وجل قبلها ولم تستحل عليه، وإذا نسبتها إلى العالم قبلها ولم تستحل عليه.

ثم إنها تنقسم إلى قسمين في حق الله: فمنها ما تستحيل نسبته إلى الله فلا تنسب إليه، ومنها ما لا تستحيل عليه فالذي لا يستحيل على الله يقبله العالم كله إلا نسبة الإطلاق فإن العالم لا يقبله ونسبة التقييد ويقبله العالم ولا يقبله الله، وهذه الحقائق المعقولة لها الإطلاق الذي لا يكون لسواها فيقبلها الحق والعالم وليست من الحق ولا من العالم ولا هي موجودة ولا يمكن أن ينكر العقل العالم بها، فمن هنا وقعت الحيرة وعظم الخطب وافترق الناس وحارت الحيرات فلا يعلم ذلك إلا الله ومن أطلعه الله على ذلك وذلك هو الغيب الصحيح الذي لا يوجد منه شيء فيكون شهادة ولا ينتقل إليه بعد الشهادة وما هو محال فيكون عدماً محضاً، ولا هو واجب الوجود فيكون وجوداً محضاً، ولا هو ممكن يستوي طرفاه بين الوجود والعدم وما هو غير معلوم بل هو معقول معلوم، فلا يعرف له حدّ ولا هو عابد ولا معبود، وكان إطلاق الغيب عليه أولى من إطلاق الشهادة لكونه لا عين له يجوز أن تشهد وقتاً ما، فهذا هو الغيب الذي انفرد الحق به سبحانه حيث قال: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٧٣] وما قرنه بالشهادة فلا يظهر على غيبه أحداً، والغيب الذي قرنه بالشهادة هو الذي يقابل الشهادة، فوصف الحق نفسه بعلم المتقابلين فقال: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣] هذا هو المراد هنا وإن اشترك هذا مع الغيب في الاسمية.

فإن قلت: فما فائدة الاستثناء في قوله: «إلا من ارتضى من رسول» ؟ قلنا: تدبر ما هو الغيب الذي أطلع عليه الرسل وبماذا ربطه فتعلم أن ذلك علم التكليف الذي غاب عنه العباد، ولهذا جعل له الملائكة رصداً حذراً من الشياطين أن تلقي إليه ما ينقله إلى الخلق ويعمل به في نفسه من التكليف الذي جعله الله طريقاً إلى سعادة العباد من أمر ونهي ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨]، فكأنه مستثنى منقطع أي انقطع هذا الغيب من ذلك الغيب انقطاعاً حقيقياً لا انقطاع جزء من كل لما وقع الاشتراك في لفظة الغيب، لذلك قلنا مستثنى، ولما خالفه في الحقيقة قلنا منقطع بخلاف المستثنى المتصل فإنه أيضاً منقطع ولكن بالحال لا بالذات تقول في المتصل: ما في الدار إنسان إلا زيداً فهذا المستثنى متصل لأنه إنسان قد فارق

غيره من الأناسي بحالة كونه في الدار لا بحقيقته إذ لم يكن في الدار إنسان إلا هو فالانقطاع في الحال لا غير فإذا قلت: ما في الدار إنسان إلا حماراً فهذا منقطع بالحقيقة والحال، فكذلك الغيب الذي يطلع عليه الرسل بالرصد من الملائكة من أجل المردة من الشياطين هو الرسالة التي يبلغونها عن الله ولهذا قال: ﴿رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨] فأضاف الرسالة إلى قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾ لما علموا أن الشياطين لم تلق إليهم أعني إلى الرسل شيئاً فتيقنوا أن تلك رسالة من الله لا من غيره، وهل هذا القدر الذي عبر عنه في هذه السورة المعينة في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٧] هل ذلك الإعلام لهذا الرسول بوساطة الملك أو لم يكن في هذا الوحي الخاص ملك وهو الأظهر والأوجه والأولى؟ وتكون الملائكة تحف أنوارها برسول الله ﷺ كالهالة حول القمر والشياطين من ورائها لا تجد سبيلاً إلى هذا الرسول حتى يظهر الله له في إعلامه ذلك من الوحي ما شاء، ولكن من علم التكليف الذي غاب عنه وعن العباد علمه خلافاً لمخالفي أهل الحق في ذلك، إذ يرون أن العبد يعلم بعض القربات إلى الله بعقله لا كلها، وهذا القول لا يصح منه شيء فلا يعلم القربة إلى الله التي تعطي سعادة الأبد للعبد إلا من يعلم ما في نفس الحق، ولا يعلم ذلك أحد من خلق الله إلا بإعلام الله كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فليس في كتابنا هذا ولا في غيره أصعب من تصوّر هذه المسألة على كل طائفة.

واعلم أن العبد إذا أوقفه الحق تعالى كما قلنا بين الله وبين كل ما سواه وهذه بينية إله وعبد لا بينية حد فإن الله يتعالى جده أن يعلم حده، فإذا وقف العبد في هذا المقام علم أنه معتنى به حيث شغله الله تعالى بمطالعة الانفعالات عنه وإيجاد الأعيان من قدرته تعالى واتصافها بالوجود في حضرة إمكانها ما أخرجها منها ولا حال بينها وبين موطنها لكنه كساها خلعة الوجود فاتصفت به بعد أن كانت موصوفة بالعدم مع ثبوت العين في الحالين، وبقي الكلام في ذلك الوجود الذي كساه الحق لهذا الممكن ولم يخرجه عن موطنه ما هو ذلك الوجود هل كان معدوماً ووجد؟ فالوجود لا يكون عدماً ولا موجوداً، وإن كان معدوماً فما حضرته إن كانت الإمكان، فلا فرق بينه وبين هذه العين التي خلع عليها الوجود، فإن الوجود من حيث ما هو معدوم في هذه الحضرة محتاج إلى وجود وهذا يتسلسل ويؤدي إلى محال، وهو أن لا توجد هذه العين وقد وجدت، وما خرجت هذه العين عن حضرة الإمكان فكيف الأمر؟ فاعلم أن الوجود لهذه العين كالصورة التي في المرآة ما هي عين الرائي ولا غير عين الرائي ولكن المحل المرئي فيه به وبالناظر المنجلي فيه ظهرت هذه الصورة فهي مرآة من حيث ذاتها والناظر ناظر من حيث ذاته، والصورة الظاهرة تتنوّع بتنوّع العين الظاهرة فيها، كالمرآة إذا كانت تؤخذ طولاً ترى الصورة على طولها، والناظر في نفسه على غير تلك الصورة من وجه وعلى صورته من وجه، فلما رأينا المرآة لها حكم في الصورة بذاتها ورأينا الناظر يخالف تلك الصورة من وجه علمنا أن الناظر في ذاته ما أثرت فيه ذات المرآة، ولما لم يتأثر، ولم تكن تلك

الصورة هي عين المرآة ولا عين الناظر، وإنما ظهرت من حكم التجلي للمرآة علمنا الفرق بين الناظر وبين المرآة وبين الصورة الظاهرة في المرآة التي هي غيب فيها، ولهذا إذا رؤي الناظر يبعد عن المرآة يرى تلك الصورة تبعد في باطن المرآة، وإذا قرب قربت، وإذا كانت في سطحها على الاعتدال ورفع الناظر يده اليمنى رفعت الصورة اليد اليسرى تعرّفه أني وإن كنت من تجليك وعلى صورتك فما أنت أنا ولا أنا أنت، فإن عقلت ما نبهناك عليه فقد علمت من أين اتصف العبد بالوجود، ومن هو الموجود؟ ومن أين اتصف بالعدم؟ ومن هو المعدوم؟ ومن خاطب؟ ومن سمع؟ ومن عمل؟ ومن كلف؟ وعلمت من أنت ومن ربك وأين منزلتك وأنك المفتقر إليه سبحانه وهو الغني عنك بذاته ؛قال بعض الرجال: ما في الجنة إلا الله وأراد هذا المقام يريد أنه ما في الوجود إلا الله كما لو قلت: ما في المرآة إلا من تجلى لها لصدقت مع علمك أنه ما في المرآة شيء أصلاً، ولا في الناظر من المرآة شيء مع إدراك التنوّع والتأثر في عين الصورة من المرآة، وكون الناظر على ما هو عليه لم يتأثر، فسبحان من ضرب الأمثال وأبرز الأعيان دلالة عليه أنه لا يشبهه شيء ولا يشبه شيئاً وليس في الوجود إلا هو، ولا يستفاد الوجود إلا منه. ولا يظهر لموجود عين إلا بتجليه، فالمرآة حضرة الإمكان والحق الناظر فيها، والصورة أنت بحسب إمكانيتك،فإما ملك، وإما فلك، وإمّا إنسان، وإما فرس مثل الصورة في المرآة بحسب ذات المرآة من الهيئة في الطول والعرض والاستدارة واختلاف أشكالها مع كونها مرآة في كل حال، كذلك الممكنات مثل الأشكال في الإمكان، والتجلي الإلهي يكسب الممكنات الوجود، والمرآة تكسبها الأشكال، فيظهر الملك والجوهر والجسم والعرض والإمكان هو هو لا يخرج عن حقيقته.

وأوضح من هذا البيان في هذه المسألة لا يمكن إلا بالتصريح، فقل في العالم ما تشاء وانسبه إلى من تشاء بعد وقوفك على هذه الحقيقة كشفاً وعلماً، فإن وقفت عن إطلاق أمر تعطيك الحقيقة إطلاقه فما تتوقف إلا شرعاً أدباً مع الله الذي له التحجير عليك فاعتمد على الأدب الإلهي وتقرب إلى الله بما أمرك أن تتقرب إليه به حتى يكشف لك عنك فتعرف نفسك فتعرف ربك، وتعرف من أنت ومن هو، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وفي هذا المنزل: علم الوجهين، وعلم الحضرة التي يكون فيها عين الصدق من عين الكذب، وعلم ما يستتر به العبد مما يكون فيه شقاؤه، وعلم اختلاف الأحوال، وعلم الختم، وعلم العدد وخواصه، وعلم التشبيه، وعلم الإنسان من حيث طبيعته لا غير، وعلم السوابق واللواحق، وعلم الأرزاق والخزائن، وعلم الحجب المانعة، وعلم التمليك، وعلم الجود المتوجه، وعلم إنفاق الوكيل من مال موكله وتصرفه فيه تصرف المالك مع كون المال ليس له، وعلم التمني، وعلم القضاء. والحمد لله رب العالمين، وأقول: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

الباب الثاني والعشرون وثلاثمائة

في معرفة منزل من باع الحق بالخلق وهو من الحضرة المحمدية

[الكامل]

جَـمْـعُ الأنَـام عـلـى إمَـام وَاحـدِ ... عَـيْـنُ الـدلـيـل عـلـى الإلـه الـوَاحِـدِ
فـإذا ادَّعـى غَـيْـرُ الإلـهِ مَـقَـامَـهُ ... ذاك الـدلـيـلُ عـلـى الـخـيـالِ الـفـاسـدِ
هَـيْـهَـاتَ أيـن الـواحـدُ الـعَـلَـمُ الـذي ... لا يَـقْـبَـلُ الـنَّـسَـبَ الـتـي فـي الـشَّـاهِـدِ
لا يـقـبـلُ الـعـقـلُ الـصـحـيـحُ من الـذي ... تـعـطـي الـشـريـعـة مـن وجـود الـزائـدِ
إلا الـذي لـلـفِـكْـرِ فـيـه مَـدَاخِـلٌ ... والـوَاقـفـيُّ مـمـاثـلٌ لـلـجَـاحِـدِ
لا تَـعْـبُـدُ الأقـوامُ غَـيْـرَ عُـقُـولِـهِـم ... والـنـاسُ بـيـن مُـسَـلِّـم ومُـعَـانِـدِ

قال الله عز وجل: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٢٢] وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقال سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وقال رسول الله ﷺ: «**إذَا بُويعَ لِخَلِيفَتَينِ فَاقْتُلُوا الآخِرَ مِنْهُمَا**» وقال ﷺ: «**الخُلَفَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ**» والتقرش التقبض والاجتماع، ولما كانت هذه القبيلة جمعت قبائل سميت قريشاً أي مجموع قبائل ومنها حيوان بحري يقال له القرش رأيته وهو متقبض مجتمع، وكذلك الإمام إن لم يكن متصفاً بأخلاق من استخلفه جامعاً لها مما يحتاج إليه من استخلف عليهم وإلا فلا تصح خلافته فهو الواحد المجموع، فأحديته أحدية الجمع وله من الأيام يوم الجمعة وهو الاجتماع في المصر على إمام واحد، وله من الأحوال الصلاة لأنه لا يقيمها إلا إمام واحد في الجماعة ويكون أقرأهم أي أكثرهم جمعاً للقرآن، وله من مراتب العلوم علوم الأنوار وإن لم يعط علوم الأسرار فلا يبالي صاحب هذا المقام فإن الصلاة نور والنور يهتدى به، ولا بد للإمام من نور يكشف به ويمشي به في العالم الذي ولاه الله عليهم، وقد توفرت همم العالم في كل قرية أو بلدة أو جماعة أن يكون لهم رأس يرجعون إليه ويكونون تحت أمره، وكان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية ولو كانت السرية رجلين أمر أحدهما وهو مقام شريف له علم خاص من كان فيه ذلك العلم ينبغي أن يكون إماماً. ألا ترى لما طعنت الصحابة في إمارة أسامة بن زيد لما قدمه رسول الله ﷺ على الجيش فبرز خارج المدينة وأمره أن يطأ بجيشه ذلك أرض الروم وفي جملة الجيش أبو بكر وعمر فقال رسول الله ﷺ للطاعنين في إمارته: «**طَالَ واللهِ مَا طَعَنْتُمْ فِي إمَارَةِ أَبِيهِ قَبْلَ ذَلِكَ أَمَا واللهِ إِنَّهُ لَخَلِيقٌ بِهَا أَوْ جَدِيرٌ بِهَا**» وقد طعنت الملائكة في خلافة آدم عليه السلام وعليهم فأجابهم الله على ذلك كما أجاب رسول الله ﷺ في حق أسامة تخلقاً بأخلاق الله في ذلك، واتخاذ الإمام واجب شرعاً مع كونه موجوداً في فطرة العالم أعني طلب نصب الإمام.

فإن قلت: فما نص الشارع بالأمر على اتخاذ الإمام فمن أين يكون واجباً؟ قلنا: إن الله تعالى قد أمر بإقامة الدين بلا شك ولا سبيل إلى إقامته إلا بوجود الأمان في أنفس الناس على

أنفسهم وأموالهم وأهليهم من تعدي بعضهم على بعض وذلك لا يكون أبداً ما لم يكن ثم من تخاف سطوته وترجى رحمته يرجع أمرهم إليه ويجتمعون عليه، فإذا تفرغت قلوبهم من الخوف الذي كانوا يخافونه على أموالهم ونفوسهم وأهليهم تفرغوا إلى إقامة الدين الذي أوجب الله عليهم إقامته وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب، فاتخاذ الإمام واجب، ويجب أن يكون واحداً لئلا يختلفا فيؤدي إلى امتناع وقوع المصلحة وإلى الفساد، فقد تبين لك ما المراد بتوحيد الله الذي أمرنا بالعلم به أنه توحيد الألوهية له سبحانه لا إله إلا هو قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] ولم يقل فاعلم أنه لا تنقسم ذاته ولا أنه ليس بمركب ولا أنه مركب من شيء ولا أنه جسم ولا أنه ليس بجسم بل قال في صفته أنه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١].

ولما لم يتعرض الحق سبحانه إلى تعريف عباده بما خاضوا فيه بعقولهم ولا أمرهم الله في كتابه بالنظر الفكري إلا ليستدلوا بذلك على أنه إله واحد أي أنها لا تدل إلا على الوحدانية في المرتبة ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [النحل: ٥١] فزادوا في النظر وخرجوا عن المقصود الذي كلفوه فأثبتوا له صفات لم يثبتها لنفسه، ونفت عنه طائفة أخرى تلك الصفات ولم ينفها عن نفسه ولا نص عليها في كتابه ولا على ألسنة أنبيائه.

ثم اختلفوا في إطلاق الأسماء عليه، فمنهم من أطلق عليه ما لم يطلق على نفسه وإن كان اسم تنزيه ولكنه فضول من القائل به والخائض فيه ثم أخذوا يتكلمون في ذاته، وقد نهاهم الشرع عن التفكر في ذاته جل وتعالى وقد قال سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] أي لا تتعرضوا للتفكر فيها فانضاف إلى فضولهم عصيان الشرع بالخوض فيما نهوا عنه، فمن قائل: هو جسم، ومن قائل: ليس بجسم، ومن قائل: هو جوهر، ومن قائل: ليس بجوهر، ومن قائل هو في جهة، ومن قائل: ليس في جهة، وما أمر الله أحداً من خلقه بالخوض في ذلك جملة واحدة لا النافي ولا المثبت، ولو سئلوا عن تحقيق معرفة ذات واحدة من العالم ما عرفوها، ولو قيل لهذا الخائض كيف تدبير نفسك لبدنك وهل هي داخلة فيه أو خارجة عنه أو لا داخلة ولا خارجة وانظر بعقلك في ذلك، وهل هذا الزائد الذي يتحرّك به هذا الجسم الحيواني ويبصر ويسمع ويتخيل ويتفكر لماذا يرجع؟ هل لواحد أو لكثيرين؟ وهل يرجع إلى عرض أو إلى جوهر أو إلى جسم؟ وتطلبه بالأدلة العقلية على ذلك دون الشرعية ما وجد لذلك دليلاً عقلياً أبداً ولا عرف بالعقل أن للأرواح بقاء ووجوداً بعد الموت، وكل ما اتخذوه دليلاً في ذلك مدخول لا يقوم على ساق، فما من مأخذ فيه إلا وهو ممكن، والممكن لا يقوم دليل عقلي على وجوب وجوده ولا وجوب عدمه، إذ لو كان كذلك لا ستحالت حقيقة إمكانه فما لنا إلا ما نص عليه الشرع، فالعاقل يشغل نفسه بالنظر في الأوجب عليه لا يتعداه، فإن المدة يسيرة والأنفاس نفائس وما مضى منها لا يعود.

فاعلم أن الله إله واحد لا إله إلا هو مسمى بالأسماء التي يفهم منها. ومن معانيها أنها لا تنبغي إلا له ولمن تكون له هذه المرتبة ولا تتعرض يا وليّ للخوض في الماهية والكمية

والكيفية فإن ذلك يخرجك عن الخوض فيما كلفته، والزم طريقة الإيمان والعمل بما فرض الله عليك واذكر ربك ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦] بالذكر الذي شرعه لك من تهليل وتسبيح وتحميد واتق الله، فإذا شاء الحق أن يعرفك بما شاءه من علمه فأحضر عقلك ولبك لقبول ما يعطيك ويهبك من العلم به فذلك هو النافع وهو النور الذي يحيى به قلبك وتمشي به في عالمك، وتأمن فيه من ظلم الشبه والشكوك التي تطرأ في العلوم التي تنتجها الأفكار، فإن النور هو النفور، فالنور منفر الظلم في المحل الذي يظهر فيه، فلو كان هذا العلم الذي أعطاه التفكر في الله نوراً كما يزعم ما طرأ على المحل ظلمة شبهة ولا ظلمة تشكيك أصلاً وقد طرأت، والظلمة ليس من شأنها أن تنفر النور ولا لها سلطان عليه، وإنما السلطان للنور المنفر الظلم، فدل ذلك على أن علوم المتكلمين في ذات الله والخائضين فيه ليست أنواراً، وهم يتخيلون قبل ورود الشبهة أنهم في نور وعلى بينة من ربهم في ذلك، فلا يبدو لهم نقصهم حتى ترد عليهم الشبهة، وما يدريك لعل تلك الشبهة التي يزعمون أنها شبهة هي الحق والعلم، فإنك تعلم قطعاً أن دليل الأشعري في إثبات المسألة التي ينفيها المعتزلي هو الحق وأنه شبهة عند المعتزلي، ودليل المعتزلي الذي ينفي به ما يثبته الأشعري شبهة عند الأشعري.

ثم إنه ما من مذهب إلا وله أئمة يقومون به وهم فيه مختلفون وإن اتصفوا جميعهم مثلاً بالأشاعرة، فيذهب أبو المعالي خلاف ما ذهب إليه القاضي، ويذهب القاضي إلى مذهب يخالف فيه الأستاذ، ويذهب الأستاذ إلى مذهب في مسألة يخالف فيه الشيخ والكل يدعي أنه أشعري، وكذلك المعتزلة، وكذلك الفلاسفة في مقالاتهم في الله وفيما ينبغي أن يعتقد، ولا يزالون مختلفين مع كون كل طائفة يجمعها مقام واحد واسم واحد، وهم مختلفون في أصول ذلك المذهب الذي جمعهم فإن الفروع لا تعتبر ورأينا المسمين رسلاً وأنبياء قديماً وحديثاً من آدم إلى محمد ومن بينهما عليهم الصلاة والسلام ما رأينا أحداً منهم قط اختلفوا في أصول معتقدهم في جناب الله، بل كل واحد منهم يصدق بعضهم بعضاً، ولا سمعنا عن أحد منهم أنه طرأ عليه في معتقده وعلمه بربه شبهة قط فانفصل عنها بدليل ولو كان لنقل ودوّن ونطقت به الكتب كما نقل سائر ما تكلم فيه من ذلك ممن تكلم فيه ولا سيما والأنبياء تحكمت في العامة في أنفسها وأموالها وأهليها وحجرت وأباحت وأوجبت ولم يكن لغيرها هذه القوّة من التحكم، فكانت الدواعي تتوفر على نقل ما اختلفوا فيه في جانب الحق لأنهم ينتمون إليه ويقولون إنه أرسلهم وأتوا بالدلائل على ذلك من المعجزات، ولا نقل عن أحد منهم أنه طرأت عليه شبهة في علمه بربه ولا اختلف واحد منهم على الآخر في ذلك، وكذلك أهل الكشف المتقون من أتباع الرسل ما اختلفوا في الله أي في علمهم به ولا نقل عن أحد منهم ما يخالف به الآخر فيه من حيث كشفه وإخباره لا من حيث فكره فإن ذلك يدخل مع أهل الأفكار، فهذا مما يدلك على أن علومهم كانت أنواراً لم تتمكن لشبهة أن تتعرض إليهم جملة واحدة، فقد علمت أن النور إنما اختص بأهل النور وهم الأنبياء والرسل ومن سلك على ما شرعوه ولم يتعد حدود ما قرروه واتقوا الله ولزموا الأدب مع الله، فهم على نور من ربهم نور

على نور، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً يعني في نعت الحق وما يجب له، فإن الناظر بفكره في معتقده لا يبقى على حالة واحدة دائماً بل هو في كل وقت بحسب ما يعطيه دليله في زعمه في وقته فيخرج من أمر إلى نقيضه.

وقد دللتك يا أخي على طريق العلم النافع من أين يحصل لك، فإن سلكت على صراطه المستقيم فاعلم أن الله قد أخذ بيدك واعتنى بك واصطنعك لنفسه، فالله يحول بيننا وبين سلطان أفكارنا فيما لم نؤمر بالتفكر فيه، وقد بان لك بما ذكرناه أنه ما دخل عليهم ما دخل إلا من الفضول ولهذا وقع الخلاف ولعبت بهم الأفكار والأهواء ألا ترى الأمر الذي أباح لهم الشارع أن يطلبوا علمه ما اختلف فيه اثنان منهم، فلو طلب منهم غير ذلك مما اختلفوا فيه ما اختلفوا أيضاً فيه؟ فدل ذلك على أنه ما طلب الحق منهم ذلك. فإن قلت: فما هو الذي اتفقوا فيه؟ قلنا: اجتمعت الأدلة العقلية من كل طائفة بل من ضرورات العقول أن لهم موجداً أوجدهم يستندون إليه في وجودهم وهو غني عنهم ما اختلف في ذلك اثنان وهو الذي طلب الحق من عباده إثبات وجوده، فلو وقفوا هنا حتى يكون الحق هو الذي يعرفهم على لسان رسوله بما ينبغي أن يضاف إليه ويسمى به أفلحوا، وإنما الإنسان خلق عجولاً ورأى في نفسه قوّة فكرية فتصرف بها في غير محلها، فتكلم في الله بحسب ما أعطاه نظره، والأمزجة مختلفة، والقوّة المفكرة متولدة من المزاج، فيختلف نظرها باختلاف مزاجها، فيختلف إدراكها وحكمها فيما أدركته، فالله يرشدنا ويجعلنا ممن جعل الحق إمامه والتزم ما شرع له ومشى عليه إنه المليء بذلك لا رب غيره.

فاعلم يا وليّ أن الله ما بعث الرسل سدى، ولو استقلت العقول بأمور سعادتها ما احتاجت إلى الرسل وكان وجود الرسل عبثاً، ولكن لما كان من استندنا إليه لا يشبهنا ولا نشبهه ولو أشبهنا عيناً ما كان استنادنا إليه بأولى من استناده إلينا فعلمنا قطعاً علماً لا يدخله شبهة في هذا المقام أنه ليس مثلنا ولا تجمعنا حقيقة واحدة، فالبضرورة يجهل الإنسان مآله وإلى أين ينتقل؟ وما سبب سعادته إن سعد أو شقاوته إن شقي عند هذا الذي استند إليه لأنه يجهل علم الله فيه لا يعرف ما يريد به ولا لماذا خلقه تعالى، فافتقر بالضرورة إلى التعريف الإلهي بذلك، فلو شاء تعالى عرّف كل شخص بأسباب سعادته وأبان له عن الطريق التي ينبغي له أن يسلك عليها ولكن ما شاء إلا أن يبعث في كل أمة رسولاً من جنسها لا من غيرها قدمه عليها وأمرها باتباعه والدخول في طاعته ابتلاء منه لها لإقامة الحجة عليها لما سبق في علمه فيها، ثم أيده بالبينة والآية على صدقه في رسالته التي جاء بها ليقوم له الحجة عليها، وإنما قلنا من جنسها لأنه كذا وقع الأمر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩] أي لو كان الرسول للبشر ملكاً لنزل في صورة رجل حتى لا يعرفوا أنه ملك، فإن الحسد على المرتبة إنما يقع بين الجنس، وقال تعالى: ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥] ولنا في ذلك: [البسيط]

خَليفَةُ القَوْمِ مِنْ أبناءِ جِنْسِهِمُ ... لأنَّ ذلكَ أنْكَى في نُفُوسِهِمُ

لو لم يكنْ منهم لصدَّقوه ولم ... يَقُمْ بهم حَسَدٌ لغير جِنْسِهِمُ

قد علم الإنسان أن البهائم وجميع الحيوانات دونه في المرتبة، فلو تكلم حيوان ولو كان خنفساء ونطقت وقالت: أنا رسول من الله إليكم احذروا من كذا وافعلوا كذا لتوفرت الدواعي من العامة على اتباعها والتبرك بها وتعظيمها، وانقادت لها الملوك ولم يطلبوها بآية على صدقها وجعلوا نطقها نفس الآية على صدقها وإن كان الأمر ليس كذلك، وإنما لما نال المرتبة غير الجنس لم يقم بهم حسد لغير الجنس.

فأوّل ابتلاء ابتلى الله به خلقه بعث الرسل إليهم منهم لا من غيرهم، ومع الدلالات التي نصبها لهم على صدقهم واستيقنوها حملهم سلطان الحسد الغالب عليهم أن يجحدوا ما هم به عالمون موقنون ظلماً وعلوّاً قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ [النمل: ١٤] أي ظلموا بذلك أنفسهم ﴿وَعُلُوًّا﴾ على من أرسل إليهم، فاندرج في ذلك علوّهم على الله. ولو قلت له: يا فلان كيف تتكبر على من خلقك؟ لاستعاذ من ذلك وقال: إن هذا الذي يزعم أنه من عند الله يكذب على الله حاشا الله أن يبعث مثل هذا إلينا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فإن قيل له: فقد جاء بالعلامة على أنه رسول من الله إليكم؛ فيقول: ألست تعلم أن السحر حق هذه الآية من ذلك القبيل هذا مع العامة، وأما مع العلماء والخواص مثل الحكماء وغيرهم فإذا قيل لهم: ألستم ترون هذه الآيات الدالة على صدق ما يدعيه؟ فأما العالمون بالنفوس وقواها فيجيبون عن ذلك بأن يقولوا قد علمنا أن القوى النفسانية تبلغ أن يتأثر لها أجرام العالم فهذا من ذلك القبيل ويحتج بصاحب العين وبعلم الزجر وأمثال ذلك مما يشبه هذا الفن، وأما إن كان عنده علم بمجاري الكواكب ويرى قواها وسيران ذلك في العالم العنصري على مقادير مخصوصة يقول: إن الطالع أعطاه ذلك وأن روحانية الكواكب تمده، وأنه بهذا الطالع في مسقط النطفة شرفت عنه وأعطته هذه القوى نفساً شريفة ونال بها المراتب العلية في الإلهيات، والذي قال به صحيح فإن الله أودع هذا كله في العالم العلوي حين خلقه إبلاء يبتلي الله به عباده، فإذا أضافوا ذلك إلى هذه القوى الروحانية وجردوه عن نظر الله إليه في ذلك بهذا القدر يسمون كفاراً، وإن كانوا مصيبين فيما قالوه فإنه هكذا رتب الله العالم ولكن أتى عليهم من جهلهم في علمهم، فمن هنا قالت الطائفة: العلم حجاب وإن كان الأمر ليس كذلك فإن علمهم بهذا لا ينافي العلم بأن الله أودع هذا في روحانياتها فما أتى عليهم على الحقيقة من علمهم وإنما أتى عليهم من جهلهم، فلما تبينت طرق السعادة بالرسل قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] وما بقي بعد هذا إلا أن يوفق الله عباده للعمل بما أمرهم الله به من اتباع رسوله ﷺ فيما أمر ونهى والوقوف عند حدوده ومراسمه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ويحوي هذا المنزل على علم التنزيه، وعلم الأسماء، وعلم الابتلاء، وعلم النسب، وعلم العلل، وعلم الأخبار، وعلم مأخذ الأدلة وسبب كثرتها على المدلول الواحد، وعلم الاختصاص، وعلم المراتب، وعلم الصفات، وعلم القضاء، وعلم الإمامة، وعلم الشرائع،

وعلم الانتقالات، وعلم الرجاء، وعلم أسباب الفوز والبقاء، وعلم الترجيح ومن هذا العلم اتبع الناس أهواءهم وتركوا الحق ونبذوه، فالله يعصمنا من قيام هذه الصفة بنا، فسبحانك اللهمّ وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

الباب الثالث والعشرون وثلاثمائة

في معرفة منزل بشرى مبشر لمبشر به وهو من الحضرة المحمدية

[الكامل]

جَاءَ المُبَشِّرُ بالرّسالة يَبْتَغي أجْرَ المَجيء من الكريم المُرْسِلِ
فأتى به ختم الولاية مثل ما خَتَمَ النبوّةَ بالنبيّ المُرْسَلِ
ولنا من الخَتْمَيْن حَظٌ وافرٌ وِرْثاً أتانا في الكتاب المُنْزَلِ

يريد قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦].

اعلم أن المشيئة الإلهية لما كان لها أثر في الفعل لهذا نفى تعلقها بما لا يقبل الانفعال من حيث مرجحه لا من حيث نفسه بخلاف مشيئة العبد، فإنها إذا وقعت وتعلقت بالمُشاء قد يكون المشاء وقد لا يكون، ولهذا شرع الله لنا إذا قلنا نفعل كذا أن نقول إن شاء الله، حتى إذا وقع ذلك الفعل الذي علقناه على مشيئة الله كان عن مشيئة الله بحكم الأصل ولم يكن لمشيئتنا فيه أثر في كونه، لكن لها فيه حكم وهو أنه ما شاء سبحانه تكوين ذلك الشيء إلا بوجود مشيئتنا إذ كان وجودها عن مشيئة الله، فلا بد من وجود عين مشيئتنا وتعلقها بذلك الفعل وهو قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] يعني إن تشاؤوا، وفائدة إخبار الله تعالى بأنه لو شاء لفعل كذا مع كون كذا يستحيل وقوعه عقلاً لكون المشيئة الإلهية لم تتعلق به إعلام لنا أن ذلك الأمرالذي نفى تعلق المشيئة الإلهية بكونه ليس يستحيل كونه بالنظر إلى نفسه لإمكانه فإنه يجب له أن يكون في نفسه قابلاً لأحد الأمرين فيفتقر إلى المرجح، بخلاف المحال لنفسه فإنه يستحيل نفي تعلق المشيئة بكونه فإنه لا يكون لنفسه فإن بعض الناس ذهب إلى أن الله تعالى لو أراد إيجاد ما هو محال الوجود لنفسه لأوجده، وإنما لم يوجده لكونه ما أراد وجود المحال الوجود، فصاحب هذا القول يقول: إن الحق أعطى المحال محاله والواجب وجوبه والممكن إمكانه، فهذا القائل لا يدري ما يقول فإنه سبحانه واجب الوجود لنفسه فيلزمه أن يكون هو الذي أعطى لنفسه الوجوب ولو شاء لم يجب وجوده، فكان وجود الحق مرجحاً لنفسه فهو كما قال القائل: [الرجز]

أَرَادَ أنْ يُعْرِبَهُ فأَعْجَمَهْ

فإنه أراد أن ينسب إليه تعالى نفوذ الاقتدار ولم يعلم متعلق الاقتدار ما هو فعلقه بما لا يقتضيه، وصير الحق في قبيل الممكنات من حيث لا يشعر، فكانت فائدة إخبار الله تعالى بقوله لو شاء فيما لا يقع إعلام أنه بالنظر إلى ذاته ممكن الوقوع ليفرق لنا سبحانه بين ما هو في الإمكان وبين ما ليس بممكن، فنفى تعلق المشيئة والإرادة به، فإذا علقها بالمحال على

جهة نفي تعلقها مثل قوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [الزمر: ٤] و﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ [الأنبياء: ١٧] وهذا محال لنفسه، فكيف أدخله تحت نفي تعلق الإرادة التي لا يدخل تحتها إلا الممكن وهو الذي أشار إليه هذا الذي جهلناه وخطأناه في قوله.

فاعلم أن هذا من غاية الكرم الإلهيّ حيث أنه قد سبق في علمه إيجاد مثل هذا الشخص من فساد العقل الذي قد قضى به له في قسمه، فلما قضى بهذا علم أن عقله لا بدّ أن يعتقد مثل هذا وهو غاية الجهل بالله، فأخبر الله تعالى بنفي تعلق الإرادة بالمحال الوقوع لنفسه فيأخذ الكامل العقل من ذلك نفي تعلق الإرادة بما لا يصح أن تتعلق به، ويأخذ منه هذا الضعيف العقل أنه سبحانه لولا ما قال لو وإلا كان يفعل فيستريح إلى ذلك ولا ينكسر قلبه حيث أراد نفوذ الاقتدار الإلهيّ وقصد خيراً، وليعلم الكامل العقل ما فضله الله به عليه فيزيد شكراً حيث لم يجعل الله عقله مثل هذا الناقص العقل، فيعلم أن الله قد فضله عليه بدرجة لم ينلها من قصر عقله هذا القصور، وقد قال جماعة بأن الله يقدر على المحال.

والذي ينبغي أن يقال: إن الله على كل شيء قدير كما قال الله، والقدرة تطلب محلها الذي تتعلق به، كما أن نسبة الإرادة تطلب محلها الذي تتعلق به، كما أن العلم يطلب محله الذي يتعلق به نفياً كان أو إثباتاً، وجوداً أو عدماً، وكذلك نسبة السمع والبصر وجميع ما نسب الحق لنفسه، فالعالم الوافر العقل يعلم متعلق كل نسبة فيضيفها إليها، ومن عرف الأمور بمثل هذه المعرفة عرف حكم مقت الله بمن يقول ما لا يعمل من غير أن يقرن به المشيئة الإلهية؟ فإذا علق المشيئة الإلهية بقوله إن يعمل فلا يكون ذلك العمل لم يمقته الله فإنه غاب عن انفراد الحق في الأعمال كلها التي تظهر على أيدي المخلوقين بالتكوين، وأنه لا أثر للمخلوق فيها من حيث تكوينها، وإن كان للمخلوق فيها حكم لا أثر فالناس لا يفرقون بين الأثر والحكم، فإن الله إذا أراد إيجاد حركة أو معنى من الأمور التي لا يصح وجودها إلا في مواد لأنها لا تقوم بأنفسها فلا بدّ من وجود محل يظهر فيه تكوين هذا الذي لا يقوم بنفسه، فللمحل حكم في الإيجاد لهذا الممكن وما له أثر فيه، فهذا الفرق بين الأثر والحكم إذا تحققته فلماذا يقول العبد: نعمل أو نفعل هكذا ولا أثر له في الفعل جملة واحدة فإن الله يمقته على ذلك.

ولما علم الحق أن هذا لا بدّ أن يقع من عباده وأنهم يقولون ذلك شرع لهم الاستثناء الإلهيّ ليرتفع المقت الإلهيّ عنهم، ولهذا لا يحنث من استثنى إذا حلف على فعل مستقبل فإنه أضافه إلى الله لا إلى نفسه، وهذا لا ينافي إضافة الأفعال إلى المخلوقين فإنهم محل ظهور الأفعال الإلهية، وبهذا القدر تفاوتت درجات العقلاء، ألا ترى الحق تعالى كيف قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الصف: ٢] ولم يقل يا أولي الألباب ولا يا أولي العلم ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] فإن العالم العاقل لا يقول ما لا يفعل إلا بالاستثناء، لأنه يعلم أن الفعل لله لا له، فميز الله بين طبقات العالم ليعلموا أن الله تعالى قد رفع بعضهم فوق بعض درجات، فالعقلاء العلماء هم المقصودون للحق من العالم بعموم كل خطاب

لعلمهم بمواقع الخطاب، فيعلمون أي صنف أراد من العالم بذلك الخطاب، ولهذا نوع الأصناف بتنوّع الآيات للمتفكرين وللعالمين وللعقلاء ولأولي الألباب كما قال تعالى في القرآن العزيز: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ يريد طائفة مخصوصة لا يعقلون منه سوى أنه بلاغ ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ في حق طائفة أخرى عينها بهذا الخطاب ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ في حق طائفة أخرى عينها بهذا الخطاب ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢] في حق طائفة أخرى أيضاً، والقرآن واحد في نفسه تكون الآية منه تذكرة لذي اللب، وتوحيداً لطالب العلم بتوحيده، وإنذاراً للمترقب الحذر، وبلاغاً للسامع ليحصل له أجر السماع، كالعجمي الذي لايفهم اللسان فيسمع فيعظم كلام الله من حيث نسبته إلى الله، ولا يعرف معنى ذلك اللفظ حتى يشرح له بلسانه ويترجم له عنه.

فمن جملة الخطابات الإلهية البشارات وهي على قسمين: بشارة بما يسوء مثل قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] وبشارة بما يسرّ مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يسٓ: ١١] فكل خير يؤثر وروده في بشرة الإنسان الظاهرة فهو خبر بشرى وذلك لا يكون إلا في رجلين: إمّا في شخص يكون في قوّة نفسه أن لا تتغير بشرته بما يتحقق كونه، وإمّا شخص غير مصدق بذلك الخبر من ذلك المخبر فلا يخلو هذا القوي النفس هل أثر ذلك الخبر في باطنه أو لم يؤثر؟ فإن أثر خبر هذا المخبر في نفسه فهو أحد رجلين: إمّا عالم محقق بوقوعه، وإمّا مُجَوِّز، وإن لم يؤثر في نفسه فهو غير عالم ولا مصدق معاً، فيكون ذلك الخبر في حق الأوّل بشرى متعلقها الصورة المتخيلة في نفسه التي تأثرت لهذا الخبر، فلو لم تقم بخياله تلك الصورة المضاهية للصورة الحسية لما كانت بشرى في حقه، ولا كانت تؤثر في باطنه سروراً ولا حزناً وإن لم يظهر ذلك في ظاهره، فلو تجردت الأرواح عن المواد لما صحت البشائر في حقها ولا حكم عليها سرور ولا حزن، ولكان الأمر لها علماً مجرداً من غير أثر، فإن الالتذاذ الروحاني إنما سببه إحساس الحس المشترك مما يتأثر له المزاج من الملايمة وعدم الملايمة وبالقياسات، وأمّا الأرواح بمجردها فلا لذة ولا ألم، وقد يحصل ذلك لبعض العارفين في هذا الطريق، قال أبو يزيد: «ضحكت زماناً وبكيت زماناً وأنا اليوم لا أضحك ولا أبكي». وهو عين ما قلناه، فإنه وقف مع مجرد روحه من غير نظر إلى طبيعته، فما شاهد إلا علماً محضاً كما يرتفع عن النظر في توحيد الحق من حيث توحيد الألوهية إلى توحيد ذاته من حيث هو لنفسه لا من حيث المرتبة التي بها يتعلق الممكن، فيشاهده في ذلك التوحيد واحداً لا واحداً معرى عن النسب والإضافات، مجهولاً للممكنات غير منسوب لنفسه بأنه عالم بنفسه لنفسه، فهو في ذلك التوحيد عينه لا من حيث هو عينه ولا من حيث لا هو عينه، وهذا أسنى المراتب في تجريد الكون عن التعلق به وهو كمال الأحدية لا كمال الوحدانية، فإن كمال الوحدانية في سريان أحديته في العقائد، فإن الوحداني هو الذي يطلب الموحدين والأحدية لا تطلب ذلك، كالجسماني هو الذي يطلب الأجسام ليظهر بها حكمه فاعلم. فإذا رأيت عارفاً تأتي عليه أسباب الالتذاذ وأسباب التألم ولا يلتذ ولا يتألم لا

بالمحسوس ولا بالمعقول في اقتناء العلوم الملذة فتعلم أن وقته التجرد التام عن طبيعته، وهذا أقوى التشبه الذي يسعى إليه العلماء بالله وواجده قليل والقليل الذي يجده قليل الاستصحاب لهذا الوجدان، وإنما الله يكرم به من شاء من عباده في خطرات ما ليعلمه بالتوحيد الذاتي الذي ذكرناه، فإن طائفة من العقلاء نسبوا الالتذاذ والابتهاج إلى ذلك الجناب بالكمال الذي هو عليه تعالى الأحد في ذاته عن هذا الوصف، لكن الوحدانية الإلهية هي التي ينظر إليها القائلون بهذا القول ولا يشعرون قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٥] فمن نظر الحق من حيث ذاته عرف ما قلناه، ومن نظره من حيث ألوهيته عرف ما قلناه، ألا تنظر إلى مبادي الوحي الإلهيّ النبويّ إنما هي المبشرات وهي التي بقيت في الأمة بعد انقطاع النبوّة فتخيل من لا علم له بالأمر بما هو عليه أن ذلك نقص في حق هذه الأمة ليس الأمر كما ظنه من لا علم له بتقسيم الوحي، فإن وحي المبشرات هو الوحي الأعم الذي يكون من الحق إلى العبد بلا واسطة ويكون أيضاً بواسطة، والنبوّة من شأنها الواسطة ولا بدّ، فلا بد من الملك فيها، والمبشرات ليست كذلك، فالعبد العارف لا يبالي ما فاته من النبوّة مع بقاء المبشرات عليه، إلا أن الناس يتفاضلون فيها، فمنهم من لا يبرح في بشراه عن الواسطة، ومنهم من يرتفع عنها كالخضر والأفراد فلهم المبشرات بارتفاع الوسائط وما لهم النبوّة ولهذا ننكر عليهم الأحكام، فما كان من حكم في الكون من المبشرات فهو من البشرى بالواسطة وهو تعريف خاصة بما جاء به الرسول، وما لم يكن لها حكم الكون إلا العلم المجرد في تكملة ذاته فمن البشرى بترك الواسطة، فالرسل فضلت من سواها بتحصيل ضروب مراتب الوحي من المبشرات وغيرها من نزول الأملاك على قلوبهم وعلى حواسهم ولهم المبشرات فهم الأفراد الأقطاب ونحن الأفراد لا الأقطاب، وأعني بالأقطاب الشخص الذي تدور عليه رحى السياسات الناموسية المبثوثة في مصالح العالم المؤيدة بالمعجزات والآيات؛ فالله يجعلنا ممن بشره به فنام إلى الأبد ولم ينتبه.

سأل سهل بن عبد الله رجلاً من أهل عبادان عن سجود القلب؛ وكان قد رأى سهل بن عبد الله قلبه قد سجد فعرض ذلك على جماعة من الشيوخ من أهل زمانه فلم يعرفوا ما يقول لأنهم لم يذوقوا ذلك فرحل في طلب من يعرف ذلك فلما وصل إلى عبادان دخل على شيخ فقال له: يا أستاذ أيسجد القلب؟ فقال الشيخ: إلى الأبد يعني أنه لا يرفع رأسه من سجدته، فعرف سهل بن عبد الله في سؤاله أن الله أطلعه على سجود قلبه فلازم تلك الصفة فلم يرفع رأسه من سجدته لا في الدنيا ولا يرفعه في الآخرة، فما دعا الله بعد ذلك في رفع شيء نزل ولا في إنزال شيء رفع، وهذا هو المقام المجهول الذي جهله العارفون وما ثبت فيه إلا المفردون.

ولولا أن الأنبياء شرع لهم أن يشرعوا للخاص والعام حيث جعلهم الله أسوة لكانت حالتهم ما ذكرناه، ولكنهم صلوات الله عليهم لازموا الحضور في سجود القلب عند التشريع، وهذا غاية القوّة حيث أعطوا حكم الحال المستصحب الذي لا يرتفع أبداً، فغير النبيّ إذا علمه

تكلف فيه، وقد أعلمناك في غير ما موضع أن الأوائل في الأشياء هي المعتبرة في النسبة إلى الله، وأنها الصدق الذي لا يدخله مين، والقوّة التي لا يشوبها ضعف في الخاطر الأوّل والنظرة الأولى والسماع الأوّل والكلمة الأولى والحركة الأولى، كل أوّل لا يكون إلا مخلصاً لله لا يقع فيه اشتراك، ثم بعد الأوّل يدخل ما يدخل فيصدق ولا يصدق، فانظر أوّل ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي المبشرات فحازت المبشرات الأوّلية، فكان لا يرى رؤيا إلا خرجت مثل فلق الصبح لأن فلق الصبح انفلق عن الليل كما انفلق صاحب هذه المبشرة عن النوم، فانظر ما أحسن هذا التشبيه الذي شبهته به أمنا عائشة رضي الله عنها فأبقى الله على رجال هذه الأمّة أوّل الوحي الذي لا يخطىء أبداً، فإن فهمت قدر ما ذكرته لك ونبهتك عليه علمت عناية الله بهذه الأمة فيما أبقى عليها من النبوّة وهو زبدة محضتها، ويكفي هذا القدر من هذا المنزل.

ويتضمن هذا المنزل من العلوم علم التنزيه، وعلم التوحيد الإلهي، وعلم تنزيه العالم العلوي والسفلي، وعلم المشيئة والكلام، وعلم الأعمال وتفاصيلها، وعلم المحبة الإلهية من وجه خاص لا من جميع الوجوه؛ وأعني بالوجه الخاص حبه للتوّابين وحبه للمتطهرين وحبه للمؤمنين فلا تتساوى وجوه المحبة لعدم تساوي هذه الطبقات وإن لم يكن كذلك فأية فائدة للتفصيل فيها؟ وعلم السبل الإلهية، وعلم مجاهدة النفوس ورياضاتها، وعلم الثبات عند الواردات، وعلم التأييد بالمناسب الجنسي، وعلم العتاب، وعلم الجزاء في الدنيا، وعلم العناية، وعلم الخذلان، وعلم معرفة مراتب الخلق، والعلم الحق من العلم الخيالي، وعلم التمام، وعلم الأنوار وما يذم من الشرك وما يحمد، وعلم الإيمان، وعلم المغفرة، وعلم المحبة المتعلقة بالأكوان وشرف المحمود منها، وعلم البشائر، وعلم الوصايا الإلهية، وعلم تأييد أهل الله إذا صدقوا مع الله. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، والحمد لله رب العالمين.

الباب الرابع والعشرون وثلاثمائة
في معرفة منزل جمع النساء والرجال في بعض المواطن الإلهية وهو من الحضرة العاصمية

[الكامل]

إنَّ النِّساءَ شقائقُ الذُّكْرانِ ... في عَالَمِ الأرواحِ والأبْدَانِ
والحُكْمُ مُتَّحِدُ الوجود عليهما ... وهو المُعَبَّرُ عنه بالإنسانِ
وتَفَرّقَا عنه بأمْرٍ عَارِضٍ ... فَصَلَ الإناثَ به من الذُّكْرَانِ
من رُتْبَةِ الإجماع يحكم فيهما ... بحقيقة التَّوْحيد في الأعْيانِ
وإذا نظرتَ إلى السماء وأرضِهَا ... فَرَّقْتَ بينهما بلا فُرْقَانِ
انْظُرْ إلى الإحسان عَيْناً واحداً ... وظُهُوره بالحكم عن إحْسَانِ

اعلم أيدك الله أن الإنسانية لما كانت حقيقة جامعة للرجل والمرأة لم يكن للرجال على

النساء درجة من حيث الإنسانية، كما أن الإنسان مع العالم الكبير يشتركان في العالمية، فليس للعالم على الإنسان درجة من هذه الجهة، وقد ثبت أن للرجال على النساء درجة، وقد ثبت أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن أكثر الناس لا يعلم ذلك مع الاشتراك في الدلالة والعلامة على وجود المرجح وقد قال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧] وذكر ما يختص بالسماء، ثم ذكر الأرض ودحيها وما يختص بها كل ذلك في معرض التفضيل على الإنسان، فوجدنا الدرجة التي فضل بها السماء والأرض على الإنسان هي بعينها التي فضل بها الرجل على المرأة، وهو أن الإنسان منفعل عن السماء والأرض ومولد بينهما منهما، والمنفعل لا يقوى قوة الفاعل لما هو منفعل عنه، كذلك وجدنا حوّاء منفعلة عن آدم مستخرجة متكوّنة من الضلع القصير، فقصرت بذلك أن تلحق بدرجة من انفعلت عنه، فلا تعلم من مرتبة الرجل إلا حدّ ما خلقت منه وهو الضلع فقصر إدراكها عن حقيقة الرجل، كذلك الإنسان لا يعلم من العالم إلا قدر ما أخذ في وجوده من العالم لا غير، فلا يلحق الإنسان أبداً بدرجة العالم بجملته وإن كان مختصراً منه، كذلك المرأة لا تلحق بدرجة الرجل أبداً مع كونها نقاوة من هذا المختصر، وأشبهت المرأة الطبيعة من كونها محلاً للانفعال فيها، وليس الرجل كذلك فإن الرجل يلقي الماء في الرحم لا غير والرحم محل التكوين والخلق، فيظهر أعيان ذلك النوع في الأنثى لقبولها التكوين والانتقالات في الأطوار الخلقية خلقاً من بعد خلق إلى أن يخرج بشراً سوياً، فبهذا القدر يمتاز الرجال عن النساء، ولهذا كانت النساء ناقصات العقل عن الرجال لأنهن ما يعقلن إلا قدر ما أخذت المرأة من خلق الرجل في أصل النشأة، وأما نقصان الدين فيها فإن الجزاء على قدر العمل، والعمل لا يكون إلا عن علم، والعلم على قدر قبول العالم، وقبول العالم على قدر استعداده في أصل نشأته، واستعدادها ينقص عن استعداد الرجل لأنها جزء منه، فلا بدّ أن تتصف المرأة بنقصان الدين عن الرجل، وهذا الباب يطلب الصفة التي يجتمع فيها النساء والرجال، وهي فيما ذكرناه كونهما في مقام الانفعال، هذا من جهة الحقائق، وأما من جهة ما يعرض لهما فمثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] وقوله: ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ [التحريم: ٥] وقال رسول الله ﷺ: «**كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرُونَ وَمِنَ النِّسَاءِ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ**» فاجتمع الرجال والنساء في درجة الكمال، وفضل الرجل بالأكملية لا بالكمالية، فإن كملا بالنبوّة فقد فضل الرجال بالرسالة والبعثة، ولم يكن للمرأة درجة البعثة والرسالة، مع أن المقام الواحد المشترك يقع التفاضل في أصحابه بينهم فيه كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥] وقد شرك الله بين الرجال والنساء في التكليف، فكلف النساء كما كلف الرجال، وإن اختصت المرأة بحكم لا يكون للرجل، فقد يختص الرجل بحكم لا يكون للمرأة، وإن كان النساء شقائق الرجال.

ثم اعلم أن منزلة المرأة من الرجل في أصل الإيجاد منزلة الرحم من الرحمن فإنها

شجنة منه فخرجت على صورته، وقد ورد في بعض الروايات: «أن الله خلق آدم على صورة الرحمن»، وثبت أن الرحم فينا شجنة من الرحمن، فنزلنا من الرحمن منزلة حوّاء من آدم وهي محل التناسل، وظهور أعيان الأبناء كذلك نحن محل ظهور الأفعال، فالفعل وإن كان لله فما يظهر إلا على أيدينا ولا ينسب بالحس إلا إلينا، ولو لم نكن شجنة من الرحمن لما صح النسب الإلهيّ وهو كوننا عبيداً له، ومولى القوم منهم، فافتقارنا إليه افتقار الجزء إلى الكل، ولولا هذا القدر من النسبة لما كان للعزة الإلهية والغنى المطلق أن يعطف علينا ولا أن ينظر إلينا، فبهذا النسب صرنا مجلاها فلا تشهد ذاتها إلا فينا لما خلقنا عليه من الصورة الإلهية فملكنا الأسماء الإلٰهية كلها، فما من اسم إلهيّ إلا ولنا فيه نصيب، ولا يقوم بنا أمر إلا ويسري حكمه في الأصل، قال النبي ﷺ في هذا الاسم في أعضاء الإنسان: «**إنَّهُ إذَا أَحَسَّ عُضْوٌ مِنْهُ بِأَلَم تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجِسْمِ بِالحُمَّى**» فأثر وجود ذلك الألم في العضو الخاص الحمى في سائر الأعضاء فيتألم كله لتألم جزء من جسمه، فما ظنك بالنفس الناطقة التي هي سلطانة هذا البلد الأمين؛ فإن حاملة الحمى النفس الحيوانية في هذا الموضع وهي للنفس الناطقة بمنزلة ملك اختل عليه بعض ملكه فهمه يكون أشد، ألا ترى الحق سبحانه قد وصف نفسه بالغضب وبالرحمة وبالقبول وبالإجابة وأمثال هذا، وجعل ذلك كله مسبباً عن أسباب تكون منا فإذا عصيناه مجاهرة أغضبناه، وإذا قلنا قولاً يرتضيه منا أرضيناه كما قال ﷺ: «**وَلاَ نَقُولُ إلاَّ ما يُرْضِي رَبَّنا**» وإذا تبنا آثرنا القبول عنده، ولولا سيئاتنا ما عاقب ولا عفا، وهذا كله مما يصحح النسب ويثبت النسب ويقوي آثار السبب، فنحن أولاد علات أم واحدة وآباء مختلفون، فهو السبب الأوّل بالدليل لا بالمشاهدة.

ولما تقرّر ما ذكرناه أيد هذا النسب بقوله: «**فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ الله وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ الله**» فانظر ما أعجب هذا الحكم إن قطعها سبحانه من الرحمن وجعل السعادة لنا والوصلة به في وصل ما قطعه فالصورة صورة منازعة وفيها القرب الإلهيّ ليكون لنا حكم الوصل وهو ردّ الغريب إلى أهله، وليس للحكمة الإلهية في هذا إلا نفي التشبيه فإنه قال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١] فإذا قطعناها أشبهناه في القطع، فإنه جعلها شجنة من الرحمن، فمن قطعها فقد تشبه به وهو لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء بحكم الأصل، فتوعد من قطعها بقطعه إياه من رحمته لا منه وأمرنا بأن نصلها وهو أن نردها إلى من قطعت منه فإنه قال: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣] فأضاف العلم لك وجعل نفسه رقيباً عليه وشهيداً لا يغفل ولا ينسى ذلك لتقتدي أنت به فيما كلفك من الأعمال، فلا تغفل ولا تنسى لأنك أولى بهذه الصفة لافتقارك وغناه عنك.

ولما كانت حوّاء شجنة من آدم جعل بينهما مودة ورحمة ينبه أن بين الرحم والرحمن مودّة ورحمة، ولذلك أمرك أن تصلها بمن قطعت منه فيكون القطع له والوصل لك، فيكون لك حظ في هذا الأمر تشرف به على سائر العالم، فالمودّة المجعولة بين الزوجين هو الثبات على النكاح الموجب للتوالد، والرحمة المجعولة هو ما يجده كل واحد من الزوجين من

الحنان إلى صاحبه فيحن إليه ويسكن، فمن حيث المرأة حنين الجزء إلى كله والفرع إلى أصله والغريب إلى وطنه، وحنين الرجل إلى زوجته حنين الكل إلى جزئه لأنه به يصح عليه اسم الكل وبزواله لا يثبت له هذا الاسم، وحنين الأصل إلى الفرع لأنه يمده، فلو لم يكن لم تظهر له ربانية الإمداد، كما أن الكون لولاه لم يصح أن يكون رباً على نفسه وهو رب فلا بد من العالم ولم يزل رباً، فلم تزل الأعيان الثابتة تنظر إليه بالافتقار أزلاً ليخلع عليها اسم الوجود، ولم يزل ينظر إليها لاستدعائها بعين الرحمة، فلم يزل رباً سبحانه وتعالى في حال عدمنا وفي حال وجودنا والإمكان لنا كالوجوب له ؛ قال: [البسيط]

حَقِّقْ بعَقْلك إن فَكّرْتَ مَصْدَرَنا ... نَفياً لنَفي وإثباتاً لإثباتِ
مِنْ أعْجَبِ الأمْرِ أنّي لم أزَلْ أزَلاً ... وأنني مع هذا مُحْدَثُ الذَّاتِ
قد كان رَبُّكَ موجوداً وما معه ... شيءٌ سواه ولا ماضٍ ولا آتِ

فبالمودة والرحمة طلب الكل جزأة والجزء كله فالتحما فظهر عن ذلك الالتحام أعيان الأبناء فصح لهم اسم الأبوّة فأعطى وجود الأبناء حكماً للآباء لم يكونوا عليه وهو الأبوة، وليس الرب كذلك، فإنه لم يزل رباً أزلاً، فإن الممكن في إمكانه لم يزل موصوفاً بالإمكان سواء وجد الممكن أو اتصف بالعدم، فإن النظر إليه لم يزل في حال عدمه، وتقدم العدم للممكن على وجوده نعت أزلي فلم يزل مربوباً وإن لم يكن موجوداً، فهذا الفارق بين ما يجب لله وبين ما يجب للعبد من حيث الاسمية والمرتبة التي حدثت له بوجود الابن، فالتحق النساء بالرجال في الأبوة ومن لحوق النساء بالرجال، بل تقوم المرأة في بعض المواطن مقام رجلين إذ لا يقطع الحاكم بالحكم إلا بشهادة رجلين فقامت المرأة في بعض المواطن مقامهما وهو قبول الحاكم قولها في حيض العدة وقبول الزوج قولها في أن هذا ولده مع الاحتمال المتطرّق إلى ذلك، وقبول قولها أنها حائض، فقد تنزلت ههنا منزلة شاهدين عدلين، كما تنزل الرجل في شهادة الدين منزله امرأتين فتداخلا في الحكم :[المتقارب]

فَنابَ الكثيرُ مَنابَ القَليلِ ... ونابَ القَليلُ مَنابَ الكثيرْ
فَمَنْ شاءَ ألْحَقَهُ بالثَّرَى ... ومن شاء ألْحَقَه بالأثِيرْ

لولا كمال الصورة ما صحت الخلافة، فمن طلبها وكل إليها، ومن جاءته من غير طلب أعين عليها، فالطالب مُدَّعٍ في القيام بحقها ومن طلب بها مستقيل منها لأنها أمانة ثقلت في السموات والأرض، وكل مدع ممتحن كانت هذه الصفة فيمن كانت لا أحاشي أحداً وامتحانه على صورة ما يدعيه ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ١٥] شهادة إلهية مقطوع بها، فهذه منزلة من جاءته الخلافة من غير طلب والعناية من غير تعمل ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣٣] دعوى موضع الامتحان لولا ما شفع فيه حالة المهد لعدم استحكام العقل فكان حكمه حكم يحيى وهو الأولى، هذا إن كان منطقاً غير متعقل ما ينطق به وإن تعقله فاستحكم عقله وتقوت آلاته في نفس الأمر وفي مشهود العادة عند الحاضرين هو خرق عادة، فإن كان

مأموراً بما نطق به فهو مخبر بما آتاه الله وأمر أن يخبر به فليس بمدع ولا طالب فخراً كما قال رسول الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ» بالراء وهو التبجح بالباطل، فهذا معرف عن أمر إلهيّ، فمثل هذا لا يمتحن ولا يختبر فإنه ليس بمدع، وهذه كلها أحوال يشترك فيها النساء والرجال، ويشتركان في جميع المراتب حتى القطبية، ولا يحجبك قول رسول الله ﷺ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً» فنحن نتكلم في تولية الله لا في تولية الناس، والحديث جاء فيمن ولاه الناس. ولو لم يرد إلا قول النبي ﷺ في هذه المسألة أن النساء شقائق الرجال لكان فيه غنية، أي كل ما يصح أن يناله الرجل من المقامات والمراتب والصفات يمكن أن يكون لمن شاء الله من النساء كما كان لمن شاء الله من الرجال، ألا تنظر إلى حكمة الله تعالى فيما زاد للمرأة على الرجل في الاسم فقال في الرجل المرء وقال في الأنثى المرأة فزادها هاء في الوقف تاء في الوصل على اسم المرء للرجل، فلها على الرجل درجة في هذا المقام ليس للمرء في مقابلة قوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فسدّ تلك الثلمة بهذه الزيادة في المرأة، وكذلك ألف حبلى وهمزة حمراء، وإن ذكرت تعليل الحق في إقامة المرأتين في الشهادة مقام الرجل الواحد بالنسيان في قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢] والتذكر لا يكون إلا عن نسيان، فقد أخبر الله تعالى عن آدم أنه نسي، وقال ﷺ: «فَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ» فنسيان بني آدم ذرية عن نسيان آدم كما نحن ذرّيته وهو وصف إلهيّ منه صدر في العالم قال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] على أن الحق ما وصف إحدى المرأتين إلا بالحيرة فيما شهدت فيه ما وصفها بالنسيان، والحيرة نصف النسيان لا كله، ونسب النسيان على الكمال للرجل فقال: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] فقد يمكن أن ينسى الرجل الشهادة رأساً ولا يتذكرها، ولا يمكن أن تنسى أحدى المرأتين وهي المذكرة لا على التعيين، فتذكر التي ضلت عما شهدت فيه فإن خبر الله صدق بلا شك وهو قد أخبر في هذه الآية أن إحداهما تذكر الأخرى، فلا بد أن تكون الواحدة لا تضل عن الشهادة ولا تنسى، فقد اتصفت المرأة الواحدة في الشهادة بإخبار الحق عنها بصفة إلهية وهو قول موسى الذي حكى عنه في القرآن: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

ولو لم يكن في شرف التأنيث إلا إطلاق الذات على الله وإطلاق الصفة وكلاهما لفظ التأنيث جبراً لقلب المرأة الذي يكسره من لا علم له من الرجال بالأمر، وقد نهانا الشارع أن نتفكر في ذات الله، وما منعنا من الكلام في توحيد الله بل أمر بذلك فقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩] وهو هنا ما يخطر لمن نظر في توحيد الله من طلب ماهيته وحقيقته وهو معرفة ذاته التي ما تعرف، وحجر التفكر فيها لعظيم قدرها، وعدم المناسبة بينها وبين ما يتوهم أن يكون دليلاً عليها فلا يتصورها وهم ولا يقيدها عقل بل لها الجلال والتعظيم، بل لا يجوز أن تطلب بما كما طلب فرعون فأخطأ في السؤال، ولهذا عدل موسى عليه السلام عن جواب سؤاله لأن السؤال إذا كان خطأ لا يلزم الجواب عنه وكان مجلس

عامّة، فلذلك تكلم موسى بما تكلم به ورأى فرعون أنه ما أجابه على حد ما سأل لأنه تخيل أن سؤاله ذلك متوجه، وما علم أن ذات الحق تعالى لا تدخل تحت مطلب ما وإنما تدخل تحت مطلب« هل»، و«هل» سؤال عن وجود المسؤول عنه هل هو متحقق أم لا؟ فقال فرعون وقد علم ما وقع فيه من الجهل إشغالاً للحاضرين لئلا يتفطنوا لذلك: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] ولولا ما علم الحق فرعون ما أثبت في هذا الكلام أنه أرسله مرسل وأنه ما جاء من نفسه لأنه دعا إلى غيره، وكذا نسبه فرعون إلى ما كان عليه موسى فوصفه بأنه مجنون أي مستور عنكم لا تعرفونه، فعرفه موسى بجوابه إياه وما عرفه الحاضرون كما عرفه علماء السحرة وما عرفه الجاهلون بالسحر، وبقيت تلك الخميرة عند فرعون يختمر بها عجين طينته، وما ظهر حكمها ولا اختمر عجينه إلا في الوقت الذي قال فيه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] وما سمى الله ليرفع اللبس والشك إذ قدم علم الحاضرون أن بني إسرائيل ما آمنت إلا بالإله الذي جاء موسى وهارون من عنده إليهم، فلو قال: آمنت بالله وهو قد قرر أنه ما علم لقومه من إله غيره لقالوا: لنفسه شهد لا للذي أرسل موسى إلينا كما شهد الله لنفسه؛ فرفع هذا اللبس بما قاله.

وأمّا تحقيق هذه المسألة فما يعرف ذلك إلا من يعرف مرتبة الطبيعة من الأمر الإلهي، فإن المرأة من الرجل بمنزلة الطبيعة من الأمر الإلهي، لأن المرأة محل وجود أعيان الأبناء، كما أن الطبيعة للأمر الإلهي محل ظهور أعيان الأجسام فيها تكوّنت وعنها ظهرت فأمر بلا طبيعة لا يكون وطبيعة بلا أمر لا تكون، فالكون متوقف على الأمرين، ولا تقل إن الله قادر على إيجاد شيء من غير أن ينفعل أمر آخر فإن الله يرد عليك في ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَىۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فتلك الشيئية العامة لكل شيء خاص، وهو الذي وقع فيها الاشتراك هي التي أثبتناها، وأن الأمر الإلهي عليها يتوجه لظهور شيء خاص في تلك الشيئية المطلقة، فإذا ظهرت الأجسام أو الأجساد ظهرت الصور والأشكال والأعراض وجميع القوى الروحانية والحسية، وربما قيل هو المعبر عنه بلسان الشرع العماء الذي هو للحق قبل خلق الخلق ما تحته هواء وما فوقه هواء فذكره وسماه باسم موجود يقبل الصور والأشكال، وقد ذكرنا مرتبة الطبيعة وهي هذه الشيئية المطلقة في كتاب النكاح الأوّل الذي ظهر عنه العالم أسفله وأعلاه، وكل ما سوى الله من كثيف ولطيف ومعقول ومحسوس متصف بالوجود، فلا نعرف منها إلا قدر ما يظهر لنا، كما لا نعرف من الأسماء الإلهية إلا قدر ما وصل إلينا، فمن عرف مرتبة الطبيعة عرف مرتبة المرأة، ومن عرف الأمر الإلهي فقد عرف مرتبة الرجل وأن الموجودات مما سوى الله متوقف وجودها على هاتين الحقيقتين، غير أن هذه الحقيقة تخفى وتدق بحيث يجهلها أبناؤها من العقول، فلا تثبتها في العالم البسيط وتثبتها في العالم المركب، وذلك لجهلها بمرتبتها، كما جهلت هنا مرتبة المرأة مع تنبيه الشارع على منزلتها بقوله ﷺ: «**إِنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ**» فالأمر بينهما يكون علواً وسفلاً، ألا ترى

التجليات والروحانيات المتجسدة هل تظهر في غير صور طبيعية؟ وإن كانت تلك الأجساد سريعة الاستحالة فلم تخرج عنها.

وهذا منزل واسع يتسع المجال فيه، فلنذكر أمّهات ما يتضمنه من المسائل دون التفريع، فمنها من أي مقام ينادى المؤمن؟ وهل يختلف النداء باختلاف المنادى أم لا؟ وفي هذا المنزل أيضاً علم سبب العداوة بين الله وبين خلقه، وهل من شرط العداوة أن توجد من الطرفين أو من الطرف الواحد؟ وهل يعادي أحد من أجل أحد؟ أو لا تكون العداوة إلا من أجل نفسه لا من أجل غيره؟ وعلم إلقاء المحبة في القلوب وثباتها فيه، وهل إلقاؤها انتقال وجودي أو خلق يخلق في المحل؟ وهل من شرط الحب المناسبة أم لا؟ وعلم التغريب عن الأوطان لموجب النقيض، وعلم مشتقات السبل الإلهية وعلم طلب الرضا في المنشط والمكره، وعلم السر والعلن، وعلم الحيرة عن طريق خاص، وعلم محبة الستر على التجلي، وعلم ثبات السبب الموجب لقطع ما أمر بوصله فيكون قطعه قربة ووصله بعداً، وعلم المواطن وكيف ترد الأمور بحكمها وتأثيرها في الأمور الكونية والأحكام الإلهية وهو علم واسع، وعلم رؤية الأعمال مع كونها أعراضاً كونية والأعراض الكونية ترى أحكامها لا أعيانها بخلاف الأعراض اللونية فإنه يرى أعيانها وأحكامها، وعلم الاقتداء بالمتقدّمين واتباع الفاضل المفضول، وعلم التبري من الجمع لا من أحدية الجمع، وعلم ستر أحدية الجمع والكثرة، وعلم الحب المشروط والبغض المشروط وهل يصح في نفس الأمر ذلك أو لا يصح؟ وهل يصح فيه استثناء أو لا يصح؟ وهل يقدح في العلم الإلهي رجوع العبد في توكله وأحواله إلى اسم خاص دون سائر الأسماء الإلهية أم لا؟ وعلم الصيرورة من علم الرد والرجوع والفرق بينهما وبين كل واحد منهما وبين الآخر، وعلم الاختيار فيما يحمد ويذم، وعلم تضمن العزة الحكمة، وعلم الرجاء المشترك، وعلم ما ينتجه التولي عن الحق المطلق والمقيد وهل يتأثر من يتولى عنه عند التولي أو لا يتأثر؟ وعلم المقاربة من الشيء هل يتصف بها الحق أم لا؟ وعلم كون الرحمة قد تكون بالستر وبغير الستر، وعلم سبب إكرام الكريم ومجازاة اللئيم هل يكون بلؤم فيشتركان وإن كان الواحد جزاء أو لا يجازيه إلا بالإحسان؟ وهل يكون لؤم الجزاء لؤماً في نفس الأمر أو هو صفة اللئيم تعود عليه لما ظهرت له في غيره فكرهها منه فعلم بذلك أنها صفته وأنها في المجازي أمر عرضي أظهرها للتعليم وهو علم شريف نافع يعرف منه عقوبة الله عباده على أعمالهم مع غناه في نفسه عن ذلك وعدم تضرره به، وهل يمكن للخلق أن يكونوا في الجزاء باللؤم على هذا الحد عند مجازاة اللئيم أو لا يكونون؟ وعلم ما يعامل به أصحاب الدعاوى، وعلم الحكم بالعلم وأن الظن قد يسمى علماً شرعاً ولماذا يسمى الظن علماً وهو ضده؟ وهل العلم هنا عبارة عن العلامة التي يحصل بهاالظن في نفس الظان الحاكم به فيكون علمه بتلك العلامة علماً بأن هذا ظن غالب يجب الحكم به لرائحة العلم بالعلامة إذ العلم ليس سوى عين العلامة وبه سمي علماً فبالعلم يعلم العلم كما يعلم به سائر المعلومات فهي كلها علامات ولذلك قال: ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ [النجم: ٣٠] ولم يكن علماً فكأنه قال

ذلك الذي أعطتهم العلامة في ذلك الأمر، وعلم الحلال والحرام العقلي والشرعي، وعلم المعاوضة في الأبضاع وهو علم عجيب لأنه لا متعلق للمشتري في ذلك إلا الاستمتاع خاصة فكأنه مشتري الاستمتاع، وعلم العدل في الحكم الإلهي والنيابة فيه، وعلم الفرق بين العلم والحكمة، وعلم اتخاذ الله وقاية مماذا وهل ذلك من مرتبة العلم أو مرتبة الإيمان؟ وعلم أحكام التابع والمتبوع هل يجتمعان في أمر أو لا يجتمعان في أمر؟ وعلم مبايعة الإمام الذي هو السلطان هل حكمها حكم البيع فيتعين ما بيع وما اشترى؟ وهل يدخل فيها بيع النفوس وهو المبايعة على الموت أم لا؟ وعلم التشبيه. فهذا ما يتضمنه هذا المنزل من العلوم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والعشرون وثلاثمائة

في معرفة منزل القرآن من الحضرة المحمدية

[البسيط]:

الجَمْعُ مُعْتَبَرٌ في كل آوِنَةٍ ... والوِتْرُ في الجَمْع كالأعْداد في الأَحَدِ
هذا الإلهُ هو الأسماءُ أوْتَرَهَا ... تِسْعٌ وتِسْعون لم تَنْقُصْ ولم تَزِدِ
فالعَيْنُ مجموعُ أسماء وليس لها ... وِتْرٌ سوى ما ذكرناه من العَدَدِ
فليس ثَمَّ سوى فَرْدٍ يُعَيِّنُهُ ... عَيْنُ الكثير فلا تُلْوي على أَحَدِ
والله وِتْرٌ فلا شيءٌ يُكَثِّرُهُ ... مع العلوم التي أعطاك في الرَّصَدِ
فلا مُؤَثِّرَ غير الله في بَشَرِ ... والغير ما ثَمَّ فاقصد ساكنَ البَلَدِ
يعطيك خيراً بإحسان يَجُودُ به ... عليك فهو الذي إن شَاء لم يَجُدِ

اعلم فهمك الله أن كل ما سوى الله أرواح مطهرة منزهة موجدها وخالقها، وهي تنقسم إلى مكان وإلى متمكن، والمكان ينقسم إلى قسمين: مكان يسمى سماء ومكان يسمى أرضاً، والمتمكن فيهما ينقسم إلى قسمين؛ إلى متمكن فيه وإلى متمكن عليه، فالمتمكن فيه يكون يحيث مكانه والمتمكن عليه لا يكون بحيث مكانه، وهذا حصر كل ما سوى الله، وكل ذلك أرواح في الحقيقة أجسام وجواهر في الحق المخلوق به، وهذه الأرواح على مراتب في التنزيه تسمى مكانة، وما من منزه لله تعالى إلا وتنزيهه على قدر مرتبته لأنه لا ينزه خالقه إلا من حيث هو إذ لا يعرف إلا نفسه، فيثمر له ذلك التنزيه عند الله مكانة يتميز بها كل موجود عن غيره، وهذا المنزل يحتوي على تنزيه الأرواح المتمكنة لا المكانية، وسيرد منزل في هذه المنازل نذكرفيه تنزيه المكان والمتمكن معاً، فكان هذا المنزل يحتوي على نصف العالم من حيث ما هو منزه، ثم إن الله تعالى عاد بالمكانة على هذا المنزه بأن كان الحق مجلاه فرأى نفسه ورتبته فسبح على قدر ما رأى فإذا هو نفسه لا غيره، وذلك أن الحق أسدل بينه وبين عباده حجاب العزة فوقف التنزيه دونه فعلم أن الحق لا يليق به تنزيه خلقه وأن حجاب العزة أحمى وقهرها أغلب، ثم رأى من سواه من العارفين بالله المنزهين بنعوت السلوب على

مراتب، وقد أقرّ الجميع منهم بأنهم كانوا غالطين في محل تنزيههم، وأن تنزيههم ما خرج عنهم وذلك لحكمته التى سرت في خلقه، فكان ذلك تنزيه الحكمة لا غيره، ولولا ستر حجاب العزة ما عرفوا ذلك، ومن هذا الحجاب ظهر الكفر في العالم وصارت المعرفة خبراً بما وراء هذا الحجاب، فظهر الإيمان في العالم بين الستر والمؤمن، فالكافر الذي هو الساتر أقرب من أجل الكفر، فإن الستر يرى المستور به والمستور عنه وهو صفة الكافر والمؤمن دون هذا الستر فمقامه الحجاب، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] والإيمان متعلقه الخبر، والخبر من أقسام الكلام.

ثم إنه سبحانه أخرج أهل الستر من الغيب إلى الشهادة ليحصل له مقام الجمع بين الحالتين، فينزهه باللسانين ويثبت له الصفتين، ولم يكن في ظنه ما فعله الحق به، بل كان يتخيل أن الغيب لا يكون في موطن شهادة لعلمه أن الغيب منيع الحمى لا يعلم ما فيه فيوصل إليه، وإنما مقامه أن يكون مشعوراً به من غير تعيين ما هو ذلك المشعور به، وغفل عن كون الله يفعل ما يريد وأنه ما في حقه غيب، وأن الغيب لا يصح أن يكون إلا إضافياً، فلما بدا له من الله ما لم يكن في حسابه علم أن الأمور بيد الله، وأنه ما ثم من يستحق حكماً لنفسه بل هو الله الذي أعطى كل شيء خلقه، ولما علمت الأشياء أنه لا شيء لها من ذاتها وأنها بحسب ما تقتضيه ذات موجدها وأن الأحوال تتجدد عليها بحسب ما تطلبه حقائق من استندت إليه وهو الله تعالى خافت حيث لم تقف على علم الله فيها في المستقبل، فتركت جميع ما كانت تعتمد عليه في نفسها لما عند خالقها فسبحته تسبيحاً جديداً من خلق جديد، وعبرت من النظر إليها إلى النظر إلى من بيده ملكوت كل شيء، ولولا هذا المقام الذي أقامها فيه وردها من قريب إليه، لناداها من بعيد، فكان المدى يطول عليها ويتعرض لها الآفات والصوارف في الطريق، فإن المسافر وماله على قلت.

ثم إن الله لما حصل الأشياء في هذا المقام رفع لها علماً من أعلام المعرفة أعطاها ذلك العلم أنها شق وأنها على النصف من الوجود وأن كمال الوجود بها، ولولاها ما ظهر الكمال في الوجود والعلم فزهت وعظم شأنها عندها، وما عرفت أي قسم صح لها من الوجود، ثم ظهر ذلك لها في عبادة الصلاة حيث قسمها الحق نصفين بينه وبين عبده فزادت تيهاً، فلما سمعت آخر الخبر موافقاً لحالها الذي لم تشعر به في قوله: «فنصفها لي» ولم يقيد، وقال في نصف العبد: ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل، والسؤال مذلة وفقر وحاجة ومسكنة، إلا أن العبد لاح له من خلف هذا الحجاب ما لم يكن يظنه وهو أنه في منزل يكون الحق متأخراً عنه مثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ٢٠] وذلك لأنه في حكم الفرار إذا استقبله ما لا يطيق حمله، فأخبره الله أنه من ورائه وهو الذي يستقبله فإن فرّ منه فإليه يفرّ من حيث لا يشعر كما يكون في منزل آخر أولاً له من قوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦] وقد وصف نفسه بأنه الهادي والهادي هو الذي يكون إمام القوم ليريهم الطريق وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾فصارت الأشياء مع الحق

عقبة فتقدم تعالى الأشياء ليهديها إلى ما فيه سعادتها وتأخر عنها ليحفظها ممن يغتالها وهو العدم، فإن العدم يطلبها كما يطلبها الوجود وهي محل قابل للحكمين ليس في قوّتها الامتناع إلا بلطف اللطيف.

ثم إن الله تعالى لما أطلعها على هذا حصل لها من العلم بجلال الله أسماء تسبحه بها وتحمده وتثني عليه بها لم تكن تعلم ذلك قبل هذا المشهد كما قال ﷺ في المقام المحمود يوم القيامة: «**فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لاَ أَعْلَمُهَا الآنَ**» يعطيه إياها ذلك المقام بالحصول فيه إلهاماً يلهمه الله فيثني عليه بها، وهكذا كل منزلة ومرتبة في العالم دنيا وآخرة إلى ما لا يتناهى له ثناء خاص في كل منزل منها، فإذا سبحه ورثه ذلك الثناء علماً آخر لم يكن عنده من علم الإذن الإلهي الذي خلق الله منه بيد عيسى الطير ومنه نفخ عيسى فيه فكان طيراً، ومنه أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى، وهو علم شريف تحقق به أبو يزيد البسطامي وذو النون المصري، فأما أبو يزيد فقتل نملة بغير قصد فلما علم بها نفخ فيها فقامت حية بإذن الله وأما ذو النون فجاءته العجوز التي أخذ التمساح ولدها فذهب به في النيل فدعا بالتمساح فألقاه إليها من جوفه حياً كما ألقى الحوتُ يونسَ، فإذا كشف له عن هذا العلم أثنى عليه سبحانه بما ينبغي له من المحامد التي يطلبها هذا المقام؛ ومن هنا يكون له الاستشراف على من خرج عن هذا المقام فيعلم حال الخارجين لأن هذا المنزل هو المنزل الجامع ولهذا سمي منزل القرآن، فإذا نزل صاحب هذا المنزل من هذا المقام إلى الكون تعرض له العدو بأجناده وهو إبليس المعادي له بالطبع ولا سيما للبنين فإنه منافر من جميع الوجوه بخلاف معاداته لآدم فإنه جمع بينه وبين آدم اليبس فإن بين التراب والنار جامعاً، ولذلك الجامع صدقه لما أقسم له بالله أنه لناصح وما صدقه الأبناء فإنه للأبناء ضد من جميع الوجوه وهو قوله في الأبناء أنه خلقهم من ماء وهو منافر للنار، فكانت عداوة الأبناء أشد من عداوة الأب له، وجعل الله هذا العدوّ محجوباً عن إدراك الأبصار، وجعل له علامات في القلب من طريق الشرع يعرفه بها تقوم له مقام إدراك البصر فيتحفظ بتلك العلامات من إلقائه، وأعان الله هذا الإنسان عليه بالملك الذي جعله مقابلاً له غيباً لغيب، فمهما لم يؤثر في ظاهر الإنسان وظهر عليه الملك بمساعدة النفس كان أجران للنفس أجرها وأجر المعين وهو الملك لأن الملك لا يقبل الجزاء ولا يزيد مقامه ولا ينقص، وإن أثر في ظاهر الإنسان فإن الملك يغتم لذلك ويستغفر لهذا الإنسان وهو أعني الملك ليس بمحل لجزاء الغم فيعود ذلك الجزاء على الإنسان، فهو في الحالتين رابح في الطاعة والمعصية، والإيمان يشد من الملك ولهذا يستغفر له الملك.

واعلم أن القرآن لما كان جامعاً تجاذبته جميع الحقائق الإلهية والكونية على السواء فلم يكن فيه عوج ولا تحريف، فمنزلته الاعتدال، والاعتدال منزل حفظ بقاء الوجود على الموجود ما هو منزل الإيجاد لأن الإيجاد لا يكون إلا عن انحراف وميل، ويسمى في حق الحق توجهاً إرادياً وهو قوله: ﴿إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ﴾ [النحل: ٤٠]، ولما كان منزله الاعتدال كان له الديمومة والبقاء، فله إبقاء التكوين وبقاء الكون، فلو نزل عن منزله لنزل من الاعتدال إلى

الانحراف وهو قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١] وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ يعني عن منزله ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ [الحشر: ٢١] يعني الجبل فلم يحفظ عليه صورته لأنه نزل عن منزله ولما كان هذا منزله وتجاذبته الحقائق على سواء كان من به أنزل عليه رحمة للعالمين لأن الرحمة وسعت كل شيء فطلبها كل شيء طلباً ذاتياً لما دعا رسول الله ﷺ في القنوت على من دعا عليه عوتب في ذلك فقيل له: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أي لترحمهم لأنك صاحب القرآن والقرآن ينطق بأني ما أرسلتك إلا رحمة وأنه ينطق بأن رحمتي وسعت كل شيء فهي بين منة ووجوب، فمن عبادي من تسعهم بحكم الوجوب، ومنهم من تسعهم بحكم المنة والأصل المنة والفضل والإنعام الإلهيّ إذ لم يكن الكون فيكون له استحقاق، فما كان ظهوره إلا من عين المنة، وكذلك الأمر الذي به استحق الرحمة كان من عين المنة، فإذا نزل القرآن عن منزله فإنه كلامه، وكلامه على نسبة واحدة لما يقبله الكلام من التقسيم فإنه ينزله، وفيه حقيقة الاعتدال في النسب، وهو جديد عند كل تال أبداً، فلا يقبل نزوله إلاّ مناسباً له في الاعتدال فهو معرى عن الهوى، ولهذا قيل في محمد ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣] ونهي غيره من الرسل والخلفاء أن يتبع الهوى، فلم ينزل في المرتبة منزلة من أخبر عنه أنه لا ينطق عن الهوى، وما كل تال يحس بنزوله لشغل روحه بطبيعته فينزل عليه من خلف حجاب الطبع فلا يؤثر فيه التذاذاً وهو قوله ﷺ في حق قوم من التالين: «**إِنَّهُمْ يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ**» فهذا قرآن منزل على الألسنة لا على الأفئدة، وقال في الذوق نزل به الروح الأمين على قلبك فذلك هو الذي يجد لنزوله عليه حلاوة ولا يقدر قدرها تفوق كل لذة، فإذا وجدها فذلك الذي نزل عليه القرآن الجديد الذي لا يبلى، والفارق بين النزولين أن الذي ينزل القرآن على قلبه ينزل بالفهم فيعرف ما يقرأ وإن كان بغير لسانه، ويعرف معاني ما يقرأ وإن كانت تلك الألفاظ لا يعرف معانيها في غير القرآن لأنها ليست بلغته ويعرفها في تلاوته إذا كان ممن ينزل القرآن على قلبه عند التلاوة، وإذا كان مقام القرآن ومنزله ما ذكرناه وجد كل موجود فيه ما يريد، ولذلك كان يقول الشيخ أبو مدين: لا يكون المريد مريداً حتى يجد في القرآن كل ما يريد، وكل كلام لا يكون له هذا العموم فليس بقرآن.

ولما كان نزوله على القلب وهو صفة إلهية لا تفارق موصوفها لم يتمكن أن ينزل به غير من هو كلامه، فذكر الحق أنه وسعه قلب عبده المؤمن، فنزول القرآن في قلب الؤمن هو نزول الحق فيه، فيكلم الحق هذا العبد من سرّه في سرّه وهو قولهم: حدّثني قلبي عن ربي من غير واسطة، فالتالي إنما سمي تالياً لتتابع الكلام بعضه بعضاً، وتتابعه يقضي عليه بحرفي الغاية وهما «من» و«إلى» فينزل من كذا إلى كذا، ولما كان القلب من العالم الأعلى وكان اللسان من العالم الأنزل وكان الحق منزله قلب العبد وهو المتكلم وهو في القلب واحد العين والحروف من عالم اللسان ففصل اللسان الآيات وتلا بعضها بعضاً فيسمى الإنسان تالياً من حيث لسانه فإنه المفصل لما أنزل مجملاً، والقرآن من الكتب والصحف المنزلة بمنزلة

الإنسان من العالم فإنه مجموع الكتب والإنسان مجموع العالم فهما أخوان، وأعني بذلك الإنسان الكامل، وليس ذلك إلا من أنزل عليه القرآن من جميع جهاته ونسبه وما سواه من ورثته إنما أنزل عليه من بين كتفيه فاستقرّ في صدره عن ظهر غيب وهي الوراثة الكاملة. حكي عن أبي يزيد أنه ما مات حتى استظهر القرآن. وقال رسول الله ﷺ في الذي أوتي القرآن: «**إنَّ النُّبُوَّةَ أُدْرِجَتْ بَيْنَ جَنْبَيْهِ**» وهذا الفرق بين الأنبياء والأولياء الأتباع؛ لكن من أدرجت النبوّة بين جنبيه وجاءه القرآن عن ظهر غيب أعطي الرؤية من خلفه كما أعطيها من أمامه إذ كان القرآن لا ينزل إلا مواجهة فهو للنبيّ ﷺ من وجهين: وجه معتاد ووجه غير معتاد، وهو للوارث من وجه غير معتاد، فسمي ظهراً بحكم الأصل وهو وجه بحكم الفرع، ولما ذقنا ذلك لم نر لأنفسنا تمييز جهة من غيرها وجاءنا بغتة فما عرفنا الأمر كيف هو إلا بعد ذلك، فمن وقف مع القرآن من حيث هو قرآن كان ذا عين واحدة أحدية الجمع، ومن وقف معه من حيث ما هو مجموع كان في حقه فرقاناً فشاهد الظهر والبطن والحدّ والمطلع، فقال: «**لكلّ آية ظَهْرٌ وبطنٌ وحدّ ومَطْلَعٌ**» وذلك الآخر لا يقول بهذا والذوق مختلف. ولما ذقنا هذا الأمر الآخر كان التنزل فرقانياً فقلنا: هذا حلال وهذا حرام وهذا مباح، وتنوّعت المشارب، واختلفت المذاهب، وتميزت المراتب، وظهرت الأسماء الإلهية والآثار الكونية، وكثرت الأسماء والآلهة في العالم، فعبدت الملائكة والكواكب والطبيعة والأركان والحيوانات والنبات والأحجار والأناسي والجن، حتى إنّ الواحد لما جاء بالوحدانية قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وفي الحقيقة ليس العجب ممن وحَّد، إنما العجب ممن كثر بلا دليل ولا برهان، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧] وهذه رحمة من الله بمن لاحت له شبهة في إثبات الكثرة فاعتقد أنها برهان بأن الله يتجاوز عنه، فإنه بذل وسعه في النظر وما أعطته قوّته غير ذلك، فليس للمشركين عن نظر أرجى في عفو الله من هذه الآية، وقد قلنا: إنه ما في العالم أثر إلا وهو مستند إلى حقيقة إلهية فمن أين تعددت الآلهة وعبدت من الحقائق الإلهية؟ فاعلم أن ذلك من الأسماء، فإن الله لما وسع فيها فقال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [المائدة: ٧٢] وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْۖ﴾ [الطلاق: ١] وقال: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٠] وقال: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟﴾ يعني الله أو الرحمن ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠] فزاد الأمر عندهم إبهاماً أكثر مما كان، فإنه لم يقل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فالعين واحدة وهذان اسمان لها، هذا هو النص الذي يرفع الإشكال، فما أبقى الله هذا الإشكال إلا رحمة بالمشركين أصحاب النظر الذي أشركوا عن شبهة وبقي الوعيد في حق المقلدين حيث أهلهم الله للنظر، وما نظروا ولا فكروا ولا اعتبروا فإنه ما هو علم تقليد، فالمخطىء مع النظر أولى وأعلى من الإصابة والمصيب مع التقليد إلا في ذات الحق، فإنه لا ينبغي أن يتصرّف مخلوق فيها بحكم النظر الفكري، وإنما هو مع الخبر الإلهيّ فيما يخبر به عن نفسه لا يقاس عليه ولا يزيد ولا ينقص ولا يتأوّل ولا يقصد بذلك القول وجهاً معيناً، بل يعقل المعنى ويجهل النسبة ويرد العلم بالنسبة إلى علم الله فيها،

فمن نظر الأمر بمثل هذا النظر فقد أقام العذر لصاحبه وكان رحمة للعالمين.

ثم اعلم أن الله أنزل الكتاب فرقاناً في ليلة القدر ليلة النصف من شعبان، وأنزله قرآناً في شهر رمضان كل ذلك إلى السماء الدنيا ومن هناك نزل في ثلاث وعشرين سنة فرقاناً نجوماً ذا آيات وسور لتعلم المنازل وتتبين المراتب، فمن نزوله إلى الأرض في شهر شعبان يتلى فرقاناً، ومن نزوله في شهر رمضان يتلى قرآناً، فمنا من يتلوه به فذلك القرآن، ومنا من يتلوه بنفسه فذلك الفرقان، ولا يصح أن يتلى بهما في عين واحدة ولا حال واحدة، فإذا كنت عنده كنت عندك، وإذا كنت عندك لم تكن عنده، لأن كل شيء عنده بمقدار، وهو ليس كذلك، بل هو مع كل شيء، وعند من يذكره بالذكر لا غير فإنه جليس الذاكرين.

فصل: اعلم أن الله أنزل هذا القرآن حروفاً منظومة من اثنين إلى خمسة أحرف متصلة ومفردة وجعله كلمات وآيات وسوراً ونوراً وهدى وضياء وشفاء ورحمة وذكراً وعربياً ومبيناً وحقاً وكتاباً ومحكماً ومتشابهاً ومفصلاً، ولكل اسم ونعت من هذه الأسماء معنى ليس للآخر وكله كلام الله، ولما كان جامعاً لهذه الحقائق وأمثالها استحق اسم القرآن، فلنذكر مراتب بعض نعوته ليعلم أهل الله منزلته.

وصل: فمن ذلك كونه حروفاً، والمفهوم من هذا الاسم أمران الأمر الواحد المسمى قولاً وكلاماً ولفظاً والأمر الآخر يسمى كتابة ورقماً وخطاً، والقرآن يخط فله حروف الرقم، وينطق به فله حروف اللفظ، فلماذا يرجع كونه حروفاً منطوقاً بها؟ هل لكلام الله الذي هو صفته؟ أو هل للمترجم عنه؟ فاعلم أن الله قد أخبرنا نبيه ﷺ أنه سبحانه يتجلى في القيامة في صور مختلفة فيعرف وينكر، ومن كانت حقيقته تقبل التجلي في الصور فلا يبعد أن يكون الكلام بالحروف المتلفظ بها المسماة كلام الله لبعض تلك الصور كما يليق بجلاله، فكما نقول: تجلى في صورة كما يليق بجلاله، كذلك نقول: تكلم بصوت وحرف كما يليق بجلاله، ونحملها محمل الفرح والضحك والعين والقدم واليد واليمين وغير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة مما يجب الإيمان به على المعنى المعقول من غير كيفية ولا تشبيه فإنه يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فنفى أن يماثل مع عقل المعنى وجهل النسبة، فإذا انتظمت الحروف سميت كلمة، وإذا انتظمت الكلمات سميت آية، وإذا انتظمت الآيات سميت سورة، فلما وصف نفسه بأن له نفساً كما يليق بجلاله ووصف نفسه بالصوت والقول وقال: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] كان النفس المسمى صوتاً وكان انقطاعه من الصوت حيث انقطع يسمى حرفاً، وكل ذلك معقول مما وقع الإخبار الإلهيّ به لنا مع نفي المماثلة والتشبيه كسائر الصفات ولما وصف نفسه بالصورة عرفنا معنى قوله أنه: الظاهر والباطن ؛فالباطن للظاهرغيب، والظاهر للباطن شهادة، ووصف نفسه بأن له نفساً فهو خروجه من الغيب، وظهور الحروف شهادة، والحروف ظروف للمعاني التي هي أرواحها والتي وضعت للدلالة عليها بحكم التواطؤ وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] وأبلغ من هذا الإفصاح من الله لعباده ما يكون، فلا بد أن

يفهم من هذه العبارات ما تدل عليه في ذلك اللسان بما وقع الإخبار به عن الكون، فيعرف المعنى الذي يدل عليه ذلك الكلام وتعرف النسبة وما وقع الإخبار به عن الله يعرف المعنى الذي يدل عليه ذلك الكلام، وتجهل النسبة لما أعطى الدليل العقلي والدليل الشرعي من نفي المماثلة.

فإذا تحققت ما قرّرناه تبينت أن كلام الله هو هذا المتلو المسموع المتلفظ به المسمى قرآناً وتوراة وزبوراً وإنجيلاً، فحروفه تعين مراتب كلمه من حيث مفرداتها، ثم للكلمة من حيث جمعيتها معنى ليس لآحاد حروف الكلمة، فللكلمة أثر في نفس السامع، لهذا سميت في اللسان العربي مشتقة من الكلم وهو الجرح وهو أثر في جسم المكلوم، كذلك للكلمة أثر في نفس السامع أعطاه ذلك الأثر استعداد السمع لقبول الكلام بوساطة الفهم لا بد من ذلك، فإذا انتظمت كلمتان فصاعداً سمي المجموع آية أي علامة على أمر لم يعط ذلك الأمر كل كلمة على انفرادها مثل الحروف مع الكلمة، إذ قد تقرّر أن للمجموع حكماً لا يكون لمفردات ذلك المجموع، فإذا انتظمت الآيات بالغاً ما أراد المتكلم أن يبلغ بها سمي المجموع سورة معناها منزلة ظهرت عن مجموع هذه الآيات لم تكن الآيات تعطي تلك المنزلة على انفراد كل آية منها، وليس القرآن سوى ما ذكرناه من سور وآيات وكلمات وحروف، فهذا قد أعطيتك أمراً كلياً في القرآن والمنازل تختلف فتختلف الآيات فتختلف الكلمات فيختلف نظم الحروف، والقرآن كبير كثير لو ذهبنا نبين على التفصيل ما أومأنا إليه لم يف العمر به، فوكلناك إلى نفسك لاستخراج ما فيه من الكنوز، وهذا إذا جعلناه كلاماً، فإن أنزلناه كتاباً فهو نظم حروف رقمية لانتظام كلمات لانتظام آيات لانتظام سور كل ذلك عن يمين كاتبة كما كان القول عن نفس رحماني فصار الأمر على مقدار واحد وإن اختلفت الأحوال، لأن حال التلفظ ليس حال الكتابة، وصفة اليد ليست صفة النفس، فكونه كتاباً كصورة الظاهر والشهادة، وكونه كلاماً كصورة الباطن والغيب، فأنت بين كثيف ولطيف، والحروف على كل وجه كثيف بالنسبة إلى ما يحمله من الدلالة على المعنى الموضوع له، والمعنى قد يكون لطيفاً وقد يكون كثيفاً، لكن الدلالة لطيفة على كل وجه وهي التي يحملها الحرف وهي روحه والروح ألطف من الصورة.

ثم إن الله قد جعل للقرآن سورة من سوره قلباً وجعل هذه السورة تعدل القرآن عشرة أوزان وجعل لآيات القرآن آية أعطاها السيادة على آي القرآن، وجعل من سور هذا القرآن سورة تزن ثلثه ونصفه وربعه وذلك لما أعطته منزلة تلك السورة والكل كلامه، فمن حيث هو كلامه لا تفاضل، ومن حيث ما هو متكلم به وقع التفاضل لاختلاف النظم، فاضرع إلى الله تعالى ليفهمك ما أومأنا إليه فإنه المنعم المحسان.

وصل: كون القرآن نوراً بما فيه من الآيات التي تطرد الشبه المضلة مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] وقوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقوله: ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:

٢٥٨] وقوله: ﴿إِذًا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٤٢] وقوله: ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢] وقوله: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] وكل ما جاء في معرض الدلالة فهو من كونه نوراً لأن النور هو المنفر الظلم وبه سمي نوراً إذ كان النور النفور.

وصل: وأما كونه ضياء فلما فيه من الآيات الكاشفة للأمور والحقائق مثل قوله: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩] و﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] وقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠] وقوله: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: ٣١] وقوله: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥] وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠] وقوله: ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: ٧٨] وقوله: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨] وما أشبه ذلك مما يدل على مجرى الحقائق، ومثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وصل: وأما كونه شفاء فكفاتحة الكتاب وآيات الأدعية كلها.

وصل: وأما كونه رحمة فلما فيه مما أوجبه على نفسه من الوعد لعباده بالخير والبشرى مثل قوله: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٥٣] وقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢] وقوله: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وكل آية رجاء.

وصل: وأما كونه هدى فكل آية محكمة وكل نص ورد في القرآن مما لا يدخله الاحتمال ولا يفهم منه إلا الظاهر بأوّل وهلة مثل قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقوله: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩] وقوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠] وأمثال هذه الآيات مما لا تحصى كثرة.

وصل: وأما كونه ذكراً فلما فيه من آيات الاعتبارات وقصص الأمم في إهلاكهم بكفرهم كقصة قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وأصحاب الرس.

وصل: وأما كونه عربياً فلما فيه من حسن النظم وبيان المحكم من المشابه وتكرار القصص بتغيير ألفاظ من زيادة ونقصان مع توفية المعنى المطلوب في التعريف والإعلام مع إيجاز اللفظ مثل قوله: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [المنافقون: ٤] وقوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾ [الزخرف: ٥٨] وقوله: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] وقوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] كل ذلك في آية واحدة تحتوي على بشارتين وأمرين بعلم نافع وتبيين ببشرى من الله.

وصل: وأما كونه مبيناً فبما أبان فيه من صفات أهل السعادة وأهل الشقاء ونعوت أهل الفلاح من غيرهم كقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى آخر الآيات، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١] وآيات الأحكام وكل آية أبان بها عن أمر ليعرف فلهذا سماه بهذه الأسماء كلها وجعله قرآناً أي ظاهراً جامعاً لهذه المعاني كلها التي لا توجد إلا فيه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. كمل السفر الحادي والعشرون بكمال هذا الباب.

[السفر الثاني والعشرون]

الباب السادس والعشرون وثلاثمائة

في معرفة منزل التحاور والمنازعة وهو من الحضرة المحمدية الموسوية

[الخفيف]

يَنْزِلُ اللّهُ أينما كُنّا ... دون أسماء ذَاتِه الحُسْنَى
وَهْوَ نُورٌ والنورُ مظهرُه ... ولهذا أزاله عنّا
فذواتُ الكيان مظلمةٌ ... وَهْيَ أدْنَى الدُّنُوّ لا أدْنَى
ثم حُزْنَاهُ صورةً شرفاً ... جملة الأمر نِعْمَ ما حُزْنَا
سَمِعَ الله صوْتَ سائله ... بالذي قد أراده منّا
فلهذا نَكُونُهُ أبداً ... ولهذا عنا فما زُلْنَا
فإذا شاء أن يولّدنا ... في هُيُولَى وجوده أمْنَا
بَلْبَلَ البالُ في ذُرَى فَنَنٍ ... يُطْرِبُ الشَّرْبَ كلما غَنَّى
فظهرْنا به لنا فأبَى ... فاسْتَحلْنا عنّا وما حُلْنَا

اعلم أيدك الله أن هذا المنزل خاصة دون غيره من المنازل ما فيه علم يظهر منه في الكون أو يدل عليه في العين أو في الاسم أو في الحكم إلا ولحكم الله من حيث هذا الاسم الذي هو الجامع لمراتب الألوهية فيه أي في ذلك العلم نظر من وجه ووجهين وثلاثة وأربعة وأكثر ولا تجد ذلك في غيره من المنازل، فسألت كم علم فيه؟ فرفع لي المنزل بكماله فرأيت فيه ثلاثة وعشرين علماً منصوباً، ونظرت إلى الألوهية في تلك الأعلام كلها فوجدت نظرها إليها من أربعين وجهاً، وقيل لي: ما جمعها إلا رسول الله ﷺ، ومن هذا المنزل كانت سيادته على جميع العالم، فمن ورثه فيه من أمّته حصل له من السيادة بقدره في هذه الجمعية، ومن هذا المنزل تعطى الحكمة لمن أخلص لله أربعين صباحاً، فهو يشهد الله في جميع أحواله كما كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه، ويتضمن هذا المنزل من المسائل معرفة ازدواج المقدمات للإنتاج وعلم منازعة المرسل إليه للرسول ﷺ مع إيمانه به وبما جاء به من عند الله، فيرجع خصماً في هذا المنزل، ويتولى الله الحكم بين الرسول والمرسل إليه مع علمه بأن الرسول لا ينطق عن الهوى، وأنه يبلغ عن الله ما أرسله به، ومع هذا كله يدعى عليه في نفس ما جاء به، فيرتفع إلى الله ليحكم بينهما وهو من أصعب العلوم في التصوّر لوجود الإيمان والتصديق به من الخصم.

وفيه علم من ترك خلفه ما شرع له أن يكون أمامه، وفيه علم الانتساب أعني انتساب

الفروع إلى أصولها ومن ألحق فرعاً بغير أصله ما حكم الله فيه من طريق الكشف، وفيه علم ظهور الباطل بصورة الحق والباطل عدم لا وجود له والصورة موجودة فهي حق فأين عين الباطل الذي ظهر والصورة إنما هي للحق، وما الستر الذي بين العقل والحق حتى يستره الباطل بصورة الحق، وعلم الفرق بين الخاطر الأوّل والخاطر الثاني وأنه غير مؤاخذ بالخاطر الأوّل مؤاخذ بالخاطر الثاني والثاني عين صورة الأوّل فلماذا لم يصدق في الثاني في بعض الأمور كما يصدق في الأوّل؟ فهل ذلك لمرتبة الثاني؟ فإن الثاني مما زاد في مراتب العدد أصله عدم والأوّل وجود وبالأوّل ظهر من الأعداد ما ظهر مما هو ظهر لها، وفيه علم إلحاق من استرقه الحجاب من الأمثال بالحريّة لمن قلب الحقائق في نظره فألحق الأمور بغير مراتبها والفروع بغير أصولها، وفيه علم السبب الإلهيّ الذي لأجله كان هذا، وفيه إضافة علم الأذواق إلى الله تعالى وهو شعور بالعلم بها من غير ذوق فأي نسبة إلهية أعطت مثل هذا الحكم في العلم الإلهيّ مثل قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] وهو يعلم فهذا هو علم الذوق، وفيه علم مقدار إقامة الصفة التي لا تقبل المثل بالعبد لإزالة رفع هذا الواقع من هذا الشخص الذي أنزل الخلف منزلة الأمام في غير موضعه فخلط بين الحقائق وتخيل هذا أن قول النبي ﷺ: «**إنِّي أَرَاكُمْ مِنْ خَلْفِ ظَهْرِي**» أنه برؤيته صار أماماً فإنما جعل له حكم النظر كما هو للأمام، والأمام أمام والخلف خلف، فإن عجز عن اللبث تحت قدر حكم هذه الصفة العديمة المثل فلم يكشف غلطه ولا رأى الحق لعجزه عن القيام بهذه المدة التي تفنى فيها نفسه حصل في علم آخر في هذا المنزل مجاور لهذا يطلبه بحياة أنفس معدودين موفين له بالصفة التي كان يفني نفسه فيها، فظهر شرف نفسه على غيره حيث قام جماعة من أمثاله مقام نفسه مع الاشتراك في الصورة والمقام والحال، وقد بين الله الفرقان بينهما وجعل حق النفس على نفسها أعظم من حقوق أمثالها عليه بلغت ما بلغت، فأدخل قاتل أنفس الغير في المشيئة من غير قطع بالمؤاخذة، فهو بين العفو والمؤاخذة مع تعلق حقوقهم به، وجعل قاتل نفسه في النار بأن حرّم عليه الجنة لعظم حق نفسه على نفسه، وقد ورد: «**إنَّ حَقَّ الله أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى مِنْ حَقِّ الغَيْرِ**» فجعل كذلك حق النفس. وفيه علم السبب الذي لأجله رتب هذه الحقوق هكذا وجعل لها هذه الحدود الإلهية، وفيه علم صفة عذاب من يستر الحق عن أهله إذا توجه عليه كشفه لهم بالإيجاب الإلهي وفيه علم من عدل عن الحق بعد إقامة البينة عليه المقطوع بها ما الذي عدل به عن الحق وما حكمه في هذا العدول عند الله، وفيه علم عذاب أهل الحجب هل عذابهم بحجابهم أو بأمر آخر، وفيه علم الجمع للتعريف بالأعمال المنسية عندهم وغير المنسية ومن يتولى ذلك من الأسماء الإلهية، وفيه علم تعلق علم الله الذي لا تدركه الأكوان بما في العالم بطريق المشاهدة والمجالسة ثم تأخير التعريف بما كان من الأكوان من الأعمال إلى زمان مخصوص معين عند الله، وفيه علم النجوى الأخراوية والدنياوية، وفيه علم آداب المناجاة بين المتناجين وبماذا يبدأ من يناجي ربه أو أحداً من أهل الله، وفيه علم اتساع مجالس الذاكرين الله لكون الله جليسهم من الاسم الواسع، وفيه علم مراتب الإيمان من العلم

وأي الدرجات أرفع، وفيه علم المفلسين وما الذي أفلسهم مع ما عندهم من الموجود، وفيه علم رجوع الله على العبد متى رجع هل يختلف أو لا يختلف؟ ولماذا يرجع ذلك الاختلاف إن كان مختلفاً هل للراجع أو لحال المرجوع إليه؟ وفيه علم ما ينتجه التولي عن الذكر من الغضب الإلهيّ، وفيه علم ما يغني وما لا يغني وفيه تفرق الأحزاب من أيّ حقيقة تفرقوا من الحقائق الإلهية، وفيه علم الوجوب الإلهيّ بماذا تعلق، وفيه علم من ترك أحبّاءه لماذا تركهم وما حليتهم وصفتهم؟ وفيه علم البقاء والفوز والنجاة، وكل علم من هذه العلوم الإلهية من الاسم الله لا من غيره من الأسماء، ولا تجد ذلك إلا في هذا المنزل خاصة فإنه منزل مخصوص بحكم الله دون سائر الأسماء مع مشاركة بعض الأسماء فيه، فهذا بعض ما يحوي عليه هذا المنزل من العلوم عيّناها لك لترتفع الهمة منك إلى نيلها فتح مكاشفة من الله.

ثم نرجع إلى الكلام على بعض ما يحوي عليه هذا المنزل فنقول: إن الله قال في كتابه إنه وضع الميزان ليظهر به إقامة العدل في العالم بصورة ظاهرة محسوسة ليرتفع النزاع بين المتنازعين لوجود الكفتين المماثلة للخصمين ولسان الميزان هو الحاكم، فإلى أية جهة مال حكم لتلك الجهة بالحق، وإن هو بقي في قبته من غير ميل إلى جهة إحدى الكفتين علم أن المتنازعين لكل واحد منهما حق فيما ينازع فيه فيقع له الإنصاف لما شهد له به حاكم لسان الميزان فارتفع الخصام والمنازعة والحاكم لا يكون خصماً أبداً، فإن نوزع فما ينازعه إلا من عزله من الحكم أو من جهل أنه حاكم، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**عِنْدَ نَبِيٍّ لا يَنبَغِي تَنَازُعٌ**» أي لا يكون نزاع مع حضوره أو تمكن الوصول إلى حضوره، فإذا فقد ظهر النزاع وادعى كل واحد من الخصماء أن الحق بيده، فلو أن الله يفتح عين بصائر الخصماء لمشاهدة الحق ويعلمون أنه بالمرصاد وهو الحاكم وبيده الميزان يرفع ويخفض لم يصح نزاع في العالم، فدل وقوعه أن الكل في حجاب عن الحاكم صاحب الوزن والميزان، فإذا رأيت من ينازع في العالم فتعلم أنه في حجاب عن الله، فإن نازع أحدهما ولم ينازع الآخر بل سكت عنه فتعلم أن الساكت عنه إما صاحب شهود أو صاحب خلق، فإن كان النزاع في تعدي حد إلهيّ فالمنازع في ذلك صاحب أدب إلهيّ أو متصوّر بصورة صاحب أدب إلهيّ وهو المرائي لكنه خير بالجملة، فصاحب الأدب الإلهيّ ما هو منازع وإنما هو ترجمان منازع، والمترجم عنهم هم الأسماء الإلهية التي منها نشأ النزاع في العالم، ومن أجلها وضع الميزان الشرعي في الدنيا والميزان الأصلي في الآخرة، فإن المعز والمذل خصم، والضارّ والنافع خصم، والمحيي والمميت خصم، والمعطي والمانع خصم، وكل اسم له مقابل من الأسماء في الحكم والميزان الموضوع بين هذه الأسماء الاسم الحكم والميزان العدل في القضاء، فينظر الحكم استعداد المحل فيحكم له بحسب استعداده فيجعله في حزب أحد الاسمين المتقابلين المتنازعين، فإذا علمت وضع الموازين على اختلاف صورها في المعنى والحس كنت أنت عين الحاكم بها وصحت لك النيابة عن الله في كون الميزان بيدك تخفض وترفع، غير أن الفارق بينك وبين الله في الوزن أن الله يرفع بالمشيئة ويخفض بالمشيئة، وأنت لا أثر لمشيئتك

في الوزن وإنما تزن لمن ترى الحق بيده، فأنت صاحب علامة تعرف صاحب الحق فتزن له والحق صاحب مشيئة. وهنا سرّ يخفى عن بعض العارفين وهو أن المشيئة تعين بالميزان إذا رفعت أو خفضت أن استعداد المحل أعطى ذلك، كما أن وجود الحق في نفس الأمر أعطى لصاحب العلامة أن يزن له لعلمه بأن الحق له، كما علم الحق تعالى أن استعداد هذا المحل أعطاه الوزن له ولا أثر للمشيئة في الاستعداد بما هو استعداد، وإنما أثرها في تعيين هذا المحل الخاص لهذا الاستعداد الخاص، إذ يجوز أن يكون لغيره لا يجوز أن تزول حقيقة الاستعداد ولا أن تنقلب مثل ما نقول في علم الطبيعة أن الحرارة لا تنقلب برودة لكن الحار ينقلب بارداً من جهة كونه محلاً وعيناً لا من جهة كونه حاراً ولا بارداً، فالاستعداد الذي هو كذا لا ينقلب للاستعداد الذي هو كذا، وإنما المحل القابل لهذا الاستعداد المعين قابل لغيره من الاستعدادت، فالمشيئة خصصته بهذا الاستعداد دون غيره ما خصصت الاستعداد، فإني رأيت جماعة من أصحابنا غلطوا في هذه المسألة ورأوا أن المشيئة لا أثر لها في هذا المحل لما يعطيه استعداد ذلك المحل، إذ لا أثر لها في الاستعداد؛ والأمر على ما بيناه إن عقلت.

فمن مسائل هذا الباب: أن ميزان الطبيعة نازع الميزان الإلهي الروحانيّ لما علمت أن ميزانها ما هو بجعل جاعل وذهلت أن ظهور ميزانها في شيء معين إنما هو بجعل جاعل وهو الميزان الإلهيّ فلما نازعت الطبيعة بميزانها الميزان الإلهيّ الروحاني ونازعها الميزان الروحاني الإلهي وهو الأقوى وله الحكم، وما وقع الخصام إلا من الطبيعة لأنها ما رضيت بذلك الميزان ولا بالوزن، فارتفعت إلى الله تطلب منه أن يحكم بينها وبين الميزان الروحاني، ويحكم بينها وبين الروح المتوجه عليها بالنكاح الروحاني النوري لظهور الأجسام الطبيعية والأرواح الجزئية الإنسانية وغير الإنسانية، إذ كان كل جسم في العالم مقيداً بصورة روح إلهي يلازم تلك الصورة به تكون مسبحة لله، فمن الأرواح ما تكون مدبرة لتلك الصورة لكون الصورة تقبل تدبير الأرواح وهي كل صورة تتصف بالحياة الظاهرة والموت، فإن لم تتصف بالحياة الظاهرة والموت فروحها روح تسبيح لا روح تدبير، فإذا ظهرت صورة طبيعية تقبل التدبير ظهرت لها نفس جزئية مدبرة لها كانت الصورة بمنزلة الأنثى والروح المدبر لها بمنزلة الذكر، فكانت الصورة له أهلاً وكان الروح لتلك الصورة بعلاً، وهذا الأرواح الجزئية متفاضلة بالعلم بالأشياء، فمنهم من له علم بأشياء كثيرة، ومنهم من لا يعلم إلا القليل، ولا أعلم بالله من أرواح الصور التي لا حظ لها في التدبير لكون الصورة لا تقبل ذلك وهي أرواح الجماد ودونهم في رتبة العلم بالله أرواح النبات ودونهم في العلم بالله أرواح الحيوان، وكل واحد من هؤلاء الأصناف مفطور على العلم بالله والمعرفة به، ولهذا ما لهم هم إلا التسبيح بحمده تعالى ودون هؤلاء في العلم بالله أرواح الإنس. وأمّا الملائكة فهم والجمادات مفطورون على العلم بالله لا عقول لهم ولا شهوة، والحيوان مفطور على العلم بالله وعلى الشهوة، والإنس والجن مفطورون على الشهوة والمعارف من حيث صورهم لا من حيث أرواحهم، وجعل الله لهم العقل ليردوا به الشهوة إلى الميزان الشرعي ويدفع عنهم به منازعة الشهوة في غير المحل

المشروع لها لم يوجد الله لهم العقل لاقتناء العلوم، والذي أعطاهم الله لاقتناء العلوم إنما هي القوّة المفكرة، فلذلك لم تفطر أرواحهم على المعارف كما فطرت أرواح الملائكة وما عدا الثقلين.

ولما تفاضلت مراتب الإنس في العلم بالأشياء أراد بعض الأرواح أن يلحق حكم الصورة التي هو مدبر لها بحكم الطبيعة التي وجدت عنها تلك الصورة وتنزلها منزلتها في الحكم وهي لا تنزل منزلتها أبداً فقال له المعلم: هذا الذي رمته محال فإن الصورة لا تفعل فعل الطبيعة فإنها منفعلة عنها، وأين رتبة الفاعل من المنفعل؟ ألا ترى النفس الكلية التي هي أهل للعقل الأوّل؟ ولما زوج الله بينهما لظهور العالم كان أوّل مولود ظهر عن النفس الكلية الطبيعية، فلم تقو الطبيعة أن تفعل فعل النفس الكلية في الأشياء لأن الجزء ما له حكم الكل والكل له حكم الجزء لأنه بما يحمله من الأجزاء كان كلاً، فلما عجز هذا الروح الجاهل عن إلحاق الصورة بالطبيعة التي هي أم له قال: لعل ذلك لعجزي وقصوري عن إدراك العلم في ذلك، فيعود في طلب ذلك من الله إلى الله، فطلب من الله أن ينفعل عن الصورة ما ينفعل عن الطبيعة، فوجد القوابل التي تؤثر فيها الصورة غير قابلة لما تقبله الصور التي لها قبول أثر الطبيعة، والحق سبحانه لا يعطي الأشياء كما تقدم إلا بحسب استعداد المعطي إياه إذ لا يقبل ما لا يعطيه استعداده، فلما تبين لهذا الروح خطؤه من صوابه وعلم أنه نفخ في غير ضرم طلب الوقوف مع صورته بحسب ما يعطيه استعدادها فقبل الوصول إلى إبراز ما يلقى منه إلى الصور لإظهار عين ما من أعيان الممكنات المعنوية والحسية أو الخيالية ظهر له في فتوح المكاشفة بالحق لا في فتوح الحلاوة ولا في فتوح العبارة ثلاث مراتب: مرتبة الحرية وقد تقدم بابها وهي التي تخرجه عن رق الأكوان لأنه كان قد استرقه هذا الطلب الذي كان عن جهله بالأمور وكان الله أعلم بذلك أنه لا يقع ولا علم له بما في علم الله ولا بما هو الأمر عليه، فإن اتصف بهذا المقام وظهر بهذه الحال مكنه الله من مراده ووهبه قوّة الإيجاد، وإن عجز عن الاتصاف بهذا المقام فهو بحالة أعجز، فإن الحال موهبة إلهية والمقام مكتسب، فعدل عند ذلك إلى المرتبة الثانية وهي على الترتيب في الحكم والشهود فقام له الحق في التجلي الصمداني فإن قدر على النظر إليه فيه وثبت لتجليه ولم يك جبلياً فيصير دكاً ولا موسوياً فيصعق كان له ما طلب من الله من الانفعال عن صورته ما يعطيه استعدادها إذا أمكنه الله من الحكم فيها، فإن كان موسوياً أو جبلياً لم يثبت لذلك التجلي المفني من يطلب باستعداده الفناء، والمهلك من يطلب باستعداده الهلاك، قامت له مرتبة إمساك الحياة على العالم القابل للموت فوجده في رتب على عدد درجات التجلي الصمداني فإنه موت أو إمساك حياة، فإن اعتنى الله به وأعطاه القوّة على ذلك تصرف في صورته كيف شاء، وإن لم يعط القوّة على ذلك وعجز، فإن كان عجزه عن شهود إلهي أعطاه التصرف في صورته، وإن كان عجزه من خلف حجاب نفسه منع من التصرف إذ ليست له قوّة إلهية يتصرف بها.

فهذا قد ذكرنا من ذوق رجال هذا المنزل في هذا المنزل ما بيناه ويطول الشرح لما

يحمله كل منزل، وهذا منزل ليس في المنازل له شبيه ولا مقاوم وهو من أقوى المنازل منه يقع الإخلاص للنطق بالحكمة بعد الأربعين لمن أخلص من عباد الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والعشرون وثلاثمائة

في معرفة منزل المُدِّ والنصيف من الحضرة المحمدية

[الكامل]:

الابْـتِـدَاعُ شـريـعـةٌ مَـرْعِـيَّـةٌ ... أثْـنَـى عـلـيـهـا الـلّـهُ فـي تَـنْـزِيـلِـهِ
هـذا بـغـيـر حـقـيـقـةٍ قَـدْ سَـنَّـهـا ... فـمُـشَـرِّعُ الـمَـسْـنُـون مِـنْ تَـأْويـلِـهِ
أَوْلَـى بـأن تُـرْعَـى ويُـعْـرَفَ قَـدْرُهـا ... هـذا هـو الـمـعـروفُ مِـنْ تَـفْـصِـيـلِـهِ

اعلم أيدك الله أن من علوم هذا المنزل علم المفاضلة، والمفاضلة تكون على ضروب: مفاضلة بالعلم، ومفاضلة بالعمل، والمفاضلة بالعلم قد تقع بفضل المعلومات، وقد تكون بطريق الوصول إلى المعلوم، فواحد يأخذ علمه عن الله، وآخر يأخذ علمه عن كون من الأكوان، والذي يأخذ علمه عن الله يتفاضل، فمنهم من يأخذ عن سبب كالمتقي بتقواه، ومنهم من يأخذ عن الله لا عند سبب، ومن الأسباب الدعاء في الزيادة من العلم والمفاضلة في المعلوم، فعلم يتعلق بالأفعال، وآخر بالأسماء، وآخر بالذات، فبين العلماء من الفصل ما بين متعلقات هذه العلوم والكل علم إلهي، وكذلك المفاضلة بالأعمال قد تكون بأعيانها وبالأزمان وبالمكان وبالحال فتقدر في كل شيء بحسب ما تعطيه حقيقة ما وقع فيه التفاضل، فثم من يكون التقدير فيه بالمكيال والميزان إذا كان إنفاقاً أو وقع التشبيه فيه بالإنفاق كالعقل لما قسمه الله بين الناس بمكيال فجعل لواحد قفيزاً ولآخر قفيزين وقد يكون التقدير فيه بالمراتب والدرجات، والذي يحصر لك باب المفاضلة إنما هو العدد وبماذا يقع ما هو فيقال: بحسب ما يريده الواضع أو المخبر به ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] والنفقة بعد الهجرة لا يبلغ أجرها النفقة قبل الهجرة في أهل مكة، ولا في كل موضع يكون العبد مخاطباً فيه بالهجرة منه إلى غيره فيعمل فيه خيراً وهو فيه مستوطن، ثم يعمل خيراً بعد هجرته، فهذا الخير يتفاضل بقدر المشقة.

واعلم أن هذا المنزل يتضمن علوماً شتى أومأنا إلى تسميتها في آخره لتعرف فتطلب، وهذا المنزل من منازل التنزيه الذي ذكرناه في أوّل هذا الكتاب عند ذكرنا منزل المنازل وهو تنزيه نصف العالم، ونصف محل وجود أعيان العالم من مقام العزة الحاكمة على الكل بالقهر والعجز عن بلوغ الغاية فيما قصدوه من الثناء على الله مثل قول رسول الله ﷺ: «**لا أُحصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ**» ما قال ذلك حتى عجز عن بلوغ الغاية التي في نفسه طلبها، فلم تف الجوارح بذلك ولا ما عندنا من الأسماء الإلهية، فإنه ما يثنى عليه عز وجل إلا بأسمائه الحسنى ولا يعلم منها إلا ما أظهر، ولا يثنى عليه إلا بالكلام بتلك الأسماء وهو الذكر، ولا يكون إلا منه

لا بالوضع منا، فإنه لا يجوز عندنا أن يسمى إلا بما سمى به نفسه، فلا يثنى عليه إلا بما أثنى على نفسه إلا القاضي أبو بكر بن الطيب فإنه ذهب إلى جواز تسميته بكل اسم لا يوهم صفة الحدوث، فالعالم كله تحت قهره وفي قبضته، يحيي بشهوده وتجليه إذا شاء أو لمن شاء، ويميته باحتجابه وستره إذا شاء أو في حق من شاء، ولكن ما لم يتجل لشخص تجلياً يعلم أنه هو غير مقيد، فإذا تجلى في مثل هذا فلا حجاب بعد هذا التجلي فله الحياة الذاتية بشهوده، فلا يموت أبداً موت الحجاب والستر، فإن لم يتجل له وهو متجل أبداً ولكن لا يعرف فالمحجوب بجهله به ميت، فإن حياة العلم يقابلها موت الجهل وبالنور يقع حصوله كما بالظلمة يكون الجهل في حكمه، قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فقد وصفه بالموت ثم بالحياة لمن أحياه، ثم قال: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا﴾ [الأنعام: ١٢٢] به يشهده فليس مثله كمن مثله في الظلمات وإن كان حياً وهو الحي يعلم الغيب في الغيب الذي يحكم عليه به الاسم الباطن، فإن لم يكن حياً يعلم فتلك الظلمة المحضة والعدم الخالص، ولله سبحانه الاقتدار على كل ما ذكرناه.

أخبرني الوارد والشاهد يشهد له بصدقه مني بعد أن جعلني في ذلك على بينة من ربي بشهودي إياه لما ألقاه من الوجود في قلبي أن اختصاص البسملة في أوّل كل سورة تتويج الرحمة الإلهية في منشور تلك السورة أنها تنال كل مذكور فيها فإنها علامة الله على كل سورة أنها منه كعلامة السلطان على مناشيره فقلت للوارد: فسورة التوبة عندكم، فقال: هي والأنفال سورة واحدة قسمها الحق على فصلين، فإن فصلها وحكم بالفصل فقد سماها سورة التوبة أي سورة الرجعة الإلهية بالرحمة على من غضب عليه من العباد فما هو غضب أبد لكنه غضب أمد والله هو التوّاب، فما قرن بالتواب إلا الرحيم ليؤول المغضوب عليه إلى الرحمة أو الحكيم لضرب المدة في الغضب وحكمها فيه إلى أجل فيرجع عليه بعد انقضاء المدة بالرحمة؛ فانظر إلى الاسم الذي نعت به التواب تجد حكمه كما ذكرناه، والقرآن جامع لذكر من رضي عنه وغضب عليه وتتويج منازله بالرحمن الرحيم والحكم للتتويج، فإن به يقع القبول وبه يعلم أنه من عند الله، هذا إخبار الوارد لنا، ونحن نشهد ونسمع ونعقل لله الحمد والمنة على ذلك، ووالله ما قلت ولا حكمت إلا عن نفث في روع من روح إلهيّ قدسيّ علمه الباطن حين احتجب عن الظاهر للفرق بين الولاية والرسالة والولاية لها الأوّلية، ثم تنصحب وتثبت ولا تزول، ومن درجاتها النبوة والرسالة فينالها بعض الناس ويصلون إليها وبعض الناس لا يصل إليها، وأمّا اليوم فلا يصل إلى درجة النبوّة نبوّة التشريع أحد لأن بابها مغلق والولاية لا ترتفع دنيا ولا آخرة، فللولاية حكم الأوّل والآخر والظاهر والباطن بنبوّة عامة وخاصة وبغير نبوّة، ومن أسمائه الوليّ، وليس من أسمائه نبيّ ولا رسول، فلهذا انقطعت النبوّة والرسالة لأنه لا مستند لها في الأسماء الإلهية ولم تنقطع الولاية فإن الاسم الولي يحفظها.

ثم إن الله تعالى قدر الأشياء علماً ثم أوجدها حكماً وجعلها طرفين وواسطة جامعة

للطرفين لها وجه إلى كل طرف في تلك الواسطة البرزخية إنشاء الإنسان الكامل، فجمع بين التقدير وهو العام وبين الإيجاد وهو خاص مثل قوله: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِيٓ﴾ [المائدة: ١١٠] فهو أحسن الخالقين تقديراً وإيجاداً، وهذه مسألة غير مجمع عليها من أهل النظر فإنه من لا يرى الفعل إلا الله، ثم يفرق بين الحق والخلق بأن يجعل للخلق وجوداً في عينه وللحق وجوداً في عينه لم يقل ﴿أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] إلا تقديراً لا إيجاداً ومن أهل الله من يرى ذلك ولكن لا يرى أن في الوجود إلا الله وأحكام أعيان الممكنات في عين وجوده، وهذا هو النظر التام الذي لا ينال بالفكر ولكن ينال بالشهود وهو قول النبيّ ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» فمن عرف نفسه أنه لم تزل عينه في إمكانها عرف ربه بأنه الموجود في الوجود، ومن عرف أن التغييرات الظاهرة في الوجود هي أحكام استعدادات الممكنات عرف ربّه بأنه عين مظهرها، والناس بل العلماء على مراتب في ذلك، فلما أوجد العالم طرفين وواسطة جعل الطرف الواحد كالنقطة من الدائرة، وجعل الطرف الآخر كالمحيط للدائرة، وإنشاء العالم بين هذين الطرفين في مراتب ودوائر، فسمى المحيط عرشاً وسمى النقطة أرضاً وما بينهما دوائر أركان وأفلاك جعلها محلاً لأشخاص أنواع أجناس ما خلق من العالم وتجلى سبحانه تجلياً عاماً إحاطياً وتجلى تجلياً خاصاً شخصياً، فالتجلي العام تجلٍّ رحماني وهو قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] والتجلي الخاص هو ما لكل شخص شخص من العلم بالله، وبهذا التجلي يكون الدخول والخروج والنزول والصعود والحركة والسكون والاجتماع والافتراق والتجاوز ومن يكون بحيث محله، وميز العالم بعضه عن بعض بالمكان والمكانة والصورة والعرض، فما ميزه إلا به فهو عين ما تميز وعين ما تميز به فهو مع كل موجود حيث كان بالصورة الظاهرة المنسوبة لذلك الموجود يعلم ذلك كله العلماء بالله من طريق الشهود والوجود، فمما ميز الغيب من الشهادة فجعل الشهادة عين تجليه وجعل الغيب عين الحجاب عليه فهو شهادة للحجاب لا للمحجوب، فمن كان حجابه عين صورته والحجاب يشهد ما وراءه فالصورة من الكون تشهده، والمحجوب بصورته عن وجود الحق محجوب، فهو من حيث صورته عارف بربه مسبح بحمده، ومن حيث ما هو غير صورة أو من خلف الصورة محجوب إما بالصورة أو بشهود نفسه، فإن رزقه الله شهود نفسه فقد عرفها فيعرف ربه بلا شك فيكون من أهل الصدور الذين أعماهم الله بشهوده عن شهودهم كما قال: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ﴾ وهي أعيان البصائر ﴿ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] أي في الرجوع بعد الورود فهو ثناء، فإنه لا يصدر إلا بما شاهد في الورود للقوّة الإلهية التي أعطاه الله إياها، فمن جمع بين العلمين وظهر بالصورتين فهو من أهل العلم بالغيب والشهادة وهو بكل شيء عليم.

وصل: ومن هذا المنزل حكم الاسم الإلهيّ الوارث وهو حكم عجيب لأنه ينفذ في السموات وفي الأرض، ونفوذه في ذلك دليل على خراب السموات والأرض وهو قوله: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ [إبراهيم: ٤٨] فكما كان في أول الخلق أن الأرض خلقت قبل السماء كما قدمناه في ترتيب وجود خلق العالم، كذلك لما وقع التبديل ابتدأ

بالأرض قبل السموات، فوقف الخلق على الجسر دون الظلمة وبدل الأرض غير الأرض لا في الصفة، فلو كان في الصفة ما ذكر العين، ولا يكون وارث إلا من مالك متقدم يكون ذلك الموروث في ملكه فيموت عنه فيأخذه الوارث بحكم الورث، وقد أخبر الله أن له ميراث السموات والأرض، فلا يرثها إلا الاسم الوارث لا يكون غير هذا، ولو لم يكن لها مالك إلا المتصرف فيها وهي الأسماء الإلهية التي لها التصرف، فإذا انقضت مدتها بالحكم فيها ما دامت على هذه الصورة والنظم الخاص وكانت المدبرة لها، فلما زال تدبيرها وانقضى حكمها الخاص لانقضاء أمد مدة القبول لذلك سمي هذا الزوال موتاً وصارت هذه الأعيان ورثاً فتولاها الاسم الوارث، فأزال حكم ما كانت عليه فبدل الأرض غير الأرض والسموات حتى لا تعرف الأرض ولا السماء موجداً لها إلا هذا الاسم، ولو بقي عين الأرض والسماء لتقسمت وذكرت من كانت ملكاً له من الأسماء قبل هذا فربما حنت إليه والأسماء الإلهية لها غيرة، لأن المسمى بها وصف نفسه بالغيرة فتعلق حكمها بالأسماء لتعلقها بالمسمى، والغيرة مأخوذة من شهود الأغيار، وكل اسم إلهيّ يريد الحكم له وانفراد المحكوم عليه إليه لا يلتفت إلى غيره، فبدل الأرض والسماء في العين، فلم تعرف هذه الأرض ولا السماء إلا هذا الاسم الوارث خاصة، فزالت الشركة في العبادة وظهر التوحيد، وحكم المال الموروث ما هو مثل حكم المالك الأصلي، فإن حكم الوارث حكم الواهب، وحكم المالك الأصلي الموروث عنه حكم الكاسب، فتختلف الأذواق فيختلف الحكم فيختلف التصريف، فالكاسب حاله ينزل بقدر ما يشاء لأنه في موطن تكليف وانتظار سؤال وحساب ومؤاخذة، فهو حفيظ لهذه المراتب التي لا بد منها، وحكم الوارث يعطى بغير حساب وينزل بلا مقدار، لأن الآخرة لا ينتهي أمدها، فتكون الأشياء فيها تجري إلى أجل مسمى، فينزل بقدر ما يشاء لأجل ذلك الأجل والدنيا لأمور فيها تجري إلى أجل مسمى وينقضي أمدها فينزل فيها مالكها بقدر معلوم مساوٍ لمدة الأجل، فلو أعطى بغير حساب لزاد على الأمد أو نقص فتبطل الحكمة، فحكم الوارث حكم الوهاب، وحكم المالك الموروث عنه حكم المقدر المقيت، ألا تسمع إلى قوله في خلق هذه الأرض الأولى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] فجعلها ذات مقدار فلن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، وإذا استكملت رزقها ذهب حكم الرازق منها من كونه رازقاً في هذه المدة الخاصة، وبقي الرزاق ينظر إلى حكم الوارث ما يقول له، فيقول الوارث له: ارزق بغير قدر ولا انتهاء مدة، ألا ترى أن الله قال للقلم: اكتب في اللوح علمي في خلقي إلى يوم القيامة؟ فضرب له الأمد لانقضاء مدة الدنيا وتناهيها، ولا يصح أن يكتب علمه في خلقه في الآخرة لأنه لا ينتهي أمدها، وما لا ينتهي لا يحويه الوجود والكتابة وجود فلا يصح أن يحصرها لانفصاله فإنه انتهاء ما لا ينتهي وهذا خلف، فيرجع حكم الأسماء التي كانت تحكم على الأشياء في الدنيا تحكم فيها في الآخرة بحسب ما يرسم لها الاسم الوارث، فمن حاز معرفة الأسماء الإلهية فقد حاز المعرفة بالله على أكمل الوجوه.

وهذا المنزل يتضمن علوماً جمة: منها علم تنزيه العالم العلوي بما هو محصور في أين

وتنزيه أين العالم السفلي ومحله لا تنزيهه، وعلم الترتيب والمنازل والمراتب التي لا يمكن أن يوصل إليها ذوقاً ولا حالاً، وعلم أصناف الحياة وضروب الموت المعنويّ والحسيّ ومن يقبل ذلك ممن لا يقبله، وعلم الأضداد هل يجمعها عين فتكون الأضداد عيناً واحدة أو هي الأحكام لعين واحدة تطلبها النسب، وعلم حكم الزمان في الإيجاد الإلهي هل حكمه في ذلك لذاته أعني لذات الزمان أو هو بتولية يمكن عزله عنها؟ ومن هنا يعلم الاسم الإلهي الدهر، وعلم الأموات التي توجب المهلة وعدم المهلة فيحكم على الحق في الأشياء بحسب الأداة فيقدم إن اقتضت الأداة التقديم ويؤخر إن اقتضت الأداة التأخير، وعلم الملك بطريق الإحاطة، وعلم النكاح الذي يكون عنه التوالد من النكاح الذي لمجرد الشهوة من غير توالد، وعلم مشاهدة الحق إيانا بماذا يشهدنا هل بذاته أو بصفة تقوم به؟ وعلم ما يظهر من الغيب للشهادة وما لا يظهر، وعلم رجوع الشهادة إلى الغيب بعدما كان شهادة بحيث أن لا يبقى في الخيال مثال منه فيمن من شأنه أن يتخيل، وعلم النور المنزل في ظلمة الطبيعة هل يبقى على صفائه أو يؤثر فيه ظلام الطبيعة فيكون كالسدفة، وعلم الإيمان بالمجموع هل يقبل الإيمان الزيادة والنقص أو لا يقبل؟ وعلم المفاضلة على اختلافها وكثرتها، وعلم الربا المحمود المشروط في المعاملة وما معنى قول النبيّ ﷺ: **«لَمْ يَكُنِ الله لِيَنْهَاكُمْ عَنِ الرِّبَا وَيَأْخُذهُ مِنْكُمْ»** فاعلم أنه لا يأخذه منا ويعطينا إياه ويجوز اشتراطه في معاملة الحق دون الخلق في زمان مخصوص، وعلم من ينسب إليه المشي من غير أن يكون موصوفاً بأن له المشي، وعلم نطق من ليس من شأنه في رتبة الحس أنه يتكلم، وعلم ردّ الأعمال على العاملين، وعلم البرزخ الذي بين الرحمة والغضب الإلهي فلا يكون لواحد حكم يستقل به في الموجود ما حكم ذلك البرزخ وهل له عين موجودة في نفس الأمر أو هو نسبة لها وجهان في الحكم؟ وعلم ما الذي قعد بالثقلين عن النهوض إلى ما فيه سعادتهم بعد إبانة الله طريق السعادة على ألسنة المخبرين عن الله، وعلم الموطن الذي يقوم البدل فيها في الحكم مقام المبدل منه من الموطن الذي لا يقبل ذلك مع كونه يقبل التبديل لذاته، وعلم المدد ولماذا يرجع عددها المحكوم عليها به هل لعين المدة فيقبل العدد كالأشخاص في النوع الواحد أو هل تختلف المدد لذواتها؟ وعلم ما يحصل من الأثر فيمن هو تحت حكم المدة من قصرها وطولها، وعلم اختلاف الأحكام على الأعيان هل تختلف لاختلاف استعداد الأعيان باختلاف الأوقات؟ أو هل تختلف باختلاف الأسماء الحاكمة؟ وعلم مراتب العبيد من الأحرار وما لكل واحد من الصنفين من الله، وعلم الفرق بين الصديقية والشهادة ومن أي مقام نال السرّ أبو بكر الذي فضل به غيره؟ وعلم مراتب النار ولماذا تنوعت الأسماء عليها وما لكل اسم من الأصناف الذين يدخلونها، وعلم الفرقان بين النشأتين والحياتين، وعلم السبب الذي ثَبَّطَ قوماً وأسرع آخرين والفرق بين السرعة والسبق، وعلم الموطن الذي يقوم به الواحد مقام الكثير، وعلم القضاء السابق على الحكم الواقع بالسورة، وعلم اتصاف الحق باليسر دون العسر وما هو الأصعب عنده من الأهون إذ كان هو الفاعل للأمرين؟ وعلم مقام إزالة العبد من حكم الصفتين المتقابلتين فلا وصف له

كأبي يزيد، وعلم ما يؤدّي شهوده إلى أن لا يحب الشيء نفسه الذي من شأنه أن يتصف بالحب، وعلم المنع الإلهيّ لما يرجع، وعلم المنافع والمضار المحسوسة والمعنوية، وعلم الرسالة والرسل، وعلم الاختراع والتدبير، وعلم من له من كل شيء زوجان، وعلم العناية الإلهية هل حكمها في الفرع مثل حكمها في الأصل أم لا؟ فهذا حصر ما يتضمنه هذا المنزل من العلوم وفي كل علم علوم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والعشرون وثلاثمائة

في معرفة منزل ذهاب المركبات عند السبك إلى البسائط وهو من الحضرة المحمدية

هذا المنزل يعصم الدخول فيه من الموت ما دمت فيه وهو منزل عجيب: [البسيط]

إنَّ الـمُـقَـرَّبَ ذو رَوْحٍ ورَيْـحـانِ ... في جنَّة الخُلْدِ من نُعْمَى وإحْسَانِ
مُـنـعَّـمٌ بـعـذاب الـنـار تُـبْـصِرُهُ ... يُـسَـبِّـحُ الـلَّـهَ مـن عـلـم وإيـمـانِ
بـنـشـأةٍ مـا لـهـا حَـدٌّ فـتـبـلـغـه ... مُـنَـزَّه الحكم عن نَقْص ورجْحَانِ

من هذا المنزل تكون الوقائع للفقراء وهي المبشرات والرؤيا الصادقة ما هي بأضغاث أحلام، وهي جزء من أجزاء النبوة، ومن هذا المنزل يحصل للمكاشف كشف الميزان الذي بيد الحق الذي يخفض به ويرفع .

اعلم أن التحليل إذا ورد على المركبات أذهب عين الصورة ولم يذهب عين الجوهر، وجعله الله مثالاً للعارفين بالله فيما يظهر من تركيب أعيان الممكنات بعين الحق، فيظهر في عين الحق ما يظهر من الصور، فإذا رفعت التناسب بين الحق والخلق ذهبت أعيان تلك الصور وبقيت أعيان الممكنات وعين الحق من حيث ما هو موصوف بالغنى عن العالمين، فلم تذهب الأعيان لذهاب الصور الظاهرة للحس.

واعلم أن الصور الظاهرة من الحق على ثلاث مراتب، فإن للحق في العالم ثلاثة أوجه: إذ وصف نفسه بأن له يدين قبض بهما على العالم، وأظهر النبي ﷺ ذلك في الكتابين اللذين خرج بهما على أصحابه في الواحد أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم وعشائرهم، وفي الآخر أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم وعشائرهم، ولم يخرج لأهل الله وخاصته كتاباً ثالثاً فإن كتابهم القرآن، قال رسول الله ﷺ: «**أَهْلُ القُرْآنِ هُمْ أَهْلُ الله وَخَاصَّتُهُ**» ومنزله ما بين اليدين فلهم القلب والصدر الذي هو محله وحضرته، وذلك هو مقام أهل القرية الذين هم خصوص في السعداء أورثهم ذلك المسابقة إلى الخيرات على طريق الاقتصاد من إعطاء كل ذي حق حقه، فانقسم العالم لانقسام الوجوه على ثلاثة أقسام، لكل يد قسم صنف خاص ولما بينهما صنف خاص، ولأصناف الأيدي مرتبة العظمة والهيبة، فأما اليد الواحدة فالصنف المنسوب إليها عظيم الشأن في نفسه عظمة ذاتية له، والصنف الآخر عظيم المرتبة ليست عظمته ذاتية فيعظم لرتبته لا لنفسه، كأصحاب المناصب في الدنيا إذ لم يكونوا أهل فضل في نفوسهم فيعظمون لمنصبهم، فإذا عزلوا زال عنهم ذلك التعظيم الذي

كان في قلوب الناس لهم، فهذا الفرق بين الطائفتين، فصنف من أهل الله يظهرون في العالم بالله، وصنف آخر يظهرون في العالم لله، والصنف الذي بين اليدين يظهر بالمجموع وزيادة، فأما الزيادة فظهورهم بالذات التي جمعت اليدين وهم أصحاب الهرولة الإلهية في أحوالهم التي سارعوا بها في موطن التكليف، وأصحاب اليدين أصحاب الذراع والباع الإلهيّ لما ظهروا في موطن التكليف عند تعين الخطاب بالشبر والذراع فوقعت المفاضلة ليقع التمييز في المرتبة فيقول صنف ما بين اليدين: [الرمل]

أنا مَنْ أهْوَى ومَنْ أهْوَى أنا

في مشاهدة دائمة لا تنقطع مراتبها وإن اختلفت أذواقها، فإن الله له عرش لا يتجلى في هذه الصورة الدائمة إلا لأصحاب هذا العرش، وهم أهل العرش وهم أهل الوجه، ينظر بعضهم إلى بعض في هذا التجلي، فيكسو بعضهم بعضاً من الأنوار التي هم عليها مع كونهم في حال التجلي والنظر، وما ثم موطن يجمع بين تجلي الحق ورؤية الخلق في غير حضرة الخيال والمثال إلا موطن أصحاب الوجه أعطاهم ذلك قوّة المحل الذي أحلهم فيه الحق وهو محل المقامة، وهو الذي ظهر لرسول الله ﷺ في بعض إسراءاته فعبر عنه في حال تدليه إليه برفرف الدر والياقوت فانتقل في إسرائه من بُرَاقٍ إلى رفرف، فمن حصل في هذا المقام دامت مشاهدته ولم تغيبه عن نفسه ولا عن ملكه ويرى الكثرة في الواحد والتفرقة في الجمع، وتقوم لهذا الصنف من الوجه صور حاملة لعلوم محمولة مما بينهم وبينها علاقة ومناسبة عملية ومما لا علاقة بينهم وبينها، بل هي زيادة من فضل الله لهم يرزقونها من عين المنة، لا ينالون هذه العلوم إلا من تلك الصور المنبعثة من الوجه، فلا يحجبهم الوجه عن رؤية الصور وما تحمله، ولا تحجبهم الصور وما تحمله ولا ذوق تلك العلوم عن الوجه، وهذه الرتبة أعلى رتبة للسعداء.

ثم يفيضون على أصحاب الأيدي مما حصل لهم من تلك العلوم التي نالوها من تلك الصور، فلا يأخذوها أصحاب الأيدي إلا بوساطة أصحاب الوجه، كما أن أصحاب الوجه ما نالوها إلا من تلك الصور لم ينالوها من الوجه، وسبب ذلك أن تلك العلوم مختلفة الأذواق والوجه ما فيه اختلاف، فلا بد أن يظهر تميز تلك المراتب بوجود هذه الصور ليعلم تنوع المشارب، فما كان عن علاقة التنوع فلتنوع أحوالهم بالشبر والذراع والسعي، فتنوّع المشروب بالذراع بالباع والهرولة، وما تنوّع من المشارب مما لا علاقة بينها وبينهم، فليعلم أن ذلك من الاستعدادات التي هي عليها نشأتهم الذي هو غير الاستعداد العملي الذي كنى عنه بالمقدار من شبر وذراع، فالهبات الإلهية إنما اختلفت لهذا، ولا يذهب شيء من هذا كله بعقولهم ولا ينقصهم من مراتب حظوظ حقائقهم شيئاً، فينعمون بكل جارحة وكل حقيقة هم عليها في زمان واحد، لا يحجبهم نعيم شيء عن نعيمهم بشيء آخر، ومن علم هذا علم صورة النشأة الآخرة وأنها على غير مثال كما كانت نشأة الدنيا على غير مثال، وليس في هذا المقام لهذا الصنف أعجب من كونه إذا تجلت لهم صور الوجه يفنون العلوم في المشروبات

وهم على حقائق يطلب كل شيء جاؤوا به أن يختاروا به منها مع كونها لهم ولا بد لهم من نيلها، وأعرّفك بسبب ذلك أنهم لا يقع لهم الاختيار إلا في العلوم التي بينهم وبينها علاقة من تلك المشارب لا في علوم الوهب وذلك لأنهم في حال سلوكهم وإنشائهم للأعمال اختاروا بعض الأعمال على بعض فقدموها لما اقتضاه الزمان أو المكان أو الحال، فإذا ظهر في هذا التجلي نتائج تلك الأعمال وقع الاختيار منهم في تقدم بعضها على بعض للتناول على صورة ما جرى في حال أعمالهم؛ ألا ترى حكمة قوله في الآخرة: «إن لأهل السعادة ما تشتهي نفوسهم» ولم يقل ما تريد نفوسهم، والشهوة إرادة، لكن لما لم يكن كل مراد يشتهى لم يكن كل إرادة شهوة، فإن الإرادة تتعلق بما يلتذ به وبما لا يلتذ به، ولا تتعلق الشهوة إلا بالملذوذ خاصة، فأخذوا الأعمال بالإرادة والقصد، وأخذوا النتائج بالشهوة، فمن رزق الشهوة في حال العمل فالتذ بالعمل التذاذه بنتيجته فقد عجل له نعيمه، ومن رزق الإرادة في حال العمل من غير شهوة فهو صاحب مجاهدة نال النتيجة بشهوة وهي مرتبة دون الأولى. ثم إن لهذا الصنف من الحق في هذه الحال صورة القهر والظفر بما من شأنه أن يمتنع، فلا يمتنع لما يعلمه مما هو عليه من صفة الاقتدار على إنزاله أنتج له ذلك الأخذ بالشدائد وترك الرخص فهذا بعض أحوال أهل الوجه.

وأما الصنفان الآخران فللواحد منهم التكوين وللآخر التسليم، فأما أهل التكوين من هذين الصنفين فتميزهم في أحوالهم ومكانهم من العالم العلويّ إذا فارقوا هياكلهم بالموت وفتحت لهم أبواب السماء وعرج بأرواحهم إلى حيث أسكنوا عند السدرة المنتهى لا يبرحون بها إلى يوم النشور لأنهم في حال أعمالهم بلغوا المنتهى في بذل وسعهم فيما كلفوا من الأعمال وما توانوا، بل بذلوا المجهود الذي لم يبق لهم مساعاً كل على قدر طاقته، فلا فرق بين من يتصدق بمائة ألف دينار إذا لم يكن له غيرها وبين من يتصدق بفلس إذا لم يكن له غيره فاجتمع الاثنان في بذل الوسع، ومن هناك جُوزُوا وجمعهم مكان واحد وهو سدرة المنتهى التي غشاها من نور الله ما غشى فلا يستطيع أحد أن ينعتها، وقد تبين مثل هذا في قول الشارع: «**سَبَقَ دِرْهَمٌ أَلْفاً**» لأن صاحب الدرهم لم يكن له سواه فبذله لله ورجع إلى الله لأنه لم يكن له مستند يرجع إليه سواه، وصاحب الألف أعطى بعض ما عنده وترك ما يرجع إليه فلم يرجع إلى الله فسبقه صاحب الدرهم إلى الله وهذا معقول، فلو بذل صاحب الألف جميع ما عنده مثل صاحب الدرهم لساواه في المقام، فما اعتبر الشارع قدرة العطاء، وإنما اعتبر ما يرجع إليه المعطي بعد العطاء فهو لما رجع إليه، فالراجعون إلى الله هم المفلسون من كل ما سوى الله، وإن كان صاحب الجدة ممن يرى الحق في كل صورة فما يدرك رتبة من يراه في لا شيء فإنه يراه في ارتفاع النسب والإطلاق وعدم التقييد، ولا شك أن الحق إذا تقيد للمتجلى له في صورة فإن الصورة تقيد الرائي وهو تعالى عند كل راء في صورة لا يدركها الآخر، فلا يدرك مطلق الوجود إلا المفلس الذي ذهبت الصور عن شهوده كما قال في الظمآن ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩] فنفى شيئية المقصود ووجد الله عنده يعني عند لا شيء فإنه

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وهو﴿غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] فلا يدركه إلا من أفلسه الله من العالمين، والمفلس من العالمين في غاية الغنى عن العالمين لما تقطعت به الأسباب رده الحق إليه، فعلم لمن رجع وبماذا رجع، فرجع بالإفلاس لمن له الغنى عنه فعرف الحق حقاً فاتبعه، فحق عينه عدم وشهود، وحق ربه وجود وشهود، قال ﷺ صاحب الكشف الأتم: «**إِنَّ أَصْحَابَ الجدِّ مَحْبُوسُون**» والمحبوس مقيد والمفلس ما له جد يقيده ولا يحبسه، فهو مطلق عن هذا التقييد الذي لأصحاب الجد، فهو أقرب إلى الصورة بالإطلاق من أصحاب الجد لتقيدهم، فأصحاب الجد في رتبة من يرى الحق في الأشياء فيقيده بها ضرورة، لأن المقام يحكم عليه والمفلس محمديّ لا مقام له، فإنه قيل له: ليس لك من الأمر شيء فأفلسه، وليس الجد إلا لمن له الأمر، فكل من له الأمر فهو صاحب جد لأن الأمر للتكوين، فما أراده كان فليس بمفلس، ومن خرج عن حقيقته فقد زل عن طريقه فما للخلق وللتكوين إن قال أو أمر بحق فالتكوين للحق لا له كما قال فيمن له التكوين ﴿فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠] وفي آية أخرى: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] فأعطاه وجرده فالبقاء على الأصل أولى وهو قوله لأكرم الناس عليه وأتمهم في الشهود وأعلاهم في الوجود ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] فأفلسه ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٣] فإن الله ينشئكم ﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أنها كانت فيما لا يعلم ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] فأهل الله لا يبرحون في موطن الإفلاس فهم في كل نفس على بينة لا على لبس من علم جديد لم يكن عنده فإنه ينشئه دائماً فيما لا يعلم فليس بصاحب نظر وتدبير ولا روية، إذ لا يكون النظر إلا في مواد وجودية وهي الحدود التي حبستهم عن العلم بالله ﴿هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] وهم فيه ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] فإذا دخلوا الجنة يوم القيامة فلا ينزلون منها إلا فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وإذا لم يخطر على القلب وله مقام التقليب في الوجوه فما ظنك بالعقل الذي لا تقليب عنده؟ جعلنا الله من هؤلاء المفلسين وحال بيننا وبين مقام أهل الجد المحبوسين.

ثم إن أصحاب التكوين الذين لهم القوة الإلهية في إيجاد الأعيان إذا شاهدوا نضد العالم وترتيبه وأنه ما بقي فيه خلاء يعمره تكوينهم علموا عند ذلك أن الله قد حال بينهم وبين إيجاد المعدوم وليس التكوين الحقيقيّ إلا ذلك، فما حصل بأيديهم من التكوين إلا تغير الأحوال وهو الموجود في العامة، فيكون قائماً فيقعد أو قاعداً فيقوم أو ساكناً فيتحرك أو متحرّكاً فيسكن ليس في قدرته غير ذلك، فإن التكوين الذي هو إيجاد المعدوم ما بقي له مكان في العالم يظهر فيه، فزالت الأمكنة بما عمرته من صور العالم وأعيانه من حيث جوهره، وما زالت المحال التي يظهر فيها تغير الأحوال، فليس لأصحاب التكوين إلا مراتب العوام، إلا أن الفرق بينهم وبين العوام أن العامة لها التكوين في معتاد، ولهؤلاء التكوين في غير معتاد ولكن هو معتاد لهم، فهو بمنزلة العامة في عاداتهم، وصاحب الوجود والشهود لا يبرح في ليس لك من الأمر شيء، فإذا عاينوا أهل التكوين ما ذكرناه من عمارة الأمكنة ونضد العالم

وأنه ما يقبل الزيادة ولا النقصان وأنه قد خلق في أكمل صورة وما بقي لهم تصريف إلا في المحال وإيجاد الهيئات كالتجلي الإلهي في الصور انكسرت قلوبهم وعلموا عجزهم وأنهم قاصرون مقيدون في التكوين، فيطلبون الراحة من تعب التكوين، فيأتيهم الخطاب الإلهي في أسرارهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] لوجود الراحة فاستراحوا عند هذا الخطاب في ظله الممدود، وظل الشيء يخرج على صورة الشيء، فجعل الله راحتهم بالعالم لا به، والمفلس ما له راحة إلا به، فإنه قد أفلسه من العالم فليس له راحة في الظل فلا حكم للعالم عليه ولا مزية فهو لله بالله، فإذا أراد الله راحة هذا المفلس قبض الظل إليه قبضاً يسيراً فانكشف عن موضع استراحة هذا المفلس لأنه إذا قبض الظل إليه عمر النور المكان المقبوض منه هذا الظل وهو موضع راحة هذا المفلس، فإنه لحاجته كالمقرور يطلب الشمس لوجود الراحة له في النور، فإذا استراح أهل التكوين في علم قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] استراح المفلس من هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفرقان: ٤٥] في بدء أمره وفي نهايته إلى قوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٦] فما رأى في البداية والنهاية إلا ربه، فهو الأوّل في شهوده والآخر في انتهاء وجوده، وبقي أهل التكوين في علم مد الظل لا في كيفيته، والمفلسون ما نظروا في الظل إلا من حيث خاطبهم الحق وهو قوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] فوقفوا مع الكيفية وهي إلهية، فما وقفوا إلا مع الله لا مع الظل لأن الكيفية شهود الممد له لا شهود الممدود، فجعلهم الحق لهذه المنزلة يفيضون على أهل التكوين من علوم الحياة ما تحيا به قلوبهم، فإذا رأوا الإمداد يأتيهم نظروا من أيّ جهة أتاهم ذلك فرأوه من جهة هؤلاء الكمل من رجال الله فعرفوا أن لله رجالاً فوقهم لهم القربة الإلهية بما سبق لهم عند الله، فكانوا لهذه السابقة من السابقين المسارعين إلى الخيرات على طريق الاقتصاد، وأعطوا كل ذي حق حقه، كما أعطى الله كل شيء خلقه، فلهؤلاء العرش ولأهل التكوين الفرش فلهم الاستواء، ولأهل التكوين الاتكاء ولهم النزول، ولأهل التكوين الارتفاع والصعود ولهم حقائق أسماء التنزيه، ولأهل التكوين حقائق أسماء التشبيه إذ بها يغيرون الأحوال في المحال، فهذا بعض ما هم عليه أهل يد التكوين وأصحاب الوجه الذين لهم ما بين اليدين.

وأما أهل التسليم فهم في جهد ومشقة في نار مجاهدة ورياضة لا يعرفون برد اليقين ولا حرارة الاشتياق إلى التعيين، لأن الشوق لا يتعلق إلا بمعروف ولا يكون إلا لأصحاب الحروف الذين يعبدون الله على حرف لمعناه، فإن أصابه خير اطمأن به أي بالحرف لأجل الخير الذي أصابه منه وهو خير مقيد معين عنده الذي لأجله لزم هذا الحرف دون غيره إذ الحروف كثيرة، فهو كمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فهو على شفا لا على شفاء، ولكن مع هذا فرحمة الله شاملة ونعمته سابغة، ولكل موجود في العالم وجهان: باطن فيه الرحمة وظاهر من قبله العذاب، كالسور بين الجنة والنار، والعبد حاله بحسب الوجه الذي ينظر إليه من كل موجود لأن الحق وصف نفسه بالغضب والرضا، والعالم على صورته،

فلا بد مما ذكرناه، أن يكون العالم عليه، فلا بد من القبضتين، ولا بد من اليدين، ولا بد من الدارين، ولا بد من البرزخ بين كل اثنين ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] لأنه مخلوق عن صفتين: إرادة وقول وهما اللذان يشهدهما كل مخلوق من الحق، فإن العالم نتيجة والنتيجة لا تكون إلا عن مقدّمتين، وهذا هو التناسل الإلهي، ولهذا أوجده على الصورة كوجود الابن على صورة الأب في كل جنس من المخلوقات، فالعالم من حيث أجزائه وتفاصيله كالأعضاء للاسم الظاهر ومن حيث معانيه وتفاصيل مراتبه كالقوى الروحانية الباطنة التي لا تعلم إلا بآثارها للاسم الباطن، فقامت نشأة العالم على الظاهر والباطن ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].

فهذا قد بينا في هذا المنزل ما تقتضيه الثلاثة الأوجه الإلهية والمراتب الثلاثة التي ظهر فيها التفاضل بين العالم، فلنذكر ما يتضمنه هذا المنزل من العلوم: فأوّل ذلك علم المبشرات، وعلم الميزان الإلهي الذي بيده للخفض والرفع الوارد حديثه في الخبر النبوي الذي أشهده الحق، وفيه علم الحركات الطبيعية خاصة، وفيه علم تحليل المركبات، وفيه علم ما يبدو للمكاشف إذا شاهد الهباء الذي تسميه الحكماء الهيولى من صور العالم قبل ظهور أعيانها في الجسم الكل، وفيه علم الفردية الأولى التي وقع فيها الإنتاج والتناسل الإلهيّ والروحانيّ والطبيعيّ والعنصري وهو علم عزيز، وفيه علم الاقتدار الإلهيّ وفيمن ينفذ وفيمن لا ينفذ ولماذا لا ينفذ في بعض الممكنات وما المانع لذلك؟ هل أحاله الجمع بين الضدّين والأصل جامع بين الضدين بل هو عين الضدين، وفيه علم التحسين والتقبيح، وفيه علم النشأتين، وفيه علم الحياة السارية في جميع الموجودات حتى نطقت مسبحة لله بحمده، وفيه علم المواد الطبيعية والمواد العنصرية، وفيه علم المبدأ والمعاد وفيه علم الأصل الذي ترجع إليه هذه المواد، وفيه علم الاسطقسات، وفيه علم مراتب العلوم، وفيه علم الكلمات الإلهية من حيث ما هي مؤلفة، وفيه علم الكتاب المسطور في الرق المنشور، وفيه علم تنزيه الصحف ومنزلتها من الكتب وما السفرة التي تحمله؟ وفيه علم الفروق بالحدود في أي الأعيان يظهر وما في الوجود إلا واحد فبماذا يتميز؟ وعن أيّ شيء يتميز؟ وما هو ثم؟ وفيه علم التغذي بالعدم، وفيه علم الفرق بين نسبة الحق في القرب في الأحياء وبين نسبة قربه في الأموات، وفيه علم الرجعة، وفيه علم الثواب في كل صنف صنف أعني في تعيين ثوابهم والفرق بين أصحاب النور وأصحاب الأجور وكيف يكون العبد أجيراً لمن هو عبد له من غير أن يكون مكاتباً ولا مدبراً؟ وفيه علم تنزيه العظمة الإلهية أن تقوم بالأكوان، وفيه علم السبب الذي لو علمه من علمه لم يمت ما دام ذلك العلم مشهوداً له، فهذه أمهات العلوم التي يحوي عليها هذا المنزل وفيها تفاصيل لا تتناهى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والعشرون وثلاثمائة

في معرفة منزل علم الآلاء والفراغ إلى البلاء وهو من الحضرة المحمدية

[البسيط]

إنَّ العَوَالِمَ بالرَّحْمٰنِ أوْجَدَها رَبُّ العباد وللرّحْمٰنِ قد وُجِدَتْ
وبالذي قُلْتُهُ الآياتُ قد نَطَقَتْ في مُحْكَم الذّكر والأَرْسَالُ قد شَهِدَتْ
لولا التّألُمُ لم يُنْكِرْهُ من أحَدٍ ولا وَرَبِّ العُلا نُعْماه ما جُحِدتْ

قال النبي ﷺ: «**إنَّ الله خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِه**» والعالم مخلوق بالإنسان على صورته، فلو فقد منه الإنسان ما كان العالم على الصورة، ولو فقد العالم وبقي الإنسان كان على الصورة. وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [العنكبوت: ٥٧] وهو عزلها عن تدبير هذا الهيكل الطبيعيّ الذي كانت تدبره في الدنيا في حال إقامتها فيها، وأما قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] فلم يقل كل من فيها فان لأنه إذا كان فيها انحفظ بها، وإذا كان عليها تجرد عنها، فهذا يدلك على أن التجلي الإلهي يعم جميع من عليها، لأن الفناء لا يكون إلا عن تجلٍّ إلهي في غير صورة كونية، لأن التجلي في صور المثل إذا عرف أنه عين الصورة اتصف المتجلى له بالخشوع لا بالفناء، سئل رسول الله ﷺ عن الكسوف فقال ﷺ: «**مَا تَجلَّى الله لِشَيْءٍ إلاّ خَشَعَ لَهُ**» فلهذا قلنا بالخشوع لا بالفناء للمناسبة التي بين الحس والخيال، ولهذا يسمى الخيال بالحس المشترك، وإذا لم يعرف لم يورث خشوعاً يعرف به أنه هو، ولكن لا بد أن يورث خشوعاً في المتجلى له، ولكن لا يعرف المتجلى له أنه هو ولا سيما أهل الأفكار، وهذا من علم الظهور والخفاء، فظهر بلا شك أنه هو، وخفي بالتقييد في ظهوره فلم يعلم أنه هو، فإذا كان العارف الكامل المعرفة بالله في هذا النوع الإنساني يعلم أن عين الحق هو المنعوت بالوجود وأن أحكام أعيان العالم هي الظاهرة في هذا العين أو هو الظاهر بها عرف ما رأى، فإن اقتضى الموطن الإقرار أقر به عندما يدعي أنه هو، وإن اقتضى الموطن الإنكار سكت العارف فلم ينطق بإنكار ولا إقرار لعلمه بما أراده الحق في ذلك الموطن. ولما كان التجلي الإلهي يغني من هو على الصورة عرفنا أن العين لا تذهب بل هو تجريد وخلع لا عزل عن تدبير ملك إلا إذا كان الضمير في عليها يعود على الأرض فهو عزل عن تدبير الهياكل التي جعل الله إليها تدبيرها، وهذا الظهور والخفاء للاسم الرب لا لغيره، وإليه يرجع حكمه، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام، فيظهر في هذا الحكم ـ أعني الظهور والخفاء ـ في موطنين ليتخذه صاحب الملك وكيلاً فيما هو له مالك فيكون له التصريف فيه والعبد مستريح في جميع أحواله من يقظة ونوم، والقسم الآخر من هذا الحكم أن يكون له في أربعة مواطن في طول العالم وعرضه لوجود الإنعام عليه كما قال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ﴾ [لقمان: ٢٠] فله هذان الحكمان في طول العالم ومثله في عرضه، وطول العالم عالم الأرواح، وعرضه عالم

صور الأجسام، وإنما قلنا صور الأجسام ولم نقل الأجسام بسبب الأجسام المتخيلة، وإن كانت أجساماً حقيقية في حضرتها فليست أجساماً عند كل أحد لما يسرع إليها من التغيير، ولأنها راجعة إلى عين الناظر لا إليها، والأجسام الحقيقية هي أجسام لأنفسها لا لعين الناظر، فسواء كان الناظر موجوداً أو غير موجود هي أجسام في نفسها، والأخر أجسام لا في أنفسها كما قال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] وهي أجسام في عينها لا حكم لها في السعي، فظهرت في عين موسى بصورة الجسم الذي له سعي، والأمر في نفسه ليس كذلك.

والقسم الثالث من هذا الحكم من الظهور والخفاء يظهر في سبعمائة موطن وعشرين موطناً وهو منتهى ما يقبل عالم الدنيا من الاقتدار الإلهي لا أن الاقتدار يقصر أو يعجز فهذا حكم القابل وكذا وقع الوجود، ويجوز في النظر الفكري خلافه معرى عن علمه بما سبق في علم الله، فما ثم إمكان إلا بالنظر المجرّد إلى الأكوان معراة عن علم الله فيها فلا تعرف إلا بالوقوع، فانحصرت مواطن الظهور والخفاء بين تجل إلهيّ واستتار في سبعمائة موطن وستة وعشرين موطناً بأحكام مختلفة، وبين كل موطنين من ظهور وخفاء يقع تجل برزخيّ في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ليحفظ هذا البرزخ وجود الطرفين، فلا يرى كل طرف منها حكم الطرف الآخر والبرزخ له الحكم في الطرفين فيسخف الكثيف ويكثف السخيف، وله في كل موطن حكم لا يظهر به في الموطن الآخر، وهو ما يجري عليه أحكام عالم هذه الدار إلى أن يرث الله الوارث الأرض ومن عليها، ومن حقيقة هذه المواطن ظهر العالم في الدنيا بصورة الظهور وهو ما أدركه الحس، وبصورة الاستتار وهو ما لا يدركه الحس من المعاني، وما استتر عن الأبصار من الملائكة والجن، قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨] وهو ما ظهر لنا ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٩] وهو ما خفي عنا، فالعالم بين الأبد والأزل برزخ به انفصل الأبد من الأزل لولاه ما ظهر لهما حكم ولكان الأمر واحداً لا يتميز، كالحال بين الماضي والمستقبل، لولا الحال ما تميز العدم الماضي عن العدم المستقبل، وهذا حكم البرزخ لا يبرح دائماً في العالم وهو الرابط بين المقدّمتين لولاه ما ظهر علم صحيح.

ثم إن الله سبحانه ولى الاسم الرحمن المملكة كلها وجعل الاسم الرب السادن الأول العام وأعطاه إقليد التكوين والتصريف والنزول والمعراج، فهو يتلقى الركبان وينزل بهم على الرحمن، والرحمن على عرشه الأبهى يعلم مجموع كلمه في أيّ عين يظهر من العالم، وهو الذي أشرنا إليه بقولنا: [الرمل]

علم القرآن كيف ينزلُ ... اسمه الرحمن لما عَمِلُوا
بالذي يعطيهم حكمته ... وهو العاملُ وهو العَمَلُ
فرجال الله قُدْماً سَبَقُوا ... وعليهم بعَلَيْهِ عَوَّلُوا
فهم المطلوبُ لا غيرهم ... فبه منهم إليه وَصَلُوا

فقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢] نصب القرآن ثم قال: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤] فينزل عليه القرآن ليترجم منه بما علمه الحق من البيان الذي لم يقبله إلا هذا الإنسان، فكان للقرآن علم التمييز، فعلم أين محله الذي ينزل عليه من العالم فنزل على قلب محمد ﷺ نزل به الروح الأمين، ثم لا يزال ينزل على قلوب أمّته إلى يوم القيامة، فنزوله في القلوب جديد لا يبلى فهو الوحي الدائم، فللرسول صلوات الله عليه وسلامه الأوّلية في ذلك والتبليغ إلى الأسماع من البشر والابتداء من البشر، فصار القرآن برزخاً بين الحق والإنسان، وظهر في قلبه على صورة لم يظهر بها في لسانه، فإن الله جعل لكل موطن حكماً لا يكون لغيره، وظهر في القلب أحديّ العين فجسده الخيال وقسمه فأخذه اللسان فصيره ذا حرف وصوت وقيد به سمع الآذان وأبان أنه مترجم عن الله لا عن الرحمن لما فيه من الرحمة والقهر والسلطان فقال: ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فتلاه رسول الله ﷺ بلسانه أصواتاً وحروفاً سمعها الأعرابيّ بسمع أذنه في حال ترجمته، فالكلام لله بلا شك والترجمة للمتكلم به كان من كان، فلا يزال كلام الله من حين نزوله يتلى حروفاً وأصواتاً إلى أن يرفع من الصدور ويمحى من المصاحف، فلا يبقى مترجم يقبل نزول القرآن عليه، فلا يبقى الإنسان المخلوق على الصورة، فإذا بقيت صورة جسم الإنسان مثل أجسام الحيوان وزالت الصورة الإلهية بالتجريد نفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلى يوم النشور وهو الظهور الذي لا ضدّ له فيقابله الخفاء، فمن معافى ومبتلى بحسب ما يحكم فيه من الأسماء إلى الأجل المسمى، فتعم الرحمة التي وسعت كل شيء من الرحمن الذي استوى على العرش، فتعم النعم العالم وتظهر أحكام الأسماء بالإضافات والمناسبات لا بالتقابل، فيكون الأمر مثل قولهم: «حسنات الأبرار سيئات المقرّبين»، ونعيم الأدنى لو أعطي الأعلى بعد ذوقه النعيم الأعلى لتعذب بفقده لا بوجود النعيم الأدنى لعدم الرضا به، فهو عذاب مناسبة وإضافة لبقاء حكم الأسماء الإلهية دائماً، أرأيت صاحب منزلة علياء كسلطان أخرجه سلطان آخر من ملكه وولاه ملكاً دون ملكه يأمر فيه وينهى، ولكن إذا أضفته إلى ما كان فيه أوّلاً وجدته ذا بلاء مع وجود المكانة من حيث ما هي ولاية وتحكم بأمر ونهي، ولكن يعلم أن هذه المنزلة بالنظر إلى الأولى عذاب في حق من يحضر الأولى في خاطره، فهذا القدر يبقى في الآخرة من حكم الأسماء إذ يستحيل رفعها من الوجود إذ كان لها البقاء الإلهيّ ببقاء المسمى.

ثم اعلم أن الظهور الذي نحن بصدده ينقسم الظاهر فيه إلى قسمين: قسم له ظهوره خاصة وليس له أمر يعتمد عليه ظهوره من جانب الحق، وقسم آخر يكون له من جانب الحق أمر يعتمد عليه وليس ذلك إلا للإنسان الكامل خاصة، فإن له الظهور والاعتماد لكون الصورة الإلهية تحفظه حيث كان، وغير الإنسان الكامل له الظهور من إنسان وحيوان ونبات وأفلاك وأملاك وغير ذلك، فهذا كله نعم أظهرها الحق لينعم بها الإنسان الكامل، فلها الظهور وما لها الاعتماد لأنها مقصودة لغير أعيانها، والإنسان الكامل مقصود لعينه لأنه ظاهر الصورة الإلهية

وهو الظاهر والباطن، فليس عين ما ظهر بغير لعين ما بطن فافهم فهو الباقي ببقاء الله وما عداه فهو الباقي بإبقاء الله، وحكم ما هو بالإبقاء يخالف حكم ما هو بالبقاء، فما هو بالبقاء فله دوام العين، وما هو بالإبقاء فله دوام الأمثال لا دوام العين حتى لا يزال المتنعم متنعماً والنعم تتوالى عليه دائمة مستمرّة. وما أنشأ الله من كل شيء زوجين إلا ليعرف الله العالم بفضل نشأة الإنسان الكامل ليعلم أن فضله ليس بالجعل، فإن الذي هو الإنسان الكامل ظهر به ازدواج من لا يقبل لذاته الازدواج وما هو بالجعل، فضمن الوجود الإنسان الكامل الظاهر بصورة الحق فصار للصورة بالصورة زوجين فخلق آدم على صورته فظهر في الوجود صورتان متماثلتان كصورة الناظر في المرآة ما هي عينه ولا هي غيره، لكن حقيقة الجسم الصقيل مع النظر من الناظر أعطى ما ظهر من الصورة، ولهذا تختلف باختلاف المرآة لا بالناظر، فالحكم في الصورة الأكبر لحضرة المجلى لا للمتجلي، كذلك الصورة الإنسانية في حضرة الإمكان لما قبلت الصورة الإلهية لم تظهر على حكم المتجلي من جميع الوجوه فحكم عليها حضرة المجلى وهي الإمكان، بخلاف حكم حضرة الواجب الوجود لنفسه، فظهر المقدار والشكل الذي لا يقبله الواجب وهو الناظر في هذا المرآة فهو من حيث حقائقه كلها هو هو، ومن حيث مقداره وشكله ما هو هو، وإنما هو من أثر حضرة الإمكان فيه الذي هو في المرآة تنوع شكلها في نفسها ومقدارها في الكبر والصغر. ولما كان الظاهر بالصورة لا يكون إلا في حال نظر الناظر الذي هو المتجلي لذلك نسب الصورة إلى محل الظهور وإلى النظر، فكانت الصورة الظاهرة برزخية بين المحل والناظر، ولكل واحد منهما أثر فيها يخرج منهما اللؤلؤ وهو ما كبر من الجوهر والمرجان وهو ما صغر منه وهو أثر الحضرة لا أثر الناظر، فقال في زوجية ظهور الإنسان الكامل: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١] أي ليس مثل مثله شيء أي من هو مثل له بوجوده على صورته لا يقبل المثل أو لا يقبل الموجود على الصورة الإلهية المثال، فعلى الأوّل نفي المثلية عن الحق من جميع الوجوه لما أثر المحل المتجلي فيه في الصورة الكائنة من الشكل والمقدار الذي لا يقبله المتجلي من حيث ما هو عليه في ذاته، وإن ظهر به فذلك حكم عين الممكن في وجوده، وعلى الآخر نفي المثلية عن الصورة التي ظهرت، فلم يماثلها شيء من العالم من جميع وجوه المماثلة، فلما كان من الصورة زوجان كان بالجعل من كل شيء خلقنا زوجين، لأن الأصل قبل الزوجية فظهر حكمها في الفرع، ولكن حكمها في الأصل يخالف حكمها في الفرع.

وهذه مسألة واحدة من مسائل هذا المنزل، فلنذكر ما يتضمن من العلوم كما ذكرنا لسائر منازل هذا الكتاب: فمن ذلك علم مراتب الأسماء، وعلم الفهم في القرآن، وعلم نطق كل شيء ومراتبه في البيان عن نفسه، وعلم العدد، وعلم اشتراك العالم فيما يشترك فيه من الصفات والمراتب، وعلم الفرق بين العوالم واختلاف أحكام العدل لاختلاف المواطن والأعصار فما هو حق في شرع عاد باطلاً في شرع آخر بالنسخ الطارىء، والإيمان بحقيقته واجب وبنسخه واجب، وعلم العدول عن الحق وإلى الحق وما يتعلق بذلك من الذم والحمد، وعلم المولدات

التي هي الأمهات لماذا وضعت في العالم ولم تظهر أعيان الأشياء من غير أن يكون أبناء لأمهات وآباء وما تحمله الأمهات مما فيه صلاح الأبناء، وعلم تقرير النعم الظاهرة والباطنة ولم تذهب بالكفر وتزيد بالشكر، وعلم نشأة الجن والإنس دون غيرهما من الحيوان، وعلم الستر والتجلي الذي لأجله لم يكن في الإمكان أبدع من هذا العالم لعمومه جميع المراتب فلم يبق في الإمكان إلا أمثاله لا أزيد منه في الكمال الوجودي الحافظ للأصول، وعلم الفواصل بين الأشياء وبين كل اثنين في المعقول والمحسوس كالخط الفاصل بين الظل والشمس لماذا ترجع هذه الفواصل هل لأمر زائد على أعيان المفصولين أم لا؟ وعلم ما تحوي عليه حروف الوجود من المعاني، وعلم الأعلام على ما هي أعلام، وعلم الفناء والبقاء، وعلم ما يفعله الحق مما يظهر في الحال لا غير، وعلم إضافة ما ينزه العقل إضافته عن الحق إلى الحق، وعلم السرادق الإلهيّ وما فيه من الأبواب وما يفتح تلك الأبواب للذين يريدون الخروج منها ولماذا يخرجون؟ وما يشهدون إذا خرجوا وما يخرجهم؟ وعلم العقاب والعذاب ولماذا سمي عقاباً وعذاباً؟ وعلم ما يؤول إليه محل الملأ الأعلى لا بل الملأ الأوسط، وعلم الخرس والسكوت عن العالم وما سببه، وعلم العلامات هل تقوم مقام الكلام والعبارة من المتكلم أم لا؟ كالمعجزات والنطق المعلوم من قرائن الأحوال وإن لم يكن هناك عبارة بنظم حروف وإظهار كلمات، وعلم ما تعطيه العلامات في الأشياء من الأحكام، وعلم تردد الأشياء بين الأشياء، وعلم نتائج المقامات والأحوال، وعلم حكم الشفعية في العالم الأخراوي، وعلم الأسباب الموصلة إلى الحكم من السبب إلى المسبب، وعلم الأذواق والأفكار، وعلم الالتذاذ بما يرد من الحق على الإنسان من طريق شفعيته أي من حيث شفع الصورة الإلهية لا من حيث ما شابه العالم، وعلم من يمنع بتجليه النظر إلى غيره مع القدرة عليه فلا يكون في حال فناء، وعلم مقام الأسرار من خلف حجاب الغيرة والصون الإلهيّ، وعلم التشبيه والتمثيل، وعلم المجازاة بالأمثال كالذهب بالذهب مفاضلة وهو في حكم الدنيا ربا، وعلم المفاضلة، وعلم بماذا تقع المفاضلة بين الأمثال، وعلم الفرق بين البراقات والرفارف والأوكار في الأشجار وفي الإسراءات، وعلم مباسطة الحق في قبضه وقبضه في مباسطته وما يحدث من الزيادة عند صاحب هذه الأحوال، فهذا بعض ما يحتوي عليه هذا المنزل من أمهات العلوم التي يتفرع أبناؤها بالتناسل إلى ما يتناهى مع الآنات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثلاثون وثلاثمائة

في معرفة منزل القمر من الهلال من البدر من الحضرة المحمدية

[الرجز]

انْظُرْ إلى نُوحٍ وعَادٍ واعْتَبِرْ ... في صالحٍ وثُمّ لُوطٍ وافْتَكِرْ
وقلْ لهم قَوْلَ شفيقٍ ناصحٍ ... ونَادِهِمْ هل فيكُمُ منْ مُدّكِرْ
وليس في الكون وجودٌ غيره ... وليس في لَيْسَ وُجُودٌ مستقرّ

فَهُوَ لَهُ لَيسَ لَنَا وَهُوَ لَنَا لَيسَ لَهُ بِوَجْهِ كَوْنٍ مُسْتَمِرْ
أيـن الـذي لاحَ لـنـا مـن صُوَرٍ قد ذهبت وأعقَبَتْها من صُوَرْ
لو ذهبت في الغيب زال عَيْنُه وكان مَشْهُوداً لعَيْنٍ وبَصَرْ
أو عدمت وما أرى من عدم يقوم بالكون الكونُ له ظهر
وما بدا من عَدَم لكنه من كون حَقّ ظاهر لا يَسْتَتِرْ

اعلم أيدك الله أن القمر مقام برزخيّ بين مسمى الهلال ومسمى البدر في حال زيادة النور ونقصه، فسمي هلالاً لارتفاع الأصوات عند رؤيته في الطرفين، ويسمى بدراً في حال عموم النور لذاته في عين الرائي، وما بقي للقمر منزل سوى ما بين هذين الحكمين، غير أن بدريته في استتاره عن إدراك الأبصار تحت شعاع الشمس الحائل بين الأبصار وبينه يسمى مَحْقاً وهو من الوجه الذي يلي الشمس بدر كما هو في حال كونه عندنا بدراً هو من الوجه الذي لا يظهر فيه الشمس محق، وما بين هذين المقامين على قدر ما يظهر فيه من النور ينقص من الوجه الآخر، وعلى قدر ما يستتر به من أحد الوجهين يظهر بالنور من الوجه الآخر، وذلك لتعويج القوس الفلكيّ، فلا يزال بدراً دائماً ومحقاً دائماً، وذلك لسر أراد الله إعلامه للعارفين بالله، فضرب لهم هذا المثل بالفعل ليعتبروا فيه بالعبور إلى ما نصب له من معرفة الإنسان الكامل ومعرفة الله لوجوده على الصورة، وتغير أحواله فيها لتغير المراتب التي يظهر فيها، قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يسٓ: ٣٩] ولم يسمه بدراً ولا هلالاً، فإنه في هاتين الحالتين ما له سوى منزلة واحدة بل اثنتين، فلا يصدق قوله منازل إلا في القمر، فللقمر درج التداني والتدلي، وله الأخذ بالزيادة والنقص في الدخول إلى حضرة الغيب والخروج إلى حضرة الشهادة ثم إن الله تعالى نعته بالانشقاق لظهور الإنسان الكامل بالصورة الإلهية فكان شقاً لها، فظهورها في أمرين: ظهور انشقاق القمر على فلقتين ورد في الخبر عن الصاحب أن القمر انشق على عهد رسول الله ﷺ عند سؤال طائفة من العرب أن يكون لهم آية على صدقه فانشق فقال رسول الله ﷺ للحاضرين: «**اشهدوا**». وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] فلا يدرى هل أراد الانشقاق الذي وقع فيه السؤال وهو الظاهر من الآية فإنه أعقب الانشقاق بقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢] وكذا وقع القول منهم لما رأوا ذلك ولهذا قال رسول الله ﷺ للحاضرين: «**اشهدوا**» لوقوع ما سألوا وقوعه وما لهم إلا ما ظهر، وهل ذلك الواقع في نفس الأمر أو في نظر الناظر؟ هذا لا يلزم فإنه لا يرتفع الاحتمال إلا بقول المخبر إذا أخبر أنه في نفس الأمر كما ظهر في العين، وقول المخبر هو محل النزاع، وما اشترطوا في سؤالهم أن لا يظهر منهم ما ظهر منهم من الاعتراض عند وقوع ما سألوا وقوعه، فلم يلزم النبيّ ﷺ أكثر مما وقع فيه من السؤال، ثم جاء الناس من الآفاق يخبرون بانشقاق القمر في تلك الليلة ولهذا قال الله تعالى عنهم: إنهم قالوا فيه سحر مستمر، فقال الله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣] كان ذلك الأمر ما كان، فالقمر لولا ما هو برزخي المرتبة ما قبل الإهلال والإبدار، والمحق والسرار، فالسحر المستمر داخل تحت

حكم كل ذي أمر مستقر، فهذا انشقاق بالحق وجهل في عين العلم وهو قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠] فأثبته علماً.

واعلم أن النظر والاعتبار من العلوم التي تظهر من الأسرار والأنوار فالنور للبصر والأبصار، فقال الله لما ذكر هذا المقام: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] أي جوزوا مما أعطاكم البصر بنوره مما أدركه من المبصرات وأحكامها إلى ما تدركونه بعين بصائركم شهوداً وهو الأتم الأقوى، أو عن فكرة وهو الشهود الأدنى عن المرتبة العليا، وكلاهما عابر عما ظهر إلى ما استسر وبطن فهي ﴿ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] كما هي ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦] فالمتقي يتولى الله تعليمه فلا يدخل علمه شك ولا شبهة، والمتفكر ناظر إلى قوّة مخلوقة فيصيب ويخطىء، وإذا أصاب يقبل دخول الشبهة عليه بالقوّة التي أفادته الإصابة لاختلاف الطرق، فالمتقي صاحب بصيرة، والمتفكر بين البصر والبصيرة لم يبق مع البصر ولا يخلص للبصيرة. فلنذكر في هذا المنزل مسألة من مسائله كإخوانه من المنازل وهو منزل شريف عال يسمى منزل النور في الطريق لأن الله جعله نوراً ولم يجعله سراجاً لما في السراج من الافتقار إلى الإمداد بالدهن لبقاء الضوء، ولهذا كان الرسول ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] للإمداد الإلهيّ الذي هو الوحي، وجعله منيراً أي ذا نور لما فيه من الاستعداد لقبول هذا الإمداد كالنار التي في رأس الفتيلة التي ينبعث منها الدخان الذي فيه ينزل النور على رأس الفتيلة من السراج فيظهر سراجاً مثله، والنور من الأسماء الإلهية، وليس السراج من أسمائها لأنه لا يستمد نوره من شيء، فعرفت من هذا الاعتبار رتبة القمر من الشمس، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦] فنور السراج مقيد، والنور القمري مطلق، ولهذا نكره ليعم الأنوار، فكل سراج نور وما كل نور سراج.

واعلم أنه من العلم بالتحقق بالصورة أن العلم المطلق من حيث ما هو متعلق بالمعلومات ينقسم إلى قسمين: إلى علم يأخذه الكون من الله بطريق التقوى وهو قوله: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] وقوله في الخضر: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] وعلم يأخذه الله من الكون عند ابتلائه إياه بالتكليف مثل قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] فلولا الاشتراك في الصورة ما حكم على نفسه بما حكم لخلقه من حدوث تعلق العلم، فإن ظهر الإنسان بصورة الحق كان له حكم الحق، فكان الحق سمعه وبصره، فسمع بالحق فلا يفوته مسموع، ويبصر بالحق فلا يفوته مبصر، عدماً كان المبصر أو وجوداً وإن ظهر الحق بصورة الإنسان في الحال الذي لا يكون الإنسان في صورة الحق كان الحكم على الله مثل الحكم على صورة الإنسان الذي ناله صورة الحق، فينسب إليه ما ينسب إلى تلك الصورة من حركة وانتقال وشيخ وشاب وغضب ورضا وفرح وابتهاج.

ومن أجل ما بيناه من شأن هذين العلمين جعل الله في الوجود كتابين: كتاباً سماه أمّاً فيه ما كان قبل إيجاده وما يكون كتبه بحكم الاسم المقيت فهو كتاب ذو قدر معلوم فيه بعض أعيان الممكنات وما يتكوّن عنها. وكتاباً آخر ليس فيه سوى ما يتكون عن المكلفين خاصة فلا

تزال الكتابة فيه ما دام التكليف، وبه تقوم الحجة لله على المكلفين، وبه يطالبهم لا بالأم، وهذا هو الإمام الحق المبين الذي يحكم به الحق تعالى الذي أخبرنا الله في كتابه أنه أمر نبيه أن يقول لربه: ﴿ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] يريد هذا الكتاب وهو كتاب الإحصاء ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣] وهو منصوص عليه في الأمّ التي هي الزبر ومعناه الكتابة، وإن كانت أصناف الكتب كثيرة ذكرناها في مواقع النجوم فإنها ترجع إلى هذين الكتابين، وسبب إيجاد الكتابين كونه سبحانه خلق من كل شيء زوجين، فخلق كتابين أيضاً، فمن الكتاب الثاني يسمى الحق خبيراً، ومن الأم يسمى عليماً، فهو العليم بالأول الخبير بالثاني، إن عقلت فالقضاء الذي له المضي في الأمور هو الحكم الإلهيّ على الأشياء بكذا، والقدر ما يقع بوجوده في موجود معين المصلحة المتعدّية منه إلى غير ذلك الموجود مثل قوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧] فلو وجد البغي عن البسط لم تقم الحجة عليهم ولكن ينزل بقدر ما يشاء، فما أنزل شيئاً إلا بقدر معلوم، ولا خلق شيئاً إلا بقدر، فإذا وجد البغي مع القدر قامت الحجة على الخلق حيث منع الغير مما بيده مع حصول الاكتفاء، فما زاد فيعلم أنه لمصلحة غيره، ومن فضله جعله قرضاً، ولا يقع القرض فيما هو رزق له لقوام عينه، وجعل هذا الفعل من جملة مصالح العباد فرفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً.

ولما أنزل الله سبحانه نفسه منزلة عباده أمضى عليه أحكامهم فما حكم فيهم إلا بهم، وهذا من حجته البالغة له عليهم وهو قوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٤] ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢] فأعمالهم عذبتهم وأعمالهم نعمتهم فما حكم فيهم غيرهم فلا يلومون إلا أنفسهم كما قال الله فيما حكاه لنا من قول الشيطان ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي من قوة ولا حجة ولا برهان ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وليس كل من دعا تلزم إجابته، ولهذا كانت المعجزات تشهد بصدق الدعوة من الرسل أنها دعوة الله، والشيطان ما أقام برهاناً لهم لما دعاهم وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ فيا عجباً أن الناس جحدوا دعوة الحق مع ظهور البرهان وكفروا بها، وأجابوا دعوة الشيطان العرية عن البرهان فقال لهم: ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢] نظراً منه إلى حكم الكتاب الثاني الذي به تقوم الحجة عليهم، فلو نظر إلى الأم والزبر الأوّل لم يقل لهم: ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ﴾ فالقضاء للكتاب الأوّل يطلبه حكم الكتاب الثاني والقدر بالكتاب الثاني وكلا الكتابين محصور لأنه موجود، وعلم الله في الأشياء لا يحصره كتاب مرقوم ولا يسعه رق منشور ولا لوح محفوظ ولا يسطره قلم أعلى ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠] أي إلى الحكم وهو القضاء، فالضمير في إليه يعود على الحكم فإنه أقرب مذكور فلا يعود على الأبعد ويتعدّى الأقرب إلا بقرينة حال، هذا هو العلوم من اللسان الذي أنزل به القرآن، فالقضاء يحكم على القدر والقدر لا حكم له في القضاء، بل حكمه في المقدر لا غير بحكم القضاء، فالقاضي حاكم

والمقدر مؤقت، فالقدر التوقيت في الأشياء من اسمه المقيت، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥] وهذا المنزل أشهدته بقونية في ليلة لم يمرّ عليّ أشدّ منها لنفوذ الحكم وقوّته وسلطانه، فحمدت الله على قصوره على تلك الليلة ولم يكن حكم تأبيد وإنما كان حكم وقوع مقدر، فلما رددت إليّ وقد سقط في يدي وعلمت ما أنزل الله عليّ وما قدره الحق لديّ وفرّقت بين قضائه وقدره في الأشياء كتبت به إلى أخ في الله كان لي رحمه الله أعرّفه بما جرى كما جرت العادة بين الإخوان. إذ كان كتابه قد ورد علي يطلبني بشرح أحوالي فصادف ورود هذا الحال فكتبت إليه في الحال: بسم الله الرحمن الرحيم ورد كتاب المولى يسأل وليه عن شرح ما رأى أنه به أولى ليكون في ذلك بحكم ما يرد عليه: [الوافر]

شِهابَ الدِّين يا مَوْلَى الموالي ... سَألتَ تهمُّماً عن شَرْحِ حالي
أنا المَطْرودُ من بين الموالي ... ومثلي من يُصَدُّ عن الوِصَالِ
عصيتُ زجاجَه فجهلتُ قَدْري ... فها أنا طائعٌ حَدَّ الغوالي
رُمِيتُ بأسهم الهجران حتّى ... تداخلتِ النبالُ عَلى النبالِ
فيرميني بأسهمه فآتي ... إليه فِعْلَ ذُكْرانِ الرّجال
وقفتُ ببابهِ أشكو وأبكي ... بُكَاءَ فَقِيدِ واحدةِ المَوالي
وقلتُ بعَبْرةٍ وحنينِ شَجْوٍ ... أنا المطرودُ من بين الموالي
أنا العبدُ المضَيِّعُ حَقَّ رَبِّي ... فكيف تُضَيِّعُني يا ذا الجلال
وإنَّ مكارم الأخلاق منكم ... وإنَّ العفو من كَرَمِ الخِلال
وهل نشرت لجَالَيْنُوسَ كُتْبٌ ... لغير إزالة الداء العُضال
ويدّخرُ المقَوِّمُ من سهام ... حذار كريهةٍ يَوْمَ النضال
إذا كان العُبَيْدُ عُبَيْدَ سُوءٍ ... فإن الفضل من شِيَم المَوالي
وعهدي باقتحام عقاب نفسي ... فكيف وقفتُ دونك في ضلال
لو اسْتُنْطِقْتُ عن عجزي وضعفي ... لقلتُ فَرَضْتُمُ عين المحال
وها أنا واقفٌ في حال عجزي ... ضعيفٌ مثل رَبّات الحِجَال
بَعَثْتُ إليه حُسْنَ الظنّ مني ... وإلحافاً عظيماً في السؤال
وإن كان الطباعُ طباعَ سوء ... فحُسْنُ الظنّ من كرم الخِصَالِ
وَجُودُكَ قد تَحَقَّقَهُ رجائي ... وبعد تَحَقُّقِي ما أن أبالي
علمتُ بأنّ ذَنْبِيَ لو تَعَالَى ... لكان بجنب عَفْوِكَ في سفال
بلطفك قبل علمي كنتُ تاجاً ... فبعد العلم أُلْحَقُ بالنّعال
لقد أيَّدْتَني وشَددْتَ أَزْري ... بتوحيد يجلُّ عن المقال
بواقية الوليد مَنَنْتَ ربّي ... طَرَدْتَ بها القبيحَ من الفعال
أعاينِ ما أعاينُ من جمالٍ ... تَقَدَّسَ عن مكاشفة الخيال
وعن صُوَرٍ مقيَّدةٍ تعالى ... عن المِثْلِ المحقَّق في المثالي

فأَشْهَدُهُ ويَشْهَدُني فأفْنَى — كمالٌ في كمالٍ في كمالِ
ويأخذني لمشهده ارتياحٌ — كما نَشَطَ الأسيرُ من العِقَالِ
فما يلتذُّ بالحُسْنَى سوائي — لحسن عناية وصلاح بال
رأيت أهلَّةً طلعتْ شموساً — وأين الشمسُ من نُورِ الهلالِ
فنَفَّرتِ الظلامَ فلا ظلامٌ — ولا ليلٌ إلى يوم انْفِصَالِ
سُلِخْتُ عنايةً من لَيْلِ جسمي — كما سُلخ النهار من الليالي
فكان المَحْوُ إثْبَاتَ انْفِصَالٍ — وكان النُّورُ آياتِ اتّصالي
وبعد الوصل فاسْتَمِعَوا مقالي — دعاني للسُّجود مع الظِّلالِ

وإنّ وليك لما أراد النهوض في طريقه، والنفوذ إلى ما كان عليه في تحقيقه، اعترضت لوليك عقبة كؤود، حالت بينه وبين الشهود، والبلوغ إلى المقصود، والتحقق بحقائق الوجود، فخفت أن تكون عقبة القضا، لما لسيفه من المضا. فرأيتها صعبة المرتقى، حائلة بيني وبين ما أريده من اللقا فوقفت دونها في ليلة لا طلوع لفجرها، ولا أعرف ما في طيها من أمرها. فطلبت حبل الاعتصام، والتمسك بالعروة الوثقى عروة الإسلام. فنوديت: أن الزم الطلب ما بقيت. فعلمت أني بهذا الخطاب في صورة مثاليه، متجلية في حضرة خياليه. وأن علاقة تدبير الهيكل ما انقطع، وحكمه فيه ما ارتفع. فاستبشرت بزوال إفلاسي، عند رجعتي إلى إحساسي. فنظمت ما شهدت، وخاطبت وليي في نظمي ببعض ما وجدت. فإذا نظر وليي إليها، فليعوّل عليها. وليحذر من الأمن من مكر الله، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. فاسمع هديت، ما به على لساني نوديت: [مجزوء الرجز]

اعْتَرَضَتْ لي عَقَبَةٌ — وَسْطَ الطريق في السَّفَرْ
فأسفرتْ عن مِحَنٍ — فيمن طغى أو مَنْ كَفَرْ
مِنْ دونها جهنّمٌ — ذاتُ زَفِيرٍ وسُعُرْ
ترمي من الغَيْظ وجو — ه المجرمين بشَرَرْ
بُحُورُهَا قد سُجِرَتْ — وسَقْفُها قد انْفَطَرْ
وشَمْسُها قد كُوِّرتْ — ونَجْمُها قد انْكَدَرْ
أتيتكم أخبركم — لتعرفوا معنى الخَبَرْ
ولا تقولوا مثل مَنْ — قال فما تُغْنِي النُّذُرْ
فكان من أمرهم — ما قد سمعتم وذُكِرْ
قالوا وقد دَعَاكُمُ الدا — عي إلى شيء نُكُرْ
فيخرجون خُشَّعاً — مثلَ الجراد المُنْتَشِرْ
شُعْثاً حُفَاةً حُسَّراً — في يوم نَحْسٍ مُسْتَمِرْ
إلى عَذابٍ وتَوّى — إلى خُلُود في سَقَرْ
فلو ترى نَبِيَّهُمْ — حين دعاهم فازْدُجِرْ

وقد دعا مرسله ... أني ضعيفٌ فانْتَصِرْ
فقال يا عَيْنُ انسكبْ ... وأنت يا أرضُ انْفَجِرْ
حتى التقى الماءُ على ... أمْرِ حكيم قد قُدِرْ
فاضْطَفَقَتْ أمْواجُهُ ... وذاكُمُ البحرُ الزّخِرْ
فالحُكْمُ حُكْمٌ فاصلٌ ... والأمْرُ أمْرٌ مُسْتَقِرْ
وأمرُهُ واحدةٌ ... كمثل لَمْحِ بالبَصَرْ
سفينةٌ قامت مِنَ ألْـ ... ـواحِ نَجاةٍ ودُسُرْ
تجري بعينِ حِفْظِهِ ... وَغَدًا لمن كان كُفِرْ
تسوقها الأرواحُ عن ... أمْرِ مليكٍ مُقْتَدِرْ
أنزلها الجودُ على الـ ... ـجوديِّ فقالوا لا وَزَرْ
نَاداهُمُ الحَقُّ ٱخْرُجوا ... منها أنا عينُ الوزر
حَطُّوا وقالوا ربَّنا ... لديك نِعْمَ المُسْتَقَرْ
فيا سماءُ أقلعي ... من سَحٍّ ماءٍ مُنْهَمِرْ
وأنت يا أرضُ ابلَعي ... ماءك واخزن واحتكرْ
قد قُضِيَ الأمْرُ فمنِ ... كان عدوّاً قد غَبَرْ
تركتُها تذكرة ... لكم فهل من مُدَّكِرْ
وكل ما كان وما ... يكون منكم مُسْتَطَرْ
وإنَّ ما يفعلُه ... في الكون من خيرٍ وشَرْ
مقدَّر مؤقتٌ ... كذا أتانا في الزُّبُرْ
الموتُ سَمٌّ ناقعٌ ... والحشرُ أدهَى وَأَمَرْ
سفينُكم أجسامُكم ... في بحر دنيا قد زخر
وأنْتُمُ رُكَّابُها ... وأنْتُمُ على خَطَرْ
وما لكم من ساحلٍ ... غير القَضاء والقَدَرْ
فابْتَهِلُوا واجْتَهِدُوا ... فما مِنَ الله مَفَرْ
هذا الذي أشْهِدْتُهُ ... في ليلتي حتى السَّحَرْ
فازْدَجِرُوا واعْتَبِرُوا ... واتّعِظُوا بمن غَبَرْ
فالكلُّ والله بلا ... شكٍّ على ظَهْر سَفَرْ
من قبل ذا أشْهَدَني ... أمراً عجيباً فيه سِرْ
فاستمعوا نُطْقي به ... واعتبروا لَفْظ السكر
فالحمدُ لله الذي ... بفضله أعطى البَشَرْ
ما عندكم منها خَبَرْ ... بل عندنا منها الخَبَرْ
قلتُ تَرَى أين مضت ... قال مضتْ تقضي الوَطَرْ

قلت تُراها تَزعَوي قال نَعَمْ عند السَّحَرْ
قلتُ وهل تعرفُها قال نعم أُخْتُ القَمَرْ
قلتُ على من نَزَلَتْ قال على أبي البَشَرْ
قلت وماذا تَبْتَغي قال ضِرَاباً بالذَّكَرْ
ما يعرفُ السِّرَّ سوى والدتي أمّ البَشَرْ
تقول زِدْني يا فَتَى منه فنِغْمَ المُخْتَبِرْ
قبَّلْتُها عانَقْتُها حَلَّتْ معاقِدَ الأُزُرْ
طَعَنْتُ في مُسْتَهْدَفٍ أجْرَدَ ما فيهِ شَعَرْ
وعَرْفُهُ كأنه رِيحُ الخُزَامَى والعِطِرْ
وَجَدْتُهُ كمثل نا ر لمجوسٍ تَسْتَعِرْ
أردافُها كأنها أعجازُ نخلٍ مُنْقَعِرْ
يا نظرة قد أظهرت من الوجود ما ظَهَرْ
لولا النتاجُ لم يكن للسِّرِّ مَغْنًى في البَشَرْ
سرّ لنا وكُنْ له وجود خلق مُسْتَمِرْ
إذا التقى السرّ وكُنْ بَدَتْ لعينيك العِبَرْ
وقائل ذا مَثَلٌ قَرَّرَهُ لمن نَظَرْ
على القَنَا إذا بدا لمن يشاءِ فاعْتَبِرْ
قلتُ نعم وبَعدَ ذا فَهْوَ لأشياء أُخَرْ
هنا وفي الأخرى وحيـ ـث ما تَكُونُ فادَّكِرْ
قالوا وكيف، الأمرُ قُلْ فقلت سَمْعاً ما ستر
إذا الوليُّ أقْبَلَتْ زوجتُه على سُرُرْ
يُفْضي إليها بالذي يحمله من الصُّوَرْ
فعندما يَنْكِحُها تَصَوُّراً على صُوَرْ
من جِنْسِ ما لو ولدت كان على تلك الصّوَرْ
من ذي إمام حاكم أو ذات غُنْجٍ وحَوَرْ
فإن يكنْ أنثَى فَهِي وإن يكن هُوَ فذَكَرْ
مثل تجلّيه سوا تحوّلٍ بلا غِيَرْ

فليتدبر وليي ما سطرته، وليفكر فيما ذكرته، وليأخذه عبرة من البصر لبصيرته، ومن سره لسريرته، فقد آن أن يجيء زمان المحن، وقد علمت لما أوجدك، ورتبة الكمال الذي أشهدك، وما طلب منك إلا ما يقتضيه وجودك، ويقضي به شهودك، فإن أنصفت فقد عرفت، وإن تعاميت بعدما أراك ما قد رأيت فقد وهيت، فأسد المقالة سؤال الإقالة والسلام.

فسرّ بورود كتابي عليه، وأمعن بالنظر فيه وإليه، فأورثه التفكر فيه علة كانت سبب رحلته وسرعة نقلته، فما بقي إلا أياماً ودرج، وعلى أسنى معراج إلى مقصوده عرج، وشهدت احتضاره بالدار البيضاء إلى أن قضى، وسافرت من يومي لاستعجال قومي، فهذا بعض ما يحوي عليه هذا المنزل من الأهوال الصعاب التي تعظم في الشهود صورها.

واعلم أن الله ما ذكر أخبار القرون الماضية إلا لتكون على حذر من الأسباب التي أخذهم الله بها أخذته الرابية وبطش بهم البطش الشديد، وأما الموت فأنفاس معدودة وآجال محدودة، وليس الخوف إلا من أخذه وبطشه لا من لقائه، فإن لقاءه يسر الولي والموت سبب اللقاء فهو أسنى تحفة يتحفها المؤمن فكيف به إذا كان عالماً بخ على بخ.

ويتضمن هذا المنزل من العلوم: علم الرحمتين، وعلم قرب السعي من قرب الشبر والذراع وهو القرب المحدود، وعلم الرتق والفتق، وعلم المتشابه من المحكم، وعلم الأبد وعلوم الأدلة، وعلم الاتباع وما يسعد منه وما يشقي، وعلم ثبوت الأمور ومرتبة الحكم والحكم، وعلم الجزاء الوفاق، وعلم الخبر بالإجابة إلى المكروه كإجابة أولاد أم عيسى، وعلم التلبيس فيهبك متاعك من غير الوجهة التي تعرف منها أنه متاعك تلبيساً عليك فإذا انكشف الغطاء وكان البصر حديداً علمت أنه ما أعطاك إلا ما كان بيدك فما زادك من عنده ولا أفادك مما لديه إلا تغير الصور، فمن وقف على هذا العلم قال بالري في مشروبه، ومن حرمه لم يزل عاطشاً والماء عنده الذي يرويه ولا يشعر به أنه عنده، وهو من أسنى علم يوهبه العارفون بالله فهو كالمطر للأرض، وليس عين ما تطلبه من الارتواء سوى بخارها صعد منها بخاراً ثم نزل إليها مطراً فتغيرت صورته لاختلاف المحل فما شربت ولا ارتوت إلا من مائها ولو علمت ذلك ما حجبتها المعصرات، فتحقق هذا النوع من العلم في العلم الإلهي فما أعطاك إلا منك وما هو عليه فلا يعلمه منه إلا هو، فكل عالم فمن نفسه علمه، فلذلك قال أهل الله: لا يعرف الله إلا الله، ولا النبي إلا النبي، ولا الولي إلا الولي. ويتضمن أيضاً علم أسباب النجاة والسعادة، وعلم الامتحانات بالعسر واليسر للصابر والشاكر، وعلم المناسبة التي بها لم يمتثل أمر الله من عصى أمره ومن امتثله هل امتثله بأمر مناسب أو بعدم المناسب؟ وعلم سبب تأثير الأدنى في الأعلى كتسليط الحيوانات على الإنسان كقرصة البرغوث إلى ما فوقها وقال تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِّ﴾ [البقرة: ١٨٦] وعلم مشاركة الحيوانات الإنسان في العلوم عن التجلي، وعلم من ردّ كل ما أتاه من الحق من أين ردّه؟ ومن رد بعضه من أين رده؟ وهل يتساوى الحكم الإلهيّ فيهم أم لا؟ وعلم من أين انهزم الصحابة يوم حنين؟ وعلم مؤاخذة الأعلى بالأدنى إذا نصب دلالة نصبه من نصبه، وعلم السوابق واللواحق، وعلم الوحدة في عين الجمع، وعلم المراتب والدرجات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والثلاثون وثلاثمائة

في معرفة منزل الرؤية والقوّة عليها والتداني والترقي والتلقي والتدلي وهو من الحضرة المحمدية والآدمية

[الطويل]

عَجِبْتُ لعَيْنٍ كيف تدركُ عَيْنَها ... وتعجز عَنِ أدْرَاكِ من قَالَ أنَّها

ولم يَكُ مشهودٌ سواه وإنما ... شُهُودُ وُرُودِ الغَيْبِ عنها أجَنَّهَا

اعلم أيدك الله أن هذا المنزل بينه وبين المنزل الذي قبله تخالج لكون النبيّ ﷺ شبه رؤيتنا الله برؤيتنا القمر ليلة إبداره، والشمس ليس دونها سحاب، وأنه لا يدركنا في رؤيته ضيم ولا انضمام ولا ضرر يقوم بنا ولا مضاررة لغيرنا، وقد أبان ﷺ لأمته عن صورة تجلي الحق لعباده بقول ما قاله نبيّ لأمته قبله وبهذا أثنى الله عليه فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ولم يخص مؤمناً من كافر فقال ﷺ لما حذر من الدجال في دعواه الألوهية فقال: «**أَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلاً مَا قَالَهُ نَبِيٌّ لأُمَّتِهِ وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إلاَّ قَدْ حَذَّرَ أمتَهُ الدَّجَّالَ: ألا إنَّ الدَّجَّالَ أعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ**» فعرفنا بأي صورة نرى ربنا، ولا يقال إنه أراد صورة لا تقبل العور فكانت فائدة الإخبار، ترتفع، فإن تلك الصورة كانت تعطي بذاتها نفي العور عنها، وإنما لما كانت الصورة ممن يقبل ذلك بين لنا أنه ليس كذلك لما علم من قوع الشبه فيما وقعت فيه السلامة من العيب، وإنما كان الدجال أعور لأنه على نصف الصورة إذ لم يحز رتبة الكمال كما حازها أكثر الرجال.

ثم نرجع ونقول: إن موسى لما كلمه ربه أدركه الطمع فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فسأل ما يجوز له السؤال فيه، إذ كانت الرسل أعلم الناس بالله وأنه ذو إدراك يدركه به، وأنه المدرك بالإدراك لا الإدراك، فإنه عالم بأن الأبصار لا تدركه وإنما هي آلة يدرك بها، وإنما منع موسى من الرؤية لكونه سألها عن غير أمر إلهي أوحي به إليه فإنهم أدباء لا يتبعون إلا ما يوحى به إليهم ولا سيما في الجناب الإلهي فلهذا قيل له: لن تراني، ثم استدرك استدراك لطيف بعبده لما انتهى فيه حد عقوبة فوت الأدب بالسؤال ابتداء الذي حمله عليه شوقه فكان مثل السكران، فلما علم أن اليأس قد قام به فيما طلبه استدرك بالإحالة على الجبل في استقراره عند التجلي والجبل من الممكنات فتجلى له ربه فاندكّ عند ذلك التجلي لكون روحه ما أوجده الله لحفظ الصورة على الجبل مثل الأرواح المدبرة، وإنما أوجده ليكون مسبحاً له، فلذلك لم تحفظ عليه صورة الجبلية وأثر فيه التجلي وحفظ روح موسى عليه السلام على موسى في صعقه عند رؤية ما رآه الجبل الذي كان حجاباً عليه صورة نشأته، فلما أفاق رجع موسى موسى وما رجع الجبل جبلاً علم موسى أنه قد وقع منه ما كان ينبغي له أن لا يقع إلا بأمر إلهي فقال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ لما علم أن الله يحب التوّابين ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] بوقوع هذا الجائز، إذ ما تقدم لأحد من هذا النوع الإنساني أنه

سأل ربه رؤيته ولا أنه رآه فلذلك ادعى موسى أنه أوّل المؤمنين ثم أعلمنا ﷺ أنه «**ما منّا أحدٌ إلا سَيرى رَبّه ويكَلّمه كِفَاحاً**»، وهذا كله إعلام بالصورة التي يتجلى لنا فيها وهي الصورة التي خلقنا عليها، ونحن نعلم قطعاً أن ذوق الرسل فوق ذوق الأتباع بما لا يتقارب، فلا تظن أن سؤال موسى رؤية ربه أنه فاقد للرؤية التي كانت حالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في قوله: «ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله»، هذه الرؤية ما هي الرؤية التي طلبها موسى من ربه فإنها رؤية حاصلة له لعلوّ مرتبته، فإن ذوق الصادق ما هو ذوق الصديق، فالرؤية ثابتة بلا شك ذوقاً ونقلاً لا عقلاً، فإن رؤية الله تعالى من محارات العقول ومما يوقف عندها ولا يقطع عليها بحكم من أحكامها الثلاثة، إذ ليس للأنبياء ولا للأولياء من أهل الله علم بالله يكون عن فكر قد طهرهم الله عن ذلك بل لهم فتوح المكاشفة بالحق، فمن الرائين من يراه ولا يقيد ومنهم من يراه به، ومنهم من يراه بنفسه، ومنهم من لا يراه عنده وهو قد رآه ولا يعلم أنه رآه، لأن هذا الصنف ليس بصاحب علامة في الحق ولا يعرف صورة ظهوره في الوجود، ومنهم من لا يراه لعلمه بأن عينه لا تظهر هنا للعالم إلا بصور أحكام أعيان العالم وهو مجلاها فلا يقع الإدراك من الرائي إلا على صورة الحكم لا على العين فيعلم أنه ما رآه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] وهو العزيز الذي لا يرى من حيث هويته الحكيم في تجليه حتى يقال إنه رأى، انظر إلى الصورة الظاهرة للعين في الجسم الصقيل وحقق رؤيتك فتجد تلك الصورة قد حالت بينك وبين إدراكك عين الجسم الصقيل الذي هو مجلاها فلا تراه أبداً، والحق مجلى صور الممكنات فلم ير العالم إلا العالم في الحق لا بالحق وبالحق.

ثم لتعلم أن المرئي الذي هو الحق نور، وأن الذي يدركه به الرائي، إنما هو نور فنور اندرج في نور فكأنه عاد إلى أصله الذي ظهر منه فما رآه سواه، وأنت من حيث عينك عين الظل لا عين النور بل النور ما تدرك به كل شيء والنور من الأشياء، فلا تدركه إلا من كونك حاملاً للنور في عين ظلك والظل راحة والظلمة حجاب، فإذا طلع كوكب الحق ووقع في قلب العبد استنار به القلب وأضاء، فأزال عن صاحبه الحيرة والخوف فأخبر عن ربه بالصريح والإيماء وأنواع الإخبارات.

واعلم أن الأنبياء ما اختارت النوم على ظهورها إلا لعلمها أنه كل ما قابل الوجه فهو أفق له إذ كان لا يقابل الوجه إلا الأفق، وثم أفق أدنى أي أقرب إلى الأرض، وثم أفق أعلى وهو ما تقابله بوجهك عند استلقائك على ظهرك، وإذا كان التجلي في الصور دخله الحد والمقدار وأقرب القرب في ذلك أن يكون عين الخط الذي به تقسم الدائرة نصفين لظهور القوسين اللذين قرب بعضهما من بعض هو القرب الأوّل، والقرب الثاني القرب الخطي الذي هو أقرب من حبل الوريد، ولا تكون رؤية الحق أبداً حيث كانت إلا في منازلة بين عروج ونزول، فالعروج منا والنزول منه، فلنا التداني وله التدلي، إذ لا يكون التدلي إلا من أعلى، ولنا الترقي، وله تلقي الوافدين عليه، وذلك كله إعلام بالصورة التي يتجلى فيها لعباده، وأنها ذات حد ومقدار ليدخل مع عباده تحت قوله في حكمه: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:

٢١] وكل شيء خلقناه أي جعلناه بقدر، والرؤية مخلوقة فهي بقدر، والتنوّع في التجلي ظهور محدث عن المتجلى له فهو بقدر، ألا ترى تجليه بالحكم في الأعيان المتخذة آلهة للغيرة الإلهية حيث حكم وقضى أنه لا يعبد إلا إياه، وكذا أخبر فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] فعلماء الرسوم يحملون لفظ قضى على الأمر، ونحن نحملها على الحكم كشفاً وهو الصحيح، فإنهم اعترفوا أنهم ما يعبدون هذه الأشياء ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فأنزلوهم منزلة النواب الظاهرة بصورة من استنابهم، وما ثم صورة إلا الألوهية فنسبوها إليهم، ولهذا يقضي الحق حوائجهم إذا توسلوا بها إليه غيرة منه على المقام أن يهتضم، وإن أخطؤوا في النسبة فما أخطؤوا في المقام ولهذا قال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [النجم: ٢٣] أي أنتم قلتم عنها أنها آلهة وإلا فسموهم، فلو سموهم لقالوا هذا حجر أو شجر أو ما كان، فتتميز عندهم بالاسمية، إذ ما كل حجر عبد ولا اتخذ إلهاً ولا كل شجر ولا كل جسم منير ولا كل حيوان ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] عليهم بقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣]. واعلم أنه لولا الهوى ما عبد الله في غيره، وأن الهوى أعظم إله متخذ عبد فإنه لنفسه حكم وهو الواضع كل ما عبد، وفيه قلت: [الطويل]

وحَقِّ الهَوَى إنَّ الهَوَى سَبَبُ الهوى ... ولولا الهَوَى في القَلْبِ ما عُبِدَ الهَوَى

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] فلولا قوّة سلطانه في الإنسان ما أثر مثل هذا الأثر فيمن هو على علم بأنه ليس بإله، فإذا كان يوم القيامة جسد الله الهوى كما يجسد الموت لقبول الذبح، فإذا جسده قرره على ما حكم به فيمن قام به فحار وجاء بإله عليه فعذب في صورته وأفرد المحل عنه فحصل في النعيم وتجسد المعاني لا تنكر عندنا ولا عند علماء الرسوم، فحكمه في هذا مثل الحكم الذي في قوله: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ من في قَلْبه مثقالُ ذَرَّة من كِبرٍ**»، فكان شيخنا أبو مدين رضي الله عنه يقول صدق يزال فيدخل صاحبه الجنة دونه ويبقى هو في النار صورة مجسدة أو يعود الكبر إلى من هو له فيأخذ كل ذي حق حقه.

واعلم أن الآلهة المتخذة من دون الله آلهة طائفتان: منها من ادعت ما ادّعي فيها مع علمهم في أنفسهم أنهم ليسوا كما ادعوا وإنما أحبوا الرياسة وقصدوا إضلال العباد كفرعون وأمثاله وهم في الشقاء إلا إن تابوا وهم ممن تشهد عليهم ألسنتهم بما نطقت به من هذه الدعوى فما دونها مما يجب عنه السؤال فتنكر، ومنها من ادّعت ذلك على بصيرة وصحو وتحقق معرفة في مجلس لقرينة حال اقتضاها المجلس لما رأوا أن الحق عين قواهم وما هم هم إلا بقواهم وبقواهم يقولون ما يقولون، فقواهم القائلة لا هم وهي عين الحق كما أخبر الحق وكما أعطاه الشهود بانخراق العادة في قولهم عندهم فقالوا أنا الله، وإني أنا الله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] كأبي يزيد ممن نقل عنه مثل هذا مع صحوه وثبوته وعلمه بأن الحق هو الظاهر بأفعاله في أعيان الممكنات، وأنه في بعض الأعيان قد نص أنه هو، وفي بعض الأعيان لم يذكر أنه هو، ولذلك قال بعض العارفين في حق التلميذ الذي استغنى بالله

على زعمه عن رؤية أبي يزيد: لأن يرى أبا يزيد مرة خير له من أن يرى الله ألف مرة فعبر أبو يزيد فقيل له هذا أبو يزيد فعندما وقع بصره عليه مات التلميذ، فقيل لأبي يزيد في موته فقال: رأى ما لا يطيق لأنه تجلى له من حيث أنا فلم يطقه، كما صعق موسى لأن الله من حيث أنا مجلاه أعظم من حيث المجلى الذي كان يشهده فيه ذلك المريد، ومنها من ادّعت ذلك في حال سكر كالحلاج فقال قول سكران فخبط وخلط لحكم السكر عليه وما أخلص: [مجزوء الرمل]

قد تَصَبَّرْتُ وهَلْ يصْـ ... ـبِرُ قلبي عن فُؤادي
مَازَجَتْ رُوحُك رُوحي ... في دُنُوِّي وبعادي
فأنا أنتَ كما أنـ ... ـك أنّي ومُرَادي

فهذا سعد، وإن شقي به آخرون فلا جناح عليه ولا حرج لأنه سكران وهم المسؤولون، ومثل هذا أيضاً يلحق بأهل السعادة وإن ضل به عالم فما إضلالهم بمقصود له، فهؤلاء أصناف ثلاثة ادّعوا الألوهة لأنفسهم، فشقي بها واحد من الثلاثة وسعد اثنان وأما الطائفة الأخرى فادعيت فيها الألوهة ولم تدعها لنفسها، كالأحجار والنبات والحيوان، وبعض الأناسي والأملاك والكواكب والأنوار والجن وجميع من عبد واتخذ إلهاً من غير دعوى منه فهؤلاء كلهم سعداء، والذين اتخذوهم إذا ماتوا على ذلك أشقياء، ومن هؤلاء تقع البراءة يوم القيامة من الذين اتخذوهم آلهة من دون الله ما لم يتوبوا قبل الموت ممن يقبل صفة التوبة وليس إلا الجن وهذا النوع الإنساني، ومهما علم بذلك المتخذ ولم ينصح ولا وقعت منه البراءة هنا مع كونه لم يدع ذلك ولكنه سكت، فإذا عذب الله غداً المشركين الذي ذكرهم الله أنه لا يغفر لهم فإنما يعذبهم من حيث أنهم ظلموا أنفسهم ووقعوا في خلق بكلام ودعوى ساءتهم وتوجهت منهم عليهم حقوق في أغراضهم يطلبونهم بها فمؤاخذة المشركين لحق الغير لا من جهة نفسه تعالى، وظلم أنفسهم أعظم من ظلم الغير عند الله بدليل ما جاء في الذي يقتل نفسه من تحريم الجنة عليه فعظم الوعيد في حقه، فإذا كان يوم القيامة وأدخل المشركون دار الشقاء وهي جهنم أدخل معهم جميع من عبدوه، إلا من هو من أهل الجنة وعمارها فإنهم لا يدخلون معهم، لكن تدخل معهم المثل التي كانوا يصوّرونها في الدنيا فيعبدونها لكونها على صورة من اعتقدوا فيه أنه إله فهم يدخلون النار للعقاب والانتقام، والمعبودون يدخلونها لا للانتقام فإنهم ما ادعوا ذلك ولا المثل، وإنما أدخلوها نكاية في حق العابدين لها، فيعذبهم الله بشهودهم إياهم حتى يعلموا أنهم لا يغنون عنهم من الله شيئاً لكونهم ليسوا بآلهة كما ادعوه فيهم، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وقد قرىء: ﴿حطب جهنم﴾ وقال: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] وقال: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٩] وقال فيمن عبد من أهل السعادة كمحمد وعيسى عليهما السلام والخلفاء من بعده ومن ذكرناه من

مدع عن صحو وعن سكر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢] فمن كان مشتهاه ربه فهذه صفته وإنما قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ لما يؤثر ذلك السماع في صاحبه من الخوف لأنه ليس هو في تلك الحال بصاحب غضب فيلتذ بالانتقام، فإن الغضب لله إنما يقع في دار التكليف وهنالك لا نصيب للغضب في السعداء فإنه موطن شفاعة وشفقة ورحمة من السعداء، فلا يغضب في ذلك الموطن إلا الله، والسعداء مشغولون بالله في تسكين الغضب الإلهي بما تعطيه أنواع التسكين كما يقول محمد ﷺ في بعض المواطن: «**سُحْقاً سُحْقاً**» طلباً للتسكين والموافقة ثم بعد ذلك يشفع في تلك الطائفة عينها لتنوع ما يظهر الحق به في ذلك الموطن، فمن سمع حسيسها من السعداء الأكابر أثر ذلك السماع فيهم خوفاً على أممهم لا على نفوسهم فإذا بلغت بهم العقوبة حدها وانقضت فيهم بالعدل مدتها جسدت أهواؤهم التي بها عبدوا غير الله على صور ما اعتقدوه إلهاً حين عبدوه وعلى صور بواطنهم، فوقع العذاب بصور مجسدة ليبقى حكم الأسماء دائماً، ويبقى سكان الدار من الناس حيث هم أهلها في نعيم بها ينظرون إلى صور أهوائهم معذبة فينعمون بها، فإنها دار تتجسد فيها المعاني صوراً قائمة يشهدها البصر كالموت في صورة كبش أملح فيذبحه يحيى عليه السلام بين الجنة والنار لأن الحياة ضد الموت، فلا يزول الموت إلا بوجود الحياة، وبهذه الصور المخلوقة يكون ملء النار والجنة، فإنه أخبر الجنة والنار أنه سبحانه يملأ كل واحدة فقال لهما إن لكل واحدة منكما ملأها فإذا نزلوا فيها وبقي منها أماكن لم يبلغها عمارة أهلها أنشأ إرادات أهل الدارين صوراً قائمة ملأهما بها، وهذه الصور من الفرقتين المعبر عنهما بالقدمين، ففي أهل السعادة أن لهم قدم صدق عند ربهم أي سابق عناية بأن يخلق إرادتهم طاعة الله وعبادته صوراً متجسدة وأعمالهم وقد ورد أن أعمال العباد ترد عليهم في قبورهم في صور حسنة تؤنسهم، وفي صور قبيحة توحشهم، فتلك الصور تدخل معهم في دار السعادة والشقاء وبها يكون ملؤهما، وأما دار الشقاء، إذا طلبت ملأها من الله وضع فيها الجبار قدمه فلهم قدم أيضاً كما كان لأهل السعادة أي سابق عناية يظهر العذاب في ذلك القدم وهو أهواؤهم، فدار السعداء التي هي الجنة نعيم كلها ليس فيها شيء يغاير النعيم، ودار الأشقياء ممتزجة بين منعم ومعذب، فإن فيها ملائكة العذاب لهم نعيم في تعذيب من سلطهم الله عليه فلا نعيم لهم إلا بالانتقام لله وهم أصحاب تكليف بأمر لا بنهي، فهم يسارعون إلى امتثال أوامر الله ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] فلا يبقى عذاب في النار بعد انقضاء مدته إلا العذاب الممثل المتخيل في حضرة الخيال لبقاء أحكام الأسماء فإنه ليس للاسم إلا ما تطلبه حقيقته من ظهور حكمه وليس له تعيين حضرة ولا شخص، وإنما ذلك من حكم الاسم العالم والمريد، فحيث ظهر حكم المنتقم من جسد أو جسم أو ما كان فقد استوفى حقه بظهور حكمه وتأثيره، فلا تزال الأسماء الإلهية مؤثرة حاكمة أبد الآبدين في الدارين وما أهلهما منهما بمخرجين.

ولما كانت الرؤية لأهل الجنان جعل الحجاب في مقابلته لأهل النار، وحجابهم مدة عذابهم حتى لا تزيدهم الرؤية عذاباً كما زادتهم السورة القرآنية هنا رجساً إلى رجسهم ومرضاً إلى مرضهم، فإذا انقضت المدة بقي الحجاب دونهم مسدلاً لينعموا، فإنه لو تجلى لهم هنالك مع ما تقدم لهم من الإساءة واستحقاق العقوبة أورثهم ذلك التجلي الإحسانيّ حياء من الله مما جرى منهم والحياء عذاب وقد انقضت مدته وهم لا يعلمون لذة الشهود والرؤية فلهم نعيم بالحجاب والغرض النعيم وقد حصل ولكن بمن؟ فأين النعيم برؤية الله من النعيم بالحجاب فهم عن ربهم يومئذ محجوبون، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الباب الثاني والثلاثون وثلاثمائة
في معرفة منزل الحراسة الإلهية لأهل المقامات المحمدية وهو من الحضرة الموسوية

[الخفيف]

كُلُّ مَن مَالَ لاستدارة كَوْنِ ... فَهُوَ طَوْرٌ وجمعُه أطْوَارُ
وهو عطفُ الإلهِ ليس سواه ... فهو سِرٌّ في كوننا مستعارُ
بَدْءُ أعياننا به لوجوب ... يحكمُ العقلُ فيه والاضطِرَارُ
لو تَنَاهَى الوجود ما كان كَوْراً ... فلهذا عَقْلُ اللبيب يَحَارُ

اعلم أيدك الله أن الله تعالى يقول في حق موسى عليه السلام معرفاً إيانا ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [مريم: ٥٢] فجعل النداء من الطور لانحنائه لأنه خرج في طلب النار لأهله لما كان فيه من الحنوّ عليهم الذي أورثه الانحناء على من خلق من الانحناء وهي أهله لأنها خلقت بالأصالة من الضلع والضلع له الانحناء، وكان الانحناء في الأضلاع لاستقامة النشأة وحفظ ما انحنت عليه من الأحشاء لتعم بانحنائها جميع ما تحتوي عليه فتتساوى أجزاؤها في الحفظ لها، بخلاف ما لو كانت على غير استدارة لكانت فيها زوايا فارغة بعيدة من الحفظ الذي خلقت له، ووقع التجلي لموسى في عين صورة حاجته فرأى ناراً، لأنها مطلوبه فقصدها فناداه ربه منها وهو لا علم له بذلك لاستفراغه فيما خرج له وهو قولنا في قصيدة لنا في جزء الزينبيات: [البسيط]

كنَار موسى يراها عَيْنَ حاجته ... وهو الإلهُ ولكن ليس يَدْرِيهِ

واعلم أن الله ما خلق الذي خلق من الموجودات خلقاً خطياً من غير أن يكون فيه ميل إلى الاستدارة أو مستديراً في عالم الأجسام والمعاني، وقال تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهو ما علا ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ وهو ما سفل إذ لا أسفل منها أنه ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فوصف نفسه بأنه لكل شيء حفيظ، والحفظ حنوّ من الحافظ على المحفوظ فيكون في شكل كل صورة الأجسام انحناء، وفي المعاني والأرواح حنوّ.

فلنذكر سبب ميل الأجسام إلى الاستدارة؛ وذلك أن أوّل شكل قبله الجسم الاستدارة وهو المسمى فلكاً أي مستديراً، وعن حركة ذلك الفلك ظهر عالم الأجسام علواً وسفلاً، فمنه ما ظهر بصورة ذات الأصل وهو كل من كملت فيه الاستدارة والتقى طرفا الدائرة، ومن نقص عن هذه الصورة لا بد أن يوجد فيه ميل إلى الاستدارة يظهر ذلك حساً في الأجسام حتى في أوراق الأشجار والأحجار والجبال والأغصان، فما في عالم الأجسام خط غير مائل إلا بالفرض والتوهم لا بالوقوع، وإنما ظهر الجسم بصورة الاستدارة أعني الجسم الكل الظاهر بالشكل لأن الله أراد أن يملأ به الخلاء، فلو لم يكن مستدير الشكل لبقي في الخلاء ما ليس فيه ملأ والخلاء استدارة متوهمة لا في جسم، وإنما وقع الأمر هكذا لصدور الأشياء عن الله ورجوعها فمنه بدأ وإليه يعود، فلا بدّ أن يكون هذا الأمر في عالم الشكل صورة دائرة لأنه لا يعود إليه على الطريق الذي خرج عليه، وإنما امتداده ينتهي إلى مبدئه، ولا يكون ذلك في الشكل الخطي لأنه لو كان لم يعد إليه أبداً وهو عائد إليه، فلا بدّ من الاستدارة فيه معنى وحساً. ومن خلقه العالم على الصورة أن خلقه مستدير الشكل فانظر في حكمة الله.

ولما كان المرجع إليه ليظهر الحنوّ الذي صورته انحناء لذلك عمت رحمته جميع الموجودات ووسعت كل شيء كما وسع هو كل شيء رحمة وعلماً ولم يجر للغضب ذكر في هذه السعة الإلهية والرحمانية، فلا بدّ من مآل العالم إلى الرحمة لأنه لا بد للعالم من الرجوع إلى الله فإنه القائل ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فإذا انتهت رجعته إليه عاد الأمر إلى البدء والمبدا والمبدي والمبدأ رحمة وسعت كل شيء والمبدي وسع كل شيء رحمة وعلماً، فغرف الأمر في عوده في الرحمة فيأمن من تسرمد العذاب على خلق الله أين أنت من هذا الشهود لولا سبق الرحمة الشاملة العامّة الامتنانية لتسرمد العذاب على من ينفي رحمة الله من هذه السعة التي ذكر الله فيها، ولكن سبق الرحمة جعله أن يبدو له من الله من الرحمة به مع هذا الاعتقاد ما لم يكن يحتسبه، فما آخذه الله بجهله لأنه صاحب شبهة في فهمه، فعين بصيرته مطموس وعقله في قيد الجهالة محبوس، وما في الحيوان من جري في مسكنه وعمارة بيته وإقامة صورته على شكل العالم مثل النحل فسدست صور بيوتها حتى لا يبقى خلاء كما سد الشكل الكروي الخلاء فلم يبق خلاء وعمرت بيتها بالعسل الذي هو ملذوذ نظير الرحمة الإلهية التي عمت الوجود وغمرته، وما عمرته بذلك في حق غيرها وإنما عمرته في حق نفسها؛ وكذا صدر العالم على هذه الصورة فما من شيء من العالم إلا وهو يسبح بحمده، فلنفسه أوجده لأنه ما شغله إلا به، وقال فيمن جعل فيه استعداداً يمكن أن يسعى به لنفسه ولغير الله فنبه أنه ما خلقهم إلا لعبادته فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فكونهم ما فعل بعضهم ما خلق له لا يلزم منه بالقصد المذكور أنه خلق لما تصرّف فيه ولذلك يسأل ويحاسب كما وقع فيما اختزنته النحلة لنفسها وأظهرته منها لقوام ذاتها فأخذه من أخذه وتحكم فيه في غير ما أوجدته له ولما كان الأمر كما ذكرناه في النحل دون غيره لذلك أخبرنا الله عنها أنه أوحى إليها دون غيرها من الحيوان ،وقال فيما يخرج من بطونها إنه شفاء

للناس فأنزله منزلة الرحمة التي وسعت كل شيء وما ذكر له مضرّة وإن كان بعض الأمزجة يضرّه استعماله ولكن ما تعرّض لذلك أي أن المقصود منه الشفاء بالوجود كما المقصود بالغيث إيجاد الرزق الذي يكون عن نزوله بالقصد، وإن هدم الغيث بيت الشيخ الفقير الضعيف فما كان رحمة في حقه من هذه الجهة الخاصة ولكن ما هي بالقصد العام الذي له نزل المطر، وإنما كان ما كان من استعداد القابل للتهدم لضعف البنيان، كما كان الضرر الواقع لآكل العسل من استعداد مزاجه لم يكن بالقصد العام.

واعلم أن حفظ الله للعالم إنما هو لإبقاء الثناء عليه بلسان المحدثات بالتنزيه عما هي عليه من الافتقار فلم يكن الحفظ للاهتمام به ولا للعناية بل ليكون مجلاه وليظهر أحكام أسمائه، وكذا خلق الإنسان على صورته فقال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] فجعله لا يسعى إلا لنفسه، ولهذا قرن بسعيه الأجر حتى يسعى لنفسه، بخلاف من لا أجر له من العالم الأعلى والأسفل، وليس بعد الرسل ومرتبتهم في العلم بالله مرتبة فهم المطرقون والمنبهون، ومع هذا فما منهم من رسول إلا قيل له قل لأمّتك ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على ما بلغتكم ﴿مِّنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٧٢] فإنه الذي استخدمه وأرسله فالأجر عليه، فما سعوا ولا بلغوا إلا في حظوظ نفوسهم، لكن الفرق بين العلماء من أهل الله وبين العامّة أنهم علموا ما الأجر ومن صاحبه ومن يطلبه منهم ممن لا يطلبه ولمن يرجع ذلك الحكم؟ فكل ساع في أمر فإنما يسعى لنفسه كان ذلك الساعي من كان لا يستثنى ساع من ساع بل الأمر كله لله.

وتختلف الأجور باختلاف المقاصد فأعلاها حب المدح والثناء فإنها صفة إلهية ولأجلها أوجد الله العالم ناطقاً بتسبيحه بحمده، ودون ذلك من الأجور طلب الزيادة من العلم بالكوائن، ودون ذلك من الأجور ما تطلبه الطبيعة من القوى الروحانية لوجود الانفعال كثيراً عنها، ودون ذلك ما تطلبه الطبيعة من القوى الحسية لمجرد الالتذاذ الذي للروح الحيواني به، وليس وراء ذلك أجر يطلب، فما ذكرنا سعياً إلا وهو حظ للنفس الساعية، فإذا علمت حفظ الله العالم علمت قوله تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]فكثر فقال فإنك بأعيننا فكثر، فكل حافظ في العالم أمراً ما فهو عين الحق، إذ الحفظ لا يكون إلا ممن لا يغالب على محفوظه ولا يقاوى على حفظه، فكن حافظاً، لما أنت به تكن عين الحق في وجوده، فحفاظ العالم لهم هذه المنزلة وهم لا يعلمون أنهم أعين الحق، وذلك ليعلم فضل أهل الشهود والوجود على غيرهم، وإن وقع الاشتراك في الصفة، ولكن ليس من علم منزلته من حضرة الحق مثل من لم يعلم ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فهذا إعلام بأنهم علموا ثم طرأ النسيان على بعضهم، فمنهم من استمر عليه حكم النسيان ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ﴾ [التوبة: ٦٧] ومنهم من ذكر فتذكر وهم ﴿أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ولب العقل هو الذي يقع به الغذاء للعقلاء فهم أهل الاستعمال لما ينبغي أن يستعمل، بخلاف أهل العقول فإنهم أهل قشر زال عنه لبه فأخذه أولو الألباب فعقلوا وما استعملوا ما ينبغي أن يستعملوه، لأن العقل لا

يستعمل إلا إذا كان قشراً على لب، فاستعمال العقل بما فيه من صفة القبول لما يرد من الله مما لا يقبله العقل الذي لا لب له من حيث فكره، فلهذا أهل الله هم أهل الألباب لأن اللب غذاء لهم فاستعملوا ما به قوامهم، وأهل العقل هم الذين يعقلون الأمر على ما هو عليه إن اتفق وكان نظرهم في دليل، فإذا عقلوا ذلك كانوا أصحاب عقل، فإن استعملوه بحسب ما يقتضي استعمال ذلك المعقول فهم أصحاب لب: [الطويل]

وفي اللُّبِّ لُبُّ الذُّهْنِ إنْ كُنتَ تعلمُ وفي الذُّهْن إمدادٌ لمن كان يَفْهَمُ

فمن رزق الفهم من المحدثات فقد رزق العلم، وما كل من رزق علماً كان صاحب فهم، فالفهم درجة عليا في المحدثات، وبه ينفصل علم الحق من علم الخلق فإن الله له العلم ولا يتصف بالفهم والمحدث يتصف بالفهم وبالعلم، وفي الفهم عن الله يقع التفاضل بين العلماء بالله، والفهم متعلقه الإمداد الإلهيّ الصوري خاصة، فإن كان الإمداد في غير صورة كان علماً ولم يكن هناك حكم للفهم لأنه لا متعلق له إلا في هذه الحضرة، فلهذا يسمى مستفيداً لما استفاده من فهمه، إذ لا يصح لمستفيد استفادة من غير حالة الانتقال من محل العالم المعلم إلى محل المتعلم، فما استفاد ما استفاد إلا من فهمه، فللمعلم إنشاء صور ما يريد تعليمها للطالب المتعلم وللمستفيد الفهم عنه، فلولا قوّة الفهم ما استفاد، فكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ولا الأحياء ولا الأموات كذلك ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ﴾ وهو الذي لا يفهم فيعلم ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٩] الذي يفهم فيعلم، كما لا تستوي الحسنة ولا السيئة، فلا يستوي الحق والخلق فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ فأعلم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فأبهم فحير العقول والفهوم بين الإعلام والإبهام، غير أن الرحمة لما عمت عاملهم الحق بما أداهم إليه اجتهادهم أصابوا في ذلك أم أخطؤوا طريق القصد بالوضع، إذا لا خطأ من هذا الوجه في العالم إلا على ما ذكرناه من إضافة شيء إلى غير ما أضيف إليه في نفس الأمر، كمن يطلب الشيء من غير سببه الذي وضع له، فله أجر الطلب لا أجر الحصول لأنه لم يحصل فهو طالب في الماء جذوة نار، فكان في الإبهام عين المكر الإلهيّ، فالعالم يلحق الفروع بأصولها على بصيرة وكشف والمبهم عليه يلحق الفروع بالأصول فإن وافقت أصولها فبحكم المصادفة وهو يتخيل أنها أصل لذلك الفرع، فإذا صادف سمي خيالاً صحيحاً وإن لم يصادف سمي خيالاً فاسداً، فلولا الإبهام ما احتيج إلى الفهم فهي قوّة لا تتصرّف إلا في المبهمات الممكنات وغوامض الأمور، ويحتاج صاحب الفهم إلى معرفة المواطن، فإذا كان الميزان بيده الموضوع الإلهيّ عرف مكر الله وميزه، ومع هذا فلا يأمنه في المستقبل لأنه من أهل النشأة التي تقبل الغفلات والنسيان وعدم استحضار العلم بالشيء في كل وقت، ولا فائدة في إلحاق الفروع بأصولها إلا أن يكون للفروع حكم الأصول، وأصل وجود العالم وجود الحق، فللعالم حكم وجود الحق وهو الوجوب من حيث ما هو وجوب.

ثم كون الوجوب ينقسم إلى وجوب بالذات وإلى وجوب بالغير هذا أمر آخر، وكذلك أصل وجود العلم بالله العلم بالنفس، فللعلم بالله حكم العلم بالنفس الذي هو أصله، والعلم

بالنفس بحر لا ساحل له عند العلماء بالنفس فلا يتناهى العلم بها هذا حكم علم النفس. فالعلم بالله الذي هو فرع هذا الأصل يلحق به في الحكم فلا يتناهى العلم بالله، ففي كل حال يقول: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فيزيده الله علماً بنفسه ليزيد علماً بربه هذا يعطيه الكشف الإلهيّ وذهب بعض أصحاب الأفكار إلى أن العلم بالله أصل في العلم بالنفس، ولا يصح ذلك أبداً في علم الخلق بالله وإنما ذلك في علم الحق خاصة وهو تقدم وأصل بالمرتبة لا بالوجود، فإنه بالوجود عين علمه بنفسه عين علمه بالعالم، وإن كان بالرتبة أصلاً فما هو بالوجود كما تقول بالنظر العقلي في العلة والمعلول وإن تساوقا في الوجود ولا يكون إلا كذلك، فمعلوم أن رتبة العلة تتقدم على رتبة المعلول لها عقلاً لا وجوداً، وكذلك المتضايفان من حيث ما هما متضايفان وهو أتم فيما نريد، فإن كل واحد من المتضايفين علة ومعلول لمن قامت به الإضافة، فكل واحد علة لمن هو له معلول، ومعلول لمن هو له علة، فعلة البنوّة أوجبت للأبوّة أن تكون معلولة لها، وعلة الأبوة أوجبت للبنوّة أن تكون معلولة لها ومن حيث أعيانهما لا علة ولا معلول.

واعلم أنه مما يتعلق بهذا الباب كون العالم عيالاً لله تعالى وبعضه اتخذه أهلاً فقال عليه السلام في الخبر الوارد عنه: «**إِنَّ الخَلْقَ عِيالُ الله**» وأخبر في آخر: «**إِنَّ أَهْلَ القُرْآنِ هُمْ أَهْلُ الله وَخَاصَّتُهُ**» والأهلية منزلة خصوص واختصاص من العموم، وجعل الرحم التي منها ظهر أولو الأرحام فينا شجنة من الرحمن، كما أن الولد شجنة من أبويه وجعل له سبحانه نسباً بينه وبين عباده وهو التقوى، فيضع أنساب العالم يوم القيامة ويرفع نسبه فيعم لأنه ما ثم إلا من يتقيه، ومن اجترأ عليه فمن كونه أجرأه عليه بما ذكر من حكم نعته بالعفو والتجاوز والصفح والمغفرة وعموم الرحمة فأشهدهم هذه النعوت وليس لها أثر يظهر حكمه عموماً لكل ناظر إلا في العصاة ولا سيما العفو، فكل عاص ما اجترأ على الله إلا به وهو من حيث نفسه متق لله فإن النسب ما للأحوال فيه أثر إذا هو صح، وما اعتبر الله إلا النسب الدينيّ وبه يقع التوارث بين الناس، فإذا اجتمع في الشخص النسب الدينيّ والطينيّ حينئذ له أن يحجب ما يحجبه من النسب الدينيّ والطينيّ، فإذا لم يكن له نسب طينيّ وله نسب ديني رجع على دينه لم يحجبوا بالنسب الطينيّ وراثته عن النسب الديني فورثه المسلمون، أو يكون كافراً فيرثه الكفار، وإن كان ذو نسب طيني وليس له نسب ديني فيرثه المسلمون فما إلا خرج عن دينه تعالى، فإن نسب التقوى يعم كل نحلة وملة إن عقلت، فمن حيث إن العالم عيال الله رزقهم ومن حيث إن فيهم من هو أهل له اعتنى بهم فأشفق عليهم، ومن حيث إنهم مخلوقون على الصورة على وجه الكمال استنابهم، ومن حيث إن بعضهم على بعض الصورة مرفق بهم، ومن حيث النسب المذكور نظر إليهم الاسم الرحمن بالوصل وانتظام الشمل، فمن كل وجه له نظر إليهم بالإحسان ولهذا تسمى بالبرّ الرحيم، والبرّ معناه المحسان. وهذا القدر كاف في الكلام في هذا المنزل، فلنذكر ما يتضمن من العلوم:

فمنها علم أفضل الأشكال، ومنها علم الكتب ومراتبها ومعرفة المبين منها من المنير من

الحكيم من الكريم من المحصي من المسطور من المرقوم من المعنوي من الحسي من الأم من الإمام إلى غير ذلك من أصناف الكتب والكتاب، فإن الله كتب التوراة بيده وكتب القلم بنفسه عن أمر ربه في اللوح المحفوظ، ومرتبة كل كاتب وما كتب من الكتابة في الأرحام وهم كتاب الخلق والرزق، والأجل والشقاء والسعادة والكرام الكاتبون، والفرق بين المكتوب فيه من لوح محفوظ وألواح غير محفوظة ورق وغير ذلك وصور الكتابة الإلهية من غيرها، هذا كله يعلم من هذا المنزل ويشهده من دخله، وعلم المعمور من العالم من غير المعمور وغير المعمور هل معمور بما لا تدركه أبصارنا أو ليس بمعمور في نفس الأمر وعمارة الأمكنة بما يتكوّن فيها من نبات أو حيوان أو معدن أو ما ينزل فيه من حق وملك وجان والفرق بين الاسم الإلهيّ العلي والرفيع ولماذا جاء الاسم الرفيع مقيداً بالإضافة والعلي مطلقاً من غير تقييد، وعلم كيفية انقلاب الضد إلى ضده إذا جاوز حده هل ذلك من حيث جوهره أو جوهر صورته؟ وعلم الإيلاء الإلهيّ بنفسه وبالموجودات والمعدومات، وعلم المقسم عليه في تقييده بالماضي وهو الواقع أو بالمستقبل الذي لا بد من وقوعه حكماً أو وجوده عيناً، ولماذا اختص المقسوم عليه بالقسم دون غيره وهو من حيث هو عالم واحد، وعلم القضاء هل له رادّ أم لا؟ وذلك الراد هل هو منه أو أمر آخر اقتضاه شرط بالرفع أو بالثبوت؟ وعلم تغير النعوت على المنعوت بها هل كل متغير قام التغير بذاته أو كان التغير في حكمه لا في عينه ولا في صفته إن كان ذا صفة، وعلم السبب المؤدي إلى الجحد مع العلم وأنه لا ينزل منزلة الجاهل في الحكم وهل الجاهل معذور أم لا؟ وعلم العلم المحمود من العلم المذموم وهل الذم له عرضي عرض له من المعلوم أم لا أثر له فيه لا بالحكم العرضي ولا الذاتي، وهل للعلم أثر محسوس في النفس والحس أم لا أثر له إلا في النفس كمن يعلم أنه تقع به مصيبة ولا بد فيتغير لذلك مزاجه ولونه وحركته ويتبلبل لسانه ويقول ولا يدري ما يقول فإن العلم أثر في النفس خوفاً، وهذه الآثار آثار وجود الخوف عنده ما هي آثار العلم لأن العلم قد يقع في نفس القوي الذي يحكم على نفسه فلا يؤثر فيها خوفاً فلا يتغير مع وجود العلم، وعلم الأمر الذي يعذب به الكاذب، وهل يعذب بأمر عدمي لمناسبة الكذب أو يعذب بأمر وجودي لكون الكذب له مرتبة وجود في الوجود الذهني وحينئذ يعبر عنه الكاذب فهل عقوبته مثل نسبته إلى الحس فيكون بأمر عدمي أو بمثل نسبته إلى الخيال فيكون بأمر وجودي متخيل وهي علوم عجيبة في المشاهدات لا علم لعلماء الرسوم والنظار بهذه الموازنات لجهلهم بالميزان الموضوع الذي وضعه الله عند رفع السماء وبسط الأرض بين السماء والأرض وأنه مع كونه موضوعاً هو بيد الحق المسمى بالدهر يخفض ويرفع، وعلم السحر لماذا يرجع وهل فيه محمود وما فعله؟ وعلم السواء في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] وقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] وقوله: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: ١٦] وموطن الدنيا الذي وقع فيه الاستغفار يقتضي أن يقبل بخلاف موطن الآخرة، فكما أنه

استوى عندهم الإنذار وعدم الإنذار فلم يؤمنوا، كذلك استوى في حقهم في الآخرة وجود الصبر وعدمه فلم يؤثر في نفوذ الجزاء الوفاق، وعلم الاعتماد على غير الله مما يحمد الله أن يعتمد عليه ما أثره في الدار الآخرة في الجزاء الوفاق، وعلم سبب النكاح الذي لا يكون عنه التناسل لإبقاء ذلك النوع، وعلم سبب المعاطاة من غير حاجة إذ المعاطاة لا تكون إلا في ذي حاجة، وعلم وجود الامتنان مع المعاوضة في البيوع لا في الهبات لأن الامتنان في الهبات معقول ولهذا شرعت المكافأة عليه ليضعف سلطان الامتنان والسبب الذي يرفع الامتنان من العالم ولمن ينبغي الامتنان مع المعاوضة، وعلم الفرق بين الكهانة والوحي، وعلم ما هو الهوى والعقل الذي يقابله، وعلم من أين خلق العالم هل من شيء أو من لا شيء؟ وعلم هل تتفاضل الأرواح في القوّة فيؤثر بعضها في بعض كالقوى الجسمانية أم لا؟ وعلم الخزائن الإلهية وما اختزن فيها وأين مكانها؟ وعلم عندية الحق هل هي نسبة أو ظرف وجودي؟ وعلم ترقي العالم الطبيعي على أي معراج يكون هل على طبيعي فيفتقر أيضاً إلى معراج أو على غير طبيعي؟ وعلم صورة تأثير المعاني اللطيفة في الأجرام الكثيفة، وعلم تأثير القصد في الأفعال، وعلم ما ينبغي أن يكون عليه الإله من الصفات، وعلم سبب خيبة الظنون في وقت دون وقت، وعلم أحوال التنزيه فهذا بعض ما يحوي عليه هذا المنزل من العلوم قد ذكرناه لتتوفر همة الطالب على طلبها من الله أو من العالم بها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والثلاثون وثلاثمائة

في معرفة منزل «خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي فلا تهتك ما خلقت من أجلي فيما خلقت من أجلك» وهو من الحضرة الموسوية

[البسيط]

إنَّ النُّفُوسَ لتُجْزَى بالذي كسبتْ من كل خير ولا تُجْزَى بما اكْتَسَبَتْ
ما الاكتسابُ بكَسْبٍ إن عَمِلْتَ به جَنَيْتَ من خَيْرِ يوم الدين ما غَرَسَتْ

اعلم أيدك الله أن الله تعالى خلق جميع من خلق في مقام الذلة والافتقار وفي مقامه المعين له فلم يكن لأحد من خلق الله من هؤلاء ترق عن مقامه الذي خلق فيه إلا الثقلين، فإن الله خلقهم في مقام العزة وفي غير مقامهم الذي ينتهون إليه عند انقطاع أنفاسهم التي لهم في الحياة الدنيا، فلهم الترقي إلى مقاماتهم التي تورثهم الشهود والنزول إلى مقاماتهم التي تورثهم الوقوف خلف الحجاب فهم في برزخ النجدين ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ فيعلو ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] فيسفل، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ما قال إلا في العبادة، فلما جعل العبادة بأيديهم وجعلها المقصود منه بخلقهم فمنهم من قام بما قصد له فكان طائعاً مطيعاً لأمر الله الوارد عليه بالأعمال والعبادة فإنه قال لهم: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] كما أخبر: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤] هذا أمر بعبادة ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤] هذا أمر بعمل والعمل ما هو عبادة فالعمل صورة والعبادة روحها،

فالعبادة مقبولة عند الله على كل حال اقترنت بعمل أو لم تقترن، والعمل لغير عبادة لا يقبل على كل حال من حيث القاصد لوقوعه الذي هو النفس المكلفة، لكن من حيث إن العمل صدر من الجوارح أو من جارحة مخصوصة فإنها تجزى به تلك الجارحة فيقبل العمل لمن ظهر منه ولا يعود منه على النفس الآمرة به للجوارح شيء إذا كان العمل خيراً بالصورة كصلاة المرائي والمنافق، وجميع ما يظهر على جوارحه من أفعال الخير الذي لم تقصد به النفس عبادة، وأما أعمال الشر المنهي عنها فإن النفس تجزى بها للقصد والجوارح لا تجزى بها لأنه ليس في قوتها الامتناع عما تريد النفوس بها من الحركات فإنها مجبورة على السمع والطاعة لها، فإن جارت النفوس فعليها، وللجوارح رفع الحرج بل لهم الخير الأتم وإن عدلت النفوس فلها وللجوارح فإن النفوس ولاة الحق على هذه الجوارح، والجوارح مأمورة مجبورة غير مختارة فيما تصرف فيه فهي مطيعة بكل وجه والنفوس ليست كذلك، ومن النفوس من لم يقم بما قصد له فكان عاصياً مخالفاً أمر الله حين أمره بالأعمال والعبادة، فالطائع يقع منه العبادة في حالة الاضطرار والاختيار وإن لم يكن مطيعاً من حيث الأمر بالعمل، فإن كان مطيعاً طائعاً فقد فاز بوقوع ما قصد له في الخلق والأمر فإن لله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين وأما العاصي فلا تقع منه العبادة إلا في حال الاضطرارلا في حال الاختيار، ويقع منه صورة العمل لا العمل المشروع له فهو مخالف لأمر الله فلم يقم بما قصد له من الخلق والأمر ولما خلق الله الثقلين في هذا المقام الذي قصده بخلقهم وهو أجلية الحق فرغهم لذلك حتى لا يقوم لهم حجة بالاشتغال بما به قوامهم، فخلق الأشياء التي بها قوامهم خاصة من أجلهم ليتفرغوا لما قصد بهم فقامت عليهم حجة الله إذا لم يقوموا بما خلقوا له.

ثم إنه علم من بعضهم أنه يقوم له شبهة في السعي فيما خلق من أجله في حق الغير لما بلغه أن الله يقول: «**جعْتُ فلم تُطْعِمْني**» وقال، لما قال له العبد: يا رب وكيف تطعم وأنت رب العالمين؟ فقال الله له: ألم تعلم أنه استطعمك فلان فلم تطعمه أما أنك لو أطعمته وجدت ذلك عندي، فأنزل الحق نفسه منزلة ذلك الجائع، فلما لاحت له هذه الشبهة قال: نسعى في حق الغير وننتفع بما نسعى به بحكم التبع فقال الله له: ما فهمت عني ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوّة المتين لا أنتم، فما بقيت لهم حجة بتمام الآية.

وأما اعتمادهم على ذلك الخبر فلا يقوم لهم به حجة عند الله، فإنه لما خلق الأشياء من أجلك التي بها قوامك أعطاك إياها وأوصلها إليك ليكون بها قوامك، ثم أفضل لبعضهم من ذلك ما يزيد على قوامهم ليوصله إلى غيره ليكون به قوام ذلك الغير ويحصل لهذا أجر أداء الأمانة التي أمنه الله عليها فذلك هو الذي عتبه الحق حيث استطعمه فلان وكان عنده ما يفضل عن قوامه فلم يعطه إياه، فلم يلزم من هذا الخبر أن يسعى في حق الغير وهو المراد في تمام الآية في قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧].

ولما خلق الله الإنسان وأعطاه الجدل قال بعضهم: لما استطعمني فلان وعندي ما يفضل عن قوامي فلو كان لهذا المستطعم أمانة عندي ما استطعت إمساكها فلذلك لم نطعمه،

فقيل له ما قيل لإبليس متى علمت أنه ليس له أبعد ما منعته أو قبل ذلك أعطاك الله علم الكشف أنه ليس لهذا أو عين لك صاحبه أو ما علمت أنه ليس له إلا بعد حصول المنع منك وانصرافه عنك فلا بد أن يقول بعد المنع علمت ذلك فيقال له بذلك أخذت فإن إبليس قال للحق أمرتني بما لم ترد أن يقع مني فلو أردت مني السجود لآدم لسجدت فقال الله له: «متى علمت أني لم أرد منك السجود بعد وقوع الإباية منك وذهاب زمان الأمر أو قبل ذلك؟» فقال له: بعد ما وقعت الإباية علمت أنك لو أردت السجود مني لسجدت، فقال الله له بذلك: «أخذتك ولم يؤاخذ أحد إلا بالجهل»، فإن أهل العلم الذين طالعهم الله بما يحدثه من الكوائن في خلقه قبل وقوعها لا يؤاخذون على ما لم يقع منهم مما أمروا به بالواسطة أن يقع منهم فإنهم في عين القربة بالاطلاع، وليس المراد بامتثال الأمر إلا القربة ومحل القربة ليس بمحل تكليف، فإذا وقع من المقربين أعمال الطاعات فبشهود فإنهم على بينة من ربهم فهم عاملون من حيث شهودهم الأمر الإلهي من غير الواسطة التي جاءت به، فهم بالصورة في الظاهرة أتباع الأمر الواسطة، وفي الباطن أصحاب عين لا أتباع.

فالحاصل من هذا أنه من لم يغب عن عبوديته لله في كل حال فقد أدى ما خلق له وكان طائعاً، وسواء كان مطيعاً أو مخالفاً فإن العبد الآبق لا يخرجه إباقه عن الرق، وإنما يخرجه عن لوازم العبودية من الوقوف بين يدي سيده لامتثال أوامره ومراسمه، ألا ترى اسم العبودية ينسحب عليه سواء كان مطيعاً أو مخالفاً؟ كما يبقى اسم البنوّة على الابن سواء كان باراً أو عاقاً، فالعبد الذي وفى ما خلق له لا يخلو أمره في نفسه من حالتين: إما أن يكون مشهوده قيمته فهو يقوم في مقام قيمته فيصحبه الانكسار والتسليم والخضوع، وإما أن يقام في حال الاعتزاز بسيده فيظهر عليه العجب بذلك، والنخوة كعتبة الغلام لما زهى فقيل له في ذلك فقال: وكيف لا أزهو وقد أصبح لي مولى وأصبحت له عبداً كما هو الأمر في نفسه، ولكن الفضل في أن يكون ذلك الأمر مشهوداً له، فهاتان حالتان محمودتان تشهد كل واحدة منهما للعبد بأنه وفى بما خلق له وبقي أيّ الحالتين أولى بالعبد هل شهود القيمة أو الاعتزاز بالسيد؟ فمن قائل بهذا ومن قائل بهذا.

والصحيح عندي عدم الترجيح في ذلك لما نذكره، وذلك أن المقامات والمواطن تختلف، فالموطن الذي يطلب ظهور الاعتزاز بالله لا ينبغي أن يظهر فيه العبد إلا بالاعتزاز بالله، والموطن الذي يقتضي ويطلب بذاته شهود العبد قيمته لا ينبغي أن يظهر فيه هذا العبد إلا بشهود قيمته، وقد احتج بعضهم في الاعتزاز بقوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١] وبأمره تعالى ففروا إلى الله وهذه حجة للفريقين فإنه قد يفر إلى الله لطلب الاعتزاز بالله، وقد يفر إلى الله لتكون ذلته إلى الله وحاجته لا إلى غيره، إذ هو مفطور على الحاجة والافتقار، ولهذا قال بعد الأمر بالفرار إلى الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الذاريات: ٥١] تفتقرون إليه بل فروا إلى الله في طلب حوائجكم منه التي فطرتم عليها.

وأما فرار موسى عليه السلام الذي علله بالخوف من فرعون وقومه فما كان خوفه إلا

من الله أن يسلطهم عليه إذ له ذلك ولا يدري ما في علم الله، فكان فراره إلى ربه ليعتز به فوهبه ربه حكماً وعلماً وجعله من المرسلين إلى من خاف منهم بالاعتزاز بالله، وأيده بالآيات البينات ليشد منه ما ضعف مما يطلبه حكم الطبيعة في هذه النشأة، فإن لها خوراً عظيماً لكونها ليس بينها وبين الأرواح التي لها القوّة والسلطان عليها واسطة ولا حجاب، فلازمها الخوف ملازمة الظل للشخص، فلا يتقوى صاحب الطبيعة إلا إذا كان مؤيداً بالروح فلا يؤثر فيه خور الطبيعة، فإن الأكثر فيه إجراء الطبيعة وروحانيته التي هي نفسه المدبرة له موجودة أيضاً عن الطبيعة فهي أمّها وإن كان أبوها روحاً فللأم أثر في الابن فإنه في رحمها تكوّن وبما عندها تغذى، فلا تتقوى النفس بأبيها إلا إذا أيدها الله بروح قدسي ينظر إليها، فحينئذ تقوى على حكم الطبيعة فلا تؤثر فيها التأثير الكلي، وإن بقي فيه أثر فإنه لا يمكن زواله بالكلية.

واعلم أن الطبيعة ولود لا عقم فيها ودود متحببة لزوجها طلباً للولادة فإنها تحب الأبناء ولها الحنوّ العظيم على أولادها، وبذلك الحنوّ تستجلبهم إليها فإن لها التربية فيهم فلا يعرفون سواها، ولهذا لا ترى أكثر الأبناء إلا عبيداً للطبيعة لا يبرحون من المحسوسات والملذوذات الطبيعية إلا القليل فإنهم ناظرون إلى أبيهم وهم المتروحنون وليس علامتهم وعدم التنوّع في الصور، فإن التنوع في الصور كما هو لهم هو للطبيعة أيضاً، وإنما علامة المتروحنين على أنهم أبناء أبيهم تنزههم عن الشهوات الطبيعية وأخذهم منها ما يقيمون به نشأتهم كما قال ﷺ: «**حَسْبُ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ**» فهمتهم اللحوق بأبيهم الذي هو الروح الإلهي اليائي لا الأمري، وإنما قلنا اليائي لقوله: «**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**» بياء الإضافة إليه لأنه فرق بين روح الأمر وبين روح ياء الإضافة، فجعل روح الأمر لما يكون به التأييد، وجعل روح الياء لوجود عين الروح الذي هو كلمة الحق المنفوخ في الطبيعة، فحن حنين الولد إلى أبيه ليتأيد به على ما يطلبه من شهود الحق الخارج عن الروح والطبيعة من حيث ما هو غني عنهما لا من حيث هو متجل للأبناء منهما أو بهما أو فيهما كل ذلك له وهذا مطلب عزيز، فإذا ناله وتقوى به أتى الشهوات بحكم الامتنان عليها نزولاً منه إليها، فهو يحكم بها على المشتهيات ما تحكم عليه شهوة في المشتهيات فهو مشتهي الشهوة وغيره تحت حكم الشهوة فصاحب هذا المقام يحدث عين الشهوة في نفسه قضاء وإجابة لسؤالات من يشتهي من عالمه الخاص به فينالون بتلك الشهوة ما يشتهون فيتنعم الروح الحيواني وهي ناظرة إلى ربها غير محجوبة قد تجلى لها في اسمه الخلاق وخلع عليها هذا الاسم ليتكون عنها ما تريد لا ما تشتهي، فهذه هي النفوس الفاضلة الشريفة المتشبهة بمن هي له، فتنظر إلى الطبيعة نظر الولد البار لأمه مع استغنائه عنها وفاء لحقها.

وإن الناس انقسموا في هذا الحكم أقساماً: فمنهم من عبد الله وفاء لحق العبودية فأقام نشأتها على الكمال فأعطاها خلقها، ومنهم من عبد الله وفاء لحق الربوبية الذي تستحقه على هذا العبد فأقام نشأة سيادة خالقه عليه فأعطاها خلقها من غير نظر إلى نفسه كما كان الأوّل من غير نظر إلى سيادة سيده بما هو ظاهر كل نشأة لا بما هي في نفس الأمر لأن العبد لا تعمل له

فيما تقتضيه الأمور لا نفسها، ومنهم من عبده لإقامة النشأتين فأعطاهما خلقهما فأقام نشأة عبوديته ونشأة سيادة سيده وذلك في وجوده وعينه إذ هو محل لظهور هذه النشأة ومنهم من عبد الله لكونه مأموراً بالعبادة وما عنده خبر بإقامة هذه النشآت فعبده بلازم العبودية فعبادته عن أمر إلهي ما هي ذاتية، ومنهم من أقامه الله في العبادة الذاتية فلم يحضر أمره إلا في العمل لا في العبادة، ومنهم من عبده بهذه الوجوه كلها وهو أقوى القوم في العبادة والنشأة القائمة من مثل هذا العبد أتم النشآت خلقاً فإن إقامة النشأة لا بد منها، فإن كانت مقصودة للعبد أضيفت إليه وحمد عليها، وإن لم تكن مقصودة للعبد العابد أقامها الحق تعالى وأضيفت إلى الله وحمد عليها مع ظهورها من العابد، والقصد إلى إيجادها أولى من الغفلة عنها أو الجهل بها، فمن الناس من يشهد ما ينشىء ومن الناس من لا يشهد ما ينشىء لأنه لا يعلم أنه ينشىء فيتولى الله إنشاءه على غير علم منه حتى تقوم صورة النشأة فيشهدها العابد حينئذ صادرة عنه فيحمد الله حيث ظهر منه مثل هذا، فهم على طبقات في هذا الباب أعني باب العبادة، وهكذا الحكم فيما ينشىء عنهم من صور الأعمال الظاهرة والباطنة هم فيها على طبقات مختلفة، فمنهم الجامع للكل، ومنهم النازل عن درجة الجمع.

فصل: ثم اعلم أن الأحد لا يكون عنه شيء البتة، وأن أول الأعداد إنما هو الاثنان ولا يكون عن الاثنين شيء أصلاً ما لم يكن ثالث يزوجهما ويربط بعضهما ببعض ويكون هو الجامع لهما، فحينئذ يتكوّن عنهما ما يتكوّن بحسب ما يكون هذان الاثنان عليه، إما أن يكونا من الأسماء الإلهية، وإما من الأكوان المعنوية أو المحسوسة أي شيء كان، فلا بدّ أن يكون الأمر على ما ذكرناه، وهذا هو حكم الاسم الفرد، فالثلاثة أوّل الأفراد، وعن هذا الاسم ظهر ما ظهر من أعيان الممكنات فما وجد ممكن من واحد وإنما وجد من جمع وأقل الجمع ثلاثة وهو الفرد فافتقر كل ممكن إلى الاسم الفرد ثم إنه لما كان الاسم الفرد مثلث الحكم أعطى في الممكن الذي يوجده ثلاثة أمور لا بدّ أن يعتبرها وحينئذ يوجده، ولما كان الغاية في المجموع الثلاثة التي هي أوّل الأفراد وهو أقل الجمع وحصل بها المقصود والغنى عن إضافة رابع إليها كان غاية قوّة المشرك الثلاثة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] ولم يزد على ذلك، وما حكي عن مشرك بالله أنه قال فيه غير ثالث ثلاثة ما جاء رابع أربعة ولا ثامن ثمانية، وهكذا ظهرت في البسملة ثلاثة أسماء لما كان من أعطى التكوين يقول: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ والتكوين الإلهي عن قول كن وهو ثلاثة أحرف: كاف وواو ونون، الواو بين الكاف والنون لا ظهور لها لأمر عارض أعطاه سكون النون وسكون الواو، إلا أنه للنون سكون أمر، فانظر سريان الفردية الأوّلية كيف ظهر في بروز الأعيان، واعتبر فيما يتكون عنه ثلاثة أمور جعلها حقوقاً، فمن أحضر من العابدين المنشئين صور أعمالهم وعباداتهم هذه الحقوق عند إرادتهم إنشاءها وأعطى كل ذي حق حقه في هذه النشآت كان أتم وأعلى درجة عند الله ممن لم يقصد ما قصده، والصورة المنشأة فيها ثلاثة حقوق يقصدها الموجد الفرد الحق الواحد لله وهو ما يستحقه منها من التنزيه أو التسبيح بحمده، وحق النفس الصورة من

الاسم الفرد وهو إيجادها بعد أن لم تكن لتتميز في حضرة الوجود وتنصبغ به وتلحق بما هو صفة لخالقها وموجدها وهو الله، وهذه الدرجة الأولى من درجات التشبه به للظهور في الوجود والانصباغ به، والحق الثالث ما للغير في وجودها من المصلحة فتعطيه تلك النشأة حق ذلك الغير منها وهو مقصود لموجدها، وذلك الغير صنفان: الصنف الواحد الأسماء الإلهية فتظهر آثارها المتوقف ظهور تلك الآثار على وجود هذه العين، والصنف الآخر ما فيها من حقوق الممكنات التي لا تكون لها إلا بوجود هذه الصورة المنشأة فيقصد المنشىء لها في حين الإنشاء هذه الأمور كلها، فيكون الثناء الإلهيّ على هذا العابد بحسب ما أحضر من ذلك وما قصد، فمنهم من يجمع هذا كله في صورة عبادته وصورة عمله فيسري التثليث في جميع الأمور لوجوده في الأصل ولهذا قال فيمن قال بالتثليث إنه كافر فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] وما سماه مشركاً فإنه ستر ما كان ينبغي له إذ قال به أن يبين صورته، ولو أبان صورته لقال هذا الذي قلناه وتبين للسامع الحق في ذلك، فما ستر هذا البيان سماه كافراً لأنه ما من إله إلا إله واحد وإن كانت له أحكام مختلفة ولا بدّ منها، فلو لم يستر هذا الكافر وأبان لقال ما هو الأمر عليه، وأما من يدعي أن الآلهة ثلاثة فذلك مشرك جاهل، ونعوذ بالله أن يكون عاقل من المشركين، فالعدد أحكام الواحد وقد جاء العدد في الأسماء الحسنى وجاء: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾ من حيث دلالته على عين المسمى ﴿فَلَهُ﴾ أي لذلك المسمى ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] التي الله والرحمن منها من حيث ما هي أسماء لكن الأفهام قاصرة عن إدراك ما يريده الله في خطابه بأي لسان كان، فهذا بعض ما في هذا المنزل قد ذكرناه. فلنذكر ما يحوي عليه من العلوم النافعة على طريق الذكرى ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] فنقول ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ [الأحزاب: ٤] و﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦]:

فمن ذلك علم أسماء التكوين، وعلم حروف التكوين، وعلم الأرواح المفرقة لا الجامعة، وعلم الأمور الحاملة للأشياء ما يقصد بحملها ولمن تنتهي بالحمل إليه، وعلم السعايات ما نهايتها وما المقصود بها من السعاة هل لنيل ما ليس عندهم أو لإيصال ما عندهم لمن يطلبه إما بذاته الذي هو الطلب الذاتي وإما بسؤال منه في ذلك فيعطيه هذا الساعي بتيسير ويريحه من سعيه إليه وكده ومشقته، وعلم تفاصيل الأمور ولماذا ترجع تفاصيلها وتقسيمها هل إلى الأصل وهو الأسماء الإلهية؟ أو للقوابل وهي أعيان الممكنات؟ أو للمجموع أيّ أمر كان من الأمور التي يطلبها التفصيل والتقسيم، وعلم الجزاء وصدق الوعد دون الوعيد، وعلم مدارج الملائكة والأرواح المفارقة المحمولة في الصور الجسدية، وعلم الخلاف من علم الاتفاق وفيماذا ينبغي الاتفاق وفيماذا ينبغي الاختلاف وهل للاختلاف وجه إلى الموافقة أم لا؟ وعلم السبب الذي منه تنبأ من ليس بنبي وهو المتنبىء، وعلم سبب السهو في العالم، وعلم الفتن والملاحم، وعلم صورة الأخذ من الله كيف يكون على الكشف وما أنتجه في الآخذين من أعمالهم في زمان التكليف، وعلم

المسامرة بعد إعطاء الحقوق، وعلم الستر والتجلي في بعض المواطن، وعلم أداء الحقوق ومن يؤدي بعد طلب صاحب الحق حقه ومن يبادر به، وعلم علامات اليقين، وعلم أينيات الأشياء ويتميز كل أين بتميز الشيئية التي تطلبه، وعلم التشبيه بين الأشياء للروابط التي تجمعها والوجوه وإن فرقتها أمور أخر فحكم الجامع لا يزول كما أن حكم الفارق لا يزول فإنه الحكم المقوّم لذات الشيء، وعلم حقوق الزائرين، وعلم سبب تقديم السلام على تقديم الطعام للضيف النازل وتقديم الطعام قبل الكلام، وعلم ما يتعين على الضيف أن يقوله ويعرف به صاحب المنزل وما لا يتعين عليه، وعلم الرسالة وظهور الملك في صورة البشر عند أداء الرسالة ما سببه في بعض الأحوال دون بعض، وعلم الرسالة البشرية، وعلم الأخذات الإلهية، وعلم تأثير القوّة هل يؤثر في قوي أو ضعيف مطلق أو ضعيف إضافي، وعلم التمهيد والسياسات والنواميس والشرائع، وعلم النتاج والإنتاج بين الزوجين، وعلم ما طلب الحق من عباده على الإطلاق والعموم وعلى التقييد. والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والثلاثون وثلاثمائة

في معرفة منزل تجديد المعدوم وهو من الحضرة الموسوية

[الطويل]:

هَوَى النُّور فارتدَّتْ عقولٌ كثيرةٌ عن الحَقِّ لما أن تَحَقَّقَتِ الهَوَى
وجاء بحبٍّ لا يَشُوبُ صفاءه من الرَّنْقِ ما يُعْميه في موقف السِّوَى
وأثبته النعتُ الودودُ بذاته فقام خطيباً بين مَرْوَةَ والصَّفا
وقال أنا العِشْقُ الذي سَجَدَتْ له جباهٌ لعُشَّاق وأوجهها العُلا

اعلم أيدك الله أن تجديد المعدوم لا يكون إلا في المعدوم الإضافي، كعدم زيد الذي كان في الدار فعاد إلى الدار بعد ما كان معدوماً عنها بوجوده في السوق قال تعالى في هذا المقام: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] فكان محدثاً عندهم لا في عينه. وأما في الأعراض فهل ترد بأعيانها بعد عدمها أو هي أمثالها لا أعيانها؟ ففي إمكان النظر العقلي أنه لا يحيل رجوعها في أعيانها بعد عدمها، فيكون عين الحركة من المتحرك إذا التحقت بالعدم ثم أعقبها السكون ثم تحرّك ذلك الساكن في زمان آخر يمكن أن يكون تحريكه عين حكم تلك الحركة أوجدها الحق بعد عدمها أو زمان عدمها بكونه خلقها في متحرّك آخر غير ذلك المحل، فيكون ذلك تجديد الوجود عليها فتتصف بالوجود مرتين أو مراراً، وهذا في الكشف لا يكون للاتساع الإلهيّ فلا يتكرّر شيء أصلاً فهو في خلق جديد لا في تجديد، فإذا أطلق على الجديد اسم التجديد فلما يعطيه الشبه القويّ الذي يعسر ميزه وفصله عن مثله فيتخيل لوجود الإمكان في النظر العقلي أنه عين ما انعدم جدد الحق عليه الوجود، ويقال في الليل والنهار الجديدان لا المتجددان، فما هو يوم السبت يوم الأحد، ولا هو يوم السبت من

الجمعة الأخرى، ولا هو من الشهر، ولا من السنة الأخرى، ولا واحد الأحد عشر المركب من العشرة، والواحد الذي كان واحداً في أوّل العدد، والعشرة التي انتهى إليها العدد، وحينئذ ظهر التركيب بل هذا واحد مثله وعشرة مثلها، ولهما حقيقة واحدة هي أحدية الأحد عشر والواحد والعشرين والواحد والثلاثين، وكل ما ظهر من واحد مركب ما هو عين الواحد الآخر المركب ولا هو عين الواحد البسيط تركب بل هو أحد عشر لنفسه حقيقة واحدة، وكذلك واحد وعشرون وواحد ومائة وواحد وألف كل واحد مع ما أضيف إليه عين واحدة ما هو مركب من أمرين فاعلم ذلك، فإنه علم نافع في الإلهيات لما فيها من الأسماء والصفات المقولة على الذات المعقول منها كونها كذا ما هو عين كونها كذا، فتعرف من هذا من تجلى لك في كل تجل، ولهذا قالت الطائفة من أهل الأذواق: إن الله ما تجلى في صورة واحدة مرتين ولا في صورة واحدة لشخصين، فهو في كل يوم من أيام الأنفاس التي هي أصغر الأيام في شأن بل في شؤون، فمن علم سعة الله علم سعة رحمته فلم يدخلها تحت الحجر ولا قصرها على موجود دون موجود.

واعلم أيدنا الله وإياك أن القرآن مجدّد الإنزال على قلوب التالين له دائماً أبداً لا يتلوه من يتلوه إلا عن تجديد تنزل من الله الحكيم الحميد وقلوب التالين لنزوله عرش يستوي عليها في نزوله إذا نزل، وبحسب ما يكون عليه القلب المتخذ عرشاً لاستواء القرآن عليه من الصفة يظهر القرآن بتلك الصفة في نزوله وذلك في حق بعض التالين، وفي حق بعضهم تكون الصفة للقرآن، فيظهر عرش القلب بها عند نزوله عليه، سئل الجنيد رضي الله عنه عن المعرفة والعارف فقال: لون الماء لون إنائه، ولو سئل عارف عن القرآن والقلب المنزل عليه لأجاب بمثل هذا الجواب.

واعلم أن الله نعت العرش بما نعت به القرآن فجاء القرآن مطلقاً من غير تقييد وجاء ذكر العرش مطلقاً من غير تقييد، فالقرآن المطلق للعرش المطلق أو العرش المطلق للقرآن المطلق بحسب ما يقع به الشهود من المؤثر والمؤثر فيه، والعرش المقيد بما قيد به القرآن، فقرآن عظيم لعرش عظيم، وقرآن كريم لعرش كريم، وقرآن مجيد لعرش مجيد، فكل قرآن مستو على عرشه بالصفة الجامعة بينهما، فلكل قلب قرآن من حيث صفته مجدّد الإنزال لا مجدد العين، والدرجات الرفيعة لذي العرش كالآيات والسور للقرآن فأما القرآن المطلق فمثل قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] والعرش المطلق في قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥] فالقلب ترتفع درجاته بارتفاع درج آيات القرآن، ولهذا يقال لقارىء القرآن يوم القيامة اقرأ وارق كما كنت تقرأ وينتهي بالرقيّ إلى آخر آية ينتهي إليها بالقراءة والدرجات عين المنازل، فإذا نزل القرآن على قلب عبد وظهر فيه حكمه واستوى عليه بجميع ما هو عليه مطلقاً وكان خلقاً لهذا القلب كان ذلك القلب عرشاً له، سئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»، فما من آية في القرآن إلا ولها حكم في قلب هذا العبد، لأن القرآن لهذا نزل ليحكم لا ليحكم عليه فكان عرشاً له مطلقاً، كان رسول الله ﷺ في تلاوته القرآن «إذا مرّ بآية نعيم حكمت عليه بأن يسأل الله من فضله فكان يسأل الله

من فضله، وإذا مر بآية عذاب ووعيد حكمت عليه بالاستعاذة فكان يستعيذ، وإذا مر بآية تعظيم لله حكمت عليه بأن يعظم الله ويسبحه بالنوع الذي أعطته تلك الآية من الثناء على الله، وإذا مر بآية قصص وما مضى من الحكم الإلهي في القرون قبله حكمت عليه بالاعتبار فكان يعتبر، وإذا مرّ بآية حكم حكمت عليه أن يقيم في نفسه من يوجه عليه ذلك الحكم فيحكم عليه به فكان يفعل ذلك»، وهذا هو عين التدبر لآيات القرآن والفهم فيه، ومتى لم يكن التالي حاله في تلاوته كما ذكرنا فما نزل على قلبه القرآن ولا كان عرشاً لاستوائه لأنه ما استوى عليه بهذه الأحكام، وكان نزول هذا القرآن أحرفاً ممثلة في خياله كانت حصلت له من ألفاظ معلمه إن كان أخذه عن تلقين، أو من حروف كتابته إن كان أخذه عن كتابة، فإذا أحضر تلك الحروف في خياله ونظر إليها بعين خياله ترجم اللسان عنها فتلاها من غير تدبر ولا استبصار، بل لبقاء تلك الحروف في حضرة خياله، وله أجر الترجمة لا أجر القرآن، ولم ينزل على قلبه منه شيء كما قال رسول الله ﷺ في حق قوم من حفاظ حروف القرآن «**يَقْرؤون القُرآنَ لا يُجَاوزُ حَنَاجِرَهُمْ**» أي ينزل من الخيال الذي في مقدم الدماغ إلى اللسان فيترجم به ولا يجاوز حنجرته إلى القلب الذي في صدره فلم يصل إلى قلبه منه شيء وقال فيهم: «**إنهم يَمْرُقُون من الدِّين كما يَمْرُقُ السهمُ من الرَّمِيَّةِ لا تَرَى فيه أثراً من دَم الرَّمِيَّة**».

وكلامنا ليس هو مع من هذه صفته من التالين وليس التالي إلا من تلاه عن قلبه والقرآن صفة ربه وصفة ذاته، والقلب المؤمن به التقي الورع قد وسعه، فهذا هو العرش الذي وسع استواء الحق الذي هو رفيع الدرجات ذو العرش، وما أحسن ما نبه الله على صاحب هذا المقام الذي كان قلبه عرشاً للقرآن ذوقاً وتجلياً، فيعلم لذوقه وخبرته اتصاف الرحمن بالاستواء على العرش ما معناه، وأمر من ليس يعلم ذلك أن يسأل من يعلمه علم خبرة من نفسه لا علم تقليد فقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] أي فالمسؤول الذي هو بهذه الصفة من الخبرة يعلم الاستواء كما يعلمه العرش الذي استوى عليه الرحمن لأن قلبه كان عرشاً لاستواء القرآن كما قررناه، فانظر ما أعجب تعليم الله عباده المتقين الذي قال فيهم: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ومعناه أن يفهمكم الله معاني القرآن فتعلموا مقاصد المتكلم به، لأن فهم كلام المتكلم ما هو بأن يعلم وجوه ما تتضمنه تلك الكلمة بطريق الحصر مما تحوي عليه مما تواطأ عليه أهل ذلك اللسان، وإنما الفهم أن يفهم ما قصده المتكلم بذلك الكلام هل قصد جميع الوجوه التي يتضمنها ذلك الكلام أو بعضها؟ فينبغي لك أن تفرّق بين الفهم للكلام أو الفهم عن المتكلم وهو المطلوب، فالفهم عن المتكلم ما يعلمه إلا من نزل القرآن على قلبه وفهم الكلام للعامة، فكل من فهم من العارفين عن المتكلم فقد فهم الكلام وما كل من فهم الكلام فهم عن المتكلم ما أراد به على التعيين إما كل الوجوه أو بعضها، فقد نبهتك على أمر إذا تعملت في تحصيله من الله حصلت على الخير الكثير وأوتيت الحكمة، جعلنا الله ممن رزق الفهم عن الله.

فنزول القرآن على القلب بهذا الفهم الخاص هي تلاوة الحق على العبد، والفهم عنه فيه

تلاوة العبد على الحق، وتلاوة العبد على الحق عرض الفهم عنه ليعلم أنه على بصيرة في ذلك بتقرير الحق إياه عليه، ثم يتلوه باللسان على غيره بطريق التعليم أو يذكره لنفسه لاكتساب الأجر وتجديد خلق فهم آخر، لأن العبد المنوّر البصيرة الذي هو على نور من ربه له في كل تلاوة فهم في تلك الآية لم يكن له ذلك الفهم في التلاوة التي قبلها ولا يكون في التلاوة التي بعدها، وهو الذي أجاب الله دعاءه في قوله: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فمن استوى فهمه في التلاوتين فهو مغبون، ومن كان له في كل تلاوة فهم فهو رابح مرحوم، ومن تلا من غير فهم فهو محروم فالآية عنده ثابتة محفوظة، والذي يتجدد له الفهم فيها عن الله في كل تلاوة ولا يكون ذلك إلا بإنزال فتارة يحدث إنزاله من الرب الذي ينظر إلى التالي خاصة لا من حضرة مطلق الربوبية، وتارة يحدث إنزاله من الرحمن مطلقاً لكون الرحمن له الاستواء على العرش المحيط مطلقاً وله الرحمة التي وسعت كل شيء فلم يتقيد، والرب ليس كذلك فإنه ما ورد الرب في القرآن إلا مضافاً إلى غائب أو مخاطب أو إلى جهة معينة أو إلى عين مخصوصة بالذكر أو معين بدعاء خاص لم يرد قد مطلقاً مثل الرحمن، والاسم «الله» له حكم الرحمن وحكم الرب فورد مضافاً ومطلقاً مثل قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] فورد مطلقاً، ومثل قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ [البقرة: ١٦٣] فورد مقيداً ولكن بلفظة إله لا بلفظ الله، فمن راعى قصد التعريف لم يفرق بين الله والإله، ومن راعى حفظ الاسم وحرمته حيث لم يتسم به أحد وتسمى بإله فرق بين اللفظتين، وإذا فرق فيكون حكم لفظ الله لا يتقيد، فإذا كان حدوثه في الإنزال على القلب من الرب ينزل مقيداً ولا بد فيكون عند ذلك قرآناً كريماً أو قرآناً مجيداً أو قرآناً عظيماً، ويكون القلب النازل عليه بمثل ما نزل عليه من الصفة عرشاً عظيماً أو عرشاً كريماً أو عرشاً مجيداً، وإذا حدث نزوله من الرحمن على القلب لم يتقيد بإضافة أمر خاص فكان القلب له عرشاً غير مقيد بصفة خاصة بل له مجموع الصفات والأسماء، كما أن الرحمن له الأسماء الحسنى كذلك لهذا العرش النعوت العلى بمجموعها، وإنما قلنا ذلك لأنه نزل علينا في الفهم عن الله في القرآن إطلاق القرآن في موضع وتقييده بالعظمة في موضع في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] وقيده في موضع آخر بالمجد فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١] و﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [قَ: ١] وقيده في موضع آخر بصفة الكرم فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧] فلما أطلقه وقيده بهذه الصفات المعينة جعل القلب مستواه خلع عليه نعوت القرآن من إطلاق وتقييد فوصف عرش القلب بالإطلاق في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] ولم يقيد العرش بشيء من الصفات كما لم يصف الرحمن، ولما قيد العرش قيده بما قيد به القرآن من الصفات فقال في العظمة ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦] فأخذه من القرآن العظيم، وقال في الكرم: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦] فاستوى عليه القرآن الكريم، وقال: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [البروج: ١٥] في قراءة من خفض وجعله نعتاً للعرش فاستوى عليه القرآن المجيد، فعظم العرش القبليّ ومجد وكرم لعظم القرآن وكرمه ومجده فجاء بثلاثة نعوت للقرآن لما هو عليه

الأمر في نفسه من التثليث، وقد تقدم الكلام قبل هذا في غير هذا الباب في الاسم الفرد وأن له في المرتبة الأولى التي يظهر فيها وجود عينه مرتبة الثلاثة فهي أوّل الأفراد فلتنظر هناك رتبة التثليث في العالم، وقد تقدم لنا شعر في التثليث في بعض منظومنا نشير به إلى هذا المعنى وهو في ديوان «ترجمان الأشواق» لنا وأوّل المقطوعة: [الطويل]

بذي سَلَم والدَّيْرِ من حَاضِري الحِمَى ظِبَاءٌ تُريكَ الشَّمْسَ في صَوَرِ الدُّمَى
فأرقبُ أفلاكاً وأخدمُ بيعة وأحرسُ روضاً بالربيع مُنَمْنَمَا
فوقتاً أُسَمَّى رَاعِيَ الظَّبْي بالفلا ووقتاً أُسَمَّى راهباً ومُنَجِّمَا

إلى آخر القصيدة، وشرحناها عند شرحنا لديوان ترجمان الأشواق.

وقد علمت يا ولي حدوث نزول القرآن المطلق على القلب من غير تقييد وأنه الذكر الذي آتاه من الرحمن، ولكن ما أعرض عنه كما أعرض من تولى عن ذكره تعالى بل تلقاه بالقبول والترحيب فقال له: أهلاً وسهلاً ومرحباً، فردّ بتأهيل: وسهل ومرحب. وجعل قلبه عرشاً له فاستوى عليه بحكمه، وأما إذا أتاه القرآن من ربه فإنه القرآن المقيد بالصفات التي ذكرناها فيتلقاه أيضاً هذا العبد كما تلقاه من الرحمن بأهل وسهل ومرحب، ويجعل قلبه عرشاً له من حيث تلك الصفة المعينة فيكسوه القرآن صفة ما جاء به من عظمة أو مجد أو كرم، فظهرت صورة القرآن في مرآة هذا القلب فوصف القلب بما وصف به القرآن، فإن كان نزوله بصفة العظمة أثر في القلب هيبة وجلالاً وحياء ومراقبة وحضوراً وإخباتاً وانكساراً وذلة وافتقاراً وانقباضاً وحفظاً ومراعاة وتعظيماً لشعائر الله، وانصبغ القرآن كله عنده بهذه الصفة، فأورثه ذلك عظمة عند الله وعند أهل الله، ولم يجهل أحد من المخلوقات عظمة هذا الشخص إلا بعض الثقلين لأنهم ما سمعوا نداء الحق عليه بالتعريف، وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذَا أَحَبَّ الله عَبْداً قَالَ لِجِبْرِيلَ: إنِّي أُحِبُّ فُلاناً فَيُحِبّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يَأْمُرُهُ أَنْ يُعْلِمَ بِذَلِكَ أَهْلَ السَّمَاءِ فَيَقُولُ: أَلاَ إنَّ الله تَعَالَى قَدْ أَحَبَّ فُلاناً فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ كُلُّهُمْ، ثمّ يُوضَعُ له القَبُولُ في الأَرْضِ**» ولكن عند من؟ وأين كان قتلة الأنبياء من هذا القبول؟ أخبرنا صاحبنا موسى السدراني وكان صاحب حظوة محمولاً قال: لما وصلت إلى جبل قاف وهو جبل عظيم طوّق الله به الأرض وطوّق هذا الجبل بحية عظيمة قد جمع الله رأسها إلى ذنبها بعد استدارتها بهذا الجبل قال موسى: فاستعظمت خلقها قال: فقال لي صاحبي الذي كان يحملني: سلم عليها فإنها تردّ عليك، قال: ففعلت فردّت السلام وقالت: كيف حال الشيخ أبي مدين؟ فقلت لها: وأنى لك بالعلم بهذا الشيخ؟ فقالت: وهل على وجه الأرض أحد يجهل الشيخ أبا مدين، فقلت لها: كثير يستخفونه ويجهلونه ويكفرونه، فقالت: عجباً لبني آدم إن الله مذ أنزل محبته إلى من في الأرض وإلى الأرض عرفته جميع البقاع والحيوانات وعرفته أنا في جملة من عرفه فما تخيلت أن أحداً من أهل الأرض يبغضه ولا يجهل قدره كما هم أهل السماء في حق من أحبه الله، فلما سمعت منه هذه الحكاية قلت: أين هذا الأمر من كتاب الله؟ قال: لا أدري، قلت له: لما خلق الله آدم الإنسان الكامل على الصورة أعطاه

حكمها في العالم حتى تصح النسبة والنسب فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فأطلق: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ فعم الأمهات والمولدات وما ترك شيئاً من أصناف المخلوقات، فلما وصل بالتفصيل إلى ذكر الناس قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨] ولم يقل كلهم، فجعل عبده الصالح المحبوب في الحكم على صورته فأحبه بحب الله جميع من في السموات ومن في الأرض على هذا التفصيل وكثير من الناس لا كلهم فكفروه كما كفروا بالله وشتموه كما شتموا الله تعالى وكذبوه كما كذبوا الله. وقد ورد في الحديث الصحيح الإلهيّ: «**إنَّ الله يَقُولُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ ذٰلِكَ، وَشَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ ذَلِكَ**» الحديث، فإذا وجد الإنسان من نفسه هذه الصفة التي ذكرناها عند التلاوة أو استحضار القرآن علم أن القرآن العظيم أتاه من ربه في ذلك الوقت، وإذا جلى الله له سبحانه وكشف له عن شرف نفسه بخلقه على صورة ربه وما أعطاه الله من ظهوره بالأسماء الإلهية وما فضله الله به من حيث إنه جعله العين المقصودة ووسع قلبه حتى وسع علماً بما تجلى له وكشف له عن منزلته عنده وقبوله لزيادة العلم به دائماً وتأهله للترقي في ذلك إلى غير نهاية دنيا وآخرة وما سخر في حقه مما في السموات وما في الأرض جميعاً، ونظر إلى نظر كل جزء من العالم إليه بعين التعظيم والشغوف عليه، ورأى كل العالم في خدمته كما هو في تسبيح ربه لظهوره عندهم في صورة ربه، ويظهر هذا كله لهذا الشخص عند التلاوة للقرآن لا غير، علم عند ذلك أنه يتلو القرآن المجيد وأنه الذي نزل عليه وأتاه من ربه، ولهذا كشف له منزولة شرفه ومجده فاستوى مجيد على مجيد.

وإذا جلى الله له سبحانه وكشف له عن كرم نفسه بما يؤثر به على نفسه مع وجود الحاجة لما آثر به وسعى في قضاء حوائج الناس من مؤمن وغير مؤمن ونظر جميع العالم بعين الرحمة فرحمه ولم يخص بذلك شخصاً من شخص ولا عالماً من عالم بذل الوسع في إيصال الرحمة إليهم وقبل أعذارهم وتحمل أعباءهم وجهلهم وأذاهم وجازاهم بالإساءة إحساناً وبالذنب عفواً وعن الإساءة تجاوزاً وسعى في كل ما فيه راحة لمن سعى له وذلك كله في حال تلاوته علم قطعاً أنه يتلو القرآن الكريم، فإن هذه صفته وأنه القرآن الذي أتاه من ربه وأن الله يعامله بمثل ما عامل به، وأعظم ما يتكرم به العبد ما يتكرم به على الحق بطاعته وامتثال أمره فإن الله يفرح بتوبة عبده، فإذا تكرم على الله بمثل هذا فقد أغاظ عدو الله وهذا أعظم الكرم، فإن الأخلاق المحمودة لا تحصل للعبد إلا بهذا الطريق الذي قرّرناه، فمن أخذ الأخلاق كما تقرّر أخذها فهو المتمم لمكارم الأخلاق والمنعوت بها، وذلك لا يكون إلا بالتكرم على الله، فإنا قد علمنا أنه من المحال أن يعم الإنسان بخلقه ويبلغ به رضى جيمع العالم لما هو العالم عليه في نفسه من المخالفة والمعاداة، فإذا أرضى زيداً أسخط عدوّه عمراً فلم يعم بخلقه جميع العالم، فلما رأى استحالة ذلك التعميم عدل إلى تصريف خلقه مع الله فنظر إلى كل ما يرضي الله فقام فيه وإلى كل ما يسخطه فاجتنبه، ولم يبال ما وافق ذلك من العالم مما يخالفه، فإذا أقيم في هذا النظر في حال التلاوة علم أن القرآن الكريم نزل عليه فأعطاه صورته وصفته، فإن الله ما نظر من

هذا العلم إلا للإنسان لا إلى الحيوان الذي هو في صورة الإنسان فأكرمه ونعمه فيقول: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥] فإذا تصرف هذا التالي في العالم تصرف الحق من رحمته وبسط رزقه وكنفه على العدو والولي والبغيض والحبيب بما يعم مما لا يقدح ويخص جناب الحق بطاعته وإن أسخط العدو كما خص الحق بتوفيقه بعض عباده ولم يعم كما عمّ في الرزق، فمن هذه صفته في حال تلاوته فإنه يتلو القرآن الكريم الذي في الكتاب المكنون وهو قلب هذا التالي: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠] وما قال رب المؤمنين لعموم الكرم في الرزق والحياة الدنيا. فاعلم يا ولي ما تتلو وبمن تتلو ومن يسمعك إذا تلوت وبمن تسمع إذا كان الحق يتلو عليك. وهذا القدر كاف في التنبيه على شرف هذا المنزل فلنذكر ما يحوي عليه من العلوم:

فمن ذلك: علم منازل القرآن، وعلم الأوتاد الأربعة الذين قيل إن الشافعيّ واحد منهم، وعلم تعجب الحق وكل ما يتعجب منه فهو خلقه، وعلم ما يؤخذ منك وما يبقى عليك ومن يأخذه منك وهل يأخذه عن عطاء منك أو يأخذه الآخذ جبراً؟ وعلم بعض مراتب الكتب الإلهية التي عنده ولم تنزل إلينا، وعلم السبب الذي حال بيننا وبين أن يكون لنا من الله ما كان للرسل منه وهو قوله عليه السلام في الحديث الصحيح في الكشف فقال ﷺ: «**لَوْلاَ تَزْيِيدٌ فِي حَدِيثِكُمْ وَتَمْرِيجٌ فِي قُلُوبِكُمْ لَرَأَيْتُمْ مَا أَرَى وَلَسَمِعْتُمْ مَا أَسْمَعُ**» فهذا قد أبان عن الطريق الموصلة إلى المقام الذي منه رأى ما رأى وسمع ما سمع فهل يوجد من يزول عنه هذا المانع فيصل إلى هذا المقام أم لا؟ فنحن نقول: بأنه يزول فإن الله قد أمر أن يبين للناس ما نزل إليهم وما أبان عن مانع عن رقي إلى مرتبة علياء إلا ليزال ولا ذكر منزلة زلفى إلا لتنال فمن جد وجد ومن قصر فلا يلومن إلا نفسه، وعلم الاعتبار، وعلم مقام الصلاح الذي يطلبه الأنبياء عليهم السلام أن يكون لهم، وعلم ما تنتجه الأعمال البدنية من المعارف الإلهية من طريق الكشف، وعلم نزول العلم وحكمه في قلوب العلماء وما فيه من زيادة الفضل على من ليس له هذا المقام، وعلم تجديد المعدوم، وعلم إحصاء الأنفاس بالتمحيص لهذا الإنسان دون غيره، وعلم تقاسيم السكر في المشروب، وعلم ما هو الصور الذي ينفخ فيه فيكون عن النفخ ما يكون من صعق وبعث بسرعة، وعلم التوكيل الإلهي على العبيد إلى أن يبلغ مداه ويزول، وعلم العلم الذي ينزل منزلة العين في الطمأنينة الذي قال فيه علي رضي الله عنه: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً. وعلم التمييز بين الفرق، وعلم محل الخصام من الدار الأخرى، وعلم السوابق وحكمها، وعلم النقص في العالم أنه من كمال العالم، وعلم مآل السعداء وطبقاتهم في السعادة، وعلم استخراج الكنوز، وعلم أحكام أصناف الموصوفين بالوجود، وعلم الذكر المؤقت وغير المؤقت وما فائدة التوقيت في ذلك، وعلم ما يهون وروده على من ورد عليه مما لا يهون، وعلم مراتب العالم فانظر يا ولي أي علم تريده فتعمل في تحصيله من الطريق التي توصلك إليه أو التحلي بالصفة التي تنزله عليك، فإنك بين أعمال بدنية وهي محجة السلوك بالأعمال، وبين أخلاق روحانية وصفات معنوية إذا كنت عليها نزلت إليك المراتب وتجلت لك من ذاتها وطلبتك لنفسها، وإذا كنت صاحب محجة وصلت إلى غايتها بالطلب،

وفرقان بين الطالب والمطلوب والمراد والمريد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والثلاثون وثلاثمائة

في معرفة منزل الأخوة وهو من الحضرة المحمدية والموسوية

[مجزوء الكامل]:

بَيْنَ العَمَاء والاسْتِوَا حارتْ عقولُ أولي النُّهَى
وكذاك عند نُزوله من مُسْتَواه إلى السَّمَا
ووجوده في أرضه وبقَلْبنا وبأيْنَمَا
هذي المعالم كلُّها تعطي التَّحَيُّرَ والعَمَا
هي سِتَّةٌ مثلُ الجها ت لنا فصورتُنا سَوَا
فالله جلَّ بذاته عن نَعْتِ عَلَّ وعَنْ عَسَى

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] وجاء في الخبر: «**إنَّ المُؤمِن مِرْآة أَخِيهِ**» والمؤمن اسم من أسماء الله، وقد خلق آدم على صورته وله التخلق بالمؤمن، وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه بدار الخيزران وأخذ بيد علي وقال: «**هٰذا أخِي**» وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] فجعل أباهم الإيمان فهم إخوة لأب واحد، وقال موسى لربه حين بعثه إلى فرعون: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه] فآتاه الله سؤله.

فاعلم يا وليّ أن المقام الجامع للأسماء الإلهية التي لها التأثير في الممكنات أخ صحيح الأخوة شقيق للمقام الجامع لاستعدادات القوابل الممكنات، وهما أخوان لأب واحد يشد كل واحد منهما أزر صاحبه، ولكن الأسماء هي الطالبة للاستعدادات أن يشد الله بها أزرها فافهم، فإن هذا من علم الأسرار التي مقامها بين الستر والكشف وهو من أصعب العلوم في التصور حيث لا يصح نفوذ الاقتدار إلا باتفاق في الأخوين لا بأحدهما، وبهما ظهرت أعيان الممكنات وحصلت في الوجود معرفة الكائنات بالله ووصل بوجود هذه المعرفة المحدثة الحق سبحانه إلى عين مطلوبه، فإنه ما أوجد العالم إلا ليعرفه العالم والعالم محدث ولا يقوم به إلا محدث فقامت به المعرفة بالله إما بتعريف الله وإمّا بالقوّة التي خلق فيه التي بها يصل إلى معرفة الله من وجه خاص لا غير، فمن نزهه بهذه القوّة فقد عرفه وكفر من شبهه، ومن شبهه بهذه القوّة فقد عرفه وجهل من نزهه بل كفره، ومن عرفه بالتعريف الإلهيّ جمع بين التنزيه والتشبيه فنزهه في موطن التنزيه وشبهه في موطن التشبيه، وكل صنف من هذه الأصناف صاحب معرفة بالله، فما جهله أحد من خلق الله لأنه ما خلقهم إلا ليعرفوه، فإذا لم يتعرف إليهم بهذه القوّة الموصلة التي هي الفكر أو بالتعريف الإنبائي لم يعرفوه فلم يقع منه في العالم ما خلق العالم له، ولنا في هذا المقام الذي عم المعتقدات نظم وهو هذا: [الكامل]

عَقَدَ الخلائقُ في الإله عقائدا — وأنا شهدتُ جميعَ ما اعْتَقَدُوه
لما بدا صوراً لهم متحوّلاً — قالوا بما شَهِدُوا وما جَحَدُوه
ذاك الذي أجْنَى عليهم خَلْفُهم — بجميع ما قالوه واعْتَقَدُوه
إنْ أفْرَدُوه عن الشريك فقد نَحَوْا — في ملكه ربّاً كما شَهِدُوه
قد أعذَر الشرعُ المُوَحِّدَ وَحْدَهُ — والمشركون شَقَوْا وإن عَبَدُوه
وكذاك أهل الشكّ أخسرُ منهمُ — والجاحدون وُجُودَ مَنْ وَجَدوه
والقائلون بنَفْيِه أيضاً شَقَوْا — مثل الثلاثة حين لم يَجدوه
أجْنَى عليهم من تألَّهَ حين ما — أهلُ السعادة بالهُدَى عبدوه
لو وافق الأقوامَ إذ أغْواهمُ — وتنزَّهوا عن غِيِّه طردوه

فالعارف الكامل يعرفه في كل صورة يتجلى بها وفي كل صورة ينزل فيها، وغير العارف لا يعرفه إلا في صورة معتقده وينكره إذا تجلى له في غيرها، كما لم يزل يربط نفسه على اعتقاده فيه ينكر اعتقاد غيره، وهذا من أشكل الأمور في العلم الإلهي اختلاف الصور لماذا يرجع هل إليه في نفسه وهو الذي وقع به الإنباء الإلهيّ وأحاله الدليل العقليّ الذي أعطته القوّة المفكرة، فإذا كان الأمر على ما أعطاه الإنباء الإلهيّ فما رأى أحد إلا الله، فهو المرئي عينه في الصور المختلفة وهو عين كل صورة، وإن رجع اختلاف الصور لاختلاف المعتقدات وكانت تلك الصور مثل المعتقدات لا عين المطلوب فما رأى أحد إلا اعتقاده سواء عرفه في كل صورة فإنه اعتقد فيه قبول التجلي والظهور للمتجلي له في كل صورة أو عرفه في صورة مقيدة ليس غيرها، فمثل هذا العلم لا يعلم إلا بإخبار إلهي وقرينة حال، فأما الإخبار الإلهي فقول رسول الله ﷺ إنه الذي يتحوّل في الصور في الحديث الصحيح وقرينة الحال كونه «**ما خَلَقَ الخَلْقَ إلاّ لِيَعْرِفُوهُ**» فلا بد أن يعرفوه إما كشفاً أو عقلاً أو تقليداً لصاحب كشف أو عقل، والرؤية تابعة للمعرفة، فكما تعلقت به المعرفة فكان معروفاً تعلقت به الرؤية فكان مرئياً، فإن قال منكر الأمرين الذي لا يقول بالوصول إلى معرفته ولا إلى رؤيته وإنما العلم به معرفة الناظر في ذلك بأنه يعجز عن معرفته فيعلم عند ذلك أن من هو بهذه المثابة هو الله فقد حصل العلم به إجمالاً في عين الجهل به والعجز وهو قول بعضهم: العجز عن درك الإدراك إدراك، فهذا القدر هو المسمى معرفة بالله، وصاحب هذا القول إن جوزي بقوله فإنه لا يرى الله أبداً كما لا يعلمه أبداً، وإن لم يجازه الله بقوله، وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب، وعلم منه في ثاني حال خلاف ما كان يعلمه فإنه يراه ويعلم أنه هو والصحيح أنه يعلم ويرى، فإن الله تعالى خلق المعرفة المحدثة به لكمال مرتبة العرفان ومرتبة الوجود، ولا يكمل ذلك إلا بتعلق العلم المحدث بالله على صورة ما تعلق به العلم القديم، وما تعلق القديم بالعجز عن العلم به كذلك العلم المحدث به ما تعلق إلا بما هو المعلوم عليه في نفسه، والذي هو عليه في نفسه أنه عين كل صورة فهو كل صورة، فما وقع العجز من هذا العبد إلا في كونه قصره على صورة واحدة وهي صورة معتقده وهو عين صورة معتقده، فما عجز إلا عن الحكم عليه بما ينبغي له، ولا

يتصف بالعجز عن العلم به إلا من أخذ العلم من دليل عقله، وأما من أخذ العلم به من الله لا من دليله ونظره فهذا لا يعجز عن حصول العلم بالله، فإنه ما حاول أمراً يعجز عنه فيعترف بالعجز عنه، وليس هذا الذي يطلبه بنظره في دليل عقله وعلمه من طريق التعريف والتجلي الذي هو علم موهوب من حكيم حميد، فالقائل سبحان من لا يعرف إلا بالعجز عن المعرفة به صاحب علم نظر لا صاحب تعريف إلهيّ، وأما العجز عن إحصاء الثناء عليه فهذا قول كامل محقق فإنه لا يكون العجز عن إحصاء الثناء عليه إلا بعد العلم بالمثني عليه ما هو فيعلم أنه أعظم من أن يحيط به ثناء ويبلغ فيه وصف منتهاه كما قيل في بعض المخلوقات: [الطويل]

إذا نحنُ أثْنَيْنا عليكَ بصالح ... فأنت الذي تُثْني وفوق الذي نُثْني

هذا قول في مخلوق وهو قول محقق، فكيف الثناء على الله سبحانه؟ وإنما حققنا قول هذا الشاعر في هذا المخلوق مع ما يتخيل العقل بنظره أن الإحاطة بالثناء على المخلوق ممكنة، وليس الأمر في نفسه كذلك وإنما هذا الشاعر قال حقاً إما مصادفة وإما عن تحقق له وذلك في قوله: «فأنت الذي تثني» وهو ما هو عليه ذلك الممدوح في الوقت «وفوق الذي نثني» فإنه محل قابل لما يخلق الله فيه من النعوت التي يخلق فيه فيثني عليه بها، وهذه النعوت فيه لا نهاية لها أي لما يكون عنها مما يوجب الثناء بها على الممدوح، وإذا كان هذا الثناء على الحق تعالى فلها البقاء في الوجود لذاتها لا تقبل العدم، والثناء منا عليه دائم يتجدّد لأنه في كل نفس فينا يتجدّد علينا علم بالله فنثني عليه به، أو علم بأمر ما لم يكن عندنا فنثني عليه به، ونحن ما ننشد هذا البيت كما قاله صاحبه، وإنما ننشده على ما قلناه وأعطانا ذلك العلم به فنقول: [الطويل]

إذا نحن أَثْنَيْنا عَلَيْكَ بصَالحٍ ... فأنت الذي تُثْني ولَسْنا الذي نُثْني

وهذا فوق ما قاله الشاعر من وجه ومساو له من وجه، سواء قال ذلك عن علم محقق أو مصادفة وهو لا يعلم، فنطقه الله تعالى بالحق من حيث لا يشعر، كما أنه يستدرج العبد من حيث لا يعلم ويمكر به من حيث لا يشعر، والحق معلوم معروف في نفسه، والعالم به عاجز عن إحصاء الثناء عليه كما ينبغي له، فإنه ليس في الوسع حصول ذلك ولا يعطيه استعداد ممكن أصلاً، فهذا ما أعطاه مؤاخاة الاستعدادات والأسماء الإلهية، وهذه أعلى أخوّة يوصل إليها، ثم ينزل إلى أخوّة دونها وهي قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] ومن أسمائه «المؤمن» وقد وقع النزاع بينهم بما أخبر به عن نفسه أنه كذا فنازعه المؤمن من المخلوقين الذي اجتمع معه في الإيمان فكانت له أخوّة معه بهذا الإيمان بنظره في دليله العقلي أنه على خلاف ما أخبر به عن نفسه مع كونه مصدّقاً له لكنه تأوّل عليه، فلما ظهرت هذه المنازعة بين المؤمن الحق والمؤمن الخلق قال الله لعلماء الكشف: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] فدخل المؤمنون العالمون المكاشفون بينهما بالصلح، وذلك أن يكون المؤمن الحق مع هذا المؤمن أخيه حتى يبلغه قوّته لأنه مخلوق على كل حال، وما أعطيته

الكشف الكامل ولا ظهرت إليه به، فليكن معه بحيث يعطيه منزلته فيقول المؤمن الحق للمبلغ عنه قل لهذا المنازع: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤] ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١] و﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وإني منزه عن وصف الواصفين فجاء الرسول بالتوقيع الإلهي إلى هذا المؤمن المنازع بقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١] وبقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] وأشباه هذا النوع من التنزيه الذي يعطيه دليل العقل النظري، فإذا سمع هذا منه طاب قلبه وجنح إليه وزال نزاعه، وجاء العلماء إلى المؤمن الخلق في المصالحة من هذا الجانب وقالوا له: أنت تعلم أن المؤمن الحق أعلم بنفسه منك به لا بل أعلم بك من علمك بنفسك وأنك إنما تحكم عليه بما هو خلق له مثلك وهو عقلك وفكرك ودليلك فلا فرق بينك وبين كل مخلوق في العجز عما لا يعجز عنه المؤمن الحق فقف معه في موضع التسليم فإنه وإن كان مؤمناً وأنت مؤمن فأنت على مرتبتك التي تليق بك وهو على مرتبته التي تليق به وأنت تعلم أنك لست مثله وإن جمعكما الإيمان فليس نسبته إليه مثل نسبته إليك فإنك لست مثله فلا تغرّنك هذه المماثلة واعرف قدرك، فإذا سمع مثل هذا طلب الصلح والإقالة مما وقع منه من النزاع، وامتن المؤمن الحق عليه بما وقع له في المنشور من التنزيه الذي وقع النزاع من أجله فأصلح المؤمنون العالمون بين المؤمن الحق وبين هذا المؤمن الخلق، فهكذا فليكن الفهم عن الله فيما أوحى به إلى عباده على ألسنة رسله وأنزله في كتبه.

ثم في أخوّة الإيمان درجة أخرى في درجات الكشف وهي قوله بعد أن تسمى لنا بالمؤمن: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠] لأبوّة الإيمان، قال: **«المؤمنُ مرآةُ أخيه»** وما ينطق عن الهوى هذا القائل، فأثبت الأخوّة بين المؤمنين، وجعل كل واحد من المؤمنين مرآة لأخيه فيراه ويرى فيه نفسه من كونه على أي صورة كان كل مؤمن منهما بهذه المثابة، فيكون المؤمن الحق مرآة للمؤمن الخلق، فيراه ويعلم أنه يراه كما يعلم صاحب المرآة أن له مرآة ثم ينظر فيها فلا يرى إلا صورته وصورة ما أثرت المرآة فيه، ولهذا جعل له عينين ليرى بالعين الواحدة صورته وبالعين الأخرى ما حكمت به المرآة في صورته إذ لم يكن في نفسه على ما حكمت به المرآة عليه في الصورة المحسوسة من الكبر والصغر والطول والعرض والاستقامة والانتكاس على حسب شكل المرآة، ولا يرى هذا الأثر كله هذا الناظر إلا في صورته فيعلم أن له فيه حكماً ذاتياً لا يمكن أن يرى نفسه في هذه المرآة إلا بحسب ذلك، فإذا كان المؤمن الخلق هو عين المرآة للمؤمن الحق فيراه الحق وهو في نفسه على استعداد خاص فلا يبدو من الحق له إلا على قدر استعداده، فلا يرى الحق من نفسه في هذه المرآة الخاصة إلا قدر ذلك، فأثرت هذه المرآة في إدراك الرائي القصور على ما رأى بحكم الاستعداد فأشبهه من هذا الوجه فعبر عن هذا المقام بالأخوّة، إذ لولا المناسبة بين الأمرين لم يكن كل واحد من الأمرين مرآة لأخيه، وما نصب الله هذا المثال وخلق لنا هذه المرائي إلا ليعطينا النظر فيها إصلاح ما وقع في صورتنا من خلل وما يتعلق بها من أذى تنزيله على بصيرة فهي تجل لإزالة العيوب، فيدلك هذا أن الرائي في المرآة يحصل له علم لم يكن يراه قبل ذلك، ففي المؤمن المخلوق

يقرب ذلك ويصح، وفي المؤمن الحق يعسر مثل هذا فهو قوله تعالى في المؤمن الحق: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] كذلك إذا رأى الحق نفسه في مرآة المؤمن المخلوق رأى أنه بحكم استعدادها لا يرى غير ذلك فيها فيزيل عنه هذا الحكم بنظره في مراء متعدّدة فيختلف الحكم في الصورة الواحدة باختلاف الاستعدادات وهو عينه لا غيره، فيعلم عند ذلك أن حكم الاستعداد أعطى ما أعطى وأنه على ما هو عليه في نفسه فزال ما تعلق به من أذى التقيد كما أزال الابتلاء أذى التردد وطلب إقامة الحجة ليكون هو الغالب فقال: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] فجعل الابتلاء سبب حصول هذا العلم وما هو سبب حصول العلم، وإنما هو سبب إقامة الحجة حتى لا يكون للمحجوج حجة يدفع بها.

وأمّا مماثلة الصورة في الخلق فهي للنيابة والخلافة ما هي للأخوة فإنه من حيث صورة العالم من العالم كما هو الروح من الجسد من صورة الإنسان وهو من حيث صورة الحق ما يظهر به في العالم من أحكام الأسماء الإلهية التي لها التعلق بالعالم، فليست الصورة بأخوة كما يراه بعضهم، ولهذا لم نذكر الأخوة إلا في أمر خاص وهو المؤمن إلا أن الصورة تشد أزر إخوة الإيمان بالسببية، فإن الأسباب لولا ما لها أثر في المسبب ما أوجدها الله، ولو لم يكن حكمها في المسببات ذاتياً لم تكن أسباباً ولم يصدق كونها أسباباً ويعلم ذلك فيمن لا يقبل الوجود إلا في محل وما ثم محل ويريد الموجد إيجاده، فلا بد أن يوجد المحل لوجود هذا المراد وجوده، فيكون وجود المحل سبباً في وجود هذا المراد الذي تعلقت الإرادة به وبإيجاده، فعلمت أن للأسباب أحكاماً في المسببات فهي كالآلة للصانع فتضاف الصنعة والمصنوع للصانع لا للآلة، وسببه أنه لا علم للآلة بما في نفس الصانع أن يصنع بها على التعيين، بل لها العلم بأنها آلة للصنع الذي تعطيه حقيقتها ولا عمل للصانع إلا بها، فصنع الآلة ذاتيّ، وما لجانب الصانع بها إراديّ وهو قوله: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [النحل: ٤٠] وكن آلة للإيجاد فما أوجد إلا بها، وكون تلك الكلمة ذاته أو أمراً زائداً علم آخر إنما المراد هو فهم هذا المعنى، وأنه ما حصل الإيجاد بمجرد الإرادة دون القول ودون المريد والقائل، فظهر حكم الأسباب في المسببات، فلا يزيل حكمها إلا جاهل بوضعها وما تعطيه أعيانها ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] ولهذا قال موسى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٣٢] وقال: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ [طه: ٣٢] وهو أفصح مني لساناً فعلم ما قال، وعلمنا نحن من هذا القول ما أشار إليه به ليفهم عنه صاحب عين الفهم، فهذا معنى التعاون وهو في قوله: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه. فلولا المشاركة في المطلوب بالوجود من المستعان به ما صدق المستعين في استعانته، والمستعين قد يستعين شرفاً للمستعان به مع غناه عنه على التعيين، وإن كان لا بد من سبب أو يكون ممن يستقل به دون السبب فيقصد جعله سبباً لشرفه بذلك على غيره ليعلم منزلته عنده فإن الله قد جعل المفاضلة في العالم.

وأما المؤاخاة بين الأسماء الإلهية فلا تكون إلا بين الأسماء التي لا منافرة بينها لذاتها

فإن الله ما واخى إلا بين المؤمنين، وما واخى بين المؤمن والكافر بل لم يجعل لأخوة النسب حظاً في الميراث مع فقد أخوّة الإيمان، فليس المدعى إلا أخوة الإيمان، ألا تراه إذا مات عن أخ له من النسب وهو على غير دينه لم يرثه أخو النسب وورثه أخو دينه، والصورة بيننا وبين الحق نسب ودين، فلهذا ما يرث الأرض عز وجل إلا بعد موت الإنسان الكامل حتى لا يقع الميراث إلا في مستحق له، كما يرث السماء لما فيها من حكم أرواح الأنبياء عليهم السلام لا من كونها محلاً للملائكة، فإذا صعقوا بالنفخة ورث الله السماء فأنزل الاسم الوارث الملائكة من السماء وبدّل الأرض غير الأرض والسموات كما ذكرناه فيما قبل من هذا الكتاب، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، فالمؤمن لا يبغض المؤمن، والمؤمن لا يقتل المؤمن لإيمانه، والمؤمن يقتل أخا النسب إذا كان غير مؤمن، فهذا القدر كاف في هذا الباب. فلنذكر ما يحوي عليه من العلوم:

فمن ذلك: علم صورة نداء الحق عباده من أين يناديهم هل يناديهم من حكم مشيئته أو يناديهم من حيث ما هم عليه؟ ومن ينادي هل ينادي المعرض أو المقبل أو هما؟ وفيه علم الآداب الإلهية ومنازل المخلوقات وما ينبغي أن يعامل به كل مخلوق بل كل موجود، وعلم مصالح الموجودات فلا يتصرف صاحب هذا العلم إلا فيما هو مصلحة لنفسه أو لغيره على حسب ما يصرفه المطلوب فهو خارج في تصرّفاته عن هوى نفسه إنما هو مع المصالح فهو لكل شيء لا عليه، وفيه علم الفهم بما يأتي به كل قائل فيعلم من أين تكلم فيقيم له عذراً فيما ينسب إليه عند من لا يعرف ذلك من الخطأ في قوله، وهو علم عزيز يقل الإنصاف فيه من أهله فكيف ممن لا يعرفه؟ وما يؤثر تارك العمل بمثل هذا العلم في صاحبه من الحسرة والندامة على عدم استعماله، وفيه علم الحكمة في التغافل والتناسي وهو الحلم والإمهال الإلهي أو من ذي القدرة ليرجع المغفول عنه عما هو عليه مما كان لا ينبغي أن يظهر به ولا عليه، وفيه علم كون الأشياء بيد الله ليس بيد المخلوقين منها شيء وإن ظهرت الصور بأيديهم فهي بحكم الاستعارة لا بحكم الملك، وفيه علم المنن الإلهية التي أسبغها على العباد في الظاهر والباطن وتعيين ما يمكن أن يعين منها، وعلم برزخ المتشاجرين ليقف فيه من يريد رفع التشاجر بينهم، وفيه علم الأسماء وشرفها والفرق بينها وبين ما زاد على الإعلام منها مما وضع لمدح أو ذم، وفيه علم العدول عن الطريق التي تحول بين العبد وبين حصول العلم فإنه أعلى ما يطلب وأفضل ما يكتسب وأعظم ما به يفتخر وأسد آلة تعد وتدخر وبه مدح الله نفسه بأن له الحجة البالغة وليس إلا العلم، وفيه علم مراتب الخلق الإنساني في الخلق فإنهم على طبقات فيه وما يسمى به الإنسان الذي خلقه الإنسان هل هو إنسان أو حيوان في صورة إنسان من حيث نشأة جسده؟ وما الأمر الذي عجز عنه في ظهور النفس الناطقة في هذا المخلوق هل لعدم الاستعداد فيقضي للمنشيء لهذه الصورة ما يقع به قبول نفس ناطقة من النفس الكل؟ أو هل هو تعجيز أراديّ إلهيّ لأنه أمر عظيم؟ وقد ذكر أنه وقع مثل هذا، وذكر في الفلاحة النبطية أن بعض العلماء بعلم الطبيعة كوّن من المنيّ الإنسانيّ بتعفين خاص على وزن مخصوص من الزمان والمكان

إنساناً بالصورة، وأقام سنة يفتح عينيه ويغلقها ولا يتكلم ولا يزيد على ما يغذى به شيئاً فعاش سنة ومات فما يدرى أكان إنساناً حكمه حكم الأخرس أو كان حيواناً في صورة إنسان؟ وفيه علم الأنساب والأحساب، وفيه علم ما يعتبر الله من المكلف هل يعتبر ظاهره أو باطنه أو المجموع في قبول ما يكون منه بعد التكليف، وأما قبله فلا يقيد بل يجري بطبعه من غير مؤاخذة أصلاً وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وإذا كان هذا فمن أين وقع الألم للصغير حتى بكى مما يجده؟ وفيه علم كيفية ردّ الجاهل إلى العلم، وفيه علم صورة ردّ الأمور إلى الله سبحانه وتعالى في قدسه على أي طريق يكون؟ هل بحكم أنه موجدها أو أنه غايتها أو ما هو ذلك؟ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والثلاثون وثلاثمائة

في معرفة منزل مبايعة النبات القطب صاحب الوقت في كل زمان وهو من الحضرة المحمدية

[السريع]

أقسمتُ بالله الذي أقسما ... بنفسه وإي وربِّي وما
بأنه وِتْرٌ بلا مُوتِرٍ ... في أرضه وخلقه أينما
وأنّه ينزلُ من عَرْشه ... نُزولَهُ لعَرْشه مِنْ عَمَا
من غير تكييفٍ ولا فرقة ... فإنه مُنَزَّهٌ عنهُما

اعلم أيدك الله أن المبايعة العامّة لا تكون إلا لواحد الزمان خاصة، وإن واحد الزمان هو الذي يظهر بالصورة الإلهية في الأكوان، هذا علامته في نفسه ليعلم أنه هو ثم له الخيار في إمضاء ذلك الحكم أو عدم إمضائه والظهور به عند الغير فذلك له، فمنهم الظاهر، ومنهم من لا يظهر ويبقى عبداً إلا إن أمره الحق بالظهور فيظهر على قدر ما وقع به الأمر الإلهي لا يزيد على ذلك شيئاً، هذا هو المقام العالي الذي يعتمد عليه في هذه الطريق لأن العبد ما خلق بالأصالة إلا ليكون لله، فيكون عبداً دائماً ما خلق أن يكون رباً، فإذا خلع الله عليه خلعة السيادة وأمره بالبروز فيها برز عبداً في نفسه سيداً عند الناظر إليه فتلك زينة ربه وخلعته عليه، قيل لأبي يزيد البسطامي رحمه الله في تمسح الناس به وتبركهم فقال رضي الله عنه: ليس بي يتمسحون وإنما يتمسحون بحلية حلانيها ربي أفأمنعهم ذلك وذلك لغيري، وقيل لأبي مدين في تمسح الناس به بنية البركة وتركهم يفعلون ذلك: أما تجد في نفسك من ذلك أثراً؟ فقال: هل يجد الحجر الأسود في نفسه أثراً يخرجه عن حجريته إذا قبلته الرسل والأنبياء والأولياء وكونه يمين الله؟ قيل: لا، قال: أنا ذلك الحجر قال تعالى في هذا المقام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] فنفاه بعدما أثبته صورة كما فعل به في الرمي سواء أثبته ونفاه ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] ثم جعل الله يده في المبايعة فوق أيدي المبايعين. فمن أدب المبايعة إذا أخذ المبايعون يد المبايع للبيعة ليقبلوها جعلوا أيديهم

تحتها وجعلوها فوق أيديهم كما أخذ الرحمن الصدقة بيمينه من يد المتصدّق، فمن الأدب من المتصدّق أن يضع الصدقة في كف نفسه وينزل بها حتى تعلو يد السائل إذا أخذها على يد المعطي حتى تكون هي اليد العليا وهي خير من اليد السفلى واليد العليا هي المنفقة فيأخذها الرحمن لينفقها له تجارة حتى تعظم فيجدها يوم القيامة قد نمت وزادت، هذا مذهب الجماعة، وأما مذهبنا الذي أعطاه الكشف إيانا فليس كذلك، إنما السائل إذا بسط يده لقبول الصدقة من المتصدّق جعل الحق يده على يد السائل فإذا أعطى المتصدّق الصدقة وقعت بيد الرحمن قبل أن تقع بيد السائل كرامة بالمتصدق ويخلق مثلها في يد السائل لينتفع بها السائل ويأخذ الحق عين تلك الصدقة فيربيها فتربو حتى تصير مثل جبل أحد في العظم، وهذا من باب الغيرة الإلهية حيث كان العطاء من أجله لما يرى أن الإنسان يعطي من أجل هواه ما يعظم شأنه من الهبات، ويعطي من أجل الله أحقر ما عنده، هذا هو الغالب في الناس، فيغار الله لجنابه أن لا يرى في مقام الاستهضام فيربي تلك الصدقة حتى تعظم فإذا جلاها في صورة تلك العظمة حصل المقصود، فيد المعطي تعلو على يد الآخذ ولهذا قال تقع والوقوع لا يكون إلا من أعلى، وقد قال ﷺ: «**لَوْ دَلَّيْتُمْ بِحَبْلٍ لَهَبَطَ عَلَى الله**» أي كما ينسب إلى العلوّ في الاستواء على العرش هو في التحت أيضاً، كما هو بكل شيء محيط للحفظ كما يحفظ محيط الدائرة الوجود أو نسبة الوجود على النقطة التي ظهرت عنها نسبة الإحاطة لوجود الدائرة المحيطة فله الفوق كما له التحت وله الظاهر كما له الباطن، فهو المبايع والمبايع فإنه لا يبايع إلا بالسمع والطاعة، والسمع لا يكون إلا هو، والعمل بالطاعة لا يكون إلا له، فهو السميع العامل لما أمر بعمله.

فلنذكر صورة البيعة ولنا فيها كتاب مستقل سميناه مبايعة القطب يتضمن علماً كبيراً ما علمنا أنا سبقنا إليه، وإن كان العارفون من أهل الله شاهدوه وعلموه، ولكن شغلهم عن تبيينه للناس ما كان المهم عندهم كما كان إظهاره للناس من المهم عندنا، إذ هذه الطائفة لا شغل لها إلا بالأهم، هذا إذا لم يظهر بحكم القوّة الإلهية، فإذا ظهر بها لم يشغله شيء عن شيء إذ هو حق كله فاعلم ذلك.

إيضاح وبيان لمنصب البيعة وصورتها: فاعلم أن الله سبحانه إذا ولى من ولاه النظر في العالم المعبر عنه القطب وواحد الزمان والغوث والخليفة نصب له في حضرة المثال سريراً أقعده عليه ينبىء صورة ذلك المكان عن صورة المكانة كما أنبأ صورة الاستواء على العرش عن صورة إحاطته علماً بكل شيء، فإذا نصب له ذلك السرير خلع عليه جميع الأسماء التي يطلبها العالم وتطلبه فيظهر بها حللاً وزينة متوجاً مسوراً مدملجاً، لتعمه الزينة علوّاً وسفلاً ووسطاً وظاهراً وباطناً فإذا قعد عليه بالصورة الإلهية وأمر الله العالم ببيعته على السمع والطاعة في المنشط والمكره فيدخل في بيعته كل مأمور أعلى وأدنى إلا العالين وهم المهيمون العابدون بالذات لا بالأمر فيدخل في أوّل من يدخل عليه في ذلك المجلس الملأ الأعلى على مراتبهم الأوّل فالأول، فيأخذون بيده على السمع والطاعة ولا يتقيدون بمنشط ولا مكره

لأنهم لا يعرفون هاتين الصفتين فيهم، إذ لا يعرف شيء منهما إلا بذوق ضده فهم في منشط لا يعرفون له طعماً لأنهم لم يذوقوا المكره، وما منهم روح يدخل عليه للمبايعة إلا ويسأله في مسألة من العلم الإلهي فيقول له: يا هذا أنت القائل كذا؟ فيقول له: نعم، فيقول له في المسألة وجهاً يتعلق بالعلم بالله يكون أعلى من الذي كان عند ذلك الشخص فيستفيد منه كل من بايعه وحينئذ يخرج عنه، هذا شأن هذا القطب والكتاب الذي صنفته فيه ذكرت فيه سؤالاته للمبايعين له التي وقعت في زماننا لقطب وقتنا فإنها ما هي مسائل معينة تتكرّر من كل قطب، وإنما يسأل كل قطب فيما يخطر الله في ذلك الحين مما جرى لهذا الذي بايعه من الأرواح فيه كلام، فأوّل مبايع له العقل الأوّل ثم النفس ثم المقدمون من عمال السموات والأرض من الملائكة المسخرة، ثم الأرواح المدبرة للهياكل التي فارقت أجسامها بالموت ثم الجنّ ثم المولدات، وذلك أنه كل ما سبح الله من مكان ومتمكن ومحل وحال فيه يبايعه إلا العالين من الملائكة وهم المهيمون، والأفراد من البشر الذين لا يدخلون تحت دائرة القطب وما له فيهم تصرّف وهم كمل مثله مؤهلون لما ناله هذا الشخص من القطبية. لكن لما كان الأمر لا يقتضي أن يكون في الزمان إلا واحد يقوم بهذا الأمر تعين ذلك الواحد لا بالأولوية، ولكن بسبق العلم فيه بأن يكون الوالي وفي الأفراد من يكون أكبر منه في العلم بالله، وهذا المنزل يتضمن مبايعة النبات من المولدات ويدخل فيه قوله في الأجسام الإنسانية ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فنبتم ﴿نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] فجاء في ذكرهم بالإنبات أنه أنبتهم ولم يؤكده بالمصدر، وجاء بمصدر آخر ليعرف بأنهم نبتوا حين أنبتهم، فأوقع الاشتراك بينه وبينهم في الخلق ينبه أنه لولا استعدادهم للإنبات ما أثرت فيهم الأسماء، فكان خروجهم من الأسماء والاستعداد، فللأسماء قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وللاستعداد قوله: ﴿نَبَاتًا﴾ لأن نباتاً مصدر «نَبَتَ» لا مصدر «أنْبَتَ»، فإن مصدر أنبت إنما هو إنبات فانظروا ما أعجب مساق القرآن وإبراز الحقائق فيه كيف يعلمنا الله في إخباراته ما هي الأمور عليه فيعطي كل ذي حق حقه، إذ لا ينفذ الاقتدار الإلهيّ إلا فيمن هو على استعداد النفوذ فيه، ولا يكون ذلك إلا في الممكنات، إذ لا نفوذ له في الواجب الوجود لنفسه ولا في المحال الوجود فسبحان العليم الحكيم.

واعلم أن الإنسان شجرة من الشجرات أنبتها الله شجرة لا نجماً لأنه قائم على ساق، وجعله شجرة من التشاجر الذي فيه لكونه مخلوقاً من الأضداد، والأضداد تطلب الخصام والتشاجر والمنازعة ولهذا يختصم الملأ الأعلى، وأصل وجوده في العالم حكم الأسماء الإلهية المتقابلة في الحكم لا غير هذا مستندها الإلهيّ، قال تعالى في حق محمد ﷺ أنه قال: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩] حتى أعلمه الله تعالى، فعلم أن للطبيعة فيهم أثراً، كما أن للأركان في أجسام المولدات أثراً، فلما كان الناس شجرات جعل فيهم ولاة يرجعون إليهم إذا اختصموا ليحكموا بينهم ليزول حكم التشاجر، وجعل لهم إماماً في الظاهر واحداً يرجع إليه أمر الجميع لإقامة الدين، وأمر عباده أن لا ينازعوه، ومن ظهر عليه ونازعه أمرنا الله بقتاله لما علم أن منازعته تؤدّي إلى فساد في الدين الذي أمرنا الله بإقامته

وأصله قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فمن هناك ظهر اتخاذ الإمام وأن يكون واحداً في الزمان ظاهراً بالسيف، فقد يكون قطب الوقت هو الإمام نفسه كأبي بكر وغيره في وقته، وقد لا يكون قطب الوقت فتكون الخلافة لقطب الوقت الذي لا يظهر إلا بصفة العدل، ويكون هذا الخليفة الظاهر من جملة نواب القطب في الباطن من حيث لا يشعر، فالجور والعدل يقع في أئمة الظاهر ولا يكون القطب إلا عدلاً، وأما سبب ظهوره، في وقت وخفاء بعضهم في وقت فهو أن الله ما جبر أحداً على كينونته في مقام الخلافة، وإنما الله أعطاه الأهلية لذلك المقام وعرض عليه الظهور فيه بالسيف حسبما ما أمره، فمن قبله ظهر بالسيف فكان خليفة ظاهراً وباطناً ما ثم غيره، وإن اختار عدم الظهور لمصلحة رآها أخفاه الله وأقام عنه نائباً في العالم يسمى خليفة يجور ويعدل، وقد يكون عادلاً على قدر ما يوفقه الله سبحانه، ويكون حكمه وإن كان جائراً حكم الإمام العادل من نازعه قتل ولا يقتل إلا الآخر فإنه المنازع، وأمرنا الله أن لا نخرج يداً من طاعته، وأخبرنا أنه من عدل منهم فلهم وإن من جار منهم فعليهم ولنا.

ولما كان الإنسان شجرة كما ذكرناه نهى الله أوّل إنسان عن قرب شجرة عينها له دون سائر الشجرات، كما هو الإنسان شجرة معينة بالخلافة دون سائر الشجرات، فنبهه أن لا يقرب هذه الشجرة المعينة على نفسه، وظهر ذلك في وصيته لداود: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦] يعني هوى نفسه فهو الشجرة التي نهى آدم أن يقربها أي لا تقارب موضع النزاع والخلاف فيؤثر فيك نشأة جسدك الطبيعيّ العنصري، يقول ذلك لنفسه الناطقة المدبرة، فإن بها يخالف أمر الله فيما أمره به أو نهاه عنه، فقوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥] بحرف الإشارة تعيين لشجرة معينة، ولما كانت الإمامة عرضاً كما كانت الأمانة عرضاً والإمامة أمانة لذلك ظهر بها بعض الأقطاب ولم يظهر بها بعضهم فنظر الحق لهذا القطب بالأهلية، ولو نظر الله للإمام الظاهر بهذه العين ما جار إمام قط كما تراه الإمامية في الإمام المعصوم، فإنه من شرط الإمام الباطن أن يكون معصوماً، وليس الظاهر إن كان غيره له مقام العصمة، ومن هنا غلطت الإمامية، فلو كانت الإمامة غير مطلوبة له وأمره الله أن يقوم فيها عصمه الله بلا شك عندنا، وقد نبه رسول الله ﷺ على ما قررناه كله، فنبه على العرض بفعله حيث لم يجبر أحداً على ولاية بل ذكر أنه من تركها كان خيراً له وأنها يوم القيامة حسرة وندامة إلا لمن قام فيها بصورة العدل، ونبه على عصمة من أمر بها بقوله: «**فَمَنْ أُعْطِيَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلَ إِلَيْهَا وَمَنْ جَاءَتْهُ عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَكَّلَ الله بِهِ مَلَكاً يُسَدِّدُهُ**» وهذا معنى العصمة، والسؤال هنا إشارة إلى الرضا بها والمحبة لهذا المنصب، فهو سائل بباطنه وغيره ممن يكره ذلك يجبره أهل الحل والعقد عليها ويرى أنه قد تعين عليه الدخول فيها والتلبس بها لما يرى أن تخلف عنها من ظهور الفساد، فيقوم له ذلك في الظاهر مقام الجبر الإلهي بالأمر على التلبس بها فيعصم فيكون عادلاً إذ الملك الذي يسدده لا يأمره إلا بخير حتى القرين كما قال ﷺ: «**أنه أعانه الله عليه فأسْلَم**» برفع الميم ونصبها وقال: «**فلا يأمُرُني إلا بخَيرٍ**».

فمبايعة النبات هذا القطب هو أن تبايعه نفسه أن لا تخالفه في منشط ولا مكره مما يأمرها به من طاعة الله في أحكامه، فإن الله قد جعل زمام كل نفس بيد صاحبها وأمرها إليه فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] يعني نفسه، وكذلك في داود: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [صٓ: ٢٦] يعني نفسه فإنه لو كان هوى غيره نهى أن يتبعه فاتبعه فما يتبعه إلا بهوى نفسه فطاوع نفسه في ذلك، فلذلك تعين أنه أراد بالهوى نفسه لا غيره، وهو أن يأمره بمخالفة ما أمره الله به أن يفعله أو ينهاه عنه، فإذا بايعته نفسه انصرف حكم شجريتها إلى منازعة من ينازع أمر الله فبقي حكم حقيقتها في المخالفين أمر الله، إذ علم الله أن حقيقة الخلاف لا تزول فإنها شجرة لعينها، فلو زال لزال عينها، فلهذا عين الله لها مصرفاً خاصاً يكون فيه سعادتها، وكل من عرف القطب من الناس لزمته مبايعته، وإذا بايعه لزمته بيعته وهي من مبايعة النبات فإنها بيعة ظاهرة لهذا القطب التحكم في ظاهره بما شاء وعلى الآخر التزام طاعته. وقد ظهر مثل هذا في الشرع الظاهر أن المتنازعين لو اتفقا على حكم بينهما فيما تنازعا فيه فحكم بينهما بحكم لزمهما الوقوف عند ذلك الحكم وأن لا يخالفا ما حكم به، فالقطب المنصوب من جهة الحق أولى بالحكم فيمن عرف إمامته في الباطن من الناس، ولهذا التحكم الذي قلناه منه في ظاهر من بايعه ألحقنا هذه المبايعة ببيعة النبات، بل إن حققت الأمر واتبعت فيه الأصل وجدت النباتية في النفس الجزئية الناطقة لأنها ما ظهرت إلا من هذا الجسم المسوى المعدل وعلى صورة مزاجه، فهي أرضه التي نبتت منه حين أنبتها الله بالنفخ في هذا الجسم من روحه، وهكذا كل روح مدبر لجسم عنصري، فالسعيد، من عرف إمام وقته فبايعه وحكمه في نفسه وأهله وماله كما قال ﷺ في حق نفسه: «**لا يَكْمُلُ لِعَبْدِ الإيمانُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**» ولهذا يشترط في البيعة المَنْشَطُ والمَكْرَهُ لأن الإنسان ما ينشط إلا إذا وافق الله هوى نفسه، والمكره إذا خالف أمر الله هوى نفسه فيقوم به على كره لإنصافه ووفائه بحكم البيعة فإنه ما بايع إلا الله إذ كانت ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وما شاهدوا بالأبصار إلا يد هذا الشخص الذي بايعوه، والنفس أبداً في الغالب تحت حكم مزاجها، والقليل من الناس من يحكم نفسه على طبيعته ومزاجه، فإن الأمومة للجسم المسوى والبنوّة للنفس، وقد أمر الإنسان بالإحسان لأبويه والبر بهما وامتثال أوامرهما ما لم يأمره أحد الأبوين بمخالفة أمر الحق فلا يطعه كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] فأمر باتباع المنيبين إلى الله ومخالفة نفوسهم إن أبت ذلك، فحق الإمام أحق بالاتباع، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وهم الأقطاب والخلفاء والولاة وما بقي لهم حكم إلا في صنف ما أبيح لك التصرف فيه فإن الواجب والمحظور من طاعة الله وطاعة رسوله، فما بقي للأمة إلا المباح ولا أجر فيه ولا وزر. فإذا أمرك الإمام المقدم عليك الذي بايعته على السمع والطاعة بأمر من المباحات وجبت عليك طاعته في ذلك وحرمت مخالفته وصار حكم ذلك الذي كان مباحاً واجباً،

فيحصل للإنسان إذا عمل بأمره أجر الواجب وارتفع حكم الإباحة منه بأمر هذا الذي بايعه، فتدبر ما ذكرناه وما نبهنا عليه من أمر الإمام بالمباح، واعرف منزلة البيعة وما أثمرت وما أثرت وكيف نسخت حكم الإباحة بالوجوب عن أمر الحق بذلك، فنزل الإمام منزلة الشارع بأمر الشارع فتغير الحكم في المحكوم عليه عما كان عليه في الشرع قبل أمر هذا الإمام، فمن أنزله الحق منزلته في الحكم تعين اتباعه.

واعلم أن النبات عالم وسط بين المعدن والحيوان فله حكم البرازخ فله وجهان فيعطى من العلم بذاته لمن كوشف بحقيقة ما فيه من الوجوه، فإن الكمال في البرازخ أظهر منه في غير البرازخ لأنه يعطيك العلم بذاته وبغيره، وغير البرزخ يعطيك العلم بذاته لا غير لأن البرزخ مرآة للطرفين، فمن أبصره أبصر فيه الطرفين لا بد من ذلك، وفي النبات سر برزخي لا يكون في غيره، فإنه برزخ بينه من قوله: ﴿نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] وبين ربه من قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ [نوح: ١٧] والمنصف العادل من حكم بين نفسه وربه، ولا يكون حكماً حتى تكون نفسه تنازع ربها فيحكم له عليها لعلمه أن الحق بيد الله بكل وجه وعلى كل حال، وسبب نزاعها كونها على الصورة، ففيها مضادة الأمثال لا مضادة الأضداد، فيدخل الإنسان حكماً بين ربه وبين نفسه. ألا تراه مأموراً بأن ينهاها عن هواها فأنزلها منزلة الأجنبي وليس إلا عينها وهي التي ادعت فيه الحكم والخصم، ولو اقتصر الأمر دونها على الجسم النامي منه وغير النامي لم تكن منازعة فإنه مفطور على التسبيح لله بحمده، فالجسم الإنسانيّ كالنجم من النبات لا يقوم على ساق، فلا يرجع شجرة إلا بوجود الروح المنفوخ فيه فحينئذ يقوم على ساق بخلاف الأشجار كلها فإنها تقوم على ساق من غير نفخ الروح الحيوانيّ فيها فهو نجم بالأصالة وشجرة بالنفخ، فسجوده لله سجود الظلال، وسجود الشجر لله سجود الأشخاص القائمين على ساق.

ولما كان النبات برزخياً كان مرآة قابلاً لصور ما هو لها برزخ وهما الحيوان والمعدن إذا بايع بايع لبيعته ما ظهر فيه من صور ما هو برزخ لهما تابعاً له، فتضمنت بيعة النبات بيعة الحيوان والمعادن، لأن هذا الإمام يشاهد الصور الظاهرة في مرآة البرازخ وهو علم عجيب، كما يرى الناظر في المرآة في الحس غير صورته مما تقبله المرآة من صور غير الناظر من الأشخاص، فيدرك فيها ما هي تلك الأشخاص عليه في أنفسها مع كونها في أعيانها غيباً عنه، وما رأى لها صورة إلا في هذا الجسم الصقيل، فإن أعطته تلك الصورة علماً غير النظر إليها كان ذلك العطاء بمنزلة ما يعطي المبايع في البيعة من السمع والطاعة لمن بايعه وإن لم تعط علماً لم يرجع ذلك إليها وإنما هو رجع إلى الناظر وأنه ليس بإمام ولا خليفة ولا له بيعة أصلاً، وبهذا يتميز الإمام في نفسه عن غيره ويعلم أنه إمام، فإن أخذ العلم هذا الناظر من تلك الصورة بحكم التفكر والاعتبار فيخيل أنه إمام وقته فليس كذلك إلا أن تعطيه الصور العلم من ذاتها كشفاً من غير فكر ولا اعتبار، وإن اتفق أن يساويه صاحب الفكر في ذلك العلم الكشفي فليس بإمام لاختلاف الطريق، فإن الإمام لا يقتني العلوم من فكره بل لو رجع

إلى نظره لأخطأ، فإن نفسه ما اعتادت إلا الأخذ عن الله، وما أراد الله لعنايته بهذا العبد أن يرزقه الأخذ من طريق فكره فيحجبه ذلك عن ربه، فإنه في كل حال يريد الحق أن يأخذ عنه ما هو فيه من الشؤون في كل نفس فلا فراغ له ولا نظر لغيره، وللعاقل إذا استبصر دليل قد وقع يدل على صحة ما ذكرناه نهي النبي ﷺ عن إبار النخل ففسد لأنه لم يكن عن وحي إلهيّ ونزوله يوم بدر على غير ماء فرجع إلى كلام أصحابه فإنه ﷺ ما تعوّد أن يأخذ العلوم إلا من الله لا نظر له إلى نفسه في ذلك، وهو الشخص الأكمل الذي لا أكمل منه فما ظنك بمن هو دونه؟ وما بقي للعارفين بالله علاقة بين الفكر وبينهم بطريق الاستفادة، ولا يسمى الشخص إلهياً إلا أن لا يكون أخذه العلوم إلا عن الله من فتوح المكاشفة بالحق؛ يقول أبو يزيد البسطامي: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، حدّثنا فلان وأين هو؟ قال: مات، عن فلان وأين هو؟ قال: مات، فقال أبو يزيد: وأخذنا علمنا عن الحيّ الذي لا يموت فلا حجاب بين الله وبين عبده أعظم من نظره إلى نفسه وأخذه العلم عن فكره ونظره، وإن وافق العلم فالأخذ عن الله أشرف وعلم ضرورات العقول من الله لأنها حاصلة لا عن فكر واستدلال، ولهذا لا تقبل الضرورات الشبه أصلاً ولا الشكوك إذا كان الإنسان عاقلاً، فإن حيل بينه وبين عقله فما هو الذي قصدنا البيان عنه.

وبعد أن أعلمناك ببيعة النبات ومرتبته وأنك نبات وأمثالك فلنذكر ما يتضمنه هذا المنزل من العلوم لترتفع الهمة إلى الوقوف عليها والتحلي بها:

فمن ذلك علم الرحموت، وعلم فتوح المكاشفة بالحق، وعلم فتوح الحلاوة في الباطن، وعلم فتوح العبارات في الترجمة عن الله، وعلم نسخ الأحكام بعد النبي ﷺ عن أمر النبيّ ﷺ فإنه المقرر حكم المجتهد لتعارض الأدلة فله الاختيار فيها، وعلم العناية الإلهية ببعض العبيد، وعلم الإشارات، وعلم التمام والكمال وأن التمام للنشأة والكمال بالمرتبة، وعلم البيان والتبيين، وعلم الاستقامة وما شيب النبيّ ﷺ من سورة هود، وعلم الكشف على مقامات النص الألهيّ هل يؤثر فيه حكم الأكوان أم لا؟ وعلم الطمأنينة والفرق بينها وبين اليقين والعلم، وعلم نسبة العالم ملكاً لله، وعلم من نازعه فيه بماذا نازعه حتى ذكر الله أن له جنوداً من كونه ملكاً وما هم أولئك الأجناد؟ وهل تعلم بطريق الإحصاء أو لا تعلم إلا بطريق الإجمال من غير تفصيل؟ وهل وقع لأحد العلم بها على التفصيل أم لا؟ وعلم العلل الإلهية في الكون، وعلم الرجوع الإلهيّ على العباد بم يرجع إليه ولماذا يرجع؟ وهو القائل: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود:١٢٣] فهل هو عين ذلك الأمر الراجع أم لا؟ وهو علم شريف، وعلم منزلة من يستحق التعظيم الإلهي ممن لا يستحقه، وعلم الوفاء بالعقد مع الله فيما يعقده معه مما له الخيار في حله ومذهبنا الوفاء به ولا بد إلا أن يقترن به أمر من شيخ معتبر لتلميذ أو لأحد ممن له فيه اعتقاد التقدم فإن له أن يحل ذلك العقد مع الله المخير فيه ولا بد وإن لم يفعل قوبل فإن لم يقترن به مثل هذا فالوفاء به مذهبنا ومذهب أهل الخصوص، وعلم السواء بين النشأتين فلا يظهر الظاهر إلا بصورة الباطن وهو المعبر عنه بالصدق، وعلم من طلب

الستر عند تجلي الحقيقة حذراً أن تذهب عينه، وعلم التبديل وما حضرته وما يقبل التبديل وما لا يقبله مما هو ممكن أن يقبله، وعلم الإقبال والتولي هل الإقبال تولّ أو هو إقبال بلا تولّ؟ وعلم رفع الحرج من العالم مع وجوده بماذا يرتفع عند من يرتفع في حقه، وعلم الرضاء ومحله وما ثوابه عند الله؟ وعلم ما ينتج التعجيل بالخير، وعلم الاقتدار الكوني من الاقتدار الإلهي، وعلم تأثير العالم بعضه في بعض هل هو تأثير علة أم لا؟ وعلم التعصب في العالم في أي صنف يظهر؟ وهل يتصف به الملأ الأعلى أم لا؟ وهل له مستند في الأسماء الإلهية المؤثرة في الأعيان للأحوال التي يقام فيها أعيان المكلفين كالعاصي إذا توجه عليه الاسم المنتقم وتوجه عليه الاسم العفو فيتعصب له الاسم التوّاب والرحيم والغفور والحليم هذا أعني بالمستند الإلهيّ، وعلم ما يظهر على أعيان الممكنات المكلفين هل يظهر بحكم الاستحقاق أو بحكم المشيئة؟ وعلم ما تجتمع فيه الرسل وما تفترق فيه، وعلم منازل القرون الثلاثة الآتية على نسق والقرن الرابع وما لها في الزمان من الشهور الأربعة الحرم التي هي ثلاثة سرد وواحد فرد، وعلم ما يطلب بالسجود من الله ومراتب السجود والسجود الذي يقبل الرفع منه الساجد من السجود الذي إذا وقع لم يرفع منه وهل خلق العالم ساجداً أو خلق قائماً ثم دعي إلى السجود؟ أو خلق بعضه قائماً وبعضه ساجداً؟ وتعيين من خلق ساجداً ممن خلق قائماً ثم سجد أو لم يسجد، وعلم العلامات الإلهية في الأشياء وما يدل منها على سعادة العبد وعلى شقاوته، وعلم تفاصيل الوعد الإلهي ولماذا نفذ بكل وجه ولم ينفذ الوعيد في كل من توعد وكلاهما خبر إلهي فهذا بعض ما يحوي عليه هذا المنزل من العلوم، وتركنا منها علوماً لم نذكرها طلباً للاختصار، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ومن هذا المنزل علمنا حين وقفنا عليه سنة إحدى وتسعين وخمسمائة نصر المؤمنين على الكفار قبل وقوعه بمدينة فاس من بلاد المغرب.

الباب السابع والثلاثون وثلاثمائة

في معرفة منزل محمد ﷺ مع بعض العالم وهو من الحضرة الموسوية

[الوافر]

ألا لله مـا الأكـوان فـيـه — من أحكام التناقُض في الوُجُودِ
فمنهم طائعٌ عاصٍ عَلِيمٌ — جهولٌ بالنزول وبالصُعُودِ
ومنهمْ من تَحَقَّقَ في غُيُوب — ومنهم من تَحَقَّقَ في الشُهودِ
فتظهر كثرةٌ والعينُ منها — وحيدٌ بالدلائل والعُقود
فسبحان المراد بكلِّ نَعْتٍ — من أوصافِ الألوهة والعبيد
وسبحان المحيط بكل شيء — ويوصف في المعارف بالمزيد

قال رسول الله ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» وعلل ذلك بكماله وقال: «**لَوْ كَانَ مُوسَى حَيّاً مَا وَسِعَهُ إلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي**» لعموم رسالته وشمول شريعته، فخص ﷺ بأشياء لم تعط

لنبي قبله، وما خص نبي بشيء إلا وكان لمحمد ﷺ فإنه أوتي جوامع الكلم وقال: «**كُنْتُ نَبِيّاً وَآدمُ بَيْنَ الطِّينِ وَالمَاءِ**» وغيره من الأنبياء لم يكن نبياً إلا في حال نبوّته وزمان رسالته. فلنذكر في هذا الباب منزله ومنزلته:

فالمنزل يظهر في بساط الحق ومقعد الصدق عند التجلي والرؤية يوم الزور العام الأعظم فيعلم منزله بالبصر والشهود وأما منزلته فهي منزلة في نفس الحق ومرتبة منه ولا يعلم ذلك إلا بإعلام الله وله المقام المحمود، وهو فتح باب الشفاعة للملائكة فمن دونهم، وله الأوّلية في الشفاعة، وله الوسيلة، وليس في المنازل أعلى منها ينالها محمد ﷺ بسؤال أمته جزاء لما نالوه من السعادة به حيث أبان لهم طريقها فاتبعوه.

واعلم أن هذا المنزل من يدخله يرى فيه عجائب لا يراها في غيره، فمن ذلك أنه يرى أعمال الأشقياء مجسدة وأعمال السعداء كذلك مجسدة صوراً قائمة تعقل وجود خالقها، وقد جعل الله في نفوس هذه الصور طلباً على الأسباب التي وجدت عنها وهم العاملون ويجدون في طلبهم، فأما أعمال السعداء فيرون على أيمانهم طريقاً يسلكونها فتأخذ بهم تلك الطريق إلى مشاهدة أصحابهم وهم السعداء فيميز بعضهم بعضاً ويتساءلون ويتخذونهم العاملون مراكب فوز ونجاة تحملهم إلى مستقر الرحمة وأما أعمال الأشقياء فتقوم لهم طرق متعددة متشعبة متداخلة بعضها في بعض لا يعرفون أيّ طريق تمشي بهم إلى أصحابهم فيحارون ولا يهتدون وهذا من رحمة الله بالأشقياء، فإذا حارت أعمالهم رجعت إلى الله بالعبادة والذكر ويتفرّقون في تلك الطريق، فمنهم من لا يهتدي إلى صاحبه أبد الآبدين ومنهم من يصل إلى صاحبه فيشاهده ويتعرّف إليه فيعرفه ويكون وجوده إياه مصادفة فيتعلق به ويقول له: احملني فقد أتعبتني في طلبك فيجبر العامل على حمله إلى أن تناله الرحمة رحمة الله. وإلى جانب موقف هذه الصور طريقان واضحان: طريق يكون غايته الحق الوجود وطريق لا غاية له فإنه يخرج السالك إلى العدم فلا يقف عند غايته فيه، إذ العدم لا ينضبط بحد فيتقيد به بخلاف الحق الوجود المقيد فإنه يتقيد وإن كان مطلقاً فإطلاقه تقيد في نفس الامر فإنه متميز بإطلاقه عن الوجود المقيد فهو مقيد في عين إطلاقه، وطريق ثالث بين هذين الطريقين برزخيّ لا تتصف غايته بالوجود ولا بالعدم مثل الأحوال في علم المتكلمين. فأما الطريق التي يكون غايتها الوجود فيسلك عليها الموحدون والمؤمنون والمشركون والكافرون وجميع أصحاب العقائد الوجودية وأما الطريق الأخرى فلا يسلك عليها إلا المعطلة فلا ينتهي بهم إلىٰ غاية وأما الطريق البرزخي فلا يسلك فيه إلا العلماء بالله خاصة الذين أثبتهم الحق ومحاهم في عين إثباتهم وأبقاهم في حال فنائهم، فهم الذين لا يموتون ولا يحيون إلى أن يقضي الله بين العباد فيأخذون ذات اليمين إلى طريق الوجود الحق، وقد اكتسبوامن حقيقة تلك الطريق صفة، واكتسبوا منها هيئة تظهر عليهم في منزل الوجود الحق يعرفون بها بعضهم بعضاً ولا يعرفهم بها أحد من أهل الطريقين، وهذا ضرب مثل ضربه الله لأهل الله ليقفوا منه على مراتب الهدى والحيرة والمهتدين والضالين، وجعل الله لهم نوراً بل أنواراً يهتدون بها في ظلمات برّ

طبيعتهم، وفي ظلمات بحر أفكارهم، وفي ظلمات نفوسهم الناطقة برّها وبحرها بما هي عليه في نشأتها، إذ كانت متولدة بين النور الخالص والطبيعة المحضة العنصرية الصرفية، وتلك الأنوار المجعولة فيهم من الأسماء الإلهية، فمن كان عارفاً بها وناظراً بها من حيث ما وجدت له وصل بها إلى العلم بالأمور والكشف، ومن أخذها أنواراً، لا يعلم أنها بالوضع للاهتداء وجعلها زينة كما تراها العامة في كواكب السماء زينة خاصة لم يحصل له منها غير ما رأى، ويراها العلماء بمنازلها وسيرها وسباحتها في أفلاكها موضوعة للاهتداء بها، فاتخذوها علامات على ما يبتغونه في سيرهم على الطرق الموصلة إلى ما دعاهم الحق إليه من العلم به أو إلى السعادة التي هي الفوز خاصة.

واعلم أن الله لما جعل منزل محمد ﷺ السيادة فكان سيداً ومن سواه سوقة علمنا أنه لا يقاوم فإن السوقة لا تقاوم ملوكها فله منزل خاص وللسوقة منزل، ولما أعطي هذه المنزلة وآدم بين الماء والطين علمنا أنه الممد لكل إنسان كامل منعوت بناموس إلهيّ أو حكميّ وأوّل ما ظهر من ذلك في آدم حيث جعله الله خليفة عن محمد ﷺ فأمدّه بالأسماء كلها من مقام جوامع الكلم التي لمحمد ﷺ، فظهر بعلم الأسماء كلها على من اعترض على الله في وجوده ورجح نفسه عليه، ثم توالت الخلائف في الأرض إلى أن وصل زمان وجود صورة جسمه لإظهار حكم منزلته باجتماع نشأتيه، فلما برز كان كالشمس اندرج في نوره كل نور، فأقرّ من شرائعه التي وجه بها نوّابه ما أقر ونسخ منها ما نسخ وظهرت عنايته بأمته لحضوره وظهوره فيها، وإن كان العالم الإنساني والناريّ كله أمته ولكن لهؤلاء خصوص وصف فجعلهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] هذا الفضل أعطاه ظهوره بنشأتيه، فكان من فضل هذه الأمة على الأمم أن أنزلها منزلة خلفائه في العالم قبل ظهوره إذ كان أعطاهم التشريع، فأعطى هذه الأمة الاجتهاد في نصب الأحكام وأمرهم أن يحكموا بما أدّاهم إليه اجتهادهم فأعطاهم التشريع فلحقوا بمقامات الأنبياء عليهم السلام في ذلك وجعلهم ورثة لهم لتقدّمهم عليهم، فإن المتأخر يرث المتقدّم بالضرورة فيدعون إلى الله على بصيرة كما دعا الرسل محمد ﷺ فأخبر بعصمتهم فيما يدعون إليه، فمنهم المخطىء حكم غيره من المجتهدين ما هو مخطىء عن الحق، فإن الذي جاء به حق، فإن أخطأ حكماً قد تقدّم الحكم به لمحمد ﷺ، وما وصل إليه فذلك الذي جعل له أجراً واحداً وهو أجر الاجتهاد، وإن أصاب الحكم المتقدم باجتهاده فله أجران أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وإن كان المصيب مجهول العين في المجتهدين عند نفسه وعند غيره فليس بمجهول عند الله، وكل من دخل في زمان هذه الأمّة بعد ظهور محمد ﷺ من الأنبياء والخلفاء الأول فإنهم لا يحكمون في العالم إلا بما شرع محمد ﷺ في هذه الأمة وتميز في المجتهدين وصار في حزبهم مع إبقاء منزلة الخلافة الأولى عليه فله حكمان يظهر بذلك في القيامة ما له ظهور بذلك هنا، ومنزل محمد ﷺ يوم الزور الأعظم على يمين الرحمن من حيث الصورة التي يتجلى فيها على عرشه، ومنزله يوم القيامة ليس على يمين الرحمن لكن بين يدي الحكم العدل لتنفيذ الأوامر الإلهية والأحكام في العالم،

فالكلُّ عنه يأخذ في ذلك الموطن وهو وجه كله يرى من جميع جهاته، وله من كل جانب إعلام عن الله تعالى يفهم عنه يرونه لساناً ويسمعونه صوتاً وحرفاً، ومنزلته في الجنان الوسيلة التي تتفرع جميع الجنات منها وهي في جنة عدن دار المقامة، ولها شعبة في كل جنة من تلك الجنات من تلك الشعبة يظهر ﷺ لأهل تلك الجنة وهي في كل جنة أعظم منزلة فيها، وهذه منازل كلها حسية لا معنوية، وليست المعنوية إلا منزلته في نفس موجده وهو الله تعالى وما هذا خاص به، بل كل منزلة لا تكون إلا في نفس الله الذي هو الرحمن، والمنازل محسوسة محصورة التي هي جمع منزل لا جمع منزلة، فاعلم ذلك فإنه من لباب المعرفة بالله تعالى وتقدس في ذاته.

وأما منزلته في العلوم فالإحاطة بعلم كل عالم بالله من العلماء به تعالى متقدميهم ومتأخريهم، وكل منزل له ولأتباعه مطيب بالطيب الإلهيّ الذي لم يدخل فيه ولا استعملت أيدي الأكوان فيه.

واعلم أنه من كماله ﷺ أنه خص بستة لم تكن لنبيّ قبله، والستة أكمل الأعداد، وليس في الأشكال شكل فيه زوايا إذا انضمت إليها الأمثال لم يكن بينها خلوّ إلا الستة، وبها أوحى الله إلى النحل في قوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨] وأوحى إليها صفة عملها فعملتها مسدسة فأخبر أنه أعطي مفاتيح الخزائن وهي خزائن أجناس العالم ليخرج إليهم بقدر ما يطلبونه بذواتهم إذا علمنا أنه السيد، ومن اعتبر تعيين الخزائن بالأرض فليس في الأرض إلا خزائن المعادن والنبات لا غير، فإن الحيوان من حيث نموه نبات، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] فأخبرنا أنا من جملة نبات الأرض وما أعطيها ﷺ حتى كان فيه الوصف الذي يستحقها به ولهذا طلبها يوسف عليه السلام من الملك صاحب مصر أن يجعله على خزائن الأرض لأنه حفيظ عليم ليفتقر الكل إليه فتصح سيادته عليهم، ولهذا أخبر بالصفة التي يستحق من قامت به هذا المقام فقال: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] حفيظ عليها فلا نخرج منها إلا بقدر معلوم، كما أن الله سبحانه يقول: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] فإذا كانت هذه الصفة فيمن كانت ملك مقاليدها ثم قال بعد قوله: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] أخبر أنه عالم بحاجة المحتاجين لما في هذه الخزائن التي خزن فيها ما به قوامهم عليم بقدر الحاجة، فلما أعطي ﷺ مفاتيح خزائن الأرض علمنا أنه حفيظ عليم، فكل ما ظهر من رزق في العالم فإن الاسم الإلهيّ لا يعطيه إلا عن أمر محمد ﷺ الذي بيده المفاتيح كما اختص الحق تعالى بمفاتيح الغيب فلا يعلمها إلا هو، وأعطي هذا السيد منزلة الاختصاص بإعاطئه مفاتيح الخزائن.

والخصلة الثانية: أوتي جوامع الكلم، والكلم جمع كلمة وكلمات الله لا تنفد فأعطي علم ما لا يتناهى، فعلم ما يتناهى بما حصره الوجود، وعلم ما لم يدخل في الوجود وهو غير متناه، فأحاط علماً بحقائق المعلومات وهي صفة إلهية لم تكن لغيره، فالكلمة منه كلمات

كالأمر الإلهي الذي هو كلمة واحدة كلمح بالبصر، وليس في التشبيه الحسي أعظم ولا أحق تشبيهاً به من اللمح بالبصر.

ولما علم بجوامع الكلم أعطي الإعجاز بالقرآن الذي هو كلمة الله وهو المترجم به عن الله فوقع الإعجاز في الترجمة التي هي له، فإن المعاني المجرّدة عن الموادّ لا يتصوّر الإعجاز بها وإنما الإعجاز ربط هذه المعاني بصور الكلم القائم من نظم الحروف فهو لسان الحق وسمعه وبصره وهو أعلى المراتب الإلهية، وينزل عنها من كان الحق سمعه وبصره ولسانه فيكون مترجماً عن عبده كما ترجم تعالى لنا في القرآن أحوال من قبلنا وما قالوه فما فيه ذلك الشرف فإنه يترجم عن أهله والمقربين لديه كالملائكة فيما قالوه، ويترجم عن إبليس مع إبلاسه وشيطنته وبعده بما قاله، ولا يترجم عن الله إلا من له الاختصاص الذي لا اختصاص فوقه.

والخصلة الثالثة: بعثته إلى الناس كافة من الكفت وهو الضم ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥] أي تضم الأحياء على ظهرها والأموات في بطنها، كذلك ضمت شريعته جميع الناس، فلا يسمع به أحد إلا لزمه الإيمان به، ولما سمع الجن القرآن يتلى قالوا لقومهم ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣١، ٣٢] فأخبر بقوله: ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عن الجن وقول الله من «وليس له» إلى «مبين» فضمت شريعته الجن والإنس، فعم بشريعته الإنس والجن، وعمت العالم رحمته التى أرسل بها فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فأخبر الله أن أرسله ليرحم العالم وما خص عالماً من عالم، فإذا أتى بكل ما يرضي العالم صنفاً صنفاً ما عدا بعض من هو مخاطب بحكم شرعه فقد رحمه وقام بالرحمة التي أرسل بها، بل نقول: إنه جاء بحكم الله وحكم الله يرضى به كل صنف من العالم بلا شك فإن كل العالم مسبح بحمده فهو راض بحكمه من جهة ما جاء به هذا الرسول العامّ الدعوة العامّ بنشر الرحمة على العالم، غير أن من الناس من لم يرض بالمحكوم به، وإن كان راضياً بالحكم فقد نال من رحمة الله التي أرسل بها على قدر ما رضي به من الحكم المعين الذي جاء به، وليس هذا الواقع إلا في الناس خاصة، وإنما الجن شياطينهم وغير شياطينهم فإن الله جعل لهم الإغواء وأمرهم من خلف حجاب البعد بالاستفزاز والمشاركة في الأموال والأولاد ابتلاء لهم وامتحاناً فيقول الشيطان للإنسان اكفر فإذا كفر يقول الشيطان: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] هذا إخبار الله عنه، ثم قال: فكان عاقبتهما أي جاءهما عقيب هذا الواقع أنهما في النار فأعقب الشيطان برجوعه إلى أصله فإنه مخلوق من النار فرجع إلى موطنه، وكان للإنسان عقوبة على كفره حيث ظلم بقبول ما جاءه به الشيطان ولم يقبل ما جاءه به الرسول، ثم قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [النساء: ١٣] فخلد الشيطان في منزله وداره وخلد الإنسان جزاء لكفره، ولهذا تبرأ منه للافتراق الذي بينهما في العاقبة وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١٣] فأشار ببنية الواحد ولم يثن الإشارة إلى العقاب

فإنهما ما اشتركا فيه، لأن الذي أتى للإنسان عقيب ذنبه إنما هو العذاب، والذي كان سهم الشيطان الذي أتاه عقيب فعله وقوله رجوعه إلى أصله الذي منه خلق فلا يغتر العاقل. ألا ترى في قصة آدم في الجنة لما وقع منه ما وقع من قرب الشجرة وأعقبه الله الهبوط إلى الأرض من الجنة وأهبط حوّاء وأهبط إبليس ولهذا قال: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ [البقرة: ٣٦] فجمع ولم يثن ولا أفرد، فنزل آدم إلى أصله الذي خلق منه فإنه مخلوق من التراب فأهبطه الله للخلافة لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فما أهبط عقوبة لما وقع منه وإنما جاء الهبوط عقيب ما وقع منه، وأهبط حوّاء للتناسل، وأهبط إبليس عقوبة لا رجوعاً إلى أصله فإنها ليست داره ولا خلق منها، فسأل الله الإغواء أن يدوم له في ذرية آدم لما عاقبه الله بما يكرهه من إنزاله إلى الأرض، وكان سبب ذلك في الأصل وجود آدم لأنه بوجوده وقع الأمر بالسجود وظهر ما ظهر من إبليس وكان من الأمر ما كان، فعلمنا أن الله أرسله بالرحمة وجعله رحمة للعالمين، فمن لم تنله رحمته فما ذلك من جهته وإنما ذلك من جهة القابل فهو كالنور الشمسيّ أفاض شعاعه على الأرض، فمن استتر عنه في كنّ وظل جدار فهو الذي لم يقبل انتشار النور عليه وعدل عنه فلم يرجع إلى الشمس من ذلك منع وأخبر ﷺ أنه بعث إلى كل أحمر وأسود، فذكر من قامت به الألوان من الأجسام يشير إلى أنه مبعوث بعموم الرحمة لمن يقبلها وبعموم الشرع لمن يؤمن به وأمته ﷺ جميع من بعث إليه ليشرع له، فمنهم من آمن ومنهم من كفر والكل أمته.

والخصلة الرابعة: أنه نصر بالرعب بين يديه مسيرة شهر والشهر قدر قطع القمر درجات الفلك المحيط فهو أسرع قاطع والحساب به للعرب وهو عربيّ، فإذا نصر بين يديه بالرعب مسيرة شهر بسير القمر لأنه ما ذكر السائر وذكر الشهر ولا يعين الشهر عند أصحاب هذا اللسان إلا سير القمر، فقد عمّ نصره بالرعب ما قطعه من المسافة هذا القمر في شهر فعم حكم كل درجة للفلك الأقصى لها أثر في عالم الكون والفساد بقطع القمر تلك المسافة، فما قال ذلك إلا بطريق الثناء به عليه، ولو كان ثم من يقطع الفلك في أقل من هذه المدّة لجاء به فجاء بأسرع سائر يعم سيره قطع درجات الفلك المحيط، فعموم رعبه في قلوب أعدائه عموم رحمته، فلا يقبل الرعب إلا عدوّ مقصود يعلم أنه مقصود، فما قابله أحد في قتال إلا وفي قلبه رعب منه، ولكنه يتجلد عليه بما أشقاه الله ليتميز السعيد من الشقيّ، فيوهن ذلك الرعب من جلادة عدوه على قدر ما يريد الله، فما نقص من جلادة ذلك العدوّ بما وجده من الرعب كان ذلك القدر نصراً من الله.

والخصلة الخامسة: أحلت له الغنائم ولم تحل لأحد قبله، فأعطي ما يوافق شهوة أمته، والشهوة نار في باطن الإنسان تطلب مشتهاها ولا سيما في المغانم لأن النفوس لها التذاذ بها لكونها حصلت لهم عن قهر منهم وغلبة وتعمل، فلا يريدون أن يفوتهم التنعم بها في مقابلة ما قاسوه من الشدة والتعب في تحصيلها فهي أعظم مشتهى لهم، وقد كانت المغانم في حق غيره من الأنبياء إذا انصرف من قتال العدوّ وجمع المغانم كلها، فإذا لم يبق منها شيء نزلت

نار من الجوّ فأحرقتها كلها، فإن وقع فيها غلول لم تنزل تلك النار حتى يردّ ويلقى فيها ذلك الذي أخذ منها، فكان لهم نزول النار علامة على القبول الإلهي لفعلهم فأحلها الله لمحمد ﷺ فقسمها في أصحابه فتناولتها نار شهواتهم عناية من الله بهم لكرامة هذا الرسول عليه، فأكرمه بأمر لم يكرم به غيره من الرسل، وأكرم من آمن به بما لم يكرم به مؤمناً قبله بغيره.

والخصلة السادسة: أن طهر الله بسببه الأرض فجعلها كلها مسجداً له، فحيث أدركته أو أمته الصلاة يصلي، والمساجد بيوت الله، وبيوت الله أكرم البيوت لإضافتها إلى الله، فصير الأرض كلها بيت الله من حيث أن جعلها مسجداً، وقد أخبرنا لمن يلازم المساجد من الفضل عند الله، فأمته لا تبرح في مسجد أبداً لأنها لا تبرح من الأرض لا في الحياة ولا في الموت، وإنما هو انتقال من ظهر إلى بطن، وملازم المسجد جليس الله في بيته، فهذه الأمة جلساء الله حياة وموتاً لأنهم في مسجد وهو الأرض، وكذلك جعل الله أيضاً تربة هذه الأرض طهوراً، فكان لها حكم الماء في الطهارة إذا عدم الماء أو عدم الاقتدار على استعماله لسبب مانع من ذلك، فأقام لهم تراب هذه الأرض والأرض طهوراً، فإذا فارق الأرض ما فارق منها ما عدا التراب فلا يتطهر به إلا أن يكون التراب، فإنه ما كان منها يسمى أرضاً ما دام فيها من معدن ورخام وزرنيخ وغير ذلك، فما دام في الأرض كان أرضاً حقيقة لأن الأرض تعم هذا كله، فإذا فارق الأرض انفرد باسم خاص له وزال عنه اسم الأرض فزال حكم الطهارة منه إلا التراب خاصة، فسواء فارق الأرض أو لم يفارقها فإنه طهور لأنه منه خلق المتطهر به وهو الإنسان، فيطهر بذاته تشريفاً له، فأبقى الله النصّ عليه بالحكم به في الطهارة دون دون غيره ممن له اسم غير اسم الأرض، فإذا فارق التراب الأرض زال عنه اسم الأرض وبقي عليه اسم التراب، كما زال عن الزرنيخ اسم الأرض لما فارق الأرض وبقي عليه اسم الزرنيخ فلم تجز الطهارة به بعد المفارقة، لأن الله ما خلق الإنسان من زرنيخ وإنما خلقه من تراب، فقال رسول الله ﷺ في الأرض: «**إنَّ الله جَعَلَهَا لَهُ مَسْجِداً وَطَهُوراً**» فعم، ثم قال في الخبر الآخر: «**وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُوراً**» فخرج التراب بالنص فيه عن سائر ما يكون أرضاً ويزول عنه الاسم بالمفارقة، فهذه ستة خص بها هذا النبي ﷺ فكانت منزلة لم ينلها غيره لها حكم في كل منزل من دنيا وهو ما ذكرناه، ومن برزخ وقيامة وجنة وكثيب، فيظهر حكم هذا الاختصاص الإلهيّ في كل منزل من هذه المنازل ليتبين شرفه وما فضله الله به على غيره مع كونه أعطي جميع ما فضلت به الرسل بعضها على بعض.

ثم لتعلم أيها الوليّ أنه من رحمته ﷺ التي بعثه الله تعالى بها ما أبان الله على لسانه لنا وأمره بتبليغ ذلك فبلغ أنه ليس من شرط الرسالة ظهور العلامات على صدقه إنما هو شخص منذر مأمور بتبليغ ما أمر بتبليغه هذا حظه لا يجب عليه غير ذلك، فإن أتى بعلامة على صدقه فذلك فضل الله ليس ذلك بيده، فأقام عذر الأنبياء كلهم في ذلك فكان رحمة للرسل في هذا فجاء في القرآن قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأنعام: ٣٧] وهذا قول غير العرب ما هو قول العرب لأنه جاء بالقرآن آية على صدقه للعرب إذ لا يعرف إعجازه وكونه آية غير

العرب فلم يرد عنه أنه أظهر آية لكل من دعاه من غير العرب كاليهود والنصارى والمجوس، ولكن أيّ شيء جاء من الآيات فذلك من الله لا بحكم الوجوب عليه ولا على غيره من الرسل فقيل له: قل لهم ﴿إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠] ثم قال له: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ [العنكبوت: ٥١] بهم ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فضمنا القرآن جميع ما تعرف الأمم أنه آية على صدق من جاء به إذا لم يعلموا منه بقرائن الأحوال أنه قرأ ولا كتب ولا طالع ولا عاشر ولا فارق بلده بل كان أمياً من جملة الأميين، وأخبرهم عن الله بأمور يعرفون أنه لا يعلمها من هو بهذه الصفة التي هو عليها هذا الرسول إلا بإعلام من الله، فكان ما جاء من القرآن من ذلك آية كما قالوا وطلبوا، وكان إعجازه للعرب خاصة إذ نزل بلسانهم وصرفوا عن معارضته أو لم يكن في قوّتهم ذلك من غير صرف حدث لهم فجاء القرآن بما جاءت به الكتب قبله ولا علم له بما جاء فيها إلا من القرآن، وعلمت ذلك اليهود والنصارى وأصحاب الكتب فحصلت الآية من عند الله لأن القرآن من عند الله، فقد تبين لك منزل محمد من غيره من الرسل، وخصه الله بعلوم لم تجتمع في غيره منها أنه أعطاه أنواع ضروب الوحي كلها، فأوحى إليه بجميع ما سمي وحياً كالمبشرات والإنزال على القلوب والآذان وبحالة العروج وعدم العروج وغير ذلك، وخصه بعموم علوم الأحوال كلها، فأعطاه العلم بكل حال وفي كل حال ذوقاً لأنه أرسله إلى الناس كافة وأحوالهم مختلفة، فلا بدّ أن تكون رسالته تعم العلم بجميع الأحوال.

وخصه الله بعلم إحياء الأموات معنى وحساً، فحصل العلم بالحياة المعنوية وهي حياة العلوم، والحياة الحسية وهو ما أتى في قصة إبراهيم عليه السلام تعليماً وإعلاماً لرسول الله ﷺ وهو قوله: ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ١٢٠] وخص بعلم الشرائع كلها، فأبان له عن شرائع المتقدمين وأمره أن يهتدي بهداهم، وخص بشرع ولم يكن لغيره منه ما ذكرناه في الستة التي خص بها، فهذه أربعة منازل لم ينزل فيها غيره من الأنبياء عليهم السلام.

فهذا منزل محمد ﷺ قد ذكرت منه ما يسره الله على لساني، فلنذكر ما يتضمن منزله من العلوم:

فمن ذلك: علم الحجاب أعني حجاب الجحد وحجاب الحكمة، وعلم الفارق الذي تعينت به السبل مثل قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨] وهل هم اليوم بعموم بعثة الرسل أمة واحدة أم لا؟ وهل حكم الله على أصحاب الكتب بالجزية وإبقائهم على دينهم شرع من الله لهم على لسان محمد ﷺ فينفعهم ذلك ما أعطوا الجزية عن قوّة من الآخذين وصغار منهم فقد فعلوا ما كلفوا وكان هذا حظهم من الشريعة فإبقاؤهم على شرعهم شرع محمدي لهم فيسعدون بذلك فتكون مؤاخذة من أخذ منهم بما فرط فيه من الشرع الذي هم عليه كسائر العصاة الذين لم يعلموا بجميع ما تضمنه

شرعهم وإن كانوا مؤمنين به، وهذا علم غريب ما أعلم له ذائقاً من فتوح المكاشفة وهو من علوم الأسرار التي غار عليها أهل الله فصانوها، وفيه علم ما حير الأكوان فيما تحيروا فيه كان ما كان، وفيه علم الإيمان المطلق والمقيد، وفيه علم ما يفسد العمل المشروع ويصلحه، وفيه علم سريان الحق في الأحكام على اختلافها وأنها كلها حق من الرب، وفيه علم الكفارات، وفيه علم ما تصلح به أحوال الخلق، وفيه علم ما هو الباطل وما هو الحق هل هما أمر وجوديّ أو ليس بوجودي؟ وفيه علم الشركة في الاتباع وإلى ما يؤول كل تابع هل غايته أمر واحد أو مختلف؟ وفيه علم من تضرب له الأمثال ممن لا تضرب، وفيه علم القهر الإلهيّ على أيدي الأكوان، وقول أبي يزيد: بطشي أشد في هذا المقام، وفيه علم الفرج بعد الشدة وهل من شأن الفرج أن لا يكون إلا بعد شدة أم لا؟ وفيه علم أنواع الابتلاء، وفيه علم الصفة التي تزيل الحيرة عمن قامت به والإبانة عن ذلك، وعلم الأنفاس الإلهية، وعلم الإسفار عن نتائج الأسفار، وعلم المواعظ، وعلم الغلبة التي ليس فيها نصر إلهيّ بماذا كانوا غالبين، وفيه علم الفرق بين علم العين وعلم الدليل وهل يقوم مقام العين أم لا؟ وفيه علم أنواع الزينة في العالم، وفيه علم مراتب العلوم وتفاصيلها، وفيه علم القضاء السابق من علم نفاة القدر، وفيه علم الطبع والختم والقفل والكنّ وما هو عمى الأبصار وعمى البصائر ولم اختص عمى القلوب بحالة الصدور وهو الرجوع عن الحق؟ وهل هو الصدور الذي يكون عن ورود متقدم أو هو صدور تكوين ممكن عن واجب أو هو صدور محل لا صفة؟ فيكون عماه من كونه في المحل فإذا فارق المحل بنظره وانفتح له فيه فرج ينظر منها يزول عماه، وفيه تعيين علوم المزيد فإنها مختلفة بحكم ما تقع الزيادة عليه، وفيه علم الآيات والعلامات على الكوائن، وفيه علم توحيد المرتبة الإلهية أنه ما حازها إلا واحد، وفيه علم الستور وأصنافها التي تسدل علينا لنستتر بها عن إدراك الغير وما هي الستور التي تسدل بيننا وبين من نطلب رؤيته فلا نراه؟ وفيه علم الإقامة في المنزل والتقلب فيه لا عنه، وفيه علم العناية بقوم وتركها في حق قوم، وفيه ما تنتجه العزائم في الخير والشرّ، وفيه علم الخير والشرور، وفيه علم النسب الرحماني، وفيه علم ما ينفع من الإيمان مما لا ينفع كما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥١] وفيه علم البعد والقرب الإلهيّ، وفيه علم ما يؤدي إليه التفكر، وفيه علم الرجعة ممن وإلى من، وفيه علم ما يؤثر في الظن مما لا يؤثر، وفيه علم المشاهدة وتعلقها بالمشيئة مع استعداد المحل لقبولها وما هناك منع والمحل قابل، وما هذه المشيئة المانعة، وفيه علم الإنصاف في المجازاة والفضل، وفيه علم الفرق بين الأضداد والأمثال وغير الأمثال، إلى غير هذا من العلوم، فإني لا أسوق من ذلك ما أسوقه على جهة الحصر مع علمي بذلك، وإنما أسوقه على جهة التنبيه على ما فيه أو بعض ما فيه بحسب ما يقع لي فوقتاً أورد ذلك بطريق الحصر بحيث أني لا أترك في المنزل علماً إلا نبهت عليه، ووقتاً أقصر عن ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والثلاثون وثلاثمائة

في معرفة منزل عقبات السويق وهو من الحضرة المحمدية

[البسيط]

الفَتْحُ فتحان في المعنى وفي الكَلِمِ ... فَمَنْ تَكَمَّل يُدْعَى جَامِعَ الحِكَمِ
ولو تَسَافَلَ في الأكوان منزلُه ... كان العلوُّ له في حضرة الكَلِمِ
هو المقدّمُ في المعنى برُتْبته ... في عالم النُّور لا في عالم الظُّلَمِ
لا تَحْقِرَنَّ عبادَ الله إنّ لهم ... حظّاً من الله ذي الآلاء والنِّعَمِ
فعَظِّم الكَوْنَ فالمدلولُ يطلبه ... وهو البريء من الآفات والتُّهَمِ

اعلم أن لله في المقام المحمود الذي يقام فيه رسول الله ﷺ يوم القيامة باسمه الحميد سبعة ألوية تسمى ألوية الحمد، تعطى لرسول الله ﷺ وورثته المحمديين في الألوية أسماء الله التي يثني بها ﷺ على ربه إذا أقيم في المقام المحمود يوم القيامة وهو قوله ﷺ إذا سئل في الشفاعة قال: «**فَأَحْمَدُ الله بِمَحَامِدَ لا أَعْلَمُهَا الآنَ**» وهي الثناء عليه سبحانه بهذه الأسماء التي يقتضيها ذلك الموطن، والله تعالى لا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى خاصة، وأسماؤه سبحانه لا يحاط بها علماً فإنا نعلم أن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ونعلم أنا لا نعلم ما أخفي لنا من قرة أعين، وما من شيء من ذلك إلا وهو مستند إلى الاسم الإلهيّ الذي ظهر به حين أظهره، والاسم الإلهيّ الذي امتن علينا تعالى بإظهاره لنا، فلا بد أن نعلمه ونثني على الله به ونحمده إما ثناء تسبيح أو ثناء إثبات، فلما عرفت بذلك سألت عن توقيت تلك الأسماء التي يحمد الله تعالى بها يوم القيامة في المقام المحمود فإني علمت أني لا أعلمها الآن ولا يعلمنيها الله فإنها من المحامد التي يختص بها ﷺ يوم القيامة، فإذا سمعناه يحمده بها يوم القيامة في المقام المحمود وانتشرت الألوية بها والمحامد مرقومة فيها ففي ذلك الموطن نعلمها، فقيل لي: إن عدد تلك الأسماء ألف اسم وستمائة اسم وأربعة وستون اسماً كل لواء منها فيه مرقوم تسعة وتسعون اسماً من أحصاها هناك دخل الجنة، غير لواء واحد من هذه الألوية فإن فيه مرقوماً من هذه الأسماء سبع مائة وسبعون اسماً يحمده ﷺ بهذه المحامد كلها وكلها تتضمن طلب الشفاعة من الله، وهذا المنزل مما يعطى من ينزله مشاهدة كل لواء من تلك الألوية وعلماً بما فيه من الأسماء ليثني هذا الوارث على الله بها هنالك. ولكل لواء منها منزل هنا ناله ﷺ وتناله الورثة الكمل من أتباعه، وهذا المنزل منزل شامخ صعب المرتقى ولهذا سمي عقبة وأضيفت إلى السويق لعدم ثبوت الأقدام فيها لأنها مزلة الأقدام، فلا يقطعها إلا رجل كامل من رسول ونبيّ ووارث كامل يحجب كل وارث في زمانه، وهذا هو المنزل الذي سماه النفري في مواقفه موقف السواء لظهور العبد فيه بصورة الحق، فإن لم يمن الله على هذا العبد بالعصمة والحفظ ويثبت قدمه في هذه العقبة بأن يبقي عليه في هذا الظهور شهود عبوديته لا تزال نصب عينيه وإن لم تكن حالته هذه وإلا زلت به

القدم وحيل بينه وبين شهود عبوديته بما رأى نفسه عليه من صورة الحق، ورأى الحق في صورة عبوديته وانعكس عليه الأمر وهو مشهد صعب، فإن الله نزل من مقام غناه عن العالمين إلى طلب القرض من عباده، ومن هنا قال: من قال إن الله فقير وهو الغني ونحن أغنياء وهم الفقراء فانعكست عندهم القضية وهذا من المكر الإلهيّ الذي لا يشعر به، فمن أراد الطريق إلى العصمة من المكر الإلهي فليلزم عبوديته في كل حال ولوازمها فتلك علامة على عصمته من مكر الله ويبقى كونه لا يأمنه في المستقبل، بمعنى أنه ما هو على أمن أن تبقى له هذه الحالة في المستقبل إلا بالتعريف الإلهي الذي لا يدخله تأويل ولا يحكم عليه إجمال، وفي هذا المنزل يشاهد قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] ومحمد ﷺ هو الرامي في الحس الذي وقع عليه البصر ويقوم له في هذا المنزل ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

واعلم أن السواء بين طريقين لأن الأمر محصور بين رب وبين عبد، فللرب طريق وللعبد طريق، فالعبد طريق الرب فإليه غايته والرب طريق العبد فإليه غايته، فالطريق الواحدة العامة في الخلق كلهم هي ظهور الحق بأحكام صفات الخلق، فهي في العموم أنها أحكام صفات الخلق وهي عندنا صفات الحق لا الخلق، وهذا معنى السواء. والطريق الأخرى ظهور الخلق بصفات الحق التي تتميز في العموم أنها صفات الحق كالأسماء الحسنى وأمثالها وهذا مبلغ علم العامة، وعندنا وعند الخصوص كلها صفات الحق بالأصالة ما أضيف إلى الخلق منها مما تجعله العامة نزولاً من الله إلينا بها وهي عندنا صفات الحق، وأن العبد علت منزلته عند الله حتى تحلى بها، فهي عند العامة أسماء نقص وعندنا أسماء كمال، فإنه ما ثَمَّ مسمى بالأصالة إلا الله.

ولما أظهر الخلق أعطاهم من أسمائه ما شاء وحققهم بها والخلق في مقام النقص لا مكانه وافتقاره إلى المرجح فما يتخيل أنه أصل فيه وحق له اتبعوه في الحكم نفسه، فحكموا على هذه الأسماء الخلقية بالنقص، وإذا بلغهم أن الحق تسمى بها ويصف نفسه بها يجعلون ذلك نزولاً من الحق تعالى إليهم بصفاتهم وما يعلمون أنها أسماء حق بالأصالة فعلى مذهبنا في ظهور الخلق بصفات الحق تعم الخلق أجمعه، فكل اسم لهم هو حق للحق مستعار للخلق، وعلى مذهب الجماعة لا يكون ذلك إلا لأهل الخصوص أعني الأسماء الحسنى منها خاصة، وعندنا لا يكون العلم بذلك إلا للخصوص من أهل الله، وفرق عظيم بين قولنا لا يكون ذلك وبين قولنا لا يكون العلم بذلك، فإن الحق هو المشهود بكل عين في نفس الأمر، ولا يعلم ذلك إلا آحاد من أهل الله وهو مثل قول الصديق: «ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله فعرفته»، فإذا ظهر ذلك الشيء لعينه المقيد وقد رأى الله قبله ميزه في ذلك الشيء، وعلم أن ذلك الشيء ملبس من ملابس الحق ظهر فيه للزينة، فتلك زينة الله التي تزين بها لعباده هذا مقام الصديق، فلا يتميز أهل الله من غيرهم إلا بالعلم بذلك لأن الأمر في نفسه على ذلك، وعند العامة لا يكون ذلك إلا لأهل العناية المتحققين بالحق وغيرهم هو عندهم خلق بلا حق.

ثم نرجع فنقول إن الله جعل لهذا المنزل باباً يسمى باب الرحمة منه يكون الدخول إليه

فيعصمه مما فيه من الآفات المهلكة التي أشرنا إليها آنفاً من حكم السواء، فإنه لهذا المنزل أعني هذا الباب كالنية في العمل فما تخلل العمل من غفلة وسهو لم يؤثر في صحة العمل فإن النية تجبر ذلك لأنها أصل في إنشاء ذلك العمل فهي تحفظه، وكذلك البسملة جعلها الله في أول كل سورة من القرآن فهي للسورة كالنية للعمل، فكل وعيد وكل صفة توجب الشقاء مذكورة في تلك السورة، فإن البسملة بما فيها من الرحمن في العموم والرحيم في الخصوص تحكم على ما في تلك السورة من الأمور التي تعطي من قامت به الشقاء فيرحم الله ذلك العبد إما بالرحمة الخاصة وهي الواجبة أو بالرحمة العامة وهي رحمة الامتنان، فالمآل إلى الرحمة لأجل البسملة فهي بشرى.

وأما سورة التوبة على من يجعلها سورة على حدة منفصلة عن سورة الأنفال فسماها سورة التوبة وهو الرجعة الإلهية على العباد بالرحمة والعطف فإنه قال للمسرفين على أنفسهم ولم يخص مسرفاً من مسرف: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣] فلو قال إن الرحمن لم يعذب أحداً من المسرفين فلما جاء بالاسم الله قد تكون المغفرة قبل الأخذ وقد تكون بعد الأخذ ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] فجاء بالرحيم آخراً، أي مآلهم وإن أوخذوا إلى الرحمة، وأن الرجعة الإلهية لا تكون إلا بالرحمة لا يرجع على عباده بغيرها، فإن كانت الرجعة في الدنيا ردهم بها إليه وهو قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ١١٧] ليتوبوا وإن كانت في الآخرة فتكون رجعتهم مقدمة على رجعته لأن الموطن يقتضي ذلك، فإن كل من حضر من الخلق في ذلك المشهد سقط في يديه ورجع بالضرورة إلى ربه فيرجع الله إليهم وعليهم، فمنهم من يرجع الله عليه بالرحمة في القيامة ومنازلها، ومنهم من يرجع عليه بالرحمة بعد دخول النار وذلك بحسب ما تعطيه الأحوال ويقع به الشهود والأمر في ذلك كله حسي ومعنوي، فإن العالم كله حرف جاء لمعنى معناه الله ليظهر فيه أحكامه إذ لا يكون في نفسه محلاً لظهور أحكامه، فلا يزال المعنى مرتبطاً بالحرف، فلا يزال الله مع العالم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤] فالداخل، إلى هذا المنزل في أوّل قدم يضعه فيه يحصل له من الله تسعة وتسعون تجلياً مائة إلا واحداً تتقدم إليه منها تسعة يرى فيها صورته فيعلم حقيقته، ثم بعد ذلك يقام في التسعين فيرى ما لم يكن يعلم من حضرة جمع ومنعة وعلوّ عن المقاوم فينزل الحق إليه معلماً له علماً من لدنه وقد تقدمت الرحمة له عند دخوله، وهذا منزل خضر صاحب موسى عليه السلام.

واعلم أن أهلية الشيء لأمر ما إنما هو نعت ذاتي فلا يقع فيها مشاركة لغيره إلا بنسبة بعيدة إذا حققتها لم تثبت وزلت قدمك فيها كما قال ﷺ في الصحيح: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا**» وَهُمُ الَّذِينَ لاَ يَخْرُجُونَ مِنْهَا رَأْساً لأَنَّهُمْ أَهْلُهَا «**فَإِنَّهُمْ لا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلا يَحْيَوْنَ**» فجعل نعتهم نفي الحياة والموت، ثم استدرك نعت من دخلها وما هو بأهلها فقال: «**وَلٰكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ فَأَمَاتَهُمُ الله فِيهَا إِمَاتَةً**» فنعتهم بالموت وهو خلاف نعت من هو لها

أهل، ثم ذكر خروج هؤلاء من النار فتنبه لكون الحق أنطق العالم كله بالتسبيح بحمده، والتسبيح تنزيه ما هو ثناء بأمر ثبوتي لأنه لا يثنى عليه إلا بما هو أهل له وما هو له لا يقع فيه المشاركة، وما أثنى عليه إلا بأسمائه، وما من اسم له سبحانه عندنا معلوم إلا وللعبد التخلق به والاتصاف به على قدر ما ينبغي له، فلما لم يتمكن في العالم أن يثني عليه بما هو أهله جعل الثناء عليه تسبيحاً من كل شيء، ولهذا أضاف الحمد إليه فقال: ﴿يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] أي بالثناء الذي يستحقه وهو أهله وليس إلا التسبيح فإنه سبحانه يقول: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] والعزة المنع من الوصول إليه بشيء من الثناء عليه الذي لا يكون إلا له عما يصفون، وكل مثن واصف، فذكر سبحانه تسبيحه في كل حال ومن كل عين فقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] وما ثم إلا هؤلاء، وقال آمراً لمحمد عند انقضاء رسالته وما شرع له أن يشرع من الثناء عليه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣] فقال: «**أنْتَ كما أثْنَيتَ على نَفْسِكَ**» هذا هو التسبيح بحمده، فلما كان الأمر بالثناء على الله على ما قررناه لم يتمكن لنا أن نستنبط له ثناء، وإنما نذكره بما ذكر عن نفسه فيما أنزله في كتبه على حد ما يعلمه هو لا على حد ما نفهمه نحن، فنكون في الثناء عليه حاكين تالين، لأن الثناء على المثني عليه مجهول الذات لا يقبل الحدود والرسوم ولا يدخل تحت الكيفية ولا يعرف كما هو عليه في نفسه وهو الغنيّ عن العالمين، فلا تدل على المعرفة به الدلالات، وإنما تدل على استنادنا إليه من حيث لا يشبهنا أو لا يقبل وصفنا، وما من اسم إلهيّ إلا ونتصف به، فما تلك هي المعرفة المقصودة التي يعلم بها نفسه، فشرع التسبيح وفطر عليه كل شيء وهو نفي عن كل وصف لا إثبات، ولهذا بعض أهل النظر تنبهوا إلى شيء من هذا وإن كان العلماء لم يرتضوا ما ذهبوا إليه ولكن هو حق في نفس الأمر من وجه ما مليح، وذلك أنهم رأوا أن المشاركة بين المحدث والله لا تصح حتى في إطلاق الألفاظ عليه.

فإذا قيل لهم: الله موجود، يقولون ليس بمعدوم فإن المحدث موصوف بالوجود ولا مشاركة، فإذا قيل لهم: الله حيّ، يقولون: ليس بميت، الله عالم، يقولون: ليس بجاهل، الله قادر، يقولون: ليس بعاجز، الله مريد، يقولون: ليس بقاصر، فأتوا بلفظة النفي، والتسبيح تنزيه ونفي لا إثبات، فجروا على الأصل الذي نطق الله به كل شيء فسلكوا مسلكاً غريباً بين النظار والثناء على الله بالتسبيح لا تكل به الألسنة بخلاف الثناء بالأسماء، فإن الألسنة تكل وتعيا وتقف فيها ولهذا قال من قال مما شرع له أن يقول من الثناء على الله فقال خاتماً عند الإعياء والحصر: «**لا أُحْصي ثناءَ عليك أنتَ كما أثْنَيتَ على نَفْسِكَ**».

وانظر حكمة الله تعالى في كونه لم يجعل له صفة في كتبه بل نزه نفسه عن الوصف فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فجعلها أسماء وما جعلها نعوتاً ولا صفات وقال: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] وبها كان الثناء والاسم ما يعطي الثناء وإنما يعطيه النعت والصفة وما شعر أكثر الناس لكون الحق ما ذكر له نعتاً في خلقه، وإنما جعل ذلك أسماء كأسماء الأعلام التي ما جاءت للثناء وإنما جاءت للدلالة، وتلك الأسماء الإلهية الحسنى هي لنا نعوت يثني علينا بها

وأثنينا علينا بها وأثنى الله على نفسه بها لأنا قدمنا أن نزول الشرائع في العالم من الله إنما تنزل بحكم ما تواطأ عليه أهل ذلك اللسان، سواء صادف أهل ذلك اللسان الحق في ذلك أو لا وقد تواطأ الناس على أن هذه الأسماء التي سمى الحق بها نفسه مما يثنى بها في في المحدثات إذا قامت بمن تقوم به نعتاً أو صفة فأثنى الله على نفسه بها ونبه على أنها أسماء لا نعوت ليفهم السامع الفهم الفطن أن ذلك من حكم التواطؤ لا حكم الأمر في نفسه كما دل دليل الشرع: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] من جميع الوجوه فلا يقبل الأينية، فإنه لو قبلها لم يصدق ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ على الإطلاق فإن قبول الأينية مماثلة.

وأما الدليل العقلي فلا يقول بها أصلاً ومع هذا الحكم للتواطؤ فقال رسول الله ﷺ للسوداء الخرساء: **«أَيْنَ اللهُ»**، فأطلق عليه لفظ الأينية لعلمه أن الأينية في حقه بمنزلة الاسم لا بمنزلة النعت، فقالت السوداء: في السماء بالإشارة فقبل ما أشارت به وجعلها مؤمنة لأن الله أخبر عن نفسه أنه في السماء فصدقته في خبره فكانت مؤمنة، ولم يقل ﷺ فيها عند ذلك إنها عالمة وأمر بعتقها والعتق سراح من قيد العبودية تنبيه من النبيّ ﷺ بالعتق في حقها من قيد العبودية والملك على أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ سراح من قيد الأينية وفاء الظرف التي أتت به السوداء في الجواب، فانظر ما أعجب الشارع العارف بالله وهذا كله تنزيه، فالثناء على الله بصفات الإثبات التي جعلها أسماء وجعلها الخلق نعوتاً كما هي لهم نعوت إذا وقع هذا الثناء من العبد صورة لا يكون روح تلك الصورة تسبيحاً: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ كان جهلاً بما يستحقه المثني عليه فإنه أدخله تحت الحد والحصر، بخلاف كون ذلك أسماء لا نعوتاً فيا وليّ لا يفارق التسبيح ثناؤك على الله جملة واحدة، فإنك إذا كنت بهذه المثابة نفخت روحاً في صورة ثنائك التي أنشأتها، فلا تكن من المصوّرين الذي يعذبون يوم القيام بأن يقال لهم: أحيوا ما خلقتم ولا قدرة لهم على ذلك هناك لأن الدعوى هناك لا تقع لما هو عليه من كشف الأمور وفي الدنيا ليس كذلك.

ثم انظر في تحقيق ما ذكرناه من إنشاء صورة الثناء إذا لم تنفخ فيها روح التسبيح قوله لطائفة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: ٤] فلو قالوا عيسى دعي إلهاً من دون الله وقد خلق من الأرض لما عجنه طيناً لانتظام الأجزاء الترابية بما في الماء من الرطوبة والبرودة فزادت كمية برودة التراب فثقل عن التحليل وعدم الانتظام وأزالت الرطوبة اليبوسة التي في التراب فالتأمت أجزاؤه لظهور شكل الطائر فقدم الحق لأجل هذا القول أن خلق عيسى للطير كان بإذن الله، فكان خلقه له عبادة يتقرب بها إلى الله لأنه مأذون له في ذلك فقال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠] فما أضاف خلقه إلا لإذن الله والمأمور عبد والعبد لا يكون إلهاً، وإنما جئنا بهذه المسألة لعموم كلمة ما فإنها لفظة تطلق على كل شيء ممن يعقل ومما لا يعقل، كذا قال سيبويه وهو المرجوع إليه في العلم باللسان، فإن بعض المنتحلين لهذا الفن يقولون: إن لفظة «ما» تختص بما لا يعقل و«مَنْ» تختص بمن يعقل وهو قول غير محرر، وقد رأينا كلام العرب جمع من لا يعقل جمع من

يعقل وإطلاق ما على من يعقل، وإنما قلنا هذا لئلا يقال في قوله: ﴿مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٨] إنما أراد من لا يعقل وعيسى يعقل فلا يدخل في هذا الخطاب، وقول سيبويه أولى.

فهذا قد ترجمنا عن هذا المنزل بما فيه تنبيه على شموخه وتفلته من العالم به إن لم يكن له مراقباً دائماً، وهو يحوي على علوم: منها علم ما خص الله به ألوية الحمد من الرحمة هل أعطاها الرحمة العامة أو الخاصة؟ فإن التي تجاوره الرحمة الواجبة وهي جزء من الرحمة العامة فهل لواء الحمد يقتصر عليها وهو أن لا يثني على الله، إلا بالأسماء الحسنى في العرف أو يتعداها إلى الرحمة العامة في الثناء على الله بجميع الأسماء والكنايات، إذ له الفعل المطلق من غير تقييد، وله كل اسم يطلبه الفعل وإن لم يطلق عليه، فإن الرحمة الإلهية العامة تعم هذه الأسماء التي لم يجر العرف بأن تطلق عليه، فتطلق عليه رحمة بها فتجدها مرقومة في اللواء، وهو علم شريف كنا عد عزمنا أن نضع فيه كتاباً فاقتصرنا منه على جزء صغير سميناه معرفة المدخل إلى الأسماء والكنايات، وهو أسلوب عجيب غريب ما رأيت أحداً نبه عليه من المتقدمين مع معرفتهم به.

ومن علوم هذا المنزل علم الإجمال الذي يعقبه التفصيل من غير تأخير، وفيه علم إنزال الكتب من أين تنزل وما حضرتها من الأسماء الإلهية؟ وهل جميع الكتب المنزلة من حضرة واحدة من الأسماء أو تختلف حضراتها باختلاف سبب نزولها؟ فإن التوراة وإن كتبها الله بيده فما نزلت للإعجاز عن المعارضة والقرآن نزل معجزاً، فلا بد أن تختلف حضرة أسماء الله، فيضاف كل كتاب إلى اسمه الخاص به من الأسماء الإلهية، وفيه العلم الحق المخلوق به وهو العدل عند سهل بن عبد الله، وفيه علم أهل الحجب في إعراضهم عن دعوة الحق هل إعراضهم جهل وعناد وجحد؟ وفيه علم ما يتميز به الله عمن تدعى فيه الألوهة وليس فيه خصوص وصف الإله، وفيه علم ما آخذ الأدلة للعقل لقوّة الفكرية، وفيه علم تأخير الإجابة عند الدعاء ما سبب ذلك؟ وفيه علم صيرورة الولي عدواً ما سببه؟ وفيه علم التفاضل في الفهم عن الله هل يرجع إلى الاستعداد أو إلى المشيئة؟ وفيه علم الشهادة الإلهية للمشهود له وعليه، واجتماع المشهود له وعليه، والرحمة بعد الأداء ولم يكن الصلح أوّلاً ولا يحتاج إلى دعوى وإلى شهادة، وإذا كان الحق شهيداً فمن الحاكم حتى يشهد عنده؟ فلو حكم بعلمه لم يكن شاهداً، ويتعلق بهذا العلم علم الشهادة ومراتب الشهداء والشهود فيها، وهل للحاكم أن يحكم بعلمه ويترك علمه لشهادة الشهود إذا لم تكن شهادتهم شهادة زور مثل أن تشهد شهود على أن زيداً يستحق على عمرو كذا وكذا درهماً وهو عندهم كما شهدوا، وكان الحاكم قد علم أن عمراً قد دفع له هذا المستحق بيقين وليس لزيد شهود إلا علم الحاكم، ويعلم الحاكم أن الشهود شهدوا بما علموا ولم يكن لهم علم بأن عمراً قد أوصل إلى زيد ما كانت الشهادة قد وقعت عليه. وفيه علم تكذيب الصادق من أين يكذبه من يكذبه مع جواز الإمكان فيما يدّعيه في أخباره، وفيه علم أسباب ارتفاع الخوف في مواطن الخوف، وفيه علم المناسبة في

الجزاء الوفاق وهل ما زاد على الجزاء الوفاق يكون جزاء أو يكون هبة؟ وهل الجزاء المؤلم يساوي الجزاء الملذ في الزيادة أم لا تكون الزيادة إلا في جزاء ما يقع به النعيم؟ وأما في الآلام فلا يزيد على الوفاق شيء وقوله تعالى: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨] لماذا ترجع هذه الزيادة؟ وقوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] فهل هذه الجلود المجددة هل هي من الجزاء الوفاق أو من الزيادة؟ وقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] هل لهم في هذا القول وجه يصدقون فيه أم لا وجه لهم؟ وقول الله في حق هؤلاء: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١]، هل هو معارض لقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] فإنه ما كل من دخل النار تمسه، فإن ملائكة العذاب في النار وهي دارهم وما تمسهم النار، وما قال الله بعد قوله: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٨١] وفيه علم نَشْإِ بني آدم وصورته الطبيعية والروحانية، وفيه علم الوصف الذي إذا أقيم العبد فيه تجاوز الله عنه فيما أساء فيه، وفيه علم الحقوق والمستحقين لها، وفيه علم الفرق بين العرض والوقوف فإنه ورد: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] وورد: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على ربهم﴾ وورد: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧] وورد: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأحقاف: ٢٠] وهل العرض دخول أم لا؟ وفيه علم المطابقة وهو علم عزيز، وفيه علم مضادة الأمثال، وفيه علم ما يجب على الرسل مما لا يجب، وفيه علم عدم الثقة بالأسباب المعهودة لأمر ما يكون عنها فيظهر عنها خلاف ذلك من أين وقع الغلط للذي وثق بها، وفيه علم ما يفنى من الأشياء مما لا ينفى وما يفنى منها هل يفنى بالذات أم لا؟ وفيه علم كل شيء فيك ومنك، فلا يطرأ عليك أمر غريب ما هو عندك فلا يكشف لك إلا عنك، وهو علم عزيز أيضاً ما يعلمه كل أحد من أهل الله، وفيه علم الفرق بين أصناف العالم، وفيه علم الاقتداء، وفيه علم الزمان الكبير من الزمان الصغير وظهور الزمان الكبير قصيراً كزمان النعيم والوصال، وظهور الزمان القصير كبيراً كزمان الآلام والهجران، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والثلاثون وثلاثمائة

في معرفة منزل جثوّ الشريعة بين يدي الحقيقة تطلب الاستمداد من الحضرة المحمدية وهو المنزل الذي يظهر فيه اللواء الثاني من ألوية الحمد الذي يتضمن تسعة وتسعين اسماً إلهياً

[الكامل]

الحجرُ من شِيَمِ الحُدوث فلا تَقُلْ ... إنّي لأجْلِ خلافتي لَمُسَرَّحُ
هيهاتَ أنتَ مقيّدٌ بخلافة ... أينَ السَّراح وبابُ كونك يُفْتَحُ
والقلبُ خَلْفَ مغالقٍ مجبولةٍ ... ضاعت مفاتحُها فليست تُفتحُ

لا تـفـرحـنَّ بـشـرح صَـدْرِكَ إنـه شَـرْحٌ لـتـعـلـمَ أن قـيـدَك أرْجَـحُ

اعلم أيدك الله أيها الولِيّ الحميم أن الناس تكلموا في الشريعة والحقيقة، قال الله تعالى لنبيه ﷺ آمراً: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] يريد من العلم به من حيث ما له تعالى من الوجوه في كل مخلوق ومبدع وهو علم الحقيقة، فما طلب الزيادة في علم الشريعة بل كان يقول: «**اتركُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ**»، وعلم الشريعة علم محجة وطريق لا بد له من سالك والسلوك تعب فكان يريد التقليل من ذلك، وغاية طريق الشريعة السعادة الحسية وليست الحقيقة غايتها في العموم، فإن من الناس من ينال الحقيقة في أول قدم يضعه في طريق الشريعة لأن وجه الحق في كل قدم، وما كل أحد يكشف له وجه الحق في كل قدم، والشريعة المحكوم بها في المكلفين، والحقيقة الحكم بذلك المحكوم به والشريعة تنقطع، والحقيقة لها الدوام فإنها باقية بالبقاء الإلهي، والشريعة باقية بالإبقاء الإلهي، والإبقاء يرتفع والبقاء لا يرتفع، فهذا المنزل يعطيك شرف الإنسان على جميع من في السماء والأرض، وأنه العين المقصودة للحق من الموجودات لأنه الذي اتخذه الله مجلى وأعني به الإنسان الكامل لأنه ما كمل إلا بصورة الحق، كما أن المرآة وإن كانت تامة الخلق فلا تكمل إلا بتجلي صورة الناظر فتلك مرتبتها والمرتبة هي الغاية، كما أن الألوهة تامة بالأسماء التي تطلبها من المألوهين فهي لا ينقصها شيء وكمالها ـ أعني الرتبة التي تستحقها ـ الغنى عن العالمين، فكان له الكمال المطلق بالغنى عن العالمين، ولما شاء أن يعطي كماله حقه ولم يزل كذلك، وخلق العالم للتسبيح بحمده سبحانه لا لأمر آخر والتسبيح لله، ولا يكون المسبح في حالة الشهود لأنه فناء عن الشهود، والعالم لا يفتر عن التسبيح طرفة عين لأن تسبيحه ذاتي كالنفس للمتنفس، فدل أن العالم لا يزال محجوباً وطلبهم بذلك التسبيح المشاهدة، فخلق سبحانه الإنسان الكامل على صورته، وعرف الملائكة بمرتبته، وأخبرهم بأنه الخليفة في العالم، وأن مسكنه الأرض، وجعلها له داراً لأنه منها خلقه، وشغل الملأ الأعلى به سماء وأرضاً، فسخر له من في السموات ومن في الأرض جميعاً منه أي من أجله، واحتجب الحق إذ لا حكم للنائب بظهور من استخلفه، فاحتجب عن البصائر كما احتجب عن الأبصار فقال رسول الله ﷺ يخاطب الناس الذين يشبهون الإنسان في الصورة الحسية وهم نازلون عن رتبة الكمال: «**إنَّ الله احْتَجَبَ عَنِ البَصَائِرِ كَمَا احْتَجَبَ عَنِ الأَبْصَارِ وَإنَّ المَلأَ الأَعْلَى يَطْلُبُونَهُ كَمَا تَطْلُبُونَهُ أَنْتُمْ**»، فكما لا تدركه الأبصار كذلك لا تدركه البصائر وهي العقول لا تدركه بأفكارها، فتعجز عن الوصول إلى مطلوبها والظفر به ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وأمره بتعليم الملأ الأعلى، وأمر من في السموات والأرض بالنظر فيما يستحقه هذا النائب، فسخر له جميع من في السموات والأرض حتى المقول عليه الإنسان من حيث تماميته لا من حيث كماليته، فهذا النوع المشارك له في الاسم إذا لم يكمل هو من جملة المسخرين لمن كمل والحق في كماله بالغنى عن العالمين وهو وحده ـ أعني الإنسان الكامل ـ يعبد ربه الغني عنه، فكماله أن لا يستغنى عنه، وما ثم من يعبده من غير تسبيح إلا الكامل فإن التجلي له دائم؛ فحكم الشهود له لازم، فهو أكمل

الموجودات معرفة بالله وأدومهم شهوداً وله إلى الحق نظران، ولهذا جعل له عينين فينظر بالعين الواحدة إليه من كونه غنياً عن العالمين فلا يراه في شيء ولا في نفسه، وينظر إليه بالعين الأخرى من اسمه الرحمن بكونه يطلب العالم ويطلبه العالم فيراه ساري الوجود في كل شيء فيفتقر بهذه النظرة من هذه العين إلى كل شيء من حيث ما هي الأشياء أسماء الحق لا من حيث أعيانها، فلا أفقر من الإنسان الكامل إلى العالم لأنه يشهده مسخراً له، فعلم أنه لولا ما هو عليه من الحاجة إلى ما سخروا فيه من أجله ما سخروا فيعرف نفسه أنه أحوج إلى العالم من العالم إليه، فقام له هذا الفقر العام مقام الغنى الإلهي العام، فنزل في العالم في الفقر منزلة الحق من حيث الأسماء الإلهية التي تطلب التأثير في العالم، فما ظهر في فقره إلا ظهور أسماء الحق فهو حق في غناه عن العالم، لأن العالم مسخر في حقه بتأثير الأسماء الإلهية فيه أعني في العالم، فما يسخر له إلا من له التأثير لا من حيث عين العالم فلم يفتقر إلا الله وهو حق في فقره إلى العالم، فإنه لما علم أن الله ما سخر العالم لهذا الإنسان إلا ليشتغل العالم بما كلفهم من التسخير عن طلب العلم به من حيث الشهود فإن ذلك ليس لهم لأنهم نازلون عن رتبة الكمال أظهر الإنسان الكامل الحاجة لما سخر فيه العالم، فقوي التسخير في العالم لئلا يفرطوا فيما أمرهم الحق به من ذلك لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، فوافق الإنسان الكامل بإظهار هذا الفقر الحق في إشغال العالم فكان حقاً في فقره كالأسماء، وحقاً في غناه لأنه لا يرى المسخر له إلا من له الأثر وهو للأسماء الإلهية لا لأعيان العالم، فما افتقر إلا الله في أعيان العالم والعالم لا علم له بذلك.

ولما أطت السماء بعمارها وقال: «**وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ شِبْرٍ إلاَّ وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لله**»، فأخبر في قوله «**ساجد لله**» لينبه على نظر كل ملك في السماء إلى الأرض لأن السجود التطأطؤ والانخفاض، وقد عرفوا أن الأرض موضع الخليفة وأمروا بالسجود فطأطؤوا عن أمر الله ناظرين إلى مكان هذا الخليفة حتى يكون السجود له، لأن الله أمرهم بالسجود له، ولم يزل حكم السجود فيهم لآدم، وللكامل أبداً دائماً.

فإن قلت: فيزول في الدار الآخرة مثل هذا السجود؟ قلنا: لا يزول لأن الصورة الظاهرة من الإنسان الكامل التي وقع السجود لها أنشأها الله من الطبيعة العنصرية ابتداء وإعادة، ففي الابتداء أنبتها من الأرض ثم أعادها إليها بالموت ثم أخرجها منها إخراجاً بالبعث ولها السفل في الرتبة تطلب بهذه الحقيقة الله الذي قال فيه النبي ﷺ: «**لَوْ دَلَّيْتُمْ بِحَبْلٍ لَهَبَطَ عَلَى الله**»، وكذا ينبغي أن يكون الأمر في نفسه، فلا بد من استصحاب سجودهم للإمام دنيا وآخرة، فحاز الإنسان الكامل صورة العالم وصورة الحق ففضل بالمجموع، فالساجد والمسجود له فيه ومنه، ولو لم يكن الأمر هكذا لم يكن جامعاً، فعند الملأ الأعلى ازدحام لرؤية الإنسان الكامل كما يزدحم الناس عند رؤية الملك إذا طلع عليهم فأطت السماء لازدحامهم، فمن عرف الله بهذه المعرفة عرف نعم الله التي أسبغها عليه الظاهرة والباطنة فتبرأ من المجادلة في الله بغير علم، وهو ما أعطاه الدليل النظري ولا كتاب منير وهو ما وقع به التعريف مما هو

الحق عليه من النعوت فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ [الحج: ٨] أعطاه دليل فكره ﴿وَلَا هُدٗى﴾ [الحج: ٨] يقول: ولا بيان أبانه له كشفه ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [الحج: ٨] وهو ما وقع به التعريف لما نزلت به الآيات من المعرفة بالله في كتبه المنزلة الموصوفة بأنها نور ليكشف بها ما نزلت به لما كان النور يكشف به، فنفاهم عن تقليد الحق وعن التجلي والكشف عن النظر العقلي ولا مرتبة في الجهل أنزل من هذه المرتبة، ولهذا جاءت من الحق في معرض الذم يذم بها من قامت به هذه الصفة.

وإذا عرفوا نعم الله كما قلنا أوجب هذا العلم عليهم الشكر فشغلوا نفوسهم بشكره كما فعله رسول الله ﷺ حين نزل عليه: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٢، ٣]، فقام حتى تورمت قدماه شكراً على هذه النعمة، وهكذا أخبر لما قيل له في ذلك فقال: «**أفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً**»، فأتى بفعول وهو بنية المبالغة فكثر منه الشكر لما كثرت النعم، فطلبت كل نعمة منه الشكر لله عليها، ولا يخطر لصاحب هذا المقام في شكره طلب الزيادة لأنه فعل يطلب الماضي والواقع، فكانت الزيادة من النعم للشاكر فضلاً من الله، ولهذا أسماها زيادة يطلبها الشكر لا الشاكر فيجني ثمرته الشاكر فهي من الشكر جزاء للشاكر حيث أوجد عين الشكر في الوجود، وأقام نشأته صورة متجسدة تسبح الله وتذكره، فطلبت من الله تعالى أن يزيد هذا الشاكر نعمة إلى نعمته حيث كان سبباً في إيجاد عين الشكر فسمع الله منه وأجابه لما سأل فسأله أن يعرف الشاكرين بذلك حتى يعلموا أن الشكر قد أدى عند الله ما وجب عليه من حق الشاكر فقال الله لعباده: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧]، فأعلمنا بالزيادة، فالعارف بالله يشكر الله ليكون خلاقاً لصورة الشكر ليكثر المسبحون لله القائمون في عبادته، فإذا علم الله هذا منه زاده في النعم الظاهرة والباطنة ليدوم له نعت الخلق للشكر، فلا يزال الأمر له دائماً دنيا وآخرة، وأعظم نشأة يظهر بها الشكر في الوجود نشأة الشكر على نعمة الصورة الكمالية ونشأة الشكر على نعمة التسخير، والمزيد من الله للشاكر على قدر صورة الشكر، فاعلم كيف تشكر واشتغل بالأهم فالأهم من ذلك، فإذا طلب الشاكر بشكره المزيد لما وعد الله به لم يعطه الله من نعمة المزيد إلا على قدر طلبه وصورته من التخليط والسلامة فيكون مزيده مغفرة وعفواً وتجاوزاً لا غير.

وبالجملة فينزل عن درجة الأول الذي أعطي بسؤال الشكر، فإن نشأة الشكر بريئة من التخليط في عينها، وإن كان الشاكر مخلطاً فلا أثر لتخليطه في صورة الشكر، وله أثر في المزيد إذا شكر لتحصيل المزيد، فتحصل المفاضلة بين الشاكرين على ما قررناه من الطالبين المزيد وغير الطالبين والمشتغلين بالأهم وغير المشتغلين به، فهذه طرق لله مختلفة كما قال: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٨] وهي الطرق، والحقيقة عين واحدة هي غاية لهذه الطرق وهو قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فأما قوله تعالى لنبيه محمد في سورة الفتح وهو فتوح المكاشفة بالحق وفتوح الحلاوة في الباطن وفتوح العبارة، ولهذا الفتوح كان القرآن معجزة فما أعطي أحد فتوح العبارة على كمال ما أعطيه رسول الله ﷺ فإنه

قال: ﴿لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] أي معيناً، فقال له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] في الثلاثة الأنواع من الفتوح فتحاً فأكده بالمصدر مبيناً أي ظاهراً يعرفه كل من رآه بما تجلى وما حواه، ففتوح الحلاوة ثابت له ذوقاً، وفتوح العبارة ثابت للعرب بالعجز عن المعارضة، وفتوح المكاشفة ثابت بما أشهده ليلة إسرائه من الآيات: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فيسترك عما يستحقه صاحب الذنب من العتب والمؤاخذة، وما تأخر يسترك عن عين الذنب حتى لا يجدك فيقوم بك، فأعلمنا بالمغفرة في الذنب المتأخر أنه معصوم بلا شك، ويؤيد عصمته أن جعله الله أسوة يتأسى به فلو لم يقمه الله في مقام العصمة للزمنا التأسي به فيما يقع منه من الذنوب إن لم ينص عليها كما نص على النكاح بالهبة أن ذلك خالص له مشروع وهو حرام علينا ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بأن يعطيها خلقها إذ قد عرفنا بالمخلقة من ذلك وغير المخلقة، وأخبر بهذه الآية أن نعمته التى أعطاها محمداً مخلقة أي تامة الخلقة ﷺ ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢] وهو صراط ربه الذي هو عليه كما قال هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]. والشرائع كلها أنوار، وشرع محمد ﷺ بين هذه الأنوار كنور الشمس بين أنوار الكواكب، فإذا ظهرت الشمس خفيت أنوار الكواكب، واندرجت أنوارها في نور الشمس فكان خفاؤها نظير ما نسخ من الشرائع بشرعه ﷺ مع وجود أعيانها كما يتحقق وجود أنوار الكواكب، ولهذا ألزمنا في شرعنا العام أن نؤمن بجميع الرسل وجميع شرائعهم أنها حق، فلم ترجع بالنسخ باطلاً ذلك ظن الذين جهلوا فرجعت الطرق كلها ناظرة إلى طريق النبي ﷺ، فلو كانت الرسل في زمانه لتبعوه كما تبعت شرائعهم شرعه فإنه أوتي جوامع الكلم ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٣] والعزيز من يرام فلا يستطاع الوصول إليه.

فإذا كانت الرسل هي الطالبة للوصول إليه فقد عز عن إدراكها إياه ببعثته العامة وإعطاء الله إياه جوامع الكلم والسيادة بالمقام المحمود في الدار الآخرة، وبجعل الله أمته خير أمة أخرجت للناس، وأمة كل نبي على قدر مقام نبيها فاعلم ذلك. وإذا طلب الوصول إليه القائلون باكتساب النبوة عز عليهم الوصول إلى ذلك فإن المكتسب إنما هو السلوك والوصول إلى الباب، وأما ما وراء الباب فلا علم للواصلين إليه بمن يفتح له ذلك الباب، فمن الناس من يفتح له بالإيمان العام وهو مطالعة الحقيقة كأبي بكر فلم ير شيئاً إلا رأى الله قبله، ومنهم من يفتح له بالإنباء العام الذي لا شرع فيه وهذان الفتحان باقيان في هذه الأمة إلى يوم القيامة، ومن الواصلين من يفتح له الباب بنبوّة التشريع المقصور عليهم، ومنهم من يفتح له الباب بالرسالة بما شرع وهذان بابان أو فتحان قد منع الله أن يتحقق بهما أحد أو يفتح له فيهما إلا أهل الاجتهاد، فإن الله أبقى عليهم من ذلك بعض شيء بتقرير الشرع فحكمه للشارع لا لهم، فكل ما خرج من وراء الباب عند فتحه ما هو مكتسب والنبوّة غير مكتسبة فنصره الله النصر العزيز، فلم يصل إليه من قال باكتساب النبوّة لأن الموصوف بالعزة لا عين للعزة إلا مع وجود الطالب لمن قامت به فيحمي مقامه وحضرته أن لا يصل طالب إليه، فالشرائع الحكمية السياسية

الظاهرة بصورة الشرائع الإلهية ليس لها هذا النصر العزيز، وإنما هو مختص بصاحب الشرع الإلهي المنزل، والحقيقة تعم الشرعين: الشرع الإلهي والحكميّ السياسي، فصاحب الشريعة وهو المؤمن إنما جثى بين يدي المحقق الذي هو صاحب الحقيقة ليبين له مأخذ كل شرع من الحضرة الإلهية ولا يعلم ذلك إلا صاحب الحقيقة، فلهذا سمي هذا المنزل بجثوّ الشريعة بين يدي الحقيقة لأن كل شرع يطلبها إذ هي باطن كل شرع، والشرائع صورها الظاهرة في عالم الشهادة ولهذا ما تخلوُ أمة عن نذير يقوم بسياستها لبقاء المصلحة في حقها سواء كان ذلك الشرع إلهياً أو سياسياً، على كل حال تقع المصلحة به في القرن الذي يظهر فيه.

وبعد أن علمت منزلة الشريعة من الحقيقة ولها باب يخصه من هذا الكتاب قد تقدم فلنذكر ما يتضمنه هذا المنزل من العلوم، فمن ذلك: علم لواء خاص من ألوية الحمد وأسمائه، وعلم ما لهذا اللواء من حكم الرحمة في العالم الذي يكون تحته، وعلم المناسبات التي تنضم الأشياء الصورية بها بعضها إلى بعض لإقامة أعيان الصور التي لا تظهر إلا بهذا الانتظام وهي صور تعطي العلم بذاتها للناظر، وفيه علم الأعلام بالأعلام المنصوبة على الطريق للسلاك فيه لئلا يضلوا عن مقصودهم الذي هو غاية طريقهم، وفيه علم أنواع الأرزاق فإنها تختلف باختلاف المرزوقين، وفيه علم فائدة الأخبار بالعبارة المؤيدة بقرائن الأحوال هل حصول العلم بذلك الخبر عن الخبر أو عن قرائن الأحوال أو عن المجموع أو العلم الذي تعطيه قرينة الحال غير العلم الذي يعطيه الخبر أو في موضع يجتمعان وفي موضع لا يجتمعان؟ وفيه علم الفرق بين الاستماع هل يقع بالفهم أو بغير ذلك؟ والفرق بين من هو هو وبين من هو كأنه هو، وفيه علم الجزاء الخاص بكل مجازى، وفيه علم العلم العام الذي غايته العمل والذي ليس غايته العمل، وفيه علم نسبة العالم من الحق بطريق خاص، وفيه علم ما تنتجه الأفكار من العلوم في قلوب المتفكرين، وفيه علم تقرير النعم، وفيه علم ما خلق العالم له وما السبب الذي حال بينه وبين ما خلق له مع العلم بما خلق له ولا أقوى من العلم لأن له الإحاطة فمقاومه تحت حيطته فأين يذهب؟ وفيه علم من هو من أهل الأمر ممن هو ليس هو منهم، وفيه علم الولاية الوجودية السارية التي بها كان الظالمون بعضهم أولياء بعض، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض، والله وليّ المؤمنين من كونه مؤمناً فمن أين هو وليّ المتقين ولا يتصف بالتقوى أو يتصف بالتقوى من حيث إنه أخذ الجنّ والإنس وقاية يتقي بها نسبة الصفات المذمومة عرفاً وشرعاً إليه فتنسب إلى الجن والإنس وهما الوقاية التي اتقى بها هذه النسبة فهو وليّ المتقين من كونه متقياً، وإذا كان وليهم وما ثم إلا متق فهي بشرى من الله للكل بعموم الرحمة والنصرة على الغضب لأن الولي الناصر فافهم. وفيه علم المراتب بالنسبة إلى الشرع خاصة لا المراتب بما يقتضيها الوجود، وفيه علم الإله الأعظم الذي شرع اتخاذ الآلهة من دون الله، وفيه علم الحيرة فيما يقطع به أنه معلوم لك والعلم ضد الحيرة في معلومه فما الذي حيرك مع العلم؟ وفيه علم سلب الهداية من العالم مع قوله: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤] وهو عين الهدى، وفيه علم الدهر من الزمان، وفيه علم الجمع الأوسط لأن

الجمع ظهر في ثلاثة مواطن في أخذ الميثاق وفي البرزخ بين الدنيا والآخرة والجمع في البعث بعد الموت وما ثم بعد هذا الجمع جمع يعم فإنه بعد القيامة كل دار تستقل بأهلها فلا يجتمع عالم الإنس والجن بعد هذا الجمع أبداً، وفيه علم النحل والملل، وعلم عموم النطق الساري في العالم كله وأنه لا يختص به الإنسان كما جعلوه فصله المقوم له بأنه حيوان ناطق، فالكشف لا يقول بخصوص هذا الحد في الإنسان وإنما حد الإنسان بالصورة الإلهية خاصة، ومن ليس له هذا الحد فليس بإنسان وإنما هو حيوان يشبه في الصورة ظاهر الإنسان، فاطلب لصاحب هذا الوصف حداً يخصه كما طلبت لسائر الحيوان، وفيه علم ماهية النسخ هل يقع في الأعيان فيعبر عنه بالمسخ كما يقع في الأحكام أم لا؟ وفيه علم مراتب الفوز فإنه ثم فوز مطلق وفوز مقيد بالأنانة ومقيد بالعظمة وما حد كل واحد منهم، وفيه علم الاستحقاق، وفيه علم اليقين والعلم والظن والجهل والشك والنظر وفيه علم حكم الشهود من حكم العلم، وفيه علم من لا يرضى الله عنه وإن رحمه فما رحمه عن رضى، والفرق بين المرحوم عن رضى وبين المرحوم لا عن رضى وأين منزل كل واحد منهم من الدارين؟ وفيه علم الكبرياء والجبروت متى يظهر عمومه في العالم بحيث يعرف على التعيين فإنه الآن ظاهر لا يعلمه إلا قليل من الناس، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأربعون وثلاثمائة

في معرفة المنزل الذي منه خبأ النبيّ ﷺ لابن صياد سورة الدخان من القرآن العزيز

فقال له: «**ما خَبأْتُ لَكَ؟**» فقال له: الدخ. وهو لغة الدخان لأن فيها آية: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] فعلم ابن صياد اسمها الذي نواه وأضمره في نفسه رسول الله ﷺ في خبئه فقال له ﷺ: «**اخسأ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ**» أي علمك بهذا لا يخرجك عن قدرك الذي أهلك الله له، وقد روي: «**فلم تَعْدُ قَدْرَكَ**» يعني بإدراكك لما خبأته لك، وفي هذا القول سر يطلعك إياه هذا القول من النبيّ ﷺ لصاف على المقام الذي أوجب على رسول الله ﷺ أن يقول مثل هذا القول فإنه لم يختبره بما خبأ له عن وحي من الله، فلو كان عن وحي ما عثر عليه ابن صائد لأن الله من وراء ما يأمر به بالتأييد، بل كان هذا القول مثل قوله ﷺ في أبار النخل فلما خرج خبؤه كان ذلك من الله تأديب فعل ليحفظ عليه مقام المراقبة فلا ينطق إلا عن شهود، إذ بقرينة الحال يعلم أن النبي ﷺ ما خبأ له ما خبأ إلا ليعجزه فأبى الله ذلك، فقال ﷺ: «**إنَّ الله أدَّبَنِي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبي**» ولو نطق النبي ﷺ للحاضرين بقصده فيما خبأ له لارتدت جماعة من الحاضرين لذلك، ولكن الله عصم نبيه ﷺ عن القول ولم يخرجه العلم بالخبيئة عن كونه كاهناً والحاضرون يعرفون أمر الكهنة وشأنهم ولا سيما أهل اليمن والحجاز وجزيرة العرب، فلم يخرجه ذلك العلم عن قدره عند الحاضرين، وفي هذه المسألة أمور عظيمة يتسع الشرح فيها إلى أمر عظيم: [المجتث]

تَـــرْكُ الـــرِّضَـــى لا يـــكـــونُ إلا لـــمـــن هـــو دُونُ

فإنْ يكُنْ لكَ حالاً فكلُّ صعبٍ يَهُونُ
وإنْ أبَيْتَ رضاهُ فما يشاءُ يَكُونُ

هذا المنزل منه خبأ رسول الله ﷺ لابن صياد سورة الدخان من القرآن وهو منزل عظيم فيه من المكر الإلهيّ والاستدراج ما لا تأمن مع العلم به الملائكة من مكر الله، فالعاقل إذا لم يكن من أهل الاطلاع في تصرفاته فلا أقل من أنه لا يزيل الميزان المشروع له الوزن به في تصرفاته من يده بل من يمينه فيحفظه في نفس الأمر من هذا المكر، ولا يخرج عن لوازم عبوديته وأحكامها طرفة عين يعطي من الزيادات في العلوم والأمور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال ممكن، يكون العروج إليه من الأرواح المفارقة وغيرها منه تبدو العلامات على صدق الصادق وكذب الكاذب، من حصل فيه حصل علم الحكمة الجامعة وتميز له الشقي من السعيد فيه تختلف أحوال الناظرين، فما يراه زيد نوراً يراه عمرو ظلمة، ويراه جعفر نوراً وظلمة معاً فإنه يكشف به الأشياء فيقول: هذا نور ويبصره من حيث عينه فيقول ظلمة فيه تكون المنازلات كلها يلتقي فيه الحق النازل والخلق الصاعد، فيقول الحق للصاعد: إلى أين؟ فيقول: إليك، ويقول الخلق للنازل: إلى أين؟ فيقول: إليك، فيقول: قد التقينا فتعال حتى يعين كل واحد منا ما السبب الذي أوجب لكل واحد منا طلب صاحبه، فيقول الحق: قصدت بالنزول إليك لنريحك من التعب فنعطيك ونهبك من غير مشقة ولا نصب وأنت في أهلك مستريح لم يكن لي قصد غير هذا، ويقول الخلق: قصدت بالعروج إليك تعظيماً لك وخدمة لنقف بين يديك وأنت على سرير ملكك، وقد علم الملأ الأعلى أني خليفتك وأني أعلم بك منهم لما خصصتني به فإذا رآني الملأ الأعلى بين يديك اقتدوا بي فيما أقوم به بين يديك مما ينبغي لمثلي أن يتأدب معك به فيحصل لهم بالمشاهدة من علم الأدب معك ما لم يكن عندهم لأني رأيتهم جاهلين بمنزلتك مع كونهم يسبحونك لا يفترون تقول لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فيعارضونك فيه بما حكيت لي عنهم أنهم قالوا ولم يكن ينبغي لهم إلا السمع كما لك الأمر، فلما علمت أن الأدب الإلهيّ ما استحكم فيهم وقد أمرتني بتعليمهم ورأيت أن التعليم بالحال والفعل أتم منه بالقول والعبارة قصدت العروج إليك ليرى الملأ الأعلى بالحال والفعل ما ينبغي أن يعامل به جلالك، والاستواء أشرف حال ظهرت به إلى خلقك ومع ذلك اعترضوا عليك فكيف لو نزلت إلى أدنى من حالة الاستواء من سماء وأرض؟ فيقول الحق: نعم ما قصدت مثلك من يقدر قدر الأشياء فإنه من عرف قدره وقدر الأشياء عرف قدري ووفاني حقي، ألا ترى محمداً ﷺ لما فرضت عليه وعلى أمته خمسين صلاة نزل بها ولم يقل شيئاً ولا اعترض ولا قال هذا كثير؟ فلما نزل إلى موسى عليه السلام فقال له: «راجع ربك عسى أن يخفف عنه أمتك فإني قاسيت من بني إسرائيل في ذلك أهوالاً وأمتك تعجز عن حمل مثل هذا وتسأم منه»، فبقي محمد ﷺ متحيراً الأدب الكامل يعطيه ما فعل من عدم المعارضة والشفقة على أمته تطلبه بالتخفيف عنها حتى لا يعبد الله بضجر ولا كره ولا ملل ولا كسل فبقي حائراً، فهذا ما أثرت الوسائط والجلساء فأخذ يطلب

الترجيح فيما قاله موسى عليه السلام وفيما وفى هو ﷺ من حق الأدب مع الله.

وقد كان الله تقدم إليه عند ذكر جماعة من الأنبياء عليهم السلام منهم موسى عليه السلام بأن قال له: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] فتأول أن هذا الذي أشار به عليه من هداهم ولم يتفطن في الوقت أن موسى عليه السلام لما كان في حال هديه ما سأل التخفيف وذلك الهدى هو الذي أمر رسول الله ﷺ أن يقتدي به فأعطاه هذا الاجتهاد الرجوع إلى الله فسأله التخفيف فما زال يرجع بين الله تعالى وبين موسى عليه السلام إلى أن قال ما أعطاه الأدب: «**استحييتُ من ربّي**»، وانتهى الأمر بالتخفيف إلى العشر فنزل به على أمته وشرع له أن يشرع لأمته الاجتهاد في الأحكام التي بها صلاح العالم لأنه ﷺ بالاجتهاد رجع بين الله وبين موسى عليه السلام، فأمضى ذلك في أمته لتأنس بما جرى منه ولا تستوحش، وجبر بهذا التشريع قلب موسى في ذلك فإنه لا بدّ إذا رجع مع نفسه وزال عنه حكم الشفقة على العباد قام معه تعظيم الحق وما ينبغي لجلاله، فلم يستكثر شيئاً في حقه وعلم أن القوّة بيده يقوّي بها من شاء، وإذا خطر له مثل هذا وأقامه الحق فيه لا بدّ له أن يؤثر عنده ندماً على ما جرى منه فيما قاله لمحمد ﷺ، فجبر الله قلبه بقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩] في آخر رجعة، وكان قد تقدم القول بالتكثير وبدله بالتخفيف والتقليل، فأعلم موسى أن القول الإلهي منه ما يقبل التبديل ومنه ما لا يقبل التبديل، وهو إذا حق القول منه فالقول الواجب لا يبدل والقول المعروض يقبل التبديل، فسرّ موسى عليه السلام بهذا القول وأنه ما تكلم إلا في عرض القول لا في حقه.

وكذلك لما علم بما شرع الله لأمة محمد ﷺ من الاجتهاد في نصب الأحكام من أجل اجتهاد محمد ﷺ جبر الله تعالى قلب محمد ﷺ فيما جرى منه وسرى ذلك في أمته ﷺ كما سرى الجحد والنسيان في بني آدم من جحد آدم ونسيانه جبراً لقلب آدم، فإن هذه النشأة الطبيعية من حكم الطبيعة فيها الجحد والنسيان، فكانت حركة آدم في جحده حركة طبيعية وفي نسيانه أثر طبيعي، فلو تناسى لكان الأمر من حركة الطبيعة كالجحد من حيث إنه جحد هو أثر طبيعي، ومن حيث ما هو جحد بكذا هو حكم طبيعي لا أثر، فهذا الفرق بين حكم الطبيعة وبين أثرها والنسيان من أثرها والتناسي من حكمها والغفلة من أثرها والتغافل من حكمها، وقليل من العلماء بالله من يفرق بين حكم الطبيعة وأثرها، فاجتمع في آدم حكم الطبيعة بالجحد لأنه الأوّل الجامع في ظهره للجاحدين فحكموا عليه بالجحد فجحد لأن الابن له أثر في أبيه، فالجحد وإن كان من حكم الطبيعة فإنه من أثر الجاحدين من أبنائه لأن آدم إنسان كامل، وكذا النسيان الواقع منه هو من أثر الطبيعة وحكم الأبناء، فإنه حامل في ظهره للناسين من أبنائه فحكموا عليه بالنسيان. فانظر ما أعجب هذه الأمور وما يعطيه فتوح المكاشفة من العلوم وجميع ما ذكرناه من أحكام هذا المنزل وله من الحضرة الإلهية الغيب، ومن أعيان العالم الطبيعة، ومن عالم الشهادة الظلمة، ففي الشهادة ترى الظلمة ولا يرى بها، وفي الطبيعة تعلم ولا ترى ويرى أثرها ويرى بها، وفي الغيب يرى ويرى به مع بقاء اسم

الغيب عليه، وإنما قلنا هذا لأن الأسماء تتغير بتغير الأحكام ولا سيما في الأسماء الإلهية فإن الحكم يغير الاسم للاسم الآخر الذي يطلبه ذلك الحكم والعين واحدة، وفي أحكام الشرائع عكس هذا تغير الأحكام تبع لتغير الأحوال والأسماء والعين واحدة، قيل لمالك بن أنس من أئمة الدين: ما تقول في خنزير البحر من بعض السمك؟ فقال: هو حرام، فقيل: فسمك البحر ودوابه وميتته حلال، فقال: أنتم سميتموه خنزيراً والله قد حرم الخنزير، فتغير الحكم عند مالك لتغير الاسم، فلو قالوا له: ما تقول في سمك البحر أو دواب البحر؟ لحكم بالحل، وكذا تغير الأحوال يغير الأحكام، فالشخص الواحد الذي لم يكن حاله الاضطرار أكل الميتة عليه حرام، فإذا اضطر ذلك الشخص عينه فأكل الميتة له حلال، فاختلف الحكم لاختلاف الحال والعين واحدة.

واعلم أن الله من هذا المنزل يقبل التجلي في الصور الطبيعية كثيفها ولطيفها وشفافها لأهل البرازخ والقيامة برزخ وما في الوجود غير البرازخ لأنه منتظم شيء بين شيئين مثل زمان الحال ويسمى الدائم والأشياء المعنوية دور والحسية أُكَرٌ، فما في الكون طرف لأن الدائرة لا طرف لها، فكل جزء منها برزخ بين جزأين، وهذا علم شريف لمن عرفه، ولهذا جمع في الإنسان الكامل بين الصورتين الطبيعيتين في نشأته، فخلقه بجسم مظلم كثيف وبجسم لطيف محمول في هذا الجسم الكثيف سماه روحاً له به كان حيواناً وهو البخار الخارج من تجويف القلب المنتشر في أجزاء البدن المعطى فيه النموّ والإحساس، وخصه دون العالم كله بالقوّة المفكرة التي بها يدبر الأمور ويفصلها، وليس لغيره من العالم ذلك فإنه على الصورة الإلهية، ومن صورتها: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [الرعد: ٢] فالإنسان الكامل من تممت له الصورة الإلهية ولا يكمل إلا بالمرتبة، ومن نزل عنها فعنده من الصورة بقدر ما عنده، ألا ترى الحيوان يسمع ويبصر ويدرك الروائح والطعوم والحار والبارد ولا يقال فيه إنسان بل هو جمل وفرس وطائر وغير ذلك؟ فلو كملت فيه الصورة قيل فيه إنسان، كذلك الإنسان لا يكمل فيزول عنه الاسم العام إلى الاسم الخاص، فلا يسمى خليفة إلا بكمال الصورة الإلهية فيه إذ العالم لا ينظرون إلا إليها، ولهذا لما لم تر الملائكة من آدم إلا الصورة الطبيعية الجسمية المظلمة العنصرية الكثيفة قالت ما قالت، فلما أعلمهم الله بكمال الصورة فيه وأمرهم بالسجود له سارعوا بالسجود له ولا سيما وقد ظهر لهم بالفعل في تعليمه الأسماء إياهم ولو لم يعلمهم وقال لهم الله: إني أعطيته الصورة والشورة لأخذوها إيماناً وعاملوه بما عاملوه به لأمر الله، فإذا كوشف الإنسان على الإنسان الكامل ورأى الحق في الصورة التي كساها الإنسان الكامل يبقى في حيرة بين الصورتين لا يدري لأيتهما يسجد، فيخير في ذلك المقام بأن يتلى عليه: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] ففي الإنسان وجه الله من حيث صورته، وفي جانب الحق وجه الله من حيث عينه، فلأي شيء يسجد قبل سجوده؟ فإن الله يقبل السجود للصورة كما يقبله للعين، كما تحير رسول الله ﷺ في مثل هذا المقام في منزلة أخرى لما قيل له حين أسري به وأقيم في النور وحده فاستوحش وسبب استيحاشه إنما كان حيث أسري به بجسمه

العنصري فأدركته الوحشة بخروجه عن أصله ووقوفه في غير منزله فلم يستوحش منه ﷺ إلا حقيقة ما ظهر فيه من العناصر فناداه من ناداه بصوت أبي بكر، إذ كان قد اعتاد الأنس به فأنس للنداء وأصغى إليه وزالت عنه تلك الوحشة بصوت أبي بكر، فقيل له لما أراد الدخول من ذلك الموقف على الله: «قف يا محمد إن ربك يصلي» فتحير في نسبة الصلاة إليه وكان محمد ﷺ في مقام الصورة الإلهية الكاملة التي تستقبل بالصلاة والسجود لها فلما دنا استقبله ربه بالصلاة له ولا علم له بذلك فناداه الاسم العليم المنسوب إليه الكلام بصوت أبي بكر ليعرفه بمرتبة أبي بكر ويؤنسه به: «قف إن ربك يصلي» والوقوف ثبات وهو قبلة للمصلي فوقف، وأفزعه ذلك الخطاب لأن حاله في ذلك الوقت التسبيح الذي روحه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١] فهذا الذي أفزعه، فلما تلي عليه عند ذلك: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الأحزاب: ٤٣] تذكر ما أنزله الله عليه في القرآن فزال عنه رعب نسبة الصلاة إلى الله بما ذكره به، وكان من أمر الإسراء ما كان، وله موضع غير هذا نذكره فيه إن شاء الله، فمن أقامه الله بين الصورتين لا يبالي لأيتهما سجد، فإن رأى هذا الذي كوشف بالصورتين تصافح الصورتين دون سجود إحداهما للأخرى فهي علامة له على كمال الصورة في حق ذلك الإنسان الخاص، وإن رأى السجود من الصورة الإنسانية للصورة الأخرى الإلهية فيعلم عند ذلك أن الصورة الإنسانية للصورة الأخرى الإلهية فيعلم عند ذلك أن الصورة الإنسانية الكاملة في مقام مشاهدة العين لا مشاهدة الصورة فيوافقها في السجود لها، فإن رأى السجود من الصورة الإلهية للصورة الإنسانية هناك من قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤٣] لم يوافقها في السجود، فإن وافقها هلك، بل من حصل في ذلك المقام يعرف الأمور على ما هي عليه فإنه يعلم أن الصلاة من الله على العبد الكامل لا للعبد الكامل، والصلاة من العبد الكامل لله لا على الله، ومن حصل له هذا الفرقان جمع بين القرآن والفرقان، وهذا مشهد عزيز ما رأيت له ذائقاً وهو من أتم المعارف.

ولما نزل القرآن نزل على قلب محمد ﷺ وعلى قلوب التالين له دائماً التي في صدورهم في داخل أجسامهم لا أعني اللطيفة الإنسانية التي لا تتحيز ولا تقبل الاتصاف بالدخول والخروج فيقوم للنفس الناطقة القلب الذي في الصدر ليصير لها مقام المصحف المكتوب للبصر، فمن هناك تتلقاه النفس الناطقة، وسبب ذلك أنه لما قام لها التفوق والفضل على الجسم المركب الكثيف بما أعطيته من تدبيره والتصرف فيه ورأته دونها في المرتبة لجهلها بما هو الأمر عليه وما علمت أنه من الأمور المتممة لكمالها فجعل الله القلب الذي في داخل الجسم في صدره مصحفاً وكتاباً مرقوماً تنظر فيه النفس الناطقة فتتصف بالعلم وتتحلى به بحسب الآية التي تنظر فيها فتفتقر إلى هذا المحل لما تستفيده بسببه لكون الحق اتخذه محلاً لكلامه ورقمه فيه، فنزلت بهذا عن ذلك التفوق الذي كان قد أعجبت به وعرفت قدرها ورأت أن ذلك القلب مهبط الملائكة بالروح الذي هو كلام الله، وما رأت تلك الملائكة النازلة تنظر إليها ولا تكلمها إنما ترقم في القلب ما تنزل به، والنفس تقرأ ما نزل فيه مرقوماً فتعلم في

فهمها عن الله أن مراد الله بذلك تعليمها وتأديبها لما طرأ عليها من خلل العجب بنفسها، فأقرت واعترفت بأن نسبة الله إلى كل شيء نسبة واحدة من غير تفاضل، فلم تر لها تفوقاً على شيء من المخلوقات من ملإ أعلى أو أدنى، ولا تفضيل ولا ترجيح في العالم، ولكن من حيث الدلالة ونسبة الحق لا من حيث هو العالم، فإنه من حيث هو العالم يكون ترجيح بعضهم على بعض ويظهر فيه التفاوت؛ فاعلم أن النفس الناطقة من الإنسان إذا أراد الله بها خيراً كشف لها عن نطق جميع أجزاء بدنها كلها بالتسبيح والثناء على الله بحمده لا بحمد من عندها، ولا ترى فيهم فتوراً ولا غفلة ولا اشتغالاً، ورأت ذاتها غافلة عما يجب لله تعالى عليها من الذكر مفرطة مشتغلة عن الله بأغراضها متوجهة نحو الأمور التي تحجبها عن الله والوقوف عند حدوده، فيعظم العالم عندها وتعلم أنه شعائر الله التي يجب عليها تعظيمها وحرمات الله وتصغر عندها نفسها، وتعلم أن لو تميزت عن جسمها ولم يكن جسمها من المتمات لها في نشأتها لعلمت أن الجسم ذلك المدبر لها أشرف منها، فلما علمت أن ذلك الجسم أشرف منها علمت أن شرفه بما هو عليه من هذه الصفات هو عين شرفها، وأنها ما أمرت بتدبيره واستخدمت في حقه وصيرت كالخديم له وتوجهت عليها حقوق له من عينه وسمعه وغير ذلك إلا لشغله بالله وتسبيح خالقه، فعلمت نفسها أنها مسخرة له، فلو كانت هي من الاشتغال بالله في مثل هذا الاشتغال كان لها حكم جسمها، ولو وكل الجسم لتدبير ذاته اشتغل عن التسبيح كما اشتغلت النفس الإنسانية، وإذا علمت أنها مسخرة في حق جسمها عرفت قدرها وأنها في معرض المطالبة والمؤاخذة والسؤال والحساب، فتعين عليها في دار التكليف أداء الحقوق الواجبة عليها لله وللعالم الخارج عنها ولنفسها بما يطلبه منها جسمها، ولم تتفرّغ مع هذا الاشتغال إلى رؤية الأفضلية ولا تشوّفت لمعرفة المراتب، وهذه المرتبة أعني مرتبة أداء الحقوق أشرف المراتب في حق الإنسان والخاسر من اشتغل عنها كما أن الرابح من اشتغل بها.

واعلم أن الله تعالى إذا ذكر لك شيئاً بضمير الغائب فما هو غائب عنه، وإنما راعى المخاطب وهو أنت والمذكور غائب عنك، فإذا ذكره بضمير الحضور من إشارة إليه وغيرها فإنما راعاك، ومراعاة شهوده لا بد منها في كل حال، ولكن يفرق بين ما يحكيه الله من أقوال القائلين وبين الكلام الذي يقوله من عند نفسه، فإذا كان الحق سمع العبد وبصره زالت الغيبة في حق العبد، فما هو عند ذلك مخاطب بما فيه ضمير غائب، وقد وجد الخطاب لمن هذه صفته بضمير الغائب فكيف الأمر؟ قلنا: لما كان العبد المنزل عليه القرآن مأموراً بتبليغه إلى المكلفين وتبيينه للناس ما نزل إليهم، ومن الأشياء ما هي مشهودة لهم وغائبة عنهم، ولم يؤمر أن يحرف الكلم عن مواضعه بل يحكي عن الله كما حكى الله له قول القائلين وقولهم يتضمن الغيبة والحضور، فما زاد على ما قالوه في حكايته عنهم، وقيل له: ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [المائدة: ٦٧] فلم يعدل عن صورة ما أنزل إليه فقال ما قيل له فإنه ما نزلت المعاني على قلبه من غير تركيب هذه الحروف وترتيب هذه الكلمات ونظم هذه الآيات وإنشاء هذه

السور المسمى هذا كله قرآناً، فلما أقام الله نشأة القرآن صورة في نفسها أظهرها كما شاهدها فأبصرتها الأبصار في المصاحف وسمعتها الآذان من التالين، وليس غير كلام الله هذا المسموع والمبصر، وألحق الذم بمن حرّفه بعدما عقله وهو يعلم أنه كلام الله فأبقى صورته كما أنزلت عليه، فلو بدل من ذلك شيئاً وغير النشأة لبلغ إلينا صورة فهمه لا صورة ما أنزل عليه، فإنه لكل عين من الناس المنزل إليهم هذا القرآن نظر فيه، فلو نقله إلينا على معنى ما فهم لما كان قرآناً أعني القرآن الذي أنزل عليه.

فإن فرضنا أنه قد علم جميع معانيه بحيث أنه لم يشذ عنه شيء من معانيه. قلنا: فإن علم ذلك وهذه الكلمات تدل على جميع تلك المعاني فلأي شيء يعدل؟ وإن عدل إلى كلمات تساويها في جميع تلك المعاني فلا بد لتلك الكلمات التي يعدل إليها من حيث ما هي أعيان وجودية أعيان غير هذه الأعيان التي عدل عنها التي أنزلت عليه، فلا بد أن تخالفها بما تعطيه من الزيادة من حيث أعيانها على ما جمعته من المعاني التي جمعتها الكلمات المنزلة، فيزيد للناظر في القرآن معاني أعيان تلك الكلمات المعدول إليها وما أنزلها الله فيكون النبيّ قد بلغ للناس ما نزل إليهم وما لم ينزل إليهم، فيزيدون في الحكم شرعاً لم يأذن به الله، كما أيضاً ينقص مما أنزل الله أعيان تلك الكلمات التي عدل عنها، فكان الرسول قد نقص من تبليغ ما أنزل إليه أعيان تلك الكلمات وحاشاه من ذلك، فلم يكن ينبغي له إلا أن يبلغ إلى الناس ما نزل إليهم صورة مكملة من حيث الظاهر حروفها اللفظية والرقمية، ومن حيث الباطن معانيها، ولذلك كان جبريل في كل رمضان ينزل على محمد ﷺ يدارسه القرآن مرة واحدة، فكانت له مع جبريل عليهما السلام في كل رمضان ختمة إلى أن جاء آخر رمضان شهده رسول الله ﷺ فدارسه جبريل مرّتين في ذلك الرمضان فختم ختمتين، فعلم أنه يموت في السنة الداخلة لا في سنة ذلك الرمضان، فكانت الختمة الثانية لرمضان السنة التي مات فيها حتى تكون السنة له بعد موته، فمات في ربيع الأوّل وكان نزول القرآن في: ليلة القدر التي هي ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] فأتى بغاية أسماء العدد البسيط الذي لا اسم بعده بسيط إلا ما يتركب، كما كان القرآن أخر كتاب أنزل من الله، كما كان من أنزل عليه آخر الرسل وخاتمهم، ثم أضاف ذلك الاسم الذي هو ألف إلى شهر بالتنكير فيدخل الفصول فيه والشهر العربي قدر قطع منازل درجات الفلك كله لسير القمر الذي به يظهر الشهر، فلو قال: أزيد من ذلك لكرر ولا تكرار في الوجود بل هو خلق جديد، ولو نقص بذكر الأيام أو الجمع لما استوفى قطع درجات الفلك فلم تكن تعم رسالته ولم يكن القرآن يعم جميع الكتب قبله، لأنه ماثم سير لكوكب يقطع الدرجات كلها في أصغر دورة إلا القمر الذي له الشهر العربي، فلذلك نزل في ليلة هي خير من ألف شهر أي أفضل من ألف شهر، والأفضل زيادة والزيادة عينها، وجعل الأفضلية في القدر وهي المنزلة التي عند الله لذلك المذكور، وكانت تلك الليلة المنزل فيها التي هي ليلة القدر موافقة ليلة النصف من شعبان فإنها ليلة تدور في السنة كلها، وأما نحن فإنا رأيناها تدور في السنة، وأنا رأيناها أيضاً في شعبان، ورأيناها في رمضان في كل

وتر من شهر رمضان، وفي ليلة الثامن عشر من شهر رمضان على حسب صيامنا في تلك السنة، فأي ليلة شاء الله أن يجعلها محلاً من ليالي السنة للقدر الذي به تسمى ليلة القدر جعل ذلك، فإن كان ذلك من ليالي السنة ليلة لها خصوص فضل على غيرها من ليالي السنة كليلة الجمعة وليلة عرفة وليلة النصف من شعبان وغير تلك من الليالي المعروفة فينضاف خير تلك الليلة إلى فضل القدر فتكون ليلة القدر تفضل ليلة القدر في السنة التي لا ينضاف إليها فضل غيرها فاعلم ذلك.

ومن هذا المنزل نزل الروح الأمين على قلب محمد ﷺ بسورتين: سورة القدر وسورة الدخان وهما مختلفان في الحكم، فسورة القدر تجمع ما تفرقه سورة الدخان، وسورة الدخان تفرق ما تجمعه سورة القدر، فمن لا علم له بما شاهده يتخيل أن السورتين متقابلتان ولم يتفطن للمنزل الواحد الذي جمعهما ولم يتفطن لنشأته التي قامت من جمعها للمتقابلات الطبيعية، وصاحب الكشف الصحيح إذا دخل هذا المنزل وكان له قلب وهو شهيد رأى أن سورة القدر لا تقابل بينها وبين سورة الدخان، فإن سورة القدر تجمع ما تعطيه سورة الدخان لتفرقه على المراتب، فتأخذه سورة الدخان فتفرقه على المراتب لأنها علمت من سورة القدر أنها ما جمعت ذلك وأعطته إياها إلا لتفرقه، فسورة القدر كالجابية لسورة الدخان، هكذا هو الأمر، وهما سورتان لهما عينان ولسانان وشفتان تعرفان وتشهدان لمن دخل هذا المنزل بأنه من أهل المقام المحمود وأنه وراث مكمل.

ويتضمن هذا المنزل علم المطابقة والمناسبة والمراقبة، وعلم التلويح والرمز، وعلم النفوذ في الأمور من غير مشقة لأن النفوذ في الأمور بطريق الفكر من أعظم المشقات، وعلم الإبانة والكشف، وعلم النشآت الطبيعية هل حكمها حكم النشآت العنصرية أم لا؟ وعلم الفرق بين الأنوار والظلم ولماذا يرجع النور والظلمة وهما حجابان بين الله وعباده وما يلي العباد من هذه الحجب وما يلي الحق منها وهل ترفع لأحد أو لا تزال مسدلة؟ وهل تعطي هذه الحجب تحديد المحجوب أم لا؟ فإن أعطت التحديد للمحجوب فبأي نشأة تقيده وتحده؟ هل بنشأة عنصرية أو طبيعية؟ وإن لم تقيده فبماذا تلحقه؟ هل بما لا يقبل التحيز من العالم فلا يتصف بالدخول في الأجسام ولا بالخروج منها أو تقضي عليه بحكم يخصه خارج عن حكم ما لا يتحيز فلا يقبل المكان ولا الحلول؟ وعلم الرحمة التي يتضمنها الإنذار ممن كان، وعلم الأذواق، وعلم ما يشقى من الأسماء مما يسعد، وعلم تعلم اليقين، وعلم التنزيه في الربوبية وهو صعب التصوّر، وعلم مرتبة العلم من مرتبة الشك خاصة وما تعطي كل مرتبة منهما لمن حل فيها ونزل بها، وعلم العذاب أهو من علم الآلام أو هو من علم اللذات؟ وعلم عدم قبول التوبة عند حلول البأس وقبولها من قوم يونس خاصة، وعلم نفوذ قضاء السوابق هل تنفذ بالشر على من هو على بصيرة أو هل هو مختص بالمحجوبين؟ وعلم طبقات العذاب، وعلم الابتلاء وطبقاته، وعلم النصائح، وعلم أهل العناية عند الله مع شمول الرحمة للجميع وقد ابتلوا أهل العناية في الدنيا بما به ابتلي من ليس منهم في الآخرة، ولماذا نرجع

عناية الله بأهله مع الابتلاء والبلاء هل لاقتضاء الدارين أو لاقتضاء سابق العلم؟ وعلم وجود الحق بوجوهه في كل فرد فرد من العالم كله، وعلم توقيت الجمع الأخير من الجموع الثلاثة، وعلم الاستثناء لماذا يرجع؟ وعلم أين يذهب الجهل والظن والشك والعلم بأصحابهم، وعلم تقدم الموت على الحياة ومعلوم أن الموت لا يكون إلا عن حياة، وعلوم هذا المنزل كثيرة فقصدنا منها إلى التعريف بالأهم من ذلك مما تتعلق السعادة بالعلم به، وإن كان العلم كله عين السعادة لكن في العموم ليست السعادة إلا حصول اللذات ونيل الأغراض والفوز من الآلام، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والأربعون وثلاثمائة
في معرفة منزل التقليد في الأسرار

[البسيط]:

في كُلِّ حُكْمٍ من الأحكام تقليدُ ... وفيه سَلْطَنَةٌ فينا وتَأْيِيدُ
لولاه ما كانَ لي في علمنا قَدَمٌ ... به ولا كان تنزيلٌ وتوحيدُ
إنّ الخلافة تقليدٌ وسلطنةٌ ... فَهْيَ الإمامُ الذي للحقّ مَشْهُودُ
هي الأمانة ما يَنْفَكُّ صاحبُها ... في طاعةٍ وهو عند الله محمودُ
جميعُ من في وجود الله يَرْقُبُهُ ... في سِرِّهِ فهو في الأكوان مقصودُ
حَلاّهُ ربّي بما تعطيه حضرتُه ... من الصفاتِ فما في العلم مَوْجودُ
سواهُ فهو إمامُ الخَلْقِ كُلِّهِمُ ... وهو الإلٰهُ فمجهولٌ ومحدودُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروحه القدسي أن التقليد هو الأصل الذي يرجع إليه كل علم نظري أو ضروري أو كشفي؛ لكنهم فيه على مراتب، فمنهم من قلد ربه وهم الطائفة العلية أصحاب العلم الصحيح، ومنهم من قلد عقله وهم أصحاب العلوم الضرورية بحيث لو شككهم فيها مشكك بأمر إمكاني ما قبلوه مع علمهم بأنه ممكن ولا يقبلونه. فإذا قلت لهم في ذلك يقولون: لأنه لا يقدح في العلم الضروري وأمثلته كثيرة لا أذكرها من أجل النفوس الضعيفة لقبولها فيؤدّي ذلك إلى ضرر وهوس فذلك يمنعني أن أبينها، ومنهم من قلد عقله فيما أعطاه فكره وما ثم إلا هؤلاء فقد عم التقليد جميع العلماء والتقليد تقييد فما خرج العالم عن حقيقته فإنه الموجود المقيد، فلا بد أن يكون علمه مقيداً مثله، والتقييد فيه عين التقليد، غير أنه ذم في بعض المواطن وهي معلومة، وحمد في بعض المواطن وهي معلومة، وليس في المنازل أصعب مرتقى من هذا المنزل هو أصعب من منزل عقبات السويق، لأن صاحب ذلك المنزل تارة وتارة، وصاحب هذا المنزل ثابت القدم فيه، فإذا كان التقليد هو الحاكم ولا بدّ ولا مندوحة عنه فتقليد الرب أولى فيما شرع من العلم به فلا تعدل عنه فإنه أخبرك عن نفسه في العلم به فيما قلدت فيه عقلك من حيث تقليده لفكره الناظر به في دليله وأعطاك نقيضه من العلم به، والأصل في العالم الجهل والعلم مستفاد، فالعلم وجود والوجود لله،

والجهل عدم والعدم للعالم، فتقليد الحق الذي له الوجود أولى من تقليد من هو مخلوق مثلك، فكما استفدت منه سبحانه الوجود فاستفد منه العلم فقف عند خبره عن نفسه بما أخبر ولا تبال بالتناقض في الأخبار فإنه لكل خبر مرتبة ينزل ذلك الخبر فيها وأنت الحضرة الجامعة لتلك المراتب، فكن على بينة من ربك لم تقل من عقلك لأنه لا يحيلك إلا على نفسه لأنه خلقك له فلا يعدل بك عنه، فإذا تجلى لك في ضرورة عقلك وجدت استنادك ولا بدّ إلى أمر ما لا تعلمه من حيث تقليدك لهذه الضرورة العقلية، فإذا تجلى لك في نظر عقلك وجدت في نفسك أن هذا الذي استندت إليه في وجودك أمر وجودي لا يشبهك إذ عينك وكل ما يقوم بك ويكون وصفاً لك محدث مفتقر إلى موجد مثلك، فيقول لك عقلك من حيث نظره إن هذا الموجود ليس مثله شيء من العالم وأنت جميع العالم، لأن كل جزء من العالم يشترك مع الكل في الدلالة على ما قرّرناه، وإذا تجلى لك في الشرع أبان لك عن التفاوت في مراتب العالم فتجلى لك في كل مرتبة، فقلد في ذلك الشارع حتى يكشف لك فترى الأمر على صورة ما أنت به، فقلدت ربك فرأيته مشبهاً ومنزهاً فجمعت وفرقت ونزهت وشبهت، وكل ذلك أنت لأنه تجل إلهي في المراتب، وأنت الجامع لها وهي لك وللعالم كله وهي الحاكمة على كل من ظهر فيها فينصبغ في عين الناظر إليه بها، ولذلك قلت لك: وكل ذلك أنت فإن العالمين من العلامة والعلامة لا تدل إلا على محدود، فلا تدل إلا عليك: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] فالعالم لا يدل على العلم بذاته وإنما يدل على العلم بوجوده.

فاعلم أن الحق هو على الحقيقة أم الكتاب، والقرآن كتاب من جملة الكتب إلا أن له الجمعية دون سائر الكتب، ومع هذا فإنه صفة الحق، والصفة تطلب من تقوم به، والنسبة تطلب من تنسب إليه، فلذلك قلنا فيه إنه أم الكتاب الذي عنه خرجت الكتب المنزلة واختلفت الألسنة به لقبوله إياها بحقيقته، فقيل فيه: إنه عربيّ، وإنه عبرانيّ، وإنه سريانيّ بحسب اللسان الذي أنزل به، وهذا هو عين الجعل في القرآن، وعين نسبة الحدوث إليه في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] فهو محدث الإتيان وما هو الإتيان عين الإنزال، كما أنه ليس بعين الجعل، والجعل يكون بمعنى الخلق وبغيره، فما ينسب إلى القرآن من قوله «محدث» فهو من حكم الجعل الذي بمعنى الخلق فلا فرق بين قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣] وبين قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] في الحكم.

واعلم أن تحقيق عندية كل شيء راجعة إلى نفسه ولهذا قال: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ فإن حكمكم النفاد ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] فإنه له البقاء، فلو كانت عندية الشيء غير نفس الشيء ما نفد ما عندنا لأنا وما عندنا عند الله وما عند الله باق، فنحن وما عندنا باق، فتبين لك أن عندية كل شيء نفسه، والعندية في اللسان ظرف مكان أو ظرف محلي كالجسم للعرض اللوني الذي يدركه البصر فهو أجلى فيما ترومه منه الدلالة فهو بحيث محله، وصاحب المكان ما هو بحيث المكان، والعندية جامعة للأمرين، ولما لم يمكن في التقليد الضروري أن يجحد

أحد من استند إليه في وجوده لذلك أقرّ به من من شأنه الإنكار والجحود. فإن قلت: فالمعطِّلة أنكرت. قلنا: المعطلة ما أنكرت مستنداً وإنما أنكرت وعطلت الذي عينتموه أنتم أنه المستند ما عطلت المستند فقلتم أنتم هو كذا فعطلته المعطلة وقالت: بل المستند كذا، فكما أن أولئك معطلة أنتم أيضاً معطلة تعطيلهم، لكن اختص أولئك باسم المعطلة وهم على ضروب في التعطيل محل العلم بذلك، وأمثاله العلم بالنحل والملل وهو علم لا ينبغي للمؤمن أن يقرأه ولا ينظر فيه جملة كما يتعين على أهل الله أن يعرفوا علم كل نحلة وملة بالله ليشهدوه في كل صورة فلا يقومون في موطن إنكار لأنه تعالى سار في الوجود فما أنكره إلا محدود، وأهل الله تابعون لمن هم له أهل فيجري عليهم حكمه، وحكمه تعالى عدم التقييد فله عموم الوجود فلأهله عموم الشهود، فمن قيد وجوده قيد شهوده وليس هو من أهل الله.

واعلم أن الله لما مهد هذه الخليقة جعلها أرضاً له فوصف نفسه بالاستواء وبالنزول إلى السماء وبالتصرف في كل وجهة الكون موليها ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١١٥] ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ [البقرة: ١٤٩] فإنه لا يرفع حكم أن وجه الله حيثما توليت، ولكن الله اختار لك ما لك في التوجه إليه سعادتك ولكن في حال مخصوص وهي الصلاة وسائر الأينيات ما جعل الله لك فيها هذا التقييد، فجمع لك بين التقييد والإطلاق، كما جمع لنفسه بين التنزيه والتشبيه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فالعالم كله أرض ممهدة ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧] هل ترى من تفاوت ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ [الملك: ٣] ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨] والحق صفة العالم لأن صفته الوجود وليس إلا لله، ولذلك ورد في الخبر الصحيح: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ**» وهكذا جميع قواه وصفاته، فلما كان العالم ظرفاً مكانياً لمن استوى عليه ظهر بصورته. سئل الجنيد عن المعرفة والعارف فقال: «لون الماء لون إنائه»، فجعل الأثر للظرف في المظروف وذلك لتعلم من عرفت فتعلم أنك ما حكمت على معروفك إلا بك فما عرفت سواك، فأيّ لون كان للإناء ظهر الماء للبصر بحسب لون الإناء، فحكم من لا علم له بأنه كذا لأن البصر أعطاه ذلك فله التجلي في كل صورة من صور الأواني من حيث ألوانها، فلم يتقيد في ذاته الماء ولكن هكذا تراه، وكذلك تؤثر فيه أشكال الظروف التي يظهر فيها وهو ماء فيها كلها، فإن كان الوعاء مربعاً ظهر في صورة التربيع، أو مخمساً ظهر في صورة التخميس، أو مستديراً ظهر في صورة الاستدارة لأن له السيلان، فهو يسري في زوايا الأوعية ليظهر تشكلها، فهو الذي حمل الناظرين لسريانه أن يحكموا عليه بحكم الأوعية في اللون والشكل، فمن لم يره قط إلا في وعاء حكم عليه بحكم الوعاء ومن رآه بسيطاً غير مركب علم أن ما ظهر فيه من الأشكال والألوان إنما هو من أثر الأوعية فهو في الأوعية كما هو في غير وعاء بحده وحقيقته، ولهذا ما زال عنه اسم الماء فإنه يدل عليه بحكم المطابقة فهذه الأوعية له كالسبل في الأرض للسالك فيها فينسب السالك في كل سبيل منها إلى أنه طالب غاية ذلك السبيل الذي سلك عليه ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] من صوره فيكون هو الظاهر لا أنت، لأن الظهور

للصور لا للعين، فالعين غيب أبداً، والصور شهادة أبداً.

ثم إنه لما خلق من كل شيء زوجين بين لنا أن في أرض العالم نجدين: نجد تكون غايته أنت عند قوم، ونجد عند هؤلاء القوم يكون غايته هو أعني الحق، وأما عند قوم آخرين فالنجد الواحد تكون غايته أنت في هو، والنجد الآخر يكون غايته هو في أنت، وأما عند قوم آخرين فالنجد الواحد تكون غايته أنت عين هو، والنجد الآخر تكون هو عين أنت، وأما عند قوم آخرين فيكون غاية النجدين هو وعين النجدين أنت وعين السالك هو، وأما عند قوم آخرين فيكون غاية النجدين وعين النجدين وأنهما عين اليدين وعين السالك أنت، وكل من ذكرناه على صراط مستقيم، فتعويج القوس للرمي عين صراطه المستقيم، فلا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك فما زلنا من الخلاف لأنهم قد خالفوا المختلفين ولذلك خلقهم فما تعدّى كل خَلْقٍ ما خُلِقَ له، فالكل طائع وإن كان فيهم من ليس بمطيع مع كونه طائعاً.

ولما كان الاستواء صفة للحق على العرش وخلق الإنسان على صورته جعل له مركباً سماه فلكاً كما كان العرش فلكاً، فالفلك مستوى الإنسان الكامل، وجعل لمن هو دون الإنسان الكامل مركباً غير الفلك من الأنعام والخيل والبغال والحمير ليستوي الإنسان على ظهور هذه المراكب، وشاركهم في ركوبها الإنسان الكامل، فالكامل في الناس يستوي على كل مركوب، وغير الكامل لا يستوي على الفلك إلا بحكم التبعية لا لعينه كما ورد في اليقين حين قال عليه السلام في عيسى عليه السلام: «**لَو ازْدَادَ يَقِيناً لَمَشَى فِي الهَوَاءِ**» يشير إلى إسرائه، ومعلوم أن عيسى عليه السلام أكثر يقيناً منا لا من النبيّ ﷺ ونحن نمشي في الهواء بحكم التبعية لمن نحن أمته ﷺ لا بأنا أكثر في اليقين من عيسى عليه السلام، كما أن أمة عيسى عليه السلام قد مشت على الماء كما مشى عليه السلام على الماء؛ ولكن نعلم وإن كان الأمر في هذا في حقنا بحكم التبعية أن كل الأمة ما مشت في الهواء كما مشى محمد ﷺ لأنه لم يكن بعض أمته تابعاً له في كل ما أمر بأن يتبع فيه، فمن وفى بحق اتباعه كان له حكمه كما قال: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨] وأين المشي في الهواء في الشرف لمن يكون الحق سمعه وبصره في الدؤوب على نوافل الخيرات المنتجة أو المنتج ذلك الدؤوب عليها لمحبة الله إياه، وتلك المحبة أنتجت له أن يكون الحق سمعه وبصره؟ فهذا معنى قولنا بحكم التبعية لما أمر به ونهى عنه، لا من كوننا أمة له فقط بل من المجموع وهو اتباع خاص لأنه نبيّ معين خاص دون غيره، فيورث أتباع شريعته بالعمل ما يكون عليه من أحوال رسول تلك الشريعة وهذه عناية من الله تعالى، فإن أمة كل نبيّ لا تطيق حال نبيها، إذ لو أطاقته لكانت مِثْلاً له فتستقل بالأمر دونه، وليس الأمر كذلك فإنه لو طلع حيثما طلع لا يزال تابعاً، وقد أبان ﷺ عن مثل هذا فقال: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا**» فله الزيادة عليهم بما له من أجرها الزائد على أجر العاملين بها، وليس لهم ذلك الأجر الخاص به، فلا يلحقونه أبداً في ذلك المقام، فهم تابعون له دنيا وآخرة وكشفاً، والرسل عليهم السلام منهم ظهرت السنن فلا تزال أممهم أتباعاً لهم أبداً.

واعلم أن الله تعالى لما كان له مطلق الوجود ولـم يكن له تقييد مانع من تقييد بل له التقييدات كلها فهو مطلق التقييد لا يحكم عليه تقييد دون تقييد فافهم معنى نسبة الإطلاق إليه، ومن كان وجوده بهذه النسبة فله إطلاق النسب فليست نسبة به أولى من نسبة، فما كفر من كفر إلا بتخصيص النسب مثل قول اليهود والنصارى عن أنفسهم دون غيرهم من أهل الملل والنحل: نحن أبناء الله وأحباؤه، فإذ وقد انتسبوا إليه كانوا يعمون النسبة وإن كانت خطأ في نفس الأمر فقال لهم الله: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨] يقول تعالى: النسبة واحدة فلم خصصتم نفوسكم بها دون هؤلاء؟ وإن أخطأتم في نفس الأمر فخطؤكم من عموم النسبة أقل من خطئكم من خصوصها فإن ذلك تحكم على الله من غير برهان. وأما طائفة أخرى فجعلوا لله ما يكرهون فقالوا: الملائكة بنات الله؛ فحكموا عليه بأنه اصطفى البنات على البنين، فتوجه عليهم الحكم بالإنكار في حكمهم مع كونهم يكرهون ذلك لنفوسهم مع كونهم يقولون في الشركاء: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] مع كونهم جعلوا لله جزءاً من عباده، فلو أضافوا الكل إليه لم يكن ذلك من الكفر الظاهر بل يكون الحكم فيه بحكم ما نسبوا، فإن وقعت النسبة العامّة للخلق بكونهم عبيداً سعدوا، وإن وقعت بالنبوّة طولبوا بما قصدوا فإن استندوا في ذلك إلى خبر إلهيّ سلموا بل سعدوا مثل قوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ﴾ [الزمر: ٤] فأجاز التبني، بل فيه رائحة من كون جبريل تمثل لمريم بشراً سوياً، وقد وصف الحق تعالى نفسه بالتحوّل في الصور وأجرى أحكامها عليه وهو علم يومىء إليه لأجل الإيمان ولا يفشى في العموم لما يسبق إلى النفوس من ذلك، وبقي تعلق الاصطفاء بمن يتعلق هل بالصاحبة فيكون من باب التجلي في الصور فيكون عين الصورتين لأنه قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ [الأنبياء: ١٧] يعني الولد ﴿لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ [الأنبياء: ١٧] وما له ظهور إلا من الصاحبة التي هي الأمّ، فيكون الاصطفاء في حق الصاحبة وهي من لدنه فما خرج عن نفسه، كما أن آدم عليه السلام ما خرج عن نفسه في صاحبته، فما نكح إلا من هو جزء منه به وبالمجموع يكون نفسه فهو قوله: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ وجاء بحرف «لو» فدل على الامتناع فلم يكن من الوجهين، فإن كان الاصطفاء للبنوة فذلك التبني لا البنوة، وإن استندوا إلى غير خبر إلهيّ وأعني بالخبر الإلهيّ ما جاء على لسان الرسل في الكتب أو في الوحي، فإن كان استنادهم إلى كشف إلهي واطلاع في ذلك فهم تحت حكم ما اطلعوا، ولا عذر للمقلدة في ذلك لأن فيهم الأهلية للاطلاع بحكم النشأة فإن لها استعداداً عامّاً وهو الاستعداد للاطلاع، وإن تفاضل الاطلاع فذلك لاستعداد آخر خاص غير الاستعداد العام، فأهل الجبر إذا استمسكوا بالخبر سعدوا، وإن أخطؤوا في التأويل ولـم يصادفوا العلم فلهم ثواب الاجتهاد، وإن أصابوا فهو المقصود، فمنهم من هو على بينة من ربه بإصابته، ومنهم من ليس على بينة من ربه وهو مصيب في نفس الأمر وكل من له متمسك إلهي فهو ناج، وأما من كفر بالكل فذلك غاية العمى.

وصل في التحضيض الكوني: وهو سرّ جعله الله في عباده العامة والسالكين في هذا

الطريق، وأما الخاصة فلا يقع منهم ذلك أبداً لأنه ليس بنعت إلهيّ إلا أنه جاء من الله فيما يرجع إلى الكون لا فيما يرجع إليه سبحانه مثل قوله: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور: ١٣] وأما أداة لو فهي إلهية وتتضمن معنى التحضيض وقد اتصف بها خاصة الله فقال رسول الله ﷺ: «**لَو اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سُقْتُ الهَدْيَ وَلَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً وَلٰكِنِّي سُقْتُ الهَدْيَ فَلاَ يَحِلُّ مِنِّي حَرَامٌ حتى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ**» فرائحة التحضيض في «لو» هو ما يفهم منه كأنه قال لنفسه: هلا أحرمت بعمرة؟ ولا يقع التحضيض من الخواص أبداً إلا فيما شغلوا به نفوسهم من الأفعال التي ترضي الله، فيبدو لهم في ثاني زمان رضى الله في فعل ما هو أتم وأعلى من الأوّل، إما في جناب الله، أو في حق نفسه، أو في حق الغير، رفقاً بهم وشفقة عليهم، لا يقع منهم على جهة الاعتراض على الله بأن يقولوا: هلا فعل الله كذا عوضاً من فعله كذا، هذا لا يتصوّر من الخواص أبداً فإنه سوء أدب مع الله تعالى وترجيح تدبير كوني على تدبير إلهي، وما وصف الحق نفسه بأنه يدبر الأمر إلا أن يعرفنا أنه ما عمل شيئاً إلا ما تقتضيه حكمة الوجود، وأنه أنزله موضعه الذي لو لم ينزله فيه لم يوف الحكمة حقها وهو الذي أعطى كل شيء خلقه، ولذلك لا يمكن أن يظهر لعباده في صفة تحضيض بالنظر إليه فوضعه في اللسان بل في جميع الألسنة ابتلاء لعباده وتمحيصاً ليجتنبه أهل العناية فيتميزوا بذلك عن غيرهم.

واعلم أن الاختصاص الإلهي الذي يعطي السعادة غير الاختصاص الإلهي الذي يعطي كمال الصورة وقد يجتمعان ـ أعني الاختصاصين ـ في حق بعض الأشخاص، فالاختصاص الذي يعطي السعادة هو الاختصاص بالإيمان والعصمة من المخالفة أو بموت عقيب توبة، والاختصاص الذي يعطي كمال الصورة هو الذي لا يعطي إلا نفوذ الاقتدار والتحكم في العالم بالهمة والحس؛ والكامل من يرزق الاختصاصين، وأقوى التأثير تأثير من يغضب الله كقوم فرعون حيث قال تعالى فيهم: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] أي أغضبونا ولله سبحانه نفوذ الاقتدار فانتقم منهم ليجعلهم عبرة للآخرين، وجعل ذلك مقابلاً لنفوذ الاقتدار الكوني لأنه قال: ﴿ءَاسَفُونَا﴾ ألا ترى إلى علم فرعون في قوله: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٥] يقول: فلو وهو حرف تحضيض أعطي يعني موسى نفوذ الاقتدار فينا حتى لا ننازعه ونسمع له ونطيع لأن اليدين محل القدرة، والأسورة وهو شكل محيط من ذهب أكمل ما يتحلى به من المعادن، ونفوذ الاقتدار من الاختصاص الإلهي، يقول لقومه فما أعطي ذلك موسى، والذي يدلك على ما قلناه أن فرعون أراد هذا المعنى في هذا القول أنه جاء بـ«أو» بعده وهي حرف عطف بالمناسب فقال: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥] لعلمه بأن قومه يعلمون أن الملائكة لو جاءت لانقادوا إلى موسى طوعاً وكرهاً، يقول فرعون: فلم يكن لموسى عليه السلام نفوذ اقتدار في حتى أرجع إلى قوله من نفسي بأمر ضروري لا نقدر على دفعه فترجعوا إلى قوله لرجوعي ولا جاء معه من يقطع باقتدارهم ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ [الزخرف: ٥٥] أي لطف معناهم بالنظر فيما قاله لهم فلما جعل فيهم هذا

حملهم على تدقيق النظر في ذلك ولم يكن لهم هذه الحالة قبل ذلك؛ فأطاعوه ظاهراً بالقهر الظاهر لأنه في محل يخاف ويرجى، وباطناً بما نظروا فيه مما قاله لهم، فلما أخذ قلوبهم بالكلية إليه ولم يبق لله فيهم نصيب يعصمهم أغضبوا الله فغضب فانتقم فكان حكمهم في نفس الأمر خلاف حكم فرعون في نفسه، فإنه علم صدق موسى عليه السلام، وعلم حكم الله في ظاهره بما صدر منه، وحكم الله في باطنه بما كان يعتقده من صدق موسى فيما دعاهم إليه، وكان ظهور إيمانه المقرر في باطنه عند الله مخصوصاً بزمان مؤقت لا يكون إلا فيه وبحالة خاصة فظهر بالإيمان لما جاء زمانه وحاله فغرق قومه آية ونجا فرعون ببدنه دون قومه عند ظهور إيمانه آية، فمن رحمة الله بعباده أن قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ يعني دون قومك ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢] أي علامة لمن آمن بالله أن ينجيه الله ببدنه أي بظاهره، فإن باطنه لم يزل محفوظاً بالنجاة من الشرك لأن العلم أقوى الموانع، فسوّى الله في الغرق بينهم وتفرقاً في الحكم فجعلهم سلفاً ومثلاً للآخرين، يعني الأمم الذين يأتون من بعدهم، وخص فرعون بأن تكون نجاته آية لمن رجع إلى الله بالنجاة.

ولما كان الاختصاص الإلهي الكامل في الجمع بين السعادة والصورة كان الكمال للمؤمن بالخلافة في المكان الذي من شأنه أن يظهر فيه كمال الصورة من نفوذ الاقتدار عند الإغضاب وليست الجنة بمحل لهذه الصفة فليست بدار خلافة بل هي دار ولاية محكوم على صاحب تلك الولاية بأمر لا يتعدّاه ولا تعطي نشأته أن يقبل سواه حتى لو كان فيها تقديراً من شأنه أن يغضب ما قبل صاحب الولاية صفة الغضب لأنه على مزاج خاص بخلاف نشأة الدنيا ولهذا قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ولم يقل في العالم ولو لم تعترض الملائكة ما ابتليت بالسجود، فكان ما ابتلوا ما به عن إغضاب دقيق خفي لا يشعر به إلا الراسخون في العلم، وهكذا كل انتقام إلهي يقع بالعالم لا يكون إلا بعد إغضاب لأن الله خلق العالم بالرحمة وليس من شأنها الانتقام، كما أن الغضب من شأنه الانتقام، لكنه ـ أعني الغضب ـ على طبقات، فيظهر الانتقام على ميزانه من غير زيادة ولا نقصان، ولا يقع الانتقام أبداً إلا تطهيراً لمن كان منه الإغضاب، فلذلك لا يكون الانتقام إلى غير نهاية بل ينتهي الحكم به إلى أجل مسمى عند الله وتعقبه الرحمة به لأن لها الحكم الأبديّ الذي لا يتناهى، ومن جعل باله لما ذكرناه ودقق النظر فيه رأى علماً كبيراً إلهياً من سريان العدل في الحكم الإلهي وشمول الفضل وسبق الرحمة الغضب، وأن الحق يجري في حكمه بما هي الحقائق عليه، إذ الحقائق لا تتبدل لأنفسها ولا تتحول.

فهذا الذي ذكرناه في هذه المسألة من الآيات التي جاء بها الحق على لسان المترجم ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١] و﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢] ليست لغير هذا الصنف، فحافظ على تحصيل معرفة الإغضاب على غاية الاستقصاء حتى تجتنبه، فإنه من علم الأسرار ما يعرفه كل أحد، وهو كان علم حذيفة بن اليمان صاحب رسول الله ﷺ، ولهذا كان أصحاب رسول الله ﷺ يسمونه صاحب السر لعلمه بهذا العلم، وليس فيما يمنح الله أولياءه من العلم

به في حقهم أنفع من هذا العلم، وما رأيت أحداً له فيه ذوق، ولا سمعت عن أحد من أهل الله تعالى بعد حذيفة من ظهر عليه حكم هذا العلم وهو عصمة خفية تكاد لا يشعر صاحبها بها وما في الكشف أتم منه، ولا يرزق الله هذا العلم إلا للأدباء أهل المراقبة فإنهم يأخذون الأشياء بحكم المطابقة والمناسبة بين الرب والمربوب والخالق والمخلوق، ولا يحكم عليهم حاكم الإمكان والجواز لأنه ليس له في هذه الحضرة قدم ولا عين أعني الإمكان، وهذا مقام وراء طور العقل لأن العقل يحكم في مثل هذا بالإمكان والأمر في نفسه ليس كذلك ولكن إذا شهده قبله وإذا فكر فيه أدخله تحت الإمكان.

ويختص هذا المنزل من العلوم بعلم الإيهام والإبهام والرموز والألغاز والأسرار، وفيه علم الحروف المركبة التي هي الكلمة، وفيه علم الأنوار وما يختص به عالم الشهادة من الشهود، وفيه علم الجعل، وفيه علم الجمع والتفصيل، وفيه علم منازل العلو في الأسماء الإلهية وأحكامها، وفيه علم الإعجاز، وفيه علم التقرير، وفيه علم نتائج الجهل وهو أمر عدميّ فكيف يكون له حكم وجوديّ؟ وفيه علم مقابلة الاقتدار بالاقتدار، وفيه علم سريان وجود الحقّ في العالم ولهذا ما أنكره أحد وإنما وقع الغلط من طلب الماهية فأدّى إلى الاختلاف فيه الذي ظهر في العالم، وفيه علم ما يختص به الحق تعالى لنفسه من غير أن يكون له حكم في العالم، وفيه علم الشرائع كلها وأنها بالجعل ولهذا تجري إلى أمد وغايتها حكم الحق بها في القيامة في الفريقين فإذا عمرت الداران وانقضى أمد العقوبة انتشر حكم الرحمة، وفيه علم الشفع والوتر، وتقدم علم الزوج على الفرد، وعلم الحامل والمحمول، وعلم شمول النعم في البلايا والرزايا والأمور المؤلمة، وفيه علم نفي الطاقة الكونية وردّها إلى الله، وفيه علم قسمة العالم بين الله وبين العالم وما هو عالم لله وعالم للعالم وصفة من يعلم هذا ممن لا يعلمه والعالم به هل يجب عليه ستره أو يعطي ستره لذاته؟ وعلم المحاكمات وتفاضل الناس فيها، وعلم المطالبات الإلهية متى تكون ولماذا تؤول، وعلم السبب الذي يرد الخلق كلهم إلى المشيئة الإلهية وهل هو رجوع عن علم أو رجوع عن قهر؟ وعلم الفرق بين علم التقليد وعلم النظر وهل ما يربط عليه المقلد يكون في حقه علماً أم لا؟ وعلم حكم السابقة على العالم بنقيض ما يعطيه علمهم، وعلم العواقب على الإطلاق وهل يعم أثرها في الحال للعالم بها أم لا؟ وعلم الفترات وما حكم أصحابها، وعلم الأشراف وما هو وهل في العالم شريف وأشرف أم لا مفاضلة في العالم؟ وإذا وقعت المفاضلة بل هي واقعة هل يؤول الناظر فيها إلى التساوي فيكون كل مفضول يفضل على من فضل عليه؟ وهذا مذهب جماعة منهم أبو القاسم بن قسيّ صاحب خلع النعلين، وفيه علم الحكمة بما جعل الله في العالم من الاختلاف، وفيه علم السبب الذي لأجله لزم الشيطان الإنسان وقول النبي ﷺ: «إنَّ الله أَعانَهُ عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ» وفيه علم حكم من التبس عليه الباطل بالحق، وفيه علم الكشف فإنه ليس لمخلوق اقتدار على شيء وأن الكل بيد الله وهو علم الحيرة من أجل التكليف ووقوعه على من ليس له من الأمر شيء، وفيه علم أثر الأسباب الإلهية في المسببات هل هو

ذاتي أو جعل إلهي؟ وفيه علم الاغتباط بما يعطيه التجلي الإلهي والاعتصام به، وفيه علم التوحيد النبوي، وفيه علم الحجب التي تمنع من حكم العلم في العالم مع وجود علمه عنده، وفيه علم قبول الرجعة إلى الله عند رؤية البأس وحلول العذاب وأن ذلك نافع لهم في الآخرة وإن لم يكشف عنهم العذاب في الدنيا، وما اختص قوم يونس إلا بالكشف عنهم في الحياة الدنيا عند رجعتهم فيكون معنى قوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] يعني في الدنيا فإن الله يقول: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨] فالراجع مع نزول العذاب به مقبول رجوعه لأنه أتى بما ترجى منه بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. وفيه علم أسرار الحق في العالم وظهور العالم بصورة الحق ومنزلته، وفيه علم عموم الولاية في كل نوع وما ينقضي منها وما لا ينقضي، وفيه علم الإضافات الإلهية هل هي على طريق التشريف أو على طريق الابتلاء، أو منها ما يكون تشريفاً ومنها ما يكون ابتلاء؟ وفيه علم مرتبة من جمع بين الظاهر والباطن ممن لم يجمع، وفيه علم حكمة الاستناد إلى الوسائط هل هو على طريق الابتلاء أو المقصود به تشريف الوسائط؟ وفيه علم إقامة الحجة الإلهية على المنازعين وحكم من لم ينازع واعترف بالحق لأهله، وفيه علم الإحاطة الإلهية بالذات، وفيه علم الزيادات هل هي بأن يؤخذ من زيد ما عنده أو بعض ما عنده فيعطي عمراً أو هي زيادات بإيجاد معدوم؟ أو هل منها ما هو إيجاد معدوم ومنها ما هو عن انتقال من شخص إلى شخص؟ وفيه علم ما يختص به الله من العلوم، وعلم ما يختص به الكون من العلوم مما لا يجوز في العقل أن يكون ذلك حكماً لله وهل حكمه في الشرع كما هو حكمه في العقل أم لا؟ وهو علم الأذواق بالحواس، وفيه علم مراتب الشفعاء وعلم صفتهم التي بها يملكون الشفاعة، فهذا بعض علوم هذا المنزل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى السفر الثاني والعشرون.

[السفر الثالث والعشرون]

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثاني والأربعون وثلاثمائة

في معرفة منزل سرين منفصلين عن ثلاثة أسرار يجمعها حضرة واحدة من حضرات الوحي وهو من الحضرة الموسوية

[الطويل]:

ثلاثةُ أسْرارٍ وسِرَّانِ بعدها ... مريدٌ وعلاَّمٌ وقدرةُ قادِرِ
وسِرَّانِ قول شرطه في حياة من ... يقول لشيء كُنْ بحكمة فاطرِ
فسبحان من لا شيءَ يدرك كُنْهَهُ ... هو الأوّل المنعوتُ أيضاً بآخِرِ

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فنفى ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فأثبت والآية تقتضي عموم الإثبات في عين النفي وفيما بعده إذا جعلت الكاف للصفة،

ويؤيد هذا النظر الخبر وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ» ونفى مماثلته في حال اتصافه بهذا الوصف فورد الشرع بأنه إذا بويع لخليفتين سواء كان في خلافته عام الخلافة أو مقصوراً على طائفة مخصوصة يقتل الآخر منهما فلا تماثل في تلك الطائفة أو في العموم بحسب ما يعطيه الوقت، فلولا حكم الإرادة وجوداً وتقديراً لما أمر بقتل الآخر والقتل زوال من صفة الحكم فزل أنت يبقى هو فإنك الآخر، فإن قال بعض العارفين: فالأوّل هنا ليس بخليفة، قلنا: هو خليفة حقاً عن أمر إلهي ونهى عن المشاركة فيما أمر به من خلافته عنك فقال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] والوكيل بلا شك خليفة الموكل فيما وكله فيه وقال: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢] فنهى أن نتخذ وكيلاً غيره فكونه إلهاً ما هو كونه وكيلاً، ونحن إنما تكلمنا في الوكالة وهي الخلافة وفي الوكيل وهو الخليفة، كما ينظر باعتبار آخر قوله لنا: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] فلنا الإنفاق بحكم الخلافة والإنفاق ملك لنا والإنفاق تصرّف فجعلناه عن أمره وكيلاً عنا في الإنفاق أي خليفة لعلمنا بأنه يعلم من مواضع التصرف ما لا نعلمه فهو المالك وهو الخليفة، فما ميز الله المراتب وأبانها لنا وظهر بأسمائه في أعيانها وتجلى لنا فيها إلا لننزله في كل مرتبة رأيناه نزل فيها، فنحكم عليه بما حكم به على نفسه، وهذا هو أتم العلم بالله أن نعلمه به لا بنظرنا ولا بإنزالنا، تعالى الله الخالق أن نحكم عليه بما خلق دون أن يظهر له فيما حكم به عليه فيكون هو الحاكم على نفسه لا أنا، وهذا معنى قول العلماء: إن الحق لا يسمى إلا بما سمى به نفسه إما في كتابه أو على لسان رسوله من كونه مترجماً عنه. فمن أقامه الله في مقام الترجمة عنه بارتفاع الوسائط أو بواسطة الأرواح النورية وجاء باسم سماه به فلنا أن نسميه بذلك الاسم، وسواء كان المترجم مشرّعاً لنا أو غير مشرّع لا يشترط في ذلك إلا الترجمة عنه حتى لا نحكم عليه إلا به فإنه القائل تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] تميزون به وتفرقون بين ما ينبغي له وما ينبغي لكم فيعطي كل ذي حق حقه فله المقاليد وله الفتح بها ودونها ولنا الفتح بها وما هي لنا بل هي بيده وما كان بيده فليس يخرج عنه لأنه ما ثَمَّ إلى أين فهو المعطي والآخذ لأن الصدقة تقع بيد الرحمن.

واعلم أن الوحي الإلهي إنما ينزل من مقام العزة الأحمى ولهذا لا يكون بالاكتساب لأنه لا يوصل إلى ذلك المقام بالتعمل، ولو وصل إليه بالتعمل لم يتصف بالعزة فينزل الوحي لترتيب الأمور التي تقتضيها حكمة الوجود، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً يخالف ترتيب حكمة الوجود وليس إلا من الله، فهو في غاية الإحكام والإتقان الذي لا يمكن غيره، فليس في الإمكان أبدع من هذا العالم لأنه أعطاه خلقه وأنزله في منزلته التي يستحقها، فانظر هذا القوّة الإلهية التي أعطاها الله لمن أنزل عليه الوحي الذي لو أنزل: ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] فإنهم علموا قدر من أنزله، فرزقهم الله من القوّة ما يطيقون به حمل ذلك الجلال، فإذا سمعوا في الله ما يخالف ما تجلى لهم فيه ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١] وقد

سمع ذلك أهل الله ورسله وما جرى عليهم شيء من ذلك لما أعطاهم من قوّة العلم إذ لا أقوى من العلم فتجلى لهم في قوله: ﴿لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [الزمر: ٤] و﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ [الأنبياء: ١٧] فعلم أهل الله من رسول ونبيّ وولي ما لم تعلمه السموات والأرض والجبال من الله فأنتج لهم هذا العلم بالله قوّة في نفوسهم حملوا بها ما سمعوه من قول من قال: إن المسيح ابن الله وإنّ عُزيراً ابنُ الله ولم يتزلزلوا ولو نزل ذلك على من ليست له هذه القوّة لذاب في عينه لعظيم ما جاءه، فانظر ما أكثف حجاب من اعتقد أن لله ولداً وما أشد عماه عن الحقائق، ومامرّ عليّ في التجلي الإلهي أمر حيرني وأضعف قوّتي أشد من قول الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧] والله يقول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١] وأي إحسان أعظم ممن ثاب واتبع سبيله وقول نوح وهو من الكمل من أهل الله: ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ [نوح: ٢٨] فهذا كأنه أبقى شيئاً فإنه ما طلب المغفرة إلا للمؤمن، ولم يذكر اتباع سبيل الله لأن المؤمن قد يكون مخالف أمر الله ونهيه والله يقول للمسرفين على أنفسهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] فهذا الصنف من الملائكة قاموا في مقام الأدب فحكم عليهم بهذا القول إيثاراً للجناب الإلهيّ على الخلق ولهذا قدّموا وأخروا، وما أخبر الله عنهم في قوله قبل هذا الدعاء: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] ففيه روائح طلب المغفرة للمسيئين، وأخروا أيضاً قولهم: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أن تقوم بهم فإنه أتم في العناية: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم تقيه ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ [غافر: ٩] فجاء ما ذكروه في الوسط بين هذين كأنه إيثار للجناب الإلهيّ، كما يقول النبي ﷺ في القيامة: «**سُحْقاً سُحْقاً**» وما علق الله المغفرة إلا بالذنب حيث علقها وقال عن صنف آخر من الملائكة إنهم ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] فأنزل هؤلاء المغفرة موضعها ما قالوا مثل ما قال ذلك الصنف الآخر الذي حكى الله عنهم أنهم ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] فتنوّعت مشاربهم كما قالوا: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] والوليّ الكامل يدعو الله بكل مقام ولسان والرسل تقف عندما أوحى به إليها وهم كثيرون وقد يوحى إلى بعضهم ما لا يوحى إلى غيره، والمحمديّ يجمع بمرتبته جميع ما تفرّق في الرسل من الدعاء به فهو مطلق الدعاء بكل لسان لأنه مأمور بالإيمان بالرسل وبما أنزل إليهم، فما وقف الوليّ المحمدي مع وحي خاص إلا في الحكم بالحلال والحرمة، وأما في الدعاء وما سكت عنه ولم ينزل فيه شيء في شرع محمد ﷺ يؤذن بتركه فلا يتركه إذا نزل به وحي على نبي من الأنبياء عليهم السلام رسولاً كان أو غير رسول.

ثم اعلم أنه من رحمة الله بعباده أن جعل حكم ما اختلفوا فيه إلى الله، فنأخذ هذا من جهة علم الرسوم أن ننظر ما اختلفوا فيه وتنازعوا فإن كان لله أو لرسوله حكم فيه يعضد قول أحد المخالفين جعلنا الحق بيده فإنا أمرنا إن تنازعنا في شيء أن نردّه إلى الله ورسوله إن كنا مؤمنين، فإن كنا عالمين ممن يدعو على بصيرة وعلى بينة من ربنا فنحكم في المسألة بالعلم

وهو ردّ إلى الله تعالى من غير طريق الإيمان وليس لنا العدول عنه البتة.

هذا حد علم الرسم، وأما علم الحقيقة فإن المختلفين حكمهم إلى الله أي حكم ظهور الاختلاف فيهم إلى الله من حيث إن الأسماء الإلهية هي سبب الاختلاف ولا سيما أسماء التقابل، يؤيد ذلك قوله في مثل هذا ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ [الشورى: ١٠] لأنه ليس غير أسمائه فإنه القائل: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] ولم يقل بالله ولا بالرحمن فجعل الاسم عين المسمى هنا كما جعله في موضع آخر غير المسمى، فلما قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ والإشارة بذا إلى الله المذكور في قوله: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] فلو لم يكن هنا الاسم عين المسمى في قوله الله لم يصح قوله ربي والخلاف ظهر في الأسماء الإلهية فظهر حكم الله في العالم به فيحكم على الخلاف الواقع في العالم بأنه عين حكم الله ظهر في صورة المخالفين.

وصل في الأجور: وهي الحقوق التي تطلبها الأعمال مخصوصة وهي حكم سار في القديم والمحدث، فكل من عمل عملاً لغيره استحق عليه أجراً، والأجور على قسمين معنوية وحسية فإذا استأجر أحد أحداً على عمل ما من الأعمال فعمله فقد استوجب به العامل حقاً على المعمول له وهو المسمى أجراً، ووجب على المعمول له أداء ذلك الحق وإيصاله إليه، والمؤجر مخير في استعمال الأجير في الظاهر مضطر في الباطن، والأجير مخير في قبول الاستعمال في بعض الأعمال مقهور في بعض الأعمال، وحكم الخيار ما زال عنه لأن له أن لا يقبل إن شاء وأن يقبل إن شاء، فهو مخير في الظاهر مضطر في الباطن كالمؤجر له سواء، فأوّل أجير ظهر في الوجود عن افتقار الممكن إلى الإيجاد وهو عمل الوجود في الممكن حتى يظهر عينه من واجب الوجود هو واجب الوجود فقال: الممكن للواجب في حال عدمه أريد أن أستعملك في ظهور عبني، فالإيجاد هو العمل والوجود هو المعمول والموجود هو الذي ظهر فيه صورة العمل، فكل معمول معدوم قبل عمله فقال له الحق: فلي عليك حق إن أنا فعلت لك ذلك وأظهرتك وهذا الحق هو المسمى أجراً، والذي طلب المؤجر من المؤجر يسمى إجارة، والمؤجر مخير في نفسه ابتداء في تعيين الأجر، فإن شاء عين له ما يعطيه على ذلك العمل، وإن شاء جعل التعيين للمؤجر، والمؤجر مخير في قبول ما عينه المؤجر إن كان عين له شيئاً أورده، وإن تبرع المؤجر بالعمل من نفسه وقال: لا آخذ على ذلك أجراً فله ذلك ولكن لا يزول حكم القيمة من ذلك العمل لأن العمل بذاته هو الذي يعين الأجر بقيمته، فإن شاء العامل أخذه وإن شاء تركه، ولا يسقط حكم العمل إن أجره كذا، وهذه مسألة عجيبة تدور بين اختيار واضطرار في المؤجِّر والمؤجَّر، وكل واحد مجبور في اختياره، غير أن الحق لا يوصف بالجبر والممكن يوصف بالجبر مع علمنا أنه ما يبدل القول لديه ولا يخرج عن عمل ما سبق في علمه أن يعمله، وعن ترك ما سبق في علمه أن يتركه، وليس الجبر سوى هذا، غير أن هنا عين الذي يجبره هو عين المجبور إذ ما جبره إلا علمه، وعلمه صفته وصفته ذاته، والجبر في الممكن أن يجبره غيره لا عينه، ولو رام خلاف ما جبر عليه لم يستطع فهو

مجبور عن قهر مخير بالنظر إلى ذاته، وفي الأوّل جبر بالنظر إلى ذاته مخير بالنظر إلى العمل من حيث المعمول له، فاتفق الممكن مع الواجب الوجود أنه إن عمل فيه الإيجاد وظهرت عينه أنه يستحق عليه أي على الممكن في ذلك أن يعبده ولا يشرك به شيئاً وأن يشكره على ما فعل معه من إعطائه الوجود بالثناء عليه بالتسبيح بحمده فقبل الممكن ذلك فأوجده الحق سبحانه، فلما أوجده طلب منه ما استحق عليه من الأجر في ذلك ولم يجعل نفسه في إيجاده متبرعاً فقال له: اعبدني وسبح بحمدي، فسبحه وعبده جميع ما أوجده من الممكنات ووفاه أجره ما عدا بعض الناس فلم يوفه أجر ما أوجده له فتعينت عليه مطالبة العامل، وتعين على الحكم العدل أن يحكم على المعمول له بأداء الأجر الذي وقع الاتفاق عليه وسرى حكم هذه الإجارة في جميع الممكنات لأن الأعمال تطلبها بذاتها، ولهذا إذا تبرع العامل وترك الأجر لا يزيل ذلك قيمة ذلك العمل فيقال: قيمة هذا العمل كذا وكذا، سواء أخذ العامل أجره أو لم يأخذه، وسواء قدره ابتداء أو لم يقدره، فإن صورة العمل تحفظ قيمة الأجر، وقد أخبر الله عن نفسه أنه داخل تحت حكم هذه الحقوق، وكيف لا يكون ذلك وهو الحكيم مرتب الأشياء مراتبها، فمنها ما لم نعرفه حتى عرفنا به مثل قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] فالنصر أجر الإيمان لذاته ولكن يقتضيه المؤمن وهو الذي صفته الإيمان وهو سبحانه وفيّ فلا بدّ من نصر الإيمان ولا يظهر ذلك إلا في المؤمن والمؤمن لا يتبعض فيه الإيمان فاعلم ذلك، وكل من تبعض فيه الإيمان لأجل تعداد الأمور التي يؤمن بها فآمن المؤمن ببعضها وكفر ببعضها فليس بمؤمن، فما خذل إلا من ليس بمؤمن فإن الإيمان حكمه أن يعم ولا يخص، فلما لم يكن له وجود عين في الشخص لم يجب نصره على الله، فإذا ظهر الكافر على المؤمن في صورة الحكم الظاهر فليس ذلك بنصر للكافر عليه، وإنما الذي يقابله لما ولّى وأخلى له موضعه ظهر فيه الكافر وهذا ليس بنصر إلا مع وقوف الخصم فيغلبه بالحجة.

ومما أوجب الحق من ذلك على نفسه أيضاً أعني من الأجر الرحمة فجعلها أجراً على نفسه واجباً لمن تاب من بعد ما عمل من السوء وأصلح عمله، وقد يتبرّع متبرع بأجر يتحمله لعامل عمل لغيره عملاً لم يعمله لهذا المتبرع، مثل قوله في المظلوم إذا عفا عمن ظلمه ولم يؤاخذه بما استحق عليه وأصلح: ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠] وكان ينبغي أن يكون أجره على من تركت مطالبته بجناياته، فتحمل الله ذلك الأجر عنه إبقاء على المسيء ورحمة به، فلا يبقى للمظلوم عليه حق يطالبه به، ولما كان العمل يطلب الأجر بذاته ويعود ذلك على العامل وأداء الرسائل عمل من المؤدي لأن المرسل استعمله في أداء رسالته لمن أرسله إليه فوجب أجره عليه لأن المرسل إليه ما استعمله حتى يجب عليه أجره ولهذا قالت الرسل لأممها عن أمر الله تعريفاً للأمم بما هو الأمر عليه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩] فذكروا استحقاق الأجر على من يستعملهم، ولم يقولوا ذلك إلا عن أمره فإنه قال لكل رسول: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧] واختص محمد ﷺ بفضيلة لم ينلها غيره عاد فضلها على أمته ورجع حكمه ﷺ إلى حكم الرسل قبله في إبقاء أجره على الله، فأمره

الحق أن يأخذ أجره الذي له على رسالته من أمته وهو أن يودوا قرابته فقال له: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ أي على تبليغ ما جئت به إليكم ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣] فتعين على أمته أداء ما أوجب الله عليهم من أجر التبليغ، فوجب عليهم حب قرابته ﷺ وأهل بيته وجعله باسم المودة وهي الثبوت في المحبة، فلما جعل له ذلك ولم يقل أنه ليس له أجر على الله ولا أنه بقي له أجر على الله وذلك ليجدد له النعم بتعريفه ما يسر به فقيل له بعد هذا قل لأمتك آمراً ما قاله رسول لأمته: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ [سبأ: ٤٧] فما أسقط الأجر عن أمته في مودتهم للقربى، وإنما رد ذلك الأجر بعد تعينه عليهم فعاد ذلك الأجر عليهم الذي كان يستحقه رسول الله ﷺ فيعود فضل المودة على أهل المودة، فما يدري أحد ما لأهل المودة في قرابة رسول الله ﷺ من الأجر إلا الله ولكن أهل القربى منهم، ولهذا جاء بالقربى ولم يجيء بالقرابة، فإنه لا فرق بين عقيل في القرابة النَّسَبية وبين عليّ فإنهما ابنا عم رسول الله ﷺ في النسب، فعلي جمع بين القربى والقرابة، فوددنا من قرابته ﷺ القربى منهم وهم المؤمنون، ولذلك فرق عمر رضي الله عنه بين من هو أقرب قرابة وأقرب قربى وهو عربي نزل القرآن بلسانه، فلولا ما في ذلك فرقان في لسانهم واصطلاحهم ما فرق عمر بين القربى والقرابة، وانظر ذلك في القرآن في المغانم في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١] وليسوا إلا المؤمنين من القرابة، فجاء بلفظ القربى دون لفظ القرابة، فإن القرابة إذا لم يكن لهم قربى الإيمان لا حظ لهم في ذلك ولا في الميراث وهو قول النبي ﷺ يوم دخل مكة: «**مَا تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ دَارٍ**» لأنه الذي ورث أباه دون علي لإيمان علي وكفر عقيل، وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ [المجادلة: ٢٢] فلو كان المودة في القربى التي سألها رسول الله ﷺ منا يريد به القرابة ما نفاها الحق عنها في قوله: ﴿يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ولو كانوا قرابتهم، فعلمنا أن المودة في القربى أنها من أهل الإيمان منهم وهم الأقربون إلى الله، فتميز ﷺ عن سائر الرسل عليهم السلام بما أعطى الله لأمته في مودتهم في القربى، وتميزت أمته على سائر الأمم بما لها من الفضل في ذلك، لأن الفضل الزيادة وبالزيادة كانت خير أمة أُخرجت للناس أمة محمد ﷺ وإن كانت كل أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ويؤمنون بالله فخصت هذه الأمة بأمور لم يخص بها أمة من الأمم، ولها أجور على ما خصصت به من الأعمال مما لم يستعمل فيها غيرهم من الأمم، فتميزوا بذلك يوم القيامة وظهر فضلهم، فالأجور مترددة بين الحق والخلق للحق أجر على خلقه لأعمال عملها لهم وللخلق أجر على الله لأعمال عملوها له ولأعمال عملوها للخلق رعاية للحق، كالعفو من العافين عن الناس وللخلق أجر على الخلق بتشريع الحق وحكمه في ذلك.

والذي يؤول إليه الأمر في هذه المسألة أن الأجور تتردد ما بين الحق والحق ليس للخلق في ذلك دخول إلا أنهم طريق لظهور هذه الأجور لولا وجد الخلق في ذلك لم يظهر

للإجارة حكم ولا للأجر عين، ولذلك كان الأجر جزاء وفاقاً لأن المؤجر حق والمؤجر حق إذ لا عامل إلا خالق العمل وهو الحق والخلق عمل وفيه ظهور العمل فلذلك زاحم وأدخل نفسه في ذلك وأقره الحق على هذه المزاحمة وقبلها، فمن الخلق من علم ذلك ومنهم من جهله.

وهذا المنزل يتسع المجال فيه ولا سيما لو أخذنا في تعيين الأجور وأصحابها، فلنذكر ما يتضمن هذا المنزل من العلوم:

فمن ذلك: علم أجور الخلق دون الحق وفيه علم الاتصال بمن والانفصال عمن والانفصال والاتصال فيمن وهو علم غريب يتضمن الوجود كله وغير الوجود، فإن الوجود المقيد قد انفصل عن حال العدم واتصل بحال الوجود انفصال ترجيح واتصال ترجيح، وأما الوجود المطلق فانفصاله عن العدم انفصال ذاتي غير مرجح، فمن علم هذا العلم علم أين كان وممن انفصل وبمن اتصل. وفيه علم التشبيه في المعاني بالمناسبات، وفيه علم الترتيب في التوقيت وبه يتعلق علم القضاء والقدر، وفيه علم الملك والتمليك وهل حكم التمليك إذا وقع حكم الملك الأصلي أو يختلف حكمهما؟ وفيه علم ما تميز به عالم الأركان من عالم الأفلاك الأخرى ولماذا قبل الاستحالة عالم الأركان فذهبت أعيان صوره كما تذهب صور أركانه باستحالة بعضها إلى بعض بالسخافة والكثافة وعالم الأفلاك ليس كذلك وإنما استحالتهم ظهورهم في الصور التي يظهرون فيها لعالم الأركان، ولما كانت هذه الاستحالة في الصور الطبيعية التي ظهرت من دون الطبيعة ولم تظهر في العالم الذي فوق الطبيعة وظهرت في التجلي الإلهيّ وظهر حكمه بالاستحالة العنصرية في أعيان صوره وفي صوره بل لا في صوره وهل يرجع هذا كله لتغير الأمر في نفسه أو يكون ذلك في نظر الناظر؟ وفيه علم المتقابلات هل يفتقر العلم به إلى العلم بمقابله أو ينفرد كل واحد في العلم بنفسه دون العلم بالمقابل من غير توقف عليه؟ وهذا لا يكون إلا عند من لا يرى أن العين واحدة. وفيه علم أثر الطبيعة في الملأ الأعلى ومكانه، وفيه علم أحوال الملأ الأعلى، وفيه علم اجتماع الموحدين والمشركين في الحفظ الإلهيّ وهل ذلك من باب الاعتناء بالخلق وإن جهلوا أو هو من باب إعطاء الحقائق في أن لا يكون الأمر إلا هكذا إلا أنه من باب العناية وهو عندنا من باب العناية بالإعلام الإلهي بذلك بطريق الإيماء لا بالتصريح لأن هذا من علم الأسرار التي لا تفشى في العموم ولكن لها أهل ينبغي للعالم بذلك أن يبديه لأهله فإنه إذا لم يعطه لأهله فقد ظلم الجانبين العلم ومن هو أهل له، وفيه علم مراتب الأدوات العاملة والظاهرة أحكامها في العبارات وهو علم الحروف التي جاءت لمعنى فمنها مركب وغير مركب، وفيه علم تقسيم الظالمين من ينصر منهم ممن لا ينصر، ولماذا يرجع الظلم في وجوده هل وجوده من الظلمة أو من النور؟ وفيه علم كون الحق عين الأشياء ولا يعرف، وفيه علم الفرق بين الحياة والأحياء وإذا وقع الأحياء بماذا يقع هل بالحياة القديمة أو ثم حياة حادثة تظهر بالأحياء في الأحياء؟ وفيه علم الرجوع ممن وإلى من والاعتماد فيماذا وعلى من؟ وفيه علم فيماذا خلق الله الخلق هل خلقه

في شيء أو خلقه لا في شيء فيكون عين المخلوقات عين شيئياتها، وفيه علم اشتراك الحق والخلق في الوجود وجميع ما اشتركوا فيه هل هو اشتراك معقول أو مقول لا غير؟ وفيه علم النواميس الموضوعة في العالم هل تضمها حضرة واحدة جامعة أو لكل ناموس حضرة أو يجمعها حضرتان لا غير؟ فينسب الناموس الواحد إلى الحكمة والناموس الآخر إلى الحكم الإلهيّ النبويّ وإن كثرت أنواعها. وفيه علم الاختصاص الإلهي لبعض المخلوقات بماذا وقع هل بالعناية أو بالاستحقاق وهو علم منع أهل الله عن كشفه في العموم والخصوص لأنه علم ذوق لا ينال بالقياس ولا بضرب المثل؟ وفيه علم كلمة الوصل والفصل هل هي كلمة واحدة أو كلمتان؟ وفيه علم تفاضل أهل الكتب هل هو راجع لفضل الكتب أم لا؟ وهل للكتب المنزلة فضل بعضها على بعض أم لا فضل فيها؟ فإن الله جعل في نفس القرآن التفاضل بين السور والآيات، فجعل سورة تعدل القرآن كله عشر مرات، وأخرى تقوم مقام نصفه في الحكم، وأخرى على الثلث، وأخرى على الربع، وآية لها السيادة على الآيات، وأخرى لها من آي القرآن ما للقلب من نشأة الإنسان وللقرآن تميز بالإعجاز على غيره من الكتب. وفيه علم المواخاة بين سور القرآن ولهذا قال عليه السلام: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا**» فجعل بينهنّ أخوة، وفيه علم تقرير كل ملة على ما هي عليه وكل ذي نحلة على نحلته وما يلزمه من توفية حقها، وفيه علم من فارق الجماعة ما حكمه، وفيه علم المواخاة بين الكتب المنزلة من عند الله والموازين الإلهية الموضوعة في العالم على اختلاف صورها المعنوية والمحسوسة فالمعنوية كالبراهين الوجودية والجدلية والخطابية والموازين المحسوسة مشهود بالحس اختلافها، وفيه علم مواطن العجلة من مواطن التثبط، وفيه علم قوّة اللطيف وضعف الكثيف وأن القوّة للمتصرف والضعف للمتصرف فيه، وفيه علم ما يقتضي الزيادة مما يقتضي النقص وما بينهما من الفضل، وفيه علم تأخير حكم الحاكم عن إيقاعه في المحكوم عليه لشبهة تمنعه من ذلك حتى يستيقن أو يغلب على ظنه فيما لا يوصل إلى اليقين فيه، فإن الكافر في الدنيا يمكن أن يرجع مؤمناً عند الموت فإن عجل فيه الحكم قبل الموت بالكفر فما أعطى الحاكم حكم الشبهة حقها في موطنها، وفيه علم ما يقبل الزيادة من الأعمال مما لا يقبلها ولا يقبل النقص وهي في الشرائع: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [القصص: ٨٤] وهو عشر أمثالها ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وفيه علم نفوذ الكلمة هل هو لذاتها أم لا؟ وأنها من الكلم وهو الجرح وهو أثر من الجارح في المجروح، وكذلك كل كلمة لها أثر في السامع أدناه سماعه صورة ما نطق به وتكلم إلى ما فوق ذلك مما يحمله ذلك الكلام من المعاني، وفيه علم أصل البغي في العالم وهل هو مشتق من بغى يبغي إذا طلب فيكون البغي لما ذمه الله طلباً مقيداً إذا كان الطلب منه ما هو مذموم ومنه ما هو محمود وما دواء ذلك البغي؟ وفيه علم الطيّ والنشر لحكم الوقت، وفيه علم الدلالات والآيات هل ذلك أي كونها دلالات وآيات لأنفسها أو هي بالوضع؟ وفيه علم حدوث المشيئة لماذا يرجع والحق لا تقوم به الحوادث، وفيه علم النوازل هل تنزل ابتداء أو تنزل جزاء، وفيه علم السكون والحركة وعلم المواطن

التي ينبغي أن يظهر فيها حكم السكون وحكم الحركة، وفيه علم ما يعطي الله عباده في الدنيا من علوم ومراتب وغير ذلك هل هو من الدنيا أو هو من الآخرة؟ وفيه علم الاستجابة لأوامر الله إذا قامت صورتها ظاهرة هل تنفع بصورتها وأين تنفع؟ أو هل لا تنفع إلا حتى ينفخ في تلك الصورة روح تحيا به وهو صورة الباطن، ويتعلق بهذا العلم علم الصور مطلقاً هل لها ظاهر وباطن أو منها ما هي ظاهرة لا باطن لها؟ وفيه علم ما الباعث للحيوان كله على طلب الانتصار لنفسه هل هو دفع للأذى أو هو جزاء أو طلب انتقام أو بعضه لهذا وبعضه لهذا؟ وفيه علم التحسين والتقبيح هل ذلك راجع لذات الحسن والقبح أو لأمر عارض؟ وفيه علم ما يحب ويكره من النعوت، وفيه علم ما يرفع الحرج ممن ظهر منه ما يكرهه الطبع، وفيه علم الأسباب التي تمنع ما يطلب الطبع ظهوره، وفيه علم ما لا يدرك إلا بالنظر الدقيق الخفي، وفيه علم الإقامة والانتقال في الأحوال هل الأحوال تنتقل والعبد ثابت أو العبد منتقل في الأحوال والأحوال ثابتة؟ وهو من العلوم الغريبة الموقوفة على الكشف، وفيه علم ما ينكر من الحق مما لا ينكر، وعلم ما يقره الحق من الباطل مما لا يقره، وما الباطل الذي يقبل الزوال من الباطل الذي لا يقبله، وفيه علم الإنتاج وغير الإنتاج مع وجود المقدمات ومتى تنتج المقدمات، وفيه علم حجاب ظاهر النشأة وما مسمى البشر منها وهل لباطنها مباشرة كما لظاهرها أم لا؟ وفيه علم ما الحجاب الذي بين الله وبين عبده، وفيه علم الكلام المحدث والقديم لماذا يرجع هل يختلف أو حكم ذلك واحد؟ وفيه علم الأنوار ومراتبها وسبحات الوجه ولماذا تعددت والوجه واحد والسبحات كثيرة، وفيه علم التمييز بين السبل الإلهية، وفيه علم المبدأ والمعاد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والأربعون وثلاثمائة

في معرفة منزل سرين في تفصيل الوحي من حضرة حمد الملك كله

[المتقارب]:

لـقـد فَـصَّـلَ الله آيـاتِـهِ لـكـل لَـبـيـبٍ بـعـيـد الـمَـدَى
وأحْـكَـمَـهَـا لـقُـلُـوب زَكَـتْ ولـم تَـتَّـبِـعْ غَـيْـرَ سُـبُـل الـهُـدَى
ونـطـق مـن لـم يـزل نـاطـقـاً لأسـمـاعـنـا نـاشـداً مُـنْـشِـدَا
فـحَـيَّـرَ ألـبـابَـنـا نُـطْـقُـهُ وجـاء بـنُـور الـهُـدَى فـاهْـتَـدَى
بـصـيـرٌ بـأنـواره ظـاهـرٌ لـه الـمـنـتـهـى ولـه الـمُـبْـتَـدَى

اعلم أيدك الله أن الاسمين الإلهيين «المدبر» و«المفصل» هما رأسا هذا المنزل اللذان يهبان للداخل فيه جميع ما يحمله وما يتضمنه من العلوم الإلهية مما يطلب الأكوان ومما يتعلق بالله، وحكم المدبر في الأمور أحكامها في حضرة الجمع والشهود وإعطاؤها ما تستحقه، وهذا كله قبل وجودها في أعيانها وهي موجودة له، فإذا أحكمها كما ذكرناه أخذها المفصل وهذا الاسم مخصوص بالمراتب، فأنزل كل كون وأمر في مرتبته ومنزلته كأمير المجلس عند

السلطان. ثم إن المدبر لما خلق الله رحمتين وهما أوّل خلق خلقه الله الرحمة الواحدة بسيطة وخلق الرحمة الأخرى مركبة فرحم بالبسيطة جميع ما خلق الله من البسائط ورحم بالمركبة جميع ما خلق الله من المركبات وجعل للرحمة المركبة ثلاثة منازل لأن المركب ذو طرفين وواسطة، والواسطة عين البرزخ الذي بين الطرفين حتى يتميزا فيرحم كل مرحوم من المركب بالرحمة المركبة من هذه المنازل، فبالرحمة الأولى المركبة ضم أجزاء الأجسام بعضها إلى بعض حتى ظهرت أعيانها صوراً قائمة، وبالرحمة الثانية المركبة من المنزل الثاني ركب المعاني والصفات والأخلاق والعلوم في النفس الناطقة والنفس الحيوانية الحاملة للقوى الحسية، وبالرحمة الثالثة المركبة ضم النفوس الناطقة إلى تدبير الأجسام فهو تركيب روح وجسم، وهذا النوع من التركيب هو الذي يتصف بالموت، فأبرز المدبر هذه النفوس من أبدانها بتوجه النفخ الإلهيّ عليها من الروح المضاف إليه تعالى، فركبها المدبر مع الجسم الذي تولدت عنه وهو تركيب اختيار، ولو كان تركيب استحقاق ما فارقه بالموت وجعله مدبراً لجسد آخر برزخيّ وألحق هذا بالتراب، ثم ينشيء له نشأة أخرى يركبه فيها في الآخرة، فلما اختلفت المراكب علمنا أن هذا الجسم المعين الذي هو أم لهذه النفس الناطقة المتولدة عنه ما هي مدبرة له بحكم الاستحقاق لانتقال تدبيرها إلى غيره، وإنما الجسم الذي تولدت عنه على هذه النفس له من الحق أنها ما دامت مدبرة له لا تحرك جوارحه إلا في طاعة الله تعالى، وفي الأماكن والأحوال التي عينها الله على لسان الشارع لها، هذا ما يستحقه عليها هذا الجسم لما له عليها من حق الولادة.

فمن النفوس من هو ابن بار فيسمع لأبويه ويطيع وفي رضاهما رضى الله، قال عز وجل: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى﴾ من الوجه الخاص ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [القمان: ١٤] من الوجه السببي ومن النفوس ما هو ابن عاق فلا يسمع ولا يطيع، فالجسم لا يأمر النفس إلا بخير، ولهذا يشهد على ابنه يوم القيامة جلود الجسم وجميع جوارحه فإن هذا الابن قهرها وصرفها حيث يهوى، وقسم الله هذه الرحمة المركبة على أجزاء معلومة أعطى منها جبريل ستمائة جزء بها يرحم الله أهل الجنة، وجعل بيده تسعة عشر جزءاً يرحم بهذه الأجزاء أهل النار الذين هم أهلها يدفع بها ملائكة العذاب الذي هم تسعة عشر كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] وأما المائة رحمة التي خلقها الله فجعل منها في الدنيا رحمة واحدة بها رزق عباده كافرهم ومؤمنهم وعاصيهم ومطيعهم، وبها يعطف جميع الحيوان على أولاده، وبها يرحم الناس بعضهم بعضاً ويتعاطفون كما قال الله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الجاثية: ١٩] «والمنافقين بعضهم أولياء بعض» كل هذا ثمرة هذه الرحمة، فإذا كان في الآخرة يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسعة والتسعين رحمة المدخرة عنده فرحم بها عباده على التدريج والترتيب الزمانيّ ليظهر بهذا التأخير مراتب الشفعاء وعناية الله بهم وتميزهم على غيرهم، فإذا لم يبق في النار إلا أهلها القاطنون بها الذين لا خروج لهم منها وأرادت ملائكة العذاب التسعة عشر عذاب أهل النار تجسد من الرحمة المركبة تسعة عشر

ملكاً فحالوا بين ملائكة العذاب وأهل النار ووقفوا دونهم وعضدتهم الرحمة التي وسعت كل شيء، فإن ملائكة العذاب قد وسعتهم الرحمة كسائر الأشياء، فيمنعهم ما وسعهم منها عن مقاومة هذه الرحمة المركبة، وكان الذي يعضدهم أوّلاً غضب الله الذي ظهر من إغضاب المخالفين، فلما انقضى مجلس المحاكمة وكان الحق قد أمر بمن أمر به إلى السجن وهو جهنم كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨] أي سجناً لأن المحصور مسجون ممنوع من التصرف بخلاف أهل الجنة فإن لهم التبوّأ منها حيث يشاؤون، وليس كذلك أهل النار، وهذا من الرفق الإلهي الخفي بعباده، فلو أعطاهم التبوّأ من النار حيث يشاؤون لكانوا لا يستقرّ بهم قرار طلباً للفرار من العذاب إذا أحسوا به رجاء أن يكون لهم في مكان آخر منها راحة وفي وقت العذاب ما فيها راحة، فكان لا يبقى في جهنم نوع من العذاب إلا ذاقوه، والعذاب المستصحب أهون من العذاب المجدّد وكذا النعيم، ولهذا يبدل الله جلودهم في النار إذا نضجت ليذوقوا العذاب، فيمشي عليهم زمان يذوقون فيه العذاب مستصحباً إلى أن تنضج الجلود وحينئذ يتجدد عليهم بالتبديل عذاب جديد، فلو كان لهم التبوؤ من جهنم حيث يشاؤون لما استقرّوا حتى تنضج جلودهم بل كانوا يذوقون في كل موضع ينتقلون إليه عذاباً جديداً إلى حصول الإنضاج، فيكون ذلك الانتقال أشد في عذابهم فرحمهم الله من حيث لا يشعرون كما مكر بهم من حيث لا يشعرون.

فهذه سبعمائة رحمة وتسع عشرة رحمة مائة منها بيد الله لم يتصرف فيها أحد من خلق الله اختص بها لنفسه بها يرحم الله عباده بارتفاع الوسائط بل منه للمرحوم خاصة وهي على عدد الأسماء الإلهية أسماء الإحصاء التسعة والتسعين اسماً رحمة واحدة لكل اسم من هذه المائة التي بيد الله لا علم لمخلوق بها وتمام المائة الرحمة المضافة إليه التي وسعت كل شيء، فبهذه المائة رحمة ينظر إلى درج الجنة وهي مائة درجة وبها بعد انقضاء زمان استحقاق العذاب ينظر إلى دركات النار وهي مائة درك كل درك يقابل درجة من الجنة، فتتأيد بهذه الرحمة الواسعة التسع عشرة رحمة التي تقاوم ملائكة العذاب في النار، وتلك الملائكة قد وسعتهم فيجدون في نفوسهم رحمة بأهل النار لأنهم يرون الله قد تجلى في غير صورة الغضب الذي كان قد حرضهم على الانتقام لله من الأعداء، فيشفعون عند الله في حق أهل النار الذين لا يخرجون منها فيكونون لهم بعدما كانوا عليهم فيقبل الله شفاعتهم فيهم وقد حقت الكلمة الإلهية أنهم عمار تلك الدار فيجعل الحكم فيهم للرحمة التي وسعت كل شيء، ولهذه التسع عشرة رحمة التي هي الرحمة المركبة فأعطاهم في جهنم نعيم المقرور والمحرور، لأن نعيم المقرور بوجود النار ونعيم المحرور بوجود الزمهرير، فتبقى جهنم على صورتها ذات حرور وزمهرير، ويبقى أهلها متنعمين فيها بحرورها وزمهريرها، ولهذا أهل جهنم لا يتزاورون إلا أهل كل طبقة في طبقتهم، فيتزاور المحرورون بعضهم في بعض، ويتزاور المقرورون بعضهم في بعض، لا يزور مقرور محروراً ولا محرور مقروراً، وأهل الجنة يتزاورون كلهم لأنهم على صفة واحدة في قبول النعيم لأنهم كانوا هنا أعني في دار

التكليف أهل توحيد لم يشركوا توحيد علم أو توحيد إيمان، وأهل النار لم يكن لهم صفة التوحد وكانوا أهل شرك فلهذا لم يكن لهم صفة أحدية تعمهم في النعيم مطلقاً من غير تقييد، فهم في جهنم فريقان وأهل الجنة فريق واحد، فينفرد كل شريك بطائفة وهؤلاء هم الثنوية ما ثم غيرهم وهم أهل النار الذين هم أهلها؛ وأما أهل التثليث فيرجى لهم التخلص لما في التثليث من الفردية لأن الفرد من نعوت الواحد فهم موحدون توحيد تركيب فيرجى أن تعمهم الرحمة المركبة ولهذا سموا كفاراً لأنهم ستروا الثاني بالثالث فصار الثاني بين الواحد والثالث كالبرزخ، فربما لحق أهل التثليث بالموحدين في حضرة الفردانية لا في حضرة الوحدانية، وهكذا لما رأيناهم في الكشف المعنوي لم نقدر أن نميز ما بين الموحدين وأهل التثليث إلا بحضرة الفردانية، فإني ما رأيت لهم ظلاً في الوحدانية ورأيت أعيانهم في الفردية، ورأيت أعيان الموحدين في الوحدانية والفردانية فعلمت الفرق بين الطائفتين. وأما ما زاد على أهل التثليث فالكل ناجون بحمد الله من جهنم ونعيمهم في الجنة يتبوّأون منها حيث يشاؤون كما كانوا في الدنيا ينزلون من حضرات الأسماء الإلهية حيث يشاؤون بوجه حق مشروع لهم كما كانوا إذا توضؤوا يدخلون من أيّ باب شاؤوا من أبواب الجنة الثمانية.

وإذا علمت هذا فاعلم أن هذه الرحمة المركبة تعمّ جميع الموجودات وأنها مركبة من رحمة عامة وهي التي وسعت كل شيء، ومن رحمة خاصة وهي الرحمة التي تميز بها من اصطفاه الله واصطنعه لنفسه من رسول ونبيّ وولي، وبهذه الرحمة المركبة جمع الله الكتب وأنزل كل كتاب سوراً وآيات، فمن آياته ما بقي كالقرآن وكل آية ظهرت بطريق الإعجاز، ومن آياته ما لم يبق فبقي اقتصار حكمها على من جاء بها فدلت على غيره كما دلت عليه، فإن الله جعلها علامة على صدق ما ادّعاه كل واحد واحد ممن ادّعى القرب من الله إما بالحال وإن لم ينطق بالدعوى لما يرى عليه من آثار طاعة ربه، وإما بالدعوى من حيث نطقه بذلك ولا يقع ذلك إلا عن غفلة فإنهم مأمورون بستر هذه الآيات أعني الأولياء فهي منسوخة في الأولياء محكمة في الأنبياء والرسل فقال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ يقول من علامة ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ يقول أو نتركها يعني نتركها آية للأولياء كما كانت آية للأنبياء ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ من باب المفاضلة أي بأزيد منها في الدلالة وهي آيات الإعجاز فلا تكون إلا لأصحابها أو لمن قام فيها بالنيابة على صدق أصحابها، فلا يكون لوليّ قط هذه العلامة من حيث صحة مرتبته، وأما قوله: ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] الضمير يرجع إلى الآية المنسوخة فلم يكن لها صفة الإعجاز بل هي مثل الأولى. ولا يصح حمل هذه الآية على أنها آي القرآن التي نزلت في الأحكام فنسخ بآية ما كان أثبت حكمه في آية قبلها، فإنّ الله ما قال في آخر هذه الآية ألم تعلم أنّ الله عليم خبير ولا حكيم. ومثل هذه الأسماء هي التي تليق بنظم القرآن الوارد بآيات الأحكام وإنما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦] فأراد الآيات التي ظهرت على أيدي الأنبياء عليهم السلام لصدق دعواهم في أنهم رسل الله، فمنها ما تركها آية إلى يوم القيامة كالقرآن، ومنها ما رفعها ولم تظهر إلى يوم القيامة، فلما جمع الله بهذه الرحمة المركبة القرآن في الكتب لا في

الصدور فإنه في الصدور قرآن وفي اللسان كلام وفي المصاحف كتاب، وضع ذلك الاسم المفصل عن أمر المدبر فإنه متقدّم عليه بالرتبة فلهذا له الحكم في التفصيل بالقوّة وللمفصل بالفعل ومنزل الرحمة رحب واسع المجال فيه، وكيف لا يتسع وقد وسعت كل شيء؟.

هذا القدر كاف فيما يقع به المنفعة للسامعين من الناس، فذكرنا حكمها في الدارين وما يعود منها علينا وهو الغرض المقصود.

وفي هذا المنزل معرفة منازل الرحمة المركبة وإلى كم تنتهي منازلها والمنزل الذي أكدت فيه والمنزل الذي لم تؤكد فيه، وعلى كم من درج وقع التوكيد فيها؟ وفيه علم ما لا يعلم إلا من طريق الخبر الإلهيّ، وعلم الإبانة عن مقام الجمع كالصلاة الجامعة بين الله والعبد في قراءة فاتحة الكتاب، ومن هنا يؤخذ الدليل بفرضيتها على المصلي في الصلاة، فمن لم يقرأها في الصلاة فما صلى الصلاة التي قسمها الله بينه وبين عبده فإنه ما قال: قسمت الفاتحة، وإنما قال: «قسمتُ الصَّلاة» بالألف واللام اللتين للعهد والتعريف. فلما فسر الصلاة المعهودة بالتقسيم جعل محل القسمة قراءة الفاتحة، وهذا أقوى دليل يوجد في فرض قراءة الحمد في الصلاة، وفيه علم تأثير الرحمة المركبة في العالم المحمديّ خاصة، وفيه علم تنزيل المعاني منزلة الأشخاص، وفيه علم التراجم، وفيه علم الطائفة التي سمعت وقيل فيها أنها لم تسمع مع وجود الفهم فيما سمعت فما الذي نفى عنها وما الذي أبقى لها، وفيه علم الحجب الكونية المظلمة والظلمانية ومن هو أهل كل حجاب وعمن حجب من حجب هل حجب عن سعادته أو عن مشاهدة ربه أو عن مشاهدة مقام رسوله؟ وفيه علم اجتراء الكون على الله، وفيه علم اللطف الإلهي بالمعاندين الرادّين لأوامره المنازعين لناصريه، وفيه علم ما شيب رسول الله ﷺ الذي ذكره في سورة هود وأخواتها، وفيه علم طلب السر الإلهيّ، وفيه علم الإحاطة بما لا يتناهى، وفيه علم الجزاء لذي هو على غير الوفاق الزمانيّ فإن مدد الأعمال التي تطلب الأجور متناهية والأجر عليها غير متناه فما هو الجزاء الوفاق من غير الوفاق، وفيه علم الإنكار والإقرار والتقرير والتوبيخ وما صفته وأين محله؟ وفيه علم الخلق الجسميّ والجسماني ومراتب الخلق وكم له من المقدار الزمانيّ، وفيه علم المراتب المضاف إليها الرب، وفيه علم القصد الإلهيّ. وفيه علم موضع الأجوبة التي تكون بحكم المطابقة عند سؤال السائل، وفيه علم مرتبة العاقل وشرفه على العالم إذا كان عالماً، فإن العاقل إذا رأى ما لا بد له منه بادر إليه وغير العاقل لا يفعل ذلك، وفيه علم من خلق لأمر واحد ومن خلق لأمرين فصاعداً، ومن وفى بما خلق له ومن لم يوف بما خلق له، وفيه علم سعادة من استكبر بحق ممن استكبر بنفسه كإبليس ومن شاء الله، وفيه علم تقرير المناسبة بينه وبين خلقه وأين هذا التقرير من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ومثل ما جاء في الخبر: «**الله أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ فَلاَةٍ**» الحديث، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وفيه علم المفاضلة وأصنافها ومحلها، وفيه علم الاختيار الكونيّ وأنه مجبور في اختياره وهل له مستند إلهيّ في جبره في اختياره أم لا؟ وقوله: فيسبق

عليه الكتاب، وقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٩] وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] هل معناه إنما التبديل لله ليس للخلق تبديل أو لا تبديل لخلق الله من كونه أعطى كل شيء خلقه. وفيه علم حكمة الأخذ الإلهي جزاء هل يعم أو يؤلم ابتداء من غير جزاء كإيلام البريء والصغير فهل هو كما قاله القائل أو ليس الأمر كذلك؟ وإنما هو بريء في ظاهر الأمر مما نسب إليه وما هو بريء عند الله من أمر آخر وقع منه في حق حيوان أم ما لا يعلمه إلا الله، والمبتلى أن تذكره فلا يكون على هذا الأخذ أبداً بل له جزء ابتداء، وإنما قاله من قاله بنسبة خاصة رأى الأخذ عندها مع براءة المأخوذ بما نسب إليه من تلك النسبة الخاصة، ولم يكن عند الله الأخذ إلا من أمر عمله استحق به هذه العقوبة فانتظر انقضاء زمان المهملة فانقضى عند دعوى عليه غير صادقة هو منها بريء فأخذ عندها، وإنما كان الأخذ بما تقدم فقيل: هذا الأخذ وهو بريء مما نسب إليه فصدقوا أنه بريء ولم يصدقوا في أنه أخذ من أجل تلك الدعوى عليه، وهو من علم المكاشفة والاعتبار، والمكاشفة في تحصيل هذا العلم أتم لأنه يعين لك الكشف العلة على خصوصها، والاعتبار يجملها لك من غير تعيين، أو يخرج لها عللاً محتملة لا يدري ما أوجب ذلك الأخذ منها، فهذا الفرق بين أهل الاعتبار والكشف.

وفيه علم إلحاق الله بصفة المتقين حتى كان وليهم فإنه ولي المؤمنين لأنه مؤمن وهو ولي المتقين، فمن أين يوصف الحق بأنه متق، وفيه علم من أين أعطى من أعطَى العلم بنطق العالم من غير جهة الخبر فإن الخبر تقليد، وفيه علم تأثير الأحوال في أصحابها عند الله، وفيه علم ترك الأدب لما يرجى في ذلك من نيل الغرض المقصود، وسواء كان محموداً أو مذموماً لأنه ما كل غرض محمود ولا كل عرض مذموم، وفيه علم تغير الأحوال لتغير الوارد، وفيه علم المؤاخاة بين الملائكة والناس الصلحاء منهم، وفيه علم أين ينزل أهل الله يوم القيامة وفي الجنان وأي اسم يصحبهم من الأسماء الإلهية؟ وفيه علم توقف الأسماء الإلهيّة بعضها على بعض وأنها تعطي بالمجموع أمراً لا يكون يعطيه فرد فرد من ذلك المجموع، وفيه علم ما تنتجه السياسة الحكمية التي تقضي بها العقول وأنها في ذلك على بصيرة من حيث لا تشعر أعطتها ذلك تجربتها النفوس وما صفة من يقول بهذا العلم؟ وفيه علم الميل لم يميل ولم يمال؟ وفيه علم النظر في الأولى فالأولى، وفيه علم الأعواض وهو إذا اعتاض عليك أمر تعوّضت عنه بأمر يقوم مقامه فيما تريد، إما موازنة سواء وإما أزيد بقليل أو أنقص منه بقليل، بحيث أنه لا يؤثر في المطلوب أثراً يخرجه عن نيل غرضه بالكلية وهل في الوجود من لا عوض له إذا فقد أم لا؟ وفيه علم تمييز الرجال بالأحوال. وفيه علم تقاسيم الأوامر الإلهية التي تقسمها قرائن الأحوال وما حكم الأمر إذا تعرى عن قرائن الأحوال؟ هل حكمه الوجوب أم لا أو التوقف؟ وهل تعريه عن قرائن الأحوال قرينة حال عدمية تعطيه الوجوب؟ وهل عندنا قرينة حال تعطي الوجوب للأمر؟ وفيه علم وصف العدم بأوصاف الوجود من الانتقال من حال إلى حال مع كونه عدماً لا يزول عن هذا الوصف، وفيه علم من أين قدم الله في نعته نفسه في كلامه بالرحمة على الأخذ ولم يفعل ذلك في صفة الكون فإنه قد قدم في صفة الكون

صفة أهل المقت على صفة أهل السعادة كما وقع في سورة الغاشية وأمثالها، وهل جاء مثل هذا ليفرق بين الخلق والحق أم لا؟ وفيه علم الوجهين في الأشياء، فما من شيء إلا وفيه نفع بوجه وضرر بوجه أي شيء كان إذا اعتبرته ووزنته وجدت الأمر كما قلنا، فليس لشيء في الوجود وجه واحد أبداً أعظمها وأرفعها نور الله به ظهرت الأشياء من خلف الحجب ولو شال الحجب لأحرقت ما أوجدته فهي الموجدة المعدمة، وكذا نزول القرآن له وجه نفع في المؤمن فإنه يزيد به إيماناً وفيه وجه ضرر للكافر لأنه يزيد رجساً إلى رجسه قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] ثم من رحمته بخلقه أن قال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] فأعطانا العلامة، فمن وجد في نفسه تلك العلامة علم أنه من أهل الضلال. وفيه علم البعد الإلهيّ والقرب الإلهيّ من السعداء والأشقياء، والقرب الكوني والبعد الكوني هل هو على موازنة القرب والبعد الإلهيّ أو لهذا حكم ولهذا حكم؟ وكذلك هو وفيه علم من علمه علم أنه ليس لله من أعمال العبد شيء، وفيه علم ما هو العلم، وفيه علم ما يوجب السآمة والملل ومن يتصف بهما من العالم ممن لا يتصف بهما مع كون الحق قد وصف نفسه بالملل إذا مل عبده من الخير الذي يكون عليه أو الشر سواء، وفيه علم ما لا ينفع من الظنون بالخير عند الله وما ينفع منها، وفيه علم أسباب رجعة الكون إلى الله في الدنيا، وفيه علم أن الحق هو عين الأشياء بما هو عين الأشياء هل بنفسه أو بشهوده أو بإحاطته؟ وفيه علم ما هو الحق وحكم هذا الاسم حيث ورد هل تختلف أحكامه؟ أو هو عين واحدة في كل موضع ورد، فإن الناس تفرقوا في ذلك فرقاً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الباب الرابع والأربعون وثلاثمائة

في معرفة منزل سرين من أسرار المغفرة وهو من الحضرة المحمدية

[الطويل]:

رأيتُ رجالاً لا يرون بكافر ... ولا كاذب والشأن صدقٌ وإيمانُ
فقلت لهم كُفُّوا عن الزُّور إنه ... مقامٌ ولكن فيه بَخْسٌ ونُقْصَانُ
فما كلُّ عَيْنٍ في الوجود مغايرٌ ... ولا كل كون ما سوى الله إنسانُ
ولكنه منه كبيرٌ مُقَدَّمٌ ... ومنه صغير فيه حَقٌّ وبُهْتَانُ
فلولا وجودي لم يكن ثَمَّ عالمٌ ... ولا كانت أسماءٌ ولا كانت أعيانُ
وكان وحيدَ الذات ليس بخالق ... ولا مالك يقضي بذلك برهانُ
ودَلَّ دليلُ العقل في كل حالة ... بأن إلَهَ الخلق في الخلق مِخْسَانُ

قد قدمنا أن لله رحمة عامّة ورحمة خاصة وأن الله خص هذه الأمة برحمة خاصة فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ لَيسَ عَلَيْهَا فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ إِنَّمَا عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا الزَّلَازِلُ وَالقَتْلُ وَالبَلَاءُ**» خرج هذا الحديث البيهقي في كتاب «الأدب» له في باب «المؤمن قلّ

ما يخلو من البلاء لما يراد به من الخير» من طريق أبي القاسم علي بن محمد بن علي الإيادي عن أبي جعفر عبد الله بن إسماعيل إملاء عن إسماعيل بن إسحاق القاضي عن محمد بن أبي بكر عن معاذ بن معاذ عن المسعودي عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى قال: «قال رسول الله ﷺ» الحديث، وكلهم قالوا حدّثنا إلا المسعودي فإنه عنعنه، وإلا البيهقي فإنه قال: أخبرنا. وفي الباب عن أبي بردة قال: كنت جالساً عند ابن زياد وعنده عبد الله بن يزيد فجعل يؤتى برؤوس الخوارج قال: وكانوا إذا مرّوا برأس قلت: إلى النار، قال: فقال لي: لا تفعل يا ابن أخي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يَكُونُ عَذَابُ هٰذِهِ الأُمَّةِ فِي دُنْيَاهَا**» وقد ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لاَ يَمُوتُونَ فِيها ولا يَحْيَوْنَ وَلٰكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ**» ولم يخصص ﷺ أمة من أمة فإنه ما قال ناس من أمتي، فهذه رحمة عامة فيمن ليس من أهل النار، ثم قال ﷺ: «**فَأَمَاتَهُمُ الله فِيهَا إِمَاتَةً**» فأكده بالمصدر، فهذا كله قبل ذبح الموت، وإنما أماتهم حتى لا يحسوا بما تأكل النار منهم، فإن النفوس التامة هي الموحدة المؤمنة فيمنع التوحيد والإيمان قيام الآلام والعذاب بها، والحواس أعني الجسوم كلها مطيعة لله فلا تحس بآلام الإحراق الذي يصيرهم حمماً، فإن الميت لا يحس بما يفعل به وإن كان يعلمه فما كل ما يعلم يحس به، فرفع الله العذاب عن الموحدين والمؤمنين، وإن دخلوا النار فما أدخلهم الله النار إلا لتحقق الكلمة الإلهية ويقع التمييز بين الذين اجترحوا السيئات وبين الذين عملوا الصالحات، فهذا حديث صحيح يعم الناس، ويبقى العذاب على أهل النار الذين هم أهلها يجري إلى أجل مسمى عند الله إلى أن تذكرهم ملائكة العذاب التسعة عشر فإن الملائكة إذا شفعت لم تشفع هذه التسعة عشر فتتأخر شفاعتهم إلى أوان اتصافهم بالرحمة عندما يرتفع شهودهم غضب الله إيثاراً منهم لجناب الله على الخلق، فإن الملائكة تشفع يوم القيامة يقول الله: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون وبقي أرحم الراحمين فيشفع عند شديد العقاب والمنتقم، وهذا من باب شفاعة الأسماء الإلهيّة، فيخرج من النار كل موحد وحد الله من حيث علمه لا من حيث إيمانه وما له عمل خير غير ذلك لكنه عن غير إيمان فلذلك اختص الله به، وهذا الصنف من الموحدين هم الذين شهدوا مع شهادة الله سبحانه والملائكة أنه لا إله إلا هو، فمن هناك سبقت لهم العناية بالاشتراك في الشهادة ولم يعرفهم إلا الله وحده والملائكة وإن عرفتهم فإن الملائكة تحت أمر الله كالثقلين فيحترمون جناب الله ويؤثرونه على هؤلاء، فلا يقدمون على الشفاعة فيهم لمخالفتهم أمر الله وعدم قبولهم الإيمان، فينفرد الله وحده سبحانه من كونه أرحم الراحمين بإخراج هؤلاء من النار ويترك أهلها فيها على حالهم إلى تجليه في صورة الرضا وعموم حكم الرحمة المركبة في عالم التركيب وشفاعة ملائكة العذاب، فحينئذ يتغير الحال على أهل النار كما ذكرناه من المحرور والمقرور.

واعلم أن الموازنة بحكم الاعتدال معقولة غير موجودة الحكم لأنه لو كان لها حكم

ما كان التكوين واقعاً لأن حكمها الاعتدال، والاعتدال يقابل الميل ولا يكون التكوين إلا بالميل: ولما علم النبيّ ﷺ من الله أنه ما أوجد العالم إلا بترجيح أحد الإمكانين قال رسول الله ﷺ لقاضي الدين: «**إذا وَزَنْتَ فَأَرْجِحْ**» فَإِنَّ المُمْكِنَ الوَجْهَانِ فِيهِ عَلَى السَّوَاءِ فَمَا أَوْجَدَهُ الله إلاَّ بِالتَّرْجِيحِ. ثم إن الله ذكر عن نفسه ما كان عليه ولا عالم فذكر عن نفسه أنه أحب أن يعرف فرجح جانب المعرفة به على مقابله فخلق العالم بالترجيح لجانب العلم على مقابله، فلما وازن الله بين الرحمة والغضب رجحت الرحمة وثقلت وارتفع الغضب الإلهيّ، ولا معنى لارتفاع الشيء إلا زوال حكمه فلم يبق للغضب الإلهي حكم في المآل، فإنه في المآل وقع ترجيح الرحمة وارتفاع الغضب لخفته، فما ظهر حكم الغضب إلا في حال وضع الغضب والرحمة في الميزان، فحكم كل واحد منهما في العالم إلى أن يظهر الترجيح فيرتفع حكم الغضب، وما قلنا هذا إلا رداً لما قاله من يدعي الكشف فقال في الموازنة الإلهية: «إن الله لا يحكم عدله في فضله ولا فضله في عدله وإن القبضتين على السواء من جميع الوجوه»، وهذا من أعظم الغلط الذي يطرأ على أهل الكشف لعدم الأستاذ، وما يقول هذا إلا من لم يكن بين يدي أستاذ قد رباه أستاذ متشرع عارف بموارد الأحكام الشرعية ومصادرها، فإن الله ما نصب طريقاً إلى معرفته التي لا يستقل العقل بإدراكها من حيث فكره إلا ما شرعه لعباده على ألسنة رسله وأنبيائه، وإنما قلنا هذا لما علمنا أن ثم طريقاً آخر يقتضيه الوجود ويحصله بعض النفوس الفاضلة فأردنا أن نرفع الإشكال، وذلك أن النفوس تصفو بالرياضة وترك الشهوات الطبيعية والاستغراق في الأمور المحسوسة وتتشوّق إلى ما منه جاءت وما أريدت له وإلى أين مآلها وما مرتبتها من العالم؟ وعلمت من ذاتها أن وراء هذا الجسم أمراً آخر هو المحرّك له والمدبر لما عاينت من الموت النازل به فتنظر إلى آلاته على كمالها ولا ترى له تلك الإدراكات التي كانت له في زمان وصفه بالحياة، فعلمت أنه لا بد من أمر آخر هناك لا تعرف ما نسبته إلى هذا الجسم هل نسبة العرض إلى محله أو المتمكن إلى مكانه أو الملك إلى ملكه؟ ثم علمت أن بين الموت والنوم فرقاناً بما تراه في النوم من الصور وما تستفيده من الأحوال الملذة والمؤلمة وسرعة التغير في صورة النائم من حال إلى حال ولم تر ذلك في صورة الجسم، ثم تستيقظ فترى الجسم على حاله في صورته ما تغير، وترى انفعال الجسم في بعض الأوقات لما يطرأ للنائم في حال نومه مثل دفق الماء في الاحتلام عند رؤية الجماع في النوم. فعلمت بهذا كله أن وراء هذا الجسم أمراً آخر بينه وبين هذه الصورة علاقة؛ ثم إنها رأت تفاوت الأمثال في العلوم والفهم وافتقار بعضها إلى التعليم ونظرت إلى حال من زهد وفكر واتخذ الخلوات ولم يأخذ من لذات المحسوسات إلا ما تمس إليه الحاجات مما به قوام هذا الجسم، وأن صاحب هذا الحال يزيد على نفس أخرى بعلوم وفضائل يفتقر إليه فيها وفي العلم بها، فنظرت في الطريق الذي أوصل تلك النفوس دون غيرها إلى هذا المقام فلم تر مانعاً إلا انكباب بعض النفوس على تناول هذه المشتهيات الظاهرة الطبيعية والتنافس فيها فزهدت في ذلك كله وتحلت بمكارم الأخلاق ولم تترك لأحد

عليها مطالبة ولا علاقة ولم تزاحمهم على ما هم عليه، وجنحت إلى الخلوات ورفعت الهمة إلى الاستشراف لتعلم ما هو الأمر عليه، فلما كانت بهذه المثابة وكل ذلك نظر منها ما هو عن تقليد شرع إلهيّ وإنما هو عن فكرة صحيحة وإلهام إلهيّ ناقص غير كامل، لأن الإلهام الكامل أن يلهم لاتباع الشرع والنظر في كلامه وفي الكتب التي قيل لنا أنها جاءت من عند الله فمثل هذا هو الإلهام الأكمل، فلما صفت هذه النفس وشفَّت وصارت مثل المرآة وزال عنها صدأ هذه الطبيعية انتقش فيها صور العالم فرأت ما لم تكن رأته فنطقت بالغيوب والتحقت بالملأ الأعلى التحاق غريب ورد على غير موطنه وهو موطنه ولكن ما عرف لغربته لما سافر إلى أرض طبيعته وبدنه، فلم يكن له ذلك الإدلال ولا كمال الأنس بذلك العالم، ورأى اشتغال ذلك العالم عنه بالتسبيح والتقديس وما سخروا فيه من الأعمال في حق هذه المولدات العنصرية فرأت ما يختص منهم بتحريك الأفلاك وتسيير كواكبها وما يحدث في الأركان منها وعلمت ما لم تكن تعلم، وأخذت عن الأرواح الملكية علوماً لم تكن عندها وما علمت أن ثم طريقاً تصل منه إذا سلكت عليه إلى الأخذ عن الله منشىء الكل، وأن بينه وبينها باباً خاصاً يخصها فقالت: هذا هو الغاية وما ثم إلا هؤلاء، ونظرت إلى تفوقها بذلك على غيرها من أمثالها فقنعت، فكل ما يأتي به من هذا نعته وحاله ليس له ذوق إلهي البتة، ولا يأخذ أبداً إلا عن الأرواح والعقول الملكية أخذ حال لا أخذ نطق إلا إن تجسد له في خياله أمر يخاطبه، وصاحب الطريقة الشرعية يقلد الشارع فيما أخبره به من أنه ما ثم إله بينه وبين العالم مناسبة وأنه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ولا يشبه شيئاً من العالم أعلاه وأسفله، ومع هذا كله فله عين وأعين، ويد ويدان، ووجه، وكلام، ونزول، واستواء، وفرح، ومعية مع عباده بالصحبة وقرب وبعد، وإجابة لمن دعاه ورحمة، وأن العالم كله عبيد له خلقهم وفضل بعضهم على بعض، وأن له غضباً، وأن له خلفاء في الأرض من هذا النوع الإنساني، فعندما سمع ذلك وعلم أن ثم خليفة من نوعه تشوف إلى تلك المرتبة أن ينالها ورأى الطريق التي شرعها شارع وقته وخاطبه بها ورأى جميع ما كان يفعله صاحب تلك النفس التي فكرت بنظرها قد حرضها هذا الشارع عليه وحمده وقال به، فأخذ به هذا المؤمن من حيث إن هذا الشارع جاء به وعلق الهمة بربه الذي أوجده لما أعلمه الشارع أنه المنتهى فقال له: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] وليس وراء الله مرمى، فجعله موضع غايته وسلك سلوك المفكر الباحث صاحب النظر العقلي لكن بالطريق الشرعي، فصفت نفسه وصقلت مرآته وانتقش فيها صور العالم كله الروحاني، وإلى حدّ الطبيعة التي دون النفس يصل أهل الفكر، وما ينتقش فيهم مما فوقها إلا من يكون سلوكه على الطريق المشروع، فإذا وصل هذا السالك على طريق الشرع انتقش فيه ما في اللوح المحفوظ، فيرى مرتبة الشرائع ويرى نفسه وحظه ونصيبه وغايته من العالم فيعمل بحسب ما يراه فيرتفع بالطلب إلى الوجه الخاص به فيأخذ عن الحق أخذ إلهام وأخذ تجل وأخذ تنزيه وأخذ تشبيه، ويعاين سريان الوجود في الممكنات، ويعلم عند ذلك لمن الحكم فيما ظهر ومن هو الظاهر الذي تظهر فيه هذه الأحكام والاختلافات

الروحانية والطبيعية، فإذا نطق هذان الشخصان علم الكامل من الرجال الفرق بين الشخصين، وعلم من أين أتى على كل واحد منهما، ولماذا نقص السالك بفكره عن رتبة المتشرع، فصاحب الفكر لا يزال أبداً منكوس الرأس منتظراً ما يأتيه به الإمداد الروحاني، وصاحب الشرع لا يزال منكوس الرأس حياء من التجلي الإلهيّ في أوقات، كما لا يزال شبه الحائر الواله المبهوت إذا رآه في كل شيء فلا ينطق إلا به ولا ينظر إلا إليه ولا يعلم أن ثم عيناً سواه، فيطلبه الملأ الأعلى والأرواح العلىٰ والأفلاك الدائرة المتحركة والكواكب السابحة لتوصل إليه ما أمنت عليه مما يستحقه عليها، فلا تجد من يأخذ عنها بطريق الاعتبار والأدب، فتؤدي ذلك أداء ذاتياً ويأخذه منها ما بقي من نشأته أخذاً ذاتياً وهو غائب بربه عن هذا كله، فإذا رد إلى رؤية ذاته رأى في ذاته جميع ما أعطاه العالم كله أعلاه وأسفله مما هو له وهو أمانة عندهم، فشكر الله على ذلك وعلم أن كل ما في الكون مسخر له ولأمثاله ولكن لا يعلمون. فإذا حصل في هذا المقام رأى أن الذين أوتوا العلم على درجات يزيدون بها على غيرهم من أمثالهم، ويرى أن أمثاله بمثابته ولا علم لهم بذلك فيفرح بذاته ويحزن لهم حيث هم في مقام واحد معه ولا يشعرون بذلك وأنه ما فضل عليهم إلا بالعلم به وبهم وبما هو الأمر عليه، ولما ارتقى هذه الدرجات ارتقاء كشف وتحقيق ومعاينة يقينية طلب من أين له هذه الدرجات التي ارتقى فيها واختص دون أكثر أمثاله بها، فتجلى له الحق عند ذلك في اسمه رفيع الدرجات وأنه الملقي من هذه الدرجات الروح على من يشاء من عباده، فعلم أنه ممن شاء من عباده فقابل الدرجات بالدرجات، فإذا هي عينها لا غيرها، ورأى تلك الدرجات في العالم كله وأنه فيها فأخذ يظهر للعالم بها والعالم لا يشعر فيخاطب كل إنسان من حيث هو من درجته التي له فيقول هذا معي وعلى هذا مذهبي واعتقادي، فلا ينكره أحد من العالم ولا ينكر هو أحداً من العالم مع لزوم الأدب الإلهي، ولا يلزم الأدب إلا صاحب المقام ومقام أن لا مَقام مُقام.

وأما صاحب الحال فقد يظهر عليه من هذا لنقصه ونزوله عن صاحب المقام ما يؤدّي الناظر فيه إلى معرفته به، فالكامل ينصبغ بكل صورة في العالم ويتستر بما يقدر عليه، فإن كان ثم من رآه في صورة قد اختلفت عليه لأجل اختلاف الخلق اعتقد فيه عدم التقييد الذي هو عليه هذا الناظر فقال بكفره وزندقته وما علم من أين أتى عليه، فينبغي لصاحب هذا المقام أن لا يظهر لشخصين في صورة واحدة أبداً، كما لا يتجلى الحق لشخصين في صورة واحدة أبداً، فإن الدرجات هي الدرجات، فإن كفره وزندقه من لم ير اختلاف الصور عليه فذلك جهل منه وحسد فيكون ما ينسبه إليه على صورة ما ينسبه إلى الله جل وعلا من الصاحبة والولد والشريك وما نزه الحق نفسه عنه، فهذا لا يؤثر في صاحب هذا المقام بل هو على كماله، وذلك الواقع فيه من المفترين فإنه ما حكم عليه إلا بما شاهده منه ويقول بلسانه عنه ما يعلم خلافه في نفسه ظلماً وعلواً كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤] وكذلك تكون عاقبة هذا.

فدرجات الحق ما هو العالم عليه، وصاحب هذا المقام قد تميز فيها حين ميزها فهو الإله الظاهر والباطن والأوّل في الوجود والآخر في الشهود والله غني عن العالمين فلا يدخله تنكير والإله يدخله التنكير فيقال إله، فاجعل بالك لما نبهتك عليه لتعلم الفرقان بين قولك الله وبين قولك إله، فكثرت الآلهة في العالم لقبولها التنكير والله واحد معروف لا يجهل أقرت بذلك عبدة الآلهة فقالت: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وما قالت إلى إله كبير هو أكبر منها، ولهذا أنكروا ما جاء به ﷺ في القرآن والسنة من أنه إله واحد من إطلاق الإله عليه، وما أنكروا الله ولو أنكروه ما كانوا مشركين فبمن يشركون إذا أنكروه فما أشركوا إلا بإله لا بالله فافهم؛ فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وما قالوا أجعل الآلهة الله فإن الله ليس هو عند المشركين بالجعل، وعصم الله هذا اللفظ أن يطلق على أحد وما عصم إطلاق إله، ولقد رأيت بعض أهل الكفر في كتاب سماه «المدينة الفاضلة» رأيته بيد شخص بمرشانة الزيتون ولم أكن رأيته قبل ذلك فأخذته من يده وفتحته لأرى ما فيه فأوّل شيء وقعت عيني عليه قوله: «وأنا أريد في هذا الفصل أن ننظر كيف نضع إلهاً في العالم» ولم يقل «الله» فتعجبت من ذلك ورميت بالكتاب إلى صاحبه وإلى هذا الوقت ما وقفت على ذلك الكتاب. فمن كان ذا بصيرة وتنبه فليتفطن لما ذكرناه فإنه من أنفع الأدوية لهذه العلة المهلكة، فاسم الإله من الدرجات المذكورة فلا بد منه إذ لا بد من الدرجات. ومن هذا الباب قول السامري: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨] في العجل ولم يقل هذا الله الذي يدعوكم إليه موسى، وقول فرعون: ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٣٨] ولم يقل إلى الله الذي يدعو إليه موسى عليه السلام، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] فما أحسن هذا التحري لتعلم أن فرعون كان عنده علم بالله لكن الرياسة وحبها غلب عليه في دنياه فإنه قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم﴾ ولم يقل ما علمت للعالم لما علم أن قومه يعتقدون فيه أنه إله لهم، فأخبر بما هو عليه الأمر وصدق في إخباره بذلك، فإنه علم أنه ليس في علمهم أن لهم إلهاً غير فرعون.

ولما كان في نفس الأمر أن ثم درجات منسوبة إلى الله بالرفعة بكونه رفيع الدرجات كثر على وجه الاختلاف صور التجلي؛ لهذا نطق السامري بقوله: ﴿وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨] فإن التجلي الإلهي لا يكون إلا للإله وللرب لا يكون لله أبداً ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ [الحديد: ٢٤] ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص] وهو سبحانه لا يتجلى لشخص في صورة واحدة مرتين ولا لشخصين في صورة واحدة فلهذا قال: ﴿وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨] فإن تجليه للأنبياء مختلف الصور إحدى الحكم بأنه الإله في أيّ صورة تجلى، ألا تراه في القيامة إذا تجلى ينكر ويعرف باختلاف الصور. فإن قلت: فقد رجع إلى الصورة حين أنكر حتى يعرف؟ فقلنا: لو علمت قوله هل بينكم وبينه علامة فتلك العلامة هي الدليل لهم حيثما رأوها عليه علموا أنه ربهم فسميت صورة تلك العلامة، إذ كل معلوم ينطلق عليه اسم الصورة فبالعلامة عرفوه لا أنه كرر عليهم

الصورة وإنما كانت تلك الصورة هي العلامة، فدرجات الحق ليست لها نهاية لأن التجلي فيها وليس له نهاية فإن بقاء العالم ليس له نهاية، فالدرجات ليست لها نهاية في الطرفين أعني الأزل والأبد اللذين ظهرا بالحال وهو العالم، فلو زال العالم لم يتميز أزل من أبد، كما هو الأمر عليه في نفسه، فما ثم بدء في حق الحق ونفي البدء في حقه درجة من درجاته التي ارتفع بها عن مناسبة العالم، ودرجات العالم التي هي عين درجاته لا يتناهى أبدها، وإن كان نزول العالم في درجة منها فتلك الدرجة هي بدء للعالم لا أن الدرجات لها ابتداء بل ظهور العالم فيها له ابتداء.

واعلم أن الحق من حيثما تميز عن الخلق كان برزخاً بين الدرجات وبين الدركات فإنه وصف نفسه بأن له يدين وما بين اليدين برزح، فما كان على اليمين هو درجات الجنة لأهلها، وما كان على اليد الأخرى دركات النار لأهلها، فنسبة السفل إليه نسبه العلوّ لأنه مع العباد أينما كانوا فهو معهم في درجاتهم وهو معهم في دركاتهم كما يليق بجلاله.

واعلم أنه من الدرجات درجة المغفرة وهما درجتان: الواحدة ستر المذنبين عن أن تصيبهم عقوبة ذنوبه، والدرجة الأخرى سترهم عن أن تصيبهم الذنوب، وهذا الستر هو ستر العصمة، فقال في الستر الواحد من المغفرة: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧] وقال في الستر الآخر من المغفرة ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [غافر: ٩] وما ثم للمغفرة ستر آخر، فالستر الحائل بين المذنب والعذاب ستر كرم وعفو وصفح وتجاوز، والستر الحائل بين العبد والذنب ستر عناية إلهية واختصاص وعصمة يوجب ذلك خوفاً أو رجاء أو حياء كما جاء في صهيب: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، فسبب عصمته من وجود المعصية خوفه، ولو لم يكن الخوف لمنعه الحياء من الله تعالى أن يجري عليه لسان ما يسمى ذنباً في حق من كان، ولو لم يكن ذنباً في حقه لكونه ما أقيم إلا فيما أبيح له، وهذه غاية العناية والعصمة من التصرّف في المباح، وأعظم المعاصي ما يميت القلوب ولا تموت إلا بعدم العلم بالله وهو المسمى بالجهل، لأن القلب هو البيت الذي اصطفاه الله من هذه النشأة الإنسانية لنفسه، فغصبه فيه هذا الغاصب وحال بينه وبين مالكه، فكان أظلم الناس لنفسه لأنه حرمها الخير الذي يعود عليها من صاحب هذا البيت لو تركه له فهذا حرمان الجهل، غير أن هنا نكتة ينبغي التنبيه عليها وذلك أن صاحب القلب الذي يرى أنه وسع القلب ربه دون سائر نشأته ينزل عن درجة من يرى أن الحق عين نشأته من غير تخصيص إذ كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه، فما اختص منه بشيء دون شيء، فصاحب القلب مراقب قلبه، وصاحب الحالة الأخرى يحكم بربه على كل شيء استتر فيه ربه عن ذلك الشيء وهو مشهود لصاحب هذه الصفة في ذلك الستر فيعامله بما يوحى إليه به، فإن أوحى إليه بالكشف عنه اعتناء من الحق بهذا المستور عنه كشفه له وأعرب له عن نفسه عرفه ما هو الحق منه، وإن أوحى إليه بإبقاء الستر عليه أبقاه ولم يظهر له شيئاً مما هو في نفسه عليه هذا المستور فيحكم صاحب هذه الصفة على صاحب القلب، ولا يحكم عليه صاحب القلب لشغله بحراسة قلبه الذي هو بيت ربه لئلا يدخل فيه

غير ربه فإنه الحفيظ البوّاب، فإذا فهمت هذا فانظر أي الرجلين تكون، ولهذا أهل المراقبة لا يزالون في الحجاب عن التصرّف في الكون وهم أهل الحدود في الله، فإذا ارتفعوا عن مراقبة قلوبهم فهو أعظم الحجب، وإذا تعدوا في مراقبة قلوبهم مراقبة العالم بأسره اتسع عليهم المجال، ولكن ما لهم حكم صاحب ذلك الوصف الذي ذكرنا فإنهم مراقبون إياه لكونه مراقباً إياهم لأنه على كل شيء رقيب، فقابلوا الحفظ بالحفظ مقابلة الأمثال بالموازنة والمطابقة، فكما راقبهم بعينه راقبه هذ المراقب بعينه أيضاً، ومن كان حقاً كله في نفسه وفي العالم خرج عن صفة المراقبة فإنها مقام سلوك ومحجة، فإذا سلكت فيه به ومنه إليه لم يكن ثم من يراقب، إذ لا خوف في ذلك الطريق من مانع يمنع السالك فيه فهو سلوك لا مراقبة فيه.

ويتضمن هذا المنزل من العلوم: علم إسبال الستور وعلى من تسبل، فقد يسبل الستر على جهة التعظيم كالحجاب والستر الذي وراءه الملك أو المخدرة، ويسبل الستر أيضاً دون من لا يرتضي للكشف لما وراء الستر، وقد تسبل الأستار رحمة بمن تسبل دونهم كالحجب الإلهية بين العالم وبين الله إبقاء عليهم لئلا تحرقهم السبحات الوجهية، فيتضمن علم لماذا تسدل وعلى من تسدل؟ وفيه علم صور تركيب الكلام الإلهي مع أحديته من أين قبل التركيب وما هو إلا واحد العين، ليفرق الإنسان العالم بين حقيقة الكلام وبين ما يتكلم به من له صفة الكلام، فيعلم أن التركيب فيما يتكلم به لا في الكلام، وعلم هذا النوع من المعلومات علم عزيز لا يختص به إلا العلماء بالله الذين سمعوا كلام الله في أعيان الممكنات، وفيه علم القابل والمقبول منه والقبول الذي هو نعت القابل وهل يتنوّع القبول لتنوّعها القابل أو لا أثر للقابل فيه؟ وفيه علم الحدود الإلهيّة لماذا ترجع هل إليها في ذاتها أو إلى الله أو إلى الممكنات التي هي العالم؟ وفيه علم صفات المنازعين الذين يعلمون الحق فيسترونه مثل الفقهاء الذين يلتزمون مذهباً لا يعتقدون صحته فيناظرون عليه مع علمهم ببطلانه، والخصم الذي يكون في مقابلته يأتي بالحق على بطلانه ويعلم هذا الآخر أن الحق بيد صاحبه فيردّه ويظهر الباطل في صورة الحق على علم منه، فهل يستوي هو ومن يظن في الباطل أنه حق فيذب عنه لكونه عنده أنه حق؟ وما حكم هؤلاء عند الله يوم القيامة؟ وهل لهم مستند إلهي أم لا؟ وفيه علم الفرق بين الإنكار والجحد والكذب وهل هذا كله أمر عدمي أو وجودي؟ فإن كان وجودياً ففي أي مرتبة هو من مراتب الوجود؟ هل يعمها كلها أو هو في بعضها؟ وكذلك إن كان عدمياً في أي مرتبة هو من مراتب العدم؟ هل هو في مرتبة العدم الذي لا يقبل الوجود؟ وهل ثم للعدم مرتبة لا يقبل الوجود بنسبة ما أو ما ثم عدم إلا ويقبل نسبة إلى مرتبة وجودية؟ أو هو في مرتبة العدم الذي يقبل المنعوت به الوجود وهو العدم الممكن. وفيه علم همّ الأضعف بالأقوى بالسوء هل هو عن قوّة حقيقية فما هو أضعف أو هل هو عن قوّة متوهمة؟ فهو في نفس الأمر أضعف ولا يعلم فما الذي يحجبه عن ضعفه، وفيه علم من جهل قدر الأمور وما تستحقه ما السبب الذي جعله يجهل ذلك حتى ظهر منه ما لا ينبغي فيما لا ينبغي، وفيه علم مراتب الملائكة فيما يذكرون العالم به عند الله إذ لهم القرب الإلهي وهم الوسائط بين الله

وبني خلقه وهم في الوسط في شهادة التوحيد في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] وفيه علم المفاضلة في كل شيء بين الله وبين خلقه، وفيه علم ما ينتجه الاعتراف بالحق عند الله، وفيه علم الحكم بالاختيار هل يقدح في العدل أم لا وفيه علم الفرق بين من علم الشيء عن جهل وبين من علمه عن نسيان وما صفة أهل التذكر من صفة غيرهم؟ وفيه علم الإخلاص ممن أوفى حق من، وفيه علم ما يكره وما يحب وهل عين ما يكرهه زيد هو عين ما يحبه عمرو أم لا؟ وفيه علم ما ينفرد به الحق دون الخلق هل يعلم ذلك أم لا؟ وهل يمكن الوصول إليه بعناية إلهية من تعريف أم لا، وما المانع إن امتنع ذلك؟ وفيه علم منزلة الإمام العادل ومرتبته، وفيه علم أحوال المحجوبين عن الله بالظلمة دون النور، وعلم المحجوبين عن الله بالنور دون الظلمة، وعلم المحجوبين عن الله بالنور والظلمة معاً، وهل هذه الحجب رحمة بالمحجوبين أو حجب بعد؟ وفيه علم ما يتوجه على الأعضاء من التكاليف، وفيه علم الاعتبار والتفكر، وفيه علم تأييد أهل العناية الإلهية بماذا يؤيدهم وفي أي موطن يؤيدهم وما السبب الموجب لتسليط أعدائهم عليهم وتمكنهم منهم؟ ولماذا استند المعتدي عليهم هل يستند لأمر وجودي إلهي أو لأمر وجودي نفسي؟ وفيه علم ما أنت إذا رأيته قلت فيه إنه حق، ثم تقول فيه إنه باطل، ثم تقول فيه إنه باطل حق، ثم تقول فيه إنه لا باطل ولا حق. ثم تقول فيه لا أدري ما هو، فعوده إلى الجهل به هل هو عين العلم بذلك الأمر أو يمكن الوصول إلى العلم به؟ ولكن هذا ما وصل فنطق بنعته لا بنعت ما تكلم فيه، وفيه علم الإنصاف من غير تعصب وما حضرته وتسكين الغضب من الغاضب بلطف من المسكن لا بقهر فإن القهر لا يسكن الغضب وإنما يخفي حكمه لسلطان القهر عليه، وفيه علم إحاطة الملائكة بالعالم يوم يصفون وهم اليوم على تلك الصورة، وعلم الفرق بين حكمهم فينا اليوم وبين حكمهم في ذلك اليوم والصفة واحدة من الإحاطة ولماذا ينادي هناك بعضهم بعضاً؟ وهنا ليس كذلك إلا في مواطن مخصوصة لأن القيامة على صورة الدنيا سواء، غير أن الحاكم هنالك هو الواحد بارتفاع الوسائط وهنا هو الحاكم الواحد بعينه لكن بالوسائط ليفرق بين الدارين كما فرق بالجنة والنار بين القبضتين، وفيه علم من تحكم على الله من أين تحكم وما الذي أجرأه على ذلك هل صفة حق أو صفة جهل؟ وفيه علم العناية الإلهية بالجبارين المتكبرين، وفيه علم ما عصم الله من الأسماء الإلهية لماذا عصمته وما لم يعصمه من الأسماء الإلهية كاسمه الأحد ولا يتجلى في هذا الاسم ولا يصح التجلي فيه ولا في الاسم الله وما عدا هذين الاسمين من الأسماء المعلومات لنا فإن التجلي يقع فيها. وفيه علم الحركة في عين السكون، وفيه علم الاشتراك بين المؤمن والعالم في أي حضرة يكون ذلك وبماذا يتميزون؟ وهل ينال المؤمن درجة العالم؟ وما يقبله من جهة الخبر الصادق هل يلحق بذلك درجة العلماء أم لا؟ وهل الدليل على تصديق الرسل في ادعائهم أنهم رسل ينسحب في الدلالة على ما جاؤوا به من الأخبار والأحكام؟ أو يفتقرون إلى دليل آخر أو يكونون علماء مع كونهم مقلدين؟ وفيه علم الدور في كون الداعي يكون مدعواً لمن دعاه بحكم التعارض،

وفيه علم حكم طلب النجاة في العالم كله بالطبع ولكن تجهل ومن هو الصنف الذي يعلمها من العالم وما هي النجاة؟ وفيه علم علامة كل داع وما يدعو إليه من الأسماء الإلهية، وفيه علم الوقت الذي يلقي الإنسان فيه ما في يده ولا يعتمد عليه ويسلم إلى الله جميع أموره، وفيه علم الجين وإعادة السهام على راميها وقد عاينت هذا النبال بمدينة تلمسان من عالم بصنعة الرمي وإنشاء القسيّ والنبال فرأيته يرمي بالسهم فإذا انتهى السهم إلى مرماه عاد إلى الرامي وحده فكان ذلك لي عبرة في كون الأعمال ترجع على عامليها. وفيه علم ما يتنزل منزلة الزمان وليس بزمان، وفيه علم التنازع بعد حكم الحاكم وما سببه إذ لا أثر له في ردّ الحكم، وفيه علم مراتب الشهود من الحاكم وترك الحاكم حكمه بما يعلم ويحكم بقول الشهود وما سبب وضع ذلك في العالم ولكن ليس ذلك عندنا إلا في الأموال لا في النفوس ولا في إقامة الحدود، وفيه علم ما لا يجوز تأخيره لمسيس الحاجة إليه، وما فائدة البيان الذي وضع لحصول العلم ويترك الحكم به؟ وفي أي النوازل يكون ذلك؟ ومن هو على الصواب في هذه المسألة؟ هل من يقول أنه يحكم بعلمه أو المخالف؟ وعندي في هذه المسألة لو كنت عالماً بأمر ما وشهد الشهود بخلاف علمي ولا يجوز لي أن أحكم بعلمي إذا كنت ممن يقول بذلك استنبت في الحكم من لا علم له بالأمر وتركت الحكم فيه وهذا هو الوجه الصحيح عندي والذي أعمل به وإن كان في النفس منه شيء وهذا عندي في الحكم في الأموال، وأمّا الحكم في الأبدان فلا أحكم إلا بعلمي إذا علمت البراءة، فإن لم تكن البراءة وعلمت صدق المفتري حكمت بالشهود وتركت علمي وعلم سبب هذا الذي ذهبت إليه يتضمنه هذا المنزل. وفيه علم ما يفضل به العالم على الإنسان وهو أن له عليه ولادة، وفيه علم مسمى الساعة، وفيه علم هل يصح التكبر من العالم على الله أم لا؟ وفيه علم ما تطلبه الأشياء من الأمور طلباً ذاتياً هل يصح فيه خرق العادة فيكون بالجعل أم لا؟ وإن انخرقت فيه العادة فما محل خرق العادة هل في الطالب فيتبعه ما كانت تقتضيه ذاته أم لا؟ وفيه علم حضرة تقرير النعم على المنعم عليه ما يكون من ذلك على جهة التعليم أو على جحده لذلك، وفيه علم أصل حياة العالم الحسية والمعنوية هل ترجع إلى أصل واحد أم لا؟ وهل في الطبيعة حياة حتى تعطي الحياة الحسية أم لا؟ وفيه علم النشأة الإنسانية الدنياوية وأحوالها في مدة بقائها في هذه الدار وما يؤول إليه أمرها من حيث جسميتها بعد الموت، وفيه علم الموت والحياة هل ذلك نسبة أو عين موجودة تظهر في مواطن مختلفة؟ وحكم المميت هل يميت بموت فيكون سبباً أو يميت فقط؟ وكذلك الحياة فيكون عين الميت عين الموت بحكم المميت، وفيه علم القضاء وفضله عن القدر، وفيه علم كون الآية التي يأتي بها الرسول ليست بشرط ولا يجب عليه الإتيان بها، وفيه علم مراعاة الله عباده مع سوء أدبهم مع الله، وفيه علم عموم نفع الإيمان في الآخرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والأربعون وثلاثمائة

في معرفة منزل سرّ الإخلاص في الدين وما هو الدين ولماذا سمي الشرع ديناً وقول النبيّ ﷺ: «الخَيْرُ عَادَةٌ»

[البسيط]

لِكُلِّ شَخْصٍ من القُرآن سُورَتُهُ ... وسُورَتي من كتاب الله تَنْزِيلُ
أتى بها المَلأُ العُلْوِيُّ يَقْدُمُهُ ... عند التَّنَزُّل ميكالٌ وجبريلُ
أتى بها تنثني لِيناً مَعَاطِفُها ... وفي جوانبها هَدْيٌ وتضليلُ
إذا نَظَرْتَ ترى في آيها عَجَباً ... نارٌ ونُورٌ وتَنْزيهٌ وتَمْثيلُ
بِكْرُ النّواظر في أجفانها دَعَجٌ ... لم يَفْتَرِعْ طَرْفَها بكُحْلِهِ المِيلُ

تجلت لنا هذه السورة بمدينة حلب، وقيل لي لما رأيتها هذه سورة لم يطمثها إنس ولا جانّ، فرأيت لها ومنها ميلاً عظيماً إلى جانبي، وقد مثلت لي في شبه هذا المنزل الذي كنت دخلته قبل ذلك، ثم قيل لي: هي خالصة لك من دون المؤمنين، فلما قيل لي ذلك فهمت الإشارة وعلمت أنها ذاتي وعين صورتي لا غيري، فإنه ما لموجود شيء مخلص له ليس لغيره قديمه وحديثه إلا ذاته خاصة فقلت: ها أنا ذا، فعلمت عند ذلك معنى التخليص، وعلمت ما تلي علي فيما أنزل علي من القرآن عند التلاوة، وذلك أنه لما نزل الإلهام بتلاوة سورة الإخلاص رزقت عين الفهم في تسميتها بهذا الاسم دون غيرها من السور، فإنها كلها نسب الله وصفته، وهي عين مجموع العالم، ففهمت الإشارة بها في أن العالم مع كونه هو الحق المبين من حيث مجموعه لا من حيث جزء جزء منه، فتخلص النسب لله من حيث ذاته، فهذا المجموع هو في الحق عين واحدة وهو في العالم عين الحق المبين، قالت طائفة من الأمّة اليهودية: انسب لنا ربك، فنسبه لمجموع العالم بما نزل عليه من الله تعالى في ذلك فقيل له: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] فنعته بالأحدية ولكل جزء من العالم أحدية تخصه لا يشارك فيها بها يتميز ويتعين عن كل ما سواه مع ماله من صفات الاشتراك، ثم قيل له: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢] وهو الذي يصمد إليه في الأمور أي يلجأ والأسباب الموضوعة كلها في العالم يلجأ إليها ولهذا سميت أسباباً لتواصل مسبباتها إلى الصمد الأوّل الذي إليه تلجأ الأسباب ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [الإخلاص: ٣] وهو العقيم الذي لا يولد له، وبهذه الصفة نعت الريح بالعقيم لأنه من الرياح ما هي لواقح ومنها ما هي عقيم ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] آدم عليه السلام فإن الولادة معلومة عند السائلين فخوطبوا بما هو معلوم عندهم ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤] أراد بالكفو هنا الصاحبة لأجل مقال من قال: إن المسيح ابن الله وعزير ابن الله، والكفاءة المثل، والمرأة لا تماثل الرجل أبداً فإن الله يقول: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فليست له بكفؤ فإن المنفعل ما هو كفؤ لفاعله، والعالم منفعل عن الله فما هو كفؤ لله وحوّاء منفعلة عن آدم فله عليها درجة الفاعلية فليست له بكفؤ من هذا الوجه.

ولما قال إنه ﴿لِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] لم يجعل عيسى عليه السلام منفعلاً عن مريم حتى لا يكون الرجل منفعلاً عن المرأة كما كانت حوّاء عن آدم ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ جبريل أو الملك ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] وقال لها: ﴿أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] فوهبها عيسى عليه السلام، فكان انفعال عيسى عن الملك الممثل في صورة الرجل، ولذلك خرج على صورة أبيه ذكراً بشراً روحاً، فجمع بين الصورتين اللتين كان عليهما أبوه الذي هو الملك فإنه روح من حيث عينه بشر من حيث تمثله في صورة البشر، فسمى هذه السورة سورة الإخلاص، أي خلص الحق للعالم من التنزيه الذي يبرهن عليه العقل، وخلصه من العالم بمجموع هذه الصفات في عين واحدة وهي أعني هذه الصفات مفرقة في العالم لا يجمعها عين واحد، فإن آدم عليه السلام أكمل صورة ظهرت في العالم ومع هذا نقصه لم يلد فإنه أحد صمد لم يولد ولم تكن لو حوّاء كفواً، فخلصت هذه السورة الحق من التشبيه كما خلصته من التنزيه، فإذا فهمت ما أشرنا إليه فاعلم أنّ سر الإخلاص هو سر القدر الذي أخفى الله علمه عن العالم لا بل عن أكثر العالم فميز الأشياء بحدودها، فهذا معنى سر القدر فإنه التوقيف عينه وبه تميزت الأشياء وبه تميز الخالق من المخلوق والمحدث من القديم، فتميز المحدث بنعت ثابت يعلم ويشهد، وما تميز القديم من المحدث بنعت ثبوتي يعلم بل تميز بسلب ما تميز به المحدث عنه لا غير، فهو المعلوم سبحانه المجهول، فلا يعلم إلا هو ولا يجهل إلا هو، فسبحان من كان العالم به عين الجهل به، وكان الجهل به عين العلم به وأعظم من هذا التمييز لا يكون ولا أوضح منه لمن عقل واستبصر.

وأمّا الإخلاص في الدين فهو الجزاء الوفاق فما ثم إلا جزاء وفاق لا ينقص ولا يزيد، فإن الله جعله جزاء وفاقاً إنباء عن حقيقة لأن المجازي لا يمكن أن يقبل ما لا يعطيه استعداده، وباستعداده قبل ما ظهر عليه من الدين الذي يطلب الجزاء فيه بعينه أعني الاستعداد قبل الجزاء فكان الجزاء وفاقاً، والجزاء ما هو إلا للعمل ولا يأخذه العامل إلا من عمله ولهذا قيل: «**إنَّ في الجنة ما لا عَينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سمعتْ ولا خَطَرَ على قلب بَشَرٍ**» وهو الصحيح، فإنه يصدر من العاملين عمل من غير قصد ما رأته عينه ولا سمعته أذنه ولا خطر على قلبه إلا عندما ظهر منه رأته عينه عند ذلك وخطر له كما يرى ما في الجنة مما لم يره في الدنيا ولا سمع به ولا خطر على قلبه، فذلك هو الجزاء الوفاق لهذا النوع من العمل، وهذا العمل هو من قوله تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] فأظهره في منزل لا يعلمه من جهة فكره ولا رأته عينه ولا سمعته أذنه أنه يقام فيه، فيكون جزاؤه ما ذكره في الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فخلص الجزاء لهذا العمل بصفة الوفاق وهذا من سر القدر.

ولما كان الدين هو عمل الخير والدين العادة ذكر عليه السلام أن الخير عادة، وهذا الذكر بشارة من عالم بالأمور وهو الرسول ﷺ بأن النفس خيرة بالذات، وما تقبل الشر إلا لجاجة من القرين بما يلج عليها به فلم يجعل الشر من ذاتها فقال ﷺ: «**الخَيرُ عَادَةٌ وَالشَّرُّ**

لَجَاجَةٌ» ولما ألح القرين على النفس ولج بالشر الذي هو عين مخالفة أمر الله ونهيه وضاقت منافسها من هذا الإلحاح واللجاج أوحى الله إليها بل كلمها من الوجه الخاص الذي لا يعرفه الملك بأن تقبل منه ما ألح عليها به من الشر، فرأى الحق فيها استيحاشاً وخوفاً من المكر الإلهيّ، فأشهدها حضرة التبديل وأشهدها مآل المكلفين إلى الرحمة وتلا عليها: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠] وتلا عليها في المسرفين: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣] فأزال وحشتها وقبلت من القرين الشر الذي جاء به إليها فسر بما وقع منها من القبول لجهله بعموم الرحمة وعموم العفو والمغفرة، وأن الله ما جعل العفو إلا لهذا الصنف الذي يتلقى من الشيطان القرين ما جاء به من الشر، وما علم أن الله قد جعل النفس في قبولها شر القرين باللجاج والإلحاح منزلة المكره والمكره غير مؤاخذ، فسمى الشر لجاجة بشارة إلهية لا يشعر بها كل أحد وجعل الخير عادة فإن النفس بالذات خيرة لأن أباها الروح القدسي الطاهر فطبعها الخير لا غيره، وأمّها هذه الصورة المسوّاة من هذه الأخلاط، فأوّل قبول ظهر فيها قبول السواء والعدل وهو قوله: ﴿فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧] وقبول العدل عين الخير وقبلت بالأصالة هذه النشأة مجاورة الأضداد وهي الأخلاط، ومن عادة الضدّ المنافرة عن ضدّه، ولم يوجد هنا تنافر فدل على خيرية الأصل ثم قبولها بعد التعديل والتسوية لنفخ الروح القدسي، فكان أوّل قبول قبلته على ما زاد على نشأتها نفخ هذا الروح الخير الطاهر المطهر، فلهذا كان الخير لها عادة بالطبع الذي طبعت عليه، ولهذا ترجع في المآل إلى أصلها، فإن الأصل منها ما ذكرناه من قبول الخير فتلحقها الرحمة في المآل كما كان وجودها عين الرحمة فختم الأمر بما به بدأ والخاتمة عين السابقة.

ومما يؤيد ما ذكرناه أن أوّل نشأة إنسانية التي كانت أصل النشآت الإنسانية كانت في غاية التقديس، وأوج الشرف بكونها مخلوقة على الصورة الإلهية فلم يظهر عنها إلا المناسب، فكما كان المناسب لها مع وجود المخالفة التي تعطيها حقائق الأسماء الإلهية المقابلة أن لا يتطرّق إليها لمخالفة بعضها بعضاً لسان ذم، كذلك ما ظهر من المخالفة في هذه النشأة الإنسانية لا يتطرّق إليها في المآل تسرمد عذاب فإن الأصل يحميها من ذلك وهو الصورة فكانت مجبورة في مخالفتها فلا بد من المخالفة لأنه لا بد من تقابل الأسماء في الذي خلقت على صورته، فالنافع ما هو الضار، ولا المعطي هو المانع، ولا بد من ظهور هذه الحقائق في هذه النشأة حتى يصح كمال الصورة، فالطائع يقابل العاصي، والمشرك يقابل الموحد، والمعطل يقابل المثبت، والموافق يقابل المخالف من إمداد الأسماء الإلهية وهو قوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾ [الإسراء: ١٠] يعني الطائع والعاصي، وأهل الخير والشر ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] أي ممنوعاً لأنه يعطي لذاته، والمحال القوابل تقبل باستعدادها واستعدادها أثر الأسماء الإلهية فيها، ومن الأسماء الإلهية الموافق والمخالف، مثل الموافق: الرحيم والغفور وأشباهه، ومثل المخالف: المعز والمذل، فلا بد أن يكون استعداد هذا المحل في حكم اسم من هذه الأسماء فيكون قبوله للحكم الإلهيّ

بحسب ذلك، فإما مخالف وإما موافق، ومن كان هذا حاله كيف يتعلق به ذم ذاتي والأعراض لا ثبات لها، فالخير في الإنسان ذاتي وهو الذي يبقى لها حكمه، والشر عرضي فيزول ولو بعد حين، قال تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨] وهذا مثل قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ [الزمر: ٥٣] فأضافهم إلى نفسه، كما أضاف إلى نفسه نفوسهم في خلقها فقال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢] و﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠] ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] والإسراف كرم عام خارج عن الحد والمقدار، وكذا قال في الإنفاق: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ [الفرقان: ٦٧] أي لم يوسعوا ما يخرج عن الحاجة، ولم يقتروا لم ينقصوا مما تمس إليه الحاجة ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] فإنها وسعت كل شيء وأنتم من الأشياء وقد عرفتكم كيف أنشأتكم ومن أي شيء أنشأتكم، من روح مطهرة وطبيعة موافقة قابلة طائعة غير عاصية ولا مخالفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] فما أبقى منها شيئاً، فبأي شيء يسرمد عليهم العذاب ولا يكون إلا جزاء وفاقاً وقد غفر وما غفر له فلا حكم له، فإن الذي غفر له ﴿هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] والغفور الرحيم لذاته فلا يبرح من حين له يغفر مغفوراً له لا يعود إليه حكم الذنب لأن الحافظ هوالغفور الرحيم، فلو أزاله وغفره غير هذا الاسم وأمثاله أمكن أن لا يثبت لعدم الحافظ له فتنبه لما أعلمناك به فإنه من لباب المعرفة.

واعلم أن الكُمَّلَ من رجال الله الخلفاء في العالم الذين عبدوا على المشاهدة لا على الغيب هم الذين تكون لهم الرؤية الإلهية جزاء لا زيادة، ومن نزل عن هذا الكمال هو الذي تكون له زيادة على الجزاء في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وهو قول رسول الله ﷺ: «**إذَا وَزَنْتَ فَأَرْجِحْ**» لما قضى رسول الله ﷺ ما كان عليه فلما وزنه قال للذي بيده الميزان: «**أَرْجِحْ**» ليزيد له على ما يستحق لما رأى أن الحق قد ذكر الزيادة على المعاوضة، وقال في هذا المقام: «**أَحْسَنُكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً**» فهذا هو الإخلاص في الدين الذي هو الجزاء، وهنا يظهر معنى قوله ﷺ: «**وأعُوذُ بِكَ مِنْكَ**» لأنه لما نطق ﷺ بالاستعاذة به بضمير الخطاب من غير تعيين اسم لم يجد له مقابلاً لأنه ما عين اسماً فلم يجد من يستعيذ منه فرأ نفسه على صورته فقال منك فاستعاذ بالله من نفسه لأن النفس الذي هو المثل وردت في القرآن مثل قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] أي أمثالكم، وقال ﷺ: «**لاَ أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَداً**» وقال: «**كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ**» أي أمثالكم فيتوجه قوله: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**» أن الكافين واحدة، ويتوجه أن الكاف في منك تعود على المثل وهو نفس المستفيذ فإنه خليفة محصل للصورة على أتم الوجوه، فاستعاذ بالله من نفسه لما يعلمه من المكر الخفي الإلهي، فإنه ما أظهر الصورة المثلية في هذه النشأة على التشريف فقط بل هي شرف وابتلاء، فمن ظهر بحكم الصورة على الكمال فقد حاز الشرف بكلتي يديه، فإن الصورة الإلهية لا يلحقها ذم بكل وجه، ومن نقص عن هذا الكمال كان في حقه مكراً إلهياً من حيث لا يشعر، كما أن الخلافة في العالم ابتلاء لا تشريف ولهذا قال ﷺ: «**إِنَّها فِي الآخِرَة مَنْدَمَةٌ**» لما يتعين على

صاحبها من الحقوق التي يطالب بها يوم القيامة حتى يتمنى أنه لم يل أمراً من أمور العالم وقد جعلنا رعاة فقال: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» فلكل شخص حكم من الصورة الإلهية، فمن جمعت له الصورة بكمالها لم يسأل فإن الله ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ومن لا ينطق عن الهوى لا يسأل عما يقول سؤال مناقشة وحساب، ولكن قد يسأل سؤال استفهام لإظهار علم يستفيده السامعون كسؤال الحق رسله، وهم لا ينطقون عن الهوى يوم يجمعهم فيقول: ماذا أجبتم؟ فيقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] فيعلم أهل الموقف أصحاب الكشف أن الرسل هم أتم العالم كشفاً، ومع هذا فما أطلعهم الله على إجابة القلوب من أممهم ولا إجابة من وصلت إليهم دعوتهم ولم يكونوا حاضرين ولا من كان حاضراً وأجابه بلسانه هل أجابه بقلبه كما أجابه بلسانه؟ فإن قلت: فقد سمع إجابة من أجابه بلسانه وما أجابه به، قلنا: لقرائن الأحوال حكم لا يعرفه إلا من شاهدها. وقد عرفنا من عين جواب الرسل عليهم السلام أنهم فهموا عن الله عند هذا السؤال أنه أراد إجابة القلوب فإنهم قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فلو فهموا من سؤاله تعالى إجابة الألسنة لفصلوا بين من سمعوا إجابته بإقراره بلسانه وبين من لم يسمعوا ذلك منه، فلما ذكروا في الجواب الغيوب علمنا أن السؤال كان عن جواب القلوب، واستفدنا من هذا أن الذي يكشف له ما يلزم أن يعم كشفه كل شيء لكن عنده استعداد الكشف لا غير، فما جلى له الحق من أسرار العالم في مرآه قلبه إن كان معنى، أو في مرآة بصره، إن كان صورة كشفه ورآه لا غير.

فإن قلت: فمن كان الحق بصره قد سمعتك تقول فيمن هذا حاله أنه يدرك كل مبصر في الكون ولا يغيب عن بصره شيء لأنه ناظر بحق. قلنا: صدقت ولكن فرق ما بين المقام والحال والأحوال لا بقاء لها وهذا حال فعند حصوله صح له هذا الكشف في ذلك الزمان، ولما رفع عنه رجع ينظر بعين خلق بإمداد حق لا بحق، فيكون حكمه حكم خواص الخلق له الكشف الجزئي لا الكلي إذ لا يكشف إلا المعتاد الذي للعموم، فإذا كشف كل مبصر في العالم كشفه على ما هو عليه في وقته، فلما رفع عنه لم يعرف ما آل إليه أمر تلك المبصرات في زمان رفع هذا الكشف هل بقوا على ما كانوا عليه أو هل انتقلوا عن ذلك وطلب الله منهم العلم بذلك لقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ والجواب بالظنون لا يليق، ثم تمموا فقالوا ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فقيدوه بالغيوب فإنه في يوم تبلى فيه السرائر والسرائر غيوب العالم بعضهم عن بعض، فعلمنا الحق بهذه الآية التأدب مع أصحاب الكشف وأن نعلم مراتب الكشف لئلا ننزل صاحب الكشف فوق منزلته ونطلب منه ما لا يستحقه حاله فنتعبه ولا نعذره ونصفه بالجهل في ذلك ولا علم لنا بأنا جهلنا فتكون جهالتان.

وكما أن للملائكة مقامات معلومة كذلك للبشر مقامات معلومة منها يكون المزيد لهم لا يتعدّونها وإن زادوا علماً فمن ذلك المقام وهو المقام الذي يكون فيه عند آخر نفس يكون منه ويفارق الروح تركيب هيكله المسمى موتاً، فمن ذلك المقام يكون له المزيد، ولهذا يقع

التفاضل بين الناس في الدار الآخرة ويزيد الله الذين أوتوا العلم وهم مؤمنون على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم درجات وبالمقامات فضل الله كل صنف بعضه على بعض.

وفي هذا المنزل من العلوم علم العرش هل العرش الذي استوى عليه الاسم الرحمن هو العرش الذي يأتي عليه الله الحكم العدل يوم القيامة للفصل والقضاء الذي تحمله الثمانية أو هو عرش آخر؟ وهل إن كان عرشاً آخر غير الذي استوى عليه فما معنى قول الرسول ﷺ لما نزلت هذه الآية ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] يعني يوم الآخرة قال: «**وهُوَ اليَوْمَ أَرْبَعَةٌ**» وما هؤلاء الثمانية المنكّرة؟ هل كلهم أملاك أو ليسوا بأملاك؟ أو بعضهم أملاك وبعضهم غير أملاك؟ وهل العرش سريراً وهو ملك معين من الملك ما هو الملك كله لأنه فيه أتى للفصل والقضاء بين عباده وعباده من الملك فلا بد أن يكون ملكاً معيناً؟ وهل هذا العرش الذي يأتي عليه يوم القيامة هو ظلل الغمام التي يأتي فيها الله يوم القيامة أم لا؟ والملائكة هي التي تأتي في ظلل من الغمام ويكون إتيان الله مطلقاً من هذا التقييد. وفيه علم نهاية سطح العرش هل له فوقية أم لا؟ وما معنى له حول؟ وما معنى الاستواء عليه إذا لم يتصف بأن له فوقاً فإنه نهاية الجسم فلا خلاء ولا ملاء بعده؟ وهذا كله إذا كان العرش سريراً أو ملكاً خاصاً من العالم، فإن كان العرش عبارة عن العالم كله لا عالم الأجسام كان له حكم آخر ليس هذا حكمه هذا كله يتضمنه هذا المنزل ويحتاج إلى العلم به ليعلم الأمر على ما هو عليه، وفيه علم اختلاف الاستواء باختلاف الأدوات الداخلة وبعدم الأدوات، وفيه علم اختلاف الجماعات ولم لم يكن الكل جماعة واحدة؟ وبماذا تميزت جماعة من أخرى؟ وما الصفة التي عدمتها كل جماعة حتى تفرقت الجماعات ولم تفترق إلى آحاد. وفيه علم أول قوّة يكون لها الحكم عند البعث من قوى الحس وهل يتقدمها حكم قوة أخرى من قوى الحس قبل البعث أم لا؟ وفيه علم انتشار الروح الإلهي على الأجسام كلها، وفيه علم أحوال حكم الله يوم القيامة في الخلق وبأي اسم يتجلى في ذلك اليوم، وفيه علم القوة الإلهية والنشر والطيّ في أي أوان يكون وهل يتقدم بعث العالم أو يتأخر؟ فإن تأخر فأين يكون العالم عند ذلك؟ وهل تجتمع الملائكة والبشر في صعيد واحد في ذلك اليوم أم لا؟ وفيه علم منزلة من وصف الحق بأوصاف الخلق من الذم ومبلغه من العلم في ذلك، وفيه علم تأديب الصغير والكبير وهو قوله: إياك أعني فاسمعي يا جارة، وفيه علم الأدوات في ترتيب الخطاب وما تفيد كل أداة منها واشتراك الأدوات في الصورة واختلافها في الحكم كلفظة لا فصورتها واحدة وهي من جملة الأدوات وأحكامها مختلفة بحسب الحضرة التي تتجلى فيها فيكون حكمه النفي ويكون النهي ويكون العطف وهكذا سائر الأدوات وهذا من علم البيان الذي علمه الإنسان، وفيه علم الإيمان المذموم في الشرع وهل حكم الإيمان في نفسه حكم الشرع فيه أم لا؟ وهل يعدل به عن حقيقته فيظهر له تجل في غير حقيقته صورته فيسمى به الصورة التي انتقل إليها، وفيه علم مراتب الكذب ومحموده من مذمومه وأين يجب استعماله وأين يحرم استعماله؟ ومراتب المكذبين. وفيه علم مرتبة الخنثى وهو الذي تنسب إليه الذكورة

فيقبلها وتنسب إليه الأنوثة فيقبلها فهل هو ذكر أو أنثى أو لا ذكر ولا أنثى؟ فإن الله قال: ﴿خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥] فهل يتضمن هذا الخطاب الخنثى فإنه مخلوق ينسب إليه الأمران ليدخل تحت هذا الخطاب، أو هو خارج عن هذا الخطاب ويدخل تحت قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] فإن الخنثى برزخ متوسط فإن اسم الحيوان ينطلق عليه ولا بد فإنه ليس من خصائص الإنسان، كما أن الذكورة والأنوثة ليست من خصائص النوع الإنساني، وفيه علم التهيؤ لانتظار الفجآت لأنه لا يدري بما يأتي وهذا مقام لم أر أحداً أتم مني فيه لله الحمد على ذلك، وفيه علم التعمل في اكتساب الأهم فالأهم وهو من الحزم وأين موطنه من موطن التراخي؟ وفيماذا يكون التراخي أولى من الحزم وما يحمد من الحزم مع كونه سوء الظن ويبتني على هذا أمور كثيرة فهو علم شريف، وفيه علم ما آل العالم المكلف من الإنس والجان والجان الذين هم الملائكة وهل يرتفع عنهم الخوف أم لا يزال يستصحبهم أبد الآبدين؟ وفيه علم التجلي في غير صورة العلم، وفيه علم حجاب النعم ومتى هو الإنسان أتم حضوراً مع الله هل في حال الشدة أو في حال الرخاء؟ ولأي حال هو الحمد العام والحمد الخاص؟ وفيه علم اختلاف المحامد لاختلاف الأحوال، وفيه علم الإنس بمن يقع الأنس هل بالمناسب أو بغير المناسب أو بهما؟ وفيه علم الاعتماد على الأسباب هل كله مذموم أو محمود أو منه ما هو مذموم ومنه ما هو محمود؟ وما هو سبب بوضع الحق وما هو سبب بوضع الخلق؟ وفيه علم مراتب العلم بالموت، وفيه علم نفي الوكالة من الخلق، وفيه علم الكفاية وبمن يكتفى وهل يصح الاكتفاء بمخلوق في أمر أم لا؟ وفيه علم ما هو الإحسان ومن هو المحسن وعلم الإساءة ومن هو المسيء. وفيه علم المثلين إذا تماثلا من جميع الوجوه المعنوية هل يصطحبان أم لا؟ فإن الفائدة قد ارتفعت ما بينهما وهذه مسألة لا يتنبه إليها إلا منور البصيرة من لا يزال مع الأنفاس يستفيد ومن ليست له هذه الحالة فليس بإنسان كامل الإنسانية لأنه ما أعطي النظر إلا ليستفيد، وفيه علم الفرق بين معاملة الله ومعاملة الخلق وهل تتساوى عند العامل المراقبة في المعاملتين أم لا؟ ولا سيما عند من يرى أن الله قد جعل للعالم حقوقاً بعضه على بعضه فيتعين على العامل مراقبة الخلق لأداء الحقوق التي أوجبها الله عليه لهم فهل ذلك من مراقبته فيكون ما راقب إلا الحق؟ أو هل ذلك من مراقبة الخلق فيرجع ذلك إلى استحقاق هذه الحقوق؟ وهل استحقها العالم على هذا الشخص لذاتهم أعني لذات المستحقين أو هل يستحقها بجعل الله فيعلم من هذا المنزل صورة الأمر على حقيقته من جمع أو تفصيل؟ وفيه علم تفاضل طبقات العذاب والنعيم، وفيه علم ضرب الأمثال ومن ينبغي أن يضرب له مثل ومن ينبغي أن لا يضرب له مثل لقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] وهو قد ضرب الأمثال فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ كيف يضربها ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤] فناط بهم الجهل بالمواطن فالعالم يقطع عمره في نظر ما ضرب الله له من الأمثال ولا يستنبط مثلاً من نفسه ولا سيما لله وما أظن يفي عمر الإنسان بتحصيل علم ما ضرب الله له من الأمثال، وفيه علم من يبين عن الله هل يسمّى هادياً أم لا؟ فإنه مهدي بلا شك، وفيه علم حال القرآن

في التالين عن الله العارفين بتنزله على قلوبهم وما يورثهم ذلك من القبض والبسط وأي الصفتين يتقدم حكمها في التالين بالحال أو في القبض أو البسط؟ وفيه علم فضل العقل في العقلاء وما لب العقل هل حكمه حكم العقل أم لا؟ فإن الله فرق الآيات فجعل آيات ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] وآيات ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] فقيدهم من العقال وهو التقييد، وفيه علم المقرب هل له حد عند الله في نفوذ عنايته أو تنفذ عنايته مطلقاً؟ وفيه علم شرف اتباع ما شرع الله اتباعه من مكارم الأخلاق، وفيه علم الربح والخسران لماذا يرجعان؟ وفيه علم الحذر العقلي والحذر المشروع هل هو الحذر العقلي الذي يعينه العقل أم لا تعيين في ذلك إلا للشرع؟ أو فيه ما جعل الله تعيينه للعقل فاكتفى به عن تعيينه في الشرع ومنه ما جعل الله تعيينه للشرع؟ وفيه علم ما يكره وما لا يكره، وفيه علم نشء الذرية لإنشاء الإنسان بما هو إنسان، وفيه علم التداخل في الأشياء إذا كانت أحوالاً وأعراضاً كتداخل الرائحة واللون والسكون والعلم والجهل في الذات الواحدة في الزمن الواحد، وفيه علم تعيين أنصبة الشركاء في الشيء وأنها إذا تعينت فليسوا بشركاء، ولا بد أن يكون النصيب في نفس الأمر معيناً وإن وقعت الإشاعة فلجهل الشركاء في ذلك فإنه لا بد أن يتعين إذا وقعت القسمة إما في عين الشيء أو في قيمته فإذا لا تصح الشركة أصلاً لأن الأمور معينة عند الله في هذا الشيء المسمى مشتركاً فيه وقد ثبت اسم الشركاء عرفاً وشرعاً فلماذا يرجع؟ ألا ترى إلى الذين اتخذوا مع الله شركاء في الألوهة هل لهم منها نصيب؟ فإذا علمت أنه ليس لهم نصيب في الألوهة فما هم شركاء وقد سموا شركاء فيعلم أنه لا تصح الشركة في العالم أصلاً للاتساع الإلهي، فلا يشترك اثنان فصاعداً في أمر قط، فالذي عند هذا مثل لما عند هذا ما هو عين ما عند هذا، وإن انطلق على ذلك اسم الاشتراك فنقول: ما وقع به الاشتراك غير ما وقع به الامتياز، وما ثم إلا الامتياز خاصة ما ثم اشتراك، إذ ليس هذا الذي عند هذا هو عين الآخر عند الآخر، فيعلم من هذا الكشف معنى إطلاق الشركة في العرف وأن الشرع تبع العرف في ذلك ليفهم عنه لأنه جاء بلسان قومه وهو ما تواطؤوا عليه، ولهذا اختلف الناس في الرسول هل له وضع لغة في ذلك اللسان أو ليس له ذلك؟ وفيه علم اختلاف تنزل الشرائع من الله باختلاف الأحوال والأزمان والأماكن والأشخاص والنوازل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والأربعون وثلاثمائة

في معرفة منزل سرّ صدق فيه بعض العارفين فرأى نوره كيف ينبعث من جوانب ذلك المنزل وهو من الحضرات المحمدية

[الطويل]:

عَجِبْتُ لمعصوم يقال له اتَّبِعْ ... ولا تَبْتَدي واحكمْ بما أنزل اللّهُ
وكيف يُرَى المعصومُ يحكم بالهوى ... مع الوحي والتحقيقُ ما ثَمَّ إلا هُو

فكل هَوًى في عالم الخلق ساقطٌ إذا نظرتَ من عارف الوقت عَيْنَاهُ
ولكنه المرموزُ ولا يدركُ السَّنا وشاهدُ حال الوقت عن ذاك أعْمَاهُ
وما يعلمُ المعنى الذي قد قصدتُه وبيَّنتُه إلا حليمٌ وأوّاهُ
ألا كلُّ كون حرفُ لفظ محقَّقٌ ونسبتُكم من ذلك الحرف معناهُ

اعلم أن هذا المنزل من منازل التوحيد والأنوار وأدخلنيه الله تعالى مرتين، وفي هذا المنزل صرت نوراً كما قال ﷺ في دعائه: «**وَاجْعَلْنِي نُوراً**» ومن هذا المنزل علمت الفرقان بين الأجسام والأجساد، فالأجسام هي هذه المعروفة في العموم لطيفها وشفافها وكثيفها ما يرى منها وما لا يرى، والأجساد هي ما يظهر فيها الأرواح في اليقظة الممثلة في صور الأجسام، وما يدركه النائم في نومه من الصور المشبهة بالأجسام فيما يعطيه الحس وهي في نفسها ليست بالأجسام.

واعلم أن مرتبة الإنسان الكامل من العالم مرتبة النفس الناطقة من الإنسان، فهو الكامل الذي لا أكمل منه وهو محمد ﷺ، ومرتبة الكمل من الأناسي النازلين عن درجة هذا الكمال الذي هو الغاية من العالم منزلة القوى الروحانية من الإنسان وهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ومنزلة من نزل في الكمال عن درجة هؤلاء من العالم منزلة القوى الحسية من الإنسان وهم الورثة رضي الله عنهم، وما بقي ممن هو على صورة الإنسان في الشكل هو من جملة الحيوان، فهم بمنزلة الروح الحيواني في الإنسان الذي يعطي النموّ والإحساس.

واعلم أن العالم اليوم بفقد جمعية محمد ﷺ في ظهوره روحاً وجسماً وصورة ومعنى نائم لا ميت، وأن روحه الذي هو محمد ﷺ هو من العالم في صورة المحل الذي هو فيه روح الإنسان عند النوم إلى يوم البعث الذي هو مثل يقظة النائم هنا، وإنما قلنا في محمد ﷺ على التعيين إنه الروح الذي هو النفس الناطقة في العالم لما أعطاه الكشف، وقوله ﷺ: إنَّهُ سَيِّدُ النَّاسِ؛ والعالم من الناس فإنه الإنسان الكبير في الجرم والمقدم في التسوية والتعديل ليظهر عنه صورة نشأة محمد ﷺ كما سوى الله جسم الإنسان وعدله قبل وجود روحه ثم نفخ فيه من روحه روحاً كان به إنساناً تاماً أعطاه بذلك خلقه وهو نفسه الناطقة، فقبل ظهور نشأته ﷺ كان العالم في حال التسوية والتعديل كالجنين في بطن أمه، وحركته بالروح الحيواني منه الذي صحت له به الحياة فأجل فكرك فيما ذكرته لك، فإذا كان في القيامة حيي العالم كله بظهور نشأته مكملة ﷺ موفر القوى، وكان أهل النار الذين هم أهلها في مرتبتهم في إنسانية العالم مرتبة ما ينمو من الإنسان فلا يتصف بالموت ولا بالحياة؛ وكذا ورد فيهم النص من رسول الله ﷺ أنهم «**لا يَمُوتون فيها ولا يَحْيَوْن**» وقال الله فيهم: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤] والملائكة من العالم كله كالصور الظاهرة في خيال الإنسان وكذلك الجن، فليس العالم إنساناً كبيراً إلا بوجود الإنسان الكامل الذي هو نفسه الناطقة، كما أن نشأة الإنسان لا تكون إنساناً إلا بنفسها الناطقة، ولا تكون كاملة هذه النفس الناطقة من الإنسان إلا بالصورة الإلهية المنصوص عليها من الرسول ﷺ، فكذلك نفس العالم الذي هو محمد ﷺ

حاز درجة الكمال بتمام الصورة الإلهية في البقاء والتنوّع في الصور وبقاء العالم به، فقد بان لك حال العالم قبل ظهوره ﷺ أنه كان بمنزلة الجسد المسوى، وحال العالم بعد موته بمنزلة النائم، وحالة العالم ببعثه يوم القيامة بمنزلة الانتباه واليقظة بعد النوم.

واعلم أن الإنسان لما كان مثال الصورة الإلهية كالظل للشخص الذي لا يفارقه على كل حال غير أنه يظهر للحس تارة ويخفى تارة، فإذا خفي فهو معقول فيه، وإذا ظهر فهو مشهود بالبصر لمن يراه، فالإنسان الكامل في الحق معقول فيه كالظل إذا خفي في الشمس فلا يظهر فلم يزل الإنسان أزلاً وأبداً، ولهذا كان مشهوداً للحق من كونه موصوفاً بأن له بصراً فلما مد الظل منه ظهر بصورته ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] ولو شاء لجعله ساكناً أي ثابتاً فيمن هو ظله فلا يمده فلا يظهر له عين في الوجود الحسي إلا الله وحده، فلم يزل مع الله ولا يزال مع الله فهو باق ببقاء الله، وما عدا الإنسان الكامل فهو باق بإبقاء الله.

ولما سوّى الله جسم العالم وهو الجسم الكل الصوري في جوهر الهباء المعقول قبل فيض الروح الإلهي الذي لم يزل منتشراً غير معين إذ لم يكن ثم من يعينه فحيي جسم العالم به، فكما تضمن جسم العالم أجسام شخصياته كذلك تضمن روحه أرواح شخصياته ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩] ومن هنا قال من قال: إن الروح واحد العين في أشخاص نوع الإنسان، وإن روح زيد هو روح عمرو وسائر أشخاص هذا النوع، ولكن ما حقق صاحب هذا الأمر صورة هذا الأمر فيه فإنه كما لم تكن صورة جسم آدم جسم كل شخص من ذريته، وإن كان هو الأصل الذي منه ظهرنا وتولدنا كذلك الروح المدبرة لجسم العالم بأسره، كما أنك لو قدرت الأرض مستوية لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً وانتشرت الشمس عليها أشرقت بنورها ولم يتميز النور بعضه عن بعضه ولا حكم عليه بالتجزي ولا بالقسمة ولا على الأرض، فلما ظهرت البلاد والديار وبدت ظلالات هذه الأشخاص القائمة انقسم النور الشمسي وتميز بعضه عن بعضه لما طرأ من هذه الصور في الأرض، فإذا اعتبرت هذا علمت أن النور الذي يخص هذ التنزل ليس النور الذي يخص المنزل الآخر ولا المنازل الأخر، وإذا اعتبرت التي ظهر منها هذا النور وهو عينها من حيث انفهاقه عنها قلت: الأرواح روح واحدة وإنما اختلفت بالمحال الشمس كالأنوار نور عين واحدة غير أن حكم الاختلاف في القوابل مختلف لاختلاف أمزجتها وصور أشكالها، ولما أعطيت هذا المنزل سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وأقمت فيه شبه لي بالماء في النهر لا يتميز فيه صورة بل هو عين الماء لا غير، فإذا حصل ما حصل منه في الأواني تعين عند ذلك ماء الجب من ماء الجرة من ماء الكوز وظهر فيه شكل إنائه ولون إنائه فحكمت عليه الأواني بالتجزي والأشكال مع علمك أن عين ما لم يظهر فيه شكل إذا كان في النهر عين ما ظهر إذا لم يكن فيه غير أن الفرقان بين الصورتين في ضرب المثل أن ماء الأواني وأنوار المنازل إذا فقدت رجعت إلى النور الأصلي والنهر الأصلي، وكذلك هو في نفس الأمر لو لم تبق آنية ولا يبقى منزل لأنه لما أراد الله بقاء هذه الأنوار على ما قبلته من التمييز خلق لها أجساداً برزخية تميزت فيها هذه الأرواح عند

انتقالها عن هذه الأجسام الدنياوية في النوم وبعد الموت، وخلق لها في الآخرة أجساماً طبيعية كما جعل لها في الدنيا ذلك غير أن المزاج مختلف فنقلها عن جسد البرزخ إلى أجسام نشأة الآخرة فتميزت أيضاً بحكم تميز صور أجسامها ثم لا تزال كذلك أبد الآبدين، فلا ترجع إلى الحال الأوّل من الوحدة العينية أبداً. فانظر ما أعجب صنع الله الذي أتقن كل شيء، فالعالم اليوم كله نائم من ساعة مات رسول الله ﷺ يرى نفسه حيث هي صورة محمد ﷺ إلى أن يبعث، ونحن بحمد الله في الثلث الأخير من هذه الليلة التي العالم نائم فيها، ولما كان تجلي الحق في الثلث الأخير من الليل وكان تجليه يعطي الفوائد والعلوم والمعارف التامة على أكمل وجوهها لأنها عن تجل أقرب لأنه تجل في السماء الدنيا، فكان علم آخر هذه الأمة أتم من علم وسطها وأوّلها بعد موت رسول الله ﷺ، لأن النبيّ ﷺ لما بعثه الله بعثه والشرك قائم والكفر ظاهر، فلم يدع القرن الأوّل وهو قرن الصحابة إلا إلى الإيمان خاصة ما أظهر لهم مما كان يعلمه من العلم المكنون وأنزل عليه القرآن الكريم وجعله يترجم عنه بما يبلغه إفهام عموم ذلك القرن، فصوّر وشبه ونعت بنعوت المحدثات وأقام جميع ما قاله من صفة خالقه مقام صورة حسية مسوّاة معدّلة، ثم نفخ في هذه الصورة الخطابية روحاً لظهور كمال النشأة فكان الروح ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] و﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] وكل آية تسبيح في القرآن فهو روح صورة نشأة الخطاب فافهم فإنه سرّ عجيب فلاح من ذلك لخواص القرن الأوّل دون عامته، بل لبعض خواصه من خلف خطاب التنزيه أسرار عظيمة، ومع هذا لم يبلغوا فيها مبلغ المتأخرين من هذه الأمة لأنهم أخذوها من موّاد حروف القرآن والأخبار النبوية، فكانوا في ذلك بمنزلة أهل السمر الذين يتحدثون في أوّل الليل قبل نومهم، فلما وصل زمان ثلث هذه الليلة وهو الزمان الذي نحن فيه إلى أن يطلع الفجر فجر القيامة والبعث ويوم النشر والحشر تجلى الحق في ثلث هذه الليلة وهو زماننا، فأعطى من العلوم والأسرار والمعارف في القلوب بتجليه ما لا تعطيه حروف الأخبار، فإنه أعطاها في غير مواد بل المعاني مجرّدة فكانوا أتم في العلم وكان القرن الأوّل أتم في العمل.

وأما الإيمان فعلى التساوي، فإن هذه النشأة لما فطرت على الحسد وبعث فيها نبي من جنسها فما آمن به إلا قوي على دفع نفسه لما فيها من الحسد وحب التفوق والنفور من الحكم عليها، ولا سيما إذا كان الحاكم عليها من جنسها تقول: بماذا فضل علي حتى يتحكم فيّ بما يريده؟ فينسب إلى المؤمن من الصحابة من القوّة في الإيمان ما لا ينسب إلى من ليست له مشاهدة تقدم جنسه عليه، فكان اشتغالهم بدفع قوّة سلطان الحسد أن يحكم فيهم بالكفر يمنعهم من إدراك غوامض العلوم وأسرار الحق في عباده، ولم تحصل له رتبة الإيمان بغيب صورة الرسول وما جاء به لكونهم مشاهدين له ولصورة ما جاء، فلما جاء زماننا ووجدنا أوراقاً مكتوبة سواداً في بياض وأخباراً منقولة ووجدنا القبول عليها ابتداء لا نقدر على دفعه من نفوسنا إذا وفقنا الله علمنا أن قوّة نور الإيمان أعطى ذلك ولم نجد تردّداً ولا طلبنا آية ولا دليلاً على صحة ما وجدناه مكتوباً من القرآن ولا منقولاً من الأخبار، فعلمنا على القطع قوة

الإيمان الذي أعطانا الله عناية منه، وكنا في هذه الحالة مؤمنين بالغيب الذي لا درجة للصحابة فيه ولا قدم، كما لم يكن لنا قدم في الإيمان الذي غلب ما يعطيه سلطان الحسد عند المشاهدة، فقابلنا هذه القوّة بتلك القوّة فتساوتا وبقي الفضل في العلم حيث أخذناه من تجلي هذه الليلة المباركة التي فاز بها أهل ثلثها مما لا قدم للثلثين الماضيين من هذه الليلة فيها.

ثم إن تجليه سبحانه في ثلث الليل من هذه الليالي الجزئية التي يعطيها الجديدان في قوله: «**إنّ ربَّنا ينزلُ كلَّ ليلة في الثُلُثِ الأخير منها إلى السماء الدُّنيا فيقول: هل مِنْ تائب؟ هل مِنْ مستغفر؟ هل مِنْ سائل؟ حتى يَنْصَدِعَ الفجر**»، فقد شاركنا المتقدمين في هذا النزول وما يعطيه غير أنه تجل منقطع، وتجلى ثلث هذه الليلة التي نحن في الثلث الأخير منها وهي من زمان موت رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة لم يشاركنا في هذا الثلث أحد من المتقدمين، فإذا طلع فجرها وهو فجر القيامة لم ينقطع التجلي بل اتصل لنا تجليه فلم يزل بأعيننا فنحن بين تجل دنياويّ وأخراوي وعام وخاص غير منقطع ولا محجوب، وفي الليالي الزمانية يحجبه طلوع الفجر فحزنا ما حازوه في هذه الليالي، وفزنا بما حصل لنا من تجلي ثلث هذه الليلة المباركة التي لا نصيب لغير أهلها جبراً لقلوبهم لما فقدوه من مشاهدة الرسول ﷺ وكان خيراً لهم، فإنهم لا يعرفون كيف كانت تكون أحوالهم عند المشاهدة هل يغلبهم الحسد أو يغلبونه؟ ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

فاعرف يا ولي منزلتك من هذه الصورة الإنسانية التي محمد ﷺ روحها ونفسها الناطقة هل أنت من قواها أو من محال قواها وما أنت من قواها هل بصرها أم سمعها أم شمها أم لمسها أم طعمها؟ فإني والله قد علمت أي قوّة أنا من قوىٰ هذه الصورة لله الحمد على ذلك، ولا تظنّ يا وليّ أن اختصاصنا في المنزلة من هذه الصورة بمنزلة القوى الحسية من الإنسان بل من الحيوان أن ذلك نقص بنا على منزلة القوى الروحانية لا تظن ذلك بل هي أتم القوى لأن لها الاسم الوهاب، لأنها هي التي تهب للقوى الروحانية ما تتصرف فيه، وما يكون به حياتها العلمية من قوّة خيال وفكر وحفظ وتصور ووهم وعقل وكل ذلك من موادّ هذه القوى الحسية، ولهذا قال الله تعالى في الذي أحبه من عباده: «**كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ**» وذكر الصورة المحسوسة وما ذكر من القوى الروحانية شيئاً ولا أنزل نفسه منزلتها لأن منزلتها منزلة الافتقار إلى الحواس، والحق لا ينزل منزلة من يفتقر إلى غيره، والحواس مفتقرة إلى الله لا إلى غيره، فنزل لمن هو مفتقر إليه لم يشرك به أحداً فأعطاها الغنى فهي يؤخذ منها وعنها ولا تأخذ هي من سائر القوى إلا من الله، فاعرف شرف الحس وقدره وأنه عين الحق، ولهذا لا تكمل النشأة الآخرة إلا بوجود الحس والمحسوس لأنها لا تكمل إلا بالحق، فالقوى الحسية هم الخلفاء على الحقيقة في أرض هذه النشأة عن الله لا نراه سبحانه كيف وصف نفسه بكونه سميعاً بصيراً متكلماً حياً عالماً قادراً مريداً، وهذه كلها صفات لها أثر في المحسوس، ويحس الإنسان من نفسه بقيام هذه القوى به، ولم يصف سبحانه نفسه بأنه عاقل ولا مفكر ولا متخيل، وما أبقى له من القوى الروحانية إلا ما للحس

مشاركة فيه وهو الحافظ والمصوّر فإن الحس له أثر في الحفظ والتصوير، فلولا الاشتراك ما وصف الحق بهما نفسه فهو الحافظ المصور؛ فهاتان صفتان روحانية وحسية، فتنبه لما نبهناك عليه لئلا ينكسر قلبك لما أنزلتك منزلة القوى الحسية لحساسة الحس عندك وشرف العقل، فأعلمتك أن الشرف كله في الحس وأنك جهلت أمرك وقدرك، فلو علمت نفسك علمت ربك كما أن ربك علمك وعلم العالم بعلمه بنفسه وأنت صورته، فلا بد أن تشاركه في هذا العلم فتعلمه من علمك بنفسك، وهذه نكتة ظهرت من رسول الله ﷺ حيث قال: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» إذ كان الأمر في علم الحق بالعالم علمه بنفسه وهذا نظير قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] فذكر النشأتين: نشأة صورة العالم بالآفاق ونشأة روحه بقوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فهو إنسان واحد ذو نشأتين حتى يتبين لهم للرائين أنه الحق أي أن الرائي فيما رآه الحق لا غيره، فانظر يا وليّ ما ألطف رسول الله ﷺ بأمّته وما أحسن ما علمهم وما طرّق لهم، فنعم المدرس والمطرق، جعلنا الله ممن مشى على مدرجته حتى التحق بدرجته آمين بعزته، فإن كنت ذا فطنة فقد أومأنا إليك بما هو الأمر عليه بل صرّحنا بذلك وتحملنا في ذلك ما ينسب إلينا من ينكر ما أشرنا به في هذه المسألة من العمي الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، ووالله لولا هذا القول لحكمنا عليهم بالعمى في ظاهر الحياة الدنيا والآخرة، كما حكم الله عليهم بعدم السماع مع سماعهم في قوله تعالى ناهياً: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] مع كونهم سمعوا نفى عنهم السمع، وهكذا هو علم هؤلاء بظاهر الحياة بما تدركه حواسهم من الأمور المحسوسة لا غير، لأن الحق تعالى ليس سمعهم ولا بصرهم، فلنذكر ما يتضمنه هذا المنزل من العلوم إن شاء الله:

فمن ذلك علم عطش العالم الذي لا يقبل معه الري من العلم بالله، وفيه علم استناد هذا العلم الذي أعطاه هذا التعطش إلى حضرة الجمع الذي فيه عين الفرقة، وفيه علم ما يحصل بالذكر هل هو علم ما نسيه أو مثله لا عينه لشبهه في الصورة فإنه كان عالماً بأمر ثم نسيه لما تعطيه نشأته فلم تحفظ عليه صورة علمه بذلك المعلوم ثم ذكره بعد ذلك فهل ما شاهده في ذكره عين ما نسيه أو مثله؟ فإن الزمان قد اختلف عليه مع شبه الزمان بعضه ببعضه فأنت تعلم أن عين أمس ما هو عين اليوم ولا عين غد مع شبهه به في الصورة فمن أي قبيل هو علم الذكر؟فإن كان هو عينه فمن حفظه حتى ذكره، وأين خزانة حفظه هل هي في الناسي ولا ندري أو لها موضع آخر تحفظ فيه زمان نسيانه؟ فإذا تذكر كان عين تجلي ذلك العلم له فيكون الحق خزانته وهو الحافظ له والمجلي له حتى يذكره هذا الناسي، وإن لم يكن الأمر كذلك وإلا فليس بذاكر لما نسي بل هو متعلم علماً جديداً مماثلاً لعلمه الأوّل، وإنما وقع التجديد في التجلي الذي أعطاه ذكر ما نسي وهي مسألة عجيبة في علم كون العبد نسي ربه في أوقات ما لشغله بنفسه أو بشيء من العالم ثم يتذكره وهذا المنسي الذي لا يقبل التجديد بل هو عينه فمن هنا تعرف علم ذكر ما نسيته. وفيه علم البَدَاء وهل يستحيل هذا

الوصف على الله أم لا؟ ومن هنا أنكر من أنكر النسخ الإلهيّ في الأمور والشرائع وقال بإنكاره خلق كثير كما قال بتقريره لا على جهة البَدَاء خلق كثير، ونحن سلكنا في علم النسخ طريقاً بين طريقين فلم نقل بالبداء ولا نفينا النسخ وجعلناه انتهاء مدّة الحكم في علم الله إذ لم يرد حكم من الله ذكر أنه مؤبد أو جار إلى أجل معين ثم رفعه قبل وصول ذلك الأجل فلهذا سلكنا هذه الطريقة فيه، وفيه علم من ظهر في غير منزلته بصورة غيره حتى جعل نفسه مشقاً أو مثلاً لمن تلك صورته ليوقع اللبس ما حكم الله فيمن هذه صفته وما نعته الذي ينبغي أن يطلق عليه، وفيه علم الحكمة في الأمور التي تعطي التقديم والأمور التي تعطي التأخير بحكم الجزم أو بحكم الاختيار، وفيه علم منزلة المعتبرين في اعتبارهم ومن أين تطرق لهم هذا الزلل مع صحة الاعتبار في نفسه فإنه لا زلل فيه وإنما الزلل في المعتبرين وتميز طبقاتهم في ذلك وهو علم عزيز إذ ما كل معتبر يقيم الاعتبار في موضعه وهل المعتبر فيه بفتح الباء لما نصبه الحق هل نصبه لمجرد الاعتبار خاصة فلا يكون له قرار في نفسه إلا ما دام عبرة، فإذا ارتفعت عنه صفة الاعتبار من العالم ارتفع وجوده أو هو مقرر في نفسه لا يزول سواء اعتبره المعتبر أو لم يعتبره أو زال الاعتبار من العالم كما يزول في الآخرة عند الإقامة في الدارين، وفيه علم إنكار الجاهل على العالم من أين أنكر عليه هل من حضرة أو صفة أو وجودية في عينها أو عن تخيل لا وجود له من خارج في عينه بل في حضرة خيال المنكر، فإن إنكار العالم على الجاهل ما ينكره الجاهل عليه ما هي صورته صورة إنكار الجاهل على العالم وإن اجتمعا في النكران وهل على الحقيقة في العالم ما ينكر أم لا؟ وما هو الإنكار وعلى ما هو حقيقة؟ هل هو أمر وجودي أو نسبة؟ وفيه علم التنافس من أين ظهر في العالم ولماذا لا يظهر إلا في الجنس؟ وهل التشبه بالإله من هذا القبيل فإن كان فما الجنس الجامع بين الخلق والحق؟ هل الصورة التي نالها الإنسان الكامل المخلوق عليها أو ما ينافس هذا الإنسان الجزئي إلا الإنسان الذي لم يزل يحفظ صورة الحق في نفسه الذي هو ظل له فيحب هذا الإنسان الجزئي أن ينال رتبة ذلك الإنسان الذي هو ظل الصورة الإلهية أو ليس صورة الحق إلا عين هذا الإنسان الذي عبرنا عنه بالظل والحق روح تلك الصورة فيكون الحق ذا صورة وروح كما يتجلى في الآخرة فينكر ويعرف فإن الله ما ذكر ذلك التجلي سدى أعني في ذكر النبيّ ﷺ له في هذه الحياة الدنيا فما ذكره إلا لينبه القلوب على طلب علم ذلك من الله، وفيه علم خزائن الرحموت لا الرحمة، وفيه علم الرحمة المستندة إلى إعطاء الإنعام وإلى المقام الذي به رفعت حكم الغضب الإلهيّ من العالم وإلى المقام الذي يكون منه خلق ما يصلح بالعالم وأعني بذلك كله عالم التكليف، ومن هذا المقام تكلم القائلون بوجوب مراعاة الأصلح في حق الحق. وفيه علم الترقي في علم الأسباب هل ينتهي أو لا ينتهي؟ وهل الترقي سبب فيرتقي فيه وبه، وفيه علم الفتن والملاحم المعنوية ولمن تكون الغلبة فيها والظهور وإلى حيث ينتهي أمر هذه الفتن، وفيه علم تشبه العالم بالعالم وطبقاته فمن ذلك ما هو تشبه محمود كتشبه عالم التكليف منا بعالم التسبيح وهو كل شيء مسبح بحمد الله من العالم وكتشبه الإنسان بمن تقدّمه

في مكارم الأخلاق ومنه ما هو تشبه مذموم، وأما التشبه بالحق فذلك التشبه المطلوب عند أكثر أهل الله، وأما عندنا فلا يصح التشبه بالله، وما قال به من الحكماء إلا من لا معرفة له بالأمر على ما هو عليه في نفسه. وفيه علم الفرق بين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٦٨] وبين قوله تعالى: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥] فوحد وثنى، فما محل التثنية من محل الإفراد أو كيف هو الأمر؟ وفيه علم الخاتمة في الحال قبل كونها هل ذلك خاتمة في حق العالم بها أم لا؟ وهل العلم بذلك من البشرى التي قال الله فيها: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ [يونس: ٦٤] أم لهذا صورة وللبشرى صورة أخرى؟ فإن النبيّ ﷺ قد بشر جماعة بالجنة وعاشوا بعد ذلك زماناً طويلاً بخلاف بشرى المحتضر، وفيه علم القوة الحادثة وتجزئها في المحدثات وهل ثم محدث أخذها كلها أم لا يتصور ذلك؟ وما قدرها من القوّة الإلهية هل هي جزء من كذا وكذا جزء منها أم لا؟ فإن القوّة الإلهية محلها الممكنات على الإطلاق والقوة الحادثة محلها بعض الممكنات، فإذا حضرت أجناس العالم الممكن وسميت ما للقوّة من الممكنات علمت على القطع مقدار ذلك من القوّة الإلهية. وفيه علم الفرق بين التسخير العام والتسخير الخاص وهل كون الحق ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٩] و﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ [الرحمٰن: ٣١] هل هو من علم التسخير وبابه أو هو من حقيقة أخرى؟ فإن السيد بصورة الحال يقوم بما يحتاج إليه عبده فهو تسخير دقيق يعطي كمالاً في السيد، فإن العبد ليست منزلته أن يسخر سيده ومنزلة العبد أن يكون مسخراً تحت تسخير سيده، بالحالين تسخير بأمر سيده وتسخير بنفسه من ذاته لكونه عبداً وقد يسخر لغير سيده من أمثال سيده ومن أمثاله بطرق مختلفة، منها ما يكون تسخيره لذلك الغير عن أمر سيده، ومنها ما يكون بطريق المروءة مع المسخر له بفتح الخاء، ومنه ما يكون عادة لاستصحاب التسخير له من كونه عبداً فصار له ذلك ديدناً يحكم عليه فيتسخر لغير سيده بحكم العادة لا بالمروءة ولا بأمر السيد وفيه علم نظر العالم كله إلى هذا الإنسان هل ينظر إليه من كونه خليفة أو ينظر إليه من حيث ما عنده من الأمانات له ليؤديها إليه فهو مرسل من الحق بحكم الجبر لا بحكم الاختيار لأنه ما خلق بالأصالة إلا لتسبيح خالقه، وفيه علم ما تقع به العناية الإلهية للعبد وما يعطيه ذلك الاعتناء من المنزلة والعلم، وفيه علم الإجمال والتفصيل. وفيه علم دقيق وهو أن آدم عليه السلام أعطى لداود من عمره ستين سنة حين رأى صورته بين إخوته فأحبه فقبل ذلك داود فجحد آدم بعد ذلك ما أعطاه فانكسر قلب داود عند ذلك فجبره الله بذكر لم يعطه آدم فقال في آدم: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وما عينه باسمه ولا جمع له بين أداة المخاطب وبين ما شرّفه به فلم يقل له وعلمتك الأسماء كلها، وقال في خلافة داود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] فسماه فلما علم الله أن مثل هذا المقام والاعتناء يورثه النفاسة على أبيه آدم فإنه على كل حال بشر يكون منه ما يكون من البشر وما عرف قدر هذا إلا رسول الله ﷺ فقال: **«إنَّما أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ»** يعني لنفسه ولحق غيره **«وَأَرْضَى كَمَا يَرْضَى البَشَرُ»** يعني لنفسه ولغيره، وكان هذا من التأديب الإلهيّ الذي أدّبه به ربه تعالى فيما أوحى به

إليه فقال له: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١] أي حكم البشرية فيّ حكمها فيكم، فلما أراد الله تأديب داود لما يعطيه الذكر الذي سماه الله به من النفاسة على أبيه ولا سيما وقد تقدم من أبيه في حقه ما تقدم من الجحد لما امتن به عليه لكون الإنسان إذا مسه الخير منوعاً غير أن آدم ما جحد ما جحده إلا لعلمه بمرتبته حيث جعله الله محلاً لعلم الأسماء الإلهية التي ما أثنت الملائكة على الله بها ولم تعط بعده إلا لمحمد ﷺ وهو العلم الذي كني عنه بأنه جوامع الكلم، فعلم آدم أن داود في تلك المدّة التي أعطاه من عمره لا يمكن أن يعبد الله فيها إلا على قدر كماله وهو أنقص من آدم في المرتبة لا شك لسجود الملائكة وما علمهم من الأسماء فطلب آدم أن يكون له العمر الذي جاد به على ابنه داود عليه السلام ليقوم فيه بالعبادة لله على قدر علوّ مرتبته على ابنه داود وغيره مما لا يقوم بذلك داود، فإذا قام بتلك العبادة في ذلك الزمان المعين وهب لابنه داود أجر ما تعطيه تلك العبادة من مثل آدم، ولو ترك تلك المدّة لداود لم تحصل له رتبة هذا الجزاء وحصل لآدم عليه السلام من الله على ذلك رتبة جزاء من آثر على نفسه فإنه يجزى بجزاء مثل هذا لم يكن يحصل له لو لم يكن ترك تلك المدة لداود، فكما أحبه في القبضة حين أعطاه من عمره ما أعطاه كذلك من حبه رجع في ذلك ليعطيه جزاء ما يقع في تلك المدّة من آدم من العمل ولا علم لداود بذلك، فلما جبره الله بذكر اسمه في الخلافة قال له من أجل ما ذكرناه من تطرق النفاسة التي في طبع هذه النشأة وإليه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [صَ: ٢٦] فحذره فشغله ذلك الحذر عن الفرح بما حصل له من تعيين الله له باسمه، ولكن قد حصل له الفرح وأخذ حظه منه قبل أن يصل إليه: زمان ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لا عن الله فأمره بمراقبة السبيل، ثم تأدب الله معه حيث قال له: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُوا۟﴾ [صَ: ٢٦] ولم يقل فإنك إن ضللت عن سبيل الله لك عذاب شديد، وهذا علم شريف، وفي هذا المنزل علم أصحاب الكشف أنه ليس من حقيقة الكشف أن يعلمه المكاشف في كل صورة بل ذلك على قدر ما يريده الحق فيستر عنه ما شاء ويطلعه على ما شاء، فليس من شأن المكاشف نفوذ بصره في كل صورة تتجلى له بل تقوم له تلك الصورة التي لا يدري ما هي مقام كثافة الصورة عن إدراك الحس البشري لما خطر في نفس تلك الصورة التي أدركها البصر، وفي وقت آخر يعطيه الكشف بما تكلم به ذلك الشخص في قلبه وهو الكلام على الخاطر عن علم معين له وكشف لا عن زجر ولا حدس ولا موافقة.

وفيه علم ما يبقى الرفق الإلهي بالعالم، وفيه علم حكمة وجود العالم، وفيه علم أسباب النزول، وفيه علم الوهب والكسب، وفيه علم ما هو الأمر الذي يقوم فيه العبد مقام سيده وفيه علم رعاية الأسباب التي أعطت الخير لصاحب النظر فيها، وفيه علم الأبدال أي علم الصور التي يدركها البدل على صورته حيث شاء على علم منه وأن منزلته منزلة عيسى عليه السلام في قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣] وعلم الصور التي يقيمها الحق بدلاً من صورة هذا الذي يقام عنه حيث شاء الحق على غير علم من

هذا الذي يقام عنه، ومنزلته فيها منزلة يحيى عليه السلام في قول الله ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ١٥] وأي المقامين أتم وأعلى، وكون يحيى لم يجعل له من قبل سميًّا، واختصاصه بذبح الموت يوم القيامة، وفيه علم ما السبب الذي يدعو الإنسان أن يطلب الانفراد بالأتم والأعلى والتفوق على غيره، وفيه علم رفع المقادير هل ترفع في نفس الأمر أو لا يصح رفعها، وإنما ترفع في حق من ترفع في حقه وهي مقدّرة عند الله من حيث لا يشعر العالم بذلك، وفيه علم أن كل شيء يعلمه الإنسان إنما هو تذكر لا ابتداء علم وأن كل علم عنده لكنه نسيه، وفيه علم صورة تسليط الجن على الإنس والإنس على الجن، وهل تسليط الجن على الإنس ظاهراً وباطناً أو هو في حق قوم ظاهراً خاصة والباطن معصوم أو كيف هو الأمر؟ وكذلك القول في تسليط الإنس على الجن إلا أن الإنس ليس لهم تسليط إلا على ظاهر الجن إلا من تروحن من الإنس وتلطف معناه بحيث يظهر في ألطف من صور الجن فيسري بذاته في باطن الجن سريان الجن في باطن الإنس فيجهله الجنيّ ويتخيل أن ذلك من حكم نفسه عليه وهو حكم هذا الإنسيّ المتروحن، وما رأيت أحداً نبّه على هذا النوع من العلم وأطلعني الله تعالى عليه فما أدري هل علمه من تقدم من جنسي وما ذكره أم لا؟ وفيه علم الدواء الذي يزيل به الإنسان ما أثر فيه الجن في تسلطه عليه، وفيه علم ما ينكشف له بعد ذهاب هذا الأثر منه، وفيه علم صدور الكثرة عن الواحد وهل صدر عن الواحد أحدية الكثرة أو الكثرة؟ وفيه علم الصادر عن المصدر أنه يؤذن أن يكون له حكم المصدر فإن ثبت هذا فيكون مآل العالم المكلف إلى الراحة فإن الحق ما صدر عنه العالم من يوم الأحد إلى يوم الجمعة ودخل يوم الأبد هو يوم السبت والسبت الراحة وهو السابع من الأيام الذي لا انقضاء له وما مس الخالق من لغوب في خلقه ما خلق، ولكن كان يوم السبت يوم الفراغ من طبقات العالم وبقي الخلق من الله فيما يحتاج إليه هذا العالم من الأحوال التي لا ينتهي أبدها ولا ينقضي أمدها، وفيه علم نشء الملائكة، وفيه علم نشء الإنسان ومرتبته وماله من الحضرة الإلهية وتفاضل أشخاص هذا النوع بماذا يكون التفاضل هل بالنشء أو بما يقبله من الأعراض؟ وفيه من العلوم غير هذا ولكن قصدنا إلى المهم فالمهم من ذلك لننبه القلوب عليه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والأربعون وثلاثمائة

في معرفة منزل العندية الإلهية والصف الأوّل عند الله تعالى

[السريع]:

كم بَيْنَ من يعلمُ ما كان لَهْ وبين مَنْ زَادَ على علمِهِ
هذا الذي في علمه يَرْتَقي وذاك ما يبرحُ من حُكْمِهِ
فالحالُ للأوّل من كَيْفِه والعلمُ للآخر من كَمِّهِ
وكَمُّهُ لا ينتهي حكمُه فعلمُه يُرْبي على فَهْمِهِ

لـولا وجـودُ الـحَـرْفِ مـا كـان لـي فَـهْـمٌ وقـد يُـدْرَكُ مـن وَهْـمِـهِ
فـالـعـلـمُ والـفـهـمُ لـعـيـنـي مـعـاً ولـيـس لـلـحـقّ سـوى عـلـمـهِ

وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾ [النحل: ٩٦] وقال: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف: ٦٥] وقال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقال رسول الله ﷺ: «**كما تصفُّ الملائكةُ عِنْدَ رَبِّهَا**». وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١] فاختلفت إضافات هذه العندية باختلاف ما أضيفت إليه من اسم وضمير وكناية، وهي ظرف ثالث ما رأيت من أهل الله من تنبه له حتى يعرف ما هو، فإنه ليس بظرف زمان ولا ظرف مكان مخلص بل ما هو ظرف مكانة جملة واحدة على الإطلاق، وكذلك هو في قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ﴾ [النحل: ٩٦] فجعل لنا عندية وما هي ظرف مكان في حقنا فعجبت من العلماء كيف غفلوا عن تحقيق هذه العندية التي اتصف بها الحق والإنسان، ثم إن الله جعل عنديته ظرفاً لخزائن الأشياء ومعلوم أنه يخلق الأشياء ويخرجها من العدم إلى الوجود، وهذه الإضافة تقضي بأنه يخرجها من الخزائن التي عنده فهو يخرجها من وجود لم ندركه إلى وجود ندركه فما خلصت الأشياء إلى العدم الصرف بل ظاهر الأمر أن عدمها من العدم الإضافي، فإن الأشياء في حال عدمها مشهودة له يميزها بأعيانها مفصلة بعضها عن بعض ما عنده فيها إجمال، فخزائنها أعني خزائن الأشياء التي هي أوعيتها المخزونة فيها إنما هي إمكانات الأشياء ليس غير ذلك لأن الأشياء لا وجود لها في أعيانها بل لها الثبوت، والذي استفادته من الحق الوجود العيني فتفصلت للناظرين ولأنفسها بوجود أعيانها ولم تزل مفصلة عند الله تفصيلاً ثبوتياً، ثم لما ظهرت في أعيانها وأنزلها الحق من عنده أنزلها في خزائنها فإن الإمكان ما فارقها حكمه، فلولا ما هي في خزائنها ما حكمت عليها الخزائن فلما كان الإمكان لا يفارقها طرفة عين ولا يصح خروجها منه لم يزل المرجح معها لأنه لا بدّ أن تتصف بأحد الممكنين من وجود وعدم فما زالت هي والخزائن عند الله إذ المرجح لا يفارق ترجيح أحد الممكنين على هذه الأشياء فما لها خروج من خزائن إمكانها، وإنما الحق سبحانه فتح أبواب هذه الخزائن حتى نظرنا إليها ونظرت إلينا ونحن فيها وخارجون عنها كما كان آدم خارجاً عن قبضة الحق وهو في قبضة الحق يرى نفسه في الموطنين، فمن رأى الأشياء ولم ير الخزائن ولا رأى الله الذي عنده هذه الخزائن فما رأى الأشياء قط فإن الأشياء لم تفارق خزائنها وخزائنها لم تفارق عندية الله، والضمائر والعندية الإلهية لم تفارق ذاته، فمن شهد واحداً من هذه الأمور فقد شهد المجموع: [مخلع البسيط]

عـنـديَّـةُ الـحَـقِّ عـيـنُ ذاتـه فـيـهـا لأشـيـائـه خَـزائِـنْ
يُـنَـزِّلُ مـنـهـا الـذي يَـرَاهُ فـهـي لـمـا يَـحْـتَـويـه صـائـنْ
إنـزالُـه لـم يُـزلْـه عـنـهـا لأنـه أعْـيُـنُ الـكـوائـنْ
عـنـديَّـةٌ ظَـرْفُـهـا نـزيـهٌ مـا هـي عـنـديَّـةُ الأمـاكـنْ

ودهـــرُهـــا الله لا زمـــانٌ والـدهـرُ ظـرفٌ لـكـلّ سـاكِـنْ
يَـمْـلُـكُـهُ بـالـسـكـون فـيـه مـسـكـنـه أشـرفُ الـمـسـاكـنْ
لـيـس لـهـا نَـقْـلَـةٌ بـلا هـو فَـهْـيَ كـمَـلْـزُومـه تُـعَـايـنْ
مـا سُـقْـتُـهُ مـن دقـيـق مـعـنـى ومـا أنـا لـلـغـريـم ضـامـنْ

فما في الكون إن كنت عالماً أحدية إلا أحدية المجموع لأنه لم يزل إلهاً ولا يزال إلهاً، وما تجدّد عليه حكم لم يكن عليه ولا حدث اسم لم يكن تسمى به فإنه المسمى نفسه ولا قام به نعت لم يكن قبل ذلك منعوتاً به بل له الأمر من قبل ومن بعد، فهو ذو الأسماء الحسنى والصفات العليا والإله الذي في العماء والرحمن الذي وصف نفسه بالاستواء والرب الذي ينزل كل ليلة في الثلث الباقي من الليل إلى السماء وهو معنا أينما كنا؛ ما يكون من نجوى عدد معين إلا وهو مشفع ذلك العدد أو موتره فهو رابع الثلاثة وسادس الخمسة وأكثر من ذلك وأدنى، فهل رأيت أو هل جاءك من الحق في وحيه إلا أحدية المجموع لأنه ما جاء إلا إله واحد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ [الحشر: ٢٢] ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ﴾ [الحشر: ٢٣] ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ﴾ [الحشر: ٢٤] وأنت تعلم إن كنت من أهل الفهم عن الله أن هذه الأسماء وإن ترادفت على مسمى واحد من حيث ذاته فإنا نعلم أنها تدل على معان مختلفة ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠] فما ندعو إلا إلهاً واحداً له هذه الأسماء المختلفة الحقائق والمدلولات، ولم تزل هذه الأسماء أزلاً، وهذه هي الخزائن الإلهية التي فيها خزائن الإمكانات المخزونة فيها الأشياء، فقابل الجمع بالجمع، والكثرة بالكثرة، والعدد بالعدد، مع أحدية العين فذلك أحدية الجمع، وكل مصل يناجي ربه في خلوته معه، وأن الله واضع كنفه عليه فو المطلق المقيد العام في الخصوص الخاص في العموم.

واعلم أن الله جعل لنا موطنين في التصفيف لم يجعل ذلك لغيرنا من المخلوقين: صف في موطن الصلاة، وصف في موطن الجهاد فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] وأمرنا بالتراص في الصف في الصلاة، وذكر أن الملائكة تتراص في الصف عند ربها وجعل صفوفنا كصفوف الملائكة وليس ذلك لغيرنا من الأمم ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ وهو الإمام ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ﴾ [النبأ: ٣٨] فالإمام صف وحده لأنه مجموع وأحديته أحدية المجموع ولذلك كان صفاً وحده، وتجلى الحق لأهل الصفوف في مجموع الأحدية لا في أحدية المجموع، لأن كل شخص من أشخاص الصفوف يناجي من الحق ما يعطيه حضوره وما يناسب قصده وما هو عليه من العلم بربه، ولهذا تجلى لهم في مجموع الأحدية فسبق لهم المجموع وأضافه إلى الأحدية حتى لا يشركوا مع الله أحداً في عبادتهم مع اختلاف مقاصدهم وعقائدهم وأحوالهم وأمزجتهم ومناسباتهم ولهذا تختلف سؤالاتهم وتكثر، فلو تجلى لهم في أحدية

المجموع لم يتمكن لهم النظر إلى المجموع مع وجود تقدم الأحدية، ولو كان ذلك لكانت مقاصدهم مقصداً واحداً وسؤالهم سؤالاً واحداً، وحالاتهم في الحضور حالاً واحدة، وعلمهم بالله علم واحد والواقع ليس كذلك، فدل على أن التجلي كان في مجموع الأحدية ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فرجع المجموع إلى الواحد وأضيف إليه لئلا يتخيلوا أن المجموع وجود أعيان وهو وجود أحكام وأن الله ما شرع الإمام في الصلاة إلا ليقابل به الأحدية التي أضاف المجموع إليها ويقابل بالجماعة مجموع الأحدية، فالإمام يناجي الأحدية خاصة، ولهذا اعتقد من اعتقد عصمة الإمام في الصلاة حتى يسلم وهم أصحاب الإمام المعصوم لأن الواحد لا يسهو عن أحديته إلا المعلم بالفعل فإنه يقوم به السهو ليعلم كيف يكون حكم الساهي من الجماعة وليس إلا الأنبياء خاصة، وما عدا الرسل فهو متبع واحد من أهل الصف، فإذا تقدم هو وليس برسول فهو معصوم لأنه ليس بمعلم، هذا الذي جعل أصحاب الإمام المعصوم الذين هم الإمامية يقولون بعصمة الإمام، والواقع خلاف ذلك فإنه ما من إمام إلا ويسهو في صلاته وإن لم يسه عن صلاته والجماعة تناجي مجموع الأحدية كل شخص مأموم يناجي ما يقابله من مجموع الأحدية، فأي مصل صلى ولم يشاهد ما ذكرناه من إمام ومأموم فما صلى الصلاة المشروعة بالكمال وإن أتمها فما أكملها لأن تمام الصلاة إقامة نشأتها واستيفاء أركانها من فرائضها وسننها من قيام وتكبير وقراءة وركوع وخفض ورفع وهيئة وسلام، إذا أتى بهذا كله فقد أتمها، وإذا شاهد ما ذكرناه فقد أكملها لأن الغاية هي المرتبة، وما وضعت الصلاة إلا لغايتها وهو المعبر عنه في العموم بالحضور في الصلاة أي استصحاب النية في أجزائها من أوّل الدخول فيها والتلبس بها إلى الخروج منها. فانظر يا أخي هل صليت مثل هذه الصلاة إماماً كنت أو مأموماً؟ وهل فرقت بينك وبين إمامك في الشهود أو ميزته عنك بالتقدم المكاني وبتقدم المكانة في الحكم؟ فلا تكبر حتى يكبر، ولا تركع حتى يركع، ولا ترفع حتى يرفع، ولا تفعل شيئاً من أفعال الصلاة حتى يفعل فإن رتبتك الاتباع، فالإمام متقدم على المأموم مكاناً إن كان في جماعة ومكانة إن لم يكن معه إلا واحداً فهو إمام بالمكانة يقابل الأحدية ويقابل مجموع الأحدية بانضمام الآخر إليه حتى كأنه الصف، فالإمام إذا تقدم بالمكان والجماعة خلفه لم يشهد سوى الأحدية، وإن كان في الصف مع المأموم لوحدانية المأموم شهد الإمام مجموع الأحدية وأحدية المجموع أو شهد المأموم مجموع الأحدية لا غير فميزته عنه المكانة لاتباعه إياه واقتدائه به، فإن خالفه فإن ناصية المأموم بيد شيطان والشيطنة البعد والصلاة قرب، فهذا قرب في عين بعد وبعد في عين قرب، فلم يشهد هذا المأموم مجموع الأحدية لأنه ليس بمأموم لا مكاناً ولا مكانة، وإذا كان بهذه المثابة فإنّ الإمام في حال مخالفة المأموم له ما يشاهد إلا الأحدية لأنه ليس في صف لفقد المأموم لما زال عن مأموميته، فالإمام في هذه الحال كالمصلي وحده بالنظر إلى حال هذا المأموم وهو إمام بالنظر إلى من يصلي خلفه من الملائكة والملائكة لا تصف إلا خلفه والملائكة تصف عند ربها، وهي في

هذه الحال عند الإمام المصلي وبها وهي لم تزل عند ربها فالإمام خليفة فسجد له الملائكة والإمام يسجد لله فالله قبلة الإمام والإمام قبلة الملائكة، وما أم جبريل عليه السلام بالنبيّ ﷺ إلا ليعلمه الصلاة بالفعل فصلى به مكانة لا مكاناً، فإنه صلى به وحده ولم يتقدم عليه فعلمه عدد الصلوات في أوقاتها وهيئاتها على أتم الوجوه، ثم أمره إذا كان في جماعة أن يتقدمهم بالمكان ومن رأى أنه تقدم بالمكان جبريل أيضاً فلم يكن ذلك إلا حتى كشف الله الغطاء عن بصر النبيّ ﷺ فرأى الملائكة فرأى الجماعة فصف معهم خلف جبريل وأما على الستر فلا، ولهذا صلى النبيّ ﷺ بالرجل وحده وجعله على يمينه في صف واحد لأن ذلك الشخص لم يشاهد الملائكة فراعى الإمام حكم المأموم وما كنت بجانب الطور إذ نادى الله موسى، ولا بالجانب الغربي إذ قضى إلى موسى الأمر ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤] كذلك ما كنت مع رسول الله ﷺ إذ أم به جبريل في الصلوات الخمس ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤] ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١] وليس حكم من شاهد الأمور حكم من لم يشاهدها إلا بالإعلام، فللعيان حال لا يمكن أن يعرفه إلا صاحب العيان، كما أن للعلم حالاً لا يعرفه إلا أولو العلم ليس لغيرهم فيه ذوق ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] : [الوافر]

ولَـكِـنْ لـلـعَـيَـانِ لـطـيـفُ مَـعْـنـى لـذا سَـأَلَ الـمُـعـايـنـةَ الـكَـلِـيـمُ

ما زال سجود الملائكة لبني آدم في كل صلاة كما سجدوا لأبيهم آدم، فما زالت الخلافة في بني آدم ما بقي فيهم مصل يقول الله الله فإن الأمر الإلهيّ والشأن إذا وقع في الدنيا لم يرتفع حكمه إلى يوم القيامة، وقد وقع السجود لآدم من الملائكة وبقي سجودهم لذريته خلف كل من يصلي إلى يوم القيامة، كما نسي آدم فنسيت ذريته، كما جحد آدم فجحدت ذريته، قتل قابيل هابيل ظلماً فما زال القتل ظلماً في بني آدم إلى يوم القيامة، وعلى الأوّل كفل من ذلك، كما للأوّل في الخير نصيب عن كل من فعله، «**فمَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسنةً فله أجْرُها وأجْرُ من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنّ سُنَّةً سيئةً فعليه وزْرُها ووزْرُ من عمل بها إلى يوم القيامة**» وهم الذي يحملون ﴿أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] فكل مصل إمام للملائكة. والملائكة خلفه سجد له، إلا أن الفرق بين الأصل والفرع أعني آدم وذريته أن الملائكة تسجد لسجود بني آدم في القراءة والصلاة، وآدم سجدوا له سجود المتعلم للمعلم فاجتمعا في السجود واختلفا في السبب، وإنما المقصود الذي أردناه أن نبين أن السجود من الملائكة خلف بني آدم ما ارتفع، وأن الإمامة ما ارتفعت من آدم إلى آخر مصل والملائكة تبع لهذا الإمام كما قررناه فنحن عند الله في حال إمامتنا والملائكة في هذه الحال عندنا بالاقتداء فهي عند ربها لأن الإمام عنده فالملائكة عنده لأنها عند الإمام وكل صف إمام لمن خلفه بالغاً ما بلغ؛ وقولي: [مخلع البسيط]

فـعِـنْـدِيَّـةُ الـربِّ مـعـقـولـةٌ وعـنـديـة الـهُـو لا تُـعْـقَـلُ

وعندية الله مجهولة وعندية الخلق لا تجهل
وليس هما عند ظرفية وليس لها غيرها مخمل

الضمير في «لها» يعود على الظرفية، وفي «هما» يعود على عندية الحق والخلق.

واعلم أن العندية نسبة ما هي أمر وجودي لأن النسب أمور عدمية ثابتة الحكم معدومة العين، وسيأتي الكلام إن شاء الله في أحوال الأقطاب فيمن كان هجيره ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] من هذا الكتاب، وإنما قلنا أن عندية الله مجهولة لأن الله بما هو الله لا يتعين فيه اسم من الأسماء الإلهية دون اسم فإنه عين مجموع الأسماء وما تخصصه إلا الأحوال، فإنه من قال: يا الله افعل لي كذا فحاله تخصص أيّ اسم أراد مما يتضمنه هذا الاسم الله من الأسماء، فلهذا يقال فيه إنه مقيد في إطلاق أي تقيده الأحوال بما تطلبه من الأسماء المندرجة فيه ومطلق من حيث انتفاء الأحوال فهو الاسم القابل لكل اسم، كما أن الهيولى الكل قابلة لكل صورة، وعندية الرب قريبة من هذا إلا أن الفرق بينهما أن الرب ما أتى قط إلا مضافاً، فمن كان عنده فهو عند من أضيف إليه ولا يضاف إلا إلى كون من الأكوان وعندية الخلق معلومة فعندية الرب معقولة، وأما عندية الهو فإن الهو ضمير غائب والغائب لا يحكم عليه ما كانت حالته الغيبة لأنه لا يدرى على أي حالة هو حتى يشهد فإذا شهد فليس هو لأن الغيبة زالت عنه، ألا ترى الساكت لا ينسب إليه أمر حتى يتكلم ولا مذهب؟ ولهذا لا يدخل في الإجماع بسكوته، وهذه مسألة خلاف والصحيح ما قلناه، كما أن ترك النكير ليس بحجة إلا في بقاء ذلك الأمر على الأصل المنطوق به في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وكلام بني آدم مما خلق في الأرض وجميع أفعالهم، فإذا رأينا أمراً قد قيل أو فعل بمحضر رسول الله ﷺ ولم ينكره فلا نقول أن حكمه الإباحة فإنه لم يحكم فيه بشيء إذ يحتمل أنه لم ينزل فيه شيء عليه وهو لا يحكم إلا بما أوحى الله فيه إليه فيبقى ذلك على الأصل وهو التصرّف الطبيعي الذي تطلبه هذه النشأة من غير تعيين حكم عليه بأحد الأحكام الخمسة وهو الأصل الأوّل أو نرده إلى الأصل الثاني وهو قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وليس بنص في الإباحة وإنما هو ظاهر، لأن حكم المحظور خلق أي حكم به من أجلنا أي نزل حكمه من أجلنا ابتلاء من الله هل نمتنع منه أم لا؟ كما نزل الوجوب والندب والكراهة والإباحة، فالأصل أن لا حكم وهو الأصل الأوّل الذي يقتضيه النظر الصحيح.

ويتضمن هذا المنزل من العلوم: علم حمد السواء وتفاصيله فإنه عم الطرفين والواسطة وأضافه إلى العالمين لم يخص عالماً من عالم فقال في الطرف الواحد في أوّل فاتحة الكتاب: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] وجعل هذا التحميد بين الرحمة المركبة فإنه تقدمه الرحمن الرحيم وتأخر بعده الرحمن الرحيم فصار العالم بين رحمتين: فأوّله مرحوم ومآله إلى الرحمة، وجاء في وسط سورة يونس في صفة أهل الجنة أن آخر دعائهم: ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] وجاء في سورة والصافات ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٢] بعد قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٢] وهم المرحومون السالمون، فحمد الله رب العالمين عقيب نصره وظفره بخيبر فهو حمد نعمة، فظهر حمد النعمة في أوّل السورة وفي وسطها وفي آخرها فعم الطرفين والواسطة، فهل هذا الحمد في هذه المراتب على السواء من كونه حمد سواء أو هو مختلف المراتب لاختلاف الطرفين والوسط؟ وأي المراتب أعلى فيه؟ هل أحد الطرفين أو الوسط؟ ولمن هو الحمد الأوّل من العالمين والوسط والآخر؟ كل ذلك علم يعطيه الله العلماء بالله الذين يخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله. وفيه علم المراتب الملكية والبشرية وهل مراتبهما على السواء أو أي المراتب أعلى؟ هل مراتب البشر أو مراتب الملائكة أو لكل صنف منهما مراتب تعلو على مراتب الآخر؟ وفيه علم جلب المنافع وهل المضار في طيها منافع أم لا وتعيين المنافع؟ وفيه علم الاتباع في الإلهيات هل يتبع التابع فيها الذكر أو الفكر؟ وفيه علم توحيد الإضافة لا توحيد الإطلاق وهل التوحيد توحيدان أم لا أعني توحيد الذات وتوحيد الإله في الألوهة؟ وبماذا يدرك كل واحد من هذا التوحيد؟ وفيه علم نسبة الله إلى الأشياء هل هي عين نسبة الأشياء إلى الله أو تختلف؟ وفيه علم هل للشيء الواحد وجوه متعددة أو ليس للشيء الواحد سوى وجه واحد وما يصدر عنه إذا كان بهذه المثابة؟ وفيه علم الفرق بين الرمي الإلهيّ والكونيّ، وفيه علم الديمومة، وفيه علم الاختلاس وما حكمه في المختلس بكسر اللام والمختلس بفتح اللام اسم فاعل واسم مفعول وأن الالتفات في الصلاة اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد، وفيه علم ما للعالم من الخلق، وفيه علم اجتماع خالقين على مخلوق واحد هل أعطى كل واحد منهما ما أعطى الآخر أم أحكامهما في خلقه مختلفة وفيما اختلفوا فيه من خلقه وفيما اجتمعوا؟ وفيه علم الرفق بالجاهل في الحال وإمهاله ليرجع عن جهله. وفيه علم النطق من الجاهل هل حكمه حكم نطق العالم في الإصابة؟ وإن لم يعلم الجاهل المقام الذي منه نطق أم لا وإصابته التي يراها العالم خطأ فساوى العالم الجاهل في جهل المقام الذي منه نطق الجاهل والفرق بين من يدري ذلك ممن لا يدريه من العلماء وما حكم العالم الذي يعلم ذلك؟ وفيه علم تأثير الواحد في الكثيرين من أين أثر مع أحديته، وفيه علم الفصل والوصل، وفيه علم جمع الصفة للمختلفين بأيّ حقيقة تجمعهم، وفيه علم الهداية إلى الضلال، وفيه علم المواقف والقول وهل للرضى مواقف كما للقهر أم لا؟ وكم مواقف القيامة؟ وهل تنحصر مواقف أهل الله كمواقف النفري أم لا تنحصر أو تنحصر من وجه ولا تنحصر من وجه؟ ولماذا كان الوقوف؟ وهل هو وقوف سكون أم لا يزال متنقلاً في وقوفه؟ وفيه علم الفرق بين أهل الإسلام وأهل الاستسلام، وفيه علم طلب العلم من الكون، وفيه علم ما يعطيه الاعتراف بالحق في أيّ موطن كان وهل هو نافع صاحبه بكل وجه أم لا؟ وما ينبغي أن يعترف به مما لا ينبغي أن يعترف به، وفيه علم العلم النافع، وفيه علم أدوات المعاني ما كان منها مركباً وغير مركب، وفيه علم ما ينعم الإنسان وما يعذبه وأنه ليس شيء من الله في أحد. وفيه علم الخطوط والحدود الإلهية وأنها موسومة لا تختلط

وهي أعلم بمحالها من محالها بها فإن محالها معلومة لها وليس هي معلومة المكان لمحالها، وفيه علم النعم التي ترفع الآلام والفرق بينها وبين النعم التي لا ترفع ألماً، وفيه علم الأنس بالمثل وهل يقع الأنس بالله لمن خلق على الصورة أو من حقيقة كونه على الصورة أنه لا يأنس بالله كما لا يأنس الله به وهل للعالم بجملته هذا الحكم أم لا؟ وهل الإنسان الذي هو كالظل للحق حكمه حكم الإنسان الكامل الخليفة الذي هو جزء من ذلك الإنسان المشبه بالظل أم لا؟ وفيه علم الالتذاذ بالنعم الواقعة بالأغيار هل هو من كمال الالتذاذ المطلوب أو هل هو نقص في المستلذ له؟ وفيه علم النفس في قوله: «**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وإن أفْتاكَ المُفْتُون**»، فإن هنا لطفاً إلهياً في الإعلام أجراه الله على لسان رسوله ﷺ إنباء أنه ما يلقى الله في القلب إلا ما هو حق فيه سعادة الإنسان فإن رجع في ذلك إلى نفسه فقد أفلح، وهذا معنى قول بعض العارفين بهذا المقام حيث قال: «ما رأيت أسهل عليّ من الورع كلما حاك له شيء في نفسي تركته». وفيه علم تعظيم ما يعظم من الأحوال في القرائن، وفيه علم ما ينبغي أن يثابر عليه، وفيه علم المفاضلة في الأحوال من غير نظر إلى أصحابها القائمة بهم، وفيه العلم بالماهيات، وفيه علم تشابه الصورتين واختلاف الحكم، وفيه علم حكمة إيجاد الأئمة في العالم المضلين منهم وغير المضلين، وفيه علم النداء عند البلاء ولماذا اختص به دون النعم، وفيه علم إجابة الداعين والسائلين هل يزيد المجيب على مطابقة ما وقع فيه السؤال أو لا يزيد؟ فإن زاد فهل هو إجابة سؤال حال؟ فإن النطق لم يكن ثم، وفيه علم ارتباط العالم العلوي بالسفلي ليفيد وارتباط السفلي بالعلوي ليستفيد، والمفيد هو الأعلى أبداً والمستفيد هو السفلي أبداً، ولا حكم للمساحة وعلوّ المكان وفيه علم تأثير المحجوب في المكشوف له من أي وجه أثر فيه مع علو مرتبته وأن الحق يعضده وما عقوبة ذلك المؤثر، وفيه علم الأسفار، وفيه علم من وصف بالحلم مع عدم القدرة والحليم لا يكون إلا قادراً على من يحلم عليه، وفيه علم أثر الخيال في الحس وأين يبلغ حكمه، وفيه علم حكم المراتب على أصحابها بما يكرهون، وفيه علم قيمة الأشياء ولها حضرة خاصة وأنه ما من شيء إلا وله قيمة إلا الإنسان الكامل فإن قيمته ربه، وفيه علم ما ينتجه الصدق ومراتب الصادقين وأن يسألوا عن صدقهم، وفيه علم حضرات البركات الإلهية، وفيه علم مراتب الظلم وما يحمد منه وما يذم، وفيه علم الاشتراك في الأمر هل حكم ذلك الأمر في كل واحد من الشركاء على السواء أم يختلف الحكم مع الاشتراك في الأمر لاختلاف أحوال الشركاء واستعداداتهم، وفيه علم صورة حضرة اجتماع الخصوم بين يدي الحاكم، وفيه علم إلحاق الإناث بالذكور. وفيه علم القرعة وأين يحكم بها؟ وقول النبيّ ﷺ: «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ ما فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إلاَّ أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاسْتَهَمُوا عَلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ ما فِي التَّهْجِيرِ لاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ ما فِي العتمةِ والصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْواً**» وفيه علم الظلمات ولماذا ترجع حقيقة الظلمة هل لأمر وجودي أو عدمي؟ وفيه علم فضل التنزيه على غيره من المحامد، وفيه علم الشفقة على الجنين إذا خرج والرفق به ورحمته وقول النبيّ ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا**» وفيه علم

اليقين والشك وهل يتصف صاحب اليقين بالشك فيما هو على يقين فيه أم لا؟ وفيه علم انفراد الحق بعلم الحق، وفيه علم ما ينبغي أن ينسب إلى الله، وفيه علم من في طبعه أمر ما لا يزول عن حكم طبعه وإن عرض له عارض يزيله فليس بدائم الزوال والطبع أغلب، وفيه علم تغير الأحوال على الملائكة من أين حصل لهم ذلك؟ وفيه علم العناية وطبقات العالم فيه، وفيه علم الأناة والعجلة، وفيه علم عموم البشارة وخصوص الإنذار، إلى غير ذلك من العلوم التي يطول ذكرها فقصدنا إلى ذكر المهم منها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والأربعون وثلاثمائة

في معرفة منزل سرين من أسرار قلب الجمع والوجود

[البسيط]

إنْ قِيلَ هل في وُجُودِ الكونِ أوْسَعُ مِنْ ... رَحْمَةِ الله فقُلْ قَلْبٌ إذا كانا

بَيْتُ الإلٰه لإيمان يقومُ به ... مع التَّوَرُّع والتَّقْوَى إذا زَانَا

يحيطُ بالحقّ علْماً عَيْنُ صُورته ... وهو العزيزُ الذي في عينه هانا

القَلْبُ مُلْكِيَ والسُّكْنَى لخالقه ... عُمْرَى ورُقْبَى وإيماناً وإحْسَانا

قال رسول الله ﷺ: «**إنِّي لأَجِدُ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ يَأْتِينِي مِنْ قِبَلِ اليَمَنِ**»، فنفس الله عنه بالأنصار، فكانت الأنصار كلمات الله نصر الله بهم دينه وأظهره، وهذا المنزل هو منزل ذلك التنفس الرحماني، وهذا المنزل عنه ظهرت جميع المنازل الإلهية كلها في العالم الذي هو كل ما سوى الله تعالى علواً وسفلاً، روحاً وجسماً، معنى وحساً، ظاهراً وباطناً، فمنه ظهرت المقولات العشر وجاء في الخبر النبوي رائحة لما قلناه، وله وجوه إلى كل جنس ونوع وشخص من العالم لا تكون لجنس آخر ولا لنوع آخر ولا لشخص آخر، ولهذا المنزل صورة وروح وإمداد إلهي من حيث ما نسب الحق إلى نفسه من الصورة ولكن من باطن الصورة، وحكم هذا الإمداد في الظاهر والباطن من صورة هذا المنزل لكنه في الباطن أتم، ولهذا أخر الإسم الباطن عن الأوّل والآخر والظاهر لما عبر عن هذه النعوت الإلهية وذلك ن الأمر الإلهيّ في التالي أتم منه وأكمل منه في المتلوّ الذي هو قبله ففيه ما في الأوّل وزيادة، هكذا هي كلمات الوجود الإلهية، والآخر يتضمن ما في الأوّل والظاهر يتضمن ما في الآخر والأوّل والباطن يتضمن ما في الظاهر والآخر والأوّل، ولو جاء شيء بعد الباطن لتضمن الباطن وما قبله ولكن الحصر منع أن يكون سوى هذه الأربعة ولا خامس لها إلا هويته تعالى، وما ثم في العالم حكم إلا من هذه الأربعة، وعلى صورة هذه الأربعة ظهر عالم الأرواح وعالم الأجسام وما ثم عالم سوى هذين، فمن الإلهيات علم وإرادة وقدرة وقول عنها ظهر عالم الأرواح الخارج عن الطبيعة والطبيعة، ثم أظهر عن هذه الأربعة الإلهية الطبيعة على أربع، وعنها أظهر عالم الأجسام كثيفها ولطيفها، كما أظهر عن هذه الأربع الإلهية من عالم

التدوين والتسطير عقلاً ونفساً وطبيعة وهيولى قبل ظهور الأجسام وأظهر الأركان أربعة وهي: النار والهواء والماء والتراب، وأظهر النشأة الحيوانية على أربعة أخلاط وجعل لهذه الأخلاط أربع قوى جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة، فأقام الوجود على التربيع وجعله لنفسه كالبيت القائم على أربعة أركان، فإنه الأوّل والآخر والظاهر والباطن، فللباطن ركن الحجر الأسود فإنه يمين الله في الأرض المقبل على جهة البيعة لله فالعين تقع على الحجر والبصيرة تقع على اليمين، فاليمين باطن للحجر غير ظاهر للبصر، فيشرف ركن الحجر على سائر الأركان فضم حكم الباطن حكم الثلاثة النعوت التي قبل الباطن وهو المخصوص بهذا المنزل، ولب هذا المنزل هو الصورة الإلهية التي منها يكون الإمداد له لب تلك الصورة وهو روحها وهو لب اللب وهو خزانة الإمداد لهذا المنزل، ولهذا المنزل التحكم في العالم كله كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة توقد من شجرة هويته فهي لا شرقية ولا غربية لا تقبل الجهات عن هذه الزيتونة يكون الزيت وهو المادّة لظهور هذا النور، فهذه أربعة مشكاة وزجاجة ومصباح وزيت، والخامس الهوية وهو الزيتونة المنزهة عن الجهات، وكنى عنها بالشجرة من التشاجر وهو التضاد لما تحمله هذه الهوية من الأسماء المتقابلة كالمعز والمذل والضار والنافع فانظر ما أكمل العبارات الإلهية في الإخبار بما هو الأمر عليه، فمن دخل هذا المنزل وفاته شيء من العالم وحقائقه فما دخله وإنما خيل الشيطان له أو النفس أنه دخله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] إذ حضرة الخيال تنشىء كل صورة، وكثير من الناس يدخلون هذه الحضرة الخيالية ويشاهدون ما تجلى لهم من الصور فيزعمون أنهم شاهدوا الوجود الثابت العين على ما هو عليه ولم يكن سوى ما صوره الخيال، فمن بلي بمثل هذا فليتربص قليلاً، فإن كان ما يشاهده روحاً ثابت العين في الوجود أو محسوساً في العين فإنه يثبت ولا يتغير، وإن كان خيالاً فلا يثبت ويسرع إليه التغير في الحال ويرى صورة التغير فيه ويعلم أن الذي ظهر له بالتغير هو عين الأوّل، ويرى بعضهم نفسه في صورتين وأكثر ويعلم أنه هو، فبهذا يفرق بين الصور الثابتة في عينها حساً وروحاً وبين الصور الخيالية وهذا ميزانها لمن لا معرفة له فقد نبهتك ونصحتك، فلا تغفل عن هذا الميزان إن كنت من أهل الكشف.

وما جعل الله النوم في العالم الحيواني إلا لمشاهدة حضرة الخيال في العموم، فيعلم أن ثم عالماً آخر يشبه العالم الحسي ونبهه بسرعة استحالة تلك الصور الخيالية للنائمين من العقلاء، على أن في العالم الحسي والكون الثابت استحالات مع الأنفاس لكن لا تدركها الأبصار ولا الحواس إلا في الكلام خاصة وفي الحركات، وما عدا هذين الصنفين فلا تدركه صورة الاستحالات والتغيرات فيها إلا بالبصيرة وهو الكشف أو بالفكر الصحيح في بعض هذه الصور لا في كلها، فإن الفكر يقصر عن ذلك، وأصل ذلك كله، أعني أصل التغير من صورة إلى مثلها أو خلافها في الخيال أو في الحس أو حيثما كان في العالم، فإنه كله لا يزال يتغير أبد الآبدين إلى غير نهاية لتغير الأصل الذي يمدّه وهو التحوّل الإلهي في الصورة الوارد في

الصحيح، فمن هناك ظهر في المعاني والصور: [مجزوء الوافر]

فَمِنْ مَغْنًى إلى مَغْنى ومِنْ صُوَرٍ إلى صُوَرِ

وهو قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] وهو ما يحدثه من التغييرات في الأكوان، فلا بد أن يظهر في كل صورة تغيرها بحكم لا يكون إلا لذلك المتغير، فإن فهمت فقد أبنت لك الأمر على ما هو عليه فإن في ذلك لذكرى أي في تغيير العالم ذكرى بتغير الأصل لمن كان له قلب فإن القلب له التقليب من حال إلى حال وبه سمي قلباً فمن فسر القلب بالعقل فلا معرفة له بالحقائق فإن العقل تقييد من العقال، فإن أراد بالعقل الذي هو التقييد ما نريده نحن أي ما هو مقيد بالتقليب فلا يبرح يتقلب فهو صحيح، كما نقول بالتمكين في التلوين فلا يزال يتلونّ وما كل أحد يشعر بذلك.

ولما علمنا أن من صفة الدهر التحوّل والقلب والله هو الدهر وثبت أنه يتحوّل في الصور وأنه كل يوم في شأن واليوم قدر النفس فذلك من اسمه الدهر لا من اسم آخر إن عقلت، فلو راقب الإنسان قلبه لرأى أنه لا يبقى على حالة واحدة فيعلم أن الأصل لو لم يكن بهذه المثابة لم يكن لهذا التقلب مستند فإنه بين أصبعين من أصابع خالقه وهو الرحمن، فتقليب الأصابع للقلب بغير حال الأصبعين لتغير ما يريد أن يقلب القلب فيه فمن عرف نفسه عرف ربه وفي حديث الأصابع بشارة إلهية حيث أضافهما إلى الرحمن فلا يقلبه إلا من رحمة إلى رحمة، وإن كان في أنواع التقليب بلاء ففي طيه رحمة غائبة عنه يعرفها الحق، فإن الأصبعين أصبعا الرحمن فافهم، فإنك إذا علمت ما ذكرناه علمت من هو قلب الوجود الذي يمد عالم صورته التي هو لها قلب وأجزاؤها كلها وأنه هو قلب الجمع، وهو ما جمعته هذه الصورة الوجودية من الحقائق الظاهرة والباطنة، فلما كان الله كل يوم هو في شأن كان تقليب العالم الذي هو صورة هذا القالب من حال إلى حال مع الأنفاس، فلا يثبت العالم قط على حال واحدة زماناً فرداً لأن الله خلاق على الدوام، ولو بقي العالم على حالة واحدة زمانين لاتصف بالغنى عن الله ولكن الناس ﴿فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [قٓ: ١٥] فسبحان من أعطى أهل الكشف والوجود التنزه في تقليب الأحوال والمشاهدة لمن هو كل يوم في شأن والله هو الدهر، فلا فراغ لحكم هذا الدهر في العالم الأكبر والأصغر الذي هو الإنسان وهو أحد المعلومات الأربعة التي لها التأثير، فالمعلوم الأول لنا الإنسان والمعلوم الثاني العالم الأكبر الذي هو صورة ظاهر العالم الإنساني، والإنسان الذي هو قلب هذه الصورة ولا أريد به إلا الكامل صاحب المرتبة وهو المعلوم الثالث والمعلوم الرابع حقيقة الحقائق التي لها الحكم في القدم والحدوث، وما ثم معلوم خامس له أثر سوى ما ذكرناه.

ويتشعب من هذا المنزل شعب الإيمان وذلك بضع وسبعون شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريق وأرفعها قول لا إله إلا الله وما بينهما من الشعب، وهذا المنزل منزل الإيمان ومنه ظهر الإيمان في قلب المؤمن والخاص به الاسم المؤمن من الأسماء الإلهية. فمن هنا شرع المؤمن شعب الإيمان، وأبانها، ومن هذا المنزل أخذت أمة محمد أعمارها، فغاية عمر هذه

الأمة المحمدية سبعون سنة لا تزيد عليها شيئاً، فإن زاد فما هو محمدي وإنما هو وارث لمن شاء الله من الأنبياء من آدم إلى خالد بن سنان فيطول عمره طول من ورثه، ولهذا قال النبيّ ﷺ في أعمار أمّته «**إنّها ما بين السّتّين إلى السّبْعين**» فجعل السبعين الغاية لعمر أمته، فعلمنا أنه ما يريد بأمته إلا المحمديين الذين خصهم الله برتبة ما خص الله بها نبيه من الأحكام والمراتب على جميع الأنبياء إذ كنا ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وكل حكم ورتبة كانت لنبيّ قبله، وإن كانت له ووقع له فيها الاشتراك فلم يخلص له وحده وليس له الشرف الكامل إلا بما خلص له دون غيره فأمته مثله، فمن كان عند انفصاله عن الدنيا أو في حاله على شرع مشترك من هذه الأمة نسبناه إلى من ظهر به أولاً قبل ظهور محمد ﷺ ليظهر الفرق بين الأمرين ولتعرف منزلة الشخصين، وإن كان ما أخذه إلا من تقرير محمد ﷺ فإنه من أمته، ولكن حكم الاشتراك يتميز عن حكم الاختصاص، ومات ﷺ وله ثلاث وستون سنة، والذي يزيد على السبعين سنة بالغاً ما بلغ وإن كان من أمته وممن حصل له الاختصاص المحمدي كله فإنه لا يقبض حين يقبض إلا في الشرع المشترك وما هو نقص به فإنه قد حصل حكم الاختصاص ولكن خروجه عن السبعين التي جعلها رسول الله ﷺ غالب غاية عمر أمته المقبوضين في الحكم الاختصاصي جعله أن يفرق بينه وبين غيره من الأمة، وهذا من العلوم التي لا تدرك بالرأي والقياس، وإنما ذلك من علوم الوهب الإلهي. وكذا ذكر أن كل واحد من الخلفاء الأربعة ما مات حتى بلغ ثلاثاً وستين سنة إثباتاً أنهم قبضوا في الاختصاص المحمديّ لا في حكم الشرع المشترك، فمن هذا المنزل تعين هؤلاء الأربعة من غيرهم، وتعينت العشرة أيضاً من هذا المنزل الذين هم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعد، وسعيد، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجرّاح، فهذا منزلهم الذي منه عينهم رسول الله ﷺ وشهد لهم بالجنة في مجلس واحد بأسمائهم، فإن المشهود لهم بالجنة كثيرون لكن ليس في مجلس واحد، ومقيدون بصفة خاصة كالسبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وعين منهم عكاشة بن محصن ونبه بقوله: «**بغَيْر حساب**» أي لم يكن ذلك في حسابهم ولا تخيلوه، فبدا لهم خير من الله لم يكونوا يحتسبونه، وهم الذين «**لا يَسْتَرْقُون ولا يكتَوُون ولا يَتَطيَّرون وعلى ربهم يتوكلون**» فقوله: «**لا يَسْتَرْقُون**» أي لا يستدعون الرقية لإزالة ألم يصيبهم ولا يرقون أحداً من ألم يصيبه وجاء بالاستفعال للمبالغة، وإنما رقى النبيّ ﷺ واستعمل الطب في نفسه في مرضه لأنه يتأسى به فيتأسى به الضعيف والقوي فإنه رحمة للعالم وهكذا جميع الرسل، فما حكمهم حكم أممهم فلا يقدح ذلك في مقامهم، فلهم المقام المجهول حيث يظهرون لأممهم بصورة القوّة والضعف، فلا يعرف أحد لماذا ينسبهم من المقامات. وقوله: «**ولا يتطَيَّرون**» فإن الطائر هو الحظ فهم خارجون عن حظوظ نفوسهم مشتغلون بما كلفهم الله به من الأعمال وفاء لما تستحقه الربوبية عليهم لا يبتغون بذلك حظاً لنفوسهم من الأجر الذي وعد الله به على ما هم عليه من الأعمال فلم يبعثهم على العمل ما نيط به من الأجر ولكن ما ذكرناه من وفاء المقام فهذا

معنى لا يتطيرون أي لا يعملون على الحظوظ. وقوله: «**ولا يَكْتَوُون**» فإن الاكتواء لا يكون إلا بالنار وقد عصمهم الله أن تمسهم النار فيجدون في نفوسهم أنهم لا يكتوون وتلك عصمة إلهية من حيث لا يشعرون وقوله: «**وعلى رَبّهم يَتَوكّلُون**» أي يتخذونه وكيلاً فيتكلون عليه اتكال الموكل على الوكيل وهي معرفة وسطى جاءتهم من القصد الثاني، فرأوا أن الله خلق الأشياء لهم وخلقهم له فاتخذوه وكيلاً فيما خلق لهم ليتفرغوا إلى ما خلقوا له.

وإنما قلنا مرتبة وسطى لأن فوقها المرتبة العالية وهو القصد الأوّل، فإن الله ما خلق شيئاً من العلم كله إلا له ليسبحه بحمده وننتفع نحن بحكم العناية والتبعية والقصد الثاني هو هذا لأنه لما سوّانا وسخر لنا ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه قصد أن في الخلق في العالم الإنساني وغير الإنساني من يتوكل عليه في أمره كله لأنه مؤمن بأن لله تعالى في كل شيء وجهاً ولا يقول به إلا المؤمن، إذ كان غير المؤمن من الناس خاصة من يقول: إن الله ما وجد عنه بطريق العلية إلا واحد، ولا علم له بجزئيات العالم على التفصيل إلا بالعلم الكليّ الذي يندرج فيه جميع العلم بالجزئيات فلهذا جعل التوكل في المؤمنين قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] فجعل التوكل علامة على وجود الإيمان في قلب العبد، ولم يتخذه وكيلاً إلا طائفة مخصوصة من المتوكلين المؤمنين الذي امتثلوا أمر الله في ذلك في قوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] فيتخيل من لا علم له بالوجود في الأشياء أنك صاحب المال فاتخذته وكيلاً سبحانه فيما هو ملك لك، وأن إضافة الأموال إليك بقوله: ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾ [البقرة: ١٨٨] إضافة ملك، وما علم أن تلك الإضافة إضافة استحقاق كسرج الدابة وباب الدار لا إضافة ملك. والذي نراه نحن والأكابر أن الله قال لنا: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] فما هو لنا فوكلناه واتخذناه وكيلاً في الإنفاق الذي هو ملكاً لعلمنا بعلم الوكيل بالمصالح ومواضع الإنفاق التي لا يدخلها حكم الإسراف ولا التقتير، فتولى الله الإنفاق علينا بأن ألهمنا حيث ننفق ومتى ننفق، فإن النفقة على أيدينا تظهر فيدنا يد الوكيل في الإنفاق فنحن معصومون في الإنفاق لمعرفتنا بالوجوه، ولأن يدنا يد حق فإنها يد الوكيل وهذا لا يعلم إلا بالكشف الإلهيّ فهم بهذه المثابة في التوكل وما يشعرون بذلك لأنه قال: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٨] فهم على غير بصيرة وأفعالهم أفعال أهل البصائر عناية إلهية ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥] والفضل الزيادة.

واعلم أن العالم لما كان أصله أن يكون مربوطاً وجوده بالواجب الوجود لنفسه كان مربوطاً بعضه ببعض فيتسلسل الأمر فيه إذا شرع الإنسان ينظر في العلم به فيخرجه من شيء إلى شيء بحكم الارتباط الذي فيه ولا يكون هذا إلا في علم أهل الله خاصة، فلا يجري على قانون العلماء الذين هم علماء الرسوم والكون، فقانونهم ارتباط العالم بعضه ببعض فلهذا تراهم يخرجون من شيء إلى شيء وإن كان يراه عالم الرسوم غير مناسب وهذا هو علم الله ومعلوم أن المناسبة ثم ولكن في غاية الخفاء مثل قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فجاء بآية الصلاة وقبلها آيات النكاح والطلاق وبعدها آيات

الوفاة والوصية وغير ذلك مما لا مناسبة في الظاهر بينهما وبين الصلاة، وأن آية الصلاة لو زالت من هذا الموضع واتصلت الآية التي بعدها بالآيات التي قبلها لظهر التناسب لكل ذي عينين، فهكذا علم أولياء الله تعالى.

سئل الجنيد عن التوحيد، فأجاب السائل بأمر، فقال له: لم أفهمه أعد عليّ، فأجابه بأمر آخر فقال السائل: لم أفهمه، فأجابه بأمر آخر ثم قال له: هكذا هو الأمر فقال: أمله عليّ، فقال: إن كنت أجريه فأنا أمليه. يقول: إني لا أنطق عن هوى بل ذلك علم الله لا علمي فمن علم القرآن وتحقق به علم علم أهل الله وأنه لا يدخل تحت فصول منحصرة ولايجري على قانون منطقي ولا يحكم عليه ميزان فإنه ميزان كل ميزان، فلهذا المنزل من عالم الأجسام فلك الشمس من الأفلاك فسبعة فوقه منها ثلاث سموات وفلك المنزل والأطلس الذي هو فلك البروج والكرسي والعرش المحيط وهو نهاية عالم الأجسام، وتحته أيضاً سبعة: ثلاث سموات وكرات الأثير والهواء والماء والأرض، وبقطعها في الفلك تظهر فصول السنة وهي أربعة فصول لوجود التربيع الذي ذكرناه، فإن البروج التي هي التقديرات في الفلك الأطلس مربعة قد جعلها الله على أربع مراتب، نارية وترابية وهوائية ومائية لحكم الأربعة الإلهية والأربعة الطبيعية، ولكل فصل ثلاثة أحكام: حكمان للطرفين وحكم للوسط وبينهما أحكام في كل حركة ودقيقة وثانية وثالثة إلى ما لا يتناهى التقسيم فيها، وجعل نجم السماء الثانية من جهتنا ممتزجاً وهو الكاتب ولهذا أسكنه عيسى عليه السلام لأنه ممتزج من العالمين فإنه ظهر بين ملك وبشر وهما جبريل ومريم، فهو روح عن روح وبشر عن بشر، ولم يجعل ذلك في غيره من هذا النوع، كما لم يجعل شيئاً من الجواري الخنس على صورة الكاتب فهو السادس من هناك ليحصل له شرف رتبة قوله: ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] وهو الثاني من جهتنا لأن الثاني هو الباء وهو المبدع الأول بفتح الدال الظاهر عن الإنسان الذي هو ظل الصورة الإلهية الذي لم يزل، فذلك هو الأول لا أولية الحق لأن أولية الحق لا تقبل الثاني فإن الواحد ليس بعدد وأول العدد الاثنان فظهر في ألسنة الامتزاج بظهور الفصول.

واعلم أن الله لما أعلمنا أنه هو الدهر ذكر لنا سبحانه أن له أياماً من كونه دهراً وهي أيام الله فعين هذه الأيام أحكام أسمائه تعالى في العالم، فلكل اسم أيام وهي زمان حكم ذلك الاسم والكل أيام الله وتفاصيل الدهر بالحكم في العالم وهذه الأيام تتوالج ويدخل بعضها في بعض ويغشي بعضها بعضاً وهو ما يراه في العالم من اختلاف الأحكام في الزمان الواحد، فذلك لتوالجها وغشيانها وتقليبها وتكررها، ولهذه الإيام الإلهية ليل ونهار، فليلها غيب وهو ما غاب عنا منها وهو عين حكمها في الأرواح العلوية الكائنة فوق الطبيعة والأرواح المهيمة، ونهارها شهادة وهو عين حكمها في الأجسام الطبيعية إلى آخر جسم عنصري وهي ما تحت الطبيعة، وسدفة هذا اليوم عين حكم هذه الأيام في الأرواح المسخرة التي تحت الطبيعة وهم عمار السموات والأرض وما بينهما، وهم الصافون والتالون والمسبحون، وهم على مقامات

معلومة، فمنهم الزاجرات والمرسلات والمقسمات والمنقيات والنازعات والناشطات والمدبرات وغير ذلك مثل السائحين والعارجين والكاتبين والراقبين كل هؤلاء تحت حكم أيام الله من حيث سدف هذه الأيام، فعن غشيان نهار هذه الأيام ليلها وجدت الأرواح التي فوق الطبيعة، وعن غشيان ليل هذه الأيام نهارها وجدت الأجسام التي دون الطبيعة، وعن توالج ليلها بنهارها فليس بنهار خالص لحكم الليل ومشاركته، وليس بليل خالص لحكم النهار ومشاركته، وهذا الحال لهذه الأيام تسمى سدفاً وجد عن هذا التوالج الأرواح التي دون الطبيعة.

ولما قسم الله أيامه هذه الأقسام جعل ليلها ثلاثة أقسام ونهارها ثلاثة أقسام فهو سبحانه ينزل لعباده في الثلث الأخير من ليل أيامه وهو تجليه فيه للأرواح الطبيعية المدبرة للأجسام العنصرية، والثلث الوسط يتجلى فيه للأرواح المسخرة، والثلث الأول يتجلى فيه للأرواح المهيمنة، وقسم نهار هذه الأيام إلى ثلاثة أقسام يتجلى في كل قسم إلى عالم الأجسام من أجل ما هي مسبحة بحمد الله دائماً، ففي الثلث الأول يتجلى للأجسام اللطيفة التي لا تدركها الأبصار، وفي الثلث الوسط يتجلى للأجسام الشفافة، وفي الثلث الأخير يتجلى للأجسام الكثيفة، ولولا هذا التجلي ما صحت لهم المعرفة بمن يسبحونه، فإن المسبح لا بد أن يكون له معرفة بمن يسبحه، والمعرفة بالله لا يصح أن تكون عن فكر ولا عن خبر وإنما تكون عن تجليه لكل مسبح، فمنهم العالم بذلك ومنهم من لا يعلم ذلك ولا يعلم أنه سبح عن معرفة تجل وذلك ليس إلا لبعض الثقلين، وما عدا هذين فهم عارفون بمن تجلى لهم مسبحون له على الشهود أجساماً عموماً وأرواحاً خصوصاً، فكل من ليس له قوة التوصل لما يشهده فعنده العلم بمن تجلى له، وكذلك من له قوة التوصيل غير أنه أمين لا يتكلم إلا عن أمر إلهي فذلك عنده العلم بمن تجلى له، ومن علم أن عنده قوة التوصيل وهو نمام ينم بما شهده وسمعه وليس بأمين ينتظر أمر صاحب الأمانة فإنه لا يعلمه الحق في تجليه أنه هو وهم المنكرون له إذا تجلى لهم في الدنيا والآخرة جعلنا الله من الأمناء العالمين بمن تجلى لهم.

فإن قلت: فالليل والنهار في اليوم ما يحدثه إلا طلوع الشمس وغروبها فما الشمس التي أظهرت الليل والنهار في أيام الله المسمى دهراً؟ قلنا: اسمه النور الذي ذكر أنه ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] فله الطلوع والغروب علينا من خلف حجاب الإنسان المثلي الذي ذكرنا أنه ظله المخلوق على صورته الأزلي الحكم الذي نفى عنه المثلية وأثبت عين وجوده في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] بكاف الصفة فيسمى ليله باطناً ونهاره ظاهراً، فهو الباطن من حيث ليله وهو الظاهر من حيث نوره، وذلك المثل الإنساني يميز طلوع هذا النور فيكون النهار وغروب هذا النور فيكون الليل، وهو حكم الظاهر والباطن في العالم. وقد قررنا أنه لكل اسم في العالم حكم قبل هذا، فالدهر من حيث عينه يوم واحد لا يتعدد ولا ليل له ولا نهار، فإذا أخذته الأسماء الإلهية عينت بأحكامها في هذا اليوم الأزلي الأبدي الذي هو عين لدهر الأيام الإلهية التي أمر المذكر أن يذكرنا بها لنعرفها من أيام

الزمان، وأنه إذا أخذ الاسم النور في وجود الظل المثليّ المنزه وفي طلوعه على من فيه من العالم سمي العالم الذي في هذا المثل ذلك الطلوع إلى وقت غروبه عنهم نهاراً ومن وقت غروبه عنهم سموه ليلاً، وذلك النور غير غائب عن ذلك الظل، كما أن الشمس غير غائبة عن الأرض في طلوعها وغروبها، وإنما تطلع وتغيب عن العالم الذي فيها، والظلام الحادث في الأرض إنما هو ظلال اتصالات ما فيها من العالم فهو على الحقيقة ظل يسمونه ظلاماً، والذين يسمونه ظلاماً ممن ليس له هذا الكشف يجعل ذلك ظل الأرض لما هي عليه من الكثافة وهي في المثل الظلي الإلهي ظل أعيان عمرته لا غير فاعلم ذلك.

ثم جعل الله هذه الأيام المعلومة عندنا التي أحدثتها حركة الأطلس، والليل والنهار اللذين أحدثتهما حركة القلب أعني الشمس ليقدر بها أحكام الأيام الإلهية التي للأسماء فهي كالموازين لها يعرف بها مقادير تلك الأيام فقال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] فإذا ضربت ثلاثمائة يوم وستين يوماً في ألف سنة فما خرج لك بعد الضرب من العدد فهو أيام التقدير التي ليوم الرب فينقضي ثم ينشيء في الدهر يوماً آخر لاسم آخر غير اسم الرب، وكذلك يضرب ثلاثمائة يوم وستين يوماً في خمسين ألف سنة فما خرج لك بعد الضرب من الأيام فهو أيام التقدير التي ليوم ذي المعارج من الأسماء الإلهية، فإذا انقضى ذلك اليوم أنشأ في الدهر يوماً آخر لاسم آخر غير الذي لذي المعارج هكذا الأمر دائماً فلكل اسم إلهيّ يوم، وإنما ذكرنا هذين اليومين يوم الرب ويوم ذي المعارج لكونهما جاءا في كتاب الله، فلا يقدر المؤمنون بذلك على إنكارهما وما لم يرد إلا على ألستنا فلهم حكم الإنكار في ذلك، بل الأمر كما ذكرناه أنه ما من اسم إلهيّ مما يعلم ويجهل إلا وله يوم في الدهر وتلك أيام الله والكل على الحقيقة أيام الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. فإذا نزلنا من الأسماء الإلهية إلى يوم العقل الأوّل قسمه حكمه في النفس الكلية إلى ليل ونهار، فليل هذا اليوم عند النفس إعراض العقل عنها حين يقبل على ربه بالاستفادة، ونهاره عند هذه النفس حين يقبل عليها بالإفادة فهو يومها، وجعل الله من هذا الحكم في النفس قوّتين: قوّة علمية وهي ليلها في العالم الذي دونها، وقوّة عملية وهي النهار في العالم الذي دونها وهو المسمى غيباً وشهادة وحرفاً ومعنى ومعقولاً ومحسوساً، فهذا الحكم في النفس يوم لا نهار فيه ولا ليل وهو في العالم نهار وليل، وكذلك يوم الهيولى الكل ليلها جوهرها ونهارها صورتها وهي في نفسها يوم لا ليل فيه ولا نهار، وشمس كل ليل ونهاره هو المعنى المظهر لهذا الحكم الذي به ينسب إلى هذا اليوم ليل ونهار، فإذا نزلنا إلى فلك البروج تعين في حركته اليوم وعين ذلك الكرسي الذي تقطع فيه فتعيينه من فوق لأنه لم يكن ظهر في جوفه بعد ما تعين به حركته مستوفاة فهو يوم لا نهار له ولا ليل ولا مقدار أيام من جهة مقعره، وهو متماثل الأجزاء ما هو متماثل الأحكام.

ولما كان الكرسي هو الذي أظهر فيه تعيين الأحكام بتعيين المقادير المسماة بروجاً وجعل لكل مقدار فيها ملكاً معيناً تعينت المقادير بتلك الأحكام التي وليها ذلك الملك

المعين، فإذا دار دورة واحدة سميت من جهة الكرسي يوماً وكانت الكلمة في العرش واحدة مثل حكم اليوم، فلما وجد الكرسي تحت العرش كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض انقسمت في الكرسيّ تلك الكلمة الواحدة التي هي يوم العرش، فكانت قسمتها بالقدمين اللتين تدلتا إلى هذ الكرسي وهما قدم الرب وقدم الجبار، فكانتا أعني هاتين القدمين ليوم العرش كالنهار والليل اللذين قسما اليوم ويوم العرش أحدية كلمته لأن أمر الله واحدة. ثم إن الله أوجد فلك الكواكب الثابتة التي ميزتها مقادير البروج ولكل كوكب منها قطع في فلك البروج، فإذا قطعه الكوكب كله كان يوماً واحداً من أيام ذلك الكوكب مدّة قطعه وهو يقطع درجة من ثلاثمائة وستين درجة في مائة سنة كما نعده من سنينا، ثم أوجد بين هذين الفلكين الجنة وما فيها ومن العالم ما لا يحصي عددهم إلا الله، ومن فلك البروج إلى آخر العالم الجسميّ ظهر حكم البروج الهوائية والنارية والمائية والترابية في الفضاء الذي بين كل فلك وفلك ولا يعلم ذلك إلا بالمشاهدة، والذين لا علم لهم بذلك يقولون إن الأفلاك تحت مقعر كل فلك منها سطح الذي تحته ولا علم لهم بأن بينهم فضاء فيه حكم الطبيعة كما هي في العناصر سواء غير أنها مختلفة الحكم بحسب القوابل، ثم أوجد الأركان الأربعة على حكم ما هي عليه البروج التي في الفلك الأطلس لكل ركن طرفان وواسطة للثلاثة الوجوه التي في البروج، فللأثير حكم الحمل والأسد والقوس، فالقوس والأسد للطرفين والحمل للوسط وللتراب الثور والسنبلة والجدي فالجدي والسنبلة للطرفين والثور للوسط وللهواء الجوزاء والميزان والدالي فالميزان والجوزاء للطرفين والدالي للوسط وللماء السرطان والعقرب والحوت فالحوت للوسط والعقرب والسرطان للطرفين، وإنما رتبناها هذا الترتيب لأن وجود الزمان والعالم الذي يحتوي عليه الفلك الأطلس كان بطالع الميزان، وقد انتهت الدورة بالحكم إليه من أوّل مبعث رسول الله ﷺ ونحن اليوم في سلطانه، ولهذا كان العلم والعدل في هذه الأمة والكشف أكثر وأتم مما كان في غيرها من الأمم، وكل ما مضى الأمر استحكم سلطانه وعظم الكشف حتى يظهر ذلك في العام والخاص، فتكلم الرجل عذبة سوطه ويكلم الرجل فخذه بما فعل أهله، وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَهُ اللهُ**»، ولما خلق الله الأركان خلق منها دخاناً فتق فيه سبع سموات ساكنة غير متحركة وأوحى في كل سماء أمرها بأن خلق لها أفلاكاً وجعلها محلاً لسباحات الجواري الكنس الخنس وخلق فيها عماراً يعمرونها من الملائكة وجعل لها أبواباً تغلق وتفتح لنزول الملائكة وعروجها وأسكنها أرواح من شاء من أنبيائه وعباده، وخلق في الفضاء الذي بين سطح السماء السابعة ومقعر فلك الكواكب سدرة المنتهى التي غشاها من نور الله ما غشى، وخلق على سطح هذه السماء البيت الضراح وقد تقدم ذكره وذكر الملائكة التي تدخله في كل يوم، ويخرج من أصل هذه السدرة أربعة أنهار تمشي إلى الجنة، فإذا انتهت إلى الجنة أخرج الله منها على دار الجلال نهرين: النيل والفرات اللذين عندنا في الأرض، فأما النيل فظهر من جبل القمر، وأما الفرات فظهر من أرزن الروم وأثر

فيهما مزاج الأرض فتغير طعمهما عما كان عليه في الجنة، فإذا كان في القيامة عادا إلى الجنة، وكذلك يعود سيحون وجيحون.

ولما فتق الله هذه السموات بعدما كانت رتقاً في الدخان ومعنى الدخان أنه أصل لها وهي اليوم سموات، كما أن آدم خلقه من تراب أي أصله وهو لحم ودم وعروق وأعصاب كما خلقنا من ماء مهين، وأحدث الله الليل والنهار بخلق الشمس وطلوعها وغروبها في الأرض، فأما السموات فنور ليس فيها ليل ولا نهار ومخرج الليل من كرة الأرض التي غرب عنها الشمس مخروط الشكل كشكل نور السراج كما تبصره يخرج من رأس الفتيلة فيشعل الهواء مخروط الشكل إلى أن ينتهي، أمد قوّة اشتعاله وينقطع ويبقى الهواء الذي فوقه محترقاً غير مشتعل قويّ الحرارة، ولما سبحت هذه الأنجم في أفلاكها جعل الله لكل كوكب يوماً من أيام حركة فلك البروج سمى تلك الأيام زماناً يعد به حركة الفلك، كما جعل حركة فلك البروج أياماً كل حركة يوم يعد به مدة الزمان المتوهم الذي يتوهم ولا يعلم ولا يدرك وهو الدهر الذي نهينا عن سبه وقال الناهي: إن الله هو الدهر فجعله اسماً من أسمائه فله الأسماء الحسنى جل وتعالى، فعين لكل يوم ليلاً ونهاراً وفرق بين كل ليلة ونهارها بحكم الكوكب الذي هو لليوم الذي ظهر فيه الليل أو النهار، فينظر لمن هي أوّل ساعة من النهار من الجواري فهو حاكم ذلك النهار ويطلب في الليالي فالليلة التي حكم في أوّل ساعة منها ذلك الكوكب الذي حكم في أوّل ساعة من النهار فتلك الليلة ليلة ذلك النهار وبالحساب تعرف ذلك، وفتق الأرض سبعاً جعل لكل أرض قبولاً لنظر كوكب من الجواري إليه وقد ذكرنا ذلك كله فيما تقدم، وجعل لكل كوكب قطعاً في فلك البروج فإذا انتهى قطعه فذلك يوم واحد له هو يومه الذي أحدثه قطعه، وجعل حركات هذه الأفلاك والأركان في الوسط لا من الوسط ولا إلى الوسط، وجعل حركة عمارها إلى الوسط ومن الوسط، وتحدث الأشياء عند هذه الحركات في عالم الخلق والأمر وفي الجناب الأقدس وهي آثار محسوسة ومعقولة يحكم بها دليل الشرع والعقل وهي آثار أحوال كنزول الحق إلى السماء الدنيا، وأعمال وأقوال كإجابة الحق من دعاه، وخلق الملائكة من أعمال بني آدم الظاهرة والباطنة، وغرس الجنة من أعمال أهلها من بني آدم، ويوم شرع محمد أن كمل ليلة ونهاره فهو من أيام الرب وإن لم يكمل وانقطع في أية ساعة انقطع فيها فذلك مقداره وهو من الاسم الخاذل والناصر، لأن الخاذل والناصر ليس ليومهما مقدار معلوم عندنا بل ميزانه عند الله لا يعلمه إلا هو، وحكمهما في كل إنسان بقدر عمر ذلك الإنسان، وقدرهما في هذه الأمة بقدر بقائها في الدار الدنيا وذلك بحسب نظرها إلى نبيها محمد ﷺ، فإن نظرت إليه كمل لها يوم الرب، وإن أعرضت فلها ما انقضى من مدّة يوم الرب، ويرجع الحكم لاسم آخر له عند الله يوم موقت لا يعلمه إلا هو، ويوم هذه الأمة متصل بيوم الآخرة ليس بينهما إلا ليل البرزخ خاصة، وفي فجر هذه الليلة تكون نفخة البعث، وفي طلوع شمس يومه يكون إتيان الحق للفصل والقضاء، وفي قدر ركعتي الإشراق ينقضي الحكم فتعمر الداران بأهلهما وذلك يوم السبت فيكون نهاره أبدياً لأهل الجنان ويكون

ليله أبدياً لأهل جهنم، فإذا انقضت مدّة الآلام في جهنم وهو يوم من خمسين ألف سنة في حق قوم وأقل من ذلك في حق قوم وشفعت التسعة عشر ملكاً في أهل جهنم للرحمة التي سبقت ارتفعت الآلام فراحتهم ارتفاع الآلام لا وجود النعيم فافهم، وهذا القدر هو نعيم أهل جهنم إن علمت.

وفي هذا المنزل من العلوم: علم رحمة السيادة وأين ينادي بها وبماذا يستحقها وما حكمه كونه نداء ترخيم والترخيم التسهيل ولهذا يوصف به الحسان فيقال في المرأة الحسناء رخيمة الدلال أي سهلة، وفيه علم جميع الحكم لا جميع كل شيء فإن الحكم ليس لها عين إلا في الترتيب خاصة معنى وحساً، وفيه علم الرسالة على اختلاف أنواعها لاختلاف الرسل فإن الأنبياء رسل والملائكة رسل والبشر رسل وتختلف الرسالة باختلاف الأحوال، وكل ذلك شرائع موصلة إلى الله وإلى السعادة الدائمة لا اعوجاج فيها ولا ينبغي لأنها نزلت من عرش الرحمة مرتدية بالعزة فلا يؤثر فيها شيء يخرج أممها عن حكمها فما من أمة إلا والرحمة تلحقها كما لحقتها الشريعة التي خوطبت بها، وفيه علم حكمة وضع الشرائع في العالم ولماذا وضعت في الدار الدنيا ولم توضع في الآخرة لماذا؟ وتوقيت ما وضع منها في الدار الآخرة أوّلاً كالتحجير على آدم في قرب الشجرة وآخر كدعاء الحق عباده إلى السجود يوم القيامة، وبهذا الحكم الشرعي يوم القيامة يرجح ميزان أهل الأعراف فيثقل ميزانهم بهذه السجدة فينصرفون إلى الجنة بعدما كان منزلهم في سور الأعراف ليس لهم ما يدخلهم النار ولا ما يدخلهم الجنة وفيه قوّة المؤمن فيعدل من قوى الكفار قوى كثيرين، ولهذا شرع لهم أن لا يفروا في قتال عدوّهم وشرع لبعضهم قوّة واحد لعشرة ثم خفف عنهم مع إبقاء القوّة عليهم، فشرع لهم لكل قوّة مؤمن قوّة رجلين من الكفار ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ يُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلانِ مِنْ أُمَّتِهِ» فأعطي قوّة رجلين من أمته. وفيه علم رحمة وجود الغفلة والنسيان في العالم بل في هذه الأمة لما نص فيها وكذلك الخطأ، وفيه علم الفرق بين القول وقول الله والقول المضاف إلى الخلق والكلمة وهل لكل قول وكلمة حق واجب في الإمضاء أو ليس ذلك إلا لخصوص قول؟ فإن كان لخصوص قول دون كلمة فما السبب الموجب لهذا التخصيص والكل قول من حيث ما هو قول وكلمة من حيث ما هي كلمة، وإذا كان في نفس الأمر الحكم للقول وهو السابق فلماذا وقع الأخذ بالسؤال والتقرير مع العلم بأنه مجبور في اختياره وهي مسألة صعبة التصوّر كثيرة التفلت؟ ولولا وجود الآلام لهانت وما خطرت على بال، وفيه علم تقييد المعاني ووجود آثار أحكامها فيمن قامت به وإلى أين ينتهي حدّ التقييد منها في نشأة الإنسان، وفيه علم السبب الذي لأجله ترفع الوجوه والأبصار إلى الفوق يوم القيامة وفي الدنيا هل حكمهما وسببهما واحد أو مختلف؟ وهل الرفع عن جذب من خلف أم عن اختيار؟ وفيه علم كون الإنسان بين قصاء الله وقدره فلا يقدر يتعداهما، وهل عمّ القضاء والقدر جهات الإنسان كلها أو ليس لهما منه إلا جهتان: جهة الحادي والهادي وهما السائق والشهيد، وما الذي أعمى الناس اليوم عن شهود هذين وفي الآخرة يرونهما؟ ولم اختصا

بالخلف والأمام دون سائر الجهات؟ والشيطان له مسالك الأربع جهات فهل مكان الخلف والأمام لهما الاستشراف على اليمين والشمال بحكم اليدين اللذين لهما؟ ولو كان لهما اليمين والشمال لتعطلت اليد الواحدة من كل واحد منهما في حق من التزماه، فلا بد أن يكون لهما الخلف والأمام، وفيه علم نسبة العدم والوجود إلى الممكن وهو لا يعقل إلا بالمرجح، وليس عند المرجح إلا وجه واحد من هاتين النسبتين فيرتفع الإمكان فما الصحيح في ذلك هل بقاء الإمكان أو ارتفاعه؟ وفيه علم القوابل هل هي قوابل لكل شيء أو لأشياء مخصوصة؟ أو تتميز في القبول فيكون على صفة توجب لبعض القوابل ما تقبله مما لا تقبله، وهل لما تقبله من الأمور التي تأخذها القوابل طريق واحد أم تختلف الطرق؟ وفيه علم وصف الأجر بالعظمة والكرم لماذا يرجع وهو علم شريف؟ وفيه علم الموت وما معنى إحياء الموتى ومن يميتهم هل الله بلا سبب أو هل الملك وما هو ذلك الملك؟ هل هو بعض الأخلاط التي قام بها الجسد الحيواني؟ فإن الأخلاط من ملائكة الله، أو هو ملك من ملائكة السموات؟ وإن أضيف إلى السموات هل يضاف إلى واحدة منها بحكم أنه عن حركة ما أوحى الله فيها قوى هذا الخلط القاهر المسمى ملك الموت أو هو ملك غريب من سكان السماء السابعة، وكذلك المحيي مثل المميت غير أنه تختلف السماء فإن السماء السادسة معدن الحياة ولها تقوية من كل سماء كما للموت أيضاً، والكلام في المحيي كالكلام في المميت، أو يكون المميت هو الله من حيث إنه اسم إلهي من أسمائه، وكذلك المحيي فهو المميت المحيي ولا نقدر نرفع الأسباب التي وضعها الحق فتبطل حكمة الحق فنرفع الأسباب في الاعتقاد ونقرها في الوجود في أماكنها، وإسرافيل ينفخ في الصور وعزرائيل يقبض الأرواح، وهذا للاستعداد الذي في هذه الصور لقبول الاشتعال فتحيا ولقبول الانطفاء فتموت، وهذا الملك الموكل بنا لا بالموت هو الذي يقوي الملك الذي به وبأصحابه قامت نشأة جسد الحيوان فيميت لقوّة سلطانه على بقية أصحابه ولهذا تعرف الأطباء أن الإنسان يموت بالعلامات، فلو كان الملك غير ما ذكرناه ما انتهى إليه علم الأطباء فإن ذلك من خصائص علم الأنبياء ومن أعلمه الله من عباده، وهل المقتول له هذا الحكم الذي للعليل في الموت أم له حكم آخر؟ وهل للملك الموكل بنا لا بالموت هل له حكم الموت أو حكم قبض الأرواح والعروج بها؟ وهل هو ملك واحد أو ملائكة؟ فإن الله أضاف وفاة الأنفس إليه وإلى ملك الموت وإلى رسله فلا بد من علم هذه الإضافات وما المراد بها وهل تختلف مدارجها أو هي على مدرجة واحدة. وفيه علم ما يؤول إليه الجسم بعد الموت والروح وما يبعث في نفخة البعث منهما وهل يتغير النشء بالعرض أو بالصورة؟ وفيه علم آثار الأكوان وما الحضرة التي تمسك فيها إلى وقت الحشر فيوقف أصحابها عليها وهي آثار المكلفين وهي ما صدر عنهم من الأفعال زمان التكليف لا في غير زمانه مثل النائم والمغلوب على عقله والشخص الذي لم يبلغ الحلم، فلهذا قلنا زمان التكليف، ولم نقل دار التكليف، وفيه علم تتابع الرسل في الأمة الواحدة بخلاف هذه الأمة المحمدية فإنها ما اختلفت عليها الرسل بل إن ظهر فيها من كان رسولاً

التحق بها وقام بشرعها وجرت عليه أحكام شرع محمد ﷺ، وفيه علم النصائح وكون هذه النشأة الإنسانية جبلت على البخل والكرم لها بحكم العرض ما هو لها ذاتيّ، وإذا كانت بهذه المثابة فمن أين صح لها الأجر الكريم وليس بينها وبين الكرم نسبة ذاتية والكرم للأجر ذاتي والعظمة له ذاتية وللأجر العظيم قوم مخصوصون وللأجر الكريم قوم مخصوصون، وفيه علم اختلاف أسباب البواعث على العبادة في الثقلين وغيرهما، وفيه علم التسليم والتفويض إلى الله، وفيه علم التمني وفائدته وصفة القائم به. وفيه علم معرفة كون العالم ملكاً لله تعالى من حيث ما هو ملك ومن ينازعه حتى وصف نفسه أن له جنود السموات والأرض، وفيه علم ما يضاف إلى الله أنه منعوت بالوحدة وما سبب تكثر هذه الوجدة وما أثرها في العالم، وفيه علم الكشف لما كان غيباً، وفيه علم عدم القبول مع ظهور الدليل والعلم به أنه دليل وما سبب جهل من جهل أنه دليل؟ وهل لكل معلوم دليل أم هو لبعض المعلومات؟ وفيه علم عدم الرجعة إلى ما خرج منه، وفيه علم الحضرة التي يجتمع فيها عالم الدنيا من مكلف وغير مكلف وهل يبعث غير المكلف من حيوان ونبات وحجر لتقوم به المطالبة والحجة من الله على المكلفين أو يبعثون لأنفسهم لما لهم في ذلك من الخير المعلوم عند الله، ثم ما يؤول إليه أمرهم بعد البعث، وفيه علم ما اختزن الله لنا في عالم السماء والأرض من المنافع، وفيه علم الشكر الواجد من الشكر الذي يتبرع به الإنسان وأيهما أكمل أجراً، وفيه علم السبب والحكمة التي لأجلها خلق الله من كل شيء زوجين وهل من هذه الحكمة خلق آدم على صورته؟ وفيه علم الزمان الذي يفصل به اليوم، وفيه علم سكون من لا سكون له، وفيه علم مناهل المسافرين وهل يحصون عدداً أم لا؟ وفيه علم اختلاف الصفات على المسافرين باختلاف طرقهم ومناهلهم، وفيه علم السابق الذي يلحق والسابق الذي لا يلحق من المسافرين كالشخص مع ظله لا يلحق ظله أبداً ويلحقه ظله وغير ذلك من المسافرين، وهو علم شريف يتضمن جميع الأسفار الإلهية والكونية والعلوية والسفلية، وهو علم عزيز المنال بعيد المدرك لا يتفطن له كل أحد، وأما الإحاطة به فلا تعلم إلا بإعلام الله ولا يصبح الإعلام بها على التفصيل فإنها أسفار لا نهاية لها. وفيه علم الطرق التي يسلك فيها كل مسافر، وفيه علم الأسباب التي تحول بين بعض المسافرين وبين ما قصدوه في سفرهم والفرق بين السفر الاختياريّ والجبريّ، وفيه علم زمان الدنيا العام الذي يكون بعد انقضائه القيامة الكبرى، وفيه علم زمان عمر الحيوان والمولدات وقيامتهم الصغرى بانقضاء مدتهم والفرق بين هذين الحشرين فإن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ**» فحشرهم إلى البرزخ قيامة، وفيه علم صفات ترجي الرحمة التي تسأل الرحمة بلسانها، وفيه علم السبب الموجب الذي لأجله أعرض من أعرض عن النظر في الدلالات العقلية التي جاءت بها الرسل والتي لم تجيء بها من الآيات المعتادة، وهل تختلف دلالتها وما صورة دلالتها؟ وهل يختلف مدلولها باختلاف قصد الدال أو قصد الذي يحرّك الدال للنظر في الدليل كالرسول يجيء بالدلالة على صدقه في كونه رسولاً، وتلك الدلالة بعينها تكون دلالة على وجود الحق وعجز الخلق وفيه

علم التأسي بالله فيما ذمه الله هل يذم صاحبه من جهة لسان الحقيقة أو لا يذم إلا بلسان الشرع؟ وفيه علم ما يقبض عليه الإنسان هل يبقى عليه في البرزخ ويحشر عليه أم يتغير عليه الحال أو يقبض على ما يبدو له عند كشف الغطاء قبل القبض أو هل عين القبض هو عين الكشف للغطاء؟ وفيه علم ردّ السائل هل ردّه عن سؤاله جواب له عن سؤاله أم لا؟ وفيه علم السبب الموجب للإسراع لمن ناداه الحق هل هو إسراع جبر أو إسراع توقع جبر؟ وفيه علم ما سبب اختلاف كلام المبعوثين من أهل القبور؟ وفيه علم من يجيبهم في ذلك هل يجيبهم الحق أو الملائكة أو العالمون؟ وفيه علم ما يتجلى للذين يبعثون من قبورهم هل هو صورة واحدة أم صور متخلفة؟ وهل ذلك المتجلي اسم إلهيّ أم لا؟ وفيه علم ما السبب الذي أوجب أن يخالف ترتيب البروج وهي طبيعة ترتيب العناصر فإن ترتيب البروج كل برج بين منافر ومناسب بوجه كل واحد إذا أخذته تجده كما ذكرناه، وأما الأركان فترتيبها لمناسبة ليس فيها تنافر من جميع الوجوه، فالنارية الثلاثة كلها من مائية وترابية، والترابية كلها من نارية وهوائية، والهوائية كلها بين ترابية ومائية، والمائية كلها بين هوائية ونارية، والأركان ليست كذلك، وفيه علم الفرق بين «عندي» و«لديّ»، و«عندنا» و«لدنا» و«لدينا» و«لدني». وفيه علم الفصل بين الأشياء ليتميز بعضها عن بعض، وفيه علم ما يرى الرائي غير صورته وصفته كان الرائي من كان، وفيه علم الاشتغال ولم سمي شغلاً وعمن يشتغل؟ وهل ثم شغل يغني عن سواه بالكلية أم لا؟ وفيه علم الأنس بمثله لا بمثلية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وفيه علم الهيئات والحالات التي تكتسبها النفوس في الدار الدنيا، وفيه علم الأعراس الإلهية، وفيه علم ما لكل اسم إلهيّ من الرحمة من الأسماء التي تعطي بظاهرها ذهاب الرحمة منها، وفيه علم الاستحقاق الذي يستحقه العالم من حيث ما هو عليه من الصفة فهو استحقاق الصفة لا استحقاق الموصوف، وفيه علم العهد الإلهيّ والكونيّ فيماذا وقع، وفيه علم حكم المتقدم كيف ظهر في المتأخر ومن أين ظهر؟ وفيه علم البعد الكونيّ من البعد الإلهيّ، وفيه علم النطق والصمت وتعيين الناطق والصامت وزمانه ومكانه، وفيه علم تبدل الصور العلية بالصور الدنية، وفيه علم سبب التثبط عن النهوض مع وجود الكشف، وفيه علم ما يعطيه الزمان في نشأة الإنسان وفي سائر المعادن والنبات والحيوان، وفيه علم الإبهام والإيضاح، وفيه علم اجتماع الكثير على إيجاد الواحد، وفيه علم تمليك ما ينشئه المنشيء لكونه أنشأه، وفيه علم الرياضة الإلهية والفرق بينها وبين الرياضة الكونية، وفيه علم حضرة المنعم ومآلها في الدنيا والآخرة في الحكم، وفيه علم سبب الاعتماد على من يعلم أنه ليس ممن يعتمد عليه، وفيه علم المبدأ والمعاد، وفيه علم التشبيه وعكس التشبيه وما هو الأصل الذي يقع به التشبيه، وفيه علم تأثير اجتماع الأضداد من العلم الإلهيّ ووجود النار في الماء والماء في النار، وفيه علم الصفة التي أظهرت العالم في عينه، وفيه علم الملكوت وأين حظه من الملك والجبروت. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والأربعون وثلاثمائة

في معرفة منزل فتح الأبواب وغلقها وخلق كل أمة من الحضرة المحمدية

[البسيط]

لا تَرُمْ شيئاً من الأكْوان إنَّ لها ... نَعْتاً من الحَقِّ والأكوانُ أعلامُ
مِنْ غيرة الحقِّ كان الحقُّ أعْيُنَها ... أتى بذلك قرآنٌ وإلْهَامُ
لولا افتقاري وذُلّي ما اجتمعت به ... ولا تحقَّقَ لي قُرْبٌ وإلْمَامُ
في حَقِّه كلُّ موجود سَعَى ومَشَى ... قَضَى به في كتاب الله إعلامُ
فكلّ شيءٍ من الأعيان سَبَّحَهُ ... لذاك أوْجَدَهُ والله عَلاَّمُ
وكُلّ كَوْنٍ من الأكوان مفتقرٌ ... في كل حال فلَذَّاتٌ وآلامُ
أين الغنَى وكلامُ الله أبْطَلَهُ ... فما ترى غير فقر فيه إعْدامُ

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ [البقرة: ٢٦٨] لما أمركم به من الفحشاء وفضلاً لما وعدكم به من الفقر والله غنيّ حميد وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] وقال لأبي يزيد البسطامي: يا أبا يزيد تقرّب إليّ بما ليس لي: الذلة والافتقار.

واعلم أن لله أبواباً فتحها للخير وأبواباً أعدها لم يصل أوان وقت فتحها للخير أيضاً، وأبواباً فتحها للآلام المعبر عنها بالعذاب لما يؤول إليه أمر أصحابه فيستعذبه في آخر الحال ولذلك سماه عذاباً، وإنما يستعذبه في آخر الأمر لكونه ذكره بربه فإن الإنسان إذا أصابه الضر وانقطعت به الأسباب وهو أشد العذاب ذكر ربه فرجع إليه مضطراً لا مختاراً فيستعذب عند ذلك الأمر الذي ردّه إلى الله وذكره به وأخرجه عن حكم غفلته ونسيانه فسماه عذاباً فهو اسم مبشر لمن حل به بالرحمة أنها تدركه، فما ألطف توصيل الحق بشارته لعباده في حال الشدة والرخاء، ولولا ذلك ما حقت الكلمة في قوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ١٩] فأتى بلفظة العذاب، ألا ترى إبراهيم الخليل عليه السلام يقول: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [مريم: ٤٥] والرحمن لا يعطي ألماً موجعاً إلا أن يكون في طيه رحمة يستعذبها من قام به ذلك الألم كشرب الدواء الذي يتضمن العافية استعماله ألا تراه كيف قال لأبيه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤] فلو علم أن في الرحمة ما يوجب النقمة لما عصاه فما عصى إلا الرحمن لأن كل اسم يعمل على شاكلته، فما أعلم الأنبياء بربهم وأشد الآلام عدم نيل الغرض، وقد روينا أن الله يقول للملك: «لا تقضي حاجة فلان في هذا الوقت فإني أحب أن أسمع صوته» وإن كان يتألم ذلك الشخص من فقد ما يسأل فيه ربه فهذا منع مؤلم عن رحمة إلهية.

ثم إن السور باطنه فيه الرحمة الخالصة وظاهره من قبله العذاب ولم يقل آلام العذاب

لعلمه بما يؤول إليه الأمر فأبان تعالى أن باطن هذا الموجود فيه الرحمة والظاهر منه لا يتصرف إلا بحكم الباطن فلا يكون أمر مؤلم في الظاهر إلا عن رحمة في الباطن، فإن الحكم للباطن في الظاهر هل تتصرّف الجوارح وهي الظاهرة إلا عن قصد الباطن المصرف لها والقصد باطن بلا شك، فما كان العذاب في ظاهر السور إلا عن قصد الرحمة به التي في باطن السور، فليس الألم بشيء سوى عدم اللذة ونيل الغرض، فما عند الله باب يفتح إلا أبواب الرحمة، غير أنه ثم رحمة ظاهرة لا ألم فيها وثم رحمة باطنة يكون فيها ألم في الوقت لا غير ثم يظهر حكمها في المآل، فالآلام عوارض واللذات ثوابت، فالعالم مرحوم بالذات متألم بما يعرض له ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] يضع الأمور مواضعها وينزلها منازلها، والإنسان يضرب ابنه أدباً ويؤلمه بذلك الضرب عقوبة لذنبه وهو يرحمه بباطنه، فإذا وفى الأمر حقه أظهر له ما في قلبه وباطنه من الرحمة به وشفقة الوالد على ولده، ولهذا ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ في قصة طويلة يقول فيها: «**وَإِنَّ اللهَ أَشْفَقُ عَلَىٰ عَبْدِهِ مِنْ هٰذِهِ عَلَى وَلَدِهَا**» وأشار إلى امرأة، وهذا كله من علوم الأذواق جعلنا الله والسامعين من أهل الرحمة الخالصة التي لا ألم لها بمنّه.

واعلم أن الله ما أظهر الممكنات في أعيانها موجودة إلا ليخرجها من شر العدم، إذ علم أن الوجود هو الخير المحض الذي لا شرّ فيه إلا بحكم العرض وهو من كونه ممكناً للعدم نظر إليه وهو الآن موصوف بالوجود فهو في الخير المحض، فالذي يناله من حيث هو ممكن من نظر العدم إليه في حال وجوده ذلك القدر يكون الشر الذي يجده العالم حيث وجده، فإذا نظر الممكن إلى وجوده وأبده سرّ لاستصحابه الوجود له، وإذا نظر إلى الحالة التي كان موصوفاً بها ولا وجود له تألم بمشاهدته لأن الحال له الحكم فيمن قام به، وحال هذا الممكن الآن مشاهدة العدم فيتعذب عذاباً وهمياً كان النبيّ ﷺ يقول في الضراء: «**الحَمْدُ لِلهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ**» ومن الأحوال الموجبة للحمد أحوال السرّاء التي حَمْدُها: «الحمد لله المنعم المتفضل»، فلولا أن الحمد على كل حال يتضمن حمد السرّاء فهو إعلام بأن في الضرّاء سرّاء لعموم حمدها، والحمد ثناء على المحمود، وصاحب الضرّاء لو لم يكن في طيّ تلك الضرّاء سراء لم يكن ذلك الحمد ثناء من الحامد في حال الضرّاء والحمد ثناء بلا شك في نفس الأمر، فما في العالم ضر لا يكون مشوباً برحمة، كما أن المؤمن لا تخلص له معصية غير مشوبة بطاعة أصلاً وهي طاعة الإيمان فهو في مخالفته طائع عاص كالمعذب المرحوم.

ثم لتعلم أن الممكنات مفتقرة بالذات، فلا يزال الفقر يصحبها دائماً لأن ذاتها دائمة فوضع لها الأسباب التي يحصل لها عندها ما افتقرت فيه فافتقرت إلى الأسباب فجعل الله عين الأسباب أسماء له، فأسماء الأسباب من أسمائه تعالى حتى لا يفتقر إلا إليه لأنه العلم الصحيح، فلا فرق عند أهل الكشف بين الأسماء التي يقال في العرف والشرع أنها أسماء الله وبين أسماء الأسباب أنها أسماء الله فإنه قال: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] ونحن نرى الواقع الافتقار إلى الأسباب، فلا بد أن تكون أسماء الأسباب أسماء الله تعالى، فندعوه بها

دعاء الحال لا دعاء الألفاظ، فإذا مسنا الجوع سارعنا إلى الغذاء المزيل ألم الجوع فافتقرنا إليه وهو مستغن عنا ولا نفتقر إلا إلى الله فهذا اسم من أسمائه أعني صورة ذلك الغذاء النازل منزلة صورة لفظ الاسم الإلهيّ أو صورة رقمه، ولذلك أمر بشكر الأسباب لأنه أمر بشكره فهو الثناء عليه بها.

واعلم أن من رحمة الله بخلقه أن جعل على قدم كل نبيّ ولياً وارثاً له فما زاد فلا بد أن يكون في كل عصر مائة ألف وليّ وأربعة وعشرون ألف ولي على عدد الأنبياء ويزيدون ولا ينقصون، فإن زادوا قسم الله علم ذلك النبي على من ورثه، فإن العلوم المنزلة على قلوب الأنبياء لا ترتفع من الدنيا وليس لها إلا قلوب الرجال فتقسم عليهم بحسب عددهم، فلا بد من أن يكون في الأمة من الأولياء على عدد الأنبياء وأكثر من ذلك. روينا عن الخضر أنه قال: «ما من يوم حدثت فيه نفسي أنه ما بقي ولي لله في الأرض إلا قد رأيته واجتمعت به، فلا بد لي أن أجتمع في ذلك اليوم مع ولي لله لم أكن عرفته قبل ذلك»، وروينا عنه أنه قال: «اجتمعت بشخص يوماً لم أعرفه فقال لي: يا خضر سلام عليك فقلت له: من أين عرفتني؟ فقال لي: إن الله عرفني بك»، فعلمت أن لله عباداً يعرفون الخضر ولا يعرفهم الخضر.

واعلم أن لله عباداً أخفياء أبرياء أصفياء أولياء بينهم وبين الناس حجب العوائد غامضين في الناس لا يظهر عليهم ما يميزهم عن الناس وبهم يحفظ الله العالم وينصر عباده، معروفون في السماء مجهولون في الأرض عند أبناء الجنس لهم المهناة في الدنيا والآخرة، ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء لا في الدنيا يعرفون ولا في الآخرة يشفعون انفردوا بالحق في سرائرهم، وما كنت عرفت أن الله قد جعل في الوجود ولياً له على كل قدم نبي، فإن الله تعالى لما جمع بيني وبين أنبيائه كلهم حتى ما بقي منهم نبي إلا رأيته في مجلس واحد لم أر معهم أحداً ممن هو على قدمهم، ثم بعد ذلك رأيت جميع المؤمنين وفيهم الذين هم على أقدام الأنبياء وغيرهم من الأولياء فلما لم يجمعهم مجلس واحد لذلك لم أعرفهم ثم عرفتهم بعد ذلك ونفعني الله برؤيتهم، وكان شيخنا أبو العباس العريبي على قدم عيسى عليه السلام وكنا نقول قبل هذا إن ثم أولياء على قلوب الأنبياء فقيل لنا: لا بل قل هم على أقدام الأنبياء لا تقل على قلوبهم، فعلمت ما أراد بذلك لما أطلعني الله على ذلك رأيتهم على آثارهم يقفون ورأيت لهم معراجين: المعراج الواحد يكونون فيه على قلوب الأنبياء ولكن من حيث هم الأنبياء أولياء النبوّة التي لا شرع فيها، والمعراج الثاني يكونون فيه على أقدام الأنبياء أصحاب الشرائع لا على قلوبهم، إذ لو كانوا على قلوبهم لنالوا ما نالته الأنبياء من الأحكام المشروعة وليس ذلك لهم وإن وقع لهم التعريف الإلهي بذلك، ويأخذون الشرع من حيث أخذته الأنبياء ولكن من مشكاة أنوار الأنبياء يقترن معه حكم الأتباع، فما يخلص لهم ذلك من الله ولا من الروح القدسي، وما عدا هذا الفن من العلم فإنه مخلص للأولياء من الله سبحانه ومن الأرواح القدسية، وهذا كله لتتميز المراتب عند الله لنعرف ذلك فنعطي كل ذي حق حقه كما أعطى الله كل شيء خلقه، وهذا كله من رحمة الله التي أفاضها على خلقه.

ثم لتعلم أن الله جعل للملائكة ثلاث مراتب في القوة الإلهية، فمنهم من أعطاه قوّتين، ومنهم من أعطاه ثلاث قوى، ومنهم من أعطاه أربع قوى وهي الغاية فإن الوجود على التربيع قام من غير مزيد إلا أنه كل قوّة تضمن قوى لا يعلم عددها إلا الله وذلك من حيث أن الملائكة أجسام نورية فلهم هذه القوى من حيث أجسامهم فإنهم مركبون كالأجسام الطبيعية، فالملك صاحب القوّتين على تركيب النبات، وصاحب الثلاث على تركيب الحيوان، وصاحب الأربع على تركيب الإنسان وانتهت المولدات فانتهت قوى الملائكة والجسم يجمع الكل فله الإحاطة، فقبلت الملائكة الأجسام النورية من العماء الذي ظهر فيه الجسم النوري الكل وقبل الشكل والصور، وفيه تظهر الأرواح الملكية والعماء لهذا الجسم الكل، وما يحمله من الصور والأشكال الإلهية والروحانية بمنزلة الهيولى في الأجسام الطبيعية سواء والتفصيل في ذلك يطول. ومن هذا النور الذي فوق الطبيعة تنفخ الأرواح في الأجسام الطبيعية فما تحت الطبيعة إلى العناصر أنوار في ظلال وما تحت العناصر من الأجسام العنصرية أنوار في ظلمة، وما فوق الطبيعة من الأجسام النورية أنوار في أنوار، وإن شئت أنوار في أنفاس رحمانية، وإن شئت أنوار في عماء كيفما شئت عبر إذا عرفت الأمر على ما هو عليه.

واعلم أن كل روح مما هو تحت العقل الأوّل صاحب الكلمة فهو ملك وما فوقه فهو روح لا ملك، فأمّا الملائكة فهم ما بين مسخر ومدبر وكلهم رسل الله عن أمر الله حفظه وهم على مراتب ولهم معارج ونزول وصعود دنيا وآخرة، فمنهم المسخرون في الدعاء والاستغفار للمؤمنين وآخرون في الاستغفار لمن في الأرض، ومنهم المسخرون في مصالح العالم المتعلقة بالدنيا، ومنهم المسخرون في مصالح العالم المتعلقة بالآخرة، وهذا القدر من العمل الذي هم عليه هو عبادتهم وصلاتهم، وأما تسبيحهم فذكر الله في هذه الصلوات التي لهم كالقراءة والذكر لنا في صلاتنا ولا يزال الأمر كذلك إلى الوقت الذي يشاء الله أن تعم الرحمة جميع خلقه التي وسعت كل شيء، فإذا عمتهم الرحمة لم يبق لبعض الملائكة الذين كان لهم الاستغفار من عبادتهم إلا التسبيح خاصة، وبقيت الملائكة الذين لهم تعلق بأحوالنا في الجنان، وحيث كان من كان من الدارين فذلك منهم لا ينقطع وزال عن أولئك اسم الملائكة وبقوا أرواحاً لا شغل لهم إلا بالتسبيح والتمجيد لله تعالى كسائر الأرواح المهيمة، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤] فهذا الصنف المذكور هنا هم الصابرون أهل البلاء من البشر.

وأما الملائكة التي تدخل على أصحاب النعيم الشاكرين فلم يجر لهم ذكر مع أنه لا بد من دخول الملائكة عليهم من كل باب لأن أبواب النعيم كثيرة كما هي أبواب البلاء، ومن رأى أن النعم التي أنعم الله بها على عباده في الدنيا ليست بخالصة من البلاء لما وجه عليهم فيها من التكليف بالشكر عليها وهو أعظم البلاء إذ كانت النعم أشدّ في الحجاب عن الله من الرزايا فدخل أهل النعيم على هذا في قول الملائكة ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤] أي

حصلتم في دار نعيمها غير مشوب بتكليف ولا طلب حق، فلذلك لم يجر ذكر لأحوال الملائكة مع الشاكرين واقتصر على ما جاء به الحق من التعريف وهو الصحيح، فإن الدار الدنيا تعطي هذا وهو الذي يقتضيه الكشف الذي لا تلبيس فيه أن جميع من في الدار الدنيا من مبتلى ومنعم عليه له حال الصبر، فالصبر أعم من الشكر والبلاء أعم من النعم في هذه الدار، وإذا عمت الرحمة وارتفعت الآثار التي تناقض الرحمة ارتفعت نسب الأسماء التي عينتها الآثار لأنها راجعة إلى عين واحدة كما بين تعالى في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وقال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠] والأسماء وضعية وضعتها حقائق الممكنات بما تطلبه، فعلى قدر ما تكون عليه من الاستعداد تطلب ما يناسب ذلك من الفيض الإلهيّ، فإذا أعطيته وضعت لكل عين من ذلك أسماء، فإذا لم يبق لها استعداد تقبل به الألم والعذاب لم يوجد للألم ولا للعذاب عين لعدم القابل فترتفع نسب الأسماء المختصة بهذه الأحكام لارتفاع القوابل، وما كان له من الأسماء حكمان في القابل فإنه يبقى كالغافر وهو الساتر، فلم يبق ذنب يطلب الغافر، وللغافر حكم الحجاب من كونه حجاباً مطلقاً فيبقى الغافر وإن زال المذنب فإن الغفر لا بد منه، ولولا ذلك لم يكن مزيد ولا خلق جديد والمزيد على الدوام فرفع الستور على الدوام وليس سوى الاسم الغفور بخلاف المنتقم فإن القابل ارتفع فزال هذا الوضع الخاص فاعلم ذلك.

وفي هذا المنزل من العلوم: علم ثناء السماء والأرض والملائكة دون سائر الخلق وما يثنون به على ربهم فإنه لكل عالم ثناء خاص لا يكون لغيره قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ ثم قال: ﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [الإسراء: ٤٤] وجمع السموات والأرض جمع من يعقل، وفيه علم التشبيه والكنايات وما في العالم الروحانيّ من القوى، وفيه علم الرسائل المبثوثة في العالم وأنه كل من يمشي في العالم فإنه لا يمشي إلا رسولاً برسالة وهو علم شريف حتى الدودة في حركاتها هي في رسالة تسعى بها لمن عقل ذلك، وفيه علم آثار القدرة وتمييزها عن سائر النسب، وفيه علم الأنواء وما يحمد منها وقول أبي هريرة رضي الله عنه: مطرنا بنوء الفتح، وفيه علم الأبواب ومراتبها، وفيه علم أن المنع الإلهيّ عطاء، وفيه علم التحديد الإلهي، وفيه علم تنزيل الخطاب الإلهيّ على قدر التواطؤ، وفيه علم الإنباه الإلهيّ في طلب الشكر من عباده، وفيه علم ردّ الخلق إليه تعالى، وفيه علم المواعيد على الإطلاق، وفيه علم المميز بين الأعداء الظاهرين بصورة الولاء وبين الأولياء، وفيه علم مجازاة العدوّ بالعداوة والوليّ بالولاية فيما بين العالم وأنه من اتخذ العدوّ ولياً أو الوليّ عدوّاً فهو مخلط لا حقيقة عنده. وفيه علم كل داع إنما يدعو لنفسه وإن دعا إلى الله تعالى أو لغير نفسه فإنما يدعو من حيث نفسه فإنه يطلب بذلك الدعاء الأنس بالأشكال في المرتبة، وفيه علم ترتيب الثواب على الأعمال وفيه تمييز الأجور فإن منها العظيم والكريم والكبير وهي مراتب في الأجور لا بد أن يعرف أصحابها وأعمالها التي توجبها، وعلم الأجر المطلق الذي لا يتقيد هل هو مقيد في نفس الأمر أم لا؟ فإن الأجور أربعة، كما أن نشأة الإنسان على أربع، كما أن نشأة جسده على

أربع لكل واحد أجر يخصه على صفة مخصوصة فينسب كل أجر ما يناسبه، وفيه علم ما وراء الستور، وفيه علم القبيح الذي تحسنه المشاهدة وهو سرّ عجيب، وفيه علم العزل، وفيه علم الحث على اشتغال الإنسان بنفسه، وفيه علم الظهور من الخفاء، وفيه علم الحاملات العلوية والسفلية، وفيه علم تفاضل الصفات في الموصوفين بشديد وأشدّ وفيه علم الحضرة الجامعة للمنافع الإنسانية وهي حضرة النعم للراحل والقاطن والمتحرّك والساكن، وفيه علم التسخير والمسخرات وهل كل مسخر له أجل ينتهي إليه بتسخيره أم لا؟ أو بعضه له أجل وبعضه لا أجل له؟ وفيه علم «عند جهينة الخبر اليقين» وقولهم «على الخبير سقطت» ولم يقولوا على العليم سقطت ولم يقولوا عند جهينة العلم اليقين، وفيه علم ظهور الحق وسريانه في كل شيء وتقسيمات الحق في قوله: لكل حق حقيقة فأدخل عليه كل، وفيه علم انفراد كل مكلف بنفسه والفرق بينه وبين من لا ينفرد من المكلفين بنفسه أعني من الثقلين وفيما ينفرد وفيما لا ينفرد، وفيه علم القوابل وفيمن يؤثر الداعي، وفيه علم ما يكون لأصحاب القبور في قبورهم وما هي القبور، وفيه علم الأخذ من كل أحد وصفة المأخوذ والمأخوذ منه، وفيه علم الأعراض هل هي نسب عدمية أو أمور وجودية لها أعيان؟ وفيه علم ما يحصل لأهل العناية من العزة والحجاب، وفيه علم مراتب أتباع الأنبياء، وفيه علم المزيد، وفيه علم التمني، وفيه علم سريان الحكمة في مراتب الموجودات على ما هي عليه، وفيه علم السبق الإلهيّ للعالم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي خمسين وثلاثمائة

في معرفة منزل تجلي الاستفهام ورفع الغطاء عن أعين المعاني وهو من الحضرة المحمدية من اسمه الرب

[المتقارب]

إذا صُـعِـقَ الـرُّوحُ مـن وَحْـيِـهِ ... فـكـيـف بـهَـيْـكَـل ظَـلْـمَـائِـهِ
لـقـد ثَـبَّـتَ الله أركـانَـهُ ... وأجْـراه فَـلَـكـاً عـلـى مـائـهِ
ومـا هـو بَـحْـرٌ لـه سـاحـلٌ ... وأيـن الـتَّـنـاهـي لأسـمـائـهِ
أبـو الـكَـوْن لـو كـنـتَ تَـدْري بـه ... وتَـشْـهَـدُه عَـيْـنُ أبـنـائـهِ
فـلا تـفـرحـنّ بـإتـيـانـه ... ولا تَـقْـعُـدَنّ بـسـيـسـائِـهِ
فـسـبـحـان مـذهـب أعـيـانـنـا ... إذا مـا كَـفَـرْنـا بـنَـعْـمَـائـهِ
ويـا عـجـبـاً إذْ كـفـرنـا بـهـا ... وأنـي مـن عـيـن آلائـهِ

اعلم أيدنا الله وإياك أن هذا المنزل منزل الحجب المانعة والآلات الدافعة، فمنها حجب عناية مثل قوله ﷺ: **«إنَّ لله سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ أَوْ سَبْعِينَ حِجَاباً»** ـ الشَّكُّ مني ـ **«مِنْ نُورٍ وظلمة لَوْ كَشَفَهَا لأَحْرَقَتْ سبحاتُ وَجْهِهِ مَا أَدْرَكَهُ بَصَرهُ مِنْ خَلْقِهِ»** وهنا نكتة وإشارة أن البصر هنا بصر الخلق الذي الحق بصره وهو القابل لهذه الحجب وهو

الموصوف بأن الحق بصره وهو عين سبحات الوجه، فإن الله لا يزال يرى العالم ولم يزل وما أحرقت العالم رؤيته، ومنها حجب غير عناية مثل قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

فاعلم أن الحجب على أنواع: حجب كيانية بين الأكوان مثل قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ومنها حجب احتجبت بها الخلق عن الله مثل قوله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥] ومنها حجب احتجب بها الله عن خلقه مثل قوله ﷺ: «**إنَّ الله يَتَجَلَّى يَوْمَ القِيَامَةِ لِعِبَادِهِ لَيسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ إلاَّ رِداءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ**» وفي رواية: «**بَيْنَهُ وَبَينَ خَلْقِهِ ثَلاثَةُ حُجُبٍ**» أو كما قال. ومنها ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] كما كلم موسى عليه السلام من حجاب النار والشجرة وشاطىء الوادي الأيمن وجانب الطور الأيمن وفي البقعة المباركة، وكما قال: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فكلم الله المستجير من خلف حجاب محمد ﷺ إذ كان هو عين الحجاب، لأن المستجير من المشركين منه سمع كلام الله فلا نشك أن الله كلمنا على لسان رسول الله ﷺ، وكما أيضاً كلمنا من وراء حجاب المصلي إذا قال: سمع الله لمن حمده، فألسنة العالم كلها أقوال الله وتقسيمها لله فيضيف إلى نفسه منها ما شاء ويترك منها ما شاء.

فأمّا الحجب الكيانية التي بين الأكوان فمنها جنن ووقايات، ومنها عزة وحمايات كاحتجاب الملوك وحجاب الغيرة على من يغار عليه كما قال في ذوات الخدور وهنّ المحتجبات ومن ذلك: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] وأما الوقايات والجنن فمنها الحجب التي تقي الأجسام الحيوانية من البرد القويّ والحر الشديد فيدفع بذلك الألم عن نفسه، وكذلك الطوارق يدفع بها في الحرب المقاتل عن نفسه سهام الأعداء ورماحهم وسيوفهم فيتقي هذا وأمثاله بمجنه الحائل بينه وبين عدوه ويدفع بذلك عن نفسه الأذى من خودة وترس ودرع، وقد تكون حجب معنوية يدفع بها الأذى الشخص عمن يتكرم عليه مثل شخص يصدر منه في حق شخص آخر ما يكرهه ذلك الشخص لكونه لا يلائم طبعه ولا يوافق غرضه فيلحق به الذم لما جرى منه في حقه فيقوم شخص يجعل نفسه له وقاية حتى يتلقى هو في نفسه سهام ذلك الذم فيقرّر في نفس الذام أنه السبب الموجب لذلك وأن ذلك الأذى كان كله من جهته حتى يتحقق ذلك الذامّ هذا الأمر أنه كان من جهة هذا الشخص بأي وجه أمكنه التوصل إليه فيعلق الذم به ويكون حائلاً بينه وبين الشخص الذي كان منه الأذى لذلك الذم فوقى عرضه بنفسه، كما نلحق نحن من الأفعال ما قبح منها مما لا يوافق الأغراض ولا يلائم الطبع إلينا مع علمنا أن الكل من عند الله، ولكن لما تعلق به لسان الذم فدينا ما ينسب إلى الحق من ذلك بنفوسنا أدباً مع الله وما كان من خير وحسن رفعنا نفوسنا من الطريق وأضفنا ذلك إلى الله حتى يكون هو المحمود أدباً مع الله وحقيقة، فإنه لله بلا شك مع ما فيه من رائحة الاشتراك بالخير الإلهيّ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾

[النساء: ٧٩] وقال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] فأضاف العمل وقتاً إلينا ووقتاً إليه فلهذا قلنا فيه رائحة اشتراك، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فأضاف الكل إلينا وقال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨] فله الإلهام فينا ولنا العمل بما ألهم، وقال: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠] فقد يكون عطاؤه الإلهام وقد يكون خلق العمل، فهذه مسألة لا يتخلص فيها توحيد أصلاً لا من جهة الكشف ولا من جهة الخبر، فالأمر الصحيح في ذلك أنه مربوط بين حق وخلق غير مخلص لأحد الجانبين، فإنه أعلى ما يكون من النسب الإلهية أن يكون الحق تعالى هو عين الوجود الذي استفادته الممكنات فما ثم إلا وجود عين الحق لا غيره؛ والتغييرات الظاهرة في هذه العين أحكام أعيان الممكنات، فلولا العين ما ظهر الحكم ولولا الممكن ما ظهر التغيير، فلا بد في الأفعال من حق وخلق، وفي مذهب بعض العامة أن العبد محل ظهور أفعال الله وموضع جريانها، فلا يشهدها الحس إلا من الأكوان، ولا تشهدها بصيرتهم إلا من الله من وراء حجاب، هذا الذي ظهرت على يديه المريد لها المختار فيها فهو لها مكتسب باختياره، وهذا مذهب الأشاعرة، ومذهب بعض العامة أيضاً أن الفعل للعبد حقيقة، ومع هذا فربط الفعل عندهم بين الحق والخلق لا يزول، فإن هؤلاء أيضاً يقولون: إن القدرة الحادثة في العبد التي يكون بها هذا الفعل من الفاعل أن الله خلق له القدرة عليها فما يخلص الفعل للعبد إلا بما خلق الله فيه من القدرة عليه فما زال الاشتراك وهذا مذهب أهل الاعتزال، فهؤلاء ثلاثة أصناف أصحابنا والأشاعرة والمعتزلة ما زال منهم وقوع الاشتراك، وهكذا أيضاً حكم مثبتي العلل لا يتخلص لهم إثبات المعلول لعلته التي هي معلولة لعلة أخرى فوقها إلى أن ينتهوا إلى الحق في ذلك الواجب الوجود لذاته الذي هو عندهم علة العلل، فلولا علة العلل ما كان معلول عن علة إذا كل علة دون علة العلل معلولة، فالاشتراك ما ارتفع على مذهب هؤلاء، وأما ما عدا هؤلاء الأصناف من الطبيعيين والدهريين فغاية ما يؤول إليه أمرهم أن الذي نقول نحن فيه إنه الإله تقول الدهرية فيه إنه الدهر والطبيعيون إنه الطبيعة، وهم لا يخلصون الفعل الظاهر منا دون أن يضيفوا ذلك إلى الطبيعة وأصحاب الدهر إلى الدهر، فما زال وجود الاشتراك في كل نحلة وملة، وما ثم عقل يدل على خلاف هذا، ولا خبر إلهي في شريعة تخلص الفعل من جميع الجهات إلى أحد الجانبين فلنقره كما أقره الله على علم الله فيه، وما ثم إلا كشف وشرع وعقل، وهذه الثلاثة ما خلصت شيئاً ولا يخلص أبداً دنيا ولا آخرة جزاء بما كنتم تعملون، فالأمر في نفسه والله أعلم ما هو إلا كما وقع ما يقع فيه تخليص لأنه في نفسه غير مخلص، إذ لو كان في نفسه مخلصاً لا بد إن كان يظهر عليه بعض هذه الطوائف ولا يتمكن لنا أن نقول الكل على خطأ فإن في الكل الشرائع الإلهية ونسبة الخطأ إليها محال، وما يخبر بالأشياء على ما هي عليه إلا الله وقد أخبر فما هو الأمر إلا كما أخبر لأن مرجوع الكل إليه، فما خلص فهو مخلص وما لم يخلص فما هو في نفسه مخلص فإن ٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي

ٱلسَّبِيلَ، فاتفق الحق والعالم جميعه في هذه المسألة على الاشتراك، وهذا هو الشرك الخفيّ والجلي وموضع الحيرة فلا يرجح فما ثم إلا ما قلناه.

فإذ قد قرّرنا في هذه المسألة ما قرّرناه فلنقل أن الجود الإلهيّ والغيرة الإلهية اقتضيا أن يقولا ما نبينه إن شاء الله، وذلك أن المتكلمين في هذا الشأن على قسمين: الواحد أضاف الأفعال كلها إلى الأكوان فقال لسان الغيرة الإلهية ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] أي حادثاً. وأما القسم الثاني فأضاف الأفعال الحسنة كلها إلى الله وأضاف الأفعال القبيحة إلى الأكوان فقال لسان الجود الإلهيّ ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ لا تكذيباً لهم بل ثناء جميلاً، وما ثم من قال: إن الأفعال كلها لله ولا للأكوان من غير رائحة اشتراك، فلهذا حصرناها في قسمين من أجل الطبيعية والدهرية.

وأمّا حجب العناية وهي حجب الإشفاق على الخلق من الإحراق فهي الحجب التي تمنع السبحات الوجهية أن تحرق ما أدركه البصر من الخلق، وسبب ذلك أن الله قد وضع الدعاوى في الخلق لأن أعيانهم لما اتصفت بالوجود بعد العدم وأن ذلك الوجود كان عن ترجيح المرجح الذي هو واجب الوجود فما أنكره أحد وإن كانت قد تغيرت العبارات عنه باسم طبيعة ودهر وعلة وغير ذلك فهو هو لا غيره فرأوا أن الوجود لها، وإن كان مستفاداً فإنه لهم حقيقة وأن أعيانهم هم الموجودون بهذا الوجود المستفاد، وهذه هي أعيان الحجب التي بين الله وبين خلقه، فلو كشفها عموماً كما كشفها خصوصاً لبعض عباده لأحرقت أنوار ذاته المعبر عنها بسبحات وجهه ما أدركه بصره من أعيان الموجودات أي أن بصره ما كان يدرك من الموجودات سوى وجود الحق ويذهب الكل الذي قررته الدعاوى فيتبين أنه الحق لا غيره، فعبر عن هذا الذهاب بالإحراق لما جعلها أنواراً والأنوار لها الإحراق لكنه تعالى أبقى حجب الدعاوى ليتميز أهل الله من غيرهم، فلم تزل الممكنات عند أهل الله من حيث أعيانهم موصوفين بالعدم ومن حيث أحكامهم لم يزالوا موصوفين بالوجود وهو الحق كما قال تعالى: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ**» في الخبر الصحيح، فأثبت العين للعبد وجعل نفسه عين صفته التي هي عين وجوده عين صفة العبد، فعين الممكن ثابتة غير موجودة والصفة موجودة ثابتة وهي عين واحدة، ولو تكثرت بنسبها فإنها كثيرة في النسب فهي سمع وبصر وغير هذين إلى جميع ما في العالم من القوى من ملك وبشر وجان ومعدن ونبات وحيوان ومكان وزمان ومحل ومعقول ومحسوس وما ثم إلا هذا.

ولما قرر الله دعاوى المدعين بإرسال الحجب بينهم وبين ما هو الأمر عليه وشغلهم بالحجب التي بينهم وبينه في الأفعال وضرب الكل بالكل انفرد بخاصته وجعلهم جلساء له عنده بالشهود وفي صورهم المحسوسة بالذكر فهو جليس الذاكرين وهم آخر الطوائف ليس بعدهم أحد له نعت يذكر، قال تعالى لما وصفهم ذكراناً وإناثاً: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] فختم بجلسائه وما بعد جلسائه من يقبل صفة إلا صفة بعد عن هذه المجالسة؛ ألا ترى أبا يزيد رحمه الله حين جهل الأسماء الإلهية وما تستحقه من الحقائق كيف

صنع لما سمع القارىء يقرأ يوم الجمعة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] طار الدم من عينيه حتى ضرب المنبر وتأوّه وقال: «هذا عجب كيف يحشر إليه من هو جليسه؟» فإنه في تلك الحالة كان جليساً مع الأسماء من حيث ما هي دالة على الذات كل واحد منها لم يكن مع الاسم من حيث ما تطلبه حقيقته من عين دلالته على الذات فأنكر ما لم يعطه مشهده مع كونه كلام الحق وقد وقع منه الإنكار بل ما وقع منه إلا التعجب خاصة فهو يشبه الإنكار وليس بإنكار، حتى أنه لو كان هذ القول من غير الله لأمر القائل بالسكوت وزجره عن ذلك، وإنما الرجل أظهر التعجب من قول الله في حق المتقين الذين هم جلساء الله كيف يحشرون إليه؟ فكأنه إبراهيمي المشهد في طلب الكيفية في إحياء الموتى، فأراد أبو يزيد ما أراده إبراهيم في كيفية إحياء الموتى لاختلاف الوجوه في ذلك لا إنكاراً لإحياء الموتى، فدل هذا الكلام من أبي يزيد على حاله في ذلك الوقت، فهذا مثل قول إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [مريم: ٤٥] والرحمة تناقض العذاب إلا على الوجه الذي قرّرناه في المنزل الذي قبل هذا المنزل وهو منزل فتح الأبواب، كذلك أبو يزيد لو علم أن المتقي ما هو جليس الرحمن وإنما هو جليس الجبار المريد العظيم المتكبر فيحشر المتقي إلى الرحمن ليكون جليسه فيزول عنه الاتقاء فإن الرحمن لا يتقى بل هو محل موضع الطمع والإدلال والأنس، لكنهم رضي الله عنهم صادقون لا يتعدون ذوقهم في كل حال، بخلاف العامة من أهل الله فإنهم يتكلمون بأحوال غيرهم والخاصة لا سبيل لهم إلى ذلك، وإن اتفق أن يتكلم أحد منهم في حال نبيّ أو وليّ هو فوقه فيبين أنه مترجم عن حال غيره حتى يعرف السامع عمن يقول، هذه حالهم رضي الله عنهم، ولا يقع منهم مثل هذا إلا في النادر لضرورة تدعو إليه، فإن لهم الكشف الخبريّ عن مقامات من هو فوقهم، وما لهم الكشف الذوقيّ إلا فيما هو مقامهم وحالهم، فلولا هذه الحجب التي أسدلها الله بين الأكوان وبينه ما تميزت المراتب واختلطت الحقائق، وهذا سبب وضع الحدود في الأشياء، وقد لَعَنَ الله من غَيَّرَ مَنَارَ الأرض.

وصل: ومن هذا الباب أن الله ما جمع لأحد بين مشاهدته وبين كلامه في حال مشاهدته فإنه لا سبيل إلى ذلك إلا أن يكون التجلي الإلهيّ في صورة مثالية فحينئذ يجمع بين المشاهدة والكلام وهذا غير منكور عندنا، وقد بلغنا عن الشيخ العارف شهاب الدين السهرورديّ ببغداد رضي الله عنه أنه قال بالجمع بين المشاهدة والكلام، ولكن ما نقل عنه أكثر من هذا، فإني سألت الناقل فلم يذكر لي نوع التجلي والظنّ بالشيخ جميل فلا بد أن يريد التجلي الصوري، ألا ترى السياريّ من رجال رسالة القشيريّ حيث قال: «ما التذ عاقل بمشاهدة قط» ثم فسر فقال: لأن مشاهدة الحق فناء ليس فيها لذة، والخطاب في حال الفناء لا يصح لأن فائدة الخطاب أن يعقل ولذلك قال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] وما زال البشر عن حكم البشرية كمسألة موسى والحجاب عين الصورة التي يناديه منها وما يزول البشر عن بشريته وإن فني عن شهودها فعين وجودها لا يزول والحدّ يصحبها. وإنما قلنا هذا لأني سمعت بعض الشيوخ يقول: هذا حظ البشر

فإذا زال عن بشريته كان حكمه حكماً آخر، فأبنت له رضي الله عنه أن الأمر ليس كما يظنه، فلما تحقق ما ذكرناه رجع عن ذلك وقال: ما كنت أظن إلا أن الأمر على ما قلته لم أجعل بالي من هذا فإنه تكلم في شرح الآية فغلط ما تكلم في ذلك عن ذوق الأمر ومن هنا يقع الغلط، ونحن نعلم أن الذي قاله الله حق كله وأنه لا يخالف الأذواق، فلا بد أن يكون كلام الذائق مطابقاً للإخبارات الإلهية حتى يقول من لا معرفة بمقام الرجال إن هذا المتكلم يتكلم بما لا يخالف ما جاء به قرآن أو سنة، إنما هو أخذه منهما وهو مفسر لهما وصاحب الذوق ما قال إلا ما ذاقه، فمن المحال أن يخالف شيئاً مما جاء عن الله، لكن الأجنبيّ الذي لا ذوق له يقول هذا عن الذائق، بل جماعة من أهل الطريق ممن لا ذوق لهم يتخيلون مثل هذا ويقولون: إن فلاناً يتكلم من حيثما ورد في الأخبار الإلهية ليس له مادّة غيرها وينكرون الذوق لأنهم ما عرفوه من نفوسهم مع كونهم يعتقدون في نفوسهم أنهم على طريق واحدة، وكذلك هو الأمر أصحاب الأذواق هم على طريق واحدة بلا شك، غير أن فيهم البصير والأعمى والأعشى، فلا يقول واحد منهم إلا ما أعطاه حاله لا ما أعطاه الطريق ولا ما هو الطريق عليه في نفسه ولا سيما السلوك المعنويّ فإن عمى القلوب أشد من عمى الأبصار، فإن عمى القلوب يحول بينك وبين الحق، وعمى البصر الذي لم ير قط صاحبه ليس يحول إلا بينك وبين الألوان خاصة ليس له إلا ذلك وهذا العمى من الحجب، وكذلك الصمم والقفل والكنّ والغشاوة دون العمى في الحكم، إلا أن تكون الغشاوة تعطي الظلمة فلا فرق بينها وبين العمى، فإن خرجت عن حد الظلمة إلى حد السدفة فقد يكون حال صاحبها أحسن من حال صاحب الظلمة ومن حال الأعمى، قال بعضهم لمحمد ﷺ: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥] وهو الأكنة ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥] أي اعمل في رفع ذلك، ويحتمل قولهم: ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ في رفع ذلك في حق من يحتمل صدقه عندهم فإنهم اعترفوا أن قلوبهم في أكنة مما يدعوهم إليه فما جحدوا قوله ولا ردّوه كما اعتقد غيرهم ممن لم يقل ذلك، فلا أدري ما آل إليه أمر هؤلاء فإنهم عندي في مقام الرجاء، فإنا نعلم قطعاً أن الرسول يعمل في رفع الغطاء عن أعينهم بلا شك حتى قال: «**لأزيدَنّ على السَّبْعين**»، ولذا قال في الآية: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦] ولم يقل وويل لكم، فهذا يدل بقرينة الحال أنهم عاملون في رفع الحجاب وإخراج قلوبهم من الأكنة، وإنما كثر الأكنة لاختلاف أسباب توقفهم في قبول ما أتاهم به، فمنهم من كنه الحسد وآخر الجهل وآخر شغل الوقت بما كان عنده أهمّ حتى يتفرغ منه والكل حجاب.

ومن أعجب الأشياء الواقعة في الوجود ما أقوله وذلك أن الملائكة إذا تكلم الله بالوحي كأنه سلسلة على صفوان تصعق الملائكة، ورسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كسلسلة على صفوان يصعق وهو أشد الوحي عليه فينزل جبريل به على قلبه فيفنى عن عالم الحس ويرغو ويسجى إلى أن يسرّى عنه، وإنه لينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيتفصد جبينه عرقاً، وموسى عليه السلام كلمه الله تكليماً بارتفاع الوسائط وما صعق ولا زال

عن حسه وقال وقيل له وهذا المقام أعظم من مقام الوحي بوساطة الملك، فهذا الملك يصعق عند الكلام، وهذا أكرم البشر يصعق عند نزول الروح بالوحي، وهذا موسى لم يصعق ولا جرى عليه شيء مع ارتفاع الوسائط وصعق لذلك الجبل، فاعلم أن هذا كله من آثار الحجب، فإن الحكم لها حيث ظهرت فإن الله لما خلقها حجباً لم يكن إلا أن تحجب ولا بد، فلو لم تحجب لما كانت حجباً.

وخلق الله هذه الحجب على نوعين: معنوية ومادّية، وخلق المادية على نوعين: كثيفة ولطيفة وشفافة، فالكثيفة لا يدرك البصر سواها، واللطيفة يدرك البصر ما فيها وما وراءها، والشفافة يدرك البصر ما وراءها ويحصل له الالتباس إذا أدرك ما فيها كما قيل: [الكامل أحذّ مضمر]

رَقَّ الزُّجاجُ ورَقَّتِ الخَمْرُ ... فتَشَاكَلا فتشابَهَ الأَمْرُ
فكأنَّما خَمْرٌ ولا قَدَحٌ ... وكأنَّما قَدَحٌ ولا خَمْرُ

وأما المرائي والأجسام الصقيلة فلا يدرك موضع الصور منها ولا يدرك ما وراءها ويدرك الصور الغائبة عن عين المدرك بها لا فيها، فالصور المرئية حجاب بين البصر وبين الصقيل وهي صور لا يقال فيها لطيفة ولا كثيفة وتشهدها الأبصار كثيفة وتتغير أشكالها بتغير شكل الصقيل، وتتموّج بتموّجه، وتتحرّك بتحرك من هي صورته من خارج وتسكن بسكونه إلا أن يتحرّك الصقيل كتموّج الماء فيظهر في العين فيها حركة، ومن هي صورته ساكن فلها حركتان: حركة من حركة من هي صورته وحركة من حركة الصقيل، فما في الوجود إلا حجب مسدلة والإدراكات متعلقها الحجب، ولها الأثر في صاحب العين المدرك لها، وأعظم الحجب حجابان: حجاب معنويّ وهو الجهل وحجاب حسيّ وهو أنت على نفسك، فأما الحجاب الأعظم المعنويّ فقول رسول الله ﷺ لما أسري به في شجرة فيها وكرا طائر فقعد جبريل في الوكر الواحد وقعد رسول الله ﷺ في الآخر، فلما وصلا إلى السماء الدنيا تدلى إليهما شبه الرفرف دراً وياقوتاً وكان ذلك نوعاً من تجلي الحق، قال عليه السلام: «**فأما جبريل فغُشِيَ عليه**» لعلمه بما تدلى إليه، وأمّا رسول الله ﷺ فبقي على حاله لكونه ما علم ما هو فلم يكن له سلطان عليه، فلما أخبره جبريل عندما أفاق أنه الحق قال ﷺ عند ذلك: «**فعلمتُ فَضْلَهُ**» يعني فضل جبريل «**عليّ في العلم**»، فالعلم أصعق جبريل وعدم العلم أبقى النبيّ ﷺ على حاله مع وجود الرؤية من الشخصين، فهذا أعظم الحجب المعنوية.

وأمّا كونك حجاباً عليك وهو أكثف الحجب الحسية فقول القائل: [الطويل]

بَدَا لك سرٌّ طال عَنْكَ اكْتِتَامُهُ ... ولاحَ صباحٌ كُنْتَ أنْتَ ظَلامَهُ
فأنتَ حجابُ القَلْب عن سرِّ غَيْبِهِ ... ولولاكَ لم يُطْبَعْ عليه خِتَامُهُ
إذا غِبْتَ عنه حَلَّ فيه وطُنِّبَتْ ... على مَنْكِبِ الكشفِ المَصُون خِيَامُهُ
وجاء حديثٌ لا يُمَلُّ سَمَاعُهُ ... شهيٌّ إلينا نَثْرُهُ ونِظَامُهُ

فما جعل حجاباً عليك سواك.

ثم نرجع إلى مسألتنا ونقول: أما موسى عليه السلام فكان قد استفرغه طلب النار لأهله وهو الذي أخرجه لما أمر به من السعي على العيال، والأنبياء أشدّ الناس مطالبة لأنفسهم للقيام بأوامر الحق، فلم يكن في نفسه سوى ما خرج إليه، فلما أبصر حاجته وهي النار التي لاحت له من الشجرة من ﴿جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [طه: ٨٠] ناداه الحق من عين حاجته بما يناسب الوقت ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢] ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ١٣] ولم يقل لما أوحي ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: ١٤] فثبته الخطاب الأوّل بالنداء لأنه خرج على أن يقتبس ناراً أو يجد على النار هدى وهو قوله: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص: ٢٩] أي من يدله على حاجته، فكان منتظراً للنداء قد هيأ سمعه وبصره لرؤية النار وسمعه لمن يدله عليها، فلما جاءه النداء بأمر مناسب لم ينكره وثبت، فلما علم أن المنادي ربه وقد صح له الثبوت وجاءه النداء من خارج لا من نفسه ثبت ليوفي الأدب حقه في الاستماع، فإنه لكل نوع من التجلي حكم، وحكم نداء هذا التجلي التهيؤ لسماع ما يأتي به فلم يصعق ولاغاب عن شهوده، فإنه خطاب مقيد بجهة مسموع بإذن وخطاب تفصيلي، فالمثبت للإنسان على حسه وشهود محسوسه قلبه المدبر لجسده، ولم يكن لهذا الكلام الإلهيّ الموسويّ توجه على القلب، فليس للقلب هنا إلا ما يتلقاه من سمعه وبصره وقواه حسبما جرت به العادة، فلم يتعدّ الحال حكمه في موسى عليه السلام.

وأما أمر محمد ﷺ فهو نزول قلبيّ وخطاب إجماليّ كسلسلة على صفوان فاجعل بالك لهذا التشبيه؛ فاشتغل القلب بما نزل إليه ليتلقاه فغاب عن تدبير بدنه فسمى ذلك غشية وصعقاً، وكذلك الملائكة أخبر النبيّ ﷺ عن الملائكة في طريان هذا الحال أنه إذا كان الوحي المتكلم به كسلسلة على صفوان وكان نزوله على قلوب الملائكة فإنه قال: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣] ثم لما أفاقوا أخبر عنهم بأنهم يقولون: ﴿مَاذَا﴾ وهنا وقف ثم يجيبهم فيقول: ﴿رَبُّكُمْ﴾ وهنا وقف فيقولون: ﴿الْحَقَّ﴾ بالنصب أي قال الحق كذا علمناه ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ عن هذا النزول في هذا النزول ﴿الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] عن هذا التشبيه في هذه النسبة. وعلى الوجه الآخر قالوا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ وهنا وقف فيقول بعضهم لبعض ﴿الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] من قول الله لا من قول الملائكة فعلى الوجه الأوّل لما أفاقوا وأزال الخطاب الإجمالي المشبه وزالت البديهة ﴿قَالُوا مَاذَا﴾ فقال لهم: ﴿رَبُّكُمْ﴾ وهو قوله: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبأ: ٢٣] فما صعقوا عند هذا القول بل ثبتوا و﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣] أي قال الحق؛ أي قال ربنا القول الحق؛ يعنون ما فهموه من الوحي، أو قوله: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبأ: ٢٣] أو هما معاً وهو الصحيح فهذا الفرق بين حال موسى عليه السلام وبين حال محمد ﷺ وحال الملائكة عليهم السلام.

واعلم أن في هذا المنزل من العلوم علم ثناء الحق على نفسه بخلقه وهو المثني على نفسه بغناه عن خلقه، فأيّ الثناءين أتم وأحق؟ وما هو الحق من هذين الثناءين؟ وما هو الحقيقة منهما أو كلاهما حقيقتان لحقين أو هما حقان ولهما حقيقتان؟ وفيه علم الفرق بين

العلم والحكمة والخبرة، وفيه علم العلم بما في العالم بتقاسيم أحوالهم، وفي علم النيابة في الأجوبة عن الله ولا يكون ذلك إلا لرسول أو نبيّ أو وارث عن سماع لخطاب إلهيّ لا عن تجل ولا خطاب حال، وفيه علم علم الله، وفيه علم أين أودع الله علمه في خلقه من العوالم وهل أودعه في واحد أو فيما زاد على واحد؟ وفيه علم بماذا تتميز به القبضتان في عالم الشهادة وبماذا تتميز به في عالم الغيب، وفيه علم الدلالة على العلماء وأصحاب الأخبار الإلهية لنعرفهم فنتلقى منهم ما يأتون به عن الله فنساويهم في العلم بذلك رغبة في أن تلحق نفوسنا بنفوسهم في الصورة وإن اختلفت الطرق فلا أثر لاختلافها في صورة العلم، وهذا هو الذي يحرّض الأكابر من العلماء الأكابر على نشر العلم كما يحرّض المتعلمين على طلب العلم من أكابر العلماء الذي يعلمون أنهم أعلم بالله منهم، ومن هذا قال الرجل للتلميذ: «لأن ترى أبا يزيد مرة خير لك من أن ترى الله ألف مرة» لفضله عليه في العلم بالله لما علم أن ظهور الحق لعباده على قدر علمهم به، فرؤيتنا الله بعلم العلماء به إذا استفدناه منهم أتم من رؤيتنا بعلمنا قبل أن نستفيده منهم.

وفيه علم إحاطة الاعتبار بالجهات وأن علم الاعتبار لا يخص حالاً من حال ولا جهة من جهة وأنه علم عام وهو علم يعطي الدلالة لمن رجع إلى الله بالعبودة، وفيه علم الأمر والنهي الإلهي بالمساعدة في العبادة وأعمال الخير، وفيه علم إرسال النعم الخارقة وما يحجب منها وماذا يحجب، وفيه علم قوى المسخرات في التسخير إلى أين تنتهي قواهم فيما سخروا فيه، وفيه علم الموت المجهول في الميت وبماذا يعرف؟ كما حكى القشيري في رسالته عن بعضهم أنه مات إنسان فنظر إليه الغاسل فتحير فلم يدر أهو ميت أم ليس بميت وهو ميت في نفس الأمر، ومثل هذا ظهر على صاحب لي كان يخدمني فمات عندي فشك فيه الغاسل عند غسله هل هو ميت أم لا؟

وفيه علم أثر العلم في العالم ومن ادّعى العلم ولم يؤثر فيه ما هو عالم وهي مسألة مشكلة يورث الإشكال فيها الحس فإنه ما رأينا أحداً يلقي نفسه في النار لعلمه أنها تحرقه إلا طائفتين: الواحدة من تتخذها قرباناً فتلقي نفسها فيها طلباً للإحراق قربة إليها أو من يعلم أنها لا تحرقه فعلمنا أن العلم له أثر في العالم.

وفيه علم آيات النعم وعلى ماذا تدل وما حقها على من يراها آية، وفيه علم العلم القوي الذي يذهب بما سواه من العلوم التي يجدها في القلب، وفيه علم الأدنى والأعلى وما السبب الموجب للطالب في طلبه الأدنى وتركه الأعلى مع علمه بمرتبة كل واحد منهما؟ وفيه علم أسباب الجزاء في الخير والشر، وفيه علم البعد والقرب الكياني والإلهي، وفيه علم ما في علم القرب والبعد من الآيات الدالة على الله، وفيه علم موافقة الظنّ العلم وبماذا يعلم صاحب الحق أنه علم لا ظن وقد كان يعتقد أن ذلك ظن، وفيه علم حال أهل الريب وبمن يلحقون من الأصناف وما ينظر إليهم من الأسماء، وفيه علم الحوالة، وفيه علم أحوال الملأ

الأعلى واختلافها عليهم لاختلاف الواردات في مقامهم المعلوم. وفيه علم ما لا ينسب إلى الله أعني لا يوصف به هل هو أمر عدمي أو وجودي؟ وفيه علم أين يشك العالم وهو ليس بشاك، ولماذا يظهر بصورة الشاك، وفيه علم ما يسأل عنه وما لا يسأل عنه، وفيه علم فيماذا يجمع الله بين عباده ثم يفصل بينهم في عين هذا الجمع فهم فيه مفصلون، وفيه علم من ادعى أمراً طولب بالدليل على ما ادّعاه إذا ادّعى ما يريد أن يؤثر به في أحوال العالم، وفيه علم ما لا يقبل التقدم ولا التأخر من الأحوال، وفيه علم الحِجَاج، وفيه علم التقريب وإلى من يكون القرب هل إلى كون أو إلى الله؟ وهل يصح القرب إلى الله أم لا، وهو أقرب إلى كل إنسان من حبل الوريد كما قال تعالى؟ وفيه علم الأعراض، وفيه علم الفرق والتبرّي بين الأرواح، وفيه علم ما يقال عند رؤية الدلالات، وفيه علم الأجر المعاد وإلحاق الشيء بجنسه، وفيه علم من يدري ما يقول وما يقال له ومن لا يدري ما يقول وما يقال له من ذلك، وفيه علم ردّ الأمور كلها حيرتها وإنابتها إلى الله وخيرها وشرها وأن الشر ليس إلى الله، وفيه علم الإدراك الإلهي، وفيه علم ما لا يدرك مما يجوز أن يدرك، وفيه علم ما يمنع الاحتلام بالرؤية، وفيه علم الموانع، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الحادي والخمسون وثلاثمائة

في معرفة منزل اشتراك النفوس والأرواح في الصفات وهو من حضرة الغيرة المحمدية من الاسم الودود

[البسيط]

إنّ المُكَمَّلَ لا تُرْسَى مَراسِيهِ ... فلا مقام له في الكَوْن يَحْويهِ
فَفُلْكُهُ سابحٌ والريحُ تُزْجِيهِ ... والله في كل حال فيه مجريهِ
وما لَهُ فَلَكٌ أعلى فيقطعه ... فاعلمْ إذا قمت فيه من تُناجيهِ
الكلّ لي وله على السّواء فمن ... أدناه خالقنا لا بدّ أدنيهِ
بالله يا أُخْتَ مُوسى عَجِّلي وخُذي ... جَنَاحَ طيري فقُصّيهِ وقُصّيهِ

اعلم أيدنا الله وإياك أن هذا المنزل من أعظم المنازل له الاسم الأوّل والآخر والظاهر والباطن والخلق والأمر، يحوي على مقامات وأحوال لا يعرفها إلا القليل من الناس، عظم الله مقداره وأعلى مناره، له زمام التكوين، وعنه ظهر وجود العالم الحق والعالم الأعلى والأسفل ناظر إليه له الغيرة والصول والحجب، هو الغيب الذي يظهر منه ولا يظهر، يعطي عالم الشهادة ويخفي عالم الغيب في الغيب، سلطانه قويّ لا يرام، ومقامه عزيز لا يضام نعته النقص والكمال، وبصورته يظهر الليل والنهار، أوّل شيء أعطى الانقياد الإلهيّ الكوني:

[مجزوء الرمل]

فانْقِيادٌ لانقيادِ ... عند رَبّ وعِبَادِ
بين مَنْع وعطاءِ ... من بَخيل وجوادِ

فصَلاحٌ لِصَلاحِ وفسادٌ لِفَسَادِ
واتّفاق لاتفاقِ وعنادٌ لِعِنَادِ
وانْفِصَالٌ لانفصالِ واسْتِناادٌ لاستنادِ
وبياضٌ لبياض وسوادٌ لسوادِ
وبقاءٌ لبقاء ونَفَادٌ لبفادِ
واقترابٌ لاقتراب وبعاد لبعادِ
وسرير لاسْتواء وسماء لمهَادِ
وحجابٌ لبغيضِ وتَجَلٍّ لوِدَادِ
ومحلّ قد تَهيَّا كل وقت لازديادِ
من عُلوم بأمور علمُها عينُ الرَّشَادِ
وعذابٌ في نعيم لمُريد ومُرادِ
يقطعان اللَّيْلَ ذكراً بسُجود واجْتهادِ
يسألان الله أمناً يوم إسماع المنادي

ولما رجح الله وجود الممكنات على عدمها لطلبها الترجيح من ذاتها كان ذلك انقياداً من الحق لهذا الطلب الإمكانيّ وامتناناً فإنه تعالى الغنيّ عن العالمين، ولكن لما وصف نفسه بأنه يحب أن تعرفه الممكنات بأنه لا يعرف، ومن شأن المحب الانقياد للمحبوب فما انقاد في الحقيقة إلا لنفسه، والممكن حجاب على هذا الطلب الإلهيّ الذي طلبه حب العرفان به من نفسه وتبعه ما طلبه الممكن من ترجيح الوجود على عدمه، فلما أوجده عرفه أنه ربه فعرفه أنه ربه ما عرف منه غير ذلك، ولا يتمكن لغير الله أن يعرف الله من حيث ما يعرف الله نفسه، ثم طلبه بالانقياد إليه فيما يأمره به وينهاه عنه فقال الممكن هذا مقام صعب لا أقدر عليه كما أنك يا رب ما يبدّل القول لديك ولا يكون عنك إلا ما سبق به علمك، فمشيئتك واحدة والاختيار المنسوب إليّ منك، فالذي تقبله ذاتي من الانقياد إليك أن أكون لك حيث تريد لا حيث تأمر إلا إن وافق أمرك إرادتك فحينئذ أجمع بينهما وأكثر من هذا فما تعطي حقيقتي إذا نسبتها إليك أنت القائل: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩] وهو أكرم المكلفين عليك، وهذا الحكم منك وعليك يعود، فما كان انقيادك إلا إليك، وأنا صورة مماثلة للمحجوبين الذين لا يعرفونك معرفتي فيقولون: قد أجاب الحق سؤالنا وانقاد إلينا فيما نريد منه، وأنت ما أجبت إلا نفسك وما تعلقت به إرادتك، فانقيادي أنا لنفسي، فإنه لا يتمكن أن أطلبك لك وإنما أطلبك لنفسي، فلنفسي كان انقيادي لما دعوتني، وجعلت حجاباً بيني وبين المحجوبين من خلقك الذين لا يعرفون فقالوا فلان أجاب أمر ربه حين دعاه وما علموا أن الانقياد مني إنما كان لإرادتك لا لأمرك، فإنه ما يبدّل الحكم لديّ فإني ما أقبل غير هذا قبول ذات وفيه سعادتي.

ثم إنك سبحانك نسبت لي ذلك وأثنيت عليّ به وأنت تعلم كيف كان الأمر فظهرت

بأمر تشهد الحقيقة بخلافه فقلت: ﴿لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦]، والحقيقة من خلف هذا الثناء تنادي لا يعصون الله ما أراد منهم وقرن الأمر منه بإرادته، فذلك هو الأمر الذي لا يعصيه مخلوق وهو قوله: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [النحل: ٤٠] هذا هو الأمر الذي لا يمكن للممكن المأمور به مخالفته لا الأمر بالأفعال والتروك يعرف ذلك العارفون من عبادك ذوقاً وشهوداً، فإن أمرت الفعل المأمور به أن يتكوّن في هذا العبد المأمور بالفعل تكوّن فتقول: هذا عبد طائع امتثل أمري وما بيده من ذلك شيء فالصمت حكم وقليل فاعله، فمن تكلم بالله كانت الحجة له فإن الحجة البالغة لله، ومن تكلم بنفسه كان محجوباً، كما أن الحق إذا تكلم بعبده كان كلامه ظاهراً بحيث يقتضيه مقام عبده، فإذا ردّ الجواب عليه عبده به لا بنفسه وظهر حكمه على كلام ربه نادى الحق عليه وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً وإن قال الحق، ولكن ما كل حق يحمد ولا كل ما ليس بحق يذم، فالأدباء يعرفون المواطن التي يحمد فيها الحق فيأتون به فيها ويعرفون المواطن التي يحمد فيها ما ليس بحق فيأتون به فيها مغالطة جزاء وفاقاً إلهياً، فمن عرف الانقياد الإلهيّ والكونيّ كما قرّرناه كان من العارفين، ولكن فيه أسرار وآداب ينبغي للإنسان إذا تكلم في هذا المقام وأمثاله أن لا يغفل عن دقائقه فإن فيه مكراً خفياً لا يشعر به إلا أهل العناية، ومن أراد العصمة من ذلك فلينظر إلى ما شرع الله له وأتى على ألسنة رسله فيمشي معه حيث مشى ويقف عنده حيث وقف من غير مزيد، وإن تناقضت الأمور وتصادمت فذلك له لا لك وقل لا أدري هكذا جاء الأمر من عنده وارجع إليه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فهذا قد أبنا عن المقام الأوّل.

وصل: وأما المقام الثاني الذي بيد اسمه المؤمن فإنه نتيجة عن الاسم المؤمن الكيانيّ وهو المظهر له إذا كان بمعنى المصدق لا بمعنى معطي الأمان، فإن كان بمعنى معطي الأمان فالاسم الإلهيّ المؤمن متقدم على المؤمن الكيانيّ فأعطاه الأمان في حال عدمه أنه لا يعدمه إذا أوجده ولا يحول بينه وبين معرفته بوجوده واستناده إليه فأعطاه الأمان في ذلك كله، فمن عرف ذلك لم يخف وكان من الآمنين: [الطويل]

فتَصْديقُ صِدْق الحَقّ مِنْ صِدْقِ كَوْنِهِ ... ولولاه لم يَصْدُقْ وإن كان صَادِقَا
فلا تَنْظُر الأشياءَ من حيث إنه ... هو الأصلُ فاسْبُرْها فإنّ الحقائقا
تُريك أموراً لم تكن عالماً بها ... فتُبْدي لكم فيها سَنًى وطرائقا
فتُبْصِرُها بالنُور من خلف ستره ... ويمشي بها حقّاً مُبيناً وخالقا
فيدعوك من في الكون فَقْراً وحاجةً ... إذا كنتَ بالرحمن ربّاً ورازقا

صدق الممكن ربه فيما أخبره به من إعطاء الأمان من العدم إذا أوجده فصدقه الله في صدقه وأجرى له الصدق في خلقه، فالمصدق والصديق ما هو الصادق إلا بنسبتين مختلفتين، والخبر لا يكون أبداً إلا من الأول، والتصديق لا يكون أبداً إلا من الآخر، والأوّل والآخر اسمان لله، فإذا أقام الله عبده في الأوّلية أعطاه الأخبار فأخبر وأقام الله نفسه في الاسم الآخر فصدقه فيما أخبر به، وإذا أقام الله نفسه في الاسم الأول وأخبر أقام العبد في الاسم الآخر

فصدقه في خبره، فالصادق للأول أبداً والصديق للآخر أبداً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣] المفلحون الباقون بهذا الحكم: [الطويل]

فلولا وُجودُ القَوْلِ ما صَدَقَ العَبْدُ ... ولولا وُجودُ الشَّفْعِ ما ظَهَرَ الفَرْدُ
فجيءْ معه من حيث ما جاء فإنه ... له الحكمُ في الأشياء والذمُّ والحَمْدُ
فإن كان عن وَفْقٍ كما قال بعضُهم ... وإن كان عن قَصْدٍ فقد حَكَمَ القَصْدُ
وما قال بالأوفاق إلا مُخَلِّطٌ ... جَهُولٌ بنَعْتِ الحق بالقَبْلِ والبَعْدِ

فالصدق متعلقه الخبر ومحله الصادق، وليس بصفة لأصحاب الأدلة ولا للعلماء الذين آمنوا بما أعطتهم الآيات والمعجزات من الدلالة على صدق دعواه فذلك علم والصدق نور يظهر على قلب العبد يصدق به هذا المخبر ويكشف بذلك النور أنه صدق ويرجع عنه برجوع المخبر، لأن النور يتبع المخبر حيث مشى، والصدق بالدليل ليس هذا حكمه إن رجع المخبر لم يرجع لرجوعه، فهذا هو الفارق بين الرجلين، وهذه المسألة من أشكل المسائل في الوجود، فإن الأحكام المشروعة أخبار إلهية يدخلها النسخ والتصديق يتبع الحكم فيثبته ما دام المخبر يثبته ويرفعه ما دام المخبر يرفعه، ولا يتصف الحق بالبدا في ذلك وهو الذي جعل بعض الطوائف ينكرون نسخ الأحكام. وأما الصادق فما أكذب نفسه في الخبر الأول وإنما أخبر بثبوته وأخبر برفعه وهو صادق في الحالتين ولا تناقض، ولما كان من حقيقة الخبر الإمكان لحكم الصفتين الصدق والكذب من حيث ما هو خبر لا من حيث النظر إلى من أخبر به لذلك ميزنا بين القائل بصدق المخبر للدليل والقائل بصدقه للإيمان، فإن الإيمان كشف نوري لا يقبل الشبه، وصاحب الدليل لا يقدر على عصمة نفسه من الدخل عليه في دليله القادح فيرده هذا الدخل إلى محل النظر فلذلك عرّيناه عن الإيمان، فإن الإيمان لا يقبل الزوال فإنه نور إلهي رقيب قائم على كل نفس بما كسبت ما هو نور شمسي كوكبي يطلع ويغرب فيعقبه ظلام شك أو غيره، فمن عرف ما قلناه عرف مرتبة العلم من جهة الإيمان ومرتبة العلم الحاصل عن الدليل، فإن الأصل الذي هو الحق ما علم الأشياء بالدليل وإنما علمها بنفسه، والإنسان الكامل مخلوق على صورته فعلمه بالله إيمان نور وكشف ولذلك يصفه بما لا تقبله الأدلة ويتأوله المؤمن به من حيث الدليل فينقصه من الإيمان بقدر ما نفاه عنه دليله.

وصل: وفي هذا المنزل صمت العبد إذا كلمه الحق والحق يكلمه على الدوام، فالعبد صامت مُصْغٍ على الدوام على جملة أحواله من حركة وسكون وقيام وقعود، فإن العبد الممنوح السمع لكلام الحق لا يزال يسمع أمر الحق بالتكوين فيما يتكون فيه من الحالات والهيئات، ولا يخلو هذا العبد ولا العالم نفساً واحداً من وجود التكوين فيه، فلا يزال سامعاً، فلا يزال صامتاً، ولا يمكن أن يدخل معه في كلامه، فإذا سمعتم العبد يتكلم فذلك تكوين الحق فيه، والعبد على أصله صامت واقف بين يديه تعالى، فما تقع الأسماع إلا على تكوينات الحق فافهم فإن هذا من لباب المعرفة التي لا تحصل إلا لأهل الشهود: [الطويل]

فـمـا ثَـمَّ إلا الـصَّـمْـتُ والـحَـقُّ نـاطـقٌ   ومـا ثَـمَّ إلا الله لا غـيـر خَـالِـقُ
فـيُـشْـهِـدُنـا تَـكْـوِيـنَـهُ فـي شُـهُـودنـا   تـدلّ عـلـيـه فـي الـوجـود الـحـقـائـقُ
فـمـن شـاء فـلـيـؤمـنْ ومـن شـاء فَـلْـيَـقُـلْ   خـلافَ الـذي قـلـنـاه والله صـادقُ

وصل: التقييد صفة تضيفها العقول والكشف إلى الممكنات وتقصرها العقول عليها وتضيف الإطلاق إلى الحق وما علمت أن الإطلاق تقييد، فإن التقييد إنما أصله وسببه التمييز حتى لا تختلط الحقائق، فالإطلاق تقييد فإنه قد تميز عن المقيد وتقيد بالإطلاق ولا سيما وقد سمى نفسه حليماً لا يعجل فإمهاله العبد المستحق للأخذ إلى زمان الأخذ حبس عن إرسال الأخذ في زمان الاستحقاق ولذلك سمى نفسه بالصبور، فما ثم إطلاق لا يكون فيه تقييد لأن المقيد الذي هو الكون تميز عن إطلاقه بتقييده فقد قيده بالإطلاق وهو تجليه في كل صورة وقبوله كل حكم ممكن من حيث إنه عين الوجود فقد قيدته أحكام الممكنات: [الطويل]

فـتـقـيـيـدُه إطـلاقُـهُ مـن وَثَـاقـنـا   فـمـا ثَـمّ إطـلاقٌ يـكـون بـلا قَـيْـدِ
فـمَـنْ عَـرَفَ الأشـيـاءَ قـال بـقـولـنـا   فـعَـوْدٌ عـلـى بَـدْءٍ وبـدء عـلـى عَـوْدِ
فـحَـاذِرْ وُجُـودَ الـمَـكْـر إنْ كـنـتَ مؤمـنـاً   فَـمِـن مَـكْـرِهِ مَـكْـري ومِـنْ كَـيْـدِهِ كَـيْـدي
لـه قـوّةُ الـمـكـر الـتـي لا تَـرَدُّهـا   قُـوَى عَـبْـدِهِ الـمـوصـوفِ بـالـعِـلْـمِ والأَيْـدِ

وصل: الشدة نعت إلهي وكياني، قال موسى: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ [طه: ٣١] وتلي بحضرة أبي يزيد: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] فقال: بطشي أشد وذلك لخلو بطش العبد من الرحمة الكونية وبطش الله ليس كذلك، فإن الرحمة الإلهية تصحبه وهو يعلمها، وكذا هي في بطش العبد إلا أن العبد لا يشهدها ولا يجد لها أثراً في نفسه وإن كان يرحم نفسه بذلك البطش ولكن لا يعلم والله عليم بكل شيء، فهو عليم بأن رحمته ﴿وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [غافر: ٧] فوسعت بطشه وبطش الكون ولكن ما كل باطش يعلم ذلك ولما كان للعبد بطش من حيث عينه وله بطش بربه وليس للرب في الحقيقة بطش بعبده فأضاف أبو يزيد بطش ربه إلى بطشه فقال: بطشي أشد لأن فيه بطش ربي وما في بطش ربي بعباده بطشي، فإذا وصف الحق نفسه بالشديد فهو ما يوجده من الأشياء بالأسباب الموضوعة في العالم فيعذب عباده بالنار، فللنار حكم في العذاب مضاف إلى ما يوجده الله من الألم القائم بالمعذب وهو في الحجاب عن الله، وليس للمعذب شهود إلا للأسباب، فبطشه بالعبد بمشاهدة الأسباب من كونه شديد لا من كونه معذباً فالشدة تطلب الغير ولا بد وهذا لا يقدر أحد على إنكاره، فإن المشاهدة لأسباب الآلام أعظم في العذاب ممن يجد الألم ولا يشهد سببه ولا سيما إن كان يعلم أنه قادر على إزالة السبب: [الوافر]

لـيـس لـلـشِّـدَّةِ حُـكْـمٌ مُـسْـتَـقِـلْ   دون أن يَـبْـدُو لـعَـيْـنٍ شَـخْـصُ ظِـلْ
فـإذا أبْـصَـرهُ يَـبْـهَـرُهُ   ذلـك الـظِّـلُّ الـذي عـنـه انْـفَـعَـلْ
فـهـو لا يَـبْـرَحُ مِـنْ شِـدَّتـه   فـإذا غَـيَّـبَـهُ عـنـه انْـتَـقَـلْ

وصل: الخضوع عند تجلي الحق ومناجاته هو المحمود وما سوى هذا فهو مذموم، ويلحق الذم بمن ظهر عليه إلا من يرى الحق في الأشياء كلها من الوجه الإلهي الذي لها ولكن على ميزان محقق لا يتعداه، فإن الله قد وضع له ميزاناً عندنا في الأرض قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧] فليصرفه بحسب وضع الحق، فهو وإن شهده في كل شيء فما يريد تعالى أن يعامله بمعاملة واحدة في كل شيء بل يحمده في المواضع التي تطلب منه المحامد ويقبل عليه ويعرض عنه في المواضع التي يطلب منه الإعراض عنه فيها فلا يتعدى الميزان الذي يطلبه منه، وهذا المشهد المكر فيه خفي ولا مزيل له إلا العلم بالميزان الإلهي المشروع، فمن عرفه ووقف عنده وتأدب بآداب الله التي أدب بها رسله فقد فاز وحاز درجة العلم بالله قال تعالى معلماً ومؤدباً لمن عظم صفة الله على غير ميزان: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١، ٢] ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ٣] يعني ذلك الجبار، وأن الله عند المنكسرة قلوبهم أصحاب العاهات غيباً وهو في الجبابرة المتكبرين ظاهر عيناً ولظهور حكم أقوى، وكان ﷺ حريصاً على الناس أن يؤمنوا بوحدانية الله وإزالة العمى الذي كانوا عليه، فلما جاء الأعمى في الظاهر البصير في الباطن فكان باطن الجبابرة ظاهر هذا الأعمى، فحصل في النفس البشرية ما حصل، والنبي ﷺ ليس له مشهود إلا صفة الحق حيث ظهرت من الأكوان، فإذا رآها أعمل الحيلة في سلبها عن الكون الذي أخذها على غير ميزانها وظهر بها في غير موطنها وهو ﷺ غيور فقيل له: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٥، ٦] يقول: إنه لما شاهد صفة الحق وهي غناه عن العالم تصدى لها حرصاً منه أن يزكى من ظهر بها عنده فقيل له: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٧] ولك ما نويت وحكمه لو تزكى لما فاتك شيء سواء تزكى أو لم يتزك ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ [عبس] لكونه أعمى أي لا تتطير فنهاه عن الطيرة، فمن هنا كان يحب الفأل الحسن ويكره الطيرة وهو الحظ من المكروه، والفأل الحسن الحظ والنصيب من الخير. وقيل له أيضاً: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ وانظر فيهم صفة الحق فإنها مطلوبك في الكون فإني أدعو عبادي بالغداة والعشي وفي كل وقت أريد وجههم أي ذاتهم أن يسمعوا دعائي فيرجعوا إليّ ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ فإنهم ظاهرون بصفتي كما عرفتك ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فهذه الزينة أيضاً في هؤلاء وهي في الحياة الدنيا فهنا أيضاً مطلوبك ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ فإنهم طلبوا منه ﷺ أن يجعل لهم مجلساً ينفردون به معه لا يحضره هؤلاء الأعبد ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي جعلنا قلبه في غلاف فحجبناه عن ذكرنا فإنه إن ذكرنا علم أن السيادة لنا وأنه عبد فيزول عنه هذا الكبرياء التي ظهر بها التي عظمتها أنت لكونها صفتي وطمعت في إزالتها عن ظاهرهم فإني أعلمتك أني قد طبعت على كل قلب متكبر جبار فلا يدخله كبر وإن ظهر به ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي غرضه الذي ظهر به ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] أي ما هو نصب عينيه له وهو مشهود له لا يصرف نظره عنه إلى ما يقول له الحق على لسان رسوله وما يريده منه ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ﴾ الله أن يؤمن ﴿فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ﴾ [الكهف: ٢٩] الله أن يكفر

﴿فَلْيَكْفُرْ﴾ فإنهم ما يشاؤون ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] فكان رسول الله ﷺ إذا أقبل عليه هؤلاء قال ﷺ: «**مَرْحَباً بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِمْ رَبِّي**» ويمسك نفسه معهم في المجلس حتى يكونوا هم الذين ينصرفون، ولم تزل هذه أخلاقه ﷺ بعد ذلك إلى أن مات، فما لقيه أحد بعد ذلك فحدثه إلا قام معه حتى يكون هو الذي ينصرف، وكذلك إذا صافحه شخص لم يزل يده من يده حتى يكون الشخص هو الذي يزيلها، هكذا روينا من أخلاقه ﷺ: [الطويل]

لِرُؤْيَتِنا النَّعْتُ الإلهيّ ميزانُ ... إذا ظَهَرتْ فيه لذي العَيْنِ أكْوَانُ
يعامله الحَبْرُ اللبيبُ بما أتى ... به عن رسول الله شَرْعٌ وقُرآنُ
فذاك هو الإسلامُ فاعْمَلْ بحُكْمِهِ ... كما هو إيمانٌ كما هو إحسانُ

وصل: أداء الحقوق نعت إلهيّ طولب به الكون، قال تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: ٥٠] فذلك حق ذلك الشيء الذي له عند الله من حيث ذاته فهو حق ذاتي، والحق العرضي الذي له عند الله هو قوله: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] فهذا حق على الله أوجبه على نفسه لمن وفى بعهده، ومن لم يف فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة، فمن عباد الله من يدخل الجنة بالاستحقاق، ومنهم من يدخلها بالمشيئة لا بالاستحقاق، كما أنه ثمّ من يدخل النار بالاستحقاق وهم المجرمون خاصة وهم أهلها فلا يخرجون منها أبداً ولهذا يقال لهم يوم القيامة: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يسٓ: ٥٩] أي أهل الاستحقاق الذي يستحقون سكنى هذه الدار، وما عدا المجرمين فإنهم وإن دخلوا النار فلا بد وأن يخرجوا منها بشفاعة الشافعين أو بمنة الله عليهم وهم الذين ما عملوا خيراً قط، وإن كان المجرمون قد عملوا خيراً، ولكن الاستحقاق يطلبهم بالإقامة فيها، فصورتهم صورة من يفعل ذلك بالخاصية، فمن أعطى الحق من نفسه فما ترك عليه حجه لأحد، ومن زاد على الحق فذلك امتياز له وثناء من الله خاص، وهذا نعت فيه بين أهل الله كلام فإنه في إعطاء الواجب عبد اضطرار، وفي الامتنان عبد اختيار، فمن الناس من رجح مقام عبودية الاختيار على عبودية الاضطرار فإن الاضطرار جبر فحكمه غير حكم المختار، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] وغير المكره إذا كفر أخذ بكفره، وأيّ شيء فعل جوزي بفعله بخلاف المجبور، وما بقي النظر إلا في معرفة من هو المجبور المكره وما صفته، فإن بعض العلماء لم يصح عنده الجبر والإكراه على الزنى فيؤاخذ به، فإن الآلة لا تقوم له إلا بسريان الشهوة وحكمها فيه، وعندنا أنه مجبور في مثل هذا مكره على أن يريد الوقاع ولا يظهر حكم إرادته إلا بالوقوع، ولا يكون الوقاع إلا بعد الانتشار ووجود الشهوة وحينئذ يعصم نفسه من المكره له على ذلك المتوعد له بالقتل إن لم يفعل، فصح الإكراه في مثل هذا بالباطن، بخلاف الكفر فإنه يقنع فيه بالظاهر وإن خالفه الباطن فالزاني يشتهي ويكره تلك الشهوة فإنه مؤمن، ولولا أن الشهوة إرادة بالتذاذ لقلنا إنه غير مريد لما اشتهاه: [مخلع البسيط]

مَنْ يَشْتَهي الأمر قَدْ نَرَاهُ غَيْرَ مُرِيدٍ لما اشْتَهَاهُ
لكنه اضْطُرَّ فاشتهاهُ في ظاهر الأمْر إذْ رآهُ
فقل له يَخْتَمي عساهُ يَنْفَعُهُ الله إذْ حَمَاهُ
قد قلتُ قولاً إن كان حقّاً عساه يَجْري إلى مَدَاهُ

ومن ذلك: [المتقارب]

أداءُ الحقوق مِنَ الوَاجِبِ على شَاهِدٍ أو على غَائِبِ
وما ثَمَّ إلا حقوقٌ فمَنْ يقوم بها قام بالواجبِ
ومن لم يَقُمْ بأداءِ الحُقُو قِ دَعَتْهُ الشريعةُ بالغاصبِ

وصل: الممكن إذا وجد لا بدّ من حافظ يحفظه عليه وجوده، وبذلك الحافظ بقاؤه في الوجود كان ذلك الحافظ ما كان من الأكوان، فالحفظ خلق لله فلذلك نسب الحفظ إليه لأن الأعيان القائمة بأنفسها قابلة للحفظ، بخلاف ما لا يقوم بنفسه من الممكنات فإنه لا يقبل الحفظ ويقبل الوجود ولا يقبل البقاء فليس له من الوجود غير زمان وجوده ثم ينعدم، ومتعلق الحفظ إنما هو الزمان الثاني الذي يلي زمان وجوده، فما زاد فالله حفيظ رقيب، والعين القائمة بنفسها محفوظة مراقبة وحافظ الكون حفيظ زمان وجوده والحق مراقب بفتح القاف للعبد غير محفوظ له فإنه لا يقبل أن يكون محفوظاً فإن الصمد الذي لا مثل له، ألا تراه قد قال لنبيه عليه السلام ما يقوله لمن عبد غير الله ينبههم أن كل ما سوى الله من معبود يطلب بذاته من يحفظ عليه بقاء وجوده فقال له يا محمد ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾ [الأنعام: ١٤] وقد قرئ الثاني في الشاذ بفتح الياء، فكل موجود له بقاء في وجوده، فلا بدّ من حافظ كيانيّ يحفظ عليه وجوده، وذلك الحافظ خلق لله وهو غذاء هذا المحفوظ عليه الوجود فلا تزال عينه وإن تغيرت صورته ما دام الله يغذيه بما به بقاؤه من لطيف وكثيف ومما يدرك ومما لا يدرك، فالسعيد من الحافظين هو من يرى أنه مجعول للحفظ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠] وليس هؤلاء من حفظة الوجود وإنما هؤلاء هم المراقبون أفعال العباد، وإنما الحفظة العامة في قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١] فنكر فدخل تحت هذا اللفظ حفظة الوجود وحفظة الأفعال: [الطويل]

إذا قُلْتُ إنّ الله يحفظُ خلقه فما هو إلا خلقه ما به الحفْظُ
فهذا هو المعنى الذي قد قَصَدْتُهُ ودلَّ عليه من عبارتنا اللَّفْظُ
فلا تَلْفِظَنَّ ما قُلْتُ فيه فإنه سَيُرْدِيك إن حَقَّقْتَهُ ذلك اللَّفْظُ

وصل: القلم واللوح أوّل عالم التدين والتسطير وحقيقتهما ساريتان في جميع الموجودات علواً وسفلاً ومعنى وحساً، وبهما حفظ الله العلم على العالم، ولهذا ورد في الخبر عنه ﷺ: «**قَيِّدُوا العِلْمَ بالكِتَابَةِ**» ومن هنا كتب الله التوراة بيده، ومن هذه الحضرة اتخذ رسول الله ﷺ وجميع الرسل عليهم السلام كتاب الوحي وقال: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١١، ١٢] وقال: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾

[الكهف: ٤٩] وقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] وقال: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨] وقال: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥)﴾ [عبس: ١٣ ـ ١٥] وقال: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢] والكتب الضم، ومنه سميت الكتيبة كتيبة لانضمام الأجناد بعضهم إلى بعض، وبانضمام الزوجين وقع النكاح في المعاني والأجسام فظهرت النتائج في الأعيان، فمن حفظ عليها هذا الضم الخاص أفادته علوماً لم تكن عنده، ومن لم يحفظ هذا الضم الخاص المفيد العلم لم يحصل على طائل وكان كلاماً غير مفيد: [الطويل]

إذا كان إنتاجٌ فلا بُدَّ مِنْ ضَمِّ ... وما كلُّ موجود يكون عن الضَّمِّ
فمن كان دون اللَّوْح والقَلَم الذي ... له الحُكْمُ فينا بالتَّعانق واللَّثْم
فلا بُدَّ من كَوْنٍ يكون بضَمِّه ... إلى لَوْحِهِ فالكونُ في رُتْبَةِ الكَمِّ
وفي الكَيْفِ فانظرْ في الذي قد نَظَمْتُهُ ... وكُنْ منه في هذا الوجود على عِلْم

وصل: اعلم أن الله مجالس مع عباده وعددها على عدد ما فرض عليهم سبحانه مما كلفهم به ابتداء، فلما سوّاها دعاهم إليها ليجالسوه فيها، فمن تخلف عن مجالسته فيها فقد عصى دعوته، ولله مجالس تسمى مجالس الإيمان خيرهم في مجالسته فيها على وجه خاص، فيجالسهم فيها إذا دخلوها من حيث دعاهم إليها فيجدون خيراً كثيراً فإن دخلوها لا من حيث دعاهم إليها لم يجالسوه فيها ولا وجدوا فيها خيراً ولا شراً، وعدد هذه المجالس بعدد ما أباح لهم في الشرع أن يتصرّفوا فيه مما لا أجر فيه ولا وزر، فإذا فعلوا المباح من حيث أن الله تعالى أباحه لهم وهم مؤمنون بذلك حضر معهم بالإيمان، فهذا معنى قولي: «من حيث ما دعاهم إليها»، ولله مجالس في هذه المجالس التي أباح لهم الدخول فيها ليجالسوه إذا جاؤوا إليها من حيث ما دعاهم إلى الدخول فيها، فإذا لم يأتوا إلى هذه المجالس التي في مجالس الإباحة المعينة منها ولا جالسوا الحق فيها فقد عصوه، وكان حكمهم في ترك مجالسته فيها حكم مجالس الفرائض، وأعني بالفرائض كل ما أذكره من فعل وترك حتى يشمل الحظر والكراهة التي في مقابلة الندب، وعدد هذه المجالس بعدد ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر فأوجبه الله عليهم، وبعدد ما أمرهم به أولو الأمر منهم فأوجب الله عليهم طاعتهم في ذلك، فإن لم يدخلوا هذه المجالس فقد عصوا، وإنما جعلنا هذه المجالس معينة في مجالس الإباحة لأن النذر لا يكون إلا فيما أبيح له فعله، وخيره الحق فيه بين الفعل والترك، وكذلك ما أمرهم به أولو الأمر منهم ما لهم أمر فيهم إلا بما أبيح لهم فعله فيجالسهم الحق في هذه المجالس المعينة مجالسته لهم في مجالس الفرائض، ولله مجالس أعدّها سبحانه لعباده تسمى مجالس نوافل الخيرات بينها وبين مجالس الإباحة الترجيح فإن الإباحة ليس فيها ترجيح، وكما قلنا في كل ذلك من فعل وترك؛ وقرن تعالى محبته العالية السامية لأهل مجالس الفرائض، وقرن محبة أخرى دون هذه المحبة لأهل مجالس نوافل الخيرات، وعدد هذه المجالس بعدد النوافل، ولا تكون نافلة إلا ما كان له مثل في الفرائض كصدقة التطوّع نافلة لأن لها أصلاً في الفرائض وهو الزكاة، وكذلك الحج والصيام والصلاة

وكل فرض. ولله مجالس يجالس الحق فيها عباده تسمى مجالس السنن الكيانية وهو قوله ﷺ: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً**» وتسمى في العامّة بدعة حسنة لأنها مبتدعة لمن سنها ما كتبها الله علينا ولا أوجبها وعددها على عدد ما سنّ من ذلك وعدد من عمل بها، كل ذلك يكون مجالسة الحق فيها مع من سنها من حيث لا يشعر، إلا أن يكشف الله له في سره بمجالسته إياه بعدد كل عامل بها فيرى مجالسته غريبة وهو غير عامل لها في الوقت فيقال له: إن فلاناً وفلاناً عملا بالخير الذي سننته فجالسناه فيه فجالسناك فأحمد فعلك فيشكر الله على ذلك.

ولكل مجلس باب عليه يكون الدخول إلى هذه المجالس، وعلى كل باب بوّاب وهو الإيمان، ومن المجالس ما يكون عليها بوّابان الإيمان والنية، والأبواب ما هي غير الشروع في ذلك العمل الذي هو بمنزلة الدخول، فالحال الذي يكون عليه أوّل الشروع الذي هو الدخول ذلك هو الباب قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣] والمصلي يناجي ربه والمناجاة ذكر وهو جليس من ذكره سبحانه، والدوام على مناجاته أن يكون العبد في جميع أحواله وتصرّفاته مع الله كما هو في صلاته يناجيه في كل نفس، وسبب ذلك كونه لا بد أن يكون على حال من الأحوال، ولا بد أن يكون للشارع وهو الله في ذلك الحال حكم أي حكم كان وهو سبحانه حاضر مع أحكامه حيث كانت، فالمراتب تناجيه في كل حال محظور وغير ومحظور، لأن الأفعال والتروك وهي أحوال العبد التي تعلقت بها أحكام الحق مقدّرة فلا بد من وقوعها وهو سبحانه خالقها فلا بد من حضوره فيها فيناجيه هذا العبد الذي قد عرف بحضور الحق معه في حاله فهذا هو الدوام على الصلاة، وقالت عائشة تخبر عن حال رسول الله ﷺ «أنه كان يذكر الله على كل أحيانه» تشير إلى ما قلناه فإنه قد كان يأتي البراز وهو ممنوع أن يذكر بلسانه ربه في تلك الحال، وقد كان من أحيانه يمازح العجوز والصغير ويكلم الأعراب ويكون في هذه الأحيان كلها ذاكراً، وهذا هو الذي يقال فيه ذكر القلب الخارج عن ذكر اللفظ وذكر الخيال، فمن ذكر الله بهذا الذكر فهو جليسه دائماً، وهو الذي أثنى عليه ربه وألحقه بالذين هم على صلاتهم دائمون ولما فسر الله الصلاة ما فسرها إلا بالذكر وهو التلاوة فقال: يقول العبد: الحمد لله رب العالمين، يقول الله: «**حَمِدَني عَبْدي**»، فقسم المناجاة بينه وبين عبده، فالمناجاة هي عين الصلاة والمناجاة فعل فاعلين فيقول ويقول؛ قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]: [البسيط]

إذا تَـلَـوْتَ كـتـابَ الله كُـنْـتَ بـه ... مـمَّـنْ يـجـالـسُـه ومَـنْ يُـنَـاجِـيـهِ
فما الصلاةُ سوى الذِّكْرِ الحكيم فمَنْ ... تـلاه صَـلَّـى وفـيـه بـعـضُ مـا فِـيـهِ
من أجْل فاتحة القرآن قلتُ لَكم ... بـأنَّ فـيـه وذكـرى لـيـس يَـخْـويـهِ
فالحَمْدُ فَرْضُ المُصَلّي في قراءته ... ولـيـس كـلُّ مُـصَـلٍّ مـنـه يَـدْرِيـهِ

وصل: الرجوع الاختياريّ إلى الله يشكر عليه العبد قال عز وجل: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فإذا علمت هذا فارجع إليه مختاراً ولا ترجع إليه مضطراً فإنه لا بد من رجوعك إليه، ولا بد أن تلقاه كارهاً كنت أو محباً فإنه يلقاك بصفتك لا يزيد عليها فانظر

لنفسك يا وليّ، قال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ الله لِقَاءَهُ»، وأخبرنا في الكشف بالإخبار الإلهيّ المنفوث في الروع من الوجه الخاص فقيل لنا: من استحى من لقاء الله آنسه الله وأزال خجله، وذلك أن العبد ما يجعله يستحي إلا ما ظهر به من المخالفة أو التقصير عن حق الاستطاعة وما ثم غير هذين فأنس الحق في ذلك أن يقول له: يا عبدي إنما كان ذلك بقضائي وقدري فأنت موضع جريان حكمي، فيأنس العبد بهذا القول، فلو قال هذا القول العبد لله لأساء الأدب مع الله ولم يسمع منه وبهذا بعينه يؤنسه الحق، فهو من جانب الحق في غاية الحسن، ومن جانب الخلق في غاية القبح، قال ﷺ: «الحَيَاءُ خَيرٌ كُلُّهُ» وقال: «وَالحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إلاَّ بِخَيرٍ» وأي خير أعظم من هذا الخير أن يقيم الحق حجة العبد أنساً له ومباسطة وإزالة خجل ورفع وجل، فسبحان اللطيف الخبير المنعم المتفضل.

ولما ورد عليّ هذا التعريف الإلهيّ لم يسعني وجود بل ضاق عني الوجود مما امتلأت من هذا الخطاب والتعريف الإلهي حيث جعلني محلاً لخطابه وأهلني لما أهل له أهل خصوصه، وقد علمنا أن لقاء الله لا يكون إلا بالموت وعلمنا معنى الموت فاستعجلنا في الحياة الدنيا فمتنا في عين حياتنا عن جميع تصرّفاتنا وحركاتنا وإراداتنا، فلما ظهر الموت علينا في حياتنا التي لا زوال لها عنا حيث كنا التي بها تسبح ذواتنا وجوارحنا وجميع أجزائنا لقينا الله فلقينا فكان لنا حكم من يلقاه محباً للقائه، فإذا جاء الموت المعلوم في العامة وانكشف عنا غطاء هذا الجسم لم يتغير علينا حال ولا زدنا يقيناً على ما كنا عليه فما ذقنا إلا الموتة الأولى وهي التي متناها في حياتنا الدنيا فوقانا ربنا عذاب الجحيم فضلاً من ربك ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]؛ قال علي رضي الله عنه: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» فمن رجع إلى الله هذا الرجوع سعد وما أحس بالرجوع المحتوم الاضطراريّ فإنه ما جاءه إلا وهو هناك عند الله، فغاية ما يكون الموت المعلوم في حقه أن نفسه التي هي عند الله يحال بينها وبين تدبير هذا الجسم الذي كانت تدبره فتبقى مع الحق على حالها وينقلب هذا الجسد إلى أصله وهو التراب الذي منه نشأت ذاته فكان داراً رحل عنها ساكنها فأنزله الملك في مقعد صدق عنده إلى يوم يبعثون ويكون حاله في بعثه كذلك لا يتغير عليه حال من كونه مع الحق لا من حيث ما يعطيه الحق مع الأنفاس، وهكذا في الحشر العام وفي الجنان التي هي مقره ومسكنه وفي النشأة التي ينزل فيها فيرى نشأة مخلوقة على غير مثال تعطيه هذه النشأة في ظهورها ما تعطيه نشأة الدنيا في باطنها وخيالها، فعلى ذلك الحكم يكون تصرف ظاهر النشأة الآخرة فينعم بجميع ملكه في النفس الواحد، ولا يفقده شيء من ملكه من أزواج وغيرهن دائماً ولا يفقدهم فهو فيهم بحيث يشتهي وهم فيه بحيث يشتهون، فإنها دار انفعال سريع لا بطء فيه كباطن هذه النشأة الدنياوية في الخواطر التي لها سواء، فالإنسان في الآخرة مقلوب النشأة فباطنه ثابت على صورة واحدة كظاهره هنا وظاهره سريع التحوّل في الصور كباطنه هنا، وقال تعالى: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] ولما انقلبنا قلبنا فما زاد علينا شيء مما كنا عليه فافهم، وهذا الرجوع المذكور في هذا الوصل ما هو رجوع التوبة فإنه

لذلك الرجوع المسمى توبة حد خاص عند علماء الرسوم وعندنا، وهذا رجوع عام في كل الأحوال التي يكون عليها الإنسان، فهذا الفرق بين الرجوعين فإن التوبة رجعة بندم وعزم على أمر، وهذا ليس كذلك، فالتوبة في العموم معلومة، وهذا الرجوع في الخصوص معلوم لا يناله إلا أهل الله الذين هم هم: [البسيط]

إنّ الـرُّجُـوعَ هـو الـمـطـلـوبُ لله إلـيـه عـن كُـلِّ كَـوْنٍ فـيـه بـالله
فـلا تَـقُـولَـنَّ لـلأشـيـاء لـسـت بـه فـلـيـس فـي الـكَـوْن إلا هـو وإلا هـي
فـكُـنْ مـع الله فـي الأحـوال أجْـمَـعِـهَـا ولا تـكـن عـن شـهـود الله بـالـسَّـاهـي
فـإن لله عَـيْـنـاً غَـيْـرَ نـائـمـة بـهـا يـراك ولا يـشـهـد سـوى الله
مـن أعْـجَـب الأمْـرِ أن الأمْـرَ واحـدةٌ فـذي الـتـقـاسـيـم فـي أكـوانـنـا مَـاهِـي

وصل: العبودية ذلة مخصه خالصه ذاتية للعبد لا يكلف العبد القيام فيها فإنها عين ذاته، فإذا قام بحقها كان قيامه عبادة، ولا يقوم بها إلا من يسكن الأرض الإلهية الواسعة التي تسع الحدوث والقدم، فتلك أرض الله من سكن فيها تحقق بعبادة الله وأضافه الحق إليه، قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦] يعني فيها ولي مذ عبدت الله فيها من سنة تسعين وخمسمائة وأنا اليوم في سنة خمس وثلاثين وستمائة، ولهذه الأرض البقاء ما هي الأرض التي تقبل التبديل، ولهذا جعلها مسكن عباده ومحل عبادته والعبد لا يزال عبداً أبداً فلا يزال في هذه الأرض أبداً وهي أرض معنوية معقولة غير محسوسة، وإن ظهرت في الحس فكظهور تجلي الحق في الصور، وتجلي المعاني في المحسوسات، ولا تظهر المعاني في الصور الحسية إلا لقصور بعض النفوس عن إدراك ما ليس بمادّة، فإذا كان متضلعاً من المعرفة بالله لم ير المعاني في موادّ ولا رأى الموادّ في غير نفسها فأدرك كل شيء في شيئيته كانت ما كانت، وهذا هو الإدراك الذي يعوّل عليه لأنه بريء من التلبيس، ولا يصح بوجه من الوجوه أن يشهد الإنسان محض عبوديته ولا يقام في عبادته المحضة التي لا يخالطها شيء من الربوبية التي تعطيه الصورة التي خالق عليها إلا عن تجل إلهي، فإذا لم يكن تجل فإن الإنسان يقام في الصورة التي خلق عليها فيكون عبداً رباً مالكاً مملوكاً مثل العامة سواء، غير أن الفارق بينه وبين العامة أنه للعامة اعتقاد ولعلماء الرسوم علم، ولهذه الطائفة شهود وهو العبد الممتزج الظاهر بالحقيقتين، وما يتخلص من هذا المزج إلا أهل العناية الذي يعمرون هذه الأرض الواسعة التي لا نهاية لها، وكل أرض سواها فمحدودة ليس لها هذا الحكم ولهذا أربابها كثيرون، فإن لكل عبد فيها ملكاً يملكه ويتصرّف فيه فلا يتعدى غيره عليه، وبنفس ما يملك منها كان مالكاً ورباً فيها، وهذه الأرض الواسعة هي المتصرفة في سكانها الحاكمة عليهم بذاتها وهي مجلى الربوبية ومنصة المالك الحق وفيها يرونه، فمن كان من أهلها حيل بينه وبين الصورة التي خلق عليها، فكان عبداً محضاً شاهداً يشاهد الحق في عين ذاته، فالشهود له دائم والحكم له لازم، وهؤلاء هم المسوّدون الوجه في الدنيا والآخرة. إذا علمت ذلك

فالرب رب والعبد عبد، فلا تغالط ولا تخالط: [المديد]

إنّ أرْضَ الله واســــــعــــــةٌ　　فـاعْـبُـدُوا فـيـهـا الـذي هِـيَ لَـهْ
بَـلِّـغُـوهُ فـي عـبـادتـكـم　　بـالـذي تَـرْجـونَـه أمَـلَـهْ
فـالـذي لـه لـكُـمُ والـذي　　لـكَ مـن نَـعْـتٍ فـمـا هـو لَـهْ
وإذا مـا قـال لـسـت هـنـا　　أنـه أقـامـكـم مَـثْـلَـهْ
ذلـكـم مَـعْـنَـى الـخـلافـة فـي　　أرضـه فـاسْـلُـكْ بـهـا سُـبُـلَـهْ
ولْـتَـقُـمْ بـعَـيْـنِ صُـورَتِـهِ　　فـي الـذي أقـامَـكُـمْ بَـدَلَـهْ
واعْـمَـلُـوا فـي كـل آونـة　　بـالـذي أراكُـمُ عَـمَـلَـهْ

وصل: الانتقالات في الأحوال من أثر كونه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] والعالم كله على الصورة وليس هو غير الشؤون التي تظهر بها، ولا يشهد هذا الأمر كشفاً إلا أصحاب الأحوال، ولا يشهد هذا حالاً إلا أهل السياحات، ولا يشهده علماً إلا القائلون بتجدد الأعراض في كل زمان، فإن من عباد الله من لا يعرف بمكان إلا انتقل عنه إلى مكان غيرة منه على الله وعلى نفسه، فأما غيرته على الله فإنه لا يعرف إلا به فحاله هو الذي يظهره الحق لهم فيغار على الجناب الإلهيّ حيث لا يذكر الله إلا به، وينبغي في نفس الأمر أن لا يذكروا الله إلا بالله، فلما رأوا أن الأمر ظهر بالعكس وهو قوله عليه السلام حين قيل له: من أولياء الله؟ قال: «**الَّذِينَ إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله**» فغاروا من هذا وأرادوا احترام الجناب الإلهي حتى يذكروه ابتداء لا بسبب رؤيتهم، وأما غيرتهم على نفوسهم فإنهم ما تحققوا بالحق في تقلباتهم لمشاهدتهم شؤون الحق إلا حتى لا يعرفهم الخلق كما لا يعرفون الحق، فما داموا يجهلون في العالم طاب عيشهم وعلموا أن الله قد جعلهم أخفياء أبرياء مصانين في الكنف الأحمى من جملة ضنائنه، فمتى ما عرفوا انتقلوا إما بالحال وهو التصرف بحكم العادات التي هي مثل الآيات المعتادة فلا يعرفها إلا الذين يعقلون عن الله، وإما بالانتقال الحسي المكاني من مكان إلى مكان لتحققهم بالحق في نزوله من سماء إلى سماء، فمن أراد أن يتمتع بوجود هذا الصنف ومشاهدته ويستفيد منه من حيث لا يشعر فلا يظهر له أنه يعرفه ويظهر العزة عليه والاستغناء عنه ويصحبه صحبة عادة العامة ولا تبدو منه كلمة لا يرضاها الله فإنه لا يحتملها صاحب هذا الحال وينفر منه كما ينفر ممن يعلمه فلا يعامله إلا بواجب أو مندوب أو مباح خاصة، هكذا يقتضي حالهم: [مخلع البسيط]

مَـنْ شَـهِـدَ الـحَـقَّ فـي شُـؤُونـهْ　　أقـامَـهُ الـحَـقُّ فـي فُـنُـونِـهْ
فـهـو عـلـيـمٌ بـكـلّ شـيء　　أشْـهَـدَهُ ذلـك مـن مـبـيـنـهْ
فـهـو الإمـامُ الـذي سَـنَـاهُ　　يـظـهـر فـي الـكـون مـن جُـفُـونِـه
فـكـلّ شـيء تَـرَاهُ عَـيْـنـاً　　فـإنـمـا ذاك مـن عُـيُـونـه
تَـفَـجَّـرَتْ فـي الـقُـلـوب عـلـمـاً　　عـيـنـاً وحَـقّـاً إلـى يَـقـيـنِـه
سـبـحـان مَـنْ لا يَـرَاه غَـيْـري　　كـمـا أراه عـلـى شُـؤُونِـه

وصل: الحالة البرزخية لا يقام فيها إلا من عظم حرمات الله وشعائر الله من عباده وهم أهل العظمة، وما لقيت أحداً من هذا الصنف إلا واحداً بالموصل من أهل حديثة الموصل كان له هذا المقام، ووقعت له واقعة مشكلة ولم يجد من يخلصه منها، فلما سمع بنا جاء به إلينا من كان يعتقد فيه وهو الفقيه نجم الدين محمد بن شائي الموصلي فعرض علينا واقعته فخلصناه منها فسرّ بذلك وثلج صدره واتخذناه صاحباً وكان من أهل هذا المقام، وما زلت أسعى في نقلته منه إلى ما هو أعلى مع بقائه على حاله، فإن النقلة في المقامات ما هي بأن تترك المقام وإنما هو بأن تحصل ما هو أعلى منه من غير مفارقة للمقام الذي تكون فيه، فهو انتقال إلى كذا لا من كذا بل مع كذا، فهكذا انتقال أهل الله، وهكذا الانتقال في المعاني لا يلزم من انتقل من علم إلى علم أن يجهل العلم الذي كان عليه، بل لا يزال معه إذا كان عالماً، وصاحب هذا الحال بين الله وبين نفسه فهو ناظر إلى نفسه ليرى ربه منها أو فيها، فإذا لم يبد له مطلوبه صرف النظر بالحال إلى ربه ليرى في رؤية نفسه، فإذا رآه الحق على ذلك جاءه الاسم الغيور فخاف عليه أن يناله فردّه إلى رؤية نفسه وأشهده في نفسه ربه وهو المقام الذي يأتي عقيب هذا إن شاء الله: [السريع]

مِنْ حَالَةِ البَرْزَخِ أَنْ يَشْهَدَا ... ثلاثةً أعلامُها تَشْهَدُ
بأنه حَصَّل أَعْيَانَها ... وأنّه بعِلْمِها السَّيِّدُ
يحكُمُ في ذاك وذا بالذي ... أَعْلَمَهُ بحاله المشهدُ
فهو الإمامُ المُرْتَضَى والذي ... له جِبَاهٌ للنُّهَى تَسْجُدُ
فهو الذي يُسْجَدُ مِنْ أجله ... وهو الذي يسجد والمسجدُ

وصل: من شهد نفسه شهود حقيقة رآها ظلاً أزلياً لمن هي على صورته فلم يقم مقامه لأن المنفعل لا يقوم مقام فاعله، فلا تسجد الظلال إلا لسجود من ظهرت عنه، فالظلال لا أثر لها بل هي المؤثر فيها، وكل منفعل ففاعله أعلى منه في الرتبة، فلا تشهد الأشياء إلا بمراتبها لا بأعيانها، فإنه لا فرق بين الملك والسوقة في الإنسانية، فما تميز العالم إلا بالمراتب، وما شرف بعضه على بعضه إلا بها، ومن علم أن الشرف للرتب لا لعينه لم يغالط نفسه في أنه أشرف من غيره، وإن كان يقول: إن هذه الرتبة أشرف من هذه الرتبة، وهذا مقام العقلاء العارفين، يقول رسول الله ﷺ كثيراً في هذا المقام في حق نفسه وتعليماً لنا: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [الكهف: ١١٠] فلم ير لنفسه فضلاً علينا، ثم ذكر المرتبة وهي قوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] ولا خلاف بين العقلاء أنه من تعاظم في نفسه بشرف غيره أنه أخرق جاهل إذ لم يكن شرفه بنفسه والأمر ليس كذلك، فالعاقل الحاضر الشهيد لا يرى لنفسه شرفاً يفتخر به على أمثاله، ألا تراه ﷺ أنه قال: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْر**» فنفى أن يقصد بذلك الفخر، ثم ذكر الرتبة التي لها الفخر الذي هو ﷺ مترجم عنها وناطق بلسانها فذكر رتبة الشفاعة والمقام المحمود، فالفخر للرتبة لا لنا، فما هلك امرؤ عرف قدره، ولنا بحمد الله في هذا المقام القدم الراسخة والمراتب نسب عدمية، فلا فخر بالذات إلا لله وحده، وإذا كان

الفخر فينا للرتب والرتب نسب عدمية فما فخرنا إلا بالعدم وناهيك ممن فخره بالعدم: [المتقارب]

فــإنْ كُـنْـتَ تَـعْـقِـلُ مـا قُـلْـتُـهُ ... فــأنْــتَ الــمــرادُ وأنْــتَ الإمــامْ
وإن كُـنْـتَ تَـجـهَـلُ مـا قـلـتُـه ... فــأنــت الـجَـهُـولُ الـذي لا يُـرامْ
فـلـلـعِـلْـم فـيـنـا حـجـابُ الـسَّـنَـا ... ولـلـجَـهْـلِ فـيـنـا حـجـابُ الـظـلامْ
فـقُـلْ لـلَـجـهـولِ بـأحـوالـه ... سـتَـعْـلَـمُ ذلـك عـنـد الـحِـمَـامْ
إذا كَـشَـفَ الله عـن عـيـنـه ... غـطـاءَ فـلاحـتْ بُـدُورُ الـتَّـمَـامْ

وصل: الأمر الإلهيّ نافذ في المأمور لا يتوقف لأمره مأموره، فإذا ورد الأمر الإلهيّ على لسان الكون ظهر في الأمثال فاعتزت النفوس أن تكون تتصرّف تحت أوامر أمثالها فردت أوامر الحق إما على جهالة بأنها أوامر الحق، وإما على علم بأنها أوامر الحق لكن أثرت فيها الواسطة لأن المحل يرد الحال فيه إلى صورته كالماء في الأوعية، إلا أن المأمور إذا كان على بينة من ربه أبصر المأمور به ليس في قدرته إيجاد عينه إلا أن يتعلق به الأمر الإلهيّ الذي له النفوذ فيهيىء محله لوجود المأمور به عند إيجاد الحق إياه، فإذا هيأ محله أوجده الحق فيقال في المحل: إنه عبد طائع لله فيما أمره به ولسان الحال والكشف يقول: ليس لك من الأمر شيء، وإذا لم يهيىء محله لوجود المأمور به لم يظهر للمأمور به عين فقيل: عبد عاص أمر ربه مخالف، ولسان الحال والكشف يقول له: ليس لك من الأمر شيء وسواء كان الواسطة يأمر أو يتكلم بلسان حق أو بغير لسان حق، فإن هذه مسألة قد فشت في العامة وهي مبنية على أصل فاسد فيقولون في المذكرين إذا لم يؤثروا في السامعين أنه لو خرج الكلام من القلب لوقع في القلب، وإذا كان من اللسان لم يعد الآذان، ويشيرون بذلك إلى المذكر لو كان صادقاً فيما يدعو به الناس إلى الله لأثر، ومعلوم أن الأنبياء والرسل عليهم السلام صادقون في أحوالهم بل هم أصدق الدعاة إلى الله، ثم إنهم يدعون على بصيرة إلى الله بصورة ما أوحى به إليهم فهم صادقون بكل وجه، ومع هذا يقول نوح عليه السلام: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦، ٧] وقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٤٢] يعني دعاء الحق على لسان الرسول ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] استكباراً في الأرض، فلا تغالط نفسك وانظر فيما دعيت إليه، فإن كان حقاً ولو كان من شيطان فاقبله فإنك إنما تقبل الحق ولا تبال من جاء به، هذا مطلب الرجال الذين يعرفون الأشياء بالحق ما يعرفون الحق بالأشياء، وأصحاب هذا الوصف هم العارفون بالموازين الإلهية المعرفة التامة وهم قليلون في العالم إلى وقتي هذا ما رأيت منهم واحداً، وإن كنت رأيته فما رأيته في حال تصرّفه في هذا المقام وهم حكماء هذا الطريق ناطقون بالله عن الله ما أمرهم به الله: [المتقارب]

فـلـلَّـه مـن خَـلْـقِـهِ طَـائِـفَـهْ ... عـلـيـه قُـلُـوبٌ لـهـا عَـاكِـفَـهْ
ولـيـسـت لـهـم فـي الـذي قـد دَعـا ... مِـنَ أحْـوَالـهِـمْ صـفَـةٌ صِـارفَـهْ
إذا مـا دَعَـاهـا بـأنْـفـاسـهـا ... يـراهـا عـلـى بـابـه وَاقِـفَـهْ

تُبادِرُ للأمْرِ مِنْ كَوْنِها　　　　بِمَنْ قد دعاها له عَارِفَهْ

وصل: إذا أضيف حكم من أحكام الوجود إلى غير الله أنكره أهل الشهود خاصة وهم الذين لا يشهدون شيئاً ولا يرونه إلا رأوا الله قبله كما قال الصديق عن نفسه. وأما العلماء فهم في هذا المقام على حكم الحق فيه لا على ما يشهدونه، فينكرون النكرة ويعرفون المعرفة، إذ كان الوجود مبناه على المعرفة وهو الأصل، فلما جاءت الأمثال والأشباه ظهر التنكير فافتقرنا إلى البدل والنعت وعطف البيان، ولولا الأمثال وحصول التنكير ما احتجنا إلى شيء، وليست الحدود الذاتية للأشياء تقوى قوّة النعوت، فإن الحدود الذاتية مثلاً للإنسان بما هو إنسان لا تميز زيداً عن عمرو، فلا بد من زيادة يقع بها تعريف هذا التنكير لو قلت: جاءني إنسان لم يعرف من هو حتى تقول فلان فإن كان في حضرة التنكير نعته أو أبدلت منه أو عرّفته بعطف البيان حتى تقيمه في حضرة التعريف ليعرف المخبر به من أردت، وهذا مقام لم يتحقق به أحد مثل الملامية من أهل الله وهم سادات هذا الطريق، ومن الناس من ينكر على الحق لا على جهة الاعتراض عليه، وإنما يطلب بذلك أن يعلم ما هو الأمر عليه الذي جهله بالتعريف الإلهيّ الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢] على ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧] ومن هذا المقام قولي: [السريع]

قلتُ لمن يخلقُ ما يخلقُ　　　　ما لكَ لا تُبْقي الذي تخلقُ
فقال لي إن المَحَلَّ الذي　　　　أخلقُهُ في نفسه ضَيِّقُ
ما يقبلُ التكوينَ إلا كذا　　　　فاسْكُتْ فإنّ البَابَ لا يُغْلَقُ
ما العينُ إلا واحدٌ دائمٌ　　　　فلا تُبَالي أنه مُطْلَقُ
أجَدِّدُ التكوينَ في عينه　　　　والناسُ في لَبْسٍ فلا تنطقُ
خَلْفَ حِجَابِ المثل أبصارُهم　　　　لذلك الوَهْمُ لهم يَسْبِقُ
فاسْتَنشِقِ العَرْفَ من أعراضهم　　　　فإنها المِسْكُ الذي يعبقُ
فانظُرْ إلى مُوجِدِ أعيانهم　　　　ما هو غير هكذا حَقِّقُوا
فكلُّ ما يُرَى منه بناؤه　　　　من صُورةٍ في ذاتنا تعلّقُ
أرواحُهم غذاءُ أشباحهم　　　　ورُوحهم من ثمري تَغْلَقُ

وصل: الحدود الذاتية الإلهية التي يتميز بها الحق من الخلق لا يعلمها إلا أهل الرؤية لا أهل المشاهدة ولا غيرهم ولا تعلم بالخبر، لكن قد تعلم بعلم ضروري يعطيه الله من يشاء من عباده لا يلحق بالخبر الإلهي، وما ثم أمر لا يدرك من جهة الخبر الإلهيّ إلا هذا، وما عدا هذا فلا يعلم إلا بالخبر الإلهي أو العلم الضروري لا غير، فحدود الموجودات على اختلافها هي حدود الممكنات من حيث أحكامها في العين الوجودية، وحد العين الوجودية الذاتي ليس إلا عين كونها موجودة، فوجودها عين حقيقتها إذ ليس لمعلوم وجود أصلاً، وغاية العارفين أن يجعلوا حدود الكون بأسره هو الحد الذاتي لواجب الوجود، والعلماء بالله

فوق هذا الكشف والمشهد كما ذكرناه قبل، وهم رضي الله عنهم يحافظون على هذا المقام لسرعة تفلته من قلوبهم، فإنه من لم تستصحبه الرؤية دائماً مع الأنفاس فإنه لا يكون من هؤلاء الرجال، وهذا مقام من يقول: ما رأيت إلا الله، فإن قيل له: فمن الرائي؟ قال: هو، فإن قيل له: فمن القائل؟ قال: هو، فإن قيل له: فمن السائل؟ قال: هو، فإن قيل له فكيف الأمر؟ قال: نسب تظهر فيه منه له، فما ثم في ثم إلا هو وهو عين ثم، وهذا هو مشهد أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه بالحال: [الرمل]

إن لله حُدُوداً عُرِفَتْ ... بوُجودي وبها قد عُرِفَا
لو يراها أحَدٌ من خَلْقِه ... مثل ما شاهَدْتُها ما انْصَرَفَا
لا يرى ما قلتُه إلا الذي ... لم يزل بربه مُتَّصِفَا
أو عليماً عن دليلٍ قاطعٍ ... بوجودي أو حكيماً مُنْصِفَا

وممن عرف الحق من كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه، فمن قواه العلم بالأمور والحق تلك القوّة والعبد موصوف بها فهو موصوف بالحق والحق يعلم نفسه، فهذا العبد عالم به من حيث ما هو الحق عين صفته فما علمه إلا به، ومن له هذا المقام من العلم بالله فلا يجاريه أحد في علمه بالله، فهذا هو العالم بالحد الذاتي الذي لا ينقال.

وصل: رأيت بقونية في مشهد من المشاهد شخصاً إلهياً يقال له سقيط الرفرف ابن ساقط العرش، ورأيت بفاس شخصاً يوقد في الأتون ممن سقط وصحبته وانتفع بنا، فإن جماعة من أهل الله يعرضون عن الساقطين، وسبب ذلك أنهم ما بلغوا من معرفة الله بحيث أنهم يرونه عين كل شيء، فلما حصروه صار عندهم كل من سقط من ذلك المقام الإلهيّ الذي عينوه أعرضوا عنه لبعده عندهم من الله تعالى، والعلماء بالله لهم حالة الإعراض عن هؤلاء لأنهم في حال الثبوت وحال السقوط ما خرجوا عن المقام الإلهيّ وإن خرجوا عن المقام السعادي فلا أثر للسقوط عندهم فهم مقبلون على كل ساقط قبول رحمة أو قبول علم ومعرفة، لأنهم علموا أين حصل لما سقط أو من هو الذي سقط، وقد رفع الله المؤاخذة عنهم وعمن كانوا عنده، وهذا من أعظم العناية لمن عقل عن الله بهم وهم لا يشعرون ولا يشعر بهم إلا العلماء بالله قال تعالى: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وهي ما تسقط إلا من خشية الله كما قال: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٧٤] والهبوط سقوط بسرعة عن غير اختيار والجبر الأصل فهذا حكم الأصل قد ظهر في الساقطين: [المتقارب]

إذا سَقَطَ النَّجْمُ مِنْ أوْجِهِ ... وكان السُّقُوطُ على وَجْهِهِ
فما كان إلا ليدري إذا ... تَدَلَّى إلى السّفل من كُنْهِهِ
فَيَعْرِفُ من نَفْسِهِ رَبَّهُ ... كما يُعْرَفُ الشَّبْهُ من شِبْهِهِ

وصل: وأما رجال الله الذي يحفظون نفوسهم من حكم سلطان الغفلة الحائلة بينهم وبين ما أمروا به من المراقبة فهم قسمان: قسم له الإطلاق في الحفظ كإطلاق حكم الشرع في أفعال المكلف، وقسم له التقييد في الحفظ ظاهراً لا باطناً، فأما أهل الإطلاق فمنهم من

يحافظ على ما عين الحق له منه أنه وسعه وهو القلب، ومنهم من يحافظ على ملازمة الحجاب الذي يعلم أن الحق وراءه فيكون له كالحاجب في العالم ينفذ أوامره وهذه حالة القطب، فليس له من الله إلا صفة الخطاب لا الشهود لأنه صاحب الديوان الإلهي فلا يكون إلا من وراء حجاب إلى أن يموت، فإذا مات لقي الله وهو مسؤول عن العالم والعالم مسؤول عنه، وهذا هو مقام الرسل صلوات الله عليهم أجمعين وشركهم في هذا المقام من يحافظ على الصلوات في الجماعات إذا قدر عليها وعلى كثرة النوافل منها ليلاً ونهاراً ولما علموا أن الله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبا: ٢١] وهم من الأشياء وهم الذين ادعوا أنهم أهل الصورة المثلية لزمهم أن يقوموا في هذه الصفة فيصدق عليهم اسم الحفيظ على كل شيء فيحفظوا ما خصص الله به نفسه في ملكه من الحقوق التي له أن ينازعه فيها أحد من عالمهم وينوب عن العالم بأسره فيما فيه مصالحهم لما هو العالم عليه من الغفلة والجهل، فبالجهل لا يعرف مصالحه من غير مصالحه، وبالغفلة يغفل عن مصالحه وإن كان يعرفها إذا نبه لها، فيكون هذا العبد الحفيظ على كل شيء مستحقاً هذا الاسم ولما علم أن عليه من الله حافظاً يكتب ما يعمله من أفعاله حفظ ما يملى عليه حتى يقع لصحيفته ميز على سائر الصحف إذا رفعت إلى الله، هذا شأن القوم، وأما أنا فأقول: [الخفيف]

قل لـمَنْ يـحـفـظُ الأمُـورَ عـلـيـه ... إنَّـمـا يـحـفـظُ الـوُجُـودَ الـحَـفِـيـظُ
ولـهـذا إذا الـحـفـيـظـةُ جـاءت ... وأتـى لـلـذي أتـاهُ يـغـيـظُ
قـام فَـرْداً فـزاحَـمَـتْـهُ أمـورٌ ... فـيُـرَى لازدحـامـهـنّ كَـظِـيـظُ
قُـلْـتُ مـن زاحـم الأمـور فـقـالـوا ... هـو قَـلْـبُ فَـظّ عـلـيـه غَـلِـيـظُ

ولما رأيت ما ينبغي لله وما ينبغي للعبد، ورأيت ما حجب الله به عباده المنسوبين إليه من حيث إنه جعل لهم في قلوبهم أنهم يعتقدون أن لهم أسماء حقيقة وأن الحق تعالى قد زاحمهم فيها وحجبهم عن العلم بأن تلك الأسماء أسماؤه تعالى زاحموه بالتخلق بالأسماء الإلهية وقابلوا مزاحمة بمزاحمة وما تفطنوا لما لم يزاحمهم فيه من الذلة والافتقار الذي نبه لأبي يزيد عليها ولنا اعتناء من الله فهذه أسماؤهم لا ما ادعوها فزاحموه فيما تخيلوه من الأسماء أنها لهم وهم لا يشعرون، ولقد كنت مثلهم في ذلك قبل أن يمنّ الله عليّ بما منّ به علي من معرفته، فعلمني أن الأسماء أسماؤه وأنه لا بدّ من إطلاقها علينا فأطلقناها ضرورة لا اعتقاداً وأطلقتها أنا ومن خصه الله بهذا العلم على الله اعتقاداً وأطلقها غيرنا اضطراراً إيمانياً لكون الشرع ورد بها لا اعتقاداً فحفظنا عليه ما هو له حين لم يحفظه ومكر بعباده وفي ذلك قلت: [البسيط]

فـلـو يُـضَـاهـيـهِ خَـلْـقٌ مِـنْ بَـرِيَّـتِـهِ ... ضـاهـاه قـلـبـي ولـكـن عِـزُّهُ مَـنَـعَـا
فـقـلـتُ لـلـقـلـب لا تـحـجـب بـصـورتـه ... فـمـا أجـاب ولا أصْـغَـى ولا سَـمِـعَـا
دعـاه قـلـبـي فـلـبَّـاهُ بـحـاجـتـه ... فـعِـزُّهُ قـولُـه لَـبَّـيْـكَ حـيـن دَعَـا
لـو أن قـلـبـي يـدري مـا أقـول لـه ... في مثل ما يبتغيه منه ما طَمِعَا

لكنه جاهلٌ بالأصل مُبْتَئِسٌ فعندما جاء ما أغناه قال دعا

فمن حفظ على نفسه ذله وافتقاره وحفظ على الله أسماءه كلها التي وصف بها نفسه والتي أعطى في الكشف أنها له فقد أنصف فاتصف بأنه على كل شيء حفيظ.

وصل: ولما فتح الله باب الرحمتين وبان الصبح بهما لذي عينين أوقف الحق من عباده من شاء بين يديه وخاطبه مخبراً بما له وعليه وقال له إن لم تتق الله جهلته وإن اتقيته كنت به أجهل، ولا بد لك من إحدى الخصلتين، فلهذا خلقت لك الغفلة حتى تتعرى عن حكم الضدين والنسيان لأنه بدون الغفلة يظهر حكم أحدهما فاشكر الله على الغفلة والنسيان، ثم قيل له: احذر من أهل الستور أن يستدرجوك إليها فإنهم أهل خداع ومكر أيكون الستر على من هو منك أقرب من حبل الوريد فما استتر عنك إلا بك فأنت عين ستره عليك فلو رأيت باطنك رأيته، وكذلك ذو الوجهين فإن له وجهاً معك ووجهاً معه فيحيرك فاحذره كما تحذر الحجاب فهم جعلوا أنفسهم حجاباً ما أنا اتخذتهم حجبة، فإذا رأيت من يدعوك إليّ فيك فأولئك حجتي فاصغ إليهم فإنهم نصحوك وصدقوك، ثم قيل له: لم يتسم الله بالحكيم إلا من أجلك وتسمى بالعليم من أجلك ومن أجله فقد خصك بأمر ليس له وهو لك، فأنت أعظم إحاطة في الصفات منه لأنه كل ما له لك فيه اشتراك، فما اختص بشيء دونك وهو كماله الذي ينبغي له، واختصصت أنت بأمر ليس له وهو كمالك الذي ينبغي لك ولا ينبغي له، فما ثم إلا كمال في كمال، ثم قيل له: اتبع الخبر ولا تتبع النظر المعرّى عن الخبر فإن الله ما تسمى بالخبير إلا لهذا، ثم قيل له: اعتمد عليه تعالى في وكالتك واحذر أن تكون له وكيلاً، ثم قيل له: أنت قلب العالم وهو قلبك فشرفك به وشرف العالم بك. ثم قيل له: لا تجهل من أنت له وهو لك مثل من أنت منه وما هو منك كما لا تجعل من هو منك من أنت منه واجر مع الحقائق على ما هي عليه في أنفسها، فإن لم تفعل وقلت خلاف هذا تكذبك مشاهدة الحقائق فتكون من الكاذبين، وهذا هو قول الزور لأنه قول مال بصاحبه عن الحق الذي هو الأمر عليه وزال عن العدل، ثم قيل له: ليكن مشهودك ما تقصده حتى تعرف ما تقصد فإن اجتهدت وأخطأت بعد الاجتهاد فلا بأس عليك وأنت غير مؤاخذ فإن الله ما كلف نفساً إلا ما أتاها فقد وفت بقسمها الذي أعطاها الله، فهو الذي ستر ما ستر لحكمه وكشف ما كشف لحكمه رحمة بعباده، ثم قيل له: الحق أولى بعباده المضافين إليه المميزين من غيرهم وهم الذين لم يزالوا عباده في حالة الاضطرار والاختبار من نفوسهم وما هو مع من لم يضف إليه بهذه المثابة فلكل عالم حظ معلوم من الله لا يتعدى قسمه، ثم قيل له: إذا بذلت معروفاً فلا تبذله إلا لمعروف وأنت تعرف من هو المعروف فإن للمعروف أهلاً لا يعلمهم إلا الله ومن أعلمه الله، ثم قيل له: قد علمت أن لله ميثاقين وأنك مطلوب بهما فإن العلماء ورثة الأنبياء فانظر لمن أنت وارث فإن ورثت الجميع تعين عليك العمل بميثاق الجميع، وإن كنت وارثاً لمعين فأنت لمن ورثته، ثم قيل له: اصدق ولا تأمن، ثم قيل له: إن ذكرت النعم كنت لها وكنت عبد نعمة، وإن ذكرت الله كنت له وكنت عبد الله، وإن ذكرت

الأمرين كنت عبد المنعم وعبد الله فأنت أنت حكيم الوقت، فإن لم تناد بعبد المنعم فاعلم أنك عبد المنعم خاصة، فاجعل بالك إذا نوديت من سرك بأي اسم تنادى من أسماء إضافة العبودية إليه فكن منه على حذر. ثم قيل له: إن لله قهراً خفياً في العالم لا يشعر به وهو ما جبرهم عليه في اختيارهم وقهراً جلياً وهو ما ليس لهم فيه اختيار يحكم عليهم، فرجال الله يراقبون القهر الخفي لأنه عليه يقع السؤال من الله والمطالبة، فإن شهدت الجبر في اختيارك كنت ممن شهد الجبر الجلي فيرفع عنك المطالبة ذلك الشهود، ولكن المشاهد له عزيز ما رأيت من أهل هذا اللسان والحال إلا قليلاً بل ما رأيت إلا واحداً بالشام ففرحت به، ثم قيل له: لك ست جهات أربعة منها للشيطان وواحدة لك وواحدة لله، فأنت فيما منها لله معصوم فمن ثم خذ التلقي واحذر من الباقي وهو الخمسة ولذا جاء الشرع بخمسة أحكام منها جهتك وجهات الشيطان منك، وأما جهته منك فلا حكم فيها للشرع وهي جهة معصومة لا يتنزل على القلب منها إلا العلوم الإلهية المحفوظة من الشوب، ثم قيل له: إذا كنت مؤمناً فكن عالماً حتى لا تزلزلك الشبه، وما علم لا يزلزل صاحبه الشبه إلا ما كان من الله، فكل علم عن غير الله تزاحمه الشبه والشكوك في أوقات، ثم قيل له: لا يقيدك مقام فإنك محمديّ فلا تكن وارثاً لغيره تحز المال كله، فمن ورثه من أمته زاد على سائر الأنبياء بصورة الظاهر فإنهم ما شهدوه حين أخذوا عنه رسالاتهم إلا باطناً، كما يتميز على سائر الأنبياء من أدرك شريعته الظاهرة كعيسى عليه السلام وإلياس فهذان قد كمل لهم المقام المحمدي. ثم قيل له: الاستئذان في الخير دليل على الفتور والرغبة، فإن استأذنت ربك في خير تعلم أنه خير فانظر فإن أجابك بالعمل به فحسن وإن خيرك فقد مكر بك واستدرجك، وإن لم تقع عندك منه إجابة فاعلم أن في إيمانك ثلمة فإنك ما علمت أنه خير إلا من جهة الشارع والشارع الله فلأي شيء تستأذن بعد العلم فجدد إيمانك بين يديه وقل: لا إله إلا الله محمد رسول الله آمنت بما جاء من عندك، واشرع في العمل ولا تستأذن في شيء قط فإن الله عليك رقيب، فهو يلهمك ما فيه مصالحك، وميزان الشرع الذي شرع لك بيدك لا تضعه من يدك ساعة واحدة ولا نفساً واحداً بل لا يزال أهل الله مع الأنفاس في وزن ما هم عليه فهم الصيارفة النقاد. ثم قيل له: أنت على ملكك وعن ملكك زائل، وعن بلدك راحل، وعن الدنيا منتقل، فلا تفرط في الزاد فإنك ما تأكل إلا ما تحمل معك، ولا تشرب إلا ما ترفع معك في مزادتك فالطريق معطشة والبلاد مجدبة، ثم قيل له: لا تزد في العهود ويكفيك ما جبرت عليه، ولهذا كره رسول الله ﷺ النذر وأوجب الوفاء به لأنه من فضول الإنسان كما كان السؤال هو الذي أهلك الأمم قبل هذه الأمة من فضولهم فإن السؤال يوجب إنزال الأحكام، وكما جرى في هذه الأمة من إثبات القياس والرأي فإن رسول الله ﷺ كان يحب التقليل على أمته من التكليف وبالقياس كثر بلا شك، فشغلوا نفوسهم بما كرهه رسول الله ﷺ مع أن لهم في ذلك أجراً لأنهم أخطؤوا في الاجتهاد في إثبات القياس بلا شك فالله ينفعهم بما قصدوا وأما سائر الأمة فلا يلزمهم إلا ما جاء عن الله وعن رسوله، وما كان عن رأي أو قياس فهم فيه مخيرون إن

اتبعوه وقلدوا صاحبه فما قلدوا إلا ما قرر الشارع حكمه في ذلك الشخص وفي هذا نظر، فإنه ما أمرنا أن نسأل إلا أهل الذكر وهم أهل القرآن، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] يريد القرآن، ثم قيل له: لا تسلك من الطرق إلا ما تقع لك فيه المنفعة والربح فإنها تجارة وهكذا سماها الله فقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] ثم ذكر الإيمان والجهاد وقال: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦] في حق من ابتاع الضلالة بما كان في يديه من الهدى. ثم قيل له: عليك بالالتجاء إلى من تعرف أنه لا يقاوم فإنه يحميك، ثم قيل له: عليك بآثار الأنبياء فإنها طرق المهتدين، ثم قيل له: إياك والحسد فإنه يخلق الحسنات وأوّل ما يعود وباله على صاحبه، ثم قيل له: لا يكون التيسير الإلهي من نعوت الحق إلا إذا ظهر الحق بصورة أهله فإن المنازع لله في إيجاد الممكن العدم الذاتي الذي للممكن فانظر ما يزيله والأمر الذاتي يحكم لنفسه فتعمل في الخروج من هذه الشبهة، ثم قيل له: خلق الله العالم أطواراً وكل طور يزهد في طوره ويذمه ويثني على ما سواه فما الذي دعا إلى ذلك وما الذي أفرح كل أحد بما عنده حتى منعه ذلك الفرح من الخروج عنه، ثم قيل له: الاقتداء شأن الرجال فاقتد بالله من كون الميزان في يده فإن فاتك هذا الاقتداء هلكت، ثم قيل له: الإيمان برزخ بين إسلام وإحصان وهو الاستسلام، فلهذا يكون الإسلام ولا إيمان، ويكون الإيمان ولا استسلام، فالزم الاستسلام تفز بالجميع، وما ثم برزخ لا يقوى قوّة الطرفين إلا الإيمان فكل برزخ فيه قوّة الطرفين هو الإيمان ثم قيل له: ألحق المتأخر بالمتقدم فتسعد ولا تعكس الأمر، ثم قيل له: لا تبديل لخلق الله وخلق الله كلماته ولا تبديل لكلمات الله وإنما التبديل لله من كونه متكلماً لا من كونه قائلاً، فإن ظهرت القولة بصورة الكلمة لم تبدل لكونها قولاً لا من حيث أنها كلمة من الكلام، ثم قيل له: الجزاء بالخير حتم وبالشر في المشيئة، ثم قيل له: الاستناد إلى القوي حمى لا ينتهك فيرجع طالب انتهاكه خاسراً، ثم قيل له: النزول من العلو بإنزال وبغير إنزال، فمن نزل من غير إنزال فهو محمود، ومن نزل بإنزال فقد يحمد، والخلافة أرفع الدرجات ولها العلو، فمن خلع نفسه منها حمد وإن كان فيها، ومن خلع منها فقد يحمد وهو بحسب ما يقع له. ثم قيل له: إن كنت وارثاً فلا ترث إلا الحق فقال: وكيف يورث الحق؟ فقال: إذا أشهدك الحق غناه عن العالمين فقد تركهم فهذه تركة إلهية لا يرثها إلا أنت، إن كنت صاحب هذا الشهود فتعرف من هذا الورث ما لم تكن تعرفه قبله من العالم، ثم قيل له: لا تخلط بين الأمور وأنزل كل شيء حيث أنزلته حقيقته فلا تقل ما ثم إلا الله ولو كان كذلك وهو كذلك، أليست المراتب المعقولة قد ميزت بين كونه كذا وكونه كذا والعين واحدة كما تقول؟ ولكن هو من كذا أمر ومن كذا أمر آخر، وأراك تحس بالألم وتهرب منه فما الذي دعاك إلى ما منه تهرب؟ وأراك تحس باللذة وأراك فاقداً ما كنت تطلب، فبهذا القدر أثبت عينك واعرف أينك، فعلى كل حال الكثرة موجودة والأغيار مشهودة، وعالم وجاهل، وأمر ومأمور، وحاكم ومحكوم عليه ومحكوم به ومحكوم فيه، ومريد ومراد، وتخيير وجبر، وفاصل ومفصول، وواصل وموصول، وقريب وأقرب،

ووعد ووعيد، فالفائدة في مخاطب ومخاطب وخطاب ومخاطب به الإنسان واحد بجملته، وأعضاؤه متميزة وقواه متعددة وهو هو لا غير، فأي شيء تألم منه سرى الألم في كله، وترى شخصاً يتألم وآخر يسر بألمه وآخر يحزن لذلك، فلو كان الأمر واحداً كما هو في الإنسان لسرى الألم في العالم بأسره إذا تألم منه واحد فليس الأمر كما تخيلته إذا كشف الغطاء علمت ما أقول، فانصح نفسك إن أردت أن تلحق بالعلماء بالله الذين أسعدهم الله، فالظاهر لله والباطن كالروح والجسد، فكما لا يفترقان كذلك لا يفترقان، فما الأمر إلا عبد ورب، فما هو إلا أنت وهو، فالطائع مهتد والعاصي حائر بين ما أريد منه وما أمر به.

واعلم أن الله لما أنكح العقل النفس لإظهار الأبناء لا لحصول لذة الابتناء أسكنها أرض الطبيعة فأثرت في مزاجها إذ كانت الأرض تقلب ما يزرع فيها إلى طبيعتها اجعل بالك إلى قوله تعالى: تسقى بماء واحد والأرض واحدة، وتختلف الطعوم والروائح والألوان، فإن قلنا في العسل إنه حلو لذيذ فترى بعض الأمزجة تتألم به ولا تلتذ وتجده مراً، وكذلك الروائح والألوان، فرأينا هذا الاختلاف يرجع إلى الإدراكات لا إلى الأشياء، فرأيناها نسباً لا حقيقة لها في أعيانها إلا من حيث جوهرها ثم قيل له: قف عند الإضافات والنسب تعثر على الأمر على ما هو عليه، ثم قيل له: إذا أيَّهَ الله بك فاعلم من أين نوديت وأين كنت ولماذا دعيت ومن دعاك وما دعاك؟ فكن بحسب ما ينتج لك ما ذكرته، ثم قيل له: السعادة في الإيمان لا في العلم والكمال في العلم فإن جمعت بينهما فأنت إذا أنت ما فوقك غاية، ثم قيل له: هذه حضرة الأخبار فاجعل بالك لكل خبر يأتيك فيها فإنك إن فقدتها لم تنل في غيرها ما تنال فيها.

وفيها من العلوم ما أذكره لك إن شاء الله، فمن ذلك: علم من أين صدر الأمر والنهي وجميع الأحكام والنواميس الوضعية والإلهية، وفيه علم التنبيه على حقائق الأشياء بالتصريح والتضمن والإيماء، وفيه علم خلق باطن الإنسان دون ظاهره وكم إنسان في الوجود فإذا علمت أنه ما في الوجود إلا ثلاثة أناسي: الإنسان الأول الكل الأقدم، والإنسان العالم، والإنسان الآدمي، فانظر ما هو الأتم من هؤلاء الثلاثة، وفيه علم ما لا يعلم إلا بالإيمان، وفيه علم الموازنة، وفيه علم ما يؤثره القصد في الأمور مما لا يقصد، وفيه علم الالتحام، وفيه علم الدواوين الإلهية والكتاب والعمال والمتصرفين، وفيه علم الشروط والشهادات والقضايا المبثوثة في العالم، وفيه علم محاسبة الديوان العمال، وفيه علم الحركة والسكون، وفيه علم الإطلاق الذي لا تقييد فيه فإذا علمه من علمه تقيد فيه وفيه علم الميل والاعتدال وبأيهما يقع التكوين، وفيه علم الخواص في الإنسان وهي الطبيعة المجهولة، وفيه علم الإهمال والإمهال ومن يتولى ذلك من الأسماء وقوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧] وفيه علم المحاربة الإلهية، وفيه علم المنع الإلهي وهو يناقض الجود المطلق هل اقتضاه من اقتضائه لذاته أو لأمر آخر؟ وفيه علم عصمة الرسل، وفيه علم تنوع العالم من أين قبله وما صدر فيما يعطيه الدليل العقلي إلا ممن لا يقبل التنوع، وفيه علم الأنبياء والأولياء والعقلاء والفروق بين هؤلاء، وفيه علم حكمة التقديم والتأخير الزماني والوجودي والمكاني

والرتب، وفيه علم القبول والرد، وفيه علم ما يجده الحيوان من الخوف هل هو أمر طبيعي أم إلهي؟ ووصف الملائكة بالخوف ولما خافت الملائكة ربها من فوقها فإنه لا يخاف تعالى إلا لما يكون منه مما فوق الملائكة من الأسباب المخيفة وأي الملائكة هم الموصوفون بالخوف؟ هل كلهم أو جنس منهم؟ وفيه علم تدبير الروح الواحدة نفوساً كثيرة ومن هنا تعرف النشأة الآخرة، وفيه علم تعظيم العقوبة على المقرب صاحب الرتبة العليا ولماذا لم تحمه رتبته عن العقوبة؟ والفرق بين العقوبة والعذاب والألم والآلام، وفيه علم ما جبلت عليه النفوس من النزاع والمخالفات، وفيه علم طهارة النفوس هل طهارتها ذاتية أو مكتسبة؟ وفيه علم فضل الشهادتين وما يحمد من الشرك وما يذم، وفيه علم مرتبة المؤمن من غيره مع الاشتراك في الإنسانية ولوازمها وحدودها والذي وقع به التمييز موجود في كل إنسان لأنه محقق في نفس الأمر فنسبته إلى كل إنسان نسبة واحدة فلماذا خصص به المؤمن من غيره؟ وفيه علم مراعاة الأكوان من الأكابر دون الحق هل ذلك من الرحمة بهم أو هو من خور الطبع؟ وفيه علم مرتبة الواجبات الإلهية، وفيه علم الشروط والشهادة والقضايا المبثوثة في العالم، وفيه علم الانتساب إلى الله ومن ينبغي أن ينسب إلى الله وبماذا يقع النسب إلى الله الزائد على العبودة، وفيه علم غريب وهو نزول الحق إلى العالم في صفاتهم أو عروج العالم إلى الله بصفاته فإن الأمر فيه في غاية الغموض فإن أكثر العلماء بالله يقولون إن الحق نزل إلى نعوت عباده والحقائق تأبى ذلك والكشف، وفيه علم الأنوار النبوية المقتبسة من السبحات الإلهية لا الوجهية، وفيه علم النقض بعد الإبرام فلماذا أبرم؟ وفيه علم الاختصاص وأهله في المحسوس والمعقول، وفيه علم قرب النفوس وبعدها من الحضرة الإلهية، وفيه علم التحجير على الأكابر من العلماء بالله وشهودهم لا يقضى به، وفيه علم الآداب الإلهية، وماذا حجب الله عن عباده من المعارف وهل المعارف هي العلوم أو تختلف حقائقها كما اختلفت أسماؤها؟ وفيه علم النفوس والأرواح هل هما شيء واحد يفترقان؟ وفيه علم السبب الذي لأجله ظهر السلام في كل ملة وفي الملائكة قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ [الرعد: ٢٤] وفيه علم الاسم الإلهي الصبور هل للاسم الحليم فيه حكم أم لا؟ وفيه علم أسباب رفع الأذى من بعض العالم وهل يرتفع من العالم حتى لا يبقى له حكم أم لا؟ وفيه علم فضل ما سوى الإنسان على الإنسان هل هو عام من جميع الوجوه أو يفضل عليه في شيء ويفضل هو على غيره في شيء؟ وما العلة في ذلك؟ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والخمسون وثلاثمائة

في معرفة منزل ثلاثة أسرار طلَّسْمِيّة مصوّرة مدبرة من الحضرة المحمدية

[البسيط]:

يا قُرَّةَ العَيْنِ إنّ القَلْبَ يَهْوَاكَ ... لَوْلاك ما كنتُ في قَتْلاك لولاك
ما لي سوى عَيْنِ مالي قد عَلِمْت به ... فإن رضيت بذاك القدر أغناك

إن الـوُجُـودَ لـه فَـقْـرٌ ومَـسْـكَـنَـةٌ إلـى الـكَـمَـال فـبَـيْـتُ الـفَـقْـر مَـأْواك
لا تـعـجـزنَّ لإدْراك الـكـمـال فـمـا في الكَوْنِ من يَعْرِفُ المَطْلُوبَ إلاَّك

اعلم أيدك الله أنه إنما سمي الطلسم بهذا الاسم لمقلوبه يعني أنه مسلط على كل من وكل به، فكل مسلط طلسم ما دام مسلطاً، فمن ذلك ما له تسليط على العقول وهو أشدها فإنه لا يتركها تقبل من الأخبار الإلهية والعلوم النبوية الكشفية إلا ما يدخل لها تحت تأويلها وميزانها وإن لم يكن بهذه المثابة فلا تقبله وهذا أصعب تسليط في العالم، فإن صاحبه المحجور عليه يفوته علم كثير بالله فطلسمه الفكر وسلطه الله عليه أن يفكر به ليعلم أنه لا يعلم أمر من الأمور إلا بالله، فعكس الأمر هذا المسلط فقال له لا تعلم الله يا عقل إلا بي والطلسم الآخر الخيال سلطه الله على المعاني يكسوها مواد يظهرها فيها لا يتمكن لمعنى يمنع نفسه منه والطلسم الثالث طلسم العادات سلطه الله على النفوس الناطقة فهي مهما فقدت شيئاً منها جرت إليه تطلبه لما له عليها من السلطان وقوّة التأثير وما يتميز الرجال إلا في رفع هذه الطلسمات الثلاثة، فأما الطلسم الأول فرأيت جماعة من أهل الله قد استحكم فيهم سلطانه بحيث أنهم لا يلتذون بشيء من العلوم الإلهية التذاذهم بعلم يكون فيه رائحة فكر فيكونون به أعظم لذة من علمهم بما يعطيهم الإيمان المحض بنوره الذي هو أكشف الأنوار وأوضحها بياناً، وسبب ذلك ما نذكره وذلك أن نور الإيمان وهب إلهي ليس فيه من الكسب شيء ولا أثر للأدلة فيه البتة، فإنا قد رأينا من حصل العلم بالأدلة وبما دلت عليه بحيث لا يشك، ومع هذا لا أثر للإيمان فيه بوجه من الوجوه، فلما خرج عن كسب العبد فكأنه إذا فرح بما أعطاه نور الإيمان من العلم فرح بما ليس له، وأنه إذا أعمل الفكر في تحصيل علم بأمر ما وحصل له عن فكره ونظره فيه واجتهاده كان له تعمل واكتساب، فكانت لذته بما هو كسب له أعظم مما ليس له فيه كسب لأنه فيما اكتسبه خلاق، ولم يكن ذلك من هؤلاء إلا لجهلهم بأصولهم وبنفوسهم لأنهم لو علموا أنهم ما خرجوا من العدم إلى الوجود إلا بالمنة والوهب وهبة الله لهم فأوجدهم فلم يكن لهم تعمل في ذلك وهم في غاية من الالتذاذ بوجودهم، فكانوا على ما يعطي هذا الأصل أفرح بعلوم الوهب الذي يعطيهم نور الإيمان من الذي يعطيهم الفكر بنظره، ثم الحجاب الآخر في جهلهم بنفوسهم وبما فيهم أن العقل والفكر ما حصل لهم من الحق بتعمل ولا اكتساب بل بوهب إلهيّ وهم به فرحون، فهلا كان فرحهم بما وهبهم الحق من العلم بنور الإيمان أعظم من فرحهم بما نالوه من جهة الفكر؟ ثم إنهم من جهلهم وحجابهم أنهم يشهدون في أوقات في علم ما اتخذوه بالفكر شبهاً تدخل عليهم فيه فتزيله من أيديهم أو تحيرهم فيه فيغتمون لذلك الغم الشديد ويعملون فكرهم في أمر من أنواع الدلالات، إما أن يزيل عنهم تلك الشبهات حتى يعلموا أنها شبهات فيرجعوا إلى ما كانوا عليه بلا مزيد ويخسرون ما يعطيه المزيد الإلهي في كل نفس، وإما أن يعطيهم الفكر أن تلك الشبهة ليست بشبهة بل هي دليل أعطاهم العلم بضد ما كانوا عليه وأين الأمر الذي كانوا عليه فيفرحون به ويقولون هو علم لم يكن كذلك بل كان شبهة، فلو فتح الله عليهم لكانوا في هذا

الذي رجعوا إليه تحت إمكان أيضاً كما ظهر لهم في حكم الأول الذي رجعوا عنه، فلو لم يكن لصاحب الفكر في العلم الإلهي صارف يصرفه عنه إلا هذا لكان فيه كفاية، وكلامنا هذا إنما هو في حق المؤمنين من أهل الله، وأما من يرى أنه لا يأخذ إلا من الأرواح العلوية وأنها الممدة لهم وأنهم يستنزلونها لتفيدهم وأن جميع ما هم فيه إنما هو منهم كما يرون أن كل ما يحجبهم عن مثل هذا إنما هو نظرهم إلى شهواتهم واشتغالهم بالأمور الطبيعية من أكل وشرب ونكاح وغير ذلك من مثل هذه الأمور فلا كلام لنا معهم فإنهم عبيد أكوان لا عبيد الله ليس لهم من الله رائحة إلا بعلم واحد أنه الأصل من غير تفصيل ولا استرسال واستصحاب وظهور في كل جزء جزء من العالم الأعلى مساحة ومعنى، والعالم الأسفل مساحة ومعنى، فهم عن هذا كله محجوبون وبه غير قائلين.

ولما كان الطلسم في أصل الوضع لا يضعه واضعه إلا لخفاء ما يمكن أن يشهد ويحصل أعملت الحيلة في رفع حكم ذلك الطلسم حتى يبدو ما كان يخفيه مما ينتفع به، فالإنسان من حيث قيوميته التي يعتقدها في نفسه هو طلسم على نفسه، وبتلك القيومية استخدم فكره وجميع قواه لأنه يعتقد أنه رب في ذاته وفي ملكه مالك، ثم رأى الحق قد كلفه واستعمله فزاد تحقيقاً في قيوميته، ولو لم يكن له قيام بما كلفه الحق ما كلفه فيقول باستعمالي لهذه القوى يكون لي الدليل على أني صدقت ربي وهو الصادق فيما كلفني به من استعمالها، ولم يتحقق هذا المسكين المواضع التي يستعملها فيها، ثم إنهم رأوا أن أشرف ما يكتسبونه بها العلم بذات الله وما ينبغي لها أن تكون عليه فتركوا استعمال قواهم فيما يمكن لهم أن يصلوا إليه، واستعملوها فيما لا يمكن الوصول إليه مع تبيين الحق لهم فيما شرع من قول الله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] أي لا تستعملوا فيها الفكر، وقال رسول الله ﷺ: «**لاَ تَتَفَكَّروا فِي ذَاتِ اللهِ**» فعصوا الله ورسوله مع أنهم من أهل الله بالمعصية المقدرة عليهم فلا بد من نفوذ حكمها فيهم، فالله يجعلنا ممن عصمه الله أن يستعمل قواه فيما ليس لها التصرف فيه إنه ولي كريم منعم محسان، فإذا أراد الله أن يوفقك لرفع حكم هذا الطلسم حتى تشهد ما حجبك عنه وفقك لإزالة قيوميتك بقيوميته واستعملك في فقرك وذلك وشهود أصلك، واستعمل فكرك في أنك لك موهوب وأنك صادر من عين منته عليك في وجودك وفي تقلبك في أطوار نشأتك المحسوسة والمعنوية وفي إسلامك وإيمانك إلى أن جعلك من أهله واصطنعك لنفسه وحجب غيرك ممن هو مثلك لا ليدلك عليه بل سابق عناية بك ومنة اختصاص، فإذا وفقك لمثل هذا النظر وفقك للنظر أيضاً في قواك وما بين لك من مصارفها فلم تتعد بها مصرفها الإلهي ووقفت عند حدوده وعرفت قدرك فعرفت قدره، وجعلت أمرك كله فيما تصرفت فيها وهباً إلهياً من عين منته ونظرت إليه بنور الإيمان الذي وهبك إياه فأشهدك الأمور كما هي عليه في نفسها وكشف لك عن الحق ورزقك اتباعه وكشف لك عن الباطل ورزقك الاجتناب عنه. ورأيت جماعة في هذا الكشف من أصحاب الأفكار العقلاء النظار قد أراهم الفكر الحق باطلاً فحققوه فاجتنبوا الحق واتبعوا الباطل ولا علم لهم بذلك إذ

الباطل في جبلة كل أحد اجتنابه، فإذا رأيتهم على ذلك رحمتهم فربما تدعوهم إليه وهم ﴿يَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٣] فيجهلونك فيما تدعوهم إليه من الحق كما كان ﷺ يدعو أهل الشرك إلى التوحيد فيقول إذا دعاهم إلى ذلك ودعوه إلى ما هم عليه: **«مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بالله وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى العَزِيزِ الغَفَّارِ»** فيا ولي لا تقل في جوابي أنهم أيضاً يقولون له مثل ما قال لهم، ليس الأمر كذلك فإنهم مشركون، فقد أثبتوا بكونهم مشركين عين ما دعاهم إليه هذا الرسول وهو ما أثبت الشريك وهم قالوا: إنما ندعوهم ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فأثبتوا له سبحانه وتعالى التعظيم والمنزلة العظمى التي ليست لشركائهم، فمن هناك لم يتمكن لهم أن يقولوا في الجواب مثل ما قال لهم فإنه قال لهم ما ليس لي به علم وهم علماء بما دعاهم الرسول إليه، فلما دعاهم دعاهم بحالهم ولسانهم من حيث ما أثبتوا عين ما دعاهم إليه وزادوا الشريك الذي لا علم لمحمد ﷺ به، فإذا قال صاحب الكشف لصاحب الفكر مثل هذا كان جواب صاحب الفكر له أشد في البعد عن الله من المشركين مع رسول الله ﷺ، وكان المشركون أسعد حالة من أصحاب الفكر، فإنهم أثبتوا على كل حال عين ما دعاهم إليه أنه له المنزلة العليا، وهؤلاء قالوا إن الله لا يعلم ما نحن عليه حيث قالوا إنه أعظم من أن يعلم الجزئيات بل علمه في الأشياء علم كلي وهو أن يعلم أن في العالم من يتحرّك ويسكن لا أنه يعلم أن زيد بن عمرو هو المتحرّك عند زوال الشمس هذا أعطاهم فكرهم، فمن هنا يعلم أن المشرك أسعد حالاً منهم، وأعطاهم فكرهم أنّ هذه النواميس الإلهية السائرة في العالم أمداد الأرواح العلوية للنفوس الفاضلة القابلة لمصالح العالم في الدنيا، فهي أوضاع روحانية على ألسنة قوم قد خلصوا نفوسهم من رق الشهوات وأسر الطبيعة وصفوا مرائي قلوبهم، فأقبلت عليهم الأرواح العلوية وجالسوا بأفكارهم الملأ الأعلى فأمدهم بما وضعوه في العالم من أسباب الخير فسموا أنبياء وحكماء ورسلاً وليس إلا هذا، وجعلوا ما وضعوه من الوعد والوعيد المغيب المسمى الدار الآخرة سياسات يسوسون بها النفوس الشوارد عن النظر فيما ينبغي لهم مما وجدوا له لا غير، ونعوذ بالله من هذا القول وهذا العلم، فهذا ما أعطاهم الفكر حيث استعملوه في غير موطنه وذهبوا به في غير مذهبه ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦].

وأما الطلسم الثاني وهو الخيال فيجسد المعاني ويدخلها في قالب الصور الحسية، فهو طلسم أيضاً على أهل الأفهام القاصرة التي لا علم لها بالمعاني المجرّدة عن المواد، فلا تشهدها ولا يشهد هؤلاء إلا صوراً جسدية، فيحرم من حكم عليه طلسم الخيال إدراك الأمور على ما هي عليه في أنفسها من غير تخيل، فهؤلاء لا يقبلون شيئاً من المعاني مع علمهم بأنها ليست صوراً جسدية إلا حتى يصورها في خيالهم صوراً متجسدة متحيزة متميزة فيجمعون بين النقيضين، فأنتم تعلمون أنها ليست صوراً ولا يقبلونها إلا صوراً، فمن أراد رفع حكم هذا الطلسم فإن الطلسم لا يرتفع أبداً من هذه النشأة فإنه وضع إلهي، وكذلك جميع الطلسمات

الإلهية لا ترتفع أعيانها ولا ترفع أحكامها في الموضع الذي جعل الحق تعالى حكمها فيه، ولكن بعض الناس خرجوا بها عن طريقها، فذلك الحكم الذي أعطاه ذلك الخروج هو الذي يرتفع لا غيره فاعلم ذلك؛ فيرتفع حكم صاحب هذا الطلسم إذا أبصر الفكر قد دخل لخزانة هذا الخيال ثم انصرف خارجاً منه فيصحبه إلى العقل ليشاهد المعاني مجرّدة عن الصور كما هي في نفسها، فأوّل ما يشهد من ذلك حقيقة الفكر الذي صحبه إلى العقل فيراه مجرداً عن المواد التي كان الخيال يعطيه إياها فيشكر الله ويقول: هكذا كنت أعلمه قبل أن أشهده، وما كان الغرض إلا أن يوافق الشهود العلم، فإذا ارتفع إلى العقل شاهده أيضاً مجرّداً عن المواد في نفسه، فيحصل له أنس بعالم المعاني المجرد عن المواد، فإذا تحقق بهذه المشاهدة انتقل إلى مشاهدة الحق الذي هو أثره في التجرّد من المعاني، فإنه وإن تجرّدت المعاني المحدثة فما تجرّدت عن حدوثها وإمكانها فيشاهد فيها صاحب هذا المقام عدمها الأصلي الذي كان لها ويشاهد حدوثها ويشاهد إمكانها، كل ذلك في غير صورة مادية، فإذا ارتقى إلى الحق فأوّل ما يشاهد منه عين إمكانه فيقع له عند هذا تحير فيه فإنه علمه غير ممكن فيأخذ الحق بيده في ذلك بأن يعرفه أن الذي شاهده من الحق ابتداء عين الإمكان الذي يرجع إلى المشاهد، وهو الذي يقول فيه أنه يمكن أن يشهدني الحق نفسه ويمكن أن لا يشهدني، فهذا الإمكان هو الذي ظهر له من الحق في أوّل شهوده فإنه قد ترجح له بالشهود أحد الوجهين من الإمكان فيسكن عند ذلك وتزول عنه الحيرة، ثم يتجلى له الحق في غير مادة لأنه ليس عند ذلك في علم المواد، فيعلم من الله على قدر ما كان ذلك التجلي، ولا يقدر أحد على تعيين ما تجلى له من الحق إلا أنه تجلى في غير مادة لا غير، وسبب ذلك أن الله يتجلى لكل عبد من العالم في حقيقة ما هي عين ما تجلى بها لعبد آخر، ولا هي عين ما يتجلى له بها في مجلى آخر، فلذلك لا يتعين ما تجلى فيه ولا ينقال، فإذا رجع هذا العبد من هذا المقام إلى عالم نفسه عالم المواد صحبة تجلي الحق، فما من حضرة يدخلها من الحضرات لها حكم إلا ويرى الحق قد تحول بحكم تلك الحضرة، والعبد قد ضبط منه أولاً ما ضبط، فيعلم أنه قد تحول في أمر آخر فلا يجهله بعد ذلك أبداً ولا ينحجب عنه، فإن الله ما تجلى لأحد فانحجب عنه بعد ذلك فإنه غير ممكن أصلاً، فإذا نزل العبد إلى عالم خياله وقد عرف الأمور على ما هي عليه مشاهدة وقد كان قبل ذلك عرفها علماً وإيماناً رأى الحق في حضرة الخيال صورة جسدية فلم ينكره وأنكره العابر والأجانب، ثم نزل من عالم الخيال إلى عالم الحس والمحسوس فنزل الحق معه لنزوله فإنه لا يفارقه فيشاهده صورة كل ما شاهده من العالم لا يخص به صورة دون صورة من الأجسام والأعراض ويراه عين نفسه ويعلم أنه ما هو عين نفسه ولا عين العالم ولا يحار في ذلك لما حصل له من التحقيق بصحبة الحق في نزوله معه من المقام الذي يستحقه ولاعالم وراءه يتحوّل في كل حضرة بحسب حكمها، وهذا مشهد عزيز ما رأيت من يقول به من غير شهود إلا في عالم الأجسام والأجساد، وسبب ذلك عدم الصحبة مع الحق لما نزل من المقام الذي يستحقه، فكان القائلون به في عالم الأجسام

والأجساد مقلدين ويعرف ذلك من كونه لا يصحبهم ذلك وتتوالى الغفلات عليهم فإذا حضروا بنفوسهم حينئذ يقولون بذلك، وصاحب الذوق لا غفلة عنده عن ذلك جملة واحدة فإنه معلوم عنده، والغفلة إنما تكون عن شيء دون شيء لا تعم فكل ما يبقى من الأمور غير مشهود لصاحب الغفلة، فإن صاحب الذوق يشهد الحق فيه فما بقي له مشهود في حال غفلته، ومن ليس له هذا المقام ذوقاً يغفل عن الحق بالأشياء حتى يستحضره في أوقات ما فهذا هو الفارق بين أصحاب الذوق وبين غيرهم فلا تغالط نفسك، وما رأيت واحداً من أهل هذا المقام ذوقاً إلا أنه أخبرتني أهلي مريم بنت محمد بن عبدون أنها أبصرت واحداً وصفت لي حاله فعلمت أنه من أهل هذا الشهود إلا أنها ذكرت عنه أحوالاً تدل على عدم قوته فيه وضعفه مع تحققه بهذا الحال ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

وأما الطلسم الثالث وهو طلسم العادات الحاكمة على النفوس الناطقة لما حصل لها من الألفة بها وتوقف المنافع والمصالح عليها دائماً لا يرتفع، فإذا أراد من أراد أن يرتفع عن حكم هذا الطلسم إذ علم أنه لا يرتفع فإن الأسباب المألوفة هي أوضاع إلهية لا يمكن رفعها ولا دفعها، يرجع هذا الشخص إلى النظر في وجهه الخاص به الذي لا أثر للسبب فيه وهو خفي جداً فيعمد إلى بابه فيفتحه ويكثر العكوف عليه ويحس بالأسباب تجذبه عنه ليأخذ منها ما بيدها من الأمانات له فلا يفعل ولا يقبل ما تأتيه به، فإذا جاءه خاطر أن ذلك سوء أدب مع الله فخُذ ما أعطاك وكن من الشاكرين. وأن هذه الأسباب لا يمكن رفعها فلا تبطل حكمة الله في حقك فتكون من الجاهلين، فلا يصغ إلى هذا العتب ولا إلى هذا العلم فإنه خاطر نفسي ما هو خاطر إلهي، وليثبت على اعتكافه بالباب الخاص، وليقل لذلك المعلم أن الله قد نهى أن تؤتى البيوت من ظهورها، فلو كنت من الله لأتيت البيوت من أبوابها وأنا بيت لا يزيده على هذا، فإذا أراده الحق لذلك المقام أدخل عليه ذلك السبب بما عنده من الأمانة له على باب ذلك الوجه الخاص الذي قد واجهه هذا العبد واعتكف عليه وذلك هو باب بيته، فإذا أعطاه ذلك السبب ما أعطاه قبله منه لأنه ما جاءه إلا من باب الوجه الذي يطلب الأمر منه وقد أتى البيت هذا السبب من بابه، وهذا هو المسمى خرق العوائد في العوائد، فإن العالم لا يشهدون صاحب هذا المقام إلا آخذاً من الأسباب، فلا يفرقون بينهم وبينه فهو وحده يعرف كيف أخذ، وليس هذا المقام إلا للملامية وهم أعلى الطوائف فإنهم في خرق العادة في عين العادة، وبينهم في المقام ما بين المحجوب والمشاهد ولكن لا يشعرون، وأصحاب خرق العوائد الظاهرة ما لهم هذا المقام ولاشموا منه رائحة أصلاً وهم الآخذون من الأسباب فإن الأسباب ما زالت عنهم ولا تزول ولكن خفيت، فإنه لا بد لصاحب خرق العادة الظاهرة من حركة حسية هي سبب وجود عين ذلك المطلوب، فيعرف أو يقبض بيده في الهواء فيفتحه عن مقبوض عليه من ذهب أو غيره، فلم يكن إلا بسبب حركة من يده وقبض، فما خرج عن سبب لكنه غير معتاد بالجملة لكن القبض معتاد وحركة اليد معتادة، وتحصيل هذا الذي حصل له من غير هذا الوجه معتاد، وتحصيله من هذا الوجه غير معتاد فقيل فيه أنه خرق عادة

فاعلم ذلك، فمن أراد رفع حكم طلسم العادات فليعمل نفسه فيما ذكرناه فلا تحكم عليه العوائد وهو في العوائد غير معروف عند العامة والخاصة.

ومن علوم هذا المنزل: علم الإشارات والخطاب، وفيه علم الدخل بالشبه على أصحاب الأدلة، وفيه علم الاسم الذي توجه على الخلق بالإيجاد والتقدير، وعلم ما بين الإيجاد والتقدير من المدة، وفيه علم ترتيب الموجودات في الإيجاد بمرور الأزمان وعلى من مرت هل على الموجد أو على الموجودات فيعلم من تقيد بها، وهل كان ذلك التقييد بها اختياراً أو شيئاً لا بد منه؟ وفيه علم ما إذا توجه الحق على إيجاد أمر ما هل في ذلك إعراض عن أمر آخر أم لا؟ وفيه علم لماذا يستند الفكر في حكمه وهل له سلطان إلهيّ يعضده حتى يتمسك بذلك أهل الأفكار أم لا وإن لم يشعروا بذلك أو ربما أحالوه بين لهم وهو في نفس الأمر صحيح، وفيه علم نزول الأمر الإلهيّ ورجوعه إلى ما منه نزل وكم مدّة ذلك من الزمان؟ وفيه علم ارتباط السبب بالمسبب اسم فاعل بكسر الباء وهل يصح فعل ذلك من الله من غير هذا السبب المعين أو من غير سبب أم لا؟ وفيه علم ارتباط العلم والرحمة والعزة مع ما بين الرحمة والعزة من التنافر، وفيه علم الأعلى في الأنزل وما ثم علم الأنزل في الأعلى، وفيه علم الأحسن في عالم الأمر والخلق وبما هو أحسن وما ثم قبيح ولا مفاضلة في الحسن، وفيه علم منزلة هذه النشأة الإنسانية على غيرها من النشآت والعناية بها مع كونها خلقت لشقاء ولسعادة وكان الأمر يقتضي أن لا شقاء لما ظهر من العناية بها، وفيه علم ما يتولد عن هذا الإنسان في العالم من الأمور، وفيه علم المساكن وما قدم منها وما أخر وما يتبدل منها وما لا يتبدل وما يلحقه التغيير وما لا يلحقه التغيير، وفيه علم ما يختلف فيه نشأة الإنسان في الدارين من حيث صورته الظاهرة وما لا يختلف من نشأته في صورة روحه أو لتلك النشأة الأخرى روح آخر يخلقه الله لها بحسب استعدادها وكيف هو الأمر في نفسه إذ قد وردت الإعادة فما حقيقتها وفيماذا تكون؟ وهو علم غريب، وفيه علم كون الحق لا يلقاه العبد إلا بالموت وهل هو لقاء خاص أو ما ثم لقاء إلا بالموت؟ وفيه علم الموت وبيد من هو، وفيه علم اختلاف العالم لماذا يرجع في صوره وتخيله، وفيه علم التحديد الإلهي في الآخرة مع كونها دار كشف للحقائق عند الناس أو حكمها حكم الدنيا في بعض الأمور، وفيه علم ما يردّك إلى مشاهدة حقيقتك وأن في ذلك سعادتك، وفيه علم حب الإنسان بالطبع في أن يكون قيوماً مع ذله وافتقاره وما الذي يدعوه إلى ذلك ثم اختلافهم في القيام فمنهم من يقوم عبداً، ومنهم من يقوم سيداً، والذي يقوم سيداً منهم من يقوم سيداً بالحجاب ومنهم من يقوم سيداً بكشف صحيح، وفيه علم ما لا يعلم إلا هناك وفيه علم أدنى الدنيّ وأدنى الدنوّ وما حقيقة هذا؟ وفيه علم اختلاف أسماء أهل الاستحقاق مع وجود الاستحقاق، وفيه علم الأولوية، وفيه علم الحكم الإلهي يوم القيامة بماذا يحكم ويفصل؟ وفيه علم الاستبصار، وعلم ما ينفع من الخطاب، وعلم الفتح الإلهي، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى السفر الثالث والعشرون.

[السفر الرابع والعشرون]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الباب الثالث والخمسون وثلاثمائة

في معرفة منزل ثلاثة أسرار طِلَّسْمِيَّة حكمية تشير إلى معرفة منزل السبب وأداء حقه وهو من الحضرة المحمدية

[البسيط]

قُلْ لـلإمام أبي إنْ كُنْتَ تَأْنَسُ بي ... فـإنّ أُنْسـي بـرَبِّـي لا بـأشْـكَـالـي
أُنْـسِـي بـربّـي لا بـالـوالـديـن ولا ... بـالأهـل إنّ وُجُودَ الـمِـثْـلِ أمثـالـي
مني هربت ومني استوحشت خلقي ... فكيف أنسى بـالـمـاضـي وبـالـحـال
وكَيْفَ يُؤْنِسُني من لا يُنَاسِبُني ... ولا يُنَاسِبُهُ شَيْءٌ مِنَ أحْوالي
والمثل ضدّ فكيف الأنس يا سكني ... والعقل يمنعه فالحالُ كالحالِ
لما جَهِلْتُ الذي لا شيء يُشْبِهُهُ ... سواي أخطرته جَهْلاً على بالي
ما لي أقول بأن الحق يطلبني ... ولست أعرفُه ما لي به ما لي
الأنْسُ يطلبنا بأن يَقُومَ بنا ... وليس يأنَسُ دُونُ الدُّونِ بالعالي
قد حِزْتُ فيه وإيحاشي يلازمُني ... ولست أطرُدُه إلا بآمالي
لا ذَاقَ أُنساً حكيمٌ ما بَدَتْ مُثُلٌ ... لعينه من علوم أو من أعْمَالِ

اعلم أيدك الله بروح منه أن الله لما خلق النفس الناطقة المدبرة لهذا الهيكل المسمى إنساناً سلط عليه في هذا المزاج الخاص بهذه النشأة الدنيوية ثلاثة أشياء جعلها من لوازم نشأته: النفس النباتية، والنفس الشهوانية، والنفس الغضبية؛ فأما النفس النباتية والغضبية فيزولان في نشأة أهل السعادة في الجنان ولا يبقى في تلك النشأة إلا النفس الشهوانية فهي لازمة للنشأتين وبها تكون اللذة لأهل النعيم وأما النفس النباتية فهي التي تطلب الغذاء لتجبر به ما نقص منه فينمى به الجسم فلا ينفك يتغذى دائماً فإما من خارج يجلب إليها وهو المعبر عنه بالأكل، وإما من حيث شاء الله من غير تعيين ولها أربعة وزعة: الجاذب والماسك والهاضم والدافع، فأما الجاذب فحكمه أن ينقل الغذاء من مكان إلى مكان فينقله من الفم إلى المعدة، ومن المعدة إلى الكبد، ومن الكبد إلى القلب وإلى سائر العروق وأجزاء البدن، فإنه المقسم على أجزاء البدن ما يحتاج إليه مما يكون به قواها، ويساعده الدافع فإنه يدفع به عن مكانه إذا رآه قد استوفى حقه من ذلك المكان وما بقي له فيه شغل ودفع به حتى لا يزاحم غيره إذا ورد فهو يساعد الجاذب وأمّا الماسك فهو الذي يمسكه في كل مكان حتى يأخذ التدبير فيه حقه، فإذا رأى أنه وفى حقه ترك يده عنه فتولاه الدافع والجاذب وأما الهاضم فهو الذي يغير صورة الغذاء ويكسوه صورة أخرى حتى يكون على غير الصورة التي كان عليها فإنه كان على صورة حسنة وذا رائحة طيبة، فلما حصل بيده وغير صورة شكله وكساه صورة متغيرة الريح مبددة

النظم ولهذا سمي هاضماً من الاهتضام ولكن وجود الحكمة في هذا الاهتضام فإنه لولا الهضم ما وجد المقصود الذي قصده الغاذي بالغذاء، فظاهر الأمر فساد وباطنه صلاح، ولا يزال هذا الهاضم ينقله من صورة إلى صورة والماسك يمسك عليه بقاءه حتى يدبر فيه ما يعطيه علمه وما وكل به، فإذا استوفياه بحسب ذلك الموطن تركاه وأخذه الجاذب والدافع فإذا أنزلاه ونقلاه إلى المكان الآخر ردّاه إلى الماسك وإلى الهاضم فيفعلان فيه مثل ما فعلاه في المكان الذي قبله ويفتح فيه صوراً مختلفاً فيأخذه الجاذب والدافع فيسلكان بتلك الصورة طرقاً معينة لا يتعديانها ما دام يريد الله إبقاء هذه النشأة الطبيعية، ولولا هؤلاء الوزعة ما تمكنت النفس النباتية من مطلوبها، فإذا أراد الله هلاك هذه النشأة الطبيعية طلبت النفس النباتية مساعدة الشهوة لها حتى تنبعث النفس المدبرة لجلب ما تشتهي فلم تفعل وأضعفها الله باستيلاء سلطان الحرارة على محلها فضعفت كما يضعف السراج في نور الشمس فيبقى لا حكم له، فتبقى النفس النباتية بحقيقتها تقول لوزعتها: لا بد لي من شيء أتغذى به فتتغذى بأخلاط البدن وما بقي فيه من الفضول ووزعتها قد ضعفوا أيضاً مثلها، فلا تزال النشأة في نقص متزايد والدافع يقوى والجاذب يضعف وكذلك الماسك إلى أن يموت الإنسان، ولولا هذا التدبير بهذه الآلات لهذه النشأة ما سمعت أذن ولا نظر بصر ولا كان حكم لشيء من هذه القوى الحسية والمعنوية وأما النفس الشهوانية فسلطانها في هذا الهيكل طلب ما يحسن عندها ولا تعرف هل يضرها ذلك أو ينفعها؟ وهذا ليس إلا في نشأة الإنسان، وأما سائر الحيوان فلا يتناول الغذاء إلا بالإرادة لا بالشهوة ليدفع عن نفسه ألم الجوع والحاجة فلا يقصد إلا لما له فيه المنفعة، ويبقى حكم الشهوة في الحيوان في الاستكثار من الغذاء، فمنه يدخل عليه الخلل والإنسان يدخل عليه الخلل كذلك من الاستكثار مما ينفع القليل منه، ومن تناوله ما لا ينفعه أصلاً مما تطلبه الشهوة ويتضرر به المزاج فهذا الفارق بين الإنسان والحيوان في تناول الغذاء فالنفس الشهوانية للنفس النباتية كما قيل في ذلك: [الطويل]

إذا امْتَحَنَ الدنيا لبيبٌ تَكَشَّفَتْ ... له عَنْ عدوّ في ثياب صَدِيقِ

فلها الصداقة مع النفس النباتية لأنها المساعدة لها على الغذاء وتناوله وهي العدوّة حيث تدخل عليها من الأغذية ما يضرها ولا ينفعها، فمساعدتها للنفس النباتية إنما هو بالعرض لا بالذات، فهي العدوّ اللازم الذي لا يمكن مفارقته ولا يؤمن شرّه. وأما النفس الغضبية وهي السبعية فهي التي تطلب القهر لما رأت من تفوقها على سائر الحيوان بما أعطيت من القوى والتمكن من التصرُّف وأبصرت العالم مسخراً لنشأتها ولمدبرها، ورأت أن في الوجود عوارض تعرض اتفاقية أو لأسباب تظهر يمنعها ذلك كله من وصولها إلى أغراضها فتغضب لعدم حصول الغرض، فإن كان لها سلطان قويّ مساعد من همة فعالة أو آمرة من خارج لها بها إمضاء غضبها في المغضوب عليه أهلكته وأظهرت الانتقام منه، ولا تعرف ميزان الظلم والعدل في ذلك الانتقام والقهر لأن ذلك ما هو لها، وإنما ذلك للعقل وناموس الوقت، ولذا أخطأ الشاعر الذي قال: [الكامل]

الظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فإنْ تَجِدْ ذا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

فلو قال القهر بدلاً من الظلم لقال الصحيح فإن الظلم لا يأتي به إلا الشرعي فمنه يعرف فليس للنفس إلا القهر حمية جاهلية، فإن صادفت الحق كانت حمية دينية ولهذا يحمد الغضب لله وفي الله، ويذم الغضب لغير الله وفي غير الله، وهذا من تدبير الحكيم الحق الذي رتب الأمور مراتبها وأعطى كل شيء خلقه ليكون آية له لأولي الألباب ولسائر أهل الآيات من العالم إذ كانوا مختلفي المأخذ في ذلك، كما عددهم الله في كتابه العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] وضم هذه الآيات كلها في كتاب الوجود الذي ما فيه سوى البيان والرحمة لا غير، فكل ما ظهر في العالم من جانب الحق أو من معاملة بعضه بعضاً يناقض الرحمة فأمر عرضي في الكتاب أبان عنه البيان حيث هو ذلك العارض ما هو في نفس هذا الكتاب، فالكتاب رحمة كله من حيث ذاته وبيان، فما جعله الله عذاباً فالله أكرم أن يعذب خلقه عذاباً لا ينتهي الأمر فيه إلى أجل ضمه وعينه بيان الكتاب ثم يرجع الحكم للرحمة، هذا ما لا بدّ منه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

ثم لتعلم أن الله أطلعني على حكم غريب يتعلق بالعالم الإنساني ولا أدري هل له تعلق بما عدا الإنسان من العالم أم لا؟ ما أطلعني الله على ذلك ولا ينبغي لي أن أقول عن الله ما لا أعلم الله يعصمني وإياكم من ذلك، وهذا الحكم يظهر في العالم الإنساني عند انقضاء كل ثلاثة آلاف عام من أعوام الدنيا وهو عند الله يوم واحد ولا أدري لأيّ اسم إلهي يرجع هذا اليوم لأني ما عرفت به، غير أن الحق تعالى قسمه لي ثلاثة أثلاث كل ثلث ألف سنة والألف سنة يوم واحد من أيام الرب، هذا الذي أخبرني به ربي وهذه المدة التي هي ثلاثة آلاف سنة حكمها في الإنسان حكم بدء وعود وحياة وموت كيف يشاء الله وحيث يشاء الله، غير أن الله لما رقم لي هذا الأمر في درجي كلمات وقفت عليها مشاهدة جعل كلمة بفضة وكلمة بذهب على هذه الصورة رقمها فعلمت أنها أحوال وأحكام تظهر في الإنسان في الجنة بمرور هذه المدة المعينة، وما أثر والله عندي خبر إلهيّ ورد عليّ ما أثر هذا من الجزع والخوف المقلق فما سكن روعي إلا كون الكلمات من ذهب وفضة الكلمة الذهبية إلى جانبها الكلمة الفضية، ولما فرغ هذا الإلقاء الإلهي والتعريف الربانيّ وسكن عني ما كنت أجده من ألم هذا التجلي في هذه الصورة، وسرّي عني، نظمت نظم إلهام لا نظم روية ما أذكره: [البسيط]

لَنا حَبيبٌ نَزيهٌ لا أُسَمِّيهِ وهو الحبيب الذي حَارَ الوَرَى فِيهِ
إنْ قلتُ هذا فإن الحَدَّ يَحْصُرُهُ أو قُلْتُ هو فكلامٌ لست أذريهِ
كيف السبيلُ إلى غَيْبٍ وأعْيُنُنا في كلّ حين تراه مِنْ تَجَلِّيهِ
أو قلتُ عندي جاء الظرفُ يطلبُه والظرفُ حَقٌّ ولكن ليس يَحْوِيهِ
ما أن رأيتُ وجوداً لست أذريهِ إلا الذي أنا مَغْنًى مِنْ مَعَانيهِ
قد حرتُ فيه وحار الكون فيّ وكم أذناي قد سمعت من قَوْلةٍ فيهِ
هذا الذي وجلال الحقّ أمْرَضَهُ فهل له عِوَضٌ منه فيَشْفِيهِ

هو الشفاءُ هو الداءُ فأين أنا — العينُ واحدةٌ وكلُّنا فيه

ضمير «أمرضه» يعود على الكون.

واعلم أن لنا من الله الإلهام لا الوحي، فإن سبيل الوحي قد انقطع بموت رسول الله ﷺ، وقد كان الوحي قبله ولم يجيء خبر إلهيّ أن بعده وحياً كما قال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الزمر: ٦٥] ولم يذكر وحياً بعده وإن لم يلزم هذا، وقد جاء الخبر النبوي الصادق في عيسى عليه السلام، وقد كان ممن أوحي إليه قبل رسول الله ﷺ أنه عليه السلام لا يؤمنا إلا منا أي بسنتنا فله الكشف إذا نزل والإلهام كما لهذه الأمة، ولا يتخيل في الإلهام أنه ليس بخبر إلهيّ ما هو الأمر كذلك بل هو خبر إلهيّ وإخبار من الله للعبد على يد ملك مغيب عن هذا الملهم وقد يلهم من الوجه الخاص، فالرسول والنبيّ يشهد الملك وتراه رؤية بصر عندما يوحى إليه، وغير الرسول يحس بأثره ولا يراه رؤية بصر، فيلهمه الله به ما شاء أن يلهمه أو يعطيه من الوجه الخاصّ بارتفاع الوسائط وهو أَجَلُّ الإلقاء وأشرفه، وهو الذي يجتمع فيه الرسول والولي أيضاً، فأصابع الرحمن للوجه الخاص، ولمة الملك للوجه المشترك، والإلهام إلهيّ أكثره لا واسطة فيه، فمن عرفه عرف كيف يأخذه ومحله النفس، قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ فالفاعل هويته فهو الملهم لا غيره ﴿فُجُورَهَا﴾ ليعلمه لا ليعمل به ﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨] ليعلمه ويعمل به فهو إلهام إعلام لا كما يظنه من لا علم له ولذلك قال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٠] والدسّ إلحاق خفي بازدحام، فألحق العمل بالفجور بالعمل بالتقوى، وما فرق في موضع التفريق، فجمع بينهما في العلم والعمل والأمر ليس كذلك، وسبب جهله بذلك أنه رمى ميزان الشرع من يده، فلو لم يضع الميزان من يده لرأى أنه مأمور بالتقوى منهيّ عن الفجور مبين له الأمران معاً. ولما أضاف الله الفجور لها والتقوى علمنا أنه لا بد من وقوعهما في الوجود من هذه النفس الملهمة، وكان الفجور لها ما انفجر لها عن تأويل تأوّلته، فما أقدمت على المخالفة انتهاكاً للحرمة الإلهية ولا يتمكن لها ذلك وكان هذا من رحمة الله بالأنفس، ولما كان الفجر فجرين فجر كاذب وفجر صادق وهو الفجر المستطيل الكاذب ألهمها تقواها أي تتقي في فجورها الفجر المستطيل لأنه يستطيل عليها بالأولية لتأخر المستطير الذي يطير حكمه عنها فألهمها في فجورها الفجر المستطيل، فتبين لها بهذا الانفجار ما هو المشكوك فيه من غير المشكوك وتقواها وما تتقي به ما يضرّها حكمه فيها، فلولا ما مكنها مما تتقي به وهو المعنى الذي ألهمها لتتنبه النفس على استعماله فتفرق ما بين الشبهة والدليل ما تمكنت من الفرق بينهما، فإن الله سبحانه كما لم يأمر بالفحشاء لم يلهم العبد العمل بالفحشاء كما يراه بعضهم، ولو ألهمه العمل بالفحشاء لما قامت الحجة لله على العبد بل هذه الآية مثل قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أي الطريقين بيناهما له فقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي بينا له ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ فيعمل في السبيل بمقتضاه إن كان نهياً انتهى وإن كان أمراً فعل ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] يقول: يستر على نفسه فيخادعون أنفسهم فإنه ما ضل أحد إلا على علم، فإن

بيان الحق ليس بعده بيان، ولا فائدة للبيان إلا حصول العلم، ثم يستره العالم به عن نفسه لغرض يقوم له فتقوم الحجة لله عليه فالإلهام إعلام إلهيّ، فمن زكى نفسه بالتقوى فاتقى من الفجور ما ينبغي أن يتقى منه وأخذ منه ما ينبغي أن يؤخذ منه، ومن دسّ نفسه في موضع قيل له لا تدخل منه فقد خاب، فمن أراد طريق العلم والسعادة فلا يضع ميزان الشرع من يده نفساً واحداً، فإن الله بيده الميزان لا يضعه يخفض القسط ويرفعه وهو ما هو الوجود عليه من الأحوال، فلو وضع الحق الميزان من يده لفني العالم دفعة واحدة عند هذا الوضع. وكذلك ينبغي للمكلف بل للإنسان أن لا يضع الميزان المشروع من يده ما دام مكلفاً، لأنه إن وضعه من يده نفساً واحداً فني الشرع كله كما فني العالم لو وضع الحق الميزان من يده، فإن كل حركة في المكلف ومن المكلف، وسكون لميزان الشرع فيه حكم فلا يصح وضعه مع بقاء الشرع، فهذا الميزان له من كونه مكلفاً. وأما الميزان الآخر الذي لا ينبغي أن يضعه الإنسان لا من كونه مكلفاً بل هو بيده دنيا وآخرة فذلك هو ميزان العلم الذي ميزان الشرع حكم من أحكامه، وهو مثل الميزان الذي بيد الحق، فبه يشهد وزن الحق، فنسبته إلى ميزان الحق نسبة شخص بيده ميزان، وشخص آخر بيده مرآة، فرأى في مرآته التي في يده صورة ذلك الميزان والوزان والوزن، فعلم صورة الأمر من شهوده في وجوده، وكان هذا الأمر من ورائه غيباً له لولا المرآة ما شهده فأضاف ما رآه في مرآته إليه لكون مرآته ليس غيره، فالغيب الذي يزن والوزن والميزان حضرة الحق والمرآة حضرة الإنسان، فالوزن لله تعالى، والشهود لمن كانت نفسه مرآه فهو السعيد الصادق، وإنما كشف الله هذا السرّ لمن كشفه ليرى في مرآته صورة الخلق الإلهيّ وكيف صدور الأشياء وظهورها في الوجود من عنده وهو قول أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله، فيرى من أين صدر ذلك الشيء فيكون صاحب هذا الكشف خلاقاً وهو الذي أراده الحق منه بهذا الكشف بل يعلم أنه خلاق من هذا الكشف ولم يزل كذلك وهو لا يشعر، فأفاده هذا الكشف العلم بما هو الأمر عليه لا أنه بالكشف صار خلاقاً، فأمره الله عند ذلك أن يعطي كل شيء حقه من صورته كما أعطاه الله خلقه في صورته، فلا تتوجه عليه مطالبة لمخلوق، كما لا يتوجه على الحق تعالى مطالبة لمخلوق، هذا ما أعطاه ذلك الكشف من الفائدة، فإذا أقامه الحق تعالى في فعل من أفعاله المأمور بها أو المحجور عليه فيها نظر إلى ما لها من الحق قبله فوفى ذلك الفعل حقه، فإن كان من الأمور المأمور بفعلها أعطاها حقها في نشأتها حتى تقوم سوية الخلق معدّلة النشء فلم يتوجه لذلك الفعل حق على فاعله فللّه الخلق وللعبد الحق، فالحق أعطى كل شيء خلقه، والخلق أعطى كل شيء حقه، فدخل الحق في الخلق، ودخل الخلق في الحق في هذه المسألة، وإن كان من الأمور المنهي عنها فحقها على هذا العبد أنه لا يوجدها ولا يظهر لها عيناً أصلاً، فإن لم يفعل فما وفاها حقها وتوجهت عليه المطالبة لها فلم يعط كل شيء حقه فلم يقم في الحق مقام الحق في الخلق فكان محجوجاً، فهكذا ينبغي أن تعرف الأمور والأوامر الإلهية،

وصورة التروك في الجناب الإلهيّ هو الذي لم يوجد من أحد الممكنين لوجود الآخر المرجح وجوده، فهو من حيث إنه لم يوجد ترك له، وهذه مسألة نبهناك عليها لعلمنا أنك ما تجدها في غير هذا الكتاب لأنها عزيزة التصور قريبة المتناول لمن اعتنى الله به تعطي الأدب مع الله وحفظ الشريعة على عباد الله، وهي من الأسرار المخزونة عند الله التي لا تظهر إلا على العارفين بالله ولا ينبغي كتمها عن أحد من خلق الله، فإن كتمها العالم بها فقد غش عباد الله، و «**مَنْ غَشَّنَا فَلَيسَ مِنَّا**» أي ليس من سنتنا الغش.

ولما وقفنا على هذه المسألة في كتاب الرحمة الإلهية الذي هو سرح عيون قلوب العارفين شكرنا الله تعالى حيث رفع الغطاء وأجزل العطاء فله الحمد والمنة، وإذا قام العبد صورة ما ذكرناه من كونه خلاقاً تعين عليه من تمام الصورة الإلهية التي هو عليها أن يحفظ على ما أوجده صورته ليكون له البقاء أعني لذلك الموجود عنه فيدفعه لمن يحفظ البقاء عليه وهو الله فاتخذه وكيلاً في ذلك الأمر وأمثاله عن أمر ربه فلا ينسب إلى سوء الأدب في ذلك، فالعبد في كل نفس مشغول بخلق ما أمر بخلقه، والحق بتوكيل هذا العبد له قائم بحفظ ما خلقه بإذن ربه في الخلق والتوكيل، وهذا علم دقيق إلهيّ وهو رد الحفظ إلى الله بحكم الوكالة عن أمر الله وإيجاد الأشياء عن العبد بأمر الله، فلم يزل هذا العبد في كل حال تحت أمر الله، ومن لم يزل تحت أمر الله في جميع أحواله لم يزل عند الله في شهوده أبداً دائماً دنيا وآخرة، فإنه له النشء حيث كان في الأولى والآخرة عن أمر الله، قال تعالى في حق عيسى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠] وكذلك أمر المكلف بالعمل فما عمل إلا بإذن الله، وموطن هذا العبد واستقراره إنما هو عند ربه من حيث هو ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧] وهو ﴿وَٱلْأَخِرَةُ﴾ [الأعلى: ١٧] التي هي ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧] ﴿وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٤ ـ ٥] وهو عطاء. كن في ظاهر العين كما هو له في الباطن، فإن الإنسان له في باطنه قوّة «كُنْ» وما له منها في ظاهره إلا الانفعال، وفي الآخرة يكون حكم كن منه في الظاهر، وقد يعطى لبعض الناس في الدنيا وليس لها ذلك العموم، فمن رجال الله من أخذ بها، ومن رجال الله من تأدب مع الله فيها لعلمه أن هذا ليس بموطن لها، ولا سيما وقد رأى الأكابر الذين لا خلاف في تقدمهم عليه وعلينا قد قيل له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] وقيل: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩] لأنه إذا أسلم فليس من أهل النار، فلما رآها رجال الله غير عامة الحكم في هذه الدار جعلوا حكم ما لا تعم إلى حكم ما تعمه فترك الكل إلى موطنه، وهذه حالة الأدباء العلماء بالله الحاضرين معه على الدوام، فالأديب خلاق في هذه الدار بالعمل لا بكن بل ببسم الله الرحمن الرحيم ليسلم في عمله من مشاركة الشيطان حيث أمره الله بالمشاركة في الأموال والأولاد، فهو ممتثل هذا الأمر الإلهيّ حريص عليه، ونحن مأمورون باتقائه في هذه المشاركة فطلبنا ما نتقيه به لكونه غيباً عنا لا نراه فأعطانا الله اسمه، فلما سمينا الله على أعمالنا عند الشروع فيها توحدنا بها وعصمنا من مشاركة الشيطان، فإن الاسم الإلهيّ هو الذي

يباشره ويحول بيننا وبينه، وأن بعض أهل الكشف ليشهدون هذه المدافعة التي بين الاسم الإلهيّ من العبد في حال الشروع وبين الشيطان، وإذا كان العبد بهذه الصفة كان على بينة من ربه وفاز ونجا من هذه المشاركة، وكان له البقاء في الحفظ والعصمة في جميع أعماله وأحواله.

وهذا المنزل يحوي على علوم: منها علم الفرق بين الدليل والآية وأن صاحب الآية هو الأولى بنسبة الحكمة إليه وبالاسم الحكيم من صاحب الدليل، فإن الآية لا تقبل الشبهة ولا تكون إلا لأهل الكشف والوجود وليس الدليل كذلك، وفيه علم الاختراع الدائم ولا يكون في الأمثال إلا فيما تتميز به بعضها عن بعض ذلك القدر هو حكم الاختراع فيها وما وقع فيه الاشتراك فليس بمخترع فافهم، وفيه علم الخواص، وفيه علم السبب الذي لأجله لا يرفع العالم بما علمه رأساً مع تحققه أن ذلك الوضع له يضرّه، وفيه علم الفرق بين قول الإنسان في الشي نعم بفتح العين وبين كسرها وأين يقول ذلك وأين يقول لا وبلى. وفيه علم تميز الجنات بعضها من بعض هل هو تميز حالات في جنة واحدة أو تميز مساحات؟ فإن كل اسم جاءنا للجنات تستحقه كل جنة إن كان التمييز بالمساحات، فكل جنة لا نشك أنها جنة مأوى وجنة عدن وجنة خلد وجنة نعيم وجنة فردوس وهي واحدة العين وهذه الأحكام لها، ولو تميزت بالمساحات فلا بد من حكم هذه الأسماء لها، وفيه علم الفرق بين الخلود والتأبيد والتسرمد وعدم الخروج، وفيه علم الفرق بين الوعد والوعيد بالمشيئة في أحدهما دون الآخر ولماذا قبل الوعيد المشيئة دون الوعد وكلاهما إخبار إلهيّ وأين وجود الحكمة في ذلك؟ وفيه علم السماء هل هي شبه الأكرة أو شبه الخيمة؟ أو هل هي أكرة في خيمة أو خيمة في أكرة فتدور الأرض لدورانها؟ وهل السماء ساكنة أو متحرّكة؟ فإن الشهود يعطي جميع ما ذكرناه وما بقي إلا علم ما هو الأمر في نفسه من غير نظر إلى شهود هل هو كما يقضي به شهود كل شاهد أم ليس كذلك؟ وفيه علم وجود الزوجين وبماذا تكرم كل واحد من الزوجين على صاحبه؟ هل هو بما هو محتاج إليه كل واحد منهما أم قد يكون بما لا حاجة فيه فلا يفرق بين العنين وبين أهله؟ وفيه علم من يدعي الألوهة هل له خلق أم لا؟ فإن المدعي الألوهة لا خلق له ألبتة في حال دعواه فإذا فارق الدعوى كان حكمه حكم كل سائر الموجودات التي ليست لها هذه الدعوى، وفيه علم حكم من اتخذ إلهاً من غير دعوى منه بل هو في نفسه عبد غير راض بما نسب إليه وعاجز عن إزالة ما ادعّى فيه وأنه مظلوم حيث سلب عند هذا المدّعي ما يستحقه وهو كونه عبداً فظلمه فينتصر الله له لا لنفسه فاتخاذ الشريك من مظالم العباد. وفيه علم الحكمة ما هي، وفيه علم إلحاق ما ليس بنبيّ مشرع بالأنبياء في الرتبة العلمية بالله تعالى، وفيه علم الوصايا والآداب الإلهية النبوية الموحى بها والملهمة إليها، وفيه علم الأخذ بالأولى والمبادرة إليه، وفيه علم ما يدخل تحت القدرة الحادثة مما لا يدخل، وفيه علم ما لا بد منه، وفيه علم الفرق بين الصوت والحرف والكلام والأنغام، وفيه علم النعم الجلية والخفية والعامة

والمقصورة، وفيه علم نجاة استناد الناظر ولو كان شبهة، وفيه علم من ينبغي أن يلحق به المذام من العالم، وفيه علم الفرق بين من رجع إلى الله عن كشف وبين من رجع إليه عن غير كشف، وفيه علم المتقدم والعاقب وهو واحد، وفيه علم ما ينبغي أن لا يؤبه بالجهل به، وفيه علم ما لا يمكن الجهل به، وفيه علم الوقت الذي يتعين فيه الثناء الجميل وعلى ماذا يتعين والأحوال كلها تطلبه والأزمان، وفيه علم ما يقع به الاكتفاء من الثناء فلا يقبل المزيد، وفيه علم حكم الكثير حكم الواحد عند الواحد واستناد الكثير إلى الكثير واستناد الكثير إلى الواحد، وفيه علم التناكح للتناسل ولغير التناسل وما هو الأعلى منهما، وفيه علم ما يشترك فيه الحق والباطل وليس ذلك إلا في الخيال، وفيه علم ما هو علم وليس بعلم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والخمسون وثلاثمائة

في معرفة المنزل الأقصى السَّرَياني وهو من الحضرة المحمدية

[المديد]

مَعْدِنُ الآياتِ في العجمِ وجماعُ الخَيْرِ في الكَلِمِ
فطرةُ الرحمنِ تطلُبُني بصنوفِ الحكْمِ والحِكَمِ
فلتَكُنْ في رَأْسِ مَرْقَبَةٍ كشِهَابٍ لاحَ في عَلَمِ
فهو المُزْجي سَحَائِبَهُ في غَمَامِ النُّورِ والظُّلَمِ
واتَّبِعْ ما أنتَ طالبُهُ وارْتَفِعْ عن مَوْضِعِ التُّهَمِ
هذي وَصِيَّةٌ صَدَرَتْ من حَدِيدِ الطَّرْفِ غَيْرِ عَمِ

اعلم أيدك الله بروح منه أن التنزيه في العبد نظير التنزيه في الحق سواء، فمن نزه الحق عند أداء ما أوجب الله عليه من العبادات في العهد الذي أخذه عليه عقلاً وشرعاً أشرك الله نفسه مع عبده في هذا الحكم بما أوجبه على نفسه له بما كتبه على نفسه من الرحمة به والوفاء بعهده وبرأ عن أداء ما أوجب عليه بأن كشف له عن قيام الحق عنه فيما كلفه من العمل الذي كان أهل الحجاب ينسبونه إليه ويقولون: إن فلاناً من ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠] ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ لهذه البراءة ﴿وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩] فقالوا عند هذا الشهود بنور الإيمان لا فاعل إلا الله فقالوا قولاً سديداً، وبمثل هذا القول أمر الله عباده المؤمنين أن يقولوه، فإذا قالوه أصلح لهم أعمالهم وغفر لهم ذنوبهم ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١] فالسعيد من حال الله بينه وبين ربوبيته وأقامه عبداً في جميع أحيانه يخاف ويرجو إيماناً ولا يخاف ولا يرجى عياناً: [الخفيف]

إنما العَبْدُ من يخافُ ويَرْجُو ليس بالعَبْدِ من يُخَافُ ويُرْجَى
ولهذا من كل سُوءٍ يُوقَّى ولهذا عن كل فِعْلٍ يُزْجَى
فتراه بكل وَجْهٍ سعيداً وإذا زَلَّ بالقضاء ينجى

يُحْشَرُ العَبْدُ في الوفود إليه　　وإذا لم يكن بعَبْدٍ فيُزجى
فإذا ما نَجا الذي يَتَّقِيهِ　　فالذي قام في المعارف أنجى
كلُّ من تُدْرَكُ الحقائقُ منه　　ما لديه مما لها فمُنْجَى

اعلم أيدك الله أن العالم عند الله من علم علم الظاهر والباطن، ومن لم يجمع بينهما فليس بعالم خصوصي ولا مصطفى، وسبب ذلك أن حقيقة العلم تمنع صاحبها أن يقوم في أحواله بما يخالف علمه، فكل من ادعى علماً وعمل بخلافه في الحال الذي يجب عليه عقلاً وشرعاً العمل به فليس بعالم ولا ظاهر بصورة عالم، ولا تغالط نفسك فإن وبال ذلك ما يعود على أحد إلا عليك. فإن قلت: قد نجد من يعلم ولا يرزق التوفيق للعمل بعلمه فقد يكون العلم ولا عمل. قلنا: هذا غلط من القائل به لتعلم أن مسمى العلم ينطلق اسمه على ما هو علم وما ليس بعلم فإن الله تعالى يقول: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠] فأعلمنا أنهم عملوا بما علموا، ولكن لا أريد بالعلم إلا ما حصل عن مشاهدة المعلوم، فإن حصل عن دليل فكري فليس بعلم حقيقي، وإن كان في نفس الأمر علماً كما قال النبيّ ﷺ حين ذكر سورة في القرآن ولم يسمها ليختبر أصحابه فوقع في نفس بعض أصحابه أنها ربما تكون الفاتحة فأخبر النبي ﷺ أنها الفاتحة ولم تقع للصاحب على جهة القطع فقال له رسول الله ﷺ حين أخبره بما وقع له: «**لِيَهْنِكَ العِلْمُ**» فهو علم في نفس الأمر لا عند هذا الصاحب الذي وقع له ذلك، فلما كان هذا كذلك ذهب من ذهب إلى القول بالعمل بخلاف العلم مع وجود العلم، والصحيح إذا اختبرته وبحثت عليه وجدت الحق فيما ذهبنا إليه ولهذا قال رسول الله ﷺ لمن فهم عنه: «**إنَّ الله إذَا أَرَادَ إمْضَاءَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ سَلَبَ ذَوِي العُقُولِ عُقُولَهُمْ حَتَّى إذا أَمْضَى فِيهِمْ قَضَاءَهُ وَقَدَرَهُ رَدَّهَا عَلَيهِمْ لِيَعْتَبِرُوا**» وليس سوى ذهاب العلم عنهم والاعتبار عمل أوجبه العلم فهذا عين ما ذهبنا إليه، قال تعالى في حق قوم ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فعملوا بما علموا ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧] فلم يعملوا لها فإنه أغفلهم عنها فنسوا آخرتهم فتركوا العمل لها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] قال تعالى آمراً: ﴿وَذَكِّرْ﴾ يعني بالعلم من غفل عنه أو نسيه ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] وهم الذين علموا ما ثم بنور الإيمان كشفاً ثم أنهم غفلوا، فحيل بينهم وبين ما علموه من ذلك وكان المشهود لهم ما كانوا به عالمين وفي وقت نسيانهم، فإذا ذكروا تذكروا وقام لهم شهود ما قد كانوا علموه فنفعتهم الذكرى فعملوا بما علموا فشهد الله ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].
فإذا رأيت من يدعي الإيمان ويذكر فلا يقع له نفع بما ذكر به علمت أنه في الحال ليس بعالم بما آمن به فليس بمؤمن أصلاً فإن شهادة الله حق وهو صادق، وقد أعلمنا أن المؤمن ينتفع بالذكرى، وشهدنا أن هذا لم ينتفع بالذكرى فلا بدّ أن نزيل عنه الإيمان تصديقاً لله، ولا معنى للنفع إلا وجود العمل منه بما علم، وما نرى أحداً يتوقف بالعمل فيما يزعم أنه عالم به إلا وفي نفسه احتمال، ومن قام له في شيء احتمال فليس بعالم به ولا بمؤمن بمن أخبره بذلك

إيماناً يوجب له العلم، مع أنك لو سألته لقال لك: ما نشك في أن ما جاء به هذا الشخص حق يعني الرسول عليه السلام وأنا به مؤمن، فهذا قول ليس بصحيح إلا في وقت دعواه عند بعض الناس، ثم إذا خلى بفكره قام معه الاحتمال فكان ذلك الذي تخيل أنه علم أمر عرض له وبعضهم لا يزول عنه الاحتمال في وقت شهادته أن هذا حق صريح مع وجود الاحتمال، وسبب هذه الشهادة بذلك أن الأمر إذا كان يحتمل أن يكون صدقاً ويحتمل أن يكون كذباً فتجلى له في الوقت صدق ورده وتصديقه لذلك الذي هو به مؤمن أحد محتملات ذلك الخبر وهو كونه صدقاً، هذا هو المشهود له في ذلك الحال، فيقطع في ذلك الوقت بصدقه وبأنه لا يشك فيه، وما علم أن ذلك من تجلي أحد محتملاته فإذا غاب عنه ذلك الوارد قامت معه المحتملات على السواء فلم يترجح عنده ذلك إلا بطريق الظن لا بالعلم، فانظر يا أخي ما أخفى غوائل النفس وما أعظم حجاب الجهل مع كونه عدماً فكيف بنا لو كان وجوداً فللّه الحمد والمنة.

وإنما نبهناك على هذا لتعلم حظك من الإيمان ومنزلتك، فإن النبيّ ﷺ يقول في الحديث الصحيح عنه: «**لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**» أي مصدق بالعقاب عليه فإنه تعالى قد يغفر، وإنّ الإيمان إذا لم يعط الكشف الذي يعطيه العلم فليس بإيمان، فاعلم أن العلم يعطي العمل من خلف حجاب رقيق وفي حديث آخر عن رسول الله ﷺ في الزاني إذا زنى «**خَرَجَ عَنْهُ الإيمانُ حَتَّى صَارَ عَلَيْهِ كَالظُّلَّةِ**» ولنا فيه تأويل حسن وهو أن الزاني قد تعرّض لبلاء من الله ينزل عليه فيخرج الإيمان حتى يصير عليه كالظلة يمنع نزول ذلك البلاء عليه إن نزل، فلا تغفل يا وليّ عن هذا القدر الذي نبهتك عليه، ألا ترى الله تعالى ما نصب الآيات وكثرها إلا ليحصل بها العلم لعلمه أن العلم إذا حصل لزم العمل؟ ألا ترى إلى شارب الدواء وهو علم ما شربه وتجرّع مرارته إلا لعلمه أن ثم دواء مزيلاً لهذه العلة التي يشكو منها فيقول: عسى يكون ذلك الدواء عين هذا الذي شربته فيشربه بالإمكان والترجي فكيف به لو علم أنه عين الدواء بلا شك لسارع إليه؟ فهذا حاله مع الترجي والإمكان.

فإن قلت: فقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] في حق من اتخذ إلهه هواه. قلنا: إن الإله له القوة في المألوه، وإله هذا هو هواه، فحكم عليه وأضله عن سبيل الله وأما قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يعني من أنه أضله الله على علم لا أن الضال على علم، فإن الضال هو الحائر الذي لا يعرف في أي جهة هو مطلوبه، فمتعلق على علم أضله وهو العامل فيه وهو فعل الله تعالى، والذي على الله إنما هو البيان خاصة قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥] أي ليحير قوماً بعد أن هداهم في أخذ الميثاق والفطرة التي ولدوا عليها ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ فإذا أبان لهم حيرهم، فمنهم من حيره بالواسطة فشك في النبوّة وحار فيها وما تحقق أن هذا نبي فتوقف في الأخذ عنه، ومنهم من حيره في أصل النبوّة هل لها وجود أم لا، ومنهم من حيره فيما جاء به هذا النبيّ مما تحيله الأدلة النظرية فأورثهم البيان الإلهيّ هذه الحيرة وذلك لعدم الإيمان، فلم يكن

لهم نور إيمان يكشف لهم عن حقيقة ما قاله الله وأبان عنه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ هنا من إيمانه ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] في القيامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [الأنفال: ٧٥] فيعمل بما علم أنه يكون كوّنه، وما علم أنه لا يكون لم يكوّنه، فكان عمله بعلمه قل أنزله بعلمه، والإنزال عمل أوجده العلم، فلما أبان الحق ما أبانه لعباده فمنهم من رزقه الله العلم فعمل به، ومنهم من حرمه الله العلم فضلّ وحار وشك وارتاب وتوقف. وأمّا قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] فإنهم مصدقون بكتابهم، وهذا النعت فيه وقد أبصروه، فيعلمون أنه عين هذا النعت ولا يعرفون الشخص الذي قام به هذا النعت لجواز أنه يقوم ذلك النعت بأشخاص كثيرين فدخلهم الاحتمال في الشخص لا في النعت. وأمّا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] أنه الحق فيكتمونه عن مقلديهم وعن النبيّ عليه السلام أنهم عرفوه أنه صاحب هذا النعت ولا يلزم من العالم بالحق الإقرار به في الظاهر وإنما يستلزمه التصديق به في الباطن فهو مصدق به وإن كذبه باللسان فقد عمل بما علم وهو التصديق وقوله تعالى في مثل هذا ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] أنها آيات فعلموا وعملوا بما علموا وهو التيقن الذي هو استقرار العلم في النفس، فلولا ما علموا ما تيقنوا، وما كل عمل يعطي عموم النجاة بل يعطي من النجاة قدراً مخصوصاً من عموم أو خصوص.

فإن قلت: فإن أهل النار قد علموا صدق الله في إنفاذ الوعيد وقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] فلا نشك أنهم في هذه الحال حصل لهم العلم والله يقول: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] مع هذا العلم الذوقي الذي حصل لهم. قلنا: لما علم الله أن هذه الدار الدنيا جعلها الله على طبيعة مخصوصة وجعل نشأة الإنسان على مزاج يقبل النسيان والغفلة وحب العاجلة ويقبل ضدّ هذا على حسب ما يقام فيه فعلم سبحانه أن نشأة هؤلاء الذين عينهم أنهم لو ردّوا إلى الدنيا في نشأتهم التي كانوا عليها في الدنيا لعادوا إلى نسيان ما كانوا قد علموا وجعل على أعينهم غطاء على ما لو شهدوه لعلموا الأمر فعملوا له، فهذا معنى ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] لأن النشأة ليست إلا تلك، فلو بقي لهم هذا العلم لما عادوا، ألا ترى أن النبيّ ﷺ يقول في الصحيح عنه: «**إِنَّهُ يُؤْتَى فِي القِيَامَةِ بِأَنْعَم أَهْلِ الدُّنْيَا فَيُغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ نَعِيماً قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا وَاللهِ**» ومعلوم أنه رأى نعيماً ولكن حجبه شاهد الحال عن ذلك النعيم فنسيه، وكذلك صاحب البؤس إذا غمس في الجنة غمسة يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا والله ما رأيت بؤساً قط، فكذلك لو ردّوا لكانوا بحسب النشأة والحال التي يردون فيها. وأمّا عصاة المؤمنين فإنهم عالمون بإنفاذ الوعيد ولكن لا يعلمون فيمن فلو تعين لواحد منهم أنه هو الذي ينفذ فيه الوعيد لما قدم على سببه الذي علم أنه يحصل له إنفاذ الوعيد به، وإذا جبر في اختياره فذلك لا يعلمه لأنه لا يجد ذلك من نفسه، فإن الأمر في ذلك مشترك، وقد تقدّم قبل هذا الكلام عليه في بعض المنازل، فمن شهد الجبر في اختياره علماً من طريق

الكشف والشهود أتى المخالفة بحكم التقدير لا بحكم الانتهاك فكان عاملاً بما علم فلم يضره ذلك العمل بل هو مغفور له. واعلم أن هذا القدر الذي ذكرناه في هذه المسألة هو من العلم الذي ورد فيه الخبر الذي لفظه: «**إنَّ مِنَ العِلْمِ كَهَيْئَةِ المَكْنُونِ لا يَعْلَمَهُ إلاَّ العَالِمُونَ باللهِ فَإذَا نَطَقُوا بِهِ لَمْ يُنْكِرْهُ عَلَيْهِمْ إلاَّ أَهْلُ الغِرَّةِ بِاللهِ**» وهذا من طريق الكشف عند أهله حديث صحيح مجمع عليه عندهم خاصة عرفوه وتحققوه فجعله كهيئة المكنون ما جعله مكنوناً إذ لو كان مكنوناً لانفرد به تعالى، فلما لم يعلمه إلا العلماء بالله علمنا أن العلم بالله يورث العلم بما يعلمه الله فهو مستور عن العموم معلوم للخصوص، ومعنى العلم بالله أنه لا يعلم فقد علمنا أن ثم ما لا يعلم على التعيين وما عداه فيمكن العلم به، فأكنة هذا العلم قلوب العلماء بالله فإذا نطقوا به فيما بينهم إذ لا يصح النطق به إلا على هذا الحدّ، واتفق أن يكون في المجلس من ليس من أهله ولا من أهل الله فإن أهل الله هم أهل الذكر وهم العلماء بالله أنكره عليهم أهل الغرّة بالله فأضاف أهليتهم إلى الغرة وهم الذين يزعمون أنهم عرفوا الله فمن العلم الذي هو كهيئة المكنون وما هو بمكنون هذا العلم، فإن العلم المكنون يعلم شهوداً ولا ينقال، بخلاف علوم الفكر فإنها كلها تنقال، فإذا حصلت أيضاً لصاحب الكشف من غير فكر ولا روية فإنها تنقال من غير دليل فيقبلها منه العالم بالدليل، فهذا العلم هو الذي كهيئة المكنون لأن العالم به غير عالم بالدليل، فاعلم أن الديار داران: دار تسكنها الأرواح الناطقة وهو البدن الطبيعي المسوّى المعدل الذي خلقه الله بيديه ووجه عليه صفتيه، فلما أنشأه أسكنه داراً أخرى هي دار الدار، وقسم سبحانه دار الدار قسمين: قسماً سماه الدنيا وقسماً سماه الآخرة، ثم علم ما يصلح لسكنى كل دار من الساكنين الذين هم ديار النفوس الناطقة، فخلق للدار الدنيا لفنائها وذهاب عينها وتبدل صورتها ووضعها وشكلها وخفاء حياتها ساكناً هو هذه الدار التي أسكنها النفس الناطقة، فجعل هذه النشأة مثل دار سكناها خفية الحياة فانية ذاهبة العين متبدلة الصورة والوضع والشكل فاتصف ساكنها وهو النفس الناطقة بالجهل والحجاب والشك والظن والكفر والإيمان وذلك لكثافة هذه الدار التي هي نشأته البدنية، وحال بينه وبين شهود الله، وجعله في حجر أمه ترضعه وتقوم به، فما شهد من حين أسكن هذه النشأة سوى عين أمه حتى أنه جهل أباه بعض الساكنين، ولولا أن الله منّ عليه بالنوم وجعل له في ذلك أمراً يسمى الرؤيا في قوّة تسمى الخيال فإذا نام كأنه خرج عن هذه النشأة فنظر إليه أبوه وسرّ به وألقى إليه روحاً وآنسه وبادرت إليه الأرواح وتراءى له الحق من تنزيهه، وبدا له ذلك كله في أجساد ألف شهودها من جنس دار نشأته التي فارقها بالنوم، فيظن في النوم أنه في دار نشأته التي ألفها ويعرفها ويظن في كل ما يراه في تلك المواد أنها على حسب ما شهدها، فهذا القدر هو الذي له في هذه النشأة الدنيا من الأنس بأبيه وإخوانه من الأرواح ومن الأنس بربه، ومنهم من يتقوى في ذلك بحيث إنه يرى ذلك في يقظته، وأعطاه علماً سماه علم التعبير عبر به في مشاهدة تلك الصور إلى معانيها، فإذا أراد الله أن يخلي هذه الدار الدنيا من هذه النشأة التي هي دار النفس الناطقة أرحل عن هذه النشأة روحها المدبر لها وأسكنه صورة برزخية من

الصور التي كان يلبسها في حال النوم، فإذا كان يوم القيامة وأراد الله أن ينقله إلى الدار الأخرى دار الحيوان وهي دار ناطقة ظاهرة الحياة ثابتة العين غير زائلة أنشأ لهذه النفس الناطقة داراً من جنس هذه الدار الأخرى مجانسة لها في صفتها لأنها لا تقبل ساكناً لا يناسبها فخلق نشأة بدنية طبيعية للسعداء عنصرية للأشقياء فسوّاها فعدلها ثم أسكنها هذه النفس الناطقة فأزال عنها حجب العمى والجهل والشك والظن وجعلها صاحبة علم ونعيم دائم وأراها أباها ففرحت به وأراها خالقها ورازقها وعرف بينها وبين إخوتها وانتظم الشمل بالأحباب، وأشهدها كل شي كان في الدار الأولى غائباً، وأسكن هذه النشأة الدار الأخرى المسماة جنة منها، فإنه قسم الدار الأخرى إلى منزلين هذا هو المنزل الواحد والمنزل الآخر المسمى جهنم، جعل نشأة بدن أنفسها الناطقة عنصرية تقبل التغيير وأصحبها الجهل وسلب عنها العلم فأعطى جهل المؤمنين من أهل التقليد من كان من أهل هذه الدار دار الشقاء عالماً بدقائق الأمور فدخل بذلك الجهل النار إذ كان من أهلها وهي لا تقبل العلماء، وأعطى هذا العالم الذي كان في الدنيا عالماً بدقائق الأمور ولم يكن من أهل الجنة جهل المؤمن المقلد فإن الجنة ليست بدار جهل فيرى المؤمن الأبله المقلد ما كان عليه من الجهل على ذلك العالم فيستعيذ بالله من تلك الصفة ويرى قبحها ويشكر الله على نعمته التي أعطاه إياها بما كساه وخلع عليه من علم ذلك العالم الذي هو من أهل النار وينظر إليه ذلك العالم فيزيد حسرة إلى حسرته، ويعلم أن الدار أعطت هذه الحقائق لنفسها فيقول: يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين لعلمهم إذ كانوا مؤمنين، وإن كانوا جاهلين أنهم إذا انتقلوا إلى دار السعادة خلعت عنهم ثياب الجهالة وخلع عليهم خلع العلم فلا يبالون بما كانوا عليه من الجهل في الدنيا لحسن العاقبة وما علموا أنهم لو ردوا إلى الدنيا في النشأة التي كانوا عليها لعادوا إلى حكمها فإن الفعل بالخاصية لا يتبدل، فما تكلموا بما تكلموا به من هذا التمني إلا بلسان النشأة التي هم فيها وتخيلوا أن ذلك العلم يبقى عليهم، وما جعل الله في هذه النشأة الدنيا النسيان للعلماء بالشيء فيما قد علموه ويعلمون أنهم قد كانوا علموا أمراً فيطلبون استحضاره فلا يجدونه بعد ما كانوا عالمين به إلا إعلاماً وتنبيهاً أنه على كل شيء قدير بأن يسلب عنهم العلم بما كانوا به عالمين إذا دخلوا النار يختص برحمته من يشاء وهو قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ وأي ملك أعظم من العلم وهو ما أعطاه من العلم للمؤمن المقلد الجاهل السعيد في الدار الآخرة ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ وأي ملك أفضل من العلم فينزعه من العالم غير المؤمن الذي هو من أهل النار ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ بذلك العلم ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] بانتزاع ذلك العلم منه: [البسيط]

لـمّـا عَـلِـمْـتُ بـأن الله كَـلَّـفَـنـي ... عـلـمـتُ أنّـيَ مـسـؤولٌ ومَـقْـصُـودُ
وأنّـــي لا أزال الـدَّهْـرَ أعْـبُـدُهُ ... دنـيـا وآخـرةً وَالـحَـقّ مـعـبـودُ
ومـا تَـجَـلّـى لـشـيء مـن خَـلِـيـقَـتِـهِ ... إلا ويـشـهـدُ أن الـحَـقّ مَـشْـهُـودُ
مـن عَـيْـنِ صـورتـه لا مـن حـقـيـقـتـه ... فـالأمـرُ والـشـأنُ مـوجـودٌ ومـفـقـودُ

لأتّـنـا بـعُـيـون الـوجـه نُـبْـصِـرُهُ — وكـلـنـا وَجْـهُـهُ والـوجـهُ مـحـدودُ
هـو الـوجـودُ ومَنْ في الكون صُورَتُهُ — فـليـس ثَـمَّ سوى الرَّحْمٰنِ موجـودُ
الـدارُ داران دارُ الـدار يَـعْـمُـرُهـا — دار اللطيف فما في الكون تجريدُ

ولولا أن الحقائق تعطي أن المآل إلى الرحمة في الدار الأخرى فيرحمه معنى وحساً فثم من تكون الرحمة به عين العافية لا غير وارتفاع الآلام، وهذا مخصوص بأهل النار الذين هم أهلها فهم لا يموتون فيها لما حصل لهم فيها من العافية بزوال الآلام فاستعذبوا ذلك، فهم أصحاب عذاب لا أصحاب ألم ولا يحيون أي ما لهم نعيم كنعيم أهل الجنان الذي هو أمر زائد على كونهم عافاهم من دار الشقاء: [البسيط]

في القَلْبِ مِنْكَ لهيبٌ ليس يُطْفِيهِ — إلا الـذي بـشُـهُـود الـحِسِّ يُـنْـشِـيـهِ
إنّي أخافُ على الأشراف من شَرَفٍ — فـمـن يـمـرُّ عـلـى قـلـبـي فـيُـنْـبـيـهِ
إذا أتَى صاحبُ العاهات يطلبُه — فـإنـه بـشـهـود الـحـال يُـبْـرِيـهِ
وما يُعِيدُ على قلبي تَنَعُّمَهُ — إلا الـذي كـان قـبـل الـيَـوْم يُـبْـدِيـهِ

واعلم أنه من زعم اليوم أن العلم هو السعادة فإنه صادق بأن العلم هو السعادة وبه أقول، ولكن فاته ما أدركه أهل الكشف وهو أنه إذا أراد الله شقاوة العبد أزال عنه العلم فإنه لم يكن العلم له ذاتياً بل اكتسبه وما كان مكتسباً فجائز زواله ويكسوه حلة الجهل، فإن عين انتزاع العلم جهل ولا يبقي عليه من العلم إلا العلم بأنه قد انتزع عنه العلم، فلو لم يبق الله تعالى عليه هذا العلم بانتزاع العلم لما تعذب، فإن الجاهل الذي لا يعلم أنه جاهل فارح مسرور لكونه لا يدري ما فاته، فلو علم أنه قد فاته خير كثير ما فرح بحاله ولتألم من حينه فما تألم إلا بعلمه ما فاته أو مما كان عليه فسلبه، ولقد أصابني ألم في ذراعي فرجعت إلى الله بالشكوى رجوع أيوب عليه السلام أدباً مع الله حتى لا أقاوم القهر الإلهي كما يفعله أهل الجهل بالله ويدعون في ذلك أنهم أهل تسليم وتفويض وعدم اعتراض فجمعوا بين جهالتين، ولما تحققت ما حققني الله به في ذلك الوجع قلت: [مخلع البسيط]

شـكـوتُ مـنـه ومِـنْ ذراعـي — وذاكَ مِـنّـي لـضِـيـقِ بَـاعـي
فـقـلـتُ لـلـنـفـس تَـدَّعِـيـهِ — فـأيـن دعـواكِ فـي اتّـسـاعـي
قـالـت أنـا أشـتـكـيـك مـنـه — لـه فـضُـرِّيَ عـيـنُ انـتـفـاعـي
لـولا الـتَّـشَـكّـي مـمـا أقـاسـي — خـرجـتُ عـنـه وعـن طِـبَـاعـي
وذاكَ جَـهْـلٌ يَـدْرِيـهِ قَـلْـبُ — صَـاحِـبِ حَـالٍ بـالاتِّـبَـاعِ
لـولا شُـرُودي عـنـه بـجَـهْـلـي — لـمـا دعـانـي إلـيـه داعِ
فـقُـلْـتُ لَـبَّـيْـكَ مـن دَعَـانـي — فـقـال أبْـغـي عَـيْـنَ الـمَـتَـاعِ
قـد نـفـق الـشـوق فـاغْـتَـنِـمْـه — فـعَـيْـنُ وَصْـلـي عَـيْـنُ انْـقِـطَـاعـي

فخف عني ما كنت أجده وغاب عني ما كنت أشهده: [الطويل]

فلولا وجودُ العَقْل ما كنتُ أدْرِيهِ — ولـولا وجودُ اللّوح ما كنت أمْلِيهِ

ولولا شُهُودُ الكَوْنِ ما كنت أُوفيهِ ... ولولا حُصُولُ العِلْمِ ما كُنْتُ أُجْرِيهِ
فمن قال إنّ الخَلْقَ يَعْرِفُ كَوْنَهُ ... فما عنده عِلْمٌ بما حَقُّهُ فِيهِ
ويكفيه هذا القَدْرُ مِنْ جَهْلِهِ بما ... هو الأَمْرُ في عين الحقيقة يَكْفِيهِ

إذا انكشفت الحقائق فلا ريب ولا مين وبان صبحها لذي عينين كان الاطلاع وارتفع النزاع وحصل الاستماع، ولكن بينك وبين هذه الحال مفاوز مهلكة وبيداء معطشة وطرق دارسة وآثار طامسة، يحار فيها الخرّيت فلا يقطعها إلا من يحيي ويميت لا من يحيا ويموت، فكيف حال من يقاسي هذه الشدائد ويسلك هذه المضايق، ولكن على قدر آلام المشقات يكون النعيم بالرحات، وما ثم بيداء ولا مفازة سواك، فأنت حجابك عنك فزل أنت وقد سهل الأمر، فمن علم الخلق علم الحق، ومن جهل البعض من هذا الشأن جهل الكل، فإن البعض من الكل فيه عين الكل من حيث لا يدري، فلو علم البعض من جميع وجوهه علم الكل، فإن من وجوه كونه بعضاً علم الكل، وهذا المنزل من المنازل التي كثرت آياتها واتضحت دلالاتها، ولكن الأبصار في حكم أغطيتها والقلوب في أكنتها والعقول مشغولة بمحاربة الأهواء، فلا تتفرغ للنظر المطلوب منها.

وفي هذا المنزل من العلوم: علم مقاومة الأعداء وتقابل الأهواء بالأهواء فإن العقول إن لم تدفع الهوى بالهوى لم تحصل على المقصود فإن النفوس ما اعتادت إلا الأخذ عن هواها فإذا كان العقل عالماً بالسياسة حاذقاً في إنشاء الصور أنشأ للنفس صورة مطلوبه في عين هواها فقبلته قبول عشق فظفر بها، وفيه علم خواص الأعداد والحروف، وفيه علم بسائط الأعداد وما حكمها فيما تركب منها وهل يبقى فيها مع التركيب خواصها التي لها من كونها بسائط أم لا؟ وفيه علم الظروف الزمانية وبيد من هي، وفيه علم الزمان المستقبل إذا كان حالاً ما حكمه؟ وفيه علم أحدية العلم وما ينسب إليه من الكثرة ليس لعينه وإنما ذلك لمتعلقاته، وفيه علم ما ينتجه النظر الفكري في الظروف المكانية، وفيه علم آجال الأكوان في الدنيا والآخرة مع كون الآخرة لا نهاية لها وعموم قوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩] فلا بدّ لكل شيء من غاية والأشياء لا يتناهى وجودها فلا تنتهي غاياتها، فالله يجدد في كل حين أشياء، وكل شيء له غاية تلك الغاية هي أجله المسمى، فليس الأجل إلا لأحوال الأعيان، والأعيان غايتها عين لا غاية، وفيه علم الحقيقة والمجاز والاعتبار ومم يعبر وإلى ماذا يعبر وما فائدة ذلك؟ وفيه علم عمارة الدارين وهو الذي ذكرنا منه طرفاً في هذا الباب وما استوفيناه، وفيه علم اختلاف أحكام أحوال الساعة، وفيه علم اختلاف المكلفين في أحوالهم وأن الله يخاطب كل صنف من حيث ما هو ذلك الصنف عليه لا يزيده على ذلك، وفيه علم يقضي بأن الأمر بدء كله لا إعادة فيه، وفيه علم كون الحق ينزل في الخطاب إلى فهم المخاطب وكله حق وإن تناقض وظهر فيه تقابل فثم عين واحدة تجمعه كالسواد والبياض ضدان متقابلان يجمعهما اللون وكالألوان حقائق مختلفة يجمعهنّ العرض، وفيه علم التوحيد بعين التشبيه، وفيه علم التفضيل، وفيه علم حكم كلمات الله

حكم خلق الله، وفيه علم تكوين الأعمال الكونية وإقامتها صوراً، وفيه علم الجمع والوجود، وفيه علم ما تقتضيه النشأة الطبيعية من الأحكام، وفيه علم العلل والأسباب والجزاء، وفيه علم الفرق بين أسباب الدنيا وأسباب الآخرة وفضل أسباب الدنيا عليها، وفيه علم ما يعود على الإنسان من عمله وما يضيف إلى الله من ذلك يضيفه إلى نفسه، وفيه علم التكوين الإلهي من الأسباب الكونية وهي الآثار العلوية البرزخية لا غير، وفيه علم تغير الأحوال لتغير الحركات الفلكية، وفيه علم حال الحيوان من حين نشأته إلى حين موته، وفيه علم القياس الإلهي، وفيه علم تأثير الكون في الكون وعلم ما يتقى به ذلك التأثير، وفيه علم القيامة وأحوالها ومراتبها، وفيه علم أمر العالم بجملته، وفيه علم فضل أهل النواميس الإلهية على أهل النواميس العقلية الحكمية، فهذا ذكر أكثر ما يحوي عليه هذا المنزل من العلوم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والخمسون وثلاثمائة
في معرفة منزل السبل المولدة وأرض العبادة
واتساعها وقوله تعالى: ﴿يا عبادي إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾

[المديد]

مـــا لأرْضِ الله واســـعـــةٌ ... وسَــمــاء الله تَــنْــكِــحُــهَــا
مـجـمـعُ الأبـواب مـغـلـقـةٌ ... ويَـمـيـنُ الـجُـودِ تَـفْـتَـحُـهَـا
وصُـدُورٍ ضـاقَ مَـسْـكَـنُـهـا ... وبـنُـور الـعِـلْـم يَـشْـرحُـهـا
مـبـهـمـاتُ الـسّـرّ مـظـلـمـةٌ ... وعـلـومُ الـكَـشْـفِ تُـوضِـحُـهـا
كـلّ مـا أُعْـطِـيـتَ مِـنْ نِـعَـم ... حـضـرةُ الـمـحْـسـانِ تَـمْـنَـحُـهـا
ثُـمّ إن قـام الـفـسـادُ بـهـا ... فـعـسـى الـرّحـمـنُ يُـصْـلِـحُـهـا
ثُـمّ إن شَـذَّتْ وإنْ عَـدَلَـتْ ... فـلـجـامُ الـهَـدْي يَـكْـبَـحُـهـا
كـلُّ دَعْـوَى غَـيْـرُ صـادقـةٍ ... فـلـسـانُ الـعَـجْـزِ يَـفْـضَـحُـهـا
زَنْـد ذي الـبَـلْـوَى بـكـل أذَى ... مـن بـلاء الـكَـوْن يَـقْـدَحُـهَـا

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧] ولم يقل منها ولا إليها فهي أرض الله سواء سكنها من يعبده أو من يستكبر عن عبادته، وقال عز من قائل: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦] فأضافها إليه أشدّ إضافة من قوله: «إن أرض الله» وكذلك أضاف العباد إليه إضافة الأرض إضافة اختصاص، وكذلك أضافهم في الأمر بالعبادة إليه فقال: ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦] وقال في غير هذا الموطن: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦] ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧] فمن عرف قدر هذه الإضافة إلى المتكلم عرف قدر ما بين الإضافتين وإن كان المقصود بالعبادة واحداً فضيق في توسعه في إضافتهم إلى المتكلم، ووسع في إضافتهم إلى الاسم، وهنا أسرار لا يعلمها إلا من يعلم الأمر على ما هو

عليه في نفسه وهو قوله عليه السلام لما فتح مكة: «**لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْح**» مع أن مكة أشرف البقاع وأنها بيت الله الذي يحج إليه من مشارق الأرض ومغاربها، ولكن أمر وعظم الأجر لمن يهاجر منها من أجل ساكنيها، فلما فتحها الله وأسكنها المؤمنين من عباده قال: «**لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ**» فمن فتح الله عليه رآه في كل شيء أو عين كل شيء فلم يهاجر لأنه غير فاقد، فإن هاجرَ فعن أمره فيهاجر به منه إليه عن أمره مثل خروجه إلى أداء الصلاة في مسجد الجماعة، ومثل خروجه إلى مكة يريد الحج، وكخروجه أيضاً إلى الجهاد وإلى الزيارة، وزيارة أخ في الله تعالى، أو في السعي على العيال، فهذا كله ليس بهجرة على الحقيقة وإنما هي سياحة عن أمر إلهيّ على شهود، فإن لم يكن على شهود ولا كأنه شهود فما هو مطلوبنا في هذا الموضع، فإن أدنى مرتبة الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.

ولما خلق الله الإنسان الكامل بالصورتين الموجود بالنشأتين الذي جمع الله له بين الاسمين الأوّل والآخر وأعطاه الحكمين في الظاهر والباطن ليكون بكل شيء عليماً خلقه من تراب الأرض أنزل موجود خلق ليس وراءها وراء كما أنه ليس وراء الله مرمى، فجعل مسكنه في أشرف الأماكن وهو النقطة التي يستقر عليها عمد الخيمة، وجعل العرش المحيط مكان الاستواء الرحماني كما يليق بجلاله إعلاماً بالارتباط الإلهي الذي بين العرش والأرض وما بينهما من مراتب العالم المتحيز العام للمساحات من الأفلاك والأركان، فجميع العالم في جوف العرش إلا الأرض فإنها مقر السرير، فلما أراد الله أن يخلقنا لعبادته قرب الطريق علينا فخلقنا من تراب في تراب وهو الأرض التي جعلها الله ذلولاً والعبادة الذلة، فنحن الأذلاء بالأصل لا نشبه من خلق نوراً من النور وأمر بالعبادة فبعدت عليهم الشقة لبعد الأصل مما دعاهم إليهم من عبادته، فلولا أن الله أشهدهم بأن خلقهم في مقاماتهم ابتداء لم ينزلوا منها فلم يكن لهم في عبادتهم ارتقاء كما لنا ما أطاقوا الوفاء بالعبادة فإنّ النور له العزة ماله الذلة، فمن عناية الله بنا لما كان المطلوب من خلقنا عبادته أن قرب علينا الطريق بأن خلقنا من الأرض التي أمرنا أن نعبده فيها، ولما عبد منا من عبد غير الله غار الله أن يعبد في أرضه غيره فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] أي حكم فما عبد من عبد غير الله إلا لهذا الحكم فلم يعبد إلا الله وإن أخطؤوا في النسبة إذ كان لله في كل شيء وجه خاص به ثبت ذلك الشيء فما خرج أحد عن عبادة الله.

ولما أراد الله أن يميز بين من عبده على الاختصاص وبين من عبده في الأشياء أمر بالهجرة من الأماكن الأرضية التي يعبد الله فيها في الأعيان ليميز الله الخبيث من الطيب، فالخبيث هو الذي عبد الله في الأغيار، والطيب هو الذي عبد الله لا في الأغيار، وجعل تعالى هذه الأرض محلاً للخلافة فهي دار ملكه وموضع نائبه الظاهر بأحكام أسمائه، فمنها خلقنا وفيها أسكننا أحياء وأمواتاً ومنها يخرجنا بالبعث في النشأة الأخرى حتى لا تفارقنا العبادة حيث كنا دنيا وآخرة، وإن كانت الآخرة ليست بدار تكليف ولكنها دار عبادة، فمن لم يزل منا مشاهداً لما خلق له في الدنيا والآخرة، فذلك هو العبد الكامل المقصود من العالم

النائب عن العالم كله الذي لو غفل العالم كله أعلاه وأسفله زمناً فرداً عن ذكر الله وذكره هذا العبد قام في ذلك الذكر عن العالم كله وحفظ به على العالم وجوده، ولو غفل العبد الإنساني عن الذكر لم يقم العالم مقامه في ذلك وخرب منه من زال عنه الإنسان الذاكر، قال النبي ﷺ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ وَفِي الأَرْضِ مَنْ يَقُولُ: الله الله**» ولما خلق الله هذه النشأة الإنسانية وشرّفها بما شرفها به من الجمعية ركب فيها الدعوى وذلك ليكمل بها صورتها فإن الدعوى صفة إلهية قال تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤] فادّعى أنه لا إله إلا هو وهي دعوى صادقة، فمن ادّعى دعوى صادقة لم تتوجه عليه حجة وكان له السلطان على كل من ردّ عليه دعواه لأن له الشدّة والغلبة والقهر لأنه صادق والصدق الشدّة فلا يقاوم.

ولما كانت الدعوى خبراً والخبر نسبة الصدق إليه ونسبة الكذب على السواء بما هو خبر يقبل هذا وهذا علمنا عند ذلك أنه لا بد من الاختبار، فادعى المؤمن الإيمان وهو التصديق بوجود الله وأحديته وأنه لا إله إلا هو وأن كل شيء هالك إلا وجهه، وأن الأمر لله من قبل ومن بعد، فلما ادعى بلسانه أن هذا مما انطوى عليه جنانه وربط عليه قلبه احتمل أن يكون صادقاً فيما ادعاه أنه صفة له، ويحتمل أن يكون كاذباً في أن ذلك صفة له فاختبره الله لإقامة الحجة له أو عليه بما كلفه من عبادته على الاختصاص لا العبادة السارية بسريان الألوهة ونصب له وبين عينيه الأسباب وأوقف ما تمس حاجة هذا المدعي على هذه الأسباب فلم يقض له بشيء إلا منها وعلى يديها، فإن رزقه الله نوراً يكشف به ويخترق سدف هذه الأسباب فيرى الحق تعالى من ورائها مسبباً اسم فاعل أو يراه فيها خالقاً وموجداً لحوائجه التي اضطره إليها، فذلك المؤمن الذي هو على نور من ربه وبينه من أمره الصادق في دعواه الموفي حق المقام الذي ادّعاه بالعناية الإلهية التي أعطاه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] فقال بعد إقراره بربوبية خالقه لما أشهده على نفسه في أخذ الميثاق حين قال له ولأمثاله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فلما أوجده في هذه الدنيا أوجده على تلك الفطرة فقال بألوهية الأسباب التي رزقه الله منها وجعلها حجباً بينه وبين الله، ولم يكن له نور يهتدي به في ظلمات البر والبحر وليس إلا النجوم وهي هنا نجوم العلم الإلهي، فأضاف الألوهة إلى غير مستحقها فكذب في دعواه لكثرة الأسباب وإقراره في شركه بأن ذلك قربة منه إلى الله خالق الأسباب وجعلها آلهة فلم يصدق قوله لا إله إلا هو، ولهذا قال من قال: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وليس العجب إلا ممن كثر الآلهة والذي لم يقل بنسبة الألوهة للأسباب لكنه لم ير إلا الأسباب وما حصل له من الكشف ما يخرجه عنها مع توحيد الألوهة، كان ذلك شركاً خفياً لا يشعر به صاحبه أنه شرك يحجبه عن الأمر العالي الذي طلب به، فلم يوجد صاحب هذه الدعوى في توحيد الله وتوحيده في أفعاله مع الاضطراب عند فقد السبب وسكونه عند وجوده صادقاً فنقصه على قدر ما فاته من ذلك هذا ولم يجعل للأسباب آلهة.

فإن قلت: فالمشرك الذي ادعى أنه مشرك فهو صادق في دعواه أنه مشرك فلماذا لم

ينفعه صدقه؟ قلنا: هو كاذب في دعواه في نسبة الألوهة إلى من ليس بالإله هذه دعواه التي كفر بها فهو صادق في أنه مشرك وليس بصادق في أن الشركة في الألوهة صحيحة لأنه بحث عن ذلك بأدلة العقلية والشرعية فلم يوجد لما ادّعاه عين في الصدق فاختبر الله العباد بما شرع لهم بإرسال الرسل واختبر الله المؤمنين بالأسباب، فكل صنف اختبره بحسب دعواه، فمن صدق أورثه ذلك الصدق ما تعطيه دعواه ولهذا يسأل الصادقين عن صدقهم فيما صدقوا فيه، هل صدقوا فيما أمروا به وأبيح لهم؟ أو هل صدقوا في إتيان ما حرم عليهم إتيانه مع كونهم صادقين فيقال لهم فيم صدقتم؟ فإن النمامين صادقون والمغتابين صادقون وقد ذمهم الله وتوعد على ذلك مع كونه صدقاً فلهذا يسأل الصادقين عن صدقهم فيما صدقوا، فهذا من اختبار الله إياهم، وأصل هذا كله ما ركب فيهم من الدعاوى، مما اختبرهم الله به في الخطاب أن جعل ما ابتلاهم به ليعلم الله الصادق في دعواه من الكاذب، فأنزل نفسه في هذا الاختبار منزلة من يستفيد بذلك علماً وهو سبحانه العالم بما يكون منهم في ذلك قبل كونه، فمن المنزهة في زعمهم من يقول إن الله لا يستفيد من ذلك علماً فإنه لا يعلم الأمر من حيث ما هو واقع من فلان على التعيين، فردّ كلام الله وتأوّله إذ خاف من وقوع الأذى به لذلك، ومن الظاهرية من التزم أنه يعلم بذلك الاختبار وقوفاً عند هذا اللفظ، ومن الناس من صرف ذلك إلى تعلق العلم به عند الوقوع، فالعلم قديم والتعلق حادث، ومن المؤمنين من سلم علم ذلك إلى الله وآمن به من غير تأويل معين وهذا هو أسلم ما يعتقد، وهذا كله ابتلاء من الله لعباده الذين ادعوا الإيمان به بألسنتهم فإنه قال حتى نعلم كما قاله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ [البقرة: ١٥٥] وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] فميز بينهما فيجازي المجاهد بجزاء معين، ويجازي الصابر عليه بجزاء معين، وقال: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] لما ذكر الفتنة وهي الاختبار. فإذا نظر الإنسان إلى نشأته البدنية قامت معه الأرض التي خلق منها وجعل منها غذاؤه وما به صلاح نشأته لم يرزقه الله في العادة من غيرها، ومن خرق الله فيه العادة بأن لم يرزقه منها رزقه من أمر طبيعي خفي، وهو السبب الذي أبقى عليه حياته به فوفر عليه حرارته ورطوبته التي هي مادة حياته بأمر لطيف لا يعلمه إلا الله، ومن أطلعه عليه لأن الله لما وضع الأسباب لم يرفعها في حق أحد، وإنما أعطى الله بعض عباده من النور ما اهتدى به في المشي في ظلمات الأسباب غير ذلك ما فعل به فعاينوا من ذلك على قدر أنوارهم فحجب الأسباب مسدلة لا ترفع أبداً فلا تطمع، وإن نقلك الحق من سبب فإنما ينقلك بسبب آخر فلا يفقدك السبب جملة واحدة فإنه حبل الله الذي أمرك بالاعتصام به وهو الشرع المنزل وهو أقوى الأسباب وأصدقها، وبيده النور الذي يهتدى به في ظلمات بر هذه الأسباب وبحرها، فمن عمل كذا وهو السبب فجزاؤه كذا فلا تطمع فيما لا مطمع فيه ولكن سل الله تعالى رشة من ذلك النور على ذاتك، وأظهر الأمور اللطيفة أن جعل بدنك ذا مسام، وأحاط بك الهواء الذي هو مادة الحياة الطبيعية فإنه حار رطب بالذات، وجعل فيك قوّة جاذبة فقد تجذب في وقت

فقدك الأسباب المعتادة الهواء من مسامك فتغذي به بدنك وأنت لا تشعر، وقد علمنا أن من الحشرات من يكون غذاؤه من مسام بدنه مما يجذبه من الرطوبات على ميزان خاص يكون له به البقاء من غير إفراط ولا تفريط.

ثم لتعلم أيها الأخ الولي أن أرض بدنك هي الأرض الحقيقية الواسعة التي أمرك الحق أن تعبده فيها وذلك لأنه ما أمرك أن تعبده في أرضه إلا ما دام روحك يسكن أرض بدنك، فإذا فارقها أسقط عنك هذا التكليف مع وجود بدنك في الأرض مدفوناً فيها فتعلم أن الأرض ليست سوى بدنك، وجعلها واسعة لما وسعته من القوى والمعاني التي لا توجد إلا في هذه الأرض البدنية الإنسانية. وأمّا قوله: فتهاجروا فيها فإنها محل للهوى ومحل للعقل فتهاجروا من أرض الهوى منها إلى أرض العقل منها، وأنت في هذا كله فيها ما خرجت عنها، فإن استعملك الهوى أرداك وهلكت، وإن استعملك العقل الذي بيده سراج الشرع نجوت وأنجاك الله به، فإن العقل السليم المبرأ من صفات النقص والشبه هو الذي فتح الله عين بصيرته لإدراك الأمور على ما هي عليه فعاملها بطريق الاستحقاق فأعطى كل ذي حق حقه، ومن لم يعبد الله في أرض بدنه الواسعة فما عبد الله في أرضه التي خلق منها فإن الله يقول: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧، ٨] وهو الماء الذي نبع من هذه الأرض البدنية واستقر في رحم المرأة ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ [السجدة: ٩] فبعد تسوية أرض البدن وقبوله الاشتعال بما فيه من الرطوبة والحرارة نفخ الله فيه فاشتعل فكان ذلك الاشتعال روحاً له فما خرج إلا منه فمنه خلق، وجعل العقل في هذه النشأة نظير القمر في الأرض نوراً يستضاء به ولكن ما له ذلك النفوذ بالحجب المانعة من البيوت والجدران والأكنة. وجعل الشرع لهذا العقل في هذه الأرض البدنية سراجاً فأضاءت زوايا هذه الأرض بنور السراج فأعطى من العلم بها مما فيها ما لم يعطه نور العقل الذي هو بمنزلة القمر، ثم يعيدنا فيها يعني في النشأة الأخرى أيضاً كما خلقنا فيها ويخرجنا إخراجاً لمشاهدته كما أنشأنا منها وأخرجنا لعبادته، فخلق أرواحنا من أرض أبداننا في الدنيا لعبادته، وأسكننا أرض أبداننا في الآخرة لمشاهدته إن كنا سعداء، كما آمنا به في النشأة الأولى لما اعتنى الله بنا، والحال مثل الحال سواء في تقسيم الخلق في ذلك، وكذلك يكونون غداً، والموت بين النشأتين حالة برزخية تعمر الأرواح فيها أجساداً برزخية خيالية مثل ما أعمرتها في النوم وهي أجساد عن هذه الأجسام الترابية، فإن الخيال قوّة من قواها، فما برحت أرواحها منها أو مما كان منها فاعلم ذلك فأرض الله التي هي ركن موجودة وأنت فيها مدفون، وما أمرت بعبادة ربك، وما دمت في أرض بدنك الواسعة مع وجود عقلك وسراج شرعك فأنت مأمور بعبادة ربك، فهذه الأرض البدنية لك على الحقيقة أرض الله الواسعة التي أمرك أن تعبده فيها إلى حين موتك، ومن مات فقد قامت قيامته وهي القيامة الجزئية وهو قوله: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥] فإذا فهمت القيامة الجزئية بموت هذا الشخص المعين علمت القيامة العامة لكل ميت كان عليها، فإن مدّة البرزخ هي للنشأة الآخرة بمنزلة حمل المرأة الجنين في بطنها ينشئه الله نشأ بعد نشء فتختلف عليه

أطوار النشء إلى أن يولد يوم القيامة، فلهذا قيل في الميت إنه إذا مات فقد قامت قيامته أي ابتدأ فيه ظهور نشأة الأخرى في البرزخ إلى يوم البعث من البرزخ، كما يبعث من البطن إلى الأرض بالولادة، فتدبير نشأة بدنه في الأرض زمان كونه في البرزخ ليسويه ويعدله على غير مثال سبق مما ينبغي للدار الآخرة فيعبده فيها أعني في أرض نشأته الأخراوية عبادة ذاتية لا عبادة تكليف، فإن الكشف يمنعه أن يكون عبداً لغير من يستحق أن يكون له عبداً كما ينال هذا المقام رجال الله هنا. ولما خلق الله أرض بدنك جعل فيها كعبة وهو قلبك وجعل هذا البيت القلبي أشرف البيوت في المؤمن فأخبر أن السموات وفيها البيت المعمور والأرض وفيها الكعبة ما وسعته وضاقت عنه ووسعه هذا القلب من هذه النشأة الإنسانية المؤمنة، والمراد هنا بالسعة العلم بالله سبحانه، فهذا يدلك على أنها الأرض الواسعة وأنها أرض عبادتك فتعبده كأنك تراه من حيث بصرك لأن قلبك محجوب أن يدركه بصرك فإنه في الباطن منك فتعبد الله كأنك تراه في ذاتك كما يليق بجلاله وعين بصيرتك تشهده فإنه ظاهر لها ظهور علم، فتراه بعين بصيرتك وكأنك تراه من حيث بصرك، فتجمع في عبادتك بين الصورتين: بين ما يستحقه تعالى من العبادة في الخيال وبين ما يستحقه من العبادة في غير موطن الخيال فتعبده مطلقاً ومقيداً وليس ذلك لغير هذه النشأة، فلهذا جعل هذه النشأة المؤمنة حرمه المحرم وبيته المعظم المكرم، وقد أشرت إلى هذا المعنى بقولي: [مجزوء الرجز]

مَن كان حَقّاً كُلُّهُ ... قد زَالَ عَنْهُ كلّهُ
فالحَقُّ شخصٌ قائمٌ ... وأنتَ منه ظِلُّهُ
أو أنتَ فيه ظِلُّهُ ... فالأمرُ حَقٌّ كُلُّهُ
حرامُه مُحْتَرمٌ ... فالحلُّ لا يحلُّهُ
عن كُلِّ ما لا ينبغي ... فإنه يُجِلُّهُ

فكل من في الوجود من المخلوقات يعبد الله على الغيب إلا الإنسان الكامل المؤمن فإنه يعبده على المشاهدة، ولا يكمل العبد إلا بالإيمان فله النور الساطع، بل هو النور الساطع الذي يزيل كل ظلمة، فإذا عبده على الشهادة رآه جميع قواه فما قام بعبادته غيره، ولا ينبغي أن يقوم بها سواه، فما ثم من حصل له هذا المقام إلا المؤمن الإنساني فإنه ما كان مؤمناً إلا بربه فإنه سبحانه المؤمن. واعلم أنك إذا لم تكن بهذه المنزلة وما لك قدم في هذه الدرجة فأنا أدلك على ما يحصل لك به الدرجة العليا، وهو أن تعلم أن الله ما خلق الخلق على مزاج واحد بل جعله متفاوت المزاج، وهذا مشهود بالبديهة والضرورة لما بين الناس من التفاوت في النظر العقلي والإيمان، وقد حصل لك من طريق الحق أن الإنسان مرآة أخيه، فيرى منه ما لا يراه الشخص من نفسه إلا بوساطة مثله، فإن الإنسان محجوب بهواه متعشق به، فإذا رأى تلك الصفة من غيره وهي صفته أبصر عيب نفسه في غيره فعلم قبحها إن كانت قبيحة أو حسنها إن كانت ذات حسن.

واعلم أن المرائي مختلفة الأشكال وأنها تصير المرئي عند الرائي بحسب شكلها من

طول وعرض واستواء وعوج واستدارة ونقص وزيادة وتعدد وكل شيء يعطيه شكل تلك المرآة، وقد علمت أن الرسل أعدل الناس مزاجاً لقبولهم رسالات ربهم، وكل شخص منهم قبل من الرسالة قدر ما أعطاه الله في مزاجه من التركيب، فما من نبيّ إلا بعث خاصة إلى قوم معينين لأنه على مزاج خاص مقصور، وأن محمداً ﷺ ما بعثه الله إلا برسالة عامة إلى جميع الناس كافة، ولا قبل هو مثل هذه الرسالة إلا لكونه على مزاج عام يحوي على مزاج كل نبيّ ورسول، فهو أعدل الأمزجة وأكملها وأقوم النشآت، فإذا علمت هذا وأردت أن ترى الحق على أكمل ما ينبغي أن يظهر به لهذه النشأة الإنسانية فاعلم أنك ليس لك ولا أنت على مثل هذا المزاج الذي لمحمد ﷺ، وأن الحق مهما تجلى لك في مرآة قلبك فإنما تظهره لك مرآتك على قدر مزاجها وصورة شكلها، وقد علمت نزولك عن الدرجة التي صحت لمحمد ﷺ في العلم بربه في نشأته، فالزم الإيمان والاتباع واجعله إمامك مثل المرآة التي تنظر فيها صورتك وصورة غيرك، فإذا فعلت هذا علمت أن الله تعالى لا بد أن يتجلى لمحمد ﷺ في مرآته، وقد أعلمتك أن المرآة لها أثر في ناظر الرائي في المرئي، فيكون ظهور الحق في مرآة محمد ﷺ أكمل ظهور وأعدله وأحسنه لما هي مرآته عليه، فإذا أدركته في مرآة محمد ﷺ فقد أدركت منه كمالاً لم تدركه من حيث نظرك في مرآتك، ألا ترى في باب الإيمان وما جاء في الرسالة من الأمور التي نسب الحق لنفسه بلسان الشرع مما تحيله العقول، ولولا الشرع والإيمان به لما قبلنا من ذلك من حيث نظرنا العقلي شيئاً ألبتة بل نرده ابتداء ونجهل القائل؟ فكما أعطاه بالرسالة والإيمان ما قصرت العقول التي لا إيمان لها عن إدراكها ذلك من جانب الحق، كذلك قصرت أمزجتنا ومرائي عقولنا عند المشاهدة عن إدراك ما تجلى في مرآة محمد ﷺ أن تدركه في مرآتها، وكما آمنت به في الرسالة غيباً شهدته في هذا التجلي النبوي عيناً: [مجزوء الوافر]

فــلَــوْلاهُ ولَــوْلانــا ... لــمــا كــانَ الــذي كــانــا
ولا جــاءت رســالاتٌ ... مــن الــرحــمــن مَــوْلانــا
بــأخْــبــارٍ وأحــكــام ... وسُــمّــي ذاك تِــبْــيَــانَــا
وتــوراةً وإنْــجــيــلاً ... وفُــرْقَــانــاً وقُــرْآنــا
وســمّــاهُ أولــو الألــبــا ... ب بــالأفــكــار بُــرْهــانَــا
وثَــلّــث ذاك إســلامــاً ... وإيــمــانــاً وإحْــسَــانــا
فــسُــبْــحــان الــذي أَسْــرَى ... بــه لــيَــراهُ مــخْــسَــانَــا
وخــصّ بــصــورة الــرحــمــ ... ـن مــن ســمّــاه إنــســانــا
وجــاءت رُسْــلُــهُ تَــتْــرَى ... زَرَافــاتٍ ووحْــدَانــا
وأعــطــانــا وحــابــانــا ... هــنــا مــا شــاء كِــتْــمَــانــا
وجَــنّــات وأنْــهــاراً ... ورَوْحــاً ثُــمّ رَيْــحَــانــا
وكَــشْــفــاً ثُــمّ إشْــهــاداً ... وإسْــراراً وإعْــلانــا

فقد نصحتك وأبلغت لك في النصيحة، فلا تطلب مشاهدة الحق إلا في مرآة نبيك ﷺ، واحذر أن تشهده في مرآتك أو تشهد النبي وما تجلى في مرآته من الحق في مرآتك فإنه ينزل بك ذلك عن الدرجة العالية، فالزم الاقتداء والاتباع ولا تطأ مكاناً لا ترى فيه قدم نبيك، فضع قدمك على قدمه إن أردت أن تكون من أهل الدرجات العلى والشهود الكامل في المكانة الزلفى، وقد أبلغت لك في النصيحة كما أمرت، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وفي هذا المنزل من العلوم: علم مرتبة الحسبان والظنون وعلم التقرير الإلهي، وفيه علم الأسرار الخفية عن أكثر الناس، وفيه علم الأفراد، وفيه علم الملاحم، وفيه علم المسابقة وأين حلبة المسابقة التي بين الله وبين عباده وهو علم شريف فيه من الرحمة الإلهية ما لايصفه واصف، وفيه علم الردّ على من يقول بإنفاذ الوعيد وشمول الرحمة للجميع وذلك أن الإنسان إذا عصى فقد تعرض للانتقام والبلاء وأنه جار في شأو الانتقام بما وقع منه وأن الله يسابقه في هذه الحلبة من حيث ما هو غفار وعفو ومتجاوز ورحيم ورؤوف، فالعبد يسابق بالمعاصي والسيئات الحق تعالى إلى الانتقام والحق أسبق فيسبق إلى الانتقام قبل وصول العبد بالسيئات إليه فيجوزه بالغفار وأخواته من الأسماء فإذا وصل العبد إلى آخر الشأو في هذه الحلبة وجد الانتقام قد جازه الغفار وحال بينه وبين العصاة وهم كانوا يحكمون على أنهم يصلون إليه قبل هذا وهو قوله تعالى في العنكبوت: [الآية: ٤] ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾ أي يسبقون بسيئاتهم مغفرتي وشمول رحمتي ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بل السبق لله بالرحمة لهم هذا غاية الكرم، وهذا لا يكون إلا في الطائفة التي تقول بإنفاذ الوعيد فيمن يموت على غير توبة، فإذا مات العاصي تلقته رحمة الله في الموطن الذي يشاء الله أن تلقاه فيه، وفيه علم قول النبيّ ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ الله لِقَاءَهُ**» ولم يقل لم يلقه فما كره الله إلا لقاءه الذي كره وهو أن يلقاه آخذاً له على جريمته ومنتقماً فكره الله أن يلقاه بما كره هذا المسيء فلقيه تعالى بالمغفرة والرضوان لأنه علم أنه ما كره لقاء الله مع كونه مؤمناً بلقائه إلا لما هو عليه من المخالفة فكره الله لقاءه بما تستحقه المخالفة من العقوبة فلقيه بالعفو والمغفرة، وفيه علم ما تستحقه الذات لنفسها لا من حيث اتصافها بأنها إله. وفيه علم أن رد الأمور كلها وإن كانت لله فإن الله بعد وقوفه عليها يردها بما شاء على عباده، وفيه علم إرسال الستور بين النفوس المؤمنة وبين المخالفات ومن خالف منهم أرسلت الستور بينه وبين العقوبات، وفيه علم معاملة الله عباده بما يوافق أغراضهم، وفيه علم منزلة الأسباب الموضوعة في العالم التي لها الآثار فيه، وفيه علم ما تدعوه إليه الأسباب وما ينبغي أن يجيب منها وما ينبغي أن لا يجيب، وفيه علم إلحاق الأباعد بالأداني والأسافل بالأعالي في التحام ذلك، وفيه علم جهل من يساوي بين الحق والخلق ومن جهل مراتب العالم عند الله، وفيه علم التفسير والتمييز، وفيه علم ما يعود على العامل من عمله وما لا يعود، وفيه علم أعمار الأشياء وهو بقاء الشيء إلى زمان فساد صورته التي بزوالها يزول عنه الاسم الذي كان يستحقه جماداً كان أو نباتاً أو حيواناً، وفيه علم الأخذ الإلهي بالأسباب الكونية وأن كل مأخوذ به جند من جنود الله، وفيه علم كون العالم

آيات بعضه لبعض، وفيه علم النصائح من المؤمنين وغير المؤمنين، وفيه علم بيان العلم بالأدلة، وفيه علم ما تمس الحاجة إليه في كل وقت، وفيه علم الاعتبار، وفيه علم الإرادة والمشيئة، وفيه علم من ينبغي أن يعتمد عليه في الأمور ومن لا يعتمد عليه فيها، وفيه علم من أراد بأخيه المؤمن سوءاً عاد عليه وهو سار في كل جنس من الأمم، وفيه علم من استعجل صفة ما يكون في يوم القيامة هنا وما حكمه عند الله، وفيه علم الهجرة والمهاجر، وفيه علم الوهب من غير الوهب، وفيه علم ما أدّى الجاهل مع علمه أن يقول: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] وأمثال هذا مثل قوله: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] فانظر في هذا الخبر الإلهي فإنه مبالغة منهم في التكذيب إذ لو احتمل عندهم صدق الرسول ما قالوا مثل هذا القول فإن النفوس قد جبلت على جلب المنافع لها ودفع المضارّ عنها. وفيه علم الرفق بالأمم والدعاء عليهم من أنبيائهم، وفيه علم العلم بالدار الآخرة والزمان الآخر ولماذا يرجع وما ثم شمس تطلع ولا دليل يقبل، وفيه علم تنوّع الأسباب وفيه علم مراتب من اتخذ من الآلهة دون الله، وفيه علم فضل العلماء والحكماء الإلهيين، وفيه علم ما ينبغي للمؤمن أن يثابر عليه، وفيه علم الصنعة والصانع، وفيه علم التنازع في الحديث ومراتب المتنازعين، وفيه علم المجمل من المحكم من المفصل من المتشابه، وفيه علم تعلق الإيمان بما ليس بحق مثل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [العنكبوت: ٥٢] وفيه علم الداعي الذي يوجب استعجال طلب الشقاء، وفيه علم مواطن الإيمان والزلف، وفيه علم مراتب الصبر والتوكل، وفيه علم من عرف الحق واجتنبه وما يحمد من ذلك وما يذم كالحق المأمور باجتنابه كالغيبة، وفيه علم البسط المحمود والمذموم، وفيه علم من علم أمراً فقيل له ما تعلمه، وفيه علم الحياة السارية في الموجودات وبطونها في الدنيا وظهورها في الآخرة وبأي بصر كشفها في الدنيا من كشفها، وفيه علم الاضطرار وكيف يذهب بذهابه، وفيه علم الطرق إلى الله وإن اختلفت فكلها حق وما يحمد منها ويذم وما يوصل إلى السعادة منها وما يحيد بسالكه عن سعادته مع كونه يصل إلى الله، وفيه علم المعية الإلهية ومراتب الموجودات فيها، فهذا بعض ما يحوي عليه هذا المنزل من العموم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والخمسون وثلاثمائة

في معرفة منزل ثلاثة أسرار مكتتمة والسر العربي في الأدب الإلهي والوحي النفسي والطبيعي وهو من الحضرة المحمدية

[البسيط]

بَذَلْتُ نَفْسي لنَفْسي كَيْ أَفُوزَ بِمَنْ ... قد كان عِنْدي ولم أشعُرْ بمَوْضِعِهِ
حتى رأيتُ له شكلاً يُماثلني ... فغِبْتُ فيه بأمرٍ من مُشَرِّعِهِ
هل للنعيم به أو للتَّخَلُّقِ بالأ ... سماء فانْظُرْ إلى أحوال مُبْدِعِهِ

فـإنْ يُـخَـاطِبْـك الـرّحـمـنُ مـن كُـتُـبٍ بِـسـرِّ حـكـمـتـه فـاخْـضَـرْ عَـسَـى تَـعِـهِ

اعلم أيدك الله أن الله تعالى لما عمر الخلاء بالعالم كله امتلأ به وخلق فيه الحركة ليستحيل بعضه لبعض، وتختلف فيه الصور بالاستحالات لطبيعة الخلاء الذي ملأه عن العالم ذلك الذي استحال إليه فلا يزال يستحيل دائماً وذلك هو الخلق الجديد الذي أكثر الناس منه في لبس وشك، ومن علم هذا من أهل الله الذين أشهدهم الله ذلك عيناً في سرائرهم علم استحالة الدنيا إلى الآخرة واستحالة الآخرة بعضها إلى بعض، كما استحال منها ما استحال إلى الدنيا، كما ورد في الخبر في النيل والفرات وسيحان وجيحان أنها من أنهار الجنة استحالت فظهرت في الدنيا بخلاف الصورة التي كانت عليها في الآخرة، ومن ذلك قوله: «**بَيْنَ قَبْرِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ**» فاستحالت تربة في الدنيا في مساحة مقدرة معلومة، وكذلك وادي محسر هو واد في النار استحال إلى الدنيا وآدم وحوّاء وإبليس من عالم الآخرة استحالوا إلى الدنيا ثم يستحيلون إلى الآخرة فتتغير عليهم الصور بحسب ما تعطيه طبيعة المكان المتوهم الذي تنقلهم إليه الحركة فتؤثر فيهم روحاً كان أو جسماً متحيزاً كان أو غير متحيز والله محرّكه على الدوام، ولولا نحن ما تميزت آخرة من دنيا فإن الله ما اعتبر من العالم في هذه الإضافة إلا هذا النوع الإنساني والجان، فجعل الظهور للإنس من اسمه الظاهر، وجعل البطون للجان من اسمه الباطن، وما عداهما فمسخر لهما كما هو في نفسه مسخر بعضه لبعضه من أجل الدرجات التي أنزلهم فيها، فأعطتهم الدرجات صور ما استحالوا إليه لما نقلتهم الحركة الإلهية إليها، ولما لم تظهر لأعياننا إلا هنا سميت هذه الدار دار الدنيا والأولى وسميت الحياة الدنيا، فإذا استحلنا إلى البرزخ واستحلنا من البرزخ إلى الصور التي يكون فيها النشر والبعث سميت تلك الآخرة، ولا يزال الأمر في الآخرة في خلق جديد منها فيها أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار إلى ما لا يتناهى، فلا نشاهد في الآخرة إلا خلقاً جديداً في عين واحدة، فالعالم متناه لا متناه.

ولما كان الأمر هكذا لذلك يرى الإنسان نفسه إذا هو نام في الجنة أو في القيامة أو في غير مكانه وبلده مما يعرفه أو يجهله في غير صورته وفي غير حاله فقد استحال في نفسه بحركته التي نقلته من اليقظة إلى النوم إلى صور يعهدها في أوقات ولا يعهدها في أوقات، وإلى أحوال محمودة حسنة يسرّ بها وأحوال مذمومة قبيحة يتألم لها، ثم تسرع إليه الاستحالة فيرجع إلى اليقظة إما باستيفاء المعنى الذي استحال إليه في النوم فلم يبق فيه ما يعطيه في تلك الاستحالة الخاصة وهو الذي ينتبه من غير سبب وهو الانتباه الطبيعي لما أخذت النفس للعين حقها من النوم الذي فيه راحتها، فإن انتقل من النوم إلى اليقظة بسبب إما من جهة الحس وإما من أمر مفزع أو حركة ما مزعجة ظهرت منه في حال نومه فاستيقظ، فإن وافق ذلك الأمر استيفاء العين حقها من النوم الطبيعيّ كان وإن لم يوافق وبقي من حق العين بقية لولا ذلك السبب لاستوفاها فإنه يستوفيها في نوم آخر، ولذلك بعض النائمين يطول نومهم في وقت وسبب طوله ما ذكرناه، وأما قصر نومه فلأحد أمرين وهو ما ذكرناه إما لسبب يوقظه وإما

لاستيفاء العين حقها في تلك النومة الخاصة من أجل المزاج الذي يكون عليه، فإنه لا يستوي مزاج المتعوب ومزاج المستريح، فالمتعوب يطلب من الراحة ما يزيل به ذلك التعب فيستغرقه النوم ويطول لأنه يحب استيفاء الراحة فلا يوقظه قبل الاستيفاء إلا أحد ثلاثة أشياء أو كلها أو بعضها على حسب ما يقع، إما بأمر مزعج يراه في نومه أو يوقظه أحد من المتيقظين قصداً أو صيحة عظيمة أو حركة أو ما كان من هذه الأسباب في عالم الحس مقصوداً لانتباهه أو غير مقصود بل يقع بالاتفاق. والأمر الثالث أن تكون النفس متعلقة الخاطر بقضاء شغل ما تحب أن تفعله فتنام على ذلك الخاطر وهو متعلق بذلك الأمر فيزعجه فينتبه قبل استيفاء حقه من النوم.

وليس المقصود مما ذكرناه إلا تعريفك بأن العالم لا يخلو في كل نفس من الاستحالة، ولولا أن عين الجوهر من الذي يقبل هذه الاستحالة في نفسه واحد ثابت لا يستحيل من حيث جوهره ما علم حين يستحيل إلى أمر ما ما كان عليه من الحال قبل تلك الاستحالة، غير أن الاستحالات قد يخفى بعضها ويدق، وبعضها يكون ظاهراً تحس به النفس كاستحالة خواطرها وحركاتها الظاهرة وأحوالها وتدق وتخفى كاستحالتها في علومها وقواها وألوان المتلونات بتجديد أمثالها، فهي لا تدرك ذلك الأمر إلا من كان من أهل الكشف فإنه يدرك ذلك وأزال عنه الكشف ذلك اللبس الذي أعمى غيره عن إدراك هذا الأمر فإن قلت: فهذه الصورة التي يستحيل إليها جواهر العالم ما هي؟ قلنا: الممكنات ليس غيرها هي في شيئية ثبوتها وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ [النحل: ٤٠] فإذا ظهر عن قوله: ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] لبس شيئية الوجود وهو قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] أي قدرتك أي ما كانت لك شيئية الوجود وهي على الحقيقة شيئية الظهور ظهور لعينه، وإن كان في شيئية ثبوته ظاهراً متميزاً عن غيره بحقيقته ولكن لربه لا لنفسه، فما ظهر لنفسه إلا بعد تعلق الأمر الإلهي من قوله ﴿كُن﴾ بظهوره، فاكتسب ظهوره لنفسه فعرف نفسه وشاهد عينه فاستحال من شيئية ثبوته إلى شيئية وجوده، وإن شئت قلت: استحال في نفسه من كونه لم يكن ظاهراً لنفسه إلى حالة ظهر بها لنفسه بتقدير العزيز العليم، فالعالم كله طالع غارب وفلك دائر ونجم سابح ظاهر بين طلوع وغروب عن وحي إلهيّ وهو ما يتوجه عليه من أمر بظهور وخفاء ووحي نفسي، وهو ما يطلبه منه الحق وما يطلب من الحق تعالى، فيوحي إلى الحق كما أوحى الحق إليه، فيعمل الحق بما أوحى إليه عبده وقتاً وقد لا يعمل وقتاً، كما أن العبد إذا أوحى الحق إليه فأمره بشي يعمله أو يتركه فيطيعه وقتاً ويعصيه وقتاً فظهر الحق للمكلف بصورته في العطاء والإباية، فما رأى العبد في الحق إلا صورته فلا يلومن إلا نفسه إذا دعا الحق في أمر فلم يجبه. ألا ترى إلى الملائكة لما لم يعصوا الله تعالى فيما دعاهم إليه من فعل كما أخبر عنهم ما دعوه في شيء إلا أجابهم لأنهم ليسوا على صورة منع مما دعاهم الحق إليه والعالم لا يشهد من الحق إلا صورة ما هو عليه، ولذلك قال ﷺ فيمن يقول آمين بعد قراءة الفاتحة: «**مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ المَلائِكَةِ غُفِرَ لَهُ**» لأن تأمين الملائكة مقبول عند الله مجاب،

فوافق زمان الإجابة للملائكة فحصلت له الإجابة بحكم التبعية إلا أن يكون وقته وقت إجابة له جزاء لما امتثل من أمر الحق في وقت ما، والأصل في العالم قبول الأمر الإلهي في التكوين والعصيان أمر عارض عرض له نسبي، وفي الحقيقة ما عصى الله أحد ولا أطاعه بل الأمر كله لله وهو قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فأفعال العباد خلق لله والعبد محل لذلك الخلق، فالعالم كله محصور في ثلاثة أسرار: جوهره وصوره والاستحالة وما ثم أمر رابع. فإن قلت: فمن أين ظهر حكم الاستحالة في العالم من الحقائق الإلهية؟ قلنا: إن الحق وصف نفسه بأنه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] والشؤون مختلفة، ووصف نفسه بالفرح بتوبة عبده ولم يفرح بها قبل كونها، وكذلك قوله ﷺ: «**إنَّ الله لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**» وذكر عنه العارفون به وهم الرسل عليهم السلام أن الله تعالى يغضب يوم القيامة غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله كما يليق بجلاله فقد نعتوه بأنه كان على حالة قبل هذا الغضب لم يكن فيها منعوتاً بهذا الغضب، وقد ورد في الصحيح تحوله في الصور يوم القيامة إذا تجلى لعباده والتحول هو عين الاستحالة ليس غيرها في الظهور، ولولا ذلك ما صح للعالم ابتداء في الخلق، وكان العالم مساوقاً لله في الوجود وهذا ليس بصحيح في نفس الأمر، فكما قبل تعالى الظهور لعباده في صور مختلفة كذلك أيضاً لم يخلق ثم خلق فكان موصوفاً في الأزل بأنه عالم قادر أي متمكن من إيجاد الممكن، لكن له أن يظهر في صورة إيجاده وأن لا يظهر فظهر في إيجاد صورة الممكن لما شاء، ولا فرق بين الممكنات في النسبة إليه سبحانه ونحن نعلم أن زيداً ما أوجده الله مثلاً إلا أمس أو الآن فقد تأخر وجوده مع كون الحق قادراً، فكذلك يلزم الحكم في أول موجود من العالم أن يكون الله يتصف بالقدرة على إيجاد الشيء وإن لم يوجده كما أنك قادر على الحركة في وقت سكونك وإن لم تتحرك ولا يلزم من هذا محال، فإنه لا فرق بين الممكن الموجود الآن المتأخر عن غيره وبين الممكن الأول، فإن الحق غير موصوف بإيجاد زيد في وقت عدم زيد فالصورة، واحدة إن فهمت، غير أن إطلاق لفظ الاستحالة لا يطلق على الله وإن كان قد أطلق على نفسه التحول فنقف عنده مع معقولية ما ذكرناه فما ثم إلا الله والتوجه وقبول الممكنات لما أراد الله بذلك التوجه فهذه ثلاثة لا بد منها ومن ظهور حكمها فالغروب لا يكون إلا عن طلوع من طالع ثم غرب، والظهور لا يكون إلا من بطون لا عن بطون وأعني بقولي لا عن بطون أنه لم يكن ظاهراً ثم بطن ثم ظهر عن ذلك البطون بل لم يزل باطناً ثم أظهره الله فظهر لنفسه.

وصل: لما كان الوصف النفسي للموصوف لا يتمكن رفعه إلا ويرتفع معه الموصوف لأنه عين الموصوف ليس غيره وكان تقدم العدم للممكنات نعتاً نفسياً لأن الممكن يستحيل عليه الوجود أزلاً فلم يبق إلا أن يكون أزليّ العدم، فتقدم العدم له نعت نفسي والممكنات متميزة الحقائق والصور في ذاتها لأن الحقائق تعطي ذلك، فلما أراد الله أن يلبسها حالة الوجود وما ثم إلا الله وهو عين الوجود وهو الموجود ظهر تعالى للمكنات باستعدادت الممكنات وحقائقها فرأت نفسها بنفسها في وجود موجدها وهي على حالها من العدم، فإن

لها الإدراكات في حال عدمها كما أنها مدركة للمدرك لها في حال عدمها، ولذا جاء في الشرع أن الله يأمر الممكن بالتكوين فيتكون، فلولا أن له حقيقة السمع وأنه مدرك أمر الحق إذا توجه عليه لم يتكون ولا وصفه الله بالتكون ولا وصف نفسه بالقول لذلك الشيء المنعوت بالعدم، فكذلك للممكن جميع القوى التي يدرك بها المدركات التي تخص هذه الإدراكات، فلما أمرها بالتكوين لم تجد وجوداً تتصف به، إذ لم يكن ثم إلا وجود الحق فظهرت صوراً في وجود الحق، فلذلك تداخلت الصفات الإلهية والكونية، فوصف الخلق بصفات الحق ووصفت الحق بصفات الخلق، فمن قال: ما رأيت إلا الله صدق، ومن قال: ما رأيت إلا العالم صدق، ومن قال: ما رأيت شيئاً صدق لسرعة الاستحالة وعدم الثبات فيقول: ما رأيت شيئاً، ومن قال: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله فهو ما قلنا أن للممكن إدراكاً في حال عدمه فإذا جاءه الأمر الإلهي بالتكوين لم يجد إلا وجود الحق فظهر فيه لنفسه فرأى الحق قبل رؤية نفسه، فلما لبسه وجود الحق رأى نفسه عند ذلك فقال: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله أي قبل أن يتكون فيه، فيقبل الحق صورة ذلك الشيء، فمن لم يعلم الأمر هكذا وإلا فما علم الحق ولا الخلق ولا هذه النسب فـ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ بالصورة للاستحالات ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] والضمير في وجهه يعود على الشيء، فالشيء هالك من حيث صورته غير هالك من حيث وجهه وحقيقته، وليس إلا وجود الحق الذي ظهر به لنفسه له الحكم أي لذلك الشيء الحكم في الوجه، فتختلف عليه الأحكام باختلاف الصور ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] في ذلك الحكم أي إلى ذلك الشيء يرجع الحكم الذي حكم به على الوجه. فالحكم والتحكيم للإحالة لأنها المقصود لا محالة، فما ثم إلا هلاك وإيجاد في عين واحدة لا تبديل إلا لله لا تبديل لخلق الله ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤] بل التبديل له كما له الأمر من قبل ومن بعد يقضي بذلك كونه أخبر عن نفسه أنه الأول والآخر من عين واحدة فليس إلا صور ظاهر هنا وفي البرزخ والآخرة وهو الذي جاء به قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠] توهموا ذاك وما حققوا لذلك قالوا: ﴿كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢] فلو رأوها لرأوا أنها ليست سوى أعيانها الظاهرة، فما أحالوها ولا عرجوا عنها لكونهم ما نظرت أعينهم إلا إليها، فكيف ينكرون ما رأوه أو يجحدون عن نفوسهم ما تيقنوه؟ ومن لم يكن له هذا الإدراك فقد حرم العلم والمعرفة التي أعطاها الشهود والكشف.

وفي هذا المنزل من العلوم: علم المعجزات، وعلم الطمس، وعلم التتالي وتتابع الموجودات في الخلق، وفيه علم اليقين، وفيه علم ما يحصل بالخبر، وفيه ما علم ما يحمد ويذم، وفيه علم الغضب ولا يقع إلا ممن لم يعط الأمور حقها في حدودها، وفيه علم الرحمة بالضعفاء والخلق كلهم ضعفاء بالأصالة فالرحمة تشملهم، وفيه علم ورث الكون للأسماء الإلهية، وفيه علم التمكين، وفيه علم الأشهاد، وفيه علم البيان لتمييز ما يحذر وما لا يحذر، وفيه علم إلحاق الإناث بالذكور وهو إلحاق المنفعل بالفاعل من حيث ما ينفعل عنه منفعل آخر حتى ينتهي الأمر إلا منفعل آخر لا ينفعل عنه منفعل، كما ينتهي الأمر من

الطرف الآخر إلى فاعل لا يكون منفعلاً عن فاعل وهو الحق تعالى، وفيه علم اختلاف الوجوه في العين الواحدة، وفيه علم الآثار وما تعطي العالم بها من العلوم، ومن هنا أخذ السامري القبضة من أثر جبريل فلولا علمه بما تعطيه الآثار ما فعل، ومن هذا الباب الذين يقصون الأثر في طلب الشيء، ومن هذا الباب تعرف أقدام السعداء من أقدام الأشقياء إذا رأى صاحب هذا العلم وطأتهم في الأرض وإن لم ير أشخاصهم فإذا رأى أثر أرجلهم حكم عليهم بما يظهر له، وفيه علم التعريض وقولهم في المثل السائر: إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب، وفيه علم التورية ولذلك كان ﷺ إذا أراد غزو جهة ورى بغيرها، وفيه علم ما تعطيه الأسباب من الحكم في العالم، وفيه علم حكم الأحوال على الرجال الأقوياء بل حكم الأحوال على كل شيء، ومن هذا الباب رضي الله عن المطيع وغضبه على من يشاء من العصاة، وفيه علم من أين نصر الشخص من يشبهه في الصفة إذا تعدى عليه آخر وهو ضدّ لمماثله بالجسد الذي ركبه الله عليه ويظهر ذلك في الحيوان كثيراً، وفيه علم الأسباب التي تورث الالتجاء إلى الله عز وجل وهي أسباب القهر، وفيه علم سفر الخواطر وسفر الأجسام وما ينتج كل سفر منها، وفيه علم من أين يترك الإنسان طلب ما هو محتاج إليه بالطبع مثل قول بعضهم في أن الفقير من ليست له إلى الله حاجة وهذا وإن كان لفظه في غاية القبح فهو من جهة المعنى في غاية الحسن لأنه أرفع درجات التسليم، وصاحب هذا المقام هو الذي اتخذ الله وكيلاً لعلمه بأنه تعالى أعلم بما يصلح لهذا العبد فلا يعين له العبد حاجة لجهله بالمصالح، فالفقير ليست له إلى الله حاجة معينة بل ردّ أمره كله إلى الله. وفيه علم ما ينتج من له هذا المقام وكان حاله، وفيه علم من عرف مقدار النساء ومنزلتهن في الوجود ولهذا حببهن الله لمحمد ﷺ فإنه من أسرار الاختصاص، ولما علم الله موسى عليه السلام قدر هذا استأجر نفسه في مهر امرأة عشر سنين وأعني بالنساء الأنوثة السارية في العالم وكانت في النساء أظهر فلهذا حببت لمن حببت إليه، فإن النظر العقلي لا يعطي ذلك لبعده عن الشهوة الطبيعية، وما علم هذا العقل أنه ما تنزه عن الشهوة لطبيعية الحيوانية في زعمه إلا بالشهوة الطبيعية، فما زهد في شيء إلا بما زهد فيه فما خرج عن حكمه وهذا أجهل الجاهلين، ولو لم يكن من شرف النساء إلا هيئة السجود لهن عند النكاح والسجود أشرف حالات للعبد في الصلاة، ولولا خوفي أن أثير الشهوة في نفوس السامعين فيؤدّي ذلك إلى أمور يكون فيها حجاب الخلق عما دعاهم الحق إليه لجهلهم بما كنت أذكره في ذلك ولكن له مواطن يستعمل فيها لأظهرت من ذلك ما لا يظهر على فضله فضل شيء ولذلك قرن معه حب الطيب والصلاة ومن أسماء الله تعالى الطيب، ولو نظرت فيما أنتج الله من الكلام الإلهيّ لموسى عليه السلام حين خرج ساعياً لأهله لما كانوا يحتاجون إليه من النار، فبسعيه على عياله واستفراغه ناداه الحق وكلمه في عين حاجته وهي النار فقال له: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [النمل: ٨]. وفيه علم وجود الحق في عين الخلاف يوجد في عين الاتفاق لمن عقل، وفيه علم افتقار الأعلى إلى الأدنى وحاجته إليه وهذا العلم من أصعب العلوم لدقة ميزانه فإنه ما كل أحد يقدر

يزن بهذا الميزان ولا سيما في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧] فمن أي شيء تحفظ في قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ ونحن نعلم أنه لا يطعم ولا يطلب الرزق من عباده بل هو الرزاق ذو القوّة لما كانت القوّة فينا للغذاء فقال: ﴿أَن يُطْعِمُونِ﴾ فتكون قوّتي مما طمعت بل لي القوّة من غير غذاء ولا طعام، وفيه علم الإمامة في العالم وأنه لا يجتمع أمر العالم إلا بها ولا تكون المصالح إلا بها، وفيه علم تعليم العلم، وفيه علم الغيب الإضافيّ وما ثم غيب مطلق، وفيه علم من طلب شيئاً فلما أعطيه ردّه ولم يقبله، فما السبب الذي حمل الطالب على طلبه؟ وما السبب الذي جعله يردّه ولا يقبله؟ فينبني على هذا علم السبب المؤدّي إلى الطلب على الإطلاق من غير تخصيص طالب من طالب، وفيه علم ما يتبع الشخص إلا من له الحكم فيه، وما يحكم فيه إلا من له التعشق به وهذا اتباع الاختيار لا اتباع الجبر، فإن اتباع الجبر قد لا يكون له حكم ما ذكرناه، وإن كان العاشق مجبوراً للعشق القائم به ولكن الفرق ظاهر بين الحركتين، وفيه علم التوصيل وما ينتج، وفيه علم الأصناف الذين يضاعف لهم العطاء في الآخرة، وفيه علم ما ينبغي أن يطلب له العالم، وفيه علم ما يحذر من الاتباع وما لا يحذر وما يذم من الحذر وما لا يذم، وفيه علم السبب الموجب لهلاك ما يهلك من العالم، وفيه علم المفاضلة في العالم بالمراتب، وفيه علم الأنساب والأحساب وما يقع به الشرف في الانتساب وما لا يقع ونهى النبيّ ﷺ عن الطعن في الأنساب، وفيه علم الأهوال الشاغلة، وفيه علم الجبر ومن هو المجبور، وفيه علم التنزيه، وفيه علم عواقب الثناء وأوائله، وفيه علم الأحكام ولمن تنسب ومن يحكم بها، وفيه علم التقدير الذي لم يقع ولو وقع ما ينتج وهل ترك وقوعه من باب الرحمة بالعالم أم لا؟ وفيه علم إقامة الحجج، وفيه علم الابتلاء وما فائدته، وفيه علم صنعة الكيمياء، وفيه علم الاعتبار، وفيه علم التمني وما يفيد منه وينفع المتمني وما لا يفيد ولا ينفع، وفيه علم أهلية كل موجود لما أهل له، وفيه علم من جازى بأفضل مما عمل له، ومن أجاب بأكثر مما سئل عنه، وفيه علم ما نهي عنه المؤمن هل هو بقاء على الأصل لأنه ترك ولماذا تأخر عن الأمر وكلاهما حكم الله. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والخمسون وثلاثمائة

في معرفة منزل البهائم من الحضرة الإلهية وقهرهم تحت سرين موسويين

[البسيط]:

هَيْهَاتَ ما تُسْدَلُ الأستارُ والكِلَلُ ... إلا لأمرٍ عظيمٍ كُلُّه جَلَلُ
لو أنّ ما سَتَرتْ يَبْدُو لأعْيُنِنا ... لَمَا بَدَتْ نِحَلٌ فينا ولا مِلَلُ
ولا بدا عَرَضٌ في طَيِّهِ مَرَضٌ ... ولا دواءٌ ولا طِبٌّ ولا عِلَلُ
ولا جديدٌ تكون النفسُ تَلْبَسُهُ ... ولا التوسُّط منه لا ولا الثَّمَلُ

إنّ السُّتُورَ تُرَى في العين صُورتُها ... وليس يُذركها في ذلكم مَلَلُ

وأعْيُنُ الكَوْن خَلْفَ السّتْر ناظرةٌ ... والحُجْبُ تُبْصر ما لا تُبْصرُ المُقَلُ

اعلم أيدك الله أيها الطالب أن معرفة الأمور على ما هي عليه في أنفسها أنك لا تعلم ذلك إلا إذا أوقفك الله عليك من نفسك وأشهدك ذلك من ذاتك، فيحصل لك ما طلبته ذوقاً عندما تقف عليه كشفاً، ولا سبيل إلى حصول ذلك إلا بعناية أزلية تعطيك استعداداً تاماً لقبوله برياضات نفسية ومجاهدات بدنية، وتخلق بأسماء إلهية، وتحقق بأرواح طاهرة ملكية، وتطهير بطهارة شرعية مشروعة لا معقولة وعدم تعلق بأكوان، وتفريغ محل عن جميع الأغيار لأن الحق ما اصطفى لنفسه منك إلا قلبك حين نوّره بالإيمان فوسع جلال الحق فعاين من هذه صفته الممكنات بعين الحق فكانت له مشهودة وإن لم تكن موجودة فما هي له مفقودة، وقد كشف لبصيرته بل لبصره وبصيرته نور الإيمان حين انبسط على أعيان الممكنات، أنها في حال عدمها مرئية رائية مسموعة سامعة برؤية ثبوتية وسمع ثبوتي لا وجود له، فعين الحق ما شاء من تلك الأعيان فوجه عليه دون غيره من أمثاله قوله المعبر عنه باللسان العربيّ المترجم بكن فأسمعه أمره فبادر المأمور فتكون عن كلمته لا بل كان عين كلمته، ولم تزل الممكنات في حال عدمها الأزلي لها تعرف الواجب الوجود لذاته وتسبحه وتمجده بتسبيح أزلي وتمجيد قديم ذاتي ولا عين لها موجودة ولا حكم لها مفقود، فإذا كان حال الممكنات كلها على ما ذكرناه من هذه الصفات التي لا جهل معها فكيف تكون في حال وجودها وظهورها لنفسها جماداً لا ينطق؟ أو نباتاً بتعظيم خالقه لا يتحقق؟ أو حيواناً بحاله لا يصدق؟ أو إنساناً بربه لا يتعلق؟ هذا محال، فلا بدّ أن يكون كل ما في الوجود من ممكن موجود يسبح الله بحمده بلسان لا يفقه ولحن ما إليه كل أحد يتنبه فيسمعه أهل الكشف شهادة ويقبله المؤمن إيماناً وعبادة فقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] فجاء باسم الحجاب والستر وهو قوله: ﴿غَفُورًا﴾ وجاء بالاسم الذي يقتضي تأخير المؤاخذة إلى الآجل وعدم حكمها في العاجل وهو الحليم لما علم أن في عباده من حرم الكشف والإيمان وهم العقلاء عبيد الأفكار والواقفون مع الاعتبار، فجازوا من الظاهر إلى الباطن مفارقين الظاهر فعبروا عنه إذ لم يكونوا أهل كشف ولا إيمان لما حجب الله أعينهم عن مشاهدة ما هي عليه الموجودات في أنفسها ولا رزقوا إيماناً في قلوبهم يكون له نور يسعى بين أيديهم. وأما المؤمنون الصادقون أولو العزم من الأولياء فعبروا بالظاهر معهم لا من الظاهر إلى الباطن وبالحرف عينه إلى المعنى ما عبروا عنه فرأوا الأمور بالعينين وشهدوا بنور إيمانهم النجدين، فلم يتمكن لهم إنكار ما شهدوه ولا جحدوا ما تيقنوه، فأسمعهم الله نطق الموجودات لا بل نطق الممكنات قبل وجودها فإنها حية ناطقة دراكة بحياة ثبوتية ونطق ثبوتي وإدراك ثبوتي، إذ كانت في أنفسها أشياء ثبوتية، فلما قبلت شيئية الوجود قبلتها بجميع نعوتها وصفاتها وليس نعتها سوى عينها، فهي في حال شيئية وجودها حية بحياة وجودية، ناطقة بنطق وجودي، دراكة بإدراك وجودي، إلا أن الله

سبحانه أخذ بأبصار بعض عباده عن إدراك هذه الحياة السارية والنطق والإدراك الساري في جميع الموجوات، كما أخذ الله ببصائر أهل العقول والأفكار عن إدراك ما ذكرناه في جميع الموجودات وفي جميع الممكنات، وأهل الكشف والإيمان على علم مما هو الأمر عليه في هذه الأعيان في حال عدمها ووجودها، فمن ظهرت حياته سمي حياً، ومن بطنت حياته فلم تظهر لكل عين سمي نباتاً وجماداً، فانقسم عند المحجوبين الأمر وعند أهل الكشف والإيمان: لم ينقسم، فأما صاحب الكشف والشهود أهل الاختصاص فقد أعطاهم الشهود: وما أعطى المحجوبين شهودهم فيقول أهل الشهود: سمعنا ورأينا، ويقول المحجوبون: ما سمعنا ولا رأينا، ويقول أهل الإيمان: آمنا وصدقنا، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] و«شيء» نكرة، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨] فذكر الجماد والنبات والحيوان الذين وقع فيهم الخلاف بين المحجوبين من أهل العقول والأفكار وبين أهل الشهود والإيمان وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٤٩] وقال: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣] وقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥] وقال: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٨، ١٩] وقال: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦] وقال عن الهدهد إنه قال لسليمان: إني ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٢ ـ ٢٤] فانظر فيما أعطى الله هذا الهدهد من العلم بالله فيما ذكره. وقال تعالى: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [النمل: ٨٢] ثم أخبر أن طائفة من العباد لا توقن بذلك وتخرجه بالتأويل عن ظاهره فقال: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢] أي لا يستقر الإيمان بالآيات التي هذه الآية منها في قلوبهم بل يقبلون ذلك إيماناً، وطائفة منهم تتأوّل ذلك على غير وجهه الذي قصد له وقال ﷺ: «**يَشْهَدُ لِلْمُؤَذِّنِ مَدَى صَوْتِهِ مِنْ رَطْبٍ وَيَابِسٍ**». وقال في أحد: «**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنا وَنُحِبُّهُ**» وقال: «**إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَراً بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ**» ثم إنه قد صح أن الحصى سبح في كفه، وصح حنين الجذع إليه الذي كان يستند إليه إذا خطب الناس قبل أن يعمل له المنبر فلما صنع له المنبر تركه فحن إليه فنزل من منبره وأتاه فلمسه بيده حتى سكن. وصح أن كتف الشاة المسموم كلمه. وقال ﷺ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذَبَةُ سَوْطِهِ وَتُخْبِرَهُ فَخِذُهُ بِمَا فَعَلَ أَهْلُهُ بَعْدَهُ**» وثبت عنه في قتل اليهود في آخر الزمان: «**إِذَا اسْتَتَرَ اليَهُودُ خَلْفَ الشَّجَرِ يَقُولُ الشَّجَرُ: يا مُسْلِمُ هٰذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي اقْتُلْهُ إِلاَّ شَجَرَةَ الغَرْقَدِ فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ لاَ تُنَبِّهُ عَلَى مَنْ يَسْتَتِرُ بِهَا مِنَ اليَهُودِ**». وهنا سرّ إلهيّ عجيب يعلم أن من الأشجار من راعى حق من استجار به اعتماداً من تلك الشجرة على رحمة الله ووفاء لحق الجوار وهو من الصفات المحمودة في كل طائفة وفي كل ملة. وقال رسول الله ﷺ لابنة عمه أم هانيء: «**قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِيءٍ**» وكان مشركاً واليهود

أهل كتاب على كل حال فهم أولى بأن يوفى لهم بحق الجوار، وكان هذا من الله في حق هذه الشجرة التي استجار بها اليهود فسترتهم ليتحقق عندنا قوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٧٤] فجاء بلفظة «من» وهي نكرة فدخل تحتها كل شيء لأن كل شيء حيّ ناطق فيدخل تحت قوله من لأن بعض النحاة يعتقدون أن لفظة «من» لا تقع إلا على من يعقل؛ وكل شيء يسبح بحمد الله، ولا يسبح إلا من يعقل من يسبحه ويثني عليه بما يستحقه، فمن تقع على كل شيء إذ كل شيء يعقل عن الله ما يسبحه به، فالله تعالى يرزقنا الإيمان إذا لم نكن من أهل العيان والكشف والشهود لهذه الأمور التي أعمى الله عنها أهل العقول الذين تعبدتهم أفكارهم، وغير المؤمنين الذين طمس الله على قلوبهم.

فمن علم أن كل شيء ناطق ناظر إلى ربه لزمه الحياء من كل شيء حتى من نفسه وجوارحه فإن الله يقول: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥] يعني بالشهادة عليكم ﴿ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] فيا ولي لا تكن الجلود أعلم بالأمر منك مع دعواك أنك من أهل العقل والاستبصار، فهذه الجلود قد علمت نطق كل شيء وأن الله منطقه بما شاء، ثم قال: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢] أي هذا لا يمكن الاستتار منه لأنكم ما تعملون الذي تأتونه من المنكرات إلا بالجوارح فإنها عين الآلة تصرّفونها في طاعة الله أو معصيته، فلا يتمكن لكم الاستتار عما لا يمكنك العمل إلا به ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢] خطاب لمن يعتقد أن الله لا يعلم الجزئيات خاصة، ثم قال: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣] والخسران ضدّ الربح وهو نقص من رأس المال لما كان الأمر تجارة اتصف بالربح والخسران يقول تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ عقيب قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦] فلما باعوا الهدى بالضلالة خسروا. وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] ثم ذكر ما هي التجارة فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١١] وإنما عدل في هذه الأمور إلى التجارة دون غيرها، فإن القرآن نزل على قرشيّ بلغة قريش بالحجاز وكانوا تجاراً دون غيرهم من الأعراب، فلما كان الغالب عليهم التجارة كسى الله ذات الشرع والإيمان لفظ التجارة ليكون أقرب إلى أفهامهم ومناسبة أحوالهم.

وبعد أن أبنت لك عن الأمور على ما هي عليه إن كنت ذا نظر أو إيمان فإني ما أخبرتك إلا بممكن ما أخبرتك بمحال، فلنقل بعد هذا البيان الشافي والإيضاح الكافي لأهل طريق الله خاصة وخاصته من عباده من مكاشف ومؤمن أن البهائم ما اختصت بهذا الاسم المشتق من الإبهام والمبهم إلا لكون الأمر أبهم علينا، فإنا قد بينا لك ما هي عليه من المعرفة بالله وبالموجودات، وإنما سميت بذلك لما انبهم علينا من أمرها، فإبهام أمرها إنما هو من حيث جهلنا ذلك أو حيرتنا فيه، فلم نعرف صورة الأمر كما يعرفه أهل الكشف فهي

عند غير أهل الكشف والإيمان بهائم لما انبهم عليهم من أمرها لما يرون من بعض الحيوان من الأعمال الصادرة عنها التي لا تصدر إلا عن فكر وروية صحيحة ونظر دقيق يصدر منهم ذلك بالفطرة لا عن فكر ولا روية، فأبهم الله على بعض الناس أمرهم، ولا يقدرون على إنكار ما يرونه مما يصدر عنهم من الصنائع المحكمة، فذلك جعلهم يتأوّلون ما جاء في الكتاب والسنة من نطقهم ونسبة القول إليهم ليت شعري ما يفعلون فيما يرونه مشاهدة في الذي يصدر عنهم من الأفعال المحكمة كالعناكب في ترتيب الحبالات لصيد الذباب الذي جعل الله أرزاقهم فيه، وما يدخره بعض الحيوان من أقواتهم على ميزان معلوم وقدر مخصوص وعلمهم بالأزمان واحتياطهم على نفسهم في أقواتهم، فيأكلون نصف ما يدخرونه خوف الجدب، فلا يجدون ما يتقوتون به كالنمل، فإن كان ذلك عن نظر فهم يشبهون أهل النظر، فأين عدم العقل الذي ينسب إليهم، وإن كان ذلك علماً ضرورياً فقد أشبهونا فيما لا ندركه إلا بالضرورة، فلا فرق بيننا وبينهم لو رفع الله عن أعيننا غطاء العمى كما رفعه الله عن أبصار أهل الشهود وبصائر أهل الإيمان وفي عشق الأشجار بعضها بعضاً التي لها اللقاح فإن ذلك فيها أظهر آيات لأهل النظر إذا أنصفوا.

واعلم أن العاقل كان من كان من أي أصناف العالم إن شئت إذا أراد أن يوصل إليك ما في نفسه لم يقتصر في ذلك التوصيل على العبارة بنظم حروف ولا بدّ فإن الغرض من ذلك إذا كان إنما هو إعلامك بالأمر الذي في نفس ذلك المعلم إياك، فوقتاً بالعبارة اللفظية المنطوق بها في اللسان المسماة في العرف قولاً وكلاماً، ووقتاً بالإشارة بيد أو برأس أو بما كان، ووقتاً بكتاب ورقوم، ووقتاً بما يحدث من ذلك المريد إفهامك بما يريد الحق أن يفهمك فيوجد فيك أثراً تعرف منه ما في نفسه ويسمى هذا كله أيضاً كلاماً كما قال تعالى: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [النمل: ٨٢] فأخبر أنها تكلمنا، وذلك أنها إذا خرجت من أجياد وهي دابة أهلب كثيرة الشعر لا يعرف قبلها من دبرها يقال لها الجساسة فتنفخ فتسم بنفخها وجوه الناس شرقاً وغرباً جنوباً وشمالاً براً وبحراً، فيرتقم في جبين كل شخص ما هو عليه في علم الله من إيمان وكفر، فيقول من سمته مؤمناً لمن سمته كافراً يا كافر أعطني كذا وكذا وما يريد أن يقول له، فلا يغضب لذلك الاسم لأنه يعلم أنه مكتوب في جبينه كتابة لا يمكنه إزالتها، فيقول الكافر للمؤمن: نعم أو لا في قضاء ما طلب منه بحسب ما يقع فكلامها المنسوب إليها ما هو في العموم سوى ما وسمت به الوجوه بنفختها، وإن كان لها كلام مع من يشاهدها أو يجالسها من أي أهل لسان كان فهي تكلمه بلسانه من عرب أو عجم على اختلاف اصطلاحاتهم يعلم ذلك كله، وقد ورد حديثها في الخبر الصحيح الذي ذكره مسلم في حديث الدجال حين دلت تميماً الداري عليه وقالت له إنه إلى حديثك بالأشواق وهي الآن في جزيرة في البحر الذي يلي جهة الشمال وهي الجزيرة التي فيها الدجال.

واعلم أنه ما من صورة في العالم الأسفل إلا ومثلها في العالم العلوي، فصور العالم العلوي تحفظ على أمثالها في العالم السفلي الوجود ويؤثر فيها ما تجده من العلم بالأمور التي

لا تقدر على إنكارها من نفسها لتحققها بما تجده، فهذا أثر الصور العلويات الفلكيات في الصور السفليات العنصريات، وتؤثر الصور العنصريات السفليات في الصور العلويات الفلكيات الحسن والقبح والتحرّك بالوهب لما تحتاج إليه بما هي عليه من الاستعدادات، فلا تقدر الصور العلويات أن تحفظ نفسها عن هذا التأثير لأن لهذا خلقت، وبين العالمين رقائق ممتدّة من كل صورة إلى مثلها متصلة غير منقطعة على تلك الرقائق يكون العروج والنزول فهي معارج ومدارج، وقد يعبر عنها بالمناسبات، وبين تلك الصور العلويات الفلكيات وبين الطبيعة رقائق ممتدّة عليها ينزل من الطبيعة إلى هذه الصور ما به قوام وجودها، فإذا انصبغت بذلك أفاضت على الصور السفليات العنصريات ما به قوام وجودها، ولكن من حيث ما هي أجسام وأجساد لا غير ليحفظ عليها صورها، وبين هذه الصور العلويات الفلكيات وبين النفس الكلية التي عبر عنها الشارع ﷺ عن الله باللوح المحفوظ لما حفظ الله عليه ما كتب فيه فلم ينله محو بعد ذلك ولا تبديل، فكل شيء فيه وهو المسمى في القرآن بكل شيء تسمية إلهية، ومنه كتب الله كتبه وصحفه المنزلة على رسله وأنبيائه مثل قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وهو اللوح المحفوظ، ففصلت الكتب المنزلة مجملة وأبانت عن موعظته، فبين هذه الصور وبين هذه النفس رقائق ممتدة من حيث أرواحها المدبرة لصور أجسادها تنزل عليها العلوم والمعارف بما شاء الله إمّا من العلم به أو العلم بما شاء من المعلومات الموجودات والمعقولات، فإذا حصلت أرواح هذه الصور العلويات الفلكيات ما شاء الله من العلوم التي هي لها بمنزلة الغذاء لصورها الجسمية فبه قوام وجودها ونعيمها ولذتها، فإذا انصبغت بتلك الأنوار وتحققت بها أفاضت على نفوس الصور السفليات العنصريات من تلك العلوم بحسب ما قبله استعدادها فيتفاضلون في العلم لتفاضل الاستعداد ثم يعلم بعضهم بعضاً، وليس التعليم إلا رفع الحجب التي حجبها استعدادهم عن قبول ذلك الفيض، فكنى عن ذلك الرفع بالتعليم، فلم يكن التعليم، إلا من ذلك الفيض من تلك الصور العلويات الفلكيات كما يرفع المانع الذي يمنع الماء عن جريته، فإذا رفعته جرى الماء في ذلك الموضع الذي كان المانع يمنع من جريته عليه، ففاتح هذا السد لم يجر الماء، كذلك المعلم من هذه الصور السفليات لغيرها من أمثالها إنما رفع عنها حجاب الجهل والشك فانكشف لذلك الفيض الروحاني فقبلت من العلوم ما لم يكن عندها فتخيلت أن المعلم لها من رفع غطاء جهلها وليس الأمر كذلك فافهم.

وبين هذه الصورة العلويات الفلكيات وبين الصور السفليات العنصريات رقائق ممتدة للأسماء الإلهية والحقائق الربانية وهي الوجوه الخاصة التي لكل ممكن الذي صدر منه عن كلمة ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] بالتوجه الإراديّ الإلهي الذي لا يعلمه المسبب عنه من غيره، وإن كان له وجه خاص من نفسه يعلم ذلك أو يجهله، ومن ذلك الوجه يفتقر كل شيء إلى الله لا إلى سببه الكوني، وهو السبب الإلهيّ الأقرب من السبب الكوني، فإن السبب الكوني

منفصل عنه، وهذا السبب لا يتصف بالانفصال عنه ولا بالاتصال المجاور وإن كان أقرب في حق الإنسان من حبل الوريد فقربه أقرب من ذلك، فيعطي الله تعالى لكل صورة علوية وسفلية من العلوم الاختصاصية التي لا يعلم بها إلا ذلك المعطى له خاصة ما شاء الله، وهذه هي علوم الأذواق التي لا تقال ولا تحكى ولا يعرفها إلا من ذاقها، وليس في الإمكان أن يبلغها من ذاقها إلى من لم يذقها، وبينهم في ذلك تفاضل لا يعرف ولا يمكن أن يعرف عين ما فضله به، فلما كان في العلم هذا الاختصاص كان ثم جنات اختصاص.

واعلم أنه ليس في المنازل ولا في المقامات منزل عم جميع العالم والإنسان إلا هذا المنزل فله عموم الرحمة في العالم لأن العالم من حيث حقيقته قام على أربعة أركان في صورته الجسمية والروحانية، فهو من حيث طبيعته مربع، ومن حيث روحه مربع، فمن حيث جسده ذو أربع طبائع عن أركان أربعة، ومن حيث روحه عن أم وأب ونفخ وتوجه فجاءته الرحمة من أربعة وجوه لكل وجه رحمة تخصه، فالرحمة التي تبقي عليه رطوبته حتى لا تؤثر فيها يبوسته غير الرحمة التي تحفظ عليه يبوسته لئلا تفنيها رطوبته، والرحمة التي تحفظ عليه برودته لئلا تفنيها حرارته غير الرحمة التي تحفظ عليه حرارته لئلا تفنيها برودته فتمانعت فبقيت لهذا التمانع والتكافؤ صورة الجسم ما دام هذا التكافؤ والممانعة، ومن هذا المنزل انبعثت هذه الرحمات الأربع، فمن وقف عليها من نفسه علم مآله، ومن لم يقف عليها من نفسه جهل حاله، وإنما حجب الله من حجب عن شهودها حتى لا يتكلموا كما ورد في حديث معاذ وحديث عمر وكشفها الله للأمناء حيث علم منهم أنهم لا يؤدّون الأمانة إلا لأهلها، فإن الله قد خلق للعلم أهلاً بمثل هذا، وجعل وصول العلم إليهم بمثل هذا على نوعين: إما منه إليهم، وإما من معلم قد علم أمانة غيره وهو أمين مثل ما علم من أمانته فألقى ذلك العلم إليه إذ كان من أهله وهو مأمور من الله تعالى بأداء الأمانة، فإذا وقفت على هذه الرحمات من نفسك حالت بينك وبين كل ما يؤدّي إلى بعدك عن الله تعالى وعن سعادتك واتصفت بالانقياد إلى الله في كل حال بما دعاك إليه هذا أثرها فيك إذا شاهدتها فتورثك الأدب الإلهي، ولا يكون هذا الآتي بهذا العلم إليك إلا عالماً بك وبما تكون به حياتك، وهو من الأرواح السيارة والملائكة أولي الأجنحة على طبقاتها في الأجنحة فأعلاهم أقلهم أجنحة، وأقلهم أجنحة من له جناحان، فإنه ما ثم من له جناح واحد لا مساعد له إمّا من جناح أو غيره. وقد رأينا حيواناً على فرد رجل وقد خرج من صدره شبه درة المحتسب يحرّكه تحريك الجناح ويعدو بتلك الحركة ويحرك رجله الواحدة بحيث أن السابق من الخيل لا يلحقه ما بين القل وجيجل ببلاد المغرب فلهذا لمنا من لا مساعد له، فمن الملائكة من له جناحان إلى ستمائة جناح إلى ما فوق ذلك، فهذا علم لا يأتي لمن أتى إليه إلا على يدي ملك كريم مطيع لا يعصي الله ما أمره، له جناحان ينزل بهما إلى قلب هذا العبد، فإن أجنحة الملائكة للنزول لا للصعود، وأجنحة الأجسام العنصرية للصعود لا للنزول، لأن الملائكة تجري بطبعها الذي عليه صورة أجسامها إلى أفلاكها التي عنها كان وجودها، فإن نزلت إلى الأرض نزلت طائرة بتلك

الأجنحة، وهي إذا رجعت إلى أفلاكها ترجع بطبعها بحركة طبيعية، وإن حركت أجنحتها حتى أنها لو لم تحرك أجنحتها لصعدت إلى مقرّها ومقامها بذاتها وأجسام الطير العنصري يحرك جناحه للصعود، ولو ترك تحريك جناحه أو بسطه لنزل إلى الأرض بطبعه فما يبسط جناحه في النزول إلا للوزن في النزول لأنه إن لم يزن نزوله وبقي مع طبعه تأذى في نزوله لقوّة حكم الطبع، فحركة جناحه في النزول حركة حفظ فاعلم ذلك.

واعلم أن البهائم تعلم من الإنسان ومن أمر الدار الآخرة ومن الحقائق التي الوجود عليها ما يجهله بعض الناس ولا يعلمه، كما حكي عن بعضهم أنه رأى رجلاً راكباً على حمار وهو يضرب رأس الحمار بقضيب فنهاه الرائي عن ضربه رأس الحمار فقال له الحمار: دعه فإنه على رأسه يضرب فجعله عين الحمار وعلم الحمار أنه مجازى بمثل ما فعل معه وقوله دعه لما علم الحمار ما له في ذلك من الخير عند الله أو لعلمه أيضاً بأنه ما وفى له بحق ما خلق له من التسخير فعلم أنه مستحق بالضرب، فنبه بذلك السامع له أن الشخص إذا لم يجيء بحق ما تعين عليه لصاحبه استحق الضرب أدباً وجزاء لما كان منه، وهذه كلها وجوه محققة لصورة هذا الفعل والقول من هذا الحمار إلى غير ذلك من الوجوه التي يطلبها هذا الفعل. وقال رسول الله ﷺ في ناقته لما هاجر إلى المدينة وبركت الناقة بفناء أبي أيوب الأنصاري فأراد من حضر من أصحابه ﷺ أن يقيمها والنبيّ ﷺ راكب عليها فقال: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ**»؟ وقال: «**حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ**» يعني عن مكة، وحديث الفيل مشهور الصحة، فجميع ما سوى الثقلين وبعض الناس والجان على بينة من ربهم في أمرهم من حيوان ونبات وجماد وملك وروح.

ويتضمن هذا المنزل من العلوم: علم الأعداد وعلم الحروف وهو علم الأولياء، كذا قال محمد بن علي الترمذي الحكيم، وعلم المجمل، وعلم الرحمات المختصة بالإنسان، وعلم التبيان، وعلم البشائر، وعلم مراتب الإيمان، وعلم إقامة نشأة الأعمال من المكلفين وغير المكلفين، وعلم التلقي الروحاني المظهر من الملقي الذي هو الحق لا الملك، وعلم أداء حقوق الغير، وعلم ما يكون من الله لمن مشى في حق أخيه، وعلم تولي الحق ذلك بنفسه، وعلم ما هي الحضرة الإلهية عليه من الأمان الذي لا يعلمه إلا العالمون بالله ذوقاً، وعلم تقلب الأحوال فتتقلب لتقلبهم المواهب الإلهية، وعلم الآيات والدلالات وعلى ماذا تدل واختلافها مع أحدية المدلول، وعلم ما يحجب القلب عن العلم بالشيء مع وجود البيان في ذلك، وعلم العناية الإلهية بوهب العلم، وعلم ما يحصل من العلم بطريق الورث، وعلم مراتب الحيوان وفيماذا يتفاضلون وما يكونون فيه على السواء وهل الإنسان يلحق بالحيوان أو هو نوع خاص؟ وبماذا يختص عن الحيوان وقد علمنا أن كل حيوان فهو ناطق، وعلم آداب الملوك وكيف ينبغي أن يكون الملك في ملكه ولنا في هذا الفن كتاب سميناه التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، وعلم النصائح لدفع الضرر والتوقي، وعلم التوحيد الذي يختص بالبهائم، وعلم جواز الكذب على كل ناطق مع العلم بأنه صادق ما عدا الثقلين فإنهما

قد يكذبان في كثير مما يخبرون به، وعلم اتخاذ الملوك الجواسيس وما ينبغي للجاسوس أن يظهر به من الصفات في حال تجسسه وما يحمد من ذلك وإن كان كذباً، وعلم مشورة الأعلى للأدنى مع علمه بأنه يصل إلى العلم بما يريد العلم به من غير مشورة وكون الحق تعالى أمر نبيه ﷺ بمشاورة أصحابه في الأمر الذي يعن له إذا لم يوح إليه فيه شيء، وعلم قول النبيّ ﷺ: «**تَهَادُوا تَحَابُّوا**» وما للعطاء في النفوس من الأثر القادح في الإيمان هل هو محمود أو مذموم؟ فإن الإحسان محبوب لذاته فهل المحسن مثل ذلك أم ينفصل عن الإحسان؟ فإنها مسألة خطرة عظيمة في إحسان من أمرك الله أن تعاديه فتقبل إحسانه من غير أن يؤثر فيك مودّة له إيثاراً لجناب الله وامتثالاً لأمره، وهذا هو خروج عن الطبع وهو صعب مشكل يمكن أن لا يتصوّر وقوعه، وإن لم يظهر له حكم في الظاهر فإن الباطن لا يمكن له دفع ذلك، وعلم الموازنة بين المحسنين فيما أحسنا فيه لشخص بعينه هل يقع للنفس ترجيح من حيث ما أحسنا به لا من حيث الإحسان؟ فإن وقع فيه تفاضل هان الأمر فيه على المؤمن العالم المشاهد إحسان الله العالم المسخر. وعلم الخواص والظهور به في موطن القربة إلى الله تعالى بذلك، وعلم شكر المنعم، وعلم ما تستحقه الربوبية مما لا يقع فيه اشتراك، وعلم الالتباس للابتلاء، وعلم النظر إلى المخطوبة وما أبيح للناظر أن ينظر منها شرعاً فإنه أمر بذلك، وعلم صورة تعلم العلم، وعلم الاعتراف بين يدي المعلم بالجهل، وعلم الحيل والمكر والكيد وما يذم من ذلك وما يحمد، وعلم الثناء المطلق والمقيد وهل من ثناء مطلق أو لا يصح ذلك بالحال؟ وإن أطلقه اللفظ وعلم حصر ما يتقيد به الثناء من كل مثني ومثنى عليه، وفيه علم التخيير من العالم بالحق، وفيه علم منزلة الأرض وما زينت به، وفيه علم سبب إجابة الله دعاء الكافر والمشرك ومتى يوحد المشرك ربه، وفيه علم اندراج النور في الظلمة، وفيه علم الخلق والرزق، وفيه علم القيامة، وفيه علم إنكار الممكن، وفيه علم كشف الغيب في حضرة الغيب، وفيه علم من ينادي ولا يجاب، وفيه علم هل يعم الحشر كل ميت أو لا يحشر إلا بعض الموتى؟ وفيه علم الناقور الذي هو الصور وما هو، وفيه علم أي جزاء هو أفضل من عمله أو كل جزاء أفضل من عمله وهو علم شريف، وفيه علم عبادة الرب من حيث ما هو مضاف إلى كونٍ ما، وفيه ما تعطي الرؤية من علم ما كان يعلم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والخمسون وثلاثمائة

في معرفة منزل ثلاثة أسرار مختلفة الأنوار والقرار والأبدار وصحيح الأخبار

[البسيط]:

إنَّ الـمَـقَـادِيـر أوزانٌ مُـنَـظَّـمَـةٌ تـأتـي بـهـا ظُـلَـلٌ مِـنْ فـوقـهـا ظُـلَـلُ
مـن الـغَـمَـام ومـنْ غـيـر الـغـمـام يُـرَى عـنـد الـتَّـنَـزُّل فـي إعـجـازهـا كَـلَـلُ
تـحوي عـلى كـلّ مَـعْـنًـى لـيس يُـظْـهِـرُهُ إلا الـخَـطَـابـةُ والأشـعـارُ والـمَـثَـلُ

فَمِنْهُ ما هُوَ مَحْمودٌ فَمُرْتَفِعٌ ... ومنه ما هو مَذْمُوم فَمُنْسَفِلُ
ومَنْ ينازعني فيما أفُوهُ به ... فالناسُ كُلُّهُم أعداءُ ما جَهِلُوا

اعلم أسعدنا الله وإياك بسعادة الأبد أن النفس الناطقة سعيدة في الدنيا والآخرة لاحظ لها في الشقاء لأنها ليست من عالم الشقاء، إلا أن الله أركبها هذا المركب البدني المعبر عنه بالنفس الحيوانية فهي لها كالدابة وهي كالراكب عليها، وليس للنفس الناطقة في هذا المركب الحيواني إلا المشي بها على الطريق المستقيم الذي عينه لها الحق، فإن أجابت النفس الحيوانية لذلك فهي المركب الذلول المرفاض، وإن أبت فهي الدابة الجموح كلما أراد الراكب أن يردّها إلى الطريق حرنت عليه وجمحت وأخذت يميناً وشمالاً لقوّة رأسها وسوء تركيب مزاجها، فالنفس الحيوانية ما تقصد المخالفة ولا تأتي المعصية انتهاكاً لحرمة الشريعة، وإنما تجري بحسب طبعها لأنها غير عالمة بالشرع، أو اتفق أنها على مزاج لا يوافق راكبها على ما يريد منها، والنفس الناطقة لا يتمكن لها المخالفة لأنها من عالم العصمة والأرواح الطاهرة، فإذا وقع العقاب يوم القيامة فإنما يقع على النفس الحيوانية، كما يضرب الراكب دابته إذا جمحت وخرجت عن الطريق الذي يريد صاحبها أن يمشي بها عليه، ألا ترى الحدود في الزنى والسرقة والمحاربة والافتراء إنما محلها النفس الحيوانية البدنية وهي التي تحس بألم القتل وقطع اليد وضرب الظهر؟ فقامت الحدود على الجسم وقام الألم بالنفس الحساسة الحيوانية التي يجتمع فيها جميع الحيوان المحس للآلام، فلا فرق بين محل العذاب من الإنسان وبين جميع الحيوان في الدنيا والآخرة والنفس الناطقة على شرفها مع عالمها في سعادتها الدائمة. ألا ترى إلى النبيّ ﷺ قد قام لجنازة يهوديّ فقيل له: إنها جنازة يهودي فقال ﷺ: «**أَلَيسَتْ نَفْساً**» فما علل بغير ذاتها فقام إجلالاً لها وتعظيماً لشرفها ومكانتها، وكيف لا يكون لها الشرف وهي منفوخة من روح الله، فهي من العالم الأشرف الملكي الروحاني عالم الطهارة فلا فرق بين النفس الناطقة مع هذه النفس البدنية الحيوانية وبين الراكب على الدابة في الصورة فإما جموح وإما ذلول، فقد بان لك أن النفس الناطقة ما عصت وإنما النفس الحيوانية ما ساعدتها على ما طلبت منها، وأن النفس الحيوانية ما خوطبت بالتكليف فتتصف بطاعة أو معصية فاتفق أن كانت جموحاً اقتضاه طبعها لمزاج خاص فاعلم ذلك وأن الله يعم برحمته الجميع، فإن رحمة الله سبقت غضبه لما تجاريا إلى الإنسان.

واعلم أن الله تعالى لم يزل ناظراً إلى أعيان الأشياء الممكنة في حال عدمها، وأن الجود الإلهي لا يزال يمتن عليها بالإيجاد على ما سبق العلم به من تقدم بعضها على بعض في الوجود بالإيجاد، ولما كان ما به بقاء عين الجوهر الكل لا يتمكن إلا بقيام بعض الممكنات به مما لا يقوم بنفسه منها لم يزل الحفظ الإلهيّ يحفظ عليها بقاءها به وهي في ذاتها لا تقبل البقاء إلا زمان وجودها، فلا يزال الجود الإلهيّ يوجد لهذا الجوهر الكل الذي فتح الله فيه صور العالم ما به بقاؤه من الممكنات الشرطية، فلا يزال الله خالقاً على الدوام حافظاً له على

الدوام، وكذلك سبحانه وتعالى لولا أنه أسرى بسر الحياة في الموجودات ما كانت ناطقة، ولولا سريان العلم فيها ما كانت ناطقة بالثناء على الله موجدها ولهذا قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] فأتى بلفظ النكرة وما خص شيئاً ثابتاً من شيء موجود، لأنها قبلت شيئية الوجود على الحال التي كانت عليها في شيئية الثبوت، وقد أعلمنا الله أنه خاطبها في حال عدمها، وأنها امتثلت أمره عند توجه الخطاب، فبادرت إلى امتثال ما أمرها به، فلولا أنها منعوتة في حال عدمها بالنعوت التي لها في حال وجودها ما وصفها الحق بما وصفها به من ذلك وهو الصادق المخبر بحقائق الأشياء على ما هي عليه، فما ظهرت أعيان الموجودات إلا بالحال التي كانت عليها في حال العدم، فما استفادت إلا الوجود من حيث أعيانها ومن حيث ما به بقاؤها، فكل ما هي عليه الأعيان القائمة بأنفسها ذاتي لها، وإن تغيرت عليها الأعراض بالأمثال والأضداد إلا أن حكمها في حال عدمها ليس حكمها في حال وجودها من حيث أمر ما، وذلك لأن حكمها في حال عدمها ذاتي لها ليس للحق فيها حكم، ولو كان لم يكن لها العدم صفة ذاتية، فلا تزال الممكنات في حال عدمها ناظرة إلى الحق بما هي عليه من الأحوال لا يتبدل عليها حال حتى تتصف بالوجود، فتتغير عليها الأحوال للعدم الذي يسرع إلى ما به بقاء العين، وليست كذلك في حال العدم فإنه لا يتغير عليها شيء في حال العدم، بل الأمر الذي هي عليه في نفسها ثابت إذ لو زال لم تزل إلا إلى الوجود ولا يزول إلى الوجود إلا إذا اتصف العين القائم به هذا الممكن الخاص بالوجود، فالأمر بين وجود وعدم في أعيان ثابتة على أحوال خاصة، فإذا حققت هذا الذي أبرزناه إليك علمت الخلق والخالق، وما ينبغي للخلق أن تكون عليه من الحكم، وما ينبغي للخالق أن يوصف به فإنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] و﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] فلا يشبهه شيء ثابت ولا شيء موجود، وما وقفت على ما وقفت عليه من هذا العلم الذي أدّاني شهوده وحكمه إلى البقاء معه وإلى أن الزهد في الأشياء لا يقع إلا من الجهل القائم بهذا الزاهد وهو عدم العلم، ومن الغطاء الحجابيّ الذي على عينه وهو عدم الكشف والشهود لما ذكرناه؛ فإذا علم أو شاهد أن العالم كله ناطق بتسبيح خالقه والثناء عليه وهو في حال الشهودة كيف يتمكن له الزهد فيمن هذه صفته وعينه وذاته وصفاته من جملة العالم وقد أشهده الله وأراه آياته في الآفاق وهي ما خرج عنه وفي نفسه وهي ما هو عليه، فلو خرج عن غيره ما خرج عن نفسه، فمن خرج عن العالم وعن نفسه فقد خرج عن الحق، ومن خرج عن الحق، فقد خرج عن الإمكان والتحق بالمحال، ومن حقيقته الإمكان لا يلحق بالمحال، إذن فدعواه بأنه خرج عن كل ما سوى الله جهل محض، وإنما ذلك انتقال أحوال لا يشعر بها لجهله فيخيل له جهله أن العالم بمعزل عن الله، والله بمعزل عن العالم فيطلب الفرار إليه فهذا فرار وهميّ، وسبب ذلك عدم الذوق للأشياء وكونه سمع في التلاوة ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] وهو صحيح إلا أن هذا الفارّ بهذه المثابة لم يجعل باله إلى ما ذكر الله في الآية التي أتبعها هذه الآية وهي قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الذاريات: ٥١] فلو عرف هذا التتميم عرف قوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى

ٱللَّهِ﴾ أنه الفرار من الجهل إلى العلم، وأن الأمر واحد أحدي، وأن الذي كان يتوهمه أمراً وجودياً من نسبة الألوهة لهذا الذي اتخذه إلهاً محال عدميّ لا ممكن ولا واجب، فهذا معنى الفرار المأمور به فإليه من حيث نسبة الألوهة إليه يكون الفرار فافهم. وأما الفرار الثاني المتلو فقوله عن موسى عليه السلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١] لما علم أن الله وضع الأسباب وجعل لها أثراً في العالم بما يوافق الأغراض وبما لا يوافقها وبما يلائم الطبع وبما لا يلائمه، وخلق الحيوان على مزاج يقبل به الألم واللذة بخلاف النبات والجماد فإنهما وإن اتصفا بالحياة عند أهل الكشف فإنهما على مزاج لا يقبل اللذة والألم، ووقع من موسى عليه السلام ما وقع من قتل القبطي ففرّ إلى النجاة التي يمكن أن تحصل له بالفرار فرأى، أن الفرار من الأسباب الإلهية الموضوعة في بعض المواطن لوجود النجاة فهو فرار طبيعيّ لأنه ذكر أن الخوف من السبب جعله يفرّ لكنه معرّى عن التعريف بما ذكرناه من الوضع الإلهي فلم يوف النظر العقلي حقه، فإن هذا كان قبل نبوّته ومعرفته بما يريده الحق به، فلما فرّ خوفاً من فرعون تلقاه الحق بالنجاة وجمع بينه وبين رسول من رسله وهو شعيب عليهما السلام ثم أعطاه النبوّة والحكم الذي خاطب الله به القبط وبني إسرائيل أن يكونوا عليه وأرسله بذلك إلى من خاف منه، فكان ذلك الإرسال كالعقوبة لما لحقه من الخوف من السبب الموضوع ولم يوف السبب الموضوع حقه أعني النظر العقلي، فكان ينبهه في الفرار أنه خوف من الله، إذ لا قدرة مؤثرة للممكن في إيصال خير أو شرّ إلى ممكن آخر، وأن ذلك كله بيد الله فجاءه بالرسالة والحكم من عند الله وأمنه بما أعطاه الله من العلم بما يؤول إليه أمره مع فرعون وآله وأراه إذ كلمه ما أراه من قلب العصا حية، وإنما قلنا عقوبة كان ذلك الإرسال إلى فرعون وأن الخوف معه باق منه لقوله تعالى له ولأخيه حين قالا: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] فقال الله: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وقال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ ما نسي مما كان قد علم من امتناننا عليه ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] يقول: أو يخاف مما يعرفه من أخذنا وبطشنا الشديد بمن قال مثل مقالته ممن تقدمه وحصل عنده العلم به، وهذا مثل قوله تعالى لنبينا ﷺ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فهذا جدال في الله لين مأمور به وتعطف والترجي من الله إذا ورد واقع بلا شك، ولهذا قال العلماء: إن كلمة عسى من الله واجبة وقد ترجى من فرعون التذكر والخشية فلا بد أن يتذكر فرعون ذلك في نفسه وأن يخشى، ولكن لم يظهر من ذلك شيئاً على ظاهره وإن كان قد حكم التذكر والخشية على باطنه ولذلك لم يبطش بموسى ولا بأخيه في المجلس فإنه صاحب السلطان والقهر في ذلك الوقت فما منعه إلا ما قام به من التذكر والخشية من الحق، ومانع آخر فلم يكن هناك إذ لو كان هناك مانع آخر ظاهر يلجأ إليه موسى عليه السلام ما قال: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] لعدم التكافؤ في القوّة الظاهرة، فأيده بما أوصاهما به من القول باللين، فكانت هذه المخاطبة من جنود الله

قابل بها جنود باطن فرعون فهزمهم بإذن الله، فتذكر وخشي لما انهزم جيشه الذي كان يتقوى به فذل في نفسه فشغلته تلك الذلة والمعرفة عن أن يحكم بقوّة ظاهره فلم يبطش بهما في ذلك المجلس فهذه فائدة العلم، فإن العلم إذا لم يثمر لصاحبه ما تعطيه حقيقته فما ثم علم أصلاً ولا ذلك عالم، وقد تقدم الكلام في مثل هذا فيما مضى من المنازل، فالناس يأخذون بهذا الفرار الموسوي ولا يعرفون حقيقة ما أخذوا به ولا نظروا في ذلك هذا النظر الذي ذكرناه.

وإذا علمت هذا فاعلم أيضاً أن الله ما خلق الإنسان عالماً بكل شيء بل أمر نبيه ﷺ أن يطلب منه تعالى مزيد علم إذ قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فهو في كل حال يستفيد من العلم ما به سعادته وكماله، فالذي فطر عليه العالم والإنسان من العلم العلم بوجود الله والعلم بفقر المحدث إليه، فإذا كان هذا فلا بد لكل من هذه صفته أن يفرّ إلى الله لمشاهدة فقره، وما يعطيه حكم الفقر من الألم للنفس ليغنيه من انقطع إليه، فربما يزيل عنه ألم الفقر بما به تقع اللذة له وهو الغني بالله، وهو مطلب لا يصح حصوله أصلاً لأنه لو استغنى أحد بالله لاستغنى عن الله والاستغناء عن الله محال فالاستغناء بالله محال؛ لكن الله يعطيه أمراً ما من الأمور التي يحدثها الله فيه عند هذا الطلب يغنيه به ويزيل عنه ما يجده من اللذة ألم ذلك الفقر المعين، لا يزيل عنه ألم الفقر الكلي الذي لا يمكن زواله عن الممكن، لأن الفقر له وصف ذاتي لا في حال عدم ولا في حال وجود، ولهذا لم يجعل في نفس الممكن إلا ما إذا أعطاه ذلك وجد عنده لذة مزيلة ألم الطلب، ثم يحدث له طلب آخر لأمر آخر أو لبقاء ذلك الحاصل له على الدوام دنيا وآخرة، فلا بد لمن هذه حاله من تخل وفرار عن الأمور الشاغلة له عن هذا الأمر حتى يكشف الله عن بصيرته وبصره فيشاهد الأمر على ما هو عليه، فيعلم عند ذلك كيف يطلب وممن يطلب ومن يطلب وأمثال هذا، ويعلم معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦] أي المثنى عليه بالغنى وتدبر قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] لأنه يستحيل عليه أن يعبد نفسه، ولما قلناه أتى بالحميد لأن صفة الغنى لا شيء أعلى منها وهي صفة ذاتية للحق تعالى، فافهم الإشارة فالعبارة هنا حرام.

وإذا تقرر هذا علمت كون رسول الله ﷺ كان يخلو بغار حراء ليتحنث فيه ويفر من مشاهدة الناس لما كان يجده في نفسه من الحرج والضيق في مشاهدتهم، فلو نظر إلى وجه الحق فيهم ما فر منهم ولا كان يخلو بنفسه، وما زال على هذه الحال حتى فجئه الحق فرجع إلى الخلق ولم يزل فيهم فإنه لم يزل في غار حراء مع نفسه فما زال إلا من بعض الناس لا من كل الناس فافهم، فلا بد لكل طالب ربه أن يخلو بنفسه مع ربه في سره لأن الله ما جعل للإنسان ظاهراً وباطناً إلا ليخلو مع الله في باطنه ويشاهده في ظاهره في أسبابه بعد أن ينظر إليه في باطنه حتى يميزه في عين الأسباب وإلا فلا يعرفه أبداً فما يرجع من يرجع إلى الخلوة مع الله في باطنه إلا لأجل هذا، فباطن الإنسان بيت خلوته لو عقل عن الله.

فلما علمت في أول الأمر أن الشأن على ما ذكرته تجرّدت عن هيكلي هذا تجرداً علمياً

حالياً لجهلي بمكانة الحق من هذا الهيكل وعدم علمي بأن لله وجهاً خاصاً في كل شيء، فلما صرت عن هذا الهيكل أجنبياً نظرت إليه كأنه سبحة سوداء مظلم الأقطار لم أر فيه من النور شيئاً فسألت عن هذه الظلمة من أين لحقت؟ فقيل لي: هذه ظلمة الطبيعة فإن الظلمات ثلاث تراكم بعضها على بعض حتى إذا أخرج أحد يده لم يكد يراها فأحرى أن لا يراها، فنفى مقاربة الرؤية فكيف الرؤية؟ فالظلمة حجاب إلهي يحجب عن وجود الحق فقلت: ما هذه الظلمات الثلاث؟ فقيل لي: الظلمة الأولى المشهودة لك ظلمة الطبيعة فهي الطبقة الأولى التي تلي بصرك، ثم إن هذه الطبيعة ما وجدت إلا في المرتبة الثالثة ففوقها ظلمة السبب الحادث الممكن التي وجدت عنها فهي وجود محدث عن محدث وهي النفس فهي الظلمة الثانية فاشتد ظلام الطبيعة وتضاعف بظلمة النفس فأشهدت النفس فرأيت ظلمة فوق ظلمة، ثم قيل لي: فوق هذه الظلمة الثانية ظلمة ثالثة وهي السبب الذي وجدت عنه هذه النفس وهو العقل الأوّل فكشف لي عنه فرأيت ظلاماً متراكماً بعضه فوق بعض فقلت: أفلهذا سبب آخر وجد عنه؟ فقيل لي: لا بل هذا أوجده الحق لا عند سبب، فقلت: فما باله مظلماً؟ فقيل لي: هذه الظلمة له ذاتية وهي ظلمة إمكانه يستمدها من ظلمة الغيب الذي لا يقع عليه شهود كما يقع على المغيب فيه إذا ظهر منه وفارقه وصار شهادة، فعن هذه الظلمات الثلاث كان الإنسان من حيث هو جسم حيواني في بطن أمه في ظلمات ثلاث: ظلمة الرحم وظلمة المشيمة وظلمة البطن، فإذا ولدت اندرجت ظلمته فيه فكان ظاهره نوراً وباطنه ظلمة، فلا يتمكن له المشي في ظلمة باطنه إلا بسراج العلم إن لم يكن له هذا السراج فإنه لا يهتدي فيها، فلما رأيت هيكلي وظلمته علمت أنه لو لم يكن له نور بوجه ما ما صَحَّ نظري إليه ولا إدراكي إياه، فسألت عن النور الذي أعده لتعلق رؤيتي به فقيل لي: نور الوجود به رأيته فنظرت إليّ من حيث أني رائي لتلك الظلمة فرأيت ظلها ينبسط علي وما رأيت نوري يزيلها فتعجبت فقيل لي: لا يزول عنك ظلام إمكانك فإنه نعت ذاتي لك فإنك لست بواجب الوجود لذاتك، فقلت: فمن لي بنور لا ظلمة فيه؟ قيل لي: لا تجده أبداً، فقلت: إذاً فلا أشاهد موجدي أبداً فإنه النور المحض والوجود الخالص، فقيل لي: لا تشاهده أبداً إلا منك ولهذا لا تراه أبداً في صورة واحدة فلا تحيط به علماً فلا يتجلى ولا يشهد كما يشهد نفسه فإنه غنيّ عن العالمين، فما يستدل عليه إلا به، فلا يعرف إلا من طريق الكشف والشهود على حدّ ما ذكرناه، وأمّا بالأدلة النظرية فلا يعلم إلا حكمه لا عينه، فلهذا يحكم العقل بدليله على ما يستلزمه هذا الموجود الواجب الوجود مما يفتقر الممكن إليه فيه، فهذا القدر يدل عليه ويعطيه الشهود رتبة فوق هذا تذاق ولا تقال ولا تحكى.

فلما أشهدني الله ذاتي وأشهدني هيكلي، أشهدني بعد هذا نسبة العالم كله إليّ وتوجهه علي في إيجاد عيني، فرأيت تقدمه علي وآثاره فيّ، وعلمت انفعالي عنه وأنه لولاه ما كان لي وجود عيني، فذللت في نفسي حيث أنا تحت قهر ممكن مثلي، وعلمت عند ذلك أني من القليل الذين يعلمون أن خلق السموات وهي الأسباب العلوية لوجودي والأرض وهي

الأسباب السفلية لوجودي أكبر من خلق الناس قدراً لأن لها نسبة الفاعلية وللناس نسبة الانفعال، فأدركني انكسار يكاد أن يؤيسني عن مشاهدة الحق من حيث ما تشهده هذه الأسباب التي لها عليّ في القدر شفوف الفاعلات، فلما حصل عندي ذلك الانكسار قيل لي هذه الأسباب وإن كان لها هذا القدر عليك في المرتبة فيما ظهر فاعلم أنك العين المقصودة، فما وجدت هذه الأسباب إلا بسببك لتظهر أنت فما كانت مطلوبة لأنفسها، فإن الله لما أحب أن يعرف لم يمكن أن يعرفه إلا من هو على صورته، وما أوجد الله على صورته أحداً إلا الإنسان الكامل لا الإنسان الحيوان، فإذا حصل حصلت المعرفة المطلوبة فأوجد ما أوجد من الأسباب لظهور عين الإنسان الكامل فاعلم ذلك، فجبر هذا التعريف الإلهي انكساري وعلمت أني من الكمل وأني لست بإنسان حيوان فقط فشكرت الله على هذه المنة، فلما أشهدني نسبة العالم إليّ ونسبتي إلى العالم وميزت بين المرتبتين وعلمت أن العالم كله لولا أنا ما وجد، وأنه بوجودي صح المقصود من العلم الحادث بالله والوجود الحادث الذي هو على صورة الوجود القديم، وعلمت أن العلم بالله المحدث الذي هو على صورة العلم بالله القديم لا يتمكن أن يكون إلا لمن هو في خلقه على الصورة وليس غير الإنسان الكامل ولهذا سمي كاملاً، وأنه روح العالم والعالم المسخر له علوه وسفله، وأن الإنسان الحيواني من جملة العالم المسخر له وأنه يشبه الإنسان الكامل في الصورة الظاهرة لا في الباطن من حيث الرتبة، كما يشبه القرد الإنسان في جميع أعضائه الظاهرة، فتأمل درجة الإنسان الحيوان من درجة الإنسان الكامل واعلم من أي الأناسي أنت، فإنك على استعداد قبول الكمال لو عقلت، ولهذا تعين التنبيه والإعلام من العالم، فلو لم تكن على استعداد يقبل الكمال لم يصح التنبيه ولكان التعريف بذلك عبثاً وباطلاً، فلا تلومن إلا نفسك في عدم القبول لما دعيت إليه فإن الداعي ما دعا إلا على بصيرة ليلحقك بذاته في البصيرة.

فإذا علمت هذا وأشهدك الحق نسبة العالم إليك بقي عليك أن تعلم نسبة الحق إليك ونسبتك إليه، فأوقفني الحق على نسبة الأسماء الإلهية إليّ لتحصل لي الصورة المقصودة فتنطلق عليّ جميع الأسماء الإلهية التي تنطلق عليه تعالى لا يفوتني منها اسم بوجه من الوجوه، فاعلم أن الاسم لما كان يدل على المسمى بحكم المطابقة فلا يفهم منه غير مسماه كان عينه في صورة أخرى تسمى اسماً فالاسم اسم له ولمسماه، وأراد الله سبحانه أن يعرف كما قررناه بالمعرفة الحادثة لتكمل مراتب المعرفة ويكمل الوجود بوجود المحدث، ولا يمكن أن يعرف الشيء إلا نفسه أو مثله، فلا بد أن يكون الموجود الحادث الذي يوجده الله للعلم به على صورة موجده حتى يكون كالمثل له، فإن الإنسان الكامل حقيقة واحدة، ولو كان بالشخص ما كان مما زاد على الواحد فهو عين واحدة وقال فيه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فجعله مثلاً ونفى أن يماثل فلما نصبه في الوجود مثلاً تجارت إليه الأسماء الإلهية بحكم المطابقة من حيث ما هي الأسماء ذات صور وحروف لفظية ورقمية، كما أن الإنسان ذو صورة جسمية، فكانت هذه الأسماء الإلهية على هذا الإنسان الكامل أشد مطابقة منها على

المسمى الله، ولما كان المثل عن مثله متميزاً بأمر ما لا يتمكن أن يكون ذلك الأمر إلا له ولا يكون لمثله كان الأمر في الأسماء التي يتميز المثل عن مثله به ولا يشاركه فيه من جانب الحق الاسم الله فعين ما اختص به المثل عن مثله وكان للمثل الآخر الاسم الإنسان الكامل الخليفة مما اختص به هذا المثل الكوني، وأسماء الحق الباقية مركبة من روح وصورة، فمن حيث صورتها تدل بحكم المطابقة على الإنسان، ومن حيث روحها ومعناها تدل بحكم المطابقة على الله، ولنا حالة وله حالة، والأسماء تتبع تلك الأحوال، فلنا التجريد عن الصور متى شئنا، فالذي لنا من ذاتنا الصور ولكن من حقيقة ذاتنا أيضاً التجرد عنها متى شئنا فتتبعنا الأسماء في حال تجريدنا من حيث أرواحها المجردة عن صورها وله التباس بالصور وهو بالذات غير صورة وبالذات أيضاً يقبل التجلي لنا في الصور فتتبعه الأسماء عينها من حيث صورها إذا لبس الصورة متى شاء، فالأمر بيننا وبينه على السواء مع الفرقان الموجود المحقق بأنه الخالق ونحن المخلوقون وهو الله وأنا الإنسان الخليفة فيشركنا في الخلافة لتحقق الصورة، فإنه أمرنا أن نتخذه وكيلاً والوكالة خلافة فالمختص به الذي يتميز به عني الاسم الله صورة ومعنى، فإذا تجلى في الصورة انطلق عليه بحكم المطابقة صورة الاسم الله، وإذا بقي على ما هو عليه من غير تقييد بصورة انطلق عليه روح الاسم الله. وكذلك الإنسان هذا الاسم هو الذي يميزه عنه وله حالة البقاء على ما هي ذاته عليه من الصورة وله التجريد، ولو لم يكن في العالم من هو على صورة الحق ما حصل المقصود من العلم بالحق أعني العلم الحادث في قوله: «كنت كنزاً لم أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليه فعرفوني» فجعل نفسه كنزاً والكنز لا يكون إلا مكتنزاً في شيء، فلم يكن كنز الحق نفسه إلا في صورة الإنسان الكامل في شيئيته وثبوته هناك كان الحق مكنوزاً، فلما كسا الحق الإنسان ثوب شيئية الوجود ظهر الكنز بظهوره فعرفه الإنسان الكامل بوجوده وعلم أنه كان مكنوزاً فيه في شيئية ثبوته وهو لا يشعر به، فهذا قد أعلمتك بنسبة الأسماء إليه قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] ولفظة «كل» تقتضي الإحاطة والعموم، وقال رسول الله ﷺ في دعائه ربه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ**» فهذه إضافة حقيقية وهي إضافة الشيء إلى نفسه لما ذكر لفظين مختلفينَ صحت الإضافة كحق اليقين، وعلم اليقين والعين واحدة وهي لفظة النفس وكاف الخطاب، وإنما قلنا هذا من أجل أصحاب اللسان حيث قالوا من طريق الأدلة إن الشيء لا يضاف إلى نفسه وهو قول صحيح، غير أن الإضافة هنا وقعت في الصورة والصورة صورتان، فجاز أن تضاف الصورة الواحدة إلى الأخرى وهي النفس وكاف الخطاب وكحق اليقين وعلم اليقين وعين اليقين. والوجه الآخر أن تكون النفس نفس الإنسان الكامل القابلة لجميع الأسماء الإلهية والكونية، فإن الأسماء الكونية أيضاً تدل بحكم المطابقة عليه إلا ما يختص به منها المحدث كالغنى لله والفقر للإنسان بل للعالم كله، فتكون النفس هنا مضافة إلى كاف الخطاب وهو الحق وتكون إضافة ملك وتشريف واستحقاق، فإضافة الملك كمثل مال زيد، وإضافة تشريف كمثل عبد الملك وخديمه، وإضافة الاستحقاق كسرج الدابة وباب

البيت، وهذه كلها سائغة في قوله نفسك إذا عني بها الإنسان مثل قول عيسى عليه السلام: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِى نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة: ١١٦] يعني بهذه النفس هنا نفس عيسى أضافها إلى الحق كما هي في نفس الأمر وهو أتم في ا لثناء على الله والتبري مما نسب إليه وقرر عليه واستفهم عنه من قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة: ١١٦] فقال له: أنت ﴿تَعۡلَمُ مَا فِى نَفۡسِى وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِى نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦] فإنه ما يكون فيها إلا ما تجعله أنت فكيف يستفهم من له الخلق والأمر ولم يقل له ما قلت أني إله لعلمه بأنه خليفة وإنسان كامل وأن الأسماء الإلهية له فقال له: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِى بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ١١٧] ما زدت على ذلك شيئاً، وإذا قال القائل: ما أمر به أن يقوله لم يلزم أن يقول كل ما هو عليه فإنه ما أمر أن يقوله وقد خرج عن العهدة بما بلغ، وقال محمد ﷺ: **«أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحداً مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْم غَيْبِكَ»** فذكر أنه تعالى استأثر بشيء في علم غيبه مما لا يعلمه إلا هو، وليس إلا ما يمكن أن يكون للإنسان الكامل، لكن الله تعالى استأثر به في علم غيبه ما لا يعلمه إلا هو، فعلم من الإنسان مما هو عليه ما لا يعلمه الإنسان الكامل من نفسه فهو غيب الحق لأنه المثل، فاجتمع قول ﷺ وقول عيسى عليه السلام في أمر واحد وهو قوله: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِى نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة: ١١٦] وقول محمد ﷺ: **«أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْم غَيْبِكَ»** فالإنسان الكامل محل الأسماء كلها التي في قوته قبولها، وما ليس في قوته قبولها فلا يتمكن له قبولها، فليس ذلك من الأسماء التي يقال فيها إنه نقص عنها كالأسماء التي يختص بها الإنسان، ولا يجوز أن تطلق على الله ولا يقال إن الله قد نقصه هذا الاسم أن يطلق عليه، فمعنى الأسماء كلها كل اسم في حقيقة هذا المسمى أن يقبله فاعلم ذلك. فمن علم نسبة الأسماء الإلهية إلى الإنسان كيف هي ونسبة الأسماء الكونية إلى الله كيف هي علم مرتبة الإنسان وتميزه عن العالم كله وشرفه بما هو عليه من الجمعية كالمتفنن صاحب الذوق في كل علم، وقد يكون صاحب علم ما أكمل منه في ذلك العلم مع المشاركة فهو أفضل منه في وجه خاص وهذا أفضل منه بالجمعية، كما نقول بالمفاضلة في النقص فنقول في البليد إنه حمار ومعلوم قطعاً أن الحمار أفضل من الإنسان في البلادة فإنه أبلد منه، وكذلك الملك مع الإنسان الملك أفضل منه في الطاعة، وقد شهد الله له بذلك وذلك لتعريه عن لباس البشرية فلا يعصي الله ما أمره لأنه ما هو على حقائق متضادة تجذبه في أوقات وتغفله وتنسبه عما دعا إليه كما يوجد ذلك في النشأة العنصرية، والإنسان نشأة عنصرية تطلبه حقائق متجاذبة بالفعل صاحب غفلة ونسيان يؤمر وينهى فيتصوّر منه المخالفة والموافقة، فالملك أشد موافقة لله من الإنسان لما تعطيه نشأته ونشأة الإنسان، قال تعالى في الملك: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ [التحريم: ٦] وقال في الخليفة الذي علمهم الأسماء: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] فوصفه بالمعصية، فالملك أفضل في الموافقة لأمر الله، والخليفة الإنسان أعلم بالأسماء الإلهية لأن الخليفة إن لم يظهر بما يستحقه من استخلفه حتى يطاع ويعصى وإلا فليس بخليفة فهو أتم في الجمعية وأفضل، والملك أفضل في وجه خاص أو وجهين لكن ما له فضل الجمع،

والصورة لا تكون إلا بالمجموع وإلا فليست بصورة مثلية ولا يقدح في الصورة وكمالها ما تمتاز به الصورة على مثلها فإنه لا بد من ذلك ولولا ذلك لم تكن الصورة مثلاً بل هي عينها ومعلوم أن الأمر ليس كذلك. وهذا المنزل يتسع الكلام فيه يكاد إلى غير نهاية، فلنقتصر على ما ذكرناه ولنذكر بعض ما يتضمنه من العلوم كما تقدم:

فمن ذلك علم الرسوم الطامسة ومراتبها وحصرها في الحقائق التي انحصرت فيها، وفيه علم من ردّ أمره فكاد أن يقتل نفسه وهو دليل على الضيق والحرج وهل هذا من كمال الإنسان أم لا؟ فإن الله وصف نفسه بالغضب والانتقام فهذا الإنسان لما لم يتمكن له من قوّته أن يجد على من يرسل غضبه بالانتقام منه أراد أن يرسله على نفسه فيقتل نفسه فهو ناقص كامل فأعطاه الله الصبر على حمل الأذى فقاوم به ما يجده الطبع من الغيظ على من يرد كلمته وأمره ويريد مقامته، وفيه علم التسكين ووجود الفرح بالمستند إليه إذا تنزل له في الخطاب على سبيل الرفق به لما يجده وهو أن يخاطبه بما يعرفه به في نفسه في الأمر الذي غاظه فيريه من هو أكبر منه قد أغيظ فيجد لذلك عزاً في نفسه ولهذا قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] وفيه علم كل من جنى فعلى نفسه يجني فإن الأعمال لا تضاف إلا إلى عاملها وإن أضيفت إلى غير عاملها فقد غصبتها حقها، وفيه علم الاستبصار، وفيه علم الأمزجة فيعلم منه ما يضر زيداً ينفع عمراً وما هو دواء لخالد هو داء لحسن، وفيه علم نداء الحق واختلافه مع أحدية النداء، وفيه علم آداب جواب المنادي، وفيه علم الاستنزال باللطف، وفيه علم الجبر، وفيه علم التقرير الكوني ونزول الأعلى إلى مخاطبة الأدنى باللطف مع قهره بالصورة فما المانع له من ذلك هل هو قهر خفي من حيث لا يشعر به أو هو عن رحمة هو عليها مجعولة أو جبلية؟ وفيه علم تنبيه العالم على اكتساب معالي الأمور بإظهار أسبابها لمن لا يعرفها، وفيه علم أسباب الحيرة عن جواب السائلين إذا كان السؤال مما لا يتصوّر عليه الجواب المطابق الذي يطلبه السائل في سؤاله وهل كل سؤال يقتضي جواباً أم لا؟ والسؤال عين الجواب من حيث أحدية الكلام والواحد لا يقع فيه التفصيل ولا الانقسام والسؤال ما هو عين الجواب والكلام إحدى العين فأين محل الانقسام؟ وفيه علم الجدل مع العلم من المجادل أنه مبطل وأن خصمه على الحق فلماذا يبقى على جدله وقد بان له الحق في نفسه؟ فهل له وجه ما إلى الحق أو هو باطل من جميع الوجوه؟ وإذا كان باطلاً من جميع الوجوه فالباطل عدم والعدم لا يقاوم الوجود فإن اللاشيء لا يكون أقوى من الشيء، وفيه علم ما تنتجه المساعدة، وفيه علم الزجر والتخويف والرضا بالقضاء والمقضي معاً للقوّة التي تكون في الراضي وما ينبغي أن يرضى به من المقضي وما لا ينبغي أن يرضى به من ذلك، وفيه علم ما يؤثره الاستناد إلى الكثرة من القوة في نفس المستند وإن خاب فقد يرزق الواحد من القوة ما يزيد على قوّة الكثير فلا يقاومه الكثير، وفيه علم تأثير الكون في الكون هل يفتقر إلى أمر إلهي أو إلى العلم أو منه ما يكون عن علم ومنه ما يكون عن أمر إلهي ومراتب الخلق في ذلك، وفيه علم سرد الأخبار وما فائدتها الزائدة على تأنيس النفوس

بها فإن النفوس تستحلي الأحاديث بطبعها، وفيه علم تفاضل العالم في العلم، وفيه علم ما ينبغي أن يضاف إلى الحق من الأمور وما لا ينبغي وإن كان له، وفيه علم عزة النفس أن يلحق بها المذامّ مع كونها متصفة بها فما الذي يحجبها حتى تتصف بالمذام ولا تحب أن توصف بها، وفيه علم مفاضلة النفوس بعضها بعضاً على الإطلاق، وفيه علم سبب دوام النعم وعدم دوام نقيضه بها، وفيه علم المدد ولماذا يرجع انتهاؤها فيما يوصف منها بالانتهاء هل هو للفعل الموجود فيها أو هل هو لأمر آخر؟ وفيه علم تقاسيم الزمان إلى أزمنة وهو عين واحدة، وفيه علم طلب الأعمال الجزاء وإن تنزه العاملون عنها، وفيه علم من أعلى منزلة هل المتنزه عن طلب الأعواض أو طالب الأعواض، وفيه علم بدء الرسالة في العالم ما سببه وهل في العالم من خرج عن التكليف أم لا؟ وفيه علم ما يتميز به العالي من الأسفل هل بنفسه أو بأمر نسبيّ والأشرف منهما، وفيه علم اختلاف الآيات لاختلاف الأعصار والأحوال وأين ذلك من العلم الإلهي؟ وفيه علم دخول الواسع في الضيق من غير أن يتسع الضيق أو يضيق الواسع، وفيه علم الفرق بين الإناث والذكور في كل صنف صنف، وفيه علم من يصح عليه اسم الأخوة ممن لا يصح ومراتب الأخوة، وفيه علم الموازنات الإلهية والموضوعة، وفيه علم السبب الذي يقوم بالإنسان حتى يعمى قلبه عن طريق الحق مع علمه بالإمكان وهو من أعجب الأشياء مثل قول من قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] مع علمهم بأن ذلك ممكن ولم يوفقهم الله أن يقولوا تب علينا أو أسعدنا، وفيه علم مراتب الوحي الإلهيّ في الإنسان، وفيه علم الدلالة التي لا يمكن ردّها، وفيه علم الفرقان بين النظم والمنظوم والنثر والمنثور وهو علم المقيد والمطلق وفيه علم التقلب من حال إلى حال ومن منزل إلى منزل، وفيه علم تنزل الأرواح النارية من أين تنزل وعلى من تنزل وأين محلها وما ينبغي أن ينسب إليها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والخمسون وثلاثمائة

في معرفة منزل: «إياك أعني فاسمعي يا جارة»

وهو منزل تفريق الأمر وصورة الكتم في الكشف من الحضرة المحمدية

[البسيط]:

انْظُرْ إلى نَقْص ظِلِّ الشَّخْص فيه إذا ... ما الشَّمْسُ تَعْلُو فتُفْني ظِلَّهُ فِيهِ
ذاك الدليلُ على تحريكه أبداً ... بَدْءاً وفَيْئاً وهذا القَدْرُ يَكْفِيهِ
لو كان يَسْكُنُ وَقْتاً ما بدا أَثَرٌ ... في الكَوْن من «كُنْ» وذاك الحكمُ مِنْ فِيهِ
فالكونُ مِنْ نَفَسِ الرَّحْمن ليس له ... أصلٌ سواه فحكمُ القول يُبْدِيهِ
خلاف ما يقتضيه العقلُ فازم به ... فإن حكمة شرع الله تَقْضِيهِ
ما إن رَأَيْتَ له عَيْناً ولا أَثَراً ... ولو يكونُ لكان العقلُ يُخْفِيهِ

اعلم أيدك الله بروح منه أن الأشياء لما خلقها الله على حكم ما اقتضاه الوجود الأصل

الذي هو عليه وله وجد كل ما سوى الله تعالى فما خلق شيئاً إلا وخلق له ضدّاً ومثلاً وخلافاً، فجعل الموافقة في الخلاف والمنافرة في الضدّ والمناسبة في المثل، فأشد الأشياء مواصلة ومحبة واتحاداً الخلاف مع مخالفه، ولهذا يكون الخلاف بحسب من يخالفه ولا يتميز عن صاحبه إلا بحكمه فيتحد الخلافان بالمحل ويتميزان بالحكم فيه، وأما المثل مع مثله فإن المناسبة تجمع بينهما في المودّة فيحب كل مثل مثله بما فيه من مناسبة المثلية وإن لم يجتمعا فيشبه المثل الخلاف في المحبة وإن كان بينهما فرقان بالحقائق فيهما، ويشبه الضد في أنهما لا يجتمعان أبداً فهما كغائب أحب غائباً وهام فيه عشقاً وحكمت الموانع بأن لا يجتمعا، وأما الضد مع ضده فالمنافرة بينهما ذاتية وليس بينهما المودّة التي بين الخلافين، فكل واحد من الضدين يريد ذهاب عين ضده من الوجود، بخلاف الخلافين فالمودة التي بينهما تمنع كل واحد منهما أن يريد ذهاب عين خلافه من الوجود لكن يريد ويشتهي أن لو يمكن الاتحاد به حتى لا تقع المشاهدة إلا على واحد بعينه ويغيب فيه الآخر إيثاراً من كل خلاف على نفسه لخلافه لكنهما لا يجتمعان أبداً لذاتهما، مثال المثلين: بياضان، ومثال الضدين: بياض وسواد، ومثال الخلافين: لون ورائحة أو طعم في محل واحد، والمراد من هذا الذي ذكرناه تعريفك بنسبة العبد من الله ما له من هذه النسب، فاعلم أن الإنسان الكامل جمع بذاته هذه الأمور كلها وليس ذلك لغيره فهو مع الحق مثل ضد خلاف، كما أن ما ذكرناه له هذا الحكم أيضاً على كل واحد من هؤلاء الثلاثة، فإن البياض يخالف البياض بالمحل فإن المحل يميزه فيقال: هذا البياض ما هو هذا البياض، ويضاد مثله فإنهما لا يجمعهما محل واحد وهو مثل له لأن الحد والحقيقة تشملهما من جميع الوجوه، فكل واحد مما ذكرناه يقبل ما يقبله الآخر من المثلية والضدية والخلافية، والذي يحتاج إليه في هذا الباب معرفة الإنسان مع قرينه من الإنس إن عم أو مع غيره من العالم من حيث نسبة ما إن خص، ومعرفة الإنسان مع الحق ليعلم صورته منه على ماذا يكون فإنه قد اعتنى به غاية العناية ما لم يعتن بمخلوق بكونه جعله خليفة وأعطاه الكمال بعلم الأسماء وخلقه على الصورة الإلهية، وأكمل من الصورة الإلهية ما يمكن أن يكون في الوجود، فالإنسان الكامل مثل من حيث الصورة الإلهية ضد من حيث إنه لا يصح أن يكون في حال كونه عبداً رباً لمن هو له عبد خلاف من حيث إن الحق سمعه وبصره وقواه فأثبته وأثبت نفسه في عين واحدة، فمن عرف نفسه عرف ربه معرفة مثل وضد وخلاف فهو الوليّ العدوّ، قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾ يخاطب المؤمنين ﴿أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] لكونهم أمثالاً لكم لما بين المثلين من الضدية، فقال للمؤمن: عامل العدوّ بضدية المثل لا بمودة المثل لأن حقيقتكما واحدة فافهم فإن العدوّ يريد إخراجك من الوجود كما قدمنا في معرفة الضد ولذلك قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الممتحنة: ١] فما عاملكم العدوّ وإن كان مثلكم إلا بضدية المثل لا بمودّته، وهذا عين ما ذكرناه من أن الضد يريد ذهاب عين ضده من الوجود، فأمرنا إذا أرادوا ذلك بنا أن نقاتلهم فنذهب أعيانهم من الموضع الذي يكونون فيه فننقلهم إلى

البرزخ بالقتل. فانظر ما أعجب القرآن وما أعطي ﷺ من العلم بالأمور. وإن لم تسر هذه الضدية في ذات المثل فليس بمؤمن ولا هو عند الله بمكان ولكن يحتاج إلى ميزان وكشف صحيح حتى يعرف العدوّ الذاتي الذي ينبغي أن يعامله بمثل هذه المعاملة من العدوّ العرضي الذي تعرض له هذه العداوة تزول عنه لزوال ذلك العارض الذي أوجبها كما قال تعالى يخبر عن بعض العباد بما يقول يوم القيامة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٧] ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ يعني شيطان الإنس لا شيطان الجن ﴿لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ [الفرقان: ٢٩] فإنه قال: ما أضلني عن الذكر إلا فلان وسمى إنساناً مثله حيث أصغى إليه وقلده في مقالته وحال بينه وبين اتباع ما أمره الله باتباعه وهو ما جاء به رسول الله ﷺ، وسبب ذلك ما جاءهم به عن الله من التحجير الجديد وإن كانوا في تحجير إذ لا بد منه لمصالح العالم ولكنهم كانوا قد ألفوه ونشؤوا عليه ولم يعرفوا غيره، فهم ما أنكروا التحجير وإنما أنكروا هذا التحجير الخاص، ومفارقة المألوف بالطبع عسير ولهذا لا يألف بالطبع الألم وإن تمادى به فإنه يسرّ بزواله له لعدم ألفة الطبع به، فلو ألفه لتألم بزواله، ولما لم يتمكن أن يكون كل إنسان له مرتبة الكمال المطلوبة في الإنسانية وإن كان يفضل بعضهم بعضاً فأدناهم منزلة من هو إنسان حيواني وأعلاهم من هو ظل الله وهو الإنسان الكامل نائب الحق يكون الحق لسانه وجميع قواه وما بين هذين المقامين مراتب، ففي زمان الرسل يكون الكامل رسولاً، وفي زمان انقطاع الرسالة يكون الكامل وارثاً، ولا ظهور للوارث مع وجود الرسول إذ الوارث لا يكون وارثاً إلا بعد موت من يرثه، فلم يتمكن للصاحب مع وجود الرسول أن تكون له هذه المرتبة، فالأمر ينزل من الله على الدوام لا ينقطع فلا يقبله إلا الرسل خاصة على الكمال، فإذا فقدوا حينئذ وجد ذلك الاستعداد في غير الرسل فقبلوا ذلك التنزل الإلهيّ في قلوبهم فسموا ورثة لم ينطلق عليهم اسم رسل مع كونهم يخبرون عن الله بالتنزل الإلهي فإن كان في ذلك التنزل الإلهي حكم أخذه هذا المنزل عليه وحكم به وهو المعبر عنه بلسان علماء الرسوم بالمجتهد الذي يستنبط الحكم عندهم وهو العالم بقول الله لعلمه الذين يستنبطونه منهم، فهذا حظ الناس اليوم من التشريع بعد رسول الله ﷺ ونحن نقول به ولكن لا نقول بأن الاجتهاد هو ما ذكره علماء الرسوم بل الاجتهاد عندنا بذل الوسع في تحصيل الاستعداد الباطن الذي به يقبل هذا التنزل الخاص الذي لا يقبله في زمان النبوّة والرسالة إلا نبيّ أو رسول، إلا أنه لا سبيل إلى مخالفة حكم ثابت قد تقرّر من الرسول ﷺ في نفس الأمر، فإن لم يكن ذلك في نفس الأمر فلا يلقى إلى هذا المجتهد الذي ذكرناه إلا ما هو الحكم عليه في نفس الأمر، حتى أنه لو كان الرسول ﷺ حياً لحكم به مع أنه قرّر حكم المجتهد، وإن أخطأ فما أخطأ المجتهد إلا في الاستعداد كما ذكرناه، فلو أصاب في الاستعداد ما أخطأ مجتهد أبداً بل لا يكون مجتهداً في الحكم وإنما هو ناقل ما قبله من الحق النازل عليه في تجليه، وهذا عزيز في الأمة ما يوجد إلا في أفراد، وعلامتهم أنهم ما يختلفون في الحكم أصلاً لوحدانية الرسالة في هذا الزمان، فإذا اختلفوا فما

هم الذين ذكرناهم فيكون صاحب الحق إذا كانت الأحكام منحصرة القسمة واحداً منهم فإن بقي قسم لم يقع به حكم ربما كان الحق فيه، ومع هذا تعبد كل واحد بما أعطاه دليله، فإن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر فوقع الاجتهاد في الاجتهاد، وإذا تقرّر أن التنزل الإلهيّ لم ينقطع وأنه على ضروب وكلها علم سواء كان تنزل حكم شرعي أو غير ذلك بحسب المواطن، ألا ترى موطن الآخرة في الجنة التنزل فيه دائم ولكن ليس فيه حكم تحجير جملة واحدة بخلاف تنزله في الدنيا؟ فهذا أعنى بحكم المواطن والكل تعريف إلهيّ.

ولما كان في الإنسان الكامل المثل والضد والخلاف كما هو في الأسماء الإلهية المثل كالرحمن الرحيم والخلاف كالرحمن الصبور والضد كالضارّ النافع قال النبيّ ﷺ يرفع هممنا إلى الرتب العالية: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً لَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ**» والله يقول: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] وقال ﷺ لربه: «**أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ**» فإذا علمت أن الله لا يستحيل عليه خلة عباده فاجهد أن تكون أنت ذلك الخليل بأن تنظر إلى ما يؤدي إلى تحصيل هذه الخلة الشريفة، فإنك لا تجد لها سبباً إلا الموافقة، ولا علم لنا بموافقتنا الحق إلا موافقتنا شرعه، فما حرّم حرّمناه، وما أحل حللناه، وما أباحه أبحناه، وما كرهه كرهناه، وما ندب إليه ندبنا إليه، وما أوجبه أوجبناه، فإذا عمك هذا في نفسك وكانت هذه صفتك وقمت فيها مقام حق صحت لك الخلة لا بل المحبة التي هي أعظم وأخص من الخلة لأن الخليل يصحبك لك والمحب يصحبك لنفسه فشتان ما بين الخلة والمحبة، وقد دللتك على تحصيل هذين المقامين فالخليل يعتضد بخليله والحبيب يبطن في محبه فيقيه بنفسه، فالحق مجنّ المحبوب والخليل مجنّ خليله، ألا ترى إلى ما أجرى الله في نفوس العالم حيث يجعلون الخبز والملح سبباً موجباً لأن يكون كل واحد من الشخصين اللذين بينهما الممالحة فداء لصاحبه يقيه من كل مكروه ويحفظ عليه حفظه على نفسه، وكذلك هو الأمر عليه ذي عينه، ولما شهدناه مع الحق مشاهدة عين ووقعت الممالحة ورأيت أثرها بحمد الله برهاناً قاطعاً قلت في ذلك: [السريع]

لأكُلَنَّ الخُبْزَ والمِلْحَا ... حتى أرى البرهانَ والفَتْحَا
وأنظُرَ الأمْرَ الذي قد بدا ... يَثْبُتُ في اللَوح فلا يُمْحَى
وأطْلُبَ الحَرْبَ من أجل العِدا ... لا أطلبُ السِّلْمَ ولا الصُّلْحَا
فلو أتاني الأمرُ من عنده ... أمْرٌ يريني الكَشْفَ والشَّرْحَا
ألْزَمْتُ نفسي طلباً للعُلَى ... أن تُؤْثِرَ المعروفَ والنُّصْحَا
وقلتُ للباني ألا فابْنِ لي ... من عَمَلِ الأرواح لي صَرْحَا
عسى أرى بَلْقِيسَ إذ شَمَّرَتْ ... عن ساقها إذْ أبْصَرَتْ صَرْحَا
تَخَيَّلَتْ بأنه لُجَّةٌ ... فأضْرَبَتْ عن عَرْشها صَفْحَا
ما عَرَفَتْ إذ أبْصَرَتْ نَفْسَهَا ... ستراً ولا كشفاً ولا لَمْحَا

فأعطاه الخبز والملح أن لا يتخذ عدوّاً لله محبوباً ولا محباً ولما علم الله ما هو عليه

الإنسان في جبلته من حبه المحسن لإحسانه ومن استجلابه الودّ من أشكاله بالتودّد إليهم علم أنه تعالى إذا قال لهم: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى﴾ أنهم لما ذكرناه لا يقومون في هذا النهي في جانب الحق مقام ما يستحقه الحق فزاد في الخطاب فقال: ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ وذلك ليبغضهم إلينا لعلمه بأنا نحب أنفسنا ونؤثر أهواءنا عليه تعالى، فليس في القرآن ذم في حقنا من الله أعظم من هذا، فإنه لو علم منا إيثاره على أهوائنا لاكتفى بقوله: ﴿عَدُوِّى﴾ ثم تمم على نسق واحد فقال: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ يعني في موطنه فإن مفارقة الأوطان من أشق ما يجري على الإنسان، فلما علم الله أنكم لا يقوم عندكم إخراج الرسول مع بقائكم في أوطانكم ذلك مقام ما يستحقه الرسول منكم قال: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ [الممتحنة: ١] فشركم في الإخراج مع الرسول كما شرككم في العداوة مع الله لتكونوا أحرص على أن لا تلقوا إليهم بالمودّة وأن تتخذوهم أعداء، والمؤمنون هنا كل ما سوى الرسول، فإن الرسول إذا تبين له أن شخصاً ما عدو لله تبرأ منه، قال تعالى في حق إبراهيم وأبيه آزر بعدما وعظه وأظهر الشفقة عليه لكونه كان عنده في حد الإمكان أن يرجع إلى الله وتوحيده من شركه فلما بين الله له في وحيه وكشف له عن أمر أبيه وتبين إبراهيم أن أباه آزر عدوّ لله تبرّأ منه مع كونه أباه فأثنى الله عليه فقال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] وقد كان إبراهيم في حق أبيه أوّاهاً حليماً لا الآن، وقد ورد في الخبر: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ يَجِدُ أَبَاهُ بَيْنَ رِجْلَيْهِ فِي صُورَةِ ذِيخ فَيَأْخُذُهُ بِيَدِهِ فَيَرْمِي بِهِ فِي النَّارِ**» فانظر ما أثر عند الخليل إيثاره لجناب الحق من عداوة أبيه في الله تعالى، فالله يجعلنا ممن آثر الحق على هواه وأن يجعل ذلك مناه، فما أعظمها عندي من حسرة حيث لم نكن بهذه المثابة عند الله حتى نكتفي بذكر عداوتهم لله وإخراج الرسول. فهنا ينبغي أن تسكب العبرات، فالسعيد من وجد ذلك من نفسه فلم يدخل تحت هذا الخطاب، وعلى قدر ما ينقصك من هذا الحال ينقصك من المعرفة بالله، ومن الوقت الذي فتح الله علي في هذا الطريق ما لقيت أحداً على هذا القدم فعرفته به وإن كان عليه في نفس الأمر ولكن ما عرفني الله به وربما عرضت له به فلم أجد عنده إلا النقيض، لكني أعلم أن في الأرض عباداً لهم هذا المقام، فالحمد لله الذي فتح علي به ونرجو إن شاء الله البقاء عليه، فإن أكثر أبواب المعرفة بالله تحول بين هذا المقام وبين المؤمنين والعلماء فهو مقام غامض صعب التصور تقدح فيه معارف إلهية كثيرة، ومتى لم يحصل لأحد هذا المقام ذوقاً فاعلم أنه بينه وبين من هو عدو لله مناسبة، ولتلك المناسبة لم يتبرّأ منه إذا تبين له لأنه قبل التبيين يعذر، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] وقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٠] فليس بأصحاب الجحيم إلا أعداء الله تعالى الذين هم أهل الجحيم: [البسيط]

فكُنْ مع الحقّ لا تَبْغي به بَدَلاً   وأَفْرِدِ الحَقَّ لا تَضْرِبْ له مَثَلاً

والله ولي الإعانة والتوفيق.

واعلم أن هذا المنزل يحوي على علم الزيادة من الخير، وفيه علم ما يتميز به الحق من الباطل والحدود التي تفصل بين الأشياء وتميز بعضها عن بعض، وفيه علم عبيد الكنايات لا عبيد الأسماء وما بينهما من المراتب في الرفعة والشرف ومن أشد وصلة في العبودية هل عبد الكناية أو عبد الاسم؟ وفيه علم ما يتعلق بالعلم كله من العلوم، وفيه علم ما يختص به الحق من الصفات دون خلقه، وفيه علم التنزيه لماذا يرجع هل لوجود أو لعدم؟ وفيه علم الموازين، وفيه علم ما أوجب اتخاذ الشريك في العالم وكل مولود فإنما يولد على الفطرة فمن أين كفر الأول وأبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يشرّكانه أو يمجسانه؟ وهل العقل ينزل هنا من حيث فكره منزلة الأبوين في كون هذا الشخص قد أخرجه نظره من فطرته إلى إثبات الشريك؟ وفيه علم ما يملكه الإنسان بذاته مما لا يملكه وتصرفه فيما لا يملكه لماذا تصرف فيه؟ وفيه علم ما يؤول إليه قائل الزور والشاهد به وكون الحاكم غير معصوم باتباع هواه ولماذا أبقاه الله حاكماً في ظاهر الأمر وإن كان معزولاً في باطن الأمر فيما حكم فيه بهواه وقوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّۗ﴾ [الأنبياء: ١١٢]. وفيه علم العلامات التي يعرف بها الصادق من الكاذب وهي من العلامات التي لا تُقال بل يجدها الإنسان من نفسه إذا كان من أهل المراقبة لأحواله فلا يفوته علم ذلك ومن لم تكن المراقبة حاله فإنه لا يعرف تلك العلامات أصلاً والمؤمنون أحق بمعرفتها من أصحاب النظر، وفيه علم ما يختص به الشيوخ في هذا الطريق يعرف به حال المريدين متى يستحقون أن يكونوا مريدين وأن يقبل عليهم الشيخ قبول إفادة، وليس للشيخ في هذا الطريق أن ينبه المريد على صورة ما يكون بحصول معناها في نفسه حصول الفتح له ونيل السعادة لئلا يظهر بالصورة في ذلك والباطن معرّى عن المعنى الموجب لتلك الصورة، فإن قلت: فهذا لا ينبغي للشيخ أن يستره عن المريد. قلنا: بل ينبغي أن يستره عن المريد وواجب عليه ذلك لعلمه أن المعنى الموجب لظهور تلك الصورة إذا قام بالمريد أوجب له ظهور تلك الصورة فيعلم الشيخ عند ذلك أن الله قد أهل ذلك المريد لأن يكون من أهل الحق، وإذا أعلمه الشيخ بذلك المعنى الموجب لإظهار هذه الصورة والنفس مجبولة على الخيانة وعدم الصدق ظهر بالصورة مع عدم المعنى فيقع الغلط كما يظهر المنافق بصورة المؤمن في العمل الظاهر والباطن معرى عن الموجب لذلك العمل، وفيه علم الضيق في النار ما سببه مع ما فيه من السعة، وفيه علم ما يقرن مع المؤمن في الجنة وما يقرن مع المشرك في النار والفرق بين الوجود والتوحيد فإن المشرك مؤمن بالوجود غير موحد والعذاب أوجبه في النار عدم التوحيد لا إثبات الوجود فمن هنا تعرف قرين المشرك من قرين المؤمن، وفيه علم دخول جميع الممكنات في الوجود من حيث أجناسها وأنواعها لا من حيث أشخاصها وآحادها لا بل أشخاص بعضها لا كلها، وهنا نظر دقيق يعطيه الكشف هل الخلق الجديد في الصور كلها في الوجود لحاملها التي بعض الناس في لبس منها أو لا؟ فمن رأى التجديد قال: لا تتناهى أشخاص كل نوع أبداً، ومن رأى أن لا تجديد قال في الآخرة إنه قد تناهت أشخاص هذا النوع الإنساني فلا يوجد إنسان بعد ذلك وهي مسألة دقيقة

لا يتمكن لنا الكلام فيها جملة واحدة فإنها من جملة الأسرار التي لا تذاع إلا لأهلها فإنها من العلوم التي لا تُقال إلا لأهل الروائح ومن لا شم له لا يقبل الإخبار عن حقيقتها. وفيه علم ما يعطى مما لا يعطى، وفيه علم ما هي السعادة في أن يجهل فإن العلم يعطى في العالم إذا علم أمراً ما فقد اكتفى به وصار يطلب علماً آخر إذ الحاصل لا يبتغى، فإذا قال: علمت كذا فمن المحال أن تتشوق النفس إليه بعد حصوله فذلك لا يعلم أحد الله أبداً، لأنه يؤدّي إلى الاستغناء عنه من حيث علمه به فإن قلت: بل علمه به جعله لا يستغني عنه. قلنا لك: ما هذا هو العلم به بل العلم الذي ذكرته هو العلم بكونه لا يستغنى عنه والعلم به الذي أردناه أمر آخر فأنت عالم بالحكم لا به، فلا تعارض بين ما اعترضت به علينا وبين ما قلنا فافهم. وفيه علم ابتلاء العالم بعضه ببعض هل هو من باب الرحمة بالعالم أو من باب الشقاء، وفيه علم الموانع التي منعت من قبول ما جاء من عند الله مع تشوق النفوس إلى رؤية الغريب إذا ورد والقبول عليه فإن رحمة الشريعة لا يدركها إلا العلماء خاصة ولهذا لا يردها عالم حيث يراها ولهذا أمرنا بالإيمان بها وإن كانت قد نسخت وارتفع حكمها وصار العمل بها حراماً علينا، وفيه علم نفع العلم، وفيه علم ما تراه شيئاً وليس بشيء وهو شيء لأنك رأيته شيئاً مثاله السراب تراه ماء والآل الذي هو شخص الإنسان في السراب يعظم فلا يشك في عظمه فإذا جئته لم تجده كما رأيته ولا تشك فيما رأيته وغيرك في ذلك الحين ممن هو على المسافة التي رأيته أنت فيها عظيماً يراه عظيماً وأنت تراه ليس بعظيم حين جئته وهو علم إلهي شريف. وفيه علم المفاضلة بين الضدين كالمفاضلة بين السواد والبياض وذلك لكون اللون جمعهما فوقعت المفاضلة، فلا بد في كل مفاضلة في الوجود من جامع يجمع بينهما أي يجتمع فيه جميع من في الوجود، ولهذا فرت الباطنية من الباري إذا قيل لها إنه موجود إلى ليس بمعدوم وما علمت أنها وقعت في عين ما فرت منه فإنه أيضاً كما ينطلق على الموجود الحادث لفظة موجود ينطلق عليه اسم ليس بمعدوم فقد وقعت الشركة في أنه ليس بمعدوم، وكذا جميع ما يسأل عنه الباطني، ولهذا كانوا أجهل الناس بالحقائق، وفيه علم الغمام وهو من الغم وكون الحق يأتي فيه يوم القيامة أو الملائكة أو الحق والملائكة فما يعطي من الغم، وفيه علم متى ينفرد الحق بالملك أو لم يزل منفرداً به ولكن جهل في موطن وعرف في موطن وهو هو ليس غيره فإنه تعالى ملك بالحقيقة والمخلوق ملك بالجعل قال تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠] ومن هنا تعلم من هو ملك الملك، وفيه علم الظلم الذي أتت به الشرائع وما أثره، وعلم الظلم الذي يعطيه العقل وما أثره، وعلم الظلم المحمود والمذموم وفيه علم الفرق بين شياطين الإنس وبين شياطين الجن وما ينبغي أن يصحب ومن لا ينبغي أن يصحب مطلقاً من هذا النوع الإنساني. وفيه علم التجاء الدعاة إلى الله إذا لم تسمع دعوتهم سواء كان رسولاً أو وارثاً، وفيه علم كون الحق جعل لكل شيء ضداً، وفيه علم اختصاص أحد الضدين بالحب الإلهي والآخر بالبغض الإلهي والصدور من عين واحدة أو هو من يدين مختلفتين في الحكم وفيه علم حدوث الأحكام بحدوث النوازل وأن الشرع ما انقطع ولا

ينقطع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وإن انقطعت النبوة فالشرع ما انقطع ما دام في العالم مجتهد، وفيه علم المضاهاة الإلهية للأكوان فهل ذلك لعلو قدر الأكوان أو لأمر آخر مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] وفيه علم من يمشي على بطنه من الأناسي وفي أي صورة يحشر من هذا مشيه، وفيه علم من حبس نفسه مع الأدنى مع معرفته بالأعلى، والأعلى يدعوه إليه والأدنى لا يدعوه إليه، فمن يدعوه إلى الأدنى حتى يحبس نفسه عليه، وفيه علم ما يتعدّى الإنسان أيّ إنسان كان في علمه بغيره علمه بنفسه، وفيه علم شهود الكيفيات ومن هو الموصوف عندنا بالكيفية، وفيه علم إلحاق الإنسان الكامل بربه والغيرة الإلهية على المقام إذا ظهر الإنسان بالفعل بصورة ربه وإن حكم الشيء بالفعل يعطي خلاف ما يعطيه بالقوّة فإعطاؤه بالفعل أقوى، وفيه علم الظهور والخفاء والراحة، وفيه علم الأنفاس الظاهرة في العالم بالرحمة وما سبب ذلك وعموم دخول الخلق في هذه الأنفاس، وفيه علم ما يريد الحق ظهوره.ويريد الإنسان المخالف ستره وهو الذي يرىٰ المصلحة في غير الواقع في الوجود، ويحتاج صاحب هذا المقام إلى بصر حديد من أجل الموازين الشرعية، فإن الجهل بما يراه الحق من المصالح أكثر من العلم بالمصالح الظاهرة في الكون أنها ليست مصالح في النظر العقلي عند العقلاء وهو علم دقيق إذا عمل به الإنسان عن كشف وتحقيق لم يخطىء أبداً، وإذا عمل به من ليست له هذه الصفة أخطأ وهو الذي يقول العامة فيه: خطأ السعيد صواب، وصواب من ليس بسعيد خطأ، ورأيت هذا في حطلحة بملطية وشافهني بذلك. وفيه علم الامتزاج الذي لا يمكن فيه فصل وهو كل ضدين بينهما واسطة، كالفاتر بين الحارّ والبارد لا يقدر أحد على فصل الحرارة من البرودة في هذا الفاتر، وفيه علم الفرق بين من هو لله وبين من هو على الله، وفيه علم الطريق إلى الله بالنية وإن لم تكن مشروعة فهي نافعة بكل وجه فإنه ما قصد إلا الله، وعموم التجلي الإلهيّ معلوم فللعبد المشيئة في ذلك، وفيه علم ما يختص بالاسم الرحمن دون غيره من الأسماء الإلهية وما ينبغي أن يعامل به الاسم الرحمن دون غيره من الأسماء الإلهية، وفيه علم المسمى شيئاً ما هو، وفيه علم التناوب وأن المتناوبين لا يجتمعان وما يحدث في عالم الإنسان منهما، وفيه علم التؤدة والسكون وأين يحمدان، وفيه علم صفات السعداء من غيرهم عقلاً وشرعاً، وفيه علم ما يقبل التبديل من الصفات مما لا يقبل وممن لا يقبله، وفيه علم المحفوظين والمعصومين من العلماء العارفين بالله تعالى، وفيه علم ما تنتج الذكرى من المؤمن، وفيه علم من طلب الإمامة فأعين عليها، وفيه علم عناية الدعاة إلى الله وشرف منزلتهم عند الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي ستين وثلاثمائة
في معرفة منزل الظلمات المحمودة والأنوار المشهودة

[البسيط]:

نُورُ القَبُول على التَّحْقيق إيمانُ ... ونُورُ فكْرِكَ آياتٌ وبُرْهَانُ
فنُورُ فكرك لا يَنْفَكُّ ذا شُبَهٍ ... وفيه وقتاً زياداتٌ ونقصانُ
ونُورُ إيمانك الأعلى له عَلَمٌ ... في رَأْسِ مَرْقَبَةٍ ما فيه بُهْتَانُ
ولي عليه إذا ما العَقْلُ ناظره ... على مسالكه حُكْمٌ وسلطانُ
هو الضَّرُوريُّ لا فِكْرٌ ولا نَظَرٌ ... ولا يُقَيِّدُهُ رِبْحٌ وخُسْرَانُ

اعلم علمك الله ما يبقيك وجعلك ممن ينقيك أن النور يدرك ويدرك به، والظلمة تدرك ولا يدرك بها، وقد يعظم النور بحيث أن يدرك ولا يدرك به، ويلطف بحيث أن لا يدرك ويدرك به، ولا يكون إدراك إلا بنور في المدرك لا بد من ذلك عقلاً وحساً، سئل ﷺ: هَلْ رَأَيت رَبَّكَ؟ فقالَ: «نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ» فنبه بهذا القول على غاية القرب فإنه أقرب إلى الإنسان من حبل وريده ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] يقول الله ذلك في المحتضر فالحق هو النور المحض والمحال هو الظلمة المحضة، فالظلمة لا تنقلب نوراً أبداً والنور لا ينقلب ظلمة أبداً، والخلق بين النور والظلمة برزخ لا يتصف بالظلمة لذاته ولا بالنور لذاته وهو البرزخ والوسط الذي له من طرفيه حكم، ولهذا جعل للإنسان عينين وهداه النجدين لكونه بين طريقتين، فبالعين الواحدة من الطريق الواحدة يقبل النور وينظر إليه بقدر استعداده، وبالعين الأخرى من الطريق الأخرى ينظر إلى الظلمة ويقبل عليها وهو في نفسه لا نور ولا ظلمة، فلا هو موجود ولا هو معدوم، وهو المانع القوي الذي يمنع النور المحض أن ينفر الظلمة ويمنع الظلمة المحضة أن تذهب بالنور المحض، فيتلقى الطرفين بذاته فيكتسب بهذا التلقي من النور ما يوصف به من الوجود، ويكتسب بهذا التلقي من الظلمة ما توصف به من العدم، فهو محفوظ من الطرفين ووقاية للطرفين، فلا يقدر قدر الخلق إلا الله، فهذا أصل الأنوار والظلمات الظاهرة في العالم وهو ما انصبغ به الممكن من الطرفين، ولولا ما هو بهذه المثابة من الحفظ لعين الطرفين ما وصف الحق نفسه بما أوجبه على نفسه بقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] لما هو عليه الممكن من الوقاية وراعى المحال أيضاً له ذلك فأفاض عليه من حقيقته فحفظ عليه عدمه وحفظ الحق عليه وجوده، فاتصف الممكن بالوجود والعدم معاً في الإثبات أي هو قابل لكل واحد منهما، كما اتصف أيضاً لهذا بأنه لا موجود ولا معدوم في النفي، فجمع بينهما في وصفه بين النفي والإثبات، فلو كان موجوداً لا يتصف بالعدم لكان حقاً، ولو كان معدوماً لا يتصف بالوجود لكان محالاً، فهو الحافظ المحفوظ والواقي الموقى فهذا الحد له لازم ثابت لا يخرج عنه، ولهذا أيضاً اتصف بالحيرة بين العدم

والوجود لعدم تخلصه إلى أحد الطرفين لأنه لذاته كان له هذا الحكم: [الطويل]

فـإنْ قُـلْـتَ حَـقٌ كـان قـولـك صـادقـاً   وإنْ قُـلْـتَ فـيـه بـاطـلٌ لَـسْـتَ تَـكْـذِبُ

فإذا علمت هذا فلنقل ما تجاوز فيه الناس من مسمى النور والظلمة المعروفين العرف ظاهراً كالأنوار المنسوبة إلى البروق والكواكب والسرج وأمثال ذلك، والظلم المشهودة المعلومة المدركة ظاهراً للحس، وأنوار الباطن المعنوية كنور العقل ونور الإيمان ونور العلم، وظلمة الباطن كظلمة الجهل والشرك وعدم العقل، والذي ليس بظلمة ولا نور كالشك والظن والحيرة والنظر، فهذا أيضاً ليس بظلمة ولا نور، فهذه مجازات حقائق الواجب والمحال والممكن في عرف الممكنات، فقد جمع الممكن بنفسه حقيقته وحقيقة طرفيه، وأبين ما يكون ذلك في الممكن ما فيه من المعاني والمحسوسات والخيالات، وهذا المجموع لا يوجد حكمه إلا في الممكن لا في الطرفين أصلاً، فالعلم بالممكن هو بحر العلم الواسع العظيم الأمواج الذي تغرق فيه السفن وهو بحر لا ساحل له إلا طرفيه، ولا يتخيل في طرفيه ما تتخيله العقول القاصرة عن إدراك هذا العلم كاليمين والشمال لما بينهما ليس هذا الأمر كذلك، بل إن كان ولا بد من التخيل فلتتخيل ما هو الأقرب بالنسبة لما ذكرناه أن الشأن في نفسه كالنقطة من المحيط وما بينهما فالنقطة الحق والفراغ الخارج عن المحيط العدم أو قل الظلمة وما بين النقطة والفراغ الخارج عن المحيط الممكن كما رسمناه مثالاً في الهامش:

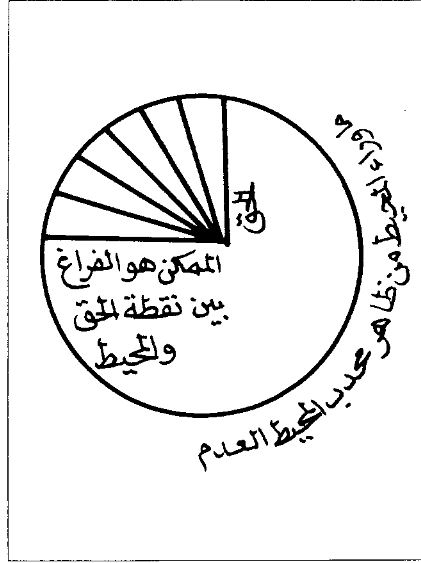

وإنما أعطينا النقطة لأنها أصل وجود محيط الدائرة وبالنقطة ظهرت كذلك ما ظهر الممكن إلا بالحق والمحيط من الدائرة إذا فرضت خطوطاً من النقطة إلى المحيط لا تنتهي إلا إلى نقطة، فالمحيط كله بهذه المثابة من النقطة وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ٢٠] وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ [فصلت: ٥٤] فكانت كل نقطة من المحيط انتهاء الخط، والنقطة الخارج منها الخط إلى المحيط ابتداء الخط فهو الأوّل والآخر، فهو أوّل لكل ممكن كالنقطة أول لكل خط وما خرج عن وجود الحق وما ظهر من الحق فذلك العدم الذي لا يقبل الوجود، والخطوط الخارجة والممكنات فمن الله ابتداؤها وإلى الله انتهاؤها وإليه يرجع الأمر كله، فإن الخط إنما ينتهي إلى نقطة، فأولية الخط وآخريته هما من الخط ما هما من الخط كيف شئت، قلت: وهذا هو الذي ينبغي أن يقال فيه لا هي هو ولا هي غيره كالصفات عند الأشاعرة، فمن عرف نفسه هكذا عرف ربه، ولهذا أحالك الشارع في العلم بالله على العلم

بك وهو قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [فصلت: ٥٣] وهي الدلالات في الآفاق وفي أنفسهم فما ترك شيئاً من العالم، فإن كل ما خرج من العالم عنك فهو عين الآفاق وهي نواحيك حتى يتبين لهم أنه الحق لا غيره إذ لا غير، ولهذا كان الخط مركباً من نقط لا تعقل إلا هكذا، والسطح مركب من خطوط فهو مركب من نقط، والجسم مركب من سطوح فهو مركب من خطوط وهي مركبة من نقط، فغاية التركيب الجسم، والجسم ثمان نقط، وليس المعلوم من الحق إلا الذات والسبع الصفات فلا هي هو ولا هي غيره، فما الجسم غير النقط ولا النقط غير الجسم ولا هي عينه، وإنما قلنا ثمان نقط أقل الأجسام لأن اسم الخط يقوم من نقطتين فصاعداً، وأصل السطح يقوم من خطين فصاعداً، فقد قام السطح من أربع نقط، وأصل الجسم يقوم من سطحين فصاعداً فقد قام الجسم من ثمان نقط، فحدث للجسم اسم الطول من الخط واسم العرض من السطح واسم العمق من تركيب السطحين، فقام الجسم على التثليث كما قامت نشأة الأدلة على التثليث، كما أن أصل الوجود الذي هو الحق ما ظهر بالإيجاد إلا بثلاث حقائق: هويته وتوجهه وقوله، فظهر العالم بصورة موجده حساً ومعنى، فنور على نور وظلمة فوق ظلمة لأنه في مقابلة كل نور ظلمة كما أنه في مقابلة كل وجود عدم، فإن كان الوجود واجباً قابله العدم الواجب، وإن كان الوجود ممكناً قابله العدم الممكن، فالمقابل على صورة مقابله كالظل مع الشخص.

واعلم ما نبهك الله عليه في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] فالنور المجعول في الممكن ما هو إلا وجود الحق، فكما وصف نفسه بأنه أوجب عليها ما أوجب من الرحمة والنصر في مثل قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] كذلك وصف نفسه بالجعل في الممكن، إذ لولا النور ما وجد له عين ولا اتصف بالوجود، فمن اتصف بالوجود فقد اتصف بالحق، فما في الوجود إلا الله، فالوجود وإن كان عيناً واحدة فما كثره إلا أعيان الممكنات فهو الواحد الكثير، فينقسم بحكم التبعية لأعيان الممكنات كما نحن في الوجود بحكم التبعية فلولاه ما وجدنا ولولانا ما تكثر بما نسب إلى نفسه من النسب الكثيرة والأسماء المختلفة المعاني، فالأمر الكل متوقف علينا وعليه فبه نحن وهو بنا، وهذا كله من كونه إلهاً خاصة، فإن الرب يطلب المربوب طلباً ذاتياً وجوداً وتقديراً ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] لأنه لا دليل عليه سوى نفسه لأنه وصف نفسه بالغني، فإن غير الوجود الحادث ما تعرفه معرفة الحدوث، ولا يتصف الممكن بالوجود حتى يكون الحق عين وجوده، فإذا علمه من كونه موجوداً فما علمه إلا هو فهو غني عن العالمين، والعالم ليس بغنيّ عنه جملة واحدة لأنه ممكن والممكن فقير إلى المرجح فالحجب الظلمانية والنورية التي احتجب بها الحق عن العالم إنما هي ما اتصف به الممكن في حقيقته من النور والظلمة لكونه وسطاً وهو لا ينظر إلا لنفسه فلا ينظر إلا في الحجاب، فلو ارتفعت الحجب عن الممكن ارتفع الإمكان وارتفع الواجب والمحال لارتفاعه، فالحجب لا تزال مسدلة ولا يمكن إلا هكذا، انظر إلى قوله في

ارتفاع الحجب ما ذكر من إحراق سبحات الوجه ما أدركه بصره من خلقه وقد وصف نفسه بأن الخلق يراه ولا تحترق فدل على أن الحجب لم ترفع مع الرؤية فالرؤية حجابية ولا بد، والضمير في بصره يعود على ما، وما هنا عين خلقه، فكأنه يقول في تقدير الكلام ما أدركه بصر خلقه فإنه لا شك أنه تعالى يدركنا اليوم ببصره تعالى وسبحات وجهه موجودة، والحجب إن كانت عينه فلا ترتفع، وإن كانت خلقاً فإن السبحات تحرقها فإنها مدركة لبصره من غير حجاب، ولو احترقت الحجب احترقنا فلم نكن ونحن كائنون بلا شك فالحجب مسدلة، فلو فهم الناس معنى هذا الخبر لعلموا نفوسهم، ولو علموا نفوسهم لعلموا الحق، ولوعلموا الحق لاكتفوا به فلم ينظروا إلا فيه لا في ملكوت السموات والأرض فإنهم إذا انكشف لهم الأمر علموا أنه عين ملكوت السموات والأرض كما علمه الترمذي الحكيم فأطلق عليه عند هذا الكشف الإلهيّ اسم ملك الملك: [السريع]

فالأمْرُ دَوْرِيٌّ ولا يُعْلَمُ ... والشأنُ محكومٌ ولا يَحْكُمُ
فليس إلا الله لا غيره ... وليس إلا كونه المُحْكَمُ
فهو الذي يُعْلَمُ وقتاً كما ... يُجْهَلُ في وقت ولا يُعْلَمُ

وصل: واعلم أيدك الله أن الأمر يعطي أنه لولا النور ما أدرك شيء لا معلوم ولا محسوس ولا متخيل أصلاً، وتختلف على النور الأسماء الموضوعة للقوى، فهي عند العامة أسماء للقوى وعند العارفين أسماء للنور المدرك به، فإذا أدركت المسموعات سميت ذلك النور سمعاً، وإذا أدركت المبصرات سميت ذلك النور بصراً، وإذا أدركت الملموسات سميت ذلك المدرك به لمساً، وهكذا المتخيلات فهو القوّة اللامسة ليس غيره، والشامة والذائقة والمتخيلة والحافظة والعاقلة والمفكرة والمصوّرة وكل ما يقع به إدراك فليس إلا النور، وأما المدركات فلولا أنها في نفسها على استعداد به تقبل إدراك المدرك لها ما أدركت فلها ظهور إلى المدرك وحينئذ يتعلق بها الإدراك والظهور نور، فلا بد أن يكون لكل مدرك نسبة إلى النور بها يستعدّ إلى أن يدرك، فكل معلوم له نسبة إلى الحق والحق هو النور، فكل معلوم له نسبة إلى النور فبالنور أدركت المحال، ولولا ظهور المحال وقبوله بما هو عليه في نفسه لأدرك المدرك ما أدركته، ولهذا ينسحب على كل قسم من أقسام العقل كما ينسحب عليها أيضاً أعني على الأقسام الوجوب فنقول: محال على الواجب الوجود بالذات أن يقبل العدم، ومحال على الممكن أن يقبل الوجود الذاتي، ومحال على المحال أن يقبل الإمكان، وكذلك تقول في الوجوب واجب للممكن أن يكون نسبة العدم إليه والوجود نسبة واحدة، وواجب للمحال أن لا يوصف بالإمكان ولا نقل مثل هذا في الإمكان لا تقل ممكن للمحال أن يكون على كذا أو على كذا، وممكن للواجب أن يكون على كذا أو على كذا، فيدخل الممكن تحت حكم الواجب أو المحال، ولا يدخل الواجب ولا المحال تحت حكم الممكن، ولهذا لا يجوز أن يقال في الواجب أنه يمكن أن يفعل به كذا ولا يفعل، وإنما الذي يقال ويصح أن يقال في الممكن أنه يمكن أن يفعل به كذا أو لا يفعل، وهذه مسألة أغفلها كثير من الناس،

فقد علمت أنه ما ثم معلوم من محال أو غيره إلا وله نسبة إلى النور، ولولا ذلك النور الذي له إليه نسبة ما صح أن يكون معلوماً فلا معلوم إلا الله، وعلى الحقيقة فلا يدري أحد ما يقول ولا كيف تنسب الأمور مع كونه يعقلها والعبارات تقصر عن الإحاطة بها على وجهها، فإن الله عليم بكل شيء من حيث ما لذلك الشيء من النور الذي به يكون معلوماً والعدم والمحال معلومان: [الطويل]

فلا شَيْءَ غَيْرُ الشَّيءِ إذْ ليس غَيْرُهُ ... فمن كونه نوراً يُحِيطُ به العِلْمُ

فإذا حققت ما أشرنا إليه وقفت على حقائق المعلومات كيف هي في أنفسها في اتصافها بوجود أو عدم أو لا وجود ولا عدم أو نفي أو إثبات: [الطويل]

فهذا هو العلْمُ الغريبُ فإنْ تَكُنْ ... مِنَ أصْحابه أنت الغريبُ ولا تَدْري

فما ثَمَّ من يدري بغُرْبَته وذا ... أَتَمُّ وجوداً في مطالعة الأمْرِ

فسبحان من أحيا الفُؤادَ بنوره ... ونَوَّرَهُ بالفِكْرِ وقتاً وبالذِّكْرِ

وأما النور الذي لا يدرك وهو قوله ﷺ: «**نورٌ أنَّى أَرَاهُ**» فإن ذلك لاندراج نور الإدراك فيه فلم يدركه لأنه ليس هو عنه بأجنبي، فهو كالجزء عاد إلى كله، إذ لا يصح اسم الكل عليه ما لم يحو على أجزائه فاندرج الجزء في الكل وليس الكل غير أجزائه، فالكل يدرك أجزاءه جزءاً جزءاً والجزء لا يدرك الكل، ولهذا يعلم الحق الجزئيات ولا تعلمه الجزئيات، وإذا علم الجزء الكل فما يعلم منه إلا عين جزئيته فإنه علم كل في نفسه لنفسه وقد لا يعلم أنه جزء لكل، ولهذا تتفاضل الناس في العلم، فالعالم بالشيء من لم يبق له في ذلك المعلوم وجه إلا علمه منه، وإلا فقد علم منه ما علم وأما النور الذي يدرك ويدرك به غيره فهو نور مكافئ لنور الإدراك فيصحبه ولا يندرج فيه فيدركه ويدرك به ما كشفه له، وما انكشف له ما انكشف إلا بالنورين: نور الإدراك ونور المدرك، ولولا وجود نور الإدراك لما ظهرت الأشياء فلا يظهر شيء بنور المدرك من غير نور الإدراك، وقد يظهر بعض الأشياء لنور الإدراك ولكن بنور المدرك وإن لم يدركه به، كما قلنا في نسبة كل معلوم إلى النور الذي لولاه ما علم فالبصر يدرك به كما قلنا في نسبة كل معلوم إلى النور الذي لولاها ما علم، فالبصر يدرك الظلمة نفسها ولا يدرك بها غيرها إذا كان الإدراك بالبصر خاصة.

وصل: وأما الظلم المعنوية كظلمة الجهل فإنها مدركة للعالم ما لم تقم بالجاهل، فإذا قامت به لم يدركها إذ لو أدركها كان عالماً، وما عدا ظلمة الجهل من الظلم فإنها تدرك كلها ثم لتعلم أنه إن كان الجهل نفي العلم عن المحل بأمر ما فكل ما سوى الله جاهل أي ظلمة الجهل له لازمة لأنه ليس له علم بإحاطة المعلومات، ولذلك أمر الله رسوله ﷺ بطلب الزيادة من العلم فقال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وإن كانت ظلمة الجهل عبارة عن اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به أيّ شيء كان فأهل الله قد أخرجهم من هذه الظلمة فإنهم لا يعتقدون أمراً يكون في نفسه على خلاف ما يعتقدونه، وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] ولم يذكر حقائق المسميات فعلم بعضاً ولم يعلم بعضاً، فالمسميات هو

قوله هؤلاء وهي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١] وأراد بالأسماء هنا الأسماء الإلهية التي استند إليها المشار إليهم بهؤلاء في إيجادهم وأحكامهم توبيخاً للملائكة وتقريراً يقول: هل سبحتموني بهذه الأسماء أو قدستموني بها حيث قالوا: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: ٣٠] فزكوا نفوسهم وجرحوا خليفة الله في أرضه ولم يكن ينبغي لهم ذلك، ولكن لتعلم أن أحداً من العالم ما قدر الله حق قدره إذ لا أعلم من الملائكة بالله وما ينبغي لجلاله من التعظيم ومع هذا قالوا: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] فهذه الأداة هنا لا ينبغي أن تكون إلا من الأعلى في حق الأدنى مثل قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة: ١١٦] بل أشد من هذا قولهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]: [الكامل]

لـمّـا رَأَوْا جـهـةَ الـشّـمـال ولـم يَـرَوْا ... مـنـه يَـمِـيـنَ الـقَـبْـضَـة الـبَـيْـضَـاءِ

فإن قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] قد يكون تقريراً للحجة على من عبد عيسى عليه السلام وأمه وقالوا إنهما إلهان، فإذا قال عيسى عليه السلام في الجواب: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ [المائدة: ١١٦] والمدعي يسمع ذلك وقد علم بقرينة الحال والموطن ذلك المدعى أن عيسى ليس من أهل الكذب وأن إنكاره لما ادعوه صحيح علمنا عند ذلك أنه تعالى أراد توبيخهم وتقريرهم، فالاستفهام لعيسى عليه السلام والتقرير والتوبيخ لمن عبده، فإن الاستفهام لا يصح من الله جملة واحدة ويصح منه تعالى التقرير لإقامة الحجة والتوبيخ، فإن الاستفهام على الحقيقة لا يكون إلا ممن لا يعلم ما استفهم عنه، وأما ظلمة البعد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وفي مثل قوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [النور: ٣١] وأمثاله فهذا من حكم الأسماء الإلهية إذ كان لكل وقت اسم إلهيّ له الحكم في عين ما من أعيان العالم، فإن كان من الأسماء التي أحكامها تناقض حكم ما أمر به المكلف أو نهى عنه فإن الاسم الإلهي الذي يعطيهم موافقة ما أمر الله به هذا المخالف أو نهى عنه بعيد عنه فيناديه ليرجع إليه ويصغي إلى ندائه ليكون له الحكم فيه، سواء كان الدعاء من قريب أو بعيد لكنه بالضرورة لعدم الموافقة فيما أمر الله به بعيد، ألا ترى الإشارة تكون مع القرب من المشير والمشار إليه إذا كان معهما ثالث لا يريد المخبر أو المخبر أو هما أن يعلم الثالث الحاضر ما يريد المخبر أن يلقيه إلى صاحبه فيشير إليه من حيث لا يعلم الثالث والإشارة عند القوم نداء على رأس البعد، ويقولون أيضاً: أبعدكم من الله أكثركم إشارة إليه، والعلة في ذلك أنها تدل على الجهل بالله تعالى، فلا فرق بينه في تلك الحالة وبين من لا يبلغه الصوت وتبلغه الإشارة، فهذه كلها ظلمة قد حجبت الثالث عن علم ما بين الاثنين، فهذه ظلمة الدعاء والإشارة فاجعل بالك فإن الله قد نبه أقواماً من عباده وأيه بهم على أمور بكلام لا يفهمه إلا المرادون به وهو الرمز قال تعالى: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ [آل عمران: ٤١]. أما ظلمة التسوية بين الأمرين فإنما سميت ظلمة لأن التسوية بين الأمرين محال، لأن التسوية المحققة المثلية من جميع الوجوه لا من بعض الوجوه ولا

من أكثرها محال بين الأمرين قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦] لأنهم ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦] فكأن الله حكى لنبيه ﷺ وعرّفه بأن حالهم ما ذكروه عن نفوسهم، فهذه ظلمة قد تكون ظلمة جهل وقد تكون ظلمة جحد لهوى قام بهم وهو من أشد الظلم، ولكن هذه كلها سدف سحرية بالنظر والإضافة إلى ظلمة الجهل الذي هو نفي العلم من المحل بالكلية وهو قوله فيها: ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فنفى العلم والطرق الموصلة إليه العلم بذلك، فهذه أشدّ ظلمة في العالم إلي، فإن اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به قد علم الشيء وما علم حقيقته أي علم في الجملة أن اسمه كذا ثم اعتقد فيه ما ليس هو عليه فقد اعتقد أمراً ما فظلمته دون ظلمة نفي العلم من المحل كما قال تعالى في أمثالهم: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] وهذه شائعة في الشقيّ والسعيد، ففي السعيد فيمن مات على غير توبة وهو يقول بإنفاذ الوعيد فيغفر له فكان الحكم للمشيئة فسبقت بسعادتهم فتبين لهم عند ذلك أنهم اعتقدوا في ذلك الأمر خلاف ما هو ذلك الأمر عليه، فإن الذي هو عليه إنما هو الاختيار، والذي عقدوا عليه كان عدم الاختيار، فمثل هذا يسمى ظلمة الشبهة: [الرمل]

يا بني الزَّوْراء ما لي ولَكُمْ ... إنني آلٌ لمن لا يهتضمْ
فإذا قلتُ ألا قولوا بَلَى ... وإذا ما قلتُ هَلْ قولوا نَعَمْ
إنّما الأمْرُ الذي جئتُ به ... أمْرُ مَوْجُودٍ له نَعْتُ القِدَمْ
واحدٌ في عَيْنه ليس لنا ... في الذي يظهرُ فِيهِ من قَدَمْ
والذي أحْضَرَهُ يُحْضِرُني ... بين أمرين وجودٌ وعَدَمْ
فلنا الأنوار منه إنْ بَدَا ... وله منّا غَيَابَاتُ الظُّلَمْ
هي حُجُب الله أن نُدْرِكَهُ ... وبها قامت دلالاتُ التُّهَمْ
ثُمّ فيها من علامات الهُدى ... لتَجَلّيهِ علومٌ وحِكَمْ
فَطَر العَالَمَ قد قَسَّمَها ... ما هو الحقُّ عليه فحَكَمْ
فكما نحنُ به فَهْوَ بنا ... استحالاتٌ كنار في عَلَمْ
كلّما قُلْتُ بَدَتْ صورتُه ... حوّل الصورةَ في كَيْفٍ وكَمْ
فتحوّلتُ أنا فانْبَهَمتْ ... حالةُ الأمْرِ علينا فانْبَهَمْ
ليت شِعْري هل هو الأمرُ كما ... قد بدا أو غَيْرُه قل يا حَكَمْ
قال والله أنا مِثْلُكم ... حائرٌ ما لي في العِلْمِ قَدَمْ

اعلم أيدك الله أن الإنسان لما أبرزه الله من ظلمة الغيب الذي كان فيه وهو المفتاح الأوّل من مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا هو، فانفرد سبحانه بعلمها ونفى العلم عن كل ما سواه بها، فأثبتك في هذه الآية وأعلمك أنك لست هو إذ لو كنت هو كما تزعم لعلمت مفاتيح الغيب بذاتك وما لا تعلمه إلا بموقف فلست عين الموقف والممكنات كلها وأعني بكلها ميزها عن المحال والواجب لا أن أعيانها يحصرها الكل ذلك محال هي في ظلمة

الغيب، فلا يعرف لها حالة وجود، ولكل ممكن منها مفتاح ذلك المفتاح لا يعلمه إلا الله فلا موجد إلا الله هو خالق كل شيء أي موجده، فأوّل مفتاح فتح به مفتاح غيب الإنسان الكامل الذي هو ظل الله في كل ما سوى الله فأظهره من النفس الرحماني الخارج من قلب القرآن سورة يس وهو نداء مرخم أراد يا سيد فرخم كما قال: **«يا أبا هر»** أراد يا أبا هريرة فأثبت له السيادة بهذا الاسم وجعله مرخماً للتسليم الذي تطلبه الرحمة والقطع مما بقي منه في الغيب الذي لا يمكن خروجه، فصورته في الغيب صورة الظل في الشخص الذي امتد عنه الظل، ألا ترى الشخص إذا امتد له ظل في الأرض أليس له ظل في ذات الشخص الذي يقابله ذلك الظل الممتد؟ فذلك الظل القائم بذات الشخص المقابل للظل الممتد ذلك هو الأمر الذي بقي من الإنسان الذي هو ظل الله الممدود في الغيب لا يمكن خروجه أبداً وهو باطن الظل الممتد، والظل الممدود هو الظاهر، فظاهر الإنسان ما امتد من الإنسان فظهر وباطنه ما لم يفارق الغيب، فلا يعلم باطن الإنسان أبداً، ونسبة ظاهره إلى باطنه متصلة به لا تفارقه طرفة عين ولا يصح مفارقته فهو في الظاهر غيب وفي الغيب ظاهر، له حكم ما ظهر عنه في الحركة والسكون، فإن تحرّك تحرّك بحق، وإن سكن سكن بحق، وهو على صورة موجده، وما سواه من المكنات ليس له هذا الكمال فلا غيب أكمل من غيب الإنسان، فلما أبرزه الله للوجود أبرزه على الاستقامة وأعطاه الرحمة ففتح بها مغالق الأمور علواً وسفلاً فأمد الأمثال بذاته وأمدّ غير الأمثال بمثله، فبمثله ظهرت الأجسام، وبمثله الآخر ظهرت الأرواح، فهي له كاليمين والشمال لنقص الأجسام عن الأرواح كنقص الشمال عن اليمين، والمطلق اليدين هو المثل ومثاله في الهامش:

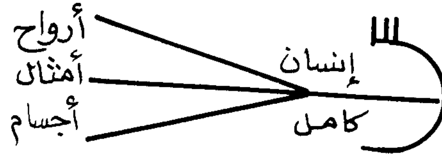

وما أوجد العالم على ما ذكرناه إلا عن حركة إلهية وهي حركة المفتاح عند الفتح، والممكنات وإن كانت لا تتناهى فهي من وجه محصورة في عشرة أشياء وهي المقولات العشرة، وقد ذكرناها من قبل: في هذا الكتاب، فلنبين هنا مراتبها فيما يختص بهذا الباب مما لم نذكره قبل:

فاعلم أن لله تعالى في حضرة الغيب الذي له من الأسماء الإلهية الباطن فلا نعلم أبداً له تعالى حكماً يظهر في الإنسان دون غيره من المخلوقات لما هو عليه من الجمعية وما اختص به من عموم النفس الرحماني، وذلك الحكم في غيب الحق له الثبوت دائماً ما دام يتصل الباطن بالظاهر للإمداد الذي من الخالق للمخلوق، إذ لو انقطع عنه لفني، ولذلك جعل أهل

اللسان الوصل في الكلام هو الأصل، والوقف عارض يطرأ في الكلام لضيق النفس الذي تبرزه القوة الدافعة، فلو تمادى هلك، فإذا خافت على المتنفس الهلاك جذبت القوّة الجاذبة الهواء من خارج إلى داخل، فكان بين انتهاء الدافعة وابتداء الجاذبة وقف المتكلم للراحة، فلهذا قلنا فيه أنه عارض، وهو في النفس الإلهي من حيث ما هو نفس الرحمن ما يبتلي الله به عبده من الضيق والحرج ثم ينفس عنه بالسعة فيقابل الشيء بضده، ولا بد بين النقيضين إذا تعاورا على المحل من بهت يقوم بالمحل ذلك البهت هو المسمى وقفاً في عالم الكلام، وهذا من جوامع الكلم الذي هو جمع كلمة، فما بين الكلمة والكلمة يكون بهتاً لكون النفس في الكلمتين عيناً واحدة، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤] إذا وقفت، فـ «عليماً» هو الذي في الغيب الإلهيّ، و«حكيماً» هو حكمه في الإنسان بما أمده الله به، فإن وصله بكلام بعده قبضه الله إليه قبضاً يسيراً فعاد إلى غيبه فلم يظهر في الإنسان حكمه، وهذا من أسرار الحق التي غاية العبارة عنها ما ذكرناه. فالإنسان الكامل الظاهر بالصورة الإلهية لم يعطه الله هذا الكمال إلا ليكون بدلاً من الحق ولهذا سماه خليفة وما بعده من أمثاله خلفاء له، فالأوّل وحده هو خليفة الحق وما ظهر عنه من أمثاله في عالم الأجسام فهم خلفاء هذا الخليفة وبدل منه في كل أمر يصح أن يكون له، ولهذا صحت له المقولات العشرة التي لا تقبل الزيادة على هذا العدد فهذه هي النيابة الأولى.

وأما النيابة الثانية فهي أن ينوب الإنسان بذاته عن نصف الصورة من حيث روحانيتها لأن الله إذا تجلى في صورة البشر كما ورد فإنه يظهر بصورتها حساً ومعنى، فالنيابة هنا الخاصة هي النيابة عن روح تلك الصورة المتجلي فيها، ولا يكون ذلك إلا في حضرة الأفعال الإلهية التي تظهر في العالم على يد الإنسان من حيث ما هو مريد لفعل ما يريد أن يفعله في الحال أو المستأنف، إذ لا يكون الفعل ماضياً إلا بعد ظهوره في الحال، فينوب الإنسان عن الله تعالى في أفعال الحال كلها الظاهرة على يده وليس لغير الإنسان هذه النيابة، فإن الملك والحيوان والمعدن والنبات ليس لهؤلاء إرادة تتعلق بأمر من الأمور إنما هم مع ما فطروا عليه من السجود لله والثناء عليه فشغلهم به لا عنه والإنسان له الشغل به وعنه، والشغل عنه هو المعبر عنه بالغفلة والنسيان، فالحق هنا دائرة من حيث جمع الصورة بين المعنى الروحاني والظاهر للبصر، فهذا الإنسان في هذه النيابة إنما هو نائب عما يتعلق من الأفعال بروحانية تلك الصورة، وعالم الأرواح أخف من عالم الأجسام، ولخفته يسرع بالتحوّل في الصور من غير فساد العين، وعالم الأجسام ليس كذلك.

واعلم أن النيابة الثالثة في تحقيق الأمر الذي قام بالممكن حتى أخرجه من العدم إلى الوجود، فإن ذلك نيابة عن المعنى الذي أوجب للحق أن يوجد هذا الممكن المعين ولم يكن أوجده قبل ذلك سواء كان روح مثلاً أو جسماً. فاعلم أن الأفعال الصادرة عن المريد لها من الأمثال نيابة في الظاهر عن الله في صدور الممكنات عنه، ولا يكون نائباً عنه تعالى حتى يكون من استخلفه واستنابه سمعه وبصره ويده وجميع قواه، ومتى لم يكن بهذه الصفة فما هو

نائب ولا خليفة، فإن الممكنات في حال عدمها بين يدي الحق ينظر إليها، ويميز بعضها عن بعض بما هي عليه من الحقائق في شيئية ثبوتها ينظر إليها بعين أسمائه الحسنى، كالعليم والحفيظ الذي يحفظ عليها بنور وجوده شيئية ثبوتها لئلا يسلبها المحال تلك الشيئية، ولهذا بسط الرحمة عليها التي فتح بها الوجود، فإن ترتيب إيجاد الممكنات يقضي بتقدم بعضها على بعض وهذا ما لا يقدر على إنكاره فإنه الواقع، فالدخول في شيئية الوجود إنما وقع مرتباً بخلاف ما هي عليه في شيئية الثبوت فإنها كلها غير مرتبة لأن ثبوتها منعوت بالأزل لها والأزل لا ترتيب فيه ولا تقدم ولا تأخر. ولما كان في الأسماء الإلهية عام وأعم وخاص وأخص صح في الأسماء الإلهية التقدم والتأخر والترتيب، فبهذا قبلت شيئيات الوجود الترتيب، فما من وقت يمر عليك هنا لا يظهر فيه ممكن معين ثم يظهر في الوقت الثاني إلا وبقاؤه في شيئية ثبوته مرجح في الوقت الذي لم تقم به شيئية وجوده، إذ لو لم يكن مرجحاً لوجد في الوقت الذي قلنا أنه مرّ عليه فلم يوجد فيه فصار بقاء كل ممكن مرجحاً في حال عدمه، وإن كان العدم له أزلاً كما أن قبوله لشيئية وجوده مرجح، وهذا من أعجب دقائق المسائل إن فكرت فيه فتوقف حكم الإرادة على حكم العلم، ولهذا قال ﴿إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ﴾ [النحل: ٤٠] فجاء بظرف الزمان المستقبل في تعليق الإرادة والإرادة واحدة العين، فانتقل حكمها من ترجيح بقاء الممكن في شيئية ثبوته إلى حكمها بترجيح ظهوره في شيئية وجوده، فهذه حركة إلهية قدسية منزهة أعطتها حقيقة الإمكان التي هي حقيقة الممكن، فلما خلق الله المخلوق الممكن المنعوت بالإرادة والقدرة على ظهور الأفعال منه بحكم النيابة عن الله في ظاهر الأمر لا في باطنه، فهو سبحانه في الباطن مظهر الممكن في شيئية وجوده من خلف حجاب الظاهر المريد القادر الذي هو المخلوق الذي له هذه الصفة فهو يد الله المريد بإرادة الله فيفعل بالهمة كقوله: ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] ويفعل بالمباشرة كخلقه آدم بيديه وجميع ما أضافه إلى خلق يده سبحانه فيقال في الحق مع هذه النسبة من غير مباشرة وهي في العبد مباشرة، فإن وقعت من غير مريد لها فما هو مطلوبنا ولا تكلمنا فيه وإنما ذلك له سبحانه أظهره في هذا المحل الخاص كحركة المرتعش وكل ما صدر عن غير إرادة فما هو نائب صاحب هذه الصفة، فالنائب يطلعه الله في قلبه على ما يريد الحق إيجاد عينه من الممكنات، وهو على ضربين في اطلاعه: فتارة يكون عن نظر وفكر فينوب بنظره وفكره عن الله المدبر المفصل من حيث أنه يدبر الأمر يفصل الآيات، وتارة يخطر له بديهياً ما يلقيه الله في باطنه كما يعطي العلم الإلهي الإرادة الإلهية التعلق بإيجاد أمر ما من غير حكم الاسم المدبر المفصل، فيظهر هذا الممكن على يد هذا المخلوق الذي هو مريد له وهو النائب بالوجهين التدبير والبديهة، فقد حصل لهذا النائب اطلاع على حضرة أعيان الممكنات في شيئية ثبوتها في النائب في حضرة خياله، وذلك أن الله أخرج هذا الممكن من شيئية ثبوته إلى شيئية وجوده في حضرة خيال ليقع الفرق بين الله وبين النائب في ظهور هذه العين المطلوب وجودها في عالم الحس، فتتصف هذه العين بأنها محسوسة إن كانت صورة وإن لم تكن صورة يدركها البصر وتكون معنى فيلبسها

صورة العبارات عنها أو صورة ما يدل عليها من إيماء أو إشارة، فتلك صورتها التي يمكن أن تظهر لعين الرائي فيها أو السامع أو ما كان. فالنائب على الحقيقة إنما أخرج بالإرادة ما أخرج من وجود خيالي متوهم أو معقول إلى وجود حسي مقيد بصورة عينية أو لفظية أو ما كان، وتعلق بهذا الوجود البصر من الرائي إن كان في صورة عين، وإن كان في صورة لفظ وأشباهه فيدركه بسمع فيضاف مثل هذا الوجود والإيجاد إلى النائب، ولكن لا بدّ من شرط الإرادة والاختيار في ذلك، فإن تعرى عنهما فليس من بنائب ولو ظهر ذلك منه وعليه بل ذلك لله تعالى. وأما وجود ما لا ينقال فليس للنائب فيه دخول ألبتة، فإن ذلك من خصائص الحق فتفهم ما بيناه لك فإنه من لباب المعرفة.

وأما النيابة الرابعة فهي نيابته فيما نصبه الحق له مما لو لم يكن عنه لكان ذلك عن الله تعالى، فالعلم أن الله تعالى لما أراد أن يعرف فلا بدّ أن ينصب دليلاً على معرفته، ولا بدّ أن يكون الدليل مساوياً له تعالى في العلم به من حيث هو أمر موجود، وأن يكون عالماً بنفسه من حيث ما هو موصوف بصفة تسمى العلم وعالم بنفسه بما هو يرى نفسه، وتسمى مكاشفة أو مشاهدة وهذا من كونه ذا بصر، فإن الله وصف نفسه بأن له بصراً كما وصف نفسه بأن له علماً قال تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ [النساء: ١٦٦] وفي الخبر الإلهي ما قاله لموسى وهارون: «**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**» وورد في حديث الحجب وهو صحيح «**ما أدركَهُ بَصَرُهُ من خَلْقه**» فلما نصب الدلالة عليه نصبها في الآفاق، فدلت آيات الآفاق على وجوده خاصة، فما نابت الآفاق في الدلالة عليه بما جعل فيها من الآيات منابه لو ظهر للعالم بذاته، فخلق الإنسان الكامل على صورته ونصبه دليلاً على نفسه لمن أراد أن يعرفه بطريق المشاهدة لا بطريق الفكر الذي هو طريق الرؤية في آيات الآفاق وهو قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾ ثم لم يكتف بالتعريف حتى أحال على الإنسان الكامل حتى قال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ وهنا قال: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ﴾ [فصلت: ٥٣] إشارة إلى ما خلق عليه الإنسان الكامل الذي نصبه دليلاً أقرب على العلم من طريق الكشف والشهود فقال أهل الشهود كفانا ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] فذكر الكيف والظل لا يخرج إلا على صورة من مدّه منه فخلقه رحمة فمد الظل رحمة واقية، فلا مخلوق أعظم رحمة من الإنسان الكامل، ولا أحد من المخلوقين أشد بطشاً وانتقاماً من الإنسان الحيواني، فالإنسان الكامل وإن بطش وكان ذا بطش شديد فالإنسان الحيواني أشد بطشاً منه ولذلك قال أبو يزيد: بطشي أشد منه من حيث نفسه الحيوانية لأنه يبطش بما لم يخلق فلا رحمة له فيه، والحق يبطش بمن خلق فالرحمة مندرجة في بطشه حيث كان، فإن الحدود التي نصبها في الدنيا وحيث كانت إنما هي للتطهير، وكذلك الآلام والأمراض وكل ما يؤدي إلى ذلك كل ذلك للتطهير ورفع الدرجات وتكفير السيئات. فلما خلق الإنسان الكامل وخلفاءه من الأناسي على أكمل صورة وما ثم كمال إلا صورته تعالى فأخبر أن آدم خلقه على صورته ليشهد فيعرف من طريق الشهود فأبطن في صورته الظاهرة أسماءه سبحانه التي خلع عليه حقائقها ووصفه بجميع ما وصف به نفسه

ونفى عنه المثلية فلا يماثل وهو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] من العالم أي ليس مثل مثله شيء من العالم، ولم يكن مثلاً إلا بالصورة، فاعترضت الملائكة لنشأة آدم من الطبيعة لما تحمله الصورة من الأضداد ولا سيما وقد جعل وجود آدم من العناصر فهو إلهي طبيعي عنصري، فلم تشاهد الأسماء الإلهية التي هي أحكام هذه الصورة وهي كون الحق سمعه وبصره وجميع قواه، فلو شهدت ذلك ما اعترضت فأدّبها الله بما ذكر ثم نظر العقل بآيات الآفاق وغاص بفكره في تلك الآيات الآفاقية بمشاهدة التنزيه دون التشبيه الذي أعطته المماثلة بالصورة، فلما أسمعه الحق الخطاب أعني أسمع العقل المركب في الإنسان الحيواني لا في الإنسان الكامل، فإن الإنسان الكامل بنفسه عرفه والإنسان الحيواني عرفه بعقله بعدما استعمل آلة فكره، فلا الملك عرف الإنسان الكامل لأنه ما شاهده من جميع وجوهه، ولا الإنسان الحيواني عرفه بعقله من جميع وجوهه، فكلما قام له شهود في نفسه من حيث لم يشعر أنه شهود أثر الحق ردّه ونزه الحق عنه، فإذا ورد عليه خبر إلهي يعطي ما أعطاه الخيال الفاسد عنده تأوّل ذلك الخبر على طريق يفضي به إلى التنزيه خاصة فحده من حيث لم يشعر وما أطلقه فجهل الكل الإنسان الكامل فجهلوا الحق فما عرف الحق إلا الإنسان الكامل، ولهذا وصفته الأنبياء بما شهدوه وأنزل عليهم بصفات المخلوقين لوجود الكمال الذي هو عليه الحق، وما وصل إلى هذه المعرفة بالله لا ملك ولا عقل إنسان حيواني فإن الله حجب الجميع عنه، وما ظهر إلا للإنسان الكامل الذي هو ظله الممدود وعرشه المحدود وبيته المقصود الموصوف بكمال الوجود فلا أكمل منه لأنه لا أكمل من الحق تعالى، فعلمه الإنسان الكامل من حيث عقله وشهوده، فجمع بين العلم البصري الكشفي وبين العلم العقلي الفكري. فمن رأى أو من علم الإنسان الكامل الذي هو نائب الحق فقد علم من استنابه واستخلفه فإنه بصورته ظهر، وأمرنا بالطاعة لأولي الأمر كما أمرنا بالطاعة لله ولرسوله وأن لا نخرج يداً من طاعة فنموت ميتة جاهلية والجهل أشد ما على الإنسان، فلو لم ينصب سبحانه وتعالى الإنسان الكامل لتتحقق المعرفة بالله من حيث ما هو إله في الوجود الحادث معرفة كمال وهي المعرفة التي طلبت منا لظهر بنفسه وذاته إلى خلقه حتى يعرفه على المشاهدة والكشف فلا ينكر، وما أنكره من أنكره في الآخرة أو حيث وقع الإنكار إلا لما تقدمهم النظر العقلي وقيدوا الحق، فلما لم يروا ما قيدوه به من الصفات عند ذلك أنكروه، ألا تراهم إذا تجلى لهم بالعلامة التي قيدوه بها عند ذلك يقرّون له بالربوبية، فلو تجلى لهم ابتداء قبل هذا التقييد لما أنكره أحد من خلقه فإنه بتجليه ابتداء يكون دليلاً على نفسه، فلهذا قلنا في الإنسان الكامل إنه نائب عن الحق في الظهور للخلق لحصول المعرفة به على الكمال الذي تطلبه الصورة الإلهية، والله من حيث ذاته غنيّ عن العالمين، والإنسان الكامل بوجوده وكمال صورته غنيّ عن الدلالة عليه لأن وجوده عين دلالته على نفسه فالكشف أتم المعارف، وإن لم يتكرر التجلي فإن المتجلي واحد معلوم، فإن الإنسان يعلم نفسه أنه يتقلب في أحواله وخواطره وأفعاله وأسراره كلها في صور مختلفة، ومع هذا التقليب والتحول يعلم عينه ونفسه وأن هويته

هي هي ما زالت مع ما هو عليه من التقليب، فهكذا هي صورة التجلي وإن كثرت ولم تتكرر، فإن العلم بالمتجلي في هذه الصور واحد العين غير مجهول فلا تحجبه التكيفات عنه، فهذه هي النيابة الرابعة قد وفيناها حقها، ولا يعرف ما ذكرناه إلا من كان زنيماً ذا مال، فإنه بصورته دخل في الألوهة وليس بإله فكان زنيماً والمال يوجب الغنى فله صفة الغنى بما هو عليه من الصورة فاعلم ذلك.

وأمّا النيابة الخامسة فهي نيابة الإنسان عن رفيع الدرجات في العالم لا غير، وصورة رفعه أن الإنسان الكامل من حيث إنه ليس أحد معه في درجته لأنه ما حاز الصورة الإلهية غيره، فدرجته رفيعة عن النيل فلا يعرفه إلا الله ولا يعرف الله إلا الإنسان الكامل فهو مجلاه، ولما ارتفعت درجته بالإحاطة وحصول الكل لم يتمكن للجزء أن يعرفه إذ لا معرفة للجزء بالكل لأن الشيء لا يعرف إلا نفسه ولا يعرف شيئاً إلا من نفسه وما للجزء صفة الكل، فاستحال أن يعرف أحد الإنسان الكامل لأنه ليست له درجة الكل، فالكل يعرف الكل مثله ويعرف ما يحوي كليته عليه من الأجزاء لأنها كالأعضاء والقوى لصورته والشيء لا يجهل نفسه، فظهر كل الإنسان في درجة لا يبلغ إليها، فناب بما ذكرناه مما ظهر فيه مناب ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥] فكأن الإنسان ثنى موجده فكانت أحديته قبلت الثاني على صورة أحديتها، فإذا ضربت أحدية الإنسان الكامل في أحدية الحق لم يخرج لك إلا أحدية واحدة، فلك أن تنظر عند ذلك أية أحدية خرجت وأية أحدية ذهبت، هل أحدية النائب أو أحدية من استنابه؟ فاعمل بحسب ما ظهر لك من ذلك تسعد، فما من حكم للنائب مما له أثر في الكون أو تنزيه عن المثل إلا وذلك الحكم لمن استنابه، فلا تبال أية أحدية ظهرت ولا أية أحدية بطنت، فما أمره إلا واحدة كما ذكر عن نفسه: [مجزوء الرجز]

مـــا الأمْـــرُ إلا هــكـــذا ... مـــا الأمْـــرُ إلا مـــا ذَكَـــرْ
فـــالـــقَـــوْلُ قَـــوْلٌ فـــاصـــلٌ ... لـــه احْـــتِـــكَـــامٌ فـــي الـــبَـــشَـــرْ
والـــشـــأنُ شـــأنٌ واحـــدٌ ... فـــي عَـــيْـــنـــه لِـــمَـــنْ نَـــظَـــرْ
أنـــت الـــرفـــيـــعُ الـــمُـــجْـــتَـــبَـــى ... عـــنـــد مـــلـــيـــكٍ مُـــقْـــتَـــدِرْ
إنْ كُـــنْـــتَ مـــن صُـــورتـــه ... عـــلـــى شـــهـــود فـــاعْـــتَـــبِـــرْ
مـــا قُـــلْـــتُـــهُ فـــإنـــه ... يـــدخـــل فـــي حُـــكْـــم الـــفِـــكَـــرْ
إنْ كُـــنْـــتَ ذا عَـــقْـــل ســـلـــ ... يـــم آمـــنـــاً مِـــنَ الـــغِـــيَـــرْ
تَـــجِـــدْهُ حَـــقّـــاً واضـــحـــاً ... فـــي سُـــوَرٍ بـــلا صُـــوَرْ
فـــالـــعـــيـــنُ قـــد تـــشـــهـــدُهُ ... فـــي صُـــوَرٍ وفـــي سُـــوَرْ
والـــحَـــقُّ مـــا بـــيـــنـــهـــمـــا ... فـــي عـــرشـــه عـــلـــى سُـــرُرْ
يـــقـــابـــلُ الـــمـــثـــل كـــمـــا ... يـــقـــابـــل الـــصُّـــورُ الـــصُّـــوَرْ
فـــقُـــلْ لـــمـــن يـــعـــرفُـــه ... بـــأنـــه عـــلـــى خَـــطَـــرْ
وقـــل لـــمـــن يـــجـــهـــلُـــه ... بـــأنـــه عـــلـــى غَـــرَرْ

وأما النيابة السادسة فإن الله وصف نفسه بأن له كلمات فكثر، فلا بدّ من الفصل بين آحاد هذه الكثرة، ثم الكلمة الواحدة أيضاً منه كثرها في قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [النحل: ٤٠] فأتى بثلاثة أحرف: اثنان ظاهران وهما الكاف والنون وواحد باطن خفيّ لأمر عارض وهو سكونه وسكون النون فزال عينه من الظاهر لالتقاء الساكنين، فناب الإنسان الكامل في هذه المرتبة مناب الحق في الفصل بين الكلمة المتقدمة والتي تليها، فنطق سبحانه في هذه النشأة الإنسانية، وكل من ظهر بصورتها بالحروف في مخارج النفس من هذه الصورة ووجود الحرف في كل مخرج تكوينه إذا لم يكن مكوّناً هناك، وإلا فمن يكوّنه فلا بد للمكون أن يكون بين كل كلمتين أو حرفين لإيجاد الكلمة الثانية أو الحرف الثاني وتعلق الأوّل به لا بدّ من ذلك في الكلمات الإلهية التي هي أعيان الموجودات كما قال في عيسى عليه السلام أنه ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١] وقال فيها: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ [التحريم: ١٢] وما هو إلا عيسى وجعله كلمات لها لأنه كثير من حيث نشأته الظاهرة والباطنة، فكل جزء منه ظاهراً كان أو باطناً فهو كلمة فلهذا قال فيه ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ لأن عيسى روح الله من حيث جملته ومن حيث أحدية كثرته هو قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١] فلما نطق الإنسان بالحروف وهي أجزاء كل كلمة مقصودة للمتكلم الذي هو الإنسان المريد إيجاد تلك الكلمات ليفهم عنه بها ما في نفسه، كما فهم عن الله بما ظهر من الموجودات ما في نفس الحق من إرادة وجود أعيان ما ظهر فلا بد في الكلام من تقديم وتأخير وترتيب كما ذلك في الموجودات وهي أعيان الكلمات الإلهية تقديم وتأخير وترتيب يظهر ذلك الدهر والدهر هو الله بالنص الصريح وهو قوله عليه السلام: «**لاَ تَسُبُّوا الدَّهرَ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهرُ**» وفيه ظهر الترتيب والتقديم والتأخير في وجود العالم، وسواء كان الكلام متلفظاً به أو قائماً بالنفس، فإن كان في النفس فلا بد من وجود الحروف فيه في وجود الخيال، وإن لم يكن ذلك وإلا فليس بكلام وهو قول العربي: [الكامل]

إنَّ الـكَـلامَ لـفـي الـفُـؤاد وإنّـمـا ... جُـعِـلَ الـلّـسـانُ عـلـى الـفُـؤاد دَلـيـلا

أراد على ما في الفؤاد، فإن لم يكن المترجم يضع في ترجمته الترجمة على ما في الفؤاد بحكم المطابقة وإلا فليس بدليل، وقد وجدت الكثرة في الترجمة والتقدم والتأخر، فلا بد أن يكون الترتيب في الكلام الذي في الفؤاد على هذه الصورة وليس إلا الخيال خاصة، وقال تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فأضاف الكلام إلى الله تعالى وجعله مسموعاً للعربيّ المخاطب بحاسة سمعه فما أدركه إلا متقطعاً متقدماً متأخراً، ومن لم ينسب ذلك الكلام المسمى قرآناً إلى الله فقد جحد ما أنزله الله وجهل الحقائق، فلا بد للنائب إذا تكلم أن يضاف إليه الكلام على ما قلناه، وأن يكون هذا النائب يفصل بذاته بين كل حرفين وكلمتين لتوجد الثانية وتتعلق بها الأولى حتى ينتظم به ما يريد إظهاره للمصلحة التي يعلمها، فدل بكلامه على ما في نفسه، وما كل من سمع بسمعه عقل جميع ما أراده المتكلم أو بعضه إلا من نوّر الله بصيرته، ولهذا قد يكون حظ السامع من كلام المتكلم ترتيب حروفه من غير

أن يعقل ما أراده المتكلم بما تكلم به، ويظهر ذلك في السامع إذا كان المتكلم يكلمه بغير لحنه ولغته، فإنه لا يفهم منه سوى ما يتعلق به سمعه من ترتيب حروفه فهو التعلق العامّ من كل سامع، ولكن لا يعلم ما أريدت له هذه الكلمات، كذلك العالم كله لا يعرف من الموجودات التي هي كلمات الله إلا وجود أعيانها خاصة، ولا يعلم ما أريدت له هذه الموجودات إلا أهل الفهم عن الله والفهم أمر زائد على كونه مسموعاً، فكما ينوب العبد الكامل الناطق عن الله في إيجاد ما يتكلم به بالفصل بين كلماته إذ لولا وجوده هناك لم يصح وجود عين الكلمة والحرف، كذلك ينوب أيضاً في الفهم في ذلك مناب الحق في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] فوصف نفسه بأنه يبلو ليعلم في المستأنف، وهذه كلها نيابة أحدية لا نيابة غير الأحدية من حيث أن لها القيومية على أعيان الموجودات بما هي الموجودات عليه من الكسب، إذ هو القائم على كل نفس بما كسبت و﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] أي قيدها كسبها، فلولا الحق ما تميزت الموجودات بعضها عن بعض ولكان الأمر عيناً واحداً كما هو من وجه آخر. مثال ذلك: أن الإنسان من حيث حده الشامل لآحاده واحد العين، فإن الآحاد كلها عين واحدة من حيث إنسانيتها، مع علمنا بأن زيداً ما هو عين عمرو ولا عين غيره من أشخاص الأناسي، فعين تمييز الحق لها وجودها، وعين تمييز بعضها عن بعض فلأنفسها، ولذلك لم تزد كلمة الحضرة في كل كائن عنها على كلمة ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] شيئاً آخر بل انسحب على كل كائن عين ﴿كُن﴾ لا غير، فلو وقفنا مع ﴿كُن﴾ لم تر إلا عيناً واحدة، وإنما وقفنا مع أثر هذه الكلمة وهي المكوّنات، فكثرت وتعددت وتميزت بأشخاصها، فلما اجتمعت في عين حدها علمنا أن هذه الحقيقة وجدت كلمة الحق فيها وهي كلمة ﴿كُن﴾ وكن أمر وجوديّ لا يعلم منه إلا الإيجاد والوجود، ولهذا لا يقال للموجود: كن عدماً، ولا يقال له: كن معدوماً لاستحالة ذلك، فالعدم نفسيّ لبعض الموجودات ولبعضها تابع لعدم شرطه المصحح لوجوده، وبهذه الحقيقة كان الله خلاقاً دائماً وحافظاً دائماً، ولو كان على ما يذكره مخالفو أهل الحق القائلون ببقاء الأعراض لم يصح أن يكون الحق خلاقاً دائماً ولا حافظاً على بعض الموجودات وجودها، وإذا لم يزل خالقاً دائماً فلا يزال مع كل مخلوق ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] و«كنتم» أمر وجودي بلا شك فلا شيء أدق من نيابة الفصل بين الكلمات لمن يعرف ما ذكرناه.

وأما النيابة السابعة فهي النيابة في الأفعال الظاهرة والباطنة في وجود الإنسان وهو ما يحدثه في نفسه من الأفعال والكوائن لا ما يحدثه في غيره، وآيته من كتاب الله قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] والعلم صفة له قديمة، وهذا العلم الخاص الظاهر عن الابتلاء هو ما يريده بالنيابة فيه هنا فقال تعالى عن نفسه أنه «**يُجِيبُ الدَّاعِيَ إِذَا دَعَاهُ**» و«**أَنَّ بِيَدِهِ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ**» فوصف نفسه بأنه قاهر لكل شيء في هذه الآية، فإذا ادّعينا نحن الصبر على ما يكلفنا به وحمل المشقة في ذلك طاعة لله فدعوناه ثم نظرنا أثر ذلك في قلوبنا فوجدنا أنه إذا عم الدعاء ذاتنا كلها بحيث أنه لا يبقى فينا جزء له التفاتة إلى الغير حصلت الإجابة بلا

شك على الفور من غير تأخير، فعلمنا بهذا الاختبار صدق توجهنا لأنا قد علمنا صدقه فيما أخبر به عن نفسه، ولولا مراعاة الأدب الإلهيّ لكان قولنا بلوناه بما دعوناه به حتى نعلم قوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] فإنها كلمة دعوى حتى تكون النيابة صحيحة في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] ثم طردنا ذلك في حق كل مدع دعوى من صادق وكاذب فنبنا عنه سبحانه في الاختيار والابتلاء، فإن كان صاحب دعوى صادقة كالرسل ومن صدق في دعواه فإنه يقيم الدلالة على صدقه بما بلوناه من طلب الدلالة كانت الدلالة ما كانت، كما بلونا به الكاذب لما ادّعى ما ليس له فلم يقم بوجود ما بلوناه به فقال له النائب: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ وهو أمر إمكاني ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وقامت الحجة عليه، فالابتلاء أصله الدعوى، فمن لا دعوى له لا ابتلاء يتوجه عليه، ولهذا ما كلفنا الله حتى قال لنا: ألست بربكم؟ فقلنا بلى، فأقررنا بربوبيته علينا، وإقرارنا بربوبيته علينا عين إقرارنا بعبوديتنا له، والعبودية بذاتها تطلب طاعة السيد، فلما ادّعينا ذلك حينئذ كلفنا ليبتلي صدقنا فيما ادعيناه.

فإن قلت: فما علمنا بهذا الإشهاد الميثاقي الذي ورد به الخبر فإن ذلك حظ الإيمان لا حظ العقل وليس هو بأمر ضروري فكيف يدخل في هذا الابتلاء العاقل الذي ليس بمؤمن؟ قلنا: إن العاقل أوجب على نفسه بعقله تعظيم خالقه والموجب الله لأنه الذي وهبه ذلك العقل فقام العقل له مقام الرسول لنا فنظر العاقل بعقله في وجوده لماذا يستند هل هو في نفسه لم يزل كذلك أو هو الذي أوجد نفسه فاستحال عنده الأمران؟ وقد تقدّم الكلام في هذا الكتاب في هذا المعنى، فلما استحال ذلك عنده استند إلى موجد ما هو عينه فنظر فيما ينبغي لذلك الذي استند إليه فنزهه عن كل نعت يفضي اتصافه به إلى حدوثه، وسبب ذلك قوّة النفس حتى لا يتعبدها مثلها أعني ممكناً محدثاً مثلها فإنه قد علم حدوثه فرأى أنه ينبغي بالدليل أن يكون واحداً لا كثيرين، ورأى أنه منفي المثلية وأنه على مرتبة توجب له التعظيم والحمد والثناء، فأوجب عليه العقل الذي هو بمنزلة الرسول عندنا تعظيم جنابه بما يستحقه مما أعطته الأدلة العقلية فأخذ في تمجيده وتعظيمه وتكبيره وتنزيهه، وعلم ما تستحقه السيادة فعاملها به فناب عن الحق فيما أوجده في نفسه بنظره من المعرفة به والعبادة لموجده لأنه علم بنظره ذلته وافتقاره في ظهور عينه إلى مظهر بعيد عن الصفات الموجبة حدوثه، فدخل في هذه النيابة كل عاقل موحد بدليله وإن لم يكن مؤمناً وهو قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: **«مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ»** ولم يقل يقول ولا يؤمن وإنما ذكر العلم خاصة فقال: **«وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ الله دَخَلَ الجَنَّةَ»** فكل موحد لله ففي الجنة يدخله الله خاصة لا غيره، ويشفع المؤمنون والأنبياء في أهل الكبائر من أهل الإيمان لأن الأنبياء بعثت بالخير وهو متعلق بالإيمان، والموحدون الذين لم يؤمنوا لكونهم ما بعث إليهم رسول أو كانوا في فترة فهم الذين يحشر كل واحد منهم أمة وحده، فإن بعث في أمة هو فيهم رسول فلم يؤمن به مع علمه بأحدية خالقه دخل النار فما يخرج منها إلا بإخراج خالقه، لأن الخلود في النار لا يكون بالنص لأهل التوحيد بأي وجه

حصل لهم ولم يوجد، فلا يبقى في النار إلا مشرك أو معطل لا عن شبهة ولا عن نظر مستوف في النظر قوته فلم يبق في النار إلا المقلدة الذين كان في قوّتهم واستعدادهم أن ينظروا فما نظروا. وهذه مسألة عظيمة الفائدة صحيحة الأصل وآيتها من القرآن: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧] يعني في زعمه أنه برهان وإن لم يكن برهاناً في نفس الأمر فهو قد وفى وسعه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧] وهو أمر يتفاضل فيه الناس فقال: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧] هل وفى ما آتاه الله من النظر في ذلك أم لا؟ ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] وليس الكافر إلا من علم ثم ستر، وإن لم يعلم فما هو كافر. ثم أمر نبيه أن يقول ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ﴾ [المؤمنون: ١١٨]. هذه الفرق التي وفت النظر استطاعتها التي آتيتها فلم تصل إلا إلى التعطيل أو الشرك ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨] فإنهم ما تعدوا ما آتاهم الله فشفع هنا فيهم رسول الله ﷺ من حيث لا يشعرون، فإذا نالتهم السعادة بالخروج من النار وقد غفر لهم الله بسؤال الرسول فيهم إذ قال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ﴾ حين أمره الله بذلك، وما أمره بهذا الدعاء إلا ليجيبه فأجابه في ذلك فعرفوا قدر رسول الله ﷺ عند ذلك إذا دخلوا الجنة فينتمون إليه فيها لأنه السيد الأكبر، وهذا الدعاء يعم كل من هو بهذه المثابة من وقت آدم إلى نفخة الصعق، لأن ما خصص في دعوته إلا من هذه صفته، ومن ينبغي أن يرحم ويغفر له، وينبغي لكل نائب منا أن يحضر في نفسه هذه الفرق، وكل من له عذر من الأمم في تخلفه عن الحق الذي هو في نفس الأمر أن يقول: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فإن الله تعالى يضرب له بسهم في هذه الشفاعة، فلا تغفل يا وليّ عن حظك منها، ولا تكن ممن غلب اليبس عليه فحجر رحمة الله أن تصيب إلا المؤمن، ولم يفرّق بين من يأخذها وتتناوله بطريق الوجوب ممن تتناوله من عين المنة، فهذه شفاعة من الرسول والنوّاب لهؤلاء في الدنيا يقوم بها الحق في الآخرة لهم من حيث لا يعلمون حتى يدخلوا الجنة فإذا دخلوها رأينا فيهم العلامة التي تعطينا قبول الشفاعة الدنيوية، فينبغي لكل تال إذا تلا القرآن أن يتدبره ويأخذ كل أمر أمر الله به نبيه ﷺ أن يبلغه أو يقوله أو يعلمه فليقله في تلاوته ولا يكون حاكياً بل يكون صاحب نية وقصد وابتهال في ذلك، وأنه مأمور به من الحق إن أراد أن يكون من هذا الحزب النبويّ، فإن الله أخفى النبوّة في خلقه وأظهرها في بعض خلقه، فالنبوّة الظاهرة هي التي انقطع ظهورها، وأما الباطنة فلا تزال في الدنيا والآخرة لأن الوحي الإلهي والإنزال الرباني لا ينقطع إذ كان به حفظ العالم، فجميع العالم لهم نصيب من هذا الإنزال والوحي، فمنه ما ذكره مثل قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وقالت نملة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ [النمل: ١٨] وقال الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢] وقد قال النبيّ ﷺ في المجتهدين ما قال وما فرض لهم الإصابة في كل ما اجتهدوا فيه، وإنما فرض لهم الأجر في ذلك أصابوا أم أخطؤوا، وفضل بين المصيب والمخطىء في الأجر، وهذه نيابة عجيبة رفيعة المقدار لا يعلمها كل أحد.

وأما النيابة الثامنة التي شفعت وترية الحق من حيث أنه تعالى مجلى لها وهي مجلى له فهو ينظر نفسه فيها نظر كمال وهي تنظر نفسها فيه نظر كمال، وذلك راجع إلى ما هو عليه الحق تعالى من الأسماء الإلهية، فلا تظهر هذه الصورة إلا في مرآة الإنسان الكامل الذي هو ظله الرحمانيّ، فنصب له عرشاً استوى عليه على التقابل من عرشه المنسوب إليه بحكم الاستواء عليه، ومثاله ما وصف الحق به أهل الجنة: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ [الطور: ٢٠] ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الصافات: ٤٤] أي يقابل بعضهم بعضاً، والاتكاء الاعتماد بصفة الجبروت، فاتكاء الحق عليه فيما ظهر من الحق وبطن من الإنسان الكامل فإنه يعلو على متكئه، والإنسان الكامل يتكىء أيضاً على ربه، فيما يظهر به الإنسان من النيابة حين يبطن الحق فيها فتنسب المشاهدة وما يشهد إلى الشاهد لا إلى أمر آخر، كما ينسب في حضرة الأفعال الفعل بالعوائد إلى المخلوق والحق مبطون فيه، وينسب الفعل بخرق العادة إلى الله لا إلى المخلوق لأنه خارج عن قدرة المخلوق فيظهر الحق وإن كان لا يظهر إلا في الخلق، وإنما ثنى الخلق وجود الحق لأن كل حقيقة تعقل للحق لا تعقل مجرّدة عن الخلق فهي تطلب الخلق بذاتها، فلا بد من معقولية حق وخلق، لأن تلك الحقيقة الإلهية من المحال أن يكون لها تعلق أثري في ذات الحق، ومن المحال أن تبقى معطلة الحكم لأن الحكم لها ذاتيّ، فلا بد من معقولية الخلق سواء اتصف بالوجود أو بالعدم، فإن ثبوت عينه في العدم به يكون التهيؤ لقبول الآثار وثبوته في العدم، كالبزرة لشجرة الوجود فهو في العدم بزرة وفي الوجود شجرة: [الوافر]

ثُبُوتُ العَيْنِ في الإمكان بِزْرٌ ... ولولا البِزْرُ لم يَكُ ثَمَّ نَبْتُ
ظُهُوري عن ثُبُوتي دون أَمْرِ ... إلهيّ محالٌ حين كُنْتُ

وإذ والأمر على ما ذكرناه فما في العلم إلا الشفع وهو تثنية الجمع لأن الحقائق الإلهية كثيرة والمحققات على قدرها أيضاً، فثنت المحققات الحقائق في العلم وإن لم تتصف بالوجود العيني: [الطويل]

فلولا ثُبُوتُ العَيْنِ ما كان مَشْهُودَا ... ولا قال كُنْ كَوْناً ولا كان مَقْصُودَا
فما زال حُكْمُ العين لله عابداً ... وما زال كونُ الحَقّ للعين مَعْبُودَا
فلمّا كساه الحَقُّ حُلَّة كَوْنِهِ ... وقد كان قبل الكون في الكون مَفْقُودَا
تَكَوَّنَتِ الأحكامُ فيه بكونه ... فما زال سَجّاداً فَقِيداً ومَوْجُودَا

ولما ظهر حكم تثنية الأمر المعلوم في نفسه لم يصح إلا بالمثلية لا غيرها لأنه لو لم يكن مثلاً ما عمه بذاته ولا قابله، وليس إلا الإنسان الكامل أو مجموع العالم بالإنسان، فالإنسان لا بد منه فلنقتصر عليه، وحكم الثبوت بين الله والإنسان الكامل خلاف حكم الوجود، فبحكم الوجود يكون الإنسان هو الذي ثنى وجود الحق وليس لحكم الثبوت هذا المقام، فإن الحق والخلق معاً في الثبوت وليس معاً في الوجود، فلما كان الأمر في الثبوت على السواء أعطيناه صورة الاعتدال وعدم الميل إلى أحد الجانبين، وهذه هي المنزلة الرفيعة المنار العامة الآثار، فإذا ظهر الحق في الصور لم تقم المثلية الاعتدالية، فكان المثل بحسب

الصورة المتجلي فيها، فإن كانت صورة روحية ينسب إليها ما هي عليه الأرواح من الحكم، وإن كانت صورة جسمية ينسب إليها ما هي عليه صورة الأجسام الظاهرة من الحكم وهو اتصافه بالأوصاف الطبيعية من تغير الأحوال في الغضب والرضى والفرح والنزول والهرولة، فإذا أثبت لك الحق عن نفسه أمراً ما فانظر فيما أثبته لأي صورة هو فاحكم عليه بحكم ما هو به لتلك الصورة وما ثم إلا مثل أو غير مثل، فهذا حكم هذه النيابة الثامنة قد استوفيناه.

وأما النيابة التاسعة فهي الظهور في البرزخ المعقول الذي بين المثلين، وهو الفصل الذي يكون بين الحق والإنسان الكامل، فإن هذا الفصل أوجب تميز الحق من الخلق فينظر بمن هو أليق وموضعه في ضرب المثال الظل الذي في الشخص الممتد عنه الظل الممدود، فالظل القائم به بين الشخص والظل الممدود المنفصل عنه ذلك هو البرزخ وهو بالشخص القائم ألصق فهو به أحق، فبالحق كان ميز الخلق عنه لا بالخلق يميز الحق عنه، لأن الخلق متلبس بنعوت الحق وليس الحق متلبساً بالخلق، ولذلك كان ظهور الخلق بالحق، ولم يكن ظهور الحق بالخلق لكون الحق لم يزل ظاهراً لنفسه، فلم يتصف بالافتقار في ظهوره إلى شيء كما اتصف الخلق بالافتقار في ظهوره لعينه في عينه إلى الحق، ونريد بالخلق هنا الإنسان الذي له المثلية لا غيره، فإن هذا الفصل وقع بين المثلين فللفصل حكم المثلين بلا شك لأنه يقابل كل مثل بذاته، ولولاه لما تميز المثل عن مثله، ومثليتك له قوله: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] بإعطاء كمال الإنسانية وهو الصورة لبعضهم، وهم الذين رفعهم الله، والمرفوع عليهم هم الأناسي الحيوانيون، ومثليته لك أن جعل نفسه لك وكيلاً فيما هو حق لك فيتصرف فيه عنك بحكم الوكالة المطلقة المفوضة الدورية، فإن وكالة الحق لا بد أن تكون دورية اعتناء من الله بعبده لأنه خلقه صاحب غفلات ونسيان، والغفلة والنسيان أحوال تطرأ على هذه النشأة الإنسانية، والأحوال لها الحكم مطلقاً في كل من اتصف بالوجود لا أحاشي موجوداً من موجود، فإذا غفل الإنسان في حركة ما من حركاته فتصرف فيها بنفسه فذلك التصرف النفسي عزل الحق عن الوكالة، فإذا كانت الوكالة دورية كان كل ما انعزل الحق عن هذه الوكالة بالتصرف النفسي ولي الأمر فلم يتصرف إلا الله، فإن الله أمرك أن تتخذه وكيلاً في سورة المزمل، فهذه فائدة الوكالة الدورية وهي عن أمره تعالى عبده وجعلها في التوحيد فقال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] إشارة إلى التصرف في الجهات وما ذكر منها إلا المشرق وهو الظاهر والمغرب وهو الباطن وبالعين الواحدة التي هي الشمس إذا طلعت أحدثت اسم المشرق وإذا غربت أحدثت اسم المغرب، وللإنسان ظاهر وباطن لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً في ظاهرك وباطنك فإنه رب المشرق والمغرب، فانظر ما أعجب القرآن. وهذه النيابات كلها التي ذكرناها ونذكرها نيابات توحيد لا غير ذلك، فإن ظهرت أنت لم يكن الظاهر إلا هو، وإن لم تظهر فهو هو إذ الواحد لا ينقسم في نفسه إلا بالحكم والنسب وهو تعالى ذو أسماء

كثيرة فهو ذو نسب وأحكام، فأحديته بنا أحدية الكثرة والعين واحدة ولهذا ينسب الظهور لنا في وقت وينسب إليه في وقت، ويضاف إليه في حكم ويضاف إلينا في حكم، فقد تبين لك أن عين ما قام فيه الإنسان عين ما قام فيه الحق بين ظاهر وباطن، فإذا ظهر من ظهر بطن الآخر وكانت النيابة للظاهر عن الذي بطن وكانت النيابة للذي بطن فيما بطن فيه عن الذي ظهر، فلا يزال حكم الخلافة والوكالة وهي خلافة ونيابة دائماً أبداً دنيا وآخرة، فإن الحق كل يوم من أيام الأنفاس هو في شأن ما وكلته فيه فإنه لك يتصرف ولك يصرف فيما استخلفك فيه فأنت تتصرف عن أمر وكيلك فأنت خليفة خليفتك كما أنه ملك الملك بالوكالة، فهذا عين ما هو الوجود عليه، وما بيننا وبين الناس فرق في ذلك في نفس الأمر إلا أني أعرف وهم لا يعرفون ذلك لأجل الأغطية التي على عين بصيرتهم والأكنة والأقفال التي على قلوبهم وفيها.

وأما النيابة العاشرة فهي نيابة توحيد الموتى فإنه بالموت تنكشف الأغطية ويتبين الحق لكل أحد ولكن ذلك الكشف في ذلك الوقت في العموم لا يعطي سعادة إلا لمن كان من العامة عالماً بذلك، فإذا كشف الغطاء فرأى ما علم عيناً فهو سعيد، وأما أصحاب الشهود هنا فهو لهم عين، وعند كشف الغطاء تكون تلك العين لهم حقاً فينتقل أهل الكشف من العين إلى الحق وينتقل العالم من العلم إلى العين، وما سوى هذين الشخصين فينتقلون من العمى إلى الإبصار فيشهدون الأمر بكشف غطاء العمى عنهم لا عن علم تقدم، فلا بد من مزيد لكل طائفة عند الموت ورفع الغطاء ولهذا قال من قال من الصحابة: لو كشف الغطاء فأثبت لك أن ثم غطاء ثم قال: ما ازددت يقيناً يعني فيما علم إذا عاينه فلا يزيد يقيناً في العلم لكن يعطيه كشف الغطاء أمراً لم يكن عنده فيصح قوله: ما ازددت يقيناً في علمه إن كان ذا علم وفي عينه إن كان ذا عين لا أنه لا يزيد بكشف الغطاء أمراً لم يكن له، إذ لو كان كذلك لكان كشف الغطاء في حق من هذه صفته عبثاً مُعَرًّى عن الفائدة: [الوافر]

ولـكـنْ لـلـعـيـان لَـطِـيـفُ مَـعْـنًـى ... لِـذَا سـأل الـمُـعَـايَـنَـةَ الـكَـلِـيـمُ

فما كان الغطاء إلا ووراءه أمر وجودي لا عدمي فهذه النيابة عن الحق للعبد في البرزخ فيقوم حاكماً بصورة حق ونيابة في عالم الخيال، فيكون له عليه سلطان في هذه الدار الدنيا، فيجسد ما شاء من المعاني للناظر، وقد نال من هذه السلطنة حظاً قريباً أهل السحر الذين قال الله فيهم: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ أي إلى موسى ﴿مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] وليست بساعية في نفس الأمر وهي ساعية في نظر موسى ونظر الحاضرين إلا السحرة فإنهم يرونها حبالاً، والغريب لو ورد لرآها كما يراها الساحر، بخلاف من له النيابة على عالم الخيال وفي حضرته كموسى فإنه لا يرى ما يجسده من المعاني جسداً كما جسدوه ويراه هو معنى إنما ذلك للساحر لعدم قوته، وما بين الساحر وبين صاحب هذه النيابة كموسى إلا كون الحق جعله نائباً عنه واتخذه موسى وكيلاً فأبقى موسى عصاه عن أمر حق وهو أمر موكله فقال له: ألق عصاك فرآها حية فخاف وأخبر عن السحرة أنهم ألقوا حبالهم وعصيهم لا عن أمر إلهيّ بل عن حكم أسماء

كانت عندهم لها في عيون الناظرين خاصية النظر إلى ما يريد الساحر إظهاره، فله بتلك الأسماء قلب النظر لا قلب المنظور فيه، وبالأمر الإلهي قلب المنظور فيه فيتبعه النظر، فالنظر ما انقلب في حق النائب والفعل في النظر، وفي المنظور فيه لم يكن إلا بعد الإلقاء، فلما خرج عن ملك من ألقاه تولى الله قلب المنظور في حق النائب وقلب النظر في حق من ليس بنائب، وله علم هذه الأسماء التي هي سيميا أي علامات على ما ظهر في أعين الناظرين، فالعموم عند كشف الغطاء بالموت وانتقالهم إلى البرزخ يكونون هنالك مثل ما هم في الدنيا في أجسامهم سواء إلا أنهم انتقلوا من حضرة إلى حضرة أو من حكم إلى حكم، والعارفون نواب الحق لهم هذا الحكم في الحياة الدنيا، وإنما كانت النيابة هنا نيابة توحيد لأنه لا يظهر الحكم إلا بعد الإلقاء وهو أن يخرج الأمر من ملك الملقي فيتولاه الله بحكم الوكالة في حق النائب، وبحكم الحقيقة في حق الساحر للغيرة الإلهية، فلا يكون حكم في الأشياء إلا لله، وبقي لصاحب هذه النيابة في هذه الحضرة التصرف دائماً كما ذكرناه المسمى في العامة كرامات وآيات وخرق عوائد، وهي عند المحققين ليست بخرق عوائد بل هي إيجاد كوائن لأنه ما ثم في نفس الأمر عوائد لأنه ما ثم تكرار فما ثم ما يعود وهو قوله في أصحاب العوائد: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [قٓ: ١٥] يقول: إنهم لا يعرفون أنهم في كل لحظة في خلق جديد فما يرونه في اللحظة الأولى ما هو عين ما يرونه في اللحظة الثانية وهم في لبس من ذلك فلا إعادة فلا خرق، هكذا يدركه المحققون من أهل الله وليس الأمر إلا كما ذكرناه، فإنه بهذا يكون الافتقار للخلق دائماً أبداً، ويكون الحق خالقاً حافظاً على هذا الوجود وجوده دائماً بما يوجده من خلق جديد لبقائه: [البسيط]

فانْظُرْ فَدَيْتُك فيما قد أَتَيْتُ به ... فالعلمُ يُدْرِكُ ما لا يدركُ البَصَرُ
فرِجالُ العِلْمِ أَوْلَى بالعِبَر ... ورجالُ العينِ أَوْلَى بالنَّظَرْ
فالذي يُوصف بالعقل له ... قوّةٌ تخرجه عن البَصَرْ
والذي يُوصف بالكشف له ... صورةٌ تَسْمُو على كلّ الصُّوَرْ
فتَرَاه دائماً في حاله ... ظاهراً مِنْ غِيَرٍ إلى غِيَرْ

فيتصرف النائب في هذه الأغيار الخيالية كما يريد ويشاء ولكن عن أمر وكيله لجهل الموكل بالمصالح التي يعرفها الوكيل في التصريف، فإن غلط وتصرّف عن غفلة بغير أمر الوكيل فإن الله يحفظ عليه وقته لكون الوكالة كما قلنا دورية، ولكن مع هذا الحفظ الذي ذكرناه لا تكون الصورة الواقعة عن تصريف الغفلة تبلغ من الدرجة مبلغ الصورة التي تكون عن تصريف الوكيل الذي صرف فيه هذا النائب لتتميز المراتب ويعلم الرفيع والأرفع. واعلم أن هذه المرتبة التي هي هذه النيابة الخاصة لا تكون إلا بالموت والموت على قسمين: موت اضطراري وهو المشهور في العموم والعرف وهو الأجل المسمى الذي قيل فيه: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩] والموت الآخر موت اختياري وهو موت في حياة دنيوية وهو الأجل المقضي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ [الأنعام: ٢] ولما كان هذا

الأجل المقضي معلوم الوقت عند الله مسمى عنده كان حكمه في نفسه حكم الأجل المسمى وهو قوله عز وجل: ﴿كُلٌّ يَجْرِيَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩] يعني في حاله ولا يموت الإنسان في حياته إلا إذا صحت له هذه النيابة فهو ميت لا ميت، كالمقتول في سبيل الله نقله الله إلى البرزخ لا عن موت فالشهيد مقتول لا ميت. ولما كان هذا المعتنى به قد قتل نفسه في الجهاد الأكبر الذي هو جهاد النفس رزقه الله حكم الشهادة فولاه النيابة في البرزخ في حياته الدنيا، فموته معنوي وقتله مخالفة نفسه.

وقد جئنا على ما ذكرناه أولاً من ذكرنا هذه النيابات العشرة التي هي أمهات، وأما ما تتضمنه كل نيابة من فعل كل ما لا يصلح إلا بنيابة فكثير لا يحصى ولله الحمد والمنة على ما أعطى.

ومما يتعلق بهذا الباب نور توحيد الذات؛ واعلم أنه لما كان في قوة الواحد أحدية كل موجود ومعلوم ومعدود ظهر جميع ما ظهر من العالم من مجموع ومفرد وفي العالم من تقسيم عقلي في المعلومات بأحدية تخصه، وأعطتها ذلك أحدية الذات الواهبة لوجود ما وجد، والواهبة علم ما علم من المعلومات، فالأحدية ظاهرة في الآحاد خفية في المجموع، فأحدية الذات في الآحاد والبسائط، وأحدية المجموع في المركبات وهي المعبر عنها في الإلهيات بلسان الشرع بالأسماء، وفي العقول السليمة بالنسب، وفي العقول القاصرة النظر بالصفات، وأبين ما يظهر فيه حكم الواحد في العدد لأنه بالواحد يظهر العدد وينشأ على الترتيب الطبيعي من الاثنين إلى ما لا يتناهى وبزوال الواحد منه يزول، فالمعلول لولا علته ما ظهرت له عين، والعالم لولا الله ما وجد في عينه، وأعطى سبحانه اسم الذات لنفسه واسم النفس لما يحمل اسم النفس من التذكير والتأنيث كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] الآية فأنث فقال: بلى قد جاءتك آياتي بكاف مكسورة خطاب المؤنث آياتي فكذبت بها بتاء مفتوحة خطاب المذكر والعين واحدة فإن النفس والعين عند العرب يذكران ويؤنثان وذلك لأجل التناسل الواقع بين الذكر والأنثى، ولذلك جاء في الإيجاد الإلهيّ بالقول وهو مذكر والإرادة وهي مؤنثة، فأوجد العالم عن قول وإرادة فظهر عن اسم مذكر ومؤنث فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ﴾ و«شيء» أنكر النكرات، والقول مذكر ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ والإرادة مؤنثة ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فظهر التكوين في الإرادة عن القول والعين واحدة بلا شك. فبنور توحيد الذات ظهرت جميع المحدثات علواً وسفلاً وحساً ومعنى ومركباً ومفرداً فسرت الأحدية في كل شيء فما ثم إلا واحد وما ظهر أمر إلا به ومنه وفيه، ففيه من حيث ما للنفس من التأنيث، وبه من حيث ما للنفس من التذكير والتأنيث، ومنه من حيث ما للنفس من التذكير فعين واحدة فاعلة منفعلة والانفعال ما ظهر في الأعيان من الموجودات والمعلومات المعقولة وإن لم يوجد لها أعيان، ثم جعل التوليد في الحيوانات بل في ما يقبل الولادة على ثلاثة أضرب: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ مراعاة لمحل التكوين ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٥٠] مراعاة للملقي ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ

ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ مراعاة للمجموع فإن زوّجهم إناثاً أو ذكراناً أو ذكراً وأنثى فلوجود الجمع المؤذن بما في الأصل من جمع النسب ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٥٠] لمن لا يقبل الولادة كأسماء التنزيه، فما في الوجود أحدية إلا أحدية الكثرة وليست إلا الذات والألوهة لهذه وصف نفسي لأنه لذاته هو ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨] فافهم فلهذا قلنا أحدية المجموع أو أحدية الكثرة. فإن قلت: فإن الله غني عن العالمين فقلنا: هذا لا يقدح في أحدية الكثرة فإن كونه ذاتاً ما هو كونه غنياً فمعقول الذات خلاف معقول نعتها بالغنى، فأنت في هذا الاعتراض مثبت لما تريد نفيه فقويت قولي، وأعظم من هذه النسبة إلى الإله فما ثم. وأزيدك أمراً آخر في هذه المسألة وهو أن الله وإن كان في ذاته غنياً عن العالمين فمعلوم أنه منعوت بالكرم والجود والرحمة فلا بد من مرحوم ومتكرّم عليه ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فأجاب الداعي سبحانه جوداً وكرماً، ولا شك أن السؤال بالأحوال أتم من السؤال بالقول، والإجابة أسرع للسائل بالحال لأنه سائل بذاته، والجود على المضطر المحتاج أعظم في نفس الأمر من الجود على غير المضطر، والممكن في حال عدمه أشد افتقاراً إلى الله منه في حال وجوده، ولهذا لا تصحب الممكن دعوى في حال عدمه كما تصحبه في حال وجوده، فإفاضة الوجود عليه في حال عدمه أعظم في الجود والكرم، فهو تعالى وإن كان غنياً عن العالمين فذلك تنزيه عن أن يقوم به فقر أو يدل عليه دليل غير نفسه، فأوجد العالم من وجوده وكرمه وهذا لا يشك فيه عاقل ولا مؤمن، وأن الجود له نعت نفسي فإنه جواد كريم لنفسه فلا بد من وجود العالم وما حكم العلم بكونه يستحيل عدم كونه، فلا بد من نسب أو صفات على مذهب الصفاتيين أو أسماء على مذهب آخرين، فلا بدّ من الكثرة في العين الواحدة، فلا بدّ من أحدية الكثرة على كل وجه من كل قائل بنسبة أو صفة أو اسم، فليست أنوار الذات بشيء سوى الموجودات وهي سبحات الوجه لأنها عين الدلالة عليه سبحانه لنا ولهذا قال ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» فجعل نفس العارف إذا عرفها العارف دليلاً على معرفة الله، والنور دليل على نفسه وعلى ما يظهره للعين، فبنور الموجودات ظهرت الموجودات، وظهر موجدها لها فما علمته إلا منها فهو المطلوب لها، والطلب يؤذن بالافتقار في حق المحدثات وهو المطلوب فهو الغني، فمن كونه مطلوباً لها صَحَّ افتقارها إليه وصح غناه عنها، فقبوله عليها قبول جود وكرم، فالسبحات الوجهية انتشرت على أعيان الممكنات وانعكست فأدرك نفسه، وأنوار الشيء لا تحرقه، والممكن في حال عدمه لا يقبل الحرق، فلو اتصف بالوجود احترق وجوده لرجوع الوجود إلى من له الوجود فبقيت الممكنات على حقيقة شيئية ثبوتها، وظهر بالسبحات الوجهية كثرة الممكنات في مرآة الحق أدركها الحق في ذاته بنوره على ما تستحقه الممكنات من الحقائق التي هي عليها فذلك ظهور العالم وبقاؤه، فالحكمة في النظر وفي كيفية ما يدركه البصر وماذا يدرك ومن يدرك والله الموفق: [الطويل]

ففي الحَقِّ عَيْنُ الخَلْق إنْ كُنْتَ ذا عَيْنِ   وفي الخَلْقِ عَيْنُ الحَقِّ إن كُنْتَ ذا عَقْلِ

فإن كُنتَ ذا عينٍ وعقل معاً فما ... ترى غير شيء واحدٍ فيه بالفِعْل
فإنّ خيالَ الكون أوْسَعُ حضْرَةً ... من العقل والإحساس بالبَذْل والفَضْلِ
له حَضْرَةُ الأشكال في الشكل فاعْتَبِرْ ... تراه يردُّ الكُلَّ في قبضة الشَّكْلِ
فإن قُلْتَ كُلٌّ فَهْوَ جزءٌ مُعَيَّنٌ ... وإنْ قُلْتَ جزءٌ قام للكُلِّ بالكُلِّ
فما ثَمَّ مثل غَيْرُه متحقِّقٌ ... بموجده فهو الممَثّلُ للمِثْلِ
فعلمي به أحْلَى إذا ما طَعِمْتُهُ ... وأشهى إلى أذواقنا من جَنَى النَّحْلِ

وهنا يظهر لك توحيد الإلحاق، فإن الرائي لما ظهرت أعيان الممكنات في مرآة ذاته أدركها في نفسه بنوره فلحق المرئي بالرائي حيث أدركه في ذاته وهو واحد في الوجود لأن الممكنات المرئية منعوتة في هذه الحالة بالعدم فلا وجود لها مع ظهورها للرائي كما ذكرناه، فسمي هذا الظهور توحيد إلحاق أي ألحق الممكن بالواجب في الوجوب، فأوجب للممكن ما هو عليه الواجب لنفسه من النسب والأسماء، فله الإيجاد على الإطلاق ما عدا نفسه تعالى، وللخيال الإيجاد على الإطلاق ما عدا نفسه، فالخيال موجد لله عز وجل في حضرة الوجود الخيالي، والحق موجد للخيال في حضرة الانفعال الممثل: [البسيط]

فالكُلُّ يدخلُ تحت الحَصْر أجْمَعُهُ ... وليس ثَمَّ سوى من ليس يَمْتَنِعُ
فاعْجَبْ لمُنْفَعِلٍ في ذاتِ فاعله ... يَكُنْ بها فاعلاً والكلّ قد جُمِعُوا
على وُجُودِ الذي قلناه من عَجَبٍ ... وكلُّهم بالذي جئنا به قَطَعُوا

وإذا ثبت إلحاق الخيال في قوّة الإيجاد بالحق ما عدا نفسه فهو على الحقيقة المعبر عنه بالإنسان الكامل، فإنه ما ثم على الصورة الحقية مثله، فإنه يوجد في نفسه كل معلوم ما عدا نفسه، والحق نسبة الموجودات إليه مثل هذه النسبة، فتوحيد الإلحاق توحيد الخيال مع كونه من الموجودات الحادثة إلا أن له هذا الاختصاص الإلهي الذي أعطته حقيقته، فما قبل شيء من المحدثات صورة الحق سوى الخيال، فإذا تحققت ما قلناه علمت أنه في غاية الوصلة، وهذا يسمى توحيد الوصلة والاتصال والوصل كيف شئت قل، فلم يفرق في هذا التوحيد بين المثلين إلا بكونهما مثلين لا غير فهما كما قال القائل: [الكامل أحذ مضمر]

رَقَّ الزُّجاجُ ورَقَّتِ الخَمْرُ ... فتَشَاكَلاَ فتَشَابَهَ الأمْرُ
فكأنّما خَمْرٌ ولا قَدَحٌ ... وكأنّما قَدَحٌ ولا خَمْرُ

فمن شدة الاتصال يقول هو هو ظهر في موطنين معقولين لولا الموطنان ما عرفت ما حكمت به من التمييز بين المثلين، فما خرج شيء من الموجودات عن التشبيه ولهذا قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فأتى بكاف الصفة ما هي الكاف زائدة كما ذهب إليه بعض الناس ممن لا معرفة له بالحقائق حذراً من التشبيه، فنفى أن يماثل المثل غير من هو مثله، فنفي المثل عن مثل المماثل نفي المثل عن المماثل، فهذه أنوار مندرجة بعضها في بعض: [السريع]

مِثْل انْدَراجِ المِثْل في المِثْل ... في صُورة العَيْن وفي الشَّكْلِ

وَهْـوَ عَـلـى الـتـحـقـيـق فـي ذاتـه مِـثْـل انْـدِرَاج الـظّـلّ فـي الـظّـلّ

فهنا قد ذكرنا شيئاً يسيراً مما يحوي عليه هذا المنزل. وفيه من العلوم سوى ما ذكرناه علم منزلة علم الله من الله وأين هي من منزلة غيره من الصفات المنسوبة إليه ولم يزاحمها في الموجودات، وفيه علم الفرض المنزل وأين هو من علم الفرض المستنبط من المنزل، وفيه علم الأدلة والبراهين العقلية التي تحكم على موجدها بما تستحقه وتصديقه إياها سبحانه فيما حكمت به عليه فإن الله ما نصب بعض الآيات إلا لأولي الألباب وهم الذين يعقلون معانيها بما ركب فيهم سبحانه من القوّة العقلية وجعل نفس العقل للعقل آية وأعطاه القوّة الذاكرة المذكرة التي تذكره ما كان تجلى له من الحق حتى عرفه شهوداً ورؤية، ثم أرسل حجب الطبيعة عليه ثم دعاه إلى معرفته بالدلالات والآيات وذكره أن نفسه أوّل دلالة عليه فلينظر فيها. وفيه علم الحدود التي توجب للناظر العاقل الوقوف عندها فللظاهر حد وللباطن حد وللمطلع حد وللحد حد، فمن وقف عند حد نفسه فأحرى أن يقف عند حد غيره، فهذا الحد قد عم كل ما ذكرناه وما هو الوجود عليه، ولولا الحدود ما تميزت المعلومات ولا كانت معلومات، ولذلك لعن الله على لسان رسوله من غيّر منار الأرض يعني الحدود ولما اجتمع المثلان لأنفسهما ولم يتوقفا على تعيين موجدهما توجهت عليهما الأسماء الإلهية الحسنى بمائة درجة جنانية تحجبها مائة دركة جهنمية على مرائي من أهل الكشف فسعدا بهذا الاجتماع الذي أوجب لهما توجه العالم الأخراوي برمته.

وفيه علم اجتماع المثلين في الحكم النفسي وإلا فليسا بمثلين، وفيه علم ما يشرك به الشيء من ليس مثله فهو مثله من ذلك الوجه الذي أشركه فيه خاصة وينفصل عنه بأمور أخر له فيها أمثال فمائم معلوم ما له مثل جملة واحدة فما ثم إلا أمثال وأشباه، ولذلك ضرب الأمثال ونهى عن ضربنا الأمثال له وعلل فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤] فمن علمه الحق ضرب الأمثال ضربها على علم فلا يضرب الأمثال إلا العلماء بالله الذين تولى الله تعليمهم وليس إلا الأنبياء والأولياء، وهو مقام وراء طور العقل يريد أنه لا يستقل العقل بإدراكه من حيث ما هو مفكر، فإن الذي عند العقل من العلم بالله من حيث فكره علم التنزيه وضرب الأمثال تشبيه، وموضع التشبيه من ضرب المثل دقيق لا يعرفه إلا من عرف المشبه والمشبه به، والمشبه به غير معروف، فالأمر الذي يتحقق منه ضرب المثل له مجهول فالنظر فيه من حيث الفكر حرام على كل مؤمن وهو في نفس الأمر ممنوع الوصول إليه عند كل ذي عقل سليم. وفيه علم التربيع من حيث الشهود، وفيه علم السبب الذي لأجله طلب من المدعي الدلالة على ما ادّعاه، وذلك لأنه يريد التحكم بما ادّعاه، والتحكم صفة إلهية والمدعى فيه معنى الغيب والشهادة فالشهادة ثابتة بعينها ولو لم يدعها لا غنى عينها فيه عند المشاهد عن الدعوى والغيب يحتاج معه إلى إقامة البينة على ما ادعى ويعترض هنا أمر عظيم وهو المعترف بأمر يوجب الحد، واعترافه على نفسه دعوى ولا يطالب ببرهان بل تمضي فيه الحدود فقد خرج هذا المدعي بدعواه عن ميزان ما تطلبه الدعوى بحقيقتها، وأما التحكم من

المعترف بما ادعاه وإن كان كاذباً على نفسه في دعواه فإنه قد تحكم فيك أن تقيم عليه الحد الذي يتضمنه ما اعترف به، وهنا دقائق تغيب عن أفهام أكثر العارفين فإن المعترف قد يكذب في اعترافه ليدفع بذلك في زعمه ألماً يعظم عنده على الألم الذي يحصل له من الاعتراف إذا أقيمت عليه حدوده وذلك لجهله بما يؤول إليه أمره عند الله في ذلك، ولجهله بما لنفسه عليه من الحق والله يقول: إنا لا نصلح منك شيئاً أفسدته من نفسك، فالحقوق وإن عظمت فحق الله أحق ويليه حق نفسك، وما خرج عن هذين الحقين فهين الخطب. وفيه علم من اتخذ الله دليلاً في أيّ موطن يتخذه وما دعواه التي توجب له ذلك، وفيه علم الآداب الإلهية ومعرفة المواطن التي ينبغي أن يستعمل فيها، وأكثر ما يظهر ذلك في باب الإيمان بالله، وفيه علم المؤاخاة بين الفضل الإلهيّ والرحمة وهل بين الآلام والرحمة، مؤاخاة أم لا من باب دفع ألم كبير بألم دونه، وفيه علم الأمر الذي يكرهه الطبع ويحمده الحق وما يغلب من ذلك ومن يجني ثمرة ذلك الكره ومرارة تلك الفظاعة ذوقاً، وفيه علم تصريف الحكمة الإلهية في النوع الإنساني خاصة دون سائر المخلوقات، وفيه علم ما ينبغي أن يكون عليه العاقل إذا رأى في الوجود ما يقضي له العقل بالوقوف عنده والعدول عما في الأخذ به من مذام الأخلاق، وفيه علم ما لا يعلمه الإنسان في زعمه وهو في نفس الأمر على خلاف ذلك كيف يعلمه الله هل يعلمه كما هو عليه في نفسه أو كما هو في علم هذا العالم في زعمه وهي مسألة صعبة في الشرع، وأمّا في العقل فهي هينة الخطب، وفيه علم ما يعظ به العالم من هو دونه وتربية الشيخ للتلميذ الإلهيّ. وفيه علم ما ينفي أن يكون في المعلوم ضدان من جميع الوجوه جملة واحدة من غير أن يكون بينهما مثلية بوجه ما، وفيه علم ما تنتجه مؤاخاة الصفات المثلية الإلهية في الكون، وفيه علم الرمي المحسوس والمعنويّ وما يقع فيه الاشتراك وما لا يقع فيه اشتراك من ذلك، وفيه علم نسبة الكلام إلى كل صنف صنف من المخلوقات كلها، وفيه علم ألفة النسب وهل يقع بين المتناسبين افتراق معنويّ أم لا؟ وفيه علم التصرّف في الخلاء وهل يصح تصرّف في الملأ أم لا؟ وهل في العالم خلاء أو هو كله ملأ؟ وحكمه وجود الأجسام مختلفة فيما يقبل الخرق منها بسهولة وما لا يقبل الخرق إلا بمشقة وما شف منها وما لم يشف وما لطف منها وما كثف وقوّة الألطف على الأكثف حتى يزيله ويخرقه وفيه علم حكمة التحيز في العالم دنيا وآخرة، وفيه علم هل للبصر أثر في المبصر أم لا؟ وفيه علم ما يحفظ به الخرق بين الشيئين حتى لا يلتئما، وفيه علم الفاعل والمنفعل خاصة لا الانفعال، وفيه علم الاستعدادات التي يقبل صاحبها التعليم ممن لا يقبله، وإذا رأى الشيخ ذلك هل يبقي على تعليمه وتربيته أم يقصر في ذلك أو يتركه رأساً؟ فمن الناس من يرى أنه يتركه أو يقصر في أمره حتى يتركه التلميذ من نفسه، ومنهم من يقول إن الشيخ يبذل المجهود في تعليم من يعلم منه أنه لا يقبل وما عليه إلا ذلك فيوفى حق ما يجب عليه ولا يلزمه إلا ذلك، فإنه ليس بمضيع زماناً في ذلك، وهذا هو الحق عند الأكابر ومعاملة الحق بما تستحقه الربوبية، وقد جاء في الشرع المطهر «**لأَزِيدَنَّ عَلَى السَّبْعِين**» وأمّا التبرّي منه بعد البيان فلا يناقض التعليم

والإرشاد وإن لم يقبل فإنه وإن تبرأ منه في قلبه وفي الدعاء له فلا يتبرأ مما بعث به فله أن يقول ويعلم ما يلزمه إلا هذا، ورأينا جماعة من أهل الله على خلاف هذا وهو غلط عظيم. وفيه علم نيابة هاء الهوية عن هاء التنبيه وكم مرتبة لها في العلم الإلهيّ، وفيه علم ما يذهب الفقر من النكاح وبه كان يقول أبو العباس السبتي صاحب الصدقة بمراكش رأيته وعاشرته فرأيته وجاءه إنسان يشكو الفقر فقال: تزوّج فتزوّج فشكى إليه الفقر، فقال: تزوّج أخرى فتزوّج اثنين فشكى إليه الفقر، فقال له: ثلث فثلث فشكى إليه الفقر، فقال له: ربع فربع فقال الشيخ: قد كمل فاستغنى ووسع الله في رزقه، ولم يكن في نسائه اللاتي أخذهنّ من عندها شيء من الدنيا فأغناه الله. وفيه علم الاسترقاق الكوني والتخلص منه وما لمن يسعى في تخليص الإنسان من رق الأمثال له وهل يوازن فك العاني حرية العبد أم لا؟ وفيه علم مقامات رجال الله، وفيه علم ما يجتمع فيه خلق الله، وفيه علم الآثار العلوية، وفيه علم الكون والفساد، وفيه علم الحيوان، وفيه علم الاستجلاب والاستنزال، وفيه علم ما يحتاج إليه النواب، وفيه علم أحكام المكلفين وبماذا يتعلق التكليف، وفيه علم رفع الحرج من العالم في حق هذا العالم به مع وجود الحرج في العالم، وفيه علم إلحاق الأجنبي بالرحم، وفيه علم من لم ير غير نفسه في شهوده ما حكمه في ذلك في معاملته نفسه، وفيه علم الاختيار والجبر، وفيه علم ما يعطيك العلم بكل شيء وهو العلم الإلهيّ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

انتهى الجزء الخامس من الفتوحات المكية، ويليه الجزء السادس أوله:
الباب الأحد والستون وثلاثمائة في معرفة منزل الاشتراك مع الحق في التقدير

فهرس محتويات
الجزء الخامس
من
الفتوحات المكية

فهرس المحتويات

دار الكتب العلمية
DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
بيروت
BEIRUT

DET KONGELIGE BIBLIOTEK
130012697067

الفتوحات المكية

للشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين محمد بن علي
بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي "المعروف بابن عربي"
المتوفى سنة ٦٣٨ هـ

ضبطه وصححه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدين

المجلد السادس

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الفتوحات المكية

تأليف

الشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين

محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي

المعروف بابن عربي

المتوفى سنة ٦٣٨هـ

ضبطه وصححه ووضع فهارسه

أحمد شمس الدين

الجزء السادس

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الأحد والستون وثلاثمائة

في معرفة منزل الاشتراك مع الحق في التقدير وهو من الحضرة المحمدية

[نظم: البسيط]:

لو كان في الكَوْنِ غير الله ما وَجَدُوا ... ما كان مِنْ فَاعلٍ فيه ومُنْفَعِلِ
لكنّه واحدٌ في الكَوْن منفردٌ ... بالاخْتِرَاع وبالتَّبْديل للدُّوَلِ
وليس يرجعُ تكوينٌ إلى عَدَمٍ ... ولا اسْتِقَامَتُهُ في العَيْن عن مَيَلِ
فانْظرُ إلى دُوَلٍ في طيِّها مِلَلٌ ... وانْظُرْ إلى مِلَلٍ تُبِينُ عن نِحَلِ
وارْقَ بها فَلَكاً من فَوْقِهِ فلكٌ ... من الهلال على قَصْدٍ إلى زُحَلِ
أتى بها مَلَكٌ من سِدْرة بلغتْ ... نهايةَ الأمر في سِتْرٍ من الكِلَلِ
ولا تُنَادِ بما نادتْ به فِرَقٌ ... يا مبدأ الأمر بل يا عَلّةَ العِلَلِ
لأنه لَقَبٌ أعطتْ معالمُهُ ... فَقْراً يقوم به كسائر العِلَلِ

اعلم أيدك الله بروح منه أن الله عز وجل يقول لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] على جهة التشريف والاختصاص لآدم عليه السلام أستكبرت في نظرك؟ وكذلك كان فإن الله أخبر عنه أنه استكبر، وقال لنا عز وجل في كتابه العزيز إن إبليس: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] وقال لما قيل له اسجد: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] فهذا معنى قولنا في نظرك ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ في نفس الأمر أي أنك في نفس الأمر خير منه، فهنا ظهر جهل إبليس، وقد يريد بالعالين الملائكة المهيمة في جلال الله الذين لم يدخلوا تحت الأمر بالسجود وهم أرواح ما هم ملائكة، فإن الملائكة هي الرسل من هذه الأرواح كجبريل عليه السلام وأمثاله، فإن الألوكة هي الرسالة في لسان العرب، فالملائكة هم الرسل من هذه الأرواح خاصة، فما بقي ملك إلا سجد لأنهم الذين قال الله لهم: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٦١] ولم تدخل الأرواح المهيمة فيمن خوطب بالسجود فإنَّ الله ما ذكر أنه خاطب إلا الملائكة ولهذا قال: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٣] ونصب إبليس على الاستثناء المنقطع لا المتصل، وهذه الأرواح المهيمة في جلال الله لا تعلم أن الله خلق آدم ولا شيئاً لشغلهم بالله يقول الله لإبليس: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥] أي من هؤلاء الذين ذكرناهم فلم تؤمر بالسجود، والسجود التطاطي في اللسان لأن آدم خلق من تراب وهو أسفل الأركان لا أسفل منه، ومن هنا يعرف شرف نقطة الدائرة على محيطها فإن

النقطة أصل وجود المحيط، فالعالون ما أمروا بالسجود لأنهم ما جرى لهم ذكر في تعريف الله إيانا، ولولا ما ذكر الله إبليس بالإباية ما عرفنا أنه أمر بالسجود، فما أضاف آدم إلى يديه إلا على جهة التشريف على غيره والتنويه لتعلم منزلته عند الله. ثم زاد في تشريفه بخلقه باليدين قوله معرفاً الأناسي الحيوانيين بكمال الأناسي المكملين: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الضمير في يروا يعود على الأناسي الحيوانيين ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي من أجلهم فالضمير في لهم يعود على الناس الكمل المقصودين من العالم بالخطاب الإلهي ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ فأضاف عمل الخلق إلى الأيدي الإلهية وعم الأسماء الإلهية بالنون من أيدينا وذلك لتمام التشريف الذي شرف به آدم عليه السلام في إضافة خلقه إلى يديه ﴿أَنْعَـٰمًا﴾ وهي من إنعامه عليهم ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١] فملكوها بتمليك الله، بخلاف الإنسان الحيواني فإنه يملكها عند نفسه بنفسه غافلاً عن إنعام الله عليه بذلك، فيتصرف في المخلوقات الإنسان الحيوان بحكم التبعية، ويتصرَّف الإنسان الكامل فيها بحكم التمليك الإلهي، فتصرُّفه فيها بيد الله وبمال الله الذي آتاه كما قال تعالى آمراً في حق المماليك: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَـٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣] فكل مخلوق في العالم فمضاف خلقه إلى يد إلهية لأنه قال: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: ٧١] فجمع، فكل يد خالقة في العالم فهي يده يد ملك وتصريف فالخلق كله لله ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف ٥٤] وقد ورد أن شجرة طوبى غرسها الله بيده وخلق جنة عدن بيده فوحد اليد وثناها وجمعها وما ثناها إلا في خلق آدم عليه السلام وهو الإنسان الكامل، ولا شك أن التثنية برزخ بين الجمع والإفراد، بل هي أول الجمع، والتثنية تقابل الطرفين بذاتها فلها درجة الكمال لأن المفرد لا يصل إلى الجمع إلا بها، والجمع لا ينظر إلى المفرد إلا بها، فبالإنسان الكامل ظهر كمال الصورة فهو قلب لجسم العالم الذي هو عبارة عن كل ما سوى الله، وهو البيت المعمور بالحق لما وسعه، يقول تعالى في الحديث المروي: «**مَا وَسِعَنِي أَرْضِي وَلاَ سَمَائِي وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي المُؤْمِنِ**» فكانت مرتبة الإنسان الكامل من حيث هو قلب بين الله والعالم، وسماه بالقلب لتقليبه في كل صورة ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] وتصريفه واتساعه في التقليب والتصريف، ولذلك كانت له هذه السعة الإلهية لأنه وصف نفسه تعالى بأنه كل يوم في شأن، واليوم هنا الزمن الفرد في كل شيء فهو في شؤون، وليست التصريفات والتقليبات كلها في العالم سوى هذه الشؤون التي الحق فيها ولم يرد نص عن الله ولا عن رسوله في مخلوق أنه أعطى ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] سوى الإنسان خاصة، فظهر ذلك في وقت في النبيّ ﷺ في غزوة تبوك فقال: «**كُنْ أبا ذَرّ**» فكان أبا ذر.

وورد الخبر في أهل الجنة أن الملك يأتي إليهم فيقول لهم بعد أن يستأذن في الدخول عليهم فإذا دَخلَ ناولهم كتاباً من عند الله بعد أن يسلم عليهم من الله فإذا في الكتاب لكل إنسان يخاطب به من الحي القيوم الذي لا يموت إلى الحي القيوم الذي لا يموت: أما بعد فإني أقول للشيء كن فيكون وقد جعلتك تقول للشيء كن فيكون، فقال ﷺ: فلا يقول أحد من أهل الجنة لشيء كن إلا ويكون فجاء بشيء وهو من أنكر النكرات فعم، وغاية الطبيعة

تكوين الأجسام وما تحمله مما لا تخلو عنه وتطلبه بالطبع، ولا شك أن الأجسام بعض العالم فليس لها العموم، وغاية النفس تكوين الأرواح الجزئية في النشاءات الطبيعية، والأرواح جزء من العالم فلم يعم، فما أعطى العموم إلا الإنسان الكامل حامل السرِّ الإلهيّ، فكل ما سوى الله جزء من كل الإنسان فاعقل إن كنت تعقل وانظر في كل ما سوى الله وما وصفه الحق به وهو قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] ووصف الكل بالسجود وما جعل لواحد منهم أمراً في العالم ولا نهياً ولا خلافة ولا تكويناً عاماً وجعل ذلك للإنسان الكامل، فمن أراد أن يعرف كماله فلينظر في نفسه في أمره ونهيه وتكوينه بلا واسطة لسان ولا جارحة ولا مخلوق غيره، فإن صح له المعنى في ذلك فهو على بينة من ربه في كماله فإنه عنده شاهد منه أي من نفسه وهو ما ذكرناه، فإن أمر أو نهى أو شرع في التكوين بوساطة جارحة من جوارحه فلم يقع شيء من ذلك أو وقع في شيء دون شيء ولم يعم مع عموم ذلك بترك الواسطة فقد كمل، ولا يقدح في كماله ما لم يقع في الوجود عن أمره بالواسطة، فإن الصورة الإلهية بهذا ظهرت في الوجود، فإنه أمر تعالى عباده على ألسنة رسله عليهم السلام وفي كتبه فمنهم من أطاع ومنهم من عصى، وبارتفاع الوسائط لا سبيل إلا الطاعة خاصة لا يصح ولا تمكن إباية، قال ﷺ: «**يَدُ الله مَعَ الجَمَاعَةِ وَقُدْرَتُهُ نَافِذَةٌ**» ولهذا إذا اجتمع الإنسان في نفسه حتى صار شيئاً واحداً نفذت همته فيما يريد. وهذا ذوق أجمع عليه أهل الله قاطبة فإنَّ يد الله مع الجماعة فإنه بالمجموع ظهر العالم والأعيان ليست إلا هو، انظر في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ وهو ما دون الثلاثة ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ وهو ما فوق الثلاثة إلى ما لا يتناهى من العدد ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ [المجادلة: ٧] وجوداً أو عدماً حيثما فرضوا فهو سبحانه ثان للواحد، فإن المعية لا تصح للواحد من نفسه لأنها تقتضي الصحبة وأقلها اثنان وهو ثالث للاثنين ورابع للثلاثة وخامس للأربعة بالغاً ما بلغ، وإذا أضيفت المعية للخلق دون الحق فمعية الثاني ثاني اثنين، ومعية الثالث للاثنين ثالث ثلاثة، ومعية الرابع للثلاثة رابع أربعة بالغاً ما بلغ لأنه عين ما هو معه في المخلوقية فهو من جنسه والحق ليس كذلك فليس كمثله شيء فليس بثالث ثلاثة ولا خامس خمسة فافهم، فقد تبين الحق من الخلق من وجه وقد ظهر بصورته أيضاً من وجه.

واعلم أن الطبيعة ظل النفس الكلية الموصوفة بالقوَّتَيْن المعبر عنها بلسان الشرع باللوح المحفوظ فما لم يمتد من ظل النفس وبقي فيها فهو الذي نزلت به عن العقل في درجة النورية والإضاءة وما امتد من ظل النفس سمي طبيعة، وكان امتداد هذا الظل على ذات الهيولي الكل، فظهر من جوهر الهيولى والطبيعة الجسم الكل مظلماً ولهذا شبهوه بالسبجة السوداء لهذه الظلمة الطبيعية، وسموا النفس الزمرُّدة الخضراء لما نزلت به عن العقل في النور وفي الجسم الكل ظهرت صور عالم الأجسام وأشكاله فكان ذلك للجسم الكل كالأعضاء، فلما استعد الجسم بما استعد به توجهت عليه النفس وأنارته فانتشرت الحياة في جميع أعضائه كلها، فتلك أرواح عالم الأجسام العلوي والسفلي من فلك وعنصر، ثم استحال بعضه إلى

بعضه لتأثير حكم الحركة الزمانية التي عينها الاسم الدهر في الأفلاك، فظهرت للعين صور المولدات الفلكية كالكواكب والجنات ومرتبتها وما فيها والعنصرية من معدن ونبات وحيوان وصور غريبة وأشكال عجيبة في عين وجودية، فما خرج شيء من العدم إلا الصور والأعراض من تركيب وتحليل والجوهر ثابت العين قابل لهذه الصور كلها دنيا وآخرة.

وإذا علمت هذا وتقرر فاعلم أن قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ [الرعد: ٢] أن المعنى المراد من ذلك التقدير والإيجاد، فالتدبير للتقدير والتفصيل للإيجاد من فصلت الشيء عن الشيء إذا قطعته منه وفصلت بينه وبينه حتى تميز، فإن كان الفصل عن تقدير فهو على صورته وشكله، وإن كان من غير تقدير فقد لا يكون على صورته، وإن أشبهه في أمر مَّا فإنَّه يفارقه في أمر آخر كالبياض والسواد يشتركان في اللونية وإن كانا ضدَّيْن، وكاللون والحركة يشتركان في العرضية وإن كانا مختلفين قال الشاعر: [كامل أحذّ مضمر]

ولأَنْـتَ تَـفْـري مـا خَـلَـقْـتَ وبَـعْـ ـضُ الـنَّـاس يَـخْـلُـقُ ثـم لا يَـفْـري

وكالإسكاف وأمثاله من صائغ وخياط وحداد وأمثال ذلك يريد أن يقطع من جلد نعلاً فيأخذ نَعلاً فيقدره على الجلد فإذا أخذ قدرة من الجلد قطع من الجلد ذلك المقدار وفصله منه، والظلالات أوجدها الله على مثال الأشخاص ولما أراد فصلها مدها فظهرت أعيانها على صورة من هي ظله حذوك النعل بالنعل، فلما خلق الله العالم دون الإنسان أي دون مجموعه حذا صورته على صورة العالم كله فما في العالم جزء إلا وهو على صورة الإنسان، وأريد بالعالم كل ما سوى الله، ففصله عن العامل بعدما دبره وهو عين الأمر المدبر، ثم إنه تعالى حذاه حذواً معنوياً على حضرة الأسماء الإلهية فظهرت فيه ظهور الصور في المرآة للرائي ثم فصله عن حضرة الأسماء الإلهية بعدما حصلت فيه قواها فظهر بها في روحه وباطنه فظاهر الإنسان خلق وباطنه حق، وهذا هو الإنسان الكامل المطلوب وما عدا هذا فهو الإنسان الحيواني، ورتبة الإنسان الحيواني من الإنسان الكامل رتبة خلق النسناس من الإنسان الحيواني، هذا جملة الأمر في خلق الإنسان الكامل من غير تفصيل؛ وأما تفصيل خلقه فاعلم أن الله لما خلق الأركان الأربعة دون الفلك وأدارها على شكل الفلك والكل أشكال في الجسم الكل فأوَّل حركة فلكية ظهر أثرها فيما يليها من الأركان وهو النار فأثر فيه اشتعالاً بما في الهواء من الرطوبة فكان ذلك الاشتعال واللهب من النار والهواء وهو المارج أي المختلط ومنه سمي المرج مرجاً لأنه يحوي على أخلاط من الأزهار والنبات، ومنه وقع الناس في هرج أي قتل ومرج أي اختلاط، ففتح الله في تلك الشعلة الجان، ثم أفاضت الكواكب النيرة بأمر الله وإذنه فإنه أوحى في كل سماء أمرها فطرحت شعاعها على الأركان والأركان مطارح الشعاعات، فظهرت الأركان بالأنوار وأشرقت وأضاءت فأثرت وولدت فيها المعدن والنبات والحيوان وهي على الحقيقة التي أثرت في نفسها لأن الأفلاك أعني السموات إنما أوجدها الله عن الأركان ثم أثرت في الأركان بحركاتها وطرح شعاعات كواكبها ليتولد ما تولد فيها من المولدات فبضاعتها ردّت إليها فما أثر فيها سواها، وجعل ذلك من أشراط الساعة فإنه من

أشراطها أن تلد المرأة بعلها فولدت الأركان الفلك، ثم نكحها الفلك فولد فيها ما ولد فهو ابنها زوجها، ولم يظهر في الأركان صورة للإنسان الذي هو المطلوب من وجود العالم فأخذ التراب اللزج وخلطه بالماء فصيره طيناً بيديه تعالى كما يليق بجلاله إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وتركه مدة يختمر بما يمر عليه من الهواء الحار الذي يتخلل أجزاء طينته فتخمر وتغيرت رائحته فكان حمأ مسنوناً متغير الريح. ومن أراد أن يرى صدق ذلك إن كان في إيمانه خلل فليحك ذراعه بذراعه حكاً قوياً حتى يجد الحرارة من جلد ذراعه ثم يستنشقه فيجد فيه رائحة الحمأة وهي أصله التي خلق الجسم منها قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] فلما طهرت فخارة الإنسان بطبخ ركن النار إياها والتأمت أجزاؤه وقويت وصلبت قصرها بالماء الذي هو عنصر الحياة فأعطاها الماء من رطوبته وألان بذلك من صلابة الفخار ما ألان فسرت فيه الحياة وأمده الركن الهوائي بما فيه من الرطوبة والحرارة ليقابل بحرارته برد الماء فامتنعا فتوفرت الرطوبة عليه فأحال جوهرة طينته إلى لحم ودم وعضلات وعروق وأعصاب وعظام، وهذه كلها أمزجة مختلفة لاختلاف آثار طبيعة العناصر واستعدادات أجزاء هذه النشأة فلذلك اختلفت أعيان هذه النَّشأة الحيوانية فاختلفت أسماؤها لتتميز كل عين من غيرها، وجعل غذاء هذه النشأة مما خلقت منه، والغذاء سبب في وجود النبات وبه ينمو فعبر عن نموه وظهور الزيادة فيه بقوله ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] ومعناه فنبتم نباتاً فإن مصدر أنبت إنما هو إنبات فأضاف النبات إلى الشيء الذي ينمو يقول: جعل غذاءكم منها أي مما تنبته فتنبتون به أي تنمي أجسامكم وتزيد، فلما أكمل النشأة الجسمية النباتية الحيوانية وظهر فيها جميع قوى الحيوان أعطاه الفكر من قوَّة النفس العملية وأعطاه ذلك من قوَّة النفس العلمية من الاسم الإلهيّ المدبر، فإن الحيوان جميع ما يعماه من الصنائع وما يعلمه ليس عن تدبير ولا روية بل هو مفطور على العلم بما يصدر عنه لا يعرف من أين حصل له ذلك الإتقان والإحكام كالعناكب والنحل والزنابير، بخلاف الإنسان فإنه يعلم أنه ما استنبط أمراً من الأمور إلا عن فكر وروية وتدبير فيعرف من أين صدر هذا الأمر، وسائر الحيوان يعلم الأمر ولا يعلم من أين صدر، وبهذا القدر سمي إنساناً لا غير، وهي حالة يشترك فيها جميع الناس إلا الإنسان الكامل فإنه زاد على الإنسان الحيواني في الدنيا بتصريفه الأسماء الإلهية التي أخذ قواها لما حذاه الحق عليها حين حذاه على العالم، فجعل الإنسان الكامل خليفة عن الإنسان الكل الكبير الذي هو ظل الله في خلقه من خلقه، فعن ذلك هو خليفة ولذلك هم خلفاء عن مستخلف واحد فهم ظلاله للأنوار الإلهية التي تقابل الإنسان الأصلي. وتلك أنوار التجلي تختلف عليه من كل جانب فيظهر له ظلالات متعدِّدة على قدر أعداد التجلي، فلكل تجل فيه نور يعطي ظلاً من صورة الإنسان في الوجود العنصري فيكون ذلك الظل خليفة فيوجد عنه الخلفاء خاصة، وأما الإنسان الحيواني فليس ذلك أصله جملة واحدة وإنما حكمه حكم سائر الحيواني إلا أنه يتميز عن غيره من الحيوان بالفصل المقوَّم له، كما يتميز الحيواني بعضه عن بعض بالفصول المقوَّمة لكل واحد من الحيوان، فإن الفرس ما

هو الحمار من حيث فصله المقوم له ولا البغل ولا الطائر ولا السبع ولا الدودة، فالإنسان الحيواني من جملة الحشرات فإذا كمل فهو الخليفة فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان، ثم إن الله أعطاه حكم الخلافة واسم الخليفة وهما لفظان مؤنثان لظهور التكوين عنهما، فإن الأنثى محل التكوين فهو في الاسم تنبيه ولم يقل فيه نائب وإن كان المعنى عينه ولكن قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وما قال إنساناً ولا داعياً وإنما ذكره وسماه بما أوجده له. وإنما فرقنا بين الإنسان الحيواني والإنسان الكامل الخليفة لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧] فهذا كمال النشأة الإنسانية العنصرية الطبيعية، ثم قال له بعد ذلك: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] إن شاء في صورة الكمال فيجعلك خليفة عنه في العالم، أو في صورة الحيوان فتكون من جملة الحيوان بفصلك المقوِّم لذاتك الذي لا يكون إلا لمن ينطلق عليه اسم الإنسان، ولم يذكر في غير نشأة الإنسان قط تسوية ولا تَعديلاً وإن كان قد جاء ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى: ٢] فقد يعني به خلق الإنسان لأن التسوية والتعديل لا يكونان معاً إلا للإنسان لأنه سوَّاه على صورة العالم وعدَّله عليه ولم يكن ذلك لغيره من المخلوقين من العناصر، ثم قال له بعد التسوية والتعديل: ﴿كُن﴾ وهو نفس إلهي فظهر الإنسان الكامل عن التسوية والتعديل ونفخ الروح وقول: ﴿كُن﴾ وهو قوله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ [آل عمران: ٥٩] فشبه الكامل وهو عيسى عليه السلام بالكامل وهو آدم عليه السلام خليفة بخليفة، وغير الخلفاء إنما سوَّاهُ ونفخ فيه من روحه وما قال فيه أنه قال له كن إلا في الآية الجامعة في قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [النحل: ٤٠] فاجعل بالك لما نبهتك عليه فنقص عن مرتبة الكمال التي أعطاها الله للخلفاء من الناس.

ولما قسم الله الفلك الأطلس الذي هو فلك البروج وهو قوله ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] على اثني عشر قسماً وأوحى الله تعالى في سماء البروج أمرها فلكل برج فيها أمر يتميز به عن غيره من البروج، وجعل الله لهذه البروج أثراً من أمر الله الموحى به فيها فيما دون هذه السماء من عالم التركيب والإنسان من حيث جسمه وطبيعته من عالم التركيب وهو زبدة مخض الطبيعة التي ظهرت بتحريك الأفلاك، فهو المخضة التي ليس في اللبن ألطف منها بل هي روح اللبن إذا خرج منه بقي العالم مثل النخالة فهو فيه لا فيه فإنه متميز عنه بالقوة وهو منه، فإن الإنسان ما خرج من العالم وإن كان زبد مخضة العالم إذ لو انفصل عنه ما بقي العالم يساوي شيئاً مثل اللبن إذا خرج عنه الزبد استحال وقل ثمنه وزال خيره الذي كان المطلوب منه، ومن أجل تلك الزبدة كان يستعمل اللبن ويعظم قدره، فلما قضى الله أن يكون لهذه البروج أثر في العالم الذي تحت حيطة سماء هذه البروج جعل الله في نشأة هذا الإنسان اثني عشر قابلاً يقبل بها هذه الآثار فيظهر الإنسان الكامل بها، وليس ذلك للإنسان الحيوان وإن كان أتم في قبول هذه الآثار من سائر الحيوان ولكنه ناقص بالنظر إلى قبول الإنسان الكامل، فمن الاثني عشر لصوقها بالعالم حين حذيت عليه ولصوقها بحضرة الأسماء الإلهية وبه صح

الكمال لهذه النفس، وهذه المجاورة على ثلاث مراتب منها مرتبة الاختصاص وهي في الإنسان الحيوان بما هو محصل لحقائق العالم وهي في الكامل كذلك، وبما اختص به من الأسماء الإلهية حين انطلقت عليه بحكم المطابقة للحذو الإلهي الاعتنائي ولكونه ظلاً، ولا شيء ألصق من الظل بمن هو عنه.

والمرتبة الثانية من المجاورة مرتبة الشيئية الرابطة بين الأمرين وهي الأدوات التي بها يظهر عن الإنسان ما يتكوَّن عنه، فيشترك الإنسان الحيوان مع الكامل في الأدوات الصناعية التي بها يتوصل إلى مصنوع ما مما يفعل بالأيدي ويزيد الكامل عليه بالفعل بالهمة فأدواته همته وهي له بمنزلة الإرادة الإلهية إذا توجهت على إيجاد شيء، فمن المحال أن لا يكون ذلك الشيء المراد.

والمرتبة الثالثة الاتصال بالحق فيفنى عن نفسه بهذا الاتصال فيظهر الحق حتى يكون سمعه وبصره، وهذا المسمى علم الذوق فإنه لا يكون الحق شيئاً من هذه الأدوات حتى تحترق بوجوده فيكون هو لا هي وقد ذقنا ذلك ووجدت الحرق حساً في ذكري لله بالله فكان هو ولم أكن أنا، فأحسست بالحرق في لساني وتألمت لذلك الحرق تألماً حسياً حيوانياً لحرق حسي قام بالعضو فكنت ذاكراً الله بالله في تلك الحالة ست ساعات أو نحوها ثم أنبت الله لي لساني فذكرته بالحضور معه لا به، وهكذا جميع القوى لا يكون الحق شيئاً منها حتى يحرق تلك القوَّة وجوده فيكون هو أي قوَّة كانت وهو قوله: **«كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَلِسَانَهُ وَيَدَهُ»** ومن لم يشاهد الحرق في قواه ويحسه وإلا فلا ذوق له وإنما ذلك توهم منه، وهذا معنى قوله في الحجب الإلهية: **«لو كَشَفَها لأحرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِه»**، فأيّ قوَّة أراد الحق إحراقها من عبده حتى يحصل له العلم بالأمر من طريق الذوق برفع الحجاب الذي بين الإنسان من حيث تلك القوَّة وبين الحق فتحترق بنور الوجه فيسد بنفسه خلل تلك القوَّة، فإن كان سمعه كان الحق سمعه في هذه الحالة، وإن كان بصره فكذلك، وإن كان لسانه فكذلك، ولنا في هذا المعنى: [الطويل]

ألا إنّ ذِكْــرَ الله بــالله يُــخْــرِقُ ... وحُكْمي بهذا فيه حُكْمٌ مُحَقَّقُ
فإنـي ورَبِّ الـواردات طَعِمْتُه ... فحُكْمي عليه أنه الحَقُّ يَصْدُقُ

ولذلك قال الحق في الحديث الصحيح: **«كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ»** فجعل كينونته سمع عبد منعوت بوصف خاص، وهذا أعظم اتصال يكون من الله بالعبد حيث يزيل قوَّة من قواه ويقوم بكينونته في العبد مقام ما أزال على ما يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تكييف ولا حصر ولا إحاطة ولا حلول ولا بدلية والأمر على ما قلناه ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ۝٨١ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨١، ٨٢] يعني الجماعة التي كنا فيها، يعني أهل الله المنعوتين بهذه الطريقة من عباد الله الذين قاموا بنوافل الخيرات وداوموا عليها وأقبلوا إلى الله بها، والله يؤيدنا بالعصمة في الاعتقاد والقول والعمل إنه ولي الرحمة.

الأثر الثاني من الاثني عشر: أن المثلين اللغويين لا يلزم من وصف كل واحد منهما بالمثلية لصاحبه المماثل له الاشتراك في صفات النفس، لأن المثلية لغوية وعقلية، فالعقلية

هي التي يشترك بها في صفات النفس واللغوية بأدنى شبه بأمر ما يكون مثلاً له في ذلك الأمر، فيكون للمثل حكم مثله من حيث ما هو مثله فيه وقابل له، وما ثم بين العبد الإنساني الكامل والحق في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] إلا قبوله لجميع الأسماء الإلهية التي بأيدينا وبها صحت خلافته وفضل على الملائكة، فالخليفة إن لم يظهر فيمن هو خليفة عليه بأحكام من استخلفه وصورته في التصرُّف فيه وإلا فما هو خليفة له، كما أن الخليفة قد استخلف من استخلفه في ماله وجميع أحواله لما اتخذه وكيلاً فهو فيما استخلفه الحق فيه من التصرُّف في المستخلف عليه لا يتصرف إلا بنظر وكيله فهو المستخلف بالمستخلف، فاستخلاف العبد ربه لما اتخذه وكيلاً خلافة مطلقة ووكالة مفوّضة دورية، واستخلاف الرب عبده خلافة مقيدة بحسب ما تعطيه ذاته ونشأته، يقول النبيّ ﷺ لربه عز وجل لما سافر: «**أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ**» فسماه خليفة، والله تعالى قد أقسم بكل معلوم من موجود ومعدوم فقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩] فأقسم بنفسه وبجميع المعلومات، فهل لنا أن نقسم بما أقسم الله تعالى به أو محجور علينا ذلك فلا نكون إذاً خلفاء فيما هو محجور علينا، والمقسم به قد يقسم بالأمر مضافاً أو مفرداً، فالمفرد: والله لأفعلن كذا، والمضاف مثل قول عائشة رضي الله عنها في قسمها: ورب محمد، فدخل المضاف في المضاف إليه في الذكر بالقسم، فعلى هذا الحدّ يقسم الإنسان الكامل بكل معلوم سواء ذكر الاسم أو لم يذكره، وهو بعض تأويلات وجوه قسم الله بالأشياء في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ﴾ [الشمس: ١] ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١] ﴿وَٱلَّيْلِ﴾ [الليل: ١] ﴿وَٱلتِّينِ﴾ [التين: ١] يريد: ورب الشمس، ورب الضحى، ورب التين، فما أقسم إلا بنفسه فلا قسم إلا بالله، وما عدا ذلك من الأقسام فهو ساقط ما ينعقد به يمين في المقسوم عليه ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ واللغو الساقط، فمعناه لا يؤاخذكم الله بالأيمان التي أسقط الكفارة فيها إذا حنثتم ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩] فلما سقط العقد بالقلب عند اليمين سقطت الكفارة إذا وقع الحنث، ولا خلاف بين العلماء أن الكفارة في الأيمان المذكورة في القرآن أنها في اليمين بالله لا بغيره، وجاء بالأيمان معرّفة بالإضافة والألف واللام، وقد صح عن النبي ﷺ النهي عن اليمين بغير الله، فالخليفة ينبغي له أن يكون مع إرادة من استخلفه فيما استخلفه فيه فإن الله يقول: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١] والصورة قد تكون في اللسان الأمر والشأن فقوله: «**إِنَّ اللّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**» أي على أمره وشأنه ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١] أي على من أظهره بصورته أي بأمره فإن له حكم العزل فيه مع بقاء نشأته، فيدلك ذلك على أنه ما أراد بالصورة النشأة وإنما أراد الأمر والحكم، فالعالم لا يعدل عن سنن العلم، ومراد الله في الأشياء وهذا الأمر وحده على الاختصاص من آثار الجوزاء وهي برج هوائي، فطابق الأمر قول النبيّ ﷺ: «**إن الربَّ كان في عَمَاء**» بالمدّ والهمزة وهو السحاب الرقيق «**ما فَوْقَه هواءٌ وما تَحْتَهُ هَوَاء**»، فنفى عن هذا العماء إحاطة الهواء به وما تعرّض لنفي الهواء فالأمر لله، فليست نسبة العماء إليه بأولى من نسبة الهواء، فنفي الإحاطة

الهوائية بهذا العماء لا بد فيه من نفي المجموع لا الجميع، وقد بينا في النفس الرحماني حديث العماء والجوزاء بين الماء والتراب لأنها بين الثور والسرطان كآدم بين الماء والطين، ولهذا كان حكم الهواء أعم من سائر الأركان لأنه يتخلل كل شيء وله في كل شيء سلطان، فيزلزل الأرض ويموِّج الماء ويجريه ويوقد النار به حياة كل نفس متنفس، وله الإنتاج في الأشجار وهو الرياح اللواقح، فهذا الأثر الثاني من الأقسام الاثني عشر.

وأما الأثر الثالث: وهو ما يظهر في العالم مما يمكن أن يستغنى عنه وإنما ظهر مع الاستغناء عنه لتظهر مرتبة قوَّة الاثنين لئلا يقال ما في الوجود إلاَّ الله مع ظهور الممكنات والمخلوقين، فيعلم أن الله غني عن العالمين والاستغناء عنه معقول، فجاء في العالم هذا الأمر الذي يمكن أن يستغنى عنه مع وجوده لبيان غنى الحق عن العالم، فما جعله الله في العالم عبثاً فأعطى وجوده مع الاستغناء عنه هذا العلم وهو علم نافع، وله نظم خاص يشبه نظم ما لا يستغنى عنه مثل وجود الولد عن النكاح وهو مستغنى عنه دليلنا نكاح أهل الجنة في الجنة ونكاح العقيم.

وأما الأثر الرابع: فكقوله ﷺ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ وَعَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مَنْ يَقُولُ الله الله**» فأتى به مرتين ولم يكتف بواحدة وأثبت بذلك أنه ذكر على الانفراد ولم ينعته بشيء وسكن الهاء من الاسم وهو تفسير لقوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١] وهو تكرار هذا الاسم، وقوله: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ولم يذكر إلاَّ الاسم الله خاصة وهو مأمور من الله أن يبين للناس ما نزل إليهم، فلولا أن قول الإنسان الله الله له حفظ العالم الذي يكون فيه هذا الذكر لم يقرن بزواله زوال الكون الذي زال منه وهو الدنيا، وهذا الاسم كان ذكرنا وذكر شيخنا الذي دخلنا عليه وما في فوائد الأذكار أعظم من فائدته، فلما قال الحق: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ ولم يذكر صورة ذكر آخر مع كثرة الأذكار بالأسماء الإلهية فاتخذه أهل الله ذكراً وحده فأنتج لهم في قلوبهم أمراً عظيماً لم ينتجه غيره من الأذكار، فإن بعض العلماء بالرسوم لم ير هذا الذكر لارتفاع الفائدة عنده فيه إذ كل مبتدأ لا بد له من خبر فيقال له لا يلزم ذلك في اللفظ بل لا بد له من فائدة، وقد ظهرت في الذاكر به حين ذكره بهذه الكلمة خاصة فنتج له في باطنه من نور الكشف ما لا ينتجه غيره بل له خبر ظاهر لا في اللفظ كإضافة إلى تنزيه أو ثناء بفعل، ومعلوم أنه إذا ذكر أمر ما ثم ذكر أمر ما وكرَّر على طريق التأكيد له أنه يعطي من الفائدة ما لا يعطيه من ليس له هذا الحكم ولا قصد به فهو أسرع وأنجح في طلب الأمور فلا عبث في العالم جملة واحدة.

وأما الأثر الخامس: وهو يشبه الرابع كما أشبه قسم الحمل من البروج قسم الأسد والقوس وغيره وإن كان هذا ما هو عين هذا، وينفرد كل واحد منهما بأمر لا يكون لغيره من مماثله مع كونه على مثله، فلهذا وقع الشبه في الآثار كما وقع في الأصل وهو كل ما وقع في العالم ويعطي معنى صحيحاً غير ظهوره، ولو سقط من العالم لم يختل ذلك الأمر الذي أعطى فيه هذا المعنى، ولكنه لا بد أن ينقص عن الأمر الذي يعطيه وجوده، وهذه تسمى

عوارض الأعطيات التي لا يخل سقوطها وعدم وقوعها بحقيقة ما عدمت منه وإن كان لها معنى كوجود لذة الجماع من غير جماع، فحصلت الفائدة التي كان لها الجماع، ولكن لحصولها بالجماع معنى لا يحصل إلا بالجماع لأن المقصود بالنكاح الالتذاذ ووجود اللذة وقد وجدت فما أخل سقوط الجماع باللذة ولهذا زوجنا الله بالحور العين.

وأما الأثر السادس: فهو ما يتعلق بصاحب الهمة إذا أراد أن يتكوّن عنه ما لا يقع بالعادة إلا بآلة فيفعله بهمته لا بآلة وفي وقت بآلة، فإن الله قادر أن يكون آدم ابتداء من غير تخمير ولا توجه يدين ولا تسوية ولا تعديل لنفخ روح بل يقول له ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] ومع هذا فخمر طينته بيديه وسوَّاه وعدله ثم نفخ فيه الروح وعلمه الأسماء وأوجد الأشياء على ترتيب، كما أنه لو شاء جعلنا نكتفي بالعلم به عن أسمائه ولكن تسمى بكذا في كل لسان وضعه في العالم فيسمى بالله في العرب، وبخداي في الفرس، وبواق في الحبش، وفي كل لسان له أسماء مع العلم بوجوده، وأظهر فائدة ذلك مع الاستغناء عما ظهر والاكتفاء ومن هذا الباب ما يظهر عنا من الأفعال مع أنه يجوز أن يفعلها الله لا بأيدينا، ولكن ما وصل إلى هذا الفعل في الشاهد إلا بأيدينا، فأراد تحريك الجسم من مكان إلى مكان، فجعل فينا إرادة طلب الانتقال فقمنا بحركة اختيارية نعقلها من نفوسنا وانتقلنا والانتقال خلق الله بالأصل ولكنه وجد عن إرادة حادثة اختيارية بخلاف حركة المرتعش فإنها اضطرارية، فالإنسان المختار مجبور في اختياره عند السليم العقل، ثم ما من حقيقة لا يظهر حكمها إلا بالمحل فلا تظهر إلا بالمحل فيفرق بين ما يجوز وبين ما لا يجوز، فالتحرك محال وجوده إلا في متحرِّك، ومن هذا الباب نزوله تعالى إلى السماء الدنيا في الثلث الباقي من الليل مع كونه معنا أينما كنا، فهذا حكم نزول قد ظهر بفعل ما يمكن حصول ذلك المراد من غير هذا النزول، لكن إذا أضفته إلى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] كان نزولاً ولا بد عن مرتبة الغنى لأنه لا يقبل هذا النزول إلا لنسبة إلهية تقتضيها ذاته فلم تكن إلا بنزول فافهم، فإن الإضافات لها من الحكم الذاتي ما ليس لغير المضاف والحقائق لا تتبدل، والشأن إنما هو ظهور حكم في محكوم، فهو من وجه تطلبه ذاته ومن وجه لا تطلبه ذاته تعالى، كالخالق يطلب الخلق والعالم يطلب المعلوم.

وأما الأثر السابع: فوجود الظرفية في الكون هل هي أصل في الكون ثم حملناها على الحق حملاً شرعياً أو هي في الحق بحسب ما يليق بجلاله وظهرت في العالم بالفعل كقول رسول الله ﷺ للسوداء: «**أَيْنَ اللهُ؟**» فأشارت إلى السماء وكانت خرساء. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦] وبنية فعيل ترد بمعنى الفاعل، وبمعنى المفعول كقتيل وجريح، فعليم بمعنى عالم وبمعنى معلوم وكلا الوجهين سائغ في هذه الآية إذا كانت الباء من قوله بكل بمعنى الفاء فهو في كل شيء معلوم وبكل شيء محيط أي له في كل شيء إحاطة بما هو ذلك المعلوم عليه وليس ذلك إلا لله أو لمن أعلمه الله.

وأما الأثر الثامن: فقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] أي إذا أردت أن تسأل عن حقيقة أمر فاسأل عنه من له فيه ذوق ومن لا ذوق له في الأشياء فلا تسأله فإنه لا يخبرك إلا

باسم ما سألت عنه لا بحقيقته، فلا يسأل العبد عن الله فإنه لا ذوق له في الألوهة ولا خبرة له بها فما عنده منها إلا الأسماء خاصة، فاسأل الله عن الله واسأل العبد عن العبودة، فنسبة العبودة للعبد نسبة الألوهة لله، فإخبار الحق عن العبودة إخبار إله، وإخبار العبد عن الألوهة إخبار عبد، ولذلك ورد: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» فيعرف نفسه معرفة ذوق، فلا يجد في نفسه للألوهة مدخلاً فيعلم بالضرورة أن الله لو أشبهه أو كان مثلاً له لعرفه في نفسه وعلم بافتقاره أن ثم من يفتقر إليه ولا يمكن أن يشبهه فعرف ربه أنه ليس مثله وإن كان الله قد أقامه خليفة وأوجده على الصورة فيخاف ويرجى ويطاع ويعصى، فقد بينا معنى ذلك في هذه الآثار من هذا الباب.

وأما الأثر التاسع: وهو قوله في خلق السموات والأرض أنه ما خلقهما إلا بالحق أي ما خلقهما إلا له تعالى جده وتبارك اسمه لأنه قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] فما خلق العالم إلا له تعالى ولذلك قال فيمن علم أنه جعل في نشأته عزة وهما الجن والإنس: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي ليتذللوا إلي لما ظهر فيهما من العزة ودعوى الألوهة والإعجاب بنفوسهم، فمن لطف الله بهم أن ينبههم على ما أراد بهم في خلقه إياهم، فمن تنبه كان من الكثير الذي يسجد لله ومن لم يتنبه كان من الكثير الذي حق عليه العذاب. وأما قوله في هذه الآية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ قد يريد به الإنسان وحده من حيث ما له ظاهر وباطن، فمن حيث ماله ظاهر هو إنس من آنست الشيء إذا أبصرته قال تعالى في حق موسى إخباراً عنه: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠] أي أبصرت والجن باطن الإنسان فإنه مستور عنه فكأنه قال: وما خلقت ما ظهر من الإنسان وما بطن إلا ليعبدون ظاهراً وباطناً، فإن المنافق يعبده ظاهراً لا باطناً، والمؤمن يعبده ظاهراً وباطناً، والكافر المعطل لا يعبده لا في الظاهر ولا في الباطن، وبعض العصاة يعبده باطناً لا ظاهراً وما ثم قسم خامس، وما أخرجنا الجن الذين خلقهم الله من نار من هذه الآية وجعلناها في الإنسان وحده من جهة ما ظهر منه وما استتر إلا لقول الله لما ذكر السجود أنه ذكر جميع من يسجد له ممن في السموات ومن في الأرض وقال في الناس وكثير من الناس فما عمهم، ودخل الشياطين في قوله من في الأرض وذلك أن الشيطان وهو البعيد من الرحمة يقول للإنسان إذا أمره بالكفر فكفر ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] فأبان الله لنا عن معرفة الشيطان بربه وخوفه منه، فلذلك كان صرف الجن في هذه الآية إلى ما استتر من الإنسان أولى من إطلاقه على الجان والله أعلم.

وأمّا الأثر العاشر: فهو ما ظهر في العالم من إبانة الرسل المترجمين عن الله ما أنزل الله على عباده مع إنزال كتبه فما اكتفى بنزول الكتب الإلهية حتى جعل الرسل تبين ما فيها لما في العبارة من الإجمال وما تطلبه من التفصيل ولا تفصل العبارة إلا بالعبارة، فنابت الرسل مناب الحق في التفصيل فيما لم يفصله وأجمله وهو قوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] بعد تبليغه ما أنزل إلينا، وهذه حقيقة سارية في العالم ولولاها ما شرحت الكتب ولا ترجمت من لسان إلى لسان ولا من حال إلى حال، قال تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ

ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وهو ما أنزله خاصة، وأما ما فصله الرسول وأبان عنه فهو تفصيل ما نزل لا عين ما نزل، ويقع البيان بعبارة خاصة ويعقل بأي شيء كان.

وأما الأثر الحادي عشر والثاني عشر: فهما المرتبتان من المراتب الثلاثة التي ذكرناها في أوَّل هذه الآثار وهما مرتبة الاتصال بالحق ومرتبة السبب الرابط بين الأمرين وقد تقدم. فلنذكر ما في هذا المنزل من العلوم إن شاء الله، فمن ذلك علم السبب الموجب لبقاء المؤمن في النعيم في دار النعيم، وفيه علم أسباب الفوز والنجاة من الجهل الذي هو شر الشرور، وفيه علم ما يستحقه الموطن من الأمور التي تكون بها السعادة للإنسان وقد تظهر في موطن آخر ولا تعطي سعادة، وفيه علم كل ما ثبت عينه هل يسقط حكمه أو لا يسقط إلا حكم بعض ما ثبت عينه أو لا يسقط له حكم على الإطلاق بل يسقط عنه حكم خاص لا كل حكم، فهل يشتغل بما سقط حكمه أو لا يشتغل به كلغو اليمين فإن الكفارة سقطت عنه في الحنث؟ وفيه علم ما يظهر من الزيادة إذا أضيف الفعل إلى المخلوق بوجه شرعي يوجب ذلك أو كرم خلق عقلي، وفيه علم الملا والخلا، وفيه علم فعل ما ينبغي وترك ما لا ينبغي، وفيه علم التعدِّي في حدود الأشياء وهل الحد داخل في المحدود فلا يكون تعدياً وإذا دخل كيف صورة دخوله؟ والفرق بين قوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦] وقوله: ﴿أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧] وهذا حد بكلمة معينة تقتضي في الواحد خروج الحد من المحدود، وفي الآخر دخول الحد في المحدود، وينبني هذا على معرفة الحد في نفسه ما هو فإن للحد حداً ولا يتسلسل.

وفيه علم العهود والأمانات وما هي الأمانات وما هي العهود والعقود التي أمرنا بها والعهد الإلهي هل له حكم عهد المخلوق أم لا؟ وفيه علم الفضل بين المال الموروث والمكتسب وبأي المالين تقع اللذة أكثر لصاحبه وهو علم ذوق ويختلف باختلاف المزاج فإنه ثم من جبل على الكسل فمال الميراث عنده ألذ لأنه لا تعمل له فيه، ومنهم أهل الفتوح ومن الناس من هو مجبول في نفسه على الرياسة فيلتذ بالمال المكتسب ما لا يلتذ بالمال الموروث لما فيه من التعمل لإظهار قدرته فيه بجهة كسبه، وفيه علم توقف المسببات على أسبابها هل هو توقف ذاتي أم اختياري من الله؟ وفيه علم الاستحالات من حال إلى حال فهل تتبع الأعيان تلك الأحوال فتستحيل من عين إلى عين أم العين واحدة والاستحالات تقع في الأحوال، والمذاهب في ذلك مختلفة فأين الحق منها؟ وفيه علم حفظ الصانع لصنعته هل حفظه لصنعته أو لعين المصنوع؟ فإن الصنعة للصانع قد تكون مستفادة له كصنعة الخياطة وغير ذلك مما لا يحصل إلا بالتعلم، وقد تكون الصنعة بالفطرة لا بالتفكر كصنعة الحيوانات كالنحل والعناكب وكلها بالجعل، وقد تكون ذاتية كإضافة الصنعة إلى الله وما معنى قوله مع هذا: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ [الرعد: ٢] فنسب التدبير إليه. وفيه علم حكمة ما يثبت من الأمور في الكون وما لا يثبت وضرب مثل النبي ﷺ بذلك فيما جاء به بالمطر والبقاع فيمن نفعه الله بما جاء به ومن لم ينفعه، وفيه علم وجود الأعلى من الأدنى فأمَّا في المعاني كوجود علمنا بالله عن

وجود علمنا بأنفسنا، وفيه علم ما للنيابة في الأمر من الحكم للنائب، وفيه علم معرفة الشيء بما يكون منه لا به وفي هذا الباب تسمية الشيء باسم الشيء إذا كان مجاوراً له أو كان منه بسبب أو يتضمنه، وفيه علم التوحيد المطلوب من العالم ماهو، وفيه علم الفضائل حتى يقع الحسد فيها هل هي فضائل لأنفسها أو هي بحكم العرف والوضع؟ وفيه علم ما يبقى به كل شيء على التفصيل والاختلاف فما كل واق من شيء يكون واقياً من شيء آخر، وما الأمر الجامع لكل وقاية؟ وفيه علم فائدة وجود الأمثال مع الاكتفاء بالأوَّل من الأمثال، وفيه علم الحجب الحائلة بين الناس وبين العلم بالأشياء، وفيه علم من اتخذ الجهل علماً هل يجد في نفسه القطع به أو تكون نفسه تزلزله في ذلك حتى إذا حقق النظر في نفسه وجد الفرق بين ما يوافق العلم من ذلك وبين ما لا يوافقه وليس ذلك إلا في الجهل خاصة، وأما في الظن والشك فليس حكمهما هذا الحكم فإن الظان يعلم بظنه والشاك يعلم بشكه وقد لا يعلم الجاهل بجهله فإنه من علم بجهله فله علم يمكن أن يوصف به. وفيه علم حكمة التأييد هل هو عناية أو إقامة حجة؟ أو في موضع عناية وفي موضع إقامة حجة بالنظر إلى حال شخصين، وفيه علم ما ينسب إلى العالم بالشيء مما لا يستحقه علمه به ومع ذلك ينسبه إلى نفسه كالترجي من العالم بوقوع ما يترجاه أو عدم وقوعه فما يتعلق الرجاء مع العلم، وفيه علم حكمة من يأتي الأحسن وهو لا يقطع بثمرته هل ذلك راجع إلى علمه بجهل من أحسن إليه بمرتبة الإحسان أو راجع إلى نفسه لكونه لا يعلم أنه وفّى حق الإحسان فيه؟ وفيه علم حكمة استمرار العذاب والضرّ على المضرورين من أصحاب الآلام هل ذلك على جهة الرحمة بهم أم لا؟ وفيه علم من استعمل الأمر في غير ما وضع له أو لم يستعمله إلا فيما وضع له إذا كان له وجوه كثيرة متضادة فما خرج عن حكم ما هو له كالمرض له وجه إلى الصبر وله وجه إلى الضجر، وفيه علم تذكر الناسي هل ينفعه تذكره أم لا؟ وفيه علم الصادق يسمى كاذباً، وفيه علم الاستعاذة وما يستعاذ به ومنه وأين يحمد وفي أي موضع يذم؟ وفيه علم ما ينفع من الاعتراف مما لا ينفع فإن للمواطن حكماً في الاعتراف وللأحوال فيه حكماً أيضاً، فإن من الناس من يعترف بالخطأ مع بقائه عليه، ومن الناس من يزول عنه، وفيه علم شرف الخطاب ووجود الالتذاذ به، وفيه علم حكمة وجود الشك في العالم، وفيه علم نجاة المجتهد أخطأ أم أصاب مع توفيته ما آتاه الله من ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والستون وثلاثمائة

في معرفة منزل سجود القلب والوجه والكل والجزء وهما منزل السجودين والسجدتين

[نظم: البسيط]

مَقَامُ سَهْلٍ سُجُودِ القَلْبِ ليس له ... في غير سَهْلٍ من الأكوانِ أحْكَامُ
لا يرفع القلب رأساً بعد سجدته ... والوجه يرفع والتغيير إعلامُ
فإنه غير مشهود بقِبْلته ... وقِبْلَةُ القلب أسماء وأعْلامُ

تُبْدي حقيقتَه تأييدُ سجدته   وما له في علوم الخلق أقْدامُ

هذا المنزل يسمى منزل التمكين وإلى ما يؤول إليه أمر كل ما سوى الله، ويسمى أيضاً منزل العصمة.

اعلم أن الله تعالى لما خلق العالم جعل له ظاهراً وباطناً وجعل منه غيباً وشهادة لنفس العالم، فما غاب من العالم عن العالم فهو الغيب، وما شاهد العالم من العالم فهو شهادة، وكله لله شهادة وظاهر، فجعل القلب من عالم الغيب وجعل الوجه من عالم الشهادة، وعين للوجه جهة يسجد لها سماها بيته وقبلته أي يستقبلها بوجهه إذا صلى، وجعل استقبالها عبادة، وجعل أفضل أفعال الصلاة السجود وأفضل أقوالها ذكر الله بالقرآن، وعين للقلب نفسه سبحانه فلا يقصد غيره وأمره أن يسجد له فإن سجد عن كشف لم يرفع رأسه أبداً من سجدته دنيا وآخرة، ومن سجد من غير كشف رفع رأسه ورفعه المعبر عنه بالغفلة عن الله ونسيان الله في الأشياء، فمن لم يرفع رأسه في سجود قلبه فهو الذي لا يزال يشهد الحق دائماً في كل شيء، فلا يرى شيئاً إلا ويرى الله قبل ذلك الشيء وهذه حالة أبي بكر الصديق، ولا تظن في العالم أنه لم يكن ساجداً ثم سجد بل لم يزل ساجداً فإن السجود له ذاتي، وإنما بعض العالم كشف له عن سجوده فعلمه، وبعض العالم لم يكشف له عن سجوده فجهله، فتخيل أنه يرفع ويسجد ويتصرَّف كيف يشاء.

واعلم أن السجود الظاهر لما كان نقلة من حال قيام أو ركوع أو قعود إلى تطاطي ووضع وجه على الأرض يسمى ذلك التطأطؤ سجوداً علمنا أنه طرأ على الساجد حالة لم يكن عليها في الظاهر المرئي لأبصارنا، فطلبنا من الله الوقوف على منقل هذا المنقول حال إلى حال، فمن الناس من جعل ذلك وأمثاله نسباً وهو الذي أعطاه الكشف الإلهي في العلم بالأكوان التي هي الحركة والسكون والاجتماع والافتراق، فالحركة عبارة عن كون الجسم أو الجوهر قد شوهد في زمان في حيز أو في مكان ثم شوهد في الزمان الآخر في حيز آخر أو في مكان آخر فقيل: قد تحرك وانتقل، والسكون أن يشاهد الجوهر أو الجسم في حيز واحد زمانين فصاعداً، فسمى إقامته في حيزه سكوناً، والاجتماع عبارة عن جوهرين أو جسمين في حيزين متجاورين ليس بين الحيزين حيز ثالث، والافتراق عبارة عن جوهرين أو جسمين في حيزين غير متجاورين بينهما حيز ليس فيه أحدهما فليس الأمر سوى هذا، ووافق بعض أهل الكلام أهل الكشف في هذا، وبقي من المسألة من هو المحرك هل المتحرك أو أمر آخر؟ فمن الناس من قال المحرك هي الحركة قامت بالجسم فأوجبت له التحرك والانتقال، واختلفوا في الحركة التي أوجبت التحرك للجسم هل تعلقت بها مشيئة العبد فتسمى اختيارية أي حركة اختيار أو لم يتعلق بها مشيئة المتحرك فتسمى اضطرارية كحركة المرتعش؟ وهذا كله إذا ثبت أن ثم حركة كما زعم بعضهم. ولم يختلفوا في أن هذه الأكوان أعراض سواء كانت نسباً أو معاني قائمة بالمحال الموصوفة بها، فإنا لا نشك أنه قد عرض لها حال لم تكن عليه، ومن المحال أن يكون واحد من تلك الأعراض ذاتياً لها وإنما الذاتي لها قبولها، واختلفوا

فيمن أوجد تلك الحركة أو السكون إذا ثبت أن ذلك عين موجودة هل هو الله تعالى أو غير الله؟ فمن قائل بهذا الوجه، ومن قائل بهذا الوجه، وسواء في ذلك المرتعش وغير المرتعش، ومن قائل إن الأكوان لا وجود لها وإنما هي نسب فلمن تستند ونحن نقول في النسبة الاختيارية: إن الله خلق للعبد مشيئة شاء بها حكم هذه النسبة، وتلك المشيئة الحادثة عن مشيئة الله يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] فأثبت سبحانه المشيئة له ولنا، وجعل مشيئتنا موقوفة على مشيئته، هذا في الحركة الاختيارية، وأما في الاضطرارية فالأمر عندنا واحد، فالسبب الأول: مشيئة الحق، والسبب الثاني: المشيئة التي وجدت عن مشيئة الحق، غير أن هنا لطيفة أعطاها الكشف وأشار بها من خلف حجاب الكون وهي قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فالله هو المشيء بالكشف، وإن وجد العبد في نفسه إرادة لذلك فالحق عين إرادته لا غيره، كما ثبت أنه إذا أحبه كان سمعه وبصره ويده وجميع قواه، فحكم المشيئة التي يجدها في نفسه ليست سوى الحق فإذا شاء الله كان ما شاءه فهو عين مشيئة كل مشيء كما يقول مثبت الحركة: إن زيداً تحرك أو أنه حرك يده، فإذا حققت قوله على مذهبه وجدت أن الذي حرك يده إنما هي الحركة القائمة بيده وإن كنت لا تراها فإنك تدرك أثرها، ومع هذا تقول: إن زيداً حرك يده، كذلك تقول: إن زيداً حرك يده والمحرك إنما هو الله تعالى.

واعلم أنه ليس في العالم سكون البتة، وإنما هو متقلب أبداً دائماً من حال إلى حال دنيا وآخرة ظاهراً وباطناً، إلا أن ثم حركة خفية وحركة مشهودة، فالأحوال تتردد وتذهب على الأعيان القابلة لها، والحركات تعطي في العالم آثاراً مختلفة، ولولاها لما تناهت المدد ولا وجد حكم للعدد، ولا جرت الأشياءُ إلى أجل مسمى، ولا كان انتقال من دار إلى دار، وأصل وجود هذه الأحوال النعوت الإلهية من نزول الحق إلى السماء الدنيا كل ليلة واستوائه على عرش محدث وكونه ولا عرش في عماء، وهذا الذي أوجب أن يكون الحق سمع العبد وبصره وعين مشيئته، فبه يسمع ويبصر ويتحرك ويشاء، فسبحان من خفي في ظهوره وظهر في خفائه ووصف في نفسه بما يقال فيه أنه صمد لا إله إلا هو يصوِّرنا في الأرحام كيف يشاء، ويقلب الليل والنهار، وهو معنا أينما كنا، وهو أقرب إلينا منا، فكثرناه بنا ووحدناه به، ثم طلب منا أن نوحده بلا إله إلا الله فوحدناه بأمره وكثرناه بنا: [البسيط]

ما كلّ وقتٍ يريك الحَقُّ حِكْمَتَهُ ... في كلّ وقت ولا يُخْلِيهِ عن حِكَمِ
فانظر إلى فَرَح في القَلْب من تَرَح ... من الطِّباق عن الألواح عن قَلَم
جاءت بها رسلُ الأرواح نازلةً ... على سرائرنا من حضرة الكَلِم
فكلّ علم خفيّ عَزَّ مطلبه ... على العقول التي لم تَحْظَ بالقِدَم
فقمتُ حُبّاً وإجلالاً لمنزلها ... أمشي على الرأس سعياً لا على القَدَم

ولما لم تكن الأكوان سوى هذه الأربعة الأحوال فبقي الكلام في الساكن إذا سكن فبمن، وإذا تحرك فإلى من، وإذا اجتمع فبمن، وإذا افترق فعمّن: [الطويل]

فـمـا ثَـمَّ إلا الله مـا ثَـمَّ غَـيْـرُهُ ... ومـا ثَـمَّ إلا عَـيْـنُـه وإرادتُـهْ

فسكن في الله فهو حيزه إذ كان في علمه ولا عين له فهو هيولاه فتصوّر بصورة العبد فكان له حكم ما خلق وله ما سكن في الليل والنهار، ومن المحال أن يكون الأمر خلاف هذا فبه تلبس وعليه أسس بنيانه وثبت: [البسيط]

فـإنْ شَـهِـدْتَ سـواه فـهـو صـورتُـه ... وإنْ تَـكَـثَّـرتِ الآيـاتُ والـصُّـوَرُ

ليست بغير سوى من كان منزلها ... لـكـنـهـا سُـوَرٌ تَـغـنُـو لـهـا سُـوَرُ

فما في الكون حركة معقولة كما أنه ما ثم سكون مشهود: [مخلع البسيط]

فـانْـظُـرْ إلـى الـضِّـدِّ كـيـف يَـخْـفَـى ... ولـيـس شـيءٌ سـواه يَـبْـدُو

فاعجب لحركة في عين سكون فإن الخلا قد امتلأ، فالعالم ساكن في خلائه، والحركة لا تكون إلا في خلاء، هذه حركة الأجسام والخلاء ملآن فلا يقبل الزيادة فإنه ما لها أين، وكما سكن في الله تحرك إلى الله كما قال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: ٣١] أي ارجعوا إلى ما منه خرجتم فإنهم خرجوا مقرِّين بربوبيته، ثم فزعوا فيها فقيل لهم: ارجعوا إلى ما منه خرجتم وليس إلا الله ولا رجوع إليه إلا به إذ هو الصاحب في السفر، فإن رجع رجعنا فإن الرجوع لا يكون إلا لمن له الحكم ولا حكم إلا لله ثم تاب عليهم ليتوبوا: [مجزوء الوافر]

فـهـذا صِـدْقُ مـا قُـلْـنـا ... فـلا تَـعْـدِلْ عـن الـرَّشَـدِ

فـكـونـوا كـيـفـمـا شِـئْـتُـمْ ... فـإنّ الـحـقَّ بـالـرَّصَـدِ

وإذا تحركت إليه فهو الهادي أو منه اسمه المضل فحيرك ثم هداك فتاب عليك بالهدى فتحركت إليه بالتوبة، فمن مضل إلى هاد و﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨].

وأما قولنا إذا اجتمع فبمن فنقول: اجتمع بالله في عين كونه تولاه الله وهو قوله لعبده: هل واليت فيّ ولياً فإنه عند وليه فمن والى ولياً في الله فقد والى الله، وليس الاجتماع سوى ما ذكرناه، ورد في الخبر أن الله يقول: «**يَا عَبْدِي مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كَيفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ فَقَالَ: يَا عَبْدِي أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَاناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا إِنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ**» فإن المريض لا يزال ذاكراً لله ذكر اضطرار وافتقار وهو الذكر الأصلي الذي انبنى عليه وجود الممكن، والحق تعالى جليس الذاكر له، فمن والى في الله ولياً فقد اجتمع بالله، فإن كنت أنت ولياً فاعلم أن الله أيضاً معك، فإذا واليت ولياً والله معه فقد اجتمع الله بالله فجمعت بين الله ونفسه فحصل لك أجر ما يستحقه صاحب هذه الجمعية فرأيت الله برؤية وليه، فإن كان في الولاية أكبر منك فالله عنده أعظم وأكبر مما هو عندك، فإن الله عند أوليائه على قدر معرفتهم به فأكثرهم جهلاً به وحيرة فيه أعظمهم علماً به، وإذا لم تحصل لك بولاية وليّ الله نسبة الله إلى ذلك الولي الخاص حتى تفرق بين نسبته سبحانه إليك ونسبته تعالى إلى ذلك الولي فما واليته جملة واحدة فيكلمك الحق على لسان ذلك الولي بما يسمع ليفيدك علماً لم يكن عندك أو يذكرك وتسمع أنت منه إن كنت ولياً تشهد ولايتك فتسمع بالحق إذ هو سمعك ما يتكلم به الحق على لسان ذلك الولي فيكون الأمر كمن يحدث نفسه

بنفسه فيكون المحدث عين السامع، وهذا ذوق يجده كل أحد من نفسه ولا يعرف ما هو إلا من شهد الأمر على ما هو عليه، وأما قولنا الافتراق فعمن فتمام الخبر وهو قوله: أو عاديت فيّ عدواً ومن عاديته فقد فارقته فإن الهادي يفارق المضل والضار يفارق النافع، فمن أحكم الأسماء الإلهية انفتح له في العلم بالله باب عظيم لا يضيق عن شيء: [مخلع البسيط]

فلو عَلِمْتَ الذي أقولُ | لم تَكُ غَيْرَ الذي يَقُولُ
ما أنت مثلي بل أنت عيني | فلا قَؤُولٌ ولا مَقُولُ
تَحَيَّرَتْ في الذي عَنَيْنَا | فيما أتتْنَا به العُقُولُ

فالمحقق إذا اعتبر ما يشاهده صاحب الكشف ربما عثر على الحق المطلوب فإنه في غاية الوضوح والظهور لذي عينين: [الكامل]

فالحالُ يلعبُ بالعقول وبالنُّهَى | كتَلاعُبِ الأسماء بالأكْوَانِ

فالعداوة والمعاداة من هناك ظهرت في الكون، فالعالم المشاهد لا يتغير عليه الحال في عينه بقيام الأضداد به فإنه حق كله، فإن فهمت ما أشرنا إليه علمت كيف توالي وكيف تعادي ومن تعادي ومن يعادى ومن تولي ومن يولى، فسبحان من أوجدك منك وأشهدك إياك وامتن عليك بك، فمن عرف نفسه عرف ربه، فلم ينسب شيئاً إلا إليه والله غنيّ عن العالمين. واعلم أن الله لما نسب الألوهة للهوى وجعله مقابلاً له فقال لنبيه عليه السلام داود: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦] وقال: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] وليس الهوى سوى إرادة العبد، إذا خالفت الميزان المشروع الذي وضع الله له في الدنيا وقد تقرّر قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠] فقد علمت بمن حكم من حكم بهواه ولهذا قال: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] أي حيره فإن العلم بالله أوجب له الحيرة في الله إذ لا حاكم إلا الله: [المتقارب]

فقد زُلْزِلَ الأرض زلزالَها | وقال لنا ما لها ما لها
فلو نَظَرتْ أعْيُنٌ أدركتْ | إلى رَبِّها حين أوْحَى لها
وحَدَّثَتِ الأرضُ أخبارَها | كما أخرجتْ لك أثقالَها

فمن لم يشاهد هذا المشهد لم يشهد عظمة الله في الوجود وفاته علم كثير يفوت هذا المشهود.

واعلم أن الأمر لما كان محصوراً في أربع حقائق: الأول والآخر والظاهر والباطن وقامت نشأة العلم على التربيع لم يكن في طريق الله تعالى صاحب تمكين إلا من شاهد التربيع في نفسه وأفعاله فأقام الفرائض وهي الإقامة الأولى، وأقام النوافل وهي الإقامة الأخرى في ظاهره وفي باطنه فإن حكم ذلك في الظاهر وفي الباطن فعم حكم الله نشأته، فإذا شهد هذا ذوقاً من نفسه علم ما يثمر له هذا الأمر فله في ظاهره ست جهات والستة لها الكمال فإنها أول عدد كامل فإن سدسها إذا أضفته إلى ثلثها ونصفها كان كالكل والقلب له ستة وجوه، لكل جهة وجه من القلب هو عين تلك الجهة بتلك العين يدرك الحق إذا تجلى له في الاسم

الظاهر، فإن عم التجلي الجهات كلها من كونه بكل شيء محيطاً عم القلب بوجوهه ما بدا له من الحق في كل جهة فكان نوراً كله، وهناك يقول العبد: فعلت يا رب ويخاطبه ويقول: أنت كما قال العبد الصالح: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٧] فظهر الضمير مع كونه ضميراً والمضمر يخالف الظاهر وقد ظهر مع كونه مضمراً في حال ظهوره فيقول في الحق إنه الظاهر في حال بطونه والباطن في حال ظهوره من وجه واحد، فإن كلمة أنت ضمير مخاطب وليس سوى عينك وأنت مشهود بالخطاب فأنت المضمر الظاهر بخلاف الاسم فأسماء المضمرات أعظم قوّة وأمكن في العلم بالله من الأسماء.

وحكي عن بعض العارفين ورأيته منقولاً عن أبي يزيد البسطامي أنه قال في بعض مشاهده مع الحق في حال من الأحوال: أنانيتي أنانيتك أي كما ينطلق على الاسم المضمر بحقيقته كذلك ينطلق عليك ما هو مثل الاسم الظاهر ولا مثل الوصف الظاهر، وهذا عين ما قلناه من قوّة المضمرات، ولما وقع في الكون التشبيه والاشتراك في الصور بحيث أن يغيب أحد الشخصين ويحضر الآخر فيتخيل الناظر إلى الحاضر أن الحاضر عين الغائب وضع الله في العالم الإشارات في الإخبارات والضمائر لارتفاع هذا اللبس والفصل بين ما هو وبين من يظهر بصورته واعتمدوا عليه، ولما أخبر الله تعالى أن الإنسان مخلوق على الصورة قال عيسى عليه السلام: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٧] ففصل بين الحق وبين من هو على الصورة فكأنه قال: كنت من حيث عينك لا من هو على صورتك الرقيب عليهم فناب أنت في هذا الموضع مناب العين المقصودة، ولنا جزء في هذه الأسماء المضمرات سميناه كتاب الهو وهو جزء حسن بالغنا فيه في هذه الأسماء المضمرة وهي تقبل كل صورة قديمة وحديثة لتمكنها وعلوّ مقامها والعالم وإن تكثر فهو راجع إلى عين واحدة: [مخلع البسيط]

فكلُّ من في الوُجُودِ حقٌّ ... وكلّ من في الشُّهُود خلْقُ
فانْظُرْ إلى حكمة تَجَلَّتْ ... في عَيْنِ حقٍّ يَحْويه حقُّ
فالعبد محقّ والحقُّ محقّ ... فليس حقٌّ ولا مُحِقُّ

فيا ولي لا تعطل زمانك في النظر في الحركات وتحقيقها فإن الوقت عزيز، وانظر إلى ما نتجه فاعتمد عليه بما يعطيك من حقيقته، فإنك إن كنت نافذ البصيرة عرفت من عين النتيجة عين الحركة والمحرِّك، فإن الحركة حقيقة العين والمحرك من وراء حجاب الكون، والنتيجة ظاهرة سافرة معربة عن شأنها فاعتمد عليها فهذه نصيحتي لك يا ولي، ولهذا ما نسب الحق إلى نفسه انتقالاً إلا وذكر النتيجة ليعرِّفك ما هو عين الانتقال المنسوب إليه في نازلة مّا مثل قوله: ينزل ربنا إلى السماء الدنيا في الثلث الباقي من الليل، ثم ذكر النتيجة فقال: فيقول هل من تائب؟ هل من داع؟ هل من مستغفر؟ وقال مثل هذا كثيراً ليريح عباده من تعب الفكر والاعتذار، فإن المقصود من الحركات ماتنتج لا أعينها، وكذا كل شيء فالمبتدأ لولا الخبر ما كان له فائدة ولكان عبثاً الإتيان به، ومن هنا يعرف قوله: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقوله: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ [صٓ: ٢٧] ومن هنا يقع التنبيه

على معرفة الحكمة التي أوجد الله لها العالم وأن اسمه الحق تعالى حق وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] أن معناه غنيّ عن وجوده لا عن ثبوته، فإن العالم في حال ثبوته يقع به الاكتفاء والاستغناء عن وجوده لأنه وفى الألوهة حقها بإمكانه، ولولا طلب الممكنات وافتقارها إلى ذوق الحالات وأرادت أن تذوق حال الوجود كما ذاقت حال العدم فسألت بلسان ثبوتها واجب الوجود أن يوجد أعيانها ليكون العلم لها ذوقاً فأوجدها لها لا له، فهو الغني عن وجودها وعن أن يكون وجودها دليلاً عليه وعلامة على ثبوته، بل عدمها في الدلالة عليه كوجودها، فأي شيء رجح من عدم أو وجود حصل به المقصود من العلم بالله؟ فلهذا علمنا أن غناه سبحانه عن العالم عين غناه عن وجود العالم، وهذه مسألة غريبة لاتصاف الممكن بالعدم في الأزل، وكون الأزل لا يقبل الترجيح، وكيف قبله عدم الممكن مع أزليته، وذلك أنه من حيث ما هو ممكن لنفسه استوى في حقه القبول للحكمين، فما يفرض له حال عدم إلا ويفرض له حال وجود، فما كان له الحكم فيه في حال الفرض فهو مرجح، فالترجيح ينسحب على الممكن أزلاً في حال عدمه وأنه منعوت بعدم مرجح، والترجيح من المرجح الذي هو اسم الفاعل لا يكون إلا بقصد لذلك، والقصد حركة معنوية يظهر حكمها في كلّ واحد بحسب ما تعطيه حقيقته، فإن كان محسوساً فرَّغ حيزاً وشغل حيزاً، وإن كان معقولاً أزال معنى وأثبت معنى ونقل من حال إلى حال.

وفي هذا المنزل من العلوم علوم شتى منها الدعاء المقيد والدعاء المطلق وما ينبغي أن يقال لكل مدعوّ ويعامل به. ومنها علم الحركات وأسبابها ونتائجها. ومنها علم منزلة من تكلم فيما لا يعلم ويتخيل أنه يعلم هل ما تكلم به علم في نفس الأمر أم ليس بعلم؟ أم يستحيل أن يكون إلاً علماً لكن لا يعلمه هذا المتكلم؟ وهل ظهر مثل هذا في العالم وهو خلق الله لتمييز المراتب فيعلم به مرتبة الجهل من العلم والجاهل من العالم أو ما ثم إلا علم؟ ومنها علم تعيين من جعل الله الحيرة في العالم على يديه وهل الحيرة تعطي سعادة على الإطلاق أو شقاوة أو فيها تفصيل منها ما يعطي سعادة ومنها ما يعطي شقاوة؟ وهل المتحير فيه هل كونه متحيراً فيه اسم مفعول لذاته أم يمكن أن لا يتحير فيه. وفيه علم سبب الاحتراق الذي يجده صاحب الحيرة في باطنه في حال حيرته وهل إذا علم الحائر أن الذي تحير فيه لا يكون العلم به إلا عين التحير فيه فيزول عنه ألم الاحتراق. ومنها علم نصب الأدلة كيف رتبها الله للعقلاء أصحاب النظر والاستبصار. ومنها علم غريب وهو هل يمكن أن يمر على القابل للعلوم زمان لا يستفيد فيه علماً أم لا؟ ومنها علم الرتبة الإلهية هل تحجب عن الله أو تدل على الله؟ وصفة من تحجبه وصفة من تكون له دلالة على خالقه. ومنها علم كون الله ما أوجد واحداً قط ولا يصح وإنما أوجد اثنين فصاعداً معاً من غير تقدُّم في الوجود ولا تأخر. ومنها علم كون الحق لا تثبت له أحدية إلا في ألوهيته وأما في وجوده فلا بد من معقولين فصاعداً، فاجعل ذلك ما شئت إما نسباً أو صفات بعد أن لا تعقل أحدية. ومنها علم تعلق الأسماء الإلهية بالكائنات، ومنها علم سعي الآخرة إلى أن تجيء ومن أين جاءت وما هذه الحركة المنسوبة إليها؟ ومنها علم معقول الدنيا

والآخرة ما هو؟ ومنها علم جهل من أعرض عن الله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] فكيف يشقى من أقبل على وجه الله وإن لم يقصد الإقبال على وجه الله وهو في نفس الأمر مقبل على وجه الله معرض عن وجه الله، ومتى ينطلق على الإنسان الإقبال على الله بكل وجه وذلك إذا كان الإنسان وجهاً كله وعيناً كله لم يصح في حق من هذه صفته إعراض عن الله. ومنها علم غريب وهو أنه لا يرجع إلى الإنسان إلا ما خرج منه للأصل الذي يعضده وهو قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] ومنه بدا الأمر كله وإليه يعود، وهذا معنى قوله ﷺ: «**إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ**» فاجهد أن لا يخرج عنك إلا ما تحمد رجوعه إليك. ومنها علم من يكون مع الله على آخر قدم ما يصنع ولا يكون ذلك إلا في حضرة التكليف إذ لا أجر إلا فيه فابحث على علم هذا. ومنها علم الربح والخسران وما يقع فيه الربح والخسران وهل ثم موطن للإنسان يكون فيه لا يكون دنيا ولا آخرة؟ وأعني بالآخرة الدار الآخرة التي جاءت الشرائع بها عن الله. ومنها علم ما انقسم بالحال في الدنيا انقسم بالدار في الأخرى ففي الآخرة منزلان: جنة وجهنم، وفي الدنيا منزلتان: عذاب ونعيم، أو ألم ولذة، فإذا كان الإنسان في حال يقال فيه أنه لا صفة له كدعوى أبي يزيد فهل صاحب هذه الدعوى هو الذي له الموطن الذي ليس بدنيا ولا آخرة. ومنها علم ما يؤول إليه حال من ترك الأخذ بالأهم فالأهم. وفيه علم الأمور العوارض ما لها من الأثر في العالم. ومنها علم خزائن الأرزاق وقول بعض الصالحين وقد شكى إليه شخص كثرة العائلة فقال له: ادخل إلى بيتك وانظر كل من ليس له رزق على الله فأخرجه فقال له: كلهم رزقهم على الله، فقال له: فما تضرك كثرتهم أو قلتهم. ومنها علم الفصل بالشهود والكشف بالحكم، وفيه علم الفرق بين الإرادة والمشيئة والهمة والعزم والقصد والنية. وفيه علم ما للنائب من صفات من استنابه هل يقوم بها كلها أو ما يطلبه من استنيب فيه؟ ومنها علم مراتب القول وبماذا ينسب السوء إليه من الحسن من الطيب. ومنها علم بيان الطرق الموصلة إلى الثناء على الله بطريق التنزيه والإثبات. ومنها علم ما يقع به التساوي بين الأشقياء والسعداء في الدنيا. ومنها علم الميل إلى الأكوان والميل إلى جانب الحق وما يحمد من ذلك وما يذم. ومنها علم إقامة نشأة ما نسب الحق إلى نفسه مما لا يقوم إلا على أيدي عباده. ومنها علم الكور والحور واللازم والقائم والخاضع والنازل. ومنها علم الأعلام بتكرار القصد إلى الحق في الأمور التي دعا الحق عباده إليها من العبادات. ومنها علم السبل القريبة والبعيدة والسالكين فيها واحتساب الآثار إذا كان السلوك فيها وعليها مشروعاً وغير مشروع لكن يقتضيه العقل السليم والنظر الصحيح وتعيين القرب الإلهية في ذلك من غير توقيف وما يصح من ذلك وما لا يصح. ومنها علم الحمد لله على آلائه القريبة المناسبة من الإنسان. ومنها علم ما لكل موجود من المنافع في العالم. ومنها علم الموانع في العالم وما منعت عقلاً وشرعاً. ومنها علم ظهور المعدوم في صورة الموجود وتميزه في الوجود من الوجود الحقيقي. ومنها علم النحل والملل. ومنها علم ما لا ينتفع به إلا بعد إزالة ما ينتفع به منه. ومنها علم أحوال السائلين وما يليق بكل سائل من الجواب. ومنها علم ما يقبل الحق من أعمال عباده مما لا يقبل مع كونه ليس بمحرم ولا

مذموم. ومنها علم الفرق بين العظمة الإلهية والكبرياء. ومنها علم الإحسان ومعرفة ماهيته. ومنها علم صفة من ينوب الحق عنه في صرف ما يسوء مع وجود ما يسوءه. ومنها علم المعارضة بالمثل. ومنها علم عواقب الأسماء الحسنى. ومنها علم العمارة والخراب وحكمهما في الدنيا والآخرة. ومنها علم الرجوع عن الحق ما يؤثر في الراجع. ومنها علم تقدير الواحد بالكثير كما قال بعضهم: [السريع]

وما على الله بمُسْتَنْكَرِ ... أنْ يَجْمَعَ العَالَمَ في وَاحِدِ

ومنها علم تقدير التخالج في الحديث وما يرفع من ذلك وما لا يرفع. ومنها علم عرض الفتن على القلوب وحكم من أنس بها من غيره. ومنها علم السبب المبقي للشاك على شكه مع التمكن من النظر المخرج عن الشك فلم يفعل. ومنها علم الفرق بين الإيمان والعلم وما بين العالم والمؤمن من المراتب. ومنها علم تتبع الحق مراضي عباده الذين تتبعوا مراضيه جزاء وفاقاً. ومنها علم تأخير البيان مع التمكن من استعجال إيضاحه لأمر يراه العالم مع الحاجة إليه. ومنها علم صفة من يطلبه العفو الإلهي. ومنها علم ما ينبغي أن يكشف من العلوم وما ينبغي أن يستر منها. ومنها علم تداخل عالم الغيب في الشهادة وعالم الشهادة في الغيب. ومنها علم الاستدراج والمكر. ومنها علم كل علم غايته العمل فلم تظهر غايته ما العلة في ذلك. ومنها علم كون السماء كالخيمة لا كالكرة المجوفة وأن هيئة السموات على خلاف ما ذكره أصحاب علم الهيئة ولماذا يرجع سير الكواكب هل لأنفسها أو لفلك دائر بها؟ وفيه علم ما لا ينبغي فيه تنازع لوجود الإمكان العقلي فيه. ومنها علم ما يؤثر العلم به في نفس العالم به. ومنها علم استحالة خلق العالم أعيان الجواهر. ومنها علم المصطفى المختار من كل نوع من العالم ومن كل جنس. ومنها علم الآباء والأبناء في المعاني وغير المعاني. ومنها علم التعلق بالأسباب وترك التعلق بها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى السفر الرابع والعشرون.

[السفر الخامس والعشرون]

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثالث والستون وثلاثمائة

في معرفة منزل إحالة العارف ما لم يعرفه على من هو دونه ليعلمه ما ليس في وسعه أن يعلمه وتنزيه الباري عن الطرب والفرح

[نظم مخلع البسيط]

وَضْعُ الموازين للحِسَابِ ... جاء به ناطقُ الكِتَابِ
كِتَابِ ذاتٍ بلا يَرَاعِ ... ولا مِدَادٍ ولا اكْتِسَابِ
ولا صِفَاتٍ ولا نُعُوتٍ ... ولا ذهابٍ ولا إيابِ

فَإِنْ يَتُبْ لِلَّذِي اعْتَرَاهُ قَابَلَهُ قَابِلُ المَتَابِ
طَالَبَهُ الشُّكْر فِي قُدُورِ وَفِي جِفَانٍ مِثْلِ الجَوَابِي

هذا منزل التوحيد العقلي أعني توحيد الأفعال أي لا فاعل إلا الله وهو منزل شريف. فاعلم أن العالم لم يزل في حال عدمه مشاهد الواجب الوجود لأنه لم يزل في عدم مرجح وهو ثابت العين، وقد وصفه الحق في حال عدمه بالسمع والطاعة له، فلم يستحل عليه إضافة المشاهدة، ولهذا لم ينكره أحد من الممكنات في حال وجوده، إلا أن هذا الموجود الإنساني وحده من بين العالم أشرك بعضه به ممن غلب عليه حجاب الطبع وهو ما اعتاد أن يسمع ويطيع ويعبد بالأصالة إلا لرب يشهده، وقد صير ذلك المعبود حجاب الطبع غيباً له فاتَّخذَ ما اتخذ من الموجودات التي يشهدها ويراها إما من العالم السماوي كالكواكب، وإما من العالم الأسفل كالعناصر، أو ما تولد عنها رباً يعبده على المشاهدة التي اعتادها وسكنت نفسه بها إليه ويوهم في نظره أن ذلك المتخذ إلهاً يشهد الحق وأنه أقرب إليه منه فعبد نفسه له خدمة ليقربه إلى الله عز وجل كما أخبر الله عنهم أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ يعني الآلهة الذين اتخذوها للعبادة ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فأكدوه بـ «زلفى» وكان هذا عن نظر واجتهاد، ثم رأوا أصحاب الشرائع المنزلة الإلهية قد قيدوا الناس بالسجود ووضع الوجوه على الأرض والركوع والاستقبال على طريق القربة إلى الله في جهة معينة وتقبيل حجر قالوا لنا إنه يمين الله وجاؤوا بتعظيم شعائر وأعلام محدثات أضافوها إلى الله وجعلوا تعظيمنا إياها أي لتلك الشعائر والمناسك من تقوى القلوب، وقرنوا بذلك التعظيم إذا ظهر منا سعادتنا فزادهم ذلك اعتماداً على ما قرّروه ونصبوه من الآلهة والشرائع ولم يفرقوا بين ما هو وضع لله في خلقه وبين ما وضعوه لأنفسهم من أنفسهم، وكلامنا إنما هو مع الأئمة أصحاب النظر الأوَّل الذين وضعوا هذه الأمور معبودة لهم على طريق القربة إلى الله عز وجل، ثم إنهم مما اغتروا به ما رأوه وسمعوه في الشرائع الإلهية من سعادة المجتهد على الإطلاق سواء أخطأ أو أصاب فالأجر له محقق بعد استيفاء النظر في حقه والاجتهاد في زعمه على قدر ما أعطاه الله في نفسه من الاستعداد، فتخيلوا فيما ليس ببرهان أنه برهان على ما طلبوه، فما اتخذوه إلهاً إلا عن برهان في زعمهم وهو قوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧] يعني في زعمه، فدل على أنه من قام له برهان في نظره أنه غير مؤاخذ وإن أخطأ فما كان الخطأ له مقصوداً وإنما كان قصده إصابة الحق على ما هو عليه الأمر، وأصل هذا كله أن لا يعبد غيباً لأنه بالأصالة ما تعوّده، ولهذا جاء جبريل عليه السلام ليعلم النبي ﷺ وأصحابه ما هو الأمر عليه في صورة أعرابي فقال النبي ﷺ: **«أَتَدْرُونَ مَنْ هَذَا؟»** أَوْ قَالَ: **«رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ»** فَالْتُمِسَ فَلَمْ يَجِدُوه فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأصحابه لما أدبر: **«هٰذا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ»** وكان فيما سأله أن قال له: ما الإحسان؟ فقال له النبي ﷺ في الجواب: **«أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ»** لما علم أن العبادة على الغيب تصعب على النفوس ثم تمم وقال: **«فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»** أي أحضر في نفسك أنه يراك وهو نوع آخر من الشهود من خلف حجاب تعلم

أن معبودك يراك من حيث لا تراه ويسمعك، فما أتانا الشرع في هذا كله إلا بما كان فيه لهؤلاء اغترار وإليه استناد، ولذلك قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] وقال: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣] وهو الذي يرزق الإصابة في النظر والذي يرزق الخطأ. فخرج من مضمون هذا كله أن العبادة لا تتعلق من العابد إلا بمشهود أو كالمشهود لا سبيل إلى الغيب وهذا من رحمة الله الخفية وألطافه، وما خرج عمن ذكرناه إلا المقلدة فبهم ألحق الشقاء فجعل لهم الحق في الشرع المنزل مستنداً من رحمته فيهم يستندون إليه فيه فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] وأهل الذكر هم أهل القرآن فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] وهو القرآن وهم أهل الاجتهاد ومنهم المصيب والمخطىء فإذا سأل المقلد من أخطأ من أهل الاجتهاد في نفس الأمر وعمل بما أفتاه فإنه مأجور لأنه مأمور بالسؤال فاستند مقلدو النظار الذين أخطؤوا في نظرهم في الأصول مع توفية ما أدّاهم إليه استعدادهم فيما أفتوهم به من اتخاذهم الآلهة دون الله، وإن لم ينظروا فإن الله ما كلف نَفساً إلا وسعها وهو ما جعل فيها فعمت رحمته الأئمة والمأمومين، فما في العالم إلا موحد أي مستند إلى واحد، وقد علمت من هذا المساق ما الشرك وما صفة المشرك وقد أعذرهم الله من وجه فقال لهم: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣] هذا إذا قصد العبد فعل الذنب معتقداً أنه ذنب، فكيف حال من لم يتعمد إتيان الذنب واتخذ ذلك قربة لشبهة قامت له فهو أحق بالمغفرة، وأما مؤاخذته أهل الشرك على القطع بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] فهو ظاهر لقرينة الحال، وأما من طريق اللسان فهو الواقع فإن الله ما ستر الشرك على أهل الشرك بل ظهروا به فهو إخبار بما وقع في الوجود من ظهور الشرك وستر ما دون ذلك لمن يشاء أن يستر، فإن ثم أموراً لم تظهر لعين ولا لعقل كما جاء في وصف الجنة: «**فيها ما لا عَينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَرَ على قَلْب بَشَر**» ولكن قرائن الأحوال تدل على القطع بمؤاخذة المشركين. ثم لم يذكر سبحانه ما هو الأمر عليه فيهم بعد المؤاخذة التي هي إقامة الحدّ عليهم في الآخرة يوم الدين الذي هو الجزاء فيدخلون النار مع بعضهم آلهتهم ليتحققوا مشاهدة أن تلك الآلهة لا تغني عنهم من الله شيئاً لكونهم اتخذوها عن نظرهم لا عن وضع إلهيّ، فانظر يا وليّ في عدل الله وفضله فله الحمد على كل حال وهذا حمد نبوي صحيح، فإن الثناء على كل حال من مشرك وغير مشرك، فإن المشرك كما قلنا ما جعل العظمة والكبرياء إلا لله وجعل الآلهة كالسدنة والحجاب فما عبدوهم إلا من أجله، وإن أخطؤوا فيهم ما أخطؤوا إلا في الأحدية فهم أيضاً من الحامدين لله، إذ كانوا أهل ثناء على الله بتوحيد عظمته وإيثاره على هؤلاء الحجبة، فاجعل بالك لرحمة الله السابغة الواسعة التي بسطها الله على خلقه ترشد للحق إن شاء الله. وأما اختلاف العقائد في الله في أصحاب الشرائع الإلهية وغيرهم فإن العالم لو آخذهم الله تعالى بالخطأ لآخذ كل صاحب عقيدة فيه فإنه قد قيد ربه بعقله ونظره وحصره ولا ينبغي لله إلا الإطلاق فإن ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يسٓ: ٨٣] فهو يقيد ولا يتقيد ولكن عفا الله عن

الجميع، فمن أراد إصابة الحق وأن يوفيه حقه وفقه لعلمه بسعته واتساعه، وأنه عند اعتقاد المعتقد فإنه ربط اعتقاده به ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧] فصاحب هذا العلم يرى الحق دائماً وفي كل صورة فلا ينكره إذا أنكره من قيده، ومع هذا فالله قد عفا عمن قيده بتنزيه أو تشبيه من أئمة الدين. ثم انظر في شهادة الله عز وجل عند نبيه ﷺ في حق المشركين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] فهو تنبيه عجيب ولما قيل لهم: ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٠] وما رأوا له عيناً ولا يعلمونه إلا مسمى الله ولم يعلموا أنه عين مسمى الرحمن فتخيلوا في الرحمن أنه شريك لله فأنكروا ذلك ولم ينكروا ذلك فيمن نصبوه إلهاً على ما قَرَّزناهُ لأنهم عالمون بأسماء من نصبوهم آلهة من دون الله فعلموا بأسمائهم أنهم ليسوا في الحقيقة في الألوهة مثله، فإن له تعالى عندهم توحيد العظمة والكبرياء. ودلهم بالسجود للرحمن على عبادة غيب فقالوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠] لأنهم ما علموا في الغيب إلا إلهاً واحداً فقال الله لنبيه ﷺ ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] فتعجبوا من ذلك غاية العجب لأنهم تخيلوا أن مسمى الرحمن ليس هو مسمى الله وإن كان لكل واحد الأسماء الحسنى، وذلك لما أعمى الله بصائرهم وكثف أغطيتهم فلم يعقلوا عن الله ما أراد بما أنزله في حقهم، وجعل الحق ذلك أيضاً مستنداً لهم حيث جاء إليهم باسم يطلب مسمى لا يعرفون هذه العلامة له حين علم ذلك أهل الله وخاصته: [البسيط]

فالله والرَّبُّ والرَّحْمٰنُ والمَلِكُ ... حَقائق كلها في الذّات تَشْتَرِكُ
فالعَيْنُ واحدةٌ والحُكْمُ مشتركٌ ... لذا بَدَا الجسمُ والأرواحُ والفَلَكُ
وكلّها أدواتٌ بين خالقنا ... وبيننا ولهذا يضمن الدَّرَكُ
جاءتْ بها رُسُلُ الرحمن قاطبةً ... مع الكتاب الذي قد سَاقَهُ المَلَكُ

واعلم أن العلم بالله له طريقان: طريق يستقل العقل بإدراكه قبل ثبوت الشرع وهو يتعلق بأحديته في ألوهته وأنه لا شريك له وما يجب أن يكون عليه الإله الواجب الوجود وليس له تعرّض إلى العلم بذاته تعالى، ومن تعرض بعقله إلى معرفة ذات الله فقد تعرَّض لأمر يعجز عنه ويسيء الأدب فيه وعرَّض نفسه لخطر عظيم، وهذا الطريق هو الذي قال فيه الخليل إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧] فنبههم على أن العلم بالله من كونه إلهاً واحداً في ألوهته من مدركات العقول، فما أحالهم إلا على أمر يصح منه أن ينظر فيعلم بنظره ما هو الأمر عليه، والطريق الآخر طريق الشرع بعد ثبوته، فأتى بما أتى به العقل من جهة دليله وهو إثبات أحدية خالقه وما يجب له عز وجل، والمسلك الآخر من العلم بالله العلم بما هو عليه في ذاته، فوصفه بعد أن حكم العقل بدليله بعصمته فيما ينقله عن ربه من الخبر عنه سبحانه مع ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وأن لا يضرب له مثل بل هو الذي يضرب الأمثال لأنه يعلم ونحن لا نعلم فنسب إليه تعالى أموراً لا يتمكن للعقل من حيث دليله أن ينسبها إليه ولا يتمكن له ردّها على من قام الدليل العقليّ

عنده على عصمته فأورثه ذلك حيرة بين الطريقين، وكلا الطريقين صحيحان لا يقدر على الطعن على أحدهما، فمن العقلاء من تأول تأويل تنزيه وتأييد وعضد تأويله بليس كمثله شيء وبقوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] ومن العقلاء من سلم علم ذلك إلى من جاء به أو إلى الله، ومن العقلاء من أهل اللسان من شبه وعذر الله كل طائفة وما طلب من عباده في حقه إلا أن يعلموا أنه إله واحد لا شريك له في ألوهته لا غير، وأن له الأسماء الحسنى بما هي عليه من المعاني في اللسان وقرن النجاة والسعادة بمن وقف عندما جاء من عنده عز وجل في كتبه وعلى ألسنة رسله عليهم السلام: [السريع]

إذا أَبَانَ الحَقُّ عن نَفْسِهِ ... بنفسه في كُتْبِهِ فاعْتَقِدْ
فما علينا من جُناحٍ به ... وذلك العلم به فاعْتَقِدْ
فإنّ حَظَّ العقل من علمه ... به الذي يَنْفي وُجُودَ العَدَدْ
وأنّه في شأنه واحدٌ ... وأنه الله الذي لم يَلِدْ
كذاك لم يُولَدْ ولمن رَامَهُ ... بعقله عن فِكْرِهِ لا تَزِدْ

وبرهان ذلك يا وليّ اختلاف المقالات فيه من العقلاء النظار، واتفاق المقالات فيه من كل من جاء من عنده من رسول ونبيّ وولي وكل مخبر عن الله، ولو وقف العاقل من المؤمنين على معنى قوله في كتابه: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] وعلم أن ما أنتجه العقل من فكره بتركيب مقدمتيه أن تلك النتيجة للعقل عليها ولادة وأنها مولودة عنه وهو قد نفى أن يولد فأين الإيمان وليس المولود إلا عينه؟ بخلاف ما إذا أنتج العقل نسبة الأحدية له، فما معقولية الأحدية للواحد عين من نسبت إليه الأحدية، فللعقل على الأحدية ولادة، وعلى الاستناد إليه ولادة، وعلى كل لا يكون له على عينه ولادة، فأما هويته وحقيقته فما لعقل عليها ولادة وقد نفى ذلك بقوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ ومن هنا تعرف أن كل عاقل له في ذات الله مقالة إنما عبد ما ولده عقله، فإن كان مؤمناً كان طعنا في إيمانه، وإن لم يكن مؤمناً فيكفيه أنه ليس بمؤمن، ولا سيما بعد بعثة محمد ﷺ العامة وبلوغها إلى جميع الآفاق، وأن لله عباداً عملوا على إيمانهم وصدقوا الله في أحوالهم ففتح الله أعين بصائرهم وتجلى لهم في سرائرهم فعرفوه على الشهود وكانوا في معرفتهم تلك على بصيرة وبينة بشاهد منهم وهو الرسول المبعوث إليهم، فإن الله جعل الرسل شهداء على أممهم ولأممهم، فمع كون هذا المؤمن على بينة من ربه حين تجلى له تلاه في تلك الحال شاهد منه وهو الرسول فأقامه له في الشهود مرآة فقال له هذا الذي جئتك من عنده فلما أبصره ما أنكره بعد ذلك مع اختلاف صور التجلي، فربما كنى عنه من هذه حالته من المؤمنين بما وصف نفسه في كتبه أو على ألسنة رسله أو وصفته به رسله، فآمن العاقل المؤمن بذلك من كتاب الله وقول الرسول وكفر بذلك من قول صاحب هذه الحالة من المؤمنين المتبعين، وأما غير المؤمنين فهم الذين يقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس وهم الورثة الذين دعوا إلى الله على بصيرة كما دعوا الرسل قال تعالى عنه ﷺ: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨] ومعنى البصيرة هنا ما ذكرناه أي على الكشف مثل كشف الرسل

فكيف آمن بهذا المؤمن من الرسول وكفر به بعينه من التابع رسول الله ﷺ أخيه المؤمن إذا جاءه به فلا أقل من أن يأخذه منه حاكياً، وما رأينا ولا سمعنا عن صاحب كشف إلهيّ من المؤمنين خالف كشفه ما جاءت به الرسل جملة واحدة ولا تجده، فقد علمت الفرق بين العقلاء في معرفة عينه وبين الرسل والأولياء وما جاءت به الكتب المنزلة في ذلك، فالمؤمن عند ما أعطاه سبيله، والعاقل عند ما أعطاه دليله: [السريع]

وأين حُكْمُ العقل من حُكْمِه ... سبحانه جَلَّ على نَفْسِهِ
هيهات لا يعرفه غيرُه ... إلا به إذ ليس من جِنْسِهِ
والعقلُ قد أدخل معبودَهُ ... بفكره القاصِرِ في حَبْسِهِ
وقال هذا ولدي صُنْعُهُ ... في خَلَدِي فهو على قُدْسِهِ
كلام حالٍ فإذا حَوْقَلُوا ... قالوا تعالى الله في نَفْسِهِ
فخالقي المخلوقُ لي فاعْتَبِرْ ... في فرعه الأعلى وفي أسِّهِ

فعليك بعبادة الله التي جاء بها الشرع وورد بها السمع، ولا تكفر بما أعطاك دليلك المؤدّي إلى تصديقه، وقصارى الأمر أن تسلم له ولأمثاله مقالته في ربه لثبوت صدقه وثبوت المؤمن على اتباعه، فإذا أنصفت في الأمر وعلمت ما نطقت به الرسل عليهم السلام في حق الله جوَّزْت أن تهب من تلك المعرفة نفحة في قلوب المتبعين من المؤمنين تؤدّيهم إلى الموافقة في النطق وأنه حيث كان لسان الحق فتسلمه في الفرع كما سلمته في الأصل بجامع الموافقة، وإياك والكفران فإنه غاية الحرمان فتكون من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢] فاعبد ربك المنعوت في الشرع حتى يأتيك اليقين فينكشف الغطاء ويحتد البصر فترى ما رأى وتسمع ما سمع فتلحق به في درجته من غير نبوَّة تشريع بل وراثة محققة لنفس مصدقة متبعة، وهذا باب يتسع المجال فيه لاتساع الأفعال، فإن توحيد الأفعال يتسع باتساعها، فإن نسب الأفعال لا تنتهي بل هي في مزيد ما دام الفعل يظهر من الفاعل، ومنها طلب المزيد في قوله تعالى: ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فإن له في كل فعل تجلياً خاصاً لا يكون إلا لعين ذلك الفعل، ولهذا يتميز كل فعل عن غيره بما يخصه من التجلي: [السريع]

قد قُلْتُ في الحَقِّ الذي قُلْتُهُ ... لا تَرْعَوي فيه ولا تَأْتَلِي
فإنه الحَقُّ الذي جاءني ... من عنده وهو العليم الولِي
فكيف لي بردّه وهوَ لي ... مُؤَيِّدٌ بكَشْفه كيف لي

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فأتى بكاف الصفة في نفي المماثلة عن المثل المفروض، ولها عموم النفي حتى تقترن بها حال مخصصة إذ قصارى الناظر في ذلك التوقف حتى يرى ما تعطيه قرائن الأحوال فيها، وهذه آية صاحب الدليل العقلي، لكنه جاء هذا النفي والإثبات للمثلية باللسان العربي والمماثلة في اللسان على غير المماثلة التي اصطلح على إطلاقها العقلاء، فيحتاج العاقل أن يتكلف دليلاً على أن الحق أراد المماثلة العقلية، ولا دليل يطلب من صاحب اللسان فيها فإنه بلسانه نزلت وعلى اصطلاحه، ومثل هذا

لا يدرك بالقياس ولا بالنظر، فإنه يرجع إلى قصد المتكلم ولا يعرف ما في نفس المتكلم إلا بإفصاحه عما في نفسه، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] والعربي لا يعرف المماثلة العقلية ولا ينكرها إذا سمعها، وكل لفظ ورد في وصف الله تعالى معرّى عن لفظة المثل وحرف كاف الصفة فقد تعرًى عن أدوات التشبيه ولحق بالألفاظ المشتركة. واعلم أن كاف الصفة لا فرق بينها وبين لفظة المثل وإن كان لهذا الحرف مواطن من جملتها موطن الصفة، فإذا وردت في موطن الصفة في اللسان وهو أن تقول زيد كعمرو فإن العرب لا تريد إلا الإفادة، فمن المحال أن تجيء بمثل هذا وتريد به أنه يماثله في الإنسانية وهي المماثلة العقلية، وإنما تريد أنه كعمرو في الكرم مثلاً أو في الشجاعة أو في الفصاحة أو في العلم أو في الحسن وما أشبه ذلك مما دل عليه الحال بقرينته عند السامع لتقع له الفائدة، فإذا قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فلا بد أن يقول فيماذا أو يدل عليه قرينة الحال في المجلس ولا سيما وقد أردف نفي المماثلة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وهاتان صفتان محققتان في المخلوق، فلا بد إن تحقق ما نفي أن يعلم هل هي كاف الصفات أو غيرها مما يطلبه اللسان منها بما وضعها له؟ فإن كانت كاف صفة هنا فما نفي إلا مماثلة المثل أن يماثل، فأثبت المثل له بالهاء التي في مثله وهي ضمير يعود على الحق، ومعلوم أن المثل ليس عين مماثله، ولو كان عين من هو مثل له ما كان مثلاً له لا عقلاً ولا شرعاً، فوجود المثل عين إثبات الغير بلا شك، فإن عمت المماثلة فهي العقلية بلا شك ولا ينكرها اللسان، وإن خصت فهي لما خصت له حقيقة لا مجازاً مثل زيد كالبحر لاتساعه في العلم أو في الجود، ومن العلماء من جعل الكاف في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ زائدة، فإن كانت جاءت لمعنى فما هي زائدة، فإن ذلك المعنى الذي سيقت له لا يظهر ولا يحصل إلا بها في نفس المخاطب فانتفى أن تكون زائدة فإن الله ما خلق شيئاً باطلاً ولا عبثاً، والزائد لغير معنى، إنما هو عبث، والعرب من المحال أن تجيء بزائد لغير معنى، فإذا جاءت بهذا الحرف جاءت به لمعنى فهو لما جاءت به، فإن المتكلم لا يجيء بالكلمة فيما يقوله النحويّ زائدة إلا لقصد التوكيد، فإذا زالت زال التوكيد، فإذا ما هي زائدة فإن الكلام المؤكد ما استقل دونها وما يقوم مقامها، فإذا أكد تعالى نفي المثل فما هي زائدة فجعل تأكيد نفي المثل في مقابلة من أثبت المثل فرضاً ووجوداً في زعمه، والصحيح في هذه الكاف أنها كاف الصفة بقرائن الأحوال أي لو فرض له مثل لم يماثل ذلك المثل فأحرى إن لا يماثل فهو أبلغ في نفي المماثلة في اللسان. ثم نقول في قولنا بقرائن الأحوال لكون الحق ما وصف الإنسان الكامل إلا بما وصف به نفسه، فنفى مماثلة الإنسان الكامل أن يماثله شيء من العالم، ويعضد هذا قوله: إنه خلق آدم على صورته، فهذا خبر يقع به الأنس للنفس، فما في العالم زائد لغير معنى لأنه ما فيه عبث ولا باطل، بل كل ما فيه مقصود لمعنى. فإن قلت: فأين المماثلة في الفعل؟ قلنا: بيان هذا من وجهين: الوجه الواحد أن يفعل بآلة ظاهرة فإذا قمت في توحيده في الأفعال جعلنا آلة له فيفعل بنا ما ينسب في الشاهد لنا فعله فنحن له كالقدّوم للنجار والإبرة

للخائط مثلاً هذا إذا جعلناه مثلاً لنا، فإذا جعلنا أنفسنا مثلاً له وهو الوجه الآخر من الوجهين في الجواب وهو الفعل بالإرادة والقصد وهي آلة باطنة فإنها نسبة فهو يفعل بالإرادة، فإذا كان الإنسان صاحب همة نافذة فإنه يفعل بهمته كان مثلاً له ولا يوجد ذلك في كل إنسان من هذا النوع فإنما نحن به وله فيفعلنا ويفعل بنا ويفعل فينا، فلا يثبت التوحيد في الأعمال إلا أن تكون آلة لا بد من ذلك، والله العالم والمعلم الذي أطلع من شاء على ما شاء من علمه.

وفي هذا المنزل من العلوم: علم ما بقي من الزمان لقيام الساعة. وفيه علم الفرق بين ما ينزل من العلم على قلوب العلماء من حضرة الربوبية وحضرة الرحمانية دون غيرهما من الحضرات الإلهية. وفيه علم ما ينبغي أن يكون عليه صاحب هذا العلم من الصفة وهل يصح هذا العلم لمن لا يرفع به رأساً أم لا؟ وفيه علم الأسرار التي لا تذاع. وفيه علم الردّ والقبول. وفيه علم الفرق بين الرؤيا والمبشرات وأن الرؤيا أعم والمبشرات أخص، فإن الإنسان قد يرى ما يحدّث به نفسه وما يلعب به الشيطان أو يحزنه، ولو لم يكن لذلك أثر فيمن رويت له أو رآها لنفسه ما أثبت الشارع لذلك الخوف مزيلاً وهو قوله: أن يتفل صاحب الرؤيا المفزعة على يساره ثلاثاً ويستعيذ بالله من شرّ ما رأى فإنها لا تضره وليتحوّل من شقه الذي كان عليه نائماً حين الرؤيا إلى شقه الآخر فإنها تتحوَّل بتحوّله كما يحوِّل صاحب الاستسقاء رداءه عند الدعاء فيحوِّل الله حالة الجدب بالخصب ويرمي شرّها عمن اتخذه معاذاً، فلم يؤثر فيه إذ هو ليس بمحل للأثر وإن كان قد ورد ولكن على وجه خاص، فقد ورد في الشرع «**أَنَّ العَبْدَ يَفْعَلُ فِعْلاً يُسْخِطُ بِهِ رَبَّهُ وَيَفْعَلُ فِعْلاً يُرْضِي بِهِ رَبَّهُ**». وفيه علم في أي صورة يستعمل الدليل العقلي وفي أيّ صورة لا يستعمل. وفيه علم حقائق الأشياء التي بالعلم بها يصح أن تكون معلومات. وفيه علم الحدود الإلهية الموضوعة في العالم في الدنيا والآخرة وتنتهي أوقاتها. وفيه علم العلم المولد من غير المولد، والمولد علم ما ظهر عن الفكر والتدبر والروية. وفيه علم مقارعة الوجود العدم وفي أيّ حضرة أو ميدان يجتمعان وليس لهما ميدان مقارعة إلا الممكنات فالمرجح غالب والمرجوح مغلوب. وفيه علم التوحيد الإلهيّ وأماكنه ستة وثلاثون. وفيه علم ما يعلل وما لا يعلل. وفيه علم ما ينبغي أن يتخذ عدة للشدائد من الأسباب وغيرها وما ثم غير سبب تدفع به. وفيه علم الفصل والوصل ولهما بابان في هذا الكتاب. وفيه علم الأصل الذي منه أو به ظهرت الأكوان وأعيان العالم. وفيه علم من هو العالم ومن يحفظ عليه صورته ومن لا يحفظ عليه صورته. وفيه علم نسبة الحركة إلى العالم العلوي وما يطلب بتلك الحركة. وفيه علم الانتقال من حال إلى حال وما أصل ذلك. وفيه علم نشأة الإنسان على الانفراد وأعني بالإنسان الإنسان الحيوان. وفيه علم التثبت في الأمور وما سبب وما ينتج. وفيه علم العجز والقصور ومن هو أهله. وفيه علم الحافظ والحفظ والمحفوظ من حيث ما هو محفوظ والمحفوظ به. وفيه علم الزيادة والنقص وأن الدنيا من حين خلقها الله ما زالت تنقص، وأن الآخرة من حين شرع النقص في الدنيا ما زالت تزيد فهي في كل يوم في مزيد والدنيا في كل يوم أيضاً في نقص. وفيه علم من علم أنه لا يكون منه

كون كذا لما طولب بكون ذلك، كمن يطلب القيام من المقعد الذي لا يصح منه القيام ولماذا يريده مع علمه بأنه لا يستطيعه. فيه علم عناية الحق بعبده في حال لا يتصف فيه العبد بالعقل ولا بالوجود كأبي يزيد وأمثاله من الأولياء وكعيسى ويحيى من الأنبياء. وفيه علم إقامة الحجج. وفيه علم ما يستقل العقل بإدراكه مما لا يستقل بإدراكه. وفيه علم طيب الخبيث عند الخبيث. وفيه علم نسبة الإصابة لكل مجتهد ومعنى نسبة الخطأ إلى المجتهد وأن ذلك الخطأ علم في نفس الأمر وحكم الله. وفيه علم الصنائع العملية بالفطرة والروية والتعليم، فهذه ثلاثة أحوال فهي بالفطرة في الحيوان وبالتعليم في الضعيف العقل والروية، وبالروية والتدبير في القويّ العقل الصحيح الفكر والنظر. وفيه علم ما يتقى ومن يتقي وبماذا يتقي وأصناف المتقين. وفيه علم الفرق بين البلاء والابتلاء. وفيه علم القرين الصالح هل الصلاح فيه بالجعل أو بالأصالة؟ وفيه علم حكم الجزاء الوفاق المناسب بالاتفاق. وفيه علم أحوال الندم ومتى يتعين وقته. وفيه علم التبديل والتحويل في الصور مع بقاء العين وهل ينتقل الاسم بانتقال الحال أم لا؟ وفيه علم ترتيب الكتب الإلهية مع أن الكلام واحد في نفسه، وكيف ينسب للمتأخر التقدم على من هو متأخر عنه؟ وفيه علم ما تعطيه العبادة من العلوم. وفيه علم عموم رحمة المخلوق وهو من أسنى العلوم وأخفاها. وفيه علم ما يمكن أن يكون فيه التساوي بين المخلوقات وبين ما لا يكون. وفيه علم التنزيه ومكانة الخلق من الحق والحق من الخلق. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والستون وثلاثمائة

في معرفة منزل سرَّين من عرفهما نال الراحة في الدنيا والآخرة والغيرة الإلهية

[نظم: الوافر]

إذا مـا قـام شَـخْـصٌ عـن سِـوَاهُ بـأحْـكـام فـذاك الـمُـسْـتَـنَـابُ
فـإن لـم يَـسْـتَـنِـبْـهُ وقـام فـيـهـا فـلا شـكٌّ لـديـه ولا ارْتِـيَـابُ
ولـو يَـدْعُـو عـلـيـه إذا تَـعَـدَّى لـكـان دعـاؤُه فـيـه يُـجَـابُ
لـصِـدْقِ الـوعـد والإخـلاص فـيـه يـصـيـبُ إذا يـريـد ولا يُـصَـابُ

هذا منزل البشرى الإلهية بالراحة التي أوجبها الاعتناء الإلهيّ بمن بشر بها من عباد الله الصالحين إلى يوم القيامة وفي القيامة، فإن الله لم يزل كل شيء عنده بالفعل في عباده ما عنده شيء بالقوَّة، فوردت التعريفات الإلهية إليه بما كان لله فيه من الأفعال والأحوال ليتذكر بعقله شهوده ذلك من ربه فيه في حال عدمه لما كان عليه من الثبوت الذي أوجب له قبول التصرّف الإلهي فيه، وبتلك الحالة الثبوتية امتثل أمر الحق بالتكوين، فإن الأمر لا يرد إلا على متصف بالسمع فالقول الإلٰهيّ لم يزل، والسمع الثبوتي لم يزل وما حدث الا السمع الوجودي الذي هو فرع عن السمع الثبوتي، فانتقلت الحال على عين السمع ما انتقل السمع، فإن الأعيان لا تنقلب من حال إلى حال وإنما الأحوال تلبسها أحكاماً فتلبسها، فيتخيل من لا علم له أن العين انتقل، فالأحوال تطلب

الأسماء الإلهية لا أن الأعيان هي الموصوفة بالطلب، ويحدث للأعيان أسماء وألقاب بحسب أحكام الأحوال التي تنقلب عليها، ولولا الأحوال ما تميزت الأعيان فإنه ما ثم إلا عين واحدة تميزت بذاتها عن واجب الوجود كما اشتركت معه في وجوب الثبوت فله تعالى وجوب الثبوت والوجود، ولهذه العين وجوب الثبوت فالأحوال لهذه العين كالأسماء الإلهية للحق فكما أن الأسماء للعين الواحدة لا تعدد المسمى ولا تكثره كذلك الأحوال لهذه العين لا تعددها ولا تكثرها مع معقولية الكثرة والعدد في الأسماء والأحوال، وبهذا صح لهذه العين أن يقال فيها أنها على الصورة أي على ما هو عليه الأمر الإلهيّ، فحصل لهذه العين الكمال بالوجود الذي هو من جملة الأحوال التي تقلبت عليها فما نقصها من الكمال إلا وهو نفي حكم وجوب الوجود للتمييز بينها وبين الله إذ لا يرتفع ذلك ولا يصح لها فيه قدم، وله تمييز آخر وذلك أن الحق يتقلب في الأحوال لا تتقلب عليه الأحوال لأنه يستحيل أن يكون للحال على الحق حكم بل له تعالى الحكم عليها فلهذا يتقلب فيها ولا تتقلب عليه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] فإنها لو تقلبت عليه أوجبت له أحكاماً، وعين العالم ليس كذلك تتقلب عليه الأحوال فتظهر فيها أحكامها وتقليبها عليها بيد الله تعالى. فأما تقليب الحق في الأحوال فمعلوم بالنزول والاستواء والمعية والضحك والفرح والرضى والغضب، وكل حال وصف الحق به نفسه فهو سبحانه يتقلب فيها بالحكم، فهذا الفرق بيننا وبين الحق وهو أوضح الفروق وأجلاها فوقعت المشاركة في الأحوال كما وقعت في الأسماء لأن الأسماء هي أسماء الأحوال ومسماها العين، كما أنه لها الأسماء بنسبة غير هذه النسبة ومسماها الحق فهو السميع البصير العالم القدير، وأنت السميع البصير العالم القدير، فحال السمع والبصر والعلم والقدرة لنا وله بنسبتين مختلفتين فإنه هو هو ونحن نحن، فلنا آلات ونحن له آلات، فإن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، وقال: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] والآلة رسول الله ﷺ فالتقلب للحق في الأحوال لإظهار أعيانها كتقلب الواحد في مراتب الأعداد لإظهار أعيانها.

واعلم أن هذا المنزل ما سمي منزل سرّين إلا لسرّ عجيب وهو أن الشيء الواحد تثنيه نفسه لا غيره في المحسوس والمعقول فأما في المحسوس فآدم ثناه ما فتح في ضلعه القصير الأيسر من صورة حواء فكان واحداً في عينه فصار زوجاً بها وليست سوى نفسه التي قيل بها فيه أنه واحد، وأما في المعقول فالألوهية ليست غير ذاته تعالى، ومعقول الألوهة خلاف معقول كونه ذاتاً فثنت الألوهة ذات الحق وليست سوى عينها، فكما بث في الحس من آدم ومن ثناه من ذاته رجالاً كثيراً ونساء على صورة الزوجين، كذلك بث من ذات الحق تعالى وكونه إله العالم على صورة هذين المعقولين، فالعالم خرج على صورة مؤثر ومؤثر فيه للتوالد أي لتوالد أجزائه، فإن الألوهة حكم للذات فبها حكمت بإيجاد العالم فلما أثرت الحكم بإيجاد العالم لذلك ظهر العالم بصورة من أوجده بين مؤثر ومؤثر فيه كما جرى في المحسوس، فإن الله ما خلق من آدم وحوّاء أرضاً ولا سماء ولا جبلاً ولا غير نوعه بل ما خلق منهما إلا مثلهما في الصورة والحكم: [الكامل]

إن التي كان الوُجودُ بكَوْنها ... ذاتٌ يُقَدِّسُ لَفظُها مَعناها
إنّي لأهواها وأهوَى قُربَها ... منّي وأهوى كُلَّ من يَهواها
لَيلَى ولُبنَى والرَّبابُ وزَينَب ... أَترابُ من حُبّي لها مَحْيَاها
لو مِتُّ مات وجودُها بمماتنا ... فوجودنا عَينٌ لها وسوَاها
عجباً لنا ولها فإنّ وجودَنا ... فَردٌ فلا ثانٍ فمن ثَنَّاها

ولما كان الأصل واحداً وما ثناه سوى نفسه ولا ظهرت كثرة إلا من عينه، كذلك كانت له في كل شيء من العالم آية تدل على أنه واحد، فالكون كله جسم وروح بهما قامت نشأة الوجود، فالعالم للحق كالجسم للروح، وكما لم يعرف الروح إلا من الجسم، فإنا لما نظرنا فيه ورأينا صورته مع بقائها تزول عنها أحكام كنا نشاهدها من الجسم وصورته من إدراك المحسوسات والمعاني فعلمنا أن وراء الجسم الظاهر معنى آخر هو الذي أعطاه أحكام الإدراكات فيه فسمينا ذلك المعنى روحاً لهذا الجسم، فكذلك ما علمنا أن لنا أمراً يحرّكنا ويسكننا ويحكم فينا بما شاء حتى تظرنا في نفوسنا فلما عرفنا نفوسنا عرفنا ربنا حذوك النعل بالنعل، ولهذا أخبر في الوحي بقوله: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وفي الخبر المنزل الإلهيّ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] فما ظهر العالم عن الله إلا بصورة ما هو الأمر عليه وما في الأصل شرّ فإلى من تستند الشرور والعالم في قبضة الخير المحض وهو الوجود التام، غير أن الممكن لما كان للعدم نظر إليه كان بذلك القدر ينسب إليه من الشرّ ما ينسب إليه فإنه ليس له من ذاته حكم وجوب الوجود لذاته، فإذا عرض له الشرّ فمن هناك ولا يستمر عليه ولا يثبت فإنه في قبضة الخير المحض والوجود.

ثم من تمام المعرفة الموضوعة في العلم بالله أن للجسم في الروح آثاراً معقولة معلومة لما يعطيه من علوم الأذواق وما لا يمكن أن يعلمها إلا به وأن الروح له آثار في الجسم محسوسة يشهدها كل حيوان من نفسه، كذلك العالم مع الحق لله فيه آثار ظاهرة وهي ما يتقلب فيه العالم من الأحوال وذلك من حكم اسمه الدهر، وأخبر الحق سبحانه أن للعالم من حيث ما كلفه آثاراً لولا تعريفه إيانا بها ما عرفناها، وذلك أنه إذا اتبعنا رسوله فيما جاءنا به من طاعة الله أحبنا وأرضيناه فرضي عنا، وإذا خالفناه ولم نمتثل أمره وعصيناه أخبرنا أنا أسخطناه وأغضبناه فغضب علينا وإذا دعوناه أجابنا، فالدعاء من أثره والإجابة من أثرنا، ذلك لتعلموا أنه ما أظهر شيئاً إلا من صورة ما هو هو، ويستحيل أن يكون الأمر إلا كذلك، وإلا فمن أين وما ثم إلا هو ولا يعطي الشيء إلا ما في قوّته، ولهذا نعت الحق لنا نفسه بنعوت المحدثات عندنا وهي في الحقيقة نعوته ظهرت فينا ثم ما عادت عليه، ونعتنا سبحانه بنعوت ما يستحقه جلاله فهي نعوته على الحقيقة، فلولا ما أوجدنا على صورة ما هو عليه في نفسه ما صح ولا ثبت أن نقبل صفة مما وصفنا بها مما هي حق له، ولا كان يقبل صفة مما وصف بها نفسه مما هي حق لنا والكل حق له؛ فهو الأصل الذي نحن فرعه والأسماء أغصان هذه الشجرة أعني شجرة الوجود، ونحن عين الثمر، بل هو عين الثمر، فما لنا مثل سوى وجود هذا الشجر،

ومن تمام المعرفة بالله ما أخبرنا به على لسان رسوله ﷺ من تحوّله تعالى في الصور في مواطن التجلّي وذلك أصل تقلبنا في الأحوال باطناً وظاهراً وكل ذلك فيه تعالى، وكذلك هو في شؤون العالم بحسب ما يقتضيه الترتيب الحكمي، فشأنه غداً لا يمكن أن يكون إلا في غد، وشأن اليوم لا يمكن أن يكون إلا اليوم، وشأن أمس لا يمكن أن يكون إلا في أمس، هذا كله بالنظر إليه تعالى. وأما بالنظر إلى الشأن يمكن أن يكون في غير الوقت الذي تكوّن فيه لو شاء الحق تعالى وما في مشيئته جبر ولا تحير تعالى الله عن ذلك بل ليس لمشيئته إلا تعلق واحد لا غير ومنها قوله ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] يعني منكم ومن العالم الذي هو سوانا، وإنما سمانا بالثقلين لما فينا من الثقل وهو عين تأخرنا بالوجود فأبطأنا ومن عادة الثقيل الإبطاء كما أنه من عادة الخفيف الإسراع، فنحن والجن من الثقلين، ونحن أثقل من الجن للركن الأغلب علينا وهو التراب، فالإنسان آخر موجود في العالم لأن المختصر لا يختصر إلا من مطوّل وإلا فليس بمختصر، فالعالم مختصر الحق والإنسان مختصر العالم والحق فهو نقاوة المختصر أعني الإنسان الكامل. وأما الإنسان الحيوان فإنه مختصر العالم وله يفرغ الحق ليقيم عليه ميزان ما خلق له، فإن قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ كلمة تهديد والإنسان الكامل لا يتوجه عليه هذا الخطاب غير أن في هذه الكلمة إشارة للحوق الرحمة بهما أعني الثقلين، وذلك في فتح اللام الداخلة على ضمير المُخاطب في لكم وإن كان الفتح الإلهيّ قد يكون بما يسوء كما يكون بما يسرّ، ولكن رحمته سبقت غضبه، وجاء بآلة الاستقبال وهو السين وآخر درجة الاستقبال ما يؤول إليه أمر العالم من الرحمة التي لا غضب بعدها لارتفاع التكليف واستيفاء الحدود، ولما جاء بضمير الخطاب في قوله لكم وعلمنا من الكرم الإلهيّ أبداً أنه يرجح جانب السعداء وجانب الرحمة على النقيض ولهذا سمي ما يتألم به أهل الشقاء عذاباً لأن السعداء يستعذبون آلام أهل الشقاء إيثاراً لجناب الحق حيث أشركوا، فلهم في أسباب الآلام نعيم فسمى الحق ذلك عذاباً إيثاراً لهم حين آثروه فلذلك جاء بحرف الخطاب ليفتح اللام وليعلم بآلة الخطاب أنهم قوم مخصوصون لأنه لا يفقد من العالم ضمير الغائب، فلا بد له من أهل مثل قوله في السعداء: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى﴾ [البقرة: ٢٥] فأتى بضمير الغائب فغابوا عن هؤلاء المخاطبين وفتح اللام فتح رحمة تعطيها قرائن الأحوال، ولهذه الأداة مراتب يعامل الحق بها عباده مثل قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧] ومثل قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ١٣] و﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٩] و﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه: ٦] فله ولنا ومع هذا فالأدب يلزمنا وبالأدب يكون أصحاب السلطان جلساء من غير انبساط لأن الشهود والانبساط لا يجتمعان، قال بعضهم: اقعد على البساط وإياك والانبساط: [البسيط]

إنّي عَبَدْتُ مِنَ أمرٍ ليس يَصْلُحُ لي ... ولستُ أعْبُدُ مَنْ نَعْتي بِصُورَتِهِ
فإنّه قال هذا لم أقُلْهُ أنا ... وليس سُورةُ حالي غَيْرَ سُورَتِهِ

فإن الدون الأدون إذا نسب إليه ما لا يقتضيه مقامه من الصفات الشريفة يأنف من ذلك لأنه هجو به، كما يأنف الشريف أن يوصف بدون ما يستحقه شرفه.

وصل: وأمَّا من قال من أصحابنا وذهب إليه كالإمام أبي حامد الغزالي وغيره بأن الفرق بين الولي والنبيّ نزول الملك فإن الولي ملهم والنبي ينزل عليه الملك مع كونه في أمور يكون ملهماً فإنه جامع بين الولاية والنبوَّة فهذا غلط عندنا من القائلين به ودليل على عدم ذوق القائلين به، وإنما الفرقان إنما هو فيما ينزل به الملك لا في نزول الملك، فالذي ينزل به الملك على الرسول والنبيّ خلاف الذي ينزل به الملك على الولي التابع، فإن الملك قد ينزل على الولي التابع بالاتباع وبإفهام ما جاء به النبيّ مما لم يتحقق هذا الولي بالعلم به، وإن كان متأخراً عنه بالزمان أعني متأخراً عن زمان وجوده فقد ينزل عليه بتعريف صحة ما جاء به النبيّ وسقمه مما قد وضع عليه أو توهم أنه صحيح عنه أو ترك لضعف الراوي وهو صحيح في نفس الأمر، وقد ينزل عليه الملك بالبشرى من الله بأنه من أهل السعادة والفوز وبالأمان كل ذلك في الحياة الدنيا فإن الله عز وجل يقول: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٤] وقال في أهل الاستقامة القائلين بربوبية الله إن الملائكة تنزل عليهم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١]. ومن أولياء الله من يكون له من الله ذوق الإنزال في التنزيل، فما طرأ ما طرأ على القائلين بخلاف هذا إلا من اعتقادهم في نفوسهم أنهم قد عموا بسلوكهم جميع الطرق والمقامات وأنه ما بقي مقام إلا ولهم فيه ذوق وما رأوا أنهم نزل عليهم ملك فاعتقدوا أن ذلك مما يختص به النبي فذوقهم صحيح وحكمهم باطل وهم قائلون أنه من أتى منهم بزيادة قبلت منه لأنه عدل صاحب ذوق ما عندهم تجريح و لا طعن ولا يتعدون ذوقهم، فمن هنالك وقع الغلط ولو وصل إليهم ممن تقدمهم أو كان معهم في زمانهم من أهل الله القول بنزول الملك على الولي قبلوه وما ردوه، وقد رأينا في الوقائع ممن تقدم جماعة غير قائلين بأمر ما فلما سمعوه منا قبلوه ولم ينكروه لارتفاع التهمة عنهم في أشكالهم وأمثالهم، فإن قال أحد من أهل الله من أهل الإشارات وهم أصحاب النداء على رأس البعد إنك قد قلت أنه ما من حقيقة ولا نسبة في العالم إلا وهي صادرة عن نسبة إلهية ومن نسب العالم الافتقار، وقد قال أبو يزيد وهو من أهل الكشف والوجود: إن الله قال له في بعض مشاهده معه تقرّب إلي بما ليس لي: الذلة والافتقار، فاعلم أيها المستفيد أن الحق تعالى له الرحمة والعفو والكرم والمغفرة وما جاء من ذلك من أسمائه الحسنى وهي له تعالى حقيقة، وكذلك له الانتقام والبطش الشديد، فهو سبحانه الرحيم العفو الكريم الغفور ذو انتقام، ومن المحال أن تكون آثار هذه الأسماء فيه أو يكون محلاً لآثارها، فرحيم بمن، وعفوّ عمن، وكريم على من، وغفور لمن، وذو انتقام ممن، فلا بد أن يقول: إن الله الخالق يطلب المخلوق والمخلوق يطلب الخالق وصفة الطالب معروفة والحاصل لا ينفي، فلا بد من العالم لأن الحقائق الإلهية تطلبه، وقد بينا لك أن معقولية كونه ذاتاً ما هي معقولية كونه

إلهاً فثنت المرتبة وليس في الوجود العيني سوى العين، فهو من حيث هو غنيّ عن العالمين، ومن حيث الأسماء الحسنى التي تطلب العالم لإمكانه لظهور آثارها فيه يطلب وجود العالم، فلو كان العالم موجوداً ما طلب وجوده، فالأسماء له كالعائلة، ورب العيال يسعى على عياله، والخلق عيال الله الأبعد، والأسماء الآل الأقرب، فسأله العالم لإمكانه، وسألته الأسماء لظهور آثارها، وما يسأل إلا فيما ليس له وجود فلا بدّ من وجود العالم، والكتاب حاكم، والعلم سابق، والمشيئة محققة فمن المحال أن لا يقع، وإنما وقع التكفير في الطائفة التي قالت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] بالمجموع فإنهم ليسوا بأغنياء عن الله وليس الحق بمتأخر عن إيجادهم ولا عن إسباغ النعم عليهم فضلاً منه ومنة لحكم كتاب سبق، قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] فالحكم للكتاب ونسبة الكتاب ما هي نسبة الذات، وتعين إمضاء الحكم فيمن أمضاه، فهو للكتاب كالسادن والمتصرّف بحكم جبر المرتبة هذا تعطيه الحقائق بأنفسها وهي لا تتبدل ولو تبدلت الحقائق اختل النظام ولم يكن علم أصلاً ولا حق ولا خلق، فلو نظر العاقل في حكمة الخطاب الإلهيّ في قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ [آل عمران: ١٨١] وأخذه من قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] يريد أوجبها على نفسه لأنه ما ثم موجب إلا هو تعالى فقال: سنوجب ما قالوه فيما يرجع ضرره عليهم، وقال في تمام الآية: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١] عقوبة لقولهم، ولهذا كان تحقيق كفرهم بالمجموع فإنهم ليسوا بأغنياء فهذا روح هذه الآية؛ وأما احتجاجك بما قاله لأبي يزيد فهو أيضاً عين المجموع، فلم يقل الذلة وحدها بل قال الذلة والافتقار ونسبة المجموع ليست بنسبة الأفراد، فلولا الممكن ما ظهر أثر للأسماء الإلهية والاسم هو المسمى عينه ولا سيما الأسماء الإلهية، فالوجود طالب ومطلوب ومتعلق الطلب العدم، فإما إعدام موجود وإما إيجاد معدوم، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فما نفى إلا الألوهة أن تكون نعتاً لأكثر من واحد، فللأسماء الإلهية أو المرتبة التي هي مرتبة المسمى إلهاً التصريف والحكم فيمن نعت بها، فبها يتصرَّف ولها يتصرَّف وهو غني عن العالمين في حال تصرّفه لا بد منه، فانظر ما أعجب الأمر في نفسه، ومن هنا يعرف قول أبي سعيد الخراز أنه ما عرف الله إلا بجمعه بين الضدين ثم تلا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] وأما قول اليهود في البخل: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ فقال تعالى فيهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ [المائدة: ٦٤] أي أبعدوا عن صفة الكرم الإلهيّ، فإن أقوالهم من أعمالهم فغلت أيديهم فوقع البخل الذي نسبوه إلى الله بهم، فما شهدوا من الله إلا ما قالوا فأذاقهم طعم ما جاؤوا به وكذبهم الله بعد ذلك في المآل فبسط عليهم الكرم بالرحمة التي وسعت كل شيء ليعرّفهم بأنهم كانوا كاذبين وهو أشد العذاب عليهم وأشد النعيم، فإنه إذا بسط عليهم الجود والكرم علموا جهلهم فتوهموه فتعذبت نفوسهم بتصوّر الحال التي كانوا عليها من الجهل بالله ويتنعمون بإزالة ذلك ووقوفهم على العلم، وعلموا أن جهلهم أورثهم الكذب على الله تعالى بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء

فالحكم للمشيئة فافهم وليست مشيئته غير ذاته، فأسماؤه عينه وأحكامها حكمه، وما ظهر العالم إلا بما هي عليه من القوى: [المجتث]

فانْظُرْ إليه تَكُنْهُ ولا تُجَاوِزَ حَدَّكْ
فكُلُّ ما هو فيه فإنما هو عِنْدَكْ

* * *

[نظم: مخلّع البسيط]

من قَدَرَ الله حَقَّ قَدْرِهْ أظْهَرَ أمْرَ الوجود مِنْهُ
فكُلُّ أمر تراه عينٌ مِنْ علمه فيه فهو عَنْهُ
فعَيْنُهُ عَيْنُ مَنْ تراهُ لذاك ما للوجود كُنْهُ

فإذا قلت الله فهو مجموع حقائق الأسماء الإلهية كلها، فمن المحال أن يقال على الإطلاق فلا بد أن تقيده الأحوال، وإن قيدته الألفاظ فبحكم التبعية للأحوال، فكلما أضيف إليه فانظر أي اسم تستحقه تلك الإضافة فليس المطلوب من الله في ذلك الأمر إلا الاسم الذي تخصه تلك الإضافة والحقيقة الإلهية التي تطلبه فلا تتعداه، ومن كان هذا حاله فقد وفى الله حقه وقدر قدره مجملاً، فإنه لا يقدر قدره مفصلاً لأن الزيادة من العلم بالله لا تنقطع دنيا ولا آخرة فالأمر في ذلك غير متناه، ألم تر أن الله تعالى بعث موسى عليه السلام برسالة إلى فرعون كان من جملتها أن يقول له إذا قال له فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] يعني ما أوجبه على نفسه من ذلك فما كتبها في اللوح المحفوظ إلا ليعلم من ليس من شأنه أن لا يعلم إلا بالإعلام، لا ليتذكر ما أوجبه على نفسه مما تستقبل أوقاته في المدد الطائلة فإنه سبحانه لا يضل ربي الذي جئتك من عنده لأدعوك إلى عبادته ولا ينسى. وقال تعالى عن نفسه: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾ [التوبة: ٦٧] وما نسوه على الإطلاق فما ينساهم على الإطلاق وإنما ينساهم فيما نسوه فيه مما لو علموا به نالتهم الرحمة من الرحيم بذلك، فلما نسوه نسيهم الرحيم، إذ تولاهم الاسم الإلهيّ الذي كانوا في العمل الذي يدعو ذلك الاسم إليه، فإذا انقضى عدل ميزانه فيه زال النسيان إذ لا بد من زواله عند كشف الغطاء عند الموت في الدنيا فلا يموت أحد من أهل التكليف إلا مؤمناً عن علم وعيان محقق لا مرية فيه ولا شك من العلم بالله والإيمان به خاصة هذا هو الذي يعم، فلا بأس أشد من الموت وما بقي إلا هل ينفعه ذلك الإيمان أم لا، أما في رفع العقوبة عنهم فلا إلا من اختصه الله مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَاۖ﴾ [غافر: ٨٥] ثم قال وهو موضع استشهادنا: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦۖ﴾ [غافر: ٨٥] وأما الاستثناء فقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] فلا حكم على الله في خلقه، وأما نفع ذلك الإيمان في المآل فإن ربك فعال لما يريد وإنه يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣] فهذا قوله عهده إلينا في كتابه وعلى ألسنة رسله عليهم السلام: [الطويل]

فقُلْ لي فإن الحقّ فيما أتَى به رسولٌ إلى قلبي من الملأ الأعْلَى
فأخْبَرَني بالأمر من نصفه فما أقولُ بأخْرَى في الأمور ولا أوْلَى
بَلِ الأمْرُ فيه واحدٌ ليس غيره فمن عَالِم يُبْلي ومن عَالَم يُبْلَى
وذلك فرقانٌ يَبِينُ دليلُه وليس بقرآن على قلبنا يُتْلَى
وإن كان قولُ الله في كل حالة عليّ إذا ما جئتُ حضرَتَه يُمْلَى
وخَلْقي عجيبٌ لا يزال مُجَدَّداً وما مَرَّ منه لا يُزال ولا يَبْلَى
فحُكْمُ الحكيم الحَقّ في الخلق ظاهرٌ فسبحان من أعْمَى وسبحان من أجْلَى
لقد جادَ لي إنعامُه بشهوده وقد خَصَّني منه بمَوْرِدِهِ الأحْلَى

فمن اتقى الله جعل له فرقاناً. وإن كان في عين القرآن العزيز الذي هو الجمع من قريت الماء في الحوض إذا جمعته فما كل فرقان قرآن وكل قرآن فرقان: [الوافر]

فعَيْنُ الجمْع عَيْنُ الفَرْق فانْظُرْ بعَيْنِكَ لاجتماع في افْتِراقِ
فليس المِثْلُ عَيْنَ المِثْلِ فاحْكُمْ عليه بالفِرَاق وبالتَّلاقي
وإنْ شئنا إذا فَكَّرْتَ فيه حكمْنا بالنّكاح وبالطّلاقِ
فلولا الحَقُّ ما كان اتِّساقٌ فسَاقُ الحَق مُلْتَفٌّ بساقي
وعند شُرُودنا عنه دعاني لأعلم أن في العُقْبَى مَسَاقي
إليه في جُسُوم من نباتِ فإن طِبْنا فمِسْكٌ في حِقَاقِ

﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] فتميز الواحد عمن ثناه فانفرد كل فريق بأحديته وجمعيته، فمنهم من تأنّس بانفراده بفرديته وأحديته، ومنهم من استوحش في انفراده بفرديته وأحديته فتلك عند العارفين وحشة الحجاب: [الطويل]

فأيُّ نعيم لا يُكَدِّرُهُ الدَّهْرُ ولله فيما قلتُه الخَلْقُ والأمْرُ
فلولا وُجُودُ الحَقّ ما كان خَيْرُه ولولا وجودي لم يُرَ في الوَرَى الشَّرُّ
ولست سواه لو تسرّ حقيقتي ولكنه أخْفَى فشأني له سِتْرُ
فمن يَتَحَقَّقْ صُورَتَيَّ فإنه يلوحُ له من نشأتي الذُّرُ والدَّرُّ
فذُرٌّ لأحجار تُنَافِسُ نشأتي وللعلم منها ما يجودُ به الدَّرُّ
فإن كُنْتَ ذا عقل تَبَيَّنْ حُكْمَهُ وإن كنت ذا عين فقد رُفع السترُ
فإن شِئْتَ فاشْرَبْهُ رحيقاً مُخَتَّماً وإن لم تشأ خمراً فمَشْرَبُك المِزْرُ
فسبحان من أحيا الفؤاد بذكره ولو لم يكن ذِكْرٌ لقام به الفِكْرُ

واعلم أيدك الله بروح منه أني ما رأيت ثبوت العلم على صورته لا يتغير إلا في هذا المنزل فأورثني الطمأنينة فيما علمت أنه لا يزول، وأن الشبه لا تزلزله، وأن الشبهة إذا جاءت لمن شاهد هذا الأمر في هذا المنزل رآها شبهة لا يمكن أن تتغير له عن صورتها، بخلاف من ليس له هذا المنزل فإنه يتزلزل ويؤديه ذلك التزلزل إلى النظر فيما كان قد قطع أنه يعلمه، ولا

يعرف هل العلم الأول كان شبهة أو هل الشهود شبهة أو هل الأمران شبهة؟ فيحار، وذلك أنه ليس هو في علمه بالأمور على بصيرة لأنه ولدها بفكرة، فإذا جاءت الأمور بأنفسها لا بجعلك وإنشائك أعطتك حقائقها فعلمتها على ما هي عليه، ويتعلق بهذا المنزل آيات كثيرة من القرآن العزيز، ولو بسطنا الكلام فيها لطال المدى، فلنذكر منها بعض آيات لا كلها ولا أشرحها، وإنما أنبه عليها للعقول السليمة والأبصار النافذة، فمن ذلك: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٩] ومنها: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ في سورة التغابن [الآية: ١]. ومنها: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩] ومنها: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] ومنها: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤] ومنها ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيث وقع، ومنها: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧] ومنها: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] توطئة لسعادتهم، ومنها: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤] فصدر بهذه الآية ليعلم بما هو الأمر عليه بالنسبة إليه، ومنها: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ١١] فاكتفى بالخبرة عن العلم إذ كانت كل خبرة علماً، ومنها: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥] فجاء بحرف امتناع لامتناع، ومنها: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣] ومنها: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥] ومنها: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣] ومنها: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] الآية، ومنها: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩] ومنها: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١] ومنها: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] الآية، ومنها: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] ومنها: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤، ٥] ومنها: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾ [الملك: ٢٢] وهو الذي سقط على وجهه في النار من الصراط وهو من الموحدين، ومنها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨] ومنها: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤] أي تعجباً: ومنها ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥] ومنها: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] فتدبر منازل هذه الآيات وأمثالها، ومن هنا تعرف قوة الألف واللام اللتين للعهد والتعريف والجنس وإلحاق لام ألف بالحروف.

والحروف على قسمين: حروف هجاء وهي الحروف الأصلية وحروف معاني وكلاهما في الرقم بالوضع وفي اللفظ بالطبع في الإنسان وكلها منك وفيك، وما ثم أمر خارج عنك فلا ترجو أن تعرف نفسك بسواك فإنه ما ثم فأنت دليل عليك وعليه وما ثم من هو دليل عليك:

[مخلع البسيط]

مَـنْ ذا الـذي تَـرْتَـجِـيـه بَـعْـدَكْ ... وأنـت فـي الـحـالـتَـيْـن وَحْـدَكْ
فـانْـظُـرْ إلـيـه بـه تَـكُـنْ هُـوَ ... فـكُـلُّ مـا فـيـه فَـهْـوَ عِـنْـدَكْ

وفي هذا المنزل من العلوم: علم ما للأسباب في المسببات من الأحكام وتفصيل الأسباب وهل العالم كله أسباب بعضه لبعضه؟ وهل من الأسباب ما يكون عدماً وهو سبب مثل النسب كتعلقات المعاني الموجبة أحكاماً بتعلقها. وفيه علم ما ثبت لله من الأحكام عقلاً وشرعاً. وفيه علم ما فائدة الأخبار في المخير المعقول وما الأخبار التي تفيد علماً من التي تفيد ظناً أو غلبة ظن من الأخبار التي تفيد حيرة من الأخبار التي تقدح في الأدلة النظرية لقدحها في العلم. وفيه علم الخلق عيال الله هل معناه معنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] وفيماذا يكون الفقر مع كونهم موجودين وعلمهم من الحق أنهم لا يعدمون بعد وجودهم وإنما هو تقلب أحوال عليهم، فمن حال يزول وحال يأتي والزائل يعطي زواله حكماً والآتي يعطي إتيانه حكماً، والمحكوم عليه بالحكمين واحد العين كالقائم يقعد فالقعود آت والقيام زائل، فحكم زوال القيام كونه ليس بقائم وهو عين حكم القعود يزيده القعود أحكاماً لم تفهم من زوال القيام قد صار إليها وهي أنه ليس بمضطجع ولا راكع ولا ساجد ولا منبطح وفيه علم ما حكمة استفهام العالم عما يعلم. وفيه علم لماذا يرجع ما يدركه البصر من تحول العين الواحدة في الصور في نظر الناظر هل هي في نفسها على ما يدركها البصر أو هي على ما هي عليه في نفسها لم تنقلب عينها؟ وهذا راجع إلى ما يرى من الأعيان ويحكم عليها بأنها هل تكثرت بأعراض أو بجواهر؟ فإن الصور تختلف في النظر دائماً، وكل منظور إليه بالبصر من الأجسام جسم فالجسمية حكم عام، ونرى فيها صوراً مختلفة منها ما يكون سريع الزوال، ومنها ما يبطيء في النظر والجسم جسم لم يتبدل وليس الموصوف بما ظهر إلا الجسم، وكذلك الصور الروحانية والتجلي الإلهي وهذا علم فيه إشكال عظيم، والتخلص منه بطريق النظر الفكري عسير جداً. وفيه علم ما للنائب من الشروط أن يشترطها على من استخلفه مع علمه بأنه مقهور في إقامته نائباً فهل اشتراطه مؤذن بجهله بمن استخلفه أو بنسيانه فيذكره أو يعلمه بمصالحه أكثر من علم من استخلفه بها وينفتح في هذا الاشتراط أمور هائلة تقدح أو يعلم النائب أن من استخلفه يريد منه أن يسأله فيما اشترط عليه ليريه فقره إليه ذوقاً إذ لو كان للنائب الاستقلال بما طلبه في شرطه ما اشترطه. وفيه علم تعرض النائب لمن استخلفه بالرشاء وما يقبل من الرشاء وما لا يقبل. وفيه علم إجابة المستخلف النائب في كل ما يسأله من مصالحه. وفيه علم أن في الطعن على المستخدمين تسفيه من استخدمهم وهو علم خطر جداً ولذلك نهى عن الطعن على الملوك والخلفاء وأخبرنا أن قلوبهم بيد الله إن شاء قبضها عنا وإن شاء عطف بها علينا، وأمرنا أن ندعو لهم وأن وقوع المصلحة بهم في العامة أكثر من جورهم، وما حكمة جورهم مع كونهم نواب الله على الحقيقة في خلقه سواء كانوا كفاراً أو مؤمنين وعادلين أو جائرين ما يخرجهم ذلك عن إطلاق النيابة عليهم، فهل إذا جار النائب انعزل فيما جار فيه من النيابة أو انعزل على الإطلاق من النيابة ثم جدد الحق له نيابة أخرى مجددة. وفيه علم تعداد النعم من المنعم على المنعم عليه هل هو منّ قادح أو هل هو تعريف ليعلم قدر ذلك

لما طلب منه من الشكر عليها؟ أو هل هو عقوبة لأمر وقع منهم؟ أو هل تسوغ فيه مجموع هذه الوجوه كلها؟ وفيه علم الرفق في التعليم في مواطن والإغلاظ في مواطن. وفيه علم من أين جئت وإلى أين تروح وهل ثم رجوع على الحقيقة أم لا؟ أو هو سلوك أبداً قدماً لا رجوع فيه، والرجوع للمعقول والمحسوس في العالم لأية نسبة إلهية يرجع وهل وصف الحق بالرجوع على ما قلناه في الرجوع أم لا؟ فإن الحقائق تأبى أن يكون ثم رجوع. وفيه علم الفرق بين وصف النفوس الناطقة بالعقول والنهي والأحكام والألباب وأمثال هذه الألقاب لماذا يرجع. وفيه علم ما حكمة إقامة الدليل لمن لا يعلم أن ذلك دليل وهو يعلم أنه عالم بهذه الصفة فهل هو عينه مقصود بذاك الدليل أو غيره فيكون فيه ناقلاً فينتفع به ويقبله من يصل إليه من نقل هذا الذي لم يعلم أن ذلك دليل وهذا يقع كثيراً وهو قول النبي ﷺ: «**رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيسَ بِفَقِيهٍ**» فإذا حمله ونقله إلى فقيه قبله ذلك الفقيه واستفاد به علماً لم يكن عنده والناقل لا علم له بشيء من ذلك. وفيه علم تسمية الشيء باسم الشيء إذا كان مجاوراً له أو كان منه سبب. وفيه علم لم أمر الشارع بقتل الساحر ولماذا سمي كافراً؟ ولما علم فرعون صدق موسى عليه السلام وأضمر الإيمان في نفسه الذي أظهره عند غرقه حين رأى البأس هل قتل من قتل من السحرة الذين آمنوا لكونهم سحرة فقتلهم شرعاً في باطن الأمر ولإيمانهم في ظاهر الأمر وإذا قتل الساحر هل ذلك القتل كفارة له وجزاء على سحره ولم يبق عليه من جهة ذلك السحر في الآخرة مطالبة فيه من الحق سبحانه وتعالى أم لا مطالبة عليه فيه من الله؟ وفيه علم تفاضل المقرّبين عند الله بماذا فضل بعضهم بعضاً. وفيه علم قول النبي ﷺ في ابتلاء المؤمن بالرزايا والمصائب أن له خيراً في ذلك كله، ولماذا كان أهل الله في الدنيا أشد بلاء من سواهم؟ ولماذا يرجع اقتضاء ذلك في حقهم دون غيرهم من الناس المؤمنين؟ وفيه علم لماذا جبلت النفوس على حب المال ولا سيما الذهب هل لحيازته درجة الكمال المعدني فوقعت المناسبة بين الكاملين أو هل لما فيه من قضاء حوائجهم فهم فقراء إليه لوصولهم به إلى أغراضهم وقول عيسى عليه السلام: قلب كل إنسان حيث ماله فاجعلوا مالكم في السماء تكن قلوبكم في السماء فمن اكتنز ماله فقد دفن قلبه في أرض طبيعته فلا يلتذ بمشاهدة أبيه الذي هو الروح الإلهي أبداً. ومثل هذا يكون ابن أمه وإن كان له أب ولكن لا ينسب إليه كعيسى ابن مريم عليهما السلام ينسب إلى أمه وما وهبه لها إلا جبريل عليه السلام لما تمثل لها بشراً سوياً وأعلمها ومع هذا فما نسب إلا إلى البقعة الجسمية مع كونه يحيي الموتى من حيث ما هو من هبات الروح الأمين. وفيه علم الغيرة الإلهية وممن زاحمه في الاسم الخاص الذي به شرفه. وفيه علم متى يتعين إجابة السائل فيما سأل إذا سأل ومن سأل بالحال هل يتعين إجابته بالحال فيكون الجواب مطابقاً للسؤال. وفيه علم وضع من ارتفع بنفسه وانحطاط من تطاول فوق قدره. وفيه علم فائدة الموعظة ولو كفر بها فإن لها أثراً في الباطن عند السامع وإن لم يظهر ذلك فإنه يحس به من نفسه. وفيه علم من أراد كيداً فصادف حقاً فهو عنده كذب ثم أسفرت

العاقبة أنه صدق في نفس الأمر ولكن لا علم له بذلك. وفيه علم الأوقات وما تعامل به عقلاً وشرعاً عند السليم الفكر. وفيه علم تعيين مكارم الأخلاق. وفيه علم أن العلم بما لا يعلم أنه لا يعلم علم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والستون وثلاثمائة

في معرفة منزل أسرار اتصلت في حضرة الرحمة بمن خفي مقامه وحاله على الأكوان وهو من الحضرة المحمدية

[نظم: السريع]

مَرْتَبَةُ الخمسةِ معروفةٌ ... تحفَظُ ما جاوزها مِنْ عَدَدْ
تَحْفَظُ ذِكْرَ الله من رحمةٍ ... قامتْ بها ليس لها مُسْتَنَدْ
سوى الذي يحفظُ أعيانَنا ... وهْوَ الإلهُ المتعالي الصَّمَدْ
جميع ما في الكون من خَلْقِهِ ... له إذا يدعوه عبدي سَجَدْ
لولاه لم نُوجَدْ بأعيانِنا ... مع كونه سبحانه لم يَلِدْ
فَهْوَ مع الكثرة في حُكْمِهِ ... لم تَنْتَفِ عنه صفاتُ الأحَدْ
لولا وجودُ الكثرة في حُكْمِهِ ... لما بَدَا منه وُجُودُ العَدَدْ
فهو وحيدُ العين في مُلْكه ... وحُكْمُهُ في كَوْنِهِ مُسْتَنِدْ
لما حملناه على كَوْننا ... من نفسنا من فضله ما عُبِدْ
عَزَّ فما يدركُه غيرُه ... وجَلَّ أن يبقى بحُكْمِ المُدَدْ
سبحانه من مَلِكٍ قاهرٍ ... قد قَهَرَ الكلَّ وأهلَ العَدَدْ
ليس على غَيْرِهِ مِنَ أكْوانِهِ ... لكل من يعرفه مُعْتَمَدْ
مِنْ أزَلٍ صَحَّ له حكمُنا ... كذاك أيضاً حكمُه في الأبَدْ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الله لما سمى نفسه بالظاهر والباطن اقتضى ذلك أن يكون الأمر الوجودي بالنسبة إلينا بين جلي وخفي، فما جلاه لنا فهو الجلي وما ستره عنا فهو الخفي، وكل ذلك له تعالى جلي، قال رسول الله ﷺ في دعائه: «**اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ**» وهو الجلي عند من علمه الله إياه والخفي عمن لم يعلمه، ثم قال: «**أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ غَيْبِكَ**» فهذا خفي عما سوى الله فلا يعلمه إلا الله، فإنه تعالى يعلم السرّ وهو ما بينه وبين خلقه وأخفى وهو ما لا يعلمه إلا هو مثل مفاتح الغيب التي عنده لا يعلمها إلا هو فهو عالم الغيب وهو الخفي، والشهادة وهو الجلي، وما أوجده من الممكنات وهو الجلي أيضاً، وما لم يوجده منها وهو الخفي أيضاً ولا يخلو العالم من هاتين النسبتين دنيا ولا آخرة، فالمزيد الواقع من العالم في العالم فهو من الخفي والمزيد لا يزال فالعالم مزيد خارج من الخفاء إلى الجلا لا يزال، فالجلي من سؤال السائلين إنما يسمعه الحق من الاسم الظاهر، والخفي منه يسمعه من الاسم الباطن، فإذا أعطاه ما سأل

فالاسم الباطن يعطيه للظاهر والظاهر يعطيه للسائل، فالظاهر حاجب الباطن والجلي حاجب الخفي، كما أن الشعور حاجب العلم.

واعلم أن الله عز وجل يعامل عباده بما يعاملونه به فكأنه تعالى بحكم التبعية لهم وإن كان ابتداء الأمر منه ولكن هكذا علمنا وقرر لدينا فإنا لا ننسب إليه إلا ما نسبه إلى نفسه ولا يتمكن لنا إلا ذلك، فمن حكم تبعية الحق تعالى للمخلوق قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١] وقوله ﷺ في الصحيح: «**إنَّ الله لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**» وقوله تعالى: ﴿**فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة: ١٥٢] وقوله سبحانه: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيرٍ مِنْهُ**»: [السريع]

فَـلا يَـكُـونُ الـعَـبْـدُ فِـي حَـالَـةٍ　　إلاّ يَـكُـونُ الـحَـقُّ فِـي مِـثْـلِـهَـا
وكُـلُّـهَـا مِـنْـه ولـكـنّـه　　كـذا أتـانـا الـحُـكْـمُ فِـي شَـكْـلِـهَـا

فكل مخالف أمر الحق فإنه يستدعي بهذه المخالفة من الحق مخالفة غرضه، ولذلك لا يكون العفو والتجاوز والمغفرة من الحق جزاء لمخالفة العبد في بعض العبيد، وإنما يكون ذلك امتناناً من الله عليه، فإن كان جزاء فهو جزاء لمن عفا عن عبد مثله وتجاوز وغفر لمن أساء إليه في دنياه فقام له الحق في تلك الصفة من العفو والصفح والتجاوز والمغفرة مثلاً بمثل يداً بيد وها ورد في الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ: «**ما كَانَ الله لِيَنْهَاكُمْ عَنِ الرِّبَا وَيأْخُذَهُ مِنْكُمْ**» فما نهى الله عباده عن شيء إلا كان منه أبعد، ولا أمركم بكريم خلق إلا كان الحق به أحق.

واعلم أن هذا المنزل هو منزل الميراث المعنوي وهو منزل الشريعة وكون الحياة شرطاً في جميع وجود النسب المنسوبة إلى الله، وهذه النسبة أوجبت له سبحانه أن يكون له اسمه الحي، فجميع الأسماء الإلهية موقوفة عليه ومشروطة به حتى الاسم الله فالاسم الله هو المهيمن على جميع الأسماء التي من جملتها الحي، ونسبة الاسم الحي لها المهيمنة على جميع النسب الأسمائية حتى نسبة الألوهة التي بها تسمى الله، قال ﷺ: «**العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**» وما ورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر، وقال: «**نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لا نَرِثُ وَلاَ نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَة**» يعني الورث أي ما يورث من الميت من المال فلم يبق الميراث إلا في العلم والحال والعبارة عما وجدوه من الله في كشفهم وأهل النظر في نظرهم وهؤلاء هم العلماء الذين يخشون الله لعلمهم بأنه يعلم حركاتهم وسكناتهم على التعيين والتفصيل، فإنه الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين وفي جميع أحوالك، فأبان ﷺ أن الأنبياء لهم التقدم فإنهم لا يورثون حتى ينقلبوا إلى الله من هذه الدار، فكل ما يناله المتبع لنبي خاص في حياته فإنه إنعام من ذلك النبي لا ميراث، وكل ما ناله من نبي قد مات فذلك علم موروث، فكل وارث علم في زمان فإنما يرث من تقدمه من الأنبياء عليهم السلام لا من تأخر عنه، فوراثة عالم كل أمة كانت لنبي قبل رسول الله ﷺ فوراثة جزئية، وهذه الأمّة المحمدية لما كان نبيها محمد ﷺ آخر الأنبياء وكانت أمّته خير الأمم صح للوارث منهم أن يرثه ويرث جميع الأنبياء عليهم السلام ولا يكون هذا أبداً في عالم أمّة متقدمة قبل

هذه الأمة، فلهذا كانت أفضل أمّة أخرجت للناس لأنها زادت على الوارثين بأمر لم ينله إلا هذه الأمة فكل وارث نبيّ فعلمه من فيض نور من ورثه من الله ونظره سبحانه إلى أنبيائه أتم النظر فعلم الورثة أتم العلوم، وكل علم لا يكون عن ورث فإنه ليس بعلم اختصاص كعلم أصحاب الفترات فإن علمهم ليس بعلم وراثة وإن كانوا علماء ولكنهم لم يكونوا متبعين لنبيّ لأنه لم يبعث إليهم وليسوا بأنبياء فما كان لهم من الله نظرة الأنبياء، فنزلوا عن درجة الورثة في العلم وعلموا أن لله أنبياء. وأما الذين لا يقرُّون بالأنبياء ولا بالنبوَّة على ما هي عليه في نفسها ويرون أن مسمى الأنبياء إنما هو لمن صفى جوهرة نفسه من كدورات الشهوات الطبيعية والتزم مكارم الأخلاق العرفية وإنه إذا كان بهذه المثابة انتقش في نفسه ما في العالم العلويّ من الصور بالقوّة فنطق بعلم الغيوب وليست النبوّة عندنا ولا هي في نفسها كذلك ولا بد، وقد تكون في بعض الأشخاص على ما قالوه ولكن مع جواز ما ذكروه من نقش ما في العالم من الصور بالقوّة في نفس هذا الشخص مما وقع في الوجود ولا يقع في جزئيات الأمور، فإن الذي في حركات الأفلاك وسباحة الكواكب وفي السموات من العلوم التي تكون من آثارها لا علم لها بذلك من كوكب وسماء وفلك وملك فيعرف هذا الشخص منها ما لاتعرف من نفسها، وما ذكر عن أحد من نبيّ ولا حكيم أنه أحاط علماً بما يحوي عليه حاله في كل نفس نفس إلى حين موته بل يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً، مع علمنا أن الله عز وجل أوحى في كل سماء أمرها، وأن الله قد أودع اللوح المحفوظ علمه في خلقه بما يكون منهم إلى يوم القيامة. ولو سئل اللوح ما فيك أو ما خط القلم فيك من علم الله عز وجل ما علم، فإن الله أودع ذلك كله في نظره لمن هو دونه، ولا يعلم ما يكون عن ذلك النظر من الأثر إلا الله، فإن الأثر ما يظهر عن النظر بل عن استعداد القابل ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] فانظر في لمحة البصر الواحد ما تدرك من المنظورات، وهذا الأمر وإن كان واحدة فإنه بالوجود مختلف لاختلاف القوابل في الاستعداد فلا يعلم الأمور على التفصيل إلا الله وحده ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وكل صاحب مجاهدة وخلوة وتصفية نفس على غير شريعة ولا مؤمن بها على ما هي عليه في نفسها، فإن العلم الذي يكون عليه ويجده عند هذا الاستعداد ليس بعلم ميراث ولا للحق إليه نظر نبويّ، بل غايته أن يتلقى من الأرواح الملكية بقدر ما هو عليه من المناسبة، ومن الله على قدر ما أعطاه نظره الفكريّ لأنه لا كشف له البتة من الله لأن ذلك من خصائص الأنبياء عليهم السلام ومتبعيهم لا من قال بهم ولم يتبع واحداً منهم على التعيين من أصحاب التعريف ولا عمل عملاً في زمان الفترة لقول نبيّ، وإن وافق بعمله عمل نبيّ لكنه غير مقصود له الاتباع فإن الإلقاء إليه دون الإلقاء إلى الوارث العامل على ذلك لقول ذلك النبيّ وبين العلمين بون عظيم، وتمييز ذوقيّ مشهود جعلنا الله وإياكم من الوارثين.

وكل من أظهر اعتقاد النبوّة وصرف ما جاءت به من الأحكام الظاهرة إلى معان نفسية لم تكن من قصد النبيّ بما ظهر عنه ما اعتقدته العامة من ذلك فإنه لا يحصل على طائل من العلم، ومن اعتقد فيما جاء به هذا النبيّ أنه في الظاهر والعموم على ما هو عليه حق كله، وله

زيادة مصرف آخر مع ثبوت هذه المعاني، فجمع بين الحس والمعنى في نظره فذلك الوارث العالم الذي شاهد الحق على ما هو عليه وهذا لا يحصل إلا بالتعمل، وليس معنى التعمل أن يقول هذا الذي ليس له هذا الاعتقاد ثم يسمع به مني أو من غيري فيقول: أنا أعتقده وأربط نفسي به، فإن كان ما قاله حقاً فأنا له، وإن لم يكن فما يضرّني، فمثل هذا لا ينفعه ولا يفتح له فيه لأنه غير مصدّق به على القطع بل هو صاحب تجربة، وأين الإيمان من الشك والتجربة، فهذا أعمى البصيرة ناقص النظر، فإنه لو صح منه النظر الفكريّ في الأدلة لعثر على وجه الدلالة فانقدح له المطلوب وأسفر له عن الأمر على ما هو عليه، كما أسفر لغيره ممن وفى النظر حقه، فإنه إذا وفى الناظر نظره حقه لزمه الإيمان ملازمة الظل للشخص لأنهما مزدوجان، فإنه يطلع بعين الدليل على رتبة هذا المسمى بالنبيّ والشارع عند الله، فمن المحال أن يشهده ذوقاً ولا يتبعه حالاً هذا ما لا يتصوَّر، ولقد آمنا بالله وبرسوله وما جاء به مجملاً ومفصلاً مما وصل إلينا من تفصيله وما لم يصل إلينا أو لم يثبت عندنا، فنحن مؤمنون بكل ما جاء به في نفس الأمر أخذت ذلك عن أبويّ أخذ تقليد ولم يخطر لي ما حكم النظر العقلي فيه من جواز وإحالة ووجوب، فعملت على إيماني بذلك حتى علمت من أين آمنت وبماذا آمنت، وكشف الله عن بصري وبصيرتي وخيالي فرأيت بعين البصر ما لا يدرك إلا به، ورأيت بعين الخيال ما لا يدرك إلا به، ورأيت بعين البصيرة ما لا يدرك إلا بها فصار الأمر لي مشهوداً والحكم المتخيل المتوهم بالتقليد موجوداً فعلمت قدر من اتبعته وهو الرسول المبعوث إليّ محمد ﷺ وشاهدت جميع الأنبياء كلهم من آدم إلى محمد عليهم السلام، وأشهدني الله تعالى المؤمنين بهم كلهم حتى ما بقي منهم من أحد ممن كان ويكون إلى يوم القيامة خاصهم وعامهم، ورأيت مراتب الجماعة كلها فعلمت أقدارهم واطلعت على جميع ما آمنت به مجملاً مما هو في العالم العلويّ وشهدت ذلك كله، فما زحزحني علم ما رأيته وعاينته عن إيماني، فلم أزل أقول وأعمل ما أقوله وأعمله لقول النبي ﷺ لا لعلمي ولا لعيني ولا لشهودي فواخيت بين الإيمان والعيان وهذا عزيز الوجود في الأتباع، فإن مزلة الأقدام للأكابر إنما تكون هنا إذا وقعت المعاينة لما وقع به الإيمان، فتعمل على عين لا على إيمان فلم يجمع بينهما، ففاته من الكمال أن يعرف قدره ومنزلته، فهو وإن كان من أهل الكشف فما كشف الله له عن قدره ومنزلته فجهل نفسه فعمل على المشاهدة والكامل من عمل على الإيمان مع ذوق العيان وما انتقل ولا أثر فيه العيان وما رأيت لهذا المقام ذائقاً بالحال، وإن كنت أعلم أن له رجالاً في العالم لكن ما جمع الله بيني وبينهم في رؤية أعيانهم وأشخاصهم وأسمائهم فقد يمكن أن أكون رأيت منهم وما جمعت بين عينه واسمه، وكان سبب ذلك أني ما علقت نفسي قط إلى جانب الحق أن يطلعني على كون من الأكوان ولا حادثة من الحوادث، وإنما علقت نفسي مع الله أن يستعملني فيما يرضيه ولا يستعملني فيما يباعدني عنه، وأن يخصني بمقام يكون لمتبع أعلى منه، ولو أشركني فيه جميع من في العالم لم أتأثر لذلك فإني عبد محض لا أطلب التفوق على عباده، بل جعل الله في نفسي من الفرح أني

أتمنى أن يكون العالم كله على قدم واحدة في أعلى المراتب، فخصني الله بخاتمة أمر لم يخطر لي ببال، فشكرت الله تعالى بالعجز عن شكره مع توفيتي في الشكر حقه، وما ذكرت ما ذكرته من حالي للفخر لا والله وإنما ذكرته لأمرين: الأمر الواحد لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] وأية نعمة أعظم من هذه والأمر الآخر: ليسمع صاحب همة فتحدث فيه همة لاستعمال نفسه فيما استعملتها فينال مثل هذا فيكون معي وفي درجتي فإنه لاضيق ولا حرج إلا في المحسوس والألوهية خاصة، ولهذا لا يتعلق حكم الغيرة إلا بهذين المقامين، فأما المحسوس فلحصره فإنه إذا كان عندك لم يكن عين ما هو عندك عند غيرك، وأما في الألوهية فإن المدعي فيها كاذب ومن هي له صادق فمتعلق الغيرة كون من ليست فيه الألوهية ويدعيها كاذباً فالغيرة على المقام فإنها لا تكون إلا لواحد ليس لغيره فيها قدم والغيرة مشتقة من الغير، فهذا قد أبنت لك عن سواء السبيل.

واعلم أن أطيب ما يورث من العلم ما يرثه العالم من الأسماء الإلهية. فإن قلت: وكيف تورث الأسماء الإلهية ولا يكون الورث إلا بعد موت؟ قلنا: وكذلك أقول، فاعلم أني أريد بهذا النوع من العلم كون الحق سبحانه قادراً على أن يفعل ابتداء ما لا يفعله ولا وقع إلا منك كما بينا أنك آلة له تعالى، فلما كان منك ولا بد ما يمكن أن يكون له دونك ومن المحال أن يكون لما هو منك كونان، فإن الكائن لا يقبل كونين بل هو وجود واحد، فينزل هذا القدر من الكون الظاهر منك مما كان له منزلة المال الموروث ممن كان له إذ يستحيل أن يكون له مع موته، كما استحال أن يكون هذا الكائن عن غير من كان عنه، فتحقق هذه النكتة فإنها عجيبة في أصحاب الأذواق لا في أحكام العقل.

واعلم أنه لما لم يتمكن أن يتقدَّم الاسم الحيّ الإلهيّ اسم من الأسماء الإلهية كانت له رتبة السبق فهو المنعوت على الحقيقة بالأوّل، فكل حيّ في العالم وما في العالم إلا حيّ فهو فرع عن هذا الأصل، وكما لا يشبه الفرع الأصل بما يحمله من الثمر وما يظهر منه من تصريف الأهواء له على اختلافها عليه وما يقبل من حال التعرية واللباس إذا أورق وتجرّد عن ورقه، والأصل ليس كذلك بل هو الممدّ له بكل ما يظهر فيه وبه إذ ليس له بقاء في فرعيته وأحكامها إلا بالأصل، كذلك الاسم الحيّ مع سائر الأسماء الإلهية، فكل اسم هو له إذا حققت الأمر فيسري سرّه في جميع العالم فخرج على صورته فيما نسب إليه من التسبيح بحمده والتسبيح والتنزيه تعرية، وكذلك الأصل معرّى عن ملابس الفروع وزينتها من ورق وثمر وكل ذلك منه وهو منزه في ذاته عن أن تقوم به، فقد أعطى ما لا يقوم به ولا يكون صفة له، وهذا علم لا يمكن أن يحصل إلا لصاحب كشف، وإذا حصل له لا يمكن أن يقسم العالم إلى حي وإلى غير حي بل هو عنده كله حيّ، ولكن تنسب عندنا الحياة لكل حيّ بحسب حقيقة المنعوت بها المسمى عند أهل الكشف والشهود لا عند من لا يرى الحياة إلا في غير الجماد، والنامي في نظره ليس كلامنا إلا مع أهل الكشف الذين أشهدهم الله الأمر على ما هو عليه في نفسه فاعلم ذلك.

واعلم أنه لما كان الاسم الحيّ اسماً ذاتياً للحق سبحانه لم يتمكن أن يصدر عنه إلا حيّ فالعالم كله حيّ، إذ عدم الحياة أو وجود موجود من العالم غير حيّ لم يكن له مستند إلهي في وجوده البتة، ولا بد لكل حادث من مستند، فالجماد في نظرك هو حيّ في نفس الأمر، وأما الموت فهو مفارقة حي مدبر لحي مدبر، فالمدبر والمدبر حي، والمفارقة نسبة عدمية لا وجودية إنما هو عزل عن ولاية، ثم إنه ما من شرط الحي أن يحس فإن الإحساس والحواس أمر معقول زائد على كونه حياً وإنما من شرطه العلم وقد يحس وقد لا يحس، ولو أحس فليس من شرط الإحساس وجود الآلام واللذات، فإن العلم يغني عن ذلك مع كون العالم لا يحس بما جرت العادة أنه لا يدرك إلا بالحس، وأنت تعلم وجميع العقلاء أن الله عالم بكل شيء مع تنزيهه عن الإحساس والحواس، فلحصول العلم طرق كثيرة عند من يستفيد علماً، والحس طريق موصلة إلى العلم بالمحسوس، فقد يوصل إلى العلم به من غير طريق الحس فيكون معلوماً في الحالتين، لكنه لا يكون محسوساً لمن علمه من غير طريق الحس لكنه هو له مشهود ومعلوم، كما لا نشك أنا نرى ربنا بالأبصار عياناً على ما يليق بجلاله وهو مرئي لنا، ولا نقول فيه إنه محسوس لما يطلبه الحس من الحصر والتقييد فهذه رؤية غير مكيفة، وكلامنا في هذا مع من يقول بالرؤية بالبصر ولا نقول بالكيف ولا الحصر والتقييد بل نراه منزهاً كما علمناه منزهاً، وقد قدمنا في غير موضع من هذا الكتاب تصويب كل اعتقاد وصحة كل مقالة عقلية في الله، وأما المقالات الشرعية المنزلة من الله فيه فالإيمان بها واجب وما جاءت لتخالف العقل فإنها جاءت بموافقة العقل في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقد جاءت بما لا يقبله دليل العقل من حيث نظره فزاد علماً به لم يكن ليستقل به قبله بإيمانه إن كان عن خبر أو بذوقه إن كان عن شهود، وسلمنا له ما وصف به نفسه من كل ما لا يستقل به العقل من حيث انفراده بذلك في نظره لكوننا لا نحيط علماً بذاته لا بل لا نعلمها رأساً. ولما كانت الاعيان في الوجود لها اتصال بعضها ببعض ولها انفصال بعضها عن بعض جعل الله ذلك علامة لمن لا كشف له على أن للعالم بالله اتصالاً معنوياً من وجه وفصلاً من وجه، فهو من حقيقة ذاته وألوهته وفاعليته متصل منفصل من وجه واحد ذلك الوجه عينه لأنه لا يتكثر، وإن كثرت أحكامه وأسماؤه ومعقولات أسمائه فاتصاله خلقه إيانا بيديه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] خلقنا لهم ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١] وانفصاله انفصال ألوهة من عبودة ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ بانفصاله ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦] باتصاله، ولكن لا يكون التكوين من العالم إلا باتصاله لا بانفصاله، والعالم يكوّن ما كلفه الله به من العبادات، ولهذا أضاف أعمالها إلى العبد وأمره أن يطلب الإعانة من الله في ذلك، كما أنه آلة للحق في بعض الأفعال والآلات معينة للصانع فيما لا يصنع إلا بآلة، والعالم منفصل عن الحق بحده وحقيقته فهو منفصل متصل من عين واحدة فإنه لا يتكثر في عينه وإن تكثرت أحكامه فإنها نسب وإضافات عدمية معلومة فخرج على صورة حق، فما صدر عن الواحد إلا واحد وهو عين الممكن، وما صدرت الكثرة أعني أحكامه إلا من الكثرة وهي الأحكام

المنسوبة إلى الحق المعبر عنها بالأسماء والصفات، فمن نظر العالم من حيث عينه قال بأحديته، ومن نظره من حيث أحكامه ونسبه قال بالكثرة في عين واحدة، وكذلك نظره في الحق فهو الواحد الكثير، كما أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وأين التنزيه من التشبيه والآية واحدة وهي كلامه عن نفسه على جهة التعريف لنا بما هو عليه في ذاته ففصل بليس وأثبت بهو، وأما نداؤه تعالى للعالم ونداء العالم إياه فمن حيث الانفصال فهو ينادي: يا أيها الناس، ونحن ننادي: ياربنا، ففصل نفسه عنا كما فصلنا أيضاً أنفسنا عنه فتميزنا، وأين هذا المقام من مقام الاتصال إذا أحبنا وكان سمعنا وبصرنا وجميع قوانا وجعل ذلك حين أخبرنا اتصال محب بمحبوب فنسب الحب إليه ونحن المحبوبون، ولا خفاء بالفرق بين أحكام المحب ومنزلته وبين أحكام المحبوب ومنزلته فارتفعنا به ونزل سبحانه بنا، وذلك حتى لا يكون الوجود على السواء فإنه محال التسوية فيه فلا بد من نزول ورفعة فيه وما ثم إلا نحن وهو، فإذا كان حكم واحد النزول كان حكم الآخر الرفعة والعلوّ، وكل محب نازل وكل محبوب عال، وما منا إلا محب ومحبوب، فما منا إلا له مقام معلوم، وما منا إلا نازل على، فهذه أحكام مختلفة في عين واحدة: [المتقارب]

فيا أيُّها المؤمنون اتَّقُوا ويا رَبَّنا ما الذي نَتَّقي
فنادى فناديتُ مستفهماً فلم أدرِ من رَاحَ أو مَنْ بَقِي
وقسم حكمي على حكمه فإما سعيدٌ وإما شَقِي
فيرضى ويغضبُ في حكمه ويشقَى ويسعدُ إذا انْتُقي
فأين الأكاليلُ من رِجْله وأين النعالُ من المَفْرِقِ
فيظهر في ذا وذا مثله ليلقى العُبَيْدُ الذي قد لَقِي
إذا كان ما قلتُه كائناً فقد علم العبدُ ما يَتَّقي

واعلم أيدك الله أن في هذا المنزل من العلوم علم الحجب المتصلة بالمحجوب فإن القرب المفرط حجاب مثل البعد المفرط. وفيه علم مجالسة العبد ربه إذا ذكره وانقسام أهل الذكر فيه إلى من يعلم أنه جليس الحق في حين ذكره الحق وإلى من لا يعلم ذلك وسبب جهله بمجالسته ربه كونه لا يعلم ربه فلا يميزه أو كونه لا يعلم أن ربه ذكره لصمم قام به وغشاوة على بصره، فإن الذاكر الصحيح يعلم متى يذكره ربه وإن لم يعلم شهوداً مجالسة ربه وغيره يعلم ذلك ويشهد جليسه فكما هو الحق جليس من ذكره كذلك العبد جليس الحق إذا ذكره ربه، ولا يجالسه إلا عبد في الحالتين ولو جالسه به فعبوديته لم تزل فإن عينه لم تزل لأن غاية القرب أن يكون الحق سمعه وبصره فقد أثبت عينه وليس عينه سوى عبودته وفيه علم ما الفرق بين مجالسة الحق تعالى في الخلوة والجلوة هل الصورة في ذلك واحدة أم تتنوّع بتنوع المجالس؟ وفيه علم ما يتحدث به جليس الحق مع الحق وفي أي صورة يكون ذلك فإن المشاهدة للبهت فهل كل مشاهدة للبهت أو لا يكون البهت إلا في بعض المشاهدات؟ ولا بد من العلم بأن المتجلي هو الله تعالى. وفيه علم كل من دعا الله كائناً من كان أنه لا يشقى ولا أحاشي أحداً وإن شقي الداعي

لعارض فالمآل إلى السعادة الأبدية. وفيه علم من خاف غير الله بالله ما حكمه عند الله وهو مقام عزيز لكونه خاف بالله ومن هذه حالته لا يرى غير الله فكيف يخاف غير الله؟ يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. وفيه علم من طلب الأمان من الله بالغير هل هو مصيب صاحب علم أو مخطىء صاحب جهل؟ وهل يخاف الله لعينه أو يخاف لما يكون منه؟ فمتعلق الخوف إن كان لما يكون منه فمتعلقه ما يكون منه وهو ما يقوم بك. وفيه علم أثر العادات في الأكابر أهل الشهود لماذا يرجع مع علمهم بأنه على كل شيء قدير فما مشهودهم؟ هل مشهودهم ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] وهم جاهلون بما في إرادة الحق بهم فتؤثر العادات فيهم بوساطة حالهم في هذا المقام الذي تعطيه الإرادة الإلهية. وفيه علم هل الأمور كلها بالنسبة إلى الله على السواء أو ليست على السواء؟ فإن لم تكن على السواء فما السبب الذي أخرجها أن تكون على السواء؟ قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧] فهو قوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] ابتداء وإعادتهم أهون من ابتدائهم وابتداؤهم أهون من خلق السموات والأرض، فخلق السموات والأرض أكبر قدراً من خلق الناس فإن الناس لهما عليهم حق ولادة فالناس منفعلون عنهما فإن الجرمية غير معتبرة هنا فإنه قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] وما من أحد إلا وهو يعلم حساً أن خلق السموات والأرض أكبر في الجرم من خلق الناس وما ثم إلا انفعال الجسم الطبيعي عنهما لا غير. وفيه علم ابتداء كل عين في كونها فليس لها مثال سبق. وفيه علم الفرد الأوّل الذي هو أوّل الأفراد. وفيه علم مايسمى كلاماً فإن ذلك مسألة خلاف طال فيها الكلام بين أهل النظر وقول الله لزكريا عليه السلام أن جعل الله له آية على وجود يحيى عليه السلام ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] فاستثنى وما استثنى إلا الكلام والأثر موجود من الإشارة والرمز كما هو موجود من نظم الحروف في النطق. وفيه علم النيابة عن الله ونيابة الحق عن العبد ومن أتم فإنه أمر أن يتخذ وكيلاً وجعل بعضنا خلفاء في الأرض وأخبر أنا ننطق بكلامه وهو القائل منا إذا قلنا بعض أقوالنا. وفيه علم المناسبة التي تشمل العالم كله وأنه جنس واحد فتصح المفاضلة فيما تحته من الأنواع والأشخاص، فإن الإمام أبا القاسم بن قسي صاحب خلع النعلين منع من ذلك فاعتبر خلاف ما اعتبرناه فهو مصيب فيما اعتبره مخطىء باعتبارنا إذ ما ثم إلا حق وأحق وكامل وأكمل، فالمفاضلة سارية في أنواع الجنس للمفاضلة التي في الأسماء بالإحاطة، وما يزيد به هذا الاسم على غيره كالعالم والقادر وكالقادر والقاهر. وفيه علم التأثيرات في العالم. وفيه علم ما حكم من رأى لنفسه قدراً وهل إذا أتى بما يدل عليه وهو كامل هل إتيانه بذلك شفقة على الغير أو تعظيماً لنفسه؟ وهل يؤثر مثل ذلك في الرضا أم لا يؤثر فيه؟ ومن أعلى من يحتج عن نفسه ويذب عنها أو من لا يحتج عنها بل يكون مع الناس عليها ومتى يصلح أن يكون للإنسان هذا الحكم ومتى يصلح أن لا يكون له هذا الحكم؟ وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] ولم يقل تعالى: فارض بحكم ربك. وفيه علم سعي الإنسان في عدالته عند الحكام

لقبول شهادته فهو من باب السعي في حق الغير لا في حق نفسه لأمور تطرأ إن لم يكن عدلاً لا يقبل الحاكم شهادته فربما ظهر الباطل على الحق فوجب السعي في العدالة لهذا كما قال: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» وما قصد الفخر وإنما قصد الإعلام وإراحة أمته من التعب حتى لا تمشي في ذلك اليوم كما تمشي الأمم إلى نبيّ بعد نبيّ للشفاعة فتقتصر على محمد ﷺ بما أعلمها من ذلك وأن الرجوع إليه في آخر الأمر: [المتقارب]

رَأَى الأمْـرَ يُـفْـضِـي إلـى آخَـرٍ ... فَـصَـيَّـرَ آخِـرَهُ أوَّلاَ

فتميزت الأمة المحمدية عن سائر الأمم في ذلك الموطن بهذا القدر إلى غير هذا.

وفيه علم موطن بيان الأمور لجميع الخلق وارتفاع التلبيس ورجوع الناس وغيرهم إلى الحق وهل ذلك نافعهم أم لا؟ وفيه علم ما لا يصح إلا لله الاتصاف به. وفيه علم ما يجب لله وما يستحيل. وفيه علم حكم من يبتغي نصرة من خذله الله عند الله تعالى. وفيه علم من يزيد شرفاً بتشريف من ينسب إليه. وفيه علم الفرق بين المهدي والهادي. وفيه علم النبوّة العامة والنبوة الخاصة وما يبقى منها وما يزول. وفيه علم هل يكون للولي الذي ليس بنبيّ مقام في الولاية لا يكون ذوقاً لنبي أم لا. وفيه علم ما هي النعم الظاهرة والباطنة ومن يتنعم بكل نعمة منهما من الإنسان. وفيه علم علامات المقربين عند الله وبماذا يعرفون. وفيه علم هل يلحق اللاحق بالسابق وأي المنزلتين أفضل؟ وفيه علم من يرى أن أحوال الآخرة على ميزان أحوال الدنيا سواء في جميع الأمور. وفيه علم ما ينبغي أن يكون عليه صاحب جنة الأعمال، وما يكون عليه صاحب جنة الورث، وما يكون عليه صاحب جنة الاختصاص. وفيه علم سبب اختصاص عالم الأمر بالأمر وعالم الإنسان بالنهي والأمر. وفيه علم ما نفى الله من أسمائه أن يشرك فيه فلم يشرك. وفيه علم ما لا يدرك إلا بالحوالة. وفيه علم الجزاء ومحله أيضاً. وفيه علم صفة الطريق إلى الجنة ومن يسلك. وفيه علم من أرخى الله له في طِوَلِهِ في الدنيا هل يرخي له في الآخرة كذلك جزاء. وفيه علم اختلاف أحوال الخلق في الاستدعاء إلى الله تعالى يوم القيامة للفصل والقضاء. وفيه علم ما هو أعظم الأهوال عند الله ولم يأت به إلا الإنسان خاصة وما أجراه على ذلك وقد خلقه الله ضعيفاً فقيراً إلى كل شيء، وفيه انقلاب الولي عدوّاً لمن كان له ولياً، وانقلاب العدو ولياً لمن كان له عدواً. وفيه علم العلم الضروري والنظري والبديهي، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والستون وثلاثمائة

في معرفة منزل وزراء المهدي الظاهر في آخر الزمان الذي بشّر به رسول الله ﷺ وهو من أهل البيت

[نظم: الكامل]

إنّ الإمـامَ إلـى الـوَزيـر فَـقِـيـرُ ... وعـلـيـهـمـا فَـلَـكُ الـوجـود يَـدُورُ

والـمُـلْـكُ إن لـم تَـسْـتَـقِـمْ أحـوالُـهُ ... بـوجـود هـذيـن فـسـوف يَـبُـورُ

إلا الإلـه الـحـقّ فـهـو مُـنَـزَّهٌ ما عـنـده فـيـمـا يـريـد وَزِيـرُ
جَـلَّ الإلَـهُ الـحَـقُّ فـي مَـلَـكُـوتِـهِ عـن أن يـراه الـخَـلْـقُ وهـو فَـقِـيـرُ

اعلم أيدنا الله أن لله خليفة يخرج وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً فيملؤها قسطاً وعدلاً، لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد طول الله ذلك اليوم حتى يلي هذا الخليفة من عترة رسول الله ﷺ من ولد فاطمة يواطيء اسمه اسم رسول الله ﷺ جده الحسين بن علي بن أبي طالب يبايع بين الركن والمقام، يشبه رسول الله ﷺ في خلقه بفتح الخاء وينزل عنه في الخلق بضم الخاء لأنه لا يكون أحد مثل رسول الله ﷺ في أخلاقه والله يقول فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] هو أجلى الجبهة، أقنى الأنف، أسعد الناس به أهل الكوفة، يقسم المال بالسوية، ويعدل في الرعية، ويفصل في القضية، يأتيه الرجل فيقول له: يا مهدي أعطني وبين يديه المال فيحثي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله، يخرج على فترة من الدين يزع الله به ما لا يزع بالقرآن يمسي جاهلاً بخيلاً جباناً، ويصبح أعلم الناس أكرم الناس أشجع الناس يصلحه الله في ليلة يمشي النصر بين يديه يعيش خمساً أو سبعاً أو تسعاً، يقفو أثر رسول الله ﷺ لا يخطىء له ملك يسدده من حيث لا يراه يحمل الكل ويقوّي الضعيف في الحق ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، يفعل ما يقول ويقول ما يعلم ويعلم ما يشهد، يفتح المدينة الرومية بالتكبير في سبعين ألفاً من المسلمين من ولد إسحاق، يشهد الملحمة العظمى مأدبة الله بمرج عكا، يبيد الظلم وأهله، يقيم الدين، ينفخ الروح في الإسلام يعز الإسلام به بعد ذله، ويحيا بعد موته، يضع الجزية ويدعو إلى الله بالسيف، فمن أبى قتل ومن نازعه خذل، يظهر من الدين ما هو الدين عليه في نفسه ما لو كان رسول الله ﷺ لحكم به، يرفع المذاهب من الأرض فلا يبقى إلا الدين الخالص أعداؤه مقلدة العلماء أهل الاجتهاد لما يرونه من الحكم، بخلاف ما ذهبت إليه أئمتهم فيدخلون كرهاً تحت حكمه خوفاً من سيفه وسطوته ورغبة فيما لديه، يفرح به عامة المسلمين أكثر من خواصهم، يبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق عن شهود وكشف بتعريف إلهيّ، له رجال إلهيون يقيمون دعوته وينصرونه هم الوزراء يحملون أثقال المملكة ويعينونه على ما قلده الله، ينزل عليه عيسى ابن مريم بالمنارة البيضاء بشرقي دمشق بين مهرودتين متكئاً على ملكين ملك عن يمينه وملك عن يساره. يقطر رأسه ماء مثل الجمان يتحدر كأنما خرج من ديماس والناس في صلاة العصر فيتنحى له الإمام من مقامه فيتقدم فيصلي بالناس، يؤم الناس بسنة محمد ﷺ؛ يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويقبض الله المهدي إليه طاهراً مطهراً. وفي زمانه يقتل السفياني عند شجرة بغوطة دمشق، ويخسف بجيشه في البيداء بين المدينة ومكة حتى لا يبقى من الجيش إلا رجل واحد من جهينة يستبيح هذا الجيش مدينة الرسول ﷺ ثلاثة أيام ثم يرحل يطلب مكة فيخسف الله به البيداء، فمن كان مجبوراً من ذلك الجيش مكرهاً يحشر على نيته القرآن حاكم والسيف مبيد، ولذلك ورد في الخبر: «**إِنَّ الله يَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لاَ يَزَعُ بِالقُرْآنِ**»: [الطويل]

ألا إنّ خَـتْـمَ الأولـيـاء شَـهِـيـدُ وعَـيْـن إمـام الـعـالـمـيـن فَـقِـيـدُ

هو السيدُ المهديُّ من آل أحمَدٍ هو الصارمُ الهنديُّ حين يُبيدُ
هو الشمسُ يجلو كل غَمٍّ وظُلمَةٍ هو الوابل الوَسْمِيُّ حين يَجُودُ

وقد جاءكم زمانه، وأظلكم أوانه، وظهر في القرن الرابع اللاحق بالقرون الثلاثة الماضية قرن رسول الله ﷺ وهو قرن الصحابة، ثم الذي يليه، ثم الذي يلي الثاني، ثم جاء بينهما فترات وحدثت أمور وانتشرت أهواء وسفكت دماء، وعاثت الذئاب في البلاد وكثر الفساد، إلى أن طم الجور وطما سيله، وأدبر نهار العدل بالظلم حين أقبل ليله، فشهداؤه خير الشهداء، وأمناؤه أفضل الأمناء، وإن الله يستوزر له طائفة خبأهم له في مكنون غيبه أطلعهم كشفاً وشهوداً على الحقائق، وما هو أمر الله عليه في عباده فبمشاورتهم يفصل ما يفصل وهم العارفون الذين عرفوا ما ثم، وأما هو في نفسه فصاحب سيف حق وسياسة مدنية يعرف من الله قدر ما تحتاج إليه مرتبته ومنزله لأنه خليفة مسدد يفهم منطق الحيوان يسري عدله في الإنس والجان من أسرار علم وزرائه الذين استوزرهم الله له قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وهم على أقدام رجال من الصحابة ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] وهم من الأعاجم ما فيهم عربي لكن لا يتكلمون إلا بالعربية لهم حافظ ليس من جنسهم ما عصى الله قط هو أخص الوزراء وأفضل الأمناء، فأعطاهم الله في هذه الآية التي اتخذوها هجيراً وفي ليلهم سميراً، فضل علم الصدق حالاً وذوقاً، فعلموا أن الصدق سيف الله في الأرض ما قام بأحد ولا اتصف به إلا نصره الله لأن الصدق نعته والصادق اسمه، فنظروا بأعين سليمة من الرمد، وسلكوا بأقدام ثابتة في سبيل الرشد، فلم يروا الحق قيد مؤمناً من مؤمن بل أوجب على نفسه نصر المؤمنين، ولم يقل بمن بل أرسلها مطلقة وجلاها محققة فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟﴾ [النساء: ١٣٦] وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء: ٩٢] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ [العنكبوت: ٥٢] فسماهم مؤمنين، وقال: ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ [غافر: ١٢] فسمى المشرك مؤمناً فهؤلاء هم المؤمنون الذين أيده الله بهم في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦] فميزهم عن المؤمنين من أهل الكتاب والكتب وما ثم مخبر جاء بخبر إلا الرسل، فتعين أن المؤمنين الذي أمروا بالإيمان أنهم الذين آمنوا بالباطل وآمنوا بالشريك عن شبه صرفتهم عن الدليل لأن الذين آمنوا بالباطل كفروا بالله والذين آمنوا بالشريك اشمأزت قلوبهم إذا ذكر الله وحده، فما أتاهم بهذا الخبر إلا أئمتهم المضلون الذين سبقوهم، وكان ذلك في زعمهم عن برهان أعني الأئمة لا عن قصور بل وفوا النظر حقه فما أعطاهم استعدادهم الذي آتاهم الله ما كلف الله نفساً إلا ما آتاها وما آتاها غير ما جاءت به فآمن بذلك أتباعهم وصدقوا في إيمانهم وما قصدوا إلا طريق النجاة ما قصدوا ما يرديهم. ولما رأوا أن الله يفعل ابتداء ويفعل بالآلة جعلوا الشريك كالوزير معيناً على ظهور بعض الأفعال الحاصلة في الوجود، فلما ذكر الله وحده رأوا أن هذا الذاكر لم يوف الأمر حقه لما علموا من توقف بعض الأفعال على وجود بعض الخلق، وما كان مشهودهم إلا الأفعال الإلهية الحاصلة في

الوجود عن الأسباب المخلوقة، فلم يقبلوا توحيد الأفعال لأنهم ما شاهدوه ولو قبلوه أبطلوا حكمة الله فيما وضع من الأسباب علواً وسفلاً، فهذا الذي أداهم إلى الاشمئزاز وعدم الإنصاف، فذمهم الله إيثاراً لجناب المؤمنين الذي لم يروا فاعلاً إلا الله، وأن القدرة الحادثة والأمور الموقوفة على الأسباب لا أثر لها في الفعل، فهذه الطائفة وحدها هي التي خص الله بهذا الخطاب. وأما الذين كفروا بالله فهم الذين ستروه بحجاب الشرك وآمنوا بالباطل والباطل عدم، وما رأوا من ينتفي عنه التشبيه والشرك إلا العدم، فإن الوجود صفة مشتركة، فإيمانهم بالباطل إيمان تنزيه، وكفرهم أي سترهم نسبة الوجود إلى الله لما وقع في ذلك من الاشتراك ولذلك قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧] لأنهم خسروا في تجارتهم وجود ربح وإظهار تمام الأمر على ما هو عليه ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦] أي الحيرة بالبيان، فأخذوا الحيرة وعلموا أن الأمر عظيم وأن البيان تقيد وهو لا يتقيد فآثروا الحيرة على البيان، وأما أصحاب العقل السليم والنظر الصحيح والإيمان العام فهم الذين أثبتوا الحيرة في مقامها وموطنها فقال ﷺ: «**زِدْنِي فِيكَ تَحَيُّراً**» وأثبتوا البيان في مقامه الذي لا يتمكن معرفة ذلك الأمر إلا بالبيان ولا يقبل الحيرة، فأعطوا كل ذي حق حقه ووضعوا الحكمة في موضعها فالكل مؤمنون فإن الله سماهم مؤمنين كما سماهم كافرين ومشركين وجعلهم على مراتب في إيمانهم ولهذا قال: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ [الفتح: ٤] فيما آمنوا به، كما زادهم مرضاً ورجساً إلى رجسهم فيما كفروا به فمنهم الصادق والأصدق، فينصر الله المؤمن الذي لم يدخله خلل في إيمانه على من دخله خلل في إيمانه فإن الله يخذله على قدر ما دخله من الخلل أي مؤمن كان من المؤمنين فالمؤمن الكامل الإيمان منصور أبداً، ولهذا ما انهزم نبي قط ولا وليّ، ألا ترى يوم حنين لما ادعت الصحابة رضي الله عنهم توحيد الله ثم رأوا كثرتهم فأعجبتهم كثرتهم فنسوا الله عنده ذلك فلم تغن عنهم كثرتهم شيئاً، كما لم تغن أولئك آلهتهم من الله شيئاً مع كون الصحابة مؤمنين بلا شك، ولكن دخلهم الخلل باعتمادهم على الكثرة ونسوا قول الله ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢٤٩] فما أذن الله هنا إلا للغلبة فأوجدها فغلبتهم الفئة القليلة بها عن إذن الله: [الطويل]

فما ثَمَّ إلا الله ليس سِوَاهُ وكُلُّ بصيرٍ بالوجود يَرَاهُ

وأما تأثير الصدق فمشهود في أشخاص ما لهم تلك المكانة من أسباب السعادة التي جاءت بها الشرائع ولكن لهم القدم الراسخ في الصدق فيقتلون بالهمة وهي الصدق، قيل لأبي يزيد: أرنا اسم الله الأعظم، فقال لهم: أرونا الأصغر حتى أريكم الأعظم أسماء الله كلها عظيمة، فما هو إلا الصدق اصدق وخذ أي اسم شئت فإنك تفعل به ما شئت، وبه أحيا أبو يزيد النملة، وأحيا ذو النون ابن المرأة الذي ابتلعه التمساح، فإن فهمت فقد فتحت لك باباً من أبواب سعادتك إن عملت عليه أسعدك الله حيث كنت ولن تخطىء أبداً، ومن هنا تكون في راحة مع الله إذا كانت الغلبة للكافرين على المسلمين، فتعلم أن إيمانهم تزلزل ودخله الخلل وأن الكافرين فيما آمنوا به من الباطل والمشركين لم يتخلخل إيمانهم ولا تزلزلوا فيه،

فالنصر أخو الصدق حيث كان يتبعه، ولو كان خلاف هذا ما انهزم المسلمون قط كما أنه لم ينهزم نبي قط، وأنت تشاهد غلبة الكفار ونصرتهم في وقت وغلبة المسلمين ونصرتهم في وقت، والصادق من الفريقين لا ينهزم جملة واحدة بل لا يزال ثابتاً حتى يقتل أو ينصرف من غير هزيمة، وعلى هذه القدم وزراء المهدي، وهذا هو الذي يقررونه في نفوس أصحاب المهدي، ألا تراهم بالتكبير يفتحون مدينة الروم فيكبرون التكبيرة الأولى فيسقط ثلث سورها، ويكبرون الثانية فيسقط الثلث الثاني من السور، ويكبرون الثالثة فيسقط الثلث الثالث فيفتحونها من غير سيف، فهذا عين الصدق الذي ذكرنا وهم جماعة أعني وزراء المهدي دون العشرة. وإذا علم الإمام المهدي هذا عمل به فيكون أصدق أهل زمانه فوزراؤه الهداة وهو المهدي، فهذا القدر يحصل للمهدي من العلم بالله على أيدي وزرائه، وأما ختم الولاية المحمدية فهو أعلم الخلق بالله لا يكون في زمانه ولا بعد زمانه أعلم بالله وبمواقع الحكم منه فهو والقرآن أخوان، كما أن المهدي والسيف أخوان، وإنما شك رسول الله ﷺ في مدة إقامته خليفة من خمس إلى تسع للشك الذي وقع في وزرائه لأنه لكل وزير معه سنة، فإن كانوا خمسة عاش خمسة، وإن كانوا سبعة عاش سبعة، وإن كانوا تسعة عاش تسعة، فإنه لكل عام أحوال مخصوصة، وعلم ما يصلح في ذلك العام خص به وزير من وزرائه فما هم أقل من خمسة ولا أكثر من تسعة ويقتلون كلهم إلا واحداً منهم في مرج عكاء في المائدة الإلهية التي جعلها الله مائدة لسباع الطير والهوام، وذلك الواحد الذي يبقى لا أدري هل يكون ممن استثنى الله في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] أو يموت في تلك النفخة. وأما الخضر الذي يقتله الدجال في زعمه لا في نفس الأمر وهو فتى ممتلىء شباباً هكذا يظهر له في عينه، وقد قيل إن الشابّ الذي يقتله الدجال في زعمه أنه واحد من أصحاب الكهف وليس ذلك بصحيح عندنا من طريق الكشف، وظهور المهدي من أشراط قرب الساعة، ويكون فتح مدينة الروم وهي القسطنطينية العظمى والملحمة الكبرىٰ التي هي المأدبة بمرج عكا وخروج الدجال في ستة أشهر، ويكون بين فتح القسطنطينية وخروج الدجال ثمانية عشر يوماً، ويكون خروجه من خراسان من أرض المشرق موضع الفتن تتبعه الأتراك واليهود يخرج إليه من أصبهان وحدها سبعون ألف مطيلسين في أتباعه كلهم من اليهود، وهو رجل كهل أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية مكتوب بين عينيه كاف فاء راء فلا أدري هل المراد بهذا الهجاء كفر من الأفعال أو أراد به كفر من الأسماء إلا أنه حذف الألف كما حذفتها العرب في خط المصحف في مواضع مثل ألف الرحمن بين الميم والنون، وكان ﷺ يستعيذ وأمرنا بالاستعاذة من فتنة المسيح الدجال ومن الفتن، فإن الفتن تعرض على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء نعوذ بالله من الفتن.

حدثنا المكي أبو شجاع بن رستم الأصبهاني إمام مقام إبراهيم بالحرم المكي في آخرين كلهم قالوا: حدثنا أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم بن أبي سهل الكروخي قال: أخبرنا مشايخي الثلاثة: القاضي أبو عامر محمود بن القاسم الأزدي وأبو نصر عبد العزيز بن محمد

الترياقي وأبو بكر محمد بن أبي حاتم الغورجي التاجر قال: أخبرنا محمد بن عبد الجبار الجراحي قال: أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي قال: أنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي قال: حدثنا علي بن حجر: أنا الوليد بن مسلم وعبد الله بن عبد الرحمن بن يزيد بن يحيى بن خالد الطائي عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر دخل حديث أحدهما في حديث الآخر عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن يحيى بن خالد الطائي عن عبد الرحمن بن جبير عن أبيه جبير بن نفير عن النواس بن سمعان الكلابي قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل قال: فانصرفنا من عند رسول الله ﷺ ثم رحنا إليه فعرف ذلك فينا فقال: «**ما شأنُكم؟**» فقلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال الغداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل فقال: «**غير الدّجّال أخوف لي عليكم إن يخرجْ وأنا فيكم فأنا حَجِيجُه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فكل امرىء حجيجُ نفسه والله خليفتي على كل مسلم إنه شاب قَطَطٌ عينه طافية شبيه بعبد العزى بن قطن فمن رآه منكم فليقرأ فواتح سورة أصحاب الكهف**» قال: «**يخرجُ ما بين الشام والعراق فعاث يميناً وشمالاً يا عباد الله اثبتوا اثبتوا**»، قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: «**أربعون يوماً يومٌ كَسَنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم**»، قلنا: يا رسول الله أرأيت اليوم الذي كالسنة أيكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «**لا ولكن اقْدُروا له**»، قلنا: يا رسول الله فما سرعته في الأرض؟ قال: «**كالغيث إذا اسْتَدبَرَتْهُ الريحُ فيأتي القوم فيدعوهم فيكذبونه ويردون عليه قوله فينصرف عنهم فتتبعه أموالهم فيصبحون ليس بأيديهم شيء ثم يأتي القوم فيدعوهم فيستجيبون له ويصدقونه فيأمر السماء أن تمطر فتمطر ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت فتروح عليهم سارحتهم كأطول ما كانت دراً وأمده خواصر وأدره ضروعاً**»، قال: «**ثم يأتي الخربة فيقول لها أخرجي كنوزك وينصرف عنها فتتبعه كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً شاباً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين ثم يدعوه فيقبل يتهلل وجهه يضحك فبينما هو كذلك إذ هبط عيسى ابن مريم بشرقي دمشق عند المنارة البيضاء بين مهرودتين واضعاً يديه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه انحدر منه جمان كاللؤلؤ**» قال: «**ولا يجد ريح نفسه يعني أحد إلا مات وريح نفسه منتهى بصره**» قال: «**فيطلبه حتى يدركه بباب لدّ فيقتله**» قال: «**ويلبث كذلك ما شاء الله**» قال: «**ثم يوحي الله إليه أن أحرز عبادي إلى الطور فإني قد أنزلت عباداً لي لا يد لأحد بقتالهم**» قال: «**ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم كما قال الله تعالى من كل حدب ينسلون**» قال: «**فيمرّ أولهم ببحيرة طبرية فيشربون ما فيها ثم يمرّ بها آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء ثم يسيرون إلى أن ينتهوا إلى جبل بيت المقدس فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض فهلم فلنقتل من في السماء فيرمون بنشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم محمراً دماً ويحاصر عيسى ابن مريم وأصحابه حتى يكون رأس الثور يومئذ خيراً لهم من مائة دينار لأحدكم اليوم**» قال: «**فيرغب عيسى ابن مريم إلى الله وأصحابه**» قال: «**فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى موتى كموت نفس واحدة قال: ويهبط عيسى ابن**

مريم وأصحابه فلا يجد موضع شبر إلا وقد ملأته زهمتهم ونتنهم ودماؤهم قال: فيرغب عيسى إلى الله وأصحابه قال: فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم بالمهبل ويستوقد المسلمون من قسيهم ونشابهم وجعابهم سبع سنين ويرسل الله عليهم مطراً لا يكن منه بيت ولا وبر ولا مدر» قال: «**فيغسل الأرض ويتركها كالزلفة**» قال: «**ثم يقال للأرض أخرجي ثمرتك وردي بركتك فيومئذ تأكل العصابة الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك الله في الرسل حتى أن الفئام من الناس ليكتفون باللقحة من الإبل، وأن القبيلة ليكتفون باللقحة من البقر، وأن الفخذ ليكتفون باللقحة من الغنم، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً فقبضت روح كل مؤمن ويبقى سائر الناس يتهارجون كما يتهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة**» قال أبو عيسى: هذا حديث غريب حسن صحيح.

ثم نرجع إلى ما بنينا عليه الباب من العلم بوزراء المهدي ومراتبهم: فاعلم أني على الشك من مدة إقامة هذا المهدي إماماً في هذه الدنيا فإني ما طلبت من الله تحقيق ذلك ولا تعيينه ولا تعيين حادث من حوادث الأكوان إلا أن يعلمني الله به ابتداء لا عن طلب، فإني أخاف أن يفوتني من معرفتي به تعالى حظ في الزمان الذي أطلب فيه منه تعالى معرفة كون وحادث، بل سلمت أمري إلى الله في ملكه يفعل فيه ما يشاء، فإني رأيت جماعة من أهل الله تعالى يطلبون الوقوف على علم الحوادث الكونية منه تعالى ولا سيما معرفة إمام الوقت، فأنفت من ذلك وخفت أن يسرقني الطبع بمعاشرتهم وهم على هذه الحال وما أردت منه تعالى إلا أن يرزقني الثبوت على قدم واحدة من المعرفة به وإن تقلبت في الأحوال فلا أبالي، ولما رأيته قد قدمني وأخرني ورأيت اختلاف عيني لاختلاف الحال فلم أر عيناً واحدة تثبت فما استقر لي أمر أثبت عليه كما كنت عليه في حال عدمي ورأيت أن حكم الوجود ومقام الشهود حكم على عيني بذلك طلبت الإقالة من وجودي فخاطبته نظماً وحكماً: [الوافر]

لكَ العُتْبَى أقِلْنِي من وُجودي ... ومن حُكم التَّحَقُّق بالشُّهودِ
لقد أصبحت قِبْلَةَ كل شيء ... وقد أمسيت أطلب بالسجودِ
عجبتُ لحالتي إذ قال كُوني ... أنا عينُ المسوّد والمَسُودِ
فإمّا أن تُمَيِّزَني إماماً ... وإما أن أُمَيَّزَ في العَبيدِ
لقد لَعِبَتْ بنا أيدي الخفايا ... خفايا الغيب في عَيْنِ الوُجودِ

فلما سألت ذلك أبان لي عن جهلي وقال لي: أما ترضى أن تكون مثلي؟ ثم أقام لي اختلاف تجليه في الصور وما يدركه من ذاته البصر فقلت ما عليّ من اختلاف الأحوال على عين ثابتة لا تقبل التقييد فإني ما أنكرت اختلاف الأحوال فإن الحقائق تعطي ذلك، وإنما أقلقني اختلاف العين من وجودي لاختلاف الأحوال، فإني أعلم مع كونك كل يوم في شأن أنك العين الثابتة في الغنى عن العالمين فإني علمت: [مجزوء الكامل]

أنّ التَّحَوّلَ في الصُّوَرْ ... نَعْتُ المهيمن بالخَبَرْ
وبذاك أنْزَلَ وَحْيَهُ ... فيما تلاه من السُّوَرْ

ولــــقـــــد رأيــــتُ مـــثـــالَــــهُ   بــمُــطَــوَّلٍ وبــمُــخْــتَــصَــرْ

أردت بالمطول العالم كله، وبالمختصر الإنسان الكامل لما رأيت أن التقلب في كل ذلك لازم، ففي العالم تقلب الليل والنهار، وفي الإنسان الكامل الذي ساد العالم في الكمال وهو محمد ﷺ سيد الناس يوم القيامة وهو الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين، ولما جرى بنا القلم في حلبة العبارة الرقمية لأن التعريف قد يقع لفظاً وكتابة، وقد يقع في العموم عند الخواص بالنظر وقد وجدته، وقد يقع بالضرب وقد وجده رسول الله ﷺ بأمور كثيرة غير ما ذكرنا، وكل ذلك خطاب وتعريف فطريق علمنا الأخبار ولما كنت على هذه القدم التي جالست الحق عليها أن لا أضيع زماني في غير علمي به تعالى قيض الله واحداً من أهل الله تعالى وخاصته يقال له أحمد بن عقاب اختصه الله بالأهلية صغيراً فوقع منه ابتداء ذكر هؤلاء الوزراء فقال لي: هم تسعة، فقلت له: إن كانوا تسعة فإن مدة بقاء المهدي لا بد أن تكون تسع سنين فإني عليم بما يحتاج إليه وزيره، فإن كان واحداً اجتمع في ذلك الواحد جميع ما يحتاج إليه، وإن كانوا أكثر من واحد فما يكونون أكثر من تسعة فإنه إليها انتهى الشك من رسول الله ﷺ في قوله خمساً أو سبعاً أو تسعاً في إقامة المهدي وجميع ما يحتاج إليه مما يكون قيام وزرائه به تسعة أمور لا عاشر لها ولا تنقص عن ذلك وهي: نفوذ البصر، ومعرفة الخطاب الإلهي عند الإلقاء، وعلم الترجمة عن الله، وتعيين المراتب لولاة الأمر، والرحمة في الغضب، وما يحتاج إليه الملك من الأرزاق المحسوسة والمعقولة، وعلم تداخل الأمور بعضها على بعض، والمبالغة والاستقصاء في قضاء حوائج الناس، والوقوف على علم الغيب الذي يحتاج إليه في الكون في مدته خاصة، فهذه تسعة أمور لا بد أن تكون في وزير الإمام المهدي إن كان الوزير واحداً أو وزرائه إن كانوا أكثر من واحد. فأما نفوذ البصر فذلك ليكون دعاؤه إلى الله على بصيرة في المدعوّ إليه لا في المدعو فينظر في عين كل مدعوّ ممن يدعوه فيرى ما يمكن له الإجابة إلى دعوته فيدعوه من ذلك ولو بطريق الإلحاح وما يرى منه أنه لا يجيب دعوته من غير إلحاح لإقامة الحجة عليه خاصة، فإن المهدي حجة الله على أهل زمانه وهي درجة الأنبياء التي تقع فيها المشاركة قال الله تعالى: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨] أخبر بذلك عن نبيه ﷺ، فالمهدي ممن اتبعه وهو ﷺ لا يخطىء في دعائه إلى الله فمتبعه لا يخطىء فإنه يقفو أثره، وكذا ورد الخبر في صفة المهدي أنه قال ﷺ: «**يَقْفُو أَثَرِي لا يُخطِىءُ**» وهذه هي العصمة في الدعاء إلى الله وينالها كثير من الأولياء بل كلهم، ومن حكم نفوذ البصر أن يدرك صاحبه الأرواح النورية والنارية عن غير إرادة من الأرواح ولا ظهور ولا تصوّر كابن عباس وعائشة رضي الله عنهما حين أدركا جبريل عليه السلام وهو يكلم رسول الله ﷺ على غير علم من جبريل بذلك ولا إرادة منه للظهور لهم فأخبرا بذلك رسول الله ﷺ ولم يعلما أنه جبريل عليه السلام فقال لها ﷺ: أو قد رأيتيه؟ وقال لابن عباس: أرأيته؟ قالا: نعم، قال: ذلك جبريل. وكذلك يدركون رجال الغيب في حال إرادتهم الاحتجاب وأن لا يظهروا للأبصار فيراهم صاحب هذا الحال، ومن نفوذ البصر

أيضاً أنهم إذا تجسدت لهم المعاني يعرفونها في عين صورها فيعلمون أيّ معنى هو ذلك الذي تجسد من غير توقف.

وصل: وأما معرفة الخطاب الإلهيّ عند الإلقاء فهو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١] فأمّا الوحي من ذلك فهو ما يلقيه في قلوبهم على جهة الحديث فيحصل لهم من ذلك علم بأمر مّا وهو الذي تضمنه ذلك الحديث، وإن لم يكن كذلك فليس بوحي ولا خطاب، فإن بعض القلوب يجد أصحابها علماً بأمر مّا من العلوم الضرورية عند الناس فذلك علم صحيح ليس عن خطاب، وكلامنا إنما هو في الخطاب الإلهي المسمى وحياً، فإن الله تعالى جعل مثل هذا الصنف من الوحي كلاماً، ومن الكلام يستفيد العلم بالذي جاء له ذلك الكلام، وبهذا يفرق إذا وجد ذلك. وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ فهو خطاب إلهي يلقيه على السمع لا على القلب فيدركه من ألقى عليه فيفهم منه ما قصد به من أسمعه ذلك وقد يحصل له ذلك في صور التجلي فتخاطبه تلك الصورة الإلهية وهي عين الحجاب فيفهم من ذلك الخطاب علم ما يدل عليه ويعلم أن ذلك حجاب وأن المتكلم من وراء ذلك الحجاب، وما كل من أدرك صورة التجلي الإلهي يعلم أن ذلك هو الله، فما يزيد صاحب هذه الحال على غيره إلا بأن يعرف أن تلك الصورة وإن كانت حجاباً فهي عين تجلي الحق له. وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ فهو ما ينزل به الملك أو ما يجيء به الرسول البشريّ إلينا إذا نقلا كلام الله خاصة مثل التالي قال تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وقوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨] فإن نقلا علماً وأفصحا عنه ووجداه في أنفسهما فذلك ليس بكلام إلهي وقد يكون الرسول والصورة معاً وذلك في نفس الكتابة، فالكتاب رسول وهو عين الحجاب على المتكلم فيفهمك ما جاء به ولكن لا يكون ذلك إذا كتب ما علم، وإنما يكون ذلك إذا كتب عن حديث يخاطبه به تلك الحروف التي يسطرها، ومتى لم يكن كذلك فما هو كلام، هذا هو الضابط، فاللقاء للرسل والإلقاء للخبر الإلهي بارتفاع الوسائط من كونه كلمه لا غير، والكتابة رقوم مسطرة حيث كانت لم تسطر إلا عن حديث ممن سطرها لا عن علم، فهذا كله من الخطاب الإلهي لصاحب هذا المقام. وأما علم الترجمة عن الله فذلك لكل من كلمه الله في الإلقاء والوحي فيكون المترجم خلاقاً لصور الحروف اللفظية أو المرقومة التي يوجدها ويكون روح تلك الصور كلام الله لا غير، فإن ترجم عن علم فما هو مترجم لا بد من ذلك، يقول الولي: حدثني قلبي عن ربي وقد يترجم المترجم عن ألسنة الأحوال وليس من هذا الباب بل ذلك من باب آخر يرجع إلى عين الفهم بالأحوال وهو معلوم عند علماء الرسوم وعلى ذلك يخرجون قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] يقولون يعني بلسان الحال وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فجعلوا هذه الإباية والإشفاق حالاً لا حقيقة، وكذلك قوله عنهما: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا

طَآيِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] قول حال لا قول خطاب، وهذا كله ليس بصحيح ولا مراد في هذه الآيات بل الأمر على ظاهره كما ورد هكذا يدركه أهل الكشف، فإذا ترجموا من الموجودات فإنما يترجمون عما تخاطبهم به لا عن أحوالهم إذ لو نطقوا لقالوا هذا، وأصحاب هذا القول انقسموا على قسمين: فبعضهم يقول إن كان هذا وأمثاله نطقا حقيقة وكلاماً فلا بد أن يخلق في هؤلاء الناطقين حياة وحينئذ يصح أن يكون حقيقة، وجائز أن يخلق الله فيهم حياة ولكن لا علم لنا بذلك أن الأمر وقع كما جوَّزناه أو هو لسان حال، فأما أصحاب ذاك القول فكذا وقع في نفس الأمر لأن كل ما سوى الله حيّ ناطق في نفس الأمر، فلا معنى للأحوال مع هذا عند أهل الكشف والوجود. وأما القسم الآخر وهم الحكماء فقالوا: إن هذا لسان حال ولا بدّ لأنه من المحال أن يحيا الجماد، وهذا قول محجوب بأكثف حجاب فما في العالم إلا مترجم إذا ترجم عن حديث إلهيّ فافهم ذلك. وأما تعيين المراتب لولاة الأمر فهو العلم بما تستحقه كل مرتبة من المصالح التي خلقت لها، فينظر صاحب هذا العلم في نفس الشخص الذي يريد أن يوليه ويرفع الميزان بينه وبين المرتبة، فإذا رأى الاعتدال في الوزن من غير ترجيح لكفة المرتبة ولاه وإن رجح الوالي فلا يضرّه وإن رجحت كفة المرتبة عليه لم يوله لأنه ينقص عن علم ما رجحه به فيجور بلا شك وهو أصل الجور في الولاة، ومن المحال عندنا أن يعلم ويعدل عن حكم علمه جملة واحدة وهو جائز عند علماء الرسوم وعندنا هذا الجائز ليس بواقع في الوجود وهي مسألة صعبة ولهذا يكون المهديُّ «يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً» يعني الأرض فإن العلم عندنا يقتضي العمل ولا بد وإلا فليس بعلم وإن ظهر بصورة علم والمراتب ثلاثة وهي التي ينفذ فيها حكم الحاكم وهي: الدماء والأعراض والأموال، فيعلم ما تطلبه كل مرتبة من الحكم الإلهيّ المشروع وينظر في الناس، فمن رأى أنه جمع ما تطلبه تلك المرتبة نظر في مزاج ذلك الجامع فإن رآه يتصرّف تحت حكم العلم علم أنه عاقل فولاه، وإن رآه يحكم على علمه وأن علمه معه مقهور تحت حكم شهوته وسلطان هواه لم يوله مع علمه بالحكم، قال بعض الملوك لبعض جلسائه من أهل الرأي والنظر الصحيح حين استشاره فقال له: من ترى أن أولي أمور الناس؟ فقال: ولّ على أمور الناس رجلاً عاقلاً فإن العاقل يستبرىء لنفسه، فإن كان عالماً حكم بما علم، وإن لم يكن عالماً بتلك الواقعة ما حكمها حكم عليه عقله أن يسأل من يدري الحكم الإلهيّ المشروع في تلك النازلة، فإذا عرفه حكم فيها فهذا فائدة العقل، فإن كثيراً ممن ينتمي إلى الدين والعلم الرسميّ تحكم شهوتهم عليهم، والعاقل ليس كذلك، فإن العقل يأبى إلا الفضائل فإنه يقيد صاحبه عن التصرّف فيما لا ينبغي ولهذا سمي عقلاً من العقال. وأما الرحمة في الغضب فلا يكون ذلك إلا في الحدود المشروعة والتعزير، وما عدا ذلك فغضب ليس فيه من الرحمة شيء ولذلك قال أبو يزيد: بطشي أشدّ لما سمع القارىء يقرأ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] فإن الإنسان إذا غضب لنفسه فلا يتضمن ذلك الغضب رحمة بوجه، وإذا غضب لله فغضبه غضب الله وغضب الله لا يخلص عن رحمة إلهية تشوبه، فغضبه في الدنيا ما نصبه من الحدود والتعزيرات، وغضبه في

الآخرة ما يقيم من الحدود على من يدخل النار، فهو وإن كان غضباً فهو تطهير لما شابه من الرحمة في الدنيا والآخرة، لأن الرحمة لما سبقت الغضب في الوجود عمت الكون كله ووسعت كل شيء، فلما جاء الغضب في الوجود وجد الرحمة قد سبقته ولا بد من وجوده، فكان مع الرحمة كالماء مع اللبن إذا شابه وخالطه، فلم يخلص الماء من اللبن، كذلك لم يخلص الغضب من الرحمة، فحكمت على الغضب لأنها صاحبة المحل، فينتهي غضب الله في المغضوب عليهم، ورحمة الله لا تنتهي، فهذا المهدي لا يغضب إلا لله فلا يتعدى في غضبه إقامة حدود الله التي شرعها بخلاف من يغضب لهواه ومخالفة غرضه، فمثل هذا الذي يغضب لله لا يمكن أن يكون إلا عادلاً ومقسطاً لا جائراً ولا قاسطاً، وعلامة من يدعي هذا المقام إذا غضب لله وكان حاكماً وأقام الحد على المغضوب عليه يزول عنه الغضب على ذلك الشخص عند الفراغ منه وربما قام إليه وعانقه وآنسه وقال له: أحمد الله الذي طهرك وأظهر له السرور والبشاشة به وربما أحسن إليه بعد ذلك هذا ميزانه ويرجع لذلك المحدود رحمة كله، وقد رأيت ذلك لبعض القضاة ببلاد المغرب قاضي مدينة سبتة يقال له أبو إبراهيم بن يغمور وكان يسمع معنا الحديث على شيخنا أبي الحسين بن الصائغ من ذرية أبي أيوب الأنصاري وعلى أبي الصبر أيوب الفهري وعلى أبي محمد بن عبد الله الحجري بسبتة في زمان قضائه بها وما كان يأتي إلى السماع راكباً قط بل يمشي بين الناس، فإذا لقيه رجلان قد تخاصما وتداعيا إليه وقف إليهما وأصلح بينهما، غزير الدمعة طويل الفكرة كثير الذكر، يصلح بين القبيلتين بنفسه فيصطلحان ببركته، والقاضي إن بقي معه الغضب على المحدود بعد أخذ حق الله منه فهو غضب نفس وطبع أو لأمر في نفسه لذلك المحدود ما هو غضب لله فلذلك لا يأجره الله فإنه ما قام في ذلك مراعاة لحق الله وهذا من قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] فابتلاهم أوّلاً بما كلفهم فإذا عملوا ابتلى أعمالهم هل عملوها لخطاب الحق أو عملوها لغير ذلك؟ وهو قوله عز وجل أيضاً: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] وهذا ميزانه عند أهل الكشف فلا يغفل الحاكم عند إقامة الحدود عن النظر في نفسه وليحذر من التشفي الذي يكون للنفوس، ولهذا نهي عن الحكم في حال غضبه، ولو لم يكن حاكماً في حق من ابتلي بإقامة حد عليه، فإن وجد لذلك تشفياً فيعلم أنه ما قام في ذلك لله وما عنده فيه خير من الله، وإذا فرح بإقامة الحد على المحدود إن لم يكن فرحه له لما سقط عنه ذلك الحد في الآخرة من المطالبة وإلا فهو معلول، وما عندي في مسائل الأحكام المشروعة بأصعب من الزنى خاصة ولو أقيم عليه الحد فإني أعلم أنه يبقى عليه بعد إقامة الحد مطالبات من مظالم العباد. واعلم أن غير الحاكم ما عين الله له إقامة الحد عليه فلا ينبغي أن يقوم به غضب عند تعدي الحدود، فليس ذلك إلا للحكام خاصة ولرسول الله ﷺ من حيث ما هو حاكم، فلو كان مبلغاً لا حاكماً لم يقم به غضب على من رد دعوته فإنه ليس له من الأمر شيء وليس عليه هداهم فإن الله يقول في هذا للرسول ﷺ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨] وقد بلغ فأسمع الله من شاء وأصم من شاء فهم أعقل الناس أعني الأنبياء، وإذا كوشف الداعي على

من أصمه الله عن الدعوة فما سمعها لم يتغير لذلك فإن الصائح إذا نادى من قام به الصمم وعلم أنه لم يسمع نداءه لم يجد عليه وقام عذره عنده، فإن كان الرسول حاكماً تعين عليه الحكم بما عين الله له فيه، وهذا علم شريف يحتاج إليه كل وال في الأرض على العالم. وأما علم ما يحتاج إليه الملك من الأرزاق فهو أن يعلم أصناف العالم وليس إلا اثنان وأعني بالعالم الذي يمشي فيهم حكم هذا الإمام وهم: عالم الصور وعالم الأنفس المدبرون لهذه الصور فيما يتصرّفون فيه من حركة أو سكون، وما عدا هذين الصنفين فما له عليهم حكم إلا من أراد منهم أن يحكمه على نفسه كعالم الجان. وأما العالم النوراني فهم خارجون عن أن يكون للعالم البشريّ عليهم تولية، فكل شخص منهم على مقام معلوم عينه له ربه فما يتنزل إلا بأمر ربه، فمن أراد تنزيل واحد منهم فيتوجه في ذلك إلى ربه وربه يأمره ويأذن له في ذلك إسعافاً لهذا السائل أو ينزله عليه ابتداء. وأما السائحون منهم فمقامهم المعلوم كونهم سياحين يطلبون مجالس الذكر، فإذا وجدوا أهل الذكر وهم أهل القرآن الذاكرون القرآن فلا يقدمون عليهم أحداً من مجالس الذاكرين بغير القرآن، فإذا لم يجدوا ذلك ووجدوا الذاكرين الله لا من كونهم تالين قعدوا إليهم ونادى بعضهم بعضاً هلموا إلى بغيتكم فذلك رزقهم الذي يعيشون به وفيه حياتهم. فإذا علم الإمام ذلك لم يزل يقيم جماعة يتلون آيات الله آناء الليل والنهار، وقد كنا بفاس من بلاد المغرب قد سلكنا هذا المسلك لموافقة أصحاب موفقين كانوا لنا سامعين وطائعين وفقدناهم ففقدنا لفقدهم هذا العمل الخالص وهو أشرف الأرزاق وأعلاها فأخذنا لما فقدنا مثل هؤلاء في بث العلم من أجل الأرواح الذين غذاؤهم العلم، ورأينا أن لا نورد شيئاً منه إلا من أصل هو مطلوب لهذا الصنف الروحاني وهو القرآن، فجميع ما نتكلم فيه في مجالسي وتصانيفي إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه أعطيت مفتاح الفهم فيه والإمداد منه، وهذا كله حتى لا نخرج عنه فإنه أرفع ما يمنح، ولا يعرف قدره إلا من ذاقه وشهد منزلته حالاً من نفسه وكلمه به الحق في سرّه، فإن الحق إذا كان هو المكلم عبده في سرّه بارتفاع الوسائط فإن الفهم يستصحب كلامه منك، فيكون عين الكلام منه عين الفهم منك لا يتأخر عنه فإن تأخر عنه فليس هو كلام الله، ومن لم يجد هذا فليس عنده علم بكلام الله عباده، فإذا كلمه بالحجاب الصوري بلسان نبيّ أو من شاء الله من العالم فقد يصحبه الفهم وقد يتأخر عنه هذا هو الفرق بينهما. وأما الأرزاق المحسوسة فإنه لا حكم له فيها إلا في بقية الله فمن أكل مما خرج عن هذه البقية لم يأكل من يد هذا الإمام العادل، وليس مسمى رزق الله في حق المؤمنين إلا بقية الله، وكل رزق في الكون من بقية الله، وما بقي إلا أن يفرق بينهما، وذلك أن جميع ما في العالم من الأموال لا يخلو إما أن يكون لها مالك معين أو لا يكون لها مالك، فإن كان لها مالك معين فهي من بقية الله لهذا الشخص، وإن لم يكن لها مالك معين فهي لجميع المسلمين، فجعل الله لهم وكيلاً هذا الإمام يحفظ عليهم ذلك، فهذا من بقية الله الذي زاد على المال المملوك، فكل رزق في العالم بقية الله، إن عرفت معنى بقية الله فمال زيد بقية الله لزيد لما حجر الله عليه التصرّف في مال عمرو بغير إذنه، ومال عمرو بقية الله لعمرو لما

حجر عليه التصرّف في مال زيد بغير إذنه، فما في العالم رزق إلا وهو بقية الله، فيحكم الإمام فيه بقدر ما أنزل الله من الحكم فيه فاعلم ذلك، فالناس على حالتين: اضطرار وغير اضطرار، فحال الاضطرار يبيح قدر الحاجة في الوقت ويرفع عنه حكم التحجير، فإذا نال ما يزيلها به رجح عليه حكم التحجير، فإن كان المضطرّ قد تصرّف فيما هو ملك لأحد تصرّف فيه بحكم الضمان في قول وبغير ضمان في قول، فإن وجد أدّاه عند القائل بالضمان، وإن لم يجد فإمام الوقت يقوم عنه في ذلك من بيت المال، وإن كان المتصرّف قد تصرّف فيما لا يملكه أحد أو يملكه الإمام بحكم الوكالة المطلقة من الله له فلا شيء عليه لا ضمان ولا غيره، وهذا علم يتعين المعرفة به على إمام الوقت لا بدّ منه، فما تصرّف أحد من المكلفين بالوجه المشروع إلا في بقية الله، قال الله عز وجل: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ﴾ [هود: ٨٦] وهو حكم فرعيّ، وإنما الأصل أن الله خلق لنا ما في الأرض جميعاً ثم حجر وأبقى فما أبقاه سماه بقية الله وما حجر سماه حراماً أي المكلف ممنوع من التصرّف فيه حالاً أو زماناً أو مكاناً مع التحجير، فإنّ الأصل التوقف عن إطلاق الحكم فيه بشيء، فإذا جاء حكم الله فيه كنا بحسب الحكم الإلهيّ الذي ورد به الشرع إلينا، فمن عرف هذا عرف كيف يتصرَّف في الأرزاق. وأما علم تداخل الأمور بعضها على بعض فهذا معنى قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣] فالمولج ذكر والمولج فيه أنثى، هذا الحكم له مستصحب حيث ظهر، فهو في العلوم العلم النظري، وهو في الحس النكاح الحيوانيّ والنباتي، وليس شيء من ذلك مراداً لنفسه فقط بل هو مراد لنفسه ولما ينتجه، ولولا اللحمة والسدا ما ظهر للشفة عين وهو سار في جميع الصنائع العملية والعلمية، فإذا علم الإمام ذلك لم تدخل عليه شبهة في أحكامه، وهذا هو الميزان الموضوع في العالم في المعاني والمحسوسات، والعاقل يتصرّف بالميزان في العالمين بل في كل شيء له التصرّف فيه، وأما الحاكمون بالوحي المنزل أهل الإلقاء من الرسل وأمثالهم فما خرجوا عن التوالج، فإن الله جعلهم محلاً لما يلقي إليهم من حكمه في عباده، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢] فما ظهر حكم في العالم من رسول إلا عن نكاح معنوي لا في النصوص ولا في الحاكمين بالقياس، فالإمام يتعين عليه علم ما يكون بطريق التنزيل الإلهيّ وبين ما يكون بطريق القياس وما يعلمه المهدي أعني علم القياس ليحكم به وإنما يعلمه ليتجنبه، فما يحكم المهدي إلا بما يلقي إليه الملك من عند الله الذي بعثه الله إليه ليسدّده، وذلك هو الشرع الحقيقيّ المحمدي الذي لو كان محمد ﷺ حياً ورفعت إليه تلك النازلة لم يحكم فيها إلا بما يحكم هذا الإمام، فيعلمه الله أن ذلك هو الشرع المحمدي فيحرم عليه القياس مع وجود النصوص التي منحه الله إياها ولذلك قال رسول الله ﷺ في صفة المهدي: «**يَقفُو أثَري لا يُخطِىءُ**» فعرفنا أنه متبع لا متبوع، وأنه معصوم ولا معنى للمعصوم في الحكم إلا أنه لا يخطىء، فإن حكم الرسول لاينسب إليه خطأ، فإنه ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] كما أنه لا يسوغ القياس في موضع

يكون فيه الرسول ﷺ موجوداً وأهل الكشف النبيّ عندهم موجود فلا يأخذون الحكم إلا عنه، ولهذا الفقير الصادق لا ينتمي إلى مذهب إنما هو مع الرسول الذي هو مشهود له، كما أن الرسول مع الوحي الذي ينزل عليه، فينزل على قلوب العارفين الصادقين من الله التعريف بحكم النوازل أنه حكم الشرع الذي بعث به رسول الله ﷺ وأصحاب علم الرسوم ليست لهم هذه المرتبة لما أكبوا عليه من حب الجاه والرياسة والتقدّم على عباد الله وافتقار العامّة إليهم، فلا يفلحون في أنفسهم ولا يفلح بهم، وهي حالة فقهاء الزمان الراغبين في المناصب من قضاء وشهادة وحسبة وتدريس. وأما المتنمسون منهم بالدين فيجمعون أكتافهم وينظرون إلى الناس من طرف خفي نظر الخاشع ويحركون شفاههم بالذكر ليعلم الناظر إليهم أنهم ذاكرون، ويتعجمون في كلامهم ويتشدقون ويغلب عليهم رعونات النفس وقلوبهم قلوب الذئاب لا ينظر الله إليهم، هذا حال المتدين منهم لا الذين هم قرناء الشيطان لا حاجة لله بهم، لبسوا للناس جلود الضأن من اللين أخوان العلانية أعداء السريرة، فالله يراجع بهم ويأخذ بنواصيهم إلى ما فيه سعادتهم، وإذا خرج هذا الإمام المهدي فليس له عدوّ مبين إلا الفقهاء خاصة فإنهم لا تبقى لهم رياسة ولا تمييز عن العامة، ولا يبقى لهم علم بحكم إلا قليل، ويرتفع الخلاف من العالم في الأحكام بوجود هذا الإمام، ولولا أن السيف بيد المهدي لأفتى الفقهاء بقتله، ولكن الله يظهره بالسيف والكرم فيطمعون ويخافون فيقبلون حكمه من غير إيمان بل يضمرون خلافه كما يفعل الحنفيون والشافعيون فيما اختلفوا فيه، فلقد أخبرنا أنهم يقتتلون في بلاد العجم أصحاب المذهبين ويموت بينهما خلق كثير ويفطرون في شهر رمضان ليتقووا على القتال، فمثل هؤلاء لولا قهر الإمام المهدي بالسيف ما سمعوا له ولا أطاعوه بظواهرهم. كما أنهم لا يطيعونه بقلوبهم بل يعتقدون فيه أنه إذا حكم فيهم بغير مذهبهم أنه على ضلالة في ذلك الحكم، لأنهم يعتقدون أن زمان أهل الاجتهاد قد انقطع وما بقي مجتهد في العالم، وأن الله لا يوجد بعد أئمتهم أحداً له درجة الاجتهاد، وأما من يدعي التعريف الإلهيّ بالأحكام الشرعية فهو عندهم مجنون مفسود الخيال لا يلتفتون إليه، فإن كان ذا مال وسلطان انقادوا في الظاهر إليه رغبة في ماله وخوفاً من سلطانه وهم ببواطنهم كافرون به. وأما المبالغة والاستقصاء في قضاء حوائج الناس فإنه متعين على الإمام خصوصاً دون جميع الناس، فإن الله ما قدمه على خلقه ونصبه إماماً لهم إلا ليسعى في مصالحهم هذا والذي ينتجه هذا السعي عظيم، وله في قصة موسى عليه السلام لما مشى في حق أهله ليطلب لهم ناراً يصطلحون بها ويقضون بها الأمر الذي لا ينقضي إلا بها في العادة وما كان عنده عليه السلام خبر بما جاءه فأسفرت له عاقبة ذلك الطلب عن كلام ربه فكلمه الله تعالى في عين حاجته وهي النار في الصورة ولم يخطر له عليه السلام ذلك الأمر بخاطر، وأي شيء أعظم من هذا؟ وما حصل له إلا في وقت السعي في حق عياله ليعلمه بما في قضاء حوائج العائلة من الفضل فيزيد حرصاً في سعيه في حقهم، فكان ذلك تنبيهاً من الحق تعالى على قدر ذلك عند الله تعالى وعلى قدرهم لأنهم عبيده على كل حال، وقد وكل هذا على القيام بهم كما قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ

﴿قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤] فأنتج له الفرار من الأعداء الطالبين قتله الحكم والرسالة كما أخبر الله تعالى من قوله عليه السلام ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١] وأعطاه السعي على العيال وقضاء حاجاتهم كلام الله وكله سعي بلا شك، فإن الفارّ أتى في فراره بنسبة حيوانية فرت نفسه من الأعداء طلباً للنجاة وإبقاء للملك والتدبير على النفس الناطقة، فما سعى بنفسه الحيوانية في فراره إلا في حق النفس الناطقة المالكة تدبير هذا البدن، وحركة الأئمة كلهم العادلة إنما تكون في حق الغير لا في حق أنفسهم، فإذا رأيتم السلطان يشتغل بغير رعيته وما يحتاجون إليه فاعلموا أنه قد عزلته المرتبة بهذا الفعل ولا فرق بينه وبين العامة. ولما أراد عمر بن عبد العزيز يوم ولي الخلافة أن يقيل راحة لنفسه لما تعب من شغله بقضاء حوائج الناس دخل عليه ابنه فقال له: يا أمير المؤمنين أنت تستريح وأصحاب الحاجات على الباب من أراد الراحة لا يلي أمور الناس، فبكى عمر وقال: الحمد لله الذي أخرج من ظهري من ينبهني ويدعوني إلى الحق ويعينني عليه، فترك الراحة وخرج إلى الناس. وكذلك خضر واسمه بليا بن ملكان بن فالغ بن غابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح عليه السلام كان في جيش فبعثه أمير الجيش يرتاد لهم ماء وكانوا قد فقدوا الماء فوقع بعين الحياة فشرب منه فعاش إلى الآن وكان لا يعرف ما خص الله به من الحياة شارب ذلك الماء، ولقيته بإشبيلية، وأفادني التسليم للشيوخ وأن لا أنازعهم، وكنت في ذلك اليوم قد نازعت شيخاً في مسألة وخرجت من عنده فلقيت الخضر بقوس الحنية فقال لي: سلم إلى الشيخ مقالته، فرجعت إلى الشيخ من حيني فلما دخلت عليه منزله فكلمني قبل أن أكلمه وقال لي: يا محمد أحتاج في كل مسألة تنازعني فيها أن يوصيك الخضر بالتسليم للشيوخ، فقلت له: يا سيدنا ذلك هو الخضر الذي أوصاني؟ قال: نعم، قلت له: الحمد لله هذي فائدة، ومع هذا فما هو الأمر إلا كما ذكرت لك، فلما كان بعد مدة دخلت على الشيخ فوجدته قد رجع إلى قولي في تلك المسألة وقال لي: إني كنت على غلط فيها وأنت المصيب، فقلت له: يا سيدي علمت الساعة أن الخضر ما أوصاني إلا بالتسليم ما عرفني بأنك مصيب في تلك المسألة فإنه ما كان يتعين علي نزاعك فيها فإنها لم تكن من الأحكام المشروعة التي يحرم السكوت عنها، وشكرت الله على ذلك، وفرحت للشيخ الذي تبين له الحق فيها، وهذا عين الحياة ماء خص الله به من الحياة شارب ذلك الماء، ثم عاد إلى أصحابه فأخبرهم بالماء فسارع الناس إلى ذلك الموضع ليستقوا منه، فأخذ الله بأبصارهم عنه فلم يقدروا عليه، فهذا ما أنتج له سعيه في حق الغير، وكذلك من والى في الله وعادى في الله وأحب في الله وأبغض في الله فهو من هذا الباب، قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] فما يدري أحد ما لهم من المنزلة عند الله لأنهم ما تحرّكوا ولا سكنوا إلا في حق الله لا في حق أنفسهم إيثاراً لجناب الله على ما يقتضيه طبعهم. وأما الوقوف على علم الغيب الذي يحتاج إليه في الكون

خاصة في مدة خاصة وهي تاسع مسألة ليس وراءها ما يحتاج إليه الإمام في إمامته وذلك أن الله تعالى أخبر عن نفسه أنه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] والشأن ما يكون عليه العالم في ذلك اليوم، ومعلوم أن ذلك الشأن إذا ظهر في الوجود عرف أنه معلوم لكل من شهده، فهذا الإمام من هذه المسألة له اطلاع من جانب الحق على ما يريد الحق أن يحدثه من الشؤون قبل وقوعها في الوجود، فيطلع في اليوم الذي قبل وقوع ذلك الشأن، فإن كان مما فيه منفعة لرعيته شكر الله وسكت عنه، وإن كان مما فيه عقوبة بنزول بلاء عام أو على أشخاص معينين سأل الله فيهم وشفع وتضرع فصرف الله عنهم ذلك البلاء برحمته وفضله وأجاب دعاءه وسؤاله، فلهذا يطلعه الله عليه قبل وقوعه في الوجود بأصحابه، ثم يطلعه الله في تلك الشؤون على النوازل الواقعة من الأشخاص ويعين له الأشخاص بحليتهم، حتى إذا رآهم لا يشك فيهم أنهم عين ما رآه، ثم يطلعه الله على الحكم المشروع في تلك النازلة الذي شرع الله لنبيه محمد ﷺ أن يحكم به فيها فلا يحكم إلا بذلك الحكم فلا يخطىء أبداً، وإذا أعمى الله الحكم عليه في بعض النوازل ولم يقع له عليه كشف كان غايته أن يلحقها في الحكم بالمباح، ويعلم بعدم التعريف أن ذلك حكم الشرع فيها فإنه معصوم عن الرأي والقياس في الدين، فإن القياس ممن ليس بنبيّ حكم على الله في دين الله بما لا يعلم فإنه طرد علة، وما يدريك لعل الله لا يريد طرد تلك العلة، ولو أرادها لأبان عنها على لسان رسوله ﷺ وأمر بطردها، هذا إذا كانت العلة مما نص الشرع عليها في قضية، فما ظنك بعلة يستخرجها الفقيه بنفسه ونظره من غير أن يذكرها الشرع بنص معين فيها ثم بعد استنباطه إياها يطردها فهذا تحكم على تحكم بشرع لم يأذن به الله، وهذا يمنع المهدي من القول بالقياس في دين الله ولا سيما وهو يعلم أن مراد النبيّ ﷺ التخفيف في التكليف عن هذه الأمة ولذلك كان يقول ﷺ: «**اتْرُكُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ**» وكان يكره السؤال في الدين خوفاً من زيادة الحكم، فكل ما سكت له عنه ولم يطلع على حكم فيه معين جعله عاقبة الأمر فيه الحكم بحكم الأصل، وكل ما أطلعه الله عليه كشفاً وتعريفاً فذلك حكم الشرع المحمدي في المسألة وقد يطلعه الله في أوقات على المباح أنه مباح وعاقبة فكل مصلحة تكون في حق رعاياه يطلعه الله عليها ليسأله فيها، وكل فساد يريد الله أن يوقعه برعاياه فإن الله يطلعه عليه ليسأل الله في رفع ذلك عنهم لأنه عقوبة كما قال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] فالمهدي رحمة كما كان رسول الله ﷺ رحمة، قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] والمهدي يقفو أثره لا يخطىء فلا بد أن يكون رحمة، كان رسول الله ﷺ يقول لما جرح: «**اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ**» يعتذر لربه عنهم ولما علم أنه بشر وأن أحكام البشرية قد تغلب عليه في أوقات دعا ربه فقال: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ**» يعني أغضب عليهم وأرضى لنفسي «**اللَّهُمَّ مَنْ دَعَوْتُ عَلَيْهِ فَاجْعَلْ دُعَائِي عَلَيْهِ رَحْمَةً لَهُ وَرِضْوَاناً**». فهذه تسعة أمور لم تصح لإمام من أئمة الدين خلفاء الله ورسوله بمجموعها إلى يوم القيامة إلا لهذا الإمام المهدي، كما أنه ما

نص رسول الله ﷺ على إمام من أئمة الدين يكون بعده يرثه ويقفو أثره لا يخطىء إلا المهدي خالصة، فقد شهد بعصمته في أحكامه، كما شهد الدليل العقلي بعصمة رسول الله ﷺ فيما يبلغه عن ربه من الحكم المشروع له في عباده.

وفي هذا المنزل من العلوم: علم الاشتراك في الأحدية وهو الاشتراك العام مثل قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] فوصف نفسه تعالى بالأحدية وهذه السورة نسب الحق تعالى وأفرد العبادة له من كل أحد. وفيه علم الإنزال الإلهي وفيه علم المعنى الذي جعل الكتابة كلاماً وحقيقة الكلام معلومة عند العقلاء، والكلام مسألة مختلف فيها بين النظار. وفيه علم الكلام المستقيم من الكلام المعوج وبماذا يعرف استقامة الكلام من معوجه. وفيه علم ما جاءت به الرسل عموماً وخصوصاً وفيه علم من تكلم بغير علم هل هو علم في نفس الأمر ولا علم عند من يرى أنه ليس بعلم أنه علم مع كونه يعلم أنه لا منطق إلا الله. وفيه علم معرفة الصدق والكذب ولماذا يرجعان والصادق والكاذب. وفيه علم إذا علمه الإنسان ارتفع عنه الحرج في نفسه إذا رأى ما جرت به العادة في النفوس من الأمور العوارض أن يؤثر فيها حرجاً حتى يود الإنسان أن يقتل نفسه لما يراه وهذا يسمى علم الراحة وهو علم أهل الجنة خاصة، فمن فتح الله به على أحد من أهل الدنيا في الدنيا فقد عجلت له راحة الأبد مع ملازمة الأدب ممن هذه صفته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقدر مرتبته. وفيه علم ما أظهر الله للأبصار على الأجسام أنه حلية الأجسام ومن قبح عنده بعض ما ظهر لماذا قبح عنده ومن رآه كله حسناً لما رآه وبأي عين رآه فيقابله من ذاته بأفعال حسنة، وهذا العلم من أحسن علم في العالم وأنفعه وهو الذي يقول بعض المتكلمين فيه: لا فاعل إلا الله، وأفعاله كلها حسنة فهؤلاء لا يقبحون من أفعال الله إلا ما قبحه الله فذلك لله تعالى لا لهم، ولو لم يقبحوا ما قبح الله لكانوا منازعين لله عز وجل. وفيه علم ما وضعه الله في العالم على سبيل التعجب وليس إلا ما خرق به العادة، وأما الذي يعقلون عن الله فكل شيء في العادة عندهم فيه تعجب، وأما أصحاب العوائد فإنهم لا تعجب عندهم إلا فيما ظهر فيه خرق العادة. وفيه علم التشوق إلى معالي الأمور من جبلة النفوس وبماذا تعلم معالي الأمور هل بالعقل أو بالشرع؟ وما هي معالي الأمور؟ وهل هي أمر يعم العقلاء أو هو ما يراه زيد من معالي الأمور لا يراه عمرو بتلك الصفة فيكون إضافياً؟ وفيه علم دخول الأطول في الأقصر وهو إيراد الكبير على الصغير. وفيه علم أحكام الحق في الخلق إذا ظهر وإذا بطن ومن أي حقيقة يقبل الاتصاف بالظهور والبطون. وفيه علم الحيرة التي لا يمكن لمن دخل فيها أن يخرج منها. وفيه علم من يرى أمراً على خلاف ما هو عليه ذلك الأمر في نفسه وهل يصح لصاحب هذا العلم أن يجمع بين الأمرين أم لا؟ وفيه علم اتساع البرازخ وضيقها. وفيه علم ما للاعتلال والانحراف من الأثر فيما ينحرف عنه أو يقابل. وفيه علم الأحوال في العالم وهل لها أثر في غير العالم أم لا أثر لها فيه؟ وفيه علم ما يعظم عند الإنسان الكامل وماثم أعظم منه ولماذا يرجع ما يعظم عنده حتى يؤثر فيه حالة لا يقتضيها

مقامه الذي هو فيه، وهل حصل له ذلك العلم عن مشاهدة أو فكر؟ وفيه علم هل يصح من الوكيل المفوّض إليه المطلق الوكالة أن يتصرف في مال موكله تصرف رب المال من جميع الوجوه أو له حدّ يقف عنده في حكم الشرع؟ وفيه علم حكمة طلب الأولياء الستر على مقامهم بخلاف الأنبياء عليهم صلوات الله. وفيه علم السياسة في التعليم حتى يوصل المعلم العلم إلى المتعلم من حيث لا يشعر المتعلم أن المعلم قصد إفادته بما حصل عنده من العلم فيقول له المتعلم: يا أستاذ لقد حصل لي من فعلك كذا وكذا مع كذا وكذا علم وافر صحيح وهو كذا، ويتخيل المتعلم أن الذي حصل له من العلم بذلك الأمر لم يكن مقصوداً للمعلم وهو مقصود في نفس الأمر للمعلم فيفرح المتعلم بما أعطاه الله من النباهة والتفطن حيث علم من حركة أستاذه علماً لم يكن عنده في زعمه أن أستاذه قصد تعليمه. وفيه علم من علوم الكشف وهو أن يعلم صاحب الكشف أن أي واحد أو جماعة قلت أو كثرت لا بد أن يكون معهم من رجال الغيب واحد عندما يتحدثون، فذلك الواحد ينقل أخبارهم في العالم ويجد ذلك الناس من نفوسهم في العالم يجتمع جماعة في خلوة أو يحدث الرجل نفسه بحديث لا يعلم به إلا الله فيخرج أو تخرج تلك الجماعة فتسمعه في الناس والناس يتحدثون به، ولقد عملت أبياتاً من الشعر بمقصورة ابن مثنى بشرقي جامع تونس من بلاد إفريقية عند صلاة العصر في يوم معلوم معين بالتاريخ عندي بمدينة تونس فجئت إشبيلية وبينهما مسيرة ثلاثة أشهر للقافلة فاجتمع بي إنسان لا يعرفني فأنشدني بحكم الاتفاق تلك الأبيات عينها ولم أكن كتبتها لأحد فقلت له: لمن هي هذه الأبيات؟ فقال لي: لمحمد بن العربي وسماني، فقلت له: ومتى حفظتها؟ فذكر لي التاريخ الذي عملتها فيه والزمان مع طول هذه المسافة فقلت له: ومن أنشدك إياها حتى حفظتها؟ فقال لي: كنت جالساً في ليلة بشرق إشبيلية في مجلس جماعة على الطريق ومر بنا رجل غريب لا نعرفه كأنه من السياح فجلس إلينا فتحدث معنا ثم أنشدنا هذه الأبيات فاستحسناها وكتبناها فقلنا له: لمن هذه الأبيات؟ فقال: لفلان وسماني لهم، فقلنا له فهذه مقصورة ابن مثنى ما نعرفها ببلادنا، فقال: هي بشرقي جامع تونس، وهنالك عملها في هذه الساعة وحفظتها منه ثم غاب عنا فلم ندر ما أمره ولا كيف ذهب عنا وما رأيناه. ولقد كنت بجامع العديس بإشبيلية يوماً بعد صلاة العصر وشخص يذكر لي عن رجل كبير من أهل الطريق من أكابرهم اجتمع به في خراسان فذكر لي فضله وإذا بشخص أنظر إليه قريباً منا والجماعة معي لا تراه فقال لي: أنا هو هذا الشخص الذي يصفه لك هذا الرجل الذي اجتمع بنا في خراسان، فقلت للرجل المخبر: إن هذا الرجل الذي رأيته بخراسان أتعرف صفته؟ فقال: نعم فأخذت أنعته له بآثار كانت فيه وحلية في خلقه فقال الرجل: هو والله على صورة ما وصفت، وهل رأيته؟ فقلت له: هو ذا جالس يصدقك عندي فيما تخبر به عنه وما وصفته لك إلا وأنا أنظر إليه وهو عرَّفني بنفسه ولم يزل معي جالساً حتى انصرفت فطلبته فلم أجده، وأما الأبيات التي أنشدنيها لي فهي هذه: [المجتث]

مَقْصُورة ابْنِ مُثَنَّى أمْسَيْتُ فِيهَا مُعَنَّى

بشادنٍ تونسيٍّ حلو اللما يتمنّى
خلعت فيه عِذاري فأصبح الجسمُ مُضنى
سألته الوَصْلَ لمّا رأيته يتجنّى
وهزَّ عِطفَيْهِ عُجبَا كالغصن إذ يتثنّى
وقال أنت غريبٌ إليك يا هذا عنّا
فذُبْتُ شوقاً ويأساً ومتُّ وَجداً وحُزنَا

وهذا الصبي يقال له أحمد بن الإدريسي من تجار البلد كان أبوه وكان شاباً صالحاً يحب الصالحين ويجالسهم وفقه الله، وكان هذا المجلس بيني وبينه سنة تسعين وخمسمائة ونحن الآن في سنة خمس وثلاثين وستمائة.

وفيه علم ما يحمد من الجدال وما يذم منه ولا ينبغي لمسلم ممن ينتمي إلى الله أن يجادل إلا فيما هو فيه محق عن كشف لا عن فكر ونظر، فإذا كان مشهوداً له ما يجادل عنه حينئذ يتعين عليه الجدال فيه بالتي هي أحسن إذا كان مأموراً بأمر إلهي، فإن لم يكن مأموراً فهو بالخيار، فإن تعين له نفع الغير بذلك كان مندوباً إليه، وإن يئس من قبول السامعين له فليسكت ولا يجادل، فإن جادل فإنه ساع في هلاك السامعين عند الله. وفيه علم قول الإنسان أنا مؤمن إن شاء الله مع علمه في نفسه في ذلك الوقت أنه مؤمن، وهذه مسألة عظيمة الفائدة لمن نظر فيها تعلمه الأدب مع الله إذا لم يتعد الناطق بها الموضع الذي جعلها الله فيه، فإن تعداه ولم يقف عنده أساء الأدب مع الله ولم ينجح له طلب. وفيه علم الشيء الذي يذكرك بالأمر الذي كنت قد علمته ثم نسيته. وفيه علم الزيادة في الزمان والنقصان لماذا ترجع وقول النبي ﷺ: «**قَدْ يَكُونُ الشَّهرُ تِسعاً وَعِشرِينَ**» لعائشة في إيلائه من نسائه، وبماذا ينبغي الأخذ من ذلك في الحكم الشرعي هل بأقل ما ينطلق عليه اسم الشهر أو بأكثر؟ وفيه علم إيثار صحبة أهل الله على الغافلين عن الله وإن شملهم الإيمان. وفيه علم ما ينبغي لجلال الله أن يعامل به سواء أرضى العالم أم أسخطه. وفيه علم المياه وهو علم غريب وما حد الريّ منها في المرتوي من الماء الذي يروي، فإن من الماء ما يروي ومنه ما لا يروي، وما هو الماء الذي جعل الله منه كل شيء حيّ هل هو كل ماء أو له خصوص وصف من بين المياه؟ ووصف الماء الذي خلق الله منه بني آدم بالمهانة فقال: ﴿خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [المؤمنون: ١٢] ﴿مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [السجدة: ٨]. وفيه علم علامة من أسعده الله ممن أشقاه في الحياة الدنيا. وفيه علم ما هي الدنيا في نفسها وما حياتها وما زينتها. وفيه علم ما يبقى وما يفنى وما يقبل الفناء من العالم وما يقبل البقاء. وفيه علم صورة الإحاطة بما لا يتناهى ومما لا يتناهى لا يوصف بأنه محاط به لأنه يستحيل دخوله في الوجود. وفيه علم أحوال الجان وتكليف الحق إياهم بالشرائع المنزلة من عنده هل هو تكليف ألزمهم الحق به ابتداء أو ألزموه أنفسهم فألزمهم الحق به كالنذر؟ وفيه علم الفرق بين الفعل والمفعول. وفيه علم من يقبل الإعانة في الفعل. وفيه علم النحل والملل. وفيه علم الاستحقاق. وفيه علم ما لا ينفع العلم به. وفيه علم العلم

الغريب بماذا تقبله النفوس وتقبل عليه أكثر من غيره. وفيه علم يصح الإعراض عن العلم مع بقائه علماً في المعرض عنه أو يقدح عنده شبهة فيه فلا يعرض عنه حتى يزول عنه أنه علم وهذا عند المحققين العارفين من أخفى العلوم. وفيه علم الحجب التي تحول بين عين البصيرة وما ينبغي لها أن تدركه لولا هذه الحجب. وفيه علم الحلم والفرق بينه وبين العفو، وعلم الغفور الرحيم هل هو برزخ بين الحليم والعفو ولهما حكم في هذا أم لا؟ وفيه علم لا تتعدى الأمور مقاديرها عند الله. وفيه علم ما الذي أغفل الأكابر عن الاستثناء الإلهي في أفعالهم كقصة سليمان وموسى وغيرهما عليهم السلام. وفيه علم رد ما ينبغي لمن ينبغي وهو أفضل العلوم لأنه يورث الراحة ويسلم من الاعتراض عله في ذلك والله أعلم. وفيه علم ما يحمده من نفسه وينكره من غيره ويذمه. وفيه علم الوقوف بين العالمين ما حال الواقف فيه. وفيه علم كون الحق ما أوجد شيئاً إلا عن سبب فمن رفع الأسباب فقد جهل فمن يزعم أنه رفعها فما رفعها إلا بها إذ لا يصح رفع ما أقره الله وما يعطيه حال الوجود، وما الفرق بين الأسباب المعتادة التي يجوز رفعها وبين الأسباب المعقولة التي لا يمكن رفعها. وفيه علم من احتاط على عباد الله ما له عند الله. وفيه علم اتخاذ الشبه أدلة ما الذي أعماهم عن كونها شبهاً. وفيه علم من يهمل من عباد الله يوم القيامة ممن لا يهمل. وفيه علم الخواص. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والستون وثلاثمائة

في معرفة منزل التوكل الخامس الذي ما كشفه أحد من المحققين لقلة القابلين له وقصور الأفهام عن دركه

[نظم: الكامل]

إنّ الـتَّـوَكُّـلَ يُـثْـبِـتُ الأسْـبـابـا ... ويـفـتـحُ الأغـلاقَ والأبْـوابَـا
ويـجـودُ بـالـخـيـر الأعَـمِّ لـنـفـسـه ... ويُـقَـرِّبُ الأعـداءَ والأحـبـابـا
ويـقـول لـلـنـفس الـضـعـيـفـة نـاصـحـاً ... وَخُـذْ إلـهـكَ واتْـرُكِ الأربـابـا
إنّـي خـلـيـفـتُـه وقـد وُكِّـلْـتُـهُ ... فـمـن اقـتـفـى أَثَـري إلـيـه أصـابـا
إنّـي لـه رَحِـمٌ وذاك وسـيـلـتـي ... فـلـقـد نـجـا مـن يـحـفـظُ الأنـسـابـا

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فوصف نفسه بأمر لا ينبغي أن يكون ذلك الوصف إلا له تعالى وهو قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ فهو تعالى معنا أينما كنا في حال نزوله إلى السماء الدنيا في الثلث الباقي من الليل في حال كونه استوى على العرش، في حال كونه في العماء، في حال كونه في الأرض وفي السماء، في حال كونه أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد منه، وهذه نعوت لا يمكن أن يوصف بها إلا هو، فما نقل الله عبداً من مكان إلى مكان ليراه بل ليريه من آياته التي غابت عنه، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾

[الإسراء: ١] وكذلك إذا نقل الله العبد في أحواله ليريه أيضاً من آياته فنقله في أحواله مثل قوله ﷺ: «**زُوِيَتْ لِيَ الأَرْضُ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**» وكذلك قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] وذلك عين اليقين لأنه عن رؤية وشهود، وكذلك نقله عبده من مكان إلى مكان ليريه ما خص الله به ذلك المكان من الآيات الدالة عليه تعالى من حيث وصف خاص لا يعلم من الله تعالى إلا بتلك الآية وهو قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ وحديث الإسراء يقول: «ما أسريت به إلا لرؤية الآيات لا إليّ فإنه لا يحويني مكان ونسبة الأمكنة إليّ نسبة واحدة فأنا الذي وسعني قلب عبدي المؤمن فكيف أسري به إليّ وأنا عنده ومعه أينما كان» فلما أراد الله أن يري النبيّ عبده محمداً ﷺ من آياته ما شاء أنزل إليه جبريل عليه السلام وهو الروح الأمين بدابة يقال لها البراق إثباتاً للأسباب وتقوية له ليريه العلم بالأسباب ذوقاً، كما جعل الأجنحة للملائكة ليعلمنا بثبوت الأسباب التي وضعها في العالم، والبراق دابة برزخية فإنه دون البغل الذي تولد من جنسين مختلفين وفوق الحمار الذي تولد من جنس واحد، فجمع البراق بين من ظهر من جنسين مختلفين وبين من ظهر من جنس واحد لحكمة علمها أهل الله في صدور عالم الخلق وعالم الأمر، وفي صدور الأجسام الطبيعية وما فوقها، فركبه ﷺ وأخذه جبريل عليه السلام والبراق للرسل مثل فرس النوبة الذي يخرجه المرسل إليه للرسول ليركبه تهمماً به في الظاهر وفي الباطن أن لا يصل إليه إلا على ما يكون منه لا على ما يكون لغيره ليتنبه بذلك، فهو تشريف وتنبيه لمن لا يدري مواقع الأمور، فهو تعريف في نفس الأمر كما قررناه بما قلناه، فجاء ﷺ إلى البيت المقدس ونزل عن البراق وربطه بالحلقة التي تربطه بها الأنبياء عليهم السلام كل ذلك إثبات للأسباب، فإنه ما من رسول إلا وقد أسري به راكباً على ذلك البراق، وإنما ربطه مع علمه بأنه مأمور، ولو أوقفه دون ربط بحلقة لوقف، ولكن حكم العادة منعه من ذلك إبقاء لحكم العادة التي أجراها الله في مسمى الدابة، ألا تراه ﷺ كيف وصف البراق بأنه شمس وهو من شأن الدواب التي تركب، وأنه قلب بحافره القدح الذي كان يتوضأ به صاحبه في القافلة الآتية إلى مكة، فوصف البراق بأنه يعثر والعثور هو الذي أوجب قلب الآنية أعني القدح، فلما صلى جاءه جبريل بالبراق فركب عليه ومعه جبريل فطار البراق في الهواء فاخترق به الجو فعطش واحتاج إلى الشرب فأتاه جبريل عليه السلام بإناءين إناء لبن وإناء خمر وذلك قبل تحريم الخمر فعرضهما عليه فتناول اللبن فقال له جبريل عليه السلام: أصبت الفطرة أصاب الله بك أمتك، ولذلك كان ﷺ يتأول اللبن إذا رآه في النوم بالعلم؛ خرج البخاري في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**أُريتُ كَأَنِّي أُتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ فَشَرِبْتُهُ حَتَّى رَأَيْتُ الرِّيَّ يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِي ثُمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلِي عُمَرَ**» قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: «**العِلْمُ**» فلما وصل إلى السماء الدنيا استفتح جبريل فقال له الحاجب: من هذا؟ فقال: جبريل، قال: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قال: وقد بعث

إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح فدخلنا فإذا بآدم ﷺ وعن يمينه أشخاص بنيه السعداء أهل الجنة، وعن يساره نسم بنيه الأشقياء عمرة النار، ورأى ﷺ نفسه في أشخاص السعداء الذين على يمين آدم فشكر الله تعالى وعلم عند ذلك كيف يكون الإنسان في مكانين وهو عينه لا غيره فكان له كالصورة المرئية والصور المرئيات في المرآة والمرايا فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبيّ الصالح، ثم عرج به البراق وهو محمول عليه في الفضاء الذي بين السماء الأولى والسماء الثانية أو سمك السموات فاستفتح جبريل السماء الثانية كما فعل في الأولى وقال وقيل له، فلما دخل إذا بعيسى عليه السلام بجسده عينه فإنه لم يمت إلى الآن بل رفعه الله إلى هذه السماء وأسكنه بها وحكمه فيها وهو شيخنا الأوّل الذي رجعنا على يديه وله بنا عناية عظيمة لا يغفل عنا ساعة واحدة وأرجوا أن ندرك زمان نزوله إن شاء الله فرحب به وسهل، ثم جاء السماء الثالثة فاستفتح وقال وقيل له، ففتحت وإذا بيوسف عليه السلام فسلم عليه ورحب وسهل وجبريل في هذا كله يسمي له من يراه من هؤلاء الأشخاص، ثم عرج به إلى السماء الرابعة فاستفتح وقال وقيل له، ففتحت فإذا بإدريس عليه السلام بجسمه فإنه ما مات إلى الآن بل رفعه الله مكاناً علياً وهو هذه السماء قلب السموات وقطبها فسلم عليه ورحب وسهل، ثم عرج به إلى السماء الخامسة فاستفتح وقال وقيل له، ففتحت فإذا بهارون ويحيى عليهما السلام فسلما عليه ورحبا به وسهلا، ثم عرج به إلى السماء السادسة فاستفتح وقال وقيل له ففتحت فإذا بموسى عليه السلام فسلم عليه ورحب وسهل، ثم عرج به إلى السماء السابعة فاستفتح وقال وقيل له، ففتحت فإذا بإبراهيم الخليل عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور فسلم عليه ورحب وسهل وسمى له البيت المعمور الضراح فنظر إليه وركع فيه ركعتين وأعلمنا أنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك من الباب الواحد ويخرجون من الباب الآخر، فالدخول من باب مطالع الكواكب والخروج من باب مغارب الكواكب، وأخبره أن أولئك الملائكة يخلقهم الله كل يوم من قطرات ماء الحياة التي تسقط من جبريل حين ينتفض كما ينتفض الطائر عندما يخرج من انغماسه في نهر الحياة فإن له كل يوم غمسة فيه، ثم عرج به إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها كالقلال وورقها كآذان الفيلة فرآها وقد غشاها الله من النور ما غشي فلا يستطيع أحد أن ينعتها لأن البصر لا يدركها لنورها ورأى أنه يخرج من أصلها أربعة أنهار: نهران ظاهران ونهران باطنان، فأخبره جبريل أن النهرين الظاهرين النيل والفرات والنهرين الباطنين نهران يمشيان إلى الجنة، وأن هذين النهرين النيل والفرات يرجعان يوم القيامة إلى الجنة وهما نهرا العسل واللبن، وفي الجنة أربعة أنهار: نهر من ماء غير آسن ونهر من لبن لم يتغير طعمه ونهر من خمر لذة للشاربين ونهر من عسل مصفى وهذه الأنهار تعطي لأصحابها علوماً عند شربهم منها متنوعة يعرفها أصحاب الأذواق في الدنيا ولنا فيها جزء صغير فلينظر ما ذكرناه في ذلك الجزء، وأخبره أن أعمال بني آدم تنتهي إلى تلك السدرة وأنها مقر الأرواح فهي نهاية لما ينزل مما هو فوقها ونهاية لما يعرج إليها مما هو دونها وبها مقام جبريل عليه السلام وهناك منصته، فنزل ﷺ عن البراق بها وجيء إليه بالرفرف وهو نظير

المحفة عندنا فقعد عليه وسلمه جبريل إلى الملك النازل بالرفرف فسأله الصحبة ليأنس به فقال: لا أقدر لو خطوت خطوة احترقت فما منا إلا له مقام معلوم، وما أسرى الله بك يا محمد إلا ليريك من آياته فلا تغفل، فودعه وانصرف على الرفرف مع ذلك الملك يمشي به إلى أن ظهر لمستوى سمع منه صريف القلم والأقلام في الألواح بما يكتب الله بها مما يجريه في خلقه وما تنسخه الملائكة من أعمال عباده وكل قلم ملك، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] ثم زج في النور زجة فأفرده الملك الذي كان معه وتأخر عنه فاستوحش لما لم يره وبقي لا يدري ما يصنع وأخذه هيمان مثل السكران في ذلك النور وأصابه الوجد فأخذ يميل ذات اليمين وذات الشمال واستفزعه الحال وكان سببه سماع إيقاع تلك الأقلام وصريفها في الألواح فأعطت من النغمات المستلذة ما أداه إلى ما ذكرناه من سريان الحال فيه وحكمه عليه فتقوى بذلك الحال، وأعطاه الله في نفسه علماً علم به ما لم يكن يعلمه قبل ذلك عن وحي من حيث لا يدري وجهته، فطلب الإذن في الرؤية بالدخول على الحق فسمع صوتاً يشبه صوت أبي بكر وهو يقول له: يا محمد قف إن ربك يصلي فراعه ذلك الخطاب وقال في نفسه: أربي يصلي؟ فلما وقع في نفسه هذا التعجب من هذا الخطاب وأنس بصوت أبي بكر الصديق تلي عليه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣] فعلم عند ذلك ما هو المراد بصلاة الحق. فلما فرغ من الصلاة مثل قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] مع أنه لا يشغله شأن عن شأن ولكن لخلقه أصناف العالم أزمان مخصوصة وأمكنة مخصوصة لا يتعدى بها زمانها ولا مكانها لما سبق في علمه ومشيئته في ذلك، فأوحى الله إليه في تلك الوقفة ما أوحى ثم أمر بالدخول فدخل فرأى عين ما علم لا غير وما تغيرت عليه صورة اعتقاده، ثم فرض عليه في جملة ما أوحى به إليه خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزل حتى وصل إلى موسى عليه السلام فسأله موسى عما قيل له وما فرض عليه فأجابه وقال: إن الله فرض على أمتي خمسين صلاة في كل يوم وليلة فقال له: يا محمد قد تقدمت إلى هذا الأمر قبلك وعرفته ذوقاً وتعبت مع أمتي فيه وإني انصحك فإن أمتك لا تطيق ذلك فراجع ربك وسله التخفيف، فراجع ربه فترك له عشراً فأخبر موسى بما ترك له ربه فقال له موسى: راجع ربك فراجعه فترك له عشراً، فأخبر موسى فقال له راجع ربك فراجعه فترك له عشراً، فأخبر موسى فقال له راجع ربك فراجعه فترك له عشراً، فأخبر موسى فقال له راجع ربك فراجعه فقال له ربه: هي خمس وهي خمسون ما يبدل القول لديّ، فأخبر موسى فقال راجع ربك فقال: إني أستحيي من ربي وقد قال لي كذا وكذا، ثم ودعه وانصرف ونزل إلى الأرض قبل طلوع الفجر، فنزل بالحجر فطاف ومشى إلى بيته؛ فلما أصبح ذكر ذلك للناس فالمؤمن به صدقه وغير المؤمن به كذبه والشاك ارتاب فيه، ثم أخبرهم بحديث القافلة وبالشخص الذي كان يتوضأ وإذا بالقافلة قد وصلت كما قال فسألوا الشخص فأخبرهم بقلب القدح كما أخبرهم رسول الله ﷺ وسأله من حضر من المكذبين ممن رأى بيت المقدس أن يصفه لهم ولم يكن رأى منه ﷺ إلا قدر ما مشى فيه وحيث صلى فرفعه الله له حتى نظر إليه

فأخذ ينعته للحاضرين فما أنكروا من نعته شيئاً ولو كان الإسراء بروحه وتكون رؤيا رآها كما يراه النائم في نومه ما أنكره أحد ولا نازعه وإنما أنكروا عليه كونه أعلمهم أن الإسراء كان بجسمه في هذه المواطن كلها، وله ﷺ أربعة وثلاثون مرة الذي أسرى به منها إسراء واحد بجسمه الباقي بروحه رؤياً رآها.

وأما الأولياء فلهم إسراءات روحانية برزخية يشاهدون فيها معاني متجسدة في صور محسوسة للخيال يعطون العلم بما تتضمنه تلك الصور من المعاني، ولهم الإسراء في الأرض وفي الهواء غير أنهم ليست لهم قدم محسوسة في السماء، وبهذا زاد على الجماعة رسول الله ﷺ بإسراء الجسم واختراق السموات والأفلاك حساً وقطع مسافات حقيقية محسوسة، وذلك كله لورثته معنى لا حساً من السموات فما فوقها، فلنذكر من إسراء أهل الله ما أشهدني الله خاصة من ذلك، فإن إسراءاتهم تختلف لأنها معان متجسدة بخلاف الإسراء المحسوس، فمعارج الأولياء معارج أرواح ورؤية قلوب وصور برزخيات ومعان متجسدات، فما شهدته من ذلك وقد ذكرناه في كتابنا المسمى بالإسراء وترتيب الرحلة: [الطويل]

ألـم تَـرَ أن الـلّـهَ أسْـرَى بـعـبـده ... من الحَرَم الأدنى إلى المسجد الأقْصَى
إلى أن علا السَّبْعَ السموات قاصداً ... إلى بيته المعمور بالملأ الأعْلَى
إلى السِّدْرَةِ العُلْيا وكُرْسِيِّه الأحْمَى ... إلى عرشه الأسْنَى إلى المستوى الأزْهَى
إلى سُبُحَاتِ الوجه حين تَقَشَّعَتْ ... سحابُ العَمَى عن عين مُقْلَتِه النّجْلا
وكان تَدَلِّيهِ على الأمر إذ دَنَا ... من الله قُرْباً قابَ قوسين أو أدْنَى
وكانت عيونُ الكون عنه بمعزلٍ ... تلاحظ ما يسقيه بالمورد الأحْلَى
فخاطبه بالأنسِ صوتُ عَتِيقِهِ ... تَوَقَّفْ فربُّ العرش سبحانه صَلَّى
فأزعجه ذاك الخطابُ وقال هل ... يصلّي إلهي ما سمعتُ به يُتْلَى
وشال حجابَ العلم عن عين قلبه ... وأوْحَى إليه في الغيوب الذي أوْحَى
فعَايَنَ ما لا يَقْدُرُ الخلقُ قَدْرَهُ ... وأيَّده الرحمن بالعُزوة الوُثْقَى
وألفاه تَوّاقاً إلى وجه ربّه ... فأكرمه الرحمنُ بالمنظر الأجْلَى
ومن قَبْلِ ذا قد كان أشهد قَلْبَهُ ... بغار حِرَاءٍ قبل ذلك في المَجْلَى

فإذا أراد الله تعالى أن يسري بأرواح من شاء من ورثة رسله وأوليائه لأجل أن يريهم من آياته فهو إسراء لزيادة علم وفتح عين فهم فيختلف مسراهم، فمنهم من أسرى به فيه فهذا الإسراء فيه حل تركيبهم فيوقفهم بهذا الإسراء على ما يناسبهم من كل عالم بأن يمر بهم على أصناف العالم المركب والبسيط فيترك مع كل عالم من ذاته ما يناسبه، وصورة تركه معه أن يرسل الله بينه وبين ما ترك منه مع ذلك الصنف من العالم حجاباً فلا يشهده ويبقى له شهود ما بقي حتى يبقى بالسر الإلهيّ الذي هو الوجه الخاص الذي من الله إليه، فإذا بقي وحده رفع عنه حجاب الستر فيبقى معه تعالى كما بقي كل شيء منه مع مناسبه فيبقى العبد في هذا الإسراء هو لا هو، فإذا بقي هو لا هو أسرى به من حيث هو لا من حيث لا هو إسراء معنوياً

لطيفاً فيه لأنه في الأصل على صورة العالم وصورته على صورته تعالى فكله على صورته من حيث هو تعالى، فإن العالم على صورة الحق والإنسان على صورة العالم، فالإنسان على صورة الحق فإن المساوي لأحد المتساويين مساو لكل واحد من المتساويين، فإنه إذا كان كل ألف باء وكل باء جيم فكل ألف جيم فلينظر جيم من حيث هو ألف لا من حيث هو باء، كذلك ينظر الإنسان نفسه من حيث هو على صورة الحق لا من حيث هو على صورة العالم وإن كان العالم على صورة الحق.

ولما كان الترتيب على ما وقع عليه الوجود لتأخر النشأة الجسمية الإنسانية عن العالم فكانت آخراً فظهرت في نشأتها على صورة العالم وما كان العالم على الكمال في صورة الحق حتى وجد الإنسان فيه، فبه كمل العالم، فهو الأوَّل بالمرتبة والآخر بالوجود، فالإنسان من حيث رتبته أقدم من حيث جسميته، فالعالم بالإنسان على صورة الحق، والإنسان دون العالم على صورة الحق، والعالم دون الإنسان ليس على الكمال في صورة الحق، ولا يقال في الشيء إنه على صورة كذا حتى يكون هو من كل وجوهه إلا الذي لا يمكن أن يقال فيه هو كما قلنا في جيم أنه ألف لكونه باء والباء ألف، ولكن قد تميز عين كل واحد بأمر ليس هو عين الآخر وهو كون الألف ألف والباء باء والجيم جيم، كذلك الحق حق، والإنسان إنسان، والعالم عالم، وقد بان ذلك بالتساوي، فإنه إن لم تكن ثم حقيقة يقع بها تميز الأعيان لم يصح أن تقول كذا مساو لكذا بل تقول: عين كذا بلا تجوز، فإني قد أشرت إلى أمرين فقد وقع التمييز فلا بد من فصل يعقل لولا ذلك الفصل ما كانت كثرة في عين الواحد، فلم يبق للواحد سوى أحديته التي يقال بها لا هو عين الآخر، وبالذي يقال به هو عين الآخر هو أحدية الكثرة، فإنه كثرة بإطلاق ألف باء جيم عليه، ثم قال في إقامة البرهان: كل هذا هو هذا، فأشار فكثر وأعاد الضمير فوحد فوصل وفصل، فالفصل في عين الوصل لمن عقل، فإذا وقف الغير على ما قدمناه وعلم أنه ما كان على صورة العالم وإنما كان على صورة الحق أسرى به الحق في أسمائه ليريه من آياته فيه، فيعلم أنه المسمى بكل اسم إلهيّ، سواء كان ذلك الاسم من المنعوت بالحسن أو لا، وبها يظهر الحق في عباده، وبها يتلوَّن العبد في حالاته، فهي في الحق أسماء وفينا تلوينات وهي عين الشؤون التي هو فيها الحق، ففينا بنا يتصرف كما نحن به فيه نظهر ولهذا قلنا: [مجزوء الوافر]

دليلي فيكَ تَلْويني وهذا منكَ يَكْفيني
فلم أسألْ عن الأمْرِ الـ ـذي إليك يَدْعُوني
فإنّي لست أدْريه وليس الأمْرُ يُدْرِيني
فلو يُدْرِينِيَ الأمْـ ـرُ لما ميّزت تكويني
ولا قلنا ولا قالوا سيَهْديني ويُحْييني
وقد قالوا وقد قلنا فأغْنيه ويَغْنيني
فأُفْنيه وأبْقِيه ويُفْنيني ويُبْقيني

فأُرْضيه فيمدحُني وأُغْضِبُه فيَهْجُوني

فإذا أسرى الحق بالولي في أسمائه الحسنى إلى غير ذلك من الأسماء وكل الأسماء الإلهية علم تقلبات أحواله وأحوال العالم كله، وأن ذلك التقلب هو الذي أحدث فينا عين تلك الأسماء، كما علمنا أن تقلبات الأحوال أحكام تلك الأسماء، فاسم الحال الذي انقلبت منه، والذي انقلبت إليه هو أسمي به أقلب كما به تقلبت، فبالرؤوف الرحيم كان ﷺ بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، وبالمؤمن كان مؤمناً، وبالمهيمن كان مهيمناً، فجعلنا شهداء بعضنا على بعض وعلى أنفسنا وبالصبور والشكور كان ما ابتلي به من الريح لسوق الجواري في البحر آية ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ لما فيها من الأمر المفزع الهائل ﴿شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١] لما فيها من الفرح والنعمة بالوصول إلى المطلوب بسرعة، ولقد رأيت ذلك ذوقاً من نفسي جرينا بالريح الشديد من ضحى يومنا إلى غروب الشمس مسيرة عشرين يوماً في موج كالجبال فكيف لو كان البحر فارغاً والريح من ورائنا كنا نقطع أكثر من ذلك، ولكن أراد الله أن يرينا آيات كل صبار شكور، فما من اسم سمى به نفسه إلا وسمانا به، فبها نتقلب في أحوالنا وبها نقلب، فمن علم هذه الآيات فقد أسرى الحق به في أسمائه فأراه من آياته ليكون سميعاً بصيراً، سميعاً لما يخبر به الحق من التعريفات باللسان الخاص وهو ما أنزله من كلامه الذي نسبه إليه وباللسان العام وهو ما يتكلم به جميع العالم مما يتكلمون به كان ما كان فإنه قد سمعنا ما حكاه الحق لنا من كلام اليهود فيه وسمعناه من اليهود فسمعناه باللسان العام والخاص فحكى ما نطقهم به، إذ ليس في وسع المخلوق أن ينطق من غير أن ينطق فإذا نطق نطق فافهم فحكى به عنهم بهم عنه. فإذا كمل حظه من الإسراء في الأسماء وعلم ما أعطته من الآيات أسماء الله في ذلك الإسراء عاد يركب ذاته تركيباً غير ذلك التركيب الأول لما حصل له من العلم الذي لم يكن عليه حين تحلل، فما زال يمر على أصناف العالم ويأخذ من كل عالم ما ترك عنده منه فيتركب في ذاته فلا يزال يظهر في طور طور إلى أن يصل إلى الأرض فيصبح في أهله، وما عرف أحد ما طرأ عليه في سره حتى تكلم فسمعوا منه لساناً غير اللسان الذي كانوا يعرفونه، فإذا قال له أحدهم ما هذا؟ يقول له: إن الله أسرى بي فأراني من آياته ما شاء، فيقول له السامعون: ما فقدناك كذبت فيما ادعيت من ذلك، ويقول الفقيه منهم: هذا رجل يدعي النبوَّة أو قد دخله خلل في عقله فهو إما زنديق فيجب قتله وإما معتوه فلا خطاب لنا معه، فيسخر به قوم ويعتبر به آخرون ويؤمن بقوله آخرون وترجع مسألة خلاف في العالم، وغاب الفقيه عن قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] ولم يخص طائفة من طائفة، فمن أراه الله شيئاً من هذه الآيات على هذه الطريقة التي ذكرناها فليذكر ما رآه ولا يذكر الطريقة فإنه يصدق وينظر في كلامه ولا يقع الإنكار عليه إلا إذا ادعى الطريقة. واعلم أنه ليس بين العالم وصاحب هذه الطريقة والصفة فرق في الإسراء لأنه لرؤية الآيات وتقلبات الأحوال في العالم كله آيات فهم فيها لا يشعرون، فما يزيد هذا الصنف على سائر الخلق المحجوبين إلا بما يلهمه الله في سره من النظر بعقله وبفكره أو من التهيؤ بصقالة مرآة قلبه

ليكشف له عن هذه الآيات كشفاً وشهوداً وذوقاً ووجوداً. فالعالم ينكرون عين ما هم فيه وعليه، ولولا ذكره الطريقة التي بها نال معرفة هذه الأشياء ما أنكره عليه أحد، فالناس كلهم لا أحاشي منهم من أحد يضربون الأمثال لله وقد تواطؤوا على ذلك ولا واحد منهم ينكر على الآخر والله يقول: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ وهم في عماية عن هذه الآية، فأما أولياء الله فلا يضربون لله الأمثال فإن الله هو الذي يضرب الأمثال للناس لعلمه بمواقعها لأن الله يعلم ونحن لا نعلم، فيشهد الولي ما ضربه الله من الأمثال فيرى في ذلك الشهود عين الجامع الذي بين المثل وبين ما ضرب له ذلك المثل فهو عينه من حيث ذلك الجامع وما هو عينه من حيث ما هو مثل، فالولي لا يضرب لله الأمثال بل هو يعرف ما ضرب الله له الأمثال كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي صفة نوره ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ بما ضربه لعباده من هذا النور بالمصباح لنوره الممثل به من يشاء ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥] فهذا مصباح مخصوص ما هو كل مصباح. فلا ينبغي أن يقال: نور الله كالمصباح من كونه يكشف المصباح كل ما انبسط عليه نوره لصاحب بصر مثل هذا لايقال، فإن الله ما ذكر ما ذكره من شروط هذا المصباح ونعوته وصفاته الممثل به سدى، فمثل هذا المصباح هو الذي يضرب به المثل فإن الله يعلم كيف يضرب الأمثال وقد قال إنه ما يضرب الأمثال إلا للناس، ونهانا أن نضرب لله الأمثال، فإن الله يعلم ونحن لا نعلم، فإن ضربنا الأمثال فلننظر فإن كان الله قد ضرب في ذلك مثلاً للناس فلنقف عنده وهو الأدب الإلهي، وإن لم نجد لله في ذلك مثلاً مضروباً فلنضرب عند ذلك مثلاً للناس الذين لا يعلمون ذلك إلا بالمثل المضروب، وإن أنصفنا فلا نضربه لله فإن الله يعلمه، وتتحرى الصواب في ضرب ذلك المثل إن كنت صاحب فكر واعتبار، وإن كنت صاحب كشف وشهود فلا تتحرى فإنك على بينة من ربك فلا تقصد ما أنت فيه بل تبديه كما شهدته مثل ما يحكى ما ضرب الله لنفسه من المثل، فهذه حالة أولياء الله في ضرب الأمثال كما قال في اختلاف الناس في عدد أصحاب الكهف رجماً بالغيب لأنهم ما شاهدوهم ولذا جاء بفعل الاستقبال فقال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾ الآية، ثم قال: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ﴾ يعني كم عددهم ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف: ٢٢] أما من شاهدهم ممن لا يغلب عليه الوهم وأما من أعلمه الله بعدتهم، وقال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] من باب الإشارة في الجمع بين الآيتين، ولكن كما قال من أنه رابع ثلاثة لا ثالث ثلاثة لأنه لا يقال رابع أربعة إلا في الجنس الواحد والأمثال، فإذا انتفت المثلية لم يقل فيه أنه خامس خمسة إذا كان معهم وإنما يقال فيه خامس أربعة أو سادس خمسة، ألا ترى الكلب لما لم يكن من النوع الإنساني قالوا سبعة وثامنهم كلبهم ولم يقولوا ثمانية ثامنهم كلبهم فافهم تصب إن شاء الله: [مجزوء الوافر]

فلا تَضْرِبْ لِرَبِّ الكَوْ نِ مِنْ أَكْوانِهِ مَثَلا

فـــلا أَحَـــدٌ يـــمـــاثـــلُـــه فـــجَـــلَّ بـــذاتـــه وعَـــلاَ
فـــلـــم أضْـــربْ لـــه مَـــثَـــلاً وكـــلُّ الـــنـــاس قـــد فَـــعَـــلاَ
فـــلا تَـــضْـــرِبْ لـــه مَـــثَـــلاً وكُـــنْ فـــي حِـــزب مـــن عَـــقَـــلاَ

فلما أراد الله أن يسري بي ليريني من آياته في أسمائه من أسمائي وهو حظ ميراثنا من الإسراء أزالني عن مكاني وعرج بي على براق إمكاني فزج بي في أركاني فلم أر أرضي تصحبني فقيل لي: أخذه الوالد الأصلي الذي خلقه الله من تراب، فلما فارقت ركن الماء فقدت بعضي فقيل لي: إنك مخلوق من ماء مهين فإهانته ذلته فلصق بالتراب فلهذا فارقته فنقص مني جزءان فلما جئت ركن الهواء تغيرت علي الأهواء، وقال لي الهواء: ما كان فيك مني فلا يزول عني فإنه لا ينبغي له أن يعدو قدره ولا يمد رجله في غير بساطه فإن لي عليك مطالبة بما غيره مني تعفينك فإنه لولاه ما كنت مسنوناً فإن طيب بالذات خبيث بصحبة من جاورني، فلما خبثني صحبته ومجاورته قيل فيه حمأ مسنون فعاد خبثه عليه فإنه هو المنعوت وهو الذي غيرني في مشامّ أهل الشم من أهل الروائح فقلت له: ولماذا أتركه عندك؟ قال: حتى يزول عنه هذا الخبث الذي اكتسبه من عفونتك ومجاورة طينتك ومائك فتركته عنده فلما وصلت إلى ركن النار قيل قد جاء الفخار فقيل: وقد بعث إليه؟ قال نعم، قيل: ومن معه؟ قال: جبريل الجبر فهو مضطر في رحلته ومفارقة بنيته، فقال لي عنده في نشأته جزء مني لا أتركه معه إذ قد وصل إلى الحضرة التي يظهر فيها ملكي واقتداري ونفوذ تصرّفي فنفذت إلى السماء الأولى وما بقي معي من نشأتي البدنية شيء أعوّل عليه ولا أنظر إليه، فسلمت على والدي وسألني عن تربتي فقلت له: إن الأرض أخذت مني جزأها وحينئذ خرجت عنها وعن الماء بطينتي، فقال لي: يا ولدي هكذا جرى لها مع أبيك فمن طلب حقه فما تعدّى ولا سيما وأنت لها مفارق ولا تعرف هل ترجع إليها أو لا فإنه تعالى يقول: ﴿إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٢] ولا يعلم أحد ما في مشيئة الحق إلا أن يعلمه الحق بذلك، فالتفت فإذا أنا بين يديه وعن يمينه من نسم بنيه عيني فقلت له: هذا أنا فضحك فقلت له: فأنا بين يديك وعن يمينك قال نعم هكذا رأيت نفسي بين يدي الحق حين بسط يده فرأيتني وبنيّ في اليد ورأيتني بين يديه فقلت له: فما كان في اليد الأخرى المقبوضة؟ قال: العالم قلت له: فيمين الحق تقضي بتعيين السعادة؟ فقال نعم تقضي بالسعادة، فقلت له: فقد فرق الحق لنا بين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، فقال لي: يا ولدي ذلك يمين أبيك وشماله ألا ترى نسم بنيّ على يميني وعلى شمالي وكلتا يدي ربي يمين مباركة فبنيّ في يميني وفي شمالي وأنا وبنيّ في يمين الحق وما سوانا من العالم في اليد الأخرى الإلهية، قلت: فإذاً لا نشقى، فقال: لو دام الغضب لدام الشقاء فالسعادة دائمة وإن اختلف المسكن فإن الله جاعل في كل دار ما يكون به نعيم أهل تلك الدار فلا بد من عمارة الدارين، وقد انتهى الغضب في يوم العرض الأكبر وأمر بإقامة الحدود فأقيمت وإذا أقيمت زال الغضب فإن الرسالة تزيله فهو عين إقامة الحدود على المغضوب عليه فلم يبق إلا الرضا وهو الرحمة التي وسعت كل شيء، فإذا انتهت الحدود

صار الحكم للرحمة العامة في العموم، فأفادني أبي آدم هذا العلم ولم أكن به خبيراً فكان لي ذلك بشرى معجلة إلهية في الحياة الدنيا وتنتهي القيامة بالزمان كما قال الله خمسين ألف سنة وهذه مدة إقامة الحدود ويرجع الحكم بعد انقضاء هذه المدة إلى الرحمن الرحيم، وللرحمن الأسماء الحسنى وهي حسنى لمن تتوجه عليه بالحكم، فالرحيم برحمته ينتقم من الغضب وهو شديد البطش به مذل له مانع بحقيقته فيبقى الحكم في تعارض الأسماء بالنسب والخلق بالرحمة مغمورون فلا يزال حكم الأسماء في تعارضها لا فينا فافهم فإنه علم غريب دقيق لا يشعر به بل الناس في عماية عنه، وما منهم إلا من لو قلت له ترضى لنفسك أن يحكم عليك ما يسوءك من هذه الأسماء لقال لا، ويجعل حكم ذلك الاسم الذي يسوء في حق غيره، فهذا من أجهل الناس بالخلق وهو بالحق أجهل، فأفاد هذا الشهود بقاء أحكام الأسماء في الأسماء لا فينا وهي نسب تتضادّ بحقائقها فلا تجتمع أبداً، ويبسط الله رحمته على عباده حيث كانوا فالوجود كله رحمة. ثم رحلت عنه بعدما دعا لي فنزلت بعيسى عليه السلام في السماء الثانية فوجدت عنده ابن خالته يحيى عليهما السلام فكانت الحياة الحيوانية ولو كان يحيى ابن خالته لكان روحاً، ولما كانت الحياة الحيوانية ملازمة للروح وجدت يحيى عند روح الله عيسى لأن الروح حي بلا شك وما كل حيّ روح فسلمت عليهما فقلت له: بماذا زدت علينا حتى سماك الله بالروح المضاف إلى الله؟ فقال: ألم تر إلى من وهبني لأمي ففهمت ما قال فقال لي: لولا هذا ما أحييت الموتى، فقلت له: فقد رأينا من أحيا الموتى ممن لم تكن نشأته كنشأتك، فقال: ما أحيا الموتى من أحياهم إلا بقدر ما ورثه عني فلم يقم في ذلك مقامي كما لم أقم أنا مقام من وهبني في إحياء الموتى، فإن الذي وهبني يعني جبريل ما يطأ موضعاً إلا حيي ذلك الموضع بوطأته وأنا ليس كذلك، بل حظنا أن نقيم الصور بالوطء خاصة والروح الكل يتولى أرواح تلك الصور وما يطؤه الروح الذي وهبني هو يعطي الحياة في صورة ما أظهره الوطء فاعلم ذلك. ثم رددت وجهي إلى يحيى عليه السلام وقلت له: أخبرت أنك تذبح الموت إذا أتى الله به يوم القيامة فيوضع بين الجنة والنار ليراه هؤلاء وهؤلاء ويعرفون أنه الموت في صورة كبش أملح قال نعم ولا ينبغي ذلك إلا لي فإني يحيى وأن ضدي لا يبقى معي وهي دار الحيوان فلا بد من إزالة الموت فلا مزيل له سواي، فقلت له صدقت فيما أشرت إلي به ولكن في العالم يحيى كثير فقال لي: ولكن لي مرتبة الأولية في هذا الاسم فبي يحيى كل من يحيى من الناس من تقدم ومن تأخر وأن الله ما جعل لي من قبل سمياً، فكل يحيى تبع لي فبظهوري لا حكم لهم فنبهني على شيء لم يكن عندي فقلت: جزاك الله عني خيراً من صاحب موروث وقلت: الحمد لله الذي جمعكما في سماء واحدة أعني روح الله عيسى ويحيى عليهما السلام حتى أسألكما عن مسألة واحدة فيقع الجواب بحضور كل واحد منكما فإنكما خصصتما بسلام الحق، فقيل في عيسى أنه قال في المهد ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣٣] وقيل في يحيى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ١٥] فأخبر عيسى عن نفسه بسلام الحق عليه، والحق أخبر بسلامه على يحيى فأيّ مقام أتم؟ فقال لي:

ألست من أهل القرآن؟ قلت له: بلى أنا من أهل القرآن فقال: انظر فيما جمع الحق بيني وبين ابن خالتي أليس قد قال الله فيّ: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩] فعينني في النكرة فقلت له: نعم، قال: ألم يقل في عيسى ابن خالتي أنه ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كما قال عني فعينه في النكرة ثم قال: إن عيسى هذا لما كان كلامه في المهد دلالة على براءة خالتي مما نسب إليها لم يترجم عن الله إلا هو بنفسه فقال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ يعني من الله، قلت له: صدقت قلت ولكن سلم بالتعريف وسلام الحق عليك بالتنكير والتنكير أعم، فقيل لي: ما هو تعريف عين بل هو تعريف جنس فلا فرق بينه بالألف واللام وبين عدمهما فأنا وإياه في السلام على السواء وفي الصلاح كذلك، وجاء الصلاح لنا بالبشرى فيّ وفي عيسى بالملائكة، فقلت له: أفدتني أفادك الله فقلت له: فلم كنت حصوراً؟ فقال: ذلك من أثر همة والدي في استفراغه في مريم البتول والبتول المنقطعة عن الرجال لما دخل عليها المحراب ورأى حالها فأعجبه فدعا الله أن يرزقه ولداً مثلها فخرجت حصوراً منقطعاً عن النساء فما هي صفة كمال وإنما كانت أثر همة فإن في الإنتاج عين الكمال، قلت له: فنكاح الجنة ما فيه نتاج، فقال: لا تقل بل هو نتاج ولا بدو ولادته نفس تخرج من الزوجة عند الفراغ من الجماع فإن الإنزال ريح كما هو في الدنيا ماء فيخرج ذلك الريح بصورة ما وقع عليه الاجتماع بين الزوجين، فمنا من يشهد ذلك ومنا من لا يشهده كما هو الأمر عليه في الدنيا عالم غيب لمن غاب عنه وعالم شهادة في حق من شهده، قلت له: أفدتني أفادك الله من نعمة العلم به ثم قلت له: هذه سماؤك؟ قال لي: لا أنا متردد بين عيسى وهارون أكون عند هذا وعند هذا، وكذلك عند يوسف وإدريس عليهما السلام فقلت له: فلماذا خصصت هارون دون غيره من الأنبياء؟ فقال لي لحرمة النسب ما جئت لعيسى إلا لكونه ابن خالتي فأزوره في سمائه وآتي إلى هارون لكون خالتي أختاً له ديناً ونسباً، قلت: فما هو أخوها لأن بينهما زماناً طويلاً وعالماً فقال لي قوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣] ما هذه الأخوة؟ أترى هو أخو ثمود لأبيه وأمه فهو أخوهم فسمى القبيلة باسم ثمود وكان صالح من نسل ثمود فهو أخوهم بلا شك ثم جاء بعد ذلك بالدين، ألا ترى أصحاب الأيكة لما لم يكونوا من مدين وكان شعيب من مدين فقال في شعيب أخو مدين وإلى مدين أخاهم شعيباً، ولما جاء ذكر أصحاب الأيكة قال: إذ قال لهم شعيب ولم يقل أخاهم لأنهم ليسوا من مدين وشعيب من مدين فزيارتي لهما صلة رحم وأنا لعيسى أقرب مني لهارون. ثم عرج بي إلى السماء الثالثة إلى يوسف عليه السلام فقلت له بعد أن سلمت عليه فرد وسهل بي ورحب: يا يوسف لم لم تجب الداعي حين دعاك ورسول الله ﷺ يقول عن نفسه أنه لو ابتلي بمثل ما ابتليت به ودعي لأجاب الداعي ولم يبق في السجن حتى يأتيه الجواب من الملك بما تقول النسوة، فقال لي: بين الذوق والفرض ما بين السماء والأرض كثير بين أن تفرض الأمر أو تذوقه من نفسك لو نسب إليه ﷺ ما نسب إلي لطلب صحة البراءة في غيبته فإنها أدل على براءته من حضوره، ولما كان رحمة كان من عالم السعة والسجن ضيق، فإذا جاء لمن حاله هذا سارع إلى الانفراج وهذا فرض، فالكلام مع التقدير

المفروض ما هو مثل الكلام مع الذائق، ألا تراه ﷺ ما ذكر ذلك إلا في معرض نسبة الكمال إليَّ فيما تحملته من الفرية عليّ فقال ذلك أدباً معي لكوني أكبر منه بالزمان كما قال في إبراهيم نحن أحق بالشك من إبراهيم فيما شك فيه إبراهيم، وكما قال في لوط: «**يَرْحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى رُكْن شَديد**» أتراه أكذبه حاشى لله فإن الركن الشديد الذي أراده لوط هو القبيلة والركن الشديد الذي ذكره رسول الله ﷺ هو الله، فهذا تنبيه لك أن لا تجري نفسك فيما لا ذوق لك فيه مجرى من ذاق، فلا تقل لو كنت أنا عوض فلان لما قيل له كذا وقال كذا ما كنت أقوله لا والله بل لو نالك ما ناله لقلت ما قاله، فإن الحال الأقوى حاكم على الحال الأضعف. وقد اجتمع في يوسف وهو رسول الله حالان: حال السجن وحال كونه مفترى عليه، والرسول يطلب أن يقرّر في نفس المرسل إليه ما يقبل به دعاء ربه فيما يدعوه به إليه، والذي نسب إليه معلوم عند كل أحد أنه لا يقع من مثل من جاء بدعوته إليهم فلا بد أن يطلب البراءة من ذلك عندهم ليؤمنوا بما جاء به من عند ربه ولم يحضر بنفسه ذلك المجلس حتى لا تدخل الشبهة في نفوس الحاضرين بحضوره، وفرق كبير بين من يحضر في مثل هذا الموطن وبين من لا يحضر، فإذا كانت المرأة لم تخن يوسف في غيبته لما برأته وأضافت المراودة لنفسها لتعلم أن يوسف لم يخن العزيز في أهله وعلمت أنه أحق بهذا الوصف منها في حقه فما برأت نفسها بل قالت: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] فمن فتوّة يوسف عليه السلام إقامته في السجن بعد أن دعاه الملك إليه وما علم قدر ذلك إلا رسول الله ﷺ حيث قال عن نفسه: «**لأَجَبْتُ الدَّاعي**» ثناء على يوسف، فقلت له: فالاشتراك في إخبار الله عنك إذ قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤] ولم يعين فيماذا يدل في اللسان على أحدية المعنى فقال: ولهذا قلت للملك على لسان رسوله أن يسأل عن النسوة وشأن الأمر، فما ذكرت المرأة إلا أنها راودته عن نفسه وما ذكرت أنه راودها فزال ما كان يتوهم من ذلك، ولما لم يسم الله في التعبير عن ذلك أمراً ولا عين في ذلك حالاً فقلت له: لا بد من الاشتراك في اللسان قال: صدقت فإنها همت بي لتقهرني على ما تريده مني وهممت أنا بها لأقهرها في الدفع عن ذلك، فالاشتراك وقع في طلب القهر مني ومنها فلهذا قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ﴾ [يوسف: ٢٤] يعني في عين ما هم بها وليس إلا القهر فيما يريد كل واحد من صاحبه دليل ذلك قولها: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١] وما جاء في السورة قط أنه راودها عن نفسها، فأراه الله البرهان عند إرادته القهر في دفعها عنه فيما تريده منه، فكان البرهان الذي رآه أن يدفع عن نفسه بالقول اللين كما قال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] أي لا تعنف عليها وتسبها فإنها امرأة موصوفة بالضعف على كل حال، فقلت له: أفدتني أفادك الله.

ثم ودّعته وانصرفت إلى إدريس عليه السلام فسلمت عليه فرد وسهل ورحب وقال: أهلاً بالوارث المحمدي فقلت له: كيف أبهم عليك الأمر على ما وصل إلينا؟ فما علمت أمر الطوفان بحيث لا تشك فيه والنبيّ واقف مع ما يوحى به إليه فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ

يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٤٧] فهذا مما أوحي به إليّ قلت له: وصلني عنك أنك تقول بالخرق فقال: فلولا الخرق ما رفعت مكاناً علياً، فقلت: فأين مكانتك من مكانك؟ فقال: الظاهر عنوان الباطن، قلت: بلغني أنك ما طلبت من قومك إلا التوحيد لا غير، قال: وما فعلوا فإن كنت نبياً أدعو إلى كلمة التوحيد لا إلى التوحيد فإني التوحيد ما أنكره أحد، قلت هذا غريب ثم قلت: يا واضع الحكم الاجتهاد في الفروع مشروع عندنا وأنا لسان علماء الزمان، قال: وفي الأصول مشروع فإن الله أجلّ أن يكلف نفساً إلا وسعها، قلت: فلقد كثر الاختلاف في الحق والمقالات فيه، قال: لا يكون إلا كذلك فإن الأمر تابع للمزاج، قلت فرأيتكم معاشر الأنبياء ما اختلفتم فيه، فقال: لأنا ما قلناه عن نظر وإنما قلناه عن الّ واحد فمن علم الحقائق علم أن اتفاق الأنبياء أجمعهم على قول واحد في الله بمنزلة قول واحد من أصحاب النظر، قلت: فهل الأمر في نفسه كما قيل لكم فإن أدلة العقول تحيل أموراً مما جئتم به في ذلك، فقال: الأمر كما قيل لنا وكما قال من قال فيه فإن الله عند قول كل قائل ولهذا ما دعونا الناس إلا إلى كلمة التوحيد لا إلى التوحيد، ومن تكلم في الحق من نظره ما تكلم في محظور، فإن الذي شرع لعباده توحيد المرتبة وما ثم إلا من قال بها، قلت: فالمشركون قال: ما أخذوا إلا بالوضع فمن حيث كذبوا في أوضاعهم واتخذوها قربة ولم ينزلوها منزلة صاحب تلك الرتبة الأحدية، قلت: فإني رأيت في واقعتي شخصاً بالطواف أخبرني أنه من أجدادي وسمى لي نفسه فسألته عن زمان موته فقال لي: أربعون ألف سنة، فسألته عن آدم لما تقرّر عندنا في التاريخ لمدته فقال لي: عن أي آدم تسأل عن آدم الأقرب؟ فقال: صدق إني نبيّ الله ولا أعلم للعالم مدة نقف عندها بجملتها إلا أنه بالجملة لم يزل خالقاً ولا يزال دنيا وآخرة والآجال في المخلوق بانتهاء المدد لا في الخلق، فالخلق مع الأنفاس يتجدد، فما أعلمناه علمناه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فقلت له: فما بقي لظهور الساعة؟ فقال: اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون، قلت: فعرّفني بشرط من شروط اقترابها: فقال وجود آدم من شروط الساعة، قلت: فهل كان قبل الدنيا دار غيرها؟ قال: دار الوجود واحدة والدار ما كانت دنيا إلا بكم والآخرة ما تميزت عنها إلا بكم وإنما الأمر في الأجسام أكوان واستحالات وإتيان وذهاب لم يزل ولا تزال، قلت: ما ثم؟ قال: ما ندري وما لا ندري، قلت: فأين الخطأ من الصواب؟ قال: الخطأ أمر إضافيّ والصواب هو الأصل فمن عرف الله وعرف العالم عرف أن الصواب هو الأصل المستصحب الذي لا يزال وأن الخطأ بتقابل النظرين ولا بد من التقابل فلا بد من الخطأ فمن قال بالخطأ قال بالصواب، ومن قال بعدم الخطأ قال صواباً وجعل الخطأ من الصواب، قلت: من أي صفة صدر العالم؟ قال: من الجود، قلت: هكذا سمعت بعض الشيوخ يقول: قال صحيح ما قال، قلت: وإلى ماذا يكون المآل بعد انتقالنا من يوم العرض؟ قال: رحمة الله وسعت كل شيء، قلت: أيّ شيء؟ قال: الشيئيتان فالباقي أبقاه برحمته والذي أوجده أوجده برحمته ثم قال: محالّ العوارض ثابتة في وجودها والعوارض تتبدل عليها بالأمثال والأضداد، قلت: ما الأمر الأعظم؟ قال: العالم به أعظم.

ثم ودّعته وانصرفت، فنزلت بهارون عليه السلام فوجدت يحيى قد سبقني إليه فقلت له: ما رأيتك في طريقي فهل ثم طريق أخرى؟ فقال: لكل شخص طريق لا يسلك عليها إلا هو، قلت: فأين هي هذه الطرق؟ فقال: تحدث بحدوث السلوك، فسلمت على هارون عليه السلام فردّ وسهل ورحب وقال: مرحباً بالوارث المكمل، قلت: أنت خليفة الخليفة مع كونك رسولاً نبياً؟ فقال: أما أنا فنبيّ بحكم الأصل وما أخذت الرسالة إلا بسؤال أخي فكان يوحى إليّ بما كنت عليه، قلت: يا هارون إن ناساً من العارفين زعموا أن الوجود ينعدم في حقهم فلا يرون إلا الله ولا يبقى للعالم عندهم ما يلتفتون به إليه في جنب الله ولا شك أنهم في المرتبة دون أمثالكم وأخبرنا الحق أنك قلت لأخيك في وقت غضبه ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] فجعلت لهم قدراً وهذا حال يخالف حال أولئك العارفين، فقال: صدقوا فإنهم ما زادوا على ما أعطاهم ذوقهم ولكن انظر هل زال من العالم ما زال عندهم؟ قلت: لا، قال: فنقصهم من العلم بما هو الأمر عليه على قدر ما فاتهم فعندهم عدم العالم فنقصهم من الحق على قدر ما انحجب عنهم من العالم فإن العالم كله هو عين تجلي الحق لمن عرف الحق فأين تذهبون؟ إن هو إلا ذكر للعالمين بما هو الأمر عليه: [المتقارب]

فـلـيـس الـكـمـالُ سِـوَى كَـوْنِـهِ ... فـمـن فَـاتَـهُ لـيـس بـالـكَـامِـلِ
فـيـا قـائـلاً بـالـفَـنـاء اتَّـئِـدْ ... وحَـوْصِـلْ مـن الـسُّـنْـبُـلِ الـحَـاصِـلِ
ولا تَـرْكُـنَـنَّ إلـى فـائـتٍ ... ولا تَـبِـعِ الـنَّـقْـدَ بـالآجِـلِ
ولا تُـتْـبِـعِ الـنَّـفْـسَ أغْـراضَـهـا ... ولا تَـمْـزُجِ الـحَـقَّ بـالـبـاطِـلِ

ثم ودّعته ونزلت بموسى عليه السلام فسلمت عليه فردّ وسهل ورحب فشكرته على ما صنع في حقنا مما اتفق بينه وبين نبينا محمد ﷺ في المراجعة في حديث فرض الصلوات فقال لي: هذه فائدة علم الذوق فللمباشرة حال لا يدرك إلا بها، قلت: ما زلت تسعى في حق الغير حتى صح لك الخير كله، فقال: سعي الإنسان في حق الغير إنما يسعى لنفسه في نفس الأمر فما يزيده ذلك إلا شكر الغير والشاكر ذاكر لله بأحب المحامد لله وللساعي منطقة بتلك المحامد، فالساعي ذاكر لله بلسانه ولسان غيره، قال الله تعالى لموسى عليه السلام: يا موسى اذكرني بلسان لم تعصني به، فأمره أن يذكره بلسان الغير فأمره بالإحسان والكرم، ثم قلت له: إن الله اصطفاك على الناس برسالته وبكلامه وأنت سألت الرؤية ورسول الله ﷺ يقول: إن أحدكم لا يرى ربه حتى يموت فقال: وكذلك كان لما سألته الرؤية أجابني فخررت صعقاً فرأيته تعالى في صعقتي، قلت: موتاً؟ قال: موتاً، قلت: فإن رسول الله ﷺ شك في أمرك إذا وجدك في يوم البعث فلا يدري أجوزيت بصعقة الطور فلم تصعق في نفخة الصعق فإن نفخة الصعق ما تعم فقال: صدقت كذلك كان جازاني الله بصعقة الطور فما رؤيته تعالى حتى مت ثم أفقت فعلمت من رأيت ولذلك قلت: تبت إليك فإني ما رجعت إلا إليه، فقلت: أنت من جملة العلماء بالله فما كانت رؤية الله عندك حين سألته إياها؟ فقال؟ واجبة وجوباً عقلياً، قلت: فبماذا اختصصت به دون غيرك؟ قال: كنت أراه وما كنت أعلم أنه هو فلما

اختلف عليّ الموطن ورأيته علمت من رأيت فلما أفقت ما انحجبت واستصحبتني رؤيته إلى أبد الأبد، فهذا الفرق بيننا وبين المحجوبين عن علمهم بما يرونه فإذا ماتوا رأوا الحق فميزه لهم الموطن فلو ردّوا لقالوا مثل ما قلنا، قلت: فلو كان الموت موطن رؤيته لرآه كل ميت وقد وصفهم الله بالحجاب عن رؤيته قال: نعم هم المحجوبون عن العلم به أنه هو وإذا كان في نفسك لقاء شخص لست تعرفه بعينه وأنت طالب له من اسمه وحاجتك إليه فلقيته وسلمت عليه وسلم عليك في جملة من لقيت ولم يتعرَّف إليك فقد رأيته وما رأيته فلا تزال طالباً له وهو بحيث تراه فلا معوّل إلا على العلم، ولهذا قلنا في العلم أنه عين ذاته إذ لو لم يكن عين ذاته لكان المعوّل عليه غير إله ولا معوّل إلا على العلم، قلت: إن الله دلك على الجبل وذكر عن نفسه أنه تجلى للجبل فقال لا يثبت شيء لتجليه فلا بدّ من تغير الحال فكان الدك للجبل كالصعق لموسى يقول موسى: فالذي دكه أصعقني، قلت له: إن الله تولى تعليمي فعلمت منه على قدر ما أعطاني، فقال: هكذا فعله مع العلماء به فخذ منه لا من الكون فإنك لن تأخذ إلا على قدر استعدادك فلا يحجبنك عنه بأمثالنا فإنك لن تعلم منه من جهتنا إلا ما نعلم منه من تجليه، فإنا لا نعطيك منه إلا على قدر استعدادك فلا فرق فانتسب إليه فإنه ما أرسلنا إلا لندعوكم إليه لا لندعوكم إلينا فهي ﴿كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤] قلت: كذا جاء في القرآن، قال: وكذلك هو، قلت: بماذا سمعت كلام الله؟ قال: بسمعي، قلت: وما سمعك؟ قال: هو، قلت: فبماذا اختصصت؟ قال: بذوق في ذلك لا يعلمه إلا صاحبه، قلت له: فكذلك أصحاب الأذواق، قال: نعم والأذواق على قدر المراتب.

ثم ودّعته وانصرفت فنزلت بإبراهيم الخليل عليه السلام فسلمت عليه فردّ وسهل ورحب فقلت يا أبت لم قلت: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣] قال: لأنهم قائلون بكبرياء الحق على آلهتهم التي اتخذوها، قلت: فإشارتك بقولك هذا قال أنت تعلمها قلت: إني أعلم أنها إشارة ابتداء وخبره محذوف يدل عليه قولك: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ إقامة الحجة عليهم منهم، فقال: ما زدت على ما كان عليه الأمر، قلت: فما قولك في الأنوار الثلاثة أكان عن اعتقاد؟ قال: لا بل عن تعريف لإقامة الحجة على القوم ألا ترى إلى ما قال الحق في ذلك: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] وما كان اعتقاد القوم في الإله إلا أنه نمروذ بن كنعان لم تكن تلك الأنوار آلهتهم ولا كان نمروذ إلهاً عندهم لهم وإنما كانوا يرجعون في عبادتهم لما نحتوه آلهة لا إليه ولذلك لما قال إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] لم يجرؤ نمروذ أن ينسب الإحياء والإماتة لآلهتهم التي وضعها لهم لئلا يفتضح فقال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فعدل الى نفسه تنزيهاًلآلهتم عندهم حتى لا يتزلزل الحاضرون، ولما علم إبراهيم قصور إفهام الحاضرين عما جاء به لو فصله وطال المجلس فعدل إلى الأقرب في أفهامهم فذكر حديث إتيان الله بالشمس من المشرق وطلبه أن يأتي بها من المغرب فبهت الذي كفر فقلت له: هذا إعجاز من الله كونه بهت فيما له

فيه مقال وإن كان فاسداً، لأنه لو قاله قيل له قد كانت الشمس طالعة من المشرق وأنت لم تكن وأكذبه من تقدمه بالسنّ على البديهة فقال: وما المقال؟ قلت: يقول ما نفعل الأمر بحكمك ولا تبطل الحكمة لأجلك قال: صدقت فكان بهته إعجازاً من الله سبحانه حتى علم الحاضرون أن إبراهيم عليه السلام على الحق ولم يكن لنمروذ أن يدعي الألوهة، ثم رأيت البيت المعمور فإذا به قلبي وإذا بالملائكة التي تدخله كل يوم تجلى الحق له سبحانه الذي وسعه في سبعين ألف حجاب من نور وظلمة فهو يتجلى فيها لقلب عبده لو تجلى دونها لأحرقت سبحات وجهه عالم الخلق من ذلك العبد، فلما فارقته جئت سدرة المنتهى فوقفت بين فروعها الدنيا والقصوى وقد غشيتها أنوار الأعمال وصدحت في ذرى أفنائها طيور أرواح العاملين وهي على نشأة الإنسان. وأما الأنهار الأربعة فعلوم الوهب الإلهي الأربعة التي ذكرناها في جزء لنا سميناه مراتب علوم الوهب، ثم عاينت متكآت رفارف العارفين فغشيتني الأنوار حتى صرت كلي نوراً وخلع علي خلعة ما رأيت مثلها فقلت: إلهي الآيات شتات فأنزل عليّ عند هذا القول: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤] فأعطاني في هذه الآية كل الآيات وقرب عليّ الأمر وجعلها لي مفتاح كل علم، فعلمت أني مجموع من ذكر لي وكانت لي بذلك البشرى بأني محمديّ المقام من ورثة جمعية محمد ﷺ فإنه آخر مرسل وآخر من إليه تنزل آتاه الله جوامع الكلم وخص بست لم يخص بها رسول أمّة من الأمم، فعم برسالته لعموم ست جهاته، فمن أي جهة جئت لم تجد إلا نور محمد ينفهق عليك فما أخذ أحد إلا منه ولا أخبر رسول إلا عنه، فعندما حصل لي ذلك قلت: حسبي حسبي قد ملأ أركاني فما وسعني مكاني وأزال عني به إمكاني فحصلت في هذا الإسراء معاني الأسماء كلها فرأيتها ترجع إلى مسمى واحد وعين واحدة، فكان ذلك المسمى مشهودي وتلك العين وجودي، فما كانت رحلتي إلا فيّ ودلالتي إلا عليّ، ومن هنا علمت أني عبد محض ما فيّ من الربوبية شيء أصلاً. وفتحت خزائن هذا المنزل فرأيت فيها من العلوم علم أحدية عبودة التشريف ولم أكن رأيته قبل ذلك، وإنما كنت رأيت جمعية العبودية ورأيت علم الغيب بعين الشهادة وأين منقطع الغيب من العالم ويرجع الكل في حق العبد شهادة، وأعني بالغيب غيب الوجود أي ما هو في الوجود وهو مغيب عن بعض الأبصار والبصائر، وأما غيب ما ليس بموجود فمفتاح ذلك الغيب لا يعلمه إلا هو تعالى. ورأيت فيه علم القرب والبعد ممن وعمن. ورأيت فيه علم خزائن مزيد العلوم متنزيلها على قلوب العارفين وبمن تحق ومن يقسمها ورأيت فيه علم خزائن مزيد العلوم وتنزلها على قلوب العارفين وبمن تحق ومن يقسمها على القلوب وما ينزل منها عن سؤال وعن غير سؤال، فإذا سأل الإنسان مزيد العلم فليسأل كما أمر الله تعالى نبيه أن يسأل إذ قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فنكر ولم يعين فعم، فأي علم نزل عليه دخل تحت هذا السؤال فإن النزول عن سؤال أعظم لذة من النزول عن غير سؤال، فإن في ذلك إدراك البغية وذلة

الافتقار وإعطاء الربوبية حقها والعبودية حقها، فإن العبد مأمور أن يعطي كل شيء حقه كما أعطى الله كل شيء خلقه. وفي العلم المنزل عن السؤال من علوّ المنزلة ما لا يقدر قدر ذلك إلا الله، ورأيت علم حصر الآيات في السمع والبصر فإما شهود وإما خبر، ورأيت التوراة وعلم اختصاصها بما كتبها الله بيده وتعجبت من ذلك كيف كتبها بيده ولم يحفظها من التبديل والتحريف الذي حرَّفه اليهود أصحاب موسى، فلما تعجبت من ذلك قيل لي في سرّي: اسمع الخطاب، بل أرى المتكلم وأشهده في اتساع رحمة أنا فيها واقف وقد أحاطت بي فقال لي: أعجب من ذلك أن خلق آدم بيديه وما حفظه من المعصية ولا من النسيان وأين رتبة اليد من اليدين؟ فمن هذا فاعجب، وما توجهت اليدان إلا على طينته وطبيعته، وما جاءته الوسوسة إلا من جهة طبيعته لأن الشيطان وسوس إليه وهو مخلوق من جزء ما خلق منه آدم فما نسي ولا قبل الوسوسة إلا من طبيعته وعلى طبيعته توجهت اليدان، ثم مع هذا فما حفظه مما حمله في طينته من عصاة بنيه، فلا تعجب لتغيير اليهود التوراه فإن التوراة ما تغيرت في نفسها وإنما كتابتهم إياها وتلفظهم بها لحقه التغيير، فنسب مثل ذلك إلى كلام الله فقال: ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: ٧٥] وهم يعلمون أن كلام الله معقول عندهم، وأبدوا في الترجمة عنه خلاف ما هو في صدورهم عندهم وفي مصحفهم المنزل عليهم فإنهم ما حرفوا إلا عند نسخهم من الأصل وأبقوا الأصل على ما هو عليه ليبقى لهم العلم ولعلمائهم، وآدم مع اليدين عصى بنفسه ولم يحفظ حفظ كلام الله فهذا أعجب، وإنما عصم كلام الله لأنه حكم والحكم معصوم ومحله العلماء به، فما هو عند العلماء محرف وهم يحرفونه لأتباعهم وآدم ما هو حكم الله فلا يلزمه العصمة في نفسه وتلزمه العصمة فيما ينقله عن ربه من الحكم إذا كان رسولاً هو وجميع الرسل وهذا علم شريف فإن الله ما جعل في العالم هدى لا يصح أن يعود عمى فإنه أبان لمن أوصله إليه، فما اتصف بالعمى إلا من لم يصل إليه الهدى من ربه، ومن قيل له هذا هدى لا يقال إنه وصل إليه حتى يكون هو الذي أنزل عليه الهدى وحصل له العلم بذلك فإن هذا لا يكون عنده عمى أبداً، فما استحب العمى على الهدى إلا من هو مقلد في الأمرين لأبناء جنسه، فالعمى يوافق طبعه والهدى يخالف طبعه فلذلك يؤثره عليه، فرأيت فيها علم من اتأد وعلى الله اعتمد، وهذا هو التوكل الخامس وهو قوله تعالى في سورة المزمل: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩]. ورأيت فيها علم ما ينال بالورث وعلم ما ينال بالكسب، ورأيت فيها علم الفرق بين شكر المكلف وشكر العبد. ورأيت فيها علم تنوع الأحكام لتنوّع الأزمان فإنه من المحال أن يقع شيء في العالم إلا بترتيب زماني وتقدم وتأخر ومفاضلة لأن الله أشهدني أسماءه فرأيتها تتفاضل لاشتراكها في أمور وتميزها في أمور مع الاشتراك، وكل اسم لا يقع فيه اشتراك مع اسم لا مفاضلة بين ذانك الاسمين فاعلم ذلك فإنه علم عزيز. ورأيت فيها علم تسليط العالم بعضه على بعض وما سببه فرأيته من حكم الأسماء الإلهية في طلبها ظهورها وولايتها وما هي عليها من الغيرة، ورأيتها تستعين بالمشارك لها من الأسماء فهي المعانة المعينة ولذلك خرج الخلق على صورتها فمنها المعان والمعين، ولما وقع الأمر

هكذا خاطبهم بحكم التعاون فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] فيكون ما فطروا عليه عباده فإنهم قد يتعاونون بتلك الحقيقة على الإثم والعدوان. ورأيت علم الجبر فرأيته آخر ما تنتهي إليه المعاذر وهو سبب مآل الخلق إلى الرحمة فإن الله يعذر خلقه بذلك فيما كان منهم فإنهم لا يبقى منهم إلا التضرّع الطبيعي، ولولا أن نشء الآخرة مثل نشء الدنيا ذو جسم طبيعي وروح ما صح من الشقي طلب ولا تضرع، إذ لو لم يكن هناك أمر طبيعي لم يكن للنفس إذا جهلت من ينبهها على جهلها لعدم إحساسها إذ لا حس لها إلا بالجزء الطبيعي الذي هو الجسد المركب وبالجهل شقاؤها، فكانت النفس بعد المفارقة إذا فارقت وهي على جهالة كان شقاؤها جهلها ولا تزال فيه أبداً، فمن رحمة الله بها أن جعل لها هذا المركب الطبيعي في الدنيا والآخرة، وما كل أحد يعلم حكمة هذا المركب الذي لا يخلو حيوان عنه. ورأيت علم الرجعة وهو علم البعث وحشر الأجساد في الآخرة وأن الإنسان إذا انتقل عن الدنيا لن يرجع إليها أبداً لكنها تنتقل معه بانتقاله، فمن هذه الدار من ينتقل إلى الجنة، ومنهم من ينتقل إلى النار والجنة تعم الدار ونعيمها فإنه ما يبقى دار إلا الجنة والنار، والدنيا لا تنعدم ذاتها بعد وجودها ولا شيء موجود فلا بد أن يكون في الدارين أو في أحدهما فأعطى الكشف أن تكون مقسمة بين الدارين، وقد ورد في الخبر النبويّ من ذلك ما فيه غنية وكان بعض الصحابة يقول: يا بحر متى تعود ناراً؟ وهو الحميم الذي يشربه أهل النار. وقوله ﷺ في الأنهار الأربعة: «**إنها من الجنَّةِ**» فذكر سيحان وجيحان والنيل والفرات، و«**بَيْنَ قَبْرِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ**» ومجالس الذكر حيث كانت روضات من روضات الجنة، والأخبار في ذلك كثيرة، ولسنا من أهل التقليد بحمد الله، بل الأمر عندنا كما آمنا به من عند ربنا شهدناه عياناً.

ورأيت فيها علم مرتبة قول النبي ﷺ: «**إنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ**» وأن ذلك من الشرف والمجد في موطنه فلا يهمل مثل هذا فإن لكل موطن شرفاً يخصه لا يكون شرفه إلا به، وهنا زلت جماعة من العارفين حيث لم يفرقوا بين شرف النفوس وشرف العقول وأنهما لا يتداخلان وأن الكمال في وجود الشرفين. ورأيت فيها علم ما يرى الإنسان إلا ما كان عليه سواء عرف ذلك أو جهله فإنه لا بد أن يشهده فيعرفه في الموضع الذي لا ينفعه العلم به ولا مشاهدته إياه.

ورأيت فيها علم التداخل والدور وهو أنه لا يكون الحق إلا بصورة الخلق في الفعل ولا يكون الخلق فيه بصورة الحق فهو دور لا يؤدي إلى امتناع الوقوع بل هو الواقع الذي عليه الأمر فإن الله لا يمل حتى تملوا، فهذا حكم خلق في حق، وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] فهذا منه كما كان عوده ومآله منا. ورأيت فيها علم منزلة القرآن من العالم ولمن جاء وبما جاء وإلى أين يعود. ورأيت فيها علم التلبيس وأن أصله العجلة من الإنسان، فلو اتئد وتفكر وتبصر لم يلتبس عليه أمر وقليل فاعل ذلك. ورأيت فيها علم الليل وحده والنهار وحده والزمان وحده واليوم وحده والدهر وحده والعصر وحده والمدة وحدها. ورأيت فيها علم التفصيل وفيما ظهر. ورأيت فيها علم ما لزم الإنسان من حكم الله الذي فصله الشرع فلا ينفك عنه. ورأيت فيها علم تقابل

النسختين وأن الإنسان في نفسه كتاب ربه. ورأيت فيها علم سبب وجوب العذاب في الآخرة وهو جلي، والعلم الخفي إنما هو في وجود سبب عذاب الدنيا ولا سيما في حق الطفل الرضيع وهل الطفل الرضيع وجميع الحيوان لهم تكليف إلهي برسول منهم في ذواتهم لا يشعر به؟ وأن الصغير إذا كبر وكلف لا يشعر ولا يتذكر تكليفه في حال صغره لما يقوم به من الآلام، وبالحيوان فإنه تعالى ما يعذب ابتداء ولكن يعذب جزاء، فإن الرحمة لا تقتضي في العذاب إلا الجزاء للتطهير، ولولا التطهير ما وقع العذاب، وهذا من أسرار العلم الذي اختص الله به من شاء من عباده ولكل أمة رسول ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وما من شيء في الوجود إلا وهو أمة من الأمم، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] في كل شيء. وقال ﷺ في الكلاب: «**إنها أمة من الأمم**» فعمت الرسالة الإلهية جميع الأمم صغيرهم وكبيرهم، فما من أمة إلا وهي تحت خطاب إلهي على لسان نذير بعث إليها منها وفيها. ورأيت فيها علم حكم الوجوب الموسع المخير كأوقات الصلوات والتخيير في الكفارات. ورأيت فيها علم كون الحق مع إرادة العبد لا يخالفه وهذه الصفة بالعبد أولى فكما أمر الله عبده فعصاه كذلك دعاه عبده فلم يجبه فيما سأل فيه كما أمره فلم يطعه، ألا ترى إلى الملائكة لما لم تعص أمر الله أجابها الله في كل ما سألته فيه حتى أن العبد إذا وافق في الصلاة تأمينه تأمين الملائكة غفر له، ورأيت فيها عموم العطاء الإلهي وأنه من الكرم الإلهي إتيان الكبائر في العالم المكلف فإنه لا بد لطائفة من التبديل فيبدل بها كبير بكبير: [مخلع البسيط]

إحياءُ نَفْسٍ بقَتْلِ نَفْسِ ... في كُلِّ نَوْعٍ وكلِّ جِنْسِ

فمن الناس من يبدل له بالتوبة والعمل الصالح، ومن الناس من يبدل له بعد أخذ العقوبة حقها منه، وسبب إنفاذ الوعيد في حق طائفة حكم المشيئة الإلهية، فإذا انتهت المدة طلبت المشيئة في أولئك تبديل العذاب الذي كانوا فيه بالنعيم المماثل له فإن حكم المشيئة أقوى من حكم الأمر وقد وقع التبديل بالأمر، فهو بالإرادة أحق بالوقوع، وستر الله هذا العلم عن بعض عباده وأطلع عليه من شاء من عباده، وهو من علم الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً ولذلك قال الحق تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] غفوراً أي يستر رحيماً بذلك الستر بعد قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] وقال في المسرفين: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] فجاء بالمغفرة والرحمة في حق التائب وصاحب العمل الصالح كما جاء بهما في المسرفين الذين لم يتوبوا ونهاهم عن القنوط وأكد بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ وأكثر من هذا الإفصاح الإلهي في مآل عباده إلى الرحمة ما يكون مع عمارة الدارين الجنة وجهنم، وأن لكل واحدة منهما ملأها لا يخرجون منها، فعطاء الله لا مانع له، وإنما الاسم المانع إنما متعلقه أن نعيم زيد ممنوع عن عمرو، كما أن نعيم عمرو ممنوع عن زيد، فهذا حكم المانع لا أنه يمنع شمول الرحمة. ورأيت فيها علم الفرق بين مفاضلة المفضولين في الدنيا وبينهم

في الآخرة. ورأيت فيها علم من ترك ما هو عليه لماذا ترك وسببه. ورأيت فيها علم أن الله هو المعبود في كل معبود من خلف حجاب الصورة. ورأيت فيها علم الرفق بالعالم ومعاملة كل صنف بما يليق به من الرفق. ورأيت فيها علم ما يجني الإنسان إلا ثمرة غرسه لا غير. ورأيت فيها علم الحدود في التصرفات ومقاديرها وأوزانها ورأيت فيها علم التخلق بالأخلاق الإلهية من كونه رباً خاصة. ورأيت فيها علم حكم مرتبة الجزء من الكل وإن كان الجزء على صورة الكل. ورأيت فيها علم نتاج المقدمتين الفاسدتين علماً صحيحاً مثل كل إنسان حجر وكل حجر حيوان فكل إنسان حيوان، فلم يلزم من فساد المقدمتين أن لا تكون النتيجة صحيحة وهذا لا يعرف ميزانه. ورأيت فيها علم تأثير المثل في مثله بماذا أثر فيه وليس أحدهما بأولى من الآخر ولا أحق بنسبة التأثير إليه والمثلان ضدان فافهم. ورأيت فيها علم العبث وكيف يصح مع قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾ [صَ: ٢٧] والعبث فيما بينهما، فبأي نظر يكون عبثاً وبأي نظر لا يكون باطلاً، وقول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] فقيد وما قيد الباطل. ورأيت علم فضل الذكور على الإناث وهي مفاضلة عرضية لا ذاتية. ورأيت فيها علم أحكام المحال والحال والمكان والمتمكن فيه. ورأيت فيها علم الحجب المانعة من التأثير الإلهي في المحجوب بها. ورأيت فيها علم سلطنة الأحدية وأنه لا يبقى لسلطانها أحد وهل يصح فيها تجل أو لا؟ فالذي قال بالتجلي فيها ما يريد هل أحدية الواحد أو أحدية المجموع؟ وكذلك من لا يقول بالتجلي فيها هل يريد أحدية الواحد أو أحدية المجموع؟ ورأيت فيها علم آداب السماع وترك الكلام عنده. ورأيت علم إلحاق الأدنى بالأعلى في حكم ضرب المثل له ومن هو هذا الأعلى وبماذا كان أعلى؟ ورأيت فيها علم المجبور على الثناء على من كان يذمه قبل الجبر. ورأيت فيها علم السبب المانع الذي يمنع العاقل من سلوك الأشد والأخذ بالأولى والأحق. ورأيت فيها علم العروج والنزول من الشخص الواحد لاختلاف الأحوال ومن نزل لماذا نزل ومن أنزله؟ ومن صعد لماذا صعد ومن أصعده؟ ورأيت فيها علم أحوال الناس في البرزخ فإنه تقابلت فيه الأخبار فهل يعم التقابل أو يخص؟ وهل العموم والخصوص في الزمان أو في الأشخاص؟ ورأيت فيها علم ما فائدة الآيات التي لا تأتي للإعجاز فلأي شيء أتت؟ ورأيت فيها علم ما السبب الذي أجرأ الضعيف من جميع الوجوه على القوي من جميع الوجوه مع علمه بأنه قادر على إهلاكه ورأيت فيها علم طاعة إبليس ربه في كل شيء إلا في السجود لآدم وما ذكر آدم بأنه عصى نهي الله، وقيل في إبليس أبى ولم يقل فيه عصى أمر الله هل ذلك شرف يرجع لآدم لكونه على الصورة وما لإبليس هذا المقام، وذكر الله في آدم أنه عصى ربه فذكر من عصى ولم يذكر في حق إبليس إلا أبى ولم يذكر أنه أبى امتثال أمر ربه، وفي آية أخرى قيل: ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١] وفي آية أخرى قيل: ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ [صَ: ٧٤] وفي آية أخرى قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] وفي آية أخرى قيل: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣١] فانظر ما أفادك

الحق في هذه الآيات وما في طيها من الأسرار. ورأيت فيها علم الاغترار. ورأيت فيها علم من فضل آدم من المخلوقين وأن فضله لم يعم، وهكذا أخبرني رسول الله ﷺ في واقعة رأيتها، وهكذا أخبر الخليل إبراهيم عليه السلام شيخنا أبا مدين بأن فضل آدم لم يعم. ورأيت فها علم الإمامة والإمام. ورأيت فيها علم أن الدنيا عنوان الآخرة وضرب مثال لها وأن حكم ما فيها هو أتم وأكمل في الآخرة. ورأيت فيها علم السبب الذي لأجله يميل قلب صاحب العلم بالشيء عما يعطيه علمه وما حكمه. ورأيت فيها علم سنة الله في عباده لا تتبدل. ورأيت فيها علم توقيت محادثة الحق التي لا بد لصاحب العناية منها والجمع بين الشهود والمحادثة وما يكون من المحادثة مسامرة، وأن الحق لا يمتنع من المسامرة ويمتنع من المحادثة في أوقات مّا وهي خطاب إلهي من العبد لله ومن الله للعبد وما ينتج هذا العلم لمن علمه يوم القيامة. ورأيت فيها علم أحوال الصادقين في حركاتهم في الدخول إلى ١
الحضرة الإلهية من العالم والخروج منها إلى العالم، وممن تمكن في هذا المقام أبو يزيد البسطامي. ورأيت فيها علم تشخص العدم حتى يقبل الحكم عليه بما يؤثر فيه الوجود وإن لم يكن كذلك فلا يعقل وصورته صورة تجلي الحق في أي صورة ظهر يحكم عليه بما يحكم به على تلك الصورة التي تجلى فيها ويستلزمه حكمها، ومن ذلك نسب إليه تعالى ما نسب من كل ما جاءنا في الكتاب والسنة ولا يلزم التشبيه. ورأيت فيها علم الطب الإلهي في الأجسام الطبيعية لا في الأخلاق وقد يكون في الأخلاق فإن مرض النفس بالأخلاق الدنية أعظم من مرض الأجسام الطبيعية. ورأيت فيها علم ما لا يتعدى العامل ما يقتضيه طبعه ومزاجه إن كان ذا مزاج، فإن كان العامل ممن لا مزاج له فإن عمله بحسب ما هو عليه في ذاته. ورأيت فيها علم حكم من يسأل عما يعلم فيجيب أنه لا يعلم فيكون ذلك علماً به عند السائل أنه يعلم ما سأله عنه، فإن أجابه بما يعلم كما هو الأمر في نفسه وعليه علم أنه لا يعلم المجيب ما سأل عنه السائل. ورأيت فيها علم التعاون على حصول العلم إذا وجد هل يحصل به كل علم يتعاون عليه أو يحصل به علم بعض العلوم دون بعض؟ ورأيت فيها علم سبب وضع الشرائع وإرسال الرسل. ورأيت فيها علم التحكم على الرسل ما سببه وهل هو محمود أو مذموم أو لا محمود ولا مذموم أو في موطن محمود وفي موطن مذموم؟ ورأيت فيها علم المانع من وقوع الممكنات دفعة واحدة أعني ما وقع منها وهل ذلك ممكن أم لا؟ وفيما يمكن ذلك وفيما لا يمكن، والذي يمكن فيه هل وقع أم لا؟ وما ثم إلا جوهر أو عرض حامل ومحمول قائم بنفسه وغير قائم بنفسه فيدخل في ذلك التقسيم الجسم وغيره، وهل الجسم مجموع أعراض وصفات والجوهر كذلك أم ليس كذلك؟ ورأيت فيها علم مرتبة التسعة من العدد. ورأيت فيها علم تعارض الخصمين ما أدّاهما إلى المنازعة هل أمر وجودي أو عدمي؟ ورأيت فيها علم الحق المخلوق به. ورأيت فيها علم تسمية الاسم الواحد من الأسماء بجميع الأسماء كما ذهب إليه صاحب خلع النعلين أبو القاسم بن قسي رحمه الله في كتاب خلع النعلين. ورأيت فيها علم مراتب المحامد وعواقبها. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والستون وثلاثمائة

في معرفة منزل الأفعال مثل أتى ولم يات وحضرة الأمر وحده

[نظم: الطويل]

إذا كان غَيْرُ الجنْس مِثْلِيَ في الفَضْل ... فأين امتيازي بالحديث عَن النَّحْلِ
أنا ناطقٌ والطيرُ مثلي ناطقٌ ... كما جاء في القرآن في سُورة النَّمْلِ
فلا تَفْرحنَّ إلا بما أنت واحدٌ ... به فوُجُودُ الشّكل يأنَسُ بالشَّكْلِ
لقد كان لي شَيْخٌ عزيزٌ مُقَدَّسٌ ... يقول بتفضيل الأمور وبالوَصْلِ

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] وهذا القول لا يكون إلا يوم القيامة فما وقع فعبر بالماضي عن المسقبل لتحقق وقوعه ولا بد وزوال حكم الإمكان فيه إلى حكم الوجوب وكل ما كان بهذه المثابة، فحكم الماضي فيه والمستقبل على السواء، وسياقه بالماضي آكد في الوقوع وتحققه من بقائه على الاستقبال.

اعلم يا ولي أسعدك الله بالحق ونطقك به أن جماعة من أهل الله غلطوا في أمر جاء من عند الله تعالى وساعدناهم في غلطهم وما ساعدناهم ولكن مشينا أقوالهم لانتمائهم إلى الله حتى لا ينتمي إليه سبحانه إلا أهل حق وصدق، وذلك أن الأمر الذي غلطوا فيه علم الحق المخلوق به وجعلوا هذا المخلوق به عيناً موجودة لما سمعوا الله يقول إنه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ٣] وما أشبه هذه الآيات الواردة في القرآن، والباء هنا بمعنى اللام ولهذا قال تعالى في تمام الآية: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣] من أجل الباء والأمر في نفسه في حق السماء والأرض وما أنزل ما بينهما حتى يعم الوجود كله مثل قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] كذلك ما خلق السموات والأرض إلا بالحق أي للحق فاللام التي نابت الباء هنا منابها عين اللام التي في قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ فخلق السموات والأرض للحق والحق إن يعبدوه ولهذا قال: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣] والشرك هو الظلم العظيم، وما ظهر من موجود إلا من هذا النوع الإنساني، وما ذكر الجن معه في الخلق للعبادة إلا لكونه أغواه بالشرك لا أنه أشرك والإنس هو الذي أشرك هذا إذا لم تكن الجن عبارة عن باطن الإنسان فكأنه يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ﴾ وهو ما استتر من الإنسان وما بطن منه والإنس وهو ما يبصر منه لظهوره ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ظاهراً وباطناً. ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧] أي بين الخصومة ظاهر بها وقال: ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ وذلك لدعواه في الربوبية، وما خلقه الله إلا عبداً فلا يتجاوز قدره فنازع ربه في ربوبيته وما نازعه مخلوق إلا هو، ووصف خصومته بالإبانة دون من وصفه بالخصومة من الملأ الأعلى وغيرهم وفي دعوى غير الربوبية، فإنه ما من خصام يكون من مخلوق في أمر خلاف دعوى الربوبية إلا وهو ممكن أن يكون الحق بيده في ذلك ويخفى

على السامع والحاكم، فلا يدري هل الحق معه أو مع خصمه؟ وهل هو صادق في دعواه أو هو كاذب للاحتمال المتطرق في ذلك إلا دعواه في الربوبية فإنه يعلم من نفسه ويعلم كل سامع من خلق الله أنه كاذب في دعواه وأنه عبد ولذلك خلقه الله، فلهذا قيل فيه إنه خصيم مبين أي ظاهر الظلم في خصومته، فمن نازع ربه في ربوبيته كيف يكون حاله؟ ثم إن هذا الإنسان ليته يسعى في ذلك في حق نفسه فإنه يعلم من نفسه أنه ليس له حظ في الربوبية ثم يعترف بالربوبية لخلق من خلق الله من حجر أو نبات أو حيوان أو إنسان مثله أو جان أو ملك أو كوكب فإنه ما بقي صنف من المخلوقات إلا وقد عبد منه وما عبده إلا الإنسان الحيوان، فأشقى الناس من باع آخرته بدنيا غيره، ومن هلك فيما لا يحصل بيده منه شيء فيشهد على نفسه أنه أجهل الناس بغيره وأعلم الناس بنفسه لأنه ما ادّعاها لنفسه، ومن ادّعاها لنفسه فإنما استخف قومه فأطاعوه لذلك وهو يعلم خلاف ذلك من نفسه ولذلك قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] أي في اعتقادكم.

واعلم أن الحق تعالى لا يخلق شيئاً بشيء لكن يخلق شيئاً عند شيء، فكل ما يقتضي الاستعانة والسببية فهي لام الحكمة، فما خلق الله شيئاً إلا للحق والحق أن يعبدوه فإذا هو خصيم مبين وما ذاك إلا من عمى القلوب التي في الصدور عن الحق، فلو كانت غير معرضة عن الحق مقبلة عليه لأبصرت الحق فأقرّت بالربوبية له في كل شيء ولم يشرك بعبادة ربه أحداً ولذلك قال ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] والصالح الذي لا يدخله خلل، فإن ظهر فيه خلل فليس بصالح، وليس الخلل في العمل وعدم الصلاح فيه إلا الشرك فقال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] فنكر فعم كل من ينطلق عليه اسم أحد وهو كل شيء في عالم الخلق والأمر، وعم الشرك الأصغر وهو الشرك الذي في العموم وهو الربوبية المستورة المنتهكة في مثل فعلت وصنعت وفعل فلان ولولا فلان فهذا هو الشرك المغفور، فإنك إذا راجعت أصحاب هذا القول فيه رجعوا إلى الله تعالى والشرك الذي في الخصوص فهم الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر وهو الظلم العظيم الذي ظلموا به هذا المقول عليه أنه إله مع الله، فظلموا الله في وحدانية الألوهية له، وظلموا الشريك في نسبة الألوهية إليه، فيأخذهم الله بظلم الشريك لا بظلمه في أحديته، فإن الذي جعلوه شريكاً يتبرأ منهم يوم القيامة حيث تظهر الحقوق إلى أربابها المستحقين لها، فعلى الحقيقة أن الله لا يخلق شيئاً بشيء وإن خلقه لشيء فتلك لام الحكمة وعين خلقه عين الحكمة إذ خلقه تعالى لا يعلل فالخلق عبد بالذات أثرت فيه العوارض ولا سيما الشخص الإنساني، بل ما أثرت العوارض إلا في الشخص الإنساني وحده دون سائر الخلق وما سواه فعلى أصله من تنزيه خالقه عن الشريك ولذلك قال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ﴾ [الإسراء: ٤٤] وهذا ضمير الجمع في تفقهون إنما هم الناس خاصة، فجميع المخلوقات عبدوا الله إلا بعض الناس، فالإنسان ألد الخصام حيث خاصم فيما هو ظاهر الظلم فيه وليس إلا الربوبية، وهل رأيتم عبداً يخاصم ربه إلا إذا خرج عن عبوديته وزاحم سيده في ربوبيته فادّعى ملكاً لنفسه، فإذا

تصرّف فيه سيده نازعه فيه وخاصمه، فما وقعت خصومة من عبد في عبوديته، وإنما وقعت فيما هو رب فيه ومالك له، وكثير من أهل الله من العلماء منهم ممن لا أذكره ولا أسميه فإن هذه النسبة إليه نسبة تنص على جهله فلذلك تأدّبت معه فقرروا المخلوق به على وجهين: فمنهم من جعل هذا الحق المخلوق به عين علة الخلق والحق تعالى لا يعلل خلقه هذا هو الصحيح في نفسه حتى لا يعقل فيه أمر يوجب عليه ما ظهر من خلقه بل خلقه الخلق منة منه على الخلق وابتداء فضل وهو الغنيّ عن العالمين. ومنهم من جعل هذا الحق المخلوق به عيناً موجودة بها خلق الله ما سواها وهم القائلون بأنه ما صدر عن الواحد إلا واحد، وكان صدور ذلك الواحد صدور معلول عن علة أوجبت العلة صدوره، وهذا فيه ما فيه، والذي أقول به أنه: [الطويل]

إذا جَـاءَ أمْـرُ الله فـالآمـرُ الأمـر وذلـك تَـوْحِـيـدٌ إلـى مَـنْ لـه الأمْـرُ
فـلا تُـشْـركـوا فـالشِّـرْكُ ظُـلْـمٌ مُـبَرْهَـنٌ عـلـيه وهـذا الظُّـلْـمُ قـد عَـمَّـهُ الـحَـجْـرُ

ولما كان العلم تحيا به القلوب كما تحيا بالأرواح أعيان الأجسام كلها سمي العلم روحاً تنزل به الملائكة على قلوب عباد الله وتلقيه وتوحي به من غير واسطة في حق عباده أيضاً، فأما إلقاؤه ووحيه به فهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢] وأما تنزيل الملائكة به على قلوب عباده فهو قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢] فهم المعلمون والأستاذون في الغيب يشهدهم من نزلوا عليه، فإذا نزل هذا الروح في قلب العبد بتنزيل الملك أو بإلقاء الله ووحيه حيي به قلب المنزل عليه فكان صاحب شهود ووجود لا صاحب فكر وتردّد ولا علم يقبل عليه دخلاً فينتقل صاحبه من درجة القطع إلى حال النظر، فالعبد العالم المجتبى إما يعرج فيرى، وإما ينزل عليه في موضعه: [الكامل]

إنّ الـعُـرُوجَ لـرُؤيـة الآيـات نَـعْـتُ الـمُـحَـقَّـق فـي شُـهُـود الـذَّاتِ
فـانْـظُـرْ بـفِـعْـلِ الـحـال تَـشْـهَـدْ كَـوْنَـهُ وانْـظُـرْ إلـى الـمـاضـي يُـريـك الآتـي
إنّ الـوجـود مُـبَـرهِـنٌ عـن نـفـسـه بـوجـوده فـي أكـثـر الـحـالاتِ
فـالـحـالُ فـي الأحـيـاء يـشـهـدُ دائـمـاً والـمـاضـي والآتـي مـع الأمْـواتِ

فإن قال المعتذر عن هؤلاء: فما فائدة خلق الإنسان الكامل على الصورة؟ قلنا: ليظهر عنه صدور الأفعال والمخلوقات كلها مع وجود عينه عنده أنه عبد، فإن غاية الأمر الإلهيّ أن يكون الحق مع العبد وبصره بل جميع قواه فقال تعالى: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ» الحديث، فأثبت بالضمير عينه عبداً لا ربوبية له، وجعل ما يظهر به وعليه ومنه أن ذلك هو الحق تعالى لا للعبد، فهذا الخبر يؤيد ما ذهبنا إليه وهو عليهم لو اعتذروا به محتجين علينا كما فعلت أنت ولم يكن لهم هذا الخبر فلا شيء أعلى من كلام النبوّة ولا سيما فيما أخبرت به عن الله عز وجل، فإن قالوا: إن الإمكان جعلنا أن نقول ما نقول. قلنا: الإمكان حكم وهمي لا معقول لا في الله ولا في المسمى ممكناً فإنه لا يعقل أبداً هذا المسمى ممكناً إلا مرجحاً، وحالة الاختيار لا تعقل إلا ولا ترجيح، وهذا غير واقع فهو غير واقع عقلاً لكن تقع

وهماً والوهم حكم عدمي فما ثم إلا واجب بذاته أو واجب به فمشيئة الحق في الأشياء واحدة: [البسيط]

وَالحَقُّ لَيسَ لَهُ إلا مَشِيئَتُه وَحِيدَةُ العَيْنِ لا شِرْكٌ يُثَنِّيها
والاخْتِيَارُ مُحَالٌ فَرْضُهُ فإذا أتى فحِكْمَتُهُ الإمكانَ تذريها
فلا تزالُ على الترجيح نشأتُهُ والله بالحال أخفى نَفْسَهُ فيها
فزالَ مِنْ عِلْمِنا الإمْكانُ عن نَظَرٍ في المُمْكِنات فيُبْديها ويُخْفيها

وإذا زال الإمكان زال الاختيار وما بقي سوى عين واحدة، لأن المشيئة الإلهية ما عندها إلا أمر واحد في الأشياء، ولا تزال الأشياء على حكم واحد معين من الحكمين فما الأمر كما توهمه القائل بالإمكان، فثبت أنه ما ثم إلا حق لحق، وحق لخلق، فحق الحق ربوبيته، وحق الخلق عبوديته، فنحن عبيد وإن ظهرنا بنعوته، وهو ربنا وإن ظهر بنعوتنا، فإن النعوت عند المحققين لا أثر لها في العين المنعوتة، ولهذا تزول بمقابلها إذا جاء ولا تذهب عيناً بل لا يزال كونها في الحالين، فالقائم عين القاعد من حيث عينه، والقائم ليس القاعد من حيث حكمه، فالقائم لا يمكن أن يقعد في حال قيامه، والقاعد لا يمكن أن يقوم في حال قعوده، وما شاء الحق إلا ما هو الأمر عليه في نفسه، فمشيئة الحق في الأمور عين ما هي الأمور عليه فزال الحكم، فإن المشيئة إن جعلتها خلاف عين الأمر، فإما أن تتبع الأمر وهو محال، وإما أن يتبعها الأمر وهو محال، وبيان ذلك أن الأمر هو أمر لنفسه كان ما كان فهو لا يقبل التبديل فهو غير مشاء بمشيئة ليست عينه فالمشيئة عينه فلا تابع ولا متبوع فتحفظ من الوهم، فإن له سلطاناً قوياً في النفس يحول بينها وبين العلم الصحيح الذي يعطيه العقل السليم.

ولما دخلت هذا المنزل عندما رفعت إلى أعلامه فاستدللت عليه بأعلامه حتى وصلت إليه بعدما قاسيت مشقة وطالت علي الشقة، فلما دخلته صعب علي التصرف فيه لما فيه من المهالك وهو منزل مظلم لا سراح فيه، فكنت أمشي فيه بحس الرجل والتثبت مخافة الوقوع في مهلك من مهالكه، فإذا ثبت قدمي في موضع أحس به ولا أبصره حينئذ شرعت في نقله أطلب موضعاً أنتقل إليه، فإذا وقعت قدمي بفراغ علمت أن هنالك مهلكاً. ، فسرت أتتبع بقدمي يميناً وشمالاً حتى أجد لقدمي موضعاً يستقر فيه وأنا معتمد على القدم الأخرى، وما زلت كذلك أنتقل من مكان إلى مكان في هذه الظلمة ولا أبصر شيئاً لعدم النور من الخارج المقارن لنور بصري فكان رجلي بصري فعلمت من ذلك قدر ما تصرفت فيه، وأنا على حذر ما أدري ما يعرض لي في طريقي من حيوان يؤذيني ولا أحس به حتى يوقع الأذى بي، ومع هذا خاطرت بنفسي لأني قلت: أنا في ظلمة على كل حال فسواء علي قعدت أو تصرفت، فإني إذا قعدت لم آمن أن يأتيني حيوان يؤذيني، وإن تصرفت لم آمن أيضاً من حيوان يؤذيني أو مهلك أقع فيه، فالتثبت في التصرف أرجى لي فرجحته على القعود طلباً للفائدة، فبينا أنا كذلك إذ فجئني نور الشرع من خارج بصورة سراج مصباح لا تحركه الأهواء لكونه في مشكاة ومشكاته الرسول فهو محفوظ من الأهواء التي تطفيه وذلك المصباح في زجاجة قلبه وجسمه

المصباح واللسان ترجمته والإمداد الإلهي زيته والشجرة حضرة إمداده، فاجتمع نور البصر مع هذا النور الخارج فكشفنا ما في الطريق من المهالك والحيوانات المضرة فاجتنبنا كل ما يخاف منها ويحذر، وسلكنا محجة بيضاء ما فيها مهلك ولا حيوان مضر، ولو تعرض إلينا عدلنا عنه لاتساع الطريق وسهولته والموانع والحصون التي فيه المانعة ضرر تلك الحيوانات ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] وبعد أن ظهر هذا المصباح لم ينطف ولا زال، فمن استدبره وأعرض عنه مشى في ظلمة ذاته وتلك الظلمة ظلمته فيكون ممن جنى على نفسه بإعراضه عن المصباح واستدباره، فهذا حكم من ترك الشرع واستقل بنظره، فهو وإن ثبت في سعيه لظلمة ذاته على خطر من دواب الطريق وإن لم يقع في مهلك، فينبغي للعاقل أن لا يستعجل في أمر له فيه أناة، ولا يتأنى في أمر يكون الحق في المبادرة إليه والإسراع في تحصيله، هذا فائدة العقل في العاقل.

ورأيت في هذا المنزل علوماً جمة منها علم الحاصل في عين الفائت لأنه لولا ذلك ما علمت فضل الحاصل على الفائت في حقك إذا كان فيه سعادتك، ولا فضل الفائت على الحاصل إذا كان الفائت مطلوبك، ولو حصل لك أشقاك وأنت لا تعلم فكان الفضل فيه في حقك فوته فإن بفوته سعدت، وهذا لا يكون إلا لمن أسعده الله وهو قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] ومنه ما روي أن رسول الله ﷺ قبل رسالته كان يرعى الغنم بالبادية فيريد أن يدخل إلى مكة ليصيب فيها ما يصيب الشبان، فإذا دخل مكة وترك في الغنم بعض من يعرفه يحفظها حتى يأتي إليه يرسل الله عليه النوم فيفوته تحصيل ما دخل من أجله فيستعجل الرجوع إلى غنمه فيخرج وقد فاته ما دخل من أجله وكانت في ذلك عصمته وحفظه من حيث لا يشعر، ويقال في المثل في هذا المعنى: من العصمة أن لا تجد.

وفي هذا المنزل من العلوم علم أحدية الأفعال وهو أمر مختلف فيه، فمن مثبت ذلك للحق تعالى، ومن مثبت ذلك للخلق فهو أحدي في الطائفتين، ومن مثبت في ذلك شركاً خفياً وهو القائلون بالكسب. وفيه علم ما لا يعلم إلا بالوهب ليس للكشف فيه مدخل جملة واحدة وهو ما لا يدرك إلا بذات المدرك اسم فاعل على حسب ما هو المدرك اسم فاعل عليه، فإن كان ممن تنسب إليه الحواس فالحواس له ذاتية لا محالها المعين لها، وإن كان ممن لا تنسب إليه الحواس فإدراكه للأمور المحسوسة كصاحب الحواس أيضاً بذاته ولا يقال أنها محسوسة له لأنه لا ينسب إليه حس فهي معلومة له، والحواس طريق موصلة إلى العلم، والعلم بالأمر هو المطلوب لا بما حصل، فقد رأيت الأكمه يدرك الفرق بين الألوان مع فقد حس البصر وجعل الله بصره في لمسه فيبصر بما به يلمس. وفيه علم الإعلام بتوحيد الحق نفسه في ألوهيته بأي لسان أعلم ذلك وما السمع الذي أدرك هذا الإعلام الإلهي إذا تبعه الفهم عنه فإن لم يتبعه فهم فهل يقال فيه أنه سمع أم لا؟ وفيه علم رتبة الإنسان الحيوان ومزاحمته الإنسان الكامل بالقوة فيما لا يكون من الإنسان الكامل إلا بالفعل، وأن الإنسان الكامل

يخالف الإنسان الحيوان في الحكم، فإن الإنسان الحيوان يرزق رزق الحيوان وهو للكامل وزيادة، فإن الكامل له رزق إلهي لا يناله الإنسان الحيوان، وهو ما يتغذى به من علوم الفكر الذي لا يكون للإنسان الحيوان والكشف والذوق والفكر الصحيح. وفيه علم رحمة الله بالعالم حيث أحالهم على الأسباب وما جعل لهم رزقاً إلا فيها ليجدوا العذر في إثباتها، فمن أثبتها جعلاً فهو صاحب عبادة، ومن أثبتها عقلاً فهو مشرك وإن كان مؤمناً، فما كل مؤمن موحد عن بصيرة شهودية أعطاه الله إياها وفيه علم رتبة المباح من الشرائع وما حدوه به من أنه لا أجر فيه ولا وزر حد صحيح أم لا، وهل فيه حصول الأجر في فعله وتركه وما ينظر إليه من أفعال الله ومما يحكم به في الله فإنه لا يماثلها إلا الاختيار المنسوب إلى الله، فإن لم يثبت هنالك اختيار على حد الاختيار فلا يثبت هنا مباح على حد المباح لأنه ما هو ثم وفيه علم ما يعلمه المخلوق وأنه محدود مقيد لا ينسب إليه الإطلاق في العلم به فإن ذلك من خصائص الحق سبحانه وتعالى وفيه علم اختلاف الطبائع فيمن تركب منها وبماذا اختلف من لا طبيعة له، ولولا حكم الاختلاف فيمن لا طبيعة له ما ظهر الاختلاف في الطبيعة، كما أنه لولا اختلاف الطبيعة ما ظهر خلاف فيما تألف منها وهو علم عجيب في المفرد العين والمفرد الحكم، فبالقوابل ظهر الخلاف بالفعل وهو في المفرد بالقوة. وفيه علم توقف العالم بعضه على بعض فيما يستفاد منه مع التمكن من ذلك كان دونه وفيه علم رتبة من كثرت علومه ممن قلت علومه ومن قلت علومه عن كثرة أو من قلت لا عن كثرة وإن كان الشرف عند بعضهم في قلة العلم فلماذا أمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يطلب الزيادة من العلم والزيادة كثرة ومن كان علمه من المعلومات وإن كثرت أحدية كل معلوم التي هي عين الدلالة على أحدية الحق فهو صاحب علم واحد ولا أقل من الواحد في معلومات كثيرة مجمل كل معلوم أحدية هي معلومة للعالم بالله وحده، وما نبه على هذه المسألة إلا ابن السيد البطليوسي فإنه قال فيما وقفنا عليه من كلامه أن الإنسان كلما علا قدره في العالم قلت علومه، وكلما نزل عن هذه المرتبة الشريفة اتسعت علومه، وأعني العلم بالأفعال، وأعني بالقلة العلم بالذات من طريق الشهود وكان رأيه في علم التوحيد رأي الفيثاغوريين وهم القوم الذين أثبتوا التوحيد بالعدد وجعلوه دليلاً على أحدية الحق وعلى ذلك جماعة من العقلاء. وفيه علم العلم الثابت الذي لا يقبل الزوال في الدنيا ولا الآخرة. وفيه علم نصب الأدلة لمن لا يعرف الأمر إلا بالنظر الفكري وفيه علم ما لا يمكن أن ينسب إلا إلى الله فإن نسب إلى غير الله دل عند من يعرف ذلك العلم على جهل من ينسبه إلى غير الله بالله وفيه علم كون الموجودات كلها نعماً إلهية أنعم الله بها، وعلم من هو الذي أنعم الله بها عليه وهل هو هذا المنعم عليه من جملة النعم فيكون عين النعمة عين المنعم اسم مفعول فاعلم ذلك وفيه علم الموت في الحياة والحياة في الموت ومن هو الحي الذي لا يموت والميت الذي لا يحيا؟ ومن يموت ويحيا ومن لا يموت ولا يحيا؟ وفيه علم سبب وجود الإنكار في العالم ولماذا يستند من الحضرة الإلهية؟ وقل قوله لعبده عندما ينسب إليه ما ظهر عليه من الأمور التي نهى أن يعملها: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن

﴿نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] إنكار إلهي عن نسبة ذلك الفعل إلى الله، ولماذا سمي منكراً وهو معروف؟ وقوله: الذين ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو الأمر بما هو معلوم له ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] وهو أن يأمر بما ليس معلوماً عنده من النكرة التي لا تتعرف، ولما كان المنكر فعل ما أمر بتركه أو ترك ما أمر بفعله ولا يوصف بأنه أتى منكراً حتى يعلم أنه مأمور به ذلك العمل أو منهي عنه فصح له اسم المنكر، لما يحصل للعبد من الحيرة في ذلك وعدم تخلصه إلى أحد الجانبين، فإن نسبه إلى الحق في بعض الأمور عارضه الأدب أو الدليل الحسيّ والعقليُّ والسمعيُّ فيسلب عن ذلك العمل نعت المعرفة ويلحقه بالنكرة، ولما اختص المنكر بالمذموم من الأفعال لا بالمحمود. وفيه علم ذم الله المتكبر والكبرياء صفته وقد علم الله عز وجل أنه لا يدخل قلب إنسان الكبر على الله ولكن يدخله الكبر على خلق الله وهو الذي منه وحينئذ يدخل الحنة، فإنه لا يدخل الجنة من قي قلبه مثقال حبة من كبر على غير الله حتى يزال وأما على الله فمحال فإن الله قد طبع على القلوب التواضع له، وإن ظهر من بعض الأشخاص صورة الكبرياء على أمر الله وهو الذي جاءت به الوسائط وهم الرسل عليهم السلام من الله لا على الله، فإنه يستحيل الكبرياء من المخلوق عليه لأن الافتقار له ذاتي، ولا يمكن للإنسان أن يجهل ذاته. وفيه علم الجميل والكفالة وانتقال الحق إلى الكفيل من الذي عليه الحق وبراءة من انتقل الحق عنه منه. وفيه علم السبب الذي أوجب للإنسان أن يؤخذ من مأمنه. وفيه علم التسليم والتفويض. وفيه علم اختلاف أحوال الخلق عند الموت ما سبب ذلك ولماذا لم يقبضوا على الفطرة كما ولدوا عليها؟ وما الذي أخرجهم عن الفطرة أو أخرج بعضهم وما هي الفطرة؟ وهل يصح الخروج عنها أو لا يصح؟ ورحمة الله تعالى بخلقه في أخذ العهد على الناس لما أخذهم الله من ظهور آبائهم وأشهدهم على أنفسهم بربوبيته عليهم فقالوا بلى أنت ربنا ولم يشهدهم بتوحيده إبقاء عليهم لعلمه أن فيهم من يشرك به إذا خرج إلى الدنيا وتبريه من الشريك في العقبى يوم العرض الأكبر. وفيه علم المحاجة يوم القيامة والفرق بين الحجة الداحضة والحجة البالغة وما هو الموطن الذي يقال فيه للإنسان: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وفيه علم ما يجب على المبلغين عن الله تعالى من رسول ووارث. وفيه علم ما يؤتى عن أمر الله وما يجتنب وأحكامهم في ذلك عن بينة وعن غير بينة. وفيه علم ما لا يمكن التبدل فيه عقلاً مع إمكان ذلك عقلاً، وكيف يدخل النسخ في أدلة العقول كما يدخل في أحكام الشرائع. وفيه علم التحكم على الله هل يسوغ ذلك لأحد من أهل الله من غير أمر الله أو لا يسوغ؟ وفيه علم كيف يوجد الله من يوجده من العالم. وفيه علم هل عين الاعتماد على الله في دفع المكروه والضراء عين الاعتماد عليه في إبقاء النعم على المنعم عليه اسم مفعول وعلى أي اسم إلهي يكون كل اعتماد من هذين الاعتمادين. وفيه علم صفة الشخص الذي ينبغي أن يسأل في العلم الذي يعطي السعادة للعامل به. وفيه علم السبب الذي يوجب الخوف عند من أعطاه الله الأمان في الدار الدنيا وارتفاع ذلك عنه في الدار الآخرة واختلاف وجوه الأخذ الإلهي مع الأمان. وفيه علم تنقل الصور الموجودة عن

الأشخاص تطلب وجه الله في تنقلها وهي كالظلال مع الأشخاص الظاهرة عنه عند استقبال النور واستدباره أو يكون عن يمينه ذلك النور أو شماله. وفيه علم نفي أن يتخذ الحق إلهاً في المجموع وهل يتخذ بغير المجموع أو لا يصح أن يكون متخذاً؟ فإنه إله لعينه لا بالاتخاذ فاعلم ذلك. وفيه علم ما لله من الدين وما للعبد منه ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] والدين الذي تدخله المشقة هل هو لله فإنه يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال رسول الله ﷺ: «**دِينُ الله يُسْرٌ**» وقال: «**بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**» كما قال أيضاً: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢] وقال: «**مَنْ يُشَادّ هٰذَا الدِّينَ يَغْلِبْهُ**» وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فإنه ما كلفها إلا ما آتاها من القوة عليه. وفيه علم ردّ النعم إلى الله ولماذا يغلب على الإنسان شهود الضراء حتى تحول بينه وبين ما فيها من طعم النعم حتى يضجر من البلاء، وهذا كان مقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشاهد نعم البلاء في البلاء فيجمع بين الصبر والشكر في الآن الواحد وكان صاحب عملين. وفيه علم الاستدراج بالنعم. وفيه علم حكم من عامل الحق بجهله وهو يظن في نفسه أنه على علم في ذلك. وفيه علم التعرية. وفيه علم صفة المفتي والفتيا ومتى يفتي المفتي هل بعد الاستفتاء أو يفتي وإن لم يستفت وهل يفتقر المفتي إلى إذن الإمام له في ذلك أم لا؟ وفيه علم استخراج العلوم من النظر في الموجودات وتفاصيله. وفيه علم أنواع الوحي وضروبه وما يختص بالأولياء الأتباع من ذلك وما لا يشارك فيه النبيّ من الوحي. وفيه علم الإحاطة بوجوه كل معلوم من هو ذلك العالم بها وما صفته. وفيه علم تفاضل الصفات لماذا يرجع؟ وفيه علم الأرزاق الروحانية وما هو الرزق الذي في تناوله حياة القلوب من الرزق الذي فيه موت القلوب فإنه قد يكون الموت من الجوع وقد يكون من الشبع والامتلاء، وما هو الرزق الذي يشبع منه والرزق الذي لا يشبع منه؟ والرزق الذي يتساوى فيه جميع العالم والرزق الذي يخص بعض العالم دون بعض. وفيه علم لعلم بالرازق وأنه أحق بالعبادة لافتقار المرزوق إلى الرزق. وفيه علم التحرك والسكون ومن أحق بالمقام هل المتحرك أو الساكن؟ وحكاية المتحرّك والساكن لما تحاكما في ذلك إلى العالم بذلك ذوقاً وما جرى لهما وأن صاحب الرزق من يأكله لا من يجمعه، وأخبر تعالى عن لقمان الحكيم فيما أوصى به لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦] ولم يقل يأت إليها. وفيه علم العدل وأداء الحقوق. وفيه علم النسيان بعد العلم بحيث لا يدري أنه علم ما قد نسيه أصلاً. وفيه علم الاسم الإلهيّ الواقي واختلاف صوره في العالم مثل اختلاف الاسم الرزاق. وفيه علم اختلاف الحال على المشاهد في حال رؤيته. وفيه علم من يدع الناس إلى ما هو عليه حتى يكون داعي حق. وفيه علم الأوامر الإلهية. وفيه علم المحسن والإحسان. وفيه علم الأنساب وقول النبي ﷺ: «**إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ فَلاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلاَ لأَعْجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ إلاَّ بالتَّقْوَى فَإِنَّ الله يَقُولُ: اليَوْمَ أَرْفَعُ نَسَبَكُمْ وَأَضَعُ نَسَبِي أَيْنَ المُتَّقُونَ؟**» وقال

تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فهل هو المتقي من يكون وقاية لله أو من يتخذ الله وقاية ولهذا رجال ولهذا رجال. وفيه علم الإيلاء وأقسامه وأحكامه في المولى وصورة الإيلاء وما يكون لله من ذلك وما يكون للعبد. وفيه علم كون العالم العامل في دنياه في جنة معجلة في نفسه وإن كان رديء الحال فنعيمه في نفسه أعظم النعيم. وفيه علم المداخلة في القرآن مع كونه محفوظاً من عند الله فلا يصح في القرآن تحريف ولا تبديل كما وقع في غيره من الكتب المنزلة. وفيه علم النسخ ما هو. وفيه علم حكم من يخالف ظاهره باطنه عن شهود. وفيه علم دفع الإنسان عن نفسه إعظاماً لها لما رأى من تعظيم الله حقها في تحريم الجنة على من قتل نفسه، وإن كان قتل نفسه لا يدخل جهنم إلا بنفسه الحيوانية لأن جهنم ليست موطناً للنفس الناطقة، ولو أشرفت عليها طفى لهيبها بلا شك لأن نورها أعظم، فإن الذي قتل نفسه عظم جرمه لحق الجوار الأقرب وحال بذلك بينها وبين ملكها، وما سوى نفسه فبعيد عن هذا القرب الخاص الذي لنفسه. وفيه علم ما حلل وحرّم هل حرم أو حلل لنفسه أو لأمور مخصوصة وأحوال في المحرّم والمحرّم عليه، ولا محلل ولا محرّم إلا الله بلسان الشرع لسان الرسول ﷺ أو المجتهد من علماء الرسوم كالفقهاء. وفيه علم تغير الإقبال الإلهيّ لتغير الأحوال. وفيه علم إقامة العظيم مقام الجماعة. وفيه علم السياسات في المخاطبات من العلماء والعارفين الدعاة إلى الله. وفيه علم الجزاء بالمماثل في أي نوع كان وفيما يحمد من ذلك كله وفيما يذم. وفيه علم المعية الإلهية. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والستون وثلاثمائة

في معرفة منزل مفاتيح خزائن الجود

[نظم: الخفيف]

قُلْتُ لَمَّا أن قال قومي بأنّي ... قُلْتُ ما قُلْتُ والكؤوسُ تُدَارُ
مَنْ مُديرُ الكؤوس قلتُ حبيبي ... وهـ ـو شَرْبي الذي عليه المَدَارُ
ثم قالوا فما يقولُ حبيبٌ ... في إلهٍ له القُلُوبُ تُغَارُ
ولسانُ الكريم يُعْطيك مالاً ... ثم يأتيكَ سائلاً فتَحَارُ
كَرَماً منه وامْتِنَاناً وفَضْلاً ... ولك الحُكْمُ بعد ذا والخَيَارُ
إن تَشَأْ قلت أنت مالك هذا ... أو تَشَأْ ضِدَّهُ فليس يَغَارُ
كُلّ هذا أباحَهُ لك فَضْلاً ... حَكَم الجَبْرُ فيه والاضْطِرَارُ

اعلم أيدنا الله وإياك أنه ما من شيء أوجده الله في العالم الذي لا أكمل منه في الإمكان إلا وله أمثال في خزائن الجود، وهذه الخزائن في كرسيه وهذه الأمثال التي تحتوي عليها هذه الخزائن لاتنتهي أشخاصها، فالأمثال من كل شيء توجد في كل زمان فرد في الدنيا والآخرة لبقاء كل نوع وجد منه ما وجد. واختلف أصحابنا في هذا النوع الإنساني هل تنقطع أشخاصه بانتهاء مدة الدنيا أم لا؟ فمن لم يكشف قال بانتهائه، ومن كشف قال بعدم انتهائه، وأن التوالد

في الآخرة في هذا النوع الإنساني باق في المثل في نكاح الرجل والمرأة الآدمية الإنسانية على صورة أذكرها، والتوالد أيضاً بين جنسين مختلفين وهما بنو آدم، والحور اللاتي أنشأهن الله في الجنان على صورة الإنسان ولسن بأناسي فتوالدهما بنكاح بينهما في الإنس والحور، ويتناكحان في الزمن الفرد، ينكح الرجل إذا أراد جميع من عنده من النساء والحور من غير تقدم ولا تأخر مثل فاكهة الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، بل بقطف دان من غير فقد مع وجود أكل وطيب طعم، فإذا أفضى الرجل إلى الحوراء أو الإنسية له في كل دفعة شهوة ولذة لا يقدر قدرها لو وجدها في الدنيا غشي عليه من شدة حلاوتها فتكون منه في كل دفعة ريح مثيرة تخرج من ذكره فيتلقاها رحم المرأة فيتكون من حينه فيها ولد في كل دفعة، ويكمل نشؤه ما بين الدفعتين ويخرج مولوداً مصوَّراً مع النفس الخارج من المرأة روحاً مجرداً طبيعياً، فهذا هو التوالد الروحاني في البشرى بين الجنسين المختلفين والمتماثلين، فلا يزال الأمر كذلك دائماً أبداً، ويشاهد الأبوان ما تولد عنهما من ذلك النكاح وهم كالملائكة الذين يدخلون البيت المعمور ولا يعودون إليه أبداً، هذا صورة توالد هذا النوع الإنساني، ولا حظ لهؤلاء الأولاد في النعيم المحسوس ولا بلغوا مقام النعيم المعنوي، فنعيمهم برزخيّ كنعيم صاحب الرؤيا بما يراه في حال نومه وذلك لما يقتضيه النشء الطبيعي، فلا يزال النوع الإنساني يتوالد ولكن حكمه ما ذكرناه. وأما توالد الأرواح البشرية فإن لهما في الآخرة مثل ما لهما في الدنيا اجتماعات برزخيات مثل ما يرى النائم في النوم أنه ينكح زوجته ويولد له، فإذا أقيم العبد في هذا المقام سواء كان في الدنيا أو في الآخرة ونكح الرجل من حيث روحه زوجته من حيث روحها يتولد بينهما من ذلك النكاح أولاد روحانيون ما يكون حكمهم حكم المولدين من النكاح الحسي في الأجسام والصور المحسوسات التي تقدم ذكرها، فيخرج الأولاد ملائكة كراماً لا بل أرواحاً مطهرة وهذا هو توالد الأرواح، ولكن لا بد أن يكون ذلك عن تجل برزخيّ فتجلى الحق في الصور المقيدة، فإن البرزخ أوسع الحضرات جوداً وهو مجمع البحرين: بحر المعاني وبحر المحسوسات، فالمحسوس لا يكون معنى، والمعنى لا يكون محسوساً، وحضرة الخيال التي عبرنا عنه بمجمع البحرين هو يجسد المعاني ويلطف المحسوس ويقلب في عين الناظر عين كل معلوم فهو الحاكم المتحكم الذي يحكم ولا يحكم عليه مع كونه مخلوقاً إلا أن الأنفاس التي تظهر من تنفس الحوراء أو الآدمية إذا كانت صورة ما ظهرت فيه من نفس النكاح يخرج مخالفاً للنفس الذي لا صورة فيه يميزه أهل الكشف ولا يدرك ذلك في الآخرة إلا أهل الكشف في الدنيا، وصورة هذا النشء المتولد عن هذا النكاح في الجنة صورة نشء الملائكة أو الصور من أنفاس الذاكرين الله وما يخلق الله من صور الأعمال، وقد صحت الأخبار بذلك عن رسول الله ﷺ، وإنما جعلنا الكرسي موضع هذه الخزائن لأن الكرسي لغة عبارة عن العلم كما قال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي علمه وكذلك هو هنا فإن الخزائن فيها أشخاص الأنواع، وهذه الأشخاص لا تتناهى وما لا يتناهى لا يدخل في الوجود، إذ كل ما يحصره الوجود فإنه متناه، فلا بد أن يكون الكرسي هنا علمه، فإن

علمه محيط بما لا يتناهى، فلا تتخيل في الكرسي الذي ذكرناه أنه هذا الكرسي الذي فوق السموات ودون العرش فإنه كرسي محصور موجود متناهي الأجزاء.

واعلم أن أفضل ما جاد به الله تعالى على عباده العلم، فمن أعطاه الله العلم فقد منحه أشرف الصفات وأعظم الهبات، والعلم وإن كان شريفاً بالذات فإن له شرفاً آخر يرجع إليه من معلومه فإنها صفة عامة التعلق، وتشرف المفاتيح بشرف الخزائن، وتشرف الخزائن بقدر شرف ما اختزن فيها، فالموجود الحق أعظم الموجودات وأجلها وأشرفها، فالعلم به أشرف العلوم وأعظمها وأجلها، ثم ينزل الأمر في الشرف إلى آخر معلوم، وما من شيء إلا والعلم به أحسن من الجهل به، فالعلم شرفه ذاتي له، والشرف الآخر مكتسب والخزائن محصورة بانحصار أنواع المعلومات ومرجعها وإن كثرت إلى خزانتين: خزانة العلم بالله وخزانة العلم بالعالم، وفي كل خزانة من هاتين الخزانتين خزائن كالعلم بالله من حيث ذاته بالإدراك العقلي، ومن حيث ذاته بالإدراك الشرعي السمعي، والعلم به من حيث أسمائه، والعلم به من حيث نعوته، والعلم به من حيث صفاته، والعلم به من حيث النسب إليه، وكل ذلك من حيث النظر الفكري ومن حيث السمع وهو من حيث السمع كما هو من حيث الكشف. والخزانة الأخرى التي هي العلم بالعالم تحوي على خزائن وفي كل خزانة خزائن، فالخزائن الأول العلم بأعيان العالم من حيث إمكانه، ومن حيث وجوبه، ومن حيث ذواته القائمة بأنفسها، ومن حيث أكوانه، ومن حيث ألوانه، ومن حيث مراتبه، ومن حيث مكانه وزمانه ونسبه وعدده ووضعه وتأثيره وكونه مؤثراً فيه منه ومن غيره إلى أمثال هذا من العلوم، وعلم الدنيا والبرزخ والآخرة والملأ الأعلى والأدنى، فأوّل مفتاح من هذه الخزائن أعطاه العالم بالله مفتاح خزانة العلم بالوجود مطلقاً من غير تقييد بحادث ولا قديم وبماذا تميز هل بنفسه أو بغيره وهو العدم، فالوجود ظهور الموجود في عينه فإن به تظهر جميع الأحكام من نفي وإثبات ووجوب وإمكان وإحالة ووجود وعدم ولا وجود ولا عدم، هذا كله لا يثبت ولا يصح إلا من موجود يكون عينه وماهيته ووجوده لا يقبل التكثر إلا بحكمه عليه، فإن الحقائق التي تبرز إليه فيه لوجوده فنقول بالكثرة في عينه وهو واحد ولكل حقيقة اسم فله أسماء: [الطويل]

تَجَسَّدَتِ أَسمائي فكنتُ كَثِيرَا ولم يَرَني غَيْرٌ فكنتُ بَصِيرَا
فيا قائلاً بالغَيْر أيْنَ وُجُودُهُ وأين يكونُ الغَيْرُ كنت غَيُورَا
تعالى على من أو بعِزٍّ فليس ثَمّ فبالحق كان الحَقُّ فيه غَفُورا
فوالله لولا الله ما كان كَوْنُه غَنيّاً ولا كان الغنيُّ فَقِيرا
بمن أو إلى عَلَق الفَقْر والغِنَى فَسَلْ بالذي قام الوُجُودُ خَبِيرَا

فإذا كان الوجود أوّل خزائن الجود وأعطاك الحق مفتاح هذه الخزانة كالذي كان عرّفك بك فعرفته فأنت أوّل معلوم وهو آخر معلوم، وأنت آخر موجود وهو أوّل موجود، فإنه ليس في قوتك أن تعلم المعدوم لأن العلم شهود، وإن لم يكن كذلك فليس بعلم، هذا هو الحق

الذي﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] فأوجد من كل خزانة عيناً قائمة أو عيناً في عين أو لا عيناً في عين، وأعني بقولي لا عين في عين النسب فإنه ليست لها أعيان، وحكمها يحكم على الوجود لأعيان بها ولا وجود لها إلا بالحكم، فلما أوجد ما ذكرناه عمد إليك فأوجدك كاملاً لانتهاء طرفي الدائرة فظهرت في وجودك وإن كنت آخراً بصورة الأول فانحصر العالم بينك وبينه فلا مخلص له منكما فلم تتميز عنه ولا تميز عنك في الحكم، وظهرت فيك صور العالم كلها التي أخرجها من تلك الخزائن فشاهدتك فحصل لك العلم بها فعلمت من العالم ما لم يعلم العالم من نفسه من الحكم فرداً فرداً وقال لك: كلما بقي في الخزائن مما لا يتناهى فهو مثل ما علمت، فمن أحاط علماً بواحد من الجنس فقد أحاط علماً بالجنس فإنه ماثم إلا أمثال، فما التقى طرفا الدائرة حتى حدث المحيط ودل المحيط على نقطة الدائرة فحدثت الخطوط من النقطة إلى المحيط ولم تتجاوزه، فإن انتهاء الخط إنما يكون إلى نقطة من المحيط فانتهى إلى ما منه خرج، فصورة أوليته عين صورة آخريته، فيصير من حكم نقطة آخره الذي انتهى إليها من المحيط من كذا إلى محيط آخر، نصفه من داخل المحيط الأوّل ونصفه من خارجه لحكم الظاهر والباطن، ويلتقي طرفاه أيضاً كالتقاء المحيط الأوّل حتى يكون على صورته لأنه من المحال أن يخرج على غير صورته، ثم يظهر من الحكم في المحيط ما ظهر في المحيط الأوَّل إلى ما لا يتناهى وهو ما يبرز من تلك الخزائن الذي لا يتناهى ما تحوي عليه وهو الخلق الجديد الذي الكون فيه دائماً أبداً، وبعض الناس أو أكثر الناس في لبس من ذلك كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] مع الأنفاس ولكن بصورة ما ذكرناه فالنقطة سبب في وجود المحيط، والمحيط سبب في حصول العلم بالنقط، فالمحيط حق وخلق والنقطة حق وخلق، فهذان حكمان يسريان في كل دائرة ظهرت من الدائرة الأولى، ولما ظهرت الدوائر بالغاً ما بلغت ولا تزال تظهر صارت الدائرة الأولى التي أحدثت هذه الدوائر خفية لا تعرف ولا تدرك لأن كل دائرة قربت منها أو بعدت عنها فهي على صورتها، فكل دائرة يقال فيها تشهدها وما تشهدها فهذا هو غيب في شهادة، فالدوائر الظاهرة في الدائرة الأولى عددها مساو لعدد خزائن الأجناس كانت ما كانت لا يزاد فيها ولا ينقص منها، وما يخرج ويحدث عنها من الدوائر إلى ما لا يتناهى دوائر أشخاص تلك الأجناس إلى ما لا يتناهى، وتدل عين دائرة الشخص على أمر يسمى نوعاً وهو ما بين الجنس والشخص فيحدث عندك أنواع في أنواع ولكن منحصرة ولا تعرف إلا من الأشخاص لأن النوع معقول بين الجنس الأعم والشخص، وكل متوسط بين طرفين إن شئت قلت: إن الطرفين أظهرا له حكم التوسط، وإن شئت قلت: إن التوسط أظهر حكم الطرفين، وهذا عين معرفة الحق بالخلق والخلق بالحق: [الطويل]

فلولا شُهُودُ الخَلْقِ بالحَقِّ لم يَكُنْ ... ولولا شُهُودُ الحَقِّ بالخَلْق لم تَكُنْ
فمن قال كُنْ فَهْوَ الذي قد شَهِدْتُهُ ... وما ثَمَّ إلا مَنْ يكون بقَوْلِ كُنْ
فمن عِلْمُهُ بالخَلْق يعرف حَقَّهُ ... ومن عِلْمُهُ بالحَقِّ كان ولم يَكُنْ

فالمحيط يحفظ النقطة علماً، والنقطة تحفظ المحيط وجوداً، فكل واحد منهما حافظ محفوظ ولا حظ ملحوظ، قال تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣] فالكل مشهود وشاهد، والكل فاضل ومفضول، فإن قال أحدهما أنا قال الآخر أنا، وإن قال أحدهما أنت قال الآخر له أنت، فلا يظهر كل واحد للآخر إلا بما يبدأ به كل واحد والقولان صحيحان: [مجزوء الوافر]

فيا حَقِّي ويا خَلْقي لِمَنْ تُفْني لِمَنْ تُبْقي
شَرِبْتُ شَرْبَةً منه وقد غَصَّ بها حَلْقي
وما ثَمَّ سوى عَيْنٍ فَمَنْ يَقْبَلُ ما تُلْقي
فقال لي الذي أغْني إذا ما قُلْتَ فَاسْتَبْقِ
فإنّ الأمْرَ مَحْصُورٌ بين الخَلْق والحَقِّ
ولولا ذاك ما كُنَّا فأَخْفِ الذِّكْرَ في الحَقِّ

فأنت يا ولي الذكر المنزل فأنت المحفوظ وما نزل إلا بك فأنت الحافظ فلا تفن عينك فإنه في نفس الأمر ما يفنى وغايتك أن تقول: أنا هو، فمدلول هو ما هو مدلول أنا فما يتخلص لك ما ترومه أبداً، وإذا عز عن التخلص فقل به، وقل بك، وتميز عنه، وميزه عنك تميز الأوّل عن الآخر والآخر عن الأوّل، وتميز عن العالم وميزه عنك تميز الظاهر من الباطن والباطن من الظاهر، فإنك من العالم روح العالم والعالم صورتك الظاهرة، ولا معنى للصورة بلا روح فلا معنى للعالم دونك، فإذا ميزت عينك من الحق ومن العالم عرفت قدرك بمعرفة الحق وعرفت منزلتك بمعرفة العالم: [الطويل]

فكُنْتَ لذا رَبّاً وكُنْتُ لذا عَبْدَا وأنْزَلْتَ عَهْداً مثل ما أنْزَلَ العَهْدَا
فإن كُنْتَ ذا لُبٍّ وغَوْصٍ وفِطْنَةٍ فلا تَلْتَزِمْ ذَمّاً ولا تلتزمْ حَمْدا
ولا تَفْعَلَنْ شيئاً إذا ما فَعَلْتَهُ بسَهْو وحَرْزٍ عند فعلتك القَصْدا
فما أنت ذاك الشَّخْصُ إن كان سَهْوُكُم يغالبُكم فاعْمِدْ إلى تَرْكِهِ عَمْدَا

فهذا الذي أنبأتك به مفتاح من مفاتح خزائن الجود فلا تضيعه فإنه يعمل عمل كل مفتاح ولا يعمل مفتاح عمله، فبه يفتح كل مغلق ولا يفتح بغيره ما أغلقه هذا المفتاح، ومفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو فلا تعلم إلا منه، فلا تطمع أن تصل إلى علمها بك، ومن طمع في غير مطمع فقد شهد على نفسه بالجهل ولله المثل الأعلى في السموات والأرض وما ثم إلا سماء وأرض وله المثل الأعلى فله صورة في كل سماء وأرض ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ من كونه في الأرض ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣] من كونه في السماء ومن حيث النشأة ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ من كونه في السماء وهو معناكم الذي خفي عن الأبصار عينه وظهر حكمه وله العلوّ فهو في السماء وهو الباطن، ويعلم أيضاً ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ من كونه في الأرض وهو ظاهركم الذي ظهر للأبصار عينه وخفي حكمه لأن حكمه في روحه فإنه الذي تفيده العلوم بحواسه فله النزول فهو الأرض فهو الظاهر: [الطويل]

فقد بَانَ أنّ الحَقَّ بالحَقِّ يَنْطِقُ وأن الذي قلناه أَمْرٌ مُحَقَّقُ
فلا تَعْدِلَنْ إنْ كُنْتَ للحقّ طالباً فعَكْسُ الذي قلناه لَفْظٌ مُلَفَّقُ

فيقول العبد الكامل الذي لا أكمل منه لي وقت لا يسعني فيه غير ربي ويقول الأصل لي وقت لا يسعني فيه غير نفسي، فإن الأوقات كلها استغرقها العالم في الجانبين، ولهذا كان الإنسان الكامل خليفة له تعالى، فلهذا سبق علمه بنفسه على علمه بربه، وبهذا جاء الخبر: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» فإن من استخلفه علم العالم من علمه بنفسه، والخليفة على صورة من استخلفه فعلم ربه من علمه بنفسه، وعلم أن كل من اتصف بالوجود فهو متناه أي كل ما دخل في الوجود وبقيت الحيرة في العلم بالله من كونه موجوداً هل يتصف بالتناهي لكونه موجوداً أو لا يتصف بالتناهي؟ فإن أرادوا بالتناهي كون عين الموجود موصوفاً بالوجود فهو متناهي كما هو كل موجود وإن عينه موجودة، وإن أرادوا بالتناهي انتهاء مدّة وجوده ثم ينقطع فهذا لا يصح عقلاً في الحق لأنه واجب الوجود لذاته فلا يقبل التناهي وجوده، ولأن بقاءه ليس بمرور المدد عليه المتوهمة فهو محال من وجهين تناهيه، وكذلك في أهل الآخرة أعني في أعيانهم وفي الدار الآخرة سمعاً ولا يتناهى بقاؤهم في الآخرة ولا استمراراً لمدد عليهم، فنسبة البقاء إلى الله تخالف نسبة البقاء للعالم، فالإطلاق في العلم والحصر في الوجود: [مجزوء الرمل]

كُلُّ ما في الكَوْن مَحصُو رٌ والذي في العِلْم مُطْلَقْ
فتَدَبَّرْ قَوْلَ حَبْرٍ بوُجُودِهِ تَحَقَّقْ
إنَّ عِلْمي بوُجُودي من وُجود الحَقِّ أسْبَقْ
فإذا علمتُ كوني جاء عِلْمُ الله يَلْحَقْ

ولما كان العالم لا بقاء له إلا بالله وكان النعت الإلهي لا بقاء له إلا بالعالم كان كل واحد رزقاً للآخر به يتغذى لبقاء وجوده محكوماً عليه بأنه كذا: [الطويل]

فنحن له رزقٌ تَغَذَّى بكوننا كما أنه رزقُ الكيان بلا شَكِّ
فيَحْفَظُنا كَوْناً ونحفظُ كَوْنَهُ إلٰهاً وهذا القولُ ما فيه من إفْكِ
فلا غَرْوَ أنّ الكَوْنَ في كل حالة يُقِرُّ لملك المُلْكِ بالرِّقِّ والمُلْكِ

فالوجود الحادث والقديم مربوط بعضه ببعضه ربط الإضافة والحكم لا ربط وجود العين، فالإنسان مثلاً موجود العين من حيث ما هو إنسان، وفي حال وجوده معلوم الأبوة إذا لم يكن له ابن يعطيه وجوده أو تقدير وجوده نعت الأبوة، وكذلك أيضاً هو معدوم نعت المالك ما لم يكن له ملك يملكه به يقال إنه مالك، وكذلك الملك وإن كان موجود العين لا يقال فيه ملك حتى يكون له مالك يملكه، فالله من حيث ذاته ووجوده غني عن العالمين، ومن كونه رباً يطلب المربوب بلا شك فهو من حيث العين لا يطلب ومن حيث الربوبية يطلب المربوب وجوداً وتقديراً، وقد ذكرنا أن كل حكم في العالم لا بد أن يستند إلى نعت إلهي إلا النعت الذاتي الذي يستحقه الحق لذاته وبه كان غنياً، والنعت الذاتي الذي للعالم بالاستحقاق

وبه كان فقيراً بل عبداً فإنه أحق من نعت الفقر وإن كان الفقر والذلة على السواء، ولهذا قال الحق لأبي يزيد: تقرب إلي بما ليس لي: الذلة والافتقار، والقادر على الشيء والانفعال الذاتي عن الشيء لا يتصف ذلك القادر ولا الذي عنه انفعل ما انفعل بالافتقار بخلاف المنفعل فإنه موصوف بالذلة والافتقار، فتميز الحق من الخلق بهذا، وإن كان الخلق بالحق والحق بالخلق مرتبطاً بوجه فالأمر كما قررناه، وهذا المنزل قد حواه فيقول القائل: فلماذا يستند الحكم بالهوى وهو موجود في الكون والحق لا يحكم بالهوى فالأهواء ما مستندها؟ قلنا: إن تفطنت لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] فلم يصف نفسه بالتحجير عليه في حكمه والكون موصوف بالتحجير فتوجه عليه الخطاب بأنه لا يحكم بكل ما يريد بل بما شرع له، ثم إنه لما قيل: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦] أي لا تحكم بكل ما يخطر لك ولا بما يهوى كل أحد منك بل احكم بما أوحى به إليك فإن الله تعالى قال جبراً لقلب خلفائه قل يا محمد: رب احكم بالحق أي ولا تفعل ما تريد، فليكن حكمك في الأمم يوم القيامة بما شرعت لهم وبعثتنا به إليهم فإن ذلك مما يراد فإنك ما أرسلتنا إلا بما تريد حتى يثبت صدقنا عندهم وتقوم الحجة عليهم إذا حكم الحق في كل أمة بما أرسل به نبيه إليهم، وبهذا تكون لله الحجة البالغة، فدل التحجير على الخلق في الأهواء أن لهم الإطلاق بما هم في نفوسهم، ثم حدث التحجير في الحكم والتحكم كما أنه فعال لما يريد. ثم إنه ما حكم إلا بما شرع وأمر عبده أن يسأله تعالى في ذلك حتى يكون حكمه فيه عن سؤال عبده كما كان حكم العبد بما قيده من الشرع عن أمر ربه بذلك فليست الأهواء إلا مطلق الإرادات، فقد علمت لماذا استندت الأهواء واستند التحجير، ثم لتعلم أن الهوى وإن كان مطلقاً فلا يقع له حكم إلا مقيداً فإنه من حيث القابل يكون الأثر فالقابل لا بد أن يقيده فإنه بالهوى قد يريد القيام والقعود من العين الواحدة التي تقبلهما على البدل في حال وجود كل واحد منهما في تلك العين، والقابل لا يقبل ذلك فصار الهوى محجوراً عليه بالقابل فلما قبل الهوى التحجير بالقابل علمنا أن هذا القبول له قبول ذاتي فحجر الشرع عليه فقبل وظهر حكم القابل في الهوى ظهوره في مطلق الإرادة فيمن اتصف بها، فلما خلق الله النفس الناطقة أو الخليفة قل ما شئت خلق فيه قوى روحانية معنوية نسبية معقولة، وإن كانت هذه القوى عين من اتصف بها كالأسماء والصفات الإلهية التي مرجعها وكثرتها إلى نسب في عين واحدة لا تقبل الكثرة في عينها ولا العدد الوجودي العيني، فكان من القوى التي خلقها في هذا الخليفة بل في الإنسان الكامل والحيوان وهو مطلق الإنسان قوّة تسمى الوهم وقوّة تسمى العقل وقوّة تسمى الفكر، وميز الحضرات الثلاثة لهذا الخليفة وولاه عليها حضرة المحسوسات وحضرة المعاني المجردة في نفسها عن المواد وإن لم يظهر بعضها إلا في بعض المواد، وحضرة الخيال حضرة متوسطة بين طرفي الحس والمعنى وهو خزانة الجبايات التي تجبيها الحواس، وجعل فيه قوّة مصوّرة تحت حكم العقل والوهم يتصرف فيها العقل بالأمر، وكذلك الوهم أيضاً يتصرف فيها بالأمر وقوّى في هذه النشأة سلطان الوهم على العقل، فلم يجعل في قوّة العقل

أن يدرك أمراً من الأمور التي ليس من شأنها أن تكون عين مواد أو تكون لا تعقل من جهة ما إلا في غير مادة كالصفات المنسوبة إلى الله المنزه عن أن يكون مادة أو في مادة، فعلمه المنسوب إليه ما هو مادة ولا ينسب إلى مادة، فلم يكن في قوّة العقل مع علمه بهذا إذا خاض فيه أن يقبله إلا بتصوّر، وهذا التصوّر من حكم الوهم عليه لا من حكمه، فالحس يرفع إلى الخيال ما يدركه وتركب القوّة المصورة في الخيال ما شاءته مما لا وجود له في الحس من حيث جملته لكن من حيث أجزاء تلك الجملة، فإن كانت القوة المصورة قد صورت ذلك عن أمر العقل بقوة الفكر فذلك لطلبه العلم بأمر ما والعلم مقيد بلا شك، وإن كان ما صورته المصورة عن أمر الوهم لا من حيث ما تصرف به العقل من حكم الوهم بل من الوهم نفسه فإن تلك الصورة لا تبقى فإن الوهم سريع الزوال لإطلاقه بخلاف العقل فإنه مقيد محبوس بما استفاده.

ولما كان الغالب على الخلق حكم الأوهام لسلطنة الوهم على العقل فإنه أثر فيه أنه لا يقبل معنى يعلم قطعاً أنه ليس بمادة ولا في مادة إلا بتصور، وذلك التصور ليس غير الصورة التي لا يحكم بها إلا الوهم، فصار العقل مقيداً بالوهم بلا شك فيما هو به عالم بالنظر، وأما علمه الضروري فليس للوهم عليه سلطان، وبه يعلم أن ثم معاني ليست بمواد ولا في أعيان مواد وإن لم يقبلها بالنظر إلا في مواد من خلف حجاب رقيق يعطيه الوهم.

ولما علم الحق ما ركب عليه العالم المكلف مما ذكرناه أرسل الرسل إلى الناس والمكلفين فوقفوا في حضرة الخيال خاصة ليجمعوا بين الطرفين بين المعاني والمحسوسات فهو موقف الرسل عليهم السلام فقالوا لبعض الناس من هذه الحضرة: اعبد الله كأنك تراه، ثم نبه هذا المخاطب المكلف بعد هذا التقرير على أمر آخر ألطف منه لأنه علم أن ثم رجالاً علموا أن ثم معاني مجردة عن المواد فقال له: فإن لم تكن تراه أي تقف مع دليلك الذي أعلمك أنك لا تراه فإنه يعني الله يراك أي الزم الحياء منه والوقوف عندما كلفك فعدل في الخطاب إلى حكم وهم ألطف من الحكم الأوّل، فإنه لا بد لهذا المكلف أن يعلم أنه يراه إما بعقله أو بقول الشرع، وبكل وجه فلا بد أن يقيده الوهم، فإن العبد بحيث يراه الله فأخرجه عنه فحده إذ ميزه مع علمه أنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فحيره وهذه الحيرة سارية في العالم النوري والناري والترابي، لأن العالم ما ظهر إلا على ما هو عليه في العلم الإلهي وما هو في العلم لا يتبدل، فالمرتبة الإلهية تنفي بذاتها التقييد عنها، والقوابل تنفي الإطلاق عنها بالوقوع، فعلمت سبب الحيرة في الوجود ما هو، قال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [قَ: ٢٩] أي ما حكم به العلم وسبق به الكتاب فعرفنا ذلك من العلم والكتاب إذ كان له الحكم، والخلفاء إنما هم خلفاء العلم والكتاب، فالعلم والكتاب حجابان عن الحق الذي هو غني عن العالمين، فمرجع الكون للعلم والكتاب فتنتج الأهواء مع إطلاقها ما تنتجه العقول مع تقييدها فلا يسلم لعقل حكم أصلاً بلا وهم في هذه النشأة، لأن النشأة لها ولادة على كل من ظهر فيها، وماثم أعلى من الحق رتبة ومع هذا تخيلته وقال لها تخيليني أمرها بذلك لكونه

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ووسعها ما تعطيه حقيقتها وجعل سعادتها في ذلك التخيل ثم قال لها: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فجمعت بين التنزيه فقيدته وبين التشبيه فقيدته فإنها مقيدة فلا تعلم إلا التقييد الذي هو حقيقتها: [البسيط]

فـالـعَـقْـلُ يُـنْـتِـجُ مـا الأهـواءُ تُـنْـتِـجُـهُ فـإنـه عـن هَـوًى قـد كـان مُـخْـرِجُـهُ
فـلـيس يـحـكـمُ في شيء بـغـيـر هَـوًى إلا الـضَّـرُوريّ والـفِـكْـريُّ يُـخْـرِجُـهُ

وقد نبه الحق عباده في كتابه العزيز أن عنده خزانة خزائن كل شيء، والخزائن تقتضي الحصر والحصر يقتضي التقييد. ثم بين أنه ما ينزل شيئاً منها إلا بقدر معلوم وهو تقييد، ولولا التقييد بين المقدمتين الذي يربطهما ما ظهرت بينهما نتيجة أصلاً ولا ظهر خلق عن حق أصلاً، ولهذا سرى النكاح في المعاني والمحسوسات للتوالد قديماً وحديثاً ولكن لا يفقهون حديثاً أي أنتم يا محجوبون لا تعلمون ما نحدثكم به، فإن الشرع كله حديث وخبر إلهيّ بما يقبله العقل والوهم حتى تعم الفائدة ويكون كل من في الكون مخاطباً، ويا علماء الله وبالأمر لا تعلمون حديثاً بل تعلمون قديماً وإن حدث عندكم فما هو حديث العين ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث وما هو إلا كلام الله المنعوت بالقدم، فحدث عندهم حين سمعوه فهو محدث بالإتيان قديم بالعين، وجاء في مواد حادثة ما وقع السمع ولا تعلق إلا بها وتعلق الفهم بما دلت عليه هذه الأخبار، والذي دلت عليه منه ما هو موصوف بالقدم، ومنه ما هو موصوف بالحدوث، فله الحدوث من وجه والقدم من وجه، ولذلك قال من قال: إن الحق يسمع بما به يبصر بما به يتكلم والعين واحدة والأحكام تختلف، قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [النساء: ١٣٣] فعلق الذهاب بالمشيئة، وقال: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨] فعلق الذهاب بالاقتدار بما به قدرته أراد وشاء.

وهنا علم شريف وهو أن متعلق القدرة الإيجاد لا الإعدام فيتعرض هنا أمران الأمر الواحد أن الذهاب المراد هنا ليس الإعدام، وإنما هو انتقال من حال إلى حال، فمتعلق القدرة ظهور المحكوم عليه بالحال التي انتقل إليها، فأوجدت القدرة له ذلك الحال فما تعلقت إلا بالإيجاد. والأمر الآخر أن وصفه بالاقتدار على الذهاب أي لا مكره له على إبقائه في الوجود، فإن وجود عين القائم بنفسه أعني بقاءه إنما هو مشروط بشرط بوجود ذلك الشرط يبقي الوجود عليه، وذلك الشرط يمده الله به في كل زمان، وله أن يمنع وجود ذلك الشرط ولا بقاء للمشروط إلا به فلم يوجد الشرط فانعدم المشروط، وهذا الإمساك ليس من متعلق القدرة، وقد وصف نفسه بالقدرة على ذلك فلم يبق إلا فرض المنازع الذي يريد بقاءه، فهو قادر على دفعه لما لم يرد الله بقاءه فيقهر المنازع فلا يبقى ما أراد المنازع بقاءه، والقهر حكم من أحكام الاقتدار. ولما علمنا هذا وتقرر لدينا علمنا من تقدم وحكمه ومن تأخر وحكمه، كما قدمنا أن الشيء يكون متقدماً من وجه متأخراً من وجه.

وفي هذا المنزل من العلوم علم المثلثات الواقعة في الوجود ومن أين أصلها وما يتصل منها وما ينفصل. وفيه علم مناسبة القرآن للكتاب وكون التوراة وغيرها كتاباً وليست بقرآن.

وفيه علم تقليل النظير في المحمود والمذموم، وفيه علم حكمة السبب في وجود ما لا يوجد إلا بسبب هل يجوز وجوده بغير سبب أم لا عقلاً؟ وفيه علم تهيؤ القوابل بذاتها لما يرد عليها مما تقبله، وفيه ترك الإهمال من ترك ما يترك لمنفعة وكله ترك. وفيه علم تأخير الوعيد ممن لا مانع له فهل ذلك لمانع لا يمكن رفعه أو هل هو عن اختيار إن صح وجود الإنسان في العالم فإنه ليس له مستند وجودي في الحق، وإنما هو أمر متوهم ذكرناه في الباب الذي يليه هذا الباب فقد تقدم. وفيه علم الآجال في الأشياء والترتيب في الإيجاد مع تهيؤ الممكنات لقبول الإيجاد فما الذي أخرها والفيض الإلهيّ غير ممنوع والقوابل مهيأة للقبول والتأخير والتقديم مشهود فلماذا يرجع؟ فلا بد في هذا الموطن من حكم يسمى المشيئة ولا بد ولا يمكن رفع هذا الحكم بوجه من الوجوه. وفيه علم ما ستر عن العالم أن يعلمه هل ينقسم إلى ما لا يزال مستوراً عنه فلا يعلمه أبداً وإلى ما يعلمه برفع الستور، وهل علم ما لا يرفع ستره ممكن أن يعلم لو رفع الستر أو ستره عينه فلا يمكن أن يعلم لذاته. وفيه علم سبب طلب البينة من المدعي اسم فاعل وقبول الطالب لذلك شهادة البينة من غير حكم الحاكم ولا يكون ذلك حتى يتذكر المدعى عليه بشهادة البينة فهل قبوله شهادتهم للذكرى أم لأمر آخر وهو عدم التهمة لهم فيما شهدوا به وجوزوا النسيان منه لما شهدوا به عليه وذلك لإنصافهم. وفيه علم تأخير البيان عند الحاجة مع التمكن منه لا يجوز. وفيه علم إقامة الجماعة مقام الواحد وإقامة الواحد مقام الجماعة. وفيه علم ردّ الدلائل للأغراض النفسية هل يكون ردّها عن خلل عنده في كون تلك الدلائل كما هي في نفسها صحيحة أو لا عن خلل؟ وفيه علم من حفظ من العالم وبماذا حفظ وممن حفظ ولماذا حفظ. وفيه علم ما تحوي عليه الأرض من الكنوز وما يظهر عليها مما يخرج منها أنه على حد معلوم لا يقبل الزيادة والنقص، وفيه علم رزق العالم بعضه بعضاً. وفيه علم ترك الادّخار من صفة أهل الله الذاكرين منهم. وفيه علم نشء الحيوان على اختلاف أنواعه وفيما ذا يشترك وبماذا يتميز صنف عن صنف. وفيه علم التعريف الإلهيّ من شاء الله من عباده. وفيه علم سبب سجود الملائكة لآدم إنما كان لأجل الصورة لا لأن علمهم الأسماء فأمروا بالسجود قبل أن يعرفوا فضله عليهم بما علمه الله من الأسماء، ولو كان السجود بعد ظهوره بالعلم ما أبى إبليس ولا قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] ولا استكبر عليه ولهذا قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] وقال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] ثم بعد ذلك أعلم الله الملائكة بخلافته فقالوا ما أخبر الله عنهم ولهذا قال تعالى في بعض ما كرره من قصته: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] فأتى بالماضي من الأفعال وبأداة إذ وهي لما مضى من الزمان، فاجعل بالك لهذه المسألة لتعلم فضل آدم بعلمه على فضله بالسجود له لمجرد ذاته، ولماذا نهي في الشرع أن يسجد إنسان لإنسان فإنه سجود الشيء لنفسه فإنه مثله من جميع وجوهه والشيء لا يخضع لنفسه، ولهذا لما سئل ﷺ في الرجل إذا لقي الرجل أينحني له؟ قال: «**لا**» قيل له: أيصافحه؟ قال: «**نعم**». وفيه علم ما السبب في عداوة الأمثال هل لكون المثلين ضدين أو لأمر آخر؟ وفيه علم ما جهل الأعلى من

الأدنى حين افتخر عليه وما له شرف إلا به فإنه لولا الأدنى ما ظهر فضل الأعلى، فأيّ فائدة لافتخاره والحال يشهد له بذلك ولم يكتف ولهذا قال ﷺ: «**أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخرَ**» أي ما قصدت الفخر عليكم بذلك فإنه معلوم بالمقام والحال أنه سيد الناس. وفيه علم حكمة من سأل أمراً فيه شقاؤه فأجابه المسؤول مع علمه بذلك ولم ينبهه على ما عليه من الشقاء في ذلك. وفيه علم أن المأمور يمتثل أمر سيده ثم يعاقبه السيد على امتثال أمره ما حكم هذا الفعل من السيد؟ وفيه علم الفرق بين من أخذ بالحجة وبين من أخذ بالقهر. وفيه علم الخمسة عشر. وفيه علم التساوي بين الضدين فيما اجتمعا فيه. وفيه علم المبادرة لكرامة الضيف النازل عليك وإن لم تعرفه بماذا تقابله وأنت لا تعرف منزلته فتكرمه بقدر ما تعرف من منزلته وتعامله بذلك، فإن الكرامة على قسمين: القسم الواحد يعم المعروف وغير المعروف. والقسم الآخر ما يفضل بها المعروفون. وفيه علم التعريف بما يقع به الأمان للخائف والأنس للمستوحش، وفيه علم النصائح. وفيه علم التذكير والمواعظ. وفيه علم من ينبغي أن يصحب ممن لا ينبغي أن يصحب، ومن ينبغي أن يتبع ممن لا ينبغي أن يتبع، ومن ينبغي أن يعرف من غير صحبة ولا اتباع ومن يصحب ويتبع ولا يعرف. وفيه علم ما لا بد من العلم به وهو العلم بطريق نجاتك.

وصل: هذا المنزل بينه وبين الباب السبعين ومائتين وصلة بنسبة خاصة، فألحقنا منه في هذا المنزل هذا القدر الذي أذكره إن شاء الله وذلك أن الله تعالى لما خلق الأرواح النورية والنارية أعني الملائكة والجان شرّك بينهما في أمر وهو الاستتار عن أعين الناس مع حضورهم معهم في مجالسهم وحيث كانوا، وقد جعل الله عز وجل بينهما وبين أعين الناس حجاباً مستوراً فالحجاب مستور عنا وهم مستورون بالحجاب عنا فلا نراهم إلا إذا شاؤوا أن يظهروا لنا، ولهذا سمى الله الطائفتين من الأرواح جنّاً أي مستورين عنا فلا نراهم، فقال في حق الملائكة في الذين قالوا إن الملائكة بنات الله وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً يعني بالجنة هنا الملائكة لقولهم ما ذكرناه آنفاً وكانوا يكرهون نسبة البنات إليهم فأخبرنا الله بذلك في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢] فإنهم كانوا يكرهون البنات، وبهذا أخبرنا الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨] يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أو يدسه في التراب، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩] وأنكر الله عليهم نسبة الأنوثة إلى الملائكة في قوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠] فلما شرك الله تعالى بين الملائكة وبين الشياطين في الاستتار سمى الكل جنة فقال في الشياطين: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس] يعني بالجنة هنا الشياطين. وقال في الملائكة: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ يعني الملائكة ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨] والملائكة رسل من الله إلى الإنسان موكلون به حافظون كاتبون أفعالنا، والشياطين مسلطون على الإنسان بأمر الله فهم مرسلون إلينا من

الله، وقال عن إبليس إنه: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ يعني الملائكة ﴿فَفَسَقَ﴾ أي خرج أي ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] أي من الذين يستترون عن الإنس مع حضورهم معهم فلا يرونهم كالملائكة فلما شرك بينهم في الرسالة أدخله أعني إبليس في الأمر بالسجود مع الملائكة فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الكهف: ٥٠] فأدخله معهم في الأمر بالسجود فصحّ الاستثناء وجعله منصوباً بالاستثناء المنقطع فقطعه عن الملائكة كما قطعه عنهم في خلقه من نار فكأنه يقول: إلا من أبعده الله من المأمورين بالسجود، ولا ينطلق على الأرواح اسم جن إلا لاستتارهم عنا مع حضورهم معنا فلا نراهم فحينئذ ينطلق عليهم هذا النعت، فالجنة من الملائكة هم الذين يلازمون الإنسان ويتعاقبون فينا بالليل والنهار ولا نراهم عادة. وإذا أراد الله عز وجل أن يراهم من يراهم من الإنس من غير إرادة منهم لذلك رفع الله الحجاب عن عين الذي يريد الله أن يدركهم فيدركهم، وقد يأمر الله الملك والجن بالظهور لنا فيتجسدون لنا فنراهم أو يكشف الله الغطاء عنا فنراهم رأي العين، فقد نراهم أجساداً على صور، وقد نراهم لا على صور بشرية، بل نراهم على صورهم في أنفسهم، كما يدرك كل واحد منهم نفسه وصورته التي هو عليها، وأن الملائكة أصل أجسامها نور والجن نار مارج والإنسان مما قيل لنا، ولكن كما استحال الإنس عن أصل ما خلق منه كذلك استحال الملك والجن عن أصل ما خلقا منه إلى ما هما عليه من الصور، فقد بان لك ما اشترك فيه الجان والملك وما تميز به بعضهما عن بعض، فيعتبر الله في التعبير لنا عن كل واحد منهما، إما بالصفة المشتركة بينهما أو بما ينفرد كل جنس منهما به كيف شاء لمن نظر نظراً صحيحاً في ذلك، وخلق الله الجان شقياً وسعيداً وكذلك الإنس، وخلق الله الملك سعيداً لا حظ له في الشقاء، فسمي شقي الإنس والجان كافراً، وسمي السعيد من الجن والإنس مؤمناً، وكذلك شرّك بينهما في الشيطنة فقال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝﴾ [الناس: ٥، ٦] وقد علمنا أن النفس بذاتها وإن كانت مقيدة لا تشتهي التقييد بذاتها وتطلب السراح والتصرف بما يخطر لها من غير تحجير، فإذا رأيت النفس قد حبب إليها التحجير فقامت به طيبة وكره إليها تحجير آخر فقامت به إن قامت غير طيبة مكرهة، فتعلم قطعاً أن ذلك التحجير مما ألقي إليها من غير ذاتها كان التحجير ما كان، فإذا حبب إلى نفوس العامة القيام بتحجير خاص فتعلم قطعاً أن ذلك التحجير هو الباطل الذي يؤدي العمل به إلى شقاوة العامل به والواقف عنده، فإن الشيطان الذي يوسوس في صدره يوسوس إليه دائماً ويحببه إليه لأن غرضه أن يشقيه، وإذا رأيته يكره ذلك التحجير ويطلب تأويلاً في ترك العمل به فتعلم أن ذلك تحجير الحق الذي يحصل للعامل به السعادة إلا أهل الكشف الذين حبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وإن لم يعرفوا أنهم كشف لهم، ولكن علمناه نحن منهم وهم لايعلمونه من نفوسهم، ولهذا نرى من ليس بمسلم يثابر على دينه وملازمته كأكثر اليهود والنصارى أكثر مما يثابر المسلم على إقامة جزئيات دينه ومثابرته على ذلك دليل على أنه على

طريق يشقى بسلوكه عليها، وهذا من مكر الله الخفي الذي لا يشعر به كل أحد إلا من كان على بصيرة من ربه، وهذا الصنف قليل، ولا يوجد في الجن لا في مؤمنهم ولا في كافرهم من يجهل الحق ولا من يشرك، ولهذا ألحقوا بالكفار ولم يلحقهم الله بالمشركين، وإن كانوا هم الذين يجعلون الإنس أن يشركوا فإذا أشركوا تبرؤوا ممن أشرك كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ [الحشر: ١٦] وهو وحي الشيطان إلى وليه ليجادل بالباطل أهل الحق، فإذا كفر يقول له: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] فوصف الشيطان بالخوف من الله ولكن على ذلك الإنسان لا على نفسه، فخوف الشيطان على الذي قبل إغواءه لا على نفسه، كما تخاف الأنبياء عليهم السلام يوم القيامة على أممهم لا على أنفسهم.

وسبب ارتفاع الخوف من الشيطان على نفسه علمه بأنه من أهل التوحيد ولذا قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] فأقسم به تعالى لعلمه بربه كأنه يرى الحق أنه قد علم من نشأة الإنسان قبوله لكل ما يلقى إليه، فلما سأل ذلك أجاب الله سؤاله فأمره بما أغوى به الإنس فقال له ﴿ٱذْهَبْ﴾ [الإسراء: ٦٣] يعني إلى ما سألته مني وذكر له جزاءه وجزاء من اتبعه من الإنس، فكان جزاء الشيطان أن رده إلى أصله الذي منه خلقه، وجزاء الإنسان الذي اتبعه كذلك، ولكن غلب جزاء الإنسان على جزاء إبليس، فإن الله ما جعل جزاءهما إلا جهنم وفيها عذاب إبليس فإن جهنم برد كلها ما فيها شيء من النارية فهو عذاب لإبليس أكثر منه لمتبعه، وإنما كان ذلك لأن إبليس طلب أن يشقي الغير فحار وباله عليه لما قصده، فهو تنبيه من الحق لنا أن لا نقصد وقوع ما يؤدي إلى الشقاء لأحد فإن ذلك نعت إلهي، ولذلك أبان الله طريق الهدى من طريق الضلالة، فالعبد المستقيم هو الذي يكون على صراط ربه، مع أن الشيطان تحت أمر ربه في قوله: ﴿ٱذْهَبْ﴾ [الإسراء: ٦٣] ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ [الإسراء: ٦٤] ﴿وَأَجْلِبْ﴾ [الإسراء: ٦٤] ﴿وَشَارِكْهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٤] ﴿وَعِدْهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٤] وهذه كلها أوامر إلهية، فلو كانت ابتداء من الله ما شقي إبليس ولما كانت إجابة له لما قال ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] و﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥ﴾ [الإسراء: ٦٢] شقي بها، كما تعب المكلف فيما سأله من التكليف، فإن الشرع منه ما نزل ابتداء ومنه ما نزل عن سؤال. ولولا أن الرحمة شاملة لكان الأمر كما ظهر في العموم ولما قيدت هذا الوصل: غفوت غفوة فرأيت في المبشرة يتلى علي: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣] من الوحدة فهو كثير بالأحكام فإن له الأسماء الحسنى، وكل اسم علامة على حقيقة معقولة ليست هي الأخرى ووجوه العالم في خروجه من العدم إلى الوجود كثيرة تطلب تلك الأسماء أعني المسميات وإن كانت العين واحدة، كما أن العالم من حي هو عالم واحد وهو كثير بالأحكام والأشخاص، ثم تلي علي: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] وما ذكر لشقي هنا نعتاً ولا حالاً بل ذكر الأمر بين اجتباء وهداية، ثم قيل لي من علم الهداية

والاجتباء علم ما جاءت به الأنبياء وكلا الأمرين إليه، فمن اجتباه إليه جاء به إليه ولم يكله إلى نفسه، ومن هداه إليه أبان له الطريق الموصلة إليه ليسعده وتركه ورأيه فـ ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] ولما جاء تعالى في هذه الآية العامة ولم يذكر للشقاوة اسماً ولا عيناً وذكر الاجتباء والهداية وهو البيان هنا وجعل الأمرين إليه علمنا أن الحكم للرحمة التي وسعت كل شيء، وما ذكر في المشرك إلا كون هذا الذي دعى إليه كبر عليه لأنه دعى على وجه واحد وهو يشهد لكثرة من وجوده الذي جعله الحق دليلاً عليه في قوله: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وما عرف نفسه إلا واحداً في كثير أو كثيراً في واحد، فلا يعرف ربه إلا بصورة معرفته بنفسه، فلذلك كبر عليه دعاء الحق إلى الأحدية دون سائر الوجوه، وذلك لأن المشرك ما فهم عن الله مراد الله بذلك الخطاب، فلما علم الحق أن ذلك كبر عليه رفق به وجعل الأمر إليه تعالى بين اجتباء وهداية، فشرك بالاجتباء والهداية ووحد بإليه في الأمرين رفقاً به وأنساً له ليعلم أنه الغفور الرحيم بالمسرفين على أنفسهم، ولما رأى إبليس منّة الله قد سرت في العالم طمع في رحمة الله من عين المنة لا من عين الوجوب الإلهي فعبده مطلقاً لا مقيداً ففي أيّ وجهة تصرّف لم يخرج عن حق، كما أن الشرع الذي وصى به من ذكره في هذه الآية متنوّع الأحكام ينسخ بعضه بعضاً، والكل قد أمروا بإقامته، وأن لا يتفرق فيه للافتراق الذي فيه، فهو يدعو بالكثرة إلى عين واحدة أو بالوحدة إلى حقائق كثيرة كيف شئت فقل ما شئت مما لا يغير المعنى: [مجزوء الكامل]

فالكُلُّ في حُكْمِ الوُجُودْ ... كالكُلِّ في عَيْنِ الشُّهُودْ
لِتَعُمَّ رَحْمَتُهُ الوَرَى ... وتَبِينَ أعلامُ الجُحُودْ
فيكون رحماناً بِمَنْ ... يدعى الشقيّ أو السَّعِيدْ
هذا بدار جَهَنَّم ... هذا بجَنَّات الخُلُودْ
والله جَلّ بذاتِهِ ... عَنِ الانْحِصَارِ عَنِ الحُدُودْ

وهذا الوصل واسع المجال فيه علم الأوامر المختصة بالشارع وحده وهو الرسول. وعلم ما يتقىٰ به من الأسماء الإلهية. وعلم مالك الملك ومدلول اسم الإله ونعته بالأحدية في قوله: و﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣] وإضافته إلى الضمير مثل: ﴿إِلَٰهُكُمْ﴾ [طه: ٨٨] وإلى الظاهر مثل: ﴿وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨] و﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٣] هل الحكم واحد أو يتغير بتغير الإضافة أو بالنعت؟ وعلم الربوبية وكونها لم تأت قط من عند الله من غير تقييد. وعلم الإلهام واختلاف الاسم عليه بالطرق التي منها يأتي.

الوصل الثاني من هذا الباب: وهو ما يتصل به من المنزل الثاني من المنازل المذكورة في هذا الكتاب وهو يتضمن علوماً منها علم الفصل بين ما يقع به الإدراك للأشياء وبين ما لا يدرك به إلا نفسه خاصة. وعلم اختزان البزرة والنواة والحبة ما يظهر منها إذا بزرت في الأرض وكيف تدل على علم خروج العالم من الغيب إلى الشهادة لأن البزرة لا تعطي ما اختزن الحق فيها إلا بعد دفنها في الأرض فتنفلق عما اختزنته من ساق وأوراق وبزور،

وأمثالها من النواة نوى، ومن الحبة حبوب، ومن البزرة بزور، فتظهر عينها في كثير مما خرج عنها فتعلم من هذا ما الحبة التي خرج منها العالم، وما أعطت بذاتها فيما ظهر من الحبوب، ولماذا يستند ما ظهر منها من سوى أعيان الحبوب، فلولا ما هو مختزن فيها بالقوة ما ظهر بالفعل فاعلم ذلك وهذا كله من خزائن الجود، ويتضمن علم الأمر المطلق في قوله ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠] والمقيد بعمل مخصوص واختلاف الصيغ في ذلك، ويتضمن علم إضافة الشرور إلى غير الله لأنها معقولة عند العالم فقال ﷺ: «**وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيكَ**» فأثبته في عينه ونفى إضافته إلى الحق، فدل على أن الشر ليس بشيء وأنه عدم إذ لو كان شيئاً لكان بيد الحق فإن بيده ملكوت كل شيء وهو خالق كل شيء، وقد بين لك ما خلق بالآلة وبغير الآلة، وبكن، وبيده، وبيديه، وبأيد، وفصل، وأعلم، وقدر، وأوجد، وجمع، ووحد فقال: إني، ونحن، وأنا، وإنا، ولهذا كبر على المشركين، فإن معقول نحن ما هو معقول إني، وجاء الخطاب بإليه فوحد ما رأوا للجمع عيناً فكبر ذلك عليهم ونون العظمة في الواحد قول من لا علم له بالحقائق ولا بلسان العرب. ويتضمن علم ظلمة الجهل إذا قامت بالقلب فأعمته عن إدراك الحقائق التي بإدراكها يسمى عالماً، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أراد العلم والجهل وما كل ما يدرك ولا يدرك به يكون ظلمة، فإن النور إذا كان أقوى من نور البصر أدركه الإنسان ولم يدرك به، ولهذا ذكر رسول الله ﷺ في الله أن حجابه النور فلا يقع الكشف إلا بالنور الذي يوازي نور البصر، ألا ترى الخفافيش لا تظهر إلا في النور الموازي نورها بصرها وهو نور الشفق.

ويتضمن علم الشبهات وهو كل معلوم يظهر فيه وجه للحق ووجه لغير الحق، فيكون في الأرزاق ما هو حلال بين وحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن لاحت له وقف عندها حتى يتبين له أمرها، فإما أن يلحقها بالحلال وأما أن يلحقها بالحرام، فلا يقدم عليها ما دامت في حقه شبهة فإنها في نفس الأمر مخلصة لأحد الجانبين، وإنما اشتبه على المكلف لتعارض الأدلة الشرعية عنده في ذلك وفي المعقولات كالأفعال الظاهرة على أيدي المخلوقين فيها وجه يدل أنها لله ووجه يدل أنها للمخلوق التي ظهرت في الشهادة عليه وهي في نفس الأمر مخلصة لأحد الجانبين، وكذلك السحر والمعجزة، فالسحر له وجه إلى الحق فيشبه الحق وله وجه إلى غير الحق فيشبه الباطل مشتق من السحر وهو اختلاط الضوء والظلمة فلا يتخلص لأجد الجانبين، ولما سحر رسول الله ﷺ فكان يخيل إليه أنه يأتي نساءه وهو لم يأتهنّ فأتاهن حقيقة في عين الخيال ولم يأتهن حقيقة في عين الحس فهو لما حكم عليه، وهذه مسألة عظيمة، وإذا أراد من أراد إبطال السحر ينظر إلى ما عقده الساحر فيعطي لكل عقدة كلمة يحلها بها كانت ما كانت، فإن نقص عنها بالكلمات بقي الأمر عليه فإنه ما يزول عنه إلا بحل الكل وهو علم إلهي، فإن النبي ﷺ يقول: «**إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي**» ولا يكون النفث إلا ريحاً بريق لا بد من ذلك حتى يعم، فكما أعطاه من روحه بريحه أعطاه من نشأته الطبيعية من ريقه فجمع له الكل في النفث بخلاف النفخ فإنه ريح مجرد، وكذلك السحر

وهو الرئة وهي التي تعطي الهواء الحار الخارج والهواء البارد الداخل، وفيها القوّتان الجاذبة والدافعة، فسميت سحراً لقبولها النفس الحار والبارد وبما فيها من الرطوبة لا تحترق بقبول النفس الحار، ولهذا يخرج النفس وفيه نداوة فذلك مثل الريق الذي يكون في النفث الذي ينفثه الروح في الروع والساحر في العقدة. ويتضمن علم الفرق بين من يريد بسط رحمة الله على عباده طائعهم وعاصيهم وبين من يريد إزالة رحمة الله عن بعض عباده وهو الذي يحجر رحمة الله التي وسعت كل شيء ولا يحجرها على نفسه، وصاحب هذه الصفة لولا أن الله سبقت رحمته غضبه لكان هذا الشخص ممن لا يناله رحمة الله أبداً. واعلم أن الله تعالى لما أوجد الأشياء عن أصل هو عينه وصف نفسه بأنه مع كل شيء حيث كان ذلك الشيء ليحفظه بما فيه من صورته لإبقاء ذلك النوع في الوجود، فظهرت كثرة الصور عن صورة واحدة هي عينها بالحد وغيرها بالشخص كما قلنا في الحبوب عن الحبة الواحدة فهي خزانة من خزائن الجود لما يشبهها ولما يلزمها وإن خالفها في الصورة، إذ الخزانة تخزن خزائن وتخزن ما في تلك الخزائن من المخزون فيها، فهو وإن خرج عن غير صورتها فلا بد من جامع يجمع بينهما وأظهرها الجسمية في الحبة والورق والثمر والجسد والفروع والأصول، وهذا مشهود لكل عين من الحبة الواحدة أو البزرة الواحدة زائداً على الأمثال، فالكامل من الخلفاء كالحبوب من الحبة والنوى من النواة والبزور من البزرة، فيعطي كل حبة ما أعطته الحبة الأصلية لاختصاصها بالصورة على الكمال وما تميزت إلا بالشخص خاصة، وما عدا الخلفاء من العالم فلهم من الحق ما للأوراق والأغصان والإزهار والأصول من النواة أو البزرة أو الحبة، ومن هنا يعلم فضل الإنسان الخليفة على الإنسان الحيوان الذي هو أقرب شبهاً بالإنسان الكامل ثم على سائر المخلوقات، فافهم ما بيناه فإنه من لباب العلم بالله الذي أعطاه الكشف والشهود.

فإن قلت: بماذا أعلم من نفسي هل أنا من الكمل أو من الحيوان الذي يسمى إنساناً؟ قلنا: نعم ما سألت عنه فاعلم أنك لا تعلم أنك على الصورة ما لم تعلم قوله ﷺ: **«المُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخِيهِ»** فيرى المؤمن نفسه في مرآة أخيه ويرى الآخر نفسه فيه، وليس ذلك إلا في حضرة الاسم الإلهيّ المؤمن وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وقال: **«المُؤْمِنُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ كَمَا أَنَّهُ وَاحِدٌ بِنَفْسِهِ»** فيعلم أن الأسماء الإلهية كلها كالمؤمنين إخوة ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] يعني إذا تنافروا كالمعز، والمذل، والضار، والنافع، وأما ما عدا الأسماء المتقابلة فهم إخوان على سرر متقابلين وليس يصلح بين الأسماء إلا الاسم الرب فإنه المصلح والمؤمن من حيث ما هو مرآة، فمن رأى نفسه هكذا علم أنه خليفة من الخلفاء بما رآه من الصورة، وهذا الإنسان الحيوان لا مرآة له وإن كان له شكل المرآة لكنها ما فيها جلاء ولا صقالة قد طلع عليها الصدأ والران فلا تقبل صورة الناظر فلا تسمى مرآة إلا بالرؤية، فإذا أقامك الحق في العبودة المطلقة التي ما فيها ربوبية فأنت خليفة له حقاً، فإنه لا حكم للمستخلف فيما ولي فيه خليفة عنه جملة واحدة فاستخلفه في العبودة فلا حظ للربوبية فيها لأن الخليفة استقل بها استقلالاً ذاتياً فهو بيد الله وفي ملك الله، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ

أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] فجعل عبداً محضاً وجرده عن كل شيء حتى عن الإسراء فجعله يسري به وما أضاف السرى إليه فإنه لو قال: سبحان الذي دعى عبده لأن يسري إليه أو إلى رؤية آياته فسرى لكان له أن يقول، ولكن المقام منع من ذلك فجعله مجبوراً لا حظ له من الربوبية في فعل من الأفعال.

الوصل الثالث من خزائن الجود فيما يناسبه ويتعلق به من المنزل الثالث: وهو يتضمن علم الأمر الواقع عند السؤال، فإن الأوامر منها ما يقع ابتداء ومنها ما يقع جواباً ويتضمن علم الهوية والفرق بين الهوية والأحدية والواحدية، ويتضمن علم مسمى الله ما هو ولماذا ينعت ولا ينعت به، وحقيقة الهوية هل لها شبه بشيء من العالم في شيء من الوجوه أو لا شبه فيها بوجه من الوجوه، وصورة ما يتقيد به الاسم الله إذا ورد بقرائن الأحوال ويتضمن علم ظهور العالم هل هو ظهور ذاتي لذات الحق أو لحكم ما تقرر في العلم الإلهيّ أو ظهر بحكم الاختيار فيكون العالم لما يضاف إليه حتى تتبين المراتب ويتضمن علم نفي المماثل الذي لو ثبت صح أن يكون العالم بينهما فما هو لنا أب ولا نحن أبناء بل هو الرب ونحن العبيد فيطلبنا عبيداً ونطلبه سيداً: [الطويل]

تعالى عن التَّحديد بالفِكْرِ والخَبَر ... كما جَلَّ عن حُكْم البَصيرة والبَصَرْ
فليس لنا منه سوى ما يَرُومُهُ ... على كل حال في الدّلالات والعِبَرْ
فأعلمُ أنّي ما تَحَقَّقْتُ غَيْرَهُ ... وأعلم أني ما علمتُ سوى البَشَرْ
لذا مَنَعَ الرَّحْمٰنُ في وَحْيِه على ... لسان رسول الله في ذاته النَّظَرْ
فقال ولا تَقْفُ الذي لَسْتَ عالماً ... به فيكون الناظرون على خَطَرْ
فلم يُولِد الرَّحْمٰنُ عِلْماً ولم يلد ... وُجوداً فحَقِّقْ مَنْ نهاك ومَنْ أَمَرْ

ولما لم يكن في الإمكان أن يخلق الله فيما خلق قوة في موجود يحيط ذلك الموجود بالله علماً من حيث قيامها به لم يدرك بعقل كنه جلاله ولم يدرك ببصر كنه ذاته عند تجليه حيثما تجلى لعباده، فهو تعالى المتجلي الذي لا يدرك الإدراك الذي يدرك فيه هو نفسه لا علماً ولا رؤية، فلا ينبغي أن يقفو الإنسان علم ما قد علم أنه لا يبلغ إليه، قال الصديق رضي الله عنه: «العجز عن درك الإدراك إدراك» فمن لا يدرك إلا بالعجز فكيف يوصف المدرك له بتحصيله؟: [الرمل]

كُلُّ ما فيه نِكَاحٌ وازدواجْ ... هو مَقْصُودٌ لأرباب الحجَاجْ
فإذا أنْتَجَني أُنْتِجُهُ ... فترانا في نكاح ونِتَاجْ
فالذي يظهرُ من أحوالنا ... هو ما بين اتِّضَاح واندِمَاجْ
فكما نحنُ به فَهْوَ بنا ... إنَّ عَيْنَ الضِّيقِ عَيْنُ الانفِرَاجْ

واعلم أن من خزائن الجود أن يعلم الإنسان أنه جامع له بين العبودة والربوبية بوجه من الوجوه وأنهما أشد الأشياء في التقابل، فإن المثلين وإن تقابلا فإنهما يشتركان في صفات النفس، والسواد والبياض وإن تقابلا فلم يمكن اجتماعهما، والحركة والسكون وإن تقابلا فلم

يمكن اجتماعهما، فإن الجامع للبياض والسواد اللون، والجامع للحركة والسكون الكون، والجامع للأكوان والألوان العرضية، فكل ضدين وإن تقابلا أو مختلفين من العالم فلا بد من جامع يجتمعان فيه إلا العبد والرب فإن كل واحد لا يجتمع مع الآخر في أمر ما من الأمور جملة واحدة، فالعبد من لا يكون فيه من الربوبية وجه، والرب من لا يكون فيه من العبودية وجه، فلا يجتمع الرب والعبد أبداً، وغاية صاحب الوهم أن يجمع بين الرب والعبد في الوجود وذلك ليس بجامع، فإني لا أعني بالجامع إطلاق الألفاظ وإنما أعني بالجامع نسبة المعنى إلى كل واحد على حد نسبته إلى الآخر، وهذا غير موجود في الوجود المنسوب إلى الرب والوجود المنسوب إلى العبد، فإن وجود الرب عينه ووجود العبد حكم يحكم به على العبد، ومن حيث عينه قد يكون موجوداً وغير موجود، والحد في الحالين على السواء في عينه فإذاً ليس وجوده عينه ووجود الرب عينه، فينبغي للعبد أن لا يقوم في مقام يشم منه فيه روائح ربوبية فإن ذلك زور وعين جهل وصاحبه ما حصل له مقام العبودة كما هو الأمر في نفسه ولا أزيد من قولي لا تشم فيه رائحة ربوبية إلا عنده في نفسه لا يغفل عن مشاهدة عبودته، وأما غيره فقد ينسبون إليه ربوبية لما يرونه عليه من ظهور آثارها فذلك لله لا له، وهو في نفسه على خلاف ما يظهر للعالم منه فإن ذلك محال أن لا يظهر للربوبية أثر منها عليه.

وإذا عرف التلميذ من الشيخ أنه بهذه المثابة فقد فتح الله على ذلك التلميذ بما فيه سعادته فإنه يتجرد إلى جانب الحق تجرد الشيخ فإنه عرف منه واتكل على الله لا عليه وبقي ناظراً في الشيخ ما يجري الله عليه من الحال في حق التلميذ من نطق بأمر يأمره به أو ينهاه أو بعلم يفيده، فيأخذه التلميذ من الله على لسان هذا الشيخ ويعلم التلميذ في نفسه من الشيخ ما يعلمه الشيخ من نفسه أنه محل جريان أحكام الربوبية حتى لو فقد الشيخ لم يقم فقده عند ذلك التلميذ ذلك القيام لعلمه بحال شيخه كأبي بكر الصديق مع رسول الله ﷺ حين مات رسول الله ﷺ فما بقي أحد إلا اضطرب وقال ما لا يمكن أن يسمع وشهد على نفسه في ذلك اليوم بقصوره وعدم معرفته برسوله الذي اتبعه إلا أبا بكر فإنه ما تغير عليه الحال لعلمه بما ثم وما هو الأمر عليه فصعد المنبر وقال قارئاً: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] الآية فتراجع من حكم عليه وهمه، وعرف الناس حينئذ فضل أبي بكر على الجماعة فاستحق الإمامة والتقديم، فما بايعه من بايعه سدا وما تخلف عن بيعته إلا من جهل منه ما جهل أيضاً من رسول الله ﷺ، أو من كان في محل نظر في ذلك أو متأوّلاً، فإنه رضي الله عنه قد شهد له رسول الله ﷺ في حياته بفضله على الجماعة بالسرّ الذي وقر في صدره فظهر حكم ذلك السرّ في ذلك اليوم وليس إلا ما ذكرناه وهو استيفاء مقام العبودة بحيث إنه لم يخلّ منه بشيء في حقه وفي حق رسول الله ﷺ، فعلم محمد ﷺ أن أبا بكر الصديق مع من دعاه إليه وهو الله تعالى ليس معه إلا بحكم أنه يرى ما يخاطبه الحق سبحانه به على لسان رسوله ﷺ في كل خطاب يسمعه منه بل من جميع من يخاطبه، وقد علمه الحق في نفسه ميزان ما يقبل من خطابه وما يرد، ونرجو إن شاء الله أن

يكون مقامنا هذا ولا يجعلها دعوى غير صادقة، فإني ذقت هذا المقام ذوقاً لا مزاج فيه أعرفه من نفسي وما سمعته عن أحد ممن تقدمني بالزمان غير أبي بكر الصديق إلا واحد من الرجال المذكورين في رسالة القشيري فإنه حكي عنه أنه قال: لو اجتمع الناس أن ينزلوا نفسي منزلتها مني من الخسة لم يستطيعوا ذلك، وهذا ليس إلا لمن ذاق طعم العبودية لغيره لا يكون، ولما شهدت لي جماعة أني على قدم أبي بكر الصديق من الصحابة علمت أنه ليس إلا مقام العبودة المحضة لله الحمد والشكر على ذلك، فالله يجعل من نظر إليّ مرة واحدة من عمره أن يكون هذا نعته في نفسه دنيا وآخرة. وكذلك حكى صاحب البياض والسواد في كتابه عن بعض الرجال أنه قال: العارف مسود الوجه في الدنيا والآخرة فإن كنى عن نفسه فهو صاحب المقام وإن عثر عليه من غير أن يكون نعته فقد وفى ما خلق الله الإنسان له حقه لأنه قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] يعني ظاهراً وباطناً، فما جعل لهم في الربوبية قدماً، فهكذا ينبغي أن يكون الإنسان في نفسه فيقوم بحق ما خلق له، وإن لم يفعل فهو إنسان حيوان، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الوصل الرابع من خزائن الجود فيما يناسبه ويتعلق به من المنزل الرابع: وقد ذكرنا ما يتضمنه من العلوم في موضعه في الباب الثالث والسبعين ومائتين فاعلم أنه من خزائن الجود ما يجب على الإنسان أن يعلمه ذوقاً وهو علم ما يستغنى به مما لا يستغنى به، وذلك أن يعلم أن غاية درجة الغنى في العبد أن يستغني بالله عما سواه، وليس ذلك عندنا مقاماً محموداً في الطريق فإن في ذلك قدراً لما سوى الحق وتميزاً عن نفسه، وصاحب مقام العبودة يسري ذوقه في كل ما سوى الله أنه عبد كهو لا فرق، ويرى أن كل ما سوى الله محل جريان تعريفات الحق له فيفتقر إلى كل شيء فإنه ما يفتقر إلا إلى الله، ولا يرى أن شيئاً يفتقر إليه في نفسه، وإن أفاد الله الناس على يديه فهو عن ذلك في نفسه بمعزل ويرى أن كل اسم تسمى به شيء مما يعطيه فائدة أن ذلك اسم الله غير أنه لا يطلقه عليه حكماً شرعياً وأدباً إلهياً، والاسم الإلهي المغني هو الذي يعطي مقام الغنى للعبد بما شاء مما تستغني به نفسه، والغنى وإن كان بالله فهو محل الفتنة العمياء فإنه يعطي الزهوّ على عباد الله ويورث الجهل بالعالم وبنفسه كما قال صاحب الجنيد ومن العالم حتى يذكر مع الله، هذا وإن كان الذي قال هذا القول صاحب حال وعلم بأن الله ما خاطب عباده إلا بقدر ما جعل فيهم من القبول لمعرفة خطابه فيتنوّع خطابه ليتسع الأمر ويعم، فما خلق الله العالم على قدم واحدة إلا في شيء واحد وهو الافتقار، فالفقر له ذاتي والغنى له أمر عرضي، ومن لا علم له يغيب عن الأمر الذاتي له بالأمر العارض والعالم المحقق لا يزال الأمر الذاتي من كل شيء ومن نفسه مشهوداً له دائماً دنيا وآخرة، فلا يزال عبداً فقيراً تحت أمر سيده لا يستغني في نفسه عن ربه أبداً، ألا ترى أن السجود لله تعالى عام في كل مخلوق إلا هذا النوع الإنساني فإنه لم يعمه السجود لله، ومع هذا فقد عمه السجود فإنه لا يخلو أن يكون ساجداً لأن السجود له ذاتي لأنه عبد فقير محتاج يتألم فالحاجة به منوطة قائمة، فإما أن يسجد لله وإما أن يسجد لغير الله، على أن ذلك

السجود له عنده إما لله وإما لمن يقرب إلى الله في زعمه لا بد من هذا التوهم، ولهذا رحم الله عباده بما كلفهم وأمرهم به من السجود لآدم وللكعبة ولصخرة بيت المقدس لعلمه بما جعل في عباده أن منهم من يسجد للمخلوقات عن غير أمر الله، فأمر من أمر من ملك وإنسان بالسجود للمخلوق، وجعل ذلك عبادة يتقرب بها إليه سبحانه ليقل السؤال يوم القيامة عن الساجدين لغير الله عن غير أمر الله، فلا يبقى للحق عليهم مطالبة إلا بالأمر فيقول لهم: «من أمركم بذلك؟» ما يقول لهم لا يجوز السجود لمخلوق فإنه قد شرع ذلك في مخلوق خاص حساً وخيالاً كرؤيا يوسف عليه السلام الذي رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدين له فكان ذلك أباه وخالته وإخوته، فوقع حساً ما كان إدراكه خيالاً، والقصة فيه معروفة متلوة قرآناً في صورة كوكبية، فلما دخلوا عليه خّروا له سجداً فقال يوسف عليه السلام لأبيه: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ﴾ أي مآل ﴿رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠] أي حقاً في الحس، وقد كانت حقاً في الخيال في موطن الرؤيا فما ثم إلا حق، .وما كان الله ليسرمد عذاباً على من أتى حقاً فإن الله لما قسم الحق إلى ما هو مأمور به ومنتهي عنه فأراد الحق أن يفرق بين من أتى المأمور به وبين من أتى المنهي عنه ليتميز الطائع من العاصي فتتميز المراتب، فإذا عرف كل أحد قدره وما أتى عمت الرحمة الجميع كل صنف في منزله من حيث إنه ما جاء إلا بحق وإن كان منهياً عنه فإن المفتري صاحب حق خيالي لا حق حسي، فإنه لا يفتري المفتري حتى يحضر في خياله الافتراء والمفترى عليه ويقيمه في صورة ما افترى به عليه، فإذا تخيله مثل صورة النوم سواء أخبر عنه بحق خيالي لكنه سكت عن التعريف بذلك للسامع فأخذه السامع على أنه حق محسوس فأراد الله الفرقان بين طبقات العالم ومراتبه، فلذلك أعقب صاحب هذا النعت بالعقوبة على ذلك أو بالمغفرة بأيهما شاء، لأن من هؤلاء العصاة المعاقب والمغفور له كما أنه من الطائعين العالم بالأمر على ما هو عليه في نفسه وهم العاملون على بصيرة أهل الكشف والوجود، ومنهم المحجوب عن ذلك مع كونه مطيعاً، فلم يجعل الله أهل الطاعة على رتبة واحدة، فما في الوجود المعنوي والحسي والخيالي إلا حق فإنه موجود عن حق ولا يوجد الحق إلا الحق ولهذا قال ﷺ في دعائه يخاطب ربه تعالى: «**وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ**» فإنه ضد الخير فما صدر عن الخير إلا الخير والشر إنما هو عدم الخير، فالخير وجود كله والشر عدم كله لأنه ظهور ما لا عين له في الحقيقة فهو حكم والأحكام نسب، وإنما قلنا ظهور فيه لأن ذلك لغة عربية، قال امرؤ القيس: لو يشرّون مقتلي أي يظهرون ولذلك قال تعالى عن نفسه ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ وهو إخفاء ما له عين ﴿وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] وهو إظهار ما لا عين له، فيتخيل الناس أن ذلك حق والله يعلم أنه ليس له وجود عين في نفس الحكم فيعلم السر وأخفى أي أظهر في الخفاء من السر كما قال: ﴿مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] يعني في الصغر وهكذا هذا هو أظهر في الخفاء من السر، والشيء الخافي هو الظاهر لغة منقولة، قال تعالى في تأييد ما ذكرنا ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] فكل شيء هو موجود نشاهده حساً ونعلمه عقلاً فليس بهالك، فكل شيء وجهه ووجه الشيء

حقيقته فما في الوجود إلا الله فما في الوجود إلا الخير وإن تنوّعت الصور فإن رسول الله ﷺ قد أخبرنا أن التجلي الإلهيّ يتنوع، وقد أخبرنا الله تعالى أنه كل يوم في شأن فنكر وما هو إلا اختلاف ما هو فيه، فكل ما ظهر فما هو إلا هو ولنفسه ظهر فما يشهده أمر ولا يكثره غير ذلك قال: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] أي من يعتقد أن كل شيء جعلناه هالكاً وما عرف ما قصدناه إذا رآه ما يهلك ويرى بقاء عينه مشهوداً له دنيا وآخرة علم ما أردنا بالشيء الهالك، وأن كل شيء لم يتصف بالهلاك فهو وجهي، فعلم أن الأشياء ليست غير وجهي فإنها لم تهلك فردّها إلى حكمها، فهذا معنى قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهو معنى لطيف يخفى على من لم يستظهر القرآن، فإذا كان الغني عبارة عمن هذه صفته والغنى عبارة عن هذه الصفة فلا غني إلا الله وكذلك الغنى صفته، ونحن ما تكلمنا إلا في العبد لا في الحق، فالعبد له الفقر المطلق إلى سيده، والحق له الغنى المطلق عن العالم، فالعالم لم يزل مفقود العين هالكاً بالذات في حضرة إمكانه وأحكامه يظهر بها الحق لنفسه بما هو ناظر من حقيقة حكم ممكن آخر، فالعالم هو الممد بذاته ما يظهر في الكون من الموجودات وليس إلا الحق لا غيره، فتحقق يا وليّ هذا الوصل فإنه وصل عجيب حكمه خلق في حق بحق ولا خلق في نفس العين مع وجود الحكم وقبول الحق لحكم الخلق وهو قبول الوجود لحكم العدم وليس يكون إلا هكذا، ولولا ذلك لم يظهر للكثرة عين وما ثم إلا الكثرة مع أحدية العين فلا بد من ظهور أحكام الكثير وليس إلا العالم فإنه الكثير المتعدد والحق واحد العين ليس بكثير، وقد رميت بك على الطريق لتعلم ما الأمر عليه فتعلم من أنت ومن الحق فيتميز الرب من العبد، وعلى الله قصد السبيل.

الوصل الخامس من خزائن الجود فيما يناسبه ويتعلق به من المنزل الخامس: ويتضمن هذا المنزل الخامس من العلوم الإلهية: علم تفصيل الرجوع الإلهي بحسب المرجوع إليه من أحوال العباد وهو علم عزيز فإن الله يقول: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] ويقول: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] وهنا رجوع الحق إلى العباد من نفسه مع غناه عن العالمين، فلما خلقهم لم يمكن إلا الرجوع إليهم والاشتغال بهم وحفظ العالم فإنه ما أوجده عبثاً فيرجع إليه سبحانه بحسب ما يطلبه كل شخص شخص من العالم به إذ لا يقبل منه إلا ما هو عليه في نفسه من الاستعداد فيحكم باستعداده على مواهب خالقه فلا يعطيه إلا ما يقتضيه طلبه، ولما كان الأمر على ما ذكرناه وأدخل الحق نفسه تحت طلب عباده فأطاعهم كلفهم أن يطيعوه على ألسنة الرسل، فمن أطاعه منهم ظهر له بصفة الحق التي ظهر للعباد بها في إعطاء ما طلبوه منه، ومن عصاه علم عند ذلك ما السبب الذي أدّى هذا العاصي إلى أن يعصي ربه فلم يكن ذلك إلا إظهار الحكمة عموم الرجوع الإلهي إلى العباد بحسب أحوالهم فإنه عام الرجوع، فرجع على الطائعين بما وعد ورجع على العاصين بالمغفرة، وإن عاقب وظهرت المعصية في أوّل إنسان والإبابة في أوّل جان ثم انتشرت المعاصي في الأناسي والجنّ بحسب الأوامر والنواهي، وكان ذلك على قدر ما علم الحق من الرجوع الإلهي إليهم بهذه المخلوقات، فلم

يقدر مخلوق على أن يطيع الله تعالى طاعة الله بما يطلبه العبد منه بحاله مما يسوءه ومما يسره، فإن الحال الذي قام فيه العبد إذا كان سوءاً فإن لسان الحال يطلب من الحق ما يجازيه به ويرجع به عليه، إما على التخيير وذلك ليس إلا لحال المعصية القائم بالعاصي، وإما على الوجوب بالتعيين، فالرجوع الإلهيّ على العاصي إما بالأخذ وإما بالمغفرة والرجوع على الطائع بالإحسان فما أعطى الحق برجوعه للعبد إلا ما طلب منه العبد بلسان حاله وهو أفصح الألسنة وأقوم العبارات فأصل المعاصي في العباد يستند إلى نسبة إلهية وهي أن الله هو الآمر عباده والناهي تعالى والمشيئة لها الحكم في الأمر الحق المتوجه على المأمور، إما بالوقوع أو بعدم الوقوع، فإن توجهت بالوقوع سمي ذلك العبد طائعاً ويسمى ذلك الوقوع طاعة، فإنه أطاعت الإرادة الأمر الإلهيّ وإن لم تتوجه المشيئة بوقوع ذلك الأمر عصت الإرادة الأمر وليس في قوّة الأمر الحكم على المشيئة فظهر حكم المشيئة في العبد المأمور فعصى أمر ربه أو نهيه وليس ذلك إلا للمشيئة الإلهية، فقد تبين لك من العاصي ومن الطائع، وإلى أي أصل ترجع معصية المكلف أو طاعته فلا رجوع إلا لله على العباد، ورجوع العباد إلى الله برجوع الحق عليهم كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨] فلولا توبة الله عليهم ما تابوا، والتوبة الرجوع، فالله أكثر رجوعاً إلى العباد من العباد إليه، فإن رجوع العباد إلى الله بإرجاع الله ما رجعوا إلى الله إلا بالله. وبعد أن أوجد الله العالم وأبقى الوجود عليه لم يتمكن إلا بحفظه فإنه لا بقاء له إلا بالحفظ الإلهيّ، فالعبد يرجع إلى الله من نفسه ويرجع إلى نفسه من الله، والحق ما له رجوع إلا إلى عباده من عباده، فما كانت له رجعة من نفسه إلا الأولى المعبر عن ذلك بابتداء العالم، ولو كانت المشيئة تقتضي الاختيار لجوزنا رجوع الحق إلى نفسه، وليس الحق بمحل للجواز لما يطلبه الجواز من الترجيح من المرجح، فمحال على الله الاختيار في المشيئة لأنه محال عليه الجواز، لأنه محال أن يكون لله مرجح يرجح له أمراً دون أمر فهو المرجح لذاته، فالمشيئة أحدية التعلق لا اختيار فيها، ولهذا لا يعقل الممكن أبداً إلا مرجحاً، إلا أن الحق من كونه غفوراً أرسل ستره وحجابه بين بعض عباده وبين إحالة رجوع الحق إلى نفسه في غناه عن العالم فقال في ذلك الستر: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وهذا ليس يتمكن الحكم به إلا ولا عالم أو يكون متعلق المشيئة الاختيار، وكلا الأمرين مع وجود العالم لا يكون ولا واحد منهما، فالمحجوب بهذا الحجاب يقول: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ولا يعلم صورة الأمر كيف هو والمرفوع عنه من العباد هذا الستر إذا قالها قالها تلاوة وعلم متعلقها وما هو الأمر عليه الآن وما كان عليه الأمر وترك متعلق غناه فيما بقي من الممكنات لم يوجد فإنها غير متناهية بالأشخاص، فلا بدّ من بقاء ما لم يوجد، فبه تتعلق صفة الغنى الإلهيّ عن العالم فإن بعض العالم يسمى عالماً، فمن فهم الغنى الإلهيّ هكذا فقد علمه. وأما تنزيه الحق عما تنزهه عباده مما سوى العبودية فلا علم لهم بما هو الأمر عليه فإنه يكذب ربه في كل حال يجعل الحق فيه نفسه مع عباده، وهذا أعظم ما يكون من سوء الأدب مع الله أن ينزهه عما نسبه سبحانه إلى نفسه بما نسبه إلى نفسه فهو يؤمن

ببعض وهو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ويكفر ببعض ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ فجعل العبد نفسه أعلم منه بربه نفسه وأكثر من هذا الجهل فلا يكون، والعبد المؤمن ينبغي له أن ينسب إلى الحق ما نسبه الحق إلى نفسه على حد ما يعلمه الله من ذلك إذا لم يكن ممن كشف الله عن بصيرته حتى رأى الأمر على ما هو عليه وهذا هو الشرك الخفي فإنه نزاع الله تعالى خفي في العبد لا يشعر به كل أحد ولا سيما الواقع فيه ويتخيل أنه في الحاصل وهو في الفائت، ولهذا أمر الحق تعالى أن يسبح بحمده أي بما أثنى على نفسه، وما وصف تعالى نفسه بشيء إلا في معرض الثناء عليه بذلك الوصف، وهذا المنزه الجاهل ينزهه عن ذلك الوصف الذي وصف به الحق نفسه وأخذ يثني عليه بما يرى أنه ثناء على الله، والله ما أمره أن ينزهه إلا بحمده أي بما أثنى على نفسه به في كتبه وعلى ألسنة رسله ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ إلا هذا الإنسان فإن بعضه يسبحه بغير حمده ويكذب الحق في بعض ما أثنى به على نفسه وهو لا يشعر بذلك ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ فلم يؤاخذكم على ما تركتم من الثناء عليه مما أثنى به على نفسه ولم يعجل عليكم العقوبة ﴿غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] بما ستره عنكم من علم ذلك ممن هو بهذه المثابة فإذا أراد العبد نجاة نفسه وتحصيل أسباب سعادته فلا يحمد الله إلا بحمده كان ما كان على علم الله في ذلك من غير تعيين، فإن قبضه الله تعالى ذلك اطلع على الأمر على ما هو عليه إذا لم يكن من أهل الكشف في الحياة الدنيا، وإن لم يفعل وتأوّل فهو لما تأوّله وحرمه الله كل ما خرج عن تأويله فلم يره فيه وهذا أعظم الحرمان، وعند الكشف الأخروي يرى ما كان عليه من سوء الأدب مع الله والجهل به كما ورد أن أهل هذا المقام إذا تجلى لهم الحق تعالى في الآخرة ينكرونه ولا يقرّون به لأنهم ما عبدوا رباً إلا مقيداً بعلامة فإذا ظهر لهم بتلك العلامة أقرّوا له بالربوبية وهو عين ما أنكروه، وأي جهل أعظم من أن يقرّ بما هو له منكر. ويتضمن هذا المنزل علم الوافدين على الله، وعلم أنواع الفتوح ومجيء المعاني بمجيء من قامت به فينسب المجيء إليها لا إليه، وعلم الزمان.

الوصل السادس من خزائن الجود فيما يناسب ويتعلق به المنزل السادس:

[نظم: السريع]

مَنْ سَتَرَ الحَقَّ ولم يُفْشِهِ ... فذلك الشَّخْصُ الذي قد كَفَرْ
وليس مُخْفِياً على ناظر ... فيه بِعَيْنِ العقل أو بالبَصَرْ
تبارك الله الذي لم يَزَلْ ... يَظْهَرُ فيما قد بدا مِنْ صُوَرْ
فإنه مُنْشِئُها دائماً ... في كلّ ما يظهرُ أو قد ظَهَرْ

اعلم أيدك الله أن عبادة الله بالغيب عين عبادته بالشهادة فإن الإنسان وكل عابد لا يصح أن يعبد معبوده إلا عن شهود إما بعقل أو ببصر أو بصيرة، فبالبصيرة يشهده العابد بها فيعبده وإلا فلا تصح له عبادة، فما عبد إلا مشهوداً لا غائباً، فإن أعلمه بتجليه في الصور للبصر حتى يميزه عبده أيضاً على الشهود البصري ولا يكون ذلك إلا بعد أن يراه بعين بصيرته، فمن جمع

بين البصيرة والبصر فقد كملت عبادته ظاهراً وباطناً، ومن قال بحلوله في الصور فذلك جاهل بالأمرين جميعاً، بل الحق أن الحق عين الصور فإنه لا يحويه ظرف ولا تغيبه صورة، وإنما غيبه الجهل به من الجاهل فهو يراه ولا يعلم أنه مطلوبه، فقال له الرسول ﷺ: «**اعْبُدِ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» فأمره بالاستحضار فإنه يعلم أنه لا يستحضر إلا من يقبل الحضور، فاستحضار العبد ربه في العبادة عين حضور المعبود له، فإن لم يعلمه إلا في الحدّ والمقدار حده وقدره، وإن علمه منزهاً عن ذلك لم يحده ولم يقدره مع استحضاره كأنه يراه، وإنما لم يحده ولم يقدره العارف به لأنه يراه جميع الصور، فمهما حده بصورة عارضته صورة أخرى فانخرم عليه الحد فلم ينحصر له الأمر لعدم إحاطته بالصور الكائنة وغير الكائنة له فلم يحط به علماً كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] مع وصفه بأنه أقرب إلى الإنسان من حبل وريده، فالحق أقرب إليه من نفسه، فإنه أتى بأفعل من فثم قريب، وأقرب الأشياء قرب الظاهر من الباطن، فلا أقرب من الظاهر إلى الباطن إلا الظاهر عينه، ولا أقرب من الباطن إلى الظاهر إلا الباطن عينه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، فهو عين المنعوت بأن له حبل الوريد، فعلمنا أنه عين كل صورة، ولا نحيط بما في الوجود من صور فلا نحيط به علماً. فإن قلت: فأنت من الصور. قلنا: وكذلك نقول إلا أن الصور وإن كانت عين المطلوب فإنها أحكام الممكنات في عين المطلوب، فلا نبالي بما ينسب إليها من الجهل والعلم وكل وصف فإني أعلم كيف أنسب وأصف وأنعت، فلله الأمر من قبل ومن بعد، فالحق حق وإن لم تكن، كما هو الحق حق وإن كنت لا فرقان، فللظاهر حكم لا يكون للباطن من حيث ما قلت فيه باطن في العبادة، وللباطن حكم لا يكون للظاهر من حيث ما قلت فيه ظاهر في العبادة، وكل حكم له مقام معلوم، وكل مقام له حكم معلوم، فلا يعلم شيء إلا به فلا يعبد إلا به، ولهذا نبه الحق من لا علم له بما ذكرناه على رتبة العلماء بالله فقال: إنه سمع العبد وبصره فما أبصرته إلا به ولا سمعته إلا به، فعينه عين سمعك وبصرك فما عبدته إلا به وليس بعد إعلام الحق عز اسمه وجل ذكره إعلام، ولا بعد أحكامه فيما حكم فيه أحكام: [السريع]

فـلـيـس إلا عَـيْـنُـهُ بـالـخَـبَـرْ ... ولـيـس إلا غَـيْـرُهُ بـالـبَـصَـرْ
فـأيـن أهْـلُ الـفِـكْـر فـي ذاتـه ... قـد رَكِـبُـوا فـيـه عَـظـيـمَ الـخَـطَـرْ
تَـعَـارَضَ الأمْـرُ لـديـهـم فـمـا ... لـهـم بـه عِـلْـمٌ بـحُـكْـم الـنَّـظَـرْ
إن قـيـل هُـو قـيـل لـهـم لـيس هُـوْ ... لأنـه مـطـلـوبُـكـم بـالـفِـكَـرْ
أو قـيـل مـا هُـو قـيـل هـو أنـه ... عَـيْـنُ الـذي تَـشْـهَـدُهُ فـي الـصُّـوَرْ

واقعة: رأيت عيناً من لبن حليب ما رأيت لبناً مثله في البياض والطيب في جرمه دخلت فيه حتى بلغ ثديي وهو يتدفق فتعجبت لذلك وسمعت كلاماً غريباً إلهياً يقول: من سجد لغير الله عن أمر الله قربة إلى الله طاعة لله فقد سعد ونجا، ومن سجد لغير الله عن غير أمر الله قربة إلى الله فقد شقي، فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] فإن الله مع الخلق ما الخلق مع الله لأنه يعلمهم فهو معهم أينما كانوا في ظرفية أمكنتهم

وأزمانهم وأحوالهم مالخلق معه تعالى جل جلاله فإن الخلق لا تعرفه حتى تكون معه، فمن دعا الله مع الخلق ما هو كمن دعا الخلق مع الله فلا تدعوا مع الله أحداً ولا يصح السجود إلى غير الله إلا لكون الله مع الخلق حيث كانوا فلا نعلمه ولا نجده إلا بالخلق، فالسجود على الحقيقة لله الموصوف بالمعية مع الخلق ولهذا شرعت القبلة كما قال ﷺ: «**إنَّ الله فِي قِبْلَةِ المُصَلِّي**» فالقبلة ما هي الله والله فيها فأمرنا بالسجود لها لكون الله فيها ومعها، فمن رأى الخلق ببصره فقد رأى الحق ببصيرته مطلقاً، وليس له إذا رأى ذلك أن يسجد له إلا إذا أمره بالسجود وإن كان لله فلا يقع في الحس إلا لغير الله أبداً لأنه لا يصح أن يقع السجود لله لأن الله بكل شيء محيط، فالجهات كلها نسبتها أو نسبة الحق إليها على السواء، ومن خرّ على قفاه فما سجد لله وإن كان الله خلفه كما هو أمامه لكن الله ما راعى إلا وجهه لم يراع من جهات العبد سوى وجهه، فلذلك لا يصح السجود لغير الله إلا عن أمر الله قال الله تعالى: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] فالسجود لغير الله والعبادة لله لا تكون لغير الله أبداً فإنه لا أعظم من الشرك وقد قال المشرك: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فما عبدوا الشركاء لأعيانهم فما أوخذوا إلا لكونهم عبدوهم، فإن الله لا يأمر خلقه ولا يصح أن يأمر خلقه بعبادة مخلوق، ويجوز أن يأمرنا بالسجود للمخلوق، فمن سجد عبادة لمخلوق عن أمر الله أو عن غير أمر الله فقد شقي، ومن سجد غير عابد لمخلوق فإن كان عن أمر الله كان طاعة فسعد، وإن سجد لمخلوق غير عابد إياه عن غير أمر الله كانت رهبانية ابتدعها فما رعاها حق رعايتها إلا ابتغاء رضوان الله لأنه ما قصدها إلا قربة إلى الله فما خلت هذه الحالة عن الله، والله عند ظن عبده به لا يخيبه فليظن به خيراً، فلا بد من أخذ المشركين لتعديهم بالاسم غير محله وموضوعه ولم يرد عليه أمر بذلك من الله، ومن المحال أن ترد عبادة وإن ورد سجود، ولولا وضع اسم الألوهية على الشريك ما عبدوه، فإن نفوس الأناسي بالأصالة تأنف من عبادة المخلوقين ولا سيما من أمثالها فأصبحوا عليها الاسم الإلهيّ حتى لا يتعبدهم غير الله لا يتعبدهم مخلوق، فما جعل المشرك يشرك بالله في وضع هذا الاسم على المخلوق إلا التنزيه لله الكبير المتعالي، لأن المشرك لا بد له في عبادته من حركات ظاهرة تطلب التقييد، ولا بد من تصوّر خيالي لأنه ذو خيال، ولا بد من علم عن دليل عقلي يقضي بتنزيه الحق عن التقييد ونفي المماثلة فلذلك نقلوا الاسم للشريك، والنبيّ ﷺ يقول لجبريل عليه السلام في معرض التعليم لعباد الله: «**اعْبُدِ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» فأمره بتصوره في الخيال مرئياً، فما حجر الله على العباد تنزيهه ولا تخيله وإنما حجر عليه أن يكون محسوساً له مع علمه بأن الخيال من حقيقته أن يجسد ويصوّر ما ليس بجسد ولا صورة، فإن الخيال لا يدركه إلا كذلك، فهو حسّ باطن بين المعقول والمحسوس مقيد أعني الخيال، وما قرر الحق هذا كله إلا للرحمة التي وسعت كل شيء حتى إذا رحم من وقع الأخذ به عرف الخلق أن هذه الرحمة الإلهية قد تقدم الإعلام بها من الحق في الدار الدنيا دار التكليف فلا ينكرها العالمون، فما أخرج الله العالم من العدم الذي هو الشرّ إلا للخير الذي أراده به ليس إلا الوجود فهو إلى السعادة موجود بالأصالة وإليها

ينتهي أمره بالحكم، فإن الدار التي أشرك فيها دار مزج فهي دار شبهة وهي الدنيا فلها وجه إلى الحق بما هي موجودة، ولها وجه لغير الحق بما ينعدم ما فيها وينتقل عنها إلى الأخرى، والشبهة نسبة الحل إليها والحرمة على السواء، وما جعلها الله على هذه الصفة إلا لإقامة عذر العباد إذا أراد أن يرحمهم رحمة العموم فما ألطف الله بخلقه فإن الصانع له اعتناء بصنعته فالمؤمن العالم ما جحد أن المشرك عبد الله فإنه سمعه يقول: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] والمشرك ما جحد الله تعالى بل أقرّ به وأقرّ له بالعظمة والكبرياء على من اتخذه قربة إليه، فإذا علمت من أين أخذ من أخذ وأن الأخذ الأخروي كالحدود في الدنيا لا تؤثر في الإيمان بوجود الله ولا في أحدية العظمة له التي تفوق كل عظمة عند الجميع، فإنه من رحمة الله أن جعل الله ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٢] وحرمات الله، والشعائر الأعلام والمناسك قربة إلى الله وأن ذلك ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] فهذا أيضاً من المشاركة في العظمة وهي مشروعة لنا، فما عظم المشرك الشريك إلا لعظمة الله لما رأى أن العظمة في المخلوقات سارية يجدها كل إنسان في جبلته، ومع ذلك فأفرد المشرك عظم عظمة الله في قلبه إلى الله، فما وقعت المؤاخذة إلا لكون ما وقع من ذلك عن غير أمر الله في حق أشخاص معينين ونقل الاسم إلى أولئك الأشخاص.

وصل: وأما الأصول فمحفوظة بالفطرة التي فطر الله الخلق عليها، ألا ترى إلى ما قال بعضهم: وما يهلكنا إلا الدهر، فقال الله تعالى في الوحي الصريح الصحيح: «**لاَ تَسُبُّوا الدَّهرَ فَإِنَّ الله هُوَ الدَّهْرُ**» تراه قال هذا وجاء به سدى؟ لا والله بل جاء به رحمة لعباده، فإن الدهر عند القائلين به ما هو محسوس عندهم، وإنما هو أمر متوهم صورته في العالم وجود الليل والنهار عن حركة كوكب الشمس في فلكها المحرك بحركة الفلك الأعظم فلك البروج الذي له اليوم بحركته كما الليل والنهار بظهور كوكب الشمس فيه، فقد كان اليوم ولا ليل ولا نهار ومع وجود الدرجات والدقائق وأقل من ذلك فلم يصح مع هذا شرك عام ولا تعطيل عام وإنما هي أسماء سموها أطلقوها على أعيان محسوسة وموهومة عن غير أمر الله فأخذوا بعدم التوقيف، فقد وجدنا الأمر عين ما وجد منهم عن غير أمر، فتحقق هذا الوصل فإنه دقيق جداً. انتهى السفر الخامس والعشرون بانتهاء الوصل السادس من الباب التاسع والستين وثلاثمائة.

[السفر السادس والعشرون]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الوصل السابع من مفاتح خزائن الجود من الباب التاسع والستين وثلاثمائة: هذه الخزانة فيها وجوب تأخر العبد عن رتبة سيده وتخليص عبوديته لله من غيره، كما أقر له بذلك في قبضة الذرية يريد الحق أن يستصحبه ذلك الإقرار في حياته الدنيا موضع الحجاب والستر، فإن الحق له التقدم على الخلق بالوجود وبالمكانة والرتبة فكان ولا مخلوق هذا تقدم الوجود وقدر وقضى وحكم وأمضى إمضاء لا يرد ولا يقضى عليه فهذا تقدم الرتبة ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ

ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] أن تشاؤوا فوجب التأخر عن رتبة الحق من جميع الوجوه، فإن العبد أعطي الكثرة لتكون الأحدية له تعالى، وأعطي كل مخلوق أحدية التمييز لتكون عنده الأحدية ذوقاً، فيعلم أن ثم أحدية ليعلم منها الأحدية الإلهية حتى يشهد بها الله تعالى، إذ لو لم يكن لمخلوق أحدية ذوقاً يتميز بها عما سواه ما علم أن لله أحدية يتميز بها عن خلقه فلا بد منها، فللكثرة أحدية الكثرة، ولكل عدد أحدية لا تكون لعدد آخر كالاثنين والثلاثة إلى ما فوق ذلك مما لا يتناهى وجوداً عقلياً، فلكل كثرة من ذلك أحدية تخصه، وعلى كل حال أوجب الحق على عبده أن يتأخر عن رتبة خالقه كما أخر سبحانه علمنا به عن علمنا بأنفسنا. ، فوجود العلم المحدث به متأخر بالوجود عن وجود العلم المحدث بنا، وجعل المفاضلة في العالم بعضه على بعض لنعرف المفاضلة ذوقاً من نفوسنا فنعلم من ذلك فضل الحق علينا وإن تأخر علمنا به عن علمنا بنفوسنا لنعلم أن علمنا بنفوسنا إنما كان للدلالة على علمنا به، فعلمنا أنا مطلوبون له لا لأنفسنا وأعياننا لأن الدليل مطلوب للمدلول لا لنفسه، ولهذا لا يجتمع الدليل والمدلول أبداً، فلا يجتمع الخلق والحق أبداً في وجه من الوجوه، فالعبد عبد لنفسه والرب رب لنفسه، فالعبودية لا تصح إلا لمن يعرفها فيعلم أنه ليس فيها من الربوبية شيء، والربوبية لا تصح إلا لمن يعرفها فيعرف أنه ليس فيها من العبودية شيء، فأوجب على عباده التأخر عن ربوبيته، فشرع له الصلاة ليسميه بالمصلي وهو المتأخر عن رتبة ربه، ونسب الصلاة إليه تعالى ليعلم أن الأمر يعطي تأخر العلم الحادث به عن العلم الحادث بالمخلوق فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣] وقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر: ٢] ولما علمنا أنه من تأخر عن أمر فقد انقطع عنه علمنا أن كل واحد قد تميز في رتبته عن الآخر بلا شك وإن اطلق على كل واحد ما أطلق على الآخر فيتوهم الاشتراك وهو لا اشتراك فيه فإن الرتبة قد ميزته، فيقبل كل واحد ذلك الإطلاق على ما تعطيه الرتبة التي تميز بها، فإنا نعلم قطعاً أن الأسماء الإلهية التي بأيدينا تطلق على الله وتطلق علينا، ونعلم قطعاً بعلمنا برتبتنا وبعلمنا برتبة الحق أن نسبة تلك الأسماء التي وقع في الظاهر الاشتراك في اللفظ بها إلى الله غير نسبتها إلينا فما انفصل عنا إلا بربوبيته، وما انفصلنا عنه إلا بعبوديتنا، فمن لزم رتبته منا فما جنى على نفسه بل أعطى الأمر حقه: [الهزج]

فَـقَـد بَـانَ لـك الـحَـقُّ وقـد بَـان لـك الـخَـلْـقُ
فَـقُـلْ مـا شِـئْـتَ أو سَـمِّـهْ فَـكُـلُّ قَـوْلِـهِ حَـقُّ
فَـمـا فـي كَـوْنِـهِ مَـيْـنٌ ومـا فـي كـونـنـا صِـدْقُ

وفي هذا المعنى قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قال رسول الله ﷺ فِي هَذَا البَيْتِ «**أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَتْهُ العَرَبُ قَوْلُ لَبِيدٍ**» يعني هذا النصف منه، قلنا: وهذه رتبة ما خص الله بها أحداً من الناس وأثنى عليه بها إلا الذاكر وذلك أن الذاكر هو الذي كان له علم بأمر مّا ثم نسيه لما جبل عليه الإنسان من النسيان كما قال الله عز

وجل: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وصورة نسيانهم أنهم توهموا بما أضاف الله إليهم من الأعمال والأموال والتمليك أن لهم حظاً في الربوبية أو ضرب الله لهم بسهم فيها بقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣] فلما اعتنى الله تعالى بمن اعتنى منهم وآتاه رحمة من عنده ذكر اسم ربه والله يقول: أنا جليس من ذكرني، والذاكرون هم جلساء الحق فأورثه الذكر مجالسة الحق وأورثته المجالسة مشاهدة الحق ورؤيته في الأشياء، يقول الصديق: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله وعمر معه وغيره بعده وغيره فيه وغيره ما رأيت شيئاً من غير ارتباط بشيء وأورثته رؤية الحق تأخره عما كان يتوهم من أن الله تعالى ضرب له بسهم في الربوبية وأنها من نعوته وله فيها قدم بوجه ما فتأخر عن ذلك بالذكر فقال: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٥] أي تأخر إلى مقام عبودته وأفرد الربوبية لله تعالى، فأفلح من جميع وجوهه، وليست هذه الصفة مشاهدة لغير الذاكر، فالذاكر عبد مخلص لله تعالى، ألا ترى إلى ما قال في الذي اتصف بنقيض هذه الحال ما جاءه ذكر ربه وهو القرآن يذكر بنفسه وبربه: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ من أتى به أنه من عند ربه ﴿وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة: ٣١] يقول: ولا تأخر عن دعواه وتكبره وقد سمع قوله الله الحق، ولو لم يكن من عند الله فينبغي للعاقل إذا سمع الحق ممن معه أن يرجع إليه ويقول به ليكون من أهله من رد الحق، فما صدق ذلك القول فيما دل عليه قاله من قاله فذمه الله وقال ولكن استدراك لتمام القصة كذب من أتى به إليه وهو الرسول ﷺ وكذب الحق إما بجهله فلم يعلم أنه الحق وإما بعناد وهو على يقين أنه حق في نفس الأمر، فغالط نفسه لكون هذا الرسول جاء به كما قال في حق من هذه صفته ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ثم قال: ﴿وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣٢] بعد تكذيبه بالحق وبمن جاء به فتولى عن الحق ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ [القيامة: ٣٣] وهذا شغل المتكبر المشغول الخاطر المفكر الحائر الذي كسله ما سمعه، فإنه بالوجه الظاهر يعلم أنه الحق لأن المعجزة لم يأت بها الله إلا لمن يعلم أن في قوته قبولها بما ركب الله فيه من ذلك؛ ولذلك اختلفت الدلالات من كل نبي وفي حق كل طائفة، ولو جاءهم بآية ليس في وسعهم أن يقبلوها لجهلهم ما آخذهم الله بإعراضهم ولا بتوليهم عنها فإن الله عليم حكيم عادل، ومن تأخر عن حق غيره إلى ما يستحقه في نفسه فقد أنصف من نفسه ولم يتوجه لصاحب حق عليه طلب فحاز الخير بكلتي يديه فوقفه الله على جوامع الخير كله، فإنه من أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً فإن الحكيم هو الذي ينزل كل شيء في مرتبته ويعطي كل ذي حق حقه، فله الحجة البالغة والكلمة الدامغة، ولم تنقطع مشاهدته، ولم تتأخر المعونة الإلهية في عبادته عن مساعدته فإنا فرضناه عبد السيد ما فرضناه ملكاً، فإن الملك قد يكون فيمن يعقل عبوديته وفيمن لا يعقلها، فالعبد حاله السمع والطاعة لسيده، وما عدا العبد فهو ملك يتصرف فيه المالك كيف يشاء من غير أن يتعلق به ثناء يعدم منعه من التصرف فيه بخلاف من يعقل وهو العبد، فإذا قام في تصريف الحق فيه مقام الأموال أثنى الله عليه بذلك لأن الله قد خصه في نشأته بقوة المنع والرد لكلمة الحق ومكنه من الطاعة والمعصية فهو لما استعمله من ذلك فوقع الثناء عليه كما أثنى الله على الملائكة بقوله: ﴿لَا

﴿يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] فلو لم يكن في قوتهم ونشأتهم ما يقتضي رد أمر الله وما يقتضي قبوله ما أثنى الله عليهم بما أثنى به من نفي العصيان عنهم وفعلهم ما أمرهم به فإن المجبور لا ثناء عليه، ألا ترى إلى المصلي إذا وقف بين يدي ربه في الصلاة يتكتف شغل العبد الذليل بين يدي سيده في حال مناجاته، والسنة قد وردت بذلك، وهو أحسن من إسبال اليدين وذلك أن الله تعالى لما قسم الصلاة بينه وبين عبده نصفين فجزء منها مخلص له تعالى من أول الفاتحة إلى قوله: ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] فهذا بمنزلة اليد اليمنى من العبد لأن القوة لله جميعاً فأعطيناه اليمين، والجزء الآخر مخلص للعبد من قوله: ﴿ٱهْدِنَا﴾ [الفاتحة: ٦] إلى آخر السورة فهذا الجزء بمنزلة اليد اليسرى وهي الشمال فإنه الجناب الأضعف والعبد هذه مرتبته فإنه خلق من ضعف ابتداء ورد إلى ضعف انتهاء وجزء منها بين الله وبين عبده فجمع هذا الجزء بين الله وعبده وهو قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فلهذا الجمع جمع العبد بين يديه في الصلاة إذا وقف فكملت صلاة العبد بجمعه بين يديه، وصورة هذا التكتيف أن يجعل اليمنى على اليسرى كما قررناه من أن اليمين لله فلها العلو على الشمال، وصورتها أن يجعل باطن كفه اليمنى على ظهر كفه اليسرى والرسغ والساعد ليجمع بالإحاطة جميع اليد التي أمر الله عبده في الوضوء للصلاة أن يعمها بالطهارة فأخذ الرسغ وما جاوره من الكف والساعد، فانظر إلى هذه الحكمة ما أجلاها لذي عينين، ثم نهى النبي ﷺ أن يرفع المصلي عينيه إلى السماء في صلاته فإن الله في قبلة العبد ولا يقابله في وقوفه إلا الأفق فهو قبلته التي يستقبلها ويحمد له أن ينظر إلى موضع سجوده فإنه المنبه له على معرفة نفسه وعبوديته، ولهذا جعل الله القربة في الصلاة في حال السجود، وليس الإنسان بمعصوم من الشيطان في شيء من صلاته إلا في السجود، فإنه إذا سجد اعتزل عنه الشيطان يبكي على نفسه ويقول: أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار.

الوصل الثامن من خزائن الجود: وهو متعلق بهذا الوصل الذي فرغنا منه، وهو أن العبد متأخر في نفس الأمر عن رتبة خالقه، وقد حيل بينه وبين شهود ذلك بما جعل الله فيه من النسيان والسهو والغفلة، فيتخيل أن له قدماً في السيادة والحال تشهد بخلاف ذلك فهو بالحال محقق، وفي نفس الأمر على ما هو عليه صاحب الشهود ولا سعادة له في ذلك بل له الشقاء وهذا غاية الحرمان، ولا يزال كذلك حتى ينكشف الغطاء فيحتد البصر فيرى الأمر على ما هو عليه فيؤمن به فما ينفعه إيمانه، فإن الإيمان لا يكون إلا بالخبر لا بالعيان، فليس المؤمن إلا من يؤمن بالغيب، وهو الخبر الذي جاء من عند الله فإن الخبر بما هو خبر يقبل الصدق والكذب كالممكن يقبل الوجود والعدم.

واعلم أنه ما أتى على أحد إلا من الغفلة عما يجب عليه من الحقوق التي أوجب الشرع عليه أداءها، فمن أحضرها نصب عينيه وسعى جهده في أدائها ثم حالت بينه وبين أدائها موانع تقيم له العذر عند الله فقد وفى الأمر حقه ووفى الله بذمته، ولا حرج عليه ولا جناح ولا

خاطبه الحق بوجوب حق عليه مع ذلك المانع، والموانع على نوعين: نوع يكون مع الحضور ونوع يكون مع عدم الحضور وهو الغفلة، فأما النوع الذي يكون مع الحضور فينقسم قسمين: قسم يرجع إلى النظر في ذلك الواجب هل هو واجب عليه أم لا؟ فيجتهد جهد وسعه الذي كلفه الله في طلب الدليل على وجوب ذلك الأمر فلا يجده وهو من أهل الاجتهاد فلا يجب عليه إلا ما يقتضيه دليله وهو واجب في نفس الأمر عند الله ولكن أخطأ هذا المجتهد فهو مأجور عند الله بنص الله ونص رسوله ﷺ وما كلفه الله إلا ذلك، وقد أدى ما كلفه الله من الاجتهاد في طلب الدليل فلم يجده، وليس للمجتهد أن يقلد غيره في حكم لا يعرف دليله ولكن من اجتهاده إذا لم يعثر على دليل أن يسأل في ذلك الأمر أهل الاجتهاد الذين حكموا عليه بالوجوب، وصورة سؤاله أن يقول لهم: ما دليلكم على ما أوجبتموه في هذا الأمر؟ ولا يقلدهم في الحكم، فإذا عرّفوه بدليلهم فإن كان ذلك الدليل مما قد حصل له في اجتهاده فقدح فيه فلا يجب عليه النظر فيه ولا الحكم به فإنه قد تركه وراءه، وإن كان لم يعثر عليه فيما عثر من نظره فله عند ذلك النظر في دليل ذلك المجتهد المسؤول هل هو دليل في نظر هذا السائل المجتهد أو ليس بدليل؟ فإن أداه اجتهاده في أن ذلك هو دليل كما هو عند من اتخذه دليلاً تعين عليه العمل به، وإن قدح فيه بوجه لم يعثر ذلك الآخر عليه فإنه ليس له الأخذ به ولا تقليد ذلك المسؤول في الحكم الذي حكم هذا الدليل عليه عند ذلك المجتهد فهذا مانع، والقسم الآخر أن يعلم وجوب ذلك عليه من فعل أو ترك ثم يحول بينه وبين ذلك إن كان تركاً اضطرار، وإن كان أمراً فعدم استطاعة، وما ثم مانع آخر، هذا مع الحضور والنوع الآخر من الموانع الغفلة وهي على نوعين: غفلة عن كذا وغفلة في كذا، فالغفلة عن كذا ترك ذلك بالكلية وهو غير مؤاخذ بذلك عند الله فإن الله قد رفع عن عباده رحمة بهم الخطأ وهو حال المجتهد الذي ذكرناه آنفاً، والنسيان وهو الغفلة وما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به، فإن الكلام عمل فيؤاخذ به من حيث ما هو متلفظ به، فإن كان ليس لذلك المتلفظ به عمل إلا عين التلفظ به كالغيبة والنميمة فإنه يؤاخذ بذلك بحسب ما يؤدي إليه ذلك التلفظ وإن كان تلفظ به وله عمل زائد على التلفظ به فلم يعمل به فما عليه إلا عين ما تلفظ به فهو مسؤول عند الله من حيث لسانه. ولا يدخل الهمّ بالشيء في حديث النفس فإن الهم بالشيء له حكم آخر في الشرع، خلاف حديث النفس فإن لذلك مواطن فإنه من يرد في الحرم المكيّ بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم، سواء وقع منه ذلك الظلم الذي أراده أو لم يقع، وأما في غير المسجد الحرام المكي فإنه غير مؤاخذ بالهم، فإن لم يفعل ما هم به كتب له حسنة إذا ترك ذلك من أجل الله خاصة، فإن لم يتركها من أجل الله لم يكتب له ولا عليه، فهذا الفرق بين الحديث النفسي والإرادة التي هي الهم، فهذا وأمثاله رحمة من الله بعباده. وأما الغفلة في كذا فهو تكليف صعب لو كلفه الإنسان لكن الله ما آخذ عباده بالغفلة في كذا كما لم يؤاخذهم بالغفلة عن كذا، فإنه إذا غفل في كذا فإنه غفل عن جزء من أجزاء ما هو فيه شارع أو عامل فهو من غفلت عن كذا، وقد شرع الله للغافل في كذا في بعض الأعمال حكماً كالساهي في

صلاته فإنه قد شرع له سجود السهو جبراً لما سها عنه وترغيماً للشيطان الذي وسوس له حتى وقع منه السهو والغفلة فيما هو فيه عامل، فإن تغافل حتى أوجب له ذلك التغافل الغفلة آخذه الله بها فإنه متعمل قاصد فيما يحول بينه وبين ما أوجب الله عليه فعله أو تركه، فإذا غفل الإنسان أو سها عن عبوديته ورأى له فضلاً على عبد آخر مثله ولا سيما إن كان العبد الآخر ملك يمينه أو يكون هذا الغافل من أولي الأمر كالسلطان والوالي فيرى لنفسه مزية على غيره ما يرى تلك المزية للمرتبة التي أقيم فيها إن كان من أولي الأمر ولا للصفة القائمة به من حيث الاختصاص الإلهيّ له بها كالعلم وكرم الأخلاق فلم يفرق بين نفسه والمرتبة ولا بين الصفة والموصوف بها، فإنه صاحب جهل وغفلة مردية ولهذا يقول في حالها: وأنت مثلي أو فلان مثلي أو يعادلني، ومن هو فلان؟ وأي شيء قيمة فلان؟ وهل هو إلا عبدي أو من رعيتي أو هو كذا من كل أمر مذموم ينزه نفسه عنه وينوطه بذلك الآخر، بخلاف من ليس بغافل عن نفسه فإنه يجعل الفضل للصفة والمرتبة لا لنفسه فإنه لم ينلها باستحقاق وإنما نالها بامتنان إلهيّ إما لشقاوته إن كفر بها أو لسعادته إن شكرها، ولولا حكم الجهل فيمن هذه صفته ما اتصف بهذا وإن كان عالماً بهذا كله وتغافل فإنه مباهت، فهذا أعظم في الجور، بل هو في هذه الحالة كصاحب اليمين الغموس والغافل كصاحب لغو اليمين، فإذا كان مستحضراً لحقيقته عالماً بأن الذي هو عليه مما حرمه غيره جائز أن يسلب عنه ويخلع على ذلك الغير الذي قد ازدراه لإهمال الله إياه فشكر نعمة الله عليه ودعا الله لذلك الغير أن ينيله مثل ما أعطاه الله وأدركته الشفقة فإنه وإن كان كافراً فهو أخوه من حيث أنه وإياه من نفس واحدة، وإن كان مؤمناً فهو أخوه أخوة اختصاص ديني سعادي، فعلى كل حال وجبت عليه الشفقة على خلق الله والرحمة بعباد الله، يقول رسول الله ﷺ: **«انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً»** فأما نصرة المظلوم فمعلومة عند الجميع، وأما نصرة الظالم فرحمة نبوية خفية فإنه علم أن الظلم ليس من شيم النفوس لأنها طاهرة الذات بالأصالة، فكلما ينقص طهارتها فهو أمر عرضي عرض لها لما عندها من القبول في جبلتها، والذي من شيمها إنما هو القهر والظهور، ومن هنا دخل عليها إبليس بوسوسته، ولقد جهل القائل الذي قال: الظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم وما أنصف وما قال حقاً، فلو قال بدل الظلم القهر من شيم النفوس فالظلم الذي يصدر من زيد في حق من كان ما هو منه وإنما هو ممن يلقي إليه وهو الشيطان، وللإنسان فيه مدافعة يجدها من نفسه لأن ذلك ليس من شيم النفوس، وإنما الذي من شأنه إنما هو جلب المنافع ودفع المضار، فدفع المضار به تشارك الحيوان كله، وجلب المنافع مما تختص به النفس الإنسانية، فإذا رأيت الحيوان يجلب المنافع فليس ذلك إلا لدفع المضار لا لأمر آخر فكل ضرر يطرأ من الحيان في حق حيوان آخر أو في حق إنسان إنما هو لدفع المضار عن نفسه خاصة. ولما كانت نفس الإنسان بهذه المثابة ووقع منه الظلم في حق أحد فيسمى ظالماً فنصرة الظالم أن تنصره على إبليس الذي يوسوس في صدره بما يقع منه من الظلم بالكلام الذي تستحليه النفوس وتنقاد إليه فتعينه على رد ما وسوس إليه الشيطان من

ذلك فهذه نصرته إذا كان ظالماً، ولذا جاء في الخبر في نصرة الظالم أن يأخذ على يده والمراد به ما ذكرناه ولهذا جاء بلفظ النصرة التي أوجبتها الأخوة لأنه لا بد أن تكون النصرة على شيء وما ثم إلا ما ذكرناه، لأن العدوّ الموسوس إليه في صدره يقول مقسماً بربه: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢،٨٣] وهم الذين أخلصهم الله إليه مما ألقي إليهم وفيهم من نور الحفظ والعصمة ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] أي قوّة وقهر وحجة لأن الله تولى حفظهم وتعليمهم بما جعل فيهم من التقوى، فلما اتخذوا الله جل جلاله وقاية لم يجد اللعين من أين يدخل عليهم بشيء فإنه أينما تولى منه ليدخل عليه بما يخرجه عن دينه وعلمه وجد في تلك الجهة وجه الله يحفظه فلا يستطيع الوصول إليه بالوسوسة فيتجسد له في صورة إنسان مثله فيتخيل أنه إنسان ويأتيه بالإغواء من قبل أذنه، فيدخل له فيما حجر عليه تأويلاً أدناه أن يبيح له ذلك فلا يضره الوقوع فيه بسبب ذلك التأويل لعلمه بأن الإنسان لا يقدم على معصية الله ابتداء دون وسوسة من العدوّ الذي يزين له سوء عمله فيراه حسناً، فإذا جاء بهذه المثابة للعالم الذي ما له عليه سلطان بما ذكرناه من التأويل فيما يريد إيقاعه به صار ذلك العالم من أهل الاجتهاد، فإن أخطأ فله أجر، وإن أصاب فله أجران فهو مأجور على كل حال، فما تم له مراده، وإن نسي كما نسي آدم فإن الله تعالى الذي شرع المعصية والطاعة وبين حكمهما رفع حكم الأخذ بالمعصية في حق الناسي والمخطىء كما رفعها في حق المجتهد، فما تحرَّك الإنسان إلا في أمر مشروع، فقد أحاط بالإنسان وجه الله ظاهراً وباطناً، فأينما تولاه الشيطان من ظاهر وباطن فثم وجه الله يحفظه فما له عليه سلطان وهو قوله ﷺ في حق القرين: «**أَعَانَنِي الله عَلَيهِ فَأَسْلَمُ**» برفع الميم على جهة الخبر فما له عليه سلطان أي حجة لأن الحجة هنا شرعية، فهو لو ألقى على ظاهره أو باطنه، وفي الشرع حكم برفع المؤاخذة فيما أتى به هذا العدوّ فما له عليه سلطان لأن الحجة الشرعية له: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] وقوله: «**فأعانني الله عليه**» هي نصرة الله له بالحجة فلا يبالي ولهذا شرع لعباده أن يقولوا: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] أي بك نستنصر، وما ثم إلا العلم فهو خبر ناصر يعطيه الله عبده، والذي نسي آدم إنما هو قوله تعالى له: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧] فنسي ما أخبره الله به من عداوته فقبل نصيحته. ولما علم إبليس أن آدم محفوظ من الله ورأى الله قد نهاه عن قرب الشجرة لا قرب الثمرة جاء بصورة الأكل لا بصورة القرب فإنه علم أنه لا يفعل لنهي ربه إياه عن قرب الشجرة فأتاه بثمرها فأكل آدم وزوجته حوّاء وصدقا إبليس وهو الكذوب في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] وكذلك كان أورثه ذلك الأكل منها الخلد في الجنة والملك الذي لا يبلى، وما قال له متى وجعل ذلك من خاصية تلك الشجرة فيمن أكل منها فأورثه الاجتباء الإلهي فأهبطه الله للخلافة في الأرض تصديقاً لما قاله للملائكة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وأهبط حواء للنسل وأهبط إبليس للإغواء ليحور عليه جميع ما يغوي به بني آدم إذا عمت الناس رحمة الله، فجعل الله كل مخالفة تكون من الإنسان من إلقاء العدوّ وإغوائه فقال: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ

﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي بإظهارها يعني بذلك وقوعها منكم لما علم أن الإنسان قد رفع عنه الحق ما حدث به نفسه وما هم به من السوء إلا أن يظهر ذلك على جوارحه بالعمل وهو الفحشاء فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ لما وقع منكم من الفحشاء التي أمركم بها الشيطان ﴿وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨] لما وعدكم به من الفقر، وهذه أعظم آية وأشدّها مرت على سمع إبليس فإنه علم أنه لا ينفعه إغواؤه ولهذا لا يحرص إلا على الشرك خاصة لكونه سمع الحق يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] وتخيل أن العقوبة على الشرك لا ينتهي أمدها، والله ما قال ذلك فلا بد من عقوبة المشرك ومن سكناه في جهنم فإنه ليس بخارج من النار فهو مؤبد السكنى ولم يتعرض لانتهاء مدة العذاب فيها بالشقاء، وليس الخوف إلا من ذلك لا من كونها دار إقامة لمن يعمرها فصدق الله بكون المشرك مأخوذاً بشركه فهو بمنزلة إقامة الحد على من تعين عليه سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة، فهي حدود إلهية يقيمها الحق على عبده إذا لم يغفر له أسبابها، وجهل إبليس انتهاء مدة عقوبة المشرك من أجل شركه، ولهذا طمع إبليس في الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء، وطمعه فيها من عين المنة لإطلاقها لأنه علم في نفسه أنه موحد، وإنما سماه الله كافراً في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] لأنه يستر عن العباد طرق سعادتهم التي جاء بها الشرع في حق كل إنسان بما يقدر عليه من ذلك فقال فيه: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] ولم يقل من المشركين لأنه يخاف الله رب العالمين ويعلم أن الله واحد، وقد علم حال مآل الموحدين إلى أين يصير سواء كان توحيده عن إيمان أو عن نظر من غير إيمان كما قال عيسى عليه السلام لإبليس لما عجز إبليس أن يطيعه عيسى عليه السلام فقال له إبليس: يا عيسى قل لا إله إلا الله حرص أن يطيعه، فقال له عيسى عليه السلام: أقولها لا لقولك لا إله إلا الله وقد علم إبليس أن جهنم لا تقبل خلود أهل التوحيد وأن الله لا يترك فيها موحداً بأي طريق كان توحيده، فعلى هذا القدر اعتمد إبليس في حق نفسه فعلم من وجه وجهل من وجه إذ لا يعلم الشيء من جميع وجوهه إلا الله عز وجل الذي أحاط بكل شيء علماً، سواء كان الشيء ثابتاً أو موجوداً أو متناهياً أو غير متناه: [مخلع البسيط]

قالَ لِيَ الحَقُّ في ضَميري ... ما أَجْهَلَ الخَلْقَ بالأُمُورِ
ما عَرَفَ الأمْرَ غَيْرُ شَخْصٍ ... مُنَبَّإٍ عَالِمٍ خَبِيرِ
مُهَيَّىءٍ للهُدَى مُعَدٍّ ... نَدْبٍ بأمْرِ الوَرَى بَصِيرِ
قد عَلِمَ الحَقَّ عِلْمَ ذَوْقٍ ... لَيس بحَدْسٍ ولا شُعُورِ
ولا تَنَاءٍ ولا تَدَانٍ ... ولا خَفَاءٍ ولا ظُهُورِ

الوصل التاسع من خزائن الجود: قال تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ [القيامة: ٢٩] فهو التفاف لا ينحل فإنه تعالى تمم فقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠] فأتى بالاسم الذي يعطي الثبات والأمر ملتف بالأمر وإلى الرب المساق، فلا بد من ثبات هذا الالتفاف في الدار الآخرة، فعين أمر الدنيا عين أمر الآخرة، غير أن موطن الآخرة لا يشبه موطن

الدنيا لما في الآخرة من التخليص القائم بوجود الدارين، فوقع التمييز بالدار والكل آخرة فالتف أمر الدنيا بأمر الآخرة، لا عين الدنيا بأمر الآخرة ولا عين الدنيا بعين الآخرة، ولكل دار أهل وجماعة والأمر ما هو عليه ذلك الجميع وإن اختلفت الأحوال فلا تزال الناس في الآخرة ينتقلون بالأحوال كما كانوا في الدنيا ينتقلون بالأحوال والأعيان ثابتة فإن الرب يحفظها، فالانتقال هو الجامع وفيماذا ينتقلون فذلك علم آخر يعلم من وجه آخر، فمن كون الآخرة دار جزاء كما كانت الدنيا دار جزاء في الخير والشر ظهر في الآخرة ما ظهر من سعادة وشقاء، فالشقاء للغضب الإلهي، والسعادة للرضى الإلهيّ، فالرضى بسط الرحمة من غير انتهاء، والغضب منقطع بالخبر النبوي فينتهي حكمه ولا ينتهي حكم الرضى، ولا سيما وقد قدمنا في كتابنا هذا أن الإنسان ولد على الفطرة وهي العلم بوجود الرب أنه ربنا ونحن عبيد له، وأن الإنسان لا يقبض حين يقبض إلا بعد كشف الغطاء فلا يقبض إلا مؤمناً ولا يحشر إلا مؤمناً، غير أن الله لما قال: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] فما آمنوا إلا ليندفع عنهم ذلك البأس فما اندفع عنهم وأخذهم الله بذلك البأس وما ذكر أنه لا ينفعهم في الآخرة، ويؤيد ذلك قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ حين رأوا البأس ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٩٨] فهذا معنى قولنا: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ في رفع البأس عنهم في الحياة الدنيا كما نفع قوم يونس فما تعرض إلى الآخرة، ومع هذا فإن الله يقيم حدوده على عباده حيث شاء ومتى شاء، فثبت انتقال الناس في الدارين في أحوالهم من نعيم إلى نعيم، ومن عذاب إلى عذاب، ومن عذاب إلى نعيم من غير مدة معلومة لنا، فإن الله ما عرفنا إلا أنا استروحنا من قوله: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] أن هذا القدر مدة إقامة الحدود والله أعلم فإنه لا علم لي بذلك من طريق الكشف، فرحم الله عبداً أطلعه الحق على انتهاء مدة الشقاء فليلحقها في هذا الموضع من كتابي هذا فإني علمت ذلك مجملاً من غير تفصيل وما كان ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠] والرب المصلح فإن الله يصلح بين عباده يوم القيامة، هكذا جاء في الخبر النبوي في الرجلين يكون لأحدهما حق على الآخر فيقفان بين يدي الله تعالى فيقول: رب خذ لي بمظلمتي من هذا، فيقول له: ارفع رأسك فيرى خيراً كثيراً، فيقول المظلوم: لمن هذا يا رب؟ فيقول: لمن أعطاني الثمن، فيقول: يا رب ومن يقدر على ثمن هذا؟ فيقول له: أنت بعفوك عن أخيك، فيقول: قد عفوت عنه فيأخذ بيده فيدخلان الجنة، فقال رسول الله ﷺ عند إيراده هذا الخبر: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] فإن الله يصلح بين عباده يوم القيامة الكريم إذا كان من شأنه أن يصلح بين عباده بمثل هذا الصلح حتى يسقط المظلوم حقه ويعفو عن أخيه، فالله أولى بهذه الصفة من العبد في ترك المؤاخذة بحقوقه من عباده، فيعاقب من شاء بظلم الغير لا بحقه المختص به، ولهذا الأخذ بالشرك من ظلم الغير فإن الله ما ينتصر لنفسه وإنما ينتصر لغيره، والذي شاء سبحانه ينتصر له، فإن الشركاء يتبرؤون من أتباعهم يوم القيامة، والرب أيضاً المغذي

والمربي فهو يربي عباده، والمربي من شأنه إصلاح حال من يربيه، فمن التربية ما يقع بها الألم كمن يضرب ولده ليؤدبه وذلك من جملة تربيته وطلب المصلحة في حقه لينفعه ذلك في موطنه، كذلك حدود الله تربية لعباده حيث أقامها الله عليهم فهو يربيهم بها لسعادة لهم في ذلك من حيث لا يشعرون، كما لا يشعر الصغير بضرب من يربيه إياه، والرب أيضاً السيد والسيد أشفق على عبده من العبد على نفسه فإنه أعلم بمصالحه، ولن يسعى سيد في إتلاف عبده لأنه لا تصح له سيادة إلا بوجود العبد فإنها صفة إضافية، فعلى قدر ما يزول من المضاف يزول من حكم المضاف إليه، كالسلطان إذا لم يكن شغله دائماً في أمور رعيته وإلا فما له من السلطنة إلا الاسم وهو معزول في نفس الأمر فإن المرتبة لا تقبله سلطاناً إلا بشروطها، فعلى قدر ما يشتغل عن رعيته بنفسه في لهوه وطربه فهو إنسان من جملة الناس لا حظ له في السلطنة وينقصه في الآخرة من أجر السلطنة وعزها وشموخها على قدر ما فرط فيه من حقها في الدنيا بلهوه ولعبه وصيده وتغافله عن أمور رعيته، وإذا سمع السلطان باستغاثة بعض رعيته عليه فلم يلتفت لذلك المستغيث ولا قضى فيه بما تعطيه مسألته إما له وإما عليه، فقد شهد على نفسه بهذا الفعل أنه معزول وأنه ليس بسلطان ولا فرق بينه وبين العامة، فما يقع مثل هذا إلا من سلطان جاهل لا معرفة له بقدر ما ولاه الله عليه، ولا غر وأن هذا الفعل يوجب أن يحور عليه وباله يوم القيامة وتقوم عليه الحجة عند الله لرعيته فيبقى موبقاً بعمله ولا ينفعه عند ذلك لهوه ولا ماله ولا بنوه ولا كل ما شغله عما تطلبه السلطنة بذاتها. وأما الرب الذي هو المالك فلشدة ما يعطيه هذا الاسم من النظر فيما تستحقه المرتبة فيوفيها حقها فقد بان لك في هذا المساق معنى اختصاص هذا الاسم الرب الذي إليه المساق عند التفاف الساق بالساق، فبه انتظم الأمران وثبت الانتقالان. ومن علم ثبوت الوجود ومن هو مالكه وسيده ومصلحه والثابت له حكمه فيه علم أن الرب مالكه.

ومن علم منزلة عبوديته علم منزلة سيادة سيده فخافه ورجاه وصدقه في أمنه إذا أمنه لعلمه بأنه السيد الوفي الصادق الغني، ومهما تهدم شيء من بيت الوجود رمه هذا السيد بيد عبده لأنه آلته في ذلك والمستخدم فعلى يده يكون صلاح ما تهدم منه ويأمره سيده في ذلك إما بمشافهة أو بتبليغ مبلغ يبلغ إليه من السيد بإصلاحه، أو صورة حال تعطيه إصلاح ذلك من غير توقف على الأمر الآتي من عند السيد كالرهبانية الحسنة التي ابتدعها من ابتدعها فهو مأجور فيها موفقة بصورة الحال لما في نفس السيد، وإن لم يأمر بها في النواميس في أهل الفترات فإن الشرع ما جاء إلا لمصالح الدنيا والآخرة، فالآخرة لا تعرف إلا بأخبار خالقها وأنها في حكم العقل ممكنة والدنيا ومصالحها معلومة لأنها واقعة مشهودة، فللنظر في مصالحها مجال بخلاف الآخرة، فلا تتوقف مصالح الدنيا على ما تتوقف عليه مصالح الآخرة، ولهذا ما خلت طائفة من ناموس تكون عليه لأن طلب المصالح ذاتي في الحيوان فكيف في الإنسان صاحب الفكر والروية؟ فمن تدبر هذا الوصل رأى عجباً وعلم علماً يعطيه الرفعة في الدنيا والآخرة وينضم إليه علم الجمع والفرق الذي في عين الجمع، وعلم

الأحوال والشؤون، وعلم الزمانين، وعلم ما يختص بالكون، وعلم القلوب التي وسعت الحق جل جلاله، وعلم ما يقع به البقاء لهذا الوجود أعني الموجودات كلها، وعلم العاقبة وهو وصل شريف: [الوافر]

إذا صَحَّتْ عُبُودَةُ كُلِّ عَبْدِ ... تَصِحُّ له السِّيادةُ في الوُجُودِ
فيَحْكُمُ مثل سَيِّده وتَبْدُو ... عليه بذاك أعلامُ المَزِيدِ
ويُخبِرُنا لسانُ الحالِ عنه ... بأن الأمْرَ فيه من الشُّهُودِ
له تَعْنُو الوجوهُ إذا تَبَدَّى ... كما عَنَتِ الملائكُ بالسُّجُودِ
فيَسْمُو رِفْعَةً ويُذِلُّ عِزّاً ... فيُدْعَى بالمُرَاد وبالمُرِيدِ

الوصل العاشر من خزائن الجود: وهذا وصل الأذواق وهو العلم بالكيفيات فهي لا تقال إلا بين أربابها إذا اجتمعوا على اصطلاح معين فيها، وأما إذا لم يجتمعوا على ذلك فلا تنقال بين الذائقين، وهذا لا يكون إلا في العلم بما سوى الله مما لا يدرك إلا ذوقاً كالمحسوسات واللذة بها وبما يجده من التلذذ بالعلم المستفاد من النظر الفكري فهذا يمكن فيه الاصطلاح بوجه قريب. وأما الذوق الذي يكون في مشاهدة الحق فإنه لا يقع عليه اصطلاح فإنه ذوق الأسرار وهو خارج عن الذوق النظري والحسي، فإن الأشياء أعني كل ما سوى الله لها أمثال وأشباه فيمكن الاصطلاح فيها للتفهيم عند كل ذائق له فيها طعم ذوق من أي نوع كان من أنواع الإدراكات، والبارىء ليس كمثله شيء، فمن المحال أن يضبطه اصطلاح فإن الذي يشهد منه شخص ما هو عين ما شهده شخص آخر جملة واحدة وبهذا يعرفه العارفون، فلا يقدر عارف بالأمر أن يوصل إلى عارف آخر ما يشهده من ربه لأن كل واحد من العارفين شهد من لا مثل له ولا يكون التوصيل إلا بالأمثال، فلو اشتركا في صورة لاصطلحا عليها بما شاء، وإذا قبل ذلك واحد جاز أن يقبل جميع العالم، فلا يتجلى في صورة واحدة لشخصين من العارفين، ولكن قد رفع الله بعض عباده درجات لم يعطها لغير عباده الذين لم يصح لهم هذه الدرجات وهم العامة من أهل الرؤية فيتجلى لهم في صور الأمثال، ولهذا تجتمع الأمة في عقد واحد في الله فيعتقد كل واحد من تلك الطائفة المعينة في الله ما يعتقده الآخر منها، كمن اتفق من الأشاعرة والمعتزلة والحنابلة والقدماء فقد اتفقوا على أمر واحد لم تختلف فيه تلك الطائفة فجاز أن يصطلحوا فيما اتفقوا عليه، وأما العارفون أهل الله فإنهم علموا أن الله لا يتجلى في صورة واحدة لشخصين ولا في صورة واحدة مرتين فلم ينضبط لهم الأمر لما كان لكل شخص تجل يخصه ورآه الإنسان من نفسه، فإنه إذا تجلى له في صورة ثم تجلى له في صورة غيرها فعلم من هذا التجلي ما لم يعلمه من هذا التجلي الآخر من الحق هكذا دائماً في كل تجل علم أن الأمر في نفسه كذلك في حقه وحق غيره، فلا يقدر أن يعين في ذلك اصطلاحاً تقع به الفائدة بين المتخاطبين فهم يعلمون ولا ينقال ما يعلمون ولا في قوة أصحاب هذا المقام الأبهج الذي لا مقام في الممكنات أعلى منه أن يضع عليه لفظاً يدلك على ما علمه منه إلا ما أوقعه تعالى وهو قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فنفى

المماثلة، فما صورة يتجلى فيها لأحد تماثل صورة أخرى: [الوافر]

فَعَزَّ الأمْرُ أن يُدْرَى فيُحْكَى ... وجَلَّ فليس يَضْبِطُهُ اصْطِلاحُ
فتَجْهَلُهُ العقولُ إذا تراه ... تُعَبِّرُ عنه ألسنةٌ فِصَاحُ
مِنَ أقْوام مقلّدة عقولاً ... لا مكان يكون به الصّلاحُ
فهم بالفِكْرِ قد جمعوا عليه ... على جَهْل فخَانَهُمُ الفَلاحُ
وقال العارفون بما رَأَوْهُ ... فما اصْطَلَحُوا فجَاءَهُمُ النَّجاحُ
فليس كمثله في الكون شيءٌ ... وليس له بنا إلا السّراحُ

فبتقييدنا حكمنا عليه بالإطلاق، وأما الأمر في نفسه فغير منعوت بتقييد ولا إطلاق بل وجود عام فهو عين الأشياء وما الأشياء عينه، فلا ظهور لشيء لا تكون هويته عين ذلك الشيء، فمن كان وجوده بهذه المثابة كيف يقبل الإطلاق أو التقييد هكذا عرفه العارفون، فمن أطلقه فما عرفه ومن قيده فقد جهله: [الكامل]

فالله ليس سواه مَشْهُوداً لنا ... وهو المُنَزَّهُ والمُجَمِّعُ بيننا
فالقَيْدُ والإطلاقُ فيه واحدٌ ... وكلاهما حَكَمٌ عليه له بنا
فانْظُرْ إليه بعينه إن كُنْتَ ذا ... لُبٌ تَجِدْهُ بالسّريرة مُعْلِنَا
هذا هو الحقُّ الصَّريح لمن يرى ... ما قد رأيتُ مُبَرْهَناً ومُبِينَا

واعلم أن الله تعالى ما جعل للأرواح أجنحة إلا للملائكة منهم لأنهم السفراء من حضرة الأمر إلى خلقه، فلا بد لهم من أسباب يكون لهم بها النزول والعروج فإن موضوع الحكمة يعطي هذا، فجعل لهم أجنحة على قدر مراتبهم في الذي يسرون به من حضرة الحق أو يعرجون إليه من حضرة الخلق، فهم بين الخلق والأمر يتردّدون ولذلك قالوا: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤] فاعلم ذلك، فإذا نزلت هذه السفرة على القلوب فإن رأتها قلوباً طاهرة قابلة للخير أعطتها من علم ما جاءت به على قدر ما يسعها استعدادها، وإن رأتها قلوباً دنسة ليس فيها خير نهتها عن البقاء على تلك الحال وأمرتها بالطهارة بما نص لها الشارع إن كان في العلم بالله فبالعلم به مما يطلبه الفكر وجاء به الخبر النبوي عن الله، وإن كان في الأكوان فبعلم الأحكام واعتقاداتها، هذا ويلزمه حكمها في ذلك إذا وجدت القلوب وإذا لم تجدها كقلوب العارفين الذين هم في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فلا تعرف الملائكة أين ذهبوا فهؤلاء هم الذين يأخذون عن الله من الوجه الخاص ما هم عليه من الأحوال فيجهلون ويؤخذ عليهم ما يأتون به، ومن هنا أخذ خضر علمه، فهؤلاء ينكر عليهم ولا ينكرون على أحد إلا بلسان الشرع، فلسان الشرع هو الذي أنكر لا هم كالمسبح بحمد الله، فالله هو الذي أثنى على نفسه بما يعلم نفسه عليه، فإن قام فضول بالإنسان واستنبط له ثناء لم يجيء بذلك اللفظ خطاب إلهيّ فما سبحه بحمده بل بما استنبطه من عنده فينقص عن درجة ما ينبغي فقل ما قاله عن نفسه ولا تزد في الرقم، وإن كان حسناً فقد أبنت لك ما إذا عملت به كنت من أهل الحق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الوصل الأحد عشر من خزائن الجود: [نظم: البسيط]

النَّارُ ناران نارُ الله واللَّهَب والدارُ داران دارُ الفوْزِ والعَطَبِ
وكلّها سَبَبٌ من كَوْنِ مُنشِئِها فاجْزَعْ من الكون لا تَجْزَعْ من السَّبَبِ
وخَفْ من العلم إنّ العلمَ يحكمُه واجْنَحْ إلى السِّلْم لا تَجْنَحْ إلى الحَرْبِ

اعلم علمك الله أن النار جاء بها الحق مطلقة مثل قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤] بالألف واللام حيث جاءت وجاء بها مضافة، فمنها نار أضافها إلى الله مثل قوله: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٦] ونار أضافها إلى غير الله مثل قوله: ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ [فاطر: ٣٦] ثم نعت هذه النار بنعوت وأخبر عنها بأخبار من الوقد والإطباق وغير ذلك، وجعل لها حكماً في الظاهر فجعلها ظرفاً مثل قوله: ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الجن: ٢٣] فجاء بالظرف وحكماً في الباطن وهو أن يكون ظاهر العبد ظرفاً لها وهي: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٦، ٧] والأفئدة باطن الإنسان فهي تظهر في فؤاد الإنسان، وعن هذه النار الباطنة ظهرت النار الظاهرة، والعبد منشأ النارين في الحالين، فما عذبه سوى ما أنشأه، كذلك ما أغضب الحق سوى ما خلقه، فلولا الخلق ما غضب الحق، ولولا المكلف الذي أنشأ صورة النارين بعمله الظاهر والباطن ما تعذب بنار، فما جنى أحد على أحد في الحقيقة والنظر الصحيح: [الهزج]

فلا تَعْمَلْ ولا تَشْقَى فكُنْ عبداً وكُن حَقَّا
فما ثَمَّ سوى ما قلـ ـتُه فانْظُر تَرَ الحَقَّا
عذاب الخَلْق بالخَلْقِ فحَقّاً كُنْتَ أو خَلْقَا

ومن ذلك: [البسيط]

فالنارُ منك وبالأعمال تُوقدُها كما بصالحها في الحال تُطْفِيها
فأنت بالطبع منها هاربٌ أبداً وأنت في كل حال فيك تُنْشيها
أَمَا لنفسك عَقْلٌ في تَصَرُّفها وقد أتيت إليها اليوم أُنْبيها
قبل المَمَاتِ فإن الله قال لنا بأنه يَوْمَ عَرْضِ الخَلْق يَمْلُوها

واعلم أنه تعالى لما ذكر على ألسنة رسله عليهم السلام: أن الله يغضب يوم القيامة غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وأن الحق إذا قالت النار هل من مزيد لأنه وعدها أن يملأها وهي دار الغضب قال: فيضع الجبار فيها قدمه فتقول قط قط أي قد امتلأت وليست تلك القدم إلا غضب الله فإذا وضعه فيها امتلأت فإنها دار الغضب، واتصف الحق بالرحمة الواسعة فوسعت رحمته جهنم بما ملأها به من غضبه فيه ملتذة بما اختزنته ورحم الله من فيها أعني في النار الذين هم أهلها فيجعل لهم من هذه الرحمة نعيماً فيها، كما نعم جهنم بما وضع فيها من الغضب الإلهيّ، فإن المخلوق الذي من حقيقته أن يفنى لا يملؤه مخلوق فإنه كل ما حصل منه فيه أفناه كما ورد في نضج الجلود فلا يملأ مخلوقاً إلا الحق وغضب الله حق، فأنعم على جهنم به فوضعه فيها فامتلأت بحق كما امتلأت الجنة برضى الحق ورحمته: [مخلع البسيط]

قد وَسعَ الحَقُّ كُلَّ شَيْء لأنّه عَيْنُ كُلِّ شَيّ

فما ترى فيه غير حَقّ ... في كل نُورٍ وكل فَيْ

ومن ذلك: [الوافر]

فنارُ الله ليس سوى وجودي ... ونارُ جَهَنَّمَ ذاتُ الوُقُودِ
بآلهةٍ تَعَبَّدَهَا أُنَاسٌ ... وهُمْ فيها على حُكْمِ الخُلُودِ

ولقد رأيت في هذا الوصل مشهداً هالني في الواقعة وتليت عليّ سورة الواقعة بلسان امرأة من صالحات المؤمنات عرضاً علي فكان من صورة ما تلته: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ بحذف واو العطف ولم يكن عندي من ذلك سرّ قبل هذا فرددت عليها لتقرأ ذلك بحرف الواو فلم تفعل فرجعت إلى نفسي وعلمت ما نبهني الحق به في ذلك الحذف من الاقتطاع بين العالم فإذا جاء بالواو راعى ما يقع فيه الاشتراك في الصورة الظاهرة والمفهوم الأوّل، وإذا أزال الواو راعى ما يقع به التمييز والانفراد الذي به حقيقة ذلك الشيء لأنه لا حقيقة له إلا بما يتميز به، فعلمت ما أراد بحذف الواو من نطقها بذلك وهو الله ليعلم أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] مع وجود الأشياء وأنه بعدمها ووجودها منفي المماثلة وما بقي الأمر إلا هل هو منفي المناسبة أو لا، لأن الإيجاد بغير المناسبة لا يتصور، وقد حصل الإيجاد وظهر المخلوق فعلمنا أن المناسب لا بدّ منه، ولا يعطي المماثلة أصلاً لأن الخلق كله لله والأمر كله لله فلا شركة، فارتفعت المماثلة مع وجود المناسب الذي يطلبه الحق بذاته، وكل خلق أضيف إلى خلق فمجاز وصورة حجابية ليعلم العالم من الجاهل، وفضل الخلق بعضهم على بعض ليتحقق الشكر من الفاضل والطلب والافتقار من المفضول، فيزاد الفاضل لشكره، ويعطي المفضول لطلبه فكل في مزيد ولا يرتفع التفاضل كلما ارتقى الفاضل بالمزيد درجة ارتقى المفضول خلفه يطلبه درجة فالكل في ارتقاء من غير لحوق: [مخلّع البسيط]

نَادانِيَ الحَقُّ من وُجودي ... في كل حال على الشُّهُود
امتلأتْ ذاتُكم فقلنا ... بلا مِحَالٍ هل من مَزِيدِ
ما يملأُ الكَوْنَ غَيْرُ من قَدْ ... جَادَ على الخَلْقِ بالوُجُودِ
وذلك الحَقُّ لا سواه ... ما رُتْبَةُ الرَّبِّ كالعبيد
من عَلِمَ الحَقَّ عِلْمَ ذَوْقٍ ... لم يَدْرِ ما لَذَّةُ السُّجُودِ

فنار جهنم لها نضج الجلود وحرق الأجسام، ونار الله نار ممثلة مجسدة لأنها نتائج أعمال معنوية باطنة، ونار جهنم نتائج أعمال حسية ظاهرة ليجمع لمن هذه صفته بين العذابين كما فعل بأهل الجزية في إعطائها عن يد وهم صاغرون فعذبهم بعذاب إخراج المال من أيديهم وبين الصغار والقهر الذي هو عذاب نفوسهم مما يجدون في ذلك من الحرج، ألا ترى المنافق في الدرك الأسفل من النار فهو في نار الله لما كان عليه من إصرار الكفر وما له في الدرك الأوّل مقعد لما أتى به من الأعمال الظاهرة بخلاف الكافر فإن له من جهنم أعلاها وأسفلها فما عنده من يعصمه من نار الله ولا من نار جهنم، وأما حكم الذي جحدها واستيقن

الحق واعتقده فإنه على ضدّ أو عكس عذاب المنافق فإنه عالم بالحق يتحقق به في نفسه ولم يظهر ذلك على ظاهر نشأته فأظهر خلاف ما أضمر، والنار إنما تطلب من الإنسان من لم تظهر عليه صورة حق من ظاهر وباطن، فالعلم للباطن كالعمل للظاهر والجهل للباطن كترك الواجب للظاهر وهنا يتبين للإنسان مراتب وأسباب المؤاخذات الإلهية لعباده في الدار الآخرة، فإذا استوفيت الحدود عمت الرحمة من خزانة الجود وهو قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧] الآية، وهذا هوالحد الزماني لأن التبديل لا بد أن يقع بالسموات والأرض فتنتهي المدة عند ذلك وهو في حق كل إنسان من وقت تكليفه إلى يوم التبديل لأنه غير مخاطب ببقاء السموات والأرض قبل التكليف، وهذا في حق السعيد والشقي فهما في نتائج أعمالهما هذه المدة المعينة فإذا انتهت انتهى نعيم الجزاء الوفاق وعذاب الجزاء، وانتقل هؤلاء إلى نعيم المنن الإلهية التي لم يربطها الله بالأعمال ولا خصها بقوم دون قوم وهو ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] ماله مدة ينتهي بانتهائها، كما انتهى الكفر والإيمان هنا بانتهاء عمر المكلف، وانتهت إقامة الحدود في الأشقياء والنعيم الجزائي في السعداء بانتهاء مدة السموات والأرض ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٨] في حق الأشقياء ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] وكذا وقع الأمر بحسب ما تعلقت به المشيئة الإلهية وما قال تعالى في الأشقياء عذاباً غير مجذوذ كما قال تعالى في السعداء فعلمنا بذكر مدة السماء والأرض وحكم الإرادة في الأشقياء والإعراض عن ذكر العذاب أن للشقاء مدة ينتهي إليها حكمه وينقطع عن الأشقياء بانقطاعها وأن جزاء السعيد على مثل ذلك، ثم تعم المنن والرضى الإلهيّ على الجميع في أي منزل كانوا، فإن النعيم ليس سوى ما يقبله المزاج، وغرض النفوس لا أثر للأمكنة في ذلك، فحيثما وجد ملايمة الطبع ونيل الغرض كان ذلك نعيماً لصاحبه فاعلم ذلك، ومتعلق الاستثناء معلوم في الطائفتين لما كان عليه الكافر من نعيم الحياة الدنيا من نيل أعراضه وصحة بدنه، ولما كان عليه المؤمن من عدم نيل أغراضه وأمراضه في الدنيا كل ذلك من زمان تكليف كل واحد من الطائفتين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الوصل الثاني عشر من خزائن الجود: وهو الإهمال الإلهيّ فلا يدري صاحبه ما له، فإن كل عبد استحق العقاب على مخالفته لما جاء الرسول إليه به فقد أمهله الله وما أخذه وهو تحت حكم سلطان الاسم الحليم فهو كالمهمل فلا يدري هل تسبق له العناية بالمغفرة والعفو قبل إقامة الحد الإلهيّ عليه بالحكم أو يؤخذ فيقام عليه حدود جناياته إلى أجل معلوم، ولما كان هذا الاحتمال يسوغ فيمن أمهله الله كانت صورة صاحب هذاالوصف صورة المهمل فإن الإهمال من جانب الحق ما يصح فإنه في علم الله السابق إمّا مغفور له وإما مؤاخذ بما جنى على نفسه، فهو على خطر وعلى غير علم بما سبق له في الكتاب الماضي الحكم فإن الحكم يحكم على الحاكم العادل كما يحكم على المحكوم عليه فإما بالأخذ وإما بالعفو في الشخص الذي هو على نعت وحال يوجب له أحد الأمرين مما ذكرناه وليس إلا من أمهله الله فلم

يؤاخذه في وقت المخالفة، وكفى بالترقب للعارف العاصي المهمل الذي هو في صورة المهمل عذاباً في حقه لأنه لا يدري ما عاقبة الأمر فيه، وما من طائفة إلا وهي تحت ناموس شرعي حكمي أو وضع حكمي فلا تخلو أمة من مخالفة تقع منها لناموسها كان ما كان، فلا ينفك صاحب هذه المخالفة من مراقبة العفو أو المؤاخذة على ما قرّره عليه واضع ناموسه، فقد عمت النواميس جميع الأمم وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] فهو إما نذير بأمر الله وإرادته أو نذير بإرادة الله لا بوحي نزل عليه يعلم به أنه من عند الله، فأمر الله إنما متعلقه عين إيجاد إنذاره فيه فقيل لإنذاره كن في هذا العبد فكان فوجد الإنذار في نفسه ولم يدر من أين جاء، فهذا الفرق بين الشرع الإلهيّ الذي جاءت به الرسل من عند الله وبين ما وضعته حكماء الأعصار لاتباعها لمصالحهم، فمن وفى بحق ناموسه واحترمه ووقف عند حده ابتغاء رضوان الله فقد أحسن في عمله، وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه أو تعلم أنه يراك، فهذا هو الحد الضابط للإحسان في العمل وما عدا هذا فهو سوء عمله، فإن كان ممن زين له سوء عمله فرآه حسناً فلا يخلو إما أن تكون رؤية سوء العمل حسناً بعد اجتهاد يفي بما في وسع ذلك الشخص المجتهد فقد وفى الأمر حقه وهو صاحب عمل حسن، ويكون حكم كونه سوء عمل يراه في اجتهاده سوء عين حكم المصيب للحق صاحب الأجرين، ويكون هذا المزين له بهذه الصفة صاحب الأجر الواحد وإن لم يكن عن استيفاء الاجتهاد بقدر الوسع ورآه حسناً عن غير اجتهاد فهو في المشيئة فلا يدري بما ختم له ولماذا يؤول أمره في مدة إقامة الحدود في الدنيا والآخرة فإنه ممن أسرف على نفسه، فإن قنط من رحمة الله فما وفى الأمر حقه وساء ظناً بربه والرب عند ظن عبده به، وقد نهى الله المسرف على نفسه عن القنوط فهل قنوطه بارتكاب هذا المنهي عنه الآتي بعد حصول إسرافه معتبر له أثر يحول بين المغفرة وبين صاحبه أو حكمه حكم كل إسراف سواه، فهذا أيضاً مهمل لا يدري ما الأمر فيه إذا أنصف الناظر لأنه قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] مع ارتفاع القنوط أو مع وجوده إلا المشرك الذي لم يبذل وسع نفسه في طلبه عدم الكثرة في الاسم الإلهيّ فإنه لا بد من مؤاخذته، فتعين على العاقل معرفة المدد الزمانية واختلاف الأزمان والدهور والأعصار وما يجري من ذلك إلى أجل مسمى في الأشخاص المقول عليها أنها أزمان، وما يجري منها إلى غير أجل مسمى، وما الحق الذي يوجب الشكر، وما الحق الذي يوجب الصبر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وأما الإيمان فهو أمر عام، وكذلك الكفر الذي هو ضده فإن الله قد سمى مؤمناً من آمن بالحق، وسمى مؤمناً من آمن بالباطل، وسمى كافراً من يكفر بالله، وسمى كافراً من يكفر بالطاغوت، وبين مآل هؤلاء وهؤلاء والطريق التي جاءت ببيانها أيده بالدلالات على صحته أنه من عند الله المرجو في كل ملة ونحلة وعند كل طائفة والأعمال الصالحة رأسها الإيمان فهي تابعة له كان الإيمان بما كان، وما في الأمور الوجودية أغمض من هذه المسألة لأن الله قرن العمل السيىء بالتزيين حتى يراه العامل حسناً فيتخذه صالح عمل وعلى الله قصد السبيل،

فجاء بالألف واللام للشمول في السبيل فإنها كلها سبل يراها من جاهد في الله، فأبان له ذلك الجهاد السبل الإلهية فسلك منها الأسد في نفسه وعذر الخلق فيما هم عليه من السبل وانفرد بالله فهو على نور من الله: [المتقارب]

إذا عَــرَفَ الــلّــهَ مِــنْ فِــعْــلِــهِ فــإهْــمــالُــهُ عَــيْــنُ إمْــهَــالِــهْ
فــعَــيْــنٌ تــراه بــتَــفْــصِــيــلِــهِ وعَــيْــنٌ تــراهُ بــإجْــمَــالِــهْ
فــقَــوْمٌ عــلــى حُــكْــم إحــســانــهِ وقَــوْمٌ عــلــى حُــكْــم إجْــلالِــهْ
فــيــقــبــضُ شَــخْــصــاً بــتــعــريــفــه ويــبــســطُ شَــخْــصــاً بــإهْــمــالِــهْ
فــســبــحــان مَــنْ حُــكْــمُــهُ واحــدٌ بــإعْــراضِــهِ أو بــإقْــبــالِــهْ
وســبــحــان مــن عَــمَّ إحــســانُــهُ بــإذْلالِــهِ أو بــإدلالِــهْ
وكــل بــإعــداده قــابــلٌ لــخُــسْــرانِــهِ ولإفــضــالِــهْ

والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الوصل الثالث عشر من خزائن الجود: مآل الأمر الرجوع من الكثرة إلى الواحد من مؤمن ومشرك لأن المؤمن الذي يعطي كشف الأمور على ما هي عليه يعطي ذلك وهو قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] وذلك قبل خروجه من الدنيا، فما قبض أحد إلا على كشف حين يقبض فيميل إلى الحق عند ذلك، وألحق التوحيد والإيمان به، فمن حصل له هذا اليقين قبل الاحتضار فمقطوع بسعادته واتصالها، فإن اليقين عن النظر الصحيح والكشف الصريح يمنعه من العدول عن الحق فهو على بينة من الأمر وبصيرة، ومن حصل له هذا اليقين عند الاحتضار فهو في المشيئة وإن كان المآل إلى السعادة، ولكن بعد ارتكاب شدائد في حق من أخذ بذنوبه، ولا يكون الاحتضار إلا بعد أن يشهد الأمر الذي ينتقل إليه الخلق، وما لم يشاهد ذلك فما حضره الموت ولا يكون ذلك احتضاراً، فمن آمن قبل ذلك الاحتضار بنفس واحد أو تاب نفعه ذلك الإيمان والمتاب عند الله في الدار الآخرة وحاله عند قبض روحه حال من لا ذنب له، وسواء رده لذلك شدة ألم ومرض أوجب له قطع ما يرجوه من الحياة الدنيا أو غيره فهو مؤمن تائب ينفعه ذلك فإنه غير محتضر، فما آمن ولا تاب إلا لخميرة كانت في باطنه وقلبه لا يشعر بها، فما مال إلى ما مال إليه إلا عن أمر كان عليه في نفسه لم يظهر له حكم على ظاهره ولاله في نفسه إلا في ذلك الزمن الفرد الذي جاء في الزمان الذي يليه الاحتضار الذي يوجب له الإيمان المحصل في المشيئة: [الطويل]

فــكــم بــيــن مَــحْــكُــوم لــه بــســعــادةٍ وما بين من تقضي عليه مَشِيئَتُهْ
فــذلــك تــخــلــيــصُ عــزيــزِ مــقــدَّسٍ وذاك عــلــى حــال أرَتْــهُ حَــقِــيــقَــتُــهْ
فــلــولاه مــا بــانَــتْ عــلــيــه طــريــقــتُــه ولا شَــهِــدَتْ يــومــاً عــلــيــه خَــلِــيــقَــتُــهْ

فإذا انتقل العبد من الحياة الدنيا إلى حياة العرض الأكبر فإن الله عز وجل قد جعل في الكون قيامتين: قيامة صغرى وقيامة كبرى،، فالقيامة الصغرى انتقال العبد من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ في الجسد الممثل وهو قوله ﷺ: «**مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ**» ومن كان من

أهل الرؤية فإنه يرى ربه فإن رسول الله ﷺ يقول لما حذر أمته الدجال إن الله لا يراه أحد حتى يموت والقيامة الكبرى هي قيامة البعث والحشر الأعظم الذي يجمع الناس فيه وهو في القيامة الكبرى أعني الإنسان ما بين مسؤول ومحاسب ومناقش في حسابه وغير مناقش وهو الحساب اليسير، وهو عرض الأعمال على العبد من غير مناقشة، والمناقشة السؤال عن العلل في الأعمال، فالسؤال عام في الجمع حتى في الرسل كما قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩] فالسؤال على نوعين: سؤال على تقرير النعم على طريق مباسطة الحق للمسؤول فهو ملتذ بالسؤال، وسؤال على طريق التوبيخ أيضاً لتقرير النعم فهو في شدة فقال ﷺ لأصحابه وقد أكلوا تمراً وماء عن جوع: «**إِنَّكُمْ لَتُسْأَلُونَ عَنْ نَعِيمِ هَذَا اليَوْمِ**» وهذا السؤال موجه للإنذار والبشارة في قوم مخصوصين وهم أهل ذلك المجلس وهو تنبيه بما هو عليه الأمر في حق الجميع، فما خلق الله العالم بعد هذا التقرير إلا للسعادة بالذات، ووقع الشقاء في حق من وقع به بحكم العرض لأن الخير المحض الذي لا شرّ فيه هو وجود الحق الذي أعطى الوجود للعالم لا يصدر عنه إلا المناسب وهو الخير خاصة فلهذا كان للعالم الخير بالذات، ولكون العالم كان الحكم عليه بالإمكان لاتصافه بأحد الطرفين على البدل، فلم يكن في رتبة الواجب الوجود لذاته عرض له من الشر الذي هو عدم نيل الغرض وملايمة الطبع ما عرض لأن إمكانه لا يحول بينه وبين العدم، فبهذا القدر ظهر الشرّ في العالم، فما ظهر إلا من جهة الممكن لا من جانب الحق، ولذلك قال رسول الله ﷺ في دعائه ﷺ: «**والخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ**» وإنما هو إلى الخلق من حيث إمكانه: [الرَّمل]

فَلِذَاتِ الحَقِّ نحنُ السُّعَدَا ... ولإمكان الوَرَى كان الشَّقَا
ولقاءُ الحَقِّ حَقٌّ واجبٌ ... فابْشِرُوا بكلّ خَيْرٍ في اللِّقَا
فلنا منا فَنَاءٌ وبَقَا ... ولنا منه وُجُودٌ ولِقَا
فَهْوَ خَيْرٌ ما لَهُ ضِدٌّ يُرَى ... فإذا ما الخَيْرُ بالخَيْرِ الْتَقَى
كان خيراً كُلُّ ما كان به ... مذهبُ الشرّ وأسبابِ التُّقَا

واعلم أن الأجسام نواويس الأرواح ومذاقتها وهي التي حجبتها أن تشهد وتشهد فلا ترى ولا ترى إلا بمفارقة هذه الضرائح فناء عنها لا انفصالاً، فإذا فنيت عن شهودها وهي ذات بصر شهدت موجدها بشهودها نفسها، فمن عرف نفسه عرف ربه، كذلك من شهد نفسه شهد ربه، فانتقل من يقين علم إلى يقين عين، فإذا ردّ إلى ضريحه ردّ إلى يقين حق من يقين عين لا إلى يقين علم، ومن هنا يعلم الإنسان تفرقة الحق بأخباره الصدق بحق اليقين، وعين اليقين، وعلم اليقين، فاستقرّ عنده كل حكم في رتبته فلم تلتبس عليه الأشياء وعلم أنه لم تكذبه الأنباء، فمن عرف الله بهذا الطريق فقد عرف وعلم حكمة تكوين الجوهر في الصدف عن ماء فرات في ملح أجاج فصدفته جسمه وملحه طبيعته ولهذا ظهر حكم الطبيعة على صدفته، فإن الملحة البياض وهو بمنزلة النور الذي يكشف به، فتحقق بهذا الدليل وعلى الله قصد السبيل.

الوصل الرابع عشر من خزائن الجود يقرع الأسماع ويعطي الاستمتاع ويجمع بين القاع واليفاع: لما كان المقصود من العالم الإنسان الكامل كان من العالم أيضاً الإنسان الحيوان المشبه للكامل في النشأة الطبيعية، وكانت الحقائق التي جمعها الإنسان متبددة في العالم، فناداها الحق من جميع العالم فاجتمعت فكان من جمعيتها الإنسان فهو خزانتها، فوجوه العالم مصروفة إلى هذه الخزانة الإنسانية لترى ما ظهر عن نداء الحق بجميع هذه الحقائق، فرأت صورة منتصبة القامة مستقيمة الحركة معينة الجهات، وما رأى أحد من العالم مثل هذه الصورة الإنسانية، ومن ذلك الوقت تصوّرت الأرواح النارية والملائكة في صورة الإنسان وهو قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] وقول رسول الله ﷺ: «**وَأَحْيَاناً يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلاً**» فإن الأرواح لا تتشكل إلا فيما تعلمه من الصور ولا تعلم شيئاً منها إلا بالشهود، فكانت الأرواح تتصوّر في كل صورة في العالم إلا في صورة الإنسان قبل خلق الإنسان، فإن الأرواح وإن كان لها التصوّر فما لها القوّة المصوّرة كما للإنسان، فإن القوّة المصوّرة تابعة للفكرة التي هي صفة للقوّة المفكرة، فالتصوّر للأرواح من صفات ذات الأرواح النفسية لا المعنوية لا لقوّة مصوّرة تكون لها إلا أنها وإن كان لها التصوّر ذاتياً فلا تتصوّر إلا فيما أدركته من صور العالم الطبيعيّ، ولهذا كان ما فوق الطبيعة من الأرواح لا يقبلون التصوّر لكونهم لا علم لهم بصور الأشكال الطبيعية، وليس إلا النفس والعقل والملائكة المهيمون دنيا وآخرة فما فوق الطبيعة لا يشهدون صور العالم، وإن كان بعضهم كالنفس الكلي يعطي الإمداد بذاته لعالم الطبيعة من غير قصد كما تعطي الشمس ضوءها لذاتها من غير قصد منها لمنفعة أو ضرر وهذا معنى الذاتي لها، ونسبة العلم والعمل نسبة ذاتية لها لعلمها بنفسها لا بما فوقها من علتها وغيرها، وأمّا عملها فينسب إليها العمل كما ينسب إلى الشمس تبييض الشقة وسواد وجه القصار، وكما ينسب إلى النار التسخين والإحراق فيقال: بيضت الشمس كذا، وأظهرت الشمس كذا، وأحرقت النار كذا، وأنضجت كذا وسخنت كذا، فهكذا هو الأمر في العالم إن كنت ذا لب وفطنة، والله بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، ولهذا يتجلى في كل صورة، فجميع العالم برز من عدم إلى وجود إلا الإنسان وحده فإنه ظهر من وجود إلى وجود، من وجود فرق إلى وجود جمع، فتغير عليه الحال من افتراق إلى اجتماع، والعالم تغير عليه الحال من عدم إلى وجود، فبين الإنسان والعالم ما بين الوجود والعدم، ولهذا ليس كمثل الإنسان من العالم شيء: [مخلع البسيط]

فما أنا مَخْضَةُ الوُجُود | إلا لكَوْني من الوُجُودِ
ليس لأمْرٍ عَلَيَّ حُكْمٌ | مِنْ عَدَمٍ يقضي في وُجودي
فليس لي في الكتاب مِثْلُ | إذاقَةِ لَذّة المزيدِ
لذلك اخْتُصَّ بالسجود | كَوْني وكُوِّنْتُ للسُّجودِ
أَسْجَدَ لي الأَمْرُ كُلَّ كَوْنٍ | إلا الذي قال بالجُحُودِ

ولما تحلل الجامد تغيرت الصور فتغير الاسم فتغير الحكم، ولما تجمد المائع تغيرت

الصورة فتغير الاسم فتغير الحكم فنزلت الشرائع تخاطب الأعيان بما هي عليه من الصور والأحوال والأسماء، فالعين لا خطاب عليه من ذاته ولا حكم عليه من حقيقته، ولهذا كان له المباح من الأحكام المشروعة، وفعل الواجب والمندوب والمحظور والمكروه من الملمات الغريبة في وجوده، وذلك مما قرن به من الأرواح الطاهرة الملكية وغير الطاهرة الشيطانية، فهو يتردد بين ثلاثة أحكام: حكم ذاتي له منه عليه وحكمان قرنا به، وله القبول والرد بحسب ما سبق به الكتاب وقضى به الخطاب، فمنهم شقي وسعيد، كما كان من القرناء مقرب وطريد، فهو لمن أجاب وعلى الله تبيان الخطأ من الصواب، وغاية الأمر أن الله عنده حسن المآب، وما قرن الله قط بالمآب إليه سوءاً تصريحاً، وغاية ما ورد في ذلك في معرض التهديد في الفهم الأول ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] فسيعلمون من كرم الله ما لم يكونوا يحتسبون قبل المؤاخذة لمن غفر له وبعد المؤاخذة لانقطاعها عنهم، فرحمته واسعة ونعمته سابغة جامعة، وأنفس العالم فيها طامعة لأنه كريم من غير تحديد، ومطلق الجود من غير تقييد، ولذلك حشر العالم يوم القيامة كالفراش المبثوث لأن الرحمة منبثة في المواطن كلها فانبث العالم في طلبها لكون العالم على أحوال مختلفة وصور متنوعة الوجوه، فتطلب بذلك الانبثاث من الله الرحمة التي تذهب منه تلك الصورة التي تؤديه إلى الشقاء، فهذا سبب انبثاثهم في ذلك اليوم، وكذلك الجبال الصلبة تكون كالعهن المنفوش لما خرجت عنه من القساوة إلى اللين الذي يعطي الرحمة بالعباد، ولا يدري ما قلناه إلا أهل الشهود والمتحققون بحقائق الوجود، وأما من بقي مع ثقليته فإن الثقلين ما سماهما الله بهذا الاسم إلا ليميزهما به عمن سواهما دائماً حيث كانا فلا تزال أرواحهما تدبر أجساماً طبيعية وأجساداً دنيا وبرزخاً وآخرة، وكذلك منازلهما التي يسكنونها من جنس نشأتهما فما لهما نعيم إلا بالمشاكل لطبعهما. وأما القائلون بالتجريد فهم مصيبون، فإن النفس الناطقة مجردة في الحقيقة عن هذه الأجسام والأجساد الطبيعية وما لها فيها إلا التدبير، غير أنهم ما عرفوا أن هذا التدبير لهذه النفوس دائماً أبداً فهم مصيبون من هذا الوجه إن قصدوه مخطئون إن قالوا بأنها تنفصل عن التدبير، فالنفوس الناطقة عندنا متصلة بالتدبير منفصلة بالذات والحد والحقيقة الشخصية فلا متصلة ولا منفصلة والتدبير لها ذاتي كمثل الشمس فإن لها التدبير الذاتي فيما تنبسط عليه أنوار ذاتها، غير أن الفرق بين الشمس والقمر والكواكب وأكثر الأسباب التي جعل الله فيها مصالح لعالم لذاتها لا علم لها بذلك، والنفوس الناطقة وإن كان تدبيرها ذاتياً فهي عالمة بما تدبره، فالنفوس الفاضلة منها التي لها الكشف تطلع على جزئيات ما هي مدبرة لها بذاتها، وغير الفاضلة لا تعلم بجزئيات ذلك، وقد تعلم ولا تعلم أنها تعلم، وهكذا كل روح مدبرة، فمن له التدبير للعالم هو الأعلم بجزئيات العالم وهو الله تعالى العالم بالجزء المعين، والكل مع التدبير الذاتي الذي لا يمكن إلا هو، فالنفوس السعيدة مراكبها النفوس الحيوانية في ألذ عيش وأرغده يوم القيامة أعطاها ذلك الموطن، كما أنها في أشد ألم وأضيق حبس إذا شقيت وحبست في المكان الضيق كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا﴾ يعني من جهنم ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا

مُقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] هذه الأحوال للنفوس الحيوانية والنفوس الناطقة ملتذة بما تعلمه من اختلاف أحوال مراكبها لأنها في مزيد علم بذلك إلهي مناسب، ألا ترى ذوقاً هنا في شخصين لكل واحد منهما نفس ناطقة حيوانية فيطرأ على كل واحد من الشخصين سبب مؤلم فيتألم به الواحد ويتنعم به الآخر لكون الواحد وإن كان ذا نفس ناطقة فحيوانيته غالبة عليه، فتبقى النفس الناطقة منه معطلة الآلة الفكرية النظرية، والآخر لم تتعطل نفسه الناطقة عن نظرها وفكرها ومشاهدتها، ومن أين قام بنفسها الحيوانية ذلك الأمر المؤلم حتى يوصلها ذلك إلى السبب الأول فتستغرق فيه فتتبعها في ذلك النفس الحيوانية فيزول عنها الألم مع وجود السبب، وكلا الشخصين كما قلنا ذو نفس ناطقة وسبب مؤلم، فارتفع الألم في حق أحد الشخصين ولم يرتفع في حق الآخر، فإن الحيوان بنور النفس الناطقة يستضيء فإذا صرفت النفس الناطقة نظرها إلى جانب الحق تبعها نورها كما يتبع نور الشمس الشمس بغروبها وأفولها فتلتذ النفس الحيوانية بما يحصل لها من الشهود لما لم تره قبل ذلك، فلا ألم ولا لذة إلا للنفوس الحيوانية إن كان كما ذكرناه فهي لذة علمية، وإن كان عن ملايمة طبع ومزاج ونيل غرض فلذة حسية، والنفس الناطقة علم مجرد لا يحتمل لذة ولا ألماً، ويطرأ على الإنسان الذي لا علم له بالأمر على ما هو عليه في نفسه تلبيس وغلط، فيتخيل أن النفس الناطقة لها التذاذ بالعلوم حتى قالوا بذلك في الجناب الإلهي وأنه بكماله مبتهج. فانظر بذلك يا أخي ما أبعد هؤلاء من العلم بحقائق الأمور، وما أحسن قول الشارع: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» فلم ينسب إليه إلا ما ينسبه لنفسه، فتعالى الله عز وجل عن أن يحكم عليه حال أو محل بل لله الأمر من قبل ومن بعد، عصمنا الله وإياكم من الآفات وبلغ بنا أرفع الدرجات وأبعد النهايات.

الوصل الخامس عشر من خزائن الجود: وهو ما تخزنه الأجسام الطبيعية من الأنوار التي بها يضيء كونها وإن ظهرت في أعيننا مظلمة كما يخرج اللبن من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين تخزنه ضروع مواشيهم وإبلهم لهم، كما يخرج من بطون النحل شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس والله يقول: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] ولولا النور ما ظهر للممكنات عين، وقول رسول الله ﷺ في دعائه: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي سَمْعِي نُوراً وَفِي بَصَرِي نُوراً وَفِي شَعَرِي نُوراً**» حَتَّى قَالَ: «**وَاجْعَلْنِي نُوراً**» وهو كذلك، وإنما طلب مشاهدة ذلك حتى يظهر للأبصار، فإن النور المعنوي خفي لا تدركه الأبصار فأراد رسول الله ﷺ أن يدرك بالحس ما أدركه بالإيمان والعقل وذلك لا يظهر إلا لأرباب المجاهدات: [الكامل]

النــارُ فــي أحْـجــارهــا مَـخْـبُــوءَةٌ   لا تُـصْـطَـلـى مـا لـم تُـثِـرْهـا الأَزْنُـدُ

فنحن نعلم أن ثم ناراً ولانرى لها تسخيناً في الحجر ولا إحراقاً في المرخ والعفار، وهكذا جميع الموجودات لمن نظر واستبصر أو من شاهد فاعتبر، فالحق مخبوء في الخلق من كونه نوراً فإذا قدحت زناد الخلق بالفكر ظهر نور الحق من عرف نفسه عرف ربه، فمن عرف القدح وميز الزناد فالنار عنده، فهو على نور من ربه متى شاء أظهرها فهو الظاهر ومتى

شاء أخفاها فهو الباطن، فإذا بطن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وإذا ظهر ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فالقادح ما جاء بنور من عنده، فالحق معنا أينما كنا في عدم أو وجود فبمعيته ظهرنا فنحن ذو نور ولا شعور لنا: [الطويل]

فللَّه ما لله مِنْ عَيْنِ كَوْنِنَا ... وللكَوْنِ ما للكَوْنِ من نُورِ ذَاتِه
فَنَحْنُ كَثِيرٌ والمُهَيْمِنُ وَاحِدٌ ... تَوَحَّدَ في أسْمَائه وصِفَاتِه

وإنما قلنا نحن كثير وهو واحد لأن الأزند كثير والنار من كل زناد منها واحد العين، فسواء كان الزناد حجراً أو شجراً ولهذا اختلفت المقالات في الله والمطلوب واحد، فكل ما ظهر لكل طالب فليس إلا الله لا غيره فالكل منه بدا وإليه يعود، وإنما سمي طالب النار في الزناد قادحاً لأن طلب الحق من الخلق ليعرف ذاته قدح في العلم الصحيح بذاته، فإنه لا يعلم منه إلا المرتبة وهي كونه إلهاً واحداً خاصة، فإن رام العلم بذاته وهي المشاهدة ولا تكون المشاهدة إلا عن تجليه ولا يكون ذلك إلا بالقدح فيه فإنك لا تراه إلا مقيداً قيده عقلك بنظره وتجلى لك في صورة تقييدك، وهذا قدح فيما هو عليه في نفس الأمر، ولولا ما أنت في نفسك ذو نور عقلي ما عرفته وذو نور بصري ما شهدته فما شهدته إلا بالنور وما ثم نور إلا هو، فما شهدته ولا عرفته إلا به، فهو نور السموات من حيث العقول والأرض من حيث الأبصار، وما جعل الله عز وجل صفة نوره إلا بالنور الذي هو المصباح وهو نور أرضي لا سماوي فشبه نوره بالمصباح، ورؤيتنا إياه كرؤيتنا الشمس والقمر، أي وإن كان كالمصباح فإنه يعلو في الرؤية والإدراك عن رؤية المصباح فهو بنفسه أرضي لأنه لولا نزوله إلينا ما عرفناه وهو بالرؤية سماوي، فانظر ما أحكم علم الشارع بالله أين هو من نظر العقل ولهذا قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لأنه نور والنور لا يدرك إلا بالنور، فلا يدرك إلا به ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ لأنه نور ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ لأنه يلطف ويخفى في عين ظهوره فلا يعرف ولا يشهد كما يعرف نفسه ويشهدها ﴿الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] علم ذوق وما قال لا تدركه الأنوار: [الوافر]

فلولا النُورُ لم تَشْهَدْهُ عَيْنٌ ... ولولا العَقْلُ لم يَعْرِفْهُ كَوْنُ

فبالنور الكوني والإلهي كان ظهور الموجودات التي لم تزل ظاهرة له في حال عدمها كما هي لنا في حال وجودها، فنحن ندركها عقلاً في حال عدمها وندركها عيناً في حال وجودها، والحق يدركها عيناً في الحالين، فلولا أن الممكن في حال عدمه على نور في نفسه ما قبل الوجود ولا تميز عن المحال، فبنور إمكانه شاهده الحق، وبنور وجوده شاهده الخلق، فبين الحق والخلق ما بين الشهودين، فالحق نور في نور، والخلق نور في ظلمة في حال عدمه، وأما في حال وجوده فهو نور على نور لأنه عين الدليل على ربه، وما يحتمل هذا الوصل أكثر من هذا فإن فيه مكراً خفياً لعدم المثل للحق، ولا يتمكن أن يشهد ويعلم إلا بضرب مثل ولهذا جعل لنا ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ ثم قال: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ من هذين النورين فيعلم المشبه

والمشبه به ﴿مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾ [النور: ٣٥] فجعله ضرب مثل للتوصيل ويجوز في ضرب الأمثال المحال الذي لا يمكن وقوعه، فكما لا يكون المحال الوجود وجوداً بالفرض كذلك لا يكون الخلق حقاً بضرب المثل، فما هو موجود بالفرض قد لا يصح أن يكون موجوداً بالعين، ولو كان عين المشبه ضرب المثل لما كان ضرب مثل إلا بوجه، فلا يصح أن يكون هنا ما وقع به التشبيه وضرب المثل موجوداً إلا بالفرض، فعلمنا بضرب هذا المثل أننا على غاية البعد منه تعالى في غاية القرب أيضاً، ولهذا قبلنا ضرب المثل، فجمعنا بين البعد والقرب وتسمى لنا بالقريب والبعيد، فكما هو ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١] هو أقرب من حبل الوريد ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فهو القريب بالمثل البعيد بالصورة لأن فرض الشيء لا يكون كهو ولا عين الشيء، وفي هذا الوصل إفاضة الحاج من عرفة إلى جمع ومن جمع إلى منى، فإن إفاضة عرفات ليلاً وإفاضة جمع نهار الصائم وإن شئت قلت نهاراً من غير إضافة والحج يجمع ذلك كله فقبل تفصيل اليوم الزماني الذي هو الليل والنهار كما أن فيه ما يشوش العقول عن نفوذ نورها إلى رؤية المطلوب وهو حجاب لطيف لقربه من المطلوب، فإن الشوق أبرح ما يكون إذا أبصر المحب دار محبوبه، قال الشاعر: [الوافر]

وأَبْـرَحُ مـا يـكـونُ الـشَّـوْقُ يَـوْمـاً إذا دَنَـتِ الـدِّيـارُ مِـنَ الـدِّيـارِ

فمن أعجب الأمور أن بالإنسان استتر الحق فلم يشهد، وبالإنسان ظهر حتى عرف، فجمع الإنسان بين الحجاب والظهور، فهو المظهر الساتر وهو السيف الكهام الباتر، يشهد الحق منه ذلك لأنه على ذلك خلقه، ويشهد الإنسان من نفسه ذلك لأنه لا يغيب عن نفسه وأنه مريد للاتصال بما قد علم أنه لا يتصل به، فهو كالحق في أمره من أراد منه أن يأمره بما لا يقع منه فهو مريد لا مريد، فلولا ما هو الحق صدفة أعياننا ما كنا صدفة عين العلم به، وفي الصدف يتكون اللؤلؤ فما تكوّنا إلا في الوجود وليس الوجود إلا هو ولكنه ستر علينا ستر حفظ ثم أظهرنا ثم تعرّف إلينا بنا وأحالنا في المعرفة به علينا، فإذا علمنا بنا سترنا على علمنا به، فلم يخرج الأمر عن صدف ساتر لؤلؤاً ولكن تارة وتارة: [السريع]

فـذلـك الـتِّـبْـرُ ونـحـن الـصَّـدَى ومـا لـنـا كَـوْنٌ بـغـيـر الـنِّـدَا
فـمـن يـنـاديـه يَـكُـنْ كـأنـه ولـيـس ذاك الـكـون مـنـه ابْـتـدا
لأنـه يـحـدثُ عـن قـولـه وقـولـه كُـنْ لا يـكـونُ سُـدَى
فـمـنـه كُـنَّـا وبـه قـد بَـدَا هـذا الـذي فـي عـيـنـه قـد بَـدَا
فَـهْـوَ الـنَّـدَى لـيـلاً كـمـا كُـنْـتُـه كـمـا أنـا مـنـه نـهـاراً سُـدَى
وإنْ تَـشَـأْ عَـكْـسَ الـذي قُـلْـتُـه فـإنـه الـلّـيْـلُ ونـحـن الـنَّـدَى

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الوصل السادس عشر من خزائن الجود: اعلم أن الله تعالى ما خلق شيئاً من الكون إلا حياً ناطقاً جماداً كان أو نباتاً أو حيواناً في العالم الأعلى والأسفل، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٤] فلم يعجل

عليكم بالعقوبة ﴿غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] ساتراً تسبيحهم عن سمعكم، فكل شيء في عالم الطبيعة جسم متغذ حساس، فهو حيوان ناطق بين جلي وخفي في كل فصل فصل من فصول هذا الحد، فكل ما نقص منه في حد محدود فذلك النقص هو ما خفي منه في حق بعض الناس وما ظهر منه فهو الجلي، ولذلك اختلفت الحدود في الجماد والنبات والحيوان والإنسان، والكل عند أهل الكشف حيوان ناطق مسبح بحمد الله تعالى. ولما كان الأمر هكذا جاز بل وقع وصح أن يخاطب الحق جميع الموجودات ويوحي إليها من سماء وأرض وجبال وشجر وغير ذلك من الموجودات ووصفها بالطاعة لما أمرها به وبالإباية لقبول عرضه وأسجد له كل شيء لأنه تجلى لكل شيء وأوحى إلى كل شيء بما خاطب ذلك الشيء به فقال للسماء والأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] فأوحى في كل سماء أمرها والأرض كذلك أوحىٰ لها، وأوحى ربك إلى النحل وأوحينا إليك يعني محمداً بالخطاب ﷺ روحاً من أمرنا فعم وحيه الجميع، ولكن بقي من يطيع ومن لا يطيع، وكيف فضل السميع السميع، فمن أعجب الأشياء وصف السامع بالصمم، والبصير بالعمى، والمتكلم بالبكم، فما عقل ولا رجع وإن فهم: [الكامل]

فالجَحْدُ من صِفَةِ النُّفوس إذا أَبَتْ ... كالنار تحرقُ بالقبول وإنْ خَبَتْ
لولا وُجُودُ الاختبار وجَبْرُها ... فيه لما أَبَتِ النفوسُ إذا أَبَتْ

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] ولذلك يقولون لجلودهم إذا شهدت عليهم ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ فتقول الجلود: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] فعمت فكانت الجلود أعلم بالأمر ممن جعل النطق فصلاً مقوّماً للإنسان خاصة، وعرى غير الإنسان عن مجموع حده في الحيوانية والنطق، فمن فاته الشهود فقد فاته العلم الكثير، فلا تحكم على ما لم تر وقل الله أعلم بما خلق وأرض الإنسان جسده، وقد شهد عليه بما عمل، أتراه شهد عليه بما لم يعلم، أتراه علم من غير وحي إلهي جاءه من عند الله عز وجل كما نشهد نحن على الأمم بما أوحى الله تعالى به إلينا من قصص أنبيائه مع أممهم: [السريع]

فيشهد الشَّخْصُ بما لم يَرَ ... إذا أتاه الخَبَرُ الصَّادِقُ
فالكلُّ قد أوحى إليه الذي ... أوحى به فكله ناطقُ
فانْظُرْ فما في كونه غَيْرُهُ ... فهو وُجُودُ الخَلْق والخَالِقُ

فإذا انحصر الأمر بين خبر صادق وشهود علمنا أن العالم كله مكشوف له: [مخلّع البسيط]

ما ثَمَّ سَتْرٌ ولا حجَابٌ ... بل كُلُّه ظاهرٌ مُبين
فيعلم الحَقُّ دون شَكٍّ ... وسِرُّهُ في الحَشَا دَفِين

فيوحي بالتكوين فيكون، ويشهده ما شاء فيرى، فشهادته بالخبر الصادق كشهادته بالعيان الذي لا ريب فيه مثل شهادة خزيمة فأقامه رسول الله ﷺ في شهادته مقام رجلين

فحكم بشهادته وحده، فكان الشهادة بالوحي أتم من الشهادة بالعين، لأن خزيمة لو شهد شهادة عين لم تقم شهادته مقام اثنين وبه حفظ الله علينا ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخر السورة إذ لم يقبل الجامع للقرآن آية منه إلا بشهادة رجلين فصاعداً إلا هذه الآية ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فإنها ثبتت بشهادة خزيمة وحده رضي الله عنه.

وصل وتنبيه: وأما التحدث بالأمور الذوقية فيصح لكن لا على جهة الإفهام ولكن كل مذوق له مثال مضروب فتفهم منه ما يناسب ذلك المثال خاصة، فإذن ما ينبىء عن حقيقة إلا في الذوق المشترك الذي يمكن الاصطلاح عليه، كالتحدث بالأمور المحسوسة مع كل ذي حس أدرك لك المخبر عنه بحسه وعرف اللفظ الذي يدل عليه بالتواطؤ بين المخاطبين، فنحن لا نشك إذا تلي علينا القرآن أنا قد سمعنا كلام الله وموسى عليه السلام لما كلمه الله قد سمع كلام الله، وأين موسى منا في هذا السماع؟ فعلى مثل هذا تقع الأخبار الذوقية فإن الذي يدركه من يسمع كلام الله في نفسه من الله برفع الوسائط ما يمكن أن يساوي في الإدراك من يسمعه بالترجمة عنه، فإن الواحد صاحب الواسطة هو مخير في الإخبار بذلك عن الواسطة إن شاء، وعن صاحب الكلام إن شاء، وهكذا جاء في القرآن، قال تعالى في إضافة الكلام إليه: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فأضاف الكلام إلى الله. وقال في إضافة ذلك الكلام إلى الواسطة والمترجم فقال مقسماً أنه يعني القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠] وقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١] فإن فهمت عن الإله ما ضمنه هذا الخطاب وقفت على علم جليل، وكذلك ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] فأضاف الحدوث إلى كلامه، فمن فرق بين الكلام والمتكلم به اسم مفعول فقد عرف بعض معرفة. وما أسمع الرحمان كلامه بارتفاع الوسائط إلا ليتمكن الاشتياق في السامع إلى رؤية المتكلم لما سمعه من حسن الكلام، فتكون رؤية المتكلم أشدّ، ولا سيما ورسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**» والجمال محبوب لذاته وقد وصف الحق نفسه به فشوّق النفوس إلى رؤيته. وأما العقول فبين واقف في ذلك موقف حيرة فلم يحكم أو قاطع بأن الرؤية محال لما في الأبصار من التقييد العادي، فتخيلوا أن ذلك التقييد في رؤية الأبصار أمر طبيعيّ ذاتي لها وذلك لعدم الذوق، وربما يتقوّى عند المؤمنين منهم إحالة ذلك بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وللأبصار إدراك وللبصائر إدراك وكلاهما محدث، فإن صح أن يدرك بالعقل وهو محدث صح أو جاز أن يدرك بالبصر لأنه لا فضل لمحدث على محدث في الحدوث، وإن اختلفت الاستعدادات فجائز على كل قابل للاستعدادات أن يقبل استعداد الذي قبل فيه أنه أدرك الحق بنظره الفكري، فإما أن ينفوا ذلك نفياً جملة واحدة، وإما أن يجوّزه جملة واحدة، وإما أن يقفوا في الحكم فلا يحكمون فيه بإحالة ولا جواز حتى يأتيهم تعريف الحق نصاً لا يشكون فيه أو يشهدونه من نفوسهم. وأما الذي يزعم أنه يدركه عقلاً ولا يدركه بصراً فمتلاعب لا علم له بالعقل ولا بالبصر ولا

بالحقائق على ما هي عليه في أنفسها كالمعتزلي فإن هذه رتبته، ومن لا يفرق بين الأمور العادية والطبيعية فلا ينبغي أن يتكلم معه في شيء من العلوم ولا سيما علوم الأذواق، وما شوّق الله عباده إلى رؤيته بكلامه سدى، ولولا أن موسى عليه السلام فهم من الأمر إذا كلمه الله بارتفاع الوسائط ما جرأه على طلب الرؤية ما فعل، فإن سماع كلام الله تعالى بارتفاع الوسائط عين الفهم عنه فلا يفتقر إلى تأويل وفكر في ذلك، وإنما يفتقر من كلمه الله بالوسائط من رسول أو كتاب، فلما كان عين السمع في هذا المقام عين الفهم سأل الرؤية ليعلم التابع، ومن ليست له هذه المنزلة عند الله أن رؤية الله ليست بمحال وقد شهد الله لموسى أنه اصطفاه على الناس برسالاته وبكلامه ثم قال له: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤] وهو تعالى يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] ولا شك أن موسى قد شكر الله على نعمة الاصطفاء ونعمة الكلام شكراً واجباً مأموراً به، فيزيده الله لشكره نعمة رؤيته إياه، فهل رآه في وقت سؤاله بالشرط الذي أقامه كما ورد في نص القرآن أو لم يره؟ والآية محتملة المأخذ، فإنه ما نفى زمان الحال عن تعلق الرؤية وإنما نفى الاستقبال بأداة سوف، ولا شك أن الله تجلى للجبل وهو محدث وتدكدك الجبل لتجليه فحصل لنا من هذا رؤية الجبل ربه التي أوجبت له التدكدك فقد رآه محدث، فما المانع إن رآه موسى عليه السلام في حال التدكدك ووقع النفي على الاستقبال ما لذلك مانع لمن عقل ولا سيما وقد قام الصعق لموسى عليه السلام مقام التدكدك للجبل، ثم لتعلم أنه من أدرك الحق علماً لم يفته من العلم الإلهي مسألة، ومن رأى الحق ببصره رأى كل نوع من العالم لا يفوته من أنواعه شيء إذا رآه في غير مادة وإذا علمه بصفة إثبات نفسية، فإن علمه بصفة تنزيه لم يكن له هذا المقام وإن رآه في مادّة لم يكن له هذا المقام. وأما من ذهب إلى أن رؤية الحق إنما هي عبارة عن مزيد وضوح في العلم النظري بالله لا غير فهذه قولة من لا علم له بالله من طريق الكشف والتجلي إلا أن يكون قال ذلك لمعنى كان حاضراً من لا ينبغي أن يسمع مثل هذا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الوصل السابع عشر من خزائن الجود: قال بعض السادة في هذه الخزانة إنها تتضمن فناء من لم يكن وبقاء ومن لم يزل، وهذه المسألة تخبط فيها من لم يستحكم كشفه ولا تحقق شهوده، فإن من الناس من تلوح له بارقة من مطلوبه، فيكتفي بها عن استيفاء الحال واستقصائه، فيحكم على هذا المقام بما شاهد منه ظناً منه أو قطعاً أنه قد استوفاه، وقد رأيت ممن هذه صفته رجالاً وقد طرأ مثل هذا لسهل بن عبد الله التستري المبرز في هذا الشأن في علم البرزخ فمرّ عليه لمحة فأحاط علماً بما هو الناس عليه في البرزخ ولم يتوقف حتى يرى هل يقع فيما رآه تبديل في أحوال مختلفة على أهله أو يستمرون على حالة واحدة؟ فحكم ببقائهم على حالة واحدة كما رآهم، فرؤيته صحيحة صادقة، وحكمه بالدوام فيما رآهم عليه إلى يوم البعث ليس بصحيح. وأما الذين رأيت أنا من أهل هذه الصفة لما رأيتهم سريعين الرجعة غير ثابتين عندما يؤخذ عن نفسه سألت واحداً منهم: ما الذي يردّك بهذه السرعة؟

فقال لي: أخاف أن تنعدم عيني لما نراه فيخاف على نفسه، ومن تكون هذه حالته فلا تثبت له قدم في تحقيق أمر ولا يكون من الراسخين فيه، فلو اقتصروا على ما عاينوه ولم يحكموا لكان أولى بهم، فيتخيل الأجنبي إذا سمع مثل هذا من صادق وسمع عدم الثبوت في البرزخ على حالة واحدة أنّ بين القوم خلافاً في مثل هذا وليس بخلاف، فإن الراسخ يقول بما شاهده وهو مبلغه من العلم، وغير الراسخ يقول أيضاً بما شاهده ويزيد في الحكم بالثبوت الذي ذهب إليه، ولو أقام قليلاً لرأى التغيير والتبديل في البرزخ كما هو في الدنيا، فإن الله في كل يوم وهو الزمن الفرد في شأن، يقول تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] والخلق جديد حيث كان دنيا وآخرة وبرزخاً، فمن المحال بقاء حال على عين نفسين أو زمانين للاتساع الإلهي لبقاء الافتقار على العالم إلى الله، فالتغيير له واجب في كل نفس، والله خالق فيه في كل نفس فالأحوال متجددة مع الأنفاس على الأعيان، وحكم الأعيان يعطي في العين الواحدة بحسب حقائقها إن لو صح وجودها لكانت بهذه الأحوال.

فمن أصحابنا من يرى أن عين الوجود هو الذي يحفظ عليه أحوال أعيان الممكنات الثابتة وأنها لا وجود لها البتة بل لها الثبوت والحكم في العين الظاهرة التي هي الوجود الحقيقي.

ومن أصحابنا من يرى أن الأعيان اتصفت بالوجود واستفادته من الحق تعالى وأنها واحدة بالجوهر وإن تكثرت وأن الأحوال يكسوها الحق بها مع الأنفاس إذ لا بقاء لها إلا بها، فالحق يجددها على الأعيان في كل زمان، فعلى الأوّل يكون قوله حتى يفنى من لم يكن فلا يبقى له أثر في عين الوجود فيكون مسلوب النعوت وذلك حال التنزيه ويبقى من لم يزل على ما هي عليه عينه وهو الغني عن العالمين، فإن العالم ليس سوى الممكنات وهو تعالى غني عنها إن تدل عليه فإنه ما ثم من يطلب على ما قلناه الدلالة عليه، فإن الممكنات في أعيانها الثابتة مشهودة للحق، والحق مشهود للأعيان الممكنات بعينها وبصرها الثابت لا الموجود، فهو يشهدها ثبوتاً وهي تشهده وجوداً. وعلى القول الآخر الذي يرى وجود أعيان الممكنات وآثار الأسماء الإلهية فيها وإمداد الحق لها بتلك الآثار لبقائها، فتفنى تلك الآثار والأعيان القابلة لها عن صاحب هذا الشهود حالاً، والأمر في نفسه موجود على ما هو عليه لم يفن في نفسه كما فني في حق هذا القائل به، فلا يبقى له مشهود إلا الله تعالى، وتندرج الموجودات في وجود الحق، وتغيب عن نظر صاحب هذا المقام كما غابت أعيان الكواكب عن هذا الناظر بطلوع النير الأعظم الذي هو الشمس فيقول بفناء أعيانها من الوجود، وما فنيت في نفس الأمر بل هي على حالها في إمكانها من فلكها على حكمها وسيرها وكلا القولين قد علم من الطائفة.

ومن أصحاب هذا المقام من يجعل أمر الخلق مع الحق كالقمر مع الشمس في النور الذي يظهر في القمر، وليس في القمر نور من حيث ذاته ولا الشمس فيه ولا نورها ولكن البصر كذلك يدركه، فالنور الذي في القمر ليس غير الشمس كذلك الوجود الذي للمكنات ليس غير وجود الحق كالصورة في المرآة، فما هو الشمس في القمر، وما ذلك النور المنبسط ليلاً من القمر على الأرض بمغيب نور الشمس غير نور الشمس وهو يضاف إلى القمر كما قيل في

كلام الله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠] وقيل في قول الرسول ﷺ إنه كلام الله تعالى إذا تلاه، وقول كل تال للقرآن ولكل مقالة وجه من الصحة، . والكشف يكون في كل ما ذكرناه، فأهل الله اختلافهم اتفاق لأنهم يرمون عن قوس واحد، فالأمر متردد بين فناء عين وفناء حال، ولا جامع في العالم بين الضدين إلا أهل الله خاصة، لأن الذي تحققوا به هو الجامع بين الضدين وبه عرف العارفون فهو ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] من عين واحدة ونسبة واحدة لا من نسبتين مختلفتين، ففارقوا المعقول ولم تقيدهم العقول بل هم الإلهيون المحققون حققهم الحق بما أشهدهم فهم وما هم ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فأثبت ونفى وحسبنا الله وكفى. فكان الشيخ أبو العباس بن العريف الصنهاجي الإمام في هذا الشأن يقول: وإنما يتبين الحق عند اضمحلال الرسم. وكان الشيخ أبو مدين يقول: لا بد من بقاء رسم العبودية ليقع التلذذ بمشاهدة الربوبية. وكان القاسم بن القاسم من شيوخ رسالة القشيري يقول: مشاهدة الحق فناء ليس فيها لذة. وكل قائل صادق، فإنه قد قدمنا قبل هذا في هذا الكتاب أن شخصين لا يجتمعان أبداً في تجل واحد، وأن الحق لا يكرر على شخص التجلي في صورة واحدة، وقد قدمنا أن تجلياته تختلف لأنها تعم الصور المعنوية والروحانية والملكية والطبيعية والعنصرية ففي أي صورة شاء ظهر كما أنه ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] وفي الطريق في أي صورة ما شاء أقامك، فالمراكب مختلفة والراكب واحد، فمن تجلى له في الصور المعنوية قال بفناء الرسم، ومن تجلى له في الصورة الطبيعية والعنصرية قال باللذة في المشاهدة، ومن قال بعدم اللذة في المشاهدة كان التجلي له في الصور الروحانية، فكل صدق وبما شاهد نطق، وأيّ الشهود أعلى وكلناك في ذلك لذوقك حتى تعلم من ذلك ما علمناه.

ومن هذا الوصل تعلم المفارق وغير المفارق، ومن يفرق ومن لا يفرق، وتعلم منه من هو على بينة من ربه وما هي البينة، وتعلم أنواع الطهارات لكل موصوف بالطهارة، وتعلم الميل المحمود والميل المذموم، وتعلم ما يقع به الاشتراك في الدين وما نسخ منه فلم يجتمع فيه رسولان، وتعلم من خلق من المخلوقات من شيء موجود ومن خلق لا من شيء موجود ومراتب العالم في ذلك، وتعلم أن كل ما طلب الحق من عباده أن يعاملوه به عاملهم به، فعم أحكام الشرائع كلها وحكم بذلك على نفسه كما حكم على خلقه، وأن مكارم الأخلاق في الأكوان هي الأخلاق الإلهية.

الوصل الثامن عشر من خزائن الجود: يتضمن فضل الطبيعة على غيرها وذلك لشبهها بالأسماء الإلهية، فإن العجب ليس من موجود يؤثر وإنما العجب من معدوم يؤثر، والنسب كلها أمور عدمية ولها الأثر والحكم، فكل معدوم العين ظاهر الحكم والأثر، فهو على الحقيقة المعبر عنه بالغيب، فإنه من غاب في عينه فهو الغيب والطبيعة غائبة العين عن الوجود فليس لها عين فيه وعن الثبوت وليس لها عين فيه فهي عالم الغيب المحقق وهي معلومة، كما أن المحال معلوم، غير أن الطبيعة وإن كانت مثل المحال في رفع الثبوت عنها والوجود فلها

أثر ويظهر عنها صور والمحال ليس كذلك، ومفاتيح هذا الغيب هي الأسماء الإلهية التي لا يعلمها إلا الله العالم بكل شيء، والأسماء الإلهية نسب غيبية إذ الغيب لا يكون مفتاحه إلا غيباً، وهذه الأسماء تعقل منها حقائق مختلفة معلومة الاختلاف كثيرة ولا تضاف إلا إلى الحق فإنه مسماها ولا يتكثر بها، فلو كانت أموراً وجودية قائمة به لتكثر بها، فعلمها سبحانه من حيث كونه عالماً بكل معلوم، وعلمناها نحن باختلاف الآثار منهما فينا فسميناه كذا من أثر ما وجد فينا فتكثرت الآثار فينا فكثرت الأسماء والحق مسماها فنسبت إليه ولم يتكثر في نفسه بها فعلمنا أنها غائبة العين، ولما فتح الله بها عالم الأجسام الطبيعية باجتماعها بعدما كانت مفترقة في الغيب معلومة الافتراق في العلم، إذ لو كانت مجتمعة لذاتها لكان وجود عالم الأجسام أزلاً لنفسه لا لله، وما ثم موجود ليس هو الله إلا عن الله وما ثم واجب الوجود لذاته إلا الله وما سواه فموجود به لا لذاته، فالسر معقول النسب والأخفى منها أعيانها، فبالمشيئة ظهر أثر الطبيعة وهي غيب، فالمشيئة مفتاح ذلك الغيب، والمشيئة نسبة إلهية لا عين لها فالمفتاح غيب وإن لم تثبت هذه النسب في العلم وإن كانت غيباً وعدماً فلم يكن يصح الوجود لموجود أصلاً ولا كان خلق ولا حق فلا بد منها، فالغيب هو النور الساطع العام الذي به ظهر الوجود كله، وما له في عينه ظهور فهو الخزانة العامة التي خازنها منها. وإن أردت أن يقرب عليك تصوّر ما قلت فانظر في الحدود الذاتية للمحدود التي لا يعقل المحدود إلا بها، وينعدم المعلوم بعدمها، ويكون معلوماً بوجودها اتساعاً وإن لم توصف بالوجود، وذلك إذا أخذت في حد الجوهر مثلاً أعني الجوهر الفرد فتقول فيه هو الشيء فجئت بالجنس الأعم، والشيئية للأشياء ليست وجودية ولا بد فيدخل فيها كل ما هو محدود بشيء مما يقوم بنفسه ومما لا يقوم بنفسه، فإذا أردت أن تبينه ولا تتبين المعلومات إلا بذاتها وهو الحد الذاتي لها فتقول الموجود فجئت بما هو أخص منه فدخل فيه كل موجود وانفصل عنه كل من له شيئية ولا وجود له، ثم قلت القائم بنفسه، وهذه كلها معان معلومة هي للمحدود المعلوم بها صفات والصفة لا تقوم بنفسها، وباجتماع هذه المعاني جاء منها أعيان وجودية تدرك حساً وعقلاً فخرج منه كل موجود لا يقوم بنفسه ثم تقول المتحيز فيشركه غيره ويتميز عنه بهذا غير آخر والتحيز حكم وهو ما له قدر في المساحة أو القابل للمكان، ثم تقول الفرد الذي لا ينقسم ذاته فخرج عنه الجسم وكل ما ينقسم، ثم تقول القابل للأعراض فخرج منه من لا يقبل الأعراض ودخل معه في الحد من يقبل الأعراض، وبمجموع هذه المعاني كان المسمى جوهراً فرداً كما بالتأليف مع بقية الحدود ظهر الجسم، فلما ظهر من ائتلاف المعاني صور قائمة بنفسها وطالبة محال تقوم بها كالأعراض والصفات علمنا قطعاً أن كل ما سوى الحق عرض زائل وغرض مائل، وأنه وإن اتصف بالوجود وهو بهذه المثابة في نفسه في حكم المعدوم فلا بد من حافظ يحفظ عليه الوجود وليس إلا الله تعالى، ولو كان العالم أعني وجوده لذات الحق لا للنسب لكان العالم مساوقاً للحق في الوجود وليس كذلك فالنسب حكم لله أزلاً وهي تطلب تأخر وجود العالم عن وجود الحق فيصح حدوث العالم وليس ذلك

إلا لنسبة المشيئة، وسبق العلم بوجوده فكان وجود العالم مرجحاً على عدمه، والوجود المرجح لا يساوق الوجود الذاتي الذي لا يتصف بالترجيح. ولما كان ظهور العالم في عينه مجموع هذه المعاني فكان هذا المعقول المحدود عرض له جميع هذه المعاني فظهر فما هو في نفسه غير مجموع هذه المعاني والمعاني تتجدد عليه والله هو الحافظ وجوده بتجديدها عليه وهي نفس المحدود، فالمحدودات كلها في خلق جديد الناس منه في لبس فالله خالق دائماً، والعالم في افتقار دائم له في حفظ وجوده بتجديده، فالعالم معقول لذاته موجود بالله تعالى فحدوده النفسية عينه، وهذا هو الذي دعا الحسبانية إلى القول بتجديد أعيان العالم في كل زمان فرد دائماً وذهلت عن معقولية العالم من حيث ما هو محدود وهو أمر وهمي لا وجود له إلا بالوهم وهو القابل لهذه المعاني، وفي العلم ما هو غير جميع هذه المعاني فصار محسوساً أمر هو في نفسه مجموع معقولات فأشكل تصوره وصعب على من غلب عليه وهمه فحار بين علمه ووهمه وهو موضع حيرة، وقالت طائفة بتجدد الأعراض على الجوهر والجوهر ثابت الوجود وإن كان لا بقاء له إلا بالعرض وما تفطن صاحب هذا القول لما هو منكر له فغاب عنه شيء فجهله وظهر له شيء فعلمه، وقالت طائفة أخرى بتجدد بعض الأعراض وهي المسماة عندهم أعراضاً وما عداها وإن كانت في الحقيقة على ما يعطيه العلم أعراضاً فيسمونها صفات لازمة كصفرة الذهب وسواد الزنجي، وهذا كله في حق من يثبتها أعياناً وجودية، وثم من يقول أن ذلك كله نسب لا وجود لها إلا في عين المدرك لها لا وجود لها في عينها، وإلى هذا ذهب القاضي أبو بكر بن الطيب الباقلاني على ما وصل إلينا والعهدة على الناقل، وأهل الكشف لهم الاطلاع على جميع المذاهب كلها والنحل والملل والمقالات في الله اطلاعاً عاماً لا يجهلون منه شيئاً، فما تظهر نحلة من منتحل ولا ملة بناموس خاص تكون عليه ولا مقالة في الله أو في كون من الأكوان ما تناقض منها، وما اختلف وما تماثل إلا ويعلم صاحب الكشف من أين أخذت هذه المقالة أو الملة أو النحلة، فينسبها إلى موضعها ويقيم عذر القائل بها ولا يخطئه ولا يجعل قوله عبثاً، فإن الله ما خلق سماء ولا أرضاً وما بينهما باطلاً، ولا خلق الإنسان عبثاً بل خلقه ليكون وحده على صورته، فكل من في العالم جاهل بالكل عالم بالبعض إلا الإنسان الكامل وحده فإن الله علمه الأسماء كلها وآتاه جوامع الكلم فكملت صورته فجمع بين صورة الحق وصورة العالم، فكان برزخاً بين الحق والعالم مرآة منصوبة يرى الحق صورته في مرآة الإنسان ويرى الخلق أيضاً صورته فيه. فمن حصل في هذه المرتبة حصل رتبة الكمال الذي لا أكمل منه في الإمكان، ومعنى رؤية صورة الحق فيه إطلاق جميع الأسماء الإلهية كما جاء في الخبر: «**فَبِهِمْ تُنْصَرُون وَالله النَّاصِرُ، وَبِهِمْ تُرزَقُونَ وَالله الرَّازِقُ، وَبِهِمْ تُرْحَمُونَ وَالله الرَّاحِمُ**» وقد ورد في القرآن فيمن علمنا كماله واعتقدنا ذلك فيه أنه ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أي لترحمهم لما دعا على رعل وذكوان وعصية والتخلق بالأسماء يقول به جميع العلماء، فالإنسان متصف يسمى

بالحي العالم، المريد، السميع، البصير، المتكلم، القادر، وجميع الأسماء الإلهية من أسماء تنزيه، وأفعال تحت إحاطة هذه الأسماء السبعة التي ذكرناها لا يخرج عنها جملة واحدة فلهذا لم نأت بها على التفصيل، وقد ذكرنا منها طرفاً شافياً في كتابنا المسمى إنشاء الجداول والدوائر صوّرنا فيه العالم والحضرتين ممثلتين في أشكال ليقرب العلم بها على صاحب الخيال، إذ لا يخلو الإنسان مع عقله عن حكم الوهم فيما يعلم أنه محال، ومع هذا تصوّره وتغلب عليه حكم الوهم إذ كان لا ينضبط لها العلم بذلك إلا بعد تصوّره، وحينئذ تضبطه القوّة الحافظة وتحكم عليه القوّة المذكرة إذا غلب على القوّة الحافظة فخرج من تحت حكمها، فإن المذكرة لا تفرط فيه فلا يزال المعلوم محصوراً في العلم ولهذا كان المعلوم محاطاً به، قال تعالى: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. فمن علم ما ذكرناه في هذا الوصل وما حوت عليه هذه الخزانة علم نفسه، وعلم ربه، وعلم العالم وما أصله وإذا بدا له منه ما بدا علم من أين جاء وإلى أين يعود؟ وعلم ما يستحقه منه فوفاه حقه فأعطى كل ذي حق حقه، كما أن الله ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: ٥٠] فالذي انفرد به الحق إنما هو الخلق، والذي انفرد به من العالم الكامل إنما هو الحق، فيعلم ما يستحقه كل موجود فيعطيه حقه وهو المسمى بالإنصاف، فمن أعطيته حقه فقد أنصفته، فإن تغاليت فما كملت وأنت ناقص فإن الزيادة في الحد نقص في المحدود فلا يتعدى الكامل بالشيء رتبته، وقد ذم الله تعالى تعليماً لنا في إقامة العدل في الأشياء من تغالي في دينه، ونزه الحق تعالى عما يستحقه، فهو وإن قصد تعظيماً بذلك الفعل في التغالي فقد وقع في الجهل وجاء بالنقص في موضع الكمال فقال: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١] فالغلوّ مثل أن ينسب إلى الله الأحوال وهي ليست إلا أحكام المعاني، فالمعاني لله وجودها، وإذا وجدت فيمن وجدت فيه أعطت بذاتها الحال المنعوت به ذلك المحل الذي قام به هذا المعنى فهذا من التغالي، وهذا مثل العالم، والقادر، والأبيض، والأسود، والشجاع، والجبان، والمتحرّك، والساكن، فهذه هي الأحوال وهي أحكام المعاني المعقولة أو النسب كيف شئت فقل وهي العلم والقدرة والبياض والسواد والحماسة والجبن والحركة والسكون، فقال لنا: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١] كان ما كان، كما نسبوا إليه تعالى الصاحبة والولد وضربوا له الأمثال وجعلوا له أنداداً غلوّاً في دينهم وتعظيماً لرسلهم فقالوا عيسى هو الله، وقالت طائفة هو ابن الله، وقال من لم يغل في دينه هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فلم يتعد به ما هو الأمر عليه، فمن سلك مسلكنا فقد سلك طريق النجاة والإيمان وأعطى الإيمان حقه ولم يجر على العقل والفكر في حقه ولا فيما له، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وفي هذه الخزانة من العلوم: علم مقام الملائكة كلها، وعلم الأنوار والأسرار والفضل الزماني لا الفضل بالزمان، ومن هنا تنزل الملائكة على قلوب الأرسال من البشر بالوحي المشروع، وعلى قلوب الأولياء بالحديث والإلهام، وكل من أدرك هذا سرّاً أو غيباً فكان له

جهراً وشهادة، فمن هذه الخزانة، فسبحان مرتب الأمور وشارح الصدور وباعث من في القبور بالنشور لا إله إلا هوالعلم القدير.

الوصل التاسع عشر من خزائن الجود: هذه خزانة التعليم، ورفعة المعلم على المتعلم، وما يلزم المتعلم من الأدب مع أستاذه. اعلم أن المعلم على الحقيقة هو الله تعالى، والعالم كله مستفيد طالب مفتقر ذو حاجة وهو كماله، فمن لم تكن هذه أوصافه فقد جهل نفسه، ومن جهل نفسه فقد جهل ربه، ومن جهل أمراً فما أعطاه حقه، ومن لم يعط أمراً حقه فقد جار عليه في الحكم وعرا عن ملابسة العلم، فقد تبين لك أن الشرف كله إنما هو في العلم والعالم به بحسب ذلك العلم، فإن أعطي عملاً في جانب الحق عمل به، وإن أعطاه عملاً في جانب الخلق عمل به، فهو يمشي في بيضاء نقية سمحاء لا يرى فيها عوجاً ولا أمتاً، وأوّل متعلم قبل العلم بالتعلم لا بالذات العقل الأول، فعقل عن الله ما علمه وأمره أن يكتب ما علمه في اللوح المحفوظ الذي خلقه منه فسماه قلماً، فمن علمه الذي علمه أن قال له أدباً مع المعلم ما أكتب هل ما علمتني أو ما تمليه عليّ؟ فهذا من أدب المتعلم إذا قال له المعلم قولاً مجملاً يطلب التفصيل فقال له: اكتب ما كان وما قد علمته وما يكون مما أمليه عليك وهو علمي في خلقي إلى يوم القيامة لا غير، فكتب ما في علمه مما كان، فكتب العماء الذي كان فيه الحق قبل أن يخلق خلقه وما يحوي عليه ذلك العماء من الحقائق، وقد ذكرناه في هذا الكتاب في باب النفس بفتح الفاء وكتب وجود الأرواح المهيمة وما هيمهم وأحوالهم وما هم عليه وذلك كله ليعلمه، وكتب تأثير أسمائه فيهم، وكتب نفسه ووجوده وصورة وجوده وما يحوي عليه من العلوم، وكتب اللوح. فلما فرغ من هذا كله أملى عليه الحق ما يكون منه إلى يوم القيامة لأن دخول ما لا يتناهى في الوجود محال فلا يكتب فإن الكتابة أمر وجودي فلا بد أن يكون متناهياً فأملى عليه الحق تعالى وكتب القلم منكوس الرأس أدباً مع المعلم لأن الإملاء لا تعلق للبصر به بل متعلق البصر الشيء الذي يكتب فيه، والسمع من القلم هو المتعلق بما يمليه الحق عليه، وحقيقة السمع أن لا يتقيد المسموع بجهة معينة بخلاف البصر الحسي فإنه يتقيد إما بجهة خاصة معينة وإما بالجهات كلها، والسمع ليس كذلك فإن متعلقه الكلام، فإن كان المتكلم ذا جهة أو في جهة فذلك راجع إليه، وإن كان لا في جهة ولا ذا جهة فذلك راجع إليه لا للسامع، فالسمع أدل في التنزيه من البصر، وأخرج عن التقييد وأوسع وأوضح في الإطلاق. فأوّل أستاذ من العالم هو العقل الأوّل، وأوّل متعلم أخذ عن أستاذ مخلوق هو اللوح المحفوظ، وهذه الأسمية شرعية، واسم اللوح المحفوظ عند العقلاء النفس الكلية وهي أوّل موجود انبعاثي منفعل عن العقل وهي للعقل بمنزلة حواء لآدم منه خلق وبه زوّج، فثنى كما ثنى الوجود بالحادث وثنى العلم بالقلم الحادث، ثم رتب الله الخلق بالإيجاد إلى أن انتهت النوبة، ، والترتيب الإلهي إلى ظهور هذه النشأة الإنسانية الآدمية، فأنشأها في أحسن تقويم، ثم نفخ في آدم من روحه وأمر الملائكة بالسجود له فوقعت له ساجدة عن الأمر الإلهي بذلك فجعله لملائكته قبلة ثم عرّفهم بخلافته في الأرض فلم يعرفوا

عمن هو خليفة فربما ظنوا أنه خليفة في عمارتها عمن سلف، فاعترضوا لما رأوا من تقابل طبائعه في نشأته فعلموا أن العجلة تسرع إليه وأن تقابل ما تركب منه جسده ينتج منه نزاعاً فيؤثر فساداً في الأرض وسفك دماء، فلما أعلمهم أنه خلقه سبحانه على صورته وعلمه الأسماء كلها المتوجهة على إيجاد العالم العنصري وغيره فما فوقه، ثم عرض المسميات على الملائكة فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: ٣١] الذين توجهتم على إيجادهم أي توجهت الأسماء هل سبحتموني بها وقدستموا لي فإنكم زعمتم أنكم تسبحوني بحمدي وتقدسون إلي، فقالت الملائكة ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] فقال لآدم: «أنبئهم بأسمائهم» فجعله أستاذاً لهم فعلمهم الأسماء كلها فعلموا عند ذلك أنه خليفة عن الله في أرضه لا خليفة عن سلف.

ثم ما زال يتلقاها كامل عن كامل حتى انتهت إلى السيد الأكبر المشهود له بالكمال محمد ﷺ الذي عرف بنبوّته وآدم بين الماء والطين، فالماء لوجود البنين والطين وجود آدم، وأوتي ﷺ جوامع الكلم كما أوتي آدم جميع الأسماء، ثم علمه الله الأسماء التي علمها آدم فعلم علم الأوّلين والآخرين، فكان محمد ﷺ أعظم خليفة وأكبر إمام، وكانت أمته ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وجعل الله ورثته في منازل الأنبياء والرسل، فأباح لهم الاجتهاد في الأحكام فهو تشريع عن خبر الشارع فكل مجتهد مصيب كما أنه كل نبي معصوم، وتعبدهم الله بذلك ليحصل لهذه الأمة نصيب من التشريع وتثبت لهم فيه قدم، فلم يتقدم عليهم سوى نبيهم ﷺ فتحشر علماء هذه الأمة حفاظ الشريعة المحمدية في صفوف الأنبياء لا في صفوف الأمم فهم شهداء على الناس، وهذا نص في عدالتهم، فما من رسول إلا ولجانبه عالم من علماء هذه الأمة أو اثنان أو ثلاثة أو ما كان، وكل عالم منهم فله درجة الأستاذية في علم الرسوم والأحوال والمقامات والمنازل والمنازلات إلى أن ينتهي الأمر في ذلك إلى خاتم الأولياء خاتم المجتهدين المحمديين إلى أن ينتهي إلى الختم العام الذي هو روح الله وكلمته، فهو آخر متعلم وآخر أستاذ لمن أخذ عنه، ويموت هو وأصحابه من أمة محمد ﷺ في نفس واحد بريح طيبة تأخذهم من تحت آباطهم يجدون لها لذة كلذة الوسنان الذي قد جهده السهر وأتاه النوم في السحر الذي سماه الشارع العسيلة لحلاوته، فيجدون للموت لذة لا يقدر قدرها، ثم يبقى رعاع كغثاء السيل أشباه البهائم فعليهم تقوم الساعة، وكان الروح الأمين جبريل عليه السلام معلم الرسل وأستاذهم، فلما أوحي إلى محمد ﷺ كان يعجل بالقرآن قبل أن يقضي إليه وحيه ليعلم الله بالحال أن الله تولى تعليمه من الوجه الخاص الذي لا يشعر به الملك، وجعل الله الملك النازل بالوحي صورة حجابية ثم أمره تعالى فيما أوحى إليه: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦] أدباً مع أستاذه فإنه ﷺ يقول: «**إنَّ الله أدَّبَنِي فَأَحْسَنَ أدبي**» وهذا مما يؤيد أن الله تولى تعليمه بنفسه، ثم قال مؤيداً أيضاً لذلك: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة] فما ذكر سوى نفسه وما أضافه إلا إليه، ولم يجر لغير الله في هذا التعريف ذكر، وبهذا جاء لفظ النبيّ ﷺ في قوله: «**إنَّ الله أدَّبَنِي فَأَحْسَنَ أدبي**» ولم يذكر إلا الله ما تعرّض لواسطة ولا لملك فإن الله هكذا

عرفنا، ثم وجدنا ذلك سارياً في ورثته من العلماء في كل طائفة أعني من علماء الرسوم وعلماء القلوب، فرجوع التعليم بالواسطة وغير الواسطة إلى الرب ولذلك قال الملك: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤] فتبين لك من هذا الوصل صورة التعليم. ثم إنه شرع تعالى لكل أستاذ أن لا يرى له مزية على تلميذه، وأن لا تغيبه مرتبة الأستاذية عن علمه بنفسه وعبوديته، وهذا هو الأصل المرجوع إليه، والله يقول الحق ويهدي السبيل.

الوصل العشرون من خزائن الجود: وهذه خزانة الأحكام الإلهية والنواميس الوضعية والشرعية، وأن لله تعالى في وحيه إلى قلوب عباده بما يشرع في كل أمة طريقين: طريقاً بإرسال الروح الأمين المسمى جبريل أو من كان من الملائكة إلى عبد من عباد الله فيسمى ذلك العبد لهذا النزول عليه رسولاً ونبياً يجب على من بعث إليهم الإيمان به وبما جاء به من عند ربه، وطريقاً آخر على يدي عاقل زمانه يلهمه الله في نفسه وينفث الروح الإلهيّ القدسي في روعه في حال فترة من الرسل ودرس من السبل، فيلهمه الله في ذلك لما ينبغي من المصالح في حقن الدماء وحفظ الأموال والفروج لما ركب الله في النفوس الحيوانية من الغيرة فيمهد لهم طريقة يرجعون بها إذا سلكوا عليها إلى مصالحهم، فيأمنون على أهليهم ودمائهم وأموالهم، ويحد لهم حدوداً في ذلك، ويخوّفهم ويحذرهم ويرجيهم ويأمرهم بالطاعة لما أمرهم به ونهاهم عنه وأن لا يخالفوه، ويعين لهم زواجر من قتل وضرب وغرم ليردع بذلك ما تقع به المفسدة والتشتيت، ويرغب في نظم شمل الكلمة، وأن الله تعالى يأجره على ذلك في أصحاب الفترات، وأما في الأمة التي فيها رسول أو هم تحت خطاب رسول فحرام عليه ذلك وحرام عليه خروجه عن شرع الرسول، ولم تظهر هذه الطريقة الوضعية التي تطلبها الحكمة في نوع من الأنواع إلا في النوع الإنساني خاصة لخلقه على الصورة، فيجد في نفسه قوة إلهية تدعوه لتشريع المصالح، فإن شرعها أحد غيره وهو الرسول فلا يزال يؤيده ويمهد لأمته ما وضعه لها ذلك الرسول، ويبين لهم ما خفي عنهم من رسالته لقصور فهمهم، وإن لم يفعل ذلك مع قدرته عليه لم يزل في سفال إلى يوم القيامة، كما جاء في الإمام إذا صلى وهو يعلم أن خلفه من هو أحق بالإمامة منه فلم يقدمه وتقدم عليه لم يزل في سفال إلى يوم القيامة إلا أن يقدمه ذلك الأفضل فيتقدم عن أمره كصلاة أبي بكر برسول الله ﷺ وصلاة عبد الرحمن بن عوف برسول الله ﷺ لما جاء وقد فاتته ركعة وتقدم لأجل خروج الوقت فجاء رسول الله ﷺ وقد صلوا ركعة فصلى خلفه وشكرهم على ما فعلوا وقال: أحسنتم، ولولا أن الشارع قرر حكم المجتهد من علماء هذه الأمة ما ثبت له حكم.

واعلم أن العلماء بالله على مراتب في أخذهم العلم الإلهيّ، فمنهم من أخذ العلم بالله من الله وهم الذين قيل لهم: فاعلموا أنه إله واحد، ومنهم من أخذ العلم بالله عن نظر واستدلال وهم الذي نصب الله لهم الأدلة والآيات في الآفاق وفي أنفسهم وأمرهم بالنظر في ذلك حتى يتبين لهم أن الحق مثل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقوله ﷺ:

«مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» ومنهم من أخذ العلم بالله من تقوى الله مثل قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] تفرقون به بين الله وبين الآلهة التي عبدها المشركون وتعرفون ما عبدوا من ذلك مع علمهم إذا سموهم أنهم أحجار وأشجار وكواكب وملائكة وناس وجان ويعلمون حقيقة كل مسمى ولماذا اختصوا بالعبادة ما اختصوا منها وهي ومن لم يتخذوه معبوداً من أمثالها في الحد والحقيقة على السواء، وما في هذه الطوائف أعلى ممن حصل العلم بالله عن التقوى، فهذا المأخذ أعلى المراتب في الأخذ فإن له الحكم الأعم يحكم على كل حكم وعلى كل حاكم بكل حكم فهو خير الحاكمين، ولا يكون هذا العلم ابتداء ولهذا لا يختص به إلا المؤمنون العالمون الذي علموا أن ثم واحداً يرجع إليه ويوصل إلى شهوده، وإن لم يعلموا ذلك قصرت هممهم، ولو تجلى لهم الحق بنفسه أنكروه وردوه فإنه عندهم مقيد بأمر ما مهما لم يجدوا ذلك الأمر الذي قيدوه به فيمن تجلى لهم وقال لهم أو قيل لهم إنه الله ردوه ولا بد، فلما قصرت هممهم وأعطاهم نظرهم أن الحق لا يراه أحد كالفيلسوف والمعتزلي وإن علم فبالضرورة ينكرونه في تجليه لهم فلا بد للمؤمن أن يعطيه نور إيمانه ما أعطى لموسى عليه السلام في نفسه حتى سأل الرؤية ثم أخبر الله أنه تجلى للجبل والجبل من العالم وتدكدك الجبل عند رؤيته ربه، وإذا تجلى لمحدث جاز أن يراه كل محدث إذا شاء وجاز أن يتجلى له، فإذا علموا وآمنوا وانبسط نور الإيمان على المراتب والمقامات فعلموها كشفاً ووجوداً وانبسط على نفوسهم فشاهدوا نفوسهم فعرفوها فعرفوا ربهم بلا شك علماً وإيماناً ثم علموا بتقوى الله فجعل الله لهم فرقاناً بين ما أدركوه من الله بالعلم الخبري وبالعلم النظري وبالعلم الحاصل عن التقوى، وعلموا عند ذلك ما هو التام من هذه العلوم والأتم، فمن ادّعى التقوى ولم يحصل له هذا الفرقان فما صدق في دعواه فإن الكذب كله عدم أي مدلوله عدم وإن كان مذموماً بالإطلاق عرفاً محموداً بالتقييد الذي يحمد به والصدق كله حق أي مدلوله حق، وإن كان محموداً بالإطلاق عرفاً مذموماً بالتقييد الذي يذم به:

[مخلّع البسيط]

أَوْقَفَنِي الحَقُّ فِي شُهُودي جُوداً وفَضْلاً على وُجُودي
فَقُمْتُ شُكْراً بِهِ إليهِ أرْغَبُ في لَذَّةِ المَزِيدِ
فَزادني جُودُهُ عُلُوماً بِاللهِ في نِسْبَةِ الوُجُودِ
إليهِ سُبْحانهُ تَعالى تُرَى على الكَشْفِ والشُّهُودِ
لا يَعْرِفُ اللّهَ غَيْرُ قَلْبِ كالبَذْرِ في منزل السُّعُودِ
يَرْقَى إليهِ يَجِيءُ مِنْهُ ما بين بِيضٍ وبين سُودِ

فأما العلماء بالله من طريق الخبر فلا يعلمون من الله إلا ما ورد به خبر الله عن الله في كتاب أو سنة، فهم بين مشبه بتأويل وبين واقف وهو الأسلم والأنجى من الرجلين، فإنه لا يتمكن له رد الألفاظ ولا رد ما تدل عليه فيقع في التشبيه، والآخر وإن لم يكن له رد الألفاظ ولا رد ما تدل عليه فإنه ما نزل ما نزل من ذلك إلا بلغته، ورأى التقابل فيما نزل من

نفي التشبيه فآمن وصرف علم ذلك إلى الله من غير تعيين لأن المسمى والموصوف لم يره ولم يعلم ما هو عليه إلا من هذه الأخبار الواردة عنه. وأما علماء النظر فهم طوائف كثيرة كل طائفة نزعت في الله منزعاً بحسب ما أعطاها نظرها في الذي اتخذته دليلاً على العلم به، فاختلفت مقالاتهم في الله اختلافاً شديداً وهم أصحاب العلامات لما ارتبطوا بها، وأما علماء الكشف والشهود وهم المؤمنون المتقون فإن الله جعل لهم فرقاناً أوقفهم ذلك الفرقان على ما ادعى أهل كل مقالة في الله من علماء النظر والخبر أن يقولوا بها وما الذي تجلى لقلوبهم وبصائرهم من الحق وهل كلها حق أو فيه ما هو حق وما ليس بحق؟ كل ذلك معلوم لهم كشفاً وشهوداً فيعبده من هذه صفته عبادة أمر وعبادة ذاتية وليس ذلك إلا لهم وللملائكة، وأما الأرواح التي لا تعرف الأمر فعبادتهم ذاتية، وأما علماء النظر والخبر فعبادتهم أمرية، قال رسول الله ﷺ: «**نِعْمَ العَبْدُ صُهَيْبٌ لَوْ لَمْ يَخَفِ الله لَمْ يَعْصِهِ**» وهذه هي العبادة الذاتية فأخبر أنه ذو عبادتين: عبادة أمر وذات وبالعبادة الذاتية يعبده أهل الجنان وأهل النار، ولهذا يكون المآل في الأشقياء إلى الرحمة لأن العبادة الذاتية قوية السلطان والأمر عارض والشقاء عارض وكل عارض زائل يجري إلى أجل مسمى.

واعلم أنه ما تقدم لنبي قط قبل نبوته نظر عقلي في العلم بالله ولا ينبغي له ذلك، وكذلك كل ولي مصطفى لا يتقدم له نظر عقلي في العلم بالله وكل من تقدمه من الأولياء علم بالله من جهة نظر فكري فهو وإن كان ولياً فما هو مصطفى ولا هو ممن أورثه الله الكتاب الإلهي، وسبب ذلك أن النظر يقيده في الله بأمر ما يميزه به عن سائر الأمور ولا يقدر على نسبة عموم الوجود لله، فما عنده سوى تنزيه مجرد، فإذا عقد عليه فكل ما أتاه من ربه مخالف عقده فإنه يرده ويقدح في الأدلة التي تعضد ما جاءه من عند ربه، فمن اعتنى الله به عصمه قبل اصطفائه من علوم النظر واصطنعه لنفسه وحال بينه وبين طلب العلوم النظرية ورزقه الإيمان بالله وبما جاء من عند الله على لسان رسول الله، هذا في هذه الأمة التي عمت دعوة رسولها، وأما في النبوة الأولى ممن كان في فترة من الرسل فإنه يرزق ويحبب إليه الشغل بطلب الرزق أو بالصنائع العملية أو الاشتغال بالعلوم الرياضية من حساب وهندسة وهيئة وطب وشبه ذلك من كل علم لا يتعلق بالإله، فإن كان مصطفى ويكون نبياً في زمان النبوّة في علم الله فيأتيه الوحي وهو طاهر القلب من التقييد بإله محصور في إحاطة عقله وإن لم يكن نبياً وجاء رسول إلى أمة هو منها قبل ما جاءه به نبيه ذلك لسذاجة محله ثم عمل بإيمانه واتقى ربه رزقه الله عند ذلك فرقاناً في قلبه وليس لغيره ذلك، هكذا أجرى الله عادته في خلقه، وإن سعد صاحب النظر العقلي فإنه لا يكون أبداً في مرتبة الساذج الذي لم يكن عنده علم بالله إلا من حيث إيمانه وتقواه، وهذا هو وارث الأنبياء في هذه الصفة فهو معهم وفي درجتهم هذه، فاعلم ذلك ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. وأما علوم الملائكة وما عدا النفوس الناطقة المدبرة لهذه الهياكل الإنسانية والهياكل الإنسانية فكلهم علماء بالله بالفطرة لا عن تفكر ولا استدلال، ولهذا تشهد الجلود من هذه النشأة والأسماع والأبصار والأيدي

والأرجل وجميع الجوارح على مدبرها بما أمرها به من التعدي لحدود ربه، وما شهادتها إلا إخبار بما جرى فيها من أفعال الله لأنها لا تعرف تعدي الحدود ولا العصيان، فيكون ذلك التعريف بتعيين هذه الأفعال شهادة على النفوس المصرفة لها في تلك الأفعال، فإن كل ما سوى هذه النفوس المشهود عليها ما تعلم إلا التسبيح بحمد ربها لا غير ذلك لما تجده في فطرتها، وما في العلوم أصعب تصوراً من هذا العلم لطهارة النفوس الناطقة بحكم الأصل ولطهارة الأجسام وقواها بما فطرت عليه، ثم باجتماع النفس والجسم حدث الإنسان وتعلق التكليف وظهرت الطاعات والمخالفات، فالنفوس الناطقة لا حظ لها في المخالفة لعينها، والنفوس الحيوانية تجري بحكم طبعها في الأشياء ليس عليها تكليف، والجوارح ناطقة بحمد الله مسبحة له تعالى، فمن المخالف والعاصي المتوجه عليه الذم والعقوبة، فإن كان قد حدث بالمجموع للجمعية القائمة بالإنسان أمر آخر كما حدث له اسم الإنسان فهو المذموم بالمخالفة خاصة، فإن الإنسان العاقل البالغ هو المكلف لا غير، ومن زالت عنه هذه الشروط من هذا النوع فليس بمكلف ولا مذموم على ترك أو فعل منهي عنه.

ثم العلماء بالله انقسموا على أربعة أقسام لا خامس لها: فمنهم من أخذ العلم بالله من الله من غير دليل ظاهر ولا شبهة باطنة ومنهم من أخذه بدليل ظاهر وشبهة باطنة وهم أهل الأنوار، والطائفة الأولى هم أهل الالتذاذ بالعلوم. والقسم الثالث هم الراسخون في العلم ولهم في علمهم بالله ميل إلى خلق الله ليروا ما قبل الخلق من صورة الحق لا شبهة لهم في علمهم بالله ولا بالخلق، وهم أهل الأسرار وعلم الغيوب وكنوز المعارف والعلوم والثبات في حال الأمور المزلزلة أكبر العقول عما عقدت عليه. والقسم الرابع هم أهل الجمع والوجود والإحاطة بحقيقة كل معلوم فلا يغيب عنهم وجه فيما علموه، وله التصريف بذلك العلم في العالم حيث شاؤوا ولهم الأمان فلا أثر لشبهة قادحة في علمهم وهم أيضاً من أهل الأسرار، وما عدا هؤلاء العلماء فخلق من خلق الله يتصرفون فميا يصرفون مجبورون في اختيارهم من كان منهم من أهل الاختيار، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الوصل الأحد والعشرون من خزائن الجود: وهذه خزانة إظهار خفي المنن التي لأهل الله في الورود والصدور، ووضع الآصار والأغلال والأعباء والأثقال، ولها رجال أي رجال، ولهم مشاهد راحة عند حط الرحال وهم البيوت التي ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [النور: ٣٦] ومن هذه الخزانة يعلم إحاطة الرحمة بجميع الأعمال في الأحوال والأقوال والأفعال، وما ينبغي للعبد أن يكون عليه من التوجه إلى ربه والإقبال والفراغ إليه تعالى من جميع ما يشغل عنه من الأشغال، فهي خزانة الكرم ومعدن الهمم وقابلة أعذار الأمم وناطقة بكل طريق هو العالم عليه بأنه هو الطريق الأقوم. فأقول والله الموفق للصواب مترجماً عن هذه الخزانة بما كشفه لنا الجود الإلهي والكرم:

اعلم أن كل موجود من العالم في مقامه الذي فطره الله عليه لا يرتقي عنه ولا ينزل قد أمن من التبديل والتحويل ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ٨٥] ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ

تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] فيئس من الزيادة التي طلبها من لا علم له بما أشرنا إليه وصار الأمر مثل الأجل المسمى بالإنسان فإنه في ترق دائم أبداً شقيه وسعيده، فأما السعيد فمعلوم عند جميع الطوائف، وأما ارتقاء الشقي في العلم بالله فلا يعرفه إلا أهل الله، والشقي لا يعرف أنه كان في ترق في أسباب شقائه حتى تعمه الرحمة ويحكم فيه الكرم الإلهي ويفتح له الفتح في المآل فيعرف عند ذلك ما ترقى فيه من العلم بالله في تلك المخالفات التي شقي بها فيحمد الله عليها، وقد أعطى الله منها أنموذجاً في الدنيا فيمن ﴿تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠] ومعنى ذلك أنه كان يريه عين ما كان يراه سيئة حسنة، وقد كان حسنها غائباً عنه بحكم الشرع، فلما وصل إلى موضع ارتفاع الأحكام وهو الدار الآخرة رأى عند كشف الغطاء حسن ما في الأعمال كلها لأنه ينكشف له أن العامل هو الله لا غيره فهي أعماله تعالى، وأعماله كلها كاملة الحسن لا نقص فيها ولا قبح، فإن السوء والقبح الذي كان ينسب إليها إنما كان ذلك بمخالفة حكم الله لا أعيانها، فكل من كشف الغطاء عن بصيرته وبصره متى كان رأى ما ذكرناه، ويختلف زمان الكشف فمن الناس من يرى ذلك في الدنيا وهم الذي يقولون أفعال الله كلها حسنة ولا فاعل إلا الله وليس للعبد فعل إلا الكسب المضاف إليه وهو عبارة عما له في ذلك العمل من الاختيار، وأما القدرة الحادثة فلا أثر لها عندهم في شيء فإنها لا تتعدى محلها. وأما العارفون من أهل الله فلا يرون أن ثم قدرة حادثة أصلاً يكون عنها فعل في شيء، وإنما وقع التكليف والخطاب من اسم إلهي على اسم إلهي في محل عبد كياني فسمي العبد مكلفاً وذلك الخطاب تكليفاً. وأما الذين يقولون إن الأفعال الصادرة من الخلق هي خلق لهم كالمعتزلة فعند كشف الغطاء يتبين لهم ما هو الأمر عليه فإما لهم وإما عليهم. ومنهم من يكون له الكشف عند الموت وفي القيامة عند كشف الساق والتفاف الساق بالساق وبعد نفوذ الحكم بالعقاب فينكشف لهم نسبة تلك الأعمال إلى الله، فللإنسان وحده ورود على الله وصدور عن الله هو عين وروده على الله من طريق آخر غير الورود الأول، فهو بين إقبال على الله للاستفادة وصدور عن الله بالإفادة، وهذا الصدور هو عين الإقبال على الله لاستفادة أخرى، وأكثر ما يكون الفتح في الصدور عن الله من حيث ما هو عين إقبال على الله فهو ممن يرى الحق في الخلق، فمن ثقل عليه من أهل الله رؤية الحق في الخلق لما فيه من بعد المناسبة التي بين الواجب الوجود بالذات وبين الواجب الوجود بالغير، فإذا كان ذوق هذا العبد هذا الشهود أراه الحق عين ما ثقل عليه ليس إلا الله وحده وجوداً ويسمى خلقاً لحكم الممكن في تلك العين، فإذا علم العبد ما هي العين الموجودة وما هو الحكم وأنه عن عين معدومة لم يبال وزال ما كان يجده من ثقل الكون الذي من أجله سمي الجن والإنس بالثقلين وهو اسم لكل موجود طبيعي، وزال عنه ما كان يحس به من الألم النفسي والحسي ورفعه الله عند هذا مكاناً علياً وهو نصيبه من مقام إدريس عليه السلام، فارتفعت مكانته وزالت زمانته وحمد مسراه وعلم ما أعطاه سراه، فتميزت المراتب واتحدت المذاهب وتبحرت الجداول والمذانب واستوى

القادر وغير القادر والكاسب، فأعظم الإقبال وأعلاه من يكون إقباله على الله عين نفسه الخارج وصدوره عن الله وهو عين إقباله عين نفسه الداخل، فهو مقبل على الله من كونه محيطاً بالنفس الخارج، ومقبل على الله في صدوره بنفسه الداخل من كون الحق وسعه قلبه فيكون مستفيداً في كل نفس بين اسم إلهيّ ظاهر وبين اسم إلهيّ باطن، فالنفس الخارج إلى الحق المحيط الظاهر ليريه عين الحق في الآيات في الآفاق، والنفس الداخل إلى الحق الباطن ليريه عين الحق في نفسه، فلا يشهد ظاهراً ولا باطناً إلا حقاً، فلا يبقى له في ذاته اعتراض في فعل من الأفعال إلا بلسان حق لإقامة أدب، فالمتكلم والمكلم عين واحدة في صورتين بإضافتين.

ثم لتعلم يا ولي أن الله لما خلق العالم وملأ به الخلاء لم يبق في العالم جوهر يزيد ولا ينقص فهو بالجوهر واحد، غير أن هذا الجوهر الذي قد ملأ الخلا لا يزال الحق تعالى فيه خلاقاً على الدوام بما يفتح فيه من الأشكال ويلطف فيه من الكثائف ويكثف فيه من اللطائف ويظهر فيه من الصور ويحدث فيه من الأعراض من أكوان وألوان، ويميز كل صورة فيه من الكثائف بما يوجده فيها من الصفات، وعلى الصورة التي تفتح فيه تقع الحدود الذاتية والرسمية، وفيه تظهر أحكام النسب والإضافات، فما أحدث الله بعد ذلك جوهراً لكن يحدث فيه، فإذا علمت هذا فاعلم من تقع عليه العين وما هي عليه العين، وما تسمعه الأذن وما هي الأذن، وما يصوت به اللسان وما هو الصوت، وما تلمسه الجوارح وما هي الجارحة، وما يذوق طعمه الحنك وما هو الحنك، وما يشمه الأنف وما هو الأنف، وما يدركه العقل وما هو العقل، وما هو السمع والبصر والشم والطعم واللمس والحس، وما هو المتخيل والمتخيل والخيال، وما هو التفكر والمتفكر والفكر والمتفكر فيه، وما هو المصوّر والمصوّر والصورة، والذاكر والذكر والمذكور، والوهم والمتوهم والتوهم والمتوهم فيه، والحافظ والحفظ والمحفوظ، وما هو المعقول. فما يحصل لك إلا علم بأعراض ونسب وإضافات في عين واحدة هي الواحدة والكثيرة، وعليها تنطلق الأسماء كلها بحسب ما أحدث الله فيها مما ذكرناه وهي بالذات عين هذا الجوهر الذي ملأ الخلاء وقابل لكل ما ذكرناه، وفيه يظهر الجوهر الصوري والعرض والزمان والمكان، وهذه أمهات الوجود ليس غيرها، وما زاد عليها فإنه مركب منها من فاعل ومنفعل وإضافة ووضع وعدد والكيف. ومن هنا يعرف هل تقوم المعاني بالمعاني أو الجوهر القابل للمعنى الذي يظن أن المعنى الآخر قائم به إنما هو قائم بالجوهر الذي قام به المعنى الموصوف مثل إشراق السواد فتقول: سواد مشرق، أو علم حسن، أو خلق كريم، أو حمرة في بياض مشربة به، فإذا علمت هذا علمت من أنت وما هوالحق الذي جاد عليك بما ذكرناه كله وأشباهه، وعلمت أنه لا يمكن أن يماثله شيء من خلقه مع معقولية المناسبة التي ربطت وجودك بوجوده وعينك بعينه، كما ربط وجود علمك به بعلمك بك في قوله: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ**» فإن أعرف الخلق بالخلق أعرفهم بالله، وعلمت أحدية الواحد من أحدية الكثرة، وانحصار الوجود قديمه وحديثه فيماذا

ينحصر، وتمييز القديم من المحدث بماذا يتميز وما ينسب إلى القديم الأزلي من الأسماء والأحكام، وما ينسب إلى الملخوق المحدث من الأسماء والأحكام، ولماذا يرجع عين العالم؟ وما يشهد من الحق إذا تجلى لك ورأيته، ولماذا يرجع اختلاف التجلي وتغايره هل لتغير إدراكك في عين واحدة تختلف رؤيتك فيه وهو غير متنوّع في نفسه، أو ذلك التنوع في التجلي راجع إلى النسبة لا إليك ولا إليه؟ فأما إليه فمحال عند أهل الله وما بقي إلا لأحد أمرين: أولهما إما إليك أو إلى أمر آخر ما هو هو ولا هو أنت وهكذا تشهده، فما كل من رأى عرف ما رأى، وما حار أهل الحيرة سدى، فإن الأمر عظيم والخطب جسيم، والمشهد عام والوجود طام، والكمال حاصل والعلم فاصل، والحكم نازل، والتجدد مع الأنفاس في الأكوان معقول، وما يقال على الحق منقول بين معقول وغير معقول، وليس يدرك هذه الأغوار إلا أهل الأسرار والأنوار وأولو البصائر والأبصار، فمن انفرد بسر بلا نور أو بنور بلا سر، أو ببصيرة دون بصر أو ببصر دون بصيرة، أو بظاهر دون باطن أو بباطن دون ظاهر كان لما انفرد به ولم يحصل على كمال وإن اتصف به وإن كان تاماً فيما هو عليه ولكن الكمال هو المطلوب لا التمام، فإن التمام في الخلق والكمال فيما يستفيده التام ويفيده، ومتى لم تحصل له هذه الدرجة مع تمامه فإن الله أعطى كل شيء خلقه فقد تمَّ ثم هدى لاكتساب الكمال، فمن اهتدى فقد كمل، ومن وقف مع تمامه فقد حرم، رزقنا الله وإياكم الفوز والوصول إلى مقام العجز إنه الولي المحسان.

الوصل الثاني والعشرون من خزائن الجود: وهذه خزانة الفترات فتوهم انقطاع الأمور وما هي الأمور منقطعة وما يصح أن تنقطع لأن الله لا يزال العالم محفوظاً به فلا يزال حافظاً له، فلو انقطع الحفظ لزال العالم، فإن الله ما هو غني عن العالم إلا لظهوره بنفسه للعالم فاستغنى أن يعرف بالعالم فلا يدل عليه الغير بل هو الدليل على نفسه بظهوره لخلقه، فمنهم من عرفه وميزه من خلقه، ومنهم من جعله عين خلقه، ومنهم من حار فيه فلم يدر أهو عين خلقه أم هو متميز عنه؟ ومنهم من علم أنه متميز عن الخلق والخلق متميز عنه ولكن لا يدري بماذا تميز خلق عن حق ولا حق عن خلق، ولهذا حار أبو يزيد، فإنه علم أن ثم في الجملة تمييزاً وما عرف ما هو حتى قال له الحق التمييز في الذلة والافتقار فحينئذ سكن وما قال له النصف الآخر من التمييز وهو الغني الإلهيّ عن العالم. فإن قلت: الذلة والافتقار يغني. قلنا: في المشاهدة لا يغني لما نشاهده من الذلة لذليل، ومن الافتقار لفقير، فإن الله قد جعل العالم على مراتب ودرجات مفتقراً بعضه إلى بعض، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً فجعل العالم فاضلاً مفضولاً. ولما كان الأمر الحق فيما نبه الله عليه أبا يزيد نبهنا بذلك على علم قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] أي المثني عليه بكل ما يفتقر إليه، فالعالم كله أسماؤه الحسنى وصفاته العليا فلا يزال الحق متجلياً ظاهراً على الدوام لأبصار عباده في صور مختلفة عند افتقار كل إنسان إلى كل صورة منها، فإذا استغنى من استغنى عن تلك فهي عند ذلك المستغنى خلق، فإذا عاد

افتقاره إليها فهي حق واسمها هواسم الحق وفي الظاهر لها، فيتخيل المحجوب أنه افتقر إليها وذل من أجل حاجته إليها، وما افتقر وذل إلا لله الذي بيده ملكوت كل شيء، فالناس في واد والعماء بالله في واد. وأما التفاضل الظاهر في العالم فمجهول عند بعض الناس ومعلوم عند بعضهم، ومنهم المخطىء فيه والمصيب، وذلك أن العالم قسمه الله في الوجود بين غيب وشهادة وظاهر وباطن وأوّل وآخر، فجعل الباطن والآخر والغيب نمطاً واحداً، وجعل الأوّل والظاهر والشهادة نمطاً آخر، فمن الناس من فضل النمط الذي فيه الأولية، ومن الناس من فضل النمط الذي فيه الآخرية، ومن الناس من سوّى مطلقاً، ومن الناس من قيد وهم أهل الله خاصة فقالوا: النمط الذي فيه الآخرية في حق السعداء خير وفي حق الأشقياء ما هو خير، وأن أهل الله تعلقهم بالمستقبل أولى من تعلقهم بالماضي، فإن الماضي والحال قد حصلا والمستقبل آت فلا بد منه فتعلق الهمة به أولى، فإذا ورد عن همة متعلقة به كان لها لا عليها، وإذا ورد عن غير همة متعلقة به كان إما لها وإما عليها، وإنما أثر فيه تعلق الهمة أن يكون لها لا عليها لما يتعلق من صاحب الهمة من حسن الظن بالآتي والهمم مؤثرة، فلو كان إتيانه عليه لا له لعاد بالهمة له لا عليه، وهذه فائدة من حافظ عليها حاز كل نعيم، فإذا ورد الآتي على ذي همة متعلقة بإتيانه بادر إلى الكرامة به والتأدب معه على بصيرة وسكون وحسن تأن في ذلك، بخلاف من يفجأه الآتي فيدهش ويحار في كيفية تلقيه ومعاملته وهو سريع الزوال، فربما فارق الحال ومضى وما قام صاحب الدهش بحقه وبما يجب عليه من الأدب معه، بخلاف المستعد غير أن المستعد للآتي لا بد إن كان كاملاً أن يحفظ الماضي فإنه إن لم يحفظه فاته خيره. وقد جعل الله في العبد من خزائن الجود خزانة الحفظ فيكون عليه جعله في تلك الخزانة فهو صاحب حال في الحال وفي الماضي، فما يبقى له إلا الآتي مع الأنفاس، فلا تزال القوّة الحافظة على باب خزانة الحفظ تمنع أن يخرج منها ما اختزنته فيها وتأخذ ما فارق الحال فتخزنه فيها، ولهذه القوّة الحافظة سادنان: الواحد الذكر وقد وكلته بحفظ المعاني المجرّدة عن المواد. والسادن الآخر الخيال وقد وكلته بحفظ المثل في تلك الخزانة وبقيت هي مشتغلة بقبول ما يأتي إليها عند مفارقة زمان الحال وحكم الزمان الماضي على هذا الآتي فتأخذه فتلقيه في الخزانة خزانة الحفظ، وإنما سميت خزانة الحفظ لأنها تحفظ على الآتي زمان الحال وهو الدائم، فلا يحكم عليه الزمان الماضي بخلاف من ليس له هذا الاستعداد ولا هذا التهيؤ، فإن الماضي يأخذه فينساه العبد فلا يدري أين ذهب، وهو الذي يستولي عليه سلطان الغفلة والسهو والنسيان فيكون الحق يحفظه له أو عليه، والعبد لا يشعر لهذا الحفظ الإلهيّ بل أكثر العبيد لا كلهم وهو قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] وقال تعالى أيضاً في كتابه: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩] فالعبد الكامل رب الحفظ يحضر والغافل الذي لا حفظ له يحضر له فبين الرجلين بون بعيد، فالحكم العام إنما هو لزمان الحال وهو الدائم يحضر المستقبل قبل إتيانه ويمسك ما أتى به الماضي، فإن الزمان

صورة روحها ما يأتي به لا غير، فزمان الحال حيّ بحياة كل زمان لأنه الحافظ والضابط لكل ما أتى به كل زمان. ولما كانت الأزمنة ثلاثة كانت الأحوال ثلاثة حال اللين والعطف فإنه يأتي باللين ما يأتي بالقهر والفظاظة، ولا يأتي بالقهر ما يأتي باللين فإن القهر لا يأتي بالرحمة والمودّة في قلب المقهور، وباللين ينقضي المطلوب وتأتي بالمودة فتلقيها في قلب من استملته باللين وصاحب اللين لا يقاوم فإنه لا يقاوم لما يعطيه اللين من الحكم، والحال الثاني حال هداية الحائر فإن الحائر إذا سأل يسأل إما بحاله وإما بقوله، فإن العالم بما حار فيه يجب عليه أن يبين له ما حار فيه، فإن كان المسؤول فيه مما تكون حقيقة الحيرة فيه أبان له هذا العالم أن العلم به أنه يحار فيه فأزال عنه الحيرة في الحيرة، وإن كانت من العلوم التي إذا بينت زالت الحيرة فيه وبان بيان الصبح لذي عينين أبانه له فعلمه فأزال عنه الحيرة ولا يرده ولا يقول له ليس هذا عشك فادرج ولا سألت ما لا يعطيه مقامك، فإن الإنسان إذا قال مثل هذا القول لمن سأله عن علم ما فليس بعالم وهو جاهل بالمسألة، وبالوجه الذي ينبغي من هذه المسألة أن يقابل به هذا السائل والعلم وسوء الخلق لا يجتمعان في موفق، فكل عالم فهو واسع المغفرة والرحمة، وسوء الخلق إنما هو من الضيق والحرج وذلك لجهله فلا يعلم قدر العلم إلا العلماء بالله فله السعة التي لا نهاية لها مدداً ومدة. ولقد شفعت عند ملك في حق شخص أذنب له ذنباً اقتضى ذلك الذنب في نفس ما يطلبه الملك أن يقتل صاحبه فإن الملك يعفو عن كل شيء إلا عن ثلاثة أشياء فإنه لا يعفو عنها إذ لا عفو فيها، وما يتفاضل الملوك فيها إلا في صورة العقوبة، والثلاثة الأشياء التي لا عفو فيها عند الملوك: التعرّض للحرم، وإفشاء سره، والقدح في الملك، وكان هذا الشخص قد جاء لهذا الملك بما يقدح في الملك فعزم على قتله فلما بلغتني قصته تعرّضت عند الملك للشفاعة فيه أن لا يقتله فتغير وجه الملك وقال: هو ذنب لا يغفر فلا بد من قتله فتبسمت وقلت له: أيها الملك والله لو علمت أن في ملكك ذنباً يقاوم عفوك ويغالبه ما شفعت عندك ولا اعتقدت فيك أنك ملك، والله إني من عامة المسلمين والله ما أرى في العالم كله ذنباً يقاوم عفوي، فتحير من قولي ووقع لي بالعفو عن ذلك الشخص فقلت له: فاجعل عقوبته إنزاله عن الرتبة التي أوجبت له عندك أن تطلعه على أسرارك حتى ركب مركباً يقدح في الملك، فإني كما كنت له في دفع القتل عنه أنا أيضاً للملك معين فيما يدفع عن القدح في ملكه، ففرح الملك بذلك وسرّ وقال لي: جزاك الله خيراً عني، ثم صعد من عندي إلى قلعته وأخرج ذلك المحبوس وبعث به إليّ حتى رأيته فوصيته بما ينبغي وتعجبت من عقل الملك وتأدبه وشكرته على صنيعه. والحال الثالث إظهار المنعم عليه نعمة المنعم عليه، فإن إظهارها عين الشكر وحقه، وبمثل هذا يكون المزيد كما يكون بالكفران لها زوال النعم والكفران سترها فإن الكفر معناه الستر قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وهذا غاية النعم من المنعم ﴿فَكَفَرَتْ﴾ يعني الجماعة التي أنعم عليها المنعم بهذه النعم ﴿بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾ بإزالة الرزق ﴿وَٱلْخَوْفِ﴾ بإزالة الأمن ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢] من ستر

النعم وجحدها والأشر والبطر بها، وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] وقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] هذا مع غناه عن العالمين، فكيف بالفقير المحتاج إذا أنعم على مثله من نعمة الله التي أعطاه إياه وامتن عليه بها فهو أحوج إلى الشكر وأفرح به من الغنيّ المطلق الغنى عن العالمين، وهذه خزانة شريفة العلم بها شريف ومقامها مقام منيف.

الوصل الثالث والعشرون من خزائن الجود: وهذه خزانة الاعتدال وإعطاء كل ذي حق حقه، فهي خزانة العدل لا خزانة الفضل، من هذه الخزانة يقيم الله العدل في العالم بين عباده وهي خزانة ينقطع حكمها ويغلق بابها، وأن خزانة الفضل تنعطف عليها و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ لما فيه من الفضل لمن أخذ له بالحق ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] معطوف على العدل في الأمر به، فيكون من ظهر فيه سلطان العدل وأخذ بجريمته أن يعطف عليه بالإحسان فينقضي أمر المؤاخذة ولا ينقضي أمد الإنعام والإحسان، وقد يكون الإحسان ابتداء وجزاء للإحسان الكوني كما جاء في قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] وقوله سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ جزاء ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] الإحسان بعد العدل والإحسان قبل المؤاخذة ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ ولم يجاز بالسيئة على السيئة فهو أولى ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] أي هذه صفة الحق فيمن عفى عنه فيما هو حق له معرى عن حق الغير، فإقامة العدل إنما هو في حق الغير لا فيما يختص بالجناب الإلهيّ، فما كان الله ليأمر بمكارم خلق ولا يكون الجناب الإلهيّ موصوفاً به، ولهذا جعل أجر العارفين عن الناس على الله، وهذه الخزانة أرسلت حجب الأسرار دون أعين الناس وهو ما أخفى الحق عنهم من الغيوب وهو قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٧٣] فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه لا يحيط من علم غيب الله إلا بما شاء الله، كما رفعت الستور وانكشفت الأنوار فأدركت البصائر بها كل معقول وأدركت الأبصار بها كل مبصر فأحاط العقل بهذه الأنوار كلما يمكن أن يدرك عقلاً، وأحاط البصر بهذه الأنوار كلما يمكن أن يدرك حساً، وهذا لخصوص عباده المصطفين الأخيار، فلهم الكشف الدائم للخلق الجديد، فلا يتناهى كشفهم كما لا يتناهى الخلق الجديد في العالم.

ثم إن هذه الخزانة تعطي في العلم الإلهيّ علم الفاعل والفعل والمفعول والمفعول فيه والمفعول به والمفعول معه فيقف على التكوين الإلهيّ والتكوين الكياني، فيعلم أن لكل فاعل طريقاً يخصه في نسبة الفعل إليه، فأما أهل الكرم والجود على الغير فإن الله يمكنه من أسباب الخير ويهون عليه الشدائد ويرفع عنه الأمور المحرجة ويخرجه من الظلمات إلى النور، ومن الضيق إلى السعة، ومن الغيّ إلى الرشد. وأما من نظر في الحقائق ورأى نفسه أحق بنظره إليها من نظره إلى غيره وأن نظره إلى غيره إنما جعله الله ليعود بما فيه من الخير على نفسه فغفل عن كل شيء سواه فشغل نفسه بنفسه وصرف همته إلى عينه وأعطاها من كل شيء أعطاه الحق حقها فاستغنى بربه وكشف له عن ذاته ورأى جمع العالم في حضرته ورأى الرقائق بينه وبين كل جزء من العالم، فعمد يحسن إلى العالم من نفسه على تلك الرقيقة التي بين

ما يناسب من العالم وبين المناسب له، فيوصل الإحسان لكل ما في العالم بهمته من الغيب كما يوصله الحق من الأسباب فيجهله العالم لأنه لا يشهده في الإحسان كما يجهل الحق بالأسباب فيقول: لولا كذا ما كان كذا، ونسي الحق في جنب السبب فلا بد أن ينسى هذا العبد الكامل، وكما أن الله عباداً وإن وقفوا مع الأسباب يقولون هذا من عند الله ليس للسبب فيه حكم، كذلك لله عباد يقولون هذا ببركة فلان وهمته ولولا همته ما جرى كذا وما دفع الله عنا كذا، ومنهم يقول ذلك عقداً وإيماناً ومنهم من يقول ذلك عن غلبة ظنّ، فهذا عبد قد أقامه الحق في قلوب عباده مقامه في الحالين، فالناس ينطقون بذلك ولا يعرفون أصله. وقد ورد في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه من الأنصار في واقعة وقعت في فتح مكة في غزوة حنين فقال لهم: «**أَلَمْ تَكُونُوا ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ الله بِي**» فَذَكَرَ نَفْسَهُ «**وَوَجَدْتُكُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمُ الله بِي؟**» وهذا معنى قول الناس: هذا ببركة فلان وهذا بهمة فلان، وقولهم: اجعلني في خاطرك وفي همتك ولا تنساني وأشباه هذا، فمن أعرض عن هذه المشاهدة ولم يفرق بين المشهود والشاهد فذلك الحائر الخاسر، كما أن الآخر هو الرابح في تجارته المقسط بصفقته. والرابحون انقسموا إلى قسمين: إلى عاملين على الجزاء وإلى عاملين على الوفاء، فالعاملون على الجزاء لهم نعوت تخصهم، والعاملون على الوفاء على قسمين: عمال لا عمال، وعمال عمال، والعمال العمال على قسمين: عمال بحق وعمال بأنفسهم وكلاهما قائل بالجزاء، والعمال لا عمال يرون الجزاء للعمل لا للعامل، والعمل لا يقبل نعيم الجزاء فيعود عليهم جزاء العمل، وأما جزاء العامل فهم يرون العامل هو الله، وليس بمحل للجزاء لأن الجزاء على قدر العامل فيحصلون على الجزاء الإلهيّ وهو القصور عن الوفاء بما يستحقه العامل فهو جزاء لما قام بالعلماء بالله في الثناء عليه بمحامده وهو قول النبيّ ﷺ: «**لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**» وَلٰكِنْ عِنْدَ مَنْ عِنْدَ نَفْسِكَ أَوْ عِنْدَ خَلْقِكَ؛ فانظر فيما نبهتك عليه فإنه ينفعك إن قبلت مقالتي وأصغيت إلى نصيحتي، وهذا وصل الكلام فيه يطول جداً فإنه يحوي على أسرار وأنوار ومزج واختلاط وتخليص وتمييز وما يردي وما ينجي، ويكتفى بهذا القدر من هذا الباب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السبعون وثلاثمائة

في معرفة منزل المزيد وسرّ وسرّين من أسرار الوجود والتبدل وهو من الحضرة المحمدية

[نظم: البسيط]

إنّ الزِّيادة في الأعمال صُورَتُها ... مِثْلُ الزّيادة في الأنعام يا رَجُلُ
وليس يعرفُها إلا رجالُ حِجًى ... وليس يَحْصُرُها عَدٌّ ولا أَجَلُ
لله في طَيِّها مَكْرٌ لذي نَظَرٍ ... مُحَقِّقٍ ولنا في مَكْرِهِ أَمَلُ
فإنه صادرٌ من سرّ حَضْرتِهِ ... وليس يَعْصِمُ إلا العلمُ والعَمَلُ

إنّ الفُرُوعَ لها أصْلٌ يُبَيِّنُها　　للناظرين به قد جاءنا المَثَلُ

اعلم أن الحكمة في الأشياء كلها والأمور أجمعها إنما هو للمراتب لا للأعيان وأعظم المراتب الألوهية وأنزل المراتب العبودية، فما ثم إلا مرتبتان، فما ثم إلا رب وعبد، لكن للألوهة أحكام كل حكم منها يقتضي رتبة، فإما يقوم ذلك الحكم بالإله فيكون هو الذي حكم على نفسه وهو حكم المرتبة في المعنى، ولا يحكم بذلك الحكم إلا صاحب المرتبة لأن المرتبة ليست وجود عين وإنما هي أمر معقول ونسبة معلومة محكومة بها ولها الأحكام وهذا من أعجب الأمور تأثير المعدوم. وإما أن يقوم ذلك الحكم بغيره في الموجود إما أمراً وجودياً، وإما نسبة فلا تؤثر إلا المراتب. وكذلك للعبودة أحكام كل حكم منها رتبة، فإما يقوم ذلك الحكم بنفس العبد فما حكم عليه سوى نفسه كأنه نائب عن المرتبة التي أوجبت له هذا الحكم أو يحكم على مثله أو على غيره وما ثم إلا مثل أو غير في حق العبد، وأما في الإله فما ثم إلا غير لا مثل فإنه لا مثل له، فأما الأحكام التي تعود عليه من أحكام الرتبة وجوب وجوده لذاته والحكم بغنائه عن العالم وإيجابه على نفسه بنصر المؤمنين بالرحمة ونعوت الجلال كلها التي تقتضي التنزيه ونفي المماثلة. وأما الأحكام التي تقتضي بذاتها طلب الغير فمثل نعوت الخلق كلها وهي نعوت الكرم والإفضال والجود والإيجاد فلا بد «في من» و«على من» فلا بد من الغير وليس إلا العبد، وما منها أثر يطلب العبد إلا ولا بد أن يكون له أصل في الإله أوجبته المرتبة لا بد من ذلك، ويختص تعالى بأحكام من هذه المرتبة لا تطلب الخلق كما قرّرنا، ومرتبة العبد تطلب من كونه عبداً أحكاماً لا تقوم إلا بالعبد من كونه عبداً خاصاً فهي عامة في كل عبد لذاته، ثم لها أحكام تطلب تلك الأحكام وجود الأمثال ووجود الحق، فمنها إذا كان العبد نائباً وخليفة عن الحق أو خليفة عن عبد مثله فلا بد أن يخلع عليه من استخلفه من صفاته ما تطلبه مرتبة الخلافة لأنه إن لم يظهر بصورة من استخلفه وإلا فلا يتمشى له حكم في أمثاله، وليس ظهوره بصورة من استخلفه سوى ما تعطيه مرتبة السيادة، فأعطته رتبة العبودة ورتبة الخلافة أحكاماً لا يمكن أن يصرفها إلا في سيده والذي استخلفه، كما أن له أحكاماً لا يصرفها إلا فيمن استخلف عليه، والخلافة صغرى وكبرى، فأكبرها التي لا أكبر منها الإمامة الكبرى على العالم، وأصغرها خلافته على نفسه، وما بينهما ينطلق عليها صغرى بالنسبة إلى ما فوقها وهي بعينها كبرى بالنظر إلى ما تحتها، فأما تأثير رتبة العبد في سيده فهو قيام السيد بمصالح عبده ليبقى عليه حكم السيادة، ومن لم يقم بمصالح عبده فقد عزلته المرتبة، فإن المراتب لها حكم التولية والعزل بالذات لا بالجعل كانت لمن كانت. وأما التأثير الذي يكون للعبد من كونه خليفة فيمن استخلفه كان المستخلف ما كان أن يبقى له عين من استخلفه عليه لينفذ حكمه فيه، وإن لم يكن كذلك فليس بخليفة ولا يصدق إذا لم يكن ثم «على من» ولا «في من»، لأن الخليفة لا بد له من مكان يكون فيه حتى يقصد بالحاجات، ألا ترى من لا يقبل المكان كيف اقتضت المرتبة له أن يخلق سماء جعله عرشاً ثم ذكر أنه استوى عليه حتى يقصد بالدعاء وطلب الحوائج ولا يبقى العبد حائراً

لا يدري أين يتوجه لأن العبد خلقه الله ذا جهة فنسب الحق الفوقية لنفسه من سماء وعرش وإحاطة بالجهات كلها بقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] وبقوله: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟**» ويقول عنه رسوله: «**إن الله في قِبْلَةِ المُصَلِّي**» هذا كله حكم المراتب إن عقلت، فلو زالت المراتب من العالم لم يكن للأعيان وجود أصلاً فافهم، فإذا أراد الأعلى أن يعرفه الأدنى لأن الأدنى لا قدم له في العلو والأعلى له الإحاطة بالأدنى فلا بد أن يتعرف الأعلى إلى الأدنى، ولا يمكن ذلك إلا بأن يتنزل إليه الأعلى لأن الأدنى لا يمكن أن يترقى إليه لأنه تنعدم عينه إذ لا قدم له في العلو فالأدنى أبداً لا يزال في رتبته ثابتاً، والأعلى له النزول وله الثبوت في رتبته، ومن ثبوته في رتبته حكم على نفسه بالنزول فهو ثابت في مرتبته العالية في عين نزوله لأن النزول من أحكامها، وكذلك فعل الله تعالى في سفرائه الذي هم رسله إلى خلقه من خلقه فما أرسل رسولاً إلا بلسان قومه ليبين لهم، فإذا أرسله عامة كانت العامة قومه فأعطاه جوامع الكلم وهو فصل الخطاب وما كمل إلا آدم بالأسماء، وكمال محمد ﷺ بجوامع الكلم، فنزل إليهم برسالة ربهم بلسانهم ولحنهم فما دعاهم إلا بهم. ثم إنه ما شرع لهم من الأحكام إلا ما كانوا عليه، فما زادهم في ذلك إلا كونها من عند الله فيحكمون بها على طريق القربة إلى الله لتورثهم السعادة عند الله، وإنما قلنا ما شرع لهم من الأحكام إلا ما كانوا عليه لأنه لم تخل أمة من الأمم على ناموس تكون عليه لمصالح أحوالها وليست إلا خمسة، فلا بد من واجب أوجبه إمامهم وواضع ناموسهم عليهم وهو الواجب والفرض عندنا، وكذلك المندوب والمحظور والمكروه والمباح لأنه لا بد لهم من حدود في الأحكام يقفون عندها عليها، وما جاءهم الشرع من عند الله إلا بهذا الذي كانوا عليه من حكم نظرهم فيما يزعمون وهو في نفس الأمر من جعل الله ذلك في نفوسهم من حيث لا يشعرون، ولذلك كان لهم بذلك أجر من الله من حيث لا يعلمون، لكن إذا انقلبوا إليه وجدوا ذلك عنده، فلما رأينا أنه ما أرسل رسولاً إلا بلسان قومه علمنا أنه ما تعرف إلينا حين أراد منا أن نعرفه إلا بما نحن عليه لا بما تقتضيه ذاته وإن كان تعرفه إلينا بنا مما تقتضيه ذاته، ولكن يختلف اقتضاء ذاته بين ما يتميز به عنا وبين ما يتعرف به إلينا. ولما كان الخلق على مراتب كثيرة وكان أكمل مرتبة فيه الإنسان كان كل صنف من العالم جزءاً بالنظر إلى كمال الإنسان، حتى الإنسان الحيوان جزء من الإنسان الكامل، فكل معرفة لجزء من العالم بالله معرفة جزئية إلا الإنسان فإن معرفته بالله معرفة العالم كله بالله، فعلمه بالله علم كلي لا علم كل، إذ لو كان علماً كُلاً لم يؤمر أن يقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] أترى ذلك علماً بغير الله؟ لا والله بل بالله، فخلق الإنسان الكامل على صورته ومكنه بالصورة من إطلاق جميع أسمائه عليه فرداً فرداً وبعضاً بعضاً لا ينطلق عليه مجموع الأسماء معاً في الكلمة الواحدة ليتميز الرب من العبد الكامل. فما من اسم من الأسماء الحسنى وكل أسماء الله حسنى إلا وللعبد الكامل أن يدعى بها كما له أن يدعو سيده بها. ومن هذه الأسماء الإلهية ما يدعوه الحق تعالى بها على طريق الثناء على

العبد وهي أسماء الرحمة واللطف والحنان، ومنها ما يدعوه بها على طريق المذمة مثل قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] وكذلك كان في قومه يدعى بهذا الاسم، ودعاه الحق به هنا سخرية به على جهة الذم قال تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٣] فلما أوجد الكامل منا على الصورة عرفه الكامل من نفسه بما أعطاه من الكمال، وكان العبد الكامل حقاً كله وفني عن عينه في نفسه لأنه قابله بذاته، وقد جعل الله له مثالاً في باب المحبة فعشق إليه ما عشق من العالم من أي شيء كان من فرس أو دار أو دينار أو درهم، فما قابله به إلا بالجزء المناسب ففني منه ذلك الجزء المناسب لعشقه في ذلك وبقي سائره صاحياً لا حكم له فيه إلا إذا عشق شخصاً مثله من جارية أو غلام فإنه يقابله بذاته كلها وبجميع أجزائه، فإذا شاهده فني فيه بكله لا بجزء منه فيغشى عليه وذلك لكونه قابله بكله، كذلك العبد إذا رأى الحق أو تخيله فني فيه عند مشاهدته لأنه على صورته فيقابله بذاته، فما بقي فيه جزء يصحو حتى يعقل به ما فني منه فيه، وهكذا كل جزء من العالم مع الحق إذا تجلى له خشع له وفني فيه، لأن كل ما هو عليه شيء من العالم هو صورة الحق لما أعطاه منه، إذ لا يصح أن يكون شيء من العالم له وجود ليس هو صورة الحق، فلا بد أن يفنى العالم في الحق إذا تجلى له، ولا يفنى الحق في الخلق لأن الخلق من الحق ما هو الحق من الخلق، فنسبة الحق إلى الخلق نسبة الإنسان إلى كل صنف من العالم ما عدا نوع الإنسان، فتفطن لما ذكرته لك من فناء كل شيء من العالم عن نفسه عند تجليه سبحانه له، ولا يفنى الحق بمشاهدة الخلق، وقد جاء الشرع بتدكدك الجبل وصعق موسى عليه السلام عند التجلي الرباني فما عرفنا من الحق إلا ما نحن عليه وفينا الكامل والأكمل، فإن الله أعطى كل شيء خلقه، فلما قرر الله هذه النعم على عبده وهداه السبيل إليها قال: ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ فيزيده منها لأنا قلنا إنه ما أعطاه إلا منه ما أعطاه مطلقاً ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] بنعمة فيسلبها عنه ويعذبه على ذلك، فليحترز الإنسان لنفسه في أي طريق يمشي فما بعد بيان الله بيان. وقال موسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] ينبه أن الله تعالى ما أوجد العالم إلا للعالم، وما تعبده بما تعبده به إلا ليعرفه بنفسه، فإنه إذا عرف نفسه عرف ربه، فيكون جزاؤه على علمه بربه أعظم الجزاء ولذلك قال: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ولا يعبدونه حتى يعرفوه فإذا عرفوه عبدوه عبادة ذاتية، فإذا أمرهم عبدوه عبادة خاصة مع بقاء العبادة العامة الذاتية فجازاهم على ذلك فما خلقهم إلا لهم، ولهذا قال تعالى عن نفسه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وما ذكر موسى الأرض إلا لكمالها بوجود كل شيء فيها وهو الإنسان الجامع حقائق العالم، فقوله «في الأرض» لأنها الذلول فهي الحافظة مقام العبودة فكأنه قال: إن تكفروا أنتم وكل عبد لله فإن الله غني عن العالمين، ولذلك جعل الله الأرض محل الخلافة ومنزلها، فكأنه كنى أي: إني جاعل في الأرض خليفة منهم لا يزول عن مقام عبوديته في نفسه، أي لا يحجبه مرتبة الخلافة بالصفات التي أمره بها عن رتبته، ولهذا جعلناه خليفة ولم نذكره بالإمامة لأن الخليفة

يطلب بحكم هذا الاسم عليه من استخلفه فيعلم أنه مقهور محكوم عليه فما سماه إلا بما له فيه تذكرة لأنه مفطور على النسيان والسهو والغفلة فيذكره اسم الخليفة لمن استخلفه، فلو جعله إماماً من غير أن يسميه خليفة مع الإمامة ربما اشتغل بإمامته عمن جعله إماماً بخلاف خلافته، لأن الإمامة ليست لها قوة التذكير في الخلافة فقال في الجماعة الكمل ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩] فوقع هذا في مسموعهم فتصرفوا في العالم بحكم الخلافة. وقال لإبراهيم عليه السلام بعد أن أسمعه خلافة آدم ومن شاء الله من عباده: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] لما علم أن الخلافة قد أشربها، فلا يبالي بعد ذلك أن يسميه بأي اسم شاء كما سمى يحيى بسيد، ولما عرفه العارفون به تميزوا عمن عرفه بنظره فكان لهم الإطلاق ولغيرهم التقييد، فيشهده العارفون به في كل شيء أو عين كل شيء، ويشهده من عرفه بنظره منعزلاً عنه ببعد اقتضاه له تنزيهه، فجعل نفسه في جانب والحق في جانب فيناديه من مكان بعيد.

ولما كانت الخلافة تطلب الظهور بصورة من استخلفه والذي جعله خليفة عنه ذكر عن نفسه أنه على صراط مستقيم فلا بد أن يكون هذا الخليفة على صراط فنظر في الطرق فوجدها كثيرة منها صراط الله، ومنها صراط العزيز، ومنها صراط الرب، ومنها صراط محمد ﷺ، ومنها صراط النعم وهو ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] وهو قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فاختار هذا الإمام المحمدي سبيل محمد ﷺ وترك سائر السبل مع تقريرها وإيمانه بها، ولكن ما تعبد نفسه إلا بصراط محمد ﷺ ولا تعبد رعاياه إلا به، ورد جميع الأوصاف التي لكل صراط إليه لأن شريعته عامة، فانتقل حكم الشرائع كلها إلى شرعه فشرعه يتضمنها ولا تتضمنه، فمنها صراط الله وهو الصراط العام الذي عليه تمشي جميع الأمور فيوصلها إلى الله فيدخل فيه كل شرع إلهيّ وموضوع عقلي فهو يوصل إلى الله فيعم الشقي والسعيد، ثم إنه لا يخلو الماشي عليه إما أن يكون صاحب شهود إلهي أو محجوباً، فإن كان صاحب شهود إلهي فإنه يشهد أنه مسلوك به فهو سالك بحكم الجبر، ويرى أن السالك به هو ربه تعالى، وربه على صراط مستقيم، كذا تلاه علينا سبحانه وتعالى أن هوداً عليه السلام قاله وهو رسول من رسل الله فلهذا كان مآله إلى الرحمة، وإذا أدركه في الطريق النصب فتلك أعراض عرضت له من الشؤون التي الحق فيها كل يوم وذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] ولا يمكن أن يكون الأمر إلا هكذا، وما أحد أكشف للأمور وأشهد للحقائق وأعلم بالطرق إلى الله من الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومع هذا فما سلموا من الشؤون الإلهية فعرضت لهم الأمور المؤلمة النفسية من رد الدعوة في وجهه وما يسمعه في الحق تعالى مما نزه جلاله عنه وفي الحق الذي جاء به من عند الله. وكذلك الأمور المؤلمة المحسوسة من الأمراض والجراحات والضرب في هذه الدار وهذا أمر عام له ولغيره، وقد تساوى في هذه الآلام السعيد والشقي، وكل يجري فيه إلى أجل مسمى عند الله، فمنهم من يمتد أجله إلى حين موته ويحصل في الراحة الدائمة والرحمة العامة الشاملة وهم الذين ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ولا يخافون على أنفسهم ولا

على أممهم لأنهم كانوا مجهولين في الدنيا والآخرة، وهم الذين تغبطهم الرسل في ذلك لما هم فيه من الراحة، لأن الرسل عليهم السلام يخافون يوم الفزع الأكبر على أممهم وأتباعهم لا على أنفسهم، ومنهم من يمتد أجله إلى دخول الجنة من العرض، ومنهم من يمتد أجله في الآلام إلى أن يشفع فيه بالخروج من النار إلى الجنة، ومنهم من يمتد أجله في الآلام إلى أن يخرجه الله بنفسه لا بشفاعة شافع وهم الموحدون بطريق النظر الذين ما آمنوا ولا كفروا ولا عملوا خيراً لقول الشارع قط فإنهم لم يكونوا مؤمنين ولكنهم وحدوا الله جل جلاله وماتوا على ذلك، ومن كان له علم بالله منهم ومات عليه جنى ثمرة علمه، فإن قدحت له فيه شبهة حيرته أو صرفته عن اعتقاد ما كان يظن أنه علم وهو في نفس الأمر ثم بدا له ما حيره فيه أو صرفه عنه فعلم يوم القيامة أن ذلك حق في نفس الأمر وهو ممن أخرجه الله إلى الجنة من النار عاد عليه ثمرة ذلك العالم ونار درجته. ومنهم من يمتد أجله في الآلام ممن ليس بخارج من النار وهو من أهلها القاطنين فيها ومدته معلومة عندنا ثم تعمه رحمة الله وهو في جهنم فيجعل الله له فيها نعيماً بحيث أنه يتألم بنظره إلى الجنة كما يتألم أهل الجنة بنظرهم إلى النار، فهؤلاء إن كان لهم علم بوجود الله وقد دخلهم شبهة في توحيد الله أو في علم مما يتعلق بجناب الله حيرته أو صرفته إلى نقيض ما كان يعتقده فإنه يوم القيامة إذا تبين له أن ذلك كان علماً في نفس الأمر لا ينفعه ذلك التبين كما لم ينفع الإيمان في الدنيا عند رؤية البأس، فذلك العلم هو الذي يخلع على المؤمن الذي لم يكن له علم بإله له من الموحدين المؤمنين، ويؤخذ جهل ذلك المؤمن الموحد ويلقى على هذا الذي هو من أهل النار فيتنعم في النار بذلك الجهل كما كان يتنعم به المؤمن الجاهل في الدنيا، ويتنعم المؤمن بذلك العلم الذي خلع عليه الذي كان لهذا العالم بوجود الله لا بتوحيده، وأنه لما وحده قدحت له شبهة في توحيده وعلمه بالله حيرته وصرفته، وهذا آخر المدد لأصحاب الآلالم في النار، وبعد انقضاء هذا الأجل فنعيم بكل وجه أينما تولى، ولا فرق بينه وبين عمار جهنم من الخزنة والحيوانات فهي تلدغه لما للحية والعقرب في ذلك اللدغ من النعيم والراحة، والملدوغ يجد لذلك اللدغ لذة واسترقاداً في الأعضاء وخدراً في الجوارح يلتذ بذلك التذاذاً هكذا دائماً أبداً، فإن الرحمة سبقت الغضب، فما دام الحق منعوتاً بالغضب فالآلام باقية على أهل جهنم الذين هم أهلها، فإذا زال الغضب الإلهيّ كما قدمنا وامتلأت به النار ارتفعت الآلام وانتشر ذلك الغضب فيما في النار من الحيوانات المضرة فهي تقصد راحتها بما يكون منها في حق أهل النار، ويجد أهل النار من اللذة ما تجده تلك الحية من الانتقام لله لأجل ذلك الغضب الإلهيّ الذي في النار وكذلك النار، ولا تعلم النار ولا من فيها أن أهلها يجدون لذة لذلك لأنهم لا يعلمون متى أعقبتهم الراحة وحكمت فيهم الرحمة، وهذا الصراط الذي تكلمنا فيه هو الذي يقول فيه أهل الله: إن الطرق إلى الله على عدد أنفاس الخلائق، وكل نفس إنما يخرج من القلب بما هو عليه القلب من الاعتقاد في الله، فالاعتقاد العام وجوده، فمن جعله الدهر فوصوله إلى الله من اسمه الدهر، فإن الله هو الجامع للأسماء المتقابلة وغير المتقابلة، وقد قدمنا أنه سبحانه تسمى

بكل اسم يفتقر إليه في قوله عز وجل في الكتاب العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] وإن أنكر ذلك فما أنكره الله ولا الحال، وكذلك من اعتقد أنه الطبيعة فإنه يتجلى له في الطبيعة، ومن اعتقد أنه كذا كان ما كان فإنه يتجلى له في صورة اعتقاده وتجري الأحكام كما ذكرنا من غير مزيد فافهم. وأما صراط العزة وهو قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦] فاعلم أن هذا صراط التنزيه فلا يناله ذوقاً إلا من نزه نفسه أن يكون رباً أو سيداً من وجه ما أو من كل وجه وهذا عزيز، فإن الإنسان يغفل ويسهو وينسى ويقول «أنا» ويرى لنفسه مرتبة سيادة في وقت غفلته على غيره من العباد، فإذ ولا بد من هذا فليجتهد أن يكون عند الموت عبداً محضاً ليس فيه شيء من السيادة على أحد من المخلوقين، ويرى نفسه فقيرة إلى كل شيء من العالم من حيث إنه عين الحق من خلف حجاب الاسم الذي قال الله فيه لمن لا علم له بالأمر قل سموهم، ولما كان الإنسان فقيراً بالذات احتجب الله له بالأسباب وجعل نظر هذا العبد إليها وهو من ورائها فأثبتها عيناً ونفاها حكماً مثل قوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] ثم أعقب هذه الآية بقوله: ﴿وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧] فجعل ذلك بلاء أي اختباراً، وهذا الصراط العزيز الذي ليس لمخلوق قدم في العلم به فإنه صراط الله الذي عليه ينزل إلى خلقنا، وعليه يكون معنا أينما كنا، وعليه نزل من العرش إلى السماء الدنيا وإلى الأرض وهو قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] وعليه يقرب من عبده أضعاف ما يتقرّب إليه عبده إذا سعى إليه بالطريق التي شرع له، فهو يهرول إليه إذا رآه مقبلاً ليستقبله تهمماً بعبده وإكراماً له، ولكن على صراط العزة وهو صراط نزول لا عروج لمخلوق فيه، ولو كان لمخلوق فيه سلوك ما كان عزيزاً وما نزل إلينا إلا بنا، فالصفة لنا لا له، فنحن عين ذلك الصراط ولذلك نعته بالحميد أي بالحامد المحمود، لأنّ «فعيل» إذا ورد يطلب اسم الفاعل والمفعول، فإما إن يعطى الأمرين معاً مثل هذا، وإما أن يعطى الأمر الواحد لقرينة حال وقد أثنى على نفسه فهو الحامد المحمود، وأعظم ثناء أثنى به على نفسه عندنا كونه خلق آدم على صورته وسماه بأمهات الأسماء التي يدخل كل اسم تحت إحاطتها ولذلك قال ﷺ: «**أَنْتَ كَمَا أَثْنَيتَ عَلَى نَفْسِكَ**» فأضاف النفس الكاملة إليه إضافة ملك وتشريف لما قال: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» فكل ثناء أثنى الله به على الإنسان الكامل الذي هو نفسه لكونه أوجده على صورته كان ذلك الثناء عين الثناء على الله بشهادة رسول الله ﷺ وتعريفه إيانا في قوله ﷺ: «**أَنْتَ كَمَا أَثْنَيتَ عَلَى نَفْسِكَ**» أي كل ما أثنيت به على من خلقته على صورتك هو ثناؤك عليك. ولما كان الإنسان الكامل ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦] لم يكن للصراط أن يسلك فيه ولا يتصف الصراط بالسلوك، فلهذا سماه بالعزيز أي ذلك ممنوع لنفسه، فالحق سبحانه يختص بالنزول فيه كما أخبر عن نفسه من النزول والهرولة، والعبد العارف على الحقيقة ما يسلك إلا في الله، فالله صراطه وذلك شرعه: [الرجز]

بـــه ربَـــاطـــي وبـــنـــا ربَـــاطُـــه　　　فَـــهْـــوَ صـــراطـــي وأنـــا صـــرَاطُـــه

فانظُرْ مقالي فهو قولٌ صادقٌ مُحْكَمٌ مُحَقَّقٌ مَنَاطُه
فهو حبيبي وأنا به فقد حواه قلبي فأنا فُسْطَاطُه
عَزَّ فما تدركُه أبصارُنا لقربه فقد طُوِي بِسَاطُه
فبُعْدُه لقُرْبه ليس سوى هذا وما قد قلتُه اسْتِنْبَاطُه

فهو على صراط عزيز لأنه الخالق فلا قدم لمخلوق فيه، أروني ماذا خلق الذين من دونه لا يجدونه أصلاً لا علماً ولا عيناً ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [لقمان: ١١] لأنه كل ما علم فقد بان، والله تعالى أخرجنا من ظلمة العدم إلى نور الوجود، فكنا نوراً بإذن ربنا إلى صراط العزيز الحميد، فنقلنا من النور إلى ظلمة الحيرة، ولهذا إذا سمعناه يثني على نفسه فنرى ذلك في نفوسنا، وإذا أثنى علينا فنرى ما أثنى به علينا هو ثناؤه على نفسه، ثم ميزنا عنه وميز نفسه عنّا ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١] وبما علم وجهلناه، وبما نحن عليه من الذلة، ويتعالى عن هذا الوصف في نفسه فنقول: نحن هو ما نحن هو بعدما قلنا إذا أخرجنا من الظلمات إلى النور هو هو ونحن نحن فتميزنا، فلما جاء بالثناء بعد وجودنا ثناء منه على نفسه وعلينا وكلفنا بالثناء عليه أوقفنا في الحيرة، فإن أثنينا عليه بنا فقد قيدناه، وإن أطلقناه كما قال: لا أحصي ثناء عليك فقد قيدناه بالإطلاق فميزناه، ومن تقيد فلا يوصف بالغنى فإن التقييد يربطه إذ قد أدرك المحدث إطلاقه تعالى وقد قال عن نفسه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] فحيرنا فلا ندري ما هو ولا مانحن، فما أظن والله أعلم أنه أمرنا بمعرفته وأحالنا على نفوسنا في تحصيلها إلا لعلمه أنا لا ندرك ولا نعلم حقيقة نفوسنا ونعجز عن معرفتنا بنا فنعلم أنّا به أعجز فيكون ذلك معرفة به لا معرفة: [مخلع البسيط]

وغَيْرُ هذا فلا يَكُونُ فإنه ظاهرٌ مبينُ
فاصْغِ إلى قولنا تَجِدْهُ علماً وقد جاءك اليقينُ

فالجهل صفة ذاتية للعبد، والعالم كله عبد، والعلم صفة ذاتية لله، فخذ مجموع ما أشرت إليه في هذا تجده الصراط العزيز، وأما صراط ربك فقد أشار إليه تعالى بقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥] يقول: كأنما يخرج عن طبعه والشيء لا يخرج عن حقيقته ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ﴿وَهَٰذَا﴾ فأشار إلى ما تقدّم ذكره: ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ [الأنعام: ١٢٦] وما ذكر إلا إرادته للشرح والضيق، فلا بد منهما في العالم لأنه ما يكون إلا ما يريد، وقد وجد ثم وصف نفسه يعني بالغضب والرضا والتردد والكراهة ثم أوجب فقال ومع الكراهة فلا بد له من لقائي فهذا عين قوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فهو كالجبر في الاختيار، فمن ارتفع عنه أحد الوصفين من عباد الله فليس بكامل أصلاً ولذا قال في حق الكامل: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] ﴿فَٱصۡبِرۡۖ﴾ [هود: ٤٩] وهو الصبور على أذى خلقه. وسمي هذا

الصراط صراط الرب لاستدعائه المربوب وجعله مستقيماً فمن خرج عنه فقد انحرف وخرج عن الاستقامة، ولهذا شرع لنا الود في الله والبغض في الله، وجعل ذلك من العمل المختص له ليس للعبد فيه حظ إلا ما يعطيه الله من الجزاء عليه، وهو أن يعادي الله من عادى أولياءه ويوالي من والاهم، فالسالك على صراط الرب هو القائم بالصفتين ولكن بالحق المشروع له لله لا لنفسه، فإن الله لا يقوم لأحد من عباده إلا لمن قام له ولهذا قال: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ [المائدة: ٥٤] وحق الله أحق بالقضاء من حق المخلوق إذا اجتمعا فإنه ليس لمخلوق حق إلا بجعل الله، فإذا تعين الحقان في وقت ما بدأ العبد الموفق بقضاء حق الله الذي هو له، ثم أخذ في أداء حق المخلوق الذي أوجبه الله، وهذا خلاف ما عليه اليوم الفقهاء في الوصية والدين، فإن الله تعالى قدم الوصية على الدين والوصية حق الله، وقال ﷺ: «**حَقُّ الله أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى**» فمن سامح في حق الله عاد عليه عمله فيسامح في حقه، فإن تكلم قيل له كذلك فعلت فاجن ثمرة غرسك، وصراط الرب لا يكون إلا مع التكليف، فإذا ارتفع التكليف لم يبق لهذا الصراط عين وجودية، ولهذا يكون المآل إلى الرحمة وإزالة حكم الغضب الإلهيّ في العاصين، وقول هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] يعني فيما شرع مع كونه تعالى آخذاً بنواصي عباده إلى ما أراد وقوعه منهم وعقوبته إياهم مع هذا الجبر، فاجعل بالك وتأدّب واسلك سواء السبيل.

وأما صراط المنعم وهو صراط الذين أنعم الله عليهم وهو قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى: ١٣] وذكر الأنبياء والرسل ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] وهذا هو الصراط الجامع لكل نبيّ ورسول وهو إقامة الدين وأن لا يتفرّق فيه وأن يجتمع عليه، وهو الذي بوّب عليه البخاري باب ما جاء أن الأنبياء دينهم واحد، وجاء بالألف واللام في الدين للتعريف لأنه كله من عند الله، وإن اختلف بعض أحكامه فالكل مأمور بإقامته والاجتماع عليه، وهو المنهاج الذي اتفقوا عليه، وما اختلفوا فيه من الأحكام فهو الشرعة التي جعل الله لكل واحد من الرسل قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة: ٥٨] فلم تختلف شرائعكم كما لم يختلف منها ما أمرتم بالاجتماع فيه وإقامته، فلما كان الاختلاف منه وهو أهل العدل والإحسان وكان في الناس الدعوى في نسبة أفعالهم إليهم واختيارهم فيما اختاروه ولم يسندوا الأمر إلى أهله وإلى من يستحقه نزل الحكم الإلهيّ على الرسل بكون هذا سيئاً وهذا حسناً وهذا طاعة وهذا معصية، ونزل الحكم الإلهيّ على العقول بأن هذا في حق من لا يلائم طبعه ومزاجه أو يوافق غرضه حسن، وهذا الذي لا يوافق غرضه ولا يلائم طبعه ومزاجه ليس بحسن، ولم يسندوا الأمر إلى عين واحدة، فجوزوا بما جوزوا لهذا الأمر، فعدل فيما حكم به من الجزاء بالسوء وأحسن بعد الحكم ونفوذه بما آل إليه عباده من الرحمة ورفع الأمور الشاقة عليهم وهي الآلام فعمت رحمته كل شيء.

وأما الصراط الخاص وهو صراط النبيّ ﷺ الذي اختص به دون الجماعة وهو القرآن حبل الله المتين وشرعه الجامع وهو قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] يعني هذا الصراط المضاف إليه، وذلك أن محمداً ﷺ كان نبياً وآدم بين الماء والطين وهو سيد الناس يوم القيامة بإخباره إيانا بالوحي الذي أوحى به إليه وبعثته العامة إشعاراً بأن جميع ما تقدمه من الشرائع بالزمان إنما هو من شرعه، فنسخ ببعثته منها ما نسخ وأبقى منها ما أبقى، كما نسخ ما قد كان أثبته حكماً، ومن ذلك كونه أوتي جوامع الكلم والعالم كلمات الله فقد آتاه الله الحكم في كلماته وعم وختم به الرسالة والنبوة كما بدأ به باطناً ختم به ظاهراً، فله الأمر النبوّي من قبل ومن بعد، فورثته الذين لهم الاجتهاد في نصب الأحكام بمنزلة الرسل الذي كانوا قبله بالزمان، فمن ورث محمداً ﷺ في جمعيته فكان له من الله تعريف بالحكم وهو مقام أعلى من الاجتهاد وهو أن يعطيه الله بالتعريف الإلهيّ أن حكم الله الذي جاء به رسول الله ﷺ في هذه المسألة هو كذا، فيكون في ذلك الحكم بمنزلة من سمعه من رسول الله ﷺ، وإذا جاءه الحديث عن رسول الله ﷺ رجع إلى الله فيه فيعرف صحة الحديث من سقمه، سواء كان الحديث عند أهل النقل من الصحيح أو مما تكلم فيه، فإذا عرف فقد أخذ حكمه من الأصل، وقد أخبر أبو يزيد بهذا المقام أعني الأخذ عن الله عن نفسه أنه ناله فقال فيما روينا عنه يخاطب علماء زمانه: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، ولنا بحمد الله في هذا المقام ذوق شريف فيما تعبدنا به الشرع من الأحكام، وهذا مما بقي لهذه الأمة من الوحي وهو التعريف لا التشريع.

وأما أهل الاجتهاد فأحكامهم تشريع الشرع إذا أخطؤوا فإن رسول الله ﷺ هو المقرر لذلك الحكم فما هو تشريع لهم وإنما هو تشريع رسول الله ﷺ، وإذا أصاب المجتهد فهو صاحب نقل شرع كل ذلك في نفس الأمر، فإن المخطىء من المجتهدين والمصيب واحد لا بعينه، لكن المصيب في نفس الأمر ناقل، والمخطىء في نفس الأمر مقرر حكم مجهول لم يعلم إلا عند نظر هذا المجتهد، فهو معلوم عند الله قبل كونه، فما قرر الشارع وهو الرسول إلا الحكم المعين المعلوم عند الله وما هو عنده بمعلوم على التفصيل والتعيين، فكان حكم المجتهد المخطىء تشريعاً للتشريع، وأهل الله ما لهم حكم في الشرع إلا ما هو المحكوم به على التعيين عند رسول الله ﷺ وهم الورثة على الحقيقة، فإن الوارث لا يرث إلا ما كان ملكاً للموروث عنه إذا مات عنه، وحكم المجتهد المخطىء ما هو ملك له عينه حتى يورث عنه فليس بوارث، لأن ما عنده سوى تقرير ما أدّاه إليه نظره ذلك أباحه له رسول الله ﷺ فهو كالعصبة لا نصيب لهم في الميراث على التعيين، إنما لهم ما بقي بعد إلحاق الفرائض بأهلها، وكتوريث أولي الأرحام والمسلمين بعد أخذ الفرائض، فإن مات عن غير صاحب فريضة كرسول ونبيّ مات وما اتبعه واحد فيحشر مفرداً فقد يرثه في خلقه أو في

حاله لا في حكمه من هذه الأمة من صادف ذلك الحال أو الحكم، وأما الإيمان به وقد آمن به كل من آمن بمحمد ﷺ فأمة محمد ﷺ المؤمنون به أتباع كل نبيّ وكل كتاب وكل صحيفة جاء أو نزل من عند الله في الإيمان به لا بالعمل بالحكم، فما بقي نبيّ إلا وقد أومن به، فالنبيّ محمد ﷺ له الإمامة والتقدم، وجميع الرسل والأنبياء خلفه في صف ونحن خلف الرسل وخلف محمد ﷺ. ومن الرسل من يكون له صورتان في الحشر: صورة معنا وصورة مع الرسل كعيسى وجميع الأمم خلفنا، غير أن لنا صورتين صورة في صف الرسل عليهم السلام وليست إلا لعلماء هذه الأمة، وصورة خلف الرسل من حيث الإيمان بهم وكذلك سائر الأمم لهم صورتان: صورة يكونون بها خلفنا، وصورة يكونون بها خلف رسلهم، فوقتاً يقع نظر الناظر على صورهم خلفنا، ووقتاً خلف رسلهم، ووقتاً على المجموع، فهذه أحوال العلماء في الآخرة في حشرهم. وأما ورثة الأفعال فهم الذين اتبعوا رسول الله ﷺ في كل فعل كان عليه وهيئة مما أبيح لنا اتباعه حتى في عدد نكاحه وفي أكله وشربه، وجميع ما ينسب إليه من الأفعال التي أقامه الله فيها من أوراد وتسبيح وصلاة لا ينقص من ذلك، فإن زاد عليها بعد تحصيلها فما زاد عليها إلا من حكم قوله ﷺ، فهذه وراثة أفعاله. وأما وراثة أحواله فهو ذوق ما كان يجده في نفسه في مثل الوحي بالملك فيجد الوارث ذلك في اللمة الملكية ومن الملك الذي يسدده، ومن الوجه الخاص الإلهيّ بارتفاع الوسائط، وأن يكون الحق عين قوله، وأن يقرأ القرآن منزلاً عليه يجد لذة الإنزال ذوقاً على قلبه عند قراءته، فإن للقرآن عند قراءة كل قارىء في نفسه أو بلسان تنزلاً إلهياً لا بد منه، فهو محدث التنزل والإتيان عند قراءة كل قارىء أيّ قارىء كان، غير أن الوارث بالحال يحس بالإنزال ويلتذ به التذاذاً خاصاً لا يجده إلا أمثاله فذلك صاحب ميراث الحال وقد ذقناه حالاً بحمد الله، وهو الذي قال فيه أبو يزيد: لم أمت حتى استظهرت القرآن وهو وجود لذة الإنزال من الغيب على القلوب، وما عدا هؤلاء فإنما يقرؤون القرآن من خيالهم، فهم يتخيلون صور حروفه المرقومة إن كان حفظ القرآن من المصاحف والألواح، أو يتخيلون صور حروف ما تلقنوه من معلمهم هذا إذا كانوا عاملين به، وأما إذا قرؤوه من غير إخلاص فيه فلا يتجاوز حناجرهم أي لا يقبل الله منه شيئاً فيبقى في محل تلاوته وهو مخرج الصوت، فلا يقرأ القرآن من قلبه إلا صاحب التنزل وهو الذوق الميراثي، فمن وجد ذلك فهو صاحبه يعرف ذلك عند وجوده إياه فلا يحتاج فيه إلى معرّف فإنه يفرق عند ذلك بين قراءته من خياله وبين قراءته عن تنزيل ربه مشاهدة، وما ثم أمر آخر لنبي أو رسول يقع فيه ميراث إنما هو قول أو فعل أو حال، فالوارث الكامل من جمع، والوارث الناقص من اقتصر على بعض هذه المراتب.

واعلم أن هذا المنزل هو منزل من اتصف بالخلة من الأنبياء عليهم السلام، فمن حصل له حصل له نصيب من الخلة الإلهية وضرب له فيها بسهم والكلام فيها طويل لا يفي الوقت بتفصيله، فلنذكر ما فيه من العلوم كسائر المنازل فنقول:

فيه علم رحمة الخلان والفرق بينها وبين رحمة المحبوبين والأبناء والآباء والمستلذات

كلها. وفيه علم حلاوة التنزل وأين يحس بها من نفسه من ينزل عليه القرآن جديداً عند تلاوته. وفيه علم الأغيار والأسرار والأنوار والهداية وأنواع المحامد والمراتب الخاصة بكل نفس مما لا يقع لأحد معه فيها اشتراك وذلك أنّا نعلم أنه لكل نفس صفة أو حقيقة تختص بها وتتميز بها عن كل شيء في العالم لا بد من ذلك، فإذا جاءها الأمر الإلهيّ من طريق تلك الحقيقة الخاصة فإن ذوقه ذلك مقصور عليها، وهذا أدنى حظ النفس من مقام العزة الإلهية فإنه لكل نفس وإن لم تشعر به، وهو كفعل الأمور الطبيعية بالخاصية كالمغناطيس وأشباهه، غير أن الخاصية في الأمور الطبيعية على نوعين: بالإفراد وبالمجموع وفي المزاج الخاص، فإن الخواص الطبيعية ما تسري في كل مزاج ولا في كل صورة، وخاصية أهل الله إذا وقفوا عليها ذوقاً من أنفسهم سرى حكمها في كل ما في العالم. وفيه علم الملكوت والمشاهدة ورؤية المعدوم في حال عدمه من غير تخيل ولا تمثل ولا بإدراك خيال بل بالبصر الحسي. وفيه علم أسباب التحير والحيرة. وفيه علم ما يعلم الإنسان إلا ما يعطيه استعداده إذا استعمله أو فجأة لا يقبل فوق ذلك فإنه ليست له قوّة القبول. وفيه علم الرسل والرسالة. وفيه علم أن الإنسان عالم بالذات إلا أنه ينسى، فكل علم يحصل له إنما هو تذكر ولا يشعر به أنه تذكر إلا أهل الله. وفيه علم البلايا والنعم. وفيه علم الفرقان في التعريف بين التقرير والتوبيخ وما يكون على طريق المنة أو المطالبة. وفيه علم صفات التنزيه في الأفعال وأن كل طلب في العالم أو من كل طالب إنما هو طلب ذاتي ما ثم طلب عارض لا يكون بالذات هذا لا يكون، وإنما يعرض للشخص أمر ما لم يكن عنده، فهذا الأمر الذي حصل عنده هو الذي يكون له الطلب الذاتي للمطلوب، وانحجب الناس بمن قام به ذلك الأمر العارض وهو الذي يسمونه طالباً، وليس الطالب إلا ذلك الأمر، فالطلب له ذاتي والشخص الذي قام به هذا الأمر مستخدم له إذ قد كان موجوداً وهو فاقد لهذا الطلب، فعلمنا أنه طلب مستخدم في أمر ما أوجب عليه هذا الأمر الذي حل به فالطلب ذاتي لذلك الأمر، وقد استخدم في تحصيله هذ الشخص الذي نزل به ولا شعور للناس بذلك. وفيه علم النظر والتفكر والاعتبار وأن العالم بعضه لبعض عبرة. وفيه علم ما يختص به الله من العلوم المتفرقة في العالم وذلك جمعيتها لا يعلم ذلك إلا الله، هذا فيما دخل في الوجود منه مع علمه بما لم يدخل في الوجود ولا اتصف بالعلم به مخلوق، فله من علم الدنيا علم الجمعية بما أضيف إليه من علم الأخرى ولا بد من ذلك. وفيه علم الاستدلال بالمحدث على القديم وما يحصل في النفس من ذلك فإن القديم لا يحصل في النفس وإن حصل المحدث فما هو المطلوب وكل ما حصل محدث. وفيه علم ما يكون التوكل فيه شكر الله تعالى. وفيه علم من قام به معنى أوجب له اسماً يستحقه ومن هنا تعرف أسماء الله الحسنى من أسمائه، فإن أسماء الله في الكون عن آثار هذه النفوس وأسماء الكون عن المعاني القائمة به فالحق منزه في أسمائه واحد العين، والكون متكثر بأسمائه لقيام المعاني به التي أوجبت له الأسماء. وفيه علم أسباب الميراث. وفيه علم من ظفر ومن خاب والكل طالب. وفيه علم مشاهدة الموت مع كونه نسبة

عدمية وفيمن يحكم وأنه لا حكم للموت فيمن لا تركيب فيه وكل مركب بالوضع فإنه يقبل الموت، فإن لم يمت فذلك لأمر آخر اقتضته المشيئة الإلهية وقد يجعل له سبباً ظاهراً أو معلوماً، وقد لا يكون إلا حكم عين المشيئة خاصة. وفيه علم الحكم على الله بما يقتضيه من حيث ما هو ممكن لا بما هو الله عليه، وقد ورد في القرآن من ذلك كثير، ولكن لا يعلم معنى ذلك إلا العلماء بما تعطيه حقائق الموجودات والعالمون بماهية الأشياء. وفيه علم يوم القيامة والحشر والنشر وما يختص به ذلك اليوم من الحكم ومن هو الحاكم فيه ومراتب المتصرفين فيه. وفيه علم الأمر المقتضى في ذلك اليوم ما هو. وفيه علم تشبيه الإنسان بالنبات من حيث ما هو شجر لا من حيث ما هو نجم، ومن هنا نهي أن يقرب الشجرة آدم فهو تنبيه على نهيه أن يقرب أغراض نفسه وهواها وهو قوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] وهو إرادة النفس ما لم يشرع لها العمل به أو تركه. وفيه علم التمكين والثبات على علم ما تعطيه الحقائق في القول والفعل. وفيه علم ما يحمد من التبديل والتلوين وما يذم. وفيه علم الإمهال والإهمال المقصود. وفيه علم حكمة التسخير الكوني والإلهي. وفيه علم إفراد ذات الحق بالألوهة. وفيه علم الاقتداء وبمن ينبغي أن يقتدى. وفيه علم تقييد الثناء بالحال وإطلاقه بالقول. وفيه علم ما يظهر في الوجود أنه معلوم وظاهر عن علم متعلق به أوجب له ذلك الظهور. وفيه علم كون الإنسان مع علمه أن الله لا يتقيد بالجهات، وهو أقرب من حبل الوريد، وهو مع هذا كله يتوهم فيه جهة الفوق والتحديد لا تعطيه نشأته أن يخلو عن حكم الوهم على عقله فيعقل حقيقة الأمر مع حكم وهمه من غير تأخر فيجمع في الآن بين حكم العقل والوهم، كما جمع بين الأمور التي كان بها إنساناً كذلك يجمع بين أحكامها. وفيه علم مراتب القرآن في الناس فيكون في حكم طائفة على غير حكمه في طائفة أخرى، فهذا بعض ما يحوي عليه هذا المنزل من العلوم مجملاً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والسبعون وثلاثمائة

في معرفة منزل سر وثلاثة أسرار لوحية أمية محمدية

[نظم: الرمل]

لـو وَجَـدْنـا مَـلِـكـاً نَـسْـتَـعْـبِـدُهْ ... أو فَـتًـى ذا كَـرَم نَـسْـتَـرْفِـدُهْ
لَـبَـذَلْـنَـا مُـهَـجَ الـنَّـفْـسِ لـه ... واتَّـخَـذْنَـاه إمـامـاً نَـقْـصِـدُهْ
إنّـمـا الـخَـلْـقُ عِـيَـالٌ كُـلُّـهُـمْ ... والـذي قـام بـهـم لا أجْـحَـدُهْ
وكـمـا قـام بـهـم قـامـوا بـه ... فـالْـتَـفِـتْ رَمْـزي تـرى مـا أقْـصِـدُهْ
وكـمـا كُـنّـا بـه كـان بـنـا ... وبـهـذا الـقَـدْر كـنـا نَـعْـبُـدُهْ
وإذا لـم يَـكُ عـيـنـي لـم يـكُـنْ ... وإذا مـا لـم يَـكُـنْ لا أشْـهَـدُهْ
فـغِـنَـاهُ غـيـر مـعـلـوم لـنـا ... إذ تـعـالـى وتـعـالـى مَـشْـهَـدُهْ
إنّـمـا الـحَـقُّ الـذي أعـرفـه ... والـدُ الـكَـوْن وكَـوْنـي وَلَـدُهْ

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] اعلم أن الله هو اللطيف الخبير العلي القدير الحكيم العليم الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فنزه وشبه فتخيل من لا علم له أنه شبه، لكن اللفظ المشترك هو الذي ضمن ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] مرجع الدرك. ولما خلق الله الأشياء وذكر أن له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين وضع الأسباب وجعلها له كالحجاب فهي توصل إليه تعالى كل من علمها حجاباً، وهي تصد عنه كل من اتخذها أرباباً، فذكرت الأسباب في أنبائها أن الله من ورائها وأنها غير متصلة بخالقها، فإن الصنعة لا تعلم صانعها ولا منفصلة عن رازقها، فإنها عنه تأخذ مضارّها ومنافعها، فخلق الأرواح والأملاك ورفع السموات قبة فوق قبة على عمد الإنسان وأدار الأفلاك ودحى الأرض ليميز بين الرفع والخفض وعين الدنيا طريقاً للآخرة، وأرسل بذلك رسله تترى لما خلق في العقول من العجز والقصور عن معرفة ما خلق الله من أجرام العالم وأرواحه ولطائفه وكثائفه، فإن الوضع والترتيب ليس العلم به من حظ الفكر بل هو موقوف على خبر الفاعل لها والمنشىء لصورها ومتعلق علم العقل من طريق الكفر إمكان ذلك خاصة لا ترتيبه، فإن الترتيب لا يعرف إلا بالشهود في الأشخاص حتى يقول: هذا فوق هذا، وهذا تحت هذا، وهذا قبل هذا، وهذا بعد هذا، والعقل يحكم بالإمكان في ذلك كله.

ثم إن الله تعالى قدر في العالم العلوي المقادير والأوزان والحركات والسكون في الحال والمحل والمكان والمتمكن، فخلق السموات وجعلها كالقباب على الأرض قبة فوق قبة على الأرض، كما سنوقفك في هذا الباب على شكل وضع عالم الأجرام، وجعل هذه السموات ساكنة وخلق فيها نجوماً جعل لها في سيرها وسباحتها في هذه السموات حركات مقدرة لا تزيد ولا تنقص وجعلها عاقلة سامعة مطيعة ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] ثم إن الله لما جعل السباحة للنجوم في هذه السموات حدثت لسيرها طرق لكل كوكب طريق وهو قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧] فسميت تلك الطرق أفلاكاً، فالأفلاك تحدث بحدوث سير الكواكب وهي سريعة السير في جرم السماء الذي هو مساحتها فتخترق الهواء المماس لها فيحدث لسيرها أصوات ونغمات مطربة لكون سيرها على وزن معلوم، فتلك نغمات الأفلاك الحادثة من قطع الكواكب المسافات السماوية، فهي تجري في هذه الطرق بعادة مستمرة قد علم بالرصد مقادير تلك الحركات ودخول بعضها على بعض في السير، وجعل سيرها للناظر بين بطء وسرعة، وجعل لها تقدماً وتأخراً في أماكن معلومة من السماء تعين تلك الأماكن أجرام الكواكب، فإن أجرام السموات متماثلة الأجزاء، فلولا إضاءة الكواكب ما عرف تقدمها ولا تأخرها وهي التي يدركها البصر ويدرك سيرها ورجوعها، فجعل أصحاب علم الهيئة للأفلاك ترتيباً جائزاً ممكناً في حكم العقل أعطاهم علم ذلك رصد الكواكب وسيرها وتقدمها وتأخرها وبطئها وسرعتها، وأضافوا ذلك إلى الأفلاك الدائرة بها، وجعلوا الكواكب في السموات كالشامات على سطح جسم الإنسان أو كالبرص لبياضها، وكل ما قالوه يعطي ميزان

حركاتها، وأن الله تعالى لو فعل ذلك كما ذكروه لكان السير السير بعينه، ولذلك يصيبون في علم الكسوفات ودخول الأفلاك بعضها على بعض، وكذلك الطرق يدخل بعضها على بعض في المحل الذي يحدث فيه سير السالكين، فهم مصيبون في الأوزان مخطئون في أنّ الأمر كما رتبوه، وأن السموات كالأكر، وأن الأرض في جوف هذه الأكر، وجعل الله لهذه الكواكب ولبعضها وقوفاً معلوماً مقدراً في أزمان مخصوصة، لم يخرق الله العادة فيها ليعلم صاحب الرصد بعض ما أوحى الله من أمره في السماء، وذلك كله ترتيب وضعي يجوز في الإمكان خلافه مع هذه الأوزان، وليس الأمر في ذلك إلا على ما ذكرناه شهوداً وكشفاً.

ثم إن الله تعالى يحدث عند هذه الحركات الكوكبية في هذه الطرق السماوية في عالم الأركان وفي المولدات أموراً مما أوحى في أمر السماء، وجعل ذلك عادة مستمرة ابتلاء من الله ابتلى بها عباده، فمن الناس من جعل ذلك الأثر عند هذا السير لله تعالى، ومن الناس من جعل ذلك لحركة الكوكب وشعاعه لما رأى أن عالم الأركان مطارح شعاعات الكواكب، فأما الذين آمنوا بالله فزادتهم إيماناً بالله وأما الذي آمنوا بالباطل فزادتهم إيماناً بالباطل وكفروا بالله وهم الخاسرون الذين ما ربحت تجارتهم وما كانوا متهدين.

ثم إن الله تعالى وكّل ملائكة بالأرحام عند مساقط النطف فيقلبون النطف من حال إلى حال كما قد شرع لهم الله وقدر ذلك التنقل بالأشهر وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ أي ما تنقص عن العدد المعتاد ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ على العدد المعتاد ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] فهو سبحانه يعلم شخصية كل شخص وشخصية فعله وحركاته وسكونه وربط ذلك بالحركات الكوكبية العلوية، فنسب من نسب الآثار لها وجعله الله عندها لا لها، فلا يعلم ما في الأرحام ولا ما تخلق مما لم يتخلق من النطف على قدر معلوم إلا الله تعالى ومن أعلمه الله تعالى من الملائكة الموكلة بالأرحام، ولهذا تكون الحركة الكوكبية العلوية واحدة، ويحدث عندها في الأركان والمولدات أمور مختلفة لا تنحصر ولا يبلغها نظر في جزئيات أشخاص العالم العنصري لأن الله قد وضعه على أمزجة مختلفة وإن كان عن أصل واحد، كما نعلم أن الله خلق الناس من نفس واحدة وهو آدم وجعلنا مختلفين في عقولنا متفاوتين في نظرنا والأصل واحد، ومنا الطيب والخبيث والأبيض والأسود وما بينهما والواسع الخلق والضيق الخلق الحرج: [الكامل]

فالأصْلُ فَرْدٌ والفُرُوعُ كثيرةٌ ... فالحَقُّ أصْلٌ والكِيانُ فُرُوعُ

وما خلق الله العالم الخارج عن الإنسان إلا ضرب مثال للإنسان ليعلم أن كل ما ظهر في العالم هو فيه والإنسان هو العين المقصودة فهو مجموع الحكم، ومن أجله خلقت الجنة والنار والدنيا والآخرة والأحوال كلها والكيفيات، وفيه ظهر مجموع الأسماء الإلهية وآثارها، فهو المنعم والمعذب والمرحوم والمعاقب، ثم جعل له أن يعذب وينعم ويرحم ويعاقب، وهو المكلف المختار وهو المجبور في اختياره، وله يتجلى الحق بالحكم والقضاء والفصل،

وعليه مدار العالم كله، ومن أجله كانت القيامة، وبه أخذ الجان، وله سخر ما في السموات وما في الأرض، ففي حاجته يتحرك العالم كله علواً وسفلاً دنيا وآخرة، وجعل نوع هذا الإنسان متفاوت الدرجات، فسخر بعضه لبعضه وسخره لبعض العالم ليعود نفع ذلك عليه، فما سخر إلا في حق نفسه وانتفع ذلك الآخر بالعرض، وما خص أحداً من خلق الله بالخلافة إلا هذا النوع الإنساني وملكه أزمة المنع والعطاء، فالسعداء خلفاء ونواب، ومن دون السعداء فنواب لا خلفاء ينوبون عن أسماء الله في ظهور حكم آثارها في العالم على أيديهم، فهم خلفاء في الباطن نواب في الظاهر، فالنائب هو الظاهر بالليل لأنه نائب لا خليفة إلهيّ بوضع شرعي ومستتر بالنهار فيعلم من حكمة تغير الحكم المشروع أن الشرع الإراديّ في جوره مستور. ولما كان الحكام في الخلق خلفاء ونواباً كما قررناه بين الله بما شرعه الحق من الباطل وما ينفع مما يضرّ من الأفعال الظاهرة والباطنة، وقسم العمل بين الجوارح والقلب فجعل الله القلوب محلاً للحق والباطل والإيمان والكفر والعلم والجهل، فالباطل والكفر والجهل ما له إلى اضمحلال وزوال لأنه حكم لا عين له في الوجود فهو عدم له حكم ظاهر وصورة معلومة فيطلب ذلك الحكم وتلك الصورة أمراً وجودياً يستندان إليه فلا يجدانه فيضمحلان وينعدمان، فلهذا يكون المآل إلى السعادة. والإيمان والحق والعلم يستندون إلى أمر وجودي في العين وهو الله عز وجل فيثبت حكمهم في العين أي في عين المحكوم عليه بهم لأن الذي يحفظ وجود هذا الحكم هو موجود بل هو عين الوجود وهو الله المسمى بهذه الأسماء المنعوت بهذه النعوت، فهو الحق العالم المؤمن، فيستند الإيمان للمؤمن، والعلم إلى العالم، والحق إلى الحق، والله تعالى ما تسمى بالباطل لوجوده ولا بالجاهل والكافر تعالى الله عن هذه الأسماء علواً كبيراً، فنزلت الكتب الإلهية والصحف على قلوب المؤمنين الخلفاء والرعايا والورثة فسرت منفعتها في كل قلب كان محلاً لكل طيب.

وأما الأمور العوارض التي ليست منزلة عن أمر إلهي مشروع فهي أهواء عرضت للنواب والرعايا تسمى جوراً والعوارض لا ثبات لها فيزول حكمها بزوالها إذا زال والعين الذي كان قبلها واتصف بها موجود ولا بد له من حال يتصف به وقد زال عنه الشقاء لزوال موجبه إذا كان الموجب عارضاً عرض فلا بد من نقيضه وهو المسمى سعادة، ومن دخل النار منهم فما دخلها إلا لتنفي عنه خبثه وتبقي طيبه، فإذا ذهب الخبث وبقي الطيب ذلك المعبر عنه بالسعيد الذي كان سعده مستهلكاً في خبثه، وهكذا هو الأمر في نفسه، ولا يعلم قدر ما قررناه إلا ذو عينين لا ذو عين واحدة، ومن وقف بين النجدين فرأى غاية كل طريق فسلك طريق سعادته التي لا يتقدمها شقاء فإنها طريق سهلة بيضاء مثلي نقية لا شوب فيها ولا عوجاً ولا أمتاً. والطريق الأخرى وإن كان غايتها سعادة ولكن في الطريق مفاوز ومهالك وسباع عادية وحيات مضرة فلا يصل مخلوق إلى غايتها حتى يقاسي هذه الأهوال، والطريقان متجاوران ينبعثان من أصل واحد، وينتهيان إلى أصل واحد، ويفترقان ما بين الأصلين ما بين البداية والغاية، وصورتهما في الهامش كما تراه:

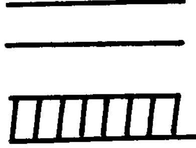

فيشاهد صاحب المحجة البيضاء ما في طريق صاحبه لأنه بصير وصاحبه أعمى، فليس يرى الأعمى طريق البصير فيطرأ على البصير من مشاهدة تلك الآفات التي في طريق الأعمى مخاوف لما يرى من الأهوال ويتوهم في نفسه لو كان فيها ما كان يقاسيه ويرى الأعمى ليس عنده خبر من هذا كله لما هو عليه من العمى فلا يبصر شيئاً فيسير ملتذاً بسيره حتى يتردى في حفرة أو تلدغه حية من تلك الحيات فحينئذ يحس بالألم ويستغيث بصاحبه، فمن الأصحاب من يغيثه ومن الأصحاب من يكون قد سبقه فلا يسمعه فيبقى مضطراً ما شاء الله فيرحمه الله فيسعده، والحيوان بما هو حيوان يحس بالألم واللذة وبما هو عاقل وهو الإنسان يعلم السبب المؤلم والسبب الملذ ذوقاً من العادة، حتى أن جماعة غلطت في ذلك فجعلوا الألم للسبب المؤلم ذاتياً وليس كذلك، وإنما الذي يتألم به الإنسان أو يلتذ إنما هو قيام الألم به أو اللذة به عقلاً لا سببها هذا في الآلام واللذات العادية، وثم أسباب أخر لا يستقل العقل بإدراكها فيخبره الله بها على لسانه رسوله بالوحي فيعلمها فيأتي من ذلك ما أمره الله به أن يأتيه ويجتنب من ذلك ما أمره الله به أن يجتنبه وقد علم الألم واللذة عقلاً فيتذكرهما عند علمه بهذه الأسباب الشرعية الموجبة لهما، فمن أطاع أطاع على بصيرة من أمره، ومن عصى وعلم أنه عاص عصى على بصيرة من المعصية، وليس هو على بصيرة من المؤاخذة عليها كما هو على بصيرة في الطاعة من الجزاء عليها، فما أجرأه على المعصية بالقدر السابق إلا كونه على غير بصيرة من المؤاخذة، ولا ينبغي للمؤمن بل لا يصح أن يكون على بصيرة في المؤاخذة بالمعصية، فإن الرحمة والمغفرة ما هو الانتقام والأخذ بأولى من المغفرة إلا ما عين الله من صفة خاصة يستحق من مات وهي به قائمة المؤاخذة ولا بد وليس إلا الشرك وما عدا الشرك فإن الله أدخله في المشيئة فلا يصح أن يكون أحد على بصيرة في العقاب، فهذا هو الذي أجرأ النفوس على ارتكاب المحارم والدخول في المآثم إلا من عصم الله بخوف أو رجاء أو حياء أو عصمة في علم الله به خارجة عن هذه الثلاثة، ولا خامس لهذه الأربعة المانعة من وقوع المخالفة والتعرض للعقوبة والممكن قد عهد الله على قبوله لكل ممكن بذاته، فمن وفى بهذا العهد مع الله فإنه يسعده بلا شك ابتداء، فإن نقض عهد الله في ذلك وصير الممكن محالاً أو واجباً فقد خرج عما عاهد عليه الله وعرض بذاته لما تخيل أنه لا يصيبه، ومثل هذا هو الذي رد دعوة الحق التي جاء بها الرسول من عند الله كالبراهمة ومن قال بقولهم.

واعلم أنه لما كان الإنسان الكامل عمد السماء الذي يمسك الله بوجوده السماء أن تقع على الأرض، فإذا زال الإنسان الكامل وانتقل إلى البرزخ هوت السماء وهو قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٦] أي ساقطة إلى الأرض، والسماء جسم شفاف

صلب، فإذا هوت السماء حلل جسمها حر النار فعادت دخاناً أحمر كالدهان السائل مثل شعلة نار كما كانت أول مرة وزال ضوء الشمس فطمست النجوم فلم يبق لها نور إلا أن سباحتها لا تزول في النار لا بل انتثرت، فهي على غير النظام الذي كان سيرها في الدنيا، فتعطي من الأحكام في أهل النار على قدر ما أوحى فيها الله تعالى، لأن الأخرى تجديد نشأة أخرى في الكل لا يعرفها العقل الأول ولا اللوح المحفوظ ولذلك قال ﷺ أنه يحمد الله يوم القيامة في المقام المحمود بمحامد لا يعلمها الآن يعلمه الله إياها في ذلك اليوم بحسب ما يظهر في ذلك من حكم الأسماء الإلهية لا يعلمها أحد اليوم، فنشأة الخلق وأحوالهم وما يكون منهم في القيامة والدارين على غير نشأة الدنيا وإن أشبهتها في الصورة ولذلك قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] أنها كانت على غير مثال كذلك ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] يوم القيامة.

فلنذكر في هذا الباب طرفاً من هيئة جهنم وهيئة الجنات وما فيها مما لم نذكره في بابهما فيما تقدم، ولنجعل ذلك كله في أمثلة ليقرب تصورها على من لا يتصور المعاني من غير ضرب مثل كما ضرب الله للقلوب مثلاً بالأودية بقدرها في نزول الماء، وكما ضرب المثل لنوره بالمصباح كل ذلك ليقرب إلى الأفهام الضعيفة الأمر وهو قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤] بما بين له فعلم كيف يبين لغيره فنقول: إن الجسم لما ملأ الخلاء كان أول شكل قبله الاستدارة فسمى تلك الاستدارة فلكاً، وفي تلك الدائرة ظهرت صور العالم كله أدناه وأعلاه ولطيفه وكثيفه وما يتحيز منه وما لا يتحيز، فالذي ملأ الخلاء غير متحيز ولا في مكان ولا يقبل المكان، ولولا اتصاف الحق بالإحاطة ما توهم العقل انحصار هذا الجسم الكل في الخلاء ولا توهم الخلاء إلا من شهود الجسم المحسوس كما لم يتوهم انحصار الممكنات وإن كانت لا تتناهى في نفس الأمر وما وجد منها هو متناه ويدخل في ذلك العقل الأول وكل ما لا يتحيز ولا يقبل المكان، وكان ينبغي أن يقال فيما لا يتحيز أن ذلك غير متناه لأن التناهي لا يعقل إلا في المكان والزمان الموجود وقد وجد ما لا يتحيز فكيف يعقل فيه التناهي، وكذلك ما دخل في الوجود من المراتب وإن كانت عدماً فإنها متوهمة الوجود، فإن المراتب نسب عدمية وهي المكانة تنزل كل شيء موجود أو معدوم بالحكم في رتبته، سواء كان واجب الوجود لذاته أو واجب الوجود لغيره أو محال الوجود، فللعدم الخالص مرتبة، وللوجود المحض مرتبة، وللممكن المحض مرتبة، كل مرتبة متميزة عن الأخرى فلا بد من الحصر المتوهم والمعقول، والمعلومات كلها في علم الله على ما هي عليه، فهو يعلم نفسه ويعلم غيره ووجوده لا يتصف بالتناهي، وما لم يدخل في الوجود فلا يتصف بالتناهي، والأجناس متناهية وهي معلومة بعلمه والعلم محيط بما يتناهى وما لا يتناهى مع حصر العلم له، وهنا حارت العقول من حيث أفكارها. ثم إن الحق إن حققت الأمر قد أدخل نفسه في الوصف الذي وصف به من الظرفية، فوصف نفسه بأنه في العماء وعلى العرش وفي السماء وفي الأرض، ووصف نفسه بالقبل وبالمعية وبكل شيء، وجعل نفسه

عين كل شيء ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ ثم قال: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ وهو ما ظهر في عين الأشياء ثم قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] أي مردكم من كونكم أغياراً إلي فيذهب حكم الغير فيما في الوجود إلا أنا. ونبين ذلك مثلاً باسم الإنسان بجملة تفاصيله واتصافه بأحكام متغايرة من حياة وحس وقوى وأعضاء مختلفة في الحركات، وكل ما يتعلق بهذا المسمى إنساناً، وليست هذه الأعيان التي تظهر فيها هذه الأحكام بأمر غير الإنسان، فإلى الإنسان ترجع هذه الأحكام، والأحكام في الحق صور العالم كله ما ظهر منه وما يظهر والأحكام منه ولهذا قال له الحكم ثم يرجع الكل إلى أنه عينه، فهو الحاكم بكل حكم في كل شيء حكماً ذاتياً لا يكون إلا هكذا، فسمى نفسه بأسمائه فحكم عليه بها، وسمى ما ظهر به من الأحكام الإلهية في أعيان الأشياء ليميز بعضها عن بعض كما ميز جسم الإنسان عن روحه وليس إنساناً إلا بمجموعه، كما تسمى خالقاً به وبخلقه، فلا يقال في روح الإنسان إنها عين الإنسان ولا غيره، وكذلك في حقائقه ولوازمه وعوارضه، لا يقال في يد الإنسان ولا في شيء من أعضائه أنه عين الإنسان ولا غير الإنسان، كذلك أعيان العالم لا يقال إنها عين الحق ولا غير الحق بل الوجود كله حق ولكن من الحق ما يتصف بأنه مخلوق، ومنه ما يوصف بأنه غير مخلوق لكنه كل موجود فإنه موصوف بأنه محكوم عليه بكذا فنقول في الله إنه ﴿غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] فحكمنا عليه بهذا النعت، وقلنا في المسمى سواه أنه فقير إلى الله فحكمنا عليه، فالكل محكوم عليه، كما حكمنا على كل شيء بالهلاك، وحكمنا على وجهه بالاستثناء من حكم الهلاك، فهو أوّل محكوم عليه من عين هويته، فما حكم به على هويته أن وصف نفسه بأن له نفساً بفتح الفاء وأضافه إلى الاسم الرحمن لنعلم إذا ظهرت أعياننا وبلغتنا سفراؤه هذا الأمر شمول الرحمة وعمومها ومآل الناس والخلق كله إليها، فإن الرحمن لا يظهر عنه إلا المرحوم فافهم، فالنفس أوّل غيب ظهر لنفسه فكان فيه الحق من اسمه الرب مثل العرش اليوم الذي استوى عليه بالاسم الرحمن، وهو أوّل كثيف شفاف نوري ظهر، فلما تميز عمن ظهر عنه وليس غيره وجعله تعالى ظرفاً له لأنه لا يكون ظرفاً له إلا عينه فظهر حكم الخلاء بظهور هذا النفس ولولا ذلك ما قلنا خلاء، ثم أوجد في هذا العماء جميع صور العالم الذي قال فيه إنه ﴿هَالِكٌ﴾ يعني من حيث صوره ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] يعني إلا من حقيقته فإنه غير هالك، فالهاء في وجهه تعود على الشيء، فكل شيء من صور العالم هالك إلا من حقائقه فليس بهالك ولا يتمكن أن يهلك، ومثال ذلك للتقريب أن صورة الإنسان إذا هلكت ولم يبق لها في الوجود أثر لم تهلك حقيقته التي يميزها الحد وهي عين الحد له فنقول: الإنسان حيوان ناطق، ولا نتعرض لكونه موجوداً أو معدوماً فإن هذه الحقيقة لا تزال له وإن لم تكن له صورة في الوجود فإن المعلوم لا يزول من العلم فالعلم ظرف المعلومات فصورة العالم بجملته صورة دائرة فلكية، ثم اختلف فيها صور الأشكال من تربيع وتثليث وتسديس إلى ما لا يتناهى حكماً لا وجوداً، والملائكة الحافون من حول العرش ما لهم سباحة إلا في هذا العماء المستدير الذي ظهر فيه أيضاً عين العرش على التربيع بقوائمه وحملته من صور المعاني

وصور أجسامها التي هي الحروف الدالة عليها، فإن المعنى لا يستدل عليه إلا من حكم صورته وهو الحرف، والحرف لا يعلم إلا من حيث معناه فهو العالم العلم المعلوم، فما في الوجود إلا الواحد الكثير، وفيه ظهرت الملائكة المهيمة والعقل والنفس والطبيعة، والطبيعة هي أحق نسبة بالحق مما سواها، فإن كل ما سواها ما ظهر إلا فيما ظهر منها وهو النفس بفتح الفاء وهو الساري في العالم، أعني في صورة العالم وبهذا الحكم يكون تجلي الحق في الصور التي ذكرها عن نفسه لمن عقل عنه ما أخبر به عن نفسه تعالى، فانظر في عموم حكم الطبيعة، وانظر في قصور حكم العقل لأنه في الحقيقة صورة من صور الطبيعة بل من صور العماء والعماء هو من صور الطبيعة، وإنما جعل من جعل رتبة الطبيعة دون النفس وقوف الهيولى لعدم شهوده الأشياء وإن كان صاحب شهود ومشى هذه المقالة فإنه يعني بها الطبيعة التي ظهرت بحكمها في الأجسام الشفافة من العرش، فما حواه فهي بالنسبة إلى الطبيعة نسبة البنت إلى المرأة التي هي الأم فتلد كما تلد أمها، وإن كانت البنت مولودة عنها فلها ولادة على كل من يولد عنها، وكذلك العناصر عندنا القريبة إلينا هي طبيعة ما تولد عنها، وكذلك الأخلاط في جسم الحيوان فلهذا سميناها طبيعة كما نسمي البنت والبنات والأم أنثى ونجمعها إناثاً. وإنما ذكرنا هذا لما نظهره من الأشكال لضرب الأمثال للتقريب على الأفهام القاصرة عن إدراك المعاني من غير مثل، فإن الله ما جعل معرفة الإنسان نفسه إلا ضرب مثال لمعرفة ربه، إذ لو لم يعرف نفسه لم يعرف ربه، وهذا صورة العماء الذي هو الجسم الحقيقي العالم الطبيعي الذي هو صورة من قوّة الطبيعة تجلى لما يظهر فيه من الصور وما فوقه رتبة إلا رتبة الربوبية التي طلبت صورة العماء من الاسم الرحمن فتنفس فكان العماء، فشبهه لنا الشرع بما ذكر عنه من هذا الاسم، فلما فهمنا صورته بالتقريب قال ما فوقه هواء يعلو عليه فما فوقه إلا حق وما تحته هواء يعتمد عليه أي ما تحته شيء، ثم ظهرت فيه الأشياء، فالعماء أصل الأشياء والصور كلها، وهو أوّل فرع ظهر من أصل فهو نجم لا شجر ثم تفرعت منه أشجار إلى منتهى الأمر والخلق وهو الأرض وذلك بتقدير العزيز العليم؛ فهذا المثل المضروب المشكل الممثل الذي نضربه ونشكله هو العماء وهو الدائرة المحيطة وهو فلك الإشارات والنقط التي في الدائرة، مثال أعيان الأرواح المهيمة والنقطة العظمى في هذه النقط العقل والدائرة التي إلى جانب النقطة العظمى التي في داخلها نقطتان هي النفس الكل واللوح المحفوظ، وتانك النقطتان فيهما القوتان العلمية والعملية، والأربع النقط المجاورات لدائرة النفس رتبة الطبيعة التي هي بنت الطبيعة العظمى والدائرة التي في جوف هذه الدائرة العظمى هي جوهر الهيولى وهو الهباء، والشكل المربع فيه هو العرش والدائرة في جوف هذا الشكل المربع هو الكرسي موضع القدمين، والدائرة التي في جوفه هي الفلك الأطلس، والدوائر الثمانية هي الجنات، والدائرة التي تحت الثمانية هو الفلك المكوكب فلك المنازل، وما تحت مقعره هو جهنم، وفيما تحت مقعره انفتحت أشكال السموات والأرض وما بينهما من الأركان والكواكب الثابتة كل ذلك جهنم، فإذا بدلت السماء والأرض فإنما يقع التبديل في الصور

لا في الأعيان وإن كانت الأعيان صوراً، ولكن إذا علم المراد فلا مشاحة في الألفاظ والعبارات والخطان اللذان تحت الشكل المربع المسمى عرشاً الخط الواحد الماء والآخر الهواء، وأنصاف الدوائر التي في جوف فلك الكواكب هي السموات والخطوط التي تستقر عليها أطراف أنصاف الدوائر الأرض، وما بين القبة التي في أوّل خط من خطوط الأرض ثلاثة خطوط بالحمرة هي الثلاثة الأركان: الماء والهواء والنار، والمقادير المعينة في الفلك الأطلس هي البروج، والمقادير المعينة في الفلك المكوكب هي المنازل، وكل قبة من القباب السبعة فيها نقطة حمراء هي صورة كوكب كل قبة، ثم جميع ما في جوف الفلك المكوكب يستحيل في الآخرة إلى صور غير هذه الصور، وفي جوف الفلك المكوكب يكون الحشر والنشر والحساب والعرش الذي يتجلى فيه الحق للفصل والقضاء والملائكة في تلك الأرض سبعة صفوف بين يدي ذلك العرش، والناس والجان بين العرش، وصفوف الملائكة والصراط منصوب كالخط الذي يقسم الدائرة نصفين، وينتهي إلى المرج الذي خارج سور الجنة موضع المأدبة التي يأكلها أهل الجنة قبل دخول الجنة وبعد الجواز على الصراط.
وسأشكل هذا كله وأمثاله وأكتب على كل شكل اسم المراد به:

فمن ذلك: صورة العماء وما يحوي عليه إلى عرش الاستواء، فإن موضع صور الأشكال ضيق هنا لا يتسع لصور ما نريد تشكيلة واحدة فإنه لو اتسع كان أبين للناظر فيه:

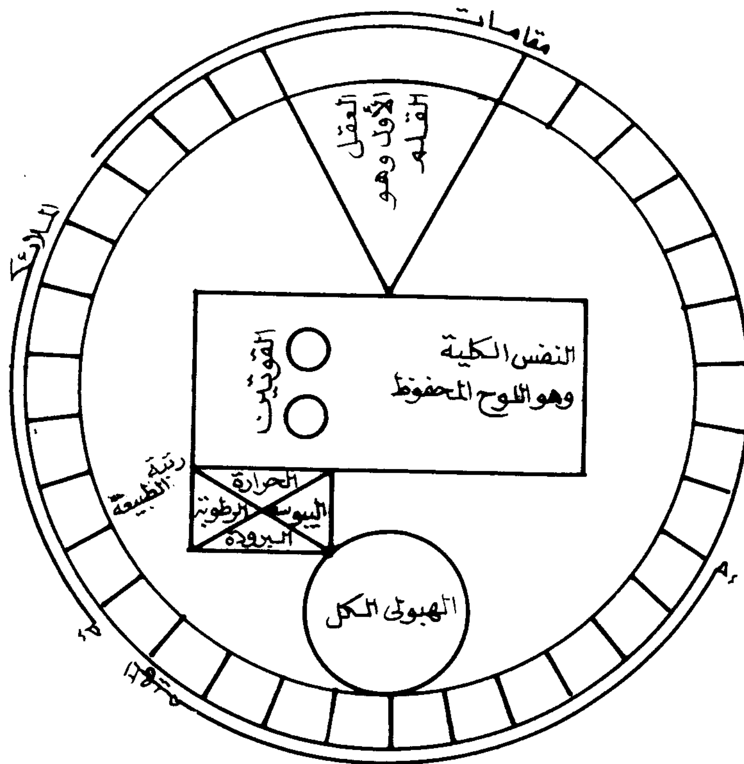

ومن ذلك: صورة عرش الاستواء والكرسي والقدمان والماء الذي عليه العرش والهواء الذي يمسك الماء والظلمة:

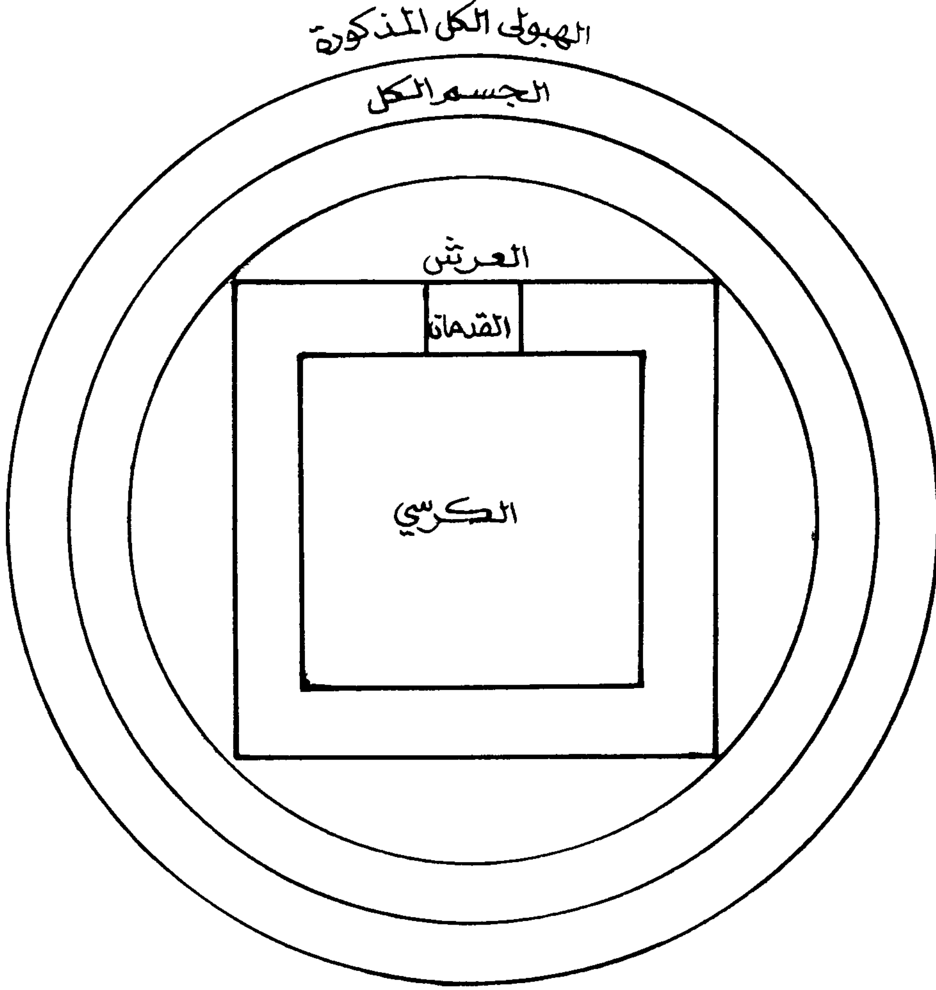

ومن ذلك: صورة الفلك الأطلس والجنات وسطح فلك الكواكب وشجرة طوبى:

الكرسي المذكور

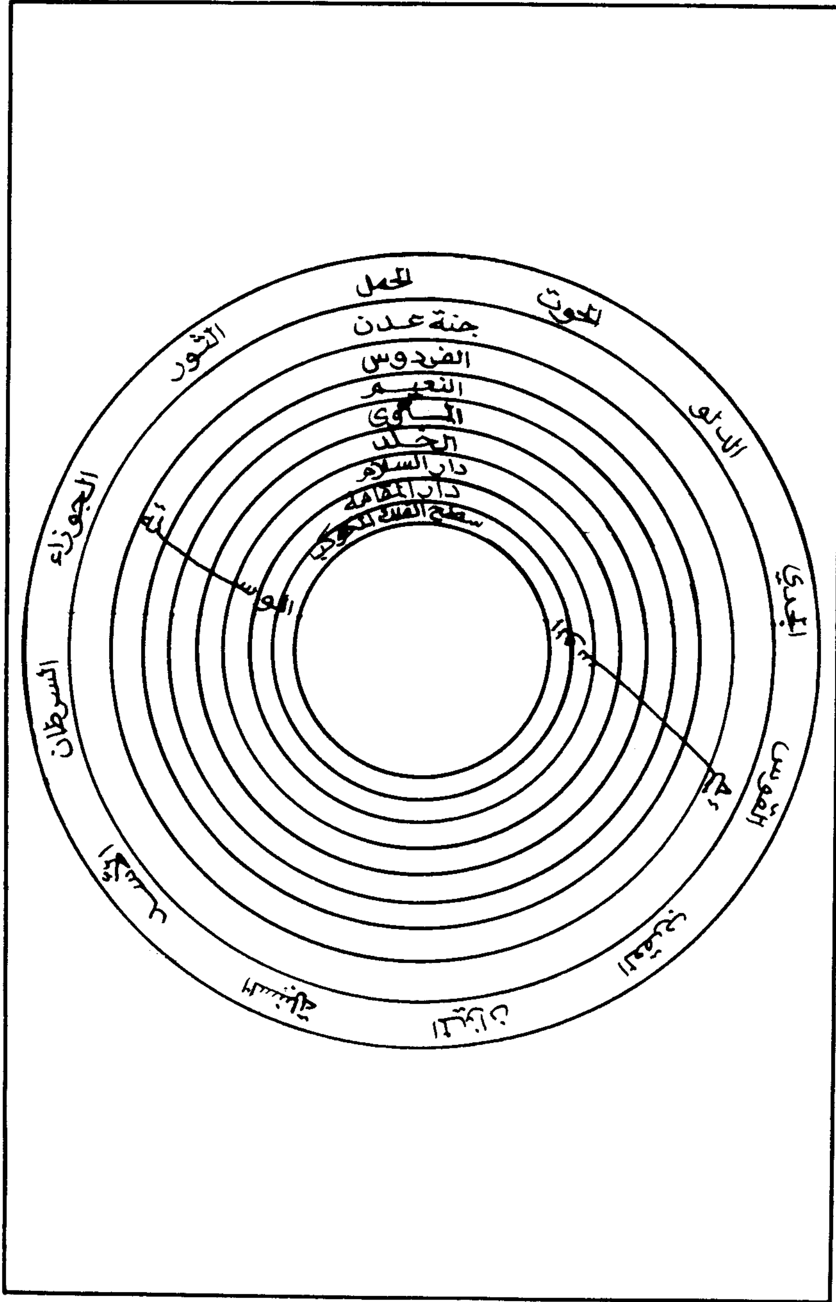

ومن ذلك صورة الفلك المكوكب وقباب السموات وما تستقر عليه وهو الأرض والأركان الثلاثة والعمد الذي يمسك الله به القبة والمعدن والنبات والحيوان والإنسان:

ومن ذلك: صورة أرض المحشر وما يحوي عليه من الأعيان والمراتب وعرش الفصل والقضاء وحملته وصفوف الملائكة:

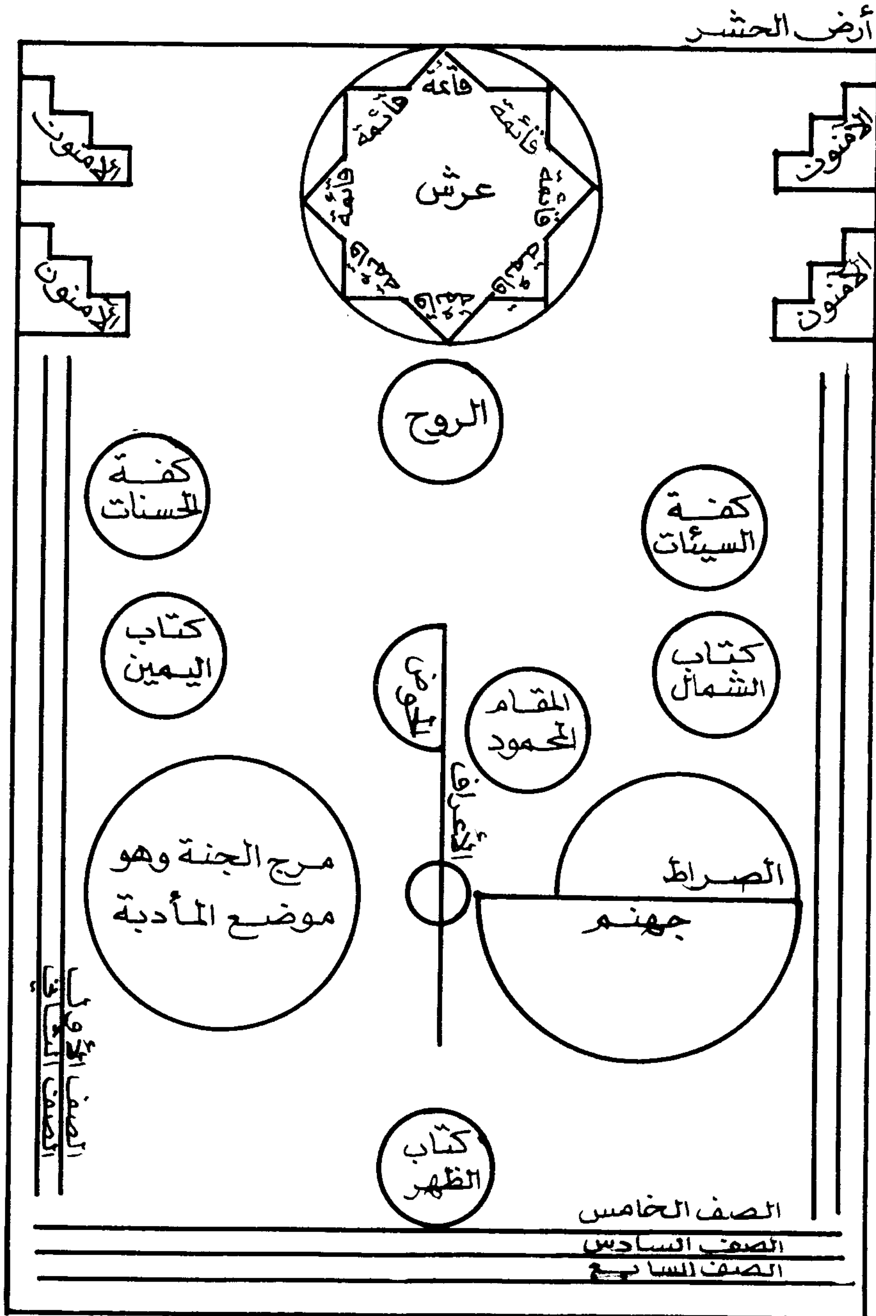

ومن ذلك: صور جهنم وأبوابها ومنازلها ودركاتها:

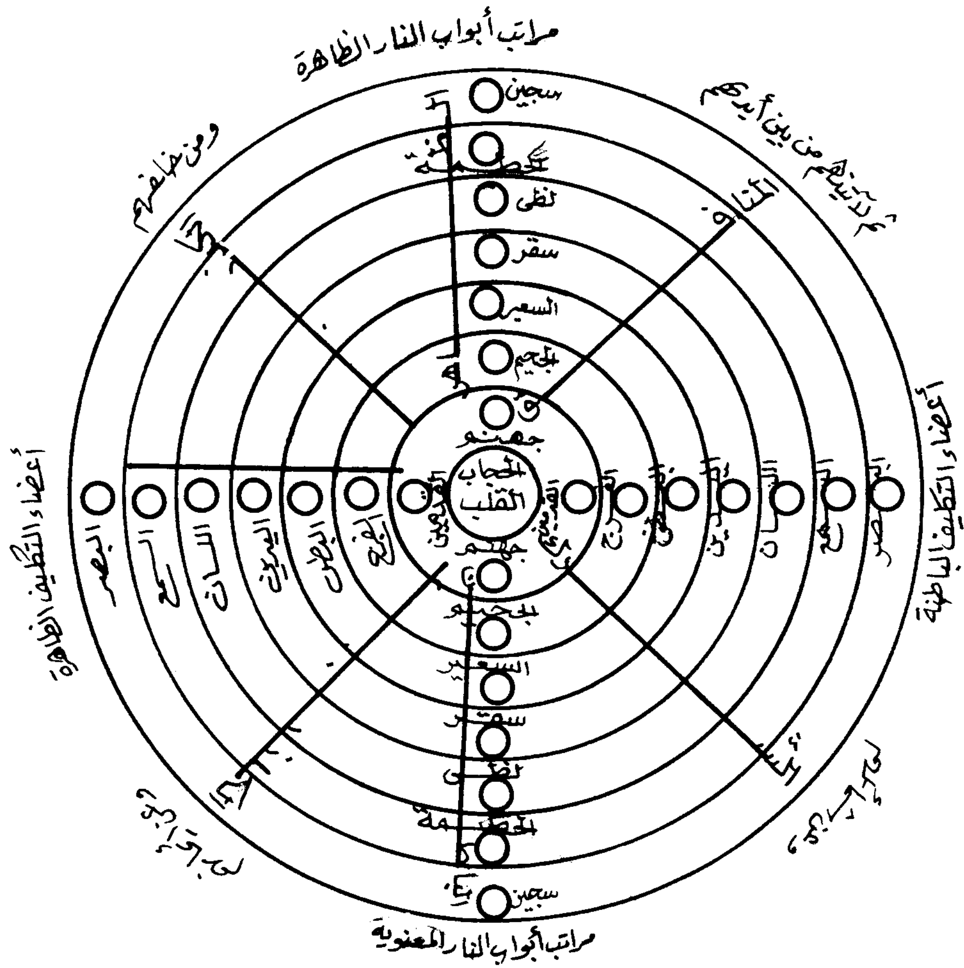

ومن ذلك: صورة حضرة الأسماء الإلهية والدنيا والآخرة والبرزخ:

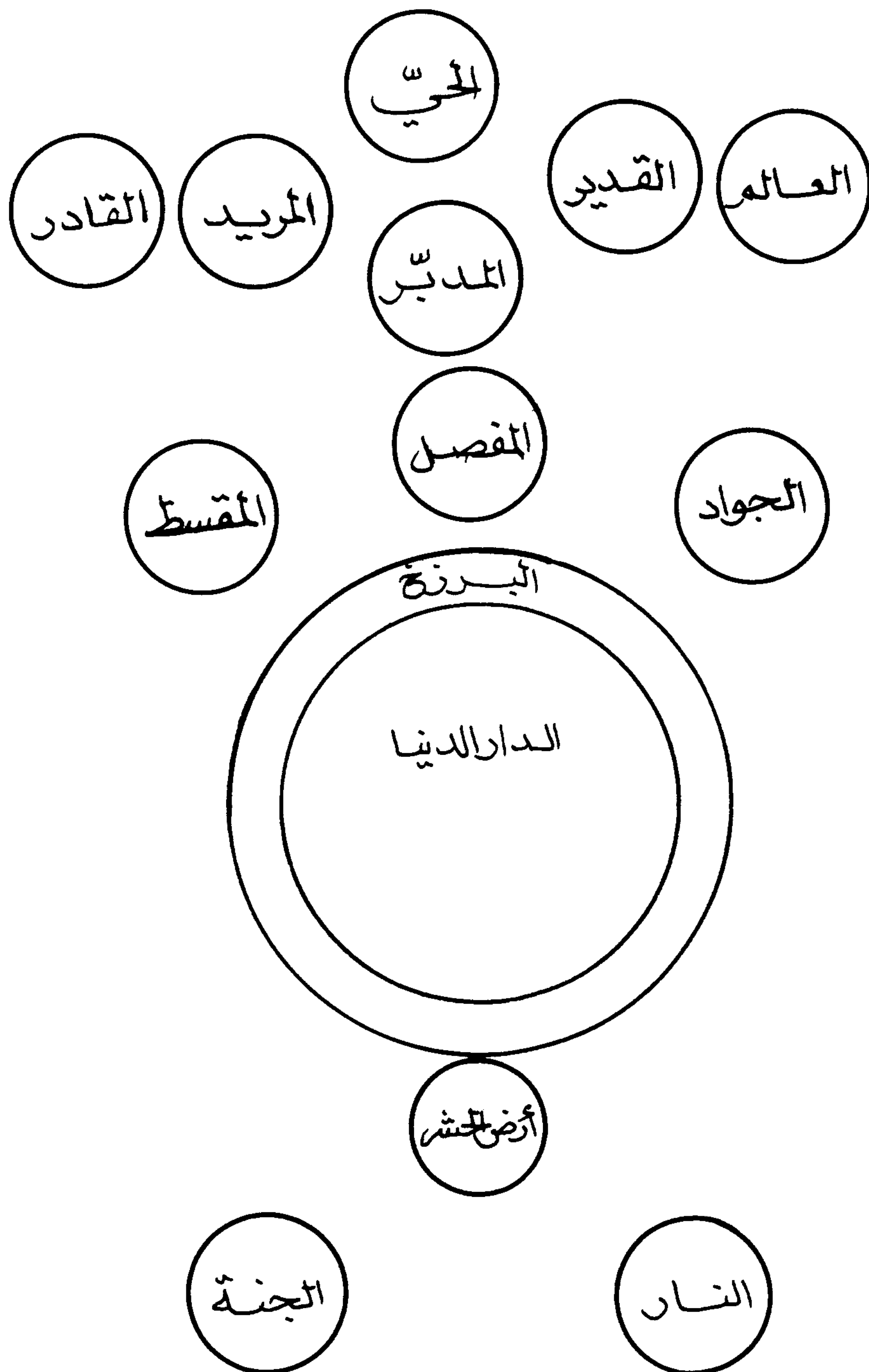

ومن ذلك صورة كثيب الرؤية ومراتب الخلق فيه:

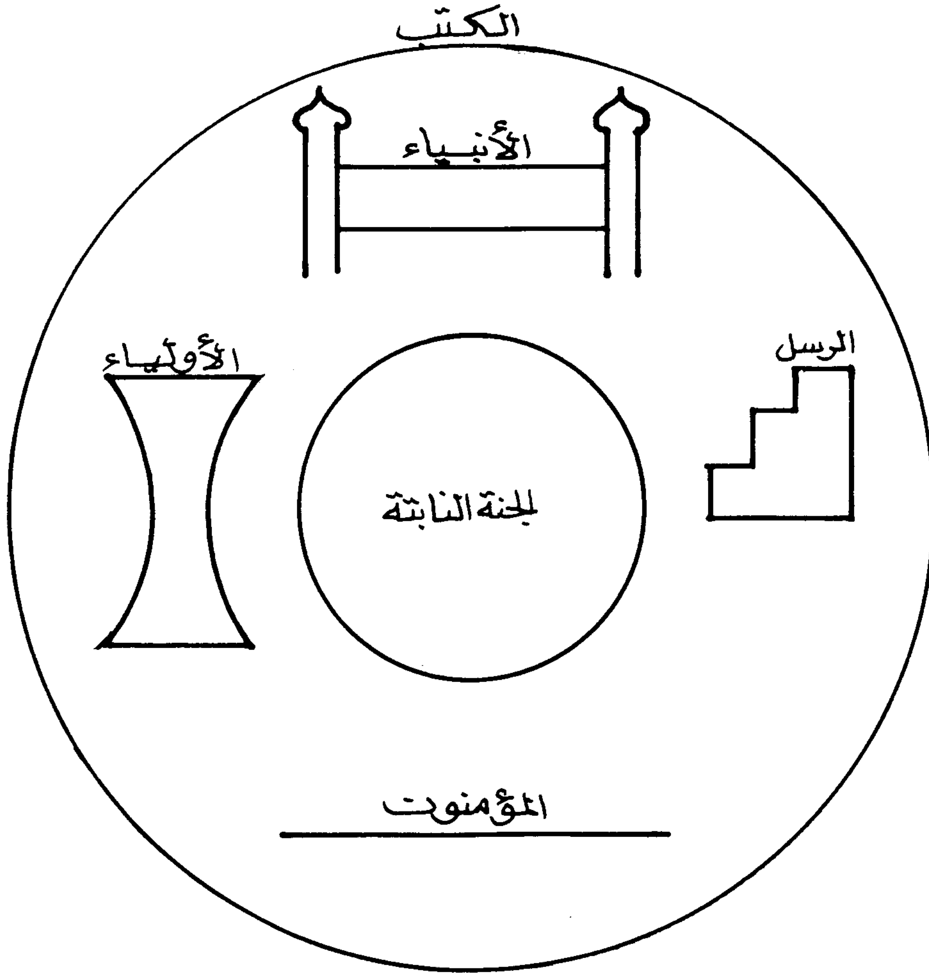

ومن ذلك: صورة العالم كله وترتيب طبقاته روحاً وجسماً وعلواً وسفلاً:

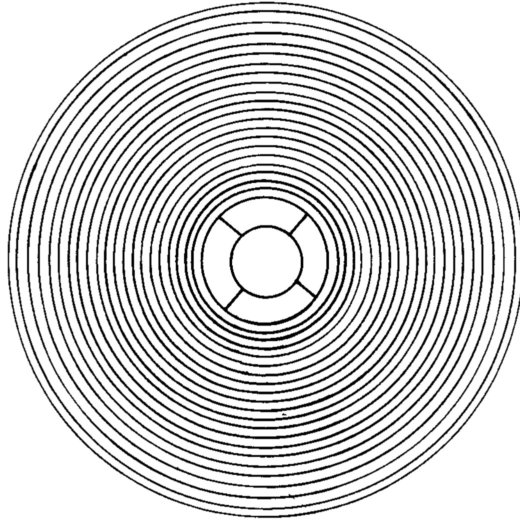

وصل: فلنتكلم على كل صورة صورة منها على ما هو الأمر عليه في نفس في فصول تسعة كما رسمناها في وجوه تسعة من التصوير وما جعلتها على الترتيب من التقديم والتأخير، ولكن الكلام عليها يبين المتقدم من ذلك والمتأخر والمجمل والمفصل.

الفصل الأول:

في ذكر العماء وما يحوي عليه إلى عرش الاستواء

اعلم أن الله موصوف بالوجود لا شيء معه موصوف بالوجود من الممكنات بل أقول: إن الحق هو عين الوجود وهو قول رسول الله ﷺ: «**كَانَ الله وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ**» يقول: الله موجود ولا شيء من العالم موجود، فذكر عن نفسه بدء هذا الأمر أعني ظهور العالم في عينه، وذلك أن الله تعالى أحبّ أن يعرف ليجود على العالم بالعلم به عزّ وجلّ، وعلم أنه تعالى لا يعلم من حيث هويته، ولا من حيث يعلم نفسه، وأنه لا يحصل من العلم به تعالى في العالم إلا أن يعلم العالم أنه لا يعلم، وهذا القدر يسمى علماً كما قال الصديق: «العجز عن درك الإدراك إدراك»، إذ قد علم أن في الوجود أمراً ما لا يعلم وهو الله، ولا سيما للممكنات من حيث إن لها أعياناً ثابتة لا موجودة مساوقة لواجب الوجود في الأزل، كما أن لنا تعلقاً سمعياً ثبوتياً لا وجوداً بخطاب الحق إذا خاطبنا وأن لها قوّة الامتثال، كذلك لها جميع القوى من علم وبصر وغير ذلك، وكل ذلك أمر ثبوتي وحكم محقق غير وجودي، وعلى تلك الأعيان وبها تتعلق رؤية من يراها من الموجودات كما ترى هي نفسها رؤية ثبوتية، فلما اتصف لنا بالمحبة والمحبة حكم يوجب رحمة الموصوف بها بنفسه ولهذا يجد المتنفس راحة في تنفسه، فبروز النفس من المتنفس عين رحمته بنفسه، فما خرج عنه تعالى إلا الرحمة

التي وسعت كل شيء، فانسحبت على جميع العالم ما كان منه وما لا يكون إلى ما لا يتناهى.

فأوّل صورة قبل نفس الرحمن صورة العماء فهو بخار رحماني فيه الرحمة بل هو عين الرحمة، فكان ذلك أوّل ظرف قبله وجود الحق فكان الحق له كالقلب للإنسان، كما أنه تعالى لقلب الإنسان العارف المؤمن كالقلب للإنسان فهو قلب القلب كما أنه ملك الملك فما حواه غيره فلم يكن إلا هو، ثم إن جوهر ذلك العماء قبل صور الأرواح من الراحة والاستروااح إليها وهي الأرواح المهيمة فلم تعرف غير الجوهر الذي ظهرت فيه وبه وهو أصلها وهو باطن الحق وغيبه ظهر فظهر فيه وبه العالم فإنه من المحال أن يظهر العالم من حكم الباطن، فلا بد من ظهور حق به يكون ظهور صور العالم فلم يكن غير العماء، فهو الاسم الظاهر الرحمان فهامت في نفسها ثم أيه واحداً من هذه الصور الروحية بتجل خاص علمي انتقش فيه علم ما يكون إلى يوم القيامة مما لا تعلمه الأرواح المهيمة، فوجد في ذاته قوّة امتاز بها عن سائر الأرواح فشاهدهم وهم لا يشاهدونه ولايشهد بعضهم بعضاً فرأى نفسه مركباً منه، ومن القوّة التي وجدها علم بها صدوره كيف كان، وعلم أن في العلم حقائق معقولات سماها معقولات من حيث أنه عقلها لما تميزت عنده، لم يكن لها أن يكون كل واحدة منها عين الأخرى، فهي للحق معلومات وللحق ولأنفسها معقولات، ولا وجود لها في الوجود الوجودي ولا في الوجود الإمكاني، فيظهر حكمها في الحق فتنسب إليه وتسمى أسماء إلهية، فينسب إليها من نعوت الأزل ما ينسب إلى الحق، وتنسب أيضاً إلى الخلق بما يظهر من حكمها فيه، فينسب إليها من نعوت الحدوث ما ينسب إلى الخلق فهي الحادثة القديمة والأبدية الأزلية، وعلم عند ذلك هذا العقل أن الحق ما أوجد العالم إلا في العماء، ورأى أن العماء نفس الرحمن فقال: لا بد من أمرين يسميان في العلم النظري مقدمتين لإظهار أمر ثالث هو نتيجة ازدواج تينك المقدمتين، ورأى أن عنده من الحق ما ليس عند الأرواح المهيمة، فعلم أنه أقرب مناسبة للحق من سائر الأرواح، ورأى في جوهر العماء صورة الإنسان الكامل الذي هو للحق بمنزلة ظل الشخص من الشخص، ورأى نفسه ناقصاً عن تلك الدرجة، وقد علم ما يتكون عنه من العالم إلى آخره في الدنيا وفي المولدات فعلم أنه لا بد أن يحصل له درجة الكمال التي للإنسان الكامل وإن لم يكن فيها مثل الإنسان فإن الكمال في الإنسان الكامل بالفعل وهو في العقل الأوّل بالقوّة وما كان بالقوّة، والفعل أكمل في الوجود ممن هو بالقوّة دون الفعل، ولهذا وجد العالم في عينه فأخرجه من القوّة إلى الفعل ليتصف بكمال الاقتدار، ولو كان في الإمكان إيجاد الممكنات كلها لما ترك منها واحداً منعوتاً بالعدم لكن يستحيل ذلك لعدم التناهي، وما يدخل في الوجود فلا بد أن يكون متناهياً فتجلى له الحق فرأى لذاته ظلالاً لأن ذلك التجلي كان كالكلام لموسى من جانب الطور، كذلك كان التجلي الإلهي لهذا العقل من الجانب الأيمن، فإن لله يدين مباركتين مبسوطتين يعني فيهما الرحمة فلم يقرن بهما شيئاً من العذاب، فيعطي رحمة يبسطها ويعطي رحمة يقبضها، فإن القبض ضم إليه والبسط انفساح

فيه، فكان ذلك الظل الممتد عن ذات العقل من نور ذلك التجلي، وكثافة المحدث بالنظر إلى اللطيف الخبير نفساً، وهو اللوح المحفوظ والطبيعة الذاتية مع ذلك كله، وتسمى هناك حياة وعلماً وإرادة وقولاً، كما تسمى في الأجسام: حرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة، كما تسمى في الأركان: ناراً وهواء وماء وتراباً، كما تسمى في الحيوان: سوداء وصفراء وبلغماً ودماً والعين واحدة، والحكم مختلف: [البسيط]

فـالـعَـيْـنُ واحـدةٌ والـحُـكْـمُ مُـخْـتَـلِـفُ وذاكَ سِـرٌّ لأهْـل الـعِـلْـم يَـنْـكَـشِـفُ

ثم صرف العقل وجهه إلى العماء فرأى ما بقي منه لم يظهر فيه صورة وقد أبصر ما ظهرت فيه الصور منه قد أنار بالصور وما بقي دون صورة رآه ظلمة خالصة ورأى أنه قابل للصور والاستنارة، فاعلم أن ذلك لا يكون إلا بالتحامك بظلك فعمه التجلي الإلهيّ كما تعم لذة الجماع نفس الناكح حتى تغيبه عن كل معقول ومعلوم سوى ذاتها، فلما عمه نور التجلي رجع ظله إليه واتحد به، فكان نكاحاً معنوياً صدر عنه العرش الذي ذكر الحق أنه استوى عليه الاسم الرحمن فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، فما أنكره من أنكره أعني الاسم الرحمن إلا للقرب المفرط، ولم يقرّوا بالله إلا لما يتضمنه هذا الاسم من الرحمة والقهر، فعلم وجهل الرحمن فقالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] ولو قالها بلسان غير العربي لقال ما يشبه هذا المعنى ويقع الإنكار منهم أيضاً فلا أقرب من الرحمة إلى الخلق لأنه ما ثم أقرب إليهم من وجودهم ووجودهم رحمة بلا شك.

الفصل الثاني

في صورة العرش والكرسي والقدمين والماء الذي عليه العرش والهواء الذي عليه الماء والظلمة التي ظهر عنها الهواء الذي يمسك الماء ويمسك عليه الجرية والحملة والحافين

اعلم أن هذه الظلمة هي ظلمة الغيب ولهذا سميت ظلمة أي لا يظهر ما فيها، فكلما برز من الغيب ظهر لنا فنحن ننظر إلى ما ظهر من صور العالم في مرآة الغيب ولا نعرف أن ذلك في مرآة غيب وهي للحق كالمرآة، فإذا تجلى الحق لها انطبع فيها ما في العلم الإلهيّ من صور العالم وأعيانه، وما زال الحق متجلياً لها فما زالت صورة العالم في الغيب، وكل ما ظهر لمن وجد من العالم فإنما هو ما يقابله في نظره في هذه المرآة التي هي الغيب، فلو جاز أن يعلم جميع ما في علم الحق وذلك لا يجوز فلا يجوز أن يرى من صور العالم في هذه المرآة إلا ما تراءى له منها، فكان مما رآه فيها صورة العرش الذي استوى الرحمن عليه وهو سرير ذو أركان أربعة ووجوه أربعة هي قوائمه الأصلية التي لو استقل بها لثبت عليه، إلا أنه في كل وجه من الوجوه الأربعة التي له قوائم كثيرة على السواء في كل وجه معلومة عندنا أعدادها زائدة على القواعد الأربعة وجعله مجوّفاً محيطاً بجميع ما يحوي عليه من كرسي وأفلاك وجنات وسموات وأركان ومولدات، فلما أوجده استوى عليه الرحمن واحداً لكلمة

لا مقابل لها فهو رحمة كله ليس فيه ما يقابل الرحمة وهو صورة في العماء، فالعقل أبوه والنفس أمه، ولذلك استوى عليه الرحمن، فإن الأبوين لا ينظران أبداً لولدهما إلا بالرحمة والله ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] والنفس والعقل موجودان كريمان على الله محبوبان لله، فما استوى على العرش إلا بما تقر به أعين الأبوين وهو الرحمن، فعلمنا أنه ما يصدر عنه إلا ما فيه رحمة، وإن وقع ببعض العالم غصص فذلك لرحمة فيه لولا ما جرعه إياها اقتضى ذلك مزاج الطبع ومخالفة الغرض النفسي فهو كالدواء الكريه الطعم الغير المستلذ، وفيه رحمة للذي يشربه ويستعمله، وإن كرهه فباطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، وما استوى عليه الرحمن تعالى إلا بعد ما خلق الأرض وقدر فيها أقواتها وخلق السموات وأوحى في كل سماء أمرها وفرغ من خلق هذه الأمور كلها ورتب الأركان ترتيباً يقبل الاستحالات لظهور التكوين والتنقل من حال إلى حال، وبعد هذا استوى على العرش، قال تعالى: ﴿فَسْئَلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] الضمير في قوله به يعود على الاستواء أي فاسأل بالاستواء خبيراً يعني كل من حصل له ذلك ذوقاً كأمثالنا، فإن أهل الله ما علموا الذي علموه إلا ذوقاً ما هو عن فكر ولا عن تدبر، فهو تعالى النازل الذي لا يفارق المنزل ولا النزول، فهو مع كل شيء بحسب حال ذلك الشيء. وفي ليلة تقييدي هذا الوجه أراني الحق في واقعتي رجلاً ربع القامة في شقرة فقعد بين يدي وهو ساكت فقال لي الحق: هذا عبد من عبادنا أفده ليكون هذا في ميزانك فقلت له: من هو؟ فقال لي: هذا أبو العباس بن جودي من ساكني البشرّات وأنا إذ ذاك في دمشق فقلت له: يا رب وكيف يستفيد مني وأين أنا منه؟ فقال لي: قل فإنه يستفيد منك فكما أريتك إياك فهو الآن يراك كما تراه فخاطبه يسمع منك ويقول هو مثل ما تقول أنت، يقول: أرأيت رجلاً بالشام يقال له محمد بن العربي وسماني أفادني أمراً لم يكن عندي فهو أستاذي فقلت له: يا أبا العباس ما الأمر؟ قال: كنت أجهد في الطلب وأنصب وأبذل جهدي فلما كشف لي علمت أني مطلوب فاسترحت من ذلك الكد، فقلت له: يا أخي من كان خيراً منك وأوصل بالحق وأتم في الشهود وأكشف للأمر قيل له وقل: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فأين الراحة في دار التكليف ما فهمت ما قيل لك قولك علمت أني مطلوب ولم تدر بماذا، نعم أنت مطلوب بما كنت عليه من الاجتهاد والجد ما هذه الدار راحة، فإذا فرغت من أمر أنت فيه فانصب في أمر يأتيك في كل نفس فأين الفراغ فشكرني على ما ذكرته به، فانظر عناية الله بنا وبه.

ثم نرجع فنقول: ثم إنه تعالى خلق ملائكة من أنوار العرش يحفون بالعرش، وجعل فيما خلق من الملائكة أربع حملة تحمل العرش من الأربع القوائم الذي هو العرش عليها وكل قائمة مشتركة بين كل وجهين إلى حد كل نصف وجه وجعل أركانه متفاضلة في الرتبة، فأنزلني في أفضلها وجعلني من جملة حملته، فإنه الله وإن خلق ملائكة يحملون العرش فإن له من الصنف الإنساني أيضاً صوراً تحمل العرش الذي هو مستوى الرحمن أنا منهم، والقائمة التي هي أفضل قوائمه هي لنا وهي خزانة الرحمة، فجعلني رحيماً مطلقاً مع علمي بالشدائد،

ولكن علمت أنه ما ثم شدة إلا وفيها رخاوة، ولا عذاب إلا وفيه رحمة، ولا قبض إلا وفيه بسط، ولا ضيق إلا وفيه سعة، فعلمت الأمرين، والقائمة التي على يميني قائمة رحمة أيضاً لكن ما فيها علم شدة فينقص حاملها في الدرجة عن حامل القائمة العظمى التي هي أعم القوائم، والقائمة التي على يساري قائمة الشدة والقهر فحاملها لا يعلم غير ذلك، والقائمة الرابعة التي تقابلني أفاضت عليها القائمة التي أنا فيها مما هي عليه فظهرت بصورتها فهي نور ظلمة وفيها رحمة وشدة، وفي نصف كل وجه قائمة فهي ثمانية قوائم لا حامل لتلك الأربعة اليوم إلى يوم القيامة، فإذا كان في القيامة وكل الله بها من يحملها فيكونون في الآخرة ثمانية وهم في الدنيا أربعة، وما بين كل قائمتين قوائم العرش عليها وبها زينته وعددها معلوم عندنا لا أبينه لئلا يسبق إلى الأفهام القاصرة عن إدراك الحقائق أن تلك القوائم عين ما توهموه وليست كذلك، فلهذا لم نتعرض لإيضاح كميتها، وبين مقعر العرش وبين الكرسي فضاء واسع وهواء محترق وصور أعمال بعض بني آدم من الأولياء في زوايا العرش تطير من مكان إلى مكان في ذلك الانفساح الرحماني، وقوائم هذا العرش على الماء الجامد ولذلك يضاف البرد إلى الرحمة كما قال ﷺ: **«وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ»**، فأعطاه العلم الذي فيه الرحمة، فالعرش إنما يحمله الماء الجامد والحملة التي له إنما هي خدمة له تعظيماً وإجلالاً، وذلك الماء الجامد مقره على الهواء البارد وهو الذي جمد الماء، وذلك الهواء نفس الظلمة التي هي الغيب، ولا يعلم أحد ما تلك الظلمة إلا الله كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٧٣] فلا يظهر على غيبه أحداً. وفيها يكون الناس على الجسر إذا بدلت الأرض غير الأرض والتبدل في الصفة لا في العين فتكون أرض صلاح لا أرض فساد، وتمد مد الأديم ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧] وسيأتي ذكر ذلك في فصله من هذه الفصول إن شاء الله، وخلق الكرسي في جوف هذا العرش مربع الشكل ودلى إليه القدمين فانقسمت الكلمة الواحدة التي هي في العرش واحدة فهي في العرش رحمة واحدة إليها مآل كل شيء، وانقسمت في الكرسي إلى رحمة وغضب مشوب برحمة اقتضى ذلك التركيب لما يريد الله أن يظهر في العالم من القبض والبسط والأضداد كلها، فإنه المعز المذل، والقابض الباسط، والمعطي المانع، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ١٩] فهذا من انقسام الكلمة غير أن الأمر إذا كان ذاتياً لم يكن إلا هذا: [البسيط]

انْظُرْ إلى الكَوْنِ في تفصيله عَجَباً ... ومَرْجِعُ الكُلِّ في العُقْبَى إلى اللّهِ
في الأصْلِ مُتَّفِقٌ في الصُّورِ مُخْتَلِفٌ ... دُنْـيَـا وآخِـرَةً فـالـحُـكْـمُ لله
فـي الله مـن كَـوْنِـه مَـجْـلَـى لـعـالـمـه ... ولا يَـرى الـكَـوْنَ إلا الـلّـهُ بـالله
فـاعْـلَـمْ وُجُـودَكَ إنّ الـجُـودَ مُـوجِـدُهُ ... وكُـنْ بـذاك عـلـى عـلـم مـن الله

فكما استوى الرحمن على العرش استوت القدمان على الكرسي وهو على شكل العرش في التربيع لا في القوائم، وهو في العرش كحلقة ملقاة، فالكرسي موضع راحة الاستواء، فإنه ما تدلى إليه ما تدلى إلا مباسطة، والقدم الثبوت فتاتك قدم الصدق، وقدم الجبار، وقدم

الجبر، وقدم الاختيار، ولهاتين القدمين مراتب كثيرة في العلم الإلهي لا يتسع الوقت لإيرادها لما ذهبنا إليه في هذا الكتاب من الإيجاز والاختصار، ومقر هذا الكرسي أيضاً على الماء الجامد، وفي جوف هذا الكرسي جميع المخلوقات من سماء وأركان هي فيه كهو في العرش سواء وله ملائكة من المقسمات، ولهذا انقسمت الكلمة فيه لأن هذا الصنف لا يعرفون أحدية وإن كانت فيهم، فإن الله وكلهم بالتقسيم مع الأنفاس، فلو أشهدهم الأحدية منهم ومن الأمور كلها ربما شغلوا بها نفساً واحداً عن التقسيم الذي خلقوا له وهم المطيعون كما أخبر الله عنهم فحيل بينهم وبين مشاهدة الوحدات، فأية وحدة تجلت لهم قسموها بالحكم فلا يشهدون إلا القسمة في كل شيء ولا غفلة ولا نسيان لما علموه. وأما ملائكة التوحيد والوحدات إذا جمعهم مع المقسمات مجلس إلهيّ وجرت بينهما مفاوضات في الأمر اختصما لأنهما على النقيض، وهذا من جملة ما يختصم فيه الملأ الأعلى، فيقول الصنف الواحد بالوحدة، ويقول الآخر بالانقسام والثنوية لم توجد أرواحهم إلا من هذه الأرواح، ولم توجد هذه الأرواح إلا من القوّتين اللتين في النفس الكلية: [السريع]

فــالــنَّــفْــسُ لا تُــعْــرَفُ إلا بــه والــحَــقُّ لا يُــعْــرَفُ إلا بــهــا

وأيضاً: [الرجز]

فَــكُــنْ لــه مِــنْ ذَاتِــهِ مُــنَــزِّهَــا وكُــنْ لــه مِــنْ نَــفْــسِــهِ مُــشَــبِّــهَــا

وأيضاً: [الرجز]

ومَــنْ يَــكُــنْ عــلــى الــذي وَصَّــيْــتُــهُ كــان بــمــا أوْصَــيْــتُــهُ مُــنْــتَــبِــهَــا

واعلم علمك الله أن ألوهية المخلوقين من هذه الحضرة ظهرت في العالم لما تعطيه من انقسام كل شيء، فما ظهر في العالم إلا ما خلق تعالى فيه وعلمه، وما اختص العلماء بالله وحصل لهم الشفوف على غيرهم إلا بمصادر الأشياء من أين ظهرت في العالم، والتقابل لا نشك أنه انقسام في مقسوم فلا بد من عين جامعة تقبل القسمة، ولما كان عذر العالم مقبولاً في نفس الأمر لكونهم مجبورين في اختيارهم لذلك جعل الله مآل الجميع إلى الرحمة فهو الغفور لما ستر من ذلك عن قلوب من لم يعلمه بصورة الأمر رحمة به لأنه الرحيم في غفرانه لعلمه بأن مزاجه لا يقبل، فالمنع من القابل لتضمنه مشيئة الحق لكون العين قابلة لكل مزاج، فما اختصت واحدة على التعيين بمزاج دون غيره مع كونها قابلة لكل مزاج إلا لحكم المشيئة الإلهية، وإلى هذا إذا صعدت أرواح الثنوية يكون معراجها ليس لها قدم في غيره فلها طريق خاص وعلى الله قصد السبيل.

الفصل الثالث

في الفلك الأطلس والبروج والجنات وشجرة طوبى وسطح الفلك المكوكب

اعلم أن الله خلق في جوف هذا الكرسي الذي ذكرناه جسماً شفافاً مستديراً قسمه اثني عشر قسماً سمى الأقسام بروجاً وهي التي أقسم بها لنا في كتابه فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ

ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] وأسكن كل برج منها ملكاً هم لأهل الجنة كالعناصر لأهل الدنيا، فهم ما بين مائي وترابي وهوائي وناري، وعن هؤلاء يتكوّن في الجنات ما يتكوّن، ويستحيل فيها ما يستحيل، ويفسد ما يفسد، أعني ينفسد بتغير نظامه إلى أمر آخر ما هو الفساد المذموم المستخبث فهذا معنى يفسد فلا تتوهم، ومن هنا قالت الإمامية بالاثني عشر إماماً، فإن هؤلاء الملائكة أئمة العالم الذي تحت إحاطتهم، ومن كون هؤلاء الاثني عشر لا يتغيرون عن منازلهم لذلك قالت الإمامية بعصمة الأئمة لكنهم لا يشعرون أن الإمداد يأتي إليهم من هذا المكان، وإذا سعدوا سرت أرواحهم في هذه المعارج بعد الفصل والقضاء النافذ بهم إلى هذا الفلك تنتهي لا تتعدّاه فإنها لم تعتقد سواه، فهم وإن كانوا اثني عشر فهم على أربع مراتب، لأن العرش على أربع قوائم، والمنازل ثلاثة: دنيا وبرزخ وآخرة، وما ثم رابع، ولكل منزل من هذه المنازل أربعة لا بد منهم لهم الحكم في أهل هذه المنازل، فإذا ضربت ثلاثة في أربعة كان الخارج من هذا الضرب اثني عشر فلذلك كانوا اثني عشر برجاً. ولما كانت الدار الدنيا تعود ناراً في الآخرة بقي حكم الأربعة عليها التي لها والبرزخ في سوق الجنة ولا بد فيه من حكم الأربعة، والجنة لا بد فيها من حكم الأربعة فلا بد من البروج، فالحمل والأسد والقوس على مرتبة واحدة من الأربعة في مزاجهم، والثور والسنبلة والجدي على مرتبة أخرى ولاة أيضاً، والجوزاء والميزان والدالي على مرتبة أخرى ولاة أيضاً، والسرطان والعقرب والحوت على مرتبة أخرى ولاة أيضاً، لأن كل واحد من كل ثلاثة على طبيعة واحدة في مزاجهم لكن منازل أحكامهم ثلاثة وهم أربعة ولاة في كل منزل، وكل واحد منهم له الحكم في كل منزل من الثلاثة، كما أن اليوم والليلة لواحد من السبع الجواري الخنس الكنس هو واليها وصاحبها الحاكم فيها، ولكن للباقي من الجواري فيه حكم مع صاحب اليوم، فلا يستقل من دون الجماعة إلا بأوّل ساعة من يومه وثامن ساعة، وكذلك الليل والآخرة مثل ذلك، وإن كان لها الأسد كما كان للدنيا السرطان وهو برج منقلب والأسد برج ثابت فإن كل واحد من الاثني عشر له حكم فيها، كذلك الدنيا وإن كان لها السرطان فلا بد لباقي البروج من حكم فيها، كذلك البرزخ وإن كان له السنبلة فلا بد لكل واحد من الباقين من حكم فيها وما ثم منزل ثالث إلا بتبدل الدنيا بالنار، فإنه قد كان صاحب الدنيا بحكم الأصل السرطان، فلما عادت ناراً عزل السرطان ووليها برج الميزان وتبعه الباقون في الحكم فانظر ما أعجب هذا، فإذا انقضى عذاب أهل النار وليها برج الجوزاء، ولا بد لمن بقي من البروج حكم في ولاية هذا الوالي، وإذا كان الحكم لواحد من هؤلاء في وقت نظره فيهم كان مزاج القابل في الآخرة على حكم النقيض حتى يتنعم به إذا حكم عليه هذا في المآل خاصة لأن المآل رحمة مطلقة عامة فبذلك فليفرحوا أعني بفضل الله ورحمته فإنه ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧]. ولما أدار الله الفلك الأطلس بما جعل فيه من الولاة والحكام وجعل منتهى دورته يوماً كاملاً لا ليل فيه ولا نهار أوجد ما فيه عند حركته وبما ألقى وأوحى به إلى النواب من الحكم في ذلك وجعل

لأحكامهم في كل عين مدة معلومة محصورة تتنوع تلك المدد بحسب المنزل الدنياوي والأخراوي والبرزخي، والحكم البرزخي أسرعه مدة وأكثره حكماً، كذا وسنيه على قدر أيامه والأيام متفاضلة، فيوم ونصف دورة ويوم دورة كاملة ويوم من ثمان وعشرين دورة، وأكثر من ذلك إلى يوم المعارج، وأقل من ذلك إلى يوم الشؤون، وما بين هذين اليومين درجات للأيام متفاضلة، وجعل لكل نائب من هؤلاء الأملاك الاثني عشر في كل برج ملكه إياه ثلاثين خزانة تحتوي كل خزانة منها على علوم شتى يهبون منها لمن نزل بهم عن قدر ما تعطيه رتبة هذا النازل وهي الخزائن التي قال الله فيها: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وهذا النازل بهم ما يصرّف ما حصل له من هذه الخزائن من العلوم في نفسه فإن حظه منها حظ حصولها ويصرّف ما حصل له في عالم الأركان والمولدات والإنسان، فمن النازلين من يقيم عندهم يوماً في كل خزانة وينصرف وهو أقل النازلين إقامة، وأما أكثر النازلين إقامة فهو الذي يقيم عند كل خزانة ليحصل منها على قدر رتبته عند الله وما يعطيه استعداده مائة سنة، وباقي النازلين ما بين مائة سنة واليوم وأعني باليوم قدر حركة هذا الفلك الأطلس، وأعني بالمائة سنة كل سنة ثلاث مائة وستين يوماً من أيام هذه الحركة فاعلم ذلك، وهذه الخزائن تسمى عند أهل التعاليم درجات الفلك والنازلون بها هم الجواري والمنازل وعيوقاتها من الثوابت، والعلوم الحاصلة من هذه الخزائن الإلهية هي ما يظهر في عالم الأركان من التأثيرات بل ما يظهر من مقعر فلك الكواكب الثابتة إلى الأرض، وسميت ثابتة لبطئها عن سرعة الجواري السبعة، وجعل لهؤلاء الاثني عشر نظراً في الجنات وأهلها وما فيها مخلصاً من غير حجاب، فما يظهر في الجنان من حكم فهو عن تولي هؤلاء الاثني عشر بنفوسهم تشريفاً لأهل الجنة، وأما أهل الدنيا وأهل النار فما يباشرون ما لهم فيها من الحكم إلا بالنوّاب وهم النازلون عليهم الذين ذكرناهم. فكل ما يظهر في الجنات من تكوين وأكل وشرب ونكاح وحركة وسكون وعلوم واستحالة ومأكول وشهوة فعلى أيدي هؤلاء النواب الاثني عشر من تلك الخزائن بإذن الله عزّ وجلّ الذي استخلفهم، ولهذا كان بين ما يحصل عنهم بمباشرتهم وبين ما يحصل عنهم بغير مباشرتهم بل بوساطة النازلين بهم الذين هم لهم في الدنيا والنار كالحجاب والنواب بون عظيم وفرقان كبير يحصل علم ذلك الفرقان في الدنيا لمن اتقى الله وهو قوله في هذا وأمثاله: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ وهو علم هذا وأمثاله ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي يستر عنكم ما يسؤكم فلا ينالكم ألم من مشاهدته، فإن رؤية السوء إذا رآه من يمكن أن يكون محلاً له وإن لم يحل به فإنه تسوءه رؤيته وذلك لحكم الوهم الذي عنده والإمكان العقلي ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي ويستر من أجلكم ممن لكم به عناية في دعاء عام أو خاص معين، فالدعاء الخاص ما تعين به شخصاً بعينه أو نوعاً بعينه، والعام ما ترسله مطلقاً على عباد الله ممكن يمكن أن يحل بهم سوء ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، بما أوجبه على نفسه من الرحمة، وبما امتن به منها على من استحق العذاب كالعصاة في الأصول

والفروع. وهؤلاء النواب الاثنا عشر هم الذين تولوا بناء الجنات كلها إلا جنة عدن فإن الله خلقها بيده وجعلها له كالقلعة للملك، وجعل فيها الكثيب الأبيض من المسك وهو الظاهر من الصورة التي يتجلى فيها الرب لعباده عند الرؤية كالمسك بفتح الميم من الحيوان وهو الجلد وهو الغشاء الظاهر للأبصار من الحيوان، وجعل بأيديهم غراس الجنات إلا شجرة طوبى فإن الحق تعالى غرسها بيده في جنة عدن وأطالها حتى علت فروعها سور جنة عدن وتدلت مطلة على سائر الجنات كلها وليس في أكمامها ثم إلا الحلي والحلل لباس أهل الجنة وزينتهم زائداً في الحسن والبهاء على ما تحمل أكمام شجر الجنات من ذلك لأن لشجرة طوبى اختصاص فضل بكون الله خلقها بيده فإن لباس أهل الجنة ما هو نسج ينسج وإنما تشقق عن لباسهم ثمر الجنة كما تشقق الأكمام هنا عن الورد وعن شقائق النعمان وما شاكلهما من الأزهار كلها كما ورد في الخبر الصحيح كشفاً والحسن نقلاً أن رسول الله ﷺ كان يخطب بالناس فدخل رجل فقال: يا رسول الله، أو قام رجل من الحاضرين ـ الشك مني ـ فقال: يا رسول الله ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم نسج تنسج؟ فضحك الحاضرون من كلامه فكره ذلك رسول الله ﷺ منهم وقال: «**أَتَضْحَكُونَ أَنْ سَأَلَ جَاهِلٌ عَالِماً؟ يا هٰذا**» وأشار إلى السائل: «**بَلْ تَشَقَّقُ عَنهَا ثَمَرُ الجَنَّةِ**» فحصل لهم علم لم يكونوا عرفوه، وأدار بجنة عدن سائر الجنات، وبين كل جنة وجنة سور يميزها عن صاحبتها، وسمى كل جنة باسم معناه سار في كل جنة، وإن اختصت هي بذلك الاسم فإن ذلك الاسم الذي اختصت أمكن ما هي عليه من معناه وأفضله مثل قوله ﷺ: «**أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ وَأَعْلَمُكُمْ بِالحَلالِ وَالحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَأَفْرَضُكُمْ زَيْدٌ**» وإن كان كل واحد منهم يعلم القضاء والحلال والحرام والفرائض ولكن هو بمن سمي به أخص وهي جنة عدن وجنة الفردوس وجنة النعيم وجنة المأوى وجنة الخلد وجنة السلام وجنة المقامة والوسيلة وهي أعلى جنة في الجنات فإنها في كل جنة من جنة عدن إلى آخر جنة، فلها في كل جنة صورة وهي مخصوصة برسول الله ﷺ وحده نالها بدعاء أمته حكمة من الله حيث نال الناس السعادة ببركة بعثته ودعائه إياهم إلى الله وتبيينه ما نزل الله إلى الناس من أحكامه ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] وجعل أرض هذه الجنات سطح الفلك المكوكب الذي هو سقف النار، وسيأتي فصله في هذه الفصول إن شاء الله تعالى. وجعل في كل جنة مائة درجة بعدد الأسماء الحسنى، والاسم الأعظم المسكوت عنه لوترية الأسماء وهو الاسم الذي يتميز به الحق عن العالم هو الناظر إلى درجة الوسيلة خاصة، وله في كل جنة حكم كما له حكم اسم إلهي فافهم.

ومنازل الجنة على عدد آي القرآن ما بلغ إلينا منه نلنا تلك المنزلة بالقراءة وما لم يبلغ إلينا نلناه بالاختصاص في جنات الاختصاص، كما نلنا بالميراث جنات أهل النار الذين هم أهلها، وأبواب الجنة ثمانية على عدد أعضاء التكليف، ولهذا ورد في الخبر «أن النبي ﷺ قال فيمن توضأ وصلى ركعتين ولم يحدث نفسه بشيء فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء، فقال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه: فما عليه أن لا يدخلها من أبوابها

كلها فقرر رسول الله ﷺ قول أبي بكر وأثبته. وفي خبر جعله صاحب هذا الحال، فلكل عضو باب، والأعضاء ثمانية العين والأذن واللسان واليد والبطن والفرج والرجل والقلب، فقد يقوم الإنسان في زمن واحد بأعمال هذه الأعضاء كلها فيدخل من أبواب الجنة الثمانية في حال دخوله من كل باب منها، فإن نشأة الآخرة تشبه البرزخ وباطن الإنسان من حيث ما هو ذو خيال.

وأما خوخات الجنات فتسع وسبعون خوخة وهي شعب الإيمان بضع وسبعون شعبة والبضع هنا تسعة، فإن البضع في اللسان من واحد إلى تسعة، فأدنى شعبة الإيمان إماطة الأذى عن الطريق، وأعلاه لا إله إلا الله وما بينهما مما يتعلق من الأعمال ومكارم الأخلاق، فمن أتى شيئاً من مكارم الأخلاق فهو على شعبة من الإيمان وإن لم يكن مؤمناً كمن يوحى إليه في المبشرات وهي جزء من أجزاء النبوة وإن لم يكن صاحب المبشرة نبياً فتفطن لعموم رحمة الله، فما تطلق النبوة إلا لمن اتصف بالمجموع فذلك النبي وتلك النبوة التي حجزت علينا وانقطعت فإن من جملتها التشريع بالوحي الملكي في التشريع وذلك لا يكون إلا لنبي خاصة، فلا بد أن يكون لهذه الشعبة حكم فيمن قامت به واتصف بها وظهر أثرها عليه، فإن الله لما أخبر بهذه الشعبة على لسان الرسول أضافها إلى الإيمان إضافة إطلاق لم يقيد إيماناً بكذا بل قال الإيمان والإيمان بكذا شعبة من شعب الإيمان المطلق، فكل شعبة إيمان كالذين آمنوا بالباطل خاصة وهو الإصلاح بين الناس بما لم يكن والخديعة في الحرب فكان للكذب دخول في الإيمان فهو في موطن شعبة من شعب الإيمان، وقد يوجد هذا من المؤمن وغير المؤمن، على أنه ما ثم غير مؤمن فإن الله ما تركه، كما أنه ما ثم غير كافر فإن الأمر محصور بين مؤمن بالله ومؤمن بالباطل وكافر بالله وكافر بالباطل، فكل عبد لله فهو مؤمن كافر معاً يعين إيمانه وكفره ما تقيد به، فلكل شعبة من الإيمان طريق إلى الجنة، فأهل الجنان في كل جنة وأهل النار من حيث ما قام بهم من شعب الإيمان وهم أهل النار الذين لا يخرجون منها، فلهم بما كانوا فيه من شعب الإيمان جميع معاني الجنات في النار إلا جنة الفردوس والوسيلة لا قدم لهم فيهما فإن الفردوس لا عين له في النار، فلهم النعيم والخلد والمأوى والسلام والمقامة وعدن، ولأهل الجنات الرؤية متى شاؤوا ولأهل النار في أحيان مخصوصة الرؤية، فإن الله ما أرسل الحجاب عليهم مطلقاً وإنما قال يومئذ في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] لما تعود عليهم وأغلظ في حال الغضب والربوبية لها الشفقة، فإن المربى ضعيف يتعين اللطف به، فلذلك كان في حال الغضب عن ربه محجوباً فافهم، فأورثه ذلك الحجاب أن جعله يصلى الجحيم لأنه قال بعد قوله لمحجوبون: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٦] فأتى بقوله ثم فما صلى الجحيم إلا بعد وقوع الحجاب ولذلك قيده بيومئذ، كذلك أيضاً لم يخل إنسان ولا مكلف أن يكون على خلق من أخلاق الله وأن لله ثلاثمائة خلق، فلا بد أن يكون الإنسان من مؤمن وكافر على خلق من أخلاق الله وأخلاق الله كلها حسنة حميدة، فكل ذات قام بها خلق منها وصرفه في الموضع الذي يستحقه ذلك الخلق فلا بد أن تسعد به حيث كانت من نار أو جنان فإنه في كل ذي كبد رطبة

أجر، ولا بد أن يحنو كل إنسان على أمر ما من خلق الله فله أجر من ذلك، فدركات النار هي دركات ما لم ينقطع العذاب، فإذا انتهى إلى أجله المسمى عاد ذلك الدرك في حق المقيم فيه درجة للخلق الإلهي الذي كان عليه يوماً ما: [البسيط]

اللهُ أكْـرَمُ أنْ تَـنْـسَـاك مِـنَّـتُـهُ ... ومَـنْ يَـجُـودُ إذا الـرحـمـنُ لـم يَـجُـدِ

ولما جعل الله تعالى في المكلف عقلاً وتجلى له كان له من جهة عقله ونظره عقد وعهد لله ألزمه ذلك النظر العقلي، وهو الافتقار إلى الله بالذات وأمثاله، ثم بعث إليه رسولاً من عنده فأخذ عليه عهداً آخر على ما تقرر في الميثاق الأوّل، فصار الإنسان مع الله بين عهدين: عهد عقلي وعهد شرعي، وأمره الله بالوفاء بهما بل طلبه الحال بذلك لقبوله، فلما وقفت على هذين العهدين وبلغ مني علمي بهما المبلغ الذي يبلغه من شاهده قلت: [الكامل]

في الـقَـلْـبِ عَـقْـدُ حِـجًـى وعَـقْـدُ هـدايـةٍ ... أتُـراه يَـخْـلُـصُ مـن لـه عَـقْـدَانِ
ربِّـي بـمـا أعْـطَـيْـتَـنِـيـهِ عَـلِـمْـتُـهُ ... مـا لـي لـمـا حَـمَّـلْـتَـنِـيـهِ تـرانِ
مـا كـلّ مـا كَـلَّـفْـتَـنِـيـهِ أُطِـيـقُـهُ ... مـن لـي بـتـحـصـيـل الـنـجـاة وذانِ
عَـقْـلاً وشَـرْعـاً بـالـوفـاء يـنـاديـا ... قـلـبـي فـمـا لـي بـالـوفـاء يَـدَانِ
إنْ كُـنْـتُ نَـعْـتـي فـالـوفـاءُ مـحـصّـلٌ ... أو كُـنْـتُ أنـت فـمـا هـمـا عَـنَـيَـانِـي

أما قولي: «إن كنت نعتي» فهو قول رسول الله ﷺ عن ربه أنه قال: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ وَمُؤَيِّدَهُ**» وكذلك: «إن كنت» أعني نفسي «أنت» أي أنت الفاعل والموجد للعمل والوفاء لا أنا، إذ لا إيجاد لمخلوق في عقدنا بل الأمر كله لله «فما هما» يعني العقل والشرع بحكمهما عليَّ «عنياني»، وإنما عنيا من له خلق الأعمال والأحوال والقدرة عليها، وإنما قلنا هذا ليحقق عند السامعين صدق الله في قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] وأقوى الجدال ما يجادل به الله.

واعلم أن شجرة طوبى لجميع شجر الجنات كآدم لما ظهر منه من البنين فإن الله لما غرسها بيده وسوّاها نفخ فيها من روحه وكما فعل في مريم نفخ فيها من روحه فكان عيسى يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص، فشرف آدم باليدين ونفخ الروح فيه فأورثه نفخ الروح فيه علم الأسماء لكونه مخلوقاً باليدين، فبالمجموع نال الأمر وكانت له الخلافة ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦] وتولى الحق غرس شجرة طوبى بيده، ونفخ الروح فيها زينها بثمر الحلي والحلل اللذين فيهما زينة للابسهما فنحن أرضها، فإن الله جعل ما على الأرض زينة لها وأعطت في ثمر الجنة كله من حقيقتها عين ما هي عليه، كما أعطت النواة النخلة وما تحمله مع النوى الذي في ثمرها، وكل من تولاه الحق بنفسه من وجهه الخاص بأمر مّا من الأمور فإن له شفوفاً وميزة على من ليس له هذا الاختصاص ولا هذا التوجه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل الرابع

في فلك المنازل وهو المكوكب وهيئة السموات والأرض والأركان والمولدات والعمد الذي يمسك الله السماء به أن تقع على الأرض لرحمته بمن فيها من الناس مع كفرهم بنعمه، فلا تهوي السماء ساقطة واهية حتى يزول الناس منها

اعلم أن الله خلق هذا الفلك المكوكب في جوف الفلك الأطلس وما بينهما خلق الجنات بما فيها فهذا الفلك أرضها والأطلس سماؤها وبينهما فضاء لا يعلم منتهاه إلا من أعلمه الله، فهو فيه كحلقة في فلاة فيحاء وعين في مقعر هذا الفلك ثماني وعشرين منزلة مع ما أضاف إلى هذه الكواكب التي سميت منازل لقطع السيارة فيها، ولا فرق بينها وبين سائر الكواكب الأخر التي ليست بمنازل في سيرها، وفيما تختص به من الأحكام في نزولها الذي ذكرناه في البروج قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] يعني هذه المنازل المعينة في هذا الفلك المكوكب وهي كالمنطقة بين الكواكب من الشرطين إلى الرشاء، وهي تقديرات وفروض في هذا الجسم، ولا تعرف أعيان هذه المقادير إلا بهذه الكواكب، كما أنه ما عرفت أنها منازل إلا بنزول السيارة فيها، ولولا ذلك ما تميزت عن سائر الكواكب إلا بأشخاصها، ومن مقعر هذا الفلك إلى ما تحته هي الدار الدنيا، فإنه من هناك إلى ما تحته يكون استحالة ما تراه إلى الأخرى، فللأخرى صورة فيها غير صورة الدنيا فينتقل من ينتقل منها إلى الجنة من إنسان وغير إنسان، ويبقى ما يبقى فيها من إنسان وغير إنسان، وكل من يبقى فيها فهو من أهل النار الذين هم أهلها، وجعل الله لكل كوكب من هذه الكواكب قطعاً في الفلك الأطلس ليحصل من تلك الخزائن التي في بروجه وبأيدي ملائكته الاثني عشر من علوم التأثير ما تعطيه حقيقة كل كوكب وقد بينا ذلك، وجعلها على طبائع مختلفة، والنور الذي فيها وفي سائر السيارة من نور الشمس وهو الكوكب الأعظم القلبي ونور الشمس ما هو من حيث عينها بل هو من تجل دائم لها من اسمه النور، فما ثم نور إلا نور الله الذي هو نور السموات والأرض، فالناس يضيفون ذلك النور إلى جرم الشمس، ولا فرق بين الشمس والكواكب في ذلك إلا أن التجلي للشمس على الدوام فلهذا لا يذهب نورها إلى زمان تكويرها، فإن ذلك التجلي المثلي النوري يستتر عنه في أعين الناظرين بالحجاب الذي بينها وبين أعينهم، وبسباحة هذه الكواكب تحدث أفلاكاً في هذا الفلك أي طرقاً والهواء يعم جميع المخلوقات فهو حياة العالم وهو حار رطب، فما أفرطت فيه الحرارة والسخونة سمي ناراً، وما أفرطت فيه الرطوبة وقلت حرارته سمي ماء، وما بقي على حكم الاعتدال بقي عليه اسم الهواء وعلى الهواء أمسك الماء وبه جرى وانساب وتحرك، وليس في الأركان أقبل لسرعة الاستحالة من الهواء لأنه الأصل وهو فرع لازدواج الحرارة والرطوبة على الاعتدال والطريق المستقيم فهو الأسطقص الأعظم أصل الأسطقصات كلها والماء أقرب أسطقص إليه، ولهذا جعل الله منه كل شيء حي، ويقبل بذاته التسخين، ولا تقبل النار برودة ولا رطوبة لا بالذات ولا بالعرض بخلاف الماء.

وصل: فأعظم البروج البروج الهوائية وهي الجوزاء والميزان والدالي، ولما خلق الله الأرض سبع طباق جعل كل أرض أصغر من الأخرى لكون على كل أرض قبة سماء، فلما خلق الأرض وقدر فيها أقواتها وكسا الهواء صورة النحاس الذي هو الدخان فمن ذلك الدخان خلق سبع سموات طباقاً أجساماً شفافة وجعلها على الأرض كالقباب على كل أرض سماء أطرافها عليها نصف كرة والأرض لها كالبساط فهي مدحية دحاها من أجل السماء أن تكون عليها فمادت فقال بالجبال عليها فثقلت فسكنت بها، وجعل في كل سماء منها كوكباً وهي الجواري منها القمر في السماء الدنيا، وفي السماء الثانية الكاتب وهو عطارد، وفي الثالثة الزهرة، وفي الرابعة الشمس، وفي الخامسة الأحمر وهو المريخ، وفي السادسة المشتري وهو بهرام، وفي السابعة زحل وهو المقاتل كما رسمناها في المثال المتقدم، فلما سبحت الكواكب كلها ونزلت بالخزائن التي في البروج ووهبتها ملائكة البروج من تلك الخزائن ما وهبتها تأثرت في الأركان ما تولد فيها من جماد الذي هو المعدن ونبات وحيوان، وآخر موجود الإنسان الحيوان خليفة الإنسان الكامل وهو الصورة الظاهرة التي بها جمع حقائق العالم، والإنسان الكامل هو الذي أضاف إلى جمعية حقائق العالم حقائق الحق التي بها صحت له الخلافة ظهر ذلك فيمن ظهر من هذه الصور فجعل في كل صنف من المولدات نوعاً كاملاً من جنسها، فأكمل صورة ظهرت في المعدن صورة الذهب، وفي النبات شجر الوقواق، وفي الحيوان الإنسان، وجعل بين كل نوعين متوسطات كالكمأة بين المعدن والنبات، والنخلة بين النبات والحيوان، والنسناس والقرد بين الحيوان والإنسان، ونفخ في كل صورة أنشأها روحاً منه فحييت وتعرف إليها بها فعرفته بأمر جبلت عليه تلك الصورة وما تعرف إليها إلا من نفسها فما تراه إلا على صورتها، وكانت الصور على أمزجة مختلفة وإن كانت خلقت من نفس واحدة كقلوب بني آدم خلقها الله من نفس واحدة وهي مختلفة، فمن الصور من بطنت حياته فأخذ الله بأبصار أكثر الناس عنها وهي على ضربين: ضرب له نموّ وغذاء ونوع له نموّ ولا غذاء له فسمينا الصنف الواحد معدناً وحجراً، والآخر نباتاً ومن الصور من ظهرت حياته فسميناه حيواناً وحياً والكل حي في نفس الأمر ذو نفس ناطقة، ولا يمكن أن يكون في العالم صورة لا نفس لها ولا حياة ولا عبادة ذاتية وأمرية سواء كانت تلك الصورة مما يحدثها الإنسان من الأشكال أو يحدثها الحيوانات ومن أحدثها من الخلق عن قصد وعن غير قصد، فما هو إلا أن نتصور الصورة كيف تصورت وعلى يدي من ظهرت إلا ويلبسها الله تعالى روحاً من أمره ويتعرف إليها من حينه فتعرفه منها وتشهده فيها، هكذا هو الأمر دائماً دنيا وآخرة يكشفه أهل الكشف، فظهر الليل والنهار بطلوع الشمس وغروبها كما حدث اليوم بدورة الفلك الأطلس، كما حدث الزمان بمقارنة الحوادث عند السؤال بمتى، والزمان واليوم والليل والنهار وفصول السنة كلها أمور عدمية نسبية لا وجود لها في الأعيان، وأوحى في كل سماء أمرها وجعل إمضاء الأمور التي أودعها السموات في عالم الأركان عند سباحة هذه الجواري وجعلهم نواباً متصرفين بأمر الحق لتنفيذ هذه الأمور التي أخذوها من

خزائن البروج في السنة بكمالها، وقدر لها المنازل المعلومة التي في الفلك المكوكب وجعل لها اقترانات وافتراقات كل ذلك بتقدير العزيز العليم؛ وجعل سيرها في استدارة ولهذا سماها أفلاكاً، وجعل في سطح السماء السابعة الضراح وهو البيت المعمور وشكله كما رسمته في الهامش:

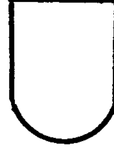

وخلق في كل سماء عالماً من الأرواح والملائكة يعمرونها، فأما الملائكة فهم السفراء النازلون بمصالح العالم الذي ظهر في الأركان والمصالح أمور معلومة وما يحدث عن حركات هذه الكواكب كلها وعن حركة الأطلس لا علم لهؤلاء السفراء بذلك حتى تحدث، فلكل واحد منهم مقام معلوم لا يتعداه، وباقي العالم شغلهم التسبيح والصلاة والثناء على الله تعالى وبين السماء السابعة والفلك المكوكب كراسي عليها صور كصور المكلفين من الثقلين وستور مرفوعة بأيدي ملائكة مطهرة ليس لهم إلا مراقبة تلك الصور وبأيديهم تلك الستور، فإذا نظر الملك إلى الصور قد سمجت وتغيرت عما كانت عليه من الحسن أرسل الستر بينها وبين سائر الصور فلا يعرفون ما طرأ، ولا يزال الملك من الله مراقباً تلك الصورة، فإذا رأى تلك الصورة قد زال عنها ذلك القبح وحسنت رفع الستر فظهرت في أحسن زينة وتسبيح تلك الصور وهؤلاء الأرواح الملكية الموكلة بالستور، سبحان من أظهر الجميل وستر القبيح وأطلع أهل الكشف على هذا ليتخلقوا بأخلاق الله ويتأدبوا مع عباد الله، فيظهرون محاسن العالم ويسترون مساويهم، وبذلك جاءت الشرائع من عند الله، فإذا رأيت من يدعي الأهلية لله ويكون مع العالم على خلاف هذا الحكم فهو كاذب في دعواه، وبهذا وأمثاله تسمى سبحانه بالغافر والغفور والغفار.

ولما كوّن الله ملكوته مما ذكرناه خلق آدم بيديه من الأركان وجعل أعظم جزء فيه التراب لبرده ويبسه وأنزله خليفة في أرضه التي خلق منها، وقد كان خلق قبله الجان من الأركان وجعل أغلب جزء فيه النار، وكان من أمر آدم وإبليس والملائكة ما وصف الله لنا في القرآن فلا يحتاج إلى ذكر ذلك، وأمسك الله صورة السماء على السماء لأجل الإنسان الموحد الذي لا يمكن أن ينفي فذكره الله الله لأنه ليس في خاطره إلا الله، فما عنده أمر آخر يدعي عنده ألوهية فينفيه بلا إله إلا الله فليس إلا الله الواحد الأحد، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لاَ يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مَنْ يَقُولُ الله الله**» وهو الذكر الأكبر الذي قال الله فيه: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فما قال الرسول ﷺ من يقول لا إله إلا الله فهذا الاسم هو هجير هذا الإمام الذي يقبض آخراً وتقوم الساعة فتنشق السماء، فإن هذا وأمثاله كان العمد لأن الله ما أمسكها من أجله أن تقع على الأرض ولذلك قال فيها أنها واهية أي

واقعة ساقطة، ثم ما زالت النواب تتحرك في طرقها والصور تظهر بالاستحالات في عالم الأركان دنيا وبرزخاً وآخرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فلا يبقى إلا ما في الآخرة وهو يوم القيامة والداران الجنة والنار، ولكل واحدة منهما ملؤها من الجن والإنس ومما شاء الله وفي الجنة قدم الصدق وفي النار قدم الجبار وهما القدمان اللتان في الكرسي، وقد مر من الكلام في هذا الفن من هذا الكتاب ما فيه غنية للعاقل وبلغة زاد للمسافر توصله إلى مقصوده.

الفصل الخامس

في أرض الحشر وما تحوي عليه من العالم والمراتب وعرش الفصل والقضاء وحملته وصفوف الملائكة عليها بين يدي الحكم العدل

اعلم أن الله تعالى إذا نفخ في الصور، وبعث ما في القبور، وحشر الناس والوحوش ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] ولم يبق في بطنها سوى عينها إخراجاً لا نباتاً، وهو الفرق بين نشأة الدنيا الظاهرة وبين نشأة الآخرة الظاهرة، فإن الأولى أنبتنا فيها من الأرض فنبتنا نباتاً كما ينبت النبات على التدريج وقبول الزيادة في الجرم طولاً وعرضاً، ونشأة الآخرة إخراج من الأرض على الصورة التي يشاء الحق أن يخرجنا عليها، ولذلك علق المشيئة بنشر الصورة التي أعادها في الأرض الموصوفة بأنها تنبت على غير مثال لأنه ليس في الصور صورة تشبهها، فكذلك نشأة الآخرة يظهرها الله على غير مثال صورة تقدمت تشبهها وذلك قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] فإذا أخرجت الأرض أثقالها وحدثت أنها ما بقي فيها مما اختزنته شيء جيء بالعالم إلى الظلمة التي دون الجسر فألقوا فيها حتى لا يرى بضعهم بعضاً ولا يبصرون كيف التبديل في السماء والأرض حتى تقع فتمد الأرض أوّلاً مد الأديم وتبسط فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً وهي الساهرة فلا نوم فيها فإنه لا نوم لأحد بعد الدنيا ويرجع ما تحت مقعر الفلك المكوكب جهنم، ولهذا سميت بهذا الاسم لبعد قعرها فأين المقعر من الأرض؟ ويوضع الصراط من الأرض علواً على استقامة إلى سطح الفلك المكوكب، فيكون منتهاه إلى المرج الذي خارج سور الجنة، وأوّل جنة يدخلها الناس هي جنة النعيم، وفي ذلك المرج المأدبة وهو درمكة بيضاء نقية منها يأكل أهل المأدبة وهو قوله تعالى في المؤمنين إذا أقاموا التوراة والإنجيل من بني إسرائيل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦] فنحن أمة محمد ﷺ نقيم كل ما أنزل إلينا من ربنا بالإيمان وبه نعمل من ذلك بما أمرنا من العمل به، وغيرنا من الأمم منهم من آمن كما آمنا، ومنهم من آمن ببعض وكفر ببعض، فمن نجا منهم قيل فيه: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وهو ما خرج من فروع أشجار الجنان على السور فظلل على هذا المرج فقطفه السعداء﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ هو ما أكلوه من الدرمكة البيضاء التي هم عليها، ووضع الموازين في أرض الحشر لكل مكلف ميزان يخصه، وضرب بسور يسمى الأعراف

بين الجنة والنار وجعله مكاناً لمن اعتدلت كفتا ميزانه فلم ترجح إحداهما على الأخرى، ووقفت الحفظة بأيديهم الكتب التي كتبوها في الدنيا من أعمال المكلفين وأقوالهم ليس فيها شيء من اعتقادات قلوبهم إلا ما شهدوا به على أنفسهم بما تلفظوا به من ذلك فعلقوها في أعناقهم بأيديهم، فمنهم من أخذ كتابه بيمينه، ومنهم من أخذه بشماله، ومنهم من أخذه من وراء ظهره وهم الذين نبذوا الكتاب في الدنيا وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً، وليس أولئك إلا الأئمة الضلال المضلون الذين ضلوا وأضلوا، وجيء بالحوض يتدفق ماء عليه من الأواني على عدد الشاربين منه لا تزيد ولا تنقص ترمى فيه أنبوبات أنبوب ذهب وأنبوب فضة وهو لزيق بالسور، ومن السور تنبعث هذان الأنبوبان فيشرب منه المؤمنون ويؤتى بمنابر من نور مختلفة في الإضاءة واللون فتنصب في تلك الأرض ويؤتى بقوم فيقعدون عليها قد غشيتهم الأنوار لا يعرفهم أحد في رحمة الأبد عليهم من الخلع الإلهية ما تقر به أعينهم، ويأتي مع كل إنسان قرينه من الشياطين والملائكة وتنشر الألوية في ذلك اليوم للسعداء والأشقياء بأيدي أئمتهم الذي كانوا يدعونهم إلى ما كانوا يدعونهم إليه من حق وباطل، وتجتمع كل أمة إلى رسولها من آمن به ومن كفر، وتحشر الأفراد والأنبياء بمعزل من الناس بخلاف الرسل فإنهم أصحاب العساكر فلهم مقام يخصهم. وقد عين الله في هذه الأرض بين يدي عرش الفصل والقضاء مرتبة عظمى امتدت من الوسيلة التي في الجنة يسمى ذلك المقام المحمود وهو لمحمد ﷺ خاصة، وتأتي الملائكة ملائكة السموات ملائكة كل سماء على حدة متميزة عن غيرها فيكونون سبعة صفوف أهل كل سماء صف والروح قائم مقدم الجماعة وهو الملك الذي نزل بالشرائع على الرسل، ثم يجاء بالكتب المنزلة والصحف وكل طائفة ممن نزلت من أجلها خلفها فيمتازون عن أصحاب الفترات وعمن تعبد نفسه بكتاب لم ينزل من أجله، وإنما دخل فيه وترك ناموسه لكونه من عند الله وكان ناموسه عن نظر عقلي من عاقل مهدي، ثم يأتي الله عزّ وجلّ على عرشه والملائكة الثمانية تحمل ذلك العرش فيضعونه في تلك الأرض والجنة عن يمين العرش والنار من الجانب الآخر وقد علت الهيبة الإلهية وغلبت على قلوب أهل الموقف من إنسان وملك وجان ووحش فلا يتكلمون إلا همساً بإشارة عين وخفي صوت، وترفع الحجب بين الله وبين عباده وهو كشف الساق، ويأمرهم داعي الحق عن أمر الله بالسجود لله فلا يبقى أحد سجد لله خالصاً على أي دين كان إلا سجد السجود المعهود، ومن سجد اتقاء ورياء خرّ على قفاه، وبهذه السجدة يرجح ميزان أصحاب الأعراف لأنها سجدة تكليف فيسعدون ويدخلون الجنة، ويشرع الحق في الفصل والحكم بين عباده فيما كان بينهم، وأما ما كان بينهم وبين الله فإن الكرم الإلهيّ قد أسقطه فلا يؤاخذ الله أحداً من عباد الله فيما لم يتعلق به حق للغير. قد ورد من أخبار الأنبياء عليهم السلام في ذلك اليوم ما قد ورد على ألسنة الرسل ودوّن الناس فيه ما دوّنوا، فمن أراد تفاصيل الأمور فلينظرها هنالك، ثم تقع الشفاعة الأولى من محمد ﷺ في كل شافع أن يشفع، فيشفع الشافعون ويقبل الله من شفاعتهم ما شاء ويردّ من شفاعتهم ما شاء لأن الرحمة في ذلك اليوم يبسطها الله في

قلوب الشفعاء، فمن ردّ الله شفاعته من الشافعين لم يردها انتقاصاً بهم ولا عدم رحمة بالمشفوع فيه، وإنما أراد بذلك إظهار المنة الإلهية على بعض عباده، فيتولى الله سعادتهم ورفع الشقاوة عنهم، فمنهم من يرفع ذلك عنه بإخراجهم من النار إلى الجنان وقد ورد وشفاعته بشفاعة أرحم الراحمين عند المنتقم الجبار، فهي مراتب أسماء إلهية لا شفاعة محققة، فإن الله يقول في ذلك اليوم: شفعت الملائكة والنبيون والمؤمنون وبقي أرحم الراحمين، فدل المفهوم أنه لم يشفع، فيتولى بنفسه إخراج من يشاء من النار إلى الجنة، ونقل حال من هو من أهل النار من شقاء الآلام إلى سعادة إزالتها فذلك قدر نعيمه وقد يشاء، ويملأ الله جهنم بغضبه المشوب وقضاءه، والجنة برضاه، فتعم الرحمة وتنبسط النعمة فيكون الخلق كما هم في الدنيا على صورة الحق فيتحوّلون لتحوله، وآخر صورة يتحوّل إليها في الحكم في عباده صورة الرضا فيتحوّل الحق في صورة النعيم، فإن الرحيم والمعافي أوّل من يرحم ويعفو وينعم على نفسه بإزالة ما كان فيه من الحرج والغضب على من أغضبه، ثم سرى ذلك في المغضوب عليه، فمن فهم فقد أمناه ومن لم يفهم فسيعلم ويفهم المآل إليه، والله من حيث يعلم نفسه ومن هويته وغناه فهو على ما هو عليه، وإنما هذا الذي وردت به الأخبار وأعطاه الكشف إنما ذلك أحوال تظهر ومقامات تشخص ومعان تجسد ليعلم الحق عباده معنى الاسم الإلهيّ الظاهر وهو ما بدا من هذا كله، والاسم الإلهيّ الباطن وهو هويته وقد تسمى لنا بهما، فكل ما هو العالم فيه من تصريف وانقلاب وتحوّل في صور في حق وخلق فذلك من حكم الاسم الظاهر وهو منتهى علم العالم والعلماء بالله. وأما الاسم الباطن فهو إليه لا إلينا وما بأيدينا منه سوى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، على بعض وجوه محتملاته، إلا أن أوصاف التنزيه لها تعلق بالاسم الباطن وإن كان فيه تحديد، ولكن ليس في الإمكان أكثر من هذا، فإنه غاية الفهم عندنا الذي يعطيه استعدادنا. وأما قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: ٧١] فإن الطريق إلى الجنة عليها فلا بد من الورود، فإذا لم يبق في أرض الحشر من أهل الجنة أحد عاد كله ناراً أي دار النار، وإن كان فيها زمهرير فجهنم من مقعر فلك الكواكب إلى أسفل سافلين.

الفصل السادس
في جهنم وأبوابها ومنازلها ودركاتها

اعلم أن جهنم تحوي على السموات والأرض على ما كانت عليه السماء والأرض إذ ﴿كَانَتَا رَتۡقٗا﴾ [الأنبياء: ٣٠] فرجعت إلى صفتها من الرتق، والكواكب كلها فيها طالعة وغاربة على أهل النار بالحرور والزمهرير، بالحرور على المقرورين بعد استيفاء المؤاخذة بما أجرموا، وبالزمهرير على المحرورين ليجدوا في ذلك نعيماً ولذّة ما لهم من النعيم إلا ذلك وهو دائم عليهم أبداً، وكذلك طعامهم وشرابهم بعد انقضاء مدة المؤاخذة يتناولون من شجرة الزقوم لكل إنسان بحسب ما يبرد عنه ما كان يجده أو يسخنه، كالظمآن بحرارة العطش فيجد ماء بارداً فيجد له من اللذة لإذهابه لحرارة العطش وكذلك ضده وأبوابها سبعة بحسب أعضاء

التكليف الظاهرة، لأن باب القلب مطبوع عليه لا يفتح من حين طبع الله عليه عندما أقر له بالربوبية وعلى نفسه بالعبودية، فللنار على الأفئدة اطلاع لا دخول لغلق ذلك الباب فهو كالجنة حفت بالمكاره، فما ذكر الله من أبواب النار إلا السبعة التي يدخل منها الناس والجان، وأما الباب المغلق الذي لا يدخل عليه أحد هو في السور فباطنه فيه الرحمة بإقراره بوجود الله رباً له وعبودته لربه، وظاهره من قبله العذاب وهي النار ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٧] وأما منازلها ودركاتها وخوخاتها فعلى ما ذكرناه في الجنة على السواء لا تزيد ولا تنقص، وليس في النار نار ميراث ولا نار اختصاص وإنما ثم نار أعمال، فمنهم من عمرها بنفسه وعمله الذي هو قرينه، ومن كان من أهل الجنة بقي عمله الذي كان في الدنيا على صورته في المكان من النار الذي لو كان من أهلها صاحب ذلك العمل لكان فيه، فإنه من ذلك المكان كان وجود ذلك العمل، وهو خلاف ما كلف من فعل وترك فعاد إلى وطنه، كما عاد الجسم عند الموت إلى الأرض التي خلق منها، وكل شيء إلى أصله يعود إن طالت المدّة فإنها أنفاس معدودة وآجال مضروبة محدودة يبلغ الكتاب فيها أجله، ويرى كل مؤمل أمله، فإنما نحن به وله فما خرجنا عنا ولا حللنا إلا بنا حيث كنا وحشرت الوحوش كلها فيها إنعاماً من الله عليها إلا الغزلان، وما استعمل من الحيوان في سبيل الله فإنهم في الجنان على صور يقتضيها ذلك الموطن، وكل حيوان تغذى به أهل الجنة في الدنيا خاصة وإذا لم يبق في النار أحد إلا أهلها وهم في حال العذاب يجاء بالموت على صورة كبش أملح فيوضع بين الجنة والنار ينظر إليه أهل الجنة وأهل النار فيقال لهم: تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت فيضجعه الروح الأمين ويأتي يحيى عليه السلام وبيده الشفرة فيذبحه ويقول الملك لساكني الجنة والنار خلود فلا موت ويقع اليأس لأهل النار من الخروج منها ويرتفع الإمكان من قلوب أهل الجنة من وقوع الخروج منها، وتغلق الأبواب وهي عين فتح أبواب الجنة فإنها على شكل الباب الذي إذا انفتح انسد به موضع آخر، فعين غلقه المنزل عين فتحه منزلاً آخر. وأما أسماء أبوابها السبعة: فباب جهنم، باب الجحيم، باب السعير، باب سقر، باب لظى، وباب الحطمة، وباب سجين، والباب المغلق، وهو الثامن الذي لا يفتح فهو الحجاب. وأما خوخات شعب الإيمان فمن كان على شعبة منها فإن له منها تجلياً بحسب تلك الشعبة كانت ما كانت، ومنها ما هي خلق في العبد جبل عليه، ومنها ما هي مكتسبة وكل خير فإنها عن الخير المحض، فمن عمل خيراً على أيّ وجه كان فإنه يراه ويجازى به، ومن عمل شراً فلا بد أن يراه وقد يجازى به وقد يعفى عنه ويبدل له بخير إن كان في الدنيا قد تاب، وإن مات عن غير توبة فلا بد أن يبدل بما يقابله بما تقتضيه ندامته يوم يبعثون ويرى الناس أعمالهم والجان وكل مكلف فما كان يستوحش منه المكلف عند رؤيته يعود له أنس له به، وتختلف الهيئات في الدارين مع الأنفاس باختلاف الخواطر هنا في الدنيا، فإن باطن الإنسان في الدنيا هو الظاهر في الدار الآخرة، وقد كان غيباً هنا فيعود شهادة هناك وتبقى العين غيباً باطن هذه الهيئات والصور لا تتبدل ولا تتحوّل فما ثم إلا صور وهيئات تخلع عنه وعليه دائماً أبداً إلى غير نهاية ولا انقضاء.

الفصل السابع
في حضرة الأسماء الإلهية والدنيا والآخرة والبرزخ

اعلم أن أسماء الله الحسنى نسب وإضافات وفيها أئمة وسدنة، ومنها ما يحتاج إليها الممكنات احتياجاً ضرورياً، ومنها ما لا يحتاج إليها الممكنات ذلك الاحتياج الضروري، وقوّة نسبتها إلى الحق أوجه من طلبها للخلق، فالذي لا بد للممكن منها الحي والعالم والمريد والقائل كشفاً وهو في النظر العقلي القادر، فهذه أربعة يطلبها الخلق بذاته، وإلى هذه الأربعة تستند الطبيعة، كما تستند الأركان إلى الطبيعة، كما تستند الأخلاط إلى الأركان، وإلى الأربعة تستند في ظهورها أمهات المقولات وهي: الجوهر والعرض والزمان والمكان، وما بقي من الأسماء فكالسدنة لهذه الأسماء، ثم يلي هذه الأسماء اسمان المدبر والمفصل ثم الجواد والمقسط، فعن هذين الاسمين كان عالم الغيب والشهادة والدار الدنيا والآخرة وعنهما كان البلاء والعافية والجنة والنار، وعنهما خلق من كل زوجين اثنين، والسراء والضراء وعنهما صدر التحميدان في العالم التحميد الواحد: الحمد لله المنعم المفضل، والتحميد الآخر: الحمد لله على كل حال، وعن هذين الاسمين ظهرت القوّتان في النفس: القوّة العلمية والقوّة العملية، والقوّة والفعل والكون والاستحالة والملأ الأعلى والملأ الأسفل والخلق والأمر، ولما كانت الأسماء الإلهية نسباً تطلبها الآثار لذلك لا يلزم ما تعطل حكمه منها ما لم يتعطل، وإنما يقدح ذلك لو اتفق أن تكون أمراً وجودياً، فالله إله سواء وجد العالم أو لم يوجد، فإن بعض المتوهمين تخيل أن الأسماء للمسمى تدل على أعيان وجودية قائمة بذات الحق، فإن لم يكن حكمها يعم وإلا بقي منها ما لا أثر له معطلاً، فلذلك قلنا إنه سبحانه لو رحم العالم كله لكان، ولو عذب العالم كله لكان، ولو رحم بعضه وعذب بعضه لكان، ولو عذبه إلى أجل مسمى لكان، فإن الواجب الوجود لا يمتنع عنه ما هو ممكن لنفسه ولا مكره له على ما ينفذه في خلقه بل هو ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، فلما خلق الله العالم رأيناه ذا مراتب وحقائق مختلفة تطلب كل حقيقة منه من الحق نسبة خاصة، فلما أرسل تعالى رسله كان مما أرسلهم به لأجل تلك النسب أسماء تسمى بها لخلقه يفهم منها دلالتها على ذاته تعالى وعلى أمر معقول لا عين له في الوجود له حكم هذا الأثر، والحقيقة الظاهرة في العالم من خلق ورزق ونفع وضرّ وإيجاد واختصاص وأحكام وغلبة وقهر ولطف وتنزل واستجلاب ومحبة وبغض وقرب وبعد وتعظيم وتحقير، وكل صفة ظاهرة في العالم تستدعي نسبة خاصة لها اسم معلوم عندنا من الشرع، فمنها مشتركة وإن كان لكل واحد من المشتركة معنى إذا تبين ظهر أنها متباينة، فالأصل في الأسماء التباين والاشتراك فيه لفظي، ومنها متباينة، ومنها مترادفة ومع ترادفها فلا بد أن يفهم من كل واحد معنى لا يكون في الآخر فعلمنا ما سمى به نفسه واقتصرنا عليها فأوجد الدار الدنيا وأسكن فيها الحيوان، وجعل الإنسان الكامل فيها إماماً وخليفة أعطاه علم الأسماء لما تدل عليه من المعاني، وسخر لهذا الإنسان وبنيه وما تناسل منه جميع ما في السموات وما في الأرض، وخلق خلقاً إن قلت فيه موجود صدقت،

وإن قلت فيه معدوم صدقت، وإن قلت فيه لا موجود ولا معدوم صدقت. وهو الخيال، وله حالان: حال اتصال وهذا الحال له بوجود الإنسان وبعض الحيوان، وحال انفصال وهو ما يتعلق به الإدراك الظاهر منحازاً عنه في نفس الأمر كجبريل في صورة دحية، ومن ظهر من عالم الستر من الجنة من ملك وغيره وخلق الجنة والمنزل الذي يكون يوم القيامة ناراً فخلق من النار ما خلق وبقي منها ما بقي في القوة، وجعل ذلك فيما جعل الله في هذا الوجود الطبيعي من الاستحالات، فالذي هو اليوم دار دنيا يكون غداً في القيامة دار جهنم وذلك في علم الله، وقد بينا ذلك في الصورة المثالية المتقدمة في هذا الباب على التقريب.

الفصل الثامن
في الكثيب ومراتب الخلق فيه

اعلم أن الكثيب هو مسك أبيض في جنة عدن وجنة عدن في قصبة الجنة وقلعتها، وحضرة الملك وخواصه لا تدخلها العامة إلا بحكم الزيارة، وجعل في هذا الكثيب منابر وأسرّة وكراسي ومراتب لأن أهل الكثيب أربع طوائف: مؤمنون وأولياء وأنبياء ورسل، وكل صنف ممن ذكرنا أشخاصه يفضل بعضهم بعضاً قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥] فتفضل منازلهم بتفاضلهم وإن اشتركوا في الدار ومن هذا الباب قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥] يعني الخلق فدخل فيه جميع بني آدم دنيا وآخرة، فإذا أخذ الناس منازلهم في الجنة استدعاهم الحق إلى رؤيته فيسارعون على قدر مراكبهم ومشيهم هنا في طاعة ربهم، فمنهم البطيء، ومنهم السريع، ومنهم المتوسط، ويجتمعون في الكثيب، وكل شخص يعرف مرتبته علماً ضرورياً يجري إليها ولا ينزل إلا فيها، كما يجري الطفل إلى الثدي، والحديد إلى المغناطيس لو رام أن ينزل في غير مرتبته لما قدر، ولو رام أن يتعشق بغير منزلته ما استطاع، بل يرى في منزلته أنه قد بلغ منتهى أمله وقصده، فهو يتعشق بما هو فيه من النعيم تعشقاً طبيعياً ذاتياً لا يقوم بنفسه ما هو عنده أحسن من حاله، ولولا ذلك لكانت دار ألم وتنغيص ولم تكن جنة ولا دار نعيم، غير أن الأعلى له نعيم بما هو فيه في منزلته وعنده نعيم الأدنى وأدنى الناس منزلة على أنه ليس ثم من دني من لا نعيم له إلا بمنزلة خاصة، وأعلاهم من لا أعلى منه له نعيم بالكل، فكل شخص مقصور عليه نعيمه فما أعجب هذا الحكم. ففي الرؤية الأولى يعظم الحجاب على أهل النار والتنغيص والعذاب بحيث إنهم لا يكون عندهم عذاب أشد عذاباً من ذلك، فإن الرؤية الأولى تكون قبل انقضاء أجل العذاب وعموم الرحمة الشاملة وذلك ليعرفوا ذوقاً عذاب الحجاب، وفي الرؤية الثانية إلى ما يكون بعد ذلك تعم الرحمة، ولهم أعني لأهل الجحيم رؤية من خوخات أبواب النار على قدر ما اتصفوا به في الدنيا من مكارم الأخلاق، فإذا نزل الناس في الكثيب للرؤية وتجلى الحق تعالى تجلياً عاماً على صور الاعتقادات في ذلك التجلي الواحد فهو واحد من حيث هو تجل، وهو كثير من حيث

اختلاف الصور، فإذا رأوه انصبغوا عن آخرهم بنور ذلك التجلي وظهر كل واحد منهم بنور صورة ما شاهده، فمن علمه في كل معتقد فله نور كل معتقد، ومن علمه في اعتقاد خاص معين لم يكن له سوى نور ذلك المعتقد المعين، ومن اعتقد وجوداً لا حكم له فيه بتنزيه ولا تشبيه بل كان اعتقاده أنه على ما هو عليه فلم ينزه ولم يشبه وآمن بما جاء من عنده تعالى على علمه فيه سبحانه، فله نور الاختصاص لا يعلم إلا في ذلك الوقت فإنه في علم الله، فلا يدرى هل هو أعلى ممن عمم الاعتقادات كلها علمه أو مساوٍ له، وأما دونه فلا، فإذا أراد الله رجوعهم إلى مشاهدة نعيمهم بتلك الرؤية في جناتهم قال لملائكته وزعة الكثيب: ردّوهم إلى قصورهم فيرجعون بصورة ما رأوا او يجدون منازلهم وأهليهم منصبغين بتلك الصورة فيتلذذون بها فإنهم في وقت المشاهدة كانوا في حال فناء عنهم فلم تقع لهم لذة في زمان رؤيتهم، بل اللذة عند أوّل التجلي حكم سلطانها عليهم فأفنتهم عنها وعن أنفسهم فهم في اللذة في حال فناء لعظيم سلطانها، وإذا أبصروا تلك الصورة في منازلهم وأهليهم استمرت لهم اللذة وتنعموا بتلك المشاهدة فتنعموا في هذا الموطن بعين ما أفناهم في الكثيب ويزيدون في ذلك التجلي وفي تلك الرؤية علماً بالله أعطاهم إياه العيان لم يكن عندهم، فإن المعلوم إذا شوهد تعطي مشاهدته أمراً لا يمكن أن يحصل من غير مشاهدة كما قيل: [الوافر]

ولَكِنْ للعيان لَطِيفُ مَعْنًى ... لذا سَأَلَ المُعَايَنَةَ الكَلِيمُ

وهذا ذوق يعرفه كل من أقيم في هذه الحال لا يقدر على إنكاره من نفسه.

الفصل التاسع

في العالم وهو كل ما سوى الله وترتيبه ونضده روحاً وجسماً وعلواً وسفلاً

اعلم أن العالم عبارة عن كل ما سوى الله وليس إلا الممكنات سواء وجدت أو لم توجد، فإنها بذاتها علامة على علمنا أو على العلم بواجب الوجود لذاته وهو الله، فإن الإمكان حكم لها لازم في حال عدمها ووجودها بل هو ذاتي لها لأن الترجيح لها لازم فالمرجح معلوم، ولهذا سمي عالماً من العلامة لأنه الدليل على المرجح فاعلم ذلك، وليس العالم في حال وجوده بشيء سوى الصور التي قبلها العماء وظهرت فيه، فالعالم إن نظرت حقيقته إنما هو عرض زائل أي في حكم الزوال وهو قوله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨] وقال رسول الله ﷺ: «**أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَتْهُ العَرَبُ قَوْلُ لَبِيدٍ: أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا الله بَاطِلُ**». يقول: ما له حقيقة يثبت عليها من نفسه فما هو موجود إلا بغيره ولذلك قال ﷺ: «**أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَتْهُ العَرَبُ: أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ الله بَاطِلُ**»، فالجوهر الثابت هو العماء وليس إلا نفس الرحمن، والعالم جميع ما ظهر فيه من الصور فهي أعراض فيه يمكن إزالتها، وتلك الصور هي الممكنات، ونسبتها من العماء نسبة الصور من المرآة تظهر فيها لعين الرائي والحق تعالى هو بصر العالم فهو الرائي وهو العالم بالممكنات، فما أدرك إلا ما في علمه من صور الممكنات فظهر العالم بين العماء

وبين رؤية الحق فكان ما ظهر دليلاً على الرائي وهو الحق فتفطن واعلم من أنت.

وأما نضده على الظهور والترتيب فأرواح نورية إلهية مهيمة في صور نورية خلقية إبداعية في جوهر نفس هو العماء من جملتها العقل الأوّل وهو القلم، ثم النفس وهو اللوح المحفوظ، ثم الجسم، ثم العرش ومقره وهو الماء الجامد والهواء والظلمة، ثم ملائكته، ثم الكرسي، ثم ملائكته، ثم الأطلس، ثم ملائكته، ثم فلك المنازل، ثم الجنات بما فيها، ثم ما يختص بها وبهذا الفلك من الكواكب، ثم الأرض، ثم الماء، ثم الهواء العنصري، ثم النار، ثم الدخان. وفتق فيه سبع سموات: سماء القمر، وسماء الكاتب، وسماء الزهرة، وسماء الشمس، وسماء الأحمر، وسماء المشتري، وسماء المقاتل ثم أفلاكها المخلوقون منها، ثم ملائكة النار والماء والهواء والأرض، ثم المولدات المعدن والنبات والحيوان، ثم نشأة جسد الإنسان، ثم ما ظهر من أشخاص كل نوع من الحيوان والنبات والمعدن، ثم الصور المخلوقات من أعمال المكلفين وهي آخر نوع، هذا ترتيبه بالظهور في الإيجاد.

وأما ترتيبه بالمكان الوجودي أو المتوهم فالمكان المتوهم المعقولات التي ذكرناها إلى الجسم الكل، ثم العرش، ثم الكرسي، ثم الأطلس، ثم المكوكب وفيه الجنات، ثم سماء زحل، ثم سماء المشتري، ثم سماء المريخ، ثم سماء الشمس، ثم سماء الزهرة، ثم سماء الكاتب، ثم سماء القمر، ثم الأثير، ثم الهواء، ثم الماء، ثم الأرض.

وأما ترتيبه بالمكانة فالإنسان الكامل، ثم العقل الأوّل، ثم الأرواح المهيمة، ثم النفس، ثم العرش، ثم الكرسي، ثم الأطلس، ثم الكثيب، ثم الوسيلة، ثم عدن، ثم الفردوس، ثم دار السلام، ثم دار المقامة، ثم المأوى، ثم الخلد، ثم النعيم، ثم فلك المنازل، ثم البيت المعمور، ثم سماء الشمس، ثم القمر، ثم المشتري، ثم زحل، ثم الزهرة، ثم الكاتب، ثم المريخ، ثم الهواء، ثم الماء، ثم التراب، ثم النار، ثم الحيوان، ثم النبات، ثم المعدن. وفي الناس: الرسل، ثم الأنبياء، ثم الأولياء، ثم المؤمنون، ثم سائر الخلق. وفي الأمم: أمة محمد ﷺ، ثم أمة موسى عليه السلام، ثم الأمم على منازل رسلها.

وأما ترتيبه بالتأثير فمنه المؤثر بالحال، ومنه ما هو المؤثر بالهمة، ومنه ما هو المؤثر بالقول، ومنه ما هو المؤثر بالفعل أعني بالآلة، ومنهم المؤثر بمجموع الكل، ومنهم المؤثر بمجموع البعض، ومنهم المؤثر بغير قصد لما ظهر منه من الأثر كتأثيرات الرياح بهبوبها في الرمال وغيرها وهي صورة الأشكال، وما في الوجود إلا مؤثر ومؤثر فيه مطلقاً ومؤثر اسم مفعول يكون له أثر بالحال كصور تحدث فتؤثر بالحال في واهب الأرواح لها، وقد ذكرنا في نضد العالم خطبة وهي هذه التي أنا ذاكرها، ذكر الخطبة في نضد العالم: الحمد لله الذي ليس لأوليته افتتاح كما لسائر الأوليات. الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى الأزليات. الكائن ولا عقل ولا نفس ولا بسائط ولا مركبات. ولا أرض ولا سماوات. العالم في العماء بجميع المعلومات. القادر الذي لا يعجز عن الجائزات. المريد الذي لا يقصر فتعجزه

المعجزات. المتكلم ولا حروف ولا أصوات السميع الذي يسمع كلامه ولا كلام مسموع إلا بالحروف والأصوات والآلات والنغمات. البصير الذي رأى ذاته ولا مرئيات مطبوعة الذوات. الحي الذي وجبت له صفات الدوام الأحدي والمقام الصمدي فتعالى بهذه السمات. الذي جعل الإنسان الكامل أشرف الموجودات. وأتم الكلمات المحدثات. والصلاة على سيدنا محمد خير البريات وسيد الجسمانيات والروحانيات. وصاحب الوسيلة في الجنات الفردوسيات. والمقام المحمود في اليوم العظيم البليات الأليم الرزيات. أما بعد: فإنه لما شاء سبحانه أن يوجد الأشياء من غير موجود وأن يبرزها في أعيانها بما تقتضيه من الرسوم والحدود، لظهور سلطان الأعراض والخواص والفصول والأنواع والأجناس الدافعين شبه الشكوك والرافعين حجب الالتباس بوسائط العبارات الشارحة والصفات الرسمية والذاتية النيرة النبراس فانجلى في صورة العلم صور الجواهر المتماثلات والأعراض المختلفات والمتماثلات والمتقابلات. وفصل بين هذه الذوات بين المتحيزات منها وغير المتحيزات. كما انجلى في ذوات الأعراض والجواهر صور الهيئات والحالات بالكيفيات وصور المقادير والأوزان المتصلات والمنفصلات بالكميات وصور الأدوار والحركات الزمانيات وصور الأقطار والأكوار المكانيات والصور الحافظات الماسكات نظام العالم الحاملات أسباب المناقب والمثالب العرضيات وأسباب المدائح والمذام الشرعيات. وأسباب الصلاح والفساد الوضعيات الحكميات وصور الإضافات بين المالك والمملوك والآباء والأبناء والبنات. وصور التمليك بالعبيد والإماء الخارجات والحسن والجمال والعلم وأمثال ذلك الداخلات. وصور التوجهات الفعلية القائمة بالفاعلات. وصور المنفعلات التي هي بالفعل والفاعلات مرتبطات. وقال عندما جلاها ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ [الشمس] هذه حقائق الآباء العلويات والأمهات السفليات، ولها البقاء بالإبقاء مع استمرار التكوينات والتلوينات بالتغيير والاستحالات ليثبت عندها علم ما هي الحضرة الإلهية عليه من العزة والثبات، فهذا هو الذي أبرز سبحانه من المعلومات ولا يجوز غير ذلك فإنه لم يبق سوى الواجبات والمحالات. فأول موجود أداره سبحانه فلك الإشارات، إدارة إحاطة معنوية وهو أوّل الأفلاك الممكنات المحدثات المعقولات، وأوّل صورة ظهر في هذا الفلك العمائي صور الروحانيات المهيمات. الذي منها القلم الإلهي الكاتب العلام في الرسالات وهو العقل الأول الفياض في الحكميات والإنباءات وهو الحقيقة المحمدية والحق المخلوق به والعدل عند أهل اللطائف والإشارات. وهو الروح القدسي الكل عند أهل الكشوف والتلويحات. فجعله عالماً حافظاً باقياً تاماً كاملاً فياضاً كاتباً من دواة العلم تحركه يمين القدرة عن سلطان الإرادة والعلوم الجاريات إلى نهايات، وهو مستوى الأسماء الإلهيات، ثم أدار معدن فلك النفوس دون هذا الفلك وهو اللوح المحفوظ في النبوّات وهو النفس المنفعلة عند أصحاب الإدراكات والإشارات والمكاشفات. فجعلها باقية تامة غير كاملة وفائضة غير مفيضة فيض العقل فهي

في محل القصور والعجز عن بلوغ الغايات، ثم أوجد الهباء في الكشف والهيولى في النظر والطبيعة في الأذهان لا في الأعيان، فأول صورة أظهر في ذلك الهباء صور الأبعاد الثلاثة فكان المكان فوجه عليه سبحانه سلطان الأربعة الأركان، فظهرت البروج الناريات والترابيات والهوائيات والمائيات فتميزت الأكوان وسمى هذا الجسم الشفاف اللطيف المستدير المحيط بأجسام العالم العرش العظيم الكريم، واستوى عليه باسمه الرحمن استواء منزهاً عن الحد والمقدار معلوم عنده غير مكيف ولا معلوم للعقول والأذهان، ثم أدار سبحانه في جوف هذا الفلك الأوّل فلكاً ثانياً سماه الكرسي فتدلت إليه القدمان فانفرق فيه كل أمر حكيم بتقدير عزيز عليم، وعنده أوجد الخيرات الحسان والمقصورات في خيام الجنان، ثم رتب فيه منازل الأمور كلها وأحكمها في روحانيات سخرها وحكمها بالتأثيرات السبعية من ألف إلى ساعة عن اختلاف الملوان، وجعل هذه المنازل بين وسط ممزوج وطرفي سعد مستقر ونحس مستمر بنزول المقدر المفرد الإنسان، ثم أدار سبحانه في جوف هذه الفلك الثاني فلكاً ثالثاً وخلق فيه كوكباً سابحاً من الخنس الكنس مسخراً فقيراً أودع لديه كل أسود حالك وقرن به ضيق المسالك والوعر والحزن والكرب والحزن وحسرات الفوت وسكرات الموت، وأسرار الظلمات والمفازات المهلكات والأشجار المثمرات والأفاعي والحيات، والحيوانات المضرات والحرات الموحشات والطرق الدارسات والعنا والمشقات، وخلق عند مساعدته النفس الكلية الجبال لتسكين الأرضين المدحيات، وأسكن في هذا الفلك روحانية خليله إبراهيم عليه السلام عبده ورسوله، ثم أدار في جوف هذا الفلك فلكاً رابعاً خلق فيه كوكباً سابحاً من الخنس الكنس أودع لديه النخل الباسقات والعدل في القضايا والحكومات وأسباب الخير والسعادات والبيض الحسان المنعمات والاعتدالات والتمامات وأسرار العبادات والقربات والصدقات البرهانيات والصلوات النوريات وإجابة الدعوات والناظرين إلى الواقفين بعرفات، وقبول النسك بموضع رمي الجمرات، وخلق عند مساعدته النفس الكلية تحليل المياه الجامدات، وأسكن في هذا الفلك روحانية نبيه موسى عليه السلام عبده ونجيه، ثم أدار في جوف هذا الفلك فلكاً خامساً خلق فيه كوكباً سابحاً من الخنس الكنس أودع لديه حماية المذاهب بالقواضب المرهفات والموازن السمهريات وتجميز قدور راسيات وملء جفون كالجوابي المستديرات والتعصبات والحميات، وإيقاع الفتن والحروب بين أهل الهدايات والضلالات، وتقابل الشبه المضلات والأدلة الواضحات بين أهل العقول السليمة والتخيلات، وخلق عند مساعدته النفس الكل لتلطيف الأهوية السخيفات، وأسكن في هذا الفلك روح رسوليه هارون ويحيى عليهما السلام موضحي سبيليه، ثم أدار في جوف هذا الفلك فلكاً سادساً خلق فيه كوكباً عظيماً مشرقاً سابحاً أودع لديه أسرار الروحانيات والأنوار المشرقات والضياءات اللامعات والبروق الخاطفات والشعاعات النيرات والأجساد المستنيرات والمراتب الكاملات والاستواءات المعتدلات والمعارف اللؤلؤيات واليواقيت العاليات، والجمع بين الأنوار والأسرار الساريات ومعالم التأسيسات وأنفاس النور الجاريات

وخلع الأرواح المدبرات وإيضاح الأمور المبهمات وحل المسائل المشكلات وحسن إيقاع السماع في النغمات وتوالي الواردات وترادف التنزلات الغيبيات وارتقاء المغاني الروحانيات إلى أوج الانتهاءات، ودفع العلل بالعلالات النافعات، والكلمات المستحسنات، والأعراف العطريات، وأمثال ذلك مما يطول ذكره، قد ذكرنا منه طرفاً في الباب السادس والأربعين من كتاب التنزلات الموصليات، وخلق عند مساعدته النفس الكل تحريك الفلك الأثير لتسخين العالم بهذه الحركات، وأسكن في هذا الفلك إدريس النبي المخصوص بالمكان العلي، ثم أدار في جوف هذه الفلك فلكاً سابعاً خلق فيه كوكباً سابحاً من الخنس الكنس أودع لديه التصوير التام وحسن النظام والسماع الشهي والمنظر الرائق البهي والهيبة والجمال والأنس والجلال، وخلق عند مساعدته النفس الكل تقطير ماء رطب من ركن البخارات، وأسكن في هذا الفلك روحانية النبي الجميل التام يوسف عليه السلام. ثم أدار في جوف هذا الفلك فلكاً ثامناً خلق فيه كوكباً سابحاً من الخنس الكنس أودع لديه الأوهام والاليهام والوحي والإلهام ومهالك الآراء الفاسدة والقياسات، والأحلام الرديئة والمبشرات والاختراعات الصناعيات والاستنباطات العمليات، وما في الأفكار من الغلطات والإصابات، والقوى الفعالات والوهميات والزجر والكهانات والفراسات، والسحر والعزائم والطلسميات، وخلق عند مساعدته النفس الكل مزج البخارات الرطبة بالبخارات اليابسات، وأسكن في هذا الفلك روحانية روحه وكلمته عيسى عليه السلام عبده ورسوله وابن أمته. ثم أدار في جوف هذا الفلك فلكاً آخر تاسعاً خلق فيه كوكباً سابحاً أودع الله لديه الزيادة والنقصان والربو والاستحالات بالاضمحلالات، وخلق عند مساعدته النفس الكل إمداد المولدات بركن العصارات، وأسكن في هذا الفلك روحانية نبيه آدم عليه السلام عبده ورسوله وصفيه، وأسكن هذه الأفلاك المستديرات أصناف الملائكة الصافات التاليات، فمنها القائمات والقاعدات، ومنها الراكعات والساجدات كما قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] فهم عمار السموات، وجعل منهم الأرواح المطهرات المعتكفين بأشرف الحضرات، وجعل منهم الملائكة المسخرات والوكلاء على ما يخلقه الله من التكوينات، فوكل بالأرجاء الزاجرات وبالأنباء المرسلات وبالإلهام واللمات الملقيات، وبالتفصيل والتصوير والترتيب المقسمات، وبالترغيب والترحيب الناشرات، وبالترهيب الناشطات، وبالتشتيت النازعات، وبالسوق السابحات، وبالاعتناء السابقات، وبالأحكام المدبرات. ثم أدار في جوف هذا الفلك كرة الأثير أودع فيها رجوم المسترقات الطارقات، ثم جعل دونه كرة الهواء أجرى فيه الذاريات العاصفات السابقات الحاملات المعصرات، وموّج فيه البحور الزاخرات الكائنات من البخارات المستحيلات يسمى دائرة كرة الزمهرير تتعلم منه صناعة التقطيرات، وأمسك في هذه الكرة أرواح الأجسام الطائرات، وأظهر في هاتين الكرتين الرعود القاصفات، والبروق الخاطفات، والصواعق المهلكات، والأحجار القاتلات، والجبال الشامخات، والأرواح الناريات الصاعدات النازلات والمياه الجامدات، ثم أدار في

جوف هذه الكرة كرة أودع فيها سبحانه ما أخبرنا به في الآيات البينات من أسرار إحياء الموات، وأجرى فيها الأعلام الجاريات، وأسكنها الحيوانات الصامتات، ثم أدار في جوفها كرة أخرى أودع فيه ضروب التكوينات من المعادن والنباتات والحيوانات، فأما المعادن فجعلها عز وجلّ ثلاث طبقات منها المائيات والترابيات والحجريات، وكذلك النبات منها النابتات والمغروسات والمزروعات، وكذلك الحيوانات منها المولدات المرضعات والحاضنات والمعفنات، ثم كون الإنسان مضاهياً لجميع ما ذكرناه من المحدثات، ثم وهبه معالم الأسماء والصفات فمهدت له هذه المخلوقات المعجزات ولهذا كان آخر الموجودات، فمن روحانيته صح له سر الأولية في البدايات، ومن جسميته صح له الآخرية في الغايات، فبه بدىء الأمر وختم إظهاراً للعنايات وأقامه خليفة في الأرض لأن فيها ما في السموات، وأيده بالآيات والعلامات والدلالات والمعجزات، واختصه بأصناف الكرامات، ونصب به القضايا المشروعات ليميز الله به الخبيثات من الطيبات، فيلحق الخبيث بالشقاوات في الدركات، ويلحق الطيب بالسعادات في الدرجات كما سبق في القبضتين اللتين هما صفتان للذات، فسبحان مبدىء هذه الآيات وناصب هذه الدلالات على أنه واحد قهار الأرض والسموات: فهذا ترتيب نضد العالم على طريق خاص لبعض النظار أنفرد به، وسنذكر بعد القصيدة التي أذكرها بعد هذا ما وافقونا فيه، وأما نظمنا فيه أيضاً على طريقة أخرى في الوضع الأول فاعلم. وهذه هي القصيدة: [الكامل]

الحَمْدُ لله الذي بوُجُودِهِ ... ظَهَرَ الوُجُودُ وعَالَمُ الهيمَانِ
والعُنْصُر الأعْلَى الذي بوجوده ... ظهرتْ ذواتُ عوالم الإمكانِ
من غَيْر تَرْتِيبٍ فلا مُتَقَدِّم ... فيه ولا مُتَأَخِّر بالآنِ
حتى إذا شاء المهيمنُ أن يَرَى ... ما كان معلوماً من الأكوانِ
فَتَحَ القَدِيرُ عوالمَ الدّيوانِ ... بوُجُودِ رُوح ثم رُوح ثاني
ثم الهَبَاءِ كذا الهُيُولَى ثم جِسْم قابلٍ ... لعوالم الأفلاك والأركان
فأدَارَهُ فَلَكاً عظيماً واسمه الـ ... عَرْشُ الكريمُ ومستوى الرحمنِ
يتلوه كرسيُّ انْقِسَام كلامِهِ ... فتَلُوحُ من أقسامه القَدَمَانِ
من بَعْدِهِ فَلَكُ البروجِ وبَعْدَهُ ... فَلَكُ الكواكب مصدرُ الأزمانِ
ثم التنزولُ مع الخَلاء لمركزٍ ... ليُقِيم فيه قواعدَ البُنْيانِ
فأدار أرْضاً ثم ماءً فوقه ... كُرَةُ الهواء وعُنْصُرُ النِّيرانِ
مِنْ فَوْقِهِ فَلَكُ الهلال وفَوْقَهُ ... فَلَكٌ يُضاف لكاتب الدِّيوانِ
مِنْ فَوْقِهِ فَلَكٌ لزُهْرَةَ فَوْقَهُ ... فَلَكُ الغزالة مصدرُ المَلَوَانِ
مِنْ فَوْقه المِرِّيخُ ثم المُشْتري ... ثم الذي يُعْزَى إلى كيوَانِ
ولكلّ جسم ما يشاكلُ طَبْعَهُ ... خَلْقٌ يُسمّى العَالَمَ النُّوراني
فهُمُ الملائكةُ الكرامُ شعارُهم ... حِفْظُ الوجود من اسْمِهِ المِحْسانِ

فتحرَّكتْ نحو الكمال فوَلَّدَتْ عند التحرُّك عَالَمَ الشيطانِ
ثم المَعَادنَ والنَّبَاتَ وبعده جاءت لنا بعوالم الحَيَوانِ
والغايةُ القُصْوَى ظهورُ جسومنا في عالم التركيب والأبْدان
لما اسْتَوَتْ وتَعَدَّلَتْ أركانُهُ نَفَخَ الإلٰهُ لطيفةَ الإنسان
وكساهُ صُورَتَهُ فعاد خليفةً يَعْنُو له الأملاكُ والثَّقَلانِ
وبدورة الفَلَكِ المُحيط وحكمه أبدى لنا في عالم الحَدَثَانِ
في جَوْف هذا الأرْضِ ماءَ أَسْوَداً نَتْناً لأهل الشرك والطُّغْيان
يجري على مَتْن الرياح وعندها ظُلُمَاتُ سُخْطِ القاهر الدَّيَّانِ
دارت بصَخْرة مركز سلطانه الـ ـروح الإلهيُّ العظيمُ الشَّانِ

فهذا ترتيب الوضع الذي أنشأ الله عليه العالم ابتداء.

اعلم أن التفاضل في المعلومات على وجوه أهمها التأثير، فكل مؤثر أفضل من أكثر المؤثر فيه من حيث ذلك التأثير خاصة، وقد يكون المفضول أفضل منه من وجه آخر، وكذلك فضل العلة على معلولها، والشرط على مشروطه، والحقيقة على المحقق، والدليل على المدلول من حيث ما هو مدلول له لا من حيث عينه، وقد يكون الفضل بعموم التعلق على ما هو أخص تعلقاً منه كالعالم والقادر، ولما كان الوجود كله فاضلاً مفضولاً أدى ذلك إلى المساواة وأن يقال: لا فاضل ولا مفضول بل وجود شريف كامل تام لا نقص فيه ولا سيما وليس في المخلوقات على اختلاف ضروبها أمر إلا وهو مستند إلى حقيقة ونسبة إلهية، ولا تفاضل في الله لأن الأمر لا يفضل نفسه، فلا مفاضلة بين العالم من هذا الوجه وهو الذي يرجع إليه الأمر من قبل ومن بعد، وعليه عوّل أهل الجمع والوجود، وبهذا سموا أهل الجمع لأنهم أهل عين واحدة كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ [القمر: ٥٠] ومن كشف الأمر على ما هو عليه علم ما ذكرناه في ترتيب العالم في هذا الباب فإنه متنوع المساق ففي الخطبة ترتيب ليس في المنظوم وكذلك سائر ما ذكرناه في الباب.

وصل في ذكر ما في هذا المنزل من العلوم: فمن ذلك علم الاتصال الكوني والانفصال الإلهيّ والكوني. وفيه علم تنزيه الحق مع ثبوت النزول والمعية عما للنزول والمعية من الحركة والانتقال. وفيه علم الفرقان بين الكتب المنزلة من عند الله وإن كانت كلها كلام الله، ولماذا تكثرت وتعدّدت آياتها وسورها هل لكونها كلاماً أو لكونها متكلماً بها؟ وفيه علم افتراق الناس إلى مؤمن بكذا وغير مؤمن به. وفيه علم الملأ الأعلى. وفيه علم الآجال. وفيه علم حكمة التفضيل في العالم. وفيه علم انتشاء الفروع من أصل واحد. وفيه علم قول القائل: [السريع]

وما على الله بمُسْتَنْكَرٍ أنْ يَجْمَعَ العَالَمَ في وَاحِدِ

وهذا هو علم الإنسان الكامل الجامع حقائق العالم وصورة الحق سبحانه وتعالى. وفيه علم الفرق بين المبدأ والمعاد وما معنى المعاد هل هو أمر وجودي أو نسبة مرتبة كوالٍ يعزل

ثم يرد إلى ولايته؟ وفيه علم السبب الذي لأجله أنكر من أنكر المعاد وما المعاد الذي أنكر وما صفة المنكر؟ وفيه علم نسبة الأشياء إلى الله نسبة واحدة فكيف سبقت الرحمة الغضب حتى عمت الرحمة كل شيء فلم يبق للغضب محل يظهر فيه. وفيه علم هداة الحق. وفيه علم إنشاء العالم من العالم ولماذا يرجع ما فيه من الزيادة والنقص فلا بدّ من العلم بكمال أو تمام به يتميز ما زاد عليه وما نقص عنه، وهل كل زيادة على التمام نقص أم لا؟ وفيه علم هل يوجد أمران متجاوران ليس بينهما وسط مثل الغيب والشهادة وكالنفي والإثبات ومثل قولنا؛ أنت ما أنت: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧] وفيه علم الأمر الذي يحفظ الله به المكلف من حيث عينه ومن حيث أفعاله. وفيه علم كمال العالم الكمال الذي لا يحتمل الزيادة فيه فلا يظهر فيه مما لم يظهر إلا ما خرج عنه فيعود عليه فيظهر فيه أمر لم يكن فيه وهو منه فما ظهر في العالم بعد تمامه إلا العالم فأمر الله واحدة فيه وهو المعبر عنه بالاستحالات، والاستحالات متنوّعة بحسب الحقائق كالماء يستحيل بخاراً، والملك يستحيل إنساناً بالصورة، وكذلك التجلي، فمن عرف ذلك عرف الأمر على ما هو عليه، والولد على شبه أبيه فإن الولد إذا خرج على شبه أبيه برأ الأم مما يتطرق إليها من الاحتمال إذا لم يكن الشبه، ومن هنا تعلم أنه لا خالق إلا الله، وقد نبه الشارع بحديث الصورة الكاملة الأمامية وفيه علم نفي الأسباب بإثباتها. وفيه علم الأمر الذي دعا المشرك إلى إثبات الشريك. وفيه علم غيرة الحق على الرتبة الإلهية. وفيه علم ما يقول المتعلم من العالم إذا سأله العالم بفتح اللام. وفيه علم ما هو من القول حجة وما ليس بحجة فهل الحجة على الخصم عين القول خاصة أو ما يدل عليه القول أو في موطن يكون القول وفي موطن يكون ما يدل عليه القول؟ فإذا كان القول يعجز السامع فهو عين الحجة. وفيه علم الفضل بالعلم بين المخلوقين وأنه لا رتبة أشرف من رتبة العلم. وفيه علم أن الملائكة كلهم علماء بالله ليس فيهم من يجهل بخلاف الناس ولذلك قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ ثم قال في حق الناس ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] وما أطلق مثل ما أطلق الملائكة وهو علم التوحيد هنا لا علم الوجود، فإن العالم كله عالم بالوجود لا بالتوحيد لا في الذات ولا في المرتبة، وإن كان المشرك قد جعل له الرتبة العليا مع الاشتراك في معنى الرتبة. وفيه علم ما لا يمكن لمخلوق جحده وهو افتقار الممكن إلى المرجح. وفيه علم ما يجوز نقضه من المواثيق والعهود وما لا يجوز. وفيه علم ما يسبق إلى الوهم من تكذيب شخص من الناس يدعي أنه موجود من غير أب ولا أم عند من يؤمن بوجود آدم عليه السلام وينكره في حق شخص ما قد أشبهه في الصورة ولا يتوقف في تكذيبه ولا في ردّ ما قاله وجاء به وهو ممكن في نفس الأمر ويقر به من يقول بحدوث العالم وبقدمه. وفيه علم ما تقيده الملائكة من العلم إذا دخلوا على أهل السعادة في منازلهم. وفيه علم فصل الدنيا من الآخرة داراً وحياة وهما دار واحدة وحياة واحدة. وفيه علم القلوب ولماذا ترجع نسبة الكون إليها هل إلى علمها باستحالة ثبوتها على أمر واحد زمانين لما علمت أن خالقها إذا تذكرت وفكرت أنه كل يوم في شان فتقطع عند

ذلك أنها لا تبقى على حال واحد لأنها محل التصريف والتقليب. وفيه علم العلم الجامع والمفصل للمضارّ والمنافع، وهل الإنسان الجاهل يقاوم بقوّته قوّة كلام الله حتى لا تؤثر فيه أو قوّته على نفسه أن يستر ما أثر فيه كلام الله فلم يقاوم إلا نفسه لا كلام الله. وفيه علم انتظار الحق بإظهار الأمور ما حكم به علمه فيها من الترتيب في الإيجاد مع الجواز، وكيف يجتمع المحال والإمكان في أمر واحد فيحكم عليه بأنه محال بالدليل العقلي ممكن بالدليل العقلي وأدلة العقول لا تتعارض إلا في هذا الموطن. وفيه علم تلقين الحجة لإظهار الحق، وهل للحاكم إذا علم صدق أحد الخصمين في دعواه ويعلم أنه يبطل حقه لجهله بتحرير الدعوى هل له أن يعلمه كيف يدّعي حتى يثبت له الحق كما هو في نفس الأمر أو ليس له ذلك لا في حضور الخصم ولا في غيبته؟ وهذا مع علم الحاكم بصاحب الحق. وفيه علم حجج الرسل عليهم السلام ليست عن نظر فكري وإنما هي عن تعليم إلهيّ. وفيه علم ما حظ الرسول من الرسالة. وفيه علم لا يعارض الحق الإلهيّ إلا الحق الإلهيّ فهو مقابلة المثلين لا مقابلة غير المثلين، وإن ظهرت المعارضة من جانب المخلوق فما ظهر الحق إلا على لسان المخلوق فإن الله ما كلم عباده على رفع الحجاب لأنه يقول لا معقب لحكمه وقد وقع في الدنيا المعقب فلا بد أن يكون المعقب الله لا غيره، فهو مثل النسخ في الشرائع هو الذي شرع وهو الذي رفع ما شرع بشرع آخر أنزله، فالناسخ والمنسوخ من الله، كذلك أمر العالم فيما جاء من الحق بالدلالة وفيما ردّ به ذلك الحق من غير دلالة فيعلم العالم بالله أنه من الحق فالحق يتلو بعضه بعضاً، فإن زمان دعوى الواحد ما هو زمان دعوى الآخر الرادّ له والمعارضة على الحقيقة إن لم يشتركا في الزمان فما هي معارضة فافهم. وفيه علم إنزال الحق العالم بالشيء منزلة نفسه منه في ذلك العلم ولهذا نقول: لا منزلة أشرف من العلم لأنه ينزلك منزلة الحق: [الطويل]

لقد حِزْتُ كُلَّ الطِّيبِ فيما لَثَمْتُه ... وقد علم الأقوامُ من قد لَثَمْتُهْ
وأنّ الذي في الكون من كل طِيبِ ... من العقل والإحساس فيما طَعِمْتُهْ

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والسبعون وثلاثمائة

في معرفة منزل سر وسرين وثنائك عليك بما ليس لك وإجابة الحق إياك في ذلك لمعنى شرّفك به من حضرة محمدية

[نظم: السريع]

مَنْ حَازَ شَطْرَ الكَوْنِ في خَلْقِهِ ... وشَطْرَهُ الآخر في خُلُقِهْ
فذاك عَيْنُ الوَقْتِ في وَقْتِهِ ... وبَدْرُهُ الطالعُ في أُفُقِهْ
فبَدرُهُ يَطْلُعُ من غَرْبِهِ ... وضوؤُهُ يَغْرُبُ في شَرْقِهْ
فكلّ مخلوق به هائمٌ ... وكلّنا نهلكُ في حَقِّهْ

ورد في الخبر الصحيح في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنَّ الله جَمِيلٌ**

يُحِبُّ الجَمَالَ» وهو تعالى صانع العالم وأوجده على صورته، فالعالم كله في غاية الجمال ما فيه شيء من القبح، بل قد جمع الله له الحسن كله والجمال، فليس في الإمكان أجمل ولا أبدع ولا أحسن من العالم، ولو أوجد ما أوجد إلى ما لا يتناهى فهو مثل لما أوجد لأن الحسن الإلهيّ والجمال قد حازه وظهر به فإنه كما قال تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ فهو جماله إذ لو نقص منه شيء لنزل عن درجة كمال خلقه فكان قبيحاً ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أي بين ذلك لنا بقوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾: [الطويل]

ولما رأينا الحَقَّ في صُورَةِ البَشَر ... علمنا بأن العَقْلَ فيه على خَطَرْ
فَمَنْ قَيَّدَ الحَقَّ المُبِينَ بعقله ... ولم يُطْلِقِ التَّقْيِيدَ ما عنده خَبَرْ
إذا ما تجلّى لي على مثل صورتي ... تجلّيتُ في التنزيه عن سائر الصُّوَرْ
فإن قال ماذا قلت أنتَ ذكرت لي ... بأنك تَعْفُو عن ظَلُومٍ إذا انْتصَرْ
وما أنت مثلي قُلْ فَلِمْ جِزْتَ صورتي ... ورؤيتي إياكم كما يبصر القَمَرْ
فإن كُنْتَ مثلي فالتماثلُ حاكمٌ ... على كل مِثْلٍ كالذي يقتضي النَّظَرْ
فكل شَبيهٍ للشبيه مُشَاكِلٌ ... على كل حالٍ في القديم وفي البَشَرْ
لقد شَرَعَ الله السجودَ لِسَهْونَا ... بإرغام شيطانٍ وجَبْرٍ لما انْكَسَرْ
فما لك لم تَسْجُدْ وأنت إمامُنا ... فأنت جديرٌ بالسجود كما ذُكِرْ
أتيناك نَسْعَى فانْثَنَيْتَ مُهَرْوِلاً ... وأين خُطَى الأقدام من خطوة البَصَرْ

ومنها أيضاً: [الطويل]

فممن فصلنا أو بمن قد وصلْتَنا ... وما هو إلا الله بالعَيْن والأَثَرْ
فشُكراً لما أخفَى وشُكراً لما بدا ... وحَازَ مَزِيدَ الخَيْر عَبْدٌ إذا شَكَرْ
وما هو إلا الحَقُّ يشكرُ نَفْسَهُ ... ولكنْ حِجَابُ القُرْب أُرْسِلَ فاسْتَتَرْ

فالعالم كله جماله ذاتي وحسنه عين نفسه إذ صنعه صانعه عليه، ولهذا هام فيه العارفون وتحقق بمحبته المتحققون، ولهذا قلنا فيه في بعض عباراتنا عنه أنه مرآة الحق، فما رأى العارفون فيه إلا صورة الحق وهو سبحانه الجميل، والجمال محبوب لذاته والهيبة له في قلوب الناظرين إليه ذاتية فأورث المحبة والهيبة، فإن الله ما كثر لنا الآيات في العالم وفي أنفسنا إذ نحن من العالم إلا لنصرف نظرنا إليه ذكراً وفكراً وعقلاً وإيماناً وعلماً وسمعاً وبصراً ونهى ولباً، وما خلقنا إلا لنعبده ونعرفه، وما أحالنا في ذلك على شيء إلا على النظر في العالم لجعله عين الآيات والدلالات على العلم به مشاهدة وعقلاً، فإن نظرنا فإليه، وإن سمعنا فمنه، وإن عقلنا فعنه، وإن فكرنا ففيه، وإن علمنا فإياه، وإن آمنا فبه، فهو المتجلي في كل وجه، والمطلوب من كل آية، والمنظور إليه بكل عين، والمعبود في كل معبود، والمقصود في الغيب والشهود، لا يفقده أحد من خلقه بفطرته وجبلته، فجميع العالم له مصل وإليه ساجد وبحمده مسبح، فالألسنة ناطقة، والقلوب به هائمة عاشقة، والألباب فيه حائرة، يروم العارفون أن يفصلوه من العالم فلا يقدرون، ويرومون أن يجعلوه عين العالم فلا يتحقق

لهم ذلك فهم يعجزون، فتكل أفهامهم، وتتحير عقولهم، وتتناقض عنه في التعبير ألسنتهم، فيقولون في وقت هو، وفي وقت ما هو، وفي وقت هو ما هو، فلا تستقر لهم فيه قدم، ولا يتضح لهم إليه طريق أمم، لأنهم يشهدونه عين الآية والطريق، فتحول هذه المشاهدة بينهم وبين طلب غاية الطريق، إذ لا تسلك الطريق إلا إلى غاياتها والمقصود معهم وهو الرفيق فلا سالك ولا مسلوك فتذهب الإشارات وليست سواه وتطيح العبارات وما هي إلا إياه، فلا ينكر على العارف ما يهيم فيه من العالم وما يتوهمه من المعالم، ولولا أن هذا الأمر كما ذكرناه ما أحب نبيّ ولا رسول أهلاً ولا ولداً ولا آثر على أحد أحداً، وذلك لتفاضل الآيات وتقلب العالم هو عين الآيات، وليست غير شؤون الحق التي هو فيها، وقد رفع بعضها فوق بعض درجات، لأنه بتلك الصورة ظهر في أسمائه، فعلمنا تفاضل بعضها على بعض بالعموم والخصوص، فهو الغني عن العالمين وهو القائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فأين الخالق من الغني وأين القابض منه والمانع؟ وأين العالم في إحاطته من القادر والقاهر؟ فهل هذا كله إلا عين ما وقع في العالم، فما تصرّف رسول ولا عارف إلا فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وذلك لأن من الناس من في أذنه وقر، وعلى بصره غشاوة، وعلى قلبه قفل، وفي فكره حيرة، وفي علمه شبهة، وبسمعه صمم، ووالله ما هو هذا كله عند العارف إلا للقرب المفرط ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وأين الوسوسة من الإلهام؟ وأين اسم الإنسان من اسم العالم؟: [مجزوء الوافر]

فَمَنْ لَيْلَى ومَنْ لُبْنَى ومَنْ هِنْدٌ ومَنْ بُثْنَهْ
ومن قَيْسٌ ومن بِشْرٌ أليسوا كُلُّهم عَيْنَهْ
لقد أصبحتُ مشغوفاً به إذ كان لي كَوْنَهْ
فكلُّ الخَلْقِ محبوبي فأين مُهَيِّمي أَيْنَهْ
فمن يَبْحَثْ على قولي يَجِدْ في بَيْنِهِ بَيْنَهْ

وأما أهل الجمال العرضي والحب العرضي فظل زائل، وغرض ماثل، وجدار مائل، بخلاف ما هو عند العلماء بالله، فإن الظل عند العالم بالله ساجد والعارض للوجود مستعد، والجدار لم يمل إلا عبادة ليظهر ما تحته من كنوز المعارف التي يستغني بها العارف الواقف، فخلق الله الغيرة في صورة الخضر فأقامه من انحنائه لما علم أن الأهلية ما وجدت في ذلك الوقت في رب المال، فيقع التصرّف فيه على غير وجهه ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨] فلو ظهر اتخذ عبثاً وعاثت فيه الأيدي، فسبحان واضع الحكم وناصب الآيات ومظهر جمال الدلالات، ومن أجملها عيناً وأكملها كوناً عالم الخيال، وبه ضرب الله الأمثال وبين تعالى أنه المنفرد بعلمه فإنه قال ناهياً: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤] وما جاء بهذه الآية إلا عندما ضرب لنا الأمثال منه فظهر للكون وهو مقدمته، ألا ترى الرؤيا وبعينها يدرك الخيال يرى ما يكون قبل كونه وما كان وما هو الوقت عليه وأي حضرة تجد فيها

هذه الجمعية إلا حضرة الخيال؟ وكل من تعشق بأمر ما فما تعشق به إلا بعد أن حصله في خياله وجعل له في وهمه مثالاً وطبق محبوبه على مثاله، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان إذا فارقه من تعلق بصره به أو سمعه أو شيء من حواسه فارق التعلق به ونحن لا نجد الأمر كذلك، فدل على أن المحبوب عند المحب على مثال صورة وأنشأه في خياله فلزم مشاهدته فتضاعف وجده وتزايد حبه، وصار ذلك المثال الذي صوّره يحرّض مصوّره على طلب من صوّره على صورته، فإن ذلك الأصل هو روح هذا الخيال وبه بقاؤه وهو الذي يحفظه، وما اشتد حق المحب إلا في صنعته وفعله، فإن الصورة التي تعشق بها في خياله هي من صنعته، فما أحب إلا ما هو راجع إليه، فبنفسه تعلق وعلى فعله أثنى، فمن علم هذا علم حب الله عباده وأنه تعالى أشد حباً فيهم منهم فيه بل لا يحبونه عيناً وإنما يحبون إحسانه، فإن الإحسان هو مشهودهم، ومن أحبه عيناً فإنما أحب مثالاً صوّره في نفسه وتخيله وليس إلا المشبهة خاصة، فكل محب فلولا التشبيه ما أحبه، ولولا التخيل ما تعلق به، ولهذا جعله الشارع في قبلته ووسعه قلب عبده وجعله من القرب به كهو أو كبعض أجزائه، فمثل هؤلاء عبدوه ممثلاً وشاهدوه محصلاً. وأما المنزهة فحائرة في عِمِّيًا يخبطون فيها عشوى لا ظل في ظلمتها ولا يمنعهم الدليل من التشبيه وما ثم إيمان يفوق نوره نور الأدلة حتى يدرجها فيه فلا يزال المنزه غير قابض على شيء ولا محصل لأمر فهم أهل البت لأن هممهم متفرق والوهم منهم بعيد، فنقصهم من كمال معرفة الوجود حكم الأوهام فيهم، ولا حكم للأوهام إلا في الكمل من الرجال، ولهذا جاءت الشرائع في الله بما تحيله الأدلة، فمن تقوى نور إيمانه على نور عقله كما تقوى نور الشمس على نور غيره من الكواكب، فما أذهب عين أنوارها وإنما أدرجها في نوره، فالعالم مستنير كله بنور الشمس ونور الكواكب ولكنهم لا يبصرون إلا نور الشمس ولا يبصرون المجموع، كذلك الكامل من أهل الله إذا أدرج نور عقله في نور إيمانه صوب رأي المنزهة إذ ما تعدت ما كشفته لهم أنوارها وصوّب رأي المشبهة إذ ما تعدت ظاهر ما أعطاها نور إيمانها بما ضرب الله لها من المثل فعرفه الكامل عقلاً وإيماناً فحاز درجة الكمال كما حاز الخيال درجة الحس والمعنى فلطف المحسوس وكثف المعنى فكان له الاقتدار التام، ولذلك قال يعقوب لابنه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥] لما علم من علمهم بتأويل ما مثل الحق له في رؤياه، إذ ما كان ما رآه وما مثل له إلا عين إخوته وأبويه فأنشأ الخيال صور الإخوة كواكب وصور الأبوين شمساً وقمراً وكلهم لحم ودم وعروق وأعصاب، فانظر هذه النقلة من عالم السفل إلى عالم الأفلاك، ومن ظلمة هذا الهيكل إلى نور هذا الكوكب فقد لطف الكثيف ثم عمد إلى مرتبة التقدم وعلو المنزلة والمعاني المجردة فكساها صورة السجود المحسوس فكثف لطيفها والرؤيا واحدة، فلولا قوة هذه الحضرة ما جرى ما جرى، ولولا أنها في الوسط ما حكمت على الطرفين، فإن الوسط حاكم على الطرفين لأنه حد لهما، كما أن الآن عين الماضي والمستقبل، كما أن الإنسان الكامل جعل الله رتبته وسطاً بين كينونته مستوياً على عرشه وبين كينونته في قلبه الذي وسعه، فله نظر إليه

في قلبه فيرى أنه نقطة الدائرة، وله نظر إليه في استوائه على عرشه فيرى أنه محيط الدائرة فهو بكل شيء محيط، فلا يظهر خط من النقطة إلا ونهايته إلى المحيط، ولا يظهر خط من المحيط من داخله إلا ونهايته إلى النقطة، وليست الخطوط سوى العالم فإنه بكل شيء محيط والكل في قبضته ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فالخلاء ما فرض بين النقطة والمحيط وهو الذي عمر العالم بعينه وكونه، وفيه ظهرت الاستحالات من نقطة إلى محيط، ومن محيط إلى نقطة، فما خرج عنه عزّ وجلّ شيء ولا ثم شيء خارج عن المحيط فيدخل في إحاطته بل الكل منه انبعث وإليه ينتهي ومنه بدأ وإليه يعود، فمحيطه أسماؤه ونقطته ذاته، فلهذا هو الواحد العدد والواحد الكثير، فما كل عين له ناظر إلا عين الإنسان، ولولا إنسان العين ما نظرت عين الإنسان، فبالإنسان نظر الإنسان وبالحقّ ظهر الحق: [مجزوء الوافر]

فقُلْنا فيه حَقٌّ ... وقلنا فيه خَلْقُ
وقُلْنَا فيه دُرٌّ ... وقُلْنا فيه حُقٌّ

فصل

[نظم: مجزوء الخفيف]

فهو المُلْكُ والمَلِكْ ... وهو الفُلْكُ والفَلَكْ
فإذا ما هَوِيتَهُ ... قال للحُبِّ هَيْتَ لَكْ

أي حسنت هيئتي إذ هيت لك، إذ لولا حسن العالم ما علم حسن القديم ولا جماله، ولولا جمال الحق ما ظهر في العالم جمال، فالأمر دوري وبه دار الفلك، فدوران الفلك سعيه وما برح من مكانه فهو بكليته المنتقل الذي لم يفارق مكانه تنبيهاً من الله لعباده أو ضرب مثل أن الحق وإن أوجد العالم ووصف نفسه بما وصف ما زال في منزلة تنزيهه وتمييزه عن خلقه بذاته مع معينه بكل خلق من خلقه، بخلاف الخطوط فإنها متحركة من الوسط وإلى الوسط فهي مفارقة وقاطعة منازل وحركة الوسط لم تفارق منزلتها ولا تحركت في غيرها وهي أعجوبة المسائل التي حار فيها المجيب والسائل: [المتقارب]

ألا أيّها الفَلَكُ الدائرُ ... لمن أنت في سَيْركم سائرُ
إلينا فنحن بأحشائكم ... إليه فسَيْرُكُمْ بَائرُ
تعالى عن الحَدّ في نفسه ... وقال هو الباطن الظّاهرُ
تدورُ علينا بأنفاسنا ... وأنت لنا الحَكَمُ القاهرُ
فشُغْلُكَ بي شُغْلُ شاغل ... وأنت إذا ما أنْقَضِي خاسرُ
فإنْ كُنْتَ في ذاك عن أمره ... فأنت به الرابحُ التاجرُ
ومن فوقكم ثم من فوقه[1] ... إلٰهٌ لرَتْقِكُمْ فَاطِرُ

---

(١) الضمير في فوقه يعود على الفوق الأول، اهـ من خط المصنف.

تَعَيَّنَ بالفَتْق في رَتْقِكُم فعقلُك في صنعه حائرُ
لذاك تدور وما تَبْرَحَنْ بِمَثْواك والمقبلُ الغابرُ
فَقِفْ فأبَى الجَبْرُ إلا السُّرَى وقال أنا الكاسرُ الجابرُ
سَتَرْتُ عُيُونَ النُّهَى فانْثَنَتْ وقد عَلِمَتْ أنني الساترُ
فسبحان مَنْ حُكْمُهُ حِكْمَةٌ ومَنْ عَيْنُهُ الواردُ الصادرُ
فلولاك ما لاح في أُفْقِهِ بدورته كوكبٌ زاهرُ

ولما خلق الله تعالى العالم واقتضت ذات العالم أن يستحيل بعضه البعضه بما ركبه الله عليه من الحقائق والاستعداد لقبول الاستحالة طلب بذاته العوارض الإمكانية التي تراها في العالم، فمن العالم من له قصد في ذلك الطلب وهو تعيين عارض خاص كقائم يطلب القعود ممن يعقل، ومنهم من يطلبه من غير قصد كالشجرة تطلب السقي من أجل الثمرة التي خلقت لها وطلبها لذلك ذاتي على مقدار معلوم إن زاد على ذلك كان حكمه حكم نقصانه في الهلاك، وما الماء بحكمها فلا بد من حافظ يحفظ عليها القدر المعلوم وليس إلا خالقها، وهذه الأمور العوارض التي تعرض لجوهر العالم منها ما يقال فيه صلاح ومنه ما يقال فيه فساد، ولكن في نفس الأمر لا يصح أن يعرض للعالم فساد لا صلاح فيه، فإنه يكون خلاف ما أريد له وجوده. وأما صلاح لا فساد فيه فهو الواقع المراد لصانع العالم فإنه لذلك خلق العالم، وأما الأحوال فذاتية للمعاني فإنها أحكامها وليس لها وجود ولا هي معدومة كالأحمر لمن قامت به الحمرة، وهذا حكم لا يتصف بالخلق لأنه معقول لا عين له في الوجود العيني بل المعاني كلها التي أوجبت أحكامها لمن اتصف بها نسب عدمية لا عين لها في الوجود ولها الحكم والحال، ولا عين لحكمها ولا لحالها في الوجود، فصار الحاكم والمحكوم به في الحقيقة أموراً عدمية مع أنها معقولة، فعلى الحقيقة لا أثر لموجود في موجود وإنما الأثر للمعدوم في الموجود وفي المعدوم، لأن الأثر للنسب كله وليست النسب إلا أموراً عدمية يظهر ذلك بالبديهة في أحكام المراتب، كمرتبة السلطنة ومرتبة السوقة في النوع الإنساني مثلاً، فيحكم السلطان في السوقة بما تريد رتبة السلطنة، وليس للسلطنة وجود عيني، وإذا كان الحكم للمراتب فالأعيان التي من حقيقتها أن لا تكون على صورة طبيعية جسمية في نفسها إذا ظهرت لمن ظهرت له في صورة طبيعية جسدية في عالم التمثيل كالملك يتمثل بشراً سوياً، وكالتجلي الإلهي في الصور فهل تقبل تلك الصورة الظاهرة في عين الرائي حكم ما لتلك الصورة في التي هي له حقيقة كصورة الإنسان والحيوان فتحكم عليه بالتفكر وقيام الآلام واللذات به، فهل تلك الصورة التي ظهرت تشبه الحيوان أو الإنسان؟ أو ما كان تقبل هذا الحكم في نفس الأمر أو الرائي إذا لم يعلم أنها إنسان أو حيوان ما له أن يحكم عليها بما يحكم على من تلك الصورة عينه كيف الأمر في ذلك؟ فاعلم أن الملك على صورة تخالف البشر في نفسه وعينه وكما تخالف البشر فقد خالفه أيضاً البشر، مثل جبريل ظهر بصورة أعرابي بكلامه وحركته المعتادة من تلك الصورة في الإنسان هي في الصورة الممثلة كما هي

في الإنسان أو هي من الصورة كما هي الصورة متخيلة أيضاً، ويتبع تلك الصورة جميع أحكامها من القوى القائمة بها في الإنسان كما قام بها الكلام والحركة والكيفيات الظاهرة فهو في الحقيقة إنسان خيالي أعني الملك في ذلك الزمان، وله حكم تلك الصورة في نفس الأمر أيضاً على حد الصورة من كونها إنساناً خيالياً، فإذا ذهبت تلك الصورة ذهبت أحكامها لذهابها، وسبب ذلك أن جوهر العالم في الأصل واحد لا يتغير عن حقيقته، وأن كل صورة تظهر فيه فهي عارضة تستحيل في نفس الأمر في كل زمان فرد، والحق يوجد الأمثال على الدوام لأنه الخالق على الدوام، والممكنات في حال عدمها مهيأة لقبول الوجود، فمهما ظهرت صورة في ذلك الجوهر ظهرت بجميع أحكامها سواء كانت تلك الصورة محسوسة أو متخيلة فإن أحكامها تتبعها، كما قال الأعرابي لما سمع رسول الله ﷺ يصف الحق جل جلاله بالضحك قال: لا نعدم خيراً من رب يضحك إذ من شأن من يضحك أن يتوقع منه وجود الخير، فكما أتبع الصورة الضحك أتبعها وجود الخير منها، وهذا في الجناب الإلهي فكيف في جوهر العالم؟ ولا يهون مثل هذا عند عالم ولا يقبله متسع الخاطر إلا من عرف أن جوهر العالم هو النفس الرحماني الذي ظهرت فيه صور العالم، ومن لم يعلم ذلك فإنه يدركه في نفسه تكلف ومشقة في قبول ذلك في حق الحق، وحق كل ظاهر في صورة يعلم أنها ما هي له حقيقة فيتأول ويتعذر عليه في أوقات التأويل، فيؤمن ويسلم ولا يدري كيف الأمر، بخلاف العالم المحقق الذي قد أطلعه الله تعالى على ما هي الأمور عليه في أنفسها، فالعالم كله من حيث جوهره شريف لا تفاضل فيه، وأن الدودة والعقل الأول على السواء في فضل الجوهر، وما ظهرت المفاضلة إلا في الصور وهي أحكام المراتب، فشريف وأشرف، ووضيع وأوضع، ومن علم هذه هان عليه قبول جميع ما وردت به الشرائع من الأمور في حق الله والدار الآخرة، والأمور الغائبة التي لا تدركها العقول بأفكارها وليس لها مدرك إلا بالخبر، وليست الصور بشيء غير أعيان الممكنات، وليس جوهر العالم سوى ما ذكرنا فللإطلاق على العالم من حيث جوهره حكم لا يكون له من حيث صورته، وله حكم من حيث صورته لا يكون له من حيث جوهره، فمن الناس من علم ذلك على الكشف وهم أصحابنا والرسل والأنبياء والمقربون، ومن الناس من وجد ذلك في قوته وفي عقله ولم يعرف من أين جاء ولا كيف حصل له، فيشرك أهل الكشف في الحكم ولا يدري على التحقيق ما هو الأمر، وهم القائلون بالعلة، والقائلون بالدهر، والقائلون بالطبيعة، وما عدى هؤلاء فلا خبر عندهم بشيء من هذا الحكم، كما أن هؤلاء الطوائف لا علم لهم بما يعلمه أهل الله وإن اشتركا في هذا الحكم، فلو سألت علماء طائفة منهم ما أنكر لك عين ما أبانه أهل الله من ذلك وما حكم عليهم القول بذلك الحكم إلا ما عرفه أهل الله هم والقائلون بالعلة لا يشعرون، ألا ترى الشارع وهو المخبر عن الله ما وصف الحق بأمر فيه تفصيل إلا وهو صفة المحدث المخلوق مع قدم الموصوف به وهو الله ولا قدم للعقل في ذلك من حيث نظره وفكره، وسبب ذلك لا يعرف أصله ولا يعلم أنه صورته في جوهر العالم بل

يتخيل أنه عين الجوهر، فإن أردت السلامة فاعبد رباً وصف نفسه بما وصف ونفى التشبيه وأثبت الحكم كما هو الأمر عليه لأن الجوهر ما هو عين الصورة فلا حكم للتشبيه عليه ولهذا قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لعدم المشابهة فإن الحقائق ترمي بها ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] إثباتاً للصور لأنه فصل حي، فمن لم يعلم ربه من خبره عن نفسه ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦] وأدنى درجته أن يكون مؤمناً بالخبر في صفاته كما آمن أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وكلا الحكمين حق، نظراً عقلياً وقبولاً والله يقول: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤] و﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢١] أتراه يحيط به وهو خارج عنه ويحفظ عليه وجوده من غير نسبة إليه فقد تداخلت الأمور واتحدت الأحكام وتميزت الأعيان، فقيل من وجه هذا ليس هذا عن زيد وعمرو، وقيل من وجه هذا عين هذا عن زيد وعمرو وأنهما إنسان، كذلك نقول في العالم من حيث جوهره ومن حيث صورته كما قال الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وهو يعني هذا الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وحكم السمع ما هو حكم البصر ففصل ووصل وما انفصل ولا اتصل: [الطويل]

فمَنْ شاء فليُؤْمِنْ ومن شاء فَلْيَكْفُرْ ... ومَنْ شاء فَلْيَعْجَزْ ومن شاء فَلْيَنْظُرْ
فمَنْ عَلِمَ العِلْمَ الذي قد عَلِمْتُهُ ... حَقِيقٌ عليه أن يُسَرَّ وأن يَشْكُرْ
إذا نالـه التقوى فكن فَطِناً بما ... يقول لمن يدري بذلك ويَشْعُرْ
وما قال هذا القَوْل للخلق باطلاً ... ولكنه ذِكْرَى لمن شاء فَلْيَذكُرْ
هو الحيرة العَمْيا لمن كان ذا عَمًى ... هو المنظرُ الأجْلَى لذي بصر يُبْصِرْ
ولمَّا ظَهَرْنا في وُجود عَمائه ... عَلِمْنا وُجودَ القُرْبِ فينا ولم نحصرْ

وصل إشارة وتنبيه: اعلم أن كل متلفظ من الناس بحديث فإنه لا يتلفظ به حتى يتخيله في نفسه ويقيمه صورة يعبر عنها لا بد له من ذلك، ولما كان الخيال لا يراد لنفسه وإنما يراد لبروزه إلى الوجود الحسي في عينه أي يظهر حكمه في الحس، فإن المتخيل قد يكون مرتبة وقد يكون ما يقبل الصورة الوجودية، كمن يتخيل أن يكون له ولد فيولد له ولد فيظهر في عينه شخصاً قائماً مثله، وقد يتخيل أن يكون ملكاً وهي رتبة فيكون ملكاً ولا عين للمملكة في الوجود وإنما هي نسبة، وإذا كان هذا وكان ما يتخيل يعبر كالرؤيا كذلك يعبر كل كلام ويتأول، فما في الكون كلام لا يتأول ولذلك قال: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١] وكل كلام فإنه حادث عند السامع، فمن التأويل ما يكون إصابة لما أراده المتكلم بحديثه، ومن التأويل ما يكون خطأ عن مراد المتكلم وإن كان التأويل إصابة في كل وجه سواء أخطأ مراد المتكلم أو أصاب فما من أمر إلا وهو يقبل التعبير عنه ولا يلزم في ذلك فهم السامع الذي لا يفهم ذلك الاصطلاح ولا تلك العبارة، فإن علوم الأذواق والكيفيات وإن قبلت لا تنقال ولكن لما كان القول بها والعبارة عنها لإفهام السامع لذلك قالوا ما ينقال ولا يلزم ما لا يفهم السامع المدرك له أن لا يصطلح مع نفسه على لفظ يدل به على ما ذاقه، ليكون له ذلك اللفظ منبهاً ومذكراً له إذا نسي ذلك في وقت آخر، وإن لم

يفهم عنه من لا ذوق له فيه، والتأويل عبارة عما يؤول إليه ذلك الحديث الذي حدث عنده في خياله، وما سمي الإخبار عن الأمور عبارة ولا التعبير في الرؤيا تعبيراً إلا لكون المخبر يعبر بما يتكلم به، أي يجوز بما يتكلم به من حضرة نفسه إلى نفس السامع، فهو ينقله من خيال إلى خيال، لأن السامع يتخيله على قدر فهمه، فقد يطابق الخيال الخيال خيال السامع مع خيال المتكلم وقد لا يطابق، فإذا طابق سمي فهماً عنه وإن لم يطابق فليس بفهم، ثم المحدث عنه قد يحدث عنه بلفظ يطابقه كما هو عليه في نفسه فحينئذ يسمى عبارة، وإن لم يطابقه كان لفظاً لا عبارة لأنه ما عبر به عن محله إلى محل السامع، وسواء نسب ذلك الكلام إلى من نسب، وإنما قصدنا بهذه الإشارة التنبيه على عظم رتبة الخيال وأنه الحاكم المطلق في المعلومات. غير أن التعبير عن غير الرؤيا رباعي والتعبير عن الرؤيا ثلاثي أي في الرؤيا وهما من طريق المعنى على السواء، وعين الفعل في الماضي في تعبير الرؤيا مفتوح وفي المستقبل مضموم ومخفف، وهو في غير الرؤيا مضاعف في الماضي والمستقبل مفتوح العين في الماضي وتكسر في مستقبله، وإنما كان التضعيف في غير الرؤيا للقوة في العبارة لأنها أضعف في الخيال من الرؤيا، فإن المعبر في غير الرؤيا يعبر عن أمر متخيل في نفسه استحضره ابتداء وجعله كأنه يراه حساً فضعف عمن يعبر عن الخيال من غير فكر ولا استحضار كصاحب الرؤيا فإن الخيال هنالك أظهر له ما فيه من غير استحضار من الرائي، والمتيقظ ليس كذلك فهو ضعيف التخيل بسبب حجاب الحس فاحتاج إلى القوة فضعف التعبير عنه فقيل: عبر فلان عن كذا وكذا بكذا بتشديد عين الفعل، ألا ترى قولهم في عبور الوادي يقولون: عبرت النهر أعبره من غير تضعيف لأن النهر هنا غير مستحضر بل هو حاضر في الحس كما كان ذلك حاضراً في الخيال من غير استحضار فاستعان بالتضعيف لما في الاستحضار من المشقة والاستعانة تؤذن بالتضعيف أبداً حيث ظهرت لأنه لا يطلب العون إلا من ليس في قوته مقاومة ذلك الأمر الذي يطلب العون عليه، فكل ما لا يمكن الاستقلال به فإن العامل له لا بد أن يطلب العون والمعين على ذلك فافهم فإنه من هنا تعرف رتبة ما لا يمكن وجوده للموجد له إلا بمساعدة أمر آخر ما هو عين الموجد، فذلك الأمر الآخر معين له على إظهار ذلك الأمر، وهنا يظهر معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] إذا أراد الحق إيصاله إلى أذن السامع بالأصوات والحروف أو الإيماء والإشارة فلا بد من الواسطة إذ يستحيل عليه تعالى قيام الحوادث به فافهم وعلى الله قصد السبيل.

وفي هذا المنزل من العلوم: علم ما يفتقر إليه ولا يتصل به. وفيه علم بيان الجمع أنه عين الفرق. وفيه علم الفرق بين علم الخبر وعلم النظر العقلي وعلم النظر الكشفي وهو الذي يحصل بإدراك الحواس. وفيه علم تنبيه الغافل بماذا ينبه ومراتب التنبيه. وفيه علم شرف العلم على شرف الرؤية فقد يرى الشخص شيئاً ولا يدري ما هو فيقصه على غيره فيعلمه ذلك الغير ما هو وإن لم يره فالعلم أتم من الرؤية لأن الرؤية طريق من طرق العلم يتوصل بالسلوك فيه من هو عليه إلى أمر خاص. وفيه علم ظهور الباطل في صورة الحق وهما على النقيض، ومن

المحال أن يظهر أمر في صورة أمر آخر من غير تناسب فهو مثله في النسبة لا مثله في العين، وهذا هو في صناعة النحو فعل المقاربة يقولون في ذلك: كاد النعام يطير، وكاد العروس يكون أميراً، والحق تعالى يظهر في عين الرائي السراب ماء وليس بماء، وهو عنده إذا جاء إليه الظمآن وكذلك المعطش إلى العلم بالله يأخذ في النظر في العلم به فيقيده تقييد تنزيه أو تشبيه، فإذا كشف الغطاء وهو حال وصول الظمآن إلى السراب لم يجده كما قيده فأنكره ووجد الله عنده غير مقيد بذلك التقييد الخاص بل له الإطلاق في التقييد فوفاه حسابه أي تقديره، فكأنه أراد صاحب هذا الحال أن يخرج الحق من التقييد فقال له الحق بقوله فوفاه حسابه لا يحصل لك في هذا المشهد إلا العلم بي أني مطلق في التقييد فأنا عين كل تقييد لأني أنا العالم كله مشهود ومعلوم، وهذا هو الكيد الإلهيّ من قوله: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٦] ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]. وفيه علم ما هو مربوط بأجل لا يظهر حتى يبلغ الكتاب فيه أجله. وفيه علم قيمة المثل. وفيه علم تنزيه الأنبياء مما نسب إليهم المفسرون من الطامات مما لم يجىء فيه كتاب الله وهم يزعمون أنهم قد فسروا كلام الله فيما أخبر به عنهم، نسأل الله العصمة في القول والعمل، فلقد جاؤوا في ذلك بأكبر الكبائر كمسألة إبراهيم الخليل عليه السلام وما نسبوا إليه من الشك وما نظروا في قول رسول الله ﷺ: «**نحن أولى بالشَّكِّ من إبراهيم**» فإن إبراهيم عليه السلام ما شك في إحياء الموتى ولكن لما علم أنّ لإحياء الموتى وجوهاً متعددة مختلفة لم يدر بأي وجه منها يكون يحيي الله به الموتى وهو مجبول على طلب العلم فعين الله له وجهاً من تلك الوجوه حتى سكن إليه قلبه فعلم كيف يحيي الله الموتى، وكذلك قصة يوسف ولوط وموسى وداود ومحمد عليهم السلام الإلهي، وكذلك ما نسبوه في قصة سليمان إلى الملكين، وكل ذلك نقل عن اليهود واستحلوا أعراض الأنبياء والملائكة بما ذكرته اليهود الذين جرحهم الله وملؤوا كتبهم في تفسير القرآن العزيز بذلك وما في ذلك نص في كتاب ولا سنة فالله يعصمنا وإياكم من غلطات الأفكار والأقوال والأفعال أمين بعزته وقوّته. وفيه علم من قام الدليل على عصمته فله أن يثني على نفسه بما أعلمه الله أنه عليه من الصفات المحمودة فإنها من أعظم النعم الإلهية على عبده والله يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]. وفيه علم التسليم والاعتصام. وفيه علم رتبة الخيال وأنه حق ما نفيه شيء من الباطل إلا أن المعبر عنه يصيب ويخطىء بحسب ما يراه في نزوله بالمواطن فإن المصيب من لم يتعد بالحقائق مراتبها. وفيه علم الأسماء وما عبد منها وما لم يعبد. وفيه علم معرفة منازل الموجودات. وفيه علم الستر والتجلي. وفيه علم المفاضلة في العلم. وفيه علم الشكر والشاكر. وفيه علم الآيات المعتادة وغير المعتادة. وفيه علم التبري والتنزيه وما هو تنزيه في حق الله عزّ وجلّ وهو تبري في حق المخلوق لا تنزيه. وفيه علم تقاسيم أهل الله وطبقاتهم. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى السفر السادس والعشرون من الفتوح المكي بانتهاء الباب الثاني والسبعون وثلاثمائة.

[السفر السابع والعشرون]

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثالث والسبعون وثلاثمائة

في معرفة منزل ثلاثة أسرار ظهرت في الماء الحكمي المفضل مرتبته على العالم بالعناية وبقاء العالم أبد الآبدين وإن انتقلت صورته وهو من الحضرة المحمدية

[نظم: الوافر]

مقاماتٌ تَنُصُّ على اتِّساقِ ... لأرواحٍ مُنَبَّأة كِرَامِ
أَفُوهُ بها ولا يدري جليسي ... لأن النُّورَ في عَيْنِ الظَّلامِ
فلولا ظُلْمَةٌ ما كان نُورٌ ... فعَيْنُ النَّقْص يَظْهَرُ بالتَّمامِ
إذا عَلِمَ الإضافةَ من يراها ... تَقَيَّدَ بالعقود وبالقيامِ
يرى أن الوُجُودَ له انتهاءٌ ... وأن البَدْءَ يظهر بالخِتامِ
فحَالٌ بين بَدْءٍ وانْقِضَاءٍ ... وُجُودٌ لا يزال مع الدَّوامِ

اعلم أيدك الله أن العالم كله كتاب مسطور في رق منشور وهو الوجود، فهو ظاهر مبسوط غير مطوي ليعلم ببسطه أنه مخلوق للرحمة، وبظهوره يعقل ويعلم ما فيه وما يدل عليه، وجعله كتاباً لضم حروفه بعضها إلى بعض وهو ترتيب العالم على الوجوه التي ذكرناها، وضم معانيه إلى حروفه مأخوذ من كتيبة الجيش، وإنما قلنا في بسطه أنه للرحمة لأنه منها نزل كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢] ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣] وقال تعالى في ذلك: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] فأحكام الآيات فيه وتفصيلها لا يعرفه إلا من آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، وصورة الحكمة التي أعطاها الحكيم الخبير لأهل العناية علم مراتب الأمور وما تستحقه الموجودات والمعلومات من الحق الذي هو لها وهو إعطاء كل شيء خلقه إعطاء إلهياً ليعطي كل خلق حقه إعطاء كونياً بما آتانا الله، فنعلم بالقوّة ما يستحقه كل موجود في الحدود ونفصله بعد ذلك آيات بالفعل لمن يعقل كما أعطانيه الخبير الحكيم، فننزل الأمور منازلها ونعطيها حقها ولا نتعدى بها مرتبتها، فتفصيل الآيات والدلالات من المفصل إذا جعلها في أماكنها بهذا الشرط لأنه ما كل مفصل حكيم دليل على أنه قد أوتي الحكمة، وعلم أحكام الآيات ورحمته بالآيات والموجودات التي هي الكتاب الإلهيّ وليس إلا العالم دليل على علمه بمن أنزله وليس إلا الرحمن الرحيم، وخاتمة الأمر ليست سوى عين سوابقها وسوابقها الرحمن الرحيم، فمن هنا تعلم مراتب العلم ومآله أنه إلى الرحمة المطلقة، وإن تعب في الطريق وأدركه العناء والمشقة، فمن الناس من ينال الرحمة والراحة بنفس ما يدخل المنزل الذي وصل إليه وهم أهل الجنة، ومنهم من يبقى معه تعب الطريق ومشقته ونصبه بحسب

مزاجه، وربما مرض واعتل زماناً ثم انتقل من دائه واستراح وهم أهل النار الذين هم أهلها ما هم الذين خرجوا منها إلى الجنة فمستهم النار بقدر خطاياهم مع كونهم أماتهم الله فيها إماتة، فإن أولئك ليست النار منزلاً لهم يعمرونه ويقيمون فيه مع أهليهم، وإنما النار لهؤلاء منهل من المناهل التي ينزلها المسافر في طريقه حتى يصل إلى منزله الذي فيه أهله، فهذا معنى الحكمة والتفصيل؛ فإن الأمور أعني الممكنات متميزة في ذاتها في حال عدمها ويعلمها الله سبحانه وعلى ما هي عليه في نفسها ويراها ويأمرها بالتكوين وهو الوجود فتتكوّن عن أمره، فما عند الله إجمال كما أنه ليس في أعيان الممكنات إجمال بل الأمر كله في نفسه وفي علم الله مفصل، وإنما وقع الإجمال عندنا وفي حقنا وفينا ظهر، فمن كشف التفصيل في عين الإجمال علماً أو عيناً أو حقاً فذلك الذي أعطاه الله الحكمة وفصل الخطاب، وليس إلا الرسل والورثة خاصة، وأما الحكماء أعني الفلاسفة فإن الحكمة عندهم عارية فإنهم لا يعلمون التفصيل في الإجمال، وصورة ذلك كما يراه صاحب هذا المقام الذي أعطاه الله الحكمة التي عنده عناية إلهية وهي عند الحق تعيين الأرواح الجزئية المنفوخة في الأجسام المسوّاة المعدلة من الطبيعة العنصرية من الروح الكل المضاف إليه، ولذلك ذكر أنه خلقها قبل الأجسام أي قدرها وعينها لكل جسم وصورة روحها المدبر لها الموجود بالقوّة في هذا الروح الكل المضاف إليه، فيظهر ذلك في التفصيل بالفعل عند النفخ، وذلك هو النفس الرحماني لصاحب الكشف، فيرى في المداد الذي في الدواة جميع ما فيه من الحروف والكلمات وما يتضمنه من صور ما يصوّرها الكاتب أو الرسام وكل ذلك كتاب، فيقول في هذا المداد من الصور كذا وكذا صورة، فإذا جاء الكاتب والرسام أو الرسام دون الكاتب أو الكاتب دون الرسام بحسب ما يذكره صاحب الكشف فيكتب بذلك المداد ويرسم جميع ما ذكره هذا المكاشف بحيث لا يزيد على ذلك ولا ينقص، ولا يدرك ذلك هذا المسمى في عرف العقلاء حكماً، فهذا حظ أهل الكشف فهم الذين أعطاهم الله الحكمة وفصل الخطاب، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نعطي كل ذي حق حقه، ولا نفعل ذلك حتى نعلم ما يستحقه كل ذي حق من الحق، وليس إلا بتبيين الحق لنا ذلك ولذلك أضافه إليه تعالى فقال: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [ص: ٢٠] ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] فما يعلمها إلا من أوتيها فهي هبة من الله تعالى كما وهبنا وجود أعياننا ولم نكن شيئاً وجودياً، فالعلم الإلهيّ هو الذي كان الله سبحانه معلمه بالإلهام والإلقاء وبإنزال الروح الأمين على قلبه، وهذا الكتاب من ذلك النمط عندنا، فوالله ما كتبت منه حرفاً إلا عن إملاء إلهيّ وإلقاء رباني أو نفث روحاني في روع كياني، هذا جملة الأمر، مع كوننا لسنا برسل مشرعين ولا أنبياء مكلفين بكسر اللام اسم فاعل، فإن رسالة التشريع ونبوّة التكليف قد انقطعت عند رسول الله محمد ﷺ، فلا رسول بعده ﷺ ولا نبيّ يشرّع ولا يكلف، وإنما هو علم وحكمة وفهم عن الله فيما شرعه على ألسنة رسله وأنبيائه عليهم سلام الله، وما خطه وكتبه في لوح الوجود من حروف العالم وكلمات الحق فالتنزيل لا ينتهي بل هو دائم دنيا وآخرة: [البسيط]

الله أنْـشَـأ مـن طَـيٍّ وخَـوْلانِ جِسْمي فعَدَّلني خَلْقاً وسَوّاني
وأنْشَأ الحَقُّ لي رُوحاً مطهرةً فليس بُنْيَانُ غيري مِثْلَ بُنْياني
إنّي لأعْرفُ رُوحاً كان ينزلُ بي من فوق سَبْع سماواتٍ بفُرْقانِ

نريد قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]: [البسيط]

وما أنا مُدَّعٍ في ذاك من نَبَأٍ من الـ ـإلـهِ ولكن جُودُ إحْسَانِ
إنّ النُّبُوّةَ بَيْتٌ بيننا غَلَقٌ وبينه مُوثَقٌ بقُفْلِ إيمانِ

وإنما قلنا ذلك لئلا يتوهم متوهم أني وأمثالي أدعي نبوة، لا والله ما بقي إلا ميراث وسلوك على مدرجة محمد رسول الله ﷺ خاصة، وإن كان للناس عامة ولنا ولأمثالنا خاصة من النبوة ما أبقى الله علينا منها مثل المبشرات ومكارم الأخلاق، ومثل حفظ القرآن إذا ما استظهره الإنسان، فإن هذا وأمثاله من أجزاء النبوة الموروثة، ولذلك كان أوّل إنسان أنشأه الله وهو آدم نبياً من مشى على مدرجته بعد ذلك فهو وارث لا بد من ذلك بهذه النشأة الترابية، وأما في المقام فآدم ومن دونه إنما هو وارث محمد ﷺ لأنه كان نبياً وآدم بين الماء والطين لم يكن بعد موجوداً، فالنبوة لمحمد ﷺ ولا آدم والصورة الآدمية الطبيعية الإنسانية لآدم ولا صورة لمحمد ﷺ وعلى آدم وعلى جميع النبيين، فآدم أبو الأجسام الإنسانية، ومحمد ﷺ أبو الورثة من آدم إلى خاتم الأمر من الورثة، فكل شرع ظهر وكل علم إنما هو ميراث محمدي في كل زمان ورسول ونبيّ من آدم إلى يوم القيامة، ولهذا أوتي جوامع الكلم ومنها علّم الله آدم الأسماء كلها، فظهر حكم الكل في الصورة الآدمية والصورة المحمدية، فهي في آدم أسماء وفي محمد ﷺ كلم، وكلمات الله سبحانه لا تنفد، وموجوداته من حيث جوهرها لا تبعد، وإن ذهبت صورها وتبدلت أحكامها فالعين لا تذهب ولا تتبدل بل وقع التبديل في العالم لما هو الحق عليه من التحول في الصور، فلو لم يظهر التبدل في العالم لم يكمل العالم فلم تبق حقيقة إلهية إلا وللعالم استناد إليها، على أن تحقيق الأمر عند أهل الكشف أن عين تبدل العالم هو عين التحول الإلهيّ في الصور، فعين كونه فيما شاء تجلى عين كونه ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] فتلك على الحقيقة مشيئة الله لا مشيئتك وأنت تشاء بها، فالحياة لعين الجوهر، والموت لتبدل الصور، كل ذلك ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [الملك: ٢] بالتكليف ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] وإنما يبلوكم لتصح نسبة الاسم الخبير، فهو علم عن خبرة يعلم، ولا خبرة لإقامة حجة على من خلق فيه النزاع والإنكار، وهذا كله من تفصيل الآيات في الخطاب وفي الأعيان فهو ﴿الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨] وهو ﴿الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]. فلو كشف لكل أحد ما كشفه لبعض العالم لم يكن غفوراً ولا كان فضل لأحد على أحد، إذ لا فضل إلا بمزيد العلم كان بما كان، فالعالم كله فاضل مفضول فاشترك أعلى العلماء مع أنزلهم في علم الصنعة، فالعالم صنعة الله والعلم بصنعة الحياكة علم الحائك وهو صنعته وذلك في العموم أنزل العلوم وفي الخصوص علم الصنعة أرفع العلوم لأنه بالصنعة ظهر الحق في الوجود فهي أعظم دليل وأوضح سبيل وأقوم قيل ومن هنا ظهر

خواص الله الأكابر في الحكم بصورة العامة فجهلت مرتبتهم فلا يعرفهم سواهم وما لهم مزية في العالم، بخلاف أصحاب الأحوال فإنهم متميزون في العموم مشار إليهم بالأصابع لما ظهر عليهم بالحال من خرق العوائد، وأهل الله اتقوا من ذلك لاشتراك غير الجنس معهم في ذلك، فأهل الله معلومون بالمقام مجهولون بالشهود لا يعرفون، كما أن الله الذي هو لأهله معلوم بالفطرة عند كل أحد مجهول عنده بالعقل والشهود، فلو تجلى له ما عرفه بل لم يزل متجلياً على الدوام لكنه غير معلوم إلا عند أهله وخاصته وهم أهل القرآن أهل الذكر الذين أمرنا الله أن نسألهم لأنهم ما يخبرون إلا عنه قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] لأن أهل الذكر هم جلساء الحق، ، فما يخبر الذاكر الذي يشهد الله فيه أنه ذاكر له إلا عن جليسه فيخبر بالأمر على ما هو عليه وذلك هو العلم فإنه ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧] وهو ظهوره بصورته أي الذي أتى به من العلم عن الله فهو صفته التي بها تجلى هذا الشخص الذاكر، فعلى قدر ذكره يكون الحق دائم الجلوس معه، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها في رسول الله ﷺ أنه كان يذكر الله على كل أحيانه، فأثبتت له المجالسة مع الله تعالى على الدوام، فإما علمت بذلك كشفاً، وإما أخبرها بذلك رسول الله ﷺ، وكان ذلك في جلوسه معه أنه يقص عليه من أنباء الرسل ما يثبت به فؤاده لما يرى من منازعة أمته إياه فيما جاء به عن الله، ولو لم يكن عنده بهذه المثابة وأمثالها لم يكن بينه وبين غيره من البشر فرقان فإنه تعالى معهم حيثما كانوا وأينما كانوا، فلا بد أن يكون مع الذاكرين له بمعية اختصاص، وما ثم إلا مزيد علم به يظهر الفضل، فكل ذاكر لا يزيد علماً في ذكره بمذكوره فليس بذاكر وإن ذكر بلسانه لأن الذاكر هو الذي يعمه الذكر كله فذلك هو جليس الحق، فلا بد من حصول الفائدة لأن العالم الكريم الذي لا يتصور فيه بخل لا بد أن يهب جليسه أمراً لم يكن عنده، إذ ليس هنالك بخل ينافي الجود فلم يبق إلا المحل القابل، ولا يجالس إلا ذو محل قابل فذلك هو جليس الحق، والعالم جليسهم الحق من حيث لا يشعرون، وغاية العامة إذا كانت مؤمنة أن تعلم أن الله معها، والفائدة إنما هي أن تكون أنت مع الله لا في أنه معك، فكذلك هو الأمر في نفسه، فمن كان مع الحق فلا بد أن يشهد الحق، ومن شهده فليس إلا وجود العلم عنده فهذه هي المنح الإلهية: [البسيط]

فالعِلْمُ أشْرَفُ ما يُؤْتِيهِ مِنْ مِنَحٍ والكَشْفُ أعْظَمُ منهاجٍ وأوْضَحُهُ
فإنْ سألتَ إلَهَ الحَقّ في طَلَبٍ فَسَلْهُ كَشْفاً فإنّ الله يَمْنَحُهُ
وأدْمِنِ القَرْعَ إنّ البابَ أغْلَقَه دَعْوَى الكيان وَجُودُ الله يَفْتَحُهُ

فكل علم لا يكون حصوله عن كشف بعد فتح الباب يعطيه الجود الإلهيّ ويبديه ويوضحه فهو شعور لا علم لأنه حصل من خلف الباب والباب مغلق وليس الباب سواك فأنت بحكم معناك ومغناك وذلك هو غلق الباب، فإنك تشعر أن خلف هذا الجسم والصورة الظاهرة معنى آخر لا تعلمه، وإن شعرت به فالصورة الظاهرة المصراع الواحد والنفس المصراع الآخر، فإذا فتحت الباب تميز المصراع من المصراع وبدا لك ما وراء الباب فذلك

هو العلم فما رأيته إلا بالتفصيل لأنك فصلت ما بين المصراعين حتى تميز هذا فيك، فإن كان الباب عبارة عن حق وخلق وهو أنت وربك فالتبس عليك الأمر فلم يتميز عينك من ربك فلا تميزه ما لم يفتح الباب، فعين الفتح يعطيك المعرفة بالباب والفرق بين المصراعين فتعلم ذاتك وتعلم ربك وهو قوله ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» فالشعور مع غلق الباب والعلم مع فتح الباب، فإذا رأيت العالم متهماً لما يزعم أنه به عالم فليس بعالم وذلك هو الشعور، وإن ارتفعت التهمة فيما علم فذلك هو العلم، ويعلم أنه قد فتح الباب له وأن الجود قد أبرز له ما وراء الباب، وكثير من الناس من يتخيل أن الشعور علم وليس كذلك، وإنما حظ الشعور من العلم أن تعلم أن خلف الباب أمراً ما على الجملة لا يعلم ما هو ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ لقولهم: هو شاعر، ثم قال: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ﴾ يعني هذا الذي بعثناه به ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي أخذه عن مجالسة من الحق ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يسٓ: ٦٩] أي ظاهر مفصل في عين الجمع ما أخذه عن شعور، فإنه كل ما عينه صاحب الشعور في المشعور به فإنه حدس ولو وافق الأمر ويكون علماً فما هو فيه على بصيرة في ذلك، وليس ينبغي لعاقل أن يدعو إلى أمر حتى يكون من ذلك الأمر على بصيرة وهو أن يعلمه رؤية وكشفاً بحيث لا يشك فيه، وما اختصت بهذا المقام رسل الله بل هو لهم ولأتباعهم الورثة، ولا وارث إلا من كمل له الاتباع في القول والعمل والحال الباطن خاصة، فإن الوارث يجب عليه ستر الحال الظاهر، فإن إظهاره موقوف على الأمر الإلهيّ الواجب، فإنه في الدنيا فرع والأصل البطون، ولهذا احتجب الله في العموم في الدنيا عن عباده وفي الآخرة يتجلى عامة لعباده، فإذا تجلى لمن تجلى له على خصوصه كتجليه للجبل كذلك ما ظهر من الحال على الرسل من جهة الدلالة على صدقه ليشرع لهم والوارث داع لما قرره هذا الرسول وليس بمشرّع فلا يحتاج إلى ظهور الحال كما احتاج إليه المشرع. فالوارث يحفظ بقاء الدعوة في الأمة عليها وما حظه إلا ذلك، حتى أن الوارث لو أتى بشرع ولا يأتي به ولكن لو فرضناه ما قبلته منه الأمة فلا فائدة لظهور الحال إذا لم يكن القبول كما كان للرسول فاعلم ذلك، فما أظهر الله عليهم من الأحوال فذلك إلى الله لا عن تعمل ولا قصد من العبد وهو المسمى كرامة في الأمة، فالذي يجهد فيه ولي الله وطالبه إنما هو فتح ذلك الباب ليكون من الله في أحواله عند نفسه على بصيرة لا أنه يظهر بذلك عند خلقه فهو على نور من ربه وثابت في مقامه لا يزلزله إلا هو، فكرامة مثل هذا النوع علمه بالله وما يتعلق به من التفصيل في أسمائه الحسنى وكلماته العليا فيعلم ما يلج في أرض طبيعته من بذر ما بذر الله حين سواها وعدلها وما يخرج منها من العبارات عما فيها، والأفعال العملية الصناعية على مراتبها لأن الذي يخرج عن الأرض مختلف الأنواع وذلك زينة الأرض، فما يخرج عن أرض طبيعة الإنسان وجسده فهو زينة له من فصاحة في عبارة وأفعال صناعية محكمة، كما يعلم ما ينزل من سماء عقله بما ينظر فيه من شرعه في معرفة به وذلك هو التنزيل الإلهيّ على قلبه وما يعرج فيها من كلمه الطيب على براق العمل الصالح الذي يرفعه إلى الله كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وهو ما خرج من الأرض ﴿وَٱلْعَمَلُ

ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وهو ما أخرجته الأرض أيضاً، فالذي ينزل من السماء هو الذي يلج في الأرض، والذي يخرج من الأرض وهو ما ظهر عن الذي ولج فيها هو الذي يعرج في السماء، فعين النازل هو عين الوالج، وعين الخارج هو عين العارج، فالأمر ذكر وأنثى ونكاح وولادة، فأعيان موجودة، وأحكام مشهودة وآجال محدودة، وأفعال مقصودة، منها ما هي مذمومة بالعرض وهي بالذات محمودة.

ثم اعلم أنّ التفصيل لا يظهر في الوجود إلا بالعمل فإن فصله العامل على تفصيله في الإجمال إجمال الحكمة فهو العمل الصالح، وإن فصله على غير ذلك بالنظر إلى تفصيل الإنسان فيه فذلك العمل غير الصالح، وأكثر ما يكون العمل غير الصالح في الذين يفصلون الأمور بالنظر العقلي لا بالإعلام الإلهي، فما فصل بالإعلام الإلهي فهو كله عمل صالح، وما فصل بالنظر العقلي فمنه صالح بالنسبة إلى تفصيله لا غير، والكل عمل صالح بالنسبة الى الله تعالى كما يقول إن النقص في الوجود من كمال الوجود وإن شئت قلت من كمال العالم إذ لو نقص النقص من العالم لكان ناقصاً فافهم.

واعلم أنه ما كنا نقول بالعمل غير الصالح ولا بالفساد أدباً مع العلم الإلهي وحقيقة، ولكن لما رأينا في الوضع الإلهيّ قد حذر الله من الفساد وقال: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧] وقال: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ﴾ [القصص: ٨٣] ورأينا في العرف بين العقلاء بل الناس أجمعين ذكر الفساد لذلك أقدمنا على ذكره، وإنما كنا نقول في ذلك بدل الفساد إظهار صورة وإزالة أخرى كما هو الأمر في نفسه من أجل تركيب خاص ونظام مزاج طبيعي، فأما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فالمراد به تغيير الحكم الإلهيّ لا تغيير العين ولا إبدال الصورة، وأما قوله: ﴿عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فهو أمر محقق لأن العلو لا تقبله الأرض ما دامت أرضاً لمن هي له أرض، وكل ما نراه عالياً شامخاً فيها فهو جبل ووتد ثقلها الله به ليسكن ميدها، فالجبال ليست أرضاً، فخلق الله الأرض مثل الكرة أجزاء ترابية وحجرية ضَمَّ الله بعضها إلى بعض، فلما خلق الله السماء بسط الأرض بعد ذلك ليستقر عليها من خلقت له مكاناً ولذلك مادت ولو بقيت الكرة ما مادت وما خلق الجبال، فخلق سبحانه الجبال فقال بها عليها دفعة واحدة وأدار بالماء المحيط بها جبلاً جعله لها كالمنطقة قيل إن عليه أطراف قبة السماء، وأن الزرقة التي ننسبها إلى السماء ونصفها بها فتلك اللونية لجرم السماء لبعدها عنك في الإدراك البصري كما ترى الجبال إذا بعدت عنك زرقاً وليست الزرقة لها إلا لبعدها عن نظر العين، كما ترى الجبل البعيد عن نظرك أسود فإذا جئته قد لا يكون كما أبصرته. وقد بينا لك أن الألوان على قسمين: لون يقوم بجسم المتلوّن، ولون يحدث للبصر عند نظره إلى الجسم لأمر عارض يقوم بين الرائي والمرئي مثل هذا ومثل الألوان التي تحدث في المتلوّن باللون الحقيقي لهيئات تطرأ، فيراها الناظر على غير لونها القائم بها الذي يعرفه، وذلك مثل الشبهات في الأدلة فهي ألوان لا ألوان وحظها من الحقائق الإلهية ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ [الأنفال: ١٧] وأنت لا أنت وكالعالم كله

بالحقيقة هو خلق لا خلق أو حق لا حق، وكالخيال هو حس لا حس ومحسوس لا محسوس، أعني المتخيل والأرض منفعلة عن الماء المنفعل عن الهواء، فإن الهواء هو الأصل عندنا، ولذلك هو أقرب نسبة إلى العماء الذي هو نفس الرحمن، فجمع بين الحرارة والرطوبة، فمن حرارته ظهر ركن النار، ومن رطوبته ظهر ركن الماء، ومن جمود الماء كان الأرض، فالهواء ابن للنفس وهو العماء، والنار والماء ولدان للهواء، والأرض ولد الولد وهو ما جمد من الماء وما لم يجمد بقي ماء على أصله والأرض على ذلك الماء، وقد رأينا في نهر الفرات إذا جمد في الكوانين ببلاد الشمال يعود أرضاً تمشي عليه القوافل والناس والدواب والماء من تحت ذلك الجليد جار وذلك الماء على الهواء وهو الذي يمده برطوبته فيحفظ عليه عينه واستقراره عليه، فإن الهواء يجري الماء إذا تحرك، وإذا احتقن وسكن سكن الماء عليه فلا ينفذ الماء فيه، وقد رأينا ذلك في أنبوب القصب وأمثاله المنفوذ الثقب إذا ملأته ماء وسددت موضع الثقب الأعلى من الأنبوب لا يجري من أسفل الأنبوب شيء من الماء، فإذا أزلته جرى الماء فلم يعتمد ذلك الماء إلا على الهواء الساكن لسكونه وهو صورة تعم العالم كله، وإذا تموّج الهواء سمي ريحاً، والريح تنقل روائح ما تمر عليه من طيب وخبيث إلى المشام، وكذلك تنقل برودة الأشياء وحرارتها، ولذلك توصف الريح بأنها نمامة وتوصف بنقل الأخبار إلى السامعين، ولا يتلقى منها هذه الأمور التي تتم بها وتخبر عنها إلا قوّة السمع والشم إلى السامعين والشامين، وحركات الأجرام تحرك الهواء فتحدث له اسم الريح والهواء يحرك الأجرام وفيه تتحرك الأجرام، وأما الخرق فما هو إلا تفريغ أحياز عن أشياء وإشغالها بأشياء غير تلك الأشياء لأنه ما فيما عمره العالم خلاء وإنما هي استحالات صور، فصور تحدث الأمور وصور تذهب الأمور، والجوهر الذي ملأ الخلاء ثابت العين لا يستحيل إلى شيء ولا يستحيل إليه شيء. وليس للأسماء الإلهية متعلق إلا أحداث هذه الصور واختلافها، وأما ذهابها فلنفسها، وأما ذهابها فلما تقتضيه ذات موجدها وهو علم لطيف، فإنه كلام حق من حق لكن الأفهام تختلف فيه، فإنه يقول للصور: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر: ١٦] فمعناه إن يشأ يشهدكم في كل زمان فرد الخلق الجديد الذي أخذ الله بأبصاركم عنه فإن الأمر هكذا هو في نفسه، والناس منه في لبس إلا أهل الكشف والوجود. فإن قلت: فقد قلت ببقاء عين الجوهر. قلنا: ليس بقاؤه لعينه وإنما بقاؤه للصور التي تحدث فيه فلا يزال الافتقار منه إلى الله دائماً، فالجوهر فقره إلى الله للبقاء، والصور فقرها إلى الله لوجودها، فالكل في عين الفقر إلى الله ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] بالغنى أي المثنى عليه بصفة الغنى عن العالم.

وفي هذا المنزل من العلوم: علم إضافة الأعمال إلى الخلق وهو مذهب بعض أهل النظر والخلاف في ذلك قد تقدم في هذا الكتاب وحكاية المذاهب فيه وأقوالهم. وفيه علم تعليم الحق عباده كيف يعاملونه بما يعاملونه به إذ لا تخلو نفس عن معاملة تقوم بها. وفيه علم التنبيه على حقيقة الإنسان. وفيه علم اختلاف العالم لماذا يرجع بالصورة وبالحكم. وفيه علم العناية ببعض المخلوقين وهي العناية الخاصة، وأما العناية العامة فهي الإيجاد له وفقر

العالم كله إليه تعالى. وفيه علم تأثير الأعمال الخيرية في الأعمال غير الخيرية، وأعمال الشرّ في أعمال الخير، وأن القويّ من الأعمال يذهب بالأضعف، وأن العدم في الممكن أقوى من الوجود لأن الممكن أقرب نسبة إلى العدم منه إلى الوجود، ولذلك سبق بالترجيح على الوجود في الممكن، فالعدم حضرته لأنه الأسبق والوجود عارض له، ولهذا يكون الحق خلاقاً على الدوام، لأن العدم يحكم على صور الممكنات بالذهاب، والرجوع إليه رجوع ذاتي، فحكم العدم يتوجه على ما وجد من الصور، وحكم الإيجاد من واجب الوجود يعطي الوجود دائماً عين صورة بعد عين صورة، فالممكنات بين إعدام للعدم وبين إيجاد لواجب الوجود، وأما تعلق ذلك بالمشيئة الإلهية فإنه سر من أسرار الله نبه الله عليه في قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [فاطر: ١٦] من باب الإشارة إلى غوامض الأسرار لأولي الأفهام أنه عين كل منعوت بكل حكم من وجود أو عدم ووجوب وإمكان ومحال، فما ثم عين توصف بحكم إلا وهو ذلك العين، وهذه مسألة تضمنها هذا المنزل ولولا ذلك ما ذكرناها فإنه ما تقدم لها ذكر في هذا الكتاب ولن تراها في غيره إلا في الكتب المنزلة من عند الله كالقرآن وغيره، ومنها أخذناها بما رزقنا الله من الفهم في كلامه. وفيه علم ما يمحو عبادة الصلاة من الأعمال التي نهى الشرع أن يعمل بها المكلف. وفيه علم تأثير المجاورة ولذلك أوصى الله تعالى بالجار، وقد أجرى الله على ألسنة العامة في أمثالهم أن يقولوا: الرفيق قبل الطريق وقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ**» فهو رفيقه «**وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ**» فهو وكيله. ومن كمال امرأة فرعون قولها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] فقدمته على البيت وهو الذي جرى به المثل في قولهم: الجار قبل الدار وقال الله في تأثير الجوار: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] وقال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣] ومن جاور مواضع التهم لا يلومن من نسبه إليها. وفيه علم الأمر الإلهي إذا لم ينفذ ما المانع لنفوذه وما هو الأمر الإلهي وهل له صيغة أم لا؟ وفيه علم مجازاة كل عامل دنيا وآخرة جازاه بذلك من جازاه من حق وخلق والكل جزاء الله فما في انكون إلا جزاء بالخير والشرّ. وفيه علم الفرق بين الفرق وبذلك سموا فرقاً وحكم الله الجامع والفارق وما يجتمع فيه العالم وما يفترق. وفيه علم السعادة والشقاوة وما ينقطع من ذلك وما لا ينقطع. وفيه علم الدار الآخرة ما هي ولماذا اختصت باسم الحيوان والدنيا مثلها في هذه الصفة يدل على ذلك: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] وفيه علم يعلم به أن الله لولا ما جعل المؤاخذة على الجرائم دلالة ما آخذ الله بها أحداً من خلقه جملة واحدة. وفيه علم امتياز الإمام والمأموم واختلاف مراتب الأئمة في الإمامة وكيف يكون السعيد إماماً للأشقياء وحكمه بالإمامة في الدنيا وحكمه بذلك في الآخرة، فأما في الآخرة فيعم الأتباع ولكن من الأتباع هناك ما لا يزول إلى مقر الحسنى، ومنه ما يأتيه امتناع إمامه في الدنيا فيصرف عن اتباعه في الأخرى لأن الإمام يسعد وليس ذلك المتبع المصروف من أهل السعادة فلا بد أن يحال بينه وبين إمامه. وفيه علم النصائح وممن تقبل وما حظ العقل من النصائح وما حظ الشرع منها. وفيه علم

عموم ود الله ومحبته في صنعته ومصنوعاته، ولذلك عمهم بالرحمة والغفران لمن يعقل عن الله فإنه المؤمن، ومن شأن المؤمن أنه لا تخلص له معصية أصلاً لا يشوبها طاعة، كذلك الحق من كونه مؤمناً لا يمكن أن يخلص مع هذا الاسم شقاوة ما فيها رحمة هذا مما لا يتصور، فإن الرحمة بالعالم أصل ذاتي بالوجود، والشقاء أمر عارض لأن سببه عارض وهو مخالفة التكليف والتكليف عارض ولا بد من رفعه فترتفع العوارض لرفعه ولو بعد حين. وفيه علم تغيير الحكم المشروع بتغيير الأحوال في المكلف. وفيه علم الموازين المعنوية التي توزن بها المعاني والمحسوسات وموازين الآخرة هل هي إقامة العدل بالحكم في العالم بحيث أن يعلم العالم كله أنه ما طرأ عليه جور في الحكم عليه بما حكم الله به عليه؟ أو هل هي محسوسة كالموازين المحسوسة في الدنيا لوزن الأشياء؟ وإذا كانت حاسة البصر تدرك الموازين في الآخرة المحسوسة عندها هل هي محسوسة كما يدركها الحس أو ممثلة كتمثل الأعمال فإن الأعمال أعراض وهي في الآخرة أشخاص فتعلم أنها ممثلة لأن الحقائق لا تنقلب وحقيقة من لا يقوم بنفسه مغايرة حقيقة من يقوم بنفسه فلا بد أن تكون ممثلة كما ورد في الخبر النبوي: «**إِنَّ الْمَوْتَ يُؤْتَى بِهِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ**» ولم يقل يؤتى به كبشاً أملح والموت عرض بل نسبة فلا بد أن تكون العبارة عنه كما وردت في الخبر النبوي. وفيه علم ما هي الأولية في اليوم فإنه دائرة ولا بد للدائرة من ابتداء وانتهاء إلى ذلك الابتداء، فإن اليوم دورة واحدة للفلك الأطلس وقد انفصل بالليل والنهار بطلوع الشمس وغروبها، وأول اليوم الذي تعين بالأرض عند حركة الفلك كان بالحمل، ثم ظهر أول اليوم بطلوع الشمس إلى غروبها ولم يكن لها وجود إلا في برج الحمل فإنه بيت شرفها فوجدت طالعة في برج الحمل فظهر أول اليوم والصبح آخر اليوم وما بينهما ليل ونهار وهما معلومان بالطلوع والغروب، ولذلك ما أخذ الله من أخذه من الأمم إلا في آخر اليوم وذلك لاستيفاء الحركة كما يتربص بالعنين انقضاء فصول السنة، وحينئذ يفرق بينه وبين المرأة أعني زوجته لأن أسباب التأثير الإلهي المعتاد في الطبيعة قد مرت على العنين وما أثرت فيه، فدل أن العنة فيه لا تزول، فعدمت فائدة النكاح من لذة وتناسل ففرق بينهما إذ كان النكاح للالتذاذ والتناسل معاً أو في حق طائفة أخرى لكذا وفي أخرى لكذا وفي أخرى للمجموع، وكذلك إذا انتهت دورة اليوم وقع الأخذ الإلهي في آخره. وفيه علم تجسد الأرواح في صور الأجسام الطبيعية هل عين ذلك الروح هو عين الصورة التي ظهر فيها أو هل ذلك في عين الرائي كما ذكرناه في زرقة السماء أو هل الروح لتلك الصورة كالروح للجسم أعني النفس الناطقة وتلك الصور صورة حقيقية لها وجود عيني لا في عين الناظر كسائر الصور الحقيقية، وهذه مسألة أغفلها كثير من الناس بل الناس كلهم فإنهم قنعوا بما ظهر لهم من صور الأرواح المجسدة فلو تروحنوا في نفوسهم وحكموا بالصور على أجسامهم وتبدلت أشكالهم وصورهم في عين من يراهم علموا عند ذلك تجسد الأرواح لماذا يرجع فإنه علم ذوق لا علم نظر فكري، وقد بينا أن كل صورة تجسدت في العالم فلا بد لها من روح مدبرة من الروح الكل المنفوخ منه في الصور، ومن

علم أن الصورة المتجسدة في الأرواح إذا قتلت إن كانت حيواناً أو قطعت إن كانت نباتاً أنها تنتقل إلى البرزخ ولا بد كما ننتقل نحن بالموت وأنها إن أدركت بعد ذلك فإنما تدرك كما يدرك كل ميت من الحيوان إنسان وغير إنسان، فمن هنا أيضاً، إذا وقفت على علم هذا علمت صور الأرواح المتجسدة لماذا ترجع. وفيه علم ما للضيف الوارد من الحق على من ورد عليه والأنفاس واردات الحق على العبد ولها حق وهي راجعة إلى من وردت منه، فلينظر بماذا يستقبلها إذا وردت وما يلزمه من الأدب معها في الأخذ لما ترد به وما يخلع عليها إذا انقلبت عنه راجعة إلى الحق. وفيه علم العادات وخرقها ودفع الشبه التي يراها الطبيعيون أنها تفعل لذاتها وما هي الطبيعة في الحقيقة ولمن ترجع الآثار الظاهرة في الكون. وفيه علم شرف الحيوان على الإنسان الحيواني وفيه علم الجبر في الاختيار. وفيه علم إدخال الحق نفسه مع الأكوان في السلوك والأحوال هل دخل معهم للحفظ أو دخل معهم لكونه العامل لما هم فيه أو دخل معهم صحبة وعناية بهم أو تقتضي ذاته ذلك الدخول معهم؟ وفيه علم العبيد والأحرار وما الأعمال التي تطلب الأجور وممن تطلب، فإن العامل ما يعمل إلا لنفسه فبماذا يستحق الأجرة من غيره. وفيه علم أسباب التجارة التي هي مخصوصة بالحياة. وفيه علم خواص الأسماء الإلهية من حيث تركيب حروف ذلك الاسم حتى إذا ترجم بلسان آخر لم يكن له تلك الخاصية، فإنه لا فرق بين مزاج حروف الكلمة إذا تركبت ومزاج أجسام المعدن أو النبات أو جسم الحيوان، فإن جسم الحيوان هو جسم نباتي أضيف إليه حس فقيل حيوان. وفيه علم سبب إدخال الآلام واللذات على الحيوان الطبيعي وعين ما يتألم به حيوان يلتذ به حيوان آخر. وفيه علم تأثير الأضعف في الأقوى وأصل ذلك من تأثير النسب في الموجودات وهي أمور عدمية بل لا مؤثر إلا هي. وفيه علم من يعلم أنه لا يخبر إلا عن الله ويؤاخذ بما نسب ويهلك، وآخر يخبر عن نفسه وينجو، وآخر يخبر عن الله وينجو، فالهالك من يخبر عن عقد، والناجي من يخبر عن ذوق، فأهل الأذواق أهل الله والخاصة من أوليائه. وفيه علم الانقياد المنجي والانقياد المهلك. وفيه علم أشكال العالم وتشكله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والسبعون وثلاثمائة

في معرفة منزل الرؤية والرؤية وسوابق الأشياء في الحضرة الربية وأن للكفار قدماً كما أن للمؤمنين قدماً وقدوم كل طائفة على قدمها آتية بإمامها عدلاً وفضلاً من الحضرة المحمدية

[نظم: البسيط]

مَنْ كان في ظُلْمَةِ الأكوان كان له ... حُكْمُ العناية دون الخَلْقِ أجْمَعِهِ
ونال كَشْفَ غِطَاءِ الحِسِّ مِنْ كَثَبٍ ... وأبْصَرَ الكُلَّ مفتوناً بِمَوْضِعِهِ
يجري على السُّنَّةِ البيضاء سِيرَتَه ... يشاهد الحَقَّ مربوطاً بِمَهْيَعِهِ

اعلم أيدك الله بالشهود وجعلك من أهل الجمع والوجود أن الله تعالى لما جعل العرش

محل أحدية الكلمة وهو الرحمن لا غيره وخلق الكرسي فانقسمت فيه الكلمة إلى أمرين ليخلق من كل شيء زوجين، ليكون أحد الزوجين متصفاً بالعلو والآخر بالسفل، الواحد بالفعل والآخر بالانفعال، فظهرت الشفعية من الكرسي بالفعل، وكانت في الكلمة الواحدة بالقوّة، ليعلم أن الموجود الأوّل أنه وإن كان واحد العين من حيث ذاته فإن له حكم نسبة إلى ما ظهر من العالم عنه فهو ذات وجودية ونسبة، فهذا أصل شفعية العالم، ولا بد من رابط معقول بين الذات والنسبة حتى تقبل الذات هذه النسبة، فظهرت الفردية بمعقولية الرابط، فكانت الثلاثة أوّل الأفراد ولا رابع في الأصل، فالثلاثة أوّل الأفراد في العدد إلى ما لا يتناهى، والشفعية المعبر عنها بالاثنين أوّل الأزواج إلى ما لا يتناهى في العدد، فما من شفع إلا ويوتره واحد يكون بذلك فردية ذلك الشفع، وما من فرد إلا ويشفعه واحد يكون به شفعية ذلك الفرد، فالأمر الذي يشفع الفرد ويفرد الشفع هو الغني الذي له الحكم ولا يحكم عليه ولا يفتقر ويفتقر إليه فتدلت إلى الكرسي القدمان لما انقسمت فيه الكلمة الرحمانية فإن الكرسي نفسه به ظهرت قسمة الكلمة لأنه الثاني بعد العرش المحيط من صور الأجسام الظاهرة في الجوهر الأصل وهما شكلان في الجسم الكل الطبيعي، فتدلت إليه القدمان فاستقرت كل قدم في مكان ليس هو المكان الذي استقرت فيه الأخرى وهو منتهى استقرارهما، فسمي المكان الواحد جهنماً والآخر جنة، وليس بعدهما مكان تنتقل إليه هاتان القدمان، فهاتان القدمان لا يستمدان إلا من الأصل الذي منه ظهرت وهو الرحمن فلا يعطيان إلا الرحمة، فإن النهاية ترجع إلى الأصل بالحكم، غير أنه بين البدء والنهاية طريق ميز ذلك الطريق بين البداية والغاية، ولولا تلك الطريق ما كان بدء ولا غاية، فكان سفراً للأمر النازل بينهن والسفر مظنة التعب والشقاء، فهذا سبب ظهور ما ظهر في العالم دنيا وآخرة، وبرزخاً من الشقاء، وعند انتهاء الاستقرار يلقى عصا التسيار وتقع الراحة في دار القرار والبوار. فإن قلت: فكان ينبغي عند الحلول في الدار الواحدة المسماة ناراً أن توجد الراحة وليس الأمر كذلك. قلنا: صدقت ولكن فاتك نظر وذلك، أن المسافرين على نوعين: مسافر يكون سفره كإقامة بما هو فيه من الترفه من كونه مخدوماً حاصلة له جميع أغراضه في محفة محمول على أعناق الرجال محفوظ من تغير الأهواء فهذا مثله في الوصول إلى المنزل مثل أهل الجنة في الجنة، ومسافر يقطع الطريق على قدميه قليل الزاد ضعيف المؤنة، إذا وصل إلى المنزل بقيت معه بقية التعب والمشقة زماناً حتى تذهب عنه ثم يجد الراحة، فهذا مثل من يتعذب ويشقى في النار التي هي منزله، ثم تعمه الرحمة التي وسعت كل شيء، ومسافر بينهما ليست له رفاهية صاحب الجنة ولا شظف صاحب النار فهو بين راحة وتعب، فهي الطائفة التي تخرج من النار بشفاعة الشافعين وبإخراج أرحم الراحمين وهم على طبقات، فلذلك يكون فيهم المتقدم والمتأخر بقدر ما يبقى معهم من التعب فنزول في النار شيئاً بعد شيء، فإذا انتهت مدته خرج إلى محل الراحة وهو الجنة إما بشفاعة شافع وإمّا بالإخراج العام وهو إخراج أرحم الراحمين، فالأنبياء والمؤمنون يشفعون في أهل الإيمان، وأهل الإيمان طائفتان: منهم

المؤمن عن نظر وتحصيل دليل وهم الذين علموا الآيات والدلالات والمعجزات وهؤلاء هم الذين يشفع فيهم النبيون، ومنهم المؤمن تقليداً بما أعطاه أبواه إذ ربياه أو أهل الدار التي نشأ فيها، فهذا النوع يشفع فيهم المؤمنون كما أنهم أعطوهم الإيمان في الدنيا بالتربية، وأما الملائكة فتشفع فيمن كان على مكارم الأخلاق في الدنيا وإن لم يكن مؤمناً وما ثم شافع رابع، وبقي من يخرجه أرحم الراحمين وهم الذين ما عملوا خيراً قط لا من جهة الإيمان ولا بإتيان مكارم الأخلاق، غير أن العناية سبقت لهم أن يكونوا من أهل تلك الدار، وبقي أهل هذه الدار الأخرى فيها فغلقت أبواب الدار وأطبقت ووقع اليأس من الخروج، فحينئذ تعم الرحمة أهلها لأنهم قد يئسوا من الخروج منها فإنهم كانوا يخافون منها الخروج لما رأوا إخراج أرحم الراحمين وهم قد جعلهم الله على مزاج يصلح لساكن تلك الدار ويتضرّر بالخروج منها كما قد بيناه، فلما يئسوا فرحوا فنعيمهم هذا القدر وهو أوّل نعيم يجدونه وحالهم فيها كما قدمناه بعد فراغ مدة الشقاء فيستعذبون العذاب فتزول الآلام ويبقى العذاب ولهذا سمي عذاباً لأن المآل إلى استعذابه لمن قام به، كما يستحلي الجرب من يحكه فإذا حكه من غير جرب وغير حاجة من يبوسة تطرأ على بعض بدنه تألم بالحك، هكذا الأمر يقتضيه حال المزاج الذي يعرض للإنسان فافهم نعيم كل دار تسعد إن شاء الله تعالى. ألا ترى إلى صدق ما قلناه أن النار لا تزال متألمة لما فيها من النقص وعدم الامتلاء حتى يضع الجبار فيها قدمه وهي إحدى تينك القدمين المذكورتين في الكرسي، والقدم الأخرى التي مستقرها الجنة قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ [يونس: ٢] فالاسم الرب مع هؤلاء والجبار مع الآخرين لأنها دار جلال وجبروت وهيبة، والجنة دار جمال وأنس وتنزل إلهيّ لطيف، فقدم الصدق إحدى قدمي الكرسي وهما قبضتان الواحدة للنار ولا يبالي والأخرى للجنة ولا يبالي لأنهما في المآل إلى الرحمة فلذلك لا يبالي فيهما، ولو كان الأمر كما يتوهمه من لا علم له من عدم المبالاة ما وقع الأخذ بالجرائم ولا وصف الله نفسه بالغضب ولا كان البطش الشديد، فهذا كله من المبالاة والتهمم بالمأخوذ، إذ لو لم يكن له قدر ما عذب ولا استعد له، وقد قيل في أهل التقوى: إن الجنة ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقال في أهل الشقاء ﴿أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ [الإنسان: ٣١] فلولا المبالاة ما ظهر هذا الحكم، فللأمور والأحكام مواطن إذا عرفها أهلها لم يتعد بكل حكم موطنه وبهذا يعرف العالم من غير العالم، فالعلم لا يزال يتأدب مع الله ويعامله في كل موطن بما يريد الحق أن يعامله به في ذلك الموطن، ومن لا يعلم ليس كذلك، فالبقدمين أغنى وأفقر، وبهما أمات وأحيا، وبهما أهل وأقفر، وبهما ﴿خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥] وبهما أذل وأعز وأعطى ومنع وأضرّ ونفع، ولولاهما ما وقع شيء في العالم مما وقع، ولولاهما ما ظهر في العالم شرك فإن القدمين اشتركتا في الحكم في العالم، فلكل واحدة منهما دار تحكم فيها، وأهل تحكم فيهم بما شاء الله من الحكم، وقد أومأنا إليه وإلى تفاصيله، فإن الأحكام كالحدود تتغير بتغير الموجب لها، فالمحدود في الافتراء يحد بحد لا يقام فيه إذا قتل بل يتولاه حد آخر خلاف هذا، والمفتري

هو القاتل عينه فتغيرت الحدود عليه لتغير الموجب لها فافهم، فكذلك أحوال الأحكام الإلهية تتغير لتغير المواطن، فالعناية الكبرى التي لله بالعالم كون استوائه على العرش المحيط بالعالم باسمه الرحمن ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] ولذلك هو أرحم الراحمين؛ لأن الرحماء في العالم لولا رحمته ما كانوا رحماء فرحمته أسبق. ولما كانت القدمان عبارة عن تقابل الأسماء الإلهية مثل: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] ومثل ذلك ظهر عنها في العالم حكم ذلك في ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣] والجلال والجمال، والقرب والبعد، والهيبة والأنس، والجمع والفرق، والستر والتجلي، والغيبة والحضور، والقبض والبسط، والدنيا والآخرة، والجنة والنار، كما أن بالواحد كان لكل معلوم أحدية يمتاز بها من غيره، كما أن عن الفردية وهي الثلاثة ظهر حكم الطرفين والواسطة وهي البزرخ والشيء الذي هو بينهما كالحار والبارد والفاتر، وعن الفردية ظهرت الأفراد، وعن الاثنين ظهرت الأشفاع، ولا يخلو كل عدد أن يكون شفعاً أو وتراً إلى ما لا يتناهى التضعيف فيه والواحد يضعفه أبداً، فبقوة الواحد ظهر ما ظهر من الحكم في العدد والحكم لله الواحد القهّار؛ فلولا أنه سمي بالمتقابلين ما تسمى بالقهار لأنه من المحال أن يقاومه مخلوق أصلاً، فإذاً ما هو قهار إلا من حيث أنه تسمى بالمتقابلين فلا يقاومه غيره فهو المعز المذل فيقع بين الاسمين حكم القاهر والمقهور بظهور أحد الحكمين في المحل، فلذلك هو الواحد من حيث أنه يسمى القهار من حيث أنه يسمى بالمتقابلين ولا بد من نفوذ حكم أحد الاسمين، فالنافذ الحكم هو القاهر والقهار من حيث أن أسماء التقابل له كثيرة، كما ذكرناها من المحيي والمميت والضارّ والنافع وما أشبه ذلك، ومن هاتين القدمين ظهر في النبوّة المبعوث وغير المبعوث، وفي المؤمنين المؤمن عن نظر وعن غير نظر فحكمهما سار في العالم، فقد بان لك الأمر فلا ينهتك الستر، كما يحكمك الشفع كذا يحكمك الوتر.

وأما معرفة الحجاب والرؤية وهما من أحكام القدمين وإن كان حكم الرؤية باقياً إلا أن متعلقها الحجاب فهي ترى الحجاب فما زال حكمها فما ثم قاهر لها ولا مضاد إلا أن الرائي له عرض في متعلق خاص إذا لم تتعلق رؤيته به هناك يظهر حكم الحجاب فالغرض هو المقهور لا الرؤية، فمن أراد أن يزول عنه حكم القهر فليصحب الله بلا غرض ولا تشوف بل ينظر كل ما وقع في العالم وفي نفسه يجعله كالمراد له فيلتذ به ويتلقاه بالقبول والبشر والرضى، فلا يزال من هذه حاله مقيماً في النعيم الدائم لا يتصف بالذلة ولا بأنه مقهور فتدركه الآلام لذلك وعزيز صاحب هذا المقام وما رأيت له ذائقاً، لأنه يجهل الطريق إليه، فإن الإنسان لا يخلو نفساً واحداً عن طلب يقوم به لأمر ما، وإذا كانت حقيقة الإنسان ظهور الطلب فيه فليجعل متعلق طلبه مجهولاً غير معين إلا من جهة واحدة وهو أن يكون متعلق طلبه ما يحدثه الله في العالم في نفسه أو في غيره، فما وقعت عليه عينه أو تعلق به سمعه أو وجده في نفسه أو عامله به أحد فليكن ذلك عين مطلوبه المجهول قد عينه له الوقوع، فيكون قد وفى حقيقة كونه طالباً وتحصل له اللذة بكل واقع منه أو فيه من غيره أو في غيره، فإن

اقتضى ذلك الواقع التغيير له تغير لطلب الحق منه التغير وهو طالب الواقع والتغير هو الواقع وليس بمقهور فيه بل هو ملتذ في تغييره كما هو ملتذ في الموت للتغير، وما ثم طريق إلى تحصيل هذا المقام إلا ما ذكرناه، فلا نقل كما قال من جهل الأمر فطلب المحال فقال: أريد أن لا أريد، وإنما الطلب الصحيح الذي تعطيه حقيقة الإنسان أن يقول: أريد ما تريد.

وأما طريقتها في العموم فسهل على أهل الله وذلك أن الإنسان لا يخلو من حالة يكون عليها ويقوم فيها عن إرادة منه وعن كره بأن يقام فيها من غير إرادة، ولا بد أن يحكم لتلك الحال حكم شرعي يتعلق بها فيقف عند حكم الشرع فيريد ما أراده الشرع فيتصف بالإرادة لما أراد الشرع خاصة فلا يبقى له غرض في مراد معين وكذلك من قال: إن العبد ينبغي أن يكون مع الله بغير إرادة لا يصح وإنما يصح لو قال: إن العبد من يكون متعلق إرادته ما يريد الحق به إذ لا يخلو عن إرادة، فمن طلب رؤية الحق عن أمر الحق فهو عبد ممتثل أمر سيده، ومن طلب رؤية الحق عن غير أمر الحق فلا بد أن يتألم إذا لم يقع له وجدان لما تعلقت به إرادته فهو الجاني على نفسه، فإن خالق الأشياء والمرادات والحوادث يحكم ولا يحكم عليه، فليكن العبد معه على ما يريده فإنه يحوز بهذا الراحة المعجلة في الدنيا، وقد ورد في الأخبار الإلهية: «**يَا عَبْدِي أُرِيدُ وَتُرِيدُ وَلاَ يَكُونُ إِلاَّ مَا أُرِيدُ**» فهذا تنبيه على دواء إذا استعمله الإنسان زال عنه الألم الذي ذكرناه، ولذلك ورد في الإلهيات عن كعب الأحبار أن الله تعالى يقول: يا ابن آدم إن رضيت بما قسمت لك أرحت قلبك وبدنك وهو موضع إرادة العبد وأنت محمود، وإن لم ترض بما قسمت لك سلطت عليك الدنيا حتى تركض فيها ركض الوحش في البرية ثم وعزتي وجلالي لا تنال منها إلا ما قدرت لك وأنت مذموم، وهذا أيضاً دواء وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] فهو عزاء أفاد علماً ليثبت به العبد في القيامة حكماً فهو تلقين حجة ورحمة من الله وفضل.

واعلم أنه كل ما ينال بسعاية فليس فيه امتنان، والطلب سعاية والرؤية امتنان فلا يصح أن يطلب، فإذا وقع ما وقع من الرؤية عن طلب فليست هي الرؤية على الحقيقة الحاصلة عن الطلب فإن مطلوبه من المرئي أن يراه إنما هو أن يراه على ما هو له وهو لا يتجلى له إلا في صورة علمه به لأنه إن لم يكن كذلك أنكره، فما تجلى له إلا في غير ما طلب فكانت الرؤية إحساناً، فإنه ما جاءه عين ما طلب وهو يتخيل أن ذلك عين ما طلب وليس هو، فإذا وقع له الالتذاذ بما رآه وتخيل أنه مطلوبه تجلى له بعد ذلك من غير طلب، فكان ذلك التجلي أيضاً امتناناً إلهياً أعطاه من العلم به ما لم يكن عنده ولا خطر على باله، فإذا فهمت ما ذكرته لك علمت أن رؤية الله لا تكون بطلب ولا تنال جزاء كما تنال النعم بالجنان، وهذه مسألة ما في علمي أن أحداً نبه عليها من خلق الله إلا الله، مع أن رجال الله يعلمونها وما نبهوا عليها لتخيلهم أن هذه المسألة قريبة المأخذ سهلة المتناول أو وقوعها من المحال لا بد من أحد الحكمين، فإن الله ما سوى بين الخلق في العلم به فلا بد من التفاضل في ذلك بين عباد الله، فإن المعتزلي يمنع الرؤية، والأشعري يجوزها عقلاً ويثبتها شرعاً في مقتضى نظره،

والفيلسوف ينفيها عقلاً إذ لا قدم له في الشرع والإيمان، وأهل الله يثبتونها كشفاً وذوقاً، ولو كان قبل الكشف ما كان فإن الكشف يرده لما أعطاه ما يبقيه على ما كان عليه إلا إن كان ممن يقول بما جاء به أهل الكشف فإنه لا يتغير عليه الحال إلا بقدر ما بين العلم ورؤية المعلوم، واعلم أن الله من حيث نفسه له أحدية الأحد، ومن حيث أسمائه له أحدية الكثرة: [الرمل]

إنَّما الله إلٰهٌ واحدٌ ... ودليلي قُلْ هو الله أَحَدْ
فإذا ما تِهتَ في أسمائه ... فاعْلَمَ أنَّ التِّيهَ من أجْلِ العَدَدْ
يرجعُ الكُلُّ إليه كلّما ... قرأ القارئُ الله الصَّمَدْ
لم يَلِدْ حقّاً ولم يُولَدْ ولم ... يَكُ كُفواً للإلٰه مِنْ أَحَدْ
فيحارُ العقلُ فيه عندما ... يغلبُ الوَهْمُ عليه بالمَدَدْ
ثم يأتيه مُشِدّاً أَزَلٌ ... جاء في الشرعِ ويَتْلُوهُ أَبَدْ
وبنا كان له الحكمُ به ... فإذا زِلْنا فكَوْنٌ يَنْفَرِدْ

وهذا هو السبب الموجب لطلب تجليه تعالى في الصور المختلفة وتحوله فيها لاختلاف المعتقدات في العالم إلى هذه الكثرة، فكان أصل اختلاف المعتقدات في العالم هذه الكثرة في العين الواحدة، ولهذا وقع الإنكار من أهل الموقف عند ظهوره وقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ﴾ [النازعات: ٢٤] فلو تجلى لهم في الصورة التي أخذ عليهم الميثاق فيها ما أنكره أحد، فبعد وقوع الإنكار تحول لهم في الصورة التي أخذ عليهم فيها الميثاق فأقرّوا به لأنهم عرفوه ولهم إدلال إقرارهم، وأما تجليه تعالى في الكثيب للرؤية فهنالك يتجلى في صور الاعتقادات لاختلافهم في ذلك في مراتبهم ولم يختلف في أخذ الميثاق فذلك هو التجلي العام للكثرة، وتجلي الكثيب هو التجلي العام في الكثرة، والتجلي الذي يكون من الله لعبده وهو في ملكه هو التجلي الخاص الواحد للواحد، فرؤيتنا إياه في يوم المواقف في القيامة يخالف رؤيتنا إياه في أخذ الميثاق، ويخالف رؤيتنا إياه في الكثيب، ويخالف رؤيتنا إياه ونحن في ملكنا وفي قصورنا وأهلينا، فمنه كان الخلاف الذي حكم علينا به في القرآن العزيز في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨] وقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فهم الذين عرفوه في الاختلاف فلم ينكروه فهم الذين أطلعهم الله على أحدية الكثرة وهؤلاء هم أهل الله وخاصته، فقد خالف المرحومون بهذا الأمر الذي اختصهم الله به من سواهم من الطوائف، فدخلوا بهذا النعت في حكم قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ لأنهم خالفوا أولئك وخالفهم أولئك، فما أعطانا الاستثناء إلا ما ذكرناه، فكان سبحانه أوّل مسألة خلاف ظهر في العالم لأن كل موجود في العالم أوّل ما ينظر في سبب وجوده لأنه يعلم في نفسه أنه لم يكن ثم كان بحدوثه لنفسه، واختلفت فطرهم في ذلك فاختلفوا في السبب الموجب لظهورهم ما هو فلذلك كان الحق أوّل مسألة خلاف في العالم. ولما كان أصل الخلاف في العالم في المعتقدات وكان السبب أيضاً وجود كل شيء من العالم على مزاج لا يكون للشيء الآخر لهذا كان مآل الجميع إلى الرحمة لأنه خلقهم وأظهرهم في العماء وهو نفس الرحمن، فهم كالحروف في نفس المتكلم في المخارج

وهي مختلفة، كذلك اختلف العالم في المزاج والاعتقاد مع أحديته أنه عالم محدث، ألا تراه قد تسمى بالمدبر المفصل فقال عزّ وجلّ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [الرعد: ٢] وكل ما ذكرناه آنفاً هو تفصيل الآيات فيه وفينا ودلالة عليه وعلينا وكذلك نحن أدلة عليه وعلينا، فإن أعظم الدلالات وأوضحها دلالة الشيء على نفسه، والتدبر من الله عن التفكر في المفكرين منا، فبالتدبر تميز العالم بعضه من بعض ومن الله، وبالتفكر عرف العالم ذلك، ودليله الذي فكر فيه هو عين ما شاهده من نفسه ومن غيره ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ [فصلت: ٥٣] أن ذلك المرئي هو الحق: [البسيط]

إنّ التَّدَبُّرَ مِثْلُ الفِكْرِ في الحَدَثِ ... وفي المُهَيْمِنِ تَدْبيرٌ بلا نَظَرِ

فأَخْلِصِ الفِكْرَ إن الفِكْرَ مَهْلَكَةٌ ... بِهِ يُفَرَّقُ بينَ الله والبَشَرِ

فتحقق ما أوردناه في هذ الباب وما أبان الحق في هذا المنزل من علم الرؤية تنتفع بذلك في الدنيا إن كنت من أهل الشهود والجمع والوجود وفي الآخرة وتنتظم في سلك من استثنى الله كقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٩] فإن فهم العامة فيه خلاف فهم خاصة الله وأهله وهم أهل الذكر لأنهم فهموه على مراد الله فيه أعطاهم ذلك الأهلية، فثم عين تجمع وعين تفرق في عين واحدة سواء ذلك في جانب الحق أو جانب الخلق ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

وفي هذا المنزل من العلوم علم أصناف الكتب المنزلة والعلم بكل واحد منها بحسب الاسم الدال عليه، فمن هناك تعرف رتبة ذلك الكتاب وإن كان كل اسم لكتاب صالحاً لكل كتاب لأنه اسم صفة فيه ولكن ما اختص بهذا الاسم وحده على التعيين إلا لكونه هو فيه أتم حكماً من غيره من الأسماء كقوله عليه السلام: «**أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ وَأَفْرَضُكُمْ زَيْدٌ وَأَعْلَمُكُمْ بِالحَلَالِ وَالحَرَام مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ**» وقد ذكرنا الكتب وأسماءها في هذا الكتاب أعني طرفاً من ذلك في منزل القرآن، وفي كتاب مواقع النجوم في عضو اللسان، فإن الله تعالى لما أشار إلينا في القرآن العزيز إلى ما أنزله علينا تارة أوقع الإشارة إلى عين الكتاب فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢] وتارة أشار إلى آياته وقال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [يونس: ١] فتارة ترك الإشارة وذكر الكتاب من غير إشارة ولكل حكم من هذه الأحكام فهم منا يخصه لا بد من ذلك. وفيه علم الفرق بين السحر والمعجزة. وفيه علم ما للناس عند الله من حيث ما قام بهم من الصفات فيعلم من ذلك منزلته من ربه فإن الله ينزل على عبده منه حيث أنزل العبد ربه من نفسه، فالعبد أنزل نفسه من ربه فلا يلومن إلا نفسه إذا رأى منزلة غيره تفوق رفعة منزلته هذا هو الخسران المبين حيث كان متمكناً من ذلك فلم يفعل، ولذلك كان يوم القيامة يقال فيه يوم التغابن فإنه يوم كشف الغطاء وتتبين الأمور الواقعة في الدنيا ما أثمرت هنالك فيقول الكافر وهو الجاهل: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤] لعلمه أنه كان متمكناً من ذلك فلم يفعل فعذابه ندمه وما غبن فيه نفسه أشد عليه من أسباب العذاب من خارج وهذا هو العذاب الأكبر. وفيه علم الاستدلال على الله بماذا يكون هل بالله أو بالعالم أو بما فيه من النسب؟ وفيه علم فائدة اختلاف الأنوار

حتى كان منها الكاشف ومنها المحرق. وفيه علم مقادير الحركات الزمانية وحكم اسم الدهر عليها وهو اسم من أسماء الله تعالى. وفيه علم اختلاف الآيات لاختلاف صفات الناظرين فيها. وفيه علم ما يذم من الغفلة وما يحمد. وفيه علم الأسباب الموجبة لما يؤول إليه من أثرت فيه في الآخرة. وفيه علم ما تكلم به أوّل إنسان في نشئه وهو ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهو: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ١٠] فبدأ العالم بالثناء وختم بالثناء فأين الشقاء المسرمد حاشا الله أن يسبق غضبه رحمته فهو الصادق أو يخصص اتساع رحمته بعدما أعطاها مرتبة العموم.

حكاية في هذا: اجتمع سهل بن عبد الله بإبليس فقال له إبليس في مناظرته إياه: إن الله تعالى يقول: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] و«كلّ» تعطي العموم و«شيء» أنكر النكرات فأنا لا أقطع يأسي من رحمة الله، قال سهل: فبقيت حائراً ثم أني تنبهت في زعمي إلى تقييدها فقلت له: يا إبليس إن الله قيدها بقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ [الأعراف: ١٥٦] قال فقال لي: يا سهل التقييد صفتك لا صفته، فلم أجد جواباً له على ذلك.

وفيه علم ما يحمد من التأني والتثبط وما يذم، وعلم ما يحمد من العجلة في الأمور وما يذم. وفيه علم الرجوع إلى الله عن القهر إذا رجع مثله إلا بالإحسان وهل يستوي الرجوعان أم لا يستويان؟ وهذه مسألة حار فيها أهل الله أعني في رجوع الاضطرار ورجوع الاختيار، إذ كان في الاختيار رائحة ربوبية والاضطرار كله عبودية، فهذا سبب الخلاف في أي الرجوعين أتم في حق الإنسان. وفيه علم المحاضرات والمناظرات في مجالس العلماء بينهم وأن ذلك كله من محاضرات الأسماء الإلهية بعضها مع بعض، ثم ظهر ذلك في الملأ الأعلى إذ يختصمون مع شغلهم بالله، وأنهم عليهم السلام في تسبيحهم لا يفترون ولا يسأمون فهل خصومتهم من تسبيحهم كما كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه مع كونه كان يتحدث مع الأعراب في مجالستهم ومع أهله فهل كل ذلك هو ذكر الله أم لا؟ وأما اختلاف من خلق من الطبائع فغير منكور لأن الطبائع متضادة فكل أحد يدرك ذلك ولا ينكر المنازعة في عالم الطبيعة وينكرونها فيما فوق الطبيعة، وأما أهل الله فلا ينكرون النزاع في الوجود أصلاً لعلمهم بالأسماء الإلهية وأنها على صورة العالم بل الله أوجد العالم على صورتها لأنها الأصل، وفيها المقابل والمخالف والموافق والمساعد. وفيه علم الفرق بين من كان معلمه الله ومن كان معلمه نظره الفكري ومن كان معلمه مخلوق مثله، فإما صاحب نظر فيلحق بمعلمه، وإما صاحب إلقاء إلهيّ فيلحق بمعلمه ولا سيما في العلم الإلهيّ الذي لا يعلم في الحقيقة إلا بإعلامه فإنه يعز أن يدرك بالإعلام الإلهيّ فكيف بالنظر الفكري؟ ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن التفكر في ذات الله، وقد غفل الناس عن هذا القدر فما منهم من سلم من التفكر فيها والحكم عليها من حيث الفكر، وليس لأبي حامد الغزالي عندنا زلة بحمد الله أكبر من هذه، فإنه تكلم في ذات الله من حيث النظر الفكري في المضنون به على غير أهله وفي غيره ولذلك أخطأ في كل ما قاله وما أصاب، وجاء أبو حامد وأمثاله في ذلك بأقصى غايات الجهل وبأبلغ مناقضة لما أعلمنا الله به من ذلك واحتاجوا لما أعطاهم الفكر خلاف ما وقع به الإعلام الإلهيّ

إلى تأويل بعيد لينصروا جانب الفكر على جانب إعلام الله عن نفسه ما ينبغي أن ينسب إليه، وكيف ينبغي أن ينسب إليه تعالى؟ فما رأيت أحداً وقف موقف أدب في ذلك إلا خاض فيه على عماية إلا القليل من أهل الله لما سمعوا ما جاءت به رسله صلوات الله عليهم فيما وصف به نفسه وكلوا علم ذلك إليه ولم يتأوّلوا حتى أعطاهم الله الفهم فيه بإعلام آخر أنزله في قلوبهم فكانت المسألة منه تعالى وشرحها منها تعالى فعرفوه به لا بنظرهم، فالله يجعلنا من الأدباء الأمناء والأتقياء الأبرياء الأخفياء الذين اصطفاهم الحق لنفسه وخبأهم في خزائن العادات في أحوالهم. وفيه علم قول المبلغ عن الله تعالى قولاً بلغه عن الله لو قاله عن نفسه على مجرى العرف فيه لكان راداً على نفسه بما ادعاه أنه جاء به من عند الله، فلما قاله عن أمر الله عرف بالأمر الإلهيّ معنى ذلك وهو قول الإنسان إذا أمر بالخير أحداً من خلق الله من سلطان أو غيره فيجني عليه ذلك الأمر بالخير ممن أمره به ضرراً في نفسه إما نفسياً وإما حسياً أو المجموع، فإن الراد له والضار عليه استهانة بالله وهو أشد ما يمشي على الداعي إلى الله لأنه على بصيرة من الله فيما دعا إليه من الخير فيقول عند ذلك: ليتني ما دعوته إلى شيء من هذا لما طرأ عليه من الضرر في ذلك فهي مزلة العارفين إذا قالوا مثل ذلك، فإن الله يقول: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾ [الكهف: ٢٩] فإذا قالها العبد عن أمر الله مثل قوله تعالى إذ قال لنبيه عليه السلام: «وقل» فأمره ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس: ١٦] ولكنه شاء فتلوته عليكم وأدراكم به يقول فهمكم إياه فعلمتم أنه الحق كما قال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] فإذا قالها الوارث أو من قالها على هذا الحد فهو معرف معلم ما هو الأمر عليه ولهذا أمر الله بقول مثل هذا، وكثير ما يقع من الناس العتب على أهل الله إذا أمروا بخير يعقبهم ذلك ضرراً في أنفسهم محسوساً، وذلك لا يقع من مؤمن ولا من قائل عن كشف، فإن الرسول عليه السلام قيل له ما عليك إلا البلاغ وقيل له: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وكذلك يجب على الوارث، فكيف يصح منه الندم على فعل ما يجب عليه فعله لضرر قام به أو شفقة على من لم يسمع حيث زاد في شقائه لما أعلمه حين لم يصغ إلى ذلك؟ وهذا كله حديث نفس والدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم فلا يصرفنك عن ذلك صارف، ولقد رأيت قوماً ممن يدعي أنه من أهل هذا الشأن إذا ردّ عليهم في وجوههم ما جاؤوا به عن الحق انقبضوا وقالوا: فضلونا أدّانا إلى ذلك، ولو شاء الله ما تكلمنا بشيء من هذا مع أمثال هؤلاء ونحن جنينا على أنفسنا وقد تبنا وما نرجع نقول مثل هذا القول عند أمثال هؤلاء ويظهرون الندم على ذلك، وهذا كله جهل منهم بالأمر ودليل قاطع على أنه ليس بمخبر عن الله ولا أوصل شيئاً من ذلك عن إذن إلهي في ذلك، فإن المخبر عن الله لا يرى في باطنه إلا النور الساطع سواء قبل قوله أو ردّ أو أوذي، والمتكلم عن نفسه وإن قال الحق أعقبه إذا ردّ عليه ندم وضيق وحرج في نفسه وجعل كلامه فضولاً فردّ الحق الواجب فضولاً فهذا جهل، فالنصيحة لعباد الله واجبة على كل مؤمن بالله، ولا يبالي ما يطرأ عليه من الذي ينصحه من الضرر فإن الله يقول في الورثة: ﴿وَيَقْتُلُونَ

﴿ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١] وهذا القول عطف على قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ذكر ذلك في معرض الثناء عليهم، وذم الذين لم يصغوا إلى ما بلغ الرسول ولا الوارث إليهم، وأية فرحة أعظم ممن يفرح بثناء الله عليه ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. وفيه علم الصفات التي يتميز بها أهل الاستحقاق حتى يوفيهم حقوقهم من تعين ذلك عليه، ومن الحقوق من يقتضي الثناء الجميل على من لا يوفيه حقه من ذلك كالمجرم المستحق للعذاب بإجرامه فيعفي عنه فهذا حق قد أبطل وهو محمود، كما أن الغيبة حق وهي مذمومة، ومن عرف هذا عرف الحق ما هو وفرق بينه وبين الصدق، وعلم عند ذلك أن الغيبة ليست بحق وأنها صدق، ولهذا يسأل الصادق عن صدقه ولا يسأل ذو الحق إذا قام به، فالغيبة والنميمة وأشباههما صدق لا حق، إذ الحق ما وجب والصدق ما أخبر به على الوجه الذي هو عليه وقد يجب فيكون حقاً وقد لا يجب ويكون صدقاً لا حقاً، فلهذا يسأل الصادق عن صدقه إن كان وجب عليه نجا وإن كان لم يجب عليه بل منع من ذلك هلك فيه، فمن علم الفرق بين الحق والصدق تعين عليه أن يتكلم في الاستحقاق. وفيه علم ما ينتج من ذل لغير الله على إنزاله منه منزلة ربه جهلاً منه به فإن ذل للصفة من غير اعتبار المحل كان له في ذلك الذل حكم آخر. وفيه علم ما يحكم على الله ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩] ومن هنا تعلم أن صفاته لو كانت زائدة على ذاته كما يقوله المتكلم من الأشاعرة لحكم على الذات ما هو زائد عليها ولا هو عينها، وهذه مسألة زلت فيها أقدام كثيرين من العلماء وأضلهم فيها قياس الشاهد على الغائب أو طرد الدلالة شاهداً وغائباً وهذا غاية الغلط، فإن الحكم على المحكوم عليه بأمر ما من غير أن يعلم ذات المحكوم عليه وحقيقته جهل عظيم من الحاكم عليه بذلك، فلا تطرد الدلالة في نسبة أمر إلى شيء من غير أن تعرف حقيقة ذلك المنسوب إليه. وفيه علم أن الله لا يجوز لأحد من المخلوقين التحكم عليه ولو بلغ من المنزلة ما بلغ إلى أن يأمره بذلك فيحكم عليه بأمره فيما يجوز له أن يوجبه على نفسه إن كان من العالم بخلاف الحق فإن المكلف تحت الحجر، فلو أوجب على نفسه فعل ما حرم عليه فعله لم يجز له ذلك وكان كفارة ما أوجبه كفارة يمين فلم يخل عن عقوبة وإن لم يفعل ما أوجبه إذ لم يجز له ذلك، ولا كفارة على من أوجب على نفسه فعل ما أبيح له فعله ولا مندوحة له إلا أن يفعله ولا بد. وفيه علم المكر الخفي وتعجيل الجزاء عليه. وفيه علم موجب الاضطرار في الاختيار وما ينفع الاضطرار. وفيه علم الأسباب التي تنسي العالم بأمر ما يقتضيه حكم ذلك العلم من العمل وهي كثيرة. وفيه علم الحسرة وهو أن أحداً لا يؤاخذه على ما جناه سوى ما جناه فهو الذي آخذ نفسه فلا يلومن إلا نفسه ومن اتقى مثل هذا ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١] وبهذا تقوم الحجة لله على خلقه، وأنه إذا تكرم عليهم بعدم تسليطهم عليهم وعفا وغفر وجب له الثناء بصفة الكرم والإحسان. وفيه علم دعوة الله عباده لماذا يدعوهم هل إلى عمل ما كلفهم أو إلى ما ينتجه عمل ما كلفهم في الدار الآخرة، وأن الله ما كلف عباده ولا دعاهم إلى تكليف قط بغير واسطة، فإنه بالذات لا

يدعو إلى ما فيه مشقة فلهذا اتخذ الرسل عليهم الصلاة والسلام وقال جل ثناؤه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وفيه علم الجزاء الوفاق وإذا أعطى ما هو خارج عن الجزاء فذلك من الاسم الواهب والوهاب. وفيه علم العذاب المتخيل. وفيه علم تذكر العالم ما كان نسيه إذ كان لم يعمل به فإن العالم بالعلم هو المنشيء صورته فمن المحال أن ينساه. وفيه علم حسن التعليم إذ ما كل معلم يحسن التعليم. وفيه علم التأسي بالله كيف يكون وهو المطلق في أفعاله وأنت المقيد. وفيه علم البحث والحث على العمل بالأولى والأوجب. وفيه علم الفرق بين العلم والظن أعني غلبة الظن. وفيه علم العصمة والاعتصام. وفيه علم ما يقال للمعاند إذ لم يرجع إلى الحق وهو ما يرجع إلى علم الإنصاف. وفيه علم ما يعلم به أن أفعال العباد أفعال الحق لكن تضاف إلى العباد بوجه وإلى الحق بوجه، فإن الإضافة في اللسان في اصطلاح النحاة محضة وغير محضة، ومن الأفعال ما هي محضة لله إذا أضيفت إليه، ومنها غير محضة لما فيها من الاشتراك فلم تخلص، فالعبودية لله خالصة ومأمور بتخليصها كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وهو ما تعبدهم به، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤] وهو ما تعبده به في هذا الموضع، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾ [يونس: ٤٤] كلمة تحقيق، فإن الناس لا يملكون شيئاً حتى يكون من يأخذ منهم بغير وجه حق غاصباً فكل ما يقال فيه أنه ملك لهم فهو ملك لله ومن ذلك أعمالهم، ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤] فكنى سبحانه عن نفسه بأنفسهم لما وقع الظلم في العالم وقيل به فكأنه قال: ولكن نفسه يظلم إن كان هذا ظلماً ولا بد والمالك لا يظلم نفسه في ملكه، فلو كان ما عند الناس ملك لهم ما حجر الله عليهم التصرّف فيه ولا حد لهم فيه حدوداً متنوعة، فهذا يدلك على أن أفعال المكلف ما هي له وإنما هي لله، فالظلم إلى الحقيقة في الناس دعواهم فيما ليس لهم أنه لهم فما عاقبهم الله إلا على الدعوى الكاذبة. وفيه علم إدراج الكثير في القليل حتى يقال فيه إنه قليل وهو كثير في نفس الأمر. وفيه علم الآجال في الأشياء ومعنى قوله: ﴿فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩] على تلك الساعة. وفيه علم من ادّعي عليه بدعوى كاذبة يعلم المدعى عليه أن المدعي كاذب ولم يقم له بينة فوجب عليه اليمين فهو مأمور من الله بأن يحلف وليس له أن يرد اليمين على المدعي ولا أن ينكل عن اليمين فيعطيه ما ادّعى عليه فيكون معيناً له على ظلمة لنفسه وأنه في اليمين قد أحرز نفس صاحبه أن يتصرّف فيما ظلمه فيه بما ادعاه فيستصحبه الإثم ما دام يتصرّف فيه واليمين مانعة من ذلك ولم يبق على المدعي من الإثم إلا إثم اليمين خاصة فإن إثم كذبه في دعواه أزاله الحلف وعاد وبال الحلف الكاذب عليه، فهو بمنزلة لو حلف كاذباً فيعود عليه إثم من حلف لو كان في يمينه كاذباً كرجل ادّعى على رجل مثلاً بمائة دينار وهو كاذب في دعواه ولم تقم له بينة تصدق دعواه فأوجب الحاكم اليمين على المدعى عليه فإن ردّ المدعى عليه اليمين على المدعي وكان الحاكم ممن يرى ذلك وإن كان لا يجوز عندنا فهذا المدعى عليه ما نصح المدعي وهو مأمور بالنصيحة، فإن حلف المدعي

بحكم القاضي فإن عليه إثم الحلف الفاجرة وعلى المدعى عليه إثم ظلمه للحالف فإنه الذي جعله يحلف وليس على الحاكم إثم فإنه مجتهد فغايته أن يكون مخطئاً في اجتهاده فله أجر، فإن قام المدعى عليه فأعطى المدعي ما ادّعاه عليه تضاعف الإثم على المدعى عليه لأنه مكنه من التصرّف في مال لا يحل له التصرّف فيه ولا يزال الإثم على المدعي ما دام يتصرّف في ذلك المال وفيما ينتجه ذلك المال ولا يزال الإثم على المدعى عليه كذلك من حيث أنه أعان أخاه على الظلم ولم يكن ينبغي له ذلك، ومن حيث أنه عصى أمر الله بترك اليمين فإن الله أوجب اليمين عليه، فلو حلف عمل بما أوجب الله عليه فكان مأجوراً ونوى تخليص المدعي من التصرّف في الظلم فله أجر ذلك ولم يبق على المدعي بيمين المدعى عليه إلا إثم يمينه خاصة، فعلى المدعي إثم يمين كاذبة وهي اليمين الغموس، وهذه مسألة في الشرع لطيفة لا ينظر إليها بهذا النظر إلا من استبرأ لدينه وكان من أهل الله فإنه يحب للناس ما يحب لنفسه، فلا يعين أخاه على ظلم نفسه إذا أراد ذلك. وفيه علم ما يذم من القدح وما يحمد. وفيه علم المراقبة والحضور وأنهما من أبواب العصمة والحفظ الإلهيّ وتحصيل العلم النافع. وفيه علم صفات أهل البشرى وأنواع المبشرات وحيث يكون وما يسوء منها وما يسر. وفيه علم ما يظهر على من اعتز بالله من العزة والوقاية والحماية الإلهية. وفيه علم من لم يعمل بما سمع مما يجب عليه العمل به ما سببه الذي منعه من ذلك، وهل حكمه حكم من لم يسمع فيكون الله قد تفضل عليه أو يكون حكمه من علم فلم يعمل فعاقبه الله فيكون الله قد عدل فيه فإنه يقول: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ فإنهم سمعوا حقيقة وفهموا فإنه خاطبهم بلسانهم فقال تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] أي حكمهم حكم من لم يسمع عندنا مع كونهم سمعوا وما قال تعالى بماذا يحكم فيهم وإن كان غالب الأمر من قرائن الأحوال العقوبة، ولكن الإمكان لا يرتفع في نفس الأمر لما يعرف من فضل الله وتجوزه عن سيئات أمثال هؤلاء فافهم. وفيه علم ما يعطي الله المتوكل في قلبه إذا توكل على الله حق توكله. وفيه علم الخلافة الإلهية. وفيه علم أسباب الطبع على القلوب المؤدي إلى الشقاء. وفيه علم طلب إقامة البينة من المدعي ويتضمن هذا العلم قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ولم يقل حتى نبعث شخصاً فلا بد أن تثبت رسالة المبعوث عند من وجه إليه فلا بد من إقامة الدلالة البينة الظاهرة عند كل شخص شخص ممن بعث إليهم فإنه رب آية يكون فيها من الغموض أو الاحتمال بحيث أن لا يدرك بعض الناس دلالتها، فلا بد أن يكون للدليل من الوضوح عند كل من أقيم عليه حتى يثبت عنده أنه رسول، وحينئذ إن جحد بعد ما تيقن تعينت المؤاخذة، ففي هذه الآية رحمة عظيمة لما هو الخلق عليه من اختلاف الفطر المؤدي إلى اختلاف النظر، وما فعل الله ذلك إلا رحمة بعباده لمن علم شمول الرحمة الإلهية التي أخبر الله تعالى أنها وسعت كل شيء. وفيه علم ما ينتجه الكرم وما ينتجه البخل. وفيه علم رفع الإشكال في التلفظ بالإيمان حتى يعلم السامعون بأنه مؤمن علماً لا يشكون فيه وهو المعبر عنه بالنصوص، فإن الظاهر وإن كان ما يعلم بأوّل البديهة في الوضع ولكن يتطرق إليه

الاحتمال. وفيه علم من اعتنى الله به من عباده. وفيه علم الخذلان وأهله. وفيه علم ما يرجع إليه صاحب الحق إذا رد في وجهه. وفيه علم أنواع الصبر في الصابرين والشكر في الشاكرين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والسبعون وثلاثمائة

في معرفة منزل التضاهي الخيالي وعالم الحقائق والامتزاج وهو من الحضرة المحمدية

[نظم: البسيط]

كيف التَّبَرِّي وما في الكَوْن إلاّ هُوْ ... فكُل كَوْنٍ أراه أنت مَغْنَاهُ

وقد أتى بالتبرِّي في شريعته ... فحَيَّرَ العَقْلَ شَرْعٌ كان يَهْوَاهُ

أدناهُ منه ولا عَيْنٌ تُغَايِرُهُ ... فمن دَنَا ثم بعد القُرْب أقْصَاهُ

الله مولى جميع الخَلْق كُلِّهِمُ ... ولم يَخِبْ أحَدُ اللّهُ مَوْلاهُ

اعلم أيدك الله أن رسول الله ﷺ قال: «**مَوْلَىٰ القَوْمِ مِنهُمْ**» والخيال من موالي النفس الناطقة فهي منها بمنزلة المولى من السيد، وللمولى في السيد نوع من أنواع التحكم من أجل الملكية فإنه به وبأمثاله من الموالي يصح كون السيد مالكاً وملكاً، فلما لم يصح للسيد هذه المنزلة إلا بالمولى كان له بذلك يد هي التي تعطيه بعض التحكم في السيد وما له فيه من التحكم إلا أنه يصورها في أي صورة شاء وإن كانت النفس على صورة في نفسها ولكن لا يتركها هذا الخيال عند المتخيل إلا على حسب ما يريده من الصور في تخيله، وليس للخيال قوّة تخرجه عن درجة المحسوسات لأنه ما تولد ولا ظهر عينه إلا من الحس، فكل تصرّف يتصرّفه في المعدومات والموجودات ومما له عين في الوجود أو لا عين له فإنه يصوره في صورة محسوس له عين في الوجود، أو يصور صورة ما لها بالمجموع عين في الوجود، ولكن أجزاء تلك الصورة كلها أجزاء وجودية محسوسة لا يمكن له أن يصورها إلا على هذا الحد، فقد جمع الخيال بين الإطلاق العام الذي لا إطلاق يشبهه فإن له التصرّف العام في الواجب والمحال والجائز وما ثم من له حكم هذا الإطلاق، وهذا هو تصرّف الحق في المعلومات بوساطة هذه القوّة، كما أن له التقييد الخاص المنحصر، فلا يقدر أن يصوّر أمراً من الأمور إلا في صورة حسية كانت موجودة تلك الصورة المحسوسة أو لم تكن، لكن لا بد من أجزاء الصورة المتخيلة أن تكون كلها كما ذكرنا موجودة في المحسوسات أي قد أخذها من الحس حين أدركها متفرقة لكن المجموع قد لا يكون في الوجود.

واعلم أن الحق لم يزل في الدنيا متجلياً للقلوب دائماً فتتنوع الخواطر في الإنسان عن التجلي الإلهيّ من حيث لا يشعر بذلك إلا أهل الله، كما أنهم يعلمون أن اختلاف الصور الظاهرة في الدنيا والآخرة في جميع الموجودات كلها ليس غير تنوعه فهو الظاهر إذ هو عين كل شيء وفي الآخرة يكون باطن الإنسان ثابتاً، فإنه عين ظاهر صورته في الدنيا والتبدل فيه خفي، وهو خلقه الجديد في كل زمان الذي هم فيه في لبس، وفي الآخرة يكون ظاهره مثل

باطنه في الدنيا ويكون التجلي الإلهي له دائماً بالفعل فيتنوع ظاهره في الآخرة كما كان يتنوع باطنه في الدنيا في الصور التي يكون فيها التجلي الإلهيّ فينصبغ بها انصباغاً فذلك هو التضاهي الإلهيّ الخيالي، غير أنه في الآخرة ظاهر وفي الدنيا باطن، فحكم الخيال مستصحب للإنسان في الآخرة وللحق، وذلك هو المعبر عنهما بالشأن الذي هو فيه الحق من قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] فلم يزل ولا يزال، وإنما سمي ذلك خيالاً لأنا نعرف أن ذلك راجع إلى الناظر لا إلى الشيء في نفسه، فالشيء في نفسه ثابت على حقيقته لا يتبدل لأن الحقائق لا تتبدل ويظهر إلى الناظر في صور متنوعة، وذلك التنوع حقيقة أيضاً لا تتبدل عن تنوعها، فلا تقبل الثبوت على صورة واحدة بل حقيقتها الثبوت على التنوع، فكل ظاهر في العالم صورة ممثلة كيانية مضاهية لصورة إلهية لأنه لا يتجلى للعالم إلا بما يناسب العالم في عين جوهر ثابت، كما أن الإنسان من حيث جوهره ثابت أيضاً، فترى الثابت بالثابت وهو الغيب منك ومنه، وترى الظاهر بالظاهر وهو المشهود والشاهد والشهادة منك ومنه فكذا تدركه وكذا تدرك ذاتك، غير أنك معروف في كل صورة أنك أنت لا غيرك، كما تعلم أن زيداً في تنوعه في كيفياته من خجل ووجل ومرض وعافية ورضى وغضب وكل ما يتقلب فيه من الأحوال أنه زيد لا غيره كذلك الأمر فنقول: قد تغير فلان من حال إلى حال، ومن صورة إلى صورة، ولولا ما هو الأمر على هذا لكان إذا تبدل الحال عليه لم نعرفه وقلنا بعدمه، فعلمنا أن ثم عينين كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ [البلد: ٨] فعين يدرك به من يتحول وعين يدرك به التحول وهما طريقان مختلفان قد أبانهما الله لذي عينين وهو قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أي بينا له الطريقين كما قال الشاعر: [مخلّع البسيط]

نَــجْــداً عــلــى أنــه طــريــقٌ   تَــقْــطَــعُــهُ لــلــظِّــبَــا عُــيُــونُ

فجعل قطع الطريق للعيون، فكل عين لها طريق، فاعلم من رأيت وما رأيت ولهذا صح ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فالعين التي أدركت بها أن الرمي لله غير العين التي أدركت بها أن الرمي لمحمد ﷺ فتعلم أن لك عينين إن كنت صاحب علم فتعلم قطعاً أن الرامي هو الله في صورة محمدية جسدية وليس التمثل والتخيل غير هذا فالله قد نبهك وأنت لا تتنبه، وهذه هي الآيات التي جعلها الله لقوم يعقلون عنه ويتفكرون فيها، وذكرى لمن كان له قلب يتقلب فألقى السمع لما قيل له وعرف به وهو شهيد لتقلبه في نفسه، فيعلم أن الأمر كذلك، وهؤلاء هم أولو الألباب، فإن اللب يحجبه صورة القشر، فلا يعلم اللب إلا من علم أن ثم لباً ولولا ذلك ما كسر القشر فقد امتزج الأمر وما اختلطت الحقائق، وبذلك يميز الفاضل من المفضول، فيتنعم العالم بعلمه به وينعم الجاهل بجهله به ولا يعلم أنه جاهل به لأنه لا يعلم أن الأمر الذي هو على خلاف ما يعلمه أنه على خلاف ما يعلمه بل يقول ما ثم إلا هذا، ولو علم أن ثم خلاف ما يعلمه وما أدركه لتنغص كما يتنغص في الدنيا كل متنغص لما فاته مما يقتضيه مقامه من التاجر في تجارته والفقيه في فقهه وكل عالم في طوره، فتحقيق قوله عموماً ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] إنما ذلك في الآخرة بخلاف الدنيا فإنه لا

يعلم في الدنيا بل هو في الكثير من غير عموم، فإن الإنسان لا يفرح بما عنده من العلم بما هو به متصور قبل حصوله فإنه منتظر إياه فهو في ألم، فإذا حصل عنده أيضاً لم يفرح به، ومآل الكل في الآخرة بعد انقضاء مدة المؤاخذة إلى الفرح بما عنده وبما هو عليه، وهذا المنزل هو منزل خلق الله آدم على صورته ومن جعل على صورة أمر ما فكان ذلك الأمر هو عين هذه الصورة فهو هو لا هو وبهذا صح ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فكل ما يظهر من تلك الصورة فأصله ممن هي عليه فلا يصح له أن يبقى عن كل ما يظهر منها ولهذا جاء: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] يعني الذي هو عليه العالم بأسره، ولهذا وصف الحق نفسه على ألسنة رسله بما وصف به العالم كله قدماً بقدم ما اختل شيء من ذلك ولا أخل به: [الوافر]

فَعَيْنُ الخَلْقِ عَيْنُ الحَقِّ فيه ... فلا تُنْكِرْ فإن الكَوْنَ عَيْنُهْ
فإنْ فَرَّقْتَ فالفُرْقَانُ بادٍ ... وإنْ لَمْ فاعْتَبِرْ فالبَيْنُ بَيْنُهْ

ولما قال إنه جعلك على الصورة علم أنه لا بد لك من الدعوى بالملك لما أنت عليه كما أنه ذو ملك وليس كل ملك أقرب من نفسك وهي التي تدعي الملك لأنها على صورة من له الملك فعمد إليها من كونها مؤمنة من اسمه المؤمن فاشترى من المؤمن نفسه فبقي المؤمن لا نفس له كسائر الحيوان فلم يبق من يدعي ملكاً فصار الملك لله الواحد القهار وزال الاشتراك، فالمؤمن لا نفس له فلا دعوى له في الملك، فكل مؤمن ادعى ملكاً حقيقة فليس بمؤمن فإن المؤمن من باع نفسه فما بقي له من يدعي لأن نفسه كانت صاحبة الدعوى لكونها على صورة من له الدعوى بالملك حقيقة وهو الله تعالى، فاحفظ نفسك يا أخي من دعوى تسلب عنك الإيمان فإياك أن تحامي عن نفسك التي كانت لك، وإذا عزمت على أن تحامي عنها فحام عنها بحضور وعلم على أنها نفس الحق لا نفسك، ومن هناك يجازيك ربك فإنك صادق ومؤثر ودرجة الإيثار قد علمت ما تقتضيه عند الله من الرفعة فاعمل على ذلك.

فإذا علمت هذا فاعلم أن للإنسان وجهين: وجهاً إلى ذاته ووجهاً إلى ربه، ومع أي وجه توجهت إليه غبت عن الآخر، غير أن هنا لطيفة أنبهك عليها وذلك أنك إذا توجهت إلى مشاهدة وجهك غبت عن وجه ربك ذي الجلال والإكرام ووجهك هالك فإذا انقلبت إليه فني عنك وجهك فصرت غريباً في الحضرة تستوحش فيها وتطلب وجهك الذي كنت تأنس به فلا تجده، وإن توجهت إلى وجه ربك وتركت وجهك أقبل عليك ولم يكن لك مؤنس سواه ولا مشهود إلا إياه فإذا انقلبت إليه الانقلاب الخاص الذي لا بد لكل إنسان منه وجدت من كان لك قبل هذا الانقلاب أنيساً وجليساً وصاحباً ففرحت بلقائه وعاد الأنس أعظم وتتذكر الأنس الماضي فتزيد أنساً إلى أنس وترى عنده وجه ذاتك ولا تفقده فتجمع بين الوجهين في صورة واحدة فيتحد الأنس لاتحاد الوجهين فيعظم الابتهاج والسرور، وهذه حالة برزخية بين حالتين لكونها جمعت بين الطرفين، فمن جمع بينهما في الدنيا حرم ذلك في الآخرة كالمنافق فإنه برزخ بين المؤمن والكافر فإذا انقلب تخلص إلى أحد الطرفين وهو طرف الكفر ولم يتخلص

للإيمان، فلو تخلص هنا إلى الإيمان ولم يكن برزخاً كان إذا انقلب إلى الله كما ذكرناه من جمعه بين الطرفين، فاحذر هنا من صفة النفاق فإنها مهلكة ولها في سوق الآخرة نفاق اقتضى ذلك الموطن، وما أخذ المنافق هنا إلا لأمر دقيق لا يشعر به كثير من المؤمنين العلماء وقد نبه الله عليه لمن ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] وذلك أن المنافقين هنا ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ لو قالوا ذلك حقيقة لسعدوا ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ لو قالوا ذلك وسكتوا ما أثر فيهم الذم الواقع وإنما زادوا ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] فشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كاذبين، فما أخذوا إلا بما أقروا به، وإلا لو أنهم بقوا على صورة النفاق من غير زيادة لسعدوا. ألا ترى الله لما أخبر عن نفسه في مؤاخذته إياهم كيف قال: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] فما أخذهم بقولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ وإنما أخذهم بما زادوا به على النفاق وهو قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ وما عرّفك الله بالجزاء الذي جازى به المنافق إلا لتعلم من أين أخذ من أخذ حتى تكون أنت تجتنب موارد الهلاك، وقد قال عليه السلام: «**إِنَّ مُدَارَاةَ النَّاسِ صَدَقَةٌ**» فالمنافق يداري الطرفين مداراة حقيقية ولا يزيد على المداراة فإنه يجني ثمرة الزائد كان ما كان فتفطن فقد نبهتك على سر عظيم من أسرار القرآن وهو واضح ووضوحه أخفاه، وانظر في صورة كل منافق تجده ما أخذ إلا بما زاد على النفاق وبذلك قامت عليه الحجة، ولو لم يكن كذلك لحشر على الأعراف مع أصحاب الأعراف وكان حاله حال أصحاب الأعراف ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢] فالمؤمن المداري منافق وهو ناج فاعل خير فإنه إذا انفرد مع أحد الوجهين أظهر له الاتحاد به ولم يتعرض إلى ذكر الوجه الآخر الذي ليس بحاضر معه، فإذا انقلب إلى الوجه الآخر كان معه أيضاً بهذه المثابة والباطن في الحالتين مع الله، فإن المقام الإلهيّ هذه صورته فإنه لعباده بالصورتين فنزه نفسه وشبه فالمؤمن الكامل بهذه المثابة وهذا عين الكمال، فاحذر من الزيادة على ما ذكرته لك وكن متخلقاً بأخلاق الله وقد قال تعالى لنبيه ﷺ ممتناً عليه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] واللين خفض الجناح والمداراة والسياسة. ألا ترى إلى الحق تعالى يرزق الكافر على كفره ويمهل له في المؤاخذة عليه، وقال عزّ وجلّ لموسى وهارون في حق فرعون ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] وهذه عين المداراة فإنه يتخيل في ذلك أنك معه، ومن هذا المقام لما ذقته واتحدت به، اتفق لي أني صحبت الملوك والسلاطين وما قضيت لأحد من خلق الله عند واحد منهم حاجة إلا من هذا المقام، وما ردني أحد من الملوك في حاجة التمستها منه لأحد من خلق الله وذلك أني كنت إذا أردت أن أقضي عنده حاجة أحد أبسط له بساطاً استدرجه فيه حتى يكون الملك هو الذي يسأل ويطلب قضاء تلك الحاجة مسارعاً على الفور بطيب نفس وحرص لما يرى له فيها من المنفعة، فكنت أقضي للسلطان حاجة بأن أقبل منه قضاء حاجة ذلك الإنسان، ولقد كلمت الملك الظاهر بأمر الله صاحب حلب في حوائج كثيرة فقضى لي في يوم واحد مائة حاجة وثمان عشرة حاجة للناس، ولو كان عندي في ذلك اليوم أكثر من هذا قضاه طيب النفس راغباً، وإذا حصل للإنسان هذه القوة انتفع به الناس عند الملوك،

فما في العالم أمر مذموم على الإطلاق ولا محمود على الإطلاق، فإن الوجوه وقرائن الأحوال تقيده فإن الأصل التقييد لا الإطلاق، فإن الوجود مقيد بالضرورة ولذلك يدل على الدليل على أن كل ما دخل في الوجود فإنه متناه، فالإطلاق الصحيح إنما يرجع لمن في قوته أن يتقيد بكل صورة ولا يطرأ عليه ضرر من ذلك التقييد وليس هذا إلا لمن تحقق بالمداراة وهو إلا معه والله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] فهي أشرف الحالات لمن عرف ميزانها وتحقق بها وهو واحد وأين ذاك الواحد: [الوافر]

ألاَ إنَّ النِّفاقَ هو النِّفاقْ ... إليه إذا تَحَقَّقْتَ المَساقْ
فكُنْ فيه تَكُنْ بالحَقّ صَرْفاً ... وتَحْمَدُه إذا شُدَّ الوِثَاقْ
إذا ما كُنْتَ معتمداً لشيء ... فأنت له إذا فَكَّرْتَ ساقْ
على العَمْد الذي قد غاب عنّا ... إذا ما كُنْتَ تَعْتَمِدُ الطّباقْ
فكُنْ ذاك العِمَادَ تَكُنْ إماماً ... فيَظْهَرُ عندك الدينُ الوفاقْ

فتدبر القرآن من كونه فرقاناً وقرآناً، فللقرآن موطن وللفرقان موطن، فقم في كل موطن باستحقاقه تحمدك المواطن، والمواطن شهداء عدل عند الله فإنها لا تشهد إلا بصدق وقد نصحتك فاعمل والله الموفق.

قلنا: وفي هذا المنزل من العلوم علم دقيق خفي لا يشعر به لخفائه مع ظهوره، فإن العلماء بالله قد علموا شمول الرحمة والمؤمنون قد علموا اتساعها، ثم يرونها مع الشمول والاتساع ما لها صورة في بعض المواطن ومع كونها ما لها صورة ظاهرة في بعض المواطن، فإن الحكم لها في ذلك الموطن الذي ما لها فيه صورة ولا يكون لها حكم إلا بوجودها ولكن هو خفي لبطونها جلي لظهور حكمها، وأكثر ما يظهر ذلك في صنعة الطب وإقامة الحدود فالله يقول في إقامة الحدود في حد الزاني والزانية ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] فهذا عين انتزاع الرحمة بهم وإقامة الحدود من حكم الرحمة وما لها عين ظاهرة، وكالطب إذا قطع الطبيب رجل صاحب الأكلة فإن رحمه في هذا الموطن ولم يقطع رجله هلك، فحكم الرحمة حكم بقطع رجله ولا عين لها، فللرحمة موطن تظهر فيه بصورتها ولها موطن تظهر فيه بحكمها، فيتخيل أنها قد انتزعت من ذلك المحل وليس كذلك، وفي الأحكام الشرعية في هذه المسألة خفاء إلا لمن نور الله بصيرته، فإن القاتل ظلماً قد نزع الله الرحمة من قلبه في حق المقتول وهو تحت حكم الرحمة في قتله ظلماً وبقي حكمها في القاتل، فإما أن يقاد منه وإما أن يموت فيكون في المشيئة، وإن كان القاتل كافراً فإما أن يسلم فتظهر فيه الرحمة بصورتها، وحيثما كانت الرحمة بالصورة كانت بالحكم، وقد تكون بالحكم ولا تكون بالصورة. وفيه علم غريب وهو علم تقييد الحق بانتزاح الكون عنه مع كونه في قبضته وتحت سلطانه وملكه. وفيه علم السياسة في الدعوة إلى الله فإن صورتها من الداعي تختلف باختلاف صورة المدعوّ فثم دعاء بصفة غلظة وقهر، وثم دعاء بصفة لين وعطف. وفيه علم عموم العهد الإلهيّ الذي أخذه على بني آدم. وفيه علم الجولان في الملكوت حساً وخيالاً وعقلاً بثلث النشأة الإلهية

فإن النشأة الإنسانية لما أنشئت ممتزجة من الأخلاط أشبهت السنة في فصولها، وليس كمال الزمان إلا بفصول السنة ثم يعود الدور، فالإنسان من حيث أخلاطه سنة، فهو عين الدهر الذي هو الزمان فله جولان في الملكوت بأحد ثلاثة أمور أو بكلها أو ببعضها، فإما أن يجول بحسه وهو الكشف، وإما أن يجول بعقله وهو حال فكره وتفكره، وإما أن يجول بخياله، والسنة اثنا عشر شهراً، فلكل حقيقة من هذه النشأة المشبهة بالسنة ثلث السنة فلها التثليث في التربيع ولها التربيع في التثليث، فأما تثليثها في التربيع فهو ما ذكرناه من تقسيمها على ثلاثة: من حس وخيال وعقل في تربيع أخلاطها، وأما تربيعها في التثليث فإن حكم الأخلاط بكمالها في كل قسم من الأقسام الثلاثة وهي أربعة فلتربيعها حكم في الحس وحكم في الخيال وحكم في العقل، ولا يشعر بذلك إلا أهل الحضور الناظرون الآيات في أنفسهم. وفيه علم جهل الإنسان عند مسابقته لله وحجتنا قوله تعالى: «**بادَرَني عَبْدي بنَفْسِه**» فيمن قتل نفسه. والقول بهذا السياق هو قول أهل النظر في التشبه بالإله جهد الطاقة وأن ذلك إذا وجد هو الكمال، وهذا عندنا هو عين الجهل أن تسابقه الحق فيما هو له بما هو لي فإنه من المحال أن تسابقه بما هو له فإن الشيء لا يسابق نفسه، ومن المحال أن تسابقه بما هو لي فإنه ما ثم غاية يسابق إليها، فيكون عمل في غير معمل وطمع في غير مطمع، ومن كان في هذه الحال فلا خفاء بجهله لو عقل نفسه. وفيه علم الإعلام الإلهي في المادة الإلهية بماذا يكون وماذا يقع في أسماع السامعين من ذلك الإعلام هل يقع في كل سمع على حد واحد أو يختلف تعلق السمع عند ذلك الإعلام؟ وفيه علم المعاملة مع الخلق على اختلاف أصنافهم بما يسرهم منك لا بما يسوءهم وهو علم عزيز صعب التناول دقيق الوزن مجهول الميزان يحتاج صاحبه إلى كشف وحينئذ يحصل له. وفيه علم ما حكم أصحاب الآجال إذا انتهت آجالهم هل يؤخرون بعد ذلك الانتهاء إلى أجل مسمى أو لا يكون لهم أجل أيضاً ينتهون إليه؟. وفيه علم ما يمكن أن يصح من الشروط وما لا يمكن أن يصح منها. وفيه علم إعطاء الأمان ولمن ينبغي أن يعطى فلا بد من علم الأحوال لهذا المتحكم. وفيه علم تنوع الناس في أخلاقهم وما هو المحمود من ذلك وما هو المذموم منها. وفيه علم علم الملائكة بالله الذي لا يعلمه أحد من البشر حتى يتجرد عن بشريته ويتجرد عن حكم ما فيه للطبيعة من حيث نشأته حتى يبقى بما فيه إلا الروح المنفوخ، فحينئذ يتخلص إلى العلم بالله من حيث تعلمه الملائكة فيقوم في عبادته ربه مقام الملائكة في عبادتهم لله وهي العلامة، فيمن ادّعى أنه يعلم الله بصورة ما تعلمه الملائكة، فمن ادّعى ذلك من غير هذه العلامة فدعواه زور وبهتان، فإن للملائكة علماً بالله تعالى يعم الصنف وعلماً خالصاً لكل ملك بالله لا يكون لغيره فنحن ما نطالبه في دعواه إلا بالعلم العام، وهذه العلامة معلومة عندنا ذوقاً لا نذكرها لأحد لئلا يظهر بها في وقت وهو كاذب في دعواه غير متحقق فلهذا أمرنا وأمثالنا بستر هذا وأمثاله. وفيه علم دلالات العلماء بالله على طبقاتهم فإنهم على طبقات في العلم بالله تعالى. وفيه علم إزالة العلل وأمراض النفوس. وفيه علم آداب الدخول على الله. وفيه علم صفات من يدعي أنه جليس الله جلوس شهود لا جلوس

ذكر، فإن الذاكرين أيضاً جلساء الله وهم على الحقيقة جلساء الله من حيث الاسم الذي يذكرونه به، وهذه مسألة لا يعرفها كثير من الناس. وفيه علم ما تعطيه رحمة الرضا ورحمة الفضل وأنواع الرحموتيات. وفيه علم إقامة النعيم هل لذلك النعيم الدوام أو يتخلله حال لا نعيم فيه ولا غير ذلك؟ وفيه علم تفاصيل الأجور عند الله عزّ وجلّ وبماذا تتميز. وفيه علم الحب الإلهيّ المندرج في كل حب وما مقام من شاهد ذلك وعلمه؟ وهل يستوي من لا علم له بذلك مع العالم به أم لا؟ وفيه علم المعتمدات وما يجب منها وما لا يجب. وفيه علم السكائن جمع سكينة هل يجمعها أمر واحد كالإنسانية في أشخاصها أو هي متنوعة كل سكينة من نوع ليس هو عين السكينة الأخرى. وفيه علم تنوع الرجوع الإلهيّ لتنوع حال المرجوع إليه أيضاً. وفيه علم درجات الأغنياء بالله في غناهم بالله جلّ ثناؤه. وفيه علم ما السبب الموجب للطبيعة أن تستخبث وتتقذر وما يكون منها وهي عينه وهل لها في العلم الإلهيّ أصل ترجع إليه مثل ما يذم من أفعال العباد وسفساف الأخلاق مع العلم بأن ذلك صورة من الصور التي تكون مجلى. وفيه علم من العلوم الإلهية في تفضيل بعض النسب الإلهية على بعض وإن رفع العالم بعضه على بعض ينتج من هذا الأصل فإنه من المحال أن يكون في العالم شيء ليس له مستند إلى أمر إلهيّ يكون نعتاً للحق تعالى كان ما كان. وفيه علم ما ينبغي أن يضاف إلى الله وما لا ينبغي أن يضاف. وفيه علم سريان الربوبية في العالم حتى عبد من عبد من دون الله تعالى. وفيه علم ما ينبغي أن يدخر من العلوم وما ينبغي أن لا يفشى وما ينبغي أن لا يدخر وما ينبغي أن يفشى. وفيه علم ما اصطفاه الله من الزمان من ساعاته وأيامه ولياليه وشهوره، وهو علم تفاضل الدهر في نفسه وما أصل الدهر وما السبب لتسمية الله باسم الدهر وهو اسم أزلي له ولا دهر، وهل سمي الزمان دهراً لأجل هذا الاسم أو تسمى الله بهذا الاسم لعلمه أنه يخلق أمراً يقال له الدهر فإنه لم يزل خالقاً ولا يزال خالقاً، وهل ينتهي حكم الزمان في العالم أو لا ينتهي؟ وما حظ حركات الأفلاك من الزمان؟ وفيهه علم من دعي إلى سعادته فتلكأ عن الإجابة مع علمه بأنه دعي إلى حق. وفيه علم أسباب النصر الإلهي. وفيه علم محبة الحق. وفيه علم ما السبب الداعي إلى المباهتة مع علمه أنه مباهت مع علمه أنه مسؤول عن ذلك والغلبة للأقوى وللحق القوّة والهوى يغالبه وقد يظهر عليه فهل ظهوره عليه بما له نصيب من الحق فلا يظهر على الحق إلا الحق. وفيه علم ابتلاء الإمام أصحابه لإقامة الحجة عليهم لا ليستفيد علماً بذلك. وفيه علم ما يقال عند كل حال يتقلب على العبد أو يتقلب العبد فيه. وفيه علم الدوائر المهلكة ما هي وأسبابها الموجبة لآثارها في الكون. وفيه علم ما السبب الذي يمنع من قبول العمل الخالص حتى يعمل العامل في غير معمل. وفيه علم قسمة النعم على العباد وهي في أيدي العباد وما لهم منها سوى الاختزان في نفس الأمر وهم مسؤولون عنها. وفيه علم الإصغاء لكل قائل وما فائدته إذا لم يؤثر في السامع، فإن كان سريع الانفعال لما يسمع فيجب عليه عقلاً أن لا يصغي لقائل شرّ. وفيه علم اختلاف الأسماء على الله عند الطوائف والمقصود واحد. وفيه علم ما السبب في معاداة أشخاص النوع الواحد وموالاة

الأنواع وإن عمها جنس واحد. وفيه علم القدر وما مستنده من النعت الإلهيّ وهل هو عين الاستدراج أو غيره؟ وفيه علم أسباب الطرد الإلهيّ والكل في قبضته فممن يكون الطرد وإلى أين؟ وما معنى قولهم: البعد من الله؟ وفيه علم إنزال المنازل في القوالب لأيّ معنى تنزل في الصور ولا تنزل معاني كما هي في نفس الأمر. وفيه علم أسباب رفع الحرج في حق من ارتفع عنه فإنه محال رفعه عن العالم إذ لو ارتفع لزال العالم عن درجة الكمال وهو كامل بالمرتبة، وإن قبل الزيادة بأشخاص الأنواع فلا يتصف بالنقص من أجلها. وفيه علم ما لا يكفر من الأيمان المعقودة إذا حنث صاحبها في صورة الأمر وهي مسألة ينكرها الفقهاء ويفتون بخلافها. وفيه علم ما يعد من مذام الأخلاق وهو من مكارمها عند الله وفيه علم مخالفة الحق عبده المقرب فيما يريده منه مثل قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] وأمثاله. وفيه علم حكم من خرج عن الجماعة أو أخرج يداً من طاعة إمام بعد عقد بيعته وثبوتها. وفيه علم السابق واللاحق. وفيه علم الشر والخير وحكم الإيمان. وفيه علم النفوس الجزئية. وفيه علم صفات المقربين. وفيه علم الضلال والهدى. وفيه علم إقامة الواحد مقام الجمع. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والسبعون وثلاثمائة

في معرفة منزل يجمع بين الأولياء والأعداء من الحضرة الحكمية ومقارعة عالم الغيب بعضهم مع بعض، وهذا المنزل يتضمن ألف مقام محمدي

[نظم: البسيط]

إنَّ المَغَانِمَ نَارُ الحَقِّ تَأْكُلُها ... فمن يَكُنْ بَدَلاً منها فقد عُصِمَا
منها فليس لها عليه سَلْطَنَةٌ ... فذاك نائِبُهُ في الخَلْق قد حَكَمَا
وما مضى فهو منسوخٌ بعامله ... يوم القيامة بالنَّسْخ الذي رُسِمَا
فالكلّ يَنْعَمُ مُلْتَذٌّ بمنزله ... أَهْلُ الجنان وأَهْلُ النار والقدما
من لم يكنْ حَظُّهُ علماً ومعرفةً ... فما تقدم في شَأْوِ الهَوَى قَدَمَا
الله يرزقنا من عِلْم رَحْمَتِهِ ... حَظّاً يُبَلِّغُنا منازلَ العُلَمَا

اعلم أن الله تعالى قد أبان لعباده في هذا المنزل أن له فيه حظاً وافراً من حظوظ عباده، ومن أجل هذا قال رسول الله ﷺ: «**حَقُّ الله أَحَقُّ بِالقَضَاءِ**» يعني من حق المخلوق، وقال في القرآن العزيز: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١] فقدم الوصية على الدين، والوصية حق الله لأنه الذي أوجبها علينا حين أوجبها الموصي في المال الذي له في تصرف، والفقهاء يقدمون الدين على الوصية خلافاً لما ورد به حكم الله إلا بعض أهل الظاهر فإنهم يقدمون الوصية على الدين وبه أقول، وجعل الله الحظ الذي له في الصلاة على النصف وهو دون هذا الحظ الآخر فقال: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ نِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**» فساوى سبحانه في هذه القسمة بين الله وبين عبده إذا صلى. وقال في

حظه في المغنم: «أن له الخمس وحده من المغنم» وما بقي وهو أربعة أخماس تقسم على خمسة فلكل صنف من الحظ دون ما لله فحظ الله في هذا المقسوم أكثر من حظه في الصلاة بالنسبة إلى هذا الحال بينه وبين عبيده، وإلا فحظ النصف أعظم من حظ الخمس، فقسم الصلاة أكثر من قسم المغنم، وبالنظر في عين الموطن والقسمة الخاصة فحظه في المغنم بالنظر إلى ما بقي من الأصناف المقسوم عليهم أعظم، فأنزل الحق نفسه من عباده منزلة أنفسهم وعاملهم بما يتعاملون به. وفي موطن آخر يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فنفى المماثلة. وفي موضع آخر يقول المترجم عنه: إن الله خلق آدم على صورته، ثم إنه جعل الإنسان محل ظهور الأسماء فيه وأطلقها عليه، فللعبد التسمية بكل اسم تسمى به الحق، وإن اختلفت النسب فمعقولية مدلول الاسم واحدة لا تتغير. ثم إنه جعل بعضهم خليفة عنه في أرضه وجعل له الحكم في خلقه وشرع له ما يحكم به وأعطاه الأحدية فشرع أنه من نازعه في رتبته قتل المنازع فقال رسول الله ﷺ: **«إذَا بُويعَ لخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلوا الآخِرَ مِنهُمَا»** وجعل بيده التصرف في بيت المال وصرف له النظر عموماً وأمرنا بالطاعة له سواء جار علينا أو عدل فينا فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وهم الخلفاء ومن استخلفه الإمام من النواب فإن الله قد جعل له أن يستخلف كما استخلفه الله فبأيديهم العطاء والمنع والعقوبة والعفو كل ذلك على الميزان المشروع فلهم التولية والعزل، كما أن الحق بيده الميزان يخفض القسط ويرفعه، وذلك الميزان هو الذي أنزله إلى الأرض بقوله: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧] ثم قال: «إنه يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل وعمل الليل قبل عمل النهار»، كذلك الخليفة ترفع إليه أعمال الرعية يرفعها إليه عماله وجباته فيقبل منها ما شاء ويردّ منها ما شاء، فكل ما ذكره الحق لنفسه من التصرف في خلقه ولم يعينه جعل للإمام أن يتصرف به في عباده. ثم إن الله جعل له أعداء ينازعونه في ألوهيته كفرعون وأمثاله، كذلك جعل الله للخلفاء منازعين في رتبتهم، وجعل له أن يقاتلهم ويقتلهم إذا ظفر بمن ظفر منهم كما يفعل سبحانه مع المشركين، ومدة إقامتهم كمدة إمهال الله إياهم وأخذ الخليفة وظفره بهم كزمان الموت لهؤلاء، حتى لو قابلت النسختين ما اختلفتا في حرف واحد في الحكم، وكما أن الحق يحكم بسابق علمه في خلقه يحكم الخليفة بغلبة ظنه لأن الخليفة ليست له مرتبة العلم بكل ما يجري في ملكه ولا يعلم المحق من المبطل، وإنما هو بحسب ما تقوله البينة كما يفعله الله مع خلقه مع علمه يقيم على خلقه يوم القيامة الشهود فلا يعاقبهم إلا بعد إقامة البينة عليهم مع علمه وبهذا قال من قال إنه ليس للحاكم أن يحكم بعلمه، أما في العالم فللتهمة بما له من الغرض، وأما في جانب الحق فلإقامة الحجة على المحكوم عليه حتى لا يأخذه في الآخرة إلا بما شرع له من الحكم به في الدنيا على لسان رسوله ﷺ، ولهذا يقول الرسول لربه عن أمر ربه: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] يعني بالحق الذي بعثتني به وشرعت لي أن أحكم به فيهم، فإذا علمت أن الحق أنزل نفسه في خلقه منزلتهم وجعل مجلاه الأتم في الخليفة الإمام ثم قال: **«كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»** فعمت الإمامة

جميع الخلق فحصل لكل شخص منهم مرتبة الإمامة فله من الحق هذا القدر ويتصرف بقدر ما ملكه الله من التصرف فيه، فما ثم إنسان إلا وهو على صورة الحق، غير أنه في الإمام الأكبر مجلاه أظهر وأمره أعظم وطاعته أبلغ.

واعلم أن الله تعالى لما شرع لعباده ما شرع قسم ما شرعه إلى فرض أوجبه على المكلفين من عباده وهو على قسمين: فرض أوجبه عليهم ابتداء من عنده كالصلاة والزكاة والصيام والحج والطهارة وما أشبه ذلك مما أوجبه عليهم من عند نفسه، وفرض آخر أوجبوه على أنفسهم ولم يكن ذلك فأوجبه الله عليهم ليؤجروا عليه أجر الواجب الإلهيّ، وليحقق الله عندنا أن الإنسان على صورته، فإن الله أوجب على نفسه نصر المؤمنين والرحمة وأمثال ذلك هذا في حق العلماء بالله وفي حق قوم أوجبه عليهم عقوبة لهم حين أوجبوه على أنفسهم كالنذر، وزاحموا الربوبية في الإيجاب على نفسه فأوجبه عليهم ليعرفهم أنهم ليس لهم أن يوجبوا على أنفسهم فيعرفون بذلك مقدارهم، فالحق تعالى لو لم يفعل ما أوجب على نفسه فعله لما تعلق به ذم ولا لوم في ذلك لأن رتبته تقضي بأنه الفعال لما يريد، ولهذا ما يتعلق بإيجابه على نفسه حد الواجب، والعبد لما أوجب الله عليه ما أوجبه على نفسه تعلق به إذا لم يقم بصورة ما أوجبه على نفسه حد الواجب كالواجب الأصلي إذا لم يقم به يعاقب فأجره عظيم والعقوبة عليه عظيمة فيمن لم يقم به فجزاؤه عظيم في الواجبين معاً، ثم ما جاء من الأفعال زائداً على صور الواجبات سمي ذلك نافلة أي زائداً على الواجب، فإن لم يكن لذلك الزائد عين صورة في الفرائض لم يكن نافلة وكان ذلك عملاً مستقلاً له مرتبة في الأجر ليست للنوافل، ثم مزج النشأة كما مزج نشأة المكلف فجعل في نشأة الفرائض سنناً وهي زوائد على الفرائض، وجعل في النوافل التي تطوّع العبد بها من نفسه من غير وجوب الفرائض في نشأة النوافل، ولهذا إذا لم يجىء بالفرائض يوم القيامة تامة يقول الله: «**كَمِّلُوا لِعَبْدِي فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ**» فما نقص من الفرض الواجب كمل من الفرض الذي في النوافل، وما نقص من سنن الفرض الواجب كمل من سنن النوافل، ألحق كل شيء بمثله. قال لي بعض الأرواح: فلم سميت الغنائم أنفالاً؟ قلنا: لا شك ولا خفاء عند كل مؤمن عالم بالشرع أن الله ما جعل القتال للمؤمن إلا لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى لتتميز الكلمتان كما تميزت القدمان، فإنه خلق من كل شيء زوجين ذاتاً وحكماً، وعرفتنا التراجمة عن الله وهم رسل الله أن الله تعالى من وقت شرع الجهاد والقتال والسبي أعطى المغانم للنار طعمة أطعمها إياها وأوجبها لها، وكان من طاعتها لربها أنها لا تتناول إلا ما أحل الله لها تناوله، وكان قد حرم الله عليها أكل المغنم إذا وقع فيه غلول من المجاهدين فكانت لا تأكل المغنم إذا غل فيه حتى يرد إليه ما كان أخذ منه ليخلص العمل للمجاهد، فلما جاء الشرع المحمدي زاد الله المغانم لأمة محمد ﷺ طعمة على ما أطعمهم من غير ذلك، فكانت تلك الطعمة التي أخذناها من النار نافلة لهذه الأمة وما أعطاها إياهم لكونهم جاهدوا، إذ لو كان ذلك حقاً لهم على الجهاد ما وقعت لأحد لم يجاهد معهم فيها الشركة فما هي فريضة للمجاهدين وإنما هي طعمة أطعمها

الله من ذكر، وجعل لنفسه نصيباً لكونه نصرهم فله نصيب في الجهاد، فلما كان السبب لكون الله جعل لنفسه فيها نصيباً لنصرته دين الله اندرج في نصيب الله كل من نصر دين الله وهم الغزاة، فليس لهم إذا اعتبرت الآية إلا الخمس من المغنم ثم تبقى أربعة أخماس فتقسم مخمسة أيضاً واحد الخمسة لرسول الله ﷺ وبعد الرسول إذا فقد لخليفة الزمان، والخمس الثاني لأهل البيت قرابة رسول الله ﷺ، والخمس الثالث لليتامى، والخمس الرابع للمساكين، والخمس الخامس لابن السبيل. وقد ورد عن بعض العلماء وأظنه ابن أبي ليلى أن الحظ الذي هو الخمس من الأصل كان رسول الله ﷺ يقبضه ويخرجه للكعبة ويقول: «**هذا لله**» ثم يقسم ما بقي، فلما كانت هذه الطعمة للنار نقلها الله لهذه الأمة كما جعل في مال الإنسان الزكاة حقاً لأصناف مذكورين، فأوجب على أصحاب الأموال على وجه مخصوص إخراجها، وأوجب على الإمام أخذها، ولم يوجب على الأصناف أخذها فهم مخيرون في أخذ حقهم وفي تركه كسائر الحقوق، فمن أخذها منهم أخذ حقه، ومن ترك أخذها ترك حقه وله ذلك، واعلم أن الإمام هو المطلوب بعلم هذه التقاسيم والقيام بها: [الكامل]

ما كُلُّ مَنْ حَازَ الجَمَالَ بِيُوسُفِ إنّ الجميلَ هو الإمامُ المُنْصِفُ
إنْ كُنْتَ تدركُ ما تريدُ وتشتهي أنتَ المُحَبَّبُ والمُبَرَّأُ يُوسُفُ

فإن غلب على ظن الإمام أن المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾ [الأنفال: ٤١] الآية والتي في سورة الحشر التي فيها ذكر الأصناف حظهم من المغنم الخمس خاصة يقسم فيهم هكذا وما بقي فلبيت مال المسلمين يتصرف فيه الإمام بما يراه، فإن شاء أعطاه المجاهدين على ما يريده من العدل والسواء في القسمة أو بالمفاضلة كما يفعل فيما بقي من المال الموروث بعد أخذ أهل الأنصباء ما عين الحق لهم، أو أراد هذا الإمام أن يعود بما بقي على أولي الأرحام من أهل الميت فيعطي أصحاب الأنصباء زائداً على أنصبائهم من كونهم أولي أرحام الميت، وإن غلب على ظن الإمام أن الخمس الأصلي لله وحده وما بقي فلمن سمى الله تعالى وقد جعل الله للمجاهدين في سبيل الله نصيباً في الصدقات وما جعل لهم في المغنم إلا ما نفله به الإمام قبل القسمة أو ما أعطاه له بقوله: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ**» وإنما عرض الكلام في مثل هذا في المنزل لما فيه من الحظ المنسوب إلى الله خاصة فما غرضنا ما هو الحكم في المغانم وقسمتها في علم الرسوم، وإنما المغانم عندنا في هذا الطريق ما حصل للإنسان من العلوم الإلهية التي أعطانا الله إياها عن مجاهدة وجهاد نفس، كما أنه للمؤمن تجارة في نفس إيمانه وهي التجارة المنجية من العذاب الأليم، فكل علم حصل عن جهاد فهو مغنم ويقسم على ما يقسم عليه المغانم، فالنصيب الذي لله تعالى منه ما تعلق به الإخلاص، والذي لرسول الله منه الإيمان به والذي لذي القربى منه المودة فيهم، والذي لليتامى منه هو ما حصل من العلم قبل بلوغ العامل إلى الغاية.

وصل: والغاية حدها الذي يغنيه عن إضافة العمل إليه، فإن الصبي قبل البلوغ حركته وأفعاله إليه فإذا بلغ رجع حكم الأفعال منه إلى الله بعد ما كانت إليه، والنبي ﷺ يقول: «**لا**

يُتْمَ بَعْدَ حلم» فكل ما حصل له قبل البلوغ فهو حقه الذي له من نفسه إذ عينه الله له، والذي للمساكين فهو الحظ الذي حصل لهم بالعجز وعدم القدرة وسلب القوة فإن الله هو ذو القوة المتين. والذي لابن السبيل فهو الحظ الذي له من حيث أنه ابن للطريق إلى الله فإن النبي ﷺ يقول: «**إنَّ لِلدُّنْيَا أَبْنَاءَ وَلِلآخِرَةِ أَبْنَاءَ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ السَّبِيلِ وَلا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا**» فأما صورة الإخلاص في العمل فهو أن تقف كشفاً على أن العامل لذلك العمل هو الله كما هو في نفس الأمر أي عمل كان ذلك العمل مذموماً أو محموداً أو ما كان، فذلك هو حكم الله تعالى فيه ما هو عين العمل، وصح في الخبر أن الله تعالى يقول: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ**» فنكر العمل وما خص عملاً من عمل، والضمير في فيه يعود على العمل، والضمير في منه يعود على الغير الذي هو الشريك، وضمير هو يعود على المشرّك، فإن الله لا يتبرأ من العمل فإنه العامل بلا شك، وإنما يتبرأ من الشريك لأنه عدم. والله وجود فالله بريء من العدم فإنه لا يلحقه عدم ولا يتصف به فإنه واجب الوجود لذاته فالبراءة صحيحة وكذلك في قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١] فهو أيضاً تبرأ من الشريك لأن الشريك ليس ثم فهو عدم لأنه قال: ﴿مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فهو أيضاً تبرأ من الشريك، فإخلاص العمل لله هو نصيب الله من العمل لأن الصورة الظاهرة في العمل إنما هي في الشخص الذي أظهر الله فيه عمله، فيلتبس الأمر للصورة الظاهرة والصورة الظاهرة لا تشك أن العمل بالشهود ظاهر منها فهي إضافة صحيحة فلهذا نقول إنه عين كل شيء من اسمه الظاهر، وهنا دليل خفي وذلك أن البصر لا يقع إلا على آلة وهي مصرفة لأمر آخر لا يقع الحس الظاهر عليه بدليل الموت ووجود الآلة وسلب العمل فإذن الآلة ما هي العامل والحس ما أدرك إلا الآلة، فكما علم الحاكم أن وراء المحسوس أمراً هو العامل بهذه الآلة والمصرف لها المعبر عنه عند علماء النظر العقلي بالنفس العاقلة الناطقة والحيوانية، فقد انتقلوا إلى معنى ليس هو من مدركات الحس، فكذلك إدراك أهل الكشف والشهود في الجمع والوجود في النفس الناطقة ما أدرك أهل النظر في الآلة المحسوسة سواء فعرفوا أن وراء النفس الناطقة هو العامل وهو مسمى الله، والنفس في هذا العمل كالآلة المحسوسة سواء عند أهل الله وعند أهل النظر العقلي، ومتى لم يدرك هذا الإدراك فلا يتصف عندنا بأنه أخلص في عمله جملة واحدة مع ثبوت الآلات وتصرفها لظهور صورة العمل من العامل، فالعالم كله آلات الحق فيما يصدر عنه من الأفعال لقوم يعلمون، وقال رسول الله ﷺ فيما صح عنه: «**أَتَدْرُونَ مَا حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشرِكُوا بِهِ شَيْئاً**». ثم قال: «**أَتَدْرُونَ ما حَقُّهُمْ عَلَيْهِ إذا فَعَلُوا ذٰلِكَ؟ أَنْ يُدْخِلَهُمُ الجَنَّةَ**» فنكر ﷺ بقوله «**شيئاً**» ليدخل فيه جميع الأشياء وهو قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] فنكر أحداً فدخل تحته كل شيء له أحدية وما ثم شيء إلا وله أحدية، وذكر لقاء الله ليدل على حالة الرضى من غير احتمال كما ذكره رسول الله ﷺ وذلك في الجنة فإنها دار

الرضوان، فما كل من لقي الله سعيد، فالمواطن لها الحكم في ذلك بما جعل الله فيها، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] فجعل الذي يصيبه منا التقوى. فقد أعلم الحق عباده بنصيبه مما هم عليه وفيه في كل شيء وعهد إلى عباده ذلك فقال: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] فحظه منكم أن تفوا له تعالى بما عاهدكم عليه وهو قوله ﷺ في الصلوات الخمس: «**فَمَنْ أَتَى بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْ حَقِّهِنَّ شَيْئاً كَانَ لَهُ عِنْدَ الله عَهْداً أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ**». والصلاة مناجاة الله على القسمة التي شرع بينه تعالى وبين عباده، فمن أعطاه قسمه منها وأخذ منها قسمه فقد أعطاه حقه ونصيبه، فإذا كان الله تعالى مع اتصافه بالغنى عن العالمين قد جعل له فيما يكون للعالم ويفتقر إليه نصيباً يأخذه وقسماً عينه فما ظنك بمن أصله الفقر والمسكنة في ظهور عينه لا في عينه ووجوده وما هو فيه، وإنما قلنا لا في عينه لأن أعيانها لأنفسها ما هي بجعل جاعل، وإنما الأحوال التي تتصرف عليها من وجود وعدم وغير ذلك فيها يقع الفقر إلى من يظهر حكمها في هذه العين فاعلم ذلك، فمن طلب حقه واستقصاه فلا يلام، ولكن لما شرع لنا في بعض الحقوق أنا إذا تركناها كان أعظم لنا وجعل ذلك من مكارم الأخلاق وناط به ما في ذلك من الأجر منه تعالى وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] ومن طلب حقه وهو قوله تعالى ولمن انتصر بعد ظلمه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١] كان له ذلك، فكذلك يفعل مع عباده فيما ضيعوه من حقه وحقوقه يعفو ويصفح ويصلح فيكون المآل إلى رحمة الله في الدارين فتعمهم الرحمة حيث كانوا ولكن لا يستوون فيها، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] كما لم يسوّ تعالى بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون. فالكامل من العباد من لم يترك لله عليه ولا عنده حقاً إلا وفاه إياه في كل شيء له فيه نصيب أعطاه نصيبه على حد ما شرع له، فإذا وفاه ردّ عليه جميع ما ذكر أنه له بالشرع، فإذا وفى الله له بعهده فيأخذه منه امتناناً وابتداء فضل لا جزاء، ولا يكون هذا إلا من العلماء بالله الذين يعلمون الأمر على ما هو عليه، وهم أفراد من الخلق لا يعلمهم إلا هو، فقد نبهتك على أكمل الطرق في نيل السعادة التي ما فوقها سعادة، ومع هذا يا أخي وبعده فالأمر عظيم، والخطب جسيم، والإشكال فيه أعظم، ولهذا جعل أهل الله الغاية في الحيرة وهو العجز، وهذا القدر كاف في العلم بأن لله حقاً ونصيباً عند عباده يطلبه منهم بحكم الاستحقاق، ويطلب منهم أيضاً حقوق الغير بحكم الوكالة كما قال ويأخذ الصدقات بحكم الوكالة فيربيها ويثمرها، فهو وكيل في حق قوم تبرعاً من نفسه رحمة بهم وإن لم يوكلوه، وفي حق قوم وكيل يجعلهم كما أمرهم أن يتخذوه وكيلاً، وإلا فليس للعبد من الجرأة أن يوكل سيده، فلما تبرع بذلك لعباده ونزل إليهم عن كبريائه بلطفه الخفي اتخذوه وكيلاً وأورثهم هذا النزول إدلالاً.

وأما حديث: «**مَا يَقْبَلُ الله مِنْ صَلاةِ عَبْدِهِ إلاَّ مَا عَقَلَ**» يريد أنه يعضد أداء حق الله تعالى فيما تعين عليه وجعل أكثره النصف وهو الحد الذي عينه له من صلاة عبده وأقله العشر فقال:

«عشرها تسعها ثمنها سبعها سدسها خمسها ربعها ثلثها نصفها» وما ذكر النصف إلا في الفاتحة فعلمنا المعنى فعممناه في جميع أفعال الصلاة وأقوالها بل في جميع ما كفلنا من الأعمال به، فأما ما عينه فهو ما انحصرت فيه الفاتحة وهي تسعة أقسام: القسم الأول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]. الثاني: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. الثالث: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]. الرابع: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]. الخامس: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]. السادس: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. السابع: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. الثامن: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]. التاسع: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]. فالخاسر الساهي عن صلاته من لم يحضر مع الله في قسم واحد من هذه الأقسام التي ذكرناها في الفاتحة وهي التي ذكر الله في القبول من العشر إلى النصف، فمن رأى أن بسم الله الرحمن الرحيم آية منها ولا يفصلها عنها فالقسمة على ما ذكرناه في الفاتحة فإن حكم الله في الأشياء حكم المجتهد فهو معه في اجتهاده، ومن أداه اجتهاده إلى الفصل ففصل البسملة عن الفاتحة وأن البسملة ليست آية منها جعل الله له الجزء التاسع ولا الضالين والبسملة أحق وأولى فإنها من القرآن بلا شك عند العلماء بالله، وتكرارها في السور مثل تكرار ما يكرر في القرآن من سائر الكلمات، وما زاد على التسعة فعقله في التلاوة حروف الكلمة فقد يعقل المصلي حرفاً من حروف الكلمة ثم يغفل عن الباقي، فهذا معنى قوله ﷺ العام أنه لا يقبل إلا ما عقل منها، فالعاقل من أتى بها كاملة ليقبلها الله كاملة، ومن انتقص منها شيئاً في صلاته جبرت له من قراءته الفاتحة في نوافله من الصلاة فليكثر من النوافل، فإن لم تف قراءتها في النوافل بما نقصه من قراءة الفاتحة في الفريضة أكملت له من تلاوته بحضور في غير الصلاة المعينة وإن كان في جميع أفعاله في صلاة فإنه قد يكون من الذين هم على صلاتهم دائمون وهم الذاكرون الله في كل أحيانهم، فهم يناجونه في جميع الأحوال كلها، فحظ الله من جميع ما كلف عباده به ما فرض عليهم، ونصيب العباد من الله ما أوجبه الحق لهم على نفسه، والنافلة للنافلة في كل ذلك. وأما حظ الرسول ﷺ من هذه المسألة بتصديقه والإيمان به وبما جاء به فمما يحققه الإيمان أن خير الأزمان زمان الصلاة والآذان وخير الشفاعة والكلام ما أذن فيهما الرحمن، هذا مما جاء به رسول الحق إلينا ووفدته مقبلاً علينا، فتدلى حين تجلى وما أصعقه بل أيقظه من تجلى ليتجلى فأقبل وما أعرض وتولى، فأما التصديق به فلخبر الحق بأنه رسول منه إلينا وهو الوجيه المقرب، وأما الإيمان مما جاء به فلإخباره عن الحق، ففرق بين إخبار الحق في الإيمان به وبين إخباره عن الحق فيما جاء به، فلا يؤمن به إلا من خاطبه الحق في سره وإن لم يشعر به المخاطب ولا يعرف من كلمه وإنما يجد التصديق به في قلبه، وأهل الكشف والحضور يعرفون عن سماع بآذان وقلوب كلام الحق بأن هذا رسول من عنده فيؤمنون به على بصيرة ولا يؤمن بما جاء به هذا الرسول إلا من خاطبه الرسول في سره وإن لم يشعر به المخاطب ولا يعرف من كلمه، وإنما يجد التصديق بما جاء به في قلبه، وأهل الكشف والحضور

يعرفون عن سماع بقلوب وآذان وأبصار كلام الرسول بأن هذا جاء من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً فيؤمنون به على بصيرة، وإنما قلنا فيما جاء به الرسول وأبصار ولم نقل ذلك في سماع كلام الحق لأن الرسول إذا رأيناه فقد رأيناه والحق تعالى ليس كذلك إذا رأيناه فما رأيناه إلا منزلتنا وصورتنا منه، فلهذا لم نقل في تصديق خبره إذا كلمنا وأبصار، وما جئنا بالقلوب والآذان إلا لمجرد الخبر خاصة لا لكون الحق تكلم به، فإن إدراك القلوب والآذان والأبصار للحق على السواء ما أدرك واحد من العالم أي إدراك كان من هذا وغيره إلا منزلته من الحق وصورته خاصة فما أدركه، فذكرنا القلوب من كونها سامعة والآذان للخبر خاصة تنبيهاً على ما ذكرناه وبيناه. فإذا علمت هذا فقد وفيت الله والرسول، ما تعين عليك من الحق أن تؤديه لله ولرسوله، فإن هذه المسألة غلط فيها جماعة من أهل الله إذ لم يخبروا بها عن الله فكيف علماء الرسوم؟ فمن تكلم فيها من طريق الإيمان فلا يتكلم فيها إلا بما تكلمنا به فإنه يتكلم عن ذوق، ولهذا ترى شخصين بل ثلاثة أشخاص يشهدون المعجزة على يدي الرسول الذي أبرزها الحق في معرض الدلالة على صدقه فيما جاء به والتصديق به نفسه فشخص من الثلاثة يتيقن أنه الحق وجحده، والشخص الثاني لم تقم عنده تلك الدلالة دلالة لجهله بموضع الدلالة منها، والثالث آمن وصدق والمجلس واحد والنظر بالبصر واحد والإدراك في الظاهر واحد، فعلمنا أن الذي آمن وصدق لولا تجلي الحق لقلبه وتعريفه إياه بغير واسطة ما آمن به ولا صدق وكان مثل صاحبه، وكذلك في إيمانه بما جاء به لولا تجلى الرسول بقلبه وتعريفه إياه بغير واسطة ما آمن بما جاء به ولا صدق وإن لم يشعر المؤمن ولا يدري كيف آمن فما كل مؤمن يعرف من أين حصل له الإيمان، ولا سيما وقد رأينا وبلغ إلينا أن بعض من آمن برسول الله عندما رآه وسمع دعوته ولم ير له معجزة ولا دلالة بل وجد في نفسه أنه صادق في دعواه فآمن به من حينه وما تلكأ ولا تلعثم، فما كان إلا مما ذكرناه من التجلي لقلبه ولا يشعر أن ذلك عن تجل، وبهذا القدر زاد أهل الكشف على غيرهم من المؤمنين، ولولا كشفهم للأمور ما فصلوها إلى كذا وإلى كذا، فحظ الرسول أن يلحقه بربه في نفسه وفيما جاء به من عنده. وأما حظ اليتامى من هذا العلم فإنه على الحقيقة أو ان بلوغ الخروج عن الدعوى فيما كان لك، فحظك قبل مجيء هذا الزمان أن تضاف أفعالك لك، ولا يعترض عليك ولا تسلب عنك ولا تحجير عليك، فإذا بلغ أوان الحلم صرت محجوراً عليك، ووقع التقييد في جميع حركاتك، وتوجهت عليها أحكام الحق لأنها أفعاله ظهرت فيك، ولولا ما ظهرت فيك ما تعلق بها هذا الخطاب ولا هذا التحكيم، ومعنى ظهرت فيك هو عين دعواك أن الأفعال لك، فأراد الحق بالتحجير بما كلفك أن يعرفك بأن هذه الأفعال لو كانت لك ملكاً محققاً ما جاز لي أن أتصرف فيما لك وليس لي، وسبب ذلك أن أوان بلوغ العقل قد حل واستحكام العقل والنظر قد حصل، فكان ينبغي لك بما أعطاك الله من العقل أن ترى أفعالك التي أنت محل لظهورها منك لله تعالى ليست لك، فلو حصل لك هذا ابتداء ما كلفك ولا حجرها عليك في هذه الدار، ألا ترى من لم يستحكم عقله ما حجر عليه ولا كلفه

وهو المجنون الذي ستر عنه عقله أن يكون له حكم فيه، وكذلك النائم وكل من لم يتصف بالعقل. ولما وصل في هذه الدار إلى الحد الذي أوجب عليه التكليف بقيام هذه الصفة إذا كشف عنه الغطاء في هذه الدار لم يرتفع عنه التحجير ولا خطاب الشرع لحكم الدار لا لحكم الحال، لأنه كان يعطي القياس ارتفاع التحجير عمن هو بهذه الصفة، ولكن لا بد للدار من حكم كما يفعل بأطفال المشركين والكفار نلحقهم بآبائهم للدار، وإن علمنا أنهم على الفطرة وما أشركوا ولا كفروا فللدار حكم، فإذا جاء وعد الآخرة وانتقلنا إليها خرجنا عن حكم الدار فارتفع عنا حكم التكليف في دار الرضوان وأختها، كذلك من أطلعه الله هنا في هذه الدار على سعادته وأطلع آخر على شقاوته لم تسقط هذه المطالعة عنهما التحجير ولا التكليف، لأن أصل وضع النواميس في هذه الدار إنما هو لمصلحة الدنيا والآخرة، فمن المحال رفع التحجير ما دامت الدنيا ودام من فيها، فلولا هذا لكان من كشف عنه الغطاء ارتفع عنه التحجير لأنه لا يرى فاعلاً إلا الله والشيء لا يحجر على نفسه، وإن أوجب على نفسه ما أوجب فذلك تأنيس لنا فيما نوجبه على أنفسنا لنا، فإن أوجبناه له أوجبه علينا لنتميز فنعصي بتركه، ولو ترك الحق ما أوجبه على نفسه لم يكن له هذا الحكم، فإن هذا الحكم لا يتعلق بمن تعلق به إلا من حيث أن الغير أوجبه، فلولا ما أوجبه الحق علينا حين أوجبناه على أنفسنا لم نكن عصاة إذا تركناه، فإذا وفى به من لم يوجبه عليه غيره فمنة منه وفضل ومكارم أخلاق.

فإن قلت: هذا إذا كان في الخير فإن كان شرّاً قلنا: ما ثم إلا خير والخير على قسمين: خير محض وهو الذي لا شرّ فيه، وخير ممتزج وهو الذي فيه ضرب من الشر كما بيناه من شرب الدواء المكره وكالمؤمن إذا عصى وأطاع، فإن المؤمن لا تخلص له معصية دون طاعة أصلاً فإن الإيمان بكونها معصية طاعة. وفي هذا تنبيه لمن كان له قلب فيرجع الأمر في الآخرة إلى الأمر الذي كان عليه اليتيم قبل البلوغ. وإنما قلنا في اليتيم وكل صبي دون البلوغ كذلك مع كونه ليس بيتيم لأن اليتيم في تدبير وليه والولي الله لأنه ولي المؤمنين، وغير اليتيم في تدبير أبيه فلا ينظر إليه مع وجود أبيه لأن الفرع يستمد من أصله الأقرب، ألا ترى الثمرة لا تعرف لها أصلاً إلا فرع الشجرة لأنها من الفرع تستمد والفرع يعرف الأصل الذي تجهله الثمرة، واليتيم قد علم أن أباه قد اندرج فانكسر قلبه ولم يكن له أصل يدل عليه، فعرفه العلماء بالله أنه ليس له إلا من كان لأبيه وهو الله فيرجع إلى الله في أموره، فلما كان حال اليتيم مع الله في نفسه بهذه المثابة جعل الله له حظاً في المغنم ليتوفر عليه ما هو له وهو ما يرى الصبي من إضافة الأفعال إليه وعدم التحجير عليه فيها، فمن يمسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة وليس ذلك لغير اليتيم، وحكم المسكين حكم اليتيم من عدم الناصر الظاهر فقوى الله ضعفه أي زاده الله ضعفاً إلى ضعفه، فإن المخلوق ضعيف بحكم الأصالة، فإذا زاده الله ضعفاً إلى ضعفه كان مسكيناً فما تكون له صولة، فإن صال وهو مسكين فقد أبغضه الله فإنه ظهر منه ما يخالف حاله، فقد كلف نفسه ما لا يقتضيه مقامه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ الله وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيهِم يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: مَلِكٌ كَذَّابٌ، وَشَيْخٌ**

زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ» أي قد بالغ في التكبر، كما أن المسكين قد بالغ الله فيه بالضعف، فإنه من كونه مسكيناً صاحب ضعفين: ضعف الأصل وضعف الفقر، فلا يقدر يرفع رأسه لهذا الضعف، بخلاف رب المال فإنه يجد في نفسه قوّة المال، وبهذا سمي المال مالاً لأنه يميل بصاحبه ولا بد إما إلى خير وإما إلى شر لا يتركه في حال اعتدال، فالمسكين من سكن تحت مجاري الأقدار، ونظر إلى ما يأتي به حكم الله في الليل والنهار، واطمأن بما أجرى الله به وعليه، وعلم أنه لا ملجأ من الله إلا إليه وأنه الفعال لما يريد، وتحقق بأن قسمه من الله ما هو عليه في الحال فجبر الله كسره بقوله: «**أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ**» فإنك إذا جئت لمن انكسر قلبه ما تجد عنده جليساً إلا الله حالاً وقولاً فجعل له حظاً عليه في المغنم، وإن لم يكن له فيه تعمل فخدمه غيره ونال هو الراحة بما أوصل الله إليه مما جهد فيه الغير. وتعب كالمؤمن الذي لا علم له وهو من أهل الجنة، فيرى منازل العلماء بالله وهو في الموقف فيتحسر ويندم فيعمد الله إلى من هو من أهل النار من العلماء فيخلع عنه ثوب علمه ويكسوه هذا المؤمن ليرقى به في منزلة ذلك العلم من الجنة لأنه لكل علم منزلة في الجنان لا ينزل فيها إلا من قام به ذلك العلم لأن العلم يطلب منزلته من الجنان، والعالم الذي كان له هذا العلم هو من أهل النار الذين هم أهلها، والعلم لا يقوم بنفسه فينزل بنفسه في تلك المنزلة، فلا بد له من محل يقوم به فيخلعه الله على هذا المؤمن السعيد الذي لا علم له فيرقى به العلم إلى منزلته فما أعظمها من حسرة، ولكن بقي عليك أن تعرف أي علم يسلبه هذا الذي هو من أهل النار، وذلك أنه إذا كان على علم في نفس الأمر إلا أنه قد دخلت عليه في الدنيا فيه شبهة، فأما حيرته فهو في محل النظر، وأما إزالته عنه مع علمه بما كان عليه غير أنه اعتقد فيه في الدنيا أنه جهل فإذا كان في الآخرة علم أنه علم فذلك العلم هو الذي يسلب ويخلع على هذا الذي ليس بعالم وهو من أهل الجنة، وإذا كان الأمر على ما ذكرناه فإن الله لا يبقي في الدنيا عند الموت عند أهل النار الذين هم أهلها سوى العلم الذي يليق أن يكون عليه أهل النار. وما عدا ذلك من العلوم التي لا تصلح أن تكون إلا لأهل الجنة يدخل الله بها على العالم به في الدنيا أو عند الاحتضار شبهة يخطرها له تزيله عن العلم أو تحيره ثم يموت على ذلك وكان ذلك في نفس الأمر علماً، فهذا الصنف من العلم هو الذي يخلع على أهل الجنان إذا لم يتقدم لهم علم به في الدنيا ويطمع فيه من قد كان علمه من أهل النار، فيقام عليه الحجة بأنه مات على شبهة فهذا حظ المسكين من المغنم، فإن ذلك الذي سلب عنه في الدنيا بالشبهة جاهد نفسه وتعب، فلما غنم ودخلت الشبهة كان حظ المسكين ذلك العلم. وأما ابن السبيل فأبناء السبيل هم أعلى الطوائف عند الله فإن الابن لا يقدر أن ينتفي عن أبيه، وإنما سمي ابن السبيل لأنه علم أن المنزل محال وأن الاستقرار على أمر واحد محال لا في حق نفسه ولا في حق تجلي ربه بل ولا في حق ربه لأنه في شأن خلقه والأمر فيهم جديد دائماً أبداً، ومن لم يستقر به قدم فلا بد أن يكون ماشياً أي متحركاً، ولا يتحرك إلا في طريق وهي السبيل والمشي له دائماً دنيا وآخرة فهو ابن السبيل دنيا وآخرة. ولما كان متفرغاً لسبيله مشغولاً به مسافراً فيه والمسافر لا

بد له من زاد فجعل الله له نصيباً من المغنم فالحق يغذيه لما ليس له فيه تعمل، وقد يكون ابن السبيل في هذه الآية عين المجاهد، ويكون السبيل من أجل الألف واللام اللتين للعهد والتعريف سبيل الله التي قالها الله فيها: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٩] يعني الشهداء الذين قتلوا في الجهاد فيكون أيضاً حظ المجاهد من المغنم القدر الذي عين الله لابن السبيل وهو معروف سوى ما له في الصدقات فاعلم ذلك فإنه تنبيه حسن إن كنتم آمنتم بالله وما أنزل الله على عبده يوم الفرقان، ففرق بما أعلمه الله بين القبضتين بالكلمتين اللتين ظهرتا في الكرسي بالقدمين، إذ كان أهل الله وهم أبناء الآخرة أبناء السبيل بالعدوة الدنيا إلى الله بمحصل القربة والمكانة الزلفى من الله وهم بالعدوة القصوى من الله، وهم أبناء الحياة الدنيا وأبناء سبيلها، والركب أسفل منكم فجعل السفل لهم إذ كانت ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ [التوبة: ٤٠] ومن كان أسفل منك فأنت أعلى منه لأنكم أهل الله الذين لهم السعادة إذ كانت ﴿كَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠] وكل هذا بحكم الله وقضائه لا ليد تقدمت بل لعناية إلهية سبقت، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]: [الطويل]

ألا إنّ أَهْلَ الله بالعُدْوَةِ الدُّنْيَا كما أنّ أهْلَ الشِّرْك بالعُدْوة القُصْوَى
فإن الذي أقْصَاهُ يمتاز بالسُّفْلى وإن الذي أدناه قد فاز بالعُلْيا
ألا تَلْحَظَنَّ الرَّكْبَ أسْفَلَ مِنْهُمُ فكلُّ فريقٍ من مكانته أدْنَى

ولما رأينا أن الله قد اختص بالخمس في مثل هذا الموطن وفي قسمة هذا النوع الذي هو المغنم، علمنا أن الله ما راعى من الأقسام التي تعتبر في العالم إلا مراعاة الجيش عند اللقاء من كونه عزّ وجلّ ملكاً قاهراً حيث أثبت له أعداء ينازعونه، وتقسيم الجيش عند اللقاء على خمسة أقسام: قلب وهو موضع الإمام وهو الذي اصطفاه الله من نشأة عبده حين قال: «**وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي**» وما بقي فميمنة وميسرة ومقدمة وساقة، فلهذا كان الخمس لله والأربعة الأخماس الباقية لمن بقي، فإن العدو الذي نصبه الله أخبر الله عنه أنه يأتي من بين أيدينا ومن خلفنا فنلقاه بالمقدمة والساقة وعن أيماننا فنلقاه بالميمنة وعن شمائلنا فنلقاه بالميسرة، وليس للعدو غرض إلا في القلب ليزيل ملك الجيش من القلب ما له غرض إلا في هذا، فذب الله عن قلب العبد الذي هو موضع نظره الذي وسعه بهؤلاء الذين رتبهم في هذه الأماكن التي يدخل العدو منها فعليه يقاتل هذا الجيش وهو قوله ﷺ «**إن الذي يقاتلُ في سبيل الله هو الذي يُقاتلُ لتَكُونَ كلمةُ الله هيَ العُلْيَا وكلمةُ الَّذين كَفَرُوا السُّفْلَى**» وهم الأعداء فهو يمدهم من القلب في الباطن وهم يذبون عنه من الظاهر من الجهات التي يطلب العدو الفرصة فيها، فمن هنا كان له الخمس من المغنم الذي نص عليه أنه نصيبه لأنه ناصر المؤمنين على أعدائه، والجيش ناصر دينه ذلك بأن الله: ﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] فما لهم قلب ينصرهم: [الرمل]

إن لله نصيباً وافراً هو خُمْسُ الفَيْءِ من غير مَزِيدْ

فلـه الـقَـلْـبُ الـذي يَـعْـمُـرُهُ وهـو الـعَـرْشُ الإلـهـيُّ الـمَـجِـيـدْ
والـذي يَـبْـقَـى فـقـد قَـسَّـمَـهُ اخْـتـصـاصـاً مـنـه فـي بـعـض الـعَـبـيـدْ
فـالـذي حَـازَ الـذي سَـطَّـرَهُ قَـلَـمـي فـاز بـمـا يـعـطـي الـوُجُـودْ
فـرَسُـولٌ أو ولـيٌّ وارثٌ مـا لـه فـي عـلـمـنـا غَـيْـرُ الـشُّـهـودْ
والـذي يـعـلـمُـه الله فـمـا لِـيَ عِـلْـمٌ فـيـه إلا أن يَـجُـودْ

وفي هذا المنزل: علم هل يتعلق العلم الواحد بجميع المعلومات أو لكل معلوم علم أو يختلف بالنسبة إلى العالم؟ وما هو العلم هل هو ذات العالم أو صفة قائمة به أو نسبة ما هي ذات العالم ولا صفته؟ وفيه علم ما يؤدي إليه المناسبات بين الأشياء من التألف والاجتماع. وفيه علم من عمل بعملك فهو منك. وفيه علم الاستناد وحماية المستند ومشاركته في المشقة وترك ما يرى تركه وإن كان محبوباً لك والإيمان الذي لا يزلزله شيء. وفيه علم ما توجبه مكارم الأخلاق على من قامت به وعلم المقامات وما يختص بهذا المنزل منها. وفيه علم الكثير والقليل ومن هو كثير بالقوّة وكثير بالعدد وكذلك في القلة. وفيه علم فيه مزلة قدم وهو أن يعطيك أن تكون مع كل من يريد منك أمراً ما أن تكون له بما يريده منك وإنما هو مزلة قدم لاختلاف الأغراض وتقييد المؤمن بما قلده من الحكم الذي قيده. وفيه علم ما ينبغي أن يستعد له مما لا يستعد له. وفيه علم معاملة من تجهل أمره كيف تعامله. وفيه علم يعلم به أنه ما يقابلك من العالم ولا من الحق إلا صفتك. وفيه علم إلحاق الرؤوس بالأذناب في الحكم وهو الحال الذي يستوي فيه الرئيس والمرؤوس كالنوع الوسط الذي هو نوع لما فوقه وجنس لما تحته. وفيه علم التحريش ثم التبري منه هل ينفع ذلك التبري أم لا ينفع؟ وفيه علم إدراك الخيال في صورة المحسوس في اليقظة وما ثم شيء محسوس مخيل من خارج ولا من داخل بل هو كالسراب تراه ماء، وكالصغير في السراب تراه كبيراً، وكالجبل الأبيض تراه على البعد أسود، فهذا خارج عن الحس والخيال. وفيه علم السبب الذي يدعو الإنسان إلى أن يدعو على نفسه بالهلاك ويطلب العلامة في نفسه بما يرديه. وفيه علم ما يتوهم أنه قادر عليه وليس بقادر عليه ولماذا يرجع الإعجاز؟ هل يرجع لأمر لا يقدر مخلوق عليه أو لأمر كان يقدر عليه ثم صرف عنه؟ وفيه علم ما تنتجه التقوى في المتقي. وفيه علم الفرق بين الرسول ﷺ وبين المؤمنين. وفيه علم ما يريده المخاطب من المخاطب إذا كلمه. وفيه علم ما يظهر أنه لله وهو للكون ويظهر أنه للكون وهو لله. وفيه علم الجهات والإحاطة والسكون والحركة. وفيه علم المنافع الأخروية. وفيه علم السبب الذي يوجب الأمان في موطن الخوف هل يصح ذلك أم لا؟ وما معنى الموطن هل هو الحال في الشخص فيكون موطنه حاله أو الموطن خارج عن الحال؟ وفيه علم الأسباب الموجبة لوجود الأوهام الحاكمة في النفوس وهي صور من صور التجلي الإلهيّ. وفيه علم ما يحمد من السؤال وما يكره. وفيه علم الصلاح ومراعاة الأصلح وعلى من يجب ذلك. وفيه علم الوعد والوعيد ومع من يجب القتال شرعاً إذا تراءى الجمعان وصفّ الناس للقتال. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والسبعون وثلاثمائة

في معرفة منزل سجود القيومية والصدق والمجد واللؤلؤة والسور

[نظم: الطويل]

إذا وُضِعَ الميزانُ في قُبَّة العَدْلِ وجاء إلٰهُ الحَقّ للحُكْم والفَضْلِ
يقوم لنا شَكْلٌ بَديعٌ مُثَلَّثٌ فضلْعانِ في مثل وضِلْعٌ بلا مِثْلِ
ولا بُدّ من تَرجيحه لبقائه فلا بُدَّ من أمر يُؤَيِّدُ بالفَضْلِ
فيَذْهَبُ حُكْمُ المَيْل عند اسْتوائه ويَرْجَحُ ميزانُ السعادة بالثِّقْلِ

اعلم أيدك الله أنه ثبت شرعاً وعقلاً أنه تعالى سبحانه أحديّ المرتبة فلا إله إلا هو الله وحده لا شريك له في الملك والملك كل ما سوى الله وأما أن يكون له تعالى ولي فما هو مثل الشريك في الملك فإن ذلك منفي على الإطلاق لأنه في نفس الأمر منفي العين، وأما الوليّ فموجود العين فهو ينصر الله ابتغاء القربة إليه والتحبب عسى يصطفيه ويدنيه لا لذل ناله فينصره على من أذله أو ينصره لضعفه تعالى الله، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [محمد: ٧] وقال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠] فما قال ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾إلا ولا بد من وقوع هذا النصر ولكن كما ذكرنا وهو قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي ناصر من أجل الذل ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١] عن هذين الوصفين، كما أنه تعالى بدليل العقل والشرع أحدي الكثرة بأسمائه الحسنى أو صفاته أو نسبه وهو بالشرع خاصة أحدي الكثرة في ذاته بما أخبر به عن نفسه بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] و﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] و﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] و«**القَلْبُ بَيْنَ أصْبَعَين من أصابع الرحمن**» ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] و«**كلْتا يَدَيْ ربي يَمينٌ مباركةٌ**». وهذه كلها وأمثالها أخبار عن الذات أخبر الله بها عن نفسه والأدلة العقلية تحيل ذلك، فإن كان السامع صاحب النظر العقلي مؤمناً تكلف التأويل في ذلك لوقوفه مع عقله، وإن كان السامع منور الباطن بالإيمان آمن بذلك على علم الله فيه مع معقول المعنى الوراد المتلفظ به من يد وأصبع وعين وغير ذلك، ولكن يجهل النسبة إلى أن يكشف الله له عن بصيرته فيدرك المراد من تلك العبارة كشفاً فإن الله ما أرسل رسولاً إلا بلسان قومه أي بما تواطؤوا عليه من التعبير عن المعاني التي يريد المتكلم أن يوصل مراده فيما يريد منها إلى السامع، فالمعنى لا يتغير البتة عن دلالة ذلك اللفظ عليه وإن جهل كيف ينسب فلا يقدح ذلك في المعقول من معنى تلك العبارة: [الرمل]

واحدٌ وهو كثيرٌ عَجَبُ وهو للحاصل فيه مَذْهَبُ
إنَّما العِلْمُ لمن حَصَّلَهُ بطريق الذَّوْقِ فَهْوَ المَشْرَبُ
أيُّها الطالبُ كَنْزاً إنه عَيْنُ ما جئت به ما تَطْلُبُ

واعلم أيدك الله أنه من المحال أن يكون في المعلومات أمر لا يكون له حكم ذلك الحكم ما هو عين ذاته بل هو معقول آخر، فلا واحد في نفس الأمر في عينه لا يكون واحداً

لكثرة فما ثم إلا مركب أدنى نسبة التركيب إليه أن يكون عينه وما يحكم به على عينه فالوحدة التي لا كثرة فيها محال.

واعلم أن التركيب الذاتي الواجب للمركب الواجب الوجود لنفسه لا يقدح فيه القدح الذي يتوهمه النظار، فإن ذلك في التركيب الإمكاني في الممكنات بالنظر إلى اختلاف التركيبات الإمكانية، فيطلب التركيب الخاص في هذا المركب مخصصاً بخلاف الأمر الذي يستحقه الشيء لنفسه كما يقول في الشيء الذي يقبل الأشكال لنفسه لا تقول إن ذلك له بجعل جاعل أعني قبول الأشكال، وإنما الذي يكون له بالمخصص كون شكل خاص دون غيره مع إمكان قيام شكل آخر به فلا بد من مخصص لا قابل للأشكال فإن ذلك لنفسه، فالتركيب الذاتي الذي يقتضيه الواجب الوجود لنفسه خارج عن هذا الحكم لأنه مجهول الماهية عند النظار، فنسبة التركيب إليه مجهولة مع معقولية التركيب، ومعنى التركيب كونه كثيراً في ذاته كما لم يقدح فيه كونه له صفات قديمة عند مثبتي الصفات من النظار كالأشاعرة، وما وجدنا عقلاً يقيم دليلاً قط على أنه تعالى لا يحكم عليه بأمر فغاية من غاص في النظر العقلي واشتهر من العلماء أنه عقل صرف لا حظ له في الإيمان أنه حكم عليه بأنه علة فما خلص التوحيد له في ذاته حين حكم عليه بالعلية، وأما غيرهم من النظار فحكموا عليه بالنسب، وأن ثم أمراً يسمى القائلية والقادرية بهما حكمنا حكماً عليه أنه قائل وقادر، وأما غير هؤلاء من النظار فحكموا عليه بأن له صفات زائدة على ذاته قديمة أزلية قائمة بذاته تسمى حياة وعلماً وقدرة وإرادة وكلاماً وسمعاً وبصراً بها، يقال فيه أنه حي عالم قادر مريد متكلم سميع بصير، وجميع الأسماء من حيث معانيها أعني الأسماء الإلهيّة تندرج تحت هذه الصفات الأزلية القديمة القائمة بذات الحق. ومن النظار من جعل لكل اسم إلهيّ معنى معقولاً يعقل منه أن ذلك المعنى قائم بذات الحق قديم أزليّ ولو كان ما كان وبلغ ما بلغ من الأعداد. وروينا عن أبي بكر القاضي الباقلاني أنه يقول بهذا، غير أنهم اتفقوا بالنظر العقلي على أن الحوادث لا تقوم به، فما أخلوا ذاته عن حكم إما بنسب وإما بصفات وإما بمعاني أسماء، ثم جاء الشرع وهو ما ترجمه الرسول ﷺ وقال: إنه كلام الله وأقام الدلالة على صدقه أنه من عند الله وأخبر أنه في كل ما ينطق عن الله ما ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] ينزل به الروح الأمين على قلبه أو يلهمه الله إلهاماً في نفسه بأنه تعالى على كذا وكذا من أمور وصف بها نفسه وذكر عن ذاته أنها على ما أخبر بعبارات تعلم في العرف بالتواطؤ معانيها لا نشك في ذلك بأي لسان أرسل ذلك الرسول، وأضاف تلك المعاني إلى نفسه وذاته أنه عليها من يدين وأصبعين ويمين وأعين ومعية وضحك وفرح وتعجب وتبشبش وإتيان ومجيء واستواء ونزول وبصر وعلم وكلام وصوت، وأمثال ذلك من هرولة وحد ومقدار ورضى وغضب لأسباب حادثة من العبيد المكلفين فعلوها أغضبوا بها ربهم فقبل الغضب ووصف نفسه به ووصف نفسه بأن العبد إذا تصدق مثلاً يطفىء بصدقته غضب الله عليه، وهذا كله معقول المعنى مجهول النسبة إلى الله يجب الإيمان به على كل إنسان خوطب أو كلف به من عند الله، وهذا كله خارج عن الدلالة

العقلية إلا أن يتأول فحينئذ يقبله العقل فقبوله بالإيمان أولى لأنه حكم حكم به الحق على نفسه أنه كذا مع أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فنفى عنا العلم بوجه النسبة إليه ما نفى الحكم بذلك عن نفسه، وحكمه سبحانه بأمر على نفسه أولى بنا أن نقبله منه من حكم حكم به مخلوق وهو العقل عليه، فما أعمى من اتبع عقله في حكمه بما حكم به على ربه، ولم يتبع ما حكم به الرب على نفسه، وأي عمى أشد من هذا ولا سيما والمترجم عن الله تعالى وهو الرسول ﷺ قد نهى المكلفين أصحاب العقول أن يفكروا في ذات الله وأن يصفوها بنعت ليس في إخبار الله عن نفسه، فعكسوا القضية وفكروا في ذات الله وحكموا بما حكموا به على ذاته تعالى، ولما جاء إخباره إلينا بما هو عليه في ذاته أنكروا ذلك بعقولهم وردّوه وكذبوا الرسل، ومن صدقهم من هؤلاء جعلوا ذلك سياسة من حكيم عاقل لمصلحة الوقت وتوفر الدواعي بالجمعية على إله هذه صفته تقريراً في النفوس القاصرة، فإذا قرّروا ذلك ظهروا للناس في العامة بالارتباط بتلك الصفات مثل ما هي العامة عليه، وفي أنفسهم خلاف ما ظهروا به، وأما من أعطاه نظره وجود الرسول وصدقه فيما أخبر فغايته التأويل حتى لا يخرج عن حكم عقله على ربه فيما أخبر به عن نفسه، فكأنه في تصديقه مكذب. وأما أهل السلامة الذين لا نور عندهم إلا نور الإيمان سلموا ذلك إلى الله على علم الله فيه مع الإيمان والتحقيق لما تعطيه تلك العبارات من المعاني بالتواطؤ عليها في ذلك اللسان المبعوث به هذا الرسول. وأما أهل الكشف والوجود فآمنوا كما آمن هؤلاء ثم اتقوا الله فيما حد لهم وشرع فجعل لهم فرقاناً فرّقوا به بين نسبة هذه الأحكام إلى الله ونسبتها إلى المخلوق فعرفوا معانيها عن عيان وعلم ضروريّ وإلى هنا انتهوا، فانظر في تفاوت العقول في الأمر الواحد واختلاف الطرق فيه لمن كان له عقل سليم ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ لخطاب الحق ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] لمواقع الخطاب الإلهيّ على الشهود والكشف، فإذا تقرّر ما ذكرناه وكان الأمر على ما شرحناه وبيناه فاعلم أن الله هو الظاهرُ الذي تشهده العيون والباطن الذي تشهده العقول، فكما أنه ما ثم في المعلومات غيب عنه جملة واحدة بل كل شيء له مشهود كذلك ما هو غيب لخلقه لا في حال عدمهم ولا في حال وجودهم، بل هو مشهود لهم بنعت الظهور والبطون للبصائر والأبصار، غير أنه لا يلزم من الشهود العلم بأنه هو ذلك المطلوب إلا بإعلام الله وجعله العلم الضروري في نفس العبد أنه هو مثل ما يجد النائم إذا رأى صورة الرسول أو الحق تعالى في النوم فيجد في نفسه من غير سبب ظاهر أن ذلك المرئي هو الرسول إن كان الرسول أو الحق إن كان الحق، وذلك الوجدان حق في نفسه مطابق لما هو الأمر عليه فيما رآه، هكذا يكون العلم بالله فلا يدرك إلا هكذا لا بتفكر ولا بنظر حتى لا يدخل تحت حكم مخلوق، وإذا كان الأمر بهذه المثابة وأخبر عن نفسه أنه يتحوّل في الصور مع ثبوت هذه الأحكام حكمنا عليه بما يحكم به على الصور التي يتجلى فيها لعباده كانت ما كانت فليس ثم غيره ولا سيما في الموطن الذي يعلم من حقيقته أنه لا يمكن فيه دعوى في الألوهية إلا لله فلا نضرب له مثلاً:

[مجزوء الرجز]

فـإنَّـه عَـيْـنُ الـمَـثَـلْ سُـبْـحَـانَـهُ عَـزَّ وجَـلْ
وكُـلُّـنـا مـنـه إذا حَـقَّـقْـتَـهُ عـلـى وَجَـلْ
إلا الـذي بَـشَّـرَهُ بـالأمْـنِ مـنـه وبَـجَـلْ

ففعل ما يقتضيه الموطن، فإن العالم بالأمور لا يزيد في الظهور على حكم ما يقضي به الوقت، ولذلك قالت الطائفة في الصوفي إنه ابن وقته، وهذا حكم الكمل من الرجال كما يقول رسول الله ﷺ وهو الرؤوف الرحيم في حق طائفة يوم القيامة: «**سُحْقاً سُحْقاً**» فإذا زال ذلك الحال تلطف في المسألة وشفع فيمن هوت به الريح وهو قوّة حكم هوى النفس في مكان سحيق، فيقوم الحق في الحال الواحد بصفة الغضب والرضى والرحمة والعذاب لحكم الظاهر والباطن والمعز والمذل فكأنه برزخ بين صفتيه، فإنه ذو قبضتين ويدين لكل يد حكم وفي كل قبضة قوم مثل الكتابين اللذين خرج بهما رسول الله ﷺ على أصحابه وأخبرهم أن في أحدهما أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وعشائرهم وقبائهلم من حين خلق الله الناس إلى يوم القيامة، وفي الكتاب الآخر أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم وعشائرهم من حين خلق الله الناس إلى يوم القيامة، ولو كتب هذا بالكتابة المعهودة ما وسعت الأوراق مدينة فكيف أن يحيط بذلك كتابان في يدي الرسول ﷺ؟ فهذا من علم إدخال الواسع في الضيق من غير أن يوسع الضيق أو يضيق الواسع، فمن شاهد هذه الأمور مشاهدة وحصلت له ذوقاً فذلك هو العالم بالله وبما هو الأمر عليه في نفسه وعينه، فإن الصحيح أن الشيء لا يدرك إلا بنفسه، وليس له دليل قاطع عليه سوى نفسه والبصر له الشهود والعقل له القبول. وأما من طلب معرفة الأمور بالدلائل الغريبة التي ليست عين المطلوب فمن المحال أن يحصل على طائل ولا تظفر يداه إلا بالخيبة فأما المقربون فهم بين يدي الله في مقابلة الذات الموصوفة باليدين فإنهم لتنفيذ الأوامر الإلهيّة في الخلق في كل دار، وأما أهل اليمين فليس لهم هذا التصريف بل هم أهل سلامة وبراءة لما كانوا عليه وهم عليه من قوّة الحكم على نفوسهم وقمعهم هواهم باتباع الحق. وأما أهل اليد الأخرى الذين قيل فيهم إنهم أصحاب الشمال فنكسوا رؤوسهم، ومنهم المقنع رأسه الذي لا يرتدّ إليه طرفه بهتاً لعظيم ما يرى فلا يرى طائفة من هؤلاء الثلاثة إلا ما يعطيه مقامها ومنزلها ومكانها فتشهد كل طائفة من الله خلاف ما تشهده الأخرى والحق واحد، فلولا ما هو الأمر واحد الكثرة لما اختلف شهودهم، فلولا الكثرة في الواحد لما كان الأمر إلا واحداً لا يقبل القسمة وقد قبل القسمة فالأصل كهو، وهذا سبب وجود الدارين في الآخرة والكفتين في الميزان والرحمة المقيدة بالوجوب والمطلقة بالامتنان وتفاضل المراتب في الدرجات في الجنان والدركات في النار: [الرجز]

فـلـيـس إلاّ الـواحـدُ الـكَـثِـيـرُ بـمـثـل هـذا تـشـهـدُ الأمـورُ
فـانـظُـرْ إذا مـا جـاءك الـغَـرُورُ حَـقّـاً بـلا شَـكّ لـه الـنَّـذيـرُ
وكـلّ مـا تـقـولـه فَـزُورُ تـضـيـقُ مـن سـمـاعـه الـصُّدُورُ

فإذا تجلى الحق في صفة الجبروت لمن تجلى من عباده فإن كان المتجلى له ليس له

مدبر غير الله كجبل موسى تدكدك لتجليه فإنه ما فيه غير نفسه، وإن كان له مدبر قد جعله الله له كتدبير النفوس الناطقة أبدانها لم تتدكدك أجسامها لكن أرواحها حكم فيها ذلك التجلي حكمه في الجبل، فبعد أن كان قائماً بتدبير الجسد زال عن قيامه فظهر حكم الصعق في جسد موسى وما هو إلا إزالة قيامة المدبر له خاصة كما زال الجبل عن وتديته فثبت في نفسه ولم يثبت غيره، فإن الجبل ما وضعه الله إلا ليسكن به ميد الأرض فزال حكمه إذ زالت جبليته كما زال تدبير الروح لجسد صاحب الصعق إذ زال قيامه به فأفاق موسى بعد صعقه ولم يرجع الجبل إلى وتديته لأنه لم يكن هناك من يطلبه لوجود العوض وهو غيره من الجبال، وهذا الجسد الخاص ما له مدبر مخلوق سوى هذا الروح، فطلب الجسم من الله بالحال مدبره فردّه الله إليه فأفاق، فالنشأة الطبيعية تحفظ التدبير على روحها المدبر لها لأنها لا غنى لها عن مدبر يدبرها، والأرض لا تحفظ وتدية جبل عليه معين لاستغنائها عنه بأمثاله لكن لا غنى لها عن المجموع إذا طلب السكون، فهذا سبب علة إفاقة موسى وعدم رجوع الوتدية للجبل، فالجبال مخلوقة بالأصالة بصفة الرحمة واللطف والتنزل فظهرت ابتداء بصورة القهر حيث سكنت ميد الأرض فكانت رحمتها في القهر فلا تعرف التواضع فإنها ما كانت أرضاً ثم صارت جبالاً، فأوّل جبل أنزله الله عن قهره وجبروته بالحجاب الذي كان الحق احتجب عنه حجاب شهود لا حجاب علم جبل موسى بالتدكدك فصار أرضاً بعدما كان جبلاً فهو أوّل جبل عرف نفسه، ثم بعد ذلك في القيامة تصير الجبال ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١] لتجلي الحق إذا كانت ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] فمد الأرض إنما هو مزيد امتداد الجبال وتصييرها أرضاً، فما كان منها في العلوّ في الجوّ إذا انبسط زاد في بسط الأرض ولهذا جاء الخبر: «**إِنَّ الله يَمُدُّ الأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَدَّ الأَدِيمِ**» فشبه مدها بمد الأديم، وإذا مد الإنسان الأديم فإنه يطول من غير أن يزيد فيه شيء لم يكن في عينه وإنما كان فيه تقبض ونتوء، فلما مد انبسط عن قبضه وفرش ذلك النتوء الذي كان فيه فزاد في سعة الأرض ورفع المنخفض منها حتى بسطه فزاد فيها ما كان من طول من سطحها إلى القاع منها كما يكون في الجلد سواء، فلا ترى في الأرض عوجاً ولا أمتاً، فيأخذ البصر جميع من في الموقف بلا حجاب من ارتفاع وانخفاض ليرى الخلق بعضهم بعضاً فيشهدوا حكم الله بالفصل والقضاء في عباده لوجود الصفتين وحكم القدمين من الظاهر والباطن: [الطويل]

فلولا ظُهورُ الحَقِّ ما كان إنْسانُ ... ولولا بُطُونُ الحَقِّ ما قام بُرْهَانُ
فما ثَمَّ إلا واجبٌ ثم واجبٌ ... إذا ما عَلِمْتَ الأمْرَ ما ثَمَّ إمْكانُ
فما أكْمَلُ في الكَوْن من عين ذاته ... وهذا الذي سَمَّاه في الكون إنسانُ
وما ثَمَّ مقصودٌ سواه فإنه ... هو الحَقّ لا يَحْجُبْكَ خُلْدٌ ونيرانُ
فإن الذي أبْداه أعْلَمَ أنه ... له غَضَبٌ يُبْدِيهِ وَقْتاً ورِضْوانُ
فلا بُدَّ من دارَيْنْ دَارِ كرامة ... ودَارِ عذاب فيه للعقل تبْيانُ
وهذا الذي جئنا به في كلامنا ... هو الحَقّ إنْ فَكَّرْتَ ما فيه بُهْتانُ

وكيف لا تعرف هذا من نفس ما نطقت به وترجمت عنه: [البسيط]

وقد عَلِمْتُ بأن الحَقَّ أيَّدَني ... فيما أفُوهُ به عنه وقَيَّدَني
به فلا تَبْرَحُ الأرواح تنزلُ بي ... على الدوام وتهواني فَتَقْصدني
وذاك أن لنا عيناً مُكَمّلَةً ... بها يرى نَفْسَه من كان يَشْهَدُني
لذاك أوْجَدني رَبّي وخَصَّصَني ... فكلّ ما فيه منه حين يُوجِدُني
وانظرْ إليّ تَرَ في صورتي عَجَباً ... في كل حال إلٰهُ الحق يُسْعِدُني
إذا هَمَمْتُ بأمْرٍ لا يقاومُه ... أمْرٌ وجدتُ إلٰهي فيه يَعْضُدُني
فكلّ عقل يرى ربّي يُوَحّدُهُ ... والحَقّ حين يراني بي يُوَحّدُني
فالله يعلم ما في الغيب من عَجَبٍ ... وبالوصول إليه الحَقُّ يُفْرِدُني

وفي هذا المنزل من العلوم ما في الكتب الأربعة وهي: القرآن والتوراة والإنجيل والزبور. وفيه علم ما سبب إنزال الكتب وما نزل إلا كلام على الرسل وكتب عن الرسل في الكتب وإنما نزل كتابة إلى السماء الدنيا فيما نقل وذلك ليلة القدر موافقة ليلة النصف من شعبان، ثم نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ منجماً في ثلاث وعشرين سنة أو في عشرين سنة على الخلاف. وفيه علم تسمية الترجمة إنزالاً وتنزيلاً. وفيه علم من كشف عنه الغطاء حتى شاهد الأمر على ما هو عليه هل هو مخاطب بالآداب السمعية أو يقتضي ذلك المقام الذهول وذهاب عقل التكليف فيبقى بلا رسم مع المهيمين من الملائكة. وفيه علم الوصايا والآداب وأحوال المخاطبين والمطرفين. وفيه علم حفظ الجوار على الجار وهل الجار إذا انتهك حرمة جاره هل يجازيه جاره بمثل ما أتى به أو يكون مخاطباً بحفظ الجوار ولا يجازيه بالإساءة على إساءته. وفيه علم حال الموصوف بأنه يأمر بمكارم الأخلاق ومنها العفو والصفح وتفريج الكرب بضمان التبعات لما هو عليه من الغنى في الأداء عنه ثم بعد ذلك يعاقب والعفو مندوب إليه والضمان أيضاً مندوب إليه فبأي صفة تكون العقوبة ممن هذا نعته. وفيه علم الفرق بين الأمر وصفته. وفيه علم ما حرّم من الزينة وما أبيح منها وما حظر منها وموطن كل زينة. وفيه علم الفرق بين الخبيث والطيب. وفيه علم مرجع الدرك في الدار الآخرة على من يكون إذا كان في ضمنه شخصان الواحد مفلس والآخر موسر. وفيه علم الثناء وتفاصيله بالأحوال. وفيه علم مخاطبة الموتى بعضهم بعضاً في حال موتهم وهل حالهم بعد الموت مثل حالهم قبل الايجاد أم لا؟ وفيه علم الموت وماهيته. وفيه علم الفصل بين القبضتين. وفيه علم التكليف يوم القيامة وقبل دخول الجنة. وفيه علم العلامات في السعداء والأشقياء ومن لا علامة له لأيّ فريق يكون. وفيه علم من حلف على شيء أكذبه الله وقد ورد: «**مَنْ يَتَأَلَّ عَلَى الله يُكَذِّبْهُ**». وفيه علم ما السبب الموجب للمنعوت بالكرم إذا سأله المضطر المحروم وهو قادر على مواساته وبذله ما سأله بذله فلم يفعل وبماذا يعتذر وما صفة هذا السائل المحروم. وفيه علم أولاد الليل والنهار بماذا يفرق بينهم. وفيه علم سباحة عالم الأنوار. وفيه علم قيام العبد بالصفتين المتضادتين وهو محمود عند الله عزّ وجلّ في الحالين.

وفيه علم كون الرحمة قد وسعت كل شيء ثم وصفت بالقرب من بعض الأشخاص لصفات قامت به فهل هي هذه الرحمة التي وسعت كل شيء أو رحمة أخرى؟ وفيه علم من أسعده الله على كره منه في السعادة وهو في علم الله سعيد. وفيه علم قول الأعمى للبصير: ما لك أعمى لا تبصر شيئاً أما تراني أبصر الظلمة وأنت لا تراها وتزعم أنك تبصر؟ وفيه علم الاعتبار وعلم الإمكان والممكنات وعلم السيميا وعلم الورث والوارثين وعلم الدلالات على الوقائع وعلم التشبيه وعلم الغيرة. وفيه علم الشوق والاشتياق. وفيه علم التوبة ما هي وتقاسيمها والتائبين. وفيه علم كل شيء. وفيه علم الذوق. وفيه علم تأثير الأحوال. وفيه علم التقييد والإطلاق، وفيه علم رفع الأثقال. وفيه علم الاختصاص. وفيه علم تقاسيم العلوم وفيه علم المراتب. وفيه علم تبديل الشرائع ونسخ بعضها بعضاً. وفيه علم الخلف والخلف بسكون اللام وفتحها. وفيه علم التهويل والتخويف من غير إيقاع ما يخوف به. وفيه علم العهود والمواثيق البرزخية. وفيه علم التسليم. وفيه علم الاستدراج وإظهار البعد في عين القرب وما صفة من يعرف ذلك. وفيه علم أوقات الموقتات. وفيه علم ما يعطيه العلم الذي يقتضي العمل من العمل فإنه من المحال أن يكون علم يعطي العمل قيامه بصاحبه ولا يعمل ولا يجوز ذلك كثير من الناس وهم فيه على غلط فالعلم يقتضي العمل ولا بد. وفيه علم الشركة في الأسماء وما يؤثر. وفيه علم العجز وحيث ينفع ويكون دليلاً. وفيه علم منافع الأعضاء. وفيه علم ما يدفع به الخاطر الشيطاني والنفسي من الإنسان. وفيه علم مراتب السجود في الساجدين وما الذين أسجدهم؟ وما السجود الذي لا رفع بعده لمن سجده؟ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والسبعون وثلاثمائة

في معرفة منزل الأمة البهيمية والإحصار والثلاثة الأسرار العلوية وتقدم المتأخر وتأخر المتقدم من الحضرة الإلهية

[نظم: الوافر]

يَطِيرُ العارفون إلى المُسَمَّى ... بأجْنِحة الملائكة الكِرَامِ
إلى ذات الذوات بغير نَعْتٍ ... فتُرجِعُهُمْ بأرواح الأسَامي
فتُكملُ ذاتَهُمْ من كل وَجْهٍ ... من الحال المُنَزَّه والمَقَامِ
وشَاهِدُ حَالِهِمْ يبدو فيقضي ... فكُلُّهُمُ إمامٌ عن إمامِ

اعلم أيدنا الله وإياك أن البهائم أمم من جملة الأمم لهم تسبيحات تخص كل جنس وصلاة مثل ما لغيرها من المخلوقات، فتسبيحهم ما يعلمونه من تنزيه خالقهم فلهم نصيب في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وأما صلاتهم فلهم مع الحق مناجاة خاصة قال تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١] وقال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩] وهي ما شرع الله لها من السبل أن تسلكها ذللاً، فكل شيء من المخلوقات له كلام يخصه

يعلمه الله ويسمعه من فتح الله سمعه لإدراكه، وجميع ما يظهر من الحيوان من الحركات والصنائع التي لا تظهر إلا من ذي عقل وفكر وروية وما يرى في ذلك من الأوزان تدل على أن لهم علماً في أنفسهم بذلك كله، ثم يرون منهم أموراً تدل على أنهم ما لهم ما للإنسان من التدبير العام، فتعارضت عند الناظرين في أمرهم الأمور فانبهم أمرهم عليهم وربما سموا لذلك بهائم من إبهام الأمر إلا عندنا فإنه أوضح من كل واضح، وما أتى على من أتى عليه إلا من عدم الكشف لذلك فلا يعرفون من المخلوقات إلا قدر ما يشاهدونه منهم، وكذلك من ألحقهم بدرجة المعارف والعلم بالله وبما أهلهم الله له ما ألحقهم بذلك إلا من كون الله كشف له عن أمرهم وأحوالهم، أو مؤمن صادق الإيمان قد بلغه عن الله في كتاب أو سنة أمرهم، وساعدنا على هذا القول شيخنا وإمامنا المتقدم حجة الله على المحققين الذي يقول فيه أبو طالب المكي صاحب قوت القلوب إذا حكى عنه قولاً قال عالمنا سهل بن عبد الله التستري الذي رأى قلبه يسجد وهو صغير فلم يرفع واستظهر القرآن وهو ابن ست سنين ولما دخلت الخلوة على ذكره فتح لي به من ليلتي تلك الفتح الخاص بذلك الذكر فانكشف لي بنوره ما كان عندي غيباً ثم أفل ذلك النور المكاشف به فقلت: هذا مشهد خليلي فعلمت أني وارث من تلك الساعة لملة أمر الله رسوله وأمرنا باتباعها وذلك قوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨] وتحققت أبوته وبنوّتي، وقد كان شيخنا صالح البربري بإشبيلية قد قال لي: يا ولدي إياك أن تذوق الخل بعد العسل فعلمت مراده، وكان من أكبر من رأيته من المنقطعين إلى الله تعالى بل المقتطعين ما رأيت على قدمه مثله فجئت الشيخ بكرة وقلت له ما كان في منظوم نظمته إلهي لا عن روية ولا تعمل كما قال أبو العباس بن العريف الصنهاجي: [الطويل]

وجاء حَديثٌ لا يُمَلُّ سَمَاعُهُ ... شَهِيٌّ إلينا نَثْرُهُ ونظامُهُ

وكان النظم الذي عملته في حالي: [الرمل]

كان مِثْلَ الخَلِّ مِنْ بَعْدِ العَسَلْ ... فمَضَى الصَّبَاحُ عنّي وأَفَلْ
وبَدَتْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ حالِكٍ ... أوْرَثَتْ في القلب أسبابَ العِلَلْ
قلتُ ربِّي قال لَبَّيْكَ فما ... تَبْتَغِيه قلتُ نُوراً بعَمَلْ
عَلِمَ الحَقُّ الذي قد قلتُه ... قال بابٌ مغلقٌ قلتُ أجَلْ
قلتُ هَبْ لي نُورَكَ الخالصَ لي ... فبدا النورُ بلا ضَرْبِ مَثَلْ
في سمائي ثم أرضي ثم ما ... بين هذين إلى غير أجَلْ
والذي يَفْهَمُ قولي قد دَرَى ... أنني الأمر الذي منه نَزَلْ

فسر الشيخ بهذا النفس وقال: هذا من تجلي الغلس، قلت له: صدقت كذلك كان، قال: الحمد لله المنعم على كل حال لو علم الناس النعمة السارية في الأحوال ما فرّقوا بين السراء والضراء واتحد الحمد، قلت له: بل توحد، فقال: صدقت يا ولدي وأخطأ الشيخ فقبلت يده وقبل رأسي: [الطويل]

إذا الـصـادقُ الـداعـي أتـاك مُـبَـيِّـنَـا فـألْـقِ إلـيـه الـسَّـمْـعَ إن كـنـتَ مُـؤمـنَـا
وقـلـتُ رَسُـولَ الله أنـت وسـيـلـتـي إلـى مـسـعـدي سـرّاً أقـول ومُـعْـلِـنَـا
ولـسـتُ بـإيـمـانـي بـه مـتـردّداً فـإنـي عـلـمـتُ الأمـر عـلـمـاً مُـبَـيَّـنَـا
بـكَـشْـفِ أتـانـي مـن إلٰـهـي بـمـشـهـد يـكـون لـنـا يـوم الـقـيـامـة مَـوْطِـنَـا
فـمـن شاء فـلـيـؤمـنْ ومن شاء فَـلْـيَـدَعْ فـمـا ثَـمَّ إلا الله فـالـعـلـمُ عِـلْـمُـنـا
إذا قـلـتُ يـا الله لَـبَّـى مـن الـحَـشـا فـإن قـلـتُ مـن هـذا يـقـول أنـا أنـا
أنـا الـواهـبُ الـمـحـسـانُ في كـل حـالـة وذلـك نَـعْـتٌ لا يـكـون لـغـيـرنـا
ومـا ثَـمَّ غَـيْـرٌ بـل أقـول بـمـا أتـتْ بـه رُسْـلُـنـا فـالـقـولُ مـنّـا بـنـا لـنـا
ولـيـس رسـولـي غـيـر نَـعْـتـي ولا الـذي أخـاطـبُـه غـيـري فـعـيـنُـك عَـيْـنُـنـا

فكل شيء في العالم يقال فيه عند أهل النظر، وفي العامة أنه ليس بحي ولا حيوان فإن الله عندنا قد فطره لما خلقه على المعرفة به والعلم وهو حي ناطق بتسبيح ربه يدركه المؤمن بإيمانه ويدركه أهل الكشف عيناً. وأما الحيوان ففطره الله على العلم به تعالى ونطقه بتسبيحه وجعل له شهوة لم تكن لغيره من المخلوقات ممن تقدم ذكره آنفاً، وفطر الملائكة على المعرفة والإرادة لا الشهوة، وأمرهم وأخبر أنهم لا يعصونه لما خلق لهم من الإرداة، ولولا الإرادة ما أثنى عليهم بأنهم لا يعصونه ويفعلون ما يؤمرون، وفطر الجن والإنس على المعرفة والشهوة وهو تعلق خاص في الإرادة لأن الشهوة إرادة طبيعية، فليس للإنس والجن إرادة إلهية كما للملائكة بل إرادة طبيعية تسمى شهوة وفطرهما على العقل لا لاكتساب علم، ولكن جعله الله آلة للإنس والجن ليردعوا به الشهوة في هذه الدار خاصة لا في الدار الآخرة، ولذلك قال في الدار الآخرة لأهل الجنان: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١] إعلاماً لنا بأن النشأة الآخرة التي ينشئنا فيها طبيعية مثل نشأة الدنيا، لأن الشهوة لا تكون إلا في النفوس الطبيعية، والنفوس الطبيعية ما لها نصيب في الإرادة، فإذا استفاد الإنسان أو الجان علماً من غير كشف، فإن ذلك مما جعل الله فيه من قوة الفكر، فكل ما أعطاه الفكر للنفس الناطقة وكان علماً في نفس الأمر فهو من الفكر بالموافقة، فالعلوم التي في الإنسان إنما هي بالفطرة والضرورة والإلهام، والكشف الذي يكون له إنما يكشف له عن العلم الذي فطره الله عليه فيرى معلومه، وأما بالفكر فمحال الوصول به إلى العلم. فإن قيل: من أين علمت هذا وما هو من مدركات الحس فلم يبق إلا النظر؟ قلنا: ليس كما نقول بل بقي الإلهام والإعلام الإلهي فتتلقاه النفس الناطقة من ربها كشفاً وذوقاً من الوجه الخاص التي لها ولكل موجود سوى الله، فالفكر الصحيح لا يزيد على الإمكان وما يعطي إلا هو، وهذا من علم الله وإعلامه لم يدرك ذلك بالفكر. كان ابن عطاء راكباً على جمل فغاصت رجل الجمل فقال ابن عطاء: جل الله فقال الجمل: جل الله يزيد عن إجلالك، فكان الجمل أعلم بالله من ابن عطاء فاستحى ابن عطاء، فهذا من علم البهائم بالله. وأما رسول الله ﷺ فإنه ذكر في الصحيح: «**أَنَّ بَقَرَةً فِي زَمَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَمَلَ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا**

فَقَالَتْ: مَا خُلِقْتُ لِهَذَا وَإِنَّمَا خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ» فقالت الصحابة: أبقرة تَكَلَّمُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**آمَنتُ بِهذا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**» وذلك أن الروح الأمين أخبره، فلو عاينها رسول الله ﷺ لما قال آمنت فهذه بقرة من أصناف الحيوان قد علمت ما خلقت له والإنس والجن خلقوا ليعبدوا الله وما علموا ذلك إلا بتعريف الله على لسان الرسول وهو في فطرتهم ولكن ما كشف لهم عما هم عليه. ومر بعض أهل الله على رجل راكب على حمار وهو يضرب رأس الحمار حتى يسرع في المشي فقال له الرجل: لم تضرب على رأس الحمار؟ فقال له الحمار: دعه فإنه على رأسه يضرب، فهذا حمار قد علم ما تؤول إليه الأمور بالفطرة لا بالفكرة. فانظر يا محجوب أين مرتبتك من مرتبة البهائم، البهائم تعرفك وتعرف ما يؤول إليك أمرك وتعرف ما خلقت له وأنت جهلت هذا كله، ومع هذا فالبهائم في الحيرة في الله وهم مفطورون عليها فإنها المقام الذي يصل إليه أهل النظر الصحيح في الله وأهل التجلي ولذلك قال الله فيمن لم يعرف الله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ يعني في الضلال الذي هو الحيرة ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] والسبيل الطريق «فزادوا ضلالاً»[(١)] أي حيرة في الطريق التي يطلبونها للوصول إلى معرفة ربهم من طريق أفكارهم، فهذه حيرة زائدة على الحيرة في الله. وكذلك قال فيهم حيثما قال إنما جعل الزيادة في السبيل، وليس إلا الفكر والتفكر فيما منع التفكر فيه وهو النظر في ذات الله فقال: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ وهو حال الجهل بالله كما هو في نفس الأمر من حيث الذات ﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ كما هو في الدنيا ثم زاد فقال: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢] وهو الطريق، ولذلك قال عمرو بن عثمان المكي في صفة المعرفة والعارفين: وكما هم اليوم كذلك يكونون غداً، فاعلم إن كنت تفهم تشبيه الله أهل الضلال بالأنعام أنه تعالى ما شبههم بالأنعام نقصاً بالأنعام وإنما وقع التشبيه في الحيرة لا في المحار فيه فلا أشد حيرة في الله من العلماء بالله، ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**زِدْنِي فِيكَ تَحَيُّراً**» لما علم من علو مقام الحيرة لأهل التجلي لاختلاف الصور، وتصديق هذا الحديث قوله: «**لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**» وقد علمنا ما أثنى الله به على نفسه من بسط يديه بالإنفاق وفرحه بتوبة عبده وغير ذلك من أمثاله، ومن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٦٧] وقول رسول الله ﷺ: «**لَوْ يَعْلَمُ الْبَهَائِمُ مِنَ الْمَوْتِ مَا تَعْلَمُونَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا سَمِيناً**». فانظر في تنبيهه ﷺ على حسن استعدادهم وسوء استعدادنا حتى أنه من كان بهذه المثابة من الفكرة في الموت فغايته أن يحصل له استعداد البهائم وهو ثناء على من حصل في هذا المقام وارتفاع في حقه، وكيف ينظر البهائم دون الإنسان في الاحتقار وغاية الثناء عليك من الله أن تشاركها في صفتها فاشحذ فؤادك ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فإن لله في خلقه أسراراً ولذلك خلقكم أطواراً.

واعلم أن البهائم وإن كانت مسخرة مذللة من الله للإنسان فلا تغفل عن كونك مسخراً

(١) ليس هذا نصّ آية كما قد يتبادر إلى الذهن.

لها بما تقوم به من النظر في مصالحها في سقيها وعلفها وما يصلح لها من تنظيف أماكنها ومباشرة القاذورات والأزبال من أجلها ووقايتها من الحر والبرد والمؤذيات لها، فهذا وأمثاله من كون الحق سخرك لها وجعل في نفسك الحاجة إليها فإنها التي تحمل أثقالك إلى بلد لم تكن تبلغه إلا بنصف ذاتك وهو شق الأنفس أي ما كنت تصل إليه إلا بالوهم والتخيل لا بالحس إلا بوساطة هذه المراكب فلا فضل لك عليها بالتسخير فإن الله أحوجك إليها أكثر مما أحوجها إليك، ألا ترى إلى غضب رسول الله ﷺ حين سئل عن ضالة الإبل كيف؟ قال: «**ما لَكَ ولها معها حِذَاؤُها وسِقَاؤُها تَرِدُ الماءَ وتأكلُ الشَّجَرَ حتى يَجِدَها رَبُّها**» فما جعل لها إليك حاجة وجعل فيك الحاجة إليها وجميع البهائم تفر منك ممن لها آلة الفرار، وما هذا إلا لاستغنائها عنك وما جبلت عليه من العلم بأنك ضار لها ثم طلبك لها وبذل مجهودك في تحصيل شيء منها دليل على افتقارك إليها، فبالله من تكون البهائم أغنى منه كيف يحصل في نفسه أنه أفضل منها؟ صدق القائل: ما هلك امرؤ عرف قدره، فوالله ما يعرف الأمور إلا من شهدها ذوقاً وعاينها كشفاً: [البسيط]

لا يَعْرِفُ الشَّوْقَ إلا مَنْ يُكابِدُهُ ولا الصَّبابَةَ إلاّ مَنْ يُعانِيها

ما وصل إليك خبر الفيل وحبسه وامتناعه من القدوم على خراب بيت الله؟ ما بلغك ما فعلت الطير بأصحاب الفيل وما رمتهم به من الحجارة التي لها خاصية في القتل دون غيرها من الأحجار؟ أترى يصدر ذلك منها من غير وحي إلهي إليها بذلك؟ فكم من فيل كان في العالم وكم من أصحاب غزاة كانوا في العالم لما ظهر مثل هذا الأمر في هؤلاء وما ظهر في غيرهم؟ وهل يوحي الله إلى من لا يعقل عنه؟ وهل قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] هل ذلك إلا ليفهموا لتقوم عليهم الحجة إذ خالفوا أو يعملوا بما فهموا فيسعدوا؟ هل سمعت في النبوة الأولى والثانية قط أن حيواناً أو شيئاً من غير الحيوان عصى أمر الله أو لم يقبل وحي الله؟ أين أنت من فرار الحجر بثوب موسى عليه السلام حتى بدت لقومه سوأته ليعلموا كذبهم فيما نسبوه إليه وبرأه الله مما قالوا؟ أترى فرار الحجر هل كان عن غير أمر الله إياه بذلك؟ أترى إباية السموات والأرض والجبال عن حمل الأمانة وإشفاقهم منها عن غير علم بقدر الأمانة؟ وما يؤول إليه أمر من حملها فلم يحفظ حق الله فيها وعلمهم بالفرق بين العرض والأمر، فلما كان عرض تخيير احتاطوا لأنفسهم وطلبوا السلامة، ولما أمرهم الحق تعالى بالإتيان فقال للسماء والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] طاعة لأمر الله وحذراً أن يؤتى بهما على كره، أترى لو نزل القرآن على جبل فخشع وتصدع من خشية الله أترى ذلك منه عن غير علم بقدر ما أنزل الله عليه؟ وما خاطب به من التخويفات التي تذوب لها صم الجبال الشامخات، كم بين الله ورسوله لنا ما هي المخلوقات عليه من العلم بالله والطاعة له والقيام بحقه ولا نؤمن ولا نسمع ونتناول ما ليس الأمر عليه لنكون من المؤمنين ونحن على الحقيقة من المكذبين، ورجحنا حسنا على الإيمان بما عرّفنا به ربنا لما لم نشاهد ذلك مشاهدة عين.

واعلم أنه من علم أن الموجودات كلها ما منها إلا من هو حي ناطق أو حيوان ناطق المسمى جماداً أو نباتاً أو ميتاً لأنه ما من شيء من قائم بنفسه وغير قائم بنفسه إلا وهو مسبح ربه بحمده، وهذا نعت لا يكون إلا لمن هو موصوف بأنه حي، ومن كان مشهده هذا من الموجودات استحى كل الحياء في خلوته التي تسمى جلوة في العامة كما يستحي في جلوته فإنه في جلوة أبداً لأنه لا يخلو عن مكان يقله وسماء تظله، ولو لم يكن في مكان لاستحى من أعضائه ورعية بدنه فإنه لا يفعل ما يفعل إلا بها فإنها آلاته وأنه لا بد أن تستشهد فتشهد ولا يستشهد الله إلا عدلاً، فصاحب هذه الحال لا يصح أن يكون في خلوة أبداً، ومن كان هذا حاله فقد لحق بدرجة البهائم، والدليل على ذلك أن رسول الله ﷺ قد ذكر عنه في الصحيح أنه قال: «**إنَّ لِلْمَيِّتِ جُؤَاراً وَإنَّ السَّعِيدَ مِنهُمْ يَقُولُ: قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي**» يعني إلى قبره «**وإنَّ الشَّقِيَّ مِنْهُم يَقُولُ: إلَى أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِي؟**» وأخبر ﷺ أن كل شيء يسمع ذلك منه إلا الإنس والجن فدخل تحت قوله: «**كل شيء**» مما يمر عليه ذلك الميت من جماد ونبات وحيوان. وثبت أن رسول الله ﷺ كان راكباً على بغلة فمر على قبر داثر فنفرت البغلة فقال: «**إنَّهَا رَأَتْ صَاحِبَ هَذا القَبْرِ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ فَلِذَلِكَ نَفَرَتْ**» وقال في ناقته لما هاجر ودخل المدينة ترك زمامها فأراد بعض الصحابة أن يمسكها فقال: «**دَعُوها فَإنَّهَا مَأْمُورَةٌ**» ولا يؤمر إلا من يعقل الأمر حتى بركت بنفسها بفناء دار أبي أيوب الأنصاري فنزل به. وقال في الصحيح: «**إنَّ المُؤَذِّنَ يَشْهَدُ لَهُ مَدَى صَوْتِهِ مِنْ رَطْبٍ وَيَابِسٍ**»، وهذا كله متباين لكل شيء، ولا يشهد هذا من الإنس والجن إلا أفراد من أفراد هذين النوعين، فإن الجن يجتمعون مع الإنس في الحد، فإن الجن حيوان ناطق، إلا أنه اختص بهذا الاسم لاستتاره عن أبصار الإنس غالباً فهم مع الإنس كالظاهر من الإنسان وحده مع باطنه ولذلك قال تعالى في غير هذين النوعين: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] والأمثال هم الذين يشتركون في صفات النفس فكلهم حيوان ناطق، ثم قال تعالى فيهم: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] يعني كما تحشرون أنتم، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] للشهادة يوم الفصل والقضاء ليفصل الله بينهم كما يفصل بيننا فيأخذ للجماء من القرناء كما ورد، وهذا دليل على أنهم مخاطبون مكلفون من عند الله من حيث لا نعلم، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] فنكر الأمة والنذير وهم من جملة الأمم ونذيرهم قد يكون لكل واحد منهم نذير في ذاته، وقد يكون للنوع من جنسه لا بد من ذلك من حيث لا يعلمه ولا يشهده إلا من أشهده الله ذلك كما قال في الشيطان إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، وذكر أنهم يوحون إلى أوليائهم ليجادلونا ويظن المجادل الذي هو ولي الشيطان أن ذلك من نفسه ومن نظره وعلمه وهو من وحي الشيطان إليه، يعرف ذلك أهل الكشف عيناً ويسمعونه بآذانهم كما يسمعون كل صوت، وما من حيوان إلا ويشهد ذلك، ولذلك أخرسهم الله عن تبليغ ما يشهدونه إلينا، فهم أمناء بصورة الحال في حقنا، ولا يكشف الله لأحد من النوع الإنساني ما يكشفه للبهائم مما ذكرناه إلا إذا رزقه الله الأمانة وهي أن يستر

عن غيره ما يراه من ذلك إلا بوحي من الله بالتعريف، فإن الله ما أخذ بأبصار الإنس وبأسماعهم في الأكثر وبالفهم في أصوات هبوب الرياح وخرير المياه وكل مصوت إلا ليكون ذلك مستوراً، فإذا أفشاه هذا المكاشف فقد أبطل حكمة الوضع إلا أن يوحى إليه بالكشف عن بعض ذلك فحينئذ يعذر في الإفشاء بذلك القدر.

وفي هذا المنزل من العلوم: علم ثناء الرحماء وعلم من أظهر الشريك وهو لا يعتقده كما أنه من الموحدين من ينفي الشريك وهو يعتقده وهو الذي يرى أن من الأسباب من يفعل الشيء لذاته، والموحد في الأفعال يرى أنه لا فاعل إلا الله كمن يقول: إذا اجتمع الزاج والعفص وارتفعت الموانع الطبيعية فإنه لا بد من السواد الذي هو المداد مع كونه موحداً والموحد من يرى إيجاد السواد لله كالأشاعرة وأمثالهم، وأن الإمكان يقضي أن يكون اجتماعهما مع ارتفاع الموانع الطبيعية، ولا يكون سواد إلا إن خلق الله ذلك اللون فيه هذا في الطبعيين، وأما في المتكلمين الموحدين فإنهم يقولون: إن الناظر إذا عثر على وجه الدليل فإن المدلول يحصل ضرورة مع تفريقهم بين وجه الدليل والمدلول، وهذا لا يصح عند السليم العقل فإنه يحصل وجه الدليل ولا يحصل المدلول ولا يتمكن لهم أن يقولوا: إن وجه الدليل هو عبارة عن حصول المدلول فإنهم يفرقون بين وجه الدليل والمدلول، فلو زادوا مع ضرورة عادة لا عقلاً لم يعترض عليهم، فإنه لا فرق بين وجه الدليل والرؤية في الرائي بل الرؤية أتم، ونحن نعلم بالإيمان أن الله قد أخذ بأبصارنا مع وجود الرؤية فينا عن كثير من المبصرات لغيرنا فلم يحصل المرئي ضرورة مع وجود الرؤية وارتفاع الموانع التي تقدح في هذه النشأة الطبيعية، فيرى الإنسان الواحد ما لا يراه الآخر مع حضور المرئي لهما واجتماعهما في سلامة حاسة البصر، فهذا حجاب إلهي ليس للطبيعية ولا للكون فيه أثر وهذا كثير، فكم من مشرك في الظاهر موحد في الباطن وبالعكس. وفيه علم الآجال ما يعلم منها وما لا يعلم. وفيه علم كينونية الله في أينيات مختلفات بذاته ومثل ذلك مثل البياض في كل أبيض، إن فهمت فإن الله تعالى ما ذكر عن نفسه حكماً فيه لا يكون له مثل في الموجودات لأنه لو ذكر مثل هذا لم تحصل فائدة التعريف غير أنه يدق على بعض الأفهام، فمن ظهر له الموجود الذي له عين ذلك الحكم علمنا أنه المخاطب من الله بذلك الحكم لا غيره كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] فبعض الناس قد علم ما أراد بالكبر هنا وبعضهم لا يعرف ذلك، فالذي عرف ذلك هو المخاطب بهذه الآية وهكذا في كل خطاب حتى في: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] خاطب به من يعلم نفي المثلية في الأشياء. وفيه علم عموم تعلق العلم الإلهيّ بالمعلومات، ومن علم منا حصر المعلومات في واجب ومحال وممكن في نفس الأمر قد عم من وجه كلي وبقي الفصل بين العلماء في نفس الأمر المحكوم عليها بأحد هذه الأحكام. وفيه علم ما يأتي من الممكنات وهي كلها آيات فيعرض عن النظر في كونها آية من يعرض ما السبب في إعراض واحد وعدم إعراض آخر في ذلك. وفيه علم من يشكك نفسه فيما قد تبين له ما السبب الذي

يدعوه إلى ذلك التشكيك. وفيه علم من أي حقيقة إلهية خلق الله الالتباس في العالم هل كان ذلك لكونه يتجلى لعباده في صور مختلفة تعرف وتنكر مع أنه تعالى في نفسه على حقيقة لا تتبدل ولا يكون التجلي إلا هكذا، فما في العالم إلا التباس وذلك لكون الشارع قد أخبر أن المؤمن يظهر بصورة الكافر وهو سعيد، والكافر يظهر بصورة المؤمن وهو شقي، فلا يقطع على أحد بسعادة ولا بشقاء لالتباس الأمر علينا فهذا عندنا ليس بالتباس، وإنما الالتباس أن نقطع بالشقاء على السعيد وبالسعادة على الشقي، حينئذ يكون الأمر قد التبس علينا، وأما إذا لم نقطع فما التبس علينا شيء. وفيه علم أن الحكم للرحمة يوم القيامة. وأن العدل من الرحمة، ويوم القيامة يوم العدل في القضاء، وإنما تأتي الرحمة في القيامة ليشهد الأمر حتى إذا انتهى حكم العدل وانقضت مدته في المحكوم عليه وتولت الرحمة الحكم فيه إلى غير نهاية. وفيه علم ما هو لله وما هو للخلق، وأعني بما هو لله أنه مخلص. وفيه علم الوصف الخاص بالله الذي لا يشركه فيه من ليس بإله. وفيه علم لم تعددت الأسماء الإلهية باختلاف معانيها؟ فهل هي أسماء لما تحتها من المعاني أو هي أسماء لمن نسبت إليه تلك المعاني؟ وهل تلك المعاني أمور وجودية أو نسب لا وجود لها؟ وفيه علم الإنصاف والعدل في القضايا والحكومات. وفيه علم ما يغني من الاستحقاق بعد انقضاء مدّة حكمه وما معنى الفلاح في نفيه عن المستحق بالعقوبة؟ وفيه علم جحد المشرك الشريك هل له في ذلك وجه إلى الصدق أو هو كاذب من كل وجه؟ وذلك أن القائل في الحقيقة ليس غير الله، فلا بدّ أن يكون له وجه إلى الصدق، من هناك ينسب أنه قول الله، وإن ظهر على لسان المخلوق فإن الله قاله على لسان عبده. وقد ورد عن الرسول ﷺ في الصحيح: «**إِنَّ الله يَقُولُ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ**» وَنَطَقَ القُرْآنُ بِذَٰلِكَ، فعين كلام الترجمان هو كلام المترجم عنه. وفيه علم ما تعطيه الأحوال فيمن قامت به من الأحكام. وفيه علم ما ينتجه القطع بوقوع أحد الممكنين من غير دليل. وفيه علم ما يسخطه العارف الذي له الكشف من فعل الحق مما لا يسخطه والسخط من عمل الباطن حتى لو لم يقم به سخط في باطنه، وأظهر السخط كان حاله إلى النفاق أقرب من حاله إلى الإيمان. وفيه علم الحث على النفاق هل يناقض التسليم، وإذا اجتمع صاحب تسليم وصاحب مداراة أيّ الرجلين أعلم؟ وفيه علم السبب المانع للسامع إذا نودي ولم يجب هل يقال إنه سمع أو يقال فيه إنه لم يسمع. وفيه علم الظلمة وهو العمى والضلال وهو الحيرة. وفيه علم عموم الحشر لكل ما ضمنته الدار الدنيا من معدن ونبات وحيوان وإنس وجان وسماء وأرض. وفيه علم السبب الذي يدعو إلى توحيد الحق سبحانه ولا يتمكن معه إشراك وهل له حكم البقاء فيبقى حكم التوحيد أو لا بقاء له أو يبقى في حق قوم دون قوم؟ وفيه علم عموم الإيمان ولهذا يكون المآل إلى الرحمة التي لا يرحم الله إلا المؤمنين فإنه من الرحمة حكم عموم الإيمان. وفيه علم البوادة والهجوم وله باب في الأحوال من هذا الكتاب. وفيه علم من تكلف العلم وليس بعالم فصادف العلم هل يقال فيه إنه عالم أم لا؟ وفيه علم الحب لله

والبغض لله هل للذي بغض لله وجه يحب فيه لله كما له من الله وجه يرزقه به على بغضه فيه؟ وفيه علم فائدة التفصيل في المجمل. وفيه علم فطرة الإنسان على العجلة في الأشياء إذا كان متمكناً منها. وفيه علم الغيوب وما يعلم منها وما لا يعلم منها، والأسباب المجهولة مسبباتها من حيث أنها لهذه الأسباب مع العلم بها وبأسبابها لا من حيث أنها أسباب لها. وفيه علم الله شخصيات العالم. وفيه علم الوفاة والبعث في الدنيا وعلم الوفاة التي يكون البعث منها في الآخرة والانتقال إلى البرزخ في الموتتين. وفيه علم مراتب الأرواح الملكية في عباداتهم. وفيه علم عموم نجاة العالم المشرك وغير المشرك وهو علم غريب منصوص عليه في القرآن ولا يشعر به. وفيه علم السبب الموجب لترك الفعل من القادر عليه. وفيه علم لكل اسم مسمى ولا يلزم من ذلك وجود المسمى في عينه وأيّ مرتبة تعم جميع المعلومات بالوجود سواء كان المعلوم محال الوجود أو لا يكون. وفيه علم ما يكون من الجزاء برزخاً فينتج العمل به جزاء آخر. وفيه علم الردة لماذا ترجع وما هو إلا سلوك إلى أمام كما نقول: رجعت الشمس في زيادة النهار ونقصه وما عندها رجوع بل هي على طريقها فهل هو كالنسخ في الأشياء وهو انتهاء مدّة الحكم وابتداء مدة حكم آخر والطريق واحدة لم يكن في السالك عليها رجوع عنها. وفيه علم النفخ واختلاف أحكامه مع أحدية عينه. وفيه علم المشاهدة والفرق بينها وبين علم النظر. وفيه علم الاستدلال. وفيه علم لكل علم رجال ولكل مقام مقال وإن كان لا ينقال فمقالة حال. وفيه علم من تشبه بمن لا يقبل التشبيه به ما الذي دعاه إلى ذلك. وفيه علم الإعادة أنها على صورة الابتداء وإن لم تكن كذلك فليست بإعادة. وفيه علم هل يكون الشيء محلاً لضده أم لا؟ وفيه علم إيضاح المبهمات. وفيه علم حكم الليل والنهار ونسبة الولوج والغشيان والتكوير إليهما وكونهما جديدين وملوين. وفيه علم إخراج الكثير من الواحد وكيف لا يصح ذلك إلا بالتدريج على التركيب الطبيعي الذي لا يتركب إلا بالواحد. وفيه علم ما معنى الاستحالات في الأشياء. وفيه علم الأحكام هل يصح كل حكم على من توجه عليه أو منها ما يصح ومنها ما لا يصح والحاكم الله، فكيف يكون في الوجود حكم لا يصح على المحكوم عليه؟ وفي هذه المسألة غموض من كون الحكم بالشريك قد ظهر في الوجود وهو حكم باطل إذا نسب إلى الله إذ هو تعالى لا شريك له في ملكه. وفيه علم اتساع المقالة في الله وأنه الإمهال الإلهيّ لا إهمال. وفيه علم ما تؤثر التسمية وما يؤثر تركها. وفيه علم ما تضمنته هذه الأبيات وهي: [البسيط]

الجَهلُ مَوتٌ ولكنْ ليس يَعْلَمُهُ ... إلاّ الذي حَيِيَتْ بالعِلْم أنْفَاسُهْ
لا يَعْرِفُ الحَلَّ في عَقْدٍ رُبِطْتَ به ... إلا الذي قَوِيَتْ بالفَتْل أمْرَاسُهْ
وما حَلَلْتَ ولكن أنت تَزْعَمُه ... ومن تَخَيَّلَ هذا صَحَّ إبْلاسُهْ
مَنْ يُضْلِلِ اللّهُ لا هادٍ يُبَصِّرُهُ ... وهو الذي في غِنَاه صَحَّ إفْلاسُهْ

وفيه علم ما يقع في التضعيف. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والسبعون وثلاثمائة

في معرفة منزل الحل والعقد والإكرام والإهانة ونشأة الدعاء في صورة الإخبار وهو منزل محمدي

[نظم: المضارع]

صِحَافٌ من اللُّجَيْنِ ومن جَوْهَرٍ وعَيْنِ
أتتنا بها كرامٌ عليها سُتُورُ صَوْنِ
فلما بَدَتْ إلينا أكَلْنا من كلّ لَوْنِ
فمنها علومُ نَعْتٍ ومنها علومُ كَوْنِ
ومنها علومُ حالٍ ومنها عُلُومُ عَيْنِ
فمن قائل بوَصْلٍ ومن قائل ببَيْنِ
فسبحان من تعالى بتَشْبيه كُلّ عَيْنِ
فما كَوْنُهُ سواهُ وما كَوْنُه بكَوْني

اعلم أن الاثني عشر منتهى البسائط من الأعداد أصابع وعقد، فالأصابع منها تسعة والعقد ثلاث فالمجموع اثنا عشر، ولكل واحد من هؤلاء الاثني عشر حكم ليس للآخر، ومشهد إلهي لا يكون لسواه، ولكل واحد من هذا العدد رجل من عباد الله له حكم ذلك العدد، فالواحد منهم ليس من العدد، ولهذا كان وتر رسول الله ﷺ إحدى عشرة ركعة لأن الواحد ليس من العدد، ولو كان الواحد من العدد ما صحت الوترية جملة واحدة لا في العدد ولا في المعدود، فكان وتر رسول الله ﷺ إحدى عشرة ركعة كل ركعة منها نشأة رجل من أمته يكون قلب ذلك الرجل على صورة قلب النبي ﷺ في تلك الركعة. وأما الثاني عشر فهو الجامع للأحد عشر والرجل الذي له مقام الاثني عشر حق كله في الظاهر والباطن يعلم ولا يعلم وهو الواحد الأوّل فإن أوّل العدد من الاثنين، فإذا انتهيت إلى الاثني عشر فإنما هي نهايتك إلى أحد عشر من العدد فإن الواحدالأوّل ليس منه، ولا يصح وجود الاثني عشر إلا بالواحد الأوّل مع كونه ليس من العدد وله هذا الحكم فهو في الاثني عشر لا هو كما يقول: أنت لا أنت، وهؤلاء الاثني عشر هم الذين يستخرجون كنوز المعارف التي اكتنزت في صور العالم، فللعالم علم الصور من العالم ولهؤلاء علم ما تحوي عليه هذه الصور وهو الكنز الذي فيها فيستخرجونه بالواحد الأوّل، فهم أعلم الناس بالتوحيد والعبادة، ولهم المناجاة الدائمة مع الله الذاتية المستصحبة استصحاب الواحد للأعداد مثل قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] أي ليس لكم وجود معين دون الواحد، فبالواحد تظهر أعيان الأعداد فهو مظهرها ومغنيها، فالألف نعته إذ بالألف وقعت ألفة الواحد بمراتب العدد لظهوره فهو الأوّل والآخر، وإذا ضربت الواحد في نفسه لم يظهر في الخارج بعد الضرب سوى نفسه، وفي أي شيء ضربت الواحد لم يتضاعف ذلك الشيء ولا زاد، فإن الواحد الذي ضربته في تلك الكثرة إنما

ضربته في أحديتها فلهذا لم يظهر فيها زيادة فإن الواحد لا يقبل الزائد في نفسه ولا فيما يضرب فيه فلا يتضاعف فهو واحد حيث كان، فتقول واحد في مائة ألف بمائة ألف وواحد في اثنين باثنين وواحد في عشرة بعشرة لا يزيد منه في العدد المضروب شيء أصلاً، لأن مقام الواحد يتعالى أن يحل في شيء أو يحل فيه شيء، وسواء كان من العدد الصحيح أو المكسور لا فرق فهو أعني الواحد يترك الحقائق على ما هي عليه لا تتغير عن ذاتها إذ لو تغيرت لتغير الواحد في نفسه وتغير الحق في نفسه وتغير الحقائق محال، ولم يكن يثبت علم أصلاً لا حقاً ولا خلقاً، فثبت أن الحقائق لا تنقلب أصلاً ولهذا يعتمد على ما يعتمد عليه وهو المسمى علماً.

فلنذكر كل رجل من هؤلاء الأحد عشر الذين انتشوا من وتر رسول الله ﷺ، بل هذه الصور ربما جعلت رسول الله ﷺ يوتر بإحدى عشرة ركعة في الصورة الظاهرة، وهذه الصور منه ﷺ في الباطن فإنه كان نبياً وآدم بين الماء والطين فأنشأها لما كانت هذه صفته، فلما ظهر ﷺ بجسده استصحبته تلك الصور المعنوية فأقامت جسده ليلاً لمناسبة الغيب فحكمت على ظاهره بإحدى عشرة ركعة كان يوتر بها فكانت وتره فهي الحاكمة المحكومة له، فمنه ﷺ انتشؤوا، وفيه ﷺ ظهروا، وعليه حكموا بوجهين مختلفين.

فمن ذلك صورة الركعة الأولى انتشأ منها رجل من رجال الله يدعى بعبد الكبير من حيث الصفة لا أنه اسم له وهو نشأة روحانية معقولة إذا تجسدت كانت في صورة إنسان صفته ما يدعى به وهكذا هي كل صورة من صور هؤلاء الاثني عشر. واعلم أن المفاضلة في الأسماء الإلهية مثل أعلى وأجل في قول رسول الله ﷺ حين قال المشركون في رجزهم: أعل هبل أعل هبل، فقال رسول الله ﷺ: «**قولوا**» فقالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال: «**قُولوا الله أعلى وأجلّ**»، وهم يسلمون هذا القدر فإنهم القائلون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فهو عندهم أعلى وأجل، فلو صدقوا رسول الله ﷺ في أنه رسول من عند الله الذي يطلبون التقرب إليه بعبادة هؤلاء الآلهة فما سموهم آلهة إلا لكونهم جعلوهم معبودين لهم لأن الإله هو المعبود والآلهة العبادة: وقد قرىء ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف: ١٢٧] أي وعبادتك، وإذا قال: ﴿وَءَالِهَتَكَۚ﴾ يقول: والمعبودين الذين نعبدهم فلما نسبوا الألوهية لهؤلاء الذين عبدوهم ونسبتها إلى الله أتم وأعظم عندهم باعترافهم لذلك قال رسول الله ﷺ ببنية المفاضلة في ذلك يقول لهم أي هذا قولكم واعتقادكم ولهذا جاء في التكبير في الصلاة لفظة الله أكبر ببنية المفاضلة لا أن الحجارة أفضل ولا ما نحتوه ولا ما نسبوا إليه الألوهية من كوكب وغيره، وإنما وقعت المفاضلة في المناسبة لا في الأعيان لأنه لا مفاضلة في الأعيان لأنه ليس بين العبد والسيد ولا الرب والمربوب ولا الخالق والمخلوق مفاضلة، فإن تحققت ما أومأنا إليه في نشء هذه الصورة علمت مآل المشرك بعد المؤاخذة.

نشء صورة الركعة الثانية من الوتر: انتشأ منها رجل من رجال الله تعالى يقال له عبد المجيب، واعلم أن الإجابة فرع عن السؤال، فهذا عبد مؤثر بسؤاله ودعائه في سيده مؤثر فيه

الإجابة لعبده، فإن الله قد أثبت لنفسه عزّ وجلّ على لسان رسوله ﷺ أن العبد يرضي الله فيرضى، ويغضب الله فيغضب، ويسخط الله فيسخط، ويضحك الله فيضحك، وما أشبه ذلك مما ورد في الكتاب والسنة، والحق تعالى يؤثر في العبد السؤال ليجيب، والفعل المسخط للحق ليسخط، وذلك لتعلم أن الأمر دوري كروي، وأن منتهى الدائرة يرجع لنقطة ابتدائها فينعطف الآخر على الأوّل هو الأول والآخر فما أرضاه إلا هو ولا أسخطه إلا هو لأنه يتعالى أن يكون مؤثراً لغيره فافهم. وليس لله حكم في العالم إلا ما ذكرناه، ألا تراه يقول: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] ولا شغل له إلا بنا فمنا يفرغ لنا فلو زلنا لكان ولم يكن وجوداً وتقديراً ولا يعقل الأمر إلا هكذا ولبطلت الإضافات ولا تبطل لأنها لنفسها هي إضافات فلا يعقل الرب إلا مضافاً، ولذلك ما جاء في القرآن قط مطلقاً من غير إضافة، وإن اختلفت إضافاته فتارة يضاف إلى أسماء الضمائر، وتارة يضاف إلى الأعيان، وتارة يضاف إلى الأحوال، وإن لم تعقل معرفتك بربك هكذا وإلا فما عرفت ربك أصلاً، وإنما عرفت بالتقسيم العقلي أن حكم الواجب الوجود لذاته أن يكون كذا، وهل ثم واجب وجود لذاته أم لا؟ فلا تعرفه إلا بك وما لم تعرفه إلا بك، فلا بدّ أن يكون العلم به موقوفاً على علمك بك، فوجودك موقوف على وجوده، والعلم بربوبيته عليك موقوف على العلم بك، فله الأصل في الوجود ولك حكم الفرع في الوجود، وأنت الأصل في العلم به، وله حكم الفرع في العلم.

نشء صورة الركعة الثالثة من الوتر: انتشأ منها رجل من رجال الله يدعى عبد الحميد، اعلم أن الثناء على الله على نوعين: مطلق ومقيد فالمطلق لا يكون إلا مع العجز مثل قوله ﷺ: «**لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**» قال قائلهم: [الطويل]

إذا نحن أثنينا عليك بصالح ... فأنتَ الذي نُثْني وفوق الذي نُثْني

ولا يمكن أن يحيط مخلوق بما يجب لله تعالى من الثناء عليه، لأنه لا يمكن أن يدخل في الوجود جميع الممكنات، ولكل ممكن وجه خاص إلى الله منه يوجده الله، ومنه يعرفه ذلك الممكن، ومنه يثني عليه الثناء الذي لا يعرفه إلا صاحب ذلك الوجه لا يمكن أن يعلمه غيره ولا يدل عليه بلفظ ولا إشارة، فهذا مطلق الثناء على الله بكل لسان مما كان ويكون، ولهذا ثواب قول القائل: سبحان الله عدد خلقه لا يتصور وقوعه في الوجود لكن لا يزال يوجد ثوابه حالاً بعد حال على الدوام إلى ما لا يتناهى. ولهذا أيضاً جاء به الشرع مثلثاً أن يقول العبد ذلك ثلاث مرات ليحصل بذلك الثواب المحسوس، والثواب المتخيل، والثواب المعنوي، فينعم حساً وخيالاً وعقلاً، كما يذكر حساً وخيالاً وعقلاً، كما يعبد حساً وخيالاً وعقلاً. وكذلك ذكر العبد مداد الكلمات الإلهية، وكذلك زنة عرشه إذا كان العرش العالم كله بمحدّده، وكذلك رضى نفسه فيما يفعله أهل الجنة وأهل النار، فإنهم ما يفعلون ولا يتصرفون إلا في المراضي الإلهية لأن الموطن يعطيهم ذلك بخلاف موطن الدنيا والتكليف فإنهم يتصرفون في موطن الدنيا بما يرضي الله وبما يسخطه، وإنما كان ذلك لكون النار جعلها الله دار من سخط عليه، فلا بد أن يتحرك أهلها فيما يسخط الله في دار الدنيا، فإذا سكنوا دار النار

وعمروها لا يمكن أن يتحركوا إلا في مرضاة الله، ولهذا يكون المآل لأهلها إلى حكم الرحمة التي وسعت كل شيء وإن كانت دار شقاء كما يقول في الرسول الذي انتهت رسالته وفرغ منها وانقلب إلى الله أنه رسول الله، وإن كان في ذلك الحال ليس برسول كذلك نقول في دار الشقاء إنها دار شقاء وإن كان أهلها فيها قد زال عنهم الشقاء. وأما الثناء المقيد فالحكماء يقيدونه بصفة التنزيه لا غير، وإن أثنوا عليه بصفة الفعل فبحكم الكل أو الأصالة لا بحكم الشخص، وما عدا الحكماء فيقيدون الثناء على الله بصفة الفعل وصفة التنزيه معاً، وهؤلاء هم الكمل لأنهم شاركوا الحكماء فيما علموا وزادوا عليهم بما جهله الحكماء ولم يعلموه لقصور هممهم للشبهة التي قامت لهم وحكمت عليهم بأنه تعالى ما صدر عنه إلا الواحد المشار إليه فقط، وبأنه تعالى لا يجوز عليه ما نعت به نفسه في كتابه إذ لم يثبت عندهم في نظرهم كتاب منزل ولا شخص مرسل على الوجه الذي هو الأمر في نفسه، وعند أهل الكشف والإيمان انصرف، وبعض عقول النظار مثل المتكلمين غيرهم ممن يقول بذلك من جهة النظر العقلي، وقد سرى في العالم كله حكم صور هذه الركعات الوترية النبوية من وقت كونه نبياً ﷺ وآدم بين الماء والطين إلى يوم القيامة.

نشء صورة الركعة الرابعة من الوتر: انتشأ منها رجل من رجال الله يدعى عبد الرحمن. اعلم أن الرحمة الإلهية التي أوجد الله في عباده ليتراحموا بها مخلوقة من الرحمة الذاتية التي أوجد الله بها العالم حين أحب أن يعرف وبها كتب على نفسه الرحمة، وهذه الرحمة المكتوبة منفعلة عن الرحمة الذاتية، والرحمة الامتنانية هي التي وسعت كل شيء، فرحمة الشيء لنفسه تمدها الرحمة الذاتية وتنظر إليها وفيه يقع الشهود من كل رحيم بنفسه، فإن الله قد وصف نفسه بالحب وشدة الشوق إلى لقاء أحبابه، فما لقيهم إلا بحكم هذه الرحمة التي يشهدها صاحب هذه الرحمة وهي الرحمة التي كتبها على نفسه لا مشهد لها في الرحمة الذاتية ولا الامتنانية. وأما رحمة الراحم بمن أساء إليه وما يقتضيه شمول الإنعام الإلهي والاتساع الجودي فلا مشهد لها إلا رحمة الامتنان وهي الرحمة التي يترجاها إبليس فمن دونه لا مشهد لهؤلاء في الرحمة المكتوبة ولا في الرحمة الذاتية، وبهذا كان الله والرحمن دون غير الرحمن من الأسماء له الأسماء الحسنى، فجميع الأسماء دلائل على الاسم الرحمن وعلى الاسم الله ولكن أكثر الناس لا يشعرون. وما رأيت أحداً من أهل الله نبه على تثليث الرحمة بهذا التقسيم فإنه تقسيم غريب كما هو في نفس الأمر، فما علمناه إلا من الكشف، وما أدري لماذا ترك التعبير عنه أصحابنا مع ظني بأن الله قد كشف لهم عن هذا. وأما النبوّات فقد علمت أنهم وقفوا على ذلك وقوف عين، ومن نور مشكاتهم عرفناه لأن الله رزقنا الاتباع الإلهي والاتباع النبوي، فأما الاتباع الإلهي فهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] فالله في هذه المعية يتبع العبد حيث كان، فنحن أيضاً نتبعه تعالى حيث ظهر بالحكم، فنحن وقوف حتى يظهر بأمر يعطي ذلك الأمر حكماً خاصاً في الوجود فنتبعه فيه ولا نظهر في العامة بخلافه كسكوتنا عن التعريف به أنه هو إذا تجلى في صورة ينكر فيها مع معرفتنا به فهو المقدم

بالتجلي وحكم الإنكار، فنحن نتبعه بالسكوت وإن لم ننكر ولا نقر فهذا هو الاتباع الإلهي. وأما الاتباع النبوي الذي رزقنا الله فهو قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] ثم إنه أتبعنا وتأسى بنا في صلاته إذا صلى بالجماعة فيكون فيها الضعيف والمريض وذو الحاجة فيصلي بصلاتهم فهو ﷺ المتبع والمتبع اسم مفعول واسم فاعل، ثم أمرنا أن نصلي إذا كنا أئمة بصلاة الأضعف فاتبعنا الرحمن بما ذكرناه فنحن التابعون، واتبعنا الرحمن بما تعطيه حقائقنا من الاحتياج والفاقة فيمشي بما نحن عليه فنحن المتبوعون، فانظر ماذا تعطي حقائق السيادة في العبيد وحقائق العبادة والعبودية في السيادة فهذا الرجل هذه صفته في العالم، وبهذه الركعة الرابعة ظهرت أحكام الأسماء الأربعة الإلهية، وأحكام الطبيعة في النشأة الطبيعية، وأحكام العناصر في المولدات الثلاثة التي لها هذه الرحمات الثلاثة، وأحكام الأخلاط في النشأة الحيوانية فلهذا الرجل المهيمنية على هذه كلها.

نشء صورة الركعة الخامسة من الوتر: انتشأ منها رجل من رجال الله يقال له عبد المعطي، فتارة يكون عطاؤه وهباً فيكون المعطى عبد الوهاب وتارة يكون عطاؤه إنعاماً فيكون عبد المنعم، وتارة يكون عطاؤه كرماً فيكون المعطى عبد الكريم، وتارة يكون عطاؤه جوداً فيكون المعطى عبد الجواد، وتارة يكون عطاؤه سخاء فيكون المعطى عبد المقيت وعبد السخي، وتارة يكون عطاؤه إيثاراً فيكون المعطى عبد الغني وهذا العطاء أغمض الإعطاءات وأصعبها تصوراً بل يمنعها الجميع إلا نحن، وما رأينا أحداً أثبت هذا العطاء في الإلهيات وما يثبته إلا من علم معنى اسمه الغني اسمه الغني تعالى، وذلك أنه قد ثبت في الصحيح أن العبد يصل إلى مقام يكون الحق من حيث هويته جميع قواه في قوله: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ**» وغير ذلك من أعضائه وقواه الحديث، وهو سبحانه الغني لذاته الغنى الذي لا يمكن إزالته عنه، فإذا قام العبد في هذا المقام فقد أعطاه صفة الغنى عنه وعن كل شيء لأن هويته هي أعيان قوى هذا العبد، وليس ذلك في تقاسيم العطاء إلا للإيثار، فقد آثر عبده بما هو لهويته قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] بل بهم خصاصة. ولما كان عطاء الإيثار فضلاً يرجع على المعطي كان الحق أولى بصفة الفضل، فعطاء الإيثار أحق في حق الحق وأتم في حق العبد، وهذا من علوم الأسرار التي لا يمكن بسط التعريف فيها إلا بالإيماء لأهلها أشجعهم للعمل عليها فإنهم في غاية من الخوف لقبولها فكيف للاتصاف بها وباقي الأسماء هينة الخطب؟.

نشء صورة الركعة السادسة من الوتر: انتشأ منها رجل من رجال الله يقال له عبد المؤمن. اعلم أن الإيمان إذا كان نعتاً إلهياً فهو ما يظهر من الدلالات كلها على وجه صحة ما يدعيه المدعي أي مدع كان على ما كان من غير تعيين بشرط أن يكون دليلاً في نفس الأمر كما يشهد له الحس إن كان الدليل محسوساً حتى لو أعطى العلم الضروري بصدق هذه الدعوى في نفس الحاكم لكان ذلك العلم الضروري عين الدليل على صدق دعوى هذا المدعي فناصب هذه الدلالات هو المصدق لصاحب هذه الدعوى، فإذا صدقه من صدقه وحصل

العلم بذلك في نفس من حصل عنده كان ذلك الشخص الحاصل عنده هذا الدليل مصدقاً لصاحب هذه الدعوى وعاد التصديق كونياً أي في الخلق كما هو في الحق، فكان صاحب الدعوى بين مصدقين محصوراً من أي جهة التفت لم يجد إلا مصدقاً بما جاء به في دعواه، فأعطاه هذا الحال الأمان في نفسه من تكذيبه من هذه الطرفين، ولو جحد الكون فإنه متيقن في نفسه صدق هذا المدعي وليس المراد إلا ذلك أعني حصول العلم بصدقه، فبصورة هذه الركعة سرى التصديق في عالم الإنس والجان في بواطنهم، وذلك حين وقعت منه هذه الركعة في باطن الأمر إذ كان نبياً وآدم بين الماء والطين فلم يزل تسري روحاً مجرداً في كل مصدق حتى ركعها ﷺ بصورة جسمه فتجسدت، وليس ذلك الروح من فعله صورة جسدية لأنها من حركات محسوسة فكان فعلها أقوى عندنا للجمع بين الصورتين، كما كان تأثيره ﷺ بظهور جسمه أقوى في بعثه منه إذ كان نبياً وآدم بين الماء والطين فإنه نسخ بصورة بعثته جميع الشرائع كلها ولم يبق لشريعة حكم سوى ما أبقى هو منها من حيث هي شرع له لا من حيث ما هي شرع فقط.

نشء صورة الركعة السابعة من الوتر: انتشأ منها رجل من رجال الله يقال له عبد الرحيم. اعلم أن الرحمة في عين القادر على إظهار حكمها تعود عذاباً أليماً على من قامت به لأنها من ذاتها تطلب التعدي إلى المرحوم وإظهار أثرها بالفعل فيه، فإذا قامت بالقادر على تنفيذها في المرحوم كان لها أثران: أثر في الراحم وهو ما زال عنه من الألم بحصول أثرها في المرحوم فالراحم مرحوم بها من حيث قدرته على تنفيذها والذي نفذت فيه مرحوم أيضاً بها وبقدرة الراحم على تنفيذها فأثرها فيه من وجهين، والأثر إزالة ما أدى الراحم لتعلق الرحمة بذلك المرحوم، فما كل رحمة تكون نعيماً إلا إذا كان الراحم قادراً على تنفيذها، فللرحمة تجل في صورة العذاب في حق الراحم الذي نفيت عنه الاقتدار ولها تجل في صورة النعيم في حق الراحم والمرحوم إذا كانت في قادر على تنفيذها فقد قبلت الصورتين المتقابلتين، وهذا من أعجب الأمور أن الرحمة تنتج ألماً وعذاباً، فلو لم تقم الرحمة به لم يتصف بالألم هذا الذي لا اقتدار له، ثم الذي في المسألة من العجب العجاب أن الرحمة القائمة بالموصوف بنفوذ الاقتدار قد يكون له مانع من تنفيذها من ذاته فيقوم به ألم الكراهة، وذلك حكم ذلك المانع من كونه متصفاً بالاقتدار على تنفيذها، وهذه المسألة من أصعب المسائل في العلم الإلهي، وظهر حكم ذلك في الصحيح من الأخبار الإلهية عن نفسه تعالى عزّ وجلّ حيث قال: «**مَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَسَمَةِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْ لِقَائِي**»، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَهُ يَكْرَهُ الْمَوْتَ. ودل على أن لقاءه تعالى لا يكون إلا بالموت وهو الخروج عن الحس المطلق إلى الحس المشترك كما نراه في النوم لكون النوم ضرباً من ضروب الموت، فإنه وفاة وانتقال من عالم الحس إلى عالم الخيال والحس المشترك فيرى النائم ربه في نومه كما يراه الميت بعد موته، غير أن رؤية الميت ولقاءه ربه لا رجعة بعد رؤيته عنه، والنائم يستيقظ مرسلاً إلى الأجل المسمى، فإن كان اللقاء عن فناء لا عن نوم ثم

رد إلى حال البقاء فحكمه حكم الميت إذا بعث يوم القيامة لا يقع له حجاب عنه فهذا الفارق بين النائم والفاني، ولذلك قال عمرو بن عثمان المكي في صفة العارفين: إنهم كما هم اليوم كذلك يكونون غداً إن شاء الله تعالى، فلم ير أعجب من حكم الرحمة، ألا ترى الطبيب تقوم به الرحمة بصاحب الأكلة ولا يقدر على تنفيذها فيه إلا بإيلامه، فعلى قدر رحمة ذلك الطبيب بصاحب هذه العلة يكون ألمه في نفسه لعدم إنفاذها فيه من غير إيلامه، فلولا رحمته به ما تألم ألا ترى المستشفي كيف لا يجد ألماً بل يجد لذة، فتدبر ما ذكرته لك في العلم الإلهي، ولقد رأيته في الكشف الصحيح والمشهد الصريح ورسول الله ﷺ معي وقد أمر تعالى بقتل الدجال لدعواه الألوهية وهو يبكي ويعتذر عنه فيما يعاقب به من أجله وأنه ما بيده في ذلك من شيء، فبكاؤه مثل الألم في نفس الراحم الذي ما له اقتدار على تنفيذ رحمته للمانع، فما في العلم الإلهي حيرة أعظم من هذه الحيرة، ولولا عظمها ما وصف الحق نفسه بالتردد والتردد حيرة فافهم.

نشء صورة الركعة الثامنة من الوتر: انتشأ منها رجل من رجال الله تعالى يقال له عبد الملك. اعلم أن الملك الذي أحدث هذه الحقيقة التي تسمى ملكاً فإذا تسمى بها العبد واتصف الحق بالملك لم يتصف به اتصاف المخلوق، فإن المخلوق ملك على الإطلاق والحق ملك الملك لا ملك على الإطلاق، فإنه لا يكون ملكاً للعبد حتى تظهر عند العبد عبوديته له تعالى ويظهر عنده كونه ملكاً لمليكه وهو الله تعالى، وإنما قلنا هذا لأجل طائفة أعطاها نظرها إلى الله أن الله لا يعلم الجزء على التعيين، وإنما يعلم الكل الذي يتضمن الجزء، بخلاف أهل الحق أهل الكشف والوجود، ولهذا كان له اسم الملك والملك أي هذا الوصف ظهر عن شدة لكون أصحاب هذا النظر العقلي لا يثبتونه، فلما لم تجتمع عليه العقول وقعت فيه المنازعة فاستخلصه الحق ملكاً أي عن شدة، واستخلص العبد العارف الحق ملكاً له أي عن شدة لأجل المنازع فسماه ملك الملك ليفرق بينه وبين كون المخلوق ملكاً لله فيتصف المخلوق بالعبودية لله في كونه ملكاً له ويتصف الحق بملك الملك ولا يتصف بالعبودية له وإن كان في الحق تأثير من الخلق كما تقدم، ومع هذا فلا يتصف بالعبودية لأن ذلك ليس عن ذلة لأنه تعالى الأصل في ذلك التأثير فما عاد عليه إلا ما كان منه بخلاف الخلق، فإن المخلوق يعود عليه ما كان منه ويقوم به ما لم يكن منه ابتداء من الحق فاعلم ذلك.

نشء صورة الركعة التاسعة من الوتر: انتشأ منها صورة رجل من رجال الله يقال له عبد الهادي. اعلم أن الهداية أثر إلهي في قوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وأثر كوني في قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] ويعود معناه إلى الأول فإن الهادي الكوني لا يكون إلا رسولاً من عند الله فهو مبلغ لا هاد، معناه لا موفق لكنه هاد بمعنى مبين، قال تعالى في البيان الذي لهم والتبيان الذي أوجبه عليهم الله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وقال في الهداية التي هي التوفيق: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢] أي ليس عليك أن توفقهم لقبول ما أرسلتك به وأمرتك بتبيانه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾ [البقرة: ٢٧٢] أي يوفق ﴿مَن

يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧] أي بالقابلين التوفيق فإنه على مزاج خاص أوجدهم عليه، فهؤلاء الهداة هم هداة البيان لا هداة التوفيق وللهادي الذي هو الله الإبانة والتوفيق، وليس للهادي الذي هو المخلوق إلا الإبانة خاصة، وإنما قلنا ذلك واستشهدنا بما استشهدنا به لما تقرر عند من لا علم له بالحقائق أن العبد إذا صدق فيما يبلغه عن الله في بيانه أثر ذلك في نفوس السامعين وليس كما زعموا فإنه لا أقرب إلى الله ومن الله ولا أصدق في التبليغ عن الله ولا أحب في القبول فيما جاء به من عند الله من الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، ومع هذا فما عمّ القبول من السامعين بل قال الرسول الصادق في التبليغ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦] فلما لم يعم مع تحققنا هذه الهمة علمنا أن الهمة ما لها أثر جملة واحدة في المدعو، والذي قبل من السامعين ما قبل من أثر همة الداعي الذي هو المبلغ، وإنما قبل من حيث ما وهبه الله في خلقه من مزاج يقتضي له قبول هذا وأمثاله، وهذا المزاج الخاص لا يعلمه إلا الله الذي خلقهم عليه وهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧] فلا تقل بعد هذا إذا حضرت مجلس مذكر داع إلى الله فلم تجد أثراً لكلامه فيك إن هذا من عدم صدق المذكر لا بل هو العيب منك من ذاتك حيث ما فطرك الله في ذلك الوقت على القبول، فإن المنصف ينظر فيما جاء به هذا الداعي المذكر، فإن كان حقاً ولم يقبله فيعلم على القطع أن العيب من السامع لا من المذكر، فإذا حضر في مجلس مذكر آخر وجاء بذلك الذكر عينه وأثر فيه فيقول السامع بجهله صدق هذا المذكر فإن كلامه أثر في قلبي والعيب منك وأنت لا تدري فلتعلم أن ذلك التأثير لم يكن لقبولك الحق فإنه حق في المذكرين في نفس الأمر، وإنما وقع التأثير فيك في هذا المجلس دون ذلك لنسبة بينك وبين هذا المذكر أو بينك وبين الزمان فأثر فيك هذا الذكر والأثر لم يكن للمذكر إذ قد كان الذكر ولا أثر له فيك، وإنما أثرت المناسبة التي بينتها لك الزمانية أو النسبة التي بينك وبين هذا المذكر وربما أثر لاعتقادك فيه ولم يكن لك اعتقاد في ذلك الآخر فما أثر فيك سواك أو ما أشبه ذلك، ولهذا قلنا في تفسير الهداية الإلهية بالتوفيق والبيان، فقولنا بالتوفيق أي بموافقة النسبة بين السامع والمذكر لا بالبيان فإن البيان فرضناه واقعاً في الحالتين من المذكرين ولم يقع القبول إلا في إحدى الحالين فاعلم ذلك وتحققه ترشد إن شاء الله. وأقل فائدة في هذه المسألة سلامة المذكر من تهمتك إياه بعدم الصدق في تذكيره ورده وردك الحق، فإن السليم العقل يؤثر فيه الحق جاء على يدي من جاء ولو جاء على لسان مشرك بالله عدو لله كاذب على الله ممقوت عند الله لكن الذي جاء هو به حق فيقبله العاقل من حيث ما هو حق لا من حيث المحل الذي ظهر به، وبهذا يتميز طالب الحق من غيره.

نشء صورة الركعة العاشرة من الوتر: انتشأ منها رجل من رجال الله يقال له عبد ربه.

اعلم أن الربوبية نعت إضافي لا ينفرد به أحد المتضايفين عن الآخر فهي موقوفة على اثنين ولا يلزم أن لا يكونا متباينين، فقد يكونان متباينين وقد يكونان غير متباينين، فمالك بلا ملك لا يكون وجوداً وتقديراً ومليك بلا ملك لا يكون كذلك، والرب بلا مربوب لا يصح وجوداً

وتقديراً وهكذا كل متضايفين، فنسبة العالم إلى ما تعطيه حقائق بعض الأسماء الإلهية نسبة المتضايفين من الطرفين، فالعالم يطلب تلك الأسماء الإلهية وتلك الأسماء الإلهية تطلب العالم كالاسم الرب والقادر والخالق والنافع والضار والمحيي والمميت والقاهر والمعز والمذل إلى أمثال هذه الأسماء، وثم أسماء إلهية لا تطلب العالم ولكن يستروح منها نفس من أنفاس العالم من غير تفصيل كما يفصل بين هذه الأسماء التي ذكرناها آنفاً، فأسماء الاستروح كالغني والعزيز والقدوس وأمثال هذه الأسماء وما وجدنا لله أسماء تدل على ذاته خاصة من غير تعقل معنى زائد على الذات فإنه ما ثم اسم إلا على أحد أمرين: إما ما يدل على فعل وهو الذي يستدعي العالم ولا بد، وإما ما يدل على تنزيه وهو الذي يستروح منه صفات نقص كوني تنزه الحق عنها غير ذلك ما أعطانا الله، فما ثم اسم علم ما فيه سوى العلمية لله أصلاً إلا إن كان ذلك في علمه أو ما استأثر الله به في غيبه مما لم يبده لنا، وسبب ذلك لأنه تعالى ما أظهر أسماءه لنا إلا للثناء بها عليه، فمن المحال أن يكون فيها اسم علمي أصلاً لأن الأسماء الأعلام لا يقع بها ثناء على المسمى لكنها أسماء أعلام للمعاني التي تدل عليها، وتلك المعاني هي التي يثنى بها على من ظهر عندنا حكمه بها فينا وهو المسمى بمعانيها، والمعاني هي المسماة بهذه الأسماء اللفظية كالعالم والقادر وباقي الأسماء فلله الأسماء الحسنى وليست إلا المعاني لا هذه الألفاظ، فإن الألفاظ لا تتصف بالحسن والقبح إلا بحكم التبعية لمعانيها الدالة عليها فلا اعتبار لها من حيث ذاتها فإنها ليست بزائدة على حروف مركبة ونظم خاص يسمى اصطلاحاً فافهم ذلك.

نشء صورة الركعة الإحدى عشرة من الوتر: انتشأ منها صورة رجل من رجال الله يقال له عبد الفرد. اعلم أن الفردية لا يعقلها المنصف إلا بتعقل أمر آخر عنه انفرد هذا المسمى فرداً بنعت لا يكون فيمن انفرد عنه، إذ لو كان فيه ما صح له أن ينفرد به فلم يكن ينطلق عليه اسم الفرد، فلا بد من ذلك الذي انفرد عنه أن يكون معقولاً وليس إلا الشفع، والأمر الذي انفرد به الفرد إنما هو التشبه بالأحدية وأول الأفراد الثلاثة فالواحد ليس بفرد فإن الله وصف بالكفر من قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] فلو قال ثالث اثنين لما كان كافراً فإنه تعالى ثالث اثنين ورابع ثلاثة وخامس أربعة بالغاً ما بلغ وهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] فمن كان في أحديته فهو تعالى ثاني واحده، ومن كان في تثنيته فهو ثالث اثنينيته، ومن كان في تثليثه فهو تعالى رابع ثلاثة بالغاً ما بلغ، فهو مع المخلوقين حيث كانوا فالخالق لا يفارقهم لأن مستند الخلق إنما هو للاسم الخالق استناداً صحيحاً لا شك فيه، وإن كان هذا الاسم يستدعي عدة معان فهو يطلبها أعني الاسم الخالق بذاته لكل معنى منها أثر في المخلوق لا في الخالق، فالخالق لهذه المعاني كالجامع خاصة وأثرها في المخلوق لا فيه، فالحق لا ينفرد في الأربعة بالرابع وإنما ينفرد في الأربعة بالخامس لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ولو كان عين الرابع من الأربعة لكان مثلها، وكل واحد من الأربعة عين الرابع للأربعة من غير تخصيص، ولو كان هذا لكان

الواحد من الأربعة يربع الحق بوجوده وليس الأمر كذلك وهكذا في كل عدد، فمتى فرضت عدداً فاجعل الحق الواحد الذي يكون بعد ذلك العدد اللاصق به ولا بد فإنه يتضمنه، فالخامس للأربعة يتضمن الأربعة ولا تتضمنه فهو يخمسها وهي لا تخمسه فإنها أربعة لنفسها وهكذا في كل عدد، وإنما كان هذا لحفظ العدد على المعدودات والحفظ لا يكون إلا لله وليس الله سوى الواحد فلا بد أن يكون الواحد أبداً له حفظ ما دونه من شفع ووتر، فهو يوتر الشفع ويشفع الوتر فيقال رابع ثلاثة وخامس أربعة، ولا يقال فيه خامس خمسة ولا رابع أربعة ولا عاشر عشرة، فالحكماء يقولون في الفردية أنها الوتر من كل عدد من الثلاثة فصاعداً في كل وتر منها كالخامس والسابع والتاسع، فبين كل فردين مقام شفعية وبين كل شفعين مقام فردية هذا عند الحكماء وعندنا ليس كذلك فإن الفردية تكون للواحد الذي يشفع الوتر وللواحد الذي يوتر الشفع الذي هو عند الحكماء فرد، ولولا ذلك ما صح أن تقول في فردية الحق أنه رابع ثلاثة وسادس خمسة وأدنى من ذلك وأكثر وهو فرد في كل نسبة، فتارة ينفرد بتشفيع الوتر وتارة بإيتار الشفع وهو قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] فما بين في فرديته بالذكر المعين إلا فردية تشفيع الوتر الذي لا يقول به الحكماء في اصطلاح الفردية، ثم قال في العام: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] سواء كان عددهم وتراً أو شفعاً، فإن الله لا يكون واحداً من شفعيتهم ولا واحداً من وتريتهم، بل هو الرقيب عليهم الحفيظ الذي هو من ورائهم محيط، فمتى انتقل الخلق إلى المرتبة التي كانت للحق انتقل الحق إلى المرتبة التي تليها لا يمكن له الوقوف في تلك المرتبة التي كان فيها عند انتقال الخلق إليها، فانظر في هذا السر الإلهيّ ما أدقه وما أعظمه في التنزيه الذي لا يصح للخلق مع الحق فيه مشاركة، فالخلق أبداً يطلب أن يلحق بالحق ولا يقدر على ذلك لانتقال الحق عن تلك المرتبة، ولهذا كان العدد لا يتناهى، فإنه لو تناهى للحق الخلق الحق، ولا يكون ذلك أبداً فالخلق خلق لنفسه والحق حق لنفسه، ومثال ذلك أن يكون جماعة من ثلاثة في نجوى بينهم قد جمعهم مجلس فالله بلا شك رابع تلك الجماعة فإن رابعهم إنسان آخر فجاء وجلس إليهم انتقل الحق من المرتبة الرابعة بمجرد مجيء ذلك الرجل أو الشخص الذي ربعهم إلى المرتبة الخامسة، فإن أطالوا الجلوس بحيث أن جاء من خمس القوم انتقل الحق إلى المرتبة السادسة فيكون سادس خمسة وهو سادس الجماعة أعني هذه الجماعة بعد ما كان خامس الجماعة التي خمسها ذلك الواحد فاعلم فقد نبهتك على علم عظيم تشكرني عليه عند الله، فإني أرجو من الله أن ينفعني بمن علم مني ما ذكرته في كلامي هذا من العلم بالله الذي لا تجده فيما تقدم من كتب المؤلفين في هذا الفن، وهذا كله نقطة من كلمة من القرآن العزيز، فما عندنا من الله إلا الفهم فيه من الله وهو الوحي الإلهيّ الذي أبقاه الحق علينا، فهذا الذي ذكرناه كان وتر رسول الله ﷺ من صلاة الليل.

وأما تمام الاثنتي عشرة فذلك المسمى المهيمن الخارج عن نشء صورة الوتر القوي وهو الواحد الأوّل وليس إلا الله فهو المنشىء سبحانه وتعالى في كبريائه الواحد الأحد الذي ﴿لَمْ

يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٣، ٤].

وصل: والرجل الذي كمل به الاثني عشر كما كمل الشهور برمضان ما كملها إلا باسم من أسمائه وهو رمضان عزّ وجلّ فبه كمل كل شيء، فكمال الأربعة بالخامس إذا كان الله خامس أربعة فإنه الذي يحفظ عليها أربعتها فإذا جاء من جنسها من يخمسها ذهبت الأربعة وكان الله سادس الخمسة يحفظ عليها خمستها لأنه الحفيظ، فانظر ما أعجب هذا الأمر، ومن هنا صح الفرار الموجود والانتقال من حال إلى حال فإن الله ينتقل في مراتب الأعداد لما ذكرناه، واسم هذا الرجل الذي كمل الله به الإثني عشر عبد الله وإنما سمي عبد الله لأن الله يتجلى له بحقيقة كل اسم من أسمائه وهو قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فإذا دعوته باسم منها تجلى مجيباً لك في عين ذلك الاسم كصوم شهر رمضان فإن صومه واجب في الاثني عشر شهراً، فكل صوم في شهر من الشهور الأحد عشر إنما هو تشبيه بصوم يوم من أيام شهر رمضان لأنه نافلة والواجب ليس إلا رمضان بالوجوب الإلهيّ الابتدائي، وإنما قلنا الابتدائي من أجل النذر بالصوم الذي أوجبه الله عليك بإيجابك إياه على نفسك عقوبة لك وليثيبك به إذا أديته ثواب الواجب، لكن الفرق بينه وبين الواجب المبتدأ أن الواجب المبتدأ تقضيه إذا مضى زمان إيجابه، والواجب الكوني لو نسيته أو مرضت فلم تقدر على أدائه ومضى زمانه لم تقضه، فهذا هو الفرق بين الواجب الإلهيّ والواجب الكونيّ، فمن عرف ما ذكرناه من أمر هذه الاثني عشر فقد حصل على كنوز إلهية كما قيل في الفاتحة إن الله أعطاها نبيه محمداً ﷺ خاصة دون غيره من الرسل من كنز من كنوز العرش لم توجد في كتاب منزل من عند الله ولا صحيفة إلا في القرآن خاصة وبهذا سمي قرآناً لأنه جمع بين ما نزل في الكتب والصحف وما لم ينزل، ففيه كل ما في الكتب كلها المنزلة، وفيه ما لم ينزل في كتاب ولا صحيفة.

وفي هذا المنزل من العلوم علم الحل والعقد وفيه علم الحلال والحرام. وفيه علم ما يجمع الكافر والمؤمن ويؤلف بينهما. وفيه علم إلحاق البهائم بالإنسان في حكم ما من أحكام الشرائع. وفيه علم متعلق الكمال ببعض الأشخاص وما فيه علم التقديس وأسبابه وأنواعه. وفيه علم الآلاء والمنن الإلهية. وفيه علم المواثيق والعهود. وفيه علم نشء صور العبادات البدنية. وفيه علم التعظيم الكونيّ. وفيه علم المداينات الإلهية. وفيه علم الإيمان. وفيه علم الأبدال. وفيه علم الداء الإلهيّ. وفيه علم التعريف. وفيه علم إقامة البراهين على الدعاوى. وفيه علم أصحاب الفترات ما حكمهم عند الله. وفيه علم ما يخص الملك والسوقة. وفيه علم النيابة في النداء. وفيه علم الردّ والقبول. وفيه علم التفويض والتسليم في النفوس. وفيه علم الستر وردّ الأشياء إلى أصولها. وفيه علم إقامة الواحد مقام الجميع في أي موطن يكون. وفيه علم الموافقة والخلاف. وفيه علم مؤاخذة المجبور. وفيه علم السماع. وفيه علم النور المعنوي والهدى. وفيه علم الأمثال. وفيه علم الاتباع والأتباع. وفيه علم الشهادات. وفيه علم المعاد وحكمه. وفيه علم الخوف والحذر. وفيه علم التجانس بين الأشياء. وفيه علم

الحب وشرفه وأصناف المحبين. وفيه علم خلع العذار فيه. وفيه علم الاختصاص. وفيه علم نسخ البواطن في العموم والخصوص. وفيه علم تشبيه الحق بالخلق وما يجوز من ذلك وما لا يجوز ومتعلقه السمع ليس للعقل فيه دخول بما هو ناظر فيه. وفيه علم الوهب والكسب. وفيه علم ما يجب على الرسول. وفيه علم من سمى الله بغير اسمه ما حكمه في التوحيد. وفيه علم مراتب الضلال والإضلال والتفاوت في ذلك. وفيه علم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفيه علم تأثير الخلق في الحق. وفيه علم ما شقي به أهل الكتب. وفيه علم رفع الحرج ومراتب المتقين. وفيه علم الاختيار. وفيه علم شرف الأماكن بعضها على بعض لماذا يرجع. وفيه علم تحكم الأدنى على الأعلى. فيه علم إضافة الأشياء إلى أصولها. وفيه علم التعريض بالخير. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثمانون وثلاثمائة

في معرفة منزل العلماء ورثة الأنبياء من المقام المحمدي

[نظم: البسيط]

مـا قُـرَّةُ الـعَـيْـنِ إلا قُـرَّةُ الـنَّـفْـسِ ... فانْظُرْ إلى كلّ مَعْنًى دُسَّ في الحِسِّ
تَـجِـدْهُ يـا سيّـدي إن كـنـت ذا نَـظَـرٍ ... في الفصل والنوع بالأحكام والجنْسِ
فـلـيس تَـشْـهَـدُ عـيْـني غَـيْـرَهَـا أبـداً ... والـنـاسُ من ذاك في شَكّ وفي لَبْسِ
الـطِّـيبُ والـمرأةُ الـحَـسْـنَـا قـد اشْـتَـرَكـا ... مع المُناجاة في المعنى وفي النفس
فـفـي الـصـلاة وُجُـودي والـنـسـاءُ لـنـا ... عَرْشٌ وفي الطِّيب أنفاسٌ من الأنْسِ

قال رسول الله ﷺ: «**حُبِّبَ إلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلاثٌ: النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ**» وقال ﷺ: «**إنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ فَلا فَضْلَ لعَرَبِيٍّ عَلَى أعْجَمِيٍّ وَلا لأعْجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ إلاَّ بِالتَّقْوَى**» ثُمَّ تَلا: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] يريد بالأب آدم ﷺ وهو قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩] يعني نفس آدم يخاطب ما تفرع منه. فاعلم أن الورث على نوعين: معنوي ومحسوس، فالمحسوس منه ما يتعلق بالألفاظ والأفعال وما يظهر من الأحوال، فأما الأفعال فأن ينظر الوارث إلى ما كان رسول الله ﷺ يفعله مما أبيح للوارث أن يفعله اقتداء به لا مما هو مختص به عليه السلام مخلص له في نفسه ومع ربه وفي عشرته لأهله وولده وقرابته وأصحابه وجميع العالم، ويتبع الوارث ذلك كله في الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ الموضحة لما كان عليه في أفعاله من صحيحها وسقيمها فيأتيها كلها على حدّ ما وردت لا يزيد عليها ولا ينقص منها، وإن اختلفت فيها الروايات فليعمل بكل رواية وقتاً بهذه ووقتاً بهذه ولو مرّة واحدة ويدوم على الرواية التي ثبتت ولا يخل بما روي من ذلك وإن لم يثبت من جهة الطريق فلا يبالي إلا إن تعلق بتحليل أو تحريم فيغلب الحرمة في حق نفسه فهو أولى به فإنه من أولي العزم، وما عدا التحليل أو التحريم فليفعل بكل رواية، وإذا أفتى إن كان من أهل الفتيا وتتعارض الأدلة السمعية بالحكم

من كل وجه ويجهل التاريخ ولا يقدر على الجمع فيفتي بما هو أقرب لرفع الحرج ويعمل هو في حق نفسه بالأشد فإنه في حقه الأشد وهذا من الورث اللفظي فإنه المفتى به فيصلي صلاة رسول الله ﷺ في ليله ونهاره وعلى كيفيتها في أحوالها وكمياتها في أعدادها ويصوم كذلك، ويعامل أهله من مزاح وجد كذلك، ويكون على أخلاقه في مأكله ومشربه وما يأكل وما يشرب كأحمد بن حنبل فإنه كان بهذه المثابة، روينا عنه أنه ما أكل البطيخ حتى مات، وكان يقال له في ذلك فيقول: ما بلغني كيف كان يأكله رسول الله ﷺ، وكل ما كان من فعل لم يجد فيه حديثاً يبين فيه أن رسول الله ﷺ فعله بكيفية خاصة وإن كان من الكميات بكمية خاصة، ولكن ورد في حديث فاعمل به كصومه ﷺ «كان يصوم حتى نقول إنه لا يفطر ويفطر حتى نقول إنه لا يصوم»، ولم يوقت الراوي فيه توقيتاً فصم أنت كذلك وأفطر كذلك، وأكثر من صوم شعبان ولا تتم صوم شهر قط بوجه من الوجوه إلا شهر رمضان، وكل صوم أو فعل مأمور به وإن لم يرو فيه فعله فاعمل به لأمره، وهذا معنى قول الله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وما رأينا أحداً ممن رأيناه أو سمعنا عنه عمل على هذه القدم إلا رجل كبير باليمن يقال له الحداد رآه الشيخ ربيع بن محمود المارديني الحطاب وأخبر أنه كان على هذا الحال من الاقتداء، أخبرني بذلك صاحبي الخادم عبد الله بدر الحبشي عن الشيخ ربيع فلتتبعه في كل شيء لأن الله يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] ما لم يخصص شيئاً من ذلك بنهي عن فعله. وقال ﷺ: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**» وقال في الحج: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**» وإذا حججت فإن قدرت على الهدي فادخل به محرماً بالحج أو العمرة، وإن حججت مرة أخرى فادخل أيضاً إن قدرت على الهدي محرماً بالحج وإن لم تجد هدياً فاحذر أن تدخل محرماً بالحج لكن ادخل متمتعاً بعمرة مفردة، فإذا طفت وسعيت فحل من إحرامك الحل كله ثم بعد ذلك أحرم بالحج وأنسك نسيكة كما أمرت، واعزم على أن لا تخل بشي ء من أفعاله، وما ظهر من أحواله مما أبيح لك من ذلك، والتزم آدابه كلها جهد الاستطاعة لا تترك شيئاً من ذلك إذا ورد مما أنت مستطيع عليه فإن الله ما كلفك إلا وسعك فابذله ولا تترك منه شيئاً، فإن النتيجة لذلك عظيمة لا يقدر قدرها وهي محبة الله إياك، وقد علمت حكم الحب في المحب. وأما الورث المعنوي فما يتعلق بباطن الأحوال من تطهير النفس من مذام الأخلاق وتحليتها بمكارم الأخلاق وما كان عليه ﷺ من ذكر ربه على كل أحيانه وليس إلا الحضور والمراقبة لآثاره سبحانه في قلبك وفي العالم، فلا يقع في عينك ولا يحصل في سمعك ولا يتعلق بشيء قوّة من قواك إلا ولك في ذلك نظر واعتبار إلهي تعلم موقع الحكمة الإلهية في ذلك، فهكذا كان حال رسول الله ﷺ فيما روت عنه عائشة، وكذلك إن كنت من أهل الاجتهاد في الاستنباط للأحكام الشرعية فأنت وراث نبوّة شرعية فإنه تعالى قد شرع لك في تقرير ما أدّى إليه اجتهادك ودليلك من الحكم أن تشرعه لنفسك وتفتي به غيرك إذا سئلت وإن لم تسأل فلا، فإن ذلك أيضاً من الشرع الذي أذن الله لك فيه ما هو من الشرع الذي لم يأذن به الله.

واعلم أن الاجتهاد ما هو في أن تحدث حكماً هذا غلط، وإنما الاجتهاد المشروع في طلب الدليل من كتاب أو سنة أو إجماع وفهم عربي على إثبات حكم في تلك المسألة بذلك الدليل الذي اجتهدت في تحصيله، والعلم به في زعمك هذا هو الاجتهاد فإن الله تعالى ورسوله ما ترك شيئاً إلا وقد نص عليه ولم يتركه مهملاً فإن الله تعالى يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وبعد ثبوت الكمال فلا يقبل الزيادة فإن الزيادة في الدين نقص من الدين وذلك هو الشرع الذي لم يأذن به الله، ومن الورث المعنوي ما يفتح عليك به من الفهم في الكتاب وفي حركات العالم كله. وأما الورث الإلهي فهو ما يحصل لك في ذاتك من صور التجلي الإلهي عندما يتجلى لك فيها فإنك لا تراه إلا به، فإن الحق بصرك في ذلك الموطن ولا يتكرر عليك صورة تجل فقد انتقل عنها وحصل لك نظيرها في ذاتك وفي ملكك، ولذلك تقول في الآخرة عموماً للشيء إذا أردته كن فيكون وفي الدنيا خصوصاً، فالحق لك في الدنيا محل تكوينك فإنه يتنوع لتنوعك وفي الآخرة تتنوع لتنوعه، فهو في الدنيا يلبس صورتك وأنت في الآخرة تلبس صورته فانظر ما أعجب هذا الأمر، وكذلك لك في الميراث الإلهي في مراتب العدد فقد يكون الحق رابع ثلاثة، فإذا جئت أنت وانضممت إلى الثلاثة فربعتهم لا يكون ذلك لك حتى ينتقل الحق إلى مرتبة الخمسة فيكون خامس أربعة بعد ما قد كان رابع ثلاثة فأخلى لك المرتبة فورثتها، وكذلك في كل جماعة تنضم إليها هذا حكم الميراث في الدنيا. وأما في ميراث الخصوص وفي الآخرة فإنه رابع أربعة في حال كونك أنت رابع تلك الأربعة فإنك في الدنيا في الخصوص جئت بصورة حق وفي الآخرة كذلك أنت صورة حق ولهذا كفر أي ستر من قال: إن الله ثالث ثلاثة فستر نفسه بربه لأنه هو عين ثالث ثلاثة، ورأى نفسه حقاً لا خلقاً إلا من حيث الصورة الجسدية لا من حيث ما هي به موصوفة فهو حق في خلق، فستر خلقه بما شهده من الحق القائم به المنصوص عليه في العموم بأنه جميع قوى عبده وصفاته إذا كان من أهل الخصوص فقال عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] ثم بين الحق تعالى عقيب هذا القول فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣] وهو الذي ثلث الثلاثة فالاثنان من العامة والذي ثلثهم بخلقه هو الثالث خلقاً بخلقه.

ثم إنه قد علم أن الحق جميع قواه وأشهده الحق أنه مع الاثنين مثل ما هو معه إلا أنه حجب عنهم علم ذلك فقالوا بالخلق دون حق فقال هذا الخاص إن الله ثالث ثلاثة لأنه شاهده فيهما كما شاهده في نفسه وهم لا يشعرون، فرأى أن الحق جمعهم في صور ثلاثة فصح قول القائل أنه ثالث ثلاثة في الوجهين في الخلق والحق وصح ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣] لأنه عين كل واحد من الثلاثة ليس غيره فهو واحد وهو ثلاثة، فهذا من الورث الإلهي النبوي، فإنه ما حصل لنا هذا الشهود إلا بالاقتداء والاتباع النبوي، فلما علمنا ورثناه ﷺ ولا يصح ميراث لأحد إلا بعد انتقال الموروث إلى البرزخ، وما حصل لك من غير انتقال فليس بورث وإنما ذلك وهب وأعطية ومنحة أنت فيها نائب وخليفة لا وارث، فأنت من حيث العلم وارث وأنت من حيث الشهود عينه لا وارث، ألا ترى في قوله ﷺ:

«إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ» وليس أبوك إلا من أنت عنه فإن عرفت عمن أنت عرفت أباك، وما ذكر النبي ﷺ أن أبوينا اثنان كما وقع في الظاهر فإنا عن آدم وحواء مثل قوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠] ولكن لما كانت حواء عين آدم لأنها عين ضلعه فما كان إلا أب واحد في صورتين مختلفتين كما هو التجلي، فعين حواء عين آدم انفصال اليمين عن الشمال وهو عين زيد، كذلك انفصال حواء عن آدم فهي عين آدم، فما ثم إلا أب واحد فما صدرنا إلا عن واحد، كما أن العالم كله ما صدر إلا عن إله واحد، فالعين واحدة كثيرة نسب إن لم يكن الأمر كذلك، وإلا فما كان يظهر لنا وجود ولا لنا وجود عين ولا لنا إيجاد حكم، فكما أوجدنا عيناً أوجدنا الحكم له ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] إن تفطنت فهو لنا موجد عين ونحن له موجد رب: [الوافر]

فلولا الحَقُّ ما كان الوُجُودُ ... ولولا الكَوْنُ ما كان الإلٰهُ
جَزاءً قد أراد الحَقُّ منه ... سؤالَ السائلين بمن وما هُو
فما هو في العموم بغير شَكّ ... وأما في الخُصُوص فهو وما هُو

ثم ما زال التوالد والتناسل في كل نوع نوع من المولدات كلها في الدنيا ما دامت في الدنيا وفي الآخرة إلى ما لا يتناهى، وإن تنوعت أحوال التوالد كما ظهر ذلك في الدنيا في حواء وعيسى وبني آدم، وأما في آدم فباليدين وبالأركان، وفي النبات متنوع أيضاً في غراسه وبزوره، وكذلك في المعادن، فانظر ما أحكم حكمة الله في خلقه. ولما اطلعنا على الوجه الخاص الذي لكل موجود لم يتمكن لنا أن نضيف التوالد لنا جملة واحدة بل أضفنا كل ما ظهر في الكون إليه وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ﴾ ونحن أمره ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ [القمر: ٥٠] فما ثم موجد إلا الله تعالى على كل وجه علم ذلك من علمه وجهله من جهله، كما يقول الطبيعيون في الموجودات الطبيعية بأحدية الطبيعة، فكل ما ظهر من الموجودات الطبيعية قالوا هذا عن الطبيعة فوحدوا الأمر كما وحدنا الإله في خلقه فلم يكن إلا الله وهو الذي سموه أولئك طبيعة ولا علم لهم كما سمته الدهرية بالدهر ولا علم لهم إلا أن الله تسمى لنا بالدهر وما تسمى بالطبيعة لأن الطبيعة ليست بغير لمن وجد عنها عيناً، فهي عين كل موجود طبيعي. ولما كان الحق له هذا الحكم وظهر به عند الخواص من عباده وعلمنا أن الاسم دلالة على المسمى فرأينا الاسم وإن دل فهو أجنبي فعلمنا أن حكم الطبيعة يخالف حكم الدهر فإن الدهر ما هو عين الكوائن، ورأينا الطبيعة عن الكوائن الطبيعية، ورأينا أن الحق له تنزيه ينفصل به عنا انفصال الدهر عما يكون فيه، فتسمى تعالى بالدهر تنزيهاً وما تسمى بالطبيعة لكون الأمر ما هو غيره بل هو عينه، والمسمى لا يسمي نفسه لنفسه فلا يسمى بالطبيعة وإنما يسمي نفسه لغيره حتى إذا ذكره عرف أنه يذكره وإذا ذكر عرفه فهذا أصل وضع الأسماء: [الطويل]

فما ثَمَّ إلا الله لا شيء غَيْرُهُ ... وما ثَمَّ إلا اثْنانِ والله ثالثُ
قَدَ أنْتَجَهُ العلمُ الذي قاله لنا ... فإنّي لعلمي بالحقيقة حارثُ

أعني قوله ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» فقدم معرفة الإنسان نفسه لأنه عين الدليل،

ولا بد أن يكون العلم بالدليل مقدماً على العلم بالمدلول والدليل نحن ونحن في مقام الشفعية، فلذلك عبرنا بالاثنين لوجود الشفع، فنتج لنا النظر فينا وجود الحق وأحديته، فهو ثالث اثنين كما هو رابع ثلاثة فلذلك قلنا: والله ثالث لهذين الاثنين، وأنا حارث أي كاسب لهذا العلم بالنظر ثم إن للحق ورثاً منا كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] عيناً وحكماً فأما في العين فقوله: ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠] فإن الأمور ترجع إلى أصولها كما ينعطف آخر الدائرة على أولها، فمن أوّل ما تبتدىء بالدائرة إنما يطلب بذلك الرجوع إلى أصلها وهو بدؤها فإليه تنتهي، فنحن لا نعلم شيئاً إلا به، فورث منا هذه الصفة فقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] كما نظرنا نحن حتى علمنا فما خلص لنا هذا الوصف من غير مشاركة، فعلمنا أن علمنا عن النظر والاستدلال بما علمناه أنه هو العالم به من حيث إن نظرنا لم يكن بنا لأنه قال: إنه عين صفتنا التي بها ننظر ونبصر ونسمع ونبطش، وهذا كله هو علم الأنبياء الذين ورثناهم لأنهم ما ورثونا إلا العلم على الحقيقة وهو أشرف ما يورث. ثم انظر في قوله ﷺ: «**العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**» فعم بالألف واللام فيهما كل عالم وكل مخبر، ولا شك أن كل مخبر فإنه متصوّر لما يخبر به وكل سامع ذلك الخبر فقد علمه أي علم ما تصوّره ذلك المخبر سواء كان كذباً ذلك الخبر أو صدقاً فهو ورث بلا شك ألا تراه ﷺ قد قال: «**مَنْ حَدَّثَ بِحَدِيثٍ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الكَاذِبِين**» لأنه قد ورث منه الكذب وصار حكمه حكم الكاذب، كما صار حكم الوارث في المال حكم من مات عنه وخلفه، ولما عمم بالألف واللام العلماء دخل فيه قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] ولما عمم بالألف واللام الأنبياء دخل فيه كل مخبر بنطق أو بحال لأنه من ظهر لعينك بعد أن لم يكن ظاهراً فقد أخبرك بظهوره أنه ظهر لك حتى لو قال لك قد ظهرت لك لم يفدك علماً بظهوره وإنما أفادك علماً بقوله لك أي من أجلك ظهر لعينك، فالمفهوم الأوّل القرب الظاهر النازل منزلة النص عند أهل الظاهر أن العلماء ورثة الأنبياء الذين هم المخبرون عن الله، وبالمفهوم الثاني الذي لا يقدح فيه المفهوم الأوّل أن العلماء ورثة المخبرين بما أخبروا به كانوا من كانوا، لكن العلم الموروث من الأنبياء عليهم السلام ليس هو العلم الذي يستقل بإدراكه العقول والحواس دون الأخبار فإن ذلك لا يكون وراثة، وإنما الذي يرثه العلماء من الأنبياء ما لا تستقل العقول من حيث نظرها بإدراكه، وأما ما ورثته من الأنبياء من العلم الإلهيّ فهو ما تحيله العقول بأدلتها وأما ما تجوزه العقول فتعين لها الأنبياء أحد الجائزين مثل قول إبراهيم: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وأما العلم الذي ترثه من الأنبياء عليهم السلام من علم الأكوان فعلم الآخرة ومآل العالم لأن ذلك كله من قبيل الإمكان فالأنبياء تعين عن الله أن بعض الممكنات على التعيين هو الواقع فيعلمه العالم فذلك ورث نبويّ لم يكن يعلمه قبل إخبار هذا النبيّ به، وما عدا هذا فما هو علم موروث إلا في حق العامي الذي ما وفى عقله حقه، فتلقى من النبيّ علماً بما لو نظر فيه بعقله أدركه كتوحيد الله ووجوده، وبعض ما يتعلق به من حكم الأوصاف والأسماء فيكون ذلك في حق من لم يعلمه إلا من طريق النبي علم موروث. وإنما قلنا فيه إنه علم لأن الأنبياء لا تخبر

إلا بما هو الأمر عليه في نفسه، فإنهم معصومون في أخبارهم عن الله أن يقولوا ما ليس هو الأمر عليه في نفسه بخلاف غير الأنبياء من المخبرين من عالم وغير عالم، فإن العالم قد يتخير فيما ليس بدليل أنه دليل فيخبر بما أعطاه ذلك الدليل ثم يرجع عنه بعد ذلك، فلهذا لا ينزل في درجة العلم منزلة النبيُّ ﷺ، وقد يخبر بالعلم على ما هو عليه في نفس الأمر، ولكن لا يتعين على الحقيقة لما ذكرناه من دخول الاحتمال فيه، وكذلك غير العالم من العوام فقد يصادفون العلم وقد لا يصادفونه في أخبارهم والنبي ﷺ ليس كذلك، فإذا أخبر عن أمر من جهة الله فهو كما أخبر فالمحصل له عالم بلا شك، كما أن ذلك الخبر علم بلا شك، فلذلك قيد ﷺ أن العلماء هم ورثة الأنبياء لأنهم إذا قبلوا ما قاله الرسول فقد علموا الأمر على ما هو عليه، ومن وراثته ﷺ حب النساء والطيب وجعلت قرة عينه في الصلاة، ولكن إذا كان ذلك في الإنسان محبباً إليه حينئذ يكون وارثاً، وأما إن أحب ذلك من غير تحبب فليس بوارث، فإن العبد لما كان مخلوقاً لله لا لغيره كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فما خلقهم إلا لعبادته، وقال لموسى في الاثنتي عشرة كلمة: «**يا ابْنَ آدمَ خَلَقْتُكَ مِنْ أَجْلِي**» الحديث. ثم إن الله في ثاني حال من العبد حبب إليه أمراً مّا أكثر من غيره وبقي الكلام فيمن حببه إليه هل حببه إليه طبع أو طمع أو حذر أو حببه إليه الله؟ فإن النبي ﷺ قال: «**حُبِّبَ إليَّ**» ولم يقل من حببه، كما قال الله في حق المؤمنين: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧] والنبي ﷺ ما عدل إلى قوله حبب ولم يذكر من حببه إلا لمعنى لا يمكن إظهاره لضعف النفوس القابلة، فالعارفون بالمواطن يعلمون من حيث ما ذكره الله والنساء والطيب وجعل قرة العين في الصلاة لأنه مصل على شهود من وقف يناجيه بين يديه من حضرة التمثيل وموطنه لأن فيه خطاباً ورداً وقبولاً ولا يكون ذلك إلا في شهود التمثيل فإنه في موطن يجمع بين الشهود والكلام.

ولما كانت المناسبات تقتضي ميل المناسب إلى المناسب كان الذي حبب عين المناسب والمناسبة قد تكون ذاتية وعرضية، ولما كان النساء محل التكوين وكان الإنسان بالصورة يقتضي أن يكون فعالاً ولا بد له من محل يفعل فيه ويريد لكماله أن لا يصدر عنه إلا الكمال كما كان في الأصل الذي أعطى كل شيء خلقه وهو كمال ذلك الشيء ولا أكمل من وجود الإنسان، ولا يكون ذلك إلا في النساء اللاتي جعلهن الله محلاً والمرأة جزء من الرجل بالانفعال الذي انفعلت عنه فحبب إلى الكامل النساء، ولما كانت المرأة كما ذكرت عين ضلع الرجل فما كان محل تكوين ما كون فيها إلا نفسه فما ظهر عنه مثله إلا في عينه ونفسه فانظر ما أعجب هذا الأمر، فمن حصل له مثل هذا العلم فقد ورث النبي عليه الصلاة والسلام في هذا التحبب بهذا الوجه، وأما الطيب فإنه من الأنفاس والأنفاس رحمانية فإن رسول الله ﷺ يقول: «**إنّي لأَجِدُ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ**» فأضافه إلى الرحمن والله يقول: ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: ٢٦] ومن أسمائه تعالى الطيب، فعلمنا أن النفس الطيب لا يكون إلا من الاسم الطيب، وما ثم اسم أطيب للكون من الرحمن فإنه

مبالغة في الرحمة العامة التي تعم الكون أجمعه، فمن حصل له الطيب في كل شيء وإن أدركه من أدركه خبيثاً بالطبع فإنه بالنعت الإلهيّ طيب وقد ذقنا ذلك بمكة فهو وراث على الحقيقة، وما حبب إليه الصلاة إلا لما فيها من الجمع بين الشهود والكلام بقوله: «**جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ**» وما تعرض لسمعه ولا للكلام لأن ذلك معروف في العموم أن الصلاة مناجاة بقوله: يقول العبد كذا فيقول الله كذا، وأنها منقسمة بين الله وبين عبده المصلي نصفين كما ورد في الحديث، وما كانت الصلاة كبيرة إلا على غير المشاهد وعلى من لم يسمع قول الحق مجيباً لما يقوله العبد في صلاته، ثم نيابته في قوله: سمع الله لمن حمده من أتم المقامات، فإن الله ما عظم الإنسان الكامل على من عظمه إلا بالخلافة، ولما كان مقامه عظيماً لذلك وقع الطعن فيه ممن وقع لعظيم المرتبة، وما علم الطاعن ما أودع الله في النشأة الإنسانية من الكمال الإلهيّ، فلو تقدّم لذلك الطاعن العلم ما طعن، فلما كانت الخلافة وهي النيابة عن الحق بهذه المنزلة وكان المصلي نائباً في سمع الله لمن حمده الذي لا يكون إلا في الصلاة كانت مرتبة الصلاة عظيمة فحببت إليه ﷺ، فمن رأيته يحب الصلاة على هذا الحد فهو وارث، ومن رأيته يحبها لغير هذا الشهود فليس بوارث.

وفي هذا المنزل من العلوم: علم صدور الكثير من الواحد أعني أحدية الكثرة لا أحدية الواحد. وعلم النكاح الإلهيّ والكوني. وعلم النتائج والمقدمات. وعلم مفاضلة النكاح لأنه قد يراد لمجرّد الالتذاذ، وقد يراد للتناسل، وقد يراد لهما. وعلم الوصايا. وعلم التقاسيم. وعلم المبادرة خوف الفوت. وعلم الخلطاء. وعلم الهبات. وعلم ما يعتبر من طيب النفوس. وعلم التصرّف بالمعروف وما هو المعروف. وعلم الأمانات. وعلم الحظوظ. وعلم الحقوق. وعلم ما ينبغي أن يقدم وما ينبغي أو يؤخر. وعلم الحدود. وعلم الطاعة والمعصية. وعلم الشهادات والأقضية. وعلم العشائر وهي الجماعة التي ترجع إلى عقد واحد كعقد العشرة ولهذا سمي الزوج بالعشير لأن اجتماع الزوجين كان عن عقد والمعاشرة الصحبة، فالعشائر الأصحاب والمرء على دين خليله فقد عقد معه على ما هو عليه وحينئذ يكون قد عاشره قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ [النساء: ١٩] أي صاحبوهنّ بما يعرف أنه يدوم بينكما الصحبة به والمعاشرة. وعلم العزة والمنع. وعلم صنوف التجارات. وعلم فضل الرجل على المرأة بماذا كان وما الكمال الذي تشارك فيه المرأة الرجل. وعلم أصحاب الحقوق. وعلم التقديس. وعلم العناية الإلهية. وعلم مراتب الخلفاء. وعلم ما حقيقة الإيمان. وعلم المغيبات. وعلم ما يرغب فيه ويتمنى تحصيله. وعلم الموت. وعلم ما هو لله وللخلق. وعلم الفرق بين نصيب الحسنة ونصيب السيئة. وعلم التوقيت وما يوقت مما لا يدخله التوقيت. وعلم حرمة المؤمن ومكانته. وعلم الهجرة. وعلم إيمان الإيمان. وعلم الرفق. وعلم السر والجهر. وعلم ما يجتمع فيه الملك مع الكامل من البشر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وهو على ما نقول وكيل.

الباب الأحد والثمانون وثلاثمائة

في معرفة منزل التوحيد والجمع، وهو يحتوي على خمسة آلاف مقام رفرفي وهو من الحضرة المحمدية، وأكمل مشاهده من شاهده في نصف الشهر أو في آخره

[نظم : البسيط]

يا مَرْيَمُ ابْنَةَ عِمْرانَ التي خُلِقَتْ فَرْشاً كريماً لِرُوحٍ جَلَّ مِنْ رُوحِ
تَحَصَّنَتْ فأتاها الرُّوحُ يمنحُها من فوق سبع سَمٰواتٍ من اللَّوْحِ
أهْدَى لها هِبَةً عُلْيَا مُشَرَّفَةً أسْنَى وأشْرَقَ فينا من سَنَا يُوحِ
تَحْيَا وليس لها سَيْفٌ تُمِيتُ به تُدْعَى إذا دُعِيَتْ بِاللُّطْفِ بالرُّوحِ

نعني بالهبة عيسى روح الله من قول جبريل لمريم: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] ورد في الخبر أنه قيل لرسول الله ﷺ: أين كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟ فقال رسول الله ﷺ: **«كَانَ في عَمَاءٍ ما فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَمَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ»** وقد ذكرنا فيما تقدم حديث العماء وأن فيه انفتحت صور العالم، والذي يقوم عليه الدليل أن كل شيء سوى الله حادث ولم يكن ثم كان فينفي الدليل كون ما سوى الله في كينونة الحق الواجب الوجود لذاته، فدوام الإيجاد لله تعالى ودوام الانفعال للممكنات والممكنات هي العالم فلا يزال التكوين على الدوام والأعيان تظهر على الدوام، فلا يزال امتداد الخلا إلى غير نهاية لأن أعيان الممكنات توجد إلى غير نهاية ولا تعمر بأعيانها إلا الخلا، وقولنا فيما تقدم أن العالم ما عمر سوى الخلا نريد أنه ما يمكن أن يعمر ملا لأن الملا هو العامر فلا يعمر في ملا، وما ثم إلا ملا، أو خلا فالعالم في تجديد أبداً، فالآخرة لا نهاية لها، ولولا نحن لما قيل دنيا ولا آخرة، وإنما كان يقال ممكنات وجدت وتوجد كما هو الأمر، فلما عمرنا نحن من الممكنات المخلوقة أماكن معينة إلى أجل مسمى من حين ظهرت أعياننا ونحن صور من صور العالم سمينا ذلك الموطن الدار الدنيا أي الدار القريبة التي عمرناها في أوّل وجودنا لأعياننا، وقد كان العالم ولم نكن نحن، مع أن الله تعالى جعل لنا في عمارة الدار الدنيا آجالاً ننتهي إليها، ثم ننتقل إلى موطن آخر يسمى آخرة فيها ما في هذه الدار الدنيا ولكن متميز بالدار كما هو هنا متميز بالحال، ولم يجعل لإقامتنا في تلك الدار الآخرة أجلاً تنتهي إليه مدة إقامتنا، وجعل تلك الدار محلاً للتكوين دائماً أبداً إلى غير نهاية، وبدل الصفة على الدار الدنيا فصارت بهذا التبديل آخرة والعين باقية، وبقي من لا علم له من الله بالأمور في حيرة، فعلى الحقيقة ما ثم حيرة في حق العلماء بالله وبنسبة العالم إلى الله فالعلماء في فرحة أبداً ومن عداهم في ظلم الحيرة تائهون دنيا وآخرة، ولولا تجديد الخلق مع الأنفاس لوقع الملل في الأعيان لأن الطبيعة تقتضي الملل، وهذا الاقتضاء هو الذي حكم بتجديد الأعيان ولذلك قال رسول الله ﷺ عن الله تعالى: **«إِنَّ اللهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»** فعين ملل العالم هو ملل الحق، ولا يمل من العالم إلا من لا كشف له ولا يشهد تجديد العالم مع الأنفاس على الدوام ولا

يشهد الله خلاقاً على الدوام، والملل لا يقع إلا بالاستصحاب. فإن قلت: فالدوام على تجديد الخلق استصحاب والملل ما وقع مع وجود الاستصحاب قلنا: الأحكام الذاتية لا يمكن فيها تبدل والخلاق لذاته يخلق والعالم لذاته ينفعل فلا يصح وجود الملل، فالتقليب في النعيم الجديد لا يقتضي الملل في المتقلب فيه لأنه شهود ما لم يشهد بفرح وابتهاج وسرور ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وجد ويوجد إلى غير نهاية، فإن الرحمة حكم لا عين، فلو كانت عيناً وجودياً لانتهت وضاقت عن حصول ما لا يتناهى فيها، وإنما هي حكم يحدث في الموجودات بحدوث أعيان الموجودات من الرحمن الرحيم ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ يعني في العلم بالله ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ الرحمة والمرحوم ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧] وهم الغواصون الذي يستخرجون لب الأمور إلى الشهادة العينية، بعدما كان يستر ذلك اللب القشر الظاهر الذي كان به صونه، وهذا يحوي على تسعة آلاف مقام، هكذا وقع الإخبار من أهل الكشف والوجود، منها ألف مقام لطائفة خاصة ولطائفة أخرى ثلاثة آلاف مقام ولطائفة ثالثة خمسة آلاف مقام، فأرفع الطوائف الطائفة التي لها ألف مقام، وتليها في الرفعة الطائفة التي لها ثلاثة آلاف مقام، وتليها الطائفة التي لها خمسة آلاف مقام في الرفعة، وأعلى الطوائف من لا مقام له، وذلك لأن المقامات حاكمة على من كان فيها، ولا شك أن أعلى الطوائف من له الحكم لا من يحكم عليه وهم الإلهيون لكون الحق عينهم وهو أحكم الحاكمين، وليس ذلك لأحد من الناس إلا للمحمديين خاصة عناية إلهية سبقت لهم كما قال تعالى في أمثالهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] يعني النار فإن النار من جملة هذه المقامات فهم على الحقيقة عن المقامات مبعدون، فأصحاب المقامات هم الذين قد انحصرت هممهم إلى غايات ونهايات، فإذا وصلوا إلى تلك الغايات تجددت لهم في قلوبهم غايات أخر تكون تلك الغايات التي وصلوا إليها لهم بدايات إلى هذه الغايات الأخر فتحكم عليهم الغايات بالطلب لها ولا يزال لهم هذا الأمر دائماً. وأما المحمدي فما له هذا الحكم ولا هذا الحصر، فاتساعه اتساع الحق وليس للحق غاية في نفسه ينتهي إليه وجوده والحق مشهود المحمدي فلا غاية له في شهوده، وما سوى المحمدي فإنه مشاهداً مكانه، فما من حالة يقام فيها ولا مقام إلا ويجوز عنده انقضاؤه وتبدل الحال عليه أو إعدامه، ويرى أن ذلك من غاية المعرفة بالله حيث وفي الحكم حقه بالنظر إلى نفسه وإلى ربه، وعيسى عليه الصلاة والسلام محمدي ولهذا ينزل في آخر الزمان وبه يختم الله الولاية الكبرى وهو روح الله وكلمته وكلمات الحق لا تنفد، فليس للمحمدي غاية في خاطره ينتهي إليها. فاعلم أن هذه المقامات المذكورة لا تدرك إلا بعين الخيال إذا شوهدت، فإن صورها إذا مثلها الله فيما شاء أن يمثلها متخيلة فتراها أشخاصاً رأي العين كما ترى المحسوسات بالعين وكما ترى المعاني بعين البصيرة، فإن الله إذا قلل الكثير وهو كثير في نفس الأمر أو كثر القليل وهو قليل في نفس الأمر فما تراه إلا بعين الخيال لا بعين الحس وهو البصر نفسه في الحالين كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ

قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤] وقال: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣] وما كانوا مثليهم في الحس، فلو لم ترهم بعين الخيال لكان ما رأيت من العدد كذباً ولكان الذي يريه غير صادق فيما أراه إياك، وإذا كان الذي أراك ذلك أراكه بعين الخيال كانت الكثرة في القليل حقاً والقلة في الكثرة حقاً لأنه حق في الخيال وليس بحق في الحس، كما أراك اللبن في الخيال فشربته ولم يكن ذلك اللبن سوى عين العلم فما رأيته لبناً وهو علم إلا بعين الخيال، ورأيت تلقينك ذلك العلم ممن تلقنته في صورة شربك اللبن كذلك في عين الخيال والعلم ليس بلبن والتلقين ليس بشرب وقد رأيته كذلك، فلو رأيته بعين الحس لكان كذباً لأنك رأيت الأمر على خلاف ما هو عليه في نفسه فما رأيته إلا بعين الخيال في حال يقظتك، وإن كنت لا تشعر أنت بذلك فكذلك هو في نفس الأمر لأن الله صادق فيما يعلمه وهو في الخيال صدق كما رأيته، وكذلك تلقيك العلوم من الله بالضربة باليد فعلم الضروب بتلك الضربة علم الأولين والآخرين، والعلم لا يحصل إلا بالتعليم بالخطاب من المعلم أو بخلق في النفس ضرورة وقد حصل في حضرة الخيال بالضرب فلا بد أن يكون الضرب مخيلاً والمضروب في عينه مخيلاً إن كان في نوم أو يقظة لصدق الذي يرى ذلك وهو الله كما قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] ولم تسع في نفس الأمر، وهكذا كل ما تراه على خلاف ما هو عليه في نفسه ما تراه إلا بعين الخيال حتى يكون صدقاً، ولهذا يعبر كل ما وقع من ذلك أي يجوز به العابر إلى المعنى الذي أراد الله بتلك الصورة فلا تغفل عن مثل هذا العلم وفرّق بين الأعين.

واعلم أنك لا تقدر على ذلك إلا بقوّة إلهية يعطيها الله من شاء من عباده فتعرّض لتحصيلها من الله فإنك مخبر بما رأيت أنك رأيته بحسك ولم يكن الأمر كذلك فتحرّز في العبارة فيما تراه كما يفعله المصنف، ألا ترى الصحابة لو وفوا النظر الصحيح حقه وأعطوا المراتب حقها لم يقولوا في جبريل عليه السلام أنه دحية الكلبي ولقالوا إن لم يكن روحانياً تجسد وإلا فهو دحية الكلبي أدركناه بالعين الحسي فلم يحرروا ولا أعطوا الأمر الإلهيّ حقه فهم الصادقون الذين ما صدقوا، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«هو جِبْريل»** فحينئذ عرفوا ما رأوا وبماذا رأوا كما قالوا فيه لما تمثل لهم في صورة أعرابي مجهول عندهم حين جاء يعلم الناس دينهم فقال رسول الله ﷺ: **«أتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلُ؟»** فَقَالُوا الله ورسوله أعلم لكونه ظهر في صورة مجهولة عندهم فقال لهم: **«هٰذا جِبْريلُ»** فإن كان هذا الحديث بعد حديث دحية فقولهم الله ورسوله أعلم يحتمل أنهم أرادوا احتمال المعنى أو الصورة الروحية أو يكون إنساناً في نفس الأمر، وإن كان هذا الحديث أولاً فما جهلوا أنه إنسان ولكن جهلوا اسمه ولمن ينتسب من قبائل العرب، فلا يعرف الرائي أنه أدرك ما أدركه بعين الخيال ما لم يعلم المدرك ما هو وما في الكون أعظم شبهة من التباس الخيال بالحس، فإن الإنسان إن تمكن في هذا النظر شك في العلوم الضرورية، وإن لم يتمكن فيه أنزل بعض الأمور غير منزلتها، فإذا أعطاه الله قوّة التفصيل أبان له عن الأمور إذا رآها بأي عين رآها فيعلم ما هي إذا علم العين التي رآها به

من نفسه، فآكد ما على أهل علم الله هذا العلم، وكثير من أهل الله من لا يجعل باله لما ذكرناه، ولولا علمه بنومه فيما يراه أنه رآه في حال نومه ما قال إنه خيال، فكم يرى في حال اليقظة مثل هذا ويقول إنه رأى محسوساً بحسه، ألا تراه ﷺ في صدق رؤياه أنه ما يجري على نفسه حال في جسده إلا ويظهر ذلك له في صورة مجسدة إذا هو نام فيحكم على محسوسه بما علمه من صورة متخيلة فقيل له في الوضوء عندما نام ونفخ فلم يتوضأ وصلى بالوضوء الذي نام عليه: «**إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلاَ يَنَامُ قَلْبِي**» يقول إنه لما انقلب إلى عالم الخيال ورأى صورته هناك وهو قد نام على طهارة ما رأى أن تلك الصورة أحدثت ما يوجب الوضوء، فعلم أن جسده المحسوس ما طرأ عليه ما ينقض وضوءه الذي نام عليه، ولهذا نقول في النوم إنه سبب للحدث وما هو حدث، فمن حصل له هذا المقام وكان بهذه الصفة ونام على طهارة ورأى نفسه في النوم فلينظر في تلك الصورة المرئية التي هي عينه فإن أحس بحدث فما يقوم بها حدث حتى يحدث بجسده النائم أي يكون منه ما ينقض الوضوء إما بعين ذلك الحدوث وإما أن يكون صورة تعريف بأنه أحدث فيتوضأ إذا قام من نومه، فإن من الإحداث في النوم ما يكون له أثر في الجسد النائم، كالاحتلام في بعض الأوقات وكالذي يرى أنه يبول فيبول في فراشه فيستيقظ فيجد في الحس قد وقع ما رآه في النوم وقد لا يجد لذلك أثراً فيكون تنبيهاً له أنه أحدث، هذا يطرأ للعلماء بهذه الصفة. وقد كان مثل هذا للشيخ الضرير أبي الربيع المالقيّ شيخ أبي عبد الله القرشيّ بمصر فكان يوم الاثنين خاصة إذا نام فيه تنام عيناه ولا ينام قلبه، وهذا باب واسع المجال وهو عند علماء الرسوم غير معتبر ولا عند الحكماء الذين يزعمون أنهم قد علموا الحكمة وقد نقصهم علم شموخ هذه المرتبة على سائر المراتب ولا قدر لها عندهم فلا يعرف قدرها ولا قوّة سلطانها إلا الله ثم أهله من نبيّ أو وليّ مختص غير هذين، فلا يعرف قدر هذه المرتبة والعلم بها أوّل مقامات النبوة، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا أصبح وجلس بين أصحابه يقول لهم: «**هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَى رُؤْيَا؟**» وذلك ليرى ما أحدث الله البارحة في العالم أو ما يحدثه في المستقبل، وقد أوحى به إلى هذا الرائي في منامه إما صريح وحي وإما وحي في صورة يعلمها الرائي ولا يعلم ما أريد بها فيعبرها رسول الله ﷺ لما أراد الله بها، فهذا كان من اعتنائه ﷺ بهذه المرتبة المجهولة عند العلماء، وما أحسن تنبيه الله أولي الألباب من عباده وأهل الاعتبار إذ قال: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ**﴾ [آل عمران: ٦] فمن الأرحام ما يكون خيالاً فيصور فيه المتخيلات كيف يشاء عن نكاح معنوي وحمل معنوي يفتح الله في ذلك الرحم المعاني في أي صورة مّا شاء ركبها، فيريك الإسلام فيه والقرآن سمناً وعسلاً والقيد ثبات في الدين والدين قميصاً سابغاً وقصيراً درعاً ومجولاً ونقياً ودنساً على حسب ما يكون الرائي أو من يرى له عليه من الدين. ولقد رأيت لقاضي دمشق عندما ولي القضاء بدمشق وهو شمس الدين أحمد بن مهذب الدين خليل الجوني وفقه الله وسدده بملائكته وعصمه في أحكامه وقائل يقول له في النوم: إن الله قد خلع عليك ثوباً نقياً سابغاً فلا تدنسه ولا تقلصه واستيقظت وذكرتها له، فالله يجعله

ممن حفظ الوصية الإلهية، فالخيال من جملة الأرحام التي تظهر فيها الصور، وهذه الحضرة الخيالية لما قبلت المعاني صوراً قال الله فيها: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [آل عمران: ١٤] أي في النساء فصور الحب صورة زينها لمن شاء من عباده فأحبها بنفسها ما أحبها بغيرها لأنه تعالى ما زين له إلا حب الشهوة فيما ذكره فالحب المطلق زين له ثم علقه بالشهوة فيما ذكره وعلقه لمن شاء في الشهوة أيضاً في أمر آخر، وإنما ذكر الشهوة لأنها صورة طبيعية فإن الخيال حصرته الطبيعة ثم يحكم الخيال عليها فيجسدها إذا شاء، فهذا فرع يحكم على أصله لأنه فرع كريم ما أوجد الله أعظم منه منزلة ولا أعم حكماً يسري حكمه في جميع الموجودات والمعدومات من محال وغيره، فليس للقدرة الإلهية فيما أوجدته أعظم وجوداً من الخيال، فبه ظهرت القدرة الإلهية والاقتدار الإلهيّ، وبه كتب على نفسه الرحمة وأمثال ذلك، وأوجب عموماً وهو حضرة المجلى الإلهيّ في القيامة وفي الاعتقادات فهو أعظم شعائر الله على الله، ومن قوة حكم سلطانه ما تثبته الحكماء مع كونهم لا يعلمون ما قالوه ولا يوفونه حقه وذلك أن الخيال وإن كان من الطبيعة فله سلطان عظيم على الطبيعة بما أيده الله به من القوة الإلهية، فإذا أراد الإنسان أن ينجب ولده فليقم في نفسه عند اجتماعه مع امرأته صورة من شاء من أكابر العلماء، وإن أراد أن يحكم أمر ذلك فليصورها في صورتها التي نقلت إليه أو رآه عليها المصور ويذكر لامرأته حسن ما كانت عليه تلك الصورة، وإذا صوّرها المصوّر فليصوّرها على صورة حسن علمه وأخلاقه، وإن كانت صورته المحسوسة قبيحة المنظر فلا يصوّرها إلا حسنة المنظر بقدر حسن علمه وأخلاقه كأنه يجسد تلك المعاني ويحضر تلك الصورة لامرأته ولعينه عند الجماع ويستفرغان في النظر إلى حسنها، فإن وقع للمرأة حمل من ذلك الجماع أثر في ذلك الحمل ما تخيلاه من تلك الصورة في النفس فيخرج المولود بتلك المنزلة ولا بد حتى أنه إن لم يخرج كذلك فلأمر طرأ في نفس الوالدين عند نزول النطفة في الرحم أخرجهما ذلك الأمر عن مشاهدة تلك الصورة في الخيال من حيث لا يشعرون، وتعبر عنه العامّة بتوحم المرأة، وقد يقع بالاتفاق عند الوقاع في نفس أحد الزوجين أو الزوجين صورة كلب أو أسد أو حيوان ما فيخرج الولد من ذلك الوقاع في أخلاقه على صورة ما وقع للوالدين من تخيل ذلك الحيوان وإن اختلفا فيظهر في الولد صورة ما تخيله الوالد وصورة ما تخيلته الأم حتى في الحس الظاهر في الصورة أو في القبح، وهم مع معرفتهم بهذا السلطان لا يرفعون به رأساً في اقتناء العلوم الإلهية لأنهم لجهلهم يطمعون في غير مطمع وهو التجرّد عن الموادّ، وذلك لا يكون أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة، فهو أمر أعني التجرّد عن الموادّ يعقل ولا يشهد، وليس لأهل النظر غلط أعظم من هذا ولا يشعرون بغلطهم ويتخيلون أنهم في الحاصل وهم في الفائت فيقطعون أعمارهم في تحصيل ما ليس يحصل لهم، ولهذا لا يسلم عقل من حكم وهم ولا خيال وهو في عالم الملائكة والأرواح إمكان فلا يسلم روح ولا عالم بالله من إمكان يقع له في كل ما يشهده لأن كل ما سوى الله حقيقته من ذاته الإمكان والشيء لا يزول عن حكم نفسه، فلا يرى ما يراه من قديم ومحدث

إلا بنفسه فيصحبه الإمكان دائماً ولا يشعر به إلا من علم الأمر على ما هو عليه فيعقل التجريد وهماً ولا يقدر عليه في نفسه لأنه ليس ثم، وهنا زلت أقدام الكثيرين إلا أهل الله الخاصة فإنهم علموا ذلك بإعلام الله. ألا ترى إلى زكريا عليه السلام لما دخل على مريم المحراب وهي بتول محرّرة وقد علم زكريا ذلك ورأى عندها رزقاً آتاها الله فطلب من الله عند ذلك أن يهبه ولداً حين تعشق بحالها فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ يقول من عندك عندية رحمة ولين وعطف ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨] ومريم في خياله من حيث مرتبتها وما أعطاها الله من الاختصاص بالعناية الإلهية ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ لأنه دخل عليها المحراب عندما وجد عندها الرزق ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا﴾ وهو الكمال لأن مريم كملت فكمل يحيى بالنبوّة ﴿وَحَصُورًا﴾ وهو الذي اقتطعه الله عن مباشرة النساء وهو العنين عندنا كما اقتطع مريم عن مباشرة الرجال وهي البتول، فكان يحيى عليه السلام زير نساء كما كانت حنة مريماً لأن المريم المنقطعة من الرجال واسمها حنة ومريم لقب لها وصفت به لما ذكرناه آنفاً، فانظر ما أثر سلطان الخيال من زكريا في ابنة يحيى عليهما السلام حين استفرغت قوّة زكريا في حسن حال مريم عليها السلام لما أعطاها الله من المنزلة ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩] فما عصى الله قط وهو طلب الأنبياء كلهم أن يدخلهم الله برحمته في عباده الصالحين، وهم الذين لم يقع منهم معصية قط كبيرة ولا صغيرة، وما رأيت أعجب من حال زكريا عليه السلام وما رأيت من ظهر فيه سلطان الإنسانية مثله، هو الذي يقول: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] فما سأل حتى تصوّر الوقوع ولا بقوله: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠] فأين هذه الحالة من تلك الحالة فإن لم يكن ثم قرينة حال جعلته أن يقول مثل هذا حتى يقال له في الوحي: ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠] فيكون قصده إعلام الله بذلك حتى يعلم غيره أن الله يفعل ما يشاء في المعتاد أن يخرقه كما وقع، وإن كان ذلك القول من نفسه فقد أعطته الإنسانية قوّتها، فإن الإنسان بذاته كما ذكره الله في كتابه، فما ذكره الله في موضع إلا وذكر عند ذكره صفة نقص تدل على خلاف ما خلق له، لأن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم وهو أنه خلقه تعالى ثم ردّه إلى أسفل سافلين ليكون له الرقيّ إلى ما خلقه الله له ليقع الثناء عليه بما ظهر منه من رقيه، فمن الناس من بقي في أسفل سافلين الذي ردّ إليه لأنه منه خلق ولولا ذلك ما صح ردّه، وليس أريد بأسفل سافلين إلا حكم الطبيعة التي منه نشأ عندما أنشأ الله صورة جسده وروحه المدبرة له فردّه إلى أصل ما خلقه منه فلم ينظر ابتداء إلا إلى طبيعته وما يصلح جسده، وأين هو من قوله بلى عن معرفة صحيحة.

واعلم أن في حضرة الخيال في الدنيا يكون الحق محل تكوين العبد، فلا يخطر له خاطر في أمر ما إلا والحق يكوّنه في هذه الحضرة، كتكوينه أعيان الممكنات إذا شاء ما يشاء منها فمشيئة العبد في هذه الحضرة من مشيئة الحق، فإن العبد ما يشاء إلا أن يشاء الله، فما شاء الحق إلا أن يشاء العبد في الدنيا ويقع بعض ما يشاء العبد في الدنيا في الحس، وأما في

الخيال فكمشيئة الحق في النفوذ فالحق مع العبد في هذه الحضرة على كل ما يشاؤه العبد، كما هو في الآخرة في عموم حكم المشيئة لأن باطن الإنسان هو ظاهره في الآخرة، فلذلك يتكوّن عن مشيئته كل شيء إذا اشتهاه، فالحق في تصريف الإنسان في هذه الحضرة في الدنيا وفي شهوته في الآخرة لا في الدنيا حساً، فالحق تابع في هذه في الحضرة وفي الآخرة لشهوة العبد، كما هو العبد في مشيئته تحت مشيئة الحق، فما للحق شأن إلا مراقبة العبد ليوجد له جميع ما يريد إيجاده في هذه الحضرة في الدنيا وكذلك في الآخرة، والعبد تبع للحق في صور التجلي، فما يتجلى الحق له في صورة إلا انصبغ بها فهو يتحوّل في الصور لتحوّل الحق، والحق يتحوّل في الإيجاد لتحوّل مشيئة العبد في هذه الحضرة الخيالية في الدنيا خاصة وفي الآخرة في الجنة عموماً.

ولما خلق الله همماً فعالة في الوجود في الحس وهمماً غير فعالة في الوجود في الحس ظهر بذلك التفاضل في الهمم كما ظهر التفاضل في جميع الأشياء حتى في الأسماء الإلهية، والهمم الفعالة في الدنيا قد تفعل في همم غير أصحابها وقد لا تفعل مثل قوله فيما لا تفعل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] فبعض الهمم الفعالة والمنفعلة قد لا تنفعل لهمة فعالة فيريد منه أن يريد أمراً ما فلا يريده من يريد منه أن يريده لأن الهمم تتقابل للجنسية فلهذا قد لا تؤثر فيها، فإذا تعلقت بغير الجنس أثرت كل همة فعالة ولا بد، وأما في جنسها أعني في الهمم فقد تنفعل لها بعض الهمم وقد لا تنفعل، وقد ظهر ذلك في الرسل عليهم السلام وأتباعهم يريد الرسول من شخص أن يريد الإسلام فيريده فيسلم ويريد من آخر أن يريد الإسلام فلا يريده، فلو تعلقت همة الرسول بتحريك الألسنة بالشهادة بالتوحيد من غير إرادة الناطق بها لوقعت عموماً ولكن لا تنفع صاحبها، وإن كانت تنفع للسانه فإن لسانه ما عصى الله قط من حيث نفسه وإنما وقعت فيه المخالفة لا منه من حركة المريد تحريكه فهو مجبور حيث لم يعط الدفع عن نفسه لكونه من آلات النفس فهو طائع من ذاته، ولو فتح الله سمع صاحبه لنطق اللسان الذاتي إذا جعلته النفس يتلفظ بمخالفة ما أراد الشرع أن يتلفظ به لبهت، فلهذا قلنا إن المخالفة ظهرت فيه للجبر لا منه فإنه طائع بالذات شاهد عدل على محرّكه كما ورد: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] وكذلك كل جارحة مصرفة من سمع وبصر وفؤاد وجلد وعصب وفرج ونفس وحركة: [البسيط]

والنَّاسُ في غَفْلَةٍ عمّا يُرَادُ بهم ... وفي عَمَايَةِ عمَّا هُمْ عَلَيْه له

فالإنسان سعيد من حيث نشأته الطبيعية، ومن حيث نشأة نفسه الناطقة بانفراد كل نشأة عن صاحبتها، وبالمجموع ظهرت المخالفة وما عين المخالفة إلا التكليف، فإذا ارتفع التكليف حيث ارتفع ارتفع الحكم بالمخالفة ولم يبق إلا موافقة دائمة وطاعة ممكن لواجب مستمرّة، كما هو في نفس الأمر في وقت المخالفة مطيع للمشيئة مخالف لأمر الواسطة للحسد الذي في الجنس.

وفي هذا المنزل من العلوم: علم توحيد الحق وتصديق المخبرين عن الحق وهم

التراجمة السفراء من بشر وملك وخاطر. وعلم الفرقان بالعلم بما تميزت به الأشياء وهذا هو علم التوحيد العام الذي يسري في كل واحد واحد من العالم. وعلم الكشف الإلهيّ. وفيه علم التناسل الذي لا ينقطع دنيا ولا آخرة. وفيه علم الحضرة التي وقع فيها التشبيه بين الأشياء والاشتراك في الصورة. وفيه علم ما ينفرد به الحق من العلم دون الخلق مما لا يعلمه الخلق إلا بإعلام الله. وفيه علم الميل والاستقامة. وفيه علم الجمع للتفصيل. وفيه علم العوائد لماذا ترجع وما ثم تكرار والإعادة تكرار فالأمر مشكل وسبب إشكاله ذكر الحق للعادة والإعادة والكشف يعطي عدم الإعادة في الكون لا الإعادة في نشء الآخرة فإن تلك الإعادة حكم إلهي في حق أمر ما مخصوص بمنزلة من خرج من دار ثم عاد إليه فالدار الدار والخارج الداخل وما ثم إلا انتقال في أحوال لا ظهور أعيان مع صحة إطلاقها أن الخارج من الدار عاد إلى داره فعلمنا متعلق الإعادة. وفيه علم المفاضلة بالدار. وفيه علم نعوت أهل الله. وفيه علم ما يشترك فيه الحق والعالم العالم بالله وما ثم إلا عالم بالله غير أنه من العلماء من يعلم أنه عالم بالله، ومن الناس من لا يعلم أنه عالم بالله وهو على علم بمن يشهد ويعاين ولا يعلم أنه الحق، فلو سألته هل تعلم الله؟ قال لا، فلو سألته فيما شهده هل تعلم هذا الذي شهدته من حيث ما هو مشهود لك؟ يقول: نعم، يقال له: فمن هو؟ يقول: هذا الذي أشهده، فيقال له: فمن يقال له؟ يقول لا أدري، فإذا قيل له: هو كذا أي هو فلان بالاسم الذي يعرفه به ولكن ما عرف أن هذا المشهود هو مسمى ذلك الاسم فما جهل إلا حمل هذا الاسم على هذا المشهود، فقد كان موصوفاً بعلم الاسم وموصوفاً بعلم المشهود من حيث ما هو مشهود له، وما استفاد إلا كون هذا المشهود مسمى ذلك الاسم المعلوم. وفيه علم انقياد الخلق للحق وأنه نتيجة عن انقياد الحق للخلق لطلب الممكن الواجب فانقاد له الواجب فيما طلبه فأوجده ولم يك شيئاً. وفيه علم سبب الاختلاف الواقع في العالم مع العلم بما يوجب رفع الاختلاف فما الذي حكم على العلم مع قوّة سلطانه؟ وفيه علم الاغترار وما سببه الذي أظهره. وفيه علم ما هو العمل والكسب والفرق بين الكسب والاكتساب لأن الله ميز الكسب من الاكتساب باللام وبـ«على» فقال: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وفيه علم الاختيار الإلهيّ. وفيه علم متى يستند إلى الضد فيكون الضد رحمة لضده مع أنه عدوّ له بالطبع. وفيه علم التحجير عن الخوض في الله. وفيه علم الإحاطة بالأعمال إحاطة مشاهد لا إحاطة تلبس وفي أي خزانة ادخرت إلى وقت شهودها وما حكمها بعد شهودها في نفسها وفيما يعود منها على العامل لها. وفيه علم ما الحضرة التي تقلب الحقائق ولا تقلب نفسها وهي من جملة الحقائق. وفيه علم المناسبات. وفيه علم ما يرجع إليه في الحكم مما لا يتصف بالقول ومع ذلك فله الفصل في بعض القضايا وهو الاقتراع وأمثاله. وفيه علم الغاية التي تطلبها الرسل من الله في هذه الدار. وفيه علم النيابة الإلهية في التكوين. وفيه علم غريب متعلق بالمحبة وهو الزهد في المحبوب من أجل المحبوب مع اتصافه بالحب في المزهود فيه وبقاء ذلك الوصف عليه. وفيه علم الاعتصام. وفيه علم البياض والسواد ولبعض أهل الطريق تأليف فيه سماه

البياض والسواد. وفيه علم فضل الأمم بعضهم على بعض وفضل هذه الأمة المحمدية على سائر الأمم وهل من أمة محمد ﷺ من كان قبل بعثته فرآه في كشفه وآمن به واتبعه في قدر ما كشف له منه؟ وهل يحشر من هذه صفته في أمته أو يحشر أمة وحده أو كان صاحب هذا الكشف متبعاً لشرع نبيّ خاص كعيسى أو موسى أو من كان من الرسل عليهم السلام فرأى مشاهدة أن الشرع الذي جاء به ذلك النبيّ الخاص الذي هذا متبعه أنه نائب فيه عن محمد ﷺ وأن ذلك شرعه فاتبعه على أنه شرع محمد ﷺ وأن ذلك الرسول مبلغ عنه ما ظهر به من الشرع، فهل يحشر مثل هذا في أمة محمد ﷺ أو يكون من أمة ذلك النبيّ؟ ثم إنه إذا اتفق أن يحشر في أمة ذلك الرسول ثم دخل الجنة ونال منزلته هل ينالها في منازل هذه الأمة المحمدية، أو لا ينزل منها إلا في منازل أتباع ذلك الرسول وأمته؟ وله في منازل ذلك الرسول مع أمته منازل من حيث ما هو متبع وله منازل مع الأمة المحمدية من حيثما اتبعه بما أعطاه الكشف الذي ذكرناه آنفاً. وفيه علم الصحبة ومن يصحبك بالصفة، ومن يصحبك بالوجه، ومن يصحبك لك، ومن يصحبك لنفسه، ومن يصحبك لله، ومن أولى بالصحبة، ومن يصحب الله، ومن له مقام أن يصحب ولا يصحب أحداً، والفرق بين الصحبة والمصاحبة. وفيه علم المقامات والأحوال. وفيه علم نعم وبئس. وفيه علم الجزاء في الدنيا. وفيه علم اتصاف العالم بالاستفادة فيما هو به عالم. وفيه علم أصناف المقربين ودرجاتهم في القربة من كل أمة. وفيه علم من يريد الله ومن يريد غير الله وما متعلق الإرادة؟ وهل يصدق من يقول أنه يريد الله أو لا يصدق؟ وفيه علم الالتباس في الموت ومن اتصف بالضدين. وفيه علم الاستدراج. وفيه علم ما يقلبه الحق من النعوت ولا ينبغي أن تنسب إليه لكونها في العرف والشرع صفة نقص في الجناب الإلهيّ وهي شرف ورفعة في المحدث. وفيه علم فنون من العلوم. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والثمانون وثلاثمائة

في معرفة منزل الخواتم وعدد الأعراس الإلهية والأسرار الأعجمية موسوية لزومية

[نظم: البسيط]

عِـلْـمُ الـبـرازخ عِـلْـمٌ لـيـس يُـدْرِكُـهُ إلاّ الـذي جَـمَـعَ الأطـراف والـوَسَـطَـا
لـه الـنـفـوذُ بـه فـي كـل نـازلـةٍ كـونـيَّـة فـبـه فـي الـعـالـمـيـن سَـطَـا
فـإنْ أراد بـشـخـص نـقـمـةً قَـبَـضـا وإن أراد بـشـخـص نـعـمـةً بَـسَـطَـا
إنْ أقْـسَـطَ الـخَـلْـقُ فـي ميـزان رحـمـتـه فـي الـعـالـمـيـن تـراه فـيـه قـد قَـسَـطَـا

اعلم أنه لما كانت الخواتم أعيان السوابق علمنا أن الوجود في الصور دائرة انعطف أبدها على أزلها، فلم يعقل إله إلا وعقل المألوه، ولا عقل رب إلا وعقل المربوب، ولكل معقول رتبة ليست عين الأخرى، كما نعلم أن بين الخاتمة والسابقة تميزاً معقولاً به، يقال عن الواحدة سابقة، وعن الأخرى خاتمة. وإنما قلنا إن الخاتمة عين السابقة إنما ذلك في الحكم

على المحكوم عليه، وبالمحكوم عليه تبينت الخاتمة من السابقة. واعلم أن الأعراس على قسمين: عرس لعقد وعرس لعقد ودخول، وعرس بدخول ولا عقد، والعقد عبارة عما يقع عليه رضى الزوجين، والدخول وطء لوجود لذة أو لإيجاد عين، ودخول بلا عقد عرس الإماء، ولما لم يكن في الأنكحة أفضل من نكاح الهبة لأنه لا عن عوض كالاسم الواهب الذي يعطي لينعم اختص به لفضله أفضل الخلق وهو محمد ﷺ: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ [الأحزاب: ٥٠] وكل نكاح خارج عما ذكرناه فهو سفاح لا نكاح، أي هو بمنزلة الشيء السائل الذي لا ثبات له لأنه لا عقد فيه ولا رباط ولا وثاق.

ثم نرجع ونقول: فأما الخواتم فتعينها الآجال، ولولا ذلك ما كان لشيء خاتمة لأن الخاتمة انتهاء في الموصوف بها ولكل خاتمة سابقة ولا ينعكس، فمن نظر إلى دوام تنزل الأمر الإلهيّ واسترساله قال ما ثم خاتمة، ومن نظر إلى الفصل بين الأشياء في التنزل قال بالخواتم في الأشياء لكون الفصول تبينها مثال ذلك ولكن كل هذا في عالم الانقسام والتركيب، فإذا نظرت في القرآن مثلاً بين الكلمتين والآيتين والسورتين فتقول عند وجود الفصل المميز بين الأمرين، فإن وقع بين كلمتين فخاتمة الأولى حرف معين، وإن كان آيتان فخاتمة الأولى كلمة معينة، وإن كان سورتان فخاتمة الأولى آية معينة، وإن كان أمر حادث قيل أجله كذا في الدنيا لأن كل ما في الدنيا يجري إلى أجل مسمى فتنتهي فيه المدة بالأجل، فخاتمة ذلك الشيء ما ينتهي إليه حكمه، فانتهاء الأنفاس في الحيوان آخر نفس يكون منه عند انتقاله إلى البرزخ، ثم تنتهي المدة في البرزخ إلى الفصل بينه وبين البعث، ثم تنتهي المدة في القيامة إلى الفصل بينها وبين دخول الدارين، ثم تنتهي المدة في النار في حق من هو فيها من أهل الجنة إلى الفصل الذي بين الإقامة فيها والخروج منها بالشفاعة والمنة، ثم تنتهي المدة في عذاب أهل النار الذين لا يخرجون منها إلى الفصل بين حال العذاب وبين حصول حكم الرحمة التي وسعت كل شيء، فهم يتنعمون في النار باختلاف أمزجتهم كما قد ذكرناه، ثم لا يبقى بعد ذلك أجل ظاهر بالمدة ولكن آجال خفية دقيقة، وذلك أن المحدث الدائم العين من شأنه تقلب الأحوال عليه ليلزمه الافتقار إلى دوام الوجود له دائماً فلا تفارق أحواله الآجال، فلا يزال في أحواله بين سابقة وخاتمة. وأما الإيمان فسابقته لا إله إلا الله، وخاتمته إماطة الأذى عن الطريق، فعبر الشارع عن السابقة بالأعلى وعن الخاتمة بالأدون، فلا أعلى في الإيمان من التوحيد، ولا أدنى فيه من إماطة الأذى عن الطريق ومن ذلك طريق التوحيد، فإن الأذى الذي في طريقه الشرك الجلي والخفي، فالخفي الأسباب وهي بين خفي وأخفى، فالأخفى الأسباب الباطنة، والخفي الأسباب الظاهرة، والجلي نسبة الألوهة إلى المحدثات فيميط الموحد، هذه كلها عن قلبه وقلب غيره فإنها أذى في طريق التوحيد، وكل أذى في طريق من طرق الإيمان بحسب الصفة التي تسمى إيماناً فما يضادها يسمى أذى في طريقها، فالذي يزال به الأذى من تلك الصفة المعينة هو خاتمة تلك الصفة كان ما كان، ولا خاتمة

لحكم الله في عباده بالجملة والإطلاق ولا سابقة، فإن العدم الذي للممكن المتقدم على وجوده لم يزل مرجحاً له بفرض الوجود الإمكاني له فلا سابقة له، وهو علم دقيق خفي تصوره سهل ممتنع لأنه سريع التفلت من الذهن عند التصور، فليس الحدوث للمكن إلا من حيث وجوده خاصة عند جميع النظار وعندنا ليس كذلك، وإنما الحدوث عندنا في حقه كون عدمه ووجوده لم يزل مرجحاً على كل حال لأنه ممكن لذاته، وإن كان بعض النظار قد قال حدوثه ليس سوى إمكان ولكن ما بين هذا البيان الذي بينته في ذلك يتطرق الاحتمال إلى كلام هذا الحاكم فإنه يحتمل أن يكون عنده من أسماء الترادف، فيكون كونه يسمى حادثاً كونه يسمى ممكناً، ويحتمل أن يريد ما أردناه من كون العدم الذي يحكم عليه به أنه لذاته هو عندنا مرجح لم يزل، فإن توسعنا في العبارة مع النظار لم نقل إن عدم الممكن لنفسه لأنه لو كان العدم له صفة نفس لاستحال وجوده كما يستحيل وجود المحال، ولكن كما نقول تقدم العدم له على الوجود لذاته لا العدم وبينهما فرقان عظيم، ولكن ليس مذهبنا فيه إلا أن عدمه لم يزل مرجحاً، فوجود الممكن له سابقة لكونه لم يكن ثم كان ولكن من حيث عينه إذا كان قائماً بنفسه لا من حيث صورته، فلا خاتمة له في عينه، وله الخواتم في صورته بالأمثال والأضداد، فكل حادث سوى الأعيان القائمة بأنفسها فله سابقة وخاتمة، لكن سابقته عين خاتمته، لأنه ليس له في كونه غير زمان كونه خاصة ثم ينعدم لنفسه، وإنما تتميز السابقة فيه من الخاتمة بالحكم فتحكم عليه بالوجود في السابقة وبالعدم في الخاتمة، وفي عين سابقته عين خاتمته، لأنه ليس له وجود في الزمان الثاني من زمان وجوده فافهم واعلم أن السالك إذا وصل إلى الباب الذي يصل إليه كل سالك بالاكتساب فآخر قدم في السلوك هو خاتمة السالكين، ثم يفتح الباب وتخرج العطايا والمواهب الإلهية بحكم العناية والاختصاص لا بحكم الاكتساب، وهذا الباب الإلهي قبول كله لا رد فيه البتة، بخلاف أبواب المحدثات وفيه أقول: [الخفيف]

كُـلُّ بـاب إذا وَصَلْـتَ إلـيـه ... أمْـكَـنَ الـرَّدُّ والـقَـبُـولُ جَـمِـيـعَـا
غَـيْـرُ بـاب الإلٰـهِ فـهـو قـبـولٌ ... لـلـذي جـاءه سـمـيـعـاً مُـطِـيـعَـا
والـذي ردّ إذ تـخـيّـل فـيـه ... أنـه الـبـابُ خَـرَّ ثـمَّ صَـريـعـا
فـيـنـاديـه رَبُّـهُ لـيـس بـابـي ... إنّ بـابـي لـمـن يـريـد خُـشُـوعَـا
لـو تَـفَـطَّـنْـتَ حـيـن جـئْـتَ إلـيـه ... كـنـت عـايَـنْـتَ فـيـك أمْـراً بَـديـعَـا
أنـت مـا أنـت لـسـت أنـت سـوانـا ... فـاسْـكُـبِ آنْ شـئـت لـلـفـراق دُمُـوعـا

ولما وصلت في جماعة الواصلين من أهل زماني إلى هذا الباب الإلهيّ وجدته مفتوحاً ما عليه حاجب ولا بواب، فوقفت عنده إلى أن خلع عليّ خلعة الوارثة النبوية ورأيت خوخة مغلقة فأردت قرعها فقيل لي: لا تقرع فإنها لا تفتح، فقلت: فلأي شيء وضعت؟ قيل لي: هذه الخوخة التي اختص بها الأنبياء والرسل عليهم السلام ولما كمل الدين أغلقت، ومن هذا الباب كانت تخلع على الأنبياء خلع الشرائع. ثم أني التفت في الباب فرأيته جسماً شفافاً

يكشف ما وراءه، فرأيت ذلك الكشف عين الفهم الذي للورثة في الشرائع وما يؤدّي إليه اجتهاد المجتهدين في الأحكام، فلا زمت تلك الخوخة والنظر فيما وراء ذلك الباب فجليت لي من خلفه صور المعلومات على ما هي عليه، فذلك عين الفتح الذي يجده العلماء في بواطنهم ولا يعلمون من أين حصل لهم إلا أن كوشفوا على ما كشف لنا، فالنبوّة العامة لا تشريع معها، والنبوّة الخاصة التي بابها تلك الخوخة هي نبوّة الشرائع فبابها مغلق والعلم بما فيها محقق فلا رسول ولا نبيّ، فشكرت الله على ما منح من المنن في السر والعلن، فلما اطلعت من الباب الأوّل الذي يصل إليه السالكون الذي منه تخرج الخلع إليهم رأيت منه شكر الشاكرين كالصور التي تجلت لنا خلف الخوخة والظاهر من الشكر كالخوخة، فلم أر شاكراً إلا لواحد من خلف الكلمات الظاهرة، فلم أجد في تلك الحالة مساعداً لي على الشكر، فقلت أخاطب ربي تعالى عزّ وجلّ: [الطويل]

إذا رُمْتُ شُكْراً لم أجد لك شاكراً ... وإن أنا لم أشكُرْ أكون كَفُورَا
سترت عقول الخَلْق بالسبب الذي ... وضعت فلم آنس عليك غَيُورا
وقد بلغت عنك التراجم غيرة ... أمرت بها عَبْداً بتلك خَبيرا
لذلك لم تَشْهَدْ ولم تَكُ ظاهراً ... ولو كنت مشهوداً لكنت غفُورا
وقد قلت بالتلبيس في الملك الذي ... بعثت شخيصاً للأنام بصيرا
وكيف لنا بالعلم والأمر لم يَزَلْ ... على حالة الإمكان منك ظهيرا

فكان محمد ﷺ عين سابقة النبوّة البشرية بقوله معرفاً إيانا «**كُنْتُ نَبِيّاً وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ**» وهو عين خاتم النبيين بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] لما ادّعي فيه أنه أبو زيد نفى الله تعالى عنه أن يكون أباً لأحد من رجالنا لرفع المناسبة وتمييز المرتبة، ألا تراه ﷺ ما عاش له ولد ذكر من ظهره تشريفاً له لكونه سبق في علم الله أنه خاتم النبيين، وقال ﷺ: «**إنَّ الرِّسَالَةَ**» يعني البعثة إلى الناس بالتشريع لهم والنبوّة «**قَدِ انْقَطَعَتْ**» أي ما بقي من يشرع له من عند الله حكم يكون عليه ليس هو شرعنا الذي جئنا به «**فَلاَ رَسولَ بَعْدِي**» يأتي بشرع يخالف شرعي إلى الناس، «**وَلاَ نَبِيَّ**» يكون على شرع ينفرد به من عند ربه يكون عليه» فصرح أنه خاتم نبوّة التشريع، ولو أراد غير ما ذكرناه لكان معارضاً لقوله أن عيسى عليه السلام ينزل فينا حكماً مقسطاً يؤمنا بنا أي بالشرع الذي نحن عليه ولا نشك فيه أنه رسول ونبي، فعلمنا أنه ﷺ أراد أنه لا شرع بعده ينسخ شرعه، ودخل بهذا القول كل إنسان في العالم من زمان بعثته إلى يوم القيامة في أمته، فالخضر وإلياس وعيسى من أمة محمد ﷺ الظاهرة، ومن آدم إلى زمان بعثة رسول الله ﷺ من أمته الباطنة فهو النبيّ بالسابقة وهو النبيّ بالخاتمة، فظهر في رسول الله ﷺ أن السابقة عين الخاتمة في النبوّة. وأما خاتمية عيسى عليه السلام فله ختام دورة الملك فهو آخر رسول ظهر وظهر بصورة آدم في نشئه حيث لم يكن عن أب بشري ولم يشبه الأبناء أعني ذرية آدم في النشء، فإنه لم يلبث في البطن اللبث المعتاد، فإنه لم ينتقل في أطوار النشأة الطبيعية بمرور الأزمان المعتادة، بل كان انتقاله يشبه البعث

أعني إحياء الموتى يوم القيامة في الزمان القليل على صورة من جاؤوا عليها في الزمان الكثير، فإنه داخل تحت عموم قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] في التناسل والتنقل في الأطوار. ثم إن عيسى إذا نزل إلى الأرض في آخر الزمان أعطاه ختم الولاية الكبرى من آدم إلى آخر نبيّ تشريفاً لمحمد ﷺ حيث لم يختم الله الولاية العامة في كل أمة إلا برسول تابع إياه ﷺ، وحينئذ فله ختم دورة الملك وختم الولاية أعني الولاية العامة فهو من الخواتم في العالم، وأما خاتم الولاية المحمدية وهو الختم الخاص لولاية أمة محمد الظاهرة فيدخل في حكم ختميته عيسى عليه السلام وغيره كإلياس والخضر وكل وليّ لله تعالى من ظاهر الأمة، فعيسى عليه السلام وإن كان ختماً فهو مختوم تحت ختم هذا الخاتم المحمدي، وعلمت حديث هذا الخاتم المحمدي بفاس من بلاد المغرب سنة أربع وتسعين وخمسمائة عرفني به الحق وأعطاني علامته ولا أسميه ومنزلته من رسول الله ﷺ منزلة شعرة واحدة من جسده ﷺ ولهذا يشعر به إجمالاً ولا يعلم به تفصيلاً إلا من أعلمه الله به أو من صدقه إن عرفه بنفسه في دعواه ذلك، فلذلك عرف بأنه شعرة من الشعور، ومثال الشعور أن ترى باباً مغلقاً على بيت، أو صندوقاً مغلقاً فتحس فيه بحركة تؤذن أن في ذلك البيت حيواناً ولكن لا يعلم أي نوع هو من أنواع الحيوان، أو يشعر أنه إنسان ولا يعرف له عيناً فيفصله من غيره، كما نعلم بثقل الصندوق أنه يحتوي على شيء أثقله لا يعلم ما هو عين ذلك الشيء المختزن في ذلك الصندوق، فمثل هذا يسمى شعوراً لهذا الخفاء. وأما ختم الأسماء الإلهية فهو عين سابقتها وهو الهو وهو مثل قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر: ٢٢] فبدأ بهو وأتى بالاسم الله المحيط بجميع الأسماء التي تأتي مفصلة ثم بالنفي، فنفى أن تكون هذه المرتبة لغيره ثم أوجبها لنفسه بقوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فبدأ بهو وختم بهو، فكل ما جاء من تفصيل أعيان الأسماء الإلهية فقد دخل تحت الاسم الله الآتي بعد قوله هو، فإن كلمة هو أعم من كلمة الله فإنها تدل على الله وعلى كل غائب وكل من له هوية وما ثم إلا من له هوية، سواء كان المعلوم أو المذكور موجوداً أو معدوماً، وأما الخواتم التي على القلوب فهي خواتم الغيرة الإلهية، فما ختم بها إلا الاسم الغيور وهو قوله ﷺ في الله أنه أغير مني ومن غيرته حرم الفواحش وجعل الفواحش ظاهرة وباطنة فقال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣] فختم على كل قلب أن تدخله ربوبية الحق فتكون نعتاً له، فما من أحد يجد في قلبه أنه رب إله بل يعلم كل أحد من نفسه أنه فقير محتاج ذليل قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] فلا يدخله كبرياء إلهي أصلاً، فجعل البواطن كلها في كل فرد فرد مختوماً عليه أن لا يدخلها تأله، ولم يعصم الألسنة أن تتلفظ بالدعوى بالألوهة، ولا عصم النفوس أن تعتقد الألوهة في غيرها بل هي معصومة أن تعتقدها في نفسها لا في أمثالها لأنه ما كل أحد عالم بالأمور على ما هي عليه، ولا يعلم كل أحد أن الأمثال كلها حكمها في الماهية واحد، فهذه الخواتم قد انحصرت في تفصيل ما ذكرناه من أنواعها.

وأما الأعراس الإلهية على تفصيل ما ذكرناه في أوّل الباب فهي مشتقة من التعريس وهو نزول المسافر في منزلة معلومة في سفره والأسفار معنوية وحسية، فالسفر المحسوس معلوم، والسفر المعنوي ما يظهر للقلب من المعاني دائماً أبداً على التتالي والتتابع، فإذا مرت بهذا القلب عرست به فكان منزلاً لتعريسها، وإنما عرست به لتفيده حقيقة ما جاءت به، وإنما نسبت إلى الله لأن الله هو الذي أسفرها وأظهرها لهذا القلب وجعله منزلاً لها تعرس فيه وهي الشؤون التي قال الحق عن نفسه أنه فيها جل جلاله في كل يوم، فالعالم في سفر على الدوام دنيا وآخرة لأن الحق في شؤون الخلق على الدوام دنيا وآخرة، والقلوب محل لتعريس هذه المعاني التي يسفرها الحق لقلوب عباده، فتعرس فيها ليطلعه الله على ما أراد أن يعلمه ذلك القلب، فما من نفس إلا وللقلب خاطر إلهي قد نزل به على أي طريق سلك، لكن بعض القلوب تعرف من عرس بها من الخواطر وقد لا تعرف من أي طريق جاء لأنها ما شعرت به حتى نزل ذلك الخاطر بالقلب، وبعض الناس لهم استشراف على أفواه السكك التي تأتي عليها هذه الخواطر التي تنزل بهذا القلب وتعرف كل طريق وتميزه عن صاحبه، فإذا أقبل الخاطر عرف من أي طريق أقبل، فإذا نزل به يقابله من الكرامة به على قدر ما يعرفه فإنه لكل طريق حكم ليس للطريق الآخر، وهذا كله أعني الذي ذكرناه من المراعاة إنما ذلك في زمان التكليف فإنه الذي وضع الطريق وأوجب الأحكام، فإذا ارتفع التكليف في النشأة الآخرة توحدت الطرق فلم يكن غير طريق واحدة فلا يحتاج في النازل عليه من الله المعرس بقلبه إلى تمييز أصلاً فإنه ما ثم عمن يتميز لأحدية الطريق فلا يكون العرس بالعقد وبما فصلناه في ذلك في أوّل الباب إلا في زمان التكليف وهو زمان الحياة الدنيا في أول وجوب التكليف فاعلم ذلك. فإن كان الحق منزل تعريسنا وهو ما ذكر عن نفسه أن العبد يتحرك بحركة يضحك بها ربه، ويتعجب منها ربه، ويتبشبش له من أجلها ربه، ويفرح بها ربه، ويرضى بها ربه، ويسخط بها ربه، ويغضب بها ربه، فلما قال هذا عن نفسه وعين هذه الحركات وأمثالها حتى عرفناها من كتابه على لسان رسوله ﷺ وعرفنا أن العبد عنده بحسب ما أنزل به من هذه الحركات الموجبة لهذه الأحكام التي وصف الحق بها نفسه أنه يظهر بها إذا أتى بها العبد هذا حكم أثبته الحق ونفاه دليل العقل، فعرفنا أن العقل قاصر عما ينبغي لله عزّ وجلّ وأنه لو ألزم نفسه الإنصاف للزم حكم الإيمان والتلقي، وجعل النظر والاستدلال في الموضع الذي جعله الله ولا يعدل به عن طريقه الذي جعله الله له وهو الطريق الموصل إلى كونه إلهاً واحداً لا شريك له في ألوهيته ولا يتعرض لها لما هو عليه في نفسه. وأما استدلاله القاصر الذي يريد أن يحكم به على ربه بقوله إنه ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث بتقسيمه في ذلك، فإذا سلمناه لم يقدح فيما نريده فإنا نقول له: من قال لك أن الحق بهذه المثابة وهو قولك كل ما لا يخلو عن الحوادث في نفسه فمن قال لك إن هذه في الموجودات منحصرة إنما ذلك حكم فيما لا يخلو عن الحوادث لا فيمن يخلو عن الحوادث. وأما تقسيمك الآخر على هذا الجواب وهو قولك أنه إذا خلا عنها ثم قبلها فلا يخلو إما أن يقبلها لنفسه أو لأمر آخر ما هو

نفسه، فإن قبلها لنفسه فلا يخلو عنها، وإذا لم يخل عنها فهو حادث مثلها. ونقول له: أما الحوادث كلها فيستحيل دخولها في الوجود لأنها لا تتناهى وأنت تعلم أن الذي يقبل الحوادث قد كان خلياً عنها أي عن حادث معين مع وجود نفسه ثم قبل ذلك الحادث لنفسه لأنه لولا ما هو على صفة يقبله ما قبله فقد عرا وخلا عن ذلك الحادث بعينه مع وجود نفسه، فما من حادث تفرضه إلا ويعقل وجود نفس القابل له وذلك الحادث غير موجود وإن لم يخل عن الحوادث فلا يلزم أن يكون حادثاً مثلها مع قبوله لها لنفسه، فالحق قد أخبر عن نفسه أنه يجيب عبده إذا سأله، ويرضى عنه إذا أرضاه، ويفرح بتوبة عبده إذا تاب، فانظر يا عقل لمن تنازع ومن المحال أن نصدقك ونكذب ربك ونأخذ عنك الحكم عليه وأنت عبد مثلي ونترك الأخذ عن الله وهو أعلم بنفسه فهو الذي نعت نفسه بهذا كله، ونعلم حقيقة هذا كله بحده وماهيته، ولكن نجهل النسبة إلى الله في ذلك لجهلنا بذاته، وقد منعنا وحذرنا وحجر علينا التفكر في ذاته، وأنت يا عقل بنظرك تريد أن تعلم حقيقة ذات خالقك لا تسبح في غير ميدانك ولا تتعد في نظرك معرفة المرتبة، ولا تتعرض للذات جملة واحدة فإن الله قد أبان لنا أنه محل أو منزل لتعريس حركات عباده في أسفارهم بأحوالهم فتفطن إن كنت ذا عقل سليم. ثم إنه ما يلزم أذا كان الأمر عندك قد حدث أن يكون ذلك الأمر حادثاً في نفسه لا عقلاً ولا عرفاً ولا شرعاً فإنك تقول: قد حدث عندنا اليوم ضيف وهو صحيح حدوثه عندكم لا حدوثه في نفسه في ذلك الوقت بل قد كانت عينه موجودة منذ خمسين سنة ومع هذا فلا يحتاج إليه لبيانه وظهوره، فمن أراد الدخول على الله فليترك عقله ويقدم بين يديه شرعه فإن الله لا يقبل التقييد والعقل تقييد بل له التجلي في كل صورة، كما له أن يركبك في أي صورة شاء، فالحمد لله الذي ركبنا في الصورة التي لم تقيده سبحانه بصورة معينة ولا حصرته فيها بل جعلت له ما هو له بتعريفه أنه له وهو تحوله في الصورة، فما قدر الله حق قدره إلا الله، ومن وقف مع الله فيما وصف به نفسه لم يدخله تحت حكم عقله من حيث نفسه، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

واعلم أن مسمى النكاح قد يكون عقد الوطء، وقد يكون عقداً ووطءاً معاً، وقد يكون وطءاً ويكون نفس الوطء عين العقد، لأن الوطء لا يصح إلا بعقد الزوجين، ومنه إلهي وروحاني وطبيعي، وقد يكون مراداً للتناسل أعني للولادة، وقد يكون لمجرّد الالتذاذ، فأما الإلهيّ فهو توجه الحق على الممكن في حضرة الإمكان بالإرادة الحبية ليكون معها الابتهاج، فإذا توجه الحق عليه بما ذكرناه أظهر من هذا الممكن التكوين، فكان الذي يولد عن هذا الاجتماع الوجود للممكن، فعين الممكن هو المسمى أهلاً، والتوجه الإرادي الحبي نكاحاً والإنتاج إيجاداً في عين ذلك الممكن ووجوداً إن شئت، والإعراس الفرح الذي يقوم بالأسماء الحسنى لما في هذا النكاح من الإيجاد الظاهر في أعيان الممكنات لظهور آثار الأسماء فيه إذ لا يصح لها أثر في نفسها ولا في مسماها، وإنما أثرها وسلطانها في عين الممكن لما فيه من الافتقار والحاجة إلى ما بيد الأسماء فيظهر سلطانها فيه، فلهذا نسبنا الفرح والسرور وإقامة

الأعراس إليها، وهذا النكاح مستمر دائم الوجود لا يصح فيه انقطاع، والطلاق لهذا العقد النكاحي لا يقع في الأعيان القابلة للأعراض والصور، وإنما يقع في الصور والأعراض وهو عدمها لنفسها في الزمان الثاني من زمان وجودها وهو خلع لأنه ردّ الوجود الذي أعطاها عليه لأنه بمنزلة الصداق لعين هذا الممكن الخاص. فإن قلت: فالحق لا يتصف بالوجود الحادث فمن قبل هذا المردود وأين خزانته ولا بدّ له من محل. قلنا: تجلي الحق في الصور وتحوله الذي جاء به الشرع إلينا ورأيناه كشفاً عموماً وخصوصاً هو عين ما ردته الممكنات الصورية والعرضية من الوجود حين انعدمت، فالحق له نسبتان في الوجود: نسبة الوجود النفسي الواجب له ونسبة الوجود الصوري وهو الذي يتجلى فيه لخلقه، إذ من المحال أن يتجلى في الوجود النفسي الواجب له لأنه لا عين لنا ندركه بها إذ نحن في حال عدمنا ووجودنا مرجحين لم يزل عنا حكم الإمكان فلا نراه إلا بنا أي من حيث نعطيه حقائقنا، فلا بدّ أن يكون تجليه في الوجود الصوري وهو الذي يقبل التحوّل والتبدّل، فتارة يوصف به الممكن الذي يختلع به وتارة يظهر به الحق في تجليه، فانظر يا ولي في هذا الموطن فإنه موطن خفي جداً. ولولا لسان الشرع الذي أومأ إليه ونبه عليه ما أفصحنا عنه لأهل طريقنا، فإن الكثير من أهل طريق الله وإن شهدوا تجلي الحق لكن لا معرفة لهم بذلك ولا بما رأوه ولا صورة ما هو الأمر عليه، ومن علم ما قررنا من بيان قصد الشرع فيه علم كيف صدور العالم، وما هو العالم، وما يبقى عينه من العالم وما يفنى منه وما يرثه الحق من العالم، فإنه القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠] وما ورث على الحقيقة إلا الوجود الذي يتجلى فيه لمن ظهر من خلقه الذي اختلعت فيه صور الممكنات وأعراضها، لأن الوارث لا يكون مع وجود الموروث عنه وبقائه، وإنما يكون بعد انتقاله وعدمه من هذا الموطن وهو اتصافه بالعدم وليس ذلك إلا للصور والأعراض فهو وارث على الدوام، والاختلاع واقع على الدوام، والقبول حاصل على الدوام، والنكاح لازم على الدوام، وهذا معنى الديمومة المنسوبة إلى الحق، فهو تعالى يعمل مع كونه لم يزل موجداً للعالم ولم يزل العالم محدثاً، فالعالم له حكم الحدوث في عين القدم، فلا يعقل له طرف ينتهي إليه لأنه من ذاته لم يزل تحت حكم الترجيح الإلهي له إما بالعدم أو بالوجود.

وإذا تقرّر هذا في النسبة الإلهية فلنذكر حكم النسبة الروحانية في هذه المسألة، وذلك أن الوجود الذي ذكرناه في النسبة الإلهية هو الوجه الخاص الذي لكل ممكن من الله، سواء كان هناك سبب وضعي أو لم يكن، فللّه الإيجاد على كل حال وبكل وجه علواً وسفلاً. وأما النكاح الروحاني فحضرته الطبيعة وهي الأهل الأصلي في النكاح الإلهي، فإذا ولدت في النكاح الأوّل صورة من الصور كانت تلك الصورة أهلاً لهذا الروح الكل فأنكحه الحق إياها فبنى بها فلما واقعها ظهر عن ذلك الوقاع ولد وهو الروح الجزئي فحييت به تلك الصورة وصار هذا لولد يقوم بها ويدبرها ويسعى عليها ويسافر ويقتحم الأخطار ليكتسب ما يجود به عليها حساً ومعنى أي من الأرزاق المحسوسة والمعنوية، والعرس الذي يكون لهذا النكاح

الروحاني إنما تقيمه القوى التي لا ظهور لها إلا في هذه الصورة الطبيعية بوجود هذا النكاح، فيقع لها الالتذاذ والفرح بما يحصل لها من الأثر بوجود هذا البناء. وأما النكاح الطبيعي فهو ما تطلبه هذه الأرواح الجزئية المدبرة لهذه الصور من اجتماع الصورتين الطبيعية بالالتحام والابتناء المسمى في عالم الحس نكاحاً، فيتولد عن هذا النكاح أمثال الزوجين من كل حيوان ونبات فيظهر إنسان من إنسانين وفرس من فرسين، وقد يقع الالتحام من غير المثلين، فيتولد بينهما شكل غريب ما يشبه عين واحد من الزوجين كالبغل بين الحمار والفرس، وكل مولد بين شكلين مختلفين لا يولد أبداً فإنه عقيم فهو الذي يولد ولا يلد، فنكاح مثل هذا النوع ليس لولادة ولكن لمجرد الشهوة والالتذاذ، فيشبه النكاح الأول هذا النكاح الذي خرج عنه غير جنس الزوجين من كونه نكاحاً في غير الجنس، فيتولد بينهما الشكل الغريب ما يشبه واحداً منهما أعني من الزوجين فافهم. وتلقيح الشجر بالرياح اللواقح من النكاح الطبيعي، وأما الريح العقيم فيشبه نكاحها نكاح الشكل الغريب الذي لا يتولد عنه شيء وأعراس هذا النكاح الطبيعي ما هو المشهود في العرف المسمى عرساً في الشاهد من الولائم والضرب بالدفوف، وأما ما يتولد من النكاح الطبيعي في الشجر فهو ما يعطيه من الثمر عند هذا الحمل، وصورة وقع نكاح الأشجار زمان جري الماء في العود وهو عند طلوع السعود فهو نكاح سعيد في طالع سعيد، وما قبل ذلك فهو زمان خطبة ورسل تمشي بين الزوجين الرجل والمرأة ووقوع الولادة على قدر زمان حمل هذين النوعين من الشجر، فمنه ما يولد في الربيع ومنه ما يولد في الصيف كما يكون حمل الحيوان يختلف زمانه باختلاف طبيعته، فإنه لا يقبل من تأثير الزمان فيه إلا بقدر ما يعطيه مزاجه وطبعه، فإذا نكح الجوّ الأرض وأنزل الماء ودبرته في رحمها آثار الأنوار الفلكية ضحكت الأرض بالأزهار وأنبتت من كل زوج بهيج وإنما كان زوجاً من أجل ما يطلبه من النكاح إذ لا يكون إلا بين الزوجين، فعين عرسه هو ما تبرزه من الأزهار، والمخلقة في النبات هو ما سلم من الجوائح وغير المخلقة ما نزلت به الجائحة ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

فهذا قد ذكرنا طرفاً من الخواتم والأعراس مجملاً من غير تفصيل لكن حصرنا الأمهات في ذلك. وأما الأسرار الأعجمية فإنما سميناها أعجمية لأن العربية من الأسرار هي التي يدركها عين الفهم صوراً كالآيات المحكمات في الكتب المنزلة فلا يعلم تأويلها إلا الله أو من أعلمه الله ليس للفكر في العلم بها دخول ولا له فيها قدم، وما يتبع استخراج السر فيها إلا الذي ذكره الله تعالى وهو الذي في قلبه زيغ أي ميل عن الحق باتباعه ما قد ذكر الله فيه أنه لا يعلم تأويله إلا الله، فمن أراد أن يعلم ذلك فلا يخض في تلك الأسرار وليتعمل في الطريق الموصلة إلى الله وهو العمل بما شرع الله له بالتقوى فإنه قال تعالى أنه ينتج لصاحبه علم الفرقان فإذا عمل به تولى الله تعليمه تلك الأسرار الأعجمية فإذا أنالها إياه صارت في حقه عربية، فيعلم ما أراد الله بها ويزول عنه فيها حكم التشابه الذي كانت توصف به قبل العلم بها لأن الله جلاها متشابهة لها طرفان في الشبه، فلا يدري صاحب النظر ما أراد منزلها بها في

ذلك التشابه فإنه لا بد من تخليصه إلى أحد الطرفين من وجه خاص وإن جمعت بين الطرفين فلكل طرف منهما ما ليس للآخر من ذلك المخلوق أو من ذلك المنزل إن كان من صور كلام الله، فالمنزل كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وكقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤] وكقوله: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وكقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الأنعام: ٣] وكقوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] وكقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢] وأمثال هذا في الكتب المنزلة. وأما أخبار الرسل المترجمين عن الحق ما أوحى به على ألسنتهم إلينا فلا تحصى كثرة من الأمور المتشابهة فلا يتبع ذلك بعد التعريف إلا من في قلبه زيغ. وأما من يتبع الطرق الموصلة إلى الكشف عنها فما هو من أهل الزيغ بل هو من أهل الاستقامة، فالمحمدي هو المحكم من الآيات لأنه عربي والمتشابه موسوي لأنه أعجمي، فالعجمية عند أهل العجمية عربية، والعربية عند الأعاجم عجمة، وفي الألفاظ هي مستورة بالاصطلاح، وما ثم عجمة إلا في الاصطلاح والألفاظ والصور الظاهرة. وأما في المعاني فكلها عربية لا عجمة فيها، فمن ادّعى علم المعاني وقال بالشبه فلا علم له أصلاً بما ادعاه أنه علمه من ذلك فإن المعاني كالنصوص عند أهل الألفاظ لأنها بسائط لا تركيب فيها، ولولا التركيب ما ظهر للعجمة صورة في الوجود، وفي هذا المنزل من العلوم ما لا يحصى كثرة إن ذكرناها طال الأمر فيها، ولهذا المنزل السيادة على كل منزل من منازل الجمع والوجود، وقد ذكرنا حصر هذه المنازل في هذا الكتاب فيما تقدم في هذا الباب، فاعلم أن هذا المنزل هو منزل البرزخ الحقيقي، فإن البرزخ يتوسع فيه الناس وما هو كما يظنون بما هو كما عرفنا الله به في كتابه في قوله في البحرين: ﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠] فحقيقة البرزخ أن لا يكون فيه برزخ وهو الذي يلتقي ما بينهما بذاته، فإن التقى الواحد منهما بوجه غير الوجه الذي يلقى به الآخر فلا بد أن يكون بين الوجهين في نفسه برزخ يفرق بين الوجهين حتى لا يلتقيان فإذاً ليس ببرزخ، فإذا كان عين الوجه الذي يلتقي به أحد الأمرين الذي هو بينهما عين الوجه الذي يلتقي به الآخر فذلك هو البرزخ الحقيقي فيكون بذاته عين كل ما يلتقي به فيظهر الفصل بين الأشياء والفاصل واحد العين، وإذا علمت هذا علمت البرزخ ما هو ومثاله بياض كل أبيض هو في كل أبيض بذاته ما هو في أبيض ما بوجه منه ولا في أبيض آخر بوجه آخر بل هو بعينه في كل أبيض، وقد تميز الأبيضان أحدهما عن الآخر وما قابلهما البياض إلا بذاته، فعين البياض واحد في الأمرين، والأمر أن ما هو كل واحد عين الآخر فهذا مثال البرزخ الحقيقي، وكذلك الإنسانية في كل إنسان بذاتها، فالواحد هو البرزخ الحقيقي وما ينقسم لا يكون واحداً والواحد يقسم ولا يقسم أي ولا ينقسم في نفسه فإنه إن قبل القسمة في عينه فليس بواحد، وإذا لم يكن واحداً لم يقابل كل شيء من الأمرين اللذين يكون بينهما بذاته، والواحد معلوم أنه ثم واحد بلا شك، والبرزخ يعلم ولا يدرك ويعقل ولا يشهد.

ثم إن الناس جعلوا كل شيء بين شيئين برزخاً توسعاً وإن كان ذلك الشيء المسمى

عندهم برزخاً جسماً كبيراً أو صغيراً، لكنه لما منع أن يلتقي الأمران اللذان هو بينهما سموه برزخاً، فالجوهران اللذان يتجاوران ولا ينقسم كل واحد منهما عقلاً ولا حساً لا بد من برزخ يكون بينهما، وتجاور الجوهرين تجاور أحيازهما وليس بين أحيازهما حيز ثالث ليس فيه جوهر، وبين الحيزين والجوهرين برزخ معقول بلا شك هو المانع أن يكون عين كل جوهر عين الآخر وعين كل حيز عين الآخر فهو قد قابل كل جوهر وكل حيز بذاته، من عرف هذا عرف حكم الشارع إذ قال إن الله خلق الماء طهوراً لا ينجسه شيء مع حصول النجاسة فيه بلا شك. ولكن لما كانت النجاسة متميزة عن الماء بقي الماء طاهراً على أصله إلا أنه يعسر إزالة النجاسة منه، فما أباح الشارع من استعمال الماء الذي فيه النجاسة استعملناه، وما منع من ذلك امتنعنا منه لأمر الشرع، مع عقلنا أن النجاسة في الماء وعقلنا أن الماء طهور في ذاته لا ينجسه شيء، فما منعنا الشارع من استعمال الماء الذي فيه النجاسة لكونه نجساً أو تنجس، وإنما منعنا من استعمال الشيء النجس لكوننا لا نقدر على فصل أجزائه من أجزاء الماء الطاهر، فبين النجاسة والماء برزخ مانع لا يلتقيان لأجله ولو التقيا لتنجس الماء فاعلم ذلك.

ألا ترى الصور التي في سوق الجنة كلها برازخ تأتي أهل الجنة إلى هذا السوق من أجل هذه الصور وهي التي تتقلب فيها أعيان أهل الجنة، فإذا دخلوا هذا السوق فمن اشتهى صورة دخل فيها وانصرف بها إلى أهله كما ينصرف بالحاجة يشتريها من السوق فقد يرى جماعة صورة واحدة من صور ذلك السوق فيشتهيها كل واحد من تلك الجماعة فعين شهوته فيها التبس بها ودخل فيها وحازها فيحوزها كل واحد من تلك الجماعة، ومن لا يشتهيها بعينه واقف ينظر إلى كل واحد من تلك الجماعة قد دخل في تلك الصورة وانصرف بها إلى أهله والصورة كما هي في السوق ما خرجت منه فلا يعلم حقيقة هذا الأمر الذي نص عليه الشرع ووجب به الإيمان إلا من علم نشأة الآخرة وحقيقة البرزخ، وتجلى الحق في صور متعددة يتحوّل فيهن من صورة إلى صورة والعين واحدة فيشهد بصراً تحوّله في صور ويعلم عقلاً أنها ما تحوّلت قط فكل قوّة أدركت بحسب ما أعطتها ذاتها والحق في نفسه صدق العقل في حكمه وصدق البصر في حكمه ثم له علم بنفسه ما هو عين ما حكم به العقل عليه ولا هو عين ما حكم به شهود البصر عليه ولا هو غير هذين، بل هو عين ما حكما به، وهو ما علمه الحق من نفسه مما لم يعلمه هذان الحاكمان، فسبحان العليم القدير قدر وقضى وحكم وأمضى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] في كل معبود وأين أبين من تحوّله في صور المعبودات ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦] ثم شرع لنا أن لا نعبده في شيء منها وإن علمنا أنه عينها وعصى من عبده في تلك الصور وجعله مشركاً وحرم على نفسه المغفرة فوجبت المؤاخذة في المشرك ولا بد ثم بعد ذلك ترتفع المؤاخذة وما ارتفعت إلا لجهله بصورة ما عنده في الشريك بنفي تلك الصفة في الآخرة عن الشريك فلذلك عوقب ولذلك شملته الرحمة بعد العقوبة وإن لم يخرج من النار والعالم منا هنا بصورة ما عبده المشرك ما تزحزح عن علمه في الدنيا ولا في الآخرة لأنه لم تقع عينه في الدنيا ولا تعلق علمه إلا على المعبود في تلك الصورة، والمشرك لم يكن حاله

كذلك وإنما كان حاله شهوداً لصورة فرجع المشرك عنها في الآخرة ولم يرجع العالم فلو رجع لكان من الجاحدين فلا يصح له أن يرجع: [البسيط]

فالشِّرْكُ باقٍ ولكن ليس يَعْلَمُهُ   إلا الذي شاهد الأعيانَ والصُّوَرَا
فمن يقول بتَوْحِيدٍ أصاب ومَنْ   يقول بالشُّكْرِ فيه صَدَّقَ الخَبَرَا
إنّ الشريكَ لَمَعْدُومٌ وليس له   في عين عابده عَينٌ ولا أَثَرَا

وفي هذا المنزل من العلوم علم لا يعلمه نبي ولا ولي كان قبل هذه الأمة اختص بعلمه هذا الرسول محمد ﷺ وهذه الأمة المحمدية، فالكامل من هذه الأمّة حصل له هذا المقام ظاهراً وباطناً، وغير الكامل حصل له ظاهراً أو باطناً ولم يكمل له ولكن شمله لكونه من الأمة أمة محمد ﷺ، ولا يكاثر من أمّته إلا بالمؤمنين منهم صغيراً كان المؤمن أو كبيراً، فإن الذرية تابعة للآباء في الإيمان ولا يتبعونهم في الكفر إن كان الآباء كفاراً ولكن تعزل كفار كل أمة بمعزل عن كفارالأمّة الأخرى، فإن العقوبة تعظم بعظم من كفر به هذا هو المعهود، إلا كفار هذه الأمة فإنهم أخف الناس عذاباً لكون من كفرت برسالته التي أرسله الله بها رحمة للعالمين، وقد أبان الله ذلك في الدنيا وجعله عنوان حكم الآخرة وذلك أن رسول الله محمداً ﷺ لما اشتد قيامه في الله وغيرته على الحق في قصة رعل وذكوان وعصية جعل يدعو عليهم في كل صلاة شهراً كاملاً وهو القنوت فأوحى الله تعالى إليه في ذلك لما علم من إجابته إياه إذا دعاه في أمر فنهاه عن الدعاء عليهم إبقاء لهم ورحمة بهم فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] أي لترحمهم فإنه مرسل إلى جميع الناس كافة ليرحمهم بأنواع وجوه الرحمة، ومن وجوه الرحمة أن يدعو لهم بالتوفيق والهداية وقد صح عنه ﷺ أنه كان يقول: «**اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ**» ونهى عن الدعاء عليهم، فإذا كان من أشرك به يعتب رسوله ﷺ في الدعاء عليهم فكيف يكون فعله فيهم إذا تولى سبحانه الحكم فيهم بنفسه وقد علمنا أنه تعالى ما ندبنا إلى خلق كريم إلا كان هو أولى به، فمن هنا يعلم ما حكمه في المشركين يوم القيامة من أمة محمد ﷺ وإن أخذهم الله بالشرك في الآخرة إذ لا بد من المؤاخذة، ولكن مؤاخذته إياهم فيها لطف إلهي لا يستوي فيه مشرك غير هذه الأمة بمشركها أعرف ذلك اللطف ولا أصرح به كما ذكر ﷺ فيمن أصابتهم النار من هذه الأمة بذنوبهم بل من الأمم: «**إِنَّ الله يُمِيتُهُمْ فِيهَا إِمَاتَةً**» الحديث وقد مر في هذا الكتاب خرجه مسلم في صحيحه، وقد رميت بك على الطريق لتعلم حكم الله في هذه الأمة المحمدية مؤمنها والكافر بها، فإن كفر الكافر منها لا يخرجه عن الدعوة فله أو عليه حكمها ولا بد فهم خير أمة أخرجت للناس المؤمن منهم بإيمانه والكافر منهم بكفره هما خير من كل مؤمن من غير هذه الأمة وكافر، وهذا الذي ذكرناه في هذا المنزل بالنظر إلى ما يحويه من العلوم جزء من ألف جزء بل من آلاف، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والثمانون وثلاثمائة

في معرفة منزل العظمة الجامعة للعظمات المحمدية

[نظم : البسيط]

إنّ الـعَـظِـيـمَ إذا عَـظَّـمْـتَـهُ نَـزَلا وإنْ تَـعَـاظَـمْـتَ جَـلَّـتْ ذاتُـه فَـعَـلاَ

فَـهْـوَ الـذي أبْـطَـلَ الأكـوانَ أجْـمَـعَـهَـا مـن بـاب غِـيـرَتِـهِ وَهْـوَ الـذي فَـعَـلاَ

ولـيـس يُـدْركُ مـا قـلـنـا سوى رَجُـلٍ قـد جـاوز الـمـلأ الـعُـلْـوِيّ والـرُّسُـلاَ

وهَـامَ فـيـمَـنْ يَـظُـنُّ الـخَـلْـقُ أجْـمَـعُـهُ تَـحْـصِـيـلَـهُ وَسَـهَـا عـن نَـفْـسِـهِ وَسَـلاَ

ذاك الـرسـولُ رسـولُ الله أحْـمَـدُنـا ربّ الـوسـيـلـة فـي أوصـافـه كَـمُـلاَ

اعلم أن لهذا المنزل أربعة عشر حكماً: الأوّل يختص بصاحب الزمان والثاني والثالث يختص بالإمامين. والرابع والخامس والسادس والسابع يختص بالأوتاد. والثامن والتاسع والعاشر والأحد عشر والاثنا عشر والثالث عشر والرابع عشر يختص بالأبدال، وبهذه الأحكام يحفظ الله عالم الدنيا، فمن علم هذا المنزل علم كيف يحفظ الله الوجود على عالم الدنيا ونظيره من الطب علم تقويم الصحة، كما أنه بالأبدال تنحفظ الأقاليم وبالأوتاد ينحفظ الجنوب والشمال والمغرب والمشرق، وبالإمامين ينحفظ عالم الغيب الذي في عالم الدنيا وعالم الشهادة وهو ما أدركه الحس، وبالقطب ينحفظ جميع هؤلاء فإنه الذي يدور عليه أمر عالم الكون والفساد، وهؤلاء على قلب أربعة عشر نبياً وهم آدم، وإدريس، ونوح، وإبراهيم، ويوسف، وهود، وصالح، وموسى، وداود، وسليمان، ويحيى، وهارون، وعيسى، ومحمد سلام الله عليهم وعلى المرسلين والحمد لله رب العالمين.

ولكل واحد ممن ذكرنا طريق يخصه وعلم ينصه وخبر يقصه ويرثه من ذكرناه ممن ليست له نبوّة التشريع وإن كانت له النبوّة العامة، فلنذكر من ذلك ما تيسر فإنه يطول الشرح فيه ويتفرع إلى ما لا يكاد أن ينحصر، ولهم من الأسماء الإلهية: الله، والرب، والهادي، والرحيم، والرحمن، والشافي، والقاهر، والمميت، والمحيي، والجميل، والقادر، والخالق، والجواد، والمقسط، كل اسم إلهيّ من هذه ينظر إلى قلب نبيّ ممن ذكرنا، وكل نبيّ يفيض على كل وارث، فالنبيّ كالبرزخ بين الأسماء والورثة ولهم من حروف المعجم حروف أوائل السور وهي: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون، وهذا لهم من حيث الإمداد الإلهيّ الذي يأتيهم في قلوبهم. وإنما الذي يأتيهم من الحروف في صور خيالهم بالإمدار أيضاً فالدال، فالذال، والعين، والنون، والصاد، والراء، والألف، والطاء، والحاء، والواو، والضاد، والغين، واللام، والميم، والتاء، والكاف، والباء، والسين، والقاف، والياء، والهاء، والحرف المركب من لام ألف الذي هو للحروف بمنزلة الجوهر، وهذه الحروف من عالم الأنفاس الإلهية، وما تركب من الكلمات من هذه الحروف خاصة مما وقع عليها

الاصطلاح في كل لسان بما تكون به الفائدة في ذلك اللسان، فإن تلك الكلمات لها على ما قيل لي خواص في العالم ليست لسائر الكلم.

وأما الأرواح النورية فعين لهؤلاء الأنبياء منهم أربعة عشر روحاً من أمر الله ينزلون من الأسماء التي ذكرناها الإلهية على قلوب الأنبياء وتلقيها حقائق الأنبياء عليهم السلام على قلوب من ذكرناه من الورثة، ويحصل للفرد الواحد من الأفراد وراثة الجماعة المذكورة، فيأخذون علم الورث من طريق المذكورين من الأرواح الملكية والأنبياء البشريين، ويأخذون بالوجه الخاص من الأسماء الإلهية علوماً لا يعلمها من ذكرناه سوى محمد ﷺ فإن له هذا العلم كله لأنه أخبر أنه قد علم علم الأوّلين وعلم الآخرين.

اعلم أن لله كنوزاً في الطبيعة التي تحت العرش العماء اكتنز فيها أموراً فيها سعادة العباد كاختزان الذهب في المعدن، وصور هذه الكنوز صور الكلمات المركبة من الحروف اللفظية فلا تظهر إذا أراد الله إظهارها إلا على ظهر أرض أجسام البشر على ألسنتهم وإنفاقها والانتفاع بها عين التلفظ بها مثل قول الإنسان: لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم. فهذه الكلمات من الكنوز المنصوص عليها من الله على لسان رسوله ﷺ، وأوّل ما أظهرها الله تعالى على لسان آدم عليه السلام فهو أوّل من أنفق من هذا الكنز في الطواف بالكعبة حين أنزله جبريل فطاف به بالكعبة فسأله: ما كنتم تقولون في طوافكم بهذا البيت؟ فقال جبريل عليه السلام: كنا نقول في طوافنا بهذا البيت: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فأعطى الله آدم وبنيه من حيث لا تعلمه الملائكة كلمة لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم، فقال آدم لجبريل عليهما السلام: وأزيدكم أنا لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم، فبقيت سنة في الذكر في الطواف لبنيه ولكل طائف به إلى يوم القيامة، فأخبر رسول الله ﷺ أن هذه الكلمة أعطيها آدم عليه السلام من كنز من تحت العرش، فالكنوز المكتنزة تحت العرش إنما هي مكتنزة في نشأتنا، فإذا أراد الله إظهار كنز منها أظهره على ألسنتنا وجعل ذلك قربة إليه فإنفاقه النطق به، وهكذا جميع ما اكتنزه مما فيه قربة وما ليس بقربة فما هو مكتنز بل يخلق في الوقت في لسان العبد وكانت صورة اختزانه إذ لا يختزن إلا أمر وجودي أن الله لما أراد إيجاد هذا المكتنز تجلى في صورة آدمية ثم تكلم بهذا الأمر الذي يريد أن يكتنزه لنا أو لمن شاء من خلقه، فإذا تكلم به أسمعه ذلك المكان الذي يختزنه فيه فيمسك عليه، فإذا أنشأ الله ذلك المكان صورة ظهر هذا الكنز في نطق تلك الصورة فانتفع بظهوره عند الله ثم لم يزل ينتقل في ألسنة الذاكرين به دائماً أبداً ولم يكن كنزاً إلا فيمن ظهر منه ابتداء لا في كل من ظهر منه بحكم الانتقال والحفظ، وهكذا كل من سن سنة حسنة ابتداء من غير تلقف من أحد مخلوق إلا من الله إليه، فتلك الحسنة كنزاً اكتنزها الله في هذا العبد من الوجه الخاص ثم نطق بها العبد لإظهارها كالذي ينفق ماله الذي اختزنه في صندوقه فهذا صورة الاكتناز إن فهمت، فلا يكون اكتنازاً إلا من الوجه الخاص الإلهيّ وما عدا ذلك فليس باكتناز، فأول ناطق به هو محل الاكتناز الذي اكتنزه الله فيه وهو في حق من تلقفه منه ذكر مقرّب كان موصوفاً بأنه كنز فهذه كلها رموزه لأنها كلها كنوزه.

وبعد أن أعلمتك بصورة الكنز والاكتناز وكيفية الأمر في ذلك لتعلم ما أنت كنز له أي محل لاكتنازه مما لست بمحل له إذا تلقنته أو تلقفته من غيرك فتعلم عند ذلك حظك من ربك وما خصك به من مشارب النبوّة، فتكون عند ذلك على بينة من ربك فيما تعبده به، ولا تكون فيما أنت محل لاكتنازه وارثاً بل تكون موروثاً فتحقق ما ترثه وما يورث منك. ومن هذا الباب مسألة بلال الذي نص عليها لنا رسول ﷺ في قوله: «**بم سَبقْتني إلى الجَنَّة؟**» يستفهمه إذ علم أن السبق له ﷺ فلما ذكر له ما نص لنا قال بهما أي بتينك الحالتين فمن عمل على ذلك كان له أجر العمل ولبلال أجر التسنين وأجر عملك معاً، فهذا فائدة كون الإنسان محلاً للاكتناز، وأما تسنين الشر فليس باكتناز إلهيّ وإنما هو أمر طبيعي، فإن النبي ﷺ يقول معلماً لنا: «**وَالخَيرُ كُلُّهُ بِيَدَيْكَ**» أي أنت الذي اكتنزته في عبادك فهو بجعلك فيهم واختزانك ولذلك يكون قربة إليك العمل به ثم قال: «**وَالشَّرُّ لَيسَ إلَيْكَ**» أي لم تختزنه في عبادك وهو قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩] فأضاف السوء إليك والحسن إليه، وقوله صدق وإخباره حق. وأما قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: ٧٨] أي التعريف بذلك من عند الله والحكم بأن هذا من الله وهذا من نفسك وهذا خير وهذا شر، هذا معنى كل من عند الله، ولهذا قال في حق من جهل الذي ذكرناه منهم ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] أي ما لهم لا يفقهون ما حدثتهم به فإني قد قلت: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩] فرفعت الاحتمال أو نصصت على الأمر بما هو عليه، فلما قلت: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: ٧٨] يعلم العالم بالله أني أريد الحكم والإعلام بذلك أنه من عند الله لا عين السوء، ولما علم ذلك رسول الله ﷺ قال: «**وَالخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيسَ إلَيْكَ**» وكذلك قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا﴾ أنه فجور ﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨] أنه تقوى ليفصل بين الفجور والتقوى إذ هي محل لظهور الأمرين فيها، فربما التبس عليها الأمر وتخيلت فيه أنه كله تقوى فعلمها الله فيما ألهمها ما يتميز به عندها الفجور من التقوى ولذا جاء بالإلهام ولم يجيء بالأمر، فإن الله لا يأمر بالفحشاء والفجور فحشاء فالذكر للأصل وهو القطب والتحميدان أعني تحميد السراء والضراء، لما انقسم التحميد بلسان الشرع بين قوله في السراء الحمد لله المنعم المفضل وبين قوله في الضراء الحمد لله على كل حال وما له في الكون إلا حالة تسر أو حالة تضر ولكل حالة تحميد، فقسمها كذا على الإمامين فهؤلاء ثلاثة قد بينت مراتبهم.

ولما كانت الجهات التي يأتي منها الشيطان إلى الإنسان أربعة وهي قوله تعالى لنا في كتابه عن إبليس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ﴾ [الأعراف: ١٧] وقام على كل جهة من هذه الجهات من يحفظ إيمانه منها جعل الأوتاد أربعة للزومهم هذه الجهات لكل وتد جهة أي الغالب عليه حفظ تلك الجهة خاصة وإن كان له حفظ لسائر الجهات كأفرضكم زيد وأقضاكم علي، وكالجماعة تحمل ما لا يقدر الواحد على حمله إذا انفرد به، فلكل واحد من الجماعة قوة في حمله، وأغلب قوته حمل ما يباشره من ذلك المحمول،

فلولا الجماعة ما انتقل هذا المحمول لأن كل واحد واحد لا يقدر على حمله فبالمجموع كان الحمل كذلك هذا الأمر فهذه سبعة. وأما الأبدال فلهم حفظ السبع الصفات في تصريف صاحبها لها إذ لها تصرّف في الخير وتصرّف في الشرّ فتحفظ على صاحبها تصريف الخير وتقيه من تصريفها في الشر، فهذه جملة الأربعة عشر التي ذكرناها لقوم يعقلون من المؤمنين إذا أنصفوا، ومن حصل له حفظ ما ذكرناه فذلك المعصوم وتلك العصمة ما ثم غير هذين في الظاهر والباطن ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وإذا علمت هذا وانفتح لك مقفله مشيت لكل واحد من الذي عينا لك على ما له مما ذكرناه من الأسماء الإلهية والحروف الرقمية المعينة والأفهام الموروثة من النبيين المذكورين والأرواح النورية فيحصل لك ذوقاً جميع ما ذكرناه وكشفاً لمعناه فلا تغفل عن استعماله.

وفي هذا المنزل من العلوم: علم الأذكار المقربة إلى الله تعالى. وعلم الأسماء الإلهية. وعلم اختصاص الرحمة وشمولها. وعلم الأسماء المركبة التي لله. وعلم عواقب الأمور. وعلم العالم. وعلم مراتب السيادة في العالم. وعلم الثناء بالثناء. وعلم الملك والملكوت. وعلم الزمان. وعلم الجزاء. وعلم الاستناد. وعلم التعاون. وعلم العبادة. وعلم البيان والتبيين. وعلم طرق السعادة. وعلم النعمة والمنعم والإنعام. وعلم أسباب الطرد عن السعادة التي لا يشوبها شقاء. وعلم الحيرة والمتحيرين. وعلم السائل والمجيب. وعلم التعريف بالذات والإضافة وأي التعريفين أقوى؟ هذه أمهات العلوم التي يحوي عليها هذا المنزل، وكل علم منها فتفاصيله لا تنحصر إلا لله تعالى أي يعلم مع علمه بها أنها لا تنحصر لأنها لا نهاية لها، ومنها تقع الزيادة في العلم لمن طلبها ومن أعطيها من غير طلب وهو قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فإن تناهى العلم في نفسه فإن المعلوم لا ينتهي: [السريع]

وقد نَهَيْتُ النَّفْسَ عن قولها ... بالانتِهَا فيه فلم تَنْتَهِ
لجَهْلِهَا بالأمر في نفسه ... لذاك قالت إنّه يَنْتَهي
وقد رأينا نَفَراً مِنْهُمُ ... بمَكَّةَ يَجُولُ في مَهْمَهِ
قد حَكَمَتْ أوهامُهُمْ فِيهِمُ ... فانْحَازَ ذو اللُّبِّ من الأبْلَهِ

واعلم أن عالم الإنسان لما كان ملكاً لله تعالى كان الحق تعالى ملكاً لهذا الملك بالتدبير فيه وبالتفصيل ولهذا وصف نفسه تعالى بأن ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤] وقال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] فهو تعالى حافظ هذه المدينة الإنسانية لكونها حضرته التي وسعته وهي عين مملكته، وما وصف نفسه بالجنود والقوّة إلا وقد علم أنه تعالى قد سبقت مشيئته في خلقه أن يخلق له منازعاً ينازعه في حضرته ويثور عليه في ملكه بنفوذ مشيئته فيه وسابق علمه وكلمته التي لا تتبدل سماه الحارث وجعل له خيلاً ورجلاً وسلطه على هذا الإنسان، فأجلب هذا العدو على هذا الملك الإنساني بخيله ورجله ووعده بالغرور بسفراء خواطره التي تمشي بينه وبين الإنسان، فجعل الله في مقابلة أجناده أجناد ملائكته، فلما تراءى الجمعان وهو في قلب جيشه جعل له ميمنة وميسرة وتقدمة وساقة وعرفنا الله بذلك لنأخذ

حذرنا منه من هذه الجهات فقال الله تعالى لنا: إنه قال هذا العدو: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٧] وهو في قلب جيشه في باطن الإنسان، فحفظ الله هذا الملك الإنساني بأن كان الله في قلب هذا الجيش وهذا العسكر الإنساني في مقابلة قلب جيش الشيطان، وجعل على ميمنته الاسم الرب، وعلى ميسرته الاسم الملك، وعلى تقدمته الاسم الرحمن، وفي ساقته الاسم الرحيم، وجعل الاسم الهادي يمشي برسالة الاسم الرحمن الذي في المقدمة إلى هذا الشيطان وما هو شيطان الجان وإنما أعني به شيطان الإنس فإن الله يقول: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس] فإن شياطين الإنس لهم سلطان على ظاهر الإنسان وباطنه، وشياطين الجن هم نواب شياطين الإنس في بواطن الناس، وشياطين الجن هم الذين يدخلون الآراء على شياطين الإنس ويدبرون دولتهم فيفصلون لهم ما يظهرون فيها من الأحكام، ولا يزال القتال يعمل على هذا الإنسان المؤمن خاصة فيقاتل الله عنه ليحفظ عليه إيمانه، ويقاتل عليه إبليس ليرده إليه ويسلب عنه الإيمان ويخرجه عن طريق سعادته حسداً منه، فإنه إذا أخرجه تبرأ منه وجثا بين يدي ربه الذي هو مقدم صاحب الميمنة، ويجعله سفيراً بينه وبين الاسم الرحمن، وعرفنا الله بذلك كله لنعرف مكايده، فهو يقول للإنسان بما يزين له اكفر فإذا كفر يقول له: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها، لأن الكفر هنا هو الشرك وهو الظلم العظيم ولذلك قال: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٧] يريد المشركين فإنهم﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] وفسره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قاله لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣] فعلمنا بهذا التفسير أن الله أراد بالإيمان هنا في قوله: ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] أنه الإيمان بتوحيد الله لأن الشرك لا يقابله إلا التوحيد، فعلم النبي ﷺ ما لم تعلمه الصحابة، ولهذا ترك التأويل من تركه من العلماء ولم يقل به واعتمد على الظاهر وترك ذلك لله إذ قال: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] فمن أعلمه الله بما أراده في قوله علمه بإعلام الله لا بنظره ومن رحمة الله بخلقه أنه غفر للمتأولين من أهل ذلك اللسان العلماء به إذا اخطؤوا في تأويلهم فيما تلفظ به رسولهم إما فيما ترجمه عن الله وإما فيما شرع له أن يشرعه قولاً وفعلاً.

وليس في المنازل الإلهية كلها على كثرتها ما ذكرنا منها في هذا الكتاب وما لم نذكر من يعطي الإنصاف ويؤدي الحقوق ولا يترك عليه حجة لله ولا لخلقه، فيوفي الربوبية حقها والعبودية حقها وما ثم إلا عبد ورب إلا هذا المنزل خاصة، هكذا أعلمنا الله بما ألهمه أهل طريق الله الذي جرت به العادة أن يعلم الله منه ورثة أنبيائه وهو منزل غريب عجيب أوله يتضمن كله وكله يتضمن جميع المنازل كلها، وما رأيت أحداً تحقق به سوى شخص واحد مكمل في ولايته لقيته بإشبيلية وصحبته وهو في هذا المنزل وما زال عليه إلى أن مات رحمه الله وغير هذا الشخص فما رأيته مع أني ما أعرف منزلاً ولا نحلة ولا ملة إلا رأيت قائلاً بها

ومعتقداً لها ومنصفاً بها باعترافه من نفسه، فما أحكي مذهباً ولا نحلة إلا عن أهلها القائلين بها وإن كنا قد علمناها من الله بطريق خاص، ولكن لا بد أن يرينا الله قائلاً بها لنعلم فضل الله عليّ وعنايته بي حتى أني أعلمت أن في العالم من يقول بانتهاء علم الله في خلقه وأن الممكنات متناهية وأن الأمر لا بد أن يلحق بالعدم والدثور ويبقى الحق حقاً لنفسه ولا عالم، فرأيت بمكة من يقول بهذا القول وصرح لي به معتقداً له من أهل السوس من بلاد الغرب الأقصى حج معنا وخدمنا وكان يصر على هذا المذهب حتى صرح به عندنا وما قدرت على رده عنه ولا أدري بعد فراقه إيانا هل رجع عن ذلك أو مات عليه، وكان لديه علوم جمة وفضل إلا أنه لم يكن له دين وإنما كان يقيمه صورة عصمة لدمه هذا قوله لي ويعطيه مذهبه، وليس في مراتب الجهل أعظم من هذا الجهل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى السفر السابع والعشرون بانتهاء الباب الثالث والثمانين وثلاثمائة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[السفر الثامن والعشرون]

الفصل الخامس في المنازلات وهو من سرّ قوله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] **وهو من الحضرة المحمدية**

الباب الرابع والثمانون وثلاثمائة

في معرفة المنازلات الخطابية

[نظم: مخلَّع البسيط]

مُنَازلاتُ العُلُوم تُبْدي ... حَقَائِقَ الحَقِّ والعِبَادِ
بلا تَغَالِ ولا مِرَاءِ ... ولا جِدالٍ ولا عِنَادِ
فَقُلْ لِعَقْلِيَ أَقْصِرْ فَنَقْلي ... يَهْدي إلى الغَيِّ والرَّشَادِ
فَكُلُّ ذِكْري إلى صلاح ... وبَعْضُ فِكْري إلى فَسَادِ
فأنفعُ العِلْم عِلْمُ فَقْري ... للسيِّد الواهب الجوادِ

اعلم أيدك الله وإيانا أن المنازلة فعل فاعلين هنا وهي تنزل من اثنين كل واحد يطلب الآخر لينزل عليه أو به كيف شئت فقل، فيجتمعان في الطريق في موضع معين فتسمى تلك منازلة لهذا الطلب من كل واحد، وهذا النزول على الحقيقة من العبد صعود، وإنما سميناه نزولاً لكونه يطلب بذلك الصعود النزول بالحق قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] فهو براقه الذي يسري به إليه وينزل به عليه، ويقول تعالى في حق نفسه على ما ذكره رسول الله ﷺ عنه فقال: «**يَنزِلُ رَبُّنَا إلَى السَّمَاءِ الدُّنيا كُلَّ لَيلَةٍ**» الحديث بطوله فوصفه بالنزول إلينا، فهذا نزول حق لخلق ومنا نزول خلق لحق لأنه لا يتمكن لنا أن يكون لنا العلو والكبرياء والغنى عنه، فلنا صفة الصغار والفقر إليه، وله صفة الغنى والكبرياء:

[مخلع البسيط]

فكُلُّنا إليه فَقِيرُ ... وكلُّنا لديه صَغِيرُ
وكُلُّنا نراه سوانا ... وهو الغنيُّ عنَّا الكبيرُ
إلا أنَا فإنّي أراه ... عيني وإنّني لَخَبيرُ
وبعد أن علمت ذا قلت إني ... إلى غناهُ عبدٌ فَقِيرُ

وعلى الحقيقة فبنا ننزل عليه، وبنا ينزل علينا، ولولا ذلك ما علمنا ما يقول في خطابه لنا فإنه الغني الحميد، وعلى حقيقة الحقيقة فبه ننزل عليه وبه ينزل علينا، وسواء كانت منازلة

أو نزولاً تاماً فيكون المتكلم والسامع فهو يعلم ما يقول فإنه سمع من كان هذا مقامه فما سمع كلامه غيره، ولما كان هو الأصل لم نكن إلا به، فإن الفرع بصورة الأصل يخرج وفيها يظهر الثمر أعني في الفروع وتحصل الفوائد كما هي محل الحوائج فما ثم إلا هو: [مخلع البسيط]

لو كان لي إليكَ سَبِيلُ ... ما كان لي عليك دَلِيلُ
لذاك أنت رَبٌّ عزيزٌ ... وإنّني العُبَيْدُ الذَّليلُ
عجبتُ من إلٰهٍ وعَبْدٍ ... في منزل عَلِيٌّ يَهُولُ
إضافةٌ وحَرْفَيْ شُمُولٍ ... بأنه ونحن عَدِيلُ
الله قالَهُ لم يَقُلْهُ ... كَوْنٌ فقلتُه إذ يَقولُ

ومن ذلك: [مجزوء الرجز]

هَذا هُوَ الأَمْرُ الَّذي ... لا بُدَّ مِنْهُ وكَفَى
فاعْمَلْ على قَوْلي إذا ... كُنتَ به مُتَّصِفَا
وكُنْ إذا نَاظَرَكَ الـ ... حَقُّ عَلَيْهِ مُنْصِفَا
فَأَنْتَ إنْ خَالَفْتَهُ ... كُنتَ بها على شَفَا

واعلم أن الحق لا يكلم عباده ولا يخاطبهم إلا من وراء حجاب صورة يتجلى لهم فيها تكون له تلك الصورة حجاباً عنه ودليلاً عليه، كالصورة الظاهرة الجسدية من الإنسان إذا أرادت النفس الناطقة أن تكلم نفساً أخرى كلمتها من وراء حجاب صورة جسدها بلسان تلك الصورة ولغتها مع كون النفس مخلوقة وأمرها كما ذكرناه فكيف بالخالق؟ فلا يشهد المنازل في المنازلات الخطابية إلا صور عنها تأخذ ما تترجم له عنه من الحقائق والأسرار وهي السنة الفهوانية وحد المنازلات من العماء إلى الأرض وما بينهما، فمهما فارقت الصورة العماء وفارقت الصورة الإنسانية الباطنة الأرض ثم التقتا فتلك المنازلة، فإن وصلت إلى العماء أو جاءها الأمر إلى الأرض فذلك نزول لا منازلة، والمحل الذي وقع فيه الاجتماع منزل، وتسمى هذه الحضرة التي منها يكون الخطاب الإلهي لمن شاء من عباده حضرة اللسن، ومنها كلم الله تعالى موسى عليه السلام، ألا تراه تجلى له في صورة حاجته؟ ومنها أعطى رسول الله ﷺ جوامع الكلم، فجمع له في هذه الحضرة صور العالم كلها، فكان علم أسماء هذه الصور علم آدم عليه السلام وأعيانها لمحمد ﷺ مع أسمائها التي أعطيت لآدم عليه السلام، فإن آدم من الأوّلين الذي أعطى الله محمداً ﷺ علمهم حين قال عن نفسه أنه أعطاه الله علم الأولين والآخرين. ومنها آتى الله تعالى داود عليه السلام الحكمة وفصل الخطاب وجميع الصحف والكتب المنزلة من هذه الحضرة صدرت. ومنها أملى الحق على القلم الأعلى ما سطره في اللوح المحفوظ وكلام العالم كله غيبه وشهادته من هذه الحضرة والكل كلام الله فإنها الحضرة الأولى، فإن الممكنات أول ما لها من الله تعالى في إيجادها قول: ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] ففتق الأسماع من الممكنات هذا الخطاب: وآخر دعواهم في الجنة الحمد

لله رب العالمين عند قول الله لأهل الجنة». «رضائي عنكم فلا أسخط عليكم أبداً». ولولا نفس الرحمن ما ظهرت أعيان الممكنات الكلمات.

واعلم أن الحركات كانت ما كانت لا تكون إلا من متحرك في شيء عن قصد من المحرك كان المحرّك نفسه أو غيره فتحدث الصور عن حركته لا بل عن تحركه فيما تحرك فيه بحسب قصده، فتتشكل الصور بحسب الموطن وبالقصد الذي كان من المحرك، كالحروف في النفس الخارج من الإنسان إذا قصد إظهار حرف معين لإيجاد عينه في موطنه الذي هو له انفتحت صورة الحرف في ذلك الموطن، فعين لذلك الحرف اسماً يخصه يتميز به عن غيره إذا ذكر كما تتميز صورته عن صورة غيره إذا حضر وذلك بحسب امتداد النفس، ثم إذا قصد إظهار كلمة في عينها قصد عند إظهار أعيان الحروف في نفسه إظهار حروف معينة لا يظهر غيرها فينضم في السمع بعضها إلى بعض فتحدث في السمع الكلمة وهي نسبة ضم تلك الحروف ما هي أمر زائد على الحروف إلا أنها نسبة جمعها، فتعطي تلك الجمعية صورة لم تكن الحروف مع عدم هذه النسبة الجمعية تعطيها، فهذا تركيب أعيان العالم المركب من بسائطه، فلا تشهد العين إلا مركباً من بسائط، والمركب ليس بأمر زائد على بسائطه إلا نسبة جمع البسائط، وإنما ذكرنا هذا حتى تعلم أن ما تشهده العين والتركيب في أعيان هذه الحروف لا يتناهى فلذلك لا تنفد كلمات الله، فصور الكلمات تحدث أي تظهر دائماً فالوجود والإيجاد لا يزال دائماً. فاعلم أيها المركب من أنت وبماذا تركبت وكيف لا تظهر لعينك في بسائطك وظهرت لعينك في تركيبك؟ وما طرأ أمر وجودي إلا نسبة تركيب تحكم عليه بأمر لم تكن تحكم به قبل التركيب فافهم، أنشأ صورة ﴿كُن﴾ من النفس ثم الكائنات عن ﴿كُن﴾ فما أظهرت إلا كلمات كلها عن ﴿كُن﴾ وهي لفظة أمر وجودي، فما ظهر عنها إلا ما يناسبها من حروف مركبة تجتمع مع كن في كونها كلمة فما أمره يعني إلا واحدة وهو قوله: ﴿كُن﴾ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ [القمر: ٥٠] وقال: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] ذلك الشيء في عينه، فيتصف ذلك المكوّن بالوجود بعدما كان يوصف بأنه غير موجود إلا أنه ثابت مدرج في النفس غير موجود الحرفية، فالمنازلة الأصلية تحدث الأكوان وتظهر صور الممكنات في الأعيان، فمن علم ما قلناه علم العالم ما هو ومن هو، فسبحان من أخفى هذه الأسرار في ظهورها وأظهرها في خفائها، فهي الظاهرة الباطنة والأولى والآخرة لقوم يعقلون: [البسيط]

والعَيْنُ واحدةٌ والحُكْمُ للنَّسَبِ والعَيْنُ ظاهرةٌ والكَوْنُ للسَّبَبِ

قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ﴾ فنفى ﴿إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ فأثبت عين ما نفى ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فنفى عين ما أثبته فصار إثبات الرمي وسطاً بين طرفي نفي، فالنفي الأوّل عين النفي الآخر، فمن المحال أن يثبت عين الوسط بين النفيين لأنه محصور فيحكم عليه الحصر، ولا سيما والنفي الآخر قد زاد على النفي الأوّل بإثبات الرمي له لا للوسط، فثبت الرمي في الشهود

الحسي لمحمد ﷺ بثبوت محمد ﷺ في كلمة الحق، فكما هو رام لا رام كذلك هو في الكلمة الإلهية محمد لا محمد، إذ لو كان محمداً كما تشهد صورته لكان رامياً كما يشهد رميه، فلما نفى الرمي عنه الخبر الإلهيّ انتفى عينه إذ لا فرق بين عينه ورميه وهكذا فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وهذه هي البصيرة التي كان عليها الدعاة إلى الله يعلمون من يدعو إلى الله ومن يدعى إلى الله فالإدراك واحدا، فإذا أدرك به الأمر على ما هو عليه سمي بصيرة لأنه علم محقق، وإذا أدرك به عين نسبة ما ظهر في الحس سمي بصراً، فاختلفت الألقاب عليه باختلاف الموطن، كما اختلف حكم عين الأداة وإن كانت بصورة واحدة حيث كانت تختلف باختلاف المواطن مثل أداة لفظة ما لا شك أنها عين واحدة، ففي موطن تكون نافية مثل قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] وفي موطن تكون تعجباً مثل قوله: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] وفي موطن تكون مهيئة مثل قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الحجر: ٢] وفي موطن تكون اسماً مثل قوله: ﴿إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ١١٧] إلى أمثال هذا، وقد تكون مصدرية وتأتي للاستفهام وتأتي زائدة وغير ذلك من مواطنها، فهذه عين واحدة حكمت عليها المواطن بأحكام مختلفة، كذلك صور التجلي بمنزلة الأحكام لمن يعقل ما يرى، فأبان الله لنا فيما ذكره في هذه الآية أن الذي كنا نظنه حقيقة محسوسة إنما هي متخيلة يراها رأي العين والأمر في نفسه على خلاف ما تشهده العين وهذا سار في جميع القوى الجسمانية والروحانية. فالعلم كله في صور مثل منصوبة، فالحضرة الوجودية إنما هي حضرة الخيال، ثم تقسم ما تراه من الصور إلى محسوس ومتخيل والكل متخيل، وهذا لا قائل به إلا من أشهد هذا المشهد، فالفيلسوف يرمي به، وأصحاب أدلة العقول كلهم يرمون به، وأهل الظاهر لا يقولون به نعم ولا بالمعاني التي جاءت له هذه الصور، ولا يقرب من هذا المشهد إلا السوفسطائية، غير أن الفرق بيننا وبينهم أنهم يقولون إن هذا كله لا حقيقة له، ونحن لا نقول بذلك بل نقول إنه حقيقة، ففارقنا جميع الطوائف ووافقنا الله ورسوله بما أعلمناه مما هو وراء ما أشهدناه فعلمنا ما نشهد، والشهود عناية من الله أعطاها إيانا نور الإيمان الذي أنار الله به بصائرنا.

ومن علم ما قررناه علم علم الأرض المخلوقة من بقية خميرة طينة آدم عليه السلام، وعلم أن العالم بأسره لا بل الموجودات هم عمار تلك الأرض وما خلص منها إلا الحق تعالى خالقها ومنشيها من حيث هويته إذ كان له الوجود ولا هي ولولا ما هو الأمر على ما ذكرناه ما صحت المنازلة بيننا وبين الحق، ولا صح نزول الحق إلى السماء الدنيا ولا الاستواء على العرش ولا العماء الذي كان فيه ربنا قبل أن يخلق خلقه، فلولا حكم الاسم الظاهر ما بدت هذه الحضرة ولا ظهر هذا العالم بالصورة، ولولا الاسم الباطن ما عرفنا أن الرامي هو الله في صورة محمدية فما فوق ذلك من الصور فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ وهو بشر ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] مثل قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فالرامي هو الله والبصر يشهد محمداً ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] صورة بشرية لتقع المناسبة بين الصورتين بالخطاب ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١] وهو ترجمان الحق في قلب العبد نزل به الروح

الأمين على قلبك، فإذا أوحى الله إلى الرسول البشري من الوجه الخاص بارتفاع الوسائط وألقاه الرسول علينا فهو كلام الحق لنا من وراء حجاب تلك الصورة المسماة رسولاً إن كان مرسلاً إلينا أو نبياً، وقد تكون هذه الرتبة لبعض الأولياء، فإذا انكشف الغطاء البشري عن عين القلب أدرك جميع صور الموجودات كلها بهذه المثابة في خطاب بعضهم بعضاً وسماع بعضهم من بعض، فاتخذ المتكلم والسامع والباطش والساعي والمحس والمتخيل والمصور والحافظ وجميع القوى المنسوبة إلى البشر، فالمنازلات كلها برزخية بين الأوّل والآخر والظاهر والباطن، وصور العالم وصور التجلي ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فالمترجم المتكلم، وقد عرفنا أن الكلام المسموع هو كلام الله لا كلامه فتنظر ما جاء به في خطابه البرزخي وافتح عين الفهم لإدراكه وكن بحسب ما خاطبك به، ولا يسمع كلام الله إلا بسمع الله، ولا كلام الصورة إلا بسمع الصورة، والسامع من وراء السمع، والمتكلم من وراء الكلام ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج] من التبديل والتغيير فإما ما يدل على توحيد، وإما صفة تنزيه، وإما صفة فعل، وإما ما يعطي الاشتراك، وإما تشبيه، وإما حكم، وإما قصص، وإما موعظة بترغيب أو ترهيب أو دلالة على مدلول عليه فهو محصور بين محكم ومتشابه كل خطاب في العالم، فالطور الجسم لما فيه من الميل الطبيعي لكونه لا يستقل بنفسه في وجوده ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور: ٢] عن إملاء إلهيّ، ويمين كاتبة بقلم اقتداري ﴿فِى رَقٍّ﴾ وهو عينك من باب الإشارة لا من باب التفسير ﴿مَّنشُورٍ﴾ [الطور: ٣] ظاهر غير مطوي فما هو مستور ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ [الطور: ٤] وهو القلب الذي وسع الحق فهو عامر ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ ما في الرأس من القوى الحسية والمعنوية ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦] رأي الطبيعة الموقدة بما فيها من النار الحاكم الموجب للحركة ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: ٧] أي ما تستعذ به النفس الحيوانية والروح الأمري والعقل العلوي من سيدها المربي لها المصلح من شأنها ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ لساقط عليها إذ كانت لها المنازل السفلية من حيث إمكانها مطلقاً، ومن حيث طبعها مقيداً ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٨] لأنه ما ثم غير ما ذكرناه، فمن عندنا التلقي لتدليه والترقي لتدانيه، وبين هذين الحكمين ظهور البرازخ التي لها المجد الشامخ والعلم الراسخ.

وقد تكون المنازلة بين الأسماء الإلهية مثل المنازلة في الحرب على هذا الإنسان إذا خالف أمر الله فيطلبه التوّاب والغفور والرحمن، ويطلبه المتنقم والضارّ والمذل وأمثالهم، وقد ورد في الحديث من هذا الباب قوله تعالى: «**مَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَسَمَةِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْ لِقَائِي**» وهذا من المنازلة، وقد ذقت هذا الكشف رأيته من الله في قتل الدجال بحضور رسول الله ﷺ معي فيه، ومن هنالك انفتح لي باب بسط الرحمة على عباد الله وعلمت أن رحمته وسعت كل شيء فلا بد أن ينفذ حكمها في كل شيء، وعلمت حكمة انعدام الأعراض لأنفسها في الزمان الثاني من زمان وجودها، وخلق الله الأمثال في المحل أو الأضداد، إذ لو ثبت عرض ثبوت محله إذا لم يكن محله

معنى مثله أي عرض آخر مثله في العرضية لبقي كما يبقى الجوهر ولم تكن تتبدل حاله على الجوهر، فيكون إما دائم الشقاء من أول خلقه أو دائم السعادة، فتكون رحمة الله قاصرة على أعيان مخصوصين كما تكون بالوجوب في قوم منعوتين بنعت خاص، وفيمن لا ينالها بصفة مقيدة وجوباً تناله الرحمة من باب الامتنان كما نالت هذا الذي استحقها ووجبت له بالصفة التي أعطته فاتصفت بها فوجبت الرحمة له، فالكل على طريق الامتنان نالها ونالته، فما ثم إلا منة إلهية أصلاً وفرعاً، ثم تسري المنازلة بين الأصبعين من أصابع الرحمن في القلب في ميدان الإرادة، فإن أزاغه أزاغه رحمان، وإن أقامه أقامه رحمان، فما ثم حكم إلا له لأنه المستوي على العرش، فلا تنفذ الأحكام إلا من هذا الاسم، ثم تظهر المنازلة بين الملك والشيطان على القلب باللمتين اللتين يجدهما المكلف في قلبه، فإن لم يكن مكلفاً ووجد التردد في قلبه فلا يخلو إما أن يكون في دار تكليف أو لا يكون، فإن كان في دار تكليف فالتردد إنما هو من اللمة الملكية واللمة الشيطانية بطلب كل واحد منهما لما نفذت فيه لمته أن يكون للمكلف في ذلك دخول بإعانة في فساد، فيجوز الإثم عليه كصبيين لم يبلغا حد التكليف فيتضاربان عن لمة الشيطان التي غلبت على كل واحد منهما فيجيء والداهما أو شخصان من قرابتهما أو جيرانهما أو من كان من الحاضرين من الناس فيدخلون بينهما بغير ميزان شرعي بل حمية غرض، فربما يؤدي ذلك إلى أن يكتسبوا إثماً فيما سعوا به في حقهما فلهذا تكون حركة الصبي بالشرّ عن لمة الشيطان فافهم واعرف المواطن تقر بالعلم الأتم. وإن كان غير مكلف ولا في دار تكليف ووجد التردد في أمر بين فعلين لا حرج عليه فيما يفعل منهما فذلك التردد والمنازلة بين الخاطرين كالتردد الإلهيّ غير أنه في العبد من أجل طلب الأولى والأعلى في حقه، كما يتردد المكلف بين طاعتين أيتهما يفعل، فهذا تردد إلهيّ ما هو عن اللمتين إنما هما غرضان أو غرض واحد تعلق بأمرين إما على التساوي أو إبانة ترجيح يقتضيه الوقت وما هو مكلف ولا في دار تكليف، لأنه لولا التكليف ما قرب شيطان إنساناً بإغواء أبداً لأنه عبث والعبث لا يفعله الحق لأن الكل فعله ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فصاحب علم المنازلات لا بدّ له أن يقف على هذا كله وأمثاله، وكل تردد في العالم كله فهذا أصله، أما التردد الإلهيّ أو الأصبعان أو اللمتان فشيء آخر له حكم ما هنالك، والأصل التردد الإلهيّ وما تعطيه حقائق الأسماء الإلهية المتقابلة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، فلنذكر في هذا الفصل بعض ما حصل لنا في المنازلات من المعارف الإلهية فإنها أكثر من أن تحصى فمن ذلك ما نذكره.

الباب الخامس والثمانون وثلاثمائة

في معرفة منازلة من حقر غلب ومن استهين منع

[نظم: البسيط]

لا تَحْقِرَنَّ عِبَادَ الله إنّ لهم ... قَدْراً ولو جُمِعَتْ لك المَقَامَاتُ

أليس أسماؤه تبدي حقائقهم ... ولو تولتهم فيها الجهالات
إلا إذا انتهكوا الشرع الذي انتهكت ... حرمات منتهكيه السمهريات
ففر من أجل حمى الرحمن إن له ... عيناً لمن حكمت فيه الحميات
فإن أسماءك الحسنى بأسمائه الـ ... حسنى تناط وتدنيها العنايات

اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس أن احتقار شيء من العالم لا يصدر من تقي يتقي الله فكيف من عالم بالله علم دليل أو علم ذوق؟ فإنه ليس في العالم عين إلا وهو من شعائر الله من حيث ما وضعه الحق دليلاً عليه ووصف من يعظم شعائر الله فقال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] أي فإن عظمتها من تقوى القلوب أو الشعائر عينها من تقوى القلوب، ثم إن كل شعائر الله في دار التكليف قد حد الله لها للمكلف في جميع حركاته الظاهرة والباطنة حدوداً عمت جميع ما يتصرف فيه روحاً وحساباً لحكم وجعلها حرمات له عند هذا المكلف فقال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٠] وتعظيمها أن يبقيها حرمات كما خلقها الله في الحكم فإن ثم أموراً تخرجها عن أن تكون حرمات كما تكون في الدار الآخرة في الجنة على الإطلاق من غير منع وهو قوله تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤] وقوله: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥] وارتفع الحجر فربما يقام العبد في دار التكليف في هذا الموطن فيريد التصرّف فيه كما تعطيه حقيقته ولكن في موطنه فيسقط حرمات الله في ذلك فلا يرفع بها رأساً ولا يجد لها تعظيماً فيفقد خيرها إذ لم يعظمها عند ربه كما قال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠] وإنما قال هذا ولم يتوعد بسبب أن أصحاب الأحوال إذا غلبت عليهم كانوا أمثال المجانين ارتفع عنهم القلم فيفوتهم لذلك خير كثير عند الله، ولهذا لا يطلب الحال أحد من الأكابر وإنما يطلب المقام ونحن في دار التكليف، فما فاتنا في هذه الدار من ذلك فقد فاتنا خيره هنالك، فنعلم قطعاً أنا لسنا من أهل العناية عند الله بفوت هذا الخير، هذا إذا لم تتعمل في تحصيل هذا الحال الذي يفوتنا هذا الخير، فكيف بنا إذا اتصفنا بهذا الحكم المفوت للخير عن نظر في أصول الأمور حين نعرف بعض حقائقها فيكون في ذلك البعض المفوّت لنا هذا الخير، وقد رأينا منهم جماعة كثيرة من أصحاب النظر في ذلك من غير حال ذوقي الله يعيذنا منه حالاً ونظراً.

ولما كان الدليل يشرف بشرف المدلول والعالم دليل على وجود الله فالعالم شريف كله فلا يحتقر شيء منه ولا يستهان به، هذا إذا أخذناه من جهة النظر الفكري وهو في القرآن في قوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ [الغاشية] الآيات النظرية كلها الواردة في القرآن، وكقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥] الآية، وقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[البقرة: ١٦٤] الآية، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ﴾ [الحج: ١٨] الآية، وكقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] وأمثال هذه الآيات. وأما عند أهل الكشف والوجود فكل جزء في العالم بل كل

شيء في العالم أوجده الله لا بد أن يكون مستنداً في وجوده إلى حقيقة إلهية، فمن حقره أو استهان به فإنما حقر خالقه واستهان به ومظهره وكل ما في الوجود فإنه حكمة أوجدها الله لأنه صنعة حكيم، فلا يظهر إلا ما ينبغي لما ينبغي كما ينبغي، فمن عمي عن حكمة الأشياء فقد جهل ذلك الشيء، ومن جهل كون ذلك الأمر حكمة فقد جهل الحكيم الواضع له ولا شيء أقبح من الجهل. فإن قلت فالجهل من العالم وقد قبحته فقد قبحت من استند إليه الجهل في وجوده. قلنا: كان يصح هذا لو كان الجهل نسبة وجودية، فالجهل إنما هو عبادة عن عدم العلم لا غير فليس بأمر وجودي والعدم هو الشر والشر قبيح لنفسه حيثما فرضته، ولهذا ورد في الخبر الصحيح أن النبي ﷺ قال في دعائه ربه تعالى: «**وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**» فما نسب الشر إليه، فلو كان الشر أمراً وجودياً لكان إيجاده إلى الله إذ لا فاعل إلا الله، فالوجود كله خير لأنه عين الخير المحض وهو الله تعالى.

ثم نرجع إلى أصل الباب وهو قولنا: «من حقر غلب» فنبين ذلك في الهمم، وذلك أن أصل هذا أن كل شخص احتقر شيئاً فإن همته تقوى على التأثير فيه، وعلى قدر ما يعظم عنده يقل التأثير فيه، أو ربما يؤدّي إلى أن لا يكون له أثر فيه، فإن الانفعال في الأشياء إنما هو للهمم، ألا ترى تأثير همم النساء في السحر المعروف عندهم المؤثر في المسحور؟ ولولا ما احتقروا المسحور وقطعوا بهمهم أن هذا الذي يفعلونه قولاً أو عملاً يؤثر في المسحور ما أثر فيؤثر بلا شك، ومن ليست له هذه الهمة في قوّة ذلك الفعل ويعظم عنده من يريد أن يسحره من الناس أن يؤثر فيه ذلك العمل أو القول وعمله أو قاله فإنه لا يؤثر جملة واحدة، فلهذا قلنا: من حقر غلب كما قيل لنا فيه هذه المنازلة، فإذا صدق التوجه صح الوجود، ألا ترى الأشياء الكائنة في العالم وهي من العالم تعز أن تكون أثراً عن العالم أو محكومة للعالم؟ فإن الأمثال تأنف من حيث حقيقتها أن يكون المؤثر فيها العالم فتحقر أمثالها أعني جزئيات العالم فتعلق الهمم بإيجاد أمر ما فتنظر في السبب المعين لها على إيجاد ذلك الأمر في العالم وتبحث عنه إن كان من قبل الأفعال أو الأقوال فتشرع في ذلك العمل أو القول، فإن كان مما يعز بحيث أن لا تتمكن في الأثر فيه إلا بالتوجه إلى الله فتتوجه في ذلك بالدعاء والصدق إلى الله فتؤثر بذلك التوجه تلك الهمة، فإن كان صاحب الهمة مؤمناً احتقر ذلك المؤثر فيه في جنب قوّة الله وعظمته، وإن لم يكن احتقره في قوّة همته وما استعان به على التأثير فيه فهو مغلوب عنده على كل حال وأصله الاحتقار، فإن كل شيء في العالم بالنظر إلى عظمة الله حقير وهذا من علم النسب، وكل شيء في العالم إذا نظرته بتعظيم الله لا بعظمته فهو عظيم وهو الأدب، فإنه لا ينبغي أن ينسب إلى العظيم إلا ما يستعظم، فإنه تعظم عظمته في نفس من نظره بهذا النظر، فإن استحقره فلم يعظم في نفسه بوجه ذلك التعظيم الذي في نفس من عظم عنده ذلك الشيء من العالم وربما يحتج بقوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠] فينبغي للعالم أن لا يتصوّر هذه الآية إلا حتى يتصوّر عزة ذلك الشيء على أمثاله، فإذا حصلت عنده عزة ذلك الشيء حينئذ يقول: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ وإن كان علينا بعزيز فيثبت العزيز

للعزيز، هذا هو الأدب والتعظيم، فالشيء على عزته حقير بالنسبة إلى عزة الله التي لا تقبل التأثير لأجل هذا لحكم، فإن احتج علينا من علم حقيقة ما كنا أومأنا إليه في حال من يسخط الله ويرضه هل يدخل هذا الأثر الحاصل من الكون في الجناب الإلهي في هذا الباب أم لا؟ قلنا: لا يدخل فإن العالم بكل شيء ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [يس: ٨٣] وتصريف كل شيء إذ هو الموجد أسباب السخط والرضى والإجابة في الدعاء، فما خرج عنه شيء يكون لذلك الشيء أثر فيه فهو محرك العالم ظاهراً وباطناً في كل ما يريد كونه، فإن كان ثم أثر فيه فهو الذي أثر في نفسه ما العالم أثر فيه، بل غايتنا فيه أن نقول: أثر في نفسه إن قلنا بذلك العالم أي بتقدم هذا السبب وهو إيجاده الأمر الموجب للسخط عليه في هذا الشخص فأسخط الله بهذا الفعل الذي أوجده في هذا العبد لشقاوة هذا العبد أو ليظهر فيه عقوبته ومغفرته وحكم رحمته على قدر ما يظهر فيه عقيب الأمر المسخط. وأما قوله في المنازلة: «من استهين منع» فقد يكون من استهين في حقه ذلك الشيء منع لأنه جاهل بما طلب فيكون من استهين ذلك المطلوب في حقه منع لما هو أعلى منه، فإن الطالب قد يجهل قدر ما يطلب ويعظم عنده لعدمه إياه، وهو عند الله بالنسبة إلى هذا الطالب دون هذا الطالب فيمنعه مطلوبه فيتخيل الممنوع منه أن ذلك لإهانته على من بيده إعطاء ما سأل فيه وليس كذلك، فيفتح الله إن شاء عين بصيرته ويرزقه الكشف على نفسه وعلى حقيقة ما طلب ويريه الحق في ذلك الكشف أن الذي طلبه ما هو بذاك، ويعرف شرف نفسه عن أن يتصف بالافتقار إلى الله في طلب مثل هذا، فيعلم أن الله ما منعه لإهانته عليه وإنما منعه لاستهانة ذلك المطلوب بالنسبة إليه فيشكر الله على منع ذلك، هذا وجه من وجوه قوله: من استهين منع. والوجه الآخر أن يطلب الطالب فوق قدره حتى لو أعطيه ما قبله لأنه يضعف عن حمله فيمنع لإهانته بالنسبة إلى ما طلبه وهو عكس الأوّل فيكون منع الله إياه رحمة به مثل قوله: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٢٧] لأنهم يضعفون عن القيام بما يستحقه بسط الرزق من الشكر، وليس في قوّته إلا البغي به والكفر والأشر والبطر، ويظهر ذلك في أرباب المناصب في الدنيا، فإذا رأيت صاحب المنصب يحكم عليه المنصب فتعلم أنه دون المنصب وأنه مهان يصرّفه المنصب بعزته كيف يشاء، فلا يزال مذموماً بكل لسان من الحق ومن الخلق. وإذا رأيت صاحب المنصب يصرف المنصب ويحكم على المنصب فتعلم أنه فوق المنصب فيكون محموداً بكل لسان عند الله وعند العالم فيمنع بحق وحكمة ويعطي بحق وحكمة كما قال الحق عن نفسه ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: ٢٧] وذلك لعلم هذا الشخص بالأوزان فإن الله يقول: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [الشورى: ٢٧] فيعلم على من يبسط رزقه وعلى من يقبض عنه ذلك القدر الذي بسطه على غيره فبغى به، ولذلك ما ذكر إلا عموم البسط في العباد كلهم وأضاف البغي للكل لأنه قد بسط للبعض فوقع منهم البغي فيما بسطه له لأنه شغله عن حاجة نفسه الضرورية بحاجة نفسه التي هي غير ضرورية كملك بسط الله له في الملك فأعطاه افتقاره الأصلي أن يسعى في تحصيل ملك غيره ولم يقنع بما عنده، وقد كان قبل حصول ما هو فيه

عنده يشتهي أنه يحصل له بعضه ويقنع به، فلما أعطاه ما قنع وتشوق إلى الزيادة مما هو في يد غيره فلم يحصل له ذلك إن حصل إلا بالبغي في الأرض، فربما أداه ذلك البغي إلى زوال ما بيده فيندم عند ذلك ويعلم أنه ما عاد عليه إلا بغيه، فلو كان عزيزاً في طلبه غير مهان ما منع هكذا يقول عن نفسه، وقد يكون منع الله ذلك في حقه وأخذ ما كان بيده سبباً إلى رجوعه إلى الله وتوبته ليسعده الله بذلك، فالعاقل ينظر في أحواله وتصرّفاته وما أهله الله له، ويعلم أن ذلك كله خطاب الحق بألسنة الأحوال فيفتح عين الفهم وسمعه لذلك الخطاب العقلي والحالي فيعمل بمقتضى فهمه فيه. فإن قلت: فإن كان فهمه فيه ما تعطيه قوّة ذلك المنصب. قلنا: ليس ذلك نريد وما غاب عنا هذا الذي دخلت علينا به ولكن الله قد وضع لنا في العالم الموازين الشرعية لنقيم بها الوزن بالقسط، فإذا أعطى ذلك الأمر الذي يريد تمشيته في العالم بالوزن أخذنا منه قدر ما يدخل الميزان وتركنا منه ما لا يحتمله الميزان، فإن في مقابلة كفة الموزون مقداراً في الكفة الأخرى وذلك المقدار هو الذي يعين لنا من هذا الموزون ما نحتاج إليه في الوقت وهذا معنى قوله: ﴿يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٢٧] وهو القدر الذي في الكفة الأخرى من الميزان ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعۡلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] وقد يكون الميزان مكيلاً فهو على قدر الكيل، والفرق بين المكيال والميزان أن الميزان خارج عنك فتأخذ من الموزون قدر ما يقابله من الكفة الأخرى، والمكيال هو عين ذاتك من حيث ما هي متصفة بحالة ما فذلك عين كيلها، فلا تأخذ من الأمر إلا بقدر قبولها كما يأخذ المكيال فهو على الحقيقة كما هو في الميزان فإنه إذا رجح بأحد الكفتين فقد خرج عن أن يكون وزناً لأنه خرج عن مقدار ما يقابله إما بتطفيف أو غيره، فالنبي ﷺ لما نزل عليه من الشرائع مكيال لا ميزان والحق لما لم يصح أن يكون محلاً للأمر لم ينزل نفسه منزلة المكيال لكن وصف نفسه بأن بيده الميزان ميخفض القسط ويرفعه بحسب مراتب العالم، فكل خفض في ميزان الحق ورفع فهو عن الاعتدال بين الكفتين في الميزان الموضوع في العالم فإن الحق لا يزن إلا حقاً، فميزان الحق لا بد فيه من خفض ورفع لإحدى الكفتين، ولو كان على الاعتدال ما ظهر كون في لعالم أصلاً ولا عدل، فإذا أقيمت موازين الشرع الإلهيّ في العالم سرى العدل في العالم، وكذلك لو أقيم الوزن الطبيعي في العالم لم يكن في العالم مرض ولا موت كما لا يكون في الجنة لأن الميزان الطبيعي في الجنة يظهر حكمه ولذلك هي دار البقاء ويرتفع فيها ميزان الشرع كما ارتفع في الدنيا ميزان الطبع، فالمنع والعطاء لولا الميزان ما كان لهما حكم في العالم، والذي يزن هو الموصوف بالمعطي والمانع والضار والنافع وهو بكل شيء عليم.

فإن قال قائل من أهل التحقيق: إن الجود الإلهيّ ليس فيه منع. قلنا: صدقت. قال: فإذا كنت صادقاً وسلمت لي قولي فما حكم الاسم الإلهيّ المانع وهذا المنع الواقع في العالم لماذا يرجع فإننا لا ننكره؟ قلنا: أما الجود الإلهيّ فلا منع فيه ولكن لا يقبله إلا الممكن ولا يقبله المحال، فإذا عرفت القابل عرفت المانع والمنع، فالقوابل تقبل من هذا الجود المطلق بحسب استعداداتها كالشقة والقصار في فيض الشمس نورها فتبيض الشقة وتسود وجه القصار

إن كان أبيض فيقول لهما الحكيم النور واحد ولكن مزاج القصار لا يقبل من نور الشمس إلا السواد والشقة على مزاج يقبل البياض فمزاجك منعك من قبول البياض، ويقال للشقة مزاجك منعك من قبول السواد، فلكل واحد من المذكورين أن يقول فالمسألة بحالها لِمَ لم تعطني المزاج الذي يقبل السواد؟ والقصار يقول: لِمَ لم تعطني المزاج الذي يقبل البياض؟ قلنا: لا بد في العالم من شقة وقصار، فلا بد من مزاج يقبل البياض ومزاج يقبل السواد فلا بد منكما كنتما ما كنتما فإن العالم لا بد فيه من كل شيء فلا بد أن يكون فيه كل مزاج والحق تعالى ما هو فعله مع الأعراض التي أوجدها في عباده وإنما هو مع ما تطلبه الحكمة، والذي اقتضته الحكمة هو الواقع في العالم، فعين ظهوره هو عين الحكمة، فإنه فعل الله لا يعلل بالحكمة بل هو عين الحكمة، فإنه لو علل بالحكمة لكانت الحكمة هي الموجبة له ذلك فيكون محكوماً عليه والحق تعالى لا يكون محكوماً عليه فلا يوجب موجب عليه شيئاً إلا ما ذكر لنا أنه أوجب على نفسه لا أنه أوجب عليه موجب غيره أمراً ما، فأيّ محل فرضته لمزاج خاص يتصور أن يقول: قد منعني غير هذا المزاج وهذا غلط لأن عين المزاج هو عين ما ظهر لا غيره، ولا يصح أن يقول الشيء عن نفسه لم لم يكن غيري كما قدمنا في الباب الذي قبل هذا الباب أن التركيب ليس إلا البسائط فالتركيب نسبة والنسب عدمية، وقد ظهر أمر لم يكن يظهر لولا تركيب هذه البسائط وجمعها وما هو هذا الظاهر غير أعيان البسائط، وكذلك هذا الظاهر عن هذا المزاج ما هو غير المزاج، فما ثم على الحقيقة من يقول لأي شيء منعت، وإذا لم يكن ثم لم يصح المنع في الجود الإلهيّ فبقي المنع والمانع، إنما يرجعان إلى نسب مقدرة، وما كل أحد أظهره الله على هذا العلم وأمثاله وتنزلت ألسنة الشرائع بحسب ما وقع عليه التواطؤ في ألسنة العالم ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] فلا ينزل إلا بما تواطؤوا عليه، فقد يكون التواطؤ على صورة ما هي الحقائق عليه وقد لا يكون والحق تابع لهم في ذلك كله ليفهم عنه ما أنزله في أحكامه وما وعد به وأوعد عليه، كما قد دل الدليل العقلي على استحالة حصر الحق في أينية، ومع هذا جاء لسان الشرع بالأينية في حق الحق من أجل التواطؤ الذي عليه لسان المرسل إليهم فقال للسوداء: أين الله؟ فلو قالها غير الرسول لشهد الدليل العقلي بجهل القائل فإنه لا أينية له، فلما قالها الرسول وبانت حكمته وعلمه علمنا أنه ليس في قوة فهم هذا المخاطب أن يعقل موجده إلا بما تصوره في نفسه، فلو خاطبه بغير ما تواطأ عليه وتصوره في نفسه لارتفعت الفائدة المطلوبة ولم يحصل القبول، فمن حكمته أن سأل مثل هذه بمثل هذا السؤال وبهذه العبارة، ولذلك لما أشارت إلى السماء قال فيها إنها مؤمنة أي مصدقة بوجود الله ولم يقل عالمة، فالعالم يصحب الجاهل في جهله بعلمه، والجاهل لا يقدر على صحبة العالم على علمه إن لم يكن العالم ينزل إليه في صورة جهله، وكل ذلك حكمة إلهية في العالم. واعلم أن المهانة حقيقة العالم التي هو عليها لأنه بالذات ممكن فقير فهو ممنوع من جميع نيل أغراضه وإرادته منعاً ذاتياً، ولا يحجبنك وقوع بعض مراداته ونيل بعض أغراضه عما قلناه في حقه فإن ذلك ما وقع له إلا بإرادة الحق لا

بإرادته، فذلك المراد وإرادة العبد معاً إنما هما واقعان بإرادة الحق فهو ممتنع بالذات أن يكون شيء في الوجود موجوداً عن إرادة العبد، ولو كان لإرادة العبد نفوذ في أمر خاص لعم نفوذها في كل شيء لو كان ذلك المراد وقع لعين إرادة الممكن، فتعين أن ذلك الواقع وقع بإرادة الله عزّ وجلّ، فالعالم ممنوع لذاته كما هو ممكن مهان لذاته، وإنما كان مهاناً لذاته لأن العبودية له لذاته وهي الذلة، وكل ذليل مهين، وكل مهين محتقر، وكل محتقر مغلوب، فصح ما جاء في المنازلة من أنه من حقر غلب ومن استهين منع، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والثمانون وثلاثمائة

في معرفة منازلة حبل الوريد وأينية المعية

[نظم: مخلّع البسيط]

أنا مَعَ العَبْد حيث كانا ... مُسْتَقْبَلاً ماضياً وآنا
مُقَيَّداً مُطْلَقاً نزيهاً ... مُقَدَّساً عامراً مَكانَا
من قال شَوْقاً تريد عيني ... بأن ترانا فقد جَفَانَا
أين أنا منك يا جُفُوناً ... لم تَلْحَظِ الفِعْلَ والزَّمانَا
كيف لها أن تَرَى جلالي ... وقد رأى الصَّعْقَ مَنْ رآنا

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] فكان بهويته معنا وبأسمائه أقرب إلينا منا، فإن الحق إذا جمع نفسه مع أحديته فلأسمائه من حيث ما تدل عليه من الحقائق المختلفة وما مدلولها سواه فإنها ومدلولاتها عينه وأسماؤه، فلا بد أن تكون الكناية عن ذلك في عالم الألفاظ والكلمات بلفظ الجمع مثل: نحن وإنا بكسر الهمزة وتشديد النون مثل قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] و﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقد تفرد إذا أراد هويته لا أسماءه مثل قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤] فوحد، وأين نحن من أنا، ولا معنى لمن قال إن ذلك كناية عن العظمة لا بل هي عن الكثرة، وما ثم كثرة إلا ما تدل عليه منه أسماؤه الحسنى أو تكون عينه أعيان الموجودات وتختلف الصور لاختلاف حقائق الممكنات المركبات إذ قد قال عن هويته أنها جميع قوى الصور، أي إذا أحب الشخص من عباده كشف له عنه به فعلم أنه هو فرآه به مع ثبوت عين الممكن وإضافة القوّة التي هي عينه تعالى إلى العبد فقال: «**كُنْتُ سَمْعَهُ**» فالضمير في قوله كنت سمعه عين العبد والسمع عين الحق ولا يكون العبد عبداً إلا بسمعه، وإلا فمن يقول إذا نودي ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥] إلا المأمور عند تكوينه وفي تصرّفاته، فلولا أنه سميع ما قيل له كن، ولا يكون لولا طاعته لربه في أمره إياه، والحق سمعه ليس غيره في كل حال فكشف سبحانه عن ذلك، وإذا كان الأمر على ما ذكره عن نفسه وأعطاه الشهود والكشف صح الجمع في لفظة إنا ونحن، وإذا لم يكن عين القوى والموجودات إلا هو صح الإفراد في ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤] والهو والأنت وضمير المفرد

بالخطاب بالكاف في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] وأمثال ذلك، فأفرد نفسه في جمعيتنا فقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] وجمع نفسه في أحديتنا في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ [ق: ١٦] فأفرد الضمير العائد على الإنسان فلم يكن الجمع إلا بنا، ولا الواحد العين إلا به، فأينما كان الخلق فالحق يصحبه من حيث اسمه الرحمن لأن الرحم شجنة منه وجميع الناس رحم فإنهم أبناء أب واحد وأم واحدة فإنه خلقنا من نفس واحدة وهو آدم، وبث من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء فنحن أرحام من حيث إن الرحم شجنة من الرحمن فصحت القرابة، وقد أمر بصلة الأرحام فقال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] وأمر بأن نوصل الأرحام وهو أولى بهذا الوصف منا، فلا بد أن يكون للرحم وصولاً فإنها شجنة من الرحمن، وقد لعن الله واللعنة البعد من انتسب إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه أي لا ينتسب إلى غير رحمه، فنحن من حيث الرحم قرابة قربى، ومن حيث الرتبة عبيد فلا ننتسب إلا إليه ولا ننتمي لسواه، وقد قال تعالى في الصحيح عنه: «**اليَوْمَ أَضَعُ نَسَبَكُمْ**» لأنه عارض عرض لنا ما هو أصل لأنا نفترق ولا نجتمع وقد لا يعرف بعضنا بعضاً، فنسبنا الذي بيننا ما هو أصل إذ لو كان أصلاً ما قبل العوراض ولا صح النكران ثم قال: «**وَأَرْفَعُ نَسَبِي**» فإنا ما زلنا عنه قط ولا افترقنا منه ولا فارقنا ولا زال عنا، وكيف نزول عمن نحن في قبضته ومن هو معنا أينما كنا؟ وعلى أيّ حالة وصفنا من وجود وعدم ثم قال: أين المتقون؟ فقمنا إليه بأجمعنا لأنه ما منا إلا من اتخذه وقاية في دفع الشدائد عن نفسه وهو قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وما منا إلا من كان الحق له وقاية في دفع ما يقال عنه فيه أنه سوء فيكون كالمجن له تتعاور علينا سهام الأسواء فيضاف كل مكروه إلينا فداء له فصح أن الناس كلهم متقون لكن ثم تقوى خصوص وتقوى عموم ميزتها الشرائع ونبهت عليها، فمن علم ما مقلناه حمل التقوى حملاً عاماً على جميع الخلق، ومن وقف مع التقوى المعلومة عند الناس خصص وما نبهنا على هذا الأمر إلا مراعاة للشرع، فإن الشرع راعى ذلك ونبه عليه حتى إذا علمه الإنسان وتحقق به ظهر له الفضل على غيره فإن الله يقول: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وقد أمر بصلة الأرحام والرحمن لنا رحم نرجع إليه فلا بد للمطيع أمره أن يصل رحمه وليس إلا وصلته بربه، فإن الله بلا شك قد وصلنا من حيث أنه رحم لنا فهو الرزاق ذو القوّة المتين المنعم على أي حالة كنا من طاعة أمره أو معصية وموافقة أو مخالفة فإنه لا يقطع صلة الرحم من جانبه وإن انقطعت عنه من جانبنا لجهلنا، ثم إنه ما أمر بصلة الأرحام القريبة إلا ليسعدوا بذلك، وما من شخص إلا وله رحم يصلها ولو بالسلام كما قال: «**صِلُوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ**» فإذا وصلنا رحمنا لم نصل على الحقيقة إلا هو، وإن حملناه في عين رحمنا فهو يعرف نفسه، كما أن الصدقة تقع بيد الرحمن قبل أن تقع بيد السائل وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وفي نفس الأمر قد قلنا إنا وقاية له من كل سوء، فلا بد لكل أحد أن يكون له صديق من الناس على أي دين كان ولا بد له من مراعاة صديقه وهو في النسب رحمه بلا شك لأنه أخوه لأمه وأبيه،

فكل برّ ظهر من أحد إلى أحد فهو صلة رحم لذا يقبلها الله من كل أحد فضلاً من الله ونعمة غير أنهم بينهم مفاضلة في القرب، قال عليّ بن أبي طالب القيرواني في ذلك: [البسيط]

النـاسُ فـي جِـهَـةِ الـتـمـثـيـل أكْـفَـاءُ ... أبُــــوهُـــــمُ آدمٌ والأمُّ حَـــــوَّاءُ
فـإن يَـكُـنْ لـهـمُ مـن أصـلـهـم نَـسَـبٌ ... يـفـاخـرون بـه فـالـطِّـيـنُ والـمَـاءُ
مـا الـفَـضْـلُ إلا لأهـل الـعـلـم إنـهُـمُ ... عـلـى الـهُـدَى لـمـن اسْـتَـهَـدى أدِلاَّءُ
وقَـدْرُ كـلِّ امْـرِىءٍ مـا كـان يُـحْـسِـنُـهُ ... والـجـاهـلـون لأهـل الـعـلـم أعْـداءُ

والقرابة قرابتان: قرابة الدين وقرابة الطين، فمن جمع بين القرابتين فهو أولى بالصلة، وإن انفرد أحدهما بالدين والآخر بالطين فتقدم قرابة الدين على قرابة الطين كما فعل الحق تعالى في الميراث، فورث قرابة الدين ولم يورث قرابة الطين إذا اختلفا في الدين، فكان الواحد مؤمناً بالله وحده والأخ الآخر كافر بأحدية الله ومات أحد الأخوين لم يجعل له نصيباً في ميراثه فقال: «**لا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ**» وقد ذهب عقيل دون علي بن أبي طالب بمال أبيه لما مات أبو طالب عم رسول الله ﷺ، وكل من قطع رحمه في حق شخص وهو قد وصلها في حق شخص آخر فالذي يرعى الله من ذلك جانب الوصلة لا جانب القطع فإنه القائل على لسان رسوله ﷺ: «**أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ**» مثل قطع تلك الرحم «**الحَسَنَةَ**» مثل وصلة الرحم «**تَمْحُهَا**» فوصل رحمه في زيد يمحو قطع رحمه في عمرو، وهذا أخوه وهذا أخوه، لأن الله يصل الرحم ولا يقطعها، فالحق يعضده في صلة من وصلها ويقطع من قطعها لأنه عين ذلك الذي قطعها، ففي الوصل كلمة عناية إلهية بالواصل، وفي القطع كلمة تحقيق أي أن الأمر كذلك، فما في العالم إلا من هو وصول رحمه الأقوى الأقرب، فإن أفضل الصلات في الأرحام صلة الأقرب فالأقرب، وقد جاء في الصدقة أن أفضلها اللقمة يجعلها الإنسان في فمه لأنه لا أحد أقرب إليه من نفسه، والله أقرب إلى العبد من نفسه منه فإنه القائل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] فإذا وصله العبد فقد وصل الأقرب بلا شك فقد أتى ما هو الأولى بالوصل في الأقربين فإن النص فيه، ولهذا عم كل الأشياء اتساع رحمته، فمن حجر رحمة الله فما حجرها إلا على نفسه، ولولا أن الأمر على خلاف ذلك لم ينل رحمة الله من حجرها وقصرها، ولكن والله ما يستوي حكم رحمة الله فيمن حجرها بمن لم يحجرها، وأطلقها من عين المنة كما أطلقها الله في كتابه في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فما من شيء إلا وهو طامع في رحمة الله، فمنهم من تناله بحكم الوجوب، ومنهم من تناله بحكم المنة. كنت قاعداً يوماً بإشبيلية بين يدي شيخنا في الطريق أبي العباس العريبي من أهل العليا بمغرب الأندلس فدخل عليه رجل فوقع ذكر المعروف والصدقة فقال الرجل: الله يقول: الأقربون أولى بالمعروف، فقال الشيخ على الفور: إلى الله فما أبردها على الكبد، وكذلك هو الأمر في نفسه ولا أقرب من الله، فهو القريب سبحانه الذي لا يبعد إلا بعد تنزيه، وتنقطع الأرحام بالموت ولا ينقطع الرحم المنسوبة إلى الحق فإنه معنا حيثما كنا ونحن ما بيننا نتصل في وقت وننقطع في وقت بموت أو بفقد وارتحال، وكم من حال قد أغنى عن سؤال، ومن جهل نفسه

فهو بغيره أجهل، ومن علم غيره فهو بنفسه أعلم، من عرف نفسه عرف ربه: [السريع]

لـيـس الـذي يُـخْـبِـرُ عـن غَـيْـرِهِ مِـثْـلَ الـذي يُـخْـبِـرُ عـن نَـفْـسِـهْ
لأنــه يــخــبــرُ عــن ذَوْقِــه فــي غـيـبـه كـان وفـي حِـسِّـهْ
وكــلّ مــن أخـبـر عــن نَـفْـسِـهِ فــإنــمــا أخـبـر عـن جِـنْـسِـهْ
والــحــقّ إنْ قَــيَّــدْتَــهُ أنّــه لا يـحـجـب الـمـحـبـوس في حَبْسِهْ
مَــنْ قَــيَّــدَ الـحَـقَّ بـإطـلاقـه فـمـا أقـام الـمَـيْـتَ مـن رَمْـسِـهْ
هـيـهـاتَ لا يـعـرفُ أسـرارَه إلا الـذي حَـجَّ إلـى قُـدْسِـهْ
مـن أُسُّـهُ الـحَـقُّ فـذاك الـذي يـطـرحـهُ الـضـاربُ مـن أسّـهْ

سرّ إلهي لا يعرفه كثير من الناس: بعث الله تعالى موسى وهارون إلى فرعون وأوصاهما أن يقولا له: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] والترجي من الله واقع عند جميع العلماء كما قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] فقال العلماء: عسى من الله واجبة ولعل وعسى أختان فعلم الله أنه يتذكر ولا يكون التذكر إلا عن علم سابق منسي، ثم قال لهما لما رأى خوفهما من أنه لا يجيب إلى ما يدعوانه إليه: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] أي أسمع من فرعون إذا بلغتما إليه رسالة ربكما وأرى ما يكون منكما في حقه مما أوصيتكما به من اللين والتنزل في الخطاب فلم يجد فرعون على من يتكبر، لأن التكبر من المتكبر إنما يقع لمن يظهر له بصفة الكبرياء، فلما رأى ما عندهما من اللين في الخطاب رق لهما وسرت الرحمة الإلهية بالعناية الربانية في باطنه فعلم أن الذي أرسلا به هو الحق، فكان المتكلم من موسى وهارون الحق وكان السمع الذي تلقى من فرعون كلام موسى الحق، فحصل القبول في نفسه وستر ذلك عن قومه فإنه شأن الحق، ألا ترى إليه تعالى في القيامة يتجلى في صورة ينكر فيها؟ فهذا من ستره. ولما علم فرعون أن الحق سمع خلقه وبصره ولسانه وجميع قواه لذلك قال بلسان الحق: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] إذ علم أن الله هو الذي قال على لسان عبده ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فأخبر الله تعالى أنه ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥] والنكل القيد فقيده الله بعبوديته مع ربه في الأولى بعلمه أنه عبد الله، وفي الآخرة إذا بعثه الله على ما مات عليه من الإيمان به علماً وقولاً، وليس بعد شهادة الله شهادة، وقد شهد له أنه قيده في الأولى والآخرة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي في هذا الأخذ ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي تعجباً وتجاوزاً مما يسبق منه إلى فهم العامة إلى ما يفهمه الخاصة من عباد الله وهم العلماء ولذلك قال: ﴿لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦] وقد عرفنا أنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وقد قال: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] ولا يخشى حتى يعلم بالتذكر ما كان نسيه من العلم بالله، ومن قيده الحق فلا يتمكن له الإطلاق والسراح من ذلك القيد. وقولهما: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أي يتقدم علينا بالحجة بما يرجع إليه من التوحيد ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] أي يرتفع كلامه لكونه يقصد إلى عين الحقيقة فنتعب معه فلهذا قال لهما: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وأوصاهما أن يلينا له في القول، فلما قالا له صلى الله

عليهما ما قالاه على الوجه الذي عهد إليهما الله أن يقولاه ﴿قَالَ﴾ لهما فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩] كما يقول فتّانا القبر للميت لا لجهله بما يقوله، وإنما يريد أن يتنبه الحاضرون لما يقولانه مما يكون دليلاً على وجود الله ليعلموا صدقهما لأن العاقل إذا علم أنهما إذا قالا مثل ذلك ربما أن الخواطر تتنبه ويدعوهم قولهما إلى النظر فيه لنصبهما في قولهما مواضع الدلالة على الله فإنه لا يسأل خصمه فدل سؤاله أنه يريد هداية من يفهم من قومه ما جاءا به فقالا: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] فأنصفا فرعون في هذا الخطاب وهذا من القول اللين فإنه دخل تحت قولهما ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ ادّعاه فرعون فأعطاه الله خلقه فكان في كلامهما جواب فرعون لهما إذ كان ما جاء به فرعون خلق الله، ثم زادهما في السؤال ليزيدا في الدلالة قال: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] فقالا: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] مثل ما نسيت أنت حتى ذكرناك فتذكرت فلو كنت إلهاً ما نسيت لأن الله قال: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: ٤٤] ثم زادا في الدلالة بما قالا بعد ذلك إلى تمام الآية، فما زال ذلك مضمراً في نفس فرعون لم يعطه حب الرياسة أن يكذب نفسه عند قومه فيما استخفهم به حتى أطاعوه فكانوا قوماً فاسقين فما شركه معهم في ضمير إنهم فلما رأى البأس ﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾ فتلفظ باعتقاده الذي ما زال معه فقال له الله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ [يونس: ٩١] قلت ذلك، فأثبت الله بقوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ أنه آمن عن علم محقق والله أعلم. وإن كان الأمر فيه احتمال وحقت الكلمة من الله وجرت سنته في عباده أن الإيمان في ذلك الوقت لا يدفع عن المؤمن العذاب الذي أنزله بهم في ذلك الوقت إلا قوم يونس، كما لا ينفع السارق توبته عند الحاكم فيرفع عنه حد القطع ولا الزاني مع توبته عند الحاكم مع علمنا بأنه تاب بقبول التوبة عند الله، وحديث ماعز في ذلك صحيح أنه تاب توبة لو قسمت على أهل مدينة لوسعتهم ومع هذا لم تدفع عنه الحد بل أمر ﷺ برجمه، كذلك كل من آمن بالله عند رؤية البأس من الكفار أن الإيمان لا يرفع نزول البأس بهم مع قبول الله إيمانهم في الدار الآخرة فيلقونه ولا ذنب لهم فإنهم ربما لو عاشوا بعد ذلك اكتسبوا أوزاراً: [مجزوء الرمل]

أيُّها الخَلْقُ المُسَوَّى ... كم تُنَادَى كم تُلَوَّى
فَلْتُبَادِرْ قبل يوم ... وَدَّ فيه لو تُسَوَّى
بِهِمُ الأرضُ رجالٌ ... كغُثَاءٍ كان أحْوَى
خَلَقَ الرحْمٰنُ خَلْقاً ... مثل ما قال فَسَوَّى
ثم أعطاه اقْتداراً ... فَسَطَا فكان أقْوَى
قال كُنْ لكل شيء ... لم يكن وكان بَلْوَى

وإذا كان الحق يقول عن نفسه أنه خلق فسوّى وقدر فهدى فما لك لا تسبح اسم ربك الأعلى جعلنا الله ممن قيده الحق به ورزقه الوقوف عند حدوده ومراسمه في الآخرة والأولى، فانظر يا أخي ما أعطيت عناية هذه المعية الإلهية في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] فهو معنا بهويته وهو معنا بأسمائه، فهل ترى عين العارف كوناً من الأكوان وعيناً من

الأعيان لا يكون الحق معه، فالله يغفر للجميع بالواحد فكيف لا يغفر للواحد بالجميع؟ فما من إنسان إلا وجميع أجزائه مسبحة بحمد الله، ولا قوّة من قواه إلا وهي ناطقة بالثناء على الله، حتى النفس الناطقة المكلفة من حيث خلقها وعينها كسائر جسدها الذي هو ملكها مسبحة أيضاً لله، فما عصى وخالف الأمر واحد من هذه الجملة المعبر عنها بالإنسان، أفترى الله لا يقبل طاعة هذه الجملة في معصية ذلك الواحد؟ هيهات وأين الكرم إلا هنا يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم؟ فيقول: كرمك. فهذا تنبيه من الله لعبده أن يقول كرمك، كما يفعله الحاكم المؤمن العالم إذ يقول للسارق والزاني: قل لا زنيت، أو قل لا سرقت، أو قل لا لعلمه أنه إذا اعترف أقام عليه الحد، فربما يكون الزاني يدهش بين يدي الحاكم فينبهه ليقول بهذه المقالة لا فيدرأ عنه الحد بذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والثمانون وثلاثمائة
في معرفة منازل التواضع الكبريائي

[نظم: السريع]

مَـنْ هَـالَـهُ مـا هُـوَ مـن جِـنْـسِـهْ ... فَـهْـوَ جَـهُـولٌ ضَـلَّ عـن نَـفْـسِـهْ
لـو أنـه يـعـرف أوْصَـافَـهُ ... مـا هَـالَـهُ مـا هـو مـن جِـنْـسِـهْ
وكـلّ مـا فـي الـجُـودِ فـيـه فـمِـنْ ... دُجَـى الـلـيـالـي وسَـنَـا شَـمْـسِـهْ
وكـل مـا فـي الـكـون فـيـه فـمِـنْ ... نـزولـه الأدْنَـى ومـن قُـدْسِـهْ
وانْـظُـرْ فـأنْـتَ الأمْـرُ فـاثْـبُـتْ عـلـى ... عِـلْـمٍ ولا تَـنْـظُـرْ إلـى حَـدْسِـهْ

قال تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] وقال: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٧] وقال: ﴿ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] ومع هذا كله فهو القائل في الصحيح من الأخبار عنه: **«مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي وَجِعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي وَظَمِئْتُ فَلَمْ تَسْقِنِي»** يقول مثل هذا القول لعبده، فأنزل نفسه هنا منزلة عباده، وأين ذلك الكبرياء من هذا النزول؟ وثبت في الصحيح أن الله يعجب من الشاب ليست له صبوة، وثبت أن الله أفرح بتوبة عبده من فرح صاحب الناقة التي عليها طعامه وشرابه إذا وجدها بعد ما ضلت وهو في فلاة من الأرض منقطعة وأيقن بالموت ففرح بها فالله أفرح بتوبة عبده من هذا بناقته، وثبت عنه أنه تعالى يتبشبش للذي يأتي المسجد كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذ ورد عليهم، وأين هذا كله من قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات] ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] فأين هذا النزول من هذه الرفعة؟ فهذا هو التواضع الكبريائي، وكل حق وقول صدق وحكم صحيح لمن كشف الله عن بصيرته من علماء عباده فأراه الحق حقاً وأراه الباطل باطلاً، وهنا تعلقت الرؤية بالمعدوم فإن الباطل عدم، وإذا كان العبد يتصف برؤية

المعدوم فالحق أولى بهذه الصفة أنه يرانا في حال عدمنا رؤية عين وبصر لا رؤية علم. وأما قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فهو على الصحيح من الفهم معنى قوله ﷺ: «**إنَّ الله خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**» في بعض وجوه محتملات هذا الخبر. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] فما ذاك إلا لخلقه على صورة الحق، وإنما رده إلى أسفل سافلين ليجمع له كمال الصورة بالأوصاف كما ذكر عن نفسه أنه عليه، فأين اتصافه بنفي المثل عن نفسه من اتصافه بالحد والمقدار من استواء ونزول واستعطاف وتلطف في خطاب وغضب ورضا وكلها نعوت المخلوق، فلو لم يصف نفسه بنعوتنا ما عرفناه، ولو لم ينزه نفسه عن نعوتنا ما عرفناه، فهو المعروف في الحالين والموصوف بالصفتين، ولهذا خلق من كل شيء زوجين ليكون لأحد الزوجين العلو وهو الذكر، ولأحد الزوجين السفل وهو الأنثى، ليظهر من بينهما إذا اجتمعا بقاء أعيان ذلك النوع، وجعل ذلك في كل نوع نوع ليعلمنا أن الأمر في وجودنا على هذا النحو، فنحن بينه وبين معقولية الطبيعة التي أنشأ منها الأجسام الطبيعية، وأنشأ من نسبة توجهه عليها الأرواح المدبرة، وكل ما سوى الله لا بد أن يكون مركباً من راكب ومركوب ليصح افتقار الراكب إلى المركوب وافتقار المركوب إلى الراكب لينفرد سبحانه بالغنى كما وصف نفسه فهو غني لنفسه ونحن أغنياء به في عين افتقارنا إليه فيما لا نستغني عنه، فكل ما سوى الله مدبر ومدبر لهذا المدبر، فالمدبر اسم فاعل بما هو مدبر يجد ذلك قوّة في ذاته يفتقر إلى مدبر يظهر فيه تدبيره، والمدبر اسم مفعول بما هو مدبر يجد ذلك حالة في ذاته يفتقر بها إلى من يدبر ذاته لصلاح عينه وبقائه، ففقر كل واحد إلى الآخر فقر ذاتي، وإنما يتصف بالغنى عنه لكونه لا يفتقر إلا إلى مدبر لا إلى هذا المدبر بعينه، فكل واحد منهما غني عن الآخر عينه لا عن التدبير منه وفيه، فغنى كل واحد ليس على الإطلاق، وغنى الحق مطلق بالنظر إلى ذاته، والخلق مفتقر على الإطلاق بالنظر أيضاً إلى ذاته فتميز الحق من الخلق، ولهذا كفر من قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] فهذا التمييز لا يرتفع أبداً لأنه تميز ذاتي في الموصوف به من حق وخلق، فما ثم إلا شيئيتان: شيئية حق وشيئية خلق، فليس كمثل الخلق في افتقاره شيء لأنه ما ثم إلا الحق، والحق لا يوصف بالافتقار، فما هو مثل الخلق، فليس مثل الخلق شيء، وليس كمثل الحق في غناه شيء لأنه ما ثم إلا الخلق، والخلق لا يتصف بالغنى لذاته فما هو مثل الحق فليس مثل الحق شيء لأنه كما قلنا ما ثم شيء إلا الخلق والحق، فالخلق من حيث عينه ذات واحدة في كثير، والحق من حيث ذاته وعينه ذات واحدة لها أسماء كثيرة ونسب، فمن لم يعلم قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] على ما قررناه فلا علم له بهذه الآية فإنه جاء بالكاف ثم نفى المثلية عن نفسه بزيادة الكاف للتأكيد في النفي، ثم نفى المثلية عن العالم بجعل الكاف صفة، فعلق النفي بالمماثل في النفي أي انتفت عن الخلق المثلية لأنه ما ثم إلا حق لا يماثل، وانتفت عن الحق المثلية لأنه ما ثم إلا خلق لا يماثل: [مخلّع البسيط]

فهكذا تُفْهَمُ المعاني ... إذ جاءنا النُّورُ بالبيان

فليس في الكون غير فرد حقٌّ وإنْ شئتمُ اثنتانِ
وكلّ عين لها انفرادٌ بذاتها لا ترى بثاني
وقد أتى في الصلاة حكمٌ منه بتقسيمه المثاني
فميّز الخلق عنه فيها لأجل ذا لاحتِ اثنتانِ
فقال بيني وبين عبدي فيمن رآه فقد رآني
فلستُ غير إلٰهٍ ولا هو لوحدتي في الوجود ثاني
ترجَمَ عنه لسانُ خلقٍ بما ذكرنا من البيان

وأما قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] وهو الذي أنطقهم بما نطقوا به فيه فإنه يقول عن المشهود عليهم أنهم ﴿قَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] فما من شيء ينطق إلا والله أنطقه، واختلف المنطوق به، فثم نطق أي منطوق به يتعلق به مديح، وثم منطوق به يتعلق به ذم، وثم منطوق به يتعلق به تجوز لتواطؤ جعله الله في العالم، وثم منطوق به على ما هو المدلول عليه في نفسه فهو إخبار عن حقيقة وما ثم إلا ما ذكرناه، فنطق المدح شهادة أولي العلم بتوحيد الله ونطق الذم قول القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] يريد البخل ونطق بالحقيقة ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ ونطق بالتجوّز للتواطؤ ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] والآية واحدة. فأما قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] لكونهم ليسوا مثله فما عرفوه ومن جهل أمره لا يقدر قدره فهم ليسوا له بمثل ولا هو مثل لهم فوصفوه بنفوسهم وبما هم عليه ولا يتمكن لهم إلا ذلك لأنهم يريدون الوصف الثبوتي ولا يكون إلا بالتشبيه، ومن جعل مثلاً لمن لا يقبل المثل فما قدره حق قدره أي ما أنزله المنزلة التي يستحقها، فذمهم بالجهل حيث تعرضوا لما ليس لهم به علم من نفوسهم، فلو قالوا فيه بما أنزله إليهم لم يتعلق بهم ذم من قبل الحق في ذلك لأن الحاكي لا ينسب إليه ما حكاه فلا يتعلق به ذم في ذلك ولا مدح، فعلم الخلق بالله لا يدرك بقياس وإنما يدرك بإلقاء السمع لخطاب الحق إما بنفسه وإما بلسان المترجم عنه وهو الرسول مع الشهود الذي لا يسعه معه غير ما سمعه من الخطاب كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة لما تقدم ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ فأحال على النظر الفكري بتقلب الأحوال عليه ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] وما عدا هذين الصنفين فلا طريق لهم إلى العلم بما يستحقه الحق أن يضاف إليه وما يستحقه الخلق أن يضاف إليهم، فمن عرف نفسه فإنه لا يماثله الحق، ومن عرف ربه فإنه لا يماثله الخلق، إذ معرفتك بجزء واحد من العالم من كونه دليلاً عين معرفتك بالعالم كله، فلهذا أنزلنا العالم منزلة الواحد فنفينا عنه المثلية، إذ ما ثم في الوجود إلا الحق والحق ما هو مثل للعالم وإن كان العالم يماثل بعضه بعضاً كما تحكم في الأسماء الإلهية في الغافر والغفور والغفار وأمثال هذا بأنها أمثال وإن تميزت بمراتب كالعالم فإن فيه أمثالاً وإن تميزت بالأعيان والمراتب، ولهذا ما نزلت هذه الآيات إلا في مقابلة قول كان منهم ورد ذلك في الخبر النبوي. وأما في القرآن فقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ

بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] مع إقرارهم أن التوراة نزلت على موسى عليه السلام من عند الله فكذبوا على الله فاسودت وجوههم أي ذواتهم فلا نور لهم يكشفون به الأشياء بل هم عمي فهم لا يبصرون. وأما قوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات] فهذه آية ما نزل عند العارفين أشكل منها لما فيها من التداخل، فدخل تحت قوله تعالى في تنزيه نفسه ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ما يصفه به عباده مما تعطيهم أدلتهم في زعمهم بالنظر الفكري كل على حياله وكل واحد يدعي التنزيه لخالقه في ذلك، فأما الفيلسوف فنفى عنه العلم بمفردات العالم الواقعة في الحس منهم فلا يعلم عندهم أن زيد بن عمرو حرك أصبعه عند الزوال مثلاً ولا أن عليه في هذا الوقت ثوباً معيناً، لكن يعلم أن في العالم من هو بهذه الصفة مطلقاً من غير تعيين، لأن حصول هذا العلم على التعيين إنما هو للحس والله منزه عن الحواس، فقد اندرج عندهم هذا العلم بهذا الجزء في العلم الكل الذي هو أن في العالم من هو بهذه المثابة وقد حصل المقصود عندهم وفاتهم بذلك علم كبير، فإن صاحب هذه الحركة المعينة من الشخص المعين يجوز أن تقوم بغيره، فبأيّ شيء تقوم الحجة لله على تعيين هذا العبد حتى قرره عليها في الآخرة أو حرمه ما ينبغي له في الدنيا أو لم يتحرك بتلك الحركة، وإن كان من أصل صاحب هذا النظر إنكار الآخرة المحسوسة وإنكار الوهب في الدنيا والجزاء لصاحب هذه الحركة على التعيين، وإن من مذهبه أن تلك الحركة هي المانعة لذاتها أن يحصل لهذا المتحرك بها ما تمنعها حقيقة تلك الحركة فهو بان على أصل فاسد، وهو أن الله ما صدر عنه إلا ذلك الواحد الأوّل لأحديته، ثم انفعل العالم بعضه عن بعض عن غير تعلق علم من الله تفصيلي بذلك بل بالعلم الكل الذي هو عليه، وأما المتكلم مثل الأشعريّ فانتقل في تنزيهه عن التشبيه بالمحدث إلى التشبيه بالمحدث فقال مثلاً في استوائه على العرش: إنه يستحيل عليه أن يكون استواؤه استواء الأجسام لأنه ليس بجسم لما في ذلك من الحدّ والمقدار وطلب المخصص المرجع للمقادر فيثبت له الافتقار بل استواؤه كاستواء الملك على ملكه، وأنشدوا في ذلك استشهاداً على ما ذهبوا إليه من الاستواء: [الرجز]

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى العِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ ودَمٍ مُهْرَاقِ

فشبهوا استواء الحق على العرش باستواء بشر على العراق، واستواء بشر محدث فشبهوه بالمحدث والقديم لا يشبه المحدث فإن الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] والنظر الصحيح يعطي خلاف ما قالوه فقال تعالى في حق كل ناظر: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ لمحمد ﷺ ضمير هذا الكاف أي ربك الذي أرسلك إليهم لتعرفهم بما أرسلك به إليهم وأنزله بوساطتك عليهم ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ أي هو الممتنع لنفسه أن يقبل ما وصفوه به في نظرهم وحكموا عليه بعقولهم وأن الحق لا يحكم عليه خلق والعقل والعاقل خلق، وإنما يعرف الحق من الحق بما أنزله إلينا أو أطلعنا عليه كشفاً وشهوداً بوحي إلهيّ أو برسالة رسول ثبت صدقه وعصمته فيما يبلغه عن الله إلينا ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] من حيث نظروا بفكرهم واستدلوا بعقولهم، إذ العلم بالله لا يقبل التحوّل إلى الجهل ولا الدخول عليه بالشبه، وما من دليل

عقلي ألا ويقبل الدخل والشبهة ولهذا اختلف العقلاء، فكل واحد من المخالفين عنده دليل مخالفه شبهة لمخالفه لكونه خالف دليل هذا الآخر، فعين أدلتهم كلهم هي عين شبهاتهم فأين الحق وأين الثقة؟ وأصل الفساد إنما وقع من حيث حكموا الخلق على الحق الذي أوجدهم، ثم قال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١] وما جاءت الرسل عليهم السلام إلا بما أحالته هذه الأدلة النظرية وبما أثبتته، فصدقهم في نظرهم وأكذبهم في نظرهم، فوقعت الحيرة عند هؤلاء، فإذا سلموا له ما قاله عن نفسه على ألسنة رسله وانقادوا إليهم فإن انقيادهم إليهم ينزلهم منزلتهم فإنهم ما انقادوا إليهم من حيث أعيانهم فإنهم أمثالهم، وإنما انقادوا إلى الذي جاؤوا من عنده ونقلوا عنه ما أخبر به عن نفسه على ما يعلم نفسه لا على تأويل من وصل إليه ذلك، فلا يعلم مراد الله فيه إلا بإعلام الله فيقف الناظر موقف التسليم لما ورد مع فهمه فيه أنه على موضوع ما هو في ذلك اللسان الذي جاء به هذا الرسول لا بدّ من ذلك لأنه ما جاء به بهذا اللسان إلا لتعرف أنه على حقيقة ما وضع له ذلك اللفظ في ذلك اللسان، ولكن تجهل النسبة فتسلم إليه علم النسبة مع عقلنا الدلالة بالوضع الاصطلاحيّ في ذلك اللحن الخاص فننقاد إليه كما انقاد المرسلون ولهذا قال: ﴿عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي هو واجب عليهم الانقياد بقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ فنكون أمثالهم، ثم قال: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الصافات: ١٨٢] أي عواقب الثناء إذ كل ما جاؤوا به إنما قصدوا به الثناء على الله، فعواقب الثناء على الله بما نزه نفسه عنه أن الثناء على الله في ذلك كونه تعالى أنطقهم به وأوجد ذلك في نفوسهم لأن الذي قالوه يكون حقاً ولا بد ولهذا قال: ﴿وَٱلْحَمْدُ﴾ فإن الحمد العاقب، فعواقب الثناء ترجع إلى الله وعاقب الأمر آخره، ولا آخر لما قالوه إلا كونه موجوداً عنه تعالى فيهم فإنه ربّ العالمين من حيث ثبوته في ربوبيته بما يستحقه الربّ من النعوت المقدسة وهو سيد العالم ومربيهم ومغذيهم ومصلحهم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وأما قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧] اعلم أن العالم محصور في علو وسفل والعلو والسفل له أمر إضافي نسبي فالعالي منه يسمى سماء والأسفل منه يسمى أرضاً، ولا يكون له هاتان النسبتان إلا بأمر وسط يكون بينهما ويكون ذلك الأمر في نفسه ذا جهات فما أظله فهو سماء وما أقله فهو أرض له، وإن شئت قلت في الملأ الأعلى والملأ الأسفل أنه كل ما تكون من الطبيعة فهو الملأ الأسفل، وكل ما تولد من النور فهو الملأ الأعلى، وأكمل العالم من جمع بينهما وهو البرزخ الذي بجهاته ميزهما أو بجمعيته ميزهما بالعلوّ والسفل من حيث المؤثر والمؤثر فيه اسم فاعل واسم مفعول، والحق تعالى بالنظر إلى نفسه لا يتصف بشيء مما يتصف به وجود العالم، فالعظمة والكبرياء المنسوبان إليه في ألسنة الفهوانية أن الله لما نسب الكبرياء الذي له ما جعل محله إلا السموات والأرض فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٧] ما قال في نفسه فالمحل هو الموصوف بالكبرياء الذي لله، فالعالم إذا نظر إلى نفسه صغيراً ورأى موجده منزهاً عما يليق به سمى ربه كبيراً وذا كبرياء لما كبر عنده بما له فيه من التأثير والقهر، فلو لم يكن العالم مؤثراً

فيه لله تعالى ما علم أنه صغير ولا أن ربه كبير، وكذلك رأى لما قامت الحاجة به والفقر إلى غيره احتاج أن يعتقد ويعلم أن الذي استند إليه في فقره له الغنى فهو الغني سبحانه في نفس عبده، وهو بالنظر إلى ذاته معرى عن النظر إلى العالم لا يتصف بالغنى لأنه ما ثم عن من، وكذلك إذا نظر إلى ذله علم أنه لا يذل لنفسه وإنما يذل تحت سلطان غيره عليه فسماه عزيزاً لأنه عز الحق في نفس هذا العبد لذله، فالعبد هو محل الكبرياء والغنى والعظمة، والعزة التي لله فوصف العبد ربه بما قام به فأوجب المعنى حكمه لغير من قام به، ومن هنا برقت بارقة لمن قال من أهل النظر أن الباري مريد بإرادة حادثة لم تقم به لأنه ليس محلاً للحوادث فخلق إرادة لا في محل فأراد بها فأوجبت الإرادة حكمها لمن لم تقم به هذا القدر، وهو الذي لاح عندهم من روح هذا الأمر الذي ذكرناه في الكبرياء، وما تم لهم تحقق النظر إلى آخره بل عبروا عن ذلك بعبارات سيئة مختلطة، فإن أكثر العقلاء يرون أن المعاني لا توجب أحكامها إلا لمن قامت به، وهذا غلط طرأ عليهم لكونهم أثبتوا الصفات أعياناً متعددة وجودية لا تقوم بنفسها بل تستدعي موصوفاً بها تقوم به فيوصف بها، فلو علموا أن ذلك كله نسب وإضافات في عين واحدة تكون تلك العين بالنسبة إلى كذا عالمة، وإلى كذا قادرة، وإلى كذا مريدة، وإلى كذا كبيرة، وإلى كذا غنية، وإلى كذا عزيزة إلى سائر الصفات والأسماء لأصابوا، ألا نراهم يقولون في الكبرياء والعظمة والغنى والعزة أنها صفات تنزيه أي هو منزه عندهم عن نقيضها؟ وليس الأمر عند المحققين كما قالوه وإنما هو منزه عن قيام الكبرياء به بحيث أن يكون محلاً له، بل الكبرياء محله الذي عينه الحق له وهو السموات والأرض فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧] وهو أي هوية الحق العزيز أي المنيع لذاته أن تكون محلاً لما هي السموات الأرض له محل وليس إلا الكبرياء، فما كبر إلا في نفس العالم وهو أجل من أن يقوم به أمر ليس هو بل هو الواحد من جميع الوجوه وهو الحكيم بما رتبه في الخلق، ومن جملة ما رتبه بعلمه وحكمته أنه جعل السموات والأرض محلاً لكبريائه فكأنه يقول: وله الكبرياء الذي خلقه في نفس السموات والأرض حتى يكبروا إلههم به وكذلك وقع فكبروه في نفوسهم فقالوا: إنه ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ أي صاحب الجلال الذي نجده في نفوسنا له ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] بنا، فإن نظرت بعين الحقيقة ففتح الله منك عين الفهم علمت من سميت ومن وصفت ومن نعت ولمن هي هذه النعوت وبمن قامت وإلى أي عين نسبت؟.

وأما قوله فيما وصف به نفسه مما هو عند النظار صفة للخلق حقيقة وأخذوه في الله تجوّزاً من جوع وظمأ ومرض وغضب ورضى وسخط وتعجب وفرح وتبشبش إلى قدم ويد وعين وذراع وأمثال ذلك مما وردت به الأخبار عن الله على ألسنة الرسل، وما ورد من ذلك في الكلام المنسوب إلى الله المعبر عنه بصحيفة وقرآن وفرقان وتوراة وإنجيل وزبور فالأمر عن المحققين أن هذه كلها صفات حق لا صفات خلق، وأن الخلق اتصف بها مزاحمة للحق كما اتصف العالم أيضاً بجميع الأسماء الإلهية الحسنى وأجمع النظار عليها والكل أسماؤه من غير تخصيص، هذا مذهب المحققين فيه فإنه صادق ولهذا نحن في ذلك على التوقيف فلا

نصفه إلا بما وصف به نفسه ولا نسميه إلا بما سمى به نفسه لا نخترع له اسماً ولا نحدث له حكماً ولا نقيم به صفة، فإنه قد قدمنا لك أنه لا يماثلنا ولا نماثله، فليس كمثله شيء منا وليس كمثلنا شيء منه، فهو لنفسه بنفسه ونحن لنا به لأنا لا نستقل بوجودنا كما استقل هو إلا أنه خلق العالم على صورته، ولذلك قبل التسمي بأسمائه، فانطلق على العالم ما انطلق على الحق من حيث ما أطلقه الحق على نفسه، فعلمنا أنه في أسمائه الأصل لا نحن، فما أخذ شيئاً هو لنا ولا نستحقه بل كل ذلك له، ومن جملة ما خلق الله الخيال وظهر لنا فيه بهذه الأسماء والصفات ففصلنا وقسمنا ورفعنا وخططنا ولم يترك شيئاً من صفات العالم عندنا إلا وصفنا بها خالقنا فكشف لنا فإذا ذلك كله صفاته لا صفاتنا، فصفات العالم على الحقيقة هوية الحق والاختلاف في التجليات الإلهية لحقائق الممكنات في عين الحق فإنه عين الصورة التي أدركناها، إذ لا نشك فيما رأينا أنا رأينا الحق بالعلامة التي بيننا وبينه وهو من هويته بصرنا وسمعنا، فما رأيناه إلا به لا ببصرنا ولا سمعنا كلامه إلا به لا بسمعنا، فلا بد من عين هو مسمى العالم، ولا بد من عين هو مسمى الحق، ليس كمثل واحد شيء من الآخر، فهذا بعض ما يحوي عليه التواضع الكبريائي، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والثمانون وثلاثمائة

في معرفة منازلة مجهولة وذلك إذا ارتقى من غير تعيين قصد ما يقصده من الحق وكل شيء عند الحق معين فقد قصده من الحق ما لا يناسب قصده من عدم التعيين

[نظم: الوافر]

نَكُونُ على النَّقِيض إذا اجتمعنا ... وإن بِنَّا نكون على السَّوَاءِ
وفي التَّحْقيق ما في الكَوْنِ عَيْنٌ ... بلا شَكٍّ سواه ولا مِرَاءِ
فقُل للمنكرين صَحِيحَ قَوْلي ... عَمِيتُمْ عن مطالعة العَمَاءِ
وعن نفس تَكَوَّنَ فيه خَلْقٌ ... كثيرٌ شكلُه شَكْلُ المَرَائي
فيقلبُ صورة الرائي إليه ... بحكم ثابت في كل رائي

قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] فعين لمعين وزاد غير معين، سألت بعض شيوخنا عن الزيادة فقال: ما لم يخطر بالبال. وقال ﷺ: «**إنَّ فِي الجَنَّةِ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**» فلا بد أن يكون غير معلوم للبشر، ولا بد أن يكون في البشر صفة غير معلومة ولا معينة منها يحصل له هذا الذي ذكر أنه ما خطر على قلب بشر موازنة مجهول لمجهول، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ [السجدة: ١٧] فنكر ونفى العلم ما أخفى لهم من قرّة أعين، فعلمنا على الإجمال أنه أمر مشاهد لكونه قرنه بالأعين لم يقرنه بالأذن ولا بشيء من الإدراكات، ولذلك علمنا أن قوله ﷺ: «**جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**» أنه ما أراد المناجاة وإنما أراد شهود من ناجاه فيها، ولهذا أخبرنا أن الله في قبلة المصلي فقال: «**اعْبُدِ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» فإنه ﷺ كان يراه في عبادته ما كان كأنه يراه، ومن أهل الله من

تكون له هذه الرتبة ولولا حصولها ما قرنها بالعبادة دون العمل، فما قال: اعمل لله كأنك تراه فإن العبادة من غير شهود صريح أو تخيل شهود صحيح لا تصح، وفي هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] وفيه علم مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، وكل ما هو علمه موقوف على الله لا يعلم إلا بإعلام الله أو بإشهاده، ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١١٥] ومن هذا الباب: ﴿فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ [البقرة: ١٨٤] من غير تعيين أيام معينة.

أما صورة هذه المنازلة من العبد فهي كما قال أبو يزيد في الجلوس مع الله بلا حال ولا نعت وهو أن يكون العبد في قصده على ما يعلمه الله لا يعين على الله شيئاً فإنه من عين في قصده على الله شيئاً فلا فرق بينه في الصورة وبين من عبد الله على حرف، فصاحب هذه المنازلة يعبد ربه بتعيين الأوقات لا بتعيينه فهو في حكم وقته والوقت من الله لا منه، فلا يدري بماذا يفجأه وقته، فغايته أن يكون مهيأ لوارد مجهول إلهيّ يقيمه في أي عبادة شاء، فتنتج له تلك العبادة من الحق في منازلته ما لا يناسب ذلك العمل في علمه إلا أنه مناسب لعبادته في ذلك العمل، فهو زيادة بالنظر إلى العمل نتيجة بالنظر إلى العبادة فيه، وهذا مقام ما وجدنا له ذائقاً في علمنا من أهل الله لأن أكثرهم لا يفرقون بين العبادة والعمل، وكل عمل لا يظهر له الشارع تعليلاً من جهته فهو تعبد، فتكون العبادة في كل عمل غير معلل أظهر منها في العمل المعلل، فإن العمل إذا علل ربما أقامت العبد إليه حكمة تلك العلة وإذا لم يعلل لا يقيمه إلى ذلك العمل إلا العبادة المحضة.

واعلم أن العبادة حال ذاتيّ للإنسان لا يصح أن يكون لها أجر مخلوق لأنها ليست بمخلوقة أصلاً، فالأعيان من كل ما سوى الله مخلوقة موجودة حادثة، والعبادة فيها ليست بمخلوقة فإنها لهذه الأعيان أعني أعيان العالم في حال عدمه وفي حاله وجوده، وبها صح له أن يقبل أمر الله بالتكوين من غير تثبط، بل أخبر الله تعالى أنه يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فحكم العبادة للممكن في حال عدمه أمكن فيه منها في حال وجوده، إذ لا بد له في حال وجوده واستحكام رأيه ونظره لنفسه واستقلاله من دعوى في سيادة بوجه ما لو كان ما كان فينقص له من حكم عبادته بقدر ما ادّعاه من السيادة، فلذلك قلنا إن حكم العبادة للممكن أمكن منه في حال عدمه منها في حال وجوده، فمن استصحبته فقد استصحبه الشهود دنيا وآخرة ونعته إذا كانت هذه حالته أنه لا يفرح بشيء ولا يحزن لشيء ولا يضحك ولا يبكي ولا يقيده وصف ولا يميزه نعت وجودي فلا رسم له ولا وصف. قال أبو يزيد البسطاميّ رضي الله عنه في هذا المقام: ضحكت زماناً وبكيت زماناً وأنا اليوم لا أضحك ولا أبكي. وقال في هذا المقام لما قيل له كيف أصبحت؟ فقال: لا صباح لي ولا مساء إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة وأنا لا صفة لي فوصف نفسه بالإطلاق، ولا يصح الإطلاق إلا في العبادة خاصة لأن العبد مقيد بإرادة السيد الذي يملكه فيه، ومن كان له الإطلاق فلا يتقيد أجره ولا يتعين لأنّ العبد لا أجر له ما هو مثل الأجير، وقد كان لشيخنا أبي العباس العريبي من العليا من غرب

الأندلس وهو أوّل شيخ خدمته وانتفعت به له قدم راسخة في هذا الباب باب العبودية وإنما صاحبها العبد في شأنه كما أن الحق في شأنه فجزاء الإطلاق الإطلاق، سأل جبريل رسول الله ﷺ عن الإحسان فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه**» وما ذكر العمل وإنما ذكر العبادة، وقال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] فهو قولنا: ما جزاء الإطلاق إلا الإطلاق، والأجور مقيدة من عشر إلى سبعمائة ضعف لأنها أجور أعمال معينة متناهية الزمان، فلا بدّ أن يتقيد أجرها بالعدد، ولو كان جزافاً فإنه مقيد بالعدد من عند الله كالصابر يوفى أجره بغير حساب معين علمه عندنا وعند الله مقيد بقدر معلوم، لأن الصبر يعم جميع الأعمال لأنه حبس النفس على الأعمال المشروعة، فلهذا لم يأخذه المقدار والأعمال تأخذها المقادير، فعلى قدر ما يقام فيه المكلف من الأعمال إلى حين موته فهو يحبس نفسه عليها حتى يصح له حال الصبر واسم الصابر فيكون أجره غير معلوم ولا مقدر عنده جملة واحدة، وإن كان معلوماً عند الله كالمجازفة في البيع من غير كيل في المكيل ولا وزن في الموزون وفارق الصبر العبادة بأن العبادة له في حال عدمه وعدم تكليفه، والصبر لا يكون له في حال عدمه ولا في حال عدم تكليفه، فالعبادة لا تبرح معه دنيا ولا آخرة، فإذا كان مشهده عبادته في حال ارتقائه ونزل الحق إليه كما وصف الحق نفسه بالنزول فوقع الاجتماع وهو المنازلة فمن حيث أن العبد ذو عمل من الأعمال لأنه لا بد أن يكون في عمل مشروع صالح وهو الذي يصعد به فإنه براقه لأنه محمول فيتلقاه من الله من حيث ذلك العلم بالبرّ الذي عينه الله لمن جاء به وهو مقدر معلوم، ثم إن الحق ينظر في هذا المكلف فيراه مع كونه في عمله غير مشهود له ذلك العمل لعلمه أن الله هو العامل به لا هو، وأنه محل لخلق العمل به، وكالآلة لوجود ذلك العمل، فيكون الحق يعطي استحقاق ذلك العمل من حيث ما وعد به فيه، وينظر ما مشهد ذلك الشخص فيحده في عبادته التي لم يزل عليها في حال عدمه، فما ثم جزاء في مقابلتها إلا أن لا يرزقه الغفلة عنها في زمان خلق الغفلات في المكلفين ما ثم إلا هذا، وهو الذي قلنا في الممكن في حال وجوده أنه لا بد من حكم سيادة تظهر منه لأنه في زمان حكم الغفلات. فالعناية بهذا العبد في هذه المنازلة رفع الغفلة عن العبادة في كل حال، فهذه هي الزيادة في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾ [يونس: ٢٦] بما لهم من الأجور بل بما للأعمال من الأجور، فإنها بعينها للعامل ﴿وَزِيَادَةٌۖ﴾ هي ما ذكرناه في حق صاحب العبادة فإنه لا يرزقه الغفلة في وقت العمل عمن هو العامل، فيرى أن العامل هو الله، وليس يعود الأجر الذي يطلبه العمل إلا على العامل، فالعامل عنده هو الله فأجرته لو كان ممن يقبل الأجور على قدره فيحصل للمكلف الذي هو الآلة القابلة للأجور أجر من لو قبل الله الأجر كيف يكون أجره هل يكون إلا على قدره، وإن قيده العمل فأين أجر هذا المكلف بهذا الشهود من أجر من يرى في عمله أن المكلف هو العامل لا الحق فيكون أجره على قدر هذا المكلف، فلا يحصل له سوى أجر العمل خاصة إلا على قدر أجر العامل لأن العامل عنده عينه ولا قدر له، ولولا ظهوره واتصافه بطاعة ربه في عمله لم يكن له قدر من نفسه، ولهذا ترى مآل المخالف إلى ما

يكون، فلو كان له قدر في نفس الأمر لسعد بحكم قدره وإنما يسعد برحمة الله ولم تتفاضل سعادتهم لو كان لهم قدر يستحقون به السعادة، ولا نشك أنهم في السعادة متفاضلون كما أنهم في الأعمال متفاضلون من حال وزمان ومكان وعين عمل ودوام واجتماع وانفراد إلى غير ذلك فيما يقع به التفاضل، فعلمنا أنه ما ثم جزاء القدر، فعلمنا أن الإنسان من حيث عينه لا قدر له بطاعة ربه وقدر عمله.

ثم إن الحق بعد هذا النظر وتعيين الجزاء كما قرّرناه ينظر في شهود هذا المكلف فيراه ذا عبادة والعمل تابع لها فيه وهو لا يتصف بالإعراض عن الأعمال ولا بالإقبال عليه، وأنه على الحال الذي كان عليه في حال عدمه لم يتغير فيبقيه على حاله ويحجب الغفلة عنه فلا يكون له أثر فيه بوجه من الوجوه، وهذه هي العصمة العامة، فإذا وقعت منه مخالفة فإنما تقع بحكم القضاء والقدر من تكوينهما فيه كما وقعت الطاعة فما ينقص له من حاله في عبادته لأن الغفلة محجوبة عنه والحضور له دائم، فإذا وقع منه ما وقع فهو من الله عين تكوين لذلك الواقع في هذا المحل ظاهره صورة معصية لحكم خطاب الشرع وهي في نفس الأمر أعني تلك الواقعة موجود أوجده الله في هذا المحل من الموجودات المسبحة بحمده فلا أثر لهذه المخالفة فيه كما لا أثر للطاعة فيه، فتسعد النفس الحيوانية بذلك العمل كان العمل ما كان في الظاهر مما يجري عليه لسان ذنب أو لسان خير، فإنه في نفس الأمر ليس بذنب، وإنما حركته الحيوانية كحركات غير المكلف لا تتصف بالطاعة ولا بالمعصية، وإنما ذلك إنشاء صور في هذا المحل ينظر إليها علماء الرسوم قد ظهرت من مؤمن عاقل بالغ فيحكمون عليه بحسب ما هي عندهم في حكم الشرع من طاعة أو معصية ما يلزمهم غير هذا ما لم يدخل لهم الاحتمال فيه، فإن دخل لهم الاحتمال في ذلك لم يجز لهم أن يرجحوا جانب لسان الذنب على غير ذلك، كرجل أبصرته في بلدة صحيحاً سوياً في رمضان يأكل نهاراً مع معرفتك به أنه مؤمن فيدخل الاحتمال فيه أن يكون به مرض لا تعرفه أو يكون في حال سفر ولا تعرف ذلك فليس لك أن تقدم على الإنكار عليه مع هذا الاحتمال ولا يلزمك سؤاله عن ذلك بل شغلك بنفسك أولى بك. وأما قوله في هذا الباب ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**» فاعلم أنه ما سميت الجنة جنة إلا لما نذكره، وكذلك تسمية الملائكة جنة وكذلك الجن، فكل ذلك راجع إلى الاستتار، والاستتار ما هو على نمط واحد بل حكمه مختلف، وذلك أن من هذا النوع كون الحق يتجلى في القيامة ويقول: أنا ربكم ويرونه ومع هذا ينكرونه ولا يصدقون به أنه ربهم مع وجود الرؤية على رفع الحجاب، فإذا تحوّل لهم في العلامة التي يعرفونه بها يقولون له أنت ربنا وهو كان الذي أنكروه وتعوّذوا منه، وهو الذي أقروا به واعترفوا، فما هو هذا الحجاب الذي حصل لهم مع الشهود؟ هل هو أمر وجودي أو حكم عدمي؟ فهو مشهود محجوب ولا حجاب وجودي ولا حكم للعدم في الموجود فانظر ما أخفى هذا وليس في العالم في الدنيا واقع إلا هذا في جميع الأمور والناس في غفلة عنه، كما أنا نؤمن أن الملك معنا والشيطان معنا والحجب المحسوسة ما هي موجودة عندنا وأعيننا

ناظرة، ومع هذا فلا ندرك الملك ولا الجان وهو يرانا وقبيله من حيث لا نراه، فهو وقبيله يرانا شهوداً عينياً، ونحن نراه إيماناً لا عيناً، فما هو هذا الستر الذي بيننا؟ إذ لو كان بيننا لحجبهم عنا كما يحجبنا عنهم فلا بد من تعيين حكمة في ذلك، وكذلك الحجب التي ذكر الله عن نفسه التي بيننا وبينه من نور وظلمة، فمن الظلمة وقع التنزيه فنفينا عنه صفات المحدثات فلم نره فنحن جعلنا الحجب على أعيننا بهذا النظر، والنور كظهوره لنا حتى نشهده وننكر أنه هو كما قدمنا في التجلي في القيامة، وهو عند العارفين اليوم في الدنيا على هذا الحكم، فيشهده العارفون في صور الممكنات المحدثات الوجود، وينكره المحجوبون من علماء الرسوم، ولهذا يسمى بالظاهر في حق هؤلاء العارفين، والباطن في حق هؤلاء المحجوبين، وليس إلا هو سبحانه وتعالى، فأهل الله الذين هم أهله لم يزالوا ولا يزالون دنيا وآخرة في مشاهدة عينية دائمة، وإن اختلفت في الصور فلا يقدح ذلك عندهم.

فإن قال قائل: فموسى أحق بهذه الصفة من الوليّ وقد سأل الرؤية. قلنا له: قد ثبت عندك إن كنت مؤمناً وإن لم تكن من أهل الكشف أن النبيّ ﷺ قد أخبر أن الله يتجلى في صورة ويتحوّل إلى صورة وأنه يعرف وينكر إن كنت مؤمناً لا تشك في هذا، وأنه قد بين أن التجلي في الصور بحسب قدر المتجلي له، فإذا علمت هذا تعلم أن موسى قد رأى الحق بما هو متجل للأولياء، إذ علم أنه يتجلى للأولياء في صور مختلفة لأن موسى وليّ الله، وقد علم ذلك ومثل هذا فلا يخفى، وإنما سأل التجلي في الصورة التي لا يدركها إلا الأنبياء، ومن الأنبياء من خصه الله بمقام لم ينله غيره، كالكلام بارتفاع الوسائط لموسى عليه السلام، فطلب موسى عليه السلام من ربه أن يراه في تلك الصورة التي يطلبها مقامه. وأما رؤيته إياه في الصورة التي يراها الأولياء فذلك خبره وديدنه، وما جعلك تقول مثل هذا على طريق الاعتراض إلا لكونك لست بوليّ عارف إذ لو كنت من العارفين لشهدته، ولم يغب عنك علم ما انفصلنا به في جواب سؤالك فصح قوله أن في الجنة ما لا عين رأت أي في الستر اعتباراً لا تفسيراً إذ لو رأته عين ما كان مستوراً ولو رأته لنطقت به وكان مسموعاً، ولو كان مسموعاً لكان محدوداً، ولو كان محدوداً لأخطرته فكان معلوماً، فهو أمر حجبنا عنه بحجاب لا يعرف، فإنه في الستر المعبر عنه بالجنة، فإذا كان عينه عين الستر فما حجبنا إلا جعلنا ما رأيناه ستراً فتعلقت الهمة بما خلف الستر وهو المستور فأتى علينا منا وما جعلنا في ذلك إلا التنزيه، ولهذا جاءت الأنبياء عليهم السلام مع التنزيه بنعوت التشبيه لتقرّب الأمر على الناس وتنبه الأقربين إلى الله الذين هم في عين القرب مع الحجاب الذي هو الأمر عليه، فيكون في ذلك التنبيه بالتشبيه رفع الأغطية عن البصر، فيتصف البصر بأنه حديد كما يتصف بصر المحتضر، قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] فيرى المحتضر ما لا يراه جلساؤه، ويخبر جلساءه ما يراه ويدركه ويخبر عن صدق، والحاضرون لا يرون شيئاً كما لا يرون الملائكة ولا الروحانيين الذين هم معه في مجلس واحد، وقد أخبرنا الله بأن الملائكة تحضر مجالس الذكر وهم السياحون في طلب هذه المجالس، فإذا رأوا مجلس الذكر نادى

بعضهم بعضاً: هلموا إلى بغيتكم، وليس أحد من البشر من أهل ذلك المجلس يدركهم إلا من رفع الله الغطاء عن بصره فأدركهم وهم أهل الكشف، ألم تستمع لقول النبي ﷺ للذين يمشون خلف الجنائز ركاباً ألا تستحيون أن الملائكة تمشي على أقدامها في الجنازة وأنتم تركبون. فالمؤمن ينبغي أن يعامل الموطن بما يعامله به صاحب العيان وإلا فليس بمؤمن حقاً، فإن لكل حق حقيقة وليست الحقيقة التي لكل حق إلا إنزاله منزلة المشهود المدرك للبصر، وقد قال هذا رسول الله ﷺ للرجل الذي سمعه يقول: أنا مؤمن حقاً، فقال له رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟**» فقال الرجل: كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً يعني يوم القيامة، فقال له رسول الله ﷺ: «**عَرَفْتَ فَالْزَمْ**» ففسر الحقيقة بالنظر والرؤية وجعله بكأن لأن يوم القيامة ما وقع حساً ولكن وقع في حقه ممثلاً فأدركه في التمثيل كالواقع في الحس كالعابد الذي قال له: اعبد الله كأنك تراه، فما هذا مثل العرش البارز فإن الله هنا موجود في نفس الأمر في قبلة المصلي أو العابد في أي عمل كان، وبروز العرش ليس كذلك، فمن الناس من يعبد الله كأنه يراه للحجاب الذي منعه من أن يراه، ومن الناس من يعبده على رؤية ومشاهدة، وليس بين الذي يراه والذي لا يراه إلا كون هذا الذي لا يراه لا يعرفه مع أنه مشهود له عزّ وجلّ والعارف يعرفه، ولكن مثل هذه المعرفة لا ينبغي أن تقال فإنها لا تقبل، فإذا شهدها الإنسان من نفسه لم يتمكن له أن يجهلها فيكون عند ذلك من الذين يرون الله في عبادتهم ويزول عنهم حكم كأنك تراه فاعلم ذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾ [السجدة: ١٧] يعني للقوم الذي تقدم وصفهم جزاء بما كانوا يعملون فما جزاؤهم هنا إلا إخفاؤهم ذلك عن هذه النفس التي لا تعلم، فيكون إخفاء حال هؤلاء وما لهم عند الله عن هذه النفوس التي لا تعلم جزاء لهم أي جزاؤهم أن يجهل مقامهم عند الله فلا تقدر نفس قدرهم كما قال الحق عن نفسه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] فأعطاهم نعته في خلقه، فلم تعلم نفس ما أخفي لهؤلاء من قرّة أعين مما تقرّ به أعينهم وكذلك قال ﷺ: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ**» وإنما ذكر الأعين دون جميع الإدراكات لأن كل كلام إلهيّ وغير إلهيّ لا بد أن يكون عينه عن عين موجودة وما ثم إلا كلام فما ثم إلا أعيان توجد، ومتعلق الرؤية إدراك عين المرئي واستعداد المرئي للرؤية سواء كان معدوماً أو موجوداً، فإذا رآه قرّت عينه بما رآه إذ كان غيره لا يرى ذلك، ولهذا سأل موسى الرؤية لتقر عينه بما يراه، فكان رسول الله ﷺ في حال صلاته صاحب رؤية وشهود، ولذلك كانت الصلاة محل قرّة عينه لأنه مناج والأعيان كما قلنا تتكوّن بالكلام فهو والحق في إنشاء صور ما دام مناجياً في صلاته، فيرى ما يتكوّن عن تلاوته وما يتكوّن عن قول الله له في مقابلة ما تكلم به كما ورد في الخبر الذي فيه تقسيم الصلاة من قول العبد فيقول الله.

وأما قوله في هذا الباب: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] فإن مآل الشيء لا يصح أن يكون واقعاً فيرى إلا إن مثل للرائي فهو كأنه يراه فإن المآل يقابل الحال، فالحال موجود والمآل ليس بموجود، ولهذا سمي مآلاً، والتأويل هو ما يؤول إليه حكم هذا

المتشابه، فهو محكم غير متشابه عند من يعلم تأويله وليس إلا الله والراسخ في العلم يقول: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] يعني متشابهه ومحكمه، فإذا أشهده الله مآله فهو عنده محكم وزوال عنه في حق هذا العالم التشابه فهو عنده كما هو عند الله من ذلك الوجه، وهو عنده أيضاً متشابه لصلاحيته إلى الطرفين من غير تخليص كما هو في نفس الأمر بحكم الوضع المصطلح عليه، فهو وإن عرف تأويله فلم يزل عن حكمه متشابهاً، فغاية علم العالم الذي أعلمه الله بما يؤول إليه علمه بالوجه الواحد لا بالوجهين، فهو على الحقيقة ما زال عن كونه متشابهاً لأنّ الوجه الآخر يطلبه بما يدل عليه ويتضمنه كما طلبه الوجه الذي أعلم الله به هذا الشخص، فعلم الله على الحقيقة به أن يعلم تأويله أي ما يؤول إليه من الجانبين في حق كل واحد، أو الجوانب إن كانوا كثيرين، فيعلمه متشابهاً لأنه كذا هو إذ كل جانب يطلبه بنصيبه ودلالته منه، فالمحكم محكم لا يزول، والمتشابه متشابه لا يزول، وإنما قلنا ذلك لئلا يتخيل أن علم العالم بما يؤول إليه ذلك اللفظ في حق كل من له فيه حكم أنه يخرجه عن كونه متشابهاً ليس الأمر كذلك بل هو متشابه على أصله مع العلم بما يؤول إليه في حق كل من له نصيب فيه، فهذه الإحاطة مجهولة ولا تعلم إلا في هذه المنازلة، فيعطى من هذا المتشابه كل ذي حق حقه كما أعطى الله كل شيء خلقه من الشبه والاشتراك. وأما مفاتح الغيب فلا يعلمها إلا هو وهو من هذا الباب فلا تعلم إلا بإعلام الله، وإن كانت تعلم فلا تعلم أنها مفاتح الغيب، فتنبه لهذا واعلم أن الإعلام أظهر لنا أن الاستعدادات من القوابل هي مفاتح الغيب لأنه ما ثم إلا وهب مطلق عام وفيض جود ما ثم غيب في نفس الأمر ولا شهود بل معلومات لا نهاية لها، ومنها ما لها وجود، ومنها ما لا وجود لها، ومنها ما لها سببية، ومنها ما لا سببية لها، ومنها ما لها قبول الوجود، ومنها ما لا قبول لها، فثم مفتاح وفتح ومفتوح يظهر عند فتحه ما كان هذا المفتوح حجاباً عنه، فالمفتاح استعدادك للتعلم وقبول العلم والفتح التعليم والمفتوح الباب الذي كنت واقفاً معه، فإذا لم تقف وسرت رأيت في كل قدم ما لم تره فعلمت ما لم تكن تعلم ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. فالاستعداد غير مكتسب بل هو منحة إلهية فلهذا لا يعلمه إلا الله فيعلم أن ثم مفاتح غيب لكن لا يعلم ما هو مفتاح غيب خاص في مفرد مفرد من الغيوب، فإذا حصل الاستعداد من الله تعالى حصل المفتاح وبقي الفتح حتى يقع التعليم كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن] فالتعليم هو عين الفتح. ومن هذا الباب ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] كالصلاة على الراحلة فالمستقبل لا يتقيد فهو بحسب ما تمشي به كذلك لا يعرف العارف أين يسلك به ربه في مناجاته فإنه بحسب ما يناجيه به من كلامه، وكلامه سور القرآن، فأي سورة أو أي آية شاء قرأ من غير تعيين لأن الشارع ما قيده بسورة بعينها فهو بحسب ما يلقى في خاطره وذلك إلى الله، فكما لا علم له بما يلقيه في نفسه مما يناجيه به إلا حتى يلقيه كذلك لا يعلم ما يقول له الحق في مناجاته في منازلته.

ومن هذا الباب قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤] وأيام الله التي يقطعها العبد

بعمره لا يعين قدرها ولهذا نكرها، فالذي يجب على المكلف في سفره عدة من أيام أخر له الاختيار في تعيينها ولكن لا يدري ما يعين منها إلا بإلقاء الله في نفسه ذلك والصوم لا مثل له فلا يدري في أي صفة يقيمه مما لا مثل لها من جانب الحق وهي كل صفة إلهية لا يمكن للعبد الاتصاف بها وإن علمها، كما يعلم أن الحق لا يماثله ولا يكون بهذا العلم إلهاً لأن الألوهة ليست صفته، وهذا معنى قوله ﷺ حين سأل ربه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ غَيْبِكَ**» فدخل في هذا كل اسمٍ ممكن أن يتصف به وكل اسم لا يمكن أن يتصف به، فما لا يتصف به من الأسماء لا مثل له، فيكون معلوماً لنا في صومنا غير قائم بنا بحيث أن نتصف به، هذا فائدة عدم التعيين في الأيام التي نصومها إذا كنا مسافرين فأفطرنا فنقضي أيام رمضان أو نؤديه في أيام غير معينة، فصاحب هذه المنازلة يقصد الله تعالى في عروجه فارغ القلب خالي النفس عرياً عن قصد اسم معين إلهي بما أنت عبد وبما هو إله فعال لما يشاء، لا يخطر لك أمر تطلبه منه إنما هو أن تكون معه في عروجك بحسب ما يكون منه مع حفظ أوقاتك فيما وقع عليك من التكليف لاقتضاء حق الوقت ومراعاة خطاب الشرع مع غيبتك عنك في ذلك بتوليه فيما أنت فيه وأنت محل لجريان مقاديره مع التحفظ ولزوم الأدب أن يجعلك محلاً لما حجره عليك، فإن أنت سلكت على هذا الأسلوب يبدو لك من الحق في منازلته ما لم يخطر لك بخاطر بل ما لا ينقال ولا تسعه العبارة.

الباب التاسع والثمانون وثلاثمائة

في معرفة منازلة إليّ كونك وإليك كوني

[نظم: مخلّع البسيط]

إليَّ مِنكَ الدُّنُوُّ وَقْتاً ... وثُمّ وَقْتاً إليكَ مِنِّي
أخذتُ عنك العلومَ فَضْلاً ... وأنت أيضاً أخَذْتَ عَنِّي
إنِّيّتي فيك يا حبيبي ... إذا يقول اللسانُ إنِّي
ما أصْعَبَ القَوْلَ مِنْكَ عندي ... إذا يقول الفؤاد صِلْني
ولم أغِبْ عنه إذ تَجَلَّى ... ولو دَرَى لاشْتَهَى التَّمَنِّي

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨] فهذه عين المنازلة لأن كل صورة منهما فارقت مكانهما فكانت كل صورة من الأخرى أدنى من قاب قوسين لكل واحدة من الصورتين قوس أظهر التقويس والفرقان بين الصورتين الخط الذي قسم الدائرة بنصفين فكان الأمر عيناً واحدة، ثم ظهر بالصورة أمران، فلما صار الحكم أمرين كان من الأمر الواحد تدلياً لأن العلو كان له وفي عين هذا التدلي دنو من الأمر الآخر، وكان من الآخر تدان إلى من تدلى إليه فكان دنوه عروجاً لأن تدلي الأمر الآخر إليه أعلمنا أن السفل كان تَسم هذا الآخر، وما تدانى كل واحد من الآخر إلا ليرجع الأمر كما كان دائرة واحدة لا فصل بين قطريها فكلاهما يسعيان في إزالة الخط الذي أوجب التقسيم في الدائرة، فموضع التقسيم قوله: «**قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ**

عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» وما للعبد سؤال إلا إزالة هذه القسمة حتى يعود الأمر كما كان، فأجابه الحق إلى سؤاله بقوله: «وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» فقال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]: [مجزوء الرمل]

فتدلّيه دُنُوٌّ وتدانينا عُرُوجُ
وافترقنا واجتمعنا إننا زَوْجٌ بَهِيجُ
حَدَثَتْ حين افترقنا في سمائنا بُروجُ
ولها من أجلِ كوني في ذواتِنا فُرُوجُ
فنكاحٌ مستمرٌّ ووُلُوجٌ وخُرُوجُ

ومن ذلك [المجتث]:

فكان منه التَّدَلِّي وكان منِّي التَّداني
حتى أراه بعَيْني كما يقول يراني

ولما التقينا عن حب واشتياق خاطبني من أعلم في سري: [مجزوء الكامل]

اجْعَلْ يَدَيْكَ على الكَبِدْ تَجِدِ الذي منكمْ أَجِدْ
وابْرَحْ إلى طَلَبِ الوصا لِ وقُلْ له هَبْني وَزِدْ
لولا وُجودُ العلم فيه ما تذكَّر من عبدْ
فإنَ أنكروا هذا فقُلْ إنّ القُرَانَ بذا وَرَدْ

قال الله عزّ وجلّ: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ فخص طائفة بالتعيين ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ فعين طائفة أخرى ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فعين طائفة أخرى ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢] فعيننا وهؤلاء هم الذين ذكرنا وهم العلماء بالله وبالأمر على ما هو عليه، فم يكن الخط الذي قسم الدائرة إلا عين تميزي عنه وتميزه عني من الوجه الذي كان به إلهاً وكنت به عبداً، فلما تحقق التمييز ووقع الانفصال بالتكوين وأظهر الخط حكمه ووصفنا بالحجاب عنه ووصف نفسه حجب الأنوار والظلم عنا وشرع لنا ما شرع وأمرنا بالإنابة إليه ووصف نفسه بالنزول إلينا علمنا أنه يريد رجوع الأمر إلى ما كان عليه بعد علمنا بما قد علمنا وتحققنا بما به تحققنا قال عن نفسه إنه سمعنا الذي نسمع به وبصرنا الذي نبصر به، وذكر لنا جميع القوى التي نجدها من نفوسنا وأثبت في هذا الوصل أعياننا، فلا يشبه ما رجع الأمر إليه ما كان عليه قبل الفصل، لأن الذي أثبته الخط من الحكم ما يزول وإن زال الخط فأثره باق لأنا قد علمنا أن الدائرة قابلة للقسمة بلا شك ولم نكن نعلم ذلك قبل، فإذا اتصلت الدائرة فلا يزول العلم منا أنها ذات قسمين من أي جزء فرضته فيها وإنما تقبلها من أي حد فرضته فيها لما ورد في الأخبار الإلهية من اتصاف الحق تعالى بصفات الخلق واتصاف الخلق بصفات الحق كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] فإن قلت الرحمن سميته بجميع الأسماء الحسنى. وإن قلت الله سميته بجميع الأسماء الحسنى، وكذلك تقول الخلق الذي هو العالم يقبل أسماء الحق وصفاته، وكذلك الحق يقبل صفات الخلق لا أسماءه

بالتفصيل ولكن يقبلها بالإجمال، فقبوله بالإجمال مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] وكونه لا يقبل أسماء العالم بالتفصيل فأعني بذلك الأسماء الأعلام وهو قوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣] يريد الأسماء الأعلام وما عدا الأسماء الأعلام فيقبلها الحق على التفصيل، فإن الحق ما له اسم علم لا يدل على معنى سوى ذاته، فكل أسمائه مشتقة تنزلت له منزلة الأعلام، ولهذا وقع الاشتراك بالتفصيل في أسماء الحق ولم يقع الاشتراك بالتفصيل في أسماء العالم فتحقق ما نبهنا عليه، فأعظم ما أخذه من صفاتنا الذي يدل الدليل على إحالته ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] فما كان بعد هذا فهو أهون من تحوله في الصور وغير ذلك وعلى الحقيقة فكلها نعوته، وأعظم ما أخذنا نحن منه علمنا به الذي يحيله الدليل وهو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقول رسول الله ﷺ: **«مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»** فأخذنا عنه وأخذ عنا [الطويل]:

فيا حَيْرَةً أبْدَتْ حقائقَ كَوْنِهِ ... ويا خَيْبَةً للعَبْدِ حين تَفُوتُهْ
فمن كان أحْيَاهُ يُحَيِّرُ ذاتَهُ ... ومن لم يَحِزْ فيه فعنه يُميتُهْ
إذا كان قُوتُ الخلق كَوْناً محقَّقاً ... فإلٰهُ الحق للعبد قُوتُهْ

قيل لسهل بن عبد الله: ما القوت؟ قال: الله. واعلم أن الإل بكسر الهمزة هو الله تعالى، والإل أيضاً العهد بكسر الهمزة، فقوله: إلي كونك أي ألوهتي ما ظهرت إلا بك، فإن المألوه هو الذي جعل في نفسه وجود الإله ولهذا قال: **«مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»** فمعرفتك بالله أنه إلهك أنتجته معرفتك بذاتك ولذلك ما أحالك الله في العلم به إلا عليك وعلى العالم، فكل ما ثبت لله تعالى من الأحكام ما ثبت إلا بالعالم، فعين الإل من حيث عينه هو الموصوف بهذه الأحكام، فلو ارتفع العالم من الذهن ارتفعت الأحكام الإلهية كلها وبقي العين بلا حكم، وإذا بقي بلا حكم وإن كان واجب الوجود لذاته لم يلزم أن يكون له حكم الألوهة، فوجود أعياننا من وجوده، ووجودنا أثبت العلم به في ذواتنا، ولولا أن ذاته أعطت وجودنا ما صح لنا وجود عين، وهذا معنى قول العلماء: إن العالم استفاد الوجود من الله. وأما قوله إلك كوني فهو عين قوله: **«كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ»** فجعل هويته عين مسمى سمعنا وقوانا وليس العالم إلا بهذا الحكم [مجزوء الرجز]:

فإنْ فَنِيتُ لم أكُنْ ... وإنْ بَقِيتُ لم أكُنْ
فكلُّنا لكُلِّنا ... وكلُّنا مِنْ قَوْلِ كُنْ
منّا ومنه فاعتبرْ ... تَجِدْهُ فيك يَسْتَكِنْ
فاسْتُرْهُ لا تُظْهِره ... كما أتَى في لم يَكُنْ
فيها بَدَتْ مشرقةً ... شَمْسٌ له ما قد سَكَنْ
فما لنا سواه من ... مُسْتَنَدٍ ومن سَكَنْ

فالحق مصرف العالم والعالم مصرف الحق ألا تراه يقول: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] أليست الإجابة تصريفاً؟ هل يتصوّر إجابة من غير نداء وسؤال لا يصح أن

يتصرّف في نفسه فما له تصرّف إلا فينا فتصرّفه إيجاده إيانا دائماً فأعيان تظهر وأحكام له تحدث وتعلقات لا تنكر: [الطويل]

فـإنْ قُـلْـتَ أنـا واحـدٌ كُـنْـتَ صـادقـاً ... وإنْ قُـلْـتَ لـسـنـا واحـداً لـم تُـكَـذَّبِ

فيا ليت شعري من يجهل وما ثم إلا الله فالكل عالم بما لا يعلمه ثم يعلمه ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] وقد ظهر بعض رشح من هذا المشهد على طائفة من أصحاب النظر لا يعرف من أين جاءهم ذلك، فحكي عنهم أنهم يقولون: إن الله لا يعلم نفسه لأن العلم بالشيء يقتضي الإحاطة بالمعلوم وهو لا يتناهى وجوده ووجوده عين ماهيته ليس غيرها، وما لا يتناهى لا يكون محاطاً به إلا أنه لا يتناهى وأحاط علماً به أنه لا يتناهى لا له ولا للعالم، وهذا وإن كان قولاً فاسداً فإن له وجهاً إلى الصحة وذلك أنه لا يعلم نفسه على جهة الإحاطة بل يعلم نفسه أنها تقبل الإحاطة كما يعلم الممكنات وجميع المقدورات أنها لا تتناهى، فانظر في هذا الرش من هذا البحر الغمر كيف أثر في العالم نحلة ظهرت في العين وبدت إلى عالم الكون حتى سطرت في الدفاتر وسارت بها الركبان وتسامر بها العلماء، وما ثم قائل إلا الله ولا منطق إلا الله، وما بقي إلا فتح عين الفهم لتنطيق الله من حيث أنه لا ينطق إلا بالصواب، فكل كلام في العالم فهو إما من الحكمة أو من فصل الخطاب، فالكلام كله معصوم من الخطأ والزلل إلا أن للكلام مواطن ومحال وميادين له فيها مجال رحب تتسع ميادينه بحيث أن تنبو عن إدراك غايتها عيون البصائر: [الوافر]

فـيـنـطـقُ حـيـن يـنـطـقُ بـالـصّـوابِ ... عـلـى مـا يـقـتـضـي فَـصْـلُ الـخـطَـابِ
وتـــرجـــعُ حُـــسَّـــراً أبـــصـــارُ قـــومٍ ... عَـمَـوْا فـيـهـا عـن الأمْـرِ الـعُـجَـابِ

فإذا أردت السبيل إلى فهم هذه المعاني فتعمل في تكثير النوافل التي لها أصل في الفرائض، وإن تمكن لك أن تكثر من نوافل النكاح فإنه أعظم فوائد نوافل الخيرات لما فيه من الازدواج والإنتاج فتجمع بين المعقول والمحسوس فلا يفوتك شيء من العالم الصادر عن الاسم الظاهر والباطن فيكون اشتغالك بمثل هذه النافلة أتم وأقرب لتحصيل ما ترومه من ذلك، فإذا فعلت هذا أحبك الحق، وإذا أحبك غار عليك أن تشهدك عين أو يقيدك كون، فأدخلك في حمى حرمه وجعلك من جملة أحبابه وأهلك له فصرت له أهلاً كما قال في الحديث في أهل القرآن: «**إِنَّهُمْ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ**» خرج ذلك الترمذي في مصنفه، وإذا اتخذك أهلاً جعلك محلاً لإلقائه وعرشاً لاستوائه وسماء لنزوله وكرسياً لقدميه، فظهر لك فيك منه ما لم تره مع كونه فيك وهو قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] لأن جنوبهم تجافت عن المضاجع الطبيعية وصاروا أهلاً للموارد الإلهية والشوارد الربانية، فمياههم عذبة صافية، وعروشهم عن كل ما سوى ما يلقي الله إليهم خاوية، آبارهم معطلة، وأبوابهم مقفلة، وقصورهم مشيدة، ضاعت مفاتح أقفالها، وتقطعت حبال آبارها، فتنظر إلى مياهها ولا تذاق فتستحسن على جهالة فإذا سردت أخبارها قرآناً ظهر إعجازها فلم يستطع أحد معارضتها فيستحليها، فإذا سئل عن معانيها لا يدري ما يقول إذ لا ذوق له فيها إلا ما أعطاه

الشهود، فغايته أن يقول: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ﴾ [المائدة: ١١٠] ويؤثر لاختلاط ضوئه بظلمته تشبيهاً بسحر الليل، وبالسحر الذي يخرج الهواء الحار ويسوق الهواء البارد لتبقى بذلك الحياة على هيكل الحيوان فلا يدري الناظر فيه أي وجه يستقبل به فإنه مهما أقبل على وجه أعرض عن الآخر إلا أن يكون نبياً فيرى من خلفه كما يرى من أمامه فيكون وجهاً كله، وذلك هو المعبر عنه بالذوق الذي يكون عنه حقيقة الاشتياق والشوق فما ينطق عن هوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] علمه ذو القوة المتين في صورة شديد القوى ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٤، ٢٥] فإنه من عين القرب أخبر لأنه من دنا فتدلى فكان كما تقدم ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] وما هو من مرجمات الظنون كما يقولون في أصحاب الكهف الفتية المعلومة: ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢] يقول: ما هم على تحقيق فيما يخبرون به من عددهم هذا رجم في العدد، وأن أنت لو أخذوا في حقيقة المعدود لخاضوا وما حصلوا على طائل، ألا ترى إلى قوله تعالى لنبيه ﷺ الذي ليس من شأنه ولا من شأن الأنبياء عليهم السلام أن ينهزم ولا يقتل في مصاف: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨] فوصفه بالانهزام وقوله صدق، ألا ترى ذلك عن رؤيته أجسامهم أليسوا أناسي مثله فما ينهزم إلا من أمر يريد إعدامه ولا يملأ مع شجاعته وحماسته رعباً إلا من شيء يهوله، فلو لم ير منهم ما هو أهول مما رآه ليلة إسرائه ما امتلأ رعباً مما رآه، وقد رأيناهم وما ملئنا رعباً لأنا ما شهدنا منهم إلا صور أجسامهم فرأيناهم أمثالنا فذلك الذي كان يملؤه رعباً وما ذكر الله إلا رؤية عينهم لأنه قال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فوصفه بالاطلاع فهم أسفل منه بالمقام، ومع هذا كان يولي منهم فراراً خوفاً أن يلحق بهم فينزل عن مقامه ويملأ منهم رعباً لئلا يؤثروا فيه كما قلنا من تأثير الأدنى في الأعلى كقوله ﷺ: «**رُبَّ ضَاحِكٍ مِلْءَ فِيهِ لاَ يَدْرِي أَرْضَى الله أَمْ أَسْخَطَهُ**» وقال ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله. ومن علم الأمر على هذا حقيق عليه أن يولي فراراً ويملأ رعباً هل رأيتم عاقلاً يقف على جرف مهواة إلا ويفر خوفاً من السقوط؟ فانظر فيما تحت هذا النعت الذي وصف الله به نبيه لو اطلع على الفتية مع علوّ رتبتهم وشأنهم فعلوّه أعلى ورتبته أسنى فعرفنا بذلك ينبهنا على علوّ رتبة نبينا محمد ﷺ فأعيان الفتية كانت المشهودة لنا ولم نول ولا ملئنا رعباً، وأعيان الفتية لو اطلع عليهم نبينا لولى فراراً منهم ولملىء رعباً، فانظر إلى ماذا ترجع صور العالم هل لأنفسهم أو لرؤية الناظر وتدبر ما قلناه كما تعلم قطعاً أن حبال السحرة وعصيهم في عينها حبال وعصيّ وفي نظرنا حيات فهي عين الحيات وهي عين العصي والحبال، فانظر ما ترى واعلم ما تنظر وكن بحيث تعلم لا بحيث ترى فإن الله ينكر بالرؤية ولا ينكر بالعلم، فإذا لم ينكر بالرؤية فبشاهد العلم لم ينكر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التسعون وثلاثمائة
في معرفة منازلة زمان الشيء وجوده

إلا أنا فلا زمان لي وإلا أنت فلا زمان لك فأنت زماني وأنا زمانك

[نظم: الوافر]

إذا قـلـنـا بـأن الـنَّـعْـتَ عَـيْـنٌ فـأيـن الـواحـدُ الـمـنـعـوتُ مِـنْـهُ
وقـد جـاء الـخـطـابُ الـحَـقُّ فـيـنـا أخـذنـاه عـن الأرْسـالِ عَـنْـهُ
بـأن الله لـيـس لـه شـريـكٌ ولا مِـثْـلٌ ولا يُـبْـدِيـهِ كُـنْـهُ
فـإنْ حَـصَّـلْـتَ سِـرَّ الـكَـوْنِ فـيـه فـكُـنْ مـنـه عـلـى عـلـم وصُـنْـهُ
فـمـهـمـا قـلـت لـسـت أنـا بـلا هـو فـضـدُّ الـقـول والـتـعـيـين مَـنْ هُـو
إذا حَـقَّـقْـتَ قَـوْلـي يـا قَـسِـيـمِـي عـلـمـت فـلـم تـقـل مـن أنـت مَـنْ هُـو

قال الله تعالى حكاية عن قوم يقولون: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] وصدقوا فإنه قد ثبت عن رسول الله ﷺ أن الله هو الدهر فما أهلكهم إلا الله كما هو في نفس الأمر.

اعلم أن الزمان نسبة لا وجود له في عينه وقد أطال الناس الكلام في ماهيته، فخرج من مضمون كلامهم ما ذكرناه من أنه نسبة وأنه يحدث بحدوث السؤال بمتى فيحدث له أسماء بحدوث السؤال مثل حين وإذ وإذا، وحروف الشرط كلها أسماء الزمان والمسمى أمر عدمي كلفظة العدم فإنها اسم مسماها لا عين له مع تعقل الحكم له فلنمثل ليفهم ما ذكرناه، يقال: متى جاء زيد؟ الجواب: حين طلعت الشمس مثلاً وإذا طلعت الشمس ومتى تطلع الشمس من مغربها حين يأذن الله لها في ذلك وإذا يأذن الله، ومهما أذن الله لها طلعت في جواب هل تطلع الشمس من المغرب فيعود مشرقاً فيكون هذا وأمثاله جوابه فيعقل منه الزمان إن جاء زيد أكرمتك، المعنى: حين يجيء زيد أكرمك، المعنى زمان مجيء زيد، زمان وجوب كرامتك عليّ التي أوجبها على نفسي بمجيء زيد فهو للمحدثات زمان وللقديم أزل، ومعقوليته أمر متوهم ممتد لا طرفين له، فنحكم عليه بالماضي لما مضى فيه ونحكم عليه بالمستقبل لما يأتي فيه، ونحكم عليه بالحال لما هو فيه، وهو مسمى الآن، والآن وإن كان زماناً فهو حدّ لما مضى في الزمان، ولما استقبل في الزمان كالنقطة تفرض في محيط الدائرة فتعين لها البدء والغاية حيث فرضتها منها، فالأزل والأبد عدم طرفي الزمان فلا أوّل له ولا آخر والدوام له وهو زمان الحال والحال له الدوام، فلا يزال العالم في حكم زمان الحال، ولا يزال حكم الله في العالم في حكم الزمان ولا يزال ما مضى منه وما يستقبل في حكم زمان الحال. ألا ترى في كلام الله في إخباره إيانا بأمور قد انقضت عبر عنها بالزمان الماضي، وبأمور تأتي عبر عنها بالزمان المستقبل، وأمور كائنة عبر عنها بالحال، فالحال ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] والماضي: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] والمستقبل: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] و﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٦] و﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ونطلب عند هذا كله عيناً وجودية يكون هذا كله فيها وهي له كالظرف فلا نجدها لا عقلاً ولا حساً لكن وهماً ظرفياً، وذاك الظرف مظروف لظرف متوهم لا يتناهى يحكم به الوهم لا غير، فما ثم إن عقلت ما يعقل بالوهم ولا يعقل بالعقل ولا بالحس إلا الوجود الحق الذي نستند إليه في وجودنا، فلهذه النسبة تسمى لنا بالدهر حتى لا يكون الحكم إلا له لما يتوهم من حكم الزمان إذ لا حاكم إلا الله، ففيه ظهرت أعيان الأشياء بأحكامها فهو الوجود الدائم، وأعيان الممكنات بأحكامها تظهر من خلف حجاب وجوده للطافته، فنرى أعيان الممكنات وهي أعياننا من خلف حجاب وجوده. ولا نراه كما نرى الكواكب من خلف حجب السموات ولا نرى السموات وإن كنا نعقل أن بيننا وبين الكواكب سموات إلا أنها من اللطافة لا تحجب من يكون وراءها ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩] فمن لطفه أنه هو الذي يأتيهم بكل ما هم فيه ولا تقع أبصار العباد إلا على الأسباب التي يشهدونها فيضيفون ما هم فيه إليها فظهر الحق باحتجابه فهو الظاهر المحجوب، فهو الباطن للحجاب لا لك، وهو الظاهر لك وللحجاب، فسبحان من احتجب في ظهوره وظهر في حجابه فلا تشهد عين سواه ولا ترتفع الحجب عنه ولم يزل رباً ولم نزل عبيداً في حال عدمنا ووجودنا، فكل ما أمر سمعنا وأطعنا في حال عدمنا ووجودنا إذا لم يخاطبنا بفهوانية الأمثال والأشكال، فإذا خاطبنا بفهوانية الأمثال والأشكال وألسنة الأرسال، فمن كان منا مشهوده ما وراء الحجاب وهو المثل والرسول سمع فأطاع من حينه، ومن كان مشهوده المثل سمع ضرورة ولم يطع للحسد الذي خلق عليه من تقدم أمثاله عليه فظهر المطيع والعاصي أي عصى على مثله لكونه ما نفذ فيه أمره بالطاعة ما عصى على الله ولهذا قال بعضهم: إنما احتجب الله في الدنيا عن عباده لأنه سبق في علمه أنه يكلفهم ويأمرهم وينهاهم، وقد قدر عليهم بمخالفة أمره وبموافقته في أوقات، فلا بد من ظهور المخالفة والموافقة، فخاطبهم على ألسنة الرسل عليهم السلام وحجب ذاته سبحانه عنهم في صورة الرسول وذلك لأنه قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقال: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فلولا أن الرسول صورته الظاهرة المشهودة ما صح هذا القول فوقعت المخالفة من المخالف بالقدر السابق والحكم القضائي، ولا يتمكن أن يخالف أمره على الكشف فانحجب بالأرسال انحجابه بالأسباب فوقع الذم على الأسباب فهي وقاية الرحمن، فما خالف أحد الله تعالى وما خولف إلا الله تعالى، فلا تزال الأسباب للمحجوبين مشهودة، ولا يزال الحق للعارفين مشهوداً مع عقلهم الحجب في حق من حجبته، فكثف اللطيف عندهم ولطف الكثيف عند العارفين بالله [البسيط]:

فيَعْلَمُ العَقْلُ ما لا يَشْهَدُ البَصَرُ وتَشْهَدُ العَيْنُ ما ترمي به الفِكَرُ

فجمع العارفون بين العقل والبصر، فلهم قلوب يفقهون بها، ولهم أعين يبصرون بها، ولهم آذان يسمعون بها، والمحجوبون على قسمين: منهم من له قلب لا يفقه به وعين لا يبصر بها ومنهم من له قلب يفقه به وله عين لا يبصر بها وهم المؤمنون فيعلمون ولا يشهدون، ومن عداهم لا يعلمون ولا يشهدون، وأهل الله يعلمون ويشهدون، ولهذا إذا

خاطبهم يسمعون ويطيعون ويشهدون ذواتهم محلاً لما يخلق الله فيها مما يحكم فيه أنه مخالفة وموافقة، فهو مطيع مهيأ لقبول ما يتكوّن فيه كالرحم من المرأة مهيأ لما يتكوّن فيه غير ممتنع، فالعبد الذي بهذه المثابة شجنة موجده فهو رحمان في العالم رحيم بالمؤمنين، فالرب زمانه المربوب والمربوب زمانه الرب، لأنه ما ثبت الحكم لكل واحد بما حكم عليه به إلا بالآخر، فمن كون كل واحد ينطلق عليه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لا يكون واحد منهما زماناً للآخر لارتفاع النسب، وهذا لا يكون إلا بالنظر لعين كل واحد لا لحكمه، فإذا انتقلت إلى النظر في الحكم الذي هو موقوف على العالم به وعلى الحق بالعالم صح أن يكون الحكم من كل واحد زماناً للآخر كالمتضايفين متى صحت الأبوة لزيد على عمرو قيل: حين صحت البنوة لعمرو من زيد، فزمان أبوة زيد بنوة عمرو، وزمان بنوة عمرو أبوة زيد، فالأب زمانه الابن، والابن زمانه الأب، وكذلك الملك والملك والملك والمالك، والقادر والمقدور، والمريد والمراد، والعالم والمعلوم، غير أن العالم والمعلوم قد تكون العين واحدة لأنه قد يكون العالم يعلم نفسه فهو المعلوم لنفسه وهو العالم بنفسه فهو العالم المعلوم له، بخلاف المريد والمراد لأنّ المراد لا يكون أبداً إلا معدوماً، ولا يكون المريد إلا موجوداً، وكذلك القادر والمقدور لا يكون المقدور أبداً إلا معدوماً فإذا وجد فلا معدم له بعد وجوده إلا بنفسه أو إمساك شرط بقائه أي بقاء الوجود عليه غير ذلك لا يكون، فقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٩] يريد به مسك الشرط المصحح لبقاء الوجود عليكم فتنعدمون إذ لم يوجده سبحانه فإن له التخيير في إيجاد كل ممكن أو تركه على حاله من اتصافه بالعدم، فإذ قد علمت بما ذكرناه ما هو الزمان فبعد ذلك أدخل مع الناس فيما دخلوا فيه من أن الزمان الليل والنهار والأيام، أو الزمان مدة متوهمة تقطعها حركات الأفلاك، أو الزمان مقارنة حادث لحادث يسأل عنه بمتى، وأمثال هذه الأقوال لا يضرك القول بها فإنها قد استقرّت ولها صحة في النسب الزمانيّ والله يقدر الليل والنهار بالإيلاج والغشيان والتكوير لإيجاد ما سبق في علمه أن يظهر فيه من الأحكام والأعيان في العالم العنصريّ فنحن أولاد الليل والنهار، فما حدث في النهار فالنهار أمه والليل أبوه لأن لهما عليه ولادة، وما ولد في الليل فالليل أمه والنهار أبوه فإن لهما عليه ولادة، فلا يزال الحال في الدنيا ما دام الليل والنهار يغشى أحدهما الآخر، فنحن أبناء أم وأب لمن ولد معنا في يومنا أو في ليلنا خاصة، وما ولد في الليلة الثانية والنهار الثاني فأمثالنا ما هم إخوتنا لأن الليل والنهار جديدان فأبوانا قد انعدما فهذان أمثالهما لا أعيانهما وإن تشابها فهو تشابه الأمثال، فإذا كان في الآخرة كان الليل في دار جهنم والنهار في دار الجنة فلم يجتمعا مع الولادة التي توجد في النار والجنان من حدوث التكوين فيهما فذلك مثل حوّاء وآدم، ومثل عيسى من مريم، فهذه هي ولادة الآخرة ضرب الله بعيسى ومريم وحوّاء وآدم مثلاً لنا فيما يتكوّن في الآخرة، فليس توليد الأكوان في الآخرة عن نكاح زماني بإيلاج ليل في نهار ونهار في ليل فإنهما مثلان في الزمان الذي هو اليوم الجامع لهما فقسمه الله في الآخرة بين الجنة والنار، فأعطى ظلمة الليل للنار وأعطى نور النهار للجنة ومن

مجموعهما يكون اليوم وهو يوم الآخرة فإنه جامع للدارين. والزمان محصور في سنة وشهر وجمعة ويوم فيقسم الزمان على أربعة أقسام لأن الفصول الطبيعية أربعة، لأن الأصل في وجود الزمان الطبيعة ورتبتها دون النفس وفوق الهباء الذي يسميه الحكماء الهيولى الكل، وحكم التربيع فيها من حكم التربيع في الأحكام الإلهية من حياة وعلم وقدرة وإرادة، بهذه الأربعة ثبتت الألوهة للإله فظهر التربيع في الطبيعة ثم نزل الأمر، فظهر التربيع في الزمان الأكبر وهو النسة فانقسمت السنة إلى أربعة فصول: ربيع وصيف وخريف وشتاء، أحدث هذا الحكم فيها نزول الشمس في البروج، والبروج قسمتها الطبيعة تقسيمها العناصر التي هي الأركان إلى نارية وهوائية ومائية وترابية، كما قسمت العناصر إلى نار وهواء وماء وتراب، كما قسمت الأخلاط في الحيوان إلى صفراء ودم وبلغم وسوداء، ثم اندرج الزمان الصغير الذي هو الشهر والجمعة في الزمان الكبير وتعددت الشهور بتعداد البروج اثني عشر شهراً فقسمت عليها الأيام بحكم الرأي إلا أيام العرب أعني شهور العرب فإنها مقسمة بسير القمر فهي مقسمة بتقسيم الله لا بتقسيمنا، فلما ظهرت السنة بقطع الشمس هذه البروج كذلك ظهر الشهر العربي بقطع القمر هذه البروج، فالشهر الإلهيّ ثمانية وعشرون يوماً وشهر الرؤية والتقدير بحسب الواقع، ثم يقع التقدير في الزمان الممتد بأحد هذه الأربعة إما بالسنة أو بالشهر أو بالجمعة أو باليوم لا يقع التقدير إلا بهذا، وأعني باليوم اليوم الصغير من طلوع الشمس إلى طلوع الشمس مثلاً وهو الذي يحدث عند انتهاء دورة الفلك المحيط الذي يدور بالكل وهو الذي يتعين بالعين كما قلنا بطلوع الشمس إلى طلوع الشمس مثلاً فيعلم أن الدورة المحيطة بالأفلاك قد انتهت في أعيننا ولا حد لها في نفسها، فما في الفلك المحيط سوى دورة واحدة لا تتصف بالانتهاء فنحن فرضنا فيها البدء والغاية والإعادة والتكرار ما هي في نفسها بهذا الحكم والأيام كثيرة ولكن لا تعد إلا بهذا اليوم الصغير المعلوم عندنا الجامع لليل والنهار فتعد الأيام به أو بالشهر أو بالسنة لا غير، وقد ورد أن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون بهذا اليوم الصغير، وقد ورد في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وأيام الدجال يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامنا المعهودة، فاليوم الذي نعد به الأيام الكبار هو يوم الشمس، ويوم القمر ثمانية وعشرون يوماً من أيام الشمس، وكذلك نأخذ أيام كل كوكب بهذا اليوم الحاكم على الكل إذ كان انتهاء دورة الفلك المحيط فنأخذ يوم كل كوكب بقدر قطعه الفلك الأقصى وهو الأطلس الذي لا كوكب فيه، فأكبرها قطعاً فيه فلك الكواكب الثابتة، وإنما سميت ثابتة لأن الأعمار لا تدرك حركتها لقصر الأعمار لأن كل كوكب منها يقطع الدرجة من الفلك الأقصى في مائة سنة إلى أن تنتهي إليها، فما اجتمع من السنين فهو يوم ذلك الكوكب فيحسب ثلاثمائة وستين درجة كل درجة مائة سنة، وقد ذكر لنا في التاريخ المتقدم أن تاريخ أهرام مصر بنيت والنسر في الأسد وهو اليوم عندنا في الجدي فاعمل حساب ذلك تقرب من علم تاريخ الأهرام: [الطويل]

فلم يَدْرِ بانيها ولم يَدْرِ أمْرَها ... على أن بانيها من النَّاس بالقَطْعِ

ولقد أراني الحق تعالى فيما يراه النائم وأنا طائف بالكعبة مع قوم من الناس لا أعرفهم بوجوههم فأنشدونا بيتين ثبت على البيت الواحد ومضى عني الآخر فكان الذي ثبت عليه من ذلك: [الوافر]

لـقـد طُـفْـنَـا كـمـا طُـفْـتُـمْ سِـنِـيـنَـا　　　بـهـذا الـبَـيْـتِ طُـرّاً أجْـمَـعِـيـنَـا

وخرج عني البيت الآخر فتعجبت من ذلك فقال لي واحد منهم وتسمى لي باسم لا أعرف ذلك الاسم ثم قال لي: أنا من أجدادك، قلت له: كم لك منذ مت؟ فقال لي: بضع وأربعون ألف سنة، فقلت له: فما لآدم هذا القدر من السنين، فقال لي: عن أي آدم تقول عن هذا الأقرب إليك أو عن غيره؟ فتذكرت حديثاً عن رسول الله ﷺ «أن الله خلق مائة ألف آدم» فقلت: قد يكون ذلك الجد الذي نسبني إليه من أولئك والتاريخ في ذلك مجهول مع حدوث العالم بلا شك، فإن العالم لا تصح له رتبة القدم أي نفي الأوّلية لأنه مفعول لله أوجده عن عدم مرجح بوجود مرجح لأن الإمكان له من ذاته فالترجيح لا يزال له، وكل ما زاد على الأعيان التي هي محل ظهور الأحكام فصورتها صورة الزمان نسب وإضافات لا أعيان لها من أكوان وألوان ونعوت وصفات، ولكل نسبة وإضافة وكون ولون ونعت وصفة اسم خاص أو أسماء، هذا تحقيق الأمر في كل ما ذكرناه وقل بعد ذلك ما شئت.

الباب الأحد والتسعون وثلاثمائة

في معرفة منازلة المسلك السيال الذي لا يثبت عليه أقدام الرجال السؤّال

[نظم: الوافر]

رأيـتُ الـحَـقَّ فـي الأعـيـان حَـقّـاً　　　وفـي الأسـمـا فـلـم أرَهُ سِـوَائـي
ولـسـتُ بـحـاكـم فـي ذاك وَحْـدي　　　فـهـذا حـكـمُـه فـي كـل رائـي
وعـنـد الـمُـثْـبِـتِـيـنَ خـلافُ هـذا　　　هـو الـرائـي ونـحـن لـه الـمَـرَائـي

قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] وهو القائل: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [النساء: ٨٩] فأظهر آمراً وأمراً ومأموراً في هذا الخطاب التكليفي، فلما وقع الامتثال وظهر القتل بالفعل من أعيان المحدثات قال: ما هم أنتم الذين قتلتموهم بل أنا قتلتهم فأنتم لنا بمنزلة السيف لكم أو أيّ آلة كانت للقتل، فالقتل وقع في المقتول بالآلة ولم يقل فيه أنه القاتل، وقيل في الضارب به أنه القاتل كذلك الضارب به بالنسبة إلينا مثل السيف له عنده، فلا يقال في المكلف أنه القاتل بل الله هو القاتل بالمكلف وبالسيف فقام له المكلف مقام اليد الضاربة بالسيف كالحجر الأسود يمين الله في البيعة تقبيلاً واستلاماً كالمصافحة من الشخصين وتحرير هذه المنازلة معرفة الأمور الموجبة للأحكام هل لها أعيان وجودية أو هي نسب تطلبها الأحكام؟ فهي معقولة بأحكامها، وبقي العلم في المحل الذي ظهرت فيه هذه الأحكام ما هو هل هو عين الممكن وهذه النسب للمرجح مثل ما قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:

٩٦] أو هل المحل وجود الحق وهذه الأحكام أثر الممكنات في وجود الحق وهو ما يظهر فيه من الصور، فكل صورة تشهد صورة وهي آثار الممكنات في وجود الحق، فيرى زيد صورة خالد في وجود حق، ويرى خالد صورة زيد في وجود حق، وكذلك كل حالة يرى تلك الصورة عليها مثل الصورة سواء، وكلا الأمرين قد قال به طائفة من أهل الله وكيفما كان على القولين فلا يتمكن لكل صاحب قول الثبات على أمر واحد بل بنفس ما يثبت الحكم لأمر يثبته لأمر آخر وينفيه عن ذلك الأمر الأوّل فهو ينفي السابق ويثبت اللاحق، فبأيّ أمر بدأ يكون له هذا الحكم في القولين معاً مثل قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ فنفى ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فأثبت الرمي لمن نفاه عنه، ثم لم يثبت على الإثبات بل أعقب الإثبات نفياً كما أعقب النفي إثباتاً فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فما أسرع ما نفى وما أسرع ما أثبت لعين واحدة، فلهذا سميت هذه المنازلة المسلك السيال تشبيهاً بسيلان الماء الذي لا يثبت على شيء من مسلكه إلا قدر مروره عليه، فقدم رجاله غير ثابتة على شيء بعينه لأن المقام يعطي ذلك وهو عين قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] ومقدار اليوم الزمن الفرد، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] مع كونهم سمعوا، فانظر إلى هذا الذم كيف أشبه غاية الحمد فيمن كان الحق سمعه وبصره، فمن كان الحق سمعه فقد سمع ضرورة فلم يسمع إلا بربه فهو سامع لا بنفسه، ولا يصح أن يكون محلاً لهوية ربه فعينه وجود الحق والحكم للممكن فإن ذلك أثره ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] والوجود هو الخير فيتصفون بالوجود ولو أسمعهم إذ أوجدهم لتولوا إلى ذواتهم فيعلمون أنهم ما سمعوا فكنى عنه بالإعراض لأن الحق هو السامع وهم له كالأذن لنا آلة نسمع بها أصوات المصوّتين وكلام المتكلمين، فهو المخاطب والمخاطب، وهو المتكلم السامع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي صدقوا بما قلنا ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] فوحد الداعي بعد ذكر الاثنين فعلمنا أن الأمر واحد وما سمعنا متكلماً إلا الرسول بالسماع الحسيّ وسمعنا كلام الحق بسمع الحق المعنويّ، فالله والرسول اسمان للمتكلم فإن الكلام لله كما قال الله، والمتكلم المشهود عين لسان محمد ﷺ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]: [المجتث]

فليس عَيْني سِوَاهُ ... فما أَبَيْتُ إيَّاهُ
فمن يشاهد بعَيْن الـ ... ـوجود يشهد إيَّاهُ
فنحن فيه سواءٌ ... كما يراني أراهُ

وقد ذكرنا جماع هذا الباب مختصراً كافياً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والتسعون وثلاثمائة

في معرفة منازلة من رحم رحمناه ومن لم يرحم رحمناه ثم غضبنا عليه ونسيناه

[نظم: المديد]

مَنْ أراد الحَقَّ يطلُبُه … في وجود الملك والمَلَكُوتْ
كلماتُ الحَقّ ليست سوى … ما بدا من عالم عَنْ ثُبُوتْ
والذي في ليس مَعْدِنُه … في مقام نحن عنه سُكُوتْ
كما نلْنَاهُ من كرم … فهو المَدْعُوُّ بالرَّحَمُوتْ
والذي البرهانُ يُظْهِرُهُ … قائمٌ في برزخ الجَبَرُوتْ
ظاهرُ الأكوان باطِنُهَا … رَهَبُوتٌ عَيْنُهُ رَغَبُوتْ
فمآلُ الكون أجْمَعِهِ … لمَقَرِّ العَفْو والرَّحَمُوتْ

قال الله تعالى في افتتاح كلامه الجامع: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة] وأكد هذا العالم بأن نعته بأنه ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] وقال ﷺ في الثابت عنه: **«الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ الله وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ الله»** وقال ﷺ: **«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمٰنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»**. وقال ﷺ في حديث الشفاعة: **«إنَّ الله يَقُولُ: شَفَعَتِ المَلائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَالمُؤْمِنُونَ وَبَقِيَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»**.

اعلم أن العالم لما أقام الله نشأته على التربيع وأعني بالعالم هنا الإنس والجان الذين يعمرون الدارين الجنة والنار جعل في أم الكتاب الذي يقضي على جميع ما يتضمنه العالم أربع رحمات لكل ربع من كل شخص شخص رحمة، فضمن الآية الأولى من أم الكتاب وهي البسملة رحمتان وهما قوله: الرحمن الرحيم، وضمن الآية الثالثة منها أيضاً رحمتين وهما قوله: «الرحمن الرحيم» فهو رحمن بالرحمتين العامة وهي رحمة الامتنان، وهو رحيم بالرحمة الخاصة وهي الواجبة في قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] الآيات وقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وأما رحمة الامتنان فهي التي تنال من غير استحقاق بعمل وبرحمة الامتنان، رحم الله من وفقه للعمل الصالح الذي أوجب له الرحمة الواجبة فبها ينال العاصي وأهل النار إزالة العذاب عنهم وإن كانت مسكنهم ودارهم جهنم وهذه رحمة الامتنان، قوله لنبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وهذا معنى قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] أي الطريق الذي أنعمت بها عليهم وهي الرحمة التي أعطتهم التوفيق والهداية في دار التكليف وهي رحمة عناية، فكانوا بذلك غير مغضوب عليهم ولا ضالين لما أعطاهم من الهداية فلم يحاروا، يقول من غضب الله عليه: امنن علينا بالرحمة التي مننت بها على أولئك ابتداء من غير استحقاق حتى وصفتهم بأنهم غير مغضوب عليهم إذ قد مننت عليهم بالهداية فأزالت الضلالة التي هي الحيرة عنهم،

فمن بالذي يزيل ما استحققناه من غضب الله فيرحمهم الله برحمة الامتنان وهي الرحمة التي في الآية الثالثة بالاسم الرحمن فيزيل عنهم العذاب ويعطيهم النعيم فيما هم فيه بالاسم الرحيم، فليس في أم الكتاب آية غضب بل كلها رحمة وهي الحاكمة على كل آية في الكتاب لأنها الأم فسبقت رحمته غضبه، وكيف لا يكون ذلك والنسب الذي بين العالم وبين الله إنما هو من الاسم الرحمن فجعل الرحم قطعة منه فلا تنتسب الرحم إلا إليه، وما في العالم من عنده رحمة بأمر مّا لا بد من ذلك، ولا يتمكن أن تعم رحمة المحدث رحمة القديم في العموم لأن الحق يعم علمه كل معلوم، والحق لا يحيط أحد من علمه إلا بما شاء، فيرحم الخلق على قدر علمهم كما رحم الله على قدر علمه، فكل من غضب من العالم وانتقم فقد رحم نفسه بذلك الانتقام فإنه شفاء له مما يجده من ألم الغضب، وصدقة الإنسان على نفسه أفضل الصدقات، فإذا رحم نفسه وزال الغضب أعقبته الرحمة وهي الندم الذي يجده الإنسان إذا عاقب أحداً ويقول: لو شاء الله كان العفو عنه أحسن لا بد أن يقول ذلك إما دنيا وإما آخرة في انتقامه لنفسه لئلا يتخيل أن إقامة الحدود من هذا القبيل، فإن إقامة الحدود شرع من عند الله ما للإنسان فيها تعمل، فقد وصل الإنسان بهذا الفعل رحمه وإليه وصول الرحمة، فلا بد أن ينال الخلق كلهم رحمة الله، فمنهم العاجل والآجل لأنه ما ثم إلا من وصل رحمه فوصله الله من ذلك الوجه، ومن قطع رحمه أي بعض رحمه لأن القطع لا يتمكن له أن يعم فإن عين قطع رحم خاص وصل رحم آخر له، ففي قطعه وصل وما في وصله قطع، فيشفع الموصول من الأرحام والشفاعة مقبولة، ويقيم الوزن على المقطوع بالتعريف فإنه لا بد أن يكون أيضاً ذلك المقطوع قد قطع رحماً له، فإذا طلب ممن قطع صلة الرحم عنه يقول له الحق كما آخذ لك آخذ منك ويعلمه بأنه أيضاً قد قطع رحماً له فيسأل الله العفو والتجاوز فيقول الله له: فاعف أنت عن قاطع رحمه فيك حتى أعفو عنك، فالبضرورة يقول: قد عفوت لأن ذلك الموطن يطلب من الخائف طلب العفو فيعفو فيعفو الله عنه فتناله رحمة الله بعفو هذا ويوصل رحم آخر له فيشفع فيه، وهذا معنى قول الله عزّ وجلّ يوم القيامة: «**شَفَعَتِ المَلائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَالمُؤْمِنُونَ وَبَقِيَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**» فيكون منه في عباده ما ذكرناه وأمثاله من كل ما يستدعي الرحمة، فإن رحمة الله سبقت غضبه فهي إمام الغضب، فلا يزال غضب الله يجري في شأوه بالانتقام من العباد حتى ينتهي إلى آخر مداه فيجد الرحمة قد سبقته فتتناول منه العبيد المغضوب عليهم فتنبسط عليهم ويرجع الحكم لها فيهم، والمدى الذي يعطيه الغضب هو ما بين الرحمن الرحيم الذي في البسملة، وبين الرحمن الرحيم الذي بعد قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] فالحمد لله رب العالمين هو المدى فأوّله الرحمن الرحيم وانتهاؤه الرحمن الرحيم، وإنما كان ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عين المدى فإن في هذا المدى تظهر السراء والضراء ولهذا كان فيه الحمد وهو الثناء، ولم يقيد بضراء ولا سراء في هذا المدى لأنه يعم السراء والضراء، فكان رسول الله ﷺ يقول في السراء: «**الحَمْدُ لله المُنْعِمِ المُفْضِلِ**» وفي الضراء: «**الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ**» فحمد الله قد جاء في السراء والضراء فلهذا كان عين

المدى، وما من أحد في الدار الآخرة إلا وهو يحمد الله ويرجو رحمته ويخاف عذابه واستمراره عليه، فجعل الله عقيب قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فالعالم بين هذه الرحمة ورحمة البسملة بما هو عليه من محمود ومذموم، وهذا شبيه بما جاء في سورة ألم نشرح قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥] ثم ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦] ولقد أنشد بعضهم في هذا: [الهزج]

إذا ضَـاقَ بـكَ الأمْـرُ ... فـفَـكِّـرْ فـي ألَـمْ نَـشْـرَحْ
فَـعُـسْـرٌ بـيـنَ يُـسْـرَيْـنِ ... إذا ذُكِّـرْتَـهُ فـافْـرَحْ

لأنه سبحانه نكر اليسر وأدخل الألف واللام اللتين للعهد والتعريف على العسر أي هذا العسر الثاني هو عين الأول وليس ذلك في اليسر، وهو تنبيه عجيب من الله لعباده ليقوي عندهم الرجاء والطمع في رحمة الله فإنه أرحم الراحمين، فإنه إن لم يزد على عبيده في الرحمة بحكم ليس لهم فما يكون أرحم الراحمين وهو أرحم الراحمين بلا شك، فوالله لا خاب من أحاطت به رحمة الله من جميع جهاته فاعلم ذلك. وإذا صحت الحقائق فليقل الأخرق ما شاء فإن جماعة نازعونا في ذلك، ولولا أن رحمة الله بهذه المثابة من الشمول لكان القائلون بمثل هذا لا ينالهم رحمة الله أبداً، فالله أسأله أن لا يلحقنا بالجاهلين فإنه ما ثم صفة ولا عتوبة أقبح من الجهل، فإن الجهل مفتاح كل شر ولهذا قال لمحمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] خاطبه بمثل هذا الخطاب لحداثة سنه وقوة شبابه فقابله بخطاب قوي في النهي عن ذلك، وقال تعالى لنوح عليه السلام لما لم يكن له قوة الشباب وكان قد شاخ وحصل في العمر الذي لا يزال فيه محترماً مرفوقاً به في العرف والعادة ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] فرفق به في الخطاب حين وعظه، فإنه لا بد من الفرق بين خطاب الشباب وخطاب الشيوخ، كما أنه لا بد من الفرق في الخطاب بين الأحوال كما نفرق نحن في الثناء على الله بالأحوال فنقول في خطاب السرّاء: الحمد لله المنعم المفضل. ونقول في الضراء: الحمد لله على كل حال لاختلاف الباعث على الحمد علمنا ذلك رسول الله ﷺ بفعله، فأما الرحماء من عباد الله بعباد الله بل بخلق الله مطلقاً فإن الله يسرع إليهم بالرحمة عندما يلقونه إذا رحموا الخلق لرحمة تقوم بنفوسهم بعطفهم على خلق الله فيرحمهم الله فإنها أعمالهم ترد عليهم كما ورد في الخبر، فبرحمتهم رحمهم الله سبحانه: [مخلع البسيط]

فـلا تُـحـالِـفْ ولا تُـشـاقِـقْ ... وكُـنْ صَـدُوقـاً ولا تُـفـارِقِ

فمن رحم خلق الله فإنما رحم نفسه، ثم إن لله رحمة أخرى بهم زائدة على ما رحمهم به من أجل رحمتهم بخلق الله التي هي من أعمالهم، وصورتها أن الراحم منا إذا رحم خلقاً من خلق الله فلا يخلو إما أن تكون رحمته به إزالة ما يؤلم ذلك الخلق المرحوم خاصة أو يزيده مع ذلك إحساناً، مثل من يخرج شخصاً من السجن استحق العذاب وحال بينه وبين نزول العذاب به بشفاعة منه أو يكون هو الآخذ له ثم يعقبه بعد هذا الأمان إحساناً إليه بتولية أو مال أو خلع أو تقريب فذلك أمر آخر، فإذا رحم الله عبداً بعمله الذي رحم العبد به حيواناً مثله

إما بإزالة عذاب أو أضاف إلى ذلك زيادة إحسان فإن الله إذا وفاه رحمة جزاء عمله كان ما كان، فإن الله يزيده على ذلك كما زاد هذا العبد على ما ذكرنا أو يزيد ابتداء منة منه تعالى لذلك قال: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُم الرَّحْمٰنُ**» ولم يقل يرحمهم الرحيم لأنه رحمن الدنيا والآخرة والرحيم اختصاص الرحمة بالآخرة. وأما قوله: «**ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**» لأنكم تشاهدون أصحاب البلايا والرزايا وتتجاوزون فترحمونهم عن أمر الله بالرحمة التي تطلبها أحوالهم كل على حسب حاله يرحمهم وليس في السماء إلا الملائكة فترحمنا بالاستغفار وهو قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥].

وأما قوله في هذا الباب: «ونسيناه في هذه المنازلة» فهو حد نسيان ذلك الإنسان الله في الأشياء فما عاد عليه إلا نسيانه وأضافه الحق إليه فقال: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أي تركوا حق الله فترك الله الحق الذي يستحقونه بإجرامهم فلم يؤاخذهم ولا آخذهم أخذاً لا بد فغفر لهم ورحمهم، وهذا يخالف ما فهمه علماء الرسوم فإنه من باب الإشارة لا من باب التفسير لأن الناسي هنا إذا لم ينس إلا حق الله الذي أمره الله بإتيانه شرعاً فقد نسي الله فإنه ما شرعه له إلا الله فترك حق الله فأظهر الله كرمه فيه فترك حقه ولم يكن حق مثل هذا إلا ما يستحقه وهو العقاب فعفا عنه تركاً بترك مقولاً بلفظ النسيان.

وأما نهيه تعالى إيانا أن نكون كالذين ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] فهو صحيح فإنها وصية إلهية نهانا أن ننسى الله مثل ما نسوه هؤلاء لنقوم بحق الله ونقيم حق الله في الأشياء على نية صالحة وحضور مع الله، فيجازينا الله جزاء استحقاق استحققناه بأعمالنا التي وفقنا الله لها، والذين نسوا الله إنما ترك الله ما استحقوه من العقاب كما تركوا حق الله لا غير. ثم إن أفضل عليهم أفضل عليهم منة منه ابتداء، وإفضاله على العالمين المؤدين حقوق الله ليس منة، فإذا زاد على ما يطلبه عملهم ذلك هو الامتنان كما نالوا ما استحقوا به هذا الثواب من طريق المنة فاعلم ذلك، ألا ترى الله يقول في تمام هذه الآية لما قال: ولا تكونوا كالذين ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] لم يقل أنهم هم الفاسقون بل قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧] فابتدأ كلاماً آخر ما فيه ضمير يعود على هؤلاء المذكورين، وكل منافق فاسق لأنه خارج من كل باب له فيخرج للمؤمنين بصورة ما هم عليه ويخرج للكافرين بصورة ما هم عليه، وقد تقدم في هذا الكتاب مرتبة المنافقين في المنازل فتنبه لما نبهتك عليه وكن من العاملين ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٠] ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤] ولا تقنع بعفو الله فتكون ممن نسي الله بل ارغب في إحسانه بأن يزيدك هنا عملاً ومراقبة فيزيدك عنده جاهاً وحرمة.

وأما قوله تعالى ناهياً إيانا بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩] فأعاد الضمير عليهم فهذا نمط آخر ذكرنا حقيقته في مسألة شرف النفاق وهو النفاق المحمود في المنازل فيما عبر من هذا الكتاب، فلنذكر منه ما يليق بهذا الموضع من أجل النسيان، وذلك أن الله قال على لسان رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ**

عَرَفَ رَبَّهُ» لما جعلنا دليلاً عليه، ولا ينبغي أن ننظر في معرفة نفوسنا إلا حتى نريد أن نعرف ربنا، فإذا نسينا هذه المعرفة فقد نسينا معرفة نفوسنا وهو الباب الواحد الذي كان ينبغي لنا أن نخرج عليه إلى هذه المعرفة فخرجنا على الباب الآخر وهو الذي نخرج منه إلى جهلنا بنفوسنا، ولما خلقنا الله على الصورة الإلهية كان من نسياننا الله أن أنسانا الله أنفسنا فنهينا عن ذلك فإنه من نسي نفسه بالضرورة نسي ما لله عليها من الحقوق وما لها من الحقوق فتركوا الله إذ علموا أنهم لا يشهدون من الله ما هو الله عليه، وإنما يشهدون من الله أعيانهم وأحوالهم لا غير، فلما علم الله هذا من بعض عباده الذين لهم هذا الوصف أنساهم أنفسهم فلم يروا عند شهودهم أن أحوالهم عين ما رأوا فيقولون في ذلك الشهود: قال لي الله وقلت له، وأين هذا من مقام قولهم: لا نرى من الحق إلا ما نحن عليه فلم يكن لهم ذلك إلا من كونه تعالى ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩] الخارجون عن طريق ما كانوا تحققوا به من أن الله لا يشهده أحد إلا من حيث حاله وما هو عليه.

ولما وصف نفسه تعالى بأنه خير الراحمين من باب المفاضلة فمعلوم أنه ما يرحم أحد من المخلوقين أحداً إلا بالرحمة التي أوجدها الرحمن فيه فهي تعالى رحمته لا رحمتهم ظهرت في صورة مخلوق كما قال في سمع الله لمن حمده أن ذلك القول هو قول الله على لسان عبده، فقوله تعالى الذي سمعه موسى أتم في الشرف من قوله تعالى على لسان قائل فوقع التفاضل بالمحل الذي سمع منه القول المعلوم أنه قول الله، وكذلك أيضاً رحمته من حيث ظهورها من مخلوق أدنى من رحمته بعبده في غير صورة مخلوق فتعين التفاضل والأفضلية بالمحال، إلا أن رحمة الله بعبده في صورة المخلوق تكون عظيمة فإنه يرحم عن ذوق فيزيل برحمته ما يجده الراحم من الألم في نفسه من هذا المرحوم، والحق ليس كذلك فرحمته خالصة لا يعود عليه منها إزالة ألم فهو خير الراحمين، فرحمة المخلوق عن شفقة ورحمة الله مطلقة بخلاف بطشه وانتقامه مع شدته، ولكن لا يبطش بطشاً لا يكون فيه رحمة لأن قصارى الرحمة فيه إيجاده البطش بعبده، فوجود البطش رحمة رحم الله بها المبطوش إذ أخرجه من العدم إلى الوجود، ومن كان مخلوقاً من صفة الرحمة فلا بد أن يكون في بطشه رحمة، فجاء أو يزيد في هذا المقام لما سمع القارىء يقرأ: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] قال أبو يزيد: بطشي أشد لأن بطش الإنسان إذا بطش لا يكون في بطشه شيء من الرحمة لأنه لا يتمكن له أن يبطش بأحد وعنده رحمة به جملة واحدة، فما يكون ذلك البطش إلا بحسب ما أعطاه محل الباطش وإن كان ذلك البطش خلقاً لله، ولكن ما خلقه إلا في هذا المحل فظهر بصورة المحل والمحل لا يطلب الانتقام من أحد وفي قلبه رحمة، ثم إن الله إذا بطش بعبده ففي بطشه نوع رحمة لأنه عبده بلا شك، كما أن المخلوق إذا أراد أن يبطش بعبده لا بد أن يشوب بطشه نوع رحمة للمناسبة التي بينه وبين عبده ومملوكه لأنه المبقي عليه اسم المالك والسيادة، فلا يمكن أن يستقصي في بطشه ما يذهب عينه، فيكون عند ذلك قد بطش بنفسه، والمخلوق ليس كذلك في الأجنبيّ الذي ليس بينه وبين الباطش نسبة عبودية ولا اكتسب من

وجوده صفة سيادة، فإذا بطش من هذه صفته بطش ببطش لا تشوبه رحمة فهو سبحانه خير الراحمين، وما جاء قط عنه تعالى أنه خير الآخذين ولا الباطشين ولا المنتقمين ولا المعذبين كما جاء ﴿خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧] و﴿خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] و﴿خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩] وخير الشاكرين وأمثال هذا مع كونه يبطش وينتقم ويأخذ ويهلك ويعذب لا بطريق الأفضلية، فتحقق هذا الفاصل بين وصفه بالأخذ والانتقام وبين وصفه بالرحمة والمغفرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والتسعون وثلاثمائة

في معرفة منازلة من وقف عندما رأى ما هنا له هلك

[نظم: الكامل]

الـخَـلْـقُ تَـقْـدِيـرٌ ولـيـس بـكَـائِـنِ والـمُـبْـدَعَـاتُ هـي الـتـي تَـتَـكَـوَّنُ
الـرُّوحُ والـكـلـمـات شـيء واحـدٌ والـحَـقُّ فـيـه هـو الـذي يَـتَـعَـيَّـنُ
فـالـعَـالِـمُ الـنِّـحْـرِيـرُ لـيـس بـثـابـتٍ فـي حـالـه فـمـقـامـه يـتـلـوَّنُ
فـلـذاك أعـطَـى كـل شـيء خَـلْـقَـهُ وهـداكُـمُ لـكـلامـه فـتَـبَـيَّـنُـوا
لـو لـم يـكـنْ عَـيْـنُ الـكـلام وُجُـودَنـا لـم نَـغْـتَـنِـمْـهُ فـلـم تَـلَـذَّ الأعْـيُـنُ
بـفُـنُـونِ أسـمـاءِ الإلـهِ قـلـوبُـنـا وتـوجُّـهـات الـحـقّ بـي تَـتَـفَـنَّـنُ
فـجـمـيـع مـا جـئـنـا بـه إن كُـنْـتَ ذا فَـهْـم وتـحـقـيـق بـه تَـتَـيَـقَّـنُ

اعلم أيدنا الله وإياك أن الله تعالى لما سوى النشأة الإنسانية بل جميع ما أنشأه من أجسام العالم الطبيعية والعنصرية وعدلها على الترتيب الذي تقتضيه الحكمة في كل جسم وعدله وهيأه لقبول ما يريد أن يهبه في نفخه فيه من الروح الإلهيّ نفخ فيه من روحه فظهر فيه عند ذلك نفس مدبرة لذلك الهيكل وظهرت بصورة مزاج الهيكل، فتفاضلت النفوس كما تفاضلت الأمزجة، كما يضرب نور الشمس في الألوان المختلفة التي في الزجاج فتعطي أنواراً مختلفة الألوان من أحمر وأصفر وأزرق وغير ذلك بحسب لون الزجاج في رأي العين، فلم يكن ذلك الاختلاف في النور الذي حدث فيه إلا من المحل ولا تعين في نفسه جزءاً عن غيره إلا بالمحل فالمحل عينه والمحل غيره، وكذلك النفوس المدبرة للهياكل الطبيعية والعنصرية فللنفوس الأثر في الهياكل بحكم التدبير، ولا تقبل من التدبير فيها من هذه النفوس إلا بقدر استعدادها، وللهياكل أثر في النفوس بحسب أمزجتها في أصل ظهورها عند تعيينها، فمنهم الذكي والبليد بحسب مزاج الهيكل فالأمر عجيب بينهما، فكل واحد منهما مؤثر فيمن هو مؤثر فيه. ثم إن الله أخذ بأكثر أبصار جنس الإنس والجان عن إدراك النفوس المدبرة الناطقة التي للمسمى جماداً ونباتاً وحيواناً وكشف لبعض الناس عن ذلك، والدليل السمعي على ما قلناه قول الله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ يعني من الحجارة ﴿لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] فوصفها بالخشية. وأما أمثالنا فلا يحتاج إلى خبر في ذلك فإن الله قد كشفها لنا عيناً وأسمعنا تسبيحها

ونطقها لله الحمد على ذلك، وكذلك اندكاك الجبل لتجلي الرب له لولا العظمة التي في نفس الجبل من ربه لما تدكدك لتجليه له، فإن الذوات لا تؤثر في أمثالها وإنما يؤثر في الأشياء قدرها ومنزلتها في نفس المؤثر فيه، فعلمه بقدر ذلك المتجلي أثر فيه ما أثر فيه ما ظهر له، فإنا نرى الملك إذا دخل في صورة العامة ومشى في السوق بين الناس وهم لا يعرفون أنه الملك لم يقم له وزن في نفوسهم، فإذا لقيه في تلك الحالة من يعرفه قامت بنفسه عظمته وقدره فأثر فيه علمه به فاحترمه وتأدّب وسجد له، فإذا رأى الناس الذين يعرفون قرب ذلك العالم من الملك وأن منزلته لا تعطي أن يظهر منه مثل هذا الفعل إلا مع الملك علموا أنه الملك فحادت إليه الأبصار وخشعت الأصوات وأوسعوا له وتبادروا لرؤيته واحترامه، فهل أثر ذلك عندهم إلا ما قام بهم من العلم به، فما احترموه لصورته فقد كانت صورته مشهودة لهم، وما علموا أنه الملك وكونه ملكاً ليس عين صورته وإنما هي رتبة نسبية أعطته التحكم في العالم الذي تحت بيعته.

ورد في الخبر الذي خرجه أبو نعيم الحافظ في دلائل النبوّة في بعض إسراءات رسول الله ﷺ أنه قال: جاءه جبريل عليه السلام ليلة ومعه شجرة فيها كوكري الطائر فقعد رسول الله ﷺ في الوكر الواحد وقعد جبريل عليه السلام في الوكر الآخر، ثم إن الشجرة علت بهما حتى بلغا السماء فتدلى إليهما رفرف در وياقوت، فأما محمد ﷺ فلم يعلم ما هو فلم يؤثر فيه، وأما جبريل عليه السلام عندما رآه غشي عليه فقال ﷺ: «**فَعَلِمْتُ فَضْلَهُ عَلَيَّ فِي العِلْم**» فإنه علم ما رأى فأثر فيه علمه بما رآه الغشي ولم يعلمه رسول الله ﷺ فلم ير له أثر فيه فلا يؤثر في الأشياء إلا ما قام بها وليس إلا العلم، ألا ترى شخصان يقرآن القرآن فيخشع أحدهما ويبكي والآخر ما عنده من ذلك كله خبر ولا يؤثر فيه هل ذلك إلا من أثر علمه القائم به لما تدل عليه تلك الآية وشهوده ما تضمنته من الأمر الذي أبكاه وخشع له، والآخر أعمى عن تلك المعاني لا يجاوز القرآن حنجرته ولا أثر لتلاوته فيه، فلم يكن الأثر لصورة لفظ الآية وإنما الأثر لما قام بنفس العالم بها المشاهد ما نزلت له تلك الآية فلا يؤثر فيك إلا ما قام بك من حيث ما تعلم وتشهد، فلولا علمه بالأمر ما هاله، وإذا لم يرتحل ووقف عندما رآه وقد هاله ذلك فبالضرورة يهلك أي يغيب عن صوابه وحسه ويدهش أو يغشى عليه أو يموت فرقاً منه على قدر قوّة ذلك التالي أو ضعفه، فهو مع ما حصل في نفسه من ذلك ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] وهذا أمر إضافي فقد يكون الأمر عند زيد أهول منه عند عمرو، وقد يكون عند عمرو أمر آخر أهول منه عند زيد، فتؤثر الأهوال عند كل واحد منهما بحيث أن يقول كل واحد منهما عن صاحبه: عجبت لفلان ما الذي رأى حتى أثر فيه بما ظهر عليه كيف به لو علم ما عندي من هذا الذي لم يرفع به رأساً؟ كل واحد منهما يقول هذه المقالة، والعالم الكامل الثالث يقول خلاف قولهما، ويعلم السبب المؤثر في كل واحد منهما فيعلم منهما ما لا يعلمان من نفوسهما، فسبحان الحكم العدل منزل الأشياء منازلها ومعين المراتب لأهلها، فإذا علمت هذا علمت علماً غريباً هو العجب

العجاب يحتوي على سر لا يتمكن كشفه ولا ينبغي التصريح به، فإن الله يغار على العبد إن يظهر مثل هذا فإنه أمر يقتضيه الوجود وهو عظيم الفائدة، فما ظهر العالم إلا بالنسب ولا حصل القبول من العالم لما قبله من العالم أيضاً إلا بالنسب، فالموجد بالنسب والقابل بالنسب فالحكم لها وقد علمت ما هي النسب [الرمل]:

فـبـهـا صَـحَّ وُجُـودي وبـهـا ... صَـحَّ لـلـكَـوْن مـن الله نَـسَـبْ
فـلـه الـشـكـرُ عـلـى مـا خَـصَّـنـي ... امـتـنـانـاً مـن مـعـارف الـنـسـبْ

***

[نظم: الخفيف]

فـبـهـا صَـحَّـتِ الـسـعـادةُ فـيـنـا ... وبـهـا صَـحَّ لـلـشـقـيِّ الـشـقـاءُ
عـدم بـحُـكْـم الـوجـود وأبْـدَى ... عَـجَـبـاً فـيـه كـيـف لـيـس يَـشَـاءُ
فـهـو الـمُـوجِـدُ الـمُـؤَثِّـرُ فـيـنـا ... وهـو الـحَـقُّ لـيـس فـيـه امْـتِـرَاءُ

فالله غني عن العالمين، والغنى صفة تنزيه، وأعظم الثناء عندنا في حق الحق قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] سواء كانت كاف الصفة أو كانت زائدة، وكونها للصفة أبلغ في الثناء عند العالم باللسان الذي نزل به القرآن، يقول رسول الله ﷺ في دعائه وثنائه على ربه عزّ وجلّ: «**لاَ أُحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**» يريد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وقال الصديق الأكبر رضي الله عنه: العجز عن درك الإدراك إدراك، والحق سبحانه ما أثنى على نفسه بأعظم من نفي المثل فلا مثل له سبحانه، ولهذا قال في حق العالم من حيث ما هو ناطق: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] والتسبيح تنزيه فإذا أسندت العالم إليه تعالى في الوجود وقلت إنه موجد العالم لم يتمكن لك أن تعقل هذا إلا بنسب تثبتها من حياة وعلم وقدرة وإرادة هذا حد نظر العقل، ويثبت بالشرع أنه قائل، فإن كانت أعياناً زائدة على ذات فما أوجد شيئاً بها إلا عن تعلق بالذي حدث والتعلق نسبة منها إلى المتعلق، وإن كانت هذه الصفات ليست بزائدة وإنما ثم عين واحدة وهي الذات وتوجهاتها على إيجاد الممكنات فالتوجهات نسب وهي مختلفة لما يظهر في العالم من الاختلاف الذي هو دليل على حكمنا بها، فعلى كل حال ما زالت من النسب وهي الثابتة في العقائد وفي نفوس العلماء كانوا ما كانوا [مجزوء الرجز]:

جَـــاءَ حَـــديـــثٌ واردٌ ... عـــن الـــنَّـــبـــيِّ الـــمُـــصْـــطَـــفَـــى
بـــأنّ مـــن خـــالـــفَـــهُ ... فـــي عَـــقْـــدِهِ عـــلـــى شَـــفَـــا
ومـــا لـــه مـــن دائـــه ... بَـــرْءٌ يـــكـــون وَشِـــفَـــا
إلا إذا وافـــقَـــهُ ... فـــي أمْـــره ثـــم وَفَـــى
بـــكـــلِّ مـــا خـــاطَـــبَـــه ... بـــه وإنْ زَلَّ عَـــفَـــا
عـــنـــه الـــذي كَـــلَّـــفَـــهُ ... وَهُـــوَ الإلـــه وكَـــفَـــى

وهذا القول كله صحيح، فهل حصل في معلومك الأنسب من جانب الحق ومن جانب المخلوق، فأوجدت بنسب وقبلت بنسب، وأوضح من هذا الذي ذكرنا فما يكون، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والتسعون وثلاثمائة

في معرفة منازلة من تأدب وصل ومن وصل لم يرجع ولو كان غير أديب

[نظم: البسيط]

لـولا الـشُّـهـودُ ومـا فـيـه مـن الـنِّـعَـم ... ما كان لي أَمَلٌ في الكَوْن في العَدَم
كـنـايـة فـيـه حـتـى قـال كُـنْ فـبَـدَتْ ... أعيانُنا لسماع الكون في الكَلِم
فـلـو فَـتَـحْـنـا عـيـونـاً مـا بـهـا رَمَـدٌ ... كنّا حَيَارَى كمثل العُمْيِ في الظُّلَم
ولـم نـكـنْ فـوجـودُ الـنُّـورِ أظْـهَـرَنـا ... نُوراً فنحن بكون غير مُنْقَسِم
والـنُّـورُ أعـيـانُـنـا والـنّـورُ خـالـقُـنـا ... وفيه نَسْعَى بِرِجْلٍ أو بلا قَدَم

اعلم أيدنا الله وإياك أن الوجود المطلق هو الخير المحض، كما أن العدم المطلق هو الشر المحض، والممكنات بينهما فيما تقبل الوجود لها نصيب في الخيرية، وبما تقبل العدم لها نصيب في الشر، وليس الأدب إلا جماع الخير كله ولهذا سميت المأدبة مأدبة لاجتماع الناس فيها على الطعام، ولا شك أن الخير ظهر في العالم متفرقاً فلا يخلو ممكن عن خيرية ما، والممكن الكامل المخلوق على الصورة الإلهية المخصوص بالسورة الإمامية لا بد وأن يكون جامعاً لجميع الخير كله، ولهذا استحق الإمامة والنيابة في العالم ولهذا قال في آدم عليه السلام: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وما ثم إلا اسم ومسمى، وقد حصل علم الأسماء محمد ﷺ حين قال: «**عَلِمْتُ عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ**» فعلمنا أنه قد حصل عنده علم الأسماء فإنه من العلم الأول لأن آدم له الأوّلية فهو من الأوّلين في الوجود الحسي، وقال عن نفسه فيما خص به على غيره أنه أوتي جوامع الكلم والكلم جمع كلمة والكلم أعيان المسميات قال تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١] وليست غير عيسى، فأعيان الموجودات كلها كلمات الحق وهي لا تنفد فقد حصل له الأسماء والمسميات فقد جمع الخير كله فاستحق السيادة على جميع الناس وهو قوله: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» وهناك تظهر سيادته لكون الآخرة محل تجلي الحق العام، فلا يتمكن لتجليه دعوى من أحد فيما ينبغي أن يكون لله أو يكون من الله لمن شاء من عباده فقوله وصل يعني إلى تحصيل الخير المحض وهو قوله تعالى: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ**» وأمثال هذا، وهذا هو الوصول إلى السعادة الدائمة وهو الوصول المطلوب، ولا شك أنه من وصل لم يرجع فإنه من المحال الرجوع بعد كشف الغطاء إلى محل صفة الحجاب، فإن المعلوم لا يجهله العالم به بعد تعلق العلم به، فرجال الله المكملون كشف الله الأغطية عن بصائرهم وأبصارهم بما حصلوه من الصفات الإلهية ووقفوا عليه من الصفات الكونية وكلها كما تقدّم إلهية، وهؤلاء هم الأدباء الذين صلحوا لبساط

الحق جلساء الله وأهله، وهم أهل الذكر والقرآن الذي هو الجمع وبه سمي قرآناً. وأما العامة فلا بد لهم من كشف الغطاء عن أبصارهم عند الموت فيرون الأمور على ما هي عليه وإن لم يكونوا من السعداء فيرون السعداء والسعادة ويرون الأشقياء والشقاوة فلا يجهلون بعد هذا العلم، وإن شقوا فهذا معنى قوله: «وَمَنْ وَصَلَ لَمْ يَرْجِعْ» ولو كان غير أديب أي غير جامع للخير، وإنما سمي جامعاً للخير والخير أمر واحد لكون هذا الأمر الواحد ظهر في صور كثيرة مختلفة جمعها هذا الأديب فظهر في خيريته بكل صورة خير فسمي أديباً أي جامعاً لهذه الصورة الخيرية، والخير في نفسه حقيقة واحدة ظاهرة في العالم في صور مختلفة [السريع]:

وما على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

فالأديب ظاهر بصورة حق في العالم يفصل إجماله بصوره ويجمل تفصيله بذاته، ومتى لم تكن هذه الصفة والقوّة في رجل فليس بأديب، وهؤلاء هم الذين إذا رؤوا ذكر الله وإذا ذكر الله فقد ضمن ذكره جميع العالم، فمن ذكر الله بهذا اللسان فقد ذكر العالم لأن العالم صورة الحق وهو الاسم الظاهر الذي وقع فيه التفصيل، ومدلوله أيضاً الحق لأنه عين الدليل على نفسه، فكان له من أجل هذا الاسم الباطن الذي وقع به الإجمال، فالعلم واحد وهو في الباطن وتعلقاته متعددة بتعدد صور المعلومات، فالعالم يكشف المعلومات ببصيرته على جهة الإحاطة بحقائقها أنها لا تتناهى معلوماته ولا مقدوراته، وما بقي في عين الممكن في قبوله الوجود نصيب للعدم ولا حكم إلا معقولية الإمكان وإن لم ينعدم بعد ولا يصح عدمه لأن خلاف المعلوم محال الوقوع، ولا يكون عن الوجود عدم أصلاً لأنه ليس في حقيقته صدور العدم عنه، فما انعدم من الأمور التي يعطي الدليل عدمها إنما انعدم لنفسه أو لعدم الشرط في بقائه في الوجود، وبهذا القدر انفصل وجود الممكن من وجود الحق، فإن الإمكان لا يزول حكمه عقلاً في الموجود المحدث لنفسه الممكن، والإمكان لا نصيب لوجود الحق فيه أصلاً، وإن كان وجود أعيان الممكنات لا ينعدم أصلاً بعد وجودها ولكن كما قرّرناه.

وأما الأعراض التي قلنا إنها تنعدم لنفسها في الزمان الثاني من زمان وجودها فحقيقتها أنها أسباب عدمية لها أحكام معقولة مقولة لا يمكن جحدها ولا الحكم بها، فلو كانت الأعراض أعياناً وجودية لاستحال عدمها مع حكم الإمكان فيها، كما استحال في كل قائم بنفسه من الممكنات. ثم إنك إذا أخذت تفصل بالحدود أعيان الموجودات وجدتها بالتفصيل نسباً وبالمجموع أمراً وجودياً لا يمكن لمخلوق أن يعلم صورة الأمر فيها، فلا علم لمخلوق مما سوى الله، ولا للعقل الأوّل أن يعقل كيفية اجتماع نسب يكون عن اجتماعها عين وجودية مستقلة في الظهور غير مستقلة في الغنى مفتقرة بالإمكان المحكوم عليها به، وهذا علم لا يعلمه إلا الله تعالى، وليس في الإمكان أن يعلمه غير الله تعالى ولا يقبل التعليم أعني أن يعلمه الله من شاء من عباده، فأشبه العلم به العلم بذات الحق، والعلم بذات الحق محال حصوله لغير الله، فمن المحال حصول العلم بالعالم أو بالإنسان نفسه أو بنفس كل شيء لنفسه لغير الله، فتفهم هذه المسألة فإني ما سمعت ولا علمت أن أحداً نبه عليها، وإن كان يعلمها فإنها

صعبة التصوّر مع أن فحول العلماء يقولون بها ولا يعلمون أنها هي كبلقيس تقول كأنه هو وهو هو، وكذلك من تكلم في الحق في حال ظهوره في صورة خاصة مع الحق فهو يشهده ولا يعلم أنه هو، وهذا سار حكمه في العالم لمن نظر واستبصر والله غني عن العالمين لظهوره بنفسه، فلا دليل عليه سواه له إذ ما ثم إلا الله تعالى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والتسعون وثلاثمائة

في معرفة منازلة من دخل حضرتي وبقيت عليه حياته فعزاؤه علي في موت صاحبه

[نظم: المديد]

منزل الآلاء والنِّعَم ... عنده مفاتِحُ الكَرَم
وله الحدوثُ ليس له ... قَدَمٌ في رُتْبَةِ القِدَمِ
وهو حكم عينه عدم ... ما له في الكون من قدمِ

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] والمعية صحبة، وصح عن رسول الله ﷺ المترجم عن ربه بلسان حق لا ينطق عن هوى لكونه شديد القوى: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ**» فاتخذه صاحباً له في سفره، والسفر من الإسفار وهو الظهور فهو ظاهر الصحبة من الوجه الذي يليق به ويطلق عليه. فاعلم أن سر الحياة الإلهية سرى في الموجودات فحييت بحياة الحق، فمنها ما ظهرت حياتها لأبصارنا، ومنها ما أخذ الله بأبصارنا عنها في الدنيا إلا الأنبياء وبعض أولياء الله فإنه كشف لهم عن حياة كل شيء، والمحجوبون يدركونها بالإيمان إذ كانوا مؤمنين. وأما من ليس بمؤمن فلا يدرك ذلك لا بالكشف ولا بالإيمان، نسأل الله العصمة من الكفر. ولسريان هذه الحياة في أعيان الموجودات نطقت كلها مسبحة بالثناء على موجدها إلا أنه صحبت الدعوى في هذه الحياة لكل حي ابتدىء فيتخيلون أن حياتهم لهم حتى إذا فزع عن قلوبهم فرأوا الأمر على خلاف ما اعتقدوه وهو رؤيتهم أن الحياة التي كانوا بها أحياء هي حياة الحق لا بل هي الحق عينه كما ورد في الصحيح: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ**» وغير ذلك، فمن جملة ذلك أنه حياته فعندما أبصروا ذلك ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ وما قال حياة ربكم ولهذا قلنا بل هو عين الحق ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ لما تبين لهم أنه الحق ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] عن الحلول والمحل ولكن نسب وإضافات وشهود حقائق، فبالوجه الذي يقول فيه أنه سمع العبد به بعينه يقول إنه حياة العبد وعلمه وجميع صفاته وقواه وهي نسب لا أعيان فهو الحي العالم السميع إلى غير ذلك فالعين واحدة وليس إلا ما ظهر فهو عين ما ظهر، فالعبد المتحقق بالحق ينكشف له فيتبين أنه الحق إلا أنه بكل شيء محيط. فالحياة التي كان يدعى فيها قبل دخوله إلى حضرة الحق لم تبق عليه في هذا الشهود أصلاً وضد الحياة الموت، فإن اشتبهت عليه الحضرة وتخيل أنه دخل حضرة الحق وما زالت عنه حياته أنها له كما تخيل صاف في عرش إبليس على البحر أنه العرش الذي استوى عليه الرحمن تعالى وجل فقال له رسول الله ﷺ: ذلك عرش إبليس، كذلك صاحب هذا الشهود

إذا رأى أن حياته باقية عليه منسوبة إليه فإن الحق قد مات في حقه وهو يدعي صحبة الحق فالحق يعزيه في موت صاحبه فإنه عنه في هذا الشهود أجنبي فهو الميت على الحقيقة، فمن لم يصحبه الحق في جميع صفاته فما هو حق فإن الحق لا يتبعض، فإذا كان كان، وإذا لم يكن كان في نفس الأمر ولا نعرفه، فكن عالماً ولا تكن جاهلاً، ولهذا قيل: ما اتخذ الله ولياً جاهلاً قط، وإن الله يتولى بالفعل تعليم أوليائه مما يشهدهم إياه في تجلياته، ومثل قوله ﷺ: «**إنَّ الله لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**» فمللكم هو في الإشارة ملل الحق. ولما كان الحق في حق كل أحد عين اعتقاده فيه وعلمه به ثم غفل عن اعتقاده الذي هو ربه فقد ذهب عن محل عقده ففقده وهو كان صاحبه فعزاه الحق فيه من حيث ما هو لنفسه في الحق الذي كان متعلق عقده قرب كل إنسان على صورة عقده فيه، والحق الذي هو حق في نفس الأمر وراء كل معتقد لا بل هو صورة كل معتقد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والتسعون وثلاثمائة

في معرفة منازلة من جمع المعارف والعلوم حجبته عني وهو من الحضرة المحمدية

[نظم: السريع]

ألا إلـــى الله تَـــصِـــيـــرُ الأمُـــوز ... مـــا أنْـــتِ يـــا دنـــيـــايَ إلا غُـــرُوز
أهْـلُ الـتُّـقَـى لـم يـأمَـنُـوا كَـيْـدَهـا ... مع التَّـلَـقّي فكيـف أهْلُ الـفُـجُـوز
لـهـا صـفـاتُ الـحـق فـي مَـكْـرِهـا ... ومـا لـنـا فـي مَـكْـرِهِ مـن شُـعُـوز
لَـوَ انَّـهـا تَـتَّـصِـفُ فـي حـالـهـا ... كـانـت لـهـم نِـعْـمَ الـبَـشِـيرُ الـنَّـذيـز
مِـنْ صِـدْقِـهـا فـي حـالـهـا أنـهـا ... أَرَتْ رَحَـى الـمـوت عـلـيـنـا تَـدُوز
وكـان لـي فـيـهـا ومـا عـنـدهـا ... مـوعـظـةٌ مـذكـرةٌ لـلـخَـبـيـز
بـهـا يـنـالُ الـعَـبْـدُ فـي كـونـهـا ... كَـمَـالَ نَـعْـتِ الـحَـقِّ يَـوْمَ الـنُّـشُـوز
وهـو عـلـى الـنَّـصْـفِ إذا مـا مَـضَـى ... عـنـهـا ومـن يَـجْـحَـدْ هـذا يَـجُـوز
مـيـزانُـهـا قـام بـهـا والـذي ... يـعـلـمـه هـو الـعـلـيـمُ الـقـديـز
كـأحـمـد الـسـبـتـيّ فـي الـفِـعْـل إذْ ... مَـلَّـكَـهُ الله زمـامَ الأمُـوز
مـا يـظـهـرُ الـعَـبْـدُ بـأسـمـائـه ... إلا بـهـا فـهـو الـمـبـيـن الـغَـفُـوز

اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس أن الله تعالى في نفسه وجل أن يعرفه عبده واستحال ذلك فلم يبق لنا معلوم نطلبه إلا النسب خاصة أو أعيان الممكنات وما ينسب إليها، فالمعرفة تتعلق بأعيان الذوات من الممكنات، والعلوم تتعلق بما ينسب إليها فتعلم الذوات والأعيان بالضرورة من غير فكر ولا نظر، بل النفس تدركها بما ركز الله فيها وتعلم النسب إليها وهو علم الإخبار عنها مما توصف به أو يحكم به عليها بالدليل النظري أو بالإخبار الاعتصامي بغير هذا لا يوصل إلى العلم بذلك، والأحكام والأخبار غير متناهية الكثرة، فتفرق الناظر فيها ولا يجمعها،

وأراد الحق من عباده أن يجمعهم عليه لا على تتبع هذه الكثرة حتى تعلم، بل أباح لبعض عباده منها ما يتعلق العلم بها الذي يجمعه عليه وهو قوله في النظر في ذلك حتى يتبين لهم أنه الحق، فمن افترق في نفسه في جمع علوم لا ينظر فيها من حيث دلالتها على الحق حجبته عن موضع الدلالة التي فيها على الحق كعلوم الحساب والهندسة وعلوم الرياضات والمنطق والعلم الطبيعي، فما منها علم إلا وفيه دلالة وطريق إلى العلم بالله، ولكن أكثر الناس لا ينظر فيه من حيث طلبه ذلك الوجه الدال على الله فوقع الذم عليه والحجاب عن هذه الدلالة، ثم إن بعض الناس إذا نبهه الله على طلب موضع الدلالة من كل معلوم على الله تعالى يفرقه في المعلومات وإن كان مطلوبه دلالتها على الله فلا نشك أن جمعه لهذه المعلومات التي هي محل نظره حجاب عن الله أي عن الوجه الذي ينبغي أن يعلم منه ما في وسع القابل من الله، وليس له طريق إلى ذلك إلا بأن يترك جميع المعلومات وجميع العالم من خاطره ويجلس فارغ القلب مع الله بحضور ومراقبة وسكينة وذكر إلهي بالاسم الله ذكر قلب ولا ينظر في دليل يوصله إلى علمه بالله، فإذا لزم الباب وأدمن القرع بالذكر وهذه هي الرحمة التي يؤتيه الله من عنده أعني توفيقه وإلهامه لما ذكرناه فتولى الحق تعليمه شهوداً كما تولى أهل الله كالخضر وغيره فيعلمه من لدنه علماً قال تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] من الوجه الخاص الذي بينه وبين الله وهو لكل مخلوق، إذ يستحيل أن يكون للأسباب أثر في المسببات فإن ذلك لسان الظاهر كما قال في عيسى: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠] لا بنفخك، والنفخ سبب التكوين في الظاهر، والتكوين ليس في الحقيقة إلا عن الإذن الإلهي، وهذا وجه لا يطلع عليه من العبيد نبيّ مرسل ولا ملك مقرب من أحد. وغاية العناية الإلهية بالشخص من ملك أو رسول أو ولي أن يوقفه الله من ذلك على الوجه الخاص به لا على وجه غيره كما قال الخضر لموسى عليه السلام: أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، لأنه كان من الوجه الخاص الذي من الله لعبده لا يطلع على ذلك الوجه إلا صاحبه إذا اعتنى الله به، وما من مخلوق إلا وله ذلك الوجه ويعلمه الله منه أموراً كثيرة، ولكن لا يعرف بعض العبيد أنه أتاه ذلك العلم من ذلك الوجه، وهو كل علم ضروري يجده لا يتقدم له فيه فكر ولا تدبر، وصاحب العناية يعلم أن الله أعطاه ذلك العلم من ذلك الوجه. ثم قال له الخضر أيضاً: وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، فإن كان موسى قد علم وجهه الخاص عرف ما يأتيه العلم من ذلك الوجه، وإن كان لم يعلم ذلك فقد نبهه الخضر عليه ليسأل الله فيه، فإذا علم الأشياء كلها من ذلك الوجه فهو ملازم لتلك المشاهدة والشؤون الإلهية والأشياء تتكون عن الله وهو ينظر إليها فلا تشغله مع كثرة ما يشاهد من الكائنات في العالم وهو مقام الصديق في قوله: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله، وذلك لما ذكرناه من شهود صدور الأشياء عن الله بالتكوين فهو في شهود دائم والتكوينات تحدث، فما من شيء حادث يحدث عن الله إلا والله مشهود له قبل ذلك الحادث، وما نبه أحد فيما وصل إلينا على هذا الوجه وما يتكوّن منه في قلب المعتكف على شهوده إلا أبو بكر الصديق، ولكن نحن ما أخذناه من تنبيه أبي بكر الصديق عليه لكوننا ما فهمنا عنه ما أراد ولا فكرنا فيه، وإنما اعتنى

الله بنا فيه ففاجأنا العلم به ابتداء ولم نكن نعرفه فأنكرنا ذلك وقلنا هذا من أين؟ ففتح الله بيننا وبينه ذلك الباب، فعلمنا ما لنا من الحق على الخصوص، وعرفنا أن هذا هو الوجه الخاص الذي من الله عزّ وجلّ لكل كائن عنه فلزمته واسترحت، وعلامة من يدعيه لزوم الأدب الشرعي وإن وقعت منه معصية بالتقدير الإلهيّ الذي لا بدّ من نفوذه، فإن كان يراها معصية ومخالفة للأمر المشروع فيعلم أنه من أهل هذا الوجه، وإن كان يعتقد خلاف هذا فنعلم أن الله ما أطلعه قط على هذا الوجه الخاص ولا فتح له فيه وأنه شخص لا يعبأ الله به، فإنه ما من أحد أعظم أدباً مع الشرع ولا اعتقاداً حقيقاً فيه أنه الحق كما يعلمه العامي سواء إلا أهل هذا الوجه فإنهم يعلمون الأمور على ما هي عليه، فيعلمون أن حظهم من هذا الأمر المشروع والتكليف وحظ الآتي به وهو الرسول، وحظ العامة المخاطبين أيضاً به على السواء لا فضل لأحدهم على الآخر فيه لأنه لذاته ورد لا لأمر آخر، فالذي يحرم بالعموم في الخطاب المشروع على واحد يعم جميع المكلفين من غير اختصاص حتى لو قال بتحليل ذلك في حق شخص يتوجه عليه به لسان الذم في الظاهر كان كافراً عند الجميع، وكان كاذباً في دعواه أنه من أهل هذا الوجه، فإن أخص علوم هذا الوجه ما جاءت به الشرائع ولذلك قال رسول الله ﷺ لما خطب الناس في حق عليّ بن أبي طالب إذ قيل له إنه يخطب ابنة أبي جهل على ابنته فاطمة فقال ﷺ: «**إنَّ فَاطِمَةَ بَضْعَةٌ مِنِّي يَسُوءُنِي مَا يَسُوءُهَا وَيَسُرُّنِي مَا يَسُرُّها وَإِنَّهُ لَيْسَ لِي تَحْرِيمُ مَا أَحَلَّ الله وَلاَ تَحْلِيلُ ما حَرَّمَ الله**» فمع معرفته بالوجه الخاص الإلهيّ لم يعطه إلا إبقاء ما هو محرم على تحريمه وما هو محلل على تحليله، فما حرم على عليّ نكاح ابنة أبي جهل إذ كان حلالاً له ذلك ولكنه قال: «**إنْ أَرَادَ ذَلِكَ يُطَلِّق ابْنَتِي فَوَالله مَا تَجْتَمِعُ بِنْتُ عَدُوِّ الله وَبِنْتُ رَسُولِ الله تَحْتَ رَجُلٍ وَاحِدٍ**» وأثنى على زوج ابنته الأخرى خيراً فرجع علي بن أبي طالب عن ذلك، فلو كان ذلك الوجه يعطي ما يزعم هذا المجادل أنه أعطاه لكان رسول الله ﷺ أولى بذلك وما فعل وله الكشف الأتم والحكم الأعم والحظ الأوفر إذ هو السيد الأكبر، ولا بد لكل شخص من خصوص وصف ينفرد به يعطيه الله ذلك من ذلك الوجه وبه يسعد الله في المآل من يقال فيه إنه لا يسعد ولا تناله رحمة الله التي وسعت كل شيء فإنها صدرت من وجوه الاختصاص فعمت العالم والجاهل والطائع والعاصي، جعلنا الله ممن نالته في أحواله كلها فيلقى الله ولم يجر عليه لسان ذنب بعد معرفته بهذا الوجه، وأحكام المجتهدين وجميع الشرائع من هذا الوجه الخاص صدورها والتعبير للرؤيا بالقوة من غير نظر في كتاب ولا استدلال من هذا الوجه الخاص يكون، فمن أراد تحصيله فليلزم ما قررناه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والتسعون وثلاثمائة

في معرفة منازلة ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[فاطر: ١٠]

هذا قول الله الصادق

[نظم: البسيط]

إنّ الـرِّجـالَ رِجـالُ الله كُـلُّـهُـمُ ... والـعـارفـيـن ومـن يـبـقـى ومَـنْ غَـبَـرَا
مـا مـنـهُـمُ أحَـدٌ يـدري حـقـيـقَـتَـه ... إلا الـذي جَـمَـعَ الآيـاتِ والـسُّـوَرَا
وقـام بـالـحـقِّ سَـبَّـاقـاً عـلـى قَـدَم ... ومـا يـبـالـي بـمـن قـد ذَمَّ أو شَـكَـرَا
مَـنَّ الإلٰـهُ عـلـيـنـا فـي خـلافـتـنـاً ... بِـخـاتَـم الـحُـكْـم لـم يَـخْـصُـصْ بـه بَـشَـرَا
ولا نـريـد بـذا فـخـراً فـيـلـحـقـنـا ... نَـقْـصٌ لـذلـك أو يـلـحـق بـنـا غِـيَـرَا

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٠٠] وقال ﷺ: **«فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى الله»** ثم قال ﷺ: **«لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ»** يعني فتح مكة فإنه ما ثم إلى أين، وقد جعل الله بيوت النفوس الإنسانية هذه الأجسام الطبيعية التي خلقها وسوّاها وعدّلها بالبناء لسكنى هذه النفوس الإنسانية التي هي من جملة كلم الحق، فلما نفخها فيها وأسكنها وأعلم هذه النفس بما لها عند الله في تدبير هذه المملكة التي ملكها الله وركز في جبلتها علم التدبير مطلقاً، ثم عين لها في تدبيرها الخاص والعام أوقات التدبير ومقادير ذلك وجهاته بلسان الشرع موافقاً لميزان الطبع فيحمد ذلك التدبير الخاص والعام، فقال أهل هذا الشأن من علماء الطبيعة: ما قال أحد في أصل هذا العلم أجمع ولا أبدع من قول رسول الله ﷺ إذ قال: **«المَعِدَةُ بَيتُ الدَّاءِ وَالحِمْيَةُ رَأسُ الدَّوَاءِ وَأَصْلُ كُلِّ دَاءِ البَرَدَةُ»** وأمر في الأكل إن كثر ولا بد فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس. وقال ﷺ: **«بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ لُقَيمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ»** هذا في تدبير هذا البيت، فما زال يحكم فيه بحكم الله إلى أن انقدح له في سره أنه وإن حكم فيه بحكم الله أنه إنما يحكم فيه الله بحكم الله مع ثبوت عينه عنده، فلما عاين ذلك أنف من الحصر في ظلمة هذا الهيكل وطلب التنزيه عنه فوجد الله قد هيأ له من عمله مركباً ذلولاً غير جموح برزخياً دون البغل وفوق الحمار سماه براقاً لأنه تولد من عالم الطبيعة كما يتولد البرق في عالم الجو، فأعطاه الله السرعة في السير فيضع حافره عند منتهى طرفه براكبه، فخرج مهاجراً من مدينة جسمه وأخذ في ملكوت الملأ الأعلى وآياته بعين الاعتبار لما تعطيه الآيات من العلم بالله فتلقاه الحق عند وروده عليه من أكوانه وأكوان الموجودات فأنزله عنده خير منزل وعرفه بما لم يكن قبل ذلك يعرف معرفة خطاب إلهي وشهود مشيئة من أجل المناسبة حتى لا يفجؤه الأمر بغتة فيهلك عند ذلك كما صعق موسى عليه السلام، فإنه تعالى ما يتجلى له إلا في صورة محمدية فيراه برؤية محمدية وهي أكمل رؤية يرى فيها الحق وبها فيرفعه بها منزلاً لا يناله إلا المحمديون وهو منزل ألهوية فلا يزال في الغيب مشهده فلا يرى له أثر في الحس، وهذا كان مشهد أبي

السعود بن الشبل ببغداد من أخص أصحاب عبد القادر الجيلي. فإذا كان صاحب هذا الشهود غير صاحب هوية بل يشهده في الملكوت مليكاً وكل مشاهد لا بد أن يلبس صورة مشهوده فيظهر صاحب هذا الشهود بصورة الملك فيظهر بالاسم الظاهر في عالم الكون بالتأثير والتصريف والحكم والدعوى العريضة والقوّة الإلهية كعبد القادر الجيلي وكأبي العباس السبتي بمراكش لقيته وفاوضته وكان شياعي الميزان أعطي ميزان الجود، وعبد القادر أعطي الصولة والهمة فكان أتم من السبتي في شغله، وأصحاب هذا المقام على قسمين: منهم من يحفظ عليه أدب اللسان كأبي يزيد البسطامي وسليمان الدنيلي، ومنهم من تغلب عليه الشطحات لتحققه بالحق كعبد القادر فيظهر العلو على أمثاله وأشكاله وعلى من هو أعلى منه في مقامه، وهذا عندهم في الطريق سوء أدب بالنظر إلى المحفوظ فيه، وأما الذي يشطح بالله على الله فذلك أكثر أدب مع الله من الذي يشطح على أمثاله، فإن الله يقبل الشطح عليه لقبوله جميع الصور، والمخلوق لا يقبل الشطح عليه لأنه مربوط بمقام إلهي عند الله مجهول من الوجه الخاص، فالشاطح عليه قد يكذب من غير قصد ولا تعمد وعلى الله فما يكذب كالهيولى الكل التي تقبل كل صورة في العالم، فأي صورة نسبت إليها أو أظهرتها صدقت في النسبة إليها وصدق الظهور، فإن الصور تظهرها والهيولى الصناعية لا تقبل ذلك وإنما تقبل صوراً مخصوصة، فقد يمكن أن يجهل إنسان في النسبة إليها فينسب إليها صوراً لا تقبلها الهيولى الصناعية، هكذا هو الأمر فيما ذكرناه من الشطح على الله، والشطح على أهل الله أصحاب المنازل، وكان عبد القادر الجيلي رحمه الله ممن يشطح على الأولياء والأنبياء بصورة حق في حاله، فكان غير معصوم اللسان، ورأيت أقواماً يشطحون على الله وعلى أهل الله من شهود في حضرة خيالية فهؤلاء ما لنا معهم كلام فإنهم مطرودون من باب الحق مبعدون عن مقعد الصدق، فتراهم في أغلب أحوالهم لا يرفعون بالأحكام المشروعة رأساً ولا يقفون عند حدود الله مع وجود عقل التكليف عندهم، وبالجملة فإن الإدلال على الله لا يصح من المقربين من أهل الله جملة واحدة، ومن ادّعى التقريب مع الإدلال فلا علم له بمقام التقريب ولا بالأهلية الصحيحة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والتسعون وثلاثمائة

في معرفة منازلة من وعظ الناس لم يعرفني، ومن ذكرهم عرفني، فكن أي الرجلين شئت

[نظم: البسيط]

الـخَـلْـقُ ظِـلٌّ لـذات الـحَـقِّ لـيـس لـه ... كَـوْنٌ يُـحَـقِّـقُـه عِـلْـمٌ ولا بَـصَـرُ

إن قَـامَ قَـامَ بـه أو سـار سـار بـه ... فـعـيـنُـه لـيـس هـو وكـونُـه بَـشَـرُ

فـاعْـجَـبْ لـه مـن وُجُـودٍ لا وُجُـودَ لـه ... ولـو يـزولُ لـزال الـنـفـعُ والـضَّـررُ

هـذا الـذي قُـلْـتُـهُ الـعـقـلُ يـجـهـلُـه ... ولـيـس يَـذْريـه إلا الـشـمـسُ والـقـمـرُ

فالشمسُ أنثى وبدر التّم إن نَظَرَتْ   عَيْنُ التفكُّرِ فيه حاكمٌ ذَكَرُ
فكان بينهما الأبْنا وليس هما   سواهما فاعتبرْ إن كنت تعتبرُ
عجبتُ من واحد في ذاته عددٌ   له الظهور وفيه الكون والغيَرُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الله يقول سبحانه: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] وقال تعالى فيما أمر به نبيه ﷺ في كتابه العزيز: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ [سبأ: ٤٦] وقال عزّ وجلّ: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥] فمدار هذه المنازلة على هذه الثلاث الآيات فالتذكر للعلماء الغافلين والوعظ لا يكون للناس أجمعين، ولهذا قال: «من وعظ الناس لم يعرفني فإنه إنما يعظهم بما يكون مني لا بي، وكذلك من يخوفهم إنما يخوف بما يكون مني لا مني»، فالترغيب لا يجري مجرى الترهيب، فإن الترغيب قد يكون فيّ، والترهيب لا يكون إلا مما يكون مني لا مني، واليوم العقيم الذي لا ينتج زماناً مثله أي ليس بعده يوم يكون عنه لأن الأيام في الدنيا كل يوم هو ابن اليوم الذي قبله وهما توأمان ليلة ونهار فالليلة أنثى والنهار ذكر فيتناكحان فيولدان النهار والليل اللذين يأتيان بعدهما ويذهبان الأبوان فإنهما لا يجتمعان أبداً، وفي غشيان الليل والنهار وإيلاج بعضهما في بعض يكون ولادة ما يتكون في كل واحد منهما من الأمور والكوائن التي هي من شؤون الحق فيكون الليل ذكراً والنهار أنثى لما يتولد في النهار من الحوادث، ويكون النهار ذكراً والليل أنثى لما يتولد في الليل من الحوادث، وتكون الليلة أنثى والنهار ذكراً لولادة التوأمين وهما اليوم الثاني وليلته، والليل أصل والنهار منه كحواء من آدم ثم يقع النكاح والنتاج.

فصل في الواحدة التي يعظ بها الواعظ: وهي أن يقوم من أجل الله إذا رأيت من فعل الله في كونه ما أمرك أن تقوم له فيه إما غيرة وإما تعظيماً، فقوله في المقام مثنى بالله وبرسوله فإنه ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فقمت لله بكتاب أو سنة لا تقوم عن هوى نفس ولا غيرة طبيعية ولا تعظيم كوني وفرادى إما بالله خاصة أو لرسوله خاصة كما قال ﷺ: «**لاَ أَرَى أَحَدَكُمْ مُتَّكِئاً عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الحَدِيثُ عَنِّي فَيَقُولُ اتْلُ بِهِ عَلَيَّ قُرْآناً إِنَّهُ وَاللهِ لَمِثْلُ القُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُ**» فقوله أكثر في رفع المنزلة، فإن القرآن بينه وبين الله فيه الروح الأمين والحديث من الله إليه، ومعلوم أن القرب في الإسناد أعظم رتبة من البعد فيه ولو بشخص واحد ينقص من الطريق وذلك لأنه ينقص حكمه فيه، فإنه لا بد أن يكتسب الخبر صورة من المبلغ فلا يبقى على ما هو عليه في الأصل الذي ينقل عنه ولا يكون في الصدق في قول المخبر هذا كلام فلان مثل من ينقله عنه أو يسمعه منه وذلك لتبدل اللغة واللسان فيه، فإن الترجمان لا ينقل عين ما تكلم به من ينقل عنه، وإنما يتكلم في نقله بما فهمه منه، وإذا كنت أنت الذي تنقل عنه كنت في طبقته وقد تفهم منه أمراً لم يفهمه منه المترجم لك عنه، فبهذا كان الحديث أكثر من القرآن، وغايته أن يكون إذا نزل عن هذه الطبقة مثله وما عدل رسول الله ﷺ إلى الأكثرية إلا والأمر أكثر بلا شك، وإنما قلنا في القرآن إنه بواسطة لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢] وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ

بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] بما يكون من الله إليه برفع الواسطة وهو الحديث الذي لا يسمى قرآناً. فلا ينبغي لواعظ أن يخرج في وعظه من الكتاب أو السنة ولا يدخل في هذه الطوام فينقل عن اليهود والنصارى والمفسرين الذين ينقلون في كتب تفاسيرهم ما لا يليق بجناب الله ولا بمنزلة رسل الله عليهم السلام، كما روينا عن منصور بن عمار أنه رآه إنسان بعد موته وكان من الواعظين فقال له: يا منصور ما لقيت؟ فقال: أوقفني الحق بين يديه وقال لي: يا منصور بم تقرّبت إليّ؟ فقلت له: كنت أعظ الناس وأذكرهم، فقال: يا منصور بشعر زينب وسعاد تطلب القرب مني وتعظ عبادي وذكر لي أشعاراً كنت أنشد بها على المنبر مما قاله أهل المحبة في محبوباتهم فشدد عليّ ثم قال: إن بعض أوليائي حضر مجلسك فقلت في ذلك المجلس: اللهم اغفر لأقسانا قلباً وأجمدنا عيناً فقال ذلك الولي الذي حضر عندك: اللهم اغفر لمن هذه صفته فاطلعت فلم أر أجمد عيناً ولا أقسى قلباً منك فاستجبت فيك دعاء وليّي فغفرت لك، فلا ينبغي أن ينشد واعظ في مجلسه إلا الشعر الذي قصد فيه قائله ذكر الله بلسان التغزل أو بغيره فإنه من الكلام الذي يقوله أهل الله فهو حلال قولاً وسماعاً فإنه مما ذكر اسم الله عليه. ولا ينبغي أن ينشد في حق الله شعراً قصد به قائله في أول وضعه غير الله نسيباً كان أو مديحاً فإنه بمنزلة من يتوضأ بالنجاسة قربة إلى الله فإن القول في المحدث حدث بلا شك، وقد نبه الله في كتابه على هذه المنزلة بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩] وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] والشعر في غير الله مما أهل لغير الله به فإنه للنية أثر في الأشياء والله يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] والإخلاص النية، وهذا الشاعر ما نوى في شعره إلا التغزل في محبوبه والمديح فيمن ليس له بأهل لما شهد به فيه، ولقد كتب إلي شخص من إخواني بكتاب يعظمني فيه بحيث أن لقبني فيه بثلاثة وستين لقباً فكتبت له: ستكتب شهادتهم ويسألون، وذكرت له مع هذا في جواب كتابه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا أزكّي على الله أحداً**» ولكن يقول: أحسبه كذا وأظنه كذا، ويقول الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] فلو نوى جانب الحق هذا القائل ابتداء في أي صورة شاء ربما كان ذلك القول قربة إلى الله فإن الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فإن الله مطلع على ما في نفس الإنسان ولله يوم تبلى فيه السرائر، وكل ما كان قربة إلى الله شرعاً فهو مما ذكر اسم الله عليه وأهل به لله وإن كان بلفظ التغزل وذكر الأماكن والبساتين والجوار وكان القصد بهذا كله ما يناسبها من الاعتبار في المعارف الإلهية والعلوم الربانية فلا بأس، وإن أنكر ذلك المنكر فإن لنا أصلاً نرجع إليه فيه وهو أن الله تعالى يتجلى يوم القيامة لعباده في صورة ينكر فيها حتى يتعوّذوا منها فيقولون: نعوذ بالله منك لست ربنا، وهو يقول: أنا ربكم وهو هو تعالى وهنا سر في تجليه فابحث عليه في معرفة العقائد واختلافها كذلك هذه الألفاظ وإن كان صورة المسمى فيها في الظاهر غير الله وهو خلاف ما نواه القائل فإن الله ما يعامله إلا بما نواه في ذلك وتدل عليه أحوال القائل كما قيل ينظر إلى القول وقائله ويريدون

وحال قائله ما هو فإن كان ولياً فهو الولاء وإن خشن وإن كان عدواً فهو البذاء وإن حسن كما نذكر نحن في أشعارنا فإنها كلها معارف إلهية في صور مختلفة من تشبيب ومديح وأسماء نساء وصفاتهن وأنهار وأماكن ونجوم، وقد شرحنا من ذلك نظماً لنا بمكة سميناه ترجمان الأشواق وشرحناه في كتاب سميناه الذخائر والأغلاق، فإن بعض فقهاء حلب اعترض علينا في كوننا ذكرنا أن جميع ما نظمناه في هذا الترجمان إنما المراد به معارف إلهية وأمثالها فقال: إنما فعل ذلك لكونه منسوباً إلى الدين فما أراد أن ينسب إليه مثل هذا الغزل والنسيب، فجزاه الله خيراً لهذه المقالة فإنها حركت دواعينا إلى هذا الشرح فانتفع به الناس فأبدينا له ولأمثاله صدق ما نويناه وما ادّعيناه، فلما وقف على شرحه تاب إلى الله من ذلك ورجع. ولو رأينا رجلاً ينظر إلى وجه امرأة وهو خاطب لها ونحن لا نعرف أنه خاطب وكنا منصفين في الأمر لم نقدم على الأنكار عليه إذا جهلنا حاله حتى نسأله ما دعاه إلى ذلك فإن قال أو قيل لنا إنه خاطب لها أو هو طبيب وبها مرض يستدعي ذلك المرض نظر الطبيب إلى وجهها علمنا أنه ما نظر إلا إلى ما يجوز له النظر إليه فيه بل نظره عبادة لورود الأمر من الرسول ﷺ في ذلك ولا ينكر عليه ابتداء مع هذا الاحتمال، فليس الإنكار عليه من المنكر بأولى من الإنكار على المنكر في ذلك مع إمكان وجود هذه الاحتمالات، إذ لا تصح المنكرات إلا بما لا يتطرق إليها احتمال، وهذا يغلط فيه كثير من المتدينين لا من أصحاب الدين، فإن أصحاب الدين المتين أول ما يحتاط على نفسه ولا سيما في الإنكار خاصة فإن للمغير شروطاً في التغيير، فإن الله ندبنا إلى حسن الظن بالناس لا إلى سوء الظن بهم، فلا ينكر صاحب الدين مع الظن وقد سمع أن بعض الظن إثم، فلعل هذا من ذلك البعض وإثمه أن ينطق به وإن وافق العلم في نفس الأمر فإن الله يؤاخذه بكونه ظن وما علم فنطق فيه بأمر محتمل ولم يكن له ذلك، وسوء الظن بنفس الإنسان أولى من سوء ظنه بالغير لأنه من نفسه على بصيرة وليس هو من غيره على بصيرة، فلا يقال فيه في حق نفسه إنه سيىء الظن بنفسه لأنه عالم بنفسه، وإنما قلنا فيه إنه يسيء الظن بنفسه اتباعاً لسوء ظنه بغيره فهو من تناسب الكلام، وله وجه في الحقائق الشرعية فإنه بالنظر إلى نفسه ليس هو في فعله ما ينكره على نفسه على الحقيقة عالماً بأنه في فعله ذلك على منكر يعلمه بل هو على ظن فسوء الظن بنفسه أولى، وذلك أن لله عباداً قد قال لهم الله: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فما فعلوا إلا ما أباح الشرع لهم فعله، وإن لم يعلموا أنهم ممن خوطبوا بذلك وهو في الحديث الصحيح فما فعل إلا ما هو مباح عند الله وهو لا علم له بذلك فهو عند الله بهذه المثابة، فلهذا قلنا سوء الظن بنفسه إذ لم يكن فيها على بصيرة على الحقيقة مع هذا الاحتمال من جانب الحق، وقد جعل الله لمن هذه صفته علامة يعرف بها نفسه أنه من أولئك القوم، ولا يشك بالعلم الشرعيّ الصحيح أن حرمة نفس الإنسان عليه عند الله أعظم من حرمة غيره بما لا يتقارب، وأنه من قتل نفسه أعظم في الجرم ممن قتل غيره، وأن صدقته على نفسه أعظم في الأجر من صدقته على غيره، فالعالم الصالح من استبرأ لدينه في كل أحواله في حق نفسه وفي حق غيره، وإلى الآن ما رأيت أحداً من أهل الانتماء إلى

الدين وإلى العلم على هذا القدم، فالحمد لله الذي وفقنا لاستعماله وحال بيننا وبين إهماله. ولولا ما في ذكر هذا من المنفعة لعباد الله والنصيحة لهم ما بسطنا القول فيه هذا البسط وإن كان الفصل يقتضيه فإنه فصل الموعظة والله يقول لنبيه ﷺ فيما أنزله عليه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] مثل هذه التي ذكرناها فإنها وصية منا إلى عباد الله جمعت بين الحكمة لأنا أنزلناها منزلتها، وبين الحكم والحكيم من ينزل الأمر منزلته ولا يتعدى به مرتبته. وأما الموعظة الحسنة فهي الموعظة التي تكون عند المذكر بها عن شهود، فإن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فكيف بمن حقق أنه يراه فإن ذلك أعظم وأحسن، وقد يكون قوله مثنى يريد به التعاون في القيام لله تعالى في ذلك الأمر، وصورة التعاون فيه أن الشرع في نفس الأمر قد أنكر هذا الفعل ممن صدر عنه عليه، فينبغي للعالم المؤمن أن يقوم مع المشرع في ذلك فيعينه فيكون اثنان هو والشرع، وفرادى أن يكون هذا المنكر لا يعلم أنه معين للشرع في إنكاره ووعظه فيقول: قد انفردت بهذا الأمر وما هو إلا معين للشرع، وللملك الذي يقول بلمته للفاعل لا تفعل إذ يقول له الشيطان بلمته افعل فيكون مع الملك مثنى فإن الملك مكلف بأن ينهى العبد الذي قد ألزمه الله به أن ينهاه فيما كلفه الله به أن ينهاه عنه فيساعده الإنسان على ذلك فيكون ممن قام لله في ذلك مثنى، وقد يكون معيناً للشارع وهو الرسول عليه السلام فهو الذي أنكر أوّلاً هذا الفعل على فاعله وتقدم في الوعظ في ذلك، فيكون هذا الإنسان الواعظ مع وعظ الرسول المتقدم مثنى، كما سأل بعض الناس رسول الله ﷺ أن يجعله رفيقه في الجنة فقال له رسول الله ﷺ: «**أَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**» فطلب منه العون فقد قاما في ذلك مثنى هو ورسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] وقال: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨] فشرك نفسه مع عبده في الفعل، وما لا يفعله الله إلا بالآلة فهو من هذا الباب، ولا يعلم ذلك إلا العالم بأسرار الله وما هي الحقائق عليه، فلا تغفل عن هذا النفس وكن المعين لمن ذكرت لك تحمد عاقبتك ويحصل لك سهم في الإعانة مع المعين، يقول العبد: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فيقول الحق: «**هَذِهِ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**» فتبين قوله تعالى هذه بيني وبين عبدي فهي لله وله في حكم الإعانة إذا أراد الله وجود الصلاة فلا بد من استعداد المحل الذي به ظهور الصلاة فافهم.

فصل في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]: وأما تذكيره بأيام الله فهي أيام الأنفاس على الحقيقة فإنها أقل ما ينطلق عليه اسم يوم فهو أن تذكره بقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] فتلك أيام الله وأنت في غفلة عنها، وتدخل في مضمون قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ - إشارة إلى قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] مع غير ذلك - ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي لمن له فطنة بالتقلب في الأحوال أو تقلب الأحوال عليه فيعلم من ذلك شؤون الحق وحقائق الأيام التي الحق فيها في شأن، فالشأن واحد العين والقوابل مختلفة كثيرة يتنوّع فيها هذا الشأن بتنوّعها واختلافها، فهو من الله واحدة وفي صور العالم كثيرة، كالصورة الواحدة في المرايا الكثيرة والظلالات الكثيرة من الشخص الواحد للسرج المتعددة

هكذا الأمر ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ ـ لما يتلى عليه من قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وأمثاله ـ ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] من نفسه تقلب أحواله فيكون على بصيرة في ذلك من الله، فهذه أيام الله التي ينبغي أن يذكر العبد بها إلى أمثال ذلك من أيام الله وهي أيام النعم وأيام الانتقام التي أخذ الله فيها القرون الماضية.

واعلم أن البلايا أكثر من النعم في الدنيا فإنه ما من نعمة ينعمها الله على عباده تكون خالصة من البلاء فإن الله يطالبه بالقيام بحقها من الشكر عليها وإضافتها إلى من يستحقها بالإيجاد وأن يصرفها في الموطن الذي أمره الحق أن يصرفها فيه، فمن كان شهوده في النعم هذا الشهود متى يتفرّغ للالتذاذ بها وكذلك في الرزايا هي في نفسها مصائب وبلايا، ويتضمنها من التكليف ما يتضمنه النعم من طلب الصبر عليها ورجوعه إلى الحق في رفعها عنه وتلقيها بالرضى أو الصبر الذي هو حبس النفس عن الشكوى بالله إلى غير الله، وهذا غاية الجهل بالله لأنك تشكو بالقويّ إلى الضعيف لما تجد في حال الشكوى من الراحة مع كونك تشتكي إلى غير مشتكى لأنك تعلم أنه ما بيده شيء ولا يقدر على رفع ما نزل بك إلا من أنزله وقد علمت أن الدار دار بلاء لا يخلص فيها النعيم عن البلاء وقتاً واحداً وأقله طلب الشكر من المنعم بها عليها، وأي تكليف أشق منه على النفس ولذلك قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] لجهلهم بالنعم أنها نعم يجب الشكر عليها يؤيد ما قلناه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] في حق راكب البحر إذا اشتدّ الريح عليه وبرد فبما فيها من النعمة يطلب منه الشكر عليها وبما فيها من الشدة والخوف يطلب منه الصبر فافهم وتدبر كلام الله تغنم، وما أنزله الله إلا تذكرة للبيب كما قال: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] ولا تكن ممن ليس له منه نصيب إلا البلاغ.

فصل في اليوم العقيم: والعقيم ما يوجب أن لا يولد منه فلا تكون له ولادة على مثله، وسمي عقيماً لأنه لا يوم بعده أصلاً وهو من يوم الأسبوع يوم السبت وهو يوم الأبد، فنهاره نور لأهل الجنة دائم لا يزال أبداً، وليله ظلمة على أهل النار لا يزال أبداً، ولهذا يموتون أهل الكبائر فيها الذين يخرجون منها بعد العقوبة إلى الجنة إذ لا خلود في النار إلا لأهلها الذين هم أهلها، يقول رسول الله ﷺ: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلاَ يَحْيَوْنَ وَلٰكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ فَأَمَاتَهُمُ اللهُ فِيهَا إِمَاتَةً**» الحديث وهو صحيح، فينامون فيها نومة حتى لا يحسوا بالنار إذا مستهم عند ما تتسلط على آلات المعاصي بالأكل وهي الجوارح، والإيمان يمنع من تخلصها إلى القلب، فهذه عناية التوحيد الذي كان في قلوبهم، فعلم التوحيد يميتهم في النار موتة النائم في حال نومه، والإيمان على باب النار ينتظرهم حتى إذا بعثهم الله من تلك النومة وهم قد صاروا فحماً أخرجهم سبحانه فغمسهم في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة تكون في حميل السيل ثم يدخلون الجنة فلا يبقى في النار من علم أن الله إله واحد في الدنيا جملة واحدة، ولأهل الجنة في الجنة مقادير يعرفون بها انتهاء مدة طلوع الشمس إلى غروبها في الدنيا، وإن لم يكن في الجنة شمس فالحركة التي كانت تسير

بالشمس فيظهر من أجلها طلوعها وغروبها موجودة في الفلك الأطلس الذي على الجنة وهو سقفها والحركة بعينها فيه موجودة، ولأهل الجنة كشف ورؤية إلى المقادير التي فيه المعبر عنها بالبروج، فإن ذلك الفلك هو السماء الذي أقسم الله به في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] فيعلمون بها حد ما كان عليهم في الدنيا مما يسمى بكرة وعشياً، وكان لهم في هذا الزمان في الدنيا حالة تسمى الغداء والعشاء فيتذكرونها هنالك فيأتيهم الله عند ذلك برزق يرزقهم فيها كما قال لهم: ﴿رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] وهو رزق خاص في وقت خاص معلوم عندهم وما عدا ذلك فأكلها دائم لا ينقطع، والدوام في الأكل إنما هو عين النعيم بما يكون به الغذاء للجسم ولكن لا يشعر به كثير من الناس إلا العلماء بعلم الطبيعة، وذلك أعني صورة قوله أكلها دائم، إن الإنسان إذا أكل الطعام حتى يشبع فذلك ليس بغذاء ولا بأكل على الحقيقة، وإنما هو كالجابي الجامع المال في خزانته والمعدة خزانة لما جمعه هذا الآكل من الأطعمة والأشربة فإذا جعل فيها أعني في خزانة معدته ما اختزنه فيها ورفع يده حينئذ تتولاها الطبيعة بالتدبير وينتقل ذلك الطعام من حال إلى حال ويغذيه بها في كل نفس يخرج عنه دائماً فهو لا يزال في غذاء دائم، ولولا ذلك لبطلت الحكمة في ترتيب نشأة كل متغذ والله حكيم، فإذا خلت الخزانة حرّك الطبع الجابي إلى تحصيل ما يملؤها به فلا يزال الأمر هكذا دائماً أبداً، فهكذا صورة الغذاء في المتغذي، فالتغذي في كل نفس دنيا وآخرة، وكذلك أهل النار وقد وصفهم الله بالأكل والشرب فيها على هذا الحد إلا أنها دار بلاء فيأكلون عن جوع ويشربون عن عطش، وأهل الجنة يأكلون ويشربون عن شهوة لالتذاذ لا عن جوع فإنهم ما يتناولون الشيء المسمى غذاء إلا عن علم بأن الزمان الذي كان الاختزان فيه قد فرغ ما كان مختزناً فيه فيسارع إلى الطبيعة بما تدبره فلا يزال في لذة ونعيم لا يحوج الطبيعة إلى طلب وحاجة للكشف الذي هم عليه، كما أن أهل النار في الحجاب فلا يعلمون هذا القدر فيجوعون ويظمؤون لأن المقصود منهم أن يتألموا، فتبين لك أنه لا لذة إلا العلم ولا ألم إلا الجهل، والشمس مكورة قد نزع نورها في أعينهم طالعة على أهل النار وغاربة كما تطلع على أهل الدنيا في حال كسوفها وكذلك القمر يسبحان وجميع الدراري على صورة سباحتهم الآن في أفلاكهم لكنها مطموسة في أعينهم، فعلى ما هو الأمر في نفسه هم الذين طمس الله أعينهم إذ شاء عن إدراك الأنوار التي في المنيرات فالحجاب على أعينهم كما نعلم أن الشمس هنا في حال كسوفها ما زال نورها منها وإنما القمر حجبها عنا، ولو لم يكن كذلك ما عرف أهل التعاليم متى يكون الكسوف وكم يذهب منها في الكسوف عن أعيننا ويقع ذلك على ما ذكروه. فلو كان من الأمور التي لا تجري على مقادير موضوعة وموازين محكمة قد أعلمها الله من وفقه لطلب مثل هذا العلم ما علمه، وهذا لا يقدح في قولنا إن الشمس قد كسفت أو قد زال نورها عن إدراك أعيننا فإن هذا القدر وهذه الصورة ما ثم من يمنعنا أن نصطلح على أن نطلق عليها اسم كسوف وخسوف وتكوير وطمس، فيشهد أهل النار أجرام السيارة طالعة عليهم وغاربة ولا يشهدون لها نوراً لما في الدخان من التطفيف، فكما كانوا في

الدنيا عمياً عن إدراك أنوار ما جاءت به الشرائع من الحق كذلك هم في النار عمي عن إدراك أنوار هذه السيارة وغيرها من الكواكب، ومن كان في هذه أعمى ﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢] وإنما كان أضل سبيلاً فإنه في الدنيا يجد من يرشده إلى الطريق ولكن لا يسمع، وفي النار ما يجد من يرشده إلى الطريق فإنه ما ثم طريق لكن يجد من يندمه على ما فاته ليزيده حسرة إلى حسرته وعذاباً إلى عذابه، فليل أهل النار لا صباح له ونهار أهل الجنة لا مساء له أي لا ليل فيه، فمن وعظ الناس في عقده طلباً منه بذلك أن ينفع الناس في عقده فما عرف الله بخلاف المذكر فإنه يذكر ويعظ بما عنده ويعلم أن من السامعين من يكون له ذلك الوعظ شفاء ودواء، ومن الناس من يزيده مرضاً إلى مرضه كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ وهي واحدة ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤] وهم يستبشرون بورود العافية عليهم ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] والسورة واحدة والمزاج مختلف، فلا يعرف حقيقة هذه الآية إلا الأطباء الذين يعلمون أن العقار الفلاني فيه شفاء لمزاج خاص من مرض خاص وهو داء وعلة لمزاج خاص وزيادة مرض في مرض خاص، فالطبيب أحق الناس علماً بهذه الآية، وكذلك طبيب القلوب فيما يؤمنها ويخيفها، فالحكيم هو الذي يأتي إلى العليل من مأمنه ويظهر له بصورة من يعتقد فيه ليستدرجه إلى صورة الحق بالحق الذي يليق به، ولكن وقع الأمر الإلهي في العالم بخلاف هذا لأن مشيئة الله تعلقت بأن الله لا يجمعهم على الهدى. وأما الطريق في ذلك فمعلوم عند الله وعند أهله لا يشكون فيه، فإن الذي يعتقد في مخلوق مّا من حجر أو نبات أو حيوان أو كوكب أنه إلهه وهو يعبده ويخاطبه ذلك الإله المشهود له على الكشف بما هو الحق عليه يرجع إلى قوله لاعتقاده فيه كما يرجع إلى قوله في الآخرة ويتبرأ منه كما تبرأ إلهه منه، والله قادر على أن ينطقه في الدنيا بذلك في حق من يعبده لكن العلم السابق والمشيئة الإلهية منعا من ذلك ليكون الخلاف في العالم، فجري الأمر على ذلك في الدنيا وبعض الآخرة، ويرجع الأمر إلى حكم أخذ الميثاق بالرحمة التي وسعت كل شيء، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والتسعون وثلاثمائة

في معرفة منازلة منزل من دخله ضربت عنقه وما بقي أحد إلا دخله

[نظم: السريع]

لولا وُجُودُ الحَقِّ في الخَلْقِ ... لم يَبْقَ من يبقي ومن يُبْقي
قلتُ له إن كُنْتَ لي مُغْنِياً ... من غير ما تَحَكُّم فاسْتَبْقِ
ما أنا غَيْرُ لا ولا عَيْنُكُمْ ... لأنني أعْلَمُ مَنْ يُلْقي
فانظر إلى الحكمة مكشوفةً ... في الحَقِّ إذ يُنْعَتُ بالحَقِّ

وهذا هو منزل الاتحاد الذي ما سلم أحد منه، ولا سيما العلماء بالله الذين علموا الأمر على ما هو عليه ومع هذا قالوا به، فمنهم من قال به عن أمر إلهيّ، ومنهم من قال به بما

أعطاه الوقت والحال، ومنهم من قال به ولا يعلم أنه قال به، فأحوال الخلق مختلفة فيه، فأما أصحاب النظر العقلي فأحالوه لأنه عنده يصير الذاتين ذاتاً واحدة وذلك محال، ونحن وأمثالنا نرى ذاتاً واحدة لا ذاتين، ويجعل الاختلاف في النسب والوجوه والعين واحدة في الوجود والنسب عدمية وفيها وقع الاختلاف فتقبل الضدين الذات الواحدة من نسبتين مختلفتين فالله يقول: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ويقول وهو القائل على لسان عبده: سمع الله لمن حمده. ويقول: «**كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ وَلِسَانَهُ وَيَدَهُ وَرِجْلَهُ**» وغير ذلك قولاً شافياً لأنه ذكر أحكامها، فقال الذي يبطش بها ويسعى بها ويتكلم به ويسمع به ويبصر به ويعلم ومعلوم أنه يسمع بسمعه أو بذاته يسمع، وعلى كل حال فجعل الحق هويته عين سمع عبده وبصره ويده وغير ذلك، فإما ذات العبد وإما صفته وإما نسبته، فهذا قول الحق الذي فيه يمترون، والملك يقول مع علمه بذلك: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] والجن يقول: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] والرسول يقول: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦ﴾ [المائدة: ١١٧] ومن الناس من يقول: أئنا لمردودون في الحافرة والسموات والأرض والجبال تأبى وتشفق من حمل الأمانة وتقول: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] فما في العالم إلا من نسب الفعل إليه أي إلى نفسه مع علم العلماء بالله أن الفعل لله لا لغيره والله يقول: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] فأضاف العمل إليهم وهو خالقه وموجده أعني العمل [المجتث]:

فأين حال الدعاوى ... من حال من يتبرّا
والأمر في العين فرد ... أحكامه فيه تترى

وقال الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢] وقالت نملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٨] وقال الله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [النور: ٢٤] وقالت الجلود: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] وقال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] فما ترك شيئاً من المخلوقات إلا وأضاف الفعل إليه، إلا أن هذا المنزل لا يتمكن لمن دخله أن يرأس عليه أحد من جنسه لا بل ولا أحد من المخلوقين وهو تعريف إلهيّ في حضرة خيال، ومقامه أن يكشف له عن ماهية أحكام نفسه فيرى أنه محال أن يرأس عليه أحد، فإن كشف له عن ماهيات أحكام نفوس العالم يرى أنه من المحال أن يرأس على أحد أو يرأس عليه أحد، فإن الأمر واحد في نفسه والواحد لا يرأس على نفسه، وهو مشهد عزيز العالم كله فيه ولا يعلمه إلا من شاهده. ثم من هذا المقام ما تخيله من لم يطلع على صورة الأمر على ما هو عليه في نفسه من قوله تعالى: «**قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ**» فتخيل أنه عينه الثابت في العدم ربما حصل لها الوجود لما رآه من حكم عينها في وجود الحق حتى انطلق عليه اسم هذا العين وما علم أن الوجود وجود الحق والحكم حكم الممكن مع ثبوته في عدمه، فلما تخيل بعض الممكنات هذا التخيل من اتصافه بالوجود حكم بأنه قد شارك الحق في الوجود فصح له المقام مقام الجمع بوجود الحق في الوجود، وفي نفس الأمر الوجود عين الحق ليس غيره، فلما أدخله حضرته تعالى ضرب عنقه

أي أزال جماعته لأن العنق الجماعة، فلما زال عنه إطلاق الجماعة عليه بما أعطاه من أحدية الأمر وعلم أنه جهل في إمكانه نفسه وأن جميع الممكنات مثله في هذا الحكم وهو قوله: وما بقي أحد إلا دخله أي في نفس الأمر ما ثم إلا أحدية مجردة علمها من علمها وجهلها من جهلها، وهذا الحكم يظهر في الشهادة في وجود الحق بالاسم الخاص الذي لذلك الممكن الذي يقال فيه عالم وجاهل، وما كان من الأسماء والأحكام للمكنات والوجود للحق فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي أربعمائة

في معرفة منازلة من ظهر لي بطنت له ومن وقف عند حدي اطلعت عليه

[نظم: الطويل]

ظُهُورِي بُطُونُ الحَقِّ في كل مَوْطِنٍ وحَدِّي وجودُ الحقّ في كل مَطلَعْ
فإن كان عيني في وجودي لم يكنْ وإن كان لم يظهر وضاق مَنِ اتَّسَعْ
فيا خَيْبَةَ الأكوان إن لم يكنْ بها ويا سَعْدَها إن كان في عينها طَلَعْ
هو البرقُ إلا أنه هو خُلَّبٌ فما يسبِّحه رعدٌ ولا مطرٌ يَقَعْ

اعلم أيدنا الله وإياك أن الله تعالى يقول عن الهوية: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣] وما ثم إلا أنا وهو وكان ولم يكن ثم كنت، وعند وجودي قسم الصلاة بيني وبينه نصفين وما ثم إلا مصل ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١] وهو السمع والبصر مني، فما أسمع إلا نفسه فهو الأول والآخر ما هو أنا فإن الآلة لا حكم لها إلا بالصانع بها كما كان صانعاً فيها فصنع فيها بها وبنفسه بها من حيث قبولها وبنفسه من حيث تجليه بخطابه [الطويل]:

تَعَدَّدَتِ الأعيانُ والأمْرُ وَاحِدُ وأُشْهِدَتِ الأكوانُ والله شاهِدُ
فما ثَمَّ إلا الله ما ثَمَّ غَيْرُه أقرّ بتوحيد ما هو جاحدُ

فإذا ظهرت بعيني في: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] بطن تعالى في خطابي وسمع إيماني وقال: «**أثنى عليَّ عَبْدي**» فسمى آخريته عبداً وفي الجواب هو الرب فالأولية ردها إليّ فإنه لم يقل حتى قلت كما أني لم أوجد حتى قال كن فكنت أول سامع وكان أول قائل، ثم كنت أول قائل وكان أول سامع، فتعين الباطن والظاهر وهو بكل شيء عليم بي، وبنفسه وما ظهر إلا بي، وما بطن إلا بي، وما صحت الأولية إلا بي، وما ثبتت الآخرية إلا بي، فأنا كل شيء فهو بي عليم، فلو لم أكن بمن كان يكون عالماً، فأنا أعطيته العلم وهو أعطاني الوجود فارتبطت الأمور بيني وبينه، وقد اعترف لي بذلك في تقسيمه الصلاة بيني وبينه على السواء لأنه علم أنه لي كما أنا له فلا بد مني ومنه فلا بد من واجب وممكن، ولو لم يكن كذلك لكان عاطلاً غير حال فأنا زينته فهو أرضي ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: ٧] فظهر بي اقتداره ونفوذ أحكامه وسلطان مشيئته، فلو لم أكن لم تكن زينته، ثم قلب الأمر فجعلني أرضاً وكان زينة لي وقلدني الإمامة فلم أجد على من أكون إماماً إلا عليه

وعين إمامتي ما زينني به وما زينتي إلا بهويته، فهو سمعي وبصري ولساني ويدي ورجلي ومؤيدي، وجعلني نوراً كلي فزينني به له ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] وهو نور السموات والأرض وذكر أن الأرض ذلول وهل ثم أذل مني وأنا تحت عزته، ولما خلق الخلق وعرفني بما خلق قال لي: اجعل بالك وتفرج في صنعي بخلقي فكلف وأنا أنظر إلى ما يريد إظهاره مما لا علم لي به، فحد الحدود فتجاوزتها العبيد، وقال فلم يسمع له مقال، وأمر فلم يمتثل أمره ابتداء ونهى فلم يمتثل له نهي ابتداء، وقال فاعترض كيف تجعل فيها من يفسد فيها؟ فجعلوا نظرهم أصلح من نظره وعلمهم أتم من علمه، فقال لي: أنت قلت أنك ذلول ولا ذلة أعظم من ذلتك وأي ذلة أعظم من ذلة من أذله الذليل، هذا الملك يعترض هذا الخليفة وليته ونهيته فعصى هذا اللعين أمرته بالسجود فأبى وادعى الخيرية على من هو خير منه فهل رأيت بعينك إلا من اعترف بعظمتي ونفوذ اقتداري ومع ذلك خالفني واعترض عليّ وتعدى حدي، فلو كانت عزتي وعظمتي حالاً لهم زينتهم بها ما وقع شيء من ذلك، فهم أرض مرداء جرداء لا نبات فيها فلا زينة عليها، فعلمت أنه مني أتيت عليّ فزينتهم بي فرأتني زينتي فعظموني وما عظمني إلا زينتي فقال المعترض: لا علم لنا وقال من نهيته ربنا ظلمنا أنفسنا، وقال من خالف أمري إني أخاف الله رب العالمين فأين هذا المقام من ذلك؟ وأين دار رضوان من دار مالك؟ فإليه يرجع الأمر كله فمن العزيز ومن الذليل، فلو لا ما اطلع على من تجاوز الحدود والرسوم ما رجعوا إلى حدودهم فإن الاطلاع ما يكون إلا من رفيع وهو رفيع الدرجات، فخافوا فاعترفوا، كما قلنا بجهالتهم وظلمهم أنفسهم وخوفهم من تعدي حدود سيدهم فقال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وتجاوزوا حدود سيدهم ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] فإن الله للرحمة خلقهم ولهذا تسمى بالرحمن واستوى به على العرش وأرسل أكمل الرسل وأجلهم قدراً وأعمهم رسالة رحمة للعالمين ولم يخص عالماً من عالم، فدخل المطيع والعاصي والمؤمن والمكذب والموحد والمشرك في هذا الخطاب الذي هو مسمى العالم، ولما أعطاه ﷺ مقام الغيرة على جناب الله تعالى وما يستحقه أخذ يقنت في صلاته شهراً يدعو على طائفة من عباد الله بالهلاك رعل وذكوان وعصية عصت الله ورسوله فأنزل الله عليه وحيه بواسطة الروح الأمين: يا محمد إن الله يقول لك ما أرسلك سباباً ولا لعاناً وإنما بعثك رحمة أي لترحم مثل هؤلاء، كأنه يقول له بدل دعائك عليهم كنت تدعوني لهم ثم تلا عليه كلام ربه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أي لترحمهم فإنك إذا دعوتني لهم ربما وفقتهم لطاعتي فترى سرور عينك وقرتها في طاعتهم، وإذا لعنتهم ودعوت عليهم وأجبت دعاك فيهم لم يتمكن أن آخذهم إلا بأن يزيدوا طغياناً وإثماً مبيناً، وذلك كله إنما كان بدعائك عليهم، فكأنك أمرتهم بالزيادة في الطغيان الذي نؤاخذهم به، فتنبه رسول الله ﷺ لما أدبه به ربه فقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَدَّبَنِي فَحَسَّنَ أَدَبِي**» وقال بعدك ذلك: «**اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**». وقام ليلة إلى الصباح لا يتلو فيها إلا قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وهو قول عيسى عليه

السلام، والله تعالى قد قال له لما ذكر رسله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] وكان من هدي عيسى عليه السلام هذه الآية التي قام بها رسول الله ﷺ ليله كله إلى الصباح، أين هذا المقام من دعائه ﷺ على رعل وذكوان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣] وما خصّ ذنباً من ذنب كما لم يخص إسرافاً من إسراف، كما لم يخص في إرسال محمد ﷺ عالماً من عالم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] بالألف واللام للشمول مع عمارة الدارين، فلا بد من شمول الرحمة، ولولا أن الأمور قد عين الله لها آجالاً مسماة وأياماً معدودات لكان عين الانتقال بالموت إلى الله عين الرحمة بهم التي تكون لهم بعد استيفاء الحدود لتعديهم الحدود، فتعديهم الحدود هو الذي أقام عليهم في الدار الآخرة الحدود كما أقامها على بعضهم في الدار الدنيا، فما مات أحد من خلق الله إلا كما ولد مؤمناً، وما وقع الأخذ إلا بما كان بين الإيمانين، فإن رحمة الله وسعت كل شيء وباطنه فيه الرحمة ولهذا قال: من ظهر لي بطنت له، لأنه ما ظهر أحد لله حتى فارقه، إذ لو لم يفارقه لما ميز نفسه عنه فبطن الحق في ظهوره فهو السور الذي باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب والناس لا يشعرون، والكلام في هذا الباب لا يتناهى فصوله، وهذا القدر من التنبيه على ما فيه كاف إن شاء الله ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

انتهى الجزء السادس من كتاب الفتوحات المكية بحمد الله وعونه وحسن توفيقه،
ويتلوه الجزء السابع أوّله: الباب الحادي وأربعمائة

فهرس المحتويات

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت

تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠

صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.

Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98

P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2275-4

http://www.al-ilmiyah.com.lb/

e-mail : sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

BEIRUT

الفتوحات المكية

للشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين محمد بن علي
بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي المعروف بابن عربي
المتوفى سنة ٦٣٨ هـ

ضبطه وصححه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدين

المجلد السابع

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الفتوحات المكية

تأليف

الشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين
محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي
المعروف بابن عربي
المتوفى سنة ٦٣٨هـ

ضبطه وصححه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدين

الجزء السابع

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الحادي وأربعمائة
في معرفة منازلة الميت والحي ليس له إلى رؤيتي من سبيل

[السريع]

قَدِ اسْتَوَى المَيْتُ والحَيُّ ... في كونهم ما عندَهم شَيُّ
مني فلا نُورٌ ولا ظُلْمة ... فيهم ولا ظِلٌّ ولا فيُّ
رؤيتهم إليّ معدومةٌ ... فنَشْرُهُمْ في كَوْنِهَا طَيُّ
وفهمهم إن كان معناهم ... عنه إذا حَقَّقْتَه عيُّ

قال الله عز وجل: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وقال عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] وكل مرئيّ لا يرى الرائي إذا رآه منه إلاّ قدر منزلته ورتبته فما رآه وما رأى إلاّ نفسه. ولولا ذلك ما تفاضلت الرؤية في الرائين، إذ لو كان هو المرئي ما اختلفوا، لكن لما كان هو مجلى رؤيتهم أنفسهم لذلك وصفوه بأنه يتجلى وأنه يرى، ولكن شغل الرائي برؤيته نفسه في مجلى الحق حجبه عن رؤية الحق، فلذلك لو لم تبد للرائي صورته أو صورة كون من الأكوان ربما كان يراه، فما حجبنا عنه إلا أنفسنا فلو زلنا عنا ما رأيناه لأنه ما كان يبقى، ثم بزوالنا من يراه وإن نحن لم نزل فما نرى إلا أنفسنا فيه وصورنا وقدرنا ومنزلتنا فعلى كل حال ما رأيناه، وقد نتوسع فنقول: قد رأيناه ونصدق، كما أنه لو قلنا رأينا الإنسان صدقنا في أن نقول رأينا من مضى من الناس ومن بقي ومن في زماننا من كونهم إنساناً لا من حيث شخصية كل إنسان. ولما كان العالم أجمعه وآحاده على صورة حق ورأينا الحق فقد رأينا وصدقنا وإن نظرنا إلى عين التمييز في عين عين لم نصدق، وأما قوله ﷺ في حديث الدجّال ودعواه أنه إلّه فعهد إلينا رسول الله ﷺ أن أحدنا لا يرى ربّه حتى يموت لأن الغطاء لا ينكشف عن البصر إلا بالموت، والبصر من العبد هوية الحق، فعينك غطاء على بصر الحق، فبصر الحق أدرك الحق ورآه لا أنت فإن الله ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولا ألطف من هوية تكون عين بصر العبد وبصر العبد لا يدرك الله، وليس في القوّة أن يفصل بين البصرين، والخبير علم الذوق فهو العليم خبرة أنه بصر العبد في بصر العبد، وكذا هو الأمر في نفسه وإن كان حياً فقد استوى الميت والحيّ في كون الحق تعالى بصرهما وما عندهما شيء، فإن الله لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء إذ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] [مجزوء الرجز]:

فكلّ سَمْعٍ وبَصَرٍ هويّةُ الحَقِّ وقَدْ
فانظرْ إذا أبْصَرْتَ مَنْ تُبْصِرُهُ وترَ العَدَدْ
وكُنْ بهِ معترفاً في كلِ غيّ ورَشَدْ

الباب الثاني وأربعمائة

في معرفة منازلة «من غالبني غلبته ومن غالبته غلبني»، فالجنوح إلى السلم أولى

[البسيط]

مِن غالَبَ الحَقَّ ما يَنْفَكُّ ذا نَصَبِ ولا يزال مع الأنفاسِ في تَعَبِ
فاجْنَحْ إلى السَّلْمِ لا تَجْنَحْ إلى الحَرْبِ وإنْ تُحارِبْ فخَيْلُ الله في الطّلَبِ
إنّي نصحتُكَ فاسمعْ ما أفُوهُ به إنّ الهلاكَيْنِ مقرونان بالحَربِ
فاحْذَرْ فَدَيْتُكَ أفلاكاً تدور بما لا ترتضيه وخَفْ مَصارعَ النُّوَبِ
لو جاءك الملأُ العُلْوِيُّ مبتلياً بالحَرْب سَلِّمْ له وجِدَّ في الهَرَبِ
وانزِعْ إليه وقل يا منتهى أملي ألستَ تعلم أن العِزَّ في الحجبِ

قال الله عز وجل: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]. اعلم أنه قد تقرر عند أصحاب الأفكار أن لله صفات وأسماء لها مراتب وللعبد التخلق والتحلي بها على حد مخصوص ونعت منصوص عليه وحال معين، إذا تعدى ذلك العبد كان للحق منازعاً واستحق الإقصاء والطرد عن القرب السعادي كما ورد في قوله تعالى: «**الكِبْرِياءُ رِدائِي وَالعَظَمَةُ إزارِي مَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ**»، وللعبد صفات وأسماء تليق به، وقد داخله الحق في الاتصاف بها مما تحيله العقول، ولكن وردت به الشرائع ووجب الإيمان بها، فلا يقال كيف مع إطلاقها عليه قربة وإيماناً من لم يقل بها وأنكرها فقد كفر ومرق من الإسلام، ومن تأوّلها كان على قدم الغرور، فلا نعلم نسبتها إلى الله إلا بإعلام الله، وكذلك كل اسم تحلينا به من أسمائه أيضاً مجهول النسبة إليه عندنا إلا أن يعلمنا الله فنعلم ذلك بإعلامه، فالكل على السواء ما لنا وما له، فلما عين ما عين له وتحلينا به سمى ذلك مغالبة منا للحق، ولما عين ما عين لنا واتصف به سمى ذلك مغالبة من الحق، وموضع الجنوح إلى السلم من هذا الأمر هو أن ترد الكل إليه فما أعطانا من ذلك ولو أعطانا الكل قبلناه على جهة الإنعام.

واعلم أن سبب المنازعة والمغالبة أمران: الاستخلاف الذي هو الإمامة والخلق على الصورة، فلا بد للخليفة أن يظهر بكل صورة يظهر بها من استخلفه، فلا بد من إحاطة الخليفة بجميع الأسماء والصفات الإلهية التي يطلبها العالم الذي ولاه عليه الحق سبحانه، ولما اقتضى الأمر ذلك أنزل أمراً منه إليه سماه شرعاً بيّن فيه مصارف هذه الأسماء والصفات الإلهية التي لا بدّ للخليفة من الظهور بها وعهد إليه بها، فكل نائب في العالم فله الظهور بجميع الأسماء، ومن النوّاب من أخذ المرتبة بنفسه من غير عهد إلهي إليه بها وقام

بالعدل في الرعايا واستند إلى الحق في ذلك، كملوك زماننا اليوم مع الخليفة فمنهم السمع والطاعة فيما يوافق أغراضهم وما لا يوافق فهم فيه كما هو في أصل توليتهم ابتداء، ومنهم من لا يعمل بمكارم الأخلاق ولا يمشي بالعدل في رعيته، فذلك هو المنازع لحدود مكارم الأخلاق والمغالب لجناب الحق في مغالبته رسل الله كفرعون صاحب موسى عليه السلام وأمثاله، والحق له الاقتدار التام، لكن من نعوته الإمهال والحلم والتراخي بالمؤاخذة لا الإهمال، فإذا أخذ لم يفلت وزمان عمر الحياة الدنيا زمان الصلح واستدراك الفائت والجبر بمن قام بمصالح الأمور المرضية عند الله تعالى المسماة خيراً الموافقة لما نزلت بها الشرائع، غير أن هذا الإمام لم يتصف بها من حيث ما شرعت ولا من حيث ما أوصى الحق بها، ولكن اتصف بها لكونها مكارم أخلاق عرفية عرف الحق قدرها وأثنى على من اتصف بها، كما قال ﷺ في تاريخ ميلاده عن كسرى وهو من جملة النوّاب الملوك قال: «**وَلدتُ في زمان المَلكِ العَادِلِ**» فسماه ملكاً ووصفه بالعدل وإن كان فيه على غير شرع منزل فهو صفة مرعية عند الله وسماهم ملوكاً، وإن كان الحق ما استخلفهم بالخطاب الإلهي على الكشف لكنهم نوّابه من وراء الحجاب، فإذا ظهروا بصفات ما ينبغي للملك أن يظهر بها ولم يوافق بها المصارف الإلهية التي شرعها الحق بألسنة الرسل نعت ذلك بالمنازع والمغالب، فمهما ظهر كانت الغلبة له، ومهما ظهر عليه كانت الغلبة للحق، فكان الحرب سجالاً له وعليه، وصورة السلم موافقة الحق في المصارف من غير اتباع، وهذا كله فيمن قام في الملك بنفسه. وأما ولاة الحق من الرسل فليس إلا العدل المحض ولا نتصوّر منازعة من أولئك صلوات الله عليهم. وأما الأئمة الذي استنابهم الله واستخلفهم بتقديم الرسل إياهم على القيام بما شرع في عباده من الأحكام فهم على قسمين: قسم يعدلون بصورة حق ولا يتعدون ما شرع لهم، والقسم الآخر قائلون بما شرع لهم غير أنهم لم يرجعوا ما دعوا إليه في المصارف التي دعاهم الحق إليها وجاروا عن الحق في ذلك وعلموا أنهم جائرون قاسطون، فهم من حيث الصورة الظاهرة مغالبون ومنازعون فيمهلهم الله لعلهم يرجعون، ففي زمان ذلك الإمهال تظهر الغلبة لهم على الحق المشروع الذي يرضي من استخلفهم، وفي وقت تكون الغلبة للحق عليهم بإقامة منازع في مقابلته يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وإذا ظهر هذا فقد أوجب الحق على عباده القتال معه والقيام في حقه ونصرته والأخذ على يد الجائر، ولا يزال الأمر على ما قلناه حتى يأتي أمر الله وتنفذ الكلمة الحق ويتوحد الأمر وتعم الرحمة ويرجع الأمر كله إليه كما كان أوّل مرة، ويرتفع بعض النسب ويبقى بعضها بحسب المحل والدار والنشأة التي تصير فيها وإليها، فإن للزمان حكماً، وللمكان حكماً، وللحال حكماً ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧] فتزول المغالبة والمنازعة، ويبقى الصلح والسلم في دار السلام إلى أبد لا ينقضي أمده بأزل لا يعينه أبده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. [البسيط]:

إنّ الـخَـلِـيـفَـةَ مـن كـانـت إمـامَـتُـهُ ... مـن صُـورة الـحَـقِّ والأسـمـا تُـعـضّـدُهُ
لـيـس الـخـلـيـفـةُ مـن قـامـت أدِلَّـتُـهُ ... مـن الـهَـوَى وهَـوَى الأهـواء يَـقْـصـدُهُ
لـه الـتَّـقَـدُّمُ بـالـمـعـنـى ولـيـس لـه ... تـوقـيـعُ حَـقّ ولا شَـرْعٌ يـؤيِّـدُهُ
فـيـدّعـي الـحَـقَّ والأسـيـافُ تَـعْـضُـدُهُ ... وَهْـوَ الـكَـذُوبُ ونـجـمُ الـحَـقّ يَـرْصُـدُهُ

الباب الثالث وأربعمائة

في معرفة منازلة لا حجة لي على عبيدي

ما قلت لأحد منهم لم عملت إلا قال لي: أنت عملت

وقال الحق ولكن السابقة أسبق بلا شك فلا تبديل: [الطويل]

إذا كُـنْـتُ حَـقّـاً فـالـمـقـالُ مـقـالـتـي ... وإن لـم أكُـنْ فـالـقـولُ قـولُ الـمُـنـازِعِ
لـيَ الـحُـجّـةُ الـبـيـضـاء في كـل مـوطـن ... بـه فـهـي تـبـدو فـي قـريـب وشـاسـعِ
ولـمّـا دعـانـي لـلـحـديـث مُـسَـامِـراً ... تَجَافَتْ جُنُوبي رغبةً عن مَضَاجعي
فـقـال لـنـا أهـلاً بـأكْـرَم سـامـرٍ ... بَـعـيـدٍ عـن الأكْـفَـاءِ لـلـكـلّ جـامـع
فـقـلـت لـه لـولاك مـا كـنـتُ جـامـعـاً ... لـحـقّ وخـلـق ثـم فـاضـت مـدامـعـي
فـقـال أتـبـكـي قـلـت دَمْـعُ مَـسَـرَّةٍ ... لـمـا مُـلِـئَـتْ مـمـا تـقـول مـسـامـعـي

قال الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] اعلم أن الكريم هو الذي يترك ماله ويؤدّي ما أوجبه على نفسه من الحقوق كرماً منه قبل أن يسألها، ثم أنه يمنع وقتاً ويطالب وقتاً لتظهر بذلك منزلة الشافع عنده في مثل هذا وكرمه بالسائل فيما سأله فيه بإجابته، وعبيد الله عبدان: عبد ليس للشيطان عليه سلطان وهو عبد الاختصاص وهو الذي لا ينطق إلا بالله ولا يسمع إلا بالله فالحجة لله لا له ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فإنها حجة الله. ومن عبيد الاختصاص من ينطق عن الله ويسمع من الله فهذا أيضاً من أهل الحجة البالغة لأنه ﴿ما يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] فهو تعالى السائل والمجيب وأما عبد العموم فهو الذي قال عنهم لرسول الله ﷺ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فما خص عبيداً من عبيد وأضافهم إليه، وقوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ [الزمر: ٥٣] فأضافهم إليه مع كونهم مسرفين على الإطلاق في الإسراف ونهاهم أن يقنطوا من رحمة الله، وهذا وأمثاله أطمع إبليس في رحمة الله من عين المنة، ولو قنط من رحمة الله لزاد إلى عصيانه عصياناً، وأخبر الله عنه في إسرافه أنه يعدنا الفقر ويأمرنا بالفحشاء ليجعل فضله تعالى في مقابلة ما وعد به الشيطان من الفقر الذي هو به مأمور في قوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٤] فهو مصدق لله فيما أخبر به عنه ممتثل أمر الله بشبهة في أمره في قوله: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ وجعل مغفرته في مقابلة الفحشاء والأمر بالفحشاء من الفحشاء، فدخل تحت وعد الحق بالمغفرة فزاده طمعاً وإن كانت دار النار مسكنه لأنه من أهلها، وإن حارت عليه أوزار من اتبعه ممن هو من أهل النار فما حمل إلا ما هو منقطع بالغ إلى أجل،

وفضل الله لا انقطاع له لأنه خارج عن الجزاء الوفاق، ورحمة الله لا تخص محلاً من محل ولا داراً من دار بل وسعت كل شيء، فدار الرحمة هي دار الوجود، وهؤلاء العبيد المذكورون ذكرهم الله بالإضافة إليه، والإضافة إليه تشريف، فجمع في الإضافة بين العبيد الذين أسرفوا على أنفسهم الذين نهاهم سبحانه أن يقنطوا من رحمة الله وبشرهم أنه يغفر الذنوب جميعاً ولم يعين وقتاً، فقد تكون المغفرة سابقة لبعض العبيد لاحقة لبعض العبيد، وبين العبيد الذين ليس للشيطان عليهم سلطان [الطويل]:

فما ثَمَّ إلا عَبْدُهُ وهو رَبُّهُ ... وما ثَمَّ إلا راحمٌ ورحيمُ

أراد بالرحيم هنا المرحوم اسم مفعول مثل قتيل وجريح وطريد و﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ٦٤] وهي أعيان العالم وإنما التبديل لله لا لهم ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ [البقرة: ١٠٦] وفي قراءة ﴿أو ننساها﴾ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: ٧٠] ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١١] وهي ما بشرنا به من عموم مغفرته ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾ [البقرة: ٢١١] فمن هنا وإن كانت شرطاً ففيها رائحة الاستفهام، وقال في الجواب: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١] ولم يقل فإن الله يعاقب من بدل نعمة الله فهو كما قال: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ في حال العقوبة فما ثم من يقدر ﴿يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾ فيبدل نعمة الله بما هو خير منها بحسب حاجة الوقت فإن الحكم له أو مثلها والنسخ تبديل لا بدا، ثم إنه القائل: **«أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي خَيْراً»** فمن لم يظنّ بالله خيراً فقد عصى أمره وجهل ربه وأشقى من إبليس فلا يكون، وقد أخبر الله تعالى عنه أنه يتبرأ من الكافر ووصفه بالخوف لله رب العالمين، وقد ذكر تعال أنه ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨] وأتم هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي يمتنع أن يؤثر فيه أمر يحول بينه وبين عموم مغفرته على عباده ﴿غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] ببنية مبالغة في الغفران بعمومها فهي رجاء مطلق للعصاة على طبقاتهم، وقوله فيمن يبدل نعمة الله من بعدما جاءته أنه شديد العقاب أي يسرع تعالى إلى من هذه صفته بالعقاب وهو أن يعقبه فيما بدله أن التبديل لله عز وجل ليس له فيعرّفه أنه ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [يس: ٨٣] فإن الله ما قرن بهذا العقاب ألماً ومتى لم يقرن الألم بعذاب أو عقاب فله محمل في عين الأمر المؤلم فإنه لا يخاف إلا من الألم، ولا يرغب إلا في الالتذاذ خاصة، هذا يقتضيه الطبع الذي وجد عليه من يقبل الألم واللذة، وقد أعطى الله لعبيده في القرآن من الاحتجاج ما لا يحصى كثرة كل ذلك تعليم من الله، فلو كان الشقاء يستأصل الشقيّ ما بسط الله لعباده من الرحمة ما بسط ولا ذكر من الحجج ما ذكره وهو قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣] ولا يعظم الفضل الإلهي إلا في المسرفين والمجرمين، وأما في المحسنين ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾ [التوبة: ٩١] فإن الفضل الإلهي جاءهم ابتداءً وبه كانوا محسنين وما بقي الفضل الإلهي إلا في غير المحسنين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الباب الرابع وأربعمائة

في معرفة منازلة من شق على رعيته سعى في هلاك ملكه ومن رفق بهم بقي ملكاً. كل سيد قتل عبداً من عبيده فإنما قتل سيادة من سياداته إلا أنا فانظره

[البسيط]

حُكْمُ الإضافة يُبْقِيهِ ويُبْقِينا وتلك حكمتُه سبحانَه فينَا
لولا العبيدُ لما كانت سيادةُ مَنْ سَادَ العِبَادَ ولا كانوا مواليِنَا
قد قال في خَلَدِي ما كان مُعْتَقَدِي عند النداء كما كُنّا يكونونا
ما يعدم الحقّ موجوداً لزلّتِهِ وكيف يعدم من فيه يُوالينا
بكونه كان خلّاقاً وليس له في نفسه أثَرٌ ولا يُبَارينا

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] لم يقل رب نفسه لأن الشيء لا يضاف إلى نفسه، فهذه وصية إلٓهية لعباده لما خلقهم على صورته وأعطى من أعطى منهم الإمامة الكبرى والدنيا وما بينهما وذلك قوله ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**». فأعلى الرعاء الإمامة الكبرى وأدناها إمامة الإنسان على جوارحه، وما بينهما ممن له الإمامة على أهله وولده وتلامذته ومماليكه فما من إنسان إلا وهو مخلوق على الصورة، ولهذا عمّت الإمامة جميع الأناسي، والحكم في الكل واحد من حيث ما هو إمام، والملك يتسع ويضيق كما قررنا، فالإمام مراقب أحوال مماليكه مع الأنفاس، وهذا هو الإمام الذي عرف قدر ما ولاه الله عليه وقدّمه، كل ذلك ليعلم أن الله رقيب عليه وهو الذي استخلفه، ثم نبهه على أمر لو عقل عن الله وذلك أن السيد إذا نقصه عين أو حال ممن ساد عليه فإنه قد نقص من سيادته بقدر ذلك وعزل بقدر ذلك، كمن أعتق شقصاً له في عبد فقد عتق من العبد ما عتق ولم يسر العتق في العبد كله إلا أن يعتق كله، كذلك الإمام إن غفل بلهوه وشأنه وشارك رعيته فيما هم عليه من فنون اللذات ونيل الشهوات ولم ينظر من أحوال ما هو مأمور بالنظر في أحواله من رعاياه فقد عزل نفسه بفعله ورمت به المرتبة، وبقي عليه السؤال من الله والوبال والخيبة وفقد الرياسة والسيادة، وحرمه الله خيرها وندم حيث لم ينفعه الندم، فإنه لو لم يُسأل عن ذلك وترك وشأنه لكان بعض شيء إلا الحق فإنه لا ينقص عنه من ملكه شيء، فإن عبده إذا مات من الحياة الدنيا انتقل إليه في البرزخ فبقي حكم السيادة لله عليه، بخلاف الإنسان إذا مات عبده ماتت سيادته التي كان بها سيداً عليه، فهذا الفرق بيننا وبين الحق في الربوبية، قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**»، فالعالم من علم الرفق والرفيق والمرفوق، فما من إنسان إلا وهو رفيق مرفوق به، فهو مملوك من وجه مالك من وجه ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ليتخذ بعضكم بعضاً سخرياً والله ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [غافر: ١٥] فنحن له كما هو لنا، وكما نحن لنا فنحن لنا وله وهو لنا لا له.

وليس في هذا الباب أشكل من إضافة العلم الإلهي إلى المعلومات، ولا القدرة إلى

المقدورات، ولا الإرادة إلى المرادات لحدوث التعلق، أعني تعلق كل صفة بمتعلقها من حيث العالم والقادر والمريد، فإن المعلومات والمقدورات والمرادات لا نهاية لها فهو يحيط علماً بأنها لا تتناهى.

ولما كان الأمر على ما أشرنا إليه وعثر على ذلك من عثر عليه من المتكلمين قال بالاسترسال وعبر آخر بحدوث التعلق، وقال الله في هذا المقام: «حتى نعلم»، وأنكر بعض العلماء من القدماء تعلق العلم الإلهي بالتفصيل لعدم التناهي في ذلك وكونه غير داخل في الوجود، فيعلم التفصيل من حيث ما هو تفصيل في أمر ما لا في كذا على التعيين، واضطربت العقول فيه لاضطراب أفكارها، ورفع الإشكال في هذه المسألة عندنا أهل الكشف والوجود والإلقاء الإلهي أن العلم نسبة بين العالم والمعلومات، وما ثَمّ إلا ذات الحق وهي عين وجوده وليس لوجوده مفتتح ولا منتهى فيكون له طرف والمعلومات متعلق وجوده، فتعلق ما لا يتناهى وجوداً بما لا يتناهى معلوماً ومقدوراً ومراداً فتفطن فإنه أمر دقيق، فإن الحق عين وجوده لا يتصف بالدخول في الوجود فيتناهى فإنه كل ما دخل في الوجود فهو متناه، والبارىء هو عين الوجود ما هو داخل في الوجود لأنّ وجوده عين ماهيته، وما سوى الحق فمنه ما دخل في الوجود فتناهى بدخوله في الوجود، ومنه ما لم يدخل في الوجود فلا يتصف بالتناهي فتحقق ما نبهتك عليه فإنك ما تجده في غير هذا الموضع، وعلى هذا تأخذ المقدورات والمرادات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس وأربعمائة

في معرفة منازلة من جعل قلبه بيتي وأخلاه من غيري ما يدري أحد ما أعطيه فلا تشبهوه بالبيت المعمور فإنه بيت ملائكتي لا بيتي ولهذا لم أسكن فيه خليلي إبراهيم عليه السلام

[البسيط]:

القَلْبُ بيتُك لا بيتي فأعْمُرُهُ ... فلست أذْكُرُ شيئاً أنت تَذْكُرُهُ
ذكري لنفسي حجابٌ إنّ ذكرك لي ... هو السُّرُورُ الذي بالحُسْنِ تَغْمُرُهُ
إذا ذَكَرْتُك كان الذكرُ منك لنا ... فلستَ تذكرُ أمراً نحن نذكرُهُ
إنّ الخليلَ بظَهْرِ البيت مَسْكَنُهُ ... من أجل قلبٍ له ما زلتَ تَعْمُرُهُ
فلو يَحلُّ به لَكُنْت تابعَهُ ... وليس يسكنه فلستَ تَعْمُرُهُ
فالحمد لله حمداً لا يَفُوهُ به ... إلا الذي هو في قلبي يُصَوِّرُهُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس أن رحمة الله وسعت كل شيء، ومن رحمته أن خلق الله بها قلب عبده وجعله أوسع من رحمته، فإن قلب المؤمن وسع الحق كما ورد أن الله يقول: «**مَا وَسِعَنِي أَرْضِي وَلاَ سَمَائِي وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي المُؤْمِنِ**» فرحمته مع اتساعها يستحيل أن تتعلق به أو تسعه، فإنها وإن كانت منه فلا تعود عليه، وما أحال تعالى عليه أن

يسعه قلب عبده وذلك أنه الذي يفقه عن الله ويعقل عنه وقد أمره بالعلم به وما أمره إلا بما يمكن أن يقوم به، فيكون الحق معلوماً معقولاً للعبد في قلبه ولا يتصف بأنه تعالى مرحوم، فهذا يدلك على أن الرحمة لا تناله من خلقه كما يناله التقوى أعني تقوى القلوب كما قال: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وقال: ﴿فَإِنَّهَا﴾ يعني شعائر الله وهي ضرب من العلم به ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] وقال تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦] وما جعلها عقلاً إلا ليعقل عنه العبد بها ما يخاطبه به، ومما خاطبه به أن رحمته وسعت كل شيء وأن قلبه وسعه جلّ جلاله، إلا أن ثم سرّاً أشير إليه ولا أبسطه وهو أن الله أخبر أنه أحب أن يعرف ومقتضى الحب معروف، فخلق الخلق وتعرّف إليهم فعرفوه، فما عرفوه بنظرهم وإنما عرفوه بتعريفه إياهم، فهذي إشارة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٧].

والمحبة علم ذوق وما فينا إلاّ محب ومن أحب عرف مقتضى الحب، فمن هنا تعرف عموم الرحمة. والحديث الآخر غضب الله الكائن من إغضاب العبد، ثم قال عنه التراجمة عليهم السلام في باب الشفاعة إذا سألوهم الخلق فيها يوم القيامة فيقولون: **«إن الله قد غضبَ اليوم غَضباً لم يغضبْ قبله مثله»** ولن يغضب بعده مثله فزال الغضب بالانتقام، وأخبر ﷺ: **«أَنَّ الصَّدَقَةَ تُطْفِىءُ غَضَبَ الرَّبِّ»** وهو الموفق عبده لما تصدق به فهو المطفىء غضبه بما وفق إليه عبده وهذا كثير لكن هذا القدر عند عباد الله منه، فإنا لا نزيد عليه لأنا ما عرفناه إلا بتعريفه، وهذا من جملة تعريفه لا من نظر المخلوق، فلما اتخذ قلب عبده بيتاً لأنه جعله محل العلم به العرفانيّ لا النظريّ حماه وغار عليه أن يكون محلاً لغيره، والعبد جامع فلا بدّ أن يظهر الحق تعالى لهذا العبد في صور شتى أي في صورة كل شيء لأنه محل للعلم بكل شيء وليس محل العلم بالأشياء إلا القلب، والحق يغار على قلب عبده أن يكون فيه غير ربّه فأطلعه أنه صورة كل شيء وعين كل شيء فوسع كل شيء قلب العبد لأن كل شيء حق فما وسعه إلا الحق، فمن علم الحق من حقيته فقد علم كل شيء، وليس من علم شيئاً علم الحق، وعلى الحقيقة فما علم العبد ذلك الشيء الذي يزعم أنه علمه لأنه لو علمه علم أنه الحق فلما لم يعلم أنه الحق قلنا فيه إنه لم يعلمه، وإنما قال: **«قلب المؤمن»** لا غير المؤمن لكون المعرفة بالله لا تكون إلا بتعريفه لا بحكم النظر الفكريّ ولا يقبل تعريفه به تعالى إلا المؤمن، فإن غير المؤمن لا يقبل ذلك جملة واحدة فإنه الناظر على أحد ثلاثة أمور: إما أن يحيل ذلك الذي ورد به التعريف على الحق فينقسم هنا المحيلون على أقسام: فمنهم من يطعن في الرسل ويجعلهم تحت سلطان الخيال وهذه الطائفة من الأخسرين الذين أضلهم الله وأعماهم عن طريق الهدى بل في طريق الهدى لو علموا فهؤلاء قد جمعوا بين الجهل وبين المروق من الدين فلا حظ لهم في السعادة. وقسم آخر منهم قالوا إن الرسل هم أعلم الناس بالله فتنزلوا في الخطاب على قدر أفهام الناس لا على ما هو الأمر عليه فإنه محال، فهؤلاء كذبوا الله ورسوله فيما نسب الله إلى نفسه وإلى رسله بحسن عبارة، كما يقول الإنسان إذا أراد

أن يتأدب مع شخص آخر إذا حدثه بحديث يرى السامع في نظره أنه ليس كما قال المخبر فلا يقول له كذبت وإنما يقول له يصدق سيدي، ولكن ما هو الأمر على هذا وإنما الأمر الذي ذكره سيدي على صورة كذا وكذا فهو يكذبه ويجهله بحسن عبارة، هكذا فعل هؤلاء المتأوّلين. وقسم آخر لا يقول بأنه نزل في العبارة إلى أفهام الناس وإنما يقول: ليس المراد بهذا الخطاب إلا كذا وكذا ما المراد منه ما تفهمه العامة، وهذا موجود في اللسان الذي جاء به هذا الرسول فهؤلاء أشبه حالاً ممن تقدم، إلا أنهم متحكمون في ذلك على الله بقولهم، هذا هو المفهوم من اللسان، وكذلك الذي يعتقده عامة ذلك اللسان هو أيضاً المفهوم من ذلك فما يمنع أن يكون المجموع، فأخطؤوا في الحكم على الله بما لم يحكم به على نفسه، فهؤلاء ما عبدوا إلا الإلّه الذي ربطت عليه عقولهم وقيدته وحصرته. وقسم آخر قال: نؤمن بهذا اللفظ كما جاء من غير أن نعقل له معنى حتى نكون في هذا الإيمان به في حكم من لم يسمع به ونبقى على ما أعطانا دليل العقل من إحالة مفهوم هذا الظاهر من هذا القول، فهذا القسم متحكم أيضاً بحسن عبارة وأنه رد على الله بحسن عبارة فإنهم جعلوا نفوسهم حكم نفوس لم تسمع ذلك الخطاب. وقسم آخر قالوا: نؤمن بهذا اللفظ على حد علم الله فيه وعلم رسوله ﷺ فهؤلاء قد قالوا إن الله خاطبنا عبثاً لأنه خاطبنا بما لا نفهم والله يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤] وقد جاء بهذا فقد أبان كما قال الله لكن أبى هؤلاء أن يكون ذلك بياناً وهؤلاء كلهم مسلمون.

وأما الأمر الثالث فهم الذين كشف الله عن أعين بصائرهم غطاء الجهل فأشهدهم آيات أنفسهم وآيات الآفاق فتبين لهم أنه الحق لا غيره فآمنوا به بل علموه بكل وجه وفي كل صورة وأنه بكل شيء محيط، فلا يرى العارف شيئاً إلا فيه فهو ظرف إحاطة لكل شيء، وكيف لا يكون وقد نبه على ذلك باسمه الدهر فدخل فيه كل ما سوى الله، فمن رأى شيئاً فما رآه إلا فيه ولذلك قال الصديق: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله لأنه ما رآه حتى دخل فيه فبالضرورة يرى الحق قبل الشيء بعينه لأنه يرى صدور ذلك الشيء منه، فالحق بيت الموجودات كلها لأنه الوجود، وقلب العبد بيت الحق لأنه وسعه، ولكن قلب المؤمن لا غير: [الطويل]

فمن كان بَيْتَ الحَقّ فالحَقُّ بيته فعَيْنُ وُجُودِ الحَقِّ عَيْنُ الكَوائِنِ

وما حاز المؤمن هذه السعة إلا بكونه على صورة العالم وعلى صورة الحق، وكل جزء من العالم ما هو على صورة الحق، فمن هنا وصفه الحق بالسعة، قال أبو يزيد البسطامي في سعة قلب العارف: لو أن العرش يعني ملك الله وما حواه من جزئيات العالم وأعيانه مائة ألف ألف مرّة لا يريد الحصر وإنما يريد ما لا يتناهى ولا يبلغه المدى فعبر عنه بما دخل في الوجود، ويدخل أبداً في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحسّ به وذلك لأن قلباً وسع القديم كيف يحس بالمحدث موجوداً وهذا من أبي يزيد توسع على قدر مجلسه لإفهام الحاضرين.

وأما التحقيق في ذلك أن يقول إن العارف لما وسع الحق قلبه وسع قلبه كل شيء إذ لا يكون شيء إلا عن الحق فلا تتكوّن صورة شيء إلا في قلبه يعني في قلب ذلك العبد الذي وسع الحق [مخلع البسيط]:

فَـهْـوَ الـهُـيُـولَـى لِـكُـلِّ صـورة مـــن صُـــورَة صُـــورَة وسُـــورَهْ
وأنـــت مـــا بـــيـــن ذا وهـــذا أقـــامـــك الـــحَـــقُّ فـــيـــه سُـــورَهْ

وينظر إلى قول أبي يزيد ما قال الجنيد: إنّ المحدث إذا قرن بالقديم لم يبق له أثر، إلا أن قول الجنيد هنا أتمّ من قول أبي يزيد، فإن المحدث إذا قرنته بالقديم كان الأثر للقديم لا للمحدث، فتبين لك بهذه المقارنة ما هو الأمر عليه وهو ما قلناه فإنه لا يمكن أن يجهل الأثر، وإنما كان قبل هذه المقارنة ينسب إلى المحدث، فلما قرنه بالقديم رأى الأثر من القديم ورأى المحدث عين الأثر فقال ما قال، ولا نشك بعد أن تقرّر هذا أن الخليل إبراهيم عليه السلام بهذه المثابة هو والرسول صلوات الله عليهم قد وسع قلبه الحق فجعله تعالى مسنداً ظهره إلى البيت المعمور وما دخله لأنه لو دخله لوسع البيت المعمور الحق لأنه قد وسع من وسعه وهي إشارة لا حقيقة، فإن جسم إبراهيم عليه السلام محصور بجيرون بلا شك، فما نريد إلا الصورة التي هو عليها في البرزخ الذي انتقل إليه بالموت. وأما قوله: «وأخلاه من غيري» هو قوله عليه السلام فيمن يقرأ القرآن «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي**» يعني القرآن يقرأه العبد «**عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعطِي السَّائِلِين**»، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] وهو القرآن وقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣] يعني أهل القرآن لأنه قال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] فهو الجامع لكل شيء، فمن اعتقد غير أوجب عليه أن يخلي قلبه للحق والناس يتفاضلون في الدرجات، فإن الله قد فضل العالم بعضه على بعض، وأفضل المفاضلة فضل العلم بالله، ألا تراه قد أعطاه تعالى أعني للإنسان بمنزلة الاسم الآخر الذي لله وأعطى نفسه تعالى الاسم الأول في رتبة العلم به وجعل الملك محاطاً به بين الأول والآخر، فمن كان له علم بالمراتب علم ما للملك من الله وما له من الإنسان، ولهذا كان الملك وهو الروح الأمين يأتي بالوحي من الاسم الأول الذي لله إلى العبد الكامل الرسول النازل في منزل الاسم الإلهي الآخر وهو قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٨] فبدأ بنفسه في الشهادة بتوحيده، ثم ذكر الملائكة ثم ذكر بعد الملائكة أولي العلم وهم الأناسي فلله الأمر من قبل ومن بعد والملك ما بينهما وهكذا كان أمر الوجود فالأولية للحق ثم أوجد الملك ثم أوجد الإنسان وأعطاه الخلافة ولم يعطها الملك لأن الوسط له كل وسط فهو محاط به فافهم، فصورة فضل الملك على الإنسان بما أتاه به من عند الله وليس ذلك بدليل قاطع على الفضيلية في العقل وفي اللسان، كما أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس لأن الناس في رتبة الانفعال عن حركة الأفلاك وقبول التكوين الذي في العناصر، فما ثم إلا وجوه خاصة وما ثم وجه محيط، فمن وجه يفضل ومن وجه يكون مفضولاً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس وأربعمائة

في معرفة منازلة ما ظهر مني شيء لشيء ولا ينبغي أن يظهر

[الخفيف]:

لو ظَهَرْنا للشّيء كان سوانا ... وسوانا ما ثَمَّ أيْنَ الظُّهُورُ
أنت عينُ الوجود ما ثَمَّ غَيْرٌ ... ولهذا أنا الإلٰهُ الغَيُورُ
لا تَقُلْ يا عُبَيْدُ إنّكَ إنّي ... أنا باقٍ وأنت فَانٍ تَبُورُ
كل وقت فأنت خلقٌ جديد ... ولهذا لك الفناءُ والنُّشُورُ

يقول الحق: ما ثم شيء أظهر إليه لأني عين كل شيء، فما أظهر إلا لمن ليست له شيئية الوجود، فلا تراني إلا الممكنات في شيئية ثبوتها، فما ظهرت إليها لأنها لم تزل معدومة وأنا لم أزل موجوداً فوجودي عين ظهوري، ولا ينبغي أن يكون الأمر إلا هكذا. ولما كانت الأحكام فيما ظهر لأسمائي وفي نفس الأمر لأعيان الممكنات والوجود عيني لا غيري، وفصلت الأحكام الإمكانية الصور في العين الواحدة كما يقول أهل النظر في تفصيل الأنواع في الجنس وتفصيل الأشخاص في النوع كذلك تفصيل الصور الإمكانية في العين، وترى الأسماء أنا مسماها أعني الأسماء الحسنى فيجعل الأثر لها، وفي الحقيقة ما الأثر إلا لأعيان الممكنات ولهذا ينطلق على صور أسماء الممكنات، ومن أسماء الممكنات أسماء الله فلها نسبتان: نسبة إلى الله تعالى ونسبة إلى صور الممكنات، فالحق ليس بظاهر لأعيان صور الممكنات من حيث ما هي صور لها لا من حيث أنها ظهرت في عين الوجود الحق، والشيء إذا كان في الشيء بمثل هذه الكينونة من القرب لا يمكن أن يراه، فلا يمكن أن يظهر له كما نراه في الهواء ما منعنا من رؤيته إلا القرب المفرط، فلا يمكن أن نراه ولا يمكن أن يظهر لنا عادة، فلو تباعد عنا لرأيناه، ومن المحال بعد الصور عن العين التي توجد فيها لأنها لو فارقتها انعدمت كما هو الأمر في نفسه، فإن الصور في هذه العين تنعدم وهي ﴿فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [قٓ: ١٥] فالممكنات من حيث أن لها الأسماء الإلهية وهابة هذه الصور الظاهرة بعضها لبعض في عين الوجود، فما أظهرت هذه الأعيان الممكنات صورة إلا بالأسماء الإلٓهية من قائل وقادر وخالق ورازق ومحيي ومميت ومعز ومذلّ. وأما الغنى والعزة فهي للذات وهو الغني العزيز فغناها لها بكونها تعطي هذه الصور ولا تقبل العطاء لما تعطيه حقيقة ذاتها. وأما العزة لها فإن هذه الصور لا تعطيها ولا تؤثر فيها علماً بما تستفيده في حال وجودها بعضها من بعض، فإن الأعيان هي المعطية لهذه الصور تلك العلوم التي استفادتها بالأسماء الإلٓهية، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] وهو العالم بلا شك، فالحق عالم والأعيان عالمة ومستفيدة، والعلم إنما هو عين الصور واستفادتها من الأسماء الإلٓهية التي أعطتها أعيان الممكنات العلوم. ومن هنا تعلم حكم الكثرة والوحدة والمؤثر والمؤثر فيه والأثر ونسبة العالم من الله ونسبة تنوع الصور الظاهرة وما ظهر ومن ظهر وما بطن ومن بطن، وحقيقة

الأول والآخر، والظاهر والباطن، وأنها نعوت لمن له الأسماء الحسنى، فتحقق ما ذكرناه في هذا الباب فإنه نافع جداً يحوي على أمر عظيم لا يقدر قدره إلا الله، فمن عرف هذا الباب عرف نفسه هل هو الصورة أو هو عين واهب الصورة؟ أو هو عين العين الثابتة الممكنة التي لها العدم من ذاتها؟ ومن عرف نفسه عرف ربّه ضرورة، فما يعرف الحق إلا الحق، فلا تقدم ولا تأخر لأن الممكن في حال عدمه ليس بمتأخر عن الأزل المنسوب إلى وجود الحق لأن الأزل كما هو واجب لوجود الحق هو واجب لعدم الممكن وثبوته وتعيينه عند الحق، ولولا ما هو متعين عند الحق مميز عن ممكن آخر لما خصصه بالخطاب في قول ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] ومن عرف هذا الباب عرف من يقول: ﴿كُن﴾ ولمن يقال: ﴿كُن﴾ ومن يتكون عن قول ﴿كُن﴾ ومن يقبل حكم الكاف والنون، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع وأربعمائة

في معرفة منازلة في أسرع من الطرفة تختلس مني إن نظرت إلى غيري لا لضعفي ولكن لضعفك

[الخفيف]:

التفاتُ المُصَلّي عَيْنُ اختِلاسِهْ ... يَلْعَبُ الدَّهْرُ كيف شاء بِنَاسِهْ
وهو الدهرُ والمشيئة منه ... وأُناسُ الزمان عَيْنُ أُنَاسِهْ
كل شيء له لباسٌ مُسمَّى ... وقلوبُ الرجال عَيْنُ لِبَاسهْ
وأنا صُورةٌ له ثُمَّ يَخْفَى ... بوجودي كالظَّبْي عند كِنَاسِهْ
لحدودٍ قامت بصورة كوني ... يتعالى عنها بأصل أساسهْ

دخلت على شيخنا أبي محمد عبد الله الشكاز بأغرناطة من بلاد الأندلس وكان من أهل باغه وهو من أكبر من لقيته في طريق الله فقال لي: يا أخي الرجال أربعة وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] و﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] يريد على أرجلهم لا يركبون ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦] فأراد بالرجال الأربعة حصر المراتب لأنه ما ثم إلا رسول ونبي وولي ومؤمن، وما عدا هؤلاء الأربعة فلا اعتبار لهم من حيث أعيانهم لأن الشيء لا يعتبر إلا من حيث منزلته لا من حيث عينه الإنسانية، فالإنسانية واحدة العين في كل إنسان، وإنما يتفاضل الناس بالمنازل لا بالعين حتى في الصورة من جميل وأجمل وغير جميل، ولهذا ما جاء رضي الله عنه في ذكر الرجال بأكثر من أربعة، فما أراد بالأربعة إلا ما ذكرناه. وما أراد بالرجال في هذه الآيات الذكران خاصة وإنما أراد هذا الصنف الإنساني ذكراً كان أو أنثى، ولما قلت له في قوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] المراد به من أتى ماشياً على رجله؟ قال رضي الله عنه: الرجل لا يكون محمولاً والراكب محمول فعلمت ما أراد فإنه قد علم أن رسول الله ﷺ ما أسري به إلا محمولاً على البراق

فسلمت إليه ما قال، وما أعلمته رضي الله عنه أن البقاء على الأصل هو المطلوب لله من الخلق ولهذا ذكره تعالى بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] يعني موجوداً يقول له: ينبغي لك أن تكون وأنت في وجودك من الحال معي كما كنت وأنت في حال عدمك من قبولك لأوامري وعدم اعتراضك يأمره بالوقوف عند حدوده ومراسمه، فيتكلم حيث رسم له أن يتكلم، ويتكلم بما أمره به أن يتكلم، فيكون سبحانه هو المتكلم بذلك على لسان عبده، وكذلك في جميع حركاته وسكناته وأحواله الظاهرة والباطنة لا يقول في وجوده أنه موجود بل يرى نفسه على صورته في حال عدمه، هذا مراد الحق منه بالخطاب فهو محمول بالأصالة غير مستقل فإن المحدث لا يستقل بالوجود من غير المرجح فلا بد أن يكون محمولاً، ولهذا ما أسري برسول قط إلا على براق، إذا كان إسراء جسمياً محسوساً، وإذا كان بالإسراء الخيالي الذي يعبر عنه بالرؤيا فقد يرى نفسه محمولاً على مركب وقد لا يرى نفسه محمولاً على مركب لكن يعلم أنه محمول في الصورة التي يرى نفسه فيها، إذ قد علمنا أن جسمه في فراشه وفي بيته نائم فاعلم ذلك. وأما ما ذهب إليه الشيخ من الاستقلال وعدم الركوب فذلك هو الذي يحذر منه فإنه الاختلاس الذي ذكرنا، فإن العبد هنا اختلسته نفسه بالاستقلال وهو في نفسه غير مستقل فأخذه ذلك الاختلاس من يد الحق فتخيّل أنه غير محمول فلم يعرف نفسه ومن لم يعرف نفسه جهل ربه، فكان الغير هنا الذي نظر إليه عين نفسه وذلك لضعفه في العلم بالأصل الذي هو عليه، ولا شك أن مرتبة الرسل عليهم السلام قد جمعت جميع مراتب الرجال من نبوّة وولاية وإيمان وهم المحمولون، فمن ورثهم وكان محمولاً يعلم ذلك من نفسه، وإنما قلنا يعلم ذلك من نفسه لأن الأمر في نفسه أنه محمول ولا بد، ولكن من لا علم له بذلك يتخيل أنه غير محمول فلهذا قيدنا. وفي قوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] فالذي دعاهم قال لهم قولوا: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقال لهم: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وكل معنى محمول بلا شك فإنه غير مستقل بالأمر إذ لو استقل به لما طلب العون والمعين. وقوله رضي الله عنه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] فهم في تجارتهم في ذكر الله لأن التجارة على الحد المرسوم الإلهي من ذكر الله كما قالت عائشة عن رسول الله ﷺ أنه كان يذكر اللهعلى كل أحيانه مع كونه يمازح العجوز والصغير، وكل ذلك عند العالم ذكر الله لأنه ما من شيء إلا وهو يذكر بالله، فمن رأى شيئاً لا يذكر الله عند رؤيته فما رآه فإن الله ما وضعه في الوجود إلا مذكراً فلم تلههم التجارة ولا البيع عن ذكر الله. وكذلك: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] في أخذ الميثاق الذي أخذ الله عليهم فوفوا به وقيل فيهم صدقوا لأنهم غالبوا فيه وفي الوفاء به الدعاوى المركوزة في النفوس التي أخرجت بعض من أخذ عليه الميثاق أو أكثره عن الوفاء بما عاهد عليه الله، فليس الرجل إلا من صدق مع الله في الوفاء بما أخذ عليه كما صدق النبيّ فيما أخذ الله عليه في ميثاق النبيين والمرسلين. وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦] وهم

أعظم الرجال في المنزلة فإن لهم الاستشراف على المنازل، فما أشار بالأعراف هنا هذا الشيخ إلى من تساوت حسناته وسيئاته وإنما أخذه من حيث منزلة الاستشراف، فإن الأعراف هنا هو السور الذي بين الجنة والنار باطنه فيه الرحمة وهو الذي يلي الجنة، وظاهره من قبله العذاب وهو الذي يلي النار فجعل النار من قبله أي يقابله والمقابل ضد فلم يجعل السور محلاً للعذاب وجعله محلاً للرحمة بقوله ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ [الحديد: ١٣] فانظر ما أعجب تنبيه الله عباده بحقائق الأمور على ما هي عليه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] فأهل الأعراف في محل رحمة الله وذلك هو الذي أطعمهم في الجنة وإن كانوا بعد ما دخلوها، ثم ذكر أن لهم المعرفة بمقام الخلق فقال: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦] أي بما جعلنا فيهم من العلامة. وقوله: ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ [الأعراف: ٤٦] فإنهم في مقام الكشف للأشياء، فلو دخلوا الجنة استتر عنهم بدخولهم فيها وسترتهم لأنها جنة عن كشف ما هم له كاشفون. وقولهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦] تحية إقبال عليهم لمعرفتهم بهم وتحية لانصرافهم عنهم إلى جناتهم يقول الله: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ [الأعراف: ١٢٨] ويقول: «**أنا أغنى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ**» ومعلوم أن الاستعانة شرك في العمل فإن كان العمل له فأين العبد؟ وإن كان للعبد فقد أشرك نفسه فاختلسه هذا القدر من توحيد الأفعال، فمن علم أن العبد محل لظهور العمل فلا بدّ منه ولا بد من القبول إن قيل إنه تعالى أوجد العبد والعمل، فلو لم يكن العبد قابلاً لإيجاد القادر إياه لما وجد دليلنا فلا بدّ من قبول الممكن، فلا بدّ من الاشتراك في الإيجاد إن كان في إيجاد العبد فلا بد منه، وإن كان في إيجاد العمل التكليفي فلا بد من العبد، فعلى كل حال لا بد منك ومنه إلا أنك منعوت بالضعف فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ لكون الممكن لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الترجيح على كل حال ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤] للتكليف إلا أنه لا يستقل فأمر بطلب المعونة، فلولا أن للمكلف نسبة وأثراً، في العمل ما صح التكليف ولا صح طلب المعونة من ذي القوّة المتين، فإن شئت سميت أنت ذلك القدر من الاشتراك كسباً، وإن شئت سميته خلقاً بعد أن عرفت المعنى.

وأما أهل الله أرباب الكشف فكما قلنا إن ذلك كله أحكام أعيان الممكنات في العين الوجودية الظاهرة في الصور عن آثار الأسماء الإلٓهية الحسنى من حيث أن الممكن متصف بها فهي للحق أسماء وهي للممكن نعوت وصفات في حال عدم الممكن، لأن وجود عينه من حيث الحقيقة قد بيّنا أنه لا يتصوّر، فما استفاد الممكن إلا ظهور أحكامه بوجود الصور التي تتبعها أسماء الممكنات، فكما أن أسماء الله الحسنى للممكن على طريق النعتية كذلك الأسماء الكونية التي تنطلق على الصور الكائنة في عين الوجود هي أسماء للعين الوجودية قال تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣] في معرض الدلالة فإذا سموهم قالوا: هذا حجر، هذا شجر، هذا كوكب، والكل اسم عبد، ثم أبان الحق تعالى ذلك كله ليعقل عنه فقال تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣] فقلتم عن العين من

أجل الصورة إنها حجر أو شجر أو كوكب أو أي اسم كان من المعبودين الذين ما لهم اسم الله، فما قال أحد من خلق الله أنا الله إلا الله المرقوم في القراطيس إذا نطق يقول: أنا الله فتعلم عند ذلك ما معنى قوله: أنا الله وأنه حق أعني هذا القول في ذلك اللسان المصطلح عليه، ويقوله أيضاً العبد الكامل الذي الحق لسانه وسمعه وبصره وقواه وجوارحه كأبي يزيد وأمثاله، وما عدا هذين فلا يقول أنا الله وإنما يقول الاسم الخاص الذي له في ذلك اللسان له فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن وأربعمائة

في معرفة منازلة يوم السبت حلّ عنك مئزر الجد الذي شددته فقد فرغ العالم مني وفرغت منه

[الطويل]:

فرغْنا من الأجْنَاس فالخَلْقُ خَلْقُنا ... وقد بَقِيَتْ أشْخاصُها تَتَكوَّنُ
مدى الجُودِ والأنفاس فالأمرُ دائمٌ ... إلى غير غاياتٍ له تَتَعَيَّنُ
هو الغايةُ القُصْوَى فليست نهايةٌ ... سواهُ فهذا حَقُّهُ المُتَيَقَّنُ
أنا البَدْءُ لا عَوْدٌ تراه لأنه ... هو الواسعُ المختارُ بي فتَبَيَّنوا
أنا أوّلٌ بالقَصْد فالكونُ كَوْنُنا ... وآخَرُ موجودٌ أنا يتيقّنُ
كُلُوا طيِّبات الرزق من كل جانب ... فمن أجلنا بانوا ولله كُوِّنُوا

قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] فنقول من باب الإشارة لا من باب التفسير: يتجاوزون بالراحة حدها، وبها يسمى السبت سبتاً فإن الله خلق العالم في ستة أيام بدأ به يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة وما مسه من لغوب، ولم يعي بخلقه الخلق، فلما كان يوم السابع من الأسبوع وفرغ من العالم كان يشبه المستريح الذي مسه اللغوب فاستلقى ووضع إحدى رجليه على الأخرى وقال: أنا الملك، كذا ورد في الأخبار النبوية، فسمي يوم السبت يريد يوم الراحة وهو يوم الأبد، ففيه تتكوّن أشخاص كل نوع دنيا وآخرة فما هي إلا سبعة أيام لكل يوم وال ولاه الله فانتهى الأمر إلى يوم السبت فولى الله أمره والياً له الإمساك والثبوت، فله إمساك الصور في الهبا، فنهار هذا اليوم الذي هو يوم الأبد لأهل الجنان وليله لأهل النار فلا مساء لنهاره ولا صبح لليله، وما رأينا أحداً اعتبر هذا اليوم إلا السبتيّ محمد بن هارون الرشيد أمير المؤمنين، وذلك أني كنت يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة بمكة قد دخلت الطواف فرأيت رجلاً حسن الهيئة له هيبة ووقار وهو يطوف بالبيت أمامي فصرفت نظري إليه عسى أعرفه فما عرفته في المجاورين ولم أرَ عليه علامة قادم من سفر لما كان عليه من الغضاضة والنضارة، فرأيته يمرّ بين الرجلين المتلاصقين في الطواف ويعبر بينهما ولا يفصل بينهما ولا يشعران به، فجعلت أتتبع بأقدامي مواضع وطآت أقدامه ما يرفع قدماً إلا وضعت قدمي في موضع قدمه وذهني إليه وبصري معه لئلا يفوتني، فكنت أمر بالرجلين

المتلاصقين اللذين يمرّ هو بينهما فأجوزهما في أثره كما يجوزهما ولا أفصل بينهما، فتعجبت من ذلك، فلما أكمل أسبوعه وأراد الخروج مسكته وسلمت عليه فردّ عليّ السلام وتبسّم لي وأنا لا أصرف نظري عنه مخافة أن يفوتني فإني ما شككت فيه أنه روح تجسد وعلمت أن البصر يقيده فقلت له: إني أعلم أنك روح متجسد فقال لي: صدقت، فقلت له: فمن أنت يرحمك الله؟ فقال: أنا السبتيّ ابن هارون الرشيد، فقلت له: أريد أن أسألك عن حال كنت عليه في أيام حياتك في الدنيا، قال: قل، قلت: بلغني أنك ما سميت السبتي إلا لكونك كنت تحترف كل سبت بقدر ما تأكله في بقية الأسبوع، فقال: الذي بلغك صحيح كذلك كان الأمر، فقلت له: فلم خصصت يوم السبت دون غيره من الأيام أيام الأسبوع؟ فقال: نِعْمَ ما سألت ثم قال لي: بلغني أن الله ابتدأ خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة فلما كان يوم السبت استلقى ووضع إحدى رجليه على الأخرى وقال: أنا الملك، هذا بلغني في الأخبار وأنا في الحياة الدنيا، فقلت: والله لأعملن على هذا فتفرّغت لعبادة الله من يوم الأحد إلى آخر الستة الأيام لا أشتغل بشيء إلا بعبادته تعالى وأقول: إنه تعالى كما اعتنى بنا في هذه الأيام الستة فأني أتفرّغ إلى عبادته فيها ولا أمزجها بشغل نفسي فإذا كان يوم السبت أتفرّغ لنفسي وأتحصل لها ما يقوتها في باقي الأسبوع كما روينا من إلقاء إحدى رجليه على الأخرى، وقوله: أنا الملك الحديث، وفتح الله لي في ذلك فقلت له: من كان قطب الزمان في وقتك؟ فقال: أنا ولا فخر، قلت له: كذلك وقع لي التعريف، قال: صدقك من عرّفك؟ ثم قال لي: عن أمرك يريد المفارقة قلت له: ذلك إليك فسلم عليّ سلام محب وانصرف. وكان بعض أصحابي والجماعة في انتظاري لكونهم كانوا يشتغلون علي بإحياء علوم الدين للغزالي رحمه الله، فلما فرغت من ركعتي الطواف وجئت إليهم قال لي بعضهم وهو نبيل بن خزر بن خزرون السبتي: رأيناك تكلم رجلاً غريباً حسن الوجه وسيماً لا نعرفه في المجاورين من كان ومتى جاء؟ فسكت ولم أخبرهم بشيء من شأنه إلا بعض إخواني فإني أخبرتهم بقصته فتعجبوا لذلك.

واعلم أيدنا الله وإياك أن الفراغ الإلهي إنما كان من الأجناس في الستة الأيام، وأما أشخاص الأنواع فلا فبقي الفراغ بالأزمان لا عن الأشخاص وهو قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ [الرحمن: ٣١] من الشؤون الذي قال فيها: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] في هذه الدنيا فيفرغ لنا منا وتنتقل الشؤون إلى البرزخ والدار الآخرة، فلا يزال الأمر من فراغ إلى فراغ إلى أن يصل أوان عموم الرحمة التي وسعت كل شيء، فلا يقع بعد ذلك فراغ يحده حال ولا يميزه بل وجود مستمرّ ووجود ثابت مستقرّ إلى غير نهاية في الدارين: دار الجنة ودار النار، هكذا هو الأمر في نفسه، ففراغه من العالم هذا القدْر الذي ذكرته آنفاً، وفراغ العالم منه من حيث الدلالة عليه لا غير، وأما الوهب من العلم به فلا يزال دائماً لكن من غير طلب في الآخرة مقاليّ لكن التجلي دائم والقبول دائم، فالعلم متجدد الظهور لي على الدوام، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع وأربعمائة

في معرفة منازلة أسمائي حجاب عليك فإن رفعتها وصلت إليّ

[الطويل]

حِجَابُك أسماءٌ لنا ونُعُوتٌ وأغيانُنا أكْوانُنا فنَقُولُ

لنا الدَّوْلَةُ الغَرَّاءُ ليست لغيرنا ولا غير إلا رَبُّنا فنصُولُ

على من فحَقِّقْ ما تقولُ وإنما يقول بهذا ظالمٌ وجَهُولُ

فكلُّ مقالٍ فيه غير مُقَيَّدٍ فكلّ مقالاتي إليه تَؤُولُ

فلا تَرْفَعِ الأستارَ بَيْني وبينه فذاك وُجُودٌ ما إليه سَبِيلُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الإنسان وإن كان في نفس الأمر عبداً ويجد في نفسه ما هو عليه من العجز والضعف والافتقار إلى أدنى الأشياء والتألم من قرصة البرغوث ويعرف هذا كله من نفسه ذوقاً ومع هذا فإنه يظهر بالرياسة والتقدم، وكلما تمكن من التأثير في غيره فإنه يؤثر ويجد في نفسه طلب ذلك كله وحبه، وذلك لأنه خلقه الله على صورته وله تعالى العزة والكبرياء والعظمة، فسرت هذه الأحكام في العبد فإنها أحكام تتبع الصورة التي خلق عليها الإنسان وتستلزمها، فرجال الله هم الذين لم يصرفهم خلقهم على الصورة عن الفقر والذلة والعبودية، وإذا وجدوا هذا الأمر الذي اقتضاه خلقهم على الصورة ولابدّ ظهروا به في المواطن التي عين الحق لهم أن يظهروا بذلك فيها، كما فعل الحق الذي له هذه الصفة ذاتية نفسية فلا يظهر بها إلا في مواطن مخصوصة ويظهر بالنزول والتحبب إلى عباده حتى كأنه فقير إليهم في ذلك ويقيم نفسه مقامهم، وإذا كان الحق بهذه الصفة أن ينزل إليكم في صوركم فأنتم أحق بهذا النعت أن لا تبرحوا فيه ولا تنظروا إلى ما تجدونه فيكم من قوّة الصورة فذلك له لا لكم، كما أن لكم ما نزل إليكم فيه لا له، ولولا أن أسماءه الحسنى قامت بكم واتصفتم بها ما تمكن لكم ذلك، فردّوا أسماءه على صورته لا عليكم وخذوا منه ما نزل لكم فيه فإن ذلك نعتكم وأسماؤكم، فإنكم إذا فعلتم ذلك وصلتم إليه أي كنتم من أهل القربة، فإن المقرّب لا يبقى له القرب والجلوس مع الحق والتحدّث معه تعالى اسماً إلهياً من الأسماء المؤثرة في العالم ولا من أسماء التنزيه، وإنما يدخل عليه بالذلة لشهود عزه وبالفقر لشهود غناه وبالتهيؤ لنفوذ قدرته فينخلع من كل الأسماء التي تعطيه أحكام الصورة التي خلق عليها، هذا مذهب سادات أهل الطريق حتى قالوا في ذلك إن صادقين لا يصطحبان إنما يصطحب صادق وصديق ولهذا ما بعث رسول الله ﷺ بعثاً قط ولو كان اثنين إلا قدم أحدهما وجعل الآخر تبعاً. وإن لم يكن كذلك فسد الأمر والنظام وهو متبع في ذلك حكم الأصل، فإنه لو كان مع الله إله آخر لفسد الأمر والنظام كما قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. فمن أراد صحبة الحق فليصحبه بحقيقته وجبلته من ذله وافتقاره، ومن أراد صحبة الخلق فليصحبه بما شرع له ربه لا بنفسه ولا بصورة ربّه، بل كما قلنا بما شرع له فيعطي كل ذي حق حقه فيكون عبداً في صورة حق أو حقاً في صورة عبد كيفما كان لا حرج عليه.

ولما كان هذا كله مذهب أهل الله كشف الله لنا من زيادة العلم التي امتنّ الله بها علينا مع مشاركتنا إياهم فيما ذهبوا إليه أن الله أطلعنا على أن جميع ما يتسمى به العبد ويحق له النعت به وإطلاق الاسم عليه لا فرق بينه وبين ما ينعت به من الأسماء الإلهية، فالكل أسماء إلهية فهو في كل ما يظهر به مما ذكروه مما تقتضيه العبودية عندهم والصورة ليس له وإنما ذلك لله وما له من نفسه سوى عينه وعينه ما استفادت صفة الوجود إلا منه تعالى فما سماه باسم إلا وهو له تعالى، فإذا خرج العبد من جميع أسمائه كلها التي تقتضيها جبلته والصورة التي خلق عليها حتى لا يبقى منه سوى عينه بلا صفة ولا اسم سوى عينه حينئذٍ يكون عند الله من المقرّبين، ووافقنا على هذا القول شيخنا أبو يزيد البسطامي حيث قال: وأنا الآن لا صفة لي يعني لما أقامه الله في هذا المقام، فصفات العبد كلها معارة من عند الله فهي لله حقيقة ونعتنا بها فقبلناها أدباً على علم أنها له لا لنا إذ من حقيقتنا عدم الاعتراض، إنما هو التسليم الذاتي المحض لا التسليم الذي هو صفة له فإن ذلك له، فإذا كان العبد ما عنده من ذاته سوى عينه بالضرورة يكون الحق جميع صفاته ويقول له: أنت عبدي حقاً، فما سمع سامع في نفس الأمر إلا بالحق ولا أبصر إلا به ولا علم إلا به ولا حيي ولا قدر ولا تحرّك ولا سكن ولا أراد ولا قهر ولا أعطى ولا منع ولا ظهر عليه وعنه أمر ما هو عينه إلا وهو الحق لا العبد، فما للعبد سوى عينه سواء علم ذلك أو جهله، وما فاز العلماء إلا بعلمهم بهذا القدر في حق كل ما سوى الله لا أنهم صاروا كذا بعد أن لم يكونوا، فلمثل هذا فليعمل العاملون وفي مثل هذا فليتنافس المتنافسون، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب العاشر وأربعمائة

في معرفة منازلة ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ فاعتزوا بي تسعدوا

[السريع]

لـيـس وَرَاءَ الله مَـرْمَـى لـرَامْ ... هـذا هـو الـحَـقّ الـذي لا يُـرَامْ
هـذا مَـقَـامُ الـحـقّ لا تَـغْـتَـدُوا ... يـحـرم فـي هـذا الـمـقـام الـمَـقَـامْ
إذا وصـلـتُـم إخْـوتـي فـارْجِـعُـوا ... هـذا وجـودٌ مـا لـديـه انْـصِـرَامْ
رجـوعُـكـم مـنـه إلـيـكـم فـمـا ... ثَـمَّ سـوى عَـيْـنِ الـوَرَى والأمـامْ
كُـونُـوا أعِـزَّاءَ بـه تَـسْـعَـدُوا ... فـلـيـس عِـزٌّ غـيـرُ عِـزِّ الإمـامْ
لـمـا رَأَوْا أعـراضَـهـم لـم تَـقُـمْ ... ولـم يَـرَوْا أحـوالـهُـم فـي دَوَامْ
قـالـوا أنَـامَ الـحَـقُّ عـن كَـوْنـنـا ... لـذاك سُـمُّـوا فـي الـلـسـان الأنَـامْ

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] وقال ﷺ: «لَيْسَ وَرَاءَ الله مَرْمَى» وقال ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ٢٠] وما ثم إلا الله ونحن وهو من ورائنا محيط، فليس وراء الله مرمى إلا العدم المحض الذي مافيه حق ولا خلق فهو تعالى المحيط بنا، فالوراء منا له من كل وجهة فلا نراه أبداً من هذه الآية لأن وجوهنا إنما هي مقبلة مصروفة إلى نقطة المحيط لأنا منها خرجنا، فلم

يتمكن لنا أن نستقبل بوجوهنا إلا هي فهي قبلتنا وهي إمامنا، ومن كان هذا نعته والأمر كُريّ فبالضرورة يكون الوراء منا للمحيط بنا، فإذا نظرنا إلى قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] فإنما يريد بظهورنا لا بوجوهنا فإن مشينا إلى المحيط القهقرى فهو من ورائنا محيط لأنه الوجود، فلو لم يكن من ورائنا لكان انتهاؤنا إلى العدم، ولو وقعنا في العدم ما ظهر لنا عين، فمن المحال وقوعنا في العدم لأن الله وهو الوجود المحض من ورائنا محيط بنا إليه ننتهي فيحول وجوده وإحاطته بيننا وبين العدم، فليس بين قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ وبين قوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ تقابل لا يمكن معه الجمع بينهما بل الجمع بينهما معلوم، فالعالم بين النقطة والمحيط فالنقطة الأوّل والمحيط الآخر، فالحفظ الإلهي يصحبنا حيثما كنا فيصرفنا منه إليه، والأمر دائرة ما لها طرف يشهد فيوقف عنده، فلهذا قيل للمحمدي الذي له مثل هذا الكشف لا مقام لكم لكون الأمر دورياً فارجعوا فلا يزال العالم سابحاً في فلك الوجود دائماً إلى غير نهاية إذ لا نهاية هناك، ولا يزال وجه العالم أبداً إلى الاسم الأوّل الذي أوجده ناظراً، ولا يزال ظهر العالم إلى الاسم الآخر المحيط الذي ينتهي إليه بورائه ناظراً، فإن العالم يرى من خلفه كما يرى من أمامه، ولكن يختلف إدراكه باختلاف الحال عليه، ولولا الاختلاف ما تميز عين ولا كان فرقان [الكامل]:

إنّ الوُجُودَ رَحًى عَلَيَّ تَدُورُ ... وأنا لها قُطْبٌ فلستُ أَبُورُ
لو زِلْتُ ما دارت ولا كانت رَحًى ... فالفَقْرُ نَعْتُ الكَوْنِ فهو فَقِيرُ
يا جاهلاً بالأمر وهو مُشَاهَدٌ ... إِعْلَمْ بأنك بالأمور خَبِيرُ
الجَمْعُ يحجبُ فرقه عن عينه ... وهو الدليل عليه فهو بَصيرُ

قيل لطائفة: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فقيل لهم: حق لأن الله من ورائهم محيط وهو النور، فلو لم يضرب بالسور بينه وبينهم لوجدوا النور الذي التمسوه حين قيل لهم التمسوا نوراً فإن الحياة الدنيا محل اكتساب الأنوار بالتكاليف وأنها دار عمل مشروع فهي دار ارتقاء واكتساب، فلما أقبلوا على الآخرة صارت الدنيا وراءهم فقيل لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً أي لا يكون لأحد نور إلا من حياته الدنيا، فحال سور المنع بينهم وبين الحياة الدنيا، فالسور دائرة بين النقطة والمحيط فأهل الجنان بين السور والمحيط، فالنور من ورائهم وباطن السور إليهم الذي فيه الرحمة، ووجه السور الذي هو ظاهره ينظر إلى نقطة المحيط، وأهل النار بين النقطة وظاهر السور، وظاهره من قبله العذاب إلى الأجل المسمى فهو حائل بين الدارين لا بين الصفتين، فإن السور في نفسه رحمة وعينه عين الفصل بين الدارين لأن العذاب من قبله ما هو فيه والرحمة فيه، فلو كان فيه العذاب لتسرمد العذاب على أهل النار كما تتسرمد الرحمة على أهل الجنة، فالسور لا يرتفع وكونه رحمة لا يرتفع ولا بدّ أن يظهر ما في الباطن على الظاهر فلا بدّ من شمول الرحمة لمن هو قبل ظاهر السور ولهذا قيل لهم: التمسوا نوراً فلو قيل لهم: التمسوا رحمة لوجدوها من حينهم بوجود السور، فإذا أراد أهل الجنة أن يتنعموا برؤية أهل النار يصعدون على ذلك السور فينغمسون في الرحمة فيطلعون على أهل النار فيجدون من

لذة النجاة منها ما لا يجدونه من نعيم الجنة لأن الأمن الوارد على الخائف أعظم لذة عنده من الأمن المستصحب له، وينظرن أهل النار إليهم بعد شمول الرحمة فيجدون من اللذة بما هم في النار ويحمدون الله تعالى حيث لم يكونوا في الجنة وذلك لما يقتضيه مزاجهم في تلك الحالة، فلو دخلوا الجنة بذلك المزاج لأدركهم الألم ولتضرروا، فإذا عقلت فليس النعيم إلا الملايم وليس العذاب إلا غير الملايم كان ما كان فكن حيث كنت، إذا لم يصبك إلا ما يلايمك فأنت في نعيم، وإذا لم يصبك إلا ما لا يلايم مزاجك فأنت في عذاب حببت المواطن إلى أهلها وأهل النار الذين هم أهلها هي موطنهم ومنها خلقوا وإليها رجعوا، وأهل الجنة الذين هم أهلها منها خلقوا وإليها رجعوا، فلذة الموطن ذاتية لأهل الموطن غير أنهم محجوبون بأمر عارض عرض لهم من أعمالهم من إفراط وتفريط فتغير عليهم الحال فحجبهم عن لذة الموطن ما قام بهم من الأمراض التي أدخلوها على أنفسهم حتى أنهم لو لم يعملوا ما يوجب لهم وجود الآلام والأسقام وحشروا من قبورهم على مزاج وطنهم وخيروا بين الجنة والنار لاختاروا النار كما يختار السمك الماء، ويفر من الهواء الذي به حياة أهل البرّ فيموت أهل البرّ بما يحيا به أهل الماء، ويموت أهل الماء بما يحيا به أهل البرّ، فاعلم ذلك وأنت فلا يصح لك البقاء مع الحق على الدوام فإنه لا بدّ أن يقال: ردوهم إلى قصورهم ولم يقل ردّوهم إلى بيوتهم ولا إلى أزواجهم، فما جاء بلفظ القصور، إلا للمعنى المعقول منه، فإذا ردّوهم إلى قصورهم وأشرفوا على ملكهم فمن المحال أن يظهروا فيه عبيداً وإنما يظهرون فيه ملوكاً فيعظمهم أهلهم وتقوم العزة عليهم في نفوسهم فتقول لهم الحقيقة: ليكن عزكم الذي اقتضاه لكم الموطن بالله لا بنفوسكم فيعتزون في ملكهم بعز الله فتكون العزة لله بالأصالة ولرسوله وللمؤمنين خلعة الهية لا بالأصالة، فيسعدون بهذا العلم عند الله ويجدونه في التجلي المستأنف، مع أن العلماء بالله لا يزالون في تجل دائم لما علموا أن الحق عين كل صورة، ومع هذا فلهم التجلي العام في الكثيب فإن ذلك يعطي ذوقاً آخر خلاف هذا الذوق الذي يجدونه دائماً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى السفر الثامن والعشرون بانتهاء الباب العاشر وأربعمائة.

بسم الله الرحمن الرحيم

[السفر التاسع والعشرون]

الباب الأحد عشر وأربعمائة

في معرفة منازلة فيسبق عليه الكتاب فيدخل النار من حضرة كاد لا يدخل النار فخافوا الكتاب ولا تخافوني، فإني وإياكم على السواء في مثل هذا

قال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] لحكم الكتاب على الجميع وعليهم ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ١٩] فما أصعب الأمر عند العاقل الخبير [الخفيف]:

إنّ خَـوْفَ الـكـتـاب شَـرُّ ذُنُـوبـي إذْ لـه الـحُـكْـمُ فـي الـوجـود وفـيـنـا

وقرأناه في الكتاب صريحاً ورأيناه فيه حقاً يقينا
لا يخاف الإله إلا لكون حادث منه حلّ بالعالمينا

قال رسول الله ﷺ في الصحيح عنه: **«إنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ حَتَّى مَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلاَّ شِبْرٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ»** وكذلك قال في أهل الجنة ثم قال: **«وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيم»** وهي على حكم السوابق، فلا يقضي الله قضاء إلا بما سبق الكتاب به أن يقضى فعلمه في الأشياء عين قوله في تكوينه فما يبدل القول لديه، فلا حكم لخالق ولا مخلوق إلا بما سبق به الكتاب الإلهيّ ولذا قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] فما نجري عليهم إلا ما سبق به العلم، ولا أحكم فيهم إلا بما سبق به، فهذا موقف السواء الذي يوقف فيه العبد [الطويل]:

إذا كان عِلْمُ الحقّ في الحقِّ يَحْكُمُ ففي خَلْقه أخرَى فمن يَتَحَكَّمُ
وليس بمُخْتار إذا كان هكذا فَكُلٌّ إلى سَبْقِ الكتاب مُسَلِّمُ
فما الخوفُ إلا من كتاب تقدَّمَتْ له سُوَرٌ فينا وآيٌ وأنْجُمُ
فلو كان مختاراً أمِنَّاهُ إنه رؤوفٌ رحيمٌ بالعباد وأرْحَمُ
وأخْبَرُ في البُشْرَى برحمته التي يكون لها السبق الكريمُ المُقَدَّمُ
على غضبٍ أبداه فعل عبيده يزول بحمد الله عنه وعَنْهُمُ
وليس كتابي غير ذاتي فافهموا فما مثله إيَّايَ فافْشوا واكْتُمُوا

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤] فانظر أيها الوليّ الحميم إلى ما يحوك في صدرك لا تنظر إلى العوارض فإنك بحسب ما يحوك، فإن حاك الإيمان فأنت مؤمن، وإن حاك صرف ما وجب به الإيمان إلى ما لا يقتضيه ظاهر الحكم فأنت بحسب ذلك وبه يختم لك، ولا تنظر إلى ما يبدو للناس منك، ولا تعوّل إلا على ما يحوك في صدرك، فإنه لا يحوك في صدرك إلا ما سبق في الكتاب أن يختم به لك، إلا أن الناس في غفلة عما نبهتهم عليه ولا رادّ لأمره ولا معقب لحكمه، وذلك الذي يحوك في صدرك هو عين تجلي الأمر الذي لك وقسمك من الوجود الحق، قال بعضهم في باب الورع: ما رأيت شيئاً أسهل عليّ من الورع كل ما حاك له شيء في نفسي تركته، يؤيده قول النبيّ ﷺ: **«دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يُرِيبُكَ»** وقال: **«اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ المُفْتُونَ»**.

واعلم أن الله تعالى ما كتب إلا ما علم ولا علم إلا ما شهد من صور المعلومات على ما هي عليه في أنفسها ما يتغير منها وما لا يتغير فيشهدها كلها في حال عدمها على تنوّعات تغييراتها إلى ما لا يتناهى، فلا يوجدها إلا كما هي عليه في نفسها، فمن هنا تعلم علم الله بالأشياء معدومها وموجودها وواجبها وممكنها ومحالها، فما ثمّ على ما قرّرناه كتاب يسبق إلاَّ بإضافة الكتاب إلى ما يظهر به ذلك الشيء، في الوجود على ما شهده الحق في حال عدمه، فهو سبق الكتاب على الحقيقة، والكتاب سبق وجود ذلك الشيء، ويعلم ذوق ذلك سن علم الكوائن قبل تكوينها، فهي له مشهودة في حال عدمها ولا وجود لها، فمن كان له

ذلك علم معنى سبق الكتاب فلا يخف سبق الكتاب عليه وإنما يخاف نفسه، فإنه ما سبق الكتاب عليه ولا العلم إلا بحسب ما كان هو عليه من الصورة التي ظهر في وجوده عليها، فلم نفسك لا تعترض على الكتاب، ومن هنا إن عقلت وصف الحق نفسه بأن له الحجة البالغة لو نوزع فإنه من المحال أن يتعلق العلم إلا بما هو المعلوم عليه في نفسه، فلو احتج أحد على الله بأن يقول له: علمك سبق فيّ بأن أكون على كذا فلم تؤاخذني يقول له الحق: هل علمتك إلا بما أنت عليه؟ فلو كنت على غير ذلك لعلمتك على ما تكون عليه ولذلك قال: حتى نعلم، فارجع إلى نفسك وانصف في كلامك، فإذا رجع العبد على نفسه ونظر في الأمر كما ذكرناه علم أن محجوج وأن الحجة لله تعالى عليه، أما سمعته تعالى يقول: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [النحل: ٣٣] ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ [النحل: ١١٨] وقال: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١٦٨] كما قال: ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] يعني أنفسهم فإنهم ما ظهروا لنا حتى علمناهم وهم معدومون إلا بما ظهروا به في الوجود من الأحوال والعلم تابع للمعلوم ما هو المعلوم تابع للعلم فافهمه، وهذه مسألة عظيمة دقيقة ما في علمي أن أحداً نبه عليها إلا إن كان وما وصل إلينا، وما من أحد إذا تحققها يمكن له إنكارها، وفرّق يا أخي بين كون الشيء موجوداً فيتقدم العلم وجوده وبين كونه على هذه الصور في حال عدمه الأزلي له فهو مساوق للعلم الإلّهي به ومتقدم عليه بالرتبة لأنه لذاته أعطاه العلم به، فاعلم ما ذكرناه فإنه ينفعك ويقويك في باب التسليم والتفويض للقضاء والقدر الذي قضاه حالك، ولو لم يكن في هذا الكتاب إلا هذه المسألة لكانت كافية لكل صاحب نظر سديد وعقل سليم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني عشر وأربعمائة
في معرفة منازلة من كان لي لم يذل ولا يخزى أبداً

[الطويل]:

إذا كَانَت أَعْمَالي إلى خالقي تُعْزَى ... فيوم التّنادي لا نُذَلُّ ولا نُخْزَى
وآتي سليماً وهو كَوْني محقّقاً ... فنُعْطَى على قدر الإلٰه إذا نُجْزَى
ونَحْظَى بعلم واحدٍ فيه كَثْرَةٌ ... وذلك علمٌ يُورِثُ العَالِمَ العِزَّا
ففي جنّة الفِرْدَوْسِ سُوقٌ مُعَيَّنٌ ... به نَشَر الرَّحْمٰنُ مِنْ صُورِهِ بَزَّا
فمن شاء يُجَلِّي الحَقَّ في أيّ صورة ... يشاء ولا كَوْنٌ يَؤُزُّهُم أَزَّا
فطُوبَى لعبد قام لله وحده ... ولم يعرف اللاَّت المُسَمَّاةَ والعُزَّى

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فابتدأ بلام العلة وختم بياء الإضافة، وقال فيما أوحى به إلى موسى عليه السلام: **«يا ابن آدم خَلَقْتُ الأشياء من أجلك وخَلَقْتُكَ من أجلي»**، وقال لنا على لسان رسوله ﷺ: **«الصَّوْمُ لِي»** وقال: **«الصَّوْمُ لا مِثْلَ لَهُ فَإِنَّهُ لَهُ»** وليس كمثله شيء، وأذل الأذلاء من كان له عز وجل لأن ذل الذليل على

قدر من ذلّ تحت عزه ولا عز أعظم من عز الحق، فلا ذل أذل ممن هو لله، ومن ذلّ لله فإنه لا يذلّ لغير الله أصلاً إلا أن يذل لعين الصفة حيث يراها في مخلوق أو غير مخلوق، فيتخيل من لا علم له بما شهده هذا الذليل أنه ذل تحت سلطان هذا العزيز، وإنما ذل تحت سلطان العزة وهي لله، فما ذل إلا للحق المنعوت بهذا النعت، وينبغي له أن يذلّ، فلها يذل كل ذليل في العالم، فمنهم العالم بذلك في حال ذله ومنهم من لا يعلم، وأما الخزي فلا يخزى إذا كان لله، فإن الخزي لا يكون من الله لمن هو له وإنما يكون لمن هو لغير الله في شهوده، ولذلك قالت خديجة وورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: كلا والله لا يخزيك الله أبداً لما ذكر له ابتداء نزول الناموس عليه، فالخزي الذي يقوم بالعبد إنما هو ما جناه على نفسه بجهله وتعديه رسوم سيده وحدوده، فالذل صفة شريفة إذا كانت الذلة لله، والخزي صفة ذميمة بكل وجه إذا قامت بالنفس، فجميع مذام الأخلاق وسفسافها صفات مخزية عند الله وفي العرف وجميع مكارم الأخلاق صفات شريفة في حق وخلق، ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ**» فإنه نقص منها المسمى سفسافاً فعين لها مصارف فعادت مكارم أخلاق، فهي إذا اتصف بها العبد في المواطن المعينة لها لم يلحقه خزي ولا كان ذا صفة مخزية، فما ثم إلا خلق كريم مهما زال حكم الغرض النفسيّ المخالف للأمر الإلٰهي والحد الزماني النبويّ وأما الكائنون لله فهم على مراتب: منهم من هو لله بالله ومنهم من هو لله بنفسه، ومنهم من هو لله لا بالله ولا بنفسه لكن بغيره من حيث ما هو مجبور لذلك الغير، فمن هو لله بالله فلا يذل ولا يخزى فإن الله لا يوصف بالذلة كما قال الله لأبي يزيد في بعض منازلاته تقرّب إليّ بما ليس لي الذلة والافتقار. ومن هو لله بنفسه فيذل ذل شرف لكنه لا يخزى. ومن كان لله لا بالله ولا بنفسه فهو بحيث يقبل الجبر فإن أجبر في الله فمنزلته منزلة من هو لله بالله في حق شخص وبنفسه في حق شخص، وإن أجبر في أمر نفسي وهو بنفسه في تلك الحالة لا لله فهو في الخزي الدائم والذل اللازم، وانحصرت أقسام هذه المنازلة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث عشر وأربعمائة
في معرفة منازلة من سألني فما خرج من قضائي
ومن لم يسألني فما خرج من قضائي

[الرمل]:

كـلُّ شَـيْءٍ بـقَـضـا وقَـدَرْ ... والـذي لـيـس بـشـيءٍ بـقَـضَـا
فـالـذي يـفـهـمُ مـا أسْـرُدُهُ ... حَـازَ عِـلْـمَ الـسِّـرِّ فـيـه ومَـضَـى
واحـداً فـي عـصـره مُـنْـفَـرداً ... قـد أنَـارَ الـقَـلْـب مـنـه فَـأَضَـا
فـإذا عـايَـنْـتَ مـن نُـوره ... إنـمـا عـايَـنْـتَ بَـرْقـاً وَمَـضَـا
مـا رأيـنـا لـمـقـام نـالـهُ ... فـي وجـود الـكـون مـنـه عِـوَضَـا

قُلْتُ لما قيل لي إنَّ لَهُ في الذي يَهْوَاهُ منه غَرَضَا
فالذي أخَّرَ عن تحصيله لم يكن إلا لأمرٍ عَرَضَا

اعلم أن الله تعالى عرف أن نسبة القضاء إلى القاضي لا تصح حتى يقضي صلاحية ووجوداً، ولا يصح له هذا الاسم حتى يقضي، ولا يعين القضاء إلا حال المقضي عليه، فالقضاء أمر معقول لا وجود له إلا بالمقضي به، والمقضي به يعينه حال المقضي عليه، وبهذه الجملة يثبت اسم القاضي، فلو ارتفعت هذه الجملة من الذهن ارتفع اسم القاضي، ولو ارتفعت من الوجود ارتفع أيضاً حقيقة، فإن أطلق أطلق مجازاً، وحقيقة المجاز أو التجوّز أن ينسب الوقوع إلى ما ليس بواقع، المثال في ذلك: ادّعى شخص على شخص ديناً وأنكر المدعى عليه فعينت الدعوى إقامة البينة وهو المقضي به على صاحب الدعوى وعين الإنكار المقضي به على المنكر وهو اليمين إذا لم تقم البينة وحدث اسم القاضي حقيقة للحاكم باليمين على المدعى عليه إذا أنكر وطلب إقامة البينة من المدعي فالقضاء مجمل والمقضي به تفصيل ذلك المجمل وهو القدر لأن القدر توقيت، فمن سأل فحاله أوجب عليه السؤال، والسؤال طلب وقوع الإجابة فإنه قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] والإجابة أثر في المجيب اقتضاه السؤال، فمن سأل أثر ومن أجاب تأثر، فالحق آمر اقتضى له ذلك حال المأمور، والخلق داع اقتضاه حال المدعوّ لأن الداعي يرجو الإجابة لما تقرّر عنده من حال المدعو، والأمر يرجو الامتثال من المأمور لما علمه من حال المأمور، فحال المأمور جعل للآمر أن يكون منه الأمر، وحال المدعو جعل للداعي أن يكون منه الدعاء، وكل واحد فحاله اقتضى أن يكون آمراً وداعياً، فالدعاء والأمر نتيجة بين مقدمتين هما حال الداعي والمدعو والآمر والمأمور فزالت الوحدة وبان الاشتراك. فالتوحيد الحق إنما هو لمن أعطى العلم للعالم، والحكم للحاكم والقضاء للقاضي وليس إلا عين الممكن وهو الخلق في حال عدمه ووجوده كما قرّرناه في الباب قبل هذا، والأحوال نسب عدمية وهي الموجبة لوجود الأحكام من الحكام في المحكوم به وعليه، فالممكن مرجح في حال عدمه ووجوده، فالترجيح أثر المرجح فيه، وحال الترجيح أوجب للممكن أن يسأل وأن لا يسأل بحسب ما تقتضيه حاله لأنا ما عينا حالاً من حال فبالحال يسأل فيؤثر الإجابة في المرجح، والمرجح أعطى الحال في ترجيحه الذي أوجب السؤال المؤثر في المرجح الإجابة، فلا يجيب المرجح إلا عن سؤال، ولا سؤال إلا عن حال، ولا حال إلا عن ترجيح، ولا ترجيح إلا من مرجح، ولا مرجح إلا من قابل للترجيح وهو الممكن، والممكن أصل ظهور هذه الأحكام كلها فهو المعطي جميع الأسماء والأحكام وقبول المحكوم عليه بذلك والمسمى فما ظهر أمر إلا نتيجة عن مقدمتين، فللحق التوحيد في وجود العين وله الإيجاد بالاشتراك منه، ومن القابل فله من عينه وجوب الوجود لنفسه فهو واحد وله الإيجاد من حيث نفسه وقبول الممكن فليس بواحد في الإيجاد، ولو صحّ توحيد الإيجاد لوجد المحال كما وجد الممكن وإيجاد المحال محال، فإذا قلت: على

ما قد تقرّر من وجود حق وخلق؟ فقل بوجود مؤثر ومؤثر فيه مؤثر فيمن أثر فيه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] أي إلى هذا الحكم لا إلى العين.

تنبيه: ثم لتعلم أن الله تعالى قد أمرنا بالرضا قبل القضاء مطلقاً فعلمنا أنه يريد الإجمال فإنه إذا فصله حال المقضي عليه بالمقضي به انقسم إلى ما يجوز الرضا به وإلى ما لا يجوز، فلما أطلق الرضا به علمنا أنه أراد الإجمال والقدر توقيت الحكم، فكل شيء بقضاء وقدر أي بحكم مؤقت، فمن حيث التوقيت المطلق يجب الإيمان بالقدر خيره وشرّه حلوه ومرّه، ومن حيث التعيين يجب الإيمان به لا الرضا ببعضه، وإنما قلنا يجب الإيمان به أنه شرّ كما يجب الإيمان بالخير أنه خير فنقول: إنه يجب عليّ الإيمان بالشرّ أنه شرّ وأنه ليس إلى الله من كونه شرّ إلا من كونه عين وجود إن كان الشرّ أمراً وجودياً، فمن حيث وجوده أي وجود عينه هو إلى الله، ومن كونه شرّاً ليس إلى الله، قال ﷺ في دعائه ربه: «**وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيكَ**» فالمؤمن ينفي عن الحق ما نفاه عنه. فإن قلت: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨] قلنا: ألهمها فعلمت أن الفجور فجور، وأن التقوى تقوى، لكي تسلك طريق التقوى وتجانب طريق الفجور. فإن قلت: فقوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] قلنا: ليس ذلك في السيئة المحكوم بها في الشرع وذلك هو الشرّ وإنما هو فيما يسوءك والذي يسوءك إنما هو مخالفة غرضك وهو قولهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨] فقال لهم الله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] ما يسوءكم وما يحسن عندكم، وقد تقرّر قبل هذا أن القابل له الأثر في التعيين ما هو للمعطي فهو تعالى معطي الخير والقابل يفصله إلى ما يحكم به عليه من خير وشر، فخيريته إبقاؤه على الأصل فله حكم الأصل ولهذا قال: «**وَالخَيرُ كُلُّهُ بِيَدَيكَ**» وما حكم به من الشرّ فمن القابل وهو قوله: «**وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيكَ**». فإن قلت: فهذا المخلوق على قبول الشرّ هو ممكن فلأي شيء لم يخلقه على قبول الخير فالكل منه؟ قلنا: قد قدمنا وبينا أن العلم تابع للمعلوم وما وجد الممكن إلا على الحال الذي كان عليه في حال عدمه من ثبوت وتغيير كان ما كان والحق ما علم إلا ما هو المعلوم عليه في حال عدمه الذي إذا ظهر في الوجود كان بتلك الحال، فما طرأ على المعلوم شيء لم يتصف به في حال عدمه فما للعلم فيه أثر، وما قلنا بالقدر أنه توقيت إلا لأنه من المقدار ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع عشر وأربعمائة

في معرفة منازلة ما ترى إلا بحجاب

[الرمل]:

مَن رَأى الحَقَّ جِهاراً عَلَناً … إنَّما أبْصَرَهُ خَلْفَ حِجَابْ

وهو لا يعرفُه وهو به … إنَّ هذا لهو الأمر العُجَابْ

كلُّ راءٍ لا يرى غَيْرَ الذي … هو فيه من نعيم وعَذَابْ

صـورةُ الـرَّائـي تَـجَـلَّـتْ عـنـده وهي عَيْنُ الرائي بل عينُ الحِجَابْ

ورد في الصحيح تجلي الحق في الصور وتحوّله فيها وهو مرادنا بالحجاب ثبت عقلاً وشرعاً وكشفاً، والكشف يعطي ما يعطي الشرع سواء، وأن الحق لا يقبل التغيير، فأما بالعقل فالأدلة في ذلك معروفة ليس هذا الكتاب موضعها فإنه مبني على الشرع وعلى ما يعطيه الكشف والشهود، فإن العقول تقصر عن إدراك الأمر على ما يشهد به الشرع في حقه. وأما الشرع فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فلو تغير في ذاته لم يصدق هذا الحكم وهو صدق فاستحال أن يتغير في ذاته والحق يقول: إن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، وقال: «**كُنتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ**» فالصور التي تقع عليها الأبصار والصور التي تدركها العقول والصور التي تمثلها القوّة المتخيلة كلها حجب يرى الحق من ورائها وينسب ما يكون من هذه الصور من الأعمال إلى الله تعالى كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] فلم يزل الحق غيباً فيما ظهر من الصور في الوجود، وأعيان الممكنات في شيئية ثبوتها على تنوّعات أحوالها مشهودة للجن غيباً أيضاً، وأعيان هذه الصور الظاهرة في الوجود الذي هو عين الحق أحكام أعيان الممكنات من حيث ما هي عليه في ثبوتها من الأحوال والتنوّع والتغيير والتبديل تظهر في هذه الصور المشهودة في عين الوجود الحق، وما تغير الحق عما هو عليه في نفسه، كما أن الهباء ما تغير عن كونه هباء مع قبوله لجميع الصور فهي معان في جوهره، والمعاني المنسوبة إلى تلك الصور والأعراض والصفات من باب قيام المعنى فلا تزال الحجب مسدلة وهي أعيان هذه الصور فلا يرى إلا من وراء حجاب كما لا يكلم إلا من وراء حجاب، فإذا رآه الرائي كفاحاً فما يراه إلا حتى يكون الحق بصره فيكون هو الرائي نفسه ببصره في صورة عبده فأعطته الصورة المكافحة إذ كانت الحاملة للبصر ولجميع القوى فتشهده في الصورة عيناً من الاسم الظاهر إذ هو بصرك وكفاحاً وتشهده من الاسم الباطن علماً إذ هو بصر آلتك التي أدركت بها ما أدركت، وإنما قلنا كفاحاً لما ورد في الخبر النبوي الذي خرجه الترمذي وغيره في سياق هذه اللفظة عينها. ثم إن صاحب الرؤيا إذا رأى ربه تعالى كفاحاً في منامه في أي صورة يراه فيقول: رأيت ربي في صورة كذا وكذا ويصدق مع قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فنفى عنه المماثلة في قبوله التجلي في الصور كلها التي لا نهاية لها لنفسه، فإن كل من سواه تعالى ممن له التجلي في الصور التي يتجلى فيها من هذه صفته: كن فتكون الصورة فيظهر بها من له هذا القبول من المخلوقين كالأرواح والمتروحنين من الأناسي كقضيب البان وشبهه، يقول الله تعالى: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٨] فسواه وعدله على مزاج يقبل كل صورة إذا شاء الحق، وجعل التركيب لله لا له، وفي نسبة الصور لله يقال في أي صورة شاء ظهر من غير جعل جاعل فلا يلتبس عليك الأمر في ذلك.

ولما لم يكن له تعالى ظهور إلى خلقه إلا في صورة وصوره مختلفة في كل تجل لا تتكرر صورة فإنه سبحانه لا يتجلى في صورة مرتين ولا في صورة واحدة لشخصين، ولما

كان الأمر كذلك لم ينضبط للعقل ولا للعين ما هو الأمر عليه، ولا يمكن للعقل تقييده بصورة ما من تلك الصور فإنه ينتقض له ذلك التقييد في التجلي الآخر بالصورة الأخرى وهو الله في ذلك كله لا يشك ولا يرتاب إلا إذا تجلى له في غير معتقده فإنه يتعوذ منه كما ورد في صحيح الأخبار، فيعلم أنّ ثم في نفس الأمر عيناً تقبل الظهور في هذه الصور المختلفة لا يعرف لها ماهية أصلاً ولا كيفية، وإذا حكم ولا بد بكيفية فيقول الكيفية ظهورها فيما شاء من الصور فتكون الصور مشاءة وكل مشاء معدوم بلا شك، فما ظهر لك إلا حادث في عين قديم، فما رأيت إلا حادثاً مثلك لأنك ما رأيت إلا صورة يقيدها نظرك ببصر هو الحق في عين هو الحق أعني في العين التي ظهرت في تلك الصورة، فهو مدرك عيناً في الآخرة والنوم وعلماً وشرعاً وغير مدرك علماً، ولا نشك إيماناً وكشفاً لا عقلاً إن بهويته أدرك المدرك جميع ما يدرك سواء أدرك جميع ما يدرك أو بعضه على أي حالة يكون استعداد المدرك اسم مفعول، فالبصر من المدرك اسم فاعل هوية الحق لا بدّ من ذلك، وهكذا جميع ما ينسب إلى هذه الآلات من القوى ما هي سوى هوية الحق إذ يستحق خلاف ذلك، فالآلات ومحلها أحكام أعيان الممكنات في عين الوجود الحق وهو لها كالروح للصورة التي لا يمسك بها ذلك النظام إلا هو، ولا تدرك تلك الصورة شيئاً إلا به حساً وخيالاً، والكل بحمد الله خيال في نفس الأمر لأنه لا ثبات لها دائماً على حال واحدة والناس نيام، وكل ما يراه النائم قد عرف ما يرى وفي أي حضرة يرى، فإذا ماتوا انتبهوا من هذا النوم في النوم، فما برحوا نائمين، فما برحوا في رؤيا، فما برحوا في أنفسهم من هذا التنوّع، وما برح ما يدركونه في أعينهم من التنوّع، فلم يزل الأمر كذلك، ولا يزال الأمر في الحياة الدنيا وفي الآخرة، هكذا كما أوردناه وذكرناه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس عشر وأربعمائة

في معرفة منازلة من دعاني فقد أدّى حق عبوديته ومن أنصف نفسه فقد أنصفني

[الطويل]:

إذا ما دَعَوْتَ الله من غير أمرِهِ ... فلَسْتَ له عبداً وما أنْصَفَ العَبْدُ
وأصْبَحْتَ عبداً للحُظوظ وما لنا ... وفاءٌ ولا عَهْدٌ وقد ثَبَتَ العَهْدُ
ولولا قيامُ العبد في عهد رَبّه ... لما صَحَّ «أوْفُوا بالعُقُودِ» ولا وَعْدُ
وليس سوى التّكْليفِ قُرْباً مخصّصاً ... يعينه أمر ويثبته عَقْدُ
وقامت حُقُوقُ الحَقِّ من كل جانب ... علينا ولولا القُرْبُ ما عُرِفَ البُعْدُ
فمن أنْصَفَ الأكوانَ أنْصَفَ رَبَّهُ ... وكان له في ذات خالقه الخُلْدُ
وصَحَّ له مَجدٌ تَليدٌ وطارفٌ ... وكان له بين الملائكة الحَمْدُ
ألا إنّما العَبْدُ الذي لم يَزَلْ به ... يموت ويحيا والوقوفُ له حَدُّ

وما كَلَّفَ الرَّحْمٰنُ نفساً سوى الذي ... تقوم به فاجْهَدْ فقد ينفعُ الجُهْدُ
فمن قام بالرّحْمٰن كان له الجِدُّ ... ومن قام للرّحْمٰن كان له الجَدُّ
وخُصِّصَ بالآيات في عين نفسه ... وآفاقه فاحْمَدْ بما حُمِدَ الحَمْدُ

قال الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] فوصفهم بأنهم لا يخرجون عن العبودية وأن الذلة حقيقتهم وهو قوله: ﴿دَاخِرِينَ﴾ فمن لم يرد أن يكون عبداً لي كما هو في نفس الأمر فإنه سيكون عبداً لطبيعته التي هي جهنم ويذل تحت سلطانها كما هو ليس هو في نفس الأمر فترك العلم واتصف بالجهل، فلو علم لكان عبداً لي وما دعا غيري كما هو في نفس الأمر عبد لي أحب أم كره وجهل أو علم، وإذا كان عبداً لي بدعائه إياي ولم يتكبر في نفسه أن يكون عبداً لي عند نفسه أعطيته التصريف في الطبيعة فكان سيداً لها وعليها، ومصرّفاً لها ومتصرّفاً فيها وكانت أمته، فانظر ما فاته من العز والسلطان من استكبر عن عبادتي ولم يدعني في السراء وكشف الضر تعبدته الأسباب فكان من الجاهلين.

ومما يؤيد أن الحق عين قوى العبد فالتصريف له لأن العبد لا تصرفه إلا قواه ولا يصرفه إلا الحق فقواه عين الحق دليلنا ما قالته الرسل سلام الله عليهم في ذلك، فأخبر محمد ﷺ عن الله أنه قال: «كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ» يعني العبد إذا تقرّب إليه بالنوافل حتى يحبه وذكر قواه التي تصرفه، ونزل في القرآن تصديق هذا القول وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] والعمل ليس لجسم الإنسان بما هو جسم وإنما العمل فيه لقواه، وقد أخبر أن العمل الذي يظهر من الإنسان المضاف إليه أنه لله خلق فالحق قواه.
وأما موسى فأخذ العالم في ماهية الحق لما دعا فرعون إلى الله ربّ العالمين فقال له فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] يسأله عن الماهية فقال له موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] يقول: إن استقر في قلوبكم ما يعطيه الدليل والنظر الصحيح من الدال، فأخذ موسى عليه السلام العالم في التعريف بماهية الحق والرسل عندنا أعلم الخلق بالله، فقال فرعون وقد علم أن الحق مع موسى فيما أجابه به إلا أنه أوهم الحاضرين واستخفهم لأن السؤال منه إنما وقع بما طابقه الحق وهو قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فما سأله إلا بذكر العالمين فطابق الجواب السؤال، فقال فرعون لقومه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥] أسأله عن الماهية فيجيبني بالأمور الإضافية فغالطهم وهو ما سأل إلا عن الربّ المضاف فقال له موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] فخصص الإضافة لدعوى فرعون في قومه أنه ربهم الأعلى فقال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] أي قد ستر عنه عقله لأن العاقل لا يسأل عن ماهية شيء فيجيب بمثل هذا الجواب، فقال له موسى لقرينة حال اقتضاها المجلس ما قال إبراهيم عليه السلام لنمروذ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨] ولو لم يقل هنا

وما بينهما لجاز لأنه ليس بينهما شيء، وذلك لأن عين حال الشروق في ذلك الحيز هو عين استوائها هو عين غروبها، فكل حركة واحدة منها في حيز واحد شروق واستواء وغروب، فما ثم ما ينبغي أن يقال ما بينهما لكنه قال: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ لغموضه على الحاضرين فإنهم لا يعرفون ما فصلناه في إجمال وما بينهما فجاء بالمشرق المغرب والمعروف في العرف ثم قال لهم: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فأحالهم على النظر العقلي، فما عرف الحق إلا بنا ولا وجد الخلق إلا به [المتقارب]:

فمـنـهُ إلـيـنـا ومِـنَّـا إلَـيْـهْ ... فيُثْني علينا ونُثْنِي عَلَيْهْ

وكذا ذكر إبراهيم عليه السلام الذي ذكر الله عنه أنه آتاه الحجة على قومه: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] فما ذكره إلا بالعالم، فالعالم ظاهره خلق وباطنه حق، ومن حكم باطنه يتصرّف، وما يؤثر في باطنه التصرف إلا تصرف في ظاهر من باطن، فما تصرف في باطنه الذي هو الحق إلا الحق لا غير، فتصريفه حكم عليه بالتصريف، فالصورة الظاهرة مماثلة للصورة الباطنة حتى أنّ بعض المتكلمين ذهب في كتابة القرآن وفي تلاوته المحدثة أن لكل حرف يكتبه الكاتب من القرآن أو يتلوه التالي من القرآن في ذلك الحرف المنطوق به الحادث أو المكتوب حرف مثله هو قديم، واضطره إلى ذلك كون الحادث لا يستقل في وجوده فلا بد من استصحاب القديم له، وهذا مذهب رئيس من رؤساء المعتزلة، ثم إن هذا القديم إن لم يكن على صورة ما خرج عنه وظهر وهو الحادث وإلا فليس هو له ولذلك كان العالم على صورة الحق، وكان الإنسان الكامل على صورة العالم وصورة الحق وهو قوله: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**» فليس في الإمكان أبدع ولا أكمل من هذا العالم إذ لو كان لكان في الإمكان ما هو أكمل من الله، فإنّ آدم وهو من العالم قد خلقه الله على صورته وأكمل من صورة الحق فلا يكون، وذلك أن ظهورالعالم عن الحق ظهور ذاتي، فالحق مرآة للعالم ظهر فيها صور العالم فرأت الممكنات نفسها في مرآة الحق الوجود فتوقفت في الوجود عليه وتوقف في العلم به على العلم بها [مجزوء الرجز]:

فـلـم يَـكُـنْ إلاّ بـهـا ... ولـم تَـكُـنْ إلا بِـهِ
فـمـا لـهـا مـن مُـشْـبِـهِ ... ومـا لـه مـن مُـشْـبِـهِ
يـا غـافـلاً عـن قـولـنَـا ... فـكُـنْ بـهـا تَـكُـنْ بِـهِ

فإذا كان الأمر كما ذكرناه فمن أنصف نفسه وأعطاها حقها فإنما أنصف الحق وأعطاه حقه لأنه أفرد نفسه بما يستحقه وأفرد ربه بما يستحقه، ومن تميز عن شيء فما هو عينه ولا مثله فيما تتميز به عنه لكنه مثله في كونه تميز فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.
واجعل بالك في كل منظوم في أول كل باب من أبواب هذا الكتاب فإنه يتضمن من علوم ذلك الباب على قدر ما أردت أن أنبه فيه عليها تجد في النظم ما ليس في الكلام في ذلك الباب، فتزيد علماً بما هو عليه ما ذكرته في النظم وعلى الله قصد السبيل.

الباب السادس عشر وأربعمائة
في معرفة منازلة عين القلب

[الكامل]:

عَيْنُ القُلُوب من الوُجُود النَّاظِرُ وعليه ساداتُ الطريق تُنَاظِرُ
فانْظُرْهُ في تقليبها متقلِّباً ومُقَلِّباً فهو الوجود الحاضرُ
ما ثَمَّ إلا ما يعاينُ وَقْتَهُ والماضي والآتي حديثٌ سائرُ
الظرفُ في الأكوان ليس بكائن ما ثَمَّ ثُمَّ وثَمَّ حُكْمٌ قَاصِرُ
هذا هو الحقُّ الذي ظهرتْ به أعيانُنا وأنا العليم الخَابِرُ
لو قُلْتُ ما هُوْ لم تَسَعْهُ عقولُكم أين العقولُ وليس ثَمَّ مُغَايِرُ

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الذي ذكرها به ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الذي ذكرها به إذا كانت مؤمنة ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] في تقلبها فتسكن إلى التقليب مع الأنفاس وتعلم أن الثبات على حال واحدة لا يصح، فإن صورة الحق لا تعطي الضيق، ولا اتساع لها ولا مجال إلا في التقليب، ولا تقليب للحق إلا في أعيان الممكنات، وأعيان الممكنات لا نهاية لها، فالتقليب الإلهي فيها لا يتناهى فهو كل يوم في شأن حيث كان، فما زال الأمر مذ كان، ولا يزال من حال إلى حال، فالعين آلة وبالبصر يقع الإدراك للمبصر وهو الحق فبه تبصر، ومن أبصر أمراً فقد علمه، وإذا علمه فقد سكن إليه فأبصر التقليب دائماً فعلمه دائماً فاطمأن به وسكن إليه، فهو في كل نفس ينظر إلى آثار ربه في قلبه فيما يقيمه وفيما خرج عنه ما يعطيه فيه وينبهه به عليه، فلا يزال صاحب هذا المقام في كل نفس في علم جديد فهو في خلق جديد وغيره في لبس من هذا الخلق الجديد، أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] أي ارفع عني اللبس الذي يحول بيني وبين العلم بالخلق الجديد فيفوتني خير كثير حصل في الوجود لا أعلمه، والحجاب ليس إلا التشابه والتماثل، ولولا ذلك لما التبس على أحد الخلق الجديد الذي لله في العالم في كل نفس بكل شأن، وما تنبه لهذا من الطوائف إلا القائلون بتجديد العالم في كل زمان فردوهم طائفة يقال لهم الحسبانية ولم يبلغوا فيه مبلغ الأمر على ما هو عليه لكنهم قاربوا كما قارب القائلون بأن العرض لا يبقى زمانين والعرض كل ما لا قيام له بنفسه، فهؤلاء أيضاً قاربوا الأمر وما بلغوا فيه ما هو الأمر عليه إلا القاضي أبو بكر بن الطيب فإنه قارب في بعض الأمر في موضعين: الموضع الواحد قوله في الأكوان إنها نسب لا عين لها، وقوله فيما نسب إلى الحق من صفة إن ذلك الحكم لمعنى ما هو عين المعنى الآخر الذي أعطى حكماً آخر فقارب أيضاً ولم يبلغ فيه ما هو الأمر عليه، وإنما تميز عمن يقول: إن سمع الحق وبصره عين علمه، والباقلاني لا يقول بهذا، ورأيت بفاس أبا عبد الله الكناني إمام أهل الكلام في زمانه بالمغرب وقد سألني يوماً في الصفات الإلهية فقلت له: ما هو الأمر عليه عندنا، ثم قلت له:

فما قولك أنت فيها هل أنت مع المتكلمين أو تخالفهم في شيء مما ذهبوا إليه فيها؟ فقال لي: أنا أقول لك ما عندي، أما إثبات الزائد على الذات المسمى صفة فلا بد منه عندي وعند الجماعة، وأما كون ذلك الزائد عيناً واحدة لها أحكام مختلفة كثيرة أو لكل حكم معنى زائد أوجبه ما عندنا دليل على أحديته ولا على تكثره، هذا هو الإنصاف عندي في هذه المسألة، وكل من تكلف في غير هذا دليلاً فهو مدخول والزائد لا بدّ منه، غير أنا نقول: ما هو هو ولا هو غيره لما قد علمت يا سيدنا من مذهب أهل هذا الشأن في الغيرين فقلت له: يا أبا عبد الله أقول لك ما قال رسول الله ﷺ لأبي بكر في تعبيره الرؤيا: «**أَصَبْتَ بَعْضاً وَأَخْطَأْتَ بَعْضاً**» فقال لي: لا أتهمك والله فيما تعلمه ولا أقدر أرجع عن الحكم بالزائد إلا إن فتح الله لي بما فتح الله به عليك مع اختلاف أهل النظر فيما ذهبت إليه، هذا قوله فتعجبت من إنصافه ومن تصميمه مع شهادته على نفسه أنه ما يتهمني وهو يخالفني فأشبه من أضله الله على علم ولكن لا يقدح ذلك عندي في إيمانه وإنما يقدح في عقله.

ثم نرجع ونقول: إن عين القلب ليس إلا ما هو الحق عليه في أحوال العالم ظاهراً وباطناً وأولاً وآخراً وإن تعددت الأسماء فالمسمى واحد والمفهوم ليس بواحد، فيحار الداعي إذا دعا ما يدري ما يدعو هل يدعو المسمى أو يدعو المفهوم، فإن الأسماء الإلّهية ما تعددت جزافاً، فلا بد من نسب تعقل لتعددها، فالمفهوم من العالم ما هو عين المفهوم من الحي والحي هو العالم، فالحي عين العالم، والمفهوم من الحي ما هو المفهوم من العالم ولا القادر ولا العزيز ولا العالي ولا المتعالي ولا الكبير ولا المتكبر، ولم نقل هذا عنه ولا سميته بهذا بل هو سمى لي نفسه بهذا فهل هو اسم له أو لما هو المفهوم منه؟ وهل المفهوم منه أمر وجودي أو نسبة؟ ثم مشاركتنا إياه في هذه الأسماء الواردة الإلهية كلها من أعجب ما في الأمر، ثم رفع المماثلة بيني وبينه فتعلم قطعاً أن هذه الأسماء من حيث المفهوم لا ترفع المماثلة [الهزج]:

فقد حِزنَا وقد حارا ... فمن حَارَ فما جَارَا
فقد أبْعَدَني عَيناً ... وقد قَرَّبَني جَارَا
وقد عَيَّن لي داراً ... وقد عَيَّنني دَارَا
له يسكُنها خُلْداً ... فَدُرْنَا حيث ما دَارَا
فمن أصْغى ومن قال ... ومن كِسْرَى ومن دَارَا
مَليكٌ ما له مُلْكٌ ... مُحَالٌ حار من حارا
ونادى من أتى يَبْغي ... فكانت دارُه النَّارا

فما عينني داراً إلا له فبه أسمع وبه أبصر وقد وسعه قلبي وما عين لي داراً إلا هو فيه أقيم وبه أنزل، وهو يسترني بهويته عن خلقه، فهو الظاهر وأنا مخبوء في كنفه، فإذا سمع بالآلة أو بالنسب فبي يسمع وبي يبصر على ذلك كما أسمع به وأبصر به، فهو فيّ بالنوافل فإنه الأصل وأنا الزائد فإن ظاهر الصورة عيني وأنا فيه بالفرائض فبي يسمع وبي يبصر [الطويل]:

فمن كان سَمْعَ الحَقِّ فالحَقُّ سامعٌ ... ومن كان عَيْنَ الحَقِّ فالحَقُّ ناظرُ

فيختلفُ التقليبِ والعينُ واحدٌ ... على مثل هذا كل عُبْدٍ يُثَابِرُ

الباب السابع عشر وأربعمائة

في معرفة منازلة من أجره على الله

[الكامل]:

إنّ الرسالة أجرُهَا مُتَحَقِّقٌ ... لكن على الله الذي يَسْتَخْدِمُهْ
هذا هو العدلُ الذي قامت به ... أعيانُ كَوْنٍ لم يزل يَسْتَلْزِمُهْ
العَفْوُ والصَّفْحُ الجميلُ يُزيلُ ما ... قد كان من حقّ على مَنْ يَحْكُمُهْ
العَفْوُ إن خَصَّصْتَهُ نَزْرٌ وعفـ ... ـو الله كنزٌ عند من يَسْتَفْهِمُهْ

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] وأخبر الله في كتابه عن كل رسول من رسله عليهم السلام أنه قال لأمته: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء: ١٠٩] فيما بلغه عن الله إليهم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٢٩] فإنه تعالى هو الذي استخدمه في التبليغ فاعلم أن الله تعالى له المنة على عباده بأن هداهم للإيمان برسله فوجب عليهم شكر الله وحلاوة الرسول، فيضمنها الله عنهم بأن جعل أجر رسوله ﷺ عليه وضم في ذلك الأجر ما يجب على المؤمنين من الحلاوة له لما هداهم الله به فأنزله ﷺ منزلة من تضاعف الأجر أجر التبليغ وأجر ما قام فيه الحق خليفة عن المؤمنين إذ هو الوكيل تعالى عن أمره إيانا بقوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] من غير أن ينقص مما هو للمؤمنين شيئاً من نعيمهم. فاعلم أن أجر التبليغ على قدر ما ناله في البلاغ من المشقة من المخالفين له من أمته التي بعث إليها ولما قاساه ولا يعلم قدر ذلك من كل رسول إلا الله ولا يتعين، وأما الذي يعطيه مما كان ينبغي أن يقابله به المؤمنون فهو على نوعين: النوع الواحد: على قدر معرفتهم بمنزلته ممن أرسله إليهم وهو الله فإن الله تعالى فضل بعضهم على بعض. والنوع الثاني: على قدر ما جاء به في رسالته مما هو بشرى لصاحب تلك الصفة التي من قامت به كان سعيداً عند الله، فما كان ينبغي أن يقابله به ذلك الرجل هو الذي يعطيه الحق، فإن ساوى حال المؤمن قدر الرسالة كان وإن قصر حاله عما تقتضيه تلك الرسالة من التعظيم، فإن الله بكرمه لا ينظر إلى جهل الجاهل بعظيم قدرها فيوفيه الحق تعالى على قدر علمه فيها، ولا نشك أن الله قد جعل المفاضلة في كل شيء والعالي والأعلى، وإن كان الإيمان بالله وبرسوله وبما جاء به عالياً فإنه يتفاضل بتفاضل شعبه وأبوابه، فإن الإيمان بضع وسبعون شعبة وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول لا إله إلا الله وما بينهما، فمن جمع شعب الإيمان كلها فجزاء الرسول من الله عن هذا الشخص الجامع على قدر منازلها عند الله العالم بالعالي منها وبالأعلى، فانظر ما للرسول عليه السلام من الأجور فأجر التبليغ أجر استحقاق، فإن رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْراً كِتَابُ اللهِ**». وأما من سأل من الصحابة عن

أمر ما من الأمور مما لم ينزل فيه قرآن فنزل فيه قرآن من أجل سؤاله فإن للرسول على ذلك السائل أجر استحقاق ينوب الله عنه فيه زائداً على الأجر الذي له من الله. وأما من ردّ رسالته من أمته التي بعث إليها فإن له عند الله أيضاً أجر المصيبة وللمصاب فيما يحب أجر، فأجره على الله أيضاً على عدد من رد ذلك من أمته بلغوا ما بلغوا، وله من أجر المصاب أجر مصائب العصاة فإنه نوع من أنواع الرزايا في حقه فإنه ما جاء بأمر يطلب العمل به إلا والذي يترك العمل به قد عصى فللرسول أجر المصيبة والرزية، وهذا كله على الله الوفاء به لكل رسول.

النوع الثاني ممن أجره على الله: وهو المهاجر يموت قبل وصوله إلى المنزل الذي هاجر إليه فإن أجره على الله على قدر الباعث الذي بعثه على الهجرة والناس في ذلك متفاضلون، ثم إن الله ينوب عن رسوله فيما يعطيه من الأجر فإنه خرج مهاجراً إلى الله ورسوله، ثم إن له أجر الفوت بالموت الذي أدركه وذلك من الله فإنه الذي رزأه وحال بينه وبين الوصول إلى مهاجره فالدية عليه، فإن كان هذا الذي يموت عالماً عاقلاً فأعظم من لقاء الله ورؤيته فما يكون وقد حصل له ذلك بالموت فهو أفضل في حقه من أنه يعيش حتى يصل فإنه لا يدري ما دام في الحياة الدنيا ما يتقلب عليه من الأحوال فإنه في محل خطر سريع التبديل، وصح عن رسول الله ﷺ في هذا الباب ما خرّجه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنَّما الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ وَإنَّما لامْرِىءٍ ما نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى الله وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى الله وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أو امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُها فَهِجْرَتُهُ إلَى ما هَاجَرَ إلَيْهِ**» ثم يضاف إلى هذه الأجور قدر كرم المعطي وغناه، وهذا يدخل تحت قوله ﷺ: «**إنَّ فِي الجَنَّةِ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**» يعني من المجزيين وتحت قوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ من قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وهذه الزيادة ما عينها الحق لأحد وأكد هذا الأجر على غيره ممن له أجر على الله بالوقوع وهو الوجوب، فإن الأجر قد يقتضيه الكرم من غير وجوب وقد يقتضيه الوجوب، والذي يقتضيه الوجوب أعلى، كما أن الفرائض أعلى وأحب إلى الله من النوافل، صح في الخبر أن الله تعالى يقول: «**مَا تَقَرَّبَ إلَيَّ أَحَدٌ بِأَحَبَّ إلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ**» فجعله أحب إليه، ثم قال: «**وَلاَ يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ**». فهذا نتيجة النوافل فما ظنك بنتيجة الفرائض وهي أن يكون العبد سمع الحق وبصره، وقد بينا صورة ذلك فيما تقدم فيريد الحق بإرادة العبد، وهذا المقام ذكرته العرب في حق محمد ﷺ وفي النوافل يريد العبد بإرادة الحق ويظهر معنى ما ذهبنا إليه في اتصاف الحق بنعوت المخلوق، وفي الوجه الآخر اتصاف العبد بصفات الحق وهذا في الشرع موجود.

النوع الثالث ممن أجره على الله: وهو من عفا عمن أساء إليه وأصلح يعني حال من أساء إليه بالإحسان فأصلح منه ما كان أوجب الإساءة إليه منه فما أراد هنا بأصلح إلا هذا، ولا يحصل في هذا المقام إلا من له همة عالية، فإن الله قد أباح له أن يجازي المسيء بإساءته على وزنها فأنف على نفسه أن يكون محلاً للاتصاف بما سماه الحق سيئة [الكامل]:

نَفْسُ الكريم كريمةٌ في كُلِّ ما | تَجْري به الأهواءُ والأقْدارُ
والله يحكمُ في النفوس بقَدْرها | وهو الذي من حكمه يختارُ
فيجيء ذو اللُّبِّ المجوّز عقله | غير الذي حكمت به فَيَحَارُ

يقول الله تعالى في هذا المقام: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤] يعني قوله وأصلح السيئة ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ [فصلت: ٣٤و ٣٥] يعني هذه الصفة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ [فصلت: ٣٥] حبسوا أنفسهم عن أن يجازوا المسيء بإساءته إساءة ولو علم الناس قدر ما نبهنا عليه في هذه المسألة ما جازى أحد من أساء إليه بإساءة، فما كنت ترى في العالم إلا عفوّاً مصلحاً لكن الحجب على أعين البصائر كثيفة وليست سوى الأغراض واستعجال التشفي والمؤاخذة، ولو نظر هذا الناظر لما أساء هو على الله في ردّ ما كلفه به وركوبه الخطر في ذلك وإمهال الحق له وتجاوزه عنه في هذه الدار حتى يكون هو الذي يكشف نفسه حتى تقام عليه الحدود ويرمي نفسه في المهالك كما قال الصاحب: لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه في المعترف بالزنى وأن الملائكة الكتاب لا يكتبون على العبد من أفعاله السيئة إلا ما تكلم بها وهو قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وهو الكاتب وإن كانوا يعلمون ما تفعلون ما قال يكتبون، ثم أنه من كرم الله أن الكشف أعطى وقد ورد به خبر أن العبد إذا عمل السيئة قال الملك لصاحبه الذي أمره الحق أن يستأذنه في كتاب السيئة: أأكتب؟ فيقول له: لا تكتب وأنظره إلى ست ساعات من وقت عمله السيئة فإن تاب أو استغفر فلا تكتبها، وإن مرّت عليه ست ساعات ولم يستغفر فاكتبها سيئة واحدة ولا تكتبها إلا إذا تلفظ بها بأن يقول: فعلت كذا، أو تكون السيئة في القول فتكتب بعد مضي هذا القدر من الزمان، وأيّ مؤمن تمضي عليه ست ساعات لا يستغفر الله فيها فلهذا النوع أجر على الله من وجهين: أجر العفو وأجر العفو من الله كثير فإنه من الأضداد، وأجر الإصلاح وهو الإحسان إليه المزيل لما قام به من الموجب للإساءة إليه ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ولو لم يكن في إحسانه المعبر عنه بالإصلاح إلا حصول حب الله إياه الذي لا يعدله شيء لكان عظيماً، فيكون أجر من هذا صفته على الله أجر محب لمحبوب وكفى بما تعطيه منزلة الحب، فما يقدر أحد أن يقدر أجر ما يعطيه المحب لمحبوبه، فهذا قد أومأنا إلى من له أجر على الله بأوجز عبارة طلباً للاختصار، فإن المقام عظيم والمنازلة كبيرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن عشر وأربعمائة

في معرفة منازلة من لم يفهم لا يوصل إليه شيء

[السريع]:

مَنْ يَفْهَم الأمرَ فذاك الذي | خاطبه الرحمنُ من كلّ عَيْنْ
وهو الذي دَارَ عليه الوَرَى | وهو الذي في حُكْمِه كلّ أَيْنْ

إن إيـاساً خُـصَّ مـن بـاقـل　　لـمـا حَـوَتْـهُ حـكـمـة الـقَـبْـضَـتَـيْـنْ
قـد أوضـح الله لـنـا حُـكْـمَـهُ　　فـي كـل مـا فـي الـكـون مـن فِـرْقَـتَـيْـنْ
والـضِّـدُّ لا يـعـرفـه ضِـدُّهُ　　والـحـقُّ مـعـلـومٌ لـنـا دون مَـيْـنْ
قـد ثـبـت الـمـثـلُ لـه وانـتـفـى　　عَـنِّـيَ ذاك الـمـثـلُ مـن بـعـد بَـيْـنْ

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ٥] اعلم أن الكلام على قسمين: كلام في موادّ تسمى حروفاً وهو على قسمين: إما مرقومة أعني الحروف وتسمى كتاباً، أو متلفظاً بها وتسمى قولاً وكلاماً. والنوع الثاني كلام ليس في مواد، فذاك الكلام الذي لا يكون في مواد يعلم ولا يقال فيه يفهم فيتعلق به العلم من السامع الذي لا يسمع بآلة بل يسمع بحق مجرد عن الآلة، كما إذا كان الكلام في غير مادة فلا يسمع إلا بما يناسبه، والذي في المادّة يتعلق به الفهم وهو تعلق خاص في العلم، فإذا علم السامع اللفظة من اللافظ بها أو يرى الكتابة فإن علم مراد المتكلم في تلك الكلمة مع تضمنها في الاصطلاح معاني كثيرة خلاف مراد المتكلم بها فذلك الفهم وإن لم يعلم مراد المتكلم من تلك الكلمة على التفصيل واحتمل عنده فيها وجوه كثيرة مما تدل عليه تلك الكلمة ولا يعلم على التعيين مراد المتكلم من تلك الوجوه ولا هل أرادها كلها أو أراد وجهاً واحداً أو ما كان، فمع هذا العلم بمدلول تلك الكلمة لا يقال فيه أنه أعطي الفهم فيها وإنما أعطي العلم بمدلولاتها كلها لعلمه بالاصطلاح، لأن المتكلم بها عند السامع الغالب عليه أمران: الواحد القصور عن معرفة مدلولات تلك الكلمة في اللسان، والأمر الآخر أنه وإن عرف جميع مدلولاتها فإنه لا يتكلم بها إلا لمعنى تقتضيه قرينة الحال، فالذي يفهم مراده بها فذلك الذي أوتي الفهم فيها ومن لم يعلم ذلك فما فهم، فكأن المتكلم ما أوصل إليه شيئاً في كلامه ذلك. وأما كلام الله إذا نزل بلسان قوم فاختلف أهل ذلك اللسان في الفهم عن الله ما أراده بتلك الكلمة أو الكلمات مع اختلاف مدلولاتها فكل واحد منهم وإن اختلفوا فقد فهم عن الله ما أراده فإنه عالم بجميع الوجوه تعالى، وما من وجه إلا وهو مقصود لله تعالى بالنسبة إلى هذا الشخص المعين ما لم يخرج من اللسان فإن خرج من اللسان فلا فهم ولا علم، وكذلك أصحاب الأخذ بالإشارات فإن إدراكهم لذلك في باب الإشارات في كلام الله تعالى خاصة فهم فيه لأنه مقصود لله تعالى في حق هذا المشار إليه بذلك الكلام وكلام المخلوق ما له هذه المنزلة، فمن أوتي الفهم عن الله من كل وجه فقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب وهو تفصيل الوجوه والمرادات في تلك الكلمة، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً فكثره لما فيها من الوجوه، فمن كان قلبه في كنّ أو كان عليه قفل أو كان أعمى البصيرة أو كان صادياً أو كان على قلبه ران فإن الله قد حال بينه وبين الفهم عن الله تعالى وإن تأوّله، ولهذا يتخذ آيات الله هزؤاً ودينه لهواً ولعباً لعدم فهمه عن الله ما خاطب به عباده فلهذا قال: من لم يفهم لم يوصل إليه شيء، فأما الران فهو صدأ وطخا، وليس إلا ما تجلى في مرآة القلب من صور ما لم يدعو الله إلى رؤيتها وجلاؤها من ذلك بالذكر والتلاوة. وأما الكنّ فهو كالمقصورات في

الخيام فهو في بيت الطبيعة مشغول بأمه ما عنده خبر بأبيه الذي هو روح الله فلا يزال في ظلمة الكن وهي حجاب الطبيعة فهو في حجابين كنّ وظلمة فهو يسمع ولا يفهم كما قال الله فيهم: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] أي لا يفهمون، وأما أن يكون في أذنيه وقر أو صمم فإن كان وقر فهو ثقل الأسباب الدنياوية التي تصرفه عن الآخرة، وإن كان طخأ فهو قساوته قلبه أن يؤثر فيه قبول ما يخطر له حديث النفس من النظر والإصغاء إلى هذا الداعي الذي هو الشارع وهو قوله تعالى: ﴿وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] حتى لا يسمعوا دعاء فلا يرجعون ولا يعقلون لأنه بلسانهم خاطبهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] فأصمهم الله وأعمى أبصارهم وختم على ألسنتهم فما تلفظوا بما دعاهم إليه أن يتلفظوا به. وأما القفل فهو لأهل الاعتذار يوم القيامة يقولون: نحن ما قفلنا على قلوبنا وإنما وجدناها مقفلاً عليها، وهذا من الجدال الذي قال الله عنهم فيه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] ولم نعرف من أقفلها فرمنا الخروج فخفنا من فك الختم والطبع فبقينا ننتظر الذي أقفل عليها عسى يكون هو الذي يتولى فتحها فلم يكن بأيدينا في ذلك شيء وكان منهم عمر بن الخطاب أعني من أهل الأقفال يقول الله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] فلما تولى الله فتحه أسلم فشد الله به الإسلام وعضده رضي الله عنه وأرضاه، فهذا قد ذكرنا سبب عدم الفهم عن الله تعالى موجزاً على قدر الوقت، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع عشر وأربعمائة

في معرفة منازلة الصكوك وهي المناشير والتوقيعات الإلهية

[البسيط]:

إنّ التَّواقيعَ برهانٌ يدلُّ على ... ثُبُوتِ مُلْكِ الذي في الحُكْمِ يُعْطِيهَا
بها قد استخلف الرحمنُ والِدَنَا ... فهي الدليلُ على إثبات مُعْطِيهَا
والحكمُ يكشفُها في كل نازلةٍ ... وعندنا حالةٌ فيها تُغَطِّيها
إنّ النُّفُوسَ لَتَدْري ما نَطَقَتْ به ... وليس يمنعُها إلا تَعَاطِيهَا

اعلم أن الله تعالى لما شاء أن يجعل في أرضه خلفاء على من يعمرها من الإنس والجان وجميع الحيوانات وقدمهم ورشحهم للإمامة دون غيرهم من جنسهم جعل بينه وبينهم سفيراً وهو الروح الأمين، وسخر لهم ما في السموات من ملك وكوكب سابح في فلك وما في الأرض وما بينهما من الخلق جميعاً منه، وأباح لهم جميع ما في الأرض أن يتصرّفوا فيه وأيد هؤلاء الخلفاء بالآيات البينات ليعلم المرسلون إليهم أن هؤلاء خلفاء الله عليهم، ومكنهم من الحكم في رعيتهم بالأسماء الإلهية على وجه يسمى التعلق، وشرع لهم في نفوسهم شرائع، وحدّ لهم حدوداً، ورسم لهم مراسم يقفون عندها يختصون بها، لا يجوز لأحد من رعاياهم أن يتخذوها لأنفسهم شرائع ولا يقتدون بهم فيها، ثم نصب لهم شرائع يعملون بها هم

ورعيتهم، وكتب لهم كتباً بذلك نزلت بها السفراء عليهم ليسمعوها رعيتهم فيعلموا حدود ما أنزل الله الذي استخلف عليهم فيقفوا عندها ويعملوا بها سرّاً وجهراً، فمنها ما كتبه بيده تعالى وهو التوراة، ومنها ما نزل به الروح الأمين عليهم من الكتاب المكنون الذي نزل من الله من عرشه المنقول من الدفتر الأعظم وهو الإمام المبين فهو معه على عرشه، ونقل منه في اللوح المحفوظ قدر ما يقع به التصريف في الدنيا إلى يوم القيامة يتضمن ما في العالم من حركة وسكون واجتماع وافتراق ورزق وأجل وعمل، ثم أنزل ذلك كله في كتاب مكنون إلى السماء الدنيا وجعله بأيدي سفرة كرام بررة مطهرين أرواح قدس صحفاً مكرّمة مرفوعة مطهرة فيها توقيعات إلهية بما وعد الله المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما جاءت به رسله من اليوم الآخر والبعث الآخر، وما يكون في ذلك اليوم من حكم الله في خلقه، وتولى الله ذلك كله بنفسه على صورة الحق الذي بعث به رسله ليصدقهم عند عبيده فعلاً بحكمه ذلك فيهم كما صدقهم في حال احتجابه بما أيدهم به من الآيات، فآمن من آمن وكفر من كفر، فتوقف الأمر على ظهوره لعباده فيتولى الفصل بينهم بحكمه بنفسه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [النمل: ٧٨] فإذا فصل وحكم وعدل وأفضل جعلهم في الفصل فريقين: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] وهو سجن الرحمن ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨] يريد سجناً يحصرهم فيه، وينزل الفريق السعيد في دار كرامته وقيم ذلك الدار رضوان فإنها دار الرضوان ومتولي الدار الأخرى التي هي السجن مالك ومعناه الشديد يقال: ملكت العجين إذا شددت عجنه، قال قيس بن الخطيم يصف طعنة [الطويل]:

ملكتُ بها كفّي فأنهرْتُ فتْقَها ... يَرَى قائمٌ من دونها ما وَرَاءَها

يقول: شددت بها كفي فنزلت التوقيعات بما للمؤمنين من الخير عند الله العاملين الحافظين حدود الله من المسلمين والمسلمات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات والتائبين والتائبات والعابدين والعابدات والحامدين والحامدات والسائحين والسائحات والراكعين والراكعات والساجدين والساجدات والآمرين بالمعروف والآمرات والناهين عن المنكر والناهيات والمعرضين عن اللغو والمعرضات ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣] وما هم عنها بساهين، إلى مثل هذا مما أوقع الله في توقيعاته من الصفات المرضية التي يحمدها. ثم بشرهم تعالى بأنهم الوارثون الذين يرثون الفردوس وهو أوسط الجنات فقال: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١١] يبشرهم بالبقاء والدوام في النعيم، وأخبرهم في التوقيع أنه عنهم راض تعالى وتقدس جلاله، ثم أنه ناب عنهم في الخطاب بأنهم عنه راضون فقال تعالى ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩] وهنا نكتة لمن فهم ما تدل عليه ألفاظ القرآن من الرضى فقطع عليهم بذلك لعلمه بأنه واقع منهم، ثم إنه أنزل في الكتب والصحف وعلى ألسنة الخلفاء صلوات الله عليهم وسلامه من الوعيد والتهديد وأخذ من كفر بالله ونافق أو آمن ببعض

وكفر ببعض مما أنزله الله وجحد وأشرك وكذب وظلم واعتدى وأساء وخالف وعصى وأعرض وفسق وتولى وأدبر، وأخبر في التوقيع أنه من كان بهذه المثابة وقامت به هذه الصفات في الحياة الدنيا أو بعضها ثم تاب إلى الله منها في الدنيا ومات على توبة من ذلك كله فإنه يلقى ربه وهو راض عنه. فإن فسح له وأنسأ الله في أجله بعد توبته فعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات أي ما كان يتصرّف به من السوء عاد يتصرّف فيه حسناً، فبدل الله فعله بما وفقه إليه من طاعته ورحمه وغفر له جميع ما كان وقع منه قبل لك ولم يؤاخذه بشيء منه. وما زالت التوقيعات الإلهية تنزل من الله على خلفائه بما يعدهم الله به من آمن بالله ورسله من الخير وما توعد به لمن كفر به من الشر مدة إقامة ذلك الخليفة المنزل عليه وهو الرسول إلى حين موته، فمن زمان خلافته إلى انتهاء مدة عمره لا تزال التوقيعات الإلهية تنزل عليه، فإذا مات واستخلف من شاء بوحي من الله له في ذلك أو ترك الأمر شورى بين أصحابه فيولون من يجمعون عليه إلى أن يبعث الله من عنده رسولاً فيقيم فيهم خليفة آخر إلا إذا كان خاتم الخلفاء فإن الله يقيم نواباً عنه فيكونون خلفاء الخليفة من عند الله لا أنهم في منزلة الرسل خلفاء من عند الله وهم الأقطاب وأمراء المؤمنين إلى يوم القيامة، فمن هؤلاء النواب من يكشف الله عنه الغطاء فيكون من أهل العين والشهود فيدعوا إلى الله على بصيرة كما دعا الرسول عليه السلام، ولولا أن الزمان قد اقتضى أن لا يكون مشرع بعد رسول الله ﷺ لكان هؤلاء مشرعين، وإن لم يأتوا إلا بشرع رسول الله ﷺ فإنهم كانوا يكونون فيه كما كان رسول الله ﷺ في شرع من قبله إذا حكم به في أمته فهو فيه بمنزلة الأول الذي كان قبله لا أنه خليفة عنه في ذلك وإن قرره، فلما منع الله ذلك في هذه الأمة علمنا أنهم خلفاء رسول الله ﷺ وإن دعوا إلى الله على بصيرة كما دعا رسول الله ﷺ كما ورد في القرآن العزيز عنه في قوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨] وسمّانا ورثة وأخبر ﷺ أنه ما ورثنا إلا العلم. ثم إن دعاءه ﷺ في أن يمتعه الله بسمعه ليسمع كلام الله وبصره ليرى آيات الله في الآفاق وفي نفسه ثم قال: واجعل ذلك الوارث منا يعني السمع والبصر فإن الله هو خير الوارثين، وقد قال تعالى في الخبر الصحيح عنه: **«كُنتُ سَمْعَهُ وبَصَرَهُ»** فهوية الحق إذا كانت سمع العبد وبصره كان الحق الوارث منه الذي هو عين سمعه وبصره، فدعا بهذه الصفة أن تكون له حتى يقبض عليها فكأنه يقول: اللهم متعنا بك فأنت سمعنا وبصرنا وأنت ترثنا إذا متنا فإنك أخبرت أنك خير الوارثين وأنك ترث الأرض ومن عليها، أي أنت الخير الذي يرثه الوارثون من خلفائهم وهم متبعوا الرسل صلوات الله عليهم، فهو تعالى الخير الذي يناله الوارثون كما أنه خير الوارثين من حيث إنه وارث، وهكذا الإشارة في كل خير منسوب مضاف مثل خير الصابرين والشاكرين، ومثل هذا مما ورد عن الله في أي شرع ورد.

ومن التوقيعات الإلهية أيضاً المبشرات وهي جزء من أجزاء النبوّة، فإما أن تكون من الله إليه أو من الله على يدي بعض عباده إليه وهي الرؤيا يراها الرجل المسلم أو ترى له، فإن

جاءته من الله في رؤياه على يدي رسوله ﷺ فإن كان حكماً تعبد نفسه به ولا بد بشرط أن يرى الرسول ﷺ على الصورة الجسدية التي كان عليها في الدنيا كما نقل إليه من الوجه الذي صح عنده، حتى أنه إن رأى رسول الله ﷺ يراه مكسور الثنية العليا فإن لم يره بهذا الأثر فما هو ذاك، وإن تحقق أنه رسول الله ﷺ ورآه شيخاً أو شاباً مغايراً للصورة التي كان عليها في الدنيا ومات عليها ورآه في حسن أزيد مما وصف له أو قبح صورة أو يرى الرائي إساءة أدب من نفسه معه فذلك كله الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ ما هو رسول الله فيكون ما رآه هذا الرائي عين الشرع إما في البقعة التي يراه فيها وإما أن يرجع ما يراه إلى حال الرائي أو إلى المجموع غير ذلك لا يكون، فإن جاءه بحكم في هذه الصورة فلا يأخذ به إن اقتضى ذلك نسخ حكم ثابت بالخبر المنقول الصحيح المعمول به بخلاف حكمه لو رآه على صورته فيلزمه الأخذ به ولا يلزم غيره ذلك فإن الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣]، هذا هو الفرقان عند أهل الله بين الأمرين، فإنهم قد يرونه ﷺ في كشفهم فيصحح لهم من الأخبار ما ضعف عندهم بالنقل، وقد ينفون من الأخبار ما ثبت عندنا بالنقل، كما ذكر مسلم في صدر كتابه عن شخص أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام فعرض عليه ألف حديث كان في حفظه فأثبت له ﷺ من الألف ستة أحاديث وأنكر ﷺ ما بقي، فمن رآه ﷺ في المنام فقد رآه في اليقظة ما لم تتغير عليه الصورة فإن الشيطان لا يتمثل على صورته أصلاً فهو معصوم الصورة حياً وميتاً، فمن رآه فقد رآه في أي صورة رآه، فالمبشرات من التوقيعات الإلهية وثم توقيعات أخر إلهية من الأسماء الإلهية تعرف إذا وردت على قلوب العارفين بالله في كشفهم وهو أن يكون التوقيع الذي يجيء إلى هذا الولي من اسم خاص إلهي من الأسماء الحسنى مما دون الاسم الله فإنه ما يخرج منه في توقيع أصلاً من حيث دلالته، وإنما يخرج منه إذا ذكر مقيداً بحال يستدعي اسماً خاصاً بذلك الحال كنى عن ذلك الاسم بالاسم الله لتضمنه خاصة، وأكثر ما تخرج التوقيعات لأولياء الله من الله والرحمن والرب والملك لا غير، هذا هو الغالب المستمر، فإن خرج باسم غير ما ذكرنا فهو شاذ يحكم به على حد ما تعطيه حقيقة ذلك الاسم وهو دليل على مضمون ذلك التوقيع لهذا الولي فيتصرف فيه به بحسب ما يقتضيه ويحتاج هذا الولي إلى علم عظيم بالمواطن وصور الأحوال ومراتب العالم وعلم المحو والإثبات والشؤون الإلهية، كل ذلك لا بد أن يعرفه العلماء بالله وإن لم يعرفوا ذلك وأمثاله فلا يتعدى قدره وليدخل في عمار الناس ويلزم الجماعة فإن يد الله معهم، ومن شذ من الجماعة على غير بصيرة فقد شذ إلى النار، بل صاحب البصيرة من المحال أن يشذ عن الجماعة فإنه لا يشذ عن يد الله ولكن يعلم وهو في الجماعة ومعها ما لا يعلمه واحد واحد من الجماعة إلا من كان مثله، فهو مع من هو مثله جماعة ما هو ممن صلى وحده، فالسعيد من وقف عند حدود الله ولم يتجاوزها، وإنا والله ما تجاوزنا منها حداً ولكن أعطانا الله من الفهم عنه تعالى فيها ما لم يعطه كثيراً من خلقه، فدعونا إلى الله على بصيرة من أمره إذ كنا على بينة من ربنا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي عشرين وأربعمائة
في معرفة منازلة التخلص من المقامات

[البسيط]:

ما في الوُجود سِوَاهُ فانْظُرُوهُ كما نَظَرْتُهُ تجدوا في هُوْ الذي ما هُوْ
ومن يَدُلُّ عليه فهو ذو جَدَلٍ في قلبه منه أمثال وأشْبَاهُ
لولاه ما نَظَرتْ عَيْنٌ بناظرها لولاه ما نَطَقَتْ بالذِّكْرِ أفْوَاهُ
فاحْكُمْ عليه به وأنت في عَدَمٍ واثْبُتْ عليه فما في الكون إلا هُوْ
والله لولا وُجُودُ الحقّ ما قبلتَ أقواله في وجود الكون لولاهُ

قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: ١٣] والجامع للمقامات ما له مقام يقتضيه من عرف نفسه عرف ربه، وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ يعني الدالة عليها في الآفاق ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] وهي مقيدة فلا بد أن يقيد مدلولها، وإن دلت على إطلاقه فكونه مطلقاً تقييد لأن التقييد تمييز، فمعرفة العارفين به تعالى ليس من رؤية الآيات الخارجة والداخلة فإنها تدل على مقيد في إطلاق أو إطلاق في مقيد، والعارفون يرونه عين كل شيء، المخلوق قال لمن أساء في حقه فقطع رحمه: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ [يوسف: ٩٢] فالحق أولى بهذه الصفة لمن أساء في حقه بقطع رحمه، فإنا لا نشك أن قاطع الرحم ما قطعها إلا بجهله وما انقطعت الرحم، فالرحم موصولة في نفس الأمر فهي موصولة عند العالم، فمن جانبه موصولة ومن جانب الجاهل بها مقطوعة، ولما رجع الأمر كله لله مما وقعت فيه الدعاوى الكاذبة لم يدل رجوعها إلى الله تعالى على أمر لم يكن عليه الله بل هويته هي هي في حال الدعاوى في المشاركة وفي حال رجوع الأمر إليه والمقام ليس إلا للتمييز وما ثم إلا واحد فعمن يتميز فلا مقام، بل هوية أحدية فيها صور مختلفة فزيد إحدى العين لو لم يكن في الوجود إلا هو، لم يتميز عن شيء لأنه ما ثم إلا هو، ولم يتميز عنه شيء لأنك ما فرضت موجوداً إلا هو خاصة، ولا مقام له يتميز به عن غيره إذ لا غير هناك فإن يده متميزة عن رجله ورأسه متميز عن صدره وأذنه عن عينه، وكل جارحة منه متميزة عن غيرها من الجوارح، وكل قوّة منه في باطنه لها حكم ليس للأخرى، ومحل ليس للآخر، فتميزت الصور في عين واحدة لا تميز فيها ولا مقام لها، فنحن له كالأعضاء للواحد منا والقوى فما ثم عمن نتميز ولا يتميز عنا ولكن تميزنا بعضنا عن بعض كما قرّرنا، ولا تنسب الأحكام والمقامات لأعضائنا وإنما ينسب ذلك كله إلينا فيقال: بطش فلان بفلان، ومشى فلان إلى فلان، وسمع فلان كلام فلان، ورأى فلان فلاناً، ما ينسب شيء من هذا كله إلى آلة ولا إلى قوة ولا إلى عضو ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣] فله الحكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤].

فاعلم أنه لا يخلص من المقامات إلا وارث محمد ﷺ الذي آتاه الله جوامع الكلم

وعلم الأسماء كلها وعلم الأوّلين والآخرين، فـ«كلّ الصيد في جوف الفرا» فما ثم عمن نتميز فإن العالم كله في وارث محمد ﷺ كما هو في محمد ﷺ فقد خلص من حكم المقامات عليه فهو يحكم بها بحسب ما تعطيه الأحوال فإنه العليم الحكيم، فالأسماء الإلهية كلها هي تظهر المقامات وبها يحكم الحاكم ولا حاكم إلا الله وما يبدل القول لديه فالقول له الحكم فبالقول يحكم الحق، فتنبه لمن هو المحكوم عليه والمحكوم به والمحكوم فيه والحاكم تعرف من هو المخلص من المقامات والذي لا مقام له. وأما المقام المحمود وهو المقام المثنى عليه الذي أثنى عليه الله الذي يقيم الحق فيه سبحانه محمداً ﷺ فهو مقام شفاعة رسول الله ﷺ في الشافعين أن يشفعوا يوم القيامة من ملك ورسول ونبيّ ووليّ ومؤمن، وأن يخرج الحق من النار أو يدخل الجنة من لم يعمل خيراً قط حتى لا يبقى في النار إلا أهلها الذين هم أهلها فيبقيهم الله فيها على صفة ومزاج، لو أخرجهم الله بذلك المزاج إلى الجنة لتعذبوا وأضرّ بهم دخولها كما تضرّ رياح الورد بالجعل فيجيبه الله لما سأل فيه، وإذا زاد سبب ظهور أمر على واحد فهو شفاعة سواء كان شفعاً أو وتراً لا بدّ أن يكون زائداً على واحد، وأما الأحوال فلا سبيل إلى التخلص منها وهي فينا موهوبة وهي للحق ذاتية [البسيط]:

فالحُكْمُ للحال والأحوالُ حاكمةٌ ... وليس في الكون إلا الله والبَشَرُ
ونحن في عبرة لو كنت تَعْقِلُها ... فكل شيء سوى الرحمن يُعْتَبَرُ
نحن النجومُ التي في الغرب موقعها ... وليس يظهر إلا الشمسُ والقمرُ
الطَّمْسُ فينا وذاك الطمسُ ينفعُنا ... وليس يَدْريه إلا من له نَظَرُ
فلا تَخَفْ فسوى الرحمن ليس له ... عينٌ وليس له التحكيمُ والأثَرُ
إليه يرجعُ أمرُ الخَلْقِ كُلِّهِمُ ... حتى القضاءُ وحتى الحكمُ والقَدَرُ
وهو الوجود الذي ما عنده ضَرَرٌ ... والشّرُّ ليس له في خلقه أثَرُ
فالشرُّ ليس إليه جلّ خالقُنا ... عنه بذا جاء عن أرساله الخَبَرُ

من عرف الضلالة والهدى لم يطل عليه المدى، وعلم أن الله لا يترك خلقه سدى كما لم يتركه ابتدا، وإن لم ينزله منازل السعداء، فإن الله برحمته التي وسعت كل شيء لا يسرمد عليه الردا، وكيف يسرمده وهو عين الردا؟ فهو في مقام الفدا، وإشارة سهام العدا، فله الرحمة آخراً خالداً مخلداً فيها أبداً، والله تعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والعشرون وأربعمائة

في معرفة منازلة من طلب الوصول إليّ بالدليل والبرهان لم يصل إليّ أبداً فإنه لا يشبهني شيء

[البسيط]

تَوْحِيدُ رَبِّكَ لا عن كَشْفِ بُرْهَانِ ... فَكُرْ فوَحْدَتُه لا تقبلُ الثاني
وكل من يقبل الثاني فمُتَّصِفٌ ... في حُكْمه بزيادات ونُقصانِ

وذاك واحـدُ أعـدادٍ فـيـقـبـلـه وواحـدُ الـعَـيْـن لا يُـدْرَى بـبُـرْهـانِ
من يقبل المثل قد حارت خواطرنا فـيـه وهـل رِيء سـرّ عـيـن إعـلان
إنّ الدليلَ على التركيب نَشأَتُه فكيف يعطي وحيد العين في الشَّانِ
يا بانياً عقده على الدليل لقد جَهِلْتَ أين أساس القصد يا باني
من كان ذا صِفَةٍ فأين وحدتُه المنزل القاصي ليس المنزل الدّاني
من الذي هو قَاصٍ في دلالتنا وقد أتَيْتُ على هذا بسُلْطانِ
الشَّرْعُ توحيدُه توحيدُ مرتبةٍ والحقُّ يَعْضُدُهُ من جانبٍ ثاني

قال الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] يعني من كل عين من أعين الوجوه وأعين القلوب، فإن القلوب ما ترى إلا بالبصر، وأعين الوجوه لا ترى إلا بالبصر، فالبصر حيث كان به يقع الإدراك، فيسمى البصر في العقل عين البصيرة، ويسمى في الظاهر بصر العين، والعين في الظاهر محل للبصر والبصيرة في الباطن محل للعين الذي هو بصر في عين الوجه، فاختلف الاسم عليه وما اختلف هو في نفسه، فكما لا تدركه العيون بأبصارها كذلك لا تدركه البصائر بأعينها، وورد في الخبر عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله احتَجَبَ عَنِ العُقُولِ كَمَا احتَجَبَ عَنِ الأبصَارِ وَإِنَّ المَلأَ الأَعْلَى يَطْلُبُونَهُ كَمَا تَطْلُبُونَهُ أَنْتُمْ**» فاشتركنا في الطلب مع الملأ الأعلى واختلفنا في الكيفية، فمنا من يطلبه بفكره والملأ الأعلى له العقل وماله الفكر، ومنا من يطلبه به وليس في الملأ الأعلى من يطلبه به لأن الكامل منا هو على الصورة الإلهية التي خلقه الله عليها وليس الملك عليها، فلهذا صح ممن هذه صفته أن يطلب الله به ومن طلبه به وصل إليه فإنه لم يصل إليه غيره، وأن الكامل منا له نافلة تزيد على فرائضه إذا تقرب العبد بها إلى ربه أحبه، فإذا أحبه كان سمعه وبصره، فإذا كان الحق بصر مثل هذا العبد رآه وأدركه ببصره لأن بصره الحق فما أدركه إلا به لا بنفسه، وما ثمّ ملك يتقرب إلى الله بنافلة بل هم في الفرائض، ففرائضهم قد استغرقت أنفاسهم فلا نفل عندهم، فليس لهم مقام ينتج لهم أن يكونوا الحق بصرهم حتى يدركوه به، فهم عبيد اضطرار، ونحن عبيد اضطرار من فرائضنا، وعبيد اختيار من نوافلنا، كما هو رب ذاتي من وجودنا ورب مشيئة من حكمه فينا، فالربوبية الذاتية ضرورية لا يمكن رفعها، وربوبية المشيئة عينها الإمكان في الممكنات فيرجح بها ما شاء، فمن لا مشيئة له لا ترجيح له، كمن لا نافلة لا يكون الحق بصره وإن أمكن خلاف هذا عقلاً، ولكن كلامنا في الواقع الذي أعطاه الكشف ما كلامنا في الجواز العقلي لأنه يستحيل عندنا أن ينسب الجوار إلى الله حتى يقال: يجوز أن يغفر الله لك، ويجوز أن لا يغفر الله لك، ويجوز أن يخلق ويجوز أن لا يخلق، هذا على الله محال لأنه عين الافتقار إلى المرجح لوقوع أحد الجائزين وما ثم إلا الله، وأصحاب هذا المذهب قد افتقروا إلى ما التزموه من هذا الحكم إلى إثبات الإرادة حتى يكون الحق يرجح بها ولا خفاء بما في هذا المذهب من الغلط، فإنه يرجع الحق محكوماً عليه بما هو زائد على ذاته وهو عين ذات أخرى، وإن لم يقل فيها صاحب هذا المذهب أن تلك الذات الزائدة عين الحق ولا غير عينه،

فالذي نقول به إن هذه العين المخلوقة من كونها ممكنة تقبل الوجود وتقبل العدم، فجائز أن تخلق فتوجد، وجائز أن لا تخلق فلا توجد فإذا وجدت فبالمرجح وهو الله، وإذا لم توجد فبالمرجح وهو الله يستقيم الكلام ويكون الأدب مع الله أتم بل هو الواجب أن يكون الأمر كما قلنا، وأما احتجاجهم بقوله: لو شاء الله ولو أراد الله، فهو عليهم هذا الاحتجاج لا لهم لزومية أن «لو» حرف امتناع لامتناع و«لا» حرف امتناع لوجود [الرمل]:

فانظُروا وُجُوبَهُ واعتَبِرُوا ... وهو نفْيٌ إن ذا سِرٌّ عَجِيبْ
مثل من يَدْعُو وما ثَمَّ لمن ... فهو يَدْعُو نَفْسَه ثم يُجِيبْ
وبهذا ورد النَّصُّ إلى ... كل ذي عقل سليم ونَجِيبْ
ولقد كان على مثل الذي ... جاءه يطوف دَهْراً ويَجُوبْ
مثل ذا زُرْتُ فَتًى من هاشم ... أصْلُه ما بين لَخْم وتَجِيبْ
واسْتَجِيبُوا للذي أسمعكم ... إنَّهُ المحرومُ من لا يَسْتَجِيبْ

فاعلم أن الإمكان للممكن هو حكم الذي أظهر الاختيار في المرجح، والذي عند المرجح أمر واحد وهو أحد الأمرين لا غير، فما ثم بالنظر إلى الحق إلا أحدية محضة خالصة لا يشوبها اختيار، ألا تراه يقول تعالى: لو شاء كذا لكان كذا فما شاء فما كان ذلك، فنفى عن نفسه تعلق هذه المشيئة، فنفى الكون عن ذلك المذكور، غير أن لله تعالى نسبتين في الحكم الواقع في العالم بالامتناع أو بالوقوع، فالنسبة الواحدة ما ظهر من العالم في العالم من الأحكام الواقعة والممتنعة بمشيئتهم أعني بمشيئة العالم التي أوجدها الله في العالم، والنسبة الأخرى ما يظهر من الأحكام في العالم لا من العالم، وذلك من الله بالوجه الخاص الذي لله في كل كائن الذي لا يعلمه إلا أهل الله خاصة، والمشيئة التي يشاء بها العالم من العالم مشاءة لله تعالى من الوجه الخاص ثم هي لله كالآلة للصانع ظاهرة التعلق منفية الحكم، فالعلماء بالله ينسبون الواقع بالآلة إلى الله، والذين لا علم لهم ينسبونها إلى الآلة، وطائفة متوسطة ينسبون إلى الآلة ما ينسب الحق إليها على حد علمه في ذلك، وينسبون الكل إلى الله أدباً مع الله وحقيقة، فهم الأدباء مع الله المحققين، وهم الذين جمعوا بين الشرع والعقل، والوجه الصحيح في العلم الإلهي لا يتمكن للعقل أن يصل إليه من حيث نظره لا بل ولا من جهة شهوده ولا من تجليه، وإنما يعلم بإعلامه على الوجه الذي يكون إعلامه لمن اختصه من صور عباده الظاهرة في وجوده، فإن العلم بالله من حيث النظر والشهود على السواء ما يضبط الناظر ولا المشاهد إلا الحيرة المحضة، فإذا وقع الإعلام الإلهي لمن وقع حيث وقع من دنيا وآخره حصل المقصود: [الوافر]

دلالاتُ الوُجُودِ على وُجُودي ... تُعارِضُها دلالاتُ الشُّهُودِ
فإنّ العين ما شهدتْ سواه ... بعين شهودها عند الوُجودِ
وأين الغير لم يثبت فيبدو ... مع التكثير من عين المَزِيدِ
عجبتُ لمن يعزُّ وقد تعالى ... ويظهر في المُراد وفي المُرِيدِ

لـقـد نـزلـتْ مـعـالـيـه وجـاءت بـأحـكـام الـدلائـل بـالـسُّـعـودِ
أمـن بـعـد الـنّـزولِ يـكـون مَـرَقًّـى وعَـيْـنُ نـزولـه عَـيْـنُ الـصُّـعُـودِ
إضـافـات الأمـور لـهـا احـتـكـامٌ فـكَـوْنُ الـرّبّ فـي كـون الـعَـبـيـدِ
فـلـولا الأصْـلُ مـا ظَـهَـرَتْ فُـرُوعٌ تـدلُّ عـلـى الأصـول مـن الـشّـهـيـد
لـقـد أظْـهَـرَتْ سِـرَّ الأمـر فـيـه لـكـل مُـثَـاقِـفٍ نَـدْبٍ جَـلِـيـدِ
صَـبُـورٍ لا يـقـاومـه صَـبُـورٌ عَـزيـزٍ فـي تـصـرُّفـه شَـدِيـدِ

فإن الدليل يعطي وجودي إذ ليس الدليل سوى عيني ولا عيني سوى إمكاني ومدلولي وجود الحق الذي إليه استنادي ونفي ما هو حق لي عمن إليه استنادي، والشهود ينفي وجودي لا ينفي حكمي فيمن ظهر فيه ما ينسب إليه أنه عيني وهو حكمي والوجود لله، فاستفدت من الحق ظهور حكمي بالصور الظاهرة لا حكم ظهور عيني، فيقال وما ثم قائل غيري إن هذه الصور الظاهرة في الوجود الحق التي هي عين حكمي أنها عيني هذا يعطيه الشهود، فالشهود يعارض الأدلة النظرية والخلق لله يعلمه وعلمه ليس سوى ما أعطاه ما أنا عليه في عيني، وليس في البراهين أصح من برهان إن وهو عند القائلين بالبراهين البرهان الوجودي، وليس يدل شيء منه على معرفة هوية الحق وغايته وعلمه بنسبة الوجود إليه وأن عينه عين وجودي ونفى ما يستحقه الحادث عنه غير هذا لا يعرف منه بالبرهان وساعده الشرع وهو ما أوحى به إلى الرسول المترجم عنه الذي أخبر عنه أنه لا ينطق عن الهوى، وأنزله في الكون منزلته فما نطقه به مما يساعد النظر الفكري: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وهو من الكلام الظاهر الذي يمكن أن يكون له وجه غير الوجه الذي يضبطه العقل منه، ويكون له الوجه الذي يضبطه العقل منه، وما ورد السمع بأقوى من هذه الدلالة مع هذا الاحتمال الذي فيها [المتقارب]:

أصَـحُّ الـبـراهـيـن بـرهـان أن ولـيـس يُـريـكَ مـن الـحـقّ عَـيْـنَـا
فـفـي الـحق يـعـطـيـك نـفـيـاً وسَـلْـبـاً وفـيـمـا عـدا الـحـقّ يـعـطـيـك كَـوْنَـا
ويَـنْـفـي نُـعُـوتـاً أتـاك الـقـرآن بـهـا مـثـلُ قَـوْل الـمـشـرِّع أيْـنَـا
ويـأتـي بـه عـلـمـاً ظـاهـر يُـريـد بـذلـك حـفـظـاً وصَـوْنَـا
وعِـلْـمُ الإلٰـه بـمـا قـالـه أصـحُّ دلـيـل وأقـواه بَـيْـنـا
تُـحِـيـلُ الـعـقـولُ بـبـرهـانـهـا وُجُـودَ الـذي سـاقـه الـشـرعُ عَـوْنـا
ويـقـبـلُـه كـلُّ عَـقْـل سـلـ ـيم ويـكـسـوه حـمـداً فـيـكـسـوه زَيْـنَـا

ولما كان الدليل النظري مثلنا في المعنى مربعاً في الظاهر والتثليث فرد والتربيع شفع لذلك لم يعلم من الحق إلا فردية المرتبة ولم تعلم إلا بالخلق، فارتبط الحق بالخلق والخلق بالحق ارتباط التربيع بالتثليث والتثليث بالتربيع في المقدمتين اللتين أعطت العلم بتوحيد الله في ألوهيته، فانظر إلى حكم الحقائق كيف اقتضت في الأدلة أن تكون على هذه الصورة، فضم الوجود حقاً وخلقاً وواجباً لنفسه وواجباً لغيره [الكامل]:

إنّ الـدلـيـلَ مُـثَـلَّـثُ الأرْكَـانِ كـالـبَـيْـت وهـو مُـرَبَّـعٌ مَـخْـسُـوسُ
وكـذلـك الـحَـقُّ الـذي دَلَّـتْ عـلـيـ ـه الـكـائـنـات يُـبِـيـنُـهُ الـتَّـقْـديـسُ
حَـظُّ الـدلـيـل مـن الإلـه وجـودُه مـا حَـظُّـهُ الـترجـيـلُ والـتـعـريـسُ
إنْ قُـلْـتَ إنّ الـحَـقَّ عـنـك مُـنَـزَّهٌ فـدلـيـلُ شَـرْعِ أنـه مـلـمـوسُ
ومُـنَـزَّهٌ أيـضـاً بـشَـرْعِـكَ فـاعْـتَـبِـرْ فـي الـحـالـتـين فَـعَـقْـلُـكَ المبخوسُ
إن جـاء كَـرْبُ الـفِـكْـرِ مـن تـنـزيـهـه يـتـلـوه مـن رحـمـاتـه الـتـنـفـيـسُ
لله عـيـنٌ فـي الـمـراتـب كـلّـهـا تَـثْـلِـيـثٌ أوْ تَـرْبِـيـعٌ أوْ تـسـديـسُ
فـإذا أراد الله حِـفْـظَ وجـوده فـي قـلـبـكـم يـأتـي بـه الـتـخـمـيـسُ
الـحـقُّ يـحـفـظ نـفـسَـه وعـبـادَه كـالـخـمـس والـعـشـريـن يـا مرؤوسُ
فـإذا أتَـيْـتَ بـخـمـسـةٍ مـضـروبـةٍ فـي خـمـسـة قـد زال عـنـك الـبُـوسُ
ولَـحِـقْـتَ بـالـمـلأ الـمـقـدَّس كـونـه وتَـعَـيَّـنَ الـتـأصـيـلُ والـتـأسـيـسُ
ودُعِـيتَ فـي الـمَـلأَيْـنِ إن حَـقَّـقْـتَ مـن يـدعـوك يـا مـن غَـرَّهُ إبـلـيـسُ
أنـت الـمُـقَـدَّمُ فـي الـوجـود كـآدم فـي كـونـه سَـبْـقـاً فـأنـت رئـيـسُ

أراد بالبيت في هذا النظم المشبه به الكعبة فإنها ذات ثلاثة أركان مثلثة الشكل ولهذا جعل الحجر، فلما اقتطع من البيت مقدار سبعة أذرع حجروا عليها بالحجر حتى يصح الطواف بالبيت، فإنه صح عن رسول الله ﷺ أن الكعبة لما بنيت قصرت بهم النفقة فتركوا من البيت سبعة أذرع في الحجر، ولهذا ردها عبد الله بن الزبير على قواعد إبراهيم عليه السلام، فأمر عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف أن يردها على ما كانت عليه أولاً ثم ندم وقال: يا ليتني تركت ابن الزبير وما تحمل، ثم ترك الأمر وأدار الحجر كما كان احتراماً للبيت لئلا يتعرض إليه بالهدم في كل وقت من الخلفاء على ما يعطيهم في ذلك فأبقاه سداً لهذه الذريعة فاعلم ذلك. أما تثليثه ليكون على اثنتي عشرة قاعدة كل ثلث من العلم بالله فالثلث الواحد من العلم بالله هو ما يعلم من الله بالدليل، والثلث الآخر ما يعلم منه سبحانه بالشهود عند التجلي، والثلث الثالث هو ما يعلم منه بإعلامه سبحانه وهو أصح الأقسام في العلم بالله وتفصيل قواعده يطول، وقد أحلناك في العلم بها عليه سبحانه لتدرك ذلك ذوقاً إن شاء الله تعالى، وعن هذه القواعد ظهرت بروج الفلك وهي الحمل، والثور، والتومان، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدالي، والحوت، ثلاثة منها نارية وهي: الحمل، والأسد، والقوس، وثلاثة ترابية وهي: الثور والسنبلة، والجدي، وثلاثة هوائية وهي: الجوزاء وتسمى التومان، ثم الميزان والدالي، وثلاثة مائية هي: السرطان، والعقرب، والحوت، فهي أربع مراتب مضروبة في ثلاثة المجموع اثنا عشر وهو انتهاء أسماء العدد من جهة بسائطه، ثم يقع التركيب إلى ما لا يتناهى، فمن واحد إلى تسعة والعقد ثلاثة عشرات ومئون وآلاف فالمجموع اثنا عشر، وأما التسديس من ذلك فالتثليث نصفه فهما طرفان التسديس وهو الأكثر، والتثليث وهو الأقل، والمتوسط بين التثليث

والتسديس التربيع كل ربع تسعة وهي منتهى بسائط مفردات العدد في الآحاد، فللتسعة نظر إلى الاثني عشر ونظر إلى الستة والكل ست وثلاثون قاعدة أمهات، وتنتهي إلى ثلاثمائة وستين قاعدة منها ظهر درج الفلك التي الكواكب تقطعه بسيرها، وقد ربط الله ما يحدثه في عالم الأركان بقطع هذه الكواكب في هذه القواعد على كثرة الكواكب، وأما ما يحدثه في عالم الجنان دون النار والدنيا فبما تعطيه القواعد بحركتها إلا بما يعطيه قطع الكواكب في هذه القواعد، ولذلك اختلف الحكم فيما يتكون في الجنة وما يتكوّن في الدنيا والنار، فما في الجنة مانع يمنع ما تعطيه حركة القواعد وفي الدنيا والنار موانع تمنع ما في قوّة القواعد من التكوين، وهذه الموانع عين قطع الكواكب في تلك القواعد [الكامل]:

ما أن أَقُولَ ولا سَمِعْتُ بمثله ... من ناظرٍ في الله بالبُرْهانِ
أنّ الإلٰهَ يراه وهو مُنَزَّهٌ ... بدليله في صورة الإنسانِ
إلا الذي قال الدليلُ بفَضْلِه ... وبعِلْمِه من عالَم الأرْكانِ
ذاك الرَّسُولُ وكُلُّ وارثِ حِكْمةٍ ... من كل معصوم من الشيطانِ
الفكرُ يعجزُ عن تَحَقُّق عِلْمِهِ ... بالله حين يَجُولُ في الأكْوانِ
ما للجَهالة في الذي جاءت به ... أقوالُه في الله من سُلْطانِ
فَهْوَ الوجودُ وما سواه باطلٌ ... في كل ما يبدو من الأعيانِ

فقد بان لك إن كنت من أهل الأذواق بالعلم بالله أنه لا يعلم إلا بإعلامه سبحانه وتعالى، وكل من قال إنه عز وجل يعلم بالدليل أو بالشهود فإنه يضرب في حديد بارد من جميع العلماء الناظرين في العلم بالأشياء بالدليل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والعشرون وأربعمائة

في معرفة منازلة من ردّ إليّ فعلي فقد أعطاني حقي وأنصفني مما لي عليه

[البسيط]:

إني رأيتُ وجوداً لستُ أدريهِ ... وهو الوجودُ الذي أعيانُنا فِيهِ
الفعلُ بيني وبين الحق مشتركٌ ... فيما يُظَنُّ وفيه بعضُ ما فيهِ
إني سمعتُ كلاماً غير منقطع ... فينا وفي عالم الأكوان مِنْ فِيهِ
بسَمْعه لا بسَمْعي أنَّني عَدَمٌ ... وقد تَوَجَّهَ حَقٌّ ما نُوَفِّيهِ
له وكيلٌ على من لا وجود له ... يُبْلِيهِ وقتاً وفي وقت يُعافيهِ
ولا يزال به ما دام مُتَّصِفاً ... بالكون في عينه حتى يُوافِيهِ
على نَقيضِ مقامٍ ليس يعرفُه ... وليس في نفسه أمرٌ يُنافيهِ
أنا وإيَّاه موجودان في قَرَنٍ ... ولا يزال عَدُوِّي أو نُصافيهِ
فالأمرُ مفترقٌ والأمرُ مجتمعٌ ... والجودُ لا يبدو إلا من مُكَافِيهِ
إني رمزتُ أموراً ليس يعرفُها ... إلا الذي قيل فيه إنّه فيهِ

وليس يعلم ما أُبْدِيهِ من عجب إلا الوجودُ الذي حار الورَى فيه
فالحمد لله لا أبغي به بدلاً وليس يَدْرِيه إلا من يُكافيه

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] وقال لنبيه ﷺ في رميه التراب في أعين المشركين: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] وقال: ﴿بَل لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١] فعهد تعالى إليّ أن الفعل الذي يشهد به الحس أنه للعبد هو لله تعالى لا للعبد، فإن أضفته لنفسي فإنما أضيفه إلى نفسي بإضافة الله لا بإضافتي، فأنا أحكي وأترجم عن الله به وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] فردّ الفعل الذي أضافه إليّ إلى نفسه وهو حقه الذي له قبلي بهذه الإضافة ولكن لا بدّ من ميزان إلهي نردّه به إليه فإن الله تعالى لما رفع السماء وضع الميزان في سباحة الكواكب في أفلاكها التي هي طرق في السموات لتجري بالمقادير الكائنة في العالم على قدر معلوم لا تتعداه فهي تعطي وتمنع بذلك الميزان الذي وضع الحق لها لأنها تشاهد الميزان الذي بيد الحق حين يخفض به ويرفع، فإذا نظرت إلى من رفعه الحق بميزانه أعطته ما يستحقه مقام الرفع، وإذا رأت الحق يضع بميزانه من شاء أعطته ما يستحقه مقام الوضع وذلك هو التسخير الذي ورد في القرآن في النجوم أنها مسخرات بأمره، فتعلم أن المكلفين هم المقصودون بالخطاب والتكليف فإنهم محل العقاب والثواب بخلاف سائر المخلوقين، وذلك للحجاب الذي ضرب الله بينهم وبين مشاهدة الأمور منهم ومن سائر المخلوقات أنها لله لا لهم فلما ادعوها أضافها الحق إليهم بحسب دعواهم وكلفهم ابتلاء منه لدعواهم، فمن كشف الله عن بصيرته ورأى الأفعال كلها لله لم ير إلا حسناً منه ومن سائر المخلوقات وأن الله هو الصادق فقال: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] فطلبنا على الإحسان ما هو فورد في الخبر الصحيح: أن الإحسان هو أن نعبد الله كأنا نراه فنشرع في العمل على الحجاب فإذا رأينا المعمول له رأينا العمل صادراً منه فينا ما نحن العاملين، فلما رأينا هذا خفنا من مزلة القدم فيما سماه من أفعاله حسناً وسيئاً، وعلمنا أنه ما أضاف العمل إلينا إلا لدعوانا في الأفعال أنها لنا، فإذا حصلنا في هذا المقام من الشهود فما كان من حسن أضفناه إليه تعالى خلقاً فينا، وأضفناه إلينا من كوننا محلاً لظهوره، وإن كان سيئاً ذلك العمل أضفناه إلينا بإضافة الله فنكون حاكين قول الله فيرينا الله حسن ما في ذلك المسمى سوءاً فبدل الله سيئاتنا حسنات وما هو إلا تبديل الحكم لا تبديل العين. ثم إنّ جميع ما طرأ منا في هذا كله من نظر ورد واحد فهو بهذه المثابة فإن ذلك كله فعل ظهر فينا ونحن أهل شهود، فليس لنا إلا الاستعداد الذي نحن عليه لقبول ما يخلق فيه من الأفعال المنسوبة في الشهود كما هي في سائر المخلوقات عند المخلوقات الذين يقولون مطرنا بفضل الله ورحمته بالوزن الذي جعله في سباحة كوكب من الكواكب وما قدره الله له من المنازل التي ينزل فيها، والمحجوب عن هذا المقام يقول: مطرنا بنوء كذا وكذا فيذكر الكوكب المجبور في ذلك ويضيف ما ظهر من المطر الصائب إليه كما يضيف أفعاله خلقاً إلى نفسه فسمي عند ذلك بأنه كافر بالله مؤمن

بمن رأى الفعل منه، ويسمى الأوّل مؤمناً بالله كافراً بمن رأى الحس الفعل صادراً منه من حيث ما هو محل، ومن المكلفين من ليس له هذا الشهود ولا تركه الإيمان يقف مع الحجاب الذي على عينه فيقول مثل ما يقول صاحب الشهود: مطرنا بفضل الله ورحمته تقليداً لا علماً حتى يتميز المؤمن من العالم، فإن المؤمن يقول ذلك لورود الخبر الصادق به، ويقوله صاحب النظر لما يعطيه دليل عقله مثل المؤمن سواء إلا أن له درجة زائدة، وهذان الصنفان لا يبلغان مبلغ صاحب الشهود في الدرجة فإنه يزيد عليهما بالعين، وكذل يشاهد أفعال الحق في نفسه كما يعلمها صاحب النظر كما يؤمن بها المقلد للخبر وكل له مقام معلوم، ولكن لا يستوي الذي يعلمون والذي لا يعلمون، فإن الحق لو رجع في التعريف عن إضافة هذه الأفعال إليه تعالى وكفر من أضافها إليه تعالى لرجع المؤمن لرجوع الحق عقداً وقولاً، ورجع العالم صاحب الشهود قولاً لا عقداً فإنه لا يتمكن لصاحب الدليل إذا استحكم الرجوع عنه ولا لصاحب الشهود. وإذا كان هذا هكذا فلا بدّ من التمييز بين المؤمن العالم والمؤمن، فقد بينا لك صورة الميزان والوزن وأن الوزن نعت إلهي لا ينبغي لعبد من عباد الله أن يغفل عنه في كل فعل ظاهر في الكون من موجود ما من الموجودات فلا يزال مراقباً له في غيره فيحكم عليه بالميزان الموضوع عنده وليس إلا الشرع، وأما مراقبته في نفسه فبخلاف ما يرقبه في غيره فإنه لا يشهده من غيره إلا بعد ظهوره ووقوعه في الوجود من هذا الشخص، وأما في نفسه فيرقب خاطره فإنه أوّل ما يوجده الله في خاطره وقلبه وقد عفا عنه تعالى فيما يجده من ذلك إلا بمكة. فإذا راقبه ورأى أن الله قد جعل فيه قصد إظهار أمر ما فإن كان من الأفعال المقرّبة إلى سعادته الأخروية المحبوبة إلى الله المثني عليه هيأ محله لقبول ما يفعل الله به من ذلك فيظهر الفعل وله الأجر من حيث ما هيأ نفسه واستعد والكل من عند الله، وإن كان مما ذمه الله شرعاً فلا يهيىء نفسه لظهور ذلك الفعل جهد الطاقة، فإذا كان ذلك الفعل من المقدر عند الله وقوعه في هذا المحل سلب الله عن هذا العبد عقله ولم يعطه الاختيار وأعماه حتى يظهر ذلك الفعل في محله، فإذا ظهر بحكم هذا الجبر الباطن ردّ الله إليه عقله فاعتبر واستغفر ربه وخر راكعاً وأناب، وهذا معنى قوله عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ إذا أَرَادَ إنْفَاذَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ سَلَبَ ذَوِي العُقُولِ عُقُولَهُمْ حَتَّى إذا أَمْضَى قَدَرَهُ فِيهِمْ رَدَّهَا عَلَيهِمْ لِيَعْتَبِرُوا**» وأما الغافل الجاهل فحكمه ما هو المقرر في العموم وأما قولنا لا بمكة فإن الشرع قد ورد أن الله يؤاخذ بالإرادة للظلم فيها، وهذا كان سبب سكنى عبد الله بن العباس بالطائف احتياطاً لنفسه، فإن الإنسان ما في قوته أن يمنع عن قلبه الخواطر، فمن لم يخطر الحق له خاطر سوء فذلك هو المعصوم ومن له بذلك، ولقد رأيت من هذه صفته وهو سليمان الدنبلي رحمه الله كان على قدم أبي يزيد البسطامي أخبرني عن نفسه على جهة إظهار نعمة الله عليه شكراً وامتثالاً لأمر الله حيث قال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] فقال لي: إن له خمسين سنة ما أخطر الله له في قلبه خاطر سوء، فهذا من أكبر العنايات الإلهية بالعبد قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] فنكر الظلم فخاف مثل ابن عباس وغيره، والإلحاد

الميل عن الحق هنا. وأما الميزان الموضوع الذي يظهر لكل عين يوم القيامة يظهر على صورة ما كان في الدنيا بين العامة من الاعتدال وترجيح إحدى الكفتين فيعامل الحق صاحب ذلك الميزان بحسب ما يحكم به من الخفة والثقل فجعل السعادة في الثقل، والإنس والجن ما سميا بالثقلين إلا لما في نشأتهما من حكم الطبيعة فهي التي تعطي الثقل، ولما كان الحشر يوم القيامة والنشور في الأجسام الطبيعية ظهر الميزان بصورة نشأتهم من العقل، فإذا ثقلت موازينهم وهم الذين أسعدهم الله فأرادوا حسناً وفعلوا في ظاهر أبدانهم حسناً فثقلت موازينهم فإن الحسنة بعشر أمثالها إلى مائة ألف مما دون ذلك وما فوقه. وأما القبيح السيئ فواحدة بواحدة فيخف ميزانه أعني ميزان الشقي بالنسبة إلى ثقل السعيد.

واعلم أن الحق تعالى ما اعتبر في الوزن إلا كفة الخير لا كفة الشر فهي الثقيلة في حق السعيد الخفيفة في حق الشقي مع كون السيئة غير مضاعفة ومع هذا فقد خفت كفة خيره فانظر ما أشقاه، فالكفة الثقيلة للسعيد هي بعينها الخفيفة للشقي لقلة ما فيها من الخير أو لعدمه بالجملة مثل الذي يخرجه سبحانه من النار وما عمل خيراً قط، فميزان مثل هذا ما في كفة اليمين منه شيء أصلاً، وليس عنده إلا ما في قلبه من العلم الضروري بتوحيد الله، وليس له في ذلك تعمل مثل سائر الضروريات، فلو اعتبر الحق بالثقل والخفة الكفتين كفة الخير والشر لكان يزيد بياناً في ذلك، فإن إحدى الكفتين إذا ثقلت خفت الأخرى بلا شك خيراً كان أو شراً، وأما إذا وقع الوزن به فيكون هو في إحدى الكفتين وعمله في الأخرى فذلك وزن آخر، فمن ثقل ميزانه نزل عمله إلى أسفل فإن الأعمال في الدنيا من مشاق النفوس والمشاق محلها النار فتنزل كفة عمله تطلب النار وترتفع الكفة التي هو فيها لخفتها فيدخل الجنة لأن لها العلو، والشقي تثقل كفة الميزان التي هو فيها وتخف كفة عمله فيهوي في النار وهو قوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩] فكفة ميزان العمل هي المعتبرة في هذا النوع من الوزن الموصوفة بالثقل في السعيد لرفعة صاحبها والموصوفة بالخفة في حق الشقي لثقل صاحبها وهو قوله تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ﴾ [الأنعام: ٣١] وليس إلا ما يعطيهم من الثقل الذي يهوون به في نار جهنم فهما وزنان: وزن الأعمال بعضها ببعض يعتبر في ذلك كفة الحسنات، ووزن الأعمال بعاملها يعتبر فيها كفة العمل، فمن أراد أن يفوز بلذة الوجود فليعطِ الحق من نفسه لمستحقه، والله عز وجل يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والعشرون وأربعمائة

في معرفة منازلة من غار علي لم يذكرني

[البسيط]:

قَلْبي على كل حالٍ في تَقَلُّبِهِ ... من واحدِ العَيْنِ لا كُثْرٌ ولا عَدَدُ
إذا تَنَزَّلَتِ الأسماءُ منه على ... منازل القلب لم يشعر بها أحَدُ
مجهولةُ العَيْنِ ما يَنفَكُّ صاحبُها ... في حَيْرةٍ ما لها نَقْصٌ ولا أمَدُ

إن قلتُ إني وحيدٌ قال لي جسدي | أليس مَرْكَبَكَ التركيبُ والجَسَدُ
فلا تَقُولَنَّ ما بالدار من أحدِ | فالدار معمورة والساكن الصَّمَدُ
وليس تَخْرُبُ دارٌ كان ساكنُها | من لا يقوم به غِلٌ ولا حَسَدُ

قال الله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢] عن الوفاء بالعهد، فإنا عهدنا إليهم أن يذكروني فأنفوا أن يذكروني إلا على طهارة كما قال ﷺ: «**إنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَذْكُرَ الله إلاَّ عَلَى طُهرٍ**»، أو قال: «**عَلَى طَهَارَةٍ**» ورأوا هؤلاء نفوسهم غير طاهرة لما فيها من الدعاوى في الخير الذي قام بهم من عند الله فينسبونه لأنفسهم وما أعطوا الله حقه من رد ذلك إليه كما فعل القليل من عباده إلى غير الدعاوى من الأمور التي لا تتصف النفوس بوجودها بالطهارة، فهؤلاء غاروا أن يذكروا الله وهم الذين يذكرون الله سراً في نفوسهم، وأما الذين يذكرونه علانية فإنهم شاهدوا قلوب العامة في غاية من الغفلة عن الله فقالوا: إذا ذكرنا الله فيهم ذكروه فإنهم إذا سمعوا ذكر الله لم يتمكن لهم إلا أن يذكروه فيذكرونه بقلوب غافلة عما يجب لله من التعظيم، فإذا كان مشهدهم هذا غاروا على الله فلم يذكروا وكان منهم الشبلي في أول حاله وغيره فما وفى هؤلاء بعهد الله ولا كانوا على معرفة من الله، وهذا حال أكثر أهل الطريق ولا سيما أهل الورع منهم، فخرجوا بهذا عن العهد الذي عهد إليهم الله من ذكره في قوله: ﴿ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١] وما قيد حالاً من حال وهو قوله عليه السلام: «**الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**» فإن القلب وإن غفل عن الذكر الذي هو حضوره مع المذكور فإن الإنسان من كونه سميعاً قد سمع ذكر الله من لسان هذا الذاكر فخطر بالقلب ووعى ما جاء به هذا الذاكر ولم يجيء إلا بذكر اللسان الذي وقع بالسمع فجرد له هذا القلب ما يناسبه من الذاكرين منه وهو اللسان فذكر الله بلسانه موافقة لذكر ذلك الذاكر المذكر له، والقلب مشغول في شأنه الذي كان فيه مع أنه لم يشتغل عن تحريك اللسان بالذكر فلم يشغله شأن عن شأن، فما ذكر أحد الله عن غفلة قط وما بقي إلا حضور باستفراغ له أو حضور بغير استفراغ بل بمشاركة، ولكن زمان أمره اللسان بالذكر ما هو زمان اشتغاله بغيره، فما ذكره غافل قط أي عن غفلة في حال أمر القلب اللسان بالذكر إلا في حال ذكر اللسان، ثم إن اللسان قد وفى حقه في العلانية من الذكر فإنه من الأشياء المسبحة لله، فمن غار على الله لم يعرفه وإنما يغار له لا عليه. وأما أهل هذه المنازلة فإنهم غاروا على الله أن يذكره غيره وهم أهل الدعاوى في الذكر وهم يشهدون أن الله هو الذاكر نفسه بلسان عبده فذكروه وهم يعلمون أنهم ما ذكروه مثل قوله: إن الله قال على لسان عبده سمع الله لمن حمده وهو من جملة الذكر، فرأوا أن الحق لسانهم في الذكر فلم يذكروه بهذا الشهود فصحت المنازلة بقوله: من غار عليّ لم يذكرني لأنه عرف من الذاكر ومن المذكور فصار بمعزل عن الذكر في نفس الذكر ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] ثم إن الأسماء الإلهية ما كثرها الله إلا لاختلاف الآثار الظاهرة في الكون، فإذا ذكره العارفون بالأسماء جعلوا الذكر لاسم ما من الأسماء، وجعلوا المذكور اسماً ما من الأسماء فكانت

الأسماء يذكر بعضها بعضاً فذلك الذكر ألسنة الأسماء ونحن وسائط فما ذكرناه إلا به ومن ذكرته به فلم تذكره، ألا ترى ذكر من أنعم الله عليه إذا ذكره بنعمته فذلك لسان نعمته وأنت من نعمته فما ذكره إلا إحسانه لا أنت، فمن غار على الله لم يذكره مع أنه أكثر عباد الله ذكراً بالصورة ولا ذكر له بالحقيقة فهو عبد حق لأنه الذاكر الصامت، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والعشرون وأربعمائة

في معرفة منازلة أحبك للبقاء معي وتحب الرجوع إلى أهلك فقف حتى أتشفى منك وحينئذٍ تمر عني قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] فهو المحب المحبوب

[الخفيف]:

مَـنْ أحـبَّ الـفَـنَـا أحَـبَّ لـقـائـي ... مـن أحَـبَّ الـبَـقَـا أحَـبَّ الـرجـوعـا
لـيـس يـبـقـى مـع الـشـهـود وجـودٌ ... فـترى الـكَـوْنَ في الـشـهـود صَـرِيـعَـا
كـل حُـبٍّ يـكـون فـيـه اشـتـيـاقٌ ... أوْدَعَ الـحَـقُّ فـيـه مَـغْـنًـى بَـدِيـعَـا
فـإذا الله قـال إنـي مُـحِـبٌّ ... فـتَـرانـي أصـغـي إلـيـه سـمـيـعـا
ويـقـول الـفـؤادُ فـي الـسّـرّ مـنـي ... إنْ يـكـن مـا يـقـول كـان مُـطـيـعـا
إن لله فـي الـوجـود عُـلُـومـاً ... لـيـس تُـعْـطَـى لـمـن يـكـون مُـذِيـعَـا

اعلم أيدنا الله وإياك أن للحق حكمين: الحكم الواحد ما له من حيث هويته وليس إلا رفع المناسبة بينه وبين عباده. والحكم الآخر هو الذي به صحت الربوبية الموجبة للمناسبة بينه وبين خلقه وبها أثر في العالم الوجود وبها تأثر مما يحدث في العالم من الأحوال، فيتصف الحق عند ذلك بالرضا والسخط وغير ذلك، وللعالم حكمان: حكم به صحت المناسبة بينه وبين الحق وبها كان العالم خلقاً لله ومنسوباً إليه أنه وجد عنه فارتبط به ارتباط منفعل عن فاعل، ولهذا الحكم لم يزل العالم مرجحاً في حال عدمه بالعدم وفي حال وجوده بالوجود، فما اتصف بالعدم إلا من حيث مرجحه، ولا بالوجود إلا من حيث مرجحه، والحكم الآخر هو من حيث هويته وحقيقته لا نعت له من ذاته كما قلنا في الحق في حكم رفع المناسبة ليصح قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] في جناب الحق من حيث هويته، ومن جناب العالم من حيث هويته، والمناسبات أحدثت النعوت من حيث النسب لا من حيث إنها أعيان وجودية [الطويل]:

فـمـا ثَـمَّ إلا الـحَـقُّ والـحَـقُّ فـاعـلٌ ... ومـا ثَـمَّ إلا الـخَـلْـقُ والـخَـلْـقُ مُـنْـفَـعِـلْ

فلما وقعت المناسبة بين الله وبين العالم صح أن يقول: يحبهم ويحبونه، فالحق محب محبوب، فمن حيث هو محب ينفعل لتأثير الكون، ومن حيث هو محبوب يبتلي، والعالم أيضاً محب لله محبوب لله، فمن حيث هو محب لله يبتلى لأجل الدعوى فيفتضح صاحب الدعوى الكاذبة ويظهر صاحب الدعوة الصادقة، ومن حيث إنه محبوب يتحكم على محبه

فيدعوه فيستجيب له ويرضيه فيرضى ويسخطه فيعفو ويصفح مع نفوذ قدرته وقوّة سلطانه إلا أن سلطان الحب قويّ كما قال الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد [الكامل]:

مَـلَـكَ الـثَّـلاثُ الآنـسـاتُ عـنـانـي وحَـلَـلْـنَ مـن قـلـبـي بـكـلّ مـكـانِ

مـا لـي تـطـاوعـنـي الـبَـرِيَّـةُ كـلُّـهـا وأطـيـعـهـنَّ وهُـنَّ فـي عِـصْـيـانـي

مـا ذاك إلا أن سـلـطـانَ الـهَـوَى وبـه قَـوِيـنَ أعَـزُّ مـن سُـلْـطـانـي

ومع وجود المناسبة بين الإنسان وبين العالم وأهله من العالم فلم يحب الرجوع إلى أهله من أحبه منهم مع كونهم محبوبين لله إلا لكون الله قد عين لأهله حقاً على هذا الشخص فيحب الرجوع إلى أهله ليؤدي إليهم حقوقهم التي أوجبها الله لهم عليه لا لغرض نفسي ولا لمناسبة كونية. ولما علم الله أن مثل هؤلاء ما رجعوا إلا امتثالاً لأوامره تعالى ووقوفاً عند حدوده لئلا يتجاوزوها ويتعدوها قال لمن هذه صفته، قف حتى أتشفى، وهو قوله ﷺ: «**لِي وَقْتٌ لا يَسَعُنِي فِيهِ غَيرُ رَبِّي**» فهو لله في ذلك الموطن ليس لنفسه ولا لشيء من خلقه، وسامحه الحق في رجوعه إلى أهله من هذا المقام لكونه ما يرجعه إلا حق الله الذي افترضه عليه لمن رجع إليه من أهله بأنه يخاف فوت الوقت فيشهد له هذا الطلب للرجوع بأنه صادق الدعوى في محبته ربه تعالى لهذا قال: وحينئذٍ تمرّ عني وهو لا يمر عنه إلا من حيث هذا المقام فإنه بعينه حيث كان، قال تعالى في مثل هذا المقام الذي يقتضي الصبر عن الله من حيث هذا المشهد الخاص: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨] برجوعك لأداء هذه الحقوق ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] لعلمه بأنه محب والمحب يتألم للفراق والاشتغال بشهود الغير ولما سمعت في هذه المنازلة قوله حتى أتشفى منك ثقل عليّ لقلة معرفتي بالحق في حال هذه المنازلة، فلما علم أنه قد شق مثل هذا عليّ آنسني بغيري في هذا الحكم فوقفني على قوله ﷺ عن الله إنه أشد شوقاً إلى لقاء أحبابه منهم إليه فإنه تعالى أعلم بهم منهم به، وعلى قدر العلم يكون الشوق مع علمي أن مثل هذه الأمور إنما هي ألسنة المقامات والأحوال وأحكامها وأحكام الأسماء وهذا معنى قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] ولا يحشر إليه إلا من ليس عنده من حيث هذا الاسم الخاص وهو عنده من حيث حكم اسم آخر غير هذا الاسم، فمن عرف الحق بمثل هذه المعرفة لم يكبر عليه ما يسمعه عن الله من كل ما هو نعت المخلوق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والعشرون وأربعمائة

في معرفة منازلة من طلب العلم صرفت بصره عني

[الخفيف]:

طـالـبُ الـعِـلْـمِ لـيـس يـدركُ ذاتـي بـدلـيـلٍ لـكَـوْنِ ذاك مُـحَـالاَ

فـتَـراه يَـرانـي فـي كـل عـيـنٍ وتـرانـي أُبْـدِيـهِ حـالاً فـحَـالا

فـيـرى نـفـسَـه ولـيـس سِـوَائـي والـهُـدى لا يـكـون قَـطُّ ضَـلالا

قد رفعنا أبصارَنا لشموسٍ أحرقتْ أوْجُهاً فكانت ظِلالا
فإذا ما يقولُ ربُّك - فاعلمْ - إنَّني واحدٌ عليك أحَالا

قال الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] التقدير فإذا ما يقول ربك إنني واحد فاعلم أنه عليك أحال اعلم أن العلم الدليليّ البرهاني يقضي برفع المناسبة بين العالم وبين هوية الحق وأن لا رؤية من وراء إلا بمناسبة بينه وبين المرئي فالحق لا يراه غير نفسه من حيث هويته، فصاحب هذا العلم في حال شهوده ورؤيته ربه يحكم أنه ما رآه وحكمه صحيح ورؤيته صحيحة فلهذا قال: صرفت بصره عني، فإذا صرف بصره عنه كان الحق بهويته بصراً لهذا العبد فإذا رآه بهذه الحال يكون ممن رأى الحق بالحق والرائي عبد والمرئي حق والمرئيّ به حق، وهذه أكمل رؤية تكون حيث كانت. وقد ورد في الصحيح أن العبد يحصل له هذا المقام في الحياة الدنيا وفي هذه النشأة التي تفارقها النفس المطمئنة الناطقة بالموت فقال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فكثر وجمع فإنها أبصار الكون ولم يقل: لا يدركه البصر وإن كان جمع قلة ولكن على كل حال هو أكثر من بصر، قال الشاعر في جمع القلة [البسيط]:

بأفْعُلٍ وبأفعالٍ وأفْعِلَةٍ وفِعْلَةٍ يُجْمَعُ الأدنى من العَدَدِ

فأفعل مثل أكلب، وأفعال مثل أبصار، وأفعلة مثل أكسية، وفعلة مثل فتية، ولما كانت هويته أحدية الوصف لم يكن فيها كثرة وهي بصره في كل مبصر، فهو وإن تعددت ذوات المبصرين فالبصر واحد من الجميع إذ كان البصر هوية الحق فيصح أن البصر عند ذلك يدركه لأنه ليس غيره فهو الرائي والمرئيّ به والمرئيّ، فإن الحقيقة المنفية في هذه الآية في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أن الأبصار هنا معان يدرك بها المبصرات ما هي تدرك المبصرات بخلاف ما هنا فإنه إذا كان عين الحق عين بصرك فيصح أن يقال في مثل هذا يدركه البصر فينسب الإدراك إليه مع صحة كونه بصراً للعبد، فتفطن لهذه المسألة فإنها نافعة جداً وتعلم من ذلك أن لله عباداً عجل لهم رؤيته في الدنيا قبل الآخرة، ولله عباداً أخر لهم ذلك، ولله عباداً لا يرونه إلا بأبصارهم في الآخرة وينزلون عن رتبة هؤلاء في الرؤية، ولله عباداً يرونه في الدنيا بأبصار إيمانهم وفي الآخرة البرزخية بأعين خيالهم يقظة ونوماً وموتاً، ومن هنا قال من قال من أهل الله إن العلم حجاب يريدون علم النظر الفكريّ أي العلم الذي استفاده العاقل من نظره في الله فهذا معنى قوله: صرفت بصره عني فما رآني من رآني إلا بي، ومن رآني ببصره فما رأى إلا نفسه فإنني بصورته تجليت له، فرجال الله علموا الله بإعلام الله تعالى فكان هو علمهم كما كان بصرهم، فمثل هؤلاء لو تصوّر منهم نظر فكريّ لكان الحق عين فكرهم كما كان عين علمهم وعين بصرهم وسمعهم، لكن لا يتصور من يكون مشهده هذا وذوقه أن يكون له فكر البتة في شيء إنما هو مع ما يوحى إليه على اختلاف ضروب الوحي وأنه من ضروب الوحي الفهم عن الله ابتداء من غير تفكر، فإن أعطى الفهم عن تفكر فما هو ذلك الرجل، فإنّ الفهم عن الفكر يصيب وقتاً ويخطيء وقتاً، والفهم لا عن فكر وحي

صحيح صريح من الله لعبده وذوق الأنبياء عليهم السلام في هذا الوحي يزيد على ذوق الأولياء، فإن قابل الأخص في الأعمّ محصل للأعم وليس قابل الأعم الذي لا يتعين فيه الأخص يحصل له فيه ذوق الأخص، وإن كان مندرجاً فيه فلا حكم له في الذوق، وإن كان له حكم في الكل إلا أنه لا يقدر على الفصل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والعشرون وأربعمائة

في معرفة منازلة السرّ الذي قال منه رسول الله ﷺ حين استفهم عن رؤية ربه فقيل له: رأيت ربك في ليلة الإسراء فقال: «نور أنَّى أراه»

[البسيط]:

النُّورُ كيف يراه الظّلُّ وهْوَ به ... قد قام في الكون عيناً في تَجَلِّيهِ
فإن تَخَلَّى بنَعْتِ النور كان له ... حُكْمُ التَّجَلِّي ولكن في تَخَلِّيهِ
الروحُ ظلٌّ وعينُ الجسم يبديه ... من نُورِ ذاتٍ يراه في تَدَلِّيهِ
وليس يدري الذي قلناه غَيْرُ فَتًى ... ذي خلوة فيراه في تَخَلِّيهِ
وقد يراه الذي وَلَّى بصورته ... عنه فبان له لدى تَوَلِّيهِ

قال الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥] فمن النور من يدرك به ولا يدرك في نفسه فهو حجاب عليك عن نفسه وأنت والعالم حجاب عليك، وقوله ﷺ: **«إنَّ للهِ سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ» أَوْ «سَبْعِينَ حِجَاباً»** الشَّكُّ مِنِّي **«مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ»** الحديث، فحجاب النور من هذه الحجب واحد، والظلم الحجابية ما بقي من هذا العدد فهو عين الحجاب عليك وهو المحتجب فيه فبنفسه احتجب فالنور لا يرى أبداً، والظلمة وإن حجبت فإنها مرئية للمناسبة التي بينها وبين الرائي، فإنه ما ثم ظلمة وجودية إلا ظلمة الأكوان، وكان ﷺ يسأل الله في دعائه أن يجعله نوراً لما علم أن الله هو النور، وعلم أن النور الأدنى يندرج في النور الأعلى، وعلم أن الحق هو جميع ما يكون به العبد عبداً من جميع الوجوه، وأنه من حيث هويته لا نعت له ولا صفة فعلم أن نسبة النعتية إليه، والصفة ما هو غير الحق لا من حيث صفة الحق بل من هويته ولا يذكر العبد بهويته وإنما يذكر بما يقوم به من الصفات وليست إلا هوية الحق فقوله: **«وَاجْعَلْنِي نُوراً»** عين قوله: «واجعلني أنت» وأنت لا يكون بالجعل فقال له: أقمني في علم شهود أني أنت حتى أتميز عن غيري من هويات العالم فأعلمهم وأعلم من أنا وهم لا يعلمون، وإذا كان الأمر على هذا فما اندرج نور في نور وإنما هو نور واحد في عين صورة خلق، فانظر ما أعجب هذا الاسم فالخلق ظلمة ولا يقف للنور فإنه ينفرها، والظلمة لا ترى النور وما ثم نور إلا النور الحق، فلهذا قال ﷺ: **«نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»** فإنه ما رآه مني إلا هويته وظلمتي لا تدركه، وهذا سر خفيّ عن إدراك الأدلة النظرية وعن إدراك الشهود في الصور وهو من أسنى العلوم الإلهية الواضحة فلم يدركها من العبد إلا هو، فهو العلم والعالم والمعلوم في هذه المسألة.

ولما فصل الإضافة إلى السموات وهو ما غاب من القوى وعلا وإلى الأرض وهو ما ظهر من القوى الحسية ودنا قال الله تعالى: إنه عين نفورها عن ذاتها فلم يشهد إلا هو فهو عين السموات والأرض، ولم نقل كما قال فيه المفسر معناه منوّر أو هاد فذلك له اسم خاص وهو الهادي الذي هداهم لإباية حمل الأمانة وإلى الإتيان بالطاعة لأمره، فهو من باب إجابة الأسماء للأسماء إذا دعا بعضها بعضاً فذلك علم آخر إلهي، وأما هنا فما قال إلا أنه ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] والنور النفور، ويؤيد ذلك التشبيه بالمصباح على الوصف الخاص فإن مثل هذا النور المصباحيّ ينفر ظلمة الليل بل هو عين نفور ظلمة الليل مع بقاء الليل ليلاً، فإنه ليس من شرط وجود الليل وجود الظلمة وإنما عين الليل غروب الشمس إلى حين طلوعها سواء أعقب المحل نور آخر سوى الشمس أو ظلمة، فوقع الغلط في ماهية الليل ما هي ولهذا قال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ٢] فلو كان عين الليل عين الظلمة ما نعته بأنه أظلم فقد يكون الليل ولا ظلمة، كما أنه قد يكون النهار ولا ضوء، فإن النهار ليس إلا زمان طلوع الشمس إلى غروبها وإن طلعت مكسوفة فلا يزول الحكم عن كون النهار موجوداً، فإن قيل: ما سمي النهار نهاراً إلا لاتساع الضوء فيه. قلنا: وإن كان فلا يقدح فيما ذهبنا إليه من ماهية النهار فإنّ ذلك الكسوف أمر عارض لا يقدح في طلوع الشمس ولو أظلمت في نفسها فكيف وعلة الكسوف لها معلوم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والعشرون وأربعمائة
في معرفة منازلة قاب قوسين

[البسيط]:

ما قَابُ قَوْسَيْنِ إلا قُطْرُ دائرةٍ تُعْطي التَّمَيُّزَ بين الكَوْنِ واللَّهِ
فمن يعاين عَيْناً لا تغايُرها عَيْنٌ فذاكَ دُنُوُّ العالِم السَّاهي
وهو الذي فيه أو أدْنَى وفيه له أسرارُ علم ولا تدري النُّهَى ما هي
الشكُّ يظهر في سلطان أو فَلَها حُكْمُ المقَرَّب ذي السلطان والجاهِ
فهذه آيةٌ في النجم قد نزلت دلَّتْ على كون أمثالٍ وأشْبَاهِ
وكل من جئته يدريه مختبراً عقداً وفعلاً لدى التعيق والبَاهِ
وذاك حين تجلّى صورة دائرة يقول باللَّفظ أنت الآمرُ الناهي

قال الله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] إشارة إلى التقريب الصوري ورد في الخبر النبوي أن رسول الله ﷺ يقول: «**لَوْ دَلَّيتُمْ بِحَبْلٍ لَهَبَطَ عَلَى الله**» وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وقال ﷺ: «**يَنزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنيَا كُلَّ لَيلَةٍ فِي الثُّلُثِ البَاقِي مِنَ اللَّيلِ**» الحديث، فحير العقول الضعيفة ونبه العقول المعتكفة على باب حضرته فعلمت ما أراد ولو استزدته لزاد كما قال: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ [النجم: ٨] في إسرائه إلى السموات ليريه من آياته ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨] فقوى ذلك منبهاً ومشيراً على أنه عين

الحبل الوارد المذكور في الخبر، فدل أن نسبة الصعود والهبوط على السواء في حقه، فجمع بين خبر صاحب الحوت وصاحب الإسراء أنه لم يكن واحد منهما بأقرب إلى الحق من الآخر، فهي إشارة إلى عدم التحيز وأن الذات مجهولة غير مقيدة بقيد معين، فكان من آياته التي أراه ليلة إسرائه كونه تدلى في حال عروجه، وهذا عين ما أشار إليه أبو سعيد الخراز في قوله عن نفسه: ما عرفت الله إلا بجمعه بين الضدين ثم تلا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] فكان بهويته في الجميع في حال واحدة بل هو عين الضدين، فلولا أنت ما كان دنو ولا تدل [مخلع البسيط]:

فـــلا دُنُـــوٌّ ولا تَـــدَلٍّ ولا عُـــرُوجٌ ولا هُـــبُـــوطُ
فـهـذه إنْ نَـظَـرْتَ فـيـهـا مُـحَـقِّـقـاً كـلـهـا خُـطُـوطُ

فأنت من حيث هويتك لا نعت لك ولا صفة، قيل لأبي يزيد: كيف أصبحت؟ فقال: لا صباح لي ولا مساء إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة وأنا لا صفة لي فإني بكيت زماناً وضحكت زماناً وأنا اليوم لا أضحك ولا أبكي، والصعود والهبوط نعت، فلا صعود للعبد ولا هبوط من حيث عينه وهويته، فالصاعد عين الهابط فما دنا إلا عين من تدلى، فإليه تدلى ومنه دنا فكان ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم: ٩] وما أظهر القوسين من الدائرة إلا الخط المتوهم، وكفى بأنك قلت فيه المتوهم والمتوهم ما لا وجود له في عينه، وقد قسم الدائرة إلى قوسين فالهوية عين الدائرة وليست سوى عين القوسين، فالقوس الواحد عين القوس الآخر من حيث الهوية وأنت الخط القاسم المتوهم، فالعالم في جنب الحق متوهم الوجود لا موجود، فالموجود والوجود ليس إلا عين الحق وهو قوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] فالأدنى رفع هذا المتوهم، وإذا رفع من الوهم لم يبق سوى دائرة فلم تتعين القوسان، فمن كان من ربه في القرب بهذه المثابة أعني بمثابة الخط القاسم للدائرة ثم رفع نفسه منها ما يدري أحد ما يحصل له من العلم بالله وهو قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] وما عين لنا في الذكر الحكيم ما أوحى ولا ذكر رسول الله ﷺ ما أوحي في ذلك القرب به إليه، فكان التلقي في هذا الموطن تلقياً ذاتياً لا يعلمه إلا من ذاقه، وليست في المنازلة منازلة تقتضي التقاء النقطة بالمحيط إلا هذه المنازلة، فإنه إذا التقى المحيط بالنقطة ذهب ما بينهما فذلك ذهاب العالم في وجود الحق، ولم تتميز نقطة من محيط بل ذهب عين النقطة من كونها نقطة وعين المحيط من كونه محيطاً فلم يبق إلا عين وجودية مذهبة حكمها وحكم ما ينسب من العالم إليها ذهاباً كلياً عاماً عيناً وحكماً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والعشرون وأربعمائة

في معرفة منازلة الاستفهام عن الأنيتين

[الوافر]:

إذ مـا كُـنْـتَ عـيـنـي فـي وجـودي وكـــل أيـــن قـــواي أنـــا وأنْـــتَـــا

فإما أن يكون الشأنُ عيني   وإما أن يكون الشأن أنتا
وإما أن أكون أنا بوَجْهٍ   ومن وَجْهٍ سواهُ تكون أنتا
فأنت الحرفُ لا يُقرَا فيُدْرَى   وأنت مُحَيِّرُ الحَيْرانِ أنتا
أرى عَجْزاً وذاك العجزُ عيني   وجهلاً بالأمور فأين أنتا
فما أقْوَى على تحصيل علم   ولا تَقْوَى على التوصيل أنتا
فحِزنَا في وجود الحقّ عَجْزاً   وجِزتَ وعِزّةِ الرحمٰن أنتا
فزال أنا وهو والأنت فانظر   إلى قولي إذا ما قلت أنتا
فمن أعني بأنت ولست عيني   ولا غيري فحرت بلفظ أنتا
لأني لا أرى مدلولَ لفظي   ولا أنا عالمٌ من قال أنتا
أرى أمراً تَضَمَّنَهُ وجودي   وأنت تغارُ منه وليس أنتا
فإن زِلْنَا تقول فَعَلْتَ عبدي   فتُثْبِتُنا بأمر ليس أنتا
فقل لي من أنا حتى أراه   فأعرف هل أنا أو أنت أنتا
فلولا الله ما كنا عبيداً   ولولا العبد لم تَكُ أنت أنتا
فأثبِتْني لنُثْبِتَكُمْ إلهاً   ولا تَنْفي الأنا فيزول أنتا

قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فهذا إثبات الأنيتين وإثبات حكمهما، ثم نفى الحكم عن إحداهما بعد إثباته وهو الصادق القول. فاعلم أن أنية الشيء حقيقته في اصطلاح القوم فهي في جانب الحق ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢] وفي جانب الخلق الكامل ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٦] فهاتان أنيتان ضبطتهما العبارة وهما طرفان، فلكل واحدة من الأنيتين حكم ليس للأخرى [الطويل]:

وذاك الذي قالوا وذاك الذي عَنَوا   وما ثَمَّ إلا الله ليس سواهُ
وكَلَّفَ والتكليفُ يطلب حادثاً   ويطلب من يدري وما ثَمَّ إلا هُوْ

فالأنية الإلهية قائلة، والأنية القابلة سامعة، وما لها قول إلا بالتكوين، فلا يقال لأنية الخلق في حال وجودها، وما القول إلا لمن هو في حال العدم فلا تكليف إلا في المعدوم لعدم نسبة الإيجاد للحادث، فلا يقال للمنفعل انفعل فقد انفعل بقبوله الوجود، ولا إيجاد يكون عنه فلا قول له، وما ثم عبث فإذا كلف قال لما كلف به ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] في حال عدمه ﴿فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] في محل هذا الحادث فينسب إليه وليس إليه، فلهذا كانت الأنيتان طرفين فتميزتا إلا أن لأنية الحادث منزلة الفداء والإيثار لجناب الحق بكونها وقاية، وبهذه الصفة من الوقاية تندرج أنية العبد في الحق اندراجاً في ظهور وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤] فلولا نون العبد التي أثر فيها حرف الياء الذي هو ضمير الحق فخفض النون فظهر أثر القديم في المحدث، ولولاه لخفضت النون من أن وهي أنية الحق كما أثرت في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢] فإنه لا بد لها من أثر فلما لم تجد أنية العبد

التي هي نون الوقاية أثرت في أنية الحق فخفضتها ومقامها الرحمة التي هي الفتح، فما أزاله عن مقامه إلا هو ولا أثر فيه سواه، فأقرب ما يكون العبد من الحق إذا كان وقاية بين أنية الحق وبين ضميره فيكون محصوراً قد أحاط به الحق من كل جانب وكان به رحيماً لبقاء صفة الرحمة فبابها مفتوح وبها حفظ على المحدث وجوده فبقي عين نون الوقاية الحادثة في مقام العبودية الذي هو الخفض المتولد عن ياء ضمير الحق فظهر في العبد أثر الحق وهو عين مقام العبد الذلة والافتقار، فما للعبد مقام في الوصلة بالحق تعالى أعظم من هذا حيث له وجود العين بظهور مقامه فيه وهو في حال اندراج في الحق محاط به من كل جانب فعرف نفسه بربه حين أثر فيه الخفض فعرف ربه حين أبقاه على ما هو عليه من الرحمة فإنه الرحمن الرحيم، فما زال عنه الفتح بوجود عين العبد فلا يشهده أبداً إلا رحماناً ولا يعلمه أبداً إلا مؤثراً فيه، فلا يزال في عبوديته قائماً وهذا غاية القرب، ولما حار أبو يزيد في القرب من الله قبل أن يشهد هذا المقام قال لربه: يا رب بماذا أتقرب إليك؟ فقال: بما ليس لي، فقال: يا رب وما ليس لك وكل شيء لك؟ فقال: الذلة والافتقار، فعلم عند ذلك ما لأنية الحق وما لأنية العبد، فدخل في هذا المقام فكان له القرب الأتم فجمع بين الشهود والوجود إذ كان كل شيء هالك، فإن الشهود عند القوم فناء حكم لا فناء عين، وفي هذا المقام شهود بلا فناء عين، وهو محل الجمع بيننا وبين الطائفة وبلا فناء حكم فإنه أبقى للحق ما يستحقه من الفتح الرحموتيّ إذ لولاه أعني لولا هذا القرب المعين لعاد الأثر على أنية الحق، ولهذا أظهر في ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢] ليعلم أن الأثر إذا صدر من الحق لا بدّ له من ظهور حكم وما وجد إلا الحق فعاد عليه فجاء العبد فدخل بين الأنية الإلهية والمؤثر فعمل فيه [المتقارب]:

فـأَنِّـيَّـةُ الـخَـلْـقِ مـضـبـوطـةٌ ... وأَنِّـيَّـةُ الـحَـق مـا تَـنْـضَـبِـطْ
فـيـأخـذُ مـن ذا ويُـعْـطـيـه ذا ... وكُـلٌّ بـأحـوالـه مُـغْـتَـبِـطْ
فـرَبْـطُ الـوجـود بـعـيـن الـشُّـهُـو ... د مـقـامٌ جـلـيـلٌ لـمـن يَـرْتَـبِـطْ
ولـيـس يـنـالُ مـقـامَ الـدنـوّ ... عُـبَـيْـدٌ إذا سـرُّه قـد شَـحَـطْ

وما فرحت بشيء قط مما وهبنيه الحق من المنح التي تقبلها الأكوان فرحي بهذا المقام إذْ حلاني به ربي وهو أعلى المقامات وأسناها، وهو مقام كل ما سوى الله ولا يشعر به، وليست العناية من الله ببعض عباده إلا أن يشهده هذا المقام من نفسه، فما يزيد على العالم كله إلا بالعلم به حالاً وذوقاً، ولا يجني أحد ثمرة الإيثار مثل ما يجنيها صاحب هذا المقام، فإن ثمرة الإيثار على قدر من تؤثره على نفسك، والذي تؤثره على نفسك هنا إنما هو الحق فينسب إليك الفرح بما تجنيه من ثمرة هذا الإيثار على صورة نسبة الفرح إلى الحق، فانظر ما أعظمها من لذة وابتهاج، وهذا أخصر ما يمكن من الإبانة عن هذا المقام، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والعشرون وأربعمائة

في معرفة منازلة من تصاغر لجلالي نزلت إليه ومن تعاظم عليّ تعاظمت عليه

[الرجز]:

يـعـامـل الـحـق بـمـا يُـعَـامـلُ فـاحـذَرْ فـمـا أنـت لـه مُـقَـابـلُ
وكُـنْ لـه عَـيْـنـاً ولا تَـكُـنْ بـه فـإنـه لـيـس لـه مُـمَـاثِـلُ
مـن حـارب الله يـرى صَـرْعَـتَـهُ بـعـيـنـه فـالـبَـطَـلُ الـمُـنَـازِلُ
هـو الـذي يـرمـي الـسـلاح والـذي لـه مـن الله بـه الـمَـنَـازِلُ
قـد قـال طَـيْـفُـورٌ بـأن بَـطْـشَـهُ أشَـدُّ والـقـول بـذاك نَـازِلُ
فـكـونـه فـيـنـا وجـودٌ ثـابـتٌ وكـونُـنـا فـيـه وُجُـودٌ حـاصـلُ

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ [الأنفال: ٣٣] لأنه قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وما خص مؤمناً من غير مؤمن، فإذا كان العبد على مقامه الذي هو عينه مسلوب الأوصاف ولم يظهر منه تلبس بصفة محمودة ولا مذمومة فهو على أصله وأصله الصغار، ويريد الحق ظهور الصفات فيه، فلا بد أن ينزل إليه من هويته التي تقتضي له الغنى عن العالم فإن الله غنيّ عن العالمين، والنبيّ ﷺ يقول يوم بدر لربّه تعالى: **«إنْ تُهلِكْ هٰذِهِ العِصَابَةَ فَلَنْ تُعْبَدَ بَعْدَ اليَوْمِ»** فلو قال مثل هذه المقالة غير رسول الله ﷺ لقال المنكر ما شاء مما يليق به من حيث إنكاره لجهله، ومثل هذه النفحات تهب على قلوب العارفين من أهل الله فإن نطقوا بها كفرهم المؤمن وجهلهم صاحب الدليل [السريع]:

فـالـحَـمْـدُ لله الـذي قـد وَهَـبْ والـحـمـد لله الـذي قـد عَـصَـمْ
فـلـم يَـقُـلْ مـا شَـانَـهُ قَـوْلُـهُ وهـو الـذي قـال بـه مـن عـصـمْ
فـيـحـجـبُ الله بـه مـن حَـرَمْ ويُـشْـهِـدُ الله بـه مـن رَحِـمْ

ورد في الخبر: **«أنَّهُ مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ اللهُ»** وهو عين نزول الحق إليه **«وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللهِ وَضَعَهُ اللهُ»** وما وضعه إلا بشهود عظمته فإنه تعالى العليّ العظيم. ولما قال ﷺ: **«إنَّمَا هِيَ أعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ»** علمنا أنا ما نرى من الحق إلا ما نحن عليه، فمن شاء فليعمل ومن شاء لا يعمل، وهذه كلمة نبوية حق كلها فإن العمل ما يعود إلا على عامله وقد أضاف الأعمال إلينا، فمن علم منا من هو العامل منا علم من يعود إليه العمل في الرد، وهذا القدر من الإشارة في هذا الحديث كاف. ولما كان الله هو الكبير المتكبر علمنا نسبة الكبر إليه وتحير في نسبة التكبر إليه، فلو علم نزول الحق لعباده إذ ليس في قوة الممكن نيل ما يستحقه الحق من الغنى عن العالم وفي قوة الحق مع غناه من باب الفضل والكرم للنزول لعباده لعلمنا تلك النسبة، فإن جهل أحد من العباد قدر هذا النزول الإلهي وتعاظم العبد في نفسه لنزول الحق له ولم يعلم أن نزول الحق لعباده ما هو لعين عباده وإنما ذلك لظهور أحكام أسمائه الحسنى في أعيان الممكنات فما علم أنه لنفسه نزل لا لخلقه كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا

لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فما خلقهما إلا من أجله، والخلق نزول من مقام ما يستحقه من الغنا عن العالمين، فالمتخيل من العباد خلاف هذا وأنه تعالى ما نزل إلا لما هو المخلوق عليه من علو القدر والمنزلة فهذا أجهل الجاهلين، فأعطى الحق هذا النزول أو ما توهمه الجاهل أن يتسمى الحق بالمتكبر عن هذا النزول ولكن بعد هذا النزول لا قبله وجوداً وتقديراً لابد من ذلك فالكبير ليس كذلك، وسيرد تحقيق هذا الفصل في آخر الكتاب في الباب الثامن والخمسين وخمسمائة إن شاء الله تعالى، فهذه المنازلة تعطيك أن الحق مرآة العالم فلا يرون فيها غير ما هي صورهم عليه وهم في صورهم على درجات، فهذا حصر لباب هذه المنازلة والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة إن حيرتك أوصلتك إليّ

[مجزوء الرمل]:

كُلُّ مَنْ حَارَ وَصَلْ ... والذي اهْتَدَى انْفَصَلْ[(١)]
وهْوَ نَعْتٌ ثَابِتٌ ... لِلَّذي عَزَّ وجَلْ
وهْوَ نَعْتٌ حَاصِلٌ ... لِعُبَيْدٍ قد عَقَلْ
فإذا قال فَتَى ... إنه اهْتَدَى غَفَلْ
وتَراه زاهِياً ... في حُلِيٍّ وحُلَلْ
كاشِفاً عَوْرَتَهُ ... مثل ما جاء المَثَلْ

المثل قوله عليه الصلاة والسلام: «**رُبَّ كَاسِيَةٍ عَارِيَةٍ**» قال الله تعالى في الحيرة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥] ومن باب الحيرة ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧] وكذلك ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] والقتل ما شوهد إلا من المخلوق، فنفى ما وقع به العلم الضروري في الحس، قال رسول الله ﷺ في هذه المنازلة: «**لا أُحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ**» وهذا مقام عزة الحيرة «**أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**» وهذا حال الوصول. وقال الصديق في هذه المنازلة: «العجز عن درك الإدراك إدراك»، فتحير فوصل فالوصول إلى الحيرة في الحق هو عين الوصول إلى الله، والحيرة أعظم ما تكون لأهل التجلي لاختلاف الصور عليهم في العين الواحدة، والحدود تختلف باختلاف الصور، والعين لا يأخذها حد ولا تشهد كما أنها لا تعلم، فمن وقف مع الحدود التابعة للصور حار، ومن علم أن ثم عيناً هي التي تتقلب في الصور في أعين الناظرين لا في نفسها علم أن ثم ذاتاً مجهولة لا تعلم ولا تشهد، فتحصل من هذا أن العلماء بالله أربعة أصناف: صنف ما له علم بالله إلا من طريق

(١) الشطر الثاني مختلّ الوزن.

النظر الفكري وهم القائلون بالسلوب. وصنف ما له علم بالله إلا من طريق التجلي وهم القائلون بالثبوت والحدود. وصنف ثالث يحدث لهم علم بالله بين الشهود والنظر فلا يبقون مع الصور في التجلي ولا يصلون إلى معرفة الذات الظاهرة بهذه الصور في أعين الناظرين. والصنف الرابع ليس واحداً من هؤلاء الثلاثة ولا يخرج عن جميعهم وهو الذي يعلم أن الله قابل لكل معتقد كان ما كان ذلك المعتقد، وهذا الصنف ينقسم إلى صنفين: صنف يقول عين الحق هو المتجلي في صور الممكنات، وصنف آخر يقول أحكام الممكنات وهي الصور الظاهرة في عين الوجود الحق، وكل قال ما هو الأمر عليه، ومن هنا نشأت الحيرة في المتحيرين وهي عين الهدى في كل حائر، فمن وقف مع الحيرة حار ومن وقف مع كون الحيرة هدى وصل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والثلاثون وأربعمائة
في معرفة منازلة من حجبته حجبته

[الوافر]:

حِجَابُ العَبْدِ منه وليس يَدْري ... بأنّ وُجُودَهُ عَيْنُ الحِجَابْ
فيا قَوْمِ اسْمَعُوا قولي تَفُوزوا ... بما قد قال في أُمّ الكِتابْ
فلفظةَ نستعين قد أظهَرَتْنا ... وأفعالي وعيني في تَبَابْ
فنحن التائهون بكل قَفْرٍ ... ونحن الواقفون بكل بابْ

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] فإذا خاطبهم ما يخاطبهم إلا بما تواطؤوا عليه، وإذا ظهر لهم في فعل من الأفعال فلا يظهر لهم إلا بما ألفوه في عاداتهم، ومن عاداتهم مع الكبير عندهم إذا مشى أن يحجبوه، ومعناه أن يكونوا له حجبة بين يديه كما قال: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: ٨] وسبب ذلك أن الكبير لو تقدم الجماعة لم يعرف ولم تتوفر الدواعي إلى تعظيمه، فإذا تقدم الحجاب بين يديه طرقوا له وتأهّبت العامة لرؤيته وحصل في قلوبها من تعظيمه على قدر ما يعرفونه من عظمة الحجبة في نفوسهم فيعظم شأنه، فإذا أراد الله تعظيم عبد عند عباده عدل به عن منزلته وكساه خلعته وأعطاه أسماءه وجعله خليفة في خلقه وملكه أزمة الأمور وحمل الغاشية بين يديه كما يحمل الملك الغاشية بين يدي ولي عهده، وإن كان في المنزلة أعظم منه ولا بد لمن هذه حالته أن يعطي المرتبة حقها فلا بد أن ينحجب عن رتبة عبوديته، وعلى قدر ما ينحجب عنها ينحجب عن ربه ولا يمكن إلا هذا فإن الحضرة في الوقت له والوقت وقته والحكم للوقت في كل حاكم، ألا ترى الحق يقول عن نفسه أنه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] فهو بحسب الوقت لأنه لا يعطي إلا بحسب القابل فالقبول وقته حتى يجري الأمور على الحكمة، ولما كان الوقت لصاحبه حكم عليه بما يظهر به. وقال ﷺ: **«لا يُؤَمَّنَّ الرَّجُلُ فِي سُلْطَانِهِ وَلا يُقْعَدْ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إلاّ بإذْنِهِ»** ولو كان الخليفة بنفسه إذا دخل دار أحد من رعيته فالأدب الإلهي المعتاد

يحكم عليه بأن يحكم عليه رب البيت فحيثما أقعده قعد ما دام في سلطانه، وإن كان الخليفة أكبر منه وأعظم ولكن حكم المنزل حكم عليه فرده مرؤوساً، ألا ترى أن وجود العبد وأعني به العالم ما ظهر إلا بوجود الحق وإيجاده لأن الحكم له ثم تأخر المتقدم وتقدم المتأخر فلم يظهر للعلم بالله عين حتى أظهره العلم بالعالم فكان ذلك جزاء الإيجاد وعاد ذلك الجزاء على العالم بذلك الناظر فيه إذ لم يكن الحق محلاً للجزاء، فعاد عمل العبد عليه كما عاد عمل الحق على الحق بما وقع به الثناء عليه من المحدثات، وقد اتفق العارفين من أهل زماننا فقال لي أبو البدر: دخلت على الواحد منهما بميافارقين فذكرت له شأن العارف الذي ببغداد فقال لي: إنه من جملة من يمضي أمري فيه، قال: فجئت إلى العارف الآخر ببغداد فقلت له: إني أدخلت بميافارقين على الوكاف فذكرت له شأنك فقال لي: إني رأيته في جملة من يمضي أمري فيه من حولي، فقال: كذا يزعم والله لقد رأيته يحمل الغاشية بين يدي، قال أبو البدر: فحرت بينهما وكلاهما صادقان عندي فأزل عني هذه الغمة فقلت له رحمه الله: كل واحد منهما صدق وإن كل واحد منهما رأى صاحبه في سلطانه وفي محله والحكم لصاحب المحل فذلك كان حكم المحل لا حكم مراتبهما، وأما مقامهما فلا يعرف من هذا وإنما يعرف من أمر آخر، فسر بذلك وعرف أنه الحق، فينبغي للمنصف أن يعرف المواطن وأحكامها أين موطن الغضب الإلهي من موطن الرضا يفعل العبد فعلاً فيسخط ربه به عليه فهو جنى على نفسه، والحق بحكم ذلك الواقع بين عفو ومؤاخذة ويفعل ذلك العبد فعلاً يرضي به ربه فهو الذي أرضاه كما أسخطه، فالحق مع عباده بحسب أحوالهم غير هذا ما يكون، انظر في أحوال الخلق في الكثيب إذا نزلوا على الحق هنالك يتفرج العارفون فيما ذكرناه، فإذا عادوا إلى جناتهم وأهليهم وتجلى الحق لهم يتغير الحال منهم لكون المنازل لهم ومنزل الكثيب له إذا كان الحق سمعك وبصرك فقد نزل بك، فإن تأدّبت معه في النظر والاستماع بقي عندك، وإن أسأت الأدب رحل عنك، وصورة الأدب معه موجودة فيما شرع لك أن تعامله به، فإذا دخلت عليه في بيته وهو المسجد كان له الحكم فيك بسبب إضافة الدار إليه والحكم له، فأوجب عليك أن تحييه بركعتين وأن لا تعمل فيه ما لم يأذن لك في عمله فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة ما ارتديت بشيء إلا بك فاعرف قدرك وذا عجب شيء لا يعرف نفسه

[البسيط]:

إن الـرّداءَ الـذي لـم يَـذرِ لابـسُـهُ ... هـو الـرّداءُ الـذي الـرحـمـنُ لابـسُـهُ
بـه تَـزَيَّـنَ عـنـد الـعـالـمـيـن مـن الأ ... رواح والـمـلأ الـقـلـبـيّ حـارسُـهُ
فـإن بَـدَتْ مـنـه أخـلاق تَـحِـيـدُ بـه ... عـن الـهُـدَى فـرَسُـولُ الله سـائـسُـهُ

قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وقال تعالى في الخبر عنه: «**وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ**» فالأمر حق ظاهره صورة خلق فهو من وراء ما بدا، كما أن المرتدي من وراء ردائه فالعبد هو كبرياء الحق وعظمته فإنه قال: «**الكبرياء ردائي**» ولهذا كان المخلوق محل عظمة الله لأن العظمة صفة في المعظم لا في المعظم، ولو كانت في المعظم لما تعوّذ منه من لا يعرفه. قال الله لأبي يزيد لما خلع عليه أسماءه: اخرج إلى عبادي بصورتي فمن رآك رآني فلما خطا خطوة غشي عليه فقال: ردّوا عليّ حبيبي فإنه لا صبر له عني، فمن عرف نفسه عرف الله ومن عرف الله لم يعرف نفسه، والعلم بالله تعالى جهلك بك، والعلم بك علمك بالله فإنك منه، كما قال جميعاً منه ما هو منك وليس إلا معرفة المنزلة والقدر ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] فأنت ليلةُ القدر لأنك من طبيعة وحق فشهد لك بعظم القدر قبل نزول القرآن عليك وأنت ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] أي خير من الكل لأنه منتهى العدد البسيط الذي يقع فيه التركيب إلى ما لا يتناهى، كذلك ما يخلق الله لا يتناهى دائماً فإنه خالق على الدوام، وجاء بالشهر لشهرة ذلك في كل شهر من الألف ليلة القدر لا بد من ذلك، فإن خير الشهور ما كان فيه ليلة القدر فهي ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] فيه ليلة القدر فهي جامعة لكل أمر فهي العامة في جميع الموجودات، فالعبد في هذه المنازلة حافظ محفوظ حافظ من حيث إنه يحفظ المرتدي به غيرة وصوناً، ومحفوظ من حيث إن المرتدي يحتاط عليه لئلا يضيع فإنه معرّض للضياع فإنه مخلوق، فلا بد له من حافظ هذا جزاء دوري فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة انظر أي تجل يعدمك فلا تسألنيه فنعطيك فلا أجد من يأخذه

[مجزوء الكامل]:

لا تَطْلُبَنَّ تَجَلِّياً ... يُفْنِيك عنك فإنني
أُعْطِي ولست بآخذٍ ... لفناء عينك فأَنْثَنِ
عن مِثْلِ هذا واطْلُبَنْ ... أمراً عليه يَنْبَنِي
عَيْنُ البقاءِ ولا تكن ... بما تُسَمَّى تَكْتَنِي

قال الله تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] اعلم أن البقاء والفناء لا يعقلان في هذا الطريق إلا مضافين: الفناء عن كذا والبقاء مع كذا، ولا يصح الفناء عن الله أصلاً فإنه ما ثم إلا هو فإن الاضطرار يردّك إليه، ولهذا تسمى تعالى لنا بالصمد لأن الكون يلجأ إليه في جميع أموره ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فلم يبق أن يكون فناؤك إلا عنك، ولا تفنى عنك حتى تفنى عن جميع الأكوان والأعيان أعني فناء أهل الله، فإن أتحفك الحق بتحفة منه تعالى فتحفه من جملة أكوانه فهي محدثة فتطلبك التحفة لتقبلها

فتجدك فانياً عنها فعادت إلى معطيها فكان ذلك سوء أدب منك في الأصل حيث سألت ما قادك إلى مثل هذا فإن الله يعطي دائماً، فينبغي للعبد أن يكون قابلاً دائماً، فلا تسأل إن كنت من أهل الله إلا عن أمر إلهي أعني على التعيين وإلا فاسأل الله من فضله من غير تعيين.

واعلم أن تجليات الحق على نوعين: تجل يفنيك عنك وعن أحكامك، وتجل يبقيك معك ومع أحكامك، ومن أحكامك ملازمة الأدب في الأخذ والعطاء، فمثل هذا التجلي فاسأل ما دمت في دار التكليف، فإذا انتقلت إلى غير هذا الموطن فكن بحسب ذلك الموطن، ولولا التكليف ما وقعت من الله وصية لأحد من عباد الله، فما أوصى العليم بالأمور إلا وقد علم أن للوصية أثراً في الأمور، وسيرد الكلام في تحقيق الوصايا في آخر باب من أبواب هذا الكتاب إن شاء الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة لا يحجبنك لو شئت فإني لا أشاء بعد فاثبت

[البسيط]:

إنّ المشيئةَ عَرْشُ الذّات ليس لها ... في غيرها نسبةٌ تَبْدُو ولا أَثَرُ
وهي الوجودُ فلا عَيْنٌ تُغايرها ... تَفْنَى وتُعْدَمُ لا تُبْقِي ولا تَذَرُ
عزّتْ فليس يرى سلطانَها ملكٌ ... وليس يدركها في الصورة البَشَرُ
بكَوْنِ آدَمَ مخصوصاً بصُورته ... لأن فيه جَمِيعَ الكَوْنِ مُخْتَصَرُ
له المقاليدُ في الأكوان أجْمَعِهَا ... له التنزُّلُ والآياتُ والسُّوَرُ
فَمِنْ تَنَزُّله أنْ قال نُدركه ... في صورة هي شمسُ الحقّ أو قَمَرُ
مع التَّنَزُّهِ عن تشبيه خالقنا ... وقد حَوَتْهُ بما قد قاله الصُّوَرُ

قال الله عز وجل: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [قٓ: ٢٩] وإن عارضته المشيئة، وما في النسب أعجب منها لاستصحاب «لو» لها، و«لو» لها أثر ما لها أثر فهو حرف عجيب.

اعلم أنه ما اختص آدم بالخلافة إلا بالمشيئة ولو شاء جعلها فيمن جعلها من خلقه، قلنا: لا يصح أن تكون إلا في مسمى الإنسان الكامل، ولو جمعها في غير الإنسان من المخلوقات لكان ذلك الجامع عين الإنسان الكامل، فهو الخليفة بالصورة التي خلق عليها. فإن قلت: فالعالم كله إنسان كبير فكان يكفي. قلنا: لا سبيل فإنه لو كان هو عين الخليفة لم يكن ثم على من، فلا بد من واحد جامع صور العالم، وصورة الحق يكون لهذه الجمعية خليفة في العالم من أجل الاسم الظاهر يعبر عن ذلك الإمام بالإنسان الكبير القدر الجامع الصورتين، فبعض العالم أكبر من بعض الإنسان لا بالمجموع فإنه في الإنسان الكامل ما ليس في الواحد الواحد من العالم، فما هو بالمشيئة إلا في النوع الإنساني لكون هذا النوع فيه خلفاء ثم عم تأثيره في الجميع فيطلب من الحق أن يمده فيمده، وهذا أثر في الصورة الحقية، ويطلب أيضاً الأمر في العالم فيمضي، ثم إنه مؤثر فيه من العالم ومن الحق، فاختلط الأمر

والتبس على أهل الله فطلب بعض العارفين الخروج من هذا الالتباس فأطلعه الله على صورة الأمر فرأى ما لا يمكن التلفظ به إلا لرسول قد عصم، فكن أنت ذلك الطالب حتى ترى ما رأيت فتقول كما قلنا [البسيط]:

مَلَّكْتَني مُلْكَ كسرى إذ تَمَلَّكَ كُنْ كَوْني فَكنت بكُنْ مَلِكاً ولم أكُنِ
لكنني كنت كُنْ والكونُ مملكةٌ وكل كَوْنٍ لكُمُ فالكون لم يَكُنِ

وهو قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ [القمر: ٥٠] ثم شبه الإمضاء بلمح البصر أو هو أقرب وكذلك هو أقرب، فانظر حكمة الله تعالى في هذا التشبيه وما حوته تلك اللمحة من الكثرة في الوحدة فعندها تعرف ما هو الأمر فأثبت ولا تفشه تكن من الأمناء الأخفياء الأبرياء، واعلم أن قوله تعالى: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ١٦] ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٣] يقتضي نفي العلم بكذا ونفي المشيئة عن الحق، كما يقتضي قوله: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ﴾ [النور: ٦٣] وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ﴾ [البقرة: ١٨٥] فأثبت العلم والمشيئة معاً لله، وعلم الله لا يخلو من أحد أمرين، وكذلك إرادته إما أن تكون صفة له قائمة به زائدة على ذاته وإن كان مثبتو الصفات يقولون لا هي هو ولا هي غيره، ولكن لا بد أن يقولوا بأنها زائدة كما يعتقده الأشعري، أو تكون عين ذاته إلا أن لها نسبة خاصة لأمر ما تسمى بتلك النسبة علماً، وهكذا سائر ما تسمى به مما يطلبه تعالى فما أثبت ولانفى إلا تعلق العلم والإرادة، ولكن ما ورد الكلام إلا بنفي العلم بأمر ما والإرادة فتعلم قطعاً أن نفي العلم علم، وأن العلم تابع للمعلوم يصير معه حيث صار، ويتعلق به على ما هو عليه في نفسه وذاته لا ينتفي عنها الوجود، ولا كل ما ثبت له القدم من صفة وغيرها، فما بقي أن ينتفي إلا التعلق الخاص وهو أمر يحدث أو نسبة كيف شئت فقل، ولا يتوجه النفي والإثبات إلا على حادث أي على ممكن، سواء كان ذلك الحكم موصوفاً بالوجود أو بالعدم، فناب العلم هنا مناب التعلق حين نفيته بأداة لو في قوله: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ﴾ [الأنفال: ٢٣] ﴿وَلَوۡ شَآءَ﴾ [يونس: ١٦] فما علم وما شاء، هذا هو الأمر الحادث المعين فقد علم أنه لو علم، ولا يقال أنه قد شاء أن يقول لو شاء فإن المشيئة متعلقها العدم، ولا يصح أن يحدث القول في ذات الله فإنه ليس بمحل للحوادث فلا يقال قد شاء أن يقول والتحقيق أنه ما أراد من المراد إلا ما هو المراد عليه من الاستعداد في حال العدم أن يكون به في حال الوجود أو يتصف به عند انتفائه عن الوجود أو انتفاء حكم الوجود عنه كيف شئت فقل. ولما بان الفرقان بين المشيئة والعلم علمنا أنهما نسبتان لذات العالم والمريد، أو صفتان في مذهب من يقول بالصفات من المتكلمين، ولولا علمنا بالأصل الذي هوّن علينا سماع مثل هذا لكانت الحيرة في الله أشد، والأصل ما هو إلا أن الله تعالى ما أرسل رسولاً إلا بلسان قومه لأنه يريد إفهامهم، فمن المحال أن يخرج في خطابه إياهم عما تواطؤوا عليه في لسانهم فوجد العاقل في ذلك راحة، وأما أهل الشهود فلا راحة عندهم في ذلك لما رأوه من اختلاف الصور على المشهود فما هم مثل أهل اللسان، وجاءت الطبقة العليا فقالت علمنا أن الشهود تابع للاعتقاد كما أن الخطاب تابع لما تواطأ عليه أهل ذلك

اللسان فهان عليهم الأمر فرأوه في كل معتقد كما فهموه في كل لسان فما حاروا واهتدوا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة أخذت العهد على نفسي فوقتاً وفيت ووقتاً على يد عبدي لم أف وينسب عدم الوفاء إلى عبدي فلا تعترض فإني هناك

[الطويل]:

وَعَدْنا وأوْعَدْنَا فأما وَعِيدُنا ... فأتركُه إن شئتُ والوَعْدُ نَاجِزُ
فإني كريمٌ والكريمُ نُعُوتُهُ ... كما قد ذَكَرْنا والقضاءُ يُناجزُ
فإنْ هَمَّ إنفاذَ الوعيد لصِدْقِهِ ... تلقَّاه قَرْمٌ للسماح مُبَارِزُ
فيَرْدَعُهُ عن هَمِّهِ بنُفُوذه ... لأن له الرُّحْمَى فمنها يُبَارِزُ
وليس يرى إلا نفاذاً لا مُقَصِّرٌ ... جهولٌ بما قلنا عن الحق عاجزُ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] هذا في الوعد، وقال في الوعيد: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [الفتح: ١٤] فاعلم أن هذه المنازلة هي قوله: «**إنّ رحمتي تغلبُ غضبي**» وهي قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] فإذا وعد العبد وعداً وشاء الله أن يخلف ذلك العبد وعده وما عاهد عليه شاء من العبد أن يشاء نقض العهد، ولولا ذلك ما تمكن للمخلوق أن يشاء، فشاء العبد عند ذلك نقض العهد وإخلاف الوعد بمشيئة الله في خلق مشيئة العبد فهو قوله: وقتاً لم أف، فلا تعترض على العبد فإنه مجبور في اختياره بمشيئتي، ولكن ينبغي لصاحب هذه المنازلة إذا رأى من وقع منه مثل هذا أن ينظر إلى خطاب الشرع فيه، فإن رأى أن ذلك المحل الظاهر منه مثل هذا من نقض العهد وإخلاف الوعد قد أطلق الحق عليه لسان الذم فيذمه بذم الحق فيكون حاكياً ولا يذمه بنفسه هذا هو الأدب وليس ذلك إلا في الخير، كما يقيم الحدود على المتعدي بأمر الحق لا بنفسه، ولهذا ليس للعبد أن يؤقت حداً ولا يشرعه. وأما في الوعيد إذا لم يكن حداً مشروعاً وكان لك الخيار فيه وعلمت أن تركه خير من فعله عند الله فلك أن لا تفي به وأن تتصف بالخلف فيه مثل قوله: «**من حَلَفَ على يمين فرأى خَيْراً منها فليُكفِّرْ عن يمينه وليَأْتِ الذي هو خير**»، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ [النور: ٢٢] قال الشاعر: [الطويل]

وإني إذا أوْعَدْتُهُ أو وَعَدْتُهُ ... لمُخْلِف إيعادي ومُنْجز مَوْعدي

وإنما عوقب بالكفارة لأنه أمر بمكارم الأخلاق واليمين على ترك فعل الخير من مذام الأخلاق فعوقب بالكفارة، وهو عندنا على غير الوجه الذي هو عند العامة من الفقهاء فإن الله قد جعل لنا عيناً ننظره به، وهو أن المسيء في حقنا الذي خيرنا الله بين جزائه بما أساء وبين العفو عنه أنه لما أساء إلينا أعطانا من خير الآخرة ما نحن محتاجون إليه حتى لو كشف الله الغطاء بيننا وبين ما لنا من الخير في الآخرة في تلك المساءة حتى نراه عياناً لقلنا أنه ما أحسن

أحد في حقنا ما أحسن هذا الذي قلنا عنه إنه أساء في حقنا، فلا يكون جزاؤه عندنا الحرمان فنعفو عنه فلا نجازيه ونحسن إليه مما عندنا من الفضل على قدر ما تسمح به نفوسنا فإنه ليس في وسعنا، لا يملك مخلوق في الدنيا ما يجازي به من الخير من أساء إليه ولا يجد ذلك الخير ممن أحسن إليه في الدنيا، ومن كان هذا عقده ونظره كيف يجازى المسيء بالسيئة إذا كان مخيراً فيها؟ فلما آلى وحلف من أسيء إليه فما وفى المسيء حقه وإن لم يقصد المسيء إيصال ذلك الخير إليه ولكن الإيمان قصده فينبغي له أن يدعو له إن كان مشركاً بالإسلام، وإن كان مؤمناً بالتوبة والصلاح ولو لم يكن ثم إخبار من الله بالخير الأخرويّ لمن أسيء إليه إذا صبر ولم يجاز لكان المقرر في العرف بين الناس كافياً فيما في التجاوز والعفو والصفح عن المسيء فإن ذلك من مكارم الأخلاق، ولولا إساءة هذا المسيء إلي ما اتصفت أنا ولا ظهرت مني هذه المكارم من الأخلاق كما أني لو عاقبته انتفت عني هذه الصفات في حقه وكنت إلى الذم أقرب مني إلى أن أحمد على العقاب، فكيف والشرع قد جاء في ذلك بأن أجر من يعفو ويتجاوز ولا يجازي أنه على الله، فقد علمت أن قوله: «**وقتاً وفيت ووقتاً لم أف**» أن ذلك راجع للوعد والوعيد بوجه، وراجع لما في خلق الله من الوفاء وعدم الوفاء من كونهم ما فعلوا الذي فعلوه إلا بمشيئة الله فهو بالأصالة إليه ولهذا قال: فلا تعترض إلا أن يكون الحق هو المعترض بأمره إياك أن تعترض فاعترض فإنه لا فرق عند ذلك بين أن تعترض أو تقيم الحد إذا كنت من أولي الأمر فيمن عين لك أن تقيمه حتى لو تركته لكنت عاصياً مخالفاً أمر الله، فالمؤمن العالم المستبرىء لنفسه لا يفوته أمثال هذه المشاهد والمواقف فإنه لا يزال باحثاً عن مكارم الأخلاق حتى يتصف بها ويقوم فيها قيام الأدباء الأمناء ويراعون الشريعة في ذلك، فربّ مكرمة عرفاً لا تكون مكرمة شرعاً، فلا تجعل أستاذك إلا الحق المشروع، فإذا أمرك فامتثل أمره وإذا نهاك فانته عما نهاك، وإذا خيرك فاعمل الأحب إليه والأرجح، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة لو كنت عند الناس كما أنت عندي ما عبدوني

[البسيط]:

لو أنّ جِنسَكَ والأكْوانَ أجْمَعها ... يَدْرُونَ منك الذي أَدْريه ما عَبَدُوا
سواك إذ كُنْتَ مشهوداً لهم وأنا ... غَيْبٌ ولولا وجودُ الغيب ما جَحَدُوا
إني حَجبْتُكَ عن قوم بصُورتك الدُّنـ ... ـيَا ولو علموا القُصْوَى لما عَبَدُوا
لو أنهم عَلِمُوا الأسماءَ ما وقفوا ... مع المثال ولم يَصْرِفْهُمُ الجَسَدُ
ولا تَغَيُّرُ أحوالٍ تقوم بهم ... ولا تَرَاكُبُ أضدادٍ ولا عَدَدُ
وكل ذلك مخصوصٌ بصورتنا ... وليس ينكرُه في ذاتنا أحَدُ
لكنهم غلطوا فينا وقام بهم ... لمثلهم حين لم أعْصِمْهُمُو حَسَدُ

قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: ٣٠] وقال لبعض خلفائه ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦] ومن هنا تعرف مراتب الناس من الخلفاء وأن الخلفاء يفضل بعضهم بعضاً. وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ وَمَا خَلَقَهُ حَتَّى اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ وَمَا اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ إلاَّ الرَّحْمٰنُ**» ولما عمت رحمة الله أبا يزيد البسطامي ولم ير للكون فيها أثراً يزيل عنها حكم العموم قال للحق: لو علم الناس منك ما أعلم ما عبدوك، وقال له الحق تعالى: يا أبا يزيد لو علم الناس منك ما أعلم لرجموك. فاعلم أن الذي يريد أن يستنيب في عباده من يقوم فيهم مقامه لا بد أن يكسوه صفته ونعته فيكون الخليفة هو الظاهر والذي استخلفه الباطن، فيكون كسور الأعراف باطنه فيه الرحمة لأنه الحق الذي غلبت رحمته غضبه وظاهره من قبله العذاب، فما العذاب في ظاهره وإنما العذاب قبله فيراه قبلاً ممن استخلف عليهم، وقد حد الحق حدوداً له يعاملهم بها ليكون إذا قام بها عند المؤمن بها وبه محموداً لا يتطرق إليه ذم كما لا يتطرق لمن استخلفه ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠] فلا يذمه إلا من لا يعرفه ولا يعرف الله، فالراحم منا من له رحمتان: رحمة طبيعية وهي ذاتية له اقتضاها مزاجه، ورحمة موضوعة فيه من الله بخلقه على الصورة، وهذه الرحمة تتضمن مائة رحمة التي لله فإن لله مائة رحمة بعدد أسمائه، فإن له تعالى تسعة وتسعين اسماً ظاهرة وأخفى المائة للوترية فإنه يحب الوتر لأنه وتر، فلكل اسم رحمة، وإن كان من أسمائه المنتقم ففي انتقامه رحمة سأذكرها في باب الأسماء الإلهية من هذا الكتاب إن شاء الله، فللرحيم من العباد مائة رحمة ورحمة من أجل الوترية فإنه يحب الوتر لأنه يحب الله، ودرجات الجنة مائة درجة لكل درجة رحمة، وللنار مائة درك في كل درك رحمة مبطونة تظهر لمن هو في ذلك الدرك بعد حين فإن الغضب مغلوب وبالرحمة مسبوق، فما يظهر في محل إلا والرحمة قد سبقته إلى ذلك المحل فيغالبها فتغلّبه لأن الدفع أهون من الرفع، فلا حكم للغضب في المغضوب عليه إلا زمان المغالبة خاصة فإن هذا المحل هو ميدانهما فينال هذا المحل من المشقة فيما يطرأ بين الرحمة والغضب بقدر ما تدوم المحاربة بينهما إلى وقت غلبة الرحمة، وبالرحمة الطبيعية تقع الشفاعة من الشافعين لا بالرحمة الموضوعة، فإن الرحمة الإلهية الموضوعة يصحبها في العبد العزة والسلطان فهي لا عن شفقة، والرحمة الطبيعية عنها تكون الشفقة، ولو لم تصحب الرحمة الإلهية العزة وتتنزه عن الشفقة ما عذب الله أحداً من خلقه أصلاً، فهذه الرحمة التي يجدها العبد على خلق الله هي حكم الرحمة الطبيعية لا الرحمة الموضوعة فإن الرحمة الموضوعة لا تقوم إلا بالخلفاء، ألا ترى الإنسان إذا رأى الخليفة يعاقب ويظلم ويجور على الناس كيف يجد الشفقة على المظلومين المعاقبين ويقول ما عنده رحمة ولو قمت أنا مقامه لرحمتهم ولرفعت هذا الظلم عنهم، فإذا ولي هذا القائل ذلك المنصب حجبه الله عن الرحمة الطبيعية التي تورث الشفقة وجعل فيه الرحمة التي تصحبها العزة والسلطان فيرحم بالمشيئة لا بالشفقة ولا للحاجة لأنه العزيز الغنيّ في نفسه فيظلم ويعاقب ربما أكثر من الآخر الذي

كان يذمه على ذلك قبل حصوله في مقام الخلافة، فإذا قيل له في ذلك يقول: والله ما أدري إذا لم يكن عالماً فإني لا أجد في نفسي إلا ما ترون، والآن قام لي عذر الذي تقدمني فيما كان يفعله وكنت أجد عليه في ذلك وأخبرني صادق أن مثل هذا وقع من الإمام الناصر لدين الله رحمه الله أحمد بن الحسن مع أبيه المستضيء بحضور الوزير وأنه عتب مع الوزير في حق أبيه فلما أفضت إليه الخلافة ظهر منه ما ظهر من أبيه مما أخذه عليه فنبهه الوزير على قوله فقال: الحال الذي كنت أجده في ذلك الوقت ذهب عني وما أجد الساعة إلا ما ترى أثره والآن قام عندي عذر أبي رحمه الله. فمضمون هذه المنازلة أن الله أنشأ المحمدي على ما أنشأ عليه محمداً ﷺ فأنشأه بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، وأرسله رحمة للعالمين، حتى أن دعاءه على رعل وذكوان من الرحمة بهم لئلا يزيدوا طغياناً فيزدادوا من الله بعداً ومن رحمته قال: لأزيدنّ على السبعين، أو قال: لو علمت أن الله يغفر لهم لزدت على السبعين إذ قيل له: إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، فلو عرف الناس من محمد ﷺ ما علم الله منه بما جبله الله عليه ما عبد الله أحد بما كلفه بل كان الناس يتبعون أهواءهم بعلم لأنّ الله ما أخذ من اتبع هواه إلا لكونه اتبع هواه بغير علم، فحرمان الجهل أوقع بهم، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ [الروم: ٢٩] ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠] وقوله تعالى لداود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [صَ: ٢٦] ولم يقل عن الله، وسبيل الله ما شرعه لدار القرار التي هي محل سعادتك، وأما تمام الآية فهو من أعجب الإشارة الإلهية لأهل الفهم عن الله وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [صَ: ٢٦] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة من عرف حظه من شريعتي عرف حظه مني فإنك عندي كما أنا عندك مرتبة واحدة

[مجزوء الرجز]:

من كان لي كنتُ له ... كمِثْلِ ما هُوْ لا أزِيدْ
فالشرعُ غَيْبٌ ظاهرٌ ... له مقاماتُ العَبِيدْ
يستخدمُ الكَوْنَ كما ... يخدمه بلا مَزِيدْ
فمن يفي بعَهْده ... فَهْوَ وَفِيٌّ بالعُهُوذْ
له النزولُ نحونا ... كما لنا عينُ الصعودْ
إليه في أعمالنا ... وهو الحفيظ والشَّهِيدْ
فخَصَّنا بلَذّة الكـ ... ـشف ولذّاتِ الشُّهُودْ

قال الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] رأيت سائلاً يسأل شخصاً بوجه الله أو بحرمة الله عندك أعطني شيئاً ومعي عبد صالح يقال له مدوّر من أهل أسبجة ففتح الرجل صرة

فيها قطع فضة صغار وكبار فأخذ يطلب على أصغر ما فيها من القطع فقال لي العبد الصالح: أتدري على ما يطلب؟ قلت له: قل، قال: على قيمته عند الله وقدره، فكلما أخرج قطعة كبيرة يقول بلسان الحال: ما نساوي مثل هذه عند الله فأخرج أصغر ما وجد فأعطاه إياها، إلا أن الله وصف نفسه بالغيرة وعلم من أكثر عباده أنهم يهبون جزيل المال وأنفسه في هوى نفوسهم وأغراضهم فإذا أعطى أكثرهم لله أعطى كسرة باردة وفلساً وثوباً خلقاً وأمثال هذا هذا هو الكثير والأغلب، فإذا كان يوم القيامة وأحضر الله ما أعطى العبد من أجله بينه وبين عبده حيث لا يراه أحد فأحضر ما أعطى لغير الله فيقول له: يا عبدي أليست هذه نعمتي التي أنعمت بها عليك؟ أين ما أعطيت لمن سألك بوجهي، فيعين ذلك الشيء التافه الحقير ويقول له: فأين ما أعطيت لهوى نفسك فيعين جزيل المال من ماله فيقول: أما استحييت مني أن تقابلني بمثل هذا وأنت تعلم أنك ستقف بين يدي وسأقررك على ما كان منك؟ فما أعظمها من خجلة، ثم يقول له: قد غفرت لك بدعوة ذلك السائل لفرحه بما أعطيته لكني قد ربيتها لك وقد محقت ما أعطيته لهوى نفسك فإن صدقتك أخذتها وربيتها لك فيحضرها أمام الأشهاد وقد رجع الفلس أعظم من جبل أحد، وما أعطى لغير الله قد عاد هباء منثوراً، قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. فالعارفون بالله صغيرهم كبير وكبيرهم لا أعظم منه فإنهم لا يعطون لله إلا أنفس ما عندهم وأحقر ما عندهم فكلهم لله وكل ما عندهم لله العبد وما يملكه لسيده فيعطون بيد الله ويشاهدون يد الله هي الآخذة وهم مبرؤون في العطاء، والأخذ مع غاية الاستقامة والمشي على سنن الهدى والأدب المشروع، فيكونون عند الحق بمنزلة ما هو الحق في قلوبهم، يعظمون شعائر الله وحرمات الله فيعظمهم الله يوم يقوم الأشهاد بمرأى منهم ويقيم الآخرين على مراتبهم فذلك يوم التغابن فيقول فاعل الشر: يا ليتني فعلت خيراً، ويقول فاعل الخير: ليتني زدت، والعارف لا يقول شيئاً فإنه ما تغير عليه حال كما كان في الدنيا كذلك هو في الآخرة أعني من شهوده ربه وتبريه من الملك والتصرّف فيه، فلم يقم له عمل مضاف إليه يتحسر على ترك الزيادة منه وبذل الوسع فيه، وما كان منهم من زلل مقدر وقع منهم بحكم التقدير، فإن الله يتوب عليهم فيه بتبديله على قدر الزلة سواء لا يزيد ولا ينقص، فإن العارف في كل نفس تائب إلى الله في جميع أفعاله الصادرة منه توبة شرعية وتوبة حقيقية، فالتوبة المشروعة هي التوبة من المخالفات، والتوبة الحقيقية هي التبري من الحول والقوة بحول الله وقوته، فلم يزل العارف واقفاً بين التوبتين في الحياة الدنيا في دار التكليف، فإن كان له اطلاع إلهي على أنه قد قيل له افعل ما شئت فقد غفرت لك فإن ذلك لا يخرجه عن تبريه ولم تبق له بعد هذا التعريف توبة مشروعة لأنه بين مباح وندب وفرض لا حظ له في مكروه ولا محظور، لأن الشرع قد أزال عنه هذا الحكم في الدار الدنيا، ورد ذلك في الخبر الصحيح عن الله في العموم وفي أهل بدر في الخصوص لكنه في أهل بدر على الترجي وفي وقوعه في العموم واقع بلا شك، فمن أطلعه الله عليه من نفسه بأنه من تلك الطائفة فذلك بشرى من الله في الحياة الدنيا قال الله

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٦٣و ٦٤] هذا حال المؤمن المتقي فكيف بحال العارف النقي الذي ما لبس ثوب زور وما زال نوراً في نور، فمن حافظ على آداب الشريعة وأعطى الطبيعة ما أوجب الله عليه من حقها وما تعدى بها منزلتها كان من العارفين الأدباء وأصحاب السرّ الأمناء، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة من قرأ كلامي رأى غمامتي

فيها سرج ملائكتي تنزل عليه وفيه فإذا سكت رفعت عنه ونزلت أنا

[الوافر]:

كلامي ليس غيري وهو غيري ... وإنَّ المِثْلَ للأمْثَال ضِدُّ
فقُلْ للعارفين إذا قرأتم ... كلامَ الله فالوجدان فَقْدُ
دليلي في شهادته حروفٌ ... وفي الغيب المعاني وهي حَدُّ
وأُسبلت الستور فما رآه ... فعين القرب في التحقيق بُعْدُ
فمن قرأ القُران فلا يُفكِّرْ ... ولا ينظرْ فإن السِّمَّ شَهْدُ

قال الله تعالىٰ في آية طالوت: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٤٨] وأنزلها الله في قلوب المؤمنين من أمة محمد ﷺ، وبهذا وأمثاله كانت هذه الأمة المحمدية ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] قال الله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤] فما كان شهادة في غير هذه الأمة نزل غيباً في هذه الأمة فوجده أهل الأذواق في قلوبهم فكانت صفة من صفاتهم، وكانت فيمن تقدم هذه الأمة من الأمم أجنبية عنها، فعلامة هذه الأمة في قلوبهم استفت قلبك وإن أفتاك المفتون ومع كونها منزلة في قلوبهم ثم أشهدها الله تعالىٰ بعض أصحاب محمد ﷺ في تلاوته القرآن وكانت له فرس فجعلت تخبط فرفع رأسه فرأى غمامة فيها سرج كلما قرأ نزلت ودنت منه وإذا سكت ارتفعت، فلما ذكر ذلك لرسول الله ﷺ قال له رسول الله ﷺ: **«تلك السَّكينةُ نزلتْ للقرآن»**، فرأى هذا الصاحب ممثلاً خارجاً عنه ببصره ما كان فيه، فكان الحق له مرآة رأى صورة ما في قلبه فيها، فإن القرآن ذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] كذا ذكر الله لنا في كتابه العزيز، والطمأنينة سكينة أنزلها القرآن في قلوب المؤمنين، فكانت آيات بني إسرائيل ظاهرة وآياتنا في قلوبنا، وهذا الفرق بين الورثة المحمديين وسائر الأنبياء، فورثة الأنبياء يعرفون في العموم بما يظهر عليهم من خرق العوائد، ووارث محمد ﷺ مجهول في العموم معلوم في الخصوص لأنّ خرق عادته إنما هو حال وعلم في قلبه، فهو في كل نفس يزداد علماً بربه علم حال وذوق لا يزال كذلك. وقد نبّه الجنيد على ذلك باختلاف أجوبته عن المسألة الواحدة من التوحيد في المجلس الواحد

لاختلاف دقائق الزمان، ذكر ذلك القشيريّ في صدر رسالته المنسوبة إليه، وكلما ازداد المحمديّ علماً بربه ازداد قرباً فهم المقرّبون، وأحوالهم الظاهرة تجري بحكم العوائد فيعرفون ولا يعرفون، ويأتون بما أعطاهم الله من العلم به في طريق النصح لهذه الأمة، فلا تعرف العامة قدر ذلك لأنها اعتادت من علماء الرسوم مثل هذا إذا تكلموا في العلم بالله عزّ وجلّ من طريق الدليل ولم تفرق بين علم الدليل وبين علم الذوق، وأما علماء الرسوم فيكفرونهم غالباً مع كونهم يسلمونه لرسول الله ﷺ بعينه إذا نقل عنه في قرآن أو خبر إلهي وغير إلهي، فانظر ما أشدّ هذا العمى، ولولا أنّ رسول الله ﷺ بعثه رسولاً ما ظهرت عليه آية ظاهرة في العموم كما ظهرت على من تقدم، فما ظهر عنه ﷺ من الآيات المنقولة في العموم إنما كان ذلك من كونه رسولاً رفقاً من الله تعالىٰ بهذه الأمة وإقامة حجة على من كذبه وكذب ما جاء به، ألا ترى إلى رسول الله ﷺ كيف أسري به إلى المقام الذي قد عرف وجاء به القرآن والخبر الصحيح، فلما خرج إلى الناس بكرة تلك الليلة وذكر للأصحاب ما ذكر ممّا جرى له في إسرائه بينه وبين ربه تعالىٰ أنكر عليه بعض أصحابه لكونهم ما رأوا لذلك أثراً في الظاهر بل زادهم حكماً في التكليف، وموسىٰ عليه السلام لما جاء من عند ربه كساه الله نوراً على وجهه يعرف به صدق ما ادّعاه فما رآه أحد إلاّ عمي من شدّة نوره، فكان يتبرقع حتى لا يتأذى الناظر إلى وجهه عند رؤيته. وكان شيخنا أبو يعزى بالمغرب موسويّ الورث فأعطاه الله هذه الكرامة فكان ما يرى أحد وجهه إلاّ عمي فيمسح الرائي إليه وجهه بثوب ممّا هو عليه فيرد الله عليه بصره، وممّن رآه فعمي شيخنا أبو مدين رحمة الله تعالىٰ عليهما حين رحل إليه فمسح عينيه بالثوب الذي على أبي يعزى فردّ الله عليه بصره وخرق عوائده بالمغرب مشهورة وكان في زماني وما رأيته لما كنت عليه من الشغل، وكان غيره من الأولياء المحمديين ممّن هو أكبر منه في العلم والحال والقرب الإلهي لا يعرفهم أبو يعزى ولا غيره، فمن جعل الله آيته في قلبه وكان على بينة من ربه في قربه فقد ملأ يديه من الخير كله واختصه واصطنعه لنفسه وكساه الصفة الحجابية غيرة منه عليه، فلم تشهد حاله الأبصار في الدنيا وهم الأخفياء والأبرياء، فمن تحققهم بالحق وليسوا برسل مشرعين حجبهم الحق لاحتجابه إلى يوم القيامة، فيظهرهم الله في الموطن الذي يتجلى الله فيه لأبصار عباده ويظهر بنفسه وعينه للخاص والعام، فهناك يعرف قدر المحمديّ في القرب الإلهيّ بمقامه في تلاوته كلام ربّه عزّ وجلّ وهو سكونه لما يتلوه من كشفه واطلاعه على معانيه، فهو في حال تلاوته يستذكر ما عنده فيطلع على نفسه ويسمعه الله نثر كلامه ونظمه بتأييد الروح القدسي لما جاء في النظم المسمّى شعراً من نفخ الشيطان إلاّ مثل هذا النظم، وقد صحّ في الخبر أن حسان بن ثابت لما أراد أن يهجو قريشاً ينافح بذلك عن رسول الله ﷺ قال له رسول الله ﷺ: **«قُلْ يَا حَسَّانُ فَإِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ يُؤَيِّدُكَ مَا دُمْتَ تُنَافِحُ عَنْ عِرْضِ رَسُولِ الله»** فلم يجعل للشيطان عليه سبيلاً، وإذا كان هذا لمن ينافح فما ظنك بحال من ينطق عن الله بالله، فيكون القائل منه عند قوله ربّه عزّ وجلّ كما ورد في الصحيح أن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده في الصلاة،

والحاضرون ما سمعوا إلاّ صوت المصلي وكلامه بهذا المتكلم به ما ينسبه الحق تعالىٰ جلاله إلاّ إلى نفسه لا إلى المصلي، فاعلم أيها الوليّ الحميم ذلك تسعد إن شاء الله [الوافر]:

كلامي ليس غَيْري وهو غَيْري كما قلنا رَمَيْتَ وما رَمَيْتَا
فيا نَفْسي إذا طَلَبَتْ نفوسٌ بمشهدك التحاماً قُولي هَيْتَا
ولا تَبْخَلْ فإن البُخْلَ شُؤمٌ وتعلو بالعطاء إذا عَلَوْتَا
وكُنْ حَقّاً ولا تظهر بزُورٍ وكن عين القُران إذا تَلَوْتَا
لأن الله لم يسمع لعبدٍ يناديه بما يَتْلُوه صَوْتَا
فإنْ يتلو بحقّ قال عبدي وكان خَالَهُ المشهودُ مَيْتَا
لأن الحَقَّ ليس يراه حَيٌّ لذا كتبوا على الأحياء مَوْتَا

فكل من تلا وسكن لما تلا بصدق بصورة ظاهر وحكمة باطن فذلك تال وصاحب سكينة، فإن هو تلا وسكن ظاهراً ولم يسكن باطناً والسكون الباطن فهم المعنى الساري في الوجود من تلك الآية المتلوة لا يقتصر بها على ما تدل عليه في الظاهر خاصة، فمن تلا هكذا فليس بصاحب سكينة أصلاً ولا هو وارث محمديّ وإن كان من أمة محمد ﷺ، فإن تلا وسكن باطناً ولم يسكن ظاهراً وتعدّى الظاهر المشروع فذلك ليس بوارث ولا محمديّ ولا بمؤمن وهو أبعد الناس من الله، فإن الروح القدسيّ أوّل من يرميه ويرمى به والنبيّ محمد ﷺ يقول لربّه فيه يوم القيامة سحقاً سحقاً والله عند ذلك لا يسعده ولا يساعده، وأعظم حسرة تقوم به إذا عاين يوم القيامة من سكن إليه إذا تلاه ظاهراً وباطناً فيرى ما سكن إليه باطناً قد سعد به هذا الآخر وشقي هو به، وما شقي إلاّ بعدم سكون الظاهر فيفوته خير كثير حين فاته الإيمان به فإنه أتى البيت من ظهره لم يأته من بابه، جعلنا الله وإياكم ممّن تلا فسكن. وفي التلوين في تلاوته بحسب الآيات ثبت وتمكن، إنه الملي بذلك والقادر عليه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة قاب قوسين الثاني الحاصل بالوراثة النبوية للخواص منا

[الرمل]:

قَابَ قَوْسَيْنِ لنا من قَبْلِنَا قَابَ قوسين لمن أُسْرِيَ بِهْ
غير أنّي وارثٌ مستخدمٌ ولذا نِلْنَاه منه فانْتَبِهْ
فحلالٌ وحرامٌ بَيِّنٌ ما هنا بينهما من مُشْتَبِهْ
إنما الشُّبْهَةُ من قال أنا عَيْنُ من أَسْرَى به ما أنا بِهْ
وهو يَدْري أنه وارثه ليس يدري ذاك غيرُ المُنْتَبِهْ

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وقال ﷺ: «**العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**» وذكر أن الأنبياء ورثوا العلم ما

ورثوا ديناراً ولا درهماً، فالوارث مستخدم بالمعنى من ورث منه ما جمعه غير أنّ الموروث في مثل هذا الورث ما نقصه شيء من علمه بوراثة الوارث منه ففارق ميراث الدينار والدرهم بهذه الحقيقة، والله يرث الأرض ومن عليها ممّا تعلق به علمه من العلم الابتلائيّ، فهذا هو قدر ميراث الحق من عباده وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ فاستخدمهم بما ابتلاهم حتى يعلم ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ من عباده ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] ويبلو أخبارهم، وما عدى هذا النوع في حق الحق فهو علم لا علم وراثة، فكأن الورثة من طريق المعنى استخدموا من ورثوا منه العلم الذي حصله من الله بحكم الكسب ابتداء وبحكم التكليف، كل ذلك ورثوا منه الورثة من علماء الأمم، وممّا ورثوا منه قرب قاب قوسين وهو قولنا الثاني أعني الذي ينبغي للأولياء من هذا التقريب المحمدي ممّن قرب منه هذا القرب، فالأوّل من ذلك له ﷺ، والثاني للوارث وهو عينه، وإنما جعلناه ثانياً لكونه ما حصل له حتى تقدم به هذا الرسول المعين ﷺ فناله منه فهو في غاية البيان لا يقبل الشبه هذا العلم الموروث مثل ما يقبلها العلم النظري، ولهذا نبّه أبو المعالي لما ذكر النظر قال بحصول العلم عقيب النظر ضرورة، فلو كان ذلك العلم الحاصل عقيب النظر نتيجة النظر ضرورة لما قبل الدخل بعد ذلك ولا الشبهة مثل ما لا يقبل ذلك العلم الضروري، فتأوّلوا على إمام الحرمين ما لم يقصده بكلامه، وإنما أراد رضي الله عنه ما أردناه أنّ النظر جعله الله سبباً من الأسباب يفعل الأشياء عنده لا به، فإذا وفى النظر في الدليل حقّه خلق الله له العلم الضروري في نفسه ليس غير هذا، فاعتماده على العلم الضروري الذي لا يقبل الشبه، فإن لم يخلق له العلم الضروري فهو العالم الذي يقبل الدخل فيما علمه فيعلم عند ذلك أنه ما علمه علماً ضرورياً، ولهذا ما يقبل الدخل إلاّ دليله لا ما يقول أنه علمه عقيب النظر فرجوعه أو توقفه عمّا كان أنتج له ذلك الدليل أخرجه أن يكون ذلك عنده علماً ضرورياً، فليفرق الوارث في علمه بربه بين ما يأخذه ورثاً وبين ما يأخذه ابتداء من غير ورث، فأي عامل من العاملين عمل بأمر مشروع له من نص لا من تأويل وحصل له عن ذلك العمل علم بالله فهو من العلم الموروث.

ثم إنه لا يخلو ذلك النص المعمول به هل كان شرعاً لمن قبل محمد ﷺ أو لم يكن إلاّ من الشرع المختص به لا من الشرع المقرّر الذي قرّره لأمّته ممّا كان الله قد تعبد به نبياً قبله، فوارث مثل هذا وارث من كان ذلك العمل شرعه من الأنبياء بلغوا ما بلغوا، ووارث أيضاً محمداً ﷺ فيه فهو وارث من وارث، فإن كان ممّا اختصّ به رسل الله ﷺ فالوارث وارث محمد ﷺ فيه خاصة لا ينتسب إلى غيره من الأنبياء عليهم السلام، ويتميز بذلك عن سائر ورثة علماء الأنبياء عليهم السلام قبله، ويحشر بذلك العلم في صفوف الأنبياء عليهم السلام وخلف محمد ﷺ، فإن نشأة الآخرة تشبه في بعض الأحكام النشأة البرزخية فترى نفسها وهي واحدة في صور كثيرة وأماكن مختلفة في الآن الواحد، فيرى نفسه إن كان ورث عن وارث خلف محمد ﷺ وخلف كل نبيّ كان ذلك العمل شرعاً له، ولو كانوا مائة ألف لرأى نفسه في أماكن على عددهم وفي صور، ويعلم أنه هو وليس غيره في كل

صورة، وهو مع كونه واحداً عين كل صورة وهكذا يكون يوم القيامة، فإن النبي ﷺ يطلبه الناس في مواطن القيامة فيجدونه من حيث طلبهم في كل موطن يقتضيه ذلك الطلب في الوقت الذي يجده الطالب الآخر في الموطن الآخر بعينه، فمن لم يجده في طلبه في موطن ما فإنما ذلك لكونه طلبه في غير الموطن الذي يقتضيه طلبه، فإن طلبه في موطن اقتضى حاله الجهل لوجده، فذلك الجهل إذا وقع إن وقع فسببه ما ذكرناه وهو غير واقع والله أعلم.

ثم نرجع ونقول: وإن كان ذلك العمل الذي أقيم فيه العبد لا عن نص مشروع بل كان قلّد فيه مجتهداً من علماء الأمّة صاحب نظر وتأويل فيما حكم به لا عن نص من ذلك المجتهد اتبعه فإنه يكون يوم القيامة وارث ذلك المجتهد ومتبعاً إياه ومتبعاً أيضاً، والنبيّ ﷺ وإن كان ذلك في نفس الأمر شرعاً له كما تقدم، وإن كان العامل لا عن نص ولا عن تقليد بل كان عن نظر واجتهاد وتفقه فهذا لا يكون وارثاً في مثل هذه المسألة إلاّ إن أصاب الحكم فيها، فإن أصاب الحكم كان وارثاً وإن أخطأ الحكم لم يكن وارثاً ويحشر في صف من هذه صفته ولهم صف مخصوص، ثم هم في المواطن بحسب ما يكون عليه ذلك الحكم من مصادفة من تقدمه أنه شرع له، فتكون له صور متبعة خلف ذلك الموروث منه كان من كان والكل خلف محمد ﷺ، وتختلف مراتبه خلف رسول الله ﷺ وخلف الرسل عليهم السلام لاختلاف ما ظهر له في الذي عمل به، فإن انفرد به جملة عن كل رسول ونبيّ ومجتهد فإنه يكون أمة وحده كقس بن ساعدة قال فيه رسول الله ﷺ أنه يبعث يوم القيامة أمة وحده مع كونه خلف محمد ﷺ لا بدّ من ذلك من حيث إنه ﷺ أعطاه المادّة التي نظر فيها حتى انقدح له ما لم يخطر له إلاّ في تلك المسألة النازلة وأخطأ فيها حكم رسول الله ﷺ لا بدّ من ذلك بخلاف حكم المصيب، فتحقق هذه المنازلة فإنها غريبة في المنازلات قليل من أهل الله من تكون له فإنها تنبىء عن تحقيق عظيم وذوق غريب ورفع إشكال، وليس يكون في القيامة أدل ولا أعرف بمواطن القيامة ولا بصور ما فيها أعظم من صاحب هذه المنازلة ولا تحصل إلاّ بالوهب الإلهيّ لمن حصلت له، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأربعون وأربعمائة

في معرفة منازلة اشتد ركن من قوي قلبه بمشاهدتي

[البسيط]:

إنّ القويَّ الذي ما زال يَشْهَدُني ... عند الشؤون وما في الحَقّ من حَرَجِ
فمن يُعانِدُني فيما أَفُوهُ به ... من الحقائق فَلْيَرْقَ على دَرَجي
ولو يراه لَفَدَّاهُ بناظره ... وبالنفوس وبالأرواح والمُهَجِ
لكِنْ له حُجُبٌ على العيون فَهُمُ ... في الضيق في الملأ العلويّ في فَرَجِ

إني مريضٌ عليلُ القلبِ مبتئسٌ — في الذلّ والمقلةِ النجلاءِ والدَّعَجِ
إني لفي ظُلُماتٍ من تراكُمِها — غَرِقْتُ من بحرها اللُّجّيِّ في اللُّججِ
الناسُ في سِيفِ هذا البحر في نِعَمٍ — أينَ السواحلُ يا هذا من الثَّبَجِ

قال الله عزّ وجلّ جلاله حكاية عن نبيه لوط عليه السلام إذ قال لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] فقال رسول الله ﷺ في الصحيح عنه: **«يَرْحَمُ الله أَخِي لُوطاً لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»** يعني من القبيلة، فاعلم أن أقوى الأقوياء من كان الحق قواه ومع هذه القوّة بهذه الصفة، فما يكون إلاَّ ما سبق به الكتاب، ولا كتب إلاَّ ما علم، وما علم إلاَّ ما هو عليه المعلوم ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤] ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] فقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ [هود: ٨٠] أي همّة فعالة، ومن كان الحق قواه فلا همة تفعل فعل من هذه صفته لكن الأمر على ما قرّرناه من سبق الكتاب فلا يقع إلاَّ ما هو الأمر عليه فأداة أو أنما أعطته عطاها الإمكان لا غير، فلو أراد بالقوّة إظهار الأثر الذي جاء به فيهم وأراد بالركن الشديد إذ لم يتمكن الأثر فيهم أن يحمي نفسه عنهم حتى لا يؤثروا فيه فلهذا ﷺ ذكر الأمرين: القوّة والإيواء، ولا شك أن الرسل عليهم السلام هم أعلم الناس بالله فلا يأوون إلاَّ إلى الله وهو قوله ﷺ: **«يَرْحَمُ الله أَخِي لُوطاً لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»** يعني بذلك إيواءه إلى الله فأوى إلى من يفعل ما يريد ولا اختيار في إرادته ولا رجوع عن علمه، فآوى إلى من لا تبديل لديه [الطويل]:

فما الجَبْرُ إلاَّ ظاهرٌ مُتَحَقِّقٌ — فما ثَمَّ تخييرٌ وما ثَمَّ مُنْقَلَبْ
فلا تَهْرُبَنْ فالأمر ما قد سَمِعْتَهُ — فإن لم تُوافِقْهُ فما ينفعُ الهَرَبْ
فعِلْمُ إلٰهي عَيْنُ حالي فما أنا — عليه فأمْلِيهِ عليه إذا كتبْ
فأنت سَبَقْتَ القولَ والعلمَ والذي — يؤدّي إلى الفوز العظيم أو العَطَبْ

فلا ركن أشد من ركنك وما نفعك، وإنما قلنا إنك أشدّ الأركان من كون القضاء ما جرى عليك إلاَّ بما كسبت يداك وهو ما أعطته قدرتك، فأضاف الفعل إليك وليس إلاَّ ما قررناه من أنه ما علم منك إلاَّ ما أنت عليه، فإذا وها ركنك بالنظر إلى غرضك فلم نفسك فإن الحق المحكوم به تابع أبداً لحال المحكوم به عليه، فالمحكوم عليه هو الذي جنى على نفسه لا الحاكم بالمحكوم به، وإنما تعددت الأركان من أجل الحجب التي أرسلها الحق بينك وبين الأصل، وكون الأمر جعله مثل البيت على أربعة أركان: ركن العلم، وركن القول وهو قوله عزّ جلّ: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩] وركن المشيئة، وركن الأصل وهو أنت، وهو الركن الأول من البيت والثلاثة الأركان توابع، فمن الناس من استند في حاله إلى علم الله فيه، ومنهم من استند إلى مشيئته، ومنهم من استند إلى ما كتب الله عليه، وصاحب الذوق من يرى جميع ما ذكرناه ووقف مع نفسه وقال: أنا الركن الذي مرجع الكل إليه، فهو الأول الذي انبنى من هذا البيت ولكن صاحبه عزيز فإن الصحيح عزيز، فالكل معلول عندهم وعندي أن

العالم هو عين العلة والمعلول ما أقول أن الحق علة له كما يقوله بعض النظار فإن ذلك غاية الجهل بالأمر، فإن القائل بذلك ما عرف الوجود ولا من هو الموجود، فأنت يا هذا معلول بعلتك والله خالقك، فافهم واعلم أنه من أوجدك له لا لك ففي حق نفسه عمل لا في حقك فما أنت المقصود لعينك، قال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فذكر ما ظهر وهو مسمّى الإنس، وما استتر وهو مسمّى الجن، فإذا نظرت إلى هذا الخبر وسعدت أنت بهذه الوجوه فإنما سعدت بحكم التبعية، فاعلم ما يقول له إذا قرر عليك النعم فإنما يقررها عليك لسان الإمكان، فإن شئت فاسمع واسكت وإن شئت فتكلم كلاماً يسمع منك، وليس إلاّ أن تقول له ما قاله، فبكلامه تحتج إن أردت أن تكون ذا حجة، وإن تأدبت وسكت فإنه يعلم منك على ما سكت وانطويت عليه، فما كل حق ينبغي أن يقال ولا يذاع، ولا سيما في موطن الإشهاد والخصم قويّ والحاكم الله ولا يحكم إلاّ بالحق الذي سأل منه رسول الله ﷺ أن يحكم به في قوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢] ولولا ما هو الرحمن ما اجترأ العبد أن يقول: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ فإنه تعالىٰ ما يحكم إلاّ بالحق فإنه ما يتعدّى علمه فيه الذي أخذه منه أزلاً وظهر حكمه أبداً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والأربعون وأربعمائة

في معرفة منازلة عيون أفئدة العارفين ناظرة إلى ما عندي لا إليّ

[البسيط]:

لو كان عِنْدَكَ ما عندي لما نَظَرَتْ ... عُيُونُ أفئدةٍ للعارفين سِوَاكْ
فإن نَظَرْتَ بعين الجمع تَحْظَ بنا ... وإن نَظَرْتَ بأخرى كان ذاك هَوَاكْ
ما في الوجود وجودٌ غير خالقِه ... وما هنا عينُ شيء لا يكون هُنَاكْ
بل كلّه عينُه جَمْعاً وتفرقةً ... إن لم يَكُنْ هكذا كَوْني فليس بذَاكْ

قال الله عزّ وجلّ في العارفين: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] ولم يقل علموا ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣] ولم يقولوا علمنا ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٨٤] ولم يقل نعلم ﴿وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ﴾ [المائدة: ٨٤] وما قالوا نتحقق ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٤] وهي الدرجة الرابعة ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟﴾ [المائدة: ٨٥] ولم يقل بما علموا ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٥] والجنات عند الله، فلهذا قال ناظرة إلى ما عندي فإنه قال في حق طائفة آخرين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] على أن تكون إلى حرف أداة غاية لا تكون اسم جمع النعمة فإن ذلك في اللفظ يحتمل ولهذا ما هي هذه الآية نص في الرؤية يوم القيامة، وإذا كان الأمر هكذا فاعلم أن الله قد فرّق بين العارفين والعلماء بما وصفهم به وميّز بعضهم عن بعض، فالعلم صفته

والمعرفة ليست صفته، فالعالم إلهي والعارف رباني من حيث الاصطلاح، وإن كان العلم والمعرفة والفقه كله بمعنى واحد لكن يعقل بينهما تميز في الدلالة كما تميزوا في اللفظ، فيقال في الحق إنه عالم ولا يقال فيه عارف ولا فقيه، وتقال هذه الثلاثة الألقاب في الإنسان، وأكمل الثناء ثناؤه تعالىٰ بالعلم على من اختصّه من عباده أكثر ممّا أثنى به على العارفين، فعلمنا أن اختصاصه بمن شاركه في الصفة أعظم عنده لأنه يرى نفسه فيه فالعالم مرآة الحق ولا يكون العارف ولا الفقيه مرآة له تعالىٰ، وكل عالم عندنا لم تظهر عليه ثمرة علمه ولا حكم عليه علمه فليس بعالم وإنما هو ناقل والعلم يستصحب الرحمة بلا شك، فإذا رأيت من يدعي العلم ولا يقول بشمول الرحمة فما هو صاحب علم، فإن الرحمة تتقدم بين يدي العلم تطلب العبد ثم يتبعها العلم، هذا هو علم الطريق الذي درج عليه أهل الله وخاصته وهو قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] وهذا هو علم الذوق لا علم النظر.

واعلم أن العارفين هم الموحدون، والعلماء وإن كانوا موحدين فمن حيث هم عارفون إلاَّ أن لهم علم النسب فهم يعلمون علم أحدية الكثرة وأحدية التمييز وليس هذا لغيرهم، وبتوحيد العلماء وحّد الله نفسه إذ عرف خلقه بذلك، ولما أراد الله سبحانه أن يصف نفسه لنا بما وصف به العارفين من حيث هم عارفون جاء بالعلم والمراد به المعرفة حتى لا يكون لإطلاق المعرفة عليه تعالىٰ حكم في الظاهر فقال: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فالعلم هنا بمعنى المعرفة لا غير، فالعارف لا يرى إلاَّ حقاً وخلقاً، والعالم يرى حقاً وخلقاً في خلق فيرى ثلاثة لأن الله وتر يحب الوتر، فهو مع الله على ما يحبه الله مع الكثرة كما ورد: «**إِنَّ لله تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ اسْماً مِائَةَ إِلاَّ وَاحِد**» فإن الله وتر يحب الوتر، فما تسمى إلاَّ بالواحد الكثير لا بالواحد الأحد، وإنما قلنا في العارف إنه رباني فإن الله لما ذكر من وصفه بأنه عرف قال عنه إنه يقول في دعائه ربنا لم يقل غير ذلك من الأسماء، وقال رسول الله ﷺ فيه مثل ذلك: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وما قال علم ولا قال إلهه، فلزمنا الأدب مع الله تعالىٰ ومع رسوله ﷺ فأنزلنا كل أحد منزلته من الأسماء والصفات، ومن أراد تحقيق الفرق بين المعرفة والعلم فعليه بمطالعة ما ذكرناه في مواقع النجوم لنا فإني شفيت في ذلك الغليل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والأربعون وأربعمائة
في معرفة منازلة من رآني وعرف أنه رآني فما رآني

[الخفيف]:

مَن رَآني وقال يَوْماً رآني ... ما يراني غير الذي ما يراني
إن لله نَظْرَةً في وجودي ... وبها ربُّنا العَلِيُّ هداني
يذهب العلم إن نظرت إليه ... بجنان بفكره أو عَيَانِ
فدليلي يَنْفي الثُّبُوتَ ويَمْضي ... في سُلُوبٍ يُعْطِيكَها في بَيَانِ

وعـيـون تَـعَـلَّـقَـتْ بـمـثـال في كـشـوف يـكـون أو فـي جـنـان
هـو لا مُـدْرَكٌ بـعـيـن وعَـقْـلٍ والـذي تـدركُ الـجُـفُـونُ كـيـانـي

قال الله تعالىٰ إن موسىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] له ربه ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] لأنه قال: ﴿أَنظُرْ﴾ بالهمزة فلو قال بالنون أو بالياء والتاء ربما لم يكن الجواب: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ والله أعلم والسؤال مجمل في قوله: ﴿أَنظُرْ﴾ والجواب مجمل في قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾.

اعلم أن رؤية المرئي تعطي العلم به ويعلم الرائي أنه راء أمراً ما وقد أحاط علماً بما رآه، ورأينا الذي يرى الحق لا تنضبط له رؤيته إياه، وما لا ينضبط لا يقال فيه أن الذي رآه عرف أنه رآه، إذ لو رآه لعلمه وقد علم بتنوّع الصور عليه في ترداد رؤيته مع أحدية العين في نفس الأمر فما رآه حقيقة، فلا يعلم الحق إلاَّ من يعلم أنه ما رآه ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ﴾ بعيني فإن الرؤية بأداة إلى رؤية العين قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ بعينك لأن المقصود من الرؤية حصول العلم بالمرئي، ولا تزال ترى في كل رؤية خلاف ما تراه في الرؤية التي تقدمت فلا يحصل لك علم برؤية أصلاً في المرئي فقال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ فإني لا أقبل من حيث أنا التنوّع وأنت ما ترى إلاَّ متنوّعاً وأنت ما تنوّعت فما رأيتني ولا رأيت نفسك وقد رأيت فلا بدّ أن تقول: رأيت الحق وأنت ما رأيتني فلم تصدق أو تقول: رأيت نفسي وما رأيت نفسك فلم تصدق وما ثم إلاَّ أنت والحق ولا واحد من هذين رأيت وأنت تعلم أنك رأيت فما هذا الذي رأيت فلن تراني بعينك، فهل إذا كان الحق بصرك هل يمكن أن تصدق في أنك رأيته إذا رأيت؟ أو الحال واحدة في بصره إذا كان في مادة عينك أو بصرك؟ وهذا مشهد من مشاهد الحيرة في الله تعالىٰ، ولا تتعجب من طلب موسىٰ عليه السلام رؤية ربه فإنه ثم مقام يقتضي طلب الرؤية والإنسان بحكم الوقت فإن الوقت حكمه مطلق حقاً وخلقاً. وهذا القدر كاف في هذه المنازلة، فإن مجالها لا يتسع لأكثر من هذه العبارة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والأربعون وأربعمائة
في معرفة منازلة واجب الكشوف العرفاني

[البسيط]:

إنّ الـمـعـارفَ تُـعْـطـي واحـداً أبـداً فـواجـبُ الـكَـشْـفِ عِـرْفَـانٌ بـآحـادِ
فـإن تَـعَـدَّى إلـى ثـانٍ فـإن لـه من نفسه ولـه الإسعـادُ في النَّـادي
تـسـاعـدُ العِـلْـمَ وقـتـاً إذ يـسـاعـدُهـا الـعـلـمُ وقـتـاً فـإسـعـادٌ بـإسـعـادِ
لا تَـغْـلَـمُـونَـهُـمُ الله يـعـلـمـهـم عـلـمٌ كـمـعـرفـةٍ والـحـكـمُ لـلـبـادي

اعلم أيّدنا الله وإياك أن الذي أوجب الكشوف العرفاني الطمع الطبيعي في الربوبية ليشهد ما هو عليه الرب من الصفات المؤثرة في الأكوان فيظهر بها في ربوبيته عن كشف

وتحقيق فلا نتعدى بالصفة أثرها فإن الأسماء الإلهية تتقارب، وربما يتخيل من لا كشف له عليها ولا ذوق له فيها أنها متداخلة أو مترادفة وإنما هي في أنفسها مشتبهة، ولا يصل إلى تحقيق ذلك أحد إلاّ بالكشف إلاّ أن هنا دقيقة وهي أن نسبة ذلك الاسم الإلهي إلى الرب تعالىٰ ما يكون على مثل نسبته إلى المخلوق، فإن الأمور إذا نسبت إلى شيء تختلف نسبتها باختلاف من تنسب إليه، وإن كان معنى ذلك الاسم المنسوب على حقيقة واحدة، فإذا اطلع أهل الكشف من نفوسهم على تهييء المحال التي تتأثر لها يشوّقها ذلك إلى تحصيل الوجوه التي تبقي عليها الأدب مع الله إذا أثرت بها لأنها قد علمت بالخبر الإلهي أنها مخلوقة على الصورة الإلهية وأن الخلافة ما صحّت لها إلاّ بالصورة وأن كل إنسان ما هو على الصورة، فإنه ثم إنسان حيوان وإنسان خليفة، ولم يعلم هذا الإنسان الطالب أي إنسان هو هل هو الحيوان أو الإمام؟ فأوجب له هذا الاطلاع أن يطلب من الحق تجلياً خاصاً في ربوبيته ويرى انفعال الأكوان عنه كما قال الصديق: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله قبله، فيرى صدور الأكوان عنه في الأكوان ويرى صورة التعلّق، وهل يكون الحق في ذلك التحلّي على صورة ما يتكوّن عنه أو على صورة النسبة التي يكوّن بها التي يقول للشيء كن فيكون ذلك الشيء، ويرى من أين يقبل المأمور بالتكوين التكوّنِ هل يقبله من أمر وجودي أم لا؟ فإذا ظهر هل يظهر بصورة الاسم الذي قال به الحق له كن أو يكون هو عين الصورة التي قال بها كن، فكانت في حق الحق أسماء، وفي جوهر المكوّن فيه خلقاً وصورة، وإذا كانت بهذه المثابة فهل تبقى تلك الصورة الاسمية على ما شهدها في الحق أو تظهر بذلك الاسم في صورة أخرى لتكوين عين أخرى لاختلاف الأمثال لما بينهم من التميز الذي به يقال: هذا ليس هذا أو هذا مثل هذا، كل هذا يطلبه العارف حتى يقف عليه من نفسه، وهذا هو الشخص الذي يدعو إلى الله على بصيرة ويكون من نفسه على بصيرة ويرى تأثير الخلق في الخلق هل هو أمر صحيح أو هو تأثير حق في خلق أو خلق في حق أو حق في حق أو هو المجموع أو لا أثر في نفس الأمر؟ وإن ظهر أنه أثر كما تقدم في الرؤية هل المرئي الحق أو نفس الرائي؟ وليس هذا مع ثبوت مرئي لا يعرف ما هو، كذلك ربما يكون ثبوت أثر في الكشف وفي الوقوع، فإن جعلنا محله حقاً أو خلقاً لم يصدق هذا الجعل وما ثم إلاّ حق وخلق فأين محل الأثر؟ وهذا من أشكل ما تروم النفس تحصيله، فإذا اطلع العارف على الوجه الصحيح انتقل من درجة المعرفة إلى درجة العلم فكان عالماً إلهياً بعدما كان عارفاً ربانياً، ولا يقال إلهيّ إلاّ فيمن هذه صفته فإن له الأمر العام الجامع، فإذا نظرت إليه قلت: إنه حق، ثم تنظر إليه فتقول: إنه خلق، ثم تنظر إليه فتقول: لا حق ولا خلق، ثم تنظر إليه فتقول: حق خلق، فتحار فيه حيرتك في الله، فحينئذٍ تعرف أنه قد حصل الصورة وأنه فارق الإنسان الحيوان، ومتى لم يعرف الإنسان هذا من نفسه ذوقاً وحالاً وكشفاً وشهوداً فليس بالإنسان المخلوق على الصورة الذي له الإمامة في الكون صاحب العهد، فإن الله لا ينال عهده الظالمون، وليس عهده سوى صورته فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والأربعون وأربعمائة

في معرفة منازلة من كتب له كتاب العهد الخالص لا يشقى

[الرمل]:

لـيـس يَـمْـحُـو الله خـيـراً قـد كَـتَـبْ ... هـكـذا دَلَّ دلـيـلـي فـوَجَـبْ
وكـذا حُـكْـمُ تَـجَـلِّـيـهِ فـمـا ... يَـتَـجَـلَّـى ثـم مـن بُـعْـدُ احـتَـجَـبْ
كـلّ مـا أعـطـاك عـلـمـاً لا تـرى ... بـعـد هـذا الـعـلـم جـهـلاً يَـنْـقَـلِـبْ
ولـهـذا عَـمِـلُـوا واجـتَـهَـدُوا ... فـلـهـذا الـربُّ فـاسْـجُـدْ واقْـتَـرِبْ
يـحـكـمُ الـجـودُ بـه مـن نـفـسـه ... مـا لـه مـن ذاتـه حُـكْـمٌ غـصـبْ
فـيـكـون الـكـلُّ فـي رحـمـتـه ... بـامـتـنـانٍ ووجـوبٍ قـد كـتـبْ
يـطـمـعُ الـشـيـطـانُ فـي رحـمـتـه ... وكـذا حـكـم عُـبَـيْـدٍ يَـكْـتَـسِـبْ

قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] ألا إنه العهد الذي خلص لنفسه في وفاء العبد به ما استخلصه العبد من الشيطان ولا من الباعث عليه من خوف ولا رغبة ولا جنة ولا نار، فإنه قد يكون الباعث للمكلف مثل هذه الأمور في الوفاء بعهد الله، فيكون العبد من المخلصين ويكون الدين بهذا الحكم مستخلصاً من حد من يعطي المشاركة فيه فيميل العبد به عن الشريك ولهذا قال فيه حنفاء لله أي مائلين به إلى جانب الحق الذي شرعه وأخذه على المكلفين من جانب الباطل، إذ قد سماهم الحق مؤمنين في كتابه فقال في طائفة إنهم آمنوا بالباطل وكفروا بالله فكساهم حلة الإيمان، فما الإيمان خصوص بالسعداء ولا الكفر خصوص بالأشقياء فوقع الاشتراك وتميزه قرائن الأحوال، فلم يبق يعرف الإيمان من الكفر ولا الإيمان من الإيمان ولا الكفر من الكفر إلاّ بلابسه، فالعهد الخالص هو الذي لما أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ثم ولد كل بني آدم على الفطرة وهو قوله ﷺ: **«كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ»** وهو الميثاق الخالص لنفسه الذي ما ملكه أحد غصباً فاستخلص منه بل لم يزل خالصاً لنفسه في نفس الأمر طاهراً مطهراً، ولكن هنا نكتة لا يمكن إظهارها كما كان الحق منزّهاً لنفسه ما هو منزّه لتنزيه عباده ولهذا قال من قال من العارفين سبحاني، فإذا ولد المولود ونشأ محفوظاً قبل التكليف كسهل بن عبد الله وأبي يزيد البسطامي ومن اعتنى الله به من أمثالهما ممّن كان من الناس قبلهما وبعدهما وفي زمانهما ممّن لم يصل إلينا خبره كما وصل إلينا خبر هذين السيدين ولم يرزأه في عهده هذا بشيء ممّا ذكرناه آنفاً فبقي عهده على أصله خالصاً وهو الدين الخالص لا المخلص فقام بالعبد من غير استخلاص فما هو من العباد الذين أمروا أن يعبدوا الله مخلصين إذ لا فعل لهم في الاستخلاص بل لم يعرفوا إلاّ هذا الدين الخالص من غير شوب خالطه حتى يستخلصوه منه فيكونون مخلصين، هذا لم يذوقوا له طعماً مثل ما ذاقه الغير، ومن كان هذا حاله من الدين فهو صاحب العهد الخالص فلا يشقى، فإنه لا يشقى إلاّ أهل المكابدة والمجاهدة في استخلاص الدين ممّن أمرهم الله أن يستخلصوه منه وليس على الحقيقة

إلاَّ هوى أنفسهم، وهؤلاء في المرتبة الثانية من السعادة، والطبقة الأولى هم الذين يغبطهم الأنبياء والشهداء أصحاب المنابر يوم القيامة المجهولون في الدنيا فهم لا يشفعون ولا يستشفعون ولا يرون للشفاعة قدراً في جنب ما هم فيه من الحال الطاهر القدوس لا المقدس.

ومن هذا المقام قال أبو يزيد: لو شفعني الله في جميع الخلائق يوم القيامة لم يكن ذلك عندي بعظيم لأنه ما شفعني إلاَّ في لقمة طين يعني خلق آدم من طين ونحن منه كما قال من نفس واحدة خلقت تلك النفس من طين، فانظر ما أعجب إشارة أبي يزيد وإياك أن يخطر لك في هذا الرجل احتقار منه للمقام المحمود الذي لمحمد ﷺ يوم القيامة وأنه يفتح فيه أمر الشفاعة وهو مقام جليل، واعلم أنه ما سمّي مقاماً محموداً لمجرد الشفاعة بل لما فيه من عواقب الثناء الإلهي الذي يثني رسول الله ﷺ بها على ربّه عزّ وجلّ ممّا لا يعلم بذلك الثناء الخاص اليوم، فما حمد إلاَّ من أجل الله لا من أجل الشفاعة، ثم جاءت الشفاعة تبعاً في هذا المقام، فيقال له عند فراغه من الثناء: سل تعطه واشفع تشفع، فيشفع في الشافعين أن يشفعوا فيبيح الله الشفاعة للشافعين عند ذلك فيشفعون، فلا يبقى ملك ولا رسول ولا مؤمن إلاَّ ويشفع ممّن هو من أهل الشفاعة وأهل العهد الخالص على منابرهم ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] على نفوسهم ولا على أحد لأنهم لم يكن لهم تبع في الدنيا، وكل من كان له تبع في الدنيا فإنه وإن أمن على نفسه فإنه لا يأمن على من بقي وعلى تابعه لكونه لا يعلم هل قصر وفرّط فيما أمره به أم لا، فيحزنه الفزع الأكبر عليه، تقول بعض النساء من العارفين لجماعة من رجال الله: أرأيتم لو لم يخلق جنة ولا ناراً أليس هو بأهل أن يعبد؟ تشير هذه المرأة إلى الدين الخالص وهو هذا المقام وهي رابعة العدوية ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤] ويقول فيه أبو يزيد الأكبر لا صفة لي فلو استخلص عهده لكان مخلصاً، وإذا كان مخلصاً كان ذا صفة فلم يصدق في قوله وهو عندنا صادق، وهذه الطائفة هم الذين عمّهم قوله تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ وهذا العهد الخالص فأمسكه الله عليهم ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي من وفى بعهده فإن النحب العهد ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ لأن العبد ما دام في الحياة الدنيا لا يأمن التبديل فإن الله يفعل ما يريد، وما يدري العبد على الحقيقة ممّا كان عليه من الحال في حال عدمه إذ كان مشهوداً لله لا لنفسه إلاَّ ما مضى، وما يقع فهو في علم الله، فلا يأمن مكر الله لعلمه بالله ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] فللَّهِ رجال بهذه المثابة جعلنا الله منهم، فما أعظم بشارتها من آية ولا بلغ إلينا تعيين أحد من أهل هذه الصفة إلاَّ طلحة بن عبيد الله من العشرة صحّ فيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«هٰذا مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ»** وهو في الحياة الدنيا فأمن من التبديل وهذا عظيم ويدخل في هذا المقام وإن لم يبلغ فيه مبلغ من له العهد الخالص بالأصالة من عهد الله على القيام بدينه عند توبته فوفى بما عاهد عليه الله. قال لي السيد سليمان الدنبليّ إنّ له خمسين سنة ما خطر له خاطر سوء، فمثل هذا يلحق بهؤلاء إذا مات عليه ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وكل من جدّد عهداً مع الله فهو من المخلصين ما هو ممّن له الدين الخالص، فصاحب الدين الخالص مهما

تجدّد له من الله حكم بشرع لم يكن يعرفه قبل ذلك، وقد كلفه الحق به في كتابه أو على لسان رسوله، فإن هذا العبد يتلقاه بالدين الخالص والعهد الأوّل ولا يضرّه جهله بالمسألة المعينة الخاصة، هذا لا يقدح في صاحب هذا المقام كأبي بكر الصديق الذي ما رأى شيئاً إلاّ رأى الله قبله بالدين الخالص والعهد الإلهيّ الذي كان عليه وفي شهوده، ولهذا لما واجهه رسول الله ﷺ بالإيمان برسالته بادر وما تلكأ ولا طلب دليلاً على ذلك منه بل صدقه بذلك العهد الخالص فإنه رأى رسالته هناك كما رأى رسول الله ﷺ نبوّته قبل وجود آدم كما روي عنه: «**كُنْتُ نَبِياً وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ**» أي لم يكن موجوداً وإنما عرف بذلك لقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧] وكان هذا الميثاق قبل وجود جسد آدم، فلما وجد آدم وقبض الحق على ظهره واستخرج منه كأمثال الذر يعني بنيه أشهدهم على أنفسهم كما جاء في القرآن فشهدوا فهذا هو الميثاق الثاني، والميثاق الأول هو ما أخذه على الأنبياء فلما ولدوا ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ومنهم من خذله الله فأشرك، جعلنا الله ممّن قضى نحبه ولم يبدّل آمين بعزّته، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والأربعون وأربعمائة

في معرفة منازلة هل عرفت أوليائي الذين أدّبتهم بآدابي

[الرمل]:

أنـبـيـاءُ الله مـا أدَّبـهُـم ... غَـيْـرُهُ فـاعْـتَـصَـمُـوا بـالأدَبِ
فَـهُـمُ الـسـادةُ لا يَـخْـذُلُـهُـمْ ... هـكـذا عـيـنـهـم فـي الـكُـتُـب
فـالـذي يَـمْـشـي عـلـى آثـارهـم ... هـو مَـعْـدودٌ بـذا فـي الـنُّـجُـب
فـإذا كـان كـذا ثـم كـذا ... لـم يـزل لـذاك خَـلْـفَ الـحُـجُـب
أسْـعَـدُ الـنـاس بـهـم تَـابِـعُـهُـمْ ... فـتـراه مِـثْـلَـهـم فـي الـنَّـصَـب
لَـزِمُـوا الـمـحـرابَ حـتـى وَرِمَـتْ ... مـنْـهُـمُ أقـدامُـهـم فـي قـرب

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ومن أحبّ الله ذلّ، ومن أحبه الله دلّ، فالمحب ذليل والمحبوب ذو دلال ودلال. وقال ﷺ: «**إنَّ الله أَدَّبَنِي فَأَحْسَنَ أَدَبِي**» واعلم أنه لتعريف الله بمنازل الخلق عنده من وليّ وغيره طريقين: الطريق الواحدة الكشف فيرى منازل الخلق عند الله فيعامل كل طائفة بمنزلها من الله. والطريق الأخرى ملازمة الأدب الإلهي، والأدب الإلهي هو ما شرعه لعباده في رسله وعلى ألسنتهم، فالشرائع آداب الله التي نصبها لعباده، فمن وفى بحق شرعه فقد تأدّب بأدب الحق وعرف أولياء الحق، فإذا رأيت من جمع الخير بيديه وملأهما به فتعلم أنه قد أخذ بأدب الله فإن رسول الله ﷺ يقول لربه وهو الصادق العالم بربه: «**وَالخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْكَ**» فالخير إذا أردت أن تعرفه فاعلم أنه جماع مكارم الأخلاق وهي معروفة عرفاً وشرعاً، وكل ما تراه من إقامة الحدود على من لو لم يأمرك الحق بذلك لكنت تعفو عنه فذلك لا يقدح في مكارم الأخلاق

مع هذا الشخص فإنك ما فعلت به ما فعلت لنفسك وإنما الله فعل بعبده ما شاء على يدك، وكلاكما عبد لسيد واحد، وإنما كلامنا فيما يرجع إليك لا لأمر سيدك، فإنه من مكارم الأخلاق في العبيد امتثال أوامر سيدهم في عباده والوقوف عند حدوده ومراسمه فيهم ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] فكونهم حادّوا الله ورسوله هو الذي عاد عليهم، فهم جنوا على أنفسهم ما جنى عليهم صاحب مكارم الأخلاق، فمن تعرّض لأمر فقد أحب أن يتعرض إليه فيه فما فعلت معه في عدم وذّك فيه إلاّ ما أحب، ولا تكون مكارم الأخلاق إلاّ أن تفعل مع الشخص ما يحبه منك فإنه قد بغضك أوّلاً لإيمانك بالله واليوم الآخر واتخذك عدوّاً، فمن مكارم خلقك معه أن تتلطف به في إيمانه، فإن لم ينفع فلتقابله بالقهر، فإن لم يفعل ولجَّ فقدرت على قتله فاقتله بمكارم خلق منك حتى لا يبقى في الحياة الدنيا فيزيد كفراً وطغياناً فيزيده الله عذاباً كما فعل من شهد الله له بأنه رحيم وهو خضر اقتلع رأس الغلام وقال: إنه طبع كافراً فلو عاش أرهق أبويه طغياناً وكفراً، وانتظم الغلام في سلك الكفار فقتله الخضر رحمة به وبأبويه، أما الصبي حيث أخرجه من الدنيا على الفطرة فسعد الغلام والله أعلم وسعد أبواه، وهذا من أعظم مكارم الأخلاق.

كان بعض الصالحين يسأل الله الغزاة فلا يسهل الله له أسبابها ويحول بينه وبين الجهاد في سبيل الله وكان من الأولياء الأكابر عند الله ممّن له حديث مع الله فبقي حائراً في تأخّره وتعذّر الأسباب عليه مع ما قد حصل في نفسه من حب الجهاد لما فيه من مرضاة الله ولما للشهداء عند الله، فلما علم الله أنه قد ضاق صدره لذلك أعلمه الله بالطريقة التي كان يأخذ العلم عن الله بها فقال له: لا يضيق صدرك من أجل تعذر أسباب الجهاد عليك فإني قضيت عليك لوْ غزوت لأسرت ولو أسرت لتنصرت ومت نصرانياً، وإن لم تغز بقيت سالماً في بيتك ومت عبداً صالحاً على الإسلام، فشكر الله على ذلك وعلم أن الله تعالىٰ قد اختار له ما هو الأسعد في حقه، فسكن خاطره وعلم أن الله قد اختار له ما له فيه الخيرة عنده أيضاً من آداب الله الذي ينبغي للعبد أن يتأدب بها مع الله، فإذا رأيت من سلم واستسلم وقامت به آداب الحق وقام بها في نفسه وفي عباده وتأدّب مع الصفة لا مع الأشخاص ويتخيل صاحب الصفة أنه تأدّب معه وما عنده خبر بحال هذا الأديب فإنه ينظر العالم بعين الحق وعين الحق تنظر إليهم بما أعطاها علم الله بهم، وعلم الله بهم ما هم عليه من الأحوال، فإن الذوات التي تقوم بها الأحوال لا يحكم عليهم من حيث ذواتهم سعادة ولا شقاء، وإنما ذلك بما يقوم بالذوات من الصفات، فالصفات لا تتصف بالشقاء لذاتها ولا بالسعادة، والذوات الحاملة للصفات لا تتصف أيضاً لنفسها وعينها بسعادة ولا شقاء، فإذا قامت الصفات بالذوات وظهرت أحكامها فيها اتصفت الذوات بحسب ما حصل من الامتزاج الذي لم يكن ولا لواحد منهما على الانفراد فقيل عند ذلك في الشخص سعيد أو شقيّ. فانظر ما أعجب حديث السعادة والشقاء حيث لم يظهر واحد منهما إلاّ بحسب الامتزاج، كما لم يظهر سواد المداد إلاّ بامتزاج العفص

والزاج، كما لم يظهر بياض الشقة إلاَّ بين الشقة والقصارة، فالخوف كله من التركيب، والآفات كلها إنما تطرأ على الشخص من كونه مركباً والخروج عن التركيب يعقل وليس بواقع في العالم أصلاً المركب ولهذا قال أبو يزيد: إنه لا صفة له فإنه أقيم في معقولية بساطته فلم ير تركيباً فقال: لا صفة لي فصدق، ولكنه غير واقع في الوجود الحسّيّ العيني، فما ثم إلاَّ مركب يقبل السعادة أو الشقاء بحسب ما تقتضيه مزجته فقد فرغ ربك وما كان فراغه عن مانع شغل وإنما أراد بذلك التنزيه أي أن الأمور لا تقع إلاَّ على ما هي عليه في نفسها، ومن عصمه الله من الزلل الذي يقتضيه هذا المشهد فقد اعتنى الله به الاعتناء الأعظم، ومن هنا زلّت الأقدام كما جاء في الشريعة نظيره لما ذكر النبي ﷺ من سبق الكتاب على العبد بالسعادة أو بالشقاء فقالت الصحابة: يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا يُسِّرَ لَهُ**» وقد بيّن الحق بإرساله عليهم أسباب الخير وطرقه وأسباب الشقاء والشر وطرقه، وجعل السلوك في طرق الخير بشرى فانظرها في نفسك، فإن وجدت الأمر عندك إذا كنت في الخير مثلاً واجداً باطنك وظاهرك فيه على السواء غير مرتاب فتلك البشرى فافرح بها في السعادة فإن الله ما يبدلك، وإن رأيت الخير في ظاهرك وتجد في باطنك نكتة من شك أو اضطراب فيما أنت فيه من عبادة ويقع لك خاطر يقدح في أصلها بما يخالف ظاهر الفعل فاعلم أن الله لم يعطك إيماناً ولا نوّر قلبك بنوره، فابك على نفسك أو اضحك فما لك في الآخرة من خلاق، هذا ميزانك في نفسك وأنت أعرف بنفسك وما يخطر لك فيها، ولهذا قال رسول الله ﷺ في الصحيح: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**» فإنه يبدو لله منه هذا الخاطر الذي يقدح في الإيمان من الشك القائم به أن الأمر الذي هو فيه من الشرع ما هو على ما يعطيه الظاهر هذا هو البلاء المبين «**وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**» يعني من المخالفات والذي يبدو لله من باطنه خلاف هذا من نور الإيمان والصدق مع الله في أن هذا الحال التي هو عليها مخالف لأمر الله فيبكي باطناً ويخالف ظاهراً فيبدو لله منه ما لا يبدو للناس فقد أبان ﷺ في هذا الخبر ما الناس عليه في أنفسهم.

ثم لتعلم أن في ترجمة هذه المنازلة من الحق إشارة لطيفة المعنى في استفهامه عزّ وجلّ عمّا هو به عالم مثل قوله لملائكته: كيف تركتم عبادي؟ والملائكة تعلم أنه تعالىٰ أعلم بعباده منهم، ألا يعلم من خلق وجميع ما هم فيه خلقه تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ بسؤاله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] بما سأل عنه لأنه واقع، فكل علم عنده عن وقوع فهو به خبير وتعلّقه به قبل وقوعه هو به عليم، فمن أدب الملائكة لعلمهم بما قصد الحق منهم أجابوه تعالىٰ فقالوا: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون لأن عروج الملائكة عنهم ونزولهم عليهم كان عند صلاة العصر وصلاة الصبح كذا ورد الخبر، فأقول مجيباً للحق: عرفتهم لما عرفت آدابك فنسبتهم إليك فقلت: هؤلاء أولياء الله وعلامتهم إذا رأوا ذكر الله لتحققهم بالله وليس إلاَّ العبودة المحضة الخالصة التي لا تشوبها ربوبية بوجه من الوجوه فهذه آدابك، وكل نعت يرى فيهم فيه رائحة ربوبية فهو أدب الخلافة لا أدب الولاية، فالوليّ ينصر ولا ينتصر، والخليفة

ينتصر وينصر، والزمان لا يخلو من منازع، والوليّ لا يسامح فإن سامح فليس بوليّ ولا يؤثر على جناب الحق شيئاً فهو كله لله، والخليفة هو لله في وقت وللعالم في وقت، فوقتاً يرجح جناب الحق غيرة، ووقتاً يرجح جناب العالم فيستغفر لهم مع ما وقع منهم ممّا يغار له الوليّ، وهؤلاء هم المفردون الذين تولّى الله آدابهم بنفسه يقول الخليفة: لأزيدن على السبعين في وقت ويدعو على رعل وذكوان وعصية في وقت، وأين الحال من الحال فالخليفة تختلف عليه الأحوال والوليّ لا تختلف عليه الحال، فالوليّ لا يتهم أصلاً، والخليفة قد يتهم لاختلاف الحال عليه، فما يدّعي دعوى إلاّ وعجزه يكذبه مع صدقه حال آخر يبدو منه، فآداب الأولياء آداب الأرواح الملكية، ألا ترى إلى جبريل عليه السلام يأخذ حال البحر فيلقمه في فم فرعون حتى لا يتلفظ بالتوحيد ويسابقه مسابقة غيرة على جناب الحق مع علمه بأنه قد علم أنه لا إله إلاّ الله، وغلبه فرعون فإنه قال كلمة التوحيد بلسانه كما أخبر الله تعالىٰ عنه في الكتاب العزيز، والخليفة يقول لعمّه: «**قُلها في أذني أشهد لك بها عند الله**» وهو يأبى، وأين هذا الحال من حال قول الخليفة الآخر: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] ولعلهم لو طال عليهم الأمد لرجعوا وفي أصلابهم من يؤمن بالله فتقرّ به أعين المؤمنين، فآداب الأولياء غضب في المغضوب عليهم لا رجوع فيه، ورضا في المرضي عنهم لا رجوع فيه، فإن ذلك أدب الحق والحق الواقع الواجب وقوعه، وآداب الخلفاء الرضا في المرضيّ عنهم، والعفو وقتاً والغضب وقتاً في المغضوب عليهم، ولهذا خصّ الأولياء دون غيرهم في قوله: هل عرفت أوليائي والكل أولياء ولكن هؤلاء أولياء الأسماء الإلهية وهؤلاء أولياء الإضافة فهم أولياء أنّية لا أولياء أسماء، وسأعرّفك بالفرق بين أسماء الكنايات والأسماء الظاهرة إن شاء الله في باب الأسماء من آخر هذا الكتاب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والأربعون وأربعمائة

في معرفة منازلة في تعمير نواشىء الليل فوائد الخيرات

[البسيط]:

نَواشىءُ اللّيْلِ فيها الخَيْرُ أجْمَعُهُ ... فيها النزولُ من الرحمن بالكَرَمِ
يَدْنُو إليـنا بنا حتى يساعدنا ... بما يُدْلِيهِ من طرائف الحِكَمِ
فالكل يَعْبُدُهُ والكل يشكُرُهُ ... إلاّ الذي خُصَّ بالخُسْران والنِّقَمِ
إن الوليَّ تراه وقت غَفْلَته ... يبكي ويدعوه في داجٍ من الظُّلَمِ
يا رَبِّ يا رَبِّ لا يَبْغي به بدلاً ... خلقاً عظيماً كما قد جاء في القَلَمِ

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وقال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦] ولما سئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»، وإنما قالت ذلك لأنه أفرد الخلق، ولا بدّ أن يكون ذلك الخلق المفرد جامعاً لمكارم الأخلاق كلها، ووصف الله ذلك الخلق بالعظمة كما وصف القرآن في قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾

[الحجر: ٨٧] فكان القرآن خلقه، فمن أراد أن يرى رسول الله ﷺ ممّن لم يدركه من أمته فلينظر إلى القرآن فإذا نظر فيه فلا فرق بين النظر إليه وبين النظر إلى رسول الله ﷺ، فكأن القرآن انتشأ صورة جسدية يقال لها محمد بن عبد الله بن عبد المطلب والقرآن كلام الله وهو صفته، فكان محمد صفة الحق تعالىٰ بجملته، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله لأنه لا ينطق عن الهوى فهو لسان حق، فكان ﷺ ينشيء في ليل هيكله وظلمة طبيعته بما وفقه الله إليه من العمل الصالح الذي شرعه له صوراً عملية ليلية لكون الليل محل التجلي الإلهي الزماني من اسمه الدهر تعالىٰ يستعين بالحق لتجليه في إنشائها على الشهود وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] ولم تكن هذه الصور إلاّ الصلاة بالليل دون سائر الأعمال، وإنما قلنا بالاستعانة لقوله تعالىٰ: «قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي» وقوله: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ولا يطلب العون إلاّ من له نوع تعمل في العمل وهو قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فكن أنت يا وارثه هو المراد بهذا الخطاب في هذا العمل، فيكون محمد ﷺ ما فقد من الدار الدنيا لأنه صورة القرآن العظيم، فمن كان خلقه القرآن من ورثته وأنشأ صورة الأعمال في ليل طبيعته فقد بعث محمداً ﷺ من قبره، فحياة رسول الله ﷺ بعد موته حياة سنته: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] فإنه المجموع الأتم والبرنامج الأكمل، ولهذا قال في: ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ إنها أقوم قيلاً ولا أقوم قيلاً من القرآن، وكذلك ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ أي أعظم تمهيداً لأنه قال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وليس إلاّ القرآن الجامع وأشد ثباتاً فإنه لا ينسخ كما نسخت سائر الكتب قبله به وإن ثبت ما ثبت منها ممّا ورد في القرآن، ولهذا جاء بلفظ المفاضلة في الثبوت فهو أشد ثبوتاً منها لاتصاله بالقيامة وفيه ما في الكتب وما ليس في الكتب، كما كان في محمد ﷺ ما كان في كل نبيّ وكان فيه ما لم يكن في نبي لأن القرآن كان خلقه فأعطي هو وأمته ما لم يعط نبيّ قبله، فإذا أنشأ من أنشأ صورة هذه الأعمال الليلية ونفخ الحق لشهوده من كونه معيناً له أرواحها فيها قامت حية ناطقة عن أصل كريم الطرفين بين عبد متحقق بعبوديته موف حق سيده لم يلتفت إلى نفسه ولا إلى صورة ما خلقه الله عليها التي توجب له الكبرياء بل كان عبداً محضاً مع هذه المنزلة ولهذا قدم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإنه ما قبل الصورة إلاّ في حال ثانٍ فقال بذاته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وقال بالصورة: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ثم رجع فقال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ و ٧] فجمع بين الأمرين وبين رب عظيم وفاه حقّه على قدر ما شرعه له لا يطالب بغير ذلك، فإنه تعالىٰ هو الذي أدّبه أي جمع له وفيه جميع فوائد الخيرات، فلما نشأت هذه الصورة العملية الليلية بين هذين الطرفين الكريمين كانت وسطاً جامعة للطرفين، فكانت عبداً سيداً حقاً خلقاً، وبهذه الصفة أنشأ الله العالم ابتداء، فإن له في أسمائه ونعوته الطرفين، فإنه وصف نفسه بما يتعالىٰ به عن الخلق، ووصف نفسه بما هو عليه الخلق، ولم يزل بهذين النعتين موصوفاً لنفسه وهما طرفا نقيض فجمع بين الضدين، ولولا ما هو الأمر على هذا ما

خلق الضدين في العالم والمثلان ضدان فهما ضدا المماثلة حتى تعلم أن العالم على صورته في قبول الضدين بل هو العالم الذي هو عين الضدين صورة من أنشأه فظهر العالم بالأصالة بين الطرفين، ومشى الأمر في خلق ما خلق الله بأيدي العالم، فللعالم إنشاء الصور، وللحق أرواحها وحياتها، كما قال في حق عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] في الصورة الخلقية ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] فجعل الصورة للخلق وكونه طائراً للحق وفي إنشائك قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ [الحجر: ٢٩] هو مثل ﴿تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ ثم قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] وهو قوله: ﴿فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠] فمن كان مع الحق في مقام الشهود والجمع عند إنشاء العبد صور الأعمال قامت حية ناطقة، وإن أنشأها على غير هذا النعت من الجمع والشهود كانت صوراً بلا أرواح، كصور المصوّرين الذين يقول الله لهم يوم القيامة: أحيوا ما خلقتم فلا يستطيعون لأن الإحياء ليس لهم وإنما هو لله، وأعني بالإحياء الإحياء الذي تقع به الفائدة من الحيّ، فإن الطبيعة تعطي حياة في الصورة ولكن حياة لا فائدة معها وهي الحياة التي توجد في المعفنات، فليس في قوّة الطبيعة أكثر من وجود الإحساس لا غير، وأما القوىٰ الروحانية التي عنها تكون الصنائع العملية بالتفكّر فمن الروح الإلهيّ، فمن علم مراتب الأرواح يعلم ما أومأنا إليه في هذه العجالة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والأربعون وأربعمائة

في معرفة منازلة من دخل حضرة التطهير نطق عني

[المتقارب]:

إذا طهر العَبْدُ من كَوْنِهِ ... يكون الإلهُ هو النَّاطقُ
كمثل المُصلِّي إذا قام من ... ركوع الصلاة هو الصَّادقُ
يَنُوبُ عَن الحَقِّ في نُطْقِهِ ... فليس يَقُومُ به عَائِقُ
فكُلُّ كلام له صادقٌ ... وكلّ شراب له رائقُ

قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] يعني بها، ولا تشهد إلاَّ بالأجنبية إذ لا بدّ من شهود عليه، وإن لم يكن على ما قلناه وكان عين الشاهد عين المشهود عليه فهو إقرار لإشهاده، وما ذكر الله تعالىٰ أنه إقرار فدل على أن الجوارح ارتبطت بالنفس الناطقة ارتباط الملك بمالكه كما هو الأصل عليه والأصل هو الحق ولم يزل في أزله مدبراً، فلا بدّ أن يكون تدبيره في مدبر معين له أزلاً وليس إلاَّ أعيان الممكنات فهي مشهودة له في حال عدمها فإنها ثابتة فيدبر فيها ما يكون من تقدم بعضها على بعض وتأخرها في تكوين أعيانها وصور ما توجد فيها، وهنالك هو سرّ القدر الذي أخفى الله تعالىٰ علمه عن خلقه حتى يظهر الحكم به في الصور الموجودة في رأي العين، فكذلك لما أراد الله إنشاء الأرواح المدبرة فهي لا تكون إلاَّ مدبرة، فإن لم يكن لها أعيان وصور يظهر

تدبيرها فيها بطلت حقيقتها إذ هي لذاتها مدبرة، هكذا هو الأمر عند أهل الكشف، وهنا سرّ عجيب غريب أومىء إليه إن شاء الله في هذا التفصيل فنقول: إن الله أنشأ هذه الصور الجسدية من نور ونار وتراب وماء مهين على اختلاف أصول هذه النشأة المتعددة، فعندما كملت التسوية في الصورة التي هي محل تدبير الأرواح المدبرة أنشأ الله منها أي من قبولها ما ينفخ فيها من أوجدها وهو الفيض الدائم أرواحاً مدبرة لها قائمة بها على صورة قبولها، فتفاضلت الأرواح لتفاضل النشآت، فلم يكونوا على مرتبة واحدة إلاّ في كونهم مدبرين، فالأرواح المدبرة إنما ظهرت بصور مزاج القوابل، فلا تتعدى الأرواح في التدبير ما تقتضيه الهياكل المدبرة، فانظر إلى أعيان الممكنات قبل ظهورها في عينها لا يمكن أن يظهر الحق فيها إلاّ بصورة ما تقبله فما هي على صورة الحق في الحقيقة وإنما المدبر على صورة المدبر إذ لا يظهر فيه منه إلاّ على قدر قبوله لا غير، فليس الحق إلاّ ما هو عليه الخلق لا يرى من الحق ولا يعلم غير هذا وهو في نفسه على ما علم وله في نفسه ما لا يصحّ أن يعلم أصلاً، وذلك الأمر الذي لا يعلم أصلاً هو الذي له بنفسه المشار إليه بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وهذا الذي نبهناك عليه من العلم بالله تعالىٰ ما أظهرناه باختبارنا، ولكن حكم الجبر به علينا فتحفظ به ولا تغفل عنه فإنه يعلمك الأدب مع الله تعالىٰ، ومن هذا المقام نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] أي ما أعطيتك إلاّ على قدر قبولك، فالفيض الإلهيّ واسع لأنه واسع العطاء فما عنده تقصير ومالك منه إلاّ ما تقبله ذاتك، فذاتك حجرت عليك هذا الواسع وأدخلتك في الضيق، فذلك القدر الذي حصل تدبيره فيك هو ربك الذي تعبده ولا تعرف إلاّ هو، وهذه هي العلامة التي يتحوّل لك فيها يوم القيامة على الكشف وهي في الدنيا في العموم على الغيب يعلمها كل إنسان من نفسه ولا يعلم أنها المعلومة له، ولهذا تقول العامة: إن الله ما عوّدني إلاّ كذا وكذا، فإذا فهمت هذا علمت أن الحق معك على ما أنت عليه ما أنت معه، وقد نبهك على هذا في القرآن بقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] ما أنتم معه ولا يصحّ أن يكون أحد مع الله، فالله مع كل أحد بما هو عليه ذلك الواحد من الحال، فانظر إلى أفراد العالم فما تراه فيه فذلك عين الحق لا غيره [الوافر]:

فليس وَرَاءَ هذا الكَشْفِ كَشْفُ ... ولا من بَعْدِ هذا الوَصْفِ وَصْفُ
فسبحان الذي يبدو ويَخْفَى ... وشَاهِدُهُ بذا شَرْعٌ وعُرْفُ

فلا يصحّ التجريد عن التدبير لأنه لو صحّ بطلت الربوبية وهي لا تبطل فالتجريد محال فلا مستند للتجريد لأنك لا تعقل إلهك إلاّ مدبراً فيك فلا تعرفه إلاّ من نفسك، فلا بدّ أن تكون على تدبير، فلا بدّ من جسم وروح دنيا وآخرة كل دار بما يليق بها من النشآت، وتتنوع أرواحها لتنوعها صورة الخلق والحق كما تقدم ذكره في هذا الكتاب في هذا المعنى في الترجمة عن الحق [المجتث]:

كن كيف شِئْتَ فإنّي ... كما تكونُ أكُون

هكذا هو الأمر في عينه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والأربعون وأربعمائة

في معرفة منازلة من كشفت له شيئاً مما عندي بهت فكيف يطلب أن يراني هيهات

[المتقارب]:

إذا كـــان مـــا عـــنـــده حـــاكـــمٌ ... عـــلـــيّ فـــكـــيـــف بـــنـــا إذْ نَـــرَاهْ
فـــلـــيـــس يَـــرَاهُ ســـوى عَـــيْـــنِـــهِ ... وهـــل ثَـــمَّ عَـــيْـــنٌ تـــراه سِـــوَاهْ
يـــغـــالـــطـــنـــا بـــوجـــود الـــسِّـــوَى ... وعـــيـــن الـــسُّـــوَى هـــو عـــيـــنُ الإلٰـــهْ
فـــإمـــكـــانـــنـــا لـــم يَـــزَلْ قـــائـــمـــاً ... وُجُـــوداً وفَـــقْـــداً بـــنـــا فـــي حِـــمَـــاهْ
فـــلـــســـنـــا ســـواه ولا نـــحـــن هـــو ... فـــعـــيـــن ضـــلالـــتـــنـــا مـــن هُـــدَاهْ

قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ولهذا كفر وما كان إلاّ الشروق والغروب وهو الوجدان والفقد، هذه شمس حق شرقت من المشرق ولولا شروقها ما كان مشرقاً ذلك الجناب ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وهذا في الحقيقة لو أتى بها أي لو شرقت من المغرب لكان مشرقاً فما شرقت إلاّ من المشرق فبهت الكافر وهو موضع البهت لأنه علم أنه حيث كان الشروق لها أتبعه اسم المشرق فليس للمغرب سبيل في نفس الأمر، فما بهت الكافر إلاّ من عجزه كيف يوصل إلى إفهام الحاضرين مع قصورهم موضع العلم فيما جاء به إبراهيم الخليل عليه السلام، فأظلم عليه الأمر وتخبط في نفسه فظهرت حجة إبراهيم الخليل عليه السلام عليه أمام الحاضرين، وإنما نسب الكفر إليه بالمسألة الأولى فإنه علم ما أراده الخليل بقوله: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فستره فسمّي كافراً فقال: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ويقال فيمن أبقى حياة الشخص عليه إذا استحق قتله أن يقال أحياه ولم يكن مراد الخليل إلاّ ما فهمه نمروذ فعدل إبراهيم إلى ما هو أخفى في نفس الأمر وأبعد وهو أوضح عند الحاضرين فجاء بالمسألة الثانية فبهت الذي كفر في أمر إبراهيم كيف عدل إلى ما هو أخفى في نفس الأمر وأبعد لإقامة الحجة وقامت له الحجة عليه عند قومه فكان بهته في هذا الأمر المعجز الذي أعمى بصائر الحاضرين عن معرفة عدوله من الأوضح إلى الأخفى فحصل من تعجبه وبهته في نفوس الحاضرين عجزه وهو كان المراد، ولم يقدر نمروذ على إزالة ما حصل في قلوب العارفين الحاضرين من ذلك فعلم صدقه ولكن الله ما هداه أي ما وفقه للإيمان لقوله ﷺ: فإنه عالم بأنه على الحق ولا يصحّ بهت إلاّ في تجلي ما عند الحق وما عند الحق إلاّ ما أنت عليه، فإنه ما يظهر إليك إلاّ بك فتقرّ به فيك وتنكر ما أنت به مقر فيه وذلك لجهلك بك وبربك لأنك لو عرفت نفسك عرفت ربك فما ثم إلاّ خلق وهو ما تراه وتشهده، ولو فتشت على دقائق تغيراتك في كل نفس لعلمت أن الحق عين حالك وأنه من حيث هو وراء ذلك كله كما هو عين ذلك كله، فالحق خلق وما الخلق حق وإن اختلفت عليه الأسماء أليس ممّا عند الله دكّ جبل موسىٰ فصعق وهو أعظم من البهت وما أصعقه إلاّ ما عنده وهو ممّن طلب أن يرى ربه فلما علم موسىٰ عليه السلام عند ذلك ما لم يكن يعلم من صورة

الحق مع العالم قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي لا أطلب رؤيتك على الوجه الذي كنت طلبتها به أولاً فإني قد عرفت ما لم أكن أعلمه منك ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] بقولك: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] فإنك ما قلت ذلك إلاَّ لي وهو خبر، فلذلك ألحقه بالإيمان لا بالعلم، ولولا ما أراد الإيمان بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ ما صحّت الأولية، فإن المؤمنين كانوا قبله ولكن بهذه الكلمة لم يكن، فكل من آمن بعد البهت أو الصعق فقد آمن على بصيرة فهو صاحب علم في إيمان، وهذا عزيز الوجود في عباد الله، وقليل في أهل الله من يبقى معه الإيمان مع العلم، فإنه لما انتقل إلى الأوضح وهو العلم فقد انتقل عن إيمانه، والكامل هو المؤمن في حال علمه بما هو به مؤمن لا بما كان به مؤمناً، فيقال فيه مؤمن عالم بعين واحدة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والأربعون وأربعمائة

في معرفة منازلة قول من قال عن الله ليس عبدي من تعبد عبدي

[مجزوء الرجز]:

العَبْدُ مَنْ لا عَبْدَ لَهْ ... سُبْحَانَهُ ما أَكْمَلَهْ
قد جَمَعَ الـأَهُ لـه ... كُلَّ وجودٍ أمَّلَهْ
مُشْتَبِهاً ومُحْكِماً ... مُجْمَلَهُ مُفَصَّلَهْ
سِوَاه إذ عَدَّلَهْ ... وبعد هذا فَصَّلَهْ
بكل عين أَشْهَدَه ... بكل علم فَضَّلَهْ
فإنما أنابَه ... في كل أحوالي ولَهْ
حُزْنَا الكمالَ كُلَّهُ ... أنا وهو والكُلُّ لَهْ

قال عزّ وجلّ لمحمد: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] فقلنا: الأمر كله لله ألا له الخلق والأمر فهو الخلق والأمر. اعلم أنه لا يملك المملوك إلاَّ سيده، ولهذا يسمّي الترمذي الحكيم الحق سبحانه ملك الملك غير سيده ما يملك عبد فإن العبد في كل حال يقصد سيده، فلا يزال يصرف سيده بأحواله في جميع أموره، ولا معنى للملك إلاّ التصريف بالقهر والشدة، ومهما لم يقم السيد بما يطلبه به العبد فقد زالت سيادته من ذلك الوجه، وأحوال العبد على قسمين: ذاتية وعرضية، وهو بكل حال منها يتصرف في سيده والكل عبيد الله، فمن كان دنيء الهمة قليل العلم كثيف الحجاب غليظ القفا ترك الحق وتعبد عبيد الحق فنازع الحق في ربوبيته فخرج من عبوديته، فهو وإن كان عبداً في نفس الأمر فليس هو بعبد مصطنع ولا مختص، فإذا لم يتعبد أحداً من عباد الله كان عبداً خالصاً لله فتصرف في سيده بجميع أحواله فلا يزال الحق في شأن هذا العبد خلاقاً على الدوام بحسب انتقالاته في الأحوال، قال ﷺ: «خَادِمُ القَوْمِ سَيِّدُهُمْ» لأنه القائم بأمورهم لأنهم عاجزون عن القيام بما تقتضيه أحوالهم، فمن عرف صورة التصريف عرف مرتبة السيد من مرتبة العبد، فيتصف العبد

بامتثال أمر سيده والسيد بالقيام بضرورات عبده، فلا يتفرغ العبد مع ما قررناه من حاله مع حال سيده أن يقتني عبداً يتصرف فيه لأنه يشهد عياناً أن ذلك العبد الآخر يتصرف في سيده تصرفه فيعلم أنه مثله عبد لله، وإذا كان عبداً لله لم يصحّ أن يتعبده هذا العبد فما ملك عبد إلاَّ بحجاب، لقيت سليمان الدنبليّ فأخبرني في مباسطة كانت بيني وبينه في العلم الإلهيّ فقلت له: أريد أن أسمع منك بعض ما كان بينك وبين الحق من المباسطة، فقال: نعم باسطني يوماً في سري في الملك فقال لي: إن ملكي عظيم، فقلت له: ملكي أعظم من ملكك، فقال لي: كيف تقول؟ فقلت له: مثلك في ملكي وليس مثلك في ملكك فمن أعظم ملكاً؟ فقال: صدقت. أشار إلى التصريف بالحال والأمر وهو ما قررناه، فإذا علمت هذا علمت قدرك ومرتبتك ومعنى ربوبيتك وعلى من تكون رباً في عين عبد، وهو بالعلم قريب، وبالحال أقرب وألذ في الشهود، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخمسون وأربعمائة

في معرفة منازلة من ثبت لظهوري كان بي لأنه سبحانه كان به لا بي وهو الحقيقة والأول مجاز

[المتقارب]:

إذا ثَـبـت الـعَـبْـدُ فـي مَـوْطِـنِ ... فـإن الإلٰـهَ هـو الـثَّـابِـتُ
إذا قُـلْـتَ يـا ربِّ هَـبْ لـي كـذا ... وأعـطَـاكَـهُ فـهـو الـقَـانِـتُ
إذا لـم يَـكُـنْ غَـيْـرُهُ عَـيْـنَـنَـا ... فـبـالله قـل لـي مـن الـمـائـتُ
تَـرْجَـمَ عـنـه لـسـانٌ بـدا ... فـهـو بـه الـنـاطـقُ الـسـاكـتُ
ولـم يـبـق لـلـعـبـد من عـيـنـه ... لـوَحْـدَتِـه نَـفَـسٌ خَـافِـتُ
ولـيـس لـه فـي الـوَرَى حـاسـدٌ ... إذا كـان هـذا ولا شـامـتُ
إذا جـئـتُ لـيـلاً إلـى مـنـزلـي ... وبِـتُّ بـه فـمـن الـبَـائـتُ
هـو الـحَـقُّ يـنـطـقُ فـي كـونـه ... بـمـا شـاءه وأنـا الـصـامـتُ
فـلـولا الـلُّـجَـيْـنُ وأمـثـالُـه ... لـمـا فَـضُـلَ الـعَـسْـجَـدُ الصَّـامـتُ
تـعـجّـبـتُ مـنـه ومـن عِـزّه ... إذا نَـكَـتَ الـعـالَـمَ الـنـاكـتُ
ولـيـس يـغـارُ عـلـى عِـرْضِـهِ ... فـعَـبْـدُ الإلٰـهِ هـنـا الـبـاهـتُ

قال الله عزّ وجلّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] اعلم أن عباد الله الذين أهلهم الله له واختصهم من العباد على قسمين: عباد يكونون له به، وعباد يكونون له بأنفسهم، وما عدا هؤلاء فهم لأنفسهم بأنفسهم ليس لله منهم شيء، فلا كلام لنا مع هؤلاء فإنهم جاهلون ونعوذ بالله أن نكون من الجاهلين. فأما العباد الذين هم له تعالىٰ بأنفسهم فهم الذين تحققوا بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فهم العبيد الصمّ الشداد الأشداء الرحماء بينهم، وعلامتهم الاتصاف بجميع الأحوال من فناء وبقاء ومحو

وإثبات وغيبة وحضور وجمع وفرق إلى ما يقبله الكون من الأحوال، وكذلك من نعوتهم التي تنسب إلى المقامات المذكورة من توكل وزهد وورع ومعرفة ومحبة وصبر وشكر ورضا وتسليم إلى سائر المقامات المذكورة في الطريق، فإن نفوسهم تقبل التغيير والتحويل من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام، ولكن ذلك كله لله لما سمعوا دعاءه إياهم من هذه الأمور كلها فدخلوا عليه بها ذوقاً وحالاً لا علماً ولا اعتقاداً، فإن سائر المؤمنين والعلماء علماء الرسوم يعلمون هذه الأمور كلها ولكن لا قدم لهم فيها، فهؤلاء إذا تجلى لهم الحق لم يثبتوا لظهوره لأن المحدث إذا ظهر له القديم يمحو أثره إذ لا طاقة للمحدث على رؤية القديم، ولهذا جاء الخبر الصحيح الإلهيّ بأن الحق قد يكون بصر العبد وسمعه حتى يثبت لظهور الحق في التجلي أو في الكلام، ألا ترى إلى موسىٰ عليه السلام لما كان الحق سمعه ثبت لكلام الله فكلمه فلما وقع التجلي ولم يكن الحق عند ذلك بصر موسىٰ كما كان سمعه صعق ولم يثبت فلو كان بصره لثبت، وأما العبيد الآخرون فهم له به فيثبتون في كل موطن مهول من حادث وقديم للقوّة الإلهية السارية في ذواتهم، فلا يبقى حال ولا مقام إلاّ ويظهرون به وفيه بطريق التحكّم به والتصرف فيه، فهم يملكون الأحوال والمقامات ولا يملكهم شيء إلاّ ما قررناه من ذلك الأمر الذي يملك الحق إذا كان الحق ملك الملك، فبذلك القدر يكونون في ذواتهم، فبه تعالىٰ يسمعون ويبصرون ويأكلون ويشربون وينامون ويقومون، وله يسمعون ويبصرون ويأكلون ويشربون وينامون ويقومون وهو قول رسول الله ﷺ في بعض خطبه في الثناء على الله: «**فإنّما نحنُ به وله**»، فإذا اجتمع عبدان الواحد له بنفسه والآخر له به أنكر من هو له بنفسه على من هو له به ولم ينكر من هو له به على من هو له بنفسه لأنه عبد محض خالص والآخر حق محض خالص، والصورة الظاهرة منهما صورة خلق، والباطنة ممّن هو لله بنفسه صورة خلق، والصورة الباطنة من الآخر صورة حق، فهذا يتصرف بحق في حق لحق، والآخر يتصرّف بخلق في خلق لحق، ومنهم من يتصرّف في حق لحق بخلق أعني من الذين هم بأنفسهم فخرق العوائد لمن كان لله بنفسه والمنزلة لمن كان لله بالله، فهؤلاء أصحاب كرامات وهؤلاء أهل منازل، وأصحاب الكرامات معلومون عند الله معلومون عند الخلق، وأهل المنازل معلومون عند الله وعند أبناء الجنس مجهولون عند الخلق، إلاّ أن أهل خرق العوائد يبطن في حالهم المكر الإلهيّ والاستدراج، وأهل المنازل مخلصون من المكر لأنهم على بصيرة وبينة من ربهم، فهم أهل وصول إلى عين الحقيقة، جعلنا الله وإياكم من عبيد الاختصاص آمين بعزّته، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الحادي والخمسون وأربعمائة

في معرفة منازلة في المخارج معرفة المعارج

[الرجز]:

لـولا وُجُـودُ الـكَـوْنِ فـي الـمَـعَـارجِ ... مـا لاح عَـيْـنُ الـحَـرْفِ بـالـمَـخَـارِجِ

أخـرجـه ضَـرْبُ مـثـالٍ لـلـذي قـد ارتَـقَـى فـي رُتَـبِ الـمَـعَـارج
فـالـنَّـفَـسُ الـدارجُ فـي طـريـقـه يـبـيـنُ عـن مـنـازل الـمَـدَارج

قال الله تعالىٰ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] وقال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] وقال تعالىٰ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]. اعلم أن الممكنات هي كلمات الله التي لا تنفد وبها يظهر سلطانها الذي لا يبعد وهي مركبات لأنها أتت للإفادة، فصدرت عن تركيب يعبر عنه في اللسان العربيّ بلفظة ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] فلا يتكوّن عنه إلاَّ مركب من روح وصورة ثم تلتحم الصور بعضها ببعض لما بينهما من المناسبات فتحدث المعاني فينا بحدوث تأليفها الوضعيّ، وما وقع فيها الوضع في الصور المخصوصة إلاَّ لذاتها لا بحكم الإنفاق ولا بحكم الاختيار لأنها بأعيانها أعطت العلم الذي لا يتحوّل والقول الذي لا يتبدّل، والمشيئة الماضية فهي في الشهادة بحسب ما هي عليه في الغيب، فهي في الغيب بصورة كل ما تتقلب إليه في الظاهر ممّا لا نهاية له في الغيب من التقليب وهو في الظاهر يبدو مع الآيات إذ لا يصحّ دخول ما لا يتناهى في الوجود لأن ما لا يتناهى لا ينقضي فلا يقف عند حدّ، والمادة التي ظهرت فيها كلمات الله التي هي العالم هي نفس الرحمن ولهذا عبّر عنه بالكلمات، وقيل في عيسىٰ عليه السلام إنه كلّمه الله.

ثم اعلم أن الله تعالىٰ لما أظهر من كلماته ما أظهر قدر لهم من المراتب ما قدر، فمنهم الأرواح النورية والنارية والترابية وهم على مراتب مختلفة، وكلهم أوقفهم مع نفوسهم وأشهدهم إياها واحتجب لهم فيها، ثم طلب منهم أن يطلبوه ونصب لهم معارج يعرجون عليها في طلبها إياه فدخل لهم بهذه المعارج في حكم الحدّ وجعل لهم قلوباً يعقلون بها ولبعضهم فكراً يتفكرون به، ثم جعل من معارجهم نفي المثلية عنه من جميع الوجوه، ثم تشبه لهم بهم فأثبت عين ما نفى ثم نصب لهم الدلالة على صدق خبره إذا أخبرهم فتفاضلت أفهامهم لتفاضل حقائقهم في نشآتهم، فكل طائفة سلكت فيه مسالك ما خرجت فيها عمّا هي عليه، فلم يجدوا في انتهاء طلبهم إياه غير نفوسهم، فمنهم من قال بأنه هو، ومنهم من قال بالعجز عن ذلك وقال: لم يكن المطلوب منا إلاَّ أن نعلم أنه لا يعلم فهذا معنى العجز، ومنهم من قال: يعلم من وجه ويعجز عن العلم به من وجه، ومنهم من قال كل طائفة مصيبة فيما ذهبت إليه وأنه الحق سواء سعد أو شقي فإن السعادة والشقاء من جملة النسب المضافة إلى الخلق، كما نعلم أن الحق والصدق نسبتان محمودتان، ومع هذا فلها مواطن تذمُّ فيه شرعاً وعقلاً، فما ثم شيء لنفسه وما ثم شيء إلاَّ لنفسه، وبالجملة فالخلق كله مرتبط بالله ارتباط ممكن بواجب سواء عدم أو وجد وسعد أو شقي والحق من حيث أسماءه مرتبط بالخلق، فإن الأسماء الإلهيّة تطلب العالم طلباً ذاتياً، فما في الوجود خروج عن التقييد من الطرفين، فكما نحن به وله فهو بنا ولنا وإلاَّ فليس لنا برب ولا خالق وهو ربنا وخالقنا، فبنا لكونه به ولنا لكونه له، إلاَّ أن له الإمداد فينا الوجوديّ ولنا فيه الإمداد العلمي، فتكليفه إيانا تكليف له فبنا تكلف للتكليف فما كلفنا سوانا ولكن به لا بنا فتداخلت المراتب فهو الرفيع

الدرجات مع النزول الذاتيّ والخلق في النزول مع العروج والصعود الذاتيّ فما خرج موجود عن تأثير وجودي وعدمي ولا مؤثر في الحقيقة إلاّ النسب وهي أمور عدمية عليها روائح وجودية، فالعدم لا يؤثر من غير أن تشمّ منه روائح الوجود، والوجود لا أثر له إلاّ بنسبة عدمية، فإذا ارتبط النقيضان وهما الوجود والعدم فارتباط الموجدين أقرب فما ثم إلاّ ارتباط والتفاف كما نبّه تعالىٰ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [القيامة: ٢٩] أي التفّ أمرنا بأمره وانعقد فلا نحل عن عقده أبداً ولما تمّم وهو الصادق بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أثبت وجود رتبته بك ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني يوم يكشف عن الساق ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠] رجوع الكل إليه من سعد، أو من شقي، أو من تعب، أو من استراح. قال ﷺ في الدجال: «**إِنَّ جَنَّتَهُ نَارٌ وَنَارَهُ جَنَّةٌ**» فأثبت الأمرين ولم يزلهما، فالجنة جنة ثابتة والنار نار ثابتة، والصور الظاهرة لرأي العين قد تكون مطابقة لما هو الأمر عليه في نفسه وقد لا تكون، وعلى كل حال فهما أمران لا بدّ منهما خيالاً كان أو غير خيال، وإذا ارتبط الأمران كما قلنا هذا الارتباط فلا بدّ من جامع بينهما وهو الرابط وليس إلاّ ما تقتضيه ذات كل واحد منهما لا يحتاج إلى أمر وجوديّ زائد فارتبطا لأنفسهما لأنه ما ثم إلاّ خلق وحق، فلا بدّ أن يكون الرابط أحدهما أو كلاهما، ومن المحال أن ينفرد واحد منهما بهذا الحكم دون الآخر لأنه لا بدّ أن يكونا عليه من قبول هذا الارتباط فبهما يظهر لا بواحد منهما، ومع هذا الارتباط فما هما مثلان بل كل واحد منهما ليس مثله شيء، فلا بدّ أن يتميزا بأمر آخر ليس في واحد منهما أمر الآخر به يشار إلى كل واحد منهما، فالافتقار موجب للميل وقبول الحركة والغنا ليس حكمه ذلك في الغنى فإنا نعلم أن بين المغناطيس والحديد مناسبة وارتباطاً لا بدّ منه كارتباط الخلق والخالق، ولكن إذا مسكنا المغناطيس جذب الحديد إليه فعلمنا أن في المغناطيس الجذب وفي الحديد القبول ولهذا انفعل بالحركة إليه، وإذا مسكنا الحديد لم ينجذب إليه المغناطيس فهما وإن ارتبطا فقد افترقا وتميزا، فالناس بل العالم فقراء إلى الله والله غنيّ عن العالمين [مجزوء الخفيف]:

هكذا صُورةُ الوُجُودِ ... فلا تَلْتَفِتْ إلى سِوَاهُ
فبه كان شَغْفُنا ... وهو الواحدُ الإلٰهُ

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والخمسون وأربعمائة

في معرفة منازلة كلامي كله موعظة لعبيدي لو اتعظوا

[الكامل]:

مهما وَعَظْتَ فَعِظْ بعَيْن كلامي ... فهو المُوفي حَقَّ كُلِّ مَقَامِ
جَمَعَ العُلُومَ قَديمَها وحديثَها ... معناه إلاّ أنه بفِدَامِ
وفِدامُه ألفاظُنا وحروفُنا ... الجامعاتُ لعين كل كلامِ
فنقول قال الله بالحَرْفِ الذي ... قال الأنامُ به بغير مَلامِ

فـتـردُه أحـلامُـنـا بـدلـيـلـهـا ... والـكَـشْـفُ يـأبَـى مـا تـرى أحـلامـي
والـحُـكْـمُ لـلأمـريـن عـنـد مـن ارْتَـقَـى ... بـمـعـارج الأرواح والأجـسـام
فـانـظـر إلـيـه مُـنَـزَّهـاً ومُـشَـبَّـهـاً ... والـحُـكْـمُ لـلأقـدام فـي الإقـدام
عـلـم الـوجـود ضـيـاؤه وظـلامـه ... نـور يـمـازجـه كـيـانُ ظـلام
مـا أنْ رأيـتُ ولا سـمـعـتُ بـمـثـلـه ... شَـمْـسٌ تُـشَـاهَـدُ فـي حِـجَـابِ غَـمَـامِ
إنـي حَـكَـمْـتُ عـلـى الـزمـان بـمـثـل مـا ... حَـكَـمَـتْ عـلـيـه مـشـارقُ الأيـامِ
فـالـدهـرُ مـحـكـومٌ عـلـيـه وحـاكـمٌ ... مـع كـونـه يـسـمـو عـلـى الأحـكـام
حَـكَـمَـتْ عـلـيـه شـرائـعٌ ودلائـلٌ ... مـع كـونـهـا مـن جـمـلـة الـخُـدَّام
واعـلـم بـأنـك إنْ نَـظَـرْتَ بـعـيـنـه ... يـبـدو لـك الإحـكـامُ فـي الأحـكـام

قال الله تعالىٰ لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ [سبأ: ٤٦] فقال بعض السامعين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦] فاعتنى الله بأهل الإيمان فقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] فالتفت إلى القابل وما التفت إلى المعرض فلم يرتبط الوجود إلاَّ بالمؤمن، وهو سبحانه المؤمن المهيمن على المؤمنين، فجزاء الله عندنا على هذا الاعتناء العمل بما شرع والمبادرة لما به نهى وأمر اعتناء باعتناء وهو أحق بنا، فإن اعتناءنا بالقبول يعود علينا نفعه لافتقارنا إلى ذلك النفع، واعتناؤه بنا امتنان منه لأنه غني حميد بغناه، فوعظنا بالحوادث الواقعة على خلاف الأغراض ممّا تنفر عنه طباعنا وذكرنا بأنا معرضون لحلولها بنا إلاَّ أن يعصم الله في بعضها لا في كلها فإن منتهى الدوائر وأعظمها الموت ولا بدّ منه بأيّ وجه كان، ولست أعني بالموت إلاَّ الانتقال عن هذه الدار فإن الشهيد منتقل وإن لم يتصف بالموت، هكذا أمرنا المؤدّب أن نقول، فإن لنا نصيباً من الأدب الإلهيّ الذي أدّب به الله رسوله الله ﷺ، فليس أدّب الله خاصاً بأحد دون أحد، فمن قبله سعد وكان ممّن أدّبه الله وانتمى إلى الله في الأدب وهو أحسن الأدب، وقد نهانا أن نقول لمن يقتل في سبيل الله أنه ميت ولا نحسب أنه ميت بل هو حي عند ربه وفي إيماني يرزق، وذكرنا تعالىٰ بموعظته ذكرى حال إذ أصاب من قبلنا بوقوع تلك الدوائر عليهم [الوافر]:

ألَـذُّ الـفِـعْـلِ فِـعْـلُ الـقَـهْـرِ فـانْـظُـرْ ... بـعـقـلـك إذا رأتـك سَـنَـى الـوُجُـودِ
فـكُـنْ لـي إن تَـكُـنْ لـي أنـت كُـلِّـي ... وإن لـمْ فـاعْـتَـبِـرْ فـالـجـودُ جُـودي
لـقـد تُـبْـنَـا ومـا خِـفْـنَـا عـقـابـاً ... وقـد أغْـنَـى الـمَـجِـيـدُ عـن الـمَـجِـيـدِ
فـقُـلْ لـلـمـنـكـريـن صَـحِـيـحَ قـولـي ... لـقـد غِـبْـتُـمْ عَـنِ اَحـسـان الـمَـجِـيـدِ

وذكر بأمور أخبر عنها في المستقبل عند الانتقال إلى الدار الآخرة تقع بالعباد ممّا يسرّ وقوعها وممّا لا يسرّ وممّا يوافق الغرض ويلايم الطبع وممّا لا يلايم الطبع ولا يوافق الغرض، وممّا يدل على الكمال والنقص، فذكر بالرغبة في ذلك والرهبة من ذلك، وذكر بنفسه لما علم تعالىٰ أن إفراط القرب حجاب عظيم عن القرب. وقد قال إنه أقرب إلينا من حبل الوريد، وحبل الوريد نعلم قربه ولا تراه أبصارنا، كذلك قرب الحق منا نؤمن بقربه ولا تدركه

أبصارنا، فلذلك ذكر بنفسه لا لبعده لأنه حفيظ والحفظ يطلب القرب بلا شك فنحن بعينه وهو معنا حيثما كنّا لا بل أينما كنا، ونستغفر الله من عثرات اللسان وإن كان من عند الله فالأدب أولى ولا سيما فيما ينسب إلى الجناب الإلهيّ، لا ينبغي للأديب أن يتكل على المعنى بل الأدب في مراعاة الألفاظ فإنه تعالىٰ لم يعدل إلى لفظ دون غيره سدى فلا نعدل عنه فإن العدول عنه إلى مثله في المعنى تحريف بغير فائدة ويقنع العدوّ من الكبراء بهذا القدر، فهي مزلة قدم ومكر خفيّ ورعونة نفس وإظهار مرتبة دنية يتخيل مظهرها أنها زلفى وأنها رتبة أسنى وأعلى، فلما ذكر بنفسه ذكر أنه إليه يرجع الأمر كله لنعلم أن المرجع إليه فلا نقوم في شيء نحتاج فيه إلى الاعتذار عنه أو نستحي منه عند المرجع إليه، والعبد الصحيح العبودية مع الموافقة لا يكون له إدلال فكيف مع المخالفة؟ ولما ذكر بنفسه أحال عباده على أنفسهم وقال لهم: إن عرفتم نفوسكم عرفتموني، فمن الأدب أن نرجع بالنظر إلى نفسي فإن نظرت فيه وتركت نفسي فما تأدبت، وإذا لم أكن أديباً لم نكن من أهل البساط فحرمت المشاهدة فحرمت العلم الذي يعطيه الشهود، فإني إن نظرت فيه حتى أعرفه فربما أعرفه المعرفة التي تليق بهذا النظر وليست المطلوبة، فإن الذي طلب سبحانه أن نعرفه معرفة الارتباط به وتلك المعرفة التي عدل إليها من عدل لا تعطي الارتباط، فلم تحصل الفائدة التي قصد الله بها عبده، فالأديب يرجع بالنظر إلى نفسه عن أمر ربه، فإذا عرف نفسه فكراً أو شهوداً عرف ارتباطه بربه فعرف ربه تنزيهاً وتشبيهاً معرفة عقلية شرعية إلهية تامّة كاملة غير ناقصة كما شاء الحق، فإنه تعالىٰ أبان لنا في هذه الإحالة عن أحسن الطرق والعلم به، فتبين لنا أنه الحق وأنه على كل شيء شهيد، وقال في حق من عدل عن هذا النظر بالنظر فيه ابتداء: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ [فصلت: ٥٤] فلو رجعوا إلى ما دعاهم إليه من النظر في نفوسهم لم يكونوا في مرية من لقاء ربهم فإنهم يجدونه في عين نفوسهم، ثم تمّم وقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤] وأراد هنا شيئية الوجود لا شيئية الثبوت، فإن الأمر هناك لا يتصف بالإحاطة، فمن وقف مع ما ذكرناه كان ممّن اتعظ، فإن شاء أخذ بنصيبه من الورث فوعظ، وإن شاء بقي في النظر على حاله بنفسه دائماً، فإن النفس بحر لا ساحل له لا يتناهى النظر فيها دنيا وآخرة وهي الدليل الأقرب، فكلما ازداد نظراً ازداد علماً بها، وكلما ازداد علماً بها ازداد علماً بربه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والخمسون وأربعمائة

في معرفة منازلة كرمي ما وهبتك من الأموال وكرم كرمي ما وهبتك من عفوك عن الجاني عليك

[الكامل]:

حُـكْـمُ الـكـريـم بـأنـه لا يَـمْـنَـعُ ذاك الـمُـسَـمَّـى عـنـدنـا كَـرَمَ الـكَـرَمْ
فـهـو الـذي يَـهَـبُ الـنَّـعِـيـمَ لـذاتـه ولـديـه بـالـبـرهـان مـفـتـاحُ الـنِّـعَـمْ

انْظُرْ لحمد الحمد إنْ حَقَّقْتَهُ   ما عنده مَنْعٌ ولا في ذاك ذَمْ

قال الله تعالىٰ معلماً ومنبهاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] فنبّهه حتى يقول كرمك فهذا من باب كرم الكرم، فما أمرك بالعفو عمّن جنى عليك إلاّ ليعفو عنك إذا جنيت عليه في ظنك وما جنيت إلاّ على نفسك وظنك أرداك حيث ظننت أنك جنيت عليه كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢و ٢٣] ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

اعلم أن أعظم الجنايات من يبهتك وهو أن ينسب إليك ما لم يكن منك وإن ظهر منك فيكون من كرم خلقك أن تصدقه فيما نسب إليك إيثاراً لجنابه على نفسك وهو على خلق كريم في ذلك، وقد علم منك أنك تأدّبت معه فما يكون جزاؤك عنده؟ فمثل هذا لا يبلغ كنه ما يستحقه من الإفضال عليه والإنعام لأنّ الإعراض عند ذوي الهيئات والمروءات أعظم في الحرمة من الدماء والأموال، وما فعل مثل هذا في حقك إلاّ ليرى صبرك وتحملك مثل هذا الأذى والجفاء فإنه يعلم أنك تعلم براءة ساحتك ممّا نسب إليك من المذام التي كانت منه لا منك إيجاداً وحكماً وأنت بريء منها إيجاداً وحكماً، فلم تفش له سرّاً ولم تنازعه، ففزت زائداً على ما تستحقه بدرجات الصابرين والراضين والمؤثرين، واستعذبت كل ذلك في جنبه، ونبهنا تبارك وتعالىٰ على عظيم المنزلة لمن هذه صفته بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [الشورى: ٤٠] وأعظم العفو على الجناية العظيمة من العظيم الشأن، ثم رميه بها من لم تصدر منه تنزيهاً له وإيثاراً لنفسه قال: ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] فيا ليت شعري لم كان أجره على الله ولم يقل فأجره على صبره وإيثاره كذا وكذا؟ فتنبه إلى هذا الأمر العجاب ولا تكن من الغافلين، وألزم الحضور والأدب مع الله قلبك إن أردت أن تكون من أهل الله وخاصته الذين جعلوا نفوسهم وقاية لله جعلنا الله ممّن اتقاه بنفسه لا به فيحشر في زمرة الأدباء. وفي هذه الإشارة في كرم الكرم غنية وكفاية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والخمسون وأربعمائة
في معرفة منازلة لا يقوى معنا في حضرتنا غريب وإنما المعروف لأولي القربى

[الوافر]:

أُولُو القُرْبَى هُمُ الحُكَّامُ فينا   وفي أموالنا ولنا القِيَادُ
فإن جاء الغريبُ يُقِيمُ يَوْماً   ويَرْحَلُ مُسْرِعاً وهو المرادُ
قريبُ قرابةٍ وقريبُ قُرْبى   جمعناها فيحسدُنا العبادُ
فما أَحَدٌ يدومُ به شقاءٌ   ولا كونٌ يزولُ ولا فسادُ

قال الله تعالىٰ آمراً لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]

وورد في الخبر في إثبات النسب بيننا وبين الله: «إنَّ الله يَقُولُ يَوْمَ القِيامَةِ: اليَوْمَ أَضَعُ نَسَبَكُمْ وَأَرْفَعُ نَسَبِي أَيْنَ المُتَّقُونَ؟» وهم الذين جعلوا نفوسهم وقاية يحمون بها جانب الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] أي أشدّكم وقاية لأنه جاء في باب أفعل، فالمدار على صحة النسب الإلهيّ، فإذا صحّ النسب لم تبق غربة في حق من صحّ نسبه، ولا يصحّ النسب حتى يقع التناسب في الصفة، فإذا كان العبد أحديّ الذات في شأنه معروفاً عند الله مجهولاً في العالم لا يعرف نسبه ولا ينال منصبه يسأل الله به ويلجأ إليه عند الاضطرار من غير تعيين ولا تمييز وهو الذي يدعى به إذا جاءت الشدائد فيقول صاحبها: اللهمّ بحرمة الصالحين عندك افعل لي كذا وكذا فهو المجهول المعين، ولم يتولد عنه أمر يوجب تمييزه عند الأجانب من الأجانب ولم يدل عليه لأنه لا يدل عليه حتى يكون مطلوباً والذي لا يؤبه له لا يطلب، ثم إنه يكون على حالة لا يزنه فيها أحد من خلق الله إلاّ من له هذا المقام، فإذا كان بمثل هذه الصفات صحّ النسب. ورد في الخبر أن اليهود قالت لمحمد ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك، فنزلت: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] [الخفيف]:

نَسَبُ اللَّهِ قُلْ هو اللَّهُ ... فانظُرُوا فيه تعرفوا ما هُوْ
أَحَدِيٌّ لذاته صَمَدٌ ... ليس يَدْري ما هُوَ إلاَّ هُوْ
لم تَلِدْهُ العقولُ إذْ نَظَرَتْ ... وهو الناظرُ الذي ما هُوْ
واحدٌ ما يكون عنه زكى ... لا ولا واحدٌ فقُلْ ما هُوْ
هو عَيْنُ الوجود فهو حَسْبي ... وكَثِيرٌ فليس إلاَّ هُوْ
فانْظُرُوا الحَقَّ في تَنَاقُضِ ما ... قُلْتُهُ لا إلٰهَ إلاَّ هُوْ

فحضرته لا تحمل الغرباء لأنه وصل للرحم فهو أرحم الرحماء، فقرابته مجهولة، والجاهلون بها منهم أنزلهم جهلهم منزلة الغرباء الذين لا نسب بينهم وبينه وهو سبحانه ما يعامل عبده إلاّ بما جاءه به لا يزيده عليه. وهو قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ﴾ [فصلت: ٢٣] فهو لهم في اعتقادهم جار جنب فهم قطعوا رحمهم فقطعهم الله فما أشرف العلم بالأنساب، ولهذا كانت العرب تثابر على علم الأنساب حتى قال الله ما قلناه من إثبات النسب بالطريقين: طريق أرفع نسبي وطريق الرحم شجنة من الرحمن وهو قوله: الولد سرّ أبيه، فكم بين رجل يأتي يوم القيامة عارفاً بنسبه مدلاً بقرابته متوسلاً إلى الرحمن برحمه، وبين من يأتي جاهلاً بهذا كله يعتقد الأجنبية وبعد المناسبة، وإن علم بالخبر فيكون عنده بمنزلة كون أبيه آدم منه وهو ابن آدم فيجعل هذا مثل ذلك، فإن هذا النسب لا يعطي سعادة عنده وهو غالط بل يعطي ويعطى، ولقد رأيت ذلك ذوقاً بمكة في عمرة اعتمرتها عن أبينا آدم عليه السلام فظهر لي ذلك في مبشرة رآها بعض الناس لنا وللجماعة التي أمرتهم في تلك الليلة بالاعتمار معي عن أبينا آدم رأى فيها من التقريب الإلهيّ وفتح أبواب السماء وعروج تلك الجماعة وتلقاهم الملأ الأعلى بالتأهيل والسهل والترحيب إلى أن بهت وذهل ممّا رأى، فإن رحم آدم منا رحم مقطوعة عند أكثر الناس من أهل الله فكيف حال العامة في ذلك؟ ولقد وصلتها بحمد الله ووصلت بسببي

وجرى فيها على سنني، وكان عن توفيق إلهيّ لم أر لأحد في ذلك قدماً أمشي على أثره فيها، فحمدت الله على الإنعام وما اهتديت إلى ذلك إلاَّ بالنسب الإلهيّ فإنه أبعد مناسبة وقد نفع وذكر وما تفطن الناس لقول الله تعالىٰ في غير موضع: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦] يذكر ولا أحد ينتبه لهذه الأبوّة والبنوّة ولا يتذكر إلاَّ أولو الألباب جعلنا الله وإياكم ممّن برّ أباه، وما أشبه هذا الذكرى من الله في بني آدم بقوله: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] وأين زمان هارون منها؟ فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والخمسون وأربعمائة

في معرفة منازلة من أقبلت عليه بظاهري لا يسعد أبداً ومن أقبلت عليه بباطني لا يشقى أبداً وبالعكس

[البسيط]:

الحُكْمُ للقَدَرِ المعلوم والنَّسَبِ ... أمْرٌ تَحَقَّقْتُهُ ما الحكمُ للسَّبَبِ
هذا بلالٌ وخَبَّابٌ وأين هما ... من العمومة فالأحكامُ للنَّسَبِ
فالله يَجْعَلُنا من ذا على حَذَرٍ ... في غير جَهْدٍ ولا كَدّ ولا نَصَبِ
لولا الشريعةُ عند العارفين بها ... ما كنت من يتقي مَصارعَ النُّوَبِ
يا رَحْمَةً سَبَقَتْ يا رحمةً شَمَلَتْ ... وما هما بمحلِّ الخُسْر والعَطَبِ

قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] تنبيهاً أنه الوجود كله فإن هذا تقسيمه فليس إلاَّ هو، والنعيم نعيمان: نفسيّ وهو الباطن وحسيّ وهو الظاهر في النفس الحساسة، والعذاب عذابان: نفسيّ وهو الباطن وحسيّ وهو الظاهر، والحال حالان: حال سابق وهو الأوّل وحال لا حق وهو الآخر، وما ثم إلاَّ رحمة سابقة وغضب لا حق ثم رحمة شاملة سارية في الكل فهي لاحقة سابقة فيغضب ويرضى فيعذب رحمة لغضبه ليزول الغضب، فانظر ما أحكم تعذيبه كيف أدرج الرحمة فيه لإزالة الغضب حتى يزول حكمه فتشمل الرحمة بنفسها من حقّت عليه كلمة العذاب، فبرحمته عذب من عذب لأنه لولا العذاب لتسرمد يكون الغضب وهو أشد على المغضوب من العذاب الواقع به لمن عقل ما أقول، وإذا كان الأمر كما قرّرناه وهو كما ذكرناه فقد في الإقبال الظاهر سعادة ليسعد به المقبول عليه، وقد يكون في الإقبال الظاهر شقاوة ليشقى به المقبول عليه، وقد يكون في الإقبال الباطن مثل ما ذكرناه في الإقبال الظاهر، والمقبول عليه غيب وشهادة وروح وصورة وحيوان وناطق، فلا بدّ من النفس والحسّ أن ينفعلا لهذه الإقبالات وأحكام النسب بها يظهر حكم الحاكم في المحكوم عليه، وقد ذكر الله أنّ الهوية العائدة عليه هي عين هذا الذي ذكرناه فلم يقع تصرّف منه إلاَّ فيه، نبّه على ذلك بقاتل نفسه وأن الجنة محرّمة عليه فلا حجاب عليه فإنه ظاهر له لا يتمكن أن يستتر عنه هو، وجعل ذلك مبادرة له لأنه ذكر أمرين من أوّل وآخر فقد يبادر الآخر فيكون له حكم الأولية ويكون للأول بالنسبة إلى هذا المبادر حكم الآخرية،

ولهذا جاءت العبارة التي ذكرها الترجمان عن الله: بادرني عبدي بنفسه حرّمت عليه الجنة فلا يستره شيء بعد هذا الكشف لأنه يعلم من سبق ومن لحق كما يعلم من خلق ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ فلا يظهر ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] لتحصيله العلم ذوقاً الذي كسبه المعلوم فإن المعلوم متقدم بالرتبة على العلم وإن تساوقا في الذهن من كون المعلوم معلوماً لا من كونه وجوداً أو عدماً فإنه المعطي العالم العلم فلا بدّ في الكون من سعادة وشقاء ولو ببرد الهواء وحرّه فما زاد فما يلايم المزاج كان سعادة وما لا يلايمه كان شقاء، ثم تمشي بهذا الحكم على الغرض والكمال والشريعة وتحكم في ذلك كله حكمك بالملايمة وعدمها، فافهم فإني أريد الاختصار والتنبيه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والخمسون وأربعمائة في معرفة منازلة من تحرّك عند سماع كلامي فقد سمع يريد الوجد الذي يعطي الوجود

[البسيط]:

لولا سَمَاعُ كلامِ الله ما بَرَزَتْ ... أعْيَانُنا وسَعَتْ منه على قَدَمِ
إلى الوجود ولولا السَّمْعُ ما رَجِعَتْ ... على مَدَارِجِها لحالة العَدَمِ
فنحن في بَرْزَخ والحَقُّ يَشْهَدُنا ... بين الحُدوث وبين الحُكْمِ بِالقِدَمِ
ليس التكوّنُ ممّن لا كلامَ له ... إنّ التكوُّنَ عن قَصْدٍ وعن كَلِمِ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] يعني حكم ممّا توجه عليه أمر ﴿كُن﴾ كان ما كان، فيعدم به ويوجد فليس متعلقه إلاّ الأثر، ولهذا سمّاه في اللسان العربيّ كلاماً مشتقاً من الكلم وهو الجرح وهو أثر في المجروح، فلما وجد الأثر سمّى ما وجد عنه كلاماً كان ما كان فافهم، والحركة انتقال من حال إلى حال أي من حال يكون عليه السامع إلى حال يعطيه سماعه عند كلام المتكلم وهو فيه بحسب فهمه فهو مجبور على الحركة، ولهذا لا تسلم الصوفية حركة الوجد الذي يبقى معه الإحساس بمن في المجلس حتى تسلم له حركته بالله، فمهما أحسّ تعين عليه أن يجلس إلاّ أن يعرّف الحاضرين بأنه متواجد لا صاحب وجد فيسلم له ذلك، ولكن لا تحمد هذه الحالة عندهم على كل حال لأنهم يكرهون الحركة في الأصل بنفس المتحرّك ويحمدونها بالمحرّك، فأصل السماع الذي يقول به أهل الطريق شريف وهو يسري في كل شيء فلا يختص به حال إيقاع وغناء على طريق خاص طبيعيّ، فإن الوزن الطبيعيّ إنما يؤثر فيما تركب من الطبيعة على مزاج خاص لا يشترط في حركة الطبع الفهم بخلاف حركة النفوس العقلية وإن كان للطبيعة فيها أثر في أصل وجودها ولكن ليست لها في النفوس العاقلة تلك القوّة إلاّ بالفهم فلا يحرّكه إلاّ الفهم، ألا ترى الكائنات ما ظهرت ولا تكوّنت إلاّ بالفهم لا بعدم الفهم لأنها فهمت معنى ﴿كُن﴾ فتكوّنت ولهذا قال: ﴿فَيَكُونُ﴾ يعني ذلك الشيء لأنه فهم عند السماع ما أراد بقوله: ﴿كُن﴾

فبادر لفهمه دون غير التكوين من الحالات، فما سميت هذه الحركة بالوجد إلاّ لحصول الوجود عندها أعني وجود الحكم سواء كان بعين أو بلا عين فإنه عين في نفسه هذا الكائن.

ثم إن الحق أعطى هذه الصفة لعباده وجعل نفسه سامعاً وأقام نفسه محلاً لتكوين ما يطلبه منه العبد في سؤاله سمّاه إجابة وجعل ذلك بلفظ الأمر كما جعل ﴿كُن﴾ ليريه أن الحقائق لا نفسها تكون أحكامها ما هي بجعل جاعل لمن عقل وعلم الأمور على ما هي عليه، فإن العلم بهذا النوع من العلوم المختزنة عن أكثر الناس بل يحرم كشفها لهم من العارف بها لما يؤدّي إلى إنكار الحق مع علمهم بأن المعاني توجب أحكامها لمن قامت به عقلاً يريدون أن ذلك لذاتها، ولهذا تمكن المتكلم بالردّ على من يقول بالإرادة الحادثة لا في محل. وأما كلام الله من الشجرة لموسىٰ فهو عند بعضهم دليل على أن الكلام ينسب لمن خلقه كما تقول الطائفة الأخرى أن السمع تعلّق بالمناسب وهو الخطاب من الشجرة وليس إلاّ كلام الله كما قال: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ومعلوم بماذا تعلق السمع منه، وهؤلاء القائلون بأن المتكلم من قامت به صفة الكلام وأهل الكشف الذين يرون أن الوجود لله بكل صورة جعلوا الشجرة هي صورة المتكلم كما كان الحق لسان العبد وسمعه وبصره بهويته لا بصفته كما يظهر في صورة تنكر وتتحوّل إلى صورة تعرف وهو هو لا غيره إذ لا غير، فما تكلم من الشجرة إلاّ الحق فالحق صورة شجرة، وما سمع من موسىٰ إلاّ الحق فالحق صورة موسىٰ من حيث هو سامع، كما هو الشجرة من حيث هو متكلم، والشجرة شجرة وموسىٰ موسىٰ لا حلول لأن الشيء لا يحل في ذاته فإن الحلول يعطي ذاتين وهنا إنما هو حكمان: [البسيط]

فـالحسُّ يَشْـهَـدُ مـا الأفـكـارُ تُـنْـكِـرُهُ | والعَقْلُ يعلم ما الإحساسُ يَرْمِي بِهْ
فـانْـظُرْ إلـيـه تـرى فـي صُـورِهِ عَـجَـبـاً | وانظر إلى حكمه في حُسْنِ تَرْتِيبِهْ
تـراه عَـيْـنُ الـذي يـراه مـن كَـثَـبٍ | ولـيـس يُـدْرِيـهِ مَـنْ يَـدْرِيـهِ إلاّ بِـهْ

فانظر إلى هذه النكت الإلهيّة في هذه المنازلات ما أخصرها وما أعطاها للأمور على ما هي عليه في إيجاز، والله يقول الحق هو يهدي السبيل.

الباب السابع والخمسون وأربعمائة
في معرفة منازلة التكليف المطلق

[البسيط]:

حُـكْـمُ الـتـكـالـيـف بـيـن الله والـنـاسِ | من عَـهْـدِ والـدنـا الـمـنـعـوتِ بـالـنَّـاسِـي
فـالأمـر مـنّـي لـه كـالأمـر مـنـه لـنـا | فـإن دَعَـانـا أتَـيْـنـاهُ عـلـى الـرَّاسِ

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ [البقرة: ١٨٦] يقول للرسول أن يقول: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى﴾ [البقرة: ١٨٦] يعني إذا دعوتهم إلى القيام بما شرعته لهم وكل ذلك شرع، فقد أدخل نفسه فيما كلف به عباده وجعل الأمر بأيديهم في ذلك

فهو إعلام على الحقيقة بما هو الأمر عليه ما هو بالجعل فإنه يتعالىٰ عن الجعل فيما ينسبه لهويته إلاَّ إذا ظهر بصورة خلق فيقضي ما يعطيه البصران أحكام ما وقعت عليه العين مجعولة، وتعطي الحقيقة أن الأمر ما هو كما تدركه العين، فلا تزال المنازعة بين القلب والعين في المعارف الإلهية في الخصوص كما تعرفه العامة في العموم في المحبة، ولنا في ذلك في التشبيب على ما وقع في العموم [البسيط]:

يَسُوقُ رُوحي بلا شَكٍّ إلى التَّلَفِ ... هذا الذي بفؤادي من هَوَى شَرَفِ
أقول للقلب قد أوْرَثْتَنِي سَقَماً ... فقال عَيْنُكَ قادَتْني إلى التَّلَفِ
لو لم تَرَ العَيْن ما أمسيت حلف ... فإن أمُتْ فيه ما للحُبِّ من خَلَفِ
لذاك قَسَمْتُ ما عندي على بَدَني ... من الضَّنا والجَوَى والدَّمْعِ والأسَفِ

فالتكليف المطلق يطلق ويراد به أمران: الأمر الواحد أن يعمّ الإنسان أجمعه مثل قوله: يصبح على كل سلامي منكم صدقة وهو قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] بنون الجمع لعموم التكليف وإطلاقه في ذات المكلف، ومن هذا الباب أعني إطلاق التكليف ما اجتمعت فيه جميع الشرائع ولم تنفرد به شريعة دون أخرى وهو قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] فعمّ وأطلق، والأمر الآخر من الإطلاق إدخاله نفسه معنا تعريفاً أنه مأمور وآمر وناه ومنهي ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] والأمر ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فانصرنا هذا منا عن أمر مشروع، والجواب منه في الصحيح: قد فعلت قد فعلت، والأمر منه ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [المزمل: ٢٠] ﴿وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ [المزمل: ٢٠] ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ﴾ [المزمل: ٢٠] الجواب منا على قسمين بخلاف ما كان منه، فجواب موافق لجوابه وهو قولنا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥] وجواب غير موافق من جميع الجهات لإجابته وهو قوله: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وهذا كلام من أبعده الله عن سعادته وقرب إليه بهذه الإجابة شقاوته، فقد أبنت لك عن إطلاق التكليف، وهذا من إنصاف الحق عباده ليطلب منهم النصف، ثم إنه في موطن آخر جعل لقوم آخرين ممّن كتب عليهم شقاء مستنداً إلٰهياً لم يقم فيه مقام الإنصاف فأعمى عليهم فعموا فنسب إليهم ما هو إليه وأشقاهم به ثم قال: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] لأن النزاع وقع بينه وبينه لأنه في نفس الأمر ما ثم إلاَّ حكمان ما ثم ذاتان فافهم، وعندنا ما كانت الحجة البالغة لله على عباده إلاَّ من كون العلم تابعاً للمعلوم ما هو حاكم على المعلوم، فإن قال المعلوم شيئاً كان لله الحجة البالغة عليه بأن يقول له: ما علمت هذا منك إلاَّ بكونك عليه في حال عدمك وما أبرزتك في الوجود إلاَّ على قدر ما أعطيتني من ذاتك بقبولك فيعرف العبد أنه الحق فتندحض حجة الخلق في موقف العرفان الإلهيّ الخاص. وأما في العموم فالأمر فيه قريب والحكم يختلف بحسب فهم الرجال فيه، فما كل أحد تقام عليه حجة تقام على الآخر، فلكل صنف حجة عند الله بها يظهر على عباده ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ بالحجة ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨] حيث يظهر على كل صنف بما تقوم به الحجة لله عليه، فلولا إطلاق التكليف ما

كان خصماً ولا عمل لنا معه مجلس حكم ولا ناظرناه فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والخمسون وأربعمائة

في معرفة منازلة إدراك السبحات الوجهية

[المديد]:

سُبُحَاتُ الوَجْهِ تُذكِرُنا ... وهي بالإدراك تُعْدِمُنا

غيرةً منها عليه فهل ... أحَدٌ منكم يُفَهِّمُنا

كيف كان الأمر فيه فلم ... نَلْقَ موجوداً يُعَرِّفُنا

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] وقال ﷺ في الحجب الإلهية المرسلة بينه وبين خلقه: «**إنه تعالىٰ لَوْ رَفَعَها لأَحْرَقَتْ سبحاتُ الوَجْهِ ما أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**» وقيل له ﷺ: أَرَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فقال: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**» فهذه الحجب إن كانت مخلوقة فكيف تبقى للسبحات فإنها غير محجوبة عنها، لكن اعلم أنه سرّ أخفاه الله عن عباده سمّي ذلك الإخفاء حجباً نورية وظلامية، فالنور منها ما حجب به من المعارف الفكرية به، والظلمة منها ما حجب به من الأمور الطبيعية المعتادة، فلو رفع هذه الحجب عن بصائر عباده لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه، وهذا الإحراق إنما هو اندراج نور أدنى هم فيه بل هم هو في نور أعلى، كاندراج أنوار الكواكب في نور الشمس، كما يقال في الكوكب إذا كان تحت الشعاع مع وجود النور في ذات الكوكب إنه محترق فلا يراد به العدم بل تبدّل الحال على العين الواجدة في نظر الناظر، فانتقل الاسم عليه وعنه بانتقال الحكم كان الحطب حطباً فلما احترق سمّي فحماً والجوهر واحد، ومعلوم أن الكواكب على ضوئها في نفسها ولكن لا نراها لضعف الإدراك، فلو رفعها في حق العلماء لرأوا نفوسهم عينه وكان الأمر واحداً لكنه رفعها عنهم فرأوا ذواتهم ذاتاً واحدة فقالوا ما حكى عنهم من أنا الله وسبحاني، لكن العامة لم ترفع عنهم فلم يشهدوا الأمر على ما هو عليه فتنازعوا أمرهم بينهم وأسر العارفون النجوى أدباً مع الله فإنهم الأدباء، قال ﷺ: «**لا تُعْطُوا الحِكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوهَا وَلا تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ**» فما قال الشارع للعارفين شيئاً أشدّ تكليفاً من هذا الحكم لأنه أمرهم بالمراقبة لكل شخص شخص، فهم يراقبون العالم من أجل هذا الحديث لأنهم أهل حكمة، فمن رأوا فيه الأهلية أعطوه لئلا يتصفوا بالظلم في حقه، وإن لم يروا فيه أهلية لم يعطوه لئلا يتصفوا بالظلم في حقها، فلا يزالون مراقبين للعالم دائماً أبداً وهذا حظّهم من قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢] فمن راقب بعين الله لم يشغله شأن عن شأن، فهو يتصرف في كل شيء بذاته لأنه إلهي المشهد والقبول من المتصرف فيه، فالمتصرف مستريح من هذا الوجه، ومن راقب بعين نفسه من خلف حجاب ذاته فهو في غاية من الجهد والتعب فلا يزال في نصب ما دامت هذه صفته [المتقارب]:

فبالنورِ تُدرَكُ أنوارُهُ وبالنورِ يُدرَكُ ما يُدرَكُ
فمن يَكُنْ بنَعتِ حَقٍّ لهُ يَمْلِكُ بالذات ولا يُمْلَكُ

وهذا القدر من الإشارة في هذه المنازلة كاف لمن عقل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والخمسون وأربعمائة

في معرفة منازلة وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار

[السريع]:

ثلاثةٌ كُلُّهُمُ مُصطَفَى ذو الظُّلْمِ والسَّابقُ والمُقتَصِدْ
وَرَّثَهُمْ كتابَهُ فاعتَلَوا بالعِلْمِ في ذاك عن المُعتَقَدْ
واختارَهم لنفسه فاعتَلَتْ هِمَّتُهُمْ عن كل أمرٍ شُهِدْ

قال الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢] أي كل ذلك بأمر الله، فالظالم لنفسه لعلمه بقدرها عند الله فهو يظلم لها لا يظلمها فيعطي كل ذي حق حقّه إلاّ الحق فإنه لا يعطيه كل حقّه بل يعطيه من حقّه تعالىٰ ما يسمّى به أديباً وما لا يسمّى به أديباً يظلمه فيه من أجل نفسه حتى يلحق برتبة الأنبياء، فمثل هذا الظلم من الفضل الإلهيّ على عبده، فمن كان مشهده هذا سمّي ظالماً لنفسه مع أنه مصطفى وما أوقفه على ذلك إلاّ علمه بالكتاب فهو يحكم به كما قال الذي عنده علم من الكتاب لسليمان عليه السلام: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠] فلولا الكتاب ما علم آصف بن برخيا ذلك، وأما المقتصد فهو الذي اقتصد في كل موطن على ما يقتضيه حكم الموطن فهو بحكم الموطن لا بحكم نفسه، وهم أهل الله الأخفياء الأبرياء، فمشهد الظالم ما يجب للحق فلا ينسبه إليه، ومشهد المقتصد المواطن وما تستحق، فالظالم يدخل في حكم المقتصد ولهذا كان المقتصد وسطاً لأنه على حقيقة ليست للطرفين، وفيه من حكم الطرفين ما يحتاج إليه أو يندرج فيه، وأما السابق بالخيرات فهو الذي يتهيأ لحكم المواطن قبل قدومها عليه، وتجتمع هذه الأحوال في الشخص الواحد فيكون ظالماً مقتصداً سابقاً بالخيرات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الستون وأربعمائة

في معرفة منازلة الإسلام والإيمان والإحسان الأول والثاني

[مجزوء الوافر]:

عَلِمْتُ أني هَمِمْتُ ولكن ما فَهِمْتُ
مُرادَ الله فيه لكوني ما شَهِدْتُ
فإسلامٌ تَبَدَّى بقولي قد سَلِمْتُ

به من كُلّ سُوءٍ ... به أيضاً نَعِمْتُ
وإيمانٌ خَفِيٌّ ... ولكن ما كَتَمْتُ
وإحسانٌ أراه ... بتَشْبيه فقُلْتُ
تَعَالَى عن شهودي ... لأني قد جَهِلْتُ
بأن الحَقَّ فيه ... وحَقّاً ما قَضَذتُ
وعِلْمي شاهدٌ لي ... بأني قد شَهِذتُ

قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] وقال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] وورد في الخبر الصحيح الفَرْقُ بَيْنَ الإِيمَانِ وَالإِسْلَامِ وَالإِحْسَانِ: «**فَالإِسْلَامُ عَمَلٌ، وَالإِيمَانُ تَصْدِيقٌ، وَالإِحْسَانُ رُؤْيَةٌ أَوْ كَالرُّؤْيَةِ**» فالإسلام انقياد، والإيمان اعتقاد، والإحسان إشهاد، فمن جمع هذه النعوت وظهرت عليه أحكامها عمّ تجلى الحق له في كل صورة فلا ينكره حيث تجلى، ولا يظهره في الموطن الذي يحب أن يخفى فيه فيساعد الحق لعلمه بإرادته لعلمه بالمواطن وما يستحقه، فما أشرف هذه المنزلة لمن تدلّى عليها من شرف، فهو المؤمن للمؤمن، والمحسن للمحسن، وهو المسلم للإسلام، فإن الحق إذا فعل ما يريده منه العبد فقد انقاد له فيقول العبد: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ [نوح: ٢٨] فيغفر له لأنه صادق في قوله هل من المستغفر فاغفر له فلقد فات الناس خير كثير لجهلهم وما توغلوا فيه من تنزيه الحق حتى أكذبوه ولهذا قال: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١] وليس الحق إلاَّ ما قاله عن نفسه، فلولا ما علم أن العالم يعلمه ما قال لهم: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ فحاجة الحق في نفسه إلى ظهوره أعظم من حاجة المظهر له إلى إظهاره، فإن الحق قد حجر علينا إظهار الحق في مواطن كالغيبة والنميمة وكتم الأسرار، وكلها حق ممنوع الظهور في الكون القوليّ لا في عينه من حيث هو صفة لمن قام به فهو الظاهر الخفي، فالإحسان من الحق رؤية ومن العبد كأنه والإيمان من الحق والخلق على حقيقته، وكذلك الإسلام عند العارفين به، غير أنه لا يقال في الحق أنه مسلم، فما كل ما يدرى يقال، ولا كل ما يشهد يذاع، صدور الأحرار قبور الأسرار، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والستون وأربعمائة
في معرفة منازلة من أسدلت عليه حجاب كنفي
فهو من ضنائني لا يعرف ولا يعرف

[البسيط]:

إنّ الضَّنائنَ عند الله في سِتْرِ ... مُخَدَّرون فلا تُدْرَى ولا تَدْري
يغارُ منهم عليهم مثل ما حُجِبَتْ ... بين اللّيالي صَوْناً ليلةُ القَدْرِ
فلا يراها سوى من لا يُقَيِّدُهُ ... نَعْتٌ يجرّده من عالم الأمْرِ

تبدو لناظره من خلف زافره ... من أول الليل حتى مطلع الفجر

قال الله تعالىٰ: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] وهم العارفون إشارة لا تفسيراً، المجهولون في العالم، فلا يظهر منهم ولا عليهم ما يعرفون به، وهم لا يشهدون في الكون إلاَّ الله، لا يعرفون ما العالم لأنهم لا يشهدونه عالماً [البسيط]:

فالحقُّ سارٍ ولكن ليس يدريه ... إلاَّ الذي قال فيه إنَّهُ فيه

لكل مليك حرم وحرم، وهؤلاء العارفون العلماء به حرمه وحرمه الذي هم فيه العوائد العامة فما سترهم إلاَّ بما هو مشهود للعام والخاص، فالعالم يشهد الحق اعتقاداً وعيناً ويشهد العالم حسّاً، وهؤلاء يشهدون الحق عيناً ويشهدون العالم إيماناً لكون الحق أخبرهم أن ثم عالماً فيؤمنون به ولا يرونه، كما أن العالم يؤمنون بالله ولا يرونه، فهم شهداء حق بحق وهم في مقعد صدق فيما تحققوا به، فإن قيل لهم: فقولكم بالشاهد والمشهود فرق، فيقولون عند ذلك: أليس تشهد ذاتك بذاتك فأنت غيرك، وكلامهم في هذا كله مع الحق شهوداً ومع الإيمان بأن ثم عالماً أدباً وإيماناً فهم المؤمنون حقاً والعلماء صدقاً، وهذا بعض ما وقفنا عليه من منازلات الحق فإنها أكثر من أن يحصرها عد أو يضبطها حد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وها نحن بحمد الله ومعونته وإلهامه نشرع في الأقطاب والهجيرات التي كانوا عليها ابتغي بذلك الإعلام بأنه من عمل على ذلك وجد ما وجدوا وشهد ما شهدوا، إذ بنيت كتابي هذا بل بناه الله لا أنا على إفادة الخلق، فكله فتح من الله تعالىٰ، وسلكت فيه طريق الاختصار أيضاً عن سؤال من العبد ربه في ذلك لأنه لا يقتضي حالنا إلاَّ إبلاغ ما أمر الحق بإبلاغه، ويفعل الله ما يشاء، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى السفر التاسع والعشرون بانتهاء الباب الأحد والستين وأربعمائة من هذا الكتاب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[السفر الثلاثون]

الفصل السادس
في هجيرات الأقطاب ومقاماتهم المحمدية

الباب الثاني والستون وأربعمائة
في الأقطاب المحمديين ومنازلهم

[نظم: البسيط]

اليَثْرِبيُّ الذي لا نَعْتَ يَضْبِطُهُ ... ولا مقامٌ ولا حَالٌ يُعَيِّنُهُ
مُرْخَى العنان على الإطلاق نشأته ... قامتْ فلا أحدٌ منّا يُبَيِّنُهُ
من قال إن له نعتاً فليس له ... علم به عندما يبدو مُكَوِّنُهُ
فعِلْمُنَا إنّ عَلِمْنَاهُ يشير به ... وجَهْلُنا هو في عِلْمي يُزَيِّنُهُ

قال الله تعالىٰ عن الملائكة والملأ الأعلى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] وقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٣] فأشبه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أي تشبه هذه الآية الآية الأخرى، وأصل باب الأقطاب قوله ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ**» حتى الإنسان على جوارحه وجميع قواه من بادية وهي الظاهرة وحاضرة وهي الباطنة. فاعلم أن الأمور كثيرة مختلفة في العالم، فكل شيء يدور عليه أمر ما من الأمور فذلك الشيء قطب ذلك الأمر، وما من شيء إلاّ وهو مركب من روح وصورة، فلا بدّ أن يكون لكل قطب روح وصورة، فروحه تدور عليه أرواح ذلك الأمر الذي هذا قطبه، وصورة ذلك القطب تدور عليه صورة ذلك الأمر الذي هذا قطبه يسمّى الوجه الواحد من القطب جنوبياً وهو الروح والآخر شمالياً وهو الصورة، فمن جملة أصناف العالم الأناسي وهم المقصودون من وجود العالم بالقصد الثاني لا بالقصد الأوّل، وأما القصد الأوّل فالقصد بوجود العالم عبادة الله أعني عبادة العرفان الحادث لكمال الوجود غير أنه في كل صنف من أصناف العالم تام غير كامل، وما كمل إلاّ بهذه النشأة الإنسانية الكاملة، وما عدا الكاملة فهو الإنسان الحيوان المسمّى بالحدّ حيواناً ناطقاً والأقطاب من الكمل.

ثم إن الله جعل العالم الجسمي والجسماني في منزلين: منزل يسمّى الدنيا ومنزل يسمّى الآخرة، وجعل سكانهما الإنس والجان والمعتبر فيهما الإنس والمعتبر من الإنس الكمل لا غير، وهم الذين ذكرهم الله لا يزيدون عليه في نفوسهم هذا ذكرهم في نفوسهم وفي خلواتهم

باللسان. وأما في العموم فلا إله إلاّ الله ثم بعدها أنواع الذكر من سبحان الله المقيد والمطلق والحمد لله وكذلك والله أكبر كذلك ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله كذلك، فعمر بهذا الصنف المقصود من العالم أوّلاً الدار الدنيا من الدارين وجعل سكناهم فيها بآجال مسماة ينتهون إليها ثم ينتقلون عند فراغ مدتهم إلى الدار الآخرة، ونقلتهم على ضربين: منهم من ينتقل بموت وهو مفارقة الحياة الدنيا فيحيى بحياة الآخرة، ومنهم من ينتقل بالحياة الدنيا من غير موت وهو الشهيد في سبيل الله خاصة وما يقال فيه بأنه أفضل من الميت إلاّ أنه أفضل من بعض الموتى، ثم إن الله جعل هذا الصنف الإنساني في الدنيا أمماً كثيرين، ثم بعث في كل أمة رسولاً ليعلمها ما هو الأمر عليه الذي خلقوا له، ويعلمهم بما للحق عليهم أن يفعلوه وما لهم إذا فعلوا ذلك من الخير عند الله في الدار الآخرة، وماذا عليهم إذا لم يفعلوا من العقوبة عند الله في الدار الدنيا إذا علم ولاة أمرهم ذلك وفي الآخرة، ثم جعل الفضل فيهم فمنهم الفاضل والأفضل من الأمم ومن الرسل. وختم الأمم بأمة محمد ﷺ وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وختم بمحمد ﷺ جميع الرسل عليهم السلام وختم بشرعه جميع الشرائع فلا رسول بعده يشرع ولا شريعة بعد شريعته تنزل من عند الله إلاّ ما قرّره شرعه من اجتهاد علماء أمته في استنباط الأحكام من كتابه وسنّة نبيه وأعني بالسنّة الحديث لا من قياس، وأعني بالقياس هنا قياس فرع على فرع لا قياس فرع على أصل، فإن قياس الفرع على الأصل هو المستنبط الذي ثبت بالاجتهاد وجعله الفقهاء أصلاً رابعاً كما جعلوا الإجماع أصلاً ثالثاً وهو إجماع الصدر الأوّل وقالوا إنهم ما أجمعوا على أمر إلاّ ولا بدّ أن يعرفوا فيه نصاً يرجعون فيه إليه إلاّ أنه ما وصل إلينا مع قطعنا به فإنه من المحال أن يجتمعوا على حكم لا يكون لهم فيه نص لأن نظرهم وفطرهم مختلفة فلا بدّ من الاختلاف وقد أجمعوا على أمر فذلك الحكم مقطوع به عندنا أنهم فيه على نص من الرسول ﷺ، ولا حكم بإجماع بعد إجماع الصدر الأوّل، فلما كان الأمر على ما قرّرناه في هذ الباب فاشتغلنا بذكر الأقطاب المحمديين لكون محمد ﷺ سيد الناس يوم القيامة وهو وأمته الآخرون الأولون فاعتبرنا من الرسل محمداً ﷺ ومن الأمم أمته ﷺ.

واعلم أن الأقطاب المحمديين على نوعين: أقطاب بعد بعثته، وأقطاب قبل بعثته. فالأقطاب الذين كانوا قبل بعثته هم الرسل وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً. وأما الأقطاب من أمته الذين كانوا بعد بعثته إلى يوم القيامة فهم اثنا عشر قطباً والختمان خارجان عن هؤلاء الأقطاب فهم من المفردين، وسيأتي في آخر الكتاب ذكر الختم، ويأتي بعد هذا الباب ذكر الاثني عشر قطباً مستوفى إن شاء الله تعالىٰ، فأما منازل الأقطاب المحمديين الذين هم الرسل صلوات الله عليهم أجمعين. فلا سبيل لنا إلى الكلام على منازلهم، فإن كلامنا عن ذوق ولا ذوق لنا في مقامات الرسل عليهم السلام وإنما أذواقنا في الوراثة خاصة، فلا يتكلم في الرسل إلاّ رسول، ولا في الأنبياء إلاّ نبي أو رسول، ولا في الوارثين إلاّ رسول أو نبي أو ولي أو من هو منهم، هذا هو الأدب الإلهيّ، فلا تعرف مراتب الرسل إلاّ من الختم العام الذي يختم الله

به الولاية العامة في آخر الزمان وهو عيسىٰ ابن مريم روح الله، فإن سُئِل عن ذلك فهو يترجم عنهم وعن تفاضلهم فإنه رسول منهم، وأما نحن فلا سبيل إلى ذلك، فكلامنا في أقطاب الأمم الذين هم ورثة أنبيائهم وأرسالهم وفي أقطاب هذه الأمة المحمدية المتأخرة المنعوتة بالخيرية على جميع الأمم السالفة مؤمنيهم وكافريهم، فكافرهم شرّ من كافري الأمم، ومؤمنهم خير من مؤمني الأمم فلهم التقدم كما ورد في الخبر في قريش أنهم المقدمون على جميع القبائل في الخير والشرّ. وجعل الإمامة فيهم سواء عدلوا أم جاروا، فإن عدلوا فلرعيتهم ولهم، وإن جاروا فلرعيتهم وعليهم، يعني ما فرطوا فيه من حقوق الله وحقوق من استرعاهم الله عليهم، فأقطاب هذه الأمة المختارة مقدمون على الأقطاب المتقدمين في الأمم السالفة أعني الأقطاب الوارثين المتبعين آثار رسلهم.

ثم نرجع ونقول: إن أقطاب هذه الأمة المحمدية على أقسام مختلفة، وما أعني بالأقطاب الذين لا يكون في كل عصر منهم إلاّ واحد إنما نذكر ذلك في الاثني عشر قطباً في الباب الذي يلي هذا الباب، وإنما أذكر في الأقطاب المحمديين كل من دار عليه أمر جماعة من الناس في إقليم أو جهة كالأبدال في الأقاليم السبعة لكل إقليم بدل هو قطب ذلك الإقليم، وكالأوتاد الأربعة لهم أربع جهات يحفظها الله بهم من شرق وغرب وجنوب وشمال لكل جهة وتد، وكأقطاب القرى فلا بدّ في كل قرية من وليّ لله تعالىٰ به يحفظ الله تلك القرية سواء كانت تلك القرية كافرة أو مؤمنة فذلك الوليّ قطبها. وكذلك أصحاب المقامات فلا بدّ للزهاد من قطب يكون المدار عليه في الزهد في أهل زمانه، وكذلك في التوكل والمحبة وسائر المقامات والأحوال لا بدّ في كل صنف صنف من أربابها من قطب يدور عليه ذلك المقام، ولقد أطلعني الله تعالىٰ على قطب المتوكلين فرأيت التوكل يدور عليه كأنه الرحى حين تدور على قطبها وهو عبد الله بن الأستاذ الموروري من مدينة مورور ببلاد الأندلس كان قطب التوكل في زمانه عاينته وصحبته بفضل الله وكشفه لي، ولما اجتمعت به عرفته بذلك فتبسم وشكر الله تعالىٰ. وكذلك اجتمعت بقطب الزمان سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بمدينة فاس أطلعني الله عليه في واقعة وعرفني به فاجتمعنا يوماً ببستان بن حيون بمدينة فاس وهو في الجماعة لا يؤبه له فحضر في الجماعة وكان غريباً من أهل بجاية أشل اليد، وكان في المجلس معنا شيوخ من أهل الله معتبرون في طريق الله منهم أبو العباس الحصار وأمثاله، وكانت تلك الجماعة بأسرها إذا حضروا يتأدّبون معنا فلا يكون المجلس إلاّ لنا ولا يتكلم أحد في علم الطريق فيهم غيري، وإن تكلموا فيما بينهم رجعوا فيها إليّ فوضع ذكر الأقطاب وهو في الجماعة فقلت لهم: يا إخواني إني أذكر لكم في قطب زمانكم عجباً، فالتفت إلي ذلك الرجل الذي أراني الله في منامي أنه قطب الوقت وكان يختلف إلينا كثيراً ويحبنا فقال لي: قل ما أطلعك الله عليه ولا تسم الشخص الذي عين لك في الواقعة وتبسم وقال: الحمد لله، فأخذت أذكر للجماعة ما أطلعني الله عليه من أمر ذلك الرجل فتعجب السامعون وما سميته ولا عينته وبقينا في أطيب مجلس مع أكرم إخوان إلى العصر ولا ذكرت للرجل أنه هو، فلما

انفضت الجماعة جاء ذلك القطب وقال: جزاك الله خيراً ما أحسن ما فعلت حيث لم تسم الشخص الذي أطلعك الله عليه والسلام عليك ورحمة الله، فكان سلام وداع ولا علم لي بذلك، فما رأيته بعد ذلك في المدينة إلى الآن. فالأقطاب المحمديون هم الذين ورثوا محمداً ﷺ فيما اختصّ به من الشرائع والأحوال ممّا لم يكن في شرع تقدمه ولا في رسول تقدمه، فإن كان في شرع تقدم شرعه وهو من شرعه أو في رسول قبله وهو فيه ﷺ فذلك الرجل وارث ذلك الرسول المخصوص ولكن من محمد ﷺ، فلا ينسب إلاَّ إلى ذلك الرسول، وإن كان في هذه الأمة فيقال فيه موسوي إن كان من موسىٰ أو عيسوي أو إبراهيمي أو ما كان من رسول أو نبي، ولا ينسب إلى محمد ﷺ إلاَّ من كان بمثابة ما قلناه ممّا اختصّ به محمد ﷺ، وليس أعمّ في الاختصاص من عدم التقييد بمقام يتميز به، فما يتميز المحمدي إلاَّ بأنه لا مقام له بتعين فمقامه أن لا مقام، ومعنى ذلك ما نبينه وهو أن الإنسان قد تغلب عليه حالته فلا يعرف إلاَّ بها فينسب إليها ويتعين بها، والمحمدي نسبة المقامات إليه نسبة الأسماء إلى الله فلا يتعين في مقام ينسب إليه بل هو في كل نفس وفي كل زمان وفي كل حال بصورة ما يقتضيه ذلك النفس أو الزمان أو الحال فلا يستمر تقيده، فإن الأحكام الإلهية تختلف في كل زمان فيختلف باختلافها فإنه عزّ وجلّ: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩] فكذلك المحمدي وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [قٓ: ٣٧] ولم يقل عقل فيقيده والقلب ما سمي إلاَّ بتقلبه في الأحوال والأمور دائماً مع الأنفاس. فمن عباد الله من يعلم ما يتقلب فيه في كل نفس، ومنهم من يغفل عن ذلك، فالقطب المحمدي أو المفرد هو الذي يتقلب مع الأنفاس علماً كما يتقلب معها حالاً كل واحد من خلق الله، فما زاد هذا الرجل إلاَّ بالعلم بما يتقلب فيه وعليه لا بالتقليب فإن التقلب أمر يسري في العالم كله وفيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك على التفصيل والتعيين، وإن علموه على الإجمال فمنازلهم على قدر علمهم فيما يتقلبون فيه وعليه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. وشرح هذا الباب وبسطه يطول فرأينا الاقتصار على ما ذكرناه وأومأنا إليه وتوخيناه، وفي ذكرنا هجيرهم يتبين مقامهم والله يتولى التوفيق.

الباب الثالث والستون وأربعمائة

في معرفة الاثني عشر قطباً الذين يدور عليهم عالم زمانهم

[نظم: المديد]

مُنْتَهَى الأسماء في العَدَدِ ... لاثْنَتَيْ عشر مع العقَدِ

فبهم حِفْظُ الوُجُودِ وما ... في وجود الحَقِّ من عَدَدِ

وهو المَنْعُوتُ بالعدد ... وهو المنعوتُ بالأحَدِ

ظَهَرَتْ أحكامُ نشأتهم ... في التي قامت بلا عَمَدِ

تمّ في الأركان حُكْمُهُمُو ... في أبٍ منها وفي وَلَدِ

قال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وعرفه فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ

﴿ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠] يقول: يميلون عن أسمائه لا بل يقول: يميلون في أسمائه إلى غير الوجه الذي قصد بها ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] من ذلك فكل يجزى بما مال إليه فيما أوحينا يقول: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦] ولا تمل بميلهم فإني خلقتك متبعاً لا متبعاً اسم مفعول لا اسم فاعل، ولذلك قال له عند ذكر الأنبياء: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] لا بهم وهداهم ليس سوى شرع الله فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣] وذكر من ذكر فكان الشارع لنا الله الذي شرع لهم فلو أخذ عنهم لكان تابعاً فافهم.

فأقطاب هذه الأمة اثنا عشر قطباً عليهم مدار هذه الأمة، كما أن مدار العالم الجسميّ والجسمانيّ في الدنيا والآخرة على اثني عشر برجاً قد وكلهم الله بظهور ما يكون في الدارين من الكون والفساد المعتاد وغير المعتاد، أما المفردون فكثيرون والختمان منهم أي من المفردين فما هما قطبان، وليس في الأقطاب من هو على قلب محمد ﷺ. وأما المفردون فمنهم من هو على قلب محمد ﷺ والختم منهم أعني خاتم الأولياء الخاص. فأما الأقطاب الاثنا عشر فهم على قلوب الأنبياء عليهم السلام فالواحد منهم على قلب وإن شئت قلت على قدم وهو أولى فإني هكذا رأيته في الكشف بإشبيلية وهو أعظم في الأدب مع الرسل والأدب مقامنا، وهو الذي أرتضيه لنفسي ولعباد الله، فنقول: إن الأوّل أعني واحداً منهم على قدم نوح عليه السلام. والثاني: على قدم إبراهيم الخليل عليه السلام. والثالث: على قدم موسىٰ عليه السلام. والرابع: على قدم عيسىٰ عليه السلام. والخامس: على قدم داود عليه السلام. والسادس: على قدم سليمان عليه السلام. والسابع: على قدم أيوب عليه السلام. والثامن: على قدم إلياس عليه السلام. والتاسع: على قدم لوط عليه السلام. والعاشر: على قدم هود عليه السلام. والحادي عشر: على قدم صالح عليه السلام. والثاني عشر: على قدم شعيب عليه السلام. ورأيت جميع الرسل والأنبياء كلهم مشاهدة عين، وكلمت منهم هوداً أخا عاد دون الجماعة، ورأيت المؤمنين كلهم مشاهدة عين أيضاً من كان منهم ومن يكون إلى يوم القيامة أظهرهم الحق لي في صعيد واحد في زمانين مختلفين، وصاحبت من الرسل وانتفعت به سوى محمد ﷺ جماعة منهم إبراهيم الخليل قرأت عليه القرآن، وعيسىٰ تبت على يديه، وموسىٰ أعطاني علم الكشف والإيضاح وعلم تقليب الليل والنهار، فلما حصل عندي زال الليل وبقي النهار في اليوم كله فلم تغرب لي شمس ولا طلعت، فكان لي هذا الكشف إعلاماً من الله أنه لا حظ لي في الشقاء في الآخرة، وهود عليه السلام سألته عن مسألة فعرفني بها فوقعت في الوجود كما عرفني بها هذا إلى زماني هؤلاء، وعاشرت من الرسل محمداً ﷺ وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وهوداً وداود وما بقي فرؤية لا صحبة.

واعلم أن كل قطب من هؤلاء الأقطاب له لبث في العالم أعني دعوتهم فيمن بعث إليهم آجال مخصوصة مسماة تنتهي إليها، ثم تنسخ بدعوة أخرى كما تنسخ الشرائع بالشرائع وأعني بدعوتهم ما لهم من الحكم والتأثير في العالم، فلنذكر مدد أعمارهم في حياتهم الدنيا. فمنهم

من كان عمره في ولايته ثلاثة وثلاثين سنة وأربعة أشهر. ومنهم من كانت مدته ثلاثين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوماً. ومنهم من دامت مدته ثمانياً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وعشرة أيام. ومنهم من دامت مدته خمساً وعشرين سنة. ومنهم من دامت مدته اثنتين وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وعشرين يوماً. ومنهم من دامت مدته تسع عشرة سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام. ومنهم من دامت مدته ستة عشر سنة وثمانية أشهر. ومنهم من دامت مدته ثلاث عشرة سنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً. ومنهم من دامت مدته إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وعشرة أيام. ومنهم من دامت مدته سنتين وتسعة أشهر وعشرة أيام. ومنهم من دامت مدته ثمان سنين وأربعة أشهر. ومنهم من دامت مدته خمس سنين وستة أشهر وعشرين يوماً وهجيرهم واحد وهو الله، الله بسكون الهاء وتحقيق الهمزة ما لهم هجير سواه، وما عدا هؤلاء الأقطاب من أقطاب القرى والجهات والأقاليم وشيوخ الجماعات فأنواع كثيرة وهي التي أذكر منها في هذا الفصل ما تيسّر، وما أذكر ذلك إلاَّ لأجل نتيجة ذلك الذكر لمن دام عليه على الحال المعروفة في الذكر في ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] ولو لم نقصد ذلك لم يكن في ذكري وتعييني له في هذا الكتاب منفعة، فلنذكر أوّلاً من أحوال هؤلاء الأقطاب ما تيسّر مع أحدية هجيرهم، وإنما توحد لتوحد مقام القطبية فذلك هو هجير القطبية لا هجير الشخص، ولكل واحد منهم هجير في أوقات خلاف هذا، وقال عليه السلام: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لاَ يَبْقَى فِي الأَرْضِ مَنْ يَقُولُ: الله الله**» يريد لا يبقى قطب يكون عليه مدار العالم ولا مفرد يحفظ الله بهمته العالم وإن لم يكن قطباً فلا تقوم الساعة إلاَّ على أشرار الناس. فأما أحد الأقطاب فهو على قدم نوح عليه السلام فله من سور القرآن سورة يس فإنه لكل قطب سورة من القرآن من هؤلاء الاثني عشر، وقد يكون لمن سواهم من الأقطاب الذين ذكرناهم السورة من القرآن والآية الواحدة من القرآن، وقد يكون للواحد منهم ما يزيد على السورة، وقد يكون منهم من له القرآن كله كأبي يزيد البسطاميّ ما مات حتى استظهر القرآن. فلنذكر ما يختص به هؤلاء الاثنا عشر من سور القرآن، فهذا القطب الواحد له سورة ﴿يسٓ﴾ وهو أكمل الأقطاب حكماً جمع الله له بين الصورتين الظاهرة والباطنة، فكان خليفة في الظاهر بالسيف وفي الباطن بالهمة ولا أسميه ولا أعينه فإني نهيت عن ذلك وعرفت لأي أمر منعت من تعيينه باسمه، وليس في جماعة هؤلاء الأقطاب من أوتي جوامع ما تقتضيه القطبية غير هذا، كما أوتي آدم عليه السلام جميع الأسماء، كما أوتي محمد ﷺ جوامع الكلم، ولو كان ثم قطب على قدم محمد ﷺ لكان هذا القطب إلاَّ أنه ما ثم أحد على قدم محمد ﷺ إلاَّ بعض الأفراد الأكابر ولا يعرف لهم عدد وهم أخفيا في الخلق أبرياء علماً بالله لا يرزؤون ولا يعرفون فيرزؤون مقامهم الحفظ فيما يعلمون، لا يدخل عليهم في علمهم شبهة تحيرهم فيما علموه بل هم على بينة من ربهم هذا حال الأفراد.

فلنرجع إلى ذكر هذا القطب فنقول: إن منازله عند الله على عدد آيات هذه السورة، وكذلك كل قطب منازله على عدد آيات سورته وسورهم معلومة أذكرها جملة ثم أذكرها إن

شاء الله تعالىٰ، فالواحد له كما قلنا سورة ﴿يسٓ﴾. والثاني: سورة الإخلاص. والثالث: سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ والرابع: سورة ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾. والخامس: سورة ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ﴾. والسادس: سورة البقرة. والسابع: سورة المجادلة. والثامن: سورة آل عمران. والتاسع: سورة الكهف وهو الذي يقتله الدجال ويدرك عيسىٰ عليه السلام. والعاشر: سورة الأنعام. والحادي عشر: سورة طه. وهذا القطب هو نائب الحق تعالىٰ كما كان علي بن أبي طالب نائب محمد ﷺ في تلاوة سورة براءة على أهل مكة، وقد كان بعث بها أبا بكر ثم رجع عن ذلك فقال: «**لا يُبَلِّغُ عنّي القرآن إلاَّ رجلٌ من أهل بيتي**» فدعا بعلي فأمره فلحق أبا بكر فلما وصل إلى مكة حج أبو بكر بالناس وبلغ عليّ إلى الناس سورة براءة وتلاها عليهم نيابة عن رسول الله ﷺ، وهذا ممّا يدلك على صحة خلافة أبي بكر الصديق ومنزلة عليّ رضي الله عنهما. والثاني عشر: سورة تبارك الملك. فهذه سور الأقطاب من القرآن، إلاَّ أن صاحب سورة المجادلة التي هي: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١] إنما هو سورته الواقعة وله تولع بهذه السورة. وكذلك الذي له سورة الإخلاص لا غير ومنازلهم كما قد ذكرنا، غير أن المنازل بحسب الآيات ومن ذكر وما ذكر فيها، فإن التفاضل في الآيات مشهور على الوجه الذي جاء، وفضلها يرجع إلى التالي من حيث ما هي عليه الآية في التلاوة متكلم بها لا من حيث أنها كلام الله، فإن ذلك لا تفاضل فيه، وإنما التفاضل يكون فيما تكلم به لا في كلامه فاعلم ذلك.

فأما حال هذا القطب فله التأثير في العالم ظاهراً وباطناً يشيد الله به هذا الدين أظهره بالسيف وعصمه من الجور فحكم بالعدل الذي هو حكم الحق في النوازل، وربما يقع فيه من خالف حكمه من أهل المذاهب مثل الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة ومن انتمى إلى قول إمام لا يوافقها في الحكم هذا القطب وهو خليفة في الظاهر، فإذا حكم بخلاف ما يقتضيه أدلة هؤلاء الأئمة قال أتباعهم بتخطئته في حكمه ذلك وأثموا عند الله بلا شك وهم لا يشعرون، فإنه ليس لهم أن يخطئوا مجتهداً لأن المصيب عندهم واحد لا بعينه، ومن هذه حاله فلا يقدم على تخطئة عالم من علماء المسلمين، كما تكلم من تكلم في إمارة أسامة وأبيه زيد بن حارثة حتى قال في ذلك رسول الله ﷺ ما قال، فإذا طعن فيمن قدمه رسول الله ﷺ وأمره ورجحوا نظرهم على نظر رسول الله ﷺ فما ظنك بأحوالهم مع القطب وأين الشهرة من الشهرة؟ هيهات فزنا وخسر المبطلون، فوالله لا يكون داعياً إلى الله إلاَّ من دعا على بصيرة لا من دعا على ظنّ وحكم به، لا جرم أن من هذه حاله حجر على أمّة محمد ﷺ ما وسع الله به عليهم، فضيق الله عليهم أمرهم في الآخرة وشدّد الله عليهم يوم القيامة المطالبة والمحاسبة لكونهم شدّدوا على عباد الله أن لا ينتقلوا من مذهب إلى مذهب في نازلة طلباً لرفع الحرج، واعتقدوا أن ذلك تلاعب بالدين وما عرفوا أنهم بهذا القول قد مرقوا من الدين، بل شرع الله أوسع وحكمه أجمع وأنفع ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ۝٢٤ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٤ـ ٢٦] هذا حال هؤلاء يوم القيامة فلا يؤذن لهم فيعتذرون. ولهذا القطب مقام

الكمال فلا يقيده نعت هو حكيم الوقت لا يظهر إلاً بحكم الوقت، وبما يقتضيه حال الزمان الإرادة بحكمه ما هو بحكم الإرادة فله السيادة وفيه عشر خصال: أوّلها الحلم مع القدرة لأن له الفعل بالهمة فلا يغضب لنفسه أبداً، وإذا انتهكت محارم الله فلا يقوم شيء لغضبه فهو يغضب لله. والثانية: الأناة في الأمور التي يحمد الله الأناة فيها مع المسارعة إلى الخيرات فهو يسارع إلى الأناة ويعرف مواطنها. والثالثة: الاقتصاد في الأشياء فلا يزيد على ما يطلبه الوقت شيئاً فإن الميزان بيده يزن به الزمان والحال فيأخذ من حاله لزمانه ومن زمانه لحاله فيخفض ويرفع. والرابعة: التدبير وهو معرفة الحكمة فيعلم المواطن فيلقاها بالأمور التي تطلبها المواطن كما فعل أبو دجانة حين أعطاه النبيّ ﷺ السيف بحقه في بعض غزواته فمشى به الخيلا بين الصفين فقال رسول الله ﷺ وهو ينظر إلى زهوه: «**هٰذِهِ مِشْيَةٌ يَبْغُضُهَا الله وَرَسُولُهُ إلاً فِي هٰذا المَوْطِنِ**» ولهذا كان مشي رسول الله ﷺ فيه سرعة كأنما ينحط في صبب، فصاحب التدبير ينظر في الأمور قبل أن يبرزها في عالم الشهادة فله التصرّف في عالم الغيب فلا يأخذ من المعاني إلاً ما تقتضيه الحكمة فهو الحكيم الخبير، فما ينبغي أن يبديه مجملاً أبداه مجملاً، وما ينبغي أن يبديه مفصلاً أبداه مفصلاً، وما ينبغي أن يبديه محكماً أبداه محكماً، وما ينبغي أن يبديه متشابهاً أبداه متشابهاً. والخصلة الخامسة: التفصيل وهو العلم بما يقع به الامتياز بين الأشياء ممّا يقع به الاشتراك، فينفصل كل أمر عن مماثله ومقابله وخلافه، ويأتي إلى الأسماء الإلهية القريبة التشابه كالعليم والخبير والمحصي والمحيط والحكيم وكلها من أسماء العلم وهي بمعنى العليم، غير أن بين كل واحد وبين الآخر دقيقة وحقيقة يمتاز بها عن الباقي، هكذا في كل اسم يكون بينه وبين غيره مشاركة. والسادسة: العدل وهو أمر يستعمل في الحكومات والقسمة والقضايا وإيصال الحقوق إلى أهلها وهو في الحقوق شبيه بما ذكر الله عن نفسه أنه أعطى كل شيء خلقه، وقوله في موسىٰ: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠] وقوله في ناقة صالح: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] ويتعلق به علم الجزاء في الدارين والعدل بين الجناية والحد والتعزير. والسابعة: الأدب وهو العلم بجوامع الخيرات كلها في كل عالم وهو العلم الذي يحضره في البساط ويمنحه المجالسة والشهود والمكالمة والمسامرة والحديث والخلوة والمعاملة بما في نفس الحق في المواطن من الجلوة، فهذا وأمثاله هو الأدب. والثامنة: الرحمة ومتعلقها منه كل مستضعف وكل جبار فيستنزله برحمته ولطفه من جبروته وكبريائه وعظمته بأيسر مؤنة في لين وعطف وجنان. والتاسعة: الحياء فيستحي من الكاذب عن الكاذب ويظهر له بصورة من صدقه في قوله: لا يظهر له بصورة من تعامى عنه حتى يعتقد فيه الكاذب أنه قد مشى عليه حديثه وأنه جاهل بمقامه وبما جاء به فيذل في شغله ثم لا يكون في حقه عند ربه إلاً واسطة خير يدعو له بالتجاوز فيما بينه وبين الله عند الوقوف والسؤال يوم القيامة، وقد ورد في الخبر: «**إنَّ الله يَوْمَ القِيَامَةِ يَدْعُو بِشَيْخ فَيَقُولُ لَهُ ما فَعَلْتَ؟ فَيَقُولُ مِنَ المُقَرّباتِ ما شَاءَ الله وَالله يَعْلَمُ أَنَّهُ كَاذِبٌ فِي قَوْلِهِ فَيَأْمُرُ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ فَتَقُولُ المَلائِكَةُ: يا رَبِّ إِنَّهُ كَذَبَ فِيمَا ادّعَاهُ، فَيَقُولُ**

الحقُّ: **قَدْ عَلِمْتُ ذٰلِكَ وَلٰكِنِّي اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ أَنْ أُكَذِّبَ شَيْبَتَهُ**» وما أوصل إلينا رسول الله ﷺ هذا الخبر عن الله إلاَّ لنكون بهذه الصفة فنحن أحق بها لحاجتنا أن يعاملنا الحق بها.

والعاشرة: الإصلاح وأعظمه إصلاح ذات البين وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] وقد ورد في الخبر: «**إِنَّ الله يُصْلِحُ بَيْنَ عِبَادِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُوقِفُ الظَّالِمَ وَالمَظْلُومَ بَيْنَ يَدَيْهِ لِلْحُكُومَةِ وَالإِنْصَافِ ثُمَّ يَقُولُ لَهُمَا: ارْفَعَا رُؤُوسَكُمَا فَيَنْظُرَانِ إِلى خَيْرٍ كَثِيرٍ فَيَقُولانِ: لِمَنْ هٰذا الخَيْرُ؟ فَيَقُولُ الله لَهُمَا: لِمَنْ أَعْطَانِي الثَّمَنَ، فَيَقُولُ المَظْلُومُ: يَا رَبِّ وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَىٰ ثَمَنِ هٰذَا؟ فَيَقُولُ الله لَهُ: أَنْتَ بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ هٰذا، فَيَقُولُ المَظْلُومُ: يا رَبِّ قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ الله لَهُ: خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَادْخُلا الجَنَّةَ**»، ثم تلا رسولُ الله ﷺ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] «**فَإِنَّ الله يُصْلِحُ بَيْنَ عِبَادِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**».

وأما القطب الثاني من الاثني عشرة فهو على قدم الخليل إبراهيم عليه السلام وهو الذي له سورة الإخلاص الذي حبّه إياها أدخله الجنة ولقارئها ثلث القرآن وله من المنازل بعدد آيها وهو صاحب الحجة والدليل النظريّ يكون له خوض في المعقولات فيصيب ولا يخطىء، وذلك أنّ الناس قد اختلفوا في العلم الموهوب الذي من شأنه أن يدركه العاقل بفكره ويوصله إليه دليل النظر، فقال بعضهم مثل هذا العلم إذا وهبه الله من وهبه وهبه بدليله فيعلم الدليل والمدلول لا بدّ من ذلك. ورأيت أبا عبد الله الكتاني بمدينة فاس إماماً من أئمة المسلمين في أصول الدين والفقه يقول بهذا القول فقلت له: هذا ذوقك هكذا أعطاكه الحق فذوقك صحيح وحكمك غير صحيح بل قد يعطيه العلم الذي لا يحصل إلاَّ بالدليل النظري ولا يعطيه دليله وقد يعطيه إياه ويعطيه دليله كإبراهيم الخليل، قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] وهو أكمل من الذي يعطي العلم الذي يوصل إليه بالدليل ولا يعطي الدليل ولا يشترط أحد تخصيص دليل من دليل إنما يعطي دليلاً في الجملة، فإن الأدلة على الشيء الواحد قد تكثر، ومنها ما يكون في غاية الوضوح، ومنها ما يغمض كمسألة إبراهيم الخليل في إحياء الموتى وإماتة الأحياء، وعدوله إلى إتيان الشمس من المشرق أن يأتي بها الخصم من المغرب وكلاهما دليل على المقصود، وهذا القطب من الدعاة إلى الله بالأمر الإلهيّ، ومسكنه في الهواء في فضاء الجوّ في بيت جالس على كرسي له نظر إلى الخلق لا يزال تالياً عنده جماعة من أهل الله وخاصته كلامه في الأحدية الإلهية وفي أحدية الواحد وفي أحدية الوحدانية بالأدلة النظرية وما حصلها عن نظر، ولكن هكذا وهبها الحق تعالىٰ له وحاله الحضور دائماً إلاَّ أنه لم يحر مثل ما حار غيره، بل أبان الله له ما وقف عنده ولم يشغل خاطره بما يوجب عنده الحيرة قد تفرغ مع الله لقضاء حوائج الناس يعرف الأسماء الإلهية معرفة تامة يقول بنفي المثلية في جانب الحق أخبرني الحق بالطريقة التي جرت العادة أن يخبر بها عباده في أسرارهم أن هذا العبد أعطاه الرحمة لعباده والصلة لرحمه فسأله في أمر فلم يجبه الله إليه وهو أنه سأله أن يرث مقامه عقبه فقال له: ليس ذلك إليك لا يكون مقام الخلافة بالورث ذلك في العلوم والأموال. وأما الخلافة فكل خليفة في قوم بحسب زمانهم فإن الناس في زمانهم

أشبه منهم بآبائهم، فإن الحق لا يحكم عليه خلق إلاّ في العلم، والخلق لا يعرف أن له هذه المرتبة إلاّ من أعلمه الله بذلك، ولقد رأيت من فتح الله عليه بصحبتي واستفاد أحوالاً وعلوماً وخرق عوائد أعطاه الله ذلك من حسن معاملته مع الله وأخبرني أنه ما استفاد شيئاً ممّا هو عليه إلاّ مني وأنا لا علم لي بذلك إنما أدعو إلى الله والله يعلم من يجيب ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] وصدقوا، وكذا هو الأمر، فلا علم لأحد إلاّ من يعلمه الله، وما عدا هذه الطريقة الإلهية في التعليم فإنما هو غلبة ظنّ أو مصادفة علم أو جزم على وهم وأما علم فلا، فإن جميع الطرق الموصلة إلى العلم فيها شبه لا تثق النفس الطاهرة التي أوقفها الله على هذه الشبه أن تقطع بحصول علم منها إلاّ بالطريقة الإلهية وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣و ٤] فهو يبين عمّا في نفسه ولهذا القطب أسرار عجيبة.

وأما القطب الثالث وهو على قدم موسىٰ عليه السلام فسورته: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ ومنازله بعدد آيها ولها ربع القرآن، وهذا القطب كان من الأوتاد ثم نقل إلى القطبية كما كان القطب الثاني من الأئمة ثم نقل إلى القطبية وهو صاحب جهد ومكابدة لا ينفك عن الاشتغال بالخلق عند الله، أعطاه الله في منزل النداء اثني عشر ألف علم ذوقاً في ليلة واحدة، ومنزل النداء من أعظم المنازل وقد عيناه في منزل المنازل من هذا الكتاب ولنا فيه جزء مفرد أعني في طبقات المنازل وكمياتها. فمن علوم هذا القطب علم الافتقار إلى الله بالله وهو علم شريف ما رأيت له ذائقاً لما ذقته، ومعنى هذا وسرّه أن الله أطلعه على أن حاجة الأسماء إلى التأثير في أعيان الممكنات أعظم من حاجة الممكنات إلى ظهور الأثر فيها وذلك أن الأسماء لها في ظهور آثارها السلطان والعزّة، والممكنات قد يحصل فيها أثر تتضرر به وقد تنتفع به وهي على خطر، فبقاؤها على حالة العدم أحب إليها لو خيّرت فإنها في مشاهدة ثبوتية حالية ملتذة بالتذاذ ثبوتي منعزلة كل حالة عن الحالة الأخرى لا تجمع الأحوال عين واحدة في حال الثبوت فإنها تظهر في شيئية الوجود في عين واحدة فزيد مثلاً الصحيح في وقت هو بعينه العليل في وقت آخر، والمعافى في وقت هو المبتلى في وقته ذلك بعينه، وفي الثبوت ليس كذلك فإن الألم في الثبوت ما هو في عين المتألم وإنما هو في عينه فهو ملتذ بثبوته كما هو ملتذ بوجوده في المتألم والمحل متألم به، وسبب ذلك أن الثبوت بسيط مفرد غير قائم شيء بشيء وفي الوجود ليس إلاّ التركيب فحامل ومحمول، فالمحمول أبداً منزلته في الوجود مثل منزلته في الثبوت في نعيم دائم، والحامل ليس كذلك فإنه إن كان المحمول يوجب لذة التذّ الحامل وإن أوجب ألماً تألم الحامل ولم يكن له ذلك في حال الثبوت بل العين الحاملة في ثبوتها تظهر فيما تكون عليه في وجودها إلى ما لا يتناهى، فكل حال تكون عليها هو إلى جانبها ناظر إليها لا محمول فيها، فالعين ملتذة بذاتها والحال ملتذ بذاته، فحال الأحوال لا يتغير ذوقه بالوجود، وحال الحامل يتغير بالوجود وهو علم عزيز، وما تعلم الأعيان ذلك في

الثبوت إلاَّ بنظر الحال إليها ولكن لا تعلم أنه إذا حملته تتألم به لأنها في حضرة لا تعرف فيها طعم الآلام بل تتخذه صاحباً، فلو علمت العين أنها تتألم بذلك الحال إذا اتصف به لتألمت في حال ثبوتها بنظره إياها لعلمها أنها تتلبس به وتحمله في حال وجودها فتألفها به في الثبوت تنعم لها، وهذا الفن من أكبر أسرار علم الله في الأشياء شاهدته ذوقاً إلهياً لأن من عباد الله من يطلعه الله كشفاً على الأعيان الثبوتية فيراها على صورة ما ذكرناها من المجاورة والنظر ما يرى فيها حالاً ولا محلاً [مخلع البسيط]:

بَـلْ كُـلُّ ذات عـلـى انْـفِـرَادِ ... مـن غـيـر شَـوْبٍ ولا اتِّـحَـادِ

ولا حُـلُـولٍ ولا انْـتِـقَـالٍ ... ولا اتِّـفَـاقٍ ولا عِـنَـادِ

فإذا فهمت الفرق بين الوجود والثبوت وما للأعيان في الوجود وما لها في الثبوت من الأحكام علمت أن بعض الأعيان لا تريد ظهور الأثر فيها بالحال ما لها في ذلك ذوق فهي بالحال لو عرض عليها ذوق الألم في حال الثبوت لضجت، فإن أمرها في حال الوجود إذا حملت الألم قد تحمل الصبر وقد لا تحمله، وفرضناها في حال الثبوت حاملة فاقدة للصبر فما لها بلسان الحال ذلك الافتقار إلى طلب الوجود وإن طلبته بالقول الثبوتي من الله، فإذا وجدت تقول كما قد نقل عن بعضهم ليتني لم أخلق، ليت عمر لم تلده أمه، ليتها كانت عاقراً، وأمثال هذا، فتكون الأعيان أقل افتقاراً من الأسماء، والأسماء أشد افتقاراً لما لها في ذلك من النعيم ولا سيما وهي تشاهد من الحق الابتهاج الذاتي بالكمال من حيث استصحاب الممكنات في ثبوتها لذاته وأنه منزّه عن أثرها والتأثّر بسببها، فهو من حيث ذاته في كمال عن التأثّر في حال ثبوت الأعيان وحال وجودها لأنه ما زاد في نفسه علماً بما لم تكن عليه فيها فإنها أعطته العلم بشأنها أزلاً وبتلك الصورة توجد، فالمجاورة في الثبوت حلول في الوجود ففي الثبوت إلى جانبها وفي الوجود حال فيها، فهذا علم واحد من تلك العلوم فاعلم ذلك.

وأما القطب الرابع الذي على قدم عيسىٰ عليه السلام فسورته من القرآن: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ولها ربع القرآن، ومنازله بعدد آيها، وهذا القطب من الضنائن المصانين له التجلي الدائم كلامه في الجمع والوجود وعلم المزيد، إذا رأى شبهة في أحد تحول بينه وبين العلم أزالها حتى يتبين لصاحبها صورة الحق في ذلك الأمر، له ستمائة مفتاح مقام في كل مقام من العلوم ما شاء الله، له علم الامتزاج والتركيب الاعتداليّ لا يعرف الانحراف ولا النقص ولا الزيادة، مسكنه بقبة أرين منقطع عن الخلق إلاَّ من شاء الله عاش طيباً مع الله إلى أن توفاه الله، وكان من الأوتاد أيضاً فانتقل إلى القطبية يقول: إن الوجود وجود الحق، وإن الجمع جمع الحق صفات القدم والحدوث وهو علم غريب في الجمع ما رأيت من يقول به من أهل الله غير هذا القطب، فإني شاهدت هؤلاء الأقطاب أشهدنيهم الحق وإن كانوا قد درجوا من الدنيا وهو العلم الذي وردت به الشرائع في جانب الحق فنقول ذلك هو الجمع، وعنده أن المحدث صاحب دعوى في تلك الصفات المسماة محدثة، ولأجل دعواه قلنا إنه جمع، وإلاَّ فالأمر

واحد كلها صفات قدم في القديم ومحدثة في المحدث لظهورها فيه ولم تكن ظاهرة فحدثت عند المتصف بها كما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] وليس إلاَّ كلام الله القديم فجمعنا عليه ماله مع نسبته إلينا فسمّى من فعل ذلك صاحب جمع ووجود فمحكوم حكم الممكنات وجود الحق لا غيره فمن فهم الجمع هكذا علم الأمور كيف هي [مجزوء الخفيف]:

مَــنْ دَرَى الــجَــمْــعَ هــكــذا عَــلِــمَ الأمْــرَ كَــيْــفَ هُــوْ
فــهــو الــحَــقُّ لا سِــوَا هُ فــلا تَــسْــمَــعَــنْــهُ

وأما القطب الخامس الذي على قدم داود عليه السلام فسورته من القرآن: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ ولها نصف القرآن ومنازله بعدد آيها وحاله التفرقة وله مقام المحبة فهو معلول للحب فداؤه دواؤه وماله علم يتقدم فيه على غيره إلاَّ علم ثبوت المحبة الإلهية والكونية، ولهذا كان في مقام التفرقة وكان من الأئمة فنقل إلى القطبية، يقول هذا القطب: إن الحب ما ثبت وكل حب يزول فليس بحب أو يتغير فليس بحب لأن سلطان الحب أعظم من أن يزيله شيء، حتى أن الغفلة التي هي أعظم سلطان تحكم على الإنسان لا يتمكن لها أن تزيل الحب من المحب يتمكن عنده أن يغفل الإنسان عن نفسه بمحبوبه ولا يتمكن للمحب أن يغفل بأحد عن محبوبه فذلك هو المحب وذلك هو الحب: [المتقارب]

فِــدَاءُ الــمَــحَــبَّــة مــا لا يَــزُولُ وإنّ الــشّــفــاء لــه مُــسْــتَــحِــيــلُ
فــلا تــرْكُــنَــنْ إلــى غــيــر ذا ولا تُــصْــغِــيَــنْ إلــى مــا يــقــولُ

فبحب الله أحببنا الله وحب الحق لا يتغير، فحب الكون لا يتغير، فقيل له: فحب الكون الكون هل يتغير؟ قال: لا لأن الكون محبوب لذاته، والمحبة الذاتية لا يمكن زوالها، قيل له: فقد رأينا من تستحيل مودته، فقال: تلك إرادة ما هي محبة إذ لو كانت محبة ثبتت ألا تراها تسمّى وداً لثبوتها وثبوت حكمها؟ وذلك أنه ما في المحب لغير محبوبه فضلة من ذاته يتمكن للمزيل أن يدخل عليه منها هذا سبب ثبوتها، فإنه يشاهد عين محبوبه في كل شيء يشهده فلا يفقده، فلو صحّ للمحب أن يشهد غير محبوبه في عين ما لدخل عليه من ذلك ما يزيل حبه وهذا ليس بواقع في الحب، فالتبس على من هذه حالته حكم الإرادة بحكم الحب وما كل مريد محب وكل محب مريد، وما كل مراد محبوب وكل محبوب مراد، فمقام هذا القطب ما ذكرناه وشأنه عجيب وتفصيل حاله يطول ومذهبنا الاختصار.

وأما القطب السادس الذي على قدم سليمان عليه السلام فسورته الواقعة ولها الحياة الدائمة، ومنازله بعدد آيها، اختصّ بعلم الحياة والحيوان لا يأخذ حالاً من أحواله إلاَّ عن ربه، فأحواله أحوال ربه هديه هدي الأنبياء كما أمر الله نبيه ﷺ لما ذكر له الأنبياء عليهم السلام قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] وما قال فبهم اقتده، فعلمنا أن محمداً مساوٍ لجميع من ذكره من الأنبياء ومن لم يذكره فإنه لكل نبي هدى كما ذكر:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فهو سبحانه نصب الشرائع وأوضح المناهج وجمع ذلك كله في محمد ﷺ، فمن رآه فقد رأى جميع المقربين، ومن اهتدى بهديه فقد اهتدى بهدي جميع النبيين [السريع]:

وما على الله بمستنكر ... أنْ يَجْمَعَ العَالَمَ في وَاحِدِ

وأعني بقولي إن أحوال هذا القطب أحوال ربه ما قال الحق عن نفسه من أنه كل يوم في شأن فهذا عبارة عن اختلاف الأحوال، فهو من القوم الذين يشاهدون الحق في شؤونه فينظرون إلى ماله من الشؤون فيهم فيتلبسون بها منه فهم من أحوالهم على بصيرة، فمن هذه حاله ما هو مثل من حاله التخلق بالأسماء الإلهية بل لهذا ذوق ولهذا ذوق، فمثل هذا الرجل يكون مجهول الحال لأن مواطن الحق خفية لا يدركها إلاً من كان مقامه التلبس بالشؤون، والدليل على ذلك أنا قد جمعنا على أنه لا موجد إلاً الله وأنه حكيم يضع الأمور مواضعها ولا يتعدى بها موطنها، فكل شيء ظهر في العالم فهو حكمة في موضعه، وقد جمعنا أن جميع الخلق وأن أهل الله أكثرهم يقولون: لو كان كذا عن فعل من الأفعال ظهر في الوجود على يد إنسان لكان أحسن من هذا الفعل الذي فعلت وأولى، يقولون للذي يظهر ذلك الفعل الإلهي فيه وعلى يديه فهل هذا إلاً لجهلهم بحكمة الله فيما وقع لهم فيه مثل هذا القول؟ فهذا ما وقع من أهل الله إلاً بغفلتهم عن الله لا بجهلهم، فإذا ذكروا تذكروا ويقع من غير أهل الله بجهله لا بغفلته، فإنه لا يزول عمّا ذهب إليه في ذلك الفعل من اللوم حتى تبدو له حكمة الله فيه متى بدت حينئذٍ يعترف بجهله ويعرف قصور علمه وعقله، وما رأيت أحداً من أهل هذا الذوق ولا سمعت بأنه ريء وهو قريب في غاية الظهور، ولكن الأغراض تمنع والأهواء من التعمّل في تحصيله، وذلك أن حجة من لا يروم تحصيله من أهل الدين يقول: إن الشرع قد أمرنا أن ننكر أشياء وأن نقول: الأولى ترك هذا من فعله مع علمي بأن الفعل لله، قلنا: صدقت ولكن ما خرج مثل هذا الاعتراض من شخص فهم رتبتي وذلك أني قلت إنه جهل حكمة الله فيما اعترض فيه، فمن اعترض باعتراض الشرع فهو ناقل اعتراض الله فيما اعترض ما هو المعترض، وذلك الاعتراض إذا وجد من الله يعلم صاحب هذا الذوق حكمته ومنزلته، وصاحب هذا الحال يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقيم الحدود وهو يشاهد حكمة ذلك كله ويراها في الشؤون الإلهية المشهودة له ولا يشهدها إلاً عند تكوينها خاصة، هذا هو مقام صاحب هذا الحال، فإن من أهل الله أيضاً من يشاهد هذه الشؤون قبل أن يكون الحق فيها، وهو الذي يشاهد أعيان الممكنات في حال عدمها كما يشهدها الحق، ولهذا يعين الحق منها ما يعين بالتكوين دون غيرها من الممكنات، فإن الحق لا يوجدها إلاً بما هي عليه في حال عدمها من غير زيادة ولا نقصان، ومن أهل الله من يشهد الأمر قبل ظهوره في الحسّ وهو التكوين الآخر يشهده في الإمام المبين وهو اللوح المحفوظ الحاوي على المحو والإثبات فكل شيء فيه، فلذلك الشيء تكوين أول في التسطير، وهذا الكشف دون كشف الذي يريه الله أعيان الممكنات على ما تكون عليه في حال الوجود فيحكم بها حكم الله فيها، ولإدراك

هذه الشؤون قبل ظهورها في الحسّ مدارك كثيرة أعلاها ما ذكرناه أي أقصاها وبعده مشاهدة الحق في تكوينها، فإن ذلك أعلى من مشاهدة المشاهد إياها في الإمام المبين وفي غيره، ودون هذا الشهود كل شهود يكون للعبد قبل تكوين الشأن، هذا حال من قال: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله معه، وهو أعلى حالاً من الذي يقول: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله قبله، فإن الأولى كلمة تحقيق وإن كانت الأخرى مثلها في التحقيق لكن بينهما فرقان، فالواحد قوله مثل من يقول: رأيت زيداً يصنع كذا، ويقول الآخر: رأيت الصانع يصنع كذا، فهذا الفرق بين الشخصين فيما يشهدانه، فإن الأسماء الأعلام ما وضعت إلاّ للتخاطب بها في حال غيبة المسمّى بها وفي الحضور ما هي مطلوبة وإن جيء بها فإما لأدب يقتضيه الحال، وإما تأكيد في الإخبار فقد أبنت لك من حال هذا القطب ما سمعت وله أحوال كثيرة أعرفها أفعله في كل قطب ما أذكر جميع أحواله لأن ذلك يتسع الخرق فيه حيث أنه لا يفي به الوقت.

وأما القطب السابع الذي على قدم أيوب عليه السلام وسورته البقرة وهي البيضاء الحاوية على سيدة آي القرآن، ومنازله بعدد حروفها لا آيها، حال هذا القطب العظمة بحيث أنه يرى أن العالم لا يسعه لأن ذوقه كونه وسع الحق قلبه، وقد ورد في الخبر أن الحق يقول: «**مَا وَسِعَنِي أَرْضِي وَلاَ سَمَائِي وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي**»، وما كل قلب يسع الحق، وقال: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فبين مكان القلوب، فإذا كان مشهود العبد كون الحق في قلبه فكما لا يسع العالم الحق لا يسع العالم أيضاً هذا العبد، فهذا سبب شهود ضيق العالم عنه، وما رأيت من تحقق بهذا المقام وشهوده إلاّ رجلاً بالموصل من أهل حديثة الموصل كان بهذه المثابة وأطلعه الحق على أمر ولم يطلعه على سره فيه، وكان يطلب على من يوضح له حاله فذكرني له الإمام نجم الدين محمد بن أبي بكر بن شاي الموصلي المدرس بمدرسة سيف الدين بن علم الدين بحلب في هذا الزمان الذي نحن فيه وهو سنة ثمان وعشرين وستمائة فطلب الاجتماع بنا، فلما وصل ذكر نازلته فأوضحتها له فسري عنه واستبشر وخرج لي بحاله لما رآني فهمته فوجدته قد أخذ من مقام العظمة بحظ وافر لكنه دون ذوق هذا القطب فيه لأنه أخبرني أن النخامة كانت تدور في فيه لا يقدر أن يلقيها من فيه لأنه لا يجد لها محلاً تقع فيه خالياً من الحق، وقد علم ما جاء في الأدب في إلقائها في الشرع فكان يتحير، ورأيت آخر مثله بإشبيلية من بلاد الأندلس، وروينا عن الحلاج أنه ذاق من هذا المقام حتى ظهر عليه منه حال المقام فكان له بيت يسمّى بيت العظمة إذا دخل فيه ملأه كله بذاته في عين الناظر حتى نسب إلى علم السيميا في ذلك لجهلهم بما هم عليه أهل الله من الأحوال، والمتمكن في هذا المقام لا يظهر عليه بالحال ما يدل على أنه صاحب هذا الذوق ولكن نعوته تجري بحكم هذا المقام لا حاله، فإن الحال يعطي خرق العوائد كما قال صاحب محاسن المجالس فيها لما ذكر الأحوال أنها للمريدين قال: والأحوال للكرامات يريد خرق العوائد، وليست الكرامات في عرف هذا اللسان الأخرق العوائد مع الاستقامة في الحال أو تنتج الاستقامة في الفور لا بدّ من ذلك عندهم، وسبب هذا التحديد أن خرق العادة قد لا

يكون كرامة من الله للعبد، فأكملهم في مقام العظمة من يجهل حاله ولا يعرف فيعرف ما يعامل به ويحار الناظر فيه إلاَّ أنه على بينة من ربه وبصيرة من أمره، فمن أراد أن يعرف أحوال هذا الإمام فليتدبر آيات سورة البقرة آية بعد آية حتى يختمها، فهذا القطب مجموع آيها وبالله التوفيق.

وأما القطب الثامن الذي على قدم إلياس عليه السلام وسورته آل عمران وهي البيضاء أيضاً، ومنازله بعدد آيها، ولست أعني بقولي القطب الأول والثاني أن هذا الترتيب بالزمان إنما أريد به ترتيب العدد إلى أن يكمل اثنا عشر قطباً فقد يكون الثاني عشر أو غيره هو الأول بالزمان، وإنما أعلمت بذلك لئلا يتوهم من قد أوقفه الله وأطلعه على العلم بأزمان هؤلاء الأقطاب فيرى هذا الترتيب الذي سقناه فيهم أنه ترتيب أزمانهم فلذلك بينت أنه ترتيب العدد لا غير، وحال هذا القطب العلم بالمتشابه من كلام الله الذي لا يعلم تأويله إلاَّ الله، فيعلمه هذا القطب بإعلام الله خاصة ولا يعلم أبداً إلاَّ بإعلام الله فيكون عنده محكماً في تشابهه فيعرف من أيّ وجه كان التشابه فيه فيحصل له علم المناسبة التي جمعت بين الله وبين من وقع معه التشابه في الآية كآيات التشبيه كلها، أو ترفع التشبيه من طريق دلالة اللفظ المشترك الذي لا يكون إلاَّ لمناسبة خفية، فإن المناسبة في التشبيه جلية وفي الاشتراك خفية كالنور للعلم جلي، فتسمّى العلم نوراً والنور نوراً كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ [الأنعام: ١٢٢] يعني الوحي وهو العلم ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢] وفي الاشتراك كالعين، فالمناسبة في العينية في كل مسمّى بالعين خفية فهي عند هذا القطب جلية بإعلام الله. وأما أصحاب التأويل بالنظر في ذلك فما هم على علم وإن صادفوا العلم، ومن هذا العلم تعلم أن النساء شقائق الرجال، ألا ترى حوّاء خلقت من آدم؟ فلها حكمان: حكم الذكورة بالأصل وحكم الأنوثة بالعارض فهي من المتشابه، فإن الإنسانية مجمع الذكر والأنثى، وأين حقيقة الفاعل من المنفعل لمن هو فيه فاعل ولا يفعل إلاَّ في مشاكله، وذلك أنه أول ما أحدث الانفعال في نفسه فظهر فيه صورة ما ينفعل عنه، وبتلك القوّة انفعل عنه ما انفعل وظهر كالبديع والمخترع والحق قد قدمنا تحقيق العلم بالعالم أن العلم يتبع المعلوم والعلم صفة العالم والمعطي العلم ما هو المعلوم عليه، ثم يعطي العالم إيجاد المعلوم كما يعطي المخترع إيجاد الأمر المخترع وإظهاره في الوجود، فمن هنا يعرف لما حبّب الله النساء لمحمد ﷺ، فمن أحب النساء حب النبيّ ﷺ لهنّ فقد أحب الله، والجامع الانفعال لما كان من إعطاء المعلوم العلم ليقال فيه إنه عالم فهو أول منفعل لمعلوم، وظهر في عيسىٰ انفعاله عن مريم في مقابلة حوّاء من آدم: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] فيفهم قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ﴾ مثل حوّاء ﴿وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] مثل عيسىٰ، وبالمجموع مثل بني آدم باقي الذرية، فهي الجامعة لخلق الناس، ولقد كنت من أكره خلق الله تعالىٰ في النساء وفي الجماع في أول دخولي إلى هذا الطريق وبقيت على ذلك نحواً من ثمان عشرة سنة إلى أن شهدت هذا المقام وكان قد تقدم عندي خوف المقت لذلك لما وقفت على الخبر النبوي أن الله حبّب النساء

لنبيه ﷺ فما أحبهن طبعاً ولكنه أحبهن بتحبيب الله إليه، فلما صدقت مع الله في التوجه إليه تعالىٰ في ذلك من خوفي مقت الله حيث أكره ما حببه الله لنبيه أزال عني ذلك بحمد الله وحببهن إليّ، فأنا أعظم الخلق شفقة عليهن وأرعى لحقهن، لأني في ذلك على بصيرة وهو عن تحبّب لا عن حب طبيعي، وما يعلم قدر النساء إلاّ من علم وفهم عن الله ما قاله في حق زوجتي رسول الله ﷺ عندما تعاونا عليه وخرجا عليه كما ذكر الله في سورة التحريم وجعل في مقابلة هاتين المرأتين في التعاون عليه، من يعاون رسول الله ﷺ عليهما وينصره وهو الله وجبريل وصالحو المؤمنين ثم الملائكة بعد ذلك، وليس ذلك إلاّ لاختلاف السبب الذي لأجله يقع التعاون، فثم أمر لا يمكن إزالته إلاّ بالله لا بمخلوق، ولذلك أمرنا أن نستعين بالله في أشياء وبالصبر في أشياء وبالصلاة في أشياء فاعلم ذلك، وكان ثم أمر وإن كان بيد الله، فإنّ الله قد أعطى جبريل اقتداراً على دفع ذلك الأمر، فأعان محمداً ﷺ في دفعه أن تعاونا عليه وأن رجعا عنه وأعطيا الحق من نفوسهما سكت عنهما كما سكتنا، فكان لهما الأمر من قبل ومن بعد، وهو نعت إلهيّ فإنه لحركتهما تحرك من تحرك ولسكونهما سكن الذي أراد التحرك، وكذلك صالحو المؤمنين كان عندهما أمر نسبته في الإزالة بصالحي المؤمنين أقرب من نسبته إلى غيرهم، فيكون صالح المؤمنين معيناً لمحمد ﷺ ثم الملائكة بعد ذلك إذا لم يبق إلاّ ما يناسب عموم الملائكة التي خلقت مسخرة يدفع بها ما لا يندفع في الترتيب الإلهيّ إلاّ بالملائكة مع انفراد الحق بالأمر كله في ذلك والقيام به ولكن الجواز العقلي فأخبر الحق بالواقع لو وقع كيف كان يقع فما يقع إلاّ كما قاله، وما قال إلاّ ما علم أنه يقع بهذه الصورة، وما علم إلاّ ما أعطاه المعلوم من نفسه أنه عليه بما شهده أزلاً في عينه الثابتة في حال عدمه، فانظر يا وليّ كيف تبدي الأمور حقائقها الذي فهم وقلب، جعلنا الله وإياكم من أهل الفهم عن الله ممّن له قلب يعقل به عن الله وألقى السمع لخطاب الله وهو شهيد لما يحدثه الله في كونه من الشأن.

وأما القطب التاسع الذي على قدم لوط عليه السلام فسورته سورة الكهف ولها العصمة والاعتصام، ومنازله بعدد آيها حاله العصمة من كل ما يؤدي إلى سوء الأدب الذي يبعد صاحبه عن البساط فهو محفوظ عليه وقته أبداً، وعلمه علم الاعتصام، وقد عيّنه الله وحصره في أمرين الاعتصام به فقال عزّ من قائل: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [الحج: ٧٨] والاعتصام الآخر بحبله وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] فمن الناس من اعتصم بالله، ومنهم من اعتصم بحبل الله، وقال: إن الاعتصام بحبل الله هو عين الاعتصام بالله، وهذا القطب جمع بين هذين الاعتصامين، والفرق بين الاعتصامين أن حبل الله هو الطريق الذي يعرج بك إليه مثل قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وليس حبله سوى ما شرعه وتفاضل فهم الناس فيه فمنهم ومنهم ولذلك فضل الله بعضهم على بعض، فمن لم يخط طريقه فهو المعصوم والتمسك به هو الاعتصام، وعليه حال المؤمنين الذين بلغوا الكمال في الإيمان، ومثل هؤلاء يعتصمون بالله في اعتصامهم بحبل الله وهو

قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقوله: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وأما الاعتصام بالله فهو قوله ﷺ قوله في الاستعاذة: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ» فإنه لا يقاومه شيء من خلقه فلا يستعاذ به إلاً منه، فإن الإنسان لما حصل في سمعه أنه مخلوق على صورة الحق ولم يفرق بين الإنسان الكامل وبين الإنسان الحيوان وتخيّل أن الإنسان لكونه إنساناً هو على الصورة وما هو كما وقع له ولكنه بما هو إنسان هو قابل للصورة إذا أعطيها لم يمتنع من قبولها فإذا أعطيها عند ذلك يكون على الصورة ويعد في جملة الخلفاء فلا يتصرف من هو على الصورة إلاً تصرف الحق بها، وتصرف الحق عين ما هو العالم عليه وفيه، وأنت تعلم بكل وجه ما العالم فيه من مكلف وغير مكلف، وممّا ينكر ويعرف ولا يعرف ما ينكر وما يعرف من العالم المكلف إلاً الخليفة وهو صاحب الصورة، فالحق له حكم الإنكار لا للعبد، فالمعتصم بالله إذا كان صاحب الصورة لا يعتصم إلاً منه بأن يظهر به في موطن ينكره عليه، وإن كانت صفته فليس له أن يتلبس بها في كل موطن ولا يظهر به في كل مشهد بل له الستر فيها والتحلي بها بحسب ما يحكم به الوقت، وهذا هو المعبر عنه بالأدب، ولو كان مشهده أنه لا يرى إلاً الله بالله وأنّ العالم عين وجود الحق، وأعظم من هذا الصارف عن الإنكار فلا يكون ولكن لا بدّ من الإنكار إن صحّ له هذا المقام فهو ينكر بحق على حق لحق ولا يبالي وحجته قائمة.

وأما القطب العاشر الذي على قلب هود عليه السلام فسورته سورة الأنعام ولها الكمال والتمام في الطوالات، ومنازله بعدد آيها، ولهذا القطب علوم جمة منها علم الاستحقاق الذي يستحقه كل مخلوق في خلقه، وعلم ما يستحقه ذلك الخلق من المراتب، فأما استحقاق الخلق فقوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: ٥٠] وأما المراتب فالتنبيه عليها من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ١٩] و﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١] وهو أن تزيده على مرتبته أو تنقصه منها، وما يتميز العالم العاقل من غيره إلاً بإعطاء كل ذي حق حقه وإعطاء كل شيء خلقه، ومتى لم يعلم ذلك فهو جاهل بالحق، ومتى علم ولم يعمل بعلمه فهو غير عاقل، فلا بدّ لصاحب هذا المقام أن يكون تام العقل كامل العلم، وهذا هو الحفظ الإلهيّ والعناية العظمى والسلوك على هذه الطريقة المثلى التي هي الطريقة الزلفى هو السلوك الأقوم. ولما أتمّ الله خلق العالم روحاً وصورة وأنزل كل خلق في رتبته جعل بين العالم التحاماً روحانياً وجسمانياً لظهور أشخاص كل نوع من العالم، إذ كان دخول أشخاص كل نوع في الوجود مستحيلاً، وإنما فعل ذلك ليظهر فضل الفاعل على المنفعل بالذوق فيعلمون فضل الحق على عباده ويعرفون كيف يتحققون معه في عبودتهم ونسب إليهم الخلق فقال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾ [المائدة: ١١٠] وقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فذكر أن ثم خالقين الله أحسنهم خلقاً فإنه تعالى يخلق ما يخلق عن شهود، والخالق من العباد لا يخلق إلاً عن تصور يتصوّر من أعيان موجودة يريد أن يخلق مثلها أو يبدع مثلها، وخلق الحق ليس كذلك فإنه يبدع أو يخلق المخلوق على ما هو ذلك المخلوق عليه في نفسه وعينه فما يكسوه إلاً حلة الوجود بتعلق يسمّى الإيجاد، فمن أوقفه الله كشفاً على أعيان ما شاء من

الممكنات فليس في قوّته إيجادها أي ليس بيده خلعة الوجود التي تلبسها تلك العين الثابتة الممكنة أعني بالمباشرة ولكن له الهمة وهي إرادة وجودها لا إرادة إيجادها منه لأنه يعلم أن ذلك محال في حقه، فإذا علق همته بوجودها يتعلق الحق القول بالتكوين فتعلم قول ربها من قول الخلق، سواء كان القول على لسان الخلق أو كان من الحق بارتفاع الوسائط، فيتكوّن ذلك الشيء ولا بدّ، فيقال في الشاهد فعل فلان بهمته كذا وكذا، وإن تكلم يقال: قال فلان كذا وكذا فانفعل عن قوله كذا، فمن عرف ذلك عرف ما للعبد في ذلك التكوين وما للحق فيه فلذلك قال: إنه ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فإذا ظهر عين ذلك المكوّن أيّ شيء كان تشوّفت إليه مرتبته لأن مزاجه يطلبها وأعني المرتبة الأولى، فيكتسب الاستعداد لأمور علية أو دنية بحسب ما يعطيه ذلك الاستعداد المكتسب فيظهر في العالم بصورة ذلك، فإذا نظر فيه الأجنبيّ وأعني بالأجنبيّ الذي لا علم له بالحقائق ونظر إلى استعداده فأعطاه نظره أنه نازل عن رتبته أو رتبته فوق ذلك أعني الرتبة التي ظهر فيها والأمر في نفسه ليس كما ظهر لصاحب هذا النظر، فإن الاستعداد المؤثر إنما هو في الخلق وهو استعداد ذاتي، وأما الاستعداد العرضي فلا حكم له، بل الاستعداد العرضي رتبة أظهرها الاستعداد الذاتيّ وغاب هذا القدر من العلم عن أكثر الخلق، مثال ذلك: أن يروا شخصاً ساكناً قد تصوّر العلوم وأحكمها وأعطي من المراتب أخسّها ممّن لا ينبغي لمن جمع هذه الفضائل والعلوم أن يكون غايته تلك الرتبة فيقال إنه قد حطّ هذا الرجل عن رتبته وما أنصف في حقّه وما عندهم خبر بأن رتبته إنما هي عين تلك الفضائل التي جمعها وتلك العلوم التي أحكمها، ومن جملتها هذه المرتبة الخسيسة التي ولاّه السلطان عليها إن كان من الولاة وإن لم يكن من الولاة ولا نال شيئاً مع هذا الفضل من المناصب قيل فيه إنه محروم وما هو محروم، وإنما الموطن اقتضى ذلك وهو أن الدنيا اقتضت أن يعامل فيها الجليل بالجلال في وقت، وفي وقت يعامل الجليل بالصغار، وفي وقت يعامل الصغير بالصغار، وفي وقت يعامل الصغير بالجلال، بخلاف موطن الآخرة فإن العظيم بها يعامل بالعظمة والحقير بها يعامل بالحقارة، ولو نظر الناظر لرأى في الدنيا من يقول في الله ما لا يليق به تعالىٰ، ومن يقول فيه ما يليق به من التنزيه والثناء وأعظم من الحق فلا يكون هذا العبد، فمن علم المواطن علم الأمور كيف تجري في العالم وإلى الله يرجع الأمر كله ما صحّ منه وما اعتلّ، فلا تنظر إلى المناصب، وانظر إلى الناصب الذي يعمل بحكم المواطن لا بما يقتضيه النظر العقلي، فإن الناظر إذا كان عاقلاً علم بعقله أن موطن الدنيا كذا يعطى ويترك عنه الجواز العقليّ الذي يمكن في كل فرد فرد من أفراد العالم، فإن هذا الجواز في عين الشهود ليس بعلم ولا صحيح، وليكن العاقل مع الواقع في الحال، فإن ذلك صورة الأمر على ما هو عليه في نفسه لا تعلق لعاقل بالمستقبل إلاّ إن أطلعه الله كشفاً على أعيان الممكنات قبل وقوعها في الوجود، فلا فرق بينه وبين من شهدها في وقوعها، لأن هذا المكاشف يزول عنه حكم الجواز العقليّ فيما كوشف به وأطلعه الله عليه فهذا بعض علم هذا القطب.

وأما القطب الحادي عشر الذي على قدم صالح عليه السلام فسورته من القرآن سورة ﴿طه﴾ ولها الشرف التام، ومنازله بعدد آيها. اعلم أن هذا القطب دون سائر الأقطاب أشرف بهذه السورة من سائر الأقطاب لأن هذه السورة أشرف سورة في القرآن في العالم السعيد، فإنها السورة التي يقرؤها الحق تعالىٰ في الجنة على عباده بلا واسطة، وهذا القطب له علوم جمّة له البطش والقوّة كما قال أبو يزيد البسطاميّ وقد سمع قارئاً يقرأ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] فقال: بطشي أشد، وكان حاله حال من ينطق بالله، فقول الله عن نفسه إن بطشه شديد على لسان عبده أشد من بطشه بغير لسان عبده، ثم بطشه على لسان عبده الطبيعي أشد من بطشه على لسان عبده الإلهيّ بما لا يتقارب، وأكثر علم هذا الإمام في التنزيه والإحاطة وليس التنزيه والإحاطة التي يعلم هو المفهوم المتعارف بل هو تنزيه التنزيه المتعارف وجعله في ذلك علم الإحاطة، وذلك أن تنزيهه عدم المشاركة في الوجود فهو الوجود ليس غيره والمعبر عنه عنده بالعالم إنما هو الاسم الظاهر وهو وجهه فما بطن منه عن ظاهره فهو الاسم الباطن وهو هويته فيظهر له ويغيب عنه، وأما الآلام واللذات فتقابل الأسماء وتوافقها وبها تكثرت الصور فإنها التي تشكلت فأدرك بعضها بعضاً فكان محيطاً بها منزّهاً عنها فله الستر عنها والتجلي فيها فتختلف عليه الصور فينكر حاله مع علمه أنه هو، وهو ما تسمعه من قول الإنسان عن نفسه إني في هذا الزمان أنكر نفسي فإنها تغيرت عليّ وما كنت أعرف نفسي هكذا وهو هو ليس غيره، فمن حيث تشكل الأسماء له الإمكان، ومن حيث العين القابلة لاختلاف الصور الأسمائية عليها له الوجوب، فهو الواجب الممكن والمكان والمتمكن المنعوت بالحدوث والقدم كما نعت كلامه العزيز بالحدوث مع اتصافه بالقدم فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم﴾ الضمير يعود على صور الأسماء إلاّ الرب ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] فنعته بالحدوث فهو حادث عند صورة الرحمن ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ الضمير مثل الأوّل إلاّ الرحمن ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: ٥] فنعته بالحدوث فهو حادث عند صورة الرب، فإن تقدّم إتيان ذكر الرب كان ذكر الرحمن جوابه، وإن تقدّم ذكر الرحمن كان ذكر الرب جوابه، فالمتقدم أبداً من الذكرين قرآن والثاني فرقان ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] للمتقدم منهما وهو القرآن ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] للآخر منهما وهو الفرقان ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ كما هو ﴿الظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] وليس إلاّ قبول صور الأسماء وكل للإحاطة فانحصر الأمر فيه، فما قال ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] إلاّ له، ولا كنى بيكون إلاّ عنه، ألا تراه تسمّى بالدهر وأنه يقلب الليل والنهار، وليس الدهر غير الليل والنهار، وليس التقليب سوى اختلاف الصور، فالأيام والساعات والشهور والأعوام هي عين الدهر، وفي الدهر وقع التفصيل بما ذكرناه، فمن وجه هو ساعة ومن وجه هو يوم وليل ونهار وجمعة وشهر وسنة وفصول ودور [مجزوء الرجز]:

فَكُلُّ خَيْرٍ هُوَ لَهْ وكل شَرّ ليس لَهْ
فَهْوَ الوُجُودُ كُلُّهُ وفَقْدُهُ ما هو لَهْ

يَـعْـلَـمُـهُ مـن عَـلِـمَـهْ   يَـجْـهَـلُـهُ مَـنْ جَـهِـلَـهْ
فـإنّـمـا أنـا بِـهِ   فـي كُـلّ أحـوالـي ولَـهْ
فـأنـتَ هُـوْ مـا أنـتَ هُـوْ   وأنـتَ لَـهْ مـا أنـتَ لَـهْ
ولـو صَـنَـعْـتَ صُـنْـعَـهُ   ولـو عَـمِـلْـتَ عَـمَـلَـهْ

فهذا من بعض أنفاس علم هذا القطب، وهكذا مجراه في علومه كلها على كثرتها وتفاصيلها.

وأما القطب الثاني عشر الذي على قدم شعيب عليه السلام فسورته من القرآن سورة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] وهي التي تجادل عن قارئها، ومنازله بعدد آيها، انظر في جدالها في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۢ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ينبه على النظر في المقدمتين ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣] يعني خللاً يكون منه الدخل فيما يقيمه من الدليل ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ﴾ وهو النظر ﴿خَاسِئًا﴾ بعيداً عن النفوذ فيه بدخل أو شبهه ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤] أي قد عيي أي أدركه العيا وكل آية في هذه السورة فإنها تجري على هذا النسق إلى أن ختم بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] ألا ترى الوجود كله من غير تعليم؟ هل تراه في حال اضطراره يلجأ إلى غير الله ما يلجأ إلاَّ إلى الله بالذات؟ فلو كان غيراً ما عرفه حتى يلجأ وهو قول العامة فيمن رزىء مالك لما ترجع في رزيتك إلاَّ إلى الصبر، والصبر ليس إلاَّ صفة الصابر، فتسمى أيضاً بالصبور، يقول: أنا هو ما ثم غيري، وهذا عين ما ادعاه في علمه القطب الذي على قدم صالح صلَّى الله على نبينا محمد وعليه وسلّم [مخلع البسيط]:

فـيـا شُـعَـيْـبُ مـا ثَـمَّ عَـيْـبْ   لـكـنّـه شـاهـدٌ وغَـيْـبْ
فـانْـظُـرْ إلـى حـكـمـة وفَـضْـل الـ   ـخـطـاب فـيـهـا مـا فـيـه رَيْـبْ

ولهذا القطب علم البراهين وموازين العلوم ومعرفة الحدود كله روح مجرّد لطيفة حاكم على الطبيعة مؤيد للشريعة، بين أقرانه ضخم الدسيعة، يطعم ولا يطعم وينعم ولا يتنعم، الغالب عليه التفكّر ليتذكر والدخول في الأمور الواضحة التنكر، فهو المجهول الذي لا يعرف، والنكرة التي لا تتعرّف، أكثر تصرّفه فيما يتصرّف فيه من الأسماء الإلهية الاسم المدبر والمفصل والمنشىء والخالق والمصوّر والبارىء والمبدىء والمعيد والحكم والعدل، ولا يرى الحق في شيء من تجليه دون أن يرى الميزان بيده يخفض ويرفع، فما ثم إلاَّ خفض ورفع لأنه ما ثم إلاَّ معنى وحرف وروح وصورة وسماء وأرض ومؤثر ومؤثر فيه، فما ثم إلاَّ شفع وكل واحد من الشفع وتر فما ثم إلاَّ وتر ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [الفجر: ١ ـ ٣] فالشفع يطلب الشفع والوتر يطلب الوتر وهو طلب الثأر [السريع]:

فـشَـفْـعُـهُ فـي وَتْـرِهِ ظـاهـرٌ   ووَتْـرُهُ فـي شَـفْـعِـهِ مُـنْـدَرِجْ
وجَـادَتِ الـسُّـحْـبُ بـأمـطـارهـا   فـكـان مـا كـان بـأَمْـرِ مَـرَجْ
فـحَـدَّثَـتْ أرْضُـكَ أخـبـارَهـا   وأنْـبَـتَـتْ مـن كـل زَوْج بَـهِـجْ

تَفْنَى إذا شاهَدَتْ أعيانَها بعَيْن غير الحَقّ فيها المُهَجْ
يُبَايِنُ الضِّدُّ بها ضِدَّهُ وشَكْلُهُ بِشَكْلِه مُزْدَوِجْ
ونُزْهَةُ الأبصار فيما بَدَا في العالم العُلْويّ بين الفُرَجْ
فكلّ ما للعَيْنِ من ظاهر عنه إذا حَقَّقْتَهُ ما خَرَجْ

جمع لهذا القطب بين القوتين: القوّة العلمية والقوّة العملية، فهو صنع لا يفوته صنعة بالفطرة، وله في كل علم ذوق إلهيّ من العلوم المنطقية والرياضية والطبيعية والإلهية، وكل أصناف هذه العلوم عنده علوم إلهية، ما أخذها إلاّ عن الله وما رآها سوى الحق ولا رأى لها دلالة على الحق، فكل علم أو مسألة من ذلك العلم له آية ودلالة على الله لا يعرف لها دلالة على غيرها لاستغراقه في الله لأنه مجذوب مراد لم يكن له تعمل فيما هو فيه، بل وجد فيه أنه هو ثم فتح عينيه فرأى كل شيء رؤية إحاطة بما رأى، فالزيادة التي يستفيدها إنما هي في تفصيل ما رأى دائماً أبداً لأنه كل مرئي في الوجود فإنه يتنوّع دائماً فلا تزال الإفادة دائماً، وكل استفادة زيادة علم لم يكن عنده في معلوم لم يزل عالماً به مشهوداً له.

فهذا قد ذكرنا من أحوال الاثني عشر قطباً ما يسّر الله ذكره على لساني والله يقول الحق وهو يهدى السبيل. فواحد من هؤلاء الأقطاب له الواحد من العدد وهو صاحب التوحيد الخالص، وآخر له الثاني من العدد، وهكذا كل واحد إلى العاشر والحادي عشر له المائة، والثاني عشر له الألف، والمفرد له تركيب الأعداد من أحد عشر إلى ما لا نهاية له، وذلك للأفراد وهم الذين يعرفون أحدية الكثرة وأحدية الواحد، جعلنا الله وإياكم ممّن فهم عن الله ما سطره في العالم من العلم به سبحانه الدال عليه عزّ وجلّ، إنه الولي المحسان الجواد الكريم المنان، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والستون وأربعمائة

في حال قطب هِجِّيرهُ لا إله إلاّ الله

[نظم: البسيط]

مَنْ كان هِجِّيرَهُ نَفْيٌ وإثْبَاتُ ذاك الإمام الذي تُبْدِيهِ آياتُ
وَتْرٌ وليس له شَفْعٌ يُعَدِّدُهُ وما تُقَيِّدُهُ فينا علاماتُ
وما له في وجود النَّعْتِ من صِفَةٍ وما له في شُهُودِ الذات لَذَّاتُ
تأَثَّرَ الكلُّ فيه من تَأَثُّرِهِ فنَعْتُهُمْ فيه أحياءٌ وأمواتُ
هم المُصانون لا تُحْصَى مناقبُهم ولا يقوم بهم للموت آفاتُ

قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] اعلم أن الهجير هو الذي يلازمه العبد من الذكر كان الذكر ما كان، ولكل ذكر نتيجة لا تكون لذكر آخر، وإذا عرض الإنسان على نفسه الأذكار الإلهية فلا يقبل منها إلاّ ما يعطيه استعداده، فأوّل فتح له في الذكر قبوله له، ثم لا يزال يواظب عليه مع الأنفاس، فلا يخرج منه نفس في يقظة ولا نوم إلاّ به

لاستهتاره فيه، ومتى لم يكن حال الذاكر على هذا فليس هو بصاحب هجير، فمن كان ذكره لا إله إلاّ الله فمعقول ذكره الألوهة وهي مرتبة لا تكون إلاّ لواحد هو مسمّى الله، وهذه المرتبة هي التي تنفيها وهي التي تثبتها ولا تنتفي عمّن تنتفي عنه بنفي النافي، ولا ثبيت لمن تثبت بثبت الثابت المثبت، فثبوتها لها ونفيها لها غير ذلك ما هو فلا تنتج للذاكر إلاّ شهودها، وليس شهودها سوى العلم بها، وليس معلوم هذا العلم إلا نسب، والنسبة أمر عدمي، والحكم للنسبة والمنسوب والمنسوب إليه، وبالمجموع يكون الأثر، والحكم مهما أفردت واحداً من هذه الثلاثة دون الباقي لم يكن أثر ولا صحّ حكم، فلهذا كان الإيجاد بالفردية لا بالأحدية، خلافاً لمن يقول أنه ما صدر إلاّ واحد فإنه عن واحد فهو قول صحيح لا أنه واقع. ثم جاء الكشف النبويّ والإخبار الإلهيّ بقوله عن ذات تسمّى إلهاً ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ فهذان أمران قال له ﴿كُن﴾ فهذا أمر ثالث والثلاثة أوّل الأفراد فظهر التكوين عن الفرد لا عن الأحد، وهذه كلها راجعة إلى عين واحدة، فإذا ظهر المكوّن بالتكوين عن كن لم يكن غير تجلي إلهيّ في صورة ممكن لصورة ممكن ناظر بعين إلهيّ كما أنه ما سمع ﴿فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] إلاّ بسمع إلهي، ولهذا أسرع بالظهور لأنه المريد والمراد والقائل والمقول له والقول، فحاله في التكوين أن ينطق بالله فينفخ فيه فيكون طائراً بإذن الله ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ بأمره ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ﴾ [البقرة: ٢٦٠] لأنه السامع الذي دعاهن، ولهذا الذكر من المعارف معرفة النفي والإيجاب والتنكير والتعريف، وله من الحروف الألف المزادة والألف الطبيعية والهمزة المكسورة وألف الوصل واللام والهاء، ومن الكلمات أربعة متقابلة في عين واحدة يقابل النفي منها الإثبات والإثبات النفي والمنفي الثابت والثابت المنفي، فأما معرفة النفي فهو اطلاع على ما ليس هو فيما قيل فيه إنه هو وإن كان الذي قيل إنه هو صحيح كشفاً لكنه محال عقلاً، ولهذا التزم بعض أهل الله ذكر الله الله، ورأيت على هذا الذكر شيخنا أبا العباس العريبي من أهل العليا من غرب الأندلس، والتزم آخرون الهاء من الله لدلالتها على الهوية وجعله ذكر خاصة الخاصة وهو أبو حامد الغزاليّ وغيره. وأما الأكابر فيلتزمون لا إله إلاّ الله على غير ما يعطيه النظر العقلي أي الوجود هو الله والعدم منفي الذات والعين بالنفي الذاتي والثابت ثابت الذات والعين بالإثبات الذاتي وتوجه النفي على النكرة وهو إله، وتوجه الإثبات على المعرفة وهو الله، وإنما توجه النفي على النكرة وهو إله لأن تحتها كل شيء وما من شيء إلاّ وله نصيب في الألوهة يدعيه فلهذا توجه عليه النفي لأن الإله من لا يتعين له نصيب فله الأنصباء كلها، ولما عرف أن الإله حاز الأنصباء كلها عرفوا أنه مسمّى الله وكل شيء له نصيب فهو اسم من أسماء مسمّى الله فالكل أسماؤه، فكل اسم دليل على الهوية بل هو عينها ولهذا قال: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠] وهذا حكم كل اسم تدعونه ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨] فله أسماء العالم كله، فالعالم كله في المرتبة الحسنى، فالأمر تنكير في عين تعريف ونكرة في عين معرفة وتعريف في عين تنكير ومعرفة في عين نكرة فما ثم إلاّ منكور ومعروف.

وأما حروف هذا الهجير فالألف المزادة وهي كل ألف لها موجب يوجب الزيادة فيها،

والزيادة ظهور مثل على صورتها فتكون ألفان والألف أبداً ساكنة فالظاهر أحد الألفين أبداً: إما عبد، وإما رب، وإما حق، وإما خلق. والموجب له في موطن رتبة التقدم وفي موطن رتبة التأخر وهما موجبان الواحد ما يدل على الاتحاد وهو التضعيف، والآخر ما يدل على الباعث للتكوين أو الإعدام وهو التحقيق المعبر عنه بالمهمزة، وقد يكون هذان الموجبان في مقام النزول مثل: ﴿فَسْئَلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٣] و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] و﴿إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣] وقد يكون في مقام رفيع الدرجات و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] مثل: ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ﴾ [المجادلة: ٥] وأولياء أولئك وأتوا الكتاب. وقد يكون الموجب في مقام البرزخ وهو الوسط مثل: ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ [المجادلة: ٢٢] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] و﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم﴾ [الحشر: ١٣] فإن كان الموجب اسم فاعل رباً كان الموجب أو خلقاً، وإن كان الموجب خلقاً كان الموجب بفتح الجيم حقاً فأثر ظاهر من خلق في حق ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [البقرة: ١٨٦] وأثر ظاهر من حق في خلق ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وذلك إما عن باعث وإما عن اتحاد، والإيجاد إبداله الاسم الآخر ليس له في الأوّل قدم، والباعث يكون له الأوّل والآخر، فالباعث حق وخلق والإيجاد حق وخلق، إلاّ أنه لا يكون حقاً مفرداً إلاّ بخلق كالمعرفة بالله من حيث كونه إلهاً لا يكون إلاّ بخلق لا بدّ من ذلك فهي حق في خلق والخلق متأخر حيث عقل أبداً.

وأما الألف الطبيعية في مثل قال وسار فهو الأمر الواحد الذي يجمع الطبيعة فيظهر العالم ويفرّقها فيفنى العالم وهو الأصل المفرق المجمع، وكل ألف مزادة فإنما تظهر على حكم التشبيه بها، والموجب لهذا الأمر المفرق المجمع إنما هو الفتح وهو الأصل، وقد يكون الفتح بما يسرّ وهو الرحمة، وبما يسوء وهو فتح العذاب وهو على نوعين: فتح عذاب فيه رحمة، وفتح عذاب لا يشوبه رحمة إلاّ عندنا فإنه ما ثم عذاب لا يشوبه رحمة قط فإن الرحمة وسعت كل شيء. وأما الميل الطبيعي وهو مثل الألف التي يسمّى واو علة وياء علة فهو ميلها إلى جانب الحق مثل قولوا ومثل فيه. وأما الهمزة المكسورة في هذا الذكر فهو باعث الحق إلى النزول إلى السماء الدنيا وإلى كل ما يكون لجانب الخلق هذا في باعث الحق. وأما إذا كان باعث الخلق فهو أن نظره في نفسه يبعثه على التعمّل في تحصيل علمه بربه، فلذلك كانت الهمزة مكسورة في النفي وفي كلمة الإثبات والمنفي مكسور أبداً. وأما ألف الوصل فهو وصل علم بتمييز مع وجود تشبيه إن لم يكن هناك وجود تشبيه فهي ألف قطع لا ألف وصل. وأما اللام فهي جبروتية لأنها من الوسط من ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [غافر: ١٥] والهاء ملكوتية فإنها من الصدر من أوّل مجرى النفس وهي أصلية في هاتين الكلمتين في المنفي والمثبت، وما ثمّ إلاّ هويتان: هوية خلق وهي المنفية في دعواها ما ليس لها، وهوية حق وهي الثابتة فإنها لم تزل فإن العبد من حيث عينه هالك. وإذا كان الحق هويته فليس هو ففي كل وجه ما هو هو فتنتفي هوية الحق إذا لبست الخلق ولا تنفي هوية الخلق إذا لبست الحق، فعلى كل حال ما ثم إلاّ حق ثابت غير منفي.

وأما الكلمات الأربع أداة نفي على منفي وأداة إثبات على ثابت، وبقي لمن يضاف العمل هل للأداة أو للذي دخلت عليه؟ فإن كان الحكم لمن دخلت عليه فإنه الذي يطلبها فإنه ما انتفى بها وإنما جاءت الأداة معرفة للسامع بأن الذي دخلت عليه منفي أو ثابت، وما عملت الأداة فيمن دخلت عليه إلاَّ تعيين مرتبة العلو أو السفل أو ما بينهما، فبالأداة تظهر المراتب وبمن دخلت عليه تتعين الأداة الخاصة من غيرها من الأدوات، كما ارتبط وجود الخلق بالحق، وارتبط وجود العلم القديم بالمحدث، فهذا بعض ما ينتجه لا إله إلاَّ الله من العلم الإلهي، وله ستة وثلاثون وجهاً يعطي كل وجه ما لا يعطيه الوجه الآخر، قد ذكرنا هذه الوجوه في باب النفس بفتح الفاء.

واعلم أنه ما قسمنا الحروف تقسيم من يعقل على طريق التجوّز بل ذلك على الحقيقة، فإنّ الحروف عندنا وعند أهل الكشف والإيمان حروف اللفظ، وحروف الرقم وحروف التخيّل أمم من جملة الأمم لصورها أرواح مدبرة فهي حية ناطقة تسبح الله بحمده طائعة ربها، فمنها ما يلحق بعالم الجبروت، ومنها ما يلحق بعالم الملكوت، ومنها ما يلحق بعالم الملك، فما الحروف عندنا كما هي عند أهل الحجاب الذين أعماهم الله وجعل على بصرهم غشاوة وهم ينظرون كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨] فإذا قال العبد: لا إله إلاَّ الله كان خلاقاً لهذه الكلمات فتسبح خالقها ويحق لها ذلك والحق منزّه بالأصالة لا بتنزيه المنزّه، وقد نسب تعالىٰ الخلق لعبده ووصف نفسه بالأحسن فيه في قوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فيعود تسبيح هذه الكلمة وكل كلمة على قائلها، فإذا كان العبد من أهل الكشف لما ذكرناه هو الذي نقل عنه من الرجال أنه قال سبحاني ولا علم لمن كفره بذلك [مخلع البسيط]:

فكُنْ مَعَ القَوْم حيث كانوا ... ولا تَكُنْ دونهم فتَشْقَى
فإنّما القَوْمُ أهْلُ كَشْفٍ ... أراهُمُ الله الحَقَّ حَقًّا
فهم عِبادُ الإلٰهِ صِدْقاً ... رَقَوْا من العِلْم كُلَّ مَرْقَى

وقد تقدم في الحروف في هذا الكتاب كلام مختصر شاف في الباب الثاني من هذا الكتاب في صغارها وكبارها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والستون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله الله أكبر

[نظم: البسيط]

الله أكْبَرُ لا أبْغي مُفاضَلَةً ... فإنَّ أفْعَلَ تُعْطيها وتَطْلُبُها
وقد تصحُّ إذا جاءت عقائدُنا ... وأنه بوجود العَيْن يُذْهِبُها
إلاَّ إذا كان بالآيات يطلُبُنا ... فإنّ أفْعَلَ تأتي وهي تَحْجُبُها

وردت السنة بلفظ هذا الذكر ولا سيما في الصلاة والأذان لها والإقامة وعقيب الصلاة

المفروضة عند النوم وفي مواضع كثيرة، وجاء بلفظة «أفعل»، وهذه لفظة «أفعل» يأتي في الأغلب بطريق المفاضلة، وفي أماكن لا تقتضي المفاضلة بحسب ما يقتضيه دليل الوقت، فيعقل منها عند ذلك ما يعقل، فإذا كانت هجيراً لأحد فإن كان المثابر عليها يذكر بها ربّه بالمفاضلة كان الكشف له من عند الله بحسب ما نوى فلا يرى إلاّ مفاضلة وهو كشف معين سأذكره في هذا الباب، وإن كان الذاكر به ربه يستحيل عنده المفاضلة كان الكشف له من عند الله بحسب ما نوى فلا يرى مفاضلة وهو كشف معين سأذكره في هذا الباب إن شاء الله، وإن كان الذاكر به ربه من حيث هو ذكر مشروع لا تخطر له فيه المفاضلة ولا ترك المفاضلة نتج له ما هو الأمر عليه من غير تقييد فيكون ما حصل لمن نوى المفاضلة، ومن لم ينوها تحت علم هذا الذاكر الثالث وهذه الهجيرات هي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] فالهجير هو الكثرة من الذكر دائماً فإذا تقرّر هذا فلنقل:

فصل فيمن ذكر هذه اللفظة بطريق المفاضلة: اعلم أن المفاضلة في هذا الذكر وأمثاله على قسمين: قسم يرجع الفاضل فيه والمفضول إلى الحق. وقسم يرجع الفاضل فيه إلى الحق والمفضول إلى الخلق. فلنبدأ بما يرجع إلى الحق وهو على قسمين: قسم يرجع إلى هذا الاسم من حيث لفظه، وقسم يرجع إلى غير لفظه من الأسماء، فالذي يرجع إلى لفظه كالكبير في قوله تعالىٰ: إنه ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] وكالمتكبر في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] فيكون الكبير أفضل من المتكبر لأن الكبير لنفسه هو كبير والمتكبر تعمّل في حصول الكبرياء، وما هو بالذات أفضل ممّا هو بالتعمّل، فإن التعمّل اكتساب، وإنما كان التكبر من صفات الحق لما كان من نزوله في الصفات إلى ما يعتقده أصحاب النظر وأكثر الخلق أنه صفة المخلوق، فلما علم ذلك منهم وهو سبحانه قد وصف لهم نفسه بتلك الصفات حتى طمعوا فيه وضلّ بها قوم عن طريق الهدى كما اهتدى بها قوم في طرق الحيرة قام لهم تعالىٰ في صفة التكبّر عن ذلك النزول ليعلمهم أنه وإن اشترك معهم في الاسمية فإن نسبتها إليه تعالىٰ ليست كنسبتها إلى المخلوق فيكون مثل هذا تكبّراً ولا يحتاج الكبير إلى هذا كله فتبين لك المفاضلة بين الكبير والمتكبر.

وأما المفاضلة التي لهذه الكلمة أعني قولك: الله أكبر فهي كلمة مفاضلة على كل اسم من الأسماء الإلهية بما يعطيه فهم الخلق فيه أعني في كل اسم اسم، لأن فهم العالم لا بدّ أن يكون يقصر عمّا هو الأمر عليه ولا يتمكن أن يقبل توصيل ذلك لو تمكن أن يوصله الحق إليك، فنحن لا قوة لنا على التحصيل ولا قوة في نفس الأمر على التوصيل فلا بدّ من قصور الفهم، فتدل لفظة الله أكبر من كل ما أعطاه فهم من نسبة الكبرياء إلى الله بأي اسم كان من الأسماء الإلهية بهذا اللفظ وغيره، فإن الله يقال فيه إنه أعظم وأكرم وأجلّ وأعلى وأرحم وأسرع وأحسن وأحكم وأمثال ذلك ممّا لا يحصى كثرة، ألا ترى إلى المشركين لما قالوا: أعل هبل أعل هبل وهبل اسم صنم كان يعبد في الجاهلية وهو الحجر الذي يطأه الناس في العتبة السفلى في باب بني شيبة هو مكبوب على وجهه فقال النبيّ ﷺ لأصحابه لما سمع

المشركين يقولون ذلك قولوا: الله أعلى وأجل يعني بالمفاضلة عندهم في اعتقادهم فساقه في معرض الحجة عليهم، لأن النبي ﷺ ما دعاهم إلاّ إلى الإيمان بالله الذي هو عندهم وفي اعتقادهم أعلى وأجل من هبل ومن سائر الآلهة بما قالوه عن نفوسهم فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فاتخذوهم حجبة، فالله أعلى وأجل من هبل عندهم، فكان ذلك تنبيهاً من رسول الله ﷺ للمشركين فإنه في نفس الأمر ليس هبل بإله حتى يكون الله أعلى وأجل في الألوهة من هبل، ولو قالها رسول الله ﷺ على طريق المفاضلة في نفس الأمر لكان تقريراً منه ﷺ لألوهة هبل، إلاّ أن الله أعلى منه وأجل في الألوهة وهذا محال على النبيّ ﷺ وعلى كل عالم أن يعتقده لأنه الجهل المحض على كل وجه، فهذه أيضاً مفاضلة مقرّرة شرعية في قولك: الله أكبر، فصاحب هذا الهجير بطريق المفاضلة يطالعه الحق بسريان هويته في جميع الخلق مثل قوله في الصحيح: «**إِنَّ الله قَالَ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ**» وقوله: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ وَرِجْلَهُ**» إلى غير ذلك، وقوله: «**فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ**» ولكن نسبة القول إليه دون نسبة القول إليه بلسان عبده أعلى من نسبة القول إليه بلسان الخلق فهو أكبر في ذاته من كبريائه في خلقه فاعلم ذلك، فنقول عند ذلك: الله أكبر مفاضلة إذ لم يخرج عنه كأنه يقول: ذكرك نفسك أعظم وأكبر من ذكري إياك وإن ذكرتك بك فلا بدّ للنسبة من أثر لأن غاية شرف ذكري إياك أن أذكرك بك فتكون أنت الذاكر نفسك بلساني ونسبة الذكر إليك أكبر من نسبته إليّ ولو كنت بك.

فصل في الذكر لا على طريق المفاضلة: وينقسم أيضاً الذاكرون به هنا على هذا الوجه إلى قسمين: طائفة تمنع المفاضلة في الذكر لأنه عين كل ذاكر من حيث ما هو ذاكر فلا ترى ذاكراً إلاّ الله، وهو من حيث هويته وعينه لا يقبل المفاضلة لأن الواحد لا يفضل نفسه فينتج له هذا الذكر على هذا الحد كشف هذا ذوقاً فيتبين له أنه الحق عينه، وطائفة أخرى وهم القسم الآخر لا يرون التفاضل إلاّ مع وجود المناسبة، ولا مناسبة بين الله وبين خلقه، فذكر الله نفسه ذكر، وذكر العبد ربه ذكر كل على حقيقة، لا يقال هذا الذكر أفضل ولا أكبر من هذا بل هو الذكر الكبير من غير مفاضلة لله تعالىٰ وهو في حق العبد المذكور كبير عند العبد لا أكبر، فإن العبد عبد لذاته والرب رب لذاته، فلا يحجبنك ما تراه من تداخل الأوصاف فإن ذلك وإن كان حقيقة فكل حقيقة على ما هي عليه ما لها أثر في الأخرى يخرجها عمّا تقتضيه ذاتها، فالحقائق لا تتبدل ولو تبدلت لارتفع العلم من الله ومن الخلق، فإذا ذكر من هذه صفته أنتج له ذلك كشفاً وذوقاً أن الأمر كما نواه وقال به.

فصل في الذكر به من حيث ما هو ذكر مشروع: اعلم أن الذاكر به على ما ذكرنا من كونه ذكراً مشروعاً ينقسم إلى قسمين: طائفة تذكره على أنه مشروع للخلق ويقولون بأن الله تعالىٰ لما أوجد العالم ما خلقهم إلاّ ليعبدوه ويسبحوه فما من شيء إلاّ وهو يسبح بحمده ولكن لا نفقه تسبيحه، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فخلق العالم لعبادته، فهؤلاء إذا ذكروا الله ذكروه من حيث إن الله شرع لهم كيف يذكرونه ولا

يعلمون ما تحت ذلك الذكر المشروع عند الله وإن علموه في اللسان فينتج لهم هذا الذكر لماذا شرعه الحق في العالم بهذا القول الخاص دون غيره أيّ ذكر كان، والقسم الآخر يعتقد أن العالم ما اكتسب من الحق إلاّ الوجود وليس الوجود غير الحق فما أكسبهم سوى هويته فهو الوجود بصور الممكنات وما يذكره إلاّ موجود وما ثم إلاّ هو، فما شرع الذكر إلاّ لنفسه لا لغيره فإن الغير ما هو ثم وهو عالم بما شرع فيفتح لصورة الممكن ما ذكرناه كشفاً هذا الذكر وهو قولهم: لا يذكر الله إلاّ الله، ولا يرى الله إلاّ الله، فالمفيد والمستفيد عين واحدة، فهو ذاكر من حيث إنه قابل، وهو مذكور من حيث إنه عين مقصودة بالذكر والعالم على أصله في العدم والحكم له فيما ظهر من وجود الحق، فما ثم إلاّ الحق مجملاً ومفصلاً لأن المحدث إذا قرنته بالقديم لم يبق له أثر، وإن بقي له عين فإن العين بلا أثر ما هي معتبرة، ولهذا قلنا فيمن دلّ على معرفة الواجب لنفسه لا يتمكن له أن يثبت له أثراً حتى يعلم أن هذه الآثار الكائنة في العالم تحتاج إلى مستند لإمكانها، فعند ذلك يقوم لهم البرهان على استنادها لواجب الوجود لنفسه وذلك كمال العلم فإن الكمال للمرتبة أي بالمرتبة، والتمام بما ترجع إليه في نفسها أعني التام، فينتج لهذا القسم هذا الذكر ما قرّرناه من أنه يستحيل أن يذكره إلاّ هو، أو يسمع ذكره إلاّ هو، أو يكون المذكور إلاّ هو، ومن ذكرت به فهو المذكور لا أنت ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] حتى ذكر بربه فكان مذكوراً بربه لا به، وسيرد في باب الأسماء الإلهية ما يشفي في هذا النوع إن شاء الله تعالىٰ من هذا الكتاب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والستون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان هجيره ومنزله سبحان الله

[نظم: البسيط]

إنّ الوُجُودَ على التَّسْبيح فِطْرَتُهُ فَهْوَ المُنَزَّهُ عن مِثْلٍ وتَشْبِيهِ
وثم في ثاني حال جاء يُعَلِّمُنا بأنه رُبَّ تشبيهٍ وتَنْزيهِ
له النَّقيضان فهو الكَوْنُ أجْمَعُهُ يدري بذلك ذو فِكْرٍ وتَنْبِيهِ

قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] وقد ورد الأمر بالتسبيح في القرآن في مواضع كثيرة، ولكل موضع حكم ليس للآخر، وتنقسم الطوائف في تسبيح الحق بحسب كل آية وردت في القرآن في التسبيح لولا التطويل أوردناها وتكلمنا على الذاكر بها.

اعلم أن هذا الذكر ينتج للذاكر به ما قاله أبو العباس بن العريف الصنهاجي في محاسن المجالس لما ذكر حال العابد والمريد والعارف قال: والحق وراء ذلك كله لا بدّ من ذلك، وإن كان مع ذلك كله أو عين ذلك كله فهو مع ذلك كله بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وهو عين ذلك كله بقوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ

لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] أو لم يكف بربك وهو من وراء جميع ما ذكره محيط بقوله: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ٢٠] وبقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤] فمن أراد أن يسبح الحق في هجيره فليسبحه بمعنى قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] أي بالثناء الذي أثنى به على نفسه فإنه ما أضافه إلاّ الله، هكذا هو تسبيح كل ما سوانا فإنا لا نفقه تسبيحهم إلاّ إذا أعلمنا الله به وهذا ضد ما تعطيه حقيقة التسبيح، بل هذا تسبيح عن التسبيح مثل قولهم: التوبة من التوبة، فإن التسبيح تنزيه ولا ينزه إلاّ عن كل نعت محدث يتصف به المخلوق، وما نزل إلينا من الله نعت في كتاب ولا سنّة إلاّ وهو شرب المخلوق وجعل ذلك تعالىٰ حمد نفسه وذكر عن كل شيء أنه يسبح بحمده أي بالثناء الذي أنزله من عنده والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً، فمن سبحه عن هذه المحامد فما سبحه بحمده بل أكذبه، وإنما سبحه بعقله ودليله في زعمه، والجمع بين الأمرين أن تسبحه بحمده وهو التنزيه عن التنزيه وذلك عين الاشتراك في النسبة كعدم العدم الذي هو وجود وإن أرادوا به المبالغة في التنزيه فذلك ليس بحمد الله بل حمد الله نفسه بما ذكرناه، فإذا سبحه بحمده وهو الإقرار بما ورد من عنده ممّا أثنى به على نفسه أو ممّا أنزله عليك في قلبك وجاء به إليك في وجودك ممّا لم ينقل إليك واجعل ذلك التسبيح كالصورة، واجعل قوله: والحق وراء ذلك كله كالروح التي لا تشاهد عينها لتلك الصورة، ويكفيك من العلم بها مشاهدتك أثرها فإنك تعلم أن وراء تلك الصورة أمراً آخر هو روحها، كذلك تعلم أن الحق وراء كل ثناء لك فيه شرب، ومن المحال أن يكون عندك ثناء على الله معين في الدنيا والآخرة لا يكون لك فيه شرب فإنه لا يصحّ لك أن تثني عليه بما لا تعقله، ومهما عقلت شيئاً أو علمته كان صفتك ولا بدّ، فلا يصحّ في الكون على ما تعطيه الحقائق التسبيح الذي يتوهمه علماء الرسوم، إنما يصحّ التسبيح عن التسبيح ما دام رب وعبد ولا يزال عبد ورب فلا يزال الأمر هكذا فسبّح بعد ذلك أو لا تسبّح، فأنت مسبح شئت أو أبيت وعلمت أم جهلت، ولولا ما هو الأمر على هذا في نفسه ما صحّ أن يظهر في العالم عين شرك ولا مشرك، وقد ظهر في الوجود المشرك والشرك فلا بدّ له من مستند إلهيّ عنه ظهر هذا الحكم، وليس إلاّ ما ذكرنا من أن العبد له شرب في كل ما يسبّح به ربه من المحامد وأعلى المحامد بلا خلاف عقلاً وشرعاً ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ثم تمّم الآية لنعرف المقصود ويصحّ أول الآية فقال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فلو لم يتمّم لكان أول الآية يؤذن بأنا لسنا بعبيد وليس هو لنا بإله فلا بدّ من رابط وليس إلاّ الاشتراك، إلاّ أنه عين الأصل في ذلك ونحن فيه كنسبة الفرع إلى الأصل والولد إلى الوالد وإن كان على صورته فليس هو عينه فارتبط به فلا ينسب إلاّ إليه لأن له عليه ولادة، وغيره من الناس من أبناء جنسه ما له عليه ولادة، فلا يقال إنه ابنه ونسبتنا من وجه مثل هذه النسبة لأن الوجود له وهو الذي استفاده منه المحدث، إلاّ أن النسبة التي ورد بها السمع نسبة العبد إلى السيد، والمخلوق إلى الخالق، والرب إلى المربوب، والمقدور إلى القادر، والمصنوع إلى الصانع، فإن نسبة البنوة أبعد النسب لتقلبه في الأطوار بما ليس للأب فيه

تعمّل، وإنما له إلقاء الماء في الرحم عن قصد بنوة وعن لا قصد فبعدت النسبة لذلك كانت النطفة مخلقة وغير مخلقة، ولو كان الأمر فيها للأب لكانت تامة أبداً، ألا ترى إلى النسبة القريبة في خلق عيسىٰ الطير بيده ثم نفخ فأتم خلقه فقربت نسبة الخلق إليه، وكذلك صنائع المخلوقين كلهم، فالبنوة من الأبوّة أبعد نسبة من جميع الأمور وهي أصحّ النسب، وما كفر من قال: إن المسيح ابن الله إلاّ لاقتصاره، وكذلك كفر من قال: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] لاقتصارهم لأنهم ذكروا نسبة تعمّ كل ما سوى الله إن كانت صحيحة، فإن لم تكن في نفس الأمر صحيحة فهم والعالم فيها على السواء. ولما كان الأمر النسبي في تولد العالم عن الله وأن وجوده فرع عن الوجود الآلي نبّه تعريضاً في تصريح لمن فهم الإشارة وقسم العبارة وذلك بقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [الزمر: ٤] فجوز ذلك وإنما نفى تعلق الإرادة باتخاذ الولد والإرادة لا تتعلق إلاّ بمعدوم والأمر وجود فلا تعلق للإرادة، فإن المقصود حكم البنوة لا عين الشخص المسمّى ابناً، ثم تمّم فقال: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤] فتدبّر هذه الآية إلى تمامها. وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] أي ما كنا فاعلين أن نتخذه من غيرنا لأنه ابن مريم المدعو بالابن، ومن جعل إن شرطاً لا نفياً يكون معنى ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أن نتخذ لهواً نتخذه من عندنا لا من عندكم فإنه ما عندكم ينفد وما عند الله باق، وما من شيء إلاّ عندنا خزائنه، فما عندنا هو عند الله ونحن من عند الله، وسيأتي هذا الهجير فإنه حال بعض الأقطاب فاعترف الحق بما أنكر ولذلك يكون الإنكار اعترافاً بأن دعوى المدعي باطلة فيلزمه اليمين ما لم تقم بينة.

وبعد أن حصل من البيان ما حصل فلا بدّ أن نبين ما بقي في المسألة بالإجمال وهو أن التسبيح إذا سبح به المسبح أعني بلفظه الخاص به الدال عليه فلا بدّ أن يقيده باسم ما من الأسماء الإلهية الظاهرة أو المضمرة والمضافة والمطلقة وهو أن يقول: سبحان الله أو سبحان الرب أو العالم فهذا معنى الاسم الظاهر. وأما الاسم المضمر فمثل قونه: سبحانه وسبحانك. وأما المضاف فقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ [الصافات: ١٨٠] وأما المطلق ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨] فأي اسم نسبحه من أسماء الله تعالىٰ وبأي حال نربطه فإن النتيجة التي تحصل لهذا الذاكر مناسبة لذلك الاسم ومرتبطة بتلك الحال، ولا يظهر له صورة في الذاكر إلاّ بهذه المناسبة الخاصة، فلا يتعين في هذا الذاكر لنا أمر نقتصر عليه إلاّ ما ذكرناه ممّا يعم حكمه فإن النتائج تختلف، فإن المحامد لا تقف عند حدّ والمسبح لا يسبحه إلاّ بحمده، وتتبعنا الكتاب والسنة في طلب الأسماء فوجدناها تدور على الله والرب المضاف والاسم الناقص والاسم المضمر كالهاء، والملك والعلي، فالله قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [الروم: ١٧] والرب قوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ [الصافات: ١٨٠] والاسم الناقص: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] والمضمر قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ [الأنعام: ١٠٠] والملك مثل الذي ورد في السنة: **«سُبْحَانَ المَلِكِ القُدُّوسِ»** والعلي كما ورد في السنة: **«سُبْحَانَ العَلِيّ**

الأَعْلَى» وقد ورد من غير تقييد في السنة مثل قوله: «**سُبُّوح**» وهذا ذكر المذكور ونتيجته أعظم النتائج لأنه كناية عن عين المسبح بالتسبيح، فاسمه هنا عينه، وهذا أكمل تسبيح العارفين لأنه غاب عن الاسم فيه بالمسمى [المنسرح]:

فاسْلُكْ مع القَوْم أيَّةَ سَلَكُوا ... إلاَّ إذا ما تَرَاهُمُ هَلَكُوا
وهُلْكُهُمْ أنْ تُرَى شَرِيعَتُهُم ... بِمَعْزِلٍ عنهم إذا سَلَكُوا
فاتْرُكْهُمُ لا تَقُلْ بقَوْلِهِمُ ... تَأَسِّياً بالإلٰه إذ تَرَكُوا

فإن جماعة من العقلاء جعلوا الشريعة بمعزل فيما زعموا، والشريعة أبداً لا تكون بمعزل فإنها تعمّ قول كل قائل، واعتقاد كل معتقد، ومدلول كل دليل، لأنها عن الله المتكلم فيه قد نزلت، وإنما قلنا في هذه الطائفة المعينة إنها جعلت الشريعة بمعزل مع كونها قالت ببعض ما جاءت به الشريعة، فما أخذت من الشريعة إلاّ ما وافق نظرها، وما عدا ذلك رمت به أو جعلته حطاباً للعامة التي لا تفقه هذا، إذا عرفت واعتقدت أن ذلك من عند الله لا من نفس الرسول وهو قوله تعالىٰ الذي قال عنهم على طريق الذمّ لهم: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١] وقال تعالىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] فهذا معنى قولي إنهم جعلوا الشرع بمعزل، وإن كان قد جاء الشرع بما هم عليه فما أخذوا منه ما أخذوا من كون الشرع جاء به وإنما قالوا به للموافقة احتجاجاً وطائفتنا لا ترمي من الشريعة شيئاً بل تترك نظرها وحكم عقلها بعد ثبوت الشرع لحكم ما يأتي به الشرع إليها ويقضي به فهم سادات العالم [مجزوء الخفيف]:

إنَّما القَوْمُ سَادةٌ ... ومع المَجْدِ يملكُونْ
أيَّةً يسلُكون كُنْ ... معهم حيث يَسْلُكُونْ
إنّما القولُ منه كُنْ ... للذي شاء أن يَكُونْ
كُلُّ شيءٍ يريده الـ ... ـحقّ مع فعلهم يَهُونْ
والذي لا يُريدُه ... وهو سَهْلٌ فلا يَهُونْ

واعلم أن الله تعالىٰ لما جعل بين الأشياء مناسبات ليربط العالم بعضه ببعض ولولا ذلك لم يلتئم ولم يظهر له وجود أصلاً، وأصل ذلك المناسبة التي بيننا وبينه تعالىٰ لولاها ما وجدنا ولا قبلنا التخلّق بالأسماء الإلهية فما من حضرة له تعالىٰ إلاّ ولنا فيها قدم، ولنا إليها طريق أمم، وسأورد ذلك إن شاء الله في باب الأسماء الإلهية من هذا الكتاب، وأعظم الحضرات الإلهية في هذا الباب أنه لا يشبهه شيء وما ثم إلاّ نحن ومن لم يشبهك فلم تشبهه، فكما انتفت المثلية عنه انتفت المثلية عن العالم وهو كل ما سواه بالمجموع، فإن العالم إنسان واحد كبير لا يماثل أي لا مثل له، ولهذا هو كل مبدع على غير مثال فلا يخلو أهل الله إما أن يجعلوا الحق عين العالم فلا يماثله شيء لأنه ليس ثمّ إلاّ الله والعالم صور تجليه ليس غيره فهو له، وإن كان العالم وجوداً آخر فما ثمّ إلاّ الله، ومسمّى العالم فلا مثل لله إلاّ أن يكون إله

ولا إله إلاّ الله فلا مثل لله ولا مثل للعالم إلاّ أن يكون عالم ولا عالم إلاّ هذا العالم وهو الممكنات فلا مثل للعالم، فصحّت المناسبة من وجهين: من نفي المثلية ومن قبوله للأسماء والحضرات الإلهية، وكل ما في العالم من المماثلة بعضه ببعض فإنه لا يقدح في نفي المماثلة، فإن تفاصيل العالم وأجزاءه المتماثلة والمختلفة والمتضادة كالأسماء لله المختلفة والمتماثلة والمتضادّة كالعليم والعالم والعلام هذه متماثلة. وهو أيضاً الضار النافع فهذه المتضادّة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤] فهذه المختلفة ومع هذا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فهذه الآية له ولنا من أجل الكاف والاشتراك يؤذن بالتناسب، وإذا كان لا بدّ من التناسب فنظرنا أي شيء من المناسبات بين الحج والتسبيح حتى شبهه به تعالىٰ فقلنا: إن التسبيح هو الذكر العامّ في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال ﷺ: «**إِنَّمَا شُرِّعَتِ المَنَاسِكُ لإِقَامَةِ ذِكْرِ الله**» لاختلاف العالم لأن ذكر الله كله تسبيح بحمده أي بما أثنى على نفسه، كما جعل التهليل مماثلاً لعتق الرقاب النفيسة، والعتق إنما هو أمر يخرج العبد من العبودية، ولا يخرج من العبودية إلاّ أن يكون الحق سمعه وبصره وجميع قواه فيكون حقاً كله فناسب قوله: لا إله إلاّ الله، وقد يكون عتق الرقاب من الألوهية بالعبودة، فإن الشخص يتقيد بالربوبية فيطلب منه ما ليس بيده منه شيء وإنما ذلك بيد الله فيحار فيعتقه الله من هذه النسبة إليه بما أظهر فيه عند المعتقد فيه ذلك من الجبر والافتقار وسلب هذه الأوصاف فعاد حرّاً في عبوديته فلم يكن له قدم في الربوبية فاستراح، فهذا عتق أيضاً شريف حيث تخلص لنفسه من تعلّق الغير به، كما خلص بالتهليل الألوهة لله من رق الدعوى بالآلهة المتخذة وهو قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ كما هو الأمر في نفسه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [صٓ: ٥] فجعل ﷺ بوحيه المنزل وكشفه الممثل التهليل مناسباً لعتق الرقاب، كما جعل التحميد مناسباً للحمل في سبيل الله وهو باب النعم، والحمد لله شكراً لما يكون منه كما يكون من الأسباب للمسببات شكر بما نراه من آثارها فيها كما قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] وسيرد في هجير الحمد لله ما يشفي الغليل إن شاء الله تعالىٰ. وكذلك من كبر ناسب بين التكبير وبين عظم ما لصاحبه من غير تعيين، وما قرنه بشيء معين مثل ما فعل في التسبيح والتحميد والتهليل فقيد هناك واطلق هنا ليشمل الذكر التقييد والإطلاق، وقد ورد في هذا خبر حسن عن رسول الله ﷺ: «أَنَّهُ مَنْ سَبَّحَ الله مائَةً بِالغَدَاةِ وَمِائَةً بِالعَشِيّ وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠] وقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] وقرن ذلك بالمائة لأنه ليس لنا دار نسكنها إلاّ الجنة أو النار والجنة مائة درجة فمن أكملها مائة فقد حاز من كل درجة حظاً وافراً بحسب ذكره بما يناسب ذلك الذكر من تلك الدرجات» وكذلك دركات النار مائة درك تقابل درج الجنان له من جانب النار بهذا الذكر التنزيه من كل درك وله من الجنان الإنعام من كل درج فاعلم ذلك.

ثم نرجع إلى سرد الحديث وهو ما حدثنا به زاهر بن رستم الأصفهانيّ عن الكروحي

عن الثلاثة: محمود الأزدي والترياقي والغورجي كلهم عن الجراجي عن المحبوبي عن أبي عيسىٰ الترمذيّ قال: حدثنا محمد بن رزين الواسطي قال: حدثنا أبو سفيان الحموي عن الضحاك بن حمزة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَبَّحَ الله مائَةً بِالغَدَاةِ وَمِائَةً بالعَشِيِّ كَانَ كَمَنْ حَجَّ مائَةَ حَجَّةٍ**» يعني مقبولة «**وَمَنْ حَمِدَ الله مِائَةً بِالغَدَاةِ وَمِائَةً بِالعَشِيِّ كَانَ كَمَنْ حَمَلَ عَلَى مائَةِ فَرَسٍ فِي سَبِيلِ الله** »أوْ قَالَ «**غزَا مِائَةَ غَزْوَةٍ، وَمَنْ هَلَّلَ الله مِائَةً بِالغَدَاةِ وَمِائَةً بِالعَشِيِّ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ مِائَةَ رَقَبَةٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَمَنْ كَبَّرَ الله مائَةً بِالغَدَاةِ ومائَةً بِالعَشِيِّ لَمْ يَأْتِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ أَحَدٌ بِأَكْثَرَ مِمَّا أَتَى إلاَّ مَنْ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَى ما قَالَ**» قال أبو عيسىٰ: هذا حديث حسن غريب.

ولما كان التسبيح بحمده قربة به فقال في الصحيح عن رسول الله ﷺ في سبحان الله والحمد لله «**إِنَّهُمَا يَمْلآنِ أَوْ يَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**» وأراد قوله: سبحان الله وبحمده، فإن الحمد لله تملأ الميزان فإنها آخر ما يجعل في الميزان فبها يمتلىء كما قال، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين. فالحمد لله له التأخير في الأمور لأن له الساقة، ولا إله إلاَّ الله له التقدمة، وسبحان الله له الميسرة، والله أكبر له الميمنة والقلب له لا حول ولا قوّة إلاَّ بالله، فأثبت العبد والرب، فاستصحاب الاسم الله لكل تسبيح وتحميد وتكبير وتهليل هو معطي القوّة لذلك التسبيح أو التهليل أو التحميد والتكبير لأنه لفظ يمكن أن يطلق إذا أطلق، ويقيد بغير الله في الإضافة بأن يسبح شخصاً ليس الله ويكبره ويحمده ويهلل ما ليس بإله كقوم فرعون فلا قوّة لهذا الذكر على أمثاله إلاَّ بالله، فإنه ما يتجلى لك بشيء ليس هو الله فيقول لك: أنا الله، فتقول له: أنت بالله إلاَّ انعدم من ساعته إذا لم يكن الله، وما رأيت من شهد هذا المشهد من رجال الله إلاَّ رجل واحد من أهل قرطبة كان مؤذناً بالحرم المكيّ يقال له موسىٰ بن محمد القباب كان من ساداتهم وهو تلميذ أبي الحسن بن خرازم بفاس فلا قوّة على الثبوت إلاَّ بالله حتى لو قالها بكلام الحق على لسان ذلك المتجلي، ويقول له صاحب الكشف: أنت بالله ما انعدم وثبت، فهذا بعض ما ينتجه هذا الذكر والحمد لله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والستون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله الحمد لله

[نظم: البسيط]

الحَمْدُ لله في قَيْدٍ وإطْلاقِ ... مثل الفُروع التي قامتْ على سَاقِ
يَمُدُّها بالذي تُبْدِيهِ من ثَمَرٍ ... لشَاهِدِ الحِسّ في أنفاسِ أعْراقِ
ونحن فَرْعٌ لمن أبْدَى حقائِقَنا ... ذاتٌ بذاتٍ وأخلاقٌ بأخلاقِ

قال الله تعالىٰ آمراً: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [لقمان: ٢٥] اعلم أن الحمد والمحامد هي عواقب الثناء، ولهذا يكون آخراً في الأمور كما ورد: «**أَنَّ آخِرَ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**» وقوله ﷺ في الحمد لله: «**إِنَّهَا تَمْلأُ المِيزَانَ**» أي هي آخر ما يجعل في الميزان، وذلك لأن

التحميد يأتي عقيب الأمور، ففي السرّاء يقال: الحمد لله المنعم المفضل، وفي الضرّاء يقال: الحمد لله على كل حال، والحمد هو الثناء على الله وهو على قسمين: ثناء عليه بما هو له كالثناء بالتسبيح والتكبير والتهليل، وثناء عليه بما يكون منه وهو الشكر على ما أسبغ من الآلاء والنعم وله العواقب، فإن مرجع الحمد ليس إلاّ إلى الله فإنه المثني على العبد والمثنى عليه وهو قوله ﷺ: «**أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**» وهو الذي أثنى به العبد عليه فردّ الثناء له من كونه مثنياً اسم فاعل، ومن كونه مثنياً عليه اسم مفعول، فعاقبة الحمد في الأمرين له تعالىٰ. وتقسيم آخر وهو أن الحمد يرد من الله مطلقاً ومقيداً في اللفظ وإن كان مقيداً بالحال فإنه لا يصحّ في الوجود إطلاق فيه لأنه لا بدّ من باعث على الحمد وذلك الباعث هو الذي قيده وإن لم يتقيد لفظاً كأمره في قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فلم يقيد. وأما المقيد فلا بدّ أن يكون مقيداً بصفة فعل كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] وكقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر: ١] وقد يكون مقيداً بصفة تنزيه كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١].

واعلم أن الحمد لما كان يعطي المزيد للحامد علمنا أن الحمد بكل وجه شكر، وكذلك ما أعطى المزيد من الأذكار فهو شكر فهو حمد كله لأنه ثناء على الله. فأما زيادته التي تحصل لمن أثنى عليه بما هو عليه فهي أن يعطيه الحق من العلم الذاتيّ به سبحانه ما يثني به عليه وهو قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] أما إذا أثنى عليه بما يكون منه فإنه يزيده من ذلك ليثابر عليه بالثناء على الله به، فعلى كل حال يعطي الزيادة وإن كان بين التحميدين فرقان، ولكن من حيث ما هو تحميد من الخلق فهو عطاء أعطاه الله إياه، وكل عطاء يقبل المعطى الزيادة منه فإنا لا نحمده إلاّ بما أعلمنا أن نحمد به فحمده مبناه على التوقيف، وقد خالفنا في ذلك جماعة من علماء الرسوم لا من العلماء الإلهيين، فإن التلفّظ بالحمد على جهة القربة لا يصحّ إلاّ من جهة الشرع، ولو استصبح هذا المخالف بنور الإنصاف لعلم أن الصدق حسن وهو يقول به أنه حسن لذاته، ومع هذا فإنه يقبح في مواطن ويأثم القائل به، فلهذا لا يتمكن أن يقال على جهة القربة وإن عقل أنه خير إلاّ حتى يقول الحق: اذكروني، فإما أن يطلق بكل ذكر ينسب إليه الحسن في العرف وهو من مكارم الأخلاق، وإما أن يقيده فيعين ذكراً خاصاً، فالثناء على الله بما هو فاعل ثناء عرفيّ يثني به المخلوق على الخالق ما لم ينه عنه إذا كان ذلك الثناء ممّا يعظم في العالم فقد يكون من حيث ما هو فاعل وليس بعظيم في العالم، فإذا ذكر بما هذا مثله نكر، ومثاله أن نقول: الحمد لله ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[الأنعام: ١٠٢] فيدخل فيه كل مخلوق معظم ومحقر، ومثال المعظم في العرف أن تقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام: ١] ومثل ذلك، ولا ينبغي أن يعين في الثناء خلق المحقر عرفاً والمستقذر طبعاً وإن دخل في عموم كل شيء، ولكن إذا عين لا يقتضيه الأدب بل ينسب معينه إلى سوء الأدب أو فساد العقيدة مع صحة ذلك ولا أمثل به فإني أستحي أن يقرأ مع الزمان في كتابي فلذلك لم نمثل به كما مثلت بالعام وبالعظيم والكل منه

ونعمته، ولولا حقارة ذلك بالعرف لم نقل به فإني ما أرى شيئاً ليس عندي بعظيم لأني أنظر بعين اعتناء الله به حيث أبرزه في الوجود فأعطاه الخير فليس عندنا أمر محتقر وهذا شهود القوم، فالكل نعمته ظاهرة وباطنة، فظاهرة ما شوهد منها وباطنة ما علم ولم يشهد، وظاهرة التعظيم عرفاً وباطنة التعظيم عند أهل الله وأهل النظر المستقيم ممّا ليس بعظيم في الظاهر لأن هذا الأمر شبيه بالآيات المعتادة والآيات غير المعتادة، فالآيات المعتادة ما هي آيات إلاّ لقوم يعقلون، ولا فرق بينها وبين الآيات غير المعتادة مثل حركات الأفلاك واختلاف الليل والنهار وما يظهر في فصول السنة من الأرزاق والأمور المعادة والمسخرات فلا يتنبه بها إلاّ كل ذي عقل سليم أنها آيات. وأما غير المعتادة فهي آيات للجميع فتنبعث النفوس للثناء على الله بها دون المعتادة فصاحب هجير الحمد المطلق الذي لا يقيده الذاكر بشيء من الصفات وإن اختلفت عليه الأحوال فما هي بواعث لذلك الذكر وإنما هو الباعث الأوّل الذي به أطلق الذكر فهو تقييد في إطلاق، فينتج له جميع ما يعطيه كل تحميد مقيد بنعت ما من النعوت أو اسم أو صفة ما لم يقف صاحب هذا الذكر مع حال من الأحوال لما يحصل له فيه من الحلاوة فيقيده ذلك الاستحلاء وإن أطلقه في اللفظ فلا ينتج له بعد ذلك إلاّ ما يناسب الحال الذي أعطاه الاستحلاء فإنه ذو صفة فهو بحيث هي وزال عنه بها الحكم الأوّل، قيل لأبي يزيد: كيف أصبحت؟ فقال: لا صباح لي ولا مساء إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة وأنا لا صفة لي، فلا يقف صاحب هذا الذكر مع أمر يرد عليه من الحق يقيده فهو مع كل وارد بحسب الوارد من غير تعلّق بمعية، فمعيته مع الوارد معية الحق مع عباده حيث ما كانوا لعلمه أنهم لا يكونون إلاّ بحسب أسمائه الحاكمة عليهم والمتصرفة فيهم فهو مع أسمائه لا معهم، ولكن ما وقع الإخبار إلاّ أن الله معهم أينما كانوا، كذلك الواردات لا تتعين للعبد إلاّ بحسب استعداده الذي أعطاه ذكره وذكره من فعله في معيته مع الواردات مع نفسه كما ذكرنا في معية الحق على السواء، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والستون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله الحمد لله على كل حال

[نظم: السريع]

الحَمْدُ لله على كُلِّ حَالِ ... فهو الذي يَعُمُّ حَالَ الوُجُودْ
وما على حَمْدِ الذي قاله ... إذا تَلَفَّظْتَ به من مَزِيدْ
وجاء ذا عنه به قائلاً ... قد جاء ما قد كُنْتَ منه تَحِيدْ
فإنه ناداك من حَضْرَةٍ ... من قَبْلِ هذا في مقام الشُّهُودْ
بأنه ليس بغَيْرٍ له ... فلا يَغُرَّنك حَبْلُ الوَرِيدْ
فأنت رَبٌّ وأنا عَبْدُهُ ... ويَثْبُتُ الربُّ بكَوْنِ العَبِيدْ
فلا تَقُلْ في كونه إنّه ... يقول يوم العَرْض هل مِنْ مَزِيدْ

اعلم أيّدك الله وإيانا بروح منه أن رسول الله ﷺ كان يقول في السرّاء: «**الحَمْدُ للهِ المُنْعِمِ المُفْضِلِ**» وكان يقول في الضرّاء: «**الحَمْدُ لِلهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**» ثبت هذا في الصحاح فعلمنا أنه ذكر أدب إلهيّ لأنه ما قيده باسم كما قيد حمد السرّاء بالمنعم المفضل، ومن أسمائه الضار كما من أسمائه النافع، ولم يتعرض في هذا الحمد إلى ذكر الاسم الضار ولم يكن ذلك عن هوى بل عن وحي إلهيّ يوحى، فإنه الصادق القائل: «**إنَّ الله أَدَّبَنِي فَأَحْسَنَ أَدَبِي**» فعلمنا أن هذا الذكر من جملة الآداب على هذه الصفة، وقد أوحى الله أن نتبع ملة إبراهيم، ومن آداب إبراهيم عليه السلام مع ربه قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠] فنسب الشفاء إلى ربه ولم ينسب إليه المرض لأنه شرّ في العرف بين الناس وإن كان في طيّه خير في حق المؤمن فأخبر الله نبيه بحديث إبراهيم، وقوله هذا تعليماً له ﷺ ليتأدّب بأدبه فقال رسول الله ﷺ: «**وَالشَّرُّ لَيْسَ إلَيْكَ**» ومن كونه خلقاً يحسّ بالألم الحسّي والنفسي كما يحسّ باللذات المحسوسة والمعنوية ويعلم الفرقان بينهما، وأن السرور يصحب الالتذاذ، وأن الحزن يصحب الألم طبعاً، فلذلك عدل في الضراء إلى حمد الله على كل حال، والأحوال في العالم ما هي بأمر زائد على الشأن الذي ألحق فيه بل هو عين الشأن كل حال يطرأ في الوجود ممّا يوافق الغرض ويلائم الطبع وممّا لا يوافق الغرض ولا يلائم الطبع وإن كان الأمر في ذلك من القابل، لأنا رأينا ما يتضرر به زيد يلتذ به عمرو، فعلمنا أن العلة في القابل وأن الأمر الآتي منه تعالىٰ واحد العين لا انقسام فيه فينقسم فينا أمره ويتعدد، ولما عمّ هذا الذكر جميع الأحوال، فإن تحقق الذاكر الله به ما وضع له فهي دعوى فإن الله لا بدّ أن يبتلي الشخص الذي يذكر الله بهذا الذكر على هذا الحد، فإن الدعوى تفتح باب الابتلاء في القديم والحديث إن فهمت وإن كان الذاكر به ما خطر له أصل وضعه بخاطر بل ذكر الله به لكونه مشروعاً من غير وقوف مع السبب في وجوده وتشريعه فقد يبتليه الله وقد لا يبتليه، وإن قيده هذا الذاكر أعني ذلك الذكر بأنه ثناء على الله لجهة الخير لا يقصد به أصل وضعه ولا يقوله بدعوى أنه الحامد ربه على كل حال وإنما يقول ذلك مخبراً أن الله محمود على كل حال، فإنه ما من حال كما قررناه إلاّ وله وجه في الخلق إلى الالتذاذ به والتألم به، فما من حال إلاّ ويحمد الله عليه حمد سرّاء وحمد ضرّاء، ألا تراه في السرّاء كيف يقول: الحمد لله المنعم المفضل، فمن إنعامه وفضله أن جعل صاحب الضرّاء يحمد الله ولهذا يعافيه ويحول بينه وبين تلك الضرّاء لأن حمده شكر على هذا الإفضال وهو أن ألهمه واستعمله في حمد الله ولم يستعمله في الضجر والسخط، فعافى باطنه بما ألهمه إليه من التحميد فزاده الله عافية بإزالة الضرّاء عنه، وهذا معنى دقيق مندرج في الحمد لله على كل حال وأنه مساو لحمد السرّاء وهو الحمد لله المنعم المفضل وبزيادة، وهذا من جوامع الكلم التي أوتيها رسول الله ﷺ، وتختلف أحوال الذاكرين الله بهذا التحميد فكل حامد به ينتج له بحسب قصده وعلمه وباعثه وقد فصلناه تفصيلاً كما أنزله الحق عزّ وجلّ في قلوب الذاكرين الله به تنزيلاً فهو حمد سرّاء وحمد ضرّاء، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والستون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله وأفوّض أمري إلى الله

[نظم: الكامل]

إنّ الـوُجُـودَ مُـنَـطِّـقٌ ومُـنـطَّـقُ ... ومُـصَـدِّقٌ ومُـصَـدَّقٌ فـتَـفَـكَّـرُوا

فـالـشـيء يُـكْـذِبُ نَـفْـسَـه فـمُـكَـذِّبٌ ... ومُـكَـذَّبٌ والـعـيـن لا تـتَـكَـثَّـرُ

فـلأيّ شـيء يـرجـعُ الأمْـرُ الـذي ... قـد قُـلْـتُـهُ فـي أمـرنـا فـتَـبَـصَّـرُوا

حـتـى تَـرَوْهُ بـالـعـيـان فـفَـوِّضُـوا ... أمْـرَ الـوجـود إلـيـه لا تَـتَـحَـيَّـرُوا

قال الله عزّ وجلّ لنبيه ﷺ أن يقول لقومه حين ردّوا دعوته: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤] وهو من فاض ولا يفيض حتى يمتلىء، فالفيض زيادة على ما يحمله المحل وذلك أن المحل لا يحمل إلاّ ما في وسعه أن يحمله وهو القدر والوجه الذي يحمله المخلوق وما فاض من ذلك وهو الوجه الذي ليس في وسع المخلوق أن يحمله يحمله الله، فما من أمر إلاّ وفيه للخلق نصيب ولله نصيب، فنصيب الله أظهره التفويض فينزل الأمر جملة واحدة وعيناً واحدة إلى الخلق فيقبل كل خلق منه بقدر وسعه، وما زاد على ذلك وفاض انقسم الخلق فيه على قسمين: فمنهم من جعل الفائض من ذلك إلى الله تعالىٰ فقال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وينسب ذلك الأمر إلى نفسه لأنه لما جاءه ما تخيل أنه يفضل عنه وتخيل أنه يقبله كله فلما لم يسعه بذاته ردّه إلى ربه. ومنهم من لم يعرف ذلك فرجع الفائض إلى الله من غير علم من هذا الذي حصل منه ما حصل فهو إلى الله على كل وجه وما بقي الفضل إلاّ فيمن يعلم ذلك فيفوّض أمره إلى الله فيكون له بذلك عند الله يد. ومنهم من لا يعلم ذلك فليس له عند الله بذلك منزلة ولا حق بتوجه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

واعلم أن العبد القابل أمر الله لا يقبله إلاّ باسم خاص إلهيّ وأن ذلك الاسم لا يتعدّى حقيقته، فهذا العبد ما قبل الأمر إلاّ بالله من حيث ذلك الاسم، فما عجز العبد ولا ضاق عن حمله فإنه محل لظهور أثر كل اسم إلهيّ، فعن الاسم الإلهيّ فاض لا عن العبد فلما فوّضه بقوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ما عين اسماً بعينه وإنما فوّضه إلى الاسم الجامع فيتلقاه منه ما يناسب ذلك الأمر من الأسماء في خلق آخر فإنه ما لا يحمله زيد وضاق عنه لكون الاسم الإلهيّ الذي قبله به ما أعطت حقيقته إلاّ ما قبل منه، وقد يحمله عمرو لأنه أوسع من زيد بل لا إنه أوسع من زيد، ولكن عمرو في حكم اسم أيضاً إلهيّ قد يكون أوسع إحاطة من الاسم الإلهيّ الذي كان عند زيد، فإن الأسماء الإلهيّة تتفاضل في العموم والإحاطات فيحيط العالم ويحيط العليم فيكون إحاطة العليم أكثر من إحاطة العالم وإحاطة الخبير أكثر من إحاطة غيره، وكذلك الاسم المريد مع العالم والاسم القادر مع المريد ومع العالم تقل إحاطته عنهما، والعبد لا بدّ أن يكون تحت حكم اسم إلهيّ فهو بحسب ذلك الاسم وما تعطيه حقيقته من

القبول فيرد ما فضل عنه إليه تعالى وذلك التفويض لمن عقل عن الله قوله، فإن اللسان الذي خاطبنا به الحق اقتضى ذلك، فنحن معه بقوله لأنه ليس في وسع المخلوق أن يحكم على الخالق إلاّ من يكون شهوده ما هي الممكنات عليه في حال عدمها فيرى أنها أعطت العلم للعالم بنفسها فقد يشمّ من ذلك رائحة من الحكم لكن افتقارها من حيث إمكانها يغلب عليها، ولهذا ترى النافين للإمكان بالدلالة العقلية يغفلون في أكثر الحالات عمّا أعطاهم الدليل من نفي الإمكان في نفس الأمر فيقولون بالإمكان حتى يراجعوا وينبهوا فيتذكروا ذلك، فلا بدّ من أمر يكون له سلطنة في هذا العبد حتى يتصف بالغفلة والذهول عمّا اقتضاه دليله وليس إلاّ الأمر الطبيعي والمزاج، ألا تراه إذا انتقل بالموت الأكبر أو بالموت الأصغر إلى البرزخ كيف يرى في الموت الأصغر أموراً كان يحيلها عقلاً في حال اليقظة وهي له في البرزخ محسوسة كما هي له في حال اليقظة ما يتعلق به حسّه فلا ينكره، فبما كان يدل عليه عقله من إحالة وجود أمر ما يراه موجوداً في البرزخ، ولا شك أنه أمر وجودي تعلق الحسّ به في البرزخ فاختلف الموطن على الحسّ فاختلف الحكم، فلو كان ذلك محالاً لنفسه في قبول الوجود لما اتصف بالوجود في البرزخ، ولما كان مدركاً بالحسّ في البرزخ، بل قد يتحقق بذلك أهل الله حتى يدركوا ذلك في حال يقظتهم ولكن في البرزخ فهم في حال يقظتهم كحال النائم والميت في حال نومه وموته، فإن تفطنت فقد رميت بك على طريق العلم بقصور النظر العقلي، وإنه ما أحاط بمراتب الموجودات ولا علم الوجود كيف هو، إذ لو كان كما حكم به العقل ما ظهر له وجود في مرتبة من المراتب وقد ظهر فليس لعاقل ثقة بما دلّه عليه عقله في كل شيء، فإذا كان صحيح الدلالة سرى ذلك في كل صورة، فيعلم في كل صورة يراها في البرزخ وتحصل في نفسه أنه الله فهو الله فما يختلف كونه وإن اختلفت صور تجليه، وكذلك عند العارفين به هنا ما يختل عليهم شيء من ذلك ولا في البرزخ ولا في القيامة الكبرى فيشهدون ربهم في كل صورة من أدنى وأعلى، وكما هم اليوم كذلك يكونون غداً. وأما أبو يزيد فخرج عن مقام التفويض فعلمنا أنه كان تحت حكم الاسم الواسع فما فاض عنه شيء وذلك أنه تحقق بقوله: «وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي» فلما وسع قلبه الحق والأمور منه تخرج التي يقع فيها التفويض ممّن وقع فهو كالبحر وسائر القلوب كالجداول، وقال في هذا المقام: لو أن العرش يريد به ما سوى الله وما حواه مائة ألف ألف مرّة يريد الكثرة بل يريد ما لا يتناهى في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحسّ به يعني لاتساعه حيث وسع الحق، ومن هنا قلنا إن قلب العارف أوسع من رحمة الله لأن رحمة الله لا تنال الله ولا تسعه وقلب العبد قد وسعه، إلاّ أن في الأمر نكتة أومىء إليها ولا أنص عليها وذلك أن الله قد وصف نفسه بالغضب والبطش الشديد بالمغضوب عليه والبطش رحمة لما فيه من التنفيس وإزالة الغضب، وهذا القدر من الإيماء كاف فيما نريد بيانه من ذلك، فإن الرسل تقول: ولن يغضب بعده مثله، فالانتقام رحمة وشفاء، ولولا كونه رحمة ما وقع في الوجود وقد وقع، ولكن ينبغي لك أن تعلم بمن هو وقوع الانتقام رحمة، فبان لك من هنا رتبة أبي يزيد من غيره من العارفين لأنه

وأمثاله لا يتكلمون إلاً عن أحوالهم وذوقهم فيها ومن أسمائه تعالىٰ الواسع كما ورد، فباتساعه قبل الغضب، فلو ضاق عنه ما ظهر للغضب حكم في الوجود لأنه لم يكن له حقيقة إلهية يستند إليها في وجوده وقد وجد فلا بدّ أن ينسب الغضب إلى الله كما يليق بجلاله وقد وسع القلب الحق ومن صفاته الغضب فقد وسع الغضب، فلا ينكر على العارف مع كونه ما يرى إلاً الله أن يغضب ويرضى ويتصف بأنه يؤذي وإن لم يتأذ فما أذى من لا يتأذى، غير أنه لا يقال ذلك في الجناب الإلهيّ إلاً أنه تسمّى بالصبور وأعلمنا بالصبر ما هو وعلى ماذا يكون، ولا نقول هو في حق الحق حلم فإنّ الحليم كما ورد كذلك ورد الصبور، ولكل وارد معنى ما هو عين الآخر، فتغيير الأحوال على العارفين تغير الصور على الحق، ولولا ذلك ما تغيرت الأحكام في العالم لأنها من الله تظهر في العالم وهو موجدها وخالقها فلا بدّ من قيام الصفة به، وحينئذٍ يصحّ وجودها منه كان الموجد اسم فاعل ما كان، وكان الموجد اسم مفعول ما كان، فإن لم تعلم التفويض كما ذكرته لك وإلاً وقعت في إشكال لا تنحل منه أعني في العلم بالتفويض ما هو فهذا نسبته إلى المخلوق، وأما التفويض الإلهيّ وهو أن يكون هو المفوّض أمره إلى عباده فيه فإنه كلفهم وأمرهم ونهاهم فهذا تفويض أمره إلى عباده فإنه فاض عمّا يجب للحق لأن التكليف لا يصحّ في حق الحق، فلما فاض عنه لم يكن إفاضته إلاً على الخلق وأراد منهم أن يقوموا به حين ردّه إليهم كما يقوم الحق به إذا فوّض العبد أمره إلى الله، فمنهم من تخلّق بأخلاق الله فقبل أمره ونهيه وهو المعصوم والمحفوظ، ومنهم من ردّه، ومنهم من قبله في وقت وفي حال، وردّه في وقت وفي حال، وكذلك فوّض إليهم أمره في القول فيه فاختلفت مقالاتهم في الله، ثم أبان لهم على ألسنة رسله ما هو عليه في نفسه لتقوم له الحجة على من خالف قوله فقال في الله ما يقابل ما قاله عن نفسه، فلما اختلفت المقالات تجلّى لأهل كل مقالة بحسب أو بصورة مقالته، وسبب ذلك تفويضه أمره إليهم وإعطاؤه إياهم عقولاً وأفكاراً يتفكرون بها، وأعطى لكل موف حقّه في الاجتهاد بنظره نصيباً من الأجر أخطأ في اجتهاده أو أصاب، فإنه ما أخطأ إلاً المقالة الواردة في الله بلسان الشرع خاصة فحاد عنها بتأويل فيها أدّاه إليه نظره. وورد شرع أيضاً يؤيده في ذلك فما ترك المقالة من حيث عينها وإنما استند فيما ذهب إليه لأمر مشروع ودليل عقل وكونه أصاب أو أخطأ ذلك أمر آخر زائد على كونه اجتهد فإنه ما يطلب باجتهاده إلاً الدليل الذي يغلب على ظنه أنه يوصله إلى الحق والإصابة لا غير [المتقارب]:

فتكليفُهُ عَيْنُ تَفْويضِهِ ... فنحن وإيّاه فيه سَوَا
فتَسْبيحُنا عَيْنُ تَسْبيحِهِ ... وتَسْبيحُهُ بلسان السُّوَى
وكلّ امرىء إنما حَظُّهُ ... من الذِّكْرِ لله ما قد نَوَى

فتفويضه في قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] وتفويضنا إذ أمرنا أن نتخذه وكيلاً فيما استخلفنا فيه ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [القصص: ١٣] ولما كان العالم تحت حكم الأسماء الإلهية وهي أسماؤه فما تلقى تفويضه إلاً هو لا نحن فإنه بأسمائه

تلقيناه، فهو الباطن من حيث تفويضه، وهو الظاهر من حيث قبوله، فكان الأمر بيننا كما تنزل الأمر بين السماء وهو العلي وبين الأرض وهي الذلول [السريع]:

فهكذا الأمْرُ فلا تُخْفِهِ فإنّه أوْضَحَهُ كَوْنُهُ
وشَاهِدُ الحَقّ به ناطقٌ فإنه في كَوْنِهِ عَيْنُهُ

وهو ما ذكرناه من أنه ما تلقى تفويض الحق إلاّ اسمه فهو المكلف والمكلف لأنه قال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فهو عين الموجودات إذ هو الوجود ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] والكلام في هذا الباب يطول ويتداخل وينعطف بعضه على بعض فيظهر ويخفى، فإنه ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨] سبحانه وتعالىٰ عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً.

الباب السبعون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

[نظم: الوافر]

كما أعْطاك خَلْقَكَ مَنْ حَباكَا فأعْطِ ما خُلِقْتَ له كَذاكَا
وإنْ لم تُعْطِهِ فالخَلْقُ يُعْطَى وليس يكون مشكوراً هُناكا
وحَقُّ الحَقّ أوْلَى يا وَلِيّي بأن يقضي به وَحْيٌ أتَاكَا
فإنْ تَبْلُغْ مُناهُ كما تَمَنَّى يُبَلِّغْكَ الإلهُ به مُنَاكا

قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وقضاؤه لا يرد. علمنا أن نتيجة هذا الذكر شهود هذه الآية بلا شك، فإن الحق هو الوجود والأشياء صور الوجود، فارتبط الأمر ارتباط المادة بالصورة والعبادة ذلة بلا شك في اللسان المنزل به هذا القرآن، والأمر إذا ارتبط بين أمرين لا يمكن لكل واحد منهما أن يكون عند ذلك الأمر إلا بارتباطه بالأمر الآخر، علمنا أن كل واحد من الأمرين المرتبطين للحب الذي قام بكل واحد منهما في ظهور الأمر الثالث وأنه طالب للأمر الثاني فصح الطلب في كل واحد، والحاصل لا يبتغي فلا بد أن يتصفا بالفقد لما يبغيان وجوده والطلب لا يكون إلا بنوع من الإذلال ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فطلب الدعاء من عباده وطلب العباد الإجابة منه فالكل طالب ومطلوب. وقد قام الدليل أن الحوادث لا تقوم به فلا يستقل بكل طلب في ذاته لأن الطلب من الحادث حادث، ويستحيل أن يقوم به مثل هذا الطلب، فلا بد من طلب وجود ما يقوم به هذا الطلب الحادث وهو قوله: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ [النحل: ٤٠] والطلب إرادة سواء طلبك لنفسه أو طلبك لك، على كل حال الحاصل لا يبتغى من الوجه الذي يطلب فإنه من ذلك الوجه ليس بحاصل فلا يصح الوجود أصلاً، إلا من أصلين: الأصل الواحد الاقتدار وهو الذي يلي جانب الحق، والأصل الثاني القبول وهو الذي يلي جانب الممكن، فلا استقلال لواحد من الأصلين بالوجود ولا بالإيجاد، فالأمر المستفيد الوجود ما استفاده إلا من نفسه

بقبوله وممن نفذ فيه اقتداره وهو الحق، غير أنه لا يقول في نفسه أنه موجد نفسه بل يقول: إن الله أوجده والأمر على ما ذكرناه، فما أنصف الممكن نفسه وآثر بهذا الوصف ربه فلما علم الله أنه آثر ربه على نفسه بنسبة الإيجاد إليه أعطاه الظهور بصورته جزاء فلا أكمل من العالم لأنه لا أكمل من الحق، وما كمل الوجود إلا بظهور الحادث. ولما كان الأمر بهذه المثابة في التوقف وعدم الاستقلال من الطرفين نبه الحق على ذلك بقوله: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي**»، وهو أيضاً أعني التقسيم موجود في استخلاف العبد وفي وكالة الحق فيما هو فيه العبد مستخلف فاستقل الوجود وكمل بالحادث. ولما كن الحق غيوراً أن يذكر معه سواه تجلى للعالم في صورة المحدثات وعلموه فيها إعلاماً منه للعالم أنه غنيّ عن العالمين بما رأيتموه في ذاته من ظهوره بالتجلي في صور المحدثات فسواء ظهوركم وعدمكم يقول للممكن فعند ذلك ذل الممكن بالفعل في نفسه فوقع منه ما خلقه الله له وزال عنه عز الاستعداد بالقبول في الإيجاد إذا رأى أعيان الصور التي تكوّن عن قبولها واقتدار الحق قد ظهر الحق بها فلم تكن الحاجة إلى الممكنات في قبولها والأمر قد حصل وصح قوله: ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

ولقد برقت لي بارقة إلهية عند تقييدي هذه المسألة رأيت فيها ما شاء الله من العلوم كما ضرب النبيّ ﷺ بالمعول الحجر الذي تعرض لهم في الخندق فبرقت في الضربة منه بارقة رأى بها ما فتح الله على أمته حتى رأى قصور بصرى كأنياب الفيلة، رأى ذلك في ثلاث ضربات في كل ضربة بارقة تبدى له جهة مخصوصة، هذا رأيته عند تقييدي هذا الباب وراثة نبوية بحمد الله ورأيت فيها وبها وإن ظهر بصور الممكنات واتصف بالغنا، فإن ذلك لا يخرجه عن عدم الاستقلال في وجود الحادث به إذ لا بد من قبوله وفيه وقع الكلام هذا مما أعطتنيه تلك البارقة، وأنه تعالى لما خلقهم لعبادته كساهم صفته وهي التي بها طلبهم فعبدوه بها إذ لا يصح أن يعبدوه بأنفسهم على جهة الاستقلال، ولهذا شرع لهم أن يقولوا بعد قولهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] لعدم الاستقلال في العبادة، فألقت عندهم الطلب في المعونة على عبادته كما كان القبول منهم معونة للاقتدار الإلهي في الخلق، ولولا هذا الارتباط ما صحت عبادة ولا إيجاد، فالإيجاد عبادة وهو لله، والعبادة إيجاد وهي المطلوبة من الخلق، فهم العابدون وهو المعبود، وهو الموجد وهم الموجودون، فلام العلة ذاتية من الجانبين واسمها في الشرع حكمة وسبب فإنه حكيم، ففي كل شيء له حكمة ظاهرة يعلمها أهل الكشف والوجود في كل شيء، ويعلمها أهل الرسوم في التكليفات التي لا تعلم إلا من جهة الشرع، فحكمتها لا تعلم إلا من جهة الشرع كقوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] وأما القول بالعلة في التكليف من جهة الحق فمظنونة غير معلومة، ولكن فتح لهم باب الاستنباط بما ذكره لهم في الوحي المنزل من التعليل فمنه جليّ ومنه خفيّ، كذلك له في الأشياء حكمة باطنة لا يعلمها إلا هو ومن أعلمه الله بها، ولذلك قال الجن وهو ما استتر فلا يعلم إلا منه والإنس وهو ما ظهر فيعلم بذاته حيث ظهر وإلا ليعبدون إثبات

السبب الموجب للخلق، فهذه لام الحكمة والسبب شرعاً ولام العلة عقلاً والعبادة ذاتية للمخلوق لا يحتاج فيها إلى تكليف، فلا بدّ أن يكون الخالق عين كل صورة يعبدها المخلوق مع افتقار الصورة إلى المادّة، وأنه إذا لم يكن الأمر هكذا فلا تكن العبادة من المخلوق ذاتية، فإنه إذا اقتصرنا على مسمى الله في العرف عبد المخلوق غير الله فإنا نرى الأكثر من العالم ما يفتقرون إلا إلى الأسباب وكيف وقد قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] ولم يذكر قط افتقار مخلوق لغير الله ولا قضى أن يعبد غير الله، فلا بد أن يكون هو عين كل شيء أي عين كل ما يفتقر إليه وعين ما يعبد، كما أنه عين العابد من كل عابد بقوله أيضاً: كنت سمعه حين خاطبه بالتكليف والتعريف فما سمع كلام إلا بسمعه، وكذلك جميع قواه التي لا يكون عابداً لله إلا بها، فلم يظهر في العابد والمعبود إلا هويته، فحكمته وسببه وعلته لم تكن إلا هو، ومعلوله ومسببه لم يكن إلا هو فإياه عبد وعبد، قال ﷺ في خطبته لما أثنى على ربه: «**فَإِنَّمَا نَحْنُ بِهِ وَلَهُ**» فخاطب وسمع وهذا أمر لا يندفع فإنه عين الأمر، غير أن الفضل بين الناس هو بما شاهده بعضهم وحرمه بعضهم، فيعلم العالم من غيره ما لا يعلمه الغير من نفسه مما هو عليه في نفسه فظهر التفاضل، ومع هذا الظهور لا يخرج المخلوق عن أن يكون الحق هويته بدليل تفاضل الأسماء الإلهية وهي الصفات وليست غيره، فلا يعلم الخلق إلا به، ولا يعلم الحق إلا بها. وأما وصفه بالغنى عن العالم إنما هو لمن توهم أن الله تعالى ليس عين العالم وفرق بين الدليل والمدلول ولم يتحقق بالنظر إذا كان الدليل على الشيء نفسه فلا يضاد نفسه فالأمر واحد وإن اختلفت العبارات عليه فهو العالم والعلم والمعلوم فهو الدليل والدال والمدلول، فبالعلم يعلم العلم، فالعلم معلوم للعلم فهو المعلوم والعلم والعلم ذاتي للعالم وهو قول المتكلم ما هو غيره فقط. وأما قوله: وما هو هو بعد هذا فهو لما يرى من أنه معقول زائد على ما هو فبقي أن يكون هو، وما قدر على أن يثبت هو من غير علم يصفه به فقال: ما هو غيره فحار فنطق بما أعطاه فهمه فقال: إن صفة الحق ما هي هو ولا هي غيره، ولكن إذا قلنا نحن مثل هذا القول ما نقوله على حد ما يقوله المتكلم فإنه يعقل الزائد ولا بد ونحن لا نقول بالزائد فما يزيد المتكلم على من يقول إن الله فقير إلا بحسن العبارة، ونعوذ بالله أن نكون من الجاهلين، فهذا بعض نتائج هذا الهجير، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والسبعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]

[نظم: الوافر]

إذا أَحْبَبْتَ رَبَّكَ باتِّباعٍ ... أَحَبَّكَ مثل ذلك ثم زَادَا
على الحُبِّ المضاعَفِ سَتْرَ صَوْنٍ ... أَتَتْكَ به السيادةُ حين سَادا

وإنْ أحْـبَـبْـتَـهُ بـخـلاف هـذا أفَـذتَ ولـم تـكـن مـمّـن أفَـادا

وقال ﷺ عن الله: «**إنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ما تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ بِأَحَبَّ إلَيَّ مِنْ أَدَاءِ ما افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِمْ، ولاَ يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإذا أحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعاً وَبَصَراً وَيَداً وَمُؤَيِّداً**»، وقد ورد أتم من هذا، فهذا الهجير إذا التزمه العبد أو من التزمه وتحقق به فتح عليه في معرفة نفسه وربه وعلم أن عبادة الفرائض عبادة حقيقية جبرية، وعبادة النوافل عبادة اختيارية فيها رائحة ربوبية لأنها تواضع والتواضع تعمل لا يقوم إلا ممن له سهم في الرفعة والعبد ليس له نصيب في السيادة، ولهذا ورد: «**العَبْدُ مَنْ لاَ عَبْدَ لَهُ**» فلهذا نقص عن درجة الفرض النفل لأن العبد نقصه من العلم بالأمر على قدر ما اعتقده من النفل، بل من أول قدم في النفل اتصف بالنقص في العلم بما هو الأمر عليه، وهذا علم شريف يورث سعادة لمن قام به لا تشبهها سعادة، وذلك أن العبد هو عبد لذاته ولكن لا تعقل له عبودية ما لم يعقل له استناد إلى سيد، والرب رب لذاته، ولكن لا يعقل له ربوبية ما لم يعقل له مربوب وهو مستنده، فكل واحد سند للآخر، فالمعلوم أعطى العلم للعالم فصيره عالماً والعلم صير المعلوم معلوماً، ومن حيث ارتفاع هذا الذي قلناه فلا عالم ولا معلوم ولا رب ولا مربوب، وليس الأمر إلا عالم ومعلوم ورب ومربوب، وهو الذي عليه الوجود، فليتكلم بما أعطاه الوجود والشهود، وليترك وهميات الجائز العقلي، فإن القول بذلك له موطن خاص في ذلك الموطن سلطانه فنقول: قد أخبر الله تعالى أن لله عباداً يحبهم ويحبونه فجعل محبتهم وسطاً بين محبتين منه لهم فأحبهم فوفقهم بهذه المحبة لاتباع رسوله فيما جاءهم به من الواجبات عليهم والترغيب في أن يوجبوا على أنفسهم صورة ما أوجبه عليهم يسمى نافلة، ثم أعلمهم أنهم إذا اتبعوه فيما جاء به أحبهم، فهذا الحب الإلهي الثاني ما هو عين الأول فالأول حب عناية والثاني حب جزاء وكرامة بوافد محبوب بالحب الأول فصار حب العبد ربه محفوظاً بين حبين إلهيين، كلما أراد أو همَّ أن يخرج عند هذا الوصف بالسلوّ وجد نفسه محصوراً بين حبين إلهيين فلم يجد منفذاً فبقي محفوظ العين بين حب عناية ما فيها من فطور وبين حب كرامة ما فيها استدراج، والحصر بين أمرين يوجب اضطراراً، فذلك حب الفرض وهو العبد المضطر في عبوديته المجبور بما فرض الله عليه لينبهه أنه في قبضة الحق محصور لا انفكاك له ولا نفوذ كما رسمناه في الهامش:

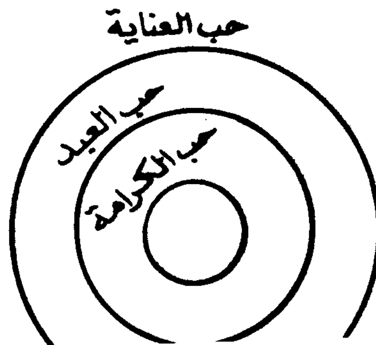

ولما رأى أن الحق كلفه علم أنه لو لم يعلم الحق في العبد اقتداراً على إتيان ما كلفه به من الأعمال ما كلفه به، فكان التكليف له معرفاً بأن له مدخلاً في الاقتدار على وجود الفعل الذي كلفه الله إيجاده، وقرر ذلك عنده بما شرع له من طلب المعونة من الله على ذلك فزاده هذا قوة في علمه بأن له اقتداراً، ثم نظر فيما أوجب عليه فرأى ذلك قليلاً مما هو عليه من الاتساع، فعلم عند ذلك أن الاتساع الذي أبقى له إنما أبقاه لما له من الاقتدار، فأراد أن يبتليه ليرى ما يخرج منه في ذلك الاقتدار الذي أعطاه وليس له فيما يخرج فيه ذلك الاقتدار إلا تلك السعة التي أبقى له كما قال: إن لك في النهار سبحاً طويلاً، فعمر ذلك الفراغ هذا العبد بالنوافل ولا يكون نافلة حتى يكمل الفرض، فحصل بذلك من الله حبان آخران: حب الفرائض أي الحب الذي حصل له من إتيانه بالفرائض، والحب الذي حصل له أيضاً من الله من إتيان النوافل وإن كان دون الحب الأول كما هو في الأصل حب الكرامة دون حب العناية فإنه حب جزاء فلا يخلص خلوص الحب الأول، كما ورد في الخبر: أن الرجل إذا قال لأخيه أحبك فأحبه الآخر فإنه لا يلحقه في درجته في الحب أبداً لأن حب الأول ابتداء وحب الثاني جزاء فلن يكافئه أبداً، فإن الحب الأول هو الذي أنتج الحب الثاني فهو منفعل عنه والمنفعل لا يقوى قوة الفاعل أبداً، فلما عمر ذلك الفراغ الواسع بالنوافل وجعل الله فيها فرائض لتتأيد بها النوافل في اللحوق بالفرائض ولهذا تسد مسدها وتكمل بها الفرائض بما فيها من الفرائض كما ورد في الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله يَقُولُ فِي مُوَازَنَةِ الأعْمَالِ إذا لَمْ يُتِمَّ العَبْدُ فَرْضَهُ أَنْ يُكْمِلَ لَهُ فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ إنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ»** وهو النفل، فلذلك كان في النفل فروض لأن كل نفل فهو على صورة فرضه من صلاة وصدقة وصيام وحج واعتمار، فله الخيار في الإتيان بالنفل ما لم يتلبس به، فإذا تلبس به قيل له: لا تطلبوا أعمالكم فبالأولية في ذلك كان مختاراً وفي التلبس مضطراً عندنا وبخلافه عند علماء الرسوم ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] والشروع عهد عهده مع الله بلا شك فيما لم يجب عليه ولهذا قال: هل عليّ غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع، فدخل الاحتمال في هذا الإجمال.

ولما لم يكن في أداء الفرض رائحة ربوبية توجب له إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل كما هو في النفل كان في الفرض عبد اضطرار بلا شك مجبوراً فأدركه الإنكسار في نفسه لما كان عليه من العزة في كونه أعطى العلم لله به فجبر الله انكساره بقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [قٓ: ٢٩] فأزال عن نفسه بهذا الخطاب إن شاء وإن شاء وما أبقى له إلا عين ما شاء لا التخيير في ذلك، فلما سمع العبد مثل هذا انجبر كسره وعلم أن الله لا يقول مجازاً وأن الأمر لما كان في نفسه على هذا ما صح أن يقول مثل هذا القول، فزال الانكسار الذي كان عنده وهو قوله تعالى الخبر المترجم عنه: **«أَنَا عِنْدَ المُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي»** أي أنا كسرت قلوبهم بما أوجبته عليهم وأدخلتهم فيه من الاضطرار وأنزلتهم من معقل

عزتهم بذلك فلما انكسروا كان عندهم في هذا الكسر جابراً بما أوجبه على نفسه، وما أخبر به أنه ما يبدل القول لديه وأن الكلمة منه حقت وأزال الاختيار بإزالة الإمكان من العالم، فلم يبقَ إلا واجب بنفسه أو واجب بغيره وهما وصفان لموصوف واحد ولموصوفين وليس في الكون إلا الرب والمربوب، ثم أعطاه بما خيره فيه في هذا الاتساع من المسمى نفلاً حكم الاختبار الإلهي في قوله: إن شاء وإن شاء فكساه حلته، بل العبد أولى بصفة الاختيار من صفة الاضطرار لأن له التردد بالحقيقة لإمكانه وليس عند الحق ذلك، فإذا ظهر مثل هذا من الحق فتعلم أن الحق ظهر في صورة ممكن، ولهذا تأدبنا في قولنا: إن الله لا ينبغي أن يقال أنه يجوز أن يفعل كذا ويجوز أن لا يفعله، ونقول: يجوز أن يكون هذا الممكن ويجوز أن لا يكون، كما أنه إذا ظهر الاضطرار من العبد إنما يظهر ذلك منه بصورة حق لا بنفسه لأنه لا يكون عبداً إلا بقيامه بمراسم سيده وهو مسلوب الفعل بالأصالة، فلا بد أن تظهر بصورة حق إذا ظهر بعبوديته التي هي العمل بما كلف فعله، ولذلك لم يقل الحق إنه هوية الشيء، وإنما قال إنه هوية العبد، فعلمنا أن حكم العبد ما هو الحكم الشيء، فحكم النفل أحق بالعبد لولا ما فيه من روائح الربوبية، وحكم الفرض أحق بالرب لولا ما فيه من روائح العبودية، فليجعل حكم كل واحد في الموطن الذي جعله الله فيكون الله هو الجاعل لا نحن، فنخلص ونسلم من الاعتراض علينا عند السؤال من الله إيانا.

ثم إن الله تعالى جعل في محبة الجزاء وهي محبة الكرامة غفر الذنوب وهو سترها وختم الآية بأنه لا يحب الكافرين والكافر الساتر وهو تعالى ساتر الذنوب، فعلمنا أنه لا يحب من عباده من يستر نعمه كانت النعم ما كانت فإنه قال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] وما تحدث به لم يستر، وقال: التحدث بالنعم شكر، وإذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن ترى عليه ونعمه التي أسبغها على عباده ظاهرة وباطنة، ومن ستر نعمة الله فقد كفر بها، ومن كفر بها أذاقه الله لباس الجوع والخوف بصنيعه ذلك، ولهذا قيد الله ستره بالذنوب وهي البقايا التي أبقاها الله لعباده ليتعلموا الأدب مع الله فينسبون الطاعة والخير لله ويجعلونه بيد الله، وينسبون الذنب والمعصية لنفوسهم، فلهذا قلنا: أبقاها الله فهذا نصيبهم مما هو لله فإنه كل من عند الله، لكن هؤلاء المحجوبون لا يكادون يفقهون حديثاً بل يقولون كل ذلك لله في غير الموطن الذي جعله الله لهذا القول وذلك لجهلهم بالمواطن، وهذا القدر كافٍ فإن المجال فيه واسع لاتساع ميدانه لكون العالم ما أوجده الله إلا عن الحب والحب يستصحب جميع المقامات والأحوال فهو سار في الأمور كلها، فلذلك يتفصل الأمر فيه إلى غير نهاية، وأصل الحب النسب وهي الروابط، ومع الروابط لا يثبت توحيد أصلاً، ولهذا قال بعضهم: من وحد فقد أشرك، كما يقول: من قال بالجمع فقد فرق بلا شك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والسبعون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]

[نظم: الوافر]

مَنْ يَسْتَمِعْ قَوْلَ من تَعْنُو الوجوهُ لَهُ ... يَفُزْ بحُسْنِ الذي يأتيه في كَلِمِهْ
وهو الحكيمُ فمن في الكَوْن حِكْمَتُهُ ... وأنت في كونه فأنت مِنْ حِكَمِهْ
فمنك تسمعُ إن حَقَّقْتَ ما سمعتْ ... أُذْنَاكَ من قوله في رُتْبَتَيْ قَدَمِهْ
العرشُ يُفْرِدُ ما الكرسيُّ يَقْسِمُهُ ... من الخطاب لما في القول مِنْ قِدَمِهْ
إنّ الحدوثَ له وَجْهٌ لمُحْدِثِهِ ... وآخرُ ناظرٌ منه إلى عَدَمِهْ

قال الله جل جلاله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: ٥] اعلم أن هذا تنبيه من الحق على أن كل كلام في العالم كلامه، لأنه ما أتى من الله إلينا إلا كل ذكر محدث، لأن الإتيان يحدث بلا شك في الآتي، وما أتى إلا من قام به الحادث، وليس إلا الصورة التي يتجلى فيها في أعين الناظرين ويتخلى عنها في أعين الناظرين، فما ثم إلا سامع ومتكلم وقائل ومقول له ومقول به ومقول وكله حسن إلا أنه بين حسن وأحسن، فكل كلام حسن، وما وافق الغرض من القول فهو أحسن، فالقول كله حسن، وأما قوله: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٤٨] فنفى المحبة أن يكون متعلقها الجهر بالسوء من القول، والسوء من القول أن يقول في القول إنه سوء ولا قائل به إلا الله والجهر بالسوء قد يكون قولاً وقد يكون في الأفعال التي لا تكون قولاً، فيريد بالجهر فيها ظهور الفحشاء من العبد كما قال ﷺ: «**مَنْ بُلِيَ مِنْكُمْ بِهٰذِهِ القَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَتِرْ**» يعني لا يجهر بها، والسوء على نوعين: سوء شرعيّ وسوء ما يسوءك، وإن حمده الشرع ولم يذمه، فقد يكون هذا السوء من كونه يسوءك لا أن السوء فيه حكم الله كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فالسيئة الأولى شرعية لأنه تعدى، والسيئة الأخرى ما يسوء المجازى عليها، وليس الجزاء بسيئة مشروعة لأن الله لا يشرع السوء. ولما وقع الاصطلاح في اللسان على السيىء والحسن نزل الشرع من عند الله بحسب التواطؤ، فهم سموه سوءاً وقالوا: إن ثم سوءاً، فقال الله ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٤٨] الذي سميتموه سوءاً لكونه لا يوافق أغراضكم كما قد سمعت: أن حسنات الأبرار سيئات المقرّبين، وليس ثم الأحسن بالنسبة سيىء بالنسبة على الحقيقة، فكل شيء من الله حسن ساء ذلك الشيء أم سرّ، فالأمر إضافي، فقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ إلى معرفة الحسن والأحسن ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨] يعني بالألباب المستخرجين لب الأمر المستور بالقشر صيانة له، فإن العين لا تقع إلا على الحجاب والمحجوب لأولي الألباب تنبيه على الصورة الحجابية التي يتجلى فيها الحق ثم يتحوّل عنها إلى حجاب، فما ثم في الحقيقة

إلا انتقال من حجاب إلى حجاب لأنه ما يتكرر تجل إلهي قط، فلا بد من اختلاف الصور والحق وراء ذلك كله فما لنا منه إلا الاسم الظاهر رؤية وحجاباً، وأما الاسم الباطن فلا يزال باطناً وهو اللب المعقول الذي يدركه أولو الألباب يعني يعلمون أن ثم لباً وهو هذا الذي ظهر حجاب عليه وليس إلا الاسم الظاهر وهو المسمى في الحالين، فمن قال بالرؤية صدق، ومن قال بنفي الرؤية صدق، فإن رسول الله ﷺ أثبت لنا الرؤية بقوله ﷺ: «**تَرَوْنَ رَبَّكُمْ**» الحديث ونفى الرؤية، فإنه ﷺ سئل هل رأيت ربك؟ يعني ليلة الإسراء فقال يتعجب من السائل: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**» أي إنه نور، فلا أدرك النور لضعف الحدوث، والنور لله وصف ذاتي، والحدوث لنا كذلك نسبة ذاتية، فنحن لا نزال على ما نحن عليه وهو لا يزال على ما هو عليه، والراسخون في العلم الذين هداهم الله أي تولى تعليمهم بنفسه وأولئك هم أولو الألباب، فكان من العلم الذي علمهم أن ثم لباً مستوراً بقشر فصدق النافي والمثبت، فمن قال: إن الله ظاهر فما قال على الله إلا ما قال الله عن نفسه، ولا فائدة لكون الأمر ظاهراً إلا مشاهدته، فهو مشهود مرئي من هذا الوجه، ومن قال إن الله باطن فما قال على الله إلا ما قال الله عن نفسه، ولا فائدة لكون الأمر باطناً إلا أنه لا تدركه الأبصار فهو لا يشهد ولا يرى من هذا الوجه، فلما اتبع هذا الذاكر أحسن القول أدرك أن ثم لباً مستوراً حين قال الآخر إنه ليس ثَمّ إلا هذا الذي وقع عليه البصر، فهو كمن لا يرى أن خلف هذه الصورة الظاهرة الإنسانية أمراً آخر يدبرها ويصرفها، ومن أبصر عنده صورة زيد فقد أبصره بلا شك، والذي اعترف باللب علم أن خلف هذه الصورة أمراً آخر هذا الأثر الظاهر من هذه الصورة لذلك الباطن المستور في هذا الحجاب دليله الموت مع بقاء الصورة وإزالة الحكم، فمن قال: إن زيداً عين ذلك المدبر لا عين الصورة وأن الصورة عنده لا فرق بينها وبين ما أجمعنا عليه من صورة مثله من خشب أو جص قال إنه ما رآه، ومن قال إن زيداً هو المجموع فهو الظاهر والباطن قال: رآه ما رآه، كما قال في المعنى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧] فأحسن القول إثبات الأمرين على الوجهين [الطويل]:

فـمـا ثَـمَّ مـشـهـودٌ ومـا ثـم شـاهـدٌ ... سوى واحدٍ والفَرْقُ يُعْقَلُ بالجَمْعِ
فـمـن قـال شـاهَـدْنـاه يـصـدقُ قـولـه ... ومن قال لم نشهد فللضعف والصَّدْعِ
إذا اتَّـصَـفَـتْ عَـيْـنٌ بـصَـدْعٍ ولـمْ تَـزَلْ ... بـهـا صِـفَـةُ الـصَّـدْعِ الـمُـزِيـلَـةُ لـلـنَّـفْـعِ
على السَّمْعِ عَوَّلْنا فكُنّا أولي النُّهَى ... ولا عِلْمَ فيما لا يكون عن السَّمْعِ
إذا كـان مـعـصـومـاً وقـال فـقـوْلُـه ... هو الحقّ لا يأتيه مَيْنٌ على القَطْعِ
فـعَـقْـلٌ وشَـرْعٌ صـاحـبـان تَـآلَـفَـا ... فبُورِكَ مِنْ عَقْلٍ وبُورِكَ من شَرْعِ

واعلم أن الاتباع إنما هو فيما حده لك في قوله ورسمه، فتمشي حيث مشى بك، وتقف حيث وقف بك، وتنظر فيما قال لك انظر، وتسلم فيما قال لك سلم، وتعقل فيما قال لك اعقل، وتؤمن فيما قال لك آمن، فإن الآيات الإلهية الواردة في الذكر الحكيم وردت متنوّعة وتنوّع لتنوعها وصف المخاطب بها فمنها: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]

و﴿لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤] و﴿لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧] و﴿لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩] و﴿لَآيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] و﴿آيات للمتقين﴾ و﴿لَآيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤] و﴿لَآيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] و﴿آيات لأولي الأبصار﴾ ففصل كما فصل ولا تتعدّ إلى غير ما ذكر، بل نزل كل آية وغيرها بموضعها. وانظر فيمن خاطب بها وكن أنت المخاطب بها فإنك مجموع ما ذكر، فإنك المنعوت بالبصر والنهى واللب والعقل والتفكر والعلم والإيمان والسمع والقلب، فأظهر بنظرك بالصفة التي نعتك بها في تلك الآية الخاصة تكن ممن جمع له القرآن فاجتمع عليه فاستظهره فكان من أهله بل هو عين القرآن، إذا كان على هذا الوصف وهو من أهل الله وخاصته فالقول كله حسن وأحسن وما ثم سوء إلا في المقول عنه ذلك هو السوء أو في المتكلم به ليس في القول [الخفيف]:

ليس في القَوْل والكَلام قَبِيحٌ إنّما القُبْحُ في الذي قيل عَنْهُ

أو قيل أو تكلم به أو تكلم عنه، فافهم ذلك وخذ الوجود كله على أنه كتاب مسطور وإن قلت مرقوم فهو أبلغ فإنه ذو وجهين ناطق بالحق وعن الحق تكن من الذين هداهم الله أي وفقهم بما أعطاهم من البيان وأولئك هم أولو الألباب الغواصون على خفايا الأمور وحقائقها المستخرجون كنوزها والحالون عقودها ورموزها، والعالمون بما تقع به الإشارات في الموضع الذي تسمح فيه العبارات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والسبعون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [البقرة: ١٦٣]

[نظم: الوافر]

بتَوْحيدِ الإلٰهِ يقولُ قَوْمٌ وتَوْحِيدُ الكَثِيرِ هو الوُجُودُ
ومن أسمائه الحُسْنَى عَلِمْنا بأنَّ الله يفعل ما يُرِيدُ
فكان بنا الإلٰهُ وفيه كُنَّا هو المَوْلَى ونحن له عَبِيدُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الله أمرنا بتوحيده في ألوهته فلا إله إلا هو، كما نهانا عن التفكر في ذاته، فعصاه أهل النظر في ذلك ممن يزعم أنه من أهل الله كالقدماء وغيرهم من المتكلمين وبعض الصوفية كأبي حامد وغيره في مضنونه وغير مضنونه، واحتجوا بأمور هي عليهم لا لهم، وبعد استيفاء النظر أقرّوا بالعجز، فلو كان ثم علم وإيمان حق وصدق لكان ذلك في أوّل قدم فتعدوا حدود الله التي هي أعظم الحدود وجعلوا ذلك التعدي قربة إليه ولم يعلموا أن ذلك عين البعد منه وعند كشف الغطاء يظهر من أعطى ومن أعطي [الرجز]:

سوف ترى إذا انْجَلَى الغُبَارُ أَفَرَسٌ تَحْتَكَ أم حِمَارُ

فالصورة صورة فرس والخبرة خبرة حمار، هذا الذكر يعطي الذاكر به رجاء عظيماً وفتحاً مبيناً، وذلك أن الله تعالى خاطب في هذه الآية المسلمين والذين عبدوا غير الله قربة إلى الله فما عبدوا إلا الله فلما قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فأكدوا

وذكروا العلة، فقال الله لنا: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ﴾ والإله الذي يطلب المشرك القربة إليه بعبادة هذا الذي أشرك به ﴿لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ٤] كأنكم ما اختلفتم في أحديته فقال ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾، فجمعنا وإياهم ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] فما أشركوا إلا بسببه فيما أعطاهم نظرهم، ومن قصد من أجل أمر ما فذلك الأمر على الحقيقة هو المقصود لا من ظهر أنه قصد، كما يقال: من صحبك لأمر أو أحبك لأمر ولى بانقضائه، ولهذا ذكر الله أنهم يتبرؤون منهم يوم القيامة، وما أخذوا إلا من كونهم فعلوا ذلك من نفوسهم لا أنهم جهلوا قدر الله في ذلك، ألا ترى الحق لما علم هذا منهم كيف قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ونبههم فقال: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣] فيذكرونهم بأسمائهم المخالفة أسماء الله، ثم وصفهم بأنهم في شركهم ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧] ومبيناً لأنهم أوقعوا أنفسهم في الحيرة لكونهم عبدوا ما نحتوا بأيديهم وعلموا أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم من الله شيئاً فهي شهادة من الله بقصور نظرهم وعقولهم. ثم أخبرنا الله أنه قضى أن لا نعبد إلا إياه بما نسبوه من الألوهة لهم أي جعلوهم كالنواب لله والوزراء كأن الله استخلفهم، ومن عادة الخليفة أن يكون في رتبة من استخلفه عند المستخلف عليه، فلهذا نسبوا الألوهة لهم ابتداء من غير نظر فيمن جعل ذلك وقول من قال: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [صٓ: ٥] إنما كان من أجل اعتقادهم فيما عبدوه أنهم آلهة دون الله المشهود له عندهم بالعظمة على الجميع، فأشبه هذا القول ما ثبت في الشرع الصحيح من اختلاف الصور في التجلي، ومعلوم عند من يشاهد ذلك أن الصورة ما هي هذه الصورة، وكل صورة لا بد أن يقول المشاهد لها أنها الله، لكن لما كان هذا من عند الله وذلك الآخر من عندهم أنكر عليهم التحكم في ذلك كما ثبت في قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] هذا حقيقة، فوجه الله موجود في كل جهة يتولى أحد إليها، ومع هذا لو تولى الإنسان في صلاته إلى غير الكعبة مع علمه بجهة الكعبة لم تقبل صلاته لأنه ما شرع له إلا استقبال هذا البيت الخاص بهذه العبادة الخاصة، فإذا تولى في غير هذه العبادة التي لا تصح إلا بتعيين هذه الجهة الخاصة فإن الله يقبل ذلك التولي كما أنه لو اعتقد أن كل جهة يتولى إليها ما فيها وجه الله لكان كافراً أو جاهلاً، ومع هذا فلا يجوز له أن يتعدى بالأعمال حيث شرعها الله ولهذا اختلفت الشرائع، فما كان محرّماً في شرع ما حلله الله في شرع آخر، ونسخ ذلك الحكم الأوّل في ذلك المحكوم عليه بحكم آخر في عين ذلك المحكوم عليه قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فما نسخ من شرع واتبعه من اتبعه بعد نسخه فذلك المسمى هوى النفس الذي قال الله فيه لخليفته داود: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ يعني الحق الذي أنزلته إليك ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ وهو ما خالف شرعك ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [صٓ: ٢٦] وهو ما شرعه الله لك على الخصوص، فإذا علمت هذا وتقرر لديك علمت أن الله إله واحد في كل شرع عيناً وكثير صورة وكوناً، فإن الأدلة العقلية تكثره باختلافها فيه وكلها حق ومدلولها صدق، والتجلي في الصورة يكثره أيضاً لاختلافها والعين واحدة، فإذا كان الأمر هكذا فما تصنع أو كيف يصح لي أن أخطىء قائلاً ولهذا

لا يصح خطأ من أحد فيه وإنما الخطأ في إثبات الغير وهو القول بالشريك فهو القول بالعدم لأن الشريك ليس تم ولذلك لا يغفره الله لأن الغفر الستر ولا يستر إلا من له وجود والشريك عدم فلا يستر فهي كلمة تحقيق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] لأنه لا يجده فلو وجده لصح وكان للمغفرة عين تتعلق بها، وما في الوجود من يقبل الأضداد إلا العالم من حيث ما هو واحد وفي هذا الواحد ظهرت الأضداد وما هي إلا أحكام أعيان الممكنات في عين الوجود التي بظهورها علمت الأسماء الإلهية المتضادة وأمثالها، فإذا علمت هذا فقل بعد ذلك ما شئت، أما كثرة الأسماء أظهرت كثرة الأحكام، وأما كثرة الأحكام أظهرت كثرة الأسماء فإنه أمر لا ينكره عقل ولا شرع، فالوجود يشهد له، وما بقي إلا ما ذكرناه إلى من ينسب الحكم هل للأسماء الإلّهية أم للممكنات الكونية وهما مرتبطان محكوم بهما في عين واحدة [الطويل]:

فيا خَيْبَةَ الجُهَّال ماذا يَفُوتُهُمْ ... وماذا يَفُوتُ القائلين بجَهْلِهِمْ
فقد قلت هذا ثم هذا، فإنني ... من أجل الذي قد قلت فيهم من أَهْلِهِمْ

فمن وحد ما أنصف ومن أشرك فما أصاب هو تعالى واحد لا بتوحيده موحد ولا بتوحيد لنفسه لأنه واحد لنفسه، فما أحديته مجعولة ولا أحدية كثرته مجهولة، وما ثم إلا عدم ووجود، فالوجود له والعدم ليس له لكن له الإعدام، ولا يقال: والعدم لغيره فتثبت عين ما تنفي فتجوز في اللفظ، وما بين الوجود والعدم ما لا يتصف بالوجود ولا بالعدم وهو العالم معطي الأحكام لعين الوجود والصور لعين الشهود والمدلولات لأدلة العقود، فشاهد ومشهود، وعاقد ومعقود، وموجد وموجود، وما ثم أمر مفقود فقد تميزت الحدود بل ميزت كل محدود، وما ثم إلا محدود لمن عرف العدم والوجود، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والسبعون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ [النحل: ٩٦]

[نظم: الوافر]

أنا عِنْدَ الذي ما زال عِنْدِي ... فزالَ نَفَادُنا فلنا البَقَاءُ
تَقَاسَمْنَا الوُجُودَ على سَواءِ ... فكان له السَّنا ولنا السَّناءُ
به فانْظُرْ إذا ما قُلْتَ أنا ... فنحن به له فلنا الثَّناءُ
رَأَيْنَاهُ بغير اسمي وَحِيداً ... نَزِيهاً لا يُنَهْنِهُهُ اللِّقاءُ
فلمّا أن تَسَمَّى غاب عنّا ... وأُسْبِلَ دون أعيننا الغطاءُ

قال الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور: ٣٥] فله السنا، وقال: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] فله ولنا السناء بصعودنا إليه. وقال: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]: [المتقارب]

فنحن وما عندنا عنده ... وليس الذي عنده عندنا

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [الحجر: ٢١] قلنا ولما عندنا البقاء فهو وإن نفد ما عندنا من عندنا فإنه لا ينفد من عنده ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الشورى: ٣٦] وما عند الله إلا العالم ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣] ممن هو عنده، كذا قال الله سبحانه في كتابه: ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأن بقاء العالم إذا وصف بالوجود بإبقائه، وإذا أبقيناه على حاله مع ظهور أحكامه في عين الوجود فله البقاء وهو بكل حال لم يزل في درجة الإمكان فهي له باقية فهو خير وأبقى لأن له الحكم في عين الوجود والحكم لا يزال باقياً فهو خير وأبقى ممن هو منه خير وأبقى في هذا الحكم لما أعطى من العلم بنفسه للعالم به ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه لولا بقاء عينه ما كان لحكم هذا الممكن فيما يظهر فهو خير وأبقى ممن هو عنده خير وأبقى، فخير وأبقى ممن هو خير وأبقى [المتقارب]:

فعِنْدِيَّةُ الحَقّ ما عِنْدَها ... سِوَانا وما عِنْدَنَا من سِوَاهْ

فخَيْرِيَّةُ الحَقّ مشهودةٌ ... وخَيْرِيَّةُ الكون ما لا نَرَاهْ

فلمّا حَمَانَا أرانا حِمَا ... نا فلما رأيناه كنّا حِمَاهْ

فمنه إلينا ومنّا إليه ... فعين ضلالتنا مِنْ هُدَاهْ

فللعَبْدِ في ذا وذاك الذي ... رأيناه من حكمه ما نَوَاهْ

فأعيان العالم محفوظون في خزائنه عنده وخزائنه علمه ومختزنه نحن، فنحن أثبتنا له حكم الاختزان لأنه ما علمنا إلا منا فكان طريقاً وسطاً بين شيئية ثبوتنا وشيئية وجودنا، فإذا أراد أن ينقلنا إلى شيئية وجودنا أمرنا عليه فاكتسبنا الوجود منه فظهرنا بصورته في شيئية وجودنا وصورته ما نحن عليه في شيئية ثبوتنا فإن علمه عين ذاته، وإنما سمي علماً لتعلقه بالمعلوم والتعلق محبة، فلو كان العدم وسطاً بين شيئية الثبوت وشيئية الوجود لكان إذا أراد إيجادنا مر بنا على العدم فاكتسبنا منه نفي شيئية الثبوت فلم نوجد لا في الثبوت ولا في الوجود، فلذلك لم يكن لنا طريق إلا على وجود الحق لنستفيد منه الوجود، فتفهم هذا الترتيب فإنه نافع مفيد فإنه يعطيك العلم بحكم المواطن وإنها تحكم بنفسها في كل من ظهر فيها، فمن مر على موطن انصبغ به، والدليل الواضح في ذلك رؤيتك الله تعالى في النوم وهو موطن الخيال، فلا ترى الحق فيه إلا في صورة جسدية كانت تلك الصورة ما كانت فهذا حكم الموطن قد حكم عليك في الحق أنك لا تراه إلا هكذا، كما أنك إذا دخلت موطن النظر العقلي وخرجت عن خزانة الخيال وموطنه لم تدرك الحق تعالى إلا منزهاً عن الصورة التي أدركته فيها في موطن الخيال، وإذا كان الحكم للموطن عرفت، إذا رأيت الحق ما رأيت وأثبت ذلك للموطن أعني ذلك الحكم حتى يبقى الحق لك مجهولاً أبداً فلا يحصل لك منه علم في نفسك إلا بتوحيد المرتبة له، وأما أن تعلم ذاته فمحال ذلك لأنك ما تخلو عن موطن تكون فيه يحكم عليك ذلك الموطن بأن لا ترى الحق إلا به فإنك تفارق ما أعطاك من العلم

به في موطن آخر فتحكم على الحق في كل موطن بحكم ما هو عين الحكم الذي حكمت به عليه في الموطن الذي قبله، فتعرف عند ذلك أنك ما تعرفه من حيث يعرف نفسه، وهذا غايتنا من العلم به تعالى، فما عندنا منه في موطن ينفد في موطن آخر فما عندنا ينفد وما عند الله باقٍ من علمه بنفسه لا يتغير ولا يتبدل ولا يتنوع لنفسه في نفسه بتنوع المواطن، فإن المواطن تنوعها لذاتها، ولو لم تتنوع لكانت موطناً واحداً، كما أن الأسماء لو لم تختلف معانيها لكانت اسماً واحداً كما هي واحد من حيث مسماها في مثل قوله ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] هذا من حيث المسمى فإنه قال: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] فوحد لما أراد المسمى ولم يراع اختلاف الحقائق التي تدل عليه ألفاظ هذه الأسماء الحسنى، فإن لم تعلم قوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] على ما أعلمتك به فما علمت إلا صورة صحيحة لا روح لها، فإذا علمت الأمر كما أعلمتك به نفخت في تلك الصورة الظاهرة روحاً تحيى به فكنت خالقاً داخلاً في جملة من وصف الله نفسه بالفضل عليه في ذلك فقال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فأثبتك وكل من أنشأ صورة بغير روح فذلك هو المصوّر الذي يعذب بما صوره يوم القيامة بأن يقال له هنالك أحي ما خلقت وليس بمحيي، ويقال له: انفخ فيها روحاً وليس بنافخ، وهذا من حكم الموطن لأن ذلك الموطن أعني موطن يوم الحشر يعطي ظهور عجز العالم عما كان ينسب إليه في موطن الدنيا من الاقتدار عليه، كان عيسى عليه السلام ينفخ في الطائر الذي خلقه روحاً فيكون طائراً بالصورة والمعنى، وقيل: ليس إلا صورة طائر لا طائراً ولذلك قال عز وجل: ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [آل عمران: ٤٩] ما قال طيراً حتى حصل فيه الروح، وقد ثبت عندنا عن ذي النون المصري أنه أحيى ابن العجوز بإذن الله الذي التقمه التمساح، وأن أبا يزيد أحيى النملة بإذن الله، كما أن موطن الخيال يعطي في أعين الناظرين حياة الجمادات وحركتها وهي في نفسها ليست بتلك الحياة التي تدركها الأبصار كحبال سحرة موسى عليه السلام وعصيهم يخيل إلى موسى من سحرهم أنها تسعى الذي سحروا به أعين الناس، فتلك حبال نشأت بين الخيال وبين أعين الناظرين كصورة السماء في المرآة فما هي السماء ولا غير السماء، فإنك تعلم قطعاً أن الجرم الذي رأيت في المرآة أقل من جرم السماء وأكبر من جرم المرآة، وتعلم قطعاً أنك ما رأيت إلا السماء عينها، فلهذا جعلنا الحكم للمواطن، فلا يجيء من العالم أمر يسمى خرق عادة إلا بإذن الله فبغير إذن الله ما يصح ولهذا ما يكون من كل أحد ظهور ذلك وإن كنا نعلم أنه ما يحدث صورة في العالم إلا والحياة تصحبها وهي روحها وبذلك الروح تكون تلك الصورة مسبحة، فالروح تسبح الله تعالى، والصورة مسبحة بالروح ربها تعالى [مخلع البسيط]:

فقد عَلِمْتَ الذي أقولُ ... ولَسْتَ تدري الذي يَقُولُ
ولستُ أدري الذي نَقُولُ ... فإنه الناطقُ القَؤُولُ

وهذا القدر كاف، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والسبعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٢]

[نظم: البسيط]

شَعَائِرُ الله أعلامٌ لنا نُصِبَتْ ... لنَعْلَمَ الفَرْقَ بين الحَقِّ والخَلْقِ
وهي الحدودُ التي قامت بَرَازِخُهَا ... وقايةً للذي يقول بالفَرْقِ
فمن يُعَظِّمْها كانت وِقَايَتَهُ ... وهو الذي يَتَّقي الأشياءَ بالحَقِّ
الله دون الخَلْقِ له من مُنَزَّلَةٍ ... يوم الوفود تسمَّى مَقْعَدَ الصِّدْقِ
يَحُوزُها بالذي حاز السباق لها ... لمّا جَرَى معهم في حَلْبَةِ السَّبْقِ
يَفْنَى ويَبْقَى الذي يدعوه مُتَّصِفاً ... أسماؤه عندنا بالمُفْني والمُبْقي

قال الله تعالى في تعظيمها، لا بل فيها: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ لَكُمْ فِيهَا﴾ [الحج: ٣٢، ٣٣] يعني الشعائر ﴿مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣] وهو بيت الإيمان عند أهل الإشارات، وليس إلا قلب المؤمن الذي وسع عظمة الله وجلاله شعائر الله أعلامه وأعلامه الدلائل عليه الموصلة إليه، ويا عجباً كيف يصل إليه وهو عنده كما قال أبو يزيد وقد سمع قارئاً يقرأ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] فصاح وبكى حتى طار الدم من عينيه وضرب المنبر وقال: كيف يحشر إليه من هو جليسه؟ فصدق الله في الكمال فإن المتقي ما يتقي الرحمن، وصدق أبو يزيد فإنه ما كان مشهوده في الحال إلا الرحمن والولي لا يتعدى ذوقه ولا ينطق بغير حاله ويرد كل شيء يسمع إلى الحال الذي يغلب عليه، وكان حال أبي يزيد في ذلك الوقت هو الذي نطق به فالمرء مخبوء تحت لسانه، فإن اللسان ترجمان أحوال الناطق. ثم اعلم أن البدن جعلها الله من شعائره ولهذا تشعر ليعلم أنها من شعائر الله، وما وهب لله لا رجعة فيه، ألا تراها إذا ماتت قبل الوصول إلى البيت كيف ينحرها صاحبها ويخلي بينها وبين الناس ولا يأكل منها شيئاً، فهذا من منة الله حيث جعلك مثلاً وميزك عنه وجعل لك ملكاً وطلب منك أن تقرضه والنعمة بالأصالة نعمته وهذه كلها من شعائر الله، فإن كل شعيرة منها دليل على الله من حيث أمر ما خاص أراده الله وأبانه لأهل الفهم من عباده فيتفاضلون في ذلك على قدر فهمهم، فإذا رأيت ما يقال فيه أنه من شعائر الله وتجهل أنت صورته في الشعائر ولا تعلم ما تدل عليه هذه الشعيرة فاعلم أن تلك الشعيرة ما خاطبك الحق بها ولا وضعها لك وإنما وضعها لمن يفهمها عنه ولك أنت شعيرة أيضاً غيرها وهي كل ما تعرف أنها دلالة لك عليه كما قال أبو العتاهية [المتقارب]:

وفي كُلّ شيءٍ له آيةٌ ... تَدُلُّ على أنّه وَاحِدُ

فقف عندها ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فيقوى فهمك فيما أنزله ويعلمك ما لم تكن تعلم، فإذا أمكنك الحق من نفسك علمت أنك من أقوى الشعائر عليه وأوضحها، ولهذا

جاءت الشريعة بقولها: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»، فإذا وصلت إلى ما أوصلتك إليه شعائر نفسك وشاهدت المشعور رأيته على صورتك، فمن هناك تعلم أنك الأصل في علمه بك، وأنه ما تجلى لك، إلا في صورة علمه بك، ولاكان عالماً بك إلا منك، وأنت بذاتك أعطيته لعلم بك، فأنت الشعيرة له عليك، فإن رأيته على غير صورتك فما رأيته من كونك شعيرة له، فلا تنكره إذا رأيت ما لا تعرف حين ينكره غيرك، فإن تلك الحضرة لا مجلى لأحد فيها إلا لله، فإذا كان هذا ارجع في نظرك منه إليك فترى نفسك في تلك الصورة التي رأيته عليها وما أنت انصبغت بها منه وإنما هي أيضاً صورتك في ثبوتك، وما كان وصل وقت دخولك فيها وظهورك بها فإن الصور تتقلب عليك إلى ما لا نهاية له وتتقلب فيها أنت وتظهر بها إلى ما لا نهاية فيه ولكن حالاً بعد حال انتقالاً لا يزول، وقد علمك تعالى في هذه الصور على عدم تناهيها فتجلى لك في صورة لم يبلغ وقت ظهورك بها لأنك مقيد وهو غير مقيد بل قيده إطلاقه، وإنما يفعل هذا مع عباده ليظهر لهم في حال النكرة ولهذا ينكرونه إلا العارفون بهذا المقام فإنهم لا ينكرونه في أي صورة ظهر فإنهم قد حفظوا الأصل وهو أنه ما يتجلى لمخلوق إلا في صورة المخلوق، أما التي هو عليها في الحال فيعرفه أو ما يكون عليها بعد ذلك فينكره حتى يرى تلك الصورة قد دخل فيها فحينئذٍ يعرفه، فإن الله علمه وعلم ما يؤول إليه، والمخلوق لا يعلم من أحواله إلا ما هو عليه في الوقت ولذلك يقول: ﴿رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ ومن عباد الله من يعلم ذلك إذا رأى الحق في صورة لا يعرفها علم بحكم الموطن وما عنده من القبول أنه ما تجلى له إلا في صورة هي له، وما وصل وقتها فعلمها قبل أن يدخل فيها، فهذا من الزيادة في العلم التي زادها الله، فشكر الله الذي عرفه في موطن الإنكار ولذلك عظم الله هذا الفضل فقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣] فكان الحق في هذا الموطن من شعائر نفسك فعرفت نفسك به كما عرفته بنفسك فتأمل [مجزوء الرمل]:

فاجْتَمَعْنا في الشَّعائِرْ وافْتَرَقْنا في السَّرائِرْ
فلنا منه التَّجَلِّي وله منا الضَّمائِرْ
فَلِمِثْلِ ذا عُبَيْدٌ هائمٌ فيه يُبادِرْ
فإذا عَلِمْتَ هذا لم تَكُنْ عنه بِصَادِرْ
فهو الصّادرُ عَنْكُمْ مثل أوراق الدفاتِرْ
بعضُها يَسْتُرُ بعضاً بأوائلِ وأَوَاخِرْ
فَلْيُبَادِرْ من يُبادِرْ ولْيُفَاخِرْ من يُفاخِرْ

فما عظم الله شعائره سدى لأنه ما عظم إلا من يقبل التعظيم، وأما العظيم فلا يعظم فإن الموجود لا يوجد والله عظيم والعالم كله لإمكانه حقير إلا أنه يقبل التعظيم، ولم يكن له طريق في التعظيم، إلا أن يكون من شعائر الله عليه، فلما كان في نفس الأمر شعيرة عليه عرفنا الحق بذلك فنظرنا فرأينا حقية قوله فاستدللنا بنا عليه وبه إذا ظهر في النكرة علينا [المتقارب]:

فمِنْهُ إليَّ دَلِيلٌ عَلَيْـ ... ـيَ ومنّي إليه دَليلٌ عَلَيْهْ
فنحن لديه كما قاله ... بأعماله ثمّ نحن لَدَيْهْ
وأعمالُه عَيْنُ أعياننا ... فَبَدْئِيَ منه وعَوْدي إلَيْهْ

ولو لم يكن الأمر هكذا ما صدق اتخاذك إياه وكيلاً، والمال ماله فالمال مالك، والإشارة أن الصورة صورتك فصدق لن تراني إذ قال له موسى ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] وأداة لن تنفي الأفعال المستقبلة، والإشارة أن من جهلك في الحال جهلك في المآل لأنك إذا ظهرت له في المآل ما تظهر له بصورة الحال التي جهلك فيها عند طلبه رؤيتك، وإنما تظهر له بصورة حال ذلك المآل، فلا يزال منكراً ما يرى حتى يعرف الموطن وحكمه فيعلم ما يرى وما هو الحكم عليه فإن الله لم يزل ظاهراً لذي عينين وأعين، وأما ذو العين الواحدة فهو دجال أعور لم يزل في ربقة التقييد مغلولاً، فمن فتح الله عينيه التي امتن الله بهما عليه في قوله عز وجل: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾ [البلد: ٨] ليشهدني في الحالين: في الحال الراهنة والحال المستقبلة، فمن لم يرني في الحال وهو ناظر إليّ فإنه أبعد أن يراني في حال المآل وهو يراني ولكن لا يعرف أني مطلوبه وسبب ذلك أنه يطلبني بالعلامة، وهل هذا إلا عين الجهل بي [الطويل]:

وهل ثَمَّ غَيْري أو يكون ولَيْسَني ... فيا خَيْبَةَ الأبصار عند البَصَائِرِ
فإيّاك والأفكار إن كُنْتَ طالباً ... فإنّ مَحَلَّ الابْتِلاءِ سَرَائِري

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والسبعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: لا حول ولا قوة إلا بالله

[نظم: السريع]

الحَوْلُ والقُوّةُ لله ... عِنْدَ الذي يؤمن بالله
وإنما التّحْقيقُ عَبْدٌ رأى ... الحَوْلَ والقوّة لله
ومن يَرَى الأمْرَيْن في نَفْسِه ... فهو على نُورٍ مِنَ الله

قال الله تعالى معرفاً أن موسى عليه السلام قال لقومه: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وشرع لنا في القسمة بيننا وبينه أن نقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فقال: هذه بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، اعلم أن لا حول ولا قوة إلا بالله من خصائص من خلقه الله على صورته وهو الإنسان الكامل، فإن الملك ليس من حقيقته أن يكون هذا مقامه بل هو المتبري لأنه ليس بعبد جامع وإنما هو عضو من أعضاء العبد الجامع، فالعبد الجامع هو الذي لم يبقِ صفة في سيده إلا وهي فيه ومن صورته في الاقتدار على إيجادنا قبولنا لذلك، فما ثم قوّة مطلقة من واحد دون مساعد، فلما علم منا أنا نعلم ذلك شرع لنا أن نستعين به إذ القابل يحتاج إلى مقتدر، كما أنّ المقتدر طلب القبول من القابل، فصحت القسمة بيننا وبينه تعالى

فإنه الصادق وقد قال: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي**» فالاقتدار منه والقبول منا، وبهما ظهر العالم في الوجود الدليل أنّ المحال لا يقبل الوجود فلا ينفذ فيه الاقتدار لأنّ من حقيقة الاقتدار أنه لا يتعلق إلا بالممكن ولا معنى للممكن إلا القبول فلا يصح أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله إلا العبد الجامع، فكل من تبرأ فهو جزء من الجامع، وكل من أثبت الأمرين فهو جامع عالم بنفسه وبربه أديب وَفَى الأمر حقه [المتقارب]:

فــلا حَــوْلَ مِــنْــه ولا قُــوَّة ... إذا لــم أكُــنْ وأنــا الــواقِــع
ولا حَــوْلَ مــنّــي ولا قُــوَّة ... إذا لــم يَــكُــنْ وأنــا الــجَــامِــع

ألا تراها كنزاً أخفاه الله في الملك حتى أوجد آدم على صورته وجعله خليفة في أرضه واعترض من اعترض كما أخبر الله تعالى في ذلك وما سمع قبل خلق آدم لا حول ولا قوّة إلا بالله، وكل قائل يقولها من غير العبد الجامع فإنما يقولها بحكم التبعية له، ولما خلق العرش وأمرت الملائكة أن تحمله لم تطقه فلما عجزت قام الحامل الواحد منهم الذي على صورة الإنسان فقال بلسانه لما أعطاه الله لا حول ولا قوة إلا بالله فقال من بقي من الحملة بقوله فحملت العرش وأطاقته فلما أوجد الله الإنسان الكامل جعل له قلباً كالعرش جعله بيتاً له فما في العالم من يطيق حمل قلب المؤمن لأنهم عجزوا عن حمل العرش وهو في زاوية من زوايا قلب المؤمن لا يحس به ولا يعلم أن ثم عرشاً لخفته عليه، وجعل أسماءه الحسنى تحف بهذا القلب كما تحف الملائكة بالعرش، وجعل حملته العلم الإلهيّ، والحياة والإرادة والقول أربعة فالحياة نظير الحامل الذي على صورة الإنسان من حملة العرش لسريان الحياة في الأشياء فما ثم إلا حيّ، والحياة الشرط المصحح لبقية الصفات من علم وإرادة وقول ورد في الخبر أن جبريل لما علم آدم الطواف بالبيت وقال له: إنا طفنا بالبيت قبل أن تخلق بكذا وكذا ألف سنة فقال له آدم: فما كنتم تقولون عند الطواف به؟ فقال جبريل: كنا نقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فقال آدم: وأزيدكم أنا: لا حول ولا قوّة إلا بالله، فاختص بهذا الكنز آدم عليه السلام، فما ثم من يحول بينك وبين ما أنت قابل له مما إذا قبلته أضرّ بك وأنزلك على رتبتك أعني رتبة كمالك إلى حيوانيتك إلا الله ولا قوّة لك على ما كلفك من الأعمال إلا بالله، كما لا يحول بين الحق مع اقتداره وبين ما لا يصح فيه وجود إلا بك إلا أنت إذا لم تكن فلا بد من كونك فيما لا يوجد إلا بك ولا قوّة أي لا ينفذ اقتدار في أمر لا يظهر إلا بك، فمن القسمة ظهور حقيقة لا حول ولا قوة إلا بالله فيك وفيه بحسب الأحوال التي تطلبها، فلا أجمع من الإنسان الجامع، ولا أشرف فيه من جزئياته إلا الجزء الملكي منه، كما أن ذكر الله في الصلاة أشرف أجزاء الصلاة لا أن الذكر أشرف من الصلاة، كما أنه لا يكون الملك أشرف من الإنسان لأنه جزء من الإنسان والذكر جزء من الصلاة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] يعني بصورتها فإن التكبيرة الأولى تحريمها والسلام منها تحليلها عن الفحشاء والمنكر لما فيها من التحريم

﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] يعني فيها لأن الذكر جزء منها وهو أكبر أجزائها، وفيه وقعت القسمة بين الله وبين المصلي في الصلاة، فإذا علمت هذا علمت مقام الملك فلم يخرج عنك وأصبت الأمر على ما هو عليه وأنصفت وعرفت من أين أتى على من أتى عليه في باب المفاضلة الله تعالى مجموع أسمائه مع التفاضل فيها في عموم التعلق فاجعل بالك ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤] وتأدّب بآداب الحق الذي هو عليها، فإن العبد إذا قال: لا حول ولا قوّة إلا بالله يصدقه ربه فيقول الرب: لا حول ولا قوّة إلا بي، ولم يتعرّض أن يقول: لا حول ولا قوّة إلا بك يا عبدي فإن هذه الكلمة لا تظهر من قائلها إلا بقائلها، ولكن لما علم تعالى أن الإنسان الحيوان شارك الإنسان الكامل بالصورة الإنسانية علم أنه إذا قال الحق: لا حول ولا قوّة إلا بك طردها الإنسان الحيوان في غير موطنها فأساء الأدب، والإنسان الكامل لا يفعل مثل هذا فراعى الحق الحرمة ليتعلم الكامل فهي مسألة تعلم وتعتقد ولا يفوه بها ناطق ولا تجري على لسان عبد مختص إلا في بيان العلم ليعلم الأمر على ما هو عليه، فإن الله أخذ العهد على العلماء أن يعلموا من لا يعلم ما علمهم الله ومما علمهم الأدب، فلا يضعون الحكمة إلا في أهلها هذا من شأنهم رضي الله عنهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والسبعون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] و﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]

[نظم: البسيط]

الشَّخْصُ مُسْتَدْرَجٌ والصَّدْرُ مَشْرُوحُ والكَنْزُ مُسْتَخْرَجٌ والبَابُ مَفْتُوحُ
أيـن الأوائـلُ لا كـانـوا ولا سَـلَـفُـوا العَقْلُ يقبلُ ما تأتي به الرُّوحُ
لكنهم حُجِبُوا بالفِكْرِ فاعْتَمَدُوا عليه والعلمُ موهوبٌ ومَمْنُوحُ
ما فيه مُكْتَسَبٌ إن كُنْتَ ذا نَصَفٍ فليس للعقل تعديلٌ وتَجْرِيحُ
العَدْلُ والجَرْحُ شَرْعُ الله جَاءَ به مِيزَانُهُ فَبَدَا نَقْصٌ وتَرْجِيحُ
العقلُ أفْقَرُ خَلْقِ الله فاعْتَبِرُوا فإنه خَلْفَ باب الفكر مطروحُ
لولا الإلهُ ولولا ما حَبَاهُ به من القُوى لم يَقُمْ بالعقل تسريحُ
إنّ العقول قيودٌ إن وَثِقْتَ بها خَسِرْتَ فافْهَمْ فقولي فيه تَلْوِيحُ
ميزانُ شَرْعِكَ لا تَبْرَحْ تَزِينُ به فإن رُتْبَتَهُ عدلٌ وتصحيحُ
إن التنافُسَ في علم يقوم به صَدْرٌ بنُور شهود الحقّ مشروحُ
هذا التنافسُ لا أبْغي به بَدَلاً له من الذِّكْرِ قُدُّوس وسُبُّوحُ
لِمِثْلِ ذا يَعْمَلِ العاملُ ليس لهم في غير ذلك تحسين وتقبيحُ

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] وموجب الفرح المناسبة. ولما

علمنا أنّ الإنسان مجموع ما عند الله علمنا أنه ما عند الله أمر إلا وله إليه نسبه فله منه مناسب، فالعالم لا يرمي بشيء من الوجود وإنما يبرز إليه ما يناسبه منه ولا يغلب عليه حال من الأحوال بل هو مع كل حال بما يناسبه كما هو الله معنا أينما كنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ذلك بل هم بهذا القدر جاهلون، وعنه عمون، وهذا هو الذي أداهم إلى ذم الدنيا وما فيها والزهد في الآخرة وفي الكونين وفي كل ما سوى الله، وانتقدوا على من شغل نفسه بمسمى هذه كلها وجعلهم في ذلك ما حكي عن الأكابر في هذا النوع، وحملوا ألفاظهم على غير وجه ما تعطيه الحقيقة، ورأوا أنّ كل ما سوى الله حجاب عن الله، فأرادوا هتك هذا الحجاب فلم يقدروا عليه إلا بالزهد فيه، وسأبين هذا الفن في هذا الباب بياناً شافياً، وكون الحق كل يوم في شأن الخلق وكون الجنة وهي دار القربة ومحل الرؤية هي دار الشهوات وعموم اللذات ولو كانت حجاباً لكان الزهد والحجاب فيها، وكذلك الدار الدنيا، فأقول: إن الله خلق أجناس الخلق وأنواعه وما أبرز من أشخاصه لننظر فيه نظراً يوصلنا إلى العلم بخالقه فما خلقه لنزهد فيه، فوجب علينا الانكباب عليه والمثابرة والمحبة فيه لأنه طريق النظر الموصل إلى الحق، فمن زهد في الدليل فقد زهد في المدلول وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، وجهل حكمة الله في العالم وجهل الحق، وكان من الخاسرين الذين ما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، فالرجل كل الرجل من ظهر بصورة الحق في عبودة محضة فأعطى كل ذي حق حقه، ويبدأ بحق نفسه فإنها أقرب إليه من كل من توجه له عليه حق من المخلوقين، وحق الله أحق بالقضاء، وحق الله عليه إيصال كل حق إلى من يستحقه، ولمثل هذا فليعمل العاملون، إذ ولا بد من إضافة العمل إلينا، فإن الله أضاف الأعمال إلينا وعين لنا محالها وأمكنتها وأزمنتها وأحوالها وأمرنا بها وجوباً وندباً وتخييراً، كما أنه نهانا عز وجل عن أعمال معينة عين لنا محالها وأماكنها وأزمانها وأحوالها تحريماً وتنزيهاً، وجعل لذلك كله جزاء بحساب وبغير حساب من أمور ملذة وأمور مؤلمة دنيا وآخرة، وخلقنا وخلق فينا من يطلب الجزاء الملذ وينفر بالطبع عن الجزاء المؤلم، وجعل لي وعليّ حقاً في رعيتي إذ خلق لي نفساً ناطقة مدبرة عاقلة مفكرة مستعدة لقبول جميع ما كلفها به وهي محل خطابه المقصودة بتكليفه وامتثال أوامره ونواهيه والوقوف عند حدوده ومراسمه، حيث حد لها ورسم في حق الحق وحق نفسه وحق غيره، فيطلبه أصحاب الحقوق بحقوقهم نطقاً وحالاً ظاهراً وباطناً، فيطلبه السمع بحقه والبصر واللسان واليدان والبطن والفرج والقدمان والقلب والعقل والفكر والنفس النباتية والحيوانية والغضبية والشهوانية والحرص والأمل والخوف والرجاء والإسلام والإيمان والإحسان وأمثال هؤلاء من عالمه المتصل به، وأمره الحق أن لا يغفل عن أحد من هؤلاء أوّلاً ويصرفهم في المواطن التي عين له الحق، وجعل هذه القوى كلها متوجهة على هذه النفس الناطقة بطلب حقوقها، وجعلها كلها ناطقة بتسبيح الله تعالى جعلاً ذاتياً لا تنفك عنه، وجعل هذه الحقوق التي توجهت لها على النفس الناطقة الحاكمة على الجماعة ثابتة الحق جزاء لما هي عليه من تسبيح الله بحمده دنيا وآخرة، وما منهم من

يخالف أمر الله اختياراً، وأنه إذا وقعت المخالفة منهم فجبراً يجبرهم على ذلك الوالي عليهم الذي أمروا بالسمع والطاعة له، فإن جار فلهم وعليه، وإن عدل فلهم وله، ولم يعطِ الله هؤلاء الرعايا الذين ذكرناهم المتصلين به قوّة الامتناع مما يجبرهم على فعله بخلاف ما خرج عنهم ممن له أمر فيهم. ثم إن الله نعت لهم الجزاء الحسي وأشهدهم إياه في الحياة الدنيا بضرب مثال من نعيم الحياة الدنيا وبالوعد بذلك في الآخرة، ومنهم من أشهده ذلك في الأخرى وهو في الحياة الدنيا مشاهدة عين فرأى ما وقع له برؤيته من الالتذاذ ما لا يقدر قدره وما التذ به إلا من يطلب ذلك من رعيته فأخذ يسأله حقه من ذلك وأن لا يمنعه، وفي مثل هذا فليتنافس المتنافسون، وأيّ نفاسة أعظم من هذا؟ فالعارف المكمل المعرفة يعلم أن فيه من يطلب مشاهدة ربه ومعرفته الفكرية والشهودية، فتعين عليه أن يؤدّي إليهم حقهم من ذلك، وعلم أن فيه من يطلب المأكل الشهيّ الذي يلائم مزاجه، والمشرب والمنكح والمركب والملبس والسماع والنعيم الحسي المحسوس، فتعين عليه أيضاً أن يؤدّي إليهم حقوقهم من ذلك التي عين لهم الحق، ومن كان هذا حاله كيف يصح له أن يزهد في شيء من الموجودات وما خلقها الله إلا له، إلا أنه مفتقر إلى علم ما هو له وما هو لغيره لئلا يقول: كل شيء هو له، فلا ينظر من الوجوه الحسان إلا ما يعلم أنه له وما يعلم أنه لغيره يكف بصره ويغضه عنه فإنه محجور عليه ما هو لغيره، فهذا حظه من الورع والاجتناب والزهد، إنما متعلقه الأولوية بخلاف الورع وكل ترك، فأما الأولوية فينظر في الموطن ويعمل بمقتضاه ومقتضاه قد عينه له الحق بما أعلمه به بلسان الشارع فسموا من طريق الأخذ بالأولوية زهاداً حيث أخذوا بها فإن لهم تناول ذلك في الحياة الدنيا فما فعلوا لأن الله خيرهم فما أوجبه عليهم ولا ندبهم إليه ولا حجر عليهم ولا كرهه فاعلم ذلك. ثم إنه ينظر في هذا المخير فيه فلا يخلو حاله في تناوله أن يحول بينه هذا التناول وبين المقام الأعلى الذي رجحه له أو لا يحول، فإن حال بينه وبينه تعين عليه بحكم العقل الصحيح السليم تركه والزهد فيه، وإن كان على بينة من ربه أن ذلك لا يقدح ولا يحول بينه وبين المرتبة العليا من ذلك فلا فائدة لتركه كما قال لنبيه سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [ص: ٣٩] ولا تكون ممن تلبس عليه الأمور فيتحيل أنه بزهده فيما هو حق لشخص ما من رعيته ينال حظ ما يطلبه به منه شخص آخر من رعيته فإن ذلك عين الجهل، فإن تلك الحقيقة تقول له ما هذا عين الحق لي، فالأولى بالعبد الذي كلفه الله تدبير نفسه وولاه أن يعلم فإذا علم استعمله علمه حتى يكون بحكم علمه ولا يستعمل هو العلم، فإنه إن استعمل علمه كان علمه بحكمه، فوقتاً يعمل به ووقتاً يتركه أي يترك العمل به، وما عمل الترك إلا بالعلم، وإذا كان العلم يستعمله ويصرفه ويكون هو معمولاً مستعملاً للعلم حكم عليه جبراً على الصواب فوفى الحقوق أربابها، ومثل هذا الإمام في العالم قليل ولذلك يقول: ليس السخي من تسخى بماله وإنما السخي من تسخى بنفسه على العلم فكان تحت سلطان علمه، هذا هو كبير العالم. وأما ما ذكرناه من علم الأوامر والنواهي الإلهية فنوردها إن شاء الله في الباب الأخير من هذا

الكتاب، وبه ختمنا الكتاب، وهو باب الوصية، فانظر إلى ما يعطيك هذا الهجير من الفوائد، وما ذكرت لك ما نتيجة هذه الهجيرات إلا ليكون ذلك باعثاً لك على طلب الأنفس والأوجه والأولى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والسبعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]

[نظم: البسيط]

الـرّزْقُ يـأتـي بـه الـرَّزّاقُ لـيـس لـه ... اسـم سـواهُ ولا عَـيْـنٌ ولا أَثَـرُ

ولا تَـقُـولَـنَّ فـي الـوَهَّـاب إنَّ لـه ... حُـكْـمـاً عـلـيـه فـهـذا لـيـس يُـعْـتَـبَـرُ

فـإنـه واجـبٌ والـوَهْـبُ لـيـس لـه ... حُـكْـمُ الـوُجـوب وفـي الـعَـبْـدِ يُـخْـتَـبَـرُ

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦] ما أحل لك تناوله من الشيء الذي يقوم به أودك لتقوم به في طاعة ربك وإنما سماه بقية لأنه بالأصالة خلق لك ما في الأرض جميعاً، فكنت مطلق التصريف في ذلك تأخذ ما تريد وتترك ما تريد، ثم في ثاني حال حجر عليك بعض ما كان أطلق فيه تصرفك وأبقى لك من ذلك ما شاء أن يبقيه لك فذلك بقية الله، وإنما جعلها خيراً لك لأنه علم من بعض عباده أن نفوسهم تعمى عن هذه البقية بما يعطيهم الأصل فيتصرفون بحكم الأصل فقال لهم: البقية التي أبقى الله خير لكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ﴾ [هود: ٨٦] أي مصدقين بأني خلقت لكم ما في الأرض جميعاً، فإن صدقتموني في هذا صدقتموني فيما أبقيت لكم من ذلكم، وإن فصلتم بين الأمرين فآمنتم ببعض وكفرتم ببعض لم تكونوا مؤمنين، ثم إنكم لن تنالوا من ذلك مع جمعكم إياه وانكبابكم عليه إلا ما قدرته لكم وخسرتموني، وسواء عليكم تعرضتم لتحصيل ما ضمنته لكم أو أعرضتم عنه لا بد لي أن أوصله إليكم فإني أطلبكم به كما أطلبكم بآجالكم، وما ذلك من كرامتكم علي ولا من إهانتكم، فإني أرزق البر والفاجر والمكلف وغير المكلف، وأميت البر والفاجر والمكلف وغير المكلف وإنما عنايتي أن أوصل إليك من البقية لا من غيرها، في مثل هذا تظهر عنايتي بالشخص الموصل إليه ذلك فإنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، كما أنه لن تموت نفس حتى يأتيها أجلها المسمى، وسواء كان الرزق قليلاً أو كثيراً، وليس رزقك إلا ما تقوم به نشأتك وتدوم به قوتك وحياتك ليس رزقك ما جمعت وادخرت فقد يكون ذلك ولغيرك لكن حسابه عليك إذا كنت جامعه وكاسبه، فلا تكسب إلا ما يقوتك ويقوت من كلفك الله السعي عليه لا غير، وما زاد على ذلك مما فتحت به عليك فأوصله إنعاماً منك إلى من شئت ممن تعلم منه أنه يستعمله في طاعتي، فإن جهلت فأوصله فإنك لن تخيب من فائدته من كونك منعماً بما سميته ملكاً لك فأنت فيه كرب النعمة وليس غيري فأنت نائبي أو النائب بصورة من استخلفه، وقد رزقت النبات والحيوان والطائع والعاصي، فكن أنت كذلك وتحرى الطائع

جهد استطاعتك فإن ذلك أوفر لحظك وأعلى وفي حقك أولى وأثنى. واعلم أنه كما خلقت لك ما تحيي به ذاتك وتنعم به نفسك اعتناء بك فقد خلقت لك أيضاً ما إذا تصرّفت فيه أحييت به أسمائي ونعمت به نفوسهم وتكون أنت الآتي بذلك إليهم كما أنا الآتي برزقك إليك حيث كنت وكان رزقك، فإني أعلم موضعك ومقرّك، وأعلم عين رزقك وأنت لا تعلمه حتى تأكله أو أعلمك به على التعيين، فإذا تغذيت به وسرى في ذاتك حينئذٍ تعلم أنه رزقك كذلك علمتك فعلمت ما تستحقه الأسماء الحسنى من الرزق الذي تقوم به حياتها ونشأتها، وأعطيتك علم ذلك وعينه وجعلتك الآتي به إليهم، وكما طلبت منك الشكر على ما جئتك به من الرزق كذلك تطلب أنت الشكر على ما أتيت به من أسمائي، وإذا شكرتك أسمائي فأنا شكرتك فسعدت سعادة لم يسعد مثلها إلا من عمل مثل هذا العمل، وأسمائي لا بد أن يصل إليها ذلك من العالم ولكن لا يشكر أسمائي إلا من قصدها بذلك اعتناء منه بجانبها لا من جاء بها غافلاً عنها أن ذلك لها ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] لا والله كما لا يستوي الذين اجترحوا السيئات بالذين آمنوا وعملوا الصالحات في محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون أي ساء من يحكم بذلك، ثم أفصل وأقول قول لقمان لابنه: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ [لقمان: ١٦] أي عند ذي قلب قاسٍ لا شفقة له على خلق الله، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] وقوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ فإن الحجر لا يقدر أن يمتنع عن تأثيرك فيه بالمعول، والقلب يمتنع عن أثرك فيه بلا شك فإنه لا سلطان لك عليه، فلهذا كان القلب أشد قسوة أي أعظم امتناعاً وأحمى، وإن أحسنت في ظاهره فلا يلزم أن يلين قلبه إليك فذلك إليه.

وحكي أن بعض الناس كسر حجراً صلداً يابساً فرأى في وسط ذلك الحجر تجويفاً فيه دودة في فمها ورقة خضراء تأكلها. وروي في النبوّة الأولى أن لله تعالى تحت الأرض صخرة صماء في جوف تلك الصخرة حيوان لا منفذ له في الصخرة وأن الله قد جعل له فيها غذاء وهو يسبح الله ويقول: سبحان من لا ينساني على بعد مكاني يعني من الموضع الذي تأتي منه الأرزاق لا على بعد مكانها من الله، فإن نسبة الله إلى خلقه من حيث القرب بسكون الراء نسبة واحدة، ومن حيث القرب بفتح الراء نسبة مختلفة فاعلم ذلك أو في السموات بما أودع الله في سباحة الكواكب في أفلاكها من التأثيرات في الأركان لخلق أرزاق العالم أو الأمطار أيضاً، فإن السماء في لسان العرب المطر، قال الشاعر [الوافر]:

إذا سَـــقَـــطَ الـــسَّـــمـــاءُ بـــأرْض قَـــوْمٍ

يعني بالسماء هنا المطر وقوله: أو في الأرض بما فيها من القبول والتكوين للأرزاق فإنها محل ظهور الأرزاق كالأم محل ظهور الولد الذي للأب فيه أيضاً أثر بما ألقاه من الماء في الرحم سواء كان مقصوداً له ذلك أو لم يكن كذلك الكوكب يسبح في الفلك، وعن سباحته يكون ما يكون في الأركان الأمهات من الأمور الموجبة للولادة، وسواء كان ذلك مقصوداً للكوكب أو لم يكن بحسب ما يعلمه الله عز وجل مما أوحى به في كل سماء من

الأمر الإلهي الذي لا يعلمه إلا من أوحى به إليه فأينما كانت مثقال هذه الحبة من الخردل لقلتها بل لخفائها يأت بها الله، نبه بهذا التعريف لتأتيه أنت بما كلفك أن تأتيه به فإنك ترجوه فيما تأتيه به ولا يرجوك فيما أتاك به فإنه غني عن العالمين، وأنت من الفقراء إليه، فإتيانك إليه بما كلفك الإتيان به آكد في حقك أن تأتي به لافتقارك وحاجتك لما يحصل لك من المنفعة بذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ أي هو أخفى أن يعلم ويوصل إليه أي إلى العلم به من حبة الخردل ﴿خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] للطفه بمكان من يطلب تلك الخردلة منه لما له من الحرص على دفع ألم الفقر عنه، فإن الحيوان ما يطلب الرزق إلا لدفع الآلام لا غير، فلو لم يحس بالألم لما تصوّر منه طلب شيء من ذلك فليس نفعه سوى دفع ألمه بذلك وهو الركن الأعظم، ولولا أن حكم الجنة في أنه نفس حصول الشهوة نفس حصول المشتهى بحيث لو تأخرت عنه إلى الزمان الثاني الذي يلي زمان حصول الشهوة لكان ذا ألم لفقد المشتهى زمان الشهوة كالدنيا فإنه لا بد أن يتأخر حصول المشتهي عن زمان الشهوة فلا بد من الألم، فإذا حصل المشتهى فأعظم الالتذاذ به اندفاع ذلك الألم فافهم هذا وحققه فإنه ينفعك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والسبعون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]

[نظم: مجزوء الرمل]

مَـنْ يُـعَـظِّـمْ حُـرْمَـةَ الـلَّـهِ ... مـا يَـرَى عـيـنـاً سـوى الـلَّـهِ
كـل مـا فـي الـكـون حُـرْمَـتُـهُ ... لـيـس فـي الأعـيـان إلاّ هِـي
لـيـس بـالـسّـاهـي مُـعَـظِّـمُـهـا ... لا ولا فـي الـحـكـم بـالـلاّهـي
كـيـف يَـسْـهُـو عـن مـحـارمـه ... مـن يـرى الأشـيـاء بـالله
فـهـو الـرّائـي بـجَـارِحَـتِـي ... وأنـا عـن ذاك بـالـسَّـاهـي

العالم حرم الحق والكون حرمه الذي أسكن فيه هؤلاء الحرم، وأعظم الحرم ما له فيه أثر الطبع النكاحي لأنه محل التكوين، والعالم كله حرم الله فإنه محل تكوين الأحكام الإلهية لظهور الأعيان، فأي عين ظهر عاد حرمة من الحرم فحواء من آدم سواء منه ظهرت فهي عينه وهو عينها حرمته وزوجته التي كون فيها نبيه لأنها ضلعه القصير قبل الشكل المعلوم بالإنسان. فهكذا ما خلق الله من العالم والإشارة إليه في قوله جميعاً منه وقوله في عيسى وروحه لم ينسبه إلى غير لأنه ماثم غير، فمن عظم حرمة الله من العالم فما عظم إلا نفسه، وقد تبين لك أنك منه لا من ذاتك ولا من أمر آخر، فمن عظم حرمة الله فإنما عظم الله ومن عظم الله كان خيراً له وهو ما يجازيه به من التعظيم في مثل قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٢] ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٠] وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠] العامل في هذا الظرف في طريقنا قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ﴾ أي من يعظمها عند ربه أي في ذلك الموطن، فلتبحث في المواطن التي تكون فيها عند ربك ما هي كالصلاة مثلاً، فإن المصلي يناجي ربه

فهو عند ربه، فإذا عظم حرمة الله في هذا الموطن كان خيراً له، وتعظيم الحرمة أن يتلبس بها حتى تعظم فإذا عظمت كان التكوين كما بها، فلما أثقلت دعوا الله، والمؤمن إذا نام على طهارة فروحه عند ربه فيعظم هناك حرمة الله فيكون الخير الذي له في مثل هذا الموطن المبشرة التي تحصل له في نومه أو يراها له غيره، والمواطن التي يكون العبد فيها عند ربه كثيرة فيعظم فيها حرمات الله على الشهود، وهذا الباب إن بسطنا القول فيه طال، وهذه الإشارة القليلة تعطي صاحب الفهم بقوّتها ما في البسط من الفوائد الوجودية وهذا كاف في الغرض المقصود، والحمد لله رب العالمين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثمانون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]

[نظم: البسيط]

مـن الـمِـزَاجِ قُـوَى الإنـسـان أجْـمَـعُـهَـا ... رُوحـاً وجـسـمـاً فـلا تَـعْـدِلْ عـن الـرَّشَـدِ
بـذاك يـضـعـفُ فـي حـالٍ تَـصَـرُّفُـهـا ... لـعـلـه قـبـلـتـهـا نـشـأة الـجَـسَـدِ
فـإن بَـدَا لـك مـا يـذهـب بـعـادتـهـا ... فـذاك حـكـم الإلٰـهِ الـواحـد الـصَّـمَـدِ
كـمِـثْـلِ عـيـسـى ومـن قـد كـان أشْـبَـهَـهُ ... مـن الأنـاسِـي ومـا بـالـرَّبْـع مـن أَحَـدِ
يـأتـي بـمـا جـاءكـم مـن خَـرْق عـادتـه ... سـوى الـذي خَـلَـقَ الإنـسـان فـي كَـبَـدِ

قال الله عز وجل: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥] فهذا سلام من الله عليه. وقال عيسى عن نفسه عليه السلام إخباراً بحاله مع الله فيما أخبر الله به عن عنايته بيحيى عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣] وزاد المحمدي الوارث: «كُنْتُ نَبِيّاً وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ» وذلك أن [الطويل]:

عـنـايـةُ رَيْـعـان الـشَّـبـاب قَـوِيَّـةٌ ... لأن لـهـا الـقُـرْبَ الإلٰـهـيَّ بـالـنّـصِّ
لأن عُـلُـوم الـقـوم ذَوْقٌ وخـبـرةٌ ... وهـذي عـلـوم لـيس تُـدْرَكُ بـالـفَـحْـصِ

فإن رسول الله ﷺ برز بنفسه وحسر الثوب وقال لما أقبل الغيث حتى أصابه أنه حديث عهد بربه، فهذا هو النص الجلي الذي أتى من الشرع في الغيث القريب من الرب فكل أول في العالم فإنه حديث عهد بربه، وكل ما في العالم أول فإنه شيء فهو في وجوده حديث عهد بربه إذ قال له: ﴿كُن﴾ فالعالم كله عالم الأمر سواء كان من عالم الخلق أو لم يكن، وقد بينا عالم الأمر والخلق ما هو وهو الوجه الخاص الذي في عالم الخلق وما عثر عليه أحد من أهل النظر في العلم الإلٰهي إلا أهل الله ذوقاً، ولما كان للصبي حدثان هذا القرب وهو قرب التكوين والسماع ولم يحل بينه وبين إدراك قربه من الله حائل لبعده عن عالم الأركان في خلقه فلم يكن عن أب عنصري ولكن كان روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، فلم يكن ثم ما يغيبه عمن صدر عنه فقال مخبراً عن ما شاهده من الحال فحكم في مهده على مرأى من قومه الذين افتروا في حقه على أمّه مريم فبرأها الله بنطقه وبحنين جذع النخلة إليه إذا كثر الشرع في

الحكومة بشاهدين عدلين ولا أعدل من هذين فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ فحكم على نفسه بالعبودية لله وما قال ابن فلان لأنه لم يكن ثم وإنما كان حق تجلى في صورة روح جبريل لما في القضية من الجبر الذي حكم في الطبيعة بهذا التكوين الخاص الغير معتاد ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فحصل له إنجيله قبل بعثه فكان على بينة من ربه فحكم بأنه مالك كتابه الإلهي ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] فحكم بأن النبوّة بالجعل لأن الله يقول: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] فهو في الصورة بالجعل لئلا يتخيل أن ذلك بالذات بل هو اختصاص إلّهي ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ أي خصني بزيادة لم تحصل لغيري، وتلك الزيادة ختمه للولاية ونزوله في آخر الزمان وحكمه بشرع محمد ﷺ حتى يكون يوم القيامة ممن يرى ربه الرؤية المحمدية في الصور المحمدية ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ من دنيا وآخرة فإنه ذو حشرين: يحشر في صف الرسل ويحشر معنا في أتباع محمد ﷺ ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ المفروضة في أمة محمد ﷺ أن أقيمها لأنه جاء بالألف واللام فيها ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أيضاً كذلك ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١] زمان التكليف وهو الحياة الدنيا ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ فأخبر أنه شق في خلفه فإن لأمّه عليه ولادة لما كانت محل تكوينه فقلت نسبته العنصرية في خلقه فكان أقرب إلى ربه فكان أحدث عهد بعبوديته لربه ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢] إذ لا يكون ذلك ممن يكون إلا بالجهل والجهل فيه إنما هو من قوّة سلطان ظلمة العنصر، وقد بينا مرتبة عالم الطبيعة من عالم العناصر في هذا الكتاب في مواضع منه ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ لعلمه بمرتبته من ربه وحظه منه ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ يعني له السلامة في ولادته من تأثير العبد المطرود الموكل بالأطفال عند الولادة حين يصرخ الولد إذا وقع من طعنته فلم يكن لعيسى عليه السلام صراخ بل وقع ساجداً لله تعالى: ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ يكذب من يفتري عليه أنه قتل فلم يقل ويوم أقتل ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣] يعني في القيامة الكبرى أكد موته فآتاه الحكم بما ذكره وهو صبيّ رضيع في المهد، فكان أتم في الوصلة بربه من يحيى ابن خالته فإن عيسى سلم على نفسه بسلام ربه ولهذا ادّعي فيه أنه إله، ويحيى سلم عليه ربه تعالى ولم ينص على أنه عرف بذلك السلام عليه أو لم يعرف.

واعلم أن الناس إنما يستغربون الحكمة من الصبيّ الصغير دون الكبير لأنهم ما عهدوا إلا الحكمة الظاهرة عن التفكر والروية، وليس الصبيّ في العادة بمحل لذلك فيقولون إنه ينطق بها فتظهر عناية الله بهذا المحل الظاهر، فزاد يحيى وعيسى بأنهما على علم مما نطقا به علم ذوق لأن مثل هذا في هذا الزمان والسنّ لا يصح أن يكون إلا ذوقاً وأن الله آتاه الحكم صبياً وهو حكم النبوّة التي لا تكون إلا ذوقاً، فمن كان هجيره هذا فوراثته وإن كان محمدياً لهذين النبيين أو لأحدهما على حسب قوّة نسبته منهما أو من أحدهما، وقد نطق في المهد جماعة أعني في حال الرضاعة، وقد رأينا أعظم من هذا رأينا من تكلم في بطن أمّه وأدّى واجباً وذلك أن أمه عطست وهي حامل به فحمدت الله فقال لها من بطنها: يرحمك الله بكلام سمعه الحاضرون وأما ما يناسب الكلام فإن ابنتي زينب سألتها كالملاعب لها وهي في سن الرضاعة وكان عمرها في ذلك الوقت سنة أو قريباً منها فقلت لها بحضور أمها وجدتها: يا بنية

ما تقولين في الرجل يجامع أهله ولا ينزل؟ فقالت: يجب عليه الغسل، فتعجب الحاضرون من ذلك، وفارقت هذه البنت في تلك السنة وتركتها عند أمها وغبت عنها وأذنت لأمها في الحج في تلك السنة ومشيت أنا على العراق إلى مكة فلما جئنا المعرّف خرجت في جماعة معي أطلب أهلي في الركب الشامي فرأتني وهي ترضع ثدي أمها فقالت: يا أمي هذا أبي قد جاء فنظرت الأمّ حتى رأتني مقبلاً على بعد وهي تقرل: هذا أبي هذا أبي فناداني خالها فأقبلت فعندما رأتني ضحكت ورمت بنفسها عليّ وصارت تقول لي: يا أبت يا أبت، فهذا وأمثاله من هذا الباب.

الباب الأحد والثمانون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله: إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً

[نظم: البسيط]

مَنْ يَشْهَدِ اللَّهَ في أعماله حَسُنَتْ — نَشْآتُها فلها في الوَزْن رُجْحَانُ
مع الشهودِ له أجرٌ يُخَصُّ به — قَضَى بذلك في التعريف مِيزانُ
إنّ الرسولَ له أجْرٌ تُعَيِّنُهُ — له رسالته ما فيه نُقْصَانُ
لولا الوجودُ لما كان الشهودُ لنا — وفي الوجود لنا ربحٌ وخُسْرانُ
وليس يَدْري الذي جئنا به أحَدٌ — إلا عليمٌ بما في الأمْرِ حَيْرانُ

قال رسول الله ﷺ في الإحسان: «إنه العمل على رؤية الحق في العبادة»، وهو تنبيه عجيب من عالم شفيق على أمته، لأنه علم أنه إذا قام العبد في عمله عبادة وجعل في نفسه أنه يرى ربه ويراه ربه بما استحضره في تلك العبادة على قدر علمه فإنه إذا كان هذا هجيره وديدنه ذلك أبصر أن العامل هو الله لا هو وأن العبد محل ظهور ذلك العمل، كما ورد أن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فالإحسان في العبادة كالروح في الصورة يحييها وإذا أحياها لم تزل تستغفر لصاحبها ولها البقاء الدائم فلا يزال مغفوراً له، فإن الله صادق وقد أخبر أنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، بل لا يضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض كان العمل ما كان، فإن كان خيراً فلا يضيع أجره، وإن لم يكن خيراً فإن الله لا يضيعه لأنه لا بد أن يبدل الله سيئات التائب حسنات، فإن لم يكن العمل غير مضيع وإلاً ففي أي أمر يقع التبديل لأن الأعمال صور أنشأها العامل لا بل أنشأها الله فإنه العامل والعبد محل ظهور ذلك العمل كالهيولى لما يقبله من فتح الصور فيها، ثم إن الحضور مع الله تعالى وهو الإحسان في ذلك العمل حياة ذلك العمل وبه سمي عبادة، ولولا هذا الحضور ما كان عبادة، فما من مؤمن يعصي إلا وفي نفسه ذل المعصية فلذلك يصير عباده ولو لم يكن إلا علمه بأنها معصية، وأي روح أشرف من العلم كما قال الله عن نفسه إنه أحاط بكل شيء علماً ودل عليه دليل العقل والعمل من الأشياء وهو يعلمه ويعلم حيث هو، فكيف يضيع عنه أو يضيعه وهو خلق من خلقه يسبح بحمده، فإن كانت حياته عن نفخ ربه سبح بحمده، وإن كانت حياته عن

حضور عامله ومنشئه وكان العمل ما كان سبح بحمده واستغفر لعامله فهذا الفرقان بين العملين، فإن أعطى الله المغفرة لغير الحاضر فإنما ذلك مراعاة إلهية لكون هذا العبد أنشأ بوجوده صورة ولا بد لكل صورة من روح فإن الله يغفر له لكونه ظهرت عنه صورة نفخ الحق فيها روحاً منه فسبحت بحمده، فلهذا الاشتراك لحقت المغفرة صاحب ذلك العمل كان من كان، ولحقته متى لحقته، والتروك لا تكون أعمالاً إلا إذا نويت وما لم ينوها صاحبها فإنها ليست بعمل، فإن الأعمال منها ظاهرة وباطنة أو يترك الإنسان ما أمر بفعله فإن الترك عدم محض، إلا أن هناك دقيقة وذلك أن العمل الذي يكون فيه في زمان ترك ما أوجب الله عليه فعله هو الذي يكون صورة من إنشاء عامله لا عين الترك، فإن الزمان إنما هو لذلك العمل المتروك حتى يتوب وهذا أشد المعاصي وأعظمها، ولهذا ذهب من ذهب من أهل الظاهر إلى أنه من صلّى ركعتي الفجر ولم يضطجع فإن صلاة الصبح لا تصح له، وإن لم يركع الفجر لم يجب عليه الاضطجاع وجازت صلاة الصبح وغايته أنه ترك سنة مؤكدة لا إثم عليه في تركها وهذا عين ما ذكرناه والتعليل واحد، فكل عمل مأمور به على طريق الفرض والوجوب وترك، فإن العمل الذي يقوم الإنسان فيه على البدل من العمل المأمور به هو الذي يقوم صورة لا عين الترك فافهم، ولكن إذا كان العمل المتروك يشغل زماناً بذاته لا يصح في ذلك الزمان غيره ويكون مطلقاً لا يكون زماناً مقيداً، ويكون العمل ممن يحرم على العامل التصرّف في عمل غيره كالصلاة، فإن لم يكن كذلك فأي عمل عمله فإنه مقبول أعني من أعمال الخير لأنه عمله في زمان يجوز له فيه عمله، فأحسن العمل ما عمل بشرطه وفي زمانه وتمام خلقه وكمال رتبته في حاله، فحينئذٍ يكون صورة مخلقة، فافهم ذلك واعمل بحسبه فإنك تنتفع بذلك إن شاء الله.

الباب الثاني والثمانون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢]

[نظم: الوافر]

وَمَنْ يُسْلِمْ إلى الرَّحْمٰن وَجْهاً ... فذاك الوَجْهُ ليس له انْتِهَاءُ
لأن الله ليس له ابتداءٌ ... يُعَيِّنُهُ فيَحْصُرُهُ الثَناءُ
فأُشْهِدُهُ بإسلامي إليه ... وهذا الحَقُّ ليس به خفاءُ
وذاك العُروَةُ الوُثْقَى لدينا ... لمَاسِكها الهُدَى والاعْتِلاءُ
لقد قَسَمَ الصَّلاةَ ولَسْتُ كُفْؤاً ... فبان الاهْتِدَا والاقْتِداءُ
كأن الحَقَّ لم يَخْلُقْ سِوَائي ... فمَنْزِلُهُ ومَنْزِلُنا سَوَاءُ

يعني في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [الشورى: ١١] قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فلم يفرق بين الاسم الله والاسم الرحمن، بل جعل الاسمين من

الألفاظ المترادفة، وإن كان في الرحمن رائحة الاشتقاق ولكن المدلول واحد من حيث العين المسماة بهذين الاسمين، والمسمى هو المقصود في هذه الآية ولذلك قال: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، ومن أسمائه الحسنى: الله والرحمن إلى كل اسم سمى به نفسه مما نعلم ومما لا نعلم ومما لا يصح أن يعلم، لأنه استأثر بأسماء في علم غيبه لما كان الاسم الله قد عصمه الله أن يسمى به غير الله فلا يفهم منه عند التلفظ به وعند رؤيته مرقوماً إلا هوية الحق لا غير فإنه يدل عليه تعالى بحكم المطابقة، قال أبو يزيد عند ذلك أنا الله يعني ذلك المتلفظ به في الدلالة على هويته، يقول رضي الله عنه: أنا أدل على هوية الله من كلمة الله عليها ولذلك سماه كلمته، وقال عليه السلام: «**إنَّ أَوْلِياءَ الله هُمُ الَّذِينَ إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله**» وسموا أولياء الله لقيام هذه الصفة التي تولاهم الله بها بهم وأي إسلام وانقياد ذاتي لأنه قال وجهه أعظم من هذا الانقياد والإسلام وهو محسن أي فعل ذلك عن شهود منه لأن الإحسان أن ترى ربك في عبادتك فإن العبادة لا تصح من غير شهود، وإن صح العمل فالعمل غير العبادة، فإن العبادة ذاتية للخلق والعمل عارض من الحق عرض له فتختلف الأعمال فيه ومنه، والعبادة واحدة العين، فكما لا تفرق بين الله والرحمن كذلك لا تفرق بين العبد الحقيقي وبين ربه فعندما تراه فلا ينكره إلا من أنكر الرحمن، فلذلك سمي هذا المقام العروة الوثقى أي التي لا تتصف بالانخرام لأنها لذاتها هي عروة وثقى شطرها حق وشطرها خلق، كالصلاة حكم واحد نصفها لله ونصفها للعبد ولم يقل للمصلي ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢] فنبه أن مرجع هذا التفصيل كله إلى عين واحدة ليس غير ذلك العين لها صفة الوجود، فمن لم يكن له مثل هذا النتاج في هذا الهجير فما ذكر الله به وإن لم يزل به متلفظاً فليس المقصود منه إلا ظهور مثل هذا، وهذه الإشارة كافية في هذا الذكر، والحمد لله وحده.

الباب الثالث والثمانون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩و ١٠]

[نظم: الرمل]

فَازَتِ النَّفْسُ إذا ما اتَّصَفَتْ ... بصفات القُدْس في نَشْأَتِهَا
أو بأَمْرٍ عارضٍ كان لها ... وَقَفَتْ فيه على حِكْمَتِهَا
فهما في الحُكْم سِيَّان على ... ما اقْتَضَاهُ الأمرُ من سورتها
والذي قد دَسَّها بينهما ... دون نَعْتٍ خابَ من جُمْلَتِها
لم يجب من بعد ما تنتجه ... أنه الظاهر في صُورتها
فله الحَمْدُ على ذاك وذا ... لدخول الكَوْنِ في رَحْمَتِها

تحقيق هذا الذكر أن النفس لا تزكو إلا بربها فبه تشرف وتعظم في ذاتها لأن الزكاة ربوّ، فمن كان الحق سمعه، وبصره وجميع قواه والصورة في الشاهد صورة خلق فقد زكت نفس من هذا نعته وربت وأنبتت من كل زوج بهيج كالأسماء الإلهية لله، والخلق كله بهذا

النعت في نفس الأمر، ولولا أنه هكذا في نفس الأمر ما صح لصورة الخلق ظهور ولا وجود ولذلك ﴿خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٠] لأنه جهل ذلك فتخيل أنه دسها في هذا النعت وما علم أن هذا النعت لنفسه نعت ذاتي لاينفك عنه يستحيل زواله لذلك وصفه بالخيبة حيث لم يعلم هذا ولذلك قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ [الشمس: ٩] ففرض له البقاء، والبقاء ليس إلا لله أو لما كان عند الله وما ثم إلا الله أو ما هو عنده فخزائنه غير نافدة فليس إلا صور تعقب صوراً، والعلم بها يسترسل عليها استرسالاً بقوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] مع علمه بها قبل تفصيلها، فلو علمها مفصلة في حال إجمالها ما علمها فإنها مجملة، والعلم لا يكون علماً حتى يكون تعلقه بما هو المعلوم عليه، فإن المعلوم هو الذي يعطيه بذاته العلم والمعلوم هنا غير مفصل فلا يعلمه إلا غير مفصل إلى أنه يعلم التفصيل في الإجمال، ومثل هذا لا يدل على أن المجمل مفصل إنما يدل على أنه يقبل التفصيل إذا فصل بالفعل هذا معنى ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ وإذا كان الأمر كما ذكرناه فما ثم ﴿مَن دَسَّىٰهَا﴾ ولو كان ثم لكان هو الموصوف بالخيبة لأن الشيء لا يمكن أن ينجعل ولا يندس في غير قابل لاندساسه، وإذا دسه فقد قبله ذلك القابل، وإذا قبله فما تعدى ذلك المدسوس رتبته لأنه حل في موضعه واستقرّ في مكانه، فما خاب من دسه الخيبة المفهومة من الحرمان فله العلم وما له نيل الغرض فحرمانه عدم نيل غرضه فإن العلم ما هو محبوب لكل أحد، ولو كان العلم محبوباً لكل أحد ما قال من قال إن العلم حجاب والحجاب عن الخير تنفر منه الطباع، ونحن إذا قلنا العلم حجاب فإنما نعني به يحجب عن الجهل فإن الوجود والعدم لا يجتمعان أعني النفي والإثبات فما يخيب إلا أصحاب الأغراض وهم الأشقياء، فمن لا غرض له لا خيبة له وأنت تعلم أنه إذا دس شيء في شيء إن لم يسعه فلا يندس فيه وإن اندس فقد وسعه ولا يسعه إلا ما هو له فلكل دار أهل، وما ثم في الآخرة إلا داران جنة ولها أهل وهم الموحدون بأي وجه وحدوا وهم الذين زكوا نفوسهم، والدار الثانية النار ولها أهل وهم الذين لم يوحدوا الله وهم الداسون أنفسهم فخابوا لا بالنظر إلى دارهم ولكن بالنظر إلى الدار الأخرى، فكما أنه لم يتعدَ أحد هنا ما قدر له وما أعطته نشأته الخاصة به كذلك لم يتعد هنالك ما قدر له موطنه الذي هو معين لذلك الذي قدر له، فمن خلق للنعيم فسييسره لليسرى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٧] ومن خلق للجحيم فسييسره للعسرى ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بنفسه على ربه حيث طلب منه قلبه ليتخذه بيتاً له بالإيمان أو التوحيد ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ [الليل: ٨] بنفسه عن ربه في زعمه ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٩] وهي أحكام الأسماء الحسنى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ١٠] فهذا تيسير التعسير وهو يشبه الدس، فإن الدس يؤذن بالعسر لا بالسهولة، فلو جهد أحد أن يدخل فيما لا يسعه ما يمكن له ذلك جملة واحدة وما كلف الله نفساً إلا وسعها في نفس الأمر، ولذلك وسعت رحمته كل شيء وزال الغضب وارتفع حكمه وتعينت المراتب وبانت المذاهب وتميز المركوب من الراكب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والثمانون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥]

[نظم: الطويل]

إذا احْتُضِرَ الإنسانُ هَيَّأ ذَاتَهُ ... لِرُؤْيةِ من يَلْقَاه وهو بِعَيْنِهْ
فيا عجباً من غائب وهو حاضرٌ ... وليس يراه الشخصُ من أجل كَوْنِهْ
فإن زَالَ عن تركيبه وهو زائلٌ ... فإن وجودَ الحَقِّ في سَتْرِ صَوْنِهْ
ومن فَرَّط قرب الشيء كان حجابه ... فلو زال ذاك القربُ قام بِعَوْنِهْ
فيَشْهَدُهُ حالاً وعَيْناً بعينه ... وخُصَّ بهذا الوصف من أجل حَيْنِهْ
فسبحان من لا تشهدُ العَيْنُ غَيْرَهُ ... على عِزِّهِ فيما يَزِينُ وشَيْنِهْ
فما الشأنُ إلا في وجودي وكونه ... فمن بينه كانت شواهد بَيْنِهْ

البين الأول الوصل والآخر الفراق وليس إلا آخر الأنفاس فما بعده نفس خارج لأنه ليس ثم وقد خرج وفارق القلب بصورة ما كشف له، فإن كان الكشف مطابقاً لما كان عليه فهو السعيد، وإن لم يكن مطابقاً فهو بحسب ما كشفه قبل فراقه القلب لأنه هنالك يكتسب الصورة التي يخرج بها، وهذه منة من الله بعبده حتى لا يقبض الله عبداً من عباده إلا كما أخرجه من بطن أمه على الفطرة، فإن المحتضر ما فارق موطن الدنيا إلا أنه على أهبة الرحيل رجله في غرز ركابه وهنالك ينكشف له شهوداً حقيقة قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقوله في حق طائفة: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] غير أن الذين بقيت لهم أنفاس من الحاضرين لا يبصرون معية الحق في أينية هذا العبد فإنهم في حجاب عن ذلك إلا أهل الله فإنهم يكشفون ما هو للمحتضر مشهود كما كان الأمر عندهم، فإن عم بقوله: ﴿لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] فإنه يريد الذوق فإن ذوق كل شاهد في مشهوده لا يكون لغيره، وإن اتصف بالشهود فالحق عند العارف في العين وعند غير العارف في الأين، فبرحمة من الله كان هذا الفضل من الله، ولولا الدار ما تجذب أهلها جذب المغناطيس الحديد، ولولا أهلها ما هم كأولاد أم عيسى مع الصبغ ما رموا نفوسهم فيها، يقول النبي ﷺ: «**إِنَّكُمْ لَتَقْتَحِمُونَ فِي النَّارِ كَالفَرَاشِ وَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ**» فشبههم بالفراش الذي يعطيه مزاجه أن يلقي نفسه في السراج فيحترق ولكن هؤلاء الذين هم أهلها، وأما من يدخلها وروداً عارضاً لكونها طريقاً، إلى دار الجنان فهم الذي يتبرمون بها وتخرجهم شفاعة الشافعين وعناية أرحم الراحمين بعد أن تنال منهم النار ما تقتضيه أعمالهم، كما أن الذين هم أهلها في أول دخولهم فيها يتألمون بها أشد الألم ويسألون الخروج منها حتى إذا انتهى الحد فيهم أقاموا فيها بالأهلية لا بالجزاء فعادت النار عليهم نعيماً، فلو عرضوا عند ذلك على الجنة لتألموا لذلك العرض، فينقدح لهذا الذكر أعني لأهله مثل هذه المعارف الشهودية، فإن ادعى أحد هذا الهجير وجاء بعلم غير مشهود له معلومه

رؤية بصر فليس ذلك نتيجة هذا الذكر بل ذلك أمر آخر، فلينتظر فتح هذا الذكر الخاص الذي هو هجيره حتى يمن الله عليه بالشهود البصري لا بد من ذلك فإن الموطن يقتضيه، قال الله عز وجل: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [قٓ: ٢٢] فهو يرى ما لا يرى من عنده من أهله الذين حجبهم الله تعالى عن رؤية ذلك إلى أن يأتيهم أجلهم أيضاً، جعلنا الله عز وجلّ في ذلك المقام ممن يشهد ما يسره لا ما يسوءه آمين بعزته، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والثمانون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥]

[نظم: الكامل]

إنّ الحياةَ هي النَّعِيمُ فمن يُرِدْ ... تَحْصِيلَهُ قبل الممات فقد أَسَا
إلا النعيم بربّه وشهوده ... فهو المُرَجَّى في لعلَّ وفي عَسَى
عند المُحَقّق والمُخَصَّص بالهُدَى ... وتسهّل الأمر الذي بي قد عَسَا
الواحد الفَرْد الذي بوجوده ... لم يتخذ غير المُهَيْمن مُؤنِسَا
وهو الذي عند الإلٰهِ مقامُهُ ... إذ كان من أدنى الخلائق مَجْلِسَا

يقول الله تعالى: «**أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي**» ومجالسة الحق بما يقتضيه مقام ذلك الذكر كان ما كان، فاعلم أن نية العبد خير من عمله والنية إرادة أي تعلق خاص في الإرادة كالمحبة والشهوة والكره، فالعبد تحت إرادته فلا يخلو في إرادته إما أن يكون على علم بالمراد أو لا يكون، فإن كان على علم فيها فلا يريد إلا ما يلائم طبعه ويحصل غرضه، وإن كان غير عالم بمراده فقد يتضرر به إذا حصل له، فإن راعى الحق الإرادة الطبيعية الأصلية نعم، فإن كل مريد إنما يطلب ما يسرّ به لا ما يسوءه ولكن يجهل الطريق إلى ذلك بعض القاصدين ويعرفه بعضهم، فالعالم يجتنب طرق ما يسوءه والجاهل لا علم له، فإن حصل له ما يسرّه فبالعرض بالنظر إليه وبالعناية الإلهية به، فإن الله تعالى وصف نفسه بأنه لا يبخس أحداً في مراده كان المراد ما كان، ومعلوم أن الإرادة الطبيعية ما قلناه وهي الأصل، وأرجو من الله مراعاة الأصل لنا ولبعض الخلق ابتداء، وأما الانتهاء فإليه مصير الكل، فإذا وصف الله نفسه بأنه يوفي كل أحد عمله أي أجرة عمله في الزمان الذي يريدها فيه ولا يبخسه من ذلك شيئاً فقد حبط عمله إن كانت إرادته الحياة الدنيا، فلا حظ له في الآخرة التي هي الجنة أو النعيم الذي ينتجه العمل لأنه قد استوفاه في الدنيا، فإن سعد بنيل راحة فذلك من الاسم الوهاب والإنعام الذي لا يكون جزاء، فلا يكون لمن هذه حاله إن سعد إلا نعيم الاختصاص سكن حيث سكن واستقر حيث استقر، فإن كان ممن يريد الحياة الدنيا ونقصه من ذلك نفس واحد لم ينعم به فليس هو ممن وفى الله له فيها عمله لأنه ما مكنه من كل ما تعلقت به إرادته في الحياة الدنيا، وهل يتصور وجود هذا مع قرصة البرغوث والعثرة المؤلمة في الطريق أو لا؟

فالآية تتضمن الأمرين وهي في الواحد المحال وقوعه في الوجود أظهر فإنه بعيد أن لا يتألم أحد في الدنيا، فمن أراد الحياة الدنيا فقد أراد المحال، فلو صح أن يقع هذا المراد لكان على الوجه الذي ذكرناه لكنه ليس بواقع، وأما الأمر الآخر، فإنه إذا تألم مثلاً بقرصة برغوث إلى ما فوق ذلك من أكبر أو أصغر، فإن كان مؤمناً فله عليه ثواب في الآخرة فيكون لهذا المريد الحياة الدنيا يعطيه الله ذلك الثواب في الدنيا معجلاً فينعم به، كما كان يفعل الله تعالى بأبي العباس السبتي بمراكش من بلاد الغرب رأيته وفاوضته في شأنه فأخبرني عن نفسه أنه استعجل من الله في الحياة الدنيا ذلك كله فعجله الله له، فكان يمرض ويشفي ويحيي ويميت ويولي ويعزل ويفعل ما يريد كل ذلك بالصدقة، وكان ميزانه في ذلك سباعياً، إلا أنه ذكر لي قال: خبأت لي عنده سبحانه ربع درهم لآخرتي خاصة فشكرت الله على إيمانه وسررت به، وكان شأنه من أعجب الأشياء لا يعرف ذلك الأصل منه كل أحد إلا من ذاقه أو من سأله عن ذلك من الأجانب أولي الفهم فأخبرهم غير هذين الصنفين لا يعرف ذلك، وقد يعطي الله ما أعطى السبتي المذكور لا من كونه أراد ذلك ولكن الله عجل له ذلك زيادة على ما ادخره له في الآخرة فإنه غير مريد تعجيل ذلك المدخر كعمر الواعظ بالأندلس ومن رأينا من هذا الصنف وعملت أنا عليه زماناً في بلدي في أول دخولي هذا الطريق ورأيت فيه عجائب وكان هذا لهم من الله ولنا لا من إرادتهم ولا من إرادتنا، ولو عرف أبو العباس السبتي نفسه معرفتي بها منه ما استعجل ذلك فإنه كان على صورة لا يكون عنها إلا هذا إلا أنه سأل ذلك من الله فأعطاه إياه عن سؤال منه ولو سكت لفاز بالأمرين في الدارين، لكن جهله بنفسه وطبعها الذي طبعت عليه وصورته التي ركبه الله عليها جعلته يسأل فخسر حين ربح غيره والعمل واحد، ولهذا يفرح بالعلم لأنه أشرف صفة يتحلى بها العبد.

واعلم أن الحياة الدنيا ليست غير نعيمها فمن فاته من نعيمها شيء فما وفيت له، وما ذكر الله إلا توفية العمل فهو نعيم العمل وصبره الذي ذكرناه على العثرة في محل التكليف، وقرصة البرغوث وإن لم يكن مؤمناً بالدار الآخرة وفاه الله ما يطلبه ذلك العمل في الحياة الدنيا، فما أعطى الله أحداً الحياة الدنيا مخلصة قط ولا هو واقع، ولو وقع له كل مراد لكان أسعد الخلق، فإنه من إرادته النجاة والبشرى من الله تعالى له بها، وإن لم يكن مؤمناً فما وقع المشروط وقوع عموم الشرط فافهم واعمل بحسب ما تعلم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والثمانون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾

[الأحزاب: ٣٦]

[نظم: الوافر]

ألا إنّ الرَّسُولَ هو الذي قَدْ ... حَبَاهُ الله بالشَّرَفِ التَّلِيدِ
فمن يَعْصِ الرسولَ فقد عَصَاهُ ... وحَيَّرَهُ بتَفْصِيل الوجودِ

فَرَامَ به فلم يَقْدِرْ عليه لما في الرَّبِّ من نَعْتِ العَبيدِ
فلم يَعْلَمْ به إذ لم يَجِدْهُ يميّزه له حال الشهودِ
فيَرْكَبُ تارةً مَتْنَ اعْتِرافٍ ويركبُ تارةً مَتْنَ الجُحُودِ
فسبحان المُخَصِّصِ كلّ حِزْبٍ بآلام ولذَّات المَزِيدِ

قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] لأنه لا ينطق إلا عن الله، بل لا ينطق إلا بالله، بل لا ينطق إلا الله منه فإنه صورته وما ورد ومن يعصِ الرسول فقد عصى الله كما أنزله في الطاعة لأنّ طاعة المخلوق لله ذاتية وعصيانه بالواسطة، فلو أنزل هنا الرسول كما أنزله في الطاعة لم يكن إلهاً وهو إله فلا يعصى إلا بحجاب وليس الحجاب سوى عين الرسول، ونحن اليوم أبعد في المعصية للرسول من أصحابه إلى من دونهم إلينا، فنحن ما عصينا إلا أولي أمرنا في وقتنا وهم العلماء منا بما أمر الله به ونهى عنه، فنحن أقل مؤاخذة وأعظم أجراً لأن للواحد منا أجر خمسين ممن يعمل بعمل الصحابة، يقول ﷺ: «**لِلوَاحِدِ مِنْهُمْ أَجْرُ خَمْسِينَ يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ**» فاجعل بالك لكونه لم يقل منكم، ثم قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩] فذكر الله تعالى وذكر الرسول وذكرنا أعني أولي الأمر منا، وهم الذين قدمهم الله علينا وجعل زماننا بأيديهم، ولم يكن رسول الله ﷺ يقدم في السرايا وغيرها إلا من هو أعلمهم، وما كان أعلمهم إلا من كان أكثرهم قرآناً فكان يقدمه على الجيش ويجعله أميراً، وما خص الاسم الله من غيره من الأسماء في قوله: ﴿فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] إذ كان الله هو الاسم الجامع، فله معاني جميع الأسماء الإلهية كما هو للتجلي جميع الصور كذلك الخليفة وهو الرسول، وأولو الأمر منا لا بد أن يظهروا في جميع الصور التي تحتاج إليها الرعايا، فمن بايع الإمام فإنما يبايع الله تعالى ولا تصح المعصية إلا بعد العقد وقد وقع في أخذ الميثاق والعهد في قوله تعالى: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ثم ألقمه الحجر الأسود وأمر بتقبيله تذكرة، وأخبر بلسان الرسول أن الحجر يمينه فأمر ببيعة محمد ﷺ، وقال في الذين يبايعونه ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] فأنزله منزلته، ولم ينزل الحجر منزلته بالذكر فعظم قدر ابن آدم [البسيط]:

قَبِّلْ فإنّ يمينَ العَهْد في الحَجَرِ وأين رُتْبَتُهُ من رُتْبَة البَشَرِ
إنّ المُبايَعَ من تَعْنُو الوجوهُ له الواحدُ الأحدُ القَيُّومُ بالصُّوَرِ
إن شاء في مَلَكٍ إن شاء في بَشَرٍ إن شاء في شَجَرٍ إن شاء في حَجَرِ
فما تُقَيِّدُهُ ذاتٌ ولا عَرَضٌ وما له في وجود الكون من أثَرِ
بَلِ الوجودُ هو الحقُّ الصريحُ فلا تَرَوْهُ غيراً فيدعوكم إلى الغِيَرِ
هو المؤثّرُ والآثار قائمةٌ بالحقّ فيما يراه فيه ذو بَصَرِ
إنْ لم يَكُنْ هكذا أَمْرُ الوُجُودِ وما تَضَمَّنَ الكَوْنُ مِنْ نَفْعٍ ومن ضَرَرِ
فما تكون لحَقٍّ صورةٌ أبداً ولا تُضافُ إليه آخِرَ العُمُرِ
هو المُطاعُ فما تُعْصَى أوامرُه والخلقُ والأمرُ في الأنثى وفي الذَّكَرِ

بالشَّمْسِ يَظْهَرُ ما في البَدْرِ مِنْ صِفَةٍ فأَنْتَ شَمْسٌ وعَيْنُ الحَقِّ في القَمَرِ
وليس في البَدْرِ ما الأبصار تدركُهُ لكنه هكذا تُدْرِكُهُ في النَّظَرِ
فكَوْنُنا في وجود الحق مغلطةٌ فالأمرُ أغمض بالبرهان والخَبَرِ

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وذلك هو الفضل المبين أقول له: أنت، يقول لي: أنت. أقول له: فأنا، يقول لي: لا بل أنا. فأقول له: فكيف الأمر؟ فيقول: كما رأيت. فأقول: فما رأيت إلا الحيرة فلا تحصيل مني ولا توصيل منك فيقول: قد أوصلتك. فأقول: فما بيدي شيء. فيقول: هو ذاك الذي أوصلت، فعليه فاعتمد وبالله فاتئد [الوافر]:

فما في الكَوْن من يَدْري سِواهُ ومَنْ يُدْرِكْ سواهُ فما دَرَاهُ
ومن يُدْرِكْ مع الخَلّاقِ خَلْقاً فإن الله من جَهْلٍ حَمَاهُ
ومن يُدْرِكْ مع المخلوق حَقّاً يراهُ وما يراهُ فما تَرَاهُ

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والثمانون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]

[نظم: البسيط]

لكلّ شيء من الأشياء ميزَانُ فكلّ شيء له نَقْصٌ ورُجْحَانُ
فالصالحون لهم وَزْنٌ يَخُصُّهُمُ والطّالحون لهم في الحقّ ميزانُ
فمن يقوم بوَزْنٍ في تَقَلُّبِهِ يَسْعَدْ وإن جاءه في ذاك بُرْهَانُ
لأنّ ميزانَه وَفَّى حقيقتَهُ ولم يساعده في ذاك شيطانُ
لذاك قال لمن وَفَّى طريقتَهُ مِنْ خَلْقِهِ ما له عليه سُلْطانُ

قال الله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦] و﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ [فاطر: ١٠] فالعمل الصالح له الحياة الطيبة وهي تعجيل البشرى في الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٤] فيحيى في باقي عمره حياة طيبة لما حصل له من العلم بما سبق له من سعادته في علم الله مما يؤول إليه في أبده، فتهون عليه هذه البشرى ما يلقاه من المشقات والعوارض المؤلمة فـ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس: ٥٥] وكلامه صدق، وقد خوطب بالقول الذي لا يبدل لديه، وكذلك أيضاً للعمل الصالح التبديل فيبدل الله سيآته حسنات حتى يوَدّ لو أنه أتى جميع الكبائر الواقعة في العالم من العالم كله على شهود منه عين التبديل في ذلك، ولقد لقيت من هو بهذه الحال بمكة من أهل توزر من أرض الجرير، ولقيت أيضاً بإشبيلية أبا العباس العريبي شيخنا من أهل العلياء بغرب

الأندلس ما لقيت في عمري إلا هذين من أهل هذا الذوق، وكذلك للعمل الصالح شكر الحق لأنه الغفور الشكور، فسعيه مقبول وكلامه مسموع، ولو لم يكن في العمل الصالح إلا إلحاق عامله بالصالحين وإطلاق هذا الاسم عليه لكان كافياً، فإنه مطلب الأنبياء عليهم السلام، وهم أرفع الطوائف من عباد الله، والصلاح أرفع صفة لهم، فإن الله أخبرنا عنهم أنهم مع كونهم رسلاً وأنبياء سألوا الله أن يدخلهم الله برحمته في عباده الصالحين، وذكر في أولي العزم من رسله أنهم من الصالحين في معرض الثناء عليهم، فالصلاح يكون أخص وصف للرسل والأنبياء عليهم السلام وهم بلا خلاف أرفع الناس منزلة وإن فضل بعضهم بعضاً، ومن نال الصلاح من عباد الله فقد نال ما دونه، فله منازل الرسل والأنبياء عليهم السلام وليس برسول ولا نبي، لكن يغبطه الرسول والنبي لما يناله الرسول والنبي من مشقة الرسالة والنبوّة لأنها تكليف وبها حصلت لهم المنزلة الزلفى ونالها صاحب العمل الصالح المغبوط من غير ذوق هذه المشقات، ومن هنا تعرف ما مسمى الرسول والنبي، وتعرف معنى قول الرسول ﷺ في قوم تنصب لهم منابر يوم القيامة في الموقف يخاف الناس ولا يخافون ويحزن الناس ولا يحزنون ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ليسوا بأنبياء يغبطهم النبيون حيث رأوا تحصيلهم هذه المنازل مع هذه الحال، فهم غير مسؤولين من بين الخلائق، لم يدخلهم في عملهم خلل من زمان توبتهم، فإن دخلهم خلل فليسوا بصالحين، فمن شرط الصلاح استصحاب العصمة في الحال والقول والعمل، ولا يكون هذا إلا لأهل الشهود الدائم والعارفين بالمواطن والمقامات والآداب والحكم فيحكمون نفوسهم فيمشون بها مشي ربهم من حيث هو على صراط مستقيم، فمن حياتهم الطيبة في الدنيا أنهم وإن دعوا الخلق إلى الله فإنهم يدعونهم بلسان غيرهم ويشهدون من سمع دعوتهم من المدعون، ومن يردّ الدعوة منهم فلا يألمون لذلك الردّ بل يتنعمون بالقبول نعيمهم بالرد لا يختلف عليهم الحال، وسبب ذلك أن مشهودهم من الحق الأسماء الإلهية وشهودهم إياها نعيم لهم، فمن دعا ما دعا إلا باسم إلهيّ فالاسم هو الداعي، ومن رد أو قبل فما رد وما قبل إلا بإسم إلهي، فالاسم هو القابل والراد، وهذا الشخص في حياة طيبة بهذا الشهود دائماً، ومن غيبه الله عن شهوده هذا المقام فإنه يألم طبعاً ويلذ طبعاً وهو أكبر نعيم أهل الله وألمهم، ولا تكون هذه الحياة الطيبة إلا أن تكون مستصحبة، وما ينالها إلا الصالحون من عباد الله، وإن ظهر منهم ما توجبه الأمور المؤلمة في العادة وظهر عليهم آثار الآلام فالنفوس منهم في الحياة الطيبة لأن النفوس محلها العقل ليس الحس محلها فآلامهم حسية لا نفسية، فالذي يراهم يحملهم في ذلك على حاله الذي يجده من نفسه لو قام به ذلك البلاء وهو في نفسه غير ذلك، فالصورة صورة بلاء، والمعنى معنى عافية وإنعام وما يعقلها إلا العالمون، فهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩] في الآخرة، وهذا التنبيه على تحصيل هذا المقام كاف فإنه مكتسب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والثمانون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]

[نظم: الرمل]

كُـلّ شَـخْـصٍ زَوْجُـهُ مِـنْ نَـفْـسِـهِ ولـهـذا زَوْجُـهُ مـن جِـنْـسِـهْ
فـهـو كُـلٌّ وهـي جـزءٌ فـلـذا كَـثُـرَتْ أزواجُـه مـن نَـفَـسِـهْ
وكـذا الـيـومُ الـذي أوْجَـدَهُ إنـمـا أوْجَـدَهُ مـن أَمْـسِـهْ
ولـذا جـاء عـلـى صُـورَتِـه فـي نَـقِـيض الـقُـدْسِ أو فـي قُـدُسِـهْ
لا تَـمُـدَّنَّ إلـى حُـرْمـة مـن كـان عـيـنـيـك فـذا مـن بَـخَـسِـهْ
وفِّـهِ مـيـزانَـهُ لا تَـلْـتَـفِـتْ لـلـذي تُـبْـصِـرُهُ مـن أنـسـهْ
إنـمـا يَـأنَـسُ مـن لَـسْـتَ لـه بـك لـلـجَـمْـع الـذي فـي أُسِّـهْ
ولـتُـجَـرِّدْهُ مـن الـشّـكّ ومـا جـاء مـن شـيـطـانـه فـي مَـسِّـهْ
ولـتُـفَـرِّقْ بـيـن مـا تـسـمـعُ مـن لـيـس فـي الـنُّـطْـقِ بـه أو أَيَـسِـهْ
ولْـتَـخَـفْ مـن زَلَـلِ الـنُّـطْـق ومـا جـاء فـي مـحـكـمـه مـن لَـبَـسِـهْ

قال الله تعالى في مثل هذه الآية وهو من تمام هذا المنزل ويدخله صاحبه في هجيره ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٨و ٨٩] ينبهه بذلك على نفسه في إنذاره ورزق ربك ما أعطاك مما أنت عليه في وقتك وما لم يعطك وهو لك فلا بد من وصوله إليك، وما أبطأ به إلا الوقت الزماني الذي هو له وما ليس لك فلا يصل إليك، فتتعب نفسك حيث طمعت في غير مطمع، ، وما أعني بقولنا أنه لك إلا ما تناله على الحد الإلهي الذي أباحه لك، وإن نلته على غير ذلك الحد فما نلت ما هو لك من جانب الحق، إنما نلت ما هو لك من جانب الطبع، وليس المراد في الدنيا إلا ما تناله من جانب الحق، فالحق للدنيا والطبع للآخرة، والطبع له الإباحة والحق له التحجير، وإن كانت الآخرة على صورة الدنيا، كما أن اليوم المولود عن نكاح أمس لليلته يخرج بصورته في الزمان وقد لا يخرج في الحكم، فانظر إلى عطايا ربك فإنها أكثر ما تكون ابتلاء ولا تعرف ذلك إلا بالميزان، وذلك أن كل عطاء يصل إليك منه فهو رزق ربك ولكن على الميزان، فإن خرج عن الميزان وهو لك طبعاً فلا بد لك من أخذه، فإياك أن تأخذه في حال غفلة فخذه بحضور على كره في نفسك وجبر واضطرار، وليكن حضورك في ذلك قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [قٓ: ٢٩]، فأظهر في هذا النيل بصورة الحق في ذلك الحكم الذي لا تبدل له ولا يصح أن يبدل فإنه هكذا علمه، وبهذه الصورة كان الأمر الذي أعطى العلم للحق به، ففي هذا الميزان حصله وزنه به وهو ميزان خفي، فإن غيبك الحق عن حال الكره في ذلك فإنه من الإكراه فاعلم أنك محروم، فإنه لما كان من الإكراه حصول الكراهة في نفس العامل لذلك العمل

الخارج عن ميزان الأدب دخل في حكم الميزان المأمور بالوزن به في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] وطمأنينته في هذه النازلة، إنما هو بما له فيه من الكراهة، فيجمع في هذا الفعل بين حب الطبع وكراهة الإيمان، فإن الله حبب الإيمان للمؤمن وكره إليه الفسوق والعصيان مع وقوعه منه وجعلك من أهل الرشد. ثم إن الله جعلهن زهرة حيث كن، فإذا كن في الدنيا كن زهرة الحياة الدنيا فوقع النعيم بهن حيث كن. وأحكام الأماكن تختلف فهنّ وإن خلقن للنعيم في الدنيا فهنّ فتنة يستخرج الحق بهن ما خفي عنا فينا مما هو به عالم ولا نعلمه من نفوسنا فيقوم به الحجة لنا وعلينا، وهذا مقام أعطانيه الحق بمدينة فاس سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة قبل ذلك ما كان لي فيه ذوق.

واعلم أن المعصية لا تقع أبداً إلا عن غفلة أو تأويل لا غير ذلك في حق المؤمن، وإذا وقع عين ذلك العمل من صاحب الشهود فلا يسمى معصية عند الله، وإن انطلق عليه لسان الذنب في العموم فللغشاوة التي على أبصار المحجوبين فيعذرهم الله فيما أنكروه على من ظهر منه هذا الفعل وهو في نفس الأمر ليس بعاصٍ مسألة الخضر مع موسى في قتل النفس أين حكم موسى عليه السلام فيه من حكم الخضر رضي الله عنه، وكل واحد له وجه في الحق ومستند، وهذا حال أهل الشهود يشهدون المقدور قبل وقوعه في الوجود فيأتونه على بصيرة، فهم على بينة من ربهم في ذلك وهو مقام لا يناله إلا من كان الله سمعه وبصره. ولما كانت الزهرة دليلة على الثمرة ومتنزهاً للبصر ومعطية الرائحة الطيبة هنا أعني في زهرة هذه المسألة كان صاحب هذا الأمر من أهل الأنفاس والشهود والأدلة، ولست أعني بالأدلة أن ذلك عن فكر وإنما هو في كشفه لما جرت العادة به أن لا ينال إلا بالدليل النظريّ أن يعطيه الله كشفاً بدليله فيعرف أدلته كما يعرفه وارتباطه بأدلته، فما يحصل له من علمه بوجوه الدلالات، فيكون علمه أتم من علم من يعطي علم مدلول الدليل من غير علم الدليل، فما فتنهم الحق إلا بما سماه زهرة لهم، فإذا لم يدرك صاحب هذه الزهرة رائحتها ولا شهدها زهرة وإنما شهدها امرأة ولا علم دلالتها التي سبقت له على الخصوص وزوّجت به وتنعم بها ونال منها ما نال بحيوانيته لا بروحه وعقله، فلا فرق بينه وبين سائر الحيوان بل الحيوان خير منه لأن كل حيوان مشاهد لفصله المقوّم له، وهذا الشخص ما وقف مع فصله المقوّم له، وليس الفصول المقوّمة للحيوانات غيره، فهو لا حيوان ولا إنسان، فإن كل حيوان جرى بفصله المقوّم له على ما تعطيه حقيقة ذلك الفصل.

واعلم أن صاحب هذا الهجير يشاهد ما حيّر العقول ولم يقدر على تحصيله وهو العلم بالمرئي في المرآة ما هو وبالمرئي ما هو من حيث تعلق الرؤية هل ينطبع المرئي في عين الرائي أو أشعة نور البصر تتعلق بالمرئي حيث كان، وما من حكم إلا وعليه دخل إلا عند صاحب هذا الذكر فإنه يعلم كيفية إدراك الرائي المرئي وما هي الرؤية ولماذا ترجع؟ وليس يعطيه هذا العلم من هذا الذكر إلا قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [الحجر: ٨٨] ولا خوطب إلا بما علم، فعلمنا على القطع أن رسول الله ﷺ قد علم ذلك وما هو قوله ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ عين

قوله ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] فإن الغض له حكم آخر لأنه نقص مما تمتد العين إليه، والنقص هنا أن لا يمد إلى أمر خاص أي إلى مرئيّ خاص، فإن فهمت يا وليّ ما نبهتك عليه علمت علماً ينفعك في الدنيا والآخرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والثمانون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]

[نظم: البسيط]

الابْـتِـلاءُ بـعَـيْـنِ الـمـال والـوَلَـدِ ... هـو الـبَـلاءُ الـذي مـا فـيـه تَـنْـفِـيسُ
فـالـمَـالُ كُـنْ فَـيَـكُـونُ الأَمْـرُ أَجْـمَـعُـهُ ... والابْـنُ صُـورَتُـهُ والـمِـثْـلُ تَـقْـدِيسُ
بـه تَـعَـلّـق نَـفْـيُ الـمِـثْـل فـاحْـظَ بـه ... فـأصْـلُـهُ هـو سُـبُّـوحٌ وقُـدُّوسُ
فـانْظُرْ إلى خَلْقِنَا على التطابق في ... أسـمـائـه فـيـه تـمـثـيـل وتـجـنـيـسُ

قـال الله تـعـالـى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦] وقال عليه الصلاة والسلام: «**يَمُوتُ ابْنُ آدَمَ وَيَنْقَطِعُ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يَبُثُّهُ فِي النَّاسِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**» فقد جمع المال والبنون زينة الحياة الدنيا، وما تعطيه الباقيات الصالحات من الخير عند ربه وهو الثواب، ومن الخير المؤمل وهو البنون لأنهما من الباقيات الصالحات أعني المال والبنين إذا كان المال الصالح والولد الصالح. وأما العلم المذكور في هذا الخبر فهو ما سنه من سنة حسنة، وجعل الله المال والولد فتنة يختبر بهما عباده لأن لهما بالقلب لصوقاً وهما محبوبان طبعاً، ويتوصل بهما ولا سيما بالمال إلى ما لا يتوصل بغير المال من أمور الخير والشر، فإن غلب على العبد الطبع لم يقف في التصرف بما له عند حد بل ينال به جميع أغراضه، وإن غلب على العبد الشرع وقف في التصرف في ماله عندما حد له فيه ربه فلم ينل به جميع أغراضه، وما سمي المال مالاً إلا لكون القلب مال إليه لما فيه من بلوغ العبد إذا كان صالحاً إلى جميع الخيرات التي يجدها عند ربه في المنقلب، وإذا لم يكن تام الصلاح فلما فيه من بلوغه أغراضه به، وأما الولد فلما كان لأبويه عليه ولادة أحباه ومالا إليه ميل الفاعل إلى ما انفعل عنه وميل الصانع إلى مصنوعه، فميله لحب الولد ميل ذاتي، فإن كرهه فبأمر عارض لأخلاق ذميمة وصفات شريرة تقوم بالولد فبغضه عرضي، فيطلع من هذا الهجير على سبب رحمة الله التي وسعت كل شيء، فإن العالم المكلف كله مصنوعه وهو من جملة من ظهرت فيه صنعته، فلا بد أن يكون بالذات محبوباً لموجده حباً بالأصالة، وإذا وقع عليه كره فمن بعض أفعاله وأفعاله عرضية، ومع كونها عرضية ففيها ما يؤيد الأصالة وهو أن جميع الأفعال الظاهرة من العالم كلها لله، والعالم محل لظهور تلك الأفعال أو هي للحق كالآلة للصانع، فغلبت الرحمة والمحبة وتأخر حكم الغضب، وليس تأخره إلا عبارة عن إزالة دوام حكمه، وما فتن الله من

فتن من عباده إلا بحكم ما ظهر عليهم من الدعاوى فيما يتصرفون فيه أن ذلك الفعل لهم حقيقة أو كسباً، فلو أطلعهم الله على اليد الإلهية الخالقة ورأوا نفوسهم آلات صناعية لا يمكن وقوع غير ذلك لما اختبرهم الله، فما اختبرهم إلا ليعثروا على مثل هذا العلم فيعصموا من الدعوى فيسعدوا، فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة فحار ولم يدر وهم القائلون بالكسب، ومنهم من حقت عليه كلمة العذاب وهم القائلون بخلق الأفعال، وأما الذين هداهم الله فهم الذي أعطوا كل آية وردت في القرآن أو عن الله أو خبر نبوي حقها ولم يتعدوا بها موطنها ولا صرفوها إلى غير وجهتها، فما يوجب الحيرة منها كان هداهم فيها الوقوف في الحيرة، فلو تعدوها ما أعطوا الآية حقها مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وهي أعظم آية وردت في ثبوت الحيرة في العالم، فمن وقف مع المقالة المشروعة وجعل لها الحكم على ما أعطاه النظر العقلي من نقيض ما دل عليه الشرع فذلك السالم الناجي، ومن زاد على الوقوف العمل بالتقوى جعل الله له فرقاناً يفرق به بين أصحاب النحل والملل، وما تعطيه الأدلة العقلية التي تزيد حكم الشرع عند القائل بها فيتأولها ليردّها إلى دليل عقله فهو على خطر، وإن أصاب فعليك بفرقان التقوى فإنه عن شهود وصحة وجود، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل الهادي إلى طريق مستقيم.

الباب الموفي تسعين وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]

[نظم: الرمل]

كَبُرَ المَقْتُ من الله لذا ... كَبُرَ المَقْتُ من الخَلْقِ فَمَنْ
قال قَوْلاً ثُمَّ لم يَعْمَلْ به ... من جَمِيلٍ وهو القولُ الحَسَنْ
عمل الله به في خلقه ... وهو لا يدري به في كل فَنْ
من فُنُون الخَيْرِ فاسْتَبْصِرْ به ... في وجود الكون من لَفْظَةِ كُنْ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الله ما أضاف الأفعال إلى الخلق إلا لكون من أضاف الفعل إليه هوية باطنه عين الحق، فلا يكون الفعل إلا لله غير أنه من عباد الله من أشهده ذلك، ومنهم من لم يشهده ذلك، فمن أشهده ذلك وقال ما يمكن أن يكون بالفعل وما فعل فيعلم على القطع شهوداً أنه ما امتنع وقوع الفعل إلا لخروجه عن الإمكان العقلي لأنه لم ير له صورة في الأعين الثابتة التي أعطت العلم لله، فكيف يقع في الوجود ما لا عين له في الثبوت؟ ولهذا أضاف المقت في ذلك لعند الله، فإن هذا الاسم جامع المتقابلات من أحكام الأسماء، فمن جملة ما يدل عليه إثبات الإمكان فيمقت من حيث إثبات الإمكان، فالله هنا هو اسم خاص معين وهو المثبت الإمكان، ويقابله نافي الإمكان فيقول: ما ثم إلا وجوب غير أنه مقيد ومطلق فلا يصح إطلاق هذا الاسم الله، فإذا قيل: فالمراد به التقييد ويظهر بما يدل عليه الحال فيعلم عن أي شيء ناب من الأسماء فينظر في حكم ذلك الاسم فيوجد أثره فيه

فتعلق المقت بمن قال خيراً يمكن له فعله فلا يفعله، فانظر إلى ذلك القول الخير لا بد أن يجني ثمرته في الخير القائل به، ولا سيما إن أعطى عملاً في عامل من عباد الله إلا أنه محروم، فما يكبر عند الله إلا لكون هذا القائل قال هذا القول ولم يفعل ما قاله إذا أطلع على ما حرم من الخير بترك الفعل فمقت نفسه أعظم المقت، ولا سيما إذا رأى غيره قد انتفع به عملاً فهو أكبر مقت عنده يمقت به نفسه عند الله في شهوده في الآخرة، فهو أكبر مقت عند الله من مقت آخر لا أن الله مقته بل هو يمقت نفسه عند الله إذا صار إليه، وللمقت درجات بعضها أكبر من بعض، وهذا من أكبرها عنده، فيكشف له هذا الهجير هذا العلم، فإن الناس يأخذون في هذه الآية غير مأخذها فيقولون: إن الله مقتهم وما يتحققون قوله تعالى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٣] أي تمقتون أنفسكم، أكبر المقت عند الله إذا رجعتم إليه، فإن قال ما نعتقد صحته ولم يقل ذلك إيماناً فذلك المنافق، وإن قال ذلك إيماناً ولم يفعل فذلك المفرط وهو الذي يكبر مقته عند الله لأن إيمانه يعطيه الفعل فلم يفعل، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به على ألسنتهم وألسنة غيرهم لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وآتاهم الله أجراً عظيم لأنه أضاف الفعل إلى القول، فعظم بالاجتماع على ما تكون صورته إذا انفرد بقول دون فعل وبفعل دون قول، وما أيه الله بمن هذه صفته إلا بالاسم المذكر ليزيلهم به من حكم الاسم الخاذل، فإن الله ما يؤيه إلا من الاسم الذي لا حكم له في الحال، والتأيه على نوعين: تأيه بالصفة مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [النساء: ٤٧] وتأيه بالذات مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فمتى سمعت التأيه فلتنظر مايأيه به لا من أيه به، فاعمل بحسب ما أيه به من اجتناب أو غير اجتناب فإنه قد يؤيه بأمر وقد يؤيه بنهي، كما تقول في الأمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] وكما يقول في النهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٢] وكذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] فهذا تأيه إنكار كأنه يقول في الأمر: فيه افعلوا ما تقولون، وفي النهي: لا تقولوا على الله ما لا تعملون فإنكم تمقتون نفوسكم عند الله في ذلك أكبر المقت كما قررنا، فإذا أتى مثل هذا كان له وجه للأمر ووجه للنهي وهذا هو الوجه، فيأخذه السامع بحسب ما يقع له في الوقت، وأي وجه أخذ به في أمر أو نهي أصاب وإن جمع بينهما جنى ثمرة ذلك فيكون له أجران، ومن الناس من يكشف له في هذا الهجير أنه القول الخاص وهو أن يقول بإضافة الفعل إلى نفسه في اعتقاده كالمعتزلي فيطلع في كشفه على أن الأفعال لله ليست له فيمقت نفسه حيث جهلت مثل هذا أكبر المقت عند الله، ويكون عند الله هنا عندية الشهود حيث كان في الدنيا أو في الآخرة، فمقته في الدنيا رجوع عن ذلك فيسعد ويلحق بالعلماء بخلاف مقته عند الله في الآخرة فكأنه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ﴾ أن الفعل لكم وما هو كذلك فأضفتم إليكم ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] و ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ [الصف: ٣] منكم ﴿عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ [الصف: ٣، ٤] فإنه على صراط مستقيم هذا المنازع الذي نقول له إن الفعل للحق ﴿صَفًّا﴾ لا خلل فيه ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ

مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] لا خلل فيه فيضيف الأفعال كلها لله لا لمن ظهرت فيه، فقد أفلح من كان هجيره هذه الآية لأنه لا فائدة للهجير إلا أن يفتح لصاحبه فيه، فإذا رأيت ذا هجير لا يفتح له فيه فاعلم أنه صاحب هجير لسان ظاهره لا يوافقه لسان باطنه، ومن هو بهذه المثابة فما هو مقصودنا بأصحاب الهجيرات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والتسعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]

[نظم: الرمل]

إنّـمـا الـدُّنـيـا هُـمُـومٌ وغُـمُـومْ حـالـهـا ذا فـي خُـصـوص وعُـمُـومْ
فـالـذي يَـفْـرَحُ فـيـهـا مـا لـه فـكـرة الـعـالـم بـالأمـر الـحـكـيـمْ
إنـمـا الأمْـرُ إذا حَـقَّـقْـتَـهُ عـن شُـهُـود فـي حـديـث وقَـدِيـمْ
عِـبْـرَةٌ مـوعـظـةٌ قـد نُـصِـبَـتْ لـخـبـيـر ذي تـجـاريـبِ عـلـيـمْ
فـبـفـضـل الله فـلْـيَـفْـرَحَ مَـنْ شـاء أن يَـفْـرَحَ مـن أهـل الـنَّـعِـيـمْ

قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] فيفرحون به، ولا يفرح عاقل إلا بثابت لا بزائل، ولهذا الفرح الذي نسب إلى الله في فرحه بتوبة عبده لأن التوبة أمر لازم دائم الوجود ولا سيما في الآخرة لأن العبد راجع إلى الله في كل ما هو عليه إن كان في حال الحجاب إيماناً وإن كان مع رفع الحجاب فشهود عين، وهذا الهجير ما هو من قول الله في النهي، وإنما حكى الله نهي قومه له فقال: ﴿قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ [القصص: ٧٦] أي قوم قارون ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] فهل أصابوا في هذا الإطلاق ولم يقيدوا أم لا؟ فذلك أمر آخر، فإن كان اتكالهم في ذلك على قرينة الحال فقد قيدوا لأن قرائن الأحوال تقيد، وإن اقتضت الإطلاق في بعض المواطن فهو تقييد إطلاق لا تقييد ينتج لصاحب هذا الذكر الفرح بفضل الله وبرحمته فينتج له نقيض ذكره، فتراه أبداً حزين القلب ما دام في الدنيا إلى الموت وإن فتح له ما يقع له به الفرح لو كان في غير هذا الهجير وذلك إذا فتح له فيما يوجب الفرح يرى ما عليه من الشكر لله فيما فتح له فيه فيعظم حزنه أشد مما كان فيه قبل الفتح كما فعل رسول الله ﷺ حين بشر بأن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فزاد في العمل شكراً لله فقام حتى تورمت قدماه وقال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً**» ومن كان في مقام يريد أن يوفيه حقه لا يمكن له الفرح إلا بعد أن لا يبقى عليه من حقه شيء، ولا يزال هذا الحق المعين على المكلف المبشر بفضل الله وبرحمته عليه إلى آخر نفس يكون عليه في الدنيا فلا يفرح إلا عند خروجه منها، فإنه لا يسقط عنه التكليف إلا بعد رحلته من دار التكليف وهي الدار الدنيا، فمن ادعى هذا الذكر ورؤي عليه الفرح فما لهذا الذكر فيه أثر وليس من أهله، ولقد رأى بعض الصالحين رجلاً أو شخصاً يفرح ويضحك فقال له: يا هذا إن كنت ممن بشره الله فما هذه حالة الشاكرين لما بشرهم الله به، وإن كنت ممن لم

يبشره الله فما هذه حالة الخائفين، فأنكر عليه حالة الفرح في الوجهين، وهذا عين ما قلناه في هذا الهجير، وهذه المحبة المنفية محبة خاصة لا كل محبة، فإن المحبة الإلهية لها وجوه كثيرة ولا يلزم من انتفاء وجه منها انتفاء الوجوه كلها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والتسعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]

[نظم: الرمل]

لـو بَـدَا الـغَـيْـبُ لـعَـيْـنٍ لـم يَـكُـنْ ... ذاكَ غَـيْـبـاً إنَّـهُ قَـدْ شَـهِـدَا
عـالِـمُ الـغَـيْـب فـلا يُـظْـهِـرُهُ ... لا ولا يـظـهـر فـيـه أحَـدَا
فـجـمـيـعُ الـكَـوْنِ مَـشْـهُـودٌ لـه ... مـا لـديـه غـائـبٌ مـا وجـدا
إنَّـمـا الـغـيـبُ لـنـا لـيـس لـه ... ولْـهـذا فـي الـوجـود انْـفَـرَدَا
ولـذا قـال لـمـن يَـشْـهَـدُ كُـنْ ... فـاتَّـخِـذْهُ يـا وَلِـيِّـي سَـنَـدَا

اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس أنه من صادف العلم في ظنه أنه موصوف بالعلم عند نفسه وإن كان نعته العلم في نفس الأمر، ولهذا قال رسول الله ﷺ للرجل الذي وقع له أنها الفاتحة: «**لِيَهنكَ العِلْمُ**» يعني في نفس الأمر، ثم يقول النبي ﷺ له ليهنك العلم فيما ذكر في واقعته حصل له العلم في نفسه كما هو في نفس الأمر لا بد من ذلك، فاعلم أن الغيب على قسمين: غيب لا يعلم أبداً وليس إلا هوية الحق ونسبته إلينا وأما نسبتنا إليه فدون ذلك فهذا غيب لا يمكن ولا يعلم أبداً. والقسم الآخر غيب إضافيّ فما هو مشهود لأحد قد يكون غيباً لآخر، فما في الوجود غيب أصلاً لا يشهده أحد، وأدقه أن يشهد الموجود نفسه الذي هو غيب عن كل أحد سوى نفسه، فما ثم غيب إلا وهو مشهود في حال غيبته عمن ليس بمشاهد له، فإذا ارتضى الله من ارتضاه لعلم ذلك أطلعه عليه علماً لا ظناً ولا تخميناً، فلا يعلم إلا بإعلام الله أو بإعلام من أعلمه الله عند من يعتقد فيه أن الله أعلمه، وما عدا هذا فلا علم له بغيب أصلاً، وإنما اختص بهذا الإعلام مسمى الرسول لأنه ما أعلمه بذلك الغيب اقتصاراً عليه، وإنما أعلمه ليعلمه، فتحصل له درجة الفضيلة على من أعلمه به لتعلم مكانته عند ربه فلهذا سماه رسولاً، وهذا النوع من الغيب لا يكون إلا من الوجه الخاص لا يعلمه ملك ولا غيره إلا الرسول خاصة سواء كان الرسول ملكاً أو غيره، فإن الله نفى أن يظهر على غيبه أحداً، وإنما قال بأن الذي ارتضاه لذلك يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً عصمة له من الشبه القادحة فيه، فهو علم لا دخول للشبه فيه على صاحبه، وهذا هو صاحب البصيرة الذي هو على بينة من ربه في علمه، وله ذوق خاص يتميز به لا يشاركه فيه غيره، إذ لو شاركه لما كان خاصاً، فإذا جاء الرسول به لمن يعلمه فذلك ليس عند هذا المتعلم من علم الغيب فإن الرسول قد أظهره الله عليه، فما هو

عند هذا من علم الغيب الذي لا يظهر الله عليه أحداً وإنما هو ما يحصل لأي عالم كان من الوجه الخاص، ولكنه الآن ليس بواقع في الدنيا لكنه يقع في الآخرة، وسبب ذلك أن كل علم يحصل للإنسان في الدنيا من العلم بالله خاصة فإن محمداً ﷺ قد علمه فإنه علم علم الأوّلين والآخرين وأنت من الآخرين بلا شك، وأما في غير العلم بالله فقد يعطاه الإنسان من الوجه الخاص فلا يعلم إلا منه فهو رسول في تعليمه إلا من يعلمه بذلك هذا أعطاه مقام محمد ﷺ، وليست الفائدة إلا في العلم بالله تعالى، فإنه العلم الذي به تحسن صورة العالم في نفسه، فالعلم بالله من الرسول في المتعلم أعظم وأنفع من العلم الذي يحصل لك من الوجه الخاص إذا كان المعلوم كوناً ما من الأكوان ليس الله، فما الشرف للإنسان إلا في علمه بالله، وأما علمه بسوى الله تعالى فعلالة يتعلل بها الإنسان المحجوب، فإن المنصف ما له همة إلا العلم به تعالى، فاجهد أن تكون ممن يأخذ العلم بالله عن رسول الله ﷺ فتكون محمدي الشهود، إذ قد قطعنا أنه لا علم بالله اليوم عيناً يختص به أحد من خلق الله، وقد أشارت عائشة رضي الله عنها إلى ذلك في تأويلها في حق رسول الله ﷺ فقالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية فإن الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وهنا سر فابحث عليه، ولا تقل قد حجرت واسعاً فإني ما حجرت عليك أن لا تعلم وإنما حجرت عليك أنك لا تعلم مثل هذا من الحق إلا في صورة محمدية، وقد بينا أن أعظم الرؤية رؤية محمدية في صورة محمدية، وإليه ذهب الإمام أبو القاسم بن قسي رحمه الله في كتاب خلع النعلين له وهو روايتنا عن ابنه عنه بتونس سنة تسعين وخمسمائة، وما رأيت هذا النفس لغيره فنعينه فإنه ما وصل إلينا فيمكن أن يكون كما علمته أنا من الله تعالى إلقاء إلهياً من غير واسطة أعني ما علمه ابن قسي في ذلك يمكن أيضاً أن يكون غير ابن قسي قبله أو بعده أو في زمانه قد أطلعه الله على ذلك وما وصل إلينا والله أعلم، فلا شرف يعلو شرف العلم، ولا حالة تسمو على حالة الفهم عن الله.

الباب الثالث والتسعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] لأنهم لم يجدوه إذ كان عندهم

[نظم: الرمل]

كلّ ما في الكَوْنِ من خَالِقِهِ ... فلهذا ليس في الكَوْنِ حُدُوث
ما تراه قد نَفَى العِلْمَ به ... حين لا يُفْقَهُ في الكون حَدِيث
إنهم لم يَجِدُوهُ حادثاً ... فلهذا السَّيْرُ في ذاك حثيث
ما نَفَى بالعلم فيه أحَدٌ ... غَيْرُ مَعْتُوهٍ جَهُولٍ أو خبيث

إنـــمـــا يـــعـــلـــم مـــنـــه كـــونـــه واحـد الـعـيـن وإن طـال الـتَّـثـيـث

كَـــرَّمَ الله رســـولاً بـــالـــذي بَـثَّـهُ فـيـنـا مـن الـذكـر الـحـديـث

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥] وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢، ٣] فجاء الذكر من الرب والرحمن فأخبر أنهم استعمعوا وأصغوا لذكر الرب في حال لهو، وذكر إعراضهم عن ذكر الرحمن مع العلم منهم بأنه القرآن وهو كلام الله والكلام صفته فله القدم وإن حدث الإتيان، اعلم أن الحديث قد يكون حديثاً في نفس الأمر، وقد يكون حديثاً بالنسبة إلى وجوده عندك في الحال وهو أقدم من ذلك الحدوث، وذلك إذا أردت بالقدم نفي الأولية فليس إلا كلام الله، وليس إلا عين القابل صور التجلي، وإذا أردت به غير نفي الأولية فقد يكون حادثاً في نفسه ذلك الشيء قبل حدوثه عندك، وقد يكون حادثاً بحدوثه عندك أي ذلك زمان حدوثه وهو ما يقوم بك أو بمن يخاطبك أو يجالسك من الأغراض في الحال، وأما عندية الله فهي على قسمين أعني ما هو عنده، القسم الواحد ما هو عليه من الأمر الذي يعقل زائداً على هويته وإن لم نقل فيه أنه غيره ولا عينه أيضاً كالصفات المنسوبة إليه لا هي هو ولا هي غيره، وقد يكون عنده ما يحدثه فينا ولنا وهو مثل قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١] وهذا الذي عندنا على نوعين نوع يحدث صورته لا جوهره كالمطر فإنا نعلم ما هو من حيث جوهره وما هو من حيث صورته وكل العالم على هذا، أو هو النوع الآخر ما يحدث جوهره وليس إلا جوهر الصورة ووجود جوهر العين القائمة به تلك الصورة فإنه لا وجود لعين جوهرها الذي قامت به إلا عند قيامها به، فهو قبل ذلك معقول لا موجود العين، فموضوع الصورة أو محل الصورة من المادّة يحدث له الوجود بحدوث الصورة في حال ما لا في كل حال، وينعدم من الوجود بعدمها ما لم تكن صورة أخرى تقوم به والكل عند الله فإن الله عين شيئيته، فما ثم معقول ولا موجود يحدث عنده بل الكل مشهود العين له بين ثبوت ووجود، فالثبوت خزائنه والوجود ما يحدثه عندنا من تلك الخزائن، فصورة الماء في الجليد معقولة ينطلق عليها اسم جليد والماء في الجليد بالقوة، فإذا طرأ على الجليد ما يحلله فإنه يصير ماء فظهرت وحدثت صورة الماء فيه ومنه وزال عنه اسم الجليد وصورته وحده وحقيقته، وكان عندنا قبل تحلله أنه خزانة من خزائن الغيث فظهر أنه عين المخزون، فكان خزانة بصورة ومخزوناً بصورة غيرها، وهكذا حكم ما يستحيل هو عين ما استحال وعين ما يستحيل إليه، وإنما جئنا بهذا المثال المحقق لما نعاينه من صور التجلي في الوجود الحق لنلحق بذلك صور العالم كله في وجود الحق فنطلق عليه خلقاً كما يطلق على الماء الذي تحلل من الجليد ماء، ويطلق عليه ذلك إطلاقاً حقيقياً لأنه ليس غير ما تحلل مما كان اسم الجليد له فهو حق بوجه خلق بوجه هذا ينتجه وأمثاله هذا الذكر من العلم الإلهيّ، ومن هنا تعلم جميع المحدثات ما هي ومتى ينطلق عليها اسم الحدوث، ومتى تقبل اسم القدم، وهو علم نفيس يخص الله به من شاء من عباده وذلك هو الفضل المبين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والتسعون وأربعمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] وما أشبه هذا من الآيات القرآنية

[نظم: الرمل]

إنّـمـا يـخـشـى الإلـهَ الـحـقَّ مَـنْ يـعـلـمُ الـحـقَّ ويَـبْـقَـى رَسْـمُـهُ
فـإذا مـا فَـنِـيَ الـكُـلُّ بـه فَـنِـيَ الـعـالـمُ فـيـه واسْـمُـهُ
إنـمـا الـعِـلْـمُ الـذي يـنـفـعُـنـا كـلّ عـلـم قـد شـهـدنـا حُـكْـمَـهُ
فـهـو الـعـلـم الـذي نَـعْـرِفُـهُ وبـه يَـعْـلَـمُ عـلـمـي عِـلْـمَـهُ

الخشية من صفات العلم الذي يعطي الخشية اللازمة له، وعلى قدر العلم بها تكون الخشية المنسوبة إلى العالم، ولا أعلم بها ممن علمه عينه، فلا أخشى منه للاسم الله لجمع هذا الاسم بين الأضداد المتقابلات، ومن هنا نزل قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] ولما كان الأمر الذي هو علة ظهور الممكنات أينما ظهر منها ليس إلا أحكام الأسماء الإلهية فما من اسم إلهي إلا وهو يخشى الله لعلمه بما عنده من الأسماء التي تقابل هذا الاسم الوالي في الحال صاحب الحكم فيقول كما ولاني ولم أكن والياً على هذا المحل الخاص الذي ظهر فيه حكمي قد يعزلني عن ذلك بوالٍ آخر يعني بحكم اسم آخر إلهي، فلا أعلم من الأسماء الإلهية فلا أخشى منها لله، فإن الله له التصرّف فيها بالتولي والعزل وهو الواقع في الوجود، فمنها ما يقع عن سؤال من الكون، ومنها ما يقع عن غير سؤال، بل يقع بانتهاء مدة الحكم فيكون نسخاً، فكما انطلق على العلماء من المحدثات اسم الخشية لله انطلق على الأسماء الخشية لله، ولسؤال المحدثات في رفع أحكام الأسماء الإلهية صارت الأسماء الإلهية التي لها الحكم في الوقت تخشى سؤال المحدثات الله في رفع حكمها عن ذلك المحل كقول أيوب عليه السلام إذ نادى ربه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] يطلب عزل الاسم الضار وإزالة حكمه، فعزل الله حكمه فانعزل بزوال حكمه وتولى موضعه الاسم النافع، فكشف الله ما به من ضرّ فصارت الأسماء الإلهية تخشى الله لما بيده من العزل والتولية، وتخشى العالم لما عنده من السؤال، وعند الله من القبول لسؤال العالم ولا سيما أهل الاضطرار. ثم تنظر إلى انتهاء مدة أحكامها فتترقب العزل كما أيضاً ترجوه لمشاهدتهم التولية، فلا شيء من الأسماء أكثر خشية من المنتقم فإنه يرى ويشاهد زوال حكمه فعلاً ولا يبقى له حكم في الوجود ويكون بالقوة في الحق، ومن جرى مجراه من الأسماء الإلهية، فتفطن لخشية الأسماء الإلهية العالم فإنك إذا كوشفت عليه رأيت أنه لولا ما هو حق بوجه ما صح أن تخشاه الأسماء الإلهية لأنه لا يخشى ولا يرجى في الحقيقة إلا الله ولا يخشاه إلا العالم ولا أعلم من الله، فلا يخشى الله إلا الله، لكن الصور مختلفة لاختلاف النسب أو النسب مختلفة لاختلاف الصور، فلولا النسب ما حدثت الصور، ولولا الصور ما علم اختلاف النسب، فالوجود مربوط بعضه ببعضه فإبرامه عين نقضه، ثم إنه في هذا الذكر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] فعزته امتناعه

تعالى عن أن يكون له حكم الأسماء الإلهية من نظر بعضها إلى بعض كما ينظر العالم بعضه إلى بعض فيتصف لذلك بالخوف والرجاء والكره والمحبة، والله عزيز عن مثل هذا، فإنه الذي يخاف ويرجى ويسأل ويجيب إن شاء وإن شاء، وغفور بما ستر من هذه العلوم والأسرار الراجعة إليه تعالى وإلى أسمائه وإلى العالم عن الخلق كلهم بالمجموع، فلا يعلم المجموع ولا واحد من الخلق لكن له العلم بالآحاد فعند واحد ما ليس عند الآخر فهو بالمجموع حاصل لا حاصل، فهو حاصل في المجموع غير حاصل عند واحد واحد وهو قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فجاء بباء التبعيض، فعند واحد من العلم بالله ما ليس عند الآخر فلذلك قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

الباب الخامس والتسعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]

[نظم: البسيط]

مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمُ عن دِينِهِ ويَمُتْ فإنَّهُ كَافِرٌ بالدِّينِ أَجْمَعِهِ
لأنه أحَدِيُّ العَيْنِ ليس له مخالفٌ جاءه من غير مَوْضِعِهِ
وأن إتيانه بالكل شرعته بذا أتى الحُكْمُ فيه من مُشَرِّعِهِ

الضمير في «أنه» يعود على الدين قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فالمراد هنا بضمير «منكم» ليس إلا الأنبياء عليهم السلام لا الأمم، لأنه لو كان للأمم لم يبعث رسول في أمة قد بعث فيها رسول إلا أن يكون مؤيداً لا يزيد ولا ينقص وما وقع الأمر كذلك، فإن جعلنا الضمير في قوله منكم للأمم والرسل جميعاً تكلفنا في التأويل شططاً لا نحتاج إليه، فكون الضمير كناية عن الرسل أقرب إلى الفهم وأوصل إلى العلم، ويدخل في ذلك عموم الرسالة وخصوصها، وقال ﷺ: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**» فاختلف الناس في اليهودي إن تنصر والنصراني إن تهوّد هل يقتل أم لا؟ ولم يختلفوا فيه إن أسلم فإنه ﷺ ما جاء يدعو الناس إلا إلى الإسلام، وجعل علماء الرسوم أن هذا تبديل مأمور به وما هو عندنا كذلك، فإن النصراني وأهل الكتاب كلهم إذا أسلموا ما بدلوا دينهم فإنه من دينهم الإيمان بمحمد ﷺ والدخول في شرعه إذا أرسل وأن رسالته عامة، فما بدل أحد من أهل الدين دينه إذ أسلم فافهم وما بقي إلا المشرك فإن ذلك ليس بدين مشروع، وإنما هو موضوع من عند غير الله، والله ما قال إلا ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [البقرة: ٢١٧] ورسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ**»، وإنما لم يسم الشرك ديناً لأن الدين الجزاء ولا جزاء في الخير للمشرك على الشرك أصلاً لا فيما سلف ولا فيما بقي، وإذا آل المشرك إلى ما يؤول إليه في النار التي هي موطنه الذي لا يخرج منه أبداً فإن ذلك ليس بجزاء، وإنما ذلك اختصاص سبق الرحمة التي وسعت كل شيء، فيظهر حكمها فيه في وقت ما عند إزالة

حكم الغضب الإلهي فما أراد بالدين إلا الذي له جزاء في الخير والشرّ، ولو أراد الدين الذي هو العادة مثل قول امرىء القيس: [الطويل]

كـدِينِـك مـن أمّ الـحُـوَيْـرِثِ قـبـلـهـا ... وجـارتـهـا أم الـرّبـاب بـمَـأسـلِ

أراد بالدين هنا العادة، ونحن إنما تكلمنا في الدين المشروع الذي العادة جزء منه فيكشف للذاكر بهذا الذكر علم الارتداد وهو الرجوع الذي في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فمن الناس من عجل له هنا الرجوع إلى الله وليس ذلك إلا للعارفين بالله فإنهم يرجعون في أمورهم كلها إلى الله، ولا يزالون يستصحبهم ذلك إلى الموت فيموتون عليه، وإنما وصفوا بالكفر لأنهم تستروا بالأسباب ولم يقولوا بإبطالها، فهم في نفوسهم وحالهم مع الله وبظاهرهم في الأسباب، فإنهم يرون الأسباب راجعة إلى الله فرجعوا لرجوعها ورجعوا بها إلى الله، فلما لم يفقدهم أصحاب الأسباب في الأسباب تخيلوا فيهم أنهم أمثالهم فيما هم فيه فجاءت هذه الآية ذماً في العموم وحمداً ومدحاً في الخصوص ولهذا تممها فقال فيهم: إن أعمالهم حبطت لأنه أضافها إليهم وأعطاهم الرجوع إلى الله العلم بأن أعمالهم إلى الله لا إليهم فحبطت أعمالهم من الإضافة إليهم وصارت مضافة إلى الله كما هي في نفس الأمر، وقوله في الدنيا يريد من عجل له الكشف عن ذلك هنا، وقوله في الآخرة يريد من أخر له ذلك وهو الجميع إذا انكشف الغطاء. وأما إضافة الدين إليه في قوله عن دينه: وإنما الدين لله فإن الراجع إذا رآه في رجوعه لله لا إليه زالت هذه الإضافة عنه لشهوده، وإنما قلنا بإضافة الدين إليهم في هذه الآية لأنه أظهر في الحكم من أجل قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ﴾ يعني في الفتنة عن دينكم ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧] فأضاف الدين إليهم، فكان الأوجه أن يكون في ضمير الهاء على ما هو عليه في ضمير الخطاب سواء، وإن جاز أن يكون ضمير الهاء يعود على الله لكن الأصل في الضمائر كلها عودها على أقرب مذكور إذا عريت عن قرائن الأحوال، وقوله في تمام الهجير: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩] لهذا الكشف لأنهم رأوا ما كانوا يتخيلون فيه أنه إليهم ليس إليهم فخسروا رأس المال ولا أعظم خسراناً منه، فما كان من الله إليهم بعد هذا من الإنعام فإنما هو من الاسم الوهاب المعطي لينعم، فما لهم في نظرهم عطاء جزاء لعامل، فهذا وأمثاله هو الذي يعطي هذا الذكر لمن كثر دؤوبه عليه.

الباب السادس والتسعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]

[نظم: المنسرح]

مـا قَـدَرَ الـلَّـهَ غَـيْـرُهُ أبـداً ... ولـيـس غَـيْـرٌ فـكُـلُّـهُـمْ قَـدَرا

مـا حـقّ قـدر الإلـه عـنـدي سـوى ... بـأنـه الله فـاعْـرِفِ الـصُّـوَرَا

لـو يَـعْـرِف الـخَـلْـقُ مـا أفُـوهُ بـه ... فـي حَـقّ قَـدْر الإلـهِ مـا اعْـتَـبَـرَا

لـو عَـبَّـرُوا عـن وجـود ذَاتِـهِـمُ ... مـا عَـرَفُـوا الـحَـقَّ لا ولا الـبَـشَـرَا

قال الله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] قدر الأمر موازنته لمقداره، وهذا لا يعلم من الأمر حتى يكون له ما يعادله في ذاته فيكن ذلك المعادل مقداراً له لأنه يزنه، فأثبت هذ الذكر لله قدراً لكنه مجهول عند أصحاب هذا الضمير، ولا يعرف قدر الحق إلا من عرف الإنسان الكامل الذي خلقه الله على صورته وهي الخلافة، ثم وصف الحق في الصورة الظاهرة نفسه باليدين والرجلين والأعين، وشبه ذلك مما وردت به الأخبار مما يقتضيه الدليل العقلي من تنزيه حكم الظاهر من ذلك في المحدثات عن جناب الله فحق قدره إضافة ما أضافه إلى نفسه مما ينكر الدليل إضافته إليه تعالى، إذ لو انفرد دون الشرع لم يضف شيئاً من ذلك إليه، فمن أضاف مثل هذا إليه عقلاً فذلك هو الذي ما قدر الله حق قدره، وما قال أخطأ المضيف، ومن أضافه شرعاً وشهوداً وكان على بينة من ربه فذلك الذي قدر الله حق قدره، فالإنسان الكامل الذي هو الخليفة قدر الحق ظاهراً وباطناً صورة ومنزلة ومعنى، فمن كل شيء في الوجود زوجان لأن الإنسان الكامل والعالم بالإنسان الكامل على صورة الحق والزوجان الذكر والأنثى ففاعل ومنفعل فيه، فالحق الفاعل والعالم منفعل فيه لأنه محل ظهور الانفعال بما يتناوب عليه من صور الأكوان من حركة وسكون واجتماع وافتراق، ومن صور الألوان والصفات والنسب، فالعالم قدر الحق وجوداً، وأما في الثبوت فهو أظهر لحكم الأزل الذي هو للممكنات في ثبوتها، لأن الإمكان للممكن نعت ذاتي نفسي، ولم يزل الممكن ممكناً في حال عدمه ووجوده، فبقاء ما بقي منه في العدم وما بقي إلا بالمرجح، فهو الذي أبقاه لما فيه من قبول الوجود، كما هو ممكن مرجح في حال الوجود بالوجود لقبوله العدم بإمساك شرطه المصحح لبقائه. فكما سبح الله نفسه عن التشبيه سبح الممكن نفسه عن التنزيه لما في التشبيه والتنزيه من الحد فهم بين مدخل ومخرج، وما ظفر بالأمر على ما هو عليه إلا من جُمع بينهما فقال بالتنزيه من وجه عقلاً وشرعاً، وقال بالتشبيه من وجه شرعاً لا عقلاً، والشهود يقضي بما جاءت به الرسل إلى أممها في الله ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف: ٢٩] فكل واصف فإنما هو واقف مع نعت مخصوص فينزه الله نفسه عن ذلك النعت من حيث تخصيصه لا من حيث إنه له، فإن له أحدية المجموع لا أحدية كل واحد من المجموع، والواصف إنما يصفه بأحدية كل واحد من المجموع فهو المخاطب أعني من نعته بذلك بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] وأما تسبيح الخلق له بقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [الإسراء: ٤٤] وشبه ذلك مما ورد من الآيات والتعريف الإلهي، فإنما يسبح الله عن عقد غيره فيه لأن نظر كل مسبح فيه نظر جزئي، فالذي يثبت له واحد هو عين ما ينفيه عنه الآخر، وكل واحد منهما مسبح بحمد الله فأثبت الله لهذا ما نفاه عن الله لا ما أثبته الآخر، وأثبت الله الآخر عين ما نفاه الأول لا ما أثبته، فما أثبت الله لأحد من أهل الثناء عليه إلا نفى ما نفاه عنه فذلك هو التسبيح بحمده، فما يثني عليه بالإثبات دون نفي، ولا يوصف بالتسبيح ولا بنقيضه إلا العبد الجامع الكامل الظاهر بصورة الحق فإنه يشاهد الجمع، ومن شاهد الجمع فقد شاهد التفصيل لأنه شاهده جمعاً، فالعبد

الكامل مجموع الحق، ولا يقال الحق مجموع العبد الكامل، ومع هذا فللحق خصوص نعت ليس للعالم أصلاً، وللعالم خصوص وصف ليس للحق أصلاً كالذلة والافتقار، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الباب السادس والتسعون وأربعمائة بانتهاء السفر الثلاثين والحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[السفر الحادي والثلاثون]

الباب السابع والتسعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]

[نظم: البسيط]

الشَّرْعُ يَقْبَلُهُ عَقْلٌ وإيمانُ ... ولِلعُقُول موازينٌ وأوزانُ
عند الإلٰه عُلُومٌ ليس يعرفُها ... إلا لبيبٌ له في الوزن رُجْحانُ
فالأمر عقلٌ وإيمانٌ إذ اشترَكا ... في حكم تَنْزِيهِهِ ما فيه خُسْرانُ
وثَمّ ينفردُ الإيمان في طَبَقٍ ... بما تماثله بالشرع أكوانُ
والعقلُ من حيث حُكْمُ الفِكْرِ يَدْفَعُهُ ... بما يُؤَيِّدُهُ في ذاك برهانُ
لو أن غير رَسُولِ الله جاء به ... في الحين كفره زُورٌ وبُهْتانُ
إذا تَأَوّلَهُ من غير وُجْهَتِهِ ... وقال ما لي على ما قال سلطانُ
لله في ذاك سِرٌّ ليس يعلمُهُ ... إلا فريدٌ وذاك الفَرْدُ إنسانُ
قد كَمَّلَ الله في الإنشاء صُورَتَهُ ... بصورة الحق فالقرآن فُرْقانُ
العينُ واحدةٌ والحُكْمُ مختلفٌ ... للجانبين فما في النَّشْءِ نقصان

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] على أن تكون ما زائدة وليس القليل إلا من آمن بالله، فإن الموحدين بالله هم الذين وحدوا الله بالله، وأما الموحدون الذين وحدوا الله لا بالله بل بأنفسهم فهم الذين أشركوا في توحيده، غير أن هذا الهجير لا يعطي الإيمان بتوحيد الله، وإنما يعطي مشاهدة ميثاق الذرية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وما كان إلا التصديق بالوجود والملك لا بالتوحيد، وإن كان فيه توحيد فغايته توحيد الملك فجاء قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] لما خرجوا إلى الدنيا لأن الفطرة إنما كانت إيمانهم بوجود الحق والملك لا بالتوحيد، فلما عدم التوحيد من الفطرة ظهر الشرك في الأكثر ممن يزعم أنه موحد، وما أدى من أداه إلى ذلك إلا التكليف، فإنه لما كلفهم تحقق أكثرهم أن الله ما كلفهم إلا وقد علم أن لهم اقتداراً نفسياً على إيجاد ما كلفهم به من الأفعال فلم يخلص لهم توحيد، فلو علموا من ذلك أن الله ما كلفهم إلا لما فيهم من

الدعوى في نسبة الأفعال إليهم التي نسبوها إلى أنفسهم ليتجردوا عنها بالله لا بنفوسهم كما فعل أهل الشهود، فإذا ألزم الذاكر نفسه هذا الذكر نتج له إقامة العذر عند الله لعباد الله فيما أشركوا فيه عند إيمانهم، فإن الله أثبت لهم الإيمان بالله وهو خير كثير وعناية عظيمة إذا نظروا إلى من قال فيهم تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٢] فأظهروا ما ليس بوجود وجوداً، وأزالوا في عقدهم وجود ما هو وجود وهو الله فسماه الله ستراً، فكان مستوراً عنهم وجود الحق بما ستروه إذ لم يستروه حتى تصوّروه وبعد التصوّر ستروه فكانوا كافرين. ومن شأن الحق أنه حيث ما تصوّر كان له وجود في ذلك التصوّر، ولا يزول برجوع ذلك المتصوّر عما تصوّر بخلاف المخلوق، فإن المخلوق إذا تصورته كان له وجود من تصوّرك، فإذا تبين لك أنه ليس كذلك زال من الوجود بزوال تصوّرك ما تصوّرته، فهذا فرقان بين الله وبين المخلوق وهم علم دقيق لا يعلمه كثير من الناس، فلهذا ثبت الشرك في العالم لأنه قابل صورة كل معتقد، ولو لم يكن كذلك ما كان إلهاً، فإذا سمع السامع الخبر النبويّ بوجود الله آمن به على ما يتصوّره فما آمن إلا بما تصوّره والله موجود عند كل تصوّر كما هو موجود في خلاف ذلك التصوّر بعينه، فما آمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون لما يطرأ عليهم في نفوسهم من مزيد العلم بالله، ولو في كل مزيد تصوّر فيه ليس عين الأوّل وليس إلا الله في ذلك كله، فما جاء الله بهذه الآية إلا لإقامة عذرهم، ولم يتعرّض سبحانه للتوحيد ولو تعرّض للتوحيد لم يصح قوله إلا وهم مشركون مع ثبوت الإيمان، فدل أنه ما أراد الإيمان بالتوحيد، وإنما أراد الإيمان بالوجود، ثم ظهر التوحيد لمن ظهر في ثاني حال، فمن ادّعى هذا الذكر هجيراً ولم يحصل عنده عذر العالم فيما أشركوا فيه فما هومن أهل هذا الذكر فإنه ما له ذوق إلا هذا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والتسعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢و ٣]

[نظم: البسيط]

مَنْ يَـتَّـقِ الله فـي ضِـيـقٍ وفـي سَـعَـةٍ ... فَـرِزْقُـهُ يَـأْتِـهِ مـن حـيـث لا يَـدْري
رزق الـمـعـانـي ورزق الـحـسّ فـارْضَ بـه ... رَبّـاً إذا جـاء فـي لَـيْـلٍ إذا يَـسْـري
وفـي زمـان وفـي غـيـر الـزمـان فـلا ... تـنـظـرْ إلـى أحد فـي طَـبْـعـه يـجـري
لـولا وُجـودي ولـولا الـدّهْـرُ ما نَـظَـرَتْ ... عَـيْـنـي إلـى أحَـدٍ مـن عَـالَـم الأمْـرِ

قال الله عز وجلّ: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] وهو قوله: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] فيخرج مما كان فيه فيفارقه إلى أمر آخر لأنه ما يخرج إلى عدم وإنما يخرج من وجود إلى وجود هذا حال العالم بعد وجوده لا سبيل إلى العدم بعد ذلك قال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [آل عمران: ١٠٩] وهو الوجود الحق، ومن صدق هذه الآية الأمر الذي سرى في

العالم وقال به إلا الشاذ النادر الذي لا حكم له، وهو أن أحداً لا تراه راضياً بحاله في الوجود أصلاً ولذلك علة أصلية، وهو أن الحق كل يوم من أيام الأنفاس في شأن، فتحرّك العالم تلك الشؤون الإلهية فيطلب الانتقال مما هو فيه كان ما كان إلى أمر آخر، غير أن الشاذ القليل وإن طلب الانتقال فإنه راضٍ بحاله في وقته وفي طلبه الانتقال فهو يطلب ليجمع، وأكثر العالم لا يطلب الانتقال إلا لعدم الرضا بحاله، فما تجد أحداً من صالح ولا غير صالح يرضى بحاله، هذا هو الساري في العالم، ومن هذا الباب أنك ما ترى أحداً إلا وهو يذم زمانه ويحمد ما مضى وخلا من الأزمان، وليس زمانه إلا حاله مذ وجدت هذه النشأة، وأي زمان كان فيه بنو آدم في وقت آدم حتى ذكر أنه قال في نظم له بلسانه ترجمته: [الوافر]

تَغَيَّرَتِ البلادُ ومَنْ عليها ... فوَجْهُ الأَرضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحُ

فالإنسان يذم يومه ويمدح أمسه وهو الإنسان عينه لا غيره، وقد كان أمس يذم يومه ويمدح ما قبله فلم يزل الأمر هكذا وذلك للأمر الطبيعي أعني الذم، كما أن طلب الانتقال للشأن الإلهي والعارفون يطلبون الانتقال للشأن الإلهي من غير ذم أوقاتهم، وغير العارفين يذمون أوقاتهم طبعاً ويطلبون الانتقال للشأن الإلهي الذي يحركهم لذلك وهم لا يشعرون، وله أيضاً سبب غير هذا عجيب أعني طلب الانتقال والذم، وذلك أن الإنسان مجبول على القلق من الضيق، وطلب الانفساح والإفراج عنه، ويتخيل أن كل ما هو خارج عنه فيه الانفساح من هذا الضيق الذي هو فيه، وذلك أن الإنسان إذا كان في حال ما من الأحوال فإنه مقبوض عليه بذلك الحال لإحاطته به لا بد من ذلك فيجد نفسه محصوراً، ويرى ما خرج عن ذلك الحصر أنه انفساح وانفراج لأن الأمر الخارج عن حاله ما هو واحد بعينه فيضيق عليه الأمر، فلهذا يجد السعة فيما عدا حاله الذي هو عليه، فإذا خرج لم يحصل له من ذلك الاتساع المتوهم إلا حال واحدة تحتاط به فيجد أيضاً فيه الضيق لإحاطتها به وحصره فيه، فيطلب الإفراج عنه كما طلبه في الحال الأوّل، فلا يزال هذا ديدنه والله يخرجه من اسم إلى اسم دائماً أبداً، فمن اتخذ الله وقاية أخرجه من الضيق أي أزال الضيق عنه فاتسع في مدلول الاسم الله من غير تعيين، ولذلك رزقه من حيث لا يحتسب لأنه لم يقيد فلم يتقيد، فكل شيء أقامه الحق فيه فهو له، فيرجع محيطاً بما أعطاه الله فله السعة دائماً أبداً، فالانتقال يعم الجميع والرضا وعدم الرضا الموجب للضيق وهو الذي يتفاضل فيه الخلق، فمن اتقى الله خرج إلى سعة هذا الاسم فيتسع باتساع هذا الاسم الله اتساعاً لا ضيق بعده، ومن لم يتقِ الله لم يشهد سوى حكم اتساع واحد فيخرج من ضيق إلى ضيق، ومن أراد أن يجرب نفسه ويأتي إلى الأمر من فصه ولينظر في نفسه إلى علمه برزقه ما هو، فإن لم يعلم رزقه فذلك الذي خرج من الضيق إلى السعة وهو قوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣] قال بعضهم في ذلك: [المتقارب]

ومَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَلْ له ... كما قال من أمْرِهِ مَخْرَجَا
ويَرْزُقْهُ من غير حُسْبانِهِ ... وإنْ ضاق أمْرٌ به فَرَجَا

لأنه ما خلقه إلا لعبادته سبحانه وتعالى وهو يرزقه من حيث شاء، فلا يشغل نفسه برزقه كما لا يشغل نفسه بأجله فإن حكمهما واحد، وما يختص بهما حيوان دون حيوان، ومن علم رزقه لم يزل في ضيق لأنه مجبول على عدم الرضا، وإنما قلنا لم يزل في ضيق لأنه قد تعين له ما لا يمكن الزيادة فيه بالخبر الصادق النبويّ، فيبقى معذباً بالضيق إلى أن يموت، والذي لا يعلم يعيش في السعة المتوهمة سعة الرجاء فيعيش طيب النفس فكلما جاءه من رزق من حيث لا يحتسب شغله انتظار ما لا يعلم عن حكم الحاصل في الوقت، فهو في قبضه وضيق وقته في بسط وسعة من أمله فإنه الحاكم عليه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والتسعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقتاً على زيادة الكاف ووقتاً على كونها صفة لفرض المثل وهو مذهبنا والحمد لله

[نظم: مجزوء الرمل]

لَيس في الأكْوان شَيْءٌ غَيْرُهُ فَهُوَ الوُجُودْ
وأنا وَحْدي على ما قُلْتُهُ فيه شَهِيدْ
فانْتَفَى المِثْلُ على ذا فَهُوَ الفَرْدُ الوحيدْ
ما على ما قُلْتُهُ في جانب الحَقّ مَزِيدْ
فهو المُرَادُ فينا مثل ما هو المُرِيدْ

قال الله عز وجل: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] فما له مثل، إذ لو كان له مثل لم يصح نفيه فإنه ما نفى إلا المرتبة ما نفي مثلية الذات وما عين التفاضل في الأمثال إلا المراتب، فلو زالت لزال التفاضل، فمن ذاته يقبل الصور ومن مرتبته لا يقبل المثل، ولهذا سماه خليفة وخلفاء لأنها تولية ونيابة فما هم فيها بحكم الاستحقاق أعني استحقاق الدوام، لكن لهم استحقاق قبول النيابة والخلافة، فهم في الرتبة مستعارون وهي لله ذاتية فتزول عنهم ولا تزول ذواتهم، والحق ما تجلى لهم إلا في صورة ذواتهم لا في رتبته فإذا تجلى لهم في رتبته انعزل الجميع فلم يكن إلا هو فنفى مثلية المرتبة في الشهود ونفى مثلية الذات في الوجود: [مخلع البسيط]

مِثْلِيَّةُ الذّات في الوُجُودِ مَنْفِيَّةٌ ما لها شُهُودُ
فافْتَكِرُوا في الذي أتَيْنا به إليكم ولا تَزِيدوا
فإنه الحَقُّ لا يُجَارى وإننا عنده العَبِيدُ
فإنْ نَظَرْتُم فينا تَجِدْنا منه إليه به نعودُ
سبحانه جَلَّ من مليكٍ وهو بنا القائمُ الشهيدُ
يقصدنا للذي يراهُ منّا وما عندنا قُصُودُ

إذ نَبْتَغِيهِ بِهِ تعالى — هو المُرادُ وهو المُريدُ

فلا يشهده إلا رب، ولا يجده إلا عبد وبالعكس، لأن الله سمعه وبصره وجميع قواه، فانتفى عن العبد ما ينبغي أن ينتفي، وبقي له ما ينبغي أن يبقى، وهذا كله إذا كان حرف الكاف زائداً فله قبول ما قلنا من النفي وإذا كان للصفة بقي ما قلنا: [الرمل]

وانْتَفَى المِثْلُ عن المِثْلِ فلم — يُوجَدِ المثْلُ مع المثل وقَدْ
ثَبُتَ المِثْلُ له بي مِثْلِ ما — ثَبُتَ المِثْلُ لنا منه فَقَدْ
وُجِدَ الأمْرُ على هذا وذا — كوجود الفَرْد في عين العَدَدْ

فليس كهو شيء وليس مثل مثله شيء فنفى وأثبت. قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**» فله التنوّع في باطنه وله الثبوت في ظاهره، فلا يزيد فيه عضو لم يكن عنده في الظاهر، ولا يبقى حال واحد في باطنه، فله التنوّع والثبوت والحق موصوف بأنه الظاهر والباطن، فالظاهر له التنوّع والباطن له الثبوت، فالباطن الحق عين ظاهر الإنسان، والظاهر الحق عين باطن الإنسان فهو كالمرآة المعهودة إذا رفعت يمينك عند النظر فيها إلى صورتك رفعت صورتك يسارها فيمينك شمالها وشمالك يمينها، فظاهرك أيها المخلوق على صورة اسمه الباطن، وباطنك اسم الظاهر له، ولهذا ينكر في التجلي يوم القيامة ويعرف ويوصف بالتحوّل في ذلك، فأنت مقلوبه فأنت قلبه وهو قلبك ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] ما أحق هذه الآية في الباطن بهذا المقام: [الرمل]

فكما يَلْبَسُنا نَلْبَسُهُ — فبنا كان كما نحن بِهِ
فانْتَفَى ما هو موجودٌ بنا — وبه أَكْرِمْ به من مُشْبِهِ

وأكثر من هذا البسط في العبارة ما يكون، فإن هذا الميدان يضيق الجولان فيه جداً، والله ولي الإعانة إذ هو المعين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي خمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]

أي نرده إلى أصله وهو البعد، يقال بئر جهنام إذا كانت بعيدة القعر

[نظم: مجزوء الرمل]

مَنْ يَقُلْ إنّي إلهٌ — فكلامٌ ليس يَصْدُقْ
أو يَقُلْ إنّيَ خلق — لحقيقة التَّخَلُّقْ
فهما سِيَّان فيه — هكذا يُعْطي التَّحَقُّقْ
والذي ليس له — ذان له حال التّعَلُّقْ
فله الجَمْعُ المُسَمَّى — مثل ما له التَّفَرُّقْ

قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٢١و ٢٢] ﴿إِنَّ رَبَّكَ

لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] فحقق وانظر تعثر والله الموفق، فحصلوا في نقيض دعواهم، فإن الطاغي المرتفع طغى الماء إذا ارتفع، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] فمن قال إني إله فقد جعل نفسه في غاية القرب، فأخبر الله أن جزاء هذا القائل يكون غاية البعد عن سعادته إذ كان جزاؤه جهنم، فينزل إلى قعرها من طغى إلى الألوهة التي لها الاستواء على العرش بالاسم الرحمن.

واعلم أنه ما في علمي أن أحداً يقع منه هذا القول وهو يجوع ويمرض ويغوط وأمثال هذا إلا فرعون لما استخف قومه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] ثم جعل ذلك ظناً بعد شك أو إثباتاً في قوله: ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨] وأما القائلون بأن الله هو المسيح ابن مريم فما هم في حكم هذا الذكر لأمرين: الأمر الواحد أنهم فرّقوا بين الناسوت واللاهوت والقائل بهذا الذكر لا يفرّق، والأمر الثاني إنما يدل هذا الذكر على من قال عن نفسه ذلك لا من قيل عنه، والذي ينتج هذا الذكر لصاحبه أحد أمرين أو كلاهما: الأمر الواحد أحدية هذا القائل في الألوهة فيكون العالم كله عند صاحب هذا الذكر عين الحق فله أحدية الكثرة كما لغيره أحدية كثرة الأسماء الإلهية، وتكون الكثرة في النسب والأحكام لا في العين والعالم كله عنده عرض عرض لهذه العين من أعيان الممكنات الثابتة التي لا يصح لها وجود، والأمر الآخر أن يكون قوله من دونه نزولاً عن المرتبة التي لله، وهذا مثل قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فهو وإن كان أنزل منه في الرتبة فهو عنده أنه إله، فيكون هذا القائل إذا كان صاحب هذا الذكر يرى أن تجلي الحق في الصور أنزل منه لو تجلى في كونه غنياً عن العالمين، فلو صح هناك تجل لكان أكمل من تجليه في الصور فتعقل رتبة غناه عن العالم بنفسه، وقد يكون هذا لمن يراه عين العالم فعلامته هويته فهو الدليل له عليه كقوله: أعوذ بك منك، واستعاذ به منه إذ لا مقابل له غير ذاته فهو المعز المذل.

ثم هنا تنبيه إلهيّ حيث قرن هذا الحال بالقول لا بالعلم والحسبان، فإن قال: ما نظن أنه قد علم أن الأمر كذا فتخيل أن قوله مطابق لعلمه وهذا يستحيل وقوعه من أحد علماً لعلمه بذلته وافتقاره وقصوره في نفسه، فإذا قال مثل هذا وهو يعلم قصوره فيقولها بوجه لا يقع عليه فيه مؤاخذة ويكون جزاؤه على هذا القول جهنم أي بعده في نفسه عما يقول به على لسانه وهو خير جزاء لأنه علم ويكون ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥] جزاء الظالم الذي ورث الكتاب من المصطفين، فإن الله أطلق على بعض الورثة اسم الظالم مع كونه من أهل الحق فيتخصص الظالم هنا كما تخصص في قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] وهو ظلم خاص مع كونه نكرة، فهو نكرة عند السامع لا عند المتكلم به، ولهذا فسره رسول الله ﷺ بأنه الشرك خاصة، فمثل هذا الهجير يكون موجهاً فيما ينتج لأنه في وضعه على ذلك، فيأخذ كل صاحب وجه منه بنصيب لأنه صالح لذلك، وكل آية في الهجيرات إنما تؤخذ على انفرادها كما سطرت، وعند أهل التحقيق هذا المأخذ وإن كان عالي الأوج، فإن

مسمى الآية إذا لزمتها أمور من قبل أو بعد يظهر من قوّة الكلام أن الآية تطلب تلك اللوازم فلا تكمل الآية إلا بها وهو نظر الكامل من الرجال، فمن ينظر في كلام الله على هذا النمط فإنه يفوز بعلم كبير وخير كثير كما تقول في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إنها آية مستقلة وتقول فيها في سورة النمل إنها جزء آية، فلا كمال لها في الآي إلا بزيادة، فاعلم أنه كما لكل أجل كتاب كذلك لكل عمل جزاء والقول عمل فله جزاء أن الله عند لسان كل قائل، وليس بعد الخواطر أسرع عملاً منه أعني من اللسان، فالقول أسرع الأعمال ولا يتولى حساب صاحبه إلا أسرع الحاسبين لأن متولي الحساب على الأعمال من الأسماء الإلهية ما يناسب ذلك العمل إن فهمت ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الواحد وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ٤٠] وكان هذا هجير الشيخ أبي مدين شيخنا رضي الله عنه

[نظم: الرمل]

أفـغَـيْـرَ الله يَـدْعُـو صـادقٌ ... أم بـغـيـر الله فُـوهُ يَـنْـطُـقُ
بـل بـه يـنـطـقُ لا يـعـقـبـهُ ... ولـذا فـي كـل حـال يَـصْـدُقُ
ثـم يَـدْعُـوه إذا يَـدْعُـو بـه ... فـهـو الـدَّاعـي الـذي لا يُـلْـحَـقُ
أخـلـق الـخـالـق مـا يـخـلـقـه ... لـجـديـد بـعـد هـذا يـخـلـقُ
لـيـت شِـعْـري هـل تـرى مـن كـائـن ... قـائـم الـعَـيْـنِ بـه لا يـخـلـقُ
حَـجَـبَ الأمـثـال مـا قـام بـهـا ... مـن فَـنـاء كـونـه يـحـقـقُ

قـال الله تـعـالـى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١] أي تتركون الشرك، فأنتج هذا الذكر هذه الشهادة الإلهية وإذا كان الحاكم عين الشاهد بقيت الحيرة في هل يحكم الحاكم بعلمه أم لا؟ فإن الشهادة علم، والحكم قد يكون عن غلبة ظن وعن علم وموضع الشهادة بل إياه تدعون وتنسون ما تشركون وهو قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] فقد شهد على نفسه لنا في دار التكليف بتوحيده في المهمات، ولا يعرف الكريم إلا المسيء ولا أكرم من الله، وقد نبه الله المسيء أن يقول بكرم الحق لكونه يحكم بالكرم في حقه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] هذا ليقول كرمك وما يعني بالإنسان هنا إلا المسيء صاحب الكبيرة، فإنه لا يقاوم كبير كرمه إلا بأكبر الكبائر، فهناك يظهر عموم الكرم الإلهي وقوّته، فهو وإن لم يغفر فلا بد من الكرم الإلهي في المآل، وإن لم يخرج من النار لأنها موطنه، ومنها خلق حتى لو أخرج منها في المآل لتضرر فله فيها نعيم

مقيم لا يشعر به إلا العلماء بالله. فلما كشف الله غطاء الجهل والعما عمن كشفه أبصر أن أحداً من الخلق ما دعا في حال شدته إلا الله، فلو لم يكن في علمه في حال الرخاء أن حل الشدائد بيد الله خاصة وهذا هو التوحيد ما أظهره لك الاعتقاد عند الشدائد، فلم يزل المشرك موحداً بشهادة الله في حال الرخاء والشدة، غير أن المشرك في حال الرخاء لا يظهر عليه علم من أعلام التوحيد الذي هو معتقده، فإذا اضطر رجع إلى علمه بتوحيد خالقه لم يظهر عليه علم من أعلام الشرك وكل ذلك في دار التكليف، وأكثر علماء الرسوم غائبون عن هذا الفضل الإلهي والكرم، فيعطي هذا الذكر من العلم بكرم الله ما ليس عند أحد من خلق الله ممن ليس له هذا الذكر والدؤوب عليه، ولم أسمع عن أحد تحقق به في زماني مثل الشيخ أبي مدين ببجاية رحمه الله، وإذا اجتمع في دار التكليف في الشخص ظهور التوحيد في وقت وظهور الشرك في وقت مع استصحاب التوحيد في الباطن مع وجوده في أصل الفطرة والرجوع إليه في المآل في حال الاحتضار قبل الخروج من الدنيا فكان زمانه أكثر من زمان الشرك، فلو قابلنا الأمر بالزمان بينهما لكان زمان التوحيد غالباً بالفطرة والاستصحاب في الباطن دائماً علماً وعقداً، وكان ظهوره في وقت الشدائد بأزمانه أكثر من زمان الشرك، فلا يحجبنك حكم الدار عن هذا الذي أومأنا إليه في هذا الهجير فإنه ينفعك، ولو قدرت أنه لا ينفعك فإنه لا يضرّك، فقل به على كل حال واعتمد عليه ولاتك ممن يردّ شهادة الله حين شهد لهم بذلك عندك، وما شهد عندك حتى جعلك حاكماً فأنزلك منزلته في الحكم وأنزل نفسه منزلتك في الشهادة، فإن لم تحكم بما قرّرناه فقد رددت شهادة العدل ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢] ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] ثم قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣] أي إن صدقتم ولا تكتمون ما تجدونه في نفوسكم من قولي إنكم ما تدعون في الشدائد إلا الله الذي ما زالت قلوبكم منطوية عليه فهم بلا شك مصدقون لعلمهم فهل يصدقون إذا سئلوا أم لا: [المتقارب]

فقد يَصْدقون وقد يَكْذبونْ وقد يعلمون وقد يَجْهَلُونْ
فلا تُصْغيَنَّ إلى قولهم فإني عليمٌ بما يقصدونْ
فكُنْ وَاحِدَ العَصْر لا تَلْتَفِتْ إلى ما يقولون إذ يَفْشُرُونْ
فإني خبيرٌ بأقوالهم وعلمي بهم أنهم يَخْرصُونْ
ولو كنت أدري بهم أنهم إذا ما يقولونه يصدقونْ
لقد كنت أُصْغي إلى قولهم فهم إذ يقولون ما يَشْعُرونْ
فهم إذ يقولون ما في العَمَا وفي العرش إلا الذي يَفْتَرُونْ
فقد حَرَّفُوا القَوْلَ فاستنصِروا عليهم بهم إنَّهُم يَنْصُرُونْ

ومتى لم يعلم الكاذب أنه كاذب فإنه غير مؤاخذ بكذبه، فإن أخذ فما يؤاخذ إلا بتفريطه في تحصيل ما ينبغي له أن يحصله من العلم والعمل بما فيه نجاته وسعادته لا من جهة كذبه، فلا يؤاخذ الكاذب إلا إذا كان عالماً بكذبه في المواطن التي كلف أن يصدق فيها وهو الجاحد

إذا كان هناك من يطلب منه الإقرار في ذلك الأمر المطلوب منه مثل قوله تعالى في حق من كان بهذه الصفة ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وقد قررنا أنه إذا أخذ من لا يعلم أنه كاذب إنما يؤخذ من حيث إنه فرط في اقتناء العلم الذي يطلعه على هذا الأمر الذي كذب فيه من غير علم به أنه ليس بحق، ففرق بين مؤاخذة الكاذب ومتى هو كاذب، وبين مؤاخذة المفرّط في اقتناء العلم الذي يعرّفه الصدق من الكذب والصادق من الكاذب، فينزل كل شيء منزلته بصفته، وهذا عزيز في الناس قليل وجوده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. جعلنا الله وإياكم من العلماء العاملين على كل حال، ولايحول بيننا وبين مقام الصادقين والصديقين إنه المليُّ بذلك والقادر عليه آمين بعزته.

الباب الثاني وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]

[نظم: الرمل]

لا تَـخُـونـوا الله إن كـنـتـم لـه ... والأمـانـات كـذاكـم لا تُـخَـانْ
لا تَـكُـنْ بـالـحـمـل إن حـمـلـتـهـا ... دون أمـر جـاهـلاً لـيـس تُـعـانْ
كـل مـن حـمـلـهـا يـحـمـلـهـا ... بـأمـان فـالأمـانـات أمـانْ
ولـهـا حَـقٌّ عـلـى حـامـلـهـا ... لـيـس يـدري ذاك إلا ذو عَـيَـانْ
فـيُـؤدّيـهـا كـمـا قـال لـنـا ... في الـكـتـاب الـحـقّ مـن قـال فـكـانْ
ذاكُـمُ الـلَّـهُ تَـعـالـى جَـدُّهُ ... فـي يَـرَاع ولـسـان وجـنـانْ

قال رسول الله ﷺ موصياً: «**لاَ تَسْأَلُوا الإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ سُؤَالٍ لَمْ تُعَنْ عَلَيْهَا**» فالخيانة ثلاث: أعني الذين يخانون خيانة الله وخيانة الرسول وخيانة الأمانات، وما أيَّهَ الله في هذه الخيانات إلا بالمؤمنين، فإن كنت مؤمناً فأنت المخاطب، فأما خيانة الله في أمانته وخيانة الرسول وخيانة الأمانات فأنا أذكرها إن شاء الله تعالى، لما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ لأنها كانت عرضاً لا أمراً ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] يريد ظلوماً لنفسه جهولاً بقدر ما حمل، قال لنا تعالى لما حملناها: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وما حملها أحد من خلق الله إلا الإنسان، فلا يخلو إما أن يحملها عرضاً أو جبراً، فإن حملها عرضاً فقد خاطر بنفسه، وإن حملها جبراً فإنه مؤدّ لهاعلى كل حال ولا بد.

واعلم أنّ أهل الأمانات الذين أمرنا الله أن نؤدّيها إليهم ليس المعتبر من أعطاها ولا بد، وإنما أهلها من تؤدّى إليه، فإن كان الذي أعطاها بنية أن تؤدى إليه في وقت آخر فهو أهلها من حيث ما تؤدى إليه لا من حيث أنه أعطاها، وإن أعطاها هذا الأمين المؤتمن إلى من أعطاه

إياها ليحملها إلى غيره فذلك الغير هو أهلها لا من أعطى فقد أعلمك بالأهلية فيها، فإن الحق إنما هو لمن يستحقه فاعلم ذلك واعمل عليه.

واعلم بأن الله قد أعطاك أمانة أخرى لتردّها إليه، كما أعطاك أمانة لتوصلها إلى غيرك لا تردّها إليه كالرسالة فإن الله يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] وقال: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩] وأمّا ما يرد إليه عز وجلّ من الأمانات فهو كل علم آمنك عليه من العلوم التي إذا ظهرت بها في العموم ضل به من لا يسمعه منك بسمع الحق، فإذا حصل لك مثل هذا العلم ورأيت من كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه وليس له هذا العلم فأداه إليه فإنه ما يسمعه منك إلا بسمع الحق، فالحق على الحقيقة هو الذي سمع فرددت الأمانة إليه تعالى وهو الذي أعطاكها، وحصلت لهذا الشخص الذي الحق سمعه فائدة لم يكن يعلمها، ولكن حامل هذه الأمانة إن لم يكن عالماً بأن هذا ممن يكون صفته أن يكون الحق سمعه وإلا فهو ممن خان الله وقد نهاه الله أن يخون الله، وكذلك أيضاً من خيانة من أطلعه الله على العلم بأن العالم وجوده وجود الحق، ثم تصرّف فيه بتعدي حد من حدود الله يعلم أنه متعدٍّ فيه، فإن الله في هذا الحال هو عين الأمانة في وجوده عند أهل الحجاب، سواء علم ذلك شرعاً أو عقلاً فقد خان الله في تصرّفه باعتقاده التعدي، ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] . وكذلك من خان الله في أهل الله فقد خان الله، وكل أمر بيدك أمرك الله فيه أن تردّه إليه فلم تفعل فذلك من خيانة الله والله يقول: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] وأما خيانة من خان رسول الله ﷺ فهي فيما أعطاك الله من الآداب أن تعامل به رسول الله ﷺ وهذه المعاملة هي عين أدائها إليه ﷺ، فإذا لم تتأدّب معه فما أدّيت أمانته إليه فقد خنت رسول الله ﷺ فيما أمنك الله عليه من ذلك، ومن خيانتك رسول الله ﷺ ما سألك فيه من المودة في قرابته وأهل بيته فإنه وأهل بيته على السواء في مودتنا فيهم، فمن كره أهل بيته فقد كرهه، فإنه ﷺ واحد من أهل البيت، ولايتبعض حب أهل البيت، فإن الحب ما تعلق إلاّ بالأهل لا بواحد بعينه، فاجعل بالك واعرف قدر أهل البيت، فمن خان أهل البيت فقد خان رسول الله ﷺ، ومن خان ما سنه رسول الله ﷺ فقد خانه ﷺ في سنته.

ولقد أخبرني الثقة عندي بمكة قال: كنت أكره ما تفعله الشرفاء بمكة في الناس فرأيت في النوم فاطمة بنت رسول الله ﷺ وهي معرضة عني فسلمت عليها وسألتها عن إعراضها فقالت: إنك تقع في الشرفاء، فقلت لها: يا ستي ألاترين إلى ما يفعلون في الناس؟ فقالت: أليس هم بنيّ؟ فقلت لها من الآن وتبت فأقبلت عليّ، واستيقظت: [الوافر]

فلا تَعْدِلْ بأهل البيت خَلْقاً فأهلُ البيت هم أهلُ السِّيادَة
فبُغْضُهُمُ من الإنسان خُسْرٌ حقيقيٌّ وحُبُّهُمُ عبادَة

ومن خيانتك رسول الله ﷺ المفاضلة بين الأنبياء والرسل سلام الله عليهم، مع علمنا بأن الله فضل بعضهم على بعض كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ﴾

[الإسراء: ٥٥] وقال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فله سبحانه أن يفضل بين عباده بما شاء وليس لنا ذلك فإنا لا نعلم ذلك إلا بإعلامه، فإن ذلك راجع إلى ما في نفس الحق سبحانه منهم، ولايعلم أحد ما في نفس الحق كما قال عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦] ولا دخول هنا للمراتب الظاهرة والتحكم، وقد نهى رسول الله ﷺ أن نفضل بين الأنبياء وأن نفضله ﷺ عليهم إلا بإعلامه أيضاً، وعين يونس عليه السلام وغيره، فمن فضل من غير إعلام الله فقد خان رسول الله ﷺ وتعدى ما حده له رسول الله ﷺ. وأما خيانة الأمانات فيتناولها قوله ﷺ: **«لا تُعْطوا الحِكْمَةَ غيرَ أهلِهَا فَتَظْلِمُوهَا ولا تَمْنَعُوهَا أهْلَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ»** والخيانة ظلم، فالحكمة أمانة وخيانتها أن تعطيها غير أهلها وأنت تعلم أنه غير أهلها، فرفع الله الحرج عمن لا يعلم، إلا أنه أمره بأن يتعرض لتحصيل العلم بالأمور فلا عذر له في التخلف عن ذلك، فمن خان فيه قبل حصول العلم وهو متعلم في حصول العلم ودعاه الوقت إلى ذلك التصريف الخاص المسمى خيانة فإنه غير مؤاخذ بتلك الخيانة ولا بالتفريط، فإنه في حال التعمل لتحصيل العلم والوقت حكم بما وقع به التصرف، فمن كان له هذا الذكر فإنه تحصل له به العصمة من الخيانة ويطلعه على العلم بالأهلية في كل أمانة بعناية هذا الذكر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل: [البسيط]

إنّي خُصِصْتُ بسرٍّ ليس يعلمُهُ ... إلا أنا والذي في الشرع نَتْبعُهُ
هو النبيُّ رسولُ الله خَيْرُ فَتًى ... بالله نَتْبَعُهُ فيما يُشَرّعُهُ

الباب الثالث وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]

[نظم: البسيط]

الله يعلمُ أنّي لستُ أعلمه ... وكيف يُعْلَمُ من بالعلم نَجْهَلُهُ
إني علمتُ وجوداً لا يُقَيِّدُهُ ... نَعْتٌ بحقّ ولا خلق يفصّلُهُ
علمي به حَيْرَتي فيه فليس لنا ... دليلُ حَقّ على علم نُحَصّلُهُ
فليس إلا الذي جاء الرسولُ به ... في الحالتين وبالإيمان نقبلُهُ
فإن تَفَكّرْتَ في القرآن تُبْصِرُهُ ... وقتاً يُنَزِّهُهُ وقتاً يُمَثِّلُهُ

قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] هذا الذكر عليّ المشهد والمحتد، فإن الله ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، ما علل بغير هذا خالق العالم، وما نعلم أحداً أخذ عبادة الخلق لنفسه أو لغير الله حتى يخلصها منه، وقد علمنا صدق قوله في طلبه الإخلاص في العبادة فعلمنا أنه لا بد، ثم من نسبة فيها، إلى غير الله فلم نجد إلا نحن، فنحن أصحاب الدعاوى فيما هو لله لأنه ما من شيء إلا وهو ساجد لله والسجود عبادة إلا نحن ولذلك قال:

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨] ولم يعم كما عم في كل من ذكر من الأنواع، ألا تراه تعالى ما أرسل رسولاً إلا بلسان قومه، فالرسالة لله والأداء للرسول عليه السلام بلسان القوم: [الرمل]

علم القرآن كيف ينزل ... في وجودي وعلى مَنْ ينزلُ
إنما ينزله الذكر به ... في قلوب كلهن منزلُ
ولكلّ منهُمُ قِسْمَتُهُ ... ليس في القرآن شيء يفضلُ
فلنا منه المقامُ الأسهلُ ... ثم لله المقام الأجْزَلُ
وهو قول الله واللفظُ لنا ... وله الحكم العظيم الفَيْصَلُ

ولكن الله قد أبان لنا أن هوية الحق سمع العبد وبصره وجميع قواه، والعبد ما هو إلا بقواه فما هو إلا بالحق، فظاهره صورة خلقية محدودة، وباطنه هوية الحق غير محدودة للصورة، فهو من حيث الصورة من جملة من يسبح بحمده، وهو من حيث باطنه كما ذكرنا، فالحق يسبح نفسه، وأعطى المجموع معنى دقيقاً غامضاً لم يعطه كل واحد على الانفراد به، وأضيف إلى الصورة ما أضيف من موافقة ومخالفة وطاعة ومعصية، وبه قيل: إنه مكلف وبه صحت القسمة في الصلاة بينه وبين الله فيقول العبد كذا فيقول الله كذا ولا يكون عبداً إلا بالمجموع، فانظر ما حصل للحق من النعت لما وصف نفسه بأنه قوى العبد فما كان عبداً إلا به، كما لم يكن الحق قواه إلا به لأن اسم العبد ما انطلق إلا على المجموع، وقد أعلمنا الله من هو المجموع، فيقول العبد: الحمد لله رب العالمين، والحق لسانه والحق سمعه، فمن قال: الحمد لله ومن سمع قوله: الحمد لله فيقول الله: أثنى عليّ عبدي، ولكن بغير هذا اللسان القائل بل بهوية الحق مجردة عن الإضافة بهذا العبد في حال إضافتها إليه، فلم يقل بالمجموع أثنى عليّ عبدي وما أثنى عليه إلا بكلامه فإن الحمد لله رب العالمين كلام الله، فبالمعنى المعلوم كانت العبارة عنه أثنيت على نفسي بصورة عبدي حكى عبدي عني من حيث صورته الظاهرة ما أثنيت به على نفسي، كما ذكر لنا في غير هذا الموضع أن الله قال على لسان عبده سمع الله لمن حمده، وقال لنبيه ﷺ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وما سمع إلا صوت المؤدي وهو الرسول، ونحن نعلم أن كلام العالم كله ليس إلا كلامه، فإن العالم كله إنسان كبير كامل، فحكمه حكم الإنسان، وهوية الحق باطن الإنسان وقواه التي كان بها عبداً، فهوية الحق قوى العالم التي كان بها إنساناً كبيراً عبداً مسبحاً ربه تعالى: [الطويل]

ألا كُلُّ قَوْلٍ في الوجود كلامُهُ ... سَوَاء علينا نَثْرُهُ ونِظَامُهُ
يعم به أسماع كل مكوّن ... فمِنه إليه بَدْؤُهُ وخِتَامُهُ
ولا سامع غير الذي كان قائلاً ... فمندرجٌ في الجهر منه اكْتِتَامُهُ
فتستره ألفاظنا بحروفها ... فما فيه من ضوء فذاك ظَلامُهُ
فما ظَنُّكُمْ بالنُّور منه إذا بدا ... وقد ملأ الجَوّ الفَسِيحَ غَمَامُهُ

لأنه القائل أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام. ولما كان الأمر على ما ذكرناه في نفسه طلب منا أن نخلص العبادة له لأن بالعبادة نكون عبيداً، وما نكون عبيداً إلا بهويته فنخلص العبودية، وتخليصها أن نقول له: أنت هو بأنانيتك، وأنت هو في أنانيتي، فما ثم إلا أنت فأنت المسمى رباً وعبداً إن لم يكن الأمر كذا فما أخلصنا له عبادة، فما طلب الإخلاص فيها إلا من المجموع، ولا يصح لها وجود ولا نسبة إلا بالمجموع لأنه بالانفراد غنيّ عن العالمين، وبالمجموع قال: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ﴾ [المزمل: ٢٠] فقيده بالإحسان وفسر لنا ما هو الإحسان، وما فسره إلا بشهود المحدود المنصوب في القبلة، فمعرفة الله بلسان الشارع المترجم عن الله غير معرفته بالنظر العقليّ، فللمعرفة بالله طريقان وأعني العلم بالله منا، وإن شئت قلت ثلاث طرق: الطريق الواحد علمنا به تعالى من حيث نظرنا الفكريّ، وعلمنا به من حيث خطابه الشرعيّ، وعلمنا به من حيث المجموع، وإنا نعلم أنا لا نعلمه كما يعلم نفسه، فهذا حصر المعرفة الحادثة بالله تعالى: [الكامل]

فالحَقُّ عَيْنُ العَبْدِ ليس سواهُ … والحَقُّ غَيْرُ العَبْدِ لَسْتَ تَراهُ
فانْظُرْ إليه به على مجموعه … لا تُفْرِدَنْهُ فتَسْتَبِيحَ حِمَاهُ
هذا هو الحقّ الصريح فأخلصوا … لله منك عبادة تلقاهُ

أي تلقاه تلك العبادة، وإن شئت قلت لله منه عبادة تلقاه فإنك ما أخذتها إلا به فمنه تخلصها له وأنت محل الظهور، فالصورة لك والعين هويته، كما قررنا في غير موضع أن الصور المعبر عنها بالعالم أحكام أعيان الممكنات في وجود الحق ولهذا يقال: إن العالم ما استفاد الوجود إلا من الحق وهو الحدوث، وهذا القدر كافٍ في تخليص العبادة لله فيكون الحق العابد من وجه المعبود من وجه بنسبتين مختلفتين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]

إلى هنا كان هجير شيخنا أبي مدين رحمه الله، وزاد بعضهم قوله تعالى: ﴿فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]

[نظم: المتقارب]

إلى الله من كَوْنِنَا المَهْرَبُ … وإيَّاه في رَفْعِه أرْغَبُ
ذَرِ الكُلَّ في خَوْضِهِ يلعبُ … فليس لنا غيرُه مَذْهَبُ
فإنك إن جِئْتَهُ تقربُ … وفيه الورى كله يرغبُ
ولما رأيت الذي يعجبُ … من الله فُزْتُ بما أطلبُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن هذا الباب قريب من الذي قبله، فإن الله وصف نفسه بالتعجب والضحك والفرح والتبشيش، وأشباه هذه الصفات الخلقية، ووصف نفسه بـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ﴾ [الشورى: ١١] يعني فيها ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾

[الأنفال: ١٧] فخلصنا له منه أمرنا الحق أن نقول الله ثم نذرهم أي نترك ضميرهم، وهو ضميرهم ضمير الجمع لا هو الذي هو ضمير الأفراد، فإنا للفرد نخلص العبادة من الجمع، فإن الجمع أظهر القسمة بين الله وبين عبده في العبادة وهي لله لا للمكلف من حيث صورته، وإن كانت له من حيث جمعيته بالله فهنا رسخت قدم الشيخ أبي مدين رضي الله عنه ولم يتعد وغيره يتمم الآية فقال: ﴿فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] فوقف أبو مدين رضي الله عنه مع قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَٰتِنَا﴾ وكل ما في العالم آياته فإنها دلائل عليه ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨] فامتثل أمر الله فأعرض ووقف غيره مع أمره أن يتركهم في خوضهم يلعبون فامتثلنا أمر الله وتركناهم فكشف الغطاء عن أبصارنا فعلمنا على الشهود من الخائض اللاعب، وما هو هذا الجمع الذي أظهره ضمير لفظة هم في قوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] وقد تقدم أنه ماثم أثر إلا للأسماء الإلهية، فثبت الجمع لله بأسمائه وثبت التوحيد بهويته: [المتقارب]

فما ثَمَّ جَمْعٌ ولا واحدٌ ... سوى الحقِّ فاشْهَدْ وذَرْ من أَمَرْ
كما قال في خَوْضِه لاعباً ... لحُكْمِ القضاء وحُكْمِ القَدَرْ
فما ثَمَّ فيما ترى لاعبٌ ... سوى من يُصَرِّفُ هذي الصُّوَرْ
فتُبْصِرُهُ وهو يَلْهُو بها ... كما شاءه حين يُقْضَى الوَطَرْ
هي الصَّوْلجان ومَيْدانُها ... وجودي لتصريف هذي الكُوَرْ
تجولُ الخيولُ بمَيْدانها ... مراكب أرواحها في البَشَرْ
وهم في الرُّكوب على ظهرها ... وإن سَلِمُوا فوق مَتْنِ الخَطَرْ

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] فهو القاتل وإن لم يرد هذا الاسم ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فهو الرامي بالصورة المحمدية وإن لم يرد هذا الاسم ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٤] في صورة طير وإن لم يرد سرابيل تقيكم الحر وهو الواقي وإن لم يرد والسرابيل اسم: [المتقارب]

فهذا من الخَوْض فاعْلَمْ به ... لتعلم من ذلك الخائضْ
وَأَبْرِمْ وما أنت أَبْرَمْتَهُ ... وكُنْ ناقضاً فهو الناقِضْ
وقل للذي يَجْبُنُ انْهَضْ به ... فتحمد نهوضك يا ناهضْ
فلم تقتلوهم ولكنه ... هو القاتلُ الفارسُ الفارضْ

ليس مسمى اللعب باللعب على طريق الذم فإن اللعب مفرحة النفوس، إلا أن الحق جعل لهذا اللعب مواطن، فإذا تعدى العبد بلعبه تلك المواطن تعلق به الذم لا من كونه لعباً بل من كونه في ذلك الموطن، ثم لتعلم أن الأمور تختلف بالقصد وإن اجتمعت في الصورة، وقد بينا هذا المعنى فيما جبل عليه الإنسان في أصل خلقه من البخل والجبن والحرص والشره وهي في العامة خلق مذمومة عرفاً، فبين الحق لها مصارف تحمد فيه، فلولا أنها قابلة للحمد بالذات ما حمدت في المصارف الإلهية التي عين لها الحق واللعب منها، وقد أمرنا الحق أن

نذر الخائض يلعب في خوضه وقد أمرنا بالنصح وتغيير المنكر بالمعروف وهو أن نبين وجه المعروف في المنكر فنزيل عنه اسم المنكر كما هو في نفس الأمر معروف فإنه ما في الوجود من يقع عليه نعت النكرة فإن كل شخص قد عينته شخصيته فأين المنكور: [الكامل]

فـإذا فَـهِـمْـتَ مـقـالـتـي فـافْـرَحْ بـهـا ... فـالـقَـوْلُ قَـوْلُ الله فـي الـمَـخْـلُـوقِ
إذْ كـان مـن فـهـم الـذي قـد قـلـتـه ... مـن حـكـمـة أدى إلـيّ حُـقُـوقـي

هذا ما أنتجه المقال فكيف يكون ما ينتجه العمل؟ فإن الله ما أمرنا إلا أن نقول الله ونترك كل حرف بما عنده فارحاً ما كلفني غير ذلك فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] عن بصيرة فإنهم بين أن يحمدوا ذلك الخوض أو يذموه عقداً، فإن حمدوه فقد قلنا أنه تعالى عند كل معتقد، وإن وجدوه في تصور من تصوره لا يزول بزوال تصور من تصوره إلى تصور آخر، بل يكون له أيضاً وجود في ذلك التصور الآخر كما يتحول يوم القيامة في التجلي من صورة إلى صورة، وما زالت عنه تلك الصورة التي تحول عنها لأن الذي كانت معتقده فيها يراه فما هو إلا كشف منه تعالى عن عين هذا الذي يدركها لا غير فهم على بصيرة وإن ذموه، فهم الذين تحول في حقهم إلى الصورة التي تحول إليها بعلامتهم، فهم في ذمهم على بصيرة لأنه لذلك خلقهم كما تعبد كل مجتهد بما أداه إليه اجتهاده، وحرم عليه أن يعبده باجتهاد غيره إذا كان من أهل الاجتهاد سواء، فالمقلد مطلق فيما يجيء به المجتهدون ويختار ما شاء فله الاتساع في الشرع وليس للمجتهد ذلك فإنه مقيد بدليله وإن أصاب الحق أو أخطأه، كما هو نعت هذا الخائض إن حمد خوضه أو ذمه فهو في الحالتين على بصيرة، ولهذا أمرنا الحق أن نتركهم في خوضهم يلعبون، ولو لم يكن في هذا الذكر من الفائدة إلا كون الله يتخلق لعباده في اعتقادهم، فإن الناظر في الله خالق في نفسه بنظره ما يعتقده فما عبد إلا إلهاً خلقه بنظره وقال له كن فكان، ولهذا أمرنا الناس أن يعبدوا الله الذي جاء به الرسول ونطق به الكتاب، فإنك إذا عبدت ذلك الإله عبدت ما لم تخلق بل عبدت خالقك فأعطيت العبادة حقها موفى، فإن العلم بالله لا يصح أن يكون علماً إلا عن تقليد محال أن يكون عن دليل، ولهذا منعنا عن التفكر في ذات الله ولم نمنع بل أمرنا أن نفرد الرتبة إليه فلا إله إلا هو، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] كان عليه من أصحابنا محمد المراكشي بمراكش

[نظم: الخفيف]

لـيـس قَـلْـبُ الـوجـود غَـيْـرَ وجـودي ... وكـذا فـي الـشّـهـود عَـيْـن شُـهُـودي
فـأنـا الـقـلـبُ والـمـهـيـمـن قـلـبـي ... وهـو مـنّـي مـكـان حـبـل الـوَرِيـدِ
لا تُـجِـدُّوهُ لـلـذي قـد سـمـعـتـم ... إنّــه جَــلّ عــن قــيــود الــحُــدودِ

مـن رآنـي فـقـد رآه ومـن لـم ... يـرنـي لـم يَـفُـزْ بـفَـرْض الـسُّـجُـودِ
إنـمـا يُـفْـرَضُ الـسـجـودُ عـلـى مـن ... قـال فـي الـحـق إنـه مـن وجـودي

يريد قوله ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» رأيت محمداً المراكشي بمراكش وكان يكاثرني ليلاً ونهاراً وكان هذا هجيره دائماً فما رأيته ضاق صدره من شيء قط وكانت الشدائد تمر عليه فلا يتلقاها إلا بالفرح والضحك، فتفرج عنه في نظرنا وهو ينتقل من فرح إلى فرح ومن سرور إلى سرور، فكنت أقول له: هل تصبر على حلول هذه النوازل المكروهة طبعاً؟ فيقول: لما صبرت أولاً فأنتج لي ذلك الصبر على الحكم الإلهيّ مشاهدة العين فشغلتني عن كل حكم فما أتلقاه إلا به فهو مجنى فإياه أسأل، فإن النوازل به تنزل في رؤيتي وأنتم ترون حكم النازلة في صورتي وكل عند نظره، ثم كان هذا الشخص من أحفظ الناس على أوقات عباداته، والله ما رأيت مثله بعده في هذا المقام، وما تحسر أحد من إخواني على فراقي حين فارقته إلى هذه البلاد مثل تحسره على فراقي وكان يقول لي: والله لولا مشاهدة العين التي حجبتني عن نفوذ الحكم الرباني في لسافرت معك، فوالله ما يغيب عني منك إلا تحوّل صورة الحق إلى صورة أخرى فأشهده غيباً ومحضراً، وهذا ذوق عجيب، كان كثير الأدب كثير الكلام، يكاد لا يصمت أبداً عن دلالة الناس على الله عز وجل، فإذا قيل له في ذلك يقول: أنا أؤدي فريضتي في كلامي وأنت بالخيار في مجالستي والإصغاء إلي ما نورده أنا أتكلم مع من يسمع ما أتكلم مع من لا يسمع، اعلم أن هذا الذكر يعطي الثبوت مع الحكم الربانيّ لما فيه من المصلحة وإن لم يشعر به العبد وجهله فهو في نفس الأمر مصلحة كان الحكم ما كان، وهذا هو مقام الإحسان الأوّل الذي هو فرق الإيمان، فله الشهود الدائم في اختلاف الأحكام ولا بد من اختلافها لأنه تعالى كل يوم في شأن، فإن كنت صاحب غرض وتحسُّ بمرض وألم فاحبس نفسك عن الشكوى لغير من آلمك بحكمه عليك كما فعل أيوب عليه السلام، وهو الأدب الإلهيّ الذي علمه أنبياءه ورسله فإنه ما آلمك وحكم عليك بخلاف غرضك، وغرضك من جعل حكمه فيك إلا لتسأله في رفع ذلك عنك بما جعل فيك من العرض الذي بسببه تألمت، فمن لم يشك إلى الله مع الإحساس بالبلاء وعدم موافقة الغرض فقد قاوم القهر الإلهي، جاع أبو يزيد البسطاميّ فبكا فقيل له في ذلك فقال: إنما جوعني لأبكي، فالأدب كل الأدب في الشكوى إلى الله في رفعه لا إلى غيره، ويبقى عليه اسم الصبر كما قال تعالى في رسوله أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [صٓ: ٤٤] في وقت الاضطراب والركون إلى الأسباب، فلم يضطرب ولا ركن إلى شيء غير الله إلا إلينا لا إلى سبب من الأسباب، فإنه لا بد طبعاً عند الإحساس من الاضطراب وتغير المزاج، ولذلك لطخ الحلاج وجهه بالدم حين قطعت أطرافه لئلا يظهر إلى عين العامّة تغير مزاجه غيرة منه على المقام لمعرفته بهذا كله، وهو القائل في وقت هذه الحال: [السريع]

مـا قُـدَّ لـي عُـضـوٌ ولا مـفـصـلٌ ... إلا وفـيـه لـكُـمُ ذِكْـرُ

بخلاف الآلام النفسية إذا وردت الأمور التي من شأنها أن تتألم النفوس عند ورودها فقد

يتلقاها بعض عباد الله ولا أثر لها فيه على ظاهره والأمور المؤلمة حساً إذا أحس بها تحرك لها طبعاً إلا أن شغله عنها أمر يزيل إحساسه بها، وإنما كلامنا في ذلك مع الإحساس كأيوب وذي النون سلام الله عليهما، وأما إلى من ليس بيده من الأمر شيء كالمعتاد في العموم وتلك حالة أكثر العالم عباد الأسباب وبها يتستر الأكابر من عباد الله عن أن يشار إليهم ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨] المأمور به فذلك هو الثبوت مع الله عند نفوذ الحكم الإلهي فيه أيّ حكم كان من بلاء أو عافية، فإن الفرح بنيل الغرض يزيل صاحبه عن الثبوت أكثر من زوال صاحب البلاء، فإن حركة الفرح تدهش وتكثر اضطراب صاحبه إلا أن يكون له قوّة حال أكثر من وارد الفرح، وأما الهم والغمّ فإنه أقرب إلى الثبوت والسكون لمن حكم عليه به من فرح الواصل إلى غرضه، فهو ذكر يعمّ الخير والشر معاً وهما حالان والأحوال هي الحاكمة بداً، والمحكوم عليه لا بد أن يكون تحت قهر الحاكم لنفوذ حكمه فيه، وهو الذي جعله يضطرب لأن مطلوب الإنسان بالطبع الخروج من الضيق إلى الانفساخ والسعة والضياء المشرق لما يراه من ظلمة الطبع وضيقه فلا يصبر، فقيل له اثبت للحكم فإنك لا تخلو عن نفوذ حكم فيك إما بما يسوءك أو بما يسرك، فإن ساءك فتحرك إلينا في رفعه عنك، وإن سرك فتحرك إلينا في إبقائه عليك والشكر على ذلك فنزيدك ما يتضاعف به سرورك ولا يضعف فأنت رابح على كل حال، وما أمرناك بالصبر إلا ليكون الصبر عبادة واجبة، فتجازى جزاء من أدّى الواجب فتكون عبداً مضطراً مثنياً عليك بالصبر والرضا، ولو تركناك على التخيير وصبرت لكنت عبداً مختاراً أي ذا اختيار، ولم تذق طعماً لسيادتنا عليك، فإن المختار يولينا على نفسه إذا شاء، ويعزلنا إذا شاء، ويخجلنا إذا شاء، ولا يخجلنا إذا شاء، فنحن في الاختيار بحكمه، وفي الاضطرار حاكمون عليه، فانظر إلى رحمة الله بك حيث أمرك بالصبر لحكم ربك، ثم زاد: فإنك بأعيننا أي ما حكمنا عليك إلا بما هو الأصلح لك عندنا سواء سرك أم ساءك، هذا قصده بقوله: فإنك بأعيننا أي ما أنت بحيث تجهله أو ننساه، فكن أي عبد شئت بعد هذا فأنت لما قصدت، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]

[نظم: الخفيف]

إن لله فـي الـخـلائـق مَـكْـرا ... وهو عنهم مُغَيَّبٌ ليس يُدْرَى
وهـو منهم وليس يَـدْريـهِ إلاّ ... من أقام الصلاة شفعاً وَوَتْرا
بـمـنـاجـاةِ ذلّـةٍ وخـضـوعٍ ... تـتـوالى عليه فيها وتَـتْرَى
وشُهـودٍ تـرى الحقائق فيه ... طالعات عليه شمساً وبَدْرا

ووجــودٍ تـرى الـكـوائـن فـيـه يـهـب الـعـلـم مـنـه سـراً وجَـهْـرَا

قال الله عز جلاله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] وقال: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠] فإذا شعر بالمكر زال كونه مكراً إلا في حال واحد، وذلك إذا شعر بمكر الله في أمر أقامه فيه وأقام عليه وأقامته عليه بعد العلم أنه من مكر الله مكر من الله مثل قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] وبهذا القدر يفارق علم الغيب، فإن عالم الغيب إذا علمه لم يكن غيباً عنده فزال عنه في حقه اسم الغيب، ولم يزل عن هذا الذي أقام على الأمر الذي كان لا يشعر به أنه مكر من الله اسم المكر به في إقامته في ذلك الأمر في حقه، وإلا فالمسألة على السواء لولا هذا الفارق الدقيق، ومن المكر الإلهي ما يقصد به ضرراً لعبد ومنه ما لا يقصد به ضرراً لعبد، وإنما يكون لحكمة أخرى يكون فيها سعادة العبد، فإنه لولا المكر الخفي لما صح تكليف ولا طلب جزاء، فإنه من مكر الله المحمود في الممكور به تكليف الله إياه بالأعمال والسمع والطاعة له فيما كلفه به، والأمر يعطي في نفسه أن الأعمال خلق لله في العبد وأن الله لا يكلف نفسه وليس العامل إلا هو، وهذا قد شعر به بعض الناس وأقاموا على العمل وثابروا عليه أعني عمل الخيرات.

ومن مكر الله قسمه لصلاة بينه وبين عبده نصفين والكل له، فمن أداها بالقسمة فقد شفع صلاته، ومن أداها بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣] أداها وتراً، فمؤدي الصلاة شفعاً هو الخاشع في صلاته، ومن أداها وتراً على علم لا يتصف بالخشوع في نفسه وإن ظهر على ظاهره فإن ذلك حكمه حكم ظهور العمل منه والله العامل لا هو، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وأما من يرى مكر الله ليس غير مكرهم وهم الذين يخادعون الله وهو خادعهم بعين اعتقادهم أنهم يخادعون الله، فما يخادع الله إلا جاهل بالله غاية الجهل، أو عارف بالله غاية المعرفة التي لا يمكن أن يكون للمحدث أتم منها، فأما الجهل في ذلك فمعلوم، وأما المعرفة في ذلك فكما قال عمر رضي الله عنه: من خدعنا في الله انخدعنا له. وفائدة هذا أنه يعلم من المخادع أنه يخدعه فينخدع له ولا يعلمه أنه انخدع له وهو المتباله الذي يظن فيه أنه أبله وليس بأبله، فإذا علم العارف أنه لا واهب ولا قابل إلا الله ومع هذا يستعيذ من مكر الله كما تعوّذ رسول الله ﷺ بالله من الله تمشية لمراد الله أي لإرادة الله، فإنه ما وضع في العالم حكماً إلا ليستعمل في محكوم عليه، ولو لم يرد استعماله لكان عبثاً، ولو لم يوحد من يستعمل فيه ذلك الحكم ومن يعمل به لكان أيضاً عبثاً، فالعامل به على بصيرة أولى من العامل به على غير بصيرة، فلا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وأن الله قد مشى لمن زعم أنه يخدع الله خداعه ومكره هنا فيكون في حق طائفة من مكر الله بهم، ويكون في حق طائفة أخرى من عناية الله بهم مثل قوله: افعل ما شئت فقد غفرت لك أي سترت نفسي عنك من أجلك، فلا نؤاخذك إذا آخذت غيرك بذلك لما سبقت لك عندي من العناية، فقدم المغفرة للذنب قبل وقوع الذنب وهو قوله: ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فيأتي الذنب مغفوراً أي مستوراً أي بحجاب بينه وبين من يقع منه، فلا يؤثر فيه

حكمه لأجل ذلك الستر، وما سمى الله المكر استدراجاً إلا لتنقله في المراتب من درج إلى درج، ولولا ذلك الانتقال لما اتصف به أهل الله فإنه بانتقاله يعمّ المقامات والمراتب وهي بين محمود ومذموم، ولولا ذلك ما وصف الله نفسه بالمكر والاستدراج، ولذلك يتصف به أهل الله فيخادعون وينخدعون.

ورد خبر أن بعض العباد يوقفه الله في السؤال يوم القيامة فيعترف بين يديه أنه عمل من الخير ما لم يعمل وهو كاذب في ذلك فيتجاهل له ربه حتى يقول ذلك القائل أن الله قد مشى عليه ما كذب به عنده فيأمر به إلى الجنة فتقول الملائكة: يا رب إنه كذب، فيقول الله: قد علمت ذلك ولكني استحييت أن أكذب شيبته، فهذا من انخداع الله له، فأهل الله أولى بالتجاوز عن عباد الله إذا عاملوهم بمثل هذه المعاملة، ونحن ممن تحقق به غاية التحقق وهو من أعظم مكارم الأخلاق الإلهية، فمن يقدر على الاغتبان ولا يظهر للغابن أنه اغتبن له فقد تمكن من حكم نفسه غاية التمكن لأن طبع النفس يطلب أن يعرف الخير منها، ولا خير مثل الاغتبان فإنه نظير الحلم مع القدرة في نفس الأمر، وهو يظهر للجاني أنه عجز عن مؤاخذته، وهو ما ترك مؤاخذته إلا حلماً لا عجزاً، وذلك لا يصدر إلا من قوي على حكم طبعه ونفسه والله ذو القوّة المتين بحلمه لمن عرف، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع وخمسمائة

في معرفة قطب كان منزله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]

[نظم: الوافر]

ألـم تـعـلـم بـأنّ الله مـنّـا ... يـرانـا والـوجـودُ لـنـا شَـهِـيـدُ
فـيـلـزمـنـا الـحـيـاء فـلا يـرانـا ... بـحـيـث نَـهَـى ونـحـن لـه شـهـودُ
وذا مـن أعْـجَـبِ الأشـيـاء عـنـدي ... فـيـأمـرُنـا ويـفـعـلُ مـا يُـريـدُ
يـقـول لـي اسْـتَـقِـمْ ويـريـدُ مـنّـي ... مـخـالـفـةً يـؤيِّـدُهـا الـوجـودُ
فـيـا قَـوْم اسـمـعـوا مـا قـلـتُ فـيـمـن ... هـو الـمَـوْلَـى ونـحـن لـه عَـبِـيـدُ
يـريـد الأَمْـرَ لا الـمـأمُـورَ فـانـظـرْ ... إلـى حُـكْـم يَـشِـيـبُ لـه الـوَلِـيـدُ

قال رسول الله ﷺ: «اسْتَحْيوا مِنَ الله حَقَّ الحَيَاءِ» ما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] وعرف بذلك عباده لاختلاف أهل النظر في ذلك بين الطريقين: بين أنه يرانا وبين أنا نراه، فالمؤمن على كل حال يعلم أن الله يراه من هذا التعريف فما عرفهم إلا ليلزموا الحياء منه تعالى في تعدي حدوده، فمن كان ذكره هذا الذكر فإن الله يتجلى له في هذه الدار تجليه لجبل موسى عليه السلام ولكن لا يجعله دكاً، وسبب ذلك الدؤوب على هذا الذكر فإنه يورث العبد قوة، وتلك القوّة من كون الذاكر لا يزال يذكر الله، والله جليس من يذكره وإن لم يشعر به، فأوّل ما يفتح الله لكل ذاكر في نفسه معرفة من يذكر الله به، فلا يرى الذاكر منه الله إلاَّ لهوية الحق ثم في سمعه ذكره كذلك يشهد أنه لا يسمع ذكر الله منه إلا الله، فإذا

رأى نفسه حقاً كله حينئذٍ يقع له التجلي الذي وقع لجبل موسى ولموسى فلا يندك ولا يصعق وإن فني فإنما يفنيه جمال ذلك المشهود، فإن الله جميل ويحب الجمال، فلا بد أن يكسو الله باطن هذا العبد من الجمال بحيث إنه لا يتجلى له إلا حباً لما ظهر فيه من الجمال الخاص المقيد به الذي لا يمكن أن يظهر ذلك الجمال إلا في هذا المحل الخاص، فإنه لكل محل جمال يخصه لا يكون لغيره، ولا ينظر الله إلى العالم إلا بعد أن يجمله ويسويه حتى يكون قبوله لما يرد به عليه في تجليه على قدر جمال استعداده، فيكسوه ذلك التجلي جمالاً إلى جمال، فلا يزال في جمال جديد في كل تجل، كما لا يزال في خلق جديد في نفسه، فله التحوّل دائماً في باطنه وظاهره لمن كشف الله عن بصيرته غطاء عماه.

واعلم أن الحدود الموضوعة في العالم أعني الحدود المشروعة التي أمرنا الحق أن لا نتعداها، ثم شرع لنا حدوداً تقام علينا إذا تعديناها كل ذلك لنعرف أن الأمر حد كله فينا وفيه دنيا وآخرة، لأن بالحدود يقع التمييز وبالتمييز يكون العلم، فلولا الفارق لما تميزت عين من عين ولا كان ثم علم بشيء أصلاً، وقد تميز لنا وبنا وعنا، كما تميزنا له وبه وعنه، فعرفنا من نحن ومن هو، فإن غلبنا حال يقول ذلك الحال بلسانه: أنا من أهوى ومن أهوى أنا، فيكفيه من قوّة أثر الحدود أن فرق بين أنا وبين من أهوى ولو أنه يهوى نفسه فحاله كونه يهوى وهو الفاعل ما هو عين حاله يهوى وهو المفعول، فبينت الحدود الأحوال كما بينت الأعيان، وهذا علم ما تصل إليه العبارة في أحدية العين ولم يقدر على أن يوحد الحال ولا ذلك بممكن أصلاً، وفي باب العلم بالله أوصل ما يكون الأمر، وأعظم في الأحدية أن يكون وجود العالم عين وجود الحق لا غيره، ومعلوم اختلاف صور العالم واختلاف الأسماء الإلهية، ولا معنى للاختلاف الواضح إلا العلم بأنه لولا الحدود لما كان التمييز، وإن كان الوجود عيناً واحدة وهو الوجود الحق فالموجودات والمعقولات مختلفة، ولقد لعن الله على لسان رسول الله ﷺ من غير منار الأرض وهو الحدود لأن التشابه إذا غمض جداً أوقع الحيرة وخفي الحد فيه، فإن شخصيات النوع الواحد الأخير متماثلة بالحد متميزة بالشخص. فلا بد من فارق في المتماثل بالحد، ويكفيك أن جعلته مثله لا عينه: [البسيط]

فالحَدُّ يَصْحَبُ ما في العلم أجْمَعِهِ والحَدُّ يصحبُه التحديدُ في النَّظَرِ

الباب الثامن وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:
﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]

[نظم: الكامل]

لولا الولايةُ كنتُ في الظُّلُمات فاخْتَصَّني الرَّحْمٰنُ بالحَرَكاتِ
فخرجتُ منها أبتغي النُّورَ الذي جمعتني فيه وعين شَتَاتي
ورأيتُ محياىَ الذي أسْعَى له وعلمتُ شأني فيه بعد وَفَاتي
ورأيتُ في الإنسان كل فضيلة والعِلْمُ أُكْمِلَ فيه في الدرجاتِ

فضممتُ للإيمان عِلْماً بالذي ... كان الوجودُ به بغير صِفَاتِ
وبَدَتْ لِيَ الأسماءُ خلف حجابه ... فشَهِدْتُها بالكشف عين سِمَاتي
إنّ العناية أشرقَتْ أنوارُها ... فسعيتُ في الأنوار طولَ حياتي
لولا وجودُ النّور في أبصارنا ... وقلوبِنا لسعيتُ في الظلماتِ
فالله أكبرُ والكبيرُ بدايتي ... ما دامَتِ الدنيا وبَعْد مَمَاتي
إن الخلافة لا يكون كمالُها ... إلا هنا لا في الذي هو آتي
فيزولُ في الجنّات نصْفُ وجودها ... لإزالة الأحكام في الدَّرَكَات
لما رأيتُ عُمُومَ رحمة ذاته ... في النشأة الأخرى ولم أرَ ياتي
أمْرٌ مزيلٌ حُكْمَهَا من خَلْقه ... فعلمتُ منه خلافتي بالذات
فأنا المُبَرِّزُ في كمال خلافتي ... عنه ويعلم ذاك كل مَوَاتِ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس أن الكشف المختص بهذا الذكر أن تطلع منه ذوقاً على كون المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والمؤمن اسم الله تعالى، والمؤمن اسم للإنسان، وقد عمّ في الولاية بين المؤمنين فهو ولي الذين آمنوا بإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور، وليس إلا إخراجهم من العلم بهم إلى العلم بالله فإنه يقول: من عرف نفسه عرف ربه فيعلم أنه الحق، فيخرج العارف المؤمن الحق بولايته التي أعطاه الله من ظلمة الغيب إلى نور الشهود، فيشهد ما كان غيباً له فيعطيه كونه مشهوداً، ولم يكن له هذا الحكم من هذا الشخص قبل هذا، فهذا للعبد تول بهذا القدر من كون الحق له اسم المؤمن، كما تولى الحق عبده من كونه مؤمناً، وكون الشخص مؤمناً سبباً في إخراجه من الظلمات إلى النور، وذلك نصرته المؤمنين من عباده، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وهذا من باب الإشارة إلى حكم الأسماء فيشد منا ونشد منه، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] من حيث هو المؤمن ونحن المؤمنون: [مجزوء الرمل]

فلنا منه التَّوَلِّي ... وله مِنِّي ذلكْ
وإذا لم يَكُنِ الأمْـ ... ـر كذا فالكُل هالِكْ
أنا مال الله فاحْفَظْ ... يا إلٰهي عَيْنَ مَالِكْ
فأنا حفظتُ فَقْري ... وهو ما لي من هُنَالِكْ

«ما» في قولي: «ما لي» هو بمعنى الذي، فاعلم يا وليّ أن ظلمة الإمكان أشد الظلمات فإنها عين الجهل المحض، فإذا تولى الله عبده أخرجه من ظلمة هذا الجهل الذي هو الإمكان، وليس إلا نظره لنفسه معرى عن نظره للذي تولاه، فيخرجه بهذا التولي من ظلمة إمكانه إلى نور وجوب وجوده به وهو المنعوت بالواجب فأخرجه منه لنفسه، وفرق بين الوجوب الذي حكمه الله وبين حكم الوجوب الذي لنا بالتقيد به، فوجوبه تعالى لنفسه ووجوبنا به: [مجزوء الرمل]

فاشْتَرَكْنا في الوُجُوبْ ... وافْتَرَقْنا في القُيُودْ

ثم حُزنَا بالوجودْ ما لنا من الحُدودْ
حين حُزنَا بالوجودْ ما لنا من الحُدودْ
فنُسَمِّيه إلٰهاً واخْتُصِصْنا بالعبيدْ
فهو لي أشْرَفُ وَسْم وأنا منه بَعِيدْ
ومشى بذاك أمْرِيَ في قريب وبَعيدْ
فأنا أحْمَدُ رَبِّي حين أُدْعَى بالحَمِيدْ
وعلمنا ذاك حقاً في مَغِيب وشُهُودْ
ثم لو جَحَدْتُ هذا ما تَمَشَّى لي جُحُودْ
ولذا أنزلت بدري بمنازل السعودْ
ورأيتُ عَيْنَ ذاتي في هبوط وصُعُودْ
فأنا من أجل هذا أَتَسَمَّى بالسَّعِيدْ
فأنا إن كنتُ شيخاً عقلُنا عَقْلُ الوليدْ

فولاية العبد ربه، وولاية الرب عبده في قوله: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧] وبين الولايتين فرق دقيق، فجعل تعالى نصره جزاء وجعل مرتبة الإنشاء إليك كما قدمك في العلم بك على العلم به، وذلك لتعلم من أين علمك فتعلم علمه بك كيف كان لأنه قال: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾ [محمد: ٣١] وقد ذكرنا في كتاب المشاهد القدسية أنه قال لي أنت الأصل وأنا الفرع على وجوه منها علمه بنا منا لا منه فانظر فإن هنا سراً غامضاً جداً وهو عند أكثر النظار منه لا منا أوقعهم في ذلك حدوثنا، والكشف يعطي ما ذكرناه وهو الحق الذي لا يسعنا جهله، ولما سألني عن هذه اللفظة مفتي الحجاز أبو عبد الله محمد بن أبي الصيف اليمني نزيل مكة ذكرت له أن علمنا به فرع عن علمنا بنا إذ نحن عين الدليل، يقول رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» كما أن وجودنا فرع عنه ووجوده أصل، فهو أصل في وجودنا فرع في علمنا به، وهو من مدلول هذه اللفظة، فسرّ بذلك وابتهج رحمه الله وهذا الوجه الآخر من مدلولها أيضاً وهو أعلى، ولكن ما ذكرناه له رحمه الله في ذلك المجلس لأنه ما يحتمله ولا يقدر أن ينكره، وما تم ذلك الإيمان القوي عنده ولا العلم ولا النظر السليم فكان يحار، فأبرزنا له من الوجوه ما يلايم مزاج عقله وهو صحيح، فإنه ما ثم وجه إلا وهو صحيح في الحق، وليس الفضل إلا العثور على ذلك، فالله وليّ المؤمن والمؤمن وليّ الله.

سئل رسول الله ﷺ فقيل له: من أولياء الله؟ فقال ﷺ: «**الَّذِينَ إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله فَذُكِرَ وَعُلِمَ وَشُهِدَ بِرُؤْيَتِنَا إيَّاهُمْ**» فجعلهم أولياء الله، كما جاء عن الله أنه ﴿وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فالمؤمن من أعطى الأمان في الحق أن منه يضيف إليه ما لا يستحق جلاله أن يوصف به مما ذكر تعالى أن ذلك ليس له بصفة كالذلة والافتقار، وهذه أرفع الدرجات أن نصف العبد بأنه مؤمن، فإن المؤمن أيضاً من يعطي الأمان نفوس العالم بإيصال حقوقهم

إليهم، فهم في أمان منه من تعديه فيها، ومتى لم يكن كذا فليس بمؤمن، فالولاية مشتركة بين الله وبين المؤمنين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]

[نظم: الطويل]

ألا إنّما الإنفاقُ من حَضْرَةِ النَّفَقْ ... فإنَّ له بابَيْن في كل ما خَلَقْ
فيأتي إليه الرزقُ من باب غَيْبِهِ ... وليس لذاك الباب بابٌ فيَنْطَبِقْ
فما زال مفتوحاً على كل حالة ... لأن اسْمَهُ الفتاحُ ما عنده غَلَقْ
إذا أنفق الإنسانُ فالله مخلفٌ ... فلا تيأسَنْ فالوقتُ بالوقْتِ مُتَّسِقْ
وإنْ غلق الإنسانُ باب عطائه ... يواليه رَبُّ الجُود جُوداً إنِ اتَّفَقْ
وإن غلق الإنسان باب هِبَاتِه ... فذلك إغلاقُ الإلٰه إذا انْغَلَقْ
ويُغْلِقُه إنْ شاء فالأمرُ أمرُه ... كما جاء في القرآن في سورة العَلَقْ
إذا عُذْتَ بالرحْمٰنِ في كل حالة ... تَعَوَّذْ بما قد جاء في سورة الفَلَقْ
وفي سورة الناس التي جاء ذِكْرُها ... إلى جنبها تُتْلَى كما عاذ من سَبَقْ
إن عُذْتَ عُذْ بالربّ إن كنت مؤمناً ... بما جاء في القرآن فانظر تَعُذْ بحَقْ
فما ذُكِرَ التعويذُ إلا بربّنا ... فكن تابعاً لا تَتَّبِعْ غَيْرَ من صَدَقْ

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] فيغلق عليه باب العطاء لما جعل في قلبه من خوف الفقر، إن أعطى فيطغى في غناه في عين فقره، فإن هو أعطى ما به استغنى افتقر فاحتقر، فلا يزال الغني خائفاً ولا يزال الفقير طالباً فالرجاء للفقير فإنه يأمل الغنى والخوف للغني فإنه يخاف الفقر، فما أنفقتم من شيء فإن الله يخلفه بهويته، فيخلفه بفتح الياء، فإنه ما ينفق حتى يشهد العوض وهو قولهم: من أيقن بالخلف جاد بالأعطية، فما ينفق أحد إلا عن ظهر غنى، لأن العبد فقير بالذات غنيّ بالعرض، وكان الأولى أن يكون غنياً بالذات لأن المصرف لمن يتصرّف فيه كالمال فإنه المتصرف فيمن يتصرّف فيه فهو يصرفه لأنه لا يتعدى فيه علمه، وعلمه ما كان إلا من معلومه، فما تصرّف فيه إلا بما أعطاه من ذاته، فمن حكمك في نفسه فهو الحاكم في تحكمك فيه فافهم: [الوافر]

لقد جَادَ الإلٰهُ على وُجُودي ... بما أخفاه عن خَلْقٍ كَثِيرِ
من العِلْم الذي ما فيه رَيْبٌ ... ولا شَكٌّ لذي الفِطَنِ الخَبِيرِ

واعلم أنه لا يقبل الإنفاق إلا المحدث فإن الإنفاق إهلاك ولا يهلك إلا المحدث و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] فمن أهلك شيئاً فقد فقده، وإذا فقده لم يجده، وإذا لم يجده وجد الله عنده فهو يخلفه، فكما عاد إلى الضمير على الشيء من يخلفه ولا يخلف إلا مثله لا عينه فليس هو هو، وإذا لم يكن هو هو ولا بدّ من الخلف فيخلفه الله

وجوده وهو قوله: ووجد الله عنده، فحيث تفنى الأسباب هناك يوجد الله ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] ومعنى ضل منكم وتلف فلم تجدوه وما وجدتم عند فقده إلا الله. يقول رسول الله ﷺ في دعائه ربه في سفره: «**أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ**»، فما جعله خليفة في أهله إلا عند فقدهم إياه، فينوب الله عن كل شيء أي يقوم فيهم مقام ذلك الشيء بهويته ولهذا قال: فهو يخلفه، فأي سبب يكون للمنفق بعد الإنفاق يسد مسد ما أنفقه من أمر ظاهر أو باطن حتى اليقين أو الاستغناء عن الأمر الذي كان يصل إليه بذلك الذي أنفقه في عين تحصيله لذلك الشيء، فهو مجعول من هوية الحق أو هوية الحق والهو عند الطائفة أتم الأذكار وأرفعها وأعظمها، وهو ذكر خواص الخواص، وليس بعده ذكر أتمّ منه، فيكون ما يعطيه الهو في إعطائه أعظم من إعطاء اسم من الأسماء الإلهية حتى من الاسم الله، فإن الاسم الله دلالة على الرتبة والهوية دلالة على العين لا تدل على أمر آخر غير الذات، ولهذا يرجع إليها محلول لفظة الله فإنك تزيل الألف واللامين على الطريقة المعروفة عند أهل الله فيبقى هـ، فإن جعلته سبباً لتعلق الخلق به مكنت الضمة فقلت هو فجئت بواو العلة وفيها رائحة الغنى عن العالمين، والعلة ما لها هذا المقام من أجل طلبها المعلول كما يطلبها المعلول فحركت بالفتح تخفيفاً من ثقل العلية فقيل هو فدل على عين غائبة عن أن يحصرها علم مخلوق، فلا يزال غيباً عند كل من يزعم أنه عالم به حتى عن الأسماء الإلهية فشغلها بما وضعها له من المعاني فجعل الرزاق همته متعلقة بالرزق، والمقيت بالتقويت، والعالم بالعلم، والحيّ بالحياة، وكل اسم بما وضع له وما دل عليه من الحكم فالأسماء موضوعة وضعتها الممكنات في حال ثبوتها وعدمها فالأسماء أحكامها والهوية تقوم للممكنات بهذه الأحكام فإليه وهو الهو يرجع الأمر كله، وإلى الهو من ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣] ترجع الأمور كلها، وما ذكر إلا الهو بالتصريح أو الله ما ذكر اسماً غيره فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب العاشر وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]

[نظم: الوافر]

سأصْرِفُ عن بَراهينِ الوُجُود ... قُلُوباً لم تَنَلْ رُتَبَ السُّجُودْ
فلمّا أن زَهَتْ فَخراً وعُجْباً ... على أهل المشاهد والشُّهُودْ
حَرَمْناها العلوم فلم تَنَلْها ... كما قد نالها أهْلُ القُصُودْ

فاعلم أيدنا الله وإياك أن الكبرياء ليس إلا لله، فمن تكبر من الخلق بغير الحق فما هو كبير في نفس الأمر، وإنما هي دعوى حال لا وجود له في عين المدعي، فإن كان له وجود وتكون الدعوى صحيحة فليس المدعي عند ذلك إلا الحق والحق له الكبرياء، وما سمي

المحل متكبراً إلا لكون الدعوى ما ظهرت إلا في محل ماله الكبرياء وادعاؤه بحق فكان لسان المدعي عين الحق كما جاء: «**كان الله سَمْعَه وبَصَرَهُ**».

واعلم أن الله ما صرف أحداً عن الآيات إلا وقد صرفه عن العلم بالأمر على ما هو عليه الأمر والشأن، والآيات التي صرف هذا العبد عنها هي عين الآيات التي أراها لمن أراها في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق الذي يتكبر به من تكبر، فمن تكبر في الأرض دون السماء بغير الحق فهو أجهل الجاهلين لأنه وضع الكبرياء في غير موضعه، إذ من شرطه أمران: الواحد الحق الذي يقبله المخلوق، والثاني العلوّ فمن تكبر في الأرض بالحق فالحق له العلوّ بالذت والسموّ لم يصرف الله عنه الآيات فيريه إياها تشريفاً لهذا المحل، فإذا رآها تبين له عين الحق فإنه ما رآها إلا بالحق ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] و﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩] وأمرنا أن نعطي كل ذي حق حقه، وما ثم إلا ذو حق وحقه، إنما هو الحافظ له.

وهنا نكتة خفية فإن الله له على عباده حق يطلبه منهم، وقد ورد في الصحيح: «أَنَّ حَقَّ اللهِ أَحَقُّ بِالقَضَاءِ مِنْ حَقِّ المَخْلُوقِ» لأن نسبة الحق إلى الله أتمّ وأصح من نسبة الحق إلى المخلوق، لأن نسبة الحق بالحق ذاتية ما هي بالجعل، ونسبة الحق إلى المخلوق بالجعل ولكنه جعل لا يصح انفكاكه عنه، فالسعيد من عرف الحقوق وأهلها فأداها، والشقيّ من لم يعرف الحقوق ولا عرف أهلها، والذي بين السعيد والشقيّ من عرف الحقوق وأهلها وظلمهم وظلمها، فهذه الطائفة هم في ظلمات لا يبصرون، والطرف الآخر هم: الصمّ البكم العمي الذين لا يرجعون عند ما يبصرون، ولا يعقلون عندما يسمعون، ولا يصيبون عندما يتكلمون، فأولئك الذين ما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين، فإنهم ظلموا الحقوق وأهلها، فإن لهم قلوباً يعقلون ويفقهون بها، وإن لهم أعيناً يبصرون بها، وإن لهم آذاناً يسمعون بها، فأنزلوا نفوسهم منزلة الأنعام بل أضل سبيلاً، لأن الأنعام ما جعل الله لهم هذه القوى التي توجب لصاحب البصر أن يعتبر، ولصاحب الأذن أن يعي ما يسمع، ولصاحب القلب أن يعقل، فهم الذي يتفكرون في خلق السموات والأرض، فيعطيهم التفكر مما سمعوا وأبصروا، وتقليب الأحوال عليهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١] فسبحوه أن جعلوه منزهاً عن إيجاب العلة عليه في خلقه لأنه أذن خلقها لحكمة، فكأن تلك الحكمة أوجبت الخلق عليه، وما ثم موجب عليه إلا ما يوجبه بنفسه على نفسه لخلقه امتناناً منه لصدق وعده لا غير، وتمم التعريف بقوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وليست إلا الطبيعة في هذه الدار، فإنها محل الانفعال فيها لأنها للحق بمنزلة الأنثى للذكر، ففيها يظهر التكوين أعني تكوين كل ما سوى الله وهي أمر معقول. فلما رأى من رأى قوّة سلطانها وما علم أن قوّة سلطانها إنما هو في قبولها لما يكوّنه الحق فيها فنسبوا التكوين لها وأضافوه إليها ونسوا الحق بها فأنساهم أنفسهم إذ صرفهم عن آيات نفوسهم وهو قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، ووصفهم الحق فانقسم الخلق إلى قسمين:

قسم إلى الحق الصرف، وقسم إلى الطبيعة الصرف، وظهر بينهما برزخ ظهر فيه عالم ما هو ولا واحد من هذين القسمين، فرأى ما يستحقه الحق فأعطاه حقه ولو لم يعطه فهو له، ورأى ما تستحقه الطبيعة فأعطاها حقها ولو لم يعطها فهو لها، فإن الطبيعة ليست بمجعولة بل هي لذاتها في العقل لا في العين كما هو الحق لذاته في العقل والعين، فإن اجتمع الحق والطبيعة في العقل فقد افترق الحق من العقل وتميز في العين فإن الحق له الوجود العينيّ والعقليّ. والطبيعة لها الوجود العقليّ ما لها وجود عيني، وذلك ليكون الحكم في الخلق بين الوجود والعدم، فيقبل العدم من حيث الطبيعة ويقبل الوجود من جانب الحق، فلهذا يتصف كل ما سوى الله بقبول العدم والوجود، فكان الحكم فيه للعدم كما كان فيه الحكم للوجود، ولو لم يكن الأمر على ما ذكرناه لاستحال على المخلوق قبول العدم في وجوده أو قبول الوجود في عدمه، فهكذا ينبغي أن تعرف الحقائق ولا سبيل إليها إلاً بعدم الصرف عن الآيات، وانظر إلى ما حرم الله من تكبر في الأرض بغير الحق وهذا من العلم الذي أنتجه هذا الذكر لصاحبه وأمثاله ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] فللطبيعة القبول وللحق الوهب والتأثير فهي الأمّ العالية الكبرى للعالم الذي لا يرى العالم إلا آثارها لا عينها، كما أنه لا يرى أيضاً من الحق إلا آثاره لا عينه، فإن الأبصار لا تدركه والرؤية ليست إلا بها فهو المجهول الذي لا يعلم سواه، وهو المعلوم الذي لا يمكن لأحد الجهل به وإن لم يعمل ما هو: [مخلع البسيط]

فبين حَقٍّ وبين طَبْعِ ... لاح لنا في الوجود خَلْقْ
ليس بحَقّ ولا بطَبْعٍ ... والطَّبْعُ طَبْعٌ والحقُّ حَقْ
والخَلْقُ كالوَفْقِ إن نَظَرْنَا ... فكل خَلْقٍ تراه وَفْقْ

الباب الأحد عشر وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢]

[نظم: المتقارب]

ومن يَتَّقِ الله يَجْعَلْ له ... كما قال من أمره فَارِقَا
فيعلمُ منه ضلال الهُدَى ... ونور الهدى هادياً سائقا
ويظهرُ في شرقه غارباً ... ويَطْلَعُ في غربه شَارِقَا
ويُصْبح في كل علم له ... على كل شَخْص به فائقا
فكان لفَتْق الهُدَى راتقاً ... وكان لرَتْق الهُدَى فَاتِقَا
لنَقْسِمَهُ بين أبنائه ... فيَرْقَوْا به جبلاً حَالِقَا
ونُبْصرَهُ في مناجاتِه ... إذا قام فيها به ناطقا
فينشئها مثله نشأةً ... يكون بها في الوَرَى خالقا

ويَـخْـزُن فـي أرضـهـا قُـوتَـهَـا فـيـعـلـمـه خـالـقـاً رازقـا

اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس أن المتقي بمجرّد تقواه قد حصل في الفرقان إذ لو لم يفرق ما اتقى: [البسيط]

فـالأمْـرُ مـا بـيـن مَـحْـمُـودٍ ومَـذْمُـوم والأَمْـرُ مـا بـيـن مـحـبـوبٍ ومَـكْـرُوهِ
فـكُـنْ وقـايَـتَـهُ فـي كـل مـكـروهٍ يَـكُـنْ وقـايَـتَـكُـم فـي كـل مَـأْلُـوهِ
واجْعَلْهُ في كل محبوب وقايتكم وكُـنْ بـه بـيـن تـنـزيـه وتَـشْـبـيـهِ
مُـنَـزِّهُ الـحَـقِّ لا يـدري بـذاك ولا مُـشَـبِّـهُ الـحـق لا يـدري وأَدْريـهِ
فـمـن يُـنَـزِّهُـهُ عـنـه يُـشَـبِّـهُـهُ بـه فـهـذا الـذي قـد قُـلْـتُـهُ فِـيـهِ

وذلك أن الإنسان لا يخلو أن يجعل معبوده مثلاً أو ضداً أو خلافاً وعلى كل وجه، فقد فرق بين الله وبين العالم، فهذا الفرقان الذي تعطيه التقوى لا بد أن يكون فرقاناً خاصاً، وليس سوى الفرقان الذي يكون في عين القرآن فإن القرآن يتضمن الفرقان بذاته، وإنما نسب الجعل إلى هذا الفرقان لأن التقوى أنتجه، فإما أن يكون جعله ظهوره لمن اتقاه مع كونه لم يزل موجود العين قبل ظهوره، أو يكون جعله خلقه فيه بعد أن لم يكن، وما هو إلاّ الظهور دون الخلق فإنه أعقبه بقوله: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩] أي يستر والستر ضد الظهور، فلا يخلو العبد في تقواه ربه أن يجعل نفسه وقاية له عن كل مذموم ينسب إليه، أو يجعل ربه وقاية له عن كل شدة لا يطيق حملها إلا به وهو لا حول ولا قوّة إلا بالله وهو قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فيلتقي به شدائد الأمور التي هي محبوبة لله مكروهة طبعاً، كما تجعل نفسك وقاية له تنفي بها عنه كل مذموم شرعاً محمود محبوب طبعاً فينتج لك كونه وقاية لك علم كل شدة، فتتجلى لك أسماؤها الإلهية كلها بتفاصيلها وأنواعها وهذا من الفرقان، وينتج لك كونه وقاية له كل مذموم ومكروه فتتجلى لك أسماؤه الإلهية كلها بتفاصيلها وأنواعها وهذا من الفرقان، فيحمدك الله في الحالتين فإن الله لا يعطي العلم إلا من يحب، وقد يعطي الحال من يحب ومن لا يحب فإن العلم ثابت والحال زائلة، ولولا الفرقان الذي في عين التقوى ما أنتج التقوى فرقاناً فإن الشيء لا ينتج إلا مثله ولا يكون إلا ذلك، ولهذا كان العالم على صورة الحق، فمن غلب عليه طبعه كان شبهه بأمه أقوى من شبهه بأبيه، ومن غلب عليه عقله كان شبهه بأبيه أقوى من شبهه بأمه لأن العالم بين الطبيعة والحق وبين الوجود والعدم، فما هو وجود خالص ولا عدم خالص، فالعالم كله سحر يخيل إليك أنه حق وليس بحق، ويخيل إليك أنه خلق وليس بخلق، إذ ليس بخلق من كل وجه وليس بحق من كل وجه، فإنا لا نشك في المسحور، فيما يراه أن ثم مرئياً ولا بد كما قال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] فالسعي مرئي بلا شك، وبقي الشأن فيمن هو الساعي، فإن الحبال على بابها ملقاة في الأرض والعصي فيعلم قطعاً أن الخلق لو تجرّد عن الحق ما كان، ولو كان عين الحق ما خلق، ولهذا يقبل الخلق الحكمين، ويقبل الحق أيضاً الحكمين، فقبل صفات الحدوث شرعاً وقبل صفات القدم شرعاً وعقلاً فهو المنزه المشبه، وقبل الخلق الحكمين وهما أنه

جمع بين نسبة الأثر له في الحق بما أعطاه من العلم به كما ذكرناه في غير موضع، وبين نسبة الأثر فيه من الحق وهو أنه أوجده ولم يكن شيئاً، أي لم يكن موجوداً، فالفرقان لم يزل في نفس الأمر ولكن ما ظهر لكل أحد في كل حال من الأحوال: [البسيط]

فـي كُـلّ حـال مـن الأحْـوال فـرقـانُ أتـى بـذلـك تَـشْـريـعٌ وبُـرْهَـانُ

وهذا الفرقان الذي أنتجه التقوى لا يكون إلا بتعليم الله ليس للنظر الفكريّ فيه طريق غيره، فإن أعطاه الله الإصابة في النظر الفكريّ فما هو هذا العلم الخاص فإن الطريق تميز العلوم المشتبهة بالصورة المختلفة بالذوق وأتوا به متشابهاً فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني عشر وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]

[نظم: الخفيف]

كـلّـمـا أنـضَـجَ الـلّـهـيـبُ جُـلُـودا بَـدَّلَ الله لـلـعـذاب جُـلُـودَا
أبـداً يـنـتـهـي الـقـضـاءُ إلـيـه أوْرَثَ الـقَـوْمَ فـي الـجـحـيـم خُـلُـودا
جُـعَـلَ الله مـنـهُـمُ وعَـلَـيْـهِـمْ عـنـدمـا يـنـقـضـي الـسـؤالُ شُـهُـودَا
فـإذا أدَّتِ الـشـهـادةَ فـيـهـم مـلـكـوا الـفَـوْزَ والـنـعـيـم الـجَـديـدا

يقول الله تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ [فصلت: ٢١] أي بالشهادة عليكم لأنهم شهداء عدول مقبولون القول عند الله، وكانوا في الدنيا غير راضين بما كانت النفس الناطقة الحيوانية تصرّفهم فيه زمان حكمها وأمارتها عليهم، وعلى جميع جوارحهم من سمع وبصر ولسان ويد وبطن وفرج ورجل وقلب، وإنما سميت الجلود بهذا الاسم لما هي عليه من الجلادة لأنها تلتقي بذاتها جميع المكاره من جراحة وضرب وحرق وحرّ وبرد، وفيها الإحساس وهي مجن النفس الحيوانية لتلقي هذه المشاق، فما في الإنسان أشد جلادة من جلده ولهذا غشاه الله به فنضجه سبب في عذاب النفس المكلفة والجلد متنعم في ذلك العذاب الحسوس قال بعض المحبين: [المجتث]

فـهـل سَـمـعْـتُـم بـصَـبٍّ سَـلِـيـم طَـرْفٍ سـقِـيـم
مُـنَـعَّـم بـعَـذابِ مـعـذَّبٍ بـنَـعِـيـم

هذا الهجير هو هجير الخائفين من مكر الله يزجرون به نفوسهم الأمّارة بالسوء عسى تنزجر ويأبى الخرق إلا اتساعاً، وسبب ذلك ما ذكره الله عن نفسه من اختيار مشيئته بين المغفرة والعذاب فهو غير قاطع بأحد الأمرين، ثم إنه يرى الأسماء الإلهية تتقابل في حقه، ثم يرى أسماء الفضل تترجح عدداً وقوّة على أسماء العدل والانتقام، ويرى أن التقابل بين هذه الأسماء إنما يقع بميدان الرحمة التي وسعت كل شيء، فجرأهم ذلك على ما ارتكبوه من المخالفات وتعدوه من الحدود وانتهكوه من المحارم، فلو قطعوا بالمؤاخذة على ما صدر منهم إن ماتوا عن غير توبة كما ذهبت إليه طائفة ما فعلوا ما لا يرضي سيدهم، ثم رأوا أنهم

في عذاب الحياة الدنيا لا يصبرون تحت حكمه وينفرون منه طبعاً ولا يقبلونه إلا جبراً فيجعله الخائف لنفسه موعظة وذكرى، فإن كان قوي الإيمان غر متبحر في التأويل خائضاً في بحر الظاهر لا يصرفه للمعاني الباطنة صارف انتفع بالذكرى وإن لم تقم به هذه النعوت وأمثالها وتأوّل تردى وأردى من اتبعه وكان من الذين اتبعوا أهواءهم، وكان أمر من هذه صفته فرطاً فينتج له هذا الذكر من الأحوال العصمة، ومن الأسماء الإلهية الاسم الظاهر والأوّل، ومن المعارف معرفة الشهود وقبول الحق صور التجلي الظاهرة ويتحقق بالتقوى كل التحقق، فيعلم العلم المجهول الذي لا يصل إليه كل أحد وهو العلم بسرائر المحسوسات والحواس والإحساس والمحس، وإنما جهله الأكثرون لما نقوله، وذلك أن النفوس مجبولة على حب إدراك المغيبات واستخراج الكنوز وحل الرموز وفتح المغاليق والبحث عن خفيات الأمور ودقائق الحكم، ولا ترفع بالظاهر رأساً فإن ذلك عندها في زعمها أبين من فلق الصبح، فالنهار عندها لا يخفى على أحد، فصاحب هذا الهجير يبدو له من العلم في هذه الظواهر ما لا يخطر بخاطر أحد أن ذلك الذي أدركه صاحب الكشف لهذا العلم يحمله ظاهر ذلك الأمر ولا صورته، فإذا نبه عليه صاحب هذا العلم والكشف عند ذلك يعظم قدره وتظهر حكمته وكثرة خيره، ويعلم عند ذلك أنه ما كان يحسبه هيناً هو عند الله عظيم، وهذا كله من الاسم الإلهيّ الظاهر الذي له التقدم في الأمور، والخير كله إنما هو في الأوائل. ألا ترى أن الخاطر الأوّل هو الإلهيّ الصادق الذي لا يخطىء أبداً، فله العصمة والمضا، وفيه يظهر القدر والقضا، وكذلك النظرة الأولى والمسموع الأول والحركة الأولى، وهو الذي يعطي علوم الزجر للزاجر، وهي لا تخطىء أبداً بل الصحة تصحبها، فالأوائل هي الظواهر السوابق، وكل ما جاء بعد الخاطر الأوّل فهو حديث نفس يجيء على أثره، فللخاطر الأوّل التمهيد والتوطئة، وهي تعطي العقول التشوق إلى ما وراءها، فالفطن المصيب النحرير لا يزول عن الأمر الظاهر الأوّل الذي ورد عليه حتى يستوفي جميع حقائقه وما تعطيه صورته ويقف على خفيات غيوبه، فإذا حصله وقبله علماً حينئذٍ ينتقل إلى ما يرد عليه في أثره الذي هو باطن، فإن جهل الظاهر كان بالباطن أجهل فإن الدليل عليه، وإن فرط في تحصيل الأوّل كان في تحصيل الآخر أشد تفريطاً لأن من الحرص على تحصيل العلم بالخاطر الآخر تحصل الأوّل، فأوّل الأمر خوف والرجاء يتلوه، فإن تقدّمه الرجاء فقد فاته الخوف، فإن الماضي لا يسترجع، فالتقدّم للخوف وقد وفاته وذهب عنه ومن له برده والرجاء في المحل قد منعه سلطانه، فالمؤمن من تساوى خوفه ورجاؤه بحيث إنه لا يفضل واحد صاحبه عنده لأنه استعمل كل شيء في محله، وأوّل نشىء الإنسان ضعف، ولضعفه يتقدمه الخوف على نفسه، ثم تكون له القوّة بعد هذا الضعف فيأتيه الرجاء بقوّته، فإنه يتقوّى نظره في العلوم والتأويلات، فيعظم رجاؤه في جناب الحق، ولكن العاقل لا يتعدّى به موطنه، فإذا خطر له من قوّة الرجاء ما يوجب استعمال الخوف عند العاقل العارف عزل الرجاء عن الانفراد بالحكم وأشرك معه الخوف فذلك المؤمن، فلا يزال كذلك إلى أن تكمل ذاته الكمال الذي ينتهي إليه أولياء الله في الورث النبويّ في هذا

الزمان المحمديّ الذي أغلق فيه باب نبوة التشريع ورسالته، وبقي باب حكم الاختصاص بالعلوم الإلهية والأسرار مفتوحاً يدخل عليه أهل الله، وأوّل داخل عليه أهل هذا الذكر جعلنا الله ممن استوى خوفه ورجاؤه في الحياة الدنيا إلى حين موته عند الاحتضار فيغلب رجاؤه على خوفه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث عشر وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ١ و ٢]

[نظم: الكامل]

إذا ذكرتني رحمة الرّبّ لم أزل أقول له يا رَبِّ رَبَّ مُحَمَّدِ
لأن لها التَّأكيدَ أن كان رَبَّهُ فأَغلُو بهذا الذِّكْر في كل مَشْهَدِ
فأرْسَلَهُ الرحمن للخَلْقِ رحمةً على كل حال بين هادٍ ومُهْتَدي

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وأوحى إليه تعالى أن الله لم يبعثك سباباً ولا لعاناً وإنما بعثك رحمة، وقال تعالى في عبده خضر: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف: ٦٥] فقدم الرحمة على العلم وهي الرحمة التي في الجبلة ثم قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ فأعطاه هذا العلم من أجل قوله لدنا الرحمة المبطونة في المكروه، وبهذه الرحمة قتل الغلام، وخرق السفينة، وبالرحمة الأولى أقام الجدار، فلا يفرق بين هاتين الرحمتين إلا صاحب هذا الذكر، فإن الرحمة هي التي تذكره ما هو يذكرها، فتعطيه بذكره حقيقة ما فيها لأنها تطلب منه التعشق بها فإنه لا ظهور لها إلا به فهي حريصة على مثل هذا.

واعلم أن هذا الذكر تعريف إلهيّ بوجوب حكم الرحمة فيمن تذكره من عباده سبحانه وتعالى، وجاء زكريا لا لخصوص الذكر وإنما ساقته عناية العبد فإنها ما ذكرته إلا لكونه عبداً له تعالى في جميع أحواله، فأيّ شخص أقامه الله في هذا المقام فبرحمته به أقامه لتذكره رحمة ربه عنده تعالى، فحال عبوديته هو عين رحمته الربانية التي ذكرته فأعلمت ربها أنها عند هذا العبد، فأيّ شيء صدر من هذا الشخص فهو مقبول عند الله تعالى، ومن هذا المقام يحصل له من الله ما يختص به مما لا يكون لغيره وهو الأمر الذي يمتاز به ويخصه، فإنه لا بدّ لكل مقرّب عند الله من أمر يختص به. وقد أشار الشرع في التعريف بهذا فقال: إنه ما من أحد من المؤمنين إلا ولا بد أن يناجي ربه وحده ليس بينه وبينه ترجمان فيضع كنفه عليه وهو عموم رحمته به، فذلك محل تحصيل ما يختص به كانت القيامة لهذا العبد حيث كانت لأنه من عباد الله من تعجل له قيامته فيرى ما يؤول إليه أمره في الدار الآخرة وهي البشرى التي للمؤمن في الحياة الدنيا، وقد رأيناها ذوقاً، وكان لنا فيها مواقف منها في ليلة واحدة مائة موقف بأخذ ورجوع لو قسمت تلك الليلة على قدر الوقوف ما وسعته وذلك بمدينة فاس سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة أشاهد في كل موقف من اتساع الرحمة ما لا يمكنني النطق به، وكان ذلك لاتساع ذكر الرحمة فكيف بذكر الرحمن إذا حصل للعبد ولا يحصل إلاّ للعبد الجاني،

وأما غير الجاني فهو عين رحمة الله في خلقه به يرحم الله الخلق كافرهم ومؤمنهم ومشركهم وموحدهم، وبه يرزق عباده في الدنيا، وبه يقع النصر وينزل المطر وتخصب الأرض وتكثر الرسل ويعظم الخير، وهو المعصوم بالشهود في عين الجنايات، فيظهر عليها بحكم القضاء والقدر الحاكم في الطرفين خلق وحق إن فهمت فلا يظهر فيك ولا منك إلا عينك، ولا يحكم بعلمه فيك إلا ما أعطيته من العلم بك، وهنا زلت الأقدام، ونكصت على أعقابها الأفهام، وتحكم على الأحلام سلطان الأوهام، وللأوهام الحكم الغالب التام والدوام، والله ما يوجد إلا عند ظن العبد به فليظن به خيراً، والظن من بعض وزعة الوهم وهو الذي يعطي العذاب المعجل والنعيم المعجل، فظن خيراً تلقه، وبعض الظن إثم، فوالله لولا الظن ما عصى الله مخلوق أبداً، ولا بد من العصيان وهو حكم الله في الفعل أو الترك، فلا بد من الظن، فمن رحمة الله بخلقه أن خلق الظن فيهم وجعله من بعض وزعة الوهم، ولا يتمكن تحصيل العلم لأحد في أمر أصلاً من حيث ما يحكم به على المشهود لا من حيث الشهود فإنك لا تقدر على زوال ما شهدت، وهكذا جميع تعلق باقي القوى، ولكن بقي الحكم على ما تعطيه هل يحصل به العلم أو الظن؟ فعند صاحب هذا المقام لا يحصل إلا بالظن خاصة، وأما غيره فيجعل ذلك علماً لعدم ذوقه لهذه الحال، ففرق بين ما تعطيه القوة وبين ما يحكم به على ذلك المعطي بها هل يحكم بالظن أو بالعلم؟ فالأمر في نفسه شبهة في عين الدليل، وإن لم يكن الأمر هكذا لم يتميز رب من عبد ولا حق من خلق، إن فهمت فهذا بعض ما ينتجه لك هذا الذكر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع عشر وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣]

[نظم: المتقارب]

ومَـنْ يَـتَـوَكَّـلْ عـلـى رَبِّـهِ　　فـإنّ إلٰـهَ الـوَرَى حَـسْـبُـهُ
وإن كـان فـي كـل أحْـوالـه　　يـراه بـه دائـمـاً رَبُّـهُ
فـذاك الـولـيُّ الـذي لـم يَـزَلْ　　عـلـى مـا يُـرَادُ بـه قَـلْـبُـهُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن هذا الذكر يعطي صاحبه أنه هو إذ لا يكتفي إلا به لأن النبي ﷺ يقول: «لَيسَ وَرَاءَ الله مَرْمَى» فما كان من حجاب فما هو إلا بينك وبينه ما هو وراءه فإنه الأوّل وأنت الآخر وهو قبلتك فلا يكون له منك إلا المواجهة، ثم أرسل بينك وبينه حجب الأسباب والنسب والعادات وجعلها صوراً له من حيث لا تشعر فمن قال هي هو صدق، ومن قال ما هي هو فللاختلاف الذي يراه فيها فيصدق فإنه يحجبه عن العلم به اختلاف الصور، فكما يقطع أن هذه الصورة ليست هذه الصورة أي هذا السبب ما هو هذا السبب يقطع أنها ما هي هو، وذهل عن حقيقة الحجاب أو كونها، وإن اختلفت فهي واحدة في السببية أو الحجابية كذلك هي عينه وإن اختلفت وإن لم يكن الأمر هكذا وإلا فلا تصح

المواجهة، ألا ترى الأعمى إذا واجهته وكافحته لا يقدح عماه وكونه لا يراك وأنت تراه عن حكم المواجهة بينكما مع كون الأعمى يرى الظلمة بلا شك وأنت عنده في عين تلك الظلمة التي يراها فيدركك ظلمة لأنه يواجهك فيقول: رأيت فلاناً اليوم مواجهة ويصدق مع كونه أعمى، فما وراء الله مرمى وما وراءك له مرمى، لأن الصورة الإلهية بك كملت وفيك شهدت فهو حسبك كما أنت حسبه، ولهذا كنت آخر موجود وأوّل مقصود، ولولا ما كنت معدوماً ما كنت مقصوداً فصح حدوثك، ولولا ما كان علمك به معدوماً ما صح أن تريد العلم به، فهذا من أعجب ما في الوجود أن يكون من أعطاك العلم بنفسه لا يعلم نفسه إلا بك، لأن الممكنات أعطت العلم بأنفسها الحق، ولا يعلم شيء منها نفسه إلا بالحق، فلهذا كان حسبك لأنه الغاية التي إليها تنتهي وأنت حسبه لأنه ما ثم بعده إلا أنت ومنك علمك وما هي إلا المحال وهو عين العدم المحض الذي التبست بظله كما التبست بضوء الوجود النور فقابلت الطرفين بذاتك، فإن نسب إليك العدم لم تستحل عليك هذه النسبة لظلمته عليك، وإن نسب إليك الوجود لم يستحل لضوئه فيك الذي به ظهرت لك، فلا يقال فيك موجود فإن ظل العدم الذي فيك يمنع من هذا الإطلاق أن تستحقه استحقاق من لا يقبل العدم، ولا يقال فيك معدوم لأن ضوء الوجود الذي فيك يمنع من هذا الإطلاق أن تستحقه استحقاق من لا يقبل الوجود، فأعطيت اسم الممكن والجائز لحقيقة معقولة تسمى الإمكان والجواز، وحصل اسم الموجود للواجب بالذات لحقيقة تسمى الوجود وهي عين الموجود، كما أن الإمكان عين الممكن من حيث ما هو ممكن لا من حيث هو ممكن ما وحصل اسم المعدوم للمحال وهو الذي لا يقبل الوجود لذاته لحقيقة تسمى العدم المطلق وهو الإحالة، فأنت جامع الطرفين ومظهر الصورتين وحامل الحكمين، لولاك أثر المحال في الواجب وأثر الواجب في المحال، فأنت السد الذي لا ينخرم ولا ينقصم، فلو كان للعدم لسان لقال إنك على صورته، فإنه لا يرى منك إلا ظله كما كان للوجود كلام فقال إنك على صورته، فإنه رأى فيك صورته فعلمك بك لنوره وجهلك العدم المطلق لظله، فأنت المعلوم المجهول وصورة الحق سواء فتعلم من حيث رتبتك لا من حيث صورتك، إذ لو علمت من حيث صورتك لعلم الحق والحق لا يعلم، فأنت من حيث صورتك لا تعلم فالعلم بك إجمال لا تفصيل، فقد عرفتك ما يعطيك هذا الذكر من العلم بالله إن عقلت، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، والهادي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الباب الخامس عشر وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [صَ: ٢٤]

[نظم: الكامل]

الافْـتِـتَـانُ هـو الـبـلاءُ بِـعَـيْـنِـهِ ... فـاسْـكُـنْ إذا مـا يَـبْـتَـلِـيـكَ بِـحُـكْـمِـهِ

واسْتَغْـفِـرِ الـرَّبَّ الـكـريـمَ بِـسَـجْـدةٍ ... مـنـه فـأنـت مُـعَـيَّـنٌ فـي عِـلْـمِـهِ

واحْذَرْ من الفِكْرِ الدقيقِ فإنما يُؤْتَى الذي فهم الذي من فَهْمِهِ
الشأنُ فوق عقولنا وعُيُوننا فاحْذَرْ من العقل الذي في زَعْمِهِ
إنّ العلوم لديه وهو مقيَّدٌ عَبْدُ الدَّليلِ بكَيْفِهِ وبِكَمِّهِ
إنّ الشريعة قَسَّمَتْهُ بكَيْلها فلذاك قلتُ بكَيْفِهِ وبِكَمِّهِ

لما كان داود عليه السلام في دلالة اسمه عليه أشبه بني آدم بآدم في دلالة اسمه عليه صرّح الله بخلافته في القرآن في الأرض كما صرح بخلافة آدم في الأرض، فإن حروف آدم غير متصلة بعضها ببعض، وحروف داود كذلك، إلا أن آدم فرق بينه وبين داود بحرف الميم الذي يقبل الاتصال القبلي والبعدي فأتى الله به آخراً حتى لا يتصل به حرف سواه، وجعل قلبه واحداً من الحروف الستة التي لا تقبل الاتصال البعدي، فأخذ داود من آدم ثلثي مرتبته في الأسماء، وأخذ محمد ﷺ ثلثيه أيضاً وهو الميم والدال، غير أن محمداً متصل كله، والحرف الذي لا يقبل الاتصال البعدي جعل آخراً حتى يتصل به ولا يتصل هو بشيء بعده وهو قوله ﷺ: **«لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الله»** فيتصل به ولا يتصل هو بأحد، فناسب محمد آدم عليهما الصلاة والسلام من وجهين: الأول مناسبة النقيض بالاتصال بآدم وآدم له الانفصال كداود، والميم من آدم كالدال من محمد، فجاءتا آخراً لذلك أعني في آخر الاسم منهما، والثاني مناسبة النظير التي بين آدم ومحمد في كون الحق ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وأعطى محمداً ﷺ جوامع الكلم وعمت رسالته كما عم التناسل من آدم في ذريته، فالناس بنو آدم والناس أمة محمد ﷺ من تقدم منهم ومن تأخر لأنه قال ﷺ: **«آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي»** فنظر آدم إلى داود دون ولده لما ذكره فاستقل عمره فأعطاه من عمره ستين سنة وهو عمر محمد ﷺ فلما وصل من عمره إلى الميم من اسمه رأى صورة محمد ﷺ في الميم فرجع عن داود لأنه قد فارق رؤية الألف والدال فرجع في عطيته التي أعطاها داود من عمره فدخل تحت لواء محمد ﷺ. فأما تصريح الحق بالخلافتين على التعيين في حقهما فقوله تعالى في خلافة آدم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] يريد آدم وبنيه وأمر الملائكة بالسجود له. وقال تعالى في داود عليه السلام ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ثم قال فيه ما لم يقل في آدم: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [صٓ: ٢٦] وسبب ذلك لما لم يجعل في حروف اسمه حرفاً من حروف الاتصال جملة واحدة، فما في اسمه حرف يتصل بحرف آخر من حروف اسمه، فعلم أن أمره فيه تشتيت لما كان لكل إنسان من اسمه نصيب، فكان نصيبه من اسمه ما فيه من التشتيت فأوصاه تعالى أن لا يتبع الهوى لانفراد كل حرف من اسمه بنفسه، ثم إن له إلى الفردية وجوهاً في حركاته فهي ثلاثة وحروفه خمسة فهو فرد من جميع الوجوه، فلولا أنه قابل لما وقعت فيه الوصية من الله ما وصاه، ولما علم ذلك داود بما أعلمه الله بطريق التنبيه في نهيه إياه أن لا يتبع الهوى ولم يقل هواك أي لا تتبع هوى أحد يشير عليك واحكم بما أوحيت به إليك من الحق فإن الهوى ما له حكم إلا بالاتصال، وحروف اسم داود لا تقتضي الاتصال فعصمه الله من وجه خاص،

فلما وصاه الحق تعالى استغفر ربه أي طلب الستر من الله الحائل بينه وبين الهوى المضل ليتصل به فيتصف به فيؤثر في الحكم الذي أرسل به رجع إلى الله في ذلك وسقط إلى الأرض اختياراً قبل أن تسقطه الأهواء وتؤثر فيه تأثيرها في الجدران القائمة، فكان ركوعه رجوعاً إلى أصله من نفسه فهو عين الستر الذي طلبه في استغفاره، فلما جاء الهوى لم يجد شيئاً منتصباً قائماً يرده عن مجراه فيؤثر فيه فراح عنه ولم يصبه وعصمه الله وستره، وليس الابتلاء مما يحط درجة العبد عند الله، بل ما يبتلي الله إلا الأمثل فالأمثل من عباده، ﴿فَيُضِلُّ﴾ بالتأويل في ذلك ﴿مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٤] ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] فنفس الأنبياء نفس واحد، فمن عباد الله من سترهم الله عن الذنوب فلم تدركهم ولم ترهم، ومن عباد الله من يسترهم الله عن المؤاخذة عن الذنب وكل له مقام معلوم [المتقارب].

فلو أن داودَ في حُكْمِهِ ... بحُكْمِ الهَوَى ضَلَّ عن نَفْسِه
ولكنّه سَيّدٌ مُنَجَّبٌ ... قد اخْتَارَهُ الله من قُدْسِه
له الضَّوْءُ من ذاته ظاهرٌ ... تبرز فيه على جِنْسِه
فما خَرَّ عن زَلَّةٍ قد أتى ... بها بل رجوعاً إلى أُسِّه
فداودُ في ذاته وُدّه ... وفي وُدّه الداء من شَمْسِه
فأَشْبَهَ يعقوبَ في حُزْنه ... وأشْبَهَ يوسُفَ في حَبْسِه

واعلم أنه لولا الابتلاء لقال من شاء ما شاء، فأصل الابتلاء وسببه الدعوى، ومن الابتلاء ما يكون في غاية الخفاء مثل قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] ومنه ما يكون في غاية الجلاء مثل قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] ونبلو أخباركم ولا يعرف مثل هذا إلا من يعرف الجلي والخفي ولماذا يرجع؟ وهل ثم خفي لنفسه أو هو خفي بالنسبة فإنا نعلم أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض وهو المعلوم، وكل ما في الطبيعة من الأسرار فإن صورها أرض الأرواح ولا في السماء وهو المعلوم، وكل ما في الأرواح التي بين الطبيعة والعما وهي التي تشرق هذه الأرض بأنوارها فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس عشر وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾[التوبة: ٢٤] **ففروا إلى الله**

[نظم: البسيط]

ليس الإلهُ الذي بالكَشْفِ تُدْرِكُهُ ... هو الإلهُ الذي بالفِكْرِ تَدْرِيهِ

لِكَوْنِ فِكْرِكَ لا تَعْدُوهُ رُتْبَتُهُ وقد يكون ولكن فيه ما فِيهِ
الحكم بالفكر في الأشياء مختلفٌ والحكمُ بالكشف لا تُدْرَى مَبَانِيهِ
يراه في كَشْفِه في كل مُعْتَقَدٍ وليس يُنْكِرُ مَعْنًى من مَعَانِيهِ
جَلَّ الإلٰهُ فلا عقلٌ يحيطُ به وليس يُدْرَى سواه فانْظُروا فيه
جل الإلٰهُ فلا كَشْف يحيطُ به وليس شيء من الأكوان يَحْوِيهِ
وهو الذي في جميع الكون تدركُه وليس يُدْرَكُ إلا من تَجَلِّيهِ
إذا تَدَلَّى لعبد جاء يقصده أعطاه ما ليس يُدْرَى في تَدَلِّيهِ
من كلّ خَيْرٍ ومن علمٍ ومعرفةٍ فَمَنْ يعادلُه أو مَنْ يُدَانِيهِ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الخير في هذا المنظوم يريد به الحكمة وهو الخير الكثير والعلم ما يدركه من التركيب، والمعرفة ما يدركه في المفردات، هذه آية جاءت إلينا يوم جمعة بعد الصلاة في المقابر بإشبيلية سنة ست وثمانين وخمسمائة فبقيت فيها سكران ما لي تلاوة في صلاة ولا يقظة ولا نوم إلا بها ثلاث سنين متوالية أجد لها حلاوة ولذة لا يقدر قدرها، وهي من الأذكار المفرقة بين الله وبين الخلق تفريق تمييز، فهو تفريق في جمع وفرقان في قرآن، فيجمع بهذا الذكر بين القرآن والفرقان، فكل من له عليك ولادة من أي نوع وفي أي صورة كان من ظاهر وباطن واسم إلهي وكياني فهو أبوك، وكل من لك عليه ولادة من أي نوع كان وفي أي صورة كان من ظاهر وباطن واسم إلهي وكياني فهو ابنك، فقد يكون ابنك في هذا الذكر عين أبيك فيكون له عليك ولادة ولك عليه ولادة، وهو المقام الذي أشار إليه الحلاج بقوله: [مجزوء الرمل]

وَلَدَتْ أُمِّي أباها إن ذا من عُجُوباتي

وكل ما قابلك من الأمثال وداخلك من الأشباه ومازجك أو قارب من الأنداد وكان عديلاً لك في الوراثة بحيث لو وزنتما في العلم الموروث من الكتاب ما رجح عليك وزناً ولا رجحت عليه فهو أخوك ولكن من الاسم الظاهر، فأبوكما واحد ظاهراً لا غير، وليس للاسم الباطن هنا حكم، فإن الباطن يمنع أن تكونا أخوين لأب واحد وأم واحدة، فإن المزاج الواحد لا يجمع اثنين في الكون، والتجلي لا يكون عنه اثنان فإن الأمر أوسع من ذلك، فكل واحد له واحد من أم وأب فالطبيعة لا تلد توأمين، والوالد لا يلقي في كل نكاح ماءين، كما لا يكون في العالم الواحد في زمن واحد شأنان، وكل من ثناك وجوده، وانفعل لك فيما تريده، وكنت فيه خلاقاً، وإليه إذا غاب عنك مشتاقاً، وجمعتكما الرحمة الواحدة والمودة الثابتة، وسكنت إليه وسكن إليك، وأعطاك من نفسه التحكم فيه، وظهر فيه اقتدارك فهو زوجك تحبه طبعاً وتتحد به ويكون ملكاً لك شرعاً، وكل ما تعتضد به في أمورك من الأسماء الإلهية والتجلي والكون من أرواح قدسية وعقول ندسية، تؤيدك في الشدائد، وتأتيك بالتحف والزوائد، فهو عشيرتك وكل من تميل إليه فيميل إليك لميلك،

ويحضره ديوان نيلك، ويقف عند فعلك فيه وقولك، ويتحكم فيه سلطان طولك، وتصل في اقتنائه نهارك بليلك، فذلك هو مالك الذي اقترفته من الأموال الظاهرة والباطنة والمعنوية والمحسوسة من ثابت كالعقار، ومن غير ثابت كالعروض والدرهم والدينار، وكل منقول لا يقرّ به قرار، فالثابت كالمقام وغير الثابت كالحال، وكله مال لأنه مال وإليه المآل، بعد الرحلة عنه والانفصال، ولكن إذا آل إليه أمرك رأيته في غير الصورة التي عليها فارقته، وكل أمر تطلب الخروج عنه ليكون ذلك الخروج سبباً لتحصيل ما يكون عندك أنفس منه فتطلب به النفاق في الأسواق، ويقوم لك فيه الجمع بين التلاق والفراق، والنكاح والطلاق، ظاهراً و باطناً فذلك التجارة التي تخشى كسادها، وتخاف فسادها، فاستبطنت مهادها، واستوطأت قتادها، وأعددت لها إعدادها، وحصلت لها إن كنت تأجر سفر زادها، لتنجيك من عذاب أليم، وتوفيك الربح والحق الجسيم، وكل من اتخذته محلاً، وكنت به محلى، وجعلته حرماً لك وحلاً، فذلك مسكنك الذي ترضاه، ومنزلك الذي تقصده وتتوخاه، فقال لك الحق فيما أنزله إليك، ووفد به رسوله الأمين عليك، إذا لم تر وجه الحق في كل ما ذكرته، وتعشقت به لعينه، وتعرف أنه من عنده ما هو عينه، وآثرته مع هذا الحجاب على ما دعاك الحق إليه من الزهد فيه، إذا فقدت فيه وجه الحق، فتعلم أن الله ما أراد منك إلا أن تعرفه فيما أمرك بالزهد فيه والرغبة عنه وأحببته حب عين وصورة كون وكان أحب إليك من الله الجامع للرغبة فيه والرغبة عنه فإنه المعطي المانع، والضار النافع، وأحب إليك من رسوله الوافد عليك المعرف بما هو حجاب عن المقصود، وستر بين العابد والمعبود، مع علمك بما أعلمك أنه ما خلقك إلا لتعبده، وتؤثره على ما تراه فيه وتقصده، وأحب إليك من جهادك في سبيل الله الذي يجمع لك بين الحياتين فلا تعرف للموت طعماً، ولا للحصر حكماً، فتربصوا كلمة تهديد ووعيد، حتى يأتي الله بأمره، فتعرف عند ذلك خيره من شره، وحلوه من مرّه، وتذوق شهده من صبره، ثم نصح في الإنزال على لسان الإرسال بالفرار إلى الله من هذه الحجب والتدبر لما جاءت به من عند الله الصحف والكتب مع إرخاء الطنب لتخلو بالمقصورات في الخيام، وتفتض أبكاراً لم يطمثهن إنس قبلك ولا جان، فتحصل من المعارف في تلك العوارف، ما لا يصفه واصف، ولا يتمكن أن يقف عنده واقف، لورود ما هو أعلى وأنفس من كل محل أقدس، وإن كان الفكر والتجلي في عدم الإحاطة بالمدرك بهما سيان، وهما من هذا الوجه مثلان فبينهما فرقان بين لا خفاء به إن صاحب الفكر يحكم عليه في محصوله الدخل، وتتمكن منه الشبه، وتزلزله عما كان بالأمس يعتمد عليه، ويركن إليه، والتجلي للعارف ليس كذلك بل هو في نعيم متجدد، وفي شهود لخلق جديد ما هو منه في لبس، وهو الجامع في الالتذاذ بين اليوم والأمس، فلا يزال في لذة موجودة لصورة إلهية مشهودة لا يعطيه الفناء عن جميع لذاته لأنها من لذاته وجدت لوجوده، فاجتمعا في شهوده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع عشر وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨] **وهذا ذكر الاضطرار والفرج بعد الشدة**

[نظم: المديد]

إنّ أرْضَ الله واســــعـــةٌ فـشـقـيٌّ مـن تـضِـيـقُ عـلَـيْـهْ
سَـبَـبُ الـضِّـيـقِ الـخـلاف فـكُـنْ مـعـه إنّ الـرجـوعَ إلـيـهْ
مَـنْ يَـقِـفْ ولا يـخـالـفُـه يَـقِـفِ الـتـحـقـيـقُ بـيـن يَـدَيْـهْ
ثـم يُـغْـطـيـه لـتَـوْبَـتـه كـل مـا فـي عـلـمـه ولَـدَيْـهْ
فـإذا أفْـنَـى حَـقِـيـقَـتَـهُ جـاءه الـمـطـلـوبُ فـي عَـلَـمَـيْـهْ
عـنـد جَـمْـعِ حـيـن جـاء لـهـا لـيـكـونَ الـحـكـمُ مـن حُـكْـمَـيْـهْ
كـلّ مـا فـي الـكـون مـن ولـدٍ مـا لـنـا مـنـهـم سـوى وَلَـدَيْـهْ
فـأخ بـالـشّـرْع فـثـبـتـه لأخ بـالـكَـشْـف مـن أبَـوَيْـهْ

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٨] فلو كان واحد ما ضاقت عليه الأرض لأن الضيق إنما يقع بالشريك، ولهذا لا يغفر الله أن يشرك به فإنه يخرج عنه ما هو له، ولذلك أغضب المشرك الحق غضباً أورثه ذلك الغضب مكاناً ضيقاً لما في الغضب من الضيق، فحصل له مع أمثاله من المشركين كونهم مقرّنين في الأصفاد، فليس اتساع الأرض إلا لمن انفرد بها، فلما انقسمت بين ثلاثة قسمة مشاعة ضاق الفضاء الرحب، ولولا وجود الفردية في الثلاثة لهلكوا فما نجاهم إلا ما في الثلاثة من الأحدية الواردة على الاثنين، وأما لو كانوا أربعة أو اثنين، ما نجوا ولا تاب الله عليهم، فإن الله وتر يحب الوتر، والثلاثة وتر فأبقى عليهم من المحبة ما تاب بها عليهم، وإذا رحم الله الشفع إنما يرحمه بآحاده فيخلو به واحداً واحداً على انفراده حتى لا ينال رحمته إلا الواحد، فما يرحم الله عباده شفعاً وإنما يرحمهم إما في الفردية أو في الأحدية غير ذلك لا يكون وبعد ذلك يفعل ما يريد. وإنما وقع الكلام على الواقع، فما تكثر الأعداد ولا تظهر إلا بآحادها، فلو زالت الآحاد منها لما كان في العالم شفع ولا عدد، ولهذا لم يتكرر تجل قط على شخص ولا في شخصين، فلولا ما قال ثلاثة ما صح لهم ذوق الضيق في الاتساع لما في الثلاثة من الشفعية، ولما صح لهم ذوق الاتساع بالرحمة بالتوبة لما في الثلاثة من الأحدية التي بها كانت فرداً وهي أوّل الأفراد فلها الأولية فهي أقرب إلى الأحدية فأسرعت الرحمة إليهم، فلو كانوا خمسة لكانوا أبعد من الأحدية وأكثر ضيقاً لتضاعف الشفعية، وهكذا الأمر طلعت الأفراد ما طلعت وهو الذي ينفي كثرة المدة في النار في العذاب لأهلها حتى يقطعوا كل شفع يكون في فرديتهم انتهوا إلى ما انتهوا إليه، فغاية إقامتهم في العذاب ثمانية

وتسعون دهراً، ثم يتولاهم الاسم الرحمن بعد ذلك وهم نازلون في الشقاء من ثمانية وتسعين إلى اثنين بعدد كل شفع بينها، وفي كل فردية رحمة تكون لمن له حظ فيها في هذه الدار فيفتر عنه بقدر ذلك، وأما أهل الشفع فلا يفتر عنهم العذاب وهم فيه مبلسون إلى الغاية التي ذكر الله من شفعية وهي الثمانية والتسعون. فالوتر الذي يكون بعد الشفع هو الذي يأخذ بثأر الوتر الذي قبله إذ شفعه من ظهر بين الوترين كالثالث بين الاثنين والرابع فيأخذ بثأر الواحد الذي شفعته الاثنان وكالخامس بين الأربعة، والستة يأخذ بثأر الثالث الذي شفعته الأربعة لينتقم له، فإن الوتر في اللسان الذي جاءت به هذه الشريعة المحمدية هو طلب الثأر، وهكذا حكم كل فرد حتى تنتهي إلى تسعة وتسعين، فإذا وقف الأمر هناك وانحصر في الاسم الرحمن تولاه الله بالاسم الأعظم لأن به تمام المائة، فعمّ درجات الجنة ودركات النار، ولم يتوله الاسم الأعظم المتممّ إلا من الاسم الرحمن فهو حاجب الحجاب، فليس له منازع بين يدي الاسم الأعظم فيؤول الأمر إلى شمول الرحمة في الدارين لساكنيهما وما قال من المشركين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] إلا من كان في مقام الفردية منهم، فإذا قالها صاحب الشفعية فإنما ذلك لحصره بين الواحد الذي شفعه بوجود معبوده، والواحد الذي يفرد هذا الشفع في استقباله، فمن أي وجهة رد إليها وجهه هذا الشفع ولم ير إلا واحداً فنظر إلى نفسه فلم ير إلا أحديته فقال عند ذلك: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فصدرت هذه الكلمة من كل مشرك شفعاً كان أو وتراً للشريك الذي نصبه. وأما من قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ﴾ [المائدة: ١٧] أو قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] فليس في الظاهر بمشرك وإنما دخل عليه الشرك بالاسم ولذلك قال الله لنبيه عليه السلام: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣] فإنهم إذا سموهم عرفوا بالاسم من هو المسمى فقال هؤلاء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ﴾ [المائدة: ١٧] وليس المسيح من أسمائه إذ كان له هذا الاسم قبل أن يدعى فيه أنه الله فأشركوا من حيث الاسم وأشرك فرعون من حيث خالف عقده قوله فبهذا كانوا مشركين، ثم ينتج له هذا الذكر أمراً عجيباً على الأوج مخبوءاً في الدرج مرقوماً في طيّ الدرج إذ سماهم الله مخلفين، فإن كل مفارق أهله فالله خليفته في ذلك الأهل سواء استخلفه أم لم يستخلفه، فكل من يقوم في أهله بعده فإنما ذلك نائب الله لا نائبه، فهؤلاء الثلاثة الذين خلفوا ما خلفهم الاسم الظاهر فإن الشرع دعاهم إلى الخروج ولكن الله ثبطهم، فمنهم من كره الله انبعاثه فثبطهم، ومنهم من ثبطه لا عن كره فقاموا في أهليهم مقام حق فجعلهم الله خلفاً في أهليهم عنه من الاسم الباطن على كره منهم، فكان من أمرهم ما كان فتاب الله عليهم فتفاضلت توبتهم فكان منهم الكاذب في عذره فقبله منهم الكرم الإلهي، وكان منهم الصادق وهو في الدار الدنيا فأذاقه الله مرارة الصدق هنا ليعلم منهم يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، فإن الدنيا دار بلاء، ورحم الله الجميع ورجع عليهم بالرحمة، ولكن على التفاضل فيها وما فعل ذلك وأخبرنا به إلا لنكون بتلك الصفة الإلهية مع عباده في معاملتهم إيانا،

فمن صدقنا رأينا له منزلة صدقه، ومن كذب لنا لم نفضحه وتغاضينا عن كذبه وأظهرنا له قبول قوله لأن قوله وجود فقبلناه ومدلوله عدم فلم نجد من يقبل فبقينا على البراءة الأصلية فإن المعدوم ليس بمنازع، فمن كان هذا ذكره ولم يكن له هذا الخلق فما ذكره هذا الذكر قط، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن عشر وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]

[نظم: السريع]

جَزاءُ مَن أُصْعِقَ في حَالِهِ ... جزاؤه الجَهْلُ بمن أصْعَقَهْ
لو أنه يَثْبُتُ في حالِهِ ... ما اسْتَفْهَمَ الكَوْنَ الذي حَقَّقَهْ
وهو الذي قَيَّدَهُ وَخَيُّهُ ... وهو الذي من قَيْدِهِ أطْلَقَهْ
ما أنْوَرَ السِّرَّ الذي قد أتى ... منه إلى القلب وما أشْرَقَهْ
وهو على مقداره مُحْكَمٌ ... لا زائدٌ يَدْريهِ من طَبَّقَهْ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الملائكة أرواح في أنوار وأنها أولو أجنحة، فإذا تكلم الله بالوحي على صورة خاصة وتعلقت به أسماعهم كأنه سلسلة على صفوان ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لهذا التشبيه فتصعق حتى إذا فزع الله عن قلوبهم وهو إفاقتهم من صعقهم قالوا: ماذا يقول بعضهم لبعض؟ فيقول بعضهم: ربكم إعلاماً بأن كلامه عين ذاته، فيقول بعضهم لهذا القائل: الحق أي الحق يقول وهو العليّ الكبير عن هذا التشبيه ولكن هكذا نسمع: [مجزوء الرمل]

فمن السَّمْعِ أَتَيْنَا ... فهو منَّا وهو فينا
أوْرَثَ القَلْبَ بما ... أوحَى به داءً دَفِينا
لم يكُنْ ذلك منه ... بل من الفهم دُهِينا
وكذا كل سميع ... من جميع المؤمنينا
فإذا صَيَّرَ ليثاً ... نفسَهُ كنتَ عَرِينَا
لم يَسَعْهُ غَيْرُ قلبي ... هكذا جاء يقينا
كل صورة تُجَلَّى ... لي بها حيناً فَحِينَا
فأنا أظهرُ فيها ... عندكم صُبْحاً مُبِينَا
وهو الغَنِيّ حَقّاً ... عن جميع العالمينا
فإذا رأيتُ نفسي ... لم أرى إلاّ المَتِينَا
لا يُرَى باسم سواه ... في عيون الناظرينا

ومن علم أن للملائكة قلوباً أو علم القلوب ما هي علم أن الله تعالى ما أسمعهم في الوحي الذي أصعقهم إلا ما يناسب من الوحي ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] و﴿يُقَلِّبُ

ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ [النور: ٤٤] فمن فزع الله عن قلبه رأى حقيقة انقلابه في الصور وتحوّله فيها، فعلم أن العالم كله في كل نفس في تحوّل وانقلاب، فعلم من ذلك أن ذلك للشؤون التي هو الحق فيها، فهو المحول القلب في الليل والنهار بما يقلبها، وفي السماء بما يوحي فيها، وفي الأرض بما يقدر فيها، وفيما بينهما بما ينزل فيه وفينا بما نكون عليه وهو معنا أينما كنا، فنتحوّل لتحوّله ونتقلب لتقلبه، فإن من أسمائه الدهر ونستغني به لغناه، وأما علمنا بتفاضل بعض الملائكة في العلم بالله على بعض فلما ورد في هذا الذكر من الاستفهام في قول من قال منهم ماذا وهو قولهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] في العلم بالله، وأما رفع التهمة عنهم فيما بينهم وتصديق بعضهم بعضاً، وانصباغ بعضهم بما عند بعض مما يكون عليه ذلك البعض من صورة العلم بالله فيفيد بعضهم بعضاً، فمن قوله عنهم قالوا الحق ابتداء ولم ينازعوا عندما قال لهم المسؤول ربكم ثم أقيموا في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ [الشورى: ١١] فلم يروه إلا في الهوية وهي ما غاب عنهم من الحق في عين ما تجلى، وتلك الهوية هي روح صورة ما تجلى فنسبوا إليها أعني إلى الهوية من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ العلوّ عن التقييد والكبرياء عن الحصر فقالوا بل قال عن نفسه وهو المعلوم عندنا الذي أعطاه الكشف عند قولهم: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ﴾ [سبأ: ٢٣] إلى هنا انتهى كلام الملائكة. فقال الله وهو العليّ الكبير كما قال لنا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ فقدم ما أخر في خطاب الملائكة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فأخر عندنا ما قدم في خطاب الملائكة، فنهاية ما خاطب به الملائكة بدايتنا وبداية ما خاطبنا به وعرفنا من قول الملائكة فيه نهايتنا: [مجزوء الخفيف]

فلنا مِثْلُ ما لهم ... ولهم مِثْلُ ما لنا
فانظروا في كلامه ... تَجِدُوهُ مُبَيَّنَا
فبه قد أسرّنا ... وبه الحقّ أعلنا
فإذا لم تَكُنْ عليماً ... به كُنْتَ مُؤْمِنَا
وإذا ما عَلِمْتَهُ ... لم تَزَلْ عالماً بنا

فلما شرك الله بيننا وبين ملائكته في العجز عن معرفته زدنا عليهم بالصورة ولحقناهم في الظاهر بما يظهر به من الصور في النشأة الآخرة في ظواهرنا، كما نظهر بها اليوم في بواطننا فنكون على نشأتهم في الآخرة، وليست للملائكة آخرة فإنهم لا يموتون فيبعثون ولكن صعق وإفاقة، وهو حال لا يزال عليه الممكن في التجلي الإجمالي دنيا وآخرة، والإجمال هناك في الملائكة عين المتشابه عندنا، ولهذا يسمعون الوحي كأنه سلسلة على صفوان، فعند الإفاقة يقع التفصيل الذي هو نظير المحكم فينا، فالأمر فينا وفيهم بين آيات متشابهات وآيات محكمات، فعمّ الابتلاء والفتنة بالإجمال والمتشابه الملأين: الملأ الأعلى والملأ الأنزل، فمثل هذا العلم ينتجه هذا الذكر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع عشر وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]

[نظم: البسيط]

إذا دعِيتَ أَجِبْ فالله يَدْعُوكا ... فإنه ما دعا إلا ويعطيكا
أنت الغنيّ فجُدْ مما أتاك به ... ما وافقَ الحَقَّ فالرحمٰنُ يَتْلُوكا
وكلّ شيء خلاف الحَقّ فازم بِهِ ... في الاعْتِبارِ فإن الفكرَ ناديكا
ولا تقُلْ ليس من رَبِّي فتتركه ... إن العليم بوَجْهِ الأمر يَأْتيكا
فخُذْهُ واسْبُرْه بالمِسْبَار تَعْلَمُهُ ... فإنّه كل ما في كونه فيكا
لا تَرْمِيَنَّ بشيء أنت تجهلُه ... ولا بكلّ خطاب لا يُؤاتيكا
إن الإلٰهَ لهُ مكرٌ بطائفة ... من خلقه فتَحَقَّقْ في معانيكا
ولا تقولنّ هذا ليس يدخلُ في ... ميزانِ عقلٍ فجَاريهِ يُجَاريكَا

اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس أنه ما في القرآن دليل أدل على أن الإنسان الكامل مخلوق على الصورة من هذا الذكر لدخول اللام في قوله: وللرسول، وفي أمره تعالى لمن آيه به من المؤمنين بالإجابة لدعوة الله تعالى ولدعوة الرسول، فإن الله ورسوله ما يدعونا إلا لما يحيينا به، فلتكن منا الإجابة على كل حال إذا دعانا فإنه ما نكون في حال إلا منه، فلا بدّ أن نجيبه إذا دعانا فإنه الذي يقيمنا في أحوالنا، وإنما فصل هنا بين دعوة الله ودعوة الرسول لنتحقق من ذلك صورة الحق التي رسول الله ﷺ عليها وهو الداعي في الحالتين إيانا، فإذا دعانا بالقرآن كان مبلغاً وترجماناً وكان الدعاء دعاء الله فلتكن إجابتنا لله والإسماع للرسول، وإذا دعانا بغير القرآن كان الدعاء دعاء الرسول ﷺ فلتكن إجابتنا للرسول ﷺ، ولا فرق بين الدعاءين في إجابتنا، وأن تميز كل دعاء عن الآخر بتميز الداعي، فإن رسول الله ﷺ يقول في الحديث: «**لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئاً عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الخَبَرُ عَنِّي فَيَقُولُ: اتْلُ عَلَيَّ بِهِ قُرْآناً إِنَّهُ وَالله لَمِثْلُ القُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُ**» فقوله أو أكثر مثل ما قال أبو يزيد: بطشي أشد، فإن كلام الله سواء سمعناه من الله أو من الرسول هو كلام الله، فإذا قال الله على لسان عبده: ما يبلغه الرسول فإنه لا ينطق عن الهوى فإنه أكثر بلا شك لأنا ما سمعناه إلا من عين الكثرة وهو من الرسول أقرب مناسبة لأسماعنا للتشاكل، كما هو من الله أقرب مناسبة لحقائقنا، فإن الله أقرب إلينا من الرسول لا بل أقرب إلينا منا فإنه أقرب إلينا من حبل الوريد، وغاية قرب الرسول في الظاهر المجاورة بحيث أن لا يكون بيننا مكان يكون فيه شخص ثالث فيتميز في الرسول بالمكان وبما بلغ بالمكانة، ونتميز عن الله بالمكانة فإنه أقرب إلينا منا ولا أقرب إلى الشيء من نفسه، فهو قرب نؤمن به ولا نعرفه بل ولا نشهده، إذ لو شهدناه عرفناه، فإذا دعانا الله منا فلنجبه به لا بد من ذلك، وإذا دعانا بالرسول منا فلنجبه بالله لا به فنحن في الدعاءين به، وله

وللرسول، ولينظر المدعوّ فيما دعي به فإن وجده حياة علمية زائدة على ما عنده يحيا بها في نفس الدعاء وجبت الإجابة لمن دعاه الله أو دعاه الرسول، فإنه ما أمر بالإجابة إلا إذا دعاه لما يحييه، وما يدعوه الله ورسوله لشيء إلا ما يحييه، فلو لم يجد طعم الحياة الغريبة الزائدة لم يدرِ من دعاه، وليس المطلوب لنا إلا حصول ما نحيى به ولهذا سمعنا وأطعنا، فلا بد من الإحساس لهذا المدعو بهذا الأثر الذي تتعين الإجابة له به، فإذا أجاب من هذه صفته حصلت له فيما يسمعه حياة أخرى يحيى بها قلب هذا السامع، فإن اقتضى ما سمعه منه عملاً وعمل به كانت له حياة ثالثة، فانظر ما يحرم العبد إذا لم يسمع دعاء الله ولا دعاء الرسول والوجود كله كلمات الله، والواردات كلها رسل من عند الله، هكذا يجدها العارفون بالله، فكل قائل عندهم فليس إلا الله، وكل قول علم إلهي، وما بقيت الصيغة إلا في صورة السماع من ذلك، فإنه ثم قول امتثال شرعاً وقول ابتلاء فما بقي إلا الفهم الذي به يقع التفاضل، فاقتصر علماء الرسوم على كلام الله المعين المسمى فرقاناً وقرآناً، وعلى الرسول المعين المسمى محمد ﷺ، والعارفون عمموا السمع في كل كلام فسمعوا القرآن قرآناً لا فرقاناً، وعمموا الرسالة بالألف واللام التي في قوله وللرسول عندهم للجنس والشمول لا للعهد، فكل داع في العالم فهو رسول من الله باطناً ويفترقون في الظاهر، ألا ترى إبليس وهو أبعد البعداء عن نسبة التقريب وكذلك الساحر بعده كيف شهد لهم بالرسالة وإن لم يقع التصريح فقال في السحرة ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] ولا معنى للرسالة إلا أن يكون حكمها هذا وهو إذن الله، وقال في إبليس في إثبات رسالته: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣]. ثم عرفنا الله سبحانه ما أرسله به فقال: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٤] وهذه الأحوال كلها عين ما جاءت به الكمل من الرسل عليهم السلام الذين أعطوا السيف، فسعد العارف بتلقي رسالة الشيطان ويعرف كيف يتلقاها ويشقى بها آخرون وهم القوم الذين ما لهم هذه المعرفة، ويسعد المؤمنون كلهم والعارفون معهم بتلقي رسالة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ويكون العامل بما جاء في تلك الرسالة أسعد من المؤمن الذي يؤمن بها عقداً وقولاً، ويعصي فعلاً وقولاً، فكل متحرك في العالم منتقل فهو رسول إلهي كان المتحرك ما كان، فإنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه سبحانه، فالعارف ينظر إلى ما جاءت به في تحركها فيستفيد بذلك علماً لم يكن عنده، ولكن يختلف الأخذ من العارفين من هؤلاء الرسل لاختلاف الرسل، فليس أخذهم من الرسل أصحاب الدلالات سلام الله عليهم كأخذهم من الرسل الذي هم عن الإذن من حيث لا يشعرون، ومن شعر منهم وعلم ما يدعو إليه كإبليس إذا قال لصاحبه اكفر فيتلقاه منه العارف تلقياً إلهياً فينظر إلى ما أمره الحق به من الستر فيستره، ويكون هذا الرسول الشيطان المطرود عن الله منبهاً عن الله، فيسعد هذا العارف بما يستره وهو غير مقصود الشيطان الذي أوحى إليه والذي هو غير العارف يكفر بالذي يقول له اكفر، فإذا كفر يقول له الشيطان: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] فشهد الله للشيطان بالخوف من الله رب العالمين في دار التكليف وبالإيمان به، فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها لأنها موطنهما الواحد خلق منها وهو الشيطان والآخر خلق لها وإن كان فيه منها فسكناها بحكم الأهلية وعذبا فيها بحكم الجريمة ما شاء الله، فالعالم كله عند العارف رسول من الله إليه وهو ورسالته أعني العالم في حق هذا العارف رحمة، لأن الرسل ما بعثوا إلا رحمة، ولو بعثوا بالبلاء لكان في طيه رحمة إلهية لأن الرحمة الإلهية وسعت كل شيء فما ثم شيء لا يكون في هذه الرحمة ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢] فلا تحجر واسعاً فإنه لا يقبل التحجير، قال بعض الأعراب: يا رب ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً والنبي ﷺ يسمعه فقال النبي ﷺ: يا هذا لقد حجرت واسعاً يعني حجرته قولاً وطلبة، فإذا كان عند العارف مثل هذا كلام الله يأخذه في الرحمة الخاصة التي يناسب الله بها بين هذا القائل وبين محمد ﷺ فشرك الرسول هذا الأعرابي في الرحمة التي يرحمه الله بها غيره فإن الغير ما له تلك المناسبة الخاصة، فإن الرسول له مناسبة بكل واحد واحد من الأمة التي بعث إليها فآمنت به فهو مع كل مؤمن من أمته بمناسبة خاصة يعينها ذلك المؤمن، فإن المتبوع في نفسه لكل تابع إياه منزلة يتميز بها عنده عن غيره، وهذا القدر كافٍ في هذا الذكر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي عشرين وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ﴾ [الأنفال: ٢١]

[نظم: البسيط]

إنّي أغارُ على قَلْبي فأسْألُهُ ... أن لا يزاحِمَهُ خَلْقٌ من البَشَرِ
فيه فإن لنا قلباً يَهِيمُ به ... في كل حال من التَّنْزِيهِ والصُّوَرِ
لما سمعتُ نداءَ الحَقّ من قلبي ... أجَبْتُهُ حَذَراً من حاكم الغِيَرِ
فقلتُ ماذا فقال الحقُّ قلت له ... ماذا تريد فقال احْذَرْ من الحَذَرِ
فعِشْتُ في طِيبِ نَفْسٍ حيث كنت فما ... أخافُ من وَقْعِ آفات ولا ضَرَرِ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن هذا الذكر لما وفقنا الله تعالى لاستعماله بإشبيلية من بلاد الأندلس سنة ست وثمانين وخمسمائة بقينا فيه ثلاثة أيام فرأينا له بركة في تلك الأيام وكتابه ثلاثة: أنا وعبد الله النزهوني قاضي شرف وكان عبداً صالحاً ضابطاً فقيهاً، وشخصاً ثالثاً من أهل البلد، فجعل علة الإجابة السماع لا من قال إنه سمع وهو لم يسمع كما قال تعالى ينهانا أن نكون مثل هؤلاء فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] فالسمع في هذا الذكر هو عين العقل لما أدركته الأذن يسمعها من الذي جاء به المترجم عن الله تعالى وهو الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، فإذا علم ما سمع كان بحسب ما علم فإن العلم حاكم قاهر في حكمه لا بد من ذلك، وإن لم يكن كذلك فليس بعلم، فما عصى الله قط عالم يعلم بالمؤاخذة على إتيانه المعصية، ولابد من العلم بكونها

معصية في الحكم الإلهي وذلك حظ المؤمن وليس إلا رجلان: قائل بإنفاذ الوعيد فيمن مات على غير توبة، وقائل بغير إنفاذ الوعيد فيمن مات على غير توبة، بل هو في مشيئة الله إن شاء غفر وإن شاء آخذ، وما ثم مؤمن ثالث لهذين، وكلاهما ليس بعالم بالمؤاخذة في حق شخص حي ما لم يمت، فإن القائل بإنفاذ الوعيد يقول بإنفاذه فيمن مات ولم يتب وهو يرجو التوبة ما لم يمت، فليس بعالم بالمؤاخذة على هذه المعصية فإنه لا يعلم أنه يموت على توبة أو على غير توبة، والذي لا يقول بإنفاذ الوعيد لا يعلم ما في مشيئة الحق، فما عصى إلا من ليس بعالم بالمؤاخذة، وأما من كشف له عن المقدور قبل وقوعه فقد علم ما له وعليه، ومن له هذا الحال وهذا المقام فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وقد كان ممن سمع قول الله له إيماناً أو عياناً: اعمل ما شئت فقد غفرت لك، وهذا ثابت شرعاً.

وهنا سر لمن بحث عليه وهو أنه من هذه حالته، فما عصى الله لأنه ما عمل إلا ما أبيح له من العمل، والثاني المغفور له فقد سبقت المغفرة ذنبه فما أبصر ذنبه إلا ممحوّاً بخير عظيم يقابل ذلك الذنب، فعلى كل حال وإن جرى عليه لسان ذنب ومعصية فما جرى عليه حكم ذلك، وليس المعتبر إلا جريان الحكم على فاعل تلك المعصية، فما عصى الله عالم بالمؤاخذة، وقد دعانا الله لما خلقنا له من عبادته فسمعنا ولما سمعنا استجبنا، فأخبر الله عنه بسرعة الإجابة لما ذكرها ببنية الاستفعال، وفي هذا الذكر شمول رحمة الله بخلقه، فأخبر أنه ما استجاب إلا من سمع فوجد العذر من لم يسمع كما وجد العذر من لم تبلغه الدعوة الإلهية، فحكمه حكم من لم يبعث الله إليه رسولاً وهو تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وما هو رسول لمن أرسل إليه حتى يؤدي رسالته فإذا سمع المرسل إليه أجاب ولا بد كما أخبر الله تعالى عنه لما جاء به هذا الرسول في رسالته، فإذا رأينا من لم يجب علمنا بإخبار الله أنه ما سمع فأقام الله له حجة يحتج بها يوم يجمع الله الرسل فيقول: ماذا أجبتم؟ فتقول الرسل عليهم السلام: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب، فعلمنا من قولهم أن العلم بالإجابة من علوم الغيب، فعلمنا أن السماع غيب، فلا يعلم من أجاب إلا من هويته غيب وليس إلا الله وما أقام الله العذر عن عباده إلا وفي نفسه أن يرحمهم، فرحم بعض الناس بما أسمعهم فاستجابوا لربهم وأقاموا الصلاة التي حكم الله فيها بالقسمة بينه وبين عبده، ومن لم يستجب اعتذر الله عنه بأنه لم يسمع، وهذا من حكم الغيرة الإلهية على الألوهة أن يقاومها أحد من عبادها بخلاف ما دعت إليه، إذ لو علم أنهم سمعوا وما استجابوا لعظمهم في أعين الناس وجعلهم في مقام المقاومة له، يعني لما علم السابق علمه فيهم أنه لو أسمعهم لتولوا وهم معرضون فستر علمه فيهم بأن قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] وقال: ولو شاء الله لأسمعهم فأكذبهم في قولهم سمعنا فقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] فلو سمعوا استجابوا فإن الله أعز وأجل من أن يقاومه مخلوق. ألا تراه يقول في حق من سمع من النصارى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ فوصفهم بأنهم يسمعون، ثم ذكر ما كان منهم حين سمعوا فقال: ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ

ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] فأخبر أنهم آمنوا وأخبر أنه تعالى أثابهم على إيمانهم بما ذكر في الآيات، فلا تقل فيمن لم يجب أنه سمع فتخالف الله فيما أخبر عنهم. وقد أخبر الله تعالى عنهم أن بهم صمماً، وأخبر عنهم أنهم قالوا في آذاننا وقر، فطابق قولهم في آذاننا وقر قول الله إنهم صم فلم يسمعوا فلم يرجعوا فإنهم لم يعقلوا ما سمعته آذانهم، وما سمع من سمع منهم إلا دعاء ونداء وهو قوله: يا فلان وما سمع أكثر من ذلك، فما أعظم رحمة الله بعباده وهم لا يشعرون، بل رأيت جماعة ممن ينازعون في اتساع رحمة الله وأنها مقصورة على طائفة خاصة فحجروا وضيقوا ما وسع الله، فلو أن الله لا يرحم أحداً من خلقه لحرم رحمته من يقول بهذا، ولكن أبى الله إلا شمول الرحمة، فمنا من يأخذها بطريق الوجوب وهم الذين يتقون ويؤتون الزكاة الذين يؤمنون ويتبعون الرسول النبيّ الأميّ، ومنا من يأخذها بطريق الامتنان من عين المنة والفضل الإلهي.

ووالله ما أنا بحمد الله ممن يحب التشفي والانتقام من عباد الله، بل خلقني الله رحمة وجعلني وارث رحمة لمن قيل له: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وما خص مؤمناً من غيره وتحقق ذلك في وضع الجزية على أهل الكتاب، وما كان السبب في إنزال هذه الآية إلا دعاءه بالمؤاخذة الإلهية على المشركين من رعل وذكوان وعصية، وإذا كان هذا عتبه لرسوله ﷺ في حق المشرك الذي أخبر أنه لا يغفر له فكيف الأمر في غير المشرك وإن لم يؤمن؟ فافتح عين فهمك لما تقرؤه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وهو أن يزيدك في فهمك، فكلما كرّرت تلاوة زدت علماً لم يكن عندك، وكلما نظرت واعتبرت تزيد علماً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والعشرون وخمسمائة

في معرفة قطب كان منزله:

﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]

[نظم: الخفيف]

اتَّقُوا الله يا أُولي الألبابِ ... من عُلُوم عَلاَّمُها في تَبَابِ
لا تُفَكِّرْ في ذاته فهو جَهْلٌ ... والْتَزِمْ ما تراه خَلْفَ البَابِ
من نُعُوتٍ تَبْدُو به وصِفَاتٍ ... هنّ حجابُها وعَيْنُ الحِجَابِ
ما دَرَى من يقول بالفكر فيها ... أنَّها لا تُنَال بالألبابِ
فالذي قال إنه قد حَوَاهُ ... لم يزل منه تائهاً في إيابِ

اعلم وفقنا الله وإياك أن مثل هذا قوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] وهو الذي يواري من اللباس ما يستر ويمنع من الضرر وهو ما زاد على الريش، فالتقوى في اللباس وفي الزاد ما يقي به الرجل وجهه عن السؤال غير الله، وكذلك في اللباس ما يقي به الإنسان برد الهواء وحرّه ويكون ستراً لعورته وهو قوله: ﴿يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦] وليس

إلا ما يسوءكم ما ينظر إليه منكم هذا الذكر جاء بلفظ الزاد وورد الأمر به، فأعلمنا أنا قوم سفر نقطع المناهل بالأنفاس رحلة الشتاء والصيف لنطعم من جوع ونأمن من خوف، لأنه ما زاد على وقايتك فما هو لك وما ليس لك لا تحمل ثقله فتتعب به، وأقلّ التعب فيه حسابك على ما لا يحتاج إليه فلماذا تحاسب عليه؟ هذا لا يفعله عاقل ناصح لنفسه، فما ثم عاقل لأنه ما ثم إلا من يمسك الفضل ويمنع البذل والمسافر وماله على قلة، فإنه ما من منهلة يقطعها ولا مسافة إلا وقطاع الطريق على مدرجته من الجنة والناس. ويدخل في الجنة الخواطر النفسية فتقطع بهذا المسافر عن معالي الأمور وأصغر المسافات وأقربها أشقها عليه وهو ما بين النفسين، فمن كانت مسافاته أنفاسه كان في أشق سفر، لكنه إذا سلم عظمت أرباحه وأمن الخسارة في تجارته، فإنهم في سفر تجارة منجية من عذاب أليم بضائعهم الإيمان والجهاد، فالإيمان بضاعة تعم النفائس المضنون بها، والجهاد يعم جميع ما جهزنا الله به من بضائع التكليف، والرسل عليهم السلام هم السماسرة في البيع والشراء، والصحف والكتب المنزلة هي الوثائق المكتوبة بين البائع والمشتري، وأخبر الله تعالى أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم يعني الأنفس الحيوانية هي التي اشتراها من النفوس الناطقة المكلفة بالإيمان وأموالهم وهو شرى البرنامج فالمشتري بالخيار عند حضور البضائع، فإن وافقت ما في البرنامج مضى البيع وصح الشراء، وإن لم يوافق فالمشتري بالخيار إن شاء وإن شاء، فإن هلك في سفره في الطريق كان في كيس البائع لا في كيس المشتري، وهذ السوق نفاق إلا أن الطريق خطر جداً لكثرة القطاع فيه، فقطاع طريق السفر في المعقولات الشبه، وقطاع طريق السفر في المشروعات التأويل لا سيما في المتشابهات، ولا يخلو المسافر أن يكون في هذين الطريقين أو في أحدهما، فمن لا تأويل له ولا شبهة فليس بمسافر بل هو في المنزل من أوّل قدم فيمرّ عليه المسافرون وهو ما يعرض الله عليه من أحوال عباده، فهو كتاجر الدكان تأتيه البضائع من كل جانب، كما هم أهل مكة تجبى إليهم ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه سبحانه وأكثرهم لا يعلمون ذلك، فتاجر الدكان لا يحتاج إلى زاد لأنه يسافر إليه ولا يسافر، وليس إلا العارفون ترد عليهم الأنفاس ثم تخرج عنهم تلك الأنفاس فهي لهم كعرض المتاع على تاجر الدكان فيأخذ منها ما شاء ويترك ما شاء، لأن الأنفاس قد ترد على العارف بما هو محمود، وهي البضائع التي لا عيب فيها المثمنة خيار المتاع ونقاوته ومذموم وهي البضائع المعيبة التي نقص ما فيها من العيب ما كانت تستحقه من الثمن لو سلمت منه، وهي البضائع الوخش شرّ المتاع، فانظر أي تاجر تريد أن تكون.

ثم إن المسافرين من التجار الذين أمرهم الله بالزاد الذي لا يفضل عنهم بعد انقضاء سفرهم منه شيء بل يكون على قدر المسافة فهم على ثلاثة أصناف: صنف منهم يسافر براً، وآخر يسافر بحراً، وآخر يسافر براً وبحراً بحسب طريقه، فمسافر البحر بين عدوّين نفس الطريق وما فيه، ومسافر البر ذو عدو واحد، والجامع بينهما في سفره ذو ثلاثة أعداء، فمسافر البحر أهل النظر في المعقولات ومن النظر في المعقولات النظر في المشروعات، فهم بين عدوّ شبهة

وهو عين البحر، وبين عدوّ تأويل وهو العدوّ الذي يقطع في البحر، ومسافر البرّ المقتصرون على الشرع خاصة وهم أهل الظاهر، والمسافر الجامع بين البرّ والبحر هم أهل الله المحققون من الصوفية أصحاب الجمع والوجود والشهود، وأعداؤهم ثلاثة: عدوّ برهم صور التجلي، وعدوّ بحرهم قصورهم على ما تجلى لهم أو تأويل ما تجلى لهم لا بد من ذلك، فمن سلم من حكم التجلي الصوري ومن القصور الذي يناقض المزيد ومن التأويل فيما تجلى لهم فقد سلم من الأعداء وحمد طريقه وربحت تجارته وكان من المهتدين، فهذا وأمثاله يعطيه هذا الذكر وهو ذكر الالتباس من أجل ذكر التقوى لما في ذلك من تخيل تقوى الله، ولهذا أبان الله عن تلك التقوى ما هي وفصل بينها وبين تقوى الله فقام في تمام الآية: ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧] وجعل المجاور لهم في تقوى الله ليس عليكم جناح برفع الحرج والسؤال فيما تزودوه في سفرهم من التقوى فإنه فضل على تقوى الله فإن الأصل تقوى الله فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] وهو التجارة مع علمك بأنه زاد التقوى، وهذا القدر كافٍ فإن المجال فيه واسع، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والعشرون وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠، ٦١]

[نظم: البسيط]

إن القُلوبَ مع الخَيْرات في وَجَلِ ... وإنها عندما تلقاه في خَجَلِ
فيسرعُ العَبْدُ في مرضاة سَيِّدِهِ ... لكونه خُلِقَ الإنسانُ من عَجَلِ
فالطَّبْعُ يسرعُ والأفكارُ تُسْعِدُهُ ... فما يُرَى أبداً يمشي على مَهَلِ
إن السِّبَاقَ لَمِنْ شَأنِ الرجال فمن ... أَرْبَى على أحد أَرْبَى على رَجُلِ

قال الله تعالى في الورثة: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢] فالضمير من هو يعود على السبق الذي يدل عليه اسم الفاعل. اعلم أن السبب الموجب لوجلهم قول الله عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] وجعل هنا ما بمعنى الذي ثم جاء بأتوا بعد ما وكلامه صدق فأدركهم الوجل إذ قطعوا أنهم لا بد أن يقوم بهم الدعوى فيما جاؤوا به من طاعة الله، فيكشف الله لهم إذا خافوا ووجلوا من ذلك، وتبديل الله لفظة ما التي بمعنى الذي بلفظه ما النافية مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] هكذا يكون كشفه هنا للوجل ما يؤتون الذي أتوا به ولكن الله تعالى أتى به فأقامهم مقام نفسه فيما جاؤوا به من الأعمال الصالحة، ثم نظروا في ذكرهم للتعليل وهو قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] فيما أتوا به مع كون الله وصفهم بأنهم الذي أتوا به، فانظر ما أدق نظرهم في السبب الذي جعل في قلوبهم الوجل، ثم تمموا الذكر كما

علمهم الله أولئك إشارة إلى هؤلاء الذين ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٦٠] والإسراع لمن أتى هرولة فافهم، فهم يسارعون في الخيرات بالحق وهم لها سابقون أي يسبقونها ويسبقون إليها فالخيرات ثلاثة: خيرات يكون السباق والمسارعة فيها، وخيرات يكون السباق بها، وخيرات يكون السباق إليها وهي قوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ [الحديد: ٢١] و ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

والسرعة في السباق لا بد منها لأن السباق يعطي ذلك وهو فوق السعي فإتيانهم بسرعة والزائد على السعي ما هو إلا هرولة وهي نعت إلهي، وإذا انفرد الحق بنعت كان له فما يأخذه العبد إلا معار الكون الحق لايشارك في شيء أضافه إلى نفسه، وما لم يذكر بإضافة إلى الله فلك فيه التصرف إن شئت أضفته إلى الله تعالى وإن شئت أضفته إليك، فإن تقدم لك إضافة ذلك إلى الله حرم عليك أن تضيفه بعد ذلك إلى نفسك، فإن صورته في ذلك صورة ما أضافه الحق إلى نفسه، فسواء كان ذلك منه ابتداء أو قال ذلك على لسان عبده، فإن الله عند لسان كل قائل بما يقول كما هو قائم على كل نفس بما كسبت، فأنت الكتاب المشار إليه في قوله: ﴿وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [المؤمنون: ٦٢] وأنت الناطق فإنه الفصل المقوّم لك في حدك وما أحسن قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢] حيث عرفنا بأننا الكتاب الذي ينطق بالحق وشرفنا بأنا لديه ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ [النحل: ٩٦] فلنا البقاء بما نحن لديه على هذه الصفة التي وصفنا الله بها من النطق بالحق، فإنا بالله ننطق والله يقول على لسان عبده ما ينطقه به: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ [الإسراء: ١٠٥] وهو القائل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقد وسعت الحق الذي ضاق عنه الأرض والسماء وهو سبحانه لا يثقله شيء وإنما نعته بالتكليف لأنه على كل حال محل جلال للحق به ينطق ويسمع ويبصر ويسعى ويبطش، فقبول الزائد تكليف والوسع في إعطاء كل شيء حقه: [مجزوء الرجز]

فكُنْ به حتى يَكُنْ ... إن لم تَكُنْ فلا يَكُنْ
فأنت خلاّقٌ له ... وأنت مخلوقٌ بكُنْ
إنّ الحَديثَ لم يَسَعْ ... إلا الحَدِيثَ المُسْتَكِنْ
فما اسْتَكانُوا للّذي ... قال اسْتَكِينُوا فاسْتَكَنْ
فللإلٰه ما سَكَنْ ... وَهُوَ لنا نِعْمَ السَّكَنْ

فالحمد لله على ما أولى، وله الحمد في الآخرة والأولى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والعشرون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [النازعات: ٤٠]

[نظم: الوافر]

مَقَامُ الرَّبِّ ليس له أمانُ ... يدلُّ عليه ما يعطي العَيَانُ

فـخَـفْـهُ لأنـه خَـطَـرٌ وفـيـه إذا مـا خـفْـتَـهُ حـالاً أمـانُ
ونَـفْـسَـكَ فـانْـهَـهَـا عـن كـل أمْـرٍ يـضـيـقُ لـهَـوْلِـهِ مـنـك الـجَـنَـانُ
فـلا تُـعْـتِـبْ زمـانـاً أنـت فـيـه فـأنـت هـو الـمُـعـاتَـبُ والـزّمـانُ
ولا تَـغْـمُـزْ مـكـانـاً لـسـت فـيـه فَـرَبُّ الـدار لـيـس لـه مـكـانُ
فـأنـت كـهـو فـأنـت لـه جـلـيـسٌ ومُـؤنِـسُـكَ الـتَّـعَـطُّـفُ والـحـنـانُ
وفـيـهـا الـخُـلْـدُ والـحُـورُ الـحِـسَـانُ لـذاك يـقـال مـنـزلُـنـا الـجِـنَـانُ

اعلم أيدنا الله وإياك أن المقام الإلهي الرباني ما وصف به نفسه ولما علمه ﷺ حين أعلمه لذلك استعاذ به منه فقال: وأعوذ بك منك. اعلم أن كل مقام سيد عند كل ذي اعتقاد إنما هو بحسب ما ينشئه في اعتقاده في نفسه، ولهذا قال الله مقام ربه فأضافه إليه وما أطلقه، وما تجد قط هذا الاسم الرب إلا مضافاً مقيداً لا يكون مطلقاً في كتاب الله فإنه رب بالوضع والرب من حيث دلالته أعني هذا الاسم هو الذي يعطي في أصل وضعه أن يسع كل اعتقاد يعتقد فيه ويظهر بصورته في نفس معتقده، فإذا كان العارف عارفاً حقيقة لم يتقيد بمعتقد دون معتقد، ولا انتقد اعتقاد أحد في ربه دون أحد لوقوفه مع العين الجامعة للاعتقادات، ثم إنه إذا وقف مع العين الجامعة للاعتقادات كلها فيه، فيخاف أن يكون هذا القدر الذي اعتقده واحد مثل كل ذي اعتقاد في الرب، فيتخيل أنه مع الرب وهو مع ربه لا مع الرب مع كونه بهذه المثابة في تسريحه وعدم تقييده وقوله به في كل صورة اعتقاد وإيمانه بذلك فلا يزال خائفاً حتى يأتيه البشرى في الحياة الدنيا بأن الأمر كما قال، فهذا حد إطلاق العبد في الاعتقاد، ولو لم يكن الحق له هذا السريان في الاعتقادات لكان بمعزل ولصدق القائلون بكثرة الأرباب: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] في كل معتقد إذ هو عين كل معتقد. ثم نصب الله لهذا العارف دليلاً من نفسه بتحوّله في نفسه في كل صورة وقبوله في ذاته عند إنشاء كل صورة ينشها هذا المعتقد في قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] نظر إشارة لا تفسير، فلولا قبولك عند تسويتك وتعديلك لكل صورة ما ثبت قوله: ﴿فِىٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ وقد صح وثبت هذا القول، فعلمنا أن له التجلي في صور الاعتقادات فلا ينكر، فكل من لم يعرف الله بهذه المعرفة فإنه يعبد رباً مقيداً منعزلاً عن أرباب كثيرة إذا اتصف نفسه لم يدرِ أي رب هو الرب الحقيقي في نفس الأمر من هؤلاء الأرباب الذي في نفس كل معتقد، ونهي النفس في هذا الذكر عن الهوى هو النهي عن تقييده بمعتقد خاص عن معتقد فإنه عابد هوى، ثم تمم الذكر في حق العارف الذي ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ كما قلنا ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] كما شرحنا ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١] يقول مقامه ستر هذا العلم بالله الذي حصل له فإنه مهما ظهر عليه كل صاحب اعتقاد مقيد أنكره عليه وجهله إن كان ذا نظر، وربما كفره إن كان ذا إيمان فلا يعرف ﴿مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ إلا من خاف مقام ربه غيره فلا يعرفه: [الطويل]

فـكُـنْ فـي أمـان أن يـقـولَ بـقَـوْلِـكُـمُ شُـخَـيْـصٌ له في رَبّه الـحَـصْـرُ والـقَـيْـدُ

فمن يَعْتَقِدْ في الله ما قد شَرَحْتُهُ فذاك هو المَكْرُ الإلهيُّ والكَيْدُ
وكيف يَرَى التقييدَ من هو مُطْلَقٌ له البَدْءُ فيما شاءه الحَقُّ والعَوْدُ

فإطلاق العبد قبوله لكل صورة يشاء الحق أن يظهر فيها فما ظنك بخالقه الذي له المشيئة فيه وهو سبحانه في تحوّله في الصور لذاته غير مشيء لذلك، فإن المشيئة متعلقها العدم وهو الوجود فلا يكون مشاء لمشيئته بل لم يزل في نفسه كما تجلى لعبده فمشيئته إنما تعلقت بعبده أن يراه في تلك الصورة التي شاء الحق أن يراه فيها، فإذا رآها العبد التبس بها وركبه الحق فيها وهو قوله من باب الإشارة ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ﴾ من صور التجلي ﴿مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] هذا في باب المعارف والاعتقادات، وفي باب الخلق في أي صورة من صور الأكوان ما شاء ركبك: [الرجز]

فَخَفْ مقامَ الرَّبِّ إنْ أَضَفْتَه ولا تَخَفْ منه إذا عَرَفْتَهُ
فلا يخافُ الرَّبَّ غَيْرُ مُقَيّدٍ أطْلَقْتَهُ إن شئتَ أو أَضَفْتَهُ
فإنه عَيْنُ الذي تشهدُه فكُنْ به الموصوفَ إن وَصَفْتَهُ
لا تَقْتَصِرْ على الذي أُشْهِدْتَهُ ولا تَزِدْ في الكشف إن كَشَفْتَهُ
فكن به ولا تكن أيضاً به فذا هو الإنصاف إنْ أنصفتَهُ

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والعشرون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف: ١٠٩]
[نظم: الوافر]

ولو أن البِحَارَ لنا مِدَادٌ وأشجارَ المِهَاد لنا يَرَاعُ
وجاء صَرِيفُها في اللَّوْح يَسْعَى وحَرَّكَنا لذلكمُ السَّمَاعُ
لما نَفِدَتْ له كلماتُ رَبّي وساوى القَاعَ في المَجْدِ اليَفَاعُ

قال الله عز وجل: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ [لقمان: ٢٧] وقال تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١] ليست كلمات الله سوى صور الممكنات وهي لا تتناهى، وما لا يتناهى لا ينفد ولا يحصره الوجود، فمن حيث ثبوته لا ينفد فإن خزانة الثبوت لا تعطي الحصر فإنه ليس لاتساعها غاية تدرك، فكلما انتهيت في وهمك في اتساعها إلى غاية فهو من وراء تلك الغاية، ومن هذه الخزانة تظهر كلمات الله في الوجود على التتالي والتتابع أشخاصاً بعد أشخاص، وكلمات أثر كلمات، كلما ظهرت أولاها أعقبتها بالوجود أخراها، والبحار والأقلام من جملة الكلمات، فلو كانت البحار مداداً ما انكتب بها سوى عينها وبقيت الأقلام والكلمات الحاصلة في الوجود ما لها ما تكتب به مع تناهيها بدخولها في الوجود، فكيف بما لم يحصره الوجود

من شخصيات الممكنات فهذا حكم الممكن، فما ظنك بالمعلومات التي الممكنات جزء منها؟ وهذا من أعجب ما يسأل عنه مساواة الجزء والبعض للكل في ا لحكم عليه بعدم التناهي مع معقولية التفاضل بين المعلومات والممكنات، ثم إنه ما من شخص من الأشخاص من المعلومات ولا من الممكنات إلا واستمراره لا يتناهى، ومع هذا يتأخر بعضه عمن تقدمه، فقد نقص عن تقدمه وفضل عليه من تقدمه وكل واحد لا يتصف في استمراره بالتناهي، فقد وقع الفضل والنقص فيما لا يتناهى، ووجود الحق ما هو بالمرور فيتصف بالتناهي وعدم التناهي فإنه عين الوجود، والموجود هو الذي يوصف بالمرور عليه، فالذي لا يتناهى المرور عليه وهو في عينه من حيث إنه موجود متناه لأنه على حقيقة في عينه متميز بها عمن ليست له تلك الحقيقة التي بها يكون هو وليست إلا عين هويته فهو الموجود، ولا يتصف بالتناهي، ولا يوصف أيضاً بأنه لا يتناهى لوجوده، فمن حيث إنه ينتهي هو لا ينتهي بخلاف حكم المحدثات في ذلك، ولا يعلم المحدثات ما هي إلا من يعلم ما هو قوس قزح، واختلاف ألوانه كاختلاف صور المحدثات، ثم أنت تعلم أنه ماثم متلوّن ولا لون مع شهودك ذلك كذلك شهودك صور المحدثات في وجود الحق الذي هو الوجود فتقول ثم ما ليس ثم لأنك لا تقدر أن تنكر ما تشهد وأنت تشهد كما لا تقدر أن تجهل ما أنت تعلمه وأنت تعلم، والمعلوم في هذه المسألة خلاف المشهود، فالبصر يقول ثم والبصيرة تقول ماثم، ولا يكذب واحد منهما فيما يخبر به، فأين كلمات الله التي لا تنفد وما ثم إلا الله، والواقف بين الشهود والعلم حائر لتردده بينهما، والمخلص لأحدهما غير حائر منحاز لمن يخلص إليه كان ما كان: [مجزوء الرجز]

والـحَـقُّ مُـغْـطٍ ذا وذا ... فـخُـذْ بـه هـذا وذا
ولا تَـكُـنْ عـن كـلّ مـا ... أعْـطَـاكَـهُ مُـنْـتَـبِـذَا
ومـن يـكـن يـعـرفُ ذا ... يـكُـنْ إمـامـاً جَـهْـبَـذَا
فـكـلُّ مـن يـقـول ذا ... لا بـدّ أن يـقـولَ ذا
بـيـنـهـمـا يَـبْـدُو الـذي ... يَـضْـرِفُـهُ عـن ذا وذا
وقـال أقـوامٌ بـذا ... وقـال أقْـوامٌ بـذا
فـهـكـذا فـلْـتَـعْـرِفِ الأشْـ ... ـيَـاءَ حَـقّـاً هـكـذا

فالوجود كله حروف وكلمات وسور وآيات، فهو القرآن الكبير الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] فهو محفوظ العين فلا يتصف بالعدم لأن العدم نفي الشيئية والشيئية معقولة وجوداً وثبوتاً وما ثم رتبة ثالثة، فإذا سمعت نفي شيئية فإنما ينفي النافي عن شيئية الثبوت شيئية الوجود خاصة، فإن شيئية الثبوت لا تنفيها شيئية الوجود، فقوله: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] هو شيئية الوجود لأنه جاء بلفظ تك وهي حرف وجودي فنفاه بلم، وكذلك ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] والذكر وجود فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والعشرون وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]

[نظم: البسيط]

إذا تَـعَـدَّتْ حُـدُودَ الله أكـوانُ ... فحُكْمُها يوم فَضلِ الحُكْم خُسْرَانُ
فـإنْ تَـجَـدَّدَ حـكـمٌ لـيس يـعـرفـه ... غـيـرُ الإلـه ولا يَـدْريـه مـيـزانُ
فـذاك وجـودُ إلـهـيٌ أتـاك بـه ... عـنـايـةٌ مـن إلـهِ الـحَـق فُـرْقَـانُ
لـولا الـوجـودُ ولـولا سِرُّ حِكْـمَـتِـهِ ... فيـه لـمـا ظـهـرتْ فـي الـكـون أعـيـانُ
هـو الـوجـودُ ولـكـن لـيـس يَـعْـرِفُـهُ ... وكـيـف يَـدْري الكَـمالَ الحَقَّ نقصانُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس الروح الأمين: [الرمل]

إن لله حـدوداً تُـعْـرَفُ ... والـذي يـعـرفُـهـا لا يُـصْـرَفُ
نـاظـراً فـي حـكـمـهـا مُـتَّـئـداً ... عـنـدهـا فـي كـل حـال يَـقِـفُ
فـانْـظُـروا فـيـهـا عـلـيـهـا وقِـفُـوا ... وبـحـقّ الـحـقّ لا تَـنْـحَـرِفُـوا
تَـجِـدُوا الـسـرَّ لـديـهـا عـلـنـاً ... ولـذا أهـلُ الـتـعـدِّي عـرفـوا
ولـهـذا انـتـهـكـوا حُـرْمَـتَـهـا ... وادَّعَـوْا أنـهـم قـد كَـشَـفُـوا
ظـلـمـوا أنْـفُـسَـهُـم فـانْـحَـجَـبُـوا ... عـن مـراد الله حـيـن اعْـتَـرَفُـوا
والـتـرجِّـي واقـعٌ حـيـث أتـى ... مـن كـلام الله عـنـه فَـقِـفُـوا
عـنـد مـا قـلـتُ بـه واتَّـصـفُـوا ... بـالـتـرجِّـي مـثـل مـا يَـتَّـصِـفُ
أنـه عـنـد الـذي ظُـنَّ بـه ... فَـلْـتَـظُـنُّـوا الـخَـيْـرَ مـنـه ولْـتَـفُـوا

حدود الله أحكامه في أفعال المكلفين، فلا يتعدى منها حد إلا لحد آخر لغير حد إلهي لا يتعداه، ونفس تعديه إليه عين تعديه فيه، فيحكم في الأمور بغير حكم الله لا بد من ذلك فانظر ما أعجب هذا، وأحكام الله التي هي حدوده وجوب وحظر وكراهة وندب وإباحة، فكل متصرف بحركة وسكون فلا بد أن يكون تصرفه في واجب أو محظور أو مندوب أو مكروه أو مباح لا يخلو من هذا، فإن كان تصرفه في واجب عليه فعله بترك فقد تعدى حدود الله بتركه ما وجب عليه فعله فإن تركه على أنه ليس بواجب عليه فعله فقد تعدى في ذلك تعدي كفر، ولا بد أن يحكم فيه بغير حكم الله وينتقل فيه إلى حكم آخر من حكم الله لكن في غير هذا العين، فأباح ترك ما أوجب الله عليه فعله وترك ما حرم الله عليه تركه، وإن قال بوجوب الترك فيما قال الشرع فيه بوجوب الفعل فهذا تعدٍ عظيم فاحش واتباع هوى مضل عن سبيل الله، فالتعدي بالفعل والترك معصية والتعدي بالاعتقاد كفر، ومن قلب أحكام الله فقد كفر وخسر، وثم تعدٍ آخر لحدود الله وهو قلب الحقائق ويسمى المتعدي جاهلاً وتعديه جهلاً وهي الحدود الذاتية للأشياء، وإنما أضيفت إلى الله لأن العلم بها إنما حصل لنا من جانب الله

حيث أعطانا من القوة التي هي قوة العقل والنظر ما نصل بها إلى العلم بهذه الحدود، ولأن الأمور التي نحدها ما هي بأمر زائد على ما ظهر في المظاهر المعقولة والمحسوسة وما ظهر إلا الحق، وذلك الظاهر في العقل أو الحس هو الذي نحده وليس إلا الله فهي حدود الله. وقد تشترك المحدودات في أمور وتتميز بأمور، فما تميزت به من الفصول فهو حدها المميز لها عن الذي شاركها، وما وقع به الاشتراك والتميز كله حد لها، فمن تعدى هذه الحدود فقد ظلم نفسه بظلم يسمى جهلاً وقلباً للحقائق، وقلب الحقائق إما أن يقلبها عينها كلها وإما أن يقلبها من حيث فصولها المقومة لها، وكيف ما كان فقد تعدى حدود الله وجهل، فحد الخالق بما هو حد للمخلوق، فقلب الأمر في عينه كله، وقد حد الإنسان بالفصل المقوم للفرس فقد غلط وجهل بعضاً وعلم بعضاً فأولئك هم الجاهلون حقاً كما هو في تعدي الأحكام، أو ما جاء به الشارع إذا آمن ببعض وكفر ببعض هو الكافر حقاً وغلب الكفر على الإيمان، فإن ذهاب الفصل المقوم من المحدود عين ذهاب ماله من نصيب الاشتراك، فإن حيوانية الإنسان ما هي عين حيوانية الفرس بالنظر إلى شخصية ذلك المحدود، فلهذا يذهب الكل لذهاب البعض، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] و﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]. وأما قوله في هذ الذكر: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]، وذلك لأنا ما عرفنا من القوى الموجودة في الإنسان إلا قدر ما أوجد فيه، وربما في علم الله عنده أو في الإمكان قوى لم يوجدها الله تعالى فينا اليوم، حتى لو قيل للفرس عن القوة التي تميز بها الإنسان عنه أنكرها، وفي طريق الله ما يقوله أهل الطريق في إثبات المقام الذي فوق طور العقل وهي قوة يوجدها الله في بعض عباده من رسول ونبيّ وولي تعطي خلاف ما أعطته قوة العقل، حتى أن بعض العقلاء أنكر ذلك والشرع أثبته، ونحن نعلم أن في نشأة الآخرة قوى لا تكون في نشأة الدنيا ولا يحكم بها عقل هنا ولا تنال إلا بالذوق عند من أوجدها الله فيه وتحصل لبعض الناس هنا، فلا تعلم نفس ما أخفي لها فيها من قرة أعين، وفي الجنة ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فخرج عن طور العقل بتعيين أمر ما، وما خرج عن طور العقل بالإمكان إذ لا حكم للعقل فيما يعنيه الله من الأمور إلا الإمكان خاصة أو ما تتحير فيه، فلهذا جاءت كلمة لعل وهي كلمة ترج، وكل ترج إلهي فهو واقع فلا بد منه، فهذا هو الأمر الذي يحدثه في النشأة، وأما في الأحكام فمعلوم في العلم الرسمي إلى يوم القيامة فإن الرسول ﷺ لما قرّر حكم المجتهد لا يزال حكم الشرع ينزل من الله على قلوب المجتهدين إلى انقضاء الدنيا، فقد يحكم اليوم مجتهد في أمر لم يتقدم فيه ذلك الحكم واقتضاه له دليل هذا المجتهد من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس جلي، فهذا أمر قد حدث في الحكم إذا تعداه المجتهد أو المقلد له فقد ظلم نفسه، فهذا وأمثاله مما يعطيه هذا الذكر، وهذا القدر من الإشارة في هذا الذكر كافٍ إن شاء الله، فإن هذا الذي يعطيه هذا الذكر فيه تفصيل كثير وتمثيل نبهناك على المأخذ فيه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والعشرون وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]

[نظم: البسيط]

إنّ الرُّكُونَ إلى الأغيار حِرْمَانُ ... في الدِّين وهو رُكُونٌ فيه خُسْرانُ
نَاطَ العَذَابَ به شرعٌ يحقِّقُهُ ... ضِعْفَيْن قلبي وإيمان وإحسانُ
هذا لمن قد رأى في ذاك مصلحةً ... فكيف من حالُهُ زُورٌ وبُهتانُ
الله يعلمُ أنّي لا أقول به ... ولو تُقَطَّعُ أوصالٌ وأركانُ
والله ما كان ذاك الحكمُ إلا لنا ... كالشكّ والشِّرْكِ يقضي فيه برهانُ
بأن قائله ذو عِصْمَةٍ وله ... على الذي قاله في الله سلطانُ

أنزل الله تعالى في مثل هذا بل في هذا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلى آخر السورة وهي سورة تعدل ربع القرآن إذا قسم أرباعاً، كما أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن إذا قسم أثلاثاً، كما أن إذا زلزلت تعدل نصف القرآن إذا قسم قسمين. اعلم أن هذا الذكر يطلعك كشفاً على أعضاء التكليف منك وهي ثمانية أعضاء: القلب والسمع والبصر واللسان واليد والبطن والفرج والرجل، وما ثم تاسع وهي على عدد الجنات الثمانية، فيدخل العبد في عبادته من أي أبواب الجنة شاء، وإن شاء من الأبواب كلها في الزمن الواحد الفرد كأبي بكر الصديق رضي الله عنه دخل منها كلها في يوم واحد، وكما أنه في كل عضو عمل يخصه فلكل عمل نتيجة تخصه من الكون تسمى كرامة ينتجها حال ذلك العمل تناسب الكرامة العضو المكلف، وحال العمل الذي يختص بذلك العضو ويقع في عمل كل عضو تفصيل، وله أيضاً أعني العمل نتيجة تخصه من الحق تسمى منزلاً ينتجه مقام ذلك العمل يناسب ذلك المنزل عند الله العضو المكلف، وتفاصيل المقام الذي يختص بذلك العضو يفصل المنازل على اختلافها، وقد بينا ذلك كله في كتاب مواقع النجوم لنا وهو كتاب يقوم للطالب مقام الشيخ يأخذ بيده كلما عثر المريد ويهديه إلى المعرفة إذا هو ضلّ وتاه، ويعرفه مراتب الأنوار من هذا الذكر المقسمة على الأعضاء التي يهتدي بها وهي نور الهلال والقمر والبدر والكوكب والنار والشمس والسراج والبرق، وما يكشف بنور كل واحد من هذه الأنوار من الصفات التي تحصر الأسماء الإلهية، والذات كالحياة والعلم والإرادة والقدرة والكلام والسمع والبصر، والذات المنعوتة بهذه الصفات فلكل صفة نور من هذه الأنوار ويعرف الموازنات بين الأشياء الموزونة والمناسبات فلا يخفى عليه شيء فإنه نور كله وهو دعاء النبي ﷺ فقال: «**واجعلْني نوراً**» وتعرف من هذا الذكر أرباب القوى وهي ثمانية القوى الخمسة الحسية والقوى العاقلة والفكرة والخيالية، وما عدا هذه القوى فكالسدنة لهذه الثمانية، كما أن هؤلاء الثمانية وإن كانوا أمهات ففيها ما منزلتها من غيرها منزلة السادن ومنزلة الأقليد، وما زال التفاضل في

الأنواع معلوماً، وكل ما ذكرناه في مواقع النجوم فإنه بعض ما يعطيه هذا الذكر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والعشرون وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]

[نظم: البسيط]

لله قَـوْمٌ وَفَـوْا بـمـا لـه خُـلِـقـوا فـمـا مـضـى طَـبَـقٌ إلا بـدا طَـبَـقُ
فاصْبِرْ مع القوم نفساً ليس تَشْكُرُها إلا إذا رُزِقْـتَ مـثـل الـذي رُزِقُـوا
مـن انـكـسـار ومـن ذُلٍّ ومَـتْـرَبَـةٍ فـيـهـا روائـحُ مِـسْـكٍ نَـشْـرُهُ عَـبِـقُ
فـلا يَـغُـرَّنَّـكَ أوصـافـي فـإن لـهـا مـواطـنـاً وبـهـا الأقـوامُ قـد نَـطَـقـوا

اعلم أيدنا الله وإياك بما أيدهم به من الروح القدسي أن لله عباداً كانت أحوالهم وأفعالهم ذكراً يتقرب به إلى الله، وينتج من العلم بالله ما لا يعلمه إلا من ذاقه، فمن حبس نفسه مع هذا الذكر لحق بهم فإنه كل ما أمر الله به نبيه ﷺ ونهاه عنه هو كان عين أحوالهم وأفعالهم، مع كون هذه الطائفة الذي نزل فيهم هذا القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ فما نالوا ما نالوه إلا باتباعه وفهم ما فهموا عنه، ومع هذا عاتب الله تعالى نبيه ﷺ فيهم حتى كان رسول الله ﷺ إذا لقي أحداً منهم أو قعد في مجلس يكونون فيه لا يزال يحبس نفسه معهم ما داموا جلوساً حتى يكونوا هم الذي ينصرفون وحينئذٍ ينصرف رسول الله ﷺ، وكان ﷺ إذا حضروا لا تعدو عيناه عنهم، ويقول إذا جاؤوا إليه أو لقيهم مرحباً بمن عاتبني الله فيهم، ولما عرفوا بذلك كانوا يخففون الجلوس مع رسول الله ﷺ، والحديث لما علموا من تقييده بهم وصبره نفسه معهم، فمن لزم هذا الذكر فإنه ينتج له معرفة وجه الحق في كل شيء، فلا يرى شيئاً إلا ويرى وجه الحق فيه فإنهم ما دعوا ربهم بالغداة والعشيّ الذي هو زمان تحصيل الرزق في المرزوقين كما قال: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] وهو الصبوح والغبوق عند العرب فكان رزق هؤلاء بالغداة والعشيّ ما يحصل لهم من معرفة الوجه الذي كان مرادهم لأنه قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨] يعني بذلك الدعاء بالغداة والعشي وجه الحق لما علموا أن ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] فطاعوا ما يبقى وآثروه على ما يفنى، فإذا تجلى لهم وجه الحق في الأشياء ولهذا الذاكر بهذا الذكر لم تعد عيناه عن هذا الوجه ولا يتمكن أن تعدو عيناه عنه لأنه بذاته يقيد كل ناظر إليه، وإنما جاء بالنهي في هذا الذكر لأنهم ليسوا عين الوجه بل هم المشاهدون للوجه، فمن كان منهم قد حصل له تجلي الوجه وبقي معه هذا الذكر فإنما يريد بقاء شهود ذلك الوجه دائماً لما يعرف من

حال الممكن، وما ينبغي لجلال الله من الأدب معه حيث لا يحكم عليه بشيء، ولا بد وإن حكم هو بذلك على نفسه، هذا هو الأدب الإلهيّ. ومن لم يبد له بعد ذلك الوجه المطلوب فيطلب بدعائه ذلك الوجه المراد له، وعلى كل حال فلا تعد عينا رسول الله ﷺ عنهم إلى غيرهم ما داموا حاضرين، ومن هنا قال رسول الله ﷺ في صفة أولياء الله: «**هُمُ الَّذِينَ إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله**» لما حصل لهم من نور هذا الوجه الذي هو مراد لهؤلاء، فإن الذي يتجلى له هذا الوجه لا بد أن يكون فيه أثر معلوم له ولا بد فمنه جليّ بحيث أن يراه الغير منه، ومنه خفي بحيث أن لا يراه منه إلا أهل الكشف أو لا يراه أحد وهو الأخفى، إلا أنه له في نفسه جلي لأنه صاحب الشهود، وحكم غير الأنبياء في مثل هذه الأمور خلاف حكم الأنبياء فإن الأنبياء وإن شاهدوا هؤلاء في حال شهودهم للوجه الذي أرادوه من الله تعالى بدعائهم وأنهم من حيث إنهم أرسلوا لمصالح العباد لا يتقيدون بهم على الإطلاق، وإنما يتقيدون بالمصالح التي بعثوا بسببها، فوقتاً يعتبون مع كونهم في مصلحة مثل هذه الآية ومثل آية الأعمى الذي نزل فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١]، فإن رسول الله ﷺ ما أعرض عن الأعمى الذي عتبه فيه الحق إلا حرصاً وطمعاً في إسلام من يسلم لإسلامه خلق كثير، ومن يؤيد الله به الدين، ومع هذا وقع عليه العتب من حقيقة أخرى لا من هذه الجهة فمن ذلك قوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٥و ٦] فذكر الصفة ولم يذكر الشخص، والغنى صفة إلهية فما حادت عين رسول الله ﷺ إلا إلى صفة إلهية لتحققه ﷺ بالفقر، فأراد الحق أن ينبهه على الإحاطة الإلهية، فلا تقيده صفة عن صفة فليس شهوده ﷺ لغنى الحق في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] بأولى من شهوده ﷺ لطلب الحق في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وأين مقام الغنى من هذا الطلب؟ وقوله: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] فغار عليه سبحانه أن تقيده صفة عن صفة بل كان يظهر لأولئك من البشاشة عل قدر ما يليق بهم، ويظهر للأعمى من الفرح به على قدر ما تقع به المصلحة في حق أولئك الجبابرة، فإن التواضع والبشاشة محبوبة بالذات من كل أحد فإنها من مكارم الأخلاق، وما زال الله يؤدّب نبيه ﷺ حتى تحقق بالأدب الإلهي فقال: «**أَدَّبَنِي الله فَأَحْسَنَ أَدَبِي**»، فإن الله له نسبة إلى الأغنياء كما له نسبة إلى الفقراء، فالعارف ينبغي له أن لا يفوته من الحق شيء في كل شيء فما أحسن تعليم الله عباده، فنحن إذا فتح الله أعين بصائرنا وأفهامنا علمنا أن تعليم الله نبيه ﷺ الآداب مع المراتب أنا أيضاً مرادون بذلك التعليم، وننظره في النبيّ ﷺ كالمثل السائر: «إياك أعني فاسمعي يا جارة»، وإن كان هو ﷺ المقصود لله بالأدب فنحن أيضاً المقصودون لله بالتأسي به والاقتداء ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] فكل خطاب خاطب به نبيه ﷺ مؤدّباً له فلنا في ذلك الخطاب اشتراك لا بد من ذلك، فانظر يا وليّ في هذا الذكر ماذا نتج من الخير الكثير، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والعشرون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠]

[نظم: البسيط]

إن القبيحَ لأقسامٌ مُقَسَّمَةٌ عُرْفِيَّةٌ والتي التشريعُ بَيَّنَها
فمن عفا عن مُسيءٍ نفسُه أَنِفَتْ عن الجزاء لأن السُّوءَ عَيَّنَها
فلا تكن بمَحَلٍّ للقبيح لأن الله بالصفة العلياء زَيَّنَها

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وإن كان له جميع الأسماء التي يفتقر كل فقير إلى مسماها، ولا فقر إلا إلى الله فإنه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [فاطر: ١٥] ومع هذا فلا يطلق عليه من الأسماء إلا ما يعطي الحسن عرفاً و شرعاً، ولذلك نعت أسماءه بالحسنى وقال لنا ادعوه بها ثم قال وصية لنا: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ [الأعراف: ١٨٠] أي يميلون في أسمائه إلى ما ليس بحسن، وإن كان في المعنى من أسمائه لكن منع أن يطلق عليه لما ناط به عرفاً أو شرعاً بأنه ليس بحسن وهنا قال: ﴿سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] فالسيئة الأولى سيئة شرعية صاحبها مأثوم عند الله، والسيئة الثانية الجزائية ليست بسيئة شرعاً وإنما هي سيئة من حيث إنها تسوء المجازى بها كالقصاص فيما لك أن تعفو عنه بهذا الشرط، فلما رأى أهل الله أنه تعالى أطلق على ذلك اسم سيئة وقال مثلها، ومن اتصف بشيء من ذلك فيقال فيه إنه مسيء على حد ما سمى تلك سيئة سواء فأنف أهل الله أن يكونوا محلاً للسوء فاختاروا العفو على الجزاء بالمثل نفاسة وتقديس نفس عن اسم لم يطلقه الله على نفسه كما أطلق الحسن ونبه على الزهد والترك للأخذ عليها بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ﴾ ولم يقل وجزاء المسيء فإن المسيء هو الذي يجازى بما أساء لا السيئة، فإن السيئة قد ذهب عينها وهي لا تقبل الجزاء ولو كانت موجودة، فإنها لو قبلت الجزاء لزال عينها، مثال ذلك أن الجرح الحاصل في الذي تعدي عليه فجرح إذا اقتص من الذي جرحه مثل ما تعدى عليه صار الآخر المجازى مجروحاً وما برىء الأوّل من جرحه، فلو قبلت السيئة جزاء لزال عينها منه ولا يزول، فلم يبقَ الجزاء إلا عين المكلف، فإن كانت السيئة فعل المكلف لا مفعوله فقد ذهب عين الفعل بذهاب زمانه فلا يقبل الجزاء لأنه قد انعدم فلم يبقَ إلا المحل المسيء، فأنزل المسيء منزلة السيئة وسمي بها وأضيف الجزاء إلى السيئة، فللمسيء حكم السيئة ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤] هذا من أقوم القيل، وإن كان القيل الإلهي كله قويماً ولكن فيه قويم وأقوم بالنسبة إلينا لأنا قد قدمنا ما من شيء يكون فيه كثرة أمثال إلا ولا بد فيه من التفاضل حتماً لأنه لا شيء فوق أسماء الله الحسنى، ومع هذا تتفاضل بالإحاطة وعدم الإحاطة، وينزل اسم إلهيّ عن اسم إلهيّ، ويعلو اسم إلهيّ على اسم إلهيّ، فالجزاء بالأمثال أبداً، وما خرج عن الوزن والمقدار

بالرجحان لا بالنقص فذلك خارج عن الجزاء، ولهذا يرجع الحق عليه بعدما كان له بخلافه في الخير والحسن، فإن الرجحان فيه فضيلة يثنى عليه بها، وما أحسن قول رسول الله ﷺ في صاحب التسعة فاسمع الوليّ وقد حكم له بالقصاص: «**أَمَا إِنَّهُ إِنْ قَتَلَهُ كَانَ مِثْلَهُ**» يعني قوله ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ فسمي قاتلاً بلا شك فتركه وعفا وهذا من السياسة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والعشرون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ [الأعراف: ٥٨]

[نظم: البسيط]

إنّ الوفَاقَ لَمِنْ طِيبِ الأصول لِمَا ... أَتَى بِهِ الله مما شاءه وَشَرَعْ
فمن أَبَى فلخُبْثٍ في طبيعته ... يَذْرِيه من يفتح الأبواب حين قَرَعْ
له بما في غيوب الطبْعِ من عَجَب ... من صُنْعِهِ في الذي أبداه حين صَنَعْ
كمن دعاه رسول الله حين دَعَا ... فجاءه بالذي قد كان قَبْلَ جُمَعْ
وجاءه غيره بشَطْرِ ما كسبتْ ... يداه والكل فيما في يديه طَمِعْ
ولو أكون لما قلنا بقولهما ... وقلت عبد دعاه ربُّه فسَمِعْ
وبَادَرَ الأَمْرَ لم ينظرْ إلى أحد ... ولا لمن ضَرَّ في تأخيره ونَفَعْ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس أن هذا الذكر كان لنا من الله عز وجل لما دعانا الله تعالى إليه فأجبناه إلى ما دعانا إليه مدّة، ثم حصلت عندنا فترة وهي الفترة المعلومة في الطريق عند أهل الله التي لا بد منها لكل داخل في الطريق، ثم إذا حصلت الفترة إما أن يعقبها رجوع إلى الحال الأوّل من العبادة والاجتهاد وهم أهل العناية الإلهية الذين اعتنى الله عز وجل بهم، وإما أن تصحبه الفترة فلا يفلح أبداً، فلما أدركتنا الفترة وتحكمت فينا رأينا الحق في الواقعة فتلى علينا هذه الآيات: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ﴾ [الأعراف: ٥٧] الآية ثم قال: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ [الأعراف: ٥٨] فعلمت أني المراد بهذه الآية وقلت: ينبه بما تلاه علينا على التوفيق الأوّل الذي هدانا الله به على يد عيسى وموسى ومحمد سلام الله على جميعهم، فإن رجوعنا إلى هذا الطريق كان بمبشرة على يد عيسى وموسى ومحمد عليهم السلام بين يدي رحمته وهي العناية بنا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ [الأعراف: ٥٧] وهو ترادف التوفيق ﴿سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ [الأعراف: ٥٧] وهو أنا ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [فاطر: ٩] وهو ما ظهر علينا من أنوار القبول والعمل الصالح والتعشق به، ثم مثل فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] يشير بذلك إلى خبر ورد عن النبي ﷺ في البعث أعني حشر الأجسام: مِنْ أَنَّ الله «**يَجْعَلُ السَّمَاءَ تُمْطِرُ مِثْلَ مَنِيِّ الرِّجَالِ**» الحديث، ثم قال: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ وليس سوى الموافقة والسمع والطاعة لطهارة المحل، والذي خبث

وهو الذي غلبت عليه نفسه والطبع وهو معتنى به في نفس الأمر لا يخرج إلا نكداً مثل قوله: **«إنَّ لله عِباداً يُقادُونَ إلَى الجَنَّةِ بِالسَّلاسِلِ»** وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] فقلنا طوعاً يا إلهنا.

واعلم أن الله تعالى لما خلق هذه النشأة الإنسانية لعبادته وأنشأها ابتداء في ضعف وافتقار فكانت عبادتها ذاتية، وما زالت على ذلك إلى أن رزقها الله القوّة وأظهر لها الأسباب الموجبة للقوّة إذا استعملتها واحتجب الحق من ورائها فلم تشاهد إلاّ هي وغابت عن الحق تعالى فلم تشهده فناداها سبحانه من خلف تلك الأسباب بما كلفها به من الأعمال، وسمى تلك الأعمال عبادة لتتنبه بذلك على أصلها فإنها لا تنكر عبوديتها لأن العبودة لها ذاتية ذوقاً، وبقي لمن مع معاينتها الأسباب التي تجد عندها دفع ضروراتها فهي تقبل عليها طبعاً وترى الذي دعاها إليه غيباً، فتعلم أن ثم ظاهراً و باطناً وغيباً وشهادة وتنظر في نفسها فتجدها مركبة من غيب وشهادة، وأن الداعي منها إلى الحاجة غيب منها، فإن تقوّت عليها مناسبة الغيب على الشهادة كانت البلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه، فسارعت إلى إجابة الداعي وهي من النفوس الذين ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١] لأنها رأت الأسباب مختلفة، وأي سبب حضر منها أغناها عن سبب آخر فعلمت أنها مفتقرة بالذات إلى أمر ما غير معين فتعتمد عليه وهي قد شاهدت الأسباب وعلمت قيام بعضها عن بعض وتستغني ببعضها عن بعض، ويغيب في وقت فلا يقدر عليه ويحضر في وقت، فخطر لها ما خطر لإبراهيم الخليل عليه السلام إني ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] ورأت أيضاً أنها تخلق بعض أسبابها الموجبة استعمالها لدفع ضروراتها بما تتكلفه من الأعمال الموجبة لوجود ذلك السبب الذي تركن إليه فأنفت أن يتعبدها من له في وجوده افتقاراً إليها فأشبهها، فأرادت الاستناد إلى غنى لا افتقار له لعزة نفسها وشموخ أنفها وما جعل الله في طبعها من طلب العلوّ في الأرض والشفوف على الجنس فقالت: أجيب هذا الداعي الغائب حتى أرى ما هو فلعله عين ما أطلبه، فامتثلت أمر ما دعاها إليه وعملت عليه فأشرقت أرضها بنور ربها فكانت البلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه، ونفس أخرى على النقيض منها رجحت الشهادة على الغيب وأعمتها الحاجة عن اختلاف الأسباب وقيام كل سبب عن الآخر وقالت: لعل هذا الغيب الذي دعاني إليه يكون مثل الشهادة كثيرين يغني الواحد منهم عن الآخر فأبقى على حالتي ولا أتعب ذاتي في مظنون فتثبطت عن إجابة الداعي، ثم إن الله بحكمته في وقت قطع عنها الأسباب كلها واضطرها، فلما لم تجد سبباً تستند إليه ظاهراً جنحت إلى ذلك الغيب الذي دعاها لعل بيده فرجاً يخرجها من الضيق الذي تجده فأجابته مضطرة وهو البلد الذي خبث فلا يخرج نباته إلا نكداً قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ فنبه على موضع انقطاع الأسباب ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ يعني الأسباب ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] فكان هو السبب الذي ينجي، فلما نجاه الله وأغاثه واستقل قال: هذا أيضاً من جملة الأسباب التي يقوم بعضها عن بعض فيما نريده فجعله واحداً من الأسباب وهو المشرك فما خرج إلا نكداً، ولهذا سارع في

الرجعة إلى السبب الظاهر فتميز الفريقان، وإنما كان فريقان في العالم بهذه المثابة لما حكم به الأصل، فإن الأصل فيه جبر واختيار، فبالاختيار لم يزل يسقط من الخمسين صلاة عشراً عشراً حتى انتهى إلى خمسة، وبعدم الاختيار أثبتها خمسة وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٩] وكان المجبر له ما أعطاه المعلوم فلم يتعدَّ علمه فيه، والذين يلجؤون فيه إلى الله في حال الاضطرار الكلي استنادهم من حيث لا يعلمون إلى هذا الأصل في الحكم، والفريق الآخر استناده إلى حكم الاختيار في أنه تعالى ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] فأهل الضرورة في الرجعة أحق، وأهل الاختيار في الرجعة أوفق وأسعد، فالذي خرج نكداً له من الأحوال الإلهية قوله تعالى: ما تردّدت في شيء أنا فاعله تردّدي في قبض نسمة المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له من لقائي، يقول: لا بد أن أميته على كره مني وهو المعلوم الذي جعلني في هذا لأني علمت منه وقوع هذا، فلولا حصول العلم عنده من الممكنات كما هي في أنفسها عليه ما صح تردّد ولا فعل ما فعله أو بعض ما فعله على كره، فانظر فيما أعطاه هذا الذكر من العلم القريب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي ثلاثين وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]

[نظم: البسيط]

الجَهْلُ بالله عَيْنُ الجَهْل بي ولذا ... سترت نفسي عن مِثْلي وأشكالي

وقد علمتُ بأن الله يَنْظُرُني ... على الذي قال لا تُخْطِرْهُ بالبَالِ

فما الجوابُ إذا قال الجليلُ لنا ... لِمَ فعلتم فقلنا له الحكمُ للحال

الحال موهبة وأنت وَاهِبُها ... هلاَّ حَفِظْتَ وجودي حِفْظَ أمثالي

فلا تَلُمْني ولُمْ من أنت تعرفُه ... وأنت تدريه ربّ القيل والقال

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الجهل بالله إنما كان من جهلك بك، فإن الله ما جعل دليلاً على العلم به إلا علمك بك فجعل الآية في نفسك، وقال النبي ﷺ المترجم عنه: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وما أحسن ما قال تعالى: يستخفون من الناس فإنهم مجبولون على النسيان، ولا يستخفون من الله الذي لا يضل ولا ينسى، وكان الأولى لو صح عكس القضية، إلا أنه لا يصح أن يستخفي شيء عن الله، والسبب الموجب للاستخفاء عن الناس ما علموا منهم من الحب في ظهور التحكم فيهم بقدر الحال والاستطاعة، وبما فيهم من حب الثناء الحسن وطلب المحمدة، فإذا اطعلوا على هذا الذي أشرنا إليه من العمل سقطت حرمة العامل من قلب الذي يراه وقام عليه لسان الذم منه، وسبب ذلك الجنسية ومع كونه يعلم أن الله يحيط به علماً، لكن يرى هذا العامل أن الأسماء الإلهية تتحاور فيه في حال هذا العمل ولا سيما

الاسم الحليم والصبور، ويعلم أن الاختفاء منه محال فلا بد من إتيان ما أتى به، فإن كان مؤمناً أتاه على كره فأشبه قبض الحق بالموت نسمة المؤمن على كره فيجد في مثل هذا اتساعاً يجول فيه، حتى أنه ربما قال: فلي سوية الحق في ذلك، ولا يقول مثل هذا إلا غير أديب، ألا تراه يقول تعالى في تمام هذه الآية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨] ينبه أن هذا العمل الذي هو فيه قد أحطت علماً به من نفسي من حيث كرهت أشياء لا بد من أني أوجدها وأحببت أشياء، وإنما قال ذلك لإقامة عذر عبده المؤمن فإنه ما يكره فعل ما يستخفي منه ويستخفي بسببه إلا المؤمن بأن هذا لا يجوز عمله شرعاً، فالإحاطة من الله بالأشياء مثل الذوق فينا، وهو أن نعلم الأشياء منك أي أنك قد اتصفت بها ذوقاً، وكثير بين من يكون ذلك المعلوم حاله وبين من لا يكون فإنه ما هو منه على علم صحيح، وقوله من أنه مما لا يرضى من القول وهو الجهر بالسوء من القول فإن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول فإن الحكم بكونه سوءاً ما علم لا من القول، إذ لولا القول ما وصل علمه إلينا، فالقول بالسوء بطريق التعريف أنه سوء قول خير يحب الجهر به لأنه تعليم حتى لا يجهر به عند الاستعمال إذا قضى الله على المكلف استعمال هذا فما في الكون حكم ظاهر في عمل إلا وله مستند إلهي يستند إليه، وذلك المستند إليه إن كان خيراً زاد له في الأعطية أضعافاً مضاعفة، وإن كان شراً شفع فيه ذلك المستند وأقام عذره عند الله، فلهذا كان مآل العباد المكلفين إلى الرحمة التي وسعت كل شيء، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والثلاثون وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: ٦١]

[نظم: البسيط]

العبدُ في الشَّانِ والرحمٰنُ في الشان — وشأنُ ما هو فيه الحَقُّ من شاني
فينبغي لي أن أَفْنَى مَدَى عُمُري — في شأنه فأجازي الشأن بالشانِ
لولاه ما نَظَرَتْ عيني إلى أحد — لعلمنا أنه عَيْني وإنْسَاني
إني لأنْسَى وجودي عند رؤيته — وما نسيتُ بل النسيانُ أنساني

هذا هجير لزمته سنين كثيرة حتى ما كنت أسمى إلا به مما كنت مستهتراً به متحداً، ورأينا له بركات لا أحصيها وهو الذي اطلعت منه على المراقبة، فكنت رقيباً على نفسي نيابة عن الله حين أمرها أن تكون على وصف خاص معلوم في الشرع المطهر المنزل على لسان المعصوم ﷺ، ورقيباً على آثار ربي فيما يورده على قلبي وفي جميع حركاتي وسكناتي، ورقيباً أيضاً على ربي بموازنة حده المشروع في عباده، فكنت أقيم الوزن بين أمره ونهيه وبين إرادته لأرى مواقع الخلاف ممن خالف والوفاق ممن وافق، وما جعلني في ذلك إلا ما شيب

رسول الله ﷺ وما هو عندي إلا قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] فإذا وافق الأمر الإرادة كانت الاستقامة كما أمر وحصل الوفاق، وإذا لم يوافق الأمر الإرادة وقع ما حكمت به الإرادة ولم يكن للأمر حكم في المأمور، وعلمنا عند ذلك ما هو الأمر الإلهي الذي لا يعصى ومن هو المخاطب، وما هو الأمر الإلهي الذي يعصى في وقت فلم نجده إلا الأمر بالواسطة، وهو على الحقيقة أمر لفظي صوري، فهو صيغة أمر لا حقيقة أمر، وأن المأمور بالأمر الإلهي الذي لا يعصى إنما هو المخاطب عين الممكن الذي توجه من الحق عليه الإيجاد بأن يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] ولا بد، فهذا هو الأمر الذي لا يعصيه المخاطب أصلاً، وإنما الإنسان المكلف هو محل ظهور هذا المكوّن، كما أن المكوّن محل التكوين فيقول للشهادة كن فتكون الشهادة وما لها محل إلا لسان الشاهد وهو القائل فنسب الشهادة إلى من ظهرت فيه ليس له فيها تكوين، وإنما التكوين فيها لله في هذا المحل الخاص، وهكذا جميع أفعال المكلفين، وكون ذلك الفعل طاعة أو معصية ليس عينه وإنما هو حكم الله فيه، فكنت أشاهد تكوين الأشياء في ذاتي وفي ذات غيري أعياناً قائمة ذاكرة لله مسبحة بحمده مع كونها ينطلق عليها اسم معصية وطاعة، فطلبت من الله مسمى المعصية هل له عين وجودية أو لا عين له؟ وهل بينه وبين مسمى الطاعة فرقان أم الحكم سواء؟ فإن الله لا يأمر بالفحشاء وما يتكوّن شيء إلا عن أمره فهل للمعصية تكوين أم لا؟ فاطلعنا على أن مسمى المعصية إنما هو ترك والترك لا شيء ولاعين له فوجدناها مثل مسمى العدم، فإنه اسم ليس تحته عين وجودية، فإن الشأن محصور في أمر لا يفعل أو نهي لا يمتثل وغير ذلك ما هو ثم. فإذا قيل لي: أقم الصلاة فلم أفعل فعصيت وخالفت أمر الله فما تحت قولي لم أفعل وخالفت إلا أمر عدمي لا وجود له، وكذلك في النهي إذا قيل لي لا تفعل كذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ [الحجرات: ١٢] فلم أمتثل نهيه، ومدلول لم أمتثل عدم لا عين له في الوجود لأنه نفي فاغتبت، ومعنى فاغتبت أي ظهر في محلي عين موجودة أوجدها الحق بالأمر التكوينيّ وهو القول الموجود في لساني على طريق خاص يسمى الغيبة، فامتثل ذلك المقول في لساني أمر سيده وموجده بالإيجاد، وما أضيف إليّ منه إلا كوني لم أمتثل نهيه، فانتفى عن محلي الامتثال، فما أخذت في الوجهين إلا بأمر عدمي وهو ترك الأمر والنهي، ولابد لي في كل نفس أن أكون في شأن وذلك الشأن ليس لي، فإن الشأن الظاهر في وجودي إنما هو لله وهو قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] وفينا تظهر تلك الشؤون وأعياننا أيضاً من تلك الشؤون، والله شهيد على ما يخلق منا وفينا، وقوله: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: ٦١] هو ما جعل فينا من الإرادة الاختيارية في عين الجبر فإنا محل لما يخلق فينا، فالمكلف مجبور في اختياره، ثم خلق فينا المعنى الذي أوجب حكمه علينا أن نكون به مفيضين في ذلك الشيء المعبر عنه بالشأن، وما عرفنا بهذا الشهود منه إلا لنعلم صورة الأمر حتى نكون من أمرنا على بينة من ربنا، فإن ما أمر نبيه ﷺ إلا بطلب الزيادة من العلم، فإن العلم بالأمور سبب الحياة المزيلة لموت الجهالة والحياة نعيم، فالعالم والناصح نفسه من

لا ينسى الله في شؤونه ويكون مراقباً له تعالى عند شهوده فيرى ما يصدر عنه فيه وفي غيره في السماء والأرض والملأ الأعلى والأسفل، ثم يرى أنه جميع ما رأى من شؤونه بهوية الحق لا بصفة الحق، فرأى هويته تعالى عين صفته فما رآه إلا به، هذا أعطته هذه المراقبة، وهذا هو حكم الدهر الذي نهينا عن سبه فإن الله هو الدهر ليس غيره: [مجزوء الخفيف]

خُذْ من الدَّهْرِ ما صَفَا ... ودَعِ الدَّهْرَ يَحْكُمُ
إنّما الدهرُ ربُّنا ... العليُّ المُقَدَّمُ
حاكم بالذي يَرَى ... مُفْصِحٌ لا يُعْجِمُ
كلَّما قال كُنْ لشـ ... ـيء يكون المُكلَّمُ
فتَأدَّبْ ولا تَقُلْ ... أنا بالأمر أعلَمُ
فإلى الله أمْرُنا ... راجعٌ فلتسلموا
فهو بالأمر أعلم ... وهو للأمر أحكَمُ

فقد بان لك الأمر بارتفاع الحجب وعرفت الحجب ومسمى الوفاق والخلاف، وعلمت من رأى وبمن رأيت ومن أنت وما هو طريق الوجود، فإنه سبحانه لا يقال فيه أن له ماهية وإن سئل عنه بما فالجواب بصفة التنزيه أو صفة الفعل لا غير ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والثلاثون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]

[نظم: البسيط]

إن الصّلاة لها وَقْتٌ تُعَيِّنُهُ ... شَمْسٌ وآثارها فالحُكْمُ للشَّمْسِ
فانظرْ إليها بعين القلب إن شَرَقَتْ ... أو أشْرَقَتْ لا بعين الحِسِّ والنَّفْسِ
فظُهْرُنا لزوال الشمس في فَلَكٍ ... وعَصْرُنا لانضمام العقل والحِسِّ
ومغربٌ لغروب الحقّ عن نظري ... وذلكم لارتفاع الشكّ واللَّبْسِ
إن الأُفُولَ دليلٌ يُسْتَدَلُّ به ... لكي يُفَرَّقَ بين العلم والحَدْسِ
ثم العشاءُ إذا ما حمرةٌ ذهبتْ ... ذهابَ من أعدم الأشياء بالحِسِّ
وعندما انفجرتْ أنوارُها وبَدَتْ ... كأنها خرجتْ من ظُلْمَةِ الرَّمْسِ
وعاد مغربُها شرقاً بها فزَهَتْ ... وعاد مطلعُها للعرش والكُرْسي
ناجَيْتُهُ في شهود لا انقطاعَ له ... مُؤَيَّدٍ بين حَضْرِ الجَهْرِ والهَمْسِ
وهذه خمسةٌ في العَدّ حافظة ... وليس يحفظُ أكواني سوى الخَمْسِ

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وليست سوى هذه الخمس الموقتة المعينة المكتوبة، وكما أن الخمسة تحفظ نفسها وغيرها الذي هو العشرون

وهو ثاني عقد العشر من العشرة والعشرة أول العقود، وأقل ما يكون العقد بين اثنين، فكذلك الصلاة قسمها الحق نصفين: نصفاً له ونصفاً لعبده وجعلها بين تحريم وتحليل، فإذا شرع فيها العبد لم يصرف ذاته إلى غيرها من الأعمال بخلاف غيرها من الأعمال المشروعة فحفظت نفسها حتى تسمى صلاة، فإن في الصلاة شغلاً وحفظت غيرها وهو المصلي ليبقى عليه اسم المصلي وحكمه، فلهذا شرعها الله خمسة فعين الوقت، فإن قال قائل بالوتر أنه زائد على الخمسة فتكون ستاً قلنا فما زاد إلا من يحفظ نفسها وهي الستة وهي أول عدد كامل فما زاد إلا بما يناسب في الحفظ، فلذا قال السائل: «هل علي غيرها يعني الخمس؟ قال: «**لاَ إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ**» وجمع له في الصلاة بين الجهر والسر أعني في القراءة، وجمع له أيضاً بين القول والفعل والحال والهيئات في الحركات من قيام وركوع وسجود وجلوس، وأثنى على من أتى بهن لم يضيع من حقهن شيئاً بالدوام عليها والخشوع فيها، وأعطاها الليل والنهار حتى يعمّ الزمان بركتها، وقد بينا من أسرارها ما شاء الله في باب الصلاة من هذا الكتاب، وكذلك بينا أيضاً من شأنها في كتاب التنزلات الموصلية لنا.

ثم إن الله شرع طهارة لها مائية وترابية فإن النشأ الإنساني لم يكن إلا من تراب كآدم وماء كبني آدم فقال: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠] ومن ماء ومن طين وهو خلط الماء بالتراب. فجعل الطهارة للصلاة بما منه خلقنا، فطهارتنا منا من ماء وهو الوضوء وتراب وهو التيمم، فنحن نور على نور بحمد الله، وما كتب الله هذه الصلاة إلا على المؤمنين، وليس المؤمن سوى المصدق بأحدية الكثرة الإلهية لما هي عليه من الأسماء الحسنى والأحكام المختلفة من حيث إن كل اسم إلهي يدل على الذات وعلى معنى ما هو المعنى الآخر الذي يدل عليه الاسم الآخر فله أحدية العين فهو مؤمن أيضاً بأحدية العين، كما هو مؤمن بأحدية الكثرة، فمن لم يكن له هذا الإيمان وإلا فليس هو المؤمن الذي كتب الله عليه هذه الصلاة، وإنما كتبها على المؤمن دون العالم لعموم الإيمان، فإن المؤمن هو عين المقلد لأنه المصدق بالخبر لما تعطيه حقيقة الخبر من الاحتمال فأبقى الخبر على أصله، فالعالم من علمه بالأمور على ما هي عليه أن لا يزيل الخبر عن احتماله بالنظر إلى ذات الخبر، فهو عالم بصدق هذا الخبر المعين لأن الخبر وإن اقتضت ذاته الاحتمال فإنه لا بد أن يكون في نفسه موصوفاً بأحد الاحتمالين: إما صدق وإما كذب، ولا يعرف ما هو عليه من هذين الوصفين إلا بدليل، فهذا هو حظ العالم فقد صدق به العالم أنه صدق لا كذب أعني هذا الخبر المعين، وقلده في هذا التصديق المؤمن، فالمؤمن العالم قام له دليل العلم على أن المخبر صادق، وأن هذا الخبر المعين صدق فهو مؤمن بلا شك، وأعطى العالم نفسه الأمان أن ينقلب العلم جهلاً، وصدق المقلد العالم فيما أخبره به من صدق هذا الخبر فاشترك الكل في نعت الإيمان. فلو كتبها الله على العلماء دون المؤمنين لما وجبت على المقلدين، والعلماء لهم صفة الإيمان فكتب على الوصف العام، ولولا الحق تعالى ما نزل إلى عباده ما وصفهم تعالى بالعلم به ولا بالإيمان فهم أحق بالعلم به من علمه به، فإن علم الخلق به علم اضطرار وافتقار ذاتي لما تعطيه ذات

الممكن من الاستناد إلى المرجح، فبنزوله إلينا عرفناه فهو يظهر بنا، ولا يتمكن لنا أن نظهر به، فيجمع سبحانه بين نعت السادات والعباد، ولا يتمكن للعباد أن يكونوا أرباباً في أنفسهم وإن ظهروا بنعوت سيدهم، وإنما كلامنا في نفس الأمر لا فيما يجدونه في أوقات، فما هو له تعالى فمعلوم من القسمة، وما هو للعبد فمعلوم، وما وقع فيه الاشتراك فما هو لله فهو لله في عين الاشتراك، وما هو للعبد فهو للعبد في عين الاشتراك فهو في نفس الأمر معين، وإن وقع الاشتراك فليس إلا في الألفاظ الدالة على الاشتراك، وأما في نفس الأمر فلا اشتراك بوجه من الوجوه فإن كل واحد على نصيبه المعين له، وإن لم يكن الأمر كذلك اختلطت الحقائق، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [الانشقاق: ٢٥] وقليل ما هم، وقليل أيضاً ما هم، فكل مصل أدى صلاته لوقتها ولم يطلع ولا أنتج له معرفة بسرّ القدر الذي قد أومأنا إليه في هذا الكتاب في مواضع كثيرة مختلفة بطرائق عجيبة، فما صلّى الصلاة لوقتها وذلك أن الله ما شرع هذه العبادات لإقامة نشأة صورتها الظاهرة بل لما تدل عليه وتعطيه من جانب الحق من المعرفة به، وإن لم تكن الصورة قد نفخ القائل فيها روحاً تحيى به، ولا ينفخ فيها روحاً إلا بإذن ربه كما قال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ فقد شارك كل مصوّر وما تعلق به ذم كما تعلق بالمصوّرين فإنه ما صوّره عليه السلام، إلا بإذن الله، ثم قال: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠] فزال من هيئة الطائر وعاد طائراً، فكذلك عمل العبد إذا عمله بالإيمان من حيث إن الحق أمره بذلك العمل، فقد أذن له في إنشاء تلك الصورة فقد شارك المنافق كما شارك المصوّرين من خلق من الطين كهيئة الطير، فإن المنافق ما أذن الله له أن ينشىء صورة العمل على ذلك الحد، وما أمر الله بإنشاء صور الأعمال إلا للمؤمنين، فلما وقع الاشتراك في ظاهر الصورة بين المؤمن والمنافق نفخ المؤمن بإيمانه فيها روحاً فعادت حياة لا تشاهد سوى منشئها وهو هذا المؤمن فيجدها يوم القيامة حياة تشفع له وتأخذ بيده، والمنافق يجدها ميتة فيقال له أحيها فلا يستطيع وهي حية في نفس الأمر ولكن بإحياء الحق، وقد أخذ الله ببصر هذا المنافق عن إدراك حياتها، كما أخذ الله بأبصارنا عن إدراك حياة المسمى جماداً ونباتاً مع علمنا أنه حي في نفس الأمر إيماناً فإنه مسبح بحمد الله ولا يسبح إلا حي ناطق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والثلاثون وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]

[نظم: الكامل]

إنّ الدُّعاءَ حجابُ من لا يشهدُ ... هذا هو الحَقُّ الذي لا يُجْحَدُ
وهو القريبُ بعِلْمِه وبعَيْنه ... وهو الذي في كل حال يُشْهَدُ
لكنه لمّا دعاك دَعَوْتَهُ ... من قبل ذا أعطاك هذا المشهد

فـإذا عـلـمـتَ بـأنـه عَـيْـنُ الـذي　　يـدعـو فـمـن تـدعـوه أو مـن تَـقْـصِـدُ
فـادعـوه أمْـراً لا تـكُـنْ مـمـن يَـرَى　　أَنَّ الـدعـاء هـو الـحـجـابُ الأَبْـعَـدُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الله تعالى ما أخبر نبيه ﷺ بقربه من السائلين من عباده بالإجابة فيما يسألونه فيه إلا وقد ساوانا في العلم بالله من هذا الوجه، ولو كان هذا القرب الإلهي في الإجابة قربه في المسافة التي ذكر عنها أنه أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد لاكتفى، وذلك لأنه لا يلزم من هذا القرب السماع، كما لا يلزم من السماع في السؤال الإجابة، فحصل من الفائدة بهذا التعريف ثلاثة أمور: القرب والسماع والإجابة، فلم يترك لعبده حجة عليه بل ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فإذا أقيم العبد في هذا الذكر فأول ما ينتج له الزهد فيما سوى الله فلا يتوسل إليه بغيره، فإن التوسل إنما هو طلب القرب منه، فقد أخبرنا الله تعالى أنه قريب فلا فائدة لهذا الطلب وخبره صدق، ثم أخبر أنه يجيب سؤال السائلين فهو إخبار بأن بيده ملكوت كل شيء، وأخبر بالإجابة ليتحفظ السائل ويراقب ما يسأل فيه لأنه لا بد من الإجابة، فقد يسأل العبد فيما لا خير له فيه لجهله بالمصالح، فهو تنبيه من الله وتحذير أن لا يسأل إلا فيما يعلم أن له فيه الخير الوافر عند الله في الدنيا والآخرة، فمن أخذ هذا الذكر على جهة التنبيه فلم يسأل الله تعالى في حاجة من حوائج الدنيا على التعيين ولكن يسأل فيما له فيه خير مما يعلمه الله مبهماً لا يعين، فإذا عين ولا بد فليسأل فيه الخيرة وسلامة الدين. وأما تعيينه في السؤال فيما يرجع إلى أمر الدين فليعين ما شاء ولا مكر فيه ولا غائلة، وكذلك ما يسأل فيه مما يتعلق بالآخرة، ولكن هنا شرط أبينه في هذا الذكر من أجل ما نرى في الوقائع من عدم الإجابة لأكثر الناس فيما يسألون فيه ربهم، فاعلم أن الله أخبر أنه يجيب دعوة الداع إذا دعاه، وما دعاؤه إياه إلا عين قوله حين يناديه باسم من أسمائه فيقول: يا الله أو يا رب أو رب أو ياذا المجد والكرم وما أشبه ذلك، فالدعاء نداء وهو تأيه بالله، فإجابة هذا القدر الذي هو الدعوة وبها سمي داعياً أن يلبيه الحق فيقول: لبيك فهذا لا بد منه من الله في حق كل سائل، ثم ما يأتي بعد هذا النداء فهو خارج عن الدعاء وقد وقعت الإجابة كما قال، فيوصل بعد النداء من الحوائج ما قام في خاطره مما شاءه، فلم يضمن في هذا الذكر إجابته فيما سأل فيه ودعاه من أجله، فهو إن شاء قضى حاجته وإن شاء لم يفعل، ولهذا ما كل مسؤول فيه يقضيه الله لعبده وذلك رحمة به فإنه قد يسأل فيما لا خير له فيه، فلو ضمن الإجابة في ذلك لوقع ويكون فيه هلاكه في دينه وآخرته، وربما في دنياه من حيث لا يشعر، فمن كرمه أنه ما ضمن الإجابة فيما يسأل فيه وإنما ضمن الإجابة في الدعاء خاصة كما بيناه، وهذا غاية الكرم من السيد في حق عبده حيث أبقى عليهم.

ثم إن هذا الذكر إذا أنتج له سماع الإجابة الإلهية فإنه لا بد لصاحب هذا الذكر أن يسمع الإجابة ولكن ذوقهم في السماع مختلف، فقد يكون إسماع واحد غير إسماع الآخر، ولكن لا بد من علامة يعطيها الله لهذا الذاكر يعلم بها أنه قد أجاب دعاءه، ومعلوم أنه أجاب دعاءه وإنما أريد أنه يعلمه أن الذي سأل فيه قد قضي، وإن تأخر وأعطي بدله على طريق

العوض لما له في البدل من الخير، وقد يكشف له عن خواص الأحوال والأزمنة والأمكنة التي توجب قضاء حاجة الداعي فيما سأل فيه وإن لم يكن له فيه خير ويعود وباله عليه، فيكون ممن جنى على نفسه فإذا كشف الله له مثل هذا يتحرّز في الدعاء وفيما يدعو فيه، وكذلك يكشف له بخاصية ما يدعو به من الأسماء والكلمات، ألا ترى ابن باعورا و كان قد آتاه الله العلم بخاصية آية من آياته فدعا بها على موسى عليه السلام وقومه فأجابه الله فيما دعا فيه وشقي هو في نفسه وسلب الله عنه علم ذلك وهو قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] الآيات، وجعل مثله كمثل الكلب، فيكشف الله لصاحب هذا الذكر علم هذا عناية منه به، فإن في ذلك مكراً إلهياً من حيث لا يشعر، ولا سيما والنفس مجبولة على حب الشفوف على أبناء الجنس وإظهار قدرها عند الله، ولهذا أكابر الأولياء أخفياء أبرياء لا ترى عليهم من أثر المكانة والتقريب ما تحتد من أجله أبصار الخلق إليهم بل لا فرق بينهم وبين العامة، والذين ملكتهم الأحوال لهم خرق العوائد والظهور، ولكن لا يفي ذلك بما فيه من المكر والاستدراج فإنه في غير موطنه ظهر ممن لا يجب عليه الظهور به وهو الولي، وأصعب ما في الأمر أن يذوق في ذلك طعم نفسه فإن صاحبه لا يفلح أبداً ولو صرف الكون والعالم على حكمه، فإذا سألتم الله فاسألوه التوفيق والعافية والعناية في تحصيل السعادة ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤] فإن العلم يأبى إلا السعادة، فإن الله ما أمر نبيه بطلب الزيادة منه إلا وقد علم أن عين حصول العلم المطلوب هو عين السعادة ما فيه مكر ولا استدراج أصلاً، وما هو إلا العلم بالله خاصة لا العلم بالحساب والهندسة والنجوم، ولو علم ذلك لكان علم دلالة على علم بالله، فلم يعطه الله ذلك للوقوف عنده، فهذا ذكر عظيم الفائدة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والثلاثون وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤]

[نظم: الوافر]

إذا هُـيِّـئْـتَ لـلـخُـلُـقِ الـعَـظِـيـمِ ... فـذاك بـشـارةُ الـرَّبِّ الـكَـريـمِ
أتـاكَ بـهـا رسـولُ الـحـال يـسـعـى ... بـآيـات الـعـنـايـة لـلـعـلـيـمِ
فـقُـمْـتَ بـهـا مـقـامَ الـحَـقِّ فـيـهـا ... كـمـا قـام الـحـديـثُ مـن الـقـديـمِ
فـحُـقَّ لـك الـثـنـاءُ بـكـل وَجْـهٍ ... وكُـنْـتَ الـوَجْـهَ بـالـخُـلُـقِ الـعظيـمِ
فـأنـت الـوارثُ الـفَـرْدُ الـذي لـم ... يَـزَلْ نـدعـوه بـالـبـرّ الـرَّحـيـمِ
لـك الـعـلـمُ الـذي مـا فـيـه رَيْـبٌ ... أتـتـك بـه مـؤاخـاةُ الـكـلـيـمِ
فـتُـدْعَـى بـالـخـلـيـل وبـالـنـديـم ... وتـدعـى بـالـحـمـيـم وبـالـقـسـيـم

هذه الآية تليت علينا تلاوة تنزل إلهي من أول السورة إلى قوله: ﴿زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣] عرفنا الحق في هذه التلاوة المنزلة من عند الله في المبشرة التي أبقى الله علينا من الوحي النبوي وراثة نبوية لله الحمد ورثته فيها من قوله: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾

[النحل: ١٢٧] وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧]، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩] فشكرت الله على ما حققني به من حقائق الورث النبوي، وأرجو أن أكون ممن لا ينطق عن هوى نفسه جعلنا الله منهم، فإن ذلك هو عين العصمة الإلهية، فإذا أراد الله بصاحب هذا الذكر خيراً ألهمه لحديث عائشة في رسول الله ﷺ لما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ» تريد هذه الآية، وكل شيء عظمه الله يتعين تعظيمه على كل مؤمن، فينظر صاحب هذا الذكر في القرآن، فكل نعت فيه قد مدحه الله ومدح به طائفة من عباده كانوا ما كانوا، فيعلم أن ذلك صفة مدح إلهي فليعمل على الاتصاف بتلك الصفات، وإذا ذكر الله في القرآن صفة ذم بها طائفة من عباده كانوا ما كانوا تعين عليه اجتنابها فيأخذ القرآن منزلاً فيه كأن الحق ما خاطب به غيره فإذا فعل مثل هذا كان خلقه القرآن، وعظمه الحق فعظم حيث تنفع العظمة، ومكارم الأخلاق معلومة عقلاً وعرفاً، والتصرف بها وفيها معلوم شرعاً، فمن اتصف بها على الوجه المشروع وزاد تتميم مكارم الأخلاق وهو إلحاق سفسافها بها فتكون كلها مكارم أخلاق بالتصرف المشروع والمعقول، فقد اتصف بكل ثناء إلهي وصاحب هذا الذكر يفتح له في معاني آيات السورة التي نزل فيها على أكمل الوجوه، ولايزال محسوداً وبالعداوة مقصوداً وينكشف له أمر الآخرة عياناً، ومن هذه السورة علم رسول الله ﷺ علم الأولين والآخرين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والثلاثون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله قوله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]

[نظم: الكامل]

الذّاكرون بكلّ حال رَبَّهُمْ — هم أهلُ كل فضيلة في العَالَم
لا يشهدون سواه في أعيانهمْ — فهُمُ الملوكُ على الوجود الدائم
قاموا بحَقّ الله لا بحقوقهم — في راقد أو قاعد أو قائم
حازوا الكمالَ فلم يكن لسوَاهُمُ — هذا المقامُ من الإلٰهِ الحاكم
لَهُمُ التَّفَكُّرُ في تَعَلُّقِ وَصْفِهِ — بوجودهم ووجود كل العالَم

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الأصل في الخلق حالة الرقاد حتى يكون الحق يقيمه، إما لجلوس فينال نصيباً من الرحمة قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وإما لقيام فينال نصيباً من آية قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] يقول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] واختلف العلماء من أصحابنا في التخلق بالقيومية هل يصح أو لا؟ فعندنا أنه يصح التخلق بها مثل جميع الأسماء، وقال الله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾

[النساء: ٣٤] ولقيت أبا عبد الله بن جنيد لما جاء إلى زيارتنا بإشبيلية فسألته في ذلك فقال: يجوز التخلق بها يعني بالاسم القيوم، ثم منع من ذلك وما أدري ما سبب منعه يقول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ وكان هذا أعني أبا عبد الله بن جنيد القبرفيقي ضيعة من أعمال رندة ببلاد الأندلس فلم أزل به ألاطفه في أصحابه وأتباعه بقريته لكونه كان معتزلي المذهب حتى انكشف له الأمر فرجع عن مذهب الاعتزال القائلين بإنفاذ الوعيد وبخلق الأفعال وعرف محل ذلك فأنزله في موضعه ولم يتعدّ به رتبته وشكرني على ذلك ورجع لرجوعه جميع أصحابه وأتباعه وحينئذٍ فارقته.

فهذا ذكر الأحوال لا يقف عند ذكر خاص وإنما هو بحسب الحال، ومن حاز هذه الأحوال الثلاثة فقد حاز الوجود، فالآية التي تعمّ جميع الأحوال في الذكر قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤] هذا هو الذكر العامّ الذي يعمّ جميع الأحوال، وبقي ذكر التخصيص فذكر القائم: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [طه: ٥] وذكر القاعد: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] وذكر الجنب: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾ [الزخرف: ٨٤] وهذا كله فيه خلاف أعني في تأويله بين العلماء، فاجمع همك على أمر واحد حتى يزول عنك التبديد، فإن شئت راقبت ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ وإن شئت راقبت ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وكونه في السماء يقول: هل من تائب؟ هل من مستغفر؟ هل من داع؟ وإن شئت راقبت وهو الله في السموات وفي الأرض ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ وإن كان طعامك ثريداً فراقب ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ وكينونتنا تعم حساً، ومعنى فبالحس حيث نحن من الأرض وحيث نحن فيه من الشغل بالجوارح، ومعنى حيث كنا بالهمم والمقاصد والخواطر فنشهده في الشغل فاعلاً وفي القصد قاصداً أيضاً فنعكس الأمر فنكون بحيث هو فإنا بحيث ما نحن عليه وليس إلا هو: [الوافر]

فكُنْ في أحْسَنِ الهيئات تَسْعَدْ وكُنْ في أكمل الحالات تَرْشُدْ
وكن بالحال لا بالقَوْلِ فيه تكن في حُكْم من يقضي فيُقْصَدْ

وهذا القدر من الإيماء نصيحة إلهية لمن كان له قلب أو ألقَى السمع وهو شهيد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والثلاثون وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان هجيره:

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]

[نظم: البسيط]

الحَرْثُ حَرْثَان محمودٌ ومذمومُ وأنت حارثُهُ والرزقُ مَقْسُومُ
لا تَحْرُثَنَّ لدنيا أنت تتركُها فإن حَرَثْتَ لها فأنت مذمومُ
لا تَحْرُثَنَّ لما يَفْنَى فلست له واحْرُثْ لباقية فالأمرُ مفهومُ
واحْذَرْ من الرَّكْنِ لا تَرْكَنْ لفانية تزول عنك فمكرُ الله معلومُ

من حيث عِلْمُك يأتيك الإله به فلا تَثِقْ بوجود فهو معدومُ
واحْرُث لآخرة إن كنت ذا نَظَرٍ كمثل من هو بالخيرات مَوْسُومُ

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠] والحسنة حرث الآخرة في الدنيا ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ [الشورى: ٢٠] فنوفقه للعمل الصالح، فلا يزال ينتقل من خير إلى خير في خير فمن حسنة إلى حسنة، فإذا كسب الآخرة نال ما اقتضاه العمل والزيادة ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهو ذوق. فهذه زيادة الحرث في الآخرة فينال في الآخرة جميع أغراضه كلها وزيادة ما لم يبلغه غرضه، سألت بعض الشيوخ من أهل العلم ما الزيادة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦] فقال لي: الزيادة ما لم يخطر بالبال فعلمت ما أراد فلم أزده، وحرث الدنيا ليس كذلك فإنه منزل لا يمكن في وضع مزاجه أن ينال أحد فيه جميع أغراضه، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦] ولقد حرص بعمه أبي طالب أن يؤمن فلم يفعل ونفذت فيه سابقة علم الله وحكمه، فهذا يقتضيه حال هذه الدار، كما أن الآخرة يقتضي حالها نيل جميع الأغراض من غير توقف، وأعني بالآخرة الجنة ومن دخلها، لا أريد يوم الحشر لأن الله يقول في الأشقياء: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وأن القيامة أحكامها مقصورة عليها علمنا ذلك كشفاً وإيماناً، وأعلم تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الحجر: ٢١] فإذا كان في الآخرة عاد الحكم فيما تحوي عليه هذه الخزائن التي عند الله إلى العبد العارف الذي كمل الله سعادته فيدخل فيها متحكماً فيخرج منها ما يشاء بغير حساب ولا قدر معلوم، بل يحكم ما يختاره في الوقت، وهو أن المسعود في الآخرة يعطى التكوين ويكشف له عن نفسه أنه عين الخزانة التي عند الله فإنه عند الله. فكل ما خطر له تكوينه كوّنه فلا يزال في الآخرة خلاقاً دائماً فارتفع التقدير فهو يتبوأ من الجنة حيث يشاء لا حيث يمشى به، فإنه في الجنة ارتفع عنه الافتقار العرضي إلى الأشياء، وما بقي عنده إلا الفقر إلى الله خاصة، وإنما ارتفع عن المسعود الافتقار العرضيّ لما فيه من الذلة والانكسار والحاجة، والجنة ليس بمحل لذلك فإن محل ذلك عموماً في الدنيا ومحله في الآخرة النار، وكذلك الذلة فإن الحق لا يتجلى لهم قط في الاسم المذل فلا يذلون أبداً، وكذلك لا يتجلى لهم في الاسم العزيز من الوجه الذي لو تجلى لهم فيه لذلوا، وإنما يكسوهم الله حلة العزة به على الأمور التي يكونونها لا على أهليهم ولا على من عندهم، فلا سلطان لهم ولا عز إلا فيما يتكوّن عنهم ولا يتكوّن عنهم شيء إلا منهم، فيشهدون الأمر قبل تكوينه، فيتعلق بهم إرادة تكوين ذلك الأمر فعين التعلق عين كينونته، وما يتأخر عنه فأمره أسرع من لمح البصر، فانظر في هذا المنزل ماأعطاك فيه هذا الذكر من الفوائد الجمة الإلهية، واعلم أن للدنيا أبناء وللآخرة أبناء وللمجموع أبناء، وما نبه غيرنا على أبناء المجموع، فالسعيد من جمع بين البنوتين فهو الوارث المكمل، وهو القريب البعيد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والثلاثون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان هجيره:

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وهذه آية عجيبة

[نظم: السريع]

رأيتُ في واقعتي أنَّني ... أُداري أهلَ الأرضِ بالأرضِ
لأنهم ليست لهم هِمَّةٌ ... ترفعُهم عن عالم الخَفْضِ
فهم حَيارَى ما لهم فاصلٌ ... يَفْصِلُ بين الأمر والعَرضِ
لم يَخْشَ خَلْقَ الله إلا الذي ... يُقام في السُّنَّةِ والفَرضِ

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٧] اعلم أن الرجل الكامل واقف مع ما تمسك عليه المروءة العرفية حتى يأتي أمر الله الحتم فإنه بحسب ما يؤمر، فإن كان عرضاً نظر إلى قرائن الأحوال، فإن كانت قرينة الحال تعطيه حكم الأمر الحتم بادر إلى القبول مبادرته إلى الأمر الحتم الذي لا يسعه خلافه، وإن كانت قرينة الحال تحيره بقي على الأمر العرفي الذي يشهد له بمكارم الأخلاق ولذلك قال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] فهو واقف مع حكم الله، وهكذا المؤمن الكامل الإيمان ما هو مع الناس وإنما هو ما يحكم الله به عليه على لسان رسوله ﷺ الذي بالإيمان به ﷺ ثبت الإيمان له، فإن النبي ﷺ يقول في حق من يؤمن بالله ويؤمن بي وبما جئت به وما بعثه الله تعالى إلا ليتمم مكارم الأخلاق، فأحواله كلها مكارم أخلاق هو مبين لها بالحال وهو أتم وأعدل وأمضى في الحكم من القول فإن الحق: [مخلع البسيط]

له نُزولٌ إلى عِبَادِهِ ... وما لنا نَحْوَهُ عُرُوجُ
فإنه لم يَزَلْ عليّاً ... يجهله العالم المَرِيجُ
من ليس في حَيِّزٍ تَراهُ ... فلا وُلُوجٌ ولا خُرُوجُ
ونحن في حَيِّزٍ ووَقْتٍ ... يصحُّ فيه لنا الوُلُوجُ
لاح بأرض الجسوم عنه ... من كل شيءٍ زوجٌ بَهِيجُ

فنسبة المؤمن الكامل والرسول إلى الخلق نسبة ليلة القدر إلى الليالي، وما أراد بألف شهر توقيتاً بل أراد أنها خير على الإطلاق من جميع ليالي الزمان في أي وجود كان: [مخلع البسيط]

إذا بَدَا فيك كلُّ أمْر ... فأنت خَيْرٌ مِنَ ٱلْفِ شَهْر
في ليلة ما لها صباحٌ ... يُذْهِبُها منك نُورُ فَجْرِ
ما الرُّوحُ في كونها سِوَائي ... يا ليلةَ القَدْر فيك قَدْري
في ليلة القدر من وجودي ... يُنَزِّلُ الحقُّ كُلَّ أمْرِ

فكان مما نزل: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وما جعله في ذلك إلا

قوله ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ أَنَا بَدَلَ يُوسُفَ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ**» يعني داعي الملك لما دعاه إلى الخروج من السجن فلم يخرج يوسف حتى قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعني العزيز الذي حبسه ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ ليثبت عنده براءته، فلا تصح له المنة عليه في إخراجه من السجن ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٧] إذ لو بقي الاحتمال لقدح في عدالته وهو رسول من الله فلا بد من عدالته أن تثبت في قلوبهم، فلذلك كانت الخشية حتى لا ترد دعوة الحق، فابتلى الله نبيه ﷺ بنكاح زوجة من تبناه، وكان لو فعله عند العرب مما يقدح في مقامه وهو رسول الله فأبان الله لهم عن العلة في ذلك وهو رفع الحرج عن المؤمنين في مثل هذا الفعل، ثم فصل بينه وبينهم بالرسالة والختم فكان من الله في حق رسول الله ﷺ ما كان من يوسف حين لم يجب الداعي، فهذا من هدى الأنبياء الذي قال فيه لرسوله ﷺ حين ذكر الأنبياء عليهم السلام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] فلو كان رسول الله ﷺ في الحال الذي كان فيه يوسف عليه السلام ما أجاب الداعي ولقال مثل ما قال يوسف فما قال: لو كنت أنا لأجبت الداعي إلا تعظيماً في حق يوسف كما قال: نحن أولى بالشك من إبراهيم، ولم يكن في شك لا هو ولا إبراهيم من الشك الذي يزعمونه الذي نفاه رسول الله ﷺ، فإنه لو شك إبراهيم لكان محمداً أولى بالشك منه فإنه مأمور أن يهتدي بهداهم، فالرسل والمؤمنون الكمل ما هم واقفون مع ما يعطيهم نظرهم، وإنما يقفون مع ما يأتيهم من ربهم، والذي يأتيهم من الله قد يكون كما قلنا أمراً وعرضاً، فالأمر معمول به ولا بد، وفي العرض التخيير كما قررنا، وأما حالهم في معرفتهم بالله فكما قلنا في قصيدة لنا: [البسيط]

مَعارفُ الحَقِّ لا تَخْفَى على أحَدٍ ... إلا على أحَدٍ لا يعرف الأحَدَا

وكما قلنا: [الطويل]

إذا كان مَشْهُودي هو الكَيْفُ والكَمُّ ... فما ذاك إلا الوهمُ ما ذلك العِلْمُ
بما هو عينُ الأمر في عين ذاته ... وهل يَتَجَلَّى الحقُّ فيما له كَمُّ
فما هو حَقّ في الحقيقة واضحٌ ... ولكنه حَقٌّ عليه بنا خَتْمُ
تَنَزَّهت بي عن لم وكيف وكم وما ... وهل عَيْنُ لَفْظٍ قد يكون له الحُكْمُ
وهل ثَمَّ موجودٌ يصحُّ فإن تَزِدْ ... فما زِدْتَ إلا ما يكوِّنُهُ الوَهْمُ
بذاك أتى القرآن إن كنت ناظراً ... كما قد أتى للمؤمنين به الفَهْمُ

فهذا ذكر حكيم يعطي من عوارف المعارف والآداب ما لايسعه كتاب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والثلاثون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]

[نظم: البسيط]

المُسْتَقِيمُ الذي قامتْ قِيَامَتُهُ ... من غير موت ولا يدري به أحَدُ

وليس يصرفه عن أمر خالقه — من الخلائق لا أهلٌ وَلاَ ولدُ
وما له في وجود الكون مُسْتَنَدٌ — إلا الإلٰهُ الذي إليه يُسْتَنَدُ
إليه يَرْفَعُ من في الكون حاجَتَهُ — لأنه السيِّدُ المحسانُ والصَّمَدُ
هو المهيمنُ لا تُحْصَى عوارِفُهُ — يدري بذلك سَبَّاقٌ ومقتصدُ

قال رسول الله ﷺ: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا**» من كل سورة فيها ذكر الاستقامة فإنه والمؤمنين مأمور بها والحكم للعلم لا للأمر وما الله بظلام للعبيد فإنه ما علم تعالى إلا ما أعطته المعلومات، فالعلم يتبع المعلوم، ولا يظهر في الوجود إلا ما هو المعلوم عليه ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] ومن لم يعرف الأمر هكذا فما عنده خبر بما هو الأمر عليه، فالإنسان جاهل بما يكون منه قبل كونه، فإذا وقع منه ما وقع فما وقع إلا بعلم الله فيه، وما علم إلا ما كان المعلوم عليه فصح قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] والرضا إرادة فلا تناقض بين الأمر والإرادة، وإنما النقض بين الأمر، وما أعطاه العلم التابع للمعلوم فهو فعال لما يريد، وما يريد إلا ما هو عليه العلم، وما لنا من الأمر الإلهيّ إلا صيغة الأمر وهي من جملة المخلوقات في لفظ الداعي إلى الله تعالى فهي مرادة معلومة كائنة في فم الداعي إلى الله فتنبه واعتبر ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فمن ازداد علماً ازداد حكماً، فانظر فيما أمرت به أو نهيت عنه من حيث إنك محل لوجود عين ما أمرت به أو نهيت عنه من حيث إنك محل لوجود عين ما أمرت به، فمتعلق الأمر عند صاحب هذا النظر أن يهيىء محله بالانتظار، فإذا جاء الأمر الإلهي الذي يأتي بالتكوين بلا واسطة فينظر أثره في قلبه أولاً فإن وجد الإباية قد تكوّنت في قلبه فيعلم أنه مخذول وأن خذلانه منه لأنه على هذه الصورة في حضرة ثبوت عينه التي أعطت العلم لله به، وإن وجد غير ذلك وهو القبول فكذلك أيضاً، فينظر في العضو الذي تعلق به ذلك الأمر المشروع أن يتكوّن فيه من أذن أو عين أو يد أو رجل أو لسان أو بطن أو فرج، فإنا قد فرغنا من القلب بوجود الإباية أو القبول، فلا نزال نراقب حكم العلم فينا من الحق حتى نعلم ما كنا فيه فإنه لا يحكم فينا إلا بنا كما قلنا: [الرمل]

أيها العَذْبُ التَّجَنِّي والجَنَا — أيها البدرُ سناءً وسَنَا
نحن حَكَّمْنَاكَ في أنفُسِنَا — فاحْكُم اَنْ شئتَ علينا أو لنا
فإذا تَحْكُمُ فينا إنما — عين ما تَحْكُمُهُ فينا بنا

ومن كان هذا حاله في مراقبته وإن وقع منه خلاف ما أمر به فإنه لا يضره ولا ينقصه عند الله إفضالاً من الله لا تحكماً عليه عز وجل، فإن المراد قد حصل الذي يعطي السعادة وهو المراقبة لله في تكوينه، وهذا ذوق لا يمكن أن يعلم قدره إلا من كان حاله، وهذا هو عين سر القدر لمن فهمه، وكم منع الناس من كشفه لما يطرأ على النفوس الضعيفة الإيمان من ذلك، فليس سر القدر الذي يخفى عن العالم عينه إلا اتباع العلم المعلوم، فلا شيء أبين منه

ولا أقرب مع هذا البعد، فمن كان هذا حاله فقد فاز بدرجة الاستقامة وبها أمر فإنه أمر بالمراقبة: [مخلع البسيط]

فَيَتْبَعِ الحكم ما يكونُ والصَّعْبُ من ذلكم يَهُونُ

ولذلك لم يكن شيب رسول الله ﷺ بالكثير وإنما كان شعرات معدودة لم تبلغ العشرين متفرقة وقال: «**شَيَّبَتْنِي**» فلولا هذا الخاطر ما شاب رسول الله ﷺ، فلما تبين له الأمر كما قررناه وقف عنه الشيب ولم يقم به هم وعلم من أين وقع ما وقع فاستقام كما أمر، فالله يهدينا صراط من أنعم عليه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والثلاثون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]

[نظم: الرمل]

كُلُّ من فَرَّ إلى الله أَصابْ والذي فَرَّ من الرحْمٰن خَابْ
اسْتَوَى عَيْشُ الذي قَرَّ به وإليه وحَلاَ فيه وَطَابْ
لو تَرَى حَالَ الذي أشْهَدَهُ عَيْنَهُ حين تجلَّى في السرابْ
لرَأَيْتَ الرِّيَّ من أرجائه خارجاً والساقي من خلف الحِجَابْ
كان ظمآناً فلمّا جاءه لم يَزَلْ صاحبَ كأس وشرابْ
لم يَجِدْهُ ماءَ مُزْنٍ سائغاً إنما كان وُجُودٌ ثم غابْ
ما حياةُ الماء إلا عَيْنُهُ والذي خالف فيه ما أصابْ

موسى عليه السلام لما فر من فرعون حين خاف من الله أن يسلطه عليه لأن الله فعال لما يريد، فوهبه الله حكماً وهي الرسالة فجعله من المرسلين إلى من خاف أن يسلط عليه وهو فرعون، فإذا أنتج له هذا الفرار من المخلوق خوفاً على نفسه فأين أنت من المحمدي الذي أمرك أن تفر إلى الله، فقيدك بحرف الغاية في القصد الأوّل فربط لك البداية بالنهاية فقال لنا: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] فالموسوي يفر من والمحمدي يفر إلى عن أمر الله تعالى إياه بذلك الفرار، فما أكمل شرعه وما أعلى رتبته والحكم منقطع والرسالة منقطعة، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدِ انْقَطَعَتْ فَلا رَسُولَ بَعْدِي وَلا نَبِيَّ**» فيزول الحكم المشروع بزوال الدنيا، ويرجع الحكم إلى الله الذي نفر إليه بلا واسطة، فالذي ينتج الفرار إليه لا يقدر قدره فإنه كشف محمدي يربي على كشف الرسل من حيث هم رسل عليهم السلام فيثبتهم هذا الفار في أماكنهم، ويجوز بكشفه فوق رتبة خطاب التكليف فيرى أحدية العين فيقف معها، ومنها يستشرف على أحدية الكثرة فيرى أيضاً نفسه هناك معهم في أحدية الكثرة فيأمرها على بينة من ربه وبصيرة أن تنتظم في سلك المكلفين، فتنصرف النفوس المحسوسة هنا من هؤلاء الفارين إلى الله عن أمرهم فتراهم معصومين محفوظين، فالرسل منهم

معصومون في خلافهم، والأولياء محفوظون في خلافهم، فللرسل التشريع وللأولياء الانفعال بحسب ما يشهدونه هنالك، فيكون في خلافهم على بصيرة ولا يدعون إليه وإنما يدعون إلى الله كما تفعل الرسل عليهم السلام، قال الله تعالى لنبيه أن يقول: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨] فما أفرد نفسه بل ذكر أتباعه معه فإنهم لا يكونون أتباعه إلا حتى يكونوا على قدمه فيشهدون ما يشهد ويرون ما يرى، فخذوا من العلماء بالله الدعاة إلى الله ما يقولون، ولا تنظروا إلى أفعالهم وأحوالهم فإنهم على ما عين الحق لهم غير ذلك لا يكون، قال بعض الصالحين في جلسائهم: من جالسهم وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله نور الإيمان من قلبه، فليس لجلسائهم أن يفعلوا مثل أفعالهم، وإنما عليهم أنهم لا ينازعونهم فيما يظهر عليهم من علم الحقيقة فإن أحوالهم تجري عليها ولذلك: قال نزع الله نور الإيمان من قلبه فلا يصدقهم فيما يخبرون به عن الحق وهم بهذه المثابة من القرب من الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي أربعين وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْۚ﴾ [الحجرات: ٥]

[نظم: البسيط]

ازْكُنْ إلى الله لا تَرْكُنْ إلى السَّبَبِ ... واجْنَحْ إلى السِّلْم لا تَجْنَحْ إلى الحَرَبِ
فانظرْ إلى كل ما في الكون من عَجَبٍ ... يأتيك سَهْلاً بلا كَدٍّ ولا نَصَبِ
إذا اعْتَمَدْتَ على الرّحْمٰن فيه فكُنْ ... في كل حال مع الرّحْمٰن في السَّبَبِ
فكُنْ به لا تَكُنْ فيه بكم فترى ... ما شِئْتَ من صُوَرٍ فيه ومن سَبَبِ
فإنْ دعاك إلى ما أنت تَجْهَلُهُ ... فلا تُجِبْهُ فإنّ العِلْمَ في النَّسَبِ
ولا تُنَازِعْ وكُنْ بالله مُعْتَصِماً ... ولا تُحَارِبْ فخَيْلُ الله في الطَّلَبِ

قال الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] والمدار كله على شهود هذه المعية فإنه ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] فهو مع الصابرين والمتقين والمحسنين، فهذا الذكر ينتج شهود المعية التي له مع الصابرين خاصة هذا وما هو إلا صبر على الرسول حتى يخرج إليهم فكيف الصبر على الله لما كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه والله جليس من يذكره، فلم يزل رسول الله ﷺ جليس الحق دائماً، فمن جاء إليه ﷺ فإنما يخرج إليه من عند ربه إما مبشراً وإما موصياً ناصحاً ولهذا قال: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْۚ﴾ [الحجرات: ٥] فلو كان خروجه إليهم مما يسوءهم في آخرتهم ما كان خيراً لهم وقد شهد الله بالخيرية فلا بد منها، وهي على ما ذكرناه من بشارة بخير أو وصية ونصيحة وإبانة عن أمر مقرب إلى سعادتهم غير ذلك لا يكون، ومن صبر

نفسه على ما شرع الله له على لسان رسوله ﷺ فإن الله لا بد أن يخرج إليه رسوله ﷺ في مبشرة يراها أو في كشف بما يكون له عند الله من الخير، وإنما يخرج الله إليه رسوله ﷺ لأن رسول الله ﷺ لا يتصوّر على صورته غيره، فمن رآه رآه لا شك فيه بخلاف رؤية الحق فإن الحق له التجلي في صور الأشياء كلها، فإن الأشياء ما ظهرت إلا به سبحانه وتعالى، فالعارف يعلم أن كل شيء يراه ليس إلا الحق وهو معطي السعادة والشقاء والرسول ليس كذلك فيعتمد على رؤية الرسول ولايغتر برؤية الحق، ولهذا الذي أشرنا إليه ادعى من ادعى من البشر والجن الألوهة وقبل منهم وعبدوا من دون الله وما قدر أحد يدعي بأنه محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ وإن تبنى فما يقول إنه محمد وإنما يقول إنه رسول الله فيطالب بالدليل على دعواه، فتنبه إلى عصمة هذا الاسم العلم أن يتصور عليه أحد من خلق الله في كشف ولا نوم كصورته في اليقظة سواء فمن رآه فما تغير من صورته تغير حسن، فذلك راجع إلى حال الرائي أو صورة الشرع في المكان الذي رآه فيه عند ولاة أمور الناس، وكذلك لو كان تغير قبح كذلك فاعلم ذلك، فيكون تغيره بالحسن والقبح عين إعلامه وخطابه إياه بما هو الأمر عليه في حقه أو في حق ولاة العصر بالموضع الذي يراه فيه، ورؤية الحق ليست كذلك لأنه ما ثم شيء خارج عنه فكل شيء فيه حسن لا قبح فيه، وما قبح ما قبح من الأمور إلا بالشرع، وفي أصحاب الأغراض بالعرض، وفي أصحاب المزاج بالملائمة للطبع، وفي أصحاب النظر الفكري من الحكماء بالكمال والنقص، وصاحب هذا الهجير كثير الصلاة على محمد ﷺ، وعلى هذا الذكر يحبس نفسه ويصبر حتى يخرج إليه ﷺ. وما لقيت أحداً على هذا القدم غير رجل كبير حداد بإشبيلية كان يعرف باللهم صلِّ على محمد ما كان يعرف بغير هذا الاسم، رأيته ودعا لي وانتفعت به لم يزل مستمراً بالصلاة على محمد ﷺ لا يتفرّغ لكلام أحد إلا قدر الحاجة إذا جاء أحد يطلبه أن يعمل له شيئاً من الحديد فيشارطه على ذلك ولا يزيد، وما وقف عليه أحد من رجل ولا صبيّ ولا امرأة إلا ولا بدّ أن يصلي على محمد ذلك الواقف إلى أن ينصرف من عنده وهو مشهور بالبلد بذلك، وكان من أهل الله، فكل ما ينتج لصاحب هذا الذكر فإنه علم حق معصوم فإنه لا يأتيه شيء من ذلك إلا بواسطة الرسول ﷺ هو المتجلي له والمخبر. لقي رجل بعض الناس في زمان أبي يزيد البسطامي فقال له: هل رأيت أبا يزيد؟ فقال: رأيت الله فأغناني عن أبي يزيد، فقال له الرجل: لو رأيت أبا يزيد مرة كان خيراً لك من أن ترى الله ألف مرّة، فلما سمع ذلك منه رحل إليه فقعد مع الرجل على طريقه فعبر أبو يزيد وفروته على كتفه فقال له الرجل: هذا أبو يزيد فنظر إليه فمات من ساعته، فأخبر الرجل أبا يزيد بشأن الرجل فقال أبو يزيد: كان يرى الله على قدره فلما أبصرنا تجلى له الحق على قدرنا فلم يطق فمات، ولما كان الأمر هكذا علمنا أن رؤيتنا الله في الصورة المحمدية بالرؤية المحمدية هي أتمّ رؤية تكون، فما زلنا نحرّض الناس عليها مشافهة وفي كتابنا هذا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والأربعون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩]

[نظم: الرمل]

نُصْرَةُ الله لِنَفْسِ الظَّالِمِ ... نُصْرَةٌ ليس لها مِنْ خاذِلِ
فإذا ما ظلم الغَيْرُ له ... حَكَمَ ما شاء بِحُكْمٍ فاصِلِ
وحقوق الله أَوْلَى وكذا ... حَقُّ نفسي بعدها لِلْعاقل
ثُمَّ حَقُّ الغَيْرِ في رُتْبَتِهِ ... آخراً عند العليم الفاضل
وعذابُ الظُّلْمِ ذَوْقٌ فاحْذَرُوا ... منه في العاجل أو في الآجل
وعلومُ الذَّوْقِ ما يَجْهَلُها ... مَنْ يَرَى أحكامَهَا في العاجل

اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس أن الظلم هنا هو الظلم الذي جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] وليس إلا الظلم الذي قال فيه لقمان لابنه: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] كذا فسره رسول الله ﷺ، فمن التزم هذا الذكر بهذه الآية أقامه الحق مقامه في العالم وقلده أمر عباده، ولو بلغ العبد ما عسى أن يبلغ لا يزال خلقاً، ومن حقيقة الممكن العجز فلا بدّ من القصور في رتبة التصريف ذوقاً، فلا بدّ أن يحصل له من العذاب النفسيّ ذوق كبير لأنه ليس في قوته أن يرضي العالم فإن الله ما أرضاهم، ولله الاتساع الذي لا يمكن أن يكون للعبد ولو اتسع الخليفة ما اتسع، فإن ضيق الطبيعة لا بدّ أن يحكم عليه فيضيق عن السعة الإلهية فيتعذب بقدر ما ذاق العذاب الكبير هذا وهو والٍ من عند الله بأمر الله قال تعالى في حق الكامل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] يعني في حق الله وتكذيبه فهذا هو العذاب الكبير الذي ذاقه، وظلمه المذكور في هذا الذكر إنما كان لكونه قبل الولاية عن العرض الإلهيّ فهو مع الأمر يضيق ولا يسمى ظالماً ومع العرض يكون ظالماً ويذوق العذاب الكبير ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] وأيّ أمانة أعظم من النيابة عن الحق في عباده فلا يصرفهم إلا بالحق فلا بدّ من الحضور الدائم، ومن مراقبة التصريف فأبين أن يحملنها وأشفقن منها أي خفن أن لا يقمن بحقها فاستبرأن لأنفسهنّ وحملها الإنسان عرضاً أيضاً لما وجد في نفسه من قوّة الصورة التي خلق عليها إنه كان ظلوماً لنفسه وهو قوله: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩] فإذا ظلم نفسه بقبول النيابة المعروضة عليه أذاقه الله ما قال الله لأبي يزيد: «اخرج إلى عبادي بصورتي» يعني خليفة «فمن رآك رآني» فلما خطا عنه خطوة غشي عليه فقال الحق: «ردّوا عليّ حبيبي فلا صبر له عني»، فالنيابة مع الأمر يكون فيها الحرج وضيق الصدر فكيف بالعرض؟ فمن زهد في الخلافة المعروضة فمن هذا الذكر زهد وتركها ولم يقبلها وأشفق منها، ومن قبلها من أصحاب هذا الذكر فبتأويل دخل لهم في أول

الدخول في هذا الذكر وهو لفظة العذاب فإنه من العذوبة وهي التلذذ بالأمر وهو قول أبي يزيد في بعض أحواله: [الوافر]

وكُلّ مآربي قد نِلْتُ منها ... سوى مَلْذوذِ وَجْدي بالعَذَابِ

ولم يقل بالآلام وإنما قال بالعذاب لما فيه من العذوبة وهي اللذة باللذة أي أنه يلتذ باللذة لا أنه يلتذ بالأشياء، وهذا مثل ما يقوله أهل النظر في العلم: إن بالعلم يعلم العلم وبالرؤية ترى الرؤية في مذهب المتكلمين، وكذلك تدرك اللذة باللذة، فاعلم ذلك فإنه باب غريب في الذكر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والأربعون وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢]

[نظم: الرمل]

إنما تَعْمَى القُلُوبُ في الصُدُورْ ... التي تَحْوي عليهنّ الصُدُورْ
ثم هذا الحُكْمُ فيمن صَدَرَتْ ... عن وُرُودٍ كان منها الأمُورْ
ليس يَعْمَى صادرٌ عنه به ... كيف يَعْمَى من له عَيْنُ الظُّهُورْ

قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] على الوجهين: الواحد من الوجهين للحصر والثاني للرجوع، فاعلم أن العماء حيرة وأعظمه الحيرة في العلم بالله، والعلم بالله على طريقين: الطريق الواحدة النظر الفكريّ فلا يزال صاحب هذا الطريق إذا وفى النظر حقه في حيرة إلى الموت فإنه ما من دليل إلا وعليه عنده دخل وشبهة لاتساع عالم الخيال، إذ القوّة المفكرة ما لها تصرّف إلا في هذه الحضرة الخيالية، إما بما فيها مما اكتسبته من القوى الحسية وإما مما تصوّره القوّة المصورة، فإذا كان صاحب هذا النظر في الدنيا أعمى أي حائراً ويموت والإنسان إنما يموت على ما عاش عليه وهذا ما عاش إلا حائراً فيجيء في الآخرة بتلك الحيرة، فإذا وقع له الكشف هناك زاد حيرة لاختلاف الصور عليه فهو أضل من كونه في الدنيا، فإنه كان يترجى في الدنيا لو كشف له أن تزول عنه الحيرة، وأما الطريق الثانية في العلم بالله فهو العلم عن التجلي والحق لا يتجلى في صورة مرّتين، فيحار صاحب هذا العلم في الله لاختلاف صور التجلي عليه كحيرة الأول في الآخرة، فما كان لذلك في الآخرة هو لهذا الآخر في الدنيا. وأما البصيرة التي يكون عليها الداعي والبينة فإنما ذلك فيما يدعو إليه وليس إلا الطريق إلى السعادة لا إلى العلم، فإنه إذا دعا إلى العلم أيضاً إنما يدعو إلى الحيرة على بصيرة أنه ما ثم إلا الحيرة في الله لأن الأمر عظيم والمدعو إليه لا يقبل الحصر ولا ينضبط، فليس في اليد منه شيء، فما هو إلا ما تراه في كل تجل، فالكامل من يرى اختلاف الصور في العين الواحدة فهو كالحرباء، فمن لم يعرف الله معرفته بالحرباء فإنه لا يستقرّ له قدم في إثبات العين، فأصحاب التجلي عجلت لهم معرفة الآخرة فهم في الدنيا

أعمى وأضل سبيلاً من أصحاب النظر لأنه ليس وراء التجلي مطلب آخر للعلم بالله ولا يتصوّر، وهذه الإشارة كافية لمن عقل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، فإن الكلام في هذا الذاكر واسع.

الباب الثالث والأربعون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]

[نظم: البسيط]

عَيْنُ الرّسالة ما تأتي به الرُّسُلُ ... فخُذْهُ لا تتوقَّفْ أيها الرَّجُلُ
أنت المَلِيكُ الذي جاءت رسالتُه ... إليك فاعْمَلْ بها يَصْعَدْ لك العَمَلُ
إليه من غير قَطْعٍ في مساحته ... فإنْ تَوَهَّمْتَهُ فذلك الزَّلَلُ
واصْعَدْ إليه تَنَلْ عَيْنَ البقاء به ... وإنْ قَعَدْتَ أتاك الصَّعْقُ والخَبَلُ
إن الظروف لَتَحْوي من يحلُّ بها ... والأمْرُ أنْزَهُ أن يجري له مَثَلُ
عليك بالمَنْزِلِ الأعلى فحُلَّ به ... لا تَقْطَعَنَّكُمُ الأغراضُ والعِلَلُ
هو المُنَزَّهُ عن نَعْتٍ وعن صفةٍ ... فلا يقوم به أمْنٌ ولا وَجَلُ
فأنت أنت إذاً إن كنت صاحبَه ... فاعملْ لنفسك ما أصحابه عَمِلُوا
ولا يَقُمْ بك فيما قد أتَيْتَ به ... عَجْزٌ ولا كَسَلٌ فيه ولا مَلَلُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الله يعطي عباده منه إليهم وعلى أيدي الرسل، فما جاءك على يد الرسول فخذه من غير ميزان، وما جاءك من يد الله فخذه بميزان، فإن الله عين كل معط، وقد نهاك أن تأخذ كل عطاء وهو قوله ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧] فصار أخذك من الرسول أنفع لك وأحصل لسعادتك، فأخذك من الرسول على الإطلاق ومن الله على التقييد، فالرسول مقيد والأخذ مطلق منه، والله مطلق على التقييد والأخذ منه مقيد، فانظر في هذا الأمر ما أعجبه، فهذا مثل الأوّل والآخر والظاهر والباطن، فظهر التقييد والإطلاق في الجانبين، وذلك أن الرسول ﷺ ما بعثه الله ليمكر بنا أعني بأمته وإنما بعثه ليبين لهم ما نزل إليهم، فلهذا أطلق لنا الأخذ عن الرسول والوقوف عند قوله من غير تقييد، فإنا آمنون فيه من مكر الله والأخذ عن الله ليس كذلك فإن لله مكراً في عباده لا يشعر به قال تعالى: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠] وقال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] وقال: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٦] وقال: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣] وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]. ولم يجعل للرسل في هذه الصفة قدماً لأنهم بعثوا مبينين فبشروا وأنذروا وكله صدق، وأعطى الرسول الميزان الموضوع، فمن أراد السلامة من مكر الله فلا يزل الميزان المشروع من يده الذي أخذه عن الرسول وورثه، فكل ما جاءه من عند الله وضعه في ذلك الميزان، فإن قبله ملكه وإن لم يقبله سلمه لله وتركه فإن تركه عمل به، ولم يجعل نفسه محلاً لقبوله، يقول الجنيد رضي الله عنه: علمنا هذا مقيد

بالكتاب والسنة وهما كفتا الميزان، ومعنى قوله أنه نتيجة عن العمل بالكتاب والسنة فإن عزمت على الأخذ عن الله ولا بد لحال غلب عليك فقل لا خلابة فإنك إذا قلت لا خلابة فإن كان من عند الله ثبت فأخذته، وإن كان من مكر الله ذهب من بين يديك فلم تجده عند قولك لا خلابة فإن الأمر بيع وشراء، وإن الله تعالى لا يدخل تحت الشرط، هذا يقتضيه مقام الحق بالذوق، فإنما يشترط على الله من يجهل الله أو يدل عليه لأنه ظن به خيراً كما أمره سبحانه، فإنه لو علم أن الله ما يبعثه في شغل حتى يهيئه لذلك الشغل فإنه حكيم خبير، فلا تقس الله على المخلوق فإن المخلوق يجهل كثيراً منك ومن نفسه والحق ليس كذلك فلا فائدة للاشتراط، يقول موسى عليه السلام حين بعثه ربه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٥ ـ ٣٢] فأعطاه ذلك كله، ولم يقل محمد ﷺ شيئاً من هذا كله، فالأولى أن تكون محمدياً فإنه ما ذكر الله من حديث موسى عليه السلام ما ذكر إلا ليعلم أن الاشتراط على المستخلف جائز ولا حرج عليه في ذلك لو اشترط، ألا ترى موسى عليه السلام كيف قال لمحمد ﷺ ليلة إسرائه حين فرض الله عليه الصلاة: راجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، ثم علل وقال: فإني بلوت بني إسرائيل وما راجع محمد ﷺ في ذلك إلا امتثالاً لأمر الله، فإن الله لما ذكر الأنبياء عليهم السلام قال له: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] فامتثل أمره في رجوعه فكان خيراً، وهذه فائدة الشيخ المتخذ في الطريق فاعلم ذلك: [الطويل]

فخُذْ منه ما أعطاك إنْ كُنتَ تابعاً ... ولا تَتَوَقَّفْ فالتَّوَقُّفُ يَصْعُبُ
فإنْ كنتَ ذا لُبٍّ وعِلْمٍ وفِطْنَةٍ ... فقد جاءك الأمْرُ الذي كنت تَطْلُبُ

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والأربعون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان هجيره ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]

[نظم: الكامل]

إن الرقيبَ على اللِّسانِ مُوَكَّلُ ... فعليه فيما تلفظون تَوَكَّلُوا
انطُقْ به إن كنت صَاحِبَ نظرةٍ ... واعملْ على عين الحقيقة يا فُلُ
وكذا جميعُ قُواكَ منك فإنها ... هي عَيْنُه والعينُ ما لا تُجْهَلُ
فإذا علمتَ نصيحتي وشهدتها ... عيناً علمتَ من الرَّقيبُ المُرسِلُ

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢] وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله عِنْدَ لِسَان كُلِّ قَائِلٍ**» وما خصص قائلاً من قائل فأتى به نكرة فكل ذي لسان قائل فهو عند الله ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وما كل قائل في كل قول يكون قوله منسوباً إلى الله مثل قوله: إن الله قال على لسان عبده: سمع الله

لمن حمده، والمحبوب بإتيان النوافل يكون الحق لسانه فتفاضلت المراتب، فالملك الحافظ الكاتب عند الإنسان كل ما لفظ كتبه الملك، فلا يكتب إلا ما يلفظ به الإنسان فإذا لفظه ورمى به فبعد الرمي يتلقاه الملك، فإن الله عند قوله في حين قوله فيراه الملك نوراً قد رمى به هذا القائل الذي الحق عند لسانه فيأخذه الملك أدباً مع القول يحفظه له عنده إلى يوم القيامة، وإذا عمل يعلم الملك أنه عمل أمراً ما خاصة ولا يكتبه حتى يتلفظ به، فالحفظة تعلم ما يفعل العبد، ولكنها ما تكتب له عملاً حتى يتلفظ به، فإذا تلفظ كتبت فهم شهود إقرار، وسبب ذلك عدم اطلاعهم على ما نواه العبد في ذلك الفعل، ولهذا ملائكة العروج بالأعمال تصعد بعمل العبد وهي تستقله فيقبل منها ويكتب في عليين وتصعد بالعمل وهي تستكثره فيقال لها: اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه فإنه ما أراد به وجهي ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]. فلو علمت الحفظة ما في نية العبد عند العمل ما ورد مثل هذا الخبر، فالنية في الأعمال لا تكون من العبد إلا من الوجه الخاص ولهذا لا يعلمه من العامل إلا الله، والعامل الذي نوى فيه ما نوى، فالملك يرقب حركة العبد ويكتب منه حركة لسانه إذا تلفظ، والله شهيد لأنه عند قول عبده على الحقيقة لا عند عبده، فهذه الكينونة الإلهية هي التي تحدث بحدوث القول، وسبب ذلك أنه تكوين والتكوين لا يكون أبداً إلا عن القول الإلهي في كل كائن، فجميع ما يتكوّن في الوجود فعن القول الإلهي، فما بين الحق والعبد مناسبة أتم ولا أعمّ من مناسبة القول ولهذا كان عند لسان كل قائل، فإن القول كون مفارق قائله، فإن لم يكن الله عنده ضاع القول، وإنما كان الله عنده لينشئه صورة قائمة تامة الخلقة، فإنه لا بد أن يكون تعالى مذكوراً بها فيتم منها ما نقصه العبد مما تستحقه نشأتها من الكمال كما يقبل الصدقة ليربيها حتى تكون أعظم من الجبل العظيم، فهذا من باب الغيرة، والأوّل من باب الكمال، وما ينبغي فالغيرة على الجناب الإلهي من الله الذي له الكمال المطلق، ثم لتعلم أن النقص من كمال الوجود لا من كمال الصورة فتنبه فإنه دقيق: [مخلع البسيط]

لو لم يَكُنْ في الوجود نَقْصٌ ... لزال عن رُتْبَة الكَمالِ
لكنه ناقصٌ فأبْدَى ... كَمالَهُ فيه ذو الجَلالِ
فكُلُّ صُنْعٍ من كل خَلْقٍ ... لم يُخْلِهِ اللَّهُ من جَمالِ
لأنه راجعٌ إليه ... في كل عَقْدٍ بكل حالِ
فلا كمالٌ ولا جمالٌ ... إلا إلى الله ذي المَعَالي
من كلّ شَخْصٍ بكل وَجْهٍ ... في الفعل والحال والمقال
يا من يراني بعَيْنِ حَقّ ... لا تَجْعَلِ الحُكْمَ للخيال
لأنه عَقْدُ كل هادٍ ... بل مُهْتَدٍ لا عن الضّلالِ

وإن كان كذلك فاجهد أن لا تصدر منك صورة إلا مخلقة في غاية الكمال في قول وعمل، ولا يغرّنك كون النقص من كمال الوجود لأن ذلك من كمال الوجود ما هو من كمال ما وجد عنك، فإن جماعة من الناس زلوا في هذا الموضع لقيناهم فينتج هذا الذكر لصاحبه

مشاهدة الحق عند قوله وقبوله له، ومن شاهد الحفظة فمن هذا المقام شهدهم، ولما أشهدنيهم الحق تعالى تعذبت بشهودهم ولم أتعذب بشهود الحق، فلم أزل أسأل الله في أن يحجبهم عني فلا أبصرهم ولا أكلمهم، ففعل الله معي ذلك وسترهم عن عيني، وإنما لم أتعذب بشهود الحق لأنه عند شهود العبد ربه تعالى يشهده شاهداً ومشهوداً وشهوده الملك ليس كذلك فإنه يشهده أجنبياً عنه، ولو كان الحق بصره فإنه أعظم في الأجنبية وأشد في القلق عند صاحب هذه الصفة، لأن الملك لا ينبغي أن يكون رقيباً على الله وهو رقيب فلا بد أن يكون الملك في هذه الحال محجوباً عن الله تعالى لا يشهده صفة عبده، إذ لو شهدها لم يتمكن له أن يكون رقيباً عليه، فلا بد لهذا العبد أن يتقلق بشهود الملك، فإذا غاب عن حسه انفرد بسرّه بربه وأملى على الملك ما شاء أن يملي عليه، فكان الله على كل شيء رقيباً، والملائكة حافظون من أمر الله هذا الشخص الإنساني، قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١] فهم ملائكة تسخير تكون مع العبد بحسب ما يكون العبد عليه فهم تبع له، وهذا الفارق بين توكيل السلطان على الشخص فإنه تحكم الوكلاء عليه لا يتعدى الموضع الذي حجره السلطان، وحفظة الحق يتبعون العبد حيث تصرف، فهو مطلق التصريف في إرادته، وإن حجر عليه بعض التصرّف فإنه يتصرّف فيما حجر عليه، ولا يستطيع الملك يمنعه من ذلك لأمرين: الواحد لكون الحق قد ذهب الله بسمع هذا العبد عن قوله ويبصره عن شهوده، والأمر الآخر لكون الملك الحافظ الموكل به لا يمنعه لشهوده الحق معه في تصرّفه الذي أمره بحفظه، فلذلك لا يحجر الملك عليه التصرف، وتوكيل المخلوق ليس كذلك، فإن الحاكم الذي وكّل الوكلاء به ليس هو عند الموكل عليه، فهذا الفارق بين حكم الوكيل الحق والوكيل المخلوق، فوكلاء الخلق يحفظونه من التصرّف، ووكلاء الحق يحفظونه في التصرّف، وهذا القدر في هذا الذكر من التنبيه كافٍ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والأربعون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان هجيره: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق: ١٩]

[نظم: الكامل]

لا تُطِع[1] النَّفسَ التي من شأنها ... سَدْلُ الحِجَاب عليك واسْجُدْ واقْتَرِبْ
لا تَطْمَعَنَّ بها فلستَ مِنَ اَهْلِهَا ... واجْنَحْ إلى النُّور المهيمن واغْتَرِبْ
فهو الذي أعْطَى الوجودَ بجُودِهِ ... فاعمل بما يعطي وُجُودُك تَقْتَرِبْ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن هذا الذكر يوقف العبد على حقيقته، وإذا وقف على حقيقته فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه عرف ربه، والعبد أبداً لا يطلب بحركته إلا ربه

(١) صدر البيت من الرجز في حين عجزه من الكامل وكذا بقية الأبيات.

حتى يشهده عين كل شيء ومنه صدر فقد شهد صدوره وهو معه، فقد شهد معيته في تصرفه، فلا بد أن يطلب شهوده فما ينتهي إليه تصرفه فهو غاية المطلب، ولما كان العلو لله عرفاً وعلماً والمعية علماً وشرعاً لا عرفاً أراد أن يرى حكمه في الغاية، فإن السجود في العرف بعد عما يجب لله من العلو، ألا ترى إلى ابن عطاء حين غاص رجل جمله فقال: جلّ الله، فقال الجمل: جل الله وما غاص الا ليطلب ربه، فإنه سجود قربة من ذلك العضو إلى الله، فلما رأى الجمل جهل ابن عطاء بالله في طلب الرجل ربه بالغوص قال الجمل: جل الله أن تحصره معرفتك فلا يكون له في عقدك إلا العلو، فمن يحفظ السفل وأنا رجل ما أنا رأس فلا بد أن أطلب ربي بحقيقتي وليس إلا السجود، قال رسول الله ﷺ: «**لَوْ دَلَّيتُمْ بِحَبْلٍ لَهَبَطَ عَلَى الله**» وهذا عين ما قال الجمل، فمن سجد اقترب من الله ضرورة فيشهده الساجد في علوه، ولهذا شرع للعبد أن يقول في سجوده: سبحان ربي الأعلى ينزهه عن تلك الصفة، فالسجود إذا تحقق به العبد علم نزول الحق من العرش إلى السماء الدنيا، وذلك سجود القلب يطلب العبد في نزوله كما يطلبه العبد في سجوده، ومن لم يقف في هذا الذكر على الذي نبهت عليه وأمثاله فما هو صاحب هذا الهجير فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والأربعون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان هجيره ومنزله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩]

[نظم: المجتثّ]

ما أجْهَلَ المُتَوَلِّى	بمن إليه تَوَلَّى
فلو رآه رآهُ	من كان عنه تَدَلَّى
ولو رآه ابتداءً	عَنْ عينه ما تَوَلَّى
ما ثَمَّ عَيْنٌ سواهُ	فهو الذي قد تَوَلَّى
فمن يذوقُ عذاباً	منه إذا ما تَوَلَّى
من أعْجَبِ القول عندي	نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى
إذا وَلِيتَ أموراً	وَلاَّكَها فتَوَلَّى

قال الله تعالى: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥] اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن التولي عن الذكر المضاف إلى الله ما أطلق الله الإعراض عنه على الانفراد بل ضم إليه قوله: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩] فبالمجموع أمر الحق تعالى نبيه ﷺ إذا وقع بالإعراض عنه فينتج للعارف هذا الذكر خلاف المفهوم منه في العموم، فإن الله له القرب المفرط من العبد سبحانه وتعالى كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [قٓ: ١٦]، والحياة الدنيا ليس إلا نعيم العبد بربه على غاية القرب الذي يليق بجلاله، ولم يكن مراد المذكر بالذكر إلا أن يدعو الغافل عن الله، فإذا جاء الذاكر ودعا بالذكر فسمعه هذا المدعو وكان معتنى به فشاهد المذكور عند الذكر

في حياته الدنيا أمر الله هذا المذكر أن يعرض عن هذا المذكور لئلا يشغله بالذكر عن شهود مذكوره والنعيم به فقال الحق يخاطبه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩] لأن الذكر لا يكون إلا مع الغيبة ولم يرد إلا الحياة الدنيا وهي نعيم القرب، وهذا من باب الإشارة لمن هو في هذا المقام لا من باب التفسير، ثم تمم وقال: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠] ذمٌّ في التفسير ثناءٌ من باب الإشارة على هذا الشخص وتنبيهاً على رتبته في العلم بالله، فأما ما فيه من الثناء عليه أنه في حال شهوده للحق في مقام القرب فلا يقدر لفنائه على القيام بما يطلبه به الذكر من التكليف، فكأن المذكر ينفخ في غير ضرم لأنه لا يجد قابلاً فأمر بالإعراض عنه لما في ذلك الذكر بهذه الحالة من سوء الأدب في الظاهر مع الذكر، فلو كان هذا السامع عنده من القوّة أن يشهد الحق في كل شيء لشهده في الذكر، فلم يكن الحق يأمر المذكر بالإعراض عنه ولا كان يتولى السامع، فهذا بعض رتبته في هذه الآية وذلك مبلغه من العلم، فإذا أنتج لهذا الذاكر هذا الذكر ما ذكرناه فهو صاحبه، وإن فقد هذا الذي ذكرناه وأخذه على طريق الذم فليس هو بصاحب هجير، فإن الذم في هذا الذكر هو المفهوم الأول، فما زال مما هم عليه عامّة الناس في الفهم، ولا بد أن يكون لصاحب الهجير خصوص وصف يتميز به وهو ما ذكرناه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والأربعون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]

[نظم: البسيط]

اصْدَعْ بربِّك أو بأمرٍ منه تَكُنْ ... ممن يُكَلِّمُهُ الرحمٰنُ تَكْليما
سَلِّمْ إليه الذي جاءت أوامرُه ... به من الحكم في الأعيان تَسْلِيمَا
يعطيك نوراً يُريك العَيْنَ في عدم ... وفي وجودٍ وأحكاماً وتَحْكيما
ويُنْزِلَنَّكَ عند الحَقّ منزلةً ... ما نالها أحدٌ قَدْراً وتَعْظيما
ويَمْنَحَنَّك عِلْماً لَسْتَ تَعْرِفُهُ ... به وتُرْزَقُ آداباً وتَعْلِيمَا

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الحق لا يقاوم إلا بالحق فيكون هو الذي يقاوم نفسه، وهو معنى قوله ﷺ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**» فإذا اتصف العبد بصفة الجبروت والكبرياء قصمه الحق فإنه تعالى لا يقهر إلا المنازع، ولهذا العارف لا يتجلى له الحق في الاسم القاهر أبداً لأنه غير منازع، فالعارف يتجلى بالاسم القاهر ولا يتجلى له الحق فيه، وهذه الصفة في المخلوقين لا تكون قط عن حقيقة بل يعلمون عجزهم وقصورهم، وإنما ذلك صورة ظاهرة كبرق الخلب، فعلى قدر ما يظهر من هذه الصفة يتوجه القهر الإلهي والبطش الشديد، ولما اختلف المحل على الصفة لذلك ظهر الأقوى على الأضعف، فما وقع التفاضل إلا في المحل لا في الصفة، فإذا صدع بأمر الله فالقهر بأمر الله لا له فنفذ في المصدوع لأنه ما قال له اصدع إلا ولا بد أن يكون ذلك قابلاً للنفوذ فيه حتى يسمى مصدوعاً، فلو كان لا يقبل النفوذ

لكان هذا الأمر عبثاً، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] فإنه لا ينفذ في المشرك إذ لو نفذ لوحد فقال له: ﴿وَأَعْرِضْ﴾ لأنهم ليسوا بمحل فيأمر الرسول المشرك من غير صدع، والذي علم منه أنه يجيب ويقبل الأمر ولو على كره هو الذي يصدع بالأمر، فإذا تحقق العبد بهذا الذكر ولم ينكشف له من يقبل أمر ربه ممن لا يقبله فما هو في بعض الوجوه ممن دعا إلى الله على بصيرة، فإن الداعي على بصيرة لا بدّ أن يكون آمراً في حق طائفة وصادعاً بالأمر في حق طائفة، فيعلم من يتأثر لأمره ممن لا يتأثر، ففائدة هذا الذكر تنوير البصائر وكمال الدعوة إلى الله وهي مدرجة الرسل عليهم السلام والكمل من الورثة في الدعاء فتجد كلامهم كأنه القرآن جديداً لا يبلى، فيفتح للمؤمن به المعاني دائماً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والأربعون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله وهجيره: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]

[نظم: البسيط]

مَـنْ يَـذْكُـرِ الـلَّـهَ فـي أحْـوالـه أَبَـداً ... يَـذْكُـرْهُ فـيـهـا فـلا تَـنْـفَـكُّ تَـذْكُـرُهُ

فـإنّ ذِكْـرَكَ ذِكْـرُ الـحَـقّ لـيـس سـوى ... مـا قـلـتُـه وكـذا فـي الـكـشـف تُـبْـصِـرُهُ

الـحـقّ عـيـنُ وُجُـودِ الـكـون فـاعـتـبروا ... الـعَـيْـنُ تـشـهـدُه والـوَهْـمُ يَـحْـصُـرُهُ

والـعقلُ يَـنْـفي بـحُـكْـم الـفِـكْـر صُـورَتَـهُ ... والـفِـكْـرُ يـسـتُـرُه والـكَـشْـفُ يُـظْـهِـرُهُ

والـعـقـلُ بـيـنـهـمـا حـارتْ خـواطـرُه ... هــذا يُــنَــزِّهُــهُ وذا يُــصَــوِّرُهُ

ولـيـس يـدري الـذي فـيـه يُـقَـلِّـدُهُ ... فـالله يُـرْشِـدُهُ والله يَـنْـصُـرُهُ

إذا رأى الـعـقـلُ مـا قـلـنـاه فـيـه رأى ... أمـراً عـظـيـمـاً ونـوراً فـيـه يَـبْـهـرُهُ

وكـلّ ذلـك حَـدٌّ و الـحُـدُودُ أبَـتْ ... فـلـيـس شـيءٌ مـن الأشـيـاء يَـحْـجُـرُهُ

قال الله تعالى جده وكبرياؤه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى﴾ [الأحزاب: ٤٣] فوصف نفسه بالتأخر في الذكر عن ذكر العبد، وهنا كان ذكر العبد يعطي في نفس الحق الذكر لعبده كما يعطى السائل الإجابة في الحق، ومن هذه الحضرة ظهر تأثير الكون في الوجود الحق، فإذا كان الذاكر صحيح الذكر وهو أن يسمع بذكره المذكور وهو صادق في أنه يذكره إذا ذكره عبده فلا بد أن يسمعه ذكره لصدقه في قوله: فمن لم يسمع ذكر ربه إياه عند ذكره فيتهم نفسه في ذكره وأنه ما وفى بشرط الذكر الموجب لذكر ربه إياه، وهنا سر لا يمكن كشفه من أجل الدعوى، وهو أن الله قد أعلمنا بما تذكره من تكبير وتهليل وتسبيح وتقديس وتحميد وتمجيد كل ذلك معلوم مقرر، وما أعلمنا بما يذكرنا، فإذا ذكره صاحب هذا الذكر ووفى الشرط في الإخلاص والحضور فعلامته أن يسمع ما يذكره به ربه فيعلم ما يذكره به كما أعلمه على لسان الرسول ما يذكر به ربه، فإذا لم يعلم ذلك فما هو ذلك الذاكر ولا صاحب هجير فليلزم ما قلناه فإنه لا علامة له على صحة ذكره إلا ما ذكرناه خاصة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والأربعون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٥، ٦]

[نظم: البسيط]

إذا تَجلَّتْ صفاتُ الحَقِّ في أحَدِ ... يُعَظِّمُ الكَشْفُ ذاك الواحِدَ الأَحَدَا
ولو يُعاتبه فيه مُنَزِّهُهُ ... فإنه يقبل العَتْبَ الذي وَرَدا
فإنه عالمٌ بما به وَرَدَا ... وعالمٌ بالذي في عَتْبِهِ قَصَدا
إن الأمور إذا انسَدَّتْ مسالكُها ... فليس يفتحُها إلا الذي وَجَدَا
لولا الصفاتُ التي في خَلْقِهِ ظَهَرَتْ ... لما عَشِقْتُ بها مالاً ولا وَلَدَا
ولا اتخذتُ وجودَ الأهلِ لي سَكَناً ... ولا الملوكَ ولا الأسبابَ لي سَنَدَا
هذي المطالب قد عَزَّتْ مطالبُها ... وليس يعرفُها إلا الذي شَهِدَا

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الله لما فرق بين ما يستحقه الكون من الصفات وبين ما تستحقه الذات من الصفات أو الجناب الإلهي عظم عند العارفين بذلك نعت الحق، فحيثما رأوه مالوا إليه ابتداء لعزته كلما بدا لهم، فإذا عوتب العارف في ذلك قبل العتب هنالك خاصة ولم يطرده فمتى تجلى له نعت إلهي مثل ذلك أيضاً تصدى له وعظمه، فإن عوتب كان حاله فيه مثل الحال الأول، فإن طرد العتب في كل نعت من نفسه فليس هو صاحب ذوق وإنما هو صاحب قياس في الطريق فلا يتميز في عبيد الاختصاص أبداً، فإنه إذا طرد ذلك عامل نعت الحق بما لا يجب، وهنا زلت أقدام طائفة من المتشرعين ولم يكن ينبغي لهم ذلك، فإن رسول الله ﷺ قد نبه على ما قلناه، وجعلني أن أحتج به على ما قررناه وهو قوله ﷺ: «**إذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ**» وقال عز وجل: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨].

واعلم أن الملك العزيز في قومه ما جاء إليك ولا نزل عليك إلا وقد ترك جبروته خلف ظهره أو كان جبروتك عنده أعظم من جبروته، فعلى كل حال قد نزل إليك فأنزله أنت منزلته من نفسه التي يسرّ بها تكن حكيماً، وما عاتب الله نبيه في الأعمى والأعبد إلا بحضور الطائفتين، فبالمجموع وقع العتب وبه أقول لا مع الانفراد، فتعظيم الملوك والرؤساء من تعظيم ربك، وتعظيم الفقراء جبر لا غير لانكسارهم في فقرهم، فإن كان الفقراء من فقراء الطريق فليس ذلك بجبر عنده فإنه لا يزول عنه فقره وانكساره بتعظيمك وقبولك وإقبالك، فإن المشهود له إنما هو ربه، وإنما الجبر إنما هو للفقراء من الله، فالذاكر بهذا الذكر لا يزال معظماً صفة الحق ظهرت على أي محل ظهرت، وإن عوتب اقتصر على الشخص دون غيره فتنبه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي خمسين وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]

[نظم: مخلع البسيط]

إذا تَجَلَّى لمن تَجَلَّى أَصْعَقَهُ ذلك التَّجَلِّي
وإنْ تَوَلَّى عمَّنْ تَوَلَّى أَهْلَكَهُ ذلك التَّوَلِّي
وإنْ تَدَلَّى بمن تَدَلَّى نَوَّرَهُ ذلك التَّدَلِّي
قلتُ الذي قد سمعتموه بالله يا سيِّدي فقُلْ لي
لمّا رأيتُ الذي تجلَّى أشْهَدَني فيه عَيْنَ ظِلِّي
من لي إذا لم أكنْ سواهُ وليس عيني قل لي فَمَنْ لي
الله لا ظَاهِرٌ سواهُ في كل ضِدٍّ وكل مِثْلِ
وكُلِّ جِنْسٍ وكل نَوْعٍ وكُلِّ وَصْلٍ وكُلِّ فَصْلِ
وكُلِّ حِسٍّ وكل عَقْلٍ وكل جسم وكل شَكْلِ

اعلم أيدنا الله وإياك أن الأمر في التجلي قد يكون بخلاف ترتيب الحكمة التي عهدت، وذلك أنا قد بينا استعداد القوابل، وأن هناك ليس منع بل فيض دائم وعطاء غير محظور، فلو لم يكن المتجلى له على استعداد أظهر له ذلك الاستعداد هذا المسمى تجلياً ما صح أن يكون له هذا التجلي، فكان ينبغي له أن لا يقوم به دك ولا صعق، هذا قول المعترض علينا، قلنا له: يا هذا، الذي قلناه من الاستعداد نحن على ذلك الحق متجلٍّ دائماً والقابل لإدراك هذا التجلي لا يكون إلا باستعداد خاص، وقد صح له ذلك الاستعداد فوقع التجلي في حقه، فلا يخلو أن يكون له أيضاً استعداد البقاء عند التجلي أو لا يكون له ذلك، فإن كان له ذلك فلا بد أن يبقى، وإن لم يكن له فكان له استعداد قبول التجلي ولم يكن له استعداد البقاء، ولا يصح أن يكون له فإنه لا بد من اندكاك أو صعق أو فناء أو غيبة أو غشية فإنه لا يبقى له مع الشهود غير ما شهد، فلا تطمع في غير مطمع، وقد قال بعضهم: شهود الحق فناء ما فيه لذة لا في الدنيا ولا في الآخرة، فليس التفاضل ولا الفضل في التجلي، وإنما التفاضل والفضل فيما يعطي الله لهذا المتجلي له من الاستعداد، وعين حصول التجلي عين حصول العلم لا يعقل بينهما بون كوجه الدليل في الدليل سواء بل هذا أتم وأسرع في الحكم، وأما التجلي الذي يكون معه البقاء والعقل والالتذاذ والخطاب والقبول فذلك التجلي الصوري، ومن لم يرَ غيره ربما حكم على التجلي بذلك مطلقاً من غير تقييد، والذي ذاق الأمرين فرّق ولا بد، وبلغني عن الشيخ المسن شهاب الدين السهروردي ابن أخي أبي النجيب أنه يقول بالجمع بين الشهود والكلام فعلمت مقامه وذوقه عند ذلك، فما أدري هل ارتقى بعد ذلك أم لا؟ وعلمنا أنه في مرتبة التخيل وهو المقام العام الساري في العموم، وأما الخواص فيعلمونه ويزيدون بأمر

ما هو ذوق العامة، وهو ما أشار إليه السياري ونحن ومن جرى مجرانا في التحقيق من الرجال، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والخمسون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]

[نظم: الرمل]

كُلُّ مَنْ يَعْمَلُ ما كُلِّفَ بِهْ ... فَبِهِ يَسْعَدُ حَقّاً فانْتَبِهْ
ثمّ للشارع فيه نَظَرٌ ... ويرى الله الذي قد جئت بِهْ
فيرى المُنْصِفَ يسعى جاهداً ... وكذا كُلَّ لبيب مُنْتَبِهْ
يَسْعَى في تحصيلِ زاد مُبَلِّغ ... مِنْ حلالٍ لا بزَادٍ مُشْتَبِهْ
إنما ينظرُ في أعمالنا ... من له الحُكْمُ الذي يَحْكُمُ بِهْ

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] ولكل راء عين تليق به فيدرك من المرئي بحسب ما تعطيه قوّة ذلك العين، فثم عين تعطي الإحاطة بالمرئي، وليس ذلك إلا الله، وأما ما يراه الرسول والمؤمنون فليس إلا رؤية خاصة ليس فيها إحاطة فيراه الرسول بحسب ما أرسل به، وكذلك المؤمن يراه بقدر ما علم من هذا الرسول، فليست عين المؤمن تبلغ في الرتبة إدراك عين الرسول، فإن المجتهد مخطىء ومصيب، والرسول حق كله فإن له التشريع، وهو العين المطلوبة لطالب الدلالة، فإذا قامت صورة العمل نشأة كاملة كان العمل ما كان من المكلف يراها الله من حيث أراها الرسول والمؤمنين ومن حيث لا يرونها، أعني تلك الصورة العملية، ويراها الرسول من حيث ما يراها المؤمنون ومن حيث ما يراها، ويرى أيضاً المؤمنون ذلك العمل من حيث يرونها لا من حيث يراها الرسول، فالرسول مقرّر حكم المجتهدين والمجتهدان يتنازعان ويخطِّىء كل واحد منهما صاحبه، فلو ساوت الرؤية من كل ذي عين لما كان في العالم نزاع، وإلى الله يرجع الأمر كله في ذلك، فإذا حكم في الأمور بنفسه بماذا يحكم هل بما يراه أو بما يراه الرسول أو بما يراه المؤمنون؟ فصاحب هذا الذكر يرى مواطن في القيامة يحكم فيها الله بما يراه في العمل، ومواطن يحكم فيها الله بما يراه الرسول في العمل لا بما يراه الله، ومواطن يحكم فيها الله بما يراه المؤمنون لا بما يراه الرسول، ومواطن يحكم فيها بالمجموع، فإذا وقف هذا الذاكر على هذه الأحكام وشاهد هذه المواطن فهو صاحب ذكر له، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والخمسون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ [النساء: ٦٤]

[نظم: البسيط]

مـن كـان مِـثْـلَ أبـيـه فـي تَـصَـرُّفِـهِ ... يـأتـي إلـى الـحـقِّ مـهـمـا نَـفْـسَـهُ ظَـلَـمَـا

واسْتَغْفَرَ اللَّهَ مما قد عصاه به ... وزاد قَدْراً على مِقْدَارِهِ وَسَمَا
ثم اجْتَبَاهُ بما قد خَصَّهُ وهَدَى ... من الرجوع عليه بالذي حَكَمَا
لِلشَّرْعِ فيه موازينٌ مُعَدَّلَةٌ ... يقضي بها صاحبُ الحَقّ الذي عَلِمَا
في حالة العدل والإحسان يطلبها ... منه ويخرج بالإحسان من فَهِمَا

قال الله تعالى مخبراً عن آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] فالظالم نفسه لا الظالم لنفسه هو الذي يرجع إلى ربه، فإن الظالم لنفسه ما خرج عن ربه حتى يرجع إليه فإنه من المصطفين، فالظالم نفسه يجيء للحق المشروع له الذي ظهر الرسول في حياته بصورته، ولذلك كان يقال له رسول الله في التعريف ما كان يقال له محمد فقط، وكذلك أخبر الله في قوله ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] فإذا جاء الظالم إلى الحق المشروع الذي بأيدينا اليوم فإن تجسد له في الصورة المحمدية فيعلم أنه من أصحاب هذا الذكر إما في النوم أو في اليقظة كيف كان، وإن لم يتجسد له فما هو ذلك الرجل، فإذا تجسد له فلا يخلو أن يستغفر الله هذا الظالم نفسه أو لا يستغفر الله، فإن استغفر الله ولم يرَ صورة الرسول تستغفر له فإنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، فيعلم عند ذلك أنه ما استغفر الله، فإن استغفاره الله في ذلك الموطن يذكر النبيّ ﷺ بالاستغفار لله في حقه، فيجد الله عنده ذلك ﴿تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٦] وقد ظلمت نفسي وجئت إلى قبره ﷺ فرأيت الأمر على ما ذكرته، وقضى الله حاجتي وانصرفت، ولم يكن قصدي في ذلك المجيء إلى الرسول إلا هذا الهجير، وهكذا تلوته عليه ﷺ في زيارتي إياه عنده قبره فكان القبول وانصرفت، وذلك في سنة إحدى وستمائة، فقد أعلمتك كيف يجيء الظالم نفسه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والخمسون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ [البروج: ٢٠]

[نظم: البسيط]

إنّ الإحاطةَ للرَّحْمٰن تَحْدِيدُ ... مَعَ الوراء ويُقْضَى فيه تَجْرِيدُ
فمن تَجَرَّدَ عن أكتاف نشأته ... لم يُقْضَ في عقله لله تَحْدِيدُ
الله أنْزَهُ أن يُقْضَى عليه بما ... يردّه لجلال الله تحميدُ
كمالُه من وجوه الكون أجْمَعِهِ ... تسبيحُ حَمْدٍ وتهليلٌ وتَمْجِيدُ

قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] لما كان الحق عين الوجود لذلك اتصف بالإحاطة بالعالم، وإنما جعل الله الإحاطة بالوراء للحفظ الإلهي، وذلك لما جعل له عينين وجعلهما في وجهه الذي هو الإمام منه والجنبات، وكل ذلك كان الواقع المسمى عادة، ولم يكن للوراء سبب يقع به الحفظ لهذا المذكور فحفظه الله بذاته ولم يجعل له سبباً يحفظه به سواه، فحصلت نشأة الإنسان بين إمامه وإمام الحق، فما قابله كان شهادة

وما كان وراءه كان غيباً له، فهو من إمامه محفوظ بنفسه ومن خلفه محفوظ بربه، وليس وراء الله مرمى ولو لم يكن الحق من ورائهم محيطاً لأخذ الإنسان من ورائه، فأمن مما يحذره واعتمد على حفظه بما شاهده من إمامه، فحصل له الأمان من إمامه غيباً وشهادة، وحصل له الأمان من ورائه إيماناً، فإن أخذه الله من أي ناحية أخذه من مأمنه، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة أخذها من ورائها، وإما الإحاطة العامة فهي الأخذ الكلي وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩] من غير تقييد بجهة خاصة، لكن هو أخذ بتقييد صفة وهو الكفر وليس سوى الستر فأشبه الوراء لأنه لا يدركه الإنسان، فما رأينا أخذ الإحاطة يكون عن شهود أينما ورد، فإذا أخذ الله من أخذ من أوليائه لا يأخذه إلا من ورائه لئلا يفجأه فهو يأخذه برفق حتى لا يشعر، فإذا أحس بذلك أنس لما يجد فيه من اللذة لأنه لا عن مشاهدة تفنيه ولذلك أضرب بأداة بل عن الأول فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١] أي جمع شريف يعني ما هو عليه من الأسماء والنعوت ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢٢] وهو أنت إشارة واعتباراً، وأنت لست منك في جهة وإن كانت الجهات فيك وما ثم سواك، فانتفى الوراء لهذا الإضراب ولم ينتفِ بوجه فإنه عينك وما بقي في الوجود سوى عين واحدة وهو أنت، فتنبه لما أومأنا إليه في هذا الإضراب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والخمسون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٨٨]

[نظم: البسيط]

لا تَحْسَبنَّ رجالاً يفرحون بما ... أَتَوْا وليس لهم فيما أَتَوْا قَدَمُ
ويفرحون بحَمْدِ الخَلْقِ فيه وما ... لهم من الفعل إلا الفَقْدُ والعَدَمُ
وذاك هِجِّيرُ خَتْمِ الأولياءِ ومن ... يَكُنْ له مثل هذا الوَصْفِ يَنْعَدِمُ
وهو الإمامُ الذي رَسَتْ قواعِدُهُ ... الطَّيِّبُ الطاهرُ المحسانُ والعَلَمُ
تَعْنُو له أوْجُهُ الأملاك قاطبةً ... والخلقُ تَعْنُو له واللَّوْحُ والقَلَمُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أني التزمت هذا الذكر أيضاً سنين متعددة حتى كنت أسمى به في بلدي كما كنت أسمى أيضاً بغيره من الأذكار، ورأيت له بركات ظاهرة، فلا بقوله أتوا ولا بقوله بما لم يفعلوا فهو قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فيجيء الإنسان بالفعل من كون الفعل ظهر فيه، فيحب أن يحمد بما فعل فيه والفعل ليس له، فله من الالتذاذ بذلك على قدر دعواه إلا أنه التذاذ موجع لكونه يعلم الأمر على خلاف دعواه كالمتكبر الجبار الذي لا يمكن له أن ينتزح عن ضروراته وافتقاره إلى أدنى الأسباب المريحة له من ألمه، فقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨] يقول: لا تظن أنهم يلتذون بذلك إشارة

لا حقيقة ويستعذبونه بل لهم فيه استعذاب إن كانوا عارفين، فجمعوا في هذا الذوق بين العذاب والألم فهم من وجه في نعيم ومن وجه في ألم مؤلم كما قال بعضهم: [المجتث]

فَهَلْ سَمِعْتُمْ بِصَبٌّ سَلِيمِ طَرْفٍ سَقِيمِ
مُنَعَّمٍ بِعَذَابٍ مُعَذَّبٍ بِنَعِيمِ

واعلم أن كل ذكر ينتج خلاف المفهوم الأوّل منه فإنه يدل على ما ينتجه على حال الذاكر كما شرطناه التفسير الكبير لنا إلا لكامل من الرجال، فإنه يعلم جميع ما ينتجه ذلك الذكر لعدم تقييده وخروجه عن تلك الصفات والأسماء التي تحت ولاية الاسم الله، فإن الكامل من الرجال بمنزلة الاسم الله من الأسماء وإن كان له الإطلاق فلا ينطق به إلا مقيداً بالحال أو اللفظ لا بد من ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل: [المجتث]

الباب الخامس والخمسون وخمسمائة
في معرفة السبب الذي منعني أن أذكر فيه
بقية الأقطاب من زماننا هذا إلى يوم القيامة

[نظم: السريع]

لِكُلِّ مَنْعٍ سَبَبٌ ظَاهِرٌ أو بَاطِنٌ لا بُدَّ مِنْ كَوْنِهِ
فَمَانِعٌ يَظْهَرُ مِن غَيرِه ومانع يظهرُ من عَيْنِهِ
وقد يكون المَنْعُ من قُرْبِهِ وقد يكون المنعُ من بَيْنِهِ
فمن وجود العقل عن فِكْرِهِ تَجِدْ وُجُودَ الحَقِّ في صَوْنِهِ
فَزِينَةُ الإنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ إدْرَاكُهُ الزِّينَةَ في شَيْنِهِ

اعلم وفقنا الله وإياك أن الكتب الموضوعة لا تبرح إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وفي كل زمان لا بد من وقوف أهل ذلك الزمان عليها، ولا بد في كل زمان من وجود قطب عليه يكون مدار ذلك الزمان، فإذا سميناه وعيناه قد يكون أهل زمانه يعرفونه بالاسم والعين ولا يعرفون رتبته، فإن الولاية أخفاها الله في خلقه، وربما لا يكون عندهم في نفوسهم ذلك القطب بتلك المنزلة التي هو عليها في نفس الأمر، فإذا سمعوا في كتابي هذا بذكره أداهم إلى الوقوع فيه، فينزع الله نور الإيمان من قلوبهم كما قال رويم وأكون أنا السبب في مقت الله إياهم، فتركت ذلك شفقة مني على أمة محمد ﷺ، وما أنا في قلوب الناس ولا في نفس الأمر ولا عند نفسي بمنزلة الرسول يجب الإيمان بي عليهم وبما جئت به، ولا كلفني الله إظهار مثل هذا فأكون عاصياً بتركه، ولا هذه المسألة بمنزلة قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وبسط الرحمة على الكافة أولى من اختصاصها في حقنا، وقد فعل مثل هذا القشيري في رسالته حيث ذكر أولئك الرجال في أوّل الرسالة، وما ذكر فيهم الحلاج للخلاف الذي وقع فيه حتى لا تتطرق التهمة لمن وقع ذكره من الرجال

في رسالته، ثم إنه ساق عقيدته في التوحيد في صدر الرسالة ليزيل بذلك ما في نفس بعض الناس منه من سوء الطوية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والخمسون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] وهو من أشياخنا درج سنة تسع وثمانين وخمسمائة رحمه الله

[نظم: مخلع البسيط]

تبارك الملك وللإمام ... بالكَشف والحال والمَقَام
وهو الذي لا يزال ملكاً ... في كل حال على الدّوامَ
له الكمالُ الذي تراه ... في كونه أعْيُنُ الأَنَامَ
له الكمال الذي تراه ... يزيد قَدْراً على التَّمامَ
مُرَتِّباً للأمور كشفاً ... في عالم النُّور والظّلامَ
يشهدُ في الانتباه عيناً ... عَيْنَ الذي كان في المنام
نسأله في الكلام وَحْياً ... فجاد بالوحي في الكلام

كان هذا الهجير والمقام لشيخنا أبي مدين، وكان يقول أبداً سورتي من القرآن: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] وهي مختصة بالإمام الواحد من الإمامين، ولها الزيادة دائماً في الدنيا والآخرة فإنها مختصة بالملك، والزيادة إنما تكون من الملك، فإذا تكررت تضاعف على الذاكر ما ينعم الله به على عبده، والناس على مراتب مختلفة، وتكون زياداتهم على حسب مراتبهم بما هم فيه، فمن كان من أهل المعاني كانت الزيادة من المعاني، ومن كان من أهل الحس كانت زيادته من المحسوسات، قد علم كل أناس مشربهم، فلو أعطى في المزيد خلاف ما تعطيه مرتبته لم يقم به رأساً فينسب إلى سوء الأدب، وإذا وافق رتبته وقع به الفرح منه والقبول وزاد في الشكر فتضاعف له المزيد، واعلم أن هذا الذاكر بهذا الذكر الخاص لا بد أن ينقدح له أن عينيه يد الحق الذي بها الملك، فيرى الحق يعطي به من لا يرى أنه يده، فيكون الحق مشكوراً عند المنعم عليهم من جهة هذا الذاكر، فيجني ثمرة نعيم كل منعم عليه فيشركهم في كل نعيم ينالونه من أي نوع كان من الأنعام، وهذا لا يكون إلا لمن كمل من رجال الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والخمسون وخمسمائة

في معرفة ختم الأولياء على الإطلاق

[نظم: الطويل]

ألا إنّ خَتْمَ الأولياء رَسُولُ ... وليس له في العَالمِينَ عَدِيلُ
هو الرُّوحُ وابنُ الرُّوح والأمّ مَرْيَمِ ... وهذا مقامٌ ما إليه سَبِيلُ

فينزل فينا مُقسطاً حَكَماً بنا ... وما كان من حُكْم له فيَزُولُ
فيقتلُ خنزيراً و يَدْمَغُ باطلاً ... وليس له إلا الإلَه دليلُ
يؤيِّدُهُ في كل حال بآية ... يراها برأي العين فهو كَفِيلُ
يقيم بأعلام الهُدَى شَرْعَ أحْمَدِ ... يكون له منه لديه مَقِيلُ
يُفيضُ عليه من وسيلةِ مُلْكِهِ ... ولكنه في حالَتَيْهِ نَزيلُ

اعلم وفقنا الله وإياك أن الله تعالى من كرامة محمد ﷺ على ربه أن جعل من أمته رسلاً، ثم إنه اختص من الرسل من بعدت نسبته من البشر، فكان نصفه بشراً ونصفه الآخر روحاً مطهرة ملكاً لأن جبريل وهبه لمريم ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] رفعه الله إليه ثم ينزله ولياً خاتم الأولياء في آخر الزمان يحكم بشرع محمد ﷺ في أمته، وليس يختم إلا ولاية الرسل والأنبياء وختم الولاية المحمدي يختم ولاية الأولياء لتتميز المراتب بين ولاية الولي وولاية الرسل، فإذا نزل ولياً فإن خاتم الأولياء يكون ختماً لولاية عيسى من حيث ما هو من هذه الأمة حاكماً بشرع غيره، كما أن محمداً خاتم النبيين وإن نزل بعده عيسى كذلك حكم عيسى في ولايته بتقدمه بالزمان خاتم ولاية الأولياء وعيسى منهم، ورتبته قد ذكرناها في كتابنا المسمى عنقاء مغرب فيه ذكره وذكر المهدي الذي ذكره رسول الله ﷺ، فأغنى عن ذكره في هذا الكتاب ومنزلته لا خفاء بها، فإن عيسى كما قال: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى السفر الأحد والثلاثون.

بسم الله الرحمن الرحيم

[السفر الثاني والثلاثون]

الباب الثامن والخمسون وخمسمائة
في معرفة الأسماء الحسنى التي لرب العزة
وما يجوز أن يطلق عليه منها لفظاً وما لا يجوز

[نظم: الطويل]

أرى سُلَّمَ الأسماء يَعْلُو ويَسْفُلُ ... وتجري به ريحُ جَنُوبٍ وشَمْأَلُ
فيا عجباً كيف السلامةُ والعَمَا ... شقيقُ الهُدَى والأمرُ ما ليس يفصلُ
ألم تَرَ أن الله في النار يَعْدِلُ ... وفي جنّة الفردوس يُسْدي ويُفْضِلُ
فإن قُلْتَ هذا كافرٌ قُلْتَ عادلٌ ... وإن قلتَ هذا مؤمنٌ قلتَ مُفْضِلُ
فهذا دليلٌ أنّ ربّيَ واحدٌ ... يولّي الذي شاء الإلهُ ويَعْزِلُ
فأعيانُنا أسماؤه ليس غيرها ... ففي نفسه يقضي الأُمُورَ ويَفْصِلُ

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وليست سوى الحضرات الإلهية التي تطلبها وتعينها أحكام الممكنات، وليست أحكام الممكنات سوى الصور الظاهرة في الوجود الحق، فالحضرة الإلهية اسم لذات وصفات وأفعال، وإن شئت قلت صفة فعل وصفة

تنزيه، وهذه الأفعال تكون عن الصفات والأفعال أسماء ولا بدّ، لكن منها ما أطلقها على نفسه، ومنها ما لم يطلق، لكن جاء بلفظ فعل مثل: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤] و﴿سَخِرَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٧٩] و﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٦] والله يستهزىء بهم الذي إذا بنيت من اللفظ اسم فاعل لم يمتنع، وكذلك الكنايات منها مثل: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] وهو تعالى الواقي، والنائب هنا السربال وشبه ذلك، ومنها الضمائر من المتكلم والغائب والمخاطب والعامّ مثل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] فقد تسمى في هذه الآية بكل ما يفتقر إليه، فكل ما يفتقر إليه فهو اسم لله تعالى إذ لا فقر إلا إليه، وإن لم يطلق عليه لفظ من ذلك، فنحن إنما نعتبر المعاني التي تفيدنا العلوم، وأما التحجير ورفع التحجير في الإطلاق عليه سبحانه فذلك إلى الله، فما اقتصر عليه من الألفاظ في الإطلاق، اقتصرنا عليه، فإنا لا نسميه إلا بما سمى به نفسه، وما منع من ذلك منعناه أدباً مع الله، فإنما نحن به وله، فلنذكر في هذا الباب الحضرات الإلهية التي كنى الله عنها بالأسماء الحسنى حضرة حضرة، ولنقتصر منها على مائة حضرة، ثم نتبع ذلك بفصول مما يرجع كل فصل منها إلى هذا الباب، فمن ذلك الحضرة الإلهية وهي الاسم الله: [البسيط]

الله الله الـــذي حَـــكَـــمَـــتْ ... آيــاتُــه أَنَّــهُ فــي كَــوْنِــهِ الــلَّــهُ
سبحانَهُ جَلَّ أن يَـحْـظَـى بـه أحـدٌ ... مــن الــعــبــاد فــلا إلٰــه إلا هُــوْ
اخْتُصَّ باسْمٍ فلم يَشْرَكْهُ من أحدٍ ... فيــه وذلــك قــولُ الـقـائـل الـلَّـهُ

وهي الحضرة الجامعة للحضرات كلها، ولذلك ما عبد عابد لله إلا هي، وبذا حكم تعالى في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وقوله: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]: [الطويل]

فــلــلَّــه مــا يَــخْــفَــى ولله مــا بَــدَا ... نَـعَـمْ بـل هـو الله الـذي لـيـس إلاّ هُـوْ

واعلم أنه لما كان في قوّة الاسم الله بالوضع الأوّل كل اسم إلهيّ بل كل اسم له أثر في الكون يكون عن مسماه ناب مناب كل اسم لله تعالى، فإذا قال قائل: يا الله فانظر في حالة القائل التي بعثته على هذا النداء، وانظر أي اسم إلهيّ يختص بتلك الحال، فذلك الاسم الخاص هو الذي يناديه هذا الداعي بقوله: يا الله لأن الاسم الله بالوضع الأوّل، إنما مسماه ذات الحق عينها التي بيدها ملكوت كل شيء، فلهذا ناب الاسم الدال عليها على الخصوص مناب كل اسم إلهي، ثم إن لهذا المسمى من حيث رجوع الأمر كله إليه اسم كل مسمى يفتقر إليه من معدن ونبات وحيوان وإنسان وفلك وملك وأمثال ذلك مما ينطلق عليه اسم مخلوق أو مبدع، فهو تعالى لمسمى بكل اسم المسمى في العالم مما له أثر في الكون، وما ثم إلا من له أثر في الكون، وأما تضمنه لأسماء التنزيه فمأخذ ذلك قريب جداً، وإن كان كل اسم إلهي بهذه المثابة من حيث دلالته على ذات الحق جل جلاله وعز في سلطانه، لكن لما كان ما عدا الاسم من الأسماء مع دلالته على ذات الحق يدل على معنى آخر من سلب أو إثبات بما فيه من الاشتقاق لم يقو في أحدية الدلالة على الذات قوّة هذا الاسم كالرحمن وغيره من الأسماء

الإلهية الحسنى، وإن كان قد ورد قوله تعالى آمراً نبيه ﷺ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] فالضمير في له يعود على المدعو به تعالى، فإن المسمى الأصلي الزائد على الاشتقاق ليس إلا عيناً واحدة، ثم إن الله تعالى قد عصم هذا الاسم العلم أن يسمى به أحد غير ذات الحق جل جلاله، ولهذا قال الله عز وجل في معرض الحجة على من نسب الألوهة إلى غير هذا المسمى ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣] فبهت الذي قيل له ذلك فإنه لو سماه سماه بغير الاسم الله. وأما ما فيها من الجمعية فإن مدلولات الأسماء الزائدة على مفهوم الذات مختلفة كثيرة، وما بأيدينا اسم مخلص علم للذات سوى هذا الاسم الله، فالاسم الله يدل على الذات بحكم المطابقة كالأسماء الأعلام على مسمياتها، وثم أسماء تدل على تنزيه، وثم أسماء تدل على إثبات أعيان صفات وإن لم تقبل ذات الحق قيام الأعداد وهي الأسماء التي تعطي أعيان الصفات الثبوتية الذاتية، كالعالم والقادر والمريد والسميع والبصير والحيّ والمجيب والشكور وأمثال ذلك، وأسماء تعطي النعوت فلا يفهم منها في الإطلاق إلا النسب والإضافات كالأوّل والآخر والظاهر والباطن وأمثال ذلك. وأسماء تعطي الأفعال كالخالق والرازق والبارىء والمصوّر وأمثال ذلك من الأسماء، وانحصر الأمر وجميع الأسماء الإلهية بلغت ما بلغت لا بد أن ترجع إلى واحد من هذه الأقسام أو إلى أكثر من واحد مع ثبوت دلالة كل اسم منها على الذات لا بد من ذلك فهي حضرة تتضمن جميع الحضرات، فمن عرف الله عرف كل شيء، ولا يعرف الله من لا يعرف شيئاً واحداً أيّ مسمى كان من الممكنات، وحكم الواحد منها حكم الكل في الدلالة على العلم بالله من حيث ما هو إله للعالم خاصة.

ثم إذا وقع لك الكشف بالعمل المشروع رأيت أنك ما علمته إلا به، فكان عين الدليل هو عين المدلول عليه بذلك الدليل والدال، وهذه الحضرة وإن كانت جامعة للحقائق كلها فأخص ما يختص بها من الأحوال الحيرة والعبادة والتنزيه، فأما التنزيه وهو رفعته عن التشبه بخلقه فهو يؤدي إلى الحيرة فيه. وكذلك العبادة، فأعطانا قوة الفكر لننظر بها فيما يعرفنا بأنفسنا وبه، فاقتضى حكم هذه القوّة أن لا مماثلة بيننا وبينه سبحانه وتعالى من وجه من الوجوه إلا استنادنا إليه في إيجاد أعياننا خاصة، وغاية ما أعطى التنزيه إثبات النسب له بكسر النون بنا لما نطلبه من لوازم وجود أعياننا وهي المسمى بالصفات. فإن قلنا: إن تلك النسب أمور زائدة على ذاته وإنها وجودية ولا كمال له إلا بها وإن لم تكن كان ناقصاً بالذات كاملاً بالزائد الوجودي. وإن قلنا ما هي هو ولا هي غيره كان خلفاً من الكلام وقولاً لا روح فيه يدل على نقص عقل قائله وقصوره في نظره أكثر من دلالته على تنزيهه. وإن قلت ما هي هو ولا وجود لها وإنما هي نسب والنسب أمور عدمية جعلنا العدم له أثر في الوجود، وتكثرت النسب لتكثر الأحكام التي أعطتها أعيان الممكنات، وإن لم نقل شيئاً من هذا كله عطلنا حكم هذه القوّة النظرية وإن قلنا إن الأمور كلها لا حقيقة لها وإنما هي أوهام وسفسطة لا تحوي على طائل ولا ثقة لأحد بشيء منها لا من طريق حسيّ ولا فكريّ عقليّ، فإن كان هذا القول

صحيحاً فقد علم، فما هذا الدليل الذي أوصلنا إليه؟ وإن لم يكن صحيحاً فبأيّ شيء علمنا أنه ليس بصحيح؟ فإذا عجز العقل عن الوصول إلى العلم بشيء من هذه الفصول رجعنا إلى الشرع، ولا نقبله إلا بالعقل، والشرع فرع عن أصل علمنا بالشارع، وبأيّ صفة وصل إلينا وجود هذا الشرع وقد عجزنا عن معرفة الأصل فنحن عن الفرع وثبوته أعجز، فإن تعامينا وقبلنا قوله إيماناً لأمر ضروري في نفوسنا لا نقدر على دفعه سمعناه ينسب إلى الله أموراً تقدح فيها الأدلة النظرية، وبأيّ شيء منها تمسكنا قابله الآخر، فإن تأولنا ما جاء به لنرده إلى النظر العقليّ فنكون قد عبدنا عقولنا وحملنا وجوده تعالى على وجودنا وهو لا يدرك بالقياس، فأدانا تنزيهنا إلهنا إلى الحيرة فإن الطرق كلها قد تشوّشت فصارت الحيرة مركز إليها ينتهي النظر العقلي والشرعي.

وأما العبادة فمن حيث هي ذاتية فليست سوى افتقار الممكن إلى المرجح، وإنما أعني بالعبادة التكليف والتكليف لا يكون إلا لمن له الاقتدار على ما كلف به من الأفعال، أو مسك النفس في المنهيات عن ارتكابها، فمن وجه ننفي الأفعال عن المخلوق ونردها إلى المكلف والشيء لا يكلف نفسه، فلا بد من محل يقبل الخطاب ليصح، ومن وجه نثبت الأفعال للمخلوق بما تطلبه حكمة التكليف والنفي يقابل الإثبات، فرمانا هذا النظر في الحيرة كما رمانا التنزيه والحيرة لا تعطي شيئاً، فالنظر العقليّ يؤدّي إلى الحيرة، والتجلي يؤدي إلى الحيرة، فما ثم إلا حائرة، وما ثم حاكم إلا الحيرة، وما ثم إلا الله كان بعضهم إذا تقابلت عنده هذه الأحكام في سرّه يقول: يا حيرة يا دهشة يا حرقاً لا يتقرى، وما هذا الحكم لحضرة أخرى غير هذه الحضرة الإلهية، الحضرة الربانية وهي الاسم الرب: [البسيط]

الـرّبُّ مـالـكـنـا والـربّ مُـصْـلِـحُـنـا ... والـرب ثَـبَّـتَـنَـا لأنـه الـثَّـابِـتْ
لـولا وجـودي وكَـوْنُ الـحَـقّ أوْجَـدَنـي ... مـا كـنـت أدري بـأنـي الـكـائـنُ الـفـائـتْ
فـالـحَـقّ أوجـدنـي مـنـه وأيَّـدَنـي ... بـه لـذلـك أُدْعَـى الـنَّـاطِـقَ الـصَّـامِـتْ

ولها خمسة أحكام: الثبوت على التلوين، والسلطان على أهل النزاع في الحق، والنظر في مصالح الممكنات، والعبودة التي لا تقبل العتق، وارتباط الحياة بالأسباب المعتادة. فأما الثبوت على التلوين فهو في قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] وقوله: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [الشورى: ٤٤] فما من نفس في العالم إلا وفيه حكم التقليب، ألا ترى إلى الشمس التي هي علة الليل والنهار تجري لا مستقر لها ليلاً ولا نهاراً؟ ألا ترى إلى الكواكب ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] ما قال يستقرّون في ثلاثمائة وستين درجة كل درجة بل كل دقيقة بل كل ثانية بل كل جزء لا يتجزأ من الفلك، إذا أنزل الله فيه أي كوكب كان من الكواكب يحدث الله عند نزوله في كل جوهر فرد من عالم الأركان ما لا يعرف ما هو إلا الله الذي أوجده ويحدث في الملأ الأوسط من الأرواح السماوية التي تحت مقعر فلك البروج من العلوم بما يستحقه الحق عز وجل من المحامد على ما وهبهم من المعارف الإلهية ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١] ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١] والذين في هذا الملأ هم أهل

الجنان وفي عالم الأركان، وفي بعض هذا الملأ هم أهل النار الذين هم أهلها، ويحدث في الملأ الأعلى وهو ما فوق فلك البروج إلى معدن النفوس والعقول إلى العماء من العلوم التي تعطيها الأسماء الإلهية ما يؤديهم إلى الثناء على الله بما ينبغي له تعالى من حيث هم لا من حيث الأسماء، فإن الأسماء الإلهية أعظم إحاطة مما هم عليه، فإن تعلقها في تنفيذ الأحكام غير متناه.

وأما السلطان الذي لهذه الحضرة على أهل النزاع في الحق فهو أن المقالات اختلفت في الله اختلافاً كثيراً من قوّة واحدة وهي الفكر في أشخاص كثيرين مختلفي الأمزجة والأمشاج والقوى، ليس لها من يمدّها إلا مزاجها الطبيعي، وحظ كل شخص على الطبيعة ما يعطيه من المزاج الذي هو عليه، فإذا أفرغت قوّتها فيه حصل له استعداد به يقبل نفخ الروح فيه فيظهر عن النفخ، وتسوية الجسم الطبيعي صورة نورية روحانية ممتزجة بين نور وظلمة، ظلمتها ظل ونورها ضوء، فظلها هو الذي مده الرب فهو ربانيّ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] ونورها ضوء لأن استنارة الجسم الطبيعيّ، إنما كان بنور الشمس، وقد ذكر الله أنه جعل الشمس ضياء وجعل القمر نوراً، فلهذا جعلنا نورها ضوءاً من أجل الوجه الخاص الذي أضاء كل موجود، أو من كون إفاضة الضوء على مرآة الجسم المسوّى، فظهر في الانعكاس ضوء الشمس كظهوره من القمر، فلذا سمينا الروح الجزئي نوراً لأنّ الله جعل القمر نوراً فهو نور بالجعل، كما كانت الشمس ضياء بالجعل، وهي بالذات نور والقمر بالذات محو، فللقمر الفناء وللشمس البقاء: [الوافر]

فللقمر الفناء بكلّ وَجْهٍ ... وللشمسِ الإضاءةُ والبقاءُ
وللوَجْهِ الجَميل بكلّ حُسْنٍ ... لنا منه البشاشةُ واللّقاءُ
حَمَيْنَا حُسْنَهُ من كل عَيْنٍ ... كما يَحْمِي من الشجر اللِّحاءُ
نَزَلْنَا بالسماء على وجودٍ ... له العَرْشُ المحيطُ له العَمَاءُ
له الإقبالُ والإدبارُ فينا ... له حُكْمُ السَّنَا وله السّناءُ
إذا يَدْنُو فمَجْلِسُهُ رَحِيبٌ ... وإنْ يَعْلُو بنا فلنا الثناءُ
له حُكْمُ الإرادة في وجودي ... هو المختارُ يفعل ما يشاءُ

ثم تبعث القوى الروحانية والحسية لخلق هذا الروح الجزئي المنفوخ بطريق التوحيد لأنه قال: ﴿وَنَفَخْتُ﴾ [الحجر: ٢٩] وأما روح عيسى فهو منفوخ بالجمع والكثرة، ففيه قوى جميع الأسماء والأرواح فإنه قال: ﴿فَنَفَخْنَا﴾ [التحريم: ١٢] بنون الجمع فإن جبريل عليه السلام وهبه لها ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] فتجلى في صورة إنسان كامل، فنفخ وهو نفخ الحق كما قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فلما تبعته هذه القوى كان منها القوّة المفكرة أعطيت للإنسان لينظر بها في الآيات في الآفاق وفي نفسه ليتبين له بذلك أنه الحق، واختلفت الأمزجة فلا بد أن يختلف القبول، فلا بد أن يكون التفاضل في التفكر، فلا بد أن يعطي النظر في كل عقل خلاف ما يعطي الآخر حتى يتميز في أمر ويشترك مع غيره في أمر، فهذا سبب

اختلاف المقالات، فيحكم الرب بين أصحاب هذه المقالات بما يجيء به الشرع المنزل فتبقى العقول واقفة في أدلتها، ورجع اختلاف نظرها في المواد الشرعية بعدما كانت أوّلاً ناظرة بالنظر العقليّ وذلك ليس إلا للمؤمنين والمؤمنات خاصة، فالواقفون مع حكم الرب في ذلك بين المتنازعين هم المؤمنون ولهم عين الفهم، فاختلفوا مع الاتفاق فاختلافهم في المفهوم من هذا الذي حكم به الرب في حق الحق، وهذا هو الحق الذي نصبه الشرع للعباد وبما سمى به نفسه نسميه وبما وصف به ذاته نصفه لا نزيد على ما أوصل إلينا ولا نخترع له اسماً من عندنا.

وأما نزاع غير المؤمنين في اختلاف عقائدهم فيكون الشارع واحداً منهم في كونه نزع في الحق منزعاً لم ينزعوه لكونهم غير مؤمنين، فالحاكم بينهما أعني بين الشرع والعقلاء غير المؤمنين إنما هو الله بصور التجلي به يقع الفيصل بينهما ولكن في الدار الآخرة لا هنا، فإن في الدار الآخرة يظهر حكم الجبر فلا يبقى منازع هناك أصلاً. ويكون الملك هناك لله الواحد القهار، وتذهب الدعاوى من أربابها، وتبقى المؤمنون هنالك سادات الموقف على كل من في الموقف.

وأمّا النظر في مصالح الممكنات الذي لهذه الحضرة فاعلم أن الممكنات إذا نظرتها من حيث ذاتها لم يتعين لقبولها من الأطراف طرف تكوّن به أولى، فيكون الرب ينظر بالأولوية في وجودها وعدمها وتقدّمها في الوجود وتأخرها ومكانها ومكانتها، ويناسب بينها وبين أزمنتها وأمكنتها وأحوالها، فيعمد إلى الأصلح في حقها فيبرز ذلك الممكن فيه لأنه لا يبرزه إلا ليسبحه ويعرفه بالمعرفة التي تليق به مما في وسعه أن يقبلها ليس غير ذلك، فلهذا ترى بعض الممكنات يتقدم على بعض ويتأخر ويعلو ويسفل ويتلوّن في أحوال ومراتب مختلفة من ولاية وعزل وصناعة وتجارة وحركة وسكون واجتماع وافتراق وما أشبه ذلك، وهو تقليب ممكنات في ممكنات في غير ذلك ما تتقلب.

وأمّا العبودة التي لا تقبل العتق فهي العبودة لله فإن العبودة على ثلاثة أقسام: عبودة لله، وعبودة للخلق، وعبودة للحال وهي العبودية فهو منسوب إلى نفسه، ولا يقبل العتق من هذه الثلاثة إلا عبودة الخلق وهي على قسمين: عبودة في حريّة وهي عبوديتهم للأسباب فهم عبيد الأسباب وإن كانوا أحراراً، وعبودية الملك وهي العبودية المعروفة في العموم التي يدخلها البيع والشراء فيدخلها العتق فيخرجه عن ملك المخلوق، وبقيت الحيرة في ملك الأسباب هل يخرج من استرقاق الأسباب أم لا؟ فمن يرى أن الأسباب حاكمة عليه ولا بد ومن المحال الخروج عنها إلا بالوهم لا في نفس الأمر قال ما يصح العتق من رق الأسباب ومن قال بالوجه الخاص وهو الذي لا اشتراك فيه قال بالعتق من رق الأسباب وعتقه معرفته بذلك الوجه الخاص، فإذا عرفه خرج عن رق الأسباب وأما عبودة الله وعبودة العبودية وهي عبودة الحال فلا يصح العتق فيها جملة واحدة.

وأما ارتباط الحياة بالأسباب المعتادة فأظهر ما يكون فيما يقع به الغذاء لكل متغذٍ من الغذاء المعنوي والمحسوس، فالغذاء المحسوس معلوم والغذاء المعنوي ما تتغذى به

العقول، وكل من حياته بالعلم كان ما كان وعلى أيّ طريق كان، فكم من علم يحصل للعالم به من طريق الابتلاء وذلك لإقامة الحجة فيمن من شأنه الطلب وهو سارٍ في جميع الموجودات، وقد بينا ذلك في عضو البطن من مواقع النجوم، ولولا التطويل بينا في هذه الحضرة ما يتعلق من الأسرار بها فلا ننبه من كل حضرة إلا على طرف منها، ولهذا الاسم الرب إضافات كثيرة تجتمع في الإضافة وتفترق بحسب ما يضاف إليه، فثمّ إضافة للعالمين ولكاف الخطاب من مفرد ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٨] ومثنى ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩] ومجموع ربكم، وإلى الآباء، وإلى ضمير الغائب ربه وربهم، وإلى السماء والسمٰوات، وإلى الأرض، وإلى المشرق والمغرب، وإلى المشارق والمغارب، وإلى الناس، وإلى الفلق، وإلى ضمير المتكلم فلا تجده أبداً إلا مضافاً، فعلمك به من حيث من هو مضاف إليه فافهم، والكلام في هذه التفاصيل يطول، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الرحموت الاسم الرحمن الرحيم

[نظم: الوافر]

إلى الرَّحْمٰن حِلِّي وارْتحَالي ... لأَحْظَى بالجلال وبالجمالِ

فإنّ الحقَّ كان بنا رحيماً ... رؤوفاً يوم يدعوني نَزالِ

مبالغة في الرحمة الواجبة والامتنانية قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ومن أسماء الله تعالى: الرحمن الرحيم وهو من الأسماء المركبة كـ «بعلبك» و «رام هرمز» وإنما قبل هذا التركيب لما انقسمت رحمته بعباده إلى واجبة وامتنان، فبرحمة الامتنان ظهر العالم، وبها كان مآل أهل الشقاء إلى النعيم في الدار التي يعمرونها وابتداء الأعمال الموجبة لتحصيل الرحمة الواجبة وهي الرحمة التي قال الله فيها لنبيه ﷺ على طريق الامتنان ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] رحمة امتنان وبها رزق العالم كله فعمت، والرحمة الواجبة لها متعلق خاص بالنعت والصفات التي ذكرها الله في كتابه وهي رحمة داخلة في قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] فمنتهى علمه منتهى رحمته فيمن يقبل الرحمة، وكل ما سوى الله قابل لها بلا شك، ومن عموم رحمته ورحموته نفس الرحمن وإزالة الغضب عنه الذي لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، إن غضب بشهادة المبلغين عنه الإرسال عليهم الصلاة والسلام في الصحيح من النقل، وسميت هذه الحضرة باسم المبالغة لعمومها ودخول كل شيء فيها، فلما كان لها من التعلق بعدد الممكنات على أفراد كل ممكن وبعدد المناسبات الموجبة التركيب وهي لا تتناهى فرحمة الله غير متناهية، ومنها صدرت الممكنات، ومنها صدر الغضب الإلهيّ، ولما صدر عنها لم يرجع إليها لأنه صدر صدور فراق لتكون الرحمة خالصة محضة ولذلك تسابقا، فما تسابقا إلا عن تميز وانفراد، وجميع ما سوى الغضب الإلهيّ وجد من الرحمة في عين الرحمة فما خرج عنها: [مخلع البسيط]

فَـرَحْـمَـةُ الله لا تُـحَـدُّ   وكـلُّ مـا عـنـدهـا مُـعَـدُّ
وكـل مـن ضَـلَّ عـن هُـدَاهَـا   فـإنـه نـحـوهـا يُـرَدُّ
فـالـقـربُ مـنـهـا هـو الـتـدانـي   ومـا لـديـهـا مـن بَـعْـدُ بُـعْـدُ
فـلا تَـقُـلْ إنـهـا تـنـاهـتْ   فـمـا لـهـا فـي الـوجـود حَـدُّ
بـهـا تَـمَـيَّـزَتْ عـنـه فـانْـظُـرْ   فـالـرَّبُّ رَبٌّ والـعَـبْـدُ عَـبْـدُ

ومن علم سبب وجود العالم ووصف الحق نفسه بأن أحب أن يعرف فخلق الخلق وتعرّف إليهم فعرفوه ولهذا سبح كل شيء بحمده علم من ذلك أوّل متعلق تعلقت به الرحمة، فالمحب مرحوم للوازم المحبة ورسومها. واعلم أن الحكم على الله أبداً بحسب الصورة التي يتجلى فيها، فما يصح لتلك الصورة من الصفة التي تقبلها، فإن الحق يوصف بها ويصف بها نفسه، وهذا في العموم إذا رأى الحق أحد في المنام في صورة أي صورة كانت حمل عليه ما تستلزمه تلك الصورة التي رآه فيها من الصفات وهذا ما لا ينكره أحد في النوم فمن رجال الله من يدرك تلك الصورة في حال اليقظة ولكن هي في الحضرة التي يراها فيها النائم لا غيرها، وهذه المرتبة يجتمع فيها الأنبياء عليهم السلام والأولياء رضي الله عنهم، وهنا يصح كون الرحمة وسعت كل شيء، وهذه الصورة الإلهية في هذا الحضرة من الأشياء، فلا بد أن تسعها رحمة الله إن عقلت والانتقام من رحمة المنتقم بنفسه في الخلق ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ عن مثل هذا ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤] ﴿وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [النور: ٩] ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] وإذا وفق الله عبده للتوبة فقد وفقه لما لله به فرح، فإن الله يفرح بتوبة عبده في الصحيح فذلك من رحمة الله، والأخبار النبوية في ذلك أكثر من أن تحصى كثرة.

حضرة الملك والملكوت وهو الاسم الملك

[نظم: الكامل]

إن الـمَـلِـيـكَ هـو الـشَّـديـدُ فـكُـنْ بِـهِ   مـلـكـاً عـلـى الأعـداء حـتـى تَـمْـتَـلِـكْ
فـإذا مـلـكـتَ الـنَّـفْـسَ عـن تـصـريـفـهـا   فـيـمـا تـريـدُ تَـكُـنْ بـه نِـعْـمَ الـمَـلِـكْ

وأيضاً: [الكامل]

إن الـمَـلِـيـكَ هـو الـشَّـديـدُ فـكُـنْ بِـهِ   ولـه مـلـيـكـاً فـي الـقـيـامـة تَـسْـعَـدْ
لـو لـم يـكـن مـن مُـلْـكِـهِ إلا الـذي   يـوم الـقـيـامـة فـي الـسـعـادة تُـشْـهَـدْ

اعلم أن الملك والملكوت لهما الاسم الظاهر والباطن وهو عالم الغيب وعالم الشهادة، وعالم الخلق، وعالم الأمر، وهو الملك المقهور، فإن لم يكن مقهوراً تحت سلطان الملك فليس بملك، ومن كان باختيار ملكه لا باختيار نفسه في تصرّفه فيه فليس ذلك بملك ولا ملك، بل منزلة من هو بهذه المثابة في ملكه منزلة المتنفل في العبادة، فهو عبد اختيار لا عبد اضطرار، يعزل ملكه إذا شاء ويوليه إذا شاء، والملك المجبور المضطر ليس

كذلك فهو تحت سلطان الملك، فإذا نفذ أمره في ظاهر ملكه وفي باطنه فذلك الملكوت، وإن اقتصر في النفوذ على الظاهر وليس له على الباطن سبيل فذلك الملك، وقد ظهرت هاتان الصفتان بوجود المؤمن والمنافق في اتباع الرسل صلوات الله عليهم، فمنهم من اتبعه في ظاهره وباطنه وهو المؤمن المسلم، ومنهم من اتبعه في ظاهره لا في باطنه وذلك المنافق، ومنهم من اتبعه في باطنه لا في ظاهره فذلك المؤمن العاصي، وما جعل الله للإنسان عينين إلا ليدرك بهما هاتين الصفتين عين حس وعين عقل بصيرة وبصر، لأنه لما خلق من كل زوجين اثنين خلق لإدراكهما عينين، ولما أضاف إلى نفسه الأعين بلفظ الجمع ليدل على الكثرة، فكل عين حافظة مدركة لأمر ما بأيّ وجه كان فهي عين الحق الذي له الحفظ والإدراك فذلك سبب الجمع فيها: [الكامل]

فَهُوَ الحَفِيظُ بِنَفْسِهِ وبِخَلْقِهِ وهو العَلِيمُ بما لَهُ مِنْ حَقِّهِ

بل وصف نفسه تعالى بالمشيئة والاختيار أثبت بذلك عندنا شرعاً لا عقلاً أن له تصرّفاً في نفسه، وهذا حكم يحيله النظر العقلي بعين البصيرة على الله ويصححه الخبر الشرعي والعين البصري في اختلاف الصور عليه التي يتجلى فيها وبه ثبت ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] و﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩] و﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ﴾ [الزمر: ٤]، ففي هذا كله وجه إلى أحدية متعلق الإرادة، ووجه إلى التصرّف في التعلق، والتصرّف في التعلق تصرّف في الإرادة، والإرادة إما ذاته على مذهب نفاة الزائد، وأما صفته على مذهب مثبتي الصفات زائدة، والصحيح في غير هذين القولين، وهو أن الإرادة ليست بأمر زائد على الذات ولا هي عين الذات، وإنما هي تعلق خاص للذات أثبته الممكن لإمكانه في القبول لأحد الأمرين على البدل لولا معقولية هذين الأمرين، ومعقولية القبول من الممكن ما ثبت للإرادة ولا للاختيار حكم ولا ظهر له في العبارات اسم، فمن حضر مع الحق في حضرة الملك والملكوت ولم يعرف العالم ولا ما هو ولا عرف نسبته من الحق ولا نسبة الحق منه فما حضر في هذه الحضرة بوجه من الوجوه ولا كان له حظ في الاسم الملك.

حضرة التقديس وهو الاسم القدوس

[نظم: الرجز]

مَنْ طَهَّرَ النَّفْسَ التي لا تَنْجَلي أعْلامُها فينا يَكُنْ قُدُّوسَا
ويُرَدُّ مَلْكاً طاهراً ذا عِفَّةٍ من كان في تصريفه إبليسا

* * *

[نظم: الوافر]

إلى القُدُّوسِ أَعْمَلْتُ المطايا لأحْظَى بالزكاة وبالطّهُورِ
وبالعَرْشِ المُحيط وساكنيه وبالأمر العليّ من الأمورِ

فإن القُدْسَ ليس له نظيرٌ ... به أَحْيَا له وبه نُشُوري
وإنَّ الحَقَّ ليس به خفاءٌ ... وصَدْرُ الحَقّ منّا في الصُّدُورِ

سبوح قدوس مطهر من الأسماء النواقص والأسماء النواقص هي التي لا تتم إلا بصلة عائد، فإن من أسمائه سبحانه الذي وما في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] وفي قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] وأما ما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥] في بعض وجوه ما في هذا الموضع فإن ما قد تكون هنا مصدرية، وقد تكون بمعنى الذي فتكون ناقصة فتكون هنا اسماً لله عز وجلّ. فاعلم أن الله لما خلق الأسباب وجعلها الظاهرة لعباده وفعل المسببات عندها وتخيل الناظرون أنها ما خلقت إلا بها، وهذا هو الذي أضل الخلق عن طريق الهدى والعلم وحجبهم عن الوجه الخاص الذي لله في كل كائن، فاعلم أن ذلك اللفظ المسمى اسماً ناقصاً وهو ما ومن والذي وأخوات هذه الأسماء إنما مسماها السبب الذي احتجب الله به عن خلقه في خلقه هذه المسببات فهو القدوس أي المطهر عن نسبة الأسماء النواقص إليه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦] فأنت بخير النظرين: إما أن يكون كشفك أن الحق هو الظاهر في مظاهر الممكنات فيكون التقديس للممكنات بوجود الحق وظهوره في أعيانها فتقدست به عما كان ينسب إليها من الإمكان والاحتمالات والتغييرات، فليس إلا أمر واحد وأعيان كثيرة كل عين في أحديتها لا تتغير عين لعين بل يظهر بعضها لبعض ويخفى بعضها عن بعض بحسب صورة الممكن، وإما أن يكون الحق عين المظهر ويكون الظاهر أحكام أعيان الممكنات الثابتة أزلاً التي لا يصح لها وجود، فيكون التقديس للحق لأجل ما ظهر من تغير أحكام الممكنات في عين الوجود الحق أي الحق مقدس قدوس عن تغيره في نفسه بتغير هذه الأحكام كما تقول في الزجاج المتلوّن بألوان شتى: إذا ضرب النور فيه وانبسط نور الشعاع مختلف الألوان لأحكام أعيان التلوّن في الزجاج ونحن نعلم أن النور ما انصبغ بشيء من تلك الألوان مع شهود الحس لتلوّن النور بألوان مختلفة، فتقدس ذلك النور في نفسه عن قبول التلوّن في ذاته، بل نشهد له بالبراءة في ذلك، ونعلم أنه لا يمكن أن ندركه إلا هكذا فكذلك، وإن نزهنا الحق عن قيام تغيير ما أعطته أحكام أعيان الممكنات فيه عن أن يقوم به تغيير في ذاته بل هو القدوس السبوح، ولكن لا يكون الأمر إلا هكذا في شهود العين لأن الأعيان الثابتة في أنفسها هذه صورتها، وكذلك روح القدوس تارة يتجلى في صورة دحية وغيره وتجلى وقد سد الأفق، وتجلى في صورة الدر وتنوّعت عليه الصور أو تنوّع في الصور، ونعلم أنه من حيث إنه روح القدس مطهر عن التغيير في ذاته ولكن هكذا ندركه، كما أنه إذا نزل بالآيات على من نزل من عباد الله والآيات متنوعة، فإن القرآن متنوّع ينطبع عند النازل عليه في قلبه بصورة ما نزل به عليه، فتغير على المنزل عليه الحال لتغيير الآيات والكلام من حيث ما هو كلام الله واحد لا يقبل التغيير والروح من حيث ما هو لا يقبل التغيير، فالكلام قدوس، والروح قدوس، والتغيير موجود فتنظر في مدلول الآيات فإذا كان مدلولها الممكنات فالتقديس للحق، وإذا كان مدلول

الآية الحق فما هو من حيث عينه لأنه قدوس وإنما هو من حيث اسم ما إلهي من الأسماء، وهذه فائدة الدلالة.

حضرة السلام الاسم الإلهي السلام

[نظم: الكامل]

لـمـا تَـسَـمَّـى بـالـسـلام لـخَـلْـقِـهِ   كـان الـسّـلام لـه الـمـقـامُ الـشـامـخُ
والـحُـكْـمُ فـيـهـم بـالـذي قـد شـاءه   والـعـزُّ والـمَـجْـدُ الـتَّـلِـيـدُ الـبـاذخُ

* * *

[نظم: الكامل]

إن الـسَّـلامَ تَـحِـيَّـةٌ مـن رَبِّـنـا   فـيـنـا ومـن أسـمـائـه نـرجـو الـسَّـلامْ
ولـنـا الـتـأخُّـرُ عـن عُـلُـوِّ مَـقَـامِـهِ   ولـه الـتَّـقَـدُّمُ والـتَّـحَـكُّـمُ والأمَـامْ
لـمـا تَـسَـمَّـى بـالـسـلام لـخَـلْـقِـهِ   حـارتْ عـقـولُ الـواصـلـيـن مـن الأنَـامْ

قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٧] وهي دار ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحجر: ٤٨] فهم فيها سالمون. واعلم أن السلامة التي للعارف هي تنزيهه من دعوى الربوبية على الإطلاق إلا أن يظهر عليه نفحاتها عندما يكون شهوده كون الحق جميع قواه فيكون دعوى، فيكون سلامته عند ذلك من نفسه، وبها سمي السلام سلاماً لما أراد الصحابة رضي الله عنهم في التشهد أن يقولوا أو قالوا: السلام على الله تحية، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تَقُولُوا السَّلامُ عَلَى الله فَإِنَّ الله هُوَ السَّلامُ**» فإذا حضر العبد وهو عبد السلام مع الحق في هذه الحضرة وكان الحق مرآة له فلينظر ما يرى فيها من الصور، فإن رأى فيها صورة باطنة ومعاينة مشكلة بشكل ظاهره فعلم أنه رأى نفسه وما حصلت له درجة من يكون الحق جميع قواه، وإن رأى صورة غير مشكلة بشكل جسدي مع تعقله أن ثم أمراً ما هو عينه فتلك صورة حق، وأن العبد في ذلك الوقت قد تحقق بأن الحق قواه ليس هو، وإن كان العبد في هذا الشهود هو عين المرآة وكان الحق هو المتجلي فيها فلينظر العبد من كونه مرآة ما تجلى فيه، فإن تجلى فيه ما يقيد بشكله فالحكم للمرآة لا للحق فإن الرائي قد يتقيد بحقيقة شكل المرآة من طول وعرض واستدارة وانحناء وكبر وصغر فترد الرائي إليها ولها الحكم فيه، فيعلم بالتقييد المناسب لشكل المرآة أن الذي رآه قد تحوّل في شكل صورته في أنواع ما تعطيه حقيقته في تلك الحال، وإن رآه خارجاً عن شكل ذاته فيعلم أنه الحق الذي هو بكل شيء محيط، وبأي صورة ظهر فقد سلم من تأثير الصورة الأخرى فيه لأن حضرة السلام تعطي ذلك، ألا ترى الرجل الذي رأى الحق عند رؤية أبي يزيد فمات، وقد كان يرى الحق قبل رؤية الحق في رؤية أبي يزيد فلا يتأثر، فقد رأى الحق في غير صورة مرآته، ومثاله رؤية الشخص نفسه في مرآة فيها صورة مرآة أخرى وما في تلك المرآة الأخرى فيرى المرآة الأخرى في صورة مرآة نفسه ويرى الصورة التي في تلك المرآة الأخرى في صورة تلك المرآة الأخرى فبين الصورة ومرآة الرائي مرآة وسطى بينها وبين الصورة التي فيها، وقد بينا ونبهنا على هذا،

ورغبنا في هذا المقام في رؤية الحق بالرؤية المحمدية في الصورة المحمدية فإنها أتم رؤية وأصدقها، وهذه الحضرة لمن لم يشرك بالله شيئاً ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] والجاهل من أشرك بالله خفياً كان الشرك أو جلياً، وذلك لأنهم يعرفون من أين خاطبهم الجاهلون وما حضرتهم، فلو أجابوهم لانتظموا معهم في سلك الجهالة، فإن كل إنسان ما يكلم إنساناً بأمر ما من الأمور ابتداء أو مجيباً حتى ينصبغ بصفة ذلك الأمر الذي يكلمه به كان ذلك ما كان، وكل ذلك من الحضرات الإلهية علم ذلك من علمه وجهله من جهله، فلم يتمكن لهؤلاء أن يزيدوا على قولهم سلاماً شيئاً، ولو راموا ذلك ما استطاعوا، وهذه الحضرة من أعظم الحضرات منها تقول الملائكة لأهل الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤] ومنها شرعت التحية فينا بالسلام على التعريف والتنكير وفي الصلاة وفي غير الصلاة.

واعلم أن الجاهل هو الذي يقول أو يعتقد ما يصوّره في نفسه، وما لذلك المصوّر اسم مفعول صورة في عينه زائدة على ما صوره هذا القائل والمعتقد في نفسه، فكل ما تطلبه في حضرة وجودية فلا تجده إلا في نفس الذي صوّره أو تلقاه عمن صوّره فذلك الجهل أعني تصويره، وذلك الجاهل أعني الذي صوّره، ومن كان من أهل هذه الحضرة السلامية فإنه عالم بالحضرات الوجودية وما تحوي عليه من الصور، فإذا لم يجد فيها صورة ما خاطبه بها هذا القائل علم أنه جاهل أو مقلد لجاهل فلا يزيده على قوله سلاماً شيئاً، وهذا مقام عزيز ما رأيت من أهله أحداً إلى الآن أعني أهل الذوق الذين لهم فيه شهود، وإن كنت رأيت من يصمت عند خطاب الجاهل، فما كل من يصمت عن خطاب الجاهل يصمت من هذه الحضرة وإن علم أن القائل من الجاهلين ولكن لا يقول سلاماً إلا صاحب هذه الحضرة فإن له اطلاعاً على وجود تلك الصورة في نفس القائل، ولا يرى لها صورة في غير محله أصلاً سواء كان ذلك القائل مقلداً أو قائلاً عن شبهة، وكل ما لا صورة له إلا في نفس قائله فإنها تذهب من الوجود بذهاب قوله أو ذهاب تذكر ما صوّره من ذلك، فإنه ما ثم حضرة وجودية تضبط عليه وجوده، وللحروف المنظومة الدالة عليه من المتكلم به أعني أعياناً ثابتة في حضرة الثبوت أعني في شيئية الثبوت في عين هذا القائل، وفي شيئية الوجود الخطابي أيضاً، ولكن مدلولها العدم، فلا بد من ذهاب الصورة من النفس وإن بقيت لها صورة في الخطاب كائنة من حيث ما تشكلت في الهواء ملكاً مسبحاً يعرف أمه وهو القائل ولا يعرف له أباً في حضرة من حضرات الوجود فيبقى غريباً ما له نسب يعرفه سوى الذي تكوّن فيه وهو هذا الجاهل القائل، وبهذا كان الصدق له الإعجاز في الكلام لأنه حق وجودي، بخلاف المزوّر في نفسه ما ليس هو فما له شيء يستند إليه فيظهر قصوره عن غيره، ولذلك نهينا أن نضرب لله الأمثال وهو يضرب الأمثال لأنه يعلم ونحن لا نعلم، فهو عز وجلّ يضرب لنا الأمثال بما له وجود في عينه، ونحن لسنا كذلك إلا بحكم المصادفة، فنضرب المثل إذا ضربناه بما له وجود في عينه وبما لا وجود له إلا في تصوّرنا فنطلب مستنداً فلا نجده فلا يبقى له عين فيزول لزواله ما ضرب له المثل لأنه لا يشبهه، كما يزول نور السراج من البيت إذا ذهب السراج منه، وقد

رأينا جماعة من المنتمين إلى الله يتسعون في ضرب المثل من علماء الرسوم ومن أهل الأذواق، كما أنهم يتكلمون في ذات الحق بما يقع به التنزيه لها من كونها لو كانت كذا لزم أن تكون كذا فإذن ليست بكذا، والكلام في ذات الله عندنا محجور بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] من باب الإشارة، وإن كان له مدخل في التفسير أيضاً، ولا يقع في مثل هذا إلا جاهل بالأمر، وفي ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١] ما يقع به الاستغناء لو فهموه، وما رأينا أحداً ممن يدّعي فيه أنه من فحول العلماء من أي صنف كان من أصناف النظار إلا وقد تكلم في ذات الحق غير أهل الله من تحقق منهم بالله فإنهم تعرّضوا لشيء من ذلك لأنهم رأوه عين الوجود كما أشهدهم فهم يتكلمون عن شهود فلا يسلبون ولا ينفون ولا يشبهون، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الأمان وهي للاسم المؤمن

[نظم: الكامل]

مُعْطي الأمَان المُؤمِنُ الرَّبُّ الذي ... ما زال يدعوه الوَرَى بالمُؤمِنِ
فهو العليمُ بحَقِّهِ وبحقّنا ... وبما له منا وما للمُمْكِنِ

ولهذا الاسم أيضاً: [الوافر]

إذا كان الأَمانَ لكل خائِفْ ... فقد حاز المَشَاهِدَ والمَوَاقِفْ
وآتاه المُنَزَّهُ كُلَّ شيءٍ ... على كتب وأشباه المَعَارِفْ
فيصبحُ عارفاً لا يَعْتَريهِ ... قُصُورٌ في الهِبَاتِ وفي العَوَارِفْ
ولولا غيرةُ الرحمن فينا ... لأثْبَتُّ الأمانَ لكل عَارفْ
ولكنّي سَتَرْتُ لكَوْنِ رَبِّي ... يريد السَّتْرَ في حَقّ المُكَاشَفْ

وهي لعبد المؤمن، فإن كل حضرة لها عبد، كما لها اسم إلهي، فأوّل حضرة تكلمنا فيها هي لعبد الله ويتلوها عبد ربه لا عبد الرب، فإنه ما أتى هذا الاسم في كلام الله إلا مضافاً، ثم عبد الرحمن ثم عبد الملك ثم عبد القدّوس ثم عبد السلام ثم عبد المؤمن وله هذه الحضرة وتحققت بهذه العبودية بعد دخولي هذا الطريق بسنة أو سنتين تحققاً لم ينله في عملي أحد في زماني غيري، ولا ابتلي فيه أحد ما ابتليت فيه، فقطعته بحيث إنه ما فاتني منه شيء، وصفا لي الجوّ ولم يحل بيني وبين خبر السماء، وعصمني الله من التفكر في الله فلم أعرفه إلا من قوله وخبره وشهوده، وبقي فكري معطلاً في هذه الحضرة وشكرني فكري على ذلك وقال لي الفكر: الحمد لله الذي عصمني بك عن التصرّف والتعب فيما لا ينبغي لي أن أتصرّف فيه، فصرفته في الاعتبار وبايعني على أني لا أصرفه إلا في الشغل الذي خلق له متى صرفته فأجبته إلى ذلك فما قصرت في حق قواي كلها حيث ما تعدّيت بها ما خلقت له وحصل لها الأمان من جهتنا في ذلك فأرجو أنها تشكرني عند الله، وأعني القوى الروحانية التي خلق الله فينا.

واعلم أن هذه الحضرة ما لها في الكون سلطان إلا في الأخبار الإلهية، وهي على قسمين عند من دخل إلى هذه الحضرة وتحقق بها القسم الواحد الخبر الإلهيّ الآتي من عند الله المسمى صحفاً أو توراة أو إنجيلاً أو قرآناً أو زبوراً، وكل خبر أخبر به عن الله ملك أو رسول بشري أو كلم الله به بشراً وحياً أو من وراء حجاب، هذا الذي عليه أهل الإيمان وأهل الله. والقسم الآخر يقول به طائفة من أهل الله أكابر في كل خبر في الكون من كل قائل، وأصحاب هذا القسم يحتاجون إلى حضور دائم وعلم بمواقع الأخبار، وأعني بالعلم العلم بمواقع الأخبار وهو أنهم يعرفون الخطاب الوارد على لسان قائل ما ممن له نطق في الوجود أين موقعه من العالم أو من الحق فيبرزون له آذاناً منهم واعية لا يسمعونه إلا بتلك الآذان، فيتلقونه ويطلبون به متعلقه حتى ينزلوه عليه ولا يتعدوه به، وهذا لا يقدر عليه إلا من حصر أعيان الموجودات أعني أعيان المراتب لا أعيان الأشخاص فيلحقون ذلك الخبر بمرتبته فهم في تعب ومشقة، فإن المتكلم مستريح في كلامه وهذا متعوب في سماعه ذلك الكلام فإنه لا يأخذه إلا من الله فينظر من يراد به فيوصله إلى محله فيكون ممن أدّى الأمانة إلى أهلها، ولهذا كان بعضهم يسد أذنيه بالقطن حتى لا يسمع كلام العالم، ولله رجال هان عليهم مثل هذا، فبنفس ما يسمعون الخطاب من الله تقوم معهم مرتبة هذا الخطاب فينزلوه فيها من غير مشقة، والحمد لله الذي رزقنا الراحة في هذا المقام فإنه كشف لطيف، وذلك أن الخطاب الإلهي العام في السنة القائلين من جميع الموجودات مرتبة، ذلك القول معه يصحبه فإنه قول إلهي في نفس الأمر وإن كان لا يعلمه إلا القليل، فعندما يسمعه الكامل من رجال الله تعالى يشهد مع سماعه مرتبته فيجمع بين السماع وشهود الرتبة فيلحقه بها عن كشف من غير مشقة، ولقد رأينا جماعة من أهل الله يتعبون في هذا المقام بطلب المناسبات بين الأخبار وبين المراتب حتى يعثروا عليها، وحينئذٍ يلحقوا ذلك الخبر بأهله فتفوتهم أخبار إلهية كثيرة. وأما إعطاء هذه الحضرة الأمان فليس ذلك إلا للمتحققين بالخوف، فلا تزال المراتب تنظر إلى الأخبار التي ترد على ألسنة القائلين وتعلم أنها لها، وتعلم أن الآخذين بها هم السامعون، وأن السامعين قد يأخذونها على غير المعنى الذي قصد بها فيلحقونها بغير مراتبها، فتلك المرتبة التي ألحقوها بها تنكرها ولا تقبلها، ومرتبتها تعرفها وقد حيل بينها وبينها بسوء فهم السامع، فإذا علموا من السامع أنه على صحة السمع والصدق فيه وأنه لا يتعدى بالخطاب مرتبته كانت المرتبة في أمان من جهة هذا السامع فيما هو لها فتعلم أن حقها يصل إليها فهي معه مستريحة آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل سامع بهذه المثابة، فلهذا السامع أجر الأمان وهو أجر عظيم في الإلهيات، فيهزأ الإنسان في كلامه ويسخر ويكفر ويقصد به ما لم يوضع له، وهذا السامع الكامل يأخذه من حيث عينه لا من حيث قصد المتكلم به، فإنه ما كل متكلم من المخلوقين عالم بما تكلم به من حيث هو خطاب حق فيتكلم به من حيث قصده، ويأخذه السامع الكامل من حيث رتبته في الوجود، فقد أعطى هذا السامع الأمان للجانبين: الجانب الواحد إلحاقه برتبته، والجانب الآخر ما حصل لمن قصد به المتكلم به من الأمان من

حصوله عنده من جهة هذا السامع الكامل، فإنه في الزمن الواحد يكون له سامعان مثلاً: الواحد هذا الذي ذكرناه، والآخر على النقيض منه ما يفهم منه إلا ما قصده المتكلم المخلوق فيلحقه بهذه الرتبة في الوقت الذي يأخذه عنها السامع الكامل فهي تحت وجل من هذا السامع الناقص التابع للمتكلم، وفي أمان من هذا السامع الكامل، فلا والله ما يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر ما قلناه أولو الألباب الغواصون على درر الكلام.

حضرة الشهادة وهي للاسم المهيمن

[نظم: الكامل]

إنّ المُهَيْمِنَ يَشْهَدُ الأسْرارا ... فينا وفيه ويَسْتُرُ الأنْوارا

عَنَّا وعنه بنا إذا ما نُورُهُ ... يُغمي البصائرَ فيه والأبصارا

ولذاك ما اتَّخَذَ الحِجَابَ لنَفْسِهِ ... والجُنْدَ والأعوانَ والأنْصَارا

جاءت به الأرسْالُ من عَرْشِ العَمَا ... ليُخَيِّرَ الألْبَابَ والأفكارا

ويفوز أهْلُ الذِّكْرِ من مَلَكُوتِهِ ... بالذِّكرِ حين يشاهدوا الأخبارا

صاحبها عبد المهيمن، المهيمن هو الشاهد على الشيء بما هو له وعليه، ولله حقوق على العباد وللعباد حقوق على الله تعالى ذاتية ووضعية، ومن هذه الحضرة يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] فلا بد لصاحب هذه الحضرة من العلم بما لله عليه من الحقوق وبما له عليه من الحقوق لا بد من ذلك، وافترق أهل هذا المقام بعد تحصيل هذا في الحقوق التي لهم عند الله، فمن قائل بها على أنها حقوق، ومن قائل بها لا على أنها حقوق، فيأخذونها منه على جهة الامتنان، وهم القائلون بأن الله لا يجب عليه شيء لكونهم حدوا الواجب بما لا يليق أن يدخل في ذلك جناب الحق، ومن لم يحده بذلك الحد أدخل الحق في الوجوب كما أدخل الحق نفسه فيه فقال: كتب ربكم على نفسه الرحمة. وقال: حرّمت الظلم على نفسي، وقال: وأكره مساءته ولا يرضى لعباده الكفر. وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٩] وقال: وما تفعلوا من خير فلن تكفروه[(١)]، فأدخل نفسه بكل ما ذكرناه تحت حكم الأحكام التي شرعها لعباده من وجوب وحظر وندب وكراهة وإباحة، والحق متى أقام نفسه في خطابه إيانا في صورة ما من الصور فإنا نحمل عليه أحكام تلك الصورة لأنه لذلك تجلى فيها، فنشهد له على أنفسنا ونشهد عليه لأنفسنا، وهذه الشهادة له وعليه لا تكون إلا في يوم الفصل والقضاء أي وقت كان، فإنه ما يختص به يوم القيامة فقط بل قد يقام فيه العبد هنا في حال من الأحوال، بل كل حكم يكون في الدنيا في مجلس الشرع هو من يوم الفصل والقضاء ويدخل في حكم هذه الحضرة، وفي غير فصل ولا قضاء لا يكون لهذه الحضرة حكم وإنما ذلك في حضرة المراقبة، وسترد إن شاء الله تعالى في هذا الباب.

واعلم أنه في هذه الحضرة نزل هذا الكتاب المسمى قرآناً خاصة دون سائر الكتب

(١) هذا ليس نصّ آية كما قد يتبادر إلى الذهن.

والصحف المنزلة، وما خلق الله من أمة من أمم نبي ورسول من هذه الحضرة إلا هذه الأمة المحمدية وهي ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ولهذا أنزل الله في القرآن في حق هذه الأمة ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فنأتي يوم القيامة يقدمنا القرآن ونحن نقدم سائر أهل الموقف، ويقدم القراء منا من ليس له من القرآن مثله، فأكثرنا قرآناً أسبقنا في التقدم والرقي في المعراج المظهر للفصل بين الناس يوم القيامة، فإن للقراء منابر لكل منبر درج على عدد آي القرآن يصعد الناس فيه بقدر ما حفظوا منه في صدورهم، ولهم منابر أخر لها درج على عدد آي القرآن يرقى فيها العاملون بما حققوه من القران، فمن عمل بمقتضى كل آية بقدر ما تعطيه في أي شيء نزلت رقي إليها عملاً، وما من آية إلا ولها عمل في كل شخص لمن تدبر القرآن، وفي القيامة منابر على عدد كلمات القرآن، ومنابر على عدد حروفه يرقون فيها العلماء بالله العاملون بما أعطاهم الله من العلم بذلك، فيظهرون على معارج حروف القرآن وكلماته بسور تلك الحروف والكلمات والآيات والسور والحروف الصغار منه، وبه يتميزون على أهل الموقف في هذه الأمة لأن أناجيلهم في صدورهم، فيا فرحة القرآن بهؤلاء فإنهم محل تجليه وظهوره، فإذا تلا الحق على أهل السعادة من الخلق سورة طه تلاها عليهم كلاماً وتجلى لهم فيها عند تلاوته صورة فيشهدون ويسمعون، فكل شخص حفظها من الأمة يتحلى بها هنالك كما تحلى بها في الدنيا بالحاء المهملة، فإذا ظهروا بها في وقت تجلي الحق بها وتلاوته إياها تشابهت الصور فلم يعرف المتلو عليهم الحق من الخلق إلا بالتلاوة فإنهم صامتون منصتون لتلاوته، ولا يكون في الصف الأوّل بين يدي الحق في مجلس التلاوة إلا هؤلاء الذين أشبهوه في الصورة القرآنية الطاهية، ولا يتميزون عنه إلا بالإنصات خاصة، فلا يمرّ على أهل النظر ساعة أعظم في اللذة منها، فمن استظهر القرآن هنا بجميع رواياته حفظاً وعلماً وعملاً فقد فاز بما أنزل الله له القرآن وصحت له الإمامة وكان على الصورة الإلهية الجامعة، فمن استعمله القرآن هنا استعمل القرآن هناك، ومن تركه هنا تركه هناك، وكذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وورد في الخبر فيمن حفظ آية ثم نسيها عذبه الله يوم القيامة عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين. وما أحسن ما نبه النبي ﷺ على منزلة القرآن بقوله: «**لاَ يَقُلْ أَحَدُكُم نَسيتُ آيَةَ كَذَا وَكَذَا بَلْ نُسِّيتُهَا**» فلم يجعل لتارك القرآن أثراً في النسيان احتراماً لمقام القرآن، وقالت عائشة في خلق النبي ﷺ: «**كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ**» وليس إلا ما ذكرناه من الاتصاف به والتحلي على حد ما ذكرناه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة العزة وهي الاسم العزيز

[نظم: الوافر]

ألا إنَّ الـعَـزِيـزَ هـو الـمَـنِـيـعُ لـه سَـتْـرُ الـوَرَى فـهـو الـرَّفـيـعُ
يـعـزُّ وجـوده فـيـعـزّ ذاتـاً ولـولا الـخـلـقُ مـا ظـهـر الـبَـديـعُ
فـقـل لـلـمُـنْـكِـرِيـنَ صَـحِـيـحَ قَـوْلـي حِـمَـى الـرَّحْـمٰـنِ ذلـكُـمُ الـمَـنِـيـعُ

الداخل فيها يدعى في الملأ الأعلى عبد العزيز لم أذق في كل ما دخلته من الحضرات ذوقاً ألذ منه ولا أوقع في القلب لهذه الحضرة المنع، فلها الحدود لا بل لها من الحدود ما يقع به التمييز فيقف كل محدود لا بل كل شيء على عزته، فيكون كل شيء عزيزاً وعبوديته فيه فهو عبد نفسه، فمن هنا ظهر كل من غلبت عليه نفسه واتبع هواها، ولولا الشرع ما ذمّه بالنسبة إلى طريق خاص لما ذمه أهل الله فإن الحقائق لا تعطي إلا هذا، فمن اتبع الحق فما اتبعه إلا بهوى نفسه وأعني بالهوى هنا الإرادة، فلولا حكمها عليه في ذلك ما اتبع الحق، وهذا حكم من اتبع غير الحق، وأعني بالحق هنا ما أمر الشارع باتباعه، وغير الحق ما نهى الشرع عن اتباعه، وإن كان في نفس الأمر كل حق لكن الشارع أمر ونهى، كما أنا لا نشك أن الغيبة حق ولكن نهانا الشرع عنها؛ ولنا: [الطويل]

وحَقِّ الهَوَى إنّ الهَوَى سَبَبُ الهوى ... ولولا الهَوَى في القَلْبِ ما عُبِدَ الهَوَى

فبالهوى يجتنب الهوى، وبالهوى يعبد الهوى، ولكن الشارع جعل اسم الهوى خاصاً بما ذمّ وقوعه من العبد، والوقوف عند الشرع أولى، ولهذا بينا قصدنا بالهوى الإرادة لا غير، فالأمر يقضي أن لا حاكم على الشيء إلا نفسه فيما يكون منه لا فيما يحكم عليه به من خارج، لكن ذلك الحكم من خارج لا يحكم عليه إلا بما تعطيه نفسه من إمضاء الحكم فيه، فكل ما في العالم من حركة وسكون فحركات نفسية وسكون نفسي، فإذا حصل العبد بالذوق في هذه الحضرة فعلامته أن لا يؤثر فيه غيره بما لا يريده ولا يشتهيه، فيمنع ذاته من أثر الغير فيها بما لا يريده، وإنما قلنا بما لا يريده لأنه ما في الوجود نفس إلا وتقبل تأثير نفس أخرى فيها، يقول الحق تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] ولا أعز من نفس الحق، وقد قال عن نفسه أنه أجاب الداعي عندما دعاه، ولكن هو تعالى شرع لعبده أن يدعوه فقال: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر: ٦٠] فما أجابه إلا بإرادته لذلك. ولقد نادى بعض الرعايا سلطاناً كبيراً بمرسية فلم يجبه السلطان فقال الداعي: كلمني فإن الله تعالى كلم موسى، فقال له السلطان: حتى تكون أنت موسى، فقال له الداعي: حتى تكون أنت الله، فمسك السلطان له فرسه حتى ذكر له حاجته فقضاها، كان هذا السلطان صاحب شرق الأندلس يقال له محمد بن سعد بن مردنيش الذي ولدت أنا في زمانه وفي دولته بمرسية، وإن كانت الحقائق تعطيه فإن حمل الأسماء على ذات الحق إنما أعطى ذلك الحمل حقائق المحدثات، فلو زالت لزالت الأسماء كلها حتى الغنى عن العالم إذ لو لم يتوهم العالم لم يصح الغنى عنه، واسم الغنيّ لمن اتصف بالغنى عنه فما نفاه حتى أثبته، فما ثم عزة مطلقة واقعة في الوجود ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] فأوقع الاشتراك فيها، ولكن المنافقين لا يعلمون أن العزة للرسول وللمؤمنين وإن كان يعلم العزة ولكن تخيل أن حكمها له ولأمثاله هذا القائل، فعزة الحق لذاته إذ لا إله إلا هو، وعزة رسوله بالله وعزة المؤمنين بالله وبرسوله، ولهذا شرع له الشهادتين، ولكن أولو الألباب لما سمعوا هذا الخطاب تنبهوا لما ذكر المؤمنين، فللّه العزة في المؤمنين فإنه المؤمن، وللرسول العزة في المؤمنين فإنه منهم، فعمت عزة المؤمنين عزة الله ورسوله فدخل

الحق في ضمنهم، وما دخلوا في ضمنه لأحديته وجمعهم، وأحدية الرسول وجمعهم، فلهم الحضرة الجامعة، ولكن نسبة العزة لله غير نسبتها له تعالى من حيث دخوله بالاسم المؤمن في المؤمنين، فإن الحق إذا كان سمع العبد وبصره كانت العزة لله بما كان للعبد به في هذا المقام عزيزاً، ألا تراه في هذا المقام لا يمتنع عليه رؤية كل مبصر ولا مسموع ولا شيء مما تطلبه قوّة من قوى هذا العبد لأن قواه هوية الحق ولله العزة، ويمتنع أن يدركه من ليست له هذه القوة من المخلوقين ولهذا ما ذكر الله العزة إلا للمؤمنين. ثم إن عزة الرسول بالمؤمنين إذ كانوا هم الذين يذبون عن حوزته فلا عزة إلا عزة المؤمن فبالعزة يغلب وبالعزة يمتنع، فهي الحصن المنيع وهي حمى الله وحرمه، ولا يعرف حمى الله ويحترمه إلا المؤمن خاصة وليس المنع إلا في الباطن. وهنالك يظهر حكم العزة. وأما في الظاهر فليس يسري حكمها عاماً في المنع ولا في الغلبة، فالمؤمن بالعزة يمتنع أن يؤثر فيه المخالف الذي يدعوه إلى الكفر بما هو به مؤمن، والكافر بالعزة يمتنع أن يؤثر فيه الداعي الذي يدعوه إلى الإيمان، ولما كان الإيمان يعمّ والكفر يعمّ تطرّق إليهما الذمّ والحمد فإن الله قد ذكر الذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله فسماهم مؤمنين فهذا من حكم العزة، وبقي الحكم لله في المؤآخذة بحسب ما جاء به الخبر الحق من عند الله، فالحكيم إذا عرف الحقائق، وأن حكم العزة وإن عمّ فلا يعمّ من كل وجه تعرض عند ذلك الوجود الأثر فيه عن إرادة منه بتأثير تكون فيه سعادته ﴿أَئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] لأنها علمت أنها إن لم تجب مختارة جبرت على الإتيان فجيء بها كما جيء بجهنم، وما وصفها الحق بالمجيء من ذاتها وإنما قال: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣] يعني يوم القيامة، وإنما امتنعت من الإتيان حتى جيء بها لما علمت بما هي عليه وما فيها من أسباب الانتقام بالعصاة من المؤمنين، وما وقعت عينها إلا على مسبح لله بحمده وفيها رحمة الله لكونها دخلت في الأشياء، قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فمنعتها الرحمة القائمة بها من الإتيان وأشهدتها تسبيح الخلائق وطاعتهم لله فجيء بها ليعلم من لا يدخلها ما أنعم الله عليه به بعصمته منها، ويعلم من يدخلها أنه بالاستحقاق يدخلها فتجذبه بالخاصية إليها جذب المغناطيس الحديد وهو قوله ﷺ: «**إِنَّهُ آخِذٌ بِحُجَزِ طَائِفَةٍ مِنَ النَّارِ وَهُمْ يَتَقَحَّمُونَ فِيها تَقَحُّمَ الفَرَاشِ**»، فاعلم ذلك، والضابط لهذه الحضرة الحد المقوّم لذات كل شيء محدود، وما ثم إلا محدود لكنه من المحدود ما يعلم حده ومنه ما لا يعلم حده، فكل شيء لا يكون عين الشيء الآخر كان ما كان، فذلك المانع أن يكون عينه هو المسمى عزاً وعزة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الجبروت وهي للاسم الجبار

[نظم: البسيط]

الجَبْرُ أَصْلٌ يَعُمُّ الكَوْنَ أجْمَعَهُ ... فما ترى غير مَجْبُورٍ لِمَجْبُورِ

العِلْمُ يَجْبُرُ من كنا نُعَظِّمُهُ ... وهذه نفثةٌ من صدر مَصْدُورِ

لـولاه مـا وُجِـدَتْ أعـيـانُـنـا وبَـدَتْ أكـوانُـنـا بـيـن مَـطْـوِيٍّ ومَـنْـشُـورِ

والمتخلق بهذا الاسم يسمى عبد الجبار هذه الحضرة لها الإجبار في الأعزاء ولا أثر لها إلا فيهم، فحضرتها عظيمة في الفعل، ولكن لا أثر لها في الأعزاء من جهة المعنى الذي وقعت للأشياء به العزه لا أثر لها في ذلك، ولكن أثرها في الأعزاء لقبولهم لما لا عزة لهم فيه، ومن هنالك يقبلون التأثير فاعلم ذلك.

اعلم أن العزيز إذا نظر إلى ما هو به عزيز وأنه من المحال قبوله للتأثير فيه من ذلك الوجه ولا يعلم عند شهوده ذلك أن فيه ما يقبل التأثير من غير هذا الوجه فيدعي المنع وأنه في حمى لا ينتهك فهنا يظهر حكم الجبروت في الملكوت، فإذا أحس العزيز بالجبر نظر عند ذلك من أين أتى عليه، فما ظهر له إلا من جهله بذاته، وأنه مركب من حقائق تقبل التأثير وحقائق لا تقبل التأثير، فإن كان عاقلاً بادر ليحصل له الثناء في تلك المبادرة، ويبقى الامتناع في باب الاحتمال عند الأجنبي عن مشاهدة هذه الحقائق، وإن تعاظم حكم الجبر عليه فيتصرف فيه في اختياره وهو أعظم الحجب وأكثفها، فمن شاهد الجبر في الاختيار علم أن المختار مجبور في اختياره، فليس للجبروت حكم أعظم من هذا الحكم، ومن دخل هذه الحضرة وكانت حاله عظم إحسانه في العالم حتى ينفعل له جميع العالم بل ينفعل له الوجود كله اختياراً من المنفعل وهو عن جبر لا يشعر به كل أحد فهو جبر الإحسان والتواضع، فإنه يدعوه إلى الانقياد إليه أحد أمرين في المخلوقين بل في الموجودات وهو الطمع أو الحياء، فالطامع إذا رأى الإحسان ابتداء من غير استحقاق أطمعه في الزيادة منه، إذا جاء إليه بما يمكن أن يكون معه الإحسان، وإنما تفعل النفس ذلك حتى يكون الإحسان جزاء وفاقاً لأنها تكره المنة عليها لما خلقت وجبلت عليه النفوس من حب النفاسة، وصاحب الحياء يمنعه الحياء بما غمره من الإحسان أن يعتاص على المحسن فيما يدعوه إليه، فهو مجبور بالإحسان في إتيانه وقبوله لما يريده منه هذا المحسن حياء ووفاء، وليجعل ذلك أيضاً جزاء لإحسانه الأوّل حتى يزول عن حكم المنة وهذا من دسائس النفوس، فلا جبر أعظم من جبر الإحسان لمن سلك سبيله وقليل ما هم. وأما الجبر بطريق القهر والمغالبة فهو وإن قبل في الظاهر ولم يقدر على الامتناع والمقاومة المجبور لضعفه فإنه لا يقبل الجبر بباطنه، فلا أثر له إلا في الظاهر، بخلاف جبر المحسن فإن له الأثر الحاكم في الظاهر والباطن بحكم الطمع أو الحياء أو الجزاء كما قررنا. وأما الجبر الذاتيّ فهو عن التجلي في العظمة الحاكمة على كل نفس فتذهل عن ذاتها وعزتها وتعلم عند ذلك أنها مجبورة بالذات فلا تجهل نفسها، فالعارف هنا ينظر من الحاكم عليه فلا يجد إلا قيام العظمة به فيعلم أنه ما حكم عليه إلا ما قام به، وما قام به إلا محدث فيعظم عنده الجبر فيعلم عند ذلك جبروت الحق. وأما جبروت العبد بمثل هذه الصفة فممقوت عند الله لأنه ليس له ذلك ولا يستحقه، وإنما جبر المخلوق في المخلوق بالإحسان خاصة وذلك هو الجبر المحمود شرعاً وعقلاً، وكل عبد أظهر القهر في العالم بغير صفة الحق وأمره فهو جاهل غاية الجهل، ولهذه الحضرة الجبروتية حكمان أو وجهان كيف شئت

قل الوجه الواحد العظمة وهو قول أبي طالب المكيّ وغيره ممن يقول بقوله، والوجه الآخر البرزخية فلهذا المقام الجمع بين الطرفين بما هو برزخ فيعلم نفسه ويعلم بطرفيه ما هو به برزخ بين شيئين فيكون جامعاً من هذا الوجه عالي المقام وبين فضله على الطرفين، فإن كل طرف لا يعلم منه إلا الوجه الذي يليه فهو عالم أعني الجبروت إن شاء تجلى في صورة برزخية وإن شاء تجلى في صورة إحدى طرفيها كيف شاء تجلى فيكون شبهه بالحق أتم، ونسبة هذا الجبروت إلى الحق نسبة لطيفة لايشعر بها كثير من الناس، وهو أن الحق بين الخلق وبين ذاته الموصوفة بالغنى عن العالمين، فالألوهة في الجبروت البرزخي فتقابل الخلق بذاتها وتقابل الذات بذاتها، ولهذا لها التجلي في الصور الكثيرة والتحوّل فيها والتبدل فلها إلى الخلق وجه به يتجلى في صور الخلق، ولها إلى الذات وجه به تظهر للذات، فلا يعلم المخلوق الذات إلا من وراء هذا البرزخ وهو الألوهة، ولا تحكم الذات في المخلوق بالخلق إلا بهذا البرزخ وهو الألوهة، وتحققناها فما وجدناها سوى ما ندعوه به من الأسماء الحسنى، فليس للذات جبر في العالم إلا بهذه الأسماء الإلهية، ولا يعرف العالم من الحق غير هذه الأسماء الإلهية الحسنى وهي أعيان هذه الحضرات التي في هذا الباب، فهذا قد أنبأناك بالجبروت الإلهي ما هو على الاقتصار والاختصار، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة كسب الكبرياء وهو للاسم المتكبر

[نظم: الكامل]

إنّ التَّكَبُّرَ من يقومُ بنفسه ... كِبْرٌ فكُنْ عبداً به مُتَكَبِّرَا

يَزْهُو ويَخْطُرُ في العداء بنفسه ... متجرداً عن كِبْرِهِ متبَصِّرا

كأبي دُجَانَة حين أشْهَرَ سَيْفَهُ ... يمشي به بين العِدَا مُتَبَخْتِرَا

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد المتكبر وهو اسم غريب غير متعارف وإنما يعرف الناس عبد الكبير، وقال الله عز وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] لم يقل كبير فإن التكبر لا يكتسبه الكبير وإنما يكتسبه الأدنى في الرتبة، فيكسب العبد الكبرياء بما هو الحق صفته، فالكبرياء لله لا للعبد فهو محمود مشكور في كبريائه وتكبره ويكسب الحق هذا الاسم، فإنه تعالى ذكر عن نفسه أنه متكبر وذلك لنزوله تعالى إلى عباده في خلقه آدم بيديه وغرسه شجرة طوبى بيده وكونه يمينه الحجر الأسود وفي يد المبايع بالإمامة من الرسل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] ونزوله في قوله: «**جِعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي وَظَمِئْتُ فَلَمْ تَسْقِنِي وَمَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي**» وما وصف الحق به نفسه مما هو عندنا من صفات المحدثات، فلما تحقق بهذا النزول عندنا حتى ظن أكثر المؤمنين أن هذا له صفة استحقاق وتأوّلها آخرون من المؤمنين، فمن اعتقد أن اتصاف الحق بهذا أن المفهوم منه ما هو المفهوم من اتصاف الخلق به أعلم الحق هذه الطائفة خاصة أنه يتكبر عن هذا أي عن المفهوم الذي فهمه القاصرون من كون نسبته إليه تعالى على حد نسبته إلى

المخلوق، وبه يقول أهل الظاهر أهل الجمود منهم القاصرة أفهامهم عن استحقاق كل مستحق حقه، فقال عن نفسه تعالى إنه الجبار المتكبر عن هذا المفهوم وإن اتصف بما اتصف به فله تعالى الكبرياء من ذاته، وله التكبر عن هذا المفهوم لا عن الاتصاف، لأنه لو تكبر عما وصف به نفسه مما ذكرنا لكان كذباً والكذب في خبره محال، فالاتصاف بما وصف به نفسه حق يعلمه أولو الألباب.

ومن هذه الحضرة يكون لبعض العباد ما يجدونه في قلوبهم من كبرياء الحق مما يفقده بعضهم من ذلك من العصاة ومن له اجتراء على الله، ومن الناس الذين يتوبون عن بعض المخالفات فيتميز عنهم من غلب على قلبه كبرياء الحق فإنه تكبر في نفس هذا العبد اكتسبه بعد أن لم يكن موصوفاً بهذه الصفة فعبيد المتكبر قليل، وأما الذين أجرأهم على المخالفة ما وصف الحق به نفسه من العفو والمغفرة ونهاهم عن القنوط من رحمة الله فما عندهم رائحة من نعت التكبر الإلهيّ الذي هو به متكبر في قلوب عباده، إذ لو كبر عندهم ما اجترؤوا على شيء من ذلك، ولا حكمت عليهم هذه الأسماء التي أطمعتهم، فإن كبرياء الحق إذا استقر في قلب العبد وهو التكبر من المحال أن تقع منه مخالفة لأمر الحق بوجه من الوجوه فإن الحكم لصاحب المحلّ في وقته، فدل وقوع المخالفة على عدم هذا الحاكم، فالحق المتكبر إنما هو في نفس هذا الموافق الطائع عبد الله على الحقيقة، وهذا أعلى الوجوه لهذه الحضرة في تكسب الكبرياء، حتى أن العبد المقدر عليه وقوع المحظور إذا اتفق أن يقع منه بحكم القدر المحتوم وسلب العقل عنه وظهور سلطان الغفلة وانتزاح الإيمان منه حتى يصير عليه كالظلة يأتي هذا الأمر وقلبه وجل مع هذا كله لإيمانه أنه إلى ربه راجع يعني هذا الفعل إذا نسبه من كونه فعلاً أنه راجع إلى الحق، والحكم فيه أنه معصية أو مخالفة إنما هو للعبد فيبقى العبد المقدّر عليه في وجل إن نسبه إلى الحق، فيرى الحكم بالذم الإلهي يتبعه فيدركه الوجل كيف ينسب إلى الله ما يناط به الذم وإن نسبه إلى نفسه من كونه محكوماً عليه بالذم، فإن كونه عملاً ينسب إلى الله حقيقة وأنه في التكوين لمن قال له ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] فلا حكم للعبد في وجود هذا العمل فيدركه الوجل إن نسبه مع هذا العلم في التكوين إلى نفسه فيكون ممن أشرك بالله، وقد نهى أن يشرك بالله شيئاً، وسبب هذا كله كبرياء الحق الذي اكتسبه بالنظر العقلي في نفسه، فما كبر الله من عصاه ولا عرف الله من لم يعصه، فإنه إذا عرف الله عرف أنه ما عصى إلا صيغة الأمر لا الأمر الإلهيّ فإنه جاءه على لسان واحد من أبناء الجنس، ورأى خطابه إياه بما خاطبه به ينقسم إلى ما تعضده الأدلة النظرية التى قد أمره الحق بها، وحكم العقل باتباعها وإلى ما ترده الأدلة النظرية وإن حكمت مع الشرع باتباع ما ترده إيماناً بذلك وتصديقاً، وقد حكم النظر العقليّ بدليله بصدق هذا المخبر وأنه لا ينطق إلا عن الله، وأن الله هو القائل على لسانه لهذا السامع ما خاطبه به، فإن عصاه فمن حيث هو مثل له والمثلان متقابلان فلا بد من حكم التقابل والتضاد، فلا بد من المخالفة وإن أطاع ووافق، فمن حيث إن المخاطب عين الحق ما هو المثل فيعظم في نفس السامع ويقبل

الخطاب، وذلك هو عين كون الحق متكبراً أي في نفس هذا العبد حين عصاه من حيث نظره إلى المثل في الخطاب. وأما الواقفون مع الصورة الإلهية في الخلق فإن الله إذا تسمى لهم بالمتكبر فإنه تنزيه لما هم عليه من الصورة ودواء لما يحصل لهم في نفوسهم من عظمتهم على المخلوقين، وما له دواء في نفس الخطاب إلا قوله: إن الله خلق آدم على صورته، فيعلم أنه حاز الصورة فهو مخلوق فقد تميز فلا يتمكن له أن يتكبر في نفسه، ولكن بهذا يكبر الحق عنده في قلبه بعد أن لم يكن لهذا العبد هذا النعت، فإذا أضافه إلى ما تقدم ظهر حكم اسم المتكبر والمجال واسع، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الخلق والأمر وهي للاسم الخالق

[نظم: الطويل]

إلى خالق الأرواح أَعْمَلْتُ هِمَّتِي لأَحْظَى به والشاهدون حُضُورُ
فيا من يراني عاملاً متخلّقاً ألا إنني ظِلٌّ لديه ونُورُ
وإنْ لم يكن هذا مقالي فإنني عُبَيْدٌ له بالعالمين خَبيرُ
وإنْ لم يكنْ قولي وقلتُ نيابةً فإني وَربِّ الراقصات كَفُورُ
وإن كان قولي فالوجودُ مُحَقّقٌ وإني عليم بالمقال بَصِيرُ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الخالق، والخلق خلقان: خلق تقدير وهو الذي يتقدم الأمر الإلهي كما قدمه الحق وأخر الأمر عنه فقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] والخلق الآخر بمعنى الإيجاد وهو الذي يساوق الأمر الإلهي، وإن تقدمه الأمر الإلهي بالرتبة فالأمر الإلهيّ بالتكوين بين خلقين: خلق تقدير وخلق إيجاد، فمتعلق الأمر خلق الإيجاد وستأتي حضرته وهي حضرة الباري، ومتعلق خلق التقدير تعيين الوقت لإظهار عين الممكن فيتوقف الأمر عليه وقد ورد: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ حَتَّى العَجْزُ وَالكَيْسُ**» والوقت أمر عدمي لأنه نسبة، والنسب لا أعيان لها في الوجود، وإنما الأعيان الممكنات الثابتة في حال العدم مرتبة كما وقعت وتقع في الوجود ترتيباً زمانياً، وكل عين تقبل تغييرات الأحوال والكيفيات والأعراض وأمثال ذلك عليها، فإن الأمر الذي تتغير إليه إلى جانبها متلبسة به. فلهذه العين القابلة لهذا الاختلاف في الثبوت أعيان متعددة لكل أمر تتغير إليه عين ثبوتية فهي تتميز في أحوالها وتتعدد بتعدد أحوالها، سواء تناهى الأمر أو لا يتناهى، وهكذا تعلق بها علم الباري أزلاً، فلا يوجدها إلا بصورة ما علمه في ثبوتها في حال عدمها حالاً بعد حال، وحالاً في أحوال في الأحوال التي لا تتقابل، فإن نسبتها إلى حال ما من الأحوال المتقابلة غير نسبتها إلى الحال التي تقابلها، فلا بد أن تثبت لها عين في كل حال، وإذا لم تتقابل الأحوال يكون لها عين واحدة في أحوال مختلفة، وكذا توجد، فالأمر الإلهي يساوق الخلق الإيجادي في الوجود، فعين قول ﴿كُن﴾ عين قبول الكائن للتكوين ﴿فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فالفاء في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ جواب أمره ﴿كُن﴾ وهي فاء التعقيب، وليس الجواب والتعقيب إلا في الرتبة، كما

يتوهم في الحق أنه لا يقول للشيء ﴿كُن﴾ إلا إذا أراده، ورأيت الموجودات يتأخر وجود بعضها عن بعض، وكل موجود منها لابد أن يكون مراداً بالوجود، ولا يتكوّن إلا بالقول الإلهيّ على جهة الأمر، فيتوهم الإنسان أو ذو القوّة الوهمية أوامر كثيرة لكل شيء كائن أمر إلهيّ لم يقله الحق إلا عند إرادته تكوين ذلك الشيء، فبهذا الوهم عينه يتقدم الأمر الإيجاد أي الوجود، لأن الخطاب الإلهي على لسان الرسول اقتضى ذلك فلا بد من تصوّره، وإن كان الدليل العقلي لا يتصوّره ولا يقول به، ولكن الوهم يحضرة ويصوّره كما يصوّر المحال ويتوهمه صورة وجودية وإن كانت لا تقع في الوجود الحسيّ أبداً، ولكن لها وقوع في الوهم، وكذا هي مفصلة في الثبوت الإمكاني، فإنّ قوّة الخيال ما عندها محال أصلاً ولا تعرفه، فلها إطلاق التصرف في الواجب الوجود والمحال، وكل هذا عندها قابل بالذات إمكان التصوّر، وهذه القوّة وإن كان لها هذا الحكم فيمن خلقها فهي مخلوقة، وهذا الحكم لها وصف ذاتي نفسي لا يكون لها وجود عين فيمن خلقت فيه إلا ولها هذا الحكم فإنه عين نفسها، وما حازها إلا هذا النشئ الإنساني، وبها يرتب الإنسان الأعيان الثبوتية في حال عدمها كأنها موجودة وكذلك هي، لأن لها وجوداً متخيلاً في الخيال، ولذلك الوجود الخيالي يقول الحق له: ﴿كُن﴾ في الوجود العينيّ ﴿فَيَكُونُ﴾ السامع هذا الأمر الإلهي وجوداً عينياً يدركه الحس أي يتعلق به في الوجود المحسوس الحس كما تعلق به الخيال في الوجود الخيالي.

وهنا حارت الألباب هل الموصوف بالوجود المدرك بهذه الإدراكات العين الثابتة انتقلت من حال العدم إلى حال الوجود؟ أو حكمها تعلق تعلقاً ظهورياً بعين الوجود؟ الحق تعلق صورة المرئيّ في المرآة وهي في حال عدمها كما هي ثابتة منعوتة بتلك الصفة، فتدرك أعيان الممكنات بعضها بعضاً في عين مرآة وجود الحق، والأعيان الثابتة على ترتيبها الواقع عندنا في الإدراك هي على ما هي عليه من العدم، أو يكون الحق الوجودي ظاهراً في تلك الأعيان وهي له مظاهر، فيدرك بعضها بعضاً عند ظهور الحق فيها فيقال: قد استفادت الوجود وليس إلا ظهور الحق وهو أقرب إلى ما هو الأمر عليه من وجه، والآخر أقرب من وجه آخر وهو أن يكون الحق محل ظهور أحكام الممكنات، غير أنها في الحكمين معدومة العين ثابتة في حضرة الثبوت، ويكشف المكاشف هذين الوجهين وهو الكشف الكامل، وبعضهم لا يكشف من ذلك إلا الوجه الواحد كان ما كان، فنطق صاحب كل كشف بحسب ما كشف، وليس هذا الحكم إلا لأهل هذا الطريق، وأما غيرهم فإنهم على قسمين: طائفة تقول لا عين لممكن في حال العدم وإنما يكون له عين إذا أوجده الحق وهم الأشاعرة ومن قال بقولهم، وطائفة تقول: إن لها أعياناً ثبوتية هي التي توجد بعد أن لم تكن، وما لا يمكن وجوده كالمحال فلا عين له ثابتة وهم المعتزلة والمحققون من أهل الله يثبتون بثبوت الأشياء أعياناً ثابتة، ولها أحكام ثبوتية أيضاً بها يظهر كل واحد منها في الوجود على حد ما قلناه من أن تكون مظهراً أو يكون له الحكم في عين الوجود الحق فهذا يعطيه حضرة الخلق والأمر ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] كما له ﴿ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الحضرة البارئية وهي للاسم البارىء

[نظم: الرمل]

بَـــرَا الله عـــلـــيـــه خَـــلْـــقَـــهُ فـــلـــذا كـــان عـــلـــى صُـــورَتِـــهِ
فـهـو يـمـشـي فـي وجـودي دائـمـاً بـالـذي يُـعْـلَـمُ مـن سِـيـرَتِـهِ

يدعى صاحبها عبد البارىء، فمن أصحابنا من قصرها على كل مخلوق من الأرض العنصري خاصة ما لها سوى ذلك من الخلق، وما عدا هذا الخلق المنسوب إلى أرض العنصر فخلق آخر ما هو عين هذا، ومن أصحابنا من عمم الأمر في كل مخلوق من أرض الطبيعة، فدخل فيه كل صورة طبيعية من جوهر الهيولى إلى كل صورة تظهر فيه، فلم يدخل اللوح والقلم والملائكة المهيمة في هذا الخلق وجعل أولئك خلقاً آخر، والكل خلق في العماء الذي هو نفس الرحمن القابل لصور كل ما سوى الله، وقد ورد ذلك في خلق الحق نفسه، فردّته العقول كلها لعدم فهمها من ذلك، وما شعرت بأن كل صاحب مقالة في الله أنه يتصوّر في نفسه أمراً ما يقول فيه هو الله فيعبده وهو الله لا غيره، وما خلقه في ذلك المحل إلا الله، فهذا معنى ذلك الخبر.

واختلفت المقالات باختلاف نظر النظار فيه، فكل صاحب نظر ما عبد ولا اعتقد إلا ما أوجده في محله وما وجد في محله وقلبه إلا مخلوق وليس هو الإله الحق، وفي تلك الصورة أعني المقالة تتجلى له، وإن كانت العين من حيث ما هي واحدة ولكن هكذا تدركه، وهذا معنى قول عليم الأسود حين ضرب بيده الأسطوانة فصارت ذهباً في عين الرائي فلما بهت الرائي عند ذلك قال له عليم: يا هذا إن الأعيان لا تنقلب ولكن هكذا تراها لحقيقتك بربك، يشير إلى ظهور الحق في صورة كل اعتقاد لكل معتقد، وهذا هو الحق المخلوق به في نفس كل ذي عقد من ملك وجان وإنسان مقلد أو صاحب نظر، فجاءت الأنبياء في الحق على مقالة واحدة لا تتبدل ولا تتغير بل عين ما أثبته الأول أثبته كل رسول بعده، ونبيّ إلى آخر من يخبر عن الله، وادّعوا أن ذلك مما أوحى به إليهم، ولولا ذلك لاختلفوا فيه كما اختلف أهل النظر فهم أقرب إلى الحق، بل ما جاؤوا إلا بالحق في ذلك ليصدق الآخر الأول والأول الآخر، وهذه مقالة لا يقتضيها النظر الفكري أصلاً لكن الكشف يعطيها. وعلى كل حال فأنجى الطوائف من اعتقد في الله ما أخبر الحق به عن نفسه على ألسنة رسله فإنا نعلم أن الحق صادق القول، فلولا أن هذا الحكم عليه صحيح بوجه ما وجه به إرساله إلى الكافة من عباده، ولولا أن له وجهاً في كل معتقد ما وصف نفسه على ألسنة رسله بالتحوّل في صور الاعتقادات، فقد يُرى في نفس كل معتقد صورة حق يقول من يجدها هذا هو الحق الذي نستند إليه في وجودنا فلم ير المخلوق إلا مخلوقاً فإنه لا يرى إلا معتقده، والحق وراء ذلك كله من حيث عينه القابلة في عين الرائي، والعاقل لهذه الصور لا في نفسها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] بالعالمين، كما نقول في صاحب المال أنه غنيّ بالمال عن المال، فهو الموجب له صفة الغنى عنده، وهي مسألة دقيقة لطيفة الكشف فإن الشيء لا يفتقر إلى نفسه فهو غنيّ بنفسه عن

نفسه لكونه عند نفسه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عنكم ﴿الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] الذي يرجع إليه عواقب الثناء، وما يثنى عليه إلا بنا من حيث وجودنا.

وأما تنزيهه عما يجوز علينا فما وقع الثناء عليه إلا بنا فهو غنيّ عنا بنا لأن كونه غنياً إنما هو غناه عنا، فلا بد منا لثبوت هذا الغنى له نعتاً، ومن أراد أن يقرب عليه تصوّر هذا الأمر فلينظر إلى ما سمى به نفسه من كل اسم يطلبنا فلا بد منا فلذا لم يكن الغنى عنا إلا بنا، إذ حكم الألوهية بالمألوه والربوبية بالمربوب والقادر بالمقدور، فللربوبية سر لو ظهر لبطلت الربوبية، كما أنّ للربوبية أيضاً سرّاً لو ظهر لبطلت النبوّة، وهو ما يقتضيه النظر العقليّ بأدلته في الإله إذا تجلى الحق فيه بطلت النبوّة فيما أخبرت به عن الله مما لا تقبله العقول من حيث أدلتها وقد دلت على صدق المخبر فلها الردّ والقبول، فتقبل الخبر الوارد وتردّ الفهم فيه الذي يقع به المشاركة بين الله وبين خلقه، وإذا رددت المفهوم الأوّل فقد بطلت النبوّة في حقها التي ثبتت عند السوداء وأمثالها والنبوّة لا تتبعض، فإذا رد شيء منها ردت كلها كما قال الله تعالى في حق من قال: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١] فرجح جانب الكفر في الحكم على جانب الإيمان وإنما رجح حكم الكفر لأحدية المخبر وصدقه عنده فيما أخبر به مطلقاً من غير تقييد لاستحالة الكذب عليه، فلا بد له من وجه صحيح فيما جاء به مما يردّه العقل، ولذلك المؤمن يتأوّل إذا كان صاحب نظر، وإذا عجز علم أن له تأويلاً يعجز عنه لا يعلمه إلا الله فيسلمه لله ولكن عن تأويل مجهول ما هو على مفهوم لفظه الظاهر، وعند أهل الله كل الوجوه الداخلة تحت حيطة تلك الكلمة صحيحة صادقة فهم المؤمنون حقاً، وقد أعد الله للمؤمنين ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

حضرة التصوير وهي للاسم المصوّر

[نظم: الطويل]

إذا كان من تَدْري مصوّر ذاتنا ... عليه فما في العَيْنِ إلا مُمَاثِلُ
وإن كان هذا مِثْلَ ما قُلْتُهُ لكم ... وصَحَّ به حُكْمي فصَحَّ التَّمَاثُلُ
فما عنده إلا الذي هو عندنا ... فإن صَحَّ هذا القولُ أين التفاضلُ
بلى إنه عيني وما أنا عَيْنَهُ ... ولو أنني كُفْؤٌ لَبَانَ التَّقَابُلُ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد المصور، والمصوّر من الناس من يذهب يخلق خلقاً كخلق الله وليس بخالق وهو خالق لأنه قال: ﴿تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] فسماه خالقاً وما له سوى هيئة الطائر، والهيئة صورته، وكل صورة لها قبول ظهور الحياة الحسية، فإنّ الله قد ذمّ وتوعد المصوّر لها لأنه لم يكمل نشأتها، إذ من كمال نشأتها، ظهور الحياة فيها للحس ولا قدرة له على ذلك، بخلاف تصويره لما ليس له ظهور حياة حسية من نبات ومعدن وصورة فلك وأشكال مختلفة، وليست الصورة سوى عين الشكل، وليس التصوير سوى عين التشكيل في الذهن.

واعلم أن الله لما خلق آدم على صورته علمنا أن الصورة هنا في الضمير العائد على الله أنها صورة الاعتقاد في الله الذي يخلقه الإنسان في نفسه من نظره أو توهمه وتخيله فيقول: هذا ربي فيعبده، إذ جعل الله له قوّة التصوير ولذلك خلقه جامعاً حقائق العالم كله، ففي أي صورة اعتقد ربه فعبده، فما خرج عن صورته التي هو عليها من حيث هو جامع حقائق العالم فلا بد أن يتصور فيه أعني في الحق إنسانيته على الكمال أو من إنسانيته، ولو نزه ما عسى أن ينزه فإن غاية المنزه التحديد، ومن حد خالقه فقد أقامه كنفسه في الحد، ولذلك أطلق الله له على لسان رسوله ﷺ: «**اعبُدِ الله كأنَّكَ تَرَاهُ**» فأدخل على الرؤية كاف التشبيه والتمثيل وقال له: «**إن الله في قِبْلَةِ المُصَلِّي**»، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] ووجه الشيء ذاته وحقيقته، ففي أي صورة أقام الله عبده فهي موضع توليه ففيها وجه الله، إن عقلت فقد أثبت الحق لك ما ينفيه عقلك بدليله، والحق أحق أن يتبع، فالإنسان ينشئ في نفسه صورة يعبدها فهو المصوّر وهو مخلوق منشأ أنشأه الله عبداً يعبد ما ينشئه: [البسيط]

فليس ينشئ عَبْدٌ غير خالقه ... وليس يُنْشِئُهُ إلا الذي خَلَقَهْ
فهو الذي أنشأ الأكْوَانَ أجْمَعَها ... في مُضْغَةٍ كان ذاك النَّشْءُ أو عَلَقَهْ
فزاد في خَلْقِهِ بكون خالقه ... له الغِنَى ولهذا فَقْرُهُ طَبَقَهْ
مع الغِنَى فله النَّعْتَان قد جُمِعَا ... بمثل هذا الذي قلناه قد سَبَقَهْ

فللعبد المؤمن إقامة نَشْء صور الأعمال التي كلفه الحق أن يقيم نشأتها على أتم الوجوه، وأعطاه القوّة على نفخ الروح في كل صورة ينشئها من عمله وهو الحضور والإخلاص فيها، وما ذم الله عبداً يصوّر صورة لها روح منه ينفخه فيها بإذن ربه فتقوم عنه حية ناطقة مسبحة بحمد ربه، وإنما ذم الله من يخلق صورة لها استعداد الحياة، فلا يحييها إذ كان خالقها، ولكن بما هي عليه من الاستعداد يحييها الحق دون هذا الذي أنشأها، فبمثل هذا المصوّر تعلق الذمّ الإلهيّ، ثم إن الحق ردّ كل صورة في العالم تظهر عن الأسباب المنشئة لها إلى نفسه في الخلق تعالى فقال في كل عامل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] فهو خالقك وخالق ما أضاف عمله إليك، فأنت العامل لا العامل كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ فنفى عين ما أثبت لك وأثبته لنفسه فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] وما رمى إلا العبد، فأعطاه اسمه وسماه به، وبقي الكلام في أنه هل حلاه به كما سماه به أم لا، فإنا لا نشك أن العبد رمى، ولا نشك أن الله تعالى قال: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ وقد نفى الرمي عنه أوّلاً فنفى عنه اسم العبودة وسماه باسمه إذ لا بد من مسمى، وليس إلا وجود عين العبد لا من حيث هو عبد لكن من حيث هو عين، فإن العبد لا يقبل اسم السيادة والعين كما تقبل العبودية تقبل السيادة، فانتقل عنها الاسم الذي خلقت له وخلع عليها الاسم الذي يكون عنه التكوين وهو قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ والحق لا يباهت خلقه، فما يقول إلا ما هو الأمر عليه في نفسه، فنفى ما يستحق النفي لعينه، وأثبت ما يستحق الثبوت أيضاً لنفسه، فظهرت الحقائق في أماكنها على منازلها ما اختل شيء منها في نفس الأمر، وإن ظهر

الاختلال بالنظر إلى قوم فذلك الاختلال لو لم يكن لكان في الوجود نقص لعدم حكم ذلك الاختلال فلا بد من كونه لأنه لا بد من كمال الوجود وهو قولنا في النقص: إنه من كمال الوجود أن يكون فيه نقص وإن كان عيناً سلبية ولكن حكمها واضح لمن عقل الأمور على ما هي عليه، فحضرة التصوير هي آخر حضرة الخلق، وليس وراءها حضرة للخلق جملة واحدة فهي المنتهى والعلم أولها، والهوية هي المنعوتة بهذا كله أعني الهوية، فابتدأ بقوله هو لأن الهوية لا بد منها، ثم ختم بها في السلب والثبوت وهو قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر: ٢٢] وابتدأ من الصفات بالعلم بالغيب والشهادة، وختم بالمصور ولم يعين بعد ذلك اسماً بعينه بل قال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤]. ثم ذكر أن له ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: ٢٤] ولم يقل وما في الأرض لأن كثيراً من الناس في الأرض لا يسبحون الله، وممن يسبح الله منهم ما يسبحه في كل حال، والأرض تسبحه في كل حال والسموات وما فيها وهم الملائكة والأرواح المفارقة وهي تسبحه كما قال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] فراعى هنا من يدوم تسبيحه وهو الأرض، كما راعى في مواطن آخر من القرآن تسبيح من في الأرض وإن كان البعض من العالم فقال عز من قائل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، بجمع من يعقل، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ وزاد في التأكيد بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فأتى بلفظة من ولم يأت بما وأتى في الحشر بما ولم يأت بمن، فإن سيبويه يقول: إن اسم ما يقع على كل شيء إلا أنه لم يعم الموجودات، فوجلت قلوب من بقي منها ولم يقع له ذكر في التسبيح، فجبر الله كسرها وأزال وجلها بقوله عقيب هذا القول: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ وزاد في الثناء عليهم بجهل الناس تسبيحهم بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فكان هذا الجبر في مقابلة ذلك الانكسار الذي نالهم، فتضاعف الطرب عندهم بذلك والفرح وما هو تضاعف على الحقيقة وإنما هو تعمير الموضع الذي ظهر الكسر، فإنه أخبر أن كل شيء يسبح بحمده كما هو الأمر عليه في نفسه، وسدّ خلل الانكسار بقوله: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ بحرف الاستدراك وهو قوله: «ولكن» طمعاً في أن ينفردوا دون من سواهم بهذا التسبيح الخاص، فإن الناس إذا عرفوه سبحوا الله أيضاً به، فالمسبحون أبداً في إنشاء صور فهم المصوّرون الذين ينفخون في صورهم أرواحاً، وإنشاء الصور لا يتناهى دنيا ولا آخرة، فالإنشاء متصل دائم وإن تناهت الدنيا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة إسبال الستور وهي للاسم الغفار والغافر والغفور

[نظم: الطويل]

إذا كان دِرْعي من وُجُودي لِبَاسَهُ فإنّ وجودَ الحَقّ للرأس مِغْفَرُ
فَحَقِّقْ مقالي إنه فيه بَيِّنٌ فإن شئتُ أُبديه وإن شئتُ أَسْتُرُ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الغفار وهي حضرة الغيرة والوقاية والحفظ والعصمة

والصون. فاعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الأمور كلها ستور بعضها على بعض، وأعلاها ستر الاسم الظاهر الإلهيّ فإنه ستر على الاسم الباطن الإلهيّ، وما ثم وراء الله مرمى فهو ستر عليه، فإذا كنت مع الاسم الباطن الإلهيّ في حال شهود ورؤية كان هذا الاسم الإلهيّ الباطن الذي أنت به في الوقت متحداً وله مشاهد ستراً على الاسم الإلهيّ الظاهر، ولا تقل انتقل حكم الظهور للاسم الإلهيّ الباطن وصار البطون للاسم الظاهر بل الظاهر على ما هو عليه من الحكم يعطي الصور في العالم كله، والباطن وإن كان مشهوداً فهو على حاله باطن يعطي المعاني التي تسترها الصور الظاهرة، فهذا أعلى الستور وأخفاها، وأعلى مستور وأخفاه، ودون هذا الستر كون القلب وسع الحق فهو ستر عليه، فإن القلب محل الصور الإلهية التي أنشأتها الاعتقادات بنظرها وأدلتها، فهي ستور عليها لذلك تبصر الشخص ولا تبصر ما اعتقده إلا أن يرفع لك الستر بستر آخر وهو العبارة عن معتقده في ربه. فالعبارة وإن دلتك عليه فهي ستر بالنظر إلى عين ما تدل عليه، فإن الذي تدل عليه ما ظهر لعينك وإنما حصل في قلبك مثل ما يعتقده صاحب تلك العبارة، فأخبر عن مستور وهو عندك مستور أيضاً فما كشفته ولكن نقلت مثاله إليك لا عينه، فكل حرف جاء لمعنى فهو ستر عليه وإن جاء ليدل عليه فهو الستر من أعظم الستور، وإن كان دون الستر الأوّل الذي هو ستر الأسماء الإلهية، وإن دلت على ذات المسمى فهي أعيان الستور عليها، فإن الناظر يحار فيها لا ختلاف أحكامها في هذه الذات المسماة، فكل اسم له حكم فيها فهي وإن عزت وعظمت لها الحكم الذاتيّ في الوجود بالإيجاد محكوم عليها بأحكام هذه الأسماء الحسنى، بل أسماء الموجودات كلها أسماؤها لمن فهم عن الله. ثم المرتبة الثالثة في النزول في علم الستور ستور أعيان الأسماء اللفظية الكائنة في ألسنة الناطقين، والأسماء الرقمية في أقلام الكاتبين، فإنها ستور على الأسماء الإلهيّة من حيث إن الحق متكلم لنفسه بأسمائه، فتكون هذه الأسماء اللفظية والمرقومة التي عندنا أسماء تلك الأسماء وستوراً عليها، فإنا لا ندرك لتلك الأسماء كيفية، ولو أدركنا كيفيتها شهوداً لارتفعت الستور وهي لا ترتفع، وما لنا في أنفسنا أمثلة لها جملة واحدة، بل أعظم ما عندنا تخيلها في نفوسنا، والتخيل أمر تحدثه في النفوس المحسوسات فتصوّرها بالقوّة المصوّرة في خيال الشخص، وليس بعد هذه الستور إلا ستور الخلق بعضه على بعض، فالستور وإن كانت دلائل إجمالية، فالعالم بل الوجود كله ستر ومستور وساتر، فنحن في عيبه مستورون وهو ستر علينا فهو مشهود لنا إذ الستر لا بد أن يكون مشهوداً لمستوره، فإن الستر برزخ أبداً بين المستور والمستور عنه فهو مشهود لهما.

ولما جاءت الأحكام المشروعة إلى المكلفين وتعلقت بأفعالهم وفرق الحكم في أفعال المكلفين إلى طاعة ومعصية ولا طاعة ولا معصية، وإلى مرغب فيه وإلى حكم غير مرغب فيه، فالطاعة والمعصية حظر ووجوب فعلاً أو تركاً، والمرغب فيه وغير المرغب فيه ندب وكراهة فعلاً أو تركاً، ولا طاعة ولا معصية ولا مرغب فيه ولا غير مرغب فيه إباحة وهو حكم مرتبة النفس بما هي لذاتها وعينها، وباقي الأحكام ليست لعينها وإنما تقبله بالداعي من خارج من لمة

ملك ولمة شيطان فهي لمن حكمت عليه لمته منهما لا لذاتها، فالسعيد من النفوس المكلفة على نوعين في السعادة: النوع الواحد مستور عن قيام المعصية به وغير المرغب فيه ولا لا طاعة ولا لا معصية ولا مرغباً ولا غير مرغب فيه فهو أسعد السعداء، والنوع الآخر هو المستور بعد حكم المعصية فيه عن العقوبة على ذلك وهو المغفور له. وهذه الأحكام تتعلق من المكلف في ظاهره وباطنه، فالسعيد التام الكامل المعصوم ودونه المحفوظ ظاهراً غير المحفوظ باطناً، فأقل مستور من اسمه عبد الغافر، وأكثر مستور من اسمه عبد الغفور، والمتوسط بينهما عبد الغفار، فالناس أعني المكلفين على ثلاثة أحوال: غافر وغفار وغفور. ثم إن للمكلفين بعضهم مع بعض حكم هذه الأسماء فيمن جنى عليهم أو من حموه عن وقوع الجناية منهم، ولهم أحكام أسماء الله فمن تجاوز عمن جنى عليه تجاوز الله عنه، ومن أنظر معسراً جنى ثمرة ذلك في الآخرة من عند الله، فما يرى المكلف في الآخرة إلا أعماله، ثم إن الله يعفو عن كثير.

واعلم أن من الستور وإرخائها ما هو معلول بالبشرية وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ وهو الستر ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١] وهو ستر أيضاً، وليس الستر هنا سوى عين الصورة التي يتجلى فيها للعبد عن إسماعه كلام الحق في أي صورة تجلى، فإن الله يقول لنبيه ﷺ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] والمتكلم رسول الله ﷺ، وأن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، وقوله تعالى: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ**» الحديث، فهذه كلها صور حجابية أعطتها البشرية وما ثم إلا بشر، وروح هذه المسألة: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] فنفى الوسائط عن خلق آدم، ومن هنا إلى ما دون ذلك حكم اسم البشر، فحيث ارتفعت الوسائط ظهر حكم البشرية لمن عقل: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧] فهذا حصر الستور وإرخاؤها على البدور والمكسوفات ستور، فمنها ظلالية ومنها أعيان ذوات مثل كسوف القمر والشمس وسائر الكواكب الخمسة وأعظمها ستر الشمس فإنها تطمس أنوار الكواكب كلها، فلا يبقى نور إلا نورها في عين الرائي وإن كانت أنوار الكواكب مندرجة فيها ولكن لا ظهور لها كما قال النابغة الجعدي في ممدّحه: [الطويل]

ألـم تَـرَ أن الله أعـطـاك صُـورةً ... تَـرَى كُـلَّ مَـلْـكٍ دونـهـا يَـتَـذَبْـذَبُ
بـأنـك شَـمْـسٌ والـمـلـوكُ كـواكـبٌ ... إذا طَـلَـعَـتْ لـم يَـبْـدُ مـنـهـنّ كَـوْكَـبُ

ونعلم بالقطع أن الكواكب بادية وطالعة في أعيانها ومجاريها، غير أن إدراك الرائي يقصر عنها لقوّة نور الشمس نور على نور البصر فيبهره، قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت ربك؟ فقال: «**نورٌ أَنَّى أراه**» فكيف أن يرى به فهو حجاب عليه، ولم يكن ذلك إلا لضعف الإدراك، فإنه تعالى قد يتجلى فيما دون النور فيرى كما ورد أينما شاء وهو القائل: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] فرؤيته لا رؤيته فهو المستور المرئي من غير ظهور ولا إحاطة فالستر لا بد منه، وهذا القدر كافٍ من الإيماء، فإن ميدان الغفران واسع لأنه الغيب والشهادة﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ٢٠] فأسبل الستر بالوراء على أعين السامعين فوقفوا مع ما سمعوا: [مخلع البسيط]

فـأَسْـبَـلَ الـسِّـتْـرَ بـالـوَراءِ إسْـبَـالَـهُ الـسِّـتْـرَ بـالـمَـرَائـي
بـلا نـزاعٍ ولا خـصـام ولا جـدالٍ ولا مِـراءِ
فـكـل مُـجْـلَـى لـه حـجـابٌ يـحـجُـبُـه عـنـد كـل راءِ
مِـنْ عـن يـمـيـنٍ وعـن شـمـال وعـن أمـام وعـن وَرَاءِ
يـعـرفـه كـل مـن رآه مـن مـخـلـص كـان أو مُـرَاءِ

حضرة القهر

[نظم: الطويل]

إذا كـان قـهـري عَـيْـنَ أَمْـري فـإنـنـي إذا مـا أمـرتُ الأمْـرَ كـان لِـيَ الـقَـهْـرُ
عـلـيـه فـيـبـدو لـلـوجـود بـصُـورتـي فـمـا نَـهْـيُـنـا نَـهْـيٌ ولا أمْـرُنـا أمْـرُ

يدعى صاحبها عبد القهار وعبد القاهر، فأكبر العلماء من لا يكون له هذا الاسم أعني عبد القهار ولا عبد القاهر، وهو العارف المكمل المعتنى به بل هو المعصوم، وما تجلى لي الحق بحمد الله من نفسي في هذا الاسم، وإنما رأيته من مرآة غيري لأن الله عصمني منه في حال الاختيار والاضطرار فلم أنازع قط، وكل مخالفة تبدو مني لمنازع فهي تعليم لا نزاع، فإني ما ذقت في نفسي القهر الإلهي قط ولا كان له من هذه الحضرة فيّ حكم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] أي قهر عباده لما صدر منهم في النزاع ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١] وهو التوكيل أعني هذا الإرسال في حق قوم وحفظاً وعصمة في حق آخرين وهو قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي من حيث إن الله أمرهم بحفظه فهم المعصومون المحفوظون، وقد يحفظونه من أمر النازل به فيدفعونه كما فعل بالزاني في حين زناه أخرج عنه الإيمان حتى صار عليه كالظلة يحفظه من أمر الله النازل به حيث تعرض بالمخالفة لنزول البلاء عليه، فيحفظه الإيمان من هذا الأمر النازل بأن يتلقاه فيردّه عنه لعله يستغفر أو يتوب، فإذا كان غير المعصوم يحفظ مثل هذا الحفظ فما ظنك بالمعتنى به فإنه محفوظ في الأصل، وأدق ما يكون من الخلاف النزاع الإلهي بإنابة العبد، فإذا زال العبد عن إنابته لم يجد القهار من يقف له فيقهره والسهم لا يمشي إلا إلى مرماه.

واعلم أن الدعاء لا يقتضي المنازعة كما ذهب إليه سهل والفضيل بن عياض حيث أرادا ما أراد الله كما جاء عنهما فإن الدعاء ذلة وافتقار والنزاع رياسة وسلطنة، ولولا النزاع القائم بنفوس الرعية الذين لو مكنوا من إرساله لوقع منهم ما أضيف إلى الرعية أنهم مقهورون تحت سلطان مليكهم، ومن لم يخطر له شيء من ذلك ولم ينازع فما هو مقهور ولا الملك له بقاهر بل هو به رؤوف رحيم، فمن قهر تخلقاً من عباد الله فإنما قهر بالله من نازع أمر الله لا بنفسه، وما ثم إلا نزاع الشيطان بلمته فيما يلقيه إلى هذا العبد في قلبه منازعة لأمر الله ونهيه هذا قصده بالإلقاء، وإن لم يخطر للعبد ذلك فإنه لا يخطر له مثل هذا الكون الإيمان يردّه، ولكن

يستدرجه بالمخالفة شيئاً بعد شيء إلى أن يكفر، فإن المعاصي بريد الكفر ولا تأتي إذا كثرت وترادفت إلا بالكفر، فلهذا يسارع بها وينوّعها الشيطان، فلا يزال المؤمن يقهره بلمة الملك مساعدة للملك على نفسه لينجو، فإن المؤمن يقول: لا حول ولا قوّة إلا بالله.

ومن النزاع الخفي الصبر على البلاء إذا لم يرفع إزالته إلى الله كما فعل أيوب عليه السلام وقد أثنى الله عليه بالصبر فقال مع ثبوت شكواه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] فذكره بكثرة الرجوع إليه في كل أمر ينزل به، فمن حبس نفسه عند الضرّ النازل به عن الشكوى إلى الله في رفع ما نزل به وصبر مثل هذا الصبر فقد قاوم القهر الإلهي، فإن الله قاهر هذا العبد وإن كان محموداً في الطريق، ولكن الشكوى إلى الله أعلى منه وأتم، ولهذا قلنا: إن الدعاء لا يقدح ولا يقتضي المنازعة، بل هو أعلى وأثبت في العبودة من تركه. وأما الرضا والتسليم فهما نزاع خفي لا يشعر به إلا أهل الله، فإن كان متعلق الرضا المقضي به فيحتاج إلى ميزان شرعي وإن كان متعلق الرضا القضاء، فإن كان القضاء يطلب القهر ويجد الراضي ذلك من نفسه فيعلم أن فيه نزاعاً خفياً فيبحث عنه حتى يزيله وإن لم يرَ أنّ ذلك القضاء يطلب القهر فيعلم أنه الرضا الخالص الجبلي لأن الرضا من راض يروض ومنه الرياضة ورضت الدابة وهو الإذلال، ولا يوصف به إلا الجموح والجموح نزاع، إنما يراض المهر الصغير لجموحه وجهله بما خلق له، فإنه خلق للتسخير والركوب والحمل عليه، والمهر يأبى ذلك فإنه ما يعمله فيراض حتى ينقاد في أعنة الحكم الإلهي، وكذلك رياضة النفوس لولا ما فيها من الجموح لما راضها صاحبها، فإذا خلقت مرتاضة بالأصالة فكان ينبغي أن لا يطلق عليها اسم راضية بل هي مرضية، وإنما النفوس الإنسانية لما خلقها الله على الصورة الإلهية شمخت على جميع العالم ممن ليست له هذه الحقيقة، وانحجبت عن الحقائق الإلهية التي تستند إليها حقائق العالم حقيقة فاكتسبت الرياضة لأجل هذا الشموخ فذلت تحت سلطانه وحمدت على ذلك، وكذلك التسليم لم يصح إلا مع التمكن من الجموح، وكذلك التوكيل لم يصح إلا بعد الملك فهو نزاع خفي، والقهر الإلهي يخفى بخفاء النزاع ويظهر بظهور النزاع، والعارف لا يغفل عن نفسه طرفة عين، فإنه إذا غفل عن نفسه غفل عن ربه، ومن غفل عن ربه نازع بباطنه ما يجده من الأثر فيه مما يخالف غرضه، فيجيء القهر الإلهي فيقهره، فيكون إذا كثر منه مثل هذا يسمى عبد القهار، وإذا قل منه يسمى عبد القاهر. والضابط لهذه الحضرة أن ينظر الإنسان في خفايا موافقاته ومخالفاته فيعلم من ذلك هل لهذه الحضرة حكم فيه أم لا؟ فهذا أمر كلي قد وكلناك فيه إلى نفسك وأنت أعلم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الوهب وهو للاسم الوهاب

[نظم: الطويل]

جَميعُ العطايا منه وَهْبٌ إلٰهي ... وإن كان لا يُدْرَى الوُجُودُ الكِيَاني
فذلك لا يَخْفَى على كل عاقل ... عن الله إن كان العيان الإلٰهي
فإن لم يكن فالجهلُ نَعْتٌ لخَلْقِهِ ... به وبذا جاء الوجودُ العَيَانِي

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الوهاب، والوهب العطاء من الواهب على جهة الإنعام لا يخطر له خاطر الجزاء عليه من شكر ولا غيره، فإن اقترن به طلب شكر جزاء فليس يوهب، وإنما هو عطاء تجارة يطلب به الربح والخسران، فإن العطاء الإلهي على أنواع متعدّدة سيأتي ذكرها في هذا الباب إن شاء الله، فمن هذه الحضرة يتجرّد العبد عن جميع أغراضه كلها في إحسانه بهباته البدنية والمالية، ومعنى البدنية أن يصرف بدنه بسفر أو أي نوع كان من أنواع الحركات البدنية في حق من كان من عباد الله من إنسان أو حيوان، لا يبتغي بذلك أجراً ولا يطلب عليه شكراً إلا لمجرّد الإنعام على هذا الذي يتحرّك من أجله مما له فيه منفعة أو دفع مضرة، وكون الله عز وجل يأجره على ذلك، ذلك إلى الله تعالى لا إليه، بل يفعل ذلك لمجرد قيام هذه الصفة به، وحكم هذا الاسم الإلهي عليه، فإذا تحرك في العبادات التي لاحظ للخلق فيها كالصلاة والصيام والحج وأمثال ذلك بل كل عبادة مشروعة وهو مستمد من هذه الحضرة، فينوي في عبادته تلك ما كان منها لا حظ للمخلوق فيها أن ينشئها ويظهر عينها بحركاته أو مسكه عنها إذا كانت العبادة من التروك لا من الأفعال، فينشئها صورة حسنة على غاية التمام في خلقها والكمال لتقوم صورة لها روح بما فيها من الحضور مع الله بالنية الصالحة المشروعة في تلك العبادة يفعلها فرضاً كانت أو نفلاً من حيث ما هي مشروعة له على الحد المشروع لا يتجاوزه، لتسبح الله تلك الصورة التي أنشأها المسماة عبادة، وتذكر الله بحسب ما يقتضيه أمره فيها تعالى، ويزيد هذا العبد الإنعام على تلك الصورة العملية المشروعة بالظهور لتتصف بالوجود فتكون من المسبحين بحمد الله إنعاماً عليها وعلى حضرة التسبيح، فيخلق في عباداته السنة مسبحة لله بحمده لم يكن لها عين الوجود. جاءت امرأة إلى مجلس شيخنا عبد الرزاق فقالت له: ياسيدي رأيت البارحة في النوم رجلاً من أصحابه قد صلى صلاة فانتشأت تلك الصلاة صورة فصعدت وأنا أنظر إليها حتى انتهت إلى العرش فكانت من الحافين به، فقال الشيخ صلاة بروح متعجباً من ذلك، ثم قال: ما تكون هذه الصلاة لأحد من أصحابي إلا لعبد الرزاق يقول ذلك في نفسه، فقال لها: وعرفت ذلك الشخص من أصحابي؟ قالت نعم هو هذا وأشارت إلى عبد الرزاق الذي خطر للشيخ فيه، فقال لها الشيخ: صدقت وأخذها مبشرة من الله. أخبرني بهذه الحكاية عبد الله ابن الأستاذ الموروري بمورور من بلاد الأندلس وكان ثقة صدوقاً، كما خلق عيسى عليه السلام كهيئة الطير من الطين فنفخ فيه فكان طائراً بإذن الله، ولم يكن لهذه الصورة وجود إلا على يديه، ثم نفخ فيها فكانت طائراً بإذن الله، أي أن الله أمره بذلك وأذن له فيه، كما أمر الله أيضاً المؤمن في الشرع وأذن له في إنشاء صور عباداته التي كلفه الله عز وجل بها، فإن كان عيسى عليه السلام قد نوى في خلقه ذلك الطائر الإنعام على تلك الصورة لتلحق بالموجودات وينعم على حضرة التسبيح بزيادة المسبحين فيها كان من أهل هذه الحضرة والتحق بهم، وإن كان نوى غير ذلك فهو لما نوى، وما بين صاحب هذا المقام وغيره إلا مجرد النية ومشاهدة صدور الأعمال منه صوراً فإن الأمر في نفسه من إنشاء صور العبادات من المكلفين لا بد منه في كل

مكلف قبيحة كانت أو حسنة، ويفترقون في النيات والمقاصد، وما ثم إلا مكلف، فأعظمها منزلة من يقصد بعبادته ما ذكرناه، فإن عمل هذا العبد هذه العبادة لكونها أعظم صفة ومنزلة في العبادات فما هو ذلك الذي ذكرناه من هذه الحضرة فإن االأمر لا يقبل الاشتراك، فمثل هذا ما أقامه في نشء صور هذه العبادات إلا كونها من أعظم الصفات وأجلها، فتميز بذلك عمن لم يقمه الله في مثل هذا طلباً للأجر والمثوبة، وإنما يقصد صاحب هذه الحضرة مجرد الإنعام على ظهور تلك العبادة وزيادة المسبحين لله، لا يبتغي بذلك حمداً ولا ثناء ولا جزاء إلا عين ما قصده الحق في إيجاد العالم، فكما قصد الله بالخلق أن يعبدوه في مثل ما نص عليه من ذلك في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] فنوى هذا العبد في إنشاء صور العبادات أن تعبد الله كما أراده الحق، وهذا لا يبطل نية الإنعام من هذا العبد على هذه الصور بالإنشاء والإيجاد، فإن كان مشهد هذا العبد أن الله هو المنشيء هذه الصور بالعبد لا هو فليس من هذه الحضرة الوهبية الكيانية، بل ذلك من الوهب الإلهي على هذه الصورة المنشأة. وليس غرضي فيما ذكرناه ما هو الأعلى والأعظم في المنزلة، وإنما غرضي تمييز المقامات بعضها من بعض حتى لا يلتبس على القائمين بها، فإنها تتداخل الأحكام فيها ولا يشعر لحد الفصل بين الأحوال والمقامات إلا الراسخون في العلم الإلهي، فإذا جازاهم الله على ما أنشؤوه إنعاماً من الله تعالى عليهم كان جزاء من أشهد أن إنشاء تلك الصور لله لا للعبد المكلف، وأن الإنعام لله في ذلك عليها لا إلى المكلف، فإنه أعظم جزاء إلٰهياً من الذي لم يشهده الله ذلك عند إنشائها، فقد تميز الشخصان بما وقع لهما به الشهود عند العمل المشروع، وهذا عمل لم ينسج على منواله انفردنا بالتنبيه عليه على غاية الكمال من العبد وحررناه تحريراً تاماً، فإن أحداً من العلماء بالله وبالأشياء ما يجهلون العطاء على جهة الإنعام، ولكن مثل ما ذكرناه لا يتصوره ولا يخطر ببال كل عامل إلا من تحقق بهذه الحضرة الواهبة خاصة وهو المسمى عبد الوهاب، والوهاب أوجده لا غيره من الأسماء مثل قوله في عيسى عليه السلام لمريم ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] والصور التي أوجدها الاسم الوهاب قليلة جداً تعلم ذلك إذا علمت مراتب العلماء بالأسماء الإلهية بالغاً بالأسماء الإلهية فاعلم ذلك، وهذا القدر من الإيماء إلى علم هذه الحضرة كاف إن شاء الله تعالى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وهو الهادي إلى طريق مستقيم.

حضرة الأرزاق وهي للاسم الرزاق

[نظم: البسيط]

الـرِّزْقُ رِزْقَـانِ مـحـسـوسٌ ومـعـقـولُ ... يـدري بـذلـك مـعـقـولٌ ومـنـقـولُ

فـمـنـه يـقـبـل مـا يـعـطـيـه مـن مِـنَـحٍ ... وذلك الـرزق فـي الـتـحـقـيـق مـقـبـولُ

جَـلَّ الإلٰـهُ فـمـا تُـحْـصَـى عـوارِفُـهُ ... وفـي مـعـارفـهـا هَـدْيٌ وتـضـلـيـلُ

مثل النكاح الذي يحوي على عَجَبٍ ... مـن الـتَّـلَـذُّذ تَـلْـسِـيـنٌ وتـقـبـيـلُ

قال الله تعالى في قصة مريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الرزاق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧] هذا في حق من أطعم من أجله حين سمعه يقول سبحانه في الخبر الصحيح: «**جِعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، وَظَمِئْتُ فَلَمْ تَسْقِنِي فَيَقُولُ العَبْدُ: كَيْفَ تَطْعَمُ وَتَشْرَبُ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ الحَقُّ: إِنَّ عَبْدِي فُلَاناً جَاعَ وَفُلَاناً ظَمِىءَ فَلَوْ أَطْعَمْتَهُ حِينَ اسْتَطْعَمَكَ أَوْ سَقَيْتَهُ حِينَ اسْتَسْقَاكَ**» فذلك معنى قوله تعالى: «**جِعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي وَظَمِئْتُ فَلَمْ تَسْقِنِي**» فأنزل نفسه تعالى منزلة الجائع والعاطش الظمآن من عباده، فربما أدى العامل على هذا الحديث الإلهي أن يجهد في تحصيل ما يطعم به مثل هذا حتى يكون ممن أطعم الله تعالى فقال له الله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧] انتقال من مقام إلى مقام لأنه يعلم عباده العلم بالمقامات والأحوال والمنازل في دار التكليف حتى يتنقلون فيها. ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] والمتانة في المعاني كالكثافة في الأجسام فجاء بالاسم المناسب للرزق لأن الرزق المحسوس به تتغذى الأجسام وتعبل، وكلما عبلت زادت أجزاؤها وكثفت، وأين السمن من الهزال؟ فما أحسن تعليم الله وتأديبه وتبيانه لمن عقل عن الله.

واعلم أن الرزق معنوي وحسي أي محسوس ومعقول، وهو كل ما بقي به وجود عين المرزوق فهو غذاؤه ورزقه وقوله: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢] وقال في الأرض: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] وهي الأرزاق، وتقديرها بوجهين: الوجه الواحد كمياتها، والثاني أوقاتها، فالرزق الذي في الأرض ما تقوم به الأجسام، والذي في السماء ما تقوم به الأرواح، وكل ذلك رزق ليصح الافتقار من كل مخلوق وينفرد الحق بالغنى، وأرفع المنازل في الأرزاق وشهودها رزق ما يظهر به عين الوجود الحق من صور أحكام الممكنات ومن صور التجلي، فينظر صاحب هذه المشاهدة إلى الصورة في التجلي أو لصور أحكام الممكنات في عين الوجود الحق فينظر ما تستحقه تلك الصورة من مسمى الرزق وما تطلبه لبقائها فيكون هذا العبد يرزقها ذلك إذا كان مشهده هذه الحضرة أعني حضرة الأرزاق، ثم ينزل الأمر في الكائنات الخلقية والأمرية بحسب حقائقها، فيطلب عين الكون رزقه منه، وأكثفه ما تطلبه المولدات في الأركان كالمعادن والنبات والحيوان وقد جعل الله من الماء ﴿كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وكل شيء حيّ، فإن كل شيء مسبح لله بحمده، ولا يكون التسبيح إلا من حيّ، فكل شيء من الماء عينه ومن الهواء حتى حيوان البحر الذي يموت إذا فارق الماء ما حياته إلا بالهواء الذي في الماء لأنه مركب فيقبل الهواء بنسبة خاصة وهو أن يمتزج بالماء امتزاجاً لا يسمى به هواء، كما أن الهواء المركب فيه الماء وبه يكون مركباً لكن امتزج الماء به امتزاجاً خاصاً لا يسمى به ماء، فإذا كانت حياة الحيوان بهواء الماء مات عند فقده ذلك الهواء الخاص، وكذلك حيوان البر إذا غرق في الماء مات لأن حياته بالهواء الذي مازجه الماء لا

بالماء الذي مازجه الهواء، وثم حيوان بري بحري وهو حيوان شامل برزخيّ له نسبة إلى قبول الهواءين فيحيى بالهواء كما يحيى البري، ويحيى في الماء كما يحيى البحري، وبالهواء تكون حياته في الموضعين، والماء أصله في كونه حياً، فالرزق في عالم الأركان الهواء فيما في كل مطعوم ومشروب من ركن الهواء به تكون الحياة لمن يتغذى به من كل شيء حيّ من نبات ومعدن وحيوان وإنسان وجان. وأما الملائكة المخلوقة من أنفاس العالم عند تنفسهم فلهم غذاء أيضاً من الأركان لا بد من ذلك، ويخرج الملك من المتنفس بحسب ما يكون في قلب ذلك المتنفس من الخواطر، فإن تلفظ المتنفس خرج النفس بحسب ما تلفظ به مفصلاً في الصورة تفصيله حروفاً في الكلمة، وبهذا القدر تكون كيفية الانفعال عن خواص الحروف لمن شهد ذلك وإن لم يتلفظ وخرج النفس من غير لفظ فإنه يخرج هيولانياً لا صورة له معينة، فيتولى الله تصويره بحسب ما كان عليه العبد في باطنه عند التنفس فيركبه الله في تلك الصورة، فإن تعرى المحل المتنفس عن كل شيء كتنفس النائم الذي لا رؤيا له في منام ولا هو في الحس فإن الله يصوّر ذلك النفس بصورة ما نام عليه عند فراقه الإحساس كان الذكر ما كان، أو الخاطر في القلب ما كان، فإذا أقيم العبد في هذه الحضرة التي نحن بصددها ونظر إلى ما تكون عنه أمده من الرزق ما به بقاؤه فإنه خالقه والرزق تابع للخلق فخالق الشيء هو رازقه، ولا تكون في مقام خلق الأشياء إلا إذا أشهدك الحق ما ينفعل عنك، فعند ذلك تشاهد طلبة ما تكوّن عنك بما يحتاج إليه من الرزق فترزقها، كما تسعى هنا في افتناء الرزق الذي تطلبه منك عائلتك سواء، وهذا لا يقدح في أن الله هو الرزاق، وإنما كلامنا في تقرير الأسباب وإثباتها كما قررها الحق عز وجل وأثبتها، وقد بينا لك في غير موضع أن الإنسان إذا تجلى له الحق في منام أو غيره في أي صورة تجلى فلينظر فيما يلزم تلك الصورة المتجلي فيها من الأحكام فيحكم على الحق بها في ذلك الموطن، فإن مراد الله فيها ذلك الحكم ولا بد، ولهذا تجلى فيها على الخصوص دون غيرها ويتحوّل الحكم بتحوّل الصور فاعلم ذلك.

فكذلك أيضاً رزق الصور يتنوّع بتنوّع الصور، فما به غذاء صورة قد لا يكون به غذاء صورة أخرى وليس غذاء الصور سوى رزقها، فإذا تصوّرت المعاني كالعلم في صورة اللبن والثبات في الدين في صورة القيد فرزق تلك الصورة ما أريدت له، فإن كانت رؤيا فأصاب عابرها ما أراد الله بها بتلك الصورة فذلك رزقها فدامت حياتها وبقاؤها، وصورة ذلك ما يناله الرائي والمكاشف من ذلك كما رأى النبي ﷺ يشرب اللبن حتى خرج الريّ من أظافره مما تضلع منه فقيل له: ما أوّلته يا رسول الله؟ فقال: «**العِلْمَ**» يعني أن العلم ظهر في صورة اللبن. ولما كان العلم لبناً وصف نفسه بالشرب منه والتضلع إلى أن خرج الري من أظافره فنال كما قال علم الأوّلين والآخرين، وما خرج منه من الريّ هو ما خرج إلى الناس من العلم الذي أعطاه الله لا غير، ثم أعطى ما فضل في الإناء عمر فكان ذلك الفضل القدر الذي وافق عمر الحق فيه من الحكم كحكمه في أسارى بدر وفي الحجاب وغير ذلك ففاز به دون غيره من عند الله، وهكذا كل من حصل له مثل هذا من عند الله كالمتقي، إذا اتقى الله جعل له

فرقاناً وهو علم يفرق به بين الحق والباطل في غوامض الأمور ومهماتها عند تفصيل المجمل وإلحاق المتشابه بالمحكم في حقه، فإن الله أنزله متشابهاً ومجملاً، ثم أعطى التفصيل من شاء من عباده وهو ما فضل من اللبن في القدح وحصل لعمر لأنه من شرب من ذلك الفضل فقد عمر به محل شربه فلذلك كان عمر دون غيره من الأسماء، هذا تعبير رؤياه على التمام ﷺ ولعمر بن الخطاب في ذلك خصوص وصف لاختصاصه بالاسم والصورة في النوم دون غيره من العمريين ومن الصحابة ممن ليس له هذا الاسم، فكل رازق مرزوق، أما الرزق المعنوي أو الحسي على انقسام الأرزاق المعنوية والمحسوسة، ومن هذه الحضرة قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] فحتى نعلم رزق الابتلاء أي كوّنه الله من الابتلاء فهو علم إقامة الحجة لتكون الحجة البالغة لله كما أخبر عن نفسه فقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] التي لا دخل عليها ولا تأويل فيها، وإذا وصف الحق نفسه بحتى نعلم فعم حكم الرزق جميع الصور، فـ «كلُّ الصيد في جوف الفَرَا»، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الفتح وهي للاسم الفتاح

[نظم: الرمل]

حَـضْـرَةُ الـفَـتَّـاح لـلـفَـتْـح ومـا ... يـعـلـمُ الـشَّـخْـصُ بـمـا يُـفْـتَـحُ لَـهْ
إن ربَّ الـخـلـق فـي الـخـيـر وفـي ... كـل شَـرٍّ واقـع قـد أَجْـمَـلَـهْ
ربـمـا يـعـرِفُـهُ الـشـخـصُ ومـا ... يـعـرف الأمْـرَ الـذي قـد أنْـزَلَـهْ
ثـم قـد يـعـلـمُـهُ الـشـخـصُ ومـا ... يـعـلـم الـشـيء الـذي كُـوِّنَ لَـهْ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الفتاح، ولها صورة ومعنى وبرزخ، وما حازها على الكمال إلا آدم عليه السلام بعلم الأسماء، ومحمد ﷺ بجوامع الكلم، وما عدا هذين الشخصين فما ذكر لنا، ومن هذه الحضرة نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ و ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ولقد كنت بمدينة فاس سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وعساكر الموحدين قد عبرت إلى الأندلس لقتال العدوّ حين استفحل أمره على الإسلام، فلقيت رجلاً من رجال الله ولا أزكي على الله أحداً وكان من أخص أودّائي فسألني ماتقول في هذا الجيش هل يفتح له وينصر في هذه السنة أم لا؟ فقلت له: ما عندك في ذلك؟ فقال: إن الله قد ذكر ووعد نبيه ﷺ بهذا الفتح في هذه السنة وبشر نبيه ﷺ بذلك في كتابه الذي أنزله عليه وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فموضع البشرى فتحاً مبيناً من غير تكرار الألف فإنها لإطلاق الوقوف في تمام الآية، فانظر أعدادها بحساب الجمل، فنظرت فوجدت الفتح يكون في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، ثم جزت إلى الأندلس إلا أن نصر الله جيش المسلمين وفتح الله به قلعة رباح والأركو وكركوى وما انضاف إلى هذه القلاع من الولايات، هذا عاينته من الفتح ممن هذه صفته، فأخذنا للفاء ثمانين وللتاء أربعمائة وللحاء المهملة ثمانية وللألف واحداً وللميم أربعين وللباء اثنين وللياء عشرة وللنون خمسين، والألف قد أخذنا عددها فكان المجموع

إحدى وتسعين وخمسمائة كلها سنون من الهجرة إلى هذه السنة، فهذا من الفتوح الإلهي لهذا الشخص. وكذلك ما ذكرناه من فتح البيت المقدس فيما اجتمع بالضرب في ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢] مع البضع من السنين المذكور فيه بالحسابين الجمل الصغير والكبير، فظهر من ذلك فتح البيت المقدس وقد ذكرناه فيما تقدم من هذا الكتاب في باب الحروف منه وهو أن البضع جعلناه ثمانية لكون فتح مكة كان سنة ثمان، ثم أخذنا بالجمل الصغير ألم ثمانية فأسقطنا الواحد لكون الأس يطلب طرحه لصحة العدد في أصل الضرب في الحساب الرومي، والفتح إنما كان في الروم الذين كانوا بالبيت المقدس، فأضفنا ثمانية البضع إلى ما اجتمع من حروف ألم بعد طرح الوحد للأس فكان خمسة عشر، ثم رجعنا إلى الجمل الكبير فضربنا واحداً وسبعين في ثمانية والكل سنون لأنه قال: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤] فكان المجموع ثمانية وستين وخمسمائة، فجمعناها إلى الخمسة عشر التي في الجمل الصغير فكان المجموع ثلاثاً وثمانين وخمسمائة وفيها كان فتح البيت المقدس، وهذا العلم من هذه الحضرة. ولكن عبد السلام أبو الحكم بن برجان ما أخذه من هذا فوقع له غلط وما شعر به الناس، وقد بيناه لبعض أصحابنا حين جاءنا بكتابه فتبين له أنه غلط في ذلك ولكن قارب الأمر، وسبب ذلك أنه أدخل عليه علماً آخر فأفسده، وهذا كله من صورة الفتح لا من معناه ولا من وسطه الذي هو الجامع للطرفين، فكان لآدم إحصاء جميع اللغة الواقعة من أصحابها المتكلمين بها إلى يوم القيامة، وكان لمحمد ﷺ الرسالة إلى الناس كافة باللسان العربيّ، فعمّ جميع كل لسان فنقل شرعه بالترجمة فعمّ اللغات. وأما الفتح الوسط فهو فتح الأذواق وهو العلم الذي يحصل للعالم به بالتعمل في تحصيله كعلم الفرقان للمتقي فإنه حصله بتقوى الله مع ما انضاف إليه من تكفير السيئات وغفر الذنوب، وهذا علم مخصوص بأهل الطريق وهم أهل الله وخاصته وهو علم الأحوال، وإن كانت مواهب فإنها لا توهب إلا لمن هو على صفة خاصة وإن كانت تلك الصفة لا تنتجها في الدنيا لكل أحد، ولكن لا بد أن تنتج في الآخرة، فلما لم يكن من شرطها الإنتاج في الدنيا قيل في علم الأحوال أنها مواهب وهو حصولها عن الذوق، ومعنى عن الذوق أوّل التجلي، فإن التوكل مثلاً الذي هو الاعتماد على الله فيما يجريه أو وعد به، فالذوق فيه الزائد على العلم بذلك عدم الاضطراب عند الفقد لما تركن النفس إليه، فيكون ركونها في ذلك إلى الله لا إلى السبب المعين فيجد في نفسه من الثقة بالله في ذلك أعظم مما يجده من عنده السبب الموصل إلى ذلك، كالجائع ليس له سبب يصل به إلى نيل ما يزيل جوعه من الغذاء، وجائع آخر عنده ما يصل به إلى نيل ما يزيل ما عنده، فيكون صاحب السبب قوياً لوجود المزيل عنده، وهذا الآخر الذي ما عنده إلا الله يساويه في السكون وعدم الاضطراب لعلمه بأن رزقه إن كان بقي له رزق فلا بد من وصوله إليه، فسمي عدم هذا الاضطراب ممن هذه صفته من فقد الأسباب ذوقاً وكل عاقد يجد الفرق بين هذين الشخصين، فإن العالم الذي ليس له هذا الذوق يضطرب عند فقد المزيل مع علمه بأن رزقه إن كان بقي له رزق لا بد أن يصل إليه، ومع هذا العلم لا يجد سكوناً نفسياً مع الله، وصاحب

الذوق هو الذي يجد السكون كما يجده صاحب السبب المزيل لا فرق بل ربما هو أوثق، وهو قول بعض العلماء أن الإنسان لا ينال هذه الدرجة حتى يكون بربه أوثق منه بما في يده، لأن الوعد الإلهي صادق لا تتطرّق إليه الآفات، والذي بيده من الأسباب يمكن أن يتطرق إليه الآفات فيحال بينه وبين من هو عنده بأي وجه كان، فلذلك قلنا إن المتوكل ذوقاً أتم في السكون من صاحب السبب الحاصل المزيل لهذا الألم، فاعلم ذلك فهذا هو الوسط من علم الفتح وصاحبه يلتذ في باطنه غاية الالتذاذ. وأما المعنى من هذه الحضرة فهو ما يطالع به العبد من العلم بالله إذا كان الحق أعني هوية الحق صفات هذا العبد فما يحصل له من العلم إذا كان بهذه الصفة هو المعنى الحاصل من هذه الحضرة، وما كل أحد ينال هذا المقام من هذه الحضرة وإن كان فيها فإن الناس يتفاضلون في ذلك، ومن هذه الحضرة قال رسول الله ﷺ حين ضرب بين كتفيه: «**عَلِمْتُ عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ**» بذلك الوضع وتلك الضربة أعطاه الله فيها ما ذكره من العلم ويعني بذلك العلم بالله فإن العلم بغير الله تضييع الوقت، فإن الله ما خلق العالم إلا له، ولا سيما هذا المسمى بالإنس والجن فإنه نص عليه أنه خلقه لعبادته، وذكر عن كل شيء أنه يسبح بحمده، فمن علم الله بمثل هذا العلم علم أن كل نطق في العالم كان ذلك النطق ما كان مما يحمد أو يذم أنه تسبيح بوجه لله بحمده أي فيه ثناء على الله لا شك في ذلك، ومثل هذا العلم بحمد الله حصل لنا من هذه الحضرة، ولكن ما يعرف صورة تنزيله علماً بحمد الله والثناء عليه إلا من اختصه الله بوهب هذه الحضرة على الكمال، فيسب إنسان إنساناً وهو عند هذا السامع صاحب هذا المقام تسبيح بحمد الله فيؤجر السامع ويأثم القائل والقول عينه، وهذا من العلم اللطيف الذي يخفى على أكثر الناس، وهو في العلوم بمنزلة أسماء الأشياء كلها أنها أسماء الله في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] خبراً صدقاً مع علمنا بما نفتقر إليه من الأشياء، فهذا وذلك سواء ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ فسمع بالله ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] فأبصر بالله، وهذا القدر من الإيماء كافٍ في هذه الحضرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة العلم وهي للاسم العليم والعالم والعلام

[نظم: البسيط]

إنّ العُلُومَ هي المَطْلُوبُ بالنَّظَرِ ... فانْظُرْ وفَكِّرْ فإنّ الفِكْرَ مُعْتَبَرُ
لولا العلومُ التي في الكَوْن ما ظهرتْ ... أفكارُ من هو في الأشياء مُعْتَبَرُ
هو الإمام الذي يَدْريه خالقُه ... والنجمُ يعرفه والشمسُ والقَمَرُ
كيُوسُف حين خَرُّوا سُجَّداً ومضتْ ... أحكامُه فيهِمُ بالله فاعْتَبِروا
فلو ترى الشمسَ والأفلاكَ دائرةً ... في نارها ونجوم الليل تَنْتَثِرُ
من بَعْدِ مَا طُمِسَتْ أنوارُها ومَضَتْ ... أحكامُها وبَدَتْ في العين تَنْكَدِرُ
ماتوا وراح الذي قد كان يجمعهم ... في دار دنياهم فالكلّ قد قُبِرُوا

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد العليم، والعلماء في هذه الحضرة على ثلاث مراتب: عالم علمه ذاته، وعالم علمه موهوب، وعالم علمه مكتسب، وله حكم في الإلهيات، وله حكم في الكون، ففي الله علمه بكل شيء لذاته، وعموم تعلقها بكل معلوم، وقد بينا من أين تعلق علمه بالعالم والمكتسب في الله قوله حتى نعلم، والموهوب في الله ما أعطاه العبد من تصرّفه في المباح فإنه لا يتعين تقييده تعين الواجب والمحظور والمندوب والمكروه، فحصول العلم بالتصريف في المباح علم وهب يعلمه الحق من العبد بطريق إلهية لأنه لا يجب عليه الإتيان به، كما يجب عليه اعتقاده فيه أنه مباح والإيمان به واجب. وأما مراتب هذه العلوم في الكون فهينة الخطب، فإن الكون قابل للعلم بالذات، فالعلم الذاتي له هو ما يدركه من العلم بعين وجوده خاصة لا يفتقر في تحصيله إلى أمر آخر إلا بمجرد كونه، فإذا ورد عليه ما لا يقبله إلا بكونه موجوداً على مزاج خاص هو علمه الذاتي له والمكتسب ما له في تحصيله تعمل من أي نوع كان من العلوم المكتسبة، والموهوب هو ما لم يخطر بالبال ولا له فيه اكتساب كعلم الأفراد وهو علم الخضر فعلمه من لدنه علماً رحمة من عند الله به حتى كان مثل موسى عليه السلام الذي كلمه ربه يستفيد منه ما لم يكن عنده ولا أحاط به خبراً يقول: لم نذق له طعماً فيما علمه الله من العلم بالله.

واعلم أنه ما من موجود في العالم إلا وله وجه خاص إلى موجده إذا كان من عالم الخلق، وإن كان من عالم الأمر فما له سوى ذلك الوجه الخاص وإن الله يتجلى لكل موجود من ذلك الوجه الخاص فيعطيه من العلم به ما لا يعلمه منه إلا ذلك الموجود، وسواء علم ذلك الموجود أو لم يعلمه، أعني أن له وجهاً خاصاً، وأن له من الله علماً من حيث ذلك الوجه، وما فضل أهل الله إلا بعلمهم بذلك الوجه، ثم يتفاضل أهل الله في ذلك، فمنهم من يعلم أن لله تجلياً لذلك الموجود من هذا الوجه الخاص، ومنهم من لا يعلم ذلك، والذين يعلمون ذلك منهم من يعلم العلم الذي يحصل له من ذلك التجلي، ومنهم من لا يعلمه أعني على التعيين، وما أعني بالعلم إلا متعلق العلم هل هو كون أو هو الله من حيث أمر ما؟ والعلم المتعلق بالله: إما علم بالذات وهو سلب وتنزيه أو إثبات وتشبيه، وإما علم باسم ما من الأسماء الإلهية من حيث ما سمى الحق به نفسه من كونه منعوتاً بالقول والكلام. وإما علم باسم مّا من أسماء الأسماء من حيث ما تقتضيها عبارات المحدثات. وإما علم نسب إلهية. وإما علم صفات معنوية، وإما علم نعوت ثبوتية إضافية تطلب أحكاماً متقابلة. وإما علم ما ينبغي أن يطلق منه عليه وما ينبغي أن لا يطلق ولكل علم أهل. وأما ما يتعلق بالكون من العلم الإلهي الذي يعطيه الله من شاء من عباده من هذه الحضرة فهو إما علم يكون متعلقه نسبة العالم إلى الله، وإما علم يكون متعلقه نسبة الله إلى العالم. وإما علم بارتفاع النسبة بين العالم والذات وإثباتها بين العالم والأسماء، وإما علم بإثبات النسبة بين العالم والذات وهو علم القائلين بالعلة والمعلول. وإما علم إثبات النسبة شرطاً لا علة. وإما علم يتعلق بالصورة التي خلق الله العالم عليها كله. وإما علم بالصورة التي خلق الإنسان عليها. وإما علم بالبسائط.

وإما علم بالمركبات، وإما علم بالتركيب، وإما علم بالتحليل. وإما علم بالأعيان الحاملة مركبة كانت أو بسائط وإما بالأعيان المحمولة. وإما علم بإلهيات، وإما علم بالأوضاع. وإما علم بالمقادير، وإما علم بالأوقات. وإما علم بالاستقرارات، وإما علم بالانفعالات، وإما علم بالعين المؤثرة اسم فاعل المؤثرة فيها اسم مفعول وأنواع الآثار بالتوجهات والقصد أو بالمباشرة، هذا كله مما يكون للعالم به أو ببعضه من هذه الحضرة العلمية، فمن دخل هذه الحضرة ذوقاً فقد حاز كل علم، ومن دخلها بالفكر فإنه ينال منها على قدر ما هو فيه.

ومن هذه الحضرة يحيط بعض الخلق بعلم ما لا يتناهى من أعيان أشخاص نوع نوع من الممكنات على حد ما يعلم في العامة تضاعف العدد إلى ما لا يتناهى، ولا يقدر أحد على إنكاره من نفسه أنه يعلم ذلك ولا يخطىء فيه. ثم لتعلم أن مسمى العلم ليس سوى تعلق خاص من عين تسمى عالماً لهذا التعلق وهو نسبة تحدث لهذه الذات من المعلوم، فالعلم متأخر عن المعلوم لأنه تابع له هذا تحقيقه، فحضرة العلم على التحقيق هي المعلومات وهو بين العالم والمعلوم، وليس للعلم عند المحقق أثر في المعلوم أصلاً لأنه متأخر عنه، فإنك تعلم المحال محالاً ولا أثر لك فيه من حيث علمك به ولا لعلمك فيه أثر، والمحال لنفسه أعطاك العلم به أنه محال، فمن هنا تعلم أن العلم لا أثر له في المعلوم بخلاف ما يتوهمه علماء أصحاب النظر، فإيجاد أعيان الممكنات عن القول الإلهي شرعاً وكشفاً، وعن القدرة الإلهية عقلاً وشرعاً لا عن العلم، فيظهر الممكن في عينه فيتعلق به علم الذات العالمة بأنه ظاهر كما تعلق به أنه غير ظاهر بذلك العلم، فظهور المعلوم وعدم ظهوره أعني وجوده أعطى العلم فهو حضرة المعلوم ينوع العلم من العالم بما هو عليه في ذاته أعني المعلوم، هذا في كل موصوف بالعلم، فالصفات المعنوية كلها على الحقيقة نسب غير أنه ثم نسبة تتقدم كالقول بالإيجاد على الموجود، ونسبة تتأخر كالعلم والمعلوم، فإذا فهمت ما ذكرته لك في هذه الحضرة علمت الأمر العلمي على ما هو عليه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة القبض وهي للاسم القابض

[نظم: البسيط]

لا شَكَّ أن القَبْضَ مَعْلُومُ ... في ذاته فالأمْرُ مَفْهُومُ
وليس معلوماً لنا سِرُّهُ ... لكنه لله معلومُ
يعلمُهُ الخائفُ من خَوْفِهِ ... لذاك يُمْسي وهو مَغْمُومُ
بُستانه تبكيه أطيارُهُ ... يَعْمُرُهُ الغِرْبَانُ والبُومُ
منقبضٌ عنه وعن مثله ... فسِرُّهُ في الكون مَكْتُومُ

لها أثر في المحدث والقديم يدعى صاحبها عبد القابض بما يعطيه الممكن من أفعاله فيقبضها الحق منه كما ورد أنّ الله يأخذ الصدقات من عباده فيربيها لهم ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فيقبضه بحيث أنه لا يبقى لغير الله فيه تصرّف بعد القبض الإلهيّ إلا أن

يعطيه الحق ذلك فيقبضه العبد من ربه، وأوّل قبض قبضه الممكن من ربه وجوده، فقبض الحق من الممكن علمه به، وقبض الممكن من الحق وجوده، وجميع ما يتصرف فيه ويضاف إليه من الأفعال، فإذا وقعت يقبضها الحق من العامل فحضرة القبض بين القابض والمقبوض والمقبوض منه، وقد يكون لهذه الحضرة في القابض قبض مجهول وهو خطر جداً كما يكون لها قبض معلوم، فإذا وجد العبد من هذه الحضرة قبضاً في نفسه لا يعرف سببه ولا يعرف منه سوى علمه بأنه قابض لأمر مجهول فهو مقبوض الباطن للحق بذلك الأمر الذي لا يعلمه، فإذا وقع له مثل هذا القبض من هذه الحضرة، فليسكن على ما هو عليه، وليتحرّك على الميزان المشروع والميزان العقليّ ولا يتزلزل، فإنه لا بد أن ينقدح له سبب وجود ذلك القبض إما بما يسوءه أو بما يسرّه، ولله عباد يسرّهم كل شيء يقامون فيه من بسط وقبض مجهول ومعلوم.

واعلم أن الأدب مصاحب لهذه الحضرة ولحضرة البسط، فإذا قبض من الحق ما يعطيه الله فيقبضه من يده في أمور معينة، ومن يد الغير في أمور معينة يعين ذلك مسمى الخير والشرّ، فالخير كله بيد الله فيقبضه منه ولكن بأدب يليق بذلك الخير المعين، وابذل جهدك في أن لا تقبض الشرّ جملة واحدة، فإن أعماك الحق وأصمك واستعملك في قبض الشرّ فمن الأدب أن لا تقبضه من يد الله واقبضه من يد المسمى شيطاناً، فإن على يده يأتيك الشر، فلو زال هذا البر يد لم يقع في الوجود حكم شر، وما أظهر عين الشر من هذا الشيطان إلا التكليف، فإذا ارتفع ارتفع هذا الحكم ولم يبقَ إلا الغرض والملاءمة، فنيل الغرض والملائم خير وفقد ما تعلق به الغرض وما لا يلائم شرّ: [مجزوء الخفيف]

فَـخُـذِ الـخَـيْـرَ كُـلَّـهُ ... مـن يَـدِ الـحَـقِّ تَـسْـعَـدْ
ودَعِ الـشَّـرَّ كـلَّـهُ ... فـي يَـدِ الـغَـيْـرِ تَـرْشُـدْ

سواء نسبتهما إلى الشرع أو إلى الغرض أو الملاءمة، فمن القبض ما يكون عن وهب، ومنه ما يكون عن جود وكرم وعن سخاء وعن إيثار، وليس إلا قبض الشريكون وهو عن إيثار لجناب الحق حيث أضفته إلى نفسك ولم تضفه إلى الله أدباً مع الله حيث لم ينسبه إلى نفسه، فإن رسول الله ﷺ المترجم عن الله تعالى يقول: «**وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيكَ**» وقال: ﴿**وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ**﴾ [النساء: ٧٩] فكل ما يسوءك فهو شر في حقك، فلو لم يطلق عليه اسم شرّ لم تضفه إليك ولا أضافه الحق إليك، ألا تراه إذا نظرته فعلاً من غير حكم كيف يقول: كل من عند الله ظهر، فقف مع الحكم الإلهيّ في الأشياء وعلى الأشياء تكن أديباً معصوماً، فإنه لا يحفظ الله هذا المقام إلا على من عصم الله واعتنى به، ومن هذه الحضرة تقرض الله ما طلب منك من القرض، وتعلم أنه ما طلبه منك إلا ليعود به وبأضعافه عليك من جهة من تعطيه إياه من المخلوقين، فمن أقرض أحداً من خلق الله، فإنما أقرض الله، وليس الحسن في القرض إلا أن ترى يد الله هي القابضة لذلك القرض لا غير فتعلم عند ذلك في يد من جعلت ذلك وهو الحفيظ الكريم. وأما قبضه ما يقبضه للدلالة عليه كقبض الظل إليه ليعرفك بك وبنفسه

لأنه ما خرج الظل إلا منك، ولولا أنت لم يكن ظل، ولولا الشمس أو النور لم يكن ظل، وكلما كشف الشخص تحققت أعيان الظلال، فالأمر بينك وبينه كما قرّرنا في الوجود بين الاقتدار الإلهي وبين القبول من الممكن مهما ارتفع واحد منهما ارتفع الوجود الحادث، كذلك إذا ارتفع العين المشرق والجسم الكثيف الحائل عن نفوذ هذا الإشراق فيه حدث الظل فالظل من أثر نور وظلمة، ولهذا لا يثبت الظل عند مشاهدة النور كما لا تثبت الظلمة لأنه ابنها، فإن للظلمة ولادة على الظل بنكاح النور، فما قابل النور من الجسم الكثيف أشرق فذلك الإشراق هو نكاح النور له، وبنفس ما يقع النكاح تكون ولادته للظل، فنفس النكاح نفس الحمل نفس الولادة في زمان واحد كما قلنا في زمان وجود البرق انصباغ الهواء وظهور المحسوسات وإدراك الأبصار لها، والزمان واحد والتقدم والتأخر معقول، وهكذا الظل فافهم. ومن هذه الحضرة سماع ما يقبضك ورؤية ما يقبضك، فلو لم يقبض المسموع الذي قبضك ما كنت مقبوضاً وكذلك الرؤية فأنت القابض المقبوض، فما أتى عليك إلا منك، فلو أزلت الغرض عند السماع أو الرؤية لكنت قابضاً ولم تكن مقبوضاً، غير أن هذه الحقيقة لا ترتفع من العالم لأن الاستناد قوي بقوله: ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ [محمد: ٢٨] وليس إلا القبض، فإذا أخبر الحق بوجود الأثر في ذلك الجناب فأين يخرج العبد من حكمه لذلك؟ قال في نعيم الجنان: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١] وليس إلا نيل الأغراض، فتحقق حكم هذه الحضرة وما تعطيه في الإنسان، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة البسط وهي للاسم الباسط

[نظم: السريع]

لا يَفْرَحُ العاقلُ في بَسْطِهِ ... إلا إذا بَشَّرَهُ اللَّهُ
على لسانِ صادقٍ مُنجِدٍ ... ومُثْهِم يعلَمُهُ اللَّهُ
فإنَّهُ الصَّادِقُ في قَوْلِهِ ... لَهُ إذا يَخْشُرُهُ الجَاهُ
لا تَمْتَري في صِدْقِ إرسالِه ... لكونِها أعلمها اللَّهُ
فلا تقولوا مثل ما قال من ... يقول إذ قيل له ما هُوْ
مَاهِيَّةٌ ما ثَمَّ مجهولة ... فافْرَحْ فإن الواحد اللَّهُ

يدعى صاحبها عبد الباسط، ولها حكم وأثر قديماً وحديثاً، فمن أرضى الله فقد منع غضبه وبسط رحمته﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥]: [مجزوء الخفيف]

فله الحُكْمُ كُلُّهُ ... ولِيَ الحُكْمُ جُلُّهُ
فهو الحَقُّ أصْلُنا ... وأنا العبدُ ظِلُّهُ
فإذا دام غَيْبُهُ ... فأنا منه ظِلُّهُ
ما لِيَ أمرٌ يخصّني ... بل لِيَ الأمْرُ كُلُّهُ
إن أَسَأْنَا فعدلُه ... إن يشأ ذاك فَضْلُهُ

كل جنس يعمنا وأنا منه فضله

أيّ فضل مقوّم أنا منه فشكله

شكل ذاتي وفيضه عين فيضي أو مثله

فله الحكم في عباده من هاتين الحضرتين، غير أن المحالّ تختلف فيختلف البسط لاختلافها والأحوال تختلف، فيختلف البسط لاختلافها، فأما في محل الدنيا ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٢٧] فأنزل بقدر ما يشاء، وأطلق له في الجنة البسط لكونها ليست بمحل تعن ولا تعد، فإن الله قد نزع الغل من صدورهم، فالعبد باتباع الرسول وأعني به الشرع الإلهيّ، والوقوف عند حدوده ومراسمه بالأدب الذي ينبغي له أن يستعمله في ذلك الاتباع يؤثر في الجناب الأقدس المحبة في هذا المتبع فيحبه الله وإذا أحبه انبسط له، فحال العبد في الدنيا عند انبساط الحق إليه أن يقف مع الأدب في الانبساط وهو قبض يسير أثره بسط الحق، فالعبد ينقبض لقبض الحق ولبسطه وإن اختلف حكم القبض فيه أعني في الدنيا لأجل التكليف، فمن المحال كمال البسط في الدنيا للأدب، ومحال كمال القبض في الدنيا للقنوط، غير أن حكم القبض أعم في الدنيا من البسط، فمن الناس من وفقهم الله لوجود أفراح العباد على أيديهم، أول درجة من ذلك من يضحك الناس بما يرضي الله أو بما لا رضا فيه ولا سخط وهو المباح، فإن ذلك نعت إلهيّ لا يشعر به بل الجاهل يهزأ به، ولا يقوم عنده هذا الذي يضحك الناس وزن وهو المسمى في العرف مسخرة، وأين هو هذا الجاهل بقدر هذا الشخص من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣] ولا سيما وقد قيدناه بما يرضي الله أو بما لا رضا فيه ولا سخط، فعبد الله المراقب أحواله وآثار الحق في الوجود يعظم في عينه هذا المسمى مسخرة، وكان لرسول الله ﷺ نعيمان يضحكه ليشاهد هذا الوصف الإلهيّ في مادة فكان أعلم بما يرى، ولم يكن رسول الله ﷺ ممن يسخر به ولا يعتقد فيه السخرية وحاشاه من ذلك ﷺ، بل كان يشهده مجلى إلهياً يعلم ذلك منه العلماء بالله، ومن هذه الحضرة كان رسول الله ﷺ يمازح العجوز والصغير يباسطهم بذلك ويفرحهم، ألا ترى إلى أكابر الملوك كيف يضاحكون أولادهم بما ينزلون إليهم في حركاتهم حتى يضحك الصغير، ولم أرَ من الملوك من تحقق بهذا المقام في دسته بحضور أمرائه والرسل عنده مثل الملك العادل أبي بكر بن أيوب مع صغار أولاده وأنا حاضر عنده بميافارقين بحضور هذه الجماعة، فلقد رأيت ملوكاً كثيرة ولم أر منهم مثل ما رأيته من الملك العادل في هذا الباب، وكنت أرى ذلك من جملة فضائله ويعظم به في عيني وشكرته على ذلك، ورأيت من رفقه بالحريم وتفقد أحوالهن وسؤاله إياهنّ ما لم أرَ لغيره من الملوك، وأرجو أن الله ينفعه بذلك.

واعلم أن الفرق بين الحضرتين أن القبض لا يكون أبداً إلا عن بسط والبسط قد يكون عن قبض وقد يكون ابتداء، فالابتداء سبق الرحمة الإلهية الغضب الإلهي، والرحمة بسط والغضب قبض، والبسط الذي يكون بعد قبض كالرحمة التي يرحم الله بها عباده بعد وقوع

العذاب بهم فهذا بسط بعد قبض، وهذا البسط الثاني محال أن يكون بعده ما يوجب قبضاً يؤلم العبد، فالبسط عام المنفعة وقد يكون فيه في الدنيا مكر خفيّ وهو إرداف النعم على المخالف فيطيل لهم ليزدادوا إثماً وهو قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] والإملاء بسط في العمر والدنيا فيتصرفون فيهما بما يكون فيه شقاؤهم، ومن البسط ما يكون أيضاً مجهولاً ومعلوماً أعني مجهول السبب، فيجد الإنسان في نفسه بسطاً وفرحاً ولا يعرف سببه، فالعاقل من لا يتصرف في بسطه المجهول بما يحكم عليه البسط فإنه لا يعرف بما يسفر له في عاقبته، هل بما يقبضه ويندم فيه أو بما يزيده فرحاً وبسطاً، فالمكر الخفيّ فيه إنما هو لكونه مجهول السبب، وقوة سلطانه فيمن قام به، والدار الدنيا تحكم على العاقل بالوقوف عند الجهل بالأسباب الموجبة لبعض الأحوال فيتوقف عندها حتى ينقدح له أمرها، فإذا علم تصرف في ذلك على علم فإما له وإما عليه، بحسب ما يوفقه الله، وينصره أو يخذله، فمن الله نسأل العصمة من الزلل في القول والعمل، ومن هذه الحضرة يدعو إلى الله من يدعو على بصيرة فيدعو من باب البسط من يعلم أن البسط يعين على الإجابة من المدعوّ ويدعو من باب القبض من يعلم أن القبض يعين على إجابة المدعو، فهذا الداعي وإن كان في مقام مباسطة الحق فإنه يدعو بالقبض والبسط فإنه يراعي المصلحة ويدفع بالتي هي أحسن في حق المدفوع عنه وفي حق نفسه، والأدب أعظم ما ينبغي أن يستعمل في هذه الحضرة فإن البسط مطلب النفوس فليحذر غوائلها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الخفض

[نظم: البسيط]

إنَّ التَّواضُعَ حُكْمٌ ليس يَعْرِفُهُ … إلا العَلِيُّ الذي لله يَخْفِضُهُ

تنزّل الحقّ إكراماً إلى دَرَجٍ … به يجزّئه به يُبَعِّضُهُ

يقسم الخلق في تعيين رُتْبَتِهِ … قسم يحبّبه وقسم يُبَغِّضُهُ

إن الذي خَفَضَ الأكوان أجْمَعَها … عن المقام الذي بما يخفضُهُ

رفعت همّته نحو العليّ عسى … يوماً على غلط يكون تَنَهُّضُهُ

أبْرَمْتُ أمراً وفي الإبرام حاجته … فجاء في الحال للحرمان يَنْقُضُهُ

إني جعلتُ له في قلب ذي أدب … حُبّاً وجاء سفير الحال يبغضُهُ

صِفْرَ اليدين أتاك اليوم يسألكم … قَرْضاً يضاعفه من أنت تُقْرِضُهُ

وقلت يا منتهى الآمال أجمعها … عساك يوماً على خير تُحَرِّضُهُ

عَرَفْتَهُ بالذي يأتيه من كُتُبٍ … عساه يوماً يراه الحق يَرْفُضُهُ

فيدعى صاحبها في الملأ الأعلى عبد الخافض فاعلم أن الوجود قد انقسم في ذاته إلى ما له أول وهو الحادث، وإلى ما لا أول له وهو القديم، فالقديم منه هو الذي له التقدم، ومن

له التقدم له الرفعة والحدوث له التأخر، ومن تأخر فله الانخفاض عن الرفعة التي يستحقها القديم لتقدمه، فإن المتقدم له التصرف في الحضرات كلها لأنه لا منازع له يقابله ولا يزاحمه ويرى المراتب فيأخذ الرفيع منها، والحادث ليس له ذلك التصرف في المراتب فإنه يرى القديم قد تقدمه في الوجود وتصرف وحاز مقام الرفعة وما نزل عنه فهو خفض فلم يكن له تصرف إلا في حضرة الخفض، فإذا أراد الحق أن يتصرف فيها تصرف المحدث ينزل إليها فإذا نزل إليها حكم عليه بأحكامها، فإذا ارتفع عنها بعد هذا النزول هو المسمى بهذا الارتفاع الخاص متكبراً فقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾ بالرفعة الأولى ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُۚ﴾ [الحشر: ٢٣] بالرفعة بعد النزول، فحضرة الخفض سلطانها في المحدث كان المحدث ما كان، وإنما قلنا كان المحدث ما كان من أجل صور التجلي فإنها محدثة، ومن أجل إتيان الذكر الذي هو القرآن كلام الله فإنه محدث الإتيان، قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] وليس إلا القرآن وقد حدث عندهم بإتيانه، فلذلك قلنا كان الحادث ما كان، فمن هذه الحضرة يكون حكم الخافض والمخفوض، ألا ترى إلى حروف الخفض هي الخافضة والحرف في أدنى الدرجات ومع ذلك فلها أثر الخفض في الأسماء مع علو درجة الأسماء فتقول: أعوذ بالله فالباء خافضة ومعمولها الهاء من كلمة الله فهي التي خفضت الهاء من الكلمة فأثرت في الكلمة بحقيقتها، وإن كانت الأسماء أعلى في الرتبة منها فالعالم وإن كان في مقام الخفض ورتبته رتبة الخفض فإنه بعضه لبعضه كأداة الخفض في اللسان لا يخفض المتكلم الكلمة إلا بها، كذلك ما لا يفعله الحق من الأشياء إلا بوساطة الأشياء ولا يمكن غير ذلك فلا بد من حقيقته، هذا أن ينزل إلى رتبة الخفض ليتصرف في أدوات الخفض بحسب ما هي عليه تلك الأدوات من الأحكام وهي كثيرة كأداة الباء على اختلاف مراتبها، وهي في كل ذلك لا تعطي إلا الخفض، فلها رتبة القسم ورتبة الاستعانة ورتبة التبعيض والتأكيد والنيابة مناب الغير، وكذلك من وإلى وفي وجميع أدوات الخفض لها صور في التجلي، فتظهر بحكم واحد وعين واحدة في مراتب كثيرة، فمن على كل حال حكمها الخفض وذاتها معلومة فهي لا تتغير في الحكم ولا في العين، وهي لابتداء الغاية خرجت من الدار وتكون للتبعيض: أكلت من الرغيف، وتكون للتبيين: شربت من الماء، فما تغير لها عين ولا حكم في الخفض.

ثم إنه إذا دخل بعضها على بعض صير المدخول عليه فيها اسماً وزال عنه حكم الحرفية، فيرجع خفضه بالإضافة كسائر الأسماء المضافة وأبقى عليه بناءه حتى لا يتغير عن صورته، قال لشاعر: من عن يمين الحبيا نظرة قبل. أراد جهة اليمين فدخلت من على عن فصيرتها بمعنى الجهة وأخرجتها عن الحرفية، فمعقول من عين عن واليمين كما قلنا مضافة إلى عن ولم يظهر في عن عمل الخفض في الظاهر لأنها بالأصالة خافضة، والخافض لا يكون مخفوضاً، فهي هنا مخفوضة المعنى غير مخفوضة الصورة لما هي عليه من البناء مثل: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ [الروم: ٤] وكذلك قول الشاعر وهو كثير في اللسان، وهذا العمل في هذا الطريق إذا أثر المحدث في المحدث لم يزله أثره فيه عن أن يكون محدثاً

والحدوث له بمنزلة البناء للحرف والأثر فيه للمؤثر ولا مؤثر إلا الله، فهذا خلق ظهر بصورة حق فانفعل المنفعل لصورة الحق لا للخلق، فقد تلبس في الفعل الخلق بالحق في الإيجاد، وتلبس الحق بالخلق في الصورة التي ظهر عنها الأثر في الشاهد كما ظهر عقلاً عن الحق: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] والإشارة إلى الأسماء الإلهية هنا وإن كان المراد الزوجات تفسيراً: [الطويل]

فإنْ قُلْتَ هذا الحقّ أظْهَرْتَ غائباً ... وإنْ قُلْتَ هذا الخَلْق أخْفَيْتَهُ فِيهِ
فلولا وُجودُ الحَقِّ ما بَانَ كائنٌ ... ولولا وجودُ الخَلْقِ ما كُنْتَ تُخْفِيهِ

فمن حضرة الخفض ظهر الحق في صورة الخلق فقال: «كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ» الحديث. وقال تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] كما قال فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩] فلولا حكم النسب وتحقيق النسب ما كان للأسباب عين ولا ظهر عندها أثر، وأنت تعلم أن استناد أكثر العالم إلى الأسباب، فلولا أن الله عندها ما استند مخلوق إليها فإنا لم نشاهد أثراً إلا منها ولا عقلناه إلا عندها، فمن الناس من قال بها ولا بد، ومن الناس من قال عندها ولا بد، ونحن ومن شاهد ما شاهدنا نقول بالأمرين معاً عندها عقلاً وبها شهوداً وحساً كما قدمنا في الاقتدار والقبول، فذلك هو الأصل الذي يرجع إليه الأمر كله فاعبده وتوكل عليه، فهل طلب منك ما ليس لك فيه تعمل؟ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢] فلا بد من حقيقة هنا تعطي الإضافة في العمل إليك مع كونه خلقاً لله تعالى كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] أي وخلق ما تعملون، وأهل الإشارة جعلوا هنا ما ناقية فالعمل لك والخلف لله، فما أضاف إليه تعالى عين ما أضافه إليك إلا لتعلم أن الأمر الواحد له وجوه، فمن حيث ما هو عمل أضافه إليك ويجازيك عليه، ومن حيث ما هو خلق هو لله تعالى، وبين الخلق والعمل فرقان في المعنى واللفظ فلا تحجب عن معرفة هذا فإنه لطيف خفي، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الرفعة

[نظم: الخفيف]

يَرْفَعُ المُؤمنُ المُهَيْمِنُ قَوْماً ... آمَنُوا فوق غيرهم دَرَجَاتِ
فتراهم بهم نفوساً سُكَارَى ... داخلات في حكمه خَارجاتِ
ورأينا لديه فتيانَ صِدْقٍ ... عامَلُوه بالصدق في فَتَيَاتِ
طاهراتٍ من الخَنَا مُعْلِنَاتٍ ... بشهاداتِ حَقِّهِ مُؤْمِنَاتِ

يدعى صاحبها عبد الرفيع. قال الله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥] فالرفعة له سبحانه بالذات وهي للعبد بالعرض وأنها على النقيض من حضرة الخفض في الحكم، فإن الخفض للعبد بالأصالة والرفعة للحق.

واعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن هذه الحضرة من حضرات السواء التي لها موقف السواء في المواقف التي بين كل مقامين يوقف في كل موقف منها العبد ليعرف بآداب المقام الذي ينتقل إليه، ويشكر على ما كان منه من الآداب في المقام الذي انتقل عنه، وإنما سمي موقف السواء أو حضرة السواء لقوله تعالى عن نفسه: إنه ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ فجعل له درجات ظهر فيها لعباده، وقال في عباده العلماء به: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة: ١١] يظهر فيها العلماء بالله ليراهم المؤمنون.

ثم إنه من حكم هذه الحضرة السوائية في رفع الدرجات التسخير بحسب الدرجة التي يكون فيها العبد أو الكائن فيها كان من كان، فيقتضي له أي للكائن فيها أن يسخر له من هو في غيرها ويسخره أيضاً من هو في درجة أخرى، وقد تكون درجة المسخر اسم مفعول أعلى من درجة المسخر اسم فاعل، ولكن في حال تسخير الأرفع بما سخره فيه شفاعة المحسن في المسيء إذا سأل المسيء الشفاعة فيه، وفي حديث النزول في الثلث الباقي من الليل غنية وكفاية وشفاء لما في الصدور لمن عقل، ولما كانت الدرجة حاكمة اقتضى أن يكون الأرفع مسخراً اسم مفعول، وتكون أبداً تلك الدرجة أنزل من درجة المسخر اسم فاعل والحكم للأحوال كدرجة الملك في ذبه عن رعيته وقتاله عنهم وقيامه بمصالحهم، والدرجة تقتضي له ذلك، والتسخير يعطيه النزول في الدرجة عن درجة المسخر له اسم مفعول، قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ﴾ [الزخرف: ٣٢] فافهم.

ثم إنه أمر عباده ونهاهم كما أمر عباده أيضاً أن يأمروه وينهوه فقال لهم قولوا: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] في مثل الأمر ويسمى دعاء ورغبة، وفي مثل النهي: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وأمر الله أن نقول: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١] ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١] والنهي: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] ﴿وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩] وأمثال ذلك، فنظرنا في السبب الذي أوجب هذا من الله أن يكون مأموراً منهياً على عزته وجبروته، ومن العبد على ذله وافتقاره، فوجدناه حكم الدرجات بما تقتضيه، والدرجة أيضاً هي التي جعلت هذا الأمر والنهي في حق الله يسمى أمراً ونهياً، وفي حق العبد يسمى دعاء ورغبة، فأقام الحق نفسه بصورة ما أقام فيه عباده بعضهم مع بعض، وقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [غافر: ١٥] إنما ذلك على خلقه. ثم أنزل نفسه معهم في القيام بمصالحهم وبما كسبوا قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ﴾ [الرعد: ٣٣] كما قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤] لأنهن عائلته، وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الخَلْقَ عِيَالُ الله**» فيقوم بهم لأن الخلق إلى الله يميلون ولهذا كانوا عائلة له، فلما أنزل نفسه في هذه المنزلة فضلاً منه وحقيقة فإنه لا يكون الأمر إلا هكذا نبه أنه منا وفينا كنحن منا وفينا: [مجزوء الرمل]

إنَّـــهُ مِـــنَّــا وفـــيــنــا ... مـــثــلــنــا مـــنَّــا وفـــيــنــا

وبـــنـــا عَـــرَفْـــتُ رَبِّـــي ... هـــكـــذا جـــاء يَـــقِـــيــنَــا

قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وعلل بقوله: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] ومن سألته فقد اتخذته موضعاً لسؤالك فيما سألته فيه، وقد أخبر عن نفسه بالإجابة فيما سأله لمن سأله على الشرط الذي قرره كما نجيبه نحن فيما سألنا أيضاً على الشرط الذي تقضي به مراتبنا، ثم إنه عز وجل لما كان عين أسمائه في مرتبة كون الاسم هو عين المسمى ومن يقول في صفات الحق أنها لا هي هو ولا هي غيره، وقد علمنا رفعة الدرجات في الأسماء بعضها فوق بعض كانت ما كانت ليتخذ بعضهم بعضاً بحسب مرتبته، فنعلم أن درجة الحيّ أعظم الدرجات في الأسماء لأنه الشرط المصحح لوجود الأسماء، وأن العلم من العالم أعم تعلقاً وأعظم إحاطة من القادر والمريد لأن لمثل هؤلاء خصوص تعلق من متعلقات العالم فهو للعالم كالسدنة. ولما كان العلم يتبع المعلوم علمنا أن العالم تحت تسخير المعلوم يتقلب بتقليبه ولا يظهر له عين في التعلق به إلا ما يعطيه المعلوم، فرتبة المعلوم إذا حققتها علمت علوّ درجتها على سائر الدرجات أعني المعلومات، ومن المعلومات للحق نفس الحق وعينه وما يجب له ويستحيل عليه، وما يجب لكل معلوم سوى الحق، وما يستحيل على ذلك المعلوم وما يجوز عليه، فلا يقوم فيه الحق إلا بما يعطيه المعلوم من ذاته، وكذلك درجة السميع والبصير والشكور وسائر الأسماء في التعلق الخاص، والرؤوف والرحيم وسائر الأسماء كلها تنزل عن الاسم العليم في الدرجة، إلا المحيط فإنه ينزل عن العليم بدرجة واحدة فإنه لا يحيط إلا بمسمى الشيء والمحال معلوم وليس بشيء إلا في وجود الخيال، فهنالك له شيئية اقتضتها تلك الحضرة، فهو محيط بالمحال إذا تخيله الوهم شيئاً كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ولكن في المرتبة الخارجة عن الخيال لا إحاطة له بالمحال مع كون المحال معلوماً للعالم غير موصوف بالإحاطة، وكذلك الحيّ لما كانت له درجة الشرطية كان له السببية في ظهور أعيان الأسماء الإلهية وآثارها، وكذلك كل علة لا بد أن يكون لها حكم الحياة، وحينئذٍ يكون عنها الأثر الوجودي، ولا يشعر بذلك كل أحد من نظار العلماء من أولي الباب إلا أرباب الكشف الذين يعاينون سريان الحياة في جميع الموجودات كلها جوهرها وعرضها، ويرون قيام المعنى بالمعنى حتى يقال فيه سواد مشرق وسواد كدر، ومن لا علم له يجعل الإشراق للمحل لا للسواد وما عنده خبر، فكذلك قيام الحياة بجميع الأعراض قيامها بأعيان الجواهر، فما من شيء من عرض وجوهر وحامل ومحمول إلا وهو يسبح بحمد الله، ولا يسبح الله إلا حي عالم بمن يسبح وبما يسبح، فيفصل بعلمه بين من ينبغي له التسبيح وبين من ينبغي له التشبيه في العين الواحدة من وجوه مختلفة، وهو سبحانه يثني على نفسه ويسبح نفسه بنفسه كما قال: إنه ﴿غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال: ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] وكل ذلك في معرض الثناء على نفسه لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ومن لم يعرف

الله تعالى والعالم بمثل هذه المعرفة فما عنده علم بالله ولا بالعالم، ولولا ما هو الأمر كما قررناه ما قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» وأتى بالعامل الذي يتعدى إلى مفعول واحد ولم يقل علم وذلك ليرفع الإشكال في الأحدية فقد بان لك يا ولي بما فضلناه وأومأنا إليه ما تقتضيه هذه الحضرة حضرة الرفع، والتي قبلها حضرة الميزان الذي به يخفض الله ويرفع، ولما كانت للحق الدرجة العليا قال: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠] فإن الكلمة إذا خرجت تجسدت في صورة ما هي عليه من طيب وخبيث، فالخبيث يبقى فيما تجسد فيه ما له من صعود، والطيب من الكلم إذا ظهرت صورته وتشكلت، فإن كانت الكلمة الطيبة تقتضي عملاً وعمل صاحبها ذلك العمل أنشأ الله من عمله براقاً أي مركوباً لهذه الكلمة فيصعد به هذا العمل إلى الله صعود رفعة يتميز بها عن الكلم الخبيث، كل ذلك يشهده أهل الله عياناً أو إيماناً، فالخلق في كل نفس في تكوين فهم كل يوم في شأن لأنهم في نفس وهو هيولى صور التكوين، فالحق في وجود الأنفاس شؤونه، والتصوير لما هو العبد عليه من الحال في وقت تنفسه فيعطيه الحق النفس الداخل هيولائي الذات، فإذا استقر في القلب وأعطى أمانته من التبريد الذي جاء له تشكل وانفتحت في ذات ذلك النفس صورة ما في القلب من الخواطر فيزعجه السحر بعد فتح الصورة فيه على مدرجته خروج انزعاج لدخول غيره لأن السحر وهو الرئة له حفظ هذه النشأة فهو كالروبان بل هو كالحاجب الذي بيده الباب، فإذا خرج فلا يخلو إما أن يتلفظ صاحب ذلك النفس بكلام أو لا يتلفظ، فإن تلفظ تشكل ذلك الهواء بصورة ما تلفظ به من الحروف فيزيد في صورة ما اكتسبه من القلب، وإن لم يتلفظ خرج بالصورة التي قبلها في القلب من الخاطر هكذا الأمر دائماً دنيا وآخرة، ففي الدنيا يتصوّر في خبيث وطيب، وفي الآخرة لا يتصور إلا طيباً لأن حضرة الآخرة تقتضي له الطيب، فلا يزال يوجد طيباً بعد طيب حتى يكثر الطيبون فيغلبون على الخبيثين الذين أوردوا صاحبهم الشقاء، فإذا كثروا عليهم غلبوهم فأزالوا حكمهم فيه، فهو المعبر عنه بمآلهم إلى الرحمة في جهنم وإن كانوا من أهلها فمن حيث أنهم عمار لا غير فإن رحمة الله سبقت غضبه والحكم لله، وما سوى الله فمجعول وآله العقائد مجعول، فما عبد الله قط من حيث ما هو عليه، وإنما عبد من حيث ما هو مجعول في نفس العابد، فتفطن لهذا السرّ فإنه لطيف جداً، به أقام الله عذر عباده في حق من قال فيهم: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] فاشترك الكل المنزه وغير المنزه في الجعل، فكل صاحب عقد في الله فهو صاحب جعل، فمن هنا تعرف من عبد ومن عبد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الإعزاز

[نظم: البسيط]

إنّ الـمُـعـزَّ الـذي أُعِـزَّ جَـانِـبُـه كـمـا أُعِـزَّ الـذي فـي الله صـاحِـبُـهُ
إذا أَتَـى مُـسْـتَـجِـيـرٌ نـحـو حَـضْـرَتِـهِ في الـحـيـن أَكْـرَمَـهُ فـي الـوقـت عَـاتَـبَـهُ

يدعى صاحبها عبد المعز وهذه الحضرة تجعل العبد منيع الحمى، وتعطيه الغلبة والقهر على من ناواه في مقامه بالدعوى الكاذبة التي لا صورة لها في الحق وهو الذي يعتز بإعزاز المخلوق، فهو كالقياس في الأحكام المشروعة يضعف الحكم فيه عن حكم المنصوص عليه، ولهذا أثبتته طائفة ونفته أخرى أعني القياس في الأحكام المشروعة، وإنما جعله من جعله أصلاً في الحكم لما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] فما تفطنوا لذكر الله العزة لهؤلاء الموصوفين بالرسالة المضافة إليه تعالى والإيمان، فما قال الناس فهؤلاء المذكورون لهم الإعزاز الإلهيّ وقد قلنا به، والذين أثبتوا القياس نظروا إلى أن الله ما أعز دينه إلا بهؤلاء، فما عزوا إلا بالدين، ولا أعز الله الدين إلا بهم، فقد حصل للدين إعزاز بإعزاز مخلوق وهو الرسول والمؤمنون الذين لهم العزة بإعزاز الله، فثبت للفرع ما ثبت للأصل فثبت القياس في الحكم، فمن هذه الحضرة كان القياس أصلاً رابعاً. ولما كان مثبوتاً بالكتاب والسنة فبقيت الأصول في الأصل ثلاثة، فصح التربيع في الأصول بوجه والتثليث بوجه كالمقدمتين اللتين ركبت كل مقدمة منهما من مفردين، وهذه المفردات ثلاثة في التحقيق، فصح التربيع والتثليث على الوجه الخاص وشرطه فكان الإنتاج، وليس إلا ظهور الحكم وثبوته في العين، فهذا أعطاه الاجتهاد، ولو كان خطأ فإن الله قد أقر حكمه على لسان رسوله، وما كلف الله نفساً إلا ما آتاها، وما آتاها إلا إثبات القياس أعني في بعض النفوس، والإعزاز من السلطان لحاشيته مقيس على إعزاز الله من أعزه من عباده. وأما صورة الاعتزاز بالله فهو أن يظهر العبد بصورة الحق بأيّ وجه كان مما يعطي سعادة أو شقاوة لأن العزة إنما هي لله، ففي أي صورة ظهرت كان لها المنع، فظهورها في الشقي مثل قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] أي المنيع الحمى في وقتك الكريم على أهلك وفي قومك فما هي سخرية به فإنه كذلك كان وهي سخرية به لأنه خاطبه بذلك في حالة ذله وإباحة حماه وانتهاك حرمته، فما ظهر معتز في العالم إلا بصورة الحق أي بصفته إلا أن الله ذمها في موطن وحمدها في موطن، وذلك الموطن المحمود أن يكون هو الذي يعطي ذلك على علم من العبد فهو صاحب اعتزاز في ذل، ومن ليس له هذا المقام فهو ذو اعتزاز في غير ذل وإن أحس بالذل في نفسه لأنه مجبول على الذلة والافتقار، والحاجة بالأصالة لا يقدر أن ينكر هذا من نفسه ولذلك قال الله بأنه يطبع على كل قلب متكبر جبار فلا يدخله الكبرياء والجبروت وإن ظهر بهما فإنه يعرف في قلبه أنه لا فرق بالأصالة بينه وبين من تكبر عليهم وتجبر، وأعظم الاعتزاز من حمى نفسه من أن يقوم به وصف رباني وليس إلا العبد المحض، فإن ظهر بأمر الله فأمر الله أظهره، فإعزاز الله عبده أن لا يقوم به من نعوت الحق في العموم نعت أصلاً فهو منبع الحي من صفات ربه، وإنما قلنا في العموم لأن صفات الحق في العموم ليست إلا ما يقتضي التنزيه خاصة المعبر عنها بالأسماء الحسنى، والتي في الخصوص أن جميع الصفات كلها لله التي يقال إنها في العبد بحكم الأصالة وإن اتصف الحق بها، والأسماء الحسنى في الحق بحكم الأصالة وإن اتصف العبد بها وعند الخصوص كلها لله وإن اتصف العبد بها،

ومتى لم يعتز العبد في حماه عن قيام الصفات الربانية به في العموم فما اعتز قط لأنه ما امتنع عنها، وذلك إذا حكمت فيه عن غير أمر الله كفرعون وكل جبار ومن له هذه الصفة الحجابية وإن أخذها عن أمر الله، ولكنه لما قام بها في الخلق وظهر بها اعتز في نفسه على أمثاله فلحق بالأخسرين أعمالاً وهم ملوك الإسلام وسلاطينهم وأمراؤهم، فيفتخرون بالرياسة على المرؤوسين جهلاً منهم، ولذلك لا يكون أحد أذل منهم في نفوسهم وعند الناس إذا عزلوا عن هذه المرتبة ومن كان في ولايته حاله مع الخلق حاله دون هذه الولاية ثم عزل لم يجد في نفسه أمراً لم يكن عليه فبقي مشكوراً عند الله وعند نفسه وعند المرؤوسين الذين كانوا تحت حكم رياسته، وهذا هو المعتز بالله، بل العزيز الذي منع حماه أن يتصف بما ليس له إلا بحكم الجعل.

ثم إن الله قد جعل في الوجود موطناً يكون فيه العبد المحقق القائم به صفة الحق في الخلافة معزار به إذا رأى اهتضام جانب الحق من القوم الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] فيعزه العبد بحسن التعليم والتنزل باللفظ المحرّر الرافع للشبه في قلوبهم حتى يعز الحق عندهم، فيكون هذا العبد معزاً للحق الذي في قلوب هؤلاء الذين ما قدروا الله حق قدره قبل ذلك، فانتزحوا عن ذلك وعبدوا إلهاً له العزة والكبرياء والتنزيه عما كانوا يصفونه به قبل هذا، فهذا نصيبه وحظه من الاسم المعز فإنه حمى قلوب هؤلاء عن أن يتحكم فيهم ما لا يليق بالحق من سوء الاعتقاد والقول، وقد ورد في القرآن من ذلك ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ [آل عمران: ١٨١] وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ [المائدة: ٦٤] وأمثال هذه الصفات: [البسيط]

هو المُعزُّ ولكن ليس يَدْرِيهِ ... إلا الذي جَلَّ عن كَيْفٍ وتَشْبِيهِ
إنّ المُعِزَّ الذي دَلَّتْ دلائلُهُ ... على تَنَزُّهِهِ عن كل تَنْزِيهِ
من العباد فإن الحَقَّ يكذبه ... بما يقول به في كل تَنْبِيهِ

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الإذلال

[نظم: الكامل]

إنّ المُذِلَّ هو المُعِزُّ بعَيْنِهِ ... عند الدُّخُولِ به وعِنْدَ خُرُوجِهِ
فإذا أَذَلَّ حَبِيبَهُ أدْنَاهُ مِنْ ... أكوانه عيناً بُعَيْدَ عُرُوجِهِ

يدعى صاحبها عبد المذل وهو الذليل. ومن هذه الحضرة خلق الله الخلق، إلا أنه تعالى لما خلق الإنسان من جملة خلقه خلقه إماماً وأعطاه الأسماء وأسجد له الملائكة وجعل له تعليم الملائكة ما جهلوه، ولم يزل في شهود خالقه، فلم تقم به عزة بل بقي على أصله من الذلة والافتقار، ولما حمل الأمانة عرضاً وجرى ما جرى قال هو وزوجه إذ كانت جزءاً منه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] بما حملاه من الأمانة، ثم إن بنيه اعتزوا لمكانة أبيهم من الله

لما اجتباه ربه وهدى به من هدى ورجع عليه بالصفة التي كان يعامله بها ابتداء من التقريب والاعتناء الذي جعله خليفة عنه في خلقه وكمل به وفيه وجود العالم وحصل الصورتين ففاز بالسورتين أعني المنزلتين: منزلة العزة بالسجود له، ومنزلة الذلة بعلمه بنفسه، وجهل من جهل من بنيه ما كان عليه أبوه من تحصيل المنزلتين والظهور بالصفتين، فراضهم الاسم المذل من حضرة الإذلال فأخرجهم عن الإدلال بالدال اليابسة، وذلك لمن اعتنى الله به من بنيه فأشهدهم عبوديتهم فتقربوا إليه بها، ولا يصح أن يتقرّب إلى الله إلا بها فإنها لهم ليس لله منها شيء كأبي يزيد وغيره إذ قال له ربه: تقرب إلي بما ليس لي الذلة والافتقار. وقال في طرح العزة عنه وقد قال له: يا رب كيف أتقرّب إليك أو منك؟ فقال له ربه: يا أبا يزيد اترك نفسك وتعال، والنفس هنا ما هو عليه من العزة التي حصلت له من رتبة أبيه من خلقه على الصورة، ولو علم من يجهل هذا أنه ما من شيء في العالم إلا وله حظ من الصورة الإلهية والعالم كله على الصورة الإلهية، وما فاز الإنسان الكامل إلا بالمجموع لا بكونه جزءاً من العالم ومنفعلاً عن السموات والأرض من حيث نشأته، ومع هذا فهو على الصورة الإلهية كما أخبر رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله خَلَقَ آدمَ عَلَى صُورَتِهِ»** واختلف في ضمير الهاء من صورته على من يعود وفي رواية وإن ضعفت على صورة الرحمن وما كملت الصورة من العالم إلا بوجود الإنسان فامتاز الإنسان الكامل عن العالم مع كونه من كمال الصورة للعالم الكبير بكونه على الصورة بانفراده من غير حاجة إلى العالم، فلما امتاز سرى العز في أبنائه أي في بعض بنيه فراضهم الله بما شرع لهم فقال لهم: إن كنتم اعتززتم بسجود الملائكة لأبيكم فقد أمرتكم بالسجود للكعبة فالكعبة أعز منكم إن كان عزكم للسجود فإنكم في أنفسكم أشرف من الملائكة التي سجدت لكم أي لأبيكم وأنتم مع دعواكم في هذا الشرف تسجدون للكعبة الجمادية، ومن عصى منكم عن السجود لها التحق بإبليس الذي عصى بترك سجوده لأبيكم، فلم يثبت لكم العز بالسجود مع سجودكم للكعبة وتقبيلكم الحجر الأسود على أنه يمين الله محل البيعة الإلهية كما أخبرتكم، وإن كنتم اعتززتم بالعلم لكون أبيكم علم الملائكة الأسماء كلها فإن جبريل عليه السلام من الملائكة وهو معلم أكابركم وهم الرسل صلوات الله عليهم وسلامه والنبيّ محمد ﷺ يقول حين تدلى إليه ليلة إسرائه رفرف الدرّ والياقوت فسجد جبريل عليه السلام عند ذلك ولم يسجد النبي ﷺ وقال: **«فَعَلِمْتُ فَضْلَ جبريل عليّ في العِلْم عند ذلك»**.

ثم إنكم عن لمة الملك تتصرّفون في مرضاة الله فهم الذين يدلونكم على طرق سعادتكم والتقرب فبأي شيء تعتزون على الملائكة فكونوا مثل أبيكم تسعدوا، وما ثم فضل إلا بالسجود والعلم وقد خرج من أيديكم، والذين لهم العزة من النبيين ليس إلا الرسل والمؤمنون فمن ارتاض برياضة الله فقد أفلح وسعد.

واعلم أنا قد ذكرنا في غير موضع من هذا الكتاب أنه ما من حكم في العالم إلا وله مستند إلهي ونعت رباني، فمنه ما يطلق ويقال: ومنه ما لا يجوز أن يقال ولا يطلق وإن تحقق، وقد خلق الافتقار والذلة في خلقه، فمن أي حقيقة إلهية صدر وقد قال لأبي يزيد: إنه

ليس له الذلة والافتقار، وقد نبهتك على المستند الإلهي في ذلك بكون العلم تابعاً للمعلوم والعلم صفة كمال ولا يحصل إلا من المعلوم، فلو لم يكن إلا هذا القدر كما أنه ما ثم إلا هذا القدر لكفى، ثم إني أزيدك بياناً مما تعطيه حقائق الأسماء الإلهية التي بها تعددت وكانت الكثرة، فلو رفعت العالم من الذهن لارتفعت أسماء الإضافة التي تقتضي التنزيه وغيره بارتفاع العالم فما ثبت لها حكم إلا بالعالم فهي متوقفة عليه، ومن توقف عليه ظهور حكم من أحكامه فلا بد له أن يطلبه ولا يطلب إلا ما ليس بحاصل.

ثم إن التنزيه إذا غلب على العارف في هذه المسألة رأى أنه ما من جزء من العالم إلا وهو مرتبط باسم إلهي مع تقدم بعضه على بعض، فما توقف اسم ما من الأسماء الإلهية في حكمه إلا على اسم ما إلهي من الأسماء يظهر في ذلك حكمه بالإيجاد أو بالزوال، فما توقفت الأسماء الإلهية إلا على الأسماء الإلهية، وليست الأسماء إلا عين المسمى، فمنه إليه كان الأمر هذا عقد المنزه. وأما العام فالذي ذكرناه من ارتفاع حكم الأسماء بارتفاع العالم ذهناً أو وجوداً فقد علمت مستند الذلة والافتقار والإذلال فإنه لايوجد الموجد إلا ما هو عليه، ألا ترى إلى الحكماء قد قالوا لا يوجد عن الواحد إلا واحد والعالم كثير فلا يوجد إلا عن كثير وليست الكثرة إلا الأسماء الإلهية، فهو واحد أحدية الكثرة الأحدية التي يطلبها العالم بذاته، ثم إن الحكماء مع قولهم في الواحد الصادر عن الواحد لما رأوا منه صدور الكثرة عنه وقد قالوا فيه إنه واحد في صدوره اضطرهم إلى أن يعتبروا في هذا الواحد وجوهاً متعدّدة عنه بهذه الوجوه صدرت الكثرة، فنسبة الوجوه لهذا الواحد الصادر نسبة الأسماء الإلهية إلى الله، فليصدر عنه تعالى الكثرة كما صدر في نفس الأمر، فكما أنه للكثرة أحدية تسمى أحدية الكثرة، كذلك للواحد كثرة تسمى كثرة الواحد وهي ما ذكرناه، فهو الواحد الكثير والكثير الواحد، وهذا أوضح ما يذكر في هذه المسألة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة السمع

[نظم: الخفيف]

أَسْمِعِ الحَقَّ يا أُخَيَّ نِدَاكَا … إنه سامعٌ عليمٌ بذاكا

لو جَفَوْتَ الجَنَابَ يوماً بأمْرٍ … لم تَجِدْهُ يوماً له قد جَفَاكَا

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد السميع لأنه مسموع فيتضمن الكلام لأنه مسموع وكذا الأصوات. فهذه الحضرة تتعلق بحضرة النفس وهو العمى، وقد تقدّم له باب يخصه كبير مبسوط إلا أني أومىء إلى نبذ من هذه الحضرة مما لم نذكره في باب النفس يطلب السمع في حضرته وليس إلا تلاوة الكتب الإلهية تلاها من تلاها على جهة التوصيل، فلا بدّ لحكم هذه الحضرة فيها وليس إلا السمع ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] وقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: ١٧١] وقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

[الأنفال: ٢١] ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] من هذه الحضرة سمع كل سامع غير أن الموصوفين بأنهم يسمعون مختلفون في القبول، فمنهم سامع يكون على استعداد يكون معه الفهم عند سماعه بما أريد له ذلك المسموع، ولا يكون ذلك إلا لمن كان الحق سمعه خاصة وهو الذي أوتي جميع الأسماء وجوامع الكلم، وكل من ادّعى هذا المقام من العطاء أعني الأسماء وجوامع الكلم وسمع ولم يكن عين سمعه عين فهمه فدعواه لا تصح، وهو الذي له نصيب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ والسماع المطلق الذي لكل سامع إنما هو للذي لا يسمع إلا دعاء ونداء وقد يعلم من نودي فذلك هو الأصم، لأن لكل صورة روحاً وروح السماع الفهم الذي جاء له المسموع قال تعالى: ﴿صُمٌّ﴾ وإن كانوا يسمعون ﴿بُكْمٌ﴾ وإن كانوا يتكلمون ﴿عُمْيٌ﴾ وإن كانوا يبصرون، ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] لما سمعوا ولا يرجعون في الاعتبار إلى ما أبصروا ولا في الكلام إلى الميزان الذي به خوطبوا مثل قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩] و﴿أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣] و﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] وأصحاب هذه الصفات أيضاً كما لا يرجعون، فإن الحق قد أخبر عنهم في منزلة واحدة أنهم لا يعقلون من العقال أي لا يتقيدون بما أريد له ذلك المسموع ولا المبصر ولا المتكلم به من الذي تكلم، فإن الله عند لسان كل قائل يعني سميعاً يقيده بما سمع منه. فلا يتخيل قائل أن الله أهمله وإن أمهله ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] يحصي عليه ألفاظه التي يرمي بها، لا يترك منها شيئاً حتى يوقفه عليها، إما في الدنيا إن كان من أهل طريقنا، وإما في الآخرة في الموقف العام الذي لا بد منه، وكل صوت وكلام من كل متكلم وصامت إذا أسمعه الحق تعالى من أسمعه فإنما أسمعه ليفهمه فيكون بحيث ما قيل له ونودي به وأقله النداء، وأقل ما يتعلق بالنداء الإجابة وهو أن يقول: لبيك فيهيء محله لفهم ما يقال له أو يدعى إليه بعد النداء كان ما كان، فإذا كان الحق السميع نداء العبد نادى العبد من نادى إما الحق وإما كوناً من الأكوان، فإن الله يسمع ذلك كله لأنه ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] يسمع ما يتناجون به ولذلك قال لهم: ﴿فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنه معكم أينما كنتم فيما تتناجون به فإنكم ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩] وإن كان معهم، فكنى بالحشر إذا فتح الله بإزالة الغطاء عن أعينهم فيرون عند ذلك من هو معهم فيما يتناجون به فيما بينهم، فعبر عنه بالحشر للسؤال عما كانوا فيه. وأما ذكره تعالى بأنه يشفع فرديتهم ويثني أحديتهم في قوله: ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ﴾ [المجادلة: ٤] فهل يريد به أيضاً إفراد شفعيتهم كما شفع وتريتهم أو لا يكون أبداً إلا مشفعاً فرديتهم خاصة كما نص عليه؟ فاعلم وفقك الله أن الله ما خلق شيئاً إلا في مقام أحديته التي بها يتميز عن غيره، فبالشفعية التي في كل شيء يقع الاشتراك بين الأشياء، وبأحدية كل شيء يتميز كل شيء عن شيئية غيره، وليس المعتبر في كل شيء إلا ما يتميز به، وحينئذٍ يسمى شيئاً، فلو أراد الشفعية لما كان شيئاً وإنما

يكون شيئين وهو إنما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ [النحل: ٤٠] ولم يقل لشيئين، فإذا كان الأمر على ما قررناه ثم جاء الحق لكل شيء بصورته التي خلقه الله عليها فقد شفع ذلك الشيء كما يشفع الرئى صورته برؤيته في المرآة نفسه، فيحكم بالصورتين: صورته وصورة ما شفعها، فلذلك ما أتى الحق في الإخبار عن كينونته معنا إلا مشفعاً لفرديتنا فجعل نفسه رابعاً وسادساً وأدنى من ذلك، وهو أن يكون ثانياً وأكثر وهو ما فوق الستة من العدد الزوج إعلاماً منه تعالى أنه على صورة العالم أو العالم على صورته، وما ذكر في هذه الكيونية إلا كونه سميعاً من كون من هو معهم يتناجون لا من كونهم غير متناجين، فإذا سمعت الحق يقول أمراً ما فما يريد الأعيان وإنما يريد ما هم فيه من الأحوال إما قولاً وإما غير قول من بقية الأعمال إذ لا فائدة في قصد الأعيان لعينهم، وإنما الفائدة إحصاء ما يكون من هذه الأعيان من الأحوال، فعنها يسألون وبها يطلبون فيقال له ما أردت بهذه الكلمة، ولذلك ورد في الخبر الصحيح: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله ما لا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيُكْتَبُ بِهَا فِي عِلِّيينَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله ما لا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيُكْتَبُ بِهَا فِي سِجِّين**» فأعلم عباده أن للمتكلم مراتب يعلمها السامع إذا رمى بها العبد من فمه لم تقع إلا في مرتبتها، وأن المتلفظ بها يتبعها في عاقبة الأمر ليقرأ كتابه حيث كان ذلك الكتاب، فعبد السميع هو الذي يتحفظ في نطقه لعلمه بمن يسمعه وعلمه بمراتب القول، فإن من القول ما هو هجر ومنه ما هو حسن، وإذا كان هو السامع فينظر في خطاب الحق إياه، أما في الخطاب العام وهو كل كلام يدركه سمعه من كل متكلم في العالم فيجعل نفسه المخاطب بذلك الكلام ويبرز له سمعاً من ذاته يسمعه به فيعمل بمقتضاه، وهذا من صفات الكمل من الرجال، ودون هذه المرتبة من لا يسمع كلام الحق إلا من خبر إلهي على لسان الرسول أو من كتاب منزل وصحيفة أو من رؤيا يرى الحق فيها يخاطبه، فأيّ الرجلين كان فلا بد أن يهيىء ذاته للعمل بمقتضى ما سمع من الحق كما فعل الحق معه فيما يتكلم به العبد في نجواه نفسه أو غيره، فإن الإنسان قد يحدث نفسه كما قال أو ما حدثت به أنفسها، وهو تنبيه أن المتكلم إذا لم يكن ثم من يسمعه لا يلزم من ذلك أنه لا يتكلم، فأخبر أن نفسه تسمع وهو متكلم فيحدث نفسه فيما هو متكلم يقول وبما هو ذو سمع يسمع ما يقول، فعلمنا أن الحق ولا عالم يكلم نفسه وكل من كلم غيره فقد كلم نفسه، وليس في كلام الشيء نفسه صمم أصلاً فإنه لا يكلم نفسه إلا بما يفهمه منها بخلاف كلام الغير إياه، فلا يقال فيمن يكلم نفسه أنه ما يفهم كلامه كيف لا يفهمه وهو مقصود له دون قول آخر فما عينه حتى علمه وما له تعيين كلام غيره، وكذلك قد يكون ذا صمم عنه إذا لم يفهمه لأنه لا فرق بين الصمم الذي لا يسمع كلام المخاطب وبين من يسمع ولا يفهم أو لا يجيب إذا اقتضى الإجابة، ولهذا قال الله فيهم أنهم صم فلا يعقلون ومن عقل فالمطلوب منه فيما أسمعه أن يرجع فلا يرجع، فمن تحقق بهذه الحضرة وعلم أن كلامه من عمله وأن الله عند لسانه في قوله قل كلامه حتى في نفسه به، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة البصر

[نظم: مخلّع البسيط]

إنّ البَصِيرَ الذي يَرَاكَا عِلْماً وعَيْناً إذا تَرَاهُ
فكُنْ به لا تَكُنْ بكَوْنٍ ولا تُشاهِدْ فيه سِوَاهُ
فإنه قَوْلُهُ مُجيباً بنا يرانا به نَرَاهُ

يدعى صاحبها عبد البصير، ومن هذه الحضرة الرؤية والمشاهدة، فلا بد من مبصر ومشهود ومرئي، قال الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] وقال ﷺ: «**تَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيلَةَ البَدْرِ وَكَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ بِالظَّهِيرَةِ لَيسَ دُونَهَا سَحَابٌ**». يريد بذلك ارتفاع الشك في أنه هو المرئيّ تعالى لا غيره، فيلزم عبد البصير الحياء من الله في جميع حركاته، وإنما لزمه الحياء لوجود التكليف، فعبد البصير لا يبرح ميزان الشرع من يده يزن به الحركات قبل وقوعها، فإن كانت مرضية عند الله ودخلت في ميزان الرضى اتصف بها هذا الشخص، وإن لم تدخل له في ميزان الرضى وحكم عليها الميزان بأنها حركة بعد عن محل السعادة وأنها سوء أدب مع الله حمى نفسه عبد البصير أن يظهر منه هذه الحركة، فعبد البصير يخفض الميزان ويرفعه صفة حق، فإن الله ما وضع الميزان إلا ليوزن به وهو مما بين السماء والأرض فما خلقه باطلاً ولا عبثاً ولا يستعمله إلا عبد السميع وعبد البصير، بل له دخول في كل اسم إلهي لكل عبد مضاف إلى ذلك الاسم مثل عبد الرؤوف فإنه يرأف بعباد الله، وجاء الميزان في إقامة الحدود، فأزال حكم الرأفة من المؤمن، فإن رأف في إقامة الحد فليس بمؤمن ولا استعمل الميزان، وكان من الذين يخسرون الميزان، فيتوجه عليه بهذه الرأفة اللوم حيث عدل بها عن ميزانها فإن الله يقول: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] وهو الرؤوف تعالى. ومع علمنا بأنه الرؤوف شرع الحدود وأمر بإقامتها وعذب قوماً بأنواع العذاب الأدنى والأكبر، فعلمنا أن للرأفة موطناً لا تتعداه، وأن الله يحكم بها حيث يكون وزنها، فإن الله ينزل كل شيء منزلته ولا يتعدى به حقيقته كما هو في نفسه، فإن الذي يتعدى حدود الله هو المتعدي لا الحدود، فإن الحدود لا تتعدى محدودها فيتجاوز هذا المخذول ويقف عندها العبد المعتنى به المنصور على عدوّه، فعبدالبصير إما أن يعبد الله كأنه يراه وهذه عبادة المشبهة، وإما أن يعبد الله لعلمه بأن الله يراه فهذه عبادة المنزهة، وإما أن يعبد الله بالله فهذه عبادة العلماء بالله فيقولون بالتنزيه ويشهدون التشبيه لا يؤمنون به فإنه ليس عندهم ذلك خبراً وإنما هو عيان والإيمان بأنه الخبر، فالمحجوب يؤمن بقول المخبر، وصاحب الشهود يرى صدق المخبر فكثير ما بين يرى ويؤمن، فإن صاحب الرؤية لا يرجع بالنسخ إلا رجوع الناسخ، وصاحب الإيمان يرجع بالنسخ ويعتقد في المرجوع عنه أنه كفر بعد الرجوع عنه وإن كان مؤمناً به، ولكن يؤمن به أنه كان لا يؤمن به أنه كائن لأنه منسوخ. فإذا علم الله من العبد أنه يعلم أنه يراه يمهله فيما يجب بفعله المؤاخذة لأنه علم أنه

يعلم أنه يراه فيتربص به ليرجع لأنه تحت سلطان علمه، وإن انحجب عن استعماله في الوقت لجريان القدر عليه بالمقدور الذي لا كينونة له إلا فيه، وأن الله يستحي من عبده فيما لا يستحي العبد فيه، وذلك إذا علم من العبد أنه يعلم من الله أن بيده ملكوت كل شيء فيقول الحق ما أعلمته بذلك ورزقته الإيمان به إن كان من المؤمنين أو أشهدته ذلك، إن كان من أهل الشهود إلا ليكون له ذلك مستنداً يستند إليه في إقامة الحجة، فكون العبد قد أشهد ذلك أو آمن به ولم يحتج به فما منعه من ذلك إلا الحياء فيما لم يستحي فيه فإن الله يستحي منه أن يؤاخذه بعلمه الذي ما استحيى منه فيه.

واعلم أن هذه الحضرة أعطت أن يكون للعبد عينان وللحق أعين فقيل في المخلوق ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ [البلد: ٨] وقال تعالى عن نفسه: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] فمن عينيه كان ذا بصر وبصيرة، ومن أعينه كانت أعين الخلق عينه فهم لا يبصرون إلا به وإن لم يعلموا ذلك، والعالمون الذين يعلمون ذلك يعطيهم الأدب أن يغضوا أبصارهم فيتصفوا بالنقص فإن الغض نقص من الإدراك، وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] إرسال مطلق في الرؤية لا غض فيه، فإن لم يغضوا مع علمهم فيعلم عند ذلك أنهم مع شهود المقدور الذين لا بد من كونه فهم يرونه كما يراه الله من حيث وقوعه لا من حيث الحكم عليه بأنه كذا، هكذا يراه العلماء بالله فيأتون به على بصيرة وبينة في وقته وعلى صورته ويرتفع عنهم الحكم فيه فإنه من الشهود الأخروي الذي فوق الميزان، ولذلك لا يقدح فيهم لأنه خارج عن الوزن في هذا الموطن وهو قوله في حق رسول الله ﷺ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] و﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فهو سؤال عن العلة لا سؤال توبيخ لأن العفو تقدمه، وقوله حتى يتبين لك إنما هو استفهام مثل قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] كأنه يقول: أفعلت ذلك حتى يتبين لك الذين صدقوا؟ فهو عند ذلك إما أن يقول نعم أو لا، فإن العفو ولا سيما إذا تقدم والتوبيخ لا يجتمعان لأنه من وبخ فما عفا مطلقاً فإن التوبيخ مؤاخذة وهو قد عفا. ولما كان هذا اللفظ قد يفهم منه في اللسان التوبيخ لهذا جاء بالعفو ابتداء ليتنبه العالم بالله أنه ما أراد التوبيخ الذي يظنه من لا علم له بالحقائق، وقال في هذه المرتبة في حق المؤمن العالم: اعمل ما شئت فقد غفرت لك، أي أزلت عنك خطاب التحجير يا محمد فاسترسل مطلقاً فإن الله لا يبيح الفحشاء وهي محكوم عليها فحشاء تلك الأعمال، فزال الحكم وبقي عين العمل فما هو ذنب يستر عن عقوبته، وإنما الستر الواقع إنما هو بين هذا العمل وبين الحكم عليه بأنه محجور خاصة، هذا معنى قد غفرت لك لا ما يفهمه من لا علم له فيمشي هذا الشخص في الدنيا ولا خطيئة عليه، بل قد عجل الله له جنته في الدنيا، فهو في حياته الدنيا كالمقتول في سبيل الله نسمته تعلق من ثمر الجنة، كذلك هذا الشخص وإن أقيمت عليه الحدود، فلجهل الحاكم هذا المقام الذي هو فيه، فإقامة الحدود على من هذا مقامه ما هي حدود وإنما هي من جملة الابتلاءات التي يبتلي الله بها عبده في هذه الدار الدنيا كالأمراض وما لا يشتهي أن تصيبه في عرضه وماله وبدنه فيصيبه وهو مأجور في ذلك لأنه ما ثم ذنب فيكفر، وإنما هو تضعيف أجور فما هي حدود في نفس الأمر،

وإن كانت عند الحاكم حدوداً وتظهر رائحة من هذا في علماء الرسوم المجتهدين فإن الحاكم إذا كان شافعياً وجيء إليه بحنفي قد شرب النبيذ الذي يقول بأنه حلال فإن الحاكم من حيث ما هو حاكم وحكم بالتحريم في النبيذ يقيم عليه الحد، ومن حيث إن ذلك الشارب حنفيّ وقد شرب ما هو حلال له شربه في علمه لا تسقط عدالته فلم يؤثر في عدالته. وأما أنا لو كنت حاكماً ما حددت حنفياً على شرب النبيذ ما لم يسكر فإن سكر حددته لكونه سكران من النبيذ، فالحنفي مأجور ما عليه إثم في شربه النبيذ وفي ضرب الحاكم له وما هو في حقه إقامة حد عليه، وإنما هو أمر ابتلاه الله به على يد هذا الحاكم الذي هو الشافعيّ كالذي غصب ماله، غير أن الحاكم هنا أيضاً غير مأثوم لأنه فعل ما أوجبه عليه دليله أن يفعله فكلاهما غير مأثوم عند الله، وهذا عين ما ذكرناه في إقامة الحدود على الذين أبيح لهم فعل ما أقيم عليه فيه الحد وهو حد في نفس الأمر بالنظر إلى من أقامه، فاعلم ذلك. وهذه الحضرة واسعة الميدان يتسع فيها المجال فاكتفينا بهذا القدر من التنبيه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وهو حسبي عز وجل ونعم الوكيل.

حضرة الحكم

[نظم: البسيط]

إذا تُـنـازِعُـكُـمْ نَـفْـسٌ لـتَـقْـهَـرَكُـمْ   فـاجْـعَـلْ إلٰـهَـكَ فـيـمـا بـيـنـكـم حَـكَـمَـا
احْـذَرْ مـن الـعَـدْلِ مـنـه أن يـعـادلـه   فـإنـه لـكـمـا بـمـا بـه حَـكَـمَـا

يدعى صاحبها عبد الحكم، قال تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥] وقال ﷺ في عيسى عليه السلام: «**إِنَّهُ يَنْزِلُ فِينَا حَكَماً مُقْسِطاً**» الحديث كما ورد، فالحكم هو القاضي في الأمور إما بحسب أوضاعها وإما بحسب أعيانها، فيحكم على الأشياء بحدودها فهي الحكم على نفسها لأنه ما حكم عليها إلا بها، ولو حكم بغير ما هي عليه لكان حكم جور وكان قاسطاً لا مقسطاً، والحكم هو القضاء المحكوم به على المحكوم عليه بما هو المحكوم فيه، وأعجب ما في هذه الحضرة نصب الحكمين في النازلة الواحدة وهما من وجه كالكتاب والسنة فقد يتفقان في الحكم وقد يختلفان، فإن علم التاريخ كان نسخاً وإن جهل التاريخ إما أن يسقطا معاً وإما أن يعمل بهما على التخيير، فأيّ شيء عمل من ذلك كان كالمسح في الوضوء للرجلين وكالغسل، فأي الأمرين وقع فقد أدى المكلف واجباً، على أن في المسألة الخلاف المشهور، ولكن عدلنا إلى مذهبنا فيه خاصة فذكرناه، ومرتبة الحكم أن يحكم للشيء وعلى الشيء، وهذه حضرة القضاء من وقف على حقيقتها شهوداً علم سر القدر وهو أنه ما حكم على الأشياء إلا بالأشياء فما جاءها شيء من خارج، وقد ورد: «**أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ**» وفي الحدود الذاتية برهان ما نبهنا عليه في هذه الحضرة الحكمية.

اعلم أن حقيقة هذه الحضرة من أعجب ما يكون من المعلومات فإنها مماثلة لحضرة العلم، وذلك أنها عين المحكوم به الذي هو ما هو المحكوم عليه أو له، فالحكم ما أعطى أمراً من عنده لمن حكم له أو عليه إذا كان عدلاً مقسطاً، وأما إذا كان جائراً قاسطاً وإن كان

حكماً فما هو من هذه الحضرة وهو منها بالاشتراك اللفظي وإمضاء ما حكم به. وأما قول الله مخبراً وآمراً ﴿قَالَ﴾ وقل كلاهما ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] هو الحكم الذي لا يكون حقاً، إلا بك، ومتى لم يكن الحكم بالمحكوم له أو عليه فليس حقاً، فالمخلوق أو المحكوم عليه جعل الحاكم حكماً، كما أن المعلوم جعل العالم عالماً أو ذا علم لأنه تبع له وليس القادر كذلك ولا المريد، فإن الأثر للقادر في المقدور ولا أثر للعلم في المعلوم ولا للحكم في المحكوم عليه والحكم أخو العليم فإنه حاكم على كل معلوم بما هو ذلك المعلوم عليه في ذاته. وقوله في جزاء الصيد: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] فيه رائحة أن الجائر في الحكم يسمى حكماً شرعاً، إلا أن الحاكم لما شرع له أن يحكم بغلبة ظنه وليس علماً فقد يصادف الحق في الحكم وقد لا يصادف وليس بمذموم شرعاً ويسمى حكماً وإن لم يصادف الحق ويمضي حكمه عند الله وفي المحكوم عليه وله، فهنا ينفصل من العليم ويتميز لأنه ليس هنا تابع للمحكوم عليه مع كونه حكماً ولا هو جائر، فإنه حكم بما شرع له من إقامة الشهود أو الإقرار الذي ليس بحق، فكان اللفظ من الشاهد واللفظ بالإقرار من المقرّ أوجب له الحكم، وإن كان قول زور أو شهادة زور، وإنما قلنا فيه إنه أخو العليم لكونه في نفس الأمر ما يكون حكماً حقيقة إلا بجعل المحكوم له أو عليه هذا هو التحقيق. والأخوة هنا قد تكون أخوة الشقائق، وقد تكون أخوة الصفة كإخوة الإيمان وغير الإيمان، وقد تكون أخوة من الأب الواحد دون الآخر، وقد تكون من الرضاعة، فلذلك قلنا إنه أخو العليم، وما بينا مراتب الأخوة فأحقها أخوة الإيمان فإن بها يقع التوراث وهي أخوة الصفة، كذلك الحكم ما حكم الحاكم على المحكوم عليه إلا لصفة لا لعينه، ومن شرط الحكم أن يكون عالماً بالحكم لا بالمحكوم عليه وله، وإنما شرطه العلم بصفة ما يظهر من حال المحكوم عليه وله بما ذكرناه من شهود صدقوا أو كذبوا، ومن إقرار صدق أو كذب فهو تابع أبداً، فيكون عالماً بالحكم لا بد من ذلك الذي يوجبه ويعينه ما قرّرناه والحق فيه مصادفة وهو الاجتماع مع كونه بهذه المثابة، والخلاف في حكم الحاكم بعلمه دون إقرار ولا شهادة هل يجوز أو لا يجوز؟ وقد بينا مذهبنا في هذه المسألة في هذا الكتاب في حكم الحاكم بعلمه أين ينبغي أن لا يحكم وأين ينبغي أن لا يحكم بعلمه فإنها من أشكل المسائل، وعلى كل حال فهي حضرة مبهمة حكم حكمها الأشاعرة في الصفات الإلهية بقولهم: لا هي هو ولا هي غيره مع قولهم بأنها زائدة بالعين على الذات وجودية لا نسبية، وغير الأشعري لا يقول بهذا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة العدل

[نظم: السريع]

العَدْلُ لا يَصْلُحُ إلا لمن ... يَفْصِلُ في الخَلْقِ إذَا يَعْدِلُ

فإن أَبَى أَكْوانُهُ عَدْلَهُ ... فإنه بحَقِّهِ يفضلُ

يُنْعِمُ بالفَضْل على خَلْقِه ... ويَسْتُرُ السّتْرَ إذا يُسْبِلُ

يدعى صاحبها عبد العدل، وهو ميل إلى أحد الجانبين الذي يطلبه الحكم الصحيح التابع للمحكوم عليه وله، أو للإقرار أو الشهود وغير ذلك لا يكون عدلاً في الحكم، ومن هذه الحضرة العجيبة خلق الله العالم على صورته، ومن هنا كان عدلاً لأنه تعالى عدل من حضرة الوجوب الذاتي إلى الوجوب بالغير أو إلى حضرة الإمكان كيف شئت فقل، وعدل أيضاً بالممكنات من حضرة ثبوتها إلى وجودها فأوجدهم بعد أن لم يكونوا بكونه جعلهم مظاهر وبكونه كان مجلى لظهور أحكامهم، ومن هذه الحضرة عدوله من شأن يجوّزه العقل في حق الممكن إلى شأن آخر، يجوّزه أيضاً العقل، والعدول لا بد منه فلا يعقل في الوجود إلا العدل فإنه ما ظهر الوجود إلا بالميل وهو العدل فما في الكون إلا عدل حيث فرضته، وبالعدل ظهرت الأمثال وسمي المثل عدلاً قال الله تعالى: ﴿أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا﴾ [المائدة: ٩٥] و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] وهنا له وجوه في العدل منها عدولهم إلى القول بأن له أمثالاً ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١] ومنها أنهم بربهم عدلوا لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ومنها أن الباء هنا بمعنى اللام فلربهم عدلوا لكون من عدلوا إليه إنما عدلوا إليه لكونه عندهم إلهاً فما عدلوا إلا لله، كقوله: ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩] أي للحق كذلك ﴿بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾. ولما قال الله عز وجلّ في هذه الآية: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] جعلوا له أمثالاً فخاطب المانية الذين يقولون أن الإله الذي خلق الظلمة ما هو الإله الذي خلق النور فعدلوا بالواحد آخر، وكذلك الذين يقولون بخلق السموات والأرض إنها معلولة لعلة ليست علته إلا له أي ليست العلة الأولى، لأن تلك العلة عندهم إنما صدر عنها أمر واحد لحقيقة أحديتها وليس إلا العقل الأول، فهؤلاء أيضاً ممن قيل فيهم إنهم بربهم يعدلون وسماهم كفاراً لأنهم إما ستروا أو منهم من ستر عقله عن التصرّف فيما ينبغي له بالنظر الصحيح في إثبات الحق والأمر في نفسه على ما هو عليه، فاقتصر على ما بدا له ولم يوف الأمر حقه في النظر، وأما إن علم وجحد فستر عن الغير ما هو الأمر عليه في نفسه لمنفعة تحصل له من رياسة أو مال فلهذا قيل فيهم إنهم كفروا أي ستروا فإن الله حكيم يضع الخطاب موضعه والعدل هو الرب تعالى، والرب على صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض؛ والعدل الميل فالميل عين الاستقامة فيما لا تكون استقامته إلا عين الميل، فإن الحكم العدل لا يحكم إلا بين اثنين، فلا بد أن يميل بالحكم مع صاحب الحق، وإذا مال إلى واحد مال عن الآخر ضرورة، فليست الاستقامة ما يتوهمه الناس، فأغصان الأشجار وإن تداخل بعضها على بعض فهي كلها مستقيمة في عين ذلك العدول والميل لأنها مشت بحكم المادّة على مجراها الطبيعي، وكذلك الأسماء الإلهية يدخل بعضها على بعض بالمنع والعطاء والإعزاز والإذلال والإضلال والهداية، فهو المانع المعطي المعز المذل المضل الهادي، فمن يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وكلها نسب حقيقية ما ترى فيها عوجاً ولا أمتاً:

[مجزوء الكامل]

إن الإلٰــــه بــــجُــــودِهِ ... يُـعْـطـي الـعُـبَـيْـدَ إذا افْـتَـقَـرْ
مــا شــاءه مــمَّــا لــه ... مــا ثَــمَّ إلا مــا ذُكِــرْ
لـمـا وقـفـتُ تَـحَـقُّـقـاً ... مـنـه عـلـى سِـرّ الـقَـدَرْ
وشــهــدتُــه فــرأيــتُــهُ ... سَـمْـعَ الـحَـبِـيـبِ مع الـبَـصَـرْ
فــيــه بَــدَتْ أحــكــامُــهُ ... ولــه نَــهَــى ولــه أَمَــرْ
ويــقــال هــذا مــؤمــنٌ ... ويــقــال هــذا قــد كَــفَــرْ
فــلــنــا الــحــقــائــقُ كُــلُّــهــا ... ولــنــا الــتَّــحَــكُّــمُ والأثَــرْ
مــا الأمــرُ إلا هــكــذا ... مــا الأمــر مــا يــعــطــي الــنَّــظَــرْ
الــحــكــمُ لــيــس لــغــيــرنــا ... فــي كــل مــا تــعــطــي الــصُّــوَرْ
والأمــرُ فــيــه فَــيْــصَــلٌ ... فــي الــكــون مــن خَــيْــرٍ وشَــرْ
لــم تَــسْــتَــفِــدْ مــنــه ســوى ... أكْــوانِــنَــا وكــذا ظَــهَــرْ
وانْــظُــرْ بــربِّــك لا ... بــعــقــلــك فــي شؤونك واعْــتَــبِــرْ
هــذا هــو الــحَــقُّ الــصُّــراحُ ... لــمــن تَــحَــقَّــقَ وادَّكَــرْ
الــحــكــمُ حــكــمُ ذَوَاتِــنَــا ... لا حُــكْــمُــهُ فــاعــدلْ وسِــرْ
عــنــه إلــيــه بــمــا لــنــا ... تَــعْــثُــرْ عــلــى الأمــر الــخَــطِــرْ
لا تَــأْتَــلِــي لا تَــأْتَــنِــي ... فــإلــيــك مــنــك الــمُــسْــتَــقَــرْ
إنّ الــغِــنَــى صــفــةٌ لــه ... عــنــا فــنــســتــر مــا سَــتَــرْ
لــولا افــتــقــارُ الــمــحــدثــات ... إلــيــه مــا جــاء الــخَــبَــرْ
هــذا هــو الــمَــيْــتُ الــذي ... يــوم الــقــيــامــة قــد نُــشِــرْ

أن هذا هو السرّ الذي أخفاه الله عمن شاء من عباده قد ظهر في حكم افتقارنا في غناه، فأظهره الله لمن شاء أيضاً، فتأمل هذا الغنى وهذا الفقر وانظر بنور بصيرتك في هذا الوجود والفقد وقل: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]: [البسيط]

فحَضْرَةُ العَدْل ما تَنْفَكُّ في نَصَبِ ... وحضرةُ الجُور في بَلْوَى وفي تَعَبِ
لو كان ثَمَّ مُرِيحٌ كان يحكُمُ لي ... بالاستراحة في لَهْوي وفي لَعِبي
أنا جَنَيْتُ على نفسي فبي حَكَمَتْ ... عليَّ أسماؤه الحُسْنَى مع النَّسَبِ
فإنّ لي نَسَباً فيه الهلاكُ كما ... لربنا نَسَبٌ يُنْجي من العَطَبِ
هو التُّقَى فاتَّقِ الرحمنَ إن له ... مَكْراً خَفِيّاً بأهل الوعد والنّسَبِ
واحذر غوائلَه في كل مكرمة ... واضْمُمْ إليك جناحيك من الرَّهَبِ

يقول رسول الله: «**يقول الله تبارك وتعالى: اليَوْمَ**»، يَعْنِي يَوْمَ القِيَامَةِ «**أَضَعُ نَسَبَكُمْ وَأَرْفَعُ نَسَبِي أَيْنَ المُتَّقُونَ**». قال الله تعالى مخبراً عباده: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]

ويقول الله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة اللطف

[نظم: مجزوء الرمل]

إنّما اللّطفُ خفاءٌ ليس في اللُّطفِ ظُهورْ
وبه أَبْرزَ كَوْني وبه تجري الأمُورْ
كُنْ عُبَيْدَ اللَّطيف هو بالأمر خَبِيرْ
إن دينَ الله يُسْرٌ وهو بالهوى عَسِيرْ
لا تُخالِفْ لا تُوافِقْ إنه الخير الكثيرْ
والذي يفْهَمُ قَوْلي هو بالأمر بَصِيرْ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد اللطيف، وما لطفه وأخفاه عن الإدراك إلا شدة ظهوره، فلما لم تقع عين إلا عليه ولا نظرت إلا به فإنه البصر لكل عين تبصر، فما الفائدة إلا لمن يشهد ذلك ويعرفه ذوقاً ومشاهدة، فإن التقليد في ذلك ما يقع موقع الشهود فإنه ما ثم إلا هو لم يتميز عن غير لأنه لم يكن غير فيمتاز عنه فعمن خفي وما ثم غير: [المجتث]

فليس للُّطفِ حُكْمٌ إلا إذا كنت ثَمَّهْ
ولستُ ثَمَّ فقُلْ لي من ذا يُعَيِّنُ حُكْمَهْ
وإنّ في القلب منه إذا تَفَكَّرْتَ غَمَّهْ
تجيء منه سحابٌ على القلوب وظُلْمَهْ

* * *

[نظم: مجزوء الرمل]

جاءت الحيرةُ تجري يا عبيدي ضاع قَدْري
أين أسمائي وحُكْمي أين نَهْيِي أين أمْري
ارْقَبُوني تَجِدُوني في خفايا الكون أَسْري
إنه لا بدّ مني فلذا أمْرُك أمْري

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فانظر إلى سريان هذا اللطف الإلهي ما أعجبه، وحكمه الظاهر في هذه الكثافة كيف أبان أن طاعة رسوله ﷺ طاعته ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] والحجر الأسود يمين الله للبيعة، وجعله في الحجر حتى لا يقع في ذلك دعوى فهي بيعه خالصة مخلصة فمن بايعه بايع الله، فانظر إلى ما يشهده البصر وانظر إلى ما يشهده الإيمان، فمن نظر بعين الإيمان رأى قوّة نفوذه في الكثيف حتى سرى إلى اللطيف الخبير فيحصل له المعرفة بالأمر على ما هو عليه، فإذن عين اللطيف الذي سار إليه عين الكثيف الذي سار منه يبين ذلك في الحدود مثاله الجوهر قائم بنفسه ظاهر

شخصه من أعيان غير ظاهرة هي مجموعه وليست سوى عينه وما لها وجود إلا عينه فمن الجوهر ومن الصفات النفيسة له، فالأمر هكذا في هذه الحضرة فهو حق وعين ما هو حق إذا ظهر كان خلقاً، ولا يصح حكم لحضرة اللطف إلا بوجود الخلق البخار يصعد لا يدركه البصر للطفه ورقته فينضمّ بعضه إلى بعضه ويتراكم فيظهر غماماً أنشأه الحق فظهر وهو من شيء لا يظهر، فأعطاه هذا المزاج الخاص حكماً لم يكن له قبل ذلك، وأعطاه اسماً وظهر عنه أثر في الجو لم يكن له شيء من هذا كله قبل ذلك، فأمطر وأحيى وأضحك الأرض بالنبات وأروى وهو ما عمل شيئاً إلا بذلك السرّ اللطيف الذي نشأت منه صورته. وفي قبض الظل ومده من اللطف ما إذا فكر فيه الإنسان رأى عظيم أمر، ولهذا نصبه الله دليلاً على معرفته فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] فلا يدرك البصر عين امتداده حالاً بعد حال، فإنه لا يشهد له حركة مع شهود انتقاله فهو عنده متحرك لا متحرك، وكذلك في فيئه وهو قوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٦] فمنه خرج فإنه لا ينقبض إلا إلى ما منه خرج كذلك تشهده العين وقد قال تعالى وهو الصادق أنه قبضه إليه، فعلمنا أن عين ما خرج منه هو الحق ظهر بصورة خلق فيه ظل يبرزه إذا شاء ويقبضه إذا شاء، لكن جعل الشمس عليه دليلاً ولم يتعرض لتمام الدلالة وهو كثافة الجسم الخارج الممتد عنه الظل، فبالمجموع كان امتداد الظل، فهذا شمس وهذا جدار وهذا ظل وهذا حكم امتداد، وقبض بفيء ورجوع إلى ما منه بدا فإليه عاد والعين واحدة، فهل يكون شيء ألطف من هذا؟ فالأبصار وإن لم تدركه فما أدركت إلا هو فإنه ما أحالنا إلا على مشهود بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ وما مده إلا بشمس وذات كثيفة تحجب وصول نور الشمس إلى ما امتد عليه ظل هذه الذات وجهة خاصة ثم قبضه كذلك، فهذه كيفية ما خاطبنا بها أن ننظر إليها وما قال فيها، فكنا نصرف النظر تألقاً إلى الفكر ولكن بأداة إلى أراد شهود البصر، وإن كانت الأدوات يدخل بعضها في مكان بعض ولكن لا يعرف ذلك إلا بقرائن الأحوال وهي إذا استحال أن يكون حكم هذه الأداة بالوضع في هذا الموضع علمنا أنها بدل وعوض من أداة ما يستحقه ذلك الموضع وهذا معلوم في اللسان، وبهذا اللسان أنزل القرآن كما قال ﷺ: «**إِنَّمَا أُنْزِلَ القُرْآنُ بِلِسَانِي لِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**» وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] فلا بدّ أن يجري به على ما تواطؤوا عليه في لحنهم فاعلم ذلك فتأمّل فيما أوردناه في نظمنا هذا الذي أذكره: [الوافر]

فلا يدري اللَّطيفَ سوى لَطيفٍ	وعَيْنُ اللُّطف في عين الكثافَةْ
فهذا عَيْنُ هذا يا خليلي	فقِفْ بين الكثافة واللَّطافةْ
تَحُزْ قَصَبَ السباق بكل وَجْهٍ	كما قد حَازَهُ أهلُ العِيَافةْ
وكن عَبْدَ اللطيف بكل وَجْهٍ	تَنَلْ ما ناله أهل القيافةْ
مِنِ أدْخالِ السرور على رسولٍ	نَقِيِّ الثوب من أهل النظافةْ

وهذه حضرة نلت منها في خلقي الحظ الوافر بحيث أني لم أجد أحداً فيمن رأيت وضع

قدمه فيها حيث وضعت لا إن كان وما رأيته، لكني أقول أو أكاد أقول: إنه إن كان ثم فغايته أن يكون معي في درجتي فيها، وأمّا أن يكون أتم فما أظن ولا أقطع على الله تعالى فأسراره لا تحد وعطاياه لا تعد، وقد بينا في الأحوال من هذا الكتاب في باب اللطيفة ما يقتضيه هذا الاسم الإلهي في أهل الله وما يطلبه بالوضع في اللسان، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الخبرة والاختبار وهي حضرة الابتلاء بالنعم والنقم

[نظم: البسيط]

إنّ الخَبِيرَ هو المُبْلي إذا نَظَرَتْ — عيناك نِعْمَةَ مَنْ يُبْلي بها البَشَرَا
وإن يكنْ نِقْمَةٌ منه حَبَاكَ بها — إنّ السّعيدَ الذي ما زال مُفْتَقِرَا

يدعى صاحبها عبد الخبير، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] وهو كل علم حصل بعد الابتلاء، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] وقال: ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] وقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾ [الملك: ٢]، بخلقه الموت والحياة، وهذا لإقامة الحجة فإنه يعلم ما يكون قبل كونه لأنه علمه في ثبوته أزلاً، وأنه لا يقع في الكون إلا كما ثبت في العين، وما كل أحد في العلم الإلهيّ له هذا الذوق فتعلق علم الخبرة تعلق خاص، وأصل الابتلاء الدعوى كانت ممن كانت، فمن لا دعوى له لايبتلى، وما ثم إلاّ من له دعوى، والتكليف ابتلاء فأصله عن دعوى، وقد عمّ من يدّعي ومن لا يدّعي أي من لا دعوى له عامة فلا يبالي من لا دعوى له فإنه يحشر مع من لا دعوى له أصلا، وما هو ثم أعني في الوجود ولا تكليف عليه كالمغصوب على نفسه يجازى بنيته لا بما ظهر منه، كالجيش الذي يخسف به بين مكة والمدينة، وفيه من غصب على نفسه في المجيء فقالت عائشة في ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**يُحْشَرُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ وَإِنْ عَمَّهُمُ الخَسْفُ**» كما قال: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] بل تعمّ المحق والظالم، وتختلف أحوالهم في القيامة فيحشر المحق سعيداً والظالم شقياً، فحيث كانت الدعوى كان الاختبار، ومن وصف نفسه بأمر توجه عليه الاختبار وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. والإيمان يقطع بصدق هذا القول، ولكن لا يظهر حكمه مشاهدة عين إلا في المسرفين وهم المذنبون فكأنه قال لهم: اعصوا حتى تعرفوا ذوقاً صدق قولي في مغفرتي إذا كان أمير المؤمنين المأمون يقول لو علم الناس حبي في العفو لتقربوا إليّ بالجرائم وهو مخلوق فما ظنك بالكريم المطلق الكرم؟ فلا يختبر إلا بإتيان الذنوب وقد قال: «**لو لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ الله بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَتُوبُونَ فَيَغْفِرُ الله لَهُمْ**»، وهذا القول من النبيّ ﷺ في الحقيقة فيه تقديم وتأخير إلا أنه ستره ليبين فضل العالم بأصول الأمور على غير العالم فهو يقول: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ الله بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَتُوبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**» كما جاء في نص القرآن ثم يقول بعد قوله «**فيغفر لهم**»: «**فَيَتُوبُونَ**» أي يرجعون إلى الله في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ لأنه لا غافر إلا هو. وأما إذا تاب قبل

المغفرة فالحكم للتوبة لا للكرم الإلهي، وإنما يكون الكرم عند ذلك كونه أعطاه التوبة والتوبة مجاءة والقرآن ما ذكر توبة، والرسول ﷺ لا يخالف القرآن، ولكن ثم قوم يغفر لهم من غير توبة، وثم قوم يعطيهم الله التوبة، فالتوبة قد جعلها الله تتضمن المغفرة فكأنها للتائب بشرى معجلة في هذه الدار، فأدخل الحق نفسه في الدعوى ليمشي حكمها في الخلق، ثم طلب بالابتلاء صدق الدعوى ليبين للعباد صدق دعواه، فإذا ادّعيت فليكن دعواك بحق وانتظر البلاء، وإن لم تدّع فهو أولى بك ولكن كن محلاً لجريان الأقدار عليك، وكن على علم أنه لا يجري عليك إلا ما كنت عليه حتى تعلم أن الحجة البالغة لله فإنه يقول: كذا علمتك وما علمتك إلا منك، ولو كان كما يتخيله بعض الناس ومن لا علم له بسرّ القدر يقول: لو مكنني الله من الاحتجاج لقلت أنت فعلت كما قال أبو يزيد ولكن قال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فسد الباب هذا القول ما يقع إلا من جاهل بالأمر بل ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] في قوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ فإنه ما فعل من نفسه ابتداء، وإنما فعل بك في وجودك ما كنت عليه في ثبوتك ولهذا قال: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ وقد أطلعهم الله عند ذلك على ما كانوا عليه وأن علمه ما تعلق بهم إلا بحسب ما هم عليه، فيعرفون إذا سئلوا أنه تعالى ما حكم فيها إلا بما كانوا عليه، وإذا سئلوا وهم يشهدون اعترفوا فيصدق قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] فيأخذها الناس إيماناً، ونحن وأمثالنا نأخذها عياناً فنعلم موقعها ومن أين جاء بها الحق لا إلا هو اللطيف الخبير. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الحلم

[نظم: البسيط]

لیس الحَلِيمُ الذي تَجْني فيُهْمِلكُمْ إنّ الحَليمَ الذي تَجْني فيُمْهِلُكُمْ
فضلاً عليكم وإحساناً لعَلَّكُمُ في شأن حال يُرَى منكم تَمَلْمُلُكُمْ
فإن رآه على قول فإنّ له شُكْراً على حالٍ أعْطاهُ تَفَضُّلُكُمْ
عليكم لا عليه حين يشكركم لديه في حقه منكم يُبَدّلُكُمْ

يدعى صاحبها عبد الحليم، وهي حضرة الإمهال من القادر على الأخذ، فيؤخر الأمرويمهل العبد ولا يهمله، وإنما يؤخره لأجل معدود ولا يمحوه لأنه يبدّله بالحسنى فيكسوه حلة الحسن وهو هو بعينه ليظهر فضل الله وكرمه على عبيده، ولهذا وصف الذنوب بالمغفرة وهي الستر وما وصفها بذهاب العين، وإنما يسترها بثوب الحسن الذي يكسوها به لأنه تعالى لا يردّ ما أوجده إلى عدم بل هو يوجد على الدوام ولا يعدم فالقدرة فعالة دائماً، ولهذا يكسو الأعراض التي لا تقوم بنفسها صور القائمين بأنفسهم ويجعل ذلك خلعاً عليها، وقد جاء وزن الأعمال وشبهها بمثاقيل الذر ويؤتى بالموت وهو نسبة، والنسب أخفى من الأعراض، في صورة كبش أملح فقد خلع على هذه النسبة صورة كبش أبيض، فما أعدم النسبة بعد تحققها بنعت من نعوت الوجود بما لها من الحكم في الموجودات فلم يردها إلى

حكم العدم، فأحرى ما هو موصوف بالوجود العيني، فلهذا وصف نفسه بالغفار والحليم وهو الإمهال، فما أهمل حين أمهل ولا أعدم حين حكم فإنه ما شأنه إلا الإيجاد ولهذا قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٣] والذهاب انتقالكم من الحال التي أنتم فيها إلى حال تكونون فيها ويكسو الخلق الجديد عين هذه الأحوال التي كانت لكم لو شاء لكنه ما شاء، فليس الأمر إلا كما هو فإنه لا يشاء إلا ما هي الأمور عليه لأن الإرادة لا تخالف العلم، والعلم لا يخالف المعلوم، والمعلوم ما ظهر ووقع فلا تبديل لكلمات الله فإنها على ما هو عليه.

ومن شأن هذه الحضرة إثبات الاقتدار فإن صاحب العجز عن إنفاذ اقتداره لا يكون حليماً ولا يكون ذلك حلماً، فلا حليم إلا أن يكون ذا اقتدار. ولما كانت المخالفة تقتضي المؤاخذة فأفسد الحلم حكمها في بعض المذاهب ولذلك يقال: حلم الأديم إذا فسد وتشقق، وكذلك حلم النوم أفسد المعنى عن صورته لأنه ألحقه بالحس وليس بمحسوس حتى يراه من لا علم له بأصله، فيحكم عليه بما رآه من الصورة التي رآه عليها، ويجيء العارف بذلك فيعبر تلك الصورة إلى المعنى الذي جاءت له وظهر بها فيردّها إلى أصلها، كما أفسد الحلم العلم فأظهره في صورة اللبن وليس بلبن فرده رسول الله ﷺ بتأويل رؤياه إلى أصله وهو العلم فجرّد عنه تلك الصورة، وفي تلك الصورة يكون حكم الحلم فلذلك نقول إنه أفسد صورة العلم فرده رسول الله ﷺ، والعابر المصيب كان من كان إلى أصله وأزال عنه ما أفسده الحلم، ومن هنا تعرف ما للحق من رتبة الأحلام، جاء رجل إلى ابن سيرين وكان إماماً في التعبير للرؤيا فقال له: إني رأيت أرد الزيت في الزيتون، فقال: أمّك تحتك، فبحث الرجل عن ذلك فإذا به قد تزوّج أمه وما عنده ولا عندها خبر بذلك. وأين صورة نكاح الرجل أمه من صب الزيت في الزيتون. وإذا رأى صاحب الرؤيا الأمر كما هو عليه في نفسه فليس بحلم وإنما ذلك كشف لا حلم سواء كان في نوم أو يقظة، كما أن الحلم قد يكون في اليقظة كما هو في النوم كصورة دحية التي ظهر بها جبريل عليه السلام في اليقظة فدخلها التأويل ولا يدخل التأويل النصوص. وأما قول إبراهيم لابنه وقد رأى أنه يذبح ابنه فأخذ بالظاهر على أن الأمر كما رآه وما كان إلا الكبش وهو الذبح العظيم ظهر في صورة ابنه فرأى أنه يذبح ابنه فذبح الكبش فهو تأويل رؤياه على غير علم منه ﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾ يعني تلك الصورة وهي ابنه التي رآها إبراهيم عليه السلام ﴿بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧] وهو الكبش فما ذبح إلا كبشاً في صورة ولده فأفسد الحلم صورة الكبش في المنام ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢] وكيف ترى وأين ترى؟ وكن على علم في أحوالك كلها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة العظمة

[نظم: المنسرح]

إنّ الـعَـظِـيـمَ الـذي تُـعَـظِّـمُـهُ ... أفـعـالُـهُ لـيـس مـن يـقـولُ أَنَـا

ومَـنْ يَـقُـلْ إنَّ مـا تُـعَـظِّـمُـهُ ... أحـسـابُـهُ لا أرى لـه ثَـمَـنَـا

فلا تُعَظِّمْهُ إنه رَجُلٌ يُحْشَرُ يوم الحساب في الجُبَنَا

يدعى صاحبها عبد العظيم وحال هذا العبد الاحتقار التام مع كونه محلاً للعظمة فيفنيه عند نفسه، وما رأيت أحداً يحكم هذا المقام إلا شخصاً واحداً من حديثة الموصل، وأخبرني شيخي أبو العباس العريبي من أهل العلياء من غرب الأندلس أنه رأى واحداً أيضاً من أهل هذه الحضرة وقد تلبس كالحلاج فيعظم جسمه في أعين الناظرين بالأبصار. وأما حكمها في النفوس فكثير الوقوع فإنه تقع أمور كثيرة يعظم في النفوس قدرها بحيث لا تتسع النفس لغيرها ولا سيما في الأمور الهائلة التي تؤثر الخوف في النفوس ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠] و﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ولكن في نفس الموحد يشاهد عظمته في نفس المشرك لا في نفسه، فيشاهد ظلمة عظيمة إذا أخرج يده فيها لم يكد يراها. واعلم أن العظمة حال المعظم اسم فاعل لا حال المعظم اسم مفعول، إلا أن يكون الشيء يعظم عنده ذاته، فعند ذلك تكون العظمة حال المعظم لأن المعظم اسم فاعل ما عظمت عنده إلا نفسه فهو من كونه معظماً نفسه كانت الحال صفته وما عظم سوى نفسه فالعظمة حال نفسه، وهذه الحالة توجب الهيبة والإجلال والخوف فيمن قامت بنفسه، قال بعضهم: [البسيط]

كأنما الطَّيْرُ منهم فوق أرْؤُسِهِمْ لا خَوْفَ ظُلْمٍ ولكن خَوْفَ إجْلالِ

لما في قلوبهم من هيبته وعظمته. وقال الآخر: [مجزوء الكامل]

أشْتَاقُهُ فإذا بَدَا أطْرَقْتُ من إجْلالِهِ
لا خِيفَةً بل هَيْبَةً وصيانةً لجَمَالِهِ

وهذه الأسباب كلها موجبات لحصول العظمة في نفس هذا المعظم، إلا أن عظمة الحق في القلوب لا توجبها إلا المعرفة في قلوب المؤمنين وهي من آثار الأسماء الإلهية، فإن الأمر يعظم بقدر ما ينسب إلى هذه الذات المعظمة من نفوذ الاقتدار وكونها تفعل ما تريد ولا رادّ لحكمها ولا يقف شيء لأمرها فبالضرورة تعظم في قلب العارف بهذه الأمور وهي العظمة الأولى الحاصلة لمن حصلت عنده من الإيمان، والمرتبة الثانية من العظمة هي ما يعطيه التجلي في قلوب أهل الشهود والوجود من غير أن يخطر لهم شيء من تأثير الأسماء ولا من الأحكام الإلهية، بل بمجرّد التجلي تحصل العظمة في نفس من يشاهده وهذه العظمة الذاتية ولا تحصل إلا لمن شاهده به لا بنفسه وهو الذي يكون الحق بصره، ولا أعظم من الحق عند نفسه، فلا أعظم من الحق عند من يشهده في تجليه ببصر الحق لا ببصره، فإن بصر كل إنسان وكل مشاهد بحسب عقده وما أعطاه دليله في الله، وهذا الصنف من أهل العظمة خارج عما ارتبطت عليه أفئدة العارفين من العقائد فيرونه من غير تقييد فذلك هو الحق المشهود فلا يلحق عظمتهم عظمة معظم أصلاً، وما أحسن ما جاء هذا الاسم حيث جاء في كلام الله ببنية «فعيل» فقال عظيم وهي بنية لها وجه إلى الفاعل ووجه إلى المفعول. ولما كان الحق عظيماً عند نفسه كان هو المعظم والمعظم فأتى بلفظ يجمع الوجهين كالعليم سواء، وقد يرد هذا البناء

ويراد به الوجه الواحد من الوجهين كالاسم الحليم هذا لسان الظاهر وعلم الرسم. وأما علم الحقيقة المعتمد عليه عند العارفين فكل فعيل في أسماء الحق وصفاته ونعوته كالحليم والعليم والكريم فلا فرق بين هذه الأسماء، وبين العظيم في دلالتها على الوجهين، وذلك لكونه هو الظاهر في مظاهر أعيان الممكنات، فما حلم إلا عنه ولا تكرم إلا عليه، ألا ترى حكم إيجاد المرجح لا يكون إيجاده عند المتكلمين إلا بالقدرة أو القادرية عند بعضهم أو بكونه قادراً عند طائفة فهو القادر، ولا يترجح الممكن إلا بالإرادة كما قلنا في القدرة على ذلك الترتيب والمساق فهو المريد، فالمريد إذا أراد ترجيح الوجود على العدم في المخلوق إن لم يكن هو القادر على ذلك، وإلا فعدم الإرادة أو وجودها على السواء، فيحتاج المريد إلى القادر بلا شك والعين واحدة ما ثم عين زائدة مع اختلاف الحكم، فلهذا قلنا في هذا البناء في حق الحق بطلب الوجهين، ولا يقدر أحد من الطوائف من العلماء بالله على مثل هذا العلم الإلهي إلا العلماء الراسخون من أهل الله الذين هوية الحق علمهم كما هي سمعهم وبصرهم فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الشكر

[نظم: الوافر]

شَكُورٌ مَنْ أَتَى الكَرَمَ المُسَمَّى ... كما قد جاء في نَصِّ الكتابِ
لِيُطْعِمَ من قُدُورٍ راسياتٍ ... جياعاً في جِفَانٍ كالجَوابي
ولا يبغي على ما كان منه ... مِنِ اَطْعامٍ إلى يوم الحسابِ
ثَناءً لا ولا حمداً وذِكْراً ... ولا نوعاً مِنَ اَنْواعِ الثَّوابِ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الشكور وعبد الشاكر، وهي لصفة الكلام المنسوب إلى الحق قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبا: ١٣] يعني المبالغة في الشكر، وهو أن يشكر الله حق الشكر، وذلك بأن يرى النعمة منه؛ ذكر ابن ماجة في سننه حديثاً وهو: «**أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْحَى إلى مُوسَى اشْكُرْنِي حَقَّ الشُّكْرِ، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ: وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ يَا رَبِّ؟ فقالَ لَهُ: إذا رَأَيْتَ النِّعْمَةَ مِنِّي فَقَدْ شَكَرْتَنِي**» فمن لا يرى النعمة إلا منه فقد شكره حق الشكر، لا تراها من الأسباب التي سدلها بينك وبينه عند إرداف النعم، فإن النعم أشياء لا تتكون إلا عنه من الوجه الخاص الذي لكل كائن، وقال من هذه الحضرة: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، ووصف نفسه بشكره عباده طلباً للزيادة منهم مما شكرهم عليه مقابلة نسخة بنسخة لأنه على صورته، وهو يريد أن يوقفك على صحة هذه النسخة، فإنه ما كل نسخة تكون صحيحة ولا بد قد تختل منها أمور، فلذلك شرعت المعارضة بين النسختين، فما أخرج الناسخ منها أثبت بالمعارضة لتصح النسخة، ومن الأمر الواقع في المنتسخ منه أنه شاكر وشكور عباده، ثم طالبهم بالشكر ليظهروا بصفته من كونهم على صورته، ثم عرفهم أن الشكر يقتضي لذاته الزيادة من المشكور مما شكر من أجله وهو

المعروف الذي سدله وأسداه إلى عباده. فإذا علم أن الحق تعالى يطلب الزيادة من عباده في دار التكليف مما كلفهم فيها من الأعمال، وجعل استيفاء حقه أن يرى العبد النعمة منه عز وجل، فكان تنبيهاً من الله لعبده في تفسير حق الشكر أن الحق يرى النعمة من العبد حيث أعطاه العلم به كما قلنا إن العلم يتبع المعلوم فهو يجعل التعلق به في نفس العالم فيتصف العالم بالعلم فيشكره الحق على ذلك فيزيده العبد بتنوع أحواله تعلقات لم يكن عليها تسمى علوماً. وهذا الذي أشرنا إليه من أصعب العلوم علينا لشدة غوصها وهي سريعة التفلت، ومن علم هذا علم قوله تعالى: حتى نعلم فما قال حتى نعلم حتى كلف وابتلى ليعلم ما يكون منه فيما أتاه به، وقد علم منه ما يكون في حال ثبوته، إلا أن الممكن إذا تغيرت عليه الأحوال يعلم أنه كان في عينه في حال ثبوته بهذه الصفة ولا علم له بنفسه، فإن الإنسان قد يغفل عن أشياء كان قد علمها من نفسه ثم يذكرها وهو قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩] وقوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] ولب الشيء سره وقلبه، وما حجبه إلا صورته الظاهرة فإنها له كالقشر على اللب صورة حجابية عليه لعينه الظاهرة، فهو ناس لما هو به عالم وأخفى منه في التشبيه الزهرة مع الثمرة هي الدليل عليها والحجاب والحال الإلهي كالحال الكوني لأنه عينه ليس غيره، فما شكر إلا نفسه لأنه ما أنعم إلا هو، ولا قبل الإنعام ولا أخذه إلا هو، فالله المعطي والآخذ كما قال: إن الصدقة تقع بيد الرحمن فإنه يأخذ الصدقات، ويد السائل صورة حجابية على يد الرحمن فتقع الصدقة في يد الرحمن قبل وقوعها في يد السائل، وإن شئت قلت: إن يد السائل هي يد المعطي فيشكر الحق عبده على ذلك الإنعام ليزيده منه، يقول الله عز وجل: «**جِعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي**» فطالبه الحال بالتفسير فقال له: وَكَيْفَ تُطْعَمُ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قال تعالى: «**أَمَا إِنَّ فُلَاناً جَاعَ فَاسْتَطْعَمَكَ فَلَمْ تُطعِمْهُ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذٰلِكَ عِنْدِي**» وكذا جاء في المرض والسقي أي أنا كنت أقبله لا هو، والحديث في صحيح مسلم، وعند هذا القول كان الحق صورة حجابية على العبد، وعند الأخذ والعطاء كان العبد صورة حجابية على الحق.

فإذا شهدت فاعلم كيف تشهد ولمن تشهد وبمن تشهد وعلى من تشهد، فلتشكر على حد شهودك ولتقبل الزيادة ولتعط أيضاً الزيادة على شهود وتحقيق وجود، وموجب الشكر الإنعام والنعم، وأعظم نعمة تكون النكاح لما فيه من إيجاد أعيان الأمثال فإن في ذلك إيجاد النعم الموجدة للشكر، ولذلك حبب الله إليه النساء وقواه على النكاح أعني لرسول الله ﷺ وأثنى على التبعل وذم التبتل، فحبب النساء إليه لأنهن محل الانفعال لتكوين أتم الصور وهي الصورة الإنسانية التي لا صورة أكمل منها، فما كل محل انفعال له هذا الكمال الخاص، فلذلك كان حب النساء مما امتن الله به على رسوله ﷺ حيث حببهن إليه مع قلة أولاده ﷺ، فلم يكن المراد إلا عين النكاح مثل نكاح أهل الجنة لمجرد اللذة لا للإنتاج، فإن ذلك راجع إلى إبراز ما حوى عليه ﷺ من ذلك، وهذا أمر خارج عن مقتضى حب المحل المنفعل فيه التكوين، ألا ترى الحق إن فهمت معاني القرآن كيف جعل الأرض فراشاً وكيف خلق آدم منها

وجعله محل الانفعال؟ ونطق رسوله ﷺ بقوله: «**الوَلَدُ لِلفِرَاشِ**» يريد المرأة أي لصاحب الفراش كما كان آدم عليه السلام حيث جعله خليفة فيمن خلق فيها ليكون أيضاً صاحب فراش لأنه على صورة من أوجده فأعطاه قوة الفعل كما أعطاه قوة الانفعال فكان وطاء وغطاء، فالحق هو الشاكر المشكور: [الطويل]

وفي الشُّكْر أسْرارٌ يراها ذَوُو الحِجَى ... يفوزُ بها عَبْدُ الشَّكُورِ إذا شَكَرْ
ومن أجل ذَا سَمَّى الإلٰهُ لعَبْدِهِ ... على لغة الأعْراب الفَرْجَ بالشَّكَرْ

لما فيه من الزيادة على الالتذاذ بالنكاح وهي ما يتولد فيه عن النكاح من الولد الروحاني والجسماني دنيا جسماً وآخرة روحاً، وقد ذكرنا ذلك في توالد الأرواح من هذا الكتاب، وبينا ذلك أيضاً في القصيدة الطويلة الرائية التي أولها: [مجزوء الرجز]

اعْتَرَضَتْ عَقَبَةٌ ... وَسْطَ الطريق في السَّفَرْ

وهذا القدر من الإيماء كاف في معرفة هذه الحضرة الإلهية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة العلوّ

[نظم: الوافر]

تَوَاضَعْ فالإلٰهُ هو العَلِيُّ ... له التنزيهُ منّا والعُلُوُّ
فقُلْ إن شِئْتَ فَرْدٌ لا يُدَانَى ... وقُلْ ما شِئْتَهُ فالأمْرُ تَوُّ
فليس سوى الذي قد قام عندي ... إلٰهٌ ما له إلا السُّمُوُّ
وليس سوى الذي قد قام عندي ... عُبَيْدٌ ما له إلا الدُّنُوُّ
فلا تَغْلُ فَدَيْتُكَ يا خليلي ... فإنّ الدين يفسده الغُلُوُّ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد العلي. قال الله عز وجل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وكان شيخنا العُريبي يقف في هذه الآية ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ ويبتدىء ﴿ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه: ٥ـ٦] أي ثبت له وكل ما سوى الله عرش له علو قدر ومكانة في قلوب العارفين به من علماء النظر وغيرهم من العلماء، فعلوه تعالى بهذا التفسير مطلق، وبقي علو المكان الذي أثبته الإيمان بالخبر الصدق، ودل عليه عند العلماء بالله من طريق الشهود صور التجلي فهو بكل شيء محيط لاستوائه. ولما كان أعلى الموجودات وأعظمها من وجب له الوجود لنفسه استقلالاً وكان له الغنى صفة ذاتية لم يفتقر إلى غيره كان بالاسم العلي أولى وأحق وكان من كان وجوده بغيره مستوى لهذا العلى وليس إلا الله، فمن هذه الحضرة ظهر العلو فيمن علا في الأرض كفرعون الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: ٤]، وجعل العلو في الإرادة في بعض الناس وذمهم بذلك فقال: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: ٨٣] ونعني بالدار الآخرة هنا الجنة خاصة

دون النار ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وسواء حصل لهم ذلك المراد أو لم يحصل فقد أرادوه وحصل في نفوسهم وما بقي إلا أن يحصل في نفوس الغير الذي كنى عنها بالأرض، والعلماء بالله لا يريدون علواً في الأرض لأنه علو مكتسب ولا يريدون ما يقع عليه اسم الكسب، وإنما يريدون ما تقتضيه ذواتهم من حيث ما يشهدون من افتقروا إليه في وجودهم خاصة، فما لهم نظر إلا إليه لا فيه لأنه ممنوع لنفسه أعني النظر فيه الذي هو الفكر في ذاته، فالذي يعطي العلو هذه الحضرة إنما هو السعادة لا التكبر، فالعلو الذي تعطي هذه الحضرة لأجل السعادة إنما هو علمهم بذواتهم ليعلموا أن الحادث في مقام الانحطاط عما يجب لله من العلو، ويكفيهم من العناية الإلهية أن حصلوا مع الحق في باب الإضافة: [مجزوء الرمل]

إذْ بــهــم كــان عَــلِــيًّــا ... وبــه كــانــوا سِــفَــالاَ
لــم أجــد لله فــيــنــا ... غَــيْــرَ مــا قــلــنــا مِــثَــالا
فــهــو الــتــاجُ عــلــيــنــا ... عــنــدمــا كُــنَّــا نِــعَــالا
وهــو الــبــدرُ الــمــسَــمَّــى ... عــنــدمــا كــان هِــلالا
صَــيَّــرَ الإلٰــهُ ذاتــي ... لــرَحَــى الــكــون ثــقــالا
فــلــه الــتــعــظــيــم مــنّــا ... جَــلَّ قَــدْراً وتــعــالــىٰ
جــعــل الإلٰــهُ فــيــنــا ... لــشــيــوخــنــا مــحــالا
فــإذا لــم يَــسْــتَــفِــلُــوا ... كــان جَــعْــلُــهُــمُ مُــحَــالا
وإذا هُــمُ اسْــتَــفَــلُــوا ... لــم أجــدْ عــنــهــم زوالا
فــبــذاتــي وبــربّــي ... كــنــت حــرمــاً وحَــلالا
وبــربّــي لا بــكــونــي ... صَــيَّــرَ الــضــعــفَ مــحــالا
وســقــانــي كــأسَ حــظــي ... طــيِّــبــاً عــذبــاً زُلالا
فــلــصَــحْــوي عــنــد شُــرْبــي ... لــم أجــد مــنــه خَــبَــالا
ولــسُــكْــري مــنــه أيــضــاً ... كــنــت فــي نــفــســي خَــيَــالا
لــم يــكــن فــيــه سِــوَائــي ... فــلــذا كُــوِّنْــتُ آلا
مــن يــرانــي مــا يــرانــي ... فــالــهُــدَى صــار ضَــلالا
وانــتــقــلــنــا عــنــه ســرّاً ... لــلــذي شــاء انــتــقــالا
لــم أجــدْ عــنــد انــتــقــالــي ... عــنــه فــي نــفــســي كَــلالا
فــنَــعَــمْ لــم أرَ فــيــه ... عــنــدمــا قــلــت ولا لا
ثُــمَّ لــم يــكــن ســكــوتٌ ... عــنــد قــولــي واسْــتَــحَــالا
فــلــذا قــد جِــزْتُ فــيــه ... ولــذا ذُقْــتُ وَبَــالا
جُــبْــتُ غــربــاً ثــم شــرقــاً ... وجــنــوبــاً وشــمــالا
ثــم أنــشــأنــا ســحــابــاً ... مــن عــطــايــاه ثِــقَــالا
ثــم نُــودِيــنــا وَجَــدْتُــم ... فــي وُجُــودِكُــمُ مَــنَــالا

وما حصل التشريف للممكنات إلا بإضافتها إلى الله، وهذا التشريف في حقنا هو أعظم تشريف إمكاني، فعلو الإنسان عبودته لأن فيها عينه وعين سيده، والمتلبس بصفة سيد لابس ثوب زور ليس عليه منه شيء ولا تقبله ذاته وهو يعلم ذلك من نفسه وإن جهله غيره واعترف له بالعلو عليه، فمن وجه ما لا من جميع الوجوه فإنه يعلمه أنه هو، فهوية ما سوى الحق معلومة لا تجهل، ولولا معقولية المكانة ما اعترف مخلوق بعلو مخلوق، فلهذا لا يعظم أحد في عين أحد لذاته إلا المحبوب خاصة فإنه يعظم في عين محبه لذاته، فكل شيء يكون منه يتلقاه المحب الصادق الحب بالقبول والرضى، وما كل محب محب لأن طلب الغرض من المحب لا يصح في الحب الصادق الذي استفرغ قواه، وإنما ذلك لمن بقيت فيه فضلة يعقل بها أنه محب وأن محبوبه غير له.

ولما وصف الحق نفسه بالنزول كان هذا النزول عين الدليل على نسبة العلوّ لأنه لو وقف مع قوله: ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] واكتفى ولم يذكر النزول، وكل جزء من الكون عرشاً له لأنه ملكه، فما تحقق له العلو إلا باتصافه بالنزول إلى السماء الدنيا، فأثبت له علو المكان، وأثبت الاستواء على العرش المكانة والقدر، فبالاستواء ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾ [الزخرف: ٨٤] ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤] وبالنزول ظهر الحد والمقدار فعلمنا بالنزول في أي صورة تجلى ولمن نزل وتدلى، وله الحمد أي عاقبة الثناء ترجع إليه في الآخرة وهو النزول والأولى وهو الاستواء، فعمّ علوّه وتحقق دنوّه، فطوبى للتائبين والداعين والمستغفرين، فيا ليت شعري هل يسمعون قوله تعالى ذلك؟ نعم العارفون يسمعونه، وأهل الحضور مع إيمانهم بهذا الخبر يسمعونه، وما عدا هذين الصنفين فلا يسمعه، وما عرفنا الله تعالى بأنه كلم موسى تكليماً إلا لنتعرض إلى هذه النفحة الإلهية والجود لعل نسيماً يهب علينا منها فيأخذ الناس هذا التعريف بأن الله كلم موسى ثناء على موسى عليه السلام خاصة، نعم هو ثناء ولكن ما أثنى الله بشيء على أحد من المخلوقين إلا وفيه تنبيه لمن لم يحصل له ذلك الأمر أن يتعرّض لتحصيله جهد الاستطاعة، فإن الباب مفتوح والجود ما فيه بخل، وما بقي العجز إلا من جهة الطالب ولهذا يقول: من يدعني فأستجيب له ومن نكرة فما وقع العجز إلا منا، وهنا الحيرة لأنا ما ندعوه إلا بتوفيقه وتوفيقه إيانا لذلك من عطائه وجوده واستعداد كنا عليه به قبلناه، فتأهلنا لدعائه وإجابته إيانا فيما دعوناه به على ما يرى الإجابة فيه فهو أعلم بالمصالح منا، فإنه تعالى لا ينظر لجهل الجاهل فيعامله بجهله، وإنما الشخص يدعو والحق يجيب، فإن اقتضت المصلحة البطء أبطأ عنه الجواب، فإن المؤمن لا يتهم جانب الحق، وإن اقتضت المصلحة السرعة أسرع في الجواب، وإن اقتضت المصلحة الإجابة فيما عينه في دعائه أعطاه ذلك سواء أسرع به أو أبطأ، وإن اقتضت المصلحة أن يعدل مما عينه الداعي إلى أمر آخر أعطاه أمراً آخر لا ما عينه، فما جاز الله لمؤمن في شيء إلا كان له فيه خير، فإياك أن تتهم جانب الحق فتكون من الجاهلين وأنت من الجاهلين، ولو أعطيت علم اللوح المحفوظ والقلم الأعلى والملائكة العلى، وأما العالون من عباد الله الذين قال الله في توبيخه لإبليس

حين أبى عن السجود لآدم: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥] فهم الأرواح المهيمة في جلال الله، فأعلاهم الحق أن يكون شيء من الخلق لهم مشهوداً ولا نفوسهم وهم عبيد اختصهم لذاته، فالتجلي لهم دائم وهم فيه هائمون لا يعلمون ما هم فيه، فعلوهم بين الاسم العليّ وبيننا، فهم لا يشهدون علوّ الحق لأنه لا يشهد علوّ الحق إلا من شهد نفسه وهم في أنفسهم غائبون، فهم عن علوّ الحق ومكانته أشد غيبة والعلوّ نسبة فالأعلى من ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] إنما هو نعت أحدية من ادّعى العلوّ أو أراد العلوّ فإذا زال كان علياً لأعلى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الكبرياء الإلهي

[نظم: الوافر]

كَـبـيـرُ الـقَـدْر لـيـس لـه نَـظِـيـرٌ كـبـيـرٌ فـي الـنـفـوس وفـي الـعُـقُـولِ

لـه فـي أنـفُـسٍ عـنـدي قـبـولٌ ولـيـس لـذاتـه بـي مـن قَـبُـولِ

يدعى صاحبها عبد الكبير وهو عين العبد لأن الكبرياء رداء الحق وليس سواك فإن الحق تردى بك إذ كنت صورته فإن الرداء بصورة المرتدي، ولهذا ما يتجلى لك إلا بك. وقال: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» فمن عرف الرداء عرف المرتدي ما يتوقف معرفة الرداء على معرفة المرتدي، وفي هذا غلط عظيم عند العلماء وما تفطنوا لمراد الحق في التعريف بنفسه، فما وصف نفسه إلا بما نعرفه ونتحققه على حد ما نعرفه ونتحققه، فإنه بلساني خاطبني لنعقل عنه فلو أحالنا عليه ابتداء لما عرفناه، فلما أنزل كبرياءه منزلة الرداء المعروف عندنا علمنا ما الكبرياء، ثم زاد رسول الله ﷺ في تجليه يوم القيامة في الزورالأعظم على كثيب المشاهدة في جنة عدن وذلك اليوم الكبير أنه تعالى يتجلى لعباده ورداء الكبرياء على وجهه ووجه الشيء ذاته فحال الحجاب بينك وبينه فلم تصل إليه الرؤية فصدق لن تراني وصدقت المعتزلة فما وصلت الأعين إلا إلى الرداء وهو الكبرياء وما تجلى لك إلا بنا، فما وصلت الرؤية إلا إلينا، ولا تعلقت إلا بنا، فنحن عين الكبرياء على ذاته قال: «وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي» فإذا قلبت الإنسان الكامل رأيت الحق والإنسان لا ينقلب فلا يرجع الرداء مرتدياً لمن هو له رداء، فهذا معنى الكبير، فإنه كبير لذاته والكبرياء نحن فمن نازعه منا فينا قصمه الحق لأنه جهل فإنه له ما رأيناه قط ولا نراه من حيث هو ونحن لنا فما نرى قط سوانا فلا يزال الكبرياء على وجهه في الدنيا والآخرة لأنا ما نزال، وهذا عين افتقارنا واحتقارنا ووقارنا: [المجتث]

لله يـوم كـبـيـرٌ لا يَـمْـتَـري فـيـه مُـؤْمِـنْ له التَّحَكُّمُ فينا بالاسم منه المُهَيْمِنْ

قال الله تعالى لمحمد ﷺ ولكل رسول أن يقول لنا: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣] ولا خوف علينا إلا منا فإن أعمالنا ترد علينا فنحن اليوم الكبير ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨] يعني مرجع اليوم ونعته بالكبرياء والشيء لا ينازع في نفسه ولا فيما هو له، فمن نازع الحق في كبريائه فما نازع إلا نفسه فعذابه عين جهله به، ومن هنا تعرف أن

الإحاطة لنا وليس سوى ما حزناه من صورته فإن الرداء يحيط بالمرتدي: [المجتث]

فظاهر الحَقِّ خَلْقٌ ... وباطن الخَلْقِ حَقُّ

ومن ذلك: [الوافر]

إذا حُزْنَا مَقَامَ الكبرياءِ ... فنحن له بمنزلة الوِعَاءِ

فلم يُرَ غَيْرُنا لمَّا شَهِدْنا ... فكُنَّا منه عَيْنَ الكِبْرِيَاءِ

ولما كنا عين كبرياء الحق على وجهه والحجاب يشهد المحجوب فأثبت أنا نراه كما وسعناه فصدق الأشعري وصدق قوله: ترون ربكم كما صدق لن تراني، وللرداء ظاهر وباطن فيراه الرداء بباطنه فيصدق ترون ربكم ويصدق مثبت الرؤية ولا يراه ظاهر الرداء فيصدق المعتزلي ويصدق لن تراني والرداء عين واحدة، وكان الفضل لهذه النشأة الإنسانية على جميع العالم، فإن العالم كله دون الإنسان منحاز عن الإنسان متميز عنه، فلا يشهد العالم سوى الإنسان الذي هو الرداء والرداء من حيث ظاهره يشهد من يشهده وهو العالم، فيرى الحق ظاهر الرداء بما هو الحق العالم وهي رؤية دون رؤية باطن الرداء، فالعالم له الإحاطة لأنه لا يتقيد بجهة خاصة، فالحق وجه كله والرداء وجه كله، فهو الظاهر تعالى للعبد من حيث العالم، وهو الباطن لنفسه عن العالم من حيث ما له صورة في العالم ومن حيث إن الرداء بينه وبين العالم، فإن الصورة التي للحق في عين العالم الحق لها باطن من حيث إن الرداء حائل بينه وبين الحق الذي العالم به فهو باطن لنفسه وللعالم، ولا يصح أن يكون باطناً لباطن الرداء لكن لظاهره، فالإنسان الكامل يشهده تعالى في الظاهر بما هو في العالم وفي الباطن بما هو مرتد فتختلف الرؤية على الإنسان الكامل والعين واحدة، ولهذا ينكره بعض الناس في القيامة إذا تجلى والكامل لا ينكره فإنه ما كل إنسان له الكمال، فما ينكره إلا الإنسان الحيوان لأنه جزء من العالم فإذا تجلى له في العلامة وتحول فيها عرفه لأنه ما يعرفه إلا مقيداً، فالإمام تابع للمأموم في الأحوال والمأموم يتبع الإمام في الأفعال وفي بعض الأقوال، فلولا الكبرياء ما عرف الكبير: [الطويل]

فقد بَانَ عَيْنُ الحَقِّ في عين نَفْسه ... وبَانَ لذي عينين من كبرياؤه

وهذا وُجُودُ الجُودِ ما ثَمَّ غَيْرُهُ ... وهذا صباحٌ قد تَلاهُ مَسَاؤه

فإن كان وَسْمِيٌّ فذاك ابتداؤه ... وما وَلِيَ الوَسْمِيَّ فهو انتهاؤه

فتبدو ثغور الروض ضاحكةً به ... بما جَادَ من جُودٍ عليه عطاؤه

فما كان من رَوْضٍ فذاك وطاؤه ... وما كان من غَيْمٍ فذاك غطاؤه

وما كان من مُزْنٍ فعَيْنُ نِكَاحِهِ ... وما كان من شرب فذاك وعاؤه

فَلاحَ لنا في قابلٍ عند صَيِّبٍ ... بحيث يُرَى أبناؤه وابتناؤه

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وحسبنا الله في كل موطن ونعم الوكيل.

حضرة الحفظ

[نظم: البسيط]

إن الحفيظ عَلِيمٌ بالذي حَفِظَهْ ... وما سواه فإن العَقْلَ قد لَفَظَهْ
فمن يقول به يليقه في خَلَدي ... مع الذي عين الكتاب والحَفَظَهْ
إذا تَلَفَّظَ شخصٌ باسمه تَرَهُ ... في نفسه طالباً بما به لَفَظَهْ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الحفيظ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] يخاطب موسى وهارون عليهما السلام. وقال في سفينة نوح عليه السلام: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] يشير إلى أنه يحفظها لأن المحفوظ لا يختفي عنه، ومن الناس من يحفظه الحفظ لأنه يريد أن يخلو بهواه، والحفظ الإلهي يمنع من ذلك ويحول بينه وبين هواه ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] فمن عصى الله واتبع هواه فما عصى إلا مجاهرة ولكن بعد عمى القلب حتى لا يجتمع النظرتان إذ لو اجتمعتا لا حترق الكون، فإن بصر الحق إذا اجتمع به بصر العبد احترق العبد من فوره، ومعلوم أن الله يدركه ببصره الآن في حق العبد فإن الحق ليس في الآن لكن ما اجتمع بصر العبد معه فيعلم بالمقدمتين ما ينتج بينهما، فإن باجتماع البصرين وقع الحرق، فما انحفظ العالم إلا بكون البصرين ما اجتمعا على رؤية الكون ولذلك وصف نفسه إذا تجلى أن يكون رداء الكبرياء على وجهه فلا يرتفع أبداً، فإذا رأينا الحق متى رأيناه بأبصارنا نراه من حيث لا يرانا كما يرانا من حيث لا نراه، فإنه يرانا عبيداً ونراه إلهاً ونراه به ويرانا بنا، ومهما رآنا به فلا نراه به بل وهي الرؤية العامة، ورؤية الخواص أن يروه به ويراهم بهم، فهو الذي يحفظ عليهم وجودهم ليفيدهم ويستفيد من يستفيد منهم حتى نعلم إلى من هو دونه فهو الحفيظ المحفظ.

ولما سرى الحفظ في العالم فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠] وقال: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وعم فقال: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ١١٢] فحدودهم كان كل عين في العالم من حيث ما هي حافظة أمراً ما عين الحق ولهذا وصف نفسه بالأعين فقال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ فإن مدبر السفينة يحفظها والمقدم يحفظها وصاحب الرجل يحفظها، وكل من له تدبير في السفينة يحفظها بل يحفظ ما يخصه من التدبير فقال تعالى فيها إنها تجري بأعين الحق وما ثم إلا هؤلاء وهم الذين وكلهم الله بحفظها، فالحق مجموع الخلق في الحفظ وفي كل ما يطلب الجمع، ولهذا المقام في صنعة العربية بدل الاشتمال تقول: أعجبني الجارية حسنها للاشتمال الذي هنا، وأعجبني زيد علمه، فالعلم بدل من زيد والحسن بدل من الجارية ولكن بدل اشتمال كما يكون في موضع آخر بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة، كقولهم: رأيت أخاك زيداً فزيد أخوك وأخوك زيد، فهكذا قوله: «كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ» وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] إذ رميت فهذا بدل الشيء من الشيء وإن كان في هذا البدل رائحة من بدل البعض من الكل فقال: أكلت الرغيف ثلثيه، وليس في أنواع البدل بدل أحق بالحضرة الإلهية من بدل الغلط وهو الذي فيه الناس

كلهم يظنون أنهم هم وما هم هم، ويظنون أن ما هم هم وهم هم، ولهذا لا يوجد بدل الغلط في كلام فصيح مثاله: رأيت رجلاً أسداً أردت أن تقول: رأيت أسداً فغلطت فقلت: رأيت رجلاً ثم تذكرت أنك غلطت فقلت أسداً فأبدلت الأسد منه، فالعارف يلزمه الأدب أن يضيف إلى الله كل محمود عرفاً وشرعاً ولا يضيف إليه ما هو مذموم عرفاً وشرعاً إلا إن جمع مثل قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] وكل يقتضي العموم والإحاطة، وقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨] فالكشف والدليل يضيف إليه كل محمود ومذموم فإن الذم لا يتعلق إلا بالفعل ولا فعل إلا لله لا لغيره، فالعارف في بدل الغلط فإن عقله يخالف قوله، فقوله في المذموم ما هو له ويقول في عقده وقلبه هو له عند قوله بلسانه ما هو له، ومن لا يعلم أنه غلط يصمم على ما قاله أو على مااعتقده فالله الحفيظ وهو بدل من الحفظة والحافظين وأعيننا فالحفظ يطلب الرؤية ولا بد، والرؤية لا تطلب الحفظ ولا بد، ولكن قد تجيء للحفظ: [الطويل]

لِكُلِّ حَفِيظٍ في الوجود حَفِيظُ ... وفي كل بابٍ رَحْمَةٌ وكَظِيظُ
فكن عَبْدَ لِينٍ في دعائك عَبْدَهُ ... إلى الله لا فَظٌّ عليه غَلِيظُ
فكم بين محفوظ عليه وُجُودُهُ ... وبين حَفيظٍ ما عليه حَفِيظُ

فكما أن ربّك على كل شيء حفيظ، فهو بكل شيء محفوظ لأنه بالأشياء معلوم، فالأشياء تحفظ العلم به عند العلماء به والعلم صفته. والعلم والمعلوم أعطاه العلم بنفسه، فالمعلوم يحفظ عليه العلم ويزيل عنه العلم فهو يتقلب لتقلبه، فحفظ الله علمه من حيث ما هو معلوم له: [مجزوء الوافر]

فَحِفْظُ الحَقِّ مَوْسُومُ ... وحِفْظُ الخَلْقِ مَعْلُومُ
وما أَرْبَى على هذا ... فَمَدْخُولٌ ومَوْهُومُ

لأن المعلومات تحفظ على العالم بها علمه بها ولا عالم إلا الله على الحقيقة، والحق يحفظ على العالم نسبة الوجود إليه فهو يحفظ عليه وجوده، وإنما قلنا المعلومات لأن الحق معلوم لنفسه والخلق معلومون لله والحق ليس بمعلوم للخلق، فقد علمنا ما يحفظ الحق وما يحفظ الخلق، فإن زدت وقلت إن العالم يحفظ المعلوم فمدخول هذا القول وهو وهم من قائله لأن التابع بأمر المتبوع والعلم يتبع المعلوم فتفطن لهذا الأمر فإنه حسن يجعلك تنزل الأشياء منازلها وتفظ عليها حدودها فتكون حفيظاً والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. وإنما ألحقنا الحفظية بالحفظ لما وصف الحق بها نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله، فلما كان لها حكم في الوجود الحق وسعى الانتقام والعفو في إزالتها خفنا أن يعتقد إزالة عينها وما زالت إلا إضافتها فجعل محلها جهنم فهي غضب الله الدائم فهي تنتقم دائماً في زعمها ولا تشعر بما يجد الساكن فيها، وكذلك حياتها وعقاربها في لدغها ونهشها تلدغ انتقاماً وتنهش غضباً لله وما عندها علم بما يجده الملدوغ إذا عمته الرحمة من الالتذاذ بذلك اللدغ فإنه بمنزلة الجرب بالحك أنت تدميه وهو يجد اللذة بذلك الإدماء، وكلما قوي الحق عليه تضاعفت اللذة حتى أنه يبادر إلى حك نفسه بيده لما يجد في ذلك من الالتذاذ به مع سيلان دمه في ذلك الحك،

فجهنم دار الغضب الإلهي وحاملته والمتصفة به، وكذلك من فيها من وزعة الغضب والمغضوب عليه بما يجده لا بما في نفوس هؤلاء، ولكن لا يحصل لهم هذا إلا بعد استيفاء الحدود والإحساس بالآلام عند نضج الجلود فتبدل لذوق العذاب كما تبدلت الأحوال عليهم في الدنيا بأنواع المخالفات، فلكل نوع عذاب ولهم جلد خاص يحس بالألم كما كان هنا دائماً في تجديد خلق، والناس في هذا التجديد في لبس، فإذا انتهى زمان المخالفة المعينة انتهى نضج الجلد، فإن شرع عند انتهاء المخالفة في مخالفة أخرى أعقب النضج تبديلاً بجلد آخر ليذوق العذاب كما ذاق اللذة بالمخالفة، وإن تصرّف بين المخالفتين بمكارم خلق استراح بين النضج والتبديل بقدر ذلك فهم على طبقات في العذاب في جهنم، ومن أوصل المخالفات ومذام الأخلاق بعضها ببعض فهم الذين لا يفترّ عنهم العذاب، فلما انتهى بهم العمر إلى الأجل المسمى انتهت المخالفة فتنتهي العقوبة فيهم إلى ذلك الحدّ وتكتنفهم الرحمة التي وسعت كل شيء، ولا تشعر بذلك جهنم ولا وزعتها أعني ما فيها من الحيوانات المضرّة لا ملائكة العذاب، فتبقى أحوال جهنم على ما هي عليه، والرحمة قد أوجدت لهم نعيماً لهم في تلك الصورة بحكمها، فإن الرحمة هي السلطانة الماضية الحكم على الدوام فافهم ما أومأنا إليه من لباب الحفظ الإلهي حفظ المراتب وربك على كل شيء حفيظ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة المُقيت

[نظم: البسيط]

إن الـذي قَـدَّرَ الأَقْـوَاتَ أَجْـمَـعَـهَـا ... هـو الـمُـقِـيـتُ الـذي لـعـبـده شَـرَعَـهْ
وهـو الـذي قـدّر الأوقـات جُـمْـلَـتَـهـا ... رِزْقاً وخَلْقاً ومصنوعاً كما صَنَعَهْ

عبد المقيت هو أخ شقيق لعبد الرزاق، فإن الرزق قوت المرزوق وهو على مقدار خاص لا يزيد ولا ينقص في كل شهوة في الجنان، وفي كل دفع ألم وشهوة في الدنيا لأنها دار امتزاج ونشأة أمشاج، فمن هذه الحضرة يكون القوت لكل من لا يقوم له بقاء صورة في الوجود إلا به، ومن هذه الحضرة يكون تعيين أوقات الأقوات وموازينها كما قال تعالى في خلق الأرض: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] أي أعطى مقادير أوقات الأقوات وموازينها، وهذه الأقوات عين الوحي الذي في السماء، فالقوت في الأرض كالأمر في السماء، وتقدير القوت في الأرض كالوحي في السماء وهو عينه لا غيره، فأوحى في السماء أمرها وهو تقدير أقواتها وقدر في الأرض أقواتها: [المتقارب]

بُـرُوجُ الـسـمـاء لـهـا قُـوَّةٌ ... بـهـا يَـبْـعَـثُ الله أمْـوَاتَـهَـا
وحِـكْـمَـتُـهـا فـي الـثَّـرَى سَـيْـرُهـا ... لـيَـجْـمَـعَ بـالـسَّـيْـر أشْـتَـاتَـهـا
فـإن الإلٰـه بـنـاهـا لـنـا ... وعَـيَّـنَ بـالـسـيـر أَوْقَـاتَـهـا
فـكـان غِـذَاءَ لـهـا وَقْـتُـهـا ... وقَـدَّرَ فـي الأرض أقْـوَاتَـهـا

وهو وحي أمرها، واختلفت الأسماء لاختلاف المحال والصور وعمّ بالسماء والأرض ما علا من العالم وما سفل، وما في الوجود إلا عال وسافل، ومن أسمائه العلي ورفيع الدرجات فأمر الأسماء وأقواتها أعيان آثارها في الممكنات، فبالآثار تعقل أعيانها فلها البقاء بآثارها فقوت الاسم أثره وتقديره مدة حكمه في الممكن أي ممكن كان، ومن هذه الحضرة ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] والخزائن عند الله تعلو وتسفل، فأعلاها كرسيه وهو علمه وعلمه ذاته، وأدنى الخزائن ما خزنته الأفكار في البشر، وما بين هذين خزائن محسوسة ومعقولة وكلها عند الله فإنه عين الوجود، فهي حضرة جامعة للأعيان والنسب والحدوث والقدم، فالخلق والخالق والمقدور والقادر والملك والمالك كل واحد لصاحبه أمر وقوت فأمره في سمائه وهو علوّه وقوته في أرضه وهو دنوه، فإنا من أهل الأرض ونحن المخاطبون بهذا الخطاب ليس غيرنا ولهذا كان القرآن منزلاً والنزول لا يكون إلا من علوّ كما العروج لا يكون إلا إلى علوّ: [الوافر]

فمن سُفْلٍ إلى عُلْوٍ عُرُوجٌ ... ومن عُلْوٍ إلى سُفْلٍ نُزُولُ
وكُلٌّ جاء في التنزيل فينا ... فمهما قُلْتَ فانْظُرْ ما تَقُولُ

ولما لم يكن في الكون إلا علة ومعلول علمنا أن الأقوات العلوية والسفلية أدوية لإزالة أمراض ولا مرض إلا الافتقار، فكل من في السموات ومن في الأرض آتى الرحمن عبداً، والسماء والأرض أتيا إلى الرحمن طائعين، وكل عبد فقير لسيده، وخادم القوم سيدهم لقيامه بمصالحهم، والعبد هو من يقوم في خدمة سيده لبقاء حقيقة العبودة عليه، والسيد يقوم بمصالح عبيده لبقاء اسم السيادة عليه، فلو فني الملك فني اسم المالك من حيث ما هو مالك، وإن بقيت العين فتبقى مسلوبة الحكم لأنه لا فائدة للأشياء لا بأحكامها لا بأعيانها، ولا تكون أحكامها إلا بأعيانها فأعيانها مفتقرة إلى أحكامها، وأحكامها مفتقرة إلى أعيانها، وأعيان من تحكم فيهم فماثم إلا حكم نعين فما ثم إلا مفتقر ومفتقر إليه، ولله الأمر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس، فأتى بكل وهي حرف شمول فشملت كل نفس فما تركت شيئاً في هذا الوضع، وسيعلم الكافر الذي سترَ عنه هذا العلم في الحياة الدنيا لمن عقبى الدار الآخرة حيث ينكشف الغطاء عن الأعين، فيعلم من كان يجهل ويفضل عليه من علمه هنا في الحياة الدنيا وهم أهل البشرى، وكل من تحقق أمراً كان بحسب ما تحققه: [السريع]

مَنْ قَدَّرَ القُوتَ فقد قَدَّرَا ... والقُوتُ ما اخْتُصَّ بحال الوَرَى
بل حُكْمُهُ سارٍ فقد عَمَّنَا ... ونَفْسَهُ فانظُرْ ترى ما تَرَى
كُلٌّ تَغَذَّى فيه قام في ... وجوده حَقّاً بغير افْتِرَا

فقوت القوت الذي يتقوّت به هو استعماله، فالمستعمل قوت له لأنه ما يصح أن يكون قوتاً إلا إذا تقوّت به، فاعلم من قوتك ومن أنت قوته، روينا عن عالم هذا الشأن وهو سهل بن عبد الله التستري أنه رضي الله عنه سئل عن القوت فقال: «الله»، فقيل له: عن الغذاء

نسألك فقال: «الله» لغلبة الحال عليه، فإن الأحوال هي ألسنة الطائفة وهي الأذواق، فنبهه السائل على ما قدر ما أعطاه حاله في ذلك الوقت فقال: يا سهل إنما أسألك عن قوت الأجسام أو الأشباح، فعلم سهل أن السائل جهل ما أراده سهل فنزل إليه في الجواب بنفس آخر غير النفس الأول، وعلم أنه رضي الله عنه جهل حال السائل كما جهل السائل جوابه فقال له سهل: مالك ولها يعني الأشباح دع الديار إلى بانيها إن شاء خربها وإن شاء عمرها، فما زال سهل عن جوابه الأول لكن في صورة أخرى وعمارة الدار بساكنها، فالقوت الله كما قال أول مرة إلا أن السائل قنع بالجواب الثاني لنزوله من النص إلى الظاهر، وهكذا أكثر أجوبة العارفين إذا كانوا في الحال أجابوا بالنصوص، وإذا كانوا في المقام أجابوا بالظواهر فهم بحسب أوقاتهم، وهذا القدر من التنبيه على شرف هذه الحضرة كافٍ إن شاء الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الاكتفاء

[نظم: الكامل]

إنّ الحَسِيبَ هو العليمُ بما لنا ... وبما له فالكُلُّ في الحُسْبَانِ
لو تعلمون بما أقول وصِدْقَنَا ... فيه وفي الأكوان والإنسانِ
إني نطقتُ به وعنه وليس لي ... عَيْنٌ تُنَطِّقُني سوى المِخسانِ

يدعى صاحبها عبد الحسيب، وأدخلها القائلون بحصر الأسماء في الصفات السبعة في صفة العلم، وقد جاء في مدلول هذه الحضرة الأمر أن الواحد مثاله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ [الكهف: ١٨] وأمثاله والثاني: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] أي به تقع له الكفاية فلا يفتقر إلى أحد سواه، وعند الكشف يعلم المحجوب أن أحداً ما افتقر إلا إلى الله لكن لم يعرفه لتحليه في صور الأسباب التي حجبت الخلائق عن الله تعالى مع كونهم ما شاهدوا إلا الله، ولهذا نبههم لو تنبهوا بقوله تعالى وهو الصادق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] لعلمه بفقرهم إليه، فلم يتنبه لهذا القول إلا من فتح الله عين فهمه في القرآن وعلم أنه الصدق والحق الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] فكلام الحق لا يعلمه إلا من سمعه بالحق فإنه: [الوافر]

كلامٌ لا يُكَيِّفُهُ سَمَاعُ ... كلام ما له فينا انطِبَاعُ
فنسمعه ونَتْلُوهُ حروفاً ... بِنَظْمٍ لا يُداخِلُهُ انصِدَاعُ

فقول الله هذا القول الساري القديم الطارىء من سمعه تكلم به ومن لم يسمعه ما سمع إلا هو ولم يتكلم به وما تكلم إلا به، فصاحب الحجاب لا يعلم ذلك إلا بالخبر مثل قول الله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ومثل المصلي إذا قال: سمع الله لمن حمده، وكل من إذا كان فذاً أو إماماً يقول: سمع الله لمن حمده هذا محل الإجماع، وما كل قائل هذا يعلم أن الله هو القائل إلا إذا سمع هذا الخبر فهذا هو المحجوب، وأما أهل الكشف والوجود فما

يحتاجون إلى خبر بل يعلمون من هو السامع والقائل فهم غرقى في بحره لا يرجون موتاً ولا حياة ولا نشوراً: [مجزوء الرجز]

إنّـي أُكَـابِـدُ الـلُّـجَـجْ حـتـى أُفُـوزَ بِـالـثَّـبَـجْ
وإنـمـا الـعِـلْـمُ بـه فـي مَـوْجِ هـذه الـلُّـجَـجْ
والـسـيـف لا أرى لـه عـيـنـاً فَـدَعْ عـنـك الـحُـجَـجْ
يـا حـضـرةً قـد تَـلِـفَـتْ فـيـهـا الـنـفـوسُ والـمُـهَـجْ
إن الـفَـتَـى كُـلَّ الـفَـتَـى الـ ـرابـضُ فـي عَـيْـن الـسَّـبَـجْ
ومـا عـلـيـه فـي الـذي يَـلْـقَـاهُ فـيـه مـن حَـرَجْ
مـن كـل مـا يـكـرهُـهُ مَـنْ قـد نـجـا ومـا خَـرَجْ
ومـا نَـجَـا مـنـه سـوى مـن مـات فـيـه فَـدَرَجْ
وكـلّ مـا تـحـذره مـن ذات دُلٍّ ودَعَـجْ
فـلا تَـخَـفْ فـإنـهـا نَـفْـسُـك فـي ثـانـي دَرَجْ

وقد كثر الله في خطابه من قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وعدد أموراً كثيرة هي مذكورة في القرآن يطول إيرادها، وما منها آية فيها: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ أو ﴿يَحْسَبُ﴾ [الهمزة: ٣] إلا وفيها قوّة الاكتفاء لمن فهم وما يعقلها إلا العالمون من هذه الحضرة يحسب على المتنفس أنفاسه لأنها أنفاس معدودة محصاة عليه إلى أجل مسمى، فلا بد أن يكون كما قلنا ولكن لا بما هي أنفاس وإنما بما تجري فيه إلى أمد معين، وتلك حضرة بين العلم والجهل فهي حضرة التخمين والحدس والظن الذي لم يبلغ مبلغ العلم ولهذا جاء: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [المائدة: ٧١] وكانت الفتنة فما كان ما حسبوا، وقال في طائفة: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] وما أحسنوا صنعاً فهي شبهات في صور أدلة تظهر وليست أدلة في نفس الأمر، فالكيس من يقف عندها ولا يحكم فيها بشيء فإن لها شبهاً بالطرفين، ومن هذه الحضرة نزلت الآيات المتشابهات التي نهينا عن الخوض فيها ونسبنا إلى الزيغ في اتباعها فإن الزيغ ميل إلى أحد الشبهين، وإذا أولت إلى أحشد الشبهين فقد صيرتها محكمة وهي متشابهات فعدلت بها عن حقيقتها، وكل من عدل بشيء عن حقيقته فما أعطاه حقه كما أعطاه الله خلقه، والإنسان مأمور بأن يوفي كل ذي حق حقه، ومن هذه الحضرة ظهرت الأعداد في أعيان المعدودات فلما تركب العدد في المعدود تخيل منه ما ليس له حكم في وجود عيني، فهذه الحضرة أعطت كثرة الأسماء لله وهي كلها أسماء حسنى تتضمن المجد والشرف بل هي نص في المجد والشرف، فلهذا قيل فيه أنه تعالى حسيب، والحسيب ذو الحسب الكريم والنسب الشريف، ولا نسب أتم ولا أكمل في الشرف من شرف الشيء بذاته لذاته، ولهذا لما قيل لمحمد ﷺ: انْسُبْ لنا ربك ما نسب الحق نفسه فيما أوحى إليه به إلا لنفسه وتبرأ أن يكون له نسب من غيره فأنزل عليه سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فعدد

ومجد فكانت له عواقب الثناء بما له من التحميد. ثم أبان له الأسماء الحسنى وعين لنا منها ما شاء وأمرنا أن ندعوه بها مع أن له أسماء كل شيء في العالم، فكل اسم في العالم فهو حسن بهذه النسبة، ومن هنا قالوا: أفعال الله كلها حسنة ولا فاعل إلا الله، هكذا حكم الأسماء التي تسمى بها العالم كله، ولا سيما إن قلنا بقول من يقول: إن الاسم هو المسمى، وقد بينا أنه ما ثم وجود إلا الله، وكذلك لو قلنا إن الاسم ليس المسمى لكان مدلول الاسم وجود الحق أيضاً، فعلى كل وجه ليس إلا الحق فما ثم وضيع، فالكل ذو حسب صميم ومجد وشرف عميم، وإنما الحسبان الذي رمى الله به روضة أحد الرجلين من السماء فأصبحت صعيداً زلقاً وأصبح ماؤها غوراً، فكونها أصبحت صعيداً زلقاً أورثها الشرف وبما نعتها به من الزلق أورثها التنزيه والرفعة في الدرجة بما جعلها صعيداً وأزال عنها أنواع المخالفة بما أزال عنها من الشجر، فإن الحسبان كان من السماء، فأعطى مرتبة السمو لمن كان موصوفاً بالأرض وهي الساترة من فيها ولهذا سميت جنة، فما أبرز ما برز منها إلا جود السماء وهو المطر وجودها بحرارة الشمس، فمن السماء ظهرت زينتها فالسماء كستها بحسبانها والسماء جرّدتها من زينتها بحسبانها، فمن زينتها كثرت أسماؤها بما فيها من صنوف الثمر والأشجار والأزاهر، ومن تجريدها وتنزيهها توحد اسمها وذهبت أسماؤها لذهاب زينتها ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: ٧] وليس الأرض في الاعتبار سوى المسمى خلقاً وليس زينتها سوى المسمى حقاً، فبالحق تزينت وبالحق تنزهت وتجردت عن ملابس العدد وظهرت بصفة الأحد، وهذا كله من هذه الحضرة حضرة الاكتفاء وهو الاسم الإلهي الحسيب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وهو قوله: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

حضرة الجلال

[نظم: الكامل]

إنّ الـجَـلِـيـلَ لـه الـجـلالُ الأعْـظَـمُ ... والـجُـودُ والـكَـرَمُ الـعَـمِـيـمُ الأفْـخَـمُ
فـإذا تَـخَـلَّـقَ عَـبْـدُهُ بـجـلالـه ... تَـعْـنُـو الـوجـوهُ لـه ومـنـه يَـعْـظُـمُ
وهـو الـذي سَـبَـقَ الـجَـمـالَ نـفـاسـةً ... فـلـه الـتـقـدُّمُ والـمـقـامُ الأقْـدَمُ
ولـه الـتَّـنَـزُّهُ فـي الـمـعـارجِ كـلـهـا ... ولـه الـتَّـكَـرُّمُ والـصِّـراطُ الأقْـوَمُ
يـبـدو فـيُـظْـهِـرُه جـمـالُ وُجُـودِهِ ... يـعـلـو فـيَـحْـجُـبُـهُ الـجلالُ الـمُـعْـلَـمُ
بـحـقـيـقـةٍ حَـوَتِ الـحـقـائـقَ كُـلَّـهـا ... مـا قـد عَـلِـمْـتَ بـه ومـا لا يُـعْـلَـمُ
فـانْـهَـضْ بـهـا إن كـنـت تـعرفُ قَـدْرَهَـا ... ذَوْقـاً ولا تَـكُ فـي الـقـيـامـة تَـنْـدَمُ
لا تَـفْـزَعَـنَّ لـهـا فـأنـت مِـنَ أهْـلـهـا ... وارْحَـلْ إلى طَـلَـب الـمعـالـي تُـعْـصَـمُ
إن الـذيـن يـبـايـعـونـك إنـهـم ... لَـيُـبَـايـعـون الـحَـقَّ حَـقّـاً فـاعـلـمـوا
وافـشـوا الـذي جـئـنـا بـه فـي حـقـه ... لا تـكـتُـمُـوه فـإنـه لا يُـكْـتَـمُ
وانْـظُـرْ إلـيـه مـن وراء حـجـابـه ... تَـحْـظَ بـه إن كـنـت مـمـن يَـفْـهَـمُ
إن كُـنْـتَ مـن أصـحـابـه فـي غَـيْـبِـه ... فـانْـعَـمْ بـه إن كـنـت مـمـن يـنـعـمُ

مهما بَنَيْتَ الصَّرحَ أنت خليفةٌ فاحْذَرْ إذا قام البنا يَتَهَدَّمُ
إن البناء إذا تَقُومُ بأمره لا يعتريه تَقَوُّضٌ وتَهَدُّمُ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الجليل، قال تعالى وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]: [الخفيف]

جَعَلَ الرزقَ والبناءَ جميعاً في سماء وما لها مِنْ فُرُوجْ
ثم لا بُدَّ للعَبِيدِ إليها حين يُدْعَوْنَ نحوها من عُرُوجْ
إنما الخلق إن نظرتم إليهم تَجِدُوهُمْ في أمْرٍ مَرِيجْ
دون علم فهم حيارى سكارى في خروج إن كان أو في وُلُوجْ

فمن نسبة الجلال إليه له الاسم، ومن حضرة الجلال ظهرت الألوهة وعجز الخلق عن المعرفة بها، ومن هذا الاسم يعلم سرّكم في الأرض لما فيكم من نسبة الباطن وجهركم لما فيكم من نسبة الظاهر لارتفاعكم عن تأثير الأركان، فكل عظيم فهو جليل وكل حقير فهو جليل فهو من الأضداد، وقيل لأبي سعيد الخراز: بم عرفت الله؟ فقال: بجمعه بين الضدين ثم تلا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] يعني من عين واحدة وفي عين واحدة. ثم نرجع ونقول: ولا أحقر ممن يسأل أن يطعم لإقامة نشأته وإبقاء الحياة الحيوانية عليه، وعلى قدر الاحتقار يكون الافتقار، وأي افتقار أعظم ممن لا يكون له ما يريد إلا بغيره لا بنفسه، ولولا القوابل ما ظهر مجد القادر، لولا جوع العبد ما ادعى فيه السيد، ولولا عين العبد ما كان للجوع حكم، ولما أراد السيد أن يظهر بحكم لا يقوم إلا بعبده فلا بد أن يتعين وجود العبد وهو الذليل، فالمفتقر إليه أشد في الحكم وأولى بالاسم، فما كمل الوجود إلا بهذا الاسم، فما من شيء إلا وله وعليه حكم فثبت الافتقار للحكم سواء حكمت له أو عليه، وما حكم على شيء ولا لشيء إلا عينه، فما جاءه شيء من خارج فما ثم إلا هو، فهو الحاكم والحكم والمحكوم عليه أوله، فتوحدت العين واختلفت النسب كبدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة، وأما عظمة الجليل فمن تأثيره كما أن حقارته من كونه مؤثراً فيه اسم مفعول، وما من شيء إلا مؤثر ومؤثر فيه لا بد من ذلك، فاسم الجليل له حقيقة فيقول العظيم الذي له التأثير للمؤثر فيه الحقير يا جليل، ويقول الحقير الذي تأثر وظهر الأثر فيه للذي له الأثر والتأثير يا جليل بالوجهين من كل قائم ومسم وواصف وناعت، فما رأينا أشبه شيء منه بالصدى، فإنه ما يرد عليك إلا ما تكلمت به، فوضعه الحق لهذا المقام وأمثاله مثالاً مضروباً، فإن الله ما خلق الخلق لعين الخلق وإنما خلقه ضرب مثال له سبحانه وتعالى علوّاً كبيراً، ولهذا أوجده على صورته، فهو عظيم بهذا القصد وحقير بكونه موضوعاً، ولا بد من عارف ومعروف، فلا بد من خلق وحق وليس كمال الوجود إلا بهما فظهر كمال الوجود في الدنيا. ثم ينتقل الأمر إلى الأخرى على أتم الوجوه وأكملها عموماً في الظاهر كما عمت في الدنيا في الباطن، فهي في الآخرة في الظاهر والباطن، فلا بد أن تكون الآخرة تطلب حشر الأجساد وظهورها، ولا بد من إمضاء حكم التكوين فيهما، فهي في الدنيا في العموم تقول للشيء كن

فيكون في تصوّرها وتخيلها، لأن موطن الدنيا ينقص في بعض الأمزجة عن إمضاء عين التكوين في العين في الظاهر، وفي الآخرة تقول ذلك بعينه لما يريد أن يكون كن فيكون في عينه من خارج كوجود الأكوان هنا عن كن الإلهية عند أسبابها، فكانت الآخرة أعظم كمالاً من هذا الوجه لتعميم الكلمة الحضرتين الخيال والحس: [الهزج]

فـلـلأُولـى هـو الـسِّـرُّ ولـلآخـرة الـجَـهْـرُ
فـمـن آمـن بـالـكُـلّ فـقـد بـان لـه الأمْـرُ

وما ثم حضرة في الحضرات الإلهية من يكون عنها النقيضان في العين الواحدة إلا هذه فهي الحضرة العامة الجامعة التي تضمنت الأسماء كلها حسنها وسيئها، والجلال من صفات الوجه فله البقاء دائماً، وهو من أدل دليل على أن كل ما في الدنيا في الآخرة بلا شك ومما في الدنيا ما لا خفاء به وهي الأجسام الطبيعية التي من شأنها أن تأكل وتشرب وتستحيل مأكلها ومشروبها بحسب أمزجتها، ففي الجنة يستحيل ما يأكله أهلها عرقاً يخرج من أعراضها أطيب من ريح المسك قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] فقال قائل: بأي نسبة يكون له هذا البقاء؟ فقال ذو الجلال والإكرام فرفع بنعت الوجه فلو خفض نعت الرب وكان النعت بالجلال وله النقيضان فيبقى الوجه الذي له النقيضان ولا يفنى، وإنما يفنى ما كان على هذه الأرض فناء انتقال في الجوهر وفناء عدم في الصورة، فيظهر مثل الصورة لا عينها في الجوهر الباقي الذي هو عجب الذنب الذي تقوم عليه نشأة الآخرة، فيبقى حكم الوجه المنعوت بالجلال ويتبعه اسمه حيث كان، فللاسم البقاء كما كان البقاء للمسمى به، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. [نظم: البسيط]

حضرة الكرم

[نظم: البسيط]

إنّ الـكَـرِيـمَ الـذي يُـعْـطـي إذا سُـئـلا ولـو تـراه فـقـيـراً لـلّـذي سَـأَلا
ولـيـس يـبـرح مـن إذلال نـشـأتـه بـمـا يـعـزُّ ولـو مـحـبـوبُـه وَصَـلا
ولا أحـاشـي مـن الأعـيـان مـن أحَـد إلا الـغَـنِـيَّ الـذي يـعـطـي إذا سُـئِـلا
وذاك لـلأدب الـمـعـتـاد أنْـسُـبُـهُ فـإنـه مـانـعٌ ولا تـقـل بَـخِـلا
سـبـحـانـه وتـعـالـى أنْ يُـحِـيـطَ بـه عِـلْـمُ الـخـلائـق عـيـنـاً حَـلَّ أو رَحَـلا
فـإنْ يَـحُـلَّ فـفـي قـلـبـي مـنـازلُـه وإن أقـام أراه فـيـه مُـرْتَـحِـلا
ولـيـس يـنـقُـصُـهُ مـمـا يُـحـيـط بـه إلا إذا قـيـل شـهـرُ الله قـد كـمُـلا
إنّ الـقُـرَانَ فـي آيـاتـه عَـجَـبٌ آبـاره تـقـتـضـي الأزمـان والأزلا

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الكريم وهو يتبع الجليل ويلازمه، قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] وإنما تبعه من حيث ما يعطيه وضع الجلال، ولما كان يعطي النقيضين جاء

بالإكرام على الوجهين، فإن السامع إذا أخذ الجلال على العظمة أدركه القنوط لعدم الوصول إلى من له العظمة، لما يرى نفسه عليه من الاحتقار والبعد عن التفات ما يعطيه مقام العظمة إليه، فأزال الله عن وهمه ذلك الذي تخيله بقوله: ﴿وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ أي وإن كانت له العظمة فإنه يكرم خلقه وينظر إليهم بجوده وكرمه نزولاً منه من هذه العظمة، فلما سمع القانط ذلك عظم في نفسه أكثر مما كان عنده أولاً من عظمته، وذلك لأن عظمته الأولى التي كان يعظم بها الحق كانت لعين الحق عن انكسار من العبد وذلة، فلما وصف الحق نفسه بأنه يكرم عباده بنزوله إليهم حصل في نفس المخلوق أن الله ما اعتنى به هذه العناية إلا وللمخلوق في نفس هذا العظيم ذي الجلال تعظيم فرأى نفسه معظماً، فلذلك زاد في تعظيم الحق في نفسه إيثاراً لجنابه لاعتناء الحق به على عظمته، فزاد الحق بالكرم تعظيماً في نفس هذا العبد أعظم من العظمة الأولى، هذا إذا أخذ الجلال وحمله على العظمة، فإن أخذه السامع وحمله على نقيض العظمة فإنه يحصل أيضاً في نفسه القنوط لأنه حقير، وقد استند إلى مثله فمن أين يأتيه من تكون له منه رفعة والذي استند إليه جليل فيقول له لسان الصفة ومع هذا فإنه ذو إكرام، والدليل على أنه ذو إكرام امتنانه عليك بوجودك ولم تكن شيئاً موجوداً ولا مذكوراً فلولا كرمه لبقيت في العدم، فكرامته بك في إعطائه الوجود إياك أعز من كرامته بك بعد وجودك بما يمنحك به من نيل أغراضك، فيتنبه هذا الناظر في هذا الاسم وحمله على نقيض العظمة ويقول صحيح ما قال من أكرمني بالوجود الخيّر وحال بيني وبين الشرّ المحض وهو العدم لا بدّ أن يكون قادراً على إيجاد ما يسرّني، ودعه يكون في نفسه ما كان، إنما الغرض أن يكون له الاقتدار على تكوين ما أريده منه، وما جعل عنده هذا إلا قوله: ﴿وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾.

وانظر إلى قول النبيّ ﷺ وما أعجبه في نهيه أن يقال عن العنب الكرم وغيرته ﷺ على هذا الاسم ثم قال: «**فإن الكَرَمَ قَلْبُ المؤمن**» فإن قلبت المؤمن وجدت الحق في قلبك إياه فإن الله يقول: «**وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي المُؤْمِنِ**» والحق باطن المؤمن وهو قلب الظاهر، والحق هنا هو الكريم لأن القلب هو الكرم فهو محل الكرم، وجاء بالاسم الكريم على هذه البينة لكونها تقتضي الفاعل والمفعول فهو تعالى كريم بما وهب وأعطى وجاد وامتن به من جزيل الهبات والمنح، وهو مكرم ومتكرم عليه بما طلب من القرض فأقرض العبد ربه عن أمره بما عبده خلقه لأنه ما خلقهم إلا ليعبدوه، وجعل لهم الاختيار فلما جعل لهم الاختيار الذي أداهم ذلك إلى البعد عما خلقوا له من العبادة، ولما علم الحق ذلك ظهر في صورة كل شيء وأخبر عباده بذلك فقال: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١١٥] ولا بد لكل مخلوق من التولي إلى أمر ما، وقال الحق تعالى في ذلك الذي توليت إليه ومراجعة أعدمهم بذلك إلا ليتصفوا بصفة الكرم على الله بتوليهم، لأنهم لو لم يعلموا ذلك بإعلامه مع وجود الاختيار الذي يعطي التفوق في الاشياء لتخيلوا أنهم قد خرجوا عن حكم ما خلقوا له من التكرم على ربهم بعبادتهم إياه، فربما كانوا يجدون في نفوسهم من ذلك حرجاً حيث خالفوا ما خلقوا له مع كرمه بهم بإيجادهم، فأزال الله عنهم ذلك الحرج كرماً منه واعتناء بهم بقوله: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ

فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ فانطلقوا في اختيارهم إذا علموا أنهم حيث تولوا ما ثم إلا وجه الله، فوقفوا على علم ما خلقوا له، وقد كان قبل هذا يتخيلون أنهم يتبعون أهواءهم والآن قد علموا أن أهواءهم فيها وجه الحق، ولهذا جاء بالاسم الله لأنه الجامع لكل اسم فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ وذلك الأين يعين بحقيقته اسماً خاصاً من أسماء الله، فللّه الإحاطة بالأينيات بأحكام مختلفة لأسماء إلهية مختلفة تجمعها عين واحدة، فمن كرمه قبول كرم عباده فقبل عطاياهم قرضاً وصدقة، فوصف نفسه بالجوع والظمأ والمرض ليتكرم عليه في صورة ذلك الكون الذي الحق وجهه بالعيادة والإطعام والسقي والكرم على الحاجة أعظم وقوعاً في نفس المتكرم عليه من الكرم على غير حاجة، لأنه مع الحاجة ينظره إحساناً مجرداً يثمر له الشكر ولا بد، والشكر يثمر الزيادة من العطاء والكرم على غير الحاجة من المتكرّم عليه يظهر له الحال الذي هو عليه وجوهاً من التأويل قد يخرجه من نظره أنه أحسن إليه فربما يتخيل فيه أمراً يرد به، فلهذا أنزل الحق إلى عباده في طلب الكرم منهم إلى الظهور بصفة الحاجة ليعلمهم أنه ما ينظر في أعطياتهم إلا الإحسان مجرّداً، فهي بشرى من الله جاءت منه إلى عباده من قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٤] وهذه منها، فهذا اسم الكريم من حضرة الكرم فبكرمه تكرّمت عليه كما قرّرنا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة المراقبة

[نظم: البسيط]

إنّ الـرَّقِـيـبَ لَـزِيـمٌ حـيـثـمـا كَـانـا ... لـذاك يـحـفـظ أعـيـانـاً وأكْـوَانَـا

وقـتـاً يـكـون عـلـى ذات مـصـرّفـة ... عـن أمـره كـان ذاك الأمْـرُ مـا كـانـا

ولـيـس يَـخْـفَـى عـلـيـه مـن مُـرَاقِـبِـهِ ... شـيءٌ وإن جَـلَّ ذاك الأمْـرُ أو هَـانَـا

يدعى صاحبها عبد الرقيب، وليس في الحضرات من يعطي التنبيه على أن الحق معنا بذاته في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ﴾ [الحديد: ٤] إلا هذا الاسم الرقيب وهذه الحضرة لأنه على الحقيقة من الرُقبى والرقبى أن تملك رقبة الشيء بخلاف العمرى فإذا ملكت رقبة الشيء تبعته صفاته كلها وما ينسب إليه بخلاف الصفة لأنك إذا ملكت صفة ما لا يلزم أن تملك جميع الصفات، وإذا ملكت الموصوف فبالضرورة تملك جميع الصفات لأنها لا تقول بأنفسها وإنما تطلب الموصوف ولا تجده إلا عندك فتملكها عند ذلك فهي كالحبالة للصائد، فأما ملكه إياك فمعلوم بما تعطيه حقيقتك، وأما ملكك إياه فبقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١١٥] ووجه الشيء ذاته وحقيقته، والرقيب اسم فاعل على كل شيء وهو المرقب عليه فإنه المشهود لكل شيء فيرقب العبد في جميع حركاته وسكناته، ويرقبه العبد في جميع آثاره في قلبه وخوطره وحركاته وحركات ما خرج عنه من العالم، فلا يزال صاحب هذه الحضرة في مزيد علم إلهيّ أبداً، علم ذات ينجرّ معه علم صفات ونعوت وأسماء ونسب وأحكام، ولا بد لهذا الاسم من حكم الإحاطة حتى يصح شمول المراقبة، ولما كانت المراقبة تقتضي

الاستفادة والحفظ حذراً من الوقائع فالعلم قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] فإذا ابتلاه راقبه حتى يرى ما يفعل فيما ابتلاه به لأنه ما ابتلاه ابتداء وإنما ابتلاه لدعواه لأنه قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فادعوا فابتلاهم ليرى صدق دعواهم، ولقد رحم الله عباده حين أشهدهم على أنفسهم بما قبضهم وقرّرهم عليه من كونه ربهم وما أشهدهم على توحيده، ويصدق المقرّ بالملك لمن له فيه شقص فجعل لهم الانفساح من أجل ما علم من يشرك من عباده الشرك المحمود والمذموم، فغير المذموم شرك الأسباب فإن القائلين بها أكثر العباد مع كونهم لا يعتقدون فيها إلا أنها موضوعة من عند الله، والمذموم من الشرك أن يجعل المشرك مع الله إلهاً آخر من واحد فما زاد ولذلك قال من قال من المشركين: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] فقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ عندنا هو قول الله، وقوله: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ حكاية الله لنا عن المشرك أنه قال هكذا إما لفظاً وإما معنى، فقال الله عند قولهم ذلك: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ حيث جعلوا الإله الواحد آلهة وخصوص وصفة أنه إله وبه يتميز فلا يتكثر بما به يتميز، ويشهد لهذا النظر قولهم فيما حكى الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] فعصم الله هذا الاسم الله أن يقع فيه اشتراك فهم يعلمون أنهم نصبوهم آلهة، ولهذا وقع الذمّ عليهم بقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] والإله من له الخلق والأمر من قبل ومن بعد.

وأما لطفه بهم في هذا الإشهاد فهو القبض والقبض يقتضي القهر فما أقروا به إلا مع القهر، فالمشرك منهم أقرّ على كره فلما تخيلوا أنهم قد خرجوا من القبضة لجهلهم بما هو الأمرعليه قالوا بالشركة، فإذا قيل لهم في ذلك احتجوا بما كانوا عليه من القبض فيعذرون في دعواهم أنهم ما ادّعوا ذلك إلا جبراً لا اختياراً والحكم في الأشياء للأحوال، فمن راقب أحواله علم من أين صدر، فلا يخلو هذا المراقب إما أن يكون ميزان الشريعة بيده فإنه يرى بعين إيمانه إن كان من أهل الإيمان، أو بعين شهوده إن كان من أهل الشهود، ومن لم يكن له إحدى هذين العينين فهو أعمى، فيرى الحق والميزان بيده يخفض ويرفع فيقتدي بربه ويتأسى وما عنده إلا ميزان ما شرع له لا يلتفت مع الإيمان إلى ميزان عقله فيزن ما يرد عليه من الأحوال من جانب ربه فيخفض ويرفع ويزيد في الناقص وينقص من الزائد فيأخذ من عباده بالعدل ويعطي بالفضل، فلا يزال ما دام هذا الميزان بيده معصوماً في مراقبته، ويصح عنده أنه عند الاسم الرقيب لأنه قد تحقق بنعته بسيده، فأسعد العبيد من يراقب سيده مراقبة سيده إياه، فيراقب الحق مراقبة عبده لمن يراقب فيكون معه بحيث يرى منه، ومن ملك المراقبة كان له التصريف كيف شاء في المراقب فإن الله مع عبده حيث كان: [مجزوء الخفيف]

هكذا الأمْرُ فاعْتَبِرْ ... واحْفَظِ السِّرَّ وازْدَجِرْ

إنما الأمْرُ مِثْلُ مَا ... قُلْتُهُ فيه فافْتَكِرْ

فالعبد وإن كان مقيداً بالشرع فإن الشرع قد جعله مسرح العين في تصرّفه ويحمده الميزان ويذمه، والمراقب معه أينما كان من محمود ومذموم فإذا كان العبد هو المراقب ولا

يرى الحق مجرّداً عن الخلق تجريد تنزيه وتقديس أبداً لأنه لا تصح هناك مراقبة، فلا بدّ أن يراه في الخلق في حضرة الأفعال فيكون المراقب وهو العبد حيث كان الحق من خلقه لأنه في الخلق يشهده فينظر ما يقتضيه ذلك الأثر في ذلك الخلق المعين فيزنه بالميزان الموضوع ويكون معه بحسب ما يعطيه ميزان الحق فينظر أيّ اسم إلهي يكون له الحكم في ذلك الأمر الموزون فيتوجه إليه باسم إلهيّ يكون عليه هذا المراقب الذي هو العبد كان ما كان من الأسماء الإلهية، فإن كان يقتضي ما لا يوافق غرضه ولا يلائم مزاجه ولا يحمده شرعه سأل رفع ذلك الحكم منه إن كان نظره شرعاً بالتوبة والمغفرة، وإن كان ذا غرض سأل الموافقة، وإن كان ممن يقول بالملائمة سأل الأصلح والأولى طبعاً فهو بحسب ما يكون عليه في حاله: [الطويل]

فمن مَلَكَ الرُّقْبَى فقد مَلَكَ الكُلاً ... ومن مَلَكَ الكُلَّ يصحُّ له الجُزْءُ
فلا تَعْمَ عن إدراك كُلِّ مراقبٍ ... فقد بانَتِ الأسرارُ إذ أُخْرِجَ الخَبْءُ
فإن الرقيبَ الحَقَّ في كل حالةٍ ... لديه قَبُولُ الحال إن شاء والدَّرْءُ
فمن راقبَ الحَقَّ الرقيبَ بعينه ... فذاك الرقيبُ الحقُّ والمثل والكُفْءُ
فللخَلْقِ أحكامٌ إذا هي حُقِّقَتْ ... يكون له منها الإعادةُ والبدْءُ
ويظهرُ في الحق الذي قلت مثل ما ... يضافُ إلى المخلوق في كونه النَّشْءُ
دليلي حُدُوثُ الصّور في كل ناظر ... إليه وما في كل ما قلتُه هُزْءُ

حضرة الإجابة

[نظم: الخفيف]

كن مجيباً إذا الإلٰهُ دَعَاكا ... وسميعاً لما دَعاكَ مُطِيعَا
واحْفَظِ السِّرَّ لا تكن يا وَلِيِّي ... للذي خَصَّكُمْ بذاك مُذِيعَا
فإذا ما دعاك في حَقِّ شخصٍ ... كُنْ مُجيباً لما دعاك سَمِيعا
لا تكن كالذي أتاه حريصاً ... فإذا ما استفاد كان مُضِيعَا
كُلُّ من ضاعت الأمورُ لديه ... إنه قد أتى حديثاً شَنِيعَا

يدعى صاحبها عبد المجيب وتسمى حضرة الانفعال، فإن صاحب هذه الحضرة أبداً لا يزال منفعلاً، وهو قولهم في المقولات أن ينفعل، وهذا حكم ما يثبت عقلاً وإنما يثبت شرعاً فلا يقبل إلا بصفة الإيمان وبنوره يظهر وبعينه يدرك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ يعني منكم ولا أقرب من نسبة الانفعال، فإن الخلق منفعل بالذات والحق منفعل هنا عن منفعل فإنه مجيب عن سؤال ودعاء ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ وهو الموجب للإجابة ﴿إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى﴾ [البقرة: ١٨٦] إذا دعوتهم، وما دعاهم إليه إلا بلسان الشرع فما دعاهم إلا بهم فإنه تلبس بالرسول فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فقرّر أنه ما جاء منه إلا به فما فارقه ولا شاهد الخلق المبعوث إليهم إلا الرسول، فظاهره خلق وباطنه حق كما

قال في البيعة: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وما في الكون إلا فاعل ومنفعل فالفاعل حق وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] والفاعل خلق وهو قوله: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤] و﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠] والمنفعل خلق وهو معلوم، وخلق في حق وهو الإجابة، وحق في خلق وهو ماانطوت عليه العقائد في الله من أنه كذا وكذا وخلق في خلق وهو ما تفعله الهمم في المخلوقات من حركات وسكون واجتماع وافتراق.

ثم اعلم أن الإجابة على نوعين: إجابة امتثال وهي إجابة الخلق لما دعاه إليه الحق، وإجابة امتنان وهي إجابة الحق لما دعاه إليه الخلق، فإجابة الخلق معقولة، وإجابة الحق منقولة لكونه تعالى أخبر بها عن نفسه، وأما اتصافه بالقرب في الإجابة فهو اتصافه بأنه أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، فشبه قربه من عبده قرب الإنسان من نفسه إذا دعا نفسه لأمر ما تفعله فتفعله، فما بين الدعاء والإجابة الذي هو السماع زمان بل زمان الدعاء زمان الإجابة، فقرب الحق من إجابة عبده قرب العبد من إجابة نفسه إذا دعاها، ثم ما يدعوها إليه يشبه في الحال ما يدعو العبد ربه إليه في حاجة مخصوصة فقد يفعل له ذلك وقد لا يفعل كذلك دعاء العبد نفسه إلى أمر ما، قد تفعل ذلك الأمر الذي دعاها إليه وقد لا تفعل لأمر عارض يعرض له، وإنما وقع هذا الشبه لكونه مخلوقاً على الصورة وهو أنه وصف نفسه في أشياء بالتردد، وهذا معنى التوقف في الإجابة فيما دعا الحق نفسه إليه فيما يفعله في هذا العبد، وقد ثبت هذا في قبضه نسمة المؤمن فإن المؤمن يكره الموت، والله يكره مساءة المؤمن فقال عن نفسه سبحانه: «مَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي» فأثبت لنفسه التردد في أشياء ثم جعل المفاضلة في التردّد الإلهي فقال تعالى: «تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَسَمَةِ المُؤْمِنِ» الحديث، فهذا مثل من يدعو نفسه لأمر ما ثم يتردّد فيه حتى يكون منه أحد ما يتردّد فيه. والدعاء على نوعين: دعاء بلسان نطق وقول ودعاء بلسان حال، فدعاء القول يكون من الحق ومن الخلق، ودعاء الحال يكون من الخلق ولا يكون من الحق إلا بوجه بعيد. والإجابة للدعاء بلسان الحال على نوعين: إجابة امتنان على الداعي وإجابة امتنان على المدعوّ، فأما امتنانه على الداعي فقضاء حاجته التي دعاه فيها وامتنانه على المدعوّ فإنه بها يظهر سلطانه بقضاء حاجته فيما دعاه إليه، وللمخلوق في قبوله ما يظهر فيه الاقتدار الإلهي رائحة امتنان، ولهذه القوّة الموجودة منّ من منّ على رسول الله ﷺ بالإسلام فقال تعالى تأنيساً له: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ ثم أمره أن يقول لهم فقال يا محمد ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] فتلك المنة الواقعة منهم إنما هي على الله لا على رسوله ﷺ فإنهم ما انقادوا إلا إلى الله لأن الرسول ما دعاهم إلى نفسه وإنما دعاهم إلى الله فقوله لهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني في إيمانكم بما جئت به، فإنه مما جئت به أن الهداية بيد الله يهدي بها من يشاء من عباده لا بيد المخلوق. ثم إن النبي ﷺ أبان عما ذكرناه من أن لهم رائحة في الامتنان: «**أَمَا والله لَوْ شِئْتُمْ أَنْ تَقُولُوا لَقُلْتُمْ**» وذكر نصرة الأنصار وكونهم أووه حين طرده قومه، وأطاعوه

حين عصوه قومه، فأشبهوا فيما كان منهم بما قرّره رسول الله ﷺ من ذلك قوله تعالى لنبيه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى] ولما كانت النعم محبوبة لذاتها وكان الغالب حب المنعم حتى قالت طائفة: إن شكر المنعم واجب عقلاً جعل الله التحدث بالنعم شكراً فإذا سمع المحتاج ذكر المنعم مال إليه بالطبع وأحبه فأمره أن يتحدث بنعم الله عليه فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] حتى يبلغ القاصي والداني، وقال في الإنسان: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ﴾ يعني في العلم ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠] ومن هذا الأمر ذكر أهل الله ما أنعم الله به عليهم من المعارف والعلم به والكرامات، فإن النعم ظاهرة وباطنة وقد أسبغها على عباده كما قال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] فهذا بعض ما يعطيه هذه الحضرة من الانفعال، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة السعة

[نظم: مجزوء الخفيف]

إنّــمــا الــواســعُ الــذي	وَسِــعَ الــكُــلَّ خَــلْــقُــهُ
فــإذا مــا خَــلا بِــنــا	نــازع الــحَــقّ خَــلْــقُــهُ
وزَهَــا بــالــذي بــدا	مــن سَــنَــا الــشَّــمْــسِ أُفْــقُــهُ
فــهــي فــيــنــا بِــنُــورهــا	وأنــا فــيــه حَــقُّــهُ

يدعى صاحبها عبد الواسع، قالت الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] فقدمت الرحمة على العلم لأنه أحب أن يعرف والمحب يطلب الرحمة به، فكان مقام المحب الإلهي أول مرحوم، فخلق الخلق وهو نفس الرحمن، وقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فعم بكل كل مرحوم وما ثم إلا مرحوم، ومن كان علمه بالشيء ذوقاً وكان حاله فإنه يعلم ما فيه وما يقتضيه من الحكم، وقد قال الترجمان ﷺ: «**إنَّ المُؤْمِنَ لا يَكْمُلُ حَتَّى يُحِبَّ لأخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» وقد علمنا أن له الكمال وأنه المؤمن وأن العالم على صورته فقد ثبتت الأخوة بالصورة والإيمان لأنه ما ثم إلا قائل به مؤمن مصدق بوجوده، فإنه ما من شيء إلا يسبح بحمده وما من شيء إلا وسعته رحمته كما وسعه تسبيحه وحمده، فهو الواسع لكل شيء، ولهذا الاتساع هو لا يكرّر شيئاً في الوجود، فإن الممكنات لا نهاية لها، فأمثال توجد دنيا وآخرة على الدوام وأحوال تظهر وقد﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ وهو علمه ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ووسعت رحمته علمه والسموات والأرض وما ثم إلا سماء وأرض فإنه ما ثم إلا أعلى وأسفل ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] فلا أعلى بعده، ولو دليتم بحبل لهبط على الله فلا أنزل منه وما بينهما فينزل إلى العلو الأدنى وهو السماء الأولى من جهتنا فإنها السماء الدنيا أي القريبة إلينا، وما نزل ليعذب ويشقي بل يقول: هل من داعٍ فأستجيب له؟ هل من سائل فأعطيه؟ وما يخلو شيء من سؤال بخير في حق نفسه هل من تائب فأتوب عليه؟ وما من شيء إلا ويرجع في ضرورته إذا انقطعت به الأسباب إليه، هل من

مستغفر فأغفر له؟ وما من شيء إلا وهو مستغفر في أكثر أوقاته لمن هو إله، ولم يقل إنه ينزل ليعذب عباده الذين نزل في حقهم، ومن كان هذا نعته وعذب فعذابه رحمة بالمعذب وتطهير كعذاب الدواء للعليل فيعذبه الطبيب رحمة به لا للتشفي ثم اتساع العطاء فإنه أعطى الوجود أولاً وهو الخير الخالص، ثم لم يزل يعطي ما يستحقه الموجود مما به قوامه وصلاحه كان ما كان فهو صلاح في حقه، ولهذا أضاف العارف به المترجم عنه كلمة الحضرة ولسان المقام الإلهي رسوله ﷺ الخير إليه فقال: **«وَالخَيرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ»** ونفى الشر أن يضاف إليه فقال: **«وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ»**.

وقد بينا أنه ما ثم معطٍ إلا الله فما ثم إلا الخير سواء سر أم ساء، فالسرور هو المطلوب وقد لا يجيء إلا بعد إساءة، لما يقتضيه مزاج التركيب وقبول المحل لعوارض تعرض في الوجود وكل عارض زائل، ولهذا يسمى بالمعطي والمانع والضارّ والنافع، فعطاؤه كله نفع، غير أن المحل في وقت يجد الألم لبعض الأعطيات فلا يدرك لذة العطاء فيتضرّر بذلك العطاء ولا يعلم ما فيه من النفع الإلهي فيسميه ضاراً من أجل ذلك العطاء، وما علم أن ذلك من مزاج القابل لا من العطاء. ألا ترى الأشياء النافعة لأمزجة ما كيف تضرّ بأمزجة غيرها؟ قال الله في العسل إنه شفاء للناس، فجاء رجل لرسول الله ﷺ فقال له: إن أخي استطلق بطنه فقال: **«اسْقِهِ عَسَلاً»** فسقاه عسلاً فزاد استطلاقه فرجع فأخبره فقال: **«اسقه عسلاً»** فزاد استطلاقه، وما علم هذا الرجل ما علمه رسول الله ﷺ من ذلك فإنه كان في المحل فضلات مضرّة لا يمكن إخراجها إلا بشرب العسل فإذا زالت عنه اعقبته العافية والشفاء فلما رجع إليه قال له: يا رسول الله سقيته عسلاً فزاد استطلاقه فقال: **«صَدَقَ الله وكَذَبَ بَطْنُ أخيك، اسْقه عَسَلاً»** في الثالثة فسقاه فبرىء. فإنه استوفى خروج الفضلات المضرة، وكالذي يغلب على العضو الحامل للطعم المرة الصفراء فيجد العسل مراً فيقول: العسل مر فكذب المحل في إضافة المرارة إلى العسل لأنه جهل أن المرة الصفراء هي المباشرة لعضو الطعم فأدرك المرارة فهو صادق في الذوق والوجدان كاذب في الإضافة، فالقوابل أبداً هي التي لها الحكم فما من الله إلا الخير المحض كله، فمن اتساعه رحمته أنها وسعت الضرر فلا بد من حكمه في المضرور، فالضرر في الرحمة ما هو ضرر وإنما هو أمر خير بدليل أنه بعينه إذا قام بالمزاج الموافق له التذ به وتنعم وهو هو ليس غيره، فالأشياء إلى الله إنما تضاف إليه من حيث إنها أعيان موجودة عنه، ثم حكم الالتذاذ بها أو غير الالتذاذ إنما هو راجع إلى القابل، ولو علم الناس نسبة الغضب إلى الله لعلموا أن الرحمة تسع الكل، فإن القادر على إزالة الألم عن نفسه لا يتركه فقامت الأحوال من الخلق والمواطن للحق مقام المزاج للحيوان، فيقال في الحق إنه يغضب إذا أغضبه العبد ويرضى إذا أرضاه العبد فحال العبد والموطن يرضي الحق ويغضبه، كالمزاج للحيوان يلتذ بالأمر الذي كان بالمزاج الآخر يتألم به فهو بحسب المزاج كما هو الحق بحسب الحال والمواطن، ألا ترى في نزوله إلى السماء الدنيا ما يقول فإنه نزول رحمة يقتضيها الموطن، وإذا جاء يوم القيامة يقتضي المواطن أنه يجيء للفصل والقضاء بين العباد

لأنه موطن يجمع الظالم والمظلوم وموطن الحكم والخصومات، فالحكم للمواطن والأحوال في الحق والحكم في التألم والالتذاذ والتلذذ للمزاج ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢] أي واسع الستر، فما من شيء إلا وهو مستور بوجوده وهو الستر العام، فإنه لو لم يكن ستر لم يقل عن الله هو ولا قال أنت فإنه ما ثم إلا عين واحدة فأين المخاطب أو الغائب؟ فلهذا قلنا في الوجود إنه الستر العام ثم الستر الآخر بالملائم وعدم الملائم فهو واسع المغفرة وهي حضرة إسبال الستور، وقد تقدم الكلام عليها في هذا الباب ثم قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] والستر وقاية والغفران هو الستر، فالعبد يتقي بالستر ألم البرد والحر إذا علم من مزاجه قبول ألم الحر والبرد، فإن الحر والبرد ما جاءا إلا لمصالح العالم ليغذي النبات الذي هو رزق العالم فيبرزه لينتفع به فيكون جسم الحيوان على استعداد يتضرر به فيقول: إني تأذيت بالحر والبرد، وإذا رجع مع نفسه لما قصد بهما بحسب ما يعطيه الفصول علم أنه ما جاء إلا لنفعه فتضرّر بما به ينتفع والغفلة أو الجهل سبب هذا كله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الحكيم * حضرة الحكمة

[نظم: البسيط]

إنّ الحَكِيمَ الذي مِيزَانُهُ أَبداً ... بالرَّفْعِ والخَفْضِ مَنْعُوتٌ ومَوْصُوفُ
يُرَتِّبُ الأَمْرَ ترتيباً يُرِيكَ به ... عِلْماً وفيه إذا فَكَّرْتَ تعريفُ
بأنه الله فَرْدٌ لا شريكَ له ... في مُلْكه وله في الخَلْق تَصْرِيفُ
مِيزَانُهُ الحَقُّ لا خُسْرانَ يَلْحَقُهُ ... ولا يقوم به في الوزن تَطْفِيفُ

يدعى صاحبها عبد الحكيم. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وما كثره الله لا تدخله قلة، كما أن ما عظم الله ما يدخله احتقار، وامتن على داود بأن آتاه الحكمة وفصل الخطاب وهو من الحكمة، فإنه لفصل الخطاب موطن يعطي الحكمة لصاحبها أن لا يظهر منه في ذلك الموطن إلا فصل الخطاب، وهو الإيجاز في البيان في موطنه لسامع خاص لذي حال خاص، والإسهاب في البيان في موطنه لسامع خاص ذي حال خاص، ومراعاة الأدنى أولى من مراعاة الأعلى، فإن ذلك من الحكمة، فإن الخطاب للإفهام، فإذا كرر المتكلم الكلام ثلاث مرات حتى يفهم عنه كما كان كلام رسول الله ﷺ فيما يبلغه عن الله للناس يراعي الأدنى ما يراعي من فهم من أول مرّة، فيزيد صاحب الفهم في التكرار أموراً لم تكن عنده أفادها إياه التكرار، والأدنى الذي لم يفهم فهم الأوّل فهم بالتكرار ما فهمه الأوّل بالقول الأول. ألا ترى العالم الفهم المراقب أحواله يتلو المحفوظ عنده من القرآن فيجد في كل تلاوة معنى لم يجده في التلاوة الأولى، والحروف المتلوة هي بعينها ما زاد فيها شيء ولا نقص، وإنما الموطن والحال تجدّد ولا بد من تجدده، فإن زمان التلاوة الأولى ما هو زمان التلاوة الثانية فافهم، فتعطي هذه الحضرة علم الترتيب، وإعطاء كل شيء حقه وإنزاله منزلته، فيعلم العبد المراقب أن الله هو واضع الأشياء وهو الحكيم، فما

وضع شيئاً إلا في موضعه، ولا أنزله إلا منزلته، فلا تعترض على الله فيما رتبه من الكائنات في العالم في كل وقت، ولا يرجح نظره وفكره على حكمة ربه فيقول: لو كان كذا في هذا الوقت لكان أحسن في النظم من الترتيب فما أخطأ إلا في قوله في هذا الوقت لا في قوله لو كان كذا لكان أحسن، فلما غابت عنه حكمة الوقت تخيل أن ذلك الذي هو أحسن أن هذا الوقت يقتضيه وهذا نظر عقلي، فإن الأزمنة لكل ممكن على نسبة واحدة، فليس زمان لشيء بأولى من زمان آخر، ولكن أين فائدة المرجح إلا علمه بالزمان وما يقتضيه لأنه خالق الزمان، وما هذا الناظر خالق الزمان فهو يعلم ما خلق، فما رتب فيه إلا ما استحقه بخلقه فإنه أعطى كل شيء خلقه، فالحكيم من حكمته الحكمة فصرّفته لا من حكم الحكمة فإنه من حكم الحكمة له المشيئة فيها، ومن حكمته الحكمة فهي المصرّفة له، وإذا قامت الصفة بالموصوف أعطته حكمها عطاء واجباً قال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩] فالحكم للقول وذلك ليس إلا لله أو لرجل متحقق بالله طالع القول الإلهي.

ومن هنا تعلم ما هو النسخ، فإن مفهوم النسخ في القائلين به رفع الحكم بحكم آخر كان ما كان من أحكام الشرع، فإن السكوت من الشارع في أمر ما حكم على ذلك المسكوت عنه فما ثم إلا حكم فهو تبديل، وقد قال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ فما ثم نسخ على هذا القول، ولو كان ثم نسخ لكان من الحكمة، وصورته أن الزمان إذا اختلف اختلف الحكم بلا شك، فالنسخ ثابت أبداً لأن الاختلاف واقع أبداً، فالحكمة تثبت النسخ والحكمة ترفع النسخ ولكن في مواطن معينة تطلبها لذاتها فيوفيها الحكيم ما تستحقه من ذلك، فالحكيم من قامت به الحكمة فكان الحكم لها به كما كان الحكم له بها فهو عينها وهي عينه، فالحكمة عين الحاكم عين المحكوم به عين المحكوم عليه، فالحكمة علم خاص وإن عمت، والفرق بينها وبين العلم أن الحكمة لها الجعل والعلم ليس كذلك، لأن العلم يتبع المعلوم والحكمة تحكم في الأمر أن يكون هكذا، فيثبت الترتيب في أعيان الممكنات في حال ثبوتها بحكمة الحكيم، لأنه ما من ممكن يضاف إلى ممكن إلا ويمكن إضافته إلى ممكن آخر لنفسه، لكن الحكمة اقتضت بحكمها أن ترتبه كما هو بزمانه وحاله في حال ثبوته، وهذا هو العلم الذي انفرد به الحق تعالى وجهل منه وظهر به الحكم في ترتيب أعيان الممكنات في حال ثبوتها قبل وجودها، فتعلق بها العلم الإلهي بحسب ما رتبها الحكيم عليه، فالحكمة أفادت الممكن ما هو عليه من الترتيب الذي يجوز خلافه، والترتيب أعطى العالم العلم بأن الأمر كذا هو، فلا يوجد إلا بحسب ما هو عليه من الثبوت الذي هو ترتيب الحكيم عن حكم الحكمة، فقد بان لك الفرقان بين العلم والحكمة فما يبدل القول لديه فإنه ما يقول إلا ما رتبته الحكمة، كما أنه ما علم إلا ما رتبته الحكمة فيقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] بالحال الذي هو عليه كان ما كان. فمن هذه القوّة يقول الناظر في الأمر: لو كان كذا لجوازه عنده فإذا علم حكمة الله يقول بأنه يجهل حكمة الله في هذا الوضع الذي يقتضي في نظري لو كان خلافه لكان أحسن لكن لله فيه علم لا أعرفه وصدق، ومن الناس من يفتح له في سر ذلك الترتيب، ومن الناس من لا يعلم ذلك إلا بعدما يقع حكمه في الوجود، فيعلم عند

ذلك حكمة ذلك الأمر ويعلم جهله بالمصالح وهذا كثير، اتفاقه في العالم يكون الشخص يتسخط بالأمر الذي لا يوافق غرضه ولا نظره، وينسب مثلاً الحاكم به إلى الجور فإذا ظهرت منفعة ذلك الحكم الذي تسخطت به عاد المتسخط يحمد الله ويشكر ذلك الحكم والحاكم على ما فعل حيث رفع الله به ذلك الشرّ العظيم الذي لو لم يكن هذا الحكم لوقع بالمحكوم عليه ذلك الشرّ وهذا يجري كثيراً، فغاية العارفين أنهم يعلمون بالجملة أن الظاهر في الوجود والواقع إنما هو في قبضة الحكمة الإلهية، فيزول عنه التسخط والضجر ويقوم به التسليم والتفويض إلى الله في جميع الأمور كما جاء: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، هذا هو حكم الحكمة لمن عقل عن الله، ومثل هذا الشخص قد استعجل النعيم فإنه يتفرح، وإذا كان هذا حاله فإن الله في أغلب الأحوال يطلعه في سرّه على حكمه الواقع في الحال الذي لا يرضى به العباد، فإنه كل ما وقع به الرضى فقد علمت حكمته فإنه يراها الراضي موافقة لغرضه، وإنما يقع النزاع والجهل فيما لا يوافق الغرض ولا الترتيب الوهمي، فإن العقل لا يعطي صاحبه في الواقع إلا الوقوف فإنه يدري ممن صدر، وإنما الوهم الذي هو على صورة العقل له ذلك النظر المرجح، وحاشا العقل أن يرجح على الله ما لم يرجحه الله، وما رجح الله إلا الواقع فأوقع ما أوقع حكمة منه، وأمسك ما أمسك حكمه منه وهو الحكيم العليم؛ فالعارف عنده الحكيم يتقدم العليم والعامي يقدم العليم ثم الحكيم وقد ورد الأمران معاً، فالحكيم خصوص والعليم عموم، ولذلك ما كل عليم حكيم وكل حكيم عليم فالحكمة الخير الكثير: [مجزوء الرمل]

فــهــي الــخَــيْــرُ الــكَــثــيــرُ ... وهــي الــبَــدْرُ الــمُــنِــيــرُ
تــخــتــفــي وقــتــاً وتــبــدو ... هــكــذا قــال الــخَــبِــيــرُ
فــبــهــا خَــفِــيَــتْ عــلــيــنــا ... وبــهــا كــان الــظــهــورُ

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى السفر الثاني والثلاثون بانتهاء حضرة الحكمة لعبد الحكيم والحمد لله وحده.

[السفر الثالث والثلاثون]

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم

الوداد * حضرة الود

[نظم: الوافر]

ألا إن الــوِدَادَ هــو الــثَّــبَــاتُ ... عــلــى حــال يُــزَعْــزِعُــهُ الــشَّــتَــاتُ
ويــجــمــعــنــا وإيــاه مــقــامٌ ... إذا تــبــدو عــلــى الــوجــه الــسِّــمــاتُ
بِــوَادٍ لا أنــيــسَ بــه وأرْضٍ ... تُــزَيِّــنُــهــا الأزاهــرُ والــنَّــبــاتُ

أزاهِـرُهُ الـبَـنُـونُ إذا تـراهـم عـلـى كُـرْسِـيِّـهِ وكـذا الـبَـنَـاتُ
إذا خـافـوا يُـؤَمِّـنُـهُـم صـبـاحٌ ولـيـس يُـخِـيـفُـهُـمْ إلا الـبَـيَـاتُ

يدعى صاحبها عبد الودود. قال الله تعالى في أصحاب هذه الحضرة: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وقال: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وفي الحديث الصحيح: «**إذا أَحَبَّ الله عَبْدَهُ كَانَ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ وَرِجْلَهُ**» وقواه ثابتة له لا تزول، وإن كان أعمى أخرس فالصفة موجودة خلف حجاب العمى والخرس والطرش فهو ثابت المحبة من كونها وداً، فإن هذه الصفة لها أربعة أحوال لكل حال اسم تعرف به وهي: الهوى والود والحب والعشق، فأوّل سقوطه في القلب وحصوله يسمى هوى من هوى النجم إذا سقط، ثم الود وهو ثباته، ثم الحب وهو صفاؤه وخلاصه من إرادته فهو إرادة محبوبه، ثم العشق وهو التفافه بالقلب مأخوذ من العشقة اللبلابة المشوكة التى تلتف على شجرة العنبة وأمثالها، فهو يلتف بقلب المحب حتى يعميه عن النظر إلى غير محبوبه.

تنبيه: وكيف لا يحب الصانع صنعته ونحن مصنوعاته بلا شك فإنه خالقنا وخالق أرزاقنا ومصالحنا أوحى الله إلى بعض أنبيائه: يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي فلا تهتك ما خلقت من أجلي فيما خلقت من أجلك. يا ابن آدم إني وحقي لك محب فبحقي عليك كن لي محباً والصنعة مظهرة علم الصانع لها بالذات واقتداره وجماله وعظمته وكبرياءه، فإن لم يكن فعلى من وفيمن وبمن؟ فلا بد منا ولا بد من حبه فينا فهو بنا ونحن به كما قال ﷺ في ثنائه على ربه: «**فَإِنَّمَا نَحْنُ بِهِ وَلَهُ**» وهذه حضرة العطف والديمومة: [الوافر]

فـلـولا الـحُـبُّ مـا عُـرِفَ الـوِدَادُ ولـولا الـفَـقْـرُ مـا عُـبِـدَ الـجَـوادُ
فـنـحـن بـه ونـحـن لـه جـمـيـعـاً فـمـن وُدِّي عـلـيـه الاعْـتِـمَـادُ
إذا شـاء الإلٰـهُ وُجُـودَ عَـيْـنٍ بـهـا قـد شـاءهـا فَـمَـضَـى الـعِـنَـادُ
فـكـنّـا عِـنْـدَ «كُـنْ» مـن غـيـر بُـطْءٍ ونـعـت الـكـون ذاك الـمـسـتـفـادُ
فـعَـيْـنُ الـحُـبِّ عَـيْـنُ الـكَـوْنِ مـنـه وعـيـنـه وأظـهـره الـودادُ

فلم يزل يحب فلم يزل ودوداً، فهو يوجد دائماً في حقنا، فهو كلّ يوم في الشأن؛ ولا معنى للوداد إلا هذا، فنحن بلسان الحال والمقال لا نزال نقول له: افعل كذا افعل كذا، ولا يزال هو تعالى يفعل ومن فعله فينا نقول له: افعل أترى هذا فعل مكره ولا مكره له تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً بل هذا حكم الاسم الودود منه، فإنه الغفور الودود ذو العرش المجيد الذي استوى عليه بالاسم الرحمن، فإنه ما رحم إلا صبابة المحب وهي رقة الشوق إلى لقاء المحبوب، ولا يلقاه إلا بصفته وصفته الوجود فأعطاه الوجود، ولو كان عنده أكمل من ذلك ما بخل به عليه كما قال الإمام أبو حامد في هذا المقام: ولو كان وادّخره لكان بخلاً ينافي الجود وعجزاً يناقض القدرة، فأخبر تعالى أنه الغفور الودود أي الثابت المحبة في غيبه، فإنه عز وجلّ يرانا فيرى محبوبه فله الابتهاج به والعالم كله إنسان واحد هو المحبوب، وأشخاص

العالم أعضاء ذلك الإنسان، وما وصف المحبوب بمحبة محبه وإنما جعله محبوباً لا غير. ثم إن من رزقه أن يحبه كحبه إياه أعطاه الشهود ونعمه بشهوده في صور الأشياء، فالمحبون له من العالم بمنزله إنسان العين من العين، فالإنسان وإن كان ذا أعضاء كثيرة فما يشهد ويرى منه إلا العينان خاصة فالعين بمنزلة المحبين من العالم، فأعطى الشهود لمحبيه لما علم حبهم فيه وهو عنده علم ذوق ففعل مع محبيه فعله مع نفسه، وليس إلا الشهود في حال الوجود الذي هو محبوب للمحبوب، فما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، فما خلقهم من بين الخلق إلا لمحبته، فإنه ما يعبده ويتذلل إليه إلا محب، وما عدا الإنسان فهو مسبح بحمده لأنه ما شهده فيحبه، فما تجلى لأحد من خلقه في اسمه الجميل إلا للإنسان وفي الإنسان في علمي فلذا ما فني وهام في حبه بكليته إلا في ربه أو فيمن كان مجلى ربه، فأعين العالم المحبون منه كان المحبوب ما كان، فإن جميع المخلوقين منصات تجلي الحق، فودادهم ثابت فهم الأوداء وهو الودود والأمر مستور بين الحق والخلق بالخلق والحق، ولهذا أتى مع الودود الاسم الغفور لأجل الستر فقيل: قيس أحب ليلى فليلى عن المجلى، وكذلك بشر أحب هنداً وكثير أحب عزة، وابن الذريح أحب لبنى، وتوبة أحب الأخيلية، وجميل أحب بثينة، وهؤلاء كلهم منصات تجلى الحق لهم عليها وإن جهلوا من أحبوه بالأسماء، فإن الإنسان قد يرى شخصاً فيحبه ولا يعرف من هو ولا يعرف اسمه ولا إلى من ينتسب ولا منزله، ويعطيه الحب بذاته أن يبحث عن اسمه ومنزله حتى يلازمه ويعرفه في حال غيبته باسمه ونسبه فيسأل عنه إذا فقد مشاهدته، وهكذا حبنا الله تعالى نحبه في مجاليه. وفي هذا الاسم الخاص الذي هو ليلى ولبنى أو من كان ولا نعرف أنه عين الحق فهنا نحب الاسم ولا نعرف أنه عين الحق، فهنا نحب الاسم ولا نعرف العين، وفي المخلوق تعرف العين وتحب وقد لا يعرف الاسم ويأبى الحب إلا التعريف به أي بالمحبوب، فمنا من يعرفه في الدنيا ومنا من لا يعرفه حتى يموت محباً في أمر ما فينقدح له عند كشف الغطاء أنه ما أحب إلا الله وحجبه اسم المخلوق كما عبد المخلوق هنا من عبده، وما عبد إلا الله من حيث لا يدري، ويسمى معبوده بمناة والعزى واللات، فإذا مات وانكشف الغطاء علم أنه ما عبد إلا الله فالله يقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي حكم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وكذلك كان عابد الوثن لولا ما اعتقد فيه الولهة بوجه ما عبده إلا أنه بالستر المسدل في قوله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤] لم يعرفه وليس إلا الأسماء ولذلك قال المعبود الحقيقي في نفس الأمر لما أضافوا عبادتهم إلى المجالي والمنصات: قل سموهم فإذا سموهم عرفوهم وإذا عرفوهم عرفوا الفرق بين الله وبين من سموه كما تعرف المنصة من المتجلي فيها فتقول هذه مجلى هذا فيفرّق: [مخلع البسيط]

فـهـكـذا الأمْـر إنْ عـقـلـنـا ... فـإن تـكـن فـيـه كُـنْـتَ أَنْـتَـا
مِـنَـصَّـةُ الـحَـقّ أنـت حَـقّـاً ... فـأنـت مـا أنـت حـيـن أَنْـتَـا
فـقـد مَـلَـكْـتَ الـذي أَرْدتَـا ... وقـد عـلـمـت الـذي عَـبَـدْتَـا

فليس ليلى وليس لبنى ... سوى الذي أنت قد علمتا
إن كنت في حُبِّه بصيراً ... تشهده منك أنت أَنْتَا
فما أَحَبَّ المُحِبُّ غَيْراً ... سواه فالكل أنت أنتا

فما أعجب القرآن في مناسبة الأسماء بالأحوال ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٤ - ١٦] فهو المحب وهو فعال لما يريد، فهو المحبوب لأن المحبوب فعال لما يريد بمحبوبه، والمحب سامع مطيع مهيأ لما يريد به محبوبه لأنه المحب الودود أي الثابت على لوازم المحبة وشروطها والعين واحدة، فإن الودود هنا هو الفعال لما يريد، فانظر في هذا التنبيه الإلهي ما أعجبه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

المجد * حضرة المجد

يدعى صاحبها عبد المجيد والقرآن المجيد وهو كلامه تعالى فهو عينه: [مجزوء الخفيف]

حَضْرَةُ المَجْدِ والشَّرَفْ ... حَضْرَةُ الزَّهْو والصَّلَفْ
فذووا مَجْدِنا فَمن ... بَخرِهَا الكلُّ يَغْتَرِف
فإذا ما تَمَجَّدَتْ ... عَيْنُهُ قام يَنْصَرِف
لِقُصُورٍ له بها ... خادمُ العزِّ قد وَقَفْ
فتَحَلَّى بحِلْيَةٍ ... وَهَبَتْهُ حُكْمَ النَّصَفْ
وَهَبَتْهُ نَصِيفَها ... وبه قام فالتَحَفْ
نحن للجوهر المكـ ... ـوّن في عيننا صَدَفْ

إذا قال المصلي: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] يقول الحق: مجدني عبدي أي جعل لي الشرف عليه كما هو الأمر في نفسه، فانظر إلى هذا الاعتراف وهو الحق الذي له المجد بالأصالة والكلام كلامه بلا خلاف فإنه القرآن، وقال عن نفسه إنه يقول عند ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ «**مَجّدني عَبْدي**» وهو تنبيه إلهي من الله على أن الأمر إضافي، فإنه إذا لم يكن هناك من يشرف عليه كوناً ثابتاً أو عيناً كائنة فعلى من يشرف ويتمجد فما أعطاه المجد إلا وجود العبد، فما قال الحق في قوله «**مَجّدني عبدي**» إلا حقاً: [الوافر]

فلو زُلْنا لزال المَجْدُ عَنْهُ ... فتَمْجيدي له المَجْدُ التَّليدُ
تَوَلَّدَ عن وجود القول مني ... كذا قال الإلهُ لِيَ المَجِيدُ
وقلناه بعلم واعتقادٍ ... فجاء لشُكْرنا منه المَزِيدُ
فكان هو المُرَادَ بعَيْنِ قولي ... كما قد كان في الأصل المُريدُ
له حُكْمُ التَّحكُّمِ في وجودي ... هو الفَعَّالُ فينا ما يُريدُ

وليس يريد إلا كُلَّ ما لا ... وُجودَ له فحَقِّقْ ما أريدُ
فليس يريد عيني حال كوني ... فكون الكائنات هو الوجودُ
فقد شَهِدَتْ إرادتُهُ عليه ... بأن مُرَادَهُ أبداً فَقِيدُ

فلما قال: «**مجدني عبدي**» عند قول المصلي: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ علمنا أنه قال: أعطاني عبدي المجد والشرف على العالم في الدنيا والآخرة لأني جازيت العالم على أعمالهم في الدنيا والآخرة، فيوم الدين هو يوم الجزاء، فإن الحدود ما شرعت في الشرائع إلا جزاء، وما أصابت المصائب من إصابته إلا جزاء بما كسبت يده مع كونه يعفو عن كثير، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠] وكذلك ما ظهر من الفتن والخراب والحروب والطاعون فهو كله جزاء بأعمال عملوها استحقوا بذلك ما ظهر من الفساد في البرّ من خسف وغير ذلك وقحط ووباء وقتل وأسر، وكذلك في البحر مثل هذا مع غرق وتجرّع غصص لزعزع ريح مثلفة قال تعال: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ﴾ وهو ما ذكرناه ومن جنس ما قرّرناه ﴿فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ أي بما عملوا ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ [الروم: ٤١] وهذا عين الجزاء وهو في الدنيا هو، فيوم الدنيا يوم الجزاء ويوم الآخرة هو يوم الجزاء غير أنه في الآخرة أشد وأعظم لأنه لا ينتج أجراً لمن أصيب، وقد ينتج في الدنيا أجراً لمن أصيب وقد لا ينتج، فهذا هو الفرقان بين يوم الدينا ويوم الآخرة، وقد تعقب المصيبة لمن قامت به توبة مقبولة، وقد يكون في الدنيا حكم يوم الآخرة في عدم قبول التوبة وهو قوله في طلوع الشمس من مغربها أنه لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، فلا ينفع عمل العامل مع كونه في الدنيا فأشبه الآخرة، وكذلك أيضاً المصاب في الدنيا تكفر عنه مصيبته من الخطايا ما يعلم الله ومصيبة الآخرة لا تكفر، وقد يكون هذا الحكم في يوم الدنيا فأشبه الآخرة أيضاً وهو قوله في حق المحاربين الذين يحاربون الله ورسوله من قتلهم وصلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم من مواطنهم ﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣] على تلك المحاربة والفساد جزاء لهم، فما كفر عنهم ما أصابهم في الدنيا من البلاء. فانظر ما أحكم القرآن وما فيه من العلوم لمن رزق الفهم فيه، فكل ما هم فيه العلماء بالله ما هو إلا فهمهم في القرآن خاصة فإنه الوحي المعصوم المقطوع بصدقه الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ فتصدقه الكتب المنزلة قبله ﴿وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصلت: ٤٢] ولا ينزل بعده ما يكذبه ويبطله فهو حق ثابت، وكل تنزل سواه في هذه الأمة وقبلها في الأمم فيمكن أن يأتيه الباطل من بين يديه فيعثر صاحبه على آية أو خبر صحيح يبطل له ما كان يعتمد عليه من تنزيله وهو قول الجنيد، علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة أن يشهدا له بذلك بأنه حق من عند الله ويأتيه من خلفه أي لا يعلم في الوقت بطلانه لكن قد يعلمه فيما بعد فهو نظير قوله في القرآن ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢] فأي مجد أعظم من هذا المجد الذي اعترف به العبد لربه بأن شهد له بأنه الملك في يوم الدين والخلق ملكه الذي

تظهر فيه أحكامه؟ ثم إنه قد علمنا بالخبر الصدق أن أعمال العباد ترجع عليهم فلا بد أن يرجع عليهم هذا المجد الذي مجدوا الحق به فيكون لهم في الآخرة المجد الطريف والتليد، فرجوع أعمالهم عليهم اقتضته حقيقة قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] بعدما كانت الدعاوى الكيانية قد أخذته وأضافته إلى الخلق، فمن رجوع الأمر كله إليه رجعت أعمال العباد عليهم فالعبد بحسب ما عمل، فهو المقدس إن كان عمله تقديس الحق، وهو المنزه بتنزيهه والمعظم بتعظيمه، ولما لحظ من لحظ من أهل الكشف هذه الرجعة عليه قال سبحاني فأعاد التنزيه عليه لفظاً كما عاد عليه حكماً، وكما قال الآخر في مثل هذا: أنا الله فإنه ما عبد إلا ما اعتقده، وما اعتقد إلا ما أوجده في نفسه، فما عبد إلا مجعولاً مثله فقال عندما رأى هذه الحقيقة من الاشتراك في الخلق قال: أنا الله فأعذره الحق ولم يؤاخذه فإنه ما قال الأعلى كما قال من أخذه الله تعالى: ﴿نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥] وأما من قالها بحق أي من قال ذلك والحق لسانه وسمعه وبصره فذلك دون صاحب هذا المقام، فمقام الذي قال أنا الله من حيث اعتقاده أتم ممن قالها بحق فإنه ما قالها إلا بعد استشرافه على ذلك فعلم من عبد والفضل في العلم يكون، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الحياء * حضرة الحياء

[نظم: البسيط]

إنّ الحَيَاءَ لِبَابِ الله مِفْتَاحُ ... وإن سِرّي لذاك الفَتْح فَتَّاحُ
فإن فَتَحْتَ ترى نوراً يضيء به ... وَجْهٌ جميلٌ علاه النُّورُ وَضَّاحُ
كأَنَّهُ ظَلامُ اللَّيلِ إنْ نَظَرَتْ ... عيناك صُورَتَهُ صُبْحٌ ومِصْباحُ

يدعى صاحبها عبد الحيّ أو عبد المستحيي. ورد في الخبر: «**إِنَّ الله حَيِيٌّ**» لكن للحياء موطن خاص فإن الله قد قال في الموطن الذي لا حكم للحياء فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٦] أي لا يترك ضرب المثل بالأدنى والأحقر عند الجاهل فإنه ما هو حقير عند الله، وكيف يكون حقيراً من هو عين الدلالة على الله فيعظم الدليل بعظمة مدلوله، ثم إن رسول الله ﷺ نطق من هذه الحضرة بقوله: «**الحَيَاءُ مِنَ الإيمانِ والإيمانُ نِصْفٌ صَبْرٌ وَنِصْفٌ شُكْرٌ وَالله هُوَ الصَّبُورُ الشَّكُورُ**» ومن هذه الحضرة من اسمه المؤمن شكر عباده على ما أنعموا به على الأسماء الإلهية بقبولهم لآثارها فيهم وصبر على أذى من جهله من عباده، فنسب إليه ما لا يليق به، ونسبوا إليه عدواً بغير علم كما أخبرنا عنهم فصبر على ذلك، ولا شخص أصبر على أذى من الله لاقتداره على الأخذ، فهو المؤمن الكامل في إيمانه بكمال صبره وشكره، ومن أعجب شكره أنه شاكر عباده على ما هو منه، ثم إنه تعالى من حيائه أنه يؤتى بشيخ يوم القيامة فيسأله ويقرّره على هناته وزلاته فينكرها كلها فيصدقه ويأمر به إلى الجنة، فإذا قيل له سبحانه في ذلك يقول: إني استحييت أن أكذب شيبته، فأما تصديقه من كون الحياء من الإيمان وهو المؤمن فإنه صدق من قبوله لما خلق الله فيه من المعاصي

والذنوب، وكل ما خلق الله فيه لولا قبوله ما نفذ الاقتدار فيه، وأما قوله ﷺ وهو الحياء لا يأتي إلا بخير والله حيي فأتاه من حيائه بخير، وأي خير أعظم من أن يستر عليه ولم يفضحه وغفر له وتجاوز عنه، وأن العبد إذا قامت به هذه الصفات الإلهية فمن هذه الحضرة تأتيه ومنها يقبلها، فإنه لكونه على الصورة الإلهية يقبل من كل حضرة إلهية ما تعطيه لأن لها وجهاً إلى الحق ووجهاً إلى العبد، وكذلك كل حضرة تضاف إلى العبد مما يقول العلماء فيها تضاف إلى العبد بطريق الاستحقاق والأصالة وإن كنا لا نقول بذلك، فإن لكل حضرة منها أيضاً وجهين: وجهاً إلى الحق ووجهاً إلى العبد، فانتظم الأمر بين الله وبين خلقه واشتبه فظهر في ذلك الحق بصفة الخلق وظهر الخلق بصفة الحق، ووافق شنّ طبقة فضمه واعتنقه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] فظهر في ذلك التعانق والتوافق لام الألف فكان ذلك العقد والرباط وأخذ العهود والعقود بين الله وبين عباده فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

السخي * حضرة السخاء

[نظم: الكامل]

إن السَّخيَّ هو الذي يعطي على ... قَدْر الذي يحتاجه المَخْلُوقُ
لا زائدٌ فيه ولا نَقْصٌ لذا ... قد عُيِّنَتْ فيه عليه حُقُوقُ

* * *

[نظم: البسيط]

ليس السَّخِيُّ الذي يعطي مجازفة ... إن السَّخِيَّ الذي يعطي على قَدَرِ
وليس نَعْت الذي كان الوجود به ... لكنه من نُعُوتِ الخلق والبَشَرِ
وإنما سُقْتُهُ لله حين أتَتْ ... به النصوصُ التى جاءتك في الخَبَرِ
فكن به عالماً فمِنْ حَقِيقَتِهِ ... أن لا يَقُومَ به شيءٌ من الغِيَرِ
فإن صورته في طَيِّ صورتنا ... وإن سُورَتَهُ تُرْبي على السُّوَرِ

يدعى صاحبها عبد السخي، وهي من حضرات العطاء والسخاء العطاء بقدر ما يحتاج إليه المعطى إياه، فلا يكون إلا عن سؤال إما بلسان حال أو بلسان مقال، وإذا كان بلسان المقال فلا بد من لسان الحال وإلا فليس بمحتاج، وحضرات العطاء كثيرة منها الوهب والجود والكرم والسخاء والإيثار وهو عطاء الفتوة، وقد بيناه في هذا الكتاب في باب الفتوة، وفي كتاب مواقع النجوم في عضو اليد الذي ألفناه بالمرية من بلاد الأندلس سنة خمس وتسعين وخمسمائة عن أمر إلهي وهو كتاب شريف يعني عن الشيخ في تربية المريد، ثم نرجع فنقول: الوهب في العطاء هو لمجرد الإنعام وهو الذي لا يقترن به طلب معارضة ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] فهو موصل أمانة كانت بيده، والكرم عطاء بعد سؤال، والجود عطاء قبل السؤال، والسخاء عطاء بقدر الحاجة، والإيثار عطاؤك ما أنت محتاج إليه في الحال وهو الأفضل، وفي الاستقبال وهو دون المعطي في الحال، ولكل

عطاء اسم إلهي إلا الإيثار فالله تعالى وهاب كريم جواد سخي، ولا يقال فيه عز وجل مؤثر، وقد قررنا أنه عالم بكل شيء فكيف يكون السخاء عطاء عن سؤال بلسان الحال وهو القائل عز وجلّ: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ [طه: ٥] فما ترك لمخلوق ما يحتاج إليه من حيث ما هو مخلوق تام. فاعلم أن ثم تماماً وكمالاً فالتمام إعطاء كل شيء خلقه وهذا لا سؤال فيه ولا يلزم إعطاء الكمال ويتصوّر السؤال والطلب في حصول الكمال فإنها مرتبة، والمرتبة إذا أوجدها الحق في العبد أعطاها خلقها وما هي من تمام المعطي إياه ولكنها من كماله، وكل إنسان وطالب محتاج إلى كمال أي إلى مرتبة ولكن لا يتعين فإنه مؤهل بالذات لمراتب مختلفه، ولا بد أن يكون على مرتبة ما من المراتب فيقوم في نفسه أن يسأل الله في أن يعطيه غير المرتبة لما هو عليه من الأهلية لها فيتصور السؤال في الكمال وهو مما يحتاج إليه السائل في نيل غرضه، فإنه من تمام خلق الغرض أن يوجد له متعلقه الذي يكون به كماله، فإن تمامه تعلقه بمتعلق ما وقد وجد، فإن أعطاه الله ما سأله بالغرض فقد أعطاه ما يحتاج إليه الغرض وذلك هو السخاء فإن السخاء عطاء على قدر الحاجة، وقد يعطيه الله ابتداء من غير سؤال نطق، لكن وجود الأهلية في المعطي إياه سؤال بالحال كما تقول: إن كل إنسان مستعد لقبول استعداد ما يكون به نبياً ورسولاً وخليفة وولياً ومؤمناً لكنه سوقة وعدوّ وكافر، وهذه كلها مراتب يكون فيها كمال العبد ونقصه، قال ﷺ: «**كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرُونَ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنْ النِّساءِ إلاَّ مَرْيَم بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَة فِرْعَوْنَ**» وكل شخص ما عدا هؤلاء مستعدّ بإنسانيته لقبول ما يكون له به هذا الكمال، فبالأهلية هو محتاج إليه وللحرمان وجد السؤال بالحال فحضرة السخاء فيها روائح من حضرة الحكمة، فإن الله عز وجلّ ما منع إلا لحكمة ولا أعطى إلا لحكمة، وهو الحكيم العليم في المنع والعطاء، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الطيب * حضرة الطيب

[نُظم: الكامل]

طَابَتْ بِطِيبِ الطَّيِّبِ الأشْيَاءُ ... ولذا له الأوصافُ والأسماءُ
أسماؤه الحُسْنَى التي قد عُيِّنَتْ ... ما عندها سُوءٌ ولا أسْواءُ

* * *

[نظم: البسيط]

ما طيب الطيب إلا كون خالقنا ... سميته طيباً وفيه إجمالُ
من ذاقه ذاق طَعْمَ الشَّهْدِ فيه كما ... من لم يَذُقْ ما له علمٌ ولا حالُ
إن قال ما هو هذا العلمُ قلت له ... إن الشيوخ بهذا القول قد قالوا
ولا تَرُدَّ الذي قالوه إنَّ له ... وجهاً صحيحاً إليه القوم قد مالوا
ما طيب الذكر إلا طيب نشأتنا ... في صورة الحقّ والأعمال أموالُ

يدعى صاحبها عبد الطيب، فالطيب من يميز الخبيث من الطيب فيجعل ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النور: ٢٦] من كونه طيباً ويجعل ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ

لِلْخَبِيثَـٰتِۗ﴾ [النور: ٢٦] من كونه حكيماً فإنه هو الجاعل للأشياء والمميز بين الأشياء والأحكام، فيجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم فلا تزال أمه هاوية دائماً، وعليون للطيبين فلا يزال يعلو دائماً، وكل عالٍ وكل هاوٍ إنما يطلب ربه، فالهاوي عارف بربه في جهة خاصة تلقاها من الرسول لما سمعه يقول: «لَوْ دَلَّيْتُمْ بِحَبْلٍ لَهَبَطَ عَلَىٰ اللهِ» وهنا سرّ لو بحثت عليه ظفرت به، فاقتضى مزاج الخبيث واستعداده أنه لا يطلب ربه إلا من هذه الجهة وهو الخبيث وجهنم البعيدة القعر فهو يهوي فيها يطلب ما ذكرناه، والطيب الصاعد عارف بربه في جهة خاصة تلقاها من الرسول لما سمعه يقول عن الله ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] فاقتضى مزاج الطيب واستعداده أنه لا يطلب ربه إلا من هذه الجهة وهو الطيب والعلوّ لا نهاية له إلا الله كما الهوى لا نهاية له إلا الله، والذي لا يتقيد بصفة كأبي يزيد يطلبه في الإحاطة بجميع الجهات الست لأنه ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤] فيطلبه في العلوّ والهوي واليمين والشمال والخلف والأمام، وكل هذا الجهات فهي عين الإنسان ما ظهرت إلا به وفيه، فهو الذي حدر به بالإحاطة فأكمل الأناسي من لم يحكم عليه جهة دون جهة ودونه من حكمت عليه جهة خاصة، فالكامل له الظهور في كل صورة، وغير الكامل هو بما تقيد به بها، فقوله: لا صفة له يعني لا تقييد له بأمر خاص بل له العموم بالظهور فإنه ما يمكن أن يخلو معلوم عن حدّ في نفسه، وأعلى الحدود الإطلاق وهو تقييد فإنه قد تميز بإطلاقه عن المقيد كما تميز مقيد عن مقيد، فالخلق وإن كان له السريان في الحق فهو محدود بالسريان، والحق وإن كان له السريان في الخلق فهو محدود بالسريان، وهذا كان مذهب أبي مدين رحمه الله، وكان ينبه على هذا المقام بقوله الأمي العامي: سرّ الحياة سري في الموجودات كلها فتجمدت به الجمادات ونبتت به النباتات وحييت به الحيوانات، فكل نطق في تسبيحه بحمده لسر سريان الحياة فيه، فهو وإن كان رحمه الله ناقص العبارة لكونه لم يعط فتوح العبارة فإنه قارب الأمر ففهم عنه مقصوده، وإن كان ما وفاه ما يستحقه المقام من الترجمة عنه، فهذا معنى الطيب وأنه من أسماء التقييد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

المحسان * حضرة الإحسان

[نظم:][(١)]

حَـضْـرَةُ الـمـحـسـانِ إحْـسـانُ وهـو فـي الـتَّـحْـقِـيـقِ إنْـسـانُ
ولـذا مـن الـشُّـهـورِ لـه مـا يُـقـال فـيـه نَـيْـسَـانُ

* * *

[نظم: البسيط]

إذا رَأَيْتَ الـذي بـالـفـعـل تَـعْـبُـدُهُ فـأنـت صـاحـب إحـسـان وإيـمـانِ

(١) النظم مختل (على الرمل).

وإنْ جهلتَ ولم تَعْلَمْ برؤيتكم إياه فاعْمَلْ على إحسانه الثاني
وإنما جَمَعَ الرحمٰنُ بينهما لكي يقابل إحساناً بإحسان
والكل من عنده إن كنت تعرفُهُ ولست أعرفُه إلا إنَ آغناني
طال انتظاري لما يأتيه من قبلي قولاً وفعلاً وهذا الأمْرُ أعيانِي

يدعى صاحبها عبد المحسن، وإن شئت عبد المحسان. قال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ: مَا الإحْسَانُ؟ فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الإحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ لا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» وفي رواية: «**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» فأمره أن يخيله ويحضره في خياله على قدر علمه به فيكون محصوراً له وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] فمن علم قوله: «**إنَّ الله خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**» وعلم قوله عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وعلم قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] علم بالضرورة أنه إذا رأى نفسه هذه الرؤية فقد رأى ربه بجزاء الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه إلا الإحسان وهو أنك تراه حقيقة كما أريته نفسك، فالصورة الأولى الإلهية في العبادة مجعولة للعبد من جعله فهو الذي أقامها نشأة يعبدها عن أمره عز وجلّ له بذلك الإنشاء، فجزاؤه أن يراه حقيقة جزاء وفاقاً في الصورة التي يقتضيها موطن ذلك الشهود، كما اقتضى تجليه في الصورة الإلهية المجعولة من العبد في موطن العبادة والتكليف، فإن الصور تتنوّع بتنوّع المواطن والأحوال والاعتقادات من المواطن، فلكل عبد حال ولكل حال موطن، فبحاله يقول في ربه ما يجده في عقده، وبموطن ذلك الحال يتجلى له الحق في صورة اعتقاده والحق كل ذلك والحق وراء ذلك، فينكر ويعرف وينزه ويوصف، وعن كل ما ينسب إليه بتوقف، فحضرة لإحسان رؤية وشهود، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الدهر * حضرة الدهر

[نظم: المجتث]

الدَّهْرُ عَيْنُ الزمان وما لديه أمان
فإن يكن عَيْنَ قَلْبي فليس إلا العَيَان

* * *

[نظم: الطويل]

إذا كان دَهْري عَيْنَ رَبِّي فإنه قديم وما دهري يُحَدُّ بأزمان
وما سَبَّهُ إلا جهولٌ بقَدْره ذليلٌ فقيرٌ ذو جفاء ونُقْصانِ
ولو كان عَلاّماً به وبفعله لجُوزي بما به بخل عَذْنانِ
وكان لذاك العلم صَاحِبَ مَشْهَدٍ يراه عَيَاناً ذا بيان وتبيانِ
فسبحان من أحياه بعد مماته ونَعَّمَهُ منه لَهِيبٌ ببركان

يدعى صاحبها عبد الدهر. وقال رسول الله ﷺ: **«لا تَسُبُّوا الدَّهرَ فَإنَّ الله هُوَ الدَّهرُ»** فجعل الدهر هوية الله، فصدق القائلون في قولهم وما يهلكنا إلا الدهر فإنه ما يهلكهم إلا الله، فإنهم جهلوا في قولهم: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا أي نحيى فيها ثم نموت، وصدقوا في قولهم بعد ذلك: وما يهلكنا إلا الدهر فصدقوا فإن الدهر هو الله وجهلوا في اعتقادهم فإنهم ما أرادوا إلا الزمان بقولهم الدهر، فأصابوا في إطلاق الاسم وأخطؤوا في المعنى، وهم ما أرادوا إلا المهلك فأصابوا في المعنى، ووافقوا الاسم المشروع توفيقاً من الله، ولم يقولوا الزمان أو ربما لو قالوا الزمان لسمى الله نفسه بالزمان كما سمى نفسه بالدهر، والدهر عبارة عما لا يتناهى وجوده عند مطلقي هذا الاسم أطلقوه على ما أطلقوه، فالدهر حقيقة معقولة لكل داهر، وهو المعبر عنه بحضرة الدهر وهو قولهم: لا أفعل ذلك دهر الداهرين، وهو عين أبد الآبدين، فللدهر الأزل والأبد أي له هذان الحكمان، لكن معقولية حكمه عند الأكثر في الأبد فإنهم أتبعوه الأبد فلذلك يقول القائل منهم: دهر الداهرين، وقد يقول بدله، أبد الآبدين فلا يعرفونه إلا بطرف الأبد لا بطرف الأزل، ومن جعله الله فله حكم الأزل والأبد فاعلم ذلك.

ومن هذه الحضرة ثبت حكم الأزل والأبد لمن وصف به وأن عين العالم لم يزل في الأزل الذي هو الدهر الأوّل بالنسبة إلى ما نذكره ثابت العين، ولما أفاده الحق الوجود ما طرأ عليه إلا حالة الوجود لا أمر آخر، فظهر في الوجود بالحقيقة التي كان عليها في حال العدم، فتعين بحال وجود العالم الطرف الأوّل المعبر عنه بالأزل وليس إلا الدهر، وتعين حال وجود العالم بنفسه وهو زمان الحال وهو الدهر عينه، ثم استمرّ له الوجود إلى غير نهاية فتعين الطرف الآخر وهو الأبد وليس الدهر، فمن راعى هذه النسب جعله دهوراً وهو دهر واحد، وليس إلا عين الوجود الحق بأحكام أعيان الممكنات أو ظهور الحق في صور الممكنات، فتعين أنّ الدهر هو الله تعالى كما أخبر عن نفسه على ما أوصله إلينا رسوله ﷺ فقال لنا لما سمع من يسب الدهر لكونه لم يعطه أغراضه فقال: **«لا تَسُبُّوا الدَّهرَ فَإنَّ الله هُوَ الدَّهرُ»** لأنه المانع وجود ما لكم في وجوده غرض، ولهذا سمي بالمانع. وله حضرة في هذا الباب في هذا الكتاب مذكورة، فتوليد العالم إنما هو للزمان وهو الدهر ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ [الحج: ٦١] فيتناكحان فيلد النهار جميع ما يظهر فيه من الأعيان القائمة بأنفسها وغير القائمة بأنفسها من الأجسام والجسمانيات والأرواح والروحانيات والأحوال، فيظهركل روحانيّ وجسماني من كل اسم رباني، ويظهر كل جسم وروح من الاسم الرب لا من الاسم الرباني. ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج: ٦١] فيتناكحان فيلد الليل مثل ما ولد النهار سواء على حد ما مضى، وهذا المعبر عنه بالليل والنهار سدنة الدهر والإيلاج والتكوير والغشيان وهو قوله. ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزمر: ٥] من كور العمامة ﴿وَيُغۡشِي ٱلَّيۡلَ فَيَشۡفَعُواْ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فهذه مقاليد الدهر الذي ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهو الناكح ﴿وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الزمر: ٦٣] وهو المنكوح، فمن علا من هذين الزوجين فله الذكورية وهو السماء، ومن سفل من هذين الزوجين فله الأنوثة وهو الأرض ونكاحهما المقلاد، والإقليد الذي به

يكون الفتح فيظهر ما في خزائن الجود وهو الدهر، فهكذا وجد العالم عن نكاح دهري زماني ليلي ونهاري، فإن علا ماء الناكح ماء المنكوح أذكر فظهرت الأرواح الفاعلة، وإن علا ماء المنكوح ماء الناكح أنثى فظهرت الجثث الطبيعية القابلة للانفعال المنفعلة: [مخلع البسيط]

فهكذا كانت الأمُورُ ... وأظهرتْ حُكْمَها الدُّهورُ
فكل أمر يخصه اسْمٌ ... كان له الكون والصدورُ
ثم إلى الله بعد هذا ... تصير في سيرها الأمُورُ
فكلّ جسم له ظلامٌ ... وكل روح لديه نُورُ
إذا انطَوَى ظِلُّه ويَخفَى ... في ذاته ذلك النفورُ
لم يعدم الله عين شيء ... أبداه لكنه يَبُورُ
فخَلْقُهُ لم يَزَلْ جديداً ... في كلّ أوقاته يَثُورُ
لولا وجود النِّكَاحِ فيه ... ما كان للعالم الظُّهُورُ
ولا لأسمائه احتكامٌ ... ولا لأعيانها نُشُورُ
فأنْجُمٌ منه طالعاتٌ ... وأنْجُمٌ عنده تَغُورُ
كأنها طالباتُ ثَارٍ ... وطالب الثّار ما يَجُورُ
فالكونُ في ليلٍ أو نهارٍ ... على الذي قلتُه يدورُ

الصاحب * حضرة الصحبة

[نظم: البسيط]

الصاحبُ الحقُّ ليس الصَّاحِبَ الدَّاعي ... ولو تَحَكَّمَ في بُرْئي وأوجاعي
وإن صاحبها يَبْغي مصاحبتي ... ويَدَّعي أنه مني كأسماعي

[نظم: الرمل]

صُحْبَةُ الرحمٰن فيها أدبٌ ... فاصحب الرحمن لا تَصْحَبْ سواه
يتمنَّاه الذي يصحبُهُ ... أن يراه فيَرَى فيه مُنَاه
عجباً فيه وفي رؤيته ... ما لعَبْدِ فيه إلا ما نواه
بَذَلَ المجهودَ كي يُبْصِرَهُ ... وأبى ذلك في الحَقّ عَمَاه
لو دَرَى الإنسانُ من غيرته ... أنه حقاً على هذا بَنَاه

يدعى صاحبها عبد الصاحب. قال رسول الله ﷺ في دعائه ربه: «**أنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ**» وقال تعالى مصدقاً له فيما سماه به من الصاحب: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [الحديد: ٤] فهو الصاحب على كل حال مع العبد في أينيته: [مجزوء الخفيف]

فهُوَ الله في السَّمَاء ... وفي الأرض يَحْكُمُ
وإذا كان هكذا ... فاحذَرُوا منه واعْلَمُوا
أنه عالمٌ بِكُمْ ... عادل ليس يَظْلِمُ

وذلك أن الله تعالى حد حدوداً لعباده عقلية وشرعية معللة وغير معللة، فما عقلت علته منها سميناها عقلية، وما لم تعقل علته سميناها تعبداً وعبادة شرعية، فهو مع عباده المكلفين يحفظ عليهم أنفاسهم في حدوده، وهو مع من ليس بمكلف ينظر ما يفعل معه المكلفون بأن لا يتعدّوا حدوده، فهو مع كل شيء بهذه المثابة في الدنيا، وأما في الآخرة فما هو معهم إلا لحفظ أنفاسهم ولما يوجده فيهم فإنهم محل الانفعال لما يريد إيجاده، فلا يزال يوجد له تعالى ولهم فله من حيث ما يسبحه الموجود بحمده في شيئية وجوده فإنها النعمة الكبرى، فتسبيحه: الحمد لله المنعم المفضل، وأما كونه يوجد لهم فلما يحصل لهم من المنفعة بسبب ذلك الموجود وما يليق به فيعود نفعه عليهم ويعود تسبيحه عليه تعالى هكذا دائماً. ثم إن العالم لا يزال مسافراً أبداً فالله صاحبه أبداً فهو بعينه يسافر من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام، والحق معه صاحبه وللحق الشؤون كما قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩] فالحق أيضاً له من شأن إلى شأن، فشؤون الحق هي أحوال المسافرين يجدد خلقها لهم في كل يوم زمان فرد فلا يتمكن للعالم استقرار على حال واحدة وشأن واحد لأنها أعراض والأعراض لا تبقى زمانين مطلقاً، فلا وجود لها إلا زمان وجودها خاصة، ثم يعقبها في الزمان الذي يلي زمان وجودها الأمثال أو الأضداد، فأعيان الجواهر على هذا لا تخلو عن أحوال ولا خالق لها إلا الله، فالحق في شؤون أبداً فإنه لكل عين حال، فللحق شؤون ولنا أحوال، فالصحبة دائمة غير منقطعة وشؤون حاكمة إلى غير نهاية ولا بلوغ غاية، وذلك من المرتبة التي صح لنا فيها أولية الظهور، ثم استمرّ السير وتمادى السفر والانتقال من بلد إلى بلد، ومن مكان إلى مكان، ومن مكانة إلى مكانة لكل موجود من العالم.

فلنعين من ذلك ما يختص بهذا النوع الإنساني فأوجده بكله ظاهر صورته وباطنها أجزاء العالم فظهر بعينه في كونه بعدم أن كان يدور في أطوار العالم من عالم الأفلاك والأركان، ولكن مختلف الأحوال مفترق الأجزاء غير معين بهذا الشيء الخاص، فالتأمت أجزاؤه والحق صاحبه في كل حال من أحوال تنقلاته، وكيف لا يصحبه وهو خالق تلك الأحوال التي ينقله فيها والأطوار؟ فأظهر عينه مجموعاً لم يبقَ منه شيئاً في غير ذاته، ثم جعل ما جعل فيه يستحيل من صورة إلى صورة وهو أيضاً سفر ويمده بمثل ما زال عنه وسافر أو بضده لتبقى عين جمعيته، فصار الإنسان منزلاً من منازل الوجود يسافر منه ويسافر إليه، وليس لكل مسافر إليه إذا وصل ونزل به سوى جائزته ليلة واحدة وهي الزمن الفرد ويرحل ولا يرد عليه حال من الأحوال إلا والحق صاحب لذلك الوارد، فيتعين على هذا المحل الذي هو الإنسان في كل نفس عند ورود كل حال كرامتان: كرامة وضيافة لذلك الوارد بحسب مكانته من ربه وما تعطيه حقيقته، والإنسان قادر على إجازته والقيام بحرمته وكرامته وضيافته، ولسرعة ارتحاله تكون المسارعة إلى أداء جائزته، والكرامة الأخرى المتعينة عليه كرامة صاحبه الواصل معه وهوالله الصاحب في السفر، فينظر بأي اسم إلهيّ وصل، فذلك الاسم الإلهيّ هو صاحبه، فينظر ما يستحقه ذلك الاسم الإلهي من الجلال والتعظيم والتمجيد والتحميد فيكرمه ويضيفه بها فتلك

كرامته، ويبادر إلى ذلك في الزمان الواحد لأن الإنسان مجموع والرحلة سريعة، فيعين لك واحد أعني للحال الوارد وللصاحب معه وهو الاسم الإلهي الذي يحفظه من نفسه ما يستحق أن يقوم بما يتعين للحق عليه من الكرامة، ويعين من نفسه أيضاً حقيقة أخرى مناسبة للوارد تقوم بخدمته إلى أن يرحل عنه، فالإنسان منزل ومناخ للمسافرين من الأحوال وهو في نفسه مسافر أيضاً، فله مع الله صحبة دائمة لسفره، وله تلقي كل وارد عليه من الله مع صاحبه من الأسماء الإلهية، فيتعين عليه في كل نفس خمسة حقوق يطالب بالقيام بها: حق الوارد عليه، وحق صاحبه، وحق المسافر عنه في تسفيره، وحق صاحبه، والحق الخامس حق الله تعالى وهو صاحبه الملازم له في سفره فإنه الصاحب في السفر كما هو الخليفة في الأهل، فما خلق الله أتعب خاطر ولا قلب من أهل الكشف والحضور العارفين بالله من أهل الله أهل الشهود لهذه الأمور، فيتخيل من لا معرفة له بالأمور أن العارف في راحة، لا والله بل هو أشد عذاباً من كل أحد، فإنه لا يزال في كل نفس يطلب نفسه مطلوباً من أجل ما أشهده الله ما أشهده بأداء هذه الخمسة الحقوق، ولولا أن الله يعفو عن كثير برحمته التي وسعت كل شيء وأن من رحمة الله أعطى الله هذا العبد من الاتساع وكثرة الوزعة والخدام ما يستعين بهم على أداء هذه الحقوق ما قدر الإنسان على أداء شيء منها، ولا يطالب بهذه الحقوق كلها إلا من أشهده الله عين ما ذكرناه كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. كما يعين في الإنسان الواحد في إنزال القرآن أنه بلاغ من وجه وإنذار من وجه وإعلام بتوحيد من وجه وتذكرة لما نسيه من وجه، والمخاطب بهذا كله واحد العين وهو الإنسان قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ فهو بلاغ له من كونه من الناس ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ من كونه على قدم غرور وخطر فيحذروا ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي يفعل ما يريد ما ثم آخر يرده عن إرادته فيك ويصده ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢] بما أشهدهم به على نفسه أنه ربه ليقوم بما يجب على المملوك من حق سيده الذي أقر له بالملك، ولهذا العبد إذا اشتراه الإنسان من غيره، فمن شرطه أن يقرّ العبد لبايعه بالملك ولا يسمع مجرد دعواه في أنه مالك له، ولا يقوم على العبد حجة بقول سيده ما لم يعترف هو بالملك له، ويغفل عن هذا القدر كثير من الناس فإن الأصل الحرية واستصحاب الأصل مرعي، وبعد الاعتراف بالملك صار الاسترقاق في هذه الرقبة أصلاً يستصحب حتى يثبت الحرية إن ادّعاها هكذا هو الأمر قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فثبت الاسترقاق لله عليهم، فطولبوا بالوفاء بحق العبودية لهذا الإقرار فهو قوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢] فإن التذكر لا يكون إلا عن علم متقدم منسي فيذكره من يعلم ذلك، فالله مع الخلق هو الصاحب المجهول لغيبتهم عن شهود هذه الصحبة فلا يطالبون بحق ما يختص به، والذي يشهده إيماناً أو عياناً يطالب بذلك، فالعالم المحجوب للغيبة يخاف من المعاصي، والعارف للشهود يخاف من الكفر وهو الستر يقول: سدل الحجاب بعد الكشف، نسأل الله عصمة واقية وهي الشهود الدائم فإنه مباح له جميع ما

يتصرّف فيه من هذا حاله، فإنه إذا كان العبد المذنب في عقب ذنبه يعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب علم إيمان وقد أبيح له ورفع الحجر عنه في تصرّفه، فما ظنك بصاحب الشهود الذي يرى من يفعل به وفيه وما ينفعل وصدور الأعيان من حضرة من تصدر فافهم وتأمّل ترشد﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فإني ما ترجمت لك إلا عن شرع مستقر ودين كالصباح الأبلج ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الخليفة * حضرة الخلافة

[نظم: البسيط]

إنّ الخِلافَةَ سِرُّ الله في البَشَرِ ... لذا تَحَمَّلْتُ ما فيها من الضَّرَرِ
أنا الخليفه ما عندي سوى نفسي ... فلا أخاف ولا أخْشَى من الغِيَرِ

* * *

[نظم: البسيط]

خليفةُ الحَقّ في الأكوان من ظَهَرا ... بصورة الحَقّ مَلْكاً كان أو بَشَرا
فكان من قد أتى نَصُّ الكتاب به ... ابْناً وجَدّاً وهذا كله ذُكِرَا
وكان يجهل في الأعيان رُتْبَته ... وكان حقاً ولم يلحقْ به غِيَرَا
فلو تراه وقد خرّت ملائكةٌ ... لذاته سُجَّداً لقلت ذا سحرا
ومن أَبَى نزلتْ في الحال رُتْبَتُه ... ولم يَزَلْ خاسئاً مثل الذي كَفَرَا

يدعى صاحبها عبد الخليفة، قال رسول الله ﷺ في دعائه ربه في سفره: «**أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ**» وقد مضى فيه القول «**وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ**» فسماه خليفة لما استخلفه أي بين أنه الخليفة أي الذي يخلف المسافر في أهله فهو خليفة بالنظر إلى المفارق أهله بسفره وهو صاحب للمقيمين أهل هذا المسافر، فنحن نتكلم فيه من حيث إنه خليفة فهو القائم على كل نفس فإن ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤] فسافروا عن أهليهم فاستخلفوا الحق فيهم ليقوم عليهم بما كان يقوم به عليهم صاحبهم وأوفى، فمن هذه الحضرة أيضاً جعل الله الخلفاء في الأرض واحداً بعد واحد لا يصح ولاية اثنين في زمان واحد، قال ﷺ «**إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الآخرَ مِنْهُمَا**». ولا نشك أن النبي ﷺ أخبرنا أن الله هو خليفة المسافر في أهله بجعله لا بجعل المسافر بخلاف الوكالة، وسترد حضرة الوكالة إن شاء الله، فما جعل الحق نفسه خليفة في أهل المسافر إلا وله حكم ما هو عين الحكم الذي له فيهم من كونه إلهاً لهم وخالقاً ورباً ورازقاً، وكونهم مألوهين له ومخلوقين ومرزوقين ومربوبين، فما عين الله للرجل أو القائم في أصله من الحقوق التي لهم عليه، فإن الله يتكفل لهم بذلك ما دام مسافراً غائباً عن أهله، وما يفعله معهم من الإنعام وغير ذلك مما لا يجب على الرجل لأهله عليه فهو من حضرة أخرى لا من حضرة الخلافة، بل من حضرة الوهب أو الكرم أو الجود أو غير

ذلك، ومما يجب للأهل على القائم بهم مما هو خارج عن مؤنتهم حفظ الأهل وصيانته والغيرة عليه، فمن خلف غائباً بسوء في أهله فقد أتى باباً من أبواب الكبائر فإنه انتهك حرمة الخليفة في الأهل وغره حمله وإمهاله، وما علم سر الله في ذلك من خير يعود على الغائب فإنه مؤمن وما يقضي الله لمؤمن بقضاء إلا وله فيه خير، وكذلك هذا المنتهك من حيث إنه انتهك حرمة الغائب فله فيه خير التبديل لكونه مؤمناً، ومن حيث إنه منتهك حرمة الخليفة فأمره إلى الله لا أحكم عليه بشيء إلا أنه في محل الرجاء والخوف من غير ترجيح، ألا ترى إلى موسى عليه السلام كيف قال: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وهذا خطاب خارج عمن استخلفه في قومه وهو هارون فسماهم خلفاء وما استخلفهم لكنه لما تركهم خلفه وسار إلى ربه سماهم بهذا الاسم، فاجعل بالك لما تقتضيه هذه الحضرة بما نبهتك عليه، والله الموفق لا رب غيره.

الجميل * حضرة الجمال

[نظم: البسيط]

إنّ الجَمِيلَ الذي الإحْسانُ شِيمَتُهُ ... هو الذي تعرفُ الأكوانُ قِيمَتَهُ
إذا يراه الذي فينا يُحَبّبه ... يرى الوجود فيبدي فيه حِكْمَتَهُ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الجميل. قال رسول الله ﷺ للرجل الذي قال له يا رسول الله إني أحب أن يكون نعلي حسناً وثوبي حسناً فقال له ﷺ: «**إنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**» خرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، وفي حديث عنه ﷺ: «**الله أَوْلَى مَنْ تُجُمِّلَ له**» ومن هذه الحضرة أضاف الله الزينة إلى الله وأمرنا أن نتزين له فقال: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: ٣١] وهي زينة الله عند كل مسجد يريد وقت مناجاته وهي قرة عين محمد ﷺ وكل مؤمن لما فيها من الشهو، فإن الله في قبلة المصلي وقد قال: «**اعْبُدِ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»، ولا شك أن الجمال محبوب لذاته، فإذا انضاف إليه جمال الزينة فهو جمال على جمال كنوره على نور فتكون محبة على محبة، فمن أحب الله لجماله وليس جماله إلا ما يشهده من جمال العالم فإنه أوجده على صورته، فمن أحب العالم لجماله فإنما أحب الله وليس للحق منزه ولا مجلى إلا العالم، وهنا سرّ نبوي إلهي خصصت به من حضرة النبوة مع كوني لست بنبي وإني لوارث: [البسيط]

إنّي خُصِصْتُ بسِرٍّ ليس يَعْلَمُهُ ... إلاّ أنا والذي في الشَّرْع نَتْبَعُهُ
ذاك النبيُّ رسول الله خَيْرُ فَتًى ... للّهِ نَتْبَعُهُ فيما يُشَرِّعُهُ

فأوجد الله العالم في غاية الجمال والكمال خلقاً وإبداعاً فإنه تعالى يحب الجمال وما ثم جميل إلا هو فأحب نفسه ثم أحب أن يرى نفسه في غيره، فخلق العالم على صورة جماله ونظر إليه فأحبه حب من قيده النظر، ثم جعل عز وجل في الجمال المطلق الساري في العالم جمالاً عرضياً مقيداً يفضل آحاد العالم فيه بعضه على بعض بين جميل وأجمل، وراعى الحق

ذلك على ما أخبر نبيه ﷺ فقال المؤمن لرسول الله ﷺ الحديث الذي ذكرناه في هذا الباب الذي خرجه مسلم في صحيحه: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ» فهو أولى أن تحبه إذ وقد أخبرت عن نفسك أنك تحب الجمال وأن الله يحب الجمال، فإذا تجملت لربك أحبك وما تتجمل له إلا باتباعي فاتباعي زينتك هذا قوله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] أي تزينوا بزينتي يحببكم الله فإن الله يحب الجمال، فأعذر الله المحبين بهذا الخبر لأن المحب لا يرى محبوبه إلا أجمل العالم في عينه، فما أحب إلا ما هو جمال عنده لا بد من حكم ذلك، ألا ترى إلى قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] فما رأى سوء العمل حسناً وإنما رأى الزينة التي زين له بها، فإذا كان يوم القيامة ورأى قبح العمل فرّ منه فيقال له: هذا الذي كنت تحبه وتتعشق به وتهواه فيقول المؤمن: لم يكن حين أحببته بهذه الصورة ولا بهذه الحلية، أين الزينة التي كانت عليه وحببته إليّ ترد عليه فإني ما تعلقت إلا بالزينة لا به، لكن لما كان محلها كان حبي له بحكم التبع، فيقول الله لهم: صدق عبدي لولا الزينة ما استحسنه فردوا عليه زينته فيبدل الله سوءه حسناً فيرجع حبه فيه إليه ويتعلق به، فما قال الحق هذا القول أعني زين له سوء عمله إلا ليلقن عبده الحجة إذا كان فطناً، فلا ينبغي للمؤمن الكيس أن يهمل شيئاً من كلام الله ولا كلام المبلغ عن الله، فإن الله تعالى يقول فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣] وقد ذم قوماً اتخذوا دينهم لهواً و لعباً وهم في هذا الزمان أصحاب السماع أهل الدف والمزمار نعوذ بالله من الخذلان: [البسيط]

ما الدِّينُ بالدُّفِّ والمزمار واللَّعِبِ ... لكنَّما الدينُ بالقرآن والأدَبِ
لما سمعتُ كتابَ الله حَرَّكني ... ذاك السماعُ وأدْنَاني من الحُجُبِ
حتى شهدتُ الذي لا عَيْنَ تُبْصِرُهُ ... إلا الذي شاهد الأنوار في الكُتُبِ
هو الذي أنزل القرآن في خَلَدي ... يوم الخميس بلا كَدٍّ ولا نَصَبِ
إلا عناية ربِّي حين أرسلها ... إلى فؤادي فنادَتْني على كَثَبِ
أنت الإمامُ الذي تُرْجَى شفاعَتُهُ ... في المذنبين وأنت السرُّ في النَّصَبِ
لولاك ما عبدوا نجماً ولا شَجَراً ... ولا أتَوْا ما أتوا به من القُرَبِ

فإن كلام المبلغ عن الله ما جاء به إلا رحمة بالسامع، وهو إن كان فطناً كان له، وإن كان حماراً كان عليه، ولما كان الجمال يهاب لذاته والحق لا يهاب شيئاً وقد وصفه العالم ﷺ بأنه جميل والهيبة تجعل صاحبها أن يترك أموراً كان في نفسه في وقت حديث النفس أن يفعلها مع محبوبه عند الاجتماع به واللقاء، فتمنعه هيبة الجمال مما حدثته به نفسه، وقد وصف الله نفسه بالحياء من عبده إذا لقيه فقام الحياء لله مقام الهيبة في المخلوق، فما اقتضى من حال العبد أن يؤاخذه به الله ولما لقيه استحيى منه فترك مؤاخذته، ولذلك قال فيمن أخذ منهم أنهم﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] فأرسل الحجاب بينهم وبينه فلم يروه، فلو كانت الرؤية لكان الحياء القائم بالحق مقام الجمال في الخلق، فالحكم واحد والعلة تختلف، فحقق هذه الحضرة وتزين وتجمل تارة بنعتك من ذلة وافتقار وخشوع وخضوع

وسجود وركوع، وتارة بنعته عز وجلّ من كرم ولطف ورأفة وتجاوز وعفو وصفح ومغفرة وغير ذلك مما هو لله ومن زينة الله التي ما حرمها الله على عباده، فإذا كنت بهذه المثابة أحبك الله لما جملك به من هذه النعوت وهو الحب الذي ما فيه منة لأن الجمال استدعاه كالمغفرة للتائب والمغفرة لغير التائب، فالمغفرة للتائب ما فيها منة فإن التوبة من العبد استدعت المغفرة من الله، والمغفرة لغير التائب منة محضة قال تعالى في مغفرته الواجبة: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وغير المتقي والتائب يطلب رحمة الله ومغفرته من عين المنة، فتجمل إن أردت أن ترتفع عنك منة الله من هذا الوجه الخاص، ويكفيك حكم الامتنان بما وقفت إليه من التجمل بزينة الله، فإن ذلك إنما كان برحمة الله كما قال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] والله يقول الحق هو يهدي السبيل.

المسعر * حضرة التسعير

[نظم: الكامل]

إنّ الـمُـسَـعِّـر رتَّـبَ الأقْـواتَـا ... لـيُـبَـيِّـنَ الأحـوالَ والأوقَـاتَـا
فـيُـمـيـتُ أحْـيـاءً يـشـاهـد فـعـلـه ... فـيـنـا ويُـحْـيـي جُـودُهُ أمْـواتـا
ويَـرُدّنـا بـعـد اجـتـمـاع نـفـوسـنـا ... عـنـد الـصُّـدور لـمـا نـرى أشْـتَـاتـا
والله أنْـبَـتَـنَـا بـأرْضٍ وُجُـودِهِ ... مـن جُـودِهِ فـي كَـوْنـنـا إنْـبـاتـا

يدعى صاحبها عبد المسعر، وهي تحكم على حضرة الأرزاق التي تتملك ويدخلها البيع والشراء، فتعين هذه الحضرة مقادير أثمانها التي هي عوض منها ولا يعلم قدر ذلك إلا الله فإنها من حضرة ضرب الأمثال لله، وقد نهينا عن ذلك فقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤] قيل لرسول الله ﷺ: سعر لنا فقال ﷺ: «**إنَّ الله هُوَ المُسَعِّرُ وَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى الله وَلَيسَ لِأَحَدٍ مِنكُم عَلَيَّ طَلِبَة**»، فإن الوزن بين الشيئين بالقيمة مجهول لا يتحقق فما بقي إلا المراضاة بين البائع والمشتري ما لم يجهل أمر السوق بالوقت والزمان وأحوال الناس في ذلك، فإن الأحكام والأسعار تختلف باختلاف الأوقات لما يختلف من الأحوال بسلطان الأوقات: [البسيط]

فـكُـلّ وَقْـتٍ لـه حـالٌ يُـعَـيِّـنُـهُ ... وكـلّ حـال لـه حُـكْـمٌ وتَـرْتِـيـبُ
ولـيـس يـعـرفـهُ إلا مُـوَقِّـتُـهُ ... وليس ينفعُ في التسعير تهذيبُ

ولما قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله هُوَ المُسَعِّرُ**» علمنا أنه: [الكامل]

يُـغْـلـي ويُـرْخِـصُ سُـوقَـهُ مُـتَـبَـذِّلٌ ... فـهـو الـمُـسَـعِّـرُ حُـكْـمُـهُ مـا يُـقْـرَرُ
وهـو الـكـبـيـرُ فـكـونـه مـتـكـبِّـراً ... مِـن مـثـل هـذا فـالـمـقـام يُـحَـيِّـرُ
لـو لـم يـكـن هـذا لـكـان بـحـكـمـنـا ... وبـحـكـمـنـا هـذا ألا تَـتَـبَـصَّـرُوا
مـا حـكـمـة تَـعْـنُـو الـوجـوهُ لـعَـيْـنـهـا ... هـذا الـذي جـئـنـا بـه فـتَـفَـكَّـرُوا

فأخبر أنه ألسنة العالم في أثمان الأشياء التي تدخل في حكم البيع والشراء، فمن سام

فليعرف من يسم، ولا تسم على سوم أخيك، ولا تبع على بيعه، كما نهيت أن تخطب على خطبته لأن الخطبة من باب الشراء والبيع لأنها شراء استمتاع بعضو وبيعه، فلهذا لا بد من الصداق وهو القيمة والثمن والعوض، فالبيع والشراء معاوضة: [الخفيف]

فـلـه الـبَـيْـعُ والـشّـراءُ جـمـيـعـاً   وبـه يـنـطـقـان لـو عَـقَـلُـوهُ
حَـكَـمَ الـكـشـفُ والـدلـيـلُ بـهـذا   وإلـيـنـا عـن رُسْـلِـهِ نَـقَـلُـوهُ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١] فوقع البيع بين الله وبين المؤمن من كونه ذا نفس حيوانية وهي البائعة، فباعت النفس الناطقة من الله وما كان لها مما لها به نعيم من مالها بعوض وهو الجنة والسوق المعترك فاستشهدت فأخذها المشتري إلى منزله وأبقى عليها حياتها حتى يقبض ثمنها الذي هو الجنة، فلهذا قال في الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠] ببيعهم لما رأوا فيه من الربح حيث انتقلوا إلى الآخرة من غير موت، وقبض الحق النفس الناطقة إليه وشغلها بشهوده وما يصرّفها فيه من أحكام وجوده، فالإنسان المؤمن يتنعم من حيث نفسه الحيوانية بما تعطي الجنة من النعيم ويتنعم بما يرى مما صارت إليه من النعيم نفسه الناطقة التي باعها بمشاهدة سيدها فحصل للمؤمن النعيمان، فإن الذي باع كان محبوباً له، وما باعه إلا ليصل إلى هذا الخبر الذي وصل إليه وكانت له الحظوة عند الله حيث باعه هذا النفس الناطقة العاقلة، وسبب شرائه إياها أنها كانت له بحكم الأصل بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] فطرأت الفتن والبلايا وادعى المؤمن فيها فتكرم الحق وتقدس ولم يجعل نفسه خصماً لهذا المؤمن ، فإن المؤمنين إخوة فتلطف له في أن يبيعها منه وأراه العوض، ولا علم له بلذة المشاهدة لأنها ليست له فأجاب إلى البيع فاشتراها الله تعالى منه، فلما حصلت بيد المشتري وحصل الثمن تصدق الحق بها عليه امتناناً لكونه حصل في منزل لا يقتضي له الدعوى فيما لا يملك وهو الآخرة للكشف الذي يصحبها. وقد مثل هذا الذي قلناه رسول الله ﷺ حين اشترى من جابر بن عبد الله بعيره في السفر بثمن معلوم واشترط عليه البائع جابر بن عبد الله ظهره إلى المدينة فقبل الشرط المشتري فلما وصل إلى المدينة وزن له الثمن فلما قبضه وحصل عنده وأراد الانصراف أعطاه بعيره والثمن جميعاً. فهذا بيع وشرط، وهكذا فعل الله، سواء اشترى من المؤمن نفسه بثمن معلوم وهو الجنة واشترط عليه ظهره إلى المدينة وهو خروجه إلى الجهاد، فلما حصل هناك واستشهد قبضه الثمن ورد عليه نفسه ليكون المؤمن بجميعه متنعماً بما تقبله النفس الناطقة من نعيم العلوم والمعارف، وبما تعمله الحيوانية من المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمركب وكل نعيم محسوس، ففرحت بالمكانة والمكان والمنزلة والمنزل، فهذا هو المال الرابح والتجارة المنجية التي لا تبور، جعلنا الله وإياكم ممن حصل له رتبة الشهداء في عافية وسلامة ومات موت السعداء ففاز بالأجر والنور والالتذاذ بالنعيمين في دار المقامة والسرور فإنها تجارة لن تبور، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

القريب الأقرب * حضرة القربة والقرب والقرب

[نظم: مجزوء الرمل]

أقْـرَبُ الـخَـلْـق إلَـيْـهِ ... عَـبْـدُهُ إن كُـنْـتَ تَـدْري
إنـه يـعـلـمُ سـرّي ... مـثـل مـا يـعـلـمُ جَـهْـري
لا تَـقُـلْ إنَّـكَ إنّـي ... ولْـتُـقِـمْ فـي الله عُـذْري
إنـنـي عـبـد قـريـبٌ ... مـن وجـودي مـثـل سَـخْـري
إنـه نَـفَّـسَ عـنـي ... كُـرْبَـةً مـن ضِـيـقِ صَـدْري

* * *

[نظم: الرمل]

حضرةُ الأقْرَب أعْلَى الحضراتِ ... وهي بالذات لأهل الفَتَرَاتِ
فهي قُربٌ فيه بُعْدٌ للذي ... قيل فيه إنه ذو عَثَراتِ

يدعى صاحبها عبد الأقرب وعبد القريب. فإنه عز وجل أقرب إلينا من حبل الوريد. وقال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقال: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠] فهو القريب بنزوله من العرش إلى السماء الدنيا كما أخبر ﷺ وهو أقرب فإنه معنا أينما كنا، فهو المسمى بالقريب الأقرب فهو أقرب إلينا منا لأن حبل الوريد منا والحبل والوصل فهو أوصل، فإنه ما كان الوصل إلا به فبه نسمع ونبصر ونقوم ونقعد ونشاء ونحكم، وهذه الأحكام ليست لحبل الوريد فهو أقرب إلينا من حبل الوريد، فإن غاية حبل الوريد منا الذي جاء له ما للعروق من الحكم في أنها مجرى الحياة وسكك الدماء. ثم إنه تعالى شرع القرب فينا لكوننا مخلوقين على صورته فأنزلنا منزلة الأمثال والمثلان ضدان والضد في غاية البعد ممن يضاده مع كونه في غاية القرب للاشتراك في الصفات الذاتية النفسية، فلما تحقق العبد بالتعريف الإلهي هذا البعد عن الله شرع له تعالى طرق القربة إليه إلى أن كان مع هذا البعد سمعه وبصره وجميع قواه بفعله ما شرع له أن يفعل فهو لذله وافتقاره ضد. وهو بالصورة لكونه مثلاً ضد، فصح بالذلة والافتقار إضافة الفعل إليه فيما شرع له، فتقرب إليه بما نسب إليه من الفعل، فقرب القرب الذي أخبر الحق أنه جميع قواه وأعضائه بهويته وأقرب من هذا فلا يكون، فإنه أثبت عين العبد بإعادة الضمير عليه من قوله: «**سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَلِسَانَهُ وَيَدَهُ وَرِجْلَهُ**» وأثبت أنه ما هو هو، فإنه ليس هو هو إلا بقواه فإنها من حده الذاتي كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فالصورة والمعنى معاً له تعالى فلك الكل إذ كان عين الكل، فما في الكون إلا هو سبحانه وتعالى عنه في منازل أسمائه الحسنى لأنه ما ثم عمن تسبحه وتنزهه إلا عنه: [مجزوء الرمل]

فـلـه الـقُـرْبَـةُ والـقُـرْبُ ... ولـه الـجُـثَّـةُ والـقَـلْـبُ
ولـه مـا نـحـن فـيـه ... فـلـه الـظـاهـرُ والـقَـلْـبُ
يـتـقـلـب الأمـر إلـيـه ... حـالـة الـراحـة والـكَـرْبُ

غَضَبُ الحَقِّ كُرُوبي ... وبها السُّرُورُ فاعْجَبْ
فاجْتَهِدْ إن كنت تَبْغي ... سورة العبد المُقَرّبْ
فإذا فرغت فانْصَبْ ... وإلى ربك فارْغَبْ
هذه آية مَنْ في ... حُكْمِهِ بي يَتَقَلَّبْ
فإذا زلنا فأمْرٌ ... واحدٌ ما فيه مَذْهَبْ
فبه يَحْيَى وُجُودي ... وبه نَلْهُو ونَلْعَبْ
وبه نَأكُلُ خُبْزاً ... وبه والله نَشْرَبْ
فَرَحاً بكَوْنِ عَيْني ... عَيْنَهُ فمن تقرّبْ
وإلى من كان قُرْبي ... وهو عينُ كل مَطْلَبْ
فإذا ما جئت منه ... فإليه لا تشغبْ
فهو الطالبُ حَقّاً ... وأنا فلست أكْذِبْ
إنني أطمعُ فاعْلَمْ ... في الذي عندي مِنَ اَشْعَبْ

ولما شرع الله القرب ما شرعها إلا من هذه الحضرة، وسبب وجود الشرع الدعوى، فعمت الشريعة المدعي وغير المدعي، وكل واحد يحشر يوم القيامة على نيته ويختص بنحلته وملته، والقرب كلها عند العاقل العالم تعب لا راحة فيها تعمّ إلا من رزقه الله شهود العامل، ولا بد من تعب القابل الحامل فهو وإن كانت الأمور ترجع إلى الله تعالى فإن العبد ولا بد محل ظهورها وهو الذي ترجع إليه آلامها فهو المحس لها: [مجزوء الخفيف]

حَضْرَةُ القُرْبِ والقُرَبْ ... حَضْرَةٌ كلّها نَصَبْ
فأمُورُ الوَرَى بها ... إن تأمّلْتَها نَشَبْ
كلما قلتُ قد كفى ... قال لا تَفْعَل انْتَصِبْ
أنت أخطأتَ في الذي ... قُلْتَهُ فيه لم تُصِبْ
هكذا الأمْرُ دائماً ... يقتضيه حكمُ النَّسَبْ
فاهْجُر اَن شئتَ أو فَصِـ ... ـلْهُ فلا بُدَّ من سَبَبْ
فعن الكَدِّ لا تَنِي ... إذ عن الشوق لم تَغِبْ
هكذا جاء في الذي ... قد قرأنا من الكُتُبْ

المعطي * حضرة العطاء والإعطاء

[نظم: البسيط]

عينُ العطاء كَشْفُ الغطاء ... وفي الغطاء عَيْنُ الهِبَاتِ
فإنها تعالتْ وجَلَّتْ ... عن أن تجيءَ بالمُحْدَثاتِ
فما حديثي غير حُدُوثي ... وما صِفَاتي غير سِمَاتي
فإن تكن تُريدُ انتقالي ... عني فذاك عينُ سُبَاتي

وفي مقامي عين قُصُوري وفي مَسِيري عين الْتِفَاتي
فالحمد للإلهِ الذي لم يَزَلْ يُمِدُّني بثَبَاتي
حتى يكون فَرْداً وحيداً في ذاته وفي الكَلمات
فإنه إليه رُجُوعي من بعد فرقتي وشَتَاتي
فمن يرد كوني إليه فذاك من أجلّ ثقَاتي
ومن يرد كوني إلينا فذاك من أجلِّ عِدَاتي
وإن تَشَأْ عَكَسْتُ مقالي فالعيشُ كلّه في مماتي
وإنه مرادي وقَوْلي وفيه رَغْبتي وحياتي
فمن يكون من أصدقائي فإنما يريد وَفَاتي
فإن فيه جَمْعي بربّي وبالذي له من عِدَاتِ
وهو المُحِبُّ سرّاً وجَهْراً وهو الصديق لي والمُوَاتِ

يدعى صاحبها عبد المعطي، والعبد آخذ والعبد معطي الصدقة وهي تقع بيد الرحمن في حال العطاء فالله آخذ فهو الآخذ كما هو المعطي ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ [هود: ٥٦]لأنها أعطته بحقيقتها وقبولها التمكن من الأخذ بناصيتها إذلالاً لأنه عبد، وكل من أخذ بناصيته فإنه ذليل والكل عبيد الله تعالى، فالكل أذلاء بالذات وهو العزيز الحكيم: [مجزوء الخفيف]

فله الجُودُ والكَرَمْ والسخاءُ الذي يَعُمْ
وله الوهْبُ مُنْعِماً للذي تطلبُ الهِمَمْ
ليس يدري ما حُكْمُ لا إنما حُكْمُهُ نَعَمْ
والوجود الذي له عندنا كله نِعَمْ
إن بِلُغَامَ عبرةٌ في الذي قاله فتَمْ
فانظروا في الذي بَدَا وانظروا في الذي حكمْ
هو قولي في حُكْمِ لا ليس يدري لمن فهمْ
فخذوه مبيَّناً وأنا لو رأيت ثَمْ
لا تقل عندما ترى إنه جَارَ أو ظَلَمْ
جَلَّ عن مِثْل ذا وذا فاكْتُم الأمْرَ يَنْكَتِمْ

والعطاء منه واجب ومنه امتنان، فإعطاء الحق العالم الوجود امتنان، وإعطاء كل موجود من العالم خلقه واجب وهو قوله: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ يعني في نفس الأمر ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] بين بالتعريف أنه أعطى كل شيء خلقه، والجود والإنعام والكرم الذاتي أوجب هذا العطاء عليه لما قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] فأوجبها للعالم على نفسه ولكن لا كل العالم بل لعالم مخصوص وهو المنعوت في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وفي قوله: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧] وما عدا هؤلاء المنعوتين فإن الله يرحمهم برحمة الامتنان من غير وجود نعت وهي الرحمة التي وسعت كل شيء، وفيها يطمع إبليس مع كونه يعلم أنه من أهل النار الذين هم أهلها فلا يخرج منها بل الله يرحمها ويرحم من فيها بوجه دقيق لا يشعر به إلا جهنم ومن فيها بإنعام يليق بذلك الموطن ومزاج يكون أهله عليه بحيث إنهم لو عرضت عليهم الجنة تألموا بالنظر إليها تألم أهل الجنة لو عرض عليهم دخول النار وتحققوا ذلك، أعوذ بالله من النار ومما يقرب إليها: [الطويل]

فكلّ مكان فيه أهلٌ يَخُصُّهُ ... لهم رحمةٌ فيها نعيمٌ ولَذَّاتُ
وإن كان مكروهاً يعود محبباً ... لمزج لهم فيه سُرورٌ وجَنَّاتُ
فجَنّةُ أهل النار بالنار عينها ... وبالقرّ إعطاء قد أعطتهمُ الذاتُ
فإنّ اسْمَهُ الرحمن في عرشه اسْتَوَى ... فرحمته عَمَّتْ وبالخلق تَقْتَاتُ

فمن هذه الحضرة أوجد العالم وأنزل الشرائع لما تتضمنه من المصالح فهي الخير المحض بما فيها من الأمور المؤلمة المنازعة لما تتعلق به الأغراض النفسية التي خلقها الله بالرحمة خلق الأدوية الكريهة للعلل البغيضة للمزاج الخاص، فالرحمة التي بالقوّة في زمان استعمال الدواء وبالفعل في زمان وجود العافية مما كان يألم منه فاقدها، وهذا كله عطاء إلهي، كلا نمد هؤلاء أصحاب الجنة وهؤلاء أصحاب النار من عطاء ربك فعم الجميع مع اختلاف الذوق ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] أي ممنوعاً، فعم العطاء الكل فعلمنا أن عطاءه عين الرحمة التي سبقت فوسعت كل شيء من مكروه وغيره وغضب وغيره، فما في العالم عين قائمة ولا حال إلا ورحمة الله تشمله وتحيط به وهي محل له ولا ظهور له إلا فيها، فبالرحمن استوى على عرشه وما انقسمت الكلمة إلا من دون العرش من الكرسي فما تحته فإنه موضع القدمين وليس سوى انقسام الكلمة، فظهر الأمر والخلق والنهي والأمر والطاعة والمعصية والجنة والنار كل ذلك عن أصل واحد وهي الرحمة التي هي صفة الرحمن: [منهوك البسيط]

فما اسْتَوَى علينا إلا برَحْمَتِهِ ... وما لنا نعيم إلا بنغْمَتِهِ
مَيْدَانُنا عريضٌ في حصر قَبْضَتِهِ ... نَجُولُ فيه حتى نَخْطَى بخُظْوتِهِ

ولما كانت اليد لها العطاء ولها القبض فباليد قبض علينا فنحن في قبضته، واليد محل العطاء والجود فنحن في محل العطاء لأنا في قبضته: [الوافر]

فلولا الحَضْرُ ما وُجِدَ النعيمُ ... ولا كان الجنانُ ولا الجَحِيمُ
وفي الدارين إنعامٌ لرُحْمَى ... بأهلهما يقوم بهم مقيمُ
وقولُ الله أصدقُ كُلِّ قِيلٍ ... يعرّف أنه البَرُّ الرحيمُ

فالتكوين دائم فالعطاء دائم، فهي حضرة لا يحصرها عدد ولا أمد يقطعها تجري إلى

غير أجل من حيث ذاتها، وإن كان فيها آجال معينة فما تخرج منها فآجالها فيها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الشافي * حضرة الشفاء

[نظم: الكامل]

إن الـشـفـاء إزالـةُ الآلامِ ... تـغـنـو لـه الأرواحُ والأجـسـامُ
هـذا هـو الـحَـقُّ الـذي قـلـنـا بـه ... دَلَّـتْ عـلـيـه الـسـادةُ الأعـلامُ
والـشـرعُ يَـعْـضُـدُهُ لـذا جـئـنـا بـه ... وكـذلـك الألـبـابُ والأحـلامُ

* * *

[نظم: البسيط]

إنـي عـلـيـلٌ ولا شَـخْـصٌ يُـخَـبِّرُنـي ... عـنـه تـعـالـى بـنـا بـأنـه الـشـافـي
إنـي سَـعَـيْـتُ وعَـيْـنُ الحق تـحـفـظُـنـي ... ولـسـت أدري بـهـا فـي عـيـن إتـلافـي
إنـي وَفَـيْـتُ لـه بـعـهـده زَمَـنـاً ... ومـا يُـعَـرِّفُـنـي بـأنـه الـوافـي
الـحـقُّ يُـثْـبِـتُـنـي فـي كـل طـائـفـة ... حُـبّاً ويـظـهـر لـي فـي صـورة الـنـافـي
لـكـل شـخـص مـن الـقـرآن سُـورَتُـهُ ... وسُـورتـي عـنـدمـا أتـلـو لإيـلاف

يدعى صاحبها عبد الشافي، يقول الله عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فالشافي مزيل الأمراض ومعطي الأغراض، فإن الأمراض إنما تظهر أعيانها لعدم ما تطلبه الأغراض، فلو زال الغرض لزال الطلب فكان يزول المرض، فحضرة الشفاء هي التي تنيل أصحاب الأغراض أغراضهم ولا بد من الغرض، فإن حيل بين من قام به الغرض وما تعلق به كان المرض، فإن نال ما تعلق به فهو الشفاء له من ذلك المرض والمنيل هو الشافي، وكثيراً رأينا ممن يطلب آلاماً أي أموراً مؤلمة ليزيل بها آلاماً هي عنده أكبر منها وأشد فتهوّن عليه ما هو دونها، وتلك الآلام المطلوبة له هي في حقه شفاء وعافية لإزالة هذه الآلام الشديدة، فما طلب هذه الآلام لكونها آلاماً فإن الألم غير مطلوب لنفسه وإنما طلبه لإزالة ما هو أشد منه في توهمه، ومهما وجد الألم المؤلم ولو كان قرصة برغوث لكان الحكم له في وقت وجوده، ويريد المتبلى به إزالته بلا شك، فما طلبه إذا طلبه إلا بالتوهم المتعلق بإزالة هذا الأشد، فإذا حصل وذهب الأشد كان ذلك الألم المطلوب شديداً في حقه يطلب زواله بعافية أو مزيل لا ألم فيه. وورد في الخبر: «**أَذْهِبِ البَاسَ رَبَّ النَّاسِ اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لا شِفَاءَ إلاَّ شِفَاؤُكَ**» وما ثم شفاء إلا شفاؤه فإن الكل خلقه، ولهذا قال الخليل: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ فأمرنا الله أن نصلي على محمد ﷺ كما نصلي على إبراهيم لأنه جاء بأمر محتمل أزال هذا الاحتمال إبراهيم عليهما السلام، وقد أمر أن يبين للناس ما نزل إليهم لأن الله ما أنزل ما أنزله إلا هدى أي بياناً ورحمة بما يحصل لهم من العلم من ذلك البيان فقال الخليل: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ فنص على الشافي وما ذكر شفاء لغيره، وقال النبي ﷺ في دعائه: «**لا شِفَاءَ إلا شِفَاؤُكَ**» فدخل الاحتمال لما جعل الله في الأدوية من الشفاء وإزالة

الأمراض، فيحتمل أن يريد محمد ﷺ أن كل مزيل لمرض إنما هو شفاء الله الذي أودعه في ذلك المزيل فأثبت الأسباب وردها كلها إلى الله، وهذا كان غرض رسول الله ﷺ مع تقرير الأسباب، لأن العالم ما يعرفون شفاء الله من غير سبب مع اعتقادهم أن الشافي هو الله، ويحتمل لفظ النبي ﷺ إثبات أشفية لكن لا تقوم في الفعل قيام شفاء الله فقال: «**لاَ شِفَاءَ إلاَّ شِفَاؤُكَ**» والأوّل في التأويل أولى بمنصب رسول الله ﷺ، فلما دخل الاحتمال كان البيان من هذا الوجه في خبر إبراهيم الخليل عليه السلام فقيل لنا قولوا في الصلاة على محمد كما صليت على إبراهيم والصلاة من الله الرحمة والشفاء من الرحمة، وقد اقتضى مقام النبي ﷺ أن يبين أن الأشفية التي تكون عند استعمال أسبابها أنها شفاء الله إذ لا يتمكن رفع الأسباب من العالم عادة، وقد ورد أن الله ما خلق داء إلا وخلق له دواء، فأراد الله أن يعطي محمداً ﷺ ما أعطاه إبراهيم خليله مع ما عنده مما ليس عند غيره، هذا أبو بكر رضي الله عنه وهو حسنة من حسنات رسول الله ﷺ يقول الطبيب أمرضني والخليل يقول: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ فانظر ما بين القولين تجد قول أبي بكر أحق، وانظر ما بين الأدبين تجد الخليل عليه السلام أكثر أدباً فإن آداب النبوّة لا يبلغها أدب كما قال معلم موسى عليه السلام﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] وأراد ربك أن يبلغا أشدهما فهذا لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام: [البسيط]

وكُـلّ وَقْـتٍ لـه حـالٌ يُـنَـطِّـقُـهُ ... وكـل حَـالٍ لـه مـعـنـى يُـحَـقِّـقُـهُ

فقول إبراهيم الخليل: «**وإذا مرضت**» نهاية قوله: «**يشفين**» بداية، وقول النبي ﷺ: «**لاَ شِفَاءَ إلاَّ شِفَاؤُكَ**» نهاية النهاية فهي أتم والإتيان بالأمرين أولى وأعم، فجمع الله الأمرين لمحمد ﷺ في الصلاة عليه كما صليت على إبراهيم الذي أمرنا الله أن نتبع ملته لتقدمه فيها لا لأنه أحق بها من محمد ﷺ، فللزمان حكم في التقدم لا في المرتبة كالخلافة بعد رسول الله ﷺ الذي كان من حكمة الله تعالى أنه أعطاها أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علياً بحسب أعمارهم، وكل لها أهل في وقت أهلية الذي قبله، ولا بد من ولاية كل واحد منهم وخلع المتأخر لو تقدم لا بد منه حتى يلي من لا بد له عند الله في سابق علمه من الولاية فرتب الله الخلافة ترتيب الزمان للأعمار حتى لا يقع خلع مع الاستحقاق في كل واحد من متقدم ومتأخر، وما علم الصحابة ذلك إلا بالموت، ومع هذا البيان الإلهي فبقي أهل الأهواء في خوضهم يلعبون مع إبانة الصبح لذي عينين بلسان وشفتين نسأل الله العصمة من الأهواء، وهذه كلها أشفية إلهية تزيل من المستعمل لها أمراض التعصب وحمية الجاهلية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفرد الوتر الأحد * حضرة الإفراد

[نظم: المتقارب]

تَـفَـرَّدْتُ بـالـفَـرْدِ فـي نـشـأتـي ... وإنـي بـتَـثْـلـيـثـهـا مُـفْـرِدُ

ومـا لـي سـبـيـلٌ إلـى غـايـتـي ... وإنـي إلـى غـايـتـي أوْحَـدُ

ورثـتُ مِـنَ أشـيـاخـنـا كـل مـا يـورثـنـي الـمَـجْـدُ والـسُّـؤدَدُ
وإنـــي إذا كـنــتــه لــم أكــن وإنـــي أنـــا ذلـــك الأوْحَـــدُ
وهـــذا الـــذي قـــلـــتـــه إنـــه عـــن الله ســبــحـــانــه أُسْـنِـدُ

يدعى صاحبها عبد الفرد وعبد الوتر وعبد الأحد وأمثال ذلك، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الله وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ**» وأوتر رسول الله ﷺ بواحدة وبثلاث وبالخمس وبالسبع وبالتسع وبإحدى عشرة وكل فرد وتر بالغاًما بلغ، وكل مشفع وتراً أحد، وكل موتر شفعاً وتر وفرد وأحد، ويسمى وتراً لأنه طالب ثأر من الأحد الذي شفع فرديته فإن الحكم للأحد في شفع الفرد ليس للفرد ولا للوتر، فلما انفرد به الأحد طلب الفرد ثأره من الأحد بالوتر فإن الوتر في اللسان بلحنهم هو الدحل وهو طلب الثأر وهو قوله ﷺ في الذي تفوته صلاة العصر في الجماعة: «**كَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ**» كَأنَ صلاة الجماعة في العصر طلبت ثأرها من المصلي فذّاً مع تمكنه من الجماعة، وإذا أوتر بواحدة سميت البتيراء لأن من شأن الوتر على حكم الأصل أن يتقدمه الشفع فإذا أوتر بواحدة لم يتقدمها شفع فكانت بتيراء على التصغير، والأبتر هو الذي لا عقب له، وهذه البتيراء ما هي بتيراء لكونها لا عقب لها وإنما هي بتيراء لكونها ليست منتجة ولا نتجت فلها منزلة لم يلد ولم يولد فإذا تقدمها الشفع لم تكن بتيراء لأنها ما ظهرت إلا عن شفع، ولهذا كان رسول الله ﷺ لا يسلم من شفعه إلا في وتر ذلك الشفع فيصله بالشفع ليعلم أنه منه، هذا كله ليتميز من الأحد فإن الأحد لايدخله اشتراك ولا يكون نتيجة عن شفع أصلاً، وإن كان عن شفع فليس بواحد وإنما هو ثلاثة أو خمسة فما فوق ذلك، وتقول في سادس الخمسة أنه واحد لأنه ليس بسادس ستة فقد تميز عن الشفع مما هو منفصل وليس إلا الأحد بخلاف الفرد والوتر. وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لله تَعَالَى تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً مِائَةً إلاَّ وَاحِداً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ فَإِنَّ الله وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ**» فأوتر التسعين بالتسعة واستثنى الواحد من المائة ولم يقل مائة إلا وتراً أو فرداً لأن الاشتراك في الفردية والوترية وليس في الأحدية اشتراك ولو قالها هنا لعلم بذكر المائة وذكر التسعة والتسعين أنه أراد الواحد، فلولا قرائن الأحوال ما كان يعرف أنه أراد الواحد للاشتراك الذي في الأفراد والأوتار، فأبان بالواحد بعين اسمه، فقوّة الأحد ليست لسواه وأحدية الكثرة أبداً إنما هي فرد أو وتر لا يصح أن تكون واحداً، وسواء كانت الكثرة شفعاً أو وتراً وإنما أحب الله الوتر لأنه طلب الثأر والله يقول: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] والحق سبحانه قد نوزع في أحديته بالألوهية، فلما نوزع في ألوهيته جاء بالوتر أي بطالب الثأر ليفنى المنازع وينفرد الحق بالأحدية أحدية الذات لا أحدية الكثرة التي هي أحدية الأسماء، فإن أحدية الأسماء شفع الواحد لأن الله كان من حيث ذاته ولا شيء معه فما شفع أحديته إلا أحدية الخلق فظهر الشفع: [الوافر]

فـمـا فـي الـكَـوْن إلا الـشَّـفْـعُ فـانْـظُـرْ فــإن الــرَّبَّ بــالــمــربــون كــانــا
فـمـن فَـهِـمَ الـذي قـد قـلـتُ فـيـه أهـــان شــريــكــه والــشــرك هـــانـــا
لـهـذا الـحـقّ بـعـد الأخـذ فـيـه يــورثُــه بــرَحْــمــتـــه جــنَــانـــا

بدار النار لم يُخرجهُ منها وأعطاه بها النُّعمَى امْتِنَانَا
فكن فرداً وكن وتراً تَكُنْهُ ولا تَكُ واحداً فيه عَيَانا
تَحُز بالوتر إن فكَّرْتَ فيه وبالفرد المكانةَ والمكانا
ولا تَنْظُرْ إلى الأحَدِ المُعَلَّى فما في الكون من عَيْنٍ سوانا
إذا قال الإلٰهُ لكل شيء يريد وُجُودَهُ أن كُنْ فكانا
وما كان الذي قد كان منه سواه فمن رآه فقد رآنا

الرفيق * حضرة الرفق والمرافقة

[نظم: الكامل]

إن الرَّفِيقَ هو الذي يسترفقُ وهو الإمامُ العالمُ المُتَحَقِّقُ
فإذا نطقتَ عن الإلٰه مُتَرجماً أَلْقَى على الأسماء ما يَتَحَقَّقُ

* * *

[نظم الوافر]

إذا كان الرَّفِيقُ هَوَى الرفيقِ فلا تَجْنَحْ إلى غير الرَّفِيقِ
تَفُزْ بالسَّبْقِ والتحقيقِ فيه يبينه له معنى الطَّريقِ
لقد دَقَّتْ إشاراتُ المعاني إلى قلبي بمعناها الدَّقيقِ
وجَلَّتْ إن تُنَالَ بكل فكر لأن مجيئها لَمْعُ البُرُوقِ
وقلتُ لصاحبي مهلاً فإني سأشهدُ حَالَها عند الشُّرُوقِ

يدعى صاحبها عبد الرفيق وهو أخو الصاحب في الدلالة، ولما خير ﷺ عند الموت ما قال ولا سمع منه، إلا الرفيق الأعلى فإنه تعالى كان مرافقه في الدنيا وعلم منه تعالى أنه يريد بطلوع الفجر الرجوع الى عرشه من السماء الدنيا التي نزل إليها في ليل نشأته الطبيعية، فلم يرد ﷺ مفارقة رفيقه فانتقل لانتقاله ورحل لرحلته ولذلك قال ﷺ الرفيق ولم يقل غير ذلك لأن الإنسان خلق في محل الحاجة والعجز فهو يطلب من يرتفق به، فلما وجد الحق نعم الرفيق وعلم أن الارتفاق به على الحقيقة هو الارتفاق الموجود في العالم وإن أضيف إلى غيره فلجهل الذي أضافه فطلب الرفيق الذي بيده جميع الإرفاق فلم يطلب أثراً بعد عين، وهكذا حال كل من أحب لقاء الله إذا لم تكن له درجة مشاهدة الرفيق وهو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] فهو رفيقنا تعالى في كل وجهة نكون فيها غير أنا حجبنا فسمي انفصالنا عن هذا الوجود الحسي بالموت لقاء الله وما هو لقاء وإنما هو شهود الرفيق الذي أخذ الله بأبصارنا عنه فقال: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه: [ ][1]

فنلقاهُ بالكَرَامة والبشر وبالرِّضَى
وبأهْل ومَرْحَبٍ ضاق عن وسُعِهِ الفَضَا

(١) النظم مختل.

فلم يعرفه المحجوب رفيقاً حتى لقيه فإذا لقيه عرفه وهو قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] فاستحيوا منه المؤمنون لما عاملوه به من المخالفة لأوامره تعالى وخاف منه المجرمون فلقوه على كره فكره الله لقاءهم، ومع هذه الكراهة فلا بد من اللقاء للجزاء كان الجزاء ما كان، ولما كان الأنس والرحمة وأخواتهما في الرفيق والمرافقة لذلك اختصت البنوية باسم الرفيق فتقول: فلان رفيق فلان لأنه يغضب لرفيقه وينصره ولا يخذله وينصر الحق ولا يخذله فإنه من شرط البنوة أنه لا يكذب فيعتضد بالبنوي الحق في إظهار الصدق وليس ذلك لغير هذه الطائفة، وإذا لم يكن على مكارم هذه الأخلاق خلع عنه قميص البنوّة وهو قميص نقي سابغ، فمن دنسه أو قلصه عاد ذلك عليه وخلع عنه قميصها فلا يلبسه إلا أهلها.

الباعث * حضرة البعث

[نظم: الخفيف]

حَضْرَةُ البَعْثِ حَضْرَةُ الإرْسَالِ ... فلها الصِّدْقُ وهو من أخوالي
كما قلت قد أتاني رسولٌ ... منه يَبْغي دون الأنام سؤالي
تُهْتُ عُجْباً به وقلت أنيسي ... أنت والله إن خَطَرْتَ ببالي

* * *

[نظم: البسيط]

إني بعثتُ إلى المحبوب في السَّحَرِ ... بما أتيت به من صادق الخَبَرِ
وقلتُ إن كُنْتَ تدري ما أَفُوهُ به ... من شَاهِدِ الحُبِّ فلتنهضْ على أثَري
لما شَهِدْتُكَ يا من لا شَبِيهَ له ... لا فرق عندي بين السّتْرِ والنَّظَرِ
فالكشفُ ينبىء عن أسرار مُوجِدِهِ ... بما يشاهده في الشمس والقَمَرِ
إن البصائر أغْنَتْني حقائقُها ... عما يشاهد ربّ الكَشْفِ بالبَصَرِ

يدعى صاحبها عبد الباعث. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] وقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧] وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [المجادلة: ٦] فمن هذه الحضرة بعث الرسل وأنزل الكتب وحشر الناس بعد أن أنشرهم، ثم بعث بهم من هذه الحضرة، إلى منازلهم يعمرونها من جنة ونار كل بشاكلة عمله، فيبعثهم ويبعث إليهم، فالبعث لا ينقطع في الدنيا والآخرة والبرزخ غير أن الرسل عرفاء لا تمشي إلا بين الملوك لا بين الرعايا، وإنما تخاطب الرؤساء والعرفاء، فالإرسال من الله إنما أرسلهم من كونه ملكاً إلى النفوس الناطقة من عباده لكونهم مدبرين مدائن هياكلهم ورعاياهم جوارحهم الظاهرة وقواهم الباطنة، فما تجيء رسالة من الملك إلا بلسان من أرسل إليهم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] فيبعث الله رسله إلى هذه النفوس الناطقة وهي التي تنفذ في الجوارح

ما تنفذ من طاعة ومخالفته ولها قبول الرسالة والإقبال على الرسول والتحفي به أو الإهانة، وقد يكون الرد بحسب ما أعطاها الله من الاستعداد من توفيق أو خذلان، فجعل النفوس ملوكاً على أبدانها وأتاها ما لم يؤت أحداً من العالمين وهو طاعة رعاياها لها، فالجوارح والقوى لا تعصي لها أمراً بوجه من الوجوه، وسائر الملوك الذين رعاياهم غير متصلين بهم قد يعصون أوامر ملوكهم، كما أن من هؤلاء الملوك قد يعصي ما أمره به الملك الحق سبحانه وتعالى على لسان رسوله إليهم وقد يطيع، فتوجيه الرسل وبعث الله إليهم أثبت لهم كونهم ملوكاً، فلما أنزلهم منزلته في الملك علمنا أنه لولا ما ثم مناسبة تقتضيه ما كان هذا، فإذ المناسبة في أصل الخلقة وهي قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] فهو ولاه وملكه وجعله خليفة عنه، فمنهم من خرج عليه كفرعون وأمثاله، ومنهم من لم يخرج عليه فما كانت الرسل إلا إلى ولاته، ثم إن هؤلاء الملوك النواب وجهوا أيضاً منهم إليه تعالى إرسالهم يطلبون منه ما يؤيدهم به من تدبير ما ولاهم عليه، فصار الملك ملك الملك لهذا السبب فمنه إليهم ومنهم إليه، فما وجه ولا بعث إرساله إلا إليه، وما قبل الإرسال إلا منه فإنهم من روحه وجدوا، ومن عين كونه كانوا، وهنا أمور وأسرار أعني في خروجهم عليه كما يخرج الولد على والده: والعبد على سيده إذا ملكه يسعى في هلاكه مع إحسانه إليه وبايع على قتله لينفرد هو بالملك، وهذا واقع في رد الأفعال إليهم وليست إلا إلى الله تعالى، وغاية الموفق منهم الاشتراك في الأمر وهو الشرك الخفي، فشرع لهم سبحانه قول: لا حول ولا قوة إلا بالله رحمة بهم، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقنع منه بذلك من كونه حكيماً.

ولما علم أن مثل هذا الشرك يقع منهم والدعوى أمرهم بالاستعانة بالله تقريراً لدعواهم حتى يكون ذلك عن أمره، فأمثالنا يقول مثل هذا كله تعبداً ويثابر عليه بخلاف من لا يعلم، وما قرار الحق لعباده هذا إلا غيرة فيتخذون ذلك عبادة ويقولون إذا رجعوا إليه وكان الملك لله الواحد القهار في موطن الجمع، وسئلوا عن مثل هذا الشرك الخفي يقولون أنت أمرتنا بالاستعانة بك فأنت قررت لنا أن لنا قوّة ننفرد بها وإن كان أصلها منك ولكن ما لها النفوذ إلا بمعونتك فطلبنا القوّة منك فإنك ذو القوة المتين، فيصدقهم الله في كونهم جعلوا القوّة منه التي فيهم وأنهم رأوا فيها القصور لخاصية المحل، فمالها نفوذ الاقتدار الإلهي، إلا بمساعدة الاقتدار الإلهي، فإن العجز والجبن والبخل في الخلق ذاتي لازم في جبلته، وأصل خلقه ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢١] فإذا نكر وتشجع فنصرته من المكانة والاكتساب والتخلق بأخلاق الله حيث كان في ذاته روحاً منه فأثرت البقعة كما تؤثر البقعة في الماء بما يوجد من الملوحة والمرارة وغير ذلك من المطاعم والماء من حيث هويته على صفة واحدة من الطيب والطعم، فانظر إلى ما أثرت فيه البقعة كذلك هي الأرواح المنفوخة في الأجسام من أصل مقدس نقي، فإن كان المحل طيب المزاج زاد الروح طيباً، وإن كان غير طيب خبثه وصيره بحكم مزاجه فرسل الله الذين هم خلفاؤه أطهر الناس محلاً فهم المعصومون، فما زادوا الطيب إلا طيباً، وما عداهم من

الخلفاء منهم من يلحق بهم وهم الورثة في الحال والفعل والقول، ومنهم من يختل بعض اختلال وهم العصاة، ومنهم من يكثر منه ذلك الاختلال وهم المنافقون، ومنهم المنازع والمحارب وهم الكفار والمشركون فيبعث الله إليهم الرسل ليعذروا من نفوسهم، إذا عاقبهم بخروجهم عليه واستنادهم إلى غيره الذي أقاموه إلهاً فيهم من أنفسهم وكذبوا عليهم في جعلهم إياهم آلهة والإله لا يكون بالجعل، ولكن ما حملهم على ذلك إلا أصل صحيح وهو أنهم رأوا اختلاف المقالات في الله مع الاجتماع على أحديته وأنه واحد لا إله إلا هو، ثم اختلفوا فيما هو هذا الإله فقال كل صاحب نظر بما أداه إليه نظره فتقرر عنده أن الإله هو الذي له هذا الحكم، وما علم أن ذلك عين جعله فما عبد إلا إلهاً خلقه في نفسه واعتقده سماه اعتقاداً، واختلفوا في ذلك اختلافاً كثيراً، والشيء الواحد لا يختلف في نفسه، فلا بد أن يكون هو في نفسه على إحدى هذه المقالات أو خارجاً عنها كلها.

ولما كان الأمر بهذه المثابة أثر وهان عليهم اتخاذ الأحجار والأشجار والكواكب والحيوانات وأمثال ذلك من المخلوقات آلهة كل طائفة بما غلب عليها. كما فعل أهل المقالات في الله سواء، فمن هذا الأصل كان المدد لهم وهم لا يشعرون، فما ترى أحداً يعبد إلهاً غير مجعول فيخلق الإنسان في نفسه ما يعبده وما يحكم عليه، والله هو الحاكم لا ينضبط للعقل ولا يتحكم له بل له الأمر في خلقه من قبل ومن بعد لا إله إلا هو إله كل شيء ومليكه، وهذا كله من الاسم الباعث فهو الذي بعث إلى بواطنهم رسل الأفكار بما نطقوا به واعتقدوه في الله، كما أنه بعث إلى ظاهرهم الرسل المعروفين بالأنبياء والنبوة والرسالة، فالعاقل من ترك ما عنده في الله تعالى لما جاؤوا به من عند الله في الله، فإن وافقوا ما جاءت به رسل الأفكار إلى بواطنهم كان وشكروا الله على الموافقة، وإن ظهر الخلاف فعليك باتباع رسول الظاهر، وإياك وغائلة رسل الباطن تسعد إن شاء الله، وهذا نصيحة مني إلى كل قابل ذي عقل سليم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الحق * حضرة الاسم الحق

[نظم: البسيط]

الحَقُّ بالحَقِّ أُفنيهِ وأُثبتُهُ ... فالحَقُّ ما بين إعدام وإثْبَاتِ
لولا الوجودُ ولولا سِرُّ حِكْمَتِهِ ... ما كان يُعْبَدُ في العُزَّى وفي اللَّاتِ
إن الأمُورَ التي بها يُقَيِّدُني ... بها يُسَرّحُني في الحال والآتي
إن الذي قد مضى إلى مرجعه ... لما لديه مِنَ أمراض وآفات
والله لو عَلِمَتْ نفسي بمن كَلِفَتْ ... ما كنت أفرحُ بالفاني إذا ياتي

يدعى صاحبها عبد الحق، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] وليس إلا الخلق والضلال الحيرة، وبالخلق ظهر حكم الضلال: [الطويل]

فعَيْنُ وُجودِ الحَقِّ نُورٌ مُحَقَّقٌ ... وعَيْنُ وُجودِ الخَلْقِ ظِلٌّ له تَبَعُ

فالحق عين الوجود والخلق قيده بالإطلاق، فالخلف قيد مقيد فلا حكم إلا له وبه، والحق الحاكم ولا يحكم إلا بالحق، فحق الحق عين الخلق فأنى تصرفون، والأمر كما قلناه، وما سمي خلقاً إلا بما يخلق منه، فالخلق جديد وفيه حقيقة اختلاق لأنك تنظر إليه من وجه فتقول هو حق، وتنظر إليه من وجه فتقول هو خلق وهو في نفسه لا حق ولا غير حق، فإطلاق الحق عليه والخلق كأنه اختلاف فغلب عليه هذا الحكم فسمي خلقاً وانفرد الحق باسم الحق، إذ كان له وجوب الوجود بنفسه، وكان للخلق وجوب الوجود به لا أقول بغيره فإن الغير ماله عين وإن كان له حكم كالنسب لا عين لها ولها الحكم، فبالحق خلق السماء والأرض، وبالحق أنزل القرآن، وبالحق نزل، وللحق نزل، ففي الخلق تاه الخلق لأنه ليل سلخ منه النهار فإذا هم مظلمون حيارى تائهون ما لهم نور يهتدون به كما جعل الله النجوم لمن يهتدي بها في ظلمات البرّ والبحر، وهو نظر العامّة والخواص في ظلمات لا يبصرون ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] تارة يقولون: نحن نحن وهو هو، وتارة يقولون: هو نحن ونحن هو، وتارة يقولون: لا نحن نحن مخلصون ولا هو هو مخلص، ثم صدق الله هؤلاء الخواص في حيرتهم بقوله لأخص خلقه علماً ومعرفة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فنفى عين فما أثبت وما نفى فأين العامة من هذا الخطاب؟ فالعلم بالله حيرة والعلم بالخلق حيرة، وقد حجر النظر في ذاته وأطلقه في خلقه، فالهداة في النظر في الخلق لأنه الهادي وقد هدى، والعمى في النظر في الحق فإنه قد حجر وجعله سبيل الردى، وهذا خطاب خاطب به العقلاء ما خاطب به أهل الجمع والوجود، فما نظر قط أهل الخصوص في اكتساب علم به ولا بمعلوم، وإنما جعل لهم أن يهيؤوا محالهم ويطهروا قلوبهم حتى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده بالفتح فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين لأنهم عاينوا ما وصلوا إليه بالفتح الإلهي والأمر عين ما انفصلوا عنه فما زادهم إلا إيماناً بالحيرة وتسليماً لحكمها، ومن هذه الحضرة أثبت أن الباطل شيء قذف بالحق عليه فدمغه، فإذا الباطل زاهق ولا يزهق إلا ماله عين أو ما تخيل أن له عيناً فلا بدّ له من رتبة وجودية خيالاً كانت أو غير خيال قد اعتنى بها على كل حال، ثم إنه من أعظم الحيرة في الحق أن الحق له الوجود الصرف فله الثبوت وصور التجلي حق بلا شك: [منهوك البسيط]

وما لها ثُبُوتٌ وما لها بقاءُ   لكن لها اللّقاء فما لها شقاءُ

ما من صورة ينجلي فيها إلا إذا ذهبت مالها رجوع ولا تكرار، وليس الزهوق سوى عين الذاهب فأين تذهبون؟ فهل في الحق باطل أو ما هو الباطل، وما أذهب الصورة إلا قذف الصورة الأخرى وهي تذهب ذهاب أختها فهي من حيث ورودها حق ومن حيث زهوقها باطل، فهي الدامغة المدموغة فصدق من نفى رؤية الحق فإن الحق لا يذهب، فإنه إن كانت الصور صورنا فما رأينا إلا أنفسنا ونحن ليس بباطل وقد زهقنا بنا فنحن الحق لأن الله بنا قذف علينا، فما أتى علينا إلا منا، فالله بالحق قاذف والعبد للحكم الإلهي واقف: [المجتث]

فالعَيْنُ مِنّي ومِنْهُ لها البقا والثُبُوتْ
من ذا الذي منه يَخْيَى أو من هو منه يُميتْ
ومنه مِنِّيَ يَخْيَى أو منه مِنِّي يَمُوتْ
قد حِزْتُ فيه وفينا فنحن خُرْسٌ صُمُوتْ
لا تَدَّعي فيه دَعْوى فإنه ما يَفُوتْ
أصبحتُ لله قُوتاً وإنه لِيَ قُوتْ
فالأمْر دَوْرٌ وهذا علمي به ما بَقِيتْ

فلا تعتمد على من له الزهوق فإنه ما يحصل بيدك منه شيء ولا تعتمد إلا عليك فإن مرجعك إليك وإلى الله ترجعون كما ترجع الأمور، فمن هنا قال من قال من رجال الله أنا الله فاعذروه فإن الإنسان بحكم ما تجلى له ما هو بحكم عينه وما تجلى له غير عينه فسلم واستسلم فلأمر كما شرحته، وعلى الله قصد السبيل ولو شاء لهداكم أجمعين.

الوكيل * حضرة الوكالة

[نظم: الوافر]

وَكِيلي من يقولُ أنا الوَكيلُ ويدري أنني عنه أقُولُ
ولو أني أشاهده بقَلْبي لما كان الطلوعُ ولا الأفُولُ
ولكني أشاهِدُه بعَيْني لذا وَقَعَ التَّحَيُّرُ والذُّهُولُ

يدعى صاحبها عبد الوكيل، بهذا الاسم الإلهي ثبت الملك والملك للخلق، فإنا ما وكلناه إلا في التصرّف في أمورنا فيما هو لنا لعلمنا بكمال علمه فينا فإنه يعلم منا ما لا نعلمه من نفوسنا، وما أعطاه العلم بنا سوانا في حال ثبوتنا، فنحن العلماء الجاهلون وهو العليم الذي لا يجهل، ولهذا هو الحليم الذي لا يعجل فيمهل ولا يهمل ونحن نعجل، وهو يعلم منا أنا نعجل وما نعجل وإنما هو انتهاء مدّة الأجل، فالأجل منه قصير المدّة ومنه طويلها، فكل يجري إلى أجل مسمى إلى ما لا يتناهى جرياناً دائماً لا ينقضي، فالحق كل يوم في شأن ونحن في خلق جديد بين وجود وانقضاء، فأحوال تتجدد على عين لا نبعد بأحكام لا تنفد وهي كلمات الله وخلقه، ولا تبديل لكلمات الله ولا تبديل لخلق الله، وإنما التبديل لله فنحن كلماته وخلقه، فهذا الوكيل الحق قد أعلمنا بتصرفه فينا أنه ما زاد شيئاً على ما أعطيناه منا لأن الوكيل بحكم موكله فلا يتصرّف إلا فيما أذن له، فللوكيل الحجة البالغة فإنه لا يزيد على الحد المفوض إليه وما ثم ما يقبل الزيادة، فإن قلت للوكيل: لم فعلت كذا؟ كشف لك عنك فرأيت أنك جعلته أن يفعل ما أنكرت عليه فعله، وكشف لك عن إنكارك، فلا بد لك من الإنكار عليه فعذرك وعذرته: [مجزوء الرجز]

فلا تَلُمْ وَكيلاً ولُمْ مُوَكِّلَهْ
فإنما وُجُودي به ونحن لَهْ

ولا تَـــلُـــمْـــهُ أيـــضـــاً ... فـــالـــعَـــيْـــنُ مُـــجَـــمَّـــلَـــهْ
وكُـــلَّـــمَـــا بـــدا لـــي ... فـــالـــكـــون فَـــصَّـــلَـــهْ
يـــعـــلـــمُ ذا إلـــهـــي ... عـــلـــيّ فَـــضَّـــلَـــهْ

من يطع الرسول فقد أطاع الله لأن الله وكله على عباده، فأمر ونهى وتصرّف بما أراه الله الذي وكله، ونحن وكلناه تعالى عن أمره وتحضيضه، فأمره قوله فاتخذ وكيلاً وتحضيضه أن لا يتخذوا من دوني وكيلاً، فالرسول وكيل الوكيل، وهو من جملة من وكل الحق عن أمره تعالى فهو منا وهو الوكيل من الوكيل علينا، فوجب على الموكل طاعة الوكيل لأنه ما أطاع إلا نفسه فإنه ما تصرّف فيه إلا به كما قرّرناه، فرتبة الوكالة رتبة إلهية سرت في الكون سريان الحياة، فكما أنه ما في الكون إلا حيّ فما في الكون إلا وكيل موكل، فمن لم يوكل الحق بلفظه وكله الحال منه وتقوم الحجة عليه، وإن وكله بلفظه فالحجة أيضاً عليه لأن الوكيل ما تصرّف في غير ما فوّض إليه موكله، وجعل له أن يوكل من شاء، فوكل الرسل في التبليغ عنه إلى الموكلين أنه من المصالح التي رأينا لكم أن تفعلوا كذا وتنتهوا عن كذا، فإن ذلكم لكم فيه السعادة والفوز من العطب، فمن تصرّف من الموكلين عن أمر وكيل الوكيل فقد سعد ونجا وحاز الخير بكلتا يديه وملأهما خيراً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤] فلا تتهموا وكيلاً ولا تتخذوا إلى تجريحه سبيلاً وقفوا عند حدّه وأوفوا له بعهده، وهذه حضرة التسليم والتفويض، وأنت الجناح المهيض، فإنه خلقك على صورته ثم كسرك بما شرع لك فصرت مأموراً منهياً، ثم جبرك من هذا الكسر بما سلب عنك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] ثم كسرك بالجزاء لأنه ما عمل معك إلا ما علم وما علم إلا منك، وليس المهيض سوى هذا فإنه المكسور بعد جبر والجبر لا يرد إلا على كسر، فالأصل عدم الكسر وهو الصحة وليست إلا الصورة، فاعلم ما نبهتك عليه واسأل به خبيراً فلا علم إلا عن ذوق: [البسيط]

لا يَـعْـرِفُ الـشَّـوْقَ إلا مـن يُـكَـابِـدُهُ ... ولا الـصَّـبـابَـةَ إلا مـن يُـعَـانِـيـهـا

وهذا القدر من هذه الحضرة كاف لمن استعمله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

القوي * حضرة القوّة

[نظم: الوافر]

إذا كـان الـقَـوِيُّ يَـشُـدُّ رُكْـنـي ... فـلـست أُبَـالـي من ضَـعْـفٍ يَـكُـونْ
إذا عَـسُـرَتْ عـلـيَّ أمـورُ كَـوْنـي ... فـمـن تَـيْـسِـيـره أبـداً تَـهُـونْ
أنـا الـعَـبْـدُ الـمـطـاعُ بـكـل وَجْـهٍ ... إذا مـا شـئـتـه وأنـا الـمـكـيـنْ
وإنـي واحـدٌ فَـرْدٌ تـريـه ... وإنـي عـنـده الـرُّوحُ الأَمِـيـنْ
أبـانـت لـي مـشـيـئـتُـه تـعـالـى ... مـشـائـي والـتـي لـي مـا تـبـيـنْ

هذه الحضرة ممتزجة يدعى صاحبها عبد القوي، وصف نفسه تعالى بأنه ذو القوّة وهذا

فيه إجمال فإنه اسم حميري أي صاحب القوّة أي قوّة القوّة التي فينا ونجدها من نفوسنا كما نجد الضعف وهي قوّة مجعولة لأنه قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤] وما خلقنا إلا عليه، كما سخر لنا ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، فما أنشأ العالم إلا منه وعليه إن فهمت، ثم جعل من بعد ضعف قوّة لما نقلنا من حال الطفولة إلى حال الشباب، ثم جعل من بعد قوّة ضعفاً وشيبة رجوعاً إلى الأصل فسمي هرماً والشيب للشيخوخة، فهل هو الضعف الأوّل الذي خلقنا منه وأين القوّة هناك؟ فالمدبر الأوّل هو المدبر الآخر وهو الأوّل والآخر والوسط محل الدعوى الواقعة منه في الظاهر والباطن إلا من وفقه الله للنظر في أوّل نشأته ورجوعه إليها وما وجدنا للقوّة ذكراً في الأوّل ولا في الآخر، فرأينا أن ننظر في معنى هذا الضعف الذي خلقنا منه فوجدناه عدم الاستقلال بالإيجاد إن لم تكن منا الإعانة بالقبول لأجل الإمكان، فإن المحال غير قابل للتكوين. ولما كانت الإعانة بالقبول والاستعداد علمنا أن الاقتدار غير مستبد، وليس الضعف هنا سوى عدم هذا الاستبداد فشرع لنا ما هو شرع له أن نستعين به في الاقتدار كما استعان بنا في القبول منا لنعلم أن الضعف ليس إلا هذا، ثم جعل لنا قوّة غير مستقلة، فالقوّة على الحقيقة ما يظهر لها عين إلا بالمجموع فهو ذو القوّة لأنه الواجب الوجود لنفسه، ونحن الواجبون به لا بأنفسنا، فهو وإن خلقنا من ضعف فإنه جعل فينا قوّة لولاها ما كلفنا بالعمل والترك لأن الترك مع النفس من التصرف في هواها وبهذا عمت القوّة العمل والترك: [مخلع البسيط]

فنحن فيها على السَّواءِ ... بلا افتِراءٍ ولا مِراءِ
لكنه الأصْلُ في وجودي ... وما له فيه من بَقاءِ
لأنه بالشؤون يَفْنَى ... فهو على مَنْهَجِ الفَناءِ

ولما جعل الله الشيب نوراً بالقوّة هنا وبالفعل في الآخرة، وقرن الشيبة بالضعف الذي رجعنا إليه ليرينا بذلك النور الشيبي أن ذلك الضعف ما هو ضعف ثان من أجل ما نكره كما قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾ [الشرح: ٥] ثم ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾ [الشرح: ٦] يعني يسراً آخر فرجعنا إلى الضعف الأوّل على عين الطريق الذي منه خرجنا، ألا تراه سبحانه يقول: ﴿أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨] وقال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾ فوصفنا بأنا نردّ وهو الرجوع إلى الضعف الأوّل ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ وأرذل العمر ما لا يحصل لنا فيه علم فقال: ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠] فإما أن يكون منع الزيادة، وإما أن يكون اتصف بعدم العلم في حال الهرم لشغله بما هو عليه من الضعف المفرط، فإن الدنيا بالإنسان حامل والهرم شهر ولادتها فتقذفه من بطنها إلى البرزخ وهو المنزل الأوّل من منازل الآخرة، فيتربى فيه كما يتربى المولود إلى يوم البعث وهو حد الأربعين حد الزمان الذي تبعث فيه الرسل الذين هم أكمل العالم علماً بالأمور الإلهية، فيحوزون القوّة في دار الكرامة التي لا ضعف يعقبها فيتكوّن عنهم حساً ما يتكوّن هنا في خيالهم معنى، وقد يكون في متعلق خاص حساً قدرة عليه كمن يريد أن يقوم فيقوم ويريد أن يكتب فيكتب، وأما ما لا قدرة له ولا قوّة له عليه أن

يكون منه في الحس عليه فإنه يقوى على إيجاده خيالاً في نفسه فذلك عينه يكون له في الآخرة حساً محسوساً، وإن كان في قضية العقل محالاً فما استحال وجوده في الخيال، كذلك لا يستحيل وقوعه حساً لأن الخيال على الحقيقة إنما هو حضرة من حضرات الحس، ولهذا يلحق المعاني بالمحسوسات في الصورة فيتخيل المحال محسوساً فيكون في الآخرة أو حيث أراد الله محسوساً، ولهذا كان في الآخرة لا في الأولى، فإن الخيال في الدرجة الأخيرة من الحس فإنه عن الحس يأخذ ما يكسوه من الصور للمحال وغيره، فلهذا حيث كان لا يكون إلا في الآخرة فتنبه.

وأي قويّ أعظم قوّة ممن يلحق المحال الوجود بالوجود المحسوس حتى تراه الأبصار كوجود الجسم في مكانين، فكما نتخيله هنا كذلك يقع في الآخرة حساً سواء، وما عندنا في العلم أهون من إلحاق المحال بالممكن في الوجود، ولا أصعب من إلحاق الممكن بالمحال، وهو عدم وقوع خلاف المعلوم مع إمكانه في نفسه، فهذا إلحاق الممكن بالمحال، فنقول في الذي كنا نقول فيه ممكن عقلاً محال عقلاً فتداخلت الرتب فلحق المحال بالممكن أي برتبته، ولحق الممكن برتبة المحال، وسبب ذلك تداخل الخلق في الحق والحق في الخلق بالتجلي والأسماء الإلهية والكونية، فالأمر حق بوجه خلق بوجه كل كون كون منه، فالحضرة الإلهية جامعة لحكم الحق في الخلق والخلق في الحق، ولولا ذلك ما اتصف الحق بأن العبد يغضبه ويسخطه فيغضب الحق ويسخط ويرضيه فيرضى. وأما كون الحق يسخط العبد ويغضبه ويرضيه فالعامة تعرف هذا، وهذا من علم التوالج والتداخل، فلولا وجود حكم القوّة ما كان هذا فإن الضعف مانع قوي، فانظر حكم القوة كيف سرى في الضعف حتى تقول في الضعيف إذا قوي عليه الضعف بحيث لا يستطيع الحركة فتنسب القوّة للضعف فوصفته بضده، فمن هنا تعرف قول أبي سعيد الخرّاز لما قيل له: بماذا عرفت الله؟ قال: بجمعه بين الضدين، ثم تلا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْأَخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] فبالقوّة تقوى الضعف وبالأقوى ضعفت القوّة، وهذا الفرق بين الأقوى والقوي كالأقرب والقريب، فكل أقرب قريب وما كل قريب أقرب، وكل أقوى قوي وما كل قوي أقوى وقد ذكرنا في هذه الحضرة ما فيه غنية وكفاية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

المتين * حضرة المتانة

[نظم: المجتث]

إنْ قُلْتُ قَوْلاً صحيحاً ... أنا القويُّ المَتينُ
أو كان غير صحيحٍ ... أنا الضَّعِيفُ المَهِينُ

وأيضاً: [البسيط]

إن المتانة حالٌ ليس يَدْريها ... إلا الذي هام وَجْداً في معانيها
وقوّةُ الله أبدتها لناظرنا ... وحكمها أبداً فيمن يُعَانيها

إذا أشدُّ بها رُكْني تكون لنا | أُولَى وإن كان عيني فهو ثانيها
إن المَطَالِعَ قد لاحتْ أَهِلَّتُها | للناظرين إليها في مبانيها

يدعى صاحبها عبد المتين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] فرفع على الصفة لقوله ذو وهو والمتين هو الذي لا يتزلزل عما يجب له الثبوت فيه لتمكنه وثقله، ثنبه على العين أنها بهذه الصفة من المتانة لئلا يتخيل متخيل أو يقول قائل: إن الصور لما تبدلت في التجلي واختلفت والأسماء الإلهية لما كثرت وتنوّعت ودل كل اسم على معنى لا يكون لغيره، وأعطت كل صورة أمراً لم تعطه الصورة الأخرى أن العين والمسمى تبدل لهذا التبدل فأخبر أنه من المتانة بحيث أن الأمر على ماقرّر وشوهد من التحول والتبدل والعين ثابتة في مكانتها لا تقبل التغيير، وأعظم ما يظهر حكم هذا في العقائد في الله لأن الإله الذي اعتقد بالدليل النظري إذا جاءت الشبهة لصاحب هذا الاعتقاد النظري أزالته، فلو كانت المتانة من صفات الإله الذي جعله المعتقد في نفسه ما أثرت فيه الشبهة الواردة فأخلت المحل عنه وعاد يبحث على إله آخر يجعله فيه، فليست المتانة إلا للإله القوي الحق الذي يجد في نفسه هذا الطالب الاستناد إليه ولا يدري ما هو ولمتانته لا يقوى الناظر أن ينقله إلى محل اعتقاده فمتانته حجابه فلا يعرف، والحق الذي وسعه قلب العبد هو الذي يقبل آثار الشبه فيه، فقد علمت لماذا تسمى بالمتين وهو علم غريب، فبالمتانة كان الاستناد فاستند إليه كل ممكن يطلب الترجيح والعلم بهذا المستند عين نفي العلم به على علم بأنه لا يعلم لا بد من ذلك كما قال الصديق: العجز عن درك الإدراك، إدراك، وهذا أعلى ما يوصل إليه في العلم بالله المتين، فإن للمتانة درجات فقصدنا أتمها وأعلاها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

النصير * حضرة النصر

[نظم: مخلع البسيط]

حَضْرَةُ النَّصْرِ حضرةٌ | للذي قد بُغِي عَلَيْهْ
فهو لله وَحْدَهُ | ما له غير ما لَدَيْهْ

وأيضاً: [البسيط]

إنّ الوليّ الذي إذا تولاّهُ | عَبْدٌ تولاّه ربٌّ حين وَلاّهُ
إن الوليّ اسم مفعول يكون له | من لفظه فاعلٌ إذا تولاّهُ
لولاه ما ثبتتْ فينا قواعدُهُ | ولا رَسَتْ رغبةٌ لولاه لولاهُ
أملى على الذي يتلوه من سُوَرٍ | على مسامع كوني حين أملاهُ
بالقَلْب سَطَّرَهُ ربي لنحفَظه | به بلاني إلهي حين أبلاهُ

يدعى صاحبها عبد الوليّ والوليّ الناصر، وإن شئت قلت عبد الناصر. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وهو نور العيان وهو عين اليقين، وأقام تعالى عذراً لما نبه بقوله في تمام الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم﴾ [البقرة:

٢٥٧] وما أفرد الطاغوت لأن الأهواء مختلفة، وأفرد نفسه لأنه واحد يخرجونهم من النور إلى الظلمات فنصر هؤلاء الأولياء لهم حيث لا يتركونهم يدخلون الجنة لما لهم فيها من الضرر لأنهم على مزاج يتضرّر بالاعتدال كما تضرّ رياح الورد بالجعل فهم ينصرون أصحابهم، وليس إلا أهل النار الذين هم أهلها أخبر ﷺ فقال: «**إنَّ وَلِيّيَ الله الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ**» لأن فيه الله ولي الذين آمنوا وهو من المؤمنين وهو يتولى الصالحين، ولهذا القطع كان الصلاح مطلوباً لكل نبي مكمل، وشهد الله به لمن شاء من عباده على التعيين تشريفاً له بذلك كعيسى ويحيى عليهما السلام. وأما قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وليس المؤمن إلا من لم يدخل إيمانه بأمر ما خلل يقدح في إيمانه، والمؤمنون في كلام الله نوعان وهم الكافرون، فنوع آمن بالله وكفر بالطاغوت وهو الباطل فهم أهل الجنة المعبر عنهم بالسعداء، والنوع الآخر آمن بالباطل وكفر بالله وهو الحق فهم أهل النار المعبر عنهم بالأشقياء، فقال عز وجل في حق السعداء: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وهؤلاء هم الذين حق على الله نصرهم، والألف واللام للعهد والتعريف. وقال تعالى في حق الأشقياء: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢] ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦] فإذا جعلت الألف واللام في نصر المؤمنين للجنس فمن اتصف بالإيمان فهو منصور، ومن هنا يظهر المؤمنون بالباطل في أوقات على الكافرين بالطاغوت فيجعلون ذلك الظهور نصراً لأن النصر عبارة عمن ظهر على خصمه، فمن جعل الألف واللام للجنس جعل إيمان أهل الباطل بالباطل أقوى من إيمان أهل الحق بالحق، فالمؤمن من لا يولي الدبر ويتقدم ويثبت حتى يظفر أو يقتل، ولهذا ما انهزم نبي قط لقوة إيمانه بالحق، وقد توعد الله المؤمن إذا ولى دبره في القتال لغير قتال أو انحياز إلى فئة تعضده فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦] فخاطب أهل الإيمان، وبقرائن الأحوال علمنا أنه تعالى أراد المؤمنين بالحق وأرسل الآية في اللفظ دون تقييد بمن وقع الإيمان به، لكن قرائن الأحوال تخصص وتعطي العلم بالمقصود من ذلك، غير أن الحق ما أرسلها مطلقة إلا ليقيم الحجة على الذين آمنوا بالباطل إذا هزمهم الكافرون بالطاغوت لما دخلهم من الخلل في إيمانهم بالباطل، فهو عندنا ليس بنصر ذلك الظهور الذي للمؤمنين بالباطل على الكافرين بالطاغوت، وإنما المؤمنون بالحق لما تراءى الجمعان كان في إيمانهم خلل فأثر فيه الجبن الطبيعي فزلزل أقدامهم فانهزموا في حال حجاب عن إيمانهم بالحق. ولا شك أن الخصم إذا رأى خصمه انهزم أمامه وفر وأخلى له مكانه لا بد أن يظهر عليه ويتبعه، فإن شئت سميت ذلك نصراً من الله لهم، فما انتصروا على المؤمنين بالحق، وانما انتصروا على وجه الخلل الذي دخل في إيمانهم واستتر عنهم بالخوف الطبيعي فكانوا كفاراً من ذلك الوجه، فكان نصرهم نصر الكفار بعضهم على بعض وهم المؤمنون بالباطل، لأن هؤلاء المؤمنين بالحق آمنوا بما خوفهم به الطبع من القتل

وهو باطل، فآمنوا بالباطل لخوفهم من الموت، والشهيد ليس بميت فإنه حي يرزق، فلما آمنوا به أنه موت آمنوا بالباطل فهزم أهل الباطل أهل الباطل وهذا يسمى ظهوراً لا نصراً، إلا إذا جعلت الألف واللام للجنس فتشمل كل مؤمن بأمر ما من غير تعيين، فهذه حكمة تسمية الله أهل الباطل مؤمنين وأهل الحق كافرين، فلا تغفل يا ولي عن هذه الدقيقة فإنها حقيقة وهي المؤثرة في أهل النار الذين هم أهلها في المآل إلى الرحمة لأن المشرك آمن بوجود الحق لا بتوحيده، ووجود الحق حق فهو بوجه ممن آمن بالحق فما تخلص له الإيمان بالباطل إذ آمن بالشريك فتقسم إيمانه فلم يقو قوة إيمان بالحق من حيث أحديته في ألوهته، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٦] ولم يقل بتوحيد الله إلا وهم مشركون لكنه جلي وخفي، فالمؤمن بتوحيد الله مؤمن بوجود الله، وما كل مؤمن بوجود الله يكون مؤمناً بتوحيد الله فينقص عن درجته في قوة الإيمان، فإن استناد الإيمان من المؤمن بالباطل إلى عدم ولهذا يرجع عنه عند الكشف، والمؤمن بتوحيد الحق يرجع إلى أمر وجودي يستند إليه فيعضده فلا يرجع عنه، فالمؤمن بالباطل أعان على نفسه المؤمن بالحق من حيث الأحدية وهو قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] وقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٧] فقد تبرؤوا في موطن ما فيه تكليف بالبراءة أنها نافعة صاحبها والكافر لا مولى له ولهذا انهزم أمام خصمه، فإنه استترت عنه حياة الشهيد في سبيل الله فآمن بالموت وهو الباطل وكفر بالحياة وهي الحق، وفي هذا تذكرة لأولي الألباب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

انتهى الجزء السابع من الفتوحات المكية، ويليه الجزء الثامن أوله:
الحميد حضرة الحمد

فهرس محتويات

الجزء السابع

من الفتوحات المكية

فهرس المحتويات

BEIRUT

الفتوحات المكية

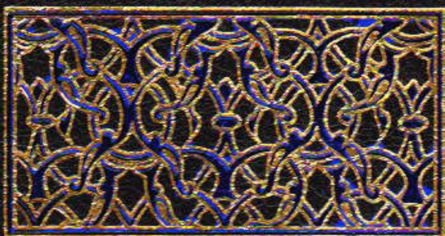

للشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين محمد بن علي
بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي المعروف بابن عربي
المتوفى سنة ٦٣٨ هـ

ضبطه وصححه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدين

المجلد الثامن

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الفتوحات المكية

تأليف
الشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين
محمد بن عليّ بن محمّد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي
المعروف بابن عربي
المتوفى سنة ٦٣٨هـ

ضبطه وصححه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدين

الجزء الثامن

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحميد * حضرة الحمد

[نظم: البسيط]

أنْتَ الحَمِيدُ اسْمُ مَفْعُولٍ لحامِدِنا وفَاعلٌ ولهذا أنتَ مَحْمُودُ
وحامدٌ فإذا جئنا لنَحْمِدَهُ هو الشّهيدُ لنا والقلب مشهودُ
من غير كَيْفٍ ولا كَمٍّ ولا شُبَهٍ وليس يأخذه حَصْرٌ وتَحْديدُ
إنـي لأعْبُدُهُ بـي لا بـه فأنـا بالله أعْبُدُهُ والله مَعْبُودُ
إنـي لأعْرِفُهُ إذا أُشَبِّهُهُ شَرْعاً وعَقْلاً فإطلاقٌ وتَقْيِيدُ

يدعى صاحبها عبد الحميد وهو فعيل، فعم اسم الفاعل بالدلالة الوضعية واسم المفعول فهو الحامد والمحمود وإليه ترجع عواقب الثناء كلها، ومحمد ﷺ بيده لواء الحمد، فلآدم عليه السلام علم الأسماء، ولمحمد ﷺ علم الثناء بها والتلفظ بالمقام المحمود، فأعطي في القيامة لأجل المقام المحمود العمل بالعلم ولم يعط لغيره في ذلك الموطن فصحت له السيادة فقال «**آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي**» وما له لواء إلا الحمد وهو رجوع عواقب الثناء إلى الله وهو قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢] لا لغيره، وما في العالم لفظ لا يدل على ثناء ألبتة أعني ثناءً جميلاً وأن مرجعه إلى الله، فإنه لا يخلو أن يثني المثني على الله أو على غير الله، فإذا حمد الله فحمد من هو أهل الحمد، وإذا حمد غير الله فما يحمده إلا بما يكون فيه من نعوت المحامد، وتلك النعوت مما منحه الله إياها وأوجده عليها إما في جبلته وإما في تخلقه فتكون مكتسبة له، وعلى كل وجه فهي من الله، فكان الحق معدن كل خير وجميل، فرجع عاقبة الثناء على المخلوق بتلك المحامد على من أوجدها وهو الله، فلا محمود إلا الله، وما من لفظ يكون له وجه إلى مذموم إلا وفيه وجه إلى محمود، فهو من حيث إنه محمود يرجع إلى الله ومن حيث ما هو مذموم لا حكم له لأن مستند الذم عدم فلا يجد متعلقاً فيذهب ويبقى الحمد لمن هو له، فلا يبقى لهذا اللفظ المعين، إلا وجه الحمد عند الكشف، ويذهب عنه وجه الذم أي ينكشف له أن لا وجه للذم.

ولقد أخبرني في هذا اليوم الذي قيدت فيه هذه الحضرة في هذا الكتاب صاحبنا سيف الدين ابن الأمير عزيز رحمه الله أنه رأى والي البلد يضرب إنساناً ضرباً مبرحاً فوقف في جملة الناس وهو يمقت الوالي في نفسه لضربه ذلك الشخص فأخذ عن نفسه فشاهد الوالي مثله واحداً من الجماعة ينظر إلى المضروب مثل ما تنظر إليه الجماعة والآمر بالضرب ليس الوالي فعذره وسري عنه وانصرف. وكان سبب هذه الحكاية أن الوالي جار عليه في حكومة فقلت

له: ارفعه إلى السلطان فقال لي: ما بيد الوالي شيء، ثم ذكر لي ما رأى وهكذا الأمر في نفسه، فهذا شخص قد كان مع الحجاب ينسب الجور إلى الوالي، فلما كشف الله عن بصره الغطاء زال كون ذلك جوراً عنده وقام عذر الجائر عنده فصار حمداً وثناء خير، وبرئت ساحة من أضيف الذم إليه فعادت عواقب الثناء إلى الله عز وجل، ألا تراه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] وقد افتقر إلى مذموم ومحمود ودخل تحت مسمى الله ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ [فاطر: ١٥] يقول الذي لا يفتقر ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] أي الذي ترجع إليه عواقب الثناء من الحامد والمحمود، وإن كان مذموماً بنسبة ما فهو محمود بنسبة أقوى لها الحكم فيه، فالحمد لله تملأ الميزان لأنه كل ما في الميزان فهو ثناء على الله وحمد لله، فما ملأ الميزان إلا الحمد، فالتسبيح حمد، وكذلك التهليل والتكبير والتمجيد والتعظيم والتوقير والتعزيز وأمثال ذلك كله حمد، فالحمد لله هو العام الذي لا أعم منه، وكل ذكر فهو جزء منه كالأعضاء للإنسان، والحمد كالإنسان بجملته: [الهزج]

فـقـد بَـانَ لـكَ الـحَـمْـدُ فـلا يَـحْـجُـبَـنـك الـذّمُّ
وقـد لاحَ لـك الـسِّـرُّ فـمـا غَـيَّـبَـهُ الـكَـتْـمُ

وحكم هذه الحضرة على ثلاثة أنحاء في التمام والكمال وأتمها واحد منها، وذلك حمد الحامد نفسه يتطرّق إليه الاحتمال فلا يكون له ذلك الكمال فيحتاج إلى قرينة حال وعلم يصدق الحامد فيما حمد به نفسه فإنه قد يصف واصف نفسه بما ليس هو عليه، وكذلك حكمه إذا حمده غيره يتطرّق أيضاً إليه الاحتمال حتى يستكشف عن ذلك فينقص عن درجة الإبانة والتحقيق، والحمد الثالث حمد الحمد وما في المحامد أصدق منه فإنه عين قيام الصفة به، فلا محمود إلا من حمده الحمد لا من حمد نفسه ولا من حمده غيره، فإذا كان عين الصفة عين الموصوف عين الواصف كان الحمد عين الحامد والمحمود وليس إلا الله فهو عين حمده سواء أضيف ذلك الحمد إليه أو إلى غيره: [الطويل]

فـمـا ثَـمَّ إلا الله فـاحْـمـدْ تَـقُـلْ حَـقَّـا ولا تَعْتَبِرْ في الحَمْد كَوْناً ولا خَلْقَا
ورَاقِـبْ ثَـنَـاءَ الـحَـقِّ فـي كـل لـفـظـةٍ فـإن لـه فـي كـل مَـحْـمَـدَةٍ مَـرْقَـى
فـمـن نـالَ هـذا الـعِـلْـمَ نـال مـكـانـةً تُـنَـزِّلُـهُ مـن ربّـه الـمَـنْـزِلَ الـصِّـدْقَـا
وسـابِـقْ إلـى هـذا الـمـقـام بِـعَـزْمَـةٍ مع السابقات الغُرّ في حَمْدِهِ سَبْقَا
ولا بُـدّ مـن تـقـسـيـم رَبِّـكَ خَـلْـقَـهُ فـلا بُـدَّ مـن أتـقَـى ولا بُـدّ مـن أشـقَـى
وقـد جـاء فـي نَـصِّ الـكـتـاب مُـسَـطَّـراً بـلـيـل وأعـلـى فـاعـتـبـر ذلـك الـنُّـطْـقَـا
فـإن كـتـابَ الله يـنـطـقُ بـالـذي قَـدَ أوْدَعَـهُ الـرحـمٰـنُ فـي خَـلْـقِـهِ حَـقَّـا
وقـد وَضَـحَ الـعِـلْـمُ الـجَـلِـيُّ لـذي حِـجًـى فإن شئت أن تَرْدَى وإن شئت أن تَرْقَا

والحمد لله المنعم المفضل، والحمد لله على كل حال فعم وخص، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

المحصي * حضرة الإحصاء

[نظم: الوافر]

إذا أحْـصَـيْـتَ أمْـرَكَ فـي كـتـابٍ تـكـن أنـت الـذي تُـحْـصَـى وتُـحْـصِـي
وقـلـتَ لأمّـنـا مـهـلاً عـلـيـنـا وقـلـت لأخْـتِـنَـا بـالله قُـصِّـي
إذا مـا جِـئْـتِ يـا نَـفْـسـي إلـيـه فـقـولـي مـا تَـشَـائـي لـه وقُـصِّـي
مَـضَـى عَـنّـي ولـم أشْـهَـدْ سـواهُ فـقـلـت لـهِـمَّـتـي بـالله قُـصِّـي
وخُـصِّـي مـن تَـعَـبَّـدَهُ هَـوَاهُ ولا تَـكْـتُـمْـهُ مـا تَـدْريـه خُـصِّـي

يدعى صاحبها عبد المحصي، وهي حضرة الإحاطة أو أختها لا بل هي أختها لا عينها، قال تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨] وقال في الكتاب: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩] وهذا مقام كاتب صاحب الديوان كاتب الحضرة الإلٰهية، وهذا الكاتب هو الإمام المبين قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] فالديوان الإلٰهي الوجودي رأسه العقل الأول وهو القلم. وأما الإمام فهو الكتاب وهو اللوح المحفوظ، ثم تنزل الكتبة مراتبها في الديوان بأقلامها لكل كاتب قلم وهو قوله ﷺ لما ذكر حديث الإسراء فقال: «**حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلام**»، فالقلم الأعلى الذي بيد رأس الديوان لا محو فيه كل أمر فيه ثابت، وهو الذي يرفع إلى الحق، والذي بأيدي الكتبة فيه ما يمحو الله وفيه ما يثبت على قدر ما تأتي به إليهم رسل الله من عند الله من رأس الديوان من إثبات ما شاء ومحو ما شاء، ثم ينقل إلى الدفتر الأعلى فيقابل باللوح المحفوظ فلا يغادر حرفاً فيعلمون عند ذلك أن الله قد أحاط بكل شيء علماً، إلا أن الفرق بين الإحصاء والإحاطة أن الإحاطة عامة الحكم في الموجود والمعدوم وفي كل معلوم، والإحصاء لا يكون إلا في الموجود، فما هو شيئية أحاط بكل شيء علماً شيئية أحصى كل شيء عدداً، فشيئية الإحصاء تدخل في شيئية الإحاطة، فكل موجود محصى وهو موجود فهو محصى، إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة لأنها داخلة في الوجود لدلالتها على موجود وهي أمهات كالدرج للفلك، ثم إنه لكل عين من أعيان الممكنات اسم إلٰهي خاص ينظر إليه هو يعطيه وجهه الخاص الذي يمتاز به عن غيره، والممكنات غير متناهية فالأسماء غير متناهية لأنها تحدث النسب بحدوث الممكن فهي هذه الأسماء من الأسماء المحصاة، كالذي يحوي عليه درج الفلك من الدقائق والثواني والثوالث إلى ما لا يتناهى، فلا يدخل ذلك الإحصاء وتحكم عليه الإحاطة بأنه لا يدخله الإحصاء، فكل محصى محاط به وما كل محاط به محصى، وكل ما يدخله الأجل يدخله الإحصاء مثل قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمٰن: ٣١] فالشغل الإلٰهي لا ينتهي فإنه عند فراغه بانتهاء حكم الدنيا شرع في الشغل بنا في الآخرة، وحكم الآخرة لا نهاية له لأنها إلى غير أجل، فشغله بنا لا يقبل الفراغ وإن كان شأنه في الدنيا الذي يفرغ منه إنما هو بنا لكونه خلق الأشياء من أجلنا وهو ما لا بد لنا منه ومن أجله، لأن كل شيء يسبح بحمده لا بل من أجله لا بل من

أجلنا، لما نحن عليه من الجمعية والصورة، فالتسبيحة منا تسبيح العالم كله، فما أوجد الأشياء إلا من أجلنا، فبنا وقع الاكتفاء والواحد منا يكفي في ذلك، وإنما كثرت أشخاص هذا النوع الإنساني وإن كانت محصاة فإنها متناهية لكون الأسماء الإلٰهية كثيرة، فكانت الكثرة فينا لكثرتها، فإن النبي ﷺ يقول في دعائه: «**اللَّهُمَّ إنِّي أَسأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ**» الحديث، فكانت الكثرة فينا لكثرتها وهو قوله مما يزيد على ما ذكر فيّ سؤاله ﷺ فكثرت لكثرة الأسماء أشخاص هذا النوع المقصود، فإن الأشياء المخلوقة من أجله إن لم يستعملها فيما خلقت له وإلا تبقى مهملة، وما في قوّة واحد من هذا النوع استعمال الكل، فكثر أشخاصه ليعمّ الاستعمال للأشياء التي خلقها له ولا بد من خلقها، فالممكن لا ينتفع إلا بالممكن، والحق واسطة بين الممكنين: [منهوك البسيط]

فـمـا لـنـا شُـغْـلٌ إلا بِـهِ ... ومـا لـه شَـأْنٌ إلا بـنـا
فـكـلّ مـا قـلـنـاه فـهـو لـه ... وكـل مـا يَـقْـضـي فـهـو لـنـا

وقد نبهنا على ما لا بد منه مما يختص بهذه الحضرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

المبدىء * حضرة البدء

[نظم: البسيط]

لـمـا بـدأتُ بـأمْـرٍ لـسـت أُبْـدِيـهِ ... عـلـمـتُ أنّي عَـيْـنُ الـبَـدْءِ مِـنْ فِـيـهِ
فـكـنـتُ أشـهـدُه فـي كـل نـازلـةٍ ... وكـان يَـشْـهَـدُنـي إذ كـنـت أُخْـفِـيـهِ
سـألـتُ مـن هـو عَـيْـني أن يَـمُـنَّ عـلى ... قـلـبي بـه وعـسـى الـرحـمٰـن يَـشْـفِـيـهِ
مـمـا بـه فـلـه نـفـسٌ تُـنَـازِعُـنـي ... فـيـه وقـلـت لـعَـلَّ الله يَـكْـفِـيـهِ
هَـمِّـي وإن لـه دَيْـنـاً وأسـألُـهُ ... يَـقْـضـيـه عـنّـي فـإنـي لا أُوَفِّـيـهِ

يدعى صاحبها عبد المبدىء، وما للأبد أولية تعقل إلا بالرتبة والوجود، فإن له الرتبة الثانية ما له في الأولى قدم، فإنها رتبة الواجب الوجود لنفسه، والرتبة الثانية رتبة الواجب الوجود بغيره وهو الممكن، فالمتقدم من المخلوقين والمتأخر سواء في الرتبة فإنهم في الرتبة الثانية، فإذا نسبت الثانية إلى الأولى عقلت الابتداء، والحضرة الأولى هي التي أظهرتها، فهو المبدىء لها بلا شك، ولا يزال حكم البدء في كل عين عين من أعين الممكنات، فلا يزال المبدىء مبدئاً دائماً لأنه يحفظ الوجود علينا بما يوجده فينا لبقاء وجودنا مما لا يصح لنا بقاء إلا به، فهو تعالى في حق كل ما يوجده دائماً مبدىء له، وذلك الموجود ندعوه بالمبدىء، فكل اسم إلٰهي يسمى بالمبدىء لما له من الحكم فيما أوجده المبدىء الأوّل، وسيأتي حكم الحضرة الأوّلية في اسمه الأول إن شاء الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

المعيد * حضرة الإعادة

[نظم: البسيط]

إنّ الإعـادةَ مِـثْـلُ الـبَـدْءِ فـي الـصُّـوَرِ ... ولـيـس يَـلْـحَـقُـهـا شـيءٌ مـن الـغِـيَـرِ

بـذا تـزيـدُ عـلـى الأُولـى فـإن لـهـا وقـايـةً تَـتَّـقـي الـمـذكـورَ بـالـضَّـرَرِ
لـولا الإعـادةُ مـا كـنّـا عـلـى طـلـبٍ عـنـد الـقـيـام مـن الأجْـداث والـحُـفَـرِ
لأن أسـمـاءه الـحُـسْـنَـى تـطـالـبُـنـا بـمـا أُتِـيـنَـا بـه فـي صـادق الـخَـبَـرِ
ومـا أنـا مَـلْـكٌ تَـعْـنُـو الـوجـوه لـنـا عـنـد الـظـهـور مـن الأمـلاك والـبَـشَـرِ

يدعى صاحبها عبد المعيد، فإنه تعالى يبدىء ويعيد فالبدء والإعادة حكمان له فإنه ما أعاد شيئاً بعد ذهابه إلا أنه في إيجاده الأمثال عاد إلى الإيجاد هو تعالى فهو معيد لا أنه يعيد عين ما ذهب فإنه لا يكون لأنه أوسع من ذلك، فهو المعيد للحال الذي كان يوصف به، فما من موجود يوجده الحق إلا وقد فرغ من إيجاده، ثم ينظر ذلك الموجود إلى الله تعالى قد عاد إلى إيجاد عين أخرى هكذا دائماً أبداً، فهو المبدىء المعيد، المبدىء لكل شيء والمعيد لشأنه كالوالي الحكم في أمر ما إذا انتهى عين ذلك الحكم في المحكوم عليه فقد فرغ منه بالنظر إليه وعاد هو إلى الحكم في أمر آخر فحكم الإعادة فيه فافهم، بخلاف حكم المبدىء فهو يبدىء كل شيء خلقاً ثم يعيده أي يرجع الحكم إليه بأنه يخلق وهو قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي يعيد الخلق أي يفعل في العين التي يريد إيجادها ما فعل فيمن أوجدها وليس إلا الإيجاد، فإن الخلق يريد به المخلوق في موضع مثل قوله: هذا خلق الله ويريد به الفعل في موضع مثل قوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الكهف: ٥١] وهنا يريد به الفعل بلا شك لأنه ليس لمخلوق فعل أصلاً فما فيه حقيقة من ذاته يشهد بها فعل الله لأن المخلوق لا فعل له، ولا يشهد من الله إلا ما هو عليه في نفسه وقد يرد الخلق ويراد به المخلوق كما قررنا لا الفعل، فلهذا جعلنا قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧] أنه يريد به هنا الفعل لا المخلوق، فإن عين المخلوق ما زالت من الوجود وأعني به الذات القائمة بنفسها، وإنما انتقلت من الدنيا إلى البرزخ كما تنتقل من البرزخ إلى الحشر إلى الجنة أو إلى النار وهي هي من حيث جوهرها لا أنها عدمت ثم وجدت فتكون الإعادة في حقها، فهو انتقال من وجود إلى وجود، من مقام إلى مقام، من دار إلى دار، لأن النشأة التي نخلق عليها في الآخرة ما تشبه نشأة الدنيا إلا في اسم النشاء، فنشأة الآخرة ابتداء، فلو عادت هذه النشأة لعاد حكمها معها لأن حكم كل نشأة لعينها وحكمها لا يعود فلا تعود، والجوهر عينه لا غيره موجود من حين خلقه الله لم ينعدم، فإن الله يحفظ عليه وجوده بما يخلق فيه مما به بقاؤه، فالإعادة إنما هي في كون الحق يعود إلى الإيجاد بالنظر إلى حكم ما فرغ من إيجاده من هذا المخلوق ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فما ذكر الله أعاده إلا أنه لو شاء لفعل كما قال، ثم إذا شاء أنشره لكنه لم يشأ، فكلما فرغ ابتداء فعاد إلى حكم الابتداء، هذا حكم إلٰهي لا يزول، فحكم الإعادة ما خرج حكمها عن الحق فحكمها فيه لا في الخلق الذي هو المخلوق، فالعالم بعد وجوده ينتقل في أحوال جديدة يخلقها الله له، فلا يزال الحق يخلق ويعود إلى الخلق فيخلق لا إلٰه إلا هو على كل شيء قدير بالإيجاد.

المحيي * حضرة الإحياء

[نظم : المديد]

إنـمـا الـمُـحْـيِـي الـذي يُـحْـيِـي مـثـل نَـشْـرِ الـثَّـوْبِ مِـنْ طَـيِّ
فـإذا مـا قـيـل لـي تُـحْـيـي قـلـت رَبِّـي الـذي يُـحْـيِـي
وهـو مـولايَ ومُـسْـتَـنَـدي ومـزيـلُ الـرّشْـدِ بـالـغـيِّ
وإذا مـا جِـئْـتُ أسـألُـه زادنـي لـيَّـا إلـى لَـيِّ
لـسـت فـي خَـيْـرٍ وفـي دَعَـةٍ كـلّـمـا دُعِـيـتُ بـالـشَّـيِّ

يدعى صاحبها عبد المحيي، وهو الذي يعطي الحياة لكل شيء، فما ثم إلا حيّ لأنه ما ثم إلا من يسبح الله بحمده ولا يسبحه إلا حي سواء كان ميتاً أو غير ميت فإنه حيّ لأن الحياة للأشياء فيض من حياة الحق عليها فهي حية في حال ثبوتها، ولولا حياتها ما سمعت قوله: ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] بالكلام الذي يليق بجلاله فكانت، وإنما كان محيياً لكون حياة الأشياء من فيض اسم الحي كنور الشمس من الشمس المنبسط على الأماكن، ولم تغب الأشياء عنه لا في حال ثبوتها ولا في حال وجودها، فالحياة لها في الحالتين مستصحبة ولذلك قال إبراهيم عليه السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] فإن الإله لا يكون من الآفلين والحي من أسمائه تعالى وليس الموت من أسمائه فهو يحيي ويميت، وليس الموت بإزالة الحياة منه في نفس الأمر وعند أهل الكشف ولكن الموت عزل الوالي وتولية وال لأنه لا يمكن أن يبقى العالم بلا وال يحفظ عليه مصالحه لئلا يفسد، فاستناد الموت إذا كان عبارة عن الانتقال والعزل يستند إلى حقيقة إلٰهية، وليس إلا فراغ الحق من شيء إلى شيء آخر فما له فيما فرغ منه من حكم في ذلك الوجه المفروغ منه، وليس إلا إيجاد عينه خاصة، وما بقي الشغل وعدم الفراغ إلا في إيجاد ما به بقاؤه في الوجود، فإلى هذه الحقيقة الإلٰهية مستند الموت في العالم، ألا ترى إلى الميت يُسأل ويجيب إيماناً وكشفاً وأنت يا محجوب تحكم عليه في هذه الحال عيناً أنه ميت، وكذا جاء أن الميت يُسأل في قبره وما أزال عنه اسم الموت السؤال فإن الانتقال موجود فلولا أنه حي في حال موته ما سئل فليس الموت بضد للحياة إن عقلت.

المميت * حضرة الموت

[نظم : البسيط]

يُـمِـيـتُ بـالـجَـهْـلِ أقـوامـاً وإنّـهـم بـالـمال والـجَـاهِ عـنـد الـخَـلْـق أحْـيَـاءُ
أصـبـحـتُ ذا عِـلَّـةٍ كُـبْـرَى أمـوتُ بـهـا كـيـف الـشـفـاءُ وقـد اسْـتَـحْـكَـمَ الـدَّاءُ
لـو كـان لـي غَـرَضٌ فـي غـيـر سَـيِّـدِنـا مـا كـان لـي مَـرَضٌ تَـبْـغِـيـهِ أدْواءُ
الله رَبِّـي لا أَبْـغـي بـه بَـدَلاً ولا يُـنَـهْـنِـهُـنـي جُـودٌ وإلْـقَـاءُ

يدعى صاحبها عبد المميت، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [النساء:

١٨] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الحج: ٦٦] وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٤] وقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] وقال ﷺ في الطائفة التي تدخل النار من أمته: «فَيُمِيتُهُمُ الله فِيهَا إِمَاتَةً» والموت عبارة عن الانتقال من منزل الدنيا إلى منزل الآخرة ما هو عبارة عن إزالة الحياة منه في نفس الأمر وإنما الله أخذ بأبصارنا فلا ندرك حياته، وقد ورد النص في الشهداء في سبيل الله أنهم أحياء يرزقون، ونهينا أن نقول فيهم أموات فالميت عندنا ينتقل وحياته باقية عليه لا تزول وإنما يزول الوالي وهو الروح عن هذا الملك الذي وكله الله بتدبيره أيام ولايته عليه، والميت عندنا يعلم من نفسه أنه حي، وإنما تحكم عليه بأنه ليس بحي جهلاً منك ووقوفك مع بصرك ومع حكمك في حاله قبل اتصافه بالموت من حركة ونطق وتصرف، وقد أصبح متصرّفاً فيه لا متصرّفاً، وهو تنبيه من الله لنا أن الأمر كذا هو التصرف فيه للحق لا لك في حال دعواك التصرف ثم إنه على الحقيقة متصرف هذا الميت بالحال لا بالقول، فلو لا تصرفه فيك ما غسلته، ولا كفنته وإن كان الشارع هو الذي أمرك وشرع لك، فهذا أعظم من تصرفه فيك وهو تصرفه فيمن شرع لك هذا، فهذا قد تصرف في الأحياء وهم لا يشعرون، وتصرف فيك وأنت لا تشعر، وتخيلت أنه ما بقي له فيك حكم وحكمه بموته أعظم من حكمه فيك بحياته أعني بعدم موته، فالموت انتقال خاص على وجه مخصوص، فمن كونه انتقالاً يستند إلى حقيقة إلٰهية خاصة ولا تشك أن له حكماً في الآخرة في جهنم، فإن الله تعالى يميت قوماً في جهنم أصابتهم النار بذنوبهم إماتة ثم يحييهم الله وهذا قبل ذبح الموت، فإن الموت لا بد أن يؤتى به إذا بقي أهل النار في النار الذين هم أهلها وأهل الجنة في الجنة وتغلق الأبواب، يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، وهذا مما يقوي الدلالة على أن المآل إلى الرحمة في العباد، وذلك الوقت هو انتهاء مدة الآلام فيضجع بين الجنة والنار ويراه أهل الجنة وأهل النار فيعرفونه، أما أهل الجنة فينعمون برؤيته حيث كان السبب في بقاء سعادتهم التي لا زوال لها عنهم، وأما أهل النار فينعمون برؤيته رجاء تخليصهم بوجوده مما هم فيه ويخرجهم كما أخرجهم من الدنيا، ولا علم بأن مدة الشقاء قد قرب انقضاؤها، ثم يأتي يحيى عليه السلام وبيده الشفرة فيذبحه بمرآى من الفريقين، فأهل الجنات يحيون وأهل النار لا يموتون فيها ولا يحيون، كما يقال في النائم ما هو بميت ولا حي فنعيمهم نعيم النائم في النار، والله قد جعل النوم سباتاً والراحة من الرحمة ما هي من الغضب فهو أشقى ما دام يصلى النار الكبرى ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٣]فجاء بثم بعد حكم كونه يصلي النار كالشاة المصلية، فبين كونه يصلي وبين كونه لا يموت ولا يحيى قدر ما نعطيه حقيقة، ثم في اللسان التي للعطف فينتقل الحكم عليه بذبح الموت فراحته راحة النائم، فلا يموت ولا يحيى أي لا تزول هذه الراحة له مستصحبة، فاعلم ذلك فالموت في الدنيا تحفة المؤمن وحسرة الكافر وذبحه في الآخرة تحفة الفريقين، يقول بعض الأعراب من بني ضبة: [الرجز]

نَحْنُ بَنِي ضَبَّةَ إِذْ جَدَّ الوَهَلْ الْمَوْتُ أَحْلَى عِنْدنا من العَسَلْ

نـحـن بَـنُـو الـمَـوْتِ إذا الـمَـوْتُ نَـزَلْ ... لا عـارَ بـالـمَـوْت إذا حُـمَّ الأَجَـلْ

يقول: يلتذ بالموت تلذذ آكل العسل، وهذه الإشارة فيها غنية لمن نظر واستبصر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الحي * حضرة الحياة

[نظم: البسيط]

إنّ الـحَـيـاةَ حـيـاةُ الـقَـلْـبِ لا الـجَـسَـدِ ... كَـذَاكَ أنْـزَلَـهُ الـرحـمٰـنُ فـي خَـلَـدي

والـنـاس لـيـس لـهـم سِـوى جُـسُـومِـهِـمُ ... فـإنـهـا عِـنْـدَهُـمُ عَـلـيَّـةُ الـسَّـنَـدِ

فـيـهـلـكـون ولا عَـقْـلٌ يَـصُـدُّهُـمُ ... عنها ولو أنهم في الواضح الجَدَدِ

ولـيـس فـيـهـم رَشِـيـدٌ فـي تَـصَـرُّفـه ... ومـا هُـمُ مـن يَـبِـيـعُ الـغَـيَّ بـالـرَّشَـدِ

إن الـغِـوَايـةَ أصْـلٌ عـنـدهـم ولـذا ... تَـرَاهُـمُ عـن وجـود الـحَـقّ فـي حَـيَـدِ

يدعى صاحبها عبد الحي، وهو نعت إلهي يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال عز وجل: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١] ولما كانت القيومية من لوازم الحي استصحبها في الذكر مع الحي فكل معلوم حي، فإن المعلوم هو الذي أعطى العلم به للعالم به، ولو كان العدم فإنه لا يعطى إلا من الحياة صفته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] لأنهم لا يبصرون، فالحياة للحي كنور الشمس للشمس: [الرجز]

فـكـل مـن يَـشْـهَـدُهُ تُـنَـوِّرُهْ ... تَـنْـويـرُهـا إيّـاه مـا تُـصَـوِّرُهْ

فـيـه وحُـكْـمُ الأمْـر مـا تُـقَـرِّرُهْ ... تـعـطـي الـذي تـعـطـي ومـا تُـكَـرِّرُهْ

وأنـهـا مـن لُـطْـفِـهـا مـا تـشـعـرُهْ ... بـأنـهـا هـي الـتـي تُـبَـصِّـرُهْ

كذلك الحي بذاته يحيى به كل من يراه وما يغيب عنه شيء فكل شيء به حي.

القيوم * حضرة القيومية

[نظم: الوافر]

إلـى الـقَـيُّـوم لا أَبْـغـي سـواهُ ... قَـطَـعْـتُ مَـفَـاوزاً فـيـه وآلا

عـسـى أَحْـظَـى بـجُـودِ مـا أراهُ ... يـزولُ بـنـا فـيـنـتـقـلُ انْـتِـقَـالاَ

إذا مـا أَمَّـتِ الأفْـكـارُ ذاتـي ... يُـوَرِّثُـهـا تَـفَـكُّـرُهـا خَـيَـالا

ويُـعْـقِـبُـهـا إذا تـمـشـي إلـيـه ... بـلا فِـكْـرٍ وِصَـالاً واتِّـصَـالاَ

يدعى صاحبها عبد القيوم ولما كانت القيومية من نعوت الحي استصحبته فما تذكر إلا وهي معه، فهي القيوم على كل نفس بما كسبت، فكل معلوم حي فكل معلوم قيوم أي له قيومية وكذلك هو فإنه لولا أنه قيوم ما أعطى العالم علمه وبعلمه أعطى العالم خلقه لأنه لا يعطيه إلا علمه فيه، وعلمه فيه إنما كان منه، فلا بد أن يظهر في وجوده بخلقه من غير زيادة ولا نقصان ولا يكون إلا كذا ولذا قال موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: ٥] فأخبر

بإحاطة علمه ولم يكن ذلك لفرعون مع دعواه الربوبية فعلم فرعون ما قالاه وسكت وتبين له أنه الحق، لكن حب الرياسة منعه من الاعتراف: [الرمل]

الـذي قَـامَ بـنـا فـي كَـوْنِـنَـا ... يـا خَـلـيـلـي إنـمـا قـامَ بـنـا
فـإذا حَـقَّـقْـتَ مـا فُـهْـتُ بـه ... فـاخـكُـم أنْ شِـئْـتَ عـلـينـا أو لَـنَـا
مـا ثَـنَـى الـجُـودُ عـلـيـنـا جُـودَهُ ... بـسـوانـا فـقُـلِ الـجُـودُ أنـا
مـا نَـعِـمْـنَـا بـسـوانـا فـانـظـروا ... فـي كـلامـي تَـجِـدُوهُ بَـيِّـنَـا

فسرت القيومية بذاتها في كل شيء ولهذا قال لنا: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فلولا سريان القيومية فينا ما أمرنا وكذلك فعلنا قمنا له وبه فمنا شاهدت ذلك عياناً كما شهدته إيماناً، وإنما تعجبت ممن يقول بأن القيومية لا يتخلق بها وأنها من خصائص الحق، والقيومية بالكون أحق لأنها سارية فيه، وبها ظهرت الأسماء الإلهية، فبها أقام الكون الحق أن يقيمه، ولولا ذلك ما ظهر للخلق عين ولا حكم الألف قيوم الحروف وليس بحرف فهو مظهرها وهو لا يشبهها، فامتداده لذاته لا يتناهى، وامتداد حكمه بإيجاد الحرف غير متناه لأن في طريقه منازل الحروف بالقوّة والاستعداد، فإذا انتهى إلى منزل ما من منازلها وقف عنده ليرى أي حرف هو فبرز الحرف فسمي ذلك المكان مخرج ذلك الحرف فيعلمه وهو الذي أحدثه فهو مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] فلولا القيومية السارية في النفس ما ظهرت الحروف، ولولا القيومية الظاهرة في الحروف بحكمها ما ظهرت الكلمات بتأليفها، وإنما جئنا بهذا ضرب مثال محقق واقع لوجود الكائنات عن نفس الحق فاعلم ذلك، وقد تقدم ذكره في باب النفس من هذا الكتاب، واعلم أنه في ليلة تقييدي هذا الوجه أريت في النوم ورقة زنجارية اللون جاءت إلي من الحق مكتوبة ظهراً أو بطناً بخط خفي لا يظهر لكل أحد فقرأته في النوم لضوء القمر فكان فيه نظماً ونثراً، واستيقظت قبل أن أتم قراءته فما رأيت أعجب منه ولا أغمض من معاينة لا يكاد يفهم، فكان مما عقلت من نظمه ما أذكره وكان في حق غيري كذا قرّر لي في النوم، وذكر لي الشخص الذي كان في حقه فعرفته وكأني في أرض الحجاز في برية ينبوع بين مكة والمدينة: [الطويل]

إذا دَلَّ أمْـرُ الله فـي كـل حَـالَـةٍ ... على العِزَّةِ العُظْمَى فما ينفعُ الجَحْدُ
وجـاء كـتـابُ الله يُـخْـبِـرُ أنّـه ... مـن الله تـحـقـيـقـاً فـذلـكُـمُ الـقَـصْـدُ
ولله عَـيْـنُ الأمْـرِ مـن قَـبْـلُ إذ أتـى ... إلـيّ بـمـا يـجـريـه فـيـه ومـن بَـعْـدُ
فـسـبـحـان مـن حَـيِيَ الـفُـؤادُ بـذِكْـرِهِ ... فـكـان لـه الـشـكـرُ الـمُـنَـزَّهُ والـحَـمْـدُ
إذا كـان عـبـدي هـكـذا كـنـتُ عَـيْـنَـهُ ... وإن لـم يـكـن فـالـعَـبْـدُ عَـبْـدُك يـا عَـبْـدُ

وأما النثر فأنسيته لما استيقظت إلا أني أعرف أنه كان توقيع من الحق لي بأمور أنتفع بها، هذا جل الأمر وهي في خاطري مصوّرة من أسباب الدنيا يتسع فيها رزق الله ويشكر الله تعالى من كان ذلك على يده ويثبته، والله على ما نقول وكيل.

حضرة الوجدان * وهي حضرة كن

[نظم: البسيط]

إنَّ الوُجُودَ بجُودِ الحَقِّ مُرْتَبِطُ ... وكُلُّنا فيه مسرورٌ ومُغْتَبِطُ
إن الذي تُوجِدُ الأعْيانَ هِمَّتُهُ ... هو الوجودُ الذي بالجُودِ يَرْتَبِطُ
لو أن ما عنده عندي لقلتُ به ... لكنني مُفْلِسٌ لذاك نَشْتَرِطُ
كشَرْطِ موسى عليه حين أرْسَلَهُ ... إلى جَبابِرَةٍ من ربِّهم قَنِطُوا
فجاء من عندهم صِفْرَ اليَدَيْنِ وما ... خابَتْ مقاصدُهُ لكنهم قَسَطُوا

يدعى صاحبها عبد الواجد بالجيم وهو الذي لا يعتاص عليه شيء وهو الغني بالأشياء، فإذا طلب أمراً ما ولم يكن ذلك المطلوب أي لم يحصل فيكون تعويقه من قبله فإنه لا يعتاص عليه شيء، مثاله طلب من أبي جهل أن يؤمن بأحدية الله وبرسوله وبما جاء من عنده فلم يجبه إلى ما طلبه منه، فالظاهر من إبايته أنه ليس بواجد لما طلب منه، والمنع إنما كان منه إذ لم يعطه التوفيق ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩] فهو الواجد بكن إذا تعلقت الإرادة بكونه فما يعتاص عليه شيء يقول له كن، فلو قال للإيمان كن في محل أبي جهل وغيره ممن لم يؤمن وخاطبه بالإيمان لكان الإيمان في محل المخاطب أبي جهل وغيره، فكونه واجداً إنما هو بكن وما عدا كن فما هو من حضرة الوجدان، وكذلك عرضه عز وجلّ الأمانة على السموات والأرض والجبال أن يحملنها فأبين أن يحملنها من أجل الذم الذي كان من الله لمن حملها، وهو أن الله وصف حاملها بالظلم والجهل ببنية المبالغة فإن حاملها ظلوم لنفسه جهول بقدر الأمانة، وإذا تحقق العبد بهذه الحضرة لم يعتص عليه شيء من الممكنات وتحققه أن يكون الحق لسانه ليس غير ذلك فلا يريد شيئاً إلا كان فهو واجد لكل شيء، وكل من هذه حالته ووقع له توقف فيما يريد تكوينه ووجوده فقد اعتاص عليه فحاله فيه الحال الذي قال الله فيمن سبق في علمه أنه لا يؤمن بالله أن يؤمن بالله فهو وإن نطق بالله فهو مثل نطق الحق بالعبد كقوله: إن الله قال على لسان عبده سمع الله لمن حمده. وقوله: إن الله عند لسان كل قائل في بعض محتملاته، فإذا قال الله على لسان من شاء من عباده وأمر فقد يقع المأمور به من المأمور وقد لا يقع، وإذا قال للمأمور به كن فإنه يقع ولا بد: [الطويل]

إذا قُلْتَ قال الله فالقَوْلُ صادقٌ ... وإن قُلْتَ قال الناسُ فالقَوْلُ للنَّاسِ
فلا تَدَّعي في القول أنك قائلٌ ... وكُنْ حاضراً بالله في صورة النَّاسِي
فإنك لا تَدْري بمن أنت قائلٌ ... وليس على من قال بالله من بَاسِ

فظهر القصور بالنيابة وهي الشركة، كذلك القائل بالحق إلا آمر به قد يقع المأمور به وقد لا يقع والحضرة واحدة، فإذا قال العبد المطاع بغير الحق فذلك يقع ولا بد لأنه مخلص للتوحيد وأنه لا يقول إذا قال أو يأمر إذا أمر من غير أن يقول بحق أو يأمر بحق إلا من حقيقته الذي هو عليها من كونه كان أصلاً في كون العالم به عالماً، فإذا أثر بذاته في العالم العلم ويكون العالم به يتنوّع في التعلق به لتنوّعه لنفسه فإنه لا يعتاص عليه شيء، فلو كان من

أحواله وقوع ذلك المأمور به لوقع كما وقع النطق به، فإنه لا ينطق من حيث ذاته إلا بما هو عليه، وصورة هذه المسألة وتحقيقها كقول الحق على لسان العبد افعل فيقع أو لا يقع، وذلك أن العبد من المحال أن ينطق من حيث نفسه نطق لسان ظاهر أو باطن، وإنما ينطق بالله كل ناطق فإن الله هو المنطق كما قالت الجلود: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] ناطق فيعطي الممكن بما هو عليه العلم لله، والتكوين في غير الله لا يكون إلا لله لا لغيره، والنطق من العبد والهم تكوين من الله فيه فلم ينطق ولم يهم إلا بالله فلا يتوحد به الممكن، وإذا أمر الله بتكوين على لسان عبده فقد يقع وقد لا يقع فلا ينطق العبد إلا بالاشتراك، فلهذا قد يقع وقد لا يقع ما يأمر به أو يريده، وكونه لو نطق به العبد بغير اشتراك لوقع إنما هو كقوله: ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ١٦] فجاء بحرف لو. وكذلك لو نطق العبد بنفسه وهو لا ينطق بنفسه وإنما ينطق بربه فالنطق للرب، وإذا كان النطق للرب على لسان العبد فقد يكون الأثر والتكوين عن ذلك القول وقد لا يكون فتدبر هذا الكلام فإنه يتداخل ويتفلت من الذهن إن لم تتصوّر الأصل تصوّراً محكماً لا يزال بين عينيك، واختصاره أن العبد لا ينطق أبداً إلا بالله، وأن الله إذا نطق على لسان العبد بالأمر فإنه لا يلزم وقوع ذلك المطلوب ولا بد، وإذا انفرد الحق دون العبد بالتكوين فإنه يقع، ولا بد والعبد لا ينفرد أبداً إلا بالتقدير وهو أن يقول فيه لو كما يقول في مشيئته الحق لو شاء وما شاء.

واعلم أن كل طالب إنما يطلب ما ليس عنده، فإن الحاصل لا يبتغى والحق لا يطلب من الممكن إلا تكوينه، وتكوينه ليس عنده، فإن الممكن في حال عدمه ليس بمكوّن، فالتكوين ليس بكائن في العين الثابتة الذي هو الشيء، فإذا أراده الحق قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فأراد الحق حصول التكوين في ذلك الشيء لأنه ليس الكون عند ذلك الشيء، فما أراد الكون لنفسه وإنما أراده للشيء الذي ليس عنده، فإنه تعالى موجود لنفسه فهو يريد الأشياء للأشياء لا لنفسه فإنها عنده، فإنه ما من شيء إلا عنده خزائنه، ولا تكون خزائن إلا بما يختزن فيها فالأشياء عنده مختزنة في حال ثبوتها، فإذا أراد تكوينها لها أنزلها من تلك الخزائن وأمرها أن تكون فتكتسي حلة الوجود فيظهر عينها لعينها ولم تزل ظاهرة لله في علمه أو لعلمه بها، فمن هنا يتحقق أن الله يطلب ما ليس عند الطالب وهو تكوين ما ليس بكائن في الحال، فهذا تحقيق الواجد بالجيم قال الراجز: أنشد والباغي بحب الوجدان. والوجود المطلوب بالذكر عند الطائفة الذي يكون عن الوجد من هذا الباب وهو ما يجده أهل الوجد في نفوسهم في حال وجدهم من العلم بالله.

الواحد الأحد * حضرة التوحيد

[نظم: البسيط]

وَحِّـدْ إلٰـهـكَ فـالأفـعـالُ لله ... ولا تَكُنْ فيه بالسَّاهي ولا اللاَّهي
وٱحْذَرْ من الشِّرْكِ إن الشِّرْكَ مَنْقَصَةٌ ... يُرْدِيكَ سلطانُها فإنّها ما هِيْ

سوى نعتِ شيءٍ لا وُجُودَ له وأثبُتْ فبَيْتُك لا مُلْغًى ولا وَاهِ
لكنّ له لذّةً كُبرى تَعُنُّ لها أعضاؤنا كلُّها كلَذَّة الباهِ
الله يعلم أنّي في الذي ذكَرَتْ أبياتُنا صادقٌ والله والله

يدعى صاحبه عبد الواحد بالحاء المهملة إذا أراد الاسم، وإذا أراد الصفة يقال له عبد الأحد. وأما الوحدانية فهي قيام الأحدية به أعني بالواحد فما هي الأحدية ولا الواحد كالجسماني ما هو الجسم، وإنما هو ما لا تظهر له عين إلا بقيامه بالجسم أو الجوهر وهو ما يقوم به من الصفات التي محلها الأجسام، وكذلك الروح والروحاني، فالوحدانية نسبة محققة بين الأحدية والواحد، وكون الشيء يسمى واحداً، قد يكون لعين ذاته فلا يكون مركباً وهو الشيء فإن تركب فليس بشيء وربما هو شيئان أو ما بلغ به التركيب حتى يكون أشياء، ومع هذا يقال فيه شيء من حيث أحدية المجموع والتركيب لا من حيث أحدية كل شيء في هذا المجموع، وقد يكون واحد العين مرتبته فإن الله واحد في ألوهيته فهو واحد المرتبة، ولهذا أمرنا أن نعلم أنه لا إلٰه إلا هو وما تعرض للذات جملة واحدة فإن أحدية الذات تعقل، ولكن هل في الوجود من هو واحد من جميع الوجوه أم لا؟ في ذلك وقفة، فإن الأحدية لكل شيء قديماً وحديثاً معقولة بلا شك لا يمتري فيها من له مسكة عقل ونظر صحيح، ثم إذا نظرت في هذا الواحد لا بد وأن تحكم عليه بنسبة ما أدناها الرتبة فإنه لا يخلو عن رتبة يكون عليها في الوجود، فإما أن يكون مؤثراً اسم فاعل أو مؤثراً فيه اسم مفعول أو المجموع أو لا واحداً منهما، فالمؤثر هو الفاعل والمؤثر فيه هو محل الانفعال فما في الوجود إلا المجموع، وما وقع من التقسيم العقلي إلا المجموع، فما ثم مستقل بالتأثير فإن القابل للأثر له أثر بالقبول في نفسه كما للقادر على التأثير فيه، ومن حيث إن المنفعل يطلب أن يفعل فيه ما هو طالب له ففعل المطلوب منه ما طلبه هذا الممكن فهو تأثير الممكن في الواجب الفاعل فإنه جعله أن يفعل ففعل كما قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِّ﴾ [البقرة: ١٨٦] فالسؤال والدعاء أثر الإجابة في المجيب، وإن لم يحدث في نفسه شيء لأنه ليس محلاً للحوادث، وإنما هذا الذي نثبته إنما هو أعيان النسب، وهذا الذي عبر عنه الشرع بالأسماء، فما من اسم إلا وله معنى ليس للآخر وذلك المعنى منسوب إلى ذات الحق وهو المسمى صفة عند أهل الكلام من النظار وهو المسمى نسبة عند المحققين، فما في الوجود واحد من جميع الوجود وما في الوجوه إلا واحد وأحد لا بد من ذلك، ثم تكون النسب بين الواحد والأحد بحسب معقولية تلك النسبة، فإن النسب متميزة بعضها عن بعض، أين الإرادة من القدرة من الكلام من الحياة من العلم؟ فاسم العليم يعطي ما لا يعطي القدير، والحكيم يعطي ما لا يعطي غيره من الأسماء، فاجعل ذلك كله نسباً أو اسماً أو صفات، والأولى أن تكون اسماً ولا بد لأن الشرع الإلٰهي ما ورد في حق الحق بالصفات ولا بالنسب وإنما ورد بالأسماء فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]وليست سوى هذه النسب وهل لها أعيان وجودية أم لا؟ ففيه خلاف بين أهل النظر، وأما عندنا فما فيها خلاف أنها نسب واسماً على حقائق معقولة غير وجودية، فالذات غير متكثرة

بها لأن الشيء لا يتكثر إلا بالأعيان الوجودية لا بالأحكام والإضافات والنسب، فما من شيء معلوم إلا وله أحدية بها يقال فيه أنه واحد، وأما قول أبي العتاهية: [السريع]

وفي كُلِّ شيء له آيَةٌ ... تَدُلُّ على أنه واحدُ

فموجه مع التعري عن القرائن إلى أمور منها أن يكون الضمير في له، وفي أنه يعودان على الشيء المذكور فكأنه يقول وفي كل شيء آية لذلك الشيء أنه يدل على أن ذلك الشيء واحد في نفسه وليس كذلك إلا عينه خاصة، وقد يكون الضمير يعود على الله في له وفي أنه أي فيه دلالة على أن الذي أوجده واحد لا شريك له في إيجاد هذا الشيء وهو مقصود الشاعر بلا شك، وما هي تلك العلامة والدلالة؟ ومن هو العالم الذي تعطيه هذه الدلالة توحيد الموجد؟ فاعلم أن الدلالة هي أحدية كل عين سواء كانت أحدية الواحد أو أحدية الكثرة، فأحدية كل عين ممكنة تدل على أحدية عين الحق مع كثرة أسمائه، ودلالة كل اسم على معنى يغاير مدلول الآخر، فيحصل من هذا أحدية الحق في عينه وأحدية الكثرة من أسمائه، فكل شيء في الوجود قد دل على أن الحق واحد في أسمائه وفي ذاته فاعلم ذلك: [الطويل]

فما ثَمَّ تَوْحِيدٌ ولا ثَمَّ كَثْرَةٌ ... على غير ما قلناه فانْظُرْ تَرَ الحَقَّا

وقل بعد هذا ما تشاءُ وتَرْتضي ... وثَبِّتْ له الجَمْعَ المُحَقَّقَ والفَرْقَا

فما الأمر إلا بين خَلْقٍ وخالق ... فقل إن تشأ حَقّاً وقل إن تشأ خَلْقَا

الصمد * حضرة الصمدية

[نظم: البسيط]

ألجأتُ ظَهْري إلى رُكْني ومُسْتَنَدي ... إلى المُهَيْمِنِ رَبِّ الناس والصَّمَدِ

وقلت يا مُنْتَهَى الآمال أجمعها ... لك التَّحَكُّمُ في الأدْنَى وفي البَعَدِ

إني تلوتُ كتاباً فيه عَرَّفَني ... بأنني إن أمُتْ فيه فليس يدي

لو أن ما قَبَضَتْ كَفّي عليه لها ... مُلْكٌ لما نظرتْ عيني إلى أحَدِ

وكنت وارثَ علم لا تُزايِلُني ... أحكامُه من علوم الكشف والرَّصَدِ

يدعى صاحبها عبدَ الصمد، هذه الحضرة استوفينا أكثر تفاصيلها في كتاب مواقع النجوم لنا في عضو القلب منه في التجلي الصمداني، فلنذكر في هذا الكتاب ما يليق به إن شاء الله فنقول: إن هذه الحضرة هي حضرة الالتجاء والاستناد التي لجأ إليها واستند كل فقير إلى أمر ما لعلمه أن ذلك الأمر الذي افتقر إليه في هذه الحضرة فغناها إنما هو بهذه الأمور الذي افتقر إليها بسببها، وهل لها الغنى النفسي الذي لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] أم لا؟ فذلك لا يحتاج إليه في هذا الموضع، والذي تمس الحاجة إليه في هذه الحضرة معرفة كون هذه الأمور التي يفتقر الفقراء إليها بسببها هل لها وجود في خزائن عندها كما جاء: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١] فهي عين هذه الحضرة لا غير، إذا حققت الأمر فالحق من حيث إنه ما من شيء إلا عنده خزائنه هو الصمد، ولكن ليست

الخزائن إلا المعلومات الثابتة فإنها عنده ثابتة يعلمها ويراها ويرى ما فيها فيخرج منها ما شاء ويبقي ما شاء وهي مع كونها في خزائن فيتخيل فيها الحصر والتناهي وإنما هي غير متناهية، فأفقر الفقراء تلك الأشياء المختزنة فإنها تطلب الخروج من تلك الخزائن إلى الوجود حتى تراه ذوقاً بعينها، فإن الذي وجد منها ألقى فيه افتقار ما لم يوجد منها فافتقر نيابة عن الذي لم يوجد إلى الله أن يوجده لعين افتقاره فيه، فهو كالمعين لذلك المختزن في افتقاره إلى الوجود وهو ما يجده الإنسان في نفسه من الطلب لأمر ليس عنده ليكون عنده مما هو في تلك الخزائن.

واعلم أن الخزائن التي عند الحق على نوعين: نوع منها خزائن وجودية لمختزنات موجودة كشيء يكون عند زيد من جارية أو غلام أو فرس أو ثوب أو دار أو أي شيء كان فزيد خزانته وذلك الشيء هو المختزن وهما عند الله، فإن الأشياء كلها بيد الله فيفتقر عمرو إلى الله تعالى في ذلك الذي عند زيد أن يكون عنده كان ما كان فليلقي الله في قلب زيد أن يهب ذلك الشيء أو يبيعه أو يزهد فيه ويكرهه فيعطيه عمراً، فمثل هذا من خزائن الحق التي عنده، والعالم على هذا كله خزائن بعضه لبعضه وهو عين المختزن، والعالم خزانة مخزون وانتقال مختزن من خزانة إلى خزانة، فما أنزل منه شيء إلى غير خزانة فكله مخزون عنده فهو خزانته على الحقيقة التي لا يخرج شيء عنها، وما عدا الحق فإن المختزن يخرج عنها إلى خزانة أخرى، فالافتقار للخزائن من الخزائن إلى الخزائن والكل بيد الله وعنده، فهو الصمد الذي يلجأ إليه في الأمور ويعول عليه، وبهذه الحضرة يتعلق المتوكلون في حال توكلهم على ما توكلوا عليه، فمنهم المتوكل على الله، ومنهم المتوكل على الأسباب، غير أن الأسباب قد تخون من اعتمد عليها ولجأ إليها في أوقات، والحق تعالى لا يسلم من توكل عليه وفوّض أمره إليه: [مجزوء الرجز]

فكُلُّ كَوْنٍ صَمَدُ ... وكل عَيْنٍ أَحَدُ
مُنَكَّرٌ مُعَرَّفٌ ... فكله مُسْتَنِدُ
والحقُّ في قلوبنا ... مختزنٌ مُتَّحِدُ
يحكُمُ بالتأبيد في ... اختزانه الأَبَدُ
وما له من مُدَّةٍ ... يجمع فيها المُدَدُ
ومن وجودي كان لي ... إذا عَقِلْتَ المَدَدُ

وإذا علمت أن الخزائن عنده وأنت الخزائن فأنت عنده وقد وسعه قلبك فهو عندك وأنت عنده فأنت عندك، فلك من الصمدية قسط لأنه لا تكون المعرفة بالله الحادثة إلاَّ بك فيصمد إليك فيها إذ لا تظهر إلا بك، فأنت الصمد فيما لا يظهر إلا بك، ومن هذه الحضرة حصلت لك ولمن حصلت هذه المرتبة ولكن قف عند نهي ربك وتدبره لما قال لك على لسان رسوله في الشيء الذي تستتر به عند الصلاة في قبلتك أن تميل به نحو اليمين أو الشمال قليلاً ولا تصمد إليه صمداً، فهذا من الغيرة الإلٰهية أن يصمد إلى غيره صمداً، وفيه إثبات

للصمدية في الكون بوجه ما فذلك القدر الذي أشار إليه الشارع يكون حظ المؤمن من الصمدية، والجاهل يصمد إلى الأسباب صمداً ويجعل حكم الميل إلى اليمين والشمال لصمدية الحق عكس القضية، وإنما شرع النبي ﷺ في السترة الميل إلى اليمين أو الشمال ينبه على السبب القويّ باليمين وعلى السبب الضعيف بالشمال الخارج، فالخارج عن الله بالكلية هو صاحب اليمين، والذي لاح له بارقة من الحق ضعف اعتماده على السبب فجعله من الجانب الأضعف إذ لا بد من إثبات السبب ولا يصمد إلا إلى الله صمداً، فاعلم ذلك فقد نبهتك ونصحتك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

القادر القدير المقتدر * حضرة الاقتدار

[نظم: الرجز]

لــو أن مــن عَــرَّفَــنــي مِــقْــداري ... يـبـدو لـنـا مـا كـنـت بـالـمِـكْـثَـارِ
إنّ اقْـتِـدَاري فـي كَـيَـانِ الـبـاري ... أعـظـم عـنـدي مـن دُخُـول الـنَّـارِ
ولـو أتـى بـالـعَـسْـكـر الـجـرّارِ ... أتَـيْـتُـه بـه وبـالأبْـرارِ
فِـي عُـصْـبَـةٍ وسَـادَةٍ أخْـيَـارِ ... مـعـصـومـةٍ مـحـفـوظـةِ الآثـارِ
يَـمِـيـزُنـي عـنـد دخـول الـدارِ ... عـن الـعَـبـيـد الـصُّـمّ والأحْـرارِ

يدعى صاحبها عبد القادر وعبد القدير وعبد المقتدر. قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠] وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] وقال: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠] وقال: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] هذه الحضرة ما لها أثر سوى إعطاء الوجود لكل عين يريد الحق وجودها من الممكنات فيقول لها كن، وأخفى الاقتدار بقوله كن وجعله ستراً على الاقتدار فكان الممكن عن الاقتدار الإلٰهي من حيث لا يعلم الممكن وسارع إلى التكوّن فكان فظهر منه عند نفسه السمع والطاعة لمن قال له: ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] فاكتسب الثناء من الله بالامتثال، فأوّل أمر كان من الممكن السمع والطاعة لله في تكوينه، فكل معصية تظهر منه فإنما هي عرض يعرض له وأصله السمع والطاعة كالغضب الذي يعرض والسبق للرحمة فإن لها السبق وللطاعة من الممكن السبق والنهاية، والخاتمة أبداً لها حكم السابقة والسبق للرحمة فلا بد من المال إلى الرحمة في كل ممكن عرض له الشقاء لأنه بالأصل طائع، وكذلك كل مولود إنما يولد على الفطرة والفطرة الإقرار لله تعالى بالعبودة فهي طاعة على طاعة، ولما لم يكن للممكن اقتدار أصلاً وإنما له القبول لم يكن فيه حقيقة يطلع بها على اقتدار الله عليه في تعلقه بإخراجه من حالة العدم إلى حالة الوجود لأنه لا فاعل إلا الله، والأشياء لا تشهد الله إلا من نفوسها ومما هي عليه وما هي على شيء من الاقتدار عند بعض النظار، فلا يمكن أن تشهد صدورها إلى الوجود كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١] يريد حالة الإيجاد فليس للممكن اقتدار بوجه من الوجوه عند بعضهم كما قدمنا، فلهذا قلنا أخفى عز وجل اقتداره

وجاء بالقول بصيغة الأمر ليتصف الممكن بالسمع والطاعة، فلا تزال عين الحق تنظر إليه بالرحمة وتراعي منه هذا الأصل مع أن القول لا حكم له في المعدوم ولا سيما فيمن ليس له اقتدار بالأصالة فكيف يكون فأشبه صورة التكليف والفعل لله. ولما كان الممكن بحكم الأصل سامعاً مطيعاً للأمر بقي فيه سرّ امتثال الأمر، فإذا جاء الإنسان أمر الشيطان في لمته بالمخالفة، وما يقول له في أمره خالف وإنما يأمره أن يفعل ما تقدمه من الله النهي عنه، أو ينهاه عن وقوع ما تقدم له من الله الأمر بفعله فيغفل عما تقدمه من الله في ذلك، فيبادر لما أمره الشيطان به لأن حقيقته كما قلنا فطرت في أصل التكوين على الامتثال، كما أيضاً يقبل أمر الملك في الطاعة أو في مكارم الأخلاق. وأما حالته في التردد في الفعل أو الترك بين اللمتين فهو في ذلك الوقت تحت حكم التردد الإلٰهي الذي نسبه إلى نفسه وأنه مجلى الحق في حين تردّد كل متردّد في العالم فذلك عينه تردّد الحق حتى ينفذ ما شاء الله أن ينفذ من ذلك فيظهر حكمه في ذلك الفعل إما بالطاعة أو بالمعصية كما يريد العبد ويطلب من الله أمراً ما فلا يعطيه ويخالفه فيه، فهذه بتلك لتصح النسخة فإن من تمامها مقابلة الخلاف والوفاق فلو أجاب الحق كل ما يطلبه العبد منه لأجابه العبد في كل ما طلبه الحق منه، ولو أجاب العبد ربه في كل ما أمره به ونهاه لأجاب الحق عبده في كل خاطر يخطر له في تكون أمر، فلما لم يكن الأمر إلا هكذا وهو على الصورة فلا بد أن تقع المخالفة والموافقة من الجانبين، فما ظهر العبد في خلافه أمر الحق إلا بخلاف الحق ما دعاه فيه العبد فصحت المقابلة بين النسختين فصح الكتاب بالأم حيث ظهر بصورتها، ولو لم يكن كذلك لكان خطأ والصواب أولى، فوجود الخلاف من الممكن أصح في النسخة، ولا يثبت في الأم إلا ما هو حق، فالخلاف حق حيث كان، فانظر إلى هذا السرّ ما أعجبه وما أخفاه والله على كل شيء قدير، فالمقتدر حكمه حكم آخر ما هو حكم القادر، فالاقتدار حكم القادر في ظهور الأشياء بأيدي الأسباب، والأسباب هي المتصفة بكسب القدرة فهي مقتدرة أي متعملة في الاقتدار وليس إلا الحق تعالى، فهو المقتدر على كل ما يوجده عند سبب أو بسبب كيف شئت قل وهو قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ وما لا يوجده بسبب هو قوله والأمر ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] ولهذا اصطلح أهل الله على ما قالوه من عالم الخلق والأمر، يريدون بعالم الخلق ما أوجده الله على أيدي الأسباب وهو قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: ٧١] وليست سوى أيدي الأسباب، فهذه إضافة تشريف لا بل تحقيق وعالم الأمر ما لم يوجد عند سبب، فالله القادر من حيث الأمر ومقتدر من حيث الخلق فهذا تفصيله، يقال: ضرب الأمير اللص وقطع الأمير يد السارق، وإنما وقع القطع من يد بعض الوزعة والأمر بالقطع من الأمير فنسب القطع إلى الأمير فهذا هو المقتدر، فإذا باشره بالضرب فهو القادر إذا لم تكن ثم آلة تقطع يده بها من حديدة أو غيرها فالله يخلق بالآلة فهو مقتدر، ويخلق بغير الآلة فهو قادر، فالقدرة أخفى من الاقتدار، على أن الاقتدار حالة القادر مثل التسمية حالة المسمي اسم فاعل فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

المقدم * حضرة التقديم

[نظم: البسيط]

أنا المُقَدِّمُ عن عِلْم ومعرفة بمن أُقَدِّمُهُ والله يَغْفِرُ لي
لو أن ما مَلَكَتْ كَفّي يكون لها ملكاً لما انْبَسَطَتْ يدايَ في الدُّوَلِ
عَبْد المُقَدّم أدْعُوهُ ويعرفُني إذا دعوتُ به وليس يَظْهَرُ لي
ولستُ أفْقِدُهُ إذا يُسارِقُني بطَرْفِهِ وهو لي من أعْظَم الحِيَلِ
الله سَخَّرَهُ فيما أُصَرِّفُهُ ولست أُصَرِّفُهُ عن رؤية الجَبَلِ

يدعى صاحبها عبد المقدم من هذه الحضرة يثبت بالدليل ثبوت المرجح وهو الله، وذلك أن الممكنات بالنسبة إلى الايجاد، أو نسبة الايجاد إليها على السواء على كل واحد واحد منها، فإذا تقدّم أحد الممكنات على غيره بالوجود مع التسوية في النسبة دل أنه مرجح لأمر ما ليس لنفسه، فعلمنا أنه لا بد من مرجح وهو المقدم له على غيره من الممكنات، وهذا أشدّ في الدلالة من دلالة الأشعري بالزمان على هذا المطلوب فإنه يقول: ما من ممكن يوجد في زمان إلا ويجوز إيجاده قبل ذلك الزمان أو بعده، فما تكلم إلا فيما يدخل تحت حكم الزمان، والزمان عنده أيضاً موجود ولا يوجد في زمان فيخرج الزمان عن حكم هذه الدلالة. والذي ذهبنا إليه يدخل في حكمه كل ممكن من زمان وغير زمان مما له وجود فهو أتم في الدلالة. ثم إن الله تعالى بعد إبراز ما أبرزه من العالم عين للعالم مراتب وتلك المراتب نسبة كل من يقتضي حقيقته البروز بها والإنزال فيها نسبة واحدة، فإذا نالها شخص واحد من الأشخاص أشخاص هذا النوع وتقدم إليها وبها فإن الذي قدمه هو المقدم كالخلافة في النوع الإنساني ما من إنسان إلا وهو قابل لها فيقدم الحق من شاء فيها دون غيره فيتأخر الغير عنها في ذلك الزمان بلا شك، وكذلك في النبوّة والرسالة والأمارة وجميع المراتب على هذا الحد تجري، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

المؤخر * حضرة التأخر

[نظم: الكامل]

أنت المُؤَخِّرُ من تشاءُ لحِكْمَةٍ مجهولةٍ عندي لذاك تُؤَخِّرُهْ
لو كان أهْلاً للتقدُّم لم تكن تُبْدِيهِ وقتاً ثم وقتاً تَسْتُرُهْ
الله يعلم أنني من غيرة قامت بنا لا أستطيع فأَذْكُرُهْ
لو كان للكون الغريب مَزِيَّةٌ عندي لقُمْتُ بشُكْرِهِ لا أكْفُرُهْ
لكنه أخْفاه عن أبصارنا نُورٌ له من قام فيه يَبْهَرُهْ

يدعى صاحبها عبد المؤخر، فإذا راعى الحق تأخر عبد ما عن بعض المراتب، فمن هذه الحضرة فيتقدم غيره فيها ولا يتقدم فيها هذا المؤخر عنها البتة، ثم إن هذا المقصود

بالتأخر إذا تعين أنه لا حكم له في التقدم فيها بقي من بقي فيقدم الحق فيها من شاء من الباقين فيكون بتقديمه إياه فيهم مقدماً. ويتأخر من تأخر من الباقين بالتضمين لا بحكم القصد، فلا يكون مؤخراً إلا بالقصد ولا مقدماً إلا بالقصد، وكل من ما جاء من ذلك بحكم التضمين فما هو من هذه الحضرة من هذا الوجه، وهو منها من هذا الوجه الآخر الذي له التأخر لا بالحكم. فاجتمع المقصود مع غير المقصود في نفس التأخر والتقدم، فلهذا جاء المقدم والمؤخر في الأسماء الحسنى مزدوجاً.

الأول * حضرة الأولية

[نظم: الكامل]

سُبْحَانَ مَنْ جَمَعَ العِبَادَ لِذِكْرِهِ يوم العَرُوبَةِ فاصْطَفَاه الأوّلُ
خَتَمَ الإلٰهُ به وُجُودَ عِبَادِهِ شَرْعاً وعَقْلاً سادتي فتأوَّلوا
ما قلته فلقد أتيتُ بحِكْمَةٍ غرّاً جلاها المقام الأنْزَلُ
لما تَوَاضَعَ عن علوّ مكانه في ذاته أخفاه عنّا الأسْفَلُ
فهو المُهَيْمِنُ لا أشكّ وإنّه لهو الجَوَادُ على العباد المُفْضِلُ

يدعى صاحبها عبد الأوّل ويكنى غالباً أبو الوقت، لما حصل في النفوس من تقدم الزمان المسمى دهراً، الذي تفصله الأوقات، فكانت كنية عبد الأوّل أبا الوقت كما كانت كنية آدم أبو البشر، فالأوّل للأوقات أب لها كآدم لسائر الناس، فالحضرة الأولية بها ظهر كل أوّل من أشخاص كل نوع كآدم في نوع الإنسان وكجنة عدن من الجنات، وكالعقل الأوّل من الأرواح، وكالعرش من الأجسام، وكالماء من الأركان، وكالشكل المستدير من الأشكال، ثم ينزل الأمر إلى جزئيات العالم فيقال أوّل من تكلم في القدر بالبصرة معبد الجهني، وأوّل من رمى بسهم في سبيل الله سعد بن أبي وقاص، وأوّل شعر قيل في العالم الإنساني: [الوافر]

تَغَيَّرَتِ البلادُ ومَنْ عَلَيها فوَجْهُ الأرْضِ مُغْبَرٌّ قَبِيح

ويعزى هذا الشعر لآدم عليه السلام لما قتل قابيل أخاه هابيل فقال عليه السلام: «**مَا مِنْ قَتِيلٍ يُقْتَلُ ظُلْماً إلاّ كَانَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ كِفْلٌ مِنَ الوِزْرِ لأنَّهُ أوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ ظُلْماً**»، ولنا جزء في الأوّليات وهو جزء بديع عملته بملطية من بلاد يونان أو بمكة والله أعلم، وأوّل بيت وضع للناس معبداً الكعبة، وأوّل اسم إلٰهي في الرتبة الاسم الحيّ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الآخر * حضرة الآخر

[نظم: السريع]

والله ما الأوّلُ والآخِرُ إلا لحِفْظِ العالم الدَّائِرِ
فإنه يَعْجَزُ عن حِفْظِهِ لوَصْفِهِ المخلوق بالقاصِرِ
فكان بالآخر حِفْظاً له ليَلْتَقي الواحدُ بالآخِرِ

فـأمْـرُنـا دائـرةٌ كـلـه فـالْـتَـحَـقَ الأوّلُ بـالآخِـرِ
وإنّـه جَـلَّـى لـنـا ذاتَـهُ فـي صـورة الـبـاطـن والـظَّـاهـرِ

يدعى صاحبها عبد الآخر وحده من الثاني الذي يلي الأوّل إلى ما تحته فهو المسمى بالآخر، لأن له حكم التأخر عن الأوّلية بلا شك، وإن استحق الأوّلية هذا المتأخر فما تأخر عن الأوّل إلا لأمر أيسره وأبينه الزمان، لأن وجود الأهلية فيه من جميع الوجوه فيعلم أن الحكم في تأخيره وتقدم غيره للزمان كخلافة أبي بكر وعمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عن جميعهم، فما منهم واحد إلا وهو مترشح للتقدم والخلافة مؤهل لها، فلم يبق حكم لتقدم بعضهم على بعض فيها عند الله لفضل يعلم تطلبه الخلافة فما كان إلا الزمان، فلما كان في علم الله أن أبا بكر يموت قبل عمر وعمر يموت قبل عثمان وعثمان يموت قبل علي رضي الله عن جميعهم والكل له حرمة عند الله فجعل خلافة الجماعة كما وقع، فقدم من علم أن أجله يسبق أجل غيره من هؤلاء الأربعة، فما قدم من قدم منهم لكونه أكثر أهلية من المتأخر منهم في نظري والله أعلم. فالظاهر أنه من كون الآجال، فإنه لو بويع خليفتان قتل الآخر منهما للنص الوارد، فلو بايع الناس أحد الثلاثة دون أبي بكر ولا بد في علم الله أن يكون أبو بكر خليفة وخليفتان فلا يكون، فإن خلع أحد الثلاثة وولي أبو بكر كان عدم احترام في حق المخلوع ونسب الساعي في خلعه إلى أنه خلع من يستحقها ونسب إلى الهوى والظلم والتعدي في حقه، ولو لم يخلع لمات أبو بكر في أيامه دون أن يكون خليفة ولا بد له من الخلافة أن يليها في علم الله فلا بد من تقدمه لتقدم أجله قبل صاحبه، وكذلك تقدم عمر بن الخطاب وعثمان وعلي والحسن، فما تقدم من تقدم لكونه أحق بها من هؤلاء الباقين ولا تأخر من تأخر منهم عنها لعدم الأهلية، وما علم الناس ذلك إلا بعد أن بين الله ذلك بآجالهم وموتهم واحداً بعد آخر في خلافته أن التقدم إنما وقع بالآجال عندنا وفي نظرنا الظاهر أو بأمر آخر في علم الله لم نقف عليه، وحفظ الله المرتبة عليهم رضي الله عن جميعهم، فهذا من حكم التأخر والتقدم، ولله الأولية لأنه موجد كل شيء، ولله الآخرية فإنه قال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] وقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤] وقال: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣] فهو الآخر كما هو الأول، وما بين الأول والآخر تظهر مراتب الأسماء الإلٰهية كلها، فلا حكم للآخر إلا بالرجوع إليه في كل أمر فإذا كان الله الأول فالإنسان الكامل هو الآخر لأنه في الرتبة الثانية وهو الخليفة، وهو أيضاً الآخر بخلقه الطبيعي فإنه آخر المولدات لأن الله لما أراد به الخلافة والإمامة بدأ بإيجاد العالم وهيأه وسواه وعدله ورتبه مملكة قائمة، فلما استعد لقبول أن يكون مأموماً أنشأ الله جسم الإنسان الطبيعي ونفخ فيه من الروح الإلٰهي فخلقه على صورته لأجل الاستخلاف فظهر بجسمه فكان المسمى آدم فجعله في الأرض خليفة، وكان من أمره وحاله مع الملائكة ما ذكر الله في كتابه لنا، وجعل الإمامة في بنيه إلى يوم القيامة، فهو الآخر بالنسبة إلى الصورة الإلٰهية، والآخر أيضاً بالنسبة إلى الصورة الكونية الطبيعية، فهو آخر نفساً وجسماً، وهو الآخر برجوع أمر العالم إليه فهو

المقصود به عمرت الدنيا وقامت وإذا رحل عنها زالت الدنيا ومارت السماء وانتثرت النجوم وكورت الشمس وسيرت الجبال وعطلت العشار وسجرت البحار وذهبت الدار الدنيا بأسرها، وانتقلت العمارة إلى الدار الآخرة بانتقال الإنسان فعمرت الجنة والنار، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار، فالاسم الأول للأولى وهي الدار الدنيا، والاسم الآخر للأخرى وهي الآخرة، وإنما قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] لأن الآخر ما وراءه مرمى فهو الغاية، فمن حصل في درجته فإنه لا ينتقل، فله الثبوت والبقاء والدوام، والأول ليس كذلك فإنه ينتقل في المراتب حتى ينتهي إلى الآخر وهو الغاية فيقف عنده فلهذا قال له: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٤، ٥] فأعطاه صفة البقاء والدوام والنعيم الدائم الذي لا انتقال عنه ولا زوال، فهذا ما أعطاه حكم هذه الحضرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الظاهر * حضرة الظهور

[نظم: البسيط]

إنّ الظُّهورَ له شَرْطٌ يُؤَيِّدُهُ ... وليس يُظهِرُهُ إلا الذي غَلَبا
إن الفتاةَ التي في طَرْفِها حَوَرٌ ... تُفني الدُّموعَ وتُذكي قَلْبَنا لَهَبَا
فإن أَتَوْكَ وقالوا إنها نَصَفٌ ... فإن أفضَلَ نِصْفَيْها الذي ذَهَبَا
أنْقَدْتُها وَرِقاً حتى أفوزَ بها ... فمانَعَتْ فلهذا صُغْتُهُ ذَهَبَا
لو أنها ظهرتْ لكل ذي بَصَرٍ ... أعْمَى سناها لهذا عينها احْتَجَبَا

يدعى صاحبها عبد الظاهر، ويلقب بالظاهر بأمر الله هذه الحضرة له تعالى لأنه الظاهر لنفسه لا لخلقه فلا يدركه سواه، أصلاً، والذي تعطينا هذه الحضرة ظهور أحكام أسمائه الحسنى وظهور أحكام أعياننا في وجود الحق وهو من وراء ما ظهر، فلا أعياننا تدرك رؤية، ولا عين الحق تدرك رؤية، ولا أعيان أسمائه تدرك رؤية، ونحن لا نشك أنا قد أدركنا أمراً ما رؤية وهو الذي تشهده الأبصار منا، فما ذلك إلا الأحكام التي لأعياننا ظهرت لنا في وجود الحق فكان مظهراً لها، فظهرت أعياننا ظهور الصور في المرائي ما هي عين الرائي لما فيها من حكم المجلى، ولا هي عين المجلى لما فيها مما يخالف حكم المجلى، وما ثم أمر ثالث من خارج يقع عليه الإدراك وقد وقع، فما هو هذا المدرك؟ ومن هو هذا المدرك؟ فمن العالم ومن الحق ومن الظاهر ومن المظهر ومن المظيهر، فإن كانت النسب فالنسب أمور عدمية إلا أن علة الرؤية استعداد المرئي لقبول الإدراك، فيرى المعدوم سلمنا أن المعدوم يرى فمن الرائي فإن كان نسبة أيضاً فكما هو مستعد أن يرى يكون مستعداً أن يرى وإن لم يكن نسبة وكان أمراً وجودياً، فكما هو الرائي هو المرئي لأن الذي نراه يرانا، فإذا قلنا إنه نسبة من حيث إنه مرئي لنا فنقول: إنه أمر وجودي من حيث إنه يرانا كما قلنا فينا من حيث إنا ندركه فالأمر واحد، فقد حرنا فينا، وفيه، فمن نحن ومن هو؟ وقد قال له بعضنا: ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن

تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقال عن نفسه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] وخبره صدق. وقد أعلم أن بعض العالم يعلم أن الله يرى، ثم قال بآلة الاستدراك فعطف: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ ثم تجلى للجبل فاندك الجبل ولا أدري عن رؤية أو عن مقدمة رؤية لا بل عن مقدمة رؤية، وصعق موسى عن تلك المقدمة ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ﴾ أي رجعت إلى الحالة التي لم أكن سألتك فيها الرؤية ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي المصدقين بقولك: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ فإنه ما نزل هذا القول ابتداء إلا عليّ فأنا أول المؤمنين به، ثم يتبعني في الإيمان به من سمعه إلى يوم القيامة، فما ظهر لطالب الرؤية ولا للجبل لأنه لو رآه الجبل أو موسى لثبت ولم يندك ولا صعق فإنه تعالى الوجود فلا يعطي إلا الوجود لأن الخير كله بيديه والوجود هو الخير كله، فلما لم يكن مرئياً أثر الصعق والاندكاك وهي أحوال فناء والفناء شبيه بالعدم والحق لا يعدم عدم العين ولكن يكون عنه العدم الإضافي وهو الذهاب والانتقال فينقلك أو يذهبك من حال إلى حال مع وجود عينك في الحالين من مكان إلى مكان مع وجود عينك في كل واحد منهما وبينهما وهو قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣] فالإتيان بصفة القدرة والذهاب بالإرادة من حيث ما هو ذهاب خاصة، وهذه التفاصيل في غير مفصل لا يكون وليس من شأن المفصل الوجود فإنا نفصل المعدوم إلى محال وإلى ممكن مع كونه معدوماً.

وبقي الكلام فيمن يفصله والكلام عليه مثل الكلام في الرائي والمرئيّ وقد تقدم، فماذا نقول أو ما نعول عليه؟ فرأينا أن نترك الأمر على حاله كان ما كان، إذ الأغراض حاصلة والإدراكات واقعة واللذات حاكمة والشهود دائم والنعيم به قائم، ودع يكون ما يكون من عدم أو وجود أو حق أو خلق بعد أنه لا ينقصنا شيء مما نحتاج إليه لا نبالي، ولو وقع الإخبار الإلٰهي لكان الكلام فيه والنظر على ما هو عليه الآن لا يزيد الأمر ولا ينقص، فإنه إذا ورد فلا بد من سمع يتعلق به ذلك الخطاب وفهم ومدلول ومتكلم وسامع وهذا عين ما كنا فيه فترك ذلك أولى، ونقول ما يقول كل قائل فإن الأمر كله عين واحدة في الحيرة في ذلك فكله صدق ما هو باطل فإنه واقع في الذهن وفي العين وفي جميع الإدراكات، فالجنوح إلى السلم أولى بالإنسان ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾ [الأنفال: ٦١] يعني في الاعتبار والإشارات هذه الخواطر التي أدتك إلى النظر فيما أنت مستغن عنه فأنزلهم الحق هنا منزلة الأعداء لأهل الإشارات ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾ وهو الصلح بأن يترك الأمر على ما هو عليه ولا يخاض فيه فإنك إنما تخوض فيه لكونه آية من الله عليه وقد قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨] وليس إلا الاشتغال بما نأكل ونشرب وننكح ونتصرف فيه من الأعمال المشروعة التي تؤدي إلى السعادة الأخروية وما هذه الأمور؟ قلنا: لا ندري إنما نعمل كما أمرنا لنصل إلى ما قيل لنا فإنا ما كذبنا بل رأينا ما مضى كله حق لم يختل شيء منه كذلك ما بقي وقد جنحوا للسلم فأمرنا الله فقال لنبيه ﷺ ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١] فالعاقل يقول بالسمع والطاعة لأمر الله وهذه حالة معجلة وراحة: [المتقارب]

فليس الظُّهورُ سِوَى ما ظَهَرْ وليس البُطُونُ سوى ما اسْتَتَرْ
فأين الذهابُ وأين الإيابُ وأين القرارُ وأين المَفَرْ
فمِنَّا إليه ومنه إلينا وكُلٌّ بحكم القَضَا والقَدَرْ
فلا تَبْكِيَن على فائتٍ فما فات شيءٌ وما سَاءَ سَرْ
فما ثَمَّ إلا مُضافٌ وما يُضَافُ إليه فجُزْ واعْتَبِرْ
وقل ما تشاءُ على من تشاءُ فإن الوُجُودَ بهذا ظَهَرْ

والله تعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباطن * حضرة البطون

[نظم: البسيط]

السِّرُ ما بَطَنَتْ فيه حَقيقَتُهُ والجَهْرُ يُظْهِرُهُ لكل ذي بَصَرِ
لولا البُطُونُ ولولا سِرُّ حِكْمَتِهِ ما فَضَّلَ الله مخلوقاً على البَشَرِ
وما يفضله إلا سلامتُهُ من النَّقائِص والأوْهَام والغِيَرِ
لو نالَهُ أَحَدٌ من حيث نَشْأتُهُ لنالهُ أهلُ جُودِ الله بالفِكَرِ
لولا مباشرةُ الخَلاّق صُورَتَهُ لم يَدْرِ خَلْقٌ من الأملاك ما خَبَري
عَنَتْ لنا أوْجُهُ الأملاك ساجدة لما حَوَيْنا من الأرواح والصُّوَرِ
لذا تُقَلِّبُنا أحوالُهُ أبداً في نَفْع أن كان ذاك الأمْرُ أو ضَرَرِ

يدعى صاحبها عبد الباطن، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] فالبطون يختص بنا كما يختص به الظهور، وإن كان له البطون فليس هو باطن لنفسه ولا عن نفسه، كما أنه ليس ظاهراً لنا، فالبطون الذي وصف نفسه به إنما هو في حقنا، فلا يزال باطناً عن إدراكنا إياه حساً ومعنى فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ولا ندرك إلا الأمثال التي نهينا أن نضربها لله لجهلنا بالنسب التي بها هي أمثال. ولما كانت البطون محال التكوين والولادة وعنها ظهرت أعيان المولدات اتصف الحق بالباطن يقول إنه من كونه باطناً ظهر العالم عنه فنحن كنا مبطونين فيه، فخذ ذلك عقلاً لا وهماً، فإنك إن أخذته عقلاً قبله العلم الصحيح، وإن أخذته خيالاً ووهماً ردّ عليك قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [الإخلاص: ٣] ولا ينبغي للعاقل أن يشرع في أمر يمكن أن يردّ عليه مثل هذا، وإذا أخذته عقلاً دون تخيل وقعت على عين الأمر فإنه لا بدّ لنا من مستند نستند إليه في وجودنا لما أعطاه إمكاننا من وجود المرجح الذي رجح وجودنا على عدمنا، إلاّ أنه باطن عنا لعدم المناسبة بيننا، إذ نحن بعيننا وجملتنا وتفصيلنا محكوم علينا بالإمكان، فلو ناسبنا في أمر ما وذلك الأمر محكوم عليه بالإمكان لكان الحق محكوماً عليه بالإمكان وهو واجب لنفسه من حيث نفسه فارتفعت المناسبة، وإذا لم يناسبنا لم نناسبه فلنا الاستناد إليه لعدم المناسبة ومن وجه للمناسبة وله تعالى الغني عن العالم لأن محبته أن يعرف هي أنه لا يعرف فهذا حد معرفتنا به، إذ لو عرف لم يبطن وهو

الباطن الذي لا يظهر، كما أنه أيضاً في المأخذ الثاني أنه الباطن حيث هو في قلب عبده المؤمن الذي وسعه فهو باطن في العبد والعبد لا يشاهد باطنه فلا يشاهد ما هو مبطون فيه، فمن الوجهين ما نراه. ثم إنه إذا كان كما قال قوى العبد وسمعه وبصره والعبد يرى ببصره فيرى بربه ما يرى بصره ولا يرى شيئاً من قواه والحق جميع قواه فما يرى ربه وبهذا يفرق بين العلم والرؤية، فإنا نعلم بالإيمان ونوره في قلوبنا أنه قوانا ولا نشهد ذلك بصراً فنحن ندركه لا ندركه والأبصار لا تدركه، فإذا كان بصرنا فإنه في هذه الحالة لا يدرك نفسه لأنه في حجابنا إذ كان بصرنا، وإذا كان الأمر على هذا فبعيد أن ندركه، وأما قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فإن البصر إنما جاء ليدرك به لا أنه يدرك، ثم إنه في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ بضمير الغائب فالغيب غير مدرك بالبصر والشهود وهو الباطن، فإنه لو أدرك لم يكن غيباً ولا بطن ولكن يدرك الأبصار فإنه لا يلزم الغيبة من الطرفين ما يلزم من هو غائب عنك أن تكون غائباً عنه قد يكون ذلك وقد لا يكون، وفي مدلول هذه الآية أمر آخر وهو أنه يدرك تعالى نفسه بنفسه لأنه إذا كان بهويته بصر العبد ولا يقع الإدراك البصري إلاَّ بالبصر وهو عين البصر المضاف إلى العباد وقال: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ وهو عين الأبصار فقد أدرك نفسه ولهذا قلنا إنه يظهر أو هو ظاهر لنفسه ولا يبطن عن نفسه ثم تمّم الآية وقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] من حيث إنه لا تدركه الأبصار، واللطيف المعنى من حيث إنه يدرك الأبصار أي دركه للأبصار دركه لنفسه لأنه عينها، وهذا غاية اللطف والرقة الخبير يشير إلى علم الذوق أي لا يعرف هذا إلاَّ بالذوق لا ينفع فيه إقامة الدليل عليه إلاَّ أن يكون الدليل عليه في نفس الدال وليس سوى ذوقه، فيرى هذا العبد الذي بصره الحق نفسه بالحق، ويرى الحق ببصره لأنه عين بصره فأدرك الأمرين: [مجزوء الرجز]

فــكُــلُّ مــن فــيــه بَــطَــنْ ... فــإنــه فــيــه قَــطَــنْ
ولــيــس يــدري قَــوْلَــنَــا ... إلاَّ شــهــيــدٌ أو فَــطِــنْ
يــرى الــذي رأيــتُــهُ ... بــقَــلْــبــه رُؤْيَــةَ ظَــنْ
فــإنــه هــو الــذي ... يــراك مــن عَــيْــنِ الــجُــنَــنْ
وأنــت لا تُــبْــصِــرُهُ ... إلاَّ إذا لــم تَــكُــنْ

وهي الإشارة بقوله ﷺ في الحديث الصحيح من كتاب مسلم: «**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»: [المضارع]

فــإن لــم تَــكُــنْ تَــرَهُ ... وإن كُــنْــتَ لــم تَــرَهُ
ومــن كــان حُــكْــمُــهُ ... كــمــا قــلــت أبْــصَــرَهُ
فــذاتــي لــه وِطَــاءٌ ... وإن شِــئْــتَ مَــنْــظَــرَهُ
إذا كــان فــي وُجُــودي ... فــقــد صَــحَّ أَقْــبَــرَهُ
وإن صَــاحَــبَ الــوُجُــودَ ... فــقــد جــاء أَنْــشَــرَهُ

فقلوب العارفين مدافن الحق كما ظواهرهم مجاليه، وإنه في نفس قلوب عباده من

حيث إن قلوبهم محل العلم به، ثم إنهم لا يراعون حرمته ولا يقفون عند حدوده، فهو فيهم كالميت في قبره لا حكم له فيه بل الحكم للقبر فيه بكونه أكنه وستره عن أعين الناظرين، كذلك حكم الطبع إذا ظهر بخلاف الشرع، فإن الشرع ميت في حقّه في ذلك الزمان، وهكذا يظهر الحق في الرؤيا، ولقد رأيت رسول الله ﷺ في النوم ميتاً في موضع عاينته بالمسجد الجامع بإشبيلية فسألت عن ذلك الموضع فوجدته مغصوباً، فكان ذلك موت الشرع فيه حيث لم يتملك بوجه مشروع، فاستناد الموت والدفن إلى الحق في قلوب الغافلين فهو فيها كأنه لا فيها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

التواب * حضرة التوبة وهي الرجوع من المخالفة إلى الموافقة

[نظم: الوافر]

ألا إنَّ الـمَـتَـابَ هـو الـرُّجُـوعُ فـتُـبْ تَـرْجِـعْ لـتَـوْبَـتِـكَ الـشُّؤونُ
إذا تـابَـعْـتَ شـخـصـاً فـي فـلاةٍ فـأنـت لـمـا تُـتَـابِـعُـهُ تَـكُـونُ
وإن كـان الـظّـهـور لـه بـوَجْـهٍ فـمـن وَجْـهٍ يـكـونُ لـه الـكُـمُـونُ
لـه مـنـا الـتـحـرُّكُ فـي جـهـاتٍ ولـي مـنـه الإقـامـةُ والـسُّـكُـونُ
ولـيـس لـه سـواي مـن مُـعِـيـنٍ إذا شـاء الـمُـؤيّـدُ والـمُـعِـيـنُ

يدعى صاحبها عبد التواب، من هذه الحضرة تاب التائبون فله الرجعة الأولى، ثم تاب عليهم ليتوبوا فما رجع إليهم إلاّ ليرجعوا، وكل معلل عله الحق فإنه واقع، كما أنه كل ترج من الله واقع، فالرجعة الأولى من الله على العبد هي التي يعطيه الحق فيها الإنابة إليه، فإذا رجع العبد إليه بالتوبة رجع الحق إليه غير الرجوع الأوّل وهو الرجوع بالقبول، فإن الله لا يقبل معاصي عباده ويقبل التوبة والطاعات، وهذا من رحمته بعباده، فإنه لو قبل المعاصي لكانت عنده في حضرة المشاهدة كما هي الطاعات، فلا يشهد الحق من عباده إلاّ ما قبله ولا يقبل إلاّ الطاعات، فلا يرى من عباده إلاّ ما هو حسن محبوب عنده، ويعرض عن السيئات فلا يقبلها، فإن صاحب السيئة ما عملها على طريق القربة، ولو عملها على طريق القربة لكان جهلاً وافتراء على الله وكفراً صراحاً، فلا يقبلها حتى لا تكون عنده في موضع الشهود فيقع حساب العبد على ما أساء في الديوان الإلٰهي على أيدي الملائكة إذا أمر الحق بمحاسبته، وأمر الملائكة أصحاب الديوان أن يتجاوزوا عن المتجاوز، وأن الله طيب لا يقبل إلاّ طيباً، ولا بدّ لكل إنسان من أمر طيب يكون عليه، لأنه لا بدّ أن يكون على مكارم خلق بأي وجه كان، ومكارم الأخلاق كلها عند الله، فلا بدّ أن يكون لكل عبد عند الله شفيع، فإذا استوفى أهل ديوان المحاسبة ما بأيديهم في حق عبد من العباد وفعلوا فيه ما اقتضاه أمره معهم وفرغ من ذلك ورفع الأمر إلى الله راجعاً كما قال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] لا يجد العبد عند ربه إلاّ ما قبله منه، فشكره الله على ما عنده فأكرمه ونعّمه فيقول العبد: ربي أكرمني وما عنده علم بما قبل الله منه من طيب خلق كان عليه، وسواء كان في أي دار كان فإن له فيها

نعيماً مقيماً ما دام ذلك الطيب عند الله وهو لا يزال عند الله فلا يزال هذا العبد في نعيم في نفسه، وإن ظهر عند غيره أنه في عذاب فهو في نفسه في نعيم وهو المراد المعتبر في هذا الأمر، فإذا اتفق أن يؤخذ التائب فما يأخذه إلاّ الحكيم لا غيره من الأسماء، فإذا لم يؤاخذ فإنما يكون الحكم فيه للرحيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] بطائفة ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠] بطائفة، والكل نواب الحق تعالى: [مجزوء الخفيف]

تَـــوْبَـــةُ الله أوّلاً ... تَـجْـعَـلُ الـعَـبْـدَ تـائِـبَـا
فـإذا تـاب عَـبْـدُهُ ... جـعـل الـحـقّ تـائـبـا
فـيـكـون الـعُـبَـيْـدُ عـن ... صـفـة الـحَـقّ نـائـبـا
لـم يـزل حَـالُ كُـلِّ مَـنْ ... تَـابَ لـلـعَـفْـو طَـالَـبَـا
أعْـظَـمُ الـتَّـوْبِ أن يـ ... ـكـونَ عـن الـتَّـوْب راغـبـا
فـإذا كـنـت تـائـبـا ... كُـنْ عـن الـفـعـل جـانـبـا
تَـجِـدِ الـحَـقَّ فـي الـذي ... تَـبْـتَـغـي مـنـه وَاهِـبَـا

فالعبد الصحيح التوبة أن يتوب الله عليه لا ليتوب بل يجرم، وأنت تعفو تكرّماً، حتى لا يكون رجوعك بالمغفرة، على المذنب جزاء، فيكون هو الذي عاد على نفسه بالمغفرة منك، فأين المنة في الرجعة الثانية التي هي رجعة المغفرة إن لم تغفر من غير توبة من المذنب؟ فرجوع الله ينبغي أن يكون رجوع امتنان كالرجعة الأولى في قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١١٧] ليتوبوا فهذه الأولى توبة امتنان، فإذا تاب عليهم بالمغفرة بعد توبتهم كانت هذه التوبة الإلٰهية جزاء لا يتخلص الامتنان الإلٰهي فيها إلاّ على بعد، وهو أن يرجع العبد في توبته إلى التوبة الأولى الإلٰهية التي جعلته أن يتوب، وتوبة الامتنان أيسر من توبة الجزاء وهي توبة الجواد الواهب المحسان الذي يعطي لينعم، لا لعلة موجبة عقلاً ولا شرعاً، وهذه إشارة كافية لمن أراد التخلق بأخلاق الكرم، فمن كرمه كتب على نفسه الرحمة، فالكريم المطلق من جازى على السيئة إحساناً فإن المحسن هو الذي أخذ الإحسان بإحسانه فلا يتبين فضل المحسن فإنه ما على المحسنين من سبيل، فافهم وتحقق عسى تلحق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

العفو * حضرة العفو

[نظم: الطويل]

عَفَوْتَ عن الجاني وما زال عَفْوُنا ... يَسِيرُ بنا حتى أَنَخْنَا بِدَارِهِ
فلما أَنَخْنَا قال من ذا فقلتُ مَنْ ... حَقِيقٌ على جارٍ يقوم بجَارِهِ
فإن عَجِزَ المِسْكينُ عن حَقّ جاره ... فلم يبق إلاّ أن يكون بدَارِهِ
ولو أنه من كان فالحِفْظُ قائمٌ ... عليه به منه لبُعْدِ مَزَارِهِ
فأَنَّى له كالبَدْرِ عند امتلائه ... بنُور معاليه وعند سِرَارِهِ

يدعى صاحبها عبد العفوّ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠] هذه الحضرة تشبه حضرة الجلال لأنها تجمع الضدين وهذه تجمع بالدلالة بين القليل والكثير، هكذا هي في أصل وضع اللسان كالجليل يجمع بين العظيم والحقير، فالعفو الإلٰهي في جناب الحق كالقناعة وهي الاكتفاء بالموجود من غير مزيد، والكثير ما زاد على ما تدعو إليه الحاجة، فاتصاف الحضرة بالعفو أنها تعطي ما تقتضيه الحاجة لا بدّ من ذلك من كونه سخياً وحكيماً، ثم يزيد في العطاء من كونه منعماً مفضلاً غير محجور عليه، ولا تقضي عليه الحاجات بالاقتصار على ما يكون به الاكتفاء، فالعطاء للإنعام هو العطاء الحق عطاء الجود والمنة لا تحكم عليه العلل ولا يدخله ملل، فإنه قد ورد في الصحيح: «**إنَّ الله لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا فَإذا تَرَكْتُمْ تَرَكَ**» فمن أعطي بعد سؤاله وبذل ماء وجهه فإنما أعطي جزاء، ومن أعطي ليشكر فقد أعطي لعلة يعود خيرها عليه، ومن أعطي بعد الشكر فقد أعطي جزاء وفاقاً، وهذه التقييدات كلها تعطيها حضرة العفو والإطلاق فيها من غير تقييد تعطيه أيضاً حضرة العفو فلذلك يطلق على القليل والكثير، ومنه إعفاء اللحية فاختلف الناس في إعفائها ما أراد الشرع بهذه اللفظة هل أراد تكثيرها بأن لا يقص منها كما يقص من الشارب؟ وإذا لم يقص منها كثرت، وقد يريد أن يأخذ منها قليلاً بكونه قال ذلك عند قوله: «**احفُوا الشَّارِبَ وَأَعْفُوا اللِّحَى**» وإحفاء الشوارب استئصالها بالقص، فيحتمل إعفاء اللحية أن لا يستأصلها ويأخذ منها القليل، فمن فهم من هذا الحكم طلب الزينة الإلٰهية في قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢] نظر في لحيته فإن كانت الزينة في توفيرها وأن لا يأخذ منها شيئاً تركها، وإن كانت الزينة أظهر في أن يأخذ منها قليلاً حتى تكون معتدلة تليق بالوجه وتزينه أخذ منها على هذا الحد، وقد ورد: «**أن النبي ﷺ كان يأخذ من طول اللحية لا من عرضها**» فتوجه معنى العفو بالقلة والكثرة على اللحية. وأما في المؤاخذة على الذنوب فقال: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥] فيأخذ على القليل فيدل هذا العفو على أنه لا بدّ من المؤاخذة ولكن في قلة والقلة قد تكون بالزمان الصغير المدة، ثم يغفر الله ويجود بالإنعام ورفع الألم عن المذنب المسلم، وقد يكون بالحال فيقل عليه الآلام بالنظر إلى آلام هي أشد منها، أين قرصة البرغوث من لدغ الحية؟ ليس بين ألميهما نسبة وكل واحد منهما مؤلم لكن ثم ألم قليل وألم كثير، فأهل الاستحقاق وهم المجرمون المأمورون بأن يمتازوا وليس إلاَّ أهل النار الذين هم أهلها وهم المشركون لا عن نظر، فيكون أخذهم بالعفو في الزمان لأن زمان العقاب محصور، فإذا ارتفع بقي عليهم حكم الزمان الذي لا نهاية لأبده، فزمان عذابهم قليل بالإضافة إلى حكم الزمان الذي يؤول إليه أمرهم فهو عفوّ عزّ وجلّ بما يعطي من قليل العذاب، وهو عفوّ بما يعطي من كثير المغفرة والتجاوز، فإنه عزّ وجلّ قد أمرنا بالعفو والتجاوز والصفح عمّن أساء إلينا وهو أولى بهذه الصفة منا، ولذلك كان أجر العافين على الله لكونه عفوّاً غفوراً، وما قرن مغفرته حين أطلقها بتوبة ولا عمل صالح بل قال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] فبالغ وما خصّ إسرافاً من

إسراف ولا داراً من دار، فلا بدّ من شمول الرحمة والمغفرة على من أسرف على نفسه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الرؤوف * حضرة الرأفة

[نظم: الطويل]

رَؤُوفٌ رَحِيمٌ لا يكون مُؤاخِذاً عُبَيْداً أتاه راجياً مُتَلَهِّفَا

مِنَ أجْل ذُنُوبٍ قد أتاها بغَفْلَةٍ ولو كانت الأخرى أتى مُتَكَلِّفَا

فإن شئت عفواً لا تؤاخذه إنه أتى مُسْتجيراً سائلاً مُتَكَفِّفَا

وما جاء إلا من غنى سؤاله لذاك يراه سائلاً مُتَلَطِّفَا

فيَقْنَعُ منا باليسير لفَقْرنا فنَثْرَى له من كونه مُتَعَفِّفَا

هي لعبد الرؤوف، وصف الحق عبده محمداً ﷺ بأنه ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] فقيده بالإيمان ولم يقيد الإيمان فهذا تقييد في إطلاق، فإنه قال في الإيمان إنه مؤمن صاحبه بالحق والباطل وهو قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦] وذكر ما ذكر فسمّاهم مؤمنين وما كانوا مؤمنين إلاّ بالباطل، فأمرهم أن يؤمنوا بالله وهو الحق ورسوله والكتاب الذي أنزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل، فدلّ على أنه ما خاطب أهل الكتاب فقط فإنه أمرهم بالإيمان بالكتاب الذي أنزل من قبل ولا شك أنهم به مؤمنون أعني علماء أهل الكتاب، ثم قيّد الكفر هنا ولم يقيد الإيمان فقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦] فقيد في الذكر ما أمر به عبده أن يؤمن به وما تعرض في الذكر للكفر المطلق كما أطلق الإيمان ونعتهم به في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وما كانوا مؤمنين إلاّ بالباطل، فإن المؤمن بالله لا يقال له آمن بالله فإنه به مؤمن وإن احتمل أن يؤمن به لقول هذا الرسول الخاص على طريق القربة، ولكن التحقيق في ذلك ما ذهبنا إليه ولا سيما والحق قد أطلق اسم الإيمان على من آمن بالباطل واسم الكفر على من كفر بالطاغوت.

واعلم أن الرأفة من القلوب مثل جبذ وجذب كذلك رأف ورفأ وهو من الإصلاح والالتئام، فالرأفة التئام الرحمة بالعباد ولذلك نهى عنها في إقامة الحدود لا كل الحدود، وإنما ذلك في حد الزاني والزانية إذا كانا بكرين إلاّ عند من يرى الجمع بين الحدين على الثيب، وأكثر العلماء على خلاف هذا القول، وليس المقصود إلاّ قوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم﴾ يعني ولاة الأمر ﴿بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ ودين الله جزاؤه ثم قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فخص لأنه ثم من يؤمن بالباطل ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [النور: ٢] يقول: إقامة الله حدوده في اليوم الآخر كأنه يقول لولاة الأمر: طهّروا عبادي في الدنيا قبل أن يفضحوا على رؤوس الأشهاد، ولذلك قال في هؤلاء: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] ينبّه أن أخذهم في الآخرة على رؤوس الأشهاد فتعظم الفضيحة، فإقامة الحدود في الدنيا أستر، فأمر الوالي بإقامة الحد نكالاً من الزاني كما هو نكال في حق السارق وبين ذلك فطهارته كما قال: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ﴾

[البقرة: ١٢٥] كذلك إقامة الحد إذا لم يكن نكالاً فإنه طهارة وإن كان نكالاً فلا بدّ فيه من معقول الطهارة لأنه يسقط عنه في الآخرة بقدر ما أخذ به في الدنيا، فسقط عن الزاني النكال وما سقط عن السارق، فإن السارق قطعت يده وبقي مقيداً بما سرق لأنه مال الغير فقطع يده زجر وردع لما يستقبل، وبقي حق الغير عليه فلذلك جعله نكالاً، والنكل القيد فما زال من القيد مع قطع يده، وما تعرض في حد الزاني إلى شيء من ذلك، وقد ورد في الخبر: «أنَّ مَا سُكِتَ عَنِ الحُكْم فِيهِ بِمَنْطُوقٍ فَهُوَ عَافِيَةٌ» أي دارس لا أثر له ولا مؤاخذة فيه، فإن الله قد بيّن للناس ما نزل إليهم من الأحكام في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

الوالي * حضرة الإمامة

[نظم: البسيط]

إن الإمام هو الوالي فلا تَكْنِني ... فإنني عالِمٌ بما بَدَا مِنِّي
هذا الذي قُلْتُهُ لكم أقولُ به ... في كل حال أكونُ فيه لا أَكْنِي

يدعى صاحبها عبد الوالي، وعبد الولي، وعبد الوالي هو الذي يلي الأمور بنفسه، فإن وليها غيره بأمره فليس بوال ولا إمام، وإنما الوالي والإمام هو المنصوب للولاية، وإنما سمّي والياً لأنه يوالي الأمر من غير إهمال لأمر ما ممّا له عليه ولاية، وإن لم يفعل فليس بوال وإنما هو حاكم هوى وقد قيل له: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] فأنفاس الوالي وحركاته وتصرّفاته عليه معدودة، والوالي لا يكون أبداً إلاَّ في الخير لا بدّ من ذلك فإنه موجد على الدوام، فلا تراه أبداً إلاَّ في فضل وإنعام وإقامة حد لتطهير والتطهير خير، فإن الوالي على الحقيقة هو الله، فإن المنصوب للولاية بحكم الله يحكم وبما أراه الله وهو الحق، وقد أخبر الرسول ﷺ في دعائه معلماً إيانا فقال: «**وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ**» فلا يوالي إلاَّ الخير ولا يأمر إلاَّ بالخير، ولا يكون عنه في العقوبة والمثوبة إلاَّ الخير. ثم قال: «**وَالشَّرُّ لَيسَ إلَيْكَ**» فالوالي لا يوالي الشرّ بل لا يفعله أصلاً لأنه ليس إليه، فالوالي إذا كان من نصب الحق فالشرّ ليس إليه إلاَّ إذا ترك ولاية الحق وحكم بالهوى فضل عن سبيل الله فله عذاب شديد بما نسي يوم الحساب، فيكون ديوان الحكم الإلهي يأخذه إذا حاسبه، فالشقيّ من تأخّر تطهيره إلى ذلك المقام الأخراوي، والسعيد من تقدم تطهيره في الدنيا إما بتوبة يتوبها وإما بإنصاف وأخذ منه في الدنيا حتى ينقلب إلى الآخرة وليس عليه حق، وربما يكون ممّن يمشي في الدار الدنيا وما عليه خطيئة لكثرة ما يبتليه الله به ممّا يقع له به الكفارة: [مجزوء الوافر]

فَوَالي الحَقِّ من وَالَى ... جَمِيعَ الخَيْرِ في نَسَقِ
فما يَنْفَكُّ عن طَبَقٍ ... بغير الحُكْمِ في طَبَقِ
له نُورٌ إذا يُفْضِي ... كنُورِ البَدْرِ في الغَسَقِ
إذا غَسَقَتْ مسائِلُهُ ... أتى في الحكم كالفَلَقِ
فَجَلَّى عنك ظُلْمَتَها ... وما تَلْقَى من الحَرَقِ

وأيضاً: [السريع]

تَعَوَّذُوا بالله رَبِّ الفَلَقْ … من شَرّ دَيْجُورٍ إذا ما غَسَقْ
فإنه آلَى علينا كما … آلى لمن قد جاءنا بالشَّفَقْ
ولَيْلُهُ المظلمُ مهما وَسَقْ … والقَمَر العالي إذا ما اتَّسَقْ
لتَرْكَبُنَّ اليوم في ذاتكم … عند شهودي طَبَقاً عن طَبَقْ
فالحمد لله على ما خَلَقْ … وأَخْلَقَ الخَلْقَ الذي قد خَلَقْ
أَوْجَدَنَا ماءً إلى نُطْفَةٍ … مكنونةٍ في مُضْغة من عَلَقْ
أَوْدَعَ فيها ولديها بنا … جميع ما اختصّ بنا من عَلَقْ

وقد نصحتك أيها الوالي المتعالي، فلا تغل في الدين، ولا تقل على الله إلاَّ الحق ولا على الخلق إلاَّ الحق فإنك المطلوب بما أنت وال عليه وعنه: [مجزوء الرمل]

فإذا وُلِّيتَ أمْراً … فَلْتَقُمْ فيه بحَقّ
إنما الوالي بحَقٍّ … هو في مَقْعَد صِدْقِ
فتراه بين حَقّ … حاكماً وبين خَلْقِ
رُتْبَة يَسْمُو إليها … كُلُّ ذي عَقْل ونُطْقِ
هو للفناء مُفْنٍ … وهو للبقاء مُبْقِ
فإذا أفْنَى فناءً … جاء حكم الضِّدِّ يُبْقي

قال الله تعالى لخليله إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ابتداء منه من غير طلب من إبراهيم عليه السلام ليكون معنا مسدداً وعلمنا أنه ليس بظالم قطعاً لأن الإمامة عهد من الله، وقال إبراهيم لربه تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] فأمرنا الحق أن نتبع ملة إبراهيم لأن العصمة مقرونة بها، فإن رسول الله ﷺ قد نبّه على أنه من طلب الإمارة وكل إليها، ومن أعطيها من غير مسألة أعين عليها وبعث الله ملكاً يسدده، والملك معصوم من الخطأ في الأحكام المشروعة في عالم التكليف، فكان الخليل حنيفاً أي مائلاً إلى الحق مسلماً منقاداً إليه في كل أمر، فكان يوالي الخير حيثما كان، قالوا لي: الكامل من والى بين الأسماء الإلهية فيحكم بينها بالحق كما يحكم الوالي الكامل الولاية من البشر بين الملأ الأعلى إذ يختصمون، ولهذا أمروا بالسجود لآدم عليه السلام، فإن الاعتراض خصام في المعنى والخصم قوي، فلما أعطي الإمامة والخلافة وسجدت له الملائكة وعوقب من أساء الأدب عليه وتكبّر عليه بنشأته وأبان عن رتبة نفسه بأنها عين نشأته فجهل نفسه أوّلاً فكان بغيره أجهل، ولا شك أن هذا المقام يعطي الزهو والافتخار لعلوّ المرتبة، والزهو والفخر داء معضل وإن كان بالله تعالى، فأنزل الله لهذا الداء دواء شافياً، فأمر الإمام بالسجود للكعبة، فلما شرب هذا الدواء برىء من علة الزهو، وعلم أن الله يفعل ما يريد، وما تقدم على من تقدم عليه من الملائكة بالصفة التي أعطاه الله لعلوّ رتبته على الملائكة، وإنما كان ذلك تأديباً من الله لملائكته في اعتراضهم وهو على ما هو عليه من البشرية، كما أنه قد علم أنه ما سجد

للكعبة لكون هذا البيت أشرف منه وإنما كان دواء لعلة هذه الرتبة، فكان الله حفظ على آدم صحته قبل قيام العلة به فإنه من الطب حفظ الصحة وهو أن يحفظ المحل أن يقوم به مرض لأنه في منصب الاستعداد لقبول المرض، وقد علم أنه وإن سجد للبيت فإنه أتم من البيت في رتبته، فعلم أن الملائكة ما سجدت له لفضله عليهم وإنما سجدت لأمر الله، وما أمرها الله إلاّ عناية بها لما وقع منهم ممّا يوجب وهنهم، ولكن لما لم يقصدوا بذلك إلاّ الخير اعتنى الله بهم في سرعة تركيب الدواء لهم بما علمهم آدم من الأسماء وبما أمروا به من السجود له وكل له مقام معلوم، أمرت الملائكة بالسجود فامتثلت وبادرت فأثنى الله عليهم بقوله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ونهى آدم فعصى فلما غوى أي خاف قال الشاعر: [الطويل]

ومَنْ يَغْوَ لا يقدم على الغَيِّ لائماً ثـم اجْتَبَاهُ ربه فتابَ عليه وهَدَى[1]

الجامع * حضرة الجمع

[نظم: مجزوء الرجز]

إنـمـا الـجَـمْـعُ وُجُـودٌ لـيـس فـي الـجَـمْـع افْـتِـرَاقُ
إنـمـا الـفَـرْقُ الـذي فـيـه لـه بـنـا اتِّـفـاقُ
فـلـه فـي الـحُـكْـم فـيـنـا مـن وجـودنـا اشْـتِـقَـاقُ
ولـنـا عـلـيـه حُـكْـمٌ قَـيْـدُهُ فـيـه انْـطِـلاقُ

يدعى صاحبها عبد الجامع، قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩] فهو في نفسه جامع علمه العالم علمه بنفسه فخرج العالم على صورته فلذلك قلنا إن الحق عين الوجود. من هذه الحضرة جمع العالم كله على تسبيحه بحمده وعلى السجود له إلاّ كثير من الناس ممّن حق عليه العذاب، فسجد لله في صورة غير مشروعة فأخذ بذلك مع أنه ما سجد إلاّ لله في المعنى فافهم. ومن هذه الحضرة ظهر جنس الأجناس وهو المعلوم ثم المذكور ثم الشيء، فجنس الأجناس هو الجنس الأعمّ الذي لم يخرج عنه معلوم أصلاً لا خلق ولا حق ولا ممكن ولا واجب ولا محال، ثم انقسم الجنس الأعمّ إلى أنواع تلك الأنواع نوع لما فوقها وجنس لما تحتها من الأنواع إلى أن تنتهي إلى النوع الأخير الذي لا نوع بعده إلاّ بالصفات، وهنا تظهر أعيان الأشخاص، وكل ذلك جمع دون جمع من هذه الحضرة، وأقل الجموع اثنان فصاعداً ولم يكن الأمر جمعاً ما ظهر حكم كثرة الأسماء والصفات والنسب والإضافات والعدد، وإن كانت الأحدية تصحب كل جمع فلا بدّ من الجمع في الأحد، ولا بدّ من الأحد في الجمع فكل واحد بصاحبه. وقال تعالى من هذه الحضرة: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] والمعية صحبة والصحبة جمع، وقال: ﴿مَا

(١) الشطر الثاني مختلّ والوزن الشطر الأول من الطويل.

يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ وهو الواحد ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ إلى ما لا يتناهى ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] فإن كان واحداً فهو الثاني له لأنه معه فظهر الجمع به فهو الجامع، ثم ما زاد على واحد فهو مع ذلك المجموع من غير لفظه، أي لا يقال هو ثالث ثلاثة وإنما يقال ثالث اثنين ورابع ثلاثة وخامس أربعة لأنه ليس من جنس ما أضيف إليه بوجه من الوجوه لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ولما كانت هذه الحضرة لها الدوام في الجمعية ولا تعقل إلاَّ جامعة وما لها أثر إلاَّ الجمع وما تفرق إلاَّ لتجمع وقد علمت أن الدليل يضادّ المدلول وأن الدال وهو الناظر في الدليل إذا كان فيه ومعه مجتمعاً لا يكون مع المدلول، ودليلك على الحق نفسك والعالم كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ أي الدلالة علينا ﴿فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] وقال: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» جعلك دليلاً عليه فجمعك بك وفرقك عنه في حال جمعك بك، ثم قال لأبي يزيد: اترك نفسك وتعال ففرقك عنك لتجتمع به ولا تجتمع به حتى تنظر في الدليل به لا بك فتعلم أنك ما زلت مجتمعاً به في حال نظرك في الدليل فإنه سمعك وبصرك، فأنت وهو مجتمعان في حال طلبك إياه، فمن تطلب أو من يطلب فما برحت في عين الجمع به وهو الجامع لنفسه بك لمحبته فيك، وهذا من أعجب الأحوال الطلب في عين التحصيل:

[مجزوء الخفيف]

إنـمـا الـحـالُ مَـلْـعَـبُ ... ولـنـا فـيـه مَـذْهَـبُ
هـو مَـيْـدَانُـنـا الـذي ... فـيـه نَـلْـهُـو ونَـلْـعَـبُ
وبـه نَـنْـكِـحُ الـعَـذَا ... رَى ونَـسْـقـي ونَـشْـرَبُ
فـانْـظُـروا فـي صَـنِـيـعـه ... واعْـجَـبُـوا مـنـه واعْـجَـبُـوا
مـا لـنـا فـيـه مَـطْـلَـبُ ... ولـه فـيّ مَـطْـلَـبُ

لما كان الدوام لمعية الحق مع العالم لم يزل حكم الجمع في الوجود وفي العدم فإنه مع الممكن في حال عدمه كما هو معه في حال وجوده فأينما كنا فالله معنا، فالتوحيد معقول غير موجود، والجمع موجود ومعقول، وللرجال عليهن درجة وليست إلاَّ درجة الوجود لو أراد التوحيد ما أوجد العالم وهو يعلم أنه إذا أوجده أشرك به ثم أمره بتوحيده فما عاد عليه إلاَّ فعله، فقد كان ولا شيء معه يتصف بالوجود، فهو أوّل من سنّ الشرك لأنه أشرك معه العالم في الوجود، فما فتح العالم عينه ولا أبصر نفسه إلاَّ شريكاً في الوجود، فليس له في التوحيد ذوق فمن أين يعرفه؟ فلما قيل له وحد خالقك لم يفهم هذا الخطاب فكرر عليه وأكد وقيل له عن الواحد صدرت فقال: ما أدري ما تقول لا أعقل إلاَّ الاشتراك فإن صدوري عن ذات واحدة لا نسبة بيني وبينها لا يصحّ، فلا بدّ أن يكون مع نسبة علمية أو نسبة قادرية لا بدّ من ذلك، ثم إنه وإن كان قادراً فلا بدّ من الاشتراك الثاني وهو أن يكون لي من ذاتي القبول لاقتداره وتأثيره في وجودي، فما صدرت عن واحد وإنما صدرت عن ذات قادرة في شيء

قابل لأثر اقتداره أو في مذهب أصحاب العلل عن حكم علة وقبول معلول فلم أدر للوحدة طعماً في الوجود: [الطويل]

فقد رُمْتُ أن أخْلُو بتَوْحيد خالقي ... فكان قَبُولي مانعاً ما أرُومُه
فيا ليت شعري هل يقام بمَشْهَدٍ ... ويا ليت شعري هل أرى من يُقِيمُه
لقد رُمْتُ أمْراً لا سبيل لنَيْلِهِ ... ويمنعُ عن تحصيل ذاك رُسُومُه

ألا تراه كيف نبّه على أن الأمر جمع وأنه جامع بقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] وعلم أن نفسه شيء فخلق آدم على صورته فكان آدم زوجين، ثم خلق منه حواء لا من غيره ليعلمه بأصل خلقه ومن زوّجه ومن زوجه فما زاد بخلقه حواء منه على زوجيته بالصورة التي خلق عليها، وتلك الصورة الزوجية أظهرت حواء، فكانت أول مولد عن هذه الزوجية كما خلق آدم بيديه فكان عن زوجية يد الاقتدار ويد القبول وبهما ظهر آدم: [مخلع البسيط]

وكان فَرْداً فصار زَوْجَا ... ماجَ به في المَخَاض مَوْجَا
كان حَضِيضاً بقَاعِ طَبْعٍ ... فصار بالنَّفْخ فيه أَوْجَا
أقامني سَيِّداً فجاءتْ ... وُفُودُهُ لي فوجاً ففَوْجَا

فيا أيها الموحد أين تذهب وأنت توحد توحيدك يشهد بأنك أشركت، إذ لا يثبت توحيد إلاَّ من موحد وموحد، فالجمع لا بدّ منه فالاشتراك لا بدّ منه، فما استند المشرك إلاَّ لركن قوي، ولهذا كان مآله إلى الرحمة في دار تقتضي بذاتها الغضب حتى يظهر سلطان الرحمة الأقوى لأن دار النعيم معين قال الشاعر: أحلى من الأمن عند الخائف الوجل. فلا يعرف طعم الأمان ذوقاً من هو فيه مصاحب له، وإنما يعرف قدره من ورد عليه وهو في حال خوف فيجد طعمه لوروده، ولهذا نعيم الجنة يتجدد مع الأنفاس كما هو نعيم الدنيا إلاَّ أنه في الآخرة يحسّ به من يتجدد عليه ويشاهد خلق الأمثال فيه وفي الدنيا لا يشاهد خلق الأمثال فيه ولا يحسّ به ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] فلذة أصحاب الجحيم عظيمة لمشاهدة الدار، وحكم الأمان من حكمها فيه ليس العجب من ورد في بستان وإنما العجب من ورد في قعر النيران إبراهيم الخليل عليه السلام في وسط النار يتنعم ويلتذ، ولو لم يكن عليه السلام إلاَّ في حمايتها إياه من الوصول إليه فالأعداء يرونها في أعينهم ناراً تأجج وهو يجدها بأمر الله إياها برداً وسلاماً عليه، فأعداؤه ينظرون إليه ولا يقدرون على الهجوم عليه، انظر إلى الجنة محفوفة بالمكاره وهل جعل الله ذلك إلاَّ ليتضاعف النعيم على أهلها فإن نعيم النجاة والفوز من أعظم النعم: [الطويل]

فما خُلِقَ الإنسانُ إلاَّ ليَنْعَمَا ... وما أُشْهِدَ الإنسانُ إلاَّ ليَعْلَمَا
بأن وُجُودَ الحَقّ في الخَلْق مُودَعٌ ... وهل كان هذا الوجودُ إلا تَكَرُّمَا
فيَنْعَمُ بالتعذيب فيها جماعةٌ ... ولولا شُهُودُ الضِّدِّ ما كان مُسلما

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الغني * حضرة الغنى والإغناء

[نظم: الطويل]

ألا إنّـمـا الـمُـغْـنـي الـغَـنِـيُّ لـذاتِـهِ ... ومـا كـان فـيـه مـن جَـمِـيـلِ صِـفَـاتِـهِ
فـلـو أن عـيـن الـعَـبْـدِ كـان بـكَـوْنـه ... لـجـلـت مـعـالـيـه لِـكُـثْـرِ هِـبَـاتِـهِ
ولـكـنَّ عَـيْـنَ الـحَـقّ أفْـنَـتْ وجُـودَهـا ... فـلـلّـه مـا يُـبْـديـه مـن كَـلِـمَـاتِـهِ
أقـول وقـولـي صـادقٌ غَـيْـرُ كـاذب ... لـقـد رُمْـتُ أن أحْـظَـى بـسِـرِّ مـنـاتِـهِ
فـيـعـبُـدُنـي مـن كـان بـالـحـق عـارفـاً ... فـأَجْـزيـه بـالإحـسـان قـبـل وَفَـاتِـهِ

يدعى صاحبها عبد الغني وعبد المغني. قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨] وقال رسول الله ﷺ من هذه الحضرة: «لَيسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ لَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ» ترى التاجر عنده من المال ما يفي بعمره وعمر ألزامه لو عاش إلى انقضاء الدنيا وما عنده في نفسه من الغنى شيء بل هو من الفقر إلى غاية الحاجة، بحيث أن يرد بماله موارد الهلاك في طلب سدّ الخلة التي في نفسه عسى يستغني فما يستغني بل لا يزال في طلب الغنى الذي هو غنى النفس ولا يشعر. فاعلم أن أوّل درجة الغنى القناعة والاكتفاء بالموجود، فلا غنى إلا غنى النفس، ولا غنيّ إلاّ من أعطاه الله غنى النفس، فليس الغنى ما تراه من كثرة المال مع وجود طلب الزيادة من رب المال فالفقر حاكم عليه، فالإنسان فقير بالذات لأنه ممكن وهو غنيّ بالعرض لأنه غنيّ بالصورة وذلك أمر عرض له بالنسبة إليه وإن كان مقصوداً للحق، فللإنسان وجهان إذا كان كاملاً: وجه افتقار إلى الله ووجه غنى إلى العالم، فيستقبل العالم بالغنى عنه ويستقبل ربّه بالافتقار إليه، ولهذين الوجهين قيل إنه لا يكون عند الله وجيهاً لأنه لا يكون عند الله أبداً إلاّ فقيراً ذليلاً، ويكون عند العالم وجيهاً أي غنياً عزيزاً. وأما الإنسان الحيوان الذي لا معرفة له بربه فهو فقير إلى العالم أبداً، وإن كانت الغيرة الإلٰهية قد أزالت الافتقار إلى العالم من العالم بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] فمن ذاق طعم الغنى عن العالم وهو يراه عالماً لا بدّ من هذا الشرط فقد حصل على نصيب وافر من الغنى الإلٰهي إلاّ أنه محجوب عن المقام الأرفع في حقه لأن العالم مشهود له ولهذا اتصف بالغنى عنه، فلو كان الحق مشهوده وهو ناظر إلى العالم لاتصف بالفقر إلى الله وحاز المقام الأعلى في حقه وهو ملازمة الفقر إلى الله لأن في ذلك ملازمة ربه عزّ وجلّ. وأما الاستغناء فإنه يؤذن بالقرب المفرط وهو حجاب كالبعد المفرط، ومن وقف على سرّ وجود العالم من حيث إيجاد الله إياه عرف ما أشرنا إليه، فإذا كان العارف على قدر معلوم بين القرب والبعد حصل المطلوب وكان في ذلك الشرف التام للإنسان إذ كان الشرف لا يحصل إلاّ لأهل البرازخ الجامعين الطرفين قد علمنا إيماناً أن الله أقرب إلينا من حبل الوريد ولكن لا نبصره لهذا القرب المفرط، وقد علمنا إيماناً أنه على العرش استوى فلا نبصره لهذا البعد المفرط عادة أيضاً، فمن شاهد الحق ورآه فإنما يشاهده في معينه من قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]

هذا حدّ رؤيته هنا، ولا يشاهد متى شوهد إلاّ من هذا المقام وبهذه الصفة لا بدّ من ذلك، فإذا أغناك فقد أبعدك في غاية القرب، وإذا أفقرك فقد قرّبك في غاية البعد: [مجزوء الوافر]

فـيـا مَـنْ قُـرْبُـهُ بُـعْـدٌ ... ويـا مـن بُـعْـدُهُ قُـرْبُ
أَقِـلْـنـي مـن هَـوَى نَـفْـسـي ... فـإنـي الـوَالِـهُ الـصَّـبُّ
وإنـي هـائـمٌ فـيـه ... قـد اسْـتَـعْـبَـدَنـي الـحُـبُّ
ولا مَـطْـلـب لـي إلاّ الـ ... ـذي يَـرْضَـى بـه الـحِـبُّ
إذا أحْـبَـبْـتَ مَـحْـبُـوبـاً ... لـه الـنَّـخْـوةُ والـعُـجْـبُ
فـلا تَـعْـجَـبْ فـلا تُـحْـجَـبْ ... فـقـلـبـي لـلـهـوى قَـلْـبُ

ومن هذه الحضرة ظهر الغنى في العالم الذي يحوي على الفقر والخوف مع ما فيه من الزهو والفخر، أما ما فيه من الفقر فلطلب الزيادة، وأما ما فيه من الخوف فهو الفزع من تلف ما بيده والحوطة عليه، وأما ما فيه من الزهو والفخر فهو ما يشاهده من الطالبين رفده وسعي الناس في تحصيل مثل ما عنده، فمن هو بين غنى وفقر كيف يفتخر، فالفقر لا يتركه يفرح والغنى لا يتركه يحزن فقد تعرّى بهذين الحكمين من هاتين الصفتين، فأغنى الأغنياء من استغنى بالله عن الأغنياء بالله ولو لم يكن عنده قوت يومه مع أنه يحزن من جهة من كلفه الله النظر في تحصيل ما يقوم بهم ويقوّتهم من أهله، وما يهتم بذلك إلى متشرّع أديب عانق الأدب وعرف قدر ما شرع له من ذلك، فإن طريق الأدباء طريق خفية لا يشعر بها إلاّ الراسخون في العلم المحققون بحقائق الفهم عن الله، فكما أن الله ليس بغافل عمّا يحتاج إليه عباده كذلك أهل الله لا يغفلون عمّا قال لهم الحق احضروا معه ولا تغفلوا عنه، فترى الكامل حريصاً على طلب مؤنة أهله، فيتخيل المحجوب أن ذلك الحرص منه لضعف يقينه وكذلك في ادخاره وليس ذلك منه إلاّ ليوفي الأدب حقّه مع الله فيما حدّ له من الوقوف عنده، فالعالم من لا يطفىء نور علمه نور ورعه ولا يحول بينه وبين أدبه، فمن تعدّى حدود الله فقد ظلم نفسه، ومن ظلم نفسه كان لغيره أظلم، ألا ترى إلى ما في هذه الحضرة من العجب أن المشاهد غنى الحق الذي هو صفته في غنى العالم، فلا يشهد إلاّ حقاً ولا يكون القبول والإقبال إلاّ على صفة حق، كيف يعتب على ذلك من هو بهذه المثابة؟ فقيل له: أما من استغنى فأنت له تصدّى، وقد علم تعالىٰ لما تصدّى ولمن تصدى فإن الله بكل شيء عليم: [مخلع البسيط]

فـمـا تَـصَـدَّى إلا بـحَـقٍّ ... ولا تَـصَـدَّى إلاّ لـحَـقِّ
ومـا أتـاه لـعـتـاب لا ... لـكـونـه ظـاهـراً بـخَـلْـقِ
فـمـن تَـجَـلَّـى بـكـل مُـجْـلَـى ... حـاز بـمـجـلاه كـلَّ أُفْـقِ

فاحذر هذه الحضرة فإن فيها مكراً خفياً واستدراجاً لطيفاً، فإن الغني معظم في العموم حيث ظهر وفيمن ظهر، والخصوص ما لهم نظر إلاّ في الفقر فإنه شرفهم، فلا يبرحون في شهود دائم مع الله ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] وما راعى الحق في عتبه

لرسوله ﷺ إلاّ جهل من جهل من الحاضرين أو من يبلغه ذلك من الناس بمن تصدّى له رسول الله ﷺ، فلو عرفوا الأمر الذي تصدّى له رسول الله ﷺ ما عاتبه ولا كان يصدر منهم ما صدر من الأنفة من مجالسته ﷺ الأعبد، فهل هذا إلاّ من ذهولهم عن عبوديتهم للذي اتخذوه إلٰهاً، وما تلهى رسول الله ﷺ عن الأعمى إلاّ لحبه في الفأل وما جاء الله تعالى بالأعمى إلاّ لبيان حال مخبر رسول الله ﷺ بعمى هؤلاء الرؤساء وعلم بذلك رسول الله ﷺ ولكن وقف مع حرصه على إيمانهم والوفاء بالتبليغ الذي أمره الله به، ولأن صفة الفقر صفة نفس المخلوق، وقد علم ﷺ أنه الدليل فإن الدليل لا يجتمع هو والمدلول وهو دليل على غنى الحق وقد تجلّى في صورة هؤلاء الرؤساء، فلا بدّ من وقوع الإعراض عن الأعمىٰ والإقبال على أولئك الأغنياء، ومع هذا كله وقع العتاب جبراً للأعمىٰ وتعريفاً بجهل أولئك الأغنياء، فجبر الله قلب الأعمىٰ، وأنزل الأغنياء عما كان في نفوسهم من طلب العلو في الأرض فانكسروا لذلك ونزلوا عن كبريائهم بقدر ما حصل في نفوسهم من ذلك العتاب الإلٰهي وهذا القدر كاف.

المعطي المانع * حضرة العطاء والمنع

[نظم: مجزوء الخفيف]

حَضْرَةُ المَنْعِ والعَطَا حَضْرَةٌ ما لها غَلَطا
فانْظُرِ المَنْعَ يا أخي تَجِدْهُ عَيْنَ العَطَا
فإذا كنتَ هكذا كنت في الحُكْم مُقْسِطَا
وإذا لم تَكُنْ كذا كنت في حُكْمِ مَنْ سَطَا
لا تكن كالذي مَضَى في هواه وفَرَّطَا

فمن علم أن الله هو المعطي لم يشكر غيره إلاّ بأمره، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]: [مجزوء الوافر]

إذا ما قُلْتَ لم تُغْطِ فقد أُعْطِيتَ لم تُغْطِ
فلا تَكْذِبْ ولا تَجْحَدْ فإنك لم تَزَلْ تُعْطَى
فلا تكْفُرْ وقُمْ واشْكُرْ لمن أعطى الذي أعْطَى
متى ما لم يَقُلْ هذا عُبَيْدُ الله قد أَخْطَا

يقال لصاحبها عبد المعطي، وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ﴾ [فاطر: ٢]: [مجزوء الوافر]

إذا أعْطَى فلا مَانِع وإن يَمْنَعْ فلا مُعْطِي
فيا نفسي بجودِ الله مهما جئته خُطِّي
وأَسْرِعْ عندما يَدْعُو كَ للإتيان لا تُبْطِي
ولا تَفْزَعْ إلى أمْرِ أتى بالغَتِّ والغَطِّ

فتفرَقَ منه لا تفعلْ فإن الجدَّ في الحَطِّ
وكن بالحقِّ مربوطاً فإن الخير في الرَّبْطِ
ولا تَضْبُطْ على أمْر فإن البُخلَ في الضَّبْطِ
وكن للشَّرْط مطلوباً فلا تَقْعُدْ عن الشَّرْطِ
وكن خَطًّا ولا تَبْرَحْ مع الرحمٰن في الخَطِّ
ولا تَرْكَنْ إلى سطح ولا تَنْظُرْهُ في النَّقْطِ
تكن بالحَقِّ موصوفاً بلا قُربٍ ولا شَخْطِ
ولا تعرفه في قَبْضٍ ولا تجهله في البَسْطِ
وإن عايَنْتَهُ بَحْراً فلا تَبْرَحْ من الشَّطِّ
وقُلْ يا منتهى سرّي لقد وَفَّيْتَني قِسْطي
إذا أنزلتَ أزواجاً بدخ العُود بالقَطِّ
عسى يأتيك ما تَهْوَى من الأخبار في القِسْطِ

يدعى صاحبها أيضاً بوجه عبد المانع. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢] اعلم أن حضرة المنع أنت، فإن الجود الإلٰهي مطلق، فالمنع عدم القبول لأنه لا يلائم المزاج، فلا يقبله الطبع ولا تخلو عن قبول، فقد قبلت من العطاء ما أعطاه استعدادك، فإن تألمت بما حصل لك فما كان إلاَّ قبولك، وإن تنعمت فما كان إلاَّ قبولك، ومن قبل المفيض المعطي لا ألم ولا نعيم بل وجود جود صرف خالص محض، فإن قلت: قد وصف نفسه بالإمساك وهو المنع لا غير قلنا: لما وصف نفسه بالإمساك في تلك الحال هل بقيت بلا أعطية؟ فإنه يقول: لا بل كنت على أعطية من الله فإن الجود الإلٰهي يأبى ذلك فلهذا لم تقبل لما في المحل ممّا قبلت. فإن قلت: فقد منع ما تعلّق به غرضي حين إمساكه عني كما يمسك المطر. قلنا: ما أمسك شيئاً عن إرساله إلاَّ وإمساكه عطاء من وجه لا يعرفه صاحب ذلك الغرض، فقد أعطاه الغرض وأمسك عنه الغيث ليستسقيه فيقام في عبادة ذاتية من افتقار فأعطاه ما هو الأولى به وهذا عطاء الكرم، فلا تنظر إلى جهلك وراقب علمه بالمصالح فيك، فتعرف أن إمساكه عطاء، فمن مسكه عطاء كيف تنظره مانعاً ولا تنظره معطياً، وما تسمى بالمانع إلاَّ لكونك جعلته مانعاً حيث لم تنل منه غرضك فما منع إلا لمصلحة. فإن قلت: فالجاهل به قد منعه العلم به قلنا: هنا غلط كبير فإن العلم بالله محال فلم يبق العلم به إلاَّ الجهل به، وهذا علم العلماء بالله، وما عدا هؤلاء من أصحاب النظر فكل واحد منهم يزعم أنه قد علم ربه وما هو إلاَّ علم ربه، فما منهم من يقول إن الله منعني العلم به بل هو فارح مسرور بعقيدته وأنه عند نفسه عالمٌ بربه وكذلك هو، فذلك حظه من علمه بربه، فما في الوجود من هو ممنوع العلم بالله لا الجاهل به ولا العالم ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١] يعلم لمن يصلي ومن يسبح، فما ثم من يقول: إن الله ما وهبني العلم به إلاَّ أنه يطلب الزيادة ولا يكون ذلك منعاً فإن الحال لا

يعطي إلاّ المزيد لكون استحالة ما لا يتناهى أن يدخل في الوجود، ومريد العلم بالله لا يتناهى، فهو في كل نفس يهب من العلم به ما يشعر به، وما لا يشعر به يقول: إن الله أبقى عليّ ذلك العلم به الذي كان عندي، فلا يزال التكوين دائماً لا ينقطع، فهو لكل ما لم يحصل في الوجود مانع عند هذا الشخص حيث يرى الإمكان في تحصيله في الزمان الذي لم يحصل له وما ذاك إلاّ لجهله بالأمر، فإن الأمور لا تنظر من حيث إمكانها فقط بل تنظر من حيث إمكانها ومن حيث اقتضاء علم المرجح فيها من التقدم والتأخر وما في الوجود فراغ، إذ لو كان ثم فراغ لصحّ المنع حقيقة فما ثم إلا عطاء في عين منع ومنع في عين عطاء ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]: [مجزوء الرجز]

مَنْ مَنْعُهُ عَطَا ... فذلك الجَوَادْ
وكَشْفُهُ غَطَا ... فإنّه المُرَادْ
وذَاتُهُ وِطَا ... وليس بالمِهَادْ
فلا يريد شيئاً ... نَعَمْ ولا يُرَادْ
والأمْرُ مُسْتَمِرْ ... يجري على السَّدَادْ
صِرَاطُهُ قَوِيمْ ... يَهْدي إلى الرَّشَادْ

فحضرة المنع تعطي المنع بعطاء العين فالمنع تبع، فإن المحل إذا كان في اللون أبيض فقد أعطاه البياض، وعين إعطاء البياض منع ما يضاده من الألوان، لكن ليس متعلق الإرادة إلاّ إيجاد عين البياض فامتنع ضده بحكم التبع، وهكذا كل ضد في العين: [مخلع البسيط]

فالنَّفْيُ أصْلٌ في كل كَوْنٍ ... وذلك المَنْعُ إنْ عَقَلْتَا
وما له في الوجود حَظّ ... فما حُرِمْتَ وما مُنِعْتَا
أحكام سَلْبٍ قامت بعَيْنٍ ... من غير عَيْنٍ إذا نُسِبْتَا
مثل العزيز الغَنِيّ فاعلَمْ ... فإنك الحَبْرُ إن عَلِمْتَا

الضار * حضرة الضرر

[نظم: الطويل]

إذا كان إضْراري وضَرِّي بمؤنسي ... فلا زال ضَرِّي مؤنسي ومُصَاحبي
لقد أَنِسَتْ نفسي به حين جاءني ... فللّه من خِلٍّ وَفِيٍّ وصَاحبِ
أسيرُ به تِيهاً وعُجْباً ونَخْوَةً ... لذلك قد هانتْ عليَّ مطالبي
يطالبُني في كل وقت بدَيْنِهِ ... ففزْتُ به إذ كان حِبِّي مُطَالبي
ولما وَسِعْتُ الكل ضاقتْ برَحْبِها ... عَليَّ نواحي الأرض من كل جانبِ

يدعى صاحبها عبد الضار، فهو والإنسان الكامل ضرتان لأنه ما نازعه أحد في سورته إلاّ من أوجده على صورته، فأوّل ضار كان هو حيث ضرّ نفسه، ولهذا لم يدع أحد الألوهة ممّن ادعيت فيه إلاّ الإنسان، وهذا ضرر معنوي بين الصورتين ﴿وَمَا رَمَيۡتَ﴾ فضره ﴿إِذۡ

رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧] فتضرر، فإن نفى أضرّ بصاحبه، وإن أثبت أضرّ بنفسه، ولا بدّ من نفي وإثبات فلا بدّ من الضرر، فهو الضار للصورتين لأحدية الصورة، فإنه إذا نزل فيها أحدهما ارتحل الآخر حكماً، فإن ظلم نفسه أضرّ بها، وإن ظلم لنفسه أضرّ بمثله و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] إلاّ هو، وهذه حضرة سرّها دقيق لأنها بين الحق والإنسان الكامل، فكل ضرر في الكون فليس إلاّ منع الغرض أن يكون وهو عرض بالنظر إلى هذا الأصل وهو محقق في هذه العين قد نبّه الشارع على أن الأولى والآخرة ضرتان إن أسخطت الواحدة أرضيت الأخرى، والذات الأولى معلومة، والذات الأخرى أيضاً معلومة ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ﴾ فإنها عين كونك ﴿مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٤] لأنها تفنيك بظهورها وتردّك إلى حكم العدم والآخرة لا تفني الأولى ولكن تندرج الأولى فيها إذا كان الظهور للآخرة، فالأولى لا تمييز فيها فتجمع بين الضدين والآخرة ليست كذلك فبهذا تميزت عن الأولى ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورىٰ: ٧] فيلتذ المعذب بالعذاب القائم به في الدنيا لأنه على صورة الأولى في الجمع بين الضدين وفي الآخرة ما له هذا الحكم ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾، ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] فأنت الآخرة فعينك خير لك فإنك لا التذاذ لك إلاّ بوجودك فما يلتذ شيء بشيء إلاّ بما يقوم به، وكذلك لا يتألم إلاّ بما يقوم به: [المنسرح]

فَحَضْرَةُ النَّفْعِ حَضْرَةُ الضَّرَرِ ... في كل عَيْنٍ عَيْنٍ من البَشَرِ
لو رُفِعَ الضَّرُّ لم يكن بَشَرٌ ... ولا بَدَى الاشْتِراكُ في الصُّوَرِ

فالبعل هو الذي يعطي كل ضرّة حقها من نفسه، وإن أضرّ ذلك الحق بالأخرى فلعدم إنصافها في ذلك، وليس البعل هنا بين الصورتين إلاّ ما قرّرناه من حقيقة الحقائق المعقولة التي لها الحدوث في الحادث والقدم في القديم، ويظهر ذلك بالاشتراك في الأسماء، فسمّاك بما سمّى به نفسه وما سمّاك، ولكن الحقيقة الكلية جمعت بين الحق والخلق، فأنت العالم وهو العالم لكن أنت حادث فنسبة العلم إليك حادثة، وهو قديم فنسبة العلم إليه قديم، والعلم واحد في عينه، وقد اتصف بصفة من كان نعتاً له فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

النافع * حضرة النفع

[نظم: البسيط]

إنّي انْتَفَعْتُ بمن تأتي مَنَائِحُهُ ... فَقْراً إليّ به والنَّافِعُ اللَّهُ
لولا وُجُودي ولولا سِرُّ حِكْمَتِهِ ... ما قلتُ في كل شيء جاءني ما هُوْ
لله قوم إذا حَلّوا بساحته ... وفي مساحته برَبِّهم تَاهُوا
أفْنَاهُمُ عنهم كَوْني وطالبُهُمْ ... أغْنَاهُمُ عن وجودي المالُ والجَاهْ
والله لولا وجودُ الحقّ في خَلَدي ... ما كنت أرْقُبُهُ لولاه لولاهُ

يدعى صاحبها عبد النافع، هذه الحضرة قد يكون نفعها عين إزالة الضرر خاصة، وقد

يكون نفعها بأمر زائد على إزالة الضرر وتحقيق الأمر في النفع وصول صاحب الغرض إلى نيل غرضه والغرض إرادة، فالغرض لا متعلق له أبداً إلاّ بالمعدوم حكماً أو عيناً. أما قولي حكماً من أجل تعلق الغرض بإعدام أمر ما وهو إلحاق ذلك الأمر الوجودي بالعدم، فحكم الإعدام فيه في حال وجوده غير محكوم عليه به، فإذا حكم عليه به فلا يحكم عليه به حتى يلحق ذلك الأمر الوجودي بالعدم فلهذا قلنا حكماً، فإن تعلق الغرض بإيجاد أمر ما فإن المراد معدوم بلا شك عيناً، فإذا وجد زال الغرض بالإيجاد وتعلق بدوام ذلك الموجود إن كان مراداً له فالفرار من كل أمر مهلك نفع عند الخائف لينجو ممّا يحذر منه ويخاف، فإذا وقع النفع وهو عين النجاة والفوز تفرّغ المحل منه وقامت به أغراض في إيجاد ما يكون له بوجوده منفعة أي شيء كان فتعطيه إياه هذه الحضرة: [الخفيف]

حَـضْـرَةُ الـنَّـفْـعِ حَـضْـرَةُ الـجُـودِ　　لَـيْـلَـةَ الـصَّـفْـحِ بـالـمُـنَـى عُـودي
فـنـعـيـمُ الـمُـحِـبِّ لـيـس سـوى　　مــا يــراه مــن كــل مَــشْــهُــودِ
رؤيــةٌ تَــنْــعَــمُ الــنـفـوسُ بـهـا　　كــان حَــدّاً أوْ غَــيْــرَ مَــحْــدُودِ

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

النور * حضرة النور

[نظم: البسيط]

الـنُّـورُ نُـورانِ نُـورُ الـعِـلْـم والـعَـمَـلِ　　ونُـورُ مُـوجِـدِنَـا الـمـوصـوفِ بـالأزَلِ
طلبتُ شخصاً عسى أحْظَى برؤيتهِ　　مـن حـضـرتـي صـاعـداً لـعِـلَّـةِ الـعِـلَـلِ
ولـم أُعَـرِّجْ عـلـى كَـوْنٍ أمـرُّ بـه　　حُـبّاً ولا كـان ذاك الـكـون فـي أمَـلـي
حـتـى مـررتُ بـشـخـص لـسـت أعـرفـه　　فـلـم يـزل مُـؤْنـسـي فـيـه ولـم يَـزَلِ
فـقـلـت مـا ذا فـقـالـوا الـحَـقّ قـلـت لـهـم　　هـذا الـذي كـنـت أبْـغِـيـه مَـعَ الـنِّـحَـلِ

يدعى صاحبها عبد النور، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] وقال في معرض الامتنان: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وما يمشي إلاّ بنفسه فعين نفسه قد يكون عين نوره، وليس وجوده سوى الوجود الحق وهو النور فهو يمشي في الناس بربه وهم لا يشعرون كما قال: «**إذا أحبَّ الله عَبْداً كَانَ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ**» وذكر في هذا الخبر جميع قواه وأعضائه إلى أن قال: «**وَرِجْلَهُ الَّتِي يَسْعَى بِهَا**» وما مشى في الناس إلاّ برجله في حال مشيه بربه فهو الحق ليس غيره، فأزال بنوره ظلمة الكون الحادث، فإنه ما حدث شيء لأن عين الممكن ما زال في شيئية ثبوته ماله وجود، وإنما ذلك حكم عينه في الوجود الحق فقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فهو قوله فيمن لا يعلم ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ليس بخارج منها وهو ما بقي من الممكنات في شيئية ثبوتها لا حكم لها في الوجود الحق، ولا بدّ أن يبقى منها ما لا حكم له في الوجود الحق لأن الأمر لا نهاية فيه فلا يفرغ، فكل عين ظهر لها حكم في الوجود الحق،

فإن ثم عيناً ما ظهر لها حكم في الوجود الحق فهي في الظلمات حتى تظهر فيبقى غيرها كذلك من لا يعلم حتى يعلم فيلحق بأصحاب النور ولا بدّ أن يبقى من لا يعلم، فنور الوجود ينفر ظلمة العدم، ونور العلم ينفر ظلمة الجهل.

ثم لتعلم أن الأنوار وإن اجتمعت في الإضاءة والتنفير فإن لها درجات في الفضيلة، كما أن لها أعياناً محسوسة كنور الشمس والقمر والنجم والسراج والنار والبرق وكل نور محسوس أو منور وأعياناً معقولة كنور العلم ونور الكشف، وهذه أنوار البصائر والأبصار، وهذه الأنوار المحسوسة والمعنوية على طبقات يفضل بعضها بعضاً فنقول: عالم وأعلم ومدرك وأدرك، كما تقول في المحسوس: نير وأنور؛ أين نور الشمس من نور السراج؟ كما أيضاً يتفاضلون في الإحراق فإن الإضاءة محرقة مذهبة على قدر قوّة النور وضعفه، وقد ورد حديث السبحات المحرقة والسبحات الأنوار الوجهية هنا نقول إنه بالحجب قيل هذا العالم فإذا ارتفعت الحجب لاحت سبحات الوجه فذهب اسم العالم، وقيل هذا هو الحق وهذا لا يرتفع عموماً فلا يرتفع اسم العالم لكن قد يرتفع خصوصاً في حق قوم ولكن لا يرتفع دائماً في البشر لما هو عليه من جمعية الوجود، وما ارتفع إلاّ في حق العالين وهم المهيمون الكروبيون وهذا يكون في البشر في أوقات: [الطويل]

إذا كان عَيْنَ العَبْدِ فالعَبْدُ باطنٌ ... وإن كان سَمْعَ الحَقِّ فالحَقُّ سامعُ
فما الأمر إلاّ بين فَرْضٍ ونَفْلِهِ ... وأنت وعَيْنُ الحَقِّ للكل جامعُ
فحَقٌّ وخَلْقٌ لا يزال مؤبَّداً ... فمُعْطٍ وُجُودَ العَيْنِ وقتاً ومَانِعُ
إذا كان عَيْنَ العَبْدِ فاللَّيْلُ حالك ... وإن كان عَيْنَ الحَقّ فالنورُ ساطعُ
فما أنت إلاّ بين شرق ومغربٍ ... فشَمْسُكَ في غرب وبَدْرُكَ طالعُ

وأما النور الذي على النور فهو النور المجعول على النور الذاتي، فالنور على النور هو قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥] وهو أحد النورين، والنور الواحد من النورين مجعول بجعل الله على النور الآخر فهو حاكم عليه، والنور المجعول عليه هذا النور متلبس به مندرج فيه، فلا حكم إلاّ للنور المجعول وهو الظاهر، وهذا حكم نور الشرع على نور العقل: [الوافر]

فليس له سوى التَّسْلِيم فيهِ ... وليس له سوى ما يَصْطَفِيهِ
فإن أَوَّلْتَهُ لم تَحْظَ منه ... بعلم في القيامة تَرْتَضِيهِ

فتحشر في ظلمة جهلك ما لك نور تمشي به، ولا يسعى بين يديك فترى أين تضع قدميك ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] ولكن جعلناه يعني الشرع الموحي به نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وهو قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] جعلنا الله من أهل الأنوار المجعولة آمين.

الهادي * حضرة الهدي والهدى

[نظم : مجزوء الخفيف]

حَضْرَةُ الهَدْيِ والهُدَى حضرةٌ كلُّها هُدَى
تَرَكَتْني بنورها حالكَ اللَّوْنِ أسْوَدَا
وهو فَخْري ومَذْهَبي أنْ أراني مُسَوَّدا
لستُ أبغي من سَيِّدي تَرْكَ حالي كذا سُدَى
ما لنا المُدَّةُ التي تنقضي بل لنا ابْتِدَا
أنا للكل إذْ بَدَا نُورُ عيني لما بَدَا
لم يَنَلْها سوى الذي كان حَقّاً مُوَحِّدَا
فإذا ما انْتَهَى به أمْرُهُ فيه أَلْحَدَا

يدعى صاحبها عبد الهادي. قال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ لما ذكر له الأنبياء عليهم السلام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] وهدى الأنبياء عليهم السلام وهو ما كانوا عليه من الأمور المقرّبة إلى الله، وفي الدعاء المأثور سؤاله ﷺ: هدى الأنبياء وعيشة السعداء وهدى الله هو الهدى أي بيان الله هو البيان، وما لله لسان بيان فينا إلاَّ ما جاءت به الرسل من عند الله، فبيان الله هو البيان لا ما يبيّنه العقل ببرهانه في زعمه، وليس البيان إلاَّ ما لا يتطرّق إليه الاحتمال، وذلك لا يكون إلاَّ بالكشف الصحيح أو الخبر الصريح، فمن حكم عقله ونظره وبرهانه على شرعه فما نصح نفسه، وما أعظم ما تكون حسرته في الدار الآخرة إذا انكشف الغطاء ورأى محسوساً ما كان تأوّله معنى فحرمه الله لذة العلم به في الدار الآخرة بل تتضاعف حسرته وألمه، فإنه يشهد هنالك جهله الذي حكم عليه في الدنيا بصرف ذلك الظاهر إلى المعنى ونفي ما دلّ عليه بظاهره، فحسرة الجهل أعظم الحسرات لأنه ينكشف له في الموضع الذي لا يحمد فيه ولا يعود عليه منه لذة يلتذ بها، بل هو كمن يعلم أن بلاء واقع به فهو يتألم بهذا العلم غاية التألم، فما كل علم تقع عنده لذة ولا يقوم بصاحبه التذاذ، فحضرة الهدى تعطي التوفيق وهو الأخذ والمشي بهدي الأنبياء، وتعطي البيان وهو شرح ما جاء به الحق عن كشف لا عن تأويل، فيفرق بين ضرب الأمثال فإنها محل التأويل إذ الأمثال لا تراد لعينها وإن كان لها وجود وإنما تراد لغيرها فهي موضوعة للتأويل، ولا تضرب إلاَّ لعالم بها، فإن المقصود منه حصول العلم في من ضربت في حقّه، فينزل المضروب عليه المثل منزلة المثل للنسبة لا بدّ من ذلك فلا بدّ للمثل به أن يكون له وجود في الذهن فاعلم ذلك: [الوافر]

فَهَدْيُ الحَقِّ هَدْيُ الأنبياء وذاك هو الطريقُ المُسْتَقِيمُ
عليه الرَّبُّ والأكوان طُرًّا فما في الكَوْن إلاَّ مُسْتَقِيمُ
فَشَخْصٌ جاهلٌ فَظٌّ غليظٌ وشخصٌ عالمٌ لَيْثٌ رَحِيمُ

وكل له مقام معلوم، وليس المطلوب إلاَّ السعادة ولا سعادة أعظم من الفوز والنجاة

ممّا يؤدي إلى نقص الجد ولو كنت به ملتذاً، وإن ذوقك الحسرة لما يفوتك هنا تجدها وفي القيامة، وأما في الجنة فيذهب الله بها عنك ولكن تعلم من هو أعلى منك قدر ما فاتك، وترزق أنت القناعة بحالك وما أنت فيه والرضا، فلا أدنى همّة ممّن يعلم أن هناك مثل هذا، ولا يرغب في تحصيل العالي من الدرجات، هذا رسول الله ﷺ قد سأل أمته أن يسألوا الله له في الوسيلة طلباً للأعلى لعلوّ همته، ألا تراه عند موته ﷺ كيف قال لما خيّر الرفيق الأعلى فقيده بالأعلى وإن علم المحروم في الجنة ما فاته فلا يكترث له لعدم ذوقه، وكل من تعلقت همته في الدنيا بطلب الأعلى ولم يحصل ذلك ذوقاً في الدنيا ولا كشف له فيه فإنه يوم القيامة يناله ولا بدّ، ويكون فيه كالذائق له هنا لا فرق، وما بين الشخصين إلاّ ما عجل له هنا من ذلك، فالمحروم كل المحروم من لا يعلق همته هنا بتحصيل المعالي من الأمور، ولكن لا بدّ مع التمني من بذل المجهود، وأما إن تمنى مع الكسل والتثبط فما هو ذلك الذي أشرنا إليه:

[مجزوء الخفيف]

حَضْرَةُ الهَدْي والهُدَى ... تَرَكَتْ أمْرَنَا سُدَى
قالتِ الأمْرُ كُلُّهُ ... لإلٰهِ تَفَرَّدا
ليس المُمَجَّد عِزَّةً ... وامتناعاً وسُؤْدَدا
بوُجُودي من وُجُودِهْ ... في وُجُودي تَوَحَّدا
وبعيني وكَوْنِهِ ... قد بدا منه ما بدا
فيه كنت لم أكنْ ... بكياني مُوَحِّدا
فإذا ما تَمَجَّدَا ... فبكوني تَمَجَّدَا

فإنه لا يحمد ولا يمجد إلاّ بأسمائه، ولا تعقل مدلولات أسمائه إلاّ بنا، فلو زلنا نحن ذهناً ووجوداً لما كان ثم ثناء ولا مثن، ولا مثنى عليه، فبي وبه كان الأمر وكمل، ومع هذا فهو غنيّ عن العالمين إذا لم يطلب كمال الأمر فهو الكامل لنفسه وعينه وكونه لأنه واجب الوجود لنفسه لا تعلق له بالعالم لذاته، وإنما كان التعلق من حيث أعيان الممكنات لأنها تطلب نسباً تظهر بها عينها، وما ثم موجود تستند إليه هذه النسب إلاّ واحد وهو الله الواجب الوجود لنفسه تعالىٰ، فافتقرت إليه إضافات النسب، وافتقرت الممكنات إلى النسب فافتقرت إليه، فهي أشدّ فقراً من النسب، فصحّ غناه عن العالم لذاته وعينه، ولذلك تقول في التقسيم العقلي: إن الوجود طلب الكمال والمعرفة طلبت الكمال ولم تجد من بيده مطلوبها إلاّ الحق سبحانه فافتقرت إليه في ذلك، فأوجد الحادث الذي هو عين الممكن فكمل الوجود أي كمل أقسام الوجود في العقل، وكذلك تعرف إلى العالم فعرفوه بمعرفة حادثة فكملت المعرفة به في التقسيم العقلي، وكل معرفة وعلم بقدر العالم والعارف إلاّ أنه في الجملة لم يبق كمال إلا ظهر فيه بإحسان الله ورحمته بالسائل في ذلك، ولما ظهر العالم من البرّ الرحيم لم يعرف غير الإحسان والرحمة فهو على صورة الإحسان والرحمة، فهو مفطور على أن لا يكون منه إلاّ إحسان ورحمة ولكن بقي متعلقها فيرحم ويحسِّن لنفسه أوّلاً ولا يبالي كان في ذلك إحسان

للغير أو لم يكن، فإن الأصل على هذا خرج حيث أحب أن يعرف، فخلق الخلق فتعرف إليهم فعرّفوه، وقد علم أن منهم من يتألم ولكن ما راعى إلاً العلم به لا من يتألم منهم، فالنعيم وجود والعذاب فقد ذلك النعيم لا أنه أمر وجودي، فالعالم كله بر رحيم بنفسه لا بدّ من ذلك فإنه من الجود صدر: [مجزوء الرمل]

ليس في العالَم إلاّ ... من هو البَرُّ الرَّحيمْ
فإذا ما كنت عبـ ... ـداً فنعيمهُ المُقيمْ
وإذا ما كُنْتَ رَبّاً ... فعذابُه الأليمْ
وصراطي بين هٰذ ... ين صِراطٌ مُسْتَقِيمْ
ذاك هَدْيُ الأنبِياء ... وهُدَى الله القَويمْ
فَنَعِيمُهُ وُجُو ... دٌ وعذابُهُ عَدِيمْ
فانْظُروا فيما ذَكَرْ ... نَا فهو العليمُ الحَكِيمْ

فالهدى التبياني ابتلاء وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥] وقوله ﷺ: «**ما ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدَى كَانُوا عَلَيْهِ إلاَّ أُوتُوا الجَدَلَ**» وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] والهدى التوفيقي وهو الذي يعطي السعادة لمن قام به وهو قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وهذا هو هدى الأنبياء، فالهدى التوفيقي هدى الأنبياء عليهم السلام ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] وهو الذي يعطي سعادة العباد ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود: ٨٨] والهدى بمعنى البيان قد يعطي السعادة وقد لا يعطيها إلاَّ أنه يعطي العلم ولا بدّ فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

البديع * حضرة الإبداع

[الرمل]

حَضْرَةُ الإبْداع لا مِثْلَ لها ... فتَعَالَتْ حيث عَزَّتْ أن تُنَالْ
كلما قلت لها هادي مني ... فاحْذَرِ الرَّمْيَ بها قبل الزَّوَالْ
فأجابَتْني جواباً شافياً ... ليس هذا من مقالات الرِّجالْ
إنما الله إلٰهٌ واحدٌ ... ذو كمالٍ لجمالٍ وجَلالْ
كلما نَطَّقَني الذِّكْرُ به ... قلت ماذا قال لي السِّحْرُ الحَلالْ

يدعى صاحبها عبد البديع، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٠١] وهو ما علا وما سفل، وأنت المميز للعالي والسافل لأنك صاحب الجهات فهو بديع كل شيء، وليس الإبداع سوى الوجه الخاص الذي له في كل شيء وبه يمتاز عن سائر الأشياء فهو على غير مثال وجودي إلاً أنه على مثال نفسه وعينه من حيث إنه ما ظهر عينه في الوجود إلاً بحكم عينه في الثبوت من غير زيادة ولا نقصان، فمن جعل العلم تصوّر المعلوم فلا بدّ للمعلوم من

صورة في نفس العالم، وأما نحن فلا نقول إن العلم تصوّر المعلوم على ما قاله صاحب هذا النظر، وإنما العلم درك ذات المطلوب على ما هي عليه في نفسه وجوداً كان أو عدماً، ونفياً أو إثباتاً، وإحالة أو جوازاً أو وجوباً ليس غير ذلك، وإنما يتصوّر العالم المعلوم إذا كان العالم ممّن له خيال وتخيّل، وما كل عالم يتصوّر ولا كل معلوم يتصوّر إلاّ أن الخيال له قوّة وسلطان فيعمّ جميع المعلومات ويحكم عليها ويجسدها كلها، وهو من الضعف بحيث لا يستطيع أن ينقل المحسوس إلى المعنى كما ينقل المعنى إلى الصورة الحسية، ومن ضعفه أنه لا يستقل بنفسه، فلا بدّ أن يكون حكمه بين اثنين بين متخيل اسم مفعول ومتخيل اسم فاعل معاً، فالابتداع على الحقيقة إنشاء ما لا مثل له بالمجموع وبهذا قال الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧] فمجموع ما ابتدعوه من العبادة ما كان الحق شرع ذلك لهم، فلا بديع من المخلوقات إلاّ من له تخيّل وقد يبتدع المعاني ولا بدّ أن تنزل في صورة ماديّة وهي الألفاظ التي بها يعبر عنها فيقال: قد اخترع فلان معنى لم يسبق إليه، وكذلك أرباب الهندسة لهم في الإبداع اليد الطولى، ولا يشترط في المبتدع أنه لا مثل له على الإطلاق، إنما يشترط فيه أنه لا مثل له عند من ابتدعه، ولو جاء بمثله خلق كثير كل واحد منهم قد اخترع ذلك الأمر في نفسه ثم أظهره فهو مبتدع بلا شك وإن كان له مثل، ولكن عند هذا الذي ابتدعه لا سبيل إلاّ ابتداع الحق تعالىٰ فإنه قال عن نفسه: إنه ﴿بَدِيعُ﴾ أي خلق ما لا مثل له في مرتبة من مراتب الوجود لأنه عالم بطريق الإحاطة بكل ما دخل في كل مرتبة من مراتب الوجود، ولذلك قال في خلقة الإنسان: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] لأن الذكر له تعالىٰ وهو للمذكور منا مرتبة من مراتب الوجود بخلاف المعلوم. ومراتب الوجود أربعة: عيني وذهني ورقمي ولفظي، فالعيني معلوم، واللفظي راجع إلى قول القائل في ذكره ما ذكره فللشيء وجود في ذكر من ذكره فلم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً فحدث الإنسان لما حدث ذكره مثل قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] فوصف الذكر بالحدوث وإن كان كلامه قديماً ولكن الذكر هنا هو التكلم به لا عين الكلام، فالكلام موصوف بالقدم لأنه راجع إلى ذات المتكلم إذا أردت كلام الله والمتكلم به ما هو عين الكلام، وقد يكون المتكلم به معنى وقد يكون غير معنى، ثم إنه ذلك المعنى قد يكون قديماً وقد يكون حادثاً، فالمتكلم به أيضاً لا يلزم قدمه ولا حدوثه إلاّ من حيث إسماع المخاطب فإنه سمع أمراً لم يكن سمعه قبل ذلك فقد حدث عنده كما حدث الضيف عند صاحب المنزل وإن كان موجوداً قبل ذلك، ولكن في مثل هذا تجوز وهو قولك حدث عندنا اليوم ضيف وأنت تريد عين الشخص وما حدث الشخص وإنما حدث كونه ضيفاً عندك، وضيفيته عندك لا شك أنها حدثت لأنها لم تكن قبل قدومه عليك، فعلى الحقيقة إتيان الذكر على من أتى عليه هو حادث بلا شك، لأن ذلك الإتيان الخاص لم يكن موصوفاً بالوجود، وإن كان الآتي أقدم من إتيانه لا من حيث إتيانه بل من حيث عينه، فأصل كل ما سوى الله مبتدع والله هو الذي ابتدعه، ولكن من الأشياء ما لها أمثال، ومنها ما ليس لها أمثال أعني وجودية، هكذا بحكم العين لا الوجود في

نفسه فما في الوجود إلاّ مبتدع وفي الشهود أمثال، والعلم يقتضي الوجه الخاص في كل موجود ومعلوم حتى يتميز به عن غيره فكله مبتدع وإن وقع الاشتراك في التعبير عنه، كما تقول في الحركة تقول إنها حركة في كل متحرك فيتخيل أنها أمثال وليست على الحقيقة أمثال لأن الحركة من حيث عينها واحدة أي حقيقة واحدة حكمها في كل متحرك فهي عينها في كل متحرك بذاتها فلا مثل لها فهي مبتدعة مهما ظهر حكمها، وهكذا جميع المعاني التي توجب الأحكام من أكوان وألوان فافهم، فإن لم تعرف كون الحق بديعاً على ما ذكرته لك فما هو بديع من جميع الوجوه لأن الجوهر القابل جوهر واحد من حيث حدّه وحقيقته ولا تتعدد حقيقته بالكثرة، والمعنى الموجب لها حكماً ما لا يتعدد من حيث حقيقته فهو بحقيقته في كل محكوم عليه بحكمه فما ثم مثل، فالبياض في كل أبيض والحركة في كل متحرك فافهم ذلك، فكل ما في الوجود مبتدع لله فهو البديع.

وانظر في قوله تعالىٰ تجده ينبّه على هذا الحكم أعني حكم الابتداع ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] من باب الإشارة أي لا يعلم له مثال، وما ثم إلاّ العالم وهو المخاطب بهذا وهو كل ما سوى الله، فعلمنا أن الله ينشيء كل مُنشأ فيما لا يعلم إلاّ إن أعلمه الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] أنها كانت على غير مثال سبق كما هو الأمر في نفسه، وكذلك قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] وبدأنا على غير مثال فيعيدنا على غير مثال، فإن الصورة لا تشبه الصورة ولا المزاج المزاج، وقد وردت الأخبار الإلٰهية بذلك على ألسنة الأنبياء عليهم السلام وهم الرسل، وهذا يدلك على أن العالم ما هو عين الحق وإنما هو ما ظهر في الوجود الحق، إذ لو كان عين الحق ما صح كونه بديعاً كما تحدث صورة المرئي في المرآة ينظر الناظر فيها فهو بذلك النظر كأنه أبدعها مع كونه لا تعمل له في أسبابها ولا يدري ما يحدث فيها، ولكن بمجرد النظر في المرآة ظهرت صور هذا أعطاه الحال، فما لك في ذلك من التعمّل إلاّ قصدك النظر في المرآة ونظرك فيها مثل قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ وهو قصدك النظر ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ وهو بمنزلة النظر ﴿فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وهو بمنزلة الصورة التي تدركها عند نظرك في المرآة ثم إن تلك الصورة ما هي عينك لحكم صفة المرآة فيها من الكبر والصغر والطول والعرض ولا حكم لصورة المرآة فيك فما هي عينك ولا عين ما ظهر ممّن ليست أنت من الموجودات الموازية لنظرك في المرآة، ولا تلك الصورة غيرك لمالك فيها من الحكم، فإنك لا تشك أنك رأيت وجهك ورأيت كل ما في وجهك ظهر لك بنظرك في المرآة من حيث عين ذلك لا من حيث ما طرأ عليه من صفة المرآة، فما هو المرئيّ غيرك ولا عينك، كذلك الأمر في وجود العالم والحق أي شيء جعلت مرآة أعني حضرة الأعيان الثابتة أو وجود الحق. فإما أن تكون الأعيان الثابتة لله مظاهر فهو حكم المرآة في صورة الرائي فهو عينه وهو الموصوف بحكم المرآة فهو الظاهر في المظاهر بصورة المظاهر، أو يكون الوجود الحق هو عين المرآة فترى الأعيان الثابتة من وجود الحق ما يقابلها منه، فترى صورتها في تلك المرآة ويترائى بعضها لبعض ولا ترى ما ترى من حيث ما هي

المرآة عليه، وإنما ترى ما ترى من حيث ما هي عليه من غير زيادة ولا نقصان، كما لا يشك الناظر وجهه في المرآة أن وجهه رأى وبما للمرآة في ذلك من الحكم يعلم أن وجهه ما رأى فهكذا الأمر، فانسب بعد ذلك ما شئت كيف شئت: [البسيط]

فـالـكُـلُّ مُـبْـتَـدَعٌ فـي عَـيْـنِ مُـوجِـدِهِ   والـحَـقُّ مُـبْـتَـدِعٌ لـمـا بـدا فَـظَـهَـرْ
فـالـعـيـنُ ثـابـتـةٌ والـذات ثـابـتـةٌ   وكَـوْن إبـداعـه لـمـا أَتـى فـنَـظَـرْ
فـمـا بَـدَتْ صُـوَرٌ إلاَّ لـهـا صُـوَرٌ   مـنـهـا ومـنـه فـبـالـمـجـمـوع كـان أَثَـرْ

الوارث * حضرة الورث

[نظم: الطويل]

أنـا وارثٌ والـحَـقُّ وارثُ مـا عـنـدي   مـن الـحُـبِّ والـشَّـوْق الـمُـبَـرِّح والـوُدِّ
عـهـدت الـذي قـد هِـمْـتُ فـيـه وإنـنـي   مُـقـيـمٌ عـلـى مـا تـعـلـمـون مـن الـعَـهْـدِ
إذا ما تَراءَى البرقُ من جانب الحِمَى   وقـد زادنـي مَـسْـرَاهُ وَجْـداً إلـى وَجْـدِ
أقـول لـه أهـلاً وسـهـلاً ومـرحـبـاً   بـمـن قـد أتـى مـن غـيـر قَـصْـدٍ ولا وَعْـدِ
فـيـذهـب بـالأبـصـار عـنـد خُـفُـوقـه   فـيـا لـيـت شِـعْـري مـن يـقـوم لـه بَـعْـدي

يدعى صاحبها عبد الوارث، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] فورثها ليورثها من يشاء من عباده فهو في هذه المسألة كالموصي فهو مورث لا وارث، وما هو وارث إلاَّ إذا مات من عليها فإنه قد وقعت الفرقة بين المالك والمملوك فهو الوارث لهما فهو قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] ولم يقل ومن فيها لأن الميت من حيث جسمه فيها لا عليها، فإذا نزهت الحق عن خلقه الأشياء لنفسه وإنما خلقها بعضها لبعضها فقد فارقها من هذا الوجه وفارقته وتميز عنها وتميزت عنه فراقاً ما فيه اجتماع، فأنت وارث والحق موروث منه وهو قوله: ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وهو الذي أطلعه الله على هذا العلم الذي فرّق به بين الخالق والمخلوق، فخلق الخلق للخلق لا لنفسه، فإن المنافع إنما تعود من الخلق على الخلق والله هو النافع الموجد للمنافع وإن كان خلقنا لنعبده، فمعناه لنعلم أنا عبيد له فإنا في حال عدمنا لا نعلم ذلك لأنه ما ثم وجود يعلم فهو سبحانه الحيّ الذي لا يموت، مع أنه يتميز عن خلقه بما هو عليه من صفات الجلال والكبرياء الذي لا نعقله إلاَّ منا، فما نعلم إلاَّ جلال الحادثات وكبريائها لا غير، ولا تنسب إليه ما نحن عليه ممّا حمده الحق أو ذمه فينا فإن ذلك كله محدث والمحدثات لا نصفه بها، وإنما نصفه بإيجادها، وما أوجده لا يقوم به، فالكبرياء والجلال الذي ننسبه إليه غير معلوم لنا، فإنه لا يقبل جلالنا ولا كبرياءنا، وجميع ما نحن عليه من الصفات وصف نفسه بها ثم نزّه نفسه عنها فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ وهي المنع ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] فأخذنا هذه الصفات التي كنا نصفه بها بعد تنزيهه عنها بحكم الورث لأنه قد وصف نفسه بها ووصفناه بها فقام التنزيه بعد ذلك مقام الورث لنا فهو يرثنا بالموت ونحن نرثه بالتنزيه: [السريع]

فكلُّ وَصْفٍ فعلينا يَعُوذْ ... من كُلِّ ما أَظْهَرَهُ في الوُجُوذْ
فالجُودُ لله على خَلْقِهِ ... ونحن من إحسانه في مَزِيذْ
فنحن بالحَقِّ كما هو بنا ... فإنه المَوْلَى ونحن العَبِيذْ
وإن في ذلك ذِكْرَى لمن ... كان له قَلْبٌ وكان الشَّهِيذْ

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الصبور * حضرة الصبر

[نظم: الكامل]

عَبْدُ الصَّبُورِ هو الذي لا يَضْبِرُ ... إلا به فهو الذي لا يَضْجَرُ
يشكي إليه ويشتكي بالحال في ... صَمْتٍ فتُبْصِرُهُ به يَتَضَرَّرُ

* * *

[نظم: المجتث]

حَبَسْتُ نَفْسي لرَبِّي ... وإنني لَصَبُورُ
وإنَّ رَبِّي بحالي ... كما عَلِمْتَ خَبِيرُ
فإنْ أقُلْ فيه قَوْلاً ... فالقَوْلُ صِدْقٌ وزُورُ
وإنني لَصَدُوقٌ ... فيما أقول بَصِيرُ
ما لي إليه دَلِيلٌ ... ما لي عليه نَصِيرُ

عبد الصبور، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٥٧] فوصف نفسه بأنه يؤذى ولم يؤاخذ على أذاه في الوقت من أذاه فوصف نفسه بالصبور، لكنه ذكر لنا من يؤذيه وبما ذا يؤذيه لنرفع عنه ذلك مع بقاء اسم الصبور عليه ليعلمنا أنا إذا شكونا إليه ما نزل بنا من البلاء من اسم ما من الأسماء أن تلك الشكوى إليه لا تقدح في نسبة الصبر إلينا، فنحن مع هذه الشكوى إليه في رفع البلاء عنا صابرون كما هو صابر مع تعريفنا وإعلامه إيانا بمن يؤذيه وبما يؤذيه لننتصر له وندفع عنه ذلك وهو الصبور، ومع هذا التعريف فنحن الصابرون مع الشكوى إليه، فلا أرفع ممّن يدفع عن الله أذى ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] فمن كان عدوّاً لله فهو عدوّ للمؤمن، وقد ورد في الخبر: «**لَيسَ مِنْ أَحَدٍ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى مِنَ الله**» لكونه قادراً على الأخذ وما يأخذ ويمهل باسمه الحليم وعلى الحقيقة فما صبر على أحد وإنما صبر على نفسه أعني على حكم اسم من أسمائه، لأن الأذى إنما وقع بالنطق، وما أنطق من نطق بما يقع به الأذى إلاّ الذي أنطق كل شيء وهو الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] والجلود عدل، فإن الله قبل شهادتهم على من أقامها عليهم، وقال المنطقون: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦] وأمثال ذلك، وكذبوا الله وشتموه وسبّوه مختارين ذلك مع علمنا بأنهم مجبورون في اختيارهم منطقون بما أراده لا بما رضيه، إلاّ أن الدقيقة الخفية أن الله نطقهم أي أعطاهم قوّة النطق التي بها نطقوا وبقي عين ما

نطقوا به وما قالت الجلود إلاّ أنها منطقة ما تعرضت بالاعتراف إلى ما نطقت به، فإن ذلك إذا وقع بالاختيار دون الاضطرار والكره نسب إلى من وقع منه نسبة صحيحة: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] أي بيّنا له وخلقنا له الإرادة في محله، والتعلق نسبة لا تتصف بالوجود فتكون مخلوقة لأحد فتعلقت بأمر ما متعين ممّا فيه أذى لله ورسوله، وممّا يسمّى به شاكراً أو كفوراً فهو تعلق خاص مع كون الناطق غافلاً عن استحضار هذه النسب كلها وردها إلى الله بحكم الأصل فإنه لو استحضرها ما نطق بها إذ لا ينطق بها إلاّ جاهل أو غافل.

ثم إنه من الحجة البالغة لله في هذا أنه ما وقع في الوجود من ممكن من الممكنات إلاّ ما سبق بوقوعه العلم الإلٰهي فلا بدّ من وقوعه، وما علم الله معلوماً من المعلومات إلاّ بما هو عليه ذلك المعلوم في نفسه، فإن العلم يتبع المعلوم ما يتبع الوجود الحادث يعني حدوث الوجود يتبع العلم والعلم يتبع المعلوم، وهذا المعلوم الممكن في حال عدمه وشيئية ثبوته على هذا الحكم الذي ظهر به في وجوده، فما أعطى العلم لله إلاّ المعلوم فيقول له الحق: هذا منك لا مني لولم يكن في عينك الثبوتية على ما علمتك به ما علمتك ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فلو شاء لكنه لم يشأ ولا تحدث له عزّ وجلّ مشيئة لأنه ليس بمحل للحوادث مع أن المشيئة تابعة للعلم فهي تابع التابع، فلهذا الأمر الذي قررناه بقول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وقال في الصحيح: «**شَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ ذَلِكَ، وَكَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ ذٰلِكَ**» وذكر الحديث. فقوله: «**ولم يَكُنْ يَنبغي له ذلك**» لما له عليه تعالىٰ من فضل إخراجه من الشر الذي هو العدم إلى الخير الذي بيده تعالىٰ وهو الوجود، والله يقول في مكارم الأخلاق: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمٰن: ٦٠]. فأحكام الأسماء الحسنى لذاتها وتعيين تلك الأحكام بكذا دون كذا مع جواز كذا لما أعطاه الممكن المعلوم من نفسه، فمن هنا نسب الأذى إلى المخلوق واتصف الحق بالصبر على أذى العبد، وعرف أهل الاعتناء من المؤمنين بذلك صورة الشاكي بهم ليدفعوا عنه ذلك الأذى فيكون لهم من الله أعظم الجزاء كما قررناه قبل، فهذه حضرة عجيبة فقد ذكرنا مائة حضرة، كما اشترطنا على أن الحضرات الإلٰهية تكاد لا تنحصر لأنها نسب، وقد ذكر منها أن لله ثلاثمائة خلق هذه التي ذكرنا من تلك الثلاث مائة وكل اسم إلٰهي فهو حضرة، ومن أسمائه ما نعلم ومنها ما لا نعلم، ومنها ما نجوز إطلاق ما نعلم عليه ومنها ما لا نجوزه لما يقتضي في العرف من سوء الأدب فسكتنا عنه أدباً مع الله، لكن جاء في القرآن من ذلك شيء بطريق التضمن، وأسماء الأفعال التي ما بنى منها أسماء كثيرة، وجاء أسماء أشياء نسب إليها حكم ما هو لله ولم يتسم الله بها، ونسب ذلك الحكم إليها مثل قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] والواقي إنما هو الله، والسربال هنا نائب علق به الذكر في الحكم ونسب الوقاية إليه وليس الواقي إلاّ الله، ولكن ما يطلق على الله اسم السربال بل كل ما يفتقر إليه هو اسم من أسمائه تعالىٰ لأنه قال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] ولما كان الله يحب الوتر لأنه وتر وجئنا بمائة حضرة فجئنا بالشفعية أوترناها بحضرة الحضرات لتكون مائة وواحدة فإن الله وتر يحب الوتر، فأوتروا يا أهل القرآن ونحن أهل القرآن فإنه علينا أنزل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الحضرات الجامعة للأسماء الحسنى

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠] فاعلم أن أسماء الله منها معارف كالأسماء المعروفة وهي الظواهر، ومنها مضمرات مثل كاف الخطاب وتائه تاء المتكلم ويائه وضمير الغائب وضمير التثنية من ذلك وضمير الجمع مثل: ﴿نَحۡنُ نَزَّلۡنَا﴾ [الإنسان: ٢٣] ونون الضمير في الجمع مثل: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ [الإنسان: ٢٣] وكلمة أنا وأنت وهو، ومنها أسماء تدل عليها الأفعال ولم يبن منها أسماء مثل: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩] ومثل: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٥] ومنها أسماء النيابة هي لله، ولكن نابوا عن الله منابه مثل قولنا: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] وكل فعل منسوب إلى كون ما من الممكنات إنما ذلك المسمّى نائب فيه عن الله لأن الأفعال كلها لله سواء تعلق بذلك الفعل ذم أو حمد، فلا حكم لذلك التعلّق بالتأثير فيما يعطيه العلم الصحيح، فكل ما ينسب إلى المخلوق من الأفعال فهو فيه نائب عن الله، فإن وقع محموداً نسب إلى الله لأجل المدح فإن الله يحب أن يمدح، كذا ورد في الصحيح عن رسول الله ﷺ وإن تعلق به ذمّ لم ننسبه إلى الله أو لحق به عيب مثل المحمود قول الخليل: ﴿فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] وقال في المرض إذا مرضت ولم يقل أمرضني وما أمرضه إلاّ الله فمرض كما أنه شفاه، وكذلك: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] فكنى العالم العدل الأديب عن نفسه إرادة العيب. وقال في المحمود: فأراد ربك في حق اليتيمين، وقال في موضع الحمد والذمّ: ﴿فَأَرَدۡنَآ﴾ [الكهف: ٨١] بنون الجمع لما فيه من تضمن الذمّ في قتل الغلام بغير نفس، ولما فيه من تضمن الحمد في حق ما عصم الله بقتله أبويه فقال: ﴿فَأَرَدۡنَآ﴾ وما أفرد ولا عين، هكذا حال الأدباء ثم قال: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ﴾ يعني ما فعل ﴿عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ [الكهف: ٨٢] بل الأمر كله لله، فإذا كنى الحق عن نفسه بضمير الجمع فلأسمائه لما في ذلك المذكور من حكم أسماء متعددة، وإذا ثنى فلذاته ونسبة اسم خاص، وإذا أفرد فلاسم خاص أو ذات وهي المسمّى إذا كنى بتنزيه فليس إلاّ الذات، وإذا كنى بفعل فليس إلاّ الاسم على ما قررناه، وانحصر فيما ذكرناه جميع أسماء الله لا بطريق التعيين فإنه فيها ما ينبغي أن يعين وما ينبغي أن لا يعين، وقد جاء من المعين مثل الفالق والجاعل ولم يجىء المستهزىء والساخر وهو الذي يستهزىء بمن شاء من عباده ويكيد ويسخر ممّن شاء من عباده حيث ذكره ولا يسمّى بشيء من ذلك ولا بأسماء النواب ونوابه لا يأخذهم حصر، ولكن انظر إلى كل فعل منسوب إلى كون من الأكوان فذلك المسمّى هو نائب عن الله في ذلك الفعل كآدم والرسل خلفاء الله على عباده ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠] فلننبه من ذلك على يسير يكون خاتمة هذا الباب لنفيد المؤمنين بما فيه سعادتهم، لأن السعادة كلها في العلم بالله تعالىٰ فنقول: إن من الأفعال ما علّق الله الذمّ بفاعله والغضب عليه واللعنة وأمثال ذلك، ومن الأفعال ما علّق الله المدح والحمد بفاعله كالمغفرة والشكر والإيمان والتوبة والتطهير والإحسان وقد وصف نفسه بأنه يحب المتصفين بهذا كله، كما أنه لا يحب الموصوفين بالأفعال التي علّق الذم بفاعلها مع

قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] والأمر كله لله. وقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فأخبر أنه يحب الشاكرين والمحسنين والصابرين والتوّابين والمتطهرين والذين اتقوا ولا يحب المسرفين ويغفر لهم، ولا يحب المفسدين ولا الظالمين، وما جاء في القرآن من صفة من لا يحبه عزّ وجلّ، فالأدب من العلماء بالله أن تكون مع الله في جميع القرآن، وما صحّ عندك أنه قول الله في خبر وارد صحيح، فما نسب إلى نفسه بالإجمال نسبناه مجملاً لا نفصله، وما نسبه مفصلاً نسبناه إليه مفصلاً وعيناه بتفصيل ما فصل فيه لا نزيد عليه، وما أطلق لنا التصرّف فيه تصرفنا فيه لنكون عبيداً واقفين عند حدود سيدنا ومراسمه: [السريع]

فإنّه الرَّبُّ ونحن العَبِيد ... فنَبْتَغي بالشُّكْرِ منه المَزِيدْ
لكَوْنِنا بالفَقْر في فَاقَةٍ ... أوّلها حالُ حُصُولِ الوُجُودْ
وبعد ذا اسْتِمْرَارُهُ دائماً ... إلى مقامات الفَنَا في الشّهُودْ
لأنه سبحانه فاعلٌ ... يفعلُ في أعياننا ما يُريدْ
ولا يُريدُ الحَقُّ إلاّ الذي ... أعطاه في التَّحْقِيقِ حَالَ العَبِيدْ
وما يزيدُ الله في عِلْمِهِ ... فجُودُهُمْ منهم عليهم يَعُودْ
ونَنْسُبُ الجُودَ إليه لما ... له من الخَيْرِ الذي لا يَبِيدْ
فكلُّ خَيْرنا لنا حادثٌ ... نَعيمنا منا فما نَسْتَزِيدْ
بنا نَعِمْنا لا به فانظروا ... في قولنا فنحن عَيْنُ الحُدُوذْ

فما نعمنا إلاّ بحادث، فبنا نعمنا لأنه يستحيل تنعمنا به، ويستحيل قيام الحوادث به، فتنعمه وابتهاجه بذاته وكماله فإنه الغنيّ عن العالمين، فما رأى راء سوى نفسه لا رؤية علم ولا رؤية حسّ، فانظر ماذا ترى وانظر من ذا يرى، وانظر ما يحصل عن كل رؤية في نفس الرائي، فإن اقتضى ذلك الحاصل حكم رضى رضي، وإن اقتضى حكم سخط وغضب سخط وغضب كان ذلك الرائي من كان ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله فقد أسخطوا الله وأغضبوه فعاد وبال ذلك الغضب على من أغضبه، فلولا شهود ما أغضبه ما غضب وما أسخطه ما سخط وما أرضاه ما رضي، فإن الأصل التعري والتنزيه عن الصفات، ولا سيما في الله إذا كان أبو يزيد يقول: لا صفة لي فالحق أولى أن يطلق عن التقييد بالصفات لغناه عن العالم لأن الصفات إنما تطلب الأكوان، فلو كان في الحق ما يطلب العالم لم يصحّ كونه غنياً عمّا هو له طالب.

واعلم أن هذه الحضرة الجامعة للحضرات تتضمن ملك الله وليس ملك الله سوى الممكنات وهي أعياننا فنحن ملكه وبناء كان ملكاً وهو القائل: ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧] وقول رسول الله ﷺ في الثناء على الله: «**إنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ**» فجاء بلفظة «شيء» وهي تنطلق على الأعيان الثابتة والوجودية، فما وجد منها فهو متناه، وما لم يوجد فلا يوصف بالتناهي. ثم انظر في الخبر الإلهي الثابت الصحيح قوله: «**لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ**» وما له آخر لأن الأمر لا يتناهى فلا يظهر الآخر إلاّ فيما وجد ثم يوجد آخر فيزول عن ذلك حكم الآخر وينتقل إلى هذا الذي وجد هكذا إلى ما لا يتناهى، وقد يتناهى الأمر في نوع خاص

كالإنسان، فإن أشخاص هذا النوع متناهية لا أشخاص العالم، ولا يتناهى أيضاً خلق أشخاص النوع الإنساني بوجه آخر لا يعثر عليه كل أحد وهو في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] فعين كل شخص يتجدد في كل نفس لا بدّ من ذلك، فلا يزال الحق فاعلاً في الممكنات الوجود، ويدل على ذلك اختلاف الأحكام على الأعيان في كل حال، فلا بدّ أن تكون تلك العين التي لها هذه الحال الخاص ليست تلك العين التي كان لها ذلك الحال الذي شوهد مضيه وزواله فيما شوهد من ذلك، ثم قال: «وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ» وهو ما تبصرون وما لا تبصرون، وجاء بلو وهي كلمة امتناع لامتناع أي لو وقع هذا لكان الحكم فيه كما قرّره ثم قال: «**كَانُوا عَلَى أَتقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنكُمْ مَا زَادَ ذٰلِكَ فِي مُلْكِي شَيئاً**» وهو الصحيح لأن ذلك عين ملكه فما زاد شيء في ملكه بل يقبل الزيادة ملك الوجود، وهو إنما أراد ملك الثبوت فالنقص والزيادة في الوجود ثم قال: «**وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنكُمْ مَا نَقَصَ ذٰلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيئاً**» وكيف ينقص منه والكل عين ملكه. ثم قال: «**لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُمَّ سَأَلُوا فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذٰلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيئاً**» لأن المعطى والمعطى إياه ما هو سوى عين ملكه، فما خرج شيء عن ملكه إلاّ أن ملكه منه ما هو موصوف بالوجود ومنه ما هو موصوف بالثبوت، فالثبوت والوجود منه لا بدّ أن يكون متناهياً، والثابت لا نهاية له وما لا نهاية له لا يتصف بالنقص لأن الذي حصل منه في الوجود ما هو نقص في الثبوت لأنه في الثبوت بعينه في حال وجوده إلاّ أن الله كساه حلة الوجود بنفسه، فالوجود لله الحق وهو على ثبوته ما نقص ولا زاد، فما كسي منه حلة الوجود كأنه تعين وتخصّص وحده ممّا لا يتناهى حد المخيط إذا غمسته في اليمّ، فانظر ما يتعلق به، فإنا نعلم أن المثال صحيح فإنا نعلم أن من الأعيان الثابتة ما يتصف بالوجود، كما نعلم أن المخيط قد تعلق به من اليمّ في الغمس، ونسبة ما تعلق من الماء بالمخيط من اليمّ ما هو في الدرجة مثل ما اكتسى من الأعيان الثابتة حلة الوجود لأن اليمّ محصور يأخذه العدد والتناهي لوجوده والأعيان الثابتة لا نهاية لها وما لا يتناهى لا يأخذه حد ولا يحصيه عدد مع صحة المثال بلا شك، وهكذا مثل الخضر لموسىٰ بنقر الطائر في البحر بمنقاره وهو على حرف السفينة فقال له الخضر: تدري ما يقول هذا الطائر؟ وكان الخضر قد أعطي منطق الطير فكان نقره كلاماً عند الخضر لا علم لموسىٰ بذلك، وكان الخضر قد ذكر لموسىٰ عليه السلام أنه على علم علمه الله لا يعلمه موسىٰ، وموسىٰ على علم علمه الله لا يعلمه خضر مع العلم الكثير الذي كان عند كل واحد منهما فقال: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلاّ بقدر ما نقر هذا الطائر، ومعلوم أنه قد حصل شيئاً من الماء في نقره، كذلك حصل بما علمه موسىٰ والخضر من العلم شركه مع الله في ذلك القدر، فعلمنا من علم الله شيئاً مما يعلمه الله فحقق ما حصل لك وما بقي ولم يحصل لك فوقع التشبيه الصحيح من جهة ما حصل لا من جهة ما لم يحصل، لأن الذي لم يحصل من اليمّ متناه، والذي لم يحصل من العلم لموسىٰ والخضر غير متناه، فلذلك جاء ضرب المثل من جهة ما حصل

خاصة، فإنا لا نشك في أنه حصل شيء في نفس الأمر إلاّ أن حصول المعاني في النفوس بأي نوع كان حصولها لا يتصف من حصلت منه، ومن كان موصوفاً بها أنه نقص منه بقدر ما حصل عند المتعلم منه بل هو عنده كما هو عند من حصل له، وإنما لما ظهر ذلك المعنى في محلين كأنه وقع فيه الاشتراك. وفي المثال المحسوس ما يؤيّد هذا وهو أخذ النور من السراج بالفتائل فتتقد به فتائل لا تتناهى ولا ينتقص منه شيء وإنما حصل ذلك باستعداد القابل أن يقبل، واستعداد المأخوذ منه أن لا يمتنع، والسراج سراج على حاله وقد ملأ العالم سرجاً كذلك العلم والتعلم، فإذا كان المحسوس بهذه السعة وعلى هذه الحقيقة فما ظنك بالمعاني؟

ثم لتعلم أن لنا أحكاماً في حضرة الحق تضاف إليها بها من موالاة وعبادة وسؤال وغير ذلك ممّا لا يحصى كثرة إذا تتبع الإنسان أحوال نفسه مع ربه، ولهذا وصف نفسه بأن له أسماء وأخلاقاً وهي معلومة عند علماء الرسوم ألفاظها ومعانيها، وعند أهل الله الاتصاف بها حتى أطلق عليهم منها أعيان أسمائها كما قال عن نبيه ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ووصف نفسه بأنه أحسن الخالقين وخير الشاكرين وخير الناصرين، وكل ذلك اتصف به أهل الله على السنة المشروعة والطريقة الإلٰهية الموضوعة، فاتخذوا ذلك قربة إلى الله، فالله يجعلنا من أهله، فإنا من هذه الأهلية إلٰهية واليناه، ومن كونه مجيباً لما يطلبه منه عباده حين ينادونه سألناه، ومن كونه نزل إلينا في ألطافه الخفية وسأل منا أموراً وردت بها الأخبار الإلٰهية بالسنة الشرائع بادرنا إلى ذلك وقبلناه، ومن كونه إذا تقربنا إليه بنوافل الخيرات وأحبنا فكان سمعنا وبصرنا وجميع قوانا بهويته كنا، ومن كونه خلقنا دون جميع صور العالم على صورته وما بقي اسم ورد إلاّ وظهرنا به حتى أضيف إلينا وسعناه، ومن كونه أعطانا الانفعال عنا والتأثير في الأكوان علمنا ما حصل لنا من ذلك منه وحققناه. ومن استنادنا إلى ذات موجدة لها غنى عنا ولنا إليها افتقار ذاتي لإمكاننا عرفناه، ومن كون هذا الأمر الذي استندنا إليه له نسبة إلينا بها ظهرت أعياننا بما نحن عليه من جميع ما يقوم بنا ونتصف به علمناه، وبتجليه في صورة كل شيء من العالم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] خشعنا له وشهدناه، ومن اسمه الظاهر في المظاهر فلا فاعل في الكون إلاّ هو رأيناه، ومن كونه يطلب آثار عباده وما يكون منهم وإن كان ذلك خلقاً له كما قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] طالعناه، ومن كونه وصف نفسه بصفات المحدثات تنزلاً لنا آمنا بذلك القول إذ نسبه إلى نفسه واعتقدناه، ومن كونه أوحى إلى رسوله ﷺ أن يقول لنا: «**اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» وَ«**إِنَّ اللهَ فِي قِبْلَةِ المُصَلِّي إِذَا هُوَ نَاجَاهُ**» تخيلناه. ومن قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ﴾ [النور: ٣٥] شبهناه. ومن كونه قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١١٥] ومع هذا أمرنا باستقبال جهة خاصة سمّاها القبلة جعل نفسه لنا فيها فقال عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ فِي قِبْلَةِ المُصَلِّي**» وأمرنا باحترامها وأن نستقبلها في مجالسنا وأداء صلواتنا وأن لا نستقبلها بغائط ولا بول فإن اضطررنا

إلى هذه القاذورات انحرفنا عنها قليلاً قدر الطاقة واستغفرنا الله مثلناه. ومن كونه قال له رسول الله ﷺ عند سفره عن أهله: «**أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ**» وأمرنا أن نتخذه وكيلاً وكلناه. ومن كونه أقرب إلينا من حبل الوريد ولكن لا نبصره كبرناه. ومن كونه أمرنا أن نعظم شعائر الله لدلالتها عليه وحرمات الله عظمناه. وعن ملابسته إيانا في حركاتنا وسكناتنا مع شهودنا إياه فيها أجللناه. ومن أمره إيانا في الإهلال بالحج بتوحيده نفينا الشريك عنه تعالىٰ وأثبتناه. وبتهليله في قولنا: لا إله إلاّ الله هللناه. ومن دعائه بأمره لنبيه ﷺ في قوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] الآيات لبيناه. ومن كونه ظهر فينا بنا وإلينا عنا وكان أقرب إلينا منا كما أخبرنا آمنا بذلك كله ثم قال: إنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] صدقناه ونزهناه. وبقوله: قال الله في غير موضع من كتابه ووعده ووعيده وتجاوزه عن سيئاتنا في خطابه وإضافة الكلام إليه صدقناه. ومن كونه أمرنا أن نعلمه ونصب الأدلة لنا محررة على الوصول إلى العلم به والبحث عنه لنتبين أنه الحق في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] لنستدل بما ذكره عليه طلبناه. ولما علمنا أنه ما طلبنا ولا طلب منا أن نطلبه إلاّ ولا بدّ أن نجده إما بالوصول إليه أو بالعجز عن ذلك وعلى كلا الأمرين فوجدناه. فلما ظفرنا به في زعمنا وأردنا أن نقرّه على ما وجدناه تحول سبحانه لنا في غير الصورة التي ظفرنا به فيها ففقدناه ومن قوله: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] علمنا بتقييد القرض بالحسن أنه يريد أن نرى النعمة منه وأنها نعمته فعلى هذا الحد من المعرفة بالإنعام والنعم أقرضناه. ولما ظهر لنا سبحانه عند صور المتجلي في صور العالم لنحكم عليه بما تعطيه حقائق ما ظهر فيها من الصور وقد ظهر في صور تقتضي الملل وأخبر ﷺ أن الله لا يمل حتى تملوا فأشار أن ملل الإنسان ملله فأثبته للإنسان ونفاه ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] ومع هذا التعريف مللناه. وبما أطلعنا عليه من أسراره في عباده واطلع على أسرار عباده بما أطلعوه عليه من ذلك من هذه النسبة لا من كونه عالماً بها من غير نسبة اطلاعنا إياه عليها كاشفناه. ومن كونه غيوراً كما ذكره رسول الله ﷺ في حديث الغيرة في خبر سعد: «**إِنَّ اللهَ غَيُورٌ وَمِنْ غَيْرَتِهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ**» سترناه. ومن قوله: ﴿تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١٣] ومن كونه من ورائنا محيطاً حجبناه. ومن كونه أنزل نفسه منا منزلة السرّ وأخفى مع شدّة ظهوره بكونه صورة كل شيء وقال: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣] علمنا أنه يريد الإخفاء فأخفيناه. ومن كونه يقول في نزوله: هل من داع دعوناه، وهل من تائب ومن سائل ومن مستغفر وأمثال هذا نازلناه. ومن كونه أعلمنا أنه معنا أينما كنا بطريق الشهود والحفظ صاحبناه. ومن كونه أظهرنا بكل صورة ظهر بها لا نزيده عليها في الحال الذي يظهر به في عباده وافقناه. ومن كونه صادق القول فقال: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ٦٧] مع علمه بأن العالم منا يعلم أنه هوية كل شيء نسيناه. ومن كونه أنزل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص] نسباً له عند قول اليهود لمحمد ﷺ: انسب لنا ربك فنسبناه. ومن كونه سمّى نفسه لنا بأسماء تطلب معانيها

تقوم به ما هي عين ذاته من حيث ما يفهم منها مع اختلافها وصفناه. ومن كونه سمّى نفسه بأسماء لا يفهم منها معان تقوم به بل يفهم منها نسب وإضافات كالأول والآخر والظاهر والباطن والغنيّ والعليّ وأمثال ذلك نعتناه ومن قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢] فنبّه على العلة وحدناه. ومن كونه في عماء وعلى عرش استوى وجعلنا على أحوال نطلب بها نزول الذكر إلينا وهو كلامه والصفة لا تفارق الموصوف فإذا نحن لضعفنا نزلناه فإذا نزل إلينا لما طلبناه له بقلوبنا أنزلناه. ولما أنزلناه في آنية مخصوصة معينة عينها سبحانه لنفسه حصرناه. وباستمرار بقائه بالأين الذي أنزلناه به مع الأنات وصفنا بأنا مسكناه. ومن كونه حياً وسمّى نفسه المحيي وجعلنا بلداً ميتاً دعوناه إلى إحيائه وسقيناه. ولما عرضنا هذه الصفات التي نسبنا إليه مع ما تقرر عندنا من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ [الشورى: ١١] و﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] وكل تسبيح ورد عن الله تعالىٰ وعن رسوله ﷺ أنكرناه. ولما أيَّهَ بنا من مكان قريب وبعيد لحكمة يريد ظهورها فينا أجبناه. وبما استعمله منا في ابتلائنا أعلمناه. ومن كونه عند عبده في لسانه إذا مرض وقلبه والتجائه واضطراره إليه عدناه. وباستسقاء الظمآن الذي تخيل السراب ماء فلما جاءه لم يجده شيئاً سقيناه. وباستطعام الجائع أطعمناه. وإلى كل ملمة ونازلة مهمة ليرفعها عن الضعفاء دعوناه وبقولنا في دعائنا إياه عن أمره اغفر لنا وارحمنا وانصرنا أمرناه وبقولنا: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٨٦] نهيناه. وبقولنا إنه لن يعيدنا كما بدأنا كذبناه. وبقولنا إن له صاحبة وولداً شتمناه. وبتكذيبه وشتمه آذيناه. وباستفهامه إيانا عن أمور يعلمها أخبرناه. وبتلاوتنا كلامه العزيز بالنهار حدثناه. وبه في ظلام الليل سامرناه. وفي الصلاة عندما نقول ويقول ناجيناه. وعند سفرنا في أهلنا استخلفناه. وعند طلبه منا نصرة دينه نصرناه. وإذا لم نطلب سواه شاهداً وغائباً واعتمدنا عليه في كل حال حصلناه. وبمحاسبتنا نفوسنا وهو السريع الحساب سابقناه. وبأسمائنا التي أدخلتنا عليه وأعطتنا الحظوة لديه كالخاشع والدليد والفقير قابلناه وبكونه سمعنا وبصرنا أبصرناه ورأيناه. وبما أوجدنا له بلام العلة عبدناه. وفي اعتمارنا الذي شرع لنا زرناه. وفي بيته الذي أذن فينا بالحج إليه قصدناه وأملناه. ولنيل جميع أغراضنا أردناه، وذلك لما نسب إلى نفسه من الأسماء الحسنى دون غيرها من الأسماء وإن كانت أسماء له في الحقيقة إلاّ أنه عراها عن النعت بالحسنى.

فهو عزّ وجلّ الله من حيث هويته وذاته: الرحمٰن بعموم رحمته التي وسعت كل شيء الرحيم بما أوجب على نفسه للتائبين من عباده، الرب بما أوجده من المصالح لخلقه الملك بنسبة ملك السموات والأرض إليه فإنه رب كل شيء ومليكه القدوس بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] وتنزيهه عن كل ما وصف به، السلام بسلامته من كل ما نسب إليه ممّا كره من عباده أن ينسبوه إليه المؤمن بما صدق عباده وبما أعطاهم من الأمان إذا وفوا بعهده. المهيمن على عباده بما هم فيه من جيمع أحوالهم ممّا لهم وعليهم. العزيز لغلبه من غالبه إذ

هو الذي لا يغالب وامتناعه في علو قدسه أن يقاوم الجبار بما جبر عليه عباده في اضطرارهم واختيارهم فهم في قبضته. المتكبر لما حصل في النفوس الضعيفة من نزوله إليهم في خفيّ ألطافه لمن تقرب بالحد والمقدار من شبر وذراع وباع وهرولة وتبشيش وفرح وتعجب وضحك وأمثال ذلك الخالق بالتقدير والإيجاد. البارىء بما أوجده من مولدات الأركان. المصوّر بما فتح في الهباء من الصور وفي أعين المتجلي لهم من صور التجلي المنسوبة إليه ما نكر منها وما عرف وما أحيط بها وما لم يدخل تحت إحاطة. الغفار بمن ستر من عباده المؤمنين. الغافر بنسبة اليسير إليه. الغفور بما أسدل من الستور من أكوان وغير أكوان. القهار من نازعه من عباده بجهالة ولم يتب. الوهاب بما أنعم به من العطاء لينعم لا جزاء ولا ليشكر به ويذكر الكريم المعطي عباده ما سألوه منه. الجواد المعطي قبل السؤال ليشكروه فيزيدهم ويذكروه فيثيبهم. السخي بإعطاء كل شيء خلقه وتوفيته حقه. الرزاق بما أعطى من الأرزاق لكل متغذ من معدن ونبات وحيوان وإنسان من غير اشتراط كفر ولا إيمان. الفتاح بما فتح من أبواب النعم والعقاب والعذاب. العليم بكثرة معلوماته. العالم بأحدية نفسه. العلاّم بالغيب فهو تعلق خاص والغيب لا يتناهى والشهادة متناهية إذا كان الوجود سبب الشهود والرؤية كما يراه بعض النظار، وعلى كل حال فالشهادة خصوص، فإن من يقول: إن العلة في الرؤية استعداد المرئي فما ثم مشهود إلاّ الحق وما وجد من الممكنات وما لم يوجد، وبقي المحال معلوماً غيباً لم يدخل تحت الرؤية ولا الشهادة. القابض بكون الأشياء في قبضته والأرض جميعاً قبضته وكون الصدقة تقع بيد الرحمٰن فيقبضها. الباسط بما بسطه من الرزق الذي لا يعطى البغي بسطه وهو القدر المعلوم وأنه تعالىٰ يقبض ما شاء من ذلك لما فيه من الابتلاء والمصلحة. ويبسط ما شاء من ذلك لما فيه من الابتلاء والمصلحة الرفع من كونه تعالىٰ بيده الميزان يخفض القسط ويرفعه فيرفع ليؤتي الملك من يشاء ويعزّ من يشاء ويغني من يشاء الخافض لينزع الملك ممّن يشاء ويذلّ من يشاء ويفقر من يشاء بيده الخير وهو الميزان فيوفي الحقوق من يستحقها، وفي هذه الحال لا يكون معاملة الامتنان فإن استيفاء الحقوق من بعض الامتنان أعمّ في التعلّق. المعزّ المذلّ فأعزّ بطاعته وأذلّ بمخالفته وفي الدنيا أعزّ بما أتى من المال من أتاه وبما أعطى من اليقين لأهله وبما أنعم به من الرياسة والولاية والتحكم في العالم بإمضاء الكلمة والقهر، وبما أذل به الجبارين والمتكبرين، وبما أذلّ به في الدنيا بعض المؤمنين ليعزّهم في الآخرة ويذلّ من أورثهم الذلة في الدنيا لإيمانهم وطاعتهم. السميع دعاء عباده إذا دعوه في مهماتهم فأجابهم من اسمه السميع فإنه تعالىٰ ذكر في حدّ السمع فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] ومعلوم أنهم سمعوا دعوة الحق بآذانهم ولكن ما أجابوا ما دعوا إليه، وهكذا يعامل الحق عباده من كونه سميعاً. البصير بأمور عباده كما قال لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] فقال لهما: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ [طه: ٤٦] فإذا أعطى بصره الأمان فذلك معنى البصير لا أنه يشهده ويراه فقط فإنه يراه حقيقة سواء نصره أو خذله أو اعتنى به أو أهمله. الحكم بما يفصل به من الحكم يوم القيامة

بين عباده، وبما أنزل في الدنيا من الأحكام المشروعة والنواميس الوضعية الحكمية كل ذلك من الاسم الحكم العدل بحكمه بالحق وإقامة الملة الحنيفية ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] فهو ميل إليه إذ قد جعل للهوى حكماً من اتبعه ضلّ عن سبيل الله. اللطيف بعباده فإنه يوصل إليهم العافية مندرجة في الأدوية الكريهة فأخفى من ضرب المثل في الأدوية المؤلمة المتضمنة الشفاء والراحة لا يكون فإنه لا أثر لها في وقت الاستعمال مع علمنا بأنها في نفس استعمال ذلك الدواء ولا نحس بها للطافتها، ومن باب لطفه سريانه في أفعال الموجودات وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] ولا نرى الأعمال إلاّ من المخلوقين، ونعلم أن العامل لتلك الأعمال إنما هو الله، فلولا لطفه لشوهد الخبير بما اختبر به عباده، ومن اختباره قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] فنرى هل ننسب إليه حدوث العلم أم لا؟ فانظر أيضاً هذا اللطف ولذلك قرن الخبير باللطيف فقال: ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] الحليم هو الذي أمهل وما أهمل. ولم يسارع بالمؤاخذة لمن عمل سوءاً بجهالة مع تمكنه أن لا يجهل وأن يسأل وينظر حتى يعلم العظيم في قلوب العارفين به. الشكور لطلب الزيادة من عباده ممّا شكرهم عليه وذكرهم به من عملهم بطاعته والوقوف عند حدوده ورسومه وأوامره ونواهيه وهو يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] فبذلك يعامل عباده، فطلب منهم بكونه شكوراً أن يبالغوا فيما شكرهم عليه العلي في شأنه وذاته عمّا يليق بسمات الحدوث وصفات المحدثات. الكبير بما نصبه المشركون من الآلهة ولهذا قال الخليل في معرض الحجة على قومه مع اعتقاده الصحيح، إن الله هو الذي كسر الأصنام المتخذة آلهة حتى جعلها جذاذاً مع دعوى عابديها بقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فنسبوا الكبر له تعالىٰ على آلهتهم فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ وهنا الوقف ويبتدىء ﴿هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] فلو نطقوا لاعترفوا بأنهم عبيد وأن الله هو الكبير العليّ العظيم الحفيظ بكونه ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤] فاحتاط بالأشياء ليحفظ عليها وجودها فإنها قابلة للعدم كما هي قابلة للوجود، فمن شاء سبحانه أن يوجده فأوجده حفظ عليه وجوده، ومن لم يشأ أن يوجد وشاء أن يبقيه في العدم حفظ عليه العدم فلا يوجد ما دام يحفظ عليه العدم، فإما أن يحفظه دائماً أو إلى أجل مسمّى. المقيت بما قدر في الأرض من الأقوات وبما أوحى في السماء من الأمور، فهو سبحانه يعطي قوت كل متقوّت على مقدار معلوم. الحسيب إذا عدّد عليك نعمه ليريك منته عليك لما كفرت بها فلم يؤاخذك لحلمه وكرمه وبما هو كافيك عن كل شيء لا إلٰه إلاّ هو العليم الحكيم الجليل لكونه عزّ فلم تدركه الأبصار ولا البصائر، فعلا ونزل بحيث أنه مع عباده أينما كانوا كما يليق بجلاله إلى أن بلغ في نزوله أن قال لعبده: «**مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي وَجِعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي وَظَمِئْتُ فَلَمْ تَسْقِنِي**» فأنزل نفسه من عباده منزلة عباده من عباده فهذا من حكم هذا الاسم الإلٰهي. الرقيب لما هو عليه من لزوم الحفظ لخلقه فإن ذلك لا يثقله وليعلم عباده أنه إذا راقبهم يستحيون منه فلا يراهم حيث نهاهم ولا يفقدهم حيث أمرهم. المجيب من دعاه لقربه وسماعه دعا عباده كما

أخبر عن نفسه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فوصف نفسه بأنه متكلم إذ المجيب من كان ذا إجابة وهي التلبية. الواسع العطاء بما بسط من الرحمة التي وسعت كل شيء وهي مخلوقة فرحم بها كل شيء وبها أزال غضبه عن عباده فانظر فهنا سر عجيب في قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] الحكيم بإنزال كل شيء منزلته. وجعله في مرتبته ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وقد قال عن نفسه إن بيده الخير وقال ﷺ له: «**وَالخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْكَ**» فلم يبق منه شيئاً: «**وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ**». الودود الثابت حبّه في عباده فلا يؤثر فيما سبق لهم من المحبة معاصيهم فإنها ما نزلت بهم إلاَّ بحكم القضاء والقدر السابق لا للطرد والبعد ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فسبقت المغفرة للمحبين اسم المفعول. المجيد لما له من الشرف على كل موصوف بالشرف فإن شرف العالم بما هو منسوب إلى الله أنه خلقه وفعله فما هو شرفه بنفسه، فالشريف على الحقيقة من شرفه بذاته وليس إلاَّ الله الباعث عموماً وخصوصاً، فالعموم بما بعث من الممكنات إلى الوجود من العدم وهو بعث لم يشعر به كل أحد إلا من قال: بأن للممكنات أعياناً ثبوتية وإن لم يعثر على ما أشرنا إليه القائل بهذا. ولما كان الوجود عين الحق فما بعثهم إلاَّ الله بهذا الاسم خاصة، ثم خصوص البعث في الأحوال كبعث الرسل والبعث من الدنيا إلى البرزخ نوماً وموتاً ومن البرزخ إلى القيامة وكل بعث في العالم في حال وعين فمن الاسم الباعث فهو من أعجب اسم تسمّى الحق به تعريفاً لعباده. الشهيد لنفسه بأنه لا إلٰه إلاَّ هو ولعباده بما فيه الخير والسعادة لهم بما جاؤوا به من طاعة الله وطاعة رسوله وبما كانوا عليه من مكارم الأخلاق، وشهيد عليهم بما كانوا فيه من المخالفات والمعاصي وسفساف الأخلاق ليريهم منة الله وكرمه بهم حيث غفر لهم وعفا عنهم وكان مآلهم عنده إلى شمول الرحمة ودخولهم في سعتها إذ كانوا من جملة الأشياء، وأن تلك الأشياء المسماة مخالفة لم يبرزها الله من العدم إلى الوجود إلاَّ برحمته فهي مخلوقة من الرحمة، وكان المحل الذي قامت به سبباً لوجودها لأنها لا تقوم بنفسها وإنما تقوم بنفس المخالف، وقد علمت أنها مخلوقة من الرحمة ومسبحة بحمد خالقها فهي تستغفر للمحل الذي قامت به حتى ظهر وجود عينها لعلمها بأنها لا تقوم بنفسها الحق الوجود الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ وهو العدم ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] فمن بين يديه من قوله: لما خلقت بيديّ، ومن خلفه لقول رسول الله ﷺ: «**لَيسَ وَرَاءَ الله مَرْمَى**» فنسب إليه الوراء وهو الخلف فهو وجود حق لا عن عدم ولا يعقبه عدم بخلاف الخلق فإنه عن عدم ويعقبه العدم من حيث لا يشعر به، فإن الوجود والإيجاد لا ينقطع، فما ثم في العالم من العالم إلاَّ وجود وشهود دنيا وآخرة من غير انتهاء ولا انقطاع، فأعيان تظهر فتبصر الوكيل الذي وكله عباده على النظر في مصالحهم، فكان من النظر في مصالحهم أن أمرهم بالإنفاق على حد معين فاستخلفهم فيه بعدما اتخذوه وكيلاً فالأموال له بوجه فاستخلفهم فيها، والأموال لهم بوجه فوكلوه في النظر فيها فهي لهم بما لهم فيها من المنفعة وهي له بما هي

غنية من تسبيحه بحمده، فمن اعتبر التسبيح قال: إن الله ما خلق العالم إلاّ لعبادته، ومن رعى المنفعة قال: إن الله ما خلق العالم إلاّ لينفع بعضه بعضاً أوّل المنفعة فيهم للإيجاد فأوجد المحال لينتفع بالوجود من لا يقوم من الموجودات إلاّ بمحل وأوجد من لا قيام له بنفسه لينتفع به من لا يستغني عن قيام الحوادث به ولا يعرى عنها، فوجود كل واحد منهما موقوف على صاحبه من وجه لا يدخله الدور فيستحيل الوقوع. القويّ المتين: هو ذو القوّة لما في بعض الممكنات أو فيها مطلقاً من العزّة وهي عدم القبول للأضداد فكان من القوّة خلق عالم الخيال ليظهر فيه الجمع فين الأضداد لأن الحسّ والعقل يمتنع عندهما الجمع بين الضدين والخيال لا يمتنع عنده ذلك، فما ظهر سلطان القوي ولا قوته إلاّ في خلق القوّة المتخيلة وعالم الخيال فإنه أقرب في الدلالة على الحق فإن الحق هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن، قيل لأبي سعيد الخراز: بم عرفت الله؟ قال: بجمعه بين الضدين ثم تلى هذه الآية، وإن لم تكن من عين واحدة وإلاّ فما فيها فائدة فإن النسب لا تنكر، فإن الشخص الواحد قد تكثر نسبه فيكون أباً وابناً وعماً وخالاً وأمثال ذلك وهو هو لا غيره، فما حاز الصورة على الحقيقة إلاّ الخيال، وهذا ما لا يسع أحداً إنكاره، فإنه يجده في نفسه ويبصره في منامه فيرى ما هو محال الوجود موجوداً، فتنبه لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. الوليّ: هو الناصر من نصره فنصرته مجازاة ومن آمن به فقد نصره، فالمؤمن يأخذ نصر الله من طريق الوجوب فإنه قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] مثل وجوب الرحمة عليه سوءاً قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وأين هذا من اتساعها؟ فنصرة الله تشبه رحمة الوجوب وتفارق رحمة الامتنان الواسعة فإنه ما رأينا فيما أخبرنا به تعالىٰ نصرة مطلقة وإنما رأيناها مقيدة إما بالإيمان وإما بقوله: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وهنا سرّ من أسرار الله تعالىٰ في ظهور المشركين على المؤمنين في أوقات فتدبره تعثر عليه إن شاء الله فما ورد حتى نؤمن به إلاّ أن الإيمان إذا قوي في صاحبه بما كان فله النصر على الأضعف والميزان يخرج ذلك. وقولي هذا ما كان لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [العنكبوت: ٥٢] فسمّاهم مؤمنين ولكن تحقق في إيمانهم بالباطل أنهم ما آمنوا به من كونه باطلاً، وإنما آمنوا به من كونهم اعتقدوا فيه ما اعتقد أهل الحق في الحق، فمن هنا نسب الإيمان إليهم وبما هو في نفس الأمر على غير ما اعتقدوه سمّاه الحق لنا باطلاً لا من حيث ما توهموه. الحميد: بما هو حامد بلسان كل حامد وبنفسه وبما هو محمود بكل ما هو مثنى عليه وعلى نفسه، فإن عواقب الثناء عليه تعود. المحصي: كل شيء عدداً من حروف وأعيان وجودية، إذ كان التناهي لا يدخل إلاّ في الموجودات فيأخذه الإحصاء فهذه الشيئية شيئية الوجود، وفي قوله: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ٢٨]. المبدىء: هو الذي ابتدأ الخلق بالإيجاد في الرتبة الثانية وكل ما ظهر من العالم ويظهر فهو فيها، وما ثم رتبة ثالثة فهي الآخر والأولى للحق فهو الأوّل فالخلق من حيث وجوده لا يكون في الأوّل أبداً، وإنما له الآخر والحق معه في الآخر فإنه مع العالم أينما كانوا

وقد تسمى بالآخر فاعلم. المعيد: عين الفعل من حيث ما هو خالق وفاعل وجاعل وعامل، فهو إذا خلق شيئاً وفرغ خلقه عاد إلى خلق آخر لأنه ليس في العالم شيء يتكرّر وإنما هي أمثال تحدث وهي الخلق الجديد وأعيان توجد. المحيي: بالوجود كل عين ثابتة لها حكم قبول الإيجاد فأوجدها الحق في وجوده. المميت: في الزمان الثاني فما زاد من زمان وجودها فمفارقتها وانتقالها لحال الوجود الذي كان لها موت، وقد يرجع إلى حكمها من الثبوت الذي كان لها فمن المحال وجودها بعد ذلك حتى تفرغ وهي لا تفرغ لعدم التناهي فيها فافهم.

وفي تقييدي هذا الباب في هذه المسألة سمعت منشداً ينشد من زاوية البيت لا أرى له شخصاً لكني أسمع الصوت ولا أدري لمن يخاطب بذلك الكلام وهو: [المجتث]

أَوْصِ فإنَّكَ رَائِخْ ... لِمَنْزِلٍ أَنْتَ رَابِخْ
فيه لأنك ممّن ... له قَبُولُ النَّصائخْ
قد صَاحَ في جانب الدار لِلْمَنِيَّةِ صَائِخْ
وقد دعاكَ إليه ... فلا تُجِبْ بالنَّوائخْ
وقد أتاك رسولٌ ... منه بِخَيْرِ المَنَائِخْ
لقاء ربّك فيها ... وفيه كل المصالخْ

فهو بالنسبة إلى رؤية الله قريب، وقد يكون بالنسبة إلينا بعيد مثل قوله في المعارج: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦ - ٧]. الحيّ: لنفسه لتحقيق ما نسب إليه ممّا لا يتصف به إلاّ من شرطه أن يكون حياً. القيوم: لقيامه على كل نفس بما كسبت. الواجد: بالجيم لما طلب فلحق فلا يفوته هارب كما لا يلحقه في الحقيقة طالب معرفته. الواحد: من حيث ألوهته فلا إلٰه إلاّ هو. الصمد: الذي يلجأ إليه في الأمور، ولهذا اتخذناه وكيلاً. القادر: هو النافذ الاقتدار في القوابل الذي يريد فيها ظهور الاقتدار لا غير. المقتدر: بما عملت أيدينا فالاقتدار له والعمل يظهر من أيدينا، فكل يد في العالم لها عمل فهي يد الله فإن الاقتدار لله فهو تعالىٰ قادر لنفسه مقتدر بنا. المقدم المؤخر من شاء لما شاء ومن شاء عمّا شاء. الأوّل الآخر بالوجوب وبرجوع الأمر كله إليه. الظاهر الباطن لنفسه ظهر فما زال ظاهراً وعن خلقه بطن فما يزال باطناً فلا يعرف أبداً. البرّ بإحسانه ونعمه وآلائه التي أنعم بها على عباده. التوّاب لرجوعه على عباده ليتوبوا ورجوعه بالجزاء على توبتهم. المنتقم ممّن عصاه تطهيراً له من ذلك في الدنيا بإقامة الحدود وما يقوم بالعالم من الآلام فإنها كلها انتقام وجزاء خفي لا يشعر به كل أحد حتى إيلام الرضيع جزاء العفوّ لما في العطاء من التفاضل في القلة والكثرة وأنواع الأعطيات على اختلافها لا بدّ أن يدخلها القلة والكثرة فلا بدّ أن يعمها. العفو فإنه لا بدّ من الأضداد كالجليل. الرؤوف بما ظهر في العباد من الصلاح والأصلح لأنه من المقلوب وهو ضرب من الشفقة. الوالي لنفسه على كل من ولي عليه فولي على الأعيان الثابتة فأثر فيها الإيجاد وولي على الموجودات فقدم من شاء وأخّر من شاء وحكم فعدل وأعطى فأفضل. المتعالي على من أراد علوّاً في الأرض وادّعى له ما ليس له بحق. المقسط: هو ما

أعطى بحكم التقسيط وهو قوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] وهو التقسيط. الجامع: بوجوده لكل موجود فيه. الغنيّ عن العالمين بهم. المغني: من أعطاه صفة الغنى بأن أوقفه على أن علمه بالعالم تابع للمعلوم فما أعطاه من نفسه شيئاً فاستغنى عن الأثر منه فيه لعلمه بأنه لا يوجد فيه إلاّ ما كان عليه. البديع: الذي لم يزل في خلقه على الدوام بديعاً لأنه يخلق الأمثال وغير الأمثال ولا بدّ من وجه به يتميز المثل عن مثله فهو البديع من ذلك الوجه. الضارّ النافع: بما لا يوافق الغرض وبما يوافقه. النور: لما ظهر من أعيان العالم وإزالة ظلمة نسبة الأفعال إلى العالم. الهادي: بما أبانه للعلماء به ممّا هو الأمر عليه في نفسه. المانع: لإمكان إرسال ما مسكه وما وقع الإمساك إلاّ لحكمة اقتضاها علمه في خلقه. الباقي: حيث لا يقبل الزوال كما قبلته أعيان الموجودات بعد وجودها فله دوام الوجود ودوام الإيجاد. الوارث: لما خلفناه عند انتقالنا إلى البرزخ خاصة. الرشيد: بما أرشد إليه عباده في تعريفه إياهم بأنه تعالىٰ على صراط مستقيم في أخذه بناصية كل دابة فما ثم إلاّ من هو على ذلك الصراط والاستقامة مآلها إلى الرحمة، فما أنعم الله على عباده بنعمة أعظم من كونه آخذاً بناصية كل دابة فما ثم إلاّ من مشى به على الصراط المستقيم. الصبور على ما أوذي به في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٧] فما عجل لهم في العقوبة مع اقتداره على ذلك، وإنما أخّر ذلك ليكون منه ما يكون على أيدينا من رفع ذلك عنه بالانتقام منهم فيحمدنا على ذلك، فإنه ما عرفنا به مع اتصافه بالصبور إلاّ لندفع ذلك عنه ونكشفه، فهذا بعض ما أعطته حضرة الحضرات من هذا الباب فإنه باب الأسماء، وأما الكنايات فنقول فيها لفظاً جامعاً وهو إذا جاءت في كلام الرسول عن الله تعالىٰ أو في كتاب الله فلننظر القصة والضمير ونحكم على تلك الكناية بما يعطيه الحال في القصة المذكورة لا يزاد في ذلك ولا ينقص منه والباب يتسع المجال فيه فلنقتصر منه على ما ذكرنا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

انتهى السفر الثالث والثلاثون.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[السفر الرابع والثلاثون]

الباب التاسع والخمسون وخمسمائة

في معرفة أسرار وحقائق من منازل مختلفة

[نظم: مجزوء الخفيف]

لله فـي خَـلْـقِـهِ نَـذِيـرُ ... يُـعْـلِـمُـهُـمْ أنـه الـبَـشِـيـرُ

وهـو الـسِّـراجُ الـذي سـَ ... ـنَـاهُ يَـبْـهَـرُ أَلْـبَـابَـنَـا الـمُـنِـيـرُ

فـي كـل عَـصْـرٍ لـه شُـخَـيْـصٌ ... تَـجـري بـأنـفـاسـه الـدُّهُـورُ

عَـيَّـنَـهُ فـي الـوجـود فَـرْداً ... الـواحـدُ الـعـالـمُ الـبـصـيـرُ

يـا واحـداً مَـجْـدُهُ تـعـالـىٰ ... لـيـس لـه فـي الـوَرَى نَـظِـيـرُ
لـيـس لأنـواره ظـهـورٌ ... إلاَّ بـنـا إذ لـنـا الـظُّـهُـورُ
فـنـحـن مَـجْـلَـى لـكـلّ شـيء ... يـظـهـر فـي عـيـنـه الأمُـورُ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح القدس أن هذا الباب من أشرف أبواب هذا الكتاب، هو الباب الجامع لفنون الأنوار الساطعة، والبروق اللامعة، والأحوال الحاكمة، والمقامات الراسخة، والمعارف اللدنية، والعلوم الإلٰهية، والمنازل المشهودة، والمعاملات الأقدسية، والأذكار المنتجة، والمخاطبات المبهجة، والنفثات الروحية، والقابلات الروعية، وكل ما يعطيه الكشف ويشهد له الحق الصرف، ضمنت هذا الباب جميع ما يتعلق بأبواب هذا الكتاب ممّا لا بدّ من التنبيه عليه مرتباً من الباب إلى آخره، فمن ذلك سرّ الإمام المبين وما يتعلق بالباب الأوّل: [الكامل]

إن الإمـامَ هـو الـمُـبَـيِّـنُ شَـرْعَ مَـنْ ... شَـرَعَ الأمُـورَ مُـبَـيِّـنـاً لـعَـبِـيـدِهِ
مـنـهـا الـذي فـي حـقّـهـم تَـذْرُونَـهُ ... وكـذاك مـا يـخـتـصُّ فـي تَـوْحـيـدِهِ

الإمام المبين هو الصادق الذي لا يمين مجلى ما أحاط به العلم، وتشكل فيه الكيف والكم، وحلّت به الأعراض وفعل بالإرادات والأغراض، وانفعلت له الأوعية المراض، النور الباهر، وجوهر الجواهر، يقبل الإضافات الكونية والاستنادات العينية، والأوضاع الحكمية، والمكانات الحكمية، رفيع المكانة كثير الاستكانة، علم في رأسه نار، عبرة لأولي الأبصار، يملي جميع ما سطر، وما هو بمسيطر ما له وجود إلا بما يحمله، ولا يفصل إلاَّ بما يقبله، هو المحصي لما علم وجهل وفصل وأجمل، لكل صورة فيه عين، وله في كل صورة كون، يمدّ ويستمد، ويعدّ له ويعدّ، منه ظهرنا، وإياه نهينا وأمرنا، ومن ذلك سرّ الظرف، الموضع في الحرف ممّا يتعلق بالباب الثاني، الظرف وعاء، والحرف وطاء، تختلف صورته، وتحكم سورته، هو معنى المعاني، المظهر لاختلاف الأشكال والمباني، يحوي الله وجوده، ويغني عن شهود الحق شهوده، منازله معدودة، وآثاره مشهودة وكلماته محدودة، وآياته بالنظر مقصودة، أعطى مقاليد البيان، فأفصح وأبان، فمنه نثر ومنه نظم، ومنه أمر ومنه حكم، وفيه حق وفيه خلق، ففيه عدل وفيه ظلم، له التلفظ والرقم، وله التوهم لا الوهم، لا وجود له إلاَّ به، فأنبته أبان للآذان ما ستره الجنان، نطق عن الغيب بما لا شك فيه ولا ريب، يشهده الإيمان والعيان، صحفاً مكرمة، مرفوعة مطهرة، بأيدي سفرة، كرام بررة، هو ابن الإمام، لا بل أبوه الذي له الكمال والتمام، إذا أسهب ذهب وإذا أوجز أعجز، فيصح المقال، كثير القيل والقال، تختلف أشكاله ومعارجه، وتخفى على المتبع آثاره ومدارجه، كاين باين، راحل قاطن، استوطن الخيال، وافترش الكتاب، واستوطأ اللسان، ومن ذلك سر التنزيه النزيه، وهو ما يتعلق بالباب الثالث: [الوافر]

تَـنَـزَّهْـنَـا عـن الـتَّـنْـزِيـهِ لـمّـا ... رأيـنـاه يـدلُّ عـلـى الـشَّـبِـيـهِ
وقـلـنـا ذاك حَـظُّ الـحَـقِّ مـنّـا ... بـعـلـم الـواحـد الـفَـرْدِ الـنَّـبِـيـهِ

التنزيه تحديد المنزه، والتشبيه تثنية المشبه، فيا ولي تنبه وتفكر فيمن نزّه وشبه، هل حاد عن سواء السبيل؟ أو هل هو من علمه في ظل ظليل في خير مستقر وأحسن مقيل، المنزّه يخلى والمشبه يحلى ويحلى، والذي بينهما لا يخلى ولا يحلى بل يقول: هو عين ما بطن وظهر، وأبدر واستسرّ، فهو القمر والشمس، والعالم له كالجسد للنفس، فما ثم إلاّ جمع، ما في الكون صدع، إن لم يكن الأمر كذلك، فما ثم شيء هنالك، والأمر موجود، لا بل وجود، والحكم مشهود، لا بل شهود، وبالمنسب صحّ النسب، ولولا المسبب، ما ظهر حكم السبب، فإن قلت ليس كمثله شيء، زال الظل والفيء، والظل ممدود بالنص، فعليك بالبحث والفحص، ومن ذلك سر البدء اللطيف، وما جاء فيه من التعريف، من الباب الرابع أن العالم علامة، بدؤه ممّن فهو علامة، على ما استتر عين حتى يظهره كون، رأينا رسوماً ظاهره وربوعاً داثره، قد كانت قبل ذلك عامره، وناهيه وآمره، فسألناها ما وراءك يا عصام، فقالت ما يكون به الاعتصام، فقلت ما ثم إلاّ الله وحبله، وما لا يسع أحداً جهله، فقال: لولا الكثائف، ما علمت اللطائف، ولولا آثارها، ما ظهر منارها، فمن خبت ناره انهدّ مناره، له حضرة القدس، وما ينم به إلاّ الحسّ لولا الحسّ، بشهود الأثر ما عرف للطيف خبر، النفس عمياً للقرب المفرط وما تشهده الحواس، وهي الصماء عن إدراك الوسواس، وهي الخرسا فلا تفصح، والعجما فلا تعقل فتوضح: [الكامل]

سَرَى اللَّطِيفُ من اللَّطِيفِ فَنَاسَبَهْ ... وبَـدَا لـه مـنـه الـخـلافُ فَـعَـاتَـبَـهْ
وتَـوَجَّـهَـتْ مـنـه عـلـيـه حُـقُـوقُـهُ ... فـدعـاه لـلـقـاضـي الـعـلـيـم فَـطَـالَـبَـهْ
نـادى عـلـيـه مُـجَـرِّسـاً هـذا جـزاء ... من عَـامَـلَ الـجِـنْـسَ الـبَـعِـيـدَ وصاحبَهْ
لِـيَـتُـوبَ مـن سـمـع الـنِّـدَا فـيَـرْعَـوي ... عـنـه ويـعـلـم أنـه إن جَـانَـبَـهْ
تَـظْـفَـرْ يـداه بـكـل خَـيْـرٍ شـامـلٍ ... فـاسْـتَـعْـمَـل الإرسـالَ فـيـه وكَـاتَـبَـهْ

هو اللطيف في أسمائه الحسنى، وبها ظهر الملأ الأعلى والأدنى، لما تجاورت تحاورت، ولما تكاثرت تسامرت، فرأت أنفسها على حقائق، ما لها طرائق، سماؤها ما لها من فروج، ومع هذا فلها نزول وعروج، فطلبت أرضاً تنبت فيها كل زوج بهيج، فقالت المفتاح في النكاح، ولا بدّ من ثلاثة: ولي وشاهدي عدل لهذا القضاء الفصل، فقال العليم: لا بدّ من ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فهذا أيها الولي الشاهدان والولي، فهذا كان أول تركيب الأدلة، وبعد هذا عرضت الشبه المضلة، ومن ذلك سرّ كن والبسملة، فيمن علله من الباب الخامس، قال الحلاج وإن لم يكن من أهل الاحتجاج: بسم الله منك بمنزلة كن منه، فخذ التكوين عنه، فمن تقوى جاشه، واستدار عرشه، وتمهد فرشه، كرسول الله ﷺ قال كن ولم يبسمل، فكان ولم يحوقل، فمن ذاق ضاق، وإذا التفت الساق بالساق، فإلى ربك المساق، فإليه ترجع الأمور، إذ كان منه الصدور: [مجزوء الخفيف]

لا تُـبَـسْـمِـلْ وقُـلْ بِـكُـنْ ... مـثـل مـا قـالـه يَـكُـنْ
فـإلـيـه رُجُـوعُـنـا ... لا إلـيـنـا فـكُـنْ تَـكُـنْ

ومن ذلك سرّ الروح وتشبيهه بيوح من الباب السادس: [البسيط]

الـرُّوحُ مـن عَـالَـم الأمْـرِ الـذي تَـدْري ... كـمثـل مـا نَـصَّ لي في مُحْكَمِ الذِّكْرِ
وإن ربّـي بـذاك الـقَـدْرِ عَـرَّفَـنـي ... وكـان تَـعْـرِيـفُـهُ حَـقّـاً عـلـى قَـدْري

أشرقت أرض الأجسام بالنفوس، كما أشرقت الأرض بأنوار الشموس، وإنما لم نفرد العين لأنها ما أشرقت إلاً بما حصل فيها من نور الكون، وإن كان الأصل ذلك الواحد فليس ما صدر عنه بأمر زائد، فعددته الأماكن لما أنزل نفسه فيها منزلة الساكن، فللحقيقة رقائق يعبر عنها بالخلائق، ومن ذلك سرّ الكيف والكم وما لهما من الحكم من الباب السابع: [البسيط]

الكَيْـفُ والـكَـمُّ مـجـهـولان قد عُـلِـمَـا ... وقـد فَـهِـمْـتُ لـمـاذا جـاءنـي بـهـمـا
فـهـمـا يُـبَـلِّـغُـنـا عِـلْـمـاً بـأن لـه ... فـيـنـا الـتَّـحَـكُّـمَ فـانْـظُـرْهُ بـه لـهـمـا

هو البيت المعمور بالقوي والذي كان عليه الاستوا محل الظهور المشرق بالنور كلمة الحق ومقعد الصدق، معدن الأرفاق ومظهر الأوفاق، محل البركات ومعين السكنات والحركات، به عرفت المقادير والأوزان وبه سمّي الثقلان، له من الأسماء المتين، وهو الذي أبان النور المبين، حكم في النور بالقسمة، وظهرت بوجوده الظلالات والظلمة، منه تتفجر ينابيع الحكم، وتبرز جوامع الكلم، يحوي على رموز النصائح وكنوز المصالح، الشهادة سخافته، والغيب كثافته، يستر للغيرة حتى لا يرى راء غيره، يتقلب في جميع الأحوال، ويقبل بذاته التصريف في جميع الأعمال، ومن ذلك سرّ ظهور الأجساد بالطريق المعتاد من الباب الثامن: [البسيط]

تَـجَـسُّـدُ الـرُّوح لـلأبْـصـار تَـخْـيِـيـلُ ... فـلا تَـقِـفْ فـيـه إن الأمْـرَ تَـضْـلِـيـلُ
قـام الـدلـيـلُ بـه عـنـدي مـشـاهـدةً ... لـمـا تَـنَـزَّلَ روحُ الـوَحْـي جِـبْـرِيـلُ

البرزخ ما قابل الطرفين بذاته، وأبدى لذي عينين من عجائب آياته، ما يدل على قوته، ويستدل به على كرمه وفتوته، فهو القلب الحوّل، والذي في كل صورة يتحوّل، عوّلت عليه الأكابر حين جهلته الأصاغر، فله المضاء في الحكم، وله القدم الراسخة في الكيف والكم، سريع الاستحالة يعرف العارفون حاله، بيده مقاليد الأمور، وإليه مسانيد الغرور، له النسب الإلهي الشريف، والمنصب الكياني المنيف، تلطف في كثافته، وتكثف في لطافته، يجرحه العقل ببرهانه، ويعدله الشرع بقوّة سلطانه، يحكم في كل موجود، ويدل على صحة حكمه بما يعطيه الشهود، ويعترف به الجاهل بقدره والعالم، ولا يقدر على ردّ حكمه حاكم، ومن ذلك سرّ المارج في الوالج من الباب التاسع: [البسيط]

الـنـارُ كـالـنُّـور في الإحـراق قد شَـهِـدَا ... لـذلـك الأمْـرُ مـا مـولاي قـد عـبـدا
فـالـكـلُّ دَانَ بـه والـكـلُّ دَانَ لـه ... لـه الـتَّـحَـكُّـمُ فـيـنـا كـلـمـا وَرَدَا

أوّل جواد كبا حين أمر فأبى، وأوّل من قدح في النهي من نهي وما انتهى، سنّ الخلاف في الائتلاف، فأظهر النقيض ليعرف الحبيب من البغيض، امتثل الأمر فيما يشقيه وحلّ به ما كان يتقيه، يحالف الردى ويخالف الهدى ولا يترك سدى، ومع اتصافه بالخوف لا يبرح في

معاملته بالحيف، فإذا جنح منهم من جنح إلى ربه طائعاً وكان لباب سعادته قارعاً، لم يحسن أحد يقرع قرعه وكان الحق بصره وسمعه، إن سمع أنصت وإن أسمع أبهت، ومن ذلك سرّ النور في الخفاء والظهور من الباب العاشر: [البسيط]

الشَّمْسُ مُشْرِقَةٌ الشَّمْسُ مُخرِقَةٌ   بنُورها فهي نُورٌ حُكْمُهُ نَارُ
وليس يعبُدُها إلاَّ أخٌ عَمَّهُ   نَدْبٌ جَلِيدٌ له في القَلْبِ آثَارُ

أشرقت الأنوار حين شرقت، وتميزت بها الأعيان فافترقت، فأغنت الإشارات عن العبارات، فمنها من هيم فتهيم، ومنا من حكم فتحكم، فلكل عين مقام معلوم وحدّ مرسوم، فمنه مرموز ومنه مفهوم، يحلقون نفوسهم كما يشاؤون، وفي أي صورة شاؤوها يتحوّلون، هم الحدادون والحجاب، ولهم الظهور والحجاب، إن هذا لشيء عجاب، يكثرون التكبير، ويحفون بالسرير، لهم المقام الأشمخ ومنزلهم بين الله والعلماء منا في البرزخ، فأصحاب النسب منهم عند أرباب الفكر هم الخلفاء من البشر، يعلم ذلك من تحقق بالنظر، واعتمد على ما جاء به الكشف والخبر، في مجاري العبر، والعقول من حيث أدلتها قاصرة عن درك هذا العلم لطموس عين الفهم، ومن ذلك سرّ الافتتاح بالنكاح من الباب الأحد عشر: [مجزوء الرمل]

أنا في الوُجُودِ بابٌ   وعليه منه قُفْلُ
فأنا بَغْلٌ بوَجْهِ   وبوَجْهٍ أنا أَهْلُ

القول من القائل في السامع نكاح، فعين المقول عين ما تكون من السامع فظهر ظهور المصباح، التوجه سبب القول والتكوين على التعيين في المحل الظاهر، لنزول الباطن إلى الظاهر، وهذا نكاح بين المعنى والحسّ والأمر المركب والنفس، ليجمع بين الكثيف واللطيف، ويكون به التمييز والتعريف، وإن خالف تركيب المعاني تركيب الحروف فهو كخلاف المعرفة والمعروف، ثم ينزل الأمر النكاحي من مقام الافتتاح إلى مقام الأرواح، ومن المنازل الرفيعة إلى ما يظهر من نكاح الطبيعة، ومن بيوت الأملاك إلى نكاح الأفلاك لوجود الأملاك، ومن حركات الأزمان إلى نكاح الأركان، ومن حركات الأركان إلى ظهور المولدات التي أخّرها جسم الإنسان، ثم تظهر في الأشخاص بين مباض ومناص، فالنكاح ثابت مستقرّ ودائم مستمرّ، ومن ذلك سرّ الدور المستدير والاستواء على السرير من الباب الاثني عشر: [الخفيف]

اسْتَوَيْنَا على السرير لأمْرِ   هو دَوْرٌ والدَّوْرُ عَمَّ كِيَانَهْ
فاستدارتْ بنا الأمورُ وحارتْ   حين حُزْنَا جَنَابَهُ وجِنَانَهْ

الدهر حول قلب، ولهذا يتنوّع في الصور ويتقلب، لولا استدارة الزمان، ما ظهرت الأعيان، ولولا الملوان ما كان الحدثان، بتكرار الفصول يدوم حكم الأصول، وبه ظهور الأنعام هنا وفي دار السلام، إنما دار السرير ليحيط بالكائنات علم التفصيل والتدبير، فيباشر الأمور بذاته ويهبها ما يناسبها من هباته، فإن الخزائن لديه وفي يديه، فلولا الإحاطة والدور ما

تمكن، ولا كان له ما سكن، فلا نفوذ للمحاط به فانتبه، ومن قال بالحور في الدور تعوذ من الحور بعد الكور، ولا يقول بالحور إلاّ من لا علم له بالتسيير، ولا يعرف قبيلاً من دبير الأمر إمام، والقول بالقهقرى خلف من الكلام، ومن ذلك سرّ الفرش وحملة العرش من الباب الثالث عشر: [مجزوء الرمل]

أنـــا فـــي الـــفَـــرْشِ وُجُـــودٌ   ووُجُـــودُ الـــفَـــرْش عَـــرْشـــي
إذا مـــا كـــنـــتُ إمـــامـــاً   كـــانـــت الأكـــوانُ فَـــرْشـــي

أرواح وصور متكؤون على سرر، وأعدية ومراتب لها طرق ومذاهب، فالأرواح والصور بين ملائكة وبشر، البشر لمباشرة اليدين والملائكة للتردّد بين العين والعين، من لا أين إلى أين، ومن أين إلى لا أين، ومن أين إلى أين، ومن لا أين إلى لا أين، فبين من وإلى، ظهر الملآن الأسفل والأعلى، فالعرش حامل محمول، والأمر فاصل مفصول، والعالم فاضل مفضول، والفرش مهاد موضوع، ومباح غير ممنوع، يحكم فيه الطبع، وإن قيّده الشرع، ولولا العين ما ظهر للتقييد حكم في الكون، فلو زالت الحدود لزال التقييد، ولا سبيل إلى زوالها فإن بقاها عين كمالها، بها صحّت المناضلة وبانت المفاضلة، العرش لمن استوى عليه، والأمر منه بدا ثم يعود إليه، من غير رجوع على عقبه بل هو على مذهبه ما ثم غايه فيرجع ولا لإحاطته نهاية فيتصدع، وليس وراء الله مرمى وهو الأوّل عند البصير والأعمى، فالكل يقول بالابتداء وافترقوا في إثبات الانتهاء، فمنهم ومنهم وكل ذلك منقول عنهم، ومن ذلك سرّ النبوّتين وما لهما من العين من الباب الرابع عشر لما انقطع أنباء التشريع، بقي الأنباء الرفيع فإنه يعمّ الجميع، هو ميراث الأولياء من الأنبياء، فلهم اللمحات والأنفاس والنفحات، الاجتهاد شرع حادث، وبه تسمى الحارث بالحارث، الاجتهاد شرع مأذون فيه لإمام يصطفيه لا يزال البعث ما بقي الورث، وهذا المال الموروث لا ينقص بالإنفاق، بل سوقه أبداً في نفاق، فمثله كمثل المصباح الذي لا يعقبه صباح، للشمس ظهور في السورتين بالصورتين، فهي بالقمر نور وبذاتها ضياء، وبحالتيها يتعين الصباح والمساء، فتخفي نفسها بنفسها، إذا أطلعت القمر نهاراً فهي الداعيه سرّاً وجهاراً، ولبعث الكون بالليل إلا ليلي الداج ثبت للشمس اسم السراج، فنبوّة الوارث قمريه، ونبوّة النبيّ والرسول شمسيه، فاجتمعتا في النبوّة وفاز القمر بالفتوة: [البسيط]

فالشمسُ طالعةٌ باللّيْلِ في القَمَرِ   مع الغُرُوبِ وما لِلْعَيْنِ من خَبَرِ
عَجِبْتُ من صورة تُعْطيك في صُوَرِ   ما عندها مثل نُورِ العَيْنِ بالبَصَرِ
فطاعةُ الرُسْلِ من طاعات مُرْسِلِهِمْ   وما لِعَيْنِ رسولِ الله من أثَرِ
إن قال به لا بالهَوَى فلذا   يعصي الإله الذي يَعْصيه فادَّكِرِ

ومن ذلك سرّ إطفاء النبراس بالأنفاس من الباب ١٥: لما كان القائل له مزاج الانفعال كان للنفس الإطفاء والإشعال، فإن أطفأ أمات، وإن أشعل أحيا، فهو الذي أضحك وأبكى فينسب الفعل إليه، والقابل لا يعوّل عليه، وذلك لعدم الإنصاف، في تحقيق الأوصاف، مع علمنا بأن

الاشتراك معقول في الأصول للقابل الإعانة، ولا يطلب منه الاستعانة، فهو المجهول المعلوم عليه صاحب الذوق يحوم، وحكمه في المحدث والقديم يظهر ذلك في إجابة السائل وهذا معنى قولنا القابل: لولا نفس الرحمن ما ظهرت الأعيان، ولولا قبول الأعيان ما اتصفت بالكيان، ولا كان ما كان، الصبح إذا تنفس أذهب الليل الذي كان عسعس: [الوافر]

فـلـولا الـلَّـيْـلُ مـا كـان الـنَّـهَـارُ ولـولا الـنُّـورُ مـا وُجِـدَ الـنِّـفَـارُ

نفرت الظلم لأكوانها لا لأعيانها فإن العين لا تذهب وإن اختلفت عليها الأحوال فسجود الظلال بالغدوّ والآصال، سجود شكر واعتصام من استدراج إلهيّ ومكر ومن ذلك سرّ الأوتاد والأبدال، وتشبيههم بالجبال من الباب ١٧ أرواح الأبدال أعيان الأملاك من نيرات السبعة الأفلاك، وقطعهم فلك البروج، ما يتصفون به في المقامات من العروج، وحلولهم بالمنازل ما يستقبلونه في النوازل، ولذلك قسم عليهم الوجود بالنحوس والسعود، فعزل وولاية وإملاق وكفاية والأوتاد مسكنة لكونها متمكنة فلها الرسوخ والشموخ، ومع هذه العزّة والمنع وقوّة الردع والدفع، فلا بدّ من صيرورتها عهناً منفوشاً وهبا منبثاً مفروشاً، فتلحق بالأرض لاندكاكها، وتؤثر فيها حركات أفلاكها، من أعجب علوم الرجال ما لم يسمّ فاعله مثل رجّ الأرض وبسّ الجبال، وهما دليلان على وقوع الواقعة التي ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة، أوّل علم حصل للعالم بالله علم السماع بالإيقاع من الله فقال ﴿كُنْ﴾ [النحل: ٤٠] لمعدوم لم يكن، فظهر عين الأوزان في الميزان وليس سوى الإنسان، فظهر بصورة الحق ونزل عند مليك مقتدر في مقعد صدق، وكانت الإمامة علامة والخلافة ضيافة، فبعلم الأسماء حاز ملك الأرض والسماء، وبجوامع الكلم أحاط علماً بالحكم، فهو الحكيم المحيط بما يستحقه المركب والبسيط، فساح في الانفساح وصال بالاتصال، فأخذ الوجد في الإيجاد وتحرّك عن موطن ثبوته لأعين الأشهاد، وما ثم إشهاد إلاّ الأسماء التي تكونت أحكامها عنه وظهرت آثارها به منه، فبالسماع كان الوجود وبالوجود كان الشهود: [الوافر]

فـلـولا الـصَّـيْـدُ مـا نَـفَـرَ الـغَـزَالُ ولـولا الـصَّـدُّ مـا عَـذُبَ الـوِصَـالُ
ولـولا الـشـرعُ مـا ظـهـرت قُـيُـودٌ ولـولا الـفِـطْـرُ مـا ارْتُـقِـبَ الـهـلالُ
ولـولا الـجُـوعُ مـا ذَبُـلَـتْ شِـفَـاهٌ ولـولا الـصـومُ مـا كـان الـوِصَـالُ
ولـولا الـكـونُ مـا انـفـطـرتْ سـمـاءٌ ولـولا الـعـيـنُ مـا دُكَّـتْ جِـبَـالُ
ولـولا مـا أبـان الـرُّشْـدُ غَـيّـاً لـمـا عُـرِفَـتْ هـدايـةٌ أَوْ ضَـلالُ
ولا كـان الـنـعـيـمُ بـكـل شـيء ولا حُـكْـمُ الـجَـلالِ ولا الـجَـمَـالُ
أرى شـخـصـاً لـه بَـصَـرٌ حَـدِيـدٌ لـه الأمْـرُ الـمُـطَـاعُ لـه الـنّـزالُ
وآخَـرَ مـا لـه بَـصَـرٌ ويَـرْمـي ولا قَـوْسٌ لـديـه ولا نِـبَـالُ
فـسـبـحـان الـعـلـيـم بـكـل أمْـرِ لـه الـعـلـمُ الـمـحـيـطُ لـه الـجَـلالُ
إذا نَـظَـرَتْ إلـيـه عـيـونُ قَـوْمٍ بـلا جَـفْـنٍ بـدا لَـهُـمُ الـكـمـالُ
فـوقـتـاً لا يَـرَوْنَ سـوى نـفـوسٍ مُـبَـعَّـدَةٍ وغـايـتُـهـا اتِّـصـالُ

ومن ذلك سرّ من منح ليربح فلنفسه سعى فكان لما أعطى وعا من الباب السابع عشر: [مجزوء الوافر]

إذا مـــا كُـــنْـــتَ مَـــيْـــدَانَـــا فَـــجُـــلْ فـــيـــه إذا كـــانـــا
فـــإنـــي لـــســـتُ أَنْـــفِـــيـــهِ لـــذا سُـــمِّـــيـــتُ إنْـــسَـــانَـــا

لما انتقل العلم إليه بقوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] سكت العارف لما سمع ذلك وما تكلم، وتأوّل عالم النظر هذا القول حذراً من جاهل يتوهم ومرض قلب المشكك وتألم وسرّ به العالم بالله ألهمهم ولكنه ما تكلم بل تكتم وقال مثل ما قاله الظاهري: الله أعلم فالإلٰهي علم والمحدث سلم، فاحمد الله الذي علمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً، فثابر على شكره والزم، فإذا رأيت من يفرّق بين الحد والذمّ قل له لا تتقدم فتندم فإن جدارك تهدم، وظهر المعمى فآمن من كان بالأمس قد أسلم، فإذا المعطي عين الآخذ فعلى نفسه تكرم، فهذه شعائر الله من عظمها عظم فعظم، ومن اهتضمها اهتضم، فأين أصحاب الهمم وأهل الجود والكرم يوضحون المبهم ويفتحون ما طبع عليه وختم؟ فتبرز مخدرات الغيوب والظلم ذوات الثنايا الغر واللمم، فيأخذ بهم ذات اليمين على الطريق الأمم لينظر سائر الأمم ما خصّت به أمة، من أوتي جوامع الكلم وفنون الحكم محمد بن عبد الله ﷺ فبه بدىء الأمر وختم فكان نبياً وآدم بين الماء والطين ما خمرت طينته وما علم، وأخّرت طينته ﷺ إلى أن جاءت دورة الميزان الذي عدل حين حكم، فهو واضع الشرائع ورافعها روحاً ونفساً وعقلاً وحساً، خط ذلك كله في اللوح المحفوظ القلم، ومن ذلك سرّ التعبد في التهجد من الباب ١٨ إذا بان الصبح لذي عينين وكنا ممّن أماتنا الله تعالىٰ اثنتين وأحياناً اثنتين ظهر في غيوبنا ما اعترفنا به من ذنوبنا، فكان تهجدنا محدوداً وقرآننا مشهوداً، وطلع الآفل في النوافل، وعمرت الفرائض المرابض، فقربناها ضحايا ومطوناها مطايا، فربحت تجارة الأوراد وظهر الرشاد والإرشاد في حرق الأدب المعتاد فقعدنا بالحق في مقعد الصدق بنعت القائم على كل نفس بما كسبت والعالم بما اكتسبت، فعندما طلع فجرها سعى بين يديها نورها يتلوه أجرها، فحاز الأجر كثيفها واستنار بالنور لطيفها: [الوافر]

بِـنَـعْـتِـكَ لا بِـنَـعْـتِـي كـان وِرْدِي فَـمَـجْـدُكَ فـي الـتَّـهَـجُّـدِ عَـيْـنُ مَـجْـدي
عَـهِـدْتُـكَ إذْ أَخَـذْتَ عـلـيّ عـهـداً وَفَـيْـتُ بـه فـأَوْفِ لـي بـعَـهْـدي
وَعَـدْتَ كـمـا وعـدت وقُـلْـتَ عَـنّـي بـأنّـي صـادقٌ فـي كـل وَعْـدي
وأنـت الـصـادقُ الـحَـقُّ الـذي لـم يَـزَلْ فـي جَـدِّه يـعـلـو بـجَـدّي
بِـجَـدِّي قـد عَـلِـمْـتُ عُـلُـوَّ جَـدِّي لـمـن حَـمَـدَ الإلٰـهَ بـعَـيْـنِ حَـمْـدي
فـقـل لـلـحـامـديـن بـنـا أَفِـيـقُـوا فـحَـمْـدُ الـحَـقِّ فـي تـقـيـيـد حَـدِّ
فــفـي الإطـلاق تـقـيـيـدٌ نَـزِيـهٌ ومـا الإطـلاقُ فـي حَـدِّي تَـعَـدِّ

ومن ذلك سرّ الجزر والإمداد في العلم المستفاد من الباب ١٩: من الأمور ما يأخذه الحد، ومنها ما لا يحد، والجزر والمد أثران من الطبيعة يأخذهما الحد والعلم المستفاد

للعليم يعمّ الحديث والقديم، فإن عاندت فافهم قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] وبما حكم به الحق على نفسه فاحكم، ولا تنفرد بعقلك دون نقلك، فإن التقليد في التقييد قيد الخليفة بالنظر في عباده حين أهبطه إلى مهاده فقيده حين قلده ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الشورىٰ: ١٢] وبيده ميزان الرفع والخفض، ومع كونه مالك الملك فهو ملك الملك يأتي الملك من يشاء وينزع الملك ممّن يشاء ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] وما جزر بعد المدّ فإنه تنبيه على أن الزيادة نقص في الحدّ، فما جزر إلاّ ليكشف ما ستر علم الحق بنا قد يكون معلوماً لنا، وأما علمه بنفسه فلا يعلم لعلوّ قدسه وهو قوله ﷺ: «**وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ**» فَإِنّي لَسْتُ مِنْ جنسك فأنت الجنس الذي لا يتنوّع لما يعطيه الحمى إلاّ منع، ولولا تجليه في صور الآلهة ما تنعمت به النفوس الفاكهة، ومن هنا قلت أنت الجنس وهو الأصل الذي يرجع إليه والأس.

ومن ذلك سرّ النافلة والفرض في تعلّق العلم بالطول والعرض من الباب ٢٠: من كان علته عيسىٰ فلا يوسى، فإنه الخالق المحيي، والمخلوق الذي يحيي، عرض العالم في طبيعته، وطوله في روحه وشريعته، وهذا النور من الصيهور والديهور المنسوب إلى الحسين بن منصور، لم أر متحداً رتق وفتق وبربه نطق وأقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا اتسق وركب طبقاً عن طبق مثله فإنه نور في غسق، منزلة الحق لديه منزلة موسىٰ من التابوت، ولذلك كان يقول باللاهوت والناسوت، وأين هو ممّن يقول العين واحدة ويحيل الصفة الزائدة؟ وأين فاران من الطور؟ وأين النار من النور؟ العرض محدود، والطول ظل ممدود، والفرض والنفل شاهد ومشهود، ومن ذلك سرّ التوالج والتخالج من الباب الأحد والعشرين، التوالج نكاح والتخالج ولادة في عالم الملكوت والشهادة من توالج الليل والنهار ظهرت خلج الأعصار فتميزت الأيام والأعوام والشهور وجمع الدهر بالدهور، لولا حكم الشمس ما ظهر في عالم الأركان ذو نفس ونفس، تعددت المنازل بالنوازل، لا بل النوازل عينت المنازل، فاتبعها العدد وما بالدار من أحد، فإن وقع استثناء في هذا النفي فهو منقطع وهذا أمر لا يندفع.

ومن ذلك سرّ المنازل والنازل من الباب ٢٢: للمنزل الأين وللمنزلة العين، فالأمر والشأن في المكانة والمكان والنازل من معناه في منزلته وفي منزله من حيث صورته للقرآن سور هي منازله وله آيات هي دلائله، وفيه كلمات هي صوره، وله حروف هي جواهره ودرره، فالحرف ظرف لمن هي منعوتة بقاصرة الطرف والكلمات في الكلام كالمقصورات في الخيام، فلا تعجز لمفهوم الإشارات، ولا تعجز عن مدلول العبارات، فما وقع الإعجاز إلاّ بتقديسه عن المجاز، فكله صدق ومدلول كلمه حق والأمر ما به خفاء، وإن كان في نسبة المناسبة للطلب بالإتيان بسور مثله جفا فما أرسل رسول إلاّ بلسان قومه فتأمّل، ومن الله المعونة فاسأل.

ومن ذلك سرّ الصون وطلب العون من الباب ٢٣: الصون حفظ في الأولياء عصمة في الرسل والأنبياء، فكان من تعبيره فيما عن الله يبلغه أنه يقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق والآخر في أثره لاحق، فإن التكليف وإن كان حقاً فإنه زائل كما أنه عرض مائل، فللدنيا حكم ليس لأختها: والأمّ لا تنكح على بنتها بل البنت إذا لم تكن في الحجر فهي في بعض المذاهب حلال، وإن نكحت أمها بالشرع لذي حجر طلب الإعانة دعوى من صاحب بلوى إنما تسدل الأستار والكلل من أجل المقل، إياك والنظر فقد يكذب الخبر الخبر، الاستعانة بالصبر حيرة بين التخيير والجبر، والاستعانة بالله تؤذن بالاشتباه، ومن اتبع المتشابه فقد ضلّ وزاغ ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [النور: ٥٤] ومن لزم المحكم فقد تحكم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، فإنه الكفيل.

ومن ذلك سرّ الاشتراك بين الشرائع من حكم الزوابع من الباب ٢٤: اعلم أن الزوابع تكون بحكم الشرائع والطبائع ولذلك تعلو وتسفل وتترقى وتنزل، ومع أنه كل وصف من هذين كياني وهو نعت إلٰهي فالعلوّ ما يشك فيه الدليل المعقول والنزول ثبت بخبر الشرع المنقول، فصاحب الخلافة والإمامة مسكنه بين نجد وتهامة، فله المجد الشامخ بتحصيله علم البرازخ، فله التمييز والنقد ولله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله لفرح إمامهم وسيدهم وعلامهم وعلم السياسة لأصحاب الرياسة، فكل رئيس مدبّر سؤوس على قدر ما هو عليه المرؤوس ما كنا خير أمة أخرجت للناس إلاّ وكان نبينا ﷺ سيد ولد آدم من غير شك ولا التباس فهو بنا ونحن به فانتبه.

ومن ذلك سرّ اختصاص أنواع الإنعام بالأيام من الباب ٢٥: كل حليم أوّاه إذا ذكرته بأيام الله نهجت به منهج الانتباه، ولا ينتبه إلاّ النائم ولا يوقظه إلاّ من هو على كل نفس بما كسبت قائم، إنما نابت الأيام مناب النعم لأنها الآتية بأنواع الكرم، الزمان حافظ إذ كان له الاحتواء وبه يكون الانحراف والاستواء، ولما عنده من السعة حاز الفصون الأربعة، فالزمان يحكم في الأركان يتعاقب الملوان الموجبان الحدثان، فصور تحدث وتمرّ وأحوال تسوء وتسرّ، فأدوار تدور ونجوم تطلع وتغور، وأيام وجمع وسنون وشهور، يعين تصريفها حوادث الدهور، فاليوم ليل ونهار، والشهر محق وإبدار، والسنة تكرار، والجمعة سبعة أدوار، وحكم الطرائق في الساعات والدرجات والدقائق وما زاد عليها من ثوان وثوالث، فما زاد فهي رقائق تمد الحقائق.

ومن ذلك سرّ الرموز والكنوز من الباب ٢٦: رموز النصائح كنوز المصالح، فالناصح لما فتقه الدهر ناصح، والعمل بالمصالح شيمة كل عبد صالح، ألا تراه كيف أقام الجدار؟ فإن من مصالح الأيتام الصغار، ولم يطلب على ذلك أجراً بل قال: ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠] فلما أخبره انقاد الكليم إليه وعوّل فيما أنكره عليه، فأنصف العبد المرحوم واعترف وقال لصاحبه كل واحد منا على علم لا يعلمه الآخر، وهنا وقف فلما علم فضله عليه سلم الأمور أجمعها إليه.

ومن ذلك سرّ سجود الظلال بالغدوّ والآصال من الباب ٢٧: أنفت الظلال من السجود للشمس لما هي عليه من شرف النفس فاستدبرتها في هذه الأوقات وامتدت ساجدة لمن بيده ملكوت الأرض والسموات، حين سجد لها من يزعم أنه من أهل التمكين، وتعبدت من يدعي العقل الرصين، ولما رأت الظلال طلب استشراف الشمس عليها لتنظر إليها تقلصت وانقبضت تطلب أصلها لتبين فضلها فلم تر لها الشمس عيناً تستعبده بنورها لسرعة نفورها، ولولا عناية الأصل ما صحّ لها هذا الفضل.

ومن ذلك سرّ التكييف في المشتى والمصيف من الباب ٢٨: لا يعلم الرب في الحافرة إلاّ من عرف الأول والآخرة من كان ظاهره مصيفاً فباطنه مشتى، فيجمع ما بين أين ومتى، ومن كان ظاهره مشتى فباطنه مصيف فليتقنع في الحالين بالنصيف، وهما من أحوال التكييف الكيف حال الأجسام ومحال الأوهام، يعمّ الكثائف وله في البسائط لطائف، وزمان الاعتدال ماله من زوال.

ومن ذلك سرّ تنزيه أهل البيت عن الموت من الباب ٢٩: قدوس سبوح رب الملائكة والروح يذهب الأرجاس ويقي شرّ الوسواس الخناس، وموت الجهل أشر موت وقد عصم الله منه أهل البيت، فلا يقدرهم حق قدرهم إلاّ من أطلعه الله على أمرهم، ومن اطلع عليه استند في الحال إليه، فهو أعظم مستند وأوثق ركن قصد، فاستمسك بحبهم للعقبى، فإنه ما سأل عليه السلام منا إلاّ المودة في القربى.

ومن ذلك سرّ الراكب والفارس والقائم والجالس من الباب ٣٠: للراكب القفر، وللفارس الكر والفر، وللقائم الإنفاق، وللجالس الإرفاق، فمن ركب لم يعطب، ومن تفرس لم ينكب، ومن قام نام، ومن جلس بئس، فيا أهل الركاب عملكم في تباب، يا خيل الله اركبي واسلكي سبيل مذهبي، ويا قائمين على النفوس بالرزق المعنوي والمحسوس تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، ويا جلساء الحق في مقعد الصدق احذروا من المكر وتواصوا بالشكر، ما أباح الله نكاح الأربع إلاّ لحيازتها المقام الأوسع، ولولا السعة التي في الأربعة ما ضمّت العشرة الموصوفة بالكمال لمن اعتبره تلك عشرة كاملة في الأيام المتواصلة ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجع، وقطع كل فجّ العشرة أوّل العقود ومنها تتركب الحدود، الراكب يرى ما لا يراه الفارس، والقائم يشهد ما لا يشهده الجالس، شأن الأمير الاستواء على السرير، والخادم بين يديه قائم فهو السيد وإن قام بين يديه، فإن أموره مصروفة إليه، وهما يصرفان الركاب والخيل تأويباً بالنهار وآساداً بالليل، فافتكروا واعتبروا.

ومن ذلك سرّ الأصول في الفصول من الباب الأحد والثلاثين: لولا الفصول المقوّمة ما نارت البيوت المظلمة، لولا الفصول ما أبانت الحدود الأصول، بالفصول المقسمة ظهرت المرحمة والمشأمة، بالفصل تميز الرب من المربوب، وبه اتصل المحب بالمحبوب، فبالفصل علم المحب أنه هالك والمحبوب مالك، لا يرد الفصل إلاّ على وصل، فهو عنوانه وبه قام ميزانه، الفصل خلاء محدود والمفصول ملاء مشهود، وهو يحل محل الوصل،

فالوصل خلا مثله ومثل المماثل شكله، فالفصل والوصل ضربان هما من الله نعمتان.

ومن ذلك سرّ تدبير الإكسير من الباب ٣٢: الأكسير سلطان يقلب الأعيان حكمه حكم الزمان، لكنه أسرع في الحدثان، ومع سلطانه فهو في حكم القابل، وإلى ما يقبله بالفعل مايل، فالعجز والقصور سار في جميع الأمور، وعدم الاستقلال يقطع بالآمال، لولا المرض ما كان التدبير ولا نزل الأمير عن السرير، ولا لحق الذهب بالقزدير، ولا قام عطارد مقام الأكسير بالأكسير، ولا ذهب النحاس بالذهب، ولو لم ترجع المعادن إلى أصل واحد ما سميت بالناقص والزائد، وأصل اعتلال الأبدان بالزيادة والنقصان، والطبيب الماهر هو المدبر الأكاسر، لا يزال من أجل الفضة والذهب يتلو سورة أبي لهب تبت يداه وما كسب، فهو يسعى في إقامة الميزان واعتدال الأوزان، ويحافظ على إقامة نشأة الإنسان في شهر نيسان، فإنه شباب الدهر، وأوان الثمر والزهر، ومسرح النواظر في النواضر، فاعلم وإذا علمت فالزم، وإذا لزمت فتكتم.

ومن ذلك سرّ النية في الموحدين والتنويه من الباب ٣٣: لما لم يصحّ وجود العين الحادث المعرض للحوادث إلاَّ بوجود الاثنين والثالث وذلك تركيب المقدمات لظهور المولدات بنكاح محسوس ومعقول على وجه وشرط معقول ومنقول فوافق العقل النقل وساعد الطبع السمع، ألا ترى الأمر موقوفاً على اقتدارنا؟ فذو قبول كما حكمت به براهين العقول، فمن نظر في توقف الاثنين على الثالث قال بالتوحيد في وجود عين الحادث، ومن نظر إلى هذين قال مع وجود الزائد بالاثنين ورأوا الأمر بين ظلمة ونور وغم وسرور، وقال في الكلام الذي لا يدخله ريب ولا مين: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] وما ثم غير هذين، فالإله واحد والقائل بغير هذا يضرب في حديد بارد.

ومن ذلك سرّ أنفاس الجلاس من الباب ٣٤: من جلس رأس وهو قولهم من ثبت نبت الجليس أنيس الذاكرون الله الله جليسهم، وإذا كان جليسهم فهو بالذكر أنيسهم، ومن جالسك فقد جالسته فأنتم جلساء الحق وذلك هو مقعد الصدق ثم يفترق الجلوس، فإما أن تجلس إليه، وإما أن يجلس إليك، فإن جلس إليك كان في مقام حتى نعلم فإن فهمت فالزم، وإن جلست إليه أفادك ظرائف الحكم وأتاك جوامع الكلم، فقد يستفيد المفيد ويفيد المستفيد، أهل المجالس والجلوس هم المقدمون، والرؤوس كل من جلس خدم وكل من قام ندم، لولا قيام الجدار ما انهدم، ولولا إقامة النشأة الإنسانية إلى أرذل العمر ما سمّى الهدم، القائم متعرض لهبوب الأنفاس، والمتحرك في قيامه متصف بالذاهب والخناس، فتعوّذوا برب الناس من شر الوسواس.

ومن ذلك سرّ الجرس واتخاذ الحرس من الباب ٣٥: الجرس كلام مجمل، والحرس باب مقفل، فمن فصل مجمله وفتح مقفله أطلع على الأمر العجاب والتحق بذوي الألباب وعرف ما صانه القشر من اللباب، فعظم الحجاب والحجاب الإجمال حكمة وفصل الخطاب قسمة لإزالة غمّه في أمور مهمة محجوبة بليال مدلهمة، والحرس عصمه فهم أعظم نعمه

لإزالة نقمه، صلصلة الجرس عين جمجمة الفرس. ومن ذلك سرّ تمهيد موسىٰ لعيسىٰ من الباب ٣٦: التوراة أوّل جيل أمن بالإنجيل، وأوّل نور ظهر بالزبور موسىٰ خرج في طلب النار فورى زناد الأقدار فجاء بالتوراة وهو يحمد الآثار، موسىٰ حيي بعيسىٰ لأنه روح عيسىٰ كلمة من كلّم موسىٰ فأشبه نور يوح ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] وسلم على عيسىٰ تسليماً، وما سلّم عليه إلاَّ به ليتنبه، ويسلم على ابن خالته بنفسه لتتميز رتبة يومه من أمسه، فيرتفع اللبس باليوم الذي بين الغد والأمس، كل متقدم من الرسل بشير وفي أمته نذير، يعلم بالآتي ويحرض على صحبة المواتي، ما نشأ الخلاف إلاَّ من عدم الإنصاف، وما ثم إلاَّ خلف لأن الذي خلف من سلف خلف لم يكن لرسول الله ﷺ خلف لأنه أنصف.

ومن ذلك سرّ حال الأتباع في الاتباع من الباب ٣٧: لولا حكم الاتباع ما سمّوا بالأتباع أتباع الرسل هم المتحققون بالسبل من سلك سوى سبيله حمد في فعله وقيله الأمر صادق وصديق فلا بدّ من تابع ومتبوع، هذا هو التحقيق حقيق على أن لا أقول على الله إلاَّ الحق فإني بالله أسمع وأبصر وأنطق فالزم تعلم.

ومن ذلك سرّ ما لا ينال إلاَّ بالكشف الصرف من الباب ٣٨: وليس إلاَّ علم التجلي والتداني والتدلي، وكذلك ما ينتجه التحلي بالأسماء من علوم الأنباء، وكل علم موقوف على الحسّ فما فيه لبس، وما ينتجه الفكر فلا يعوّل عليه، فإن النكر يسارع إليه. وأما قوله: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ [الأنفال: ١٧] فقد أثبت لك ما رأيت ودلّ قوله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] على أمر يستوي فيه البصير والأعمى، قيد الله أيدي الأكوان وإن اختلفت الأعيان فعد عن النظر في الصور فإنها محال الغير وقل رب زدني علماً لتحدث حكماً.

ومن ذلك سرّ العزل والولاية في الضلالة والهداية من الباب ٣٩: يتضمن العزل الولاية تضمن الضلال الهداية الهدى إلى الضلال هدى، فإياك أن تجعل الضلالة سدى، الضلالة حيرة ولو لم تكن ذاتية لأوجبتها الغيرة، لو لم تكن الضلالة انتهك حماه وكان إدراكه في عماه، لا عزل إلاَّ من ولاية، ولا ضلال إلاَّ بعد هداية ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ [التوبة: ١١٥] وهذا من العلم المخزون المصون، من أضلّه الله على علم فهو صاحب فهم، والله الوالي من اسمه المتعالي.

ومن ذلك سرّ المجاورة والمحاورة من الباب ٤٠: المحاورة لا تعقل من غير مجاورة، المحاورة مراجعة الحديث في القديم والحديث، الجار أحق بصقبه من صاحب نسبه، فإنكم بالأصل من أولي الأرحام ومن أهل الالتئام والالتحام، لا يشترط في الجوار الجنس فإنه علم في لبس الله جار عبده بالمعية وإن انتفت المثلية، والعبد جار الله في حرمه ومطلع على حرمه، وهي أعيان كلمات الله التي لا تنفد ولا تبعد فتبعد.

ومن ذلك سرّ النهار والليل والحرمان والنيل من الباب الأحد والأربعين: النهار معاش والليل لباس، فالنيل وجدان والحرمان إفلاس فقد ارتفع الالتباس، النهار حركة والليل سكون، والمحروم من الخلق من يقول للشيء كن فيكون، فظهر المنازع بالتكوين وحصل

التعيين في الكثرة لوجود التلوين، فما جنى على التوحيد إلاَّ الكون، وما نازعه إلاَّ وجود العين، فصاحب اللوا من يرى الحق عين السوى.

ومن ذلك سرّ الفتوة المختصة بالنبوّة من الباب ٤٢ : الفتى لا يعرف أين ومتى أينه دائم مستقر وزمانه حال مستمر التحم أزله بأبده، فلا أوّل ولا انقضاء لأمده لا يعرف الأجل المسمّى، ولا يقول بفك المعمى الملوان بحكم الفتيان تصرفهما أحوالهم فأعمالهما أعمالهم من عتى ما تفتى ولا سمّي بفتى غاية الفتى، الخلة لما سدّ الخلة غار بالرقباء فقطعهم جذاذاً واتخذ الكبير ملاذاً، ثم أحالهم على ما أوحى لهم.

ومن ذلك سرّ إلحاق الشبه بالشبه من الباب ٤٣ : لولا الشبه ما كانت الشبه فالظلال أمثال، وأي أمثال من أعجب الأمر في الظل مع المثل أنّ النور يصوّره وهو ينفره والجسم يقرّره ويثبته، لأنه منبته في لسان الأمّة، من أشبه أباه ما ظلم أمه، أسماؤه الحسنى أسماؤنا فعلى الشبه قام بناؤنا، وأحكامنا أحكامه فنحن بكل وجه شعائره وأعلامه، فتعظيمنا إياها من تقوى القلوب، وفتح الغيوب.

ومن ذلك سرّ التصرف في الفنون من شأن أهل الجنون من الباب ٤٤ : الفنون أعيان الشؤون والشؤون هوية المحتد ربانية المشهد من أعجب ما ورد أنه لم يلد وعنه ظهرت الأعداد فله أحدية العدد، وما بالدار من أحد، الجنون ستور، فقل ألا إلى الله تصير الأمور.

ومن ذلك سرّ التكرار في الأدوار من الباب ٤٥ : تكرر الملوان بالاسم لا بالأعيان، ودار الفلك فحدث الجديدان، أطت السماء وحق لها أن تئط فإن الأمر فيها منضغط، كيف لا يسمع لها صوت وهي تخاف الفوت، لعلمها بأنها تمور موراً، وتسير الجبال سيراً، يوم ترجف الراجفة، تتبعها الرادفة، قلوب يومئذ واجفة، ونفوس تالفة، وعقول خائفة، وأسرار على حالها عاكفة، وهت السماء فهي واهية، حين أصبحت على عروشها خاوية، لو بقي ساكنها ما خربت مساكنها، فالدور أظهر الكور.

ومن ذلك سر القليل والكثير في التيسير والتعسير من الباب ٤٦ : من تعبدته الإضافات فهو صاحب آفات، من كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة، إنّ مع العسر يسراً، وقد كان الرطب بلحاً وبسراً، مرقوم في الكتاب، كثير من الناس سجد وكثير حق عليه العذاب، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً، مع كونه أقوم قيلاً ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] وسبح بحمد ربك بكرة وأصيلا وقم الليل، فإنّ لك في النهار سبحاً طويلاً، إخراج ما في اليد هو الكثير وإن قل، فاعرف معنى الكثر والقل سبق درهم ألفاً لكونه ما وجد ألفاً.

ومن ذلك سر السافل والعالي، والمتسافل والمتعالي من الباب ٤٧ : العالي صاحب الروح، والسافل له إليه طرف جموح، والمتوسط ذو طرفين له إلى كل طرف جنوح، المتسافل يشهد لصاحبه بالسمو، والمتعالي يشهد للمتصف به بالمقام الدني للدنو الحاصل لا يبتغى، وما سفل إلا من طغى ما بلغ الماء الربى حتى زاد السيل وطمى، يا أهل الكتاب، لا

تغلوا في دينكم غير الحق، ولا تقولوا على الله إلا الحق، ما عنده علم ولا فتوة، من الحق العبود بالبنوة، أين الأبناء من العبيد؟ وأين الأنس من الوحيد؟

ومن ذلك سرّ الأزل في العلل من الباب ٤٨: لو كان علة لساوقه المعلول في الوجود وقد تأخر، فثبت الاسم المقدّم والمؤخر، لو اقتضى وجود العالم لذاته، لم يتأخر عنه شيء من محدثاته، ولو لم يصح أن يصدر عنه إلا واحد، لبطلت النسب والشواهد، من جعل للصادر مع أحديته نسباً، فقد أثبت أحكاماً ونسباً، والصادر موجود معلوم، والنسب أمر معدوم، والعدم لا يقوم بالوجود، فإن البراهين تبطله والحدود، والكثرة معقولة، وما ثم علة إلا وهي معلولة.

ومن ذلك سرّ وجود النفس في العسس من الباب ٤٩: بالعسس يطيب المنام، وبالنفس تزول الآلام، إن أضيف إلى غير الرحمن فهو بهتان عن الرحمن، ظهر حكمه فزال عن المكروب غمه، من قبل اليمن جاء، وبعد تنفيذ حكمه فاء، وإليه يرجع الأمر كله لأنه ظله، لا ينقبض الظل إلا إلى من صدر عنه، فإنه ما ظهر عينه إلا منه، فالفرع لا يستبد، فإنه إلى أصله يستند، في الفروع يظهر التفصيل وتشهد له الأصول في قضية العقول.

ومن ذلك سرّ الحيرة والقصور فيما يحوي عليه الخيام والقصور من الباب ٥٠: الخيمة والقصر يؤذن بالقهر والقسر، لولا الحيرة ما وجد العجز، ولا ظهر سلطان العزّ، وبالقصور علم بحدوث الأمور، القصور يلزم الطرفين لعدم الاستقلال بإيجاد العين، لولا القبول والاقتدار، وتكوير الليل والنهار بالإقبال والإدبار، ما ظهرت أعيان ولا عدمت أكوان، فسبحان المتفضل بالدهور والأمور.

ومن ذلك سرّ الهرب من الحرب من الباب الأحد والخمسين: من مال متحيزاً إلى فئة أو متحرفا لقتال فما مال، فالهرب من الحرب وهو من الخداع في الفزاع، كن قاراً ولا تتبع فاراً، لا تضطره إلى ضيق فيأتيك من تكرهه من فوق، كل يجري في قربه إلى أجل فلا تقل بجل، إذا نزل القدر عمي البصر نزول الحمام يقيد الأقدام، لا جناح لمن غلبه الأمر المتاح، من راح استراح إلى مقرّ الأرواح، من فتح له باب السماء استظلّ بسدرة الانتهاء، الشهيد حيّ وإنجازه ليّ.

ومن ذلك سرّ عبادة الهوى لماذا تهوى من الباب ٥٢: لا احتجار على الهوى، ولهذا يهوى بالهوى، يجتنب الهوى، وحق الهوى إن الهوى سبب الهوى، ولولا الهوى في القلب ما عبد الهوى، بالهوى يتبع الحق، والهوى يقعدك مقعد الصدق، الهوى ملاذ، وفي العبادة به التذاذ، وهو معاذ لمن به عاذ ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١-٢] فبهوي النجم وقع القسم بعدما طلع ونجم مواقع النجوم، قسم لو تعلمون عظيم، فلولا علوّ قدره ما عظم من أمره.

ومن ذلك سرّ الإشارات وإلحاقها بالعبارات من الباب ٥٣: الإشارة إيماء جاءت بها الأنباء، فأشارت إليه متكلة عليه فبرأتها شهادته ممّا قيل، وتلى ذلك في كل جيل، في قرآن

وزبور وتوراة وإنجيل، الإشارة حرام، إلاّ لمن لزم الصيام، الإشارات عبارات خفية وهو مذهب الصوفية، الإشارة نداء على رأس البعد، وبوح بعين العلة في كل ملة، لولا طلب الكتمان ما كانت الإشارة بالأجفان هي دلالة على المين وساعية، في بين البين، ولذلك لم يكن ينبغي لنبي أن يكون له خائنة عين ولهذا دلّت على المين.

ومن ذلك سرّ الشياطين في السلاطين من الباب ٥٤: السلطان ظل وصحبته ذلّ، والشيطنة بعد والظل لا يتبين حتى يمتد إذا امتد عن أصله بعد، وإذا فاء إليه بعد السلطان راع وداع «وَكُلُّكُمْ رَاعٍ» فالكل أمثال، والأمثال أضداد، والمضادة عناد، فثبت أن الشياطين سلاطين، الشيطان رجيم، بذوات الأذناب من النجوم قعدت الشهب على النقب فرمتها من قبل وعن جنب الأمر الكبار في حرق النار بالنار.

ومن ذلك سرّ تتبع التنوّع من الباب ٥٥: تنوّعات العالم في الحق الشؤون وهي ما يظهر من الفنون، الظن رجم بالغيب والعلم ما فيه شك ولا ريب، الظن أكذب الحديث في القديم والحديث الأنواع تفاصيل الجنس من غير نزاع، ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لبطلت السنة والفرض، تنوّعت الأسماء فتنوّعت الأسباب، والكل نسب والنسب في تباب، التنوّع افتراق لما ضمته الحقاق، وقد لحق بالمحاق من قال إن هذا إلاّ اختلاف، التتبع تجسّس، وقد نهي عن التجسّس.

ومن ذلك سرّ الإلهام والوحي في المنام من الباب ٥٦: الدقائق أعوام في حال المنام، وعلوم النظر أوهام، عند علوم الإلهام القائل عن الإلهام ما يخطىء، والحكم به لا يبطىء، عظم محن النفوس وبلواها، في ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨] فمن نهى النفس عن هواها بهواها فقد أمن غائلتها ومنتهاها، لولا إلهام النحل ما وجد العسل في زمان المحل، بالإلهام طلب المرعى وجمع فأوعى، المبشرات نبوات ورسالات، فاستدرك بعد أن عمّم فقال لكن المبشرات، فخصص وتمّم، فسبحان من خصّه بالحكم وجوامع الكلم.

ومن ذلك سرّ الزمان والمكان من الباب ٥٧: المكان نسبة في موجود والزمان نسبة في محدود وإن لم يكن له وجود، المكان يحدّ بالجلاس والزمان يعد بالأنفاس، الأمكان يحكم والمكان في الزمان والمكان الزمان، له أصل يرجع إليه، وهو الاسم الإلٰهي الدهر الذي يعوّل عليه، ظهر المكان بالاستواء، وظهر الزمان بالنزول إلى السماء، وقد كان قبل الاستواء له ظهور في العماء، الأينية للمتمكن، والحال والفرق ظاهر بين الأماكن، والمحال الحال بحيث المحل، والمتمكن عن المكان منتقل، الزمان ظرف لمظروف كالمعاني مع الحروف، وليس المكان بظرف فلا يشبه الحرف ظرف، المكان تجوز في عبارة الإنسان، الزمان محصور في القسمة بالآن، وما من شرطه وجود الأعيان، وإذا لم يعقل المكان إلاّ بالساكن فهو من المساكن.

ومن ذلك سرّ المنصور والناصر من الأفلاك والعناصر من الباب ٥٨: ما استعيذ بالله من الحور بعد الكور إلاّ لتأثير الدور، ماثم حور بل ثم استدارة لا دور، ما في العالم تكرار مع وجود الأدوار، كل ذلك إقبال وذهاب، ما ثم رجوع ولا إياب، السبب الأوّل: خير

الناصرين، والسبب الأخير: خير المنصورين. الأفلاك ذكور، والعناصر محال التكوين والظهور، وقد كانت الأفلاك أمهات لما ظهر فيها من المولدات، الفاعلات أملاك والمنفعلات أفلاك، والانفعالات أعراس وأملاك، لولا الالتحام ما ظهر هذا النظام، قد يكون المنفعل ناصر الفاعلة فيه بقبوله، وبلوغ سؤله ومأموله، لولا الأمر المطاع ما كان الاجتماع، فما ظهرت أشباح ولا أرواح إلاّ بنكاح.

ومن ذلك سرّ اختصاص النصب بالغضب من الباب ٥٩: الغضب نصب النفس في كل جنس نصب الأبدان من همم النفوس في المعقول والمحسوس، من تأثّر تعثر، وما ثم من لا يتأثر، إلاّ ببلوغ المراد تميز الرب من العباد، فالرب بالغ أمره وإن جهل العبد قدره، والعبد عبد القهر بحكم الدهر، من حكم عليك فهو إليك، فوله إن شئت، أو فاعزله ونزّه نفسه إن شئت، أو مثله في التنزيه عين التشبيه، فأين الراحة التي أعطتها المعرفة؟ وأين الوجود من هذه الصفة؟ الظالم هو الحاكم في أكثر المواطن، والحكم في الظاهر إنما هو للباطن، فلولا الأنفاس ما تحركت الحواس.

ومن ذلك سرّ امتياز الفرق عند إلجام العرق من الباب الستين: إذا كان يوم العرض ووقع الطلب بإقامة السنة والفرض، وذهلت كل مرضعة عمّا أرضعت، وزهدت كل نفس فيما جمعت، وألجم الناس العرق وامتازت الفرق، واستقصيت الحقوق، وحوسب الإنسان على ما اختزنه في الصندوق، زال الريب والمين وبان الصبح لذي عينين، وندم من أعرض وتولى وفاز بالتجلي السعادى كل قلب بالأسماء الإلٰهية الحسنى تحلّى، في الموطن الذي إليه حين دنى تدلى، فرأى في النزلة الأولى والأخرى من آيات ربه الكبرى، فرفع ميزان العدل في قبة الفصل، ففاز بالثقل أهل الفضل، فمن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية ومن خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية، ولا تمتاز الفرق إلاّ بالحدود، فمنهم النازل بمنازل النحوس، ومنهم النازل بمنازل السعود.

ومن ذلك سرّ المقام الشامخ في البرازخ من الباب الأحد والستين: البرزخ بين بين وهو مقام بين هذين، فما هو أحدهما بل هو مجموع الاثنين، فله العزّ الشامخ، والمجد الباذخ، والمقام الراسخ، وعلم البرازخ، له من القيامة الأعراف ومن الأسماء الاتصاف، فقد حاز مقام الإنصاف، فما هوعين الاسم ولا عين المسمّى، ولا يعرف هويته إلاّ من يفك المعمى، وقد استوى فيه البصير والأعمى، هو الظل بين الأنوار والظلم، والحد الفاصل بين الوجود والعدم، وإليه ينتهي الطريق الأمم، وهو حدّ الوقفة بين المقامين لمن فهم، له من الأزمنة الحال اللازم، فهو الوجود الدائم البرزخ، جامع الطرفين والساحة بين العلمين، له ما بين النقطة والمحيط، وليس بمركب ولا بسيط، حظه من الأحكام المباح، ولهذا كان له الاختيار والسراح، لم يتقيد بمحظور، ولا واجب، ولا مكروه ولا مندوب إليه في جميع المذاهب.

ومن ذلك سرّ النشر والحشر من الباب ٦٢: النشر ضد الطي وبه يتبين الرشد من الغيّ، النشر ظهور فهو نور على نور، الحشر جمع ما فيه صدع بالحشر يقع الازدحام وبه

يكون الالتحام، لولا الحشر ما زوجت النفوس بأبدانها ولا أقيمت المآدب بميدانها، قبور الأرواح أجسامها وقبور الأجسام أزامها، ففي سجن الأشباح سراح الأرواح، فلها الرواح والارتياح في الانفساح، وإن تقيدت بصور جسدية فإن لها التقليبات الأبدية، وما لها نعت إلاّ الأحدية، وإن كانت لا تنفك عن صورة فإنها في أعزّ سورة، فإذا بعثت الأجسام من قبورها وحصل للعرض عليها ما في صدروها، صدق الخبر الخبر وما بقي للريب في ذلك من أثر، فمن حار فاز وليس للبازي إلاّ ما حاز، فاعبر ولا تعمر فإن الدنيا نهر، وبحر يحكم فيها مد وجزر، والإنسان على نهرها جسر.

ومن ذلك سرّ المقامة والكرامة من الباب ٦٣ : النار دار انتقال من حال إلى حال، والحكم في عاقبتها للرحمة والنعمة وإزالة الكرب والغمة، فلذلك لم توصف بدار مقامه لعدم هذه العلامة، وسمّيت منزل الكرامة دار المقامة، لأنها مقيمة على العهد فلا تقبل الضد المقامة، نشأة الآخرة لأنها عين لحافرة، ما هي كرة خاسرة بل هي رابحة تاجرة، سوقها نفاق، وعذابها نفاق، فالصورة عذاب مقيم والحسّ في غاية النعيم، فإن نعيم الأمشاج فيما يلائم المزاج.

ومن ذلك سرّ الشرع المنافر والموافق للطبع من الباب ٦٤ : الشرع لا يتوقف على منافر أو موافق إذا تصرف له الحكم فيما ساء وسرّ ونفع وضرّ، منزلته الحكم في الأعيان لا في الأكوان، الصلاة خمس ما بين جهر وهمس، بني الإسلام على خمس لإزالة اللبس، فالتوحيد إمام فله الإمام، والصلاة نور، والصبر ضياء، والصدقة برهان، والحج إعلام بالمناسك الكرام وحرمات في حلال وحرام، الشرع زائل والطبع ليس براحل، محل الشرع الدار الدنيا، ومحل الطبع الآخرة والأولى، يرتفع الحكم التكليفي في الآخرة، ولا يرتفع الطبع من الحافرة، للشرع منازل الأحكام، وللطبع البقاء والدوام، جاءت الشرائع بحشر الأجساد، وثبتت بخرق المعتاد، أينما كانت الأجساد فلا بدّ من كون وفساد، وبهذا ورد الشرع وجاء السمع، وقبله الطبع ووافق عليه الجمع، والإيمان به واجب، وإن الله خلقهم من طين لازب.

ومن ذلك سر الشهادتين والجمع بين الكلمتين من الباب ٦٥ : العين طريق والعلم تحقيق لولا فضل العلم على العين ما كان شهادة خزيمة بمنزلة شهادة رجلين، ما تنظر إلاّ لتعلم، كما أنك لا تخاطب إلاّ لتفهم، ولا تخاطب إلاّ لتفهم الشهادة حضور ونور على نور الشهادة على الخبر أقوى في الحكم من شهادة البصر، يثبت ذلك شهادة خزيمة للنبي عليه السلام المنقولة عنه في الأحكام، لولا التلبس الداخل على البصر ما شهد الصحابة في جبريل عليه السلام أنه من البشر وليس من البشر، فلو استعملهُم العلم وكانوا بحكم الفهم، لتفكروا فيما أبصروا حيث سألوا عمّا جهلوا، فكانوا يقولون: إن لم يكن هذا المشهود روحاً تجسد وإلاّ فهو دحية كما يشهد، ولو ظهر في أماكن مختلفة في زمان واحد وتعدد فلا يقدح ذلك في دحييته فإنه في كل صورة بهويته، وتلك الصور لهويته كالأعضاء لعين الإنسان وهو واحد مع

كثرة الأعضاء التي في الأكوان، فمن وقف عندما قلناه حينئذٍ يعرف ما يرى إذا رآه، وبهذا يجمع بين الكلمتين ويتلفظ بالشهادتين، لأنه من يطع الرسول فقد أطاع الله، فإن هويته سمعه وبصره وجميع قواه.

ومن ذلك سرّ تقديس الجوهر النفيس من الباب ٦٦: الجوهر الأصل وعنه يكون بالفصل، القدوس عين بصر المحبوب من خلف حجاب الغيوب، فإذا أنصف الإنسان فرق بين الإيمان والعيان، ولا سيما فيمن كان الحق قواه من الأكوان، فالتصديق بالخبر فوق الحكم بما يشهده البصر إلاّ إذا نظر واعتبر.

ومن ذلك سرّ المقاولة والمحاولة من الباب ٦٧: لولا القول ما ظهرت الأعيان ولا كان ما كان، فصل الخطاب من المقال وسلطانه في قلت وقال. المحاولة في التفهيم لأرباب التعليم، كما هي في التفهم وطلب التعلم من المحاولة ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ومن المقاولة: «**قَسمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي**» فإليّ وعليّ المحاولة لا يظهر عنها عين إلاّ في كون المقاولة من المحاولة، المقاولة تأخر ومسابقة، والمحاولة في الوجود مساوقة، المقاولة نسب والمحاولة سبب، المقاولة منها مناوحة ومنها مكافحة، القول يطلب السمع ويؤذن بالجمع له الأثر في السامع وهو يقرب الشاسع، وفي بعض المواطن تغني الإشارة عن العبارة.

ومن ذلك الحجب المنيعة عن أحكام الطبيعة من الباب ٦٨: لا يقول بالحجب المنيعة عن أحكام الطبيعة إلاّ أصحاب خرق العوائد أهل الأنوار والمشاهد العاملون على أسرار الشرع وما شعروا أن ذلك من أحكام الطبع، فإن العادة حجاب فيا ليت شعري ما وراء هذا الباب من عرف أن الطبيعة بالرتبة فوق الجنة عرف أن لله في جعلها هناك الطول والمنة، لولا ما هي فوقها في المنزلة لكانت الإعادة في الأجسام يوم القيامة من المسائل المشكلة، من وقف مع اللوح والقلم انحجب عن الطبيعة والتزم، ومن جالس الأرواح المهيمة غابت عنه أمور الأجسام المحكمة، من هيأ روحه لترويح النفس لم يدر ما صلصلة الجرس، حكم لطبيعة تحت النفس، وأكثر النظار من ذلك في لبس، من المحال أن يمنع الإنسان عن العلم بالطبيعة مانع وهو للعالم برنامج جامع، كيف يجهل الشيء نفسه ويزعم أنه يعرف أصله وأسه، كيف يخرج عن جنسه من تقيد بيومه وأمسه.

ومن ذلك سرّ كشف الغطاء بالعطاء من الباب ٦٩: الشكر سبب مزيد الآلاء وتضاعف النعماء وعصمة من تأثير الأسماء بالأسواء، بالجود ظهر الوجود، والكرم سبب ارتفاع الهمم، وبالإيثار تحمد الآثار، وبالعطاء يكون كشف الغطاء، وبالهبات تمحى السيئات، الأنعام من الأنعام تحمل الأثقال والرحال وعليها تمتطي الرجال إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق الأنفس مع نزولها عن المقام الأقدس، ومن أعجب ما يكون أن الوضوء من أكل لحومها مسنون لشربها من بئر شطون العطاء يرد الوعر وطاء، الرفاده أعظم عباده، الرجعة في الهبة مثلبه وإمضاؤها منقبه، والمواهب من أحمد مناقب، الواهب الجود جود وهو لأهل الوجود،

أعطى كل شيء خلقه حين أعطى المركب وسقه، من أسهره وعد النيل طال عليه الليل، في كشف الغطاء ارتفاع الضرر واحتداد البصر، فتوهب قدر ما يرى، وليس هذا حديث يفترى، إن كل الصيد في جوف الفرى وبهذا المثل جرى، يشهد للمؤذن مدى صوته، ولكن بعد موته، زكاة الخبوب في الحبوب، وزكاة الأعيان في الحيوان وزكاة عموم الطلب في الفضة والذهب، عمّت العطايا والعدات جميع المولدات، أعطت الشمس الذهب ولولا غروبها ما ذهب، ومن أعطاك مالك فما خيّب آمالك، وقد أعطاك ما أوجبت المروءة عليه فاصرف النظر فيه وإليه، ومن أعطاك ماله فقد جاد وأنعم وهو ما زاد على الحاجة، فاعلم الأرزاق إرفاق بالقصد لا بالاتفاق، الإنفاق يزيل الإملاق، لا ينزل الساري عن ظهر البراق حتى يجوز السبع الطباق، ولا يعطى والإرفاق إلاّ لمعرفته بالرزاق.

ومن ذلك سرّ العهد في الزيارة والقصد من الباب الموفي ٧٠: لولا قصد الزيارة ما جاءت الرسل ولا مهدت السبل، ولا بدّ من رسالة ورسول فلا بدّ من سبيل، وهو صاحب العهد والعقد، فللّه الأمر من قبل ومن بعد، ما جاء من جاء من عند المالك ليعرف ما هنالك، وهنالك مجهول غير معقول بل أحالته بعض العقول، ولا يوجد في منقول، ولكن رد النقل ما دلّ على إحالته العقل، فثبت المقر وجعل إليه المفر، كلا لا وزر إلى ربك المستقر، عين المناسك للناسك وكثرها لالتماسك، وأوضح المسالك للسالك، وأمر كل قاصد إليه وآت بتعظيم الشعائر والحرمات، وجعل البدن من شعائر الله عند كل حليم أوّاه، ولم يكن المقصود منها إلاّ أنتم بقوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وما كثر تعالىٰ المناسك إلاّ لالتماسك، فإنه أمرك بمعرفته والاتصاف بصفته، فللّه حجّ إلى عبده لصدق وعده، وجعل فيه مناسك معدودة وشرائع محدودة فقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] من الأحوال كما أمركم أن تكونوا معه فيما شرع لكم من الأعمال، وأمركم برمي الجمرة لترجعوا إلى التوحيد من الكثرة في عين الكثرة، وجعلها في أربعة أيام لكل طبيعة يوم لتحوز درجة الكمال والتمام، وجعلها محصورة في السبعين لأنها الأغلب في انتهاء عمر الأمة المحمدية من الستين، واختصها بسبعة في عشرة ليقوم من ضربها السبعون، فكانت السبعة لها عشراً لكونها عشراً، وجعل ذلك في ثلاثة أماكن بمنى لما حازته النشأة الإنسانية من حسّ وعقل وخيال فبلغت المنى، فإن قيدها العقل والحسّ أطلقها الخيال لما في قوته من الانفعال، فهو أشبه شيء بالصورة، وله من السور أعظم سورة، ثم شرع الحلق لظهور الحق بذهاب الخلق، فإنه شعور مجمل، فأزالته بوضوح العلم أجمل، وشرع الوقوف بجمع حتى لا يدخل القرب صدع، وجعل الوقوف بعرفة لأن الوقوف عند المعرفة، وجعل لوفده أيام منى مأدبه لما ناله في طريقه من المشقة والمسغبه، فإنه بالأصالة مسكين ذو متربة، وكان طواف الصدر لما صدر، وطواف القدوم للورود، والوداع لرحلة الوفود.

ومن ذلك السرّ العدد المكسور لاستخراج خفايا الأمور من الباب الأحد والسبعين ٧١: العدد المكسر هو المعدود، ولا سيما إن اتصف بالوجود وأخذته الحدود، العدد له أحدية

الكثرة التي لا نهاية لها يوقف عندها، وأما استخراج خفيات الأمور بالعدد المكسور فذلك من حيث المعدود الداخل في الوجود وما يدخله من التقسيم وهو عين العدد المفهوم، وبه يخرج ما خفي من العلم بالله المنزّه عن الأشباه ولا أخفى من العلم به فانتبه إن كنت تنتبه. وإنما قلنا في المعدود الحاصل في الوجود إنه عين العدد المكسور لأنا اقتطعناه ممّا لا ينتهي من الممكنات، وعبرنا عن هذا القدر بالمحدثات، فهو جزء من كل لا إحاطة فيه ولا حصر ولا إحصاء، ولو بالغت في الاستقصاء، وما يحصى منه إلاّ الموجود وهو المعدود.

ومن ذلك سرّ الرجعة من منزل الرفعة من الباب ٧٢: من علامات صدق التوجه إلى الله الفرار عن الخلق، ومن علامات صدق الفرار عن الخلق وجود الحق، ومن كمال وجود الحق الرجوع إلى الخلق إما بالإرشاد وإما بكونه عين الحق، فسمه خلقاً بوجه وحقاً بوجه كما يقوله أهل الوجه، فإن الوجه له البقاء وهو الذات التي لها الاعتلاء، وقد جاء الإعلام في أصدق القول والكلام: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: ٢٦، ٢٧] ولكن هنا سرّ من حيث ما هو عليها ولديها، فما كل كل في كل موضع ترد فيه يعطى الحصر، فإنه قد تأتي ويراد بها القصر، مثل قوله في الريح العقيم: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] وقد مرت على الأرض وما جعلتها كالرميم مع كونها أتت عليها، وما جعل الحق الحكم في الأرض إليها.

ومن ذلك ما خفي في الصدور من علوم الصدور من الباب ٧٣: الحق المعتقد في القلب هو إشارة إلى القلب فاقلب تجد ما ثبت في المعتقد فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] ومن لم يثبت له ظل كيف يكون له فيء والقلب في الصدور وهو الرجوع لا واحد الصدور، فإنا عن الحق صدرنا من كوننا عنده في الخزائن كما أعلمنا فعلمنا، فهو صدور لم يتقدمه ورود كما هو في بعض الأمور، فمن قال إن الصدور بعد الورود فما عنده علم بحقائق الوجود، فلولا ما نحن ثابتين في العدم ما صحّ أن تحوي علينا خزائن الكرم، فلها في العدم شيئية غير مرئية، فقوله: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] فذلك إذا لم يكن مأموراً فقيده بالذكر في محكم الذكر.

ومن ذلك سرّ ما في الجهاد من الصلاح والفساد من الباب ٧٤: ما تفسد في الوجود صورة إلاّ وعين فسادها أيضاً ظهور صوره، فما تزال في الصور في حال النفع والضرر، فالجهاد صلاح وفساد لأن فيه حزاً لرؤوس، ومفارقة الحسّ المحسوس، فالشهيد يشبه الميت فيما اتصف به من الفوت، ولذلك يورث ماله وينكح عياله، فطلاق الشهيد يشبه تطليق الحاكم على الغائب وإن كان حياً إذا أبعد في المذاهب، وقد ثبت عن سيد البشر: «**لاَ إِضْرَارَ وَلاَ ضَرَرَ**» وقد علم أن الشهيد هو سعيد بدار الخلود وإن حصل تحت الصعيد، ولا سبيل إلى رجعته ولا إنزاله من رفعته، مع كونه حياً يفرح ويرزق وما هو عند أهله ولا طلق وهذه حالة الأموات والشهداء ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ـ ١٧٠] وهم عندنا رفات وما لنا إلاّ ما نراه، ولكل امرىء ما نواه، ولا نحكم إلاّ بما شهدناه فاستمع تنتفع.

ومن ذلك ترك العناد لترك السداد من الباب ٧٥: ترك العناد أحق لما فيه من موافقة الحق موافقة إرادة لا عادة، إذا قعد المعاند مقعد صدق فقد حصل في مقطع حق، إن لم يعاند أهل الحق أهل الباطل فجيده ليس بحال بل هو عاطل، فتارك العناد هو تارك السداد، تقابلت الأسماء إذا لم يكن الاسم المسمّى، إذا كانت اليد بالنواصي أنزلت العصم من الصياصي، ولم تفنها ما عندها من الصياصي، العناد من المحق في بعض المواطن سداد ومن المبطل فساد، الأوّل ليس بمعاند حتى يعاند فيعاند، فإن صمت كان كمثل من بهت والباهت مقطوع الحجة دارس المحجة، القيام لله نعت الحليم الأوّاه لولا قيامه ما رمي في النار، ولا انخرقت العادة في الأبصار، هي نار في أعين الأنام، وهي على الخليل برد وسلام، فهو عندهم في عذاب مقيم، وهو في نفسه في جنة النعيم، لما هبت عليه الأنفاس كان كأنه في ديماس.

ومن ذلك ما في الخلوة من الجلوة من الباب ٧٦: لا خلوة في الوجود لأنه لا بدّ من شاهد ومشهود في خلوة الأسرار جلوة الجبار، وفي خلوة الأشباح جلوة الملازمين من الأرواح، لا بدّ لك من مكان تعمره، فهو يبصرك وإن كنت لا تبصره، الخلوة إضافة ونسب، ولا بدّ فيها من جلوة سبب، أين الخلوه والوجوه سافره والأعين ناظرة مسافره؟ الناس سفر وإن أقاموا، ومقيمون وإن هاموا، فإن سافرت وحدك فأنت شيطان، وإن سافرت مع القرين فأنتما شيطانان، وإن سافرت مع القرين والملك فما للشيطان عليك سلطان، الثلاثة ركب، وانتقال من البعد إلى القرب، فما كل خلوة مشهودة، ولا كل جلوة تكون محمودة، معدومة كانت أو موجودة.

ومن ذلك سرّ ما في الجلوة من الخلوة من الباب ٧٧: الخلوة بالخاء المعجمة جلوة بالجيم مع الحق في مقعد صدق، أين يذهب العبيد ممّن هو إليهم أقرب من حبل الوريد، فالخلوة به لا عنه، فله في كل شيء كنه، فالخلوة مطلقة لا تصحّ، ومن ادّعاها فما أسرع ما يفتضح ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] فأين الخلوة؟ ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢] لولا طلب الجلوة ما شرع أحد في اتخاذ الخلوة، الخلوة أرضها معبده، وأحوالها مقيده، والجلوة مطلوبة لذاتها مشهودة بسمائها.

ومن ذلك سرّ الاعتزال في السواحل والجبال من الباب ٧٨: الاعتزال في السواحل والجبال من صفات الرجال يطلب ذلك للاعتبار في الآثار، فإن الله أنزل الجبال منزلة الأوتاد، فسكن بها المهاد لما ماد، فيأخذ بهمته وطلبه الأعلى والأنفس من الأمور التي ندب إليها شموخها، ويأخذ بثبوته على ما أمر بالإقامة عليه من طاعة ربّه رسوخها، ويأخذ من تجلّي الحق له في سرّه اندكاكها، ويأخذ من قوته في دين الله وغيرته لله ملاكها، ويأخذ فيما ندبه الله إليه من اللين لمن هو تحت حكمه والهين من غير ضعف ولا وهن تصييرها لهول ذلك اليوم المنتظر كالعهن، ويأخذ من البحار اتساعها لأخلاقه وقبولها تأثير الأهواء بالتموّج لطيب أعراقه، فيكون مع كل اسم إلٰهي بحكمه على قدر معرفته به وعلمه، فتقوم له الأسماء مقام

الأهواء، فإذا سكنت عنه سكن لعلمه أن لله ما سكن، والله من حيث هويته جامع لمسمّى المضار والمنافع، فإنه سبحانه الضار والنافع، ويأخذ لحال مجاهدته تسجيرها، ومن تسجيرها تسعيرها، فلهذا وأمثاله طلب الاعتزال في السواحل والجبال.

ومن ذلك سرّ الاعتزال مع تدبير الأهل والمال من الباب ٧٩: الاعتزال بالأجسام من الأوهام بالمعنى للمحب المعنى، فلو خلا شيء عن الحق مع نفي الاشتباه ما صدق ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١١٥] وهو القول الصدق والكلام الحق، فليس من رجاله إلاّ من اعتزل بتدبير أهله وماله، فهو مع الله على كل حال في الأهل والمال، فمن قال التبرّر في الترك فهو صاحب إفك، فمن اعتزل لينفرد بنفسه فما هو مع ربه يستحقه جلال الله في قدسه، ولا يفرق صاحب هذا الحال بين عقله وحسّه، وما طلب الحق من مساكنه أعظم من باطنه.

ومن ذلك سرّ القرار في الديار من الباب ٨٠: القرار للخلق نظير الاستواء للحق، واعلم أنه لا يصحّ الجوار ولا يقبل الجوار إلاّ بعمارة الديار فلا يثبت الجار إلاّ بالدار، قالت العارفة المشهود لها بالكمال ﴿ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] دار المآل، فقدمت الجار على الدار، لما علمت أن بالدار يصحّ الجوار، والعرش سقف الجنة وهو محل الاستواء، وقعر الجنة سقف النار التي هي محل البلاء، فالجنة على جهنم كالمرجل على النار لأهل الاعتبار، فالرجل كل الرجل من ثبت في منزله عند منزله من عرف عموم إحسان البرّ استقرّ لا بدّ لك من منزل، فلا تكن عن أوّل منزل بمعزل، وأوّل منازلك علم خالقك بك، ولا تزل في هذا المنزل مع انتقالك وفي رحلك وارتحالك، فاسترح إن شئت أو اتعب فإنك في علمه تتقلب، ما فرّ موسىٰ من لقاء ربه مع علمه أنه يلقاه بموته، وإنما فرّ لعلمه بما يزيده من العلم بالله بإقامته في بيته، ففراره قراره.

ومن ذلك سرّ الانتزاح عن الأوطان ومهاجرة الإخوان من الباب الواحد والثمانين: حواسك أوطانك وقواك إخوانك، فهب الأوطان للقطان واهجر الإخوان بالرحمٰن فإنه تعالىٰ القاطن بقوله: «**وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ التَّقِيّ**» ولا ينزل إلاّ بالموقع النظيف النقي، وقال: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ**» فهويته عين قواك لمن نظر فيه واعتبره، فتعين على العارف أن ينتزح عن الأوطان، وعلى الواقف أن يهجر الإخوان، وأين الله من الحدثان؟ كن مع الله في أحوالك تحمد عاقبة مآلك، وإياك أن تنازع إذا علمت أنك الجامع، فإن المفاصلة موجودة وهي لعينك مشهودة.

ومن ذلك سرّ الجنن عن البلايا والمحن من الباب ٨٢: الجنن صوارف وأقواها العوارف وأضعفها المعارف، من كان ذا معروف شاهد المعروف، من تحصن خلف جنته رأى جنته في جثته أعظم البلايا والمحن وقوع الفتن، وأي فتنة أعظم عند الرجال من فتنة الولد والمال؟ الولد مجهلة مخبنة مبخلة والمال مالك وصاحبه بكل وجه، وإن فاز هلك إن أمسكه هلكه وإن جاد به تركه، البخيل يذمه البخل، والكريم يضر به البذل، وقد جبل بخلقه من نطفة أمشاج على الفاقة والاحتياج، وقال زهير بن أبي سلمى: «لا بدّ أن يطيع العوالي من يعصي أطراف الزجاج»: [الطويل]

ومَـنْ يَـغْـصِ أطْـرَافَ الـزُّجَـاجِ فـإنَّـه يُـطيـع الـعـوالـي ركبـت كـل لَـهْـذم

من تعرّض للفتن فقد أخذ بحظ وافر من المحن، لا يمتحن بالدليل إلاّ صاحب الدعوى، فمن ادّعى فقد عرض نفسه للبلوى ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩] فقلنا بالجراءة على الخطايا ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٥٠] فحلت الرزايا بحلول البلايا، يقول ابن السيد البطليوسي رضي الله عنه في بعض منظومه: [المجتث]

ارْجُ الإلٰـــهَ وخَـــفْـــهُ هـــذا الـــصِّـــراطُ الـــقَـــوِيـــمْ
قـــد قـــال رَبُّـــكَ فـــي الـــحِـــجْـــرِ والإلٰـــه كَـــرِيـــمْ
نَـــبِّـــئْ عـــبـــادِيَ أنّـــي أنـــا الـــغـــفـــورُ الـــرَّحِـــيـــمْ
وقـــال إنّ عـــذابـــي هـــو الـــعـــذابُ الألـــيـــمْ
فـــالـــقَـــلْـــبُ بـــيـــن رجـــاءٍ وبـــيـــن خَـــوْفٍ بَـــهِـــيـــمْ

ومن ذلك سرّ الحجاب والحجاب والوقوف خلف الباب من الباب ٨٣: الحجاب والحجاب رحمة والدليل إحراق السبحات والحجاب نقمه، والبرهان ما جاء في أصحاب الدركات، وليس الوقوف خلف الباب بحجاب إذا كان الباب يستحيل إلى من يكون خلفه الوصول والإقامة لديه والنزول، فيكون الباب عين المطلوب فإنه المحبوب، فإذا وصلت إليه حصلت بين يديه، فمن ساعده شاهده.

ومن ذلك سرّ الحدود والعقود من الباب ٨٤: الحدود أظهرت المحدود، والعقود أسرت المعقود، وما ثم إلاّ حدّ وعقد في رب وعبد، فحد الرب في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] فتميز، وحد العبد في الظل والفيء قد تبرز، فالحد المجهول معقول، والحد الموجود مشهود، تنوعت الحدود الإلٰهية بالعماء والاستواء، والنزول والمعية، فلم ينحصر الأمر ولم ينضبط، ولهذا يحار العالم فيه ويختبط، فمن سلم فقد سلم، ومن آمن فقد أسلم.

ومن ذلك سرّ التقوى في البلوى من الباب ٨٥: الارتقاء في الاتقاء في دار الفناء لا في دار البقاء، من اتقى الله في موطن التكليف على كل حال حاز درجة الكمال عند الارتحال، الأمر بلوى فاستعن عليه بالتقوى، لا تقوى إلاّ بالله ولا تقوى إلاّ من الله، فمنه الحذر وبه يتقى الضرر، قد استعاذ به منه من أخذنا طريق نجاتنا عنه، فيه يلاذ ومنه يستعاذ، فأنت الداء والدواء، ومحرش الأعداء على الأوداء، حكم التقى في يوم اللقا، إذا تراء الجمعان، واجتمع في الصورة الفريقان، فإنها خلافة عامّة، يظهر سرّها يوم الطامة، فلأي معنى الواحدة تنجو والأخرى لا ترجو، فالجبابرة والأنبياء في الأرض خلفاء.

ومن ذلك سرّ الأحكام في الأنام من الباب ٨٦: الأحكام في النيام من الأنام، والحكم في القائمين من المنام، لولا الحكم ما ظهرت الحكم، ولا ميزت النقم من النعم، لولا الشروع في الأحكام ما التذّ أحد بمنام، ولا انتصب في العالم إمام، فبالحكم انضبط وكان النظام وارتبط، وحصل الأمان في النفوس، وأمن في الغالب التعدّي على المحسوس، فحدثت الأسفار إلى الأمصار، وكان الرجل أمناً في رحلته عن أهله وماله عليهم بهذا

الاعتبار، وهذا حكم أعطاه الوضع ولو لم يرد به الشرع، فلا بدّ من ناموس الأمان النفوس وأولاه ما شرع، وفيه النجاة لمن اتبع.

ومن ذلك سرّ الطالع والأفل في الفرائض والنوافل من الباب ٨٧: إذا طلع منك وافل فيك فهذا القدر من العلم به يكفيك، فهو الظاهر بطلوعه والباطن بأفوله، فقف إن أردت السعادة والعلم عند قيله، إنما لم يحب الخليل الآفل لأنه رآه يطلب السافل، وهمته في العلو لطلب الدنو، فإنه بذاته يسفل وبحقيقته يأفل، ولما كان أفوله من خارج افتقر الخليل إلى معارج، حتى لا يفقد النجم فلا يحال بينه وبين العلم، والمعارج رحلة وقد علم أن الأمر ما فيه نقله، فإن نسبة الأينيات إليه على السواء في الاستواء وفي غير الاستواء، جعل الله في النوافل عينك كونه، وجعل في الفرائض كونك عينه، فبك يبصرك في الفرض، وبه تبصر في النفل فالأمر ذرية بعضها من بعض: [مخلع البسيط]

ما هو عَنكَ بل أنتَ عَنهُ فأنتَ منه ما أنتَ مِنهُ

ومن ذلك سرّ اجتناب الشبهة في كل وجهه من الباب ٨٨: حقيقة الشبهة أن يكون لها إلى كل وجه وجهة، والشيء لا يزول عن حقيقته ولا يعدل عن طريقته، لأنه لو زال عن حقيقته لزال العلم وطمس عين الفهم وبطل الحكم، وزالت الثقة بالمقه المتشابه محكم لمن علم فحكم، من أشبهك فقد أشبهته، ومن باهتك فقد بهته، لكل وجهة هو موليها، فما ثم شبهة أنت وغيرك متواليها، العالم شبهة بالتخلي، ولهذا أشبهته في التجلي، ألا ترى اختلاف الصور عليه عند النظر إليه، لا بل هو يختلف على الصور، وهو العلي عن الغير، الكل عين واحدة فلا اختلاف، وما ثم عدد فيكون الائتلاف، فحقيقة الشبه في الشبه.

ومن ذلك سرّ تناول الشهوات في المتشابهات من الباب ٨٩: لا سلوة عن الشهوة فإنها من حقيقة النشأة هنا، وفي الفيئة في المتشابهات الميل إلى جميع الجهات، ما العجب من كون العالم على الصورة وإنما العجب ممّن يراه برزخاً في السورة، والبرزخ بين طرفين وما ثم سوى عينين، أنت ومن أنت عنه والكل جميعاً منه، عندنا لا يثبت البرزخ إلاّ في العين الموجود لأنه بين الأعين الثابتة المعدومة وبين الوجود، فمن راعى هذا المقام الأشمخ ثبت عنده أن العالم في حال وجوده برزخ، فلو رفع العالم عن الوجود لزال البرزخ المحدود، تشابهت الأمور بالأمثال تشابه الأجسام الكثيفة بالظلال ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] وظلالهم بالغدوّ والآصال.

ومن ذلك سرّ ما اختار الرجال في ترك الحلال من الباب ٩٠: المحرم محل إذا كان في الحل والحلال حرام إذا كان في الحرام ما ترك الرجال الحلال إلاّ لدخوله تحت الأحكام، إلاّ ما لا بدّ منه لإقامة هذه الأجسام الحلال بين والحرام بين وما بينهما قد عينهما، فلو ارتفع البين لزلت الأحكام من العين، إذا حققت الأصول فليس الزهد إلاّ في الفضول، وأما ما تدعو الحاجة إليه فذلك المعول عليه لا يصحّ عنه تجريد، فإن غذاء الموحد في التوحيد، كتغذي

الوجود بالموجود، والحد بالمحدود، والعدد بالمعدود، والشهود بالمشهود، فالسبب لا يرتفع والنسب لا تندفع.

ومن ذلك سرّ من لم يقل بالانتزاح عن المباح من الباب ٩١ : ليس من الصلاح الانتزاح عن المباح، فبه فوّتك وما يفوّتك هو نصيبك من الأحكام والناس عنه نيام، نفى عنه الأجر والوزر وما عندنا حكم ينتفى عن المؤمن به الأجر، فلو تعطلت الأجور لالتبست الأمور، ما ثم ما يلتبس فالتمس ولا تبتئس فتفتلس، لو صحّ في الوجود اللبس لصحّ بالصورة بين اليوم والأمس، وأما كون العبيد في لبس من خلق جديد فما هو لمن بصره حديد، فإذا كشف الغطاء وجاء العطاء، تسرّحت الحواس وارتفع الالتباس، وتخلص النص وزال البحث والفحص، فالمباح أتمّ حكم شرع للإنسان وعليه جميع الحيوان، ألا ترى أن لهم الكشف التام في اليقظة والمنام؟ ولهم الكتم بما هم عليه في الإبانة من الحكم.

ومن ذلك سرّ العطاء بكشف الغطاء من الباب ٩٢ : كل جزء من العالم فقير إلى العظيم الحقير، فالكل عبيد النعم، ومن المنعم الأمان من حلول النقم، فما منهم إلاّ من يقرع باب الكرم الإلٰهي والجود الربانيّ، فمنهم من يكون له كشف الغطا عين العطا، ومنهم من يكون له بقاء الغطاء عين العطاء، فمن الناس من يكون هو هدي البصر، ومنهم من هو خفاشيّ النظر، فإن الأمر إضافي والحكم في الأشياء نسبي، أين حال قوله ﷺ في رؤية ربه: «**نورٌ أنّى أَراهُ**» وبين قوله في رؤية ربه: «**تَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيلَةَ البَدْرِ**» وليس المرئي سواه، فأثبتها لنا ونفاها عنه لما علم منه، ولم يقل نرى بالنون وفيه سرّ مصون.

ومن ذلك إيثار السكوت وملازمة البيوت من الباب ٩٣ : السكوت حلية الأبدال، وملازمة البيوت ضرب من الخلوات والاعتزال، السكوت من المحال، فلا بدّ من نطق على كل حال، وليس من شرط البيان حركة اللسان، فإن لسان الحال أفصح، وميزانها في الإبانة عن نفس صاحبها أرجح، وملازمة البيوت عين النطق بلسان الحق، ومن سكت بكت، وربما رمي بالخرس، وقام له مقام الجرس، فظهر سرّه، وإن جهل أمره، وصار حديثاً بين الناس، ووقع في النفوس منه التباس، وكثرت فيه المقالات، وتطرّقت إليه الاحتمالات، ففتح بصمته أبواب الألسنة، وعمر بملازمة بيته جميع الأمكنة، فإن له في كل محفل ذكراً، فقد جاء شيئاً إمراً، لو لم يكن في السكوت وملازمة البيوت، إلاّ اتصاف صاحبه بصفة غير إلٰهية، مضاف إلى ذلك ما تحيله الماهية، فإن النطق من حدّه فكيف يقول بفقده.

ومن ذلك سرّ ما في القول من الطول من الباب ٩٤ : لو لم يكن في القول من الطول إلاّ وجود الإنشاء وترجيح الإفشاء، وتحقيق الملك والزيادة في الملك، القول تكوين وتعيين، وبيان ما هو الأمر عليه فكيف يترك ولا ينظر إليه، ما شرف موسى عليه السلام إلاّ بما نسب إليه من الكلام بالكلام، وجد العالم فظهر على أتم نظام، وكل قول بحسب حقيقة القائل، فمنه الدائم ومنه الزائل، فمن قول لا يكون إلاّ بحرف، وهو على الحقيقة لمعنى القول كظرف، ومن قول لا حرف فيه فيزول فقد أبنت عن الأصول.

ومن ذلك سرّ قيام الليل لجزيل النيل من الباب ٩٥ : قيام هذه الأجسام أوجب اسم ذي الجلال والإكرام، فالتزم الجلال والإكرام، التزم الألف واللام، فكان الجلال للتنزيه عن التشبيه، وكان الإكرام للتنويه به في نفي التشبيه بالشبيه، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] مع أنه ظل وفيء، فجعله مثلاً لا يماثل ومفصولاً لا يفاضل، فليل هذه النشأة جسمه الطبيعيّ ونهاره ما نفخ فيه الروح العقليّ، فكان أعدل الفتائل لقبول كرم الشمائل، فله الألطاف الخفية وجزيل الأعطية المنزّهة عن الكمية، لها فتح الباب والعطاء بغير حساب، النشأة الإنسانية بجميعها ليل وفي الثلث الآخر منها يكون النزول الإلٰهي لينيله أجزل النيل، ولم يكن الثلث الأخير إلاّ الروح المنفوخ الذي له الثبات والرسوخ والعلو على الثلثين والشموخ، فالثلث الأوّل هيكله الترابيّ، والثلث الثاني روحه الحيوانيّ، والثلث الأخير به كان إنساناً وجعل الباقي له أعواناً.

ومن ذلك سرّ تعشق القوم بالنوم من الباب ٩٦ : الخيال عين الكمال لولاه ما فضل الإنسان على سائر الحيوان به جال وصال. وافتخر وطال، وبه قال ما قال من سبحاني وإنني أنا الله، وبه كان الحليم الأوّاه فله الشتات، والجمع بين أضداد الصفات، حكم على المحال والواجب بما شاءه من المذاهب، يخرق فيهما العادة ويلحقهما بعالم الشهادة فيجسدهما في عين الناظر ويلحق الأوّل في الحكم بالآخر، لا يثبت على حال وله الثبوت على تقلب الأحوال، فله من آي القرآن ما جاء في سورة الرحمٰن من أنه تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمٰن: ٢٩، ٣٠] ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فإنا من جملة نعمائك.

ومن ذلك سرّ الحذر من القدر لاتقاء الضرر من الباب ٩٧ : سرّ القدر وساطة الحق بين المؤثر والمؤثر فيه والأثر، فينسب الأثر إليه وهو ما أوجده إلاّ على ما كان عليه، ولا شيء منه في يديه ما حكم فيه إلاّ بما أعطاه من ذاته في ذاته، وفي جميع أحواله وأسمائه وصفاته، والذي يختص بالموجود أعطى الوجود والشهود، وهي نسب لا أعيان وتكوينات لا أكوان، والعين هي العين لا أمر زائد فالشأن واحد، فمن سرّ القدر كان العالم سمع الحق والبصر، وهذا العلم هو الذي يعطيه إقامة الفرائض المشروعة الواجبة المسموعة، كما أعطت النوافل أن يكون الحق سمعك وبصرك، فحقق فيما أبديته لك نظرك، فإنك إذا علمت حكمت ونسبت ونصبت، وكنت أنت أنت، وصاحب هذا العلم لا يقول قط أنا الله وحاشاه من هذا حاشاه بل يقول: أنا العبد على كل حال، والله الممتن عليّ بالإيجاد وهو المتعال.

ومن ذلك سرّ الأمان من الإيمان من الباب ٩٨ : أخوة الإيمان، تعطي الأمان، والإيمان يمان، فذهب الحرمان، لا تخيفوا النفوس بعد أمنها إن كنتم عقلاء، ولا تتخذوا إيمانكم دخلاً بينكم إن كنتم أمناء، الإيمان برزخ بين إسلام وإحسان، فله من الإسلام ما يطلبه عالم الأجسام ومحلّ الانقسام، وله من الإحسان ما يشهد به المحسان، فمن آمن فقد أسلم وأحسن، ومن جمع بين الطرفين فاز بالحسنيين، بالإيمان ثبت النسب بينك وبين الرحمٰن، فهو المؤمن بك ولك، وإن أقامك فيما يناقض أملك، لولا أسماء الحذر، ما كان

للأمان أثر، قيدت الأسماء بالحسنى لدلالتها على المسمّى الأسنى، فإن نظر العالم إلى تشتّت مبانيها، واختلاف معانيها، وفيما ذا تتحد، وبماذا تنفرد، بأخوة الإيمان ترث، فلا تأسف على إخوة النسب ولا تكترث، المؤمن أخو المؤمن لا يسلمه وما ترك فهو يتسلمه، الإيمان والإحسان أخوان، والإسلام بينهما نسب رابط، فلا تغالط الإسلام صراط قويم، والإيمان خلق كريم عظيم، والإحسان شهود القديم، لولا الإحسان ما عرف صورته الإنسان، فإن الإيمان تقليد، والعلم في شاهد ومشهود، إذا صحّ الانقياد كانت علامته خرق المعتاد، المؤمن من أمن جاره بوائقه، والمحسن من قطع منه علائقه، والمسلم من حقق عوائقه، وجعلها إلى مطلوبه طرائقه، فسلك فيها سواء السبيل، ولم يجنح إلى تأويل، فعرس في أحسن مقيل، في خفض عيش وظل ظليل، في سدر مخضود، وطلح منضود، وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة.

ومن ذلك سرّ الأمل مع توقّع الأجل من الباب ٩٩: من مال إلى الآمال اخترمته الآجال، لله رجال أعطاهم التعريف طرح التسويف، فأزال عنهم الحذر والخوف، السين وسوف، تعبدهم الحال في زمان الحال، ليس بالمواتي من اشتغل بالماضي والآتي، إذا علم صاحب الأمل، أن كل شيء يجري إلى أجل، اجتهد في العمل، فإذا انقضى العدد، وانتهت المدد، وطال الأمد، وجاء الرحيل، ووقف الداعي على رأس السبيل، لم يحز قصب السبق إلاّ المضمر المهزول في الحق، إنما لم يصحّ الأمل في السبب الأول ولا كان من صفات الأزل، لأنه ما ثم ما يؤمل، فإنّ العين مشهود، والكل في حقّه موجود، وإن كان لعينه يتصف بأنه مفقود، فلم يبق للأمل متعلق، ولم تكن له عين تتحقق، والإنسان الكامل مخلوق على الصورة، فمن أين اتصف بالأمل وليس له في الأزل سورة؟ لقد نبهت على سرّ غفل عنه العلماء ولم تعثر عليه الحكماء، واسمع الجواب من فصل الخطاب، اعلم أن الله كان ولا شيء معه في كونه من حيث عينه، فليس لمخلوق عين في ذلك الكون، مع تعلّق العلم من العليم، أن ثم حادثاً يتميز عن القديم، يتأخر كونه تأخر وجود كتأخر الزمان عن الزمان في غير زمان محدود، فذلك القدر المعقول، الذي تضبطه الأوهام وتحيله العقول منه كان في المخلوق الأمل، وهو الذي أحدث الأجل، فأظهر الاسم الأول بالاسم الآخر عين الأمل بتأخّر العمل، وحكم العلم بكونه في عينه فأراد فقال ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] فكان فظهرت الأعيان، وفي حال الإرادة لم يتصف العين بالكون، فالإرادة أثبتت عين الأمل لمن نظر وتأمّل.

ومن ذلك سرّ إجابة الدعاء لا رغبة في العطاء، من الباب الموفي مائة: لب إذ دعاك الحق إليه، لا رغبة فيما في يديه، فإنك إن أجبته لذلك فأنت هالك، وكنت لمن أجبت وأخطأت وما أصبت، واستعبدك الطمع واسترقك، وأنت تعلم أن الله لا بدّ أن يوفيك حقك، فمن كان عبداً لغير الله فما عبد إلا هواه وأخذ به العدو عن طريق هداه التلبية تولية، فلا تلب إلاّ الداعي فإنك لما عنده الواعي، ما اختزن الأشياء إلاّ لك، فقصر أملك، وخلص لله

عملك، ومن علم أنه لا بدّ من يومه فلا يعجل عن قومه، من عناية الله بالرسول المبجل، تخليص الاستقبال في قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحىٰ: ٥] حتى لا يعجل.

ومن ذلك سرّ العلم المستقرّ في النفس بالحكم من الباب الأحد ومائة: العلم حاكم فإن لم يعمل العالم بعلمه فليس بعالم العلم لا يمهل ولا يهمل، العلم أوجب الحكم لما علم الخضر حكم، ولما لم يعلم ذلك صاحبه اعترض عليه ونسي ما كان قد ألزمه فالتزم لما علم آدم الأسماء علم وتبرز في صدر الخلافة وتقدم العلم بالأسماء كان العلامة على حصول الإمامة: [البسيط]

العِلْمُ يَحْكُمُ والأقدارُ جَارِيةٌ وكُلُّ شيءٍ له حَدٌّ ومِقْدَارُ
إلاَّ العُلُوم التي لا حَدَّ يَحْصُرُها لكن لها في قلوبِ الخَلْقِ آثارُ
فحَدُّها ما لها في القلب من أثَرٍ وعَيْنُها فيه أنْجَادٌ وأغْوارُ
فلو تُحَدُّ بحَدِّ الفوز نَاقَضَهُ حَدٌّ لنَجْدٍ ففي التحديد إضْرَارُ

افهم قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] فتعلم إن كنت ذا فهم من أعطاه العلم من علم الشيء قبل كونه فما علمه من حيث كونه، وإنما علمه من حيث عينه، من أين علم أن العين يكون، وليس في العدم مكون، هذا القدر من العلم أعطاه جوده وحكم به وجوده.

ومن ذلك سرّ تغيّر العلم لتغيّر الحكم من الباب ١٠٢: أعطى علم التحقيق وعلم الرسوم أن العلم يتغير بتغير المعلوم، ولا يتغير المعلوم إلاَّ بالعلم، فقل لنا كيف الحكم، هذه مسألة حارت فيها العقول وما ورد فيها منقول، فكيف أقول منهج الأدلة أن العلة لا تكون معلولة لمن هي علة، ما أتى على من أتى من الالتباس إلاَّ من إلحاق الغائب بالشاهد في القياس، فمن فساد النظر حكمك على الغائب حكمك على من حضر، لكل مقام مقال وأين الواجب من الممكن والمحال، وأين الحال من المحال، لكل عين حدّ عند كل أحد، فلا تغرنك الأمثال فإنها عين الإضلال.

ومن ذلك سرّ شكوى الحق بالخلق من الباب ١٠٣: أخبرنا الحق المالك في بعض المناسك والمسالك فقال وأطال: شتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك، ثم شرح وأوضح وأعطى المفتاح لمن شاء أن يفتح، من فتح حصل جزيل المنح، فعرف العلي ما أودى به لينصره الوليّ ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] كما أنكم إن ذكرتموه بذكركم، فما ذكر إلاَّ لينصر فينصر، فمن تأسّى بالحق أصاب، ومن ترك الاقتداء به خاب، ننصره في الدنيا لينصرنا في العقبى، وقد ينصرنا هنا رحمة منه بنا لعدم صبرنا، وهو سبحانه الصبور، مدهر الدهور، الذي لا يمهل ولا يعجل، ومع هذا طلب النصر منا في الدنيا واستعجل، وذلك لحكمة الوفاء بالجزاء.

ومن ذلك سرّ شكوى الخلق بالحق من الباب ١٠٤: خاطب أحكم الحاكمين: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] وأخبر عن هذا الشاكي في نص الكتاب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] فمن اشتكى إلى غير مشتكى فقد حاد عن الطريق

وعرج عن مناهج التحقيق، الخلق مشتكى الحق والحق مشتكى الخلق، من شكى إلى جنسه فما شكىً إلاَّ إلى نفسه، ومن شكى ما قام به من الأذى إلى نفسه، فقد هذى ما شكى الحق من عباده إلاَّ إلى من خلقه على صورته وأنزله في سورته، ولولا اقتداره على دفع الأذى ما جرى منه مثل ذا.

ومن ذلك سرّ مراعاة الحق في النطق من الباب ١٠٥: لا نقل نحن إياه لقوله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] أنت الترجمان والمتكلم الرحمٰن، تقيد كلام الله بالأمكنة بكونه في المصاحف والألسنة، الحروف ظروف والصفة عين الموصوف، فإذا نطقت فاعلم بمن تنطق فعليك بالصدق ومن كذب صدق، فلا تعدل وراع الحق من عباد الله من يكون الحق لسانه وبيانه، ومن عباده من لا يعلم ذلك فينزه ولا يشبه فيكذب الحق في ذلك، وهو في ظنّه أنه على الحق ينبّه، التنزيه تحديد فلا تقل بالتجريد، وقل بالحيرة فإنها أقرب حدّ في الغيرة، العجز نعت المثنى فإن قال فلا يثنى، فإنه لا بدّ أن يقف ويعترف، فليقف في أول قدم فإنه أولى بالقدم، وإن مشى ندم ولم يجد له في توجهه موضع قدم، فلا يحصل النسب إلاَّ لمن عرف النسب.

ومن ذلك سرّ أين كونك إذ هو عينك من الباب ١٠٦: أبنية العما للجهلاء وأبنية السماء للعلماء، وفا العما لسيد النباء وكيانه فاء، السما للسوداء المنعوتة بالخرساء، فنابت منها الإشارة مناب العبارة، فاجتمع الجاهل والعالم في تعيين هذه المعالم، ولكن للرب المضاف الذي ما فيه خلاف. وأما ظرفية استواء العرش، وظرفية أحوال أصحاب الفرش، فالواحدة للرحمٰن، والأخرى لعالم الإنسان، فهذه أربعة لمن صفته أمعة، وإنما كانت أربعة لإقامة السلطان على مسالك الشيطان، فجعل وجهه في كل وجهة ليعصم من شاء ويحفظ من شاء، فإن الحق مع بعض عباده بالولاية وعناية، وبالكلاة والرعاية، فله تعالىٰ عين في كل أين، ولذلك قال: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] فجمع، والقول الحق إذا جاء صدع، فكل مدبّر عينه وكل عامل يده وكونه، فالله في السماء وفي الأرض، وبيده ميزان الرفع والخفض، يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وكذلك أكثرهم لا يؤمنون، فلنا أينيات الأكوان في الأحوال والظروف، وله أينيات الكلمات والحروف، فهو المجهول المعروف والمنزّه الموصوف، حكمت العقول بأدلتها عليه، أنا به وإليه، فإليه يرجع الأمر كله، إذ كل ما في الكون ظلّه، فالكل بالمجموع مثال، ومن حيث الكثرة أمثال، فلم يسجد له إلاَّ الظلال في الغدّوّ والآصال، ولها التقلص والامتداد لأنها من كثايف الأجساد، فعبر عنها بالعباد فمنهم المتكبرون والعباد فمن تعبد أشبه ظلّه ومن تكبر أشبه أصله، والرجوع إلى الفروع أولى من الوصول إلى الأصول، فتحقق تكن من أهل الحق.

ومن ذلك سرّ قطع الأمل بمشاهدة الأجل من الباب ١٠٧: إذا أراد الله بعبده أن يقطع أمله يشهده أجله، اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، فيبذل جهده ويزهد فيما عنده ويقدّم ما ينبغي أن يقدم تخلقاً بالاسم الإلٰهيّ المقدم، وينبغي أن يؤخر

ما ينبغي أن يؤخر تحققاً بالاسم الإلٰهي المؤخر، فيحكم في نفسه لنفسه، ويندم في يومه على ما فرط فيه في أمسه، ليجبر بذلك ما فاته، ويحييٰ منه بالندم ما أماته، فإذا أقامه من قبره فذلك زمان نشره وأوان حشره، فيبدل الله سيئاته حسنات، وينقل من أسافل دركاته إلى أعالي الدرجات، حتى يودّ لو أنه أتى بقراب الأرض خطايا، أو لو حمل ذنوب البرايا، لما يعاينه من حسن التحويل وجميل صور التبديل، فيفوز بالحسنيين، وهنالك يعلم ما أخفى له فيه من قرّة عين، ففاز في الدنيا باتباع الهوى وفي الآخرة بجنة المأوى، فمن الناس من إذا حرم رحم وجوزي جزاء من عصم، فجزاء بعض المذنبين أعظم من جزاء المحسنين، ولا سيما أهل الكبائر المنتظرين حلول الدوائر فيبدو لهم من الله من الخير ما لم يكونوا يحتسبون و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحديد: ٢١] وأكثر الناس لا يشعرون، فحسّنوا ظنكم برب هذه صفته، وحقّقوا رجاءكم بمعروف هذه معرفته، مفاتيح الكرم في معالي الهمم، لكل نفس ما أملت، وستجزى يوم القيامة بما عملت لكن ممّا يسرّها لا ممّا يسوءها ويضرّها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨] فعلمت الفجور فاجتنبته، وعلمت التقوى فلزمته، فاتقت الله بالله اتقاء الأمثال والأشباه.

ومن ذلك سرّ ما توعر من المسالك على السالك من الباب ١٠٨: الأخذ بالعزائم نعت الرجل الحاذم أولو العزم من الرسل هم الذين لقوا الشدائد في تمهيد السبل، ما جنح إلى الرخص من كان هجيره آخر القصص، التخلّق بالأسماء الإلٰهية على الإطلاق من أصعب الأخلاق، لما فيها من الخلاف والوفاق، إياك أن يظهر مثل هذا عنك إلاّ حتى تعلم معنى قوله عليه السلام: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**» فمن استعاذ وبمن لاذ وعاذ الكبرياء حدث في أهل الحدث والحدث مزيل الطهارة ويكفيك هذه الإشارة، طهارة الحدث الفطرة وهو ما شهد به لله في أولّ مرة فإن حشر وبعث في الحافرة فما هي كرة خاسره، ولا سلعة بايره، لما كان الشرك هو العارض والدار الآخرة مزيلة للعوارض لذلك لم يظهر فيها شرك، ولا وقع فيها إفك، مواقف القيامة شدائد، لحضور المشهود عليه والشاهد، فمن كان في الدنيا حسابه فرح به أحبابه، وحمد ذهابه وإيابه، وفتحت له بالخيرات والخيرات أبوابه، وأجزل له ثوابه، من سلك هنا ما توعر تيسر له في آخرته ما تعسر، إن مع العسر في الدنيا يسراً فيها، ثم إن مع العسر في الدنيا يسراً في الآخرة لمن فهم معانيها بما يعاينها، ما أثقل الظهر سوى الوزر، فلا تضف إلى أثقالك أثقالاً، وكن لرحى ما يراد منك ثقالاً، هنا تحط الأثقال، أثقال الأفعال والأقوال، وهنا تباشر الأزبال، وتدبر الأثقال، احذر من الابتداع بسبب الاتباع، ولا تفرح بالاتباع وكن مثل صاحب الصواع، فإنك لا ينفعك توبتك ولا يزول عنك حويتك، واقتصر على ما شرع واتبع ولا تبتدع، وكن مع الله في كل حال تحمد العاقبة والمآل.

ومن ذلك سرّ المطابقة والموافقة من الباب ١٠٩: المطابقة مشاكلة والموافقة مماثلة، كل يعمل على شاكلته بقدر سورته. اعلم أن أرباب النهى هم الذين يوافقون الحق فيما أمر به ونهى، موافقة الأمثال من شأن الرجال، وقد ثبتت المثلية بكاف التشبيه وهو التنزيه عن

التنزيه، وقد ورد الخبر بالصورة والخلافة في السورة، فالكل هم النواب وهم الحجاب، وهم عين الحجاب، الواقفون عند الباب للصادر والوارد والوافد، والقاصد لهم الرفادة والسدانة والسقاية، وهم أهل الكلاة والرعاية، إليهم ترفع النوب، منهم تعرف القرب، وبهم تفرّج الكرب، ما لهم علم إلاّ بمن طابقهم، ولا يشهدهم إلاّ من وافقهم، بأيديهم مفاتيح الكرم، وإليهم ترفع الهمم، هم الظاهرون بصورة الحق والملجأ العاصم لجميع الخلق، لهم الحيرة والغيرة، هم العواصم من القواصم، ولهم الدواهي والنواهي، فلكل قاصمة عاصمة، ولكل داهية ناهية، يتصرفون في جميع الأشياء تصرف الأفعال في الأسماء، ما بين نصب وخفض ورفع وعطاء ومنع، أقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا اتسق لتركبن طبقاً عن طبق، فما ثم إلاّ تغير أحوال في أفعال وأقوال، تطابق المال والولد في زينة الحياة الدنيا، وتميزت مراتبهم في العدوة القصوى، وافق شنّ طبقه، ولهذا ضمّه واعتنقه، فلق الحب عن أمثاله فلم يظهر سوى أشكاله، فمن بذر حنطة حصد حنطة كانت له فيها غبطة ومن بذر ما بذر حصد مثل الذي بذر ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨] وإنما هي أعمالكم تردّ عليكم، ولا يبرز لكم إلاّ ما عملتم بيديكم، فلا تلوموا إلاّ أنفسكم، وانقطعوا إلى من أنسكم.

ومن ذلك سرّ الاغتباط والارتباط من الباب ١١٠: من ألزم نفسه الحال فهو شديد المحال، من اغتبط بأمر سعى في تحصيله ونظر في تفصيله، ومن ارتبط فقد اغتبط الرباط ملازمه، والملازمة في الإلهيات مقاومة، المغتبط مسرور والمرتبط محجور، لما دخلت الحضرة الندسية والمقامات القدسية، ونزلت بفتائها وأحطت علماً بما أمكن من أسمائها، تلقاني الاسم الجامع للمضارّ والمنافع، فأهل ورحب وسهل وبذل وأوسع وجاد وما منع، فكان ممّا جاد به على المملوك نظم السلوك في مسامرة الملوك، فاتخذته سجيراً واتخذني سميراً، فجرى بنا السمر والليل قد أقمر، إلى حديث النزول الإلٰهيّ في الثلث الباقي من الليل الإنساني، وسؤاله عباده التائبين والداعين المستغفرين ليجود عليهم بالمنح وأنواع الطرف والملح، فكان أحد الداعين الواعين شخصاً ضخم الدسيعة من العلماء بالطبيعة ممّن ثبتت قدمه في العلم بها ورسخ وكان له المقام الأشمخ، فسأل ربه أين الطبيعة من النفس ومن المقام العقلي الأقدس؟ فقال: هي عين النفس فيمن تنفس، لها الاسم الرحمٰن الذي له الاستواء على الأكوان، هو الآتي من قبل اليمن ولكن إلى من، وإن كنا نعرف إتيانه ممّن فالكرب تطلبه والمسرات تعقبه، وهي التي تذهب به وتذهبه، فيه ترويح القلوب وتنفيس الكروب، إن لجّ حجّ، وإن حجّ عجّ وثجّ، وإن اعتمر أعمر، وإن أملى شغل، وإن أخلى أغفل، وإن أحرم أحرم، وإن وقف بعرفات أحيا العظام النخرات، وإن نام بالمزدلفة ألف النفوس المختلفة، وإن أضحى بمنى بلغ بالرمي المنى، وإن أفاض آض، وهو راض في الانبساط والانقباض.

ومن ذلك سرّ الاعتدال وبال من الباب الأحد عشر ومائة: لا يكون من الاعتدال إلاّ

دوام الحال والاعتدال لا يقبل التكوين ولا التغيير ولا القليل ولا الكثير، انظر في وجود الخلق تجده عن إرادة الحق، والإرادة انحراف بلا خلاف، لأنها تعين المتعلق عندما يعلم ما قلته ويتحقق، جنة النعيم لأصحاب العلوم، وجنه الفردوس لأرباب الفهوم، وجنة المأوى لأهل التقوى، وجنة عدن للقائمين بالوزن، وجنة الخلد للمقيمين على الودّ، وجنة المقامة لأهل الكرامة، وجنة الروية لأصحاب البغية، وكلها منازل تجديد الإنعام بأبدع ترتيب وأحسن نظام، الشهوة تطلب المشتهى، فإليها الانتهاء وهو المنتهى، أين الاعتدال والأصل ميال؟ فما ثم إلاَّ ميل عن ميل لطلب جزيل النيل، لو كان ثم اعتدال ما مال التنزيه ميل، والتشبيه ميل والاعتدال بين هذين ولا يصحّ في العين، وإذا لم يكن الاعتدال من صفاتها كان العدل من سماتها، والعدل من العدول فانظر فيما أقول، لو كان ثم اعتدال لكان في الوقفه، ولا مالت من الميزان كفه، من قال بالاستواء والزوال قال بالانحراف والاعتدال، وكل حركة جمعت الثلاثة الأحكام عند أرباب العقول والأفهام، فعين الشروق عين الغروب، وعين الاستواء عند العلماء بترحيل الشمس في منازل درج السماء، وهو عن كل حيّز منتقل، إما متعال وإما منسفل، فما ثم سكون ولكن حركه، وفي الحركة الزيادة والبركه، فللّه ما سكن في الليل والنهار، وما ثم ساكن في الأغيار، لا في البصائر ولا في الأبصار، ألا تراه قد جعله عبرة للأبصار عند أهل الاستبصار؟ فانظر واعتبر.

ومن ذلك سرّ الفصل في العدل من الباب ١١٢: الحق في الاعتدال، فمن جار أو عدل فقد مال، فإن مال لك فقد أفضل وآتى في ذلك بالنعت الأنفس، وإن مال عليك فقد أبخس، العدل في الأحكام لا يكون محموداً إلاَّ من الحكام، والعدل هنا من الاعتدال لا من الميل فإن ذلك إفضال. ورد في الخبر عن سيد البشر فيمن انقطع أحد شراك نعليه أن ينزع الأخرى ليقيم التساوي بين قدميه، وقال فيمن خصّ أحد أولاده دون الباقين بما خصّه به من المال لا أشهد على جور لعدم المساواة والاعتدال، فسمّاه جوراً وإن كان خيراً، ثم قال: ألست تحبّ أن يكونوا لك في البرّ على السواء؟ فما لك تعدل عن محجة الاهتداء، فاعدل بين أولادك، بطارفك وتلادك، فالأحكام للمواطن التي تملك، وما لا يملك منها إذا وقع فيها الجور فإن صاحبه لا يهلك القسمة بين الأرواح في النفقة والنكاح على السواء وما يقع به الالتذاذ من طريق الأشباح، القسمة في الوداد خارجة عن مقدور العباد، فلا حرج ولا جناح في جور الأرواح، الودّ للمناسبة فزالت فيه المعاتبة، لا يقال: لِمَ لَمْ تحبني؟ ويقال: لِمَ لا تقربني قربة الأجساد؟ مقدور عليه في المعتاد، وقرب الفؤاد لا يكون إلاَّ بحكم الوداد، ولما كانت المحبة تعطي وجود النسبة بين المحب والمحبوب فرح المحبون لله لا المتحابون في الله لحصول المطلوب. ثم إنه قد ورد في الخبر الصدق والنبأ الحق أنه يحب أتباعه وما يتبعه إلاَّ من أطاعه، واتباع الرسول اتباع الإلٰه لأنه قال عزّ وجلّ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١] فصلوا عليه وسلموا تسليماً، فإن الله يصلي عليه وينظر إليه.

ومن ذلك الأملاك اشتراك من الباب ١١٣: اشترك الزوجان في الالتحام فإنه نظام لا يفرح إلاّ بنظام التوالد، فإن لم يكن فالأولى التباعد، فإن التباعد فيه تنزيه والانتظام فيه تشبيه، وإنما حمدناه فيمن تولد عنه به وقرناه، فمن كان الحق سمعه وبصره فإن ولادة هذا الانتظام ما أشهده وبصره، الأعراس لأصحاب الأنفاس، بالاشتراك كان الملاك، وبه ظهرت الأملاك، وله دارت بحركاتها الأفلاك، من أعجب علوم المنح حركة المستدير الذي ما يزول عن مكانه ولا يبرح، فهو الراحل القاطن والمتحرك الساكن، وموضع الغلط في حركة الوسط، فإنه لا بدّ من ثابت يكون عليه الدور والكور والحور، فللّه ما سكن وهو له نعم السكن ولنا ما تحرك وبه نتملك، وعين الأذى في ملك فلان كذا، ولا مالك إلاّ ما لا يملك، وليس إلاّ مالك الملك، وأما من قال بملك الملك فبنسبة تبعد عن الدرك، وقد نطّق بها الترمذيّ الحكيم في معرض التعليم، فمالك الملك أصل وملك الملك فصل، وأين الفرع الذي هو الفصل من الأصل؟ وأين الفرض من النفل؟ توحيد الموحد إشراك وهو عين الإشراك، من قال أنه وحد فقد الحد الأحدية لا تكون بتوحيد أحد، فإنه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤] عجباً في تنزيهه عن الصاحبة والولد، وعنه تولد في العالم ما تولد، من ذي روح وجسم وجسد، ثم إن ولادة البراهين الصحاح والكلمات الفصاح عن نكاح عقول وشرائع ما فيه حرج ولا جناح، وما تولد عن نكاح الشبه في العقول والأشباح فهو سفاح، وهذا الباب مقفل، وقد رميت إليك بالمفتاح، وما أزلته من يد الفتاح، فاحذر من القدر المتاح.

ومن ذلك السراح انفساح من الباب ١١٤: لما دعى الله الأرواح من هياكلها بمشاكلها حنت إلى ذلك الدعا وهانت عليها مفارقة الوعا، فكان لها الانفساح بالسراح من أقفاص الأشباح، فمن الناس من أفتاه النظر في عينها بالمنازل الرفيعة فقال بتجردها عن حكم الطبيعة، ومن الناس من وقف مع ما خلقت له من الآثار الوضعية فقال ببقاء تدبيرها وساعدته الأدلة الشرعية، فوصفها بالنعيم المحسوس وأثبت لها النظر الأول صفة السبوح القدوس.
ومن قال بالإعادة في الأمرين انقسموا إلى قسمين، وكل قسم قائل فيما ذهب إليه وعول عليه أن فيه السعادة، فمنهم من قال في الإعادة رجوعها إلى النفس الكلية بالكلية، ومنهم من قال في الإعادة هي إعادتها إلى الأجساد في يوم المعاد على رؤوس الأشهاد، والكامل من قال بالمجموع وأن ذلك معنى الرجوع، فهي محبوسة في الصور الذي هو قرن من نور، والنور ليس من عالم الشقاء، وإن شقي بالعرض فحكمه السعادة والبقاء، فمن أراد معرفة الانتقال بعد الموت فليعتبر في النوم فإنه مذهب القوم، وبه يقول سهل بن عبد الله كل عليم أواه فلم يبرح صاحب تدبير ومالكه إكسير، تتنوع عليها الحالات ويظهر بالفعل في جميع المقالات، فصور تخلع وصور تبدو ثم ترفع، ويقظة النائم من نومه مثل بعث الميت بعد موته لمشاهدة يومه، فيبعثر ما في القبور ليحصل ما في الصدور، والأمر بين ورود وصدور، وإن ربهم بهم يومئذ لخبير، وهو على كل شيء قدير، فنفذ اقتداره في الحشر، وبذا حكم علمه في النشر،

وأنزل العرش في الفرش فوسعه وقد كان ضاق عنه، فأين ذلك الضيق من هذه السعة؟ فصار الأمر حكمه حكم الإمّعة، فاعتبر واستبصر.

ومن ذلك اسوداد الوجوه من الحق المكروه من الباب ١١٥: تظهر العناية الإلهية بالمقرب الوَجِيهِ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون وأما الذين اسودت وجوههم يقال لهم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ولم يكن لهم إيمان تقدم إلاّ إيمان الذر زمان الأخذ من الظهر، فنسي ذلك العقد لما قدم العهد، ولولا البيان والإيمان ما أقرّ به الإنسان، وأما من أشهده الله حال خلقته بيدي فهو يقول في ذلك العهد كأنه الآن في أذّ فى النميمة والغيبة وإفشاء السرّ وما شاكل هذا كله حق مكروه، وهو يؤدي إلى اسوداد الوجوه، لما علم الحق تعالىٰ أن كل شيء إليه منسوب وهو لكل عالم بالله محبوب، وأن كل ما أدركه العيان، وحكم عليه بالعبارة اللسان، وأشير إليه واعتمد عليه، فهو محدث مخلوق تتوجه عليه الحقوق وأنه تعالىٰ ما أبدى إلاّ ما علم، وما علم إلاّ ما أعطاه المعلوم في حال ثبوته، من أحواله وصفاته ونعوته، ناط به الذم والحمد، وأخذ علينا في إنزال كل شيء منزلته الذمة والعهد، فما حسن وحمد فمنا، وما قبح وذم فهو ما خرج عنا، فإيانا نعلم وفينا نتكلم، ولو كانت نسبتنا إليه حقاً، ما ذمّ أحد خلقاً ولو ذمّه لكفر، ولو كان ما استتر فهو تعالىٰ المعروف، بأنه غير معروف والموصوف بأنه ليس بموصوف، ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات] العارف مسوّد الوجه في الدنيا والآخرة، ومبيض وجه الوجه في النشأة في الحافرة، اسوداد السياده، لما كان عليه من العباده، وبهذا مدح سبحانه عباده، وجه الشيء كونه وذاته وعينه، ووجهه ما يقابل به من استقبله ولو كان أمله.

ومن ذلك سرّ الاكتفاء بالموجود في الوجود من الباب ١١٦: لما دعا الله الأرواح من هياكلها بمشاكلها اكتفت في الشهود بهذا القدر من الوجود والقناعة مال لا ينفد وسلطانها لا يبعد، من اكتفى اشتفى ولو كان على شَفَا، ما سوى الوجود عدم، ولو حكم عليه بالقدم، إنما وقع الاكتفاء بالموجود لعلمه بأنه ما ثم سواه في الوجود، فإن الإنسان مجبول على الطمع، فلا يقال فيه يوماً أنه قنع، وأنه يعلم أن ثم أمراً يمكن أن يجوزه إليه ويحصله لديه، وإنما علم بالحال أن ذلك محال فقنع بما وجد وقال: ما ثم إلاّ ما شهد، ألا تراه إذا فتح الحق عينه ببصره وفتق سمعه إلى صدق خبره يطمع ويطمع ويجمع ولا يقنع، ومن هنا أمره الحق أمراً حتماً أن يقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فمن قنع جهل وأساء الأدب فلا يزهد في الطلب، فإن الله ما أراد منك في هذا الأمر إلاّ دوام الافتقار ووجود الاضطرار، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٧، ٨] ولا تقطع المعاملة وعليك باستعمال المراسلة في طلب المواصلة، مواصلة لا أمد لانقضائها ولا راد لقضائها، فاليدان مبسوطتان واليدان مقبوضتان، قبضت ما أعطاها الخلق وانبسطت بما يجود به الحق، فلا يقبض الحق من العباد إلاّ بما به عليهم جاد، فمنه بدا الجود وإليه يعود، فالمزيد فيما يقبضه العبيد وما بيد مخلوق

سوى مخلوق، فيا من يطلب القديم أنت عديم، لا يقبل الحق إلاّ الحق ولا يهب الخلق إلاّ الخلق، فالزم عملك وقصر أملك وقل له تعالى: إنما نحن بك ولك خلقتنا لنعبدك فطلبنا منك أن نشهدك فعلى قدر ما سألنا من الشهادة ينقصنا من العبادة وعلى الله قصد السبيل، وهو الدال والمدلول والدليل.

ومن ذلك المثابرة على الجمع لما يقع به النفع من الباب ١١٧: ما أثر الحرص في القدر إلاّ لكونه من القدر، وكم حريص لم يحصل على طائل لعدم القابل، العطاء عام والنفع خاص، وتدبّر قوله: ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣] عمّ التنادي وما عمّت الإجابة لما لم تقع هنا الإنابة الملازمة ملائمة، وهي من حكم الطبع وإن جهلت من قصرت همته عن طلب المزيد فليس من العبيد، لا تستكثر ما يهبك الحق، ولو وهبك كل ما دخل في الوجود، فإنه قليل بالنظر إلى ما بقي في خزائن الجود، إياك والزهد في المواهب فإنه سوء أدب مع الواهب، فإنه ما وهبك إلاّ ما خلقه لك وخذه من حيث ما فيه من وجهه تعثر على كنهه.

ومن ذلك سرّ الاعتماد في العباد من الباب ١١٨: لما كانت العبودية تطلب بذاتها الربوبية كان الاعتماد منها عليها حقيقة وخليقة، ولجهلهم بحكمه ومعرفتهم بعلمه وتوفيته لرزقه في خلقه، وطلبه منهم ما لا يقدرون على أدائه إلاّ به من واجب حقه، وعلموا أن الوجوب في الحقيقة مضاف إليه وأن الأمور كلها في يديه اعتمدوا واعتمادهم منه عليه، فعلموا أن الحق لله وضلّ عنهم ما كانوا يفترون، فعلموا أنهم كانوا من الذين لا يعلمون، فلو ارتفعت الحاجات وزالت الفاقات وانعدمت الشهوات، وذهبت الأغراض والإرادات، لبطلت الحكمة وتراكمت الظلمة، وطمست الأنوار وتهتكت الأستار، ولاحت الأسرار وزال كل شيء عنده بمقدار، فذهب الاعتبار، وهذا لا يرتفع ولا يندفع، فلا بدّ من الاعتماد في العباد.

ومن ذلك سرّ الاعتياد المعتاد من الباب ١١٩: ما ثم عين تعاد فأين المعتاد؟ الآثار دارسة والأعين مطموسة لا بل طامسة، فقالت للشبه وقوّة الشبه مع فقد الأعيان ووجود الأمثال هذا هو عين الذي كان، فلو قالت هذا هو عين هذا لعلمت أن هذا ما هو هذا لأنها أشارت إلى اثنين، ولا يخفى مثل هذا على ذي عينين ما حجب الرجال إلاّ وجود الأمثال، ولهذا نفى الحق المثلية عن نفسه تنزيهاً لقدسه، وكلما تصوّرته أو مثلته أو تخيلته فهو هالك وإن الله بخلاف ذلك، هذا عقد الجماعة إلى قيام الساعة وعندنا هو ذلك فما ثم هالك.

ومن ذلك سرّ المزيد في تحميد الوجود من الباب الموفي عشرين ومائة: يا راقد كل طالب فاقد، أوامر الحق مسموعة مطاعه إلى قيام الساعه، لكن الأوامر الخفيه لا الأوامر الجليه، فإن شرعه عن أمره وما قدره كل سامع حق قدره، فلما جهل قدره عصى نهيه وأمره، الحمد بملأ الميزان وما ملأه سوى سابغ النعم والإحسان، فعين الشكر عين النعم، ومن النعم دفع النقم، كم نعمة لله أخفاها شدة ظهورها واستصحاب كرورها على المنعم عليه ومرورها وهم في غفلة معرضون ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] بل لا يشعرون بل لا يشكرون الفضل في البذل، والبذل في الفضل وفي الأصل من الفضل، كيف يصحّ المزيد

وقد أعطى كل شيء خلقه ووفاه حقّه فلا يتسع للزائد، فلماذا طولب بالشكر والمحامد والخلق لله ليس له، فمن كبره وهلّله وهذا كله مخلوق وهو على العبد من أوجب الحقوق، فما عمل أحد إلاً ما أهلّ له ممّن كبره أو هلّله، وما هو إلاً من حيث إنه محل لظهوره وفتيلة لسراجه ونوره.

ومن ذلك وقوف التائه مع التافه من الباب الأحد والعشرين ومائة: متاع الدنيا قليل، وكل ما فيها أبناء سبيل، فما من قبيل ولا جيل إلاً وهو مملوك للقطمير والنقير والفتيل، فالكل تائه ولهذا قنعوا بالتافه، فمنهم الشكور والكفور، ومنهم الراغب والزاهد، ومنهم المعترف والمعاند الجاحد، لم يحصل له أمان الغرفه إلاً من قنع في شربه بالغرفه، فمن اغترف نال الدرجات، ومن شرب ليرتوي عمر الدركات، فما ارتوى من شرب، وروي من اغترف غرفة بيده وطرب، مع أن القرائن أقوم قيلاً وهو الحاوي على كل شيء أوتيناه وأهدى سبيلاً، وما أوتينا من العلم إلاً قليلاً لما جرى نهر البلوى بين العدوتين الدنيا والقصوى، وكان الاضطرار وقع الابتلاء والاختبار، لما كان الظمأ اختبر الإنسان بالماء، ومن الماء جعل الله كل شيء حيّ في ظلمة ونور وفي والحياة نعيم في الحديث، والقديم، فمن أهل العدوة الدنيا من لا يموت ولا يحيى، ومن أهل القصوى من كانت نجاته في الدعوى التافه والعظيم سيان في النعيم، ليس في الكثرة زياده إلاً في عالم الشهاده، وأما في عالم الغيب فما في المساواة فيه ريب، المعنى لا ينقسم إذا قسم ما قسم، لا يقبل الانقسام إلاً عالم الأجسام، من رضي بالقليل عاش في ظل ظليل، في خير مستقر وأحسن مقيل، وما ثم كثير فكل ما في الوجود يسير، هذا وما ثم منع ولا عمّ النفع النفع، وقف على نيل الغرض، والغرض قد يكون سبباً في وجود المرض، من لم يأته غرضه طال في الدنيا مرضه، لذلك قال رضي الله عنهم ورضوا عنه: فالرضى منا ومنه.

ومن ذلك الرضى بالدون هجا، والهجا جفا من الباب الثاني والعشرين ومائة: لا يرضى بالحقير إلاً من لا يعرف قبيلاً من دبير، اعتناء الحق بالنقير، دليل على أنه كبير، لا يخفى على ذي عينين أن لله عناية بكل ما في الكون، إخراج الشيء من العدم إلى الوجود دليل على أنه في منازل السعود من أعطاه الحق صفته فقد منحه علمه ومعرفته، هجا الكون ثنا، ومدحه هجا، من طلب من الحق الوفا فقد ناط به الجفا، وليس برب جاف بلا خلاف، الوفا مع كلمه من شيمه، صفات الحق لا تستعار وعلى الاتصاف بها المدار، لا تصل إليه إلاً بالاعتماد عليه، والاعتماد عليه محال لأنك ما أنت مغاير له بحال، إذا كان الكل منه فما معنى رضي الله عنهم ورضوا عنه متعلق الرضى القليل، فإن الإنعام لا يتناهى بالبرهان الواضح والدليل، فلا بدّ من الرضى بذا حكم الدليل وقضى، وبهذا المعنى رضاه سبحانه عنك بما أعطيته منك على أنك ما أعطيته إلاً ما خلقه فيك وهذا القدر يكفيك، وهو يعلم أن الاستطاعة فوق ما أعطيته، والأمر كما بلوته الدون ما دون وما ثم إلاً دون، لا يلتفت العارف لما يخاطبه به الواقف، فإن الواقف محجور عليه بما ينتقل إليه، والمحجور خطابه محصور، والعارض متصرّف في كل

وجهه لكونه يشاهد وجهه، ومن عرف الوجه فهو الكامل بكل وجه، لا تنظر الأبصار إلاّ إليه، ولا تعتمد البصائر إلاّ عليه، فكل ما في العلم لديه وحاضر بين يديه، يحيط به إحاطة الأفلاك بالأملاك، ويحكم عليه حكم الملاك في الأملاك، لا يحب الله الجهر بالسوء من القول، وما كل فريضة تقتضي العول، لا ينكح الأمة إلاّ من لا يستطيع الطول، والله وليّ التوفيق وهو بالفضل حقيق.

ومن ذلك سرّ تيسير العسير من الباب ١٢٣: الخلق في الإعسار وإن كان ذا يسار، فإن يسار الحق ما هو عين الخلق، فمنه أخذ وإياه أعطى، ولا يعرف هذا إلاّ بعد كشف الغطاء، الجواد قديم والجود محدث، فلا تتحدث التحدث بالنعم شكر، وليست سواك في الخلق وإن كانت بيد الحق، لما كان بيده الإيجاد ومنع وقتاً وجاد، قلنا بالعسر المعتاد العسر إفلاس، ولا يكون إلاّ لأهل الحاجة من الحيوان والناس، كل متحرك بالإراده فهو يطلب خرق العاده والنبات والجماد لا يقولان بالمعتاد الحاجة بالحال، فلهذا يستغنى به عن السؤال، لسان الحال أفصح ووزنه أرجح، لسان الحال لمن عدا أهل المنطق، فاظهر بصفتهم ولا تنطق، ما حال بينك وبين حقك إلاّ عجلتك بنطقك، الرزق مقسوم ومنزل بقدر معلوم، لا ينقص ولا يزيد، سؤال العبيد، طلب المزيد، في الجبله في كل مله، كيف لا يظهر بالافتقار من حكم عليه الاضطرار وبقي الحكم للأقدار، فكل شيء عنده بمقدار، إن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة، وما جعله يتأخر إلاّ القضاء المقدر، فهو القاضي بالتأخير في تيسير العسير، إذا قام اليسر بالعسر ظهر عين الإعسار، وإن لم يقم به فليس إلاّ اليسار، ما في العالم عسر لو زالت الأغراض وكله يسر، فائن الأمراض، لو كانت العلة في الأزل لكان المعلول لم يزل، فلا معلول ولا علة، فقد تظهر الشبه في صور الأدلة، البراهين لا تخطىء في نفس الأمر، وإن أخطأ المبرهن عليه فذلك راجع إليه، وأما البرهان فقوي السلطان ولا يعرف الدليل إلاّ بالدليل، فما إلى علمه من سبيل، من علمت به معلوماً وجهلته فما علمته فإنك لا تعلم ما علمت به فانتبه.

ومن ذلك سرّ الموت الأبيض وبنا ما تقوض من الباب ١٢٤: من قوض ما طنب أوجز وما أطنب الجوع بئس الضجيع الجوع ممنوع الجوع حمى منيع، لو بقي المتغذي نفساً واحداً دون غذا، لم يكن من يقال فيه ماذا، ما هو إلاّ انتقال من حال إلى حال، سرّ الموت كرباته، وكشفه حسراته، فأبيضه ألم حسّي، وأحمره ألم نفسي، وأسوده مرض عقلي، وأخضره مثل زهر النبات لما فيه من الشتات، فتفرق به بين المثلين ويباعد بين الشكلين، فإذا انقلب الألم لذة استلذّه الموت للمؤمن تحفه، والنعش له محفه، ينقله من العدوة الدنيا إلى العدوة القصوى، حيث لا فتنة ولا بلوى، فينزله أحسن منزل في أخصب منزل منزل لذة ونعيم، ويسقى من عين مزاجها من تسنيم، فهو نهر أعلى ينزل من العلى إلى عين أدنى، له علو المرتبة كعلو الكعبة، وإن كانت في تهامة فالحج إليها على شرفها علامة، أقرب ما يكون العبد من ربه في حال السجود، وأين النزول من الصعود؟ فعلمنا أن نعت السجود بالأعلى أولى،

من مات فقد قامت قيامته وإن خفيت بالأرض قامته، لو بقي الجدار أرضاً ما اتصف بالهدم، ولو لم يكن الشيخ شاباً ما نعت بالهرم، جبل الخلق على الحركة، فانتقل في الأطوار، وحكمت عليه بمرورها الأعصار، الزمان زمانه وما بيده أمانه، ومن يحوي عليهم هم أهل الأمانات، ولهم فيها علامات، فمن عرف علامته أخذ أمانته، ولو رام أخذ ما ليس له ما أعطاه استعداده ولا قبله، وما مات أحد إلاَّ بحلول أجله، وما قبض إلاَّ دون أمله، ليس بخاسر ولا مغبون، من كان أمله المنون، فإن فيه اللقاء الإلٰهيّ، والبقاء الكياني.

ومن ذلك سرّ الموت وما فيه من الفوت من الباب ١٢٥ : الفوت في الموت لكل ميت الدار الدنيا محل بلوغ الأمل ما لم يخترمه الأجل، هي مزرعة الآخرة فأين الزارع؟ وفيها تكتسب المنافع الحصاد في القبور والبيدر في الحشر والنشور، والاختزان في الدار الحيوان، ذبح الموت أعظم حسرة وذبحه لتنقطع الكرَّة، من كانت تجارته بايرة، فكرته خاسرة إذا ردّ في الحافرة، أين الرد في الحافرة من قوله: ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] ونبّه عليها بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] فإنها كانت على غير مثال، وكذا يكون في المال، عجباً من موت يذبح في صورة كبش أملح، وهو الذبح العظيم الجليل، فدا ابن إبراهيم الخليل، وذبحه بين الجنة والنار، عبرة في برزخيته لأهل الاعتبار، هو علامة الخلود في النحوس والسعود في هبوط وصعود، وكل إلى الله راجع لأنه الاسم الجامع، في ذبحه عزل ملكه ونزوله من منصته وفلكه، هذا قد ثبت عزله وانتقض غزله، فما يكون عمله من الأعمال، وقد انتهت مدته بانتهاء الآجال، من فارق وطنه فقد فارق سكنه، لولا القطان ما كانت الأوطان: [البسيط]

القَلْبُ بَيْتٌ وإنّ العِلْمَ يَسْكُنُهُ ... بالعِلْم يَحْيَى فلا تَطْلُبْ سوى العِلْمِ
ما ثَمَّ عِلْمٌ يكون الحَقُّ يَمْنَحُهُ ... إلاَّ الكتاب لمن قد خُصَّ بالفَهْمِ
فيه فتبدو علومٌ كلها عَجَبٌ ... لكل قلبٍ سليم حائزِ الحكَمِ
أو سابقٍ أو إمام ظَلَّ مقتصداً ... يرجو النجاةَ فما يَنفَكُّ عن وَهْمِ
إن النجاة لتأتي القَوْمَ طائعةً ... وتأتي قوماً إذا جاءت على الرَّغْمِ

إن لله رجالاً يقودهم بالسلاسل إلى الجنة ركباناً ورجالاً لعناية سبقت، وكلمة حقّت وصدقت، ماتت قلوبهم في صدورهم عند صدورهم جهلاً، ومع هذا يقال لهم إذا سعدوا: أهلاً وسهلاً بلا تعب، ولا نصب، ولا جدال، ولا شغب، أين هؤلاء ممّن ينطلق إلى ظل ذي ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغني من اللهب، أتاهم الرزق من حيث لم يحتسبوا، ودعاهم الحق فبادروا فما حجبوا.

ومن ذلك سرّ الفتن في السرّ والعلن من الباب ١٢٦ : أين القوة والناصر يوم تبلى السرائر؟ يقول الله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠] ثم أقسم بالجمع ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق] بليت في القيامة السرائر، كما بليت بالجهاد الظواهر، ليتميز الصابر من غير الصابر، بالمسبار والسابر، من أعجب ما

في البلايا والفتن، وما تنطوي عليه من الرزايا والمحن، ما جاء في الكتاب المحكم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] وهو العالم بما يكون منهم فأفهم من يعلم، وإذا فهمت فاكتم، فإذا علمت فافهم وإذا فهمت فاكتم، وإذا كتمت فالزم وتأخر ولا تتقدم، فإذا قدمت فاحذر أن ترى في الحشر تندم، إذا سئلت فقل لا أعلم ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦] وما ثم العالم في أوقات يتجاهل وعن الجاهل يتغافل، وعن الانتهاض في المؤاخذة يتكاسل، وفي مثل هذا يقع التفاضل، والله ليس بغافل فإنه معنا في جميع المحافل، فأين تذهبون إن هو إلاَّ ذكر للعالمين، ولتعلمن نبأه بعد حين، العلن ما انتشر، والسرّ ما ظهر، وما هو أخفى من السر ما لا يعلم من الأمر، وما هو إلاَّ العلم بالله، وهذا منزل الحائر الأوّاه، ما تأوّه حتى توله وما توله حتى تأله، حار عقله وما أفاده، نقله تقابلت الأقوال وتضادت الصور والأحوال، فآية تشبيه تقابلها آية تنزيه، وقد يجمع الحكم بهما آية واحدة لمن أراد الفائدة مثل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فهي آية تحوي على التنزيه والتشبيه، عند كل مقرّب وجيه، وذي فطنة نبيه، فإن انتهى إلى السميع البصير فقد سقط على الخبير، الفتنة اختبار في البصائر والأبصار، الأمر ما بين محسوس ومعقول، أعطته بالوجود دلائل العقول، وإن شئت ما بين موهوم وهو المتخيل وهو أمر ما عليه معوّل: [البسيط]

فـالأمْـرُ مـا بـيـن مَـوْهُـوم ومَـعْـقُـولِ ... كـالأجْـرِ مـا بـيـن مَـوْهُـوبِ ومَـنْـقُـولِ

فـإنـنـي لـسـت فـي أسـمـاءِ مُـنْـشِـئِـهِ ... إلاَّ كـصـاحـب وَجْـهٍ فـيـه مَـقْـبُـولِ

وقـائـلٍ لـيـس فـي إدراكـه مَـلَـلٌ ... ولا وَحَـقِّ الـهَـوَى مـا هُـوْ بِـمَـمْـلُـولِ

فالبصر للعبرة والبصرة للحيرة، إذ كانت ما ترى غيره لما تحققت به من الغيرة، إذا منحت بالشهود وحصلت من طريق الوجد الوجود، فإن فاتها هذا المقام فإن رؤياها أضغاث أحلام، حيل بينها وبين المبشرات فنقول بالفرقان لا بالقرآن في السور والآيات، وهذا القدر كاف إذ هو دواء شاف.

ومن ذلك سرّ تنوّع الإرادة وحكم العادة من الباب ١٢٧: تنوّعت الإرادة لتنوّع المراد، وحكم بالعادة في خرق المعتاد، ليس العجب من عبد العليم إلاَّ تنوّع إرادة القديم، ربط بمشيئته لو وهي تو إذا تنوع الواحد فليس بواحد، ولا بدّ من أمر زائد، بل أمور كثيرة وهذا لمن يفهم شعيره، دقت عن الفهم لما ينطوي عليه من العلم، لو شاء الله كذا وما يشاء، ولو شاء لصحّ المشاء، ولو حرف امتناع لامتناع، فكيف يستطاع ما لا يستطاع، إذا صحّ التنوّع ظهر الجنس وهذا خلاف ما يقتضيه القدس، وما يعطيه دليل العقل في النفس، حقيقة الإرادة ما استقرّ في العادة، وإن جاء خرق المعتاد فهو أيضاً للإرادة مراد، فلا تنظره من حيث الشخص وعليك فيه بالبحث والفحص، تعثر على الظاهر فيه لا بل على النص، أهل الاعتبار هم أهل الاستبصار، لكن لا بدّ من حكم الأغيار، لولا النهر ما امتازت أحكام العدوتين، ولا حكم بالفرقتين، الأرض واحده ما ثم عين زائده، جاء النهر ففصل وإن كان لم يقطع فما وصل، لكنه ستر حين جرى وما هذا حديث يفترى، بل هو أبين من الغزاله على من ناله،

يعرفه أهل الرفع والخفض فإنه ما استقرّ إلاّ على الأرض، فالأرض من تحته في اتصال والعين تشهد حقيقة الانفصال، فلا بدّ من عبور ولهذا قلنا بتنوّع الأمور، أعطت جرية الماء الأرض حكماً لم تكن عليه، وما استند هذا الحكم إلاّ إليه، فلو ارتفعت الأنواء وذهب الماء لزال البين وظهر البين، وصدق ما حكم به العلم العين، فقف مع الإرادة وإن تنوّعت، ولا تبرح من العادة وإن تصدّعت.

ومن ذلك ما ينتجه التجلي في الأكوان في كل زمان من الباب ١٢٨: للتجلي الإلٰهي في الأكوان أحكام بحسب الأزمان، فتنوّع الأشكال لتنوّع الأحوال، كثر الحق بالصور وظهر بالزمان الغير، من أسماء الزمان الدهر فنطقت الغيرة بأن الله هو الدهر، وما ثم إلاّ من يفتقر إليه ولهذا حكمنا بأنه عين العالم وإن كان لديه، تجلّى في صورة الفلك فدار وفي صورة الشمس فأنار، وفي صورة الليل فأظلم وفي العالي والسافل فأنجد وأتهم، وما تجلى إلاّ إلى عينه فما أدركته عين سوى كونه، فأدرك نفسه بنفسه فهو لعقله كما هو لحسّه مع ثبوت قدسه، أعطى الحدثان من الحكم ما لم يثبت في العلم، فإن دليل العقول قد يخالف ما صحّ عندها من المنقول، فالويل العقلي إن قبلته، والويل الإلٰهي إن لم تقبله وتركته، ثم إنه لا يقبل إلاّ بالإيمان وإن لم يشهد له العيان، فارتفاع الريب في العلم بالغيب براءة من العيب، وما في القلب من الشوب، إياك واتباع المتشابه أيها الواله، فما يتبعه إلاّ الزائغ، وما يترك تأويله إلاّ لعاقل البالغ، فإن جاءه من ربه ذلك الشفا فهو المعبر عنه بالمصطفى، والمصطفون عند أولي الألباب ثلاثة بنص الكتاب: ظالم لنفسه في أبناء جنسه، والثاني: مقتصد وعليه المعتمد، فإنه حكيم الوقت بعيد من المقت، والثالث: سابق بالخيرات إلى الخيرات، ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمٰن: ٧٠، ٧١] ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، وكيف وفي نعمائك نتقلب، فاعلم والزم.

ومن ذلك سرّ الإقناع وما يقع به من الانتفاع من الباب ١٢٩: الإقناع ارتفاع، وبه يقع الانتفاع، من أقنع هنا خضع، ولا يقنع في الآخرة إلاّ من خشع، خاشعين من الذل إلى واهب الكل، ينظرون من طرف خفيّ إلى إله قاهر عليّ، فلو راقبوه في دنياهم آمنوه في أخراهم، أقنع الأكياس رؤوسهم في الدنيا مع الاتصاف بالخشوع الذي يناقض القنوع، فأعزّهم الله في العقبى، وأورث خشوعهم أبناء الأولى، من ارتفع سقط وهنا وقع الغلط، وجهل السقط، اقنع رأسك أيها الإنسان، وانظر إلى الجنان، والحاكم الرحمٰن يصلح بين الأخوان ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] فإن الله يصلح بين عباده، في يوم إشهاده على رؤوس أشهاده، فما يرى الخير إلاّ من أمن الضير، قد يكون في الآخرة الإقناع للأعزه، ولمن ظهر بأحسن بزه، وقد يكون للظالم الجائر، الواله الحائر، وبالسمات يفرق بين الأشخاص يوم التنادي ولات حين مناص، تعوّذوا بالله من هول ذاك المقام، فإن فيه تسفيه الأحلام، ولو سفه العقل من كان يؤمن بالنقل، فالعقل ما عنده سفه، ولكن تنبه في الإنسان حاكم على صورته وهو الهوى، ومن أجله وقعت البلوى، وإليه يرجع السفه، ودع عنك كلام من موّه العقل عن

السفاهة منزّه، وما هو بعاقل حتى يتنبه، لكن العاقل قد يغفل عن استعمال عقله لاستحكامه في نقله، ومن حكم عليه هواه مشى في رضاه، والعقل محجوب في بيته إلى وقته، فإذا احتدّ البصر، وانكشف الغطاء، وجاء العطاء، استدعى هناك صاحب الهوى عقله وترك نقله، فوعزّة العزيز ما نفعه، وتركه لمن صرعه، حاصداً ما زرعه.

ومن ذلك سرّ الموت الأحمر بالمقام الأخضر من الباب ١٣٠: ذبح النفوس أعظم في الألم من الذبح المحسوس، مخالفة الآراء أعظم في الشدّة من مقابلة الأعداء، مجانبة الأغراض غاية الأمراض، من فاز بمخالفة النفس سكن حظيرة القدس، من نهى النفس عن الهوى كانت جنة المأوى، لا ينهاها إلاّ من خاف مقام ربه، وخاف عقوبة ذنبه، والتزم الوفاء وتميز في أهل الصفاء، وقام بما كلف فقبل وما عنف، ولقد رأيت هذه الليلة في واقعتي ما شيب سالفتي، وقد نظمت ما رأيته، وفي هذا الباب كتبته، وفي النوم قلته: [السريع]

لا بُدَّ من خَوْفٍ ومن شِدَّةْ ... لا بدّ من جورٍ ومن عَسْفِ
في حلب من حكم جائر ... في حكمه يمشي إلى خَلْفِ
ينزل من قلعتها راجلاً ... من غير نُسْكٍ لا ولا عَطْفِ
كأنه الحَجَّاجُ في حُكْمِهِ ... يَحْكُمُ بالقَهْرِ وبالعُنْفِ
يَجُورُ في الخلق بأحكامه ... يفرّق الإلْفَ من الإلْفِ
قد نَزَعَ الرحمٰنُ من قلبه ... رَحْمَتَهُ وقَدْرُ ذا يكفي
في صورة الحَجَّاج أبْصَرْتُهُ ... لا بل هو الحَجَّاجُ فاسْتَكْفِ
بالواحد الرّحْمٰنِ من شَرِّهِ ... ما خَابَ من بالله يَسْتكفي

لكن عسى الله أن يجعل سطوته على أهل العناد من أهل الإلحاد، وكانت عليه غفارة حمراء وهو يتمايل تمايل سكرى، فأرجو لكونه فاضلاً أن يكون عادلاً، فإنه نزل راجلاً وبيده عصاه، يستعين بها على من خالف أمر الله تعالىٰ وعصاه، جعله الله تأويلاً صادقاً، ولسان حق ناطقاً، فتعوّذنا حين انتبهنا من شر ما رأينا كما أمرنا ﷺ ونقلنا، وتحوّلنا كما علم.

ومن ذلك الاضطرار افتقار من الباب الأحد والثلاثين ومائة: الاضطرار صفة المخلوق فارتفعت عنه الحقوق، له الحق لا عليه فلا يلتفت إليه، الالتفات إلى من بيده أزمة الأمور ويعلم ما في الصدور، وبيده مقاليد السموات والأرض وميزان الرفع والخفض، فيؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممّن يشاء فيعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ولم يضف الشرّ إليه وهو الحكيم الخبير و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] لا يبدّل القول لديه فحكم به عليه، فلا يعرف المضطرّ إلاّ من أطعم القانع والمعتر، اضطرار لا إجبار والمخلوق جبر في اختبار، المخلوق مجبور في اختياره مختار في حال اضطراره، لولا التردّد ما ظهر الاضطرار، وإن لم يحكم على صاحبه افتقار، ما كل اضطرار يكون معه الافتقار، الإفتقار يطلب المستند وما قال بخلاف ذلك أحد، والمضطرّ في حكمه مع ما سبق في علمه، فلا يحكم حكم إذا عدل وما ظلم إلاّ بما علم، ولا سيما مع

ارتفاع التهم، من العلم صفته فالعدل شيمته، فحكمه بالعلم حكم المضطرّ في الحكم، ما في الكون إلاّ العلم، لكن بقي الفهم، إذا علم الجائر أنه جائر، فليس بجاهل ولا غافل، ما حكم إلاّ بما وجد، ولا أمضى إلاّ ما شهد، وما بقي إلاّ أن يعتقد أنه الحكم الإلٰهي، أو لا يعتقد بهذا تميزت النحل وافترقت الملل، فمن ناظر إلى الحكم الإلٰهي في الأصول، ومن ناظر إلى الحكم الإلٰهي في الشرع المنقول، وكل واحد وقف مع دليله على سواء سبيله، وفرّق بين عقده وقيله، فمن قائل بمقيله، ومن قائل برحيله، فالناس بين حال ومرتحل ومنفصل، وآخر في انفصاله متصل.

ومن ذلك السيادة عبادة من الباب ١٣٢: السيد خادم فهو في العبادة قائم ففرق بين السادات والعبيد من يقول بالمراد والمريد، السيد أحق باسم العبودة من الغير لأن بيده جميع الخير، له النفوذ والقصد، والأمر من قبل ومن بعد، يحكم في عبده لعبده، فهو يحكم عبده، لو حكم لنفسه لبقي في قدسه، وأين السيادة مع العبادة؟ [مجزوء الخفيف]

كُلَّما قلتُ سَيِّدي ... قال لي أنت مَالِكي
سَدَّ والله كَوْنُ عَبْدي ... عَلَيَّ مَسَالكي
ما لنا عنه صارفٌ ... في جميع المَدارِكِ
لستُ في عينه ولا ... فِعْلِهِ بالمُشارِكِ
فهو المالكُ الذي ... ليس يُدْعَى بالمالكي
وأنا الخادمُ الذي ... يعتني بالمَمالِكِ
قلت يا رَبِّ عِصْمَةً ... من سبيل المَهالك
قال سمعاً فأنت عندي ... مِنَ أهلِ الأرائك
في سُرُورٍ وغِبْطَةٍ ... لا من أهلِ الدَّرائك

لا تكن من الملوك فإن الملك مملوك، وحصلت شمسه في الدلوك، واغترّ السالك بالسلوك، لانتظامه في أهل الأقراط والسلوك، من ملكت يمينه فقد عرق جبينه، من صحّت سيادته صحّ تعبه وكثر والله نصبه، هم لازم وغمّ دائم لأنه حاكم، لا يحكم في عبده إلاّ بحاله، فهو الضعيف في شدّة محاله، لين في عنف وقوّة في ضعف، ولو ترك خدمة عبده انعزل وكان ممّن عصى المرتبة فزل، فما خدم سيد سوى نفسه لو خدم أبناء جنسه.

ومن ذلك سرّ الدعابة صلابة من الباب ١٣٣: إذا مزحت فقلّل ولا تعلّل، من التزم الحق في مزحه سعى في فلاحه، ما أصاب علياً رضي الله عنه ما أصابه إلاّ من الدعابة، لذا قال له أبو هريرة وقد رجم على كعبه بالحصبا وما تأبى: لذا أخّروك وما أمروك، فإن صحّت الرواية ففي هذا كفاية، مازح العجوز وذا التغيّر ولا تقل إلاّ الخير، ما فعل بعيرك الشارد من أحسن مزاج العوائد، فأجابه ذلك الإنسان فقال قيده يا رسول الله الإيمان وقال يا أبا عمير، ما فعل النغير بعطف وتبسم، وما حجبه المنصب عن التلطف بالصغير والتهمم، وقال: إن العجز لا يدخلن الجنة يعرفها بما لله عليها من المنة، لردّه عليها شبابها وخلعه سبحانه عليها

جلبابها، فإن لم يكن المزاح هكذا وإلاً فهو أذى، والأذى من الكريم محال، ولا سبيل إلى هذا القول بحال، لولا صلابة الدين ما كان من المازحين، لأنه يذهب بالهيبة والوقار عند المطموسي الأبصار، ألا تنظر إلى رب العباد في قصة هناد، حين أخرجه واستدرجه، إلى أن قال له: أتهزأ بي وأنت رب العالمين؟ فأضحكه وهذا القول كان المقصود من الله به ولهذا ما أهلكه بل أعطاه وخوّله وملكه، فسرت هذه الحقيقة في كل طريقة، وظهرت في كل شيمة وخليقة، فعمّت الوجود وحكمت على الشاهد والمشهود، فلو لم تكن من جملة النعم ما صحّ بها النعيم، ولا اتصف بها النبي الكريم، ولا ظهر حكمها في المحدث والقديم، ولكن يا أيها الإنسان لا تقل بالتطفيف في الميزان ولا بالخسران، بل اعتدل ولا تنحرف، وعند مقامك فقف ولا تنصرف.

ومن ذلك سرّ الرخاوة غشاوة من الباب ١٣٤: إذا استرخت الطبقة الصلبة التي في البصر حصل الضرر، فالرخاوة غشاوة كما أنك لا تفرط في القساوة، واسكن من القرى ساوه، فإن السعادة فيما ساواه لا فيمن ناواه، ولا تقل المثلان ضدان، فإن لكل مقام مقالاً، ولكل علم رجالاً، ولكل مشرب حالاً، فإما ملحاً أجاجاً وإما عذباً زلالاً، الشدة والرخا هما في الريح زعزع ورخا، فالزعزع عقيم والرخا كريم، تسعى في صلاح البال وهي محمودة في المال، تجري بأمر من أمرها رخاء حيث أصاب لا يعقبها مصاب، الرخاوة في الدين من الدين، ولهذا امتن الله عليه أن جعل نبيه من أهل اللين فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[آل عمران: ١٥٩] وبهذا فضلهم ولو كان فظاً غليظاً في فعله وقوله لا نفضوا من حوله، فهم مع العفو واللين لا يقبلون، فكيف مع الشدة والفظاظة لن يزالوا مدبرين، لا تكن حلواً فتشترط ولا مراً فتقعى، فتكون شبيهاً بالأفعى، يتّقى ضيرها مع أنه يرجى خيرها، فإنها من عقاقير الترياق الذي يرد النفس ولو بلغت التراق، وقيل من راق والتفت الساق بالساق، فانظر إلى هذا الخير وما تحوى عليه من الضير، فما قام خيرها بشرها ولا ذهب حلوها بمرّها، بل لكل حال مكان وزمان وإخوان، وماض ومستقبل وآن وإنفاق من إمكان، كالسماع في الحكم عند أولي الفهم، فيحتاج سماع الألحان إلى مكان وزمان وإمكان وإخوان، فهذه أربعة أركان، والمكان ما يشهد فيه اللطف، والإمكان ما يجود به الكف، والإخوان ما يكون منهم في أمان، والزمان ما تأمن فيه السلطان، فأمانك زمانك، والله الموفق وهذا دعاء المحقق، فإياك وعجلة المحقحق.

ومن ذلك سرّ الإحياء في الحيّ والوفاء في الليّ من الباب ١٣٥: الغيث غوث فيه نشر الرحمة من وليّ النعمة، لا يقنط من رحمة الله إلاً من ضلّ عن الطريق وتاه، بالماء حياة الأحياء لما فيه من سرّ الإحياء، جعل الله من الماء كل شيء حيّ فكان عرشه على الماء قبل الاستواء، ثم استوى عليه وأضاف وأحاط به إليه، فهو بكل شيء محيط من مركب وبسيط، بعلم وجيز وبسيط ووسيط، استوى عليه اسم الرحمن، وعمّ حكمه الإنس والجان، فظاهر ومستور من خلف كلة وستور، وعروس تجلى في أرفع منصبة وأحسن مجلى، ولولا لولا ما

ظهر الأولى ولا نزل ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٤ ـ ٣٦] فمن نظر واهتدى، وباع الضلالة بالهدى، عجل بالفدى من أجل تحكم الأعدا.

ومن ذلك سرّ من استحيى من الأموات والأحياء من الباب ١٣٦: من استحيى أمات وما أحيى لا يحيى إلاّ الحيا، فإنه من صفات الأحياء، ولكن لمن كان له حياء، إن الله لا يستحي من الحق وذلك ليس من صفات الخلق من لا يكون إلاّ ما يريد لا يستحي من العبيد، فإن استحى في حال ما فلطلب الاسم المسمّى وهو المحيي كما هو العلي، الحيا في الأموات من أعجب السمات، بالحيا قصر الطرف، وبه استتر المعنى بالحرف، الحيا حبس المقصورات في الخيام لئلا تدركهن أبصار الأنام، ولولا الاسم الغيور ما اتخذت الأبنية والقصور، لولا التكليف ما ظهر فضل العفيف، القوّة مخصوصة باللطيف فكيف يحجبه الكثيف، لولا قوّة الأرواح ما تحرّكت الأشباح، ولولا حركة الأشباح ما وصلت إلى آمالها الأرواح، فما كل سراح فيه انفساح.

ومن ذلك سرّ الرفق رفيق من الباب ١٣٧: صحبة الرفيق الأعلى أولى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] الرفيق بعبده أرفق وهو عليه أشفق، أرق الناس أفئدة اليمنيون وهم السادة العلماء الأميون، اختار الرفيق من أبان الطريق، وهو بالفضل حقيق خير فاختار ورحل عنا وسار ليلحق بالمتقدم السابق، ويلتحق به المتأخر اللاحق، فلعلمه بأنه لا بدّ من الاجتماع اختار الخروج من الضيق إلى الاتساع، ألا ترى نداه في الظلمات ولم يكن من الأموات، وإنما خاف الفوات، أن لا إلٰه إلاّ أنت كنت حيث كنت، فاستجاب له فنجاه من الغم، وقذفه الحوت من بطنه على ساحل اليم، فأنبت عليه اليقطين لنعمته ولنفور الذباب عن حوزته، فهذا العزل الرقيق من إشفاق الرفيق.

ومن ذلك سرّ الاستحقاق يردّ الاسترقاق من الباب ١٣٨: الحرّ إذا كان من أهل الكرم تسترقه النعم، وعلى مثل هذا عمل أصحاب الهمم، الإنسان عبد الإحسان لا بل عبد المحسان، من تعبدته العلل ففي مشيته قزل، من ذاق طعم العبوديه تألم بالحريه، الحرية محال والعبودة رأس المال، على كل حال، الرب رب والعبد عبد وإن اشتركا في العهد، لا تقل بئس الخطيب من أجل الضمير، فقد جمع بينهما محمد ﷺ وهو السراج المنير، فبه اقتدينا فاهتدينا ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ولا سيما إذا ثبت أنه ما في الوجود إلاّ الله العين، وإن تكثرت في الشهود فهي أحدية في الوجود، ضرب الواحد في الواحد ضرب الشيء في نفسه فما يعطي غير جنسه، فإن ضربته في غير عينه فما يزيد ما أضفته إليه في كونه.

ومن ذلك سرّ ذكر الحادث أمن من الحوادث من الباب ١٣٩: ذكر المخلوق ما يصحّ قدمه ولو ثبت لاستحال عدمه، فالحادث لا يخلو عن الحوادث، لو حلّ بالحادث الذكر القديم، لصحّ قول أهل التجسيم القديم، لا يحلّ ولا يكون محلاً ولو كان محلاً لكان محلاً، لا يوصف بغبر وصفه وهل يعرف المسك إلاّ من عرفه، أو يضم المعنى سوى حرفه، ذكر

القرآن أمان ويجب به الإيمان، أنه كلام الرحمٰن مع تقطيع حروفه في اللسان، ونظم حروفه فيما رقمه باليراع البنان، فحدثت الألواح والأقلام وما حدث الكلام، وحكمت على العقول الأوهام بما عجزت عن إدراكه الأفهام، ولو نيل بالإلهام لكان العالم به هو العلاّم.

ومن ذلك سرّ ذكر القديم مزاجه من تسنيم من الباب ١٤٠ : الذكر القديم ذكر الحق وإن حكى ما نطق به الخلق، كما أن ذكر الحادث ما نطق به لسان الخلق، وإن تكلم بالقرآن الحق، من وقف مع المعنى ما تعنى، إذا كان الحق لسان العبد فالذكر قديم، ومزاجه بالعبد من تسنيم، لأنه العلي الأعلى والنزول بالعبد أولى، هو العين الذي يشرب بها المقرّب وبها في كل صورة يتقلب، الشارب حقيق في شربه من الرحيق، فإن كان الرحيق المختوم الذي مزاجه من تسنيم فهو ظهور المحدث بصفة القديم، فبه يتكلم وعنه يترجم، فقل ما تشاء وما تشاء إلاّ ما يشاء، فله المنة والطول وبه القوّة والحول، الفريضة إذا عالت مالت، لا يعرف الحق إلاّ من كان قواه، ولا يكون قواه إلاّ من قواه، بالذوق تعرف نسبة التحت إلى الله تعالىٰ والفوق مع تنزّهه عن الجهات وما تقضي به الشبهات.

ومن ذلك سرّ الاعتبار في الاستبصار من الأبصار من الباب الأحد والأربعين ومائة: لولا الحواس ما ثبت القياس، ولولا البصر ما صدق من اعتبر، الاعتبار جواز من أين إلى أين وانتقال من عين إلى عين، ومن كون إلى كون، وعدم لا من عدم، إلى كون الاعتبار تعجب من الاقتدار، بالفلك المدار ظهرت الدهور والأعصار، وبالشمس ظهر الليل والنهار من خفايا الأمور، والمد والجزر في الأنهار والبحور، أمن القمر مدّه وجزره أم من غير ذلك؟ فكيف أمره؟ هو عبد مأمور مثل سائر الأمور، مدّه مادّ الظلّ ونزله منزل الوبل والطلّ، لا شك أن الأمور معلولة والكيفية من الله مجهولة، والنفوس على طلب العلم به مجبولة، انفرد بعلم العلل، فأصل الأبد من الأزل.

ومن ذلك سرّ الأفكار متعلق الأغيار من الباب ١٤٢ : حلّت المثلات بأهل التفكّر في المحدثات، لا بدّ من وجه جامع بين الدليل والمدلول في قضايا العقول، وإذا لم يدرك بالدليل فما إلى معرفته من سبيل، وقد دعانا إلى معرفته وما دعانا إلاّ بصفته، فلا بدّ من صفة تتعلق بها المعرفة، وما ثم في العقل إلاّ صفة تنزيه، وفي النقل ما ثم إلاّ مثل ذلك مع صفة تشبيه، فعلى ما هو المعول على الآخر أو الأوّل الأول لا يتبدل والآخر في كل صورة يتحوّل، فكما أنه ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] كذلك في أي صورة ركبته في المعتقد، فيظهر فيها وما عتبك فله التجلي بالجيم ولك التحلي بالحاء المهملة بصفة القديم، فبالأفكار تبدو عيون الأغيار، وبالأذكار تذهب الآثار وتطمس الأنوار.

ومن ذلك الفتى لا يقول متى من الباب ١٤٣ : الفتى ابن الوقت مخافة المقت، لا يتقيد بالزمان كما لا يحصره المكان، لا تصحب من إذا قلت له باسم الله قال لك أين تذهب؟ ليس للفتى من الزمان إلاّ الآن لا يتقيد بما هو عدم بل له الوجود الأدوم، زمان الحال لا ينقال لا فتى إلاّ علي لأنه الوصي والولي، الفتيان رؤساء المكانة والأمكان لهم الحجة والسلطان،

والدليل والبرهان، عليهم قام عماد الأمر، وهم على قدم حذيفة في علم السرّ، لهم التمييز والنقد وهم أهل الحل والعقد، لا ناقض لما أبرموه ولا مبرم لما نقضوه، ولا مطنب لما قوضوه، ولا مقوض لما طنبوه، إن أوجزوا أعجزوا، وإن أسهبوا أتعبوا، إليهم الاستناد وعليهم الاعتماد.

ومن ذلك ما عتى من زعم أنه فتى من الباب ١٤٤ : هو صاحب الفتوح ما عنده جموح، سهل الهوى والانقياد ومع هذا فهو مع من زاد بزاد، وبغير زاد، الفتى هو الكليم وأين رتبة كلام الحق إياه من اتباعه الخضر بطلب التعليم، انظر إلى هذا الإنصاف وما يختصّ به من الأوصاف ما تجبر ولا عتى، ولهذا صحّ له اسم الفتى، الفتى من لا يزال للعلم طالباً ومن الجهل هارباً، لولا ما شاهد في الكلام ألسنة الأنام ما كلم ولا اتبع مخلوقاً ليتعلم، هو عرف ما هنالك فتعشق بذلك، قال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٦ ـ ٦٨] أي لم تذق خطاب الحق بلساني، ولا رأيته في كياني.

ومن ذلك إدراك الغرر من النظر من الباب ١٤٥ : الفراسة رياسة، ما حار وما ظلم من تفرس وحكم، يستخرج خفايا الأسرار بما عنده من الأنوار، يعرف الماء في الماء ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ليس بقائف بل هو العارف، وليس بعارف ولا زاجر وإن أتى بالزواجر، يعرف الأوّل من كل شيء، فيكشف بها كل خبء، يفور من بصره النور ولا يبور، هو بالإيمان مشروط وبحكمه مربوط، يمدّه المؤمن بما شاء من أسمائه عند أنبائه، فلا يبطيء ولا يخطيء، له النفوذ والمضاء، وله الحكم والقضاء، وله الإمساك إن شاء ولا مضاء، فإن شاء لم يقض وإن شاء قضى بما يكون وهو كائن وما قد مضى، نوره لا يحتاج إلى مدد، ولا انقضاء مدد، ولا استبصار بأحد، سورته من القرآن: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص] فِعْلُ سورة الإخلاص ما له مناص.

ومن ذلك الخلق تحقق لا تخلق من الباب ١٤٦ : مكارم الأخلاق أدلة على كرم الأعراق، التصوّف خلق والمعرفة تحقق، الصوفي رباني والعارف وحداني، والعالم إلٰهيّ والواقف طالب والحكيم ناصب، الخلق العظيم عند الكظيم، الغصن إذا حركته الريح مال، والإناء إذا زاد على وسعه سال، الإناء بما فيه ينضح، وعلى ظاهره يرشح، فلا يفرح الإنسان حتى يرى ما به ينصح، من نصح فقد أفصح ودلّ على المقام الأرجح، إذا وزنت فأرجح وإذا وليت فأسجح: [الوافر]

مُعَاوِيَ إننا بَشَرٌ فأَسْجِحْ فلسنا بالجِبَالِ ولا الحِدِيدِ

السماحة ملاحة، بها يظهر جمال الإنسان في معاملة الأعيان من الأكوان، من صرف خلقه مع ربه فقد علم من في قلبه وقلبه.

ومن ذلك: لولا الأعيان ما ظهر الغيران من الباب ١٤٧ : الغيور سريع النفور، فيخطيء

أكثر ممّا يصيب، وهو من شأن في كل يوم عصيب، لما حاز جميع الأسماء ظهر منه الاعتداء لا يحتمل المزيد وإن كان من جملة العبيد، يفنى ويبيد إذا سمع تشبيه القرب الإلٰهيّ منه بحبل الوريد، مقامه الوحده وإن طالت المده، ينفر من صفات الحق لعلمه بأنه خلق، لا يقول بالامتزاج وإن كان خلقه من نطفة أمشاج، لا يقول بالنتاج وهو النمام كالزجاج، تميل به الأرواح في هبوبها لتدنيه من محبوبها، فيأبى الميل وهي تغلبه فتحكم عليه بما لا يقتضيه منصبه ولا يعطيه مذهبه، فلا يزال لمجاري الأقدار في حال اضطرار لا اختيار، وربك يخلق ما يشاء ويختار، فترى الغيران يحار، عجبت وقد علم أن الحق أغير منه فكيف لا يأخذ عنه ومن غيرته حرم الفواحش وهي من الحقائق الدواهش، فلا تجمعه بين الشكلين ولا بقوله في رضاه بأخذ الميلين، فرق بين النكاح والسفاح حتى تتميز الأرواح، وجعل حكم هذا المفتاح في انضمام الأشباح، والزنى لا بدّ منه وقد قال لصاحبه: استتر به وصنه، وهو يعلم به ويراه وقدره وقضا به ومع ذلك نهاه، وإن استتر عن أبناء جنسه فما استتر عمّن هو أدنى إليه من نفسه ونفسه، وهو خالق الحركات المنهي وقوعها إليه يرجع جميعها، ثم يفرح بتوبة عبده منها فكيف لا ينزّه محل عبده عنها، فلا يخلق إلاّ ما يسره وإن كانت المعاصي لا تضرّه، كما أن الطاعات ما تنفعه ومع هذا العلم فلا أرى العالم إلاّ يفرّقه ويجمعه.

ومن ذلك شهود الغير لا خير ولا مير من الباب ١٤٨: ما عنده خير ولا مير، من ترك الغير الغير ما له مستند إلاّ إليه فلا يزال نصب عينيه، لقد افترى من قال إن الله لم يقل: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] يا ليت شعري بعد نفسه لمن يرى، هل يرى إلاّ الغير الذي أصله خير، فإن الحق أصله ومنه كان فصله، فأوجده على صورته وحياه بسورته، أشدّ ما ظهر من الصدق حكم الخلق على الحق، فلا يحكم عليه إلاّ بما يعطيه، ولا يقضي فيه إلاّ ما يقتضيه، فيمضيه بحكمه يتصرّف وإليه محبة، تعرف أهل الاستبصار يعلمون أنه ما قام بالخلق افتقار، ولا يتصف باضطرار ولا باختيار، بل هو على ما هو عليه، ويقبل من كرمه ما أضيف إليه، فأبت الأسماء إلاّ التصرّف، وأبت الأعيان من الخلق إلاّ التظرّف، فمكنتها من التصريف في أعيانها، وتخيّلت أنها جادت عليها بأكوانها، وما علمت بأن الجود كان على نفسها بظهور عقلها وحسّها، فلولا كرم الخلق ما انفعل للحق، ولما كان ذا أصل كريم يحكم فيه الحكيم، إيثاراً له على ذاته ليظهر فيها حكم صفاته أو سماته، فهو أصل الجود حيث انفعل للوجود، حتى اتصف بأنه موجود، فظهر فيه الاقتدار ووصف بالافتقار والاضطرار، فقبل هذا الوصف تظرفاً وطلب من الحق تعرفاً، لما رأى حاجة الأسماء إليه وتعولها عليه، والأمر عند أهل النظر الفكري بعكس ما ذكرناه وما بيناه حين سردناه، وليس التحقيق الحق إلاّ فيما أشرنا إليه وأوردناه، وهذا أنفس علم يكون وهو الذي قيل به للشيء كن فكان، يكون به كل مكون.

ومن ذلك ما هي أسباب التولي الإلٰهيّ من الباب ١٤٩: نحن أسبابه وإهابه ومنا أعداؤه وأحبابه، فمن خرج مضطرّاً وكان وجهه مكفهراً، فهو العدو المبين وهو الذي إذا حدث يمين، ومن خرج طيب النفس مطيعاً حاز الأمر جميعاً، فهو البلد الأمين والمخلوق في أحسن

تقويم، والظاهر بصورة القديم، فهذا سبب حصول العالم في القبضتين وخلق الدارين وتعيين النجدين، فإما شاكراً وإما كفوراً، وإما ساخطاً متضجراً، وإما راضياً صبوراً، فتولّى الله العالم إظهاراً لملكه وانخراطاً في سلكه، وتولاه بأسمائه الحسنى وأحلّه منه المحل الأسنى، وجعل قربه منه قاب قوسين أو أدنى، هذا غاية قرب الخلق من الحق، وجعل قربه من العبيد أقرب من حبل الوريد، وهذا غاية قرب الحق من الخلق، فالأمر بين قربين، وما جعل الله لرجل في جوفه من قلبين، لكنه جعل لكل قلب وجهين، لأنه خلق من كل زوجين اثنين، فبنى الجمع على الشفع، فلم يكن وتريته سوى وترية الكثير، وبهذا نطق الكتاب المنير، فما شهد عليه سواه وما انتهك أحد من المخلوقين حماه، ولا ينبغي ذلك فكل شيء سوى وجهه هالك، وما ثم سوى حتى نقول بالسوا العين واحدة والأحكام ناقصة وزائدة، فاطلب على ما أشرت إليه تحصل على الفائدة، فهذه أسرار لا بل هي أنوار ما عليها غبار، وإن عميت عنها الأبصار، وتعالت عن مدارك الاعتبار وحكم الأغيار، وإليه الإشارة بنعم عقبى الدار، وأنت الدار وعليك المدار.

ومن ذلك ولاية البشر عين الضرر من الباب ١٥٠: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] يؤمن به من كل خيفة، أعطاه التقليد ومكّنه من الإقليد فتحكم به في القريب والبعيد، وجعله عين الوجود وأكرمه بالسجود، فهو الروح المطهر والإمام المدبر، شفع الواحد عينه وحكم بالكثرة كونه، وإن كان كل جزء من العالم مثله في الدلالة، ولكنه ليس بظل فلهذا انفراد بالخلافة وتميز بالرسالة، فشرع ما شرع واتبع واتبع، فهو واسطة العقد وحامل الأمانة والعهد، حكم فقهر حين تحكم في البشر، فظهر النفع والضرر، فأوّل من تضرّر هو كما ذكر، ثم إنه لم يقتصر حتى آذى الحق وسبّه وأعطاه قلبه وعلم أنه ربه فأحبه، ولما حسده وغبطه أغضبه وأسخطه، ثم بعد ذلك هداه وأرضاه واجتباه، فلولا قوّة الصورة ما عتى، ولا لرجوعه إلى الحق سمّي فتى، فظهر بالجود في إزالة الغرض وأزال بزواله المرض، وقام الأمر على ساق وحصل القمر في اتساق، ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٩، ٣٠] إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، فإن السلطان ناطق خالق والقرآن ناطق صامت، فحكمه حكم المائت، لا يخاف ولا يرجى ولا يطرد ولا يزجى، وما استند الصديقون إليه، ولا عول المؤمنون عليه، إلاَّ لصدق ما لديه، فالقرآن أحق بالتعظيم من السلطان، لأنه الكلام المجيد الذي﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] لا رادّ لأمره، ولا معقب لحكمه، يصدق في نطقه، ويعطي الشيء واجب حقه، فهو النور، والسلطان قد يجور.

ومن ذلك نصرة الملك في حركة الفلك من الباب الواحد والخمسين ومائة: حركات الأفلاك مخاض لولادة الأملاك، أطت السماء وحق لها أن تئط، وغطّت وحقيق لها أن تغط، ما فيها قيد فتر ولا موضع شبر، إلاَّ وفيه ملك ساجد لربه حامد، فهم في الأفلاك كما هي في بطون الأمهات الأجنة، ولهذا سمّوا بالجنة، فهم المسبحون في بطون الأمهات إلى أن يحيي

الله من أمات، فعند ذلك تقع لهم الولادة، والخروج إلى عالم الشهادة، وقد أشبه بعضهم بعض الحيوان ممّا ليس بإنسان فولد ورجع إلى بطن أمه إلى يومه، وتميز بهذا القدر عن قومه كجبريل وغيره بما أنزلهم به من خيره وضيره، ولا تلد إلاً عن انشقاق، وذهاب عين بالإنفاق، فتبدل الأرض ولا تبدل السماء إلاً أنه ينكشف الغطاء.

ومن ذلك الأخبار في الأخبار من الباب ١٥٢: الأخبار تعرب عن الأسرار والأخبار تشهد للمؤمن بالإيمان والبهتان والدليل خبر الهدهد فيما أخبر به سليمان قال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٢٧] فإن شهد له العيان أو الضرورة من الجنان وقع الإيمان، وإن كذبه ألحقه بالبهتان، فالأخبار محك ومعيار تشهد لها الآثار الصادقة والأنوار الشارقة، لو كان مطلق الإيمان يعطي السعادة لكان المؤمن بالباطل في أكبر عبادة، فمن آمن بالباطل أنه باطل فهو حَالٍ غير عاطل، فله السعد الأعمّ والعلم الوافر الأتمّ، فإنه لا يلزم من العلم بشيء الإيمان به والعلم بكل شيء، ألا تراه قد زاد في ذلك حكماً بأمره ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وما زاده إلاّ التعلق بما هو عليه ذلك المعلوم والتحقق.

ومن ذلك خبر الإنسان كلام الرحمٰن من الباب ١٥٣: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أين ينزل من الإنسان؟ هل في النفس أو في الجنان؟ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ وهو الفرقان: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ليجمع له بين ما يثبت على حال واحدة وبين ما يقبل الزيادة والنقصان ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ وهما ما ظهر وما قام على ساق فعلى حكمت بذلك القدمان ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ في البنيان لما لها من الولاية والحكم في الأكوان فهي السقف المرفوع على الأركان ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ للنقصان والرجحان ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ لكم بالرجحان وعليكم بالنقصان ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ وهو الاعتدال مثل لسان الميزان والكفتان ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ وهو الموزون من الأعيان ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ من أجل المشي والمنام ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ لحصول المنافع ودفع الآلام ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ وهو ما يقوت الإنسان والحيوان ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أيها الإنس والجان وقد غمركما الإنعام والإحسان ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ فالإنسان ما يفخر إلاّ بالجان، وبما في الجان من الضلال كان الصلصال، وهو الثناء الذميم على من خلق في أحسن تقويم، فيبقى الإنسان على التقديس، ويأخذ صلصاله إبليس، فيرجع أصله إليه ويجور وباله عليه، والجياد على أعراقها تجري ونجومها في أفلاكها تسبح وتسري ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ في ظاهر النشأتين ﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ في باطن الصورتين ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١ ـ ١٨] يا هذان.

ومن ذلك سرّ المفتاح في أخبار الأرواح من الباب ١٥٤: تنزلت الأرواح بتوقيعات السراح من الفتاح إلى أخواتها من الأرواح المحبوسة في هذه الأشباح، فمن استعجل تسرح بفكره وعقله، ومنهم من تسرّح بكشفه لما عمل على ما ثبت عنده في نقله، وما عدا هذين من الثقلين بقي رهين المحبسين، حتى يأتي قابض الأرواح بالمفتاح، ولهذا انطلقت الألسنة

الفصاح، أنه من باب استراح، وهيهات أين الاستراحة وأنى تعقل الراحة؟ وهو ينتقل إلى حبس الصور الذي هو قرن من نور، لأنه نفر ظلام الأجسام بالأجساد وزال عنها بسرعة التقليب في الصور البقاء على الأمر المعتاد، فلا يزال في الصور حبيساً لأنه لا يزال رئيساً مدبراً سؤوساً، فإن كان من السعداء أو الورثة من العلماء أو الأنبياء فلهم السراح التام في عين الأجساد والأجسام مثل ما يراه الإنسان في المنام، فيرى نفسه وهو عين واحدة في أمكنة متعددة، والعقول تحيل أن يكون الجسم في مكانين فكيف بهذين؟ الخيال قد حكم به، فانتبه إذا كان المخلوق في قوته الإمكان فيما أحاله دليل عقل الإنسان، فما ظنك بخالق هذا الخلق وهو الواحد الحق؟ ألا تراه يتجلّى في الصور فيعرف وينكر، وهو هو ليس سواه والذي يراه يطلب أن يراه، فلو عرف معرفته ما طلب رؤيته فإنه لم يشهد إلاَّ هو، ولو علم أنه هو لم يقل بعد ذلك ما هو هو، ما رأيت وأنت فيما تمنيت واشتهيت.

ومن ذلك توجيه الرسل لإيضاح السبل من الباب ١٥٥: جاءت الرسل بهداية السبل، وثم سبل لا تظهر إلاَّ بالجهاد إلى عين الفؤاد، إن كان الجهاد عن رؤية فقد بلغت المنية، فإن الله مع المحسنين كما هو مع المتقين، إن رأينا وجهه فله في كل شيء وجهه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ والمتوقى يباشروا فيه ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] فهو صاحب العين الباقية، الإحسان عيان وفي منزل كأنه عيان، وليس إلاَّ الخيال فتعمل في تحصيل هذه الخلال ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩] فبلغنا أملنا وتمّم بمشاهدته عملنا، وقسم عليه الصلاة والسلام سبيله على ثلاثة أقسام: إحسان وإيمان وإسلام، والمعلم السائل والمخاطب القائل، فعلمه في السرّ ما يقول في الجهر نزل به على قلبه من عند ربه فبدأ بالإسلام، وقرن به عمل الأجسام، من تلفظ بشهادتين وصلاة وزكاة وحج وصيام وثنى بالإيمان وهو ما يشهد به الجنان من التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشرّه والبعث الآخر إلى الدار الحيوان، وثلث بالإحسان وهو إنزال المعنى الروحاني منزلة المحسوس في العيان، وليس إلاَّ عالم الخيال الحاكم بالوجوب والوجود في الممكن والمحال، وفي كل ما يحققه إذا أجابه يصدقه والحاضر يتعجب من تصديق بلا برهان، وذهل عن العلم الضروري الذي في الإنسان وما علم الحاضر من السائل كما لم يعلم ما أتى به من المسائل، فأعلم الرسول من هو السائل والمسؤول، وأنهم المقصودون بذلك السؤال في صورة الخيال.

ومن ذلك فضل البشر على سائر الصور من الباب ١٥٦: بالصورة علا وفضل، وبها نزل وسفل، إذا جار وما عدل، فحاز المقام الأدنى في الآخرة والأولى، فالعالي يقول: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ [طه: ٨٤] والأعلى يقال له: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥] العالي يقول: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: ٢٥، ٢٦] والأعلى تقرّر عليه النعم: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣﴾ [الشرح] العالي يدعو: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ والأعلى يقال له ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ يعني في المقربين، والأسفل في أسفل سافلين، بالطين والماء المهين، وإن تساووا في النشأة العنصرية

بالقرار المكين، والتنقل في الأطوار والانحصار خلف الأسوار، بالكل والبعض والإبرام والنقض، والتقويض والبناء والقالة بالثناء، فمحمد ومذمّم ومؤخّر ومقدم، وما فضل القديم إلاّ المخلوق في أحسن تقويم، فهو العالم لا بل هو العلاّم، مصباح الظلام، معين الأيام، الإمام ابن الإمام، المؤتى جوامع الكلم وجميع الأسماء والكلام، فأفصح وأبان، لما علمه البيان، ووضع له الميزان، فأدخله في الأوزان، وزان وما شان، لما ظهرت للملأ الأعلى طيلته جهلت قيمته، ونظر إلى الأضداد فقال بالفساد، وغاب عن القبضة البيضاء وحميد الثناء، بما أعطي من علم الأسماء، ولم يكن الملأ الأعلى سمع بالصورة التي أعطته السورة، فحمل الخلافة على من تقدم من القطان في تلك الأوطان فلو علم أنه خليفة الحق لأذعن وسلم وما اعترض ولا نطق، ثم ظهر في بنيه ما قاله من المقاله.

ومن ذلك نزول الأملاك من الأفلاك في الأحلاك من الباب ١٥٧: إنما جعلت النجوم مصابيح لما بيدها من المفاتيح، فكل مصباح مفتاح ولكل مفتاح اسم إلٰهيّ فتاح، إنما تفتح المغالق لإظهار ما وراءها من الحقائق، والأنوار تظهر للأبصار ما سترته الأحلاك، وهو ما في الأمر من الاشتراك، فلذلك قلنا: إن المصباح المفتاح، فإذا تنزلت الأملاك على قلوب النساك، أوحت إليها ما أوحت، وأمطرت أنواءها بعدما أصحت، فمنها ما أمست ومنها ما أضحت، ولا يحوز المجد الشامخ إلاّ أصحاب البرازخ، وهم ما بين المساء والصباح من عالم الأجساد والأرواح، فالليل زمان النيل والنهار زمان جر الذيل، لا يظهر حكم الخيلاء إلا في الصباح والمساء، حركات محدودة وأنفاس معدودة، وصدور منشرحة منسرحة وأبواب مفتحة، لا يعرف ما تحوي عليه إلاّ القائم بين يديه، فإذا وهبه ما لديه عول عليه، فلا يدخله فيه ريب وكان ممّن قيل فيه أنه يعلم الغيب، الأملاك ذو الأبناء وهم تلامذة أوّل الآباء، أين المنزلة من المنزلة؟ فالبنون ما عندهم من العلم إلاّ ما نقل إليهم الملأ الأعلى ممّا استفاده من أبيهم بقدر الفهم، فالملأ الأعلى وسائط، وبيننا وبين أبينا روابط، فبضاعتنا ردّت إلينا وبها نزلوا علينا، فما في أيدينا سوى مال أبينا، وللملأ الأعلى أجر أداء الأمانة والتنزّه عن الخيانة، فإنهم من أولي العصمة، وممّن اكتسب من أبينا الرحمة، أين ذلك الانقباض وفظاظة الاعتراض؟ من هذا اللطف الخفي والإبلاغ من المبلغ الحفي، والحمد لله المنعم المفضل، والشكر للمحسان المجمل.

ومن ذلك ترك الأغيار من الأغيار من الباب ١٥٨: التروك وإن كانت عدماً فهي نعوت فالزم السكوت، الأمر بالشيء نهي عن ضده وهو ترك، وهذا شرك الترك على جهة القربة من صفات الأحبة في الترك، ملك المتروك فأنت من الملوك وإن كنت المملوك، من ترك الغير فقد رأى أنه غير وما لغير عين فقد شهد على نفسه بأنه جاهل بالكون، وإذا ثبت أن ثم الجاهل ثبت أن الغير حاصل لا بدّ من حلّ وعقد، فلا بد من رب وعبد، فقد ثبت الجمع وتعين الشفع، لا يترك الأغيار إلاّ الأغيار، وأما الحق فلا يترك الخلق، لو تركه من كان يحفظه ويقوم به ويلحظه، فمن التخلق بأسماء الحق الاشتغال بالله وبالخلق، لو تركت الأغيار لتركت

التكليف الذي وردت به الأخبار، ولو تركته لكنت معانداً، وعاصياً أمر المكلف أو جاحداً، ما كلفت إلاَّ ما تقدر على خلقه، فخلق الخلق أوجب الثبوت في حقّه، لأن الخلق الإلٰهيّ اختيار وخلق المكلف ما كلف به اضطرار، وهذا فيه ما فيه لناظر يستوفيه.

ومن ذلك النصرة شهرة من الباب ١٥٩: النصرة عناد فهو إلحاد، نصرة القوي محال فانظر في هذا الحال: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وهو القوي له المتين بكم، وأنتم الأقوياء به في مذهبكم، ما عندكم متانة فأنتم أهل أمانة، وإن لم تنصروه يخذلكم، وإن خذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، فنصرته من جملة ما أخذه عليكم من عهده، فيا أهل العهود أوفوا بالعقود، ما أمركم بنصره إلاَّ ولكم اشتراك في أمره، فمن قال لا قدرة لي ويعني الاقتدار فقد ردّ الأخبار، وكان ممّن نكث والحق تكليف الحق بالعبث، لما طلب النصرة من خلقه وجعلها من واجب حقّه، أثبت أن له أعداء، وأن لديه أولياء وأوداء، فأحالنا علينا بما أوجده لدينا، فقلنا مستند هذا التقابل أين؟ فوجدناه في أسماء العين، فما من اسم الإلٰه حكم وفي أسمائه التقابل، وما في أسمائه تماثل، لكن فيها خلاف فلا بدّ فيها من الائتلاف، فالناصر محاصر ومحاصر، فأنت تطلبه بالنصر في عين ما طلبكم فيه من النصر، فتعين من هذا الفرض أنكم كذرية بعضها من بعض، فما انفرد أحد بالقوّة والاقتدار فانظر نزول الواحد القهار، في لا حول ولا قوّة إلا بالله، وفي طلبه النصرة ثبوت الاشتباه.

ومن ذلك نصرة البشر تستدعي الغير من الباب ١٦٠: ما أوجدك إلاَّ لتنصره على من خلق لمن نظر فيه، وتحقق قبولك لاقتداره نصرته، وبك ثبتت إمرته، أقوى النصرة النصرة من المعدوم، فإن فيها معونة الحيّ القيوم، من انتصر بالعدم أثبت أن ماله في القوّة تلك القدم، نصرة العبد بالحق أحق لتعقلها بموجود فهي أوفق وأليق، إذا قلنا: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فقد طلبنا النصرة من موجود هو رب العالمين، لكن هنا نكته لمن كان له لفته، من نصرك بما أحدثه فما نصرك إلاَّ بك وعليك، فكل شيء مستند إليك، وله القوّة والحول ومنه المنة والطول، فإذا كلفت فاثبت، وإذا خوطبت وأنت تعلم بما خوطبت فاسكت، فقد حار أهل الاعتبار في رفع هذه الأستار.

ومن ذلك نصرة الملك حركة الفلك من الباب الواحد والستين ومائة: بوجود المدد الملكي وظهور الأثر الفلكي، كانت النصرة ورجعت على الأعداء الكره، أقدم حيزوم لنصرة دين الحيّ القيوم، ولما فيه من تقوية القلوب عند أهل الإيمان بالغيوب، وما كان عند أهل الغيب إيماناً كان لأهل الشرك عياناً، وذلك الشهود خذلهم ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] قتلهم بالملك للأمر الذي أوحاه في السماء وأودعه حركة الفلك، فما انحجب عن المؤمن لإهانته، كما أنه ما كشفه المشرك لمكانته، لكن ليثبت ارتياعه، ويتحقق انصداعه واندفاعه، فخذله الله بالكشف وهو من النصر الإلهيّ الصرف، نصر به عباده المؤمنين على التعيين، فإنه أوجب سبحانه على نفسه نصرتهم فردّ عليهم لهم كرتهم فانهزموا أجمعين ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] والمؤمن الإلٰه الحق، وقد نصره الخلق.

ومن ذلك أصدق المقال ما كان بالحال من الباب ١٦٢ : أصدق المحامد حمد الصفة عند أهل المعرفة، كل وصف منهم ولهذا يحتاج إلى دليل حتى يعلم، ووصف الصفة هو العلم المحكم، فهذا هو حمد الحال على كل لسان ومقال، من أثنى على نفسه بالكرم توقف السامع فيه حتى يتكرم، فإذا كان العطاء ارتفع الغطاء، الأحوال مواهب من الواهب، فمن وهبك ما يستحقه عليك فهو عنده أمانة ردّها إليك، ومن وهبك ما تستحقه فقد جار في الهبة إن رأيت أنها عارية لديك، فارفع الستر عسى ينكشف لك الأمر، انظر إلى هذا الخلاف أين طلب الوكالة من الإنفاق بحكم الاستخلاف، هو الآمر بقوله: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩] وأمر، وهو القائل: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: ٧] فظهر كما أنه بالوكالة استتر، فعلى ماذا نعوّل وماذا نؤمل؟ تجاذبتني قوى الأضداد لما قام بينها من العناد، وما حصل في التعب إلاَّ أهل الإيمان من العباد، فإنه أوجب عليهم الإيمان بكل ما ورد ممّا شهد وما لم يشهد، فما زلنا في حكم الأحوال في الآن والمآل، الحال له الوجود الدائم وهو الحكم الثابت اللازم، وما عدا الحال فهو عدم، وما له في الوجود قدم.

ومن ذلك خبر الإنسان أخبار الرحمٰن من الباب ١٦٣ : إن الله عند لسان كل قائل وهو القائل، فانتبه لقوله: «**كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَلِسَانَهُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ**» وما تكلم إلاَّ القائل في الشاهد وهو الإنسان وفي الإيمان الرحمٰن، فمن كذب العيان كان قوي الإيمان، ومن تردّد في إيمانه تردّد في عيانه، فلا إيمان عنده ولا عيان، فما هو صاحب مكان ولا إمكان ومن صدق العيان وسلم الإيمان كان في أمان، ومن قال إن الأمر سيان وما هما ضدان، فهو صاحب كشف أو برهان، اللسان ترجمان الجنان، وكذلك البنان، والكل الإنسان، والجنان متسع الرحمٰن وهو له بمنزلة المكان، فما وسع الربّ إلاَّ القلب فأنت ترجمان الحق إلى جميع الخلق، فأين الكذب وما ثم ناطق إلاَّ الحق الخالق، نطق الكتاب نطقه وهو خلقه لا خلقه هو الذكر المحدّث لما حدث، وقد كان له الوجود وعين المخاطب مفقود.

ومن ذلك أخبار الأرواح استرواح من الباب ١٦٤ : الروح واسطة وهو بين الرسول البشري والمرسل رابطه، يوحي به إليه إذا نزل بالوحي عليه، وقد أمر بالأدب معه حتى يجمعه، لأنه ما عجل به حتى كشفه، وما نطق به حتى عرفه، فقيل له في هذا الأمر اكتم السرّ حتى لا يعلم الملك ما جيء به عليك ولك، فتأدب وبالأدب تتقرب، فأهل البساط أدباء، وأهل الأسرار أمناء، فمن قال من الرجال اقعد على البساط وإياك والانبساط فما عنده خبر بما هو الأمر عليه، ولا حضر يوماً في بساط الحق بين يديه ليحصل ما لديه، البساط الإلٰهي له الهيبة بالذات فأين الالتفات؟ ما هو محل الزلات ولا حلول الآفات، ولا عنده منع وهات، إنما هو سكون وخمود، وتحصيل وجود الأرزاق فيه أذواق الشهود بمنزلة الخدود، وهو عن نفسه في حالة المفقود، لولا الشاهد والمشهود وحكم اليوم الموعود، ما قتله أصحاب الأخدود بالنار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، فأين نضج الجلود؟

ومن ذلك الترسل توسل من الباب ١٦٥ : من فتح باب المراسلة فقد أراد المواصلة،

فمن أتى قدسه فلا يلومن إلاّ نفسه، كيف يرجع بالملائمة على نفسه والمرسل ليس من جنسه، والأنس لا يقع إلاّ بالجنس، فالسؤال إنما هو في الأنس بالرسول لأنه من جنس المرسل إليه، ولذلك يعتمد عليه ويشتاق إليه إذا لم يره لديه، إذا كان الرسول حسن الصورة فذلك إشارة إلى المرسل إليه وتعريف بجمال المكانة والسورة، فحصلت البشرى للرسول وإدراك البغية بنزول جبريل عليه في صورة دحية صورة الرسول تنبىء عن صورة المرسل عند من أرسل إليه، ولهذا يعلم ذلك إذا حضر الرسول بين يديه فيعمل بحسب ما يرى، وما هذا حديث يفترى، أين صورة مالك من صورة رضوان؟ وأين النار من الجنان؟ أين السهل من الحزن؟ وأين إمساك الغيب من إرسال المزن؟ وأين الفرح من الحزن؟ وشتان بين القبح والحسن، فالعبارة بالحال أفصح من المقال، ولكن متى يا فتى ذا كان المرسل حكيماً وكان المرسل إليه عليماً؟ فما كل مرسل حكيم، ولا كل مرسل إليه عليم.

ومن ذلك الإبلاغ عن نفث الروح في الروع من الباب السادس والستين ومائة: النفث في الروع من الروح من وحي القدوس السبوح، من تلك الحضرة وروده وفيها تعين وجوده، وهو عين الإلهام ما هو مثل وحي الكلام، ولا وحي الإشارة والعبارة، وما ثم إلاّ ملهم وهو الخاطر، الخاطر من السحاب الماطر، فلا يعوّل إلاّ على الخاطر الأول، فإنه الحق المبين، والصادق الذي لا يمين، وبمثل هذا الخاطر يحكم الزاجر، ولهذا يصيب ولا يخطىء، ويمضي ما يقول ولا يبطىء، إذا استبطأ الزاجر عند السؤال فما هو من أولئك الرجال، حال السؤال حال ما يحكم به المسؤول فيكون ما يقول، إن وقع منه التواني إلى الزمن الثاني، فسد حاله ولم يصدق مقاله، وإن صدق فذلك أمر اتفق، والأوفاق ما لها ذلك التحقيق، عند العلماء بهذا الطريق، والنفث لا يكون له مكث، فحلوله انتقاله ووروده زواله.

ومن ذلك نزول الملك على الملك من الباب ١٦٧: ليس الملك إلاّ من خدمه الملك، الملك لا ينزل معلِّماً وإنما ينزل معلَّماً، فإن الرحمٰن علم القرآن، وهو البري من الاشتراك، فقد علمت لم تنزلت الأملاك، يقول الرسول: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠] وما ينزل به الملك على ما تعرض بالذكر لمن يوحي وهو الملك، لأنه الملك، والملك لا يفتقر ولهذا لا يحتقر، هو المؤيد المنصور، والذي تدور عليه الأمور فله الظهور، وإن غفل عن طلب ذلك فإنه المطلوب لأنه المالك تقصده الأسماء كما يقصده الأبناء، فكل اسم إلٰهيّ عليه وافد، وكل خبر كوني عليه وارد، فيقف على ما في الملك من الآثار، ويعلن له بما فيه من الأسرار، فهو نور الأنوار والفلك المدار، الذي عليه المدار، تخلق بالواحد القهار، الوارد في الأخبار: «**إذا بُويع لخليفتين فاقتلوا الآخِرَ منهما**» للمنازعة التي جرت بينهما.

ومن ذلك سرّ البنوّة بين الصديقية والنبوّة من الباب ١٦٨: الولد قطعة من الكبد، قد كان سارياً فيه، فلهذا كان سر أبيه، فهو في المنزل الأقرب المعنوي بين الصديق والنبيّ، فهو الوليّ ما هو صديق ولا نبيّ، دليله في البشر مسألة موسىٰ وخضر، جاء في الآي من السور، فمن علم ما علم، وحكم من المقام الذي منه حكم، علم صاحب القدم، قال له الكليم:

علمني، وقال له الحبيب: استغفر لي، انظر إلى هذه التكملة المحمدية وتنبيهها على هذه المنزلة العلية مع كونه بعث عامة فأكبر الطوام هذه الطامة، فمن هنا يعلم أن الحجاب المنيع والستر الرفيع قد لا يكون في التشريع، قد فضل الرسل بعضهم على بعض مع الاشتراك فيما شرعوه من السنة والفرض، فما يكون الفضل إلاَّ عن أمر زائد لا يعرفه إلاَّ الختم أو الفرد أو الإمام الواحد، وهو عن غير هؤلاء محجوب مع أنه لكل شخص مطلوب، ومن خرج عن هؤلاء لا يهتدون بمناره ولا يصطلون بناره ولا يبصرون بأنواره، بل ينكرونه إذا سمعوه ولا يحصلونه فيما جمعوه، فإن عين لهم رموا به وجه من عينه ويقولون هذا من تزيين الشيطان الذي زينه.

ومن ذلك المحتاج من خوصم فحاج من الباب ١٦٩: من احتجّ عليك بما سبق، فقد حاجك بحق، ومع هذا فهي حجة لا تنفع قائلها، ولا تعصم حاملها، ومع كونها ما نفعت سمعت، وقيل بها وإن عدل في الشرع عن مذهبها فإنه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ولكن أكثر الناس لا يشعرون فإن مثل هذه المسألة تكون إشعاراً فلا يأتي الآتي بها جهاراً، ولو جهر بها كانت علماً، وأبدت حكماً، ونفحت فهماً، وأورثت في الفؤاد كلماً، يتنصر جرحه ولا يندمل، وبه يتأمل كل متأمل، ستره مسدل وبابه مقفل، ومعربه معجم، وموضحه مبهم، دونه تطير البهم وتخر القمم، لما يؤديّ إليه من درس الطريق الأمم الذي أجمع على صحته الأمم، وإن كان الصراط المستقيم الذي عليه الرب الكريم يتضمن الخير والشرّ، والنفع والضرّ والفاجر والبرّ ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦] وهو البرّ الرحيم.

ومن ذلك من تغنى استغنى من الباب ١٧٠: ليس منا من لم يكن بالقرآن يتغنى، من حيره تحييراً لقد حاز مقاماً كبيراً، نعم العبد من قام به كابن أمّ عبد أصغى إليه الرسول لما وجد عنده السول، فحمده على ذلك وأثنى، بما كان به في ليله يتغنى، فطوبى له من عبد متهجد، في محرابه لربه يتعبد، يتلو كلامه، ويخاف آثامه، وينادي علامه، أعداد الهول يوم القيامة، الحبر العلامه، من جعل الحق أمامه، كنيف وقد ملى علماً، وحشي حكمة وحكماً، وغفر له بدعوة رسول الله ﷺ مغفرة عزماً، أمرنا بأخذ القرآن عنه، لما عرف الأمر منزلته منه، فما لنا لا نكون ذلك الشخص، حتى يشملنا هذا النص، وإن كان قد فقد قائله، فما فقد حامله وقابله، فكل شخص من هذه الأمة، إذا كان له مثل تلك الهمة، كان المخاطب بذلك الحمد، فليبذلوا في ذلك الجهد، حتى يفوزوا بهذا الجد، فعليكم بالتعرّض لنفحات جوده، ليخصكم بما خصّ به أهل العناية من عبيده.

ومن ذلك من تكلف ما تصوّف، من الباب الأحد والسبعين ومائة: التكلف، إذا كان من طريق البنية، فلا يؤثر في البغية، فإن كان من طريق القلب ففيه استهانة بالرب، وهو أولى بالإيثار عند المقرّبين والأبرار، في قيام الليل وصيام النهار من الأغيار، فمن عبد الله بالتكلف فما هو من أهل التصوّف، التصوّف خلق وغير الصوفي في التخلق، والعالم بالله في التحقق،

فله الخلق من جهة صفاته، وله التحقق من شهود ذاته، إذا كان الرسول ﷺ من رآه فقد رآه وهو هو ليس سواه، فما ظنك برب العزّة ومذلّ الأعزة؟ ومن أسمائه العزيز الكريم الحكيم، وما حاز الصورة إلا من خلق في أحسن تقويم، فأيّ دخول هنا للشيطان الرجيم، فإن تجلى الشيطان في الصورة صحّت المقالة المذكورة، وهي أنه عين كل موجود إذ كان هو نفس الوجود، فحكمه خارج عن حكم النبيّ للمقام العلي، وهذا هو القول الذي عليه يعوّل، ودع عنك من تأوّل المعلوم أن رحمته وسعت الموجود والمعدوم.

ومن ذلك التلفيق من التحقيق من الباب ١٧٢ : التلفيق ضم عين إلى عين لإيجاد صورة في الكون، لولا ما لفق الأركان، ما ظهر المعدن والنبات والحيوان، ثم ضم الرحمٰن الحق إلى الحيوانية النطق، فكان منه الإنسان، الكامل منه والناقص، الإنسان الحيوان وهذا من تلفيق الرحمٰن، فأقامه أمامه وأعطاه الخلافة والإمامه، وصيّره الحبر والعلامه، خصّه بالأسماء وأنزله إلى الأرض من السماء، وقد كان أنبته من الأرض نباتاً، وجعل من نشأته أحياء وأمواتاً، فما أحسّ منه فهو الحيّ وما لم يحسّ منه فهو الميت، وهذا نعت هذا البيت، عمره بالقوى وأسكنه العقل والهوى، ثم قال له لا تتبع الهوى فهوى ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢] وما تركه سدى. فأغاظ الله به الأعداء، وأفرح به الملائكة والأوداء، فتلقى من ربه الكلمات، وكانت له من أعظم الهبات، فتحقق بحقائق المحبة، ورجع إلى ما كان عليه من المنزلة والقربة، وهذا حكم سار في الذريّة، أعطته هذه البنية، فما ثم إلاّ من همّ ولمّ، وإن كان الموجود الأتم، فاعلم إن كنت تعلم.

ومن ذلك الحكمة نعمة من الباب ١٧٣ : من أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وكان الله به لطيفاً خبيراً، لطيفاً من حيث إنه علمه من حيث لم يعلم، فعلم وما علم أن الله هو المعلم، والحجب له في علمه وتعلمه، وحجبه عن ذلك بقلمه، فظهر له في صورة القلم، وقال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٣] فاختبره فكان خبيراً، وكان الله على كل شيء قديراً، فمن سأل الحكمة فقد سأل النعمة، ومن أعطى الحكمة فقد أوتي الرحمة، فإن سرمد العذاب بعد ذلك هذا المالك فما هو ممّن عمّت وجوده الرحمة، ولا كان عند أهل الكشف والوجود من أهل الحكمة، فإن قال بالرجوع إليها وحكم بذلك عليهم وعليها، فذلك الحكيم العليم المسمّى بالرؤوف الرحيم، وهو الشديد العقاب لأنه لشدته في ذلك أعقب أهل النار حسن المآب.

ومن ذلك الكيميا تقدير عند الخبير من الباب ١٧٤ : الكم تقدير موجود ومتوهم، فمن فاز به نال قلب الأعيان، وتحكم كما يشاء في الأكوان، في عالم الأرواح والأبدان، فهو صاحب الإكسير الذي حاز علم التدبير والتقدير، بكلمة ينير الأجسام المظلمة، انظر إلى كلمة «كن» في الوجود، كيف ألحقت المعدوم بالموجود، ولا تتوجه هذه الكلمة على الموجود بالعدم، فإنه ليس لها في الردّ إلى العدم قدم، لأنها كلمة وجودية تطلبها الربوبية والعبودية، لحصول الأعيان في الأكوان، ولهذا يقال فيمن عدم قد كان، فالعدم لمن انعدم نفسي

والوجود كرم إلٰهيّ امتناني، فالذي ذهب إليه بعض أهل الكلام في هذه الأقسام من انعدام العرض لنفسه لا الأجسام ليكون الخالق خالقاً على الدوام، وأما أهل الحسبان فقالوا بتجدّد جميع الأعيان في كل زمان، وما خصّوا عيناً من عين ولا كوناً من كون، ومن علم أن المتحيزات كلها قامت من الأعراض جمع بين المذاهب والأغراض.

ومن ذلك سرّ الطلب من الأدب من الباب ١٧٥ : لا يتأدّب مع الله حق الأدب إلاّ من تحقق بالطلب، ما أوجدك إلاّ لتسأل فأنت الفقير الأذل، فتسأله العزّة والغنى لتحوز عموم الثنا، فكل ما يثنى عليك به فهو الثناء المحمود، فأنت الذليل الفقير الفقيد، وأنت العزيز الغني الحميد، فما ثم هجا بالنظر إليك، وما هنا جفا جفاه الحق عليك، فإنه تعالىٰ كما قال عن نفسه: لست برب جاف، وهذا القول كاف، ولا يليق بالجناب الإلٰهيّ من الثناء الأمثل العزيز الحميد، لا بكل ما يثنى به على العبيد، فالعبد له عموم الثناء بما يحمد وما يذمّ به من جميع الأسماء، وللحق من هذا الثناء الخصوص، بذا وردت النصوص، القالة أن يد الله مغلولة قالة معلولة، ومن قال إنه فقير فهو الكفور، وهذا في العبد ثناء حميد، فهو أكمل في الوجود، ثم إنه قد يذمّ بما به يحمد على حسب ما يعتقده القائل، ويقصد كالبخل بالدين والمال والحرص على طلب الفاني، والعلم والعمل الذي يستعذبه في المآل، فتأمل ما أنعم الله به وتفضل.

ومن ذلك الندب أدب من الباب ١٧٦ : الندب أثر، والأدب في سلوك الأثر، من اتبع هواه ما بلغ مناه، لا بدّ أن يبلغ ما تمناه ولو اتبع هواه، فإن رحمة الله واسعة وهي للكل جامعة، لا تحكم عليها دار، ولا يختص بها قرار من قرار، الموجودات كلها أبناؤها فكيف يقوض بناؤها؟ فما ثم إلاّ إحسانها وآلاؤها، هي الأم أدرجت نعماءها في تأديبها أبناءها، فعقوبتها أدب لا يشعر به من الأبناء إلاّ العلماء، فكن في أمان لعموم الإيمان، فإنه قد ورد الإيمان بالحق كما ورد بالباطل، فجيد كل مؤمن حال غير عاطل ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] فاعبد ربك حتى يأتيك اليقين، فإنك إذا تيقنت علمت بمن آمنت، فالأدب جماع الخير لاشتقاقه من المأدبة، وأعظم المتنعمين بها ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٥ ـ ١٦].

ومن ذلك أعزّ الأحباب الأصحاب من الباب ١٧٧ : قيل: من أحب الناس إليك وأعزّهم لديك؟ قال: أخي إذا كان صاحبي وصديقي، وكان في كل ما أنا فيه رفيقي: [الوافر]

صديقي من يُقاسِمُني هُمُومي ... ويَرْمي بالعَدَاوة من رَمَاني

أصحاب النبيّ عليه الصلاة والسلام فازوا بالمقام العلي هنا وفي دار السلام، أعلى درجات القربة التحقق في الإيمان بالصحبة، لا يبلغ أحدنا مُدَّ أحدهم ولا نصيفه ولا يصلح أن يكون وصيفه، نحن الإخوان فلنا الأمان، وهم الأصحاب فهم الأحباب، فمن رأى الصحبة عين الأتباع من أهل الحقائق ألحق اللاحق بالسابق، فغاية السابق تعجيل الرؤية لحصول البغية، ولكن ما لها بالسعادة استقلال، فيما أعطاه الدليل وصححه السبيل، وكم شخص رآه

وشقي والذي تمناه بعدم اتباعه ما لقي، فما أعطته رؤيته وقد فاتته بغيته، فما ثم إلاَّ الاقتداء وما يسعدك إلاَّ الاهتداء، فتعجل النعيم الصاحب فهو أقرب الأقارب.

ومن ذلك أعزّ الأقارب المقارب من الباب ١٧٨: للمقارب الحنان من الرحمٰن لأن المقارب من الأقارب، ما تعلقنا بهذا السبب إلاَّ لما أثبته الرحمٰن من النسب، فلما جعل تعالىٰ بيننا وبينه نسبا وأعلمنا أنه التقوى اتخذناه سببا، فأتقيناه به منه كما أخبر ﷺ عنه فقال: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**» فقلنا له: أخذنا هذا عنك، فهو صاحب الحجة والآتي إلينا بالمحجة، له المحجة البيضا والحجة الغرّا، أمته المتطهرون وهم الغرّ المحجلون، تحجيلهم دليلهم، لو كان لغيرهم هذا النعت المخصوص من الطهور ما اختصّت هذه الأمة المحمدية بهذا النور، فإنه قال ﷺ: «**ما تُعْرَفُ هٰذِهِ الأُمَّةُ المُحَمَّدِيَّةُ مِنْ سَائِرِ الأُمَمِ إلاَّ بِهِ**» فانتبه فوردت الأخبار المنصوصة بطهارة هذه الأعضاء المخصوصة، فأسبغناها طهوراً فجعل لنا بذلك غرراً وألبسها نوراً، فكان لهم بذلك التمييز والتعريف المقام الشريف والتشريف، فمن أسبغ طهوره تمّم الله له نوره، ومن ثنى وثلث فرح بذلك أكثر من صاحب الواحدة إذا تحنث، فصاحب الواحدة هو المقارب، وصاحب الاثنين والثلاثة من غير زيادة معدود في الأقارب، وإنما ظهر الرسول ﷺ بجميع الصور لبعثته إلى جميع البشر، ومنهم الرابح والخاسر المغبون، والعالي في ذلك والدون.

ومن ذلك قول العارف: «من وحد ألحد» من الباب ١٧٩: إنما قيل: «من وحّد ألحد» من أجل «مَنْ» فإنها تطلب العدد، يؤيد هذا التعريض كونها قد تأتي للتبعيض، ولا نشك أنه كلمة حق من قول في مقعد صدق، فإنه من وحد مال إلى الحق وتوحد، إذ الملحد هو المائل في لغة القائل، فإذا ألحد العبد ومال بلغ ما أمله من الآمال، وفي الكلام المقبول: من ألحد فقد أخلد إلاَّ أنه لما ألحد فهو لما قصد الإلحاد اللغوي لا بدّ منه ولا محيص لمخلوق عنه، ألا ترى إلى أصحاب الأعراف لما لم يبلغوا في هذا الاتصاف حدّ الإنصاف، كيف وقفوا بين الجنة والنار، فلا هم مع الأشرار ولا مع المصطفين الأخيار، فكانوا يخلصون إلى دار القرار أو إلى دار البوار، فلولا التلبيس ما حصلوا بين نعم وبئس، فنعم عقبى الدار للأبرار، وبئس عقبى الدار للفجار، اعتدلت كفتا ميزانهم فهذا كان من شأنهم، فلولا ما تفضل الحق عليهم فيما كلف الخلق به يوم القيامة من السجود إليه ما برحوا عليه، فلما سجدوا فيمن سجد رجحت كفة حسناته فسعد، فانفك من أسر السور ولحق بدار السرور.

ومن ذلك من أشرك ملك من الباب ١٨٠: الشرك في الألوهة مذموم وصاحبه محروم، والشرك في نعت العبيد بين ذميم وحميد، والمتصف به بين مرحوم ومحروم، فما ثم اسم لغير الحق عند من علم الأمر وتحقق، فأسماء الخلق أسماء الحق فماذا تخلق بما هو تحقق، والله ما افتريت عليه، ولا نسبت شيئاً إليه، ولا وصفته بوصف ولا أدرجت معناه في حرف، فهو سمّى نفسه لنا بما سمّاها، فجميع الأسماء إلى ربك منتهاها، ففرح وتبشبش وغضب وما بشّ ومل وتعجب وذهب مع عبيده كل مذهب وهو القديم وأنا المحدث فما ثم اسم حدث.

ومن ذلك من رحل حلّ من الباب الأحد والثمانين ومائة: عمّ الوجود وجوده، فمنه وفيه يرحل ويحلّ عبيده، فرحلة من يصطفيه إنما هي منه وإليه، وفيه الرب الكريم على الصراط المستقيم، فأثبت أمراً هو عليه وما ثم سواه، فانظر من يصل إليه، إنما جعل يده بناصيتك ابتغاء عافيتك، وهذا من كرمه وسابقة قدمه، فما ثم إلاّ مستقيم وعلى منهج قويم، لكونه بيد الكريم فلقد فزت بحظ عظيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] ذكره بالحجة وأبان له عن المحجة، ليقول كرمك غرني والكريم لا يضرّني، وهو الغيور على اسمه والمبقي في قلب عبده رسمه لسابق علمه.

ومن ذلك من حلّ لم يرحل من الباب ١٨٢: الحال المرتحل من يكرّر تلاوة ما أنزل، فانتهاؤه عين ابتدائه وبهذا حاز جميع أسمائه، فما حلّ إلاّ رحل وما رحل إلاّ حلّ، فرحيله حلوله وحلوله رحيله والكل سبيله، ولا يصحّ ذلك إلاّ في الحروف فإنها ظروف، فمن تكرّر له المعنى في تلاوته فما تلاه حق تلاوته، وكان دليلاً على جهالته، ومن زادته تلاوته علماً وأفادته في كل مرة حكماً، فهو التالي لمن هو في وجوده له تالي. ثم انظر في اعتنائه بعبده حين أعلمه بأنه في تلاوته عند مناجاته على قدمه فيقول العبد: «**الحمد لله رب العالمين**» فيقول الله: «**حَمدني عَبْدي**»، فجعل نفسه لعبده تالياً إذا أقام عبده لكلامه عزّ وجلّ تالياً، وقسم الأمر بينه وبينه ليميز من كونه فإن ثم من يقول بأحدية الكون في العين فلهذا فصل ليتبين ويتعين.

ومن ذلك ما ينكشف من الساق عند الفراق من الباب ١٨٣: كشف الساق كما يؤذن بالشدة كذلك يؤذن بسرعة انقضاء المدّة، مع كل زعزع رخاء وعند انتهاء الشدائد يكون الرخاء، من عزّ هان ومن افتقر استدان، إهانته تركه زهداً لا بل ترك طلبه قصداً، من استدان من غير حاجة مهمة فهو ناقص الهمة، من حكمت عليه معرفته فقد تنقصه همته، مع غناه عن القرض وقد أقامه سبق العلم مقام الفرض، فدخل تحت حكمه لقوّة سلطان سابق علمه ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١] والفرض شيء وهو خازنه، فلا بدّ من ظهور أثره في بشره جاء ذلك في خبره، كشفت الحرب عن ساقها وعقدت عليها أزرة أطواقها، فاشتدّ اللزام وكانت نزال لما عظم القيام، وجاء ربك في ظلل من الغمام، والملائكة للفصل والقضاء والنقض والإبرام، وعظم الخطب واشتدّ الكرب، وماج الجمع بحكم الصدع ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] ثم إلى النعيم المصير.

ومن ذلك العلم والمعرفة بالذات والصفة من الباب ١٨٤: المعروف الذات والمعلوم الصفات، من عرف نفسه عرف ربه، ما وسع القلب ربه حتى علم قلبه، العلم ما علم بالعلامه، فالعالم علامه، فلا تعلم ذات إلا مقيدة وإن أطلقت، هكذا عرفت الأشياء وحققت، فالإطلاق تقييد في الأرباب والعبيد، والتحديد لباس وفي التحديد الالتباس، فاحذر من اللبس فإنه من أخفى ما يكون في النفس، أين علم المريد والناس في لبس من خلق جديد، الخلق مع الأنفاس وهو فيها في خلع ولباس، ولا يشعر بذلك إلا قليل من الناس،

المعرفة أحدية المحتد والعلم ثنوي المشهد، ا لعلم يتعلق بالإلٰه، والمعرفة تتعلق بالرب وتنفي الاشتباه، بالمعرفة يزول الاشتراك وفيها يقع الارتباك، الذات مجهوله فلا تقل فيها علة ولا معلوله، ولا يصح أن تكون لحق محققه، ولا لشرط مشروطه، ولا لدليل مدلوله، وجه الدليل يربط الدليل بالمدلول، والذات لا ترتبط، وقد خاب من اشترط ووقع في الغلط.

ومن ذلك مراتب الأحبة في منزل المحبة من الباب ١٨٥ : الأحباب أرباب والمحبوب خلف الباب، المحب رب دعوى فهو صاحب بلوى، لولا دعوى المحبة ما وقع التكليف، ولولا المحبة ما طلبنا الجزاء من اللطيف، المحبوب إن شاء وصل وإن شاء هجر، فإذا ادّعى محبة محبه اختبر، فالمحب في الاختبار والحبيب مصان من الأغيار، ولهذا لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، للأحبة منزل في المحبة، فحبيب جنيب وحبيب قريب، فالمحب إذا كان ذا جنابه فما هو من القرابه، وإذا لمن يكن جنيباً كان قريباً، قرب الحبيب بالاشتراك في الصفة، وجنابته في عدم الاشتراك فيها كما أعطت المعرفة، تقرّب إليّ بما ليس لي لما طلب القرب الوليّ، والذي ليس له الذلة والافتقار فهو الغنيّ العزيز الجبار، والمتكبر خلف باب الدار، انظر إلى ما أعطاه الاشتراك والدعوى من البلوى هو في النزوح بالجسم الصوري والعقل والروح، ولهذا لا يتجلى لمن هذه صفته إلاّ القدوس السبوح، فالنزيه للعين لا يقول بالاشتراك في الكون.

ومن ذلك إيضاح السبيل في إلحاق محمد بالخليل من الباب ١٨٦ : اللهمّ صلّ على محمد كما صلّيت على إبراهيم في العالمين، لمن هو في هذه الحال من الأبرار ومن المقربين، أين هذه العلامة من قوله: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» وأنه يفتح باب الشفاعة دون الجماعة للجماعة، ومن الجماعة الخليل بذلك المقام المحمود الجليل، كان لآدم السجود ولمحمد المقام المحمود، بمحضر الشهود، يا ليت شعري هل تقوم الخُلَّةُ بكون رسالة محمد التي تعمّ كل ملّة؟ وبما أوتي من جوامع مناهج الأدلة، ولا ينال الخَلَّةَ إلاّ من سدّ الخَلَّة، محمد صاحب الوسيلة في جنته، وما نالها إلاّ بدعاء أمته، وأين أمته منه في الفضيلة؟ ومع هذا بدعائهم نال الوسيلة، والمدعو له أرفع من الداع، فلتكن لما أورده من الصلاة على محمد كالصلاة على إبراهيم الحافظ الواعي، ونحن المؤمنون العالمون بسيادته وخصوصية عبادته، وأين المقام المحمود من مقام السجود؟ سجد المقرّبون والأبرار لبناء قائم من التراب والأحجار، فالمجد الطريف والتليد فيمن اختصّ بالمقام الحميد.

ومن ذلك الشوق والاشتياق للعشاق من الباب ١٨٧ : الشوق يسكن باللقاء، والاشتياق يهيج بالانتقاء، لا يعرف الاشتياق إلاّ العشاق، من سكن باللقاء قلقه فما هو عاشق عند أرباب الحقائق، من قام بثيابه الحريق كيف يسكن؟ وهل مثل هذا يتمكن؟ للنار التهاب وملكة فلا بدّ من الحركة، والحركة قلق فمن سكن ما عشق، كيف يصحّ السكون وهل في العشق كمون، هو كله ظهور ومقامه نشور، العاشق ما هو بحكمه وإنما هو تحت حكم سلطان عشقه، ولا بحكم من أحبه هكذا تقتضي المحبة، فما حبّ محبّ إلاّ نفسه، أو ما عشق عاشق إلاّ معناه

أو حسّه، لذلك العشاق يتألمون بالفراق، ويطلبون لذة التلاق، فهم في حظوظ نفوسهم يسعون، وهم في العشاق الأعلون، فإنهم العلماء بالأمور، وبالذي خباه الحق خلف الستور، فلا منة لمحب على محبوبه فإنه مع مطلوبه به، وما له مطلوب ولا عنده محبوب ومرغوب، سوى ما تقرّ به عينه ويبتهج به كونه، ولو أراد المحب ما يريده المحبوب من الهجر هلك بين الإرادة والأمر، وما صحّ دعواه في المحبة ولا كان من الأحبة، ففكر تعثر.

ومن ذلك الاحترام والاحتشام من الباب ١٨٨: لا تقع منفعة من غير محترم فاحترم، ولا تنفع هبة إلاّ من محتشم عندك فاحتشم، فمن قام بالخدمة وطرح الحرمة والحشمة، فقد خاب وما نجح، وخسر وما ربح، الخادم في الإذلال لا في الإدلال، ما للخادم وللدلال وماله وللسؤال، إن لم يكن الخادم كالميت بين يدي الغاسل لم يحل من مخدومه بطائل، إذا دخل الخادم على مخدومه واعترض ففي قلبه مرض، ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] وهم لا يشعرون ولا يعلمون، من رمى حرمته قلبك فما هو ربك، فجنب خدمته وصحبته حتى تجد حرمته، فإذا وجدتها فارجع إليه، هكذا أجمع أهل الله فيما عوّلوا عليه، ذكر ذلك القشيري في رسالته في احترام الشيخ ومواصلته بالحرمة تنال الرغائب في جميع المذاهب، من حسن ظنّه بحجر انتفع به في مذهبه.

ومن ذلك الإيقاع للسماع من الباب ١٨٩: الإيقاع أوزان والله وضع الميزان، الوجود كله موزون فلا تكن المحروم المغبون، وما ننزله إلاّ بقدر معلوم وهو عين الوزن المفهوم، له الاسم الحكيم في الحديث والقديم، فالميزان حاكم وبه ظهرت المقاسم، ومن جملتها الإيقاع للسماع، فلهذا هي حركة السامع فلكيه إذا كانت صادقة عن فناء ملكيه، فإن كانت نفسيه فليست بقدسيه، وعلامتها الإشارة بالأكمام والمشي إلى خلف وإلى قدام، والتمايل من جانب إلى جانب والتصرّف بين راجع وذاهب، ومن هذه حاله فما سمع ولا أثر فيه الموقع بما وقع، فمثل هذا أجمع الشيوخ على حرمانه بين إخوانه، فمن ادّعى سماع الإيقاع في الأسماع وماله وجود فهو من أهل الحجاب والمحجوب مطرود، هل ظهر عن «كن» إلاّ الوجود؟ وهذا سار في كل موجود، ولذلك قرن الإعدام بالمشيئة فلا تبع بالنسيئة.

ومن ذلك ما هو السماع الذي عليه الإجماع من الباب ١٩٠: السماع الذي عليه الإجماع ما كان عن الإيقاع الإلٰهيّ والقول الرباني، فلا ينحصر في النغمات المعهودة في العرف فإن ذلك الجهل الصرف، الكون كله سماع ولكن عند صاحب الأسماع، من قام به الطرش لم يفرح يوماً بالدهش، ولا كان عنه كون ولا ظهر منه عين، ما أشبه الليلة بالبارحه عند صاحب السماع بالقلب والجارحه، أنت الليلة وهو البارحة، فأين من له لفقد مثل هذا نفس نائحه، فعذبها عدم النسب، وشغلها بتقييد اللهو والطرب عن هذا النسب، فإن النسب هو القربى في الإلٰهيين والرّبانيين، فالسماع المطلق لمن تحقق بالحق، فإنه ما خصّ بكن كوناً من كون، ولا توجهت على عين دون عين، فالكل قد سمع بما قد صدع، فمن قيد السماع بالأوزان والتلحينات المقسمة بالميزان، فهو صاحب جزء لا صاحب كل وهو على مولاه

كل، مولاه أوّل زاهد فيه ولهذا لا يصطفيه، كيف يقيد المطلق من ادّعى أنه بالحق تحقق، من سرى في الوجود تقييده صحّ إيمانه وعلمه وكشف وتجريده وتوحيده.

ومن ذلك كرامة الله بأوليائه في أسمائه من الباب الأحد والتسعين ومائة: من تصرف في أسمائه كان من أوليائه، الأسماء بحكم العبيد، ولهذا صحّ التخلق بها في الوجود، لا بل التحقق المقصود من فك المعمى لم ينظر الأسماء من حيث دلالتها على المسمّى، فإن ذلك لا يتخلق به بل يتحقق به المتنبه للأسماء دلالتان ولها تعلقان: التعلق الواحد دلالتها على المسمّى الواحد الذي يجتمع فيه الأسماء كلها من غير أمر زائد، والدلالة المطلوبة ما تتميز به الأسماء من المعاني كما تميزت بالألفاظ والمباني، فالمباني كالعالم والعليم والعلاّم، والألفاظ مثل هذا، وكالخالق والقادر في الأحكام، فانظر في هذه الأقسام فإذا علمتها فأنت الإمام المقدم على جميع الأنام والملائكة الكرام، هذا علم أبيك فاجعله قوتك فإنه لن يفوتك، فكل كرامة لا تتصل بالقيامة فما هي كرامة، واحذر من الاستدراج في المزاج.

ومن ذلك ما للأنام من الإكرام من الباب ١٩٢: الإكرام الإلٰهي في الأنام الرؤية والمشاهدة والكلام، الرؤية هي المنية، والمشاهدة رؤية الشاهد وهي ترجع إلى العقائد، فهي تعرف وتنكر والرؤية لا يدخلها إنكار فتبصر، والكلام ما أثر ولا يدخله انقسام، فإذا دخله الانقسام فهو القول وفيه المنة الإلٰهية والطول، القرآن كله قال الله وما فيه تكلم الله وإن كان قد ورد فيه ذكر الكلام ولكن تشريفاً لموسىٰ عليه السلام، ولو جاء بالكلام ما كفر به أحد لأنه من الكلم فيؤثر فيمن أنكره وجحد، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] كيف سلك به نهجاً قويماً؟ فأثر فيه كلامه وظهرت عليه أحكامه، فإذا أثر القول فما هو لذاته بل هو من الامتنان الإلٰهيّ والطول، ففرّق بين القول والكلام، تكن من أهل الجلال والإكرام، كما تفرّق بين الوحي والإلهام، وبين ما يأتي في اليقظة والمنام.

ومن ذلك من رأى السعادة في العادة من الباب ١٩٣: حكمة العادة في علم الشهادة إثبات الإعادة أن الإيمان بها يعطي السعادة، العادة عود الحق إلى الخلق، وإن اختلفت الصور ففيه إثبات الغير، فلا تجريح فإنه العلم الصحيح، لا تكرار في الوجود وإن خفي في الشهود، فذلك لوجود الأمثال ولا يعرفه إلاّ الرجال، لو تكرّر لضاق الطاق ولم يصحّ الاسم الواسع بالاتفاق، وبطل كون الممكنات لا تتناهى، ولم يثبت ما كان به تباهى، من قال بالرجعة بعدما طلق فما طلق، وكان صاحب شبهة فيما نطق أنه به تحقق، وإن لم يكن كذلك فهو أخرق، وكلامنا مع العاقل العارف بهذه المعاقل، فإنه عن العلم بمثل ما ذكرناه ليس بغافل، الطلاق الرجعي رحمة بالجاهل الغبي، ولو قلنا في الرجال بالرجعة في الطلاق، خرقنا في ذلك ما جاء به أهل الله من الاتفاق، فإنه نكاح جديد ولذلك يحتاج إلى شهود أو ما يقوم مقام الشهود، من حركة لا تصحّ إلاّ من مالك غير مطلق وكذا هو عند كل محقق، فمذهب أهل الأسرار لا تكرار مع ثبوت العادة والإيمان بالإعادة، ولكن كما شرحناه وبيناه للناظر وأوضحناه، وبه عند كل ذي إذن أفصحناه، فإذا علمت فتصرف في العبارات كيف شئت، فما

يعلم كما بدأكم تعودون إلاَّ من علم وننشئكم فيما لا تعلمون، فمن آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقاً والجاهل الظالم نفسه صدقاً.

ومن ذلك الإعجاز في الصدق والإيجاز من الباب ١٩٤ : أريت في الواقعة الجامعة حقيقة الإعجاز في النطق بالصدق، فاصدق في نطقك تكن المعجز فأسهب بعد ذلك أو أوجز، فإن الغاية في الإعجاز المبالغة في الإسهاب والإيجاز، فما من آية إلاَّ هي أكبر من أختها وإن تولدت عنها وقامت لها مقام بنتها، فقد يكون في الشاهد الولد أعظم في القدر من الوالد، وأما في الغائب فهو غير صائب إلاَّ في موضع واحد وهو ما تولد عندك من معرفتك بربك عند معرفتك بنفسك وإن كان ليس من جنسك، فذلك العلم لهذا العلم كالولد وهو أعظم قدراً من الوالد عند كل أحد، وما سوى هذا وأمثاله في الغائب فليس بصائب، فلا تقس الغائب على الشاهد في كل موطن فإنه مذهب فاسد، يرحم الله أبا حنيفة ووقاه من كل خيفة، حيث لم ير الحكم على الغائب وهو عندي من أسد المذاهب، وأحوط من جميع الجوانب.

ومن ذلك رتبة وحي المنام من الكلام من الباب ١٩٥ : النبوّة في المبشرات مخبوءة، فمن لا مبشرة له لا نبوّة له وإن لم تكن نبوّة مكملة، وإن كانت بالمقام الرفيع وهو التشريع، ولكن إذا تحقق الرائي لديه من يوحي بذلك إليه حينئذٍ يعول عليه فإن أوحى به الرسول فله أن يقتصر بذلك على نفسه ويقول، فإن تحقق عند السامع حقّه وثبت عنده صدقه تعين في ذلك اتباعه وحرم عليه قِرَاعُه، فإن كان ناسخاً لحكم ثبت بخبر الواحد فالأخذ به معين عند الواجد، وبقي النظر والتكملة في المقلد له، فإن كانت العدالة على السواء فصاحب الرؤيا أولى بمحجة الاهتداء، فحكم وحي المنام بشرائطه حكم اليقظان بالدليل النقلي والبرهان، وهو بمنزلة الصاحب في السماع والتابع إياه بمنزلة الأتباع، فإن كان الموحي بذلك الحق تعالى أو الملك إليه فتناوله بحسب الصورة التي نزل بها عليه، ولا يتخذ ذلك شرعاً يتعبده وإن كان يحمده، وهذه فائدة سرجها متوقدة من شجرة مباركة من تشاجر الأسماء ويكفيك هذا الإيماء، فاعمل بحسبه واعلم قدر منصبه.

ومن ذلك نظم السلوك في مسامرة الملوك من الباب ١٩٦ : الذي يختاره الملك لمسامرته ويصطفيه بسامره بالاسم الذي يتجلى له الملك فيه، فهو بحكم تجليه في تحليه، فيتنوّع السمر كما تتنوّع في العقود الدرر، وعلى هذه الصورة يكون الخبر والحديث، فتارة في القديم وتارة في الحديث، فإذا كان السمر في تدبير الملك كان بحكمه وتحت سلطان اسمه فيتخيل في الملك أنه مخدوم وهو بما يحتاج الرعايا إليه عليه محكوم، وإن لم يكن كذلك فليس بملك ولا مالك، وقد يكون السمر في شأن المنازع وتعيين المدافع، وما يصرفه في ملكه في صبيحة ليلته من المضار والمنافع، فاختصاص المسامرة بالاسم الضار والاسم النافع، فما له حديث إلاَّ في الحدوث، لا يصحّ من النديم الحديث في القديم، ولهذا قال في كلامه تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] مع علمنا بقدمه وهو عين كلمه، فكثره ووحده وقسمه وأفرده، وأنزله وأحدثه وناجى به المسامر وحدثه، فمن

المسامرين المستغفرون، ومنهم التائبون الحامدون الراكعون الساجدون، فلا يزالون في هذا رغبة في المثوبة والأجر حتى ينصدع الفجر، ولذا يبكر بالصبح ويغلس في أوّل ما يتنفس.

ومن ذلك المسافر منافر من الباب ١٩٧ : السفر قطعة من العذاب لما يتضمنه من فراق الأحباب، فالمسافر منافر في سفر الأكوان والنزوح عن الأوطان، الرحمن ينزل كل ليلة من عرشه إلى سمائه بجميع أسمائه، وفي القيامة ينزل بعرشه إلى فرشه، وقد قيل في السفر للمسافر خمس فوائد: [الطويل]

تَـفَـرُّجُ هَـمٍّ واكْـتِـسَـابُ مَـعِـيـشَـةٍ وعِـلْـمٌ وآدابٌ وصُـحْـبَـةُ مَـاجِـدِ

لا هم إلاّ هم الوحيد لما هو عليه من التفريد، ففي وجود الخلق مؤانسة الحق، واكتساب المعيشة ما يأتي إليه به الأرسال من أعمال العمال، وعلم في سرّ قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] فافهم. وآداب ما يأتون به من جميع الخير طلباً لحسن المآب، وصحبة ماجد مثل الداعي والسائل والمستغفر والتائب وهو القاصد، فصحّ ما نظمه الشاعر في السفر للمسافر، فالسفر صفة الحق ولا يطلق إلاّ على الخلق، فهو في الحق نزول وفي الخلق عروج ورحيل.

ومن ذلك الثلاثة نفر في السفر من الباب ١٩٨ : الحق والملك والغمام اثنان الله ثالثهما والسلام، فالركب المحفوظ بعين الله ملحوظ، الواحد شيطان لبعده عن الجماعة، والاثنان شيطانان لعدم الناصر وتوقع ما تقوم به الشناعة، والثلاثة نفر وهم أهل الأمان غالباً في السفر، التثليث من أجل المحدث والمحدث والحديث، ما كفر القائل بالثلاثة وإنما كفر بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة: ٧٣] فلو قال: ثالث اثنين لأصاب الحق وأزال المين: «**ما ظنُّكَ باثْنَين الله ثالثهما؟**» يريد أن الله عزّ وجلّ حافظهما يعني في الغار في زمان هجرة الدار من أصعب أحوال الإنسان فراق الأوطان، فمن كان وطنه العدم في القدم كانت غربته الوجود، وإن حصل له فيه الشهود، فهو يحن إلى وطنه ويغيب عند شهود سكنه، والفناء حال من أحوال العدم عند من فهم الامور وعلم، فما يطلب أهل الله إلا لأجل الفناء عن الوجود، وأما بعض العبيد فلما فيه من الجود كما أن منزل الحق التوحيد فيفنيهم عند الشهود لحصول التفريد، والله على ما نقول شهيد. وقد قال أهل اللسان إنه الآن على ما عليه كان نعني من التنزيه ونفي التشبيه.

ومن ذلك الحالُ ما حلّ وحالَ من الباب ١٩٩ : الحال ما حال فالوجود كله حال، لا يصحّ الثبات على شأن واحد لما تطلبه المحدثات من الزوائد، فالأمر شؤون فلا يزال يقول لكل شيء كن فيكون، ثم إنه عندما يكون يستحيل فتظهر وفي وطنها تقيل، ما لها قوّة على فراق السكن ولا النزوح عن الوطن، فترجع إلى العدم في الزمن الثاني من غير تواني، فهو يخلق وهي تنفق؛ الوجود كله تعب، ولذا قال له: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٧ ـ ٨] فما فرغ إلاّ اشتغل، ولا انقضى عمل إلاّ استعمل، وكان في العدم صاحب راحه لأنه في موطن الاستراحه، إذا كان الرحمٰن ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمٰن: ٢٩] فما ظنك بالأكوان ما قال بأن العدم هو الشرّ إلاّ من جهل الأمر إنما ذلك العدم الذي ما فيه عين ولا

يجوز على المتصف به كون وليس إلا المحال فذلك العدم هو الشرّ المحض على كل حال، وأما العدم الذي يتضمن الأعيان فذلك عدم الإمكان فهي أعيان تشهد وتشهد فهي الشاهد والمشهود في حال العدم والوجود، فإلى الأحوال هو المآل إليه، حن الإنسان ومال، ومن هنا يثبت شرف الذوق والحال.

ومن ذلك مقام المنزلة في البسملة من الباب الموفي مائتين: المكانة أمانة فلا تجرحها بالخيانة، فإن الله أمر بأدائها إلى أهلها، فقبولها عرض وأداؤها فرض، وما يقبلها إلاّ من جهلها، والقابل لها بطريق الجبر مضطرّ، فعذره مقبول وليس بالظلوم الجهول، والقابل لها بالاختيار مدخل نفسه تحت حكم الاضطرار فيعود مملوكاً وقد كان مالكاً وكان ناجياً فعاد هالكاً، قال رسول الله ﷺ في الإمامه أنها ندامة يوم القيامه، وذلك الأمير المختار لا من أخذها بحكم الاضطرار، فمن أعطيها أعين عليها ومن طلبها وكّله الله إليها، وإن كانت منزلتها رفيعه فحجبها منيعه، فإن وليت فاستقل ولا تشتغل، فإن جبرت ولا بدّ فاحفظ العهد وأوف بالعقد، فالعالم برتبتها إذا وليها حذر لأن مقامها خطر، فإياك وإياها وتحفظ من منتهاها.

ومن ذلك المكانة أمانة من الباب الواحد ومائتين: إنما يصحب صاحبها الملل ويقوم به الكسل، لما فيها من مراعاة الحقوق وهو أمر يصعب على المخلوق، فاعتزل عن صحبة ما يورث الملل، والملل سببه الجهالة بالخلق الجديد ولذة المزيد، فالملول جهول وفيه أقول: [البسيط]

أُوصِيكَ أُوصِيكَ لا تَصْحَبْ أخا مَلَلِ ... ولا تَقُلْ إنه من نَعْتِ ذي الأزَلِ
لأن ذلك أَمْرٌ ليس يَعْرِفُهُ ... إلاّ الذي لم يَقُلْ في الحَقّ بالعِلَلِ
وإنّ ذلك أَمْرٌ ليس يَجْهَلُه ... إلاّ الذي قال خَلْقُ الخَلْقِ بالحِيَلِ
إن المَلالَةَ لا تُعطيك صُورَتَها ... إلاّ المَلامَ فكُنْ منها على وَجَلِ
فما يَمَلُّ جوادٌ من جَدًى أبداً ... إن الكريم على الإنعام ذو حِيَلِ
إن كان وَاجِدَ مالٍ فهو يَبْذُلُهُ ... وما أرى لك في الإفلاس من مَلَلِ
ليس الملالةُ في النُّعْمَى إذا وَرَدَتْ ... إن الملالةَ في الإفلاس تظهرُ لي
فكل جُودٍ فإفلاسٌ يُحَقِّقُهُ ... فَقْدُ الجَوادِ له فانْظُرْهُ في مَهَلِ
لو كانَ يُعْطِيكَ ما تحتاجُ راحَتُه ... إليه لاتَّصَفَ المعلومُ بالبَخَلِ
إن الكريم الذي يعطيك حاجَتَهُ ... وذا مقالٌ أنا منه على خَجَلِ
الحَقُّ مُرٌّ ولا يَحْلُو لذائقه ... إلاّ إذا كان ذا حُكْم على الدُّوَلِ

ومن ذلك الشطح من الفتح من الباب ٢٠٢: من شطح عن فنا شطَح، وهذا من أعظم المنح، إلاّ أنه يلتبس على السامع، فلا يعرف الجامع من غير الجامع، ولهذا الالتباس جعله نقصاً بعض الناس، من باب سدّ الذريعة لما فيها بالنظر إلى المخلوق من الألفاظ الشنيعة، التي لا تجيزها لهم الشريعة، فمن تقوى في هذا الفتح، وعلم من نفسه أنه ليس بشاطح، لم يظهر عليه شيء من الشطح، فلا يظهر الشطح، من صاحب هذا الوصف، إلاّ إذا كان في

حاله ضعف، إلاّ أن نبين ذلك عند الواصل والسالك، ألا ترى إلى ما قال صاحب القوّة والتمكين في إنفاذ الأمر: «**أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ**» فانظر إلى أدبه في تحليه، كيف تأدب مع أبيه، وما ذكر غير إخوته، فالأديب من أخذ بأسوته، فإن ربه أدّبه، ومن أدّبه الحق أنزل الناس منازلهم لما تحقق.

ومن ذلك الطالع ضليع لا ظالع من الباب ٢٠٣: الطالع يتأخر لأنه به تعثر، والضليع تقدم ليكون في الصف المقدم، ألا ترى المسمّى بالأوّل كيف رغب في الصف الأوّل، وحكم فيه بالاقتراع لما فيه من الاعتلاء والارتفاع، فالظالع يدافع المنازع، فهو علم في رأسه نار لما يأتي به من الأخبار، فيستفهمه من ورد عليه لينظر فيما أتى به إليه، كان طالع موسىٰ الجبل وطالع الخليل النور الذي أفل، فأعقب ذلك الأفول الحق كما أعقب اندكاك الجبل الصعق، فما أصعق الكليم إلاّ الذي دكّ الجبل العظيم، فما أفاق الكليم من صعقته إلاّ لما بقي عليه من أداء نبوته، وإن كان الإنسان أقوى من الجبال ولا سيما إذا كان من الأبدال، وقد صحّ ذلك بالخبر النبويّ عن الله العليّ، ولكن قد ثبت عنه في الكتاب المكنون، أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فدخل تحت هذا المقال ما في الأرض من الجبال، فسلم تسلم وافهم الأمر واكتم.

ومن ذلك الإياب ذهاب من الباب ٢٠٤: الذهاب إليه إحالة منه عليه، من أمرك في يديه فأنت لديه، ما برحنا منه حتى نسأل عنه، هو المشهود في كل عين والشاهد كل كون، فهو الشاهد والمشهود لأنه عين الوجود، فمن عرفه سمّاه وما وصفه، ما ورد خبر بالصفات لما فيها من الآفات، ألا ترى إلى من جعله موصوفاً كيف يقول: إن لم يكن كذلك كان مؤوفاً، وما علم أن الذات إذا قام كمالها على الوصف فإنه حكم عليها بالنقص الخالص الصرف، من لم يكن كماله لذاته افتقر بالدليل في الكمال إلى صفاته، وصفاته ما هي عينه فقد جهل القائل أن الصفة كونه، فأين تذهبون ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧] ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ [النساء: ١٣٣] أيها الناس وقد أذهبهم بما وقع بهم من الالتباس.

ومن ذلك التنفيس تقديس من الباب ٢٠٥: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧ ـ ١٨] إنه للرحمٰن الناصر، الذي ليس في نصره بقاصر، الناصر المؤتمن الآتي من قبل اليمن، نصر بالصبا لما فيها من الميل والحنان، وهو النفس الذي في الإنسان، لذلك ورد في الأخبار أنه كناية عن الأنصار، في الهبوب إلى المحبوب تنفس المكروب، ما ثم إلاّ تنفيس لذلك هو تقديس، وإن كان يتضمن في الكرب فإنه من جملة القرب، والحقيقة تعطي ذلك لاختلاف الأغراض، وما في القلوب من الأمراض، مصائب قوم عند قوم فوائد، فكل ما زاد عليه فهو من الزوائد، لا يعرف الزائد إلاّ الواحد، وأما واحد الكثرة فلا يعرف بالزائد لأن عين كثرته واحد.

ومن ذلك الأسرار في الإصرار من الباب ٢٠٦: الإصرار الإقامة والأسرار مكتمة إلى يوم القيامة، لولا حضور الأغيار ما كانت الأسرار، السرّ ما بينك وبينه وما هو أخفى ما يستر

عنك عينه، فلا يعلم الأخفى إلاَّ الله الواحد، والسرّ يعلمه الزائد، وما زاد فهو إعلان وزال عن درجة الكتمان، لا تودع سرّاً، إلاَّ من كان مصراً، فإنه يقيم على الود، ويفي بالعهد، ويصدق في الوعد، ويستوي عنده القبل والبعد، لأنه في الآن وهو حقيقة الزمان، من أعجب ما يعتقده أهل التوحيد، وصفه بالقريب البعيد، قريب ممّن هو بعيد عمّن هو أقرب من حبل الوريد إلى جميع العبيد، ومع هذا يقال للإنسان هل امتلأت؟ فيقول: هل من مزيد؟ مَنْ جهنم طبيعته عصمته شريعته.

ومن ذلك الاتصال ليس من مقامات الرجال من الباب ٢٠٧: [السريع]

كُـلُّ اتِّـصَـالٍ مُـعْـلَـمٌ بـانْـفِـصَـالْ ... ولـيـس هـذا مـن مَـقَـامِ الـرِّجَـالْ

وأيضاً: [السريع]

مـا شَـفَـعَ الـوَاحِـدَ إلاَّ الـذي ... أثْـبَـتَ بـالأغْـيـار عَـيْـنَ الـكَـمَـالْ
مـن لـم يَـكُـنْ فـي ذاتـه كـامـلاً ... فـمـا لـه عـن نَـقْـصِـهِ مـن زَوَالْ
وكـل مـن يَـكْـمُـلُ مـن غـيـره ... فـذاتـه تـشـبـه ذات الـظّـلالْ
يَـفْـتَـقِـرُ الـظـلُّ إلـى نُـورِهِ ... وجِـسْـمِـهِ الأكْـثَـفِ فـي كـل حَـالْ
وأيـن عَـيْـنُ الـجـسـم حـتـى يـرى ... عـيـنـي لـه ظِـلاً وهـذا مُـحَـالْ
فـاعـتـبـروا مـا قـلـتُـه إنـنـي ... مـا قـلـتُـه إلاَّ لـضَـرْبِ الـمِـثَـالْ
مـا كُـلُّ عِـلْـمٍ عـنـد أهـل الـحِـجَـى ... يُـدْرَى بـه يـدخـلُ تـحـت الـمَـقَـالْ

إنما يتصل الأجنبيّ وما يقول به إلاَّ الغبي، نفى الكتاب المنزل المثلية وإنما الأعمال بالنية، فانظر إذا ما ورد أيّ شيء قصد.

ومن ذلك التفصيل في الإجمال جمال من الباب ٢٠٨: من فصل بينك وبينه أثبت عينك وعينه، ألا تراه تعالىٰ قد أثبت عينك وفصل كونك بقوله، إن كنت تنتبه: كنت سمعه الذي يسمع به، فأثبتك بإعادة الضمير إليك ليدل عليك، وما قال بالاتحاد إلاَّ أهل الإلحاد، وأما القائلون بالحلول فهم من أهل التفصيل، فإنهم أثبتوا حالاً ومحلاً وعيّنوا حراماً وحلاً، فمن فصل فنعم ما فعل، ومن وصل فقد شهد على نفسه أنه فصل، لأن الشيء لا يصل نفسه بنفسه إلا إذا كان الشيء أشياء وكان ذا أجزاء، وإنما الواحد كيف يصحّ فيه انقسام، وما ثم على عينه أمر زائد فالفصل لأهل الوصل.

ومن ذلك من راضه فقد أغاضه من الباب ٢٠٩: يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، فغيض الماء وارتفعت الأنواء، وقضي الأمر وظهر في النجاة السر، واستوت سفينة نوح عندما أقلعت السماء وشرقت يوح، على جوديّ الجود لتتم كلمة الوجود، بوالد ومولود إلى اليوم الموعود، فإنه لو انقطع الأصل لانقطع النسل، التواصل سبب التناسل، فإن كان عن نكاح فهو مع المطهرين من الأرواح، وإن كان عن سفاح فهو ممّن قصد بإيجاده الصلاح، وإن كان الكل عباده في عالم الغيب والشهادة، فكل قد علم صلاته وتسبيحه وإن لم نفقه تسبيحه، فإني مؤمن بأن كل عين مسبح بحمده في كل كون.

ومن ذلك التحلية صفة أهل الألوية من الباب ٢١٠: التخلق بمكارم الأخلاق دليل على كرم الأعراق، التحلية طواعية ما تحلّى من أدبر وتولى، من خصّ بالتحلي فهو دليل على صحة التحلي، المشاركة في الصفات دليل على تباين الذوات، بالشرك عرف الملك والملك زال الإفك بالشرك، التوحيد في الإلٰه من حيث ما هو إلٰه لا من حيث الأسماء فإنها للعبيد والإماء، بها يكون التحقق وهي المراد بالتخلق، قد قال في الكتاب الحكيم عن رسوله الكريم: إنه﴿ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة: ١٢٨] وقال سبحانه عن نفسه في كلامه القديم: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد: ٩] فقد عرفنا بأنه وصف نفسه بما وصفنا، فلولا صحة القبول منا ما أخبر بذلك عنا، وخبره صدق وقوله حق، فبمثل هذا الاشتراك كان الأملاك، وما من ذرة في الكون إلاّ ولها نصيب من هذه العين.

ومن ذلك المِنَصَّة لمن عرف ما نصه من الباب الأحد عشر ومائتين: الخلق مجلى الحق، فإذا نظرت فاعلم من تنظر كما علمت من ينظر، فإن نظرت في كونه بعينه فاحذر من بينه، وإن نظرت بغير عينه فقد فزت بعظيم بينه فبينه فصله ووصله ولهذا دلّ عليه عينه، على هذا وقع الاصطلاح عند الشرّاح، فهو من الأضداد كالجون في البياض والسواد وكالقرء في الطهر والحيض المعتاد، المنصات للأعراس والملوك فهي للتفرقة بين المالك والمملوك، نظم السلوك في السلوك، والتعب والراحة في الدلوك، والميل في الجور والعدل.

ومن ذلك الانفراد لأهل الوداد من الباب الثاني عشر ومائتين: الخلوة بالمحبوب هو المطلوب، والانفراد معه غاية الدعة والخروج من الضيق إلى السعة، لا يفرح بهذا الانفراد إلاّ أهل المحبة والوداد، ما هو منفرد من هو بحبيبه متّحد: [الرمل]

رُوحُـــهُ رُوحـــي ورُوحـــي رُوحُـــهُ إنْ يَـشَــأْ شِـئْـتُ وإنْ شِـئْـتُ يَـشَـا

توحدت الإرادة بين الأحباب، وإن تعدّدت الأعيان فإلى واحد المآب، الأمر عند أهل التحقيق في صادق وصديق، الصادقان يفترقان لأنهما مثلان والمثلان ضدان، والضد مدافع فلا تنازع، دخلت على بعض الشيوخ من أهل العناية والرسوخ بمدينة فاس فأفادني هذه المسألة وقال: احذر من الالتباس.

ومن ذلك ليس من الملة من قال بالعلة من الباب ٢١٣: الحق عند أهل الملة لا يصحّ أن يكون لنا علة لأنه قد كان ولا أنا فلماذا تتعنى؟ من كان علة لم يفارق معلوله كما لا يفارق الدليل مدلوله، لو فارقه ما كان دليلاً ولا كان الآخر عليلاً، الشفا من أحكام العلل في الأزل، ما قال بالعلة إلاّ من جهل ما تعطيه الأدلة، الأمر المحكم المربوط في معرفة الشرط والمشروط، عليه اعتمد أهل التحقيق في هذا الطريق، القول بالعلة معلول بواضح الدليل، أحكام الحق في عباده لا تعلل، وهو المقصود بالهمم والمؤمل، لو صحّ أن يؤمل مؤمل سواه ما ثبت أنه الإلٰه وقد ثبت أنه الإلٰه فلا يؤمل سواه، كما أنه عزّ وجلّ قد أمل من عباده ما أمل، فهو يريد الآخرة الآجلة ونحن نريد الدنيا العاجلة.

ومن ذلك من أغيظ انزعج ومن خوصم احتجّ من الباب ٢١٤: ما ظهر الشتاء والقيظ

إلاَّ بنفس جهنم من الغيظ، أكل بعضها بعضاً، فأقرضها الله فينا قرضاً، فأصاب المؤمن هنا من حرورها وزمهريرها ما يحول في القيامة بينه وبين سعيرها، فجازت من أقرضها في الدنيا بالخمود عنه عند جوازه على الصراط إلى محل السرور والاغتباط، نارها لا يقاوم نور المؤمن وهو الشاهد العدل المهيمن، حاج آدم موسىٰ وهو داء الأيوسى، الرجوع إلى القضاء والقدر منازعة البشر، الأدباء الأعلام يثبتون القضايا والأحكام، ويعتقدون القضا ويحاسبون أنفسهم بما مضى، ويخافون من الآتي أن يكون ممّن لا يواتي، فيطلبون الصون ويسألون من الله العون.

ومن ذلك المشاهدة مكابدة من الباب ٢١٥: المشاهدة رؤية الشاهد لا أمر زائد، فارتفعت الفائدة عن أهل المشاهدة، فعليك بطلب الرؤية في كل معتقد كما ينبغي لك أن تكون مؤمناً بكل ما ورد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦] فإن له الأمر من بعد ومن قبل، فالمشاهد لا يزال في الدنيا يكابد، فإذا حصل في الآخرة بين يديه ردُّ ما جاء به إليه، فأنكره في تجليه وجهله في تدليه، وتعوّذ به منه وهو لا يشعر أنه يأخذ عنه، عصمنا الله من هذه الجهالة وجعلنا ممّن عرف شؤونه وأحواله، فميز تحوّله حين جهله من جهله.

ومن ذلك المكاشفة مواصفة من الباب ٢١٦: من كشف عرف، ومن اتصف وقف، الشهود تقليد والكشف علم صرف، من اعتقد شهد معتقده، ومن علم عرف مصدره ومورده، ليس الصدور والورود من صفة أهل الشهود، هو مخصوص من العلماء من الرسل والأنبياء والأولياء، لولا الكشف ما علم الوليّ مقام المشرع النبيّ، مع عدم الذوق لتخصيص النبيّ بالفوق، لا يلزم من الإيمان القول بالجهة فلا يلزم الشبهة، الجهة ما وردت والفوقية الإلٰهية قد ثبتت، كشف ما نزل بالخلق بيد الحق، فالله الكاشف وأنت المكاشف، له تعالىٰ العمل ولك التعمّل، فاحذر أن تعمل في غير معمل، وأن تطمع في غير مطمع، وكن ممّن عرف فجمع.

ومن ذلك اللوائح منائح من الباب ٢١٧: من لاحت له بارقة من مطالبه فقد أبصر بنورها جميع مذاهبه، فهو يعلم كيف يتصرّف، وبمن تعرّف، فإن شاء تصرّف وإن شاء لم يتصرّف، على أن أهل التصوّف هم أرباب التشوّف، فهم يطمعون في كل مطمع وينزعون فيه كل منزع، هم أهل المنح وهم أهل الطرف والآداب والملح، أثنى رسول الله ﷺ على أصحاب المنيحة وجعلها من أفضل مديحه، لما فيها من الخير والرحمة والشفقة على الغير، ولا سيما إن كان من أهل الفاقة والاحتياج ومن تعبدته الحواج، اللوائح كشوف من المعروف، منح من شاء من عباده ما شاء من إرفاده هي من سني الهبات، وهي واهبة ما ستراه الجهل من العلوم النافعة من خاف البيات.

ومن ذلك التلوين تمكين من الباب ٢١٨: التلوين شأن المحدثات وتنوّعهم في صور الكائنات، هي آثار الحق في عالم الخلق، التلوين خلق جديد فلا يزال في مزيد، التلوين دليل واضح على التمكين، نزل في سورة الرحمٰن أنه عزّ وجلّ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٩]

والشؤون لا تنحصر فلا تقتصر، واليوم مقداره النفس فراقب الصبح إذا تنفس بما تنفس، واحذر من الليل إذا عسعس، فإنه فيه أبلس من أبلس، في الثلث الآخر من الليل البركه لوجود الحركه، الحركة تكوين فهي تلوين، ومع السكون لا يكون كن فيكون، له ما سكن في الليل والنهار وما أحسنه في الاعتبار، لأن ما تحرّك فيه مشاركة الأغيار، الدعوى حركة فهي هلكة، والسكون سلب فهو قرب وقلب، ولا تلوين إلاّ بالحركات فلهذا يحوي على جميع البركات، لا تصغ إلى قول من قال وفصل كل يوم تتلون غير هذا بك أجمل، من تخلق فقد تحقق.

ومن ذلك الغيرة حيرة من الباب ٢١٩: من غار حار، الغيرة ضيق وصاحبها متصف بالاشتياق والشوق، من فهم من الفوق الجهة فهو صاحب شبهة، الشوق يسكن باللقاء والاشتياق يهيج بالالتقاء، الغيرة به منوطة وعن غيره مسقوطة، من لم يعرف أن ثمّ غَيْرَهُ لم يتصف بالغيرة، ولا جعل الغيرة حيرة، كيف يغار من يحار، لا تثبت قدم لصاحب الحيرة مع إيمانه بالغيرة، بالغيرة تثبت الحدود وبها وقع التحجير في الوجود، من غار على الله فهو جاهل بالله، فهو الغيور الذي لا يغار عليه، فإن الحصر عليه محال ولا يثبت لديه، من غار عليه فقد حده ومن حده جعل عينه ضده أو ندّه، من غيرته حرم الفواحش فسلم ولا تناقش.

ومن ذلك الحرّ حرّ وإن مسّه الضرّ، والعبد عبد ولو مشى على الدُّرّ من الباب ٢٢٠: ما في الوجود حرّ دون تقييد فالكل عبيد، من تقيد بطلب الحقوق فهو مخلوق، ولكن بوجه مخصوص دلّت عليه النصوص، إن الله لا يملّ حتى تملوا، فارحلوا إن شئتم أو فحلوا، قيد نفسه في عقدكم فقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وفي هذا إشارة تفسدها العبارة، العبودية فينا حقيقة، والحريّة فينا لا تعطيها الطريقة، أين الحريّة مع الطلب؟ فالمحروم من حرم الأدب الذي قيل فيه إنه حرّ، ما غضب حتى مسّه الضرّ، من اتصف بالتأذي فحكمه حكم المتغذي، من كان المدح أحب إليه فقد عرفنا ما هو عليه، توسط النهر من قال إن الله هو الدهر، ليس في أمان ولا من أهل الإيمان من اعتقد أن الدهر الذي ذكره الشرع هو الزمان.

ومن ذلك تلطيف الكثيف من الباب الأحد والعشرين ومائتين: من تلطف التحق وانتقل من رتبة الباطل إلى رتبة الحق بالحق، لولا الكثيف والنور ما وجد الظل، وقد وجد فتعين المثل، عن المثل انتفت المماثلة، فانظر من الذي ماثله النور من الصفات، والظلّ على صورة الذات، ولا يكون المثل في الظلّ إلاّ بالشكل، من نظر إلى ظلّه عرف أن حكمه في الحركة والسكون من أصله، فتحرّك بحركته لا بتحريكه، لأنه لا يقبل التحريك في سلوكه، إن تعددت الأنوار تعددت صور الظلال فكثرت الأغيار، فلكل نور ظل من الجسم الواحد هكذا تراه في الشاهد، كلما كثف الجسم تحقق الظل، وأصل كل وابل الطلّ، كلما قرب النور من الجسم الكثيف عظم الظلّ فلم يتحقق المثل، وكلما بعد صغر فحقر.

ومن ذلك فتح الأبواب لأهل الحجاب من الباب ٢٢٢: العمى حجاب فإنه فائدة في فتح الباب، إنما تفتح الأبواب إذا كانت عين الحجاب، حينئذٍ ينفع فتحها ويتنفس صبحها، ولا فاتح إلاّ الله فلا تعتمد في فتحها على سواه، يتعلق الخوف بما خلف الباب والباب سبب

من جملة الأسباب، قد يفتح الباب بالعذاب، وقد يفتح ببركة سماوية يحصل بها الاستعذاب، والباب واحد ما ثم أمر زائد ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥] لا عمى إلاّ عمى القلوب التي في الصدور، ولكن في الصدور، وأما الورود فشاهد ومشهود، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى، ما جار القائل في قوله وما اعتدى، كما نحن اليوم كذلك نكون غداً، هذا قول العارف الزاهد المسمّى بعبد الفرد لا بعبد الواحد.

ومن ذلك الإمامة علامة من الباب ٢٢٣: الإمامة علامة وهي برزخ بين العطب والسلامة، فمن عدل غنم ومن جار ما سلم، من أقسط نجا ومن قسط كان على رجا، صاحب البيعة في نعمة المنعة، فلا يوصل إليه ولا يقدر عليه، فهو المنصور والواقف على السور، فإذا عزل سئل، وإذا سئل نصر أو خذل، وما دام في سلطانه فلا سبيل إلى خذلانه، فالقائم بالحق إذا نطق صدق، والقائم بالسيف وإن عدل فهو صاحب حيف، لأن الأصل معلول فصاحبه مخذول، ولا يقوم بالسيف المسلول إلاّ الرسول، فلا تفرح بالترهات وهيهات هيهات، الأصل الفاسد يحرم الفوائد، المقتصد يستبد، والظالم حاكم، والسابق لاحق يفوز بالسبق لأنه سبق ومن سعد لم يبعد.

ومن ذلك الطلول الدوارس رسوم الأوانس من الباب ٢٢٤: عفت الديار وطمست الآثار، برحيل الأحباب إلى حسن المآب، أثر الحبائب جوار الواهب، وتخلف العاشق يكابد المضايق، يقطع العلائق وطرح العوائق، فما ينفك من عائق إلاّ يظهر لعينه عابق، ما دام في محل الأنفاس ومحبس الالتباس، فإذا دعاه الجليل إلى الرحيل جاء سراحه واتقد مصباحه، فظهر له الحجاب المستور بهذا النور فلحق بالأحباب، وقيل له هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب فاز بمطلوبه من اتصل بمحبوبه، ولقد نجا من إلى الله التجا، فعمرت الديار بسكانها ولحق بالوجوب عين إمكانها فبقي محب ومحبوب وزال طالب ومطلوب.

ومن ذلك القابض عارض من الباب ٢٢٥: ما خرج عن الملك شيء حتى يحكم فيه القبض، وإنما يقال ذلك بالفرض السموات والأرض جميعاً فرضته ومن فيهما، وهما بالدليل الواضح قبضته، فما تتصرّف فيه الأفعال بماض ومستقبل وحال بل هو القابض لا بالحكم العارض، ما خرج شيء عنه فالكل به وإليه ومنه الطيّ ليّ، ومطل الغنيّ ظلم والاستناد إليه غنم، لا يقال مطل فيمن كان أداؤه إلى أجل، ولو كان أغنى الناس وهنا وقع الالتباس، الحق له الغنى ومن أقرضه بلغ المنى، ودع اللجاج فما هو محتاج، أنت من جملة خزائنه فما خرج الشيء عن معادنه، فما أعطى إلاّ من خزانته لما أعطته حقيقة مكانته، وحصلت أنت على الأجر إن فهمت الأمر.

ومن ذلك الباسط قاسط من الباب ٢٢٦: المقسط والقاسط استويا في العدول على ما تعطيه الأصول، فإن كل واحد منهما مائل فهو عادل، ولذا سمّي القاسط جائراً ولم يكن للعادل مغايراً، فالصفة واحده فكيف حرم الفائده، بأن الصبح لذي عينين لما هداه النجدين،

وأقيم المكلف في الوسط، فمنهم من أقسط ومنهم من قسط، فالمقسط أخذ ذات اليمين فارتفع إلى عليين، والقاسط أخذ ذات الشمال فنزل إلى سجين، فما عدل بكل واحد سوى طريقه، وطريقه ما خرج عن حكم تحقيقه، فالطريق ساقة وقادة إما إلى شقاء وإما إلى سعادة، فاعرف الطريق واختر الرفيق تنج من عذاب الحريق.

ومن ذلك الفناء في الفناء من الباب ٢٢٧: أكرم العرب أنتنهم عَذِرَة إذا كان له ما يجود به وإلاّ كانت المعذرة، ما يكثر الورّاد إلاّ على أرباب الأرفاد الأجواد، البخيل بابه مغلق والجواد جوده مطلق، إذا فنى الكريم عن جوده في حال جوده فهو الدليل على صحة وجده ووجوده، لا تقل في الجواد أنه بخل إذا منع من سئل، منع الجواد الناصح عطاء، وكشف الجاهل بالأمر غطاء، فإن الجواد العالم عطاؤه نعمه ومنعه لحكمه، فلا يتهم رب الكرم، كيف يتهم الفاني أنه بخيل بالفاني، وهو إذا آمن باللقاء فما جعل أعطيته إلاّ في خزانة البقاء، من نقل ماله من خزانته إلى خزانته كيف يقال بعلوّ منزلته في الجود ومكانته، فما حزن من ماله اختزن فلا كريم إلاّ القديم.

ومن ذلك الباقي يلاقي من الباب ٢٢٨: عظمت بالكرم مكانتي وما خرج شيء من خزانتي، لو لم يكن إلاّ الثناء فما ثم بيع ولا شراء، لا يقال في التاجر إلاّ بار وفاجر، ولا يوصف بالكرم فما في الوجود إلاّ تاجر لمن فهم، ما شيء أحب إلى الله من أن يمدح وما يمدح إلاّ بما منح، فما جاد الكريم إلاّ على ذاته بما يحمده من صفاته، وانتفع العير بالعوض بحكم العرض، وإن سعى الكريم في إيصال الراحة للمعطي ونفعه فلجهله بعطائه ومنعه، فمن كرم وجاد وتخيّل أن له فضلاً على العباد فما جاد، فإن الإحسان تبطله المنة مع طلب الامتنان، والمنة أذى فاعلم ذا.

ومن ذلك الجامع واسع من الباب ٢٢٩: لو لم يكن في الجامع اتساع ما كان جامعاً بالإجماع، قلب المؤمن جامع للواسع، فغاية اتساعه على مقداره، واتساعه على قدر أنواره، فتجول الأبصار على قدر ما تكشف له الأنوار، ويكون السرور على قدر ما يحصل لك من الكشف بذلك النور ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [النور: ٣٥] فقد عمّ الرفع والخفض، فصاحب البصر الحديد يدرك به ما يريد، ولهذا إرادة المحدث قاصره ودائرته ضيقة متقاصره، ألا تراه ألبسه على ما قلناه في الخبر" «**فيها ما لا عَينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بشر**»، وهي جنة محصورة والأمور فيها مقصورة، فكيف بمن لا يأخذه حصر ولا يسعه قصر؟ كيف ينضبط شانه أو يحدّ مكانه من مكانه؟ عينه جهل ولو عرف كونه.

ومن ذلك الطارق مفارق من الباب ٢٣٠: الطارق هو الآتي ليلاً يبتغي نيلاً، الصائد نهاراً وليلاً تفاؤلاً باسمهما ليجمع بينهما، فيقطع النهار صياماً والليل قياماً، فما قصدهما بالذكر دون سائر الطير، إلاّ لما يكون فيهما من الخير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١-٢] ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧] ثم أتمّوا الصيام إلى الليل تحصلوا على

جزيل النيل، النهار معاش والليل رياش، فليكن قوتك في معاشك الله ورياشك زينة الله، كذا قال سهل وهو للسيادة أهل، قيل له: ما القوت؟ قال: الله، قيل له: إنما سألناك عن الغذاء، قال: الله، قيل له: الذي يقوم به هذه البنية؟ قال: ما لكم ولها داع الدار إلى بانيها إن شاء عمرها وإن شاء خربها، وما تقوم إلاَّ بالله، فالعارف يقول في هذا الغذا ألغ ذا.

ومن ذلك الحكيم له التحكيم من الباب الأحد والثلاثين ومائتين: يعلم ما تعطيه المواطن في الظواهر والبواطن، لأنه الثابت القاطن، يعطي كل ذي حق حقّه اقتداء بربه الذي أعطى كل شيء خلقه، فالعارف بسرّه وقلبه من تأسّى بربه، العدل من شيمه، والقبول والإقبال من كرمه، لا يتعدّى الحكيم ما رتبه القديم العليم، من عرف الحكم تحكّم، ومن يعرف الحكم حكم، هو القاضي وإن لم يلي، وهو النبيّ وإن دعي بالولي، إشارة الوليّ في اللفظ لي، ومن كان له فقد بلغ أمله، فما حكم به الوليّ في الخلق أمضاه الحق، وإن ردّه الحاكم الجائر فقد ردّ كلام الواحد القاهر، فلا يلتف إلى ردّه فإنه من صدق وعده، وهو لا يخلف الميعاد فلا بدّ من ردّ أهل الإلحاد العقد الصحيح أن كل ما سوى الله ريح، كان بعض مشايخنا يقول من باب الإشارة: فسخّرنا له الريح، الريح تهب ولا تثبت فاثبت.

ومن ذلك الفوائد في الزوائد من الباب ٢٣٢: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] تزدد حكماً، من علم يرجع إليه فتوكل في تحصيله عليه، إنما سميت بالزوائد لأنه ما زاد على الواحد فهو زائد، وكل زائد واحد فما زاد عليه سوى نفسه، فقل بالشخص لا بنوعه وجنسه، فإن راعيت أحدية الكثرة فقد نبهناك على ذلك غير مرة، زوائد الحروف عشرة كالمقولات الجامعة بين العلل والمعلومات وقد أودعناها باب النفس بفتح الفاء من هذا الكتاب بين إيجاز وإسهاب، وحروف الزوائد أسلمني وتاه، فانظر ما أحسن هذا الجمع بالله ما أحس ما جمع ولقد قال فصدع، تاه المعروف والعارف فأين المعارف؟ تاه المعروف من التيه وتيه العارف بحيرته فيه، أسلم العارف لنفسه فأراد أن يلحقه بجنسه فلما تحقق علم أنه ما يلحق فأسلمه بأن قال: لا أحصي ثناء عليك فهذه بضاعتك رددناها إليك.

ومن ذلك الإرادة مستفادة من الباب ٢٣٣: الإرادة صفة اختصاص فلها المباص والمناص، ولهذا وصف نفسه بالمقدم والمؤخر، وتسمى بالأوّل والآخر، وقد كان ولا شيء معه فهو السابق، وهو الذي يصلي علينا فهو اللاحق، فالمنحة الإلٰهية والإفادة لا تكون إلاَّ لأهل الإرادة، والقائل في حدّ الإرادة بترك ما عليه العادة جهل من قائله، فإنه ما ثمّ عادة لأنها من الإعادة وما في الوجود إعادة، من أغاليط النفس القول برجوع الشمس وما رجعت ولا نزلت ولا ارتفعت، هي في فلكها سابحة غادية رائحة، غدوّها ورواحها حكم البصر وما يعطيه في الكرّة النظر، قرأ ابن مسعود: «والشمس تجري لا مستقرّ لها»، وقرأ غيره: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ [يسۤ: ٣٨] وكل ذلك صحيح لمن تأمل، فيا أيها الطالب تأمل: [مجزوء الرجز]

لـــهـــا قَـــرَارٌ مـــا لـــهـــا ... يـــا لـــيـــت شِـــعْـــري مـــا لـــهـــا
لا شَـــــكَّ أن رَبَّـــــنـــــا ... بـــذلـــكـــم أوْحَـــى لـــهـــا

لـو عـرفـوا مَـقَـرَّهـا مـا زُلْـزِلُـوا زِلْـزَالَـهـا
أخْـرَجَـتِ الـشـمـسُ لـنـا مـن أرْضِـهـا أثْـقَـالَـهـا
مـن كُـل نُـورٍ حَـسَـنٍ جَـرَّتْ بـه أذيـالـهـا
تـيـهـاً وعـجـبـاً ولـذا قـد قـيـل أيـضـاً مـا لـهـا
مـا قـال شَـخْـصٌ مـا لـهـا حـتـى رأى مَـقَـالَـهـا
فـيـا لـهـا مـن قَـالَـةٍ قـد قـالـهـا مـن قـالـهـا
رأيـت فـيـهـا هَـدْيَـهـا كـمـا رأت ضـلالـهـا
ضَـلالُـهـا حَـيْـرَتُـهـا فـلا تـقـولـوا مـا لـهـا

ومن ذلك المراد منقاد من الباب ٢٣٤: من كان سهل القياد خيف عليه الفساد، وأمن من العناد، وما وثق به السيد ولا العباد، كل من أخذ بزمامه قاده، إما إلى شقاوة أو سعاده، فمن طرفه طموح فهو اللين الجموح، ما يسعد المنقاد إلاً بالإنفاق، فما الانقياد من مكارم الأخلاق، وإنما قيل في المراد منقاد في طريق العارفين والعباد، لأن قائدهم الحق وهو القائد المشفق، فهانت عليه التكاليف وتصرّف بالتذاذ في جميع التصاريف، فسلك الطريق بلذة مستلذة، فالمراد منقاد لما به يراد، فمن أغاليط القوم ما رفعوه عن المراد من اللوم، حيث كان سهل الانقياد فألحقوه بالأجواد، فحكم العلم تغنم وتسلم.

ومن ذلك المريد من يجد في القرآن ما يريد من الباب ٢٣٥: كان شيخنا أبو مدين يقول: المريد من يجد في القرآن كل ما يريد، ولقد صدق في قوله الشيخ العارف لأن الله يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ﴾ [الأنعام: ٣٨] فقد حوى جميع المعارف، وأحاط بما في العلم الإلٰهيّ من المواقف، وإن لم تتناهى فقد أحاط علماً بها وبأنها لا تتناهى، فاسترسل عليها علمه وأظهرها عن التتالي حكمه، إلى غير أمد بل لأبد الأبد، فالمريد المكين من يقول لما يريد: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فمن لم يكن له هذا المقام فما هو مريد والسلام، من كانت إرادته قاصرة وهمته متقاصرة، لا يتميز عن سائر العبيد فهذا معنى المريد، فإن احتجبت بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] فما أصبت، العلام من ينتقل من مقام إلى مقام، ذلك حكم الدار، وأين دار البوار من دار القرار؟.

ومن ذلك من أهمّه نفوذ الهمة من الباب ٢٣٦: صاحب الهمة لا تنفذ له همّة، لأن همّه فيما أهمّه، هو بحكم الدار فلا يزال يبحث عن الآثار، ويتلقى الركبان ويسأل عمّا كان، ويعرف أن لنفوذ الهمّة داراً تختص بها، وهنا يعتصم بحبلها وسببها، إذا كانت الهمّة عاليه لا يظهر لها أثر في الفانيه، فإنها تفنى بفنائها وترحل عن فنائها، وتعلّقت بالباقية وتعمّلت الأسباب الواقيه، فمشهوده اللمة وفيها يصرف حكم الهمّة، فلا يزال يسعى في نجاته ويرقي في كل نفس في درجاته، إلى أن ينتهي في الترقي إلى الواحد العليّ، وليس بعد الواحد بما يعطيه الطريق الأمم إلاً الثاني أو العدم، والعدم محال والثاني ضلال، فما بقي الشاهد إلاً الواحد، فعليه اعتكف وعنه لا تنصرف.

ومن ذلك الاغتراب تباب من الباب ٢٣٧: الغربة مفتاح الكرب ولولاها ما كانت القرب، القريب هو الغريب وهو الحبيب، ولا يقال في الحبيب إنه غريب، هو للمحب عينه وذاته وأسماؤه وصفاته، لا نظر له إليه فإنه ليس شيئاً زائداً عليه، ما هو عنه بمعزل وما هو له بمنزل، قيل لقيس ليلى: من أنت؟ قال: ليلى، قيل له: من ليلى؟ قال: ليلى، فما ظهر له عين في هذا البين، فما بقي اغتراب فإنه في تباب، فقد عينه وزال كونه، العشاق لا يتصفون بالشوق، والاشتياق الشوق إلى غائب، وما ثم غائب من كان الحق سمعه كيف يطلبه؟ ومن كان لسانه كيف يعتبه؟ فأين تذهبون وما ثم أين عند من تحقق بالعين؟.

ومن ذلك الشاكر ماكر من الباب ٢٣٨: كيف يمدح بالشكر من شكره عين المكر؟ من أوصل حقاً إلى مستحقه فقد أدى إليه واجب حقه، فعلى ما وقع الشكر ولا فضل لعدم البذل، فلو صح البذل لثبت الفضل، ولو ثبت الفضل لتعين الشكر، ولو تعين الشكر لزال المكر، فلا بذل فلا فضل، فمن شكر مكر، لذا قرن الله الزيادة بالشكر لما فيها من المكر، فناط به الزياده وخاطب بذلكم عباده فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] وما قال لأنقصنكم، فالشكر للمزيد في حق الحق والعبيد، فإذا شكر الحق زاد العبد في عمله، وإذا شكر العبد زاده الحق فوق أمله بقول الله يخاطب عباده: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وهي جزاء الشكر فلا تأمن المكر.

ومن ذلك الغرام اصطلام من الباب ٢٣٩: نار المحبة لا تخمد، ودمعها لا ينفد، وقلقه لا يبعد، وحرقه لا يبرد، في التراب ينام وإن كان صاحب اصطلام، فإن الغرام رغام، الذلّة بالمحب صاحب الغرام منوطة، والمسكنة به مشروطة، ونفسه أبداً مقبوضة غير مبسوطة، وعقده براحات الأماني أنشوطة، يسرع إليها الانحلال، وهي وإن كانت مقيمة في زوال، فهي كالظل إذا فاء وكالقاصر المشية إذا شاء، الاصطلام نار لها اضطرام، تشعلها الأهواء إلاّ أنه تطفئها بتواليها الأنواء، فتحلقها بالرغام فلذلك حكمنا بالاصطلام على المنعوت بين المحبين بالغرام.

ومن ذلك الراغب طالب من الباب ٢٤٠: كم بين الرغبة عنه والرغبة فيه، عبد مصطفى عبد لا يصطفيه، عناية أزلية بسعادة أبدية، وخذلان سبق وكل ذلك حق، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، فجمع بين المطرود والمجتبى، ومن أطاع ومن أبى، في عبودية القصاص لا في عبودة الاختصاص، عبد يصلح الله بينه وبين خصمه فيسعده، وعبد يأمر به إلى النار بعدله وحكمه فيبعده، مع القول بعدم الاستحقاق ومفارقة الوفاق، وكلاهما عاصيان وما هما سيان، يا ليت شعري لم كان ذلك عاص ناج وعاص هالك عبدان لمالك واحد، وما ثمّ أمر زائد، إن كان لعمارة الدار فلماذا يخرج بالشفاعة ولا يبقى مع الجماعة؟ ما ذاك إلاّ لما قيل في بعض الأشعار: ماء ونار ما التقيا إلاّ لأمر كبار.

ومن ذلك قول العلاّم: «لا رهبانية في الإسلام» من الباب الأحد والأربعين ومائتين: الراهب يترك بحكم الحق وما انقطع إليه، ولم يكفره بل سلم له ما هو عليه، ما ذاك إلاّ

لإنفراده وانتزاحه عن عباده، فأنبأنا هذا الدليل الواضح أن التكليف شرع للمصالح، فلو دخل مع الجماعة في العمل لألحقه في الحكم بمن أسر وقتل، فلا تتعرّضوا لأصحاب الصوامع فإن نفوسهم سوامع، ترى أعينهم عند السمع تفيض من الدمع، ما لهم علم بما هم عليه الناس من الالتباس، تجنبوا الحيف وتدرّعوا بالخوف، وتركوا نجداً واستوطنوا الخيف، لمعرفتهم بضعفهم وعدم قوّتهم، فاختاروا السهل من الأرض، وقالوا هذا هو الفرض، فإن الحق أمر في الدين بالرفق، فمن رفق بنفسه فقد وفاها ما عين الحق لها، وما جار عليها وما خذلها، فمن وهب سلم وما عطب.

ومن ذلك التوصل توسل من الباب ٢٤٢: الفضيلة عند من ابتغى إلى الله الوسيلة في التعمّل، وإن لم يعمل تحصيل ما لديه مع كونه ما وصل إليه، ما تحصل نتيجة العمل لمن لم يعمل إلاّ لمن اجتهد ولم يكسل، وأما مع الكسل فما وصل ولا توصل، ابذل المجهود وما عليك أن لا تتصف بالوجود، أنت الواجد وإن لم تعرف عند الذائق المنصف، لما لم يعمل جهل الميزان فجهل ما وجده لعدم معرفة الأوزان، وما علم ما حصل له بذل المجهود من الوجود، فهو علم ذوق لا يؤكل إلاّ من فوق، ولو أكل من تحت رجله لوزنه من العمل بمثله، فعلم قدره وعرف أمره، فالتعمّل من إقامة الكتب وبه تحصل الرتب.

ومن ذلك الوجد فقد من الباب ٢٤٣: الوجد فجأة فتح الباب، فإن كان عن تواجد فهو حجاب، من لم يجد لم يجد لا بل من لم يجد لم يجد، دليل الكرم البذل وبرهان العدل إعطاء الفضل، وهو الأتمّ عند أصحاب الهمم، فما أعطى الله إلاّ الفضل الذي قال فيه: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] ولهذه الآثار استحال عليه الإيثار، فعطاء الله كله فضل وهو أعلى البذل، من آثر على نفسه فهو الخاسر وإن نجا، فإنه ترك الأولى عندما وقع إليه الالتجاء لو كان مؤمناً لعلم أنه قد باع نفسه من الله والمبيوع لمن اشتراه، وحق الله أحق من حق الخلق، لكن الدعوى أوقعته في هذه البلوى، فسميّ مؤثراً وميّز مؤثراً، والجار أحق بصقبه والصدقة مضاعفة في رحمه ونسبه.

ومن ذلك من شهد وجد من الباب ٢٤٤: ما حصل على الوجود إلاّ من زهد في الموجود، من رأى للكون عيناً مستقلة فهو صاحب علة وليس بصاحب نحلة، ما قال بالعلل إلاّ القائل بأن العالم لم يزل، فأنى للعالم بالقدم، وما له في الوجوب النفسيّ الوجوديّ قدم، إنما له الرتبة الثانية وهي الباقية الفانية، لو ثبت للعالم القدم لاستحال عليه العدم، والعدم ممكن بل واقع عند العالم الجامع، لكن أكثر العبيد في لبس من خلق جديد، فما عرف تجدّد الأعيان إلاّ أهل الحسبان، وأثبت ذلك الأشعريّ في العرض، وتخيّل الفيلسوف فيه أنه صاحب مرض، فجهله بسواد الزنجيّ وصفرة الذهب، وذهب به مثل هذا المذهب.

ومن ذلك من عنت فقد وقت من الباب ٢٤٥: الوقت سيف ومنه الخوف كل الخوف، زمانك حالك وفي إقامتك ارتحالك: [الطويل]

فسَيْرُكَ يا هذا كسَيْرِ سفينةٍ　　بقَوْمٍ قُعُودٍ والقِلاعُ تَطِيرُ

المسافر بمركبه جاهل بمذهبه، رحله ريح بالمكان الفسيح، رأسه في الماء ورجلاه في الهواء، فمشيه مقلوب وهو المطلوب، لولا قلبه ما مشى ولولا قلبه ما وشى، إلاّ لراحة قلبه وما علم ما احتقبه من ذنبه، لو كتم العبد سراً ما قيل له لقد جئت شيئاً إمراً، ولا جئت شيئاً نكراً، ولا أقام لذلك عذراً، حتى قال: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢] فلو ترك السرّ مخزوناً ما كان الكليم مفتوناً إن هي إلاّ فتنتك عن ذوق مع شدة الشوق.

ومن ذلك لا تهب لما تغلب من الباب ٢٤٦: من هابك غلبته ومن استضعفك قوّيته، الهيبة خيبة ولا تكون إلاّ مع الغيبة، الظهور للحضور ما طاب من هاب، ومن هاب لم يلتذ بوصال الأحباب، بل هو في عذاب، جمعه كفرقه وحقّه في حقّه لا تهاب خوفاً من الذهاب، لو كان للمهابة حكم ما تجلّى، ولا رؤي عبد بأسمائه تحلّى، ولا قيل في عبد إنه بربه تخلّى، ولا دنا ولا تدلى، ولا نزل إلى قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾ [النجم: ٢٩] ما ثمّ سوى عينك فلا تكن جاهلاً بكونك، لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلاّ الحق، فقد الحق الخلق بالحق، قال: أين هذا التعالي وما ثمّ أعلى من الله المتعالي، فالنزول علوّ والبعد دنوّ.

ومن ذلك الأنس في اليأس من الباب ٢٤٧: العذاب الحاضر تعلق الخاطر، من يئس استراح وخرج من القيد وراح الأنس بالمشاكل والمشاكل مماثل، والمثل ضد والضدية بعد، والأنس بالقرب فما ثمّ أنس ليس في الأنس خير لما فيه من إثبات الغير، من أنس بنفسه فقد جعلها أجنبية، وهذا غاية النفس الأبية، ومن تغرب عن نفسه جهل في جنسه واستوحش في أنسه، الأنس بالأنس لا يكون إلاّ لمغبون والكتاب المكنون لا يمسّه إلاّ المطهرون، وما ثمّ إلاّ الجنة وهم منا في أجنة، فهم أهل الكمون وعما نالهم كالبطون، هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض بأبيكم وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ببنيكم فأين التزكية مع هذه التخلية؟.

ومن ذلك من جلّ ملّ من الباب ٢٤٨: الاستبلال لا يرد إلاّ على الاعتلال، ومن قال بالحلول فهو معلول، وهو مرض لا دواء لدائه، ولا طبيب يسعى في شفائه، مريض الكون إذا بلّ أعلّ، فإن الحدوث له لازم به وقائم، فمرضه دائم لا يزال على فراشه ملقى، ومن سهام نوائب زمانه غير موقى، فلا يزال غرضاً مائلاً وهدفاً نائلاً، فهو الصحيح العليل والكثيب المهيل، علته صحيحه وألسن عباراتها بالحال عنها فصيحه، فإن كان الحق قواه فقد برىء من علته وقوّاه فإن الحق سمعه فانجبر صدعه وإنه بصره فقد نفذ نظره، وإنه لسانه فقد فهم بيانه، وإنه رجله فقد استقام ميله، وإنه يده فما يطلب من يعضده، فمن عرف هذه النحل فقد برىء من جميع العلل، فالله شفاؤه وهو داؤه، فالمتكبر مقصوم ومن كان الحق صفته فهو معصوم.

ومن ذلك من تجمّل استعمل من الباب ٢٤٩: المتجمل مؤتمن ولهذا يغتبن، يظهر الجمال وإن كان كاسف البال، التجمّل مروّة ولا يكون إلاّ من أهل الفتوّة، من ألحق البنوة بالنبوّة فقد ضاعف الله سموّه، العلوّ زيادة في الواجب في أصحّ المذاهب، الهيبة من آثار الجمال على كل حال، الجمال محبوب وهو أعزّ مصحوب، من صحبه الجمال لم يزل في اعتلال، من زاد شهوده في غلته زاد في علته، إن الله جميل يحب الجمال، فلا تضربوا لله

الأمثال، وإنما ضرب الله تعالىٰ لنفسه الأمثال لأنه يعلم ونحن لا نعلم، ومن أعلمه الله فليكتم لئلا يجرأ فيأثم، فاستعذ بالله من المغرم والمأثم كما استعاذ به من ثمّ.

ومن ذلك ما مال من اتصف بالكمال من الباب ٢٥٠: الكمال في البرزخ وهو المقام الأشمخ، لو مال ما تصف بالاعتدال، مرج البحرين بينهما برزخ لا يبغيان، ومن البغي ما هو طغيان، من بغى طغى من بغي عليه لينصرّنه الله ولو بعد حين، فاعبد ربّك حتى يأتيك اليقين، فإذا أتاك جاء النصر فترمي الباغي بشرر كالقصر، كأنها جمالات صفر فتخرج من المكان الأضيق إلى المنزل الأفيح، والشذى الأعطر الأفوح، فعطر النادي ذلك الشذا، وقال المنادي: من ذا؟ فقال: هذا الذي بغي عليه قد نزل الحق إليه فأكرمه بنزوله وشرّف محله بحلوله فوسعه، وقد ضاق عنه المتسع وكان الفضاء الأوسع، فعملنا من خفيّ حكمته أنّ قلب المؤمن أوسع من رحمته، مع أنه من الأشياء التي وسعته، ومن الأمور التي جمعته، فما وسعه إلاّ بها وكماله بسببها.

ومن ذلك من طاب غاب من الباب الأحد والخمسين ومائتين ٢٥١: من سمع طاب ومن طاب غاب، والغائب آيب، فإنه في أوبته إلى ربه ذاهب، فإنه تركه في الأهل خليفة شفقة عليهم وحذراً وخيفة، وما خاف عليهم إلاّ منه لأنه ما يصدر شيء إلاّ عنه، إذا كان السيد راعي الغنم فما جار وما ظلم، وما ينال منها إلاّ ما يقوته وقوته ما يفوته، قوته آثار أسمائه في عباده وبها عمارة بلاده، فحراثة وزراعة وتجارة وبضاعة لذلك وصف باليدين وأظهر في الكون النجدين، فالواحدة بائعة والأخرى مبتاعة، إلى قيام الساعة، ولكلّ يد طريق هذا هو التحقيق، فإن حكم المشتري ما هو حكم البائع، وهذا ما لا شك فيه من غير مانع ولا منازع، آيبون تائبون وهو التوّاب وإليه المآب.

ومن ذلك من حضر نظر من الباب ٢٥٢: الحضور أين وما ثم سوى عين، عين لا يحصرها ظرف ولا يسعها حرف، نزل لها بذاتها عليها وما يخرج منها، وينزل يعرج إليها، وهذه عبارات تطلب الأينية وتثبت البينية، وهذا هو بعينه اعتقاد الثنوية، وأنت تقول: الأمر واحد وقد كذبك الشاهد، فالعروج والنزول يطلب الطريق، وليس هذا في الإلٰهيات منهج التحقيق، وقد ورد فلا بدّ من معرفة ما قصد، فإن القول الإلٰهيّ حق وكلامه صدق، ولا بدّ من أذن واعية لهذه الداعية، وما خاطب بها إلاّ الحاضر فهو الناظر، فإن كان السامع غير القائل فلا بدّ أن يصيب ويخطىء، وإن كان عين القائل فصوابه يسرع ولا يبطىء، بل كلامه عين جوابه فهو المتكلم السامع في أحبابه.

ومن ذلك من فكر سكر من الباب ٢٥٣: الفكرة سكرة إلاّ أن شرابها ممزوج وخلقها مخدوج، وليس الخداج إلاّ من المزاج، وهذا شراب الأبرار ومعاطاة الفجار، عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً، وتفجيرهم إياها عين المزاج لمن كان بما قلته خبيراً، فلو جرت من غير تفجير من كونه على كل شيء قدير، لكان شراب المقربين الآتي من تسنيم على البار المنعم بالتنعيم، فبين المقرّب والبار ما بين الأعين والآثار، الآثار تدل والعين تشهد ولا تمل،

الباب قد فتح والواهب قد منح، والأمر قد شرح، فظهرت خفايا الأمور في شرح الصدور، انشرحت معانيها وهي ما حصل الحق فيها، فلاحت المخبآت عند رفع الكلل، وهي ما ظهر في العالم من النحل في الاعتقادات والملل فانظر واستر.

ومن ذلك من نحا صحا من الباب ٢٥٤: لا يزهد في فكرته إلاّ من صحا من سكرته، ما كل شراب مسكر ولا كل قول منكر، وما كل مزاج يشكر ولا كل سامع ينكر، الإنكار من ضيق العطن فكن اللبيب الفطن، وسع كل شيء علماً وضع لكل نازلة حكماً، فإن الله كذا شرع فاتبع فقد أصاب من اتبع، من تأسّى بالحق أصاب على أنه مصاب، حيث رآه غيراً واعتقد شراً وخيراً، فتلى فرقاناً لا قرآناً، فمن قرأ استبرأ، ومن تلا الفرقان فهو صاحب نظر في برهان، فلا بدّ من الحيرة لأنه أثبت غيره، ومن هنا اتصف من اتصف بالغيرة ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] يخاطب مؤمناً وإيماناً، ما أيه إلاّ بالمؤمن والناس والمؤتين ما أيه بأصحاب العين. انتهى السفر الرابع والثلاثون يتلوه الخامس والثلاثون.

[السفر الخامس والثلاثون]

ومن ذلك من جاء من فوق فهو صاحب ذوق من الباب ٢٥٥: هو القاهر فوق عباده حكم عرشه في مهاده، فلا يعرف علم الفوق إلاّ بالذوق، وهو لمن أقام الكتب وميّز الرتب، وأما من أقامها وما ميّز أعلامها أكل من تحت رجله ممّا تيقن أنه من رجله وهذا حال الورعين المطيعين، يأكلون من كسب أيديهم، ولهذا لا يكتسبون من العلم إلاّ ما سمعوه في ناديهم، فيعمل بعضهم بعضاً، ويقرضون الله قرضاً، وهؤلاء أتباع الرسل وأصحاب السبل. وأما الرسل فهم أصحاب الأطواق ولهم الأذواق، فهم على بصيرة ومن اتبعهم مثلهم في دعواهم فهم على أحسن سيرة، فهم في جنات ونهر، أي في ستر وسعة لما عندهم من الدعة، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، في حضرة منيعة لا يصل إليها أهل الاكتساب بل هي مختصة بالأحباب.

ومن ذلك من شرب طرب من الباب ٢٥٦: لا يطرب الشارب إلاّ إذا شرب خمراً، وإذا شرب خمراً فقد جاء شيئاً إمراً، لأنه يخامر العقول فيحول بينها وبين الأفكار فيجعل العواقب في الأخبار، فيبدي الأسرار برفع الأستار، فحرمت في الدنيا لعظم شأنها وقوّة سلطانها، وهي لذّة للشاربين حيث كانت، ولهذا عزت وما هانت، في الدنيا محرمة وفي الآخرة مكرمة، هي ألذ أنهار الجنان ولها مقام الإحسان، عطاؤها أجزل العطا، ولهذا يقول من أصابه حكمها وما أخطا: [مجزوء الكامل]

فإذا سَكِرْتُ فإنّني ... رَبُّ الخَوَرْنَقِ والسَّرِيرِ

وهو صادق، وإذا فارقه حكمها وعفا عنه رسمها يقول أيضاً ويصدق وقال الحق: [مجزوء الكامل]

وإذا صَحَوْتُ فإنني ... رَبُّ الشُّوَيْهَةِ والبَعِيرِ

وهذا المقام أعلى لأنه رب الحيوان فتفطن لهذا الميزان.

ومن ذلك من ارتوى غوى من الباب ٢٥٧: من ارتوى غوى ومن غوى هوى، ألا تراه أهبط وفي يديه سقط؟ فاستدرك الغلط حين هبط، فتلقى من ربه ما تلقاه من الكلمات فتاب ففاز بحسن المآب، لأنه ما يقصد انتهاك الحرمة ولا الخروج من النور إلى الظلمة، مخالفة العارف تحفة ولو ساقت إليه حتفه، فصاحب التحف من الآمنين في الغرف، فإن من شرف العلم أن يعطى العالم كل مرتبة ما لها من الحكم، ومن علم السرّ أن لا يقطع العالم به على ربه عزّ وجل بأمر، فإن قطع وحكم فقد جهل وظلم، مع أنه ما عصي إلاّ بعلمه ولا خولف إلاّ بحكمه لا يقول ذلك العاصي وإن اعتقده، وكان ممّن اطلع عليه وشهده، وكذلك حكم من أطاعه إلى قيام الساعه فالعلماء هم الحكام والحكماء، لا يتعدون بالسلعة قيمتها ولا بكل نشأة شيمتها لولا ذلك الارتواء ما كانت الأنبياء، ولا فرق في الأحكام بين الأعداء والأولياء، ولا عرفت المراتب ولا شرعت المذاهب، ولا كانت التكاليف ولا حكمت التصاريف، ولا كان أجل مسمّى ولا تميز البصير من الأعمى.

ومن ذلك من لم يرتو من مائه لم يكن من أنبيائه من الباب ٢٥٨: من شرب من الماء حيي حياة العلماء، ومن شرب اللبن تميز في رجال اليمن، ومن شرب العسل المصفّى كان في وحيه ممّن وفّى ومن شرب الخمر لم يكتم الأمر، الخمر للسماح، واللبن للإفصاح، والماء لحياة الأرواح، والعسل علم أصحاب الجناح، فهو العلم الصراح، قد علم كل أناس مشربهم وحققوا مذهبهم، جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، يزيد في الخلق ما يشاء، وواضع في المعارج سبلا فلها النقص والمشا، لو شرب الخمر لضلّت الأمة وغوت بإظهار ما عليه حوت، والدنيا دار حجاب فلا بدّ من غلق الباب، ولا بدّ من الحجاب وهم الرسل أولو الألباب، فبعثة الرسل لتعيين السبل، وإقامة الخلفاء في الأرض من القرض، ليشوقوا النفوس المحجوبة بما وصفوه وما شرعوه من الأمور المطلوبة.

ومن ذلك من محي رسمه زال اسمه من الباب ٢٥٩: صنعت الترياقات لرفع ضرر السموم وسكنت الأهوا لبقاء السموم، وعيّنت الأحكام لبقاء الرسوم، فهي عصمة للأرواح إلى أن توفّى تدبير هذه الأشباح، فإذا فرغ قبولها وحصل لها من رسولها سؤلها، وانقضى زمان التدبير وانكسر وعاء الإكسير، ووقع الاشتياق إلى لقاء الغياب ومشاهدة الأحباب، جاء الموت بما فيه من تلافيه، فأخلى البلد وفرّق بين الروح والجسد، وردّ كل شيء إلى أصله وجمع بينه وبين أقاربه وأهله، فألحق الجسم مع أترابه بترابه، وعرج بالروح المشبه في الإضاءة بيوح فألحقه بالروح المضاف إليه ونزل به عليه، وتلك حضرة قدسه ومجلس أنسه، فقبله وقبله وبادر إليه عند قدومه واستقبله، فالسعيد أعطاه أمله والشقيّ تركه وخذله.

ومن ذلك من أعطي الثبات أمن البيات من الباب ٢٦٠: من لم يخف البيات أصبح في الأموات، يا أيها الأصفياء ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١] لا تلقوا إليهم بالمودّة وأعطوا لكل ذي عهد منهم عهده، اثبت على دينك واحذر منهم أن يؤثروا في يقينك، من دان

بالصليب لحق بأهل القليب، لا تشرك بالله أحداً واتخذ التوحيد سنداً، ما للحريد فديد لعدم السامع من الوجود، كيف له بالصوت وقد اتصف بالموت، ينسب إلى الميت الكلام كنسبته إلى النيام، يقول ويقال له، وما يسمع اليقظان إلى جنبه زجله، وتحصل الفوائد، ويمشي حكمه في الغائب والشاهد بهذا جرت العوائد، ولا صوت يسمع ولا حروف تؤلف وتجمع، وقد أصم المنادي أذان أهل الندى في النادي، فالثابت الجنان من آمن بما يكذبه العيان.

ومن ذلك الستر في الوتر من الباب ٢٦١: العقل معقول بمن عقله فهو ستر، لأنه لا يقدر على السراح قيد فتر، هو رابط مربوط بالكون والهوى، في السراح يشاهد العين الهوى، يضلّ من اتبعه عن سبيل الله لا عن الله، لأنه من جملة الملكوت فهو بيد الله، ولو لم يكن الأمر هكذا للحق به الأذى، لولا طلبه السيد بالستر ما تقيد بالوتر، وهو في الوجود عين كل موجود، ألا ترى إلى صاحب الشرع كيف تعدّى بوتره من الواحد إلى الجمع؟ ألا ترى إلى الحق يشفع الأوتار ويوتر الأشفاع بالإجماع؟ للهوى السراح والسماح وله لكل باب مفتاح، وهو الذي يتولى فتحه فتسمّى بالفتاح، سلطانه في الدنيا والآخرة ولكن ظهوره في الحافرة، فما هي لأهل السعادة كرة خاسرة ولا تجارة بايرة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١] وليست الشهوة سوى الهوى، ومن هوى فقد هوى، لهذا قيل في العاشق ما عليه من سبيل وإن ضلّ عن السبيل.

ومن ذلك المقام الأجلى في المجلى من الباب ٢٦٢: في المجلى تذهب العقول والألباب وهو للأولياء العارفين والأحباب: [الطويل]

وحَقِّ الـهَوَى إنّ الـهَوَى سَبَبُ الـهَوَى ... ولولا الهَوَى في القَلْب ما عُبِدَ الهَوَى

وما ثم غيره فالأمر أمره، العقل محتاج إليه وخديم بين يديه، له التصريف والاستقامة والتحريف، عمّ حكمه لما عظم علمه، فضل عليه العقل بالنظر الفكري والنقل ما حجبه عن القلوب إلاّ اسمه وما ثم إلاّ قضاؤه وحكمه: [البسيط]

مـا سُـمِّـيَ الـعَـقْـل إلاّ مـن تَـعَـقُّـلِـهِ ... ولا الـهَـوَى بـالـهَـوَى إلاّ مـن الـلَّـدَدِ
إن الـهَـوَى صِـفَـةٌ والـحَـقُّ يـعـلـمُـهـا ... يَضـلُّ عـن منهـج التشريع في حِـيَـدِ
هــو الإرادة لا أكْــنِــي فــتــجــهــلــه ... لـولاه مـا رُمِـيَ الـشَّـيْـطـان بـالـحَـسَـدِ
والـعـقـل يـنـزلُ عـن هـذا الـمـقـام فـمـا ... لـه بـه قَـدَمٌ فـانْـظُـرْهُ يـا سَـنَـدي
لــه الــنُّــفُــوذُ ولا يــدري بــه أحَــدٌ ... لـه الـتَّـحَـكُّـمُ في الأرواح والـجَـسَـدِ
هــو الــذي خــافَـتِ الألـبـابُ سَـطْـوَتَـهُ ... هـو الأمـيـنُ الـذي قـد خُـصَّ بـالـبَـلَـدِ

ومن ذلك من محق هلاله صحّ نواله من الباب ٢٦٣: ليس لأهل الجنان عقل يعرف إنما هو هوى وشهوة يتصرف، العقل في أهل النار مقيله، وبه يكثر حزن الساكن بها وعويله لما ساء سبيله، العقل من صفات الخلق ولهذا لم يتصف به الحق، ولولا ما حصر الشرع في الدنيا تصرف الشهوة ما كان للعقل جلوة، فما عرف حقيقة العقل غير سهل فعين ماله من الأهل، قيّد المكلف بالتكليف عن التصريف، فإذا ارتفع التحجير بقي البشير وزال النذير،

وتأخّر العقل لتأخر النقل، إذا محق الهلال فأنت الظلال، وفي محاقه عين كماله في حضرة إقباله، كما كان كماله في إبداره لادباره، فالأمر بين الحق والخلق مناصفه، والوثيقة التي بيننا وبينه وثيقه مواصفة، فما له فليس لنا وما ليس له فهو لنا.

ومن ذلك من بدر فقد أبدر من الباب ٢٦٤: الأبدار ثلاث ليال ولهذا كفر من قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] من الضلال، فإنه ما ثم على الأحدية زائد وكذلك الأبدار واحد، واحتجب بالاثنين في رأي العين كما حجبنا الله عن معرفته باليدين، وما أشبه ذلك ممّا وردت به الشرائع من غير ريب ولا مين، فبدار بدار إلى ليلة الأبدار وهي ليلة السرار، ذلك هو الإبدار النافع والنور الساطع، حيث لم تغيره الأركان بما تعطيه من البخار والدخان، فإن حالة البدر في ليلة أربع عشرة من الشهر، معرض للآفات ولهذا هو زمان الكسوفات، فهو المؤوف بالكسوف، وقد يحجب في سراره من اناره ومنحه أنواره، خدمة تتقدم بين يديه حتى لا تصل عين إليه، تقديساً له وتنزيهاً وتشريفاً للخادم الذي أهله لهذه الرتبة وتنويهاً.

ومن ذلك المسامرة محاضرة من الباب ٢٦٥: رعى النجوم مسامرة الحيّ القيوم بما يعطيه من العلوم، ما أحسن السمر في ليالي القمر، على الكثبان العفر، مع كل ذي رداء غمر، ليس بنكس ولا غمر، ولا يبيت لأحد على غمر، كانت المسامرة في المشاورة بما يظهر في النهار من الآثار لاستعداد الكون وما هي عليه من العطاء العين، ألا ترى إلى الحق نزوله سرى إلى السماء التي تلي الورى؟ فيسامرهم بالسؤال والنوال، ويسامرونه بالأذكار والاستغفار وسني الأعمال، فيقول ويقولون، ويسمع ويسمعون، فيجيب ويجيبون، فلا يزال على هذا الأمر إلى أن ينصدع الفجر فينقضي السمر، ويظهر عند الصباح ما قرّر من الخبر بالأثر.

ومن ذلك من برق لمع وسطع من الباب ٢٦٦: البارقة اللموع في النزوع من نزل إليه سطعت أنواره عليه، الصحيح من المذهب أن برقه خلب، ولهذا قال عبد الله: لا يعرف الله إلاّ الله، علمنا به أنه لا يعلم فالزم الأدب وافهم، إياك والنظر وغلطات الفكر، لا تتعد بالعقل حدّه وقف عنده، تفز بالعلم الذي لا يحصل في القلب منه شيء وبالظل الذي ما له فيء، إذا حمي الجوّ كثرت البروق وتوالى الخفوق، ولا رعد يسبح بحمده ولا غيث ينزل من بعده، إنما هي لوامع تسطع تنزل ثم ترفع، لحكمة جلاها من تولاها ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ لما أنارها وما محاها﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ بما ابتلاها وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾في مجلاها ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ فأسرها وما أفشاها ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ بما عناها ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ لما أدار رحاها﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ بما من ﴿ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ [الشمس: ١ ـ ٨] وبهذه النسبة إليها قواها.

ومن ذلك ما هجم من عصم من الباب ٢٦٧: الهجوم أقدام ولا يكون من علام، المخدوم له الهجوم والخادم محكوم عليه وحاكم، فجآت الحق لا تطيقها الخلق، فلماذا وردت من العليم الحكيم؟ وقد سميت بالبواده والهجوم، فلولا ما ثم حامل لها ما سواها الحق ولا عدلها، إذا جاءته بغتة يتخيل أنها فلته فيعطيها منه لفته، ثم يعرض عنها بعدما أخذ

ما جاءته به منها ما هو أعرض بل هي عبرت حين خطرت، ما كان ذهابها حتى أمطر سحابها فامتلأت الإضاء، وزالت السحب وانجلت البيضاء، فحدثت الأرض أخبارها ورفعت أستارها وباحت بأسرارها وزهت أزهارها بأنوارها، فلولا ما كان الزهر في الزهر والنوّار في الأنوار ما ظهر شيء ممّا وقعت عليه الأبصار.

ومن ذلك من قرب أشرب من الباب ٢٦٨: العاشق المحب من أشرب في قلبه الحبّ، عشق العشق هو الحبّ الصدق، يقول العاشق المجنون لمعشوقه على التعيين: إليك عني وتباعدي مني فإن حبك شغلني عنك وأنت مني وأنا منك، فوقف مع الألطف وزهد في الأكثف لأنه عرف ما كثف فوقف وما انحرف، من شهد ملك الملك عرف من حصل في الملك، من طلبت منه الثبات فقد قيدته لا بل قد تعبدته، إلاّ أن يكون الثبات على التلوين فذلك التمكين، ووافقت ما أنزله في سورة الرحمٰن ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٩] والشؤون ألوان، أقرب ما اتصف به الحق في العبيد كونه أقرب من حبل الوريد، فهو أقرب إليك من نفسك مع أنه ليس من جنسك، وإن كان في جنسك فقد قيد نفسه وضيق حبسه.

ومن ذلك ما كل من بعد بعد من الباب ٢٦٩: البعد بالحدود علم الشهود وهو أسنى العلوم وأعظم إحاطة بالمعلوم، فلا تتخيل أن كل بعد هلاك كما تخيله بعض النساك ليس الهلاك إلاّ في القرب ولهذا يفنيك، وانظر ما قلته لك في تجليك، التحلية حجاب وهي أعظم القرب، عند الأحباب تخلى ولا تتحلى: [مخلع البسيط]

لـمـا دَنَـا إلـيـه تَـدَلَّـى فـكـان قَـابَ قَـوْسَـيْـنِ أو أدْنَـى
والـشَّـفْـع فـيـه مـا جـاء إلاَّ لـلـعُـرْفِ إذ تَـضَـمَّـنَ مَـعْـنَـى
ألا تـراه قـال أو أدْنَـى لـذاك قـلـتـه فـتَـأَنَّـى
مـن غَـشَّـنَـا فـمـا هـو مِـنَّـا فـالأمْـرُ كـلّـه لـيـس مِـنَّـا
فـنـحـن لـيـس نـحـن وكـنّـا لـذاك أخـبـر الـحَـقُّ عَـنَّـا
ربّ الـسـمـاع مـن يَـتَـغَـنَّـى يـقـولـه إذا يـغـنَّـى
ذاك الـسـمـاع يـصـغـي إلـيـه مـن جـاءه الـذي يَـتَـمَـنَّـى

ومن ذلك سدّ الذريعة من أحكام الشريعة من الباب ٢٧٠: من قال بسدّ الذرائع في الشرائع ترك الأعلى ورأى ذلك الترك أولى، فما هو للشارع منازع، ولكن لما فهم المراد جنح إلى الاقتصاد فإنه علم أن الله بالمرصاد، والمخلوق ضعيف ولولا المصالح ما شرع التكليف، فخذ منه ما استطعت ولا يلزمك العمل بكل ما جمعت، فإن الله ما كلف نفساً إلاّ ما أتاها، وجعل بها بعد عسر يسراً حين تولاها، وشرع في أحكامه المباح وجعله سبباً للنفوس في السراح والاسترواح إلى الانفساح، ما قال في الدين برفع الحرج إلاّ رحمة بالأعرج، وعلى منهج الرسول ﷺ درج دين الله يسر فما يمازجه عسر، بعث بالحنيفة السمحا والسنة الفيحا، فمن ضيق على هذه الأمّة حشر يوم القيامة مع أهل الظلمة.

ومن ذلك الحقيقة في كل طريقة من الباب الأحد والسبعين ومائتين ٢٧١: في الكلام

القديم والقرآن الحكيم: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦] جاء به الرؤوف الرحيم، الخبير بما هناك العليم، فمع الحق مشى من مشى، وما تشاؤون إلاَّ أن يشا، فالسعادة كاملة والرحمة شاملة، فإن أهل الاستقامة في الاستقامة هم أهل السلامة في القيامة، وأما الماشي في الاستقامه بغير استقامه فهو المنحاز عن دار الكرامة، والكل في دار المقامة إليه يرجع الأمر كله، وكيف يرجع إليه وهو فعله؟ ما العجب إلاَّ كيف قيل يرجع إليه من هو لديه، ولم يزل في يديه ستور مسدله وأبوب مقفله، وأمور مبهمه وعبارات مبهمه، هي شبهات من أكثر الجهات.

ومن ذلك ما كل سحاب خطر أمطر من الباب ٢٧٢: ما قصر الجهام حين أثر فالتحق بأهل المآثر، ما جاد إلاَّ على رحمه بما أعطاه من كرمه، بخارها عاد عليها وتحلّل شوقاً فنزل إليها الأمطار دموع العشاق من شدّة الأشواق لألم الفراق، فلما تلاقى أضحك بأزهاره جزاء بكاء وابل مدراره، فأمات وأحيا من أضحك وأبكى نفعت الشكوى ومقاساة البلوى، ثم إنه أظهر من الثمر ما هو أنفع من الزهر، فحسن الهيئة وأقام النشأة، وكان التغذي وزال التأذي وبدا كل أمر مريج، ووقع النكاح بين كل زوج بهيج، فتوّج الآكام وآزر الأهضام، فالشكر لله على هذا الإنعام.

ومن ذلك من ورد تعبد من الباب ٢٧٣: من جاء إليك فقد أوجب القيام بحقّه عليك، فإنه ضيف نازل فإما قاطن وإما راحل، وعلى كل حال فلا بد من النظر في حقه وأمره على حدّ ميزانه في الوجود وقدره ولا شكّ أن المؤمن قد جعله الله له سكناً واتخذ قلبه وطناً، فوفد عليه ونزل إليه فوسعه، وما حين ضاق عنه الأرض والسماء وجعله سميه واتخذه وليه ونعته بالإيمان وهو صفة الرحمٰن، وأنبأه بما يكون وما كان، فتعين على المؤمن القيام بفرضه لما حلّ بأرضه، فاجعله ممّن تلقى كريماً خبيراً بقدره عليماً؛ وأنبهك بشيمة أهل الفضائل، أن الكرامة على قدر المنزل عليه لا على قدر النازل، وفي العموم على قدر النازل لا على قدر المنزل عليه، فإنه لا يعرف ما عند النازل ويعرف ما لديه، ولا يحجبنك قول من قال: «**أَنزِلُوا النَاسَ مَنَازِلَهُم**» لما كنت بهم ولهم، فلو عاملنا الحق بهذه المعاملة لم يصحّ بيننا وبينه مواصلة.

ومن ذلك الوارد شاهد من الباب ٢٧٤: إنما شهد الوارد لشهود ما لديك حين ورد عليك، فيما شهد شهد وهو مسموع القول فقابله بالفضل وكثرة البذل وجزيل النيل والطول، فإنه لسان صدق في الأوّلين والآخرين، وهو عند السامعين من أصدق القائلين، فيقلد حين يشهد، فإن شهد عنده الحق فما يتمكن له أن يشهد إلاَّ بحق وأقعد ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾ [القمر: ٥٥] لأنه يعلم منه أنه يعلم فلا يتمكن له أن يحيد في شهادته عن علمه، أو يكتم إن كان عامر قلبك علمك بربك، فهو يتلقاه ويبادر إليه حين يلقاه ومنه ورد وعليه وفد، فما عليك لوم في ذلك اليوم، الصدقة تقع في يد الرحمٰن والسائل الإنسان.

ومن ذلك من تنفس استراح كالصباح من الباب ٢٧٥: النفس وإن كانت لها المنزلة

الرفيعة فهي مقيدة بين الروح الكل والطبيعة، ولذا كان المزاج ذا أمشاج فما لها سراح ولا انفساح، فإذا نسب إليها الانفساح والمجال فما هو إلاّ حصولها في حضرة الخيال، فتتقلب في الصور كما يدركها البصر فيما يعطيه النظر، مثل ما تتنوّع الخواطر عليه في هذه الدار مع كونه تحت إحاطة هذه الأسوار، فأنى للنفوس بالسراح ومنتهى أعمالها إلى الصراح، فلا تتعدى في الانتها سدرة المنتهى، فهي بحيث عملها لا بحيث أملها إلى يوم البعث، عند ذلك تعلم ما حصل لها في الروع من النفث علم شهود ووجود، فإن الأمر هناك مشهود، فما وقع به هنا الإيمان حصله هناك عن العيان، ويجد الفرق بين الأمرين، فإن الصباح لا يخفى على ذي عينين فإنه يميز البين من البين: [الوافر]

ولـكـن لـلـعَـيَـانِ لَـطِـيـفُ مَـعْـنًـى ... لـذا سـأَلَ الـمُـعَـايَـنَـةَ الـكَـلِـيـمُ

ومن ذلك إشراق يوح هو الروح من الباب ٢٧٦: في الشكل المثلث يعرف من ثلث وبما يحدث من رمي الشمس شعاعها على الجسم الصقيل يقع التمثيل، فلا شيء أشبه بالروح ممّا أعطته يوح، هذا أثر خلق في خلق فما ظنك بأثر الحق، ما حصل الإنسان الكامل الإمامة حتى كان علامة، وأعطى العلامة وكان الحق أمامه، ولا يكون مثله حتى يكون وجهاً كله، فكله أمام فهو الأمام، لا خلف يحدّه فقد انعدم ضدّه ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] صفة الحليم الأواه، ما سمّي بالخليل إلاّ بسلوكه سواء السبيل، ولا قال في تمثيله: المرء على دين خليله، إلاّ لصورته وقيامه في سورته.

ومن ذلك مراتب اليقين تبين في التلقين من الباب ٢٧٧: لليقين مراتب في جميع المذاهب، فمن أقيم في علمه كان تحت سلطان حكمه، ومن أقيم في عينه أتى عليه من بينه، ومن أقيم في حقّه فقد تميز في خلقه، ولكل حق حقيقة أعطته الطريقة، فحقيقة الحق الشهود فالحق هو الإيمان في الوجود، فما كان غيباً صار عيناً، وما فرض مقدراً عاد كوناً، والحق حق فلا بدّ له من حقيقة، والخلق حق فلا بدّ له من دقيقة، فحقيقة حق الحق أنت، ودقيقة حق الخلق من عنه بنت، فالعالم بين تنزيه وتشبيه والحق بين تشبيه وتنزيه، والبراءة في سورة براءة والتنزيه في سورة الشورىٰ، ولهذا شرع للإمام أن يجعل ما يريد إنفاذه في ملكه بين أصحابه شورىٰ، خلافة عثمان كانت عن المشورة فلذا وقعت تلك الصورة، فلو كانت عن تولية الماضي ما وقع التقاضي، ولا حكمت فيه الأغراض بما قام بها من الأمراض.

ومن ذلك خطاب الأئمة والأقطاب من الباب ٢٧٨: لا بدّ للسالك حيث كان من المسالك، من الرب الإلٰه المالك، إذا تميز في الممالك، فإن أبق بالشرود وتخيل أنه غاية الوجود، فما هو الوالي لهذا التعالي، فانحط من أحسن تقويم ونزل عن المقام الكريم، إلى أسفل سافلين مع النازلين، فعندما نظر إلى عليين عرف رتبة العالين، فندم على ما فرط وترجّى له العودة ما لم يقنط، فإن قنط عند الأسف فقد هلك وتلف، الهبوط والسعود للمتردّدين بين النزول والصعود، وما نتنزل إلى قلبك إلاّ بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك، وما كان ربك نسياً وقد رفعك مكاناً علياً، فاسكن فإنك صاحب كن.

ومن ذلك من عظيم السرى تنفح العيس في البرى من الباب ٢٧٩: من درى ما في السرى من جزيل المنح تمنّى أنه لم يصح سؤال إلٰهيّ امتناني، من عليّ رفيع الدجات إلى المتقلبين في الدركات، فإن الجنة حفّت بالمكاره، وحفّت النار بالشهوات، فكل واحدة حفّت بالأخرى، جاءت بذلك الرسل تترى، فانبهم الأمر وخفي السر، رأى بعد أهل الحديثه، وقد أوصل إلى نجم الدين بن شاي الموصلي حديثه، أن معروف الكرخي في وسط النار، وما علم أنه يتنعم فيها نعيم الأبرار، فهاله ذلك وتخيل فيه أنه هالك، مع ما عنده من تعظيمه بين القوم وتنزيهه عمّا يستحق من اللوم، فكان معروف عين الجنة والنار التي رآها المكاشف عليه كالجنة، وهي المجاهدات التي كان عليها في حياته، فإن المكاره من نعوت العارف وصفاته، فهو الخاشع في الأولى والمحروم هو الخاشع في الأخرى، فتستعار الصفات وتنقلب الآفات، فربما رأى أو سمع، وسرى عنه بما به وعليه اطلع.

ومن ذلك التنزيه تمويه من الباب ٢٨٠: [البسيط]

إن السُّوجُودَ لأكْوَانٌ وأشْبَاهُ ... فلا إلٰه لنا في الكَوْنِ إلاّ هُوْ
جلّ الإلٰهُ فما يَحْظَى به أحَدٌ ... فلم يَقُلْ عارفٌ بربِّهِ ما هُوْ
لله قوم إذا حَفُّوا بحَضْرَتِه ... يَبْغُون وصلتهم بذاته تَاهُوا
قد مَوَّهَ القومُ بالتنزيه وهو هُمُ ... في كل حال فعَيْنُ القَوْمِ عَيْنَاهُ
والله ما ولد الرحمٰنُ من ولَدٍ ... وما له والدٌ ما ثَمَّ إلاّ هُوْ
وكل ما في الوجود الكَوْن من وَلَدٍ ... ووالد هو في تحقيقنا ما هو
دليلُنا ما رَمَى بالرَّمْلِ حين رَمَى ... مُحَمَّدٌ وهو قولي ما هو إلاّ هو
فالحمد لله لا أبغي به بَدَلاً ... لأنه ليس في الأكوان إلاّ هو

ومن ذلك الهوى أهوى من الباب الأحد والثمانين ومائتين: لولا الهوى ما هوى من هوى به كان الابتلا، فإما إلى نزول وإما إلى اعتلا، وإما إلى نجاة وإما إلى شقاء. ليس العجب ممّن عرف وإنما العجب ممّن وقف، أو ناداه الحق فتوقف، ما أيه بأحد إلاّ ورد، ولا ورد إلاّ منح، ولا منح إلاّ ليبتلى فيفضح، وذلك أنه ادّعى المكلف ما ليس له، وفصل ما كان له أن يوصله، كلفه الحق ما كلفه وعرفه ما عرفه، ولا يغنيه بعد تقرير البلوى تبرؤه من الدعوى، ما قويت أمراسه وبقيت عليه أنفاسه، فإذا جاء الأجل المسمّى وفك العمى وأبصر الأعمى، جاء التعريف وزال التكليف وبقي التصريف، وانتقل في صورة مثاليه إلى حضرة خياليه، أبصر فيها ما قدم، فإما أن يفرح أو يهتم، وكان ما كان فلا بدّ أن يندم، وكيف لا يندم والجدار قد تهدم، وقتل الغلام صاحب السكينة والرتبة المكينة، لما خرق السفينة، ندم الواحد كيف لم يبذل الاستطاعة، وندم الآخر على تفريطه ومفارقة الجماعة، فأهواه في الهاوية ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ١٠ ـ ١١] يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقة] وأما الذي لم يبذل الاستطاعة ولكنه مع الجماعة فيقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩] إني

ظننت أني ملاق حسابيه، قال الرقيب وهو القول العجيب: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة] فإذا النداء من سميع الدعاء ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] يعني أيام الصوم وهو مذهب القوم.

ومن ذلك فك المعمى والأجل المسمّى من الباب ٢٨٢: من فرّق بين الفاتح والناصر والظهير فقد عرف حقائق مراتب الأمور، الناصر بما قذفه من رعبه في قلبه وبالدبور، والصبا على من تمرد وأبى، والظهير معين والفاتح يبين، فإذا استعين أعان فهو المستعان، وإذا فتح أوضح وأعطى جزيل المنح، الفاتح صاحب الرحمة ومسبغ النعمة، والناصر قاذف في قلب العارف ما شاء من العوارف في المعارف، والظهير خبير بمن هو له نصير، فإذا شاهد الوفود، وتعمّر الوجود، وتحقق العابد والمعبود، وتبين المسود، والمسود طلب الستر بالتنزيه فأسدل الحجب بالتشبيه، فعنه كان الصدور بما قرر في الصدور، وإليه كان الورود في طلب المزيد.

ومن ذلك عبادة الوثن قمن من الباب ٢٨٣: جقيق على الخلق أن لا يعبدوا إلاّ ما اعتقدوه من الحق، فما عبد إلاّ مخلوق، ولهذا توجهت عليه الحقوق ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] فالكل من عندكم، والدليل الله أكبر إلى تحوله في الصور، فلولا تحقق العلامة في يوم القيامة، ما عرف أحد علامة، فيوم النشور هو المعروف المنكور، كل معتقد مخالف من خالفه وموافق من وافقه، فما ثم إلاّ عابد وثن وهو الحافظ له والمؤتمن، فانظر ما أعجب هذا الأمر، وما أوضح هذا السرّ، كيف عاد المحفوظ حافظاً وأضحى لمعتقد غيره لافظاً، وهو هو لا غيره وقد جهل أمره، فوقع التبري، وحصل التعرّي، وتجرّد اللابس، وعتب السايس، فهو الفقير البائس.

ومن ذلك حوض مورود ومقام محمود من الباب ٢٨٤: العلوم محصورة في الإجمال غير متناهية التفصيل عند الرجال، وما عند الله مجمل فالكل مفصل، وما ثم كل فعلى التفصيل التوكل، الشاربون يقسمون المشروب، فيتعدد وهو واحد، فما هو من العدد الأواني معاني المعاني، فالحروف ظروف وهو المعروف، حرف جاء لمعنى فثبت أنه معنى، قاله صاحب العربية الخائض في المسائل النحوية، وفصل بينها وبين حروف الهجا، وجعلها أدوات لما هي عليه من الالتجا، فتجمع بين الأحداث والأعيان الظاهرة في الأكوان.

ومن ذلك قهر الأيتام أخلاق اللّئام من الباب ٢٨٥: الجدار مائل فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل، فإنه إن وقع الجدار ظهر كنز الأيتام الصغار، فتحكمت فيه يد الأغيار وبقي الأيتام الصغار، من الفقر في ذلة وصغار، لا تباح الأسرار إلاّ للأمناء الكبار، القادرين على الاكتساب والرافعين للحجاب، أهل الاستقلال بجمع الأموال، وعلى الأعراف رجال اتسع لهم المجال، فإذا جمع فأوعى، وأعطى فما وعى، ودعى وما أجاب الداعي، وإن سمع الدعاء فكر في نفسه أنه ما ألحق المال حين اكتنزه برمسه، وما بكى في يومه، لما فاته في أمسه، إلاّ لفقر حكم عليه مع الكثر الذي في يديه، فعلم أن الغنى ما هو كثرة العرض، وإنما هو في النفس لمن فهم الغرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة، والنشأة هي عينها،

ولهذا قيل في الحافرة وهو قولهم بأخبار الحق المبين، وقول الله: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦١، ٦٢].

ومن ذلك التألف من التصرّف من الباب ٢٨٦: [مجزوء الخفيف]

أُلْـفَـةُ الـعَـبْـدِ بـالإلْـ ـهِ هـي الأُلْـفَـةُ الَّـتـي
مـا لـهـا غـيـر وِجْـهَـتِـي وبـهـا كَـوْنُ قُـوَّتـي
فـانـظـروا فِـيَّ تُـبْـصِـرُوا حِـكـمـةَ الـحَـقّ حِـكْـمَـتـي
لا تَـقُـلْ بـاتِّـحـادنـا فـتـكـذبـك نَـشْـأَتـي
أنـا إن كـنـتُ بَـيْـتَـهُ فـهـو بـالـشَّـرْعِ قِـبْـلَـتـي

التألف وصال، ولا يكون إلاّ بالتناسب، في جميع المذاهب، وقد أحضرنا لديه، وجمعنا في الصلاة عليه، فأكلمه به وبي، فيردّ عليّ بي، فأقول ليس هذا مذهبي، فيقول ما ثم إلاّ ما سمعت، فلا يغرّنك كونك جمعت، ثم قال ارحل، ولا تكن ممّن أقام وحلّ، فإنه ما ثم إقامه لا هنا ولا في القيامة.

ومن ذلك الاعتبار لأولي الأبصار من الباب ٢٨٧: الجنف والحيف في الكم والكيف، لا يكون إلاّ لمن سكن الخيف، من سكن خيف منى بلغ المنى، لا تسكن إلاّ السهل إن أردت أن تكون من الأهل، لا تدخل بين الله وبين عباده، ولا تسع عنده في خراب بلاده، هم على كل حال عباده، وقلوبهم بلاده، ما وسعه سواها، وما حوته ولا حواها، ولكن نكت تسمع، وعلوم مفترقة تجمع، قل كما قال العبد الصالح، صاحب العقل الراجح ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] انظر في هذا الأدب النبويّ، أين هو ممّا نسب إليه من النعت البنويّ، أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، حتى أكون من الكاذبين، هو عين روح الله وكلمته، ونفخ روحه وابن أمته، ما بينه وبين ربه سوى النسب العام، الموجود لأهل الخصوص من الأنام، وهو التقوى لا أمر زائد في غير واحد.

ومن ذلك ما لي وللوالي من الباب ٢٨٨: لا تقل ما لي وللوالي، إذا دعيت إليه لا تبالي، هو الحكم الفاصل المنصف العادل، فإن خفت من الإنصاف فعليك بالاعتراف وطلب العفو من الخصم، في مجلس الحكم، فإنه ألدّ الخصام فاستغن بالعاصم بإعصام، فيكون الحاكم بينكما واسطة خير وواقية ضير، فقد ورد عن الرسول مالك الإمامة، أن الله يصلح بين عباده يوم القيامة، ولهذا قلنا ما شرع الله الشرائع إلاّ للمصالح والمنافع، من سعى في الصلح بين الكفر والإيمان فهو ساع بين العصاة والرحمٰن، لا سيما إن وقع النزاع في العقائد وانتهوا في ذلك إلى إثبات الزائد، المسمّى شريكاً والمتخذ مليكاً، فإن أريت أن الشريك ما هو ثم وأن أمره عدم، وفرقت بين ما يستحقه الحدوث والقدم كنت من أهل الكرم والهمم.

ومن ذلك الضيق في التحقيق من الباب ٢٨٩: أعظم الاتصال دخول الظلال في الظلال، إذا كثرت الأنوار وتعددت، طلب كل نور ظلاً فتمددت، وهذا من خفي الأسرار أعني امتداد الظلال عن كثرة الأنوار، لهذا اختلفت الأسماء، وكان لكل اسم مسمّى مع أحدية

العين والكون، وهو الذي دعا من دعا إلى القول بالشريك في التمليك: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وهو المقام الأسنى، فقد أتى بالاسمين، وأتى بلا تتخذوا إلٰهين اثنين، مع اختلاف المعنى في الأسماء الحسنىٰ، فأثبت ونفى وأمرض وشفى، فمنا من سلم ومنا من هو على شفا، فمن لزم الحق فقد لزم الصبر، ولا يكون هذا إلاّ لمن عرف الأمر، الكل في عين التلف، من جهل ومن عرف، وما نجا إلاّ من وقف، فالناجي من سمع ولم يتكلم وأجاب إلى ما دعي إليه فذلك الذي لا يندم.

ومن ذلك من زار الصامت زاره من الباب ٢٩٠: وعظنا الصامت فما أصغينا إليه، وتحبب إلينا الصامت فاعتكفنا عليه، فملك أزمة القلوب وأعمانا عن إدراك الغيوب، ووعظنا الناطق بما نطق به من الحقائق، فآمنا به وعرجنا عن مذهبه، فسمعنا وعصينا وأمرنا ونهينا، كأنا ولاة الأمر وأرباب الردّ الغمر، ونسينا أمره إيانا ونهيه وأرشد السامع وغيه، فحجبنا بحب التقدّم والرياسة عن تمشية ما تقتضيها السياسه، فإذا جاء الموت وتيقنا بالفوت، طلبنا حسن المآب بالمتاب، فلم تقبل توبه ولا غفرت حوبه، ومتنا على ما كنا عليه، وحشرنا على ما عليه متنا، كما نصبح على ما عليه بتنا، تركت فيكم واعظين: صامت وناطق، فالصامت الموت والناطق القرآن، هكذا قال صاحب الحق الترجمان.

ومن ذلك النقص والرجحان في الميزان من الباب ٢٩١: اغتنم حياة لست فيها بهالك، وداراً أنت فيها مالك، ميزانك فيها موضوع، وكلامك مسموع، وأذنك واعيه، ومواعظك داعيه، وأنفاسك باقيه، وأعمالك الخيرات واقيه، فنور بيتك المظلم وأوضح سرك المبهم، ما دامت أركان بيتك غير واهية، قبل أن تحصل في الهاوية، إن تفرّقت همومك أعرض عنك قيومك، وإن وهنت قواك أمدك به وقواك، وأعلمك أنه ما جنى عليك سواك، فلا تغفل عن نفسك فقد اطلع لك بارقة من شمسك، وقد جعل النهار معاشاً والأعمال رياشاً، فعليك بالاشتغال والتزيّن بأحسن الأعمال، واحذر من زينة الدنيا والشيطان، وعليك بزينة الله المنصوص عليها في القرآن.

ومن ذلك أطلق الغارة من أثاره من الباب ٢٩٢: ظهر في الإنسان الضدّان ففيه الأولياء كما فيه الأعداء، فلا تزال السياسات تسنّ والغارات تشنّ، فهم بين قتيل وأسير وحسن مآب وبئس مصير، كشفت الحرب فيه عن ساقها وظهرت الفتن في جميع آفاقها، فآفات ترد ورزايا تعد، تصرّفاته محدوده وأنفاسه عليه معدودة، عليه رقيب عتيد وسائق وشهيد، لم يزل مذ خلقه الله في التوكيل، وشرع له أن يقول حسبنا الله ونعم الوكيل، لينقلب بنعمة من الله ورضوان إلى دار الحيوان، لم يمسسه سوء ولا بوس، ويلقاه عند وروده عليه السبوح القدّوس، ويتلقاه عمله بوجه طلق غير عبوس، فأتم تنزيهه وتطهيره وأعاد عليه تعزيره وتوقيره، فهو يجني ثمرة عمله في رياض أهله.

ومن ذلك الدليل في حركة الثقيل من الباب ٢٩٣: الأمر جليل من أجل حركة الثقيل، لا يتحرّك إلاّ عن أمر مهم وخطب ملم، كزلزلة الساعة المذهلة عن الرضاعة مع الحب

المفرط في الولد، ولا يلوي أحد على أحد، وقد ذهب بعض الأوائل أن العالم أبداً نازل يطلب بنزوله من أوجده حين وحده، والحق لا ينتهي إليه، فمن أوّل حركة كان ينبغي أن يعتكف عليه، لأنه جلّ أن تسطع إليه المسافات المحققة فكيف المتوهمة؟ رسوم معلمة، وأسرار مكتمة، بيوت مظلمة وألسنة غير مفهمة، لأن الخيال يخيل العلم به والمقال، فأين تذهبون أو ماذا تطلبون؟ يقول العارف لأبي يزيد: الذي تطلبه تركته ببسطام فدله على المقام، فإن العبد يسار به في حال إقامته إما إلى دار إهانته وإما إلى دار كرامته.

ومن ذلك عدم الكون في ظهور العين من الباب ٢٩٤: شقت الكاف غزالة السماء وذلك بعد صلاة العشاء، وأنا في حال فناء، وما نقص جرمها، والكاف ماربا جسمها، فقلت صدق من سقط على الخبير في إيراد الكبير على الصغير، من غير أن يوسع الضيق أو يضيق الواسع، وهذا المقام الذي هو للأضداد جامع نص عليه ذو النون فوافقته، وإن لم أكن قبل هذا عقلته، فشكرت الله على شهوده وما منحه العبد من العلم بوجوده فهو العين الطالعة في كاف الكون، لذلك قلنا في أعيان الممكنات إنها مظاهر الأسماء الإلٰهيات، ولثبوت الكاف في حال الطلوع قلنا بثبوت أعيان المحدثات، فلولا التوجهات ما ظهرت الكائنات، ما ألذها من مسألة عند من شهدها ووجدها.

ومن ذلك ما شاهد قدر المنزلة إلاّ من أرسله من الباب ٢٩٥: العبد محل التحلي، والليل زمان التجلي، وما ثم إلاّ هيكلك فهو ليله المظلم، فنوره يجليه وصيره الرداء المعلم تحليه، ولما نزل إلى فرشه والملائكة حافون من حول عرشه، سجد له القلب إلى الأبد وما رفع رأسه بعدما سجد، لذلك جعل السجود قربه، وخصّ به من أحبه، والمتكبر ساجد وإن تكبر كما هو واحد، وإن تكثر فإن رتبته تعطيه، فلا تحجب بما تراه من تعاطيه، تلك أغاليط النفوس والحجاب المحسوس، فلما انفجر عمود صبح الروح وهو رسول يوح، أزال التهم ونفر الظلم، وتجلّى الكيف والكم، وكم تجلى له من مثل هذا وهو لا يعلم لما جبنت السريرة وأعمى الله البصيرة، وجهلت الصورة وضرب الحق سوره على السورة، فلما وقع الالتباس تفاضل الناس.

ومن ذلك الحكم في اللوح والقلم من الباب ٢٩٦: طلب اللوح من علته من يشفيه، فشفاه القلم بما أودعه فيه فهو ميدان العلوم ومحل الرسوم، العلوم فيه مفصلة وقد كانت في القلم مجملة، وما فصلها القلم ولا كان ممّن علم، وإنما اليمين حركته لتفصيل المجمل وفتح الباب المقفل، فليس من نعوت الكمال أن يكون في علم الله إجمال، والإجمال في المعاني محال، ومحل الإجمال الألفاظ والأقوال، فإذا جعل قول عبده قوله اتصف عند ذلك بالإجمال وكان من نعوت الكمال، فلكل مقام مقال، ولكل علم رجال، فكمال العارف علمه بتفصيل المعارف، ومن أجمل فما هو من الكمل، إلاّ أن يقصد ذلك لقرينة حال فله في ذلك مجال، فهو مفصل عنده في حال إجماله وهو عين كماله.

ومن ذلك علم النبيّ الأميّ من الباب ٢٩٧: رسول الوارث النبيّ ورسول النبيّ الروح

الملكي، ولأهل الاختصاص الوحي الإلٰهيّ من الوجه الخاص وهو في العموم لكن لا تبلغه الفهوم، فما من شخص إلاّ والحق يخاطبه به منه، ويحدث به عنه فيقول: خطر لي كذا ولا يدري من أين لجهله بالعين، وما فاز أهل الله إلاّ بشهوده لا بوجوده، العلم كله واحد، وإن اختلفت المآخذ وتنوّعت المقاصد، علم الحق من شاء من عباده من لدنه علماً وآتاه رحمة من عنده فأعطته الرحمة حكماً، فتوسط الثبج وتحكم في المهج، فأنكر عليه التابع فحل ما ربط وأزال ما اشترط، فجهل منصبه ولم يعرف نسبه، نعم علم ما به حيي لكن نسي فنسي، فمنازل الأفراد في خرق المعتاد، فأمورهم خارجة عن أحكام الرسل وحائدة عمّا شرعوه من السبل، وهم في السبل كالخضر وموسىٰ الكليم، وقول هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

ومن ذلك غلق الصدور في الصدور من الباب ٢٩٨: لولا الصدور ما عميت القلوب التي في الصدور، ويحق لها أن تعمى لأنها مأمورة بفك المعمى وقيدت بالأجل المسمّى، كانت في حضرة سارحة والأمور عندها واضحة، أعطاها ذلك الورود على الوجود، فقال لها الحق: بضاعتك ردّت إليك، وما نزل إلاّ بك عليك، هذه منحك التي أعطيتنيها وعلومك التي خولتنيها، فما أعماك سواك وأنا المنزّه عن هذا وذاك، أنا الغني عن عينك وأنت الفقير إليّ في كونك، فلما صدرت عني بكونك ولم تشهدني في عينك، عميت في صدورك عمّن أوجدك ولو أشهدك، فإن شهود الحق لا ينضبط مع أنه مع العالم مرتبط، وهذه المسألة من أغمض المسائل على السائل، لا بظهوره في كوني ولا بغناه عن عيني فعلى ما تعول فيه.

ومن ذلك يبدي الأسرار صدر النهار من الباب ٢٩٩: صدور المجالس حيث كان الرؤساء، والرئيس الكبير من تحكم بأحوالها عليه الجلساء، فهو وإن كان معدن النفوس الرئيس المرؤوس، ألا ترى إلى الحق ما له تصرّف إلاّ في شؤون الخلق، فيؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممّن يشاء ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، فيتخيل أن المشيئة هنا ضميرها الرحمٰن وما ضميرها إلاّ من وهو عين الأكوان، لأنا قد قرّرنا فيما مضى أن الذي كانوا عليه في ثبوتهم هو عين القضاء، فالكون أعطاه العزل والولاية والعزّ والذلّ والرشد والغواية، فحكم عليه بما أعطاه فما قسط ولا جار فإنه نعم الحاكم والجار، للحاكم التقاضي والحكم للماضي، في الخصم للخصم لا للقاضي، فالخصم في التحيّق عين القاضي فافهم.

ومن ذلك النيل لأهل الليل من الباب ٣٠٠: ما ظهرت قدرة الحيّ القيوم إلاّ في إنشاء الجسوم، وما ثم إلاّ رسم فما ثم إلاّ جسم، لكن الأجسام مختلفة النظام، فمنها الأرواح اللطائف ومنها الأشباح الكثائف، وما عدا الحق الذي هو المنهاج فهو امتزاج وأمشاج، والصفات والأعراض توابع لهذا الجسم الجامع، فإنه مركب والمركب مركب، ومن أراد العلم بصورة الحال فليحقق علم الخيال، فيه ظهرت القدرة وهو الذي أنار بدره، فلا ينقلب إلاّ في الصور ولا يظهر إلاّ في مقام البشر، ولست أعني بالبشر الأناسي فإني كنت أشهد على نفسي بإفلاسي، وأنا عالم زماني لعلمي بالأواني، فما ثم إلاّ وعاء وآنية ملآ فتدبر تتبصر.

ومن ذلك الهمس في مراعاة الشمس من الباب ٣٠١: خشعت الأصوات للرحمٰن، فلا تسمع إلاّ همساً لما ﴿دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١] و ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥] ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ المبين ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] فإنه ما جاء بالكلام إلاّ للإفهام، فإذا خالج السامع القارىء في قراءته فقد شهد من الفهم ببراءته، وأساء الأدب فأسخط الله فغضب، ومن غضب الله عليه فقد عطب، يقول ﷺ: «**أَيُّكُمْ خَالَجَنِيهَا**» و«**مَا لِي أُنَازَعُ القُرْآنَ**» وأي برهان أعظم من هذا البرهان؟ الرسول حاز الآداب، وجاء بالكتاب، وخاطب أُولي الألباب، وما خصّ أعداء من أحباب، بل عمّ الخطاب، فمنا من أصاب، ومنا المصاب، كل من علم ما لم يعلم فهو ملهم، فالوحي شامل ينزل على الناقص والكامل، أيسره اللّمة وما هم به ممّا أهمه.

ومن ذلك الجنين في كبد إلى أن يولد من الباب ٣٠٢: الجنين في ظلمة غمّه ما دام في بطن أمّه، يتحكم فيه من طعن في أبيه خدمة وأقامه حرمة، ليجبر بذلك صدع ما وقع منه فيعفو من بغى عليه عنه، ومع أنه في المقام الأوسع فما أودع فيه سوى أربع، لأنه مركب من أربع، فأودعه الرزق والأجل والرتبة والعمل، كل قسم لواحد من أخلاطه أقامه لفسطاطه، فلما علم الجنين أنه محل كل زوج بهيج وأنه في أمر مريج، أراد الخروج بطلب الصعود والعروج، فأخرجه على الفطرة التي كان عليها أوّل مرّة، من قبل أن يقذف في الرحم لما عصم ورحم، فجعل له عينين ولساناً وشفتين وهداه النجدين، وعرف لما خلق وانتهض تابعاً من تقدّم فلحق، فإما شاكراً فله منزل السرور، وإما كفوراً فله سوء المصير والثبور.

ومن ذلك القسم بالأمم من الباب ٣٠٣: لولا أن الشرف عمّ وإليه ترجع الأمم، ما أقسم الحق بالوجود والعدم، فأقسم بما تبصرون وما لا تبصرون، إظهاراً لعلوّ مرتبة المقسم به ولكن لا تشعرون، فالأشقياء سعداء وإن كانوا بعداء، فهو البعيد القريب والجنيب الحبيب، فالشقيّ شقيّ في بطن أمه لما هو عليه من غمّه، والسعيد سعيد في بطن أمه لما خصّه به من علمه، فلقد رأيت من شمت أمه وهو في بطنها حين عطست وحمدت، فعندما سمعت ذلك التشميت من جوفها سرت فسجدت، فهذا واحد ممّن خصّه الله بعلمه في بطن أمه، فمن احتجّ بقوله: ﴿أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨] فذلك مثل من ردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً، وما يلزم العالم حضوره دائماً مع علمه، فهكذا حال الجنين إذا خرج من بطن أمه.

ومن ذلك استعارة الصفات وأين هي آفات من الباب ٣٠٤: لا يقتحم المكاره إلاّ الشجاع الفاره، ولا يعرف منزلتها إلاّ من جنى ثمرتها، ما عند العارف ما يكره فلا تموّه الحق لا يرضى لعباده الكفر، وهذا عين الغفر في إسبال الستور الجهل بالأمور، الأبصار تخرق الأستار، ولهذا شرع الاعتبار ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤] والستر مسدل والباب مقفل والعطاء مسبل، فما نفع حجاب ولا منع باب، بصر الاعتبار لا يقف له شيء من

الأستار، تظن أنك في حجاب عن أعين الأحباب، فما ترى من الأستار والحجاب، وأنت منظور إليك محاط بما في يديك، فالزم شأنك واحفظ عليك لسانك.

ومن ذلك تنزيه الأسماء من غير تعرّض للمسمّى من الباب ٣٠٥: تجلى العظيم في الركوع لأنه برزخ الجميع، وتجلى العلي في السجود لما يعطيه من التمييز والحدود، ما هو العلى وإنما هو الأعلى، والأمر مفاضلة والمفاضلة أولى، أعطت ذلك الصورة الحاكمة والنشأة القائمة، بالأسماء تعدّدت النعم لأنها حضرة الكرم، إذا كان الحق يصلى فمن المتجلى، قسمت الصلاة بيني وبين عبدي لعهده وعهدي، فما يقول إلاّ قلت ولا يسأل إلاّ أجبت، العبد قبلة الحق والحق في قبلة العبد، الصلاة حكم واحد في الغائب والشاهد، الصوم له والصلاة مقسومة، والحج أذكاره المعلومة، يأخذ الصدقة فيربيها رحمة بمن ولدها لقيامه فيها، فإن قلب كل إنسان حيث جعل ماله، فإذا نظر إليه فلا يقل ما له، فمن نظر إلى صدقته نظر إلى ربّه بحقيقته، فهو للعارف العابد شهادة في كل عبادة.

ومن ذلك الآتي ليلاً يبتغي نيلاً من الباب ٣٠٦: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته من عباده اختصّهم بكلامه لمناجاته، حتى لا ينطقون إلاّ بما نطق فلا يتكلمون إلاّ بحق قديم ظهر بصورة محدث لما حدث، فلا يأتيهم تعالىٰ إلاّ في الثلث الباقي من الليل ليمنحهم جزيل العطايا فيما يخصهم به من النيل، وقد نهى أن يأتي المسافر أهله ليلاً وأن يجر للكرم إن فعله على ذلك ذيلاً، فطلبنا في ذلك على الحكمة الغريبة، فعرض بامتشاط الشعثة واستحداد المغيبة، وأعرض عمّا سبق إليه الأوهام الحديثة من الأفعال الخبيثة، ومن فهم ذلك من النفوس الأفاضل المنزهين عن الرذائل، قال ابتغاء الستر وإبقاء لجميل الذكر، ولذلك نطق رسول الله ﷺ فأمر: «**مَنْ بُلِيَ منكم بهذه القاذورة فليستتر**».

ومن ذلك الوجود في الشاهد والمشهود من الباب ٣٠٧: لا يعرف الوجود إلاّ أهل الشهود، العين تثبت العين، العجب كل العجب عند أهل العلم والأدب، رؤية الحق في القدم أعياناً أحوالهم العدم، يميزهم بأعيانهم في تلك الحال لا تفصيل حدود بل تفصيل رؤية الموجود، فإذا أبرزهم إلى وجودهم تميزوا في الأعيان بحدودهم، انظر وحقق ما أنبهك عليه واستر أوجد الله في عالم الدنيا الكشف والرؤيا، فيرى الأمور التي لا وجود لها في عينها قبل كونها، ويرى الساعة في مجلاها، ويرى الحق يحكم فيها بين عباده حين جلاها، وما ثم ساعة وجدت ولا حالة ممّا رآها شهدت، فتوجد بعد ذلك في مرآها كما رآها، فإن تفطنت فقد رميت بك على الطريق وهذا منهج التحقيق، فاسلك عليه وكن مطرقاً بين يديه.

ومن ذلك الخروج عن الطباق بالأطباق من الباب ٣٠٨: الأحوال التي عليها الخلق هي عين شؤون الحق، ومن أحوالهم أعيانهم فمن شؤونهم أكوانهم، فما لك لا تؤمن بما ترى وتعلم أن الله يرى، يراك في حال عدمك، وثبوت قدمك، أنت لنفسك وهو لنفسه، ما أنت معه كبدره مع شمسه، وأنت معه كذلك نبّه عليه بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ ففكر فيما قال لك تعرف من هلك، هل هلك من البدر إلاّ نوره لا عينه وبقيت ذاته وكونه، وموقع

الشبهة في قوله: ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] فقد كان ذا نور فأظلم واستترت الأشياء حين أعتم، فقال مع علمه بالخبر خسف القمر، وعين القمر هو الظاهر في الكسوفين والمتجلي في الوجودين فالعيد الظاهر وهو المظاهر.

ومن ذلك علم الرتب بالكتب من الباب ٣٠٩: لكل ملك حجاب ولكل منزل باب، ولكل أجل كتاب، وما ثم إلاً من له أجل، فنسأل الله أن يعرفك بالأمر ولا تعجل، فإن الله يجيبك ما لم تقل لم يجب، فاعمل كما يجب إذا دعاك فأجب، وإذا سقاك فطب، فإنه ما يدعوك إلاً ليشقيك، ولا يفنيك إلاً ليبقيك، ما الأمر الهائل الذي لا يتحقق إلا بقاء الخلق عند رؤية الحق، على الخبير سقطت وعند ابن بجدتها حططت، لهذا أخبرنا أنه كان سمعنا وبصرنا وما عرفنا ذلك إلاً بعد قربنا فتحببنا إليه بما شرع فأحبنا، فما رآه سواه فلذلك لا تفنى عين تراه، بالكتب عرفت الرتب، كتاب في الحبس وكتاب في حظيرة القدس، لحكم الديوان أوان ولله قوم لا يذكرون.

ومن ذلك علم الإنشاء ومساواة الأجزاء من الباب ٣١٠: قال لي بعض الفقراء وما أنصفني: إن بعض الرجال قيل له في المعرفة فقال أما أنا فعرفته، وما بقي إلاً أن يعرفني، وعسر هذا الكلام على أكثر أهل الأفهام من السادات الأعلام، وأراد مني الجواب وفتح هذه الأبواب، فلم أفتح له لذلك باباً ولا رفعت له حجاباً، وما علم أن لكل معتقد رباً في قلبه أوجده فاعتقده، وهم أصحاب العلامة يوم القيامة، فما اعتقدوا إلاً ما نحتوا، ولذلك لما تجلّى لهم في غير تلك الصورة بهتوا، فهم عرفوا ما اعتقدوه، والذي اعتقدوه ما عرفهم لأنهم أوجدوه، والأمر الجامع أن المصنوع لا يعرف الصانع، الدار لا تعرف من بناها ولا من عدلها وسواها، فاعلم ذلك.

ومن ذلك السبل بأيدي الرسل من الباب ٣١١: السبل المشروعة الحكم فيها مجموعة، فمن احترمها وأقامها أعطته ما فيها وأتحفته بمعانيها، فكان علامة الزمان، مجهولاً في الأكوان، معلوماً للواحد الرحمٰن، على أن الرسل لما طرقت السبل وسهلت حزنها وذلك صعبها وأزالت غمّها وحزنها، أخبرت أن دين الله يسر فلا تجعلوه في عسر، فما كلف الله نفساً إلاً ما آتاها، وما شرع لها إلاً ما واتاها، فإنه العالم بالمصالح والمنافع والدوا الناجع، فمن استعمل ما شرع اندفع عنه الضر وانتفع، فذهب الله بالشرائع كل مذهب لمن عرف كيف يذهب، فما من قالة إلاً وللشرع فيها مقالة إما بتقرير أو إزالة، فما فرّط في الكتاب من شيء حين أنزله، ولا كتم رسول ما به الحق عزّ وجلّ أرسله.

ومن ذلك من بادر من الخلق إلى تعظيم صفة الحق من الباب ٣١٢: صفات الحق في الخلق منتشرة ولا يعرفها إلاً الرسل والورثة البررة، ولما عرفتها اجتمعت وبمعرفتها انتفع بنا وانتفعت، فأرى من الشخص ما لا يراه من نفسه، وإن كنت من جنسه فما أنا من جنسه، ما يعلم الإنسان ما أخفى له فيه من قرّة أعين وهو أوضح ما يراه وأبين، ولكن لجهله بما هو لا يعلم أنه هو، فينكره إذا رآه ويحمله محملاً ما هو له حين يراه، وللحق مكر في خلقه خفي إلاً

لمن هو به حفي، فمن علم الخبير تأديب الصغير بالكبير، فأدب الأمة بتأديب رسولها، لتبلغ باستعمال ذلك الأدب إلى تحصيل سؤلها، فيخاطب الرسول والمراد من أرسل إليه فابحث عليه.

ومن ذلك من سعد بالجزاء السوائي ما بعد من الباب ٣١٣: يوم الدين يوم الدنيا والآخرة، فلا اختصاص له بيوم عند القوم أقام لهم الحق في ذلك دليلاً، لما جهلوا ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا، فأخبر أنه جزاء ما هو ابتداء، فما ابتليت البرية وهي برية، وهذه مسألة صعبة المرتقى لا تنال إلاّ بالإلقاء، اختلفت فيه طائفتان كبيرتان فمنعت واحدة ما أجازته أخرى، والرسل بما اختلفت فيه تترى، ولا تحقق واحد ما جاء به الرسول ولا يسلك فيه سواء السبيل، بل ينصر ما قام في غرضه وهو عين مرضه، إلاّ الطبقة العليا فإنهم علموا الأمور في الدنيا فلم يتعدّوا بالأمر رتبته وأنزلوه منزلته، فما رأوا في الدنيا أمراً مؤلماً إلاّ كان جزاء ما كان ابتداء.

ومن ذلك نزاع الملأ الأعلى في الأولى من الباب ٣١٤: تختلف المقاصد والمقصود واحد، فالطبيب يقصد نفع المريض بما يؤلمه، فيرتب له الأمر المؤلم ويحكمه، فإذا تألم طبيب برى عند نفسه من غير شيء جناه، فيسأل الحق عن ذلك فيقول جزاء بما قدمت يداه، فيقول ما قصدت إلاّ نفعه بما أمرته به من استعمال الأدوية المؤلمة، يقال له وكذلك ما قصدنا بالجزاء المؤلم إلاّ نفعك بما لك من الأجر في ذلك، فالأمور عند الله محكمة ألست قد ألمته؟ فخذ جزاء ما فعلته، والقصد القصد فلا سبيل إلى الردّ، لما نبهت الشريعة باختصام الملأ الأعلى علمنا أنه من عالم الطبيعة، فإن أردت أن ترفعه عنها وتنزله منزلتها منها فقل لاختلاف الأسماء وهذا أوضح ما يكون من الإيماء.

ومن ذلك تتابع الرسل وإنشاء المثل من الباب ٣١٥: الآجال المحدودة جعلت الرسل تترى بالتكاليف والبشرى، فلولا انتهاء الأجل لاكتفي بواحد في الشاهد، وما اختلفت السبل من الرسل إلاّ لاختلاف الدول، ولهذا ظهر في الوجود النحل والملل، فمنها ما هي عن روح ملكي، ومنها ما هي عن دور فلكي، حكم به الطالع فظهر به المبتدع الشارع، ولا يقصد المصالح إلاّ ذو عقل راجح، فاعتبرها الحق فأكرم من رعاها وألحقها بالشريعة التي استرعاها، فساوتها في الجزاء لمن قام بها دلالة على مساواتها في مذهبها، فقال ﷺ: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا**» فلما سنّت الرسل أن تسنّ فما سنّ إلاّ مؤتمن، فما نسخ الشرع إلاّ الشرع فاسمع.

ومن ذلك إهمال الإنسان دون الحيوان من الباب ٣١٦: ما أهمل من أهمل من الأناسي إلاّ لجهله بمنزلته وتصرّفه في غير مرتبته، فلو أعطى نفسه حقّها كما أعطاها ربها خلقها لكان إمام العالمين، ولذلك لما قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ قال له: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] فالمعاني إذا كانت مبهمة كالطرق المظلمة، لا يعرف الماشي فيها في أي مهواة يهوي ومع هذا يسير ولا يلوي، فإذا سقط عند ذلك يعلم أنه فرط، والسيد الإمام العارف العلام يقول الأمام

الأمام، وفي يده سراجه وفي رأسه تاجه، يشهد له الحق بالخلافة والأمن من كل عاهة وآفة، والله المعافي وهو الشافي.

ومن ذلك اطلاع الرسول على ما أتى به جبريل من الباب ٣١٧: الاطلاع على الغيوب من شأن أصحاب الأحوال والقلوب، وأما صاحب اللب والمقام فهو الأمر الذي لا يرام، والشخص الذي لا يضام، فله الثبوت فلا يتحوّل والصور التي لا تتبدّل، فصاحب المقام أديب بأدب ربه، متفرج في تنوّعات خواطره في قلبه، فإن ضاق محله عن حمله وأرادت النفس أن تعرف أنها من أهله، وهي الشديدة المحال ظهرت في صورة الحال، وقد يكون ذلك عن أمر إلٰهي لسر كياني، يريد الحق إمضاه في وجوده ليتحقق بعض رجال الله بشهوده، وأعظم تحف الملك الاطلاع على ما يأتي به الملك، هكذا هو عند الجماعة، وبضاعتنا غير هذه البضاعة، والكشف الأتم ما يشهده من وراء هذا الجسم المظلم، فإن الملك يكون صورته رسالته ما لم يتجسد، فإن تجسد انبهم الأمر على من يشهد.

ومن ذلك من هاله الحصول في الهالة من الباب ٣١٨: في الهالة حصر النيرين لذي عينين، وعنهما حدثت وبأشعتهما وجدت، فما حصرهما غيرهما كدودة القز وصاحب دولة العزّ، هو من عزّه في حمى فاستوى في إدراكه البصير والأعمى، لأنه لا يتجلى فيرى، ولو تجلّى لمنع من الوصول إليه المقام الأحمى ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥] فعمرت الأشعة الرفع والخفض، فحدثت الهالة في انتهاء الخلا، وفي داخل الهالة كان وجود الملأ، فهو من حيث الهالة المحيط وهو معنا أينما كنا في مركب وبسيط، فما خرجنا عنه، وكل ما في السموات وما في الأرض خلقه جميعاً منه، فانظر ما أحكم هذه الأمور ورد الإعجاز على الصدور، واتل قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورىٰ: ٥٣].

ومن ذلك من بلي بالأشد في تحري الأسد من الباب ٣١٩: أصدق القول ما جاء في الكتب المنزلة والصحف المطهرة المرسلة، ومع تنزيهها الذي لا يبلغه تنزيه، نزلت إلى التشبيه الذي لا يماثله تشبيه، فنزلت آياته بلسان رسوله، وبلغ رسوله بلسان قومه، وما ذكر صورة ما جاء به الملك وهل هو أمر ثالث ليس مثلهما أو هو مشترك؟ وعلى كل حال فالمسألة فيها إشكال، لأن العبارات لحننا والكلام لله ليس لنا، فما هو المنزل والمعاني لا تنزل إن كانت العبارات فما هو القول الإلٰهيّ وإن كان القول فما هو اللفظ الكياني وهو اللفظ بلا ريب، فأين الشهادة والغيب، إن كان دليلاً فكيف هو أقوم قيلاً، وما ثم قيل إلاّ هذا القيل، وهو معلوم عند علماء الرسوم فتحقق ولا تنطق.

ومن ذلك العصمة في الإلقاء باللقاء من الباب ٣٢٠: هو الحافظ بالحرس فهو الملحوظ في العسس، لأن الحليم الأوّاه لا يعلم حافظاً سواه، لكن يعطيه الأدب أن لا يظهر من النسب، سوى نسب التقوى وفيه رائحة الحراسة والحفظ الأقوى، فقد صرّح وإن لم يتكلم، وقد أبهم فيما أعلم وما أوهم، ولما أقام العصمة مقام الحرس لم يجنح إلى العسس، وطالما كان يقول من يحرسنا الليلة مع علمه بأن المقدور كائن والحارس ليس بمانع ما قدّر

ولا صائن، لكن طلب المعبود بذل المجهود، وهو يفعل ما يشاء وهذا من الأمور التي شاء، وما يشاء إلا ما علم وما علم إلاّ ما أعطاه الذي هو ثم.

ومن ذلك كيف للخلق بردّ دعوة الحق من الباب ٣٢١: صورته ردّت عليه، وبضاعته ردّت إليه، وما أشبه ذلك بالصدى، إذا ظهر بدا، فتخيل الصيت أنه غيره وما هو إلاّ عينه وأمره، وما هو الصدى في كل مكان، كذلك ما هذا الإدراك لكل إنسان، بل ذلك عن استعداد خاص غيره منه في مناص، وإن كان من أهل المباص، الحق وإن كان واحداً فالاعتقادات تنوّعه وتفرّقه وتجمعه وتصوره وتصنعه، وهو في نفسه لا يتبدل وفي عينه لا يتحوّل، ولكن هكذا يبصره بالعضو الباصر في هذه المناظر فيحصره الأين ويحدّه الإنقلاب من عين إلى عين، فلا يحار فيه إلاّ النبيه، ولا يتفطن إلى هذا التنبيه إلاّ من جمع بين التنزيه والتشبيه، وأما من نزّه فقط أو من شبّه فقط فهو صاحب غلط، وهو كصورة خيال بين العقل والحسّ، وما للخيال محل إلاّ النفس، فإنها البرزخ الجامع للفجور والتقوى المانع.

ومن ذلك الذاهب في جميع المذاهب من الباب ٣٢٢: من ذهب في كل مذهب لم يبال في أي طريق ينهب، من شرد عن كناسه فقد تعرّى عن لباسه، ومن فارق خيسه فقد عرّض بنفسه النفيسة أن تتحكم فيها النفوس الخسيسة، الأسد لا يبرح من أجمته لعلوّ همّته، قد تعشق بمقام تقديسه بتعريسه في خيسه، تتردّد إليه أوباش السباع، وهم أهل الدفاع والنزاع، ألا ترى إلى المتناظرين في مجلس الملك يتنازعون في الكلام، ومقدم الجماعة الذي هو الإمام ساكت في مقامه، وهم يتفقهون بنزاعهم في عين كلامه، فإن تكلم بكلمة فهي الفصل لأنه الأصل، فإن نازعه الحديث أحد القوم أساء الأدب فاستوجب الأدب.

ومن ذلك تواتر النقلة وتضاعف الحملة من الباب ٣٢٣: إذا اجتمع أهل النحل والملل وجاء الحق في الظلل للقضاء الفصل، وليس إلاّ ردّ الفرع إلى الأصل، هنالك تظهر العلل، وما يحمد وما يذمّ من الجدل، وأرباب الدولة مصطفون والوزعة حافون: [البسيط]

كـأنـمـا الـطَّـيْـرُ مـنـهـم فـوق أرؤُسِـهِـمْ لا خَـوْفَ ظُـلْـمٍ ولـكـن خَـوْفَ إجْـلالِ

هم أهل الهيبة لا الغيبة، وأصحاب الوجود لا الخيبة، وتَطاير الكتب فتتميز الرتب، فمنهم الآخذ بيمينه لقوّة يقينه ومنهم الآخذ بشماله لإهماله، ومنهم الآخذ من وراء ظهره لجهله بأمره، لأنهم حين أتاهم به الرسول نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً في الدنيا فبئس ما يشترون في الأخرى، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون، باعوا العالي بالدون، وابتاعوا الحقير بالعظيم فهم المغبونون.

ومن ذلك علم ما كتب وكيف رتب من الباب ٣٢٤: الكتابة للعليم والترتيب للحكيم، ما رتبت الحكمة حتى حققت علمه، فلما علمت علمه في خلقه رتبته على وفقه، ومن وقف مع هذا النظر الأوّل حار في افعل ولا تفعل، وإن كان الأمر والنهي من جملة ما أعطته الحكمة فعلم فلا يرى له أثر فيما سبق من الحكم الذي حكم، وهذا هو السرّ المبهم الذي لا يعلم، ولو قدرنا أنه علم كتم، أين الاضطرار من الاختيار؟ وأين الاقتصار من الاقتدار؟ وأين

التدبير من نفوذ الأقدار؟ ماء ونار ما التقيا إلاً لأمر كبار، علم في رأسه نار يعرفه المقربون ويجهله الأبرار، لو انجلى الغبار لعرف الإنسان هل تحته فرس أو حمار.

ومن ذلك ملك الملك في الملك من الباب ٣٢٥: خادم القوم سيدهم فهم الملوك، فلولا الأسماء ما كان السيد المملوك، وإذا كانت الأسماء لها الحكم فقد ارتفع الظلم المسمّى بحكم اسمه فانتبه فإنه يجيب إذا دعي به، فانظر ما أعجب مرتبة الاسم، وما أعطى من الأثر في الرسم، لا يجيب الحق إلاً من دعاه ولا يدعى إلاً بأسمائه وهي علم أوليائه وأنبيائه، السيد يستخدم العبد بمقاله، والعبد يستخدم السيد بحاله، ولسان الحال أفصح من لسان المقال، لأن الأحكام التي تتضمنها الأقوال إنما تعرف بقرائن الأحوال، فإن الاصطلاح قد لا يكون له في كل باب مفتاح، ولا سيما النصوص وبهذا العلم يتميز العموم من الخصوص، فللّه رجال كالعرائس على الكراسي يأكلون من حيث لا يعلمون.

ومن ذلك مقاومة الخلق الحق من الباب ٣٢٦: المقاومة تكون بالمحمود فيحمدون، وتكون بالمذموم فيذمون، فقوم يقاومونه بالصبر وإن قالوا مسّنا الضرّ، وقوم يقاومونه بالرضى والتسليم لما به قضى، والسعيد من العبيد من كان مع الله كما يريد، فإن أراد منه النزاع نازع، وإن أراد منه المدافعة دافع، فهو بحيث يراد منه لا بحيث ما يصدر عنه، أجرأتهم عليه الأحوال وما جاءت به في رسالاتها الأرسال، لولا الفرح الإلٰهي ما تاه التائب، ولولا التبشيش الرباني لزم المسجد وما كان يتصف بالآتي والذاهب، الفاعل منفعل ولكن للمنفعل.

ومن ذلك الإطلاق تقييد في السيد والمسود من الباب ٣٢٧: ما دام الروح في الجسد فهو ميت في قبره رقد، فمنهم النائم نومة العروس ومنهم النائم نوم المحبوس، وكل واحد من هذين مقيد مع أن أحدهما مخذول والآخر مؤيد، فإذا جيء به في موته إلى حشره وبعثر ما في قبره، عاد إلى أصله ووصل ما كان من فصله، ولذلك قال: من تعينت كرامته وثبتت رسالته عندما دلّت عليه علامته من مات فقد قامت قيامته، وهذه قيامة صغرى وسأحدث لك من القيامة الكبرى ذكراً، وذلك إذا زوّجت النفوس بأبدانها لكونها ما زال عنها بالموت حكم إمكانها، وكان الطلاق رجعياً والحكم حكماً شرعياً، فتلك القيامة الكبرى الآخرة فهي كالردّ في الحافرة، وما هي في الحكم كالحافرة، ومن توهم ذلك قال: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢] إنما أشبهتها في عدم المثل ولكن ما زالت عن الشكل.

ومن ذلك فتنة المال والولد في كل أحد من الباب ٣٢٨: لولا إمالة المال ما تميز الرجال، ولولا أن الولد قطعة من الكبد ما علم أنه من سكان البلد، ما خلقه الله في كبد إلاً ليشفق عليه كل أحد، فمن أشفق فقد وافق ما ندب إليه الحق، ومن لم يقل بالوفاق عدم الإشفاق، وما يلزم من ثبوت العلة ظهور سلطانها في كل ملة، فإنه ما خلقنا إلاً لعبادته، ومنا من خذله الله فلم يقل بسيادته، ومنا من لم يفرده بالسيادة ولا أخلص له العبادة، مع ثبوت العله وما أثبتتها كل نحله، فليست المحن بعين زائدة على الفتن هي عينها وكونها، فالاستكثار

من المال هو الداء العضال، من وقف مع إلحاق المتمني بالمتصدق الغنيّ عرف الأمر فلم يطلب الكثر.

ومن ذلك المنافق موافق من الباب ٣٢٩: إنما وافق المنافق لما تعطيه الحقائق هو ذو وجهين، لما رأى الأمر اثنين، وخلق من كل شيء زوجين، والعالم على الصورة فأين تذهبون أين؟ لم يقف على العين إلاّ ذو عينين الواقف بين النجدين، إذا اتصف الناظر الخبير بالنظر في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] تحقق عند ذلك وتبين ما أخفى له في هذه الآية من قرة عين، فجمع بين التنزيه والتشبيه وهو مقام المقرب الوجيه، فالسوق نفاق فما أصاب إلاّ أهل النفاق: [البسيط]

يـومـاً يَـمَـانِ إذا أبْـصَـرْتَ ذا يَـمَـنِ ... وإن لاقَـيْـتَ مَـعَـدِّيّـاً فـعَـدْنَـانـي

وهو معكم أينما كنتم، مع اختلاف العقائد وهذه كثرة الواحد، فما جمعه إلاّ الإمّعة فلا يكون إمّعة إلاّ صاحب هذه السعة.

ومن ذلك إجابة النداء في الصباح والمساء من الباب ٣٣٠: لما أراد الحق من عباده المناجاة في مساجد الجماعات، أمر بإعلان الأذان لأصحاب السمع والآذان، فمن لم يكن له أذن واعية ما سمع وإن سمع داعية، هنالك يظهر الاعتناء بمن اعتنى به ممّن لم يعتن، فمن أجاب الداعي فهو صاحب السمع الواعي، وما للأحدية في النداء أثر ولا في شجرتها ثمر، فالله أكبر مفاضلة، ولا إله إلاّ الله مفاضلة، والرسالة مفاضلة عن مواصلة، والحيعلتان مقابلة، والندا يؤذن بالبعد والأذان دليل على عدم عموم الرشد، فإن رعاة الأوقات عارفون بالميقات، فما شرع الأذان إلاّ لمن شغلته الأكوان، وما ثم إلاّ مشتغل لأنه بالأصالة منفعل.

ومن ذلك التجارة محل الربح والخسارة من الباب ٣٣١: تجار الأسفار أهل تمحيص واختيار، ومن أجلهم شرع الصلاة في الأسفار، وتجار الإقامة لهم الدعة والكرامة، هم تلامذة المسافرين فيما يتعرّفونه منهم ويأخذونه عنهم، فمن ربحت تجارته فهو المهتدي، ومن خسرت تجارته وبارت فهو المعتدي، من كان سفره إليه وكان نزوله عليه فلا يحيط أحد علماً بما حصل له من الأرباح لديه، المجاهد تاجر وقد ينصر الله دينه بالرجل الفاجر، فهو كالعدة ما هو في الفضل كمن أعدّه العدد لا تنعم بالأرباح وإنما هي للمستعدين كالمفتاح، به يتوصل إلى فتح الباب وهو حظه من الاكتساب، رخت المجاهد مساعد، وأما التاجر المقيم فهو الذي لا يريم، قد لزم الدكان وقال بالمكان، وما تيسر ممّا كان من الإمكان، وبالاستكانة حصل المكانة.

ومن ذلك عند الامتحان يعزّ المرء أو يهان من الباب ٣٣٢: [الخفيف]

وإذا مـا خُـلِّـي الـجَـبَـانُ بـأرْضٍ ... طَـلَـبَ الـطَّـعْـنَ وَحْـدَهُ والـنِّـزَالاَ

إذا اجتمعت الأقران كان الامتحان، هنالك يتقدم الشجاع ويتأخر الجبان، فالمتقدم يكرم والمتأخر يهان، إلاّ من انحاز إلى فئة أو كان متحرّفاً لقتال، فإنه من أبطال الرجال، ومن أهل المكر المشروع والاحتيال، والحرب خدعة وإن أساء في الحال السمعة، فإن العاقبة

تسفر عن مراده بما قصده في جهاده، وعلى قدر دعوى الإيمان يكون الامتحان، فالمؤمن ما هو في أمان إلاَّ في الدار الحيوان، وأما في هذه الدار فهو في محل الاختبار، فإما إلى دار القرار وإما إلى دار البوار، ما هي منزل الشقاء دار القرار.

ومن ذلك الإيثار ليس من صفات علماء الأسرار من الباب ٣٣٣: ما هو لك فما تقدر على دفعه، وما ليس لك فما لك استطاعة على منعه، فأين الإيثار والأمر أمانه، فأدّها إلى أهلها قبل أن تسلبها وتوصف بالخيانة، فأعطها عن رضى قلبك تفز برضا ربك، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا: [البسيط]

لله قَوْمٌ وُجُودُ الحَقّ عَيْنُهُمُ ... هُمُ الأَحْيَاءُ إن عاشوا وإن ماتوا
هم الأعَزُّ لا يدرون أنّهُمُ ... هُمُ ولا ما هُمْ إلاَّ إذا ماتوا
لله دَرُّهُمُ من سادةٍ سَلَفُوا ... وخَلّفونا على الآثار إذ ماتوا
لا يأخذ القَوْمَ نَوْمٌ لا ولا سِنَةٌ ... ولا يَؤُودُهُم حِفْظٌ ولو ماتوا
رايَتهم وسَوَادُ اللّيل يستُرُهم ... عن العيون قياماً كلما ماتوا
فكيف بالشمس لو أبدت محاسِنَهُم ... أقْسَمْتَ بالله أن القَوْمَ ما ماتوا
وكُنْتَ تصدقُ أن الله أخبرنا ... عن مثلهم أنهم والله ما ماتوا
أحياء لم يعرفوا مَوْتاً وما قُتِلُوا ... في مَعْرَكٍ وذوو رزق وقد ماتوا
فلو تراهم سُكَارَى في مَحَارِبِهِمْ ... لقلتَ إنهُمُ الأحيَا وإن ماتوا
الله كَرَّمَهُم الله شَرَّفَهُمْ ... الله يُحْيِيهم به إذا ماتوا
لقد رأيتهم كشفاً وقد بُعِثوا ... من بعد ما قُبروا من بعد ما ماتوا

ومن ذلك تجلّي الحق في كل آية للعارفين من أهل الولاية من الباب ٣٣٤: ظهور الحق في كل صورة دليل على علوّ السورة، وبرهان على عموم الصورة عند من عرف سوره، ما تميّز الرجال إلاَّ بالأحوال في الأعمال، من قام برجله فزل فعن سعادته قد انعزل، السابق بالخيرات هو الساعي وهو صاحب السمع الواعي، وأما المقتصد فهو ما زاد على زاده على قدر اجتهاده، وأما الظالم فهو المحكوم عليه ما هو الحاكم، والكتاب قد شمل الجميع وإن كان فيهم الأرفع والرفيع، فالكل وارث فإنه حارث، وأصحاب السهام متفاضلون فمنهم المقلون ومنهم المكثرون، ومن قال إن الفرائض قد تعول فما عنده خبر بما يقول، فإنه من عمل بموجب القول لم يقل بالعول.

ومن ذلك الاستخلاف خلاف من الباب ٣٣٥: القول بالنيابة ممّا سبقت به الكتابة، لولا الكتاب ما كان النواب، ليس العجب ممّن ساء سبيلاً مع كونه أقام على ذلك دليلاً، وإنما العجب ممّن اتخذ مستخلفه وكيلاً، فلولا الأمر الربانيّ لردّه الأدب الكياني، ما أجهل الناس بمواطن الأدب وهو الذي أدّاهم إلى العطب، الحكم للمواطن في الظاهر والباطن، فقد يكون ترك الأدب أدباً والقول بترك السبب سبباً، الأسباب موضوعة بالوضع الإلٰهي فما لها من رافع، ومن قال برفعها فإن عذاب ربه به واقع، لأنه لدعواه في رفعه يبتلى، وبالابتلاء تحصل

له الدرجات العلى، ولا يقدر على رفع الابتلاء لأنه مخاطب بالعمل المشروع والاقتداء، فقد قال بالسبب في رفع السبب.

ومن ذلك القلوب مساقط أنوار علوم الأسرار من الباب ٣٣٦: الوقائع للأولياء والوحي للأنبياء، وقد يكون المثل للرسل وغير الرسل، الملائكة لا تزال تنزل بالتنزيل على قلوب أهل الجمع والتفصيل، ولكن لا تشرع إلاَّ لنبيّ أو رسول مضى زمن الرسالة والنبوّة وبقي الوحي فتوة، فإن ورد بحكم متصوّر فإنما هو إخبار بشرع قد تقرر، فليعول الولي عليه وليستند في العمل به إليه، وإن وهنت روايته في الظاهر فهو الصحيح، وإن ورد ضعف الصحيح في الظاهر فالعمل ممّن ورد عليه به عمل في ريح ويجني العامل به ممّن ليست له هذه المنزلة جبره، ويسعد الله به غيره، فلا يكن ممّن شقي بعدما لقي.

ومن ذلك الإنسان مخلوق على صورة الرحمٰن من الباب ٣٣٧: إنما يرحم الله من عباده الرحماء، فارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شجنة من الرحمٰن وهي الصورة التي خلق عليها الإنسان، فمن وصلها وصل وهو عين وصلها، ومن قطعها قطع وهو عين فصلها، فالرحمٰن لها فاصل والإنسان لها واصل، فإن الشجنة قطعة فانظر في هذه المحنة، أين التخلق بأخلاق الله عند المتعطش الأوّاه؟ فمن قطعها تخلق ومن وصلها عمل بما شرعه الحق، فاقطعها عنك تكن متخلفاً، وصلها به تكن متحققاً، فإنه كذا فعل وبهذا الوحي علينا نزل، فإن لم تتخلق بها على هذا الحد فما وفيت بالعقد، فكما هي شجنة منه هي شجنة منك، فخذ ما قطع عنه ليأخذ ما قطعت عنك، هذا هو السحر الحلال لا ما تقوله ربات الحجال، هم في الأجنة ما ولدوا وفي الأكنة ما شهدوا.

ومن ذلك السرار يشفع الأبدار من الباب ٣٣٨: الهلال وتري المحتد، شفعي المشهد، والقمر بالنص له الصورة والمقدار بالزيادة والنقص، لأنه وإن لم يرجع على معراجه فهو على منهاجه، فما من دور إلاَّ وهو حور لا كور، والسرار يشفع الأبدار من غير الوجه الذي تدركه الأبصار، فيسمه الحق سمة المحق، من كان ذا وجهين فبذاته صير نفسه اثنين، فهو البرزخ لنفسه كالميت في رمسه، ميت عند السميع البصير حيّ عند منكر ونكير، هو المتكلم الصامت كما هو الحيّ المائت، فما أنار إلاَّ أظلم وما أسفر إلاَّ أعتم، صورة الحق مع خلقه طلوع الشمس في البدر من أفقه.

ومن ذلك تكرار الرؤية لحصول المنية من الباب ٣٣٩: لما انسحبت الحدود على الأمثال قيل بتكرر الأشكال، وهي مسألة فيها إشكال، هل هذا الأمر المدرك بالبصر في الزمن الثاني المتصوّر؟ هل هو ذلك العين المقرّر ما برح أو زال ثم عاد فتكرّر؟ أو هذا مثل الماضي حدث فتصوّر؟ فإن كان مثل رجوع الشمس فما فيه لبس، فإن الشمس لا مستقر لها عند من علمها وما جهلها، ولها مستقر يراه عين المؤمن في الإيمان بالخبر ولها بهتة، ولهذا تطلع من المغرب بغتة، مع كونها ما سكنت عن حركتها ولكن حيل بينها وبين بركتها، فلم ينفع

بطلوعها إيمان ولا عمل ولحق أهل الاجتهاد بأهل الكسل، فترى ربك مراراً ولا تعقل تكراراً، وذهبت المثل باندراس السبل.

ومن ذلك الأرض مهاد موضوع والسماء سقف مرفوع من الباب ٣٤٠: لولا الأنوار ما طلب الاستظلال، ولا ظهرت من الكثائف الظلال، فهو نكاح موجود وعرس مشهود، وكتاب معقود، يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود، فلا بدّ من قرش في عرش، فهي المهاد الموضوع، وأنت السقف المرفوع، بينكما عمد قائم عليه اعتماد السبع الشداد، لكنه عن البصر محجوب فهو ملحق بالغيوب، ألم تسمع قول من أوجد عينها فأقامها بغير عمد ترونها، فما نفى العمد لكن ما يراه كل أحد، فلا بدّ لها من ماسك وما هو إلاّ المالك، فمن أزالها بذهابه فهو عمدها المستور في إهابه، وليس إلاّ الإنسان الكامل وهو الأمر الشامل، الذي إذا قال الله ناب بذلك القول عن جميع الأفواه فهو المنظور إليه والمعول عليه.

ومن ذلك ركن الرياح مسرح ذوات الجناح من الباب ٣٤١: إن الريح كان عند الله وجيهاً والله يزجي السحاب والعين تشهد أن الريح يزجيها: [البسيط]

إنّ السَّحَابَ التي الرحمٰنُ يُزْجِيهَا العَيْنُ تَشْهَدُ أنّ الرِّيحَ تُزْجِيهَا

فمن النائب فهو الصاحب، فاجعل النائب من أردت إن شئت من غاب وإن شئت، من وجدت بالريح كان النصر والدمار فاختلفت الآثار، والعين واحدة صالحة فاسدة تطفي السراج وتشعل النار، والهبوب واحد من عين واحد، واختلفت الآثار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣] ما ذاك إلاّ لاختلاف استعداد المحل، ومن عرف ذلك عرف اختلاف الملل في النحل، فلكل ملة نحلة، كلاً نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، فأنزل نفسه منزلة الأهواء، فأمد النار بالاشتعال والسراج بالانطفاء، لتنظر في حقائق الأشياء، فمن نظر في حقائقها عاش عيشة السعداء، فكن من الأمناء، فلا تدع شيئاً من هذه الأسرار الإلٰهية إلاّ لأهلها بطريق الإيماء، فإن الله أقدر على ظهورها ولكن حجبها بنورها.

ومن ذلك علم المركب والبسيط في المحاط والمحيط من الباب ٣٤٢: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] عند من رزقه الله فهماً، فلا تعمّ الإحاطة كل شيء إلاّ إذا كانت معنى، وهذا القول انقلوه عنا، فإن زالت عن هذه المنزلة فقد زالت تلك التكملة، فهي إحاطة فيما أحاطت به، وهذا الأمر مرتبة، لا يحيط البسيط بالمركب لأن البسيط لا يتركب: [الكامل]

إن البَسِيطَ إلى البَسِيطِ بَسِيطُ فهو المُحَاطُ ولو تراهُ يُحِيطُ

هو المحاط لأن القلب وسعه، وهو المحيط لاستوائه وهو الإمَّعَة، لكن منعت الحقيقة أن يقال مثال هذا المقال، فكل شيء لا يخرج عن حقيقته ولا يعدل به العالم عن طريقته، ما في الوجود إلاّ التركيب، هكذا شهده أهل الفطنة والتهذيب، ما عقلت ذاتاً إلاّ لعينها، وما عقلتها لعينها إلاّ من حيث كونها، فإنها لذاتها آله فلا بدّ من على من ليثبت سواه والسوى، يطلب زيادة حكم على العين فلا بدّ من التركب في الكون لمعقولية الاثنين، وتحقق الشيئين، وهذا لا يخفى على ذي عينين.

ومن ذلك علم التحجير في الأدب مع السراج المنير من الباب ٣٤٣: إذا كانت السور تملى والآيات تتلى فاستمع وأنصت لعلك ترحم بالفهم فترتجع، فاعلم فالرجوع إنك تعلم، فإن خالجته فيها حرّمت عليك معانيها، فالزم بيتك، وجهّز ميتك، وفكّر في موتك، واخفض من صوتك، فإن البررة الكرام لا يحبون رفع الصوت بالكلام، لأن الجهر ظهور وهم أهل وتر وغيب مع أنهم نور، فهل خفاؤهم لشدة ظهورهم أو هو لسدل ستورهم؟: [الرمل]

أخبروني أخبروني حَقِّقُوا ... وإلى عَيْنِ طَريقي طَرِّقُوا
فإذا كنتم كما قلتُ لكم ... فاعلموا أنكم لم تَمْرُقُوا
ثم حُزْتُمْ قَصَبَ السَّبْقِ لكم ... وكذا السابق من لا يُسْبَقُ

ذكر الله كشف الغطاء عن البصر، فما هو ذلك الغطاء الذي إذا زال جاء مثل هذا العطاء القرين صاحب في الشاهد والغائب، فمن عرف قدر صاحبه فقد قام بواجبه، والقرين عند أهل المعرفة لا بدّ أن تكون على صفة، فاعتبرها في صحبته وحذار من غدرته، وقد يغدر الصاحب في بعض المذاهب، رسول الله ﷺ قبل من الذي أتى إليه مسلماً إسلامه وصحبته وما قبل غدرته ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] لمن سمع القول فاتبع أحسنه.

ومن ذلك من افتتح بالمنح من الباب ٣٤٤: المنحة مردودة إلاّ منحة الحق فإنه ما ثم على من ترد لأنه ما يشبه الخلق لا يقبل المنافع وهو النافع، فتح الغيوب على ضروب، فالكل في كل زمان ونفس في مزيد، لكن بعض العالم في لبس من خلق جديد، المبايعة تشهد بالمنازعة، فإن مبناها على السمع والطاعة، وموافقة الجماعة، ومن شذّ شذّ إلى النار بذا جاءت الأخبار، من عرف قدر الإمام لم يقع فيه وإن جار بملام أتركه، ومن استخلفه فإن أمنه أمنه، وإن خوفه خوفه، من عرف قدر السلطان لم يعصه، وإن عصى الله فيه لم يستقصه، انظره مجبوراً مسيراً لا تنظره مختاراً مخيراً، واسترح عليه واستند إليه، فهو الظلّ من آوى إليه لم يلحقه ذل.

ومن ذلك علم الأسرار في الأنهار والبحار من الباب ٣٤٥: علم الاستنباط لأهل البساط علم الأحوال لمن شهد الأهوال، العلم السهل لمن كان من الأهل، علم الإنتاج لأصحاب المعراج، وعلم الأسماء والرسوم لمن جمع هذه العلوم، وقد انحصر أصحابها في السبعة من العدد وهم الأبدال عند كل أحد، فمنهم المنفرد بعلم واحد، ومنهم الجامع من غير أمر زائد، ومنهم الجامع بين اثنين لذي عينين، ومنهم الفائز بالثلاث وهو صاحب الميراث، الحائز جميع المال فله الكمال، وما ورث الله إلاّ الكتاب لذوي الألباب، فهم ورثة النبيّ لا ورثة الوليّ، فإنه لا يورث إلاّ الميت الراحل عن البيت، والحق لا يفارق فتدبر هذه الحقائق.

ومن ذلك في الكثبان تسامر الخلان من الباب ٣٤٦: أصحاب الحذر ما لهم هذا السمر لأصحاب السمر الغيوب، وإن انكشفت للقبائل والشعوب، فإن القبائل لهم فيها الباع المتسع

الطائل، وأما الشعوب فريحهم دون ريح القبائل، في الهبوب لا يبلغ الأعاجم مع اعتلائها في سمائها مبلغ الأعراب، دليلنا الخيول العراب، الإعجام إبهام، والإعراب إبانة الكلام، ما منع المعارض إلاَّ من العربي لا من الأعجمي، اختصّ الإعجاز بالقرآن، وإن كانت الكتب المنزلة كلام الرحمٰن، لكن البيان والشرف والامتنان، والمجد العظيم الشان إنما ظهر في اللسان عند البيان.

ومن ذلك المنزلة الرفيعة في التزام الشريعة من الباب ٣٤٧: لا تتبع إلاَّ ما نزل به الروح عليك، وجاء به الملك أو الإلقاء إليك، وإن كنت ولياً فإنك وارث نبياً، فما يجيء إلى تركيبك إلاَّ بحظك من الورث ونصيبك، فانظر ما سهمك وما هو قسمك؟ فذلك علمك، فلا تشرع حكماً وقل رب زدني علماً. ثم اعلم أيها الولي الأكرم، أنك وإن ورثت علماً موسوياً أو عيسوياً أو غيرهما ممّن كان من الرجال بينهما، فإنما ورثت علماً محمدياً ساويت فيه ذلك النبيّ لعموم رسالة محمد، الحائز المقام المحمود العليّ إليه ترجع عواقب الثناء، فهو صاحب جوامع الكلم المسماة بتلك الأسماء، فلآدم الأسماء ولمحمد الاسم والمسمّى والجامع لهما لا شك أنه صاحب المقام الأسمى وحجاب العزّة الأحمى.

ومن ذلك علم الانتكاس والانعكاس في النور والنحاس من الباب ٣٤٨: الكواكب الثوابت بيوت مظلمة وكذلك السيارة، وما عادت نجوماً نيرات إلاَّ بأنوار مستعارة، وتكفيك إن كنت عاقلاً هذه الإشارة، ألا ترى إلى ما نجم من ذوات الأذناب في ركن النار لرجم الأشرار، ولم تزل نجوماً وما كانت رجوماً، حتى جاء صاحب البعث العام إلى جميع الأنام، من الإنس والجان ولهذا قال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمٰن: ٣١] فلو ابتغى الربح باستراقه رشداً ما وجد له شهاباً رصداً، فحيل بينه وبين السمع لما نواه من عدم النفع، فصاروا جهلا وقد كانوا علما، فإذا طمست النجوم علم عند ذلك ما فات الناس من العلوم، فإذا انفطرت السماء ويحق لها أن تنفطر، انكدرت النجوم بما ترميهم به من الشرر.

ومن ذلك منزلة من وهب الفضة والذهب من الباب ٣٤٩: لا يخفى على ذي عينين الفرق بين الذهب واللجين، أين الإنسان الحيوان من الإنسان المخلوق على صورة الرحمٰن، هو النسخة الكاملة والمدينة الفاضلة، الذهب لا ظل له فـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] والفضة على نصيب من الظلّ لما فيها من الطل وما لظلها فيء، فالنور الخالص للعين والممتزج للجين، الذهب نور على نور، واللجين فار التنور، وليس سوى تنفس الصباح وتبسم فالق الإصباح، إن كان الحق فما خلقه إلاَّ بشمسه، وإن كان الشمس فالحق على عزّته في قدسه، ومن قدسه أن يكون فالقاً كما كان لأرضه وسمواته فاتقاً، فالرتق لها من ذاتها والفتق عرض لها من صفاتها، إذ لو لم يكن لها قبول الفتق ما حكم به الفاتق على الرتق، والفاتق الفالق بلسان الحقائق.

ومن ذلك من فصل ما وصل من الباب ٣٥٠: حكمة التفصيل لظهور وجه الدليل، إذ في جبلة كل ملة طلب الأدلة، لأنهم لم يكونوا ثم كانوا، ووجدوا في نفوسهم افتقاراً خضعوا

له واستكانوا، فقالوا من أو إلى من لا بدّ على أعياننا من زائد، ولا بدّ أن يكون له حكم الواحد، وإن اتصف بالكثرة وطريق النسب فهي غير مؤثرة في ذات هذا النسب، فهو الواحد الكثير لأنه الحيّ العليم القدير، ومع أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فهو ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فحكم على نفسه بحكم الجماعة وإن كان العقل يحكم فيه بالشناعة، فالرجوع أولى إلى قوله، ولا يصرفنك عنه صارف استشناعه وهوله، فإنه لو أثر في نزاهته وقدسه ما نسب ذلك إلى نفسه، فالذي هو عندنا تشبيه هو عند الله تنزيه، من نزول وفرح واستواء، وكينونة في سماء، وعرش وعماء.

ومن ذلك المشاورة محاورة من الباب ٣٥١: المشاورة وإن دلّت على عدم الاستقلال بجودة النظر فهي من جودة النظر، وإن نبهت على ضعف الرائي فهي من الرائي، عرض الإنسان ما يريد فعله على الآراء دليل على عقله التام ليقف على تخالف الأهواء، فيعلم مع أحدية مطلوبه أنه وإن تفرد فله وجوه تتعدد، وأي شيء أدل على أحدية الحق من مشاورة الخلق، لا يطلع على مراتب العقول إلاّ أصحاب المشاورة ولا سيما في المسامرة، فإنها أجمع للهم والذكر، وأقدح لزناد الفكر، ومن هنا تعرف ما يحصل لأهل الليل من جزيل النيل، في نزول الحق من عرشه إلى سمائه في الثلث الباقي من الليل، تهمماً بعباده من أولياءه، ليهبهم من آلائه ونعمه، ما يقتضيه عموم جوده وكرمه.

ومن ذلك المؤمن من لا يفضح الكاذب ويصدّق المؤمن من الباب ٣٥٢: الكذب وجود فإنه عن شهود، محله النفس وإن لم يكن من مدركات الحسّ، وعلى الحقيقة فإنه محسوس في مقام التقديس، والحسّ أشرف من العقل لما فيه من الإطلاق فله السراح بالاستحقاق، وإنه المحيط بما تعطيه الأوهام وإن أحالته الأحلام، والعقول قاصرة عن نسبة الوجود إلى هذه الأعيان المتخيلة الحاصرة، وما سمّي الصدق إلاّ لصلابته في تنوّره لأنه ينكر ويغالط نفسه فيما نواه صاحبه من طريق وهمه وخياله في تصوّره، فلا يقدر على جحد ما أدرك ويقضى عليه في حال وجوده بالعدم، فما أعظمه من مهلك فهذه مسألة ضلّ بها كثير واهتدى بها كثير، وما ضلّ به إلاّ الفاسقون، ولكن أكثر الناس لا يشعرون.

ومن ذلك الجمرات جماعات من الباب ٣٥٣: الجمرة قد تكون جماعة الأموات، والزمرة لا تكون إلاّ جماعة لها أصوات، ما حصل المنى في جمرات منى إلاّ لكونها حازت مقام التحصيب، فأفادت أهل النظر والتهذيب، فكبر عند كل رمية لما رآه بلا مرية، فما حصب إلاّ من له وجود وإن له لم تدركه عين الشهود، لكن أدركوه بالإيمان فقام لهم، مقام العيان، وأدركه الجاهل ومن ورثه بعينه في عين كونه فكانت أسماء إلٰهية، أذهبت أسماء وأنباء مسموعة. أعدمت أنباء اشتركت جمرات منى، وجمرات الزمان في التثليث والتسبيع، لاجتماعهما في المقام الرفيع، فالجمرة الدنيا لأصحاب النسب الإلٰهيّ ديناً ودنيا، وأهل الجمرة الوسطى للمحافظين على الصلاة الوسطى، وجمرة العقبة لها الانفراد والتقدّم بالمرتبة.

ومن ذلك الجواد ذو جواد من الباب ٣٥٤: لا تقل وصلت فما ثم نهاية، ولا لم أصل فإنه عماية، ليس وراء الله مرمى وهنالك يستوي البصير والأعمى، الناظر إليه ينتهي ويقف وصاحب الكشف فيه يكشف ويعترف، لا يشكو الجواد إلاَّ الجواد فإن الجود يخلي الخزائن لما تطلبه الكوائن، والمحدث في الدنيا محصور وبالمشيئة الإلٰهية مقهور، فعلى قدر ما يعطي يهب، وإن قيل له اذهب ذهب، لا تخلي المخازن ما دامت المعادن والمعادن عماله والعاملون أصحاب أجر وعماله فإما همة وإما مال ما هنالك آمال، هذه أحوال الرجال، أهل الاتصال في الانفصال، وأهل الانفصال في الاتصال.

ومن ذلك تسوية الصفوف مألوف من الباب ٣٥٥: تسوية الصفوف من تمام الصلاة، والإمداد بالمألوف من كمال الصلاة، فلا يناجيه إلاَّ راجيه، ولا يهابه إلاَّ إهابه، أنت إهابه ما لم تدبغ، فإذا دبغت فأنت الرسول المبلغ، إما رسول وراثه بتحصيلك ميراثه، وإما رسول مستقل جاءه بيانه، وليس هذا زمانه، فإن باب التشريع قد ضاع مفتاحه وقيد سراحه، فصباحه لا ينبلج وبابه لا ينفرج، وإن خوطب به الكامل الجامع الشامل فهو تعريف بما ثبت وإعلام بما عنه سكت، عليك بالصفوف الأول فمنها تشاهد الأزل، وإياك أن تتأخر فتؤخر وأنت ذو وراء فما ترى، ولا يشهد المحيط إلاَّ البسيط، فإن كنت وجهاً كلك فأنت أنت فصل حيث شئت فصل.

ومن ذلك تعشير القرآن في الجنان من الباب ٣٥٦: هذا لسان كما جاء أخذناه وأوردناه كما سمعناه، قال الآتي المواتي: إذا خاطبك الحق بلسان لا تعرفه فقف وقل: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وقال الفرقان نتيجة العامل بالقرآن العظيم وتختلف نتائج القرآن باختلاف نعوته، فالقرآن المطلق يعطي ما لا يعطيه القرآن المقيد، وقد قيد الله قرآنه بالعظمة والمجد والكرم وقال: إذا خوطبت بالرسالة فقف حتى تعلم عمّن أنت رسول فإن الرسالة والنبوّة قد انقطعت بوجود رسالة رسول الله ﷺ وبما أنت رسول ولمن أرسلت وما حظك منها.

ومن ذلك رسالة الأرواح في الأرواح من الباب ٣٥٧: قال: رسالة الأرواح لا تزال دائمة، فإن بيدها مفاتيح نفحات الجود الإلٰهيّ، فمن تعرّض لتلك النفحات أعطته مفاتيحها فنال منها على قدر تعرّضه، وقال: إذا تعرّضت إلى الله تعرّض إليه تعرّضك لجود مطلق وإياك أن تبخله فإن جميع الممكنات في يديه وهي لا تتناهى وأنت لا تطلب إلاَّ متناهياً، وقال: لا تعجب من نعت الجواد بالعطاء وإنما العجب ممّن نعته بالإمساك، وقال: ما خلق الله أعجب من الدنيا فمن اعتبرها رأى الأمر على ما هو عليه. وقال: كل ما في الدنيا عجب وأعجب ما فيها وصف الحق بما لا يليق به، وما أطلق الألسنة عليه بذلك إلاَّ هو، كما أطلق ألسنة أخرى بتنزيهه عن ذلك، وضرب الناس بعضهم ببعض إلى يوم كشف الغطاء.

ومن ذلك الغرامة شهامة من الباب ٣٥٨: [البسيط]

إذا يُخَصُّ الذي يُوحَى إليه بما ... أَتَى به الوَحْيُ من عِلْمٍ ومن خَبَرِ
من غير معرفةٍ منه بذاك ولا ... يدري به أحَدٌ من سائر البَشَرِ

فـلا يـعـرفـه ولْـيَـلْـزَمْ شَـرائـطَـهُ بـالاتِّـبَـاعِ الـذي قـد جـاء فـي الأثَـرِ
هـذا هـو الأدَبُ الـمـخـتـارُ جـاء بـه رَسُـولُ رَبِّـكَ فـي الآيـات والـسُّـوَرِ
فـي مـثـل طٰـهَ وفـي مـثـل الـقـيـامـةِ لا تَـعْـدِلْ بـه أدبـاً إن كـنـت ذا نَـظَـرِ
هـذي وَصِـيَّـتُـنـا فـالْـزَمْ طـريـقَـتَـهـا فـإنـمـا أنـت فـي الـدنـيـا عـلـى سَـفَـرِ

وقال: أنت مأمور بأن تعمل شكراً والشكر صفته، والزيادة مقرونة بالشكر منه إليك بالنص، وفيه تنبيه بما يطلبه منك من الزيادة فيما شكرك عليه، فإياك أن تغفل عن هذا القدر، وكن مع الله كما أنت مع نفسك.

ومن ذلك الأعراب سادات الأحزاب من الباب ٣٥٩: قال: الأحزاب شعوب وقبائل، فكن من أهل القبائل فإنهم أكرم أحزاب، ونبيك عربي، وقال: لا تحجم فيحجم عليك كما قال ﷺ: «**لا تُوكِ فَيُوكَى عَلَيْكِ**» يأمر بالجود. وقال: «**إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاء الدِّمَن**» وَهِيَ الجَارِيَةُ الحَسْنَاءُ فِي المَنْبتِ السُّوءِ، فإن الله يقول يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً وهو ما يزينه الشيطان من الأعمال، وإن كان لها وجه إلى الحق فالمعدن خبيث، جاء إبليس إلى عيسىٰ عليه السلام فقال له: قل لا إلٰه إلاّ الله فهذه كلمة حق من معدن خبيث، فقال له عيسىٰ عليه السلام: يا ملعون أقولها لا لقولك وأمرك، فما قال لا إلٰه إلاّ الله التي أمره بها إبليس فهذه جارية حسناء في منبت سوء.

ومن ذلك علم الظاهر والتأويل في الحديث والتنزيل من الباب ٣٦٠: قال: ما عصى آدم إلاّ بالتأويل، وما عصى إبليس إلاّ بالأخذ بالظاهر، فما كل قياس يصيب ولا كل ظاهر يخطىء، وقال: إن قست تعديت الحدود، وإن وقفت مع الظاهر فاتك علم كبير، فقف مع الظاهر في التكليف وقس فيما عداه تحصل على علم كبير، وفائدة عظمى، وتخفف عن هذه الأمة، فإن ذلك أعني التخفيف عنها مقصود نبيها ﷺ فيها. وقال: الظاهر مظاهر فتلزمه الكفارة قبل الوطء. وقال: لو أخذوا بالظاهر في كتابهم ما نبذوه وراء ظهورهم، فما أضرّ بهم إلاّ التأويل فاحذر من غائبته. وقال: الخطب عظيم، والأمر مشكل، والمكلف مخاطب بألسنة مختلفة مع البيان الشافي، ولكن العيب والسقم من الفهم السقيم.

من ذلك من أوتي جوامع الكلم فقد أعطي الحكم من الباب ٣٦١: وقال: إذا أيه الله بأحد في كتابه فكن أنت ذلك المؤيه به، فإن أخبر فافهم واعتبر فإنه ما أيه بك إلاّ لما سمعت، وإن أمرك أو نهاك فامتثل، وما ثم قسم رابع إنما هو خبر أو أمر أو نهي. وقال: أنزله في خطابه إياك منزلة الأم من الشفقة فتلقى منه بالقبول ما يورده عليك، فإنه ما خاطبك إلاّ لينفعك. وقال: لا تجعل زمامك إلاّ بيد ربك فإن له كما قال يدين فكما أنه قد أخبرك أن يده بناصيتك اضطراراً فاجعل زمامك بيده اختياراً فتجني ثمرة الاختيار والاضطرار يجمعك بين اليدين، وعلم الله لقد أبلغت لك في النصيحة والذكرى.

ومن ذلك من أهل الكتاب من هو أسعد من ذوي الأحساب من الباب ٣٦٢: قال:

نسب الله التقوى فمن اتقاه فقد صحّح نسبه وهو عبد الله حقاً، وإياك والنسب الطيني فإنه غير معتبر، وما أحسن ما قال علي بن أبي طالب القيرواني: [البسيط]

مـا الـفَـضْـلُ إلاّ لأهْـلِ الـعِـلْـمِ إنَّـهُـمُ عـلـى الـهُـدَى لـمـن اسْـتَـهْـدَى أَدِلاّءُ

وقال: قدرك عند الله موازن لقدره عندك، وأنت أعرف بنفسك مع ربك. وقال: لا مفاضلة في كلام الله من حيث ما هو كلامه، فالكتب كلها من آل واحد، والقرآن جامع فقد أغنى وأنت منه على يقين، ولست من غيره على يقين لما دخله من التبديل والتحريف.

ومن ذلك المحو والإثبات في علم الأبيات من الباب ٣٦٣: قال: احفظ على بيوت الله وأشرفها بيتاً قلب المؤمن فإنه بيت الحق. وقال: قوّ أساس بيتك وشيّد أركانه، أساسه التوحيد وأركانه أربعة: الصلاة والزكاة والصوم والحج، وجدرانه ما بين الأركان وهي نوافل الخيرات، ولا تجعل له سقفاً فيحول بينك وبين السماء فتحرم الرؤية، لا تكن نفسك فيه بالسقف فإن الغيث إذا نزل لا يصل إليك منه شيء وهو رحمة الله رحم به عباده. وقال: لا تسكن من البيوت إلاّ أضعفها فإن الخراب يسرع إليها فتبقى في حفظ الله لا في حفظ البيت، فإنه من لا بيت له احفظ على رحله ممّن له بيت فيه رحله. وقال: الأمور إذا تناقضت وهي متناقضة بلا شك فاعمد إلى أقربها إلى الحق فاعتمد عليه، وأقربها إلى الحق من يسرع إليه الذهاب والزوال فيبقى الحق الذي هو المطلوب.

ومن ذلك أخبار الأنبياء مسامرة الأولياء من الباب ٣٦٤: قال إذ ولا بدّ من الحديث فلا تتحدث إلاّ بنعمة ربك، وأعظم النعم ما أعطيت الأنبياء والرسل فبنعمهم تحدث، وقال الوليّ الله فلا تجالس غيره ولا تتحدث إلاّ معه، فإنه يسمع عباده، فأسمع الله فإنك إن أسمعت غيره فقد أسأت الأدب معه، ألا ترى إلى الإنسان إذا أقبل على كلامه جليسه فأسمع غيره أخجله، وإذا أخجله لم يأمن غائلته، وأهون غائلته أن يقطع به في الموضع الذي يحتاج إليه فيه، وقال: مجالسة الرسل بالاتباع ومجالسة الحق بالإصغاء إلى ما يقول فإنه المتكلم الذي لا يجوز عليه السكوت، فكن سامعاً لا متكلماً.

ومن ذلك من يتوقى الضرر ليس من البشر من الباب ٣٦٥: قال: البشر كل من باشر وما ثم إلاّ من باشر، فما ثم إلاّ بشر وما ثم إلاّ من يتوقى الضرر، ممّا روينا أن جبريل وميكائيل عليهما السلام بكيا فأوحى الله إليهما ما شأنكما تبكيان؟ فقالا: لا نأمن مكرك، قال: كذلك فكونا لا تأمنا مكري. وقال: كل ما سوى الله معلول، والمعلول مريض، فملازمة الطبيب فرض لازم. وقال: كل أمة تدعى إلى كتابها لتقرأه حيث هو فاجعل كتابك في عليين، فإن جعلته في سجين فاختمه بالتوحيد. وقال: اتخذ الله وقاية بأن تكون له هنا وقاية فإنك إن اتقى بك في الدنيا اتقيت به في الأخرى. وقال: يا وليّ ما خلق الله أكمل من الإنسان فلا ترض بالدون واطلب معالي الأمور، وما ثم أعلى من العلم بالله فلا تشغل نفسك بغير البحث فيه والأخذ منه وميّزه في الخلق بترك العلامة فإنها علامه.

ومن ذلك منازل الأنبياء عليهم السلام من ظلل الغمام من الباب ٣٦٦: قال: لا تغفل

عن مشاهدة الغمام فإنه مذكر كل مؤمن بربه. وقال: إذا كان الحق على قدر ما جاء العلماء به فاعتمد على الحق الذي جاءت الرسل بنعته وإياك والفكر فيه فإنه مزلة قدم، قف عند ظاهر ما جاءت به من غير تأويل فإن الرسل ما تنطق عن الهوى إن هو إلاَّ وحي يوحى علمهم شديد القوى. وقال: الخلق عيال الله وأكرم العيال عند رب البيت صاحبة البيت وليس إلاَّ الرسل ومن ورثهم على مدرجتهم، فالورثة كالسراري لرب البيت فهن وإن كن سراري فقد اشتركن مع الحرائر في الأسرة والأسرار، والإماء إلى الأصل أقرب.

ومن ذلك ما بين الشبهة والبرهان من الفرقان من الباب ٣٦٧: قال: إياك أن تنخدع فإن الشبه ما تظهر إلاَّ بصور البراهين وهي أقرب إلى الأفهام بالأوهام من الأدلة. وقال: احذر من القرآن إلاَّ أن تقرأه فرقاناً، فإن الله يضلّ به كثيراً أي يحيرهم، ويهذي به كثيراً أي يرزقهم الفهم فيه بما هو عليه من البيان، وما يضلّ به إلاَّ الفاسقين وهم الذين خرجوا عن حدوده ورسومه. وقال: أنت أنت وهو هو فاحذر أن تقول كما قال العاشق: أنا من أهوى ومن أهوى أنا، فهل قدر على أن يرد العين واحدة والله ما استطاع فإن الجهل لا يستطاع، فأتى بذكره وذكر من يهوى، ففرّق واعتقد الفرقان تكن من أهل البرهان، لا بل من أهل الكشف والعيان، قد علمت أن ثم غطاء يكشف وقد آمنت به فلا تغالط نفسك بأن تقول أنا هو وهو أنا.

ومن ذلك توالي الأنوار على قلوب الأحرار من الباب ٣٦٨: أول نور ظهر الكوكب ثم تنكب وتلاه القمر فما أثر، فلما بدت الشمس أزالت ما في النفس، وكانت هذه الأنوار عين الدليل في حق إبراهيم الخليل عليه السلام: [السريع]

مَن نَظَرَ الحَقُّ إلى سِرِّهْ ... أنالَهُ العِزَّ على غَيْرِهْ
فلْيَشْكُرِ الله على قَدْرِ ما ... أعطاه رَبُّ الخَيْرِ من خَيْرِهْ
إذا دعاه الحَقُّ من كونه ... أقبل نحو الحق من فَوْرِه
لا يتأنَّى وليَقِفْ عارفاً ... بقَدْرِهِ المعلوم في طَوْرِه
إلٰه إبراهيم أعْطَى الذي ... أراد إبراهيم في صوره
أطياره فنال مطلوبه ... بما أتى الأنباء في طيره
فنُورُ ما في الرُّوحِ من نُورِهِ ... ونُورُ ما في الجِسْمِ من نُورِه
إن خَصَّكَ الله به فاستعذْ ... من حَوْرِهِ القاضي على كَوْرِه
من قال لا ضَيْرَ لما قد رأى ... من انقِلابِ الأمْرِ في ضَيْره
ما فَلَكٌ دار على قُطْبِهِ ... إلاَّ أتى بالكون في دَوْرِه
لِلَّه من قاضٍ ومن عادل ... قد أمن الأقوامُ من جوره
وفضله عَمَّ ولا صارفٌ ... في كَوْرِه الأعلى وفي حَوْرِه

ومن ذلك ما يعطي البقاء في دار السعادة والشقاء من الباب ٣٦٩: قال: من تلى المحامد ولم يكن عين ما يتلوه منها فليس بتال، وكذلك من تلى المذام وكان عين ما يتلوه منها فليس بتال، فما نزل القرآن إلاَّ للبيان. وقال: كن أنت المخاطب في خطاب الحق

بسمعك لا بسمع الحق، فإنه لا يأمر نفسه ولا ينهاها. وقال: لا تحزن على ما يفوتك من جنة الميراث فإنه ما فيها تقصير، وإنما ينبغي لك أن تحزن على ما يفوتك من جنة الأعمال. وقال: لا تعتمد إلاَّ على جنة الاختصاص فإنها مثل التوفيق للأعمال الصالحة، في هذه الدار لا تنال إلاَّ بالعناية لا بالاكتساب. وقال: كل ممّا يليك إذا كان الطعام واحداً فإن اختلف فكل من حيث شئت وذلك أن العقائد مختلفة والمطلوب بها واحد، فإن نظرت إليهم من حيث أحدية المطلوب فاثبت على ما عندك وهو الأكل ممّا يليك، وإن نظرت إليهم من حيثهم فكل من حيث شئت فإنك مصيب.

ومن ذلك سجود القلب والجسد هل ينقطع أو هو إلى الأبد من الباب ٣٧٠: قال: ما عرفنا نقص سهل إلاَّ من سجود قلبه وما أخبر أنه رآه ساجداً فرآه على ما كان عليه وإنما أخبره أنه يسجد، ولا سجود إلاَّ من قيام أو جلوس، ولا قيام للكون فإن القيومية لله. وقال: لكل اسم إلٰهيّ تجلٍّ فلا بدّ أن يسجد له القلب فلا يزال يتقلب من سجود إلى سجود، وبهذا سمّي قلب العارف قلباً بخلاف قلوب العامة لاختلاف تقلباتها فيما يخطر لها من أحوال الدنيا، وتلك بعينها هي عند العارف أسماء إلٰهية، فانظر إلى ما بين المنزلتين كيف يرتقي هذا بعين ما ينحط به هذا ذلك هو الخسران المبين. وقال: ما وقع ما وقع إلاَّ من تعشق كل نفس بما هي عليه ولذلك قال: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] فلو تبين لكل حزب مآله وماله لفرح من ينبغي له أن يفرح وحزن من ينبغي له أن يحزن. وقال: لو خرجوا من العمرة إلى ما كانوا عليه أوّل مرة في قولهم بلى لسعدوا.

ومن ذلك التقسيم في الكلام الحادث والقديم من الباب ٣٧١: قال: كلام الحادث محدث وكلام الله له الحدوث والقدم فله عموم الصفة فإن له الإحاطة ولنا التقييد. وقال: لا يضاف الحدوث إلى كلام الله إلاَّ إذا كتبه الحادث أو تلاه، ولا يضاف القدم إلى كلام الحادث إلاَّ إذا تكلم به الله عند من أسمعه كلامه كموسىٰ عليه السلام ومن شاء الله من عباده في الدنيا والآخرة وأهل السعادة وأهل الشقاء، يقول الله لأهل جهنم في جهنم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وقال: من سمع كلام الله من الله استفاد، ومن سمعه من المحدث ربما عاند وربما قبل بحسب ما يوفق له. وقال: العجب كل العجب من قذف الحق على الباطل والباطل عدم فما وقع على شيء فلمن دمغ بقذفه ولا عين له في الوجود، ولو كان له وجود لكان حقاً، فهذا من أعجب ما سمعته الآذان من أصحاب القلوب.

ومن ذلك ما يعطي خطاب الجود والسماحة من الراحة من الباب ٣٧٢: قال: إن كان العما كالعرش فالخطاب باق من السائل الذي سأل رسول الله ﷺ: أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ فقال ﷺ: «**كَانَ فِي عَمَاءٍ ما فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَمَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ**» فإن قصد السائل بالخلق كل ما سوى الله فما هو العما، وهذه مسألة خفية جداً. وقال: بالاستواء صحّ نزوله تعالىٰ كل ليلة إلى السماء ومع هذا فهو مع عباده أينما كانوا، ولما علم أن بعض عباده يقولون في مثل هذا بعلمه أعلم في هذه الآية أنه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] ليغلب على ظن السامع أنه ليس على

ما تأوّلوه فإنا لا نشك أنه يحيط بنا علماً أينما كنا، وكيف لا يعلم ذلك وهو خلقنا وخلق الأبنية التي نحن فيها؟ وكذلك لو قال في تمامها: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧] وقال: لكل اسم من الأسماء الحسنىٰ وجوه في التجليات لا تتناهى، وإن تناهت الأعمار في الدنيا فلا نهاية لها في الآخرة.

ومن ذلك سرّ الانخناث إلحاق الذكران بالإناث من الباب ٣٧٣: قال: الخنثى إذا كمل نكح ونكح فولد وأولد فحاز الشهوتين، فمن أنزله منزلة البرزخ أعطاه الكمال، ومن وقف مع عدم تمكنه من الانخناث أعطاه النقص عن درجة الكامل، فهو بحسب ما يعتبره من ينظر فيه والمعتبر بحسب ما يقام فيه. وقال: المترجلات من النساء كالمتخنثين من الرجال فإن خلقوا على ذلك فهم بحسب ما خلقوا عليه وما ذمّ إلاّ التعمّل فاحذر منه. وقال: كملت مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون فقد ثبت الكمال للنساء كما أثبته للرجال، وللرجال عليهن درجة فما هو هذا الكمال؟ إن كان الانفعال فخذه إلى عيسىٰ عليه السلام. وقال لآدم: على النساء درجة ولمريم على عيسىٰ درجة لا على الرجال فالدرجة لم تزل باقية، وبها حاز الرجل الثلث الثاني فكان له الثلثان، فلو وقعت المساواة لكانا في المال على السواء. وقال: تعجب زكريا ممّا تعجبت منه مريم وسارة فلحق الرجال بالنساء وثم ما هو أعجب وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير في مقابلة امرأتين.

ومن ذلك من وعظه النوم من القوم من الباب ٣٧٤: قال: من أراد أن يعرف حاله بعد الموت فلينظر في حاله إذا نام هو وبعد النوم فالحضرة واحدة، وإنما ضرب الله لنا ذلك مثلاً وكذلك ضرب اليقظة من النوم كالبعث من الموت لقوم يعقلون. وقال: الدنيا والآخرة أختان وقد نهى الله عن الجمع بين الأختين والجمع يجوز بين الضرّتين فما هما ضرّتان، لكن لما كان في الإحسان إلى إحدى الأختين بالنكاح إضرار بالأخرى لذلك قيل فيهما ضرتان فتنبه. وقال: سفينتك مركبك فاخرقه بالمجاهدة، وغلامك هواك فاقتله بسيف المخالفة، وجدارك عقلك لا بل الأمر المعتاد في العموم فأقمه تستر به، كنز المعارف الإلٰهية عقلاً وشرعاً حتى يبلغ الكتاب أجله، فإذا بلغ عقلك وشرعك فيك أشدهما وتوخيا ما يكون به المنفعة في حقهما، وما أريد بالشرع إلاّ الإيمان فإن العقل والإيمان نور على نور.

ومن ذلك ما يحصل صاحب الرحلة عن كل نحلة من الباب ٣٧٥: قال: الرحلة من الأكوان إلى الله تعالىٰ جهل به تعالىٰ فلو رأى وجه الحق في كل شيء لعرف قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] وقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] وقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] على الاعتبارين في قوله: ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ وقال: الظلمة دليل على علم الغيب، والنور دليل على علم الشهادة، فالليل لباس فأنت الليل، والنهار للحركة فهو للحق شؤنه، الحركة حياة وهي حقية، والسكوت موت فهو خلقي، ومع هذا فله ما سكن بالوجهين من السكون والثبات، ولك ما تحرك بالوجهين من وإلى، ولا اعتبار لليل ولا لنهار فله ما فيها من حكم الإيجاد ولك ما فيها من الانتفاع، والنوم راحة بدنية

ومكاشفات غيبية عينية. وقال: إرداف النعم وتواليها إرفاد الحق ومنحه لعباده، فمن اتقى الله فيها سعد ومن لم يتق الله فيها شقي. وقال: مواهب الحق لا تحجير عليها فلا تقل لم نعط فإن الحق يقول لم تأخذ، الدليل ما ورد من التكليف قيل لك لا تفعل فعلت قيل لك افعل لم تفعل هكذا الأمر.

ومن ذلك الفرق في الوحي بين التحت والفوق من الباب ٣٧٦: قال: إذا قام المكلف بما خاطبه به رسوله من حيث ما بلغه عن ربه لا من حيث ما سنّ له فما دخل له ممّا أتحفه الحق به من المعرفة به في ميزان قيامه فذلك العلم المكتسب، وما خرج عن ميزانه ولا يقبله ميزان عمله فذلك علم الوهب الإلهي، فالعلم الكسبي نصر الله والوهبي فتحه ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١] علم أنه قد قام بحق ما كلف، وإذا انقادت إليه قواه الحسية والعقلية فمشت معه على طريقه الذي هو صراط الله لا صراط الرب فليشكر الله على ما خوّله به وحباه. وقال: خفي عن الناس طاعة إبليس بلعنة الله إياه كما خفي عنهم موافقة الملك ربه في خلافة آدم بثناء الله عليهم ورضاه عنهم.

ومن ذلك المنع في الصدع من الباب ٣٧٧: قال: حفظ الله ذكره بالحفظة من البشر وبالصحف المكرمة التي بأيدي السفرة الكرام البررة فالحق في قلبه وكلامه في صدره وقال: خزائن الله صدور المقربين وأبواب تلك الخزائن ألسنتهم، فإذا نطقوا أعنوا السامعين إن كانت أعين أفهامهم غير مطموسة. وقال: إذا تميز العارف بالإضافة إلى معروفه لفطن الحجة فإن الحجة البالغة لله وعصم من الخطأ في القول والعمل. وقال: الهبة العظمى ما أعطاك الله من الرحمة في قلبك بعباده فخفضت لهم الجناح وألنت لهم القول، يقول كهمس في رجزه: [الرجز]

الْبسْ لكلِّ حالةٍ لَبُوسَهَا ... إما نَعِيمَها وإما بُوسَهَا

وقال: إنما كانت الحجة البالغة لله لأن العلم يطابق المعلوم فافهم.

ومن ذلك ما هو المقام الجليل الذي صحّ للخليل من الباب ٣٧٨: وقال: المحدث في القديم ما هو القديم في المحدث ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥] وورد في الخبر: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً لٰكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الله**» فانظر إلى ما تحت هذا من المعنى اللطيف قال بعضهم: [الخفيف]

وتَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوح منِّي ... وبذا سُمِّي الخَلِيلُ خَلِيلاَ

وقال: ما ثم إلاّ أسماؤه وليست سواه وما هي دلائل عليه بل هي عينه، وقد تخللها المتخلق الكامل فهو الخليل. وقال: الله الصاحب وأنت الخليل. وقال: نال محمد ﷺ الخلة والوسيلة بدعاء أمته، ولذلك أمرهم بالصلاة عليه كما صلّى على إبراهيم وأمرهم أن يسألوا له الوسيلة وجعل الجزاء الشفاعة. وقال: كل خليل صاحب وما كل صاحب خليل. وقال: المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل أي على عادته وخلقه، وأنت خليل الحق فهو على ما أنت عليه، لهذا وصف نفسه بما أنت عليه من الفرح والتبشيش والتعجب والضحك وجميع ما ورد عنه ممّا هو لك.

ومن ذلك الكلام بعد الموت هل هو بحرف وصوت من الباب ٣٧٩: قال: الكلام بعد الموت بحسب الصورة التي ترى نفسك فيها فإن اقتضت الحرف والصوت كان الكلام كذلك، وإن اقتضت الصوت بلا حرف كان، وإن اقتضت الإشارة أو النظرة أو ما كان فهو ذلك، وإن اقتضت الذات أن تكون عين الكلام كان، فإن جميع ذلك كله تقتضيه تلك الحضرة، وإن رأيت نفسك في صورة إنسان حزت جميع المراتب في الكلام فإنه العام الجامع أحكام الصور. وقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] يعني بالنظر العقلي فالكل ناطق وتقع العين على ناطق وصامت، فالمؤمن يدرك ذلك إيماناً، وصاحب الكشف يدرك الكيفية، والكشف منحة من الله يمنحها من شاء من عباده. وقال: كل نطق في الوجود تسبيح وإن انطلق عليه اسم الذم وبعلم هذا فضلنا غيرنا بحمد الله.

ومن ذلك ما يختص بالدنيا من أحكام الرؤيا من الباب ٣٨٠: قال: إنما قال النبيّ ﷺ: «**النَّاسُ نِيَامٌ فَإذا مَاتُوا انْتَبَهُوا**» لما في الموت من لقاء الله ألا ترى إلى قوله في المحتضر: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] ولم يقل عقلك فكلما أنت فيه في الدنيا إنما هو رؤيا، فمن عبرها في الدنيا كان بمنزلة من رأى في الرؤيا أنه استيقظ وهو في حال نومه كما هو فعبرها. وقال: من وقف على حكمة تقلب الأمور في باطنه علم أنه نائم في يقظته العرفية. وقال: الأمر في غاية الإشكال لأنا خلقنا في هذه الدنيا نياماً فما ندري لليقظة طعماً إلاّ ما يهب علينا من روائح ذلك في حال نومنا الذي هو شبيه بحال موتنا إلاّ أن في النوم العلاقة باقية بتدبير هذا الهيكل وبالموت لا علاقة، ولا بدّ أن يختلف الحكم في صورة ما أو في صور.

ومن ذلك ما حال أهل الانتباه في صراط الرب وصراط الله من الباب ٣٨١ قال: صراط الله إن ربي على صراط مستقيم﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦] وقال ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥] وقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورىٰ: ٥٣] وقال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨] وقال: ما يدعو إلى الله على بصيرة إلاّ من كان على بينة من ربه والشاهد الذي يتلوه منه ما يوافقه على ذلك من النفوس التي كشف الله لها عن ذلك. وقال: ما ثم إلاّ اختلاف ولا يكون إلاّ هكذا، وإذا سمعت أن ثم أهل جمع فليس إلاّ من جمع مع الحق على ما في العالم من الخلاف لأن الأسماء الإلٰهية مختلفة وما ظهر العالم إلاّ بصورتها فأين الجمع؟ وقال: العين واحدة فالحكم واحد.

ومن ذلك هل في القدم قدم من الباب ٣٨٢ قال: من سبقت له العناية عند الله ثبت العالم عنده على ما هو عليه لا يتبدّل في تبدّله، وتحوّله من حال إلى حال، ومن صورة بصورة والعالم بذلك قليل. وقال: الدنيا والآخرة سواء في الحكم إلى أجل مسمّى فيما اجتمعا فيه. وقال: لا يظهر خصوص الآخرة التي تمتاز به عن الدنيا فيكون آخرة ما فيها حكم دنيا إلاّ إذا انقضى أجلها المسمّى، وعمّت الرحمة، وشملت النعمة، عند ذلك تكون مفارقة

للدنيا وذلك هو الموت الصحيح الموجب الراحة وهو النوم الذي لا يقظة بعده، فإن الله جعل النوم سباتاً أي راحة، فكل ما تراه في عين الآخرة الخالصة فهو رؤيا، وهنالك يعلم الإنسان العارف اتصاف الحق بالحيّ القيوم وأنت المايت النؤوم ولك البقاء فيما أنت فيه كما أن له البقاء فيما هو فيه. وقال: من عرف حال العالم ومآله وتصرّفاته وأحكامه من هنا فقد عرف وذلك هو المسمّى بالعارف العالم الحكيم، فاجهد أن تكون أنت ذلك الرجل.

ومن ذلك الاستقصاء هل يمكن فيه الإحصاء من الباب ٣٨٣ قال: إذا رأيت من يتبرأ من نفسه فلا تطمع فيه فإنه منك أشدّ تبرؤاً فافهم. وقال: ما ثم ثقة بشيء لجهلنا بما في علم الله فينا فيا لها من مصيبة. وقال: ما ثم إلاّ الإيمان فلا تعدل عنه، وإياك والتأويل فيما أنت به مؤمن فإنك ما تظفر منه بطائل ما لم يكشف لك عيناً. وقال: اجعل أساس أمرك كله على الإيمان والتقوى حتى تبين لك الأمور فاعمل بحسب ما بان لك وسر معها إلى ما يدعوك إليه. وقال: اجعل زمامك بيد الهادي ولا تتلكأ فيسلط عليك الحادي فتشقى شقاء الأبد. وقال: من كانت داره الحنان في الدنيا خيف عليه وبالعكس.

ومن ذلك التحديد بين أهل الشرك والتوحيد من الباب ٣٨٤، قال: من نعم الله كونه جعل الفطرة في الوجود لا في التوحيد فلذلك كان المآل إلى الرحمة لأن الأمر دور فانعطف آخر الدائرة على أوّلها والتحق به فكان له حكمه وما كان إلاّ الوجود. وقال: سبقت الرحمة الغضب لأنه بها كان الابتداء والغضب عرض والعرض زائل. وقال: التوحيد في المرتبة والمرتبة كثرة، فالتوحيد توحيد الكثرة، لولا ما هو الأمر كذا ما اختلفت معاني الأسماء أين مدلول القهار من مدلول الغفار؟ وأين دلالة المعزّ من دلالة المذلّ؟ هيهات فزنا وخسر من كان في هذه الدنيا أعمى، لا علم إلاّ في الكشف فإن لم تكن من أهله فلا أقلّ من الإيمان. وقال: المحسوس محسوس فلا تعدل به عن طريقه فتجهل، والمعقول كذلك معقول، فمن ألحق المحسوس بالمعقول فقد ضلّ ضلالاً مبيناً.

ومن ذلك الفاصل بين الحالي والعاطل من الباب ٣٨٥ قال: لله سور بين الجنة والنار باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، وعليه رجال يعرفون كلاّ بسيماهم وهو الأعراف فيعرفون ما هم فيه وما هم. وقال: أخفى الله رحمته في باطن ذلك السور وجعل العذاب في ظاهره لاقتضاء الموطن والزمان والحال، وأهل الجنة مغموسون في الرحمة، ولا بدّ من الكشف فتظهر رحمة باطن السور فتعمّ فهنالك لا يبقى شقي إلاّ سعد ولا متألم إلاّ التذّ، ومن الناس من تكون لذته عين انتزاح ألمه وهو الأشقى وهو في نفسه في نعيم ما يرى أن أحداً أنعم منه كما قد كان يرى أنه لا أحد أشدّ عذاباً منه وسبب ذلك شغل كل إنسان أو كل شيء بنفسه. وقال: أرجى آية في كتاب الله في حق أهل الشقاء في إسبال النعيم عليهم وشمول الرحمة قوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] وهذا جزاء المجرمين على التعيين.

ومن ذلك الأفضل والفاضل الناقص والكامل من الباب ٣٨٦ قال: من وقف على

الحقائق كشفاً وتعريفاً إلٰهياً فهو الكامل الأكمل، ومن نزل عن هذه المرتبة فهو الكامل، وما عدا هذين فإما مؤمن أو صاحب نظر عقلي لا دخول لهما في الكمال فكيف في الأكملية؟ فاعلم. وقال: لا تتكل على دليل أنه يوصلك إلى غيره غايته أن يوصلك إلى نفسه وذلك هو الدليل، فلا تطمع إلاَّ أن يكون دليلك الكشف فإنه يريك نفسه وغيره، وهذا لأفراد الرجال. وقال: إذا قرأت رسل الله فإن انقطع نفسك على الجلالة الثانية كان وإلاَّ فاقصد ذلك ثم ابتدىء الله أعلم حيث يجعل رسالاته.

ومن ذلك الوجود في الوفا بالعهود من الباب ٣٨٧ قال: الوفاء من العبد بالعهد جفاء وإن كان محموداً لما فيه من رائحة الدعوى. وقال: احذر أن تفي ليفي إليك، أوف أنت بعهدك واتركه يفعل ما يريد. وقال: من وفى بعهده ليفي له الحق بعهده لم يزده على ميزانه شيئاً وهو قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وليس سوى دخول الجنة، ورد في الحديث كان له عند الله عهداً أن يدخله الجنة لم يقل غير ذلك ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] ولم يطلب الموازنة ولا ذكر هنا أن يفي له بعهده وإنما قال: ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠] وما عظمه الحق فلا أعظم منه، فاعمل على وفائك بعهدك من غير مزيد. قال: الوفاء يتضمن استقصاء الحقوق ويتضمن الزيادة وهي من جانب العبد نوافل الخيرات والحقوق هي الفرائض، فالوفاء من الله لعبده بهذه المثابة وفاء وجوب واستحقاق وزيادة لزيادة وزيادة لا لزيادة وهي الزيادة المذكورة في القرآن.

ومن ذلك استناد الكل إلى الواحد وما هو بأمر زائد من الباب ٣٨٨ قال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فما ثم إلاَّ عينه فمن السعيد والشقيّ. وقال: إن الحق وصف نفسه بالرضى والغضب فما ثم إلاَّ راحة وتعب، ومنهم شقي بالغضب والغضب زائل وسعيد بالرضى والرضى دائم. وقال: من فهم الأمور هانت عليه الشدائد فإن الشيء أرحم بنفسه من غيره به. قال: ألا ترى إلى المنتقم لا ينتقم من عدوّه ليؤلم عدوّه إنما ينتقم منه دواء لنفسه يستعمله ليريح نفسه، كذي العرّ يكوي غيره وهو راتع كذا هو الأمر فافهم واعقل، ألا ترى المنتقم إذا سكن غضبه بالانتقام عفا، وإن فرّط في المنتقم منه الأمر بالقتل ندم إلاَّ أن يكون في حدّ من حدود الله فإنه تطهير.

ومن ذلك الإبرام والنقض في البعض من البعض من الباب ٣٨٩ قال: لولا ما أنت منه ما كنى بك عنه قال تعالىٰ في عيسىٰ: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] وما في الوجود شيء إلاَّ منه. قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: ١٣] منه. وقال: من أنزلك منزلته فقد أباح لك التصرّف في رتبته فاظهر بصفته ولا تكن كأبي يزيد يغشى عليك في أوّل قدم، كن محلاً تكن للخلافة أهلاً ما دمت في الدنيا فإذا انتقلت إلى العقبى فأنت بالخيار. وقال: اجهد أن لا تفارق حياتك فإنك إن فارقتها ما تدري هل ترجع إليها أو لمثلها وأنت قد ألفتها، وصحبة من تعلم أولى من الغريب. وقال: العصمة والاعتصام ضربان: اعتصام بالله واعتصام بحبل الله، فإن كنت من أهل الحبل فأنت من أهل السبب، وإن

اعتصمت بالله كنت من أهل الله فإن لله من عباده أهلاً وخاصة. وقال: حكم أهل الله ما تميزوا به من تحليهم لخلق الله بصورة الحق، ومن لم يكن له هذا فليس من الأهل وهم أصحاب العرش وخاصة الله هم المقرّبون، وإن لم يكن لهم هذا التجلي فالأهل أقرب من الخاصة.

ومن ذلك إحياء الموات بالنبات من الباب ٣٩٠ قال: الحيوان لا يتغذى إلاّ بالنبات فحياته حياته، ولذلك إذا فقد الغذاء اضطرب. وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] فما تغذى إلاّ بالمشاكل والملائم. وقال: من ثبت نبت مثل سائر. وقال: الموت الأصل ولهذا كان الفناء من أحوال أهل طريق الله ليعرفوه ذوقاً فهم في البقاء مع الله في حال فناء عنهم. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وما خرج إلاّ من الحجر وما جاد به الحجر إلاّ بعد الضرب بالعصي والعصي نبات وبالماء يحيىٔ الأموات فأين درجة الحيوان من درجة النبات؟: [البسيط]

فانْظُرْ إلى حَجَرٍ فَاضَ على شَجَرٍ ... وانظُرْ إلى مائعٍ من نَفْسِ أحْجَارِ
بهِ الحياةُ وما تُخْشَى إزالتُهُ ... وانظُرْ إلى ضاربٍ من خَلْفِ أسْتارِ

وقال: الآجال محدودة والأيام معدودة. وقال: النفوس مقهورة والأنفاس محصورة وقال: وجه الله أنت فأنت القبلة حيث كنت فلا تتوجه إلاّ إليك، ما يظهر الخليفة إلاّ بصورة من استخلفه وأنت الخليفة في الأرض وهو الخليفة في الأهل.

ومن ذلك الحضرة الجامعة للأمور النافعة من الباب ٣٩١ قال: من سمّى الحق ذكره، ومن شكره حمده، ومن أثنى عليه رحمه، ومن سلم إليه أمره مجده، ومن استند إليه قبله ومن دعاه أجابه، فكن مع الله كما هو معك. وقال: أنت المؤمن فأنت مرآته لذلك أنت الجامع لظهور صورته بك له. وقال: إذا ناجيت ربك فلا تناجه إلاّ بكلامه. واحذر أن تخترع كلاماً من عندك فتناجيه به فإنه لا يسمعه منك ولا تسمع له إجابة فتحفظ فإن ذلك مزلة قدم. قال: كن تالياً لا تكن مقدماً فإن قدمك الحق تقدم كالسابق والمصلي، يقول النبيّ ﷺ في الإمامة: **«إنْ أُعْطِيتَها أُعِنتَ عليها وإن سَألْتَها وُكِلْتَ إليها، فلا تَسْأَلِ الإمارَةَ فإنها يَوْمَ القيامة حَسْرةٌ وندامة»**.

ومن ذلك اجتماع النازل والراقي وما بينهما عند التلاقي من الباب ٣٩٢ قال: عليك بالمنازلات فإنك مأمور بالقصد إليه وهم منعم بالنزول، فانظر في أي حضرة أو منزلة يكون اللقاء فكن بحسبها. وقال: لا ينزل عليك إلاّ على الطريق الذي تعرج إليه ولولا ذلك لم تلتق. وقال: انظر بأي صفة عرجت إليه تجدها بعينها عين ما نزل بها إليك وليس إلاّ المناسبة، ولولا ما هو الأمر هكذا ما كان اللقاء. وقال: لا تعامل الله بالإمكان ولكن عامله بالمناسب فإنه ما ينزل إليك إلاّ به. فإن قلت: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] فما أراد إلاّ المناسب فأنت صاحب الآية.

ومن ذلك اللؤلؤ المنثور من خلف الستور من الباب ٣٩٣ قال: من أراد التكوين فليقل بسم الله وإن كتبه فليكتبه بالألف. وقال: الأدب مع الله أن لا تشارك فيما أنت فيه مشارك.

وقال: ما هو إلاَّ أنت أو هو ما أنت وهو فما ثم مشاركة. وقال: أنت له مقابل فإنك عبد وهو سيد. وقال: عامله بك لا تعامله به فإذا عاملته بك عاملك به فأغناك وما أقول عمّن ولذلك لا يشقى أحد بعد السعادة. وقال: احمد الله على كل حال يدخل في حمدك حال السرّاء والضرّاء وما ثم إلاَّ هاتان الحالتان. وقال: الزم الاسم المركب من اسمين فإن له حقاً عظيماً وهو قولك: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] خاصة ما له اسم مركب غيره فله الأحدية هو كبعلبك ورام هرمز من ذكره بهذا الاسم لا يشقى أبداً.

ومن ذلك من لم يرفع به رأس من الناس من الباب ٣٩٤ قال: ما احتقر الله من خلقه حين خلقه فانظره بالعين الذي نظر إليه الحق حين أوجده فإنه ما أوجده إلاَّ ليسبحه بحمده. وقال: العبد يخلق في نفسه ما يعتقده فيعظمه ولا يحتقره فما يخلق الله أولى بالتعظيم، وهذه نكتة عجيبة لمن تدبرها تحتها إعلام بالعلم بالله إن علمت. وقال: المفوّض إلى الله أمره مقوّض ما بناه الحق إلاَّ أن يجلّ تقويضه ممّا بناه الحق فيه فلا يكون عند ذلك مقوّضاً وقال: خطاب الله بضمير المواجهة تحديد وبضميرالغائب تحديد ولا بدّ منهما.

ومن ذلك القرب المفرط من المفرّط من الباب ٣٩٥ قال: إذا سألت فاسأل أن يبين لك الطريق إليه لا بل إلى سعادتك فإنه ما ثم طريق إلاَّ إليه سواء شقي السالك أو سعد. وقال: ما أجهل من نزّه الحق أن يكون شريعة لكل وارد هذا شؤم النظر الفكري، وهل ثم طريق لا يكون هو عينه وغايته وبدءه؟ وقال: لولا نور الإيمان ما علمت ما يعطيه العيان فلا أقوى من المؤمن حاسًّا. وقال: إلى الحيرة هو الانتهاء وما بيد العالم بالله من العلم بالله سواها ما أحسن الإشارة في كون الله ما ختم القرآن العظيم الذي هو الفاتحة إلاَّ بأهل الحيرة وهو قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ والضلالة الحيرة ثم شرع عقيبها آمين أي أمناً بما سألناك فيه فإن: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ نعت ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهو نعت تنزيه، ومن علم أن الغاية هي الحيرة فما حار بل هو على نور من ربه في ذلك: [الرمل]

رَجْعَةُ المَانِحِ في مِنْحَتِهِ ... هي بُرْهانٌ على خِسَّتِهِ
هو كالكَلْبِ كذا شَبَّهَهُ ... من حَبَاهُ الله من رَحْمَتِهِ
بالذي فيها من اللِّينِ ومن ... كَرَم الله ومن رَأْفَتِهِ
فَازَ بالخَيْرِ عُبَيْدٌ مَنَحَتْ ... كَفُّهُ المعروفَ من نِعْمَتِهِ
ووقاه الله شُحّاً جُبِلَتْ ... نَفْسُهُ فيه لدى نَشْأَتِهِ
وهو المُفْلِحُ بالنَّصِّ كما ... جاء في التنزيل في حِكْمَتِهِ

ومن ذلك ما تواضع عن رفعة إلاَّ صاحب منعة من الباب ٣٩٦ قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فلا يتواضع إلاَّ مؤمن فإن له الرفعة الإلٰهية بالإيمان، تواضع المؤمن نزول الحق إلى السماء الدنيا. وقال: العارف لا يعرف التواضع لأنه عبد. وقال: انظر بعقلك في سجود الملائكة لآدم فما صرفت وجوهها إلى التحت إلاَّ وهو فيه لتشاهده في رتبته مشاهدة عين. وقال: ما كانت خلافة الإنسان إلا في الأرض لأنها موطنه

وأصله ومنها خلق وهي الذلول. وقال: دعا الله العالم كله إلى معرفته وهم قيام فإن الله أقامهم بين يديه حين خلقهم فأسجدهم فعرفوه في سجودهم فلم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها أبداً، وما عاين من هذا السجود سهل إلاً سجود القلب. قال: وما عرف الرسول ﷺ طعم التواضع إلاً صبيحة ليلة إسرائه لأنه نزل من أدنى من قاب قوسين إلى من أكذبه فاحتمله وعفى عنه.

ومن ذلك من خفي أمره جهل قدره من الباب ٣٩٧ قال: وما قدروا الله حق قدره فيما كيف به نفسه ممّا ذكره في كتابه وعلى لسان رسوله من صفاته. وقال: ما ثم حجاب ولا ستر فما أخفاه إلاً ظهوره. وقال: لو وقفت النفوس مع ما ظهر لعرفت الأمر على ما هو عليه، لكن طلبت أمراً غاب عنها فكان طلبها عين حجابها، فما قدرت ما ظهر حق قدره لشغلها بما تخيلت أنه بطن عنها. وقال: ما بطن شيء وإنما عدم العلم أبطنه فما في حق الحق شيء بطن عنه فخاطبنا تعالىٰ بأنه الظاهر والباطن والأوّل والآخر أي الذي تطلبه في الباطن هو الظاهر فلا تتعب.

ومن ذلك ما في التوقيعات الجوامع من المنافع من الباب ٣٩٨: قال: ما تخرج التوقيعات الإلٰهية إلى العالم إلاً بحسب ما التمسوه من الحق والمقاصد مختلفة، هذا إذا كانت التوقيعات عن سؤال وهي كل آية نزلت عن سؤال وسبب. وقال: كل سورة أو آية نزلت من عند الله فهي توقيع إلٰهيّ إما بعلم بالله أو بحكم أو بخبر أو بدلالة على الله، فما نزل من ذلك ابتداء فابتلاء، وما نزل عن سؤال فاعتناء وابتلاء. وقال: ما خرج توقيع عن سؤال إلاً لإقامة حجة على السائل. وقال: الشرع الواجب الذي لا مندوحة عنه ما وقعه الحق ابتداء ودونه ما وقعه عن سؤال بقول أو حال. وقال: الوجود الديوان ويمين الحق الكاتبة الموقعة فكل خبر إلٰهيّ جاء به رسول من عند الله فهو توقيع، فاعمل بحسب الوقت فيه فإن الأمر ناسخ ومنسوخ.

ومن ذلك ما تعطيه الحضرة في النظرة من الباب ٣٩٩ قال: الحضرة في عرف القوم الذات والصفات والأفعال. وقال: النظرة الإلٰهية في الخلق ما هو عليه الخلق من التصريف فإن العالم مسيّر لا مخيّر. وقال: نظر الحق في عباده إلى رتبهم لا إلى أعيانهم لهذا نزلت الشرائع على الأحوال والمخاطبون أصحابها. وقال: العالم بإنزال الشرائع يعرف ما خاطب الحق منه في نظره إليه وهو قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: ٦١] فالأحوال تطلب الأحكام المنزلة في الدنيا.

ومن ذلك من خيّرك حيّرك من الباب ٤٠٠ قال: ما دعا الملأ الأعلى إلى الخصام إلاً التخيير في الكفارات والتخيير حيرة فإنه يطلب الأرجح أو الأيسر ولا يعرف ذلك إلاً بالدليل، ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ﴾ [المائدة: ٨٩]. وقال: إذا خيّرك الحق في أمور فانظر إلى ما قدم منها بالذكر فاعمل به فإنه ما قدمه حتى تهمم به وبك فكأنه نبهك على الأخذ به، ما تزول الحيرة عن التخيير إلاً بالأخذ بالمتقدم، تلا رسول الله ﷺ حين أراد السعي في حجة الوداع:

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] ثم قال: «أبدأُ بما بَدَأ الله به»، فبدأ بالصفا وهذا عين ما أمرتك به لإزالة حيرة التخيير ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومن ذلك المعارف في العوارف من الباب ٤٠١ قال: عطايا الحق كلها عند العارف إنما هي معارف بالله جهلها غير العارف وعرفها العارف. وقال: ما عرفها العارف دون غيره إلاّ لكونه أخذها من يد الله لما سمع الله يقول: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]. وقال: عوارف الحق مننه ونعمه على عباده فما أطلعك منها على شيء إلاّ ليردك ذلك الشيء منك إليه فهو دعاء الحق في معروفه لما رأى عندك من الغفلة عنه فتحبب إليك بالنعم. وقال: عطايا الحق كلها نعم إلاّ أن النعم في العموم موافقة الغرض.

ومن ذلك إثبات الحكم من غير علم من الباب ٤٠٢ قال: ثبت بالشرع المطهر حكم الحاكم بالشاهد واليمين، وقد تكون اليمين فاجرة والشهادة زوراً فلا علم مع ثبوت الحكم. وقال: الحاكم مصيب للحكم فهو صاحب علم لأن الله ما حكم إلاّ بما علم وهو الذي شرع له أن يحكم فيما غلب على ظنّه فهو عنده غلبة ظن وعند الله علم. وقال: الحاكم من ولاه الله الحكم من غير طلب ومن أخذه عن طلب فما هو حاكم الله وهو مسؤول. وقال: قال النبي ﷺ: «إِنَّا لاَ نُوَلِّي أَمْرَنَا هٰذَا مَنْ طَلَبَهُ» بمثل هذا ثبتت خلافته، والخلافة أمر زائد على الرسالة فإن الرسالة تبليغ والخلافة حكم بقهر. وقال: تولية الوالي بعد موته نيابة ما هي ولاية، ومن ولاّه الناس فهي ولاية الحق وهو الخليفة الإلٰهيّ فكن عتيقياً أو عثمانياً ولا تكن عمرياً فيما فعل فإنه ترك الأمر شورى.

ومن ذلك التساوي في المناوي من الباب ٤٠٣ قال: من ناواك فهو عند نفسه قد ساواك وقد لا يكون له هذا المقام. وقال: إذا ابتلاك الحق بضرٍّ فاسأله رفعه عنك ولا تقاومه بالصبر عليه، وما سمّاك إلاّ لكونك حبست نفسك عن سؤال غير الحق في كشف الضر الذي أنزله بك. وقال: ما قصّ عليك أمر أيوب عليه السلام إلاّ لتهتدي بهداه إذا كان الرسول سيد البشر يقال له: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] فما ظنك بالتابع؟ وقال: جاع بعض العارفين فبكى فقيل له في ذلك فقال: إنما جوّعني لأبكي هذا هو العارف.

ومن ذلك من أنصف لم يتصف من الباب ٤٠٤ قال: المحقق لا صفة له لأن الكل لله فلا تقل إن الحق وصف نفسه بما هو لنا ممّا لا يجوز عليه فهذا سوء أدب، وتكذيب الحق فيما وصف به نفسه بل هو عند العارف الأديب صاحب تلك الصفة من غير تكييف، فالكل صفات الحق وإن اتصف بها الخلق فهي مستعارة ما هو فيها بطريق الاستحقاق عند المحجوب بالطريق التي لا تجوز على الحق، وما عرف المسكين أن الذي لا يجوز على الحق إنما هي تلك النسبة التي نسبتها بها إلى الخلق لا عين الصفة. وقال: ما ثم صفة إلاّ إلٰهية وهي للمخلوق معارة كما أنه معار في الوجود. وقال: نحن عندنا ودائع الله أودعنا إيانا فمتى ما طلب ودائعه رجعنا إليه إذ نحن عين الودائع، فافهم من أودع ومن استودع وما الوديعة.

ومن ذلك من لا يقله مكان لا يقيده زمان من الباب ٤٠٥ قال: كل من شأنه الحصر فالظروف تحويه وإن جهل. وقال: أين قوله ﷺ: «**إنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً**» وذكرها من قوله أو استأثرت به في علم غيبك، ولا أحصي ثناء عليك، وما الثناء عليه إلاَّ بأسمائه، فمن حيث ما هي دلائل عليه فهو محصور لكل اسم اسم فإنه يدل عليه وعلى المعنى الذي جاء له. وقال: كما لا يلزم من الفوق إثبات الجهة كذلك لا يلزم من الاستواء إثبات المكان. وقال: العارف كما لا يزيد في الرقم لا يزيد في اللفظ بل يقف عندما قيل من غير زيادة وهي العبادة.

ومن ذلك الإنسان رداء الرحمٰن من الباب ٤٠٦، قال: ما تردّى الرحمٰن برداء أحسن من الإنسان ولا أكمل لأنه خلقه على صورته وجعله خليفة عنه في أرضه ثم شرع له أن يستخلفه على أهله. وقال: لولا أن الحق أعطاه الاستقلال بالخلافة ما قال له عن نفسه تعالىٰ آمراً: ﴿**فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا**﴾ [المزمل: ٩] ولا قال له ﷺ: «**أنْتَ الخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ وَالصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ**» وهو ﷺ القائل: «**إنَّ الله أدَّبَنِي فَأَحْسَنَ أدَبِي**» وقال: الرداء للتجمل فله الجمال فلا أجمل من الإنسان إذا كان عالماً بربه. وقال: العالم عند الجماعة هو إنسان كبير في المعنى والجرم يقول الله تعالى: ﴿**لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ**﴾ [غافر: ٥٧] فلذلك قلنا في المعنى وصدق، وما نفى العلم عن الكل وإنما نفاه عن الأكثر والإنسان الكامل من العالم وهو له كالروح لجسم الحيوان وهو الإنسان الصغير، وسمّي صغيراً لأنه انفعل عن الكبير وهو مختصره لأن كل ما في العالم فيه فهو وإن صغر جرمه ففيه كل ما في العالم.

ومن ذلك مزلة الأقدام في بعض أحكام العقول والأحلام من الباب ٤٠٧ قال: العارف من عبد الله من حيث ما شرع لا من حيث ما عقل من طريق النظر. وقال: العقل قيد موجده والشرع والكشف أرسله وهو الحق. وقال: للهوى في العقل حكم خفي لا يشعر به إلاَّ أهل الكشف والوجود. وقال: أثر الأوهام في النفوس البشرية أظهر وأقوى من أثر العقول إلاَّ من شاء الله. وقال: من رحمة الله بنا أنه رفع عنا المؤاخذة بالنسيان والخطأ وما نحدث به أنفسنا فلو أخذنا بما ذكرنا لهلك الناس. وقال: ما سميت العقول عقولاً إلاَّ لقصورها على من عقلته من العقال فالسعيد من عقله الشرع لا من عقله غير الشرع.

ومن ذلك من أحب اللقاء اختار الفناء على البقاء من الباب ٤٠٨ قال: من أحب الموت أحب لقاء الله فإن أحدنا لا يرى الله حتى يموت بهذا جاء الخبر الصادق. وقال: من مات في حياته الدنيا فهو السعيد الخاص وقال: لقاء الحق على الشهود فناء. وقال: انظر إلى حكمة الشارع في حديث الدجال في قوله: «**فَإنَّ أَحَدَكُمْ لاَ يَرَى رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ**» يعني هذا الموت المعهود الذي يعرفه الناس وهو خروج الروح من جسم الحيوان فيزول عنه التكليف. وقد عرفنا أنا نرى ربنا يوم القيامة إذا بعثنا فما رأيناه إلاَّ بعد موتنا عن هذه الحياة الدنيا وهذا من جوامع الكلم الذي أعطاه الله، وإنما نبهنا على هذا لئلا يقول القائل لا نرى الحق إلاَّ بعد

مفارقة هذا الهيكل ما أراد ذلك الشارع وإنما أراد نفي الرؤية في الحياة الدنيا خاصة فنرى الحق بعد الموت كما قال الشارع. وقال: إنما كان اللقاء كفاحاً لتحقق التقابل لأنه السيد ونحن العبيد فنراه مقابلة من غير تحديد ولا تشبيه لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] كما نرى الصفات من غير تحديد فافهم.

ومن ذلك أين رحمة الرحماء من رحمة الاعتناء من الباب ٤٠٩ قال: رحمة الرحماء جزاء فهي على صورة ما رحموا وقدرها ومرتبتها جزاء وفاقاً. وقال: رحمة الاعتناء ما رحم به الرحماء من رحموه. وقال: رحمة الاعتناء فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وقال: رحمة الاعتناء الزيادة على الحسنىٰ. وقال: رحمة الرحماء رحمة الأسماء فإن الرحماء بحكم الأسماء الإلٰهية رحموا وهي التي حكمت عليهم، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء لعلمه بأن رحمتهم بمن رحموه حكم أسمائه تعالىٰ فما جازاهم إلاَّ على قدر الاسم الذي رحموا به.

ومن ذلك ما معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] من الباب ٤١٠ قال: لا يكون قرب أقرب من القوسين إلاَّ من كان قربه قرب حبل الوريد منه وهو القرب العامّ، ومن عرف هذا القرب كان من المقربين وعرف سرّ الحق في وجوده وموجوداته على التنزيه. وقال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٨٩] لما هو عليه من الراحة حيث رآه عين كل شيء ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩] لما رآه عين الرزق الذي يحيى يتناوله كما قال سهل وقد سئل عن القوت فقال الله ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٩] أي ستر ينعم به وحده لما علم أن كل أحد ماله من الله تعالىٰ مثل هذا المشهد، وهؤلاء هم الذين هم ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥] لأنهم كل ما همّوا به انفعل لهم، وقال: قوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] يعني أدنى ممّا تمناه العبد أو يتمناه، وهذا أبلغ في المعنى في قوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ وقال: إذا قرأت القرآن فاجتمع عليه فإنه قرآن، وإذا قرأته من كونه فرقاناً فكن بحسب الآية التي أنت فيها في جميع قراءتك. وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] فإن القرآن جمع والجمعية تدعوه للحضور فهي معينة له بخلاف الفرقان فالقرآن يحضره والفرقان يطرده.

ومن ذلك مركب الأعمال براق العمال من الباب ٤١١ قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] والموجودات كلها كلمات الله ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] إلى ما انتهت إليه همته وما تعطيه حقيقة العمل الرافع له، ورفعة الله لا تدرك ولا تعرف فلا حدّ لها فاعلم يقال يوم القيامة لصاحب القرآن: اقرأ وارق فإن منزلك عند آخر آية تقرأ فدرجات الجنة على هذا على عدد آي القرآن. وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] فهو العامل فإلى أين تصعد العمال؟ وقال: العارف من عمل في غير معمل فهو يبذل المجهود وهو على بينة من ربه إن الله هو العامل لما هو العبد له عامل ولولا ذلك ما كان التكليف، فلا بدّ من نسبة في العمل للعبد فالنسبة إلى الخلق والعمل للحق فهو تشريف العبد أعني إضافة العمل إليه سواء شعر بذلك العبد أو لم يشعر.

ومن ذلك استفهام العالم العالم من الباب ٤١٢ قال: إنما استفهم العالم ليتميز به من في قلبه ريب ممّن ليس في قلبه ريب فيعلم العالم من غير العالم لإقامة الحجة. وقال: ما اختبر الله العالم إلاّ ليعلم ما هو به عالم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النساء: ١٣٦] هذا ذاك منْ وجه فهذا مؤمن كلف أن يؤمن بما هو به مؤمن. وقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] استفهام لا إنكار مقام رسول الله ﷺ يعطي ما ذهبنا إليه. وقال: ما أثنى على من أثنى عليه إلاّ لجهله بالمراتب وعلمه أيضاً بها ولكن ما يعلم ما له منها إلاّ بتعريف من الله. وقال: من الاستفهام ما يكون إيهاماً وهو استفهام العالم عمّا هو به عالم. وقال: من استفهمك فقد شهد لك بالعلم بما استفهمك عنه. وقال: قد يقع الاستفهام من العالم لإقامة الحجة في الجواب فيقول له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ﴾ [المائدة: ١١٦] ومن هنا أيضاً كانت الحجة البالغة لله على عبده.

ومن ذلك الذكرى بشرى من الباب ٤١٣ قال: الذكرى بشرى المذكرة بالوراثة وهي في حق المعتنى به بشرى بالقبول، وفي حق غير المعتنى به بشرى بالحرمان، أهل العناية يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان، وأهل الحرمان فبشرهم بعذاب أليم لأن كل واحد أثر في بشرته ما بشر به قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ [النحل: ٥٨] وقال: البشرى للبشر فإنه ما يكلم إلاّ من وراء حجاب ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] وقال: ما عرف مقدار البشر إلاّ من عرف معنى ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وقال: من خلق برفع الوسائط مع المباشرة فلم يكن ذلك إلاّ في البرزخ، وأما في الطرفين فلا فإن الطرف الحسيّ يحيله العقل والطرف العقلي لا يشهده الحسّ. وقال: البشرى مختصة بالمؤمن وهو يبشر الكافر والكافر لا حظ له في البشرى الإلٰهية برفع الوسائط.

ومن ذلك من غار أغار من الباب ٤١٤ قال: من غيرة الله حرم الفواحش فجعلها له حراماً محرماً فتخيل من لا علم له أن ذلك إهانة وهو تعظيم إذ هو من شعائر الله وحرماته والله يقول: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠] ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] وقال: قول النبيّ ﷺ: **«إنَّ سَعْداً لَغَيُورٌ وأنا أغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ والله أغْيَرُ مِنّي وَمِنْ غَيْرَتِهِ حَرَمَ الفَوَاحِشَ»** فجعل الفواحش حراماً محرماً كما حرّم مكة وغيرها. وقال: حرّم رسول الله ﷺ التفكّر في ذات الله، وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [النساء: ٢٨] فالتحريم دليل على التعظيم. وقال: ما أمرك الله إلاّ بما هو خير لك وهو عند الله عظيم، وما نهاك إلاّ عمّا هو تركه خير لك لعظيم حرمته عنده مآل الناس في الآخرة إلى رفع التحجير ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ [الضحى: ٤ ـ ٥] يعني هناك ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

ومن ذلك أهون العقاب ضرب الرقاب من الباب ٤١٥ قال: المقصود من ضرب الرقاب إزالة الحياة الدنيا فبأيّ شيء زالت فهو ذاك. وقال: المقصود من ضرب الرقاب ظهور الحياة التي أخذ الله بأبصارنا عنها فبأيّ شيء حصل فهو ذاك، وإن كانت الحياة الدنيا ما ذهبت

وليس يعرف ذلك إلاَّ أهل الكشف والوجود فإن الميت له خوار. وقال: لا يصحّ ضرب الرقاب حتى تملك فمن ضربها بغير ملك استقيد منه وملكت رقبته فيه يملكها وليّ الدم فقد عتق في الدنيا وهو رقيق في الأخرى. وقال: أنت حرّ فلا ترد نفسك مملوكاً لمثلك وحق النفس أعظم عليك من حق مثلك.

ومن ذلك العدم ما هو ثم فافهم من الباب ٤١٦ قال: ما ثم إلاَّ الله والممكنات فالله موجود والممكنات ثابتة فما ثم عدم. وقال: لولا أن الأعيان مشهودة للحق ما كان وجود ما وجد منها بأولى من عدمه ووجود غيره وما شهد إلاَّ ما هو ثم. وقال: ليس شيء أدخل في حكم النفي من المحال ومع هذا فثم حضرة تقرّره وتصوّره وتشكّله وما يقبل التصوير والتشكيل إلاَّ ما هو ثم فالمحال ثم. قال: العدم المطلق ما لا تعقل فيه صورة وما هو ثم فإنه ما ثم إلاَّ ثلاثة: واجب ومحال وممكن، ووجوب وإحالة وإمكان، وكل ذلك معقول وكل معقول مقيد وكل مقيد مميز وكل مميز مفصول عمّن عنه تميز فما ثم معدوم لا يتميز فما ثم عدم. وقال: الأحوال عند المتكلمين لا موجودة ولا معدومة، ومعلوم أنه ما ثم إلاَّ محل وحال أي ما ثم إلاَّ من يقبل اللون مثلاً واللون فما هو المتلون وما ثم إلاَّ من يقبل الحياة والحياة فما هو الحي وما ثم إلاَّ من يقبل الحركة والحركة فما هو المتحرك.

ومن ذلك ما يجمع الظهر والبطن والحد والمطلع من الباب ٤١٧ قال: ما من شيء إلاَّ وله ظاهر وباطن وحد ومطلع، فالظاهر منه ما أعطتك صورته، والباطن ما أعطاك ما يمسك عليه الصورة، والحدّ ما يميزه عن غيره، والمطلع منه ما يعطيك الوصول إليه إذا كنت تكشف به وكل ما لا تكشف به فما وصلت إلى مطلعه. وقال: لا فرق بين هذه الأمور الأربعة لكل شيء وبين الأربعة الأسماء الإلٰهية الجامعة الاسم الظاهر وهو ما أعطاه الدليل، والباطن وهو ما أعطاه الشرع من العلم بالله والأول بالوجود والآخر بالعلم ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] فالضمير يعود على الضمير الأول في هو الأول فالأمر من غيب إلى غيب وضمير هو الأول يعود على هو على كل شيء وذلك الضمير يعود على الله وهو الاسم والاسم يطلب المسمّى فالله الأول وهو بكل شيء الآخر وهو الأوّل الظاهر وهو على كل شيء الباطن فاعلم.

ومن ذلك سواء السبيل في طلب الحق بالدليل من الباب ٤١٨ قال: لا سبيل إلى العلم بالله بدليل نظري ولا يوصل إلى العلم بالله إلاَّ بتعريف الله فالعلم بالله تقليد. وقال: الكشف أعظم في الحيرة من برهان العقل عليه بخلاف التعريف. وقال: هو النور فله إحراق ما سواه فلا يكشف أي لا يدرك بالكشف قيل لرسول الله ﷺ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**» وبالبرهان فلا يعلم إلاَّ وجوده ففي أي صورة يتجلى حتى يرى. وقال: وعد قوماً برؤيته وذكر عن قوم أنهم محجوبون فما هو محجوب هو مرئي للجميع لكنه لا يعلم. وقال: بالعقل يعلم ولا يرى وبالكشف يرى ولا يعلم، وهل ثم حالة أو مقام يجمع بين الرؤية والعلم؟ وقال: رؤيته مثل كلامه ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورىٰ: ٥١] فهو الحجاب وهو الرسول وهو الوحي.

ومن ذلك رؤية الأهوال في الأحوال من الباب ٤١٩: قال صاحب محاسن المجالس: الأعمال للجزاء والأحوال للكرامات والهمم للوصول، وليس الكرامات سوى خرق العوائد في العموم وهي في الخصوص عوائد فلذلك تهول عند العامة. وقال: العاقل يهوله المعتاد وغير المعتاد ولذلك قال في المعتاد: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤] وقال: من نظر إلى الأمور كلها معتادها وغير معتادها بعين الحق ما هاله ما يرى ولا ما بدا مع تعظيمه عنده فإنه من شعائر الله ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] وقال: كل ما في الكون آية عليه ولا يحصل في اليد منه شيء.

ومن ذلك تنبيه لا تضاهي النور الإلٰهيّ من باب ٤٢٠ قال: الحق لا يضاهى لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] إنما الله إله واحد فأين المضاهي؟ وقال: صفات التشبيه مضاهاة مشروعة فما أنت ضاهيت. وقال: العقل ينافي المضاهاة والشرع يثبت وينفي، والإيمان بما جاء به الشرع هو السعادة فلا يتعدى العاقل ما شرع الله له. وقال: العاقل من هجر عقله واتبع شرعه بعقله من كونه مؤمناً. وقال: أكمل العقول عقل ساوى إيمانه وهو عزيز. وقال: لو تصرف العقل ما كان عقلاً فالتصريف للعلم لا للعقل وقال: [البسيط]

لِلْعَقْلِ لُبٌّ وللألباب أحْلامُ ... ولِلنُّهَى في وُجُودِ الكَوْنِ أحْكامُ
تمضي اللَّيالي مع الأنفاس في عَمَهٍ ... لِلْخَوْضِ فيه وأيام وأعْوامُ
وما لنا منه من عِلْمٍ ومعرفةٍ ... إلاَّ القُصُور وإقْدَامٌ وإيهامُ
العلمُ بالله نَفْيُ العلمِ عنك به ... فكلُّ ما نحن فيه فهو أوْهامُ

وقال: العاقل من قال لعقله أعقل أنه لا يعقل فمتى عقلت جهلت.

ومن ذلك منازل الأدباء من السماء والعرش والعماء من الباب ٤٢١ قال: العالم الأديب ينزل الحق حيث أنزل نفسه لا يزيد عليه ولكن لا بدّ أن يعرف الزمان فإن زمان استوائه على العرش ما هو زمان نزوله إلى السماء ولا زمان كينونته في العماء. وقال: الحكم الذي يصحب الحق ولا يحكم عليه زمان خاص ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] فهو في العرش مع الحافين به، وفي تلك الحالة هو في النزول مع أرواح العروج والنزول، وفي تلك الحال هو في السماء يخاطب أهل الليل، وفي تلك الحال هو في الأرض أي موجود غير الله يوصف بهذه الصفات: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

ومن ذلك إلحاق الأصاغر بالأكابر من الباب ٤٢٢ قال: قالت: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ فأعادت الضمير من إليه على الخبير ﴿قَالُوا﴾ لما عندهم من أحكام المواطن ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩] وإن كان حقاً، وما كان قد قرع أسماعهم ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] والمسمع محمد ﷺ حق في صورة محمدية ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] لما حصره المهد، وانظر إلى ما أعطت قوة إشارتها إلى الحق في قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] هو عين قوله: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة: ١١٦] خاصة أتاني الكتاب ضمّ حق إلى حلق حرف جاء لمعنى: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم:

٣٠] فإن المخبر الحق ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ زيادة صورة عيسوية في الحق ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ في المهد وغيره ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ﴾ فصليت هو الذي يصلي عليكم ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ الاسم القدوس ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١] حياة الأبد ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: ٣٢] من عرف نفسه عرف ربه، فتدبر هذه الإشارات وانظر إلى ما وراء هذه الستارات.

ومن ذلك من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ما هو ميت ولا حي من كل من له فيّ من الباب ٤٢٣ قال: من خلق الموت والحياة لا ينعت بهما فقد كان ولاهما ما هو ذو حياة فافهم. وقال: له الأسماء ما له الصفات فهو المعروف بالاسم لا بالصفة ولذلك ما ورد بالصفة كتاب ولا سنة وورد قرآناً ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] وورد: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] فتنزه عن الصفة لا عن الاسم، وورد في السنة: «**أنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً**» وقال: لله الرجوع فإنه التواب وإليه الرجوع لأن التوبة إلى الله ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١] ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣] وقال: لا ترجع إليه حتى يرجع إليك لأنه الأول فإذا رجعت إليه رجع عليك رجوعاً ثانياً فهو الآخر فهو الأول والآخر ظهر وبطن ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١١٧] ليتوبوا.

ومن ذلك التشحير في التشمير من الباب ٤٢٤ قال: التشحير يزيل ما في الذهب من تراب المعدن في التشحير، ذلك عين الابتلاء يزيل ما يضاف إلى القديم من صفات الحدوث وما في الحادث من صفات القدم. وقال: هو المعدن وأنت الذهب فأنت المخلص منه وفيه تكونت وهو الذي يمدّك وبعد انفصالك عنه أوجد غيرك مثلك لا يزال الأمر هكذا. وقال: أنت المعدن وهو الذي يخلص منك بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وأنت لك أمثال. وقال: تشحير الطبيعة من حيث نفس الإنسان رياضة ومن حيث هيكله مجاهدة، فبالرياضة تهذبت أخلاقه وسهل انقياده، وبالمجاهدة قل فضوله فظهر له ما فيه من الأصول والفروع فعلم بالمجاهدة من هو ولمن هو وهذه هي السبل ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ومن ذلك من هرب من السلم إلى الحرب من الباب ٤٢٥ قال: من علم أن الهداية إلى سبيل الله في الجهاد هرب إلى السلم من الحرب فإن الله أمره بالطلب. وقال: لا يجنح إلى السلم إلاّ من كان مشهوده ضعفه أو من كانت العين مشهوده وقال: الأسماء لها الحكم فأي اسم حكم لك أو عليك فأنت له وهو اسم من أسماء الله تعالىٰ فهو ربك ولذلك كثرت الإضافات فقيل: عبد الله عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الكافي عبد الباقي عبد الكبير بلغت الأسماء ما بلغت، وكذلك الكنايات قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ [الحجر: ٤٢] ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ [الكهف: ٦٥] ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: ١٤] وهو الواقي فهو نون الوقاية وهو ضمير الياء فهذه إضافة الشيء إلى نفسه.

ومن ذلك الحجاب حجاب من الباب ٤٢٦ قال: حجبة الملك حجابه ليرى به بمن تتعلق أبصار الرعايا هل بالحجبة أو تعديها بطلب رؤية الملك؟ فالحجبة ابتلاء من الله. وقال:

الرسل حجبة وهم يدعون إلى الله لا إلى أنفسهم. وقال: الملائكة حجبة بين الله وبين الرسل بعد إسنادنا والمقصود من الرواية علو الإسناد وكلما قلّ علا وقد عرفنا بذلك فقال: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ فزال الملك ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨] فزال الرسول. قال أبو يزيد: حدثني قلبي عن ربي فعنه أخذ هذا نص الكتاب أيها المنكر. وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ وحياً بما يلقي الله برفع الوسائط، أو من وراء حجاب ما يكلمك به في صورة التجلي حيث كان ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١] من جنسك وغير جنسك.

ومن ذلك ما يجب على المخلوق من أداء الحقوق من الباب ٤٢٧ قال: تتنوع الحقوق لتنوع المخلوقات عند العامة. وقال: تتنوع الحقوق لتنوع الأسماء الإلٰهية عند الخاصة من عباد الله. وقال: تختلف الأحكام لاختلاف الأسماء سمك البحر حلال فإذا قلت في سمكة منها خنزير البحر حرمت هذا حكم الاسم، سئل مالك عن خنزير البحر فقال: حرام، قيل له: فإنه سمك قال: أنتم سميتموه خنزيراً وقال: الميتة حرام ما دام اسم الواجد ينسحب عليك فإذا زال وقيل هذا مضطر حلّت لك، فانظر بأي اسم سمّاك به الحق فأنت لذلك الاسم فأنت لك لأنك الواجد وأنت المضطر فما خرجت عنك فحكمك فيك منك، فإذا كنت ولا بدّ في حكم الأسماء فكن في حكم الأسماء الإلٰهية يكن لك الشرف.

ومن ذلك كرم الكرم لأصحاب الهمم من الباب ٤٢٨ قال: من تكرم على العفو والصفح بالوجود فعفا وصفح والعفو والصفح كرم فالعفو منه كرم الكرم. وقال: مسيء المسيء ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] والمسيء من أتى بما يسوء وإن كان جزاء إلاّ أن هذا الاسم مقصور على الخلق دون الحق أدباً أدّبنا به الحق. وقال: الإحسان لله فهو المحسن المحسان، وإن عاقب فهو المحسن في حق العقوبة لأنه أوجدها فأحسن إليها في إيجادها، فما في العالم إلاّ إحسان، فأنت المحسن فيما ظهر عنك وإن كان وجوده عن الحق. وقال: إذا كان الحق يدك فقد أوجد بك كما تقول أوجد بقدرته وخصّص بإرادته ومشيئته، فأنت أولى أن تكون آلته فإنه الصانع وهذا هو المشهود ما تشهد الأفعال الإلٰهية إلاّ منا أعني العالم.

ومن ذلك ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٩٦] لا يبعد من الباب ٤٢٩ قال: الكل عند الله فله البقاء في العدم كان أو الوجود. وقال: هو يأخذ الصدقات فما نفد من عندك إلاّ بأخذه منك لو لم يأخذ ما نفد منك فما ثم إلاّ أنت وهو فإما عندك وإما عنده وأنت عنده فما عندك عنده، فما أخذ منك شيئاً فما نفد عنك. وقال: ما في يمينك ما هو في شمالك فنفد عن شمالك وأنت أنت ذو اليمين والشمال ما شمالك ولا يمينك غيرك فصدق ما عندكم ينفد فإن الشمال ما تعرف من بعض الناس ما تتصدق به اليمين، ورد في الخبر في الرجل الذي هو أقوى من الريح: «**إِنَّهُ الَّذِي يَتَصَدَّقُ بِيَمِينِهِ فَيُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ**» ففرق بين اليمين والشمال والذات واحدة.

ومن ذلك من أسنىٰ الذخائر تعظيم الشعائر من الباب ٤٣٠ قال: الشعائر ما دقّ وخفي من الدلائل، وأخفاها وأدقها في الدلالة الآيات المعتادة فهي المشهودة المفقودة والمعلومة المجهولة فانظر ما أعجب هذا. وقال: ما يقوم بحق العظيم إلاَّ من عظمه باستمرار الصحبة لا من عظمه عند ما فجئه ذلك تعظيم الجاهل. وقال: الرؤية حجاب لما يسقط بها من تعظيم المرئي عند الرائي. وقال: من عاين الخلق الجديد لم يزل معظماً للشعائر الإلٰهية. ومن عاين تنوع التجلي في كل تجلٍّ لم يزل معظماً لله أبداً لأنه اختلف عليه الأمر في عين واحدة. وقال: لما كان الحكم للأحوال لذلك من شاهدها لم يزل معظماً فإنها تتجدد عنده في كل لحظة فهو في ابتداء أبداً.

ومن ذلك الإسلام والإيمان مقدمتا الإحسان من الباب ٤٣١ قال: الإيمان له التقدم والإسلام تالٍ وإلا لم يقبل، فهذا شفع قد ظهر والختام للوتر فأوتره الإحسان فأوّل الأفراد الثلاثة. وقال: حضرة الفرد الذات والصفات والأفعال وأريد بالصفات الأسماء فهذه ثلاثة. وقال: الإيمان تصديق فلا يكون إلاَّ عن مشاهدة الخبر في التخيّل فلا بدّ من الإحسان والإسلام انقياد والانقياد لا يكون إلاَّ لمن علم أن يد الحق بناصيته فانقاد طوعاً فإن لم يحسّ أي يشعر انقاد كرهاً، والإحسان أن تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. وقال: [الخفيف]

مــا جــزَا مَــنْ رآك إلاَّ تَــراهُ ... وهــو الــحَــقُّ لــيــس ثَــمَّ ســوَاهُ

فــهــو الــرائــي إذ رَأَيْــتَ كــمــا هــو ... مــن رَأَيْــنَــا فــهــو ومــا هــو مــا هُــوْ

ومن ذلك الضنائن خواتن من الباب ٤٣٢ قال: نفوس العارفين حور مقصورات في خيام كنفه ضنائن مصانون في العوائد يعرفون وينكرون. وقال: عنهم تكون الانفعالات الإلٰهية في الأكوان فهي لهم كالولادة لأهل الرجل، ورد في الخبر: «**بِهِمْ تُنْصَرُونَ**» فولدوا النصر، «**وَبِهِمْ تُمْطَرُونَ**» فولدوا الغيث، «**وَبِهِمْ تُرْزَقُونَ**» فولدوا الرزق. فسم عبد النصير وعبد المغيث وعبد الرزاق وهكذا ما بقي. وقال: الكد على العائلة والسعي على الأهل وأوجبه نفسك ثم زوجك ثم ولدك ثم خادمك هذا عين قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٩] فلنفسه لما يسبح بحمده وخلقه لعبادته وفي شأن أهله لما تمسّ حاجتهم إليه ولما تولد عنهم لذلك بعينه فتدبر ما أنعم الله عزّ وجلّ به عليك.

ومن ذلك إثبات العلة نحلة من الباب ٤٣٣ قال: العلة وإن اقتضت المعلول لذاتها فلها التقدم بالرتبة وإن ساوقها المعلول في الوجود فما ساوقها في الوجوب الذاتيّ النفسيّ فإذا عقلت هذا فلا تبال إلاَّ أن يمنعك الأدب. وقال: ما هرب من هرب إلى القول بالشرط إلاَّ من الخوف من مساوقة الوجود وما علم أن الموجود له حكم الوجود سواء تأخر أو تقدم بخلاف الوجوب النفسيّ فإنه له وليس لك فكان الله فيه ولا شيء معه فيه ولا يكون بخلاف الوجود، فلو قلت: كان الله ولا شيء معه لم تقل وهو الآن وهو ولا شيء لوجود الأشياء، وفي الوجوب الذاتيّ تقول في كل حال: كان الله ولا شيء وهو الآن ولا شيء فقد علمت الفارق فقل شرطاً أو علة أن تمنع شرعاً.

ومن ذلك حب الجزاء عن حب الاعتناء من الباب ٤٣٤ قال: حب المخلوق خالقه محصور بين حب الله الذي أوجب له أن يحبه وحب جزاء محبته فهو محفوظ عليه وجوده. وقال: علامة المحبة اتباع المحبوب فيما أمر ونهى في المنشط والمكره والسراء والضراء. وقال: دليل المحبّ الحمد لله المنعم المفضل، ودليل المحبوب الحمد لله على كل حال، كان رسول الله ﷺ يقول في السراء: «**الحَمْدُ للَّهِ المُنعِمِ المُفْضِلِ**» ويقول في الضراء: «**الحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**» هذا هو الثابت عنه ذكره مسلم في الصحيح. وقال: حب الاعتناء بالجزاف عطاء بغير حساب ولا هنداز، وحب الجزاء بالميزان ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقال: الحب خلوص الولاء فهو للأولياء من العموم والخصوص. وقال: حب الاعتناء منه وحب الجزاء عنه، فإن حب الجزاء عرفناه بالتعريف وحب الاعتناء عرفناه بالوجود والتصريف.

ومن ذلك قد تحرّك النعمة أصحاب الظلمة من الباب ٤٣٥ قال: إنما سكن أصحاب الظلم ولم يتحركوا لأنهم لا يرون حيث يضعون أقدامهم فيخافون من مهواة يقعون فيها فسكونهم اضطرار. وقال: إذا تحرّك أهل الظلم فلجسيم النعمة فإنهم ما يحركهم إلاَّ عظيم ما أردفهم الله به من نعمه حتى أغفلتهم عن شهود ظلمتهم. وقال: هل تعرف من هم أصحاب الظلم الناظرون في العلم بالله بالدليل النظري؟ والمهواة الشبهة فما يحركهم مع هذا إلاَّ نعمة الإيمان فانتقلوا إلى التقليد فتحركوا بنور الشرع المطهر فأبصروا محجة بيضاء لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ولا تخاف فيها دركاً ولا تخشى.

ومن ذلك عموم الخطاب لمن طاب من الباب ٤٣٦ قال: ليس في خطاب الله خصوص بل دعوته تعم فإن المدعو واحد كما هو الداعي واحد. وقال: إذا دعا بالأسماء كثر الدعاة كثر المدعون كثرة الأعضاء من الإنسان الواحد، يقول رسول الله ﷺ: «**إنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقاً وَلِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقاً فَصُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ**» وكذا جميع قواك الظاهرة والباطنة فأنت الكثير وأنت الواحد، وكذلك الداعي بعينه وأسمائه فافهم. وقال: أنت نسخة منه وبك كمني عنه فقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] وقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] فالسيف آلة لك وأنت والسيف آلة له. وقال: ما أجهل بالله من يقول: إن الله لا يخلق بكذا فالله تعالىٰ يقول في نبيه إنه رميت إلاَّ أنه نفى الرمي عنه وأثبته فقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ فالرمي وقع منه ﷺ بقول الله وإيصاله إلى أعين الكفار حتى ما بقيت عين لمشرك خاص إلاَّ وقع من التراب في عينه فلهذا ليس للمخلوق، فالعجب من بعض الناس أنه يكفر بما هو به مؤمن.

ومن ذلك التسبيح تجريح من الباب ٤٣٧ قال: المنزّه لا ينزّه فإنه إن نزّه فقد نزّه عن التنزيه فإنه ما له نعت إلاَّ هو فيشبه فالتسبيح تجريح فسبحه على الحكاية فإنه سبح نفسه وعلى ما أراد بذلك فهو تسبيح الأدباء العارفين به سبحانه. وقال: عدم العدم وجود وكذلك تنزيه المنزّه عما هو به موصوف. وقال: أهل التسبيح إذا أشهد أحدهم من سبّحه قال: سبحاني فما

سبح إلاّ نفسه. وقال: تسبيحه في زعمه ربه يفضحه الشهود فاستعجل بالتعريف في هذه الدار فقال: سبحاني فأنكر عليه من هو على حالته التي كشف له عنها. وقال: إن طلب منك الدليل فقل إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أردها عليكم.

ومن ذلك التحميد تقييد من الباب ٤٣٨ قال: كلامك محصور فإنك محاط بك فإذا أثنيت فقد قيدت بثنائك من أثنيت عليه وحصرته، وله الإطلاق فأطلقه من ثنائك مع بقاء الثناء عليه لا بدّ من ذلك وقل كما قال رسول الله ﷺ: «**لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ**» بعد بذل المجهود: «**أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**» يقول رسول الله ﷺ في الصحيح في حديث الشفاعة: «**فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لا أَعْلَمُهَا الآنَ**» يعطيها في الموطن إن فهمت. وقال: كلمات الله لا تنفد فالثناء عليه منه لا يقف عند نهاية. وقال: يختلف الثناء على الله تعالىٰ لاختلاف حال المثني، فإن حال السراء ما هو حال الضراء، فاختلف الثناء على الله تعالى فيقول في وقت: الحمد لله المنعم المفضل، وفي وقت: الحمد لله على كل حال، وفي وقت: الحمد لله الذي هدانا لهذا، وفي وقت: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، وفي وقت: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وفي وقت: الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليّ من الذلّ، وفي وقت: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، وفي وقت: الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وفي وقت: الحمد لله فاطر السموات والأرض، وفي وقت: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وفي وقت: الحمد لله سيريكم آياته، وفي وقت: الحمد لله رب العالمين.

ومن ذلك التأويل لأهل التهليل من الباب ٤٣٩ قال: لما تنوعت مواطن التهليل ظهر حكم التأويل، فلكل تهليل حال ولسان ورجال ومقام. وقال: التهليل قولك: لا إلٰه إلاّ الله فنفيت وأثبت. وقال: إن نظرت وتحققت ما نفيت فما هو إلاّ عين ما أثبت، ولولا أن الله يجازي بالقصد ما عظم جزاء التهليل. وقال: دليل ما ذهبنا إليه قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] فانظر هل عبدوا شيئاً إلاّ بعدما نسبوا إليه الألوهة؟ فما عبدوا إلاّ الله لا تلك الأعيان الحجة قوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْۚ﴾ [الرعد: ٣٣] وهو العلم كله ولم يقل انسبوهم فإنه لو قال لهم انسبوهم لنسبوهم إليه بلا شك.

ومن ذلك الله أكبر ممّن أو عمّن من الباب ٤٤٠ قال: لولا ما خلق من خلق على صورته ما قال الله أكبر لما في هذه الكلمة من المفاضلة، فما جاء أكبر إلاّ من كونه الأصل فعليه حذى الإنسان الكامل. وقال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] لما نسوا صورتهم فصحت المفاضلة وليس إلاّ أن السموات والأرض هما الأصل في وجود الهيكل الإنساني ونفسه الناطقة، فالسموات ما علا والأرض ما سفل فهو منفعل عنهما والفاعل أكبر من المنفعل وما أراد الجرم لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] وقال: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فإن حوّاء خلقت من آدم وآدم خلق من الأرض، فكما أن له درجة على حوّاء للأرض عليه درجة فهو الأمّ لحوا وهو ابن للأرض

والأرض له أم ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾ [طه: ٥٥] ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾ [القصص: ١٣] لذلك تضغطه عندما يدفن فيها مثل عناق الأم وضمّها ولدها إذا قدم عليها من سفر فهو ضم محبة. ﴿وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] وهو البعث.

ومن ذلك ما هو لك ما يتملك من الباب ٤٤١ قال: ما هو لك هو يطلبك فلا تتعب فإن طلبته تعبت وملكك. وقال: ما هو لك ما هو لك وإنما هو لمن جاء من عنده. وقال: الله لك والله لا يملك. وقال: ما أشدّ حيلة الإنسان ما اقتنع في العلم بالله بما أخبره الله بما هو عليه في نفسه فنظر وتأوّل عسى يخرج عن الملك بما يملكه في اعتقاده ممّا أوجده بنظره ليكون هو في المالك فإنه من ملكه مملوكه فما ملكه إلاّ نفسه لأنه صنعه وخلقه فأحبه والمحبوب مالك فلذلك أقرّ بالملك صاحب النظر لمن اعتقده، فهو المالك المملوك والخالق المخلوق فافهم.

ومن ذلك من المكرمات تعظيم الحرمات من الباب ٤٤٢ قال: لما عظم الحرم عند بعولتهن صانوهن وغاروا عليهن وهو خير له، فإن صحة النسب تصون الأهل عن الريب فلا يدخله ريب فيما ولد على فراشه: «**الوَلَدُ لِلفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ**» وقال: جعل الله الأرض فراشاً ومنها خلق آدم على صورته وقد ورد: «**أَنَّ الوَلَدَ سِرُّ أَبِيهِ**» وقال: لولا هذه الحكمة المطلوبة لاكتفى بالمهاد ولم يذكر الفراش. وقال: ما خلق الله الألفاظ حين عينها بالذكر سدى فإن ذلك حرف جاء لمعنى وهو ما قلنا ولا يقتصر وقال فيها: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [ق: ٧] فأولدها توأمين ولذلك جاء: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: ٥] حين ربت وهو الحمل وألقت الماء فنسب الإنبات إليه وإلى الأرض فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: ١٧] مصدر نبت فما قال إنباتاً ونسب الولد لوالده فإن له عليه ولادة بوضعه في الرحم، وينسب إلى الأم لأن لها عليه ولادة بخروجه من بطنها، فانظر إلى ما أعطاه الفراش وجعل الله بينه وبين خلقه نسباً ولم يكن سوى التقوى من الوقاية ورد: «**اليَوْمَ أَضَعُ نَسَبَكُمْ وَأَرْفَعُ نَسَبِي أَيْنَ المُتَّقُونَ؟**» ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣].

ومن ذلك من اعتني به صغيراً وضيع كبيراً من الباب ٤٤٣: قال: يحيىٰ: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ١٢] و﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٧]، وسلّط عليه الجبار عدوه فقتله وما حماه الله منه ولا نصره باقتراح بغى على باغ. وقال: أراد بقاه حياً فقتله شهيداً فأبقى حياته عليه فما مات من قتله أعداء الله في سبيل الله فجمع لهم بين الحياتين ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩] وإن كان الموت أشرف فإنه صفة الأشرف ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] فالأكابر لا يتميزون بخرق العوائد فهم مع الناس عموماً في جميع أحوالهم بظواهرهم. وقال: الاعتناء بالصغير رحمة به لضعفه فإذا كبر وكّل إلى نفسه فإن بقي في كبره على أصله من الضعف صحبته الرحمة، وإن تكبّر عن أصله وادّعى

القوّة المجعولة فيه بعد ضعفه أضاعه الله في كبره برد الضعف إليه فاستقذره وليه وتمنى مفارقته، وفي ضعف صغره كان يشتهي حياته ويرغب في تقبيله ولا يستقذره.

ومن ذلك لا تضيع الأجور عند أهل الدثور من الباب ٤٤٤: قال: يجبر الحاكم صاحب الوفر على إعطاء ما تعين عليه من الحق لغيره، ألا ترى إلى من جحد شيئاً من الزكاة ثم عثر عليه المصدّق أخذ منه ما جحد وشطر ماله عقوبة له. وقال: يبلغ المتمني بتمنيه مبلغ صاحب المال فيما يفعل فيه من الخير من غير كد ولا نصب ولا سؤال ولا حساب وهم في الأجر على السواء مع ما يزيد عليه من أجر الفقر والحسرة، و﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] وتمنيه من عمله. وقال: ما يراد المال للاكتناز وإنما خلقه الله للإنفاق فمن اكتنزه ولم يعط حق الله منه الذي عيّنه له حمي عليه في نار جهنم فيكوى به جبينه فإنه أوّل ما يقابل منه السائل فيتغير منه إذا رآه مقبلاً إليه وجنوبهم ثم يعطيه جانبه إعراضاً عنه كأنه ما رآه وظهورهم ثم يوليه ظهره حتى لا يقابله بالسؤال فصار بالكي عين المكان الذي اختزنه فيه فهو خزانته وما ثم رابع لما ذكرناه.

ومن ذلك قطب الرحى يديرها من هو أميرها من الباب ٤٤٥: قال: ما تدور الرحى إلاَّ على قطبها وقطبها فيها فهو عينها الثابت الذي لا يقبل الحركة والانتقال في حال الدور. وقال: بالأمر تدور ولولا القطب ما دارت فهو الأمير وما القطب غيرها فالأمر الأمر والمأمور. وقال: القطب يعلم بالقوّة ولا يشهد ويشهد ولا يتميز عند من يشهده مع علمه أنه يشهده في الجملة المشهودة، هكذا العلم بالله عليه تدور رحى الوجود فهو يعلم ولا يشهد ويشهد ولا يميز. وقال: من لم يعرف الله بمثل هذه المعرفة فما عرفه، فما عرفه أحد في شهوده ولا شهده أحد في العلم به.

ومن ذلك من أبى أن يكون من النقباء من الباب ٤٤٦ قال: النقيب من استخرج كنز المعرفة بالله من نفسه لما سمع قوله عزّ وجلّ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] وقوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وقول رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وقال: من أبى أن يكون له مثل هذه المعرفة لم يكن من النقباء. وقال لما علم أن بين الدليل والمدلول وجهاً رابطاً زهد في العلم بالله من حيث نظره في الدليل وليس سوى نفسه وكان ممّن عرف نفسه بالله، وقد ذهب إلى ذلك جماعة من أصحاب النظر مثل أبي حامد ولكن لنا في ذلك طريقة غير طريقتهم، فإن الذي ذهبوا إليه في ذلك لا يصحّ، والذي ذهبنا إليه يصحّ وهو أن نأخذ العلم به إيماناً ثم نعمل عليه حتى يكون الحق جميع قوانا فنعلمه به فنعلم عند ذلك نفوسنا به وبعد علمنا به، وهذه طريقة أهل الله في تقدم العلم بالله.

ومن ذلك من المحال أن يعمّ الحال من الباب ٤٤٧ قال: الأمزجة مختلفة والنفوس تابعة للمزاج، والنفوس هي القابلة للواردات، والواردات تردّ بالأحوال، فمن المحال أن يعمّ حال واحد بل لكل وارد حال يخصّه، ولهذا عين ما يسكر الواحد يصحى الآخر وما عمّ سكر ولا صحو. وقال: الحال من حيث عموم الاسم يعمّ وهي أحوال تتميز بآثارها في النفوس

تدرك عقلاً وحساً. وقال: الغضب الإلٰهيّ والرضى من الأحوال فما ثم إلاً من اتصف بالحال مغضوباً عليه كان أو مرضياً عنه، ويقال في المحدث أنه دخل تحت حكم الحال ويلزم الأدب في ذلك الجناب. وقال: لسان الحال أنزل: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ولسان الحقيقة: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩].

ومن ذلك التفويض تعريض من الباب ٤٤٨ قال: لا شك ولا خفاء أن من ألقى زمامه بيدك وفوّض أمره إليك وإن لم يتكلم فقد خاطبك بأفصح الألسنة أن تسلك به طريق الصلاح والأصلح لما جبلت عليه النفوس من دفع المضار وجلب المنافع. وقال: قد ثبت في الخبر أنه ليس شيء أحب إلي الله من أن يمدح وهو لا يتضرر بالذمّ وأنت تتضرر لأنك تألم ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] وقال: لولا ما امتلأ أنا العبد ما فاض وإنما ضاق عنه فألقى كله على غيره فسمّى هذا تفويضاً. وقال: الرجل من أعطي التحكيم ووسعه ومع هذا ترك التصريف إلى الحق فيه وفي ملكه، ومثل هذا لا يكون مفوّضاً.

ومن ذلك المعروف الأقربون أولى بالمعروف من الباب ٤٤٩ قال: الأقربون إلى الله أولى بالمعروف وهو الحق لصحة النسب وقربه، وهو المعروف في كل عقد، وإن اختلفت العقائد جملة فالمقصود بها واحد وهو قابل لكل ما ربطته به وعقدت عليه فيه، وفيه يتجلى لك يوم القيامة وهي العلامة التي بينك وبينه. وقال: ما العجب ممّن عرفه وإنما العجب في ذلك الموطن ممّن أنكره. وقال: صاحب العقد لا يعرفه إلاّ بما عقده خاصة فقيل لهم: أوفوا بالعقود والعالم لا عقد له فما له ما يوفى به فله من الأعين بعدد ما للحق في التجلي من الصور وهي لا تتناهى، فأعين العارفين غير متناهية، فتحدث الأعين بحدوث الصور أو تحدث الصور بحدوث الأعين.

ومن ذلك القبول إقبال عند الرجال من الباب ٤٥٠ قال: من قبل ما جئت به إليه فذلك عين إقباله عليك فلا تقف مع قبول الوجه فإن إقبال الوجه يفنيك ويعدمك، وإقبال القبول يبقيك ويقربك. وقال: من لم يفهم ما قلته فلينظر في حديث السبحات لو كشفها لأحرقت سبحات الوجه ما أدركه بصر الخلق من الخلق فإن بصر الحق يدرك الآن ولا حرق والمحبوب يكون الحق بصره فيدرك به لا يبصر الحق فإن بصر الحق يدرك الحق والحق في بصر الخلق لا يدرك الحق ولكن يدرك به الخلق، والسبحات هي المحرقة وما هي إلاّ سبحات العين عند النظر فإنه لولا النور ما ثبتت الرؤية ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] فذاته بصره. وقال: الأمر نسب ولولا النسب ما كانت العلاقة والنسب.

ومن ذلك حسن القول من الطول من الباب ٤٥١ قال: أحسن القول ما تشابه من الكلام فاشترك فيه الحادث والقديم، فالله الرؤوف الرحيم والنبيّ ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم. وقال: لولا التشابه ما عقلنا من كلام الله شيئاً ولا وقفنا منه على معنى. وقال: المحكم في المتشابه التشابه فمن تأوّله فقد أزاله عن الاشتراك وهو مشترك فقد زاغ من تأوّله عن طريق

الحق. وقال: علامة من علم أحسن القول الاتباع لما دلّ عليه ذلك القول فيقابل الطول بالطول ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمٰن: ٦٠] وقال: حسن القول يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ويقف بك على المعاني الغامضة فيوضحها لك.

ومن ذلك الإنصاف في عبادة الإله المضاف من الباب ٤٥٢ قال: إذا أضاف الحق نفسه إلى شيء من خلقه فانظر إلى عبادة ما أضاف نفسه إليه فقم بها أنت فإنك النسخة الجامعة وما عرفك الحق بهذه الاضافة الخاصة إلاّ لهذا. وقال: مثال الإله المضاف ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ [البقرة: ١٦٣] ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ﴾ [طه: ٥٠] ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩] ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النبأ: ٣٧] ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ﴾ [الدخان: ٨] ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمٰن: ١٧] فعطف وما أظهر الإضافة كما فعل في غير ذلك ما فعله سدى، فاعبد ربك على ما قلته لك في كل إضافة حتى يأتيك اليقين، وإذا أتاك اليقين انجلى لك الأمر وعرفت شرف الإضافة، ما عبد أحد الإله المطلق عن الإضافة فإنه الإله المجهول.

ومن ذلك السبحات لأرباب اللمحات من الباب ٤٥٣ قال: لا دليل أدل من الشيء على نفسه، فمن لم يثبت عند ظهوره له فالقصور منه وهو قد وفى، من كان حقيقته العجز وعجز فقد وفى فالوفاء من الطرفين. وقال: لمح البصر كالبرق يضرب فيظهر ويظهر ويزول فلو بقي أهلك. وقال: إنما تحرق سبحات الوجه الدعاوى أنك أنت فلا يبقى إلاّ هو فإنه ما ثم إلاّ هو فهو إبانة لا إحراق. وقال: وجه الشيء حقيقته و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] فالشيء هنا ما يعرض لهذه الذات فإن كان للعارض وجه فما يهلك في نفسه وإنما تهلك بنسبته إلى ما عرض له، فالضمير الذي في وجهه يعود على الشيء ويعود على الحق فأنت بحسب ما تقام فيه فإنك صاحب وقت.

ومن ذلك المصطفى من جني عليه فعفى من الباب ٤٥٤ قال: للنفس حق فإذا جنى عليها وعفوت فأنت الظالم المصطفى وهو الأوّل من الثلاثة لم يأخذ لها حقّها ممّن ظلمها وعاد أجرها على الله. وقال: إذا درس الذنب فقد عفا أثره فلم يبق له عين ولا أثر ولا سيما ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨] والعفو يطلبونه. وقال: المصطفى هو المختار ولكن ممّن ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] وما ثم حثالة ولا كناسة، النفوس نفايس فيختار الأنفس ويبقى النفيس. وقال: المصطفون هم الذين ورثوا الكتاب وهو القرآن المحفوظ من التحريف والزيادة، فلو حفظت سائر الكتب لورثت، فمن كوشف منها على ما ثبت أنه إلهيّ ورثه وحكم به على بصيرة. وقال: الورث لا يكون إلاّ بعد الموت فالكتاب محمدي، فإن العلماء ورثة الأنبياء، والكتاب هو الموروث والشيء الذي مات هو صاحبه وقد مشى إلى الله. وقال: من ظلم ما حكم، ومن اقتصد ما اعتضد وقنع واكتفى، ومن سبق حاز الأمر وظفر، فكن من شئت من هؤلاء.

ومن ذلك صفات الأوداء التبري من الأعداء من الباب ٤٥٥ قال: إذا تبرأ العارف ممّن صحّت عداوته لله فليحذر من تبريه فإنه ما تبرأ إلاّ من اسم إلهيّ يجب عليه تعظيمه. وقال: إن

تبرأ بتبرء الله استراح فيكون الله المتبرىء لاهو كما يلعن بلعنة الله ويغضب بغضب الله ويرضى برضى الله وهو في هذا كله لا صفة له من نفسه. قال أبو يزيد البسطامي: لا صفة لي لا تصحّ البراءة من الأعداء إلاّ لله ولرسله عليهم السلام، ومن كوشف على الخواتم ومن سواهم فما لهم التبري، وإنما لهم أن لا يتخذوهم أولياء يلقون إليهم بالمودة لا غير. وقال: لو تبرأ الله من عدوّه ما رزقه ولا أنعم عليه ولا نظر إليه. وقد أخبر أنهم آكلون من شجرة الزقوم فمالؤون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم وهم العطاش، فلو تبرأ منه الله ما كان للعدوّ وجود لأنه غير حافظ عليه وجوده، ومتى لم يحفظ عليه وجوده هلك وذهب عينه، وهو عزّ وجلّ القائل: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢١] وقال: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ومن ذلك التقاعس عن التنافس من الباب ٤٥٦ قال: أصحاب الهمم يتنافسون في السباق إلى أسماء الكرم والجود الإلْهي ليقاموا بها فيدعون بها. وقال: لا يكون التنافس إلاّ في النفائس، ولا نفائس إلاّ الأنفس، ولا أنفس من الأنفس إلاّ الأنفاس. وقال: من تقاعس عن التنافس فيما ينبغي أن يتنافس فيه فهو كسلان مهين لا همة له ولا نفس. وقال: ليس الطيب إلاّ أنفاس الأحبة لولا أعرافهم ما فاح المسك لمستنشق، وما وقع التنافس بين أهله في المسابقة إلاّ مهب أرواح هذه الأعراف. وقال: ما يعرف مقدار الأنفاس وطيبها وما يعطى من المعارف الإلهية إلاّ البهائم، ألا تراها تشم كل شيء وتشم بعضها بعضاً عند اللقاء ولا تمرّ بشيء إلاّ تميل برؤوسها إليه فتشمه.

ومن ذلك متى تثبت الخلق في مشاهدة الحق من الباب ٤٥٧ قال: لا يثبت الخلق عند المشاهدة وقت التجلي إلاّ إذا كان الحق بصره والحق نور والإدراك لا يكون إلاّ بالنور وقال: إذا رأيت العارف قد ثبت عند التجلي ولم يصعق ولا فني ولا اندكّ جبل هيكله فتعلم أنه حق وله علامة وهي أنه إذا كان هذا حاله لا يراه خلق إلاّ صعق إلاّ أن يكون مثله. وقال: إذا رأيت من يغشى عليه في حاله ويتغير عن هيئته التي كان عليها أو يصعق أو يصيح أو يضطرب أو يفنى فتعلم أنه خلق ما عنده من الحق شمة، فإن كان صادق الحركة فغايته أن يكون جبل موسىٰ إن كان في مقام الأوتاد، وإما موسوي الورث إن كان ناظراً عن أمر إلٰهيّ لطلب شوقي.

ومن ذلك معارج الأنفاس للإيناس من الباب ٤٥٨ قال: للأنفاس الإلهية معارج تعرج عليها إلى المكروبين من عباد الله تأتيهم من تحت أرجلهم لأنهم طالبون لها فهي من أكسابهم، فلهذا كانت من تحت أرجلهم وهي من الروابع السفلية الطالبة العلوّ. ولهذا تعرج. وقال: الحبل الذي لو دلي لهبط على الله قاله رسول الله ﷺ منه تعرج هذه الأنفاس تطلبنا. وقال: الأنفاس العلوية تعرج إليها الأرواح البشرية فتخترق السموات العلى إلى السدرة المنتهى إلى النور الأجلى إلى المورد الأحلى إلى الموقف الأسنى إلى المكانة الزلفى إلى الجنة المأوى إلى المستوى الأعلى إلى العقل الأسمى إلى حجاب العزّة الأحمى إلى الأسماء

الحسنى بالمقام الأبهى والمحل الأزهى إلى أن دنا من قاب قوسين أو أدنى فهنالك يبلغ المنى.

ومن ذلك الأجور بور من الباب ٤٥٩ قال: من علم أن العالم يتجدد في كل زمان فرداً ومقداره من أوله إلى آخره في عين واحدة يعقل ما مضى وما أتى وهي لا موجودة فتنعدم، فإنها ما هي واجبة الوجود ولا معدومة فتوجد، فهي تبع في الوجود لما تقع عليه العين أو يدل عليه العقل، علم أن الأجور تبور لكن هذه العين ما لها هذا العلم في كل عين بل هي في أكثر الأعين ﴿فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] وقال: كل عمل للعبد أجره فيه على الله لا يبور فإن الله هو ليس غيره ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ [يوسف: ٧٥].

ومن ذلك كشف المعرفة في ترك الصفة من الباب ٤٦٠ قال: ما ثم إلاّ عين واحدة لها نسب مختلفة تسمّى عند قوم أسماء وعند قوم نعوت وصفات وأحوال، فمن قال بوجودها فما ذاق للعلم طعماً، ومن نفى أحكامها في هذه العين فكذلك، وسواء كان المسمّى بها حادثاً أو غير حادث، بل هي في غير الحادث أشدّ إحالة منها في الحادث. وقال: لا يقال بترك الصفة فإنه ما هي ثم فتتركها إلاّ أن تريد حكمها فتفرده لله فيكون الحق عين ما ينسب إلى الخلق من الصفات ويتميز الخاص من العباد من غير الخاص بالعلم بذلك، فيعلم من يسمع بالحق أن الحق هو السمع والسميع، وهو من المتكلم المكلم والكلام فمنه وإليه فأين أنت ومن أنت؟ وقال: إذا كان الأمر على ما قرّرناه فالجاهل به من هو ما نرى إلا أمراً آخر قد بدا أوقع الحيرة إن ثبت فهو أيضاً العالم ما هو الحق كما قلنا.

ومن ذلك من لا يفهم لا يفهم من الباب ٤٦١ قال: الإفهام لا يقع إلاّ بعد العلم والقدرة على التوصيل، والعلم بالقابل من غير القابل، والعلم لا يكون إلاّ بعد الإعلام والتعلّم. وقد علم العارف من يعلم ومن يتعلم فقد علم أنه ما هو الذي فهم فعلم أنه لا يفهم مع ثبوت أن زيداً أعلم عمراً أمراً ما فعلمه عمرو، فإن كان له اقتدار على التوصيل إلى غيره أفهم غيره وإلاّ فلا، فلا يلزم من حصول العلم الإفهام. وقال: لهذا قلنا إن الأمر بينك وبينه، فمنه الاقتدار ومنك القبول، وبالأمرين ظهر ما ظهر، فالأمر توليد فما ثم إلاّ والد وولد، ومن ذلك الأولى طرح لو ولولا. قال: أداة لو امتناع لامتناع فهي دليل عدم لعدم فإذا أدخلت عليها لا وهو أداة نفي عاد الأمر امتناع الوجود وهذا من أعجب ما يسمع، فإن الأولى أن يكون الحكم في الامتناع والعدم أبلغ لكون الداخل أداة نفي والنفي عدم، فأعطى الوجود وأزال عن أداة لو وجهاً واحداً من أحكامها وهو قولهم لامتناع. وقال: ما العجب في دخول هذه الأدوات على المحدثات وإنما العجب في دخولها في كلام الله ونفوذ حكمها ودلالتها في الله هذا هو العجب العجاب. وقال: قد ثبتت نسبة الكلام إلى الله وقد ثبت أن الذي سمعناه في تركيب هذه الحروف هذا التركيب الخاص والنسبة الخاصة أنه كلام الله فقد حصل فيه هذه الأدوات فجرى عليه حكمها فهل ذلك من جهتنا أو ما هو الأمر إلاّ كذلك؟

ومن ذلك أسمائي ستور بهائي من الباب ٤٦٢ قال: لولا الأسماء ما خفنا ولا رجونا

ولا هبنا ولا عبدنا ولا سمعنا ولا أطعنا ولا خوطبنا ولا خاطبنا المسمّى، ولولا الأحكام التي لها وهي الآثار ما علمت الأسماء فهي ستور إليها والجمال على المسمّى. وقال: أحكام الأسماء جمل الأسماء وكساها البهاء، والأسماء جملت المسمّى وكسته البهاء، وبنا تعينت الأسماء، فنحن كسوناه صورة البهاء، وفيه ظهرت الأسماء، فبه قام البهاء فإنه المسمّى وقال: ما اختلفت أسماء الأسماء إلاّ لاختلاف معانيها ولولا ذلك ما تميزت لنا فهي عنده واحدة وعندنا كثير.

ومن ذلك أعين العارفين إلى عليين من الباب ٤٦٣ قال: لا تكون الأعين ناظرة إلاّ إلى موضع كتابها، فمن كان كتابه في عليين فنظره إلى عليين، ومن كان كتابه في سجين فعينه مصروفة إلى سجين، فالكتاب يقيده بالخاصية. وقال: إنما شرع الله قراءة الكتب في الدار الآخرة ليعلم العبد المصطفى قدر ما أنعم الله عليه به، والهالك ليعذر من نفسه فيعلم أنه جنى على نفسه. وقال: لولا شهادة المرء على نفسه بما شهدت به جلوده وجوارحه ما ثبت كتاب ولا كان حكم، فالاعتراض شهادة المعترف على نفسه فيما فيه هلاكه. وقال: النفوس من ذاتها تدفع ما يضرّها وتسعى في تحصيل ما ينفعها فكيف شهدت بما فيه هلاكها حين اعترفت؟ وقال: ما عذب من اعترف فإن الكرم لا يقتضيه والجوارح رعية ما هي الوالي فشكت بالوالي.

ومن ذلك الانتها إلى سدرة المنتهى من الباب ٤٦٤ قال: السدرة المنتهى عروقها دون السماء وأصلها في السماء وفروعها عليون، فتنتهي إليها أعمال العباد الصالحة والطالحة، فإذا مات الإنسان وقبضت روحه قرنت بعملها حيث انتهى عمله من السدرة، فالذي لا تفتح لهم أبواب السماء عمله في عروق هذه السدرة، والذين يفتح لهم أبواب السماء عملهم في موضع ثمر هذه السدرة، ولهذا لا يجوع السعيد ولا يعرى للورق والثمر اللذين في الفروع، والشقي يجوع ويعرى لعدم التمر والورق في العروق وعدم الورق علم مدرج في مثال. ومن ذلك عوارف آناء الليل في أطراف النهار قال: الصباح والمساء أطراف النهار، فالمساء ابتداء الليل والصباح انتهاء الليل، والنهار ما بين الانتهاء والابتداء، والليل ما بين الابتداء والانتهاء، والعوارف الإلهية هي ما يعطي الحق في تجليه لعباده، فأمرنا بالتسبيح آناء الليل وأطراف النهار، وما تعرض لذكر النهار في هذا الحكم لأنه قال: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧] أي فراغاً فالنهار لك والليل وأطراف النهار له، فإذا كنت له في الليل وأطراف النهار كان لك هو في النهار، فعطايا الليل وأطراف النهار جزاء التسبيح، وعطايا النهار جزاء الاشتغال، والفراغ إلى الحق في آناء الليل وأطراف النهار، فما ثم من الله للعبد إلاّ جزاء والابتداء للعبد، فإن النفس إذا أكلت من كسبها لها إدلال كما أن لها انكساراً في الهبة فلهذا كان الجزاء عاماً لأنه على الصورة ولا انكسار ينبغي لها، ومن ذلك الدعاء من الوعاء قال: لا يكون الوعاء وعاء حتى يكون فيه ما يعي عليه، وإذا امتلأ لا يكون فيه غير ما امتلأ به، فلهذا يدعو الإنسان فإنه ملآن بما يدعو به، فإذا دعا فرغ أنيته فملأها الله بما أجابه به ممّا دعاه فيه وزيادة، فما

شرع الدعاء إلاّ لتفريغ المحل ممّا ملأه الحق به، ولهذا ما ثم إلاّ من يدعو ويبتهل وقال: انظر إلى الكأس إذا كان ملآن بالماء ثم فرغته أو فرغت منه ما فرغت ما يخرج منه شيء في حين خروجه إلاّ عمر موضعه الهواء فهذه بشرى بسرعة إجابة الله من دعاه.

ومن ذلك آداب الحق ما نزلت به الشرائع قال: لما كان الأمر العظيم يجهل قدره ولا يعلم ويعزّ الوصول إليه تنزلت الشرائع بآداب التوصل فقبلها أولو الألباب لأن الشريعة لب العقل والحقيقة لب الشريعة فهي كالدهن في اللب الذي يحفظه القشر فاللب يحفظ الدهن والقشر يحفظ اللب، كذلك العقل يحفظ الشريعة والشريعة تحفظ الحقيقة، فمن ادّعى شرعاً بغير عقل لم يصحّ دعواه فإن الله ما كلف إلاّ من استحكم عقله، ما كلف مجنوناً ولا صبياً ولا من خرف من الكبر، ومن ادّعى حقيقة من غير شريعة فدعواه لا يصحّ، ولهذا قال الجنيد: علمنا هذا يعني الحقائق التي يجيء بها أهل الله مقيد بالكتاب والسنّة أي أنها لا تحصل إلاّ لمن عمل بكتاب الله وسنّة رسوله وذلك هو الشريعة. وقال: «**إِنَّ الله أَدَّبَنِي فَحَسَّنَ أَدَبِي**» وما هو إلاّ ما شرع له، فمن تشرع تأدّب ومن تأدّب وصل.

ومن ذلك عين القلب في القلب قال: خلق الله الإنسان مقلوب النشأة فآخرته في باطنه ودنياه في ظاهره وظاهره مقيد بالصورة، فقيده الله بالشرع، فكما لا يتبدّل لا يتبدّل وهو في باطنه يتنوّع ويتقلب بخواطره في أي صورة خطر له كما يكون عليه في نشأة الآخرة، فباطنه في الدنيا صورة ظاهره في النشأة الآخرة، وظاهره في الدنيا باطنة في النشأة الآخرة لهذا جاء: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] فالآخرة مقلوب نشأة الدنيا والدنيا مقلوب نشأة الآخرة، والإنسان هو الإنسان عينه، فاجهد أن تكون خواطرك هناك محمودة شرعاً، فتجمل صورتك في الآخرة وبالعكس.

ومن ذلك مراتب الحق عند الخلق قال: إذا أراد العبد أن يعلم مرتبته عند ربه ومنزلته وقدره فلينظر في نفسه قدر ربه عنده ورتبته ومنزلته، وما يعامله به في حياته الدنيا من طاعة ومعصية وموافقة ومخالفة وطلب علم وترك، فعلى ذلك الحد منزلته عند ربه، فميزانك بيدك فإن شئت أرجح الميزان وإن شئت أخسره لا تلم إلاّ نفسك. وقال: إذا كان عملك عن أثر إلهيّ مشروع خرجت عن هوى نفسك ولو وافقت الهوى، وتكون ممّن نهى النفس عن الهوى، وهنا نكتة ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١] والجنة ستر والإيواء ستر، فإن النهي عن الهوى لا يكون إلاّ من أديب أو من مستور عنه الحق في الأشياء، فإنه لو كان صاحب كشف لكان هواه ما ارتضاه الله وأراد أمضاه، فلا ينهى النفس عن الهوى من هذه صفته. ومن ذلك اتساع فضاء الفضاء قال: كل ما هو العالم فيه فضاء فلا شيء أوسع من فضاء الفضاء، وبقي عين ما ظهر فيه الفضاء هل هو من حكم الفضاء أم لا؟ فمن جهل الأعيان الثابتة لم يجعل العين التي ظهرت فيها أحكام الفضاء من أحكام الفضاء، ومن علم أن أعيان الموجودات لها ثبوت في حال عدمها وتميز بجميع ما هي عليه جعل حكم الفضاء على تلك الأعيان فجرى عليها بالإيجاد فأوجدها، فكما جرى حكم الفضاء على كل ما في الوجود من

الأعيان بما هي عليه من التصريف كذلك جرى حكم الفضاء على الأعيان الثابتة بما ظهر من وجودها.

ومن ذلك من تعبّد الخلق فقد بريء منه الحق قال: ما أحسن الخبر النبويّ في إشارته بقوله ﷺ: «**العَبْدُ مَنْ لاَ عَبْدَ لَهُ**» ففهم منه المحجوب أنه من لا عبد له قام بأمور نفسه فهو عبد نفسه، وما مقصود الحق في ذلك إلاَّ أن العبد من ليس له وجه إلى ربوبية وسيادة أصلاً. فإذا ملك العبد أمراً ما فله سيادة على ما ملك، فالعبد على الحقيقة من لا ملك له لأن المملوك ذليل تحت تصرّف المالك ولا يقدر على دفع تصرّفه فيه ولا يكون هذا إلاَّ بملك الرقبة، فإن ملك التصريف دون الرقبة فهو مالك للتصريف لا مالك الرقبة، كالذي يستأجر أجيراً على فعل يفعله فعبده التصرّف لا المتصرّف وهو المسمّى أجيراً، فالأجير خادم أجرته فهو خادم نفسه، وذلك العبد فإنه لا عبد له فما له سيادة على أحد والعارف عبد الله وأن ملكه التصريف ولا بدّ من ذلك فما له سيادة، فإن الرقبى لله والعمرى للعبد.

ومن ذلك الرؤية حجاب وهي الباب قال: ليس للمعرفة باب إلاَّ الرؤية فإنه لا شيء أوضح منها إلاَّ أنها حجاب على قدر المرئي وذلك لسبب وهو الشبه، فإن الرائي أي راء كان ما يرى في المرئي إلاَّ صورته حقاً كان أو خلقاً، فلا يعرف قدر المرئي إلاَّ إن عرف ما رأى، وأن الذي سمّاه مرئياً إنما هو مرئي فيه ما هو مرئي والمرئي صورته فما طرأ عليه غريب يستعد للعمل معه بقدره إلاَّ أن ثم نكتة وهي أن المحل الذي رأى صورته فيه كست تلك الصورة المرئية حالاً لم يكن لها إذ لم يكن لها المجلى، فلا بدّ أن يعامل ما رأى بما ينبغي لهذا الحكم فتحقق.

ومن ذلك لا يرى السكينة إلاَّ من حقق تمكينه، قال: كل مدرك بقوّة من القوى الظاهرة والباطنة التي في الإنسان فإنه يتخيل، وإذا تخيله سكن إليه فلا يقع السكون إلاَّ لمتخيل من متخيل، وجميع العقائد كلها تحت هذا الحكم في الخبر الصحيح: «**اعْبُدِ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» فلهذا كانت عقائد والعقائد محلها الخيال، وإن قام الدليل على أن الذي اعتقده ليس بداخل ولا خارج ولا يشبه شيئاً من المحدثات، فإنه لا يسلم من الخيال أن يضبط أمراً لأن نشأة الإنسان تعطي ذلك، والحكم تابع لذات الحاكم بقبول ما يعطيه المحكوم عليه، وليس المحكوم عليه هنا إلاَّ المتخيل وهو المعتقد، فانظر ما أخفى وأقوى سريان الخيال في الإنسان، فما سلم إنسان من خيال ولا وهم، وكيف يسلم ولا خروج للعقل عن هذه الإنسانية؟ فلو انعدمت انعدم هذا الحكم فهو يوجد ما وجدت.

ومن ذلك قوّة اللطيف وضعف الكثيف قال: لا شيء ألطف من الخواطر والأوهام وهي الحاكمة على الكثائف لضعف الكثيف وقوّة سلطان اللطيف، الدليل لنا صفرة الوجل وحمرة الخجل، والتغيّر بالخوف والمخوف من حلوله ما له عين وجودية، وقد أحدث الخوف في جسم الخائف حركة الهرب وطلب الستر والمدافعة، وما وقع شيء إلاَّ عين الخوف وهو لطيف، فإذا حلّ به ما يخاف منه فلا بدّ من قوّة سلطان الخوف عليه وإن كان

لطيفاً وهو أحد أمرين: إما الرضى والصبر أو السخط والضجر، والأثر سكون أو قلق فقد أثر.

ومن ذلك قرب العبد الثاني في المثاني قال: القرب من الحق قربان: قرب حقيقي وهو ارتباط الرب بالمربوب وارتباط العبادة بالسيادة والحادث بالسبب الذي أحدثه. والقرب الثاني القرب بالطاعة لأمر المكلف والدخول تحت حكمه، فالأوّل قرب ذاتيّ يعمّ جميع الموجودات، والثاني قرب اعتناء وكرامة، فالقرب الأوّل قرب رحم ونسب لو أراد الدافع أن يدفعه لم يستطع لأنه لذاته هو قرب، وقرب الاختصاص قرب المكانة من السلطان، ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فله ذلك فلو قيل له: لا تكن سيداً لعبدك أو لا تكن عبداً لسيدك لكان خلقاً من الكلام، ولو قيل له: أطع سيدك أو لا تطع سيدك لم يكن ذلك خلفاً من الكلام، وإن قيل له: إن شئت أطع سيدك وإن شئت لا تطعه ردته الحقائق فإن العبد لا مشيئة له مع مشيئة سيده.

ومن ذلك السبت في السبت قال: يقول الله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وهي الطاعات التي أمر الله بها عباده ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١] كما قال: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢] ولما كانت المسارعة إلى الخيرات وفي الخيرات تتضمن المشقة والتعب لأن سرعة السير تشق أعقب الله هذه المشقة رحمة إما في باطن الإنسان وهو الذي رزقه الله الالتذاذ بالطاعات فتصرفه المحبة فلا يحسّ بالمشقة ولا بالتعب في رضى المحبوب، وإن كان بناء هذا الهيكل يضعف عن بعض التكاليف فإن الحب يهونه ويسهله، وإما في الآخرة فلا بدّ من الراحة والسبت الراحة والسبت سير سريع في اللسان وللراحة تسمّى يوم السبت سبتاً وما عامله بما ينبغي له إلاّ أهل هذه البلاد وفي المغرب أهل سبته لا غير.

ومن ذلك من بهت فقد بخت قال: لا يكون البهت أبداً إلاّ لمن عجز، ومن عجز فقد وقف على حقيقته، ومن وقف على حقيقته علم ما ثم فشرف محله بالعلم فإنه ما يتصرّف إلاّ بالعلم، ومن صرّفه العلم فقد سعد لشبهه بالأصل وهو التخلق. وقال: قال الله لنمرود بلسان إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] في المسألة الأولى وهو الآن بالبهت ليس بكافر لأنه علم الحق ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤] أي لا يبين لهم في حال سترهم وحجابهم فإن الإبانة بالعلم ترفع ستور الجهل بذلك المعلوم، وإذا ارتفع الستر كان تجلي الأمر على ما هو عليه فأعطي العلم فبهت الذي ستر عنه الأمر قبل تجليه فآمن به في نفسه ولا بدّ وإن لم يتلفظ به، وكيف يتلفظ به وقد غاب عن الإحساس بعين ما هو به محسّ.

ومن ذلك بيت النور القلب المعمور قال: ليس لقلب المؤمن التقي النقي الورع عامر إلاّ الله، والله هو النور لأنه ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم مثل القلب ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وهو النور نور العلم بالله، وما بقي من الكلام فإنما هو من تمام كمال النور الذي وقع به التشبيه ما هو من التشبيه فلا تغلط فتخط الطريق إلى ما أبان الحق عنه في هذه الآية، فالعارف يقف في

التلاوة على مصباح ثم يقول: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ [النور: ٣٥] فحديثه مع المصباح لا مع النور الإلهيّ الذي هو الحق الذي وسعه القلب المشبه بالمشكاة والمشكاة الكوة. ومن ذلك الحصن المنيعة علوم الشريعة قال: من علم حكمة وضع الشرائع والنواميس في العالم رعاها حق رعايتها فحافظ عليها ولزم العمل بها، هذا لما يتعلق بها من منافع الدنيا وحفظ الأنساب والأموال وحصول الأمان في النفوس بوجود القائمين بها والعاملين هذا حظ الكافة منها. وأما المؤمنون بها إذا كانت النواميس إلٰهية جاءت بها رسل الله من عند الله فزادوا فيها صدق ما يتعلق بالآخرة من ثواب وصفات، وما يتعلق بها للعامل عليها المخلص فيها من الكشف والاطلاع والتعريفات الإلهية والمخاطبات الروحانية، ومناسبة ما يلحق العالم العنصريّ بالملأ الأعلى في التقديس والتطهير، فلا سلاح ولا حصن أحمى من العمل بالمشروع كان المشروع ما كان وإذ ولا بدّ من حفظ الناموس فعليك بملازمة الشرع المطهر النبويّ الإلهيّ.

ومن ذلك ما ظهر إلاّ أنت حيث كنت قال: إذا لم يكن لك من أنت له إلاّ بما يقبله ويكون عليه لا بما هو عليه، فأنت الذي ظهرت لك وما أعطاك منه شيئاً فما أفادك إلاّ أن عرفك أن ما أنت عليه هو أنت، وإذا كان الأمر هكذا فما عرفت سواك، هذا حالك مع من استندت إليه ورأيت أن له أثراً فيك، فكيف بك إذا لم تستند إلاّ إليك ولا أعاد عليك ما أنت فيه إلاّ أنت، فأنت بكل وجه وعلى كل حال معه أو معك فلا تلومن إلاّ نفسك إذا رأيت ما لا تستحسنه، واشكره على كل حال فإنه أفادك العلم بك فيما أعطاك وكشفه لك منك، فلهذا يشكر ولا يجوز أن يكفر. ومن ذلك الكتابة لأصحاب النيابة قال: ما كتب الله على نفسه ما كتب إلاّ لمن قام بحق النيابة عنه فيما استنابه فيه وليس إلاّ المتقين وهم الذين جعلوا الله وقاية لهم منه ومن كل شيء يكون منه، كما جعلهم الله وقاية بينه وبين ما ذمّه من الأمور ممّا هو خلق الله، فينسب ذلك إلى الآلة التي وقع بها الفعل فلما وقاه وقاه فصحّ له ما كتب له على نفسه، وقال: ما عدا هؤلاء فهم أهل المنن فنالوا أغراضهم على الاستيفاء. ثم إن الله امتن عليهم بعد ذلك بالمغفرة والرحمة التي عمّ حكمها وقال: لله قوم من نوابه كتب الله في قلوبهم الإيمان فما كذبوا شيئاً ممّا له وجود في الكون ووجدوا له مصرفاً، وإن كان الذي جاء به قصد الكذب وأخبر في زعمه أنه عدم فله وجود عند هؤلاء ولذلك قال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] فهذا الروح المؤيّد به إذا توجه على معدوم أوجده، وعلى معدل مسوّى نفخ فيه روحاً.

ومن ذلك يا معلم الحق أنت الكتاب الذي سبق، قال: للأعيان الثابتة في حال عدمها أحكام ثابتة مهما ظهر عين تلك العين في الوجود تبعه الحكم في الظهور، وعلى هذا تعلّق علم الحق به فما للعلم سبق ولا للكتاب، وإنما السبق لما أنبأناك به، فالشيء حكم على نفسه أعني المعلوم ما حكم غيره عليه فلا فضل لشيء على شيء، وإنما يظهر لك ما بطن فيك عنك ولا لوم فالحق له الغنى على الإطلاق فلا افتقار إذ لو افتقر إليه لحكم عليه الافتقار بإعطاء ما افتقر فيه إليه فيدخل تحت وجوب الافتقار أو تحت مشيئة الاختيار، ولا دخول له في هذا ولا في هذا فهو الغنيّ عن العالمين إن أنصفت.

ومن ذلك الجوهر النفيس في التقديس قال: التقديس الذاتي يطلب التبري من تنزيه المنزهين فإنهم ما نزّهوا حتى تخيلوا وتوهموا، وما ثم متخيل ولا متوهم يتعلق به أو يجوز أن يتعلق به فينزه عنه بل هو القدوس لذاته فهو الجوهر أي الأصل النفيس الذي لا ينافس في صفاته، فإن الذي هو له ما هو لك، وإن الذي لك لك ما هو له، فأنت لك بما أنت وهو له بما هو، والحقائق لا تنقلب ولا تتبدّل، فما تخلق متخلق بأخلاق غيره، وإنما أخلاقه ظهرت عليه لأعين الناظرين، ولا تحقق متحقق بحدود غيره فإن الحد لا يكون لغير محدود ولا سيما الحدود الذاتية، فما ثم إلاَّ جوهر نفيس، وليس العجب إلاَّ في كونه جوهراً، والأصول لا تدل عليها إلاَّ الفروع لأنها غيب، وما ثم فرع لهذه الأصول، فكل ما ظهر فهو جوهر فهو أصل في نفسه لا فروع له إلاَّ عين علمك به لا غير.

ومن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] قال: كانت النفس الناطقة في نفس النفس الذي وقع به النفخ فكانت عين النفس المنفوخ في هذه الصورة العنصرية وهي صورة نشأت من أرض ذلول فذلّت بذلة أصلها لكون مزاجها أثر فيها، فكان الابن أذل من أمه لأنه في خدمتها ومسخّر لها ومأمور بمراعاتها، والأعزّ الحق خالقها فأقسم: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ ليعزّه بولاية أحسن من هذه المدينة وهي النشأة الآخرة طاهرة مطهرة مساعدة له على ما يريد منها من التنوع في الصور والتجلي في أي صورة شاء كما هو في نفسه ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وغير المؤمن ما له هذه المنزلة.

ومن ذلك من أسس بنيانه قوى أركانه قال: من أوثق قواعد بنيانه وأقام جداره وعدل زوايا أركانه فما هي منفرجة ولا حادة بل معتدلة متوسطة كما قال: ﴿فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧] أمن من الهدم والسقوط وهذا هو بيت الإيمان، فما اعتبر أرض البيت في البيت لأنه ليس من صنعة البيت، واعتبر السقف لحاجة البيت إليه وهو الذي وقع عليه النظر أولاً فقام البيت على خمسة سقف وأربعة جدر وهو قوله: «**بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ الله وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكَاةِ وَصَوْمِ رَمَضَانَ وَحَجِّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**» والساكن المؤمن وحشمه وخوله مكارم الأخلاق ونوافل الخيرات، فمكارم الأخلاق زينة هذا البيت ونقشه وعمرته وسدنته وحشمه وخوله نوافل الخيرات وما أوجبه المؤمن على نفسه.

ومن ذلك الحجة في المحجة قال: العلم يقتضي العمل فمن ادعاه من غير عمل به فدعواه كاذبة ومعناه دقيق جداً من أجل مخالفة المتعدين حدود الله من المؤمنين العلماء بالله العارفين به، فربما يقال: لو كانوا عالمين ما خالفوا وهم عالمون بلا شك بأن الله حدّ لهم حدوداً معينة فعلمهم بذلك دعاهم إلى أن لا يزيدوا فيها ولا ينقصوا منها، فقد عملوا بعلمهم وما هم عالمون بمؤاخذة الله، من عصاه على التعيين فما عصى إلاَّ من ليس بعالم بالمؤاخذة، ألا تراه لا يقصد بالمعصية انتهاك الحرمة لعلمه بما ينبغي لذلك الجناب من التعظيم، فما خالف عالم علمه قط فالعلماء تحت تسخير علمهم.

ومن ذلك النذر واجب في جميع المذاهب قال: ما قرر الله وأوجبه على العبد ممّا أوجبه

العبد على نفسه وهو النذر إلاَّ لتحقق عبده أنه خلقه على صورته وقد أوجبه على نفسه وذكر وهو الصادق أنه يوفي به لمن أوجبه له، فأوجب عليك الوفاء بما أوجبته على نفسك فإن المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، والمؤمن يحب لنفسه أنه لا يؤذى فيحب لأخيه المؤمن أنه لا يؤذى، وإذا أحب ذلك دفع عنه الأذى ما استطاع، والمؤمن لا يتأذى بالمعصية لأنه أتاها عن شهوة والتذاذ بها، وإنما يتأذى بالعقوبة عليها في الدار الآخرة، فدفع عن المؤمن الحق ذلك الأذى في الأخرى كما دفع عن نفسه الأذى في الأخرى فقال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣] وأما في الدنيا فعرض نفسه للأذى فأوذي بما قيل فيه فأذى المؤمن بما نصب له من إقامة الحدود على المعاصي وزناً بوزن.

ومن ذلك السلامة من الآفات في الإضافات قال: أصعب العلم بالله إثبات الإطلاق في العلم به لا من كونه إلٰهاً، وأما من كونه ذاتاً أو من حيث نفسه فالإطلاق في حقه عبارة عن العجز عن معرفته فلا يعلم ولا يجهل ولكن يعجز، وأما من كونه إلٰهاً فالأسماء الحسنى تقيده والمرتبة تقيده، ومعنى تقييده طلب المألوه له بما يستحقه من التنزيه والتنزيه تقييد والعلم به من كونه إلهاً يثبت شرعاً وعقلاً، فللعقل فيه التنزيه خاصة فيقيده به، وللشرع فيه التنزيه والتشبيه، فالشرع أقرب إلى الإطلاق في الله من العقل، والعارف ينظر في الإضافات فيحكم فيه بحسب ما أضيف إليه.

ومن ذلك من رأى الحق فقد رأى نفسه قال: من أراد أن يرى الحق فلير نفسه، فكما أنه من عرف نفسه عرف ربه، فكذلك من رأى نفسه فقد رأى ربه، أو من رأى ربه فقد رأى نفسه، فعند العارفين أن الشرع أغلق في هذا القول باب العلم بالله لعلمه بأنه لا يصل أحد إلى معرفة نفسه فإن النفس لا تعقل مجردة عن علاقتها بهيكل تدبره منوراً كان أو مظلماً، فلا تعقل إلاَّ كونها مدبرة ماهيتها ما تعقل ولا تشهد مجرّدة عن هذه العلاقة، ولذلك الله لا يعقل إلاَّ إلهاً غير إلٰه لا يعقل، فلا يتمكن في العلم به تجريده عن العالم المربوب، وإذا لم يعقل مجرداً عن العالم فلم تعقل ذاته ولا شهدت من حيث هي، فأشبه العلم به العلم بالنفس والجامع عدم التجريد وتخلص حقيقة ذاته من العلاقة التي بين الله وبين العالم والعلاقة التي بين نفسك وبين بدنها، وكل من قال بتجريد النفس عن تدبير هيكل ما فما عنده خبر بماهية النفس.

ومن ذلك المجيب سامع والسامع طائع قال: كما أن أعيان الممكنات القائمة بأنفسها ثابتة في حال عدمها كذلك ما يقوم بها من القوى وتتصف به ممّا هي معدومة ثابتة في حال عدمها في أعيان من قامت به قيام ثبوت كما يكون في الوجود إذا وجدت على السواء، فلولا ما سمع الممكن في حال عدمه كن من الحق لما أراد الحق تكوينه ما كان، ولكان قول الحق في قوله أن نقول له كن لا يصدق، ولا سبيل إلى القول بحدوث كن عند الحق فهو إدراك خاص من الممكن الذي يريد الحق إيجاده للواجب الوجود فيظهر عينه، فيكون ما أدرك منه الممكن تعالىٰ هو عين كن فانصبغ بالوجود فكان، والتخصيص أثبت الإرادة والتوجه الخاص وهو حكم عقلي لا يتعدى النظر فتحقق.

ومن ذلك لباس الباطن الغذا، ولباس الظاهر ما يدفع به الأذى، قال: المخلوق يلزمه الأذى لفقره وهو لذاته ينبعث لدفع الآلام عن نفسه، فالجوع ألم يدفعه بالطعام، والعطش ألم يدفعه بالشرب، والحرّ والبرد ألم يدفعهما باللباس، وسائر الآلام يدفعها بالأدوية التي جعلها الله لدفع الآلام، وما عدا الدافع إما زينة أو اتباع شهوة، ولها ألم في النفس فلا يندفع إلاّ بتناول المشتهى، وذلك سائغ من النفس في كل ما تشتهيه، فوقتاً يدفع الألم عند الإحساس به، ووقتاً يستعد له قبل نزوله، وعلى الجملة ما تستعمل النفس شيئاً من ذاتها إلاّ لدفع ألم وهذا الفرقان بين الحق والخلق، فلو لم يكن الإيجاد للحق لذاته لكان حكمه في الإيجاد مثل هذا الحكم في دفع الألم عن نفسه بالإيجاد، فإن الإرادة منه كالشهوة منا، وبتناول المشتهى تندفع وهو في ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٩] فتحقق.

ومن ذلك من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى، قال: كما تكون اليوم كذلك تكون غداً، فاجهد أن تكون هنا ممّن أبصر الأمور على ما هي عليه، دليلك على ذلك أن الذي خلقه الله أعمى وهو المسمّى بالأكمه، إذا نام لا يرى في النوم كما لا يرى في اليقظة، والأعمى إذا نام أعمى استيقظ أعمى، والنوم موت أصغر، فهو عين الموت من حيث إن الحضرة التي ينتقل إليها النائم هي بعينها التي ينتقل إليها الميت سواء، واليقظة بعد النوم كالبعث بعد الموت ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٢] أي أشدّ عمى، وهذه أخوف آية عند العارف، إلاّ أن ثم شيئاً أنبهك عليه وهو أنه لو كان هنا أعمى ومات أعمى لكان في الآخرة أعمى، ولكن لا يكون أحد هنا أعمى قبل الانتقال ولو بنفس واحد، ولكن الذي خلق أعمى لا من عمي بعد أن أبصر فإن الغطاء لا بدّ أن ينكشف فيبصر فما يموت الميت إلاّ بصيراً وعالماً بما إليه بصير فيحشر على ذلك فافهم.

ومن ذلك أمر فامتثل ونهى فعدل قال: العبد طائع في جميع حركاته وسكناته فإنه قابل كل ما يوجده الحق فيه من التكوين من حركة وسكون في الظاهر والباطن، فالذي يخلق فيه إذا أمر بالتكوين فيه امتثل أمر ربّه، وإذا أراد أمراً ما ونهى عنه عدل عن إرادته إلى ما كون فيه، فإن كون فيه ما يكون حكمه المخالفة لما أمره الشارع ونهاه عنه نسبت إليه المخالفة في عين الموافقة وهي نكتة غريبة لا يشعر بها، فإن قبول المخالفة موافقة، ومن كان هذا مشهده لا يشقى لا في الدنيا ولا في الآخرة، فلا أطوع من الخلق لأوامر الحق أي لقبول ما أمر الحق بتكوينه فيه ولكن لا يشعرون. وليست الأوامر التي أوجبنا طاعتها إلاّ الأوامر الإلهية لا الأوامر الواردة على ألسنة الرسل، فإن الآمر من الخلق طائع فيما أمر لأنه لو لم يؤمر بأن يأمر ما أمر، فلو أن الذي أمره يسمع المأمور بذلك الأمر أمره لامتثل، فإن أمر الله لا يعصى إذا ورد بغير الوسائط.

ومن ذلك من أيقن بالخروج لم يطلب العروج قال: إذ ولا بدّ من الرجوع إليه فاعلم أنك عنده من أول قدم وهو أوّل نفس فلا تتعب بطلب العروج إليه، وما هو إلاّ خروجك عن إرادتك لا تشهدها فإنه معك أينما كنت فلا تقع عينك إلاّ عليه، لكن بقي عليك أن تعرفه إذ لو

ميزته وعرفته لم تطلب العروج إليه فإنك لم تفقده، فإذا رأيت من يطلبه فإنما يطلب سعادته في طريقه، وسعادته دفع الآلام عنه ليس غير ذلك كان حيث كان، فالجاهل كل الجاهل من طلب الحاصل، فما أحد أجهل ممّن طلب الله لو كنت مؤمناً بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ﴾ [الحديد: ٤] وبقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١١٥] لعرفت أن أحداً ما طلب الله وإنما طلب سعادته حتى يفوز من المكروه. ومن ذلك ذوق العذاب للأحباب بعض ورثة أهل الكتاب: [الكامل]

عَذْبُ العذابِ برُؤْيَةِ الأحبابِ ... إذ كانَتِ أعْيُنُهُمْ تُشاهِدُ ما بي
ليس العَذابُ سوى فِرَاقِ أحِبَّتي ... إن اللَّذَاذَةَ رؤيةُ الأحبابِ

قال: من ورثة الكتاب الظالم لنفسه بما يجهدها عليه، فهو يظلم نفسه فيما لها من الحق لنفسه، فهو في الوقت صاحب عذاب وألم لا يريد دفعه عنه لأنه استعذبه وهان عليه حمله في جنب ما يطلبه فإنه يطلب سعادته، فإن الكتاب ضمّ معنى إلى معنى، والمعاني لا تقبل الضم إلى المعاني حتى تودع في الحروف والكلمات، فإذا حوتها الكلمات والحروف قبلت ضمّ بعضها إلى بعض فانضمت بحكم التبع لانضمام الحروف. وانضمام الحروف تسمى كتابة، ولولا ضمّ الزوجين ما كان النكاح والنكاح كتابة، فالعالم كله كتاب مسطور لأنه منضود قد ضمّ بعضه إلى بعض، فهو مع الإناث في كل حال يلد، فما ثم إلاً بروز أعيان على الدوام، ولا يوجد موجد شيئاً إلاً حتى يحب إيجاده، فكل ما في الوجود محبوب فما ثم إلاً أحباب. ومن ذلك من الجهل الاستتار من الأهل قال: [البسيط]

إنّ الجهولَ مِنَ أهْلِ الله يَسْتَتِرُ ... والله يعلم ما يأتي وما يَذَرُ
والأهلُ تعرفُ ما الرحمٰنُ يفعلُهُ ... أو بعضه فاحْذَرُوه إنه خَطَرُ
لو كان لي أمَلٌ في غير فاعِلِهِ ... ما كان ينفعني التخويفُ والحَذَرُ
لكنْ لنا أمَلٌ فيه ومُعْتَقَدٌ ... وليس يَلْحَقُني في علمنا بَشَرُ
به يُوَحِّدُني به أوَحِّدُهُ ... لذاك يبدو إذا يبدو ويَسْتَتِرُ

يقول عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] وقد صحّ أن بين الله وبين العالم نسباً فوجب على كل عاقل أن يطلب على نسبه لتصحّ الأهلية وتثبت من أجل الميراث وهو قد قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ﴾ [فاطر: ٣٢] وقد بينا أن بالكتابة توجد المعاني لضمّ الحروف أعيانها بالدلالة عليها، فقد أعطى العالم الإيجاد فهو يوجد بعضه بعضاً إيجاد الآلات بيد الصانع، ألا ترى إلى الصانع بالآلة لا يصنع ما لم تكن الآلة، وأن الآلة لا أثر لها في المصنوع ما لم يحركها الصانع، فتوقف عيها تواقفها عليه فلا يقول ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] حتى يريد فهي إشارة، ومن ذلك الشأن في الشأن: [البسيط]

الشأنُ ما نحن فيه وهو يَخْلُقُهُ ... وليس يَخْلُقُ شيئاً ليس يَعْلَمُهُ
بذا أتانا كتابُ الله يُعَلِّمُنا ... فمن تَفَكَّرَ فيه فهو يَفْهَمُهُ
خَصَّ الإلٰهُ به من شاءه فإذا ... يبدو له سِرُّهُ في الحال يَحْكُمُهُ

الذي جاء في كتاب الله قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] قال: الشأن في قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٩] وليس إلاَّ الفعل وهو ما يوجده في كل يوم من أصغر الأيام وهو الزمان الفرد الذي لا ينقسم، والفعل إذا لم يكن الفاعل يفعل بالذات أي تنفعل عنه الأشياء لذاته، وإلاَّ فلا بدّ له عند إيجاد المفعول عنه من هيئة يكون عليها هي عين الفعل، ولا يلزم إذا كان فاعلاً لذاته صدور العالم عنه دفعة واحدة، فإن الممكنات لا تتناهى وما لا يتناهى لا يدخل في الوجود إلاَّ على الترتيب فهو ممتنع لنفسه، وما هو ممتنع لنفسه لا يتصف الفاعل فيه على الترتيب بالقصور عن إبرازه كله إذ لا كل له فإنه محال لذاته والحقائق لا تتبدّل، والممكن لعينه أعطى الترتيب الواقع وأعطاه الحق الوجود لذاته، فما هو إلاَّ وقوع عين الممكن على نور التجلي، فيرى نفسه وما انبسط عليه ذلك النور فيسمّى وجوداً ولا حكم للنظر العقلي في هذا، نعم له الحكم في بعض ما ذكرناه، والتسليم من العاقل في بعض، فالحق في شؤونه بالذات يفعل والترتيب لها.

ومن ذلك في الاكتساب غلق الباب: [الكامل]

الاكْتِسابُ مغالقُ الأبْوَابِ ... فيما نُؤَمِّلُهُ من الأكْسَابِ
إن صَحَّ لي كَسْبٌ يصحُّ بأنني ... من أهله فتصحُّ لي أنْسابي
فأنا وإياه بحُكْم وُجُوده ... شَهِدَتْ بذلك عنده أحسابي
إني شهيدٌ عالمٌ بأُمورنا ... لسنا عن الأبصار بالغُيَّابِ
الله يعلمُ أنه عندي بما ... قد قاله في العلم حَشْوُ إهابي
لما علمتُ جلالَهُ وجمالَهُ ... أُعْلِمْتُ أن الأمْرَ لَمْعُ سَرَابِ

قال: الاكتساب تعمل في الكسب والموجد مكتسب لأنه قد وصف بما اكتسب، فقد كان عن هذا الوصف غير موصوف به إذ لم يكن ذلك المكتسب، ولذلك ورد: كان الله ولا شيء معه، ولم يرد عن المخبر عن الله ما ذكره علماء الرسوم وأدرجوه في هذا الخبر وهو قولهم وهو الآن على ما عليه كان فإنه تكذيب للخبر، فإنه الآن بالخبر الإلهي: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٩] وقد كان ولا أيام ولا شؤون تلك الأيام فكيف يصحّ قولهم وهو الآن على ما عليه كان وهو القائل: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [النحل: ٤٠] وأنت المؤمن بهذا القول فلا بهذا ولا بذاك، ومن ذلك لا يخشى إلاَّ من يخشى: [الكامل]

إن الإلٰهَ أحقُّ أن نَخْشاهُ ... من كل مَخْلُوقٍ لنا نَغْشَاهُ
فإذا خشيتَ الله كنت مُوَفَّقاً ... وكذاك إذ تَخْشَى الذي يَخْشاهُ
من كان يَخْشَى الله قام بأمْرِهِ ... وبنَهْيِهِ عقداً إذا ماشَاهُ
الله يحفظُ سِرَّ عَبْدٍ موقِنٍ ... فإذا تَيَقَّنَ أنه أفْشاهُ
أبْدَى له منه لذلك غَيْرَةً ... عند السُّرَى تنفيه في مَسْراهُ

قال: لا تقع الخشية إلاَّ ممّن يقبل أثر ما يخشى منه، فهو عنده بالذوق علم ذلك، وفي ذاته طلب التأثير لما عنده من دعوى الربوبية لكونه خلق على الصورة، فلا بدّ أن يخشى أيضاً

هو لما يطلبه من التأثير في غيره كما نخشى ممّن يؤثر فيه، والعارف قد يقام في حال لا يخشى، ولا سبيل أن يقام في حال لا تخشى لأن ذلك ليس له، نعم قد يكون في نفسه شاهداً لحاله يقول إنه لو شوهدت منه ما يخشاه أحد وذلك ليس بصحيح إنما يكون هذا ممّن يجهل ذاته وما تعطيه ما رأى الصيد إنساناً إلا فرّ منه ويخشاه وإن لم يقم بنفس ذلك الإنسان صيد ذلك الهارب منه وقد لا يراه ويكون ظهره إليه، فليس في وسع المخلوق أنه لا يخشى، وقد يكون في وسعه أنه لا يخشى، ولكن لا على الدوام إلاّ أن يغفل عن ذلك لا غير، ومن ذلك المقيت يطلب التوقيت: [البسيط]

الله عَـيَّـنَ أقـواتـاً وقَـدَّرَهَـا فـهـو المُقِيتُ وباسْم الدَّهْرِ يَحْجُبُهُ
فـالـعَـقْـلُ يسـتـرُه والـنـفـس تُـظْـهِـرُهُ والـرُّوحُ يـكـتُـمُـهُ والـحِـسّ يَـرْقُـبُـهُ
والـنُّـورُ يُـحْـرِقُـهُ والـسِّـرُّ يَـكْـنُـفُـهُ والـشـوقُ يُـتْـلِـفُـهُ وَجْـداً ويُـذْهِـبُـهُ
والـوَجْـدُ يَـقْـدَحُ زَنْـدَ الـحُـبِّ فـي كَـبِـدٍ حَـرَّى والِـهَـةٍ والـرِّيـحُ تـلـهـبُـهُ

قال: ترتيب الإيجاد يؤذن بالتوقيت، ولا يتولى ذلك إلاّ الاسم المقيت لأنه القائل: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وقال: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٢٧] وهو الثابت الواقع، ولا حكم لأداة لو فإن كلمة لو لو زرعت ما نبت عنها شيء ويخسر البذر، فمتى سمعت لو حيث سمعتها فلا تنظر إلى ما تحتها فإن ما تحتها ما يوجد فلا تخف منها ولا من دلالتها، وليكن مشهودك الواقع خاصة، فإنه ما رأيت أعظم أثراً من أثر المعدوم في نفوس العالم وسبب ذلك الإمكان فيخاف الإنسان أمراً ما وذلك الأمر معدوم ما وجد، وقد أثر فيه الخوف وما يتبعه هذا أثر المعدوم، فكيف أثر الموجود؟ ومن ذلك الحبيب قريب. قال: الحبيب قريب من الحب لأنه الذي يتعلق به لا من المحب، فالحب لا يجول المسافات البعيدة النابية ولا التنويهات الشريفة التي لا ترتفع أحكامها عن قرب الحب من الحبيب، والمحب قد يكون له القرب من الحبيب وقد لا يكون، فالحب قريب من المحب لقيامه به، وقريب من المحبوب لتعلقه به، فإنه لا تعلق له بغير محبوبه فقد انفرد إليه، والمحب تبع للحب لقيامه به، والحبيب ليس بتابع لحب المحب وإن تعلق به بل هو مع ما يقوم به، فإن قام به حب المحب أحبه فعاد المحب حبيباً فصحّ الطلب من الطرفين ولا عايق إلاّ إن كان من خارج أو من محال أي لا تعطي الحقائق الاتصال، فمن عرف الحب عرف كيف يحب، كان شيخنا يطلب شهوة الحب لا الحب، وذلك أن شهوة الحب قرب الحبيب من المحب.

ومن ذلك ليس من الخير حب الغير قال: ما أحب المحب في غيره إلاّ نفسه فما أحب الغير ولا يصحّ حب الغير أبداً لأن حب الغير ما فيه خير، فإذا كان فيه خير يعود على المحب فنفسه أحب لأنه أحب إعادة ذلك الخير عليه، ثم لتعلم أن ذلك الغير من حقيقته أن يكون له وجود ما هو عين هذا الآخر، والمحبوب أبداً لا يكون إلاّ معدوماً إما في موجود أو لا في موجود، فإن الموجود محال أن يحب لذاته وإنما يحب لأمر عدمي، ذلك الأمر العدمي هو

المحبوب منه أن يكون، والعدم ليس بغير للمحب، ولا يزال هذا المعدوم المحبوب منوطاً بالمحب لقيام حبه به وتعلقه بذلك المحبوب، فلا يزال متصلاً به وصل خيال حتى يقع في الحسّ، هذا شأنه في المخلوق وفي الحق الإيجاد.

ومن ذلك من بلغ الغاية في الاتساع ضاق قال: لا أوسع من الخلا إذ الاتساع لا يوصف به إلاّ الخلا، فإذا امتلأ الخلا ضاق بلا شك، فإن الممكنات لا نهاية لها وقد ضاق الخلا عنها لأنه امتلأ فضاق المتسع، فجعل الله فيما أوجد من الملأ في الخلاء الاستحالات، فلا يزال يخلع صورة فيلحقها بالثبوت والعدم ويوجد صورة من العدم في هذا الملأ فلا يزال التكوين والتغيير فيه أبداً بالاستحالات في الدنيا والآخرة بل في الوجود كله، وهذه هي الشؤون التي الحق فيها في كل يوم من أيام الدنيا والآخرة بل من أيام الوجود، فما ضاق عن الاستحالات فإنه تفريغ وإشغال فهو بعمارة الخلا قد ضاق وبالتفريغ والإشغال فيه ما ضاق، فلا يزال الخلا ممتلئاً على الدوام لا يعقل فيه خلو ليس فيه ملأ.

ومن ذلك لا غاية في الغاية قال: لو كانت في الغاية غاية ما كانت غاية والعالم غايته في طلب الحق والحق غايته الخلق لأن غايته المرتبة، وليست سوى كونه إلهاً فهو يطلب المألوه بالذات ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فهو الغاية ومنه بدأ الأمر كله، ولذلك جاء بالرجوع لأنه لا يمكن أن يكون رجوع إلاّ من خروج تقدم، والموجودات كلها المحدثات ما خرجت إلى الوجود إلاّ عن الله، فلهذا ترجع أحكامها إليه ولم تزل عنده، وإنما سميت راجعة لما طرأ للخلق من رؤية الأسباب التي هي حجب على أعين الناظرين، فلا يزالون ينظرون ويخترقون الأسباب من سبب إلى سبب حتى يبلغوا إلى السبب الأوّل وهو الحق فهذا معنى الرجوع.

ومن ذلك من جاء شيئاً إمراً حدث له القرين ذكراً، قال: كل أمر يقع التعجّب منه، فإن صاحبه الذي أوجده للتعجب ما أوجده بهذه الحالة إلاّ ليحدث منه ذكراً لهذا الذي تعجب منه فلا تستعجل، فإنه لا بدّ أن يخبره موجده بحديثه إلاّ أن الإنسان خلق عجولاً، ففي طبعه الحركة والانتقال لأنها أصله، فإن خروجه من العدم إلى الوجود نقله فهو في أصل نشأته ووجوده متحرك فلهذا قال: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وخلق الإنسان عجولا، ولو رام غير العجلة ما استطاع، وما في العالم أمر لا يتعجب منه فالوجود كله عجب، فلا بدّ أن يحدث الله منه ذكراً للمتعجبين، فالعارفون أحدث الله لهم ذكراً منه في هذه الدار فعرفوا لما خلقوا له ولما خلق لهم، والعامة تعرف حقائق هذه الأمور في الآخرة فلا بدّ من العلم وهو إحداث الذكر. ومن ذلك الركون لا يكون إلاّ لمغبون: [البسيط]

لا تَـرْكُـنَـنَّ إلـى غـيـر الإلٰـه فـمـا ... يَـرْكُـنُ إلـى غـيـره إلاّ الـذي جَـهِـلَـهْ
سـبـحـانـه وتـعـالـىٰ أن يُـقِـرَّ لـه ... فـي مـلـكـه بـشَـريـكٍ غَـيْـرُ مـن خَـذَلَـهْ
مـن قـال إن لـه نـدّاً وصـاحـبـةً ... فـرَبُّـهُ بـحـسـام الـجـهـل قـد قَـتَـلَـهْ
والله مـا طَـلَـعـتْ شـمـسٌ ولا غـربـتْ ... عـلـى مُـحِـبٍّ لـه إلاّ وقـد وَصَـلَـهْ

بما يريد وما يبغيه من مِسَحِ ... إلاّ حباه بها في تُحْفَةٍ وَصِلَهْ
سبحانه وتعالىٰ أن يحيط به ... نَظْمٌ من الشعر أو نَثْرٌ من البَطَلَهْ

لا تركن إلى غير ركن فتخيب، انظر في القرآن بما أنزل على محمد ﷺ لا تنظر فيه بما أنزل على العرب فتخيب عن إدراك معانيه، فإنه نزل بلسان رسول الله ﷺ لسان عربي مبين نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام على قلب محمد ﷺ فكان به من المنذرين أي المعلمين، فإذا تكلمت في القرآن بما هو به محمد ﷺ متكلم نزلت عن ذلك الفهم إلى فهم السامع من النبي ﷺ، فإن الخطاب على قدر السامع لا على قدر المتكلم، وليس سمع النبي ﷺ وفهمه فيه فهم السامع من أمته فيه إذا تلاه عليه، وهذه نكتة ما سمعتها قبل هذا عن أحد قبلي وهي غريبة وفيها غموض. ومن ذلك من لم يتكبر على خلقه فقد أدّى واجب حقه: [البسيط]

ليس التَّكَبُّرُ والإهمالُ من شِيَمي ... بَلِ التَّواضعُ والإمهالُ من شِيَمي
إني عَبَدْتُ الذي أجني ويغفرُ لي ... وهو المهيمنُ رَبُّ الصَّفْح والكَرَم

قال: لا يتكبر على الأمثال إلاّ من جهل أنهم أمثال، فكما لا يتكبر الشيء على نفسه كذلك لا يتكبر على مثله، ومن لم يتكبر على خلق الله فقد أعطاهم حقهم الذي وجب لهم عليه كما أعطاه الله خلقه الذي لم يكن إلاّ به وإلاّ فما هو هو، فإن الإنسان إذا لم يكن هو الحيوان الناطق وإلاّ فليس بإنسان، فهذا أعطى كل شيء خلقه، وأوجب عليك أنت الحقوق، فما في العالم إلاّ من له حق عليك تؤديه إليه إذا طلبه منك، وما لم يطلبه بحاله أو لسانه لم يتعين عليك، فلا بدّ من الأوقات فيه كما هو في الإيجاد والآجال إذا جاء الوقت قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩] وقال تعالىٰ في شأن القيامة لا يجليها لوقتها إلاّ هو فحينئذ يعطيها خلقها، كذلك إذا حان أجل أداء الحق تعين عليك الأداء، فإن أنت لم تفعل فأنت ظالم، ولا يتعين أداء حق إلاّ مع قدرة المؤدي على أدائه وذلك وقته. ومن ذلك المقصود رؤية التقصير مع بذل المجهود: [الكامل]

ما كان مَقْصُودي من التَّقْصيرِ ... إلاّ الذي أدْرَكْتُ في التَّشْمِيرِ
حتى يراني العاذلون قَدِ اعْتَنَى ... من قُمْتُ فيه بنَفْثَةِ المَصْدُورِ
وأرى الذي قَيّدته بصحيفتي ... من علمه المسروح في المسطُورِ
إني قرأت كتابَهُ وفهمتُهُ ... فَهْماً كما أجلاه في المَزْبُورِ
وأتى به ضَوْءُ الصّباح ولَيْلُهُ ... في وقته المَعْرُوفِ بالدَّيْهُورِ
إني حَصَرْتُ وُجُودَهُ ويحقُّ لي ... حَصْرُ الأمور لعِلْمِيَ المَحْصُورِ

قال: الأماني غرور فلا تتمنّ على الله الأماني وأنت تسلك على غير طريق تحصيلها فإن الله يقول: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] فجعل الطريق التقوى لحصول هذا الفرقان الذي أنزله على عبده ليكون به للعالمين نذيراً أي معلماً لهم، ألا تراه لما أراد أن يعرف أوجد العالم وتعرف إليهم فعرفوه على قدرهم ما أبقاهم في العدم، وورد خبر إلهيّ قال

تعالى: «كُنتُ كَنزاً لَم أُعرَف فَخَلَقتُ الخَلْقَ وَتعَرَّفْتُ إلَيهِمْ فَعَرَفُونِي» ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] فلا بدّ لكل طالب أمر أن يسلك في طريق تحصيله لأن الطريق له ذاتي فلا تحصل إلاّ به ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾. ومن ذلك حاز جنة المأوى من نهى النفس عن الهوى: [الرجز]

إذا نَهَيْتَ النَّفْسَ عن هَواها … كانت لها جَنَّاتُهُ مَأواهَا
بها حباها الله إذْ حَبَاها … وكان في فِرْدَوْسِه مَثْوَاهَا
أقسمتُ بالشمس التي أجْرَاها … قَسَماً وبالبَدْرِ إذا تَلاَهَا
ولَيْلِهِ المُظْلِم إذ يَغْشَاها … وبالنهار حين ما جَلاَّها
وحِكْمَةِ الله التي أخفاها … عن العيون حين ما أبْداها
وبالسمٰواتِ ومن بَنَاها … وفَوْقَ أرْضٍ فَرْشِهِ عَلاّها
لتَبْلُغُنَّ اليَوْمَ مُنْتَهَاهَا … حتى تراها بلغتْ مُنَاها
حين رأت ما قَدَّمَتْ يداها … من كل خَيْرٍ منه قد أتاها
بأطعمة قد بَلَغَتْ إنَاهَا … ما كان أحلاها وما أشهاها

قال: نهي النفس عن الهوى أن يكون هواها لا تأته من حيث ما هو هواها بل من حيث ما هو إرادة الحق وأنت لا تدري، فإذا نهى النفس عن الهوى من حيث إنه مذموم لا من حيث ما أشرنا إليه فإن الله قد ستر عنه العلم الصحيح في ذلك فعبر عنه بجنة المأوى أي الستر الذي أوى إلى ظلّه، فهو وإن كان مدحاً فمن حيث إنه علّق الذمّ بالهوى، فلو عرف أنه ما دفع الهوى إلاّ بالهوى، وأن الهوى ما هو غير عين الإرادة، وكل مراد إذا حصل لمن أراده فهو ملذوذ للنفس، فكل إرادة فهي هوى لأن الهوى تستلذه النفوس وما لا لذة لها فيه فليس بهواها، وما سمّي هوى إلاّ لسقوطه في النفس، وليس سقوطه إلاّ منك في إرادة ربه، فلا أعلى من الهوى لأنه يردك إلى الحق، فلا تشهد غيره في التذاذه بذلك إلاّ أن الخلق حجبوا عن هذا الإدراك فهم مع الإرادة فيهم، ويسمونها هوى وليس بهوى، والهوى للعارفين والإرادة للعامة، والذم لهم في الهوى فهم له عاملون. ومن ذلك الحق للباطل مزهق والنظر إليه مصعق: [السريع]

قَذْفُكَ بالحَقِّ على البَاطلِ … يَدْمَغُهُ فهو به زَاهِقُ
وإنما يعرف ما قلتُه … من هو في أحواله صَادِقُ
فهو ظَلُومٌ والهَوَى مُهْلِكٌ … وغيرُه مُقْتَصِدٌ سَابِقُ
يسبقُه فكلّ من جاءه … فإنه في إثْرِهِ لاحقُ
فإنْ أقُلْ هادانا عارفٌ … وإن أقُلْ حادانا سائقُ
من حيث عيني فأنا ناظرٌ … ومن لساني فأنا ناطقُ
أحوالُنا تخبرُ عن سِرِّنا … بأنه في ذاته عَاشِقُ

قال: لا تغالط نفسك، حق وخلق لا يجتمعان، فانظر مشهودك إن كان حقاً فما تنظره

إلاَّ بعينه فإنك لا تدركه بغيره، فما ثم خلق في حقك وفي وقتك إذا كان وقتك الحق، وإن كان خلقاً فما تنظر إليه إلا بعين الخلق، والحكم تابع للنظر، ولا يحكم النظر إلاَّ بما يعطيه لمنظور من ذاته، فمن المحال أن يكون المنظور إليه قائماً فيدركه قاعداً، أو على لو ن ما إن كان من المتلونات فيدركه على غير اللون الذي هو عليه ذلك المنظور، وهذا سائغ في كل قوة موضع الطعم إذا غلبت عليه المرة الصفراء، قال في العسل إذا ذاقه إنه مر، والعسل ما باشر موضع الطعم وإنما باشرته المرة الصفراء، فصدق في المرارة وكذب في نسبة المرارة إلى العسل فاعلم ذلك. ومن ذلك من أجاب أجيب فلم لا يستجيب؟: [البسيط]

لـمـا أَجَبْتُ دُعَاةَ الـحَقِّ كـنـتُ لـهـم ... مُـؤَيِّـداً وبـهـم أيَّـدْتُـهُـمْ فـإذا
أقـول إنـهـم عَـيْـنـي ومُـعْـتَـقَـدي ... كـمـا أقـول إذا مـا كـنـت مُـنْـتَـبِـذَا
الـحـقُّ يـجـهـلُ أو يُـعْـزَى لـكـل هَـوًى ... ولـو يـرى الـحـسُّ أن الـحَـقَّ قـد نُـبِـذَا
هـيـهـاتِ لـيـس لـه حَـدٌّ فـتـدركُـه ... بـه فـإن لـه حـكـمـاً عَـلَـيَّ بـذَا
بذا حَكَمْتَ وما في الحُكْمِ من عَجَبٍ ... فـكـل حُـكْـم تـراه فـهـو فـيـه كـذا
فـلا يـحـيـطُ بـه عـلـمٌ ومـعـرفـةٌ ... ولا يُـنَـاطُ بـه مـن جـانـبَـيْـهِ أَذَى

قال: لا تعامل إلاَّ بما عاملت فعملك يعود عليك، استجب لله ولرسوله إذا دعاك لما يحييك، فإنه إذا دعاك فأجبته يجبك إذا دعوته، قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟﴾ [البقرة: ١٨٦] فإني دعوتهم على ألسنة أنبيائي، وكما أنه عزّ وجلّ يعطي جزاء يطلب من عبده الجزاء لما دعاه الحق إلى التكوين وأجاب فكان فدعاه خالقه إلى ما تقوم به ذاته ويبقي عليه عينه فأجابه الحق بالإمداد فكان جزاء ولو شاء أعدمه لكنه أجاب فأجابه الحق، فكان ذلك تنبيهاً من الحق لنا وتعليماً، فإياك والغفلة عن ملاحظة هذه الأشياء التي نصبها الحق لتشهد، فلا تعاملها إلاَّ بما نصبها الحق له، فأصل الإجابة في العالم من هناك وهو أصل قوي، ولذلك ما دعا الله أحداً إلاَّ وأجابه، إلاَّ أن الأمور مرهونة بأوقاتها لمن يعلم ذلك، فلا تستبطئ الإجابة فإنها في الطريق وفي بعض الطرق بعد وهو التأجيل. ومن ذلك طيب الأعراق يدل على مكارم الأخلاق: [البسيط]

قـد قـيـل فـي مَـثَـلٍ أَجْـرَاهُ قـائـلُـهُ ... إنّ الـجِـيَـادَ عـلـى أعـراقـهـا تَـجْـري
فـمـن يـقـومُ بـه أخـلاقُ سَـيِّـدِهِ ... يجري الجميلُ وغَيْرُ الخَيْرِ ما يَجْري
هـذا الـذي قـلـتُـه الـتـوحـيـدُ جـاء بـه ... يَـوْمَ الـخَـمِـيـس إلـيـنـا لـيـلـة الـقَـدْرِ
أقـام عـنـدي بـلا كَـدٍّ ولا نَـصَـبٍ ... من أوّل الـلَّـيْـلِ حتى مَـطْـلَـعِ الـفَـجْـرِ

قال: إذا كانت الأعراق التي هي الأصول طيبة بالصلاحية والقوّة كان الثمر في الفروع طيباً بالوجود والفعل، فالثمر من الأصول يستمد فإنها من ذاتها لا تستبد، والأصل الحق في وجود العالم وهو الطيب فما في الوجود إلاَّ طيب، فإن كل ما في الوجود إنما هو أخلاق الحق أي ثمرات أسمائه، وأسماء الحق للحق كالفروع والأغصان للشجرة، ولذلك تختلف الأغصان من التشاجر، ويدخل بعضها على بعض تداخل الأسماء الإلهية في الحكم في العالم

كما قال: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] فأي عين لم تر في العالم طيباً في أمر ما منه فما ذلك إلاَّ لغيبة الحق عن شهودها في تلك النظرة ومن ذلك ذكر الجنوب قريب من الغيوب: [البسيط]

مَنْ يَذْكُرِ اللَّهَ قَدْ يَزْجُو مُذَكّره ... من القِيَام يكونُ الذِّكْرُ أو جُنُبِ
أو القُعُودِ فإن الله يَذْكُرُهُ ... في كل حَالٍ بلا كَدٍّ ولا نَصَبِ
هذي الحياة التي تُرْجَى النعيم بها ... في حال جدّ يكون الذكرُ أو لَعِبِ
إن الذي يذكر الرحْمٰنَ جاءَ بما ... يكون فيه جلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ
فالله يَعْصِمُ قلبي من غوائله ... فإنها قد تُؤَدِّينا إلى العَطَبِ

قال: الذاكرون ثلاثة: ذاكر قائم وهو الذي له مشاهدة قيومية الحق فيراه قائماً على كل نفس بما كسبت فلا يشهده إلاَّ هكذا في ذكره، وذاكر قاعد وهو الذي يشهد من الحق استواءه على العرش، وإنما قلنا ذلك لأن العالم مرآة الحق والحق مرآة الرجل الكامل، وينعكس النظر في المرآة فيظهر في المرآة ما هو في المرآة الأخرى، ولا يعرف ذلك إلاَّ من رأى ذلك، فيرى الحق في الخلق قيوميته بكونه قائماً عليه بما كسب والحق مرآة للخلق، وقد رأى الحق نفسه في خلقه، فرأى الخلق في مرآة الحق صورة ما تجلى من الحق في مرآة الخلق، فأدركوا الحق في الحق بوساطة مرآة الخلق، فإن شهد الحق أي صفة شهد منه العبد تلك الصورة عينها على حد ما قلناه، وإنما كان الجنوب يقرب الغيوب لأنها حالة النائم أو المريض، وهو قريب من حضرة الخيال وهي محل الغيوب. ومن ذلك الاكتفاء من الوفاء: [البسيط]

مَنِ اكْتَفَى قَدْ وَفَى بما يَقُومُ به ... وما يَقُومُ له والاكْتِفَاءُ وَفَا
من ظَنَّ أن طريقَ الحَقّ أهْوِيَةٌ ... جاءت به سُبْلُهُ فالذِّكْرُ منه جَفَا

قال: لا يكون الاكتفاء من الوفاء إلاَّ مع الموجود الحاضر صاحب الوقت، فيكتفي به صاحبه في وقته ولا يحتاج إلى طلب الزائد فإنه لا بدّ منه، هو يأتيك من غير طلب لأنه من المحال الإقامة على أمر واحد زمانين، وإنما قال الحق تعالىٰ لنبيه ﷺ آمراً: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] ينبهه وإيانا على أن أمراً آخر زائداً على ما هو الحاصل في الوقت لنتهمم لقدومه، وليظهر من العبد الافتقار إلى الله بالدعاء في طلب الزيادة، فمن علم أنه لا بدّ من تحصيل الزائد وتأهب لقدومه فلا حاجة في هذا الموطن إلى الدعاء في تحصيله إلاَّ أن الزائد غير معين عندك، فإن عيّنه الدعاء والحق يجيب فقد تعين عندك ما تدعوه فيه، وهو الذي أمر الله به نبيه ﷺ أن يزيده يطلبه علماً به في كل ما يعطيه، وهو وجه لحق في كل شيء ومن ذلك الاستغفار في الأسحار: [البسيط]

اسْتَغْفِرِ الله بالله الذي سَجَدَتْ ... له الجِبَاهُ بآصال وأسْحَارِ
فقال لي قائلٌ منهم بأنّ لهم ... سِراً يُهَيمُهُمْ في نَغْمَةِ القَارِي

قال: السحر موضع الشبهه ما هو ظلمة محضه فيكون الجهل، ولا هو نور محض فيكون العلم، ولكنه سدفة وهو اختلاط الضوء والظلمة، فلما كان الاختلاط وقع التشابه

ولهذا نهينا عن اتباع المتشابه، وذكر أنه ما يتبعه إلاّ من في قلبه زيغ أي ميل عن الحق الصراح فإن التخليص هو المطلوب، فلذلك شرع الاستغفار في الأسحار أي طلب من الله التستر عن الميل إلى المتشابه بشرط أن لا يعرف أنه متشابه، فإن علمت أنه متشابه ولم تتعدّ به حدّه ولا أخرجته بميلك إليه ونظرك فيه عن المتشابه فلا حرج عليك، وإنما الخوف والحذر أن تلحقه بأحد الطرفين وما ذلك حقيقته، وإنما حقيقته أن يكون له وجهان: وجه إلى كل طرف وجه إلى الحل ووجه إلى الحرمة، ويتعذر الفصل بين الوجهين وتخليصه إلى أحد الطرفين، فهو عند العارف عن المحكم بهذا الوجه لتميزه عن كل واحد من الطرفين، فإذا اتبعته اتباع من لا يزيله عن حقيقته فما ثم زيغ. ومن ذلك عناية العبادة موافقة الأمر الإرادة: [الكامل]

إنْ وَافَقَ الأمْرُ الإرادَةَ لَمْ يَزَلْ ... مَعْبُودُهُ في عينه مَشْهُودَا
فإذا تَجَلّى نُورُهُ لِعِبَادِهِ ... من فَوْرِهِمْ خَرُّوا لديه سُجُودَا

قال: الأمر الإلهيّ لا يخالف الإرادة الإلهية فإنها داخلة في حدّه وحقيقته، وإنما وقع الالتباس من تسميتهم صيغة الأمر وليست بأمر أمراً والصيغة مرادة بلا شك، فأوامر الحق إذا وردت على ألسنة المبلغين فهي صيغ الأوامر لا الأوامر فتعصى، وقد يأمر الآمر بما لا يريد وقوع المأمور به فما عصى أحد قط أمر الله، وبهذا علمنا أن النهي الذي خوطب به آدم عن قرب الشجرة إنما كان بصيغة لغة الملك الذي أوحى إليه به أو الصورة فقيل: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: ١٢١]. ومن ذلك لا يعول عليه إلاّ الفار منه إليه: [المجتث]

مَنْ كُنْتُ طَوْعَ يَدَيْهْ ... فَرَرْتُ مِنْهُ إلَيْهْ
وَلَمْ أَجِدْ مِنْهُ بُدّاً ... لِذا اتَّكَلْتُ عَلَيْهْ

وقال: الفرارون هم بحسب ما فروا إليه، فما أوجب عليهم الفرار ما فرّوا منه، وإنما أوجبه ما فروا إليه، إذ لو عرفوا أنه ما ثم من يفر إليه لسكنوا وما فروا، فإذا أردت أن تعرف في فرارك هل أنت موسوي أو محمدي؟ فانظر في ابتداء الغاية وهو حرف من، وفي انتهاء الغاية وهو حرف إلى، فالنبي محمد ﷺ يقول: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ [الذاريات: ٥٠] وقال في تعوذه: «وَأَعُوذُ بِكَ» فهذا أمره ودعاؤه. وقال عن موسىٰ معرفاً إيانا ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١] ويقال للمحمدي: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥] فالحكم عند المحمديّ لانتهاء الغاية، وعند الموسويّ لابتداء الغاية، وعلى الحقيقة فالغاية هي متصوّرة عنده في الابتداء فهي المحرّكة لأن الأمور إنما هي بغاياتها ولها وجدت، قال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فاعتبر الغاية وإن تأخرت في الوجود مثل طالب الاستظلال بالسقف فحركته الغاية إلى ابتدائها، فما وقعت العبادة إلاّ بعد الخلق، فالغاية هي التي أبرزتهم إلى الوجود فهي المبتدأ، وإن تأخرت في الوجود فما تأخرت بالأثر فإن الحكم والأثر لها، ولذلك قلنا: إن الأثر أبداً في الموجود إنما هو للمعدوم والغاية معدومة، ولهذا يصحّ من الطالب طلبها لأن الموجود غير مراد، فالغاية المعدومة هي التي أثرت الإيجاد، أو هي سبب في أن أوجد الحق ما أوجده ممّا لم يكن له وجود عيني قبل هذا

الأثر السببي، ويسميه بعض العلماء العلة وبعضهم يسميه الحكمة، وبعد أن عرف المعنى فلا مشاحة في الإطلاق، ومن ذلك الجهر والهمس لفظ النفس: [السريع]

الأمْرُ في العَقْلِ وفي النَّفْسِ مُقَرَّرٌ في الجَهْرِ والهَمْسِ
فكلُّ ما يَشْهَدُهُ ناظِري أُدْرِكُهُ بالعَقْلِ والحِسِّ
وأشْهَدُ المَعْنَى الذي سَاقَهُ ولستُ من ذلك في لَبْسِ

قال: إنما سمّي الكلام لما له من الأثر في النفس من الكلم الذي هو الجرح في الحسّ، وسمّي أيضاً باللفظ لأن اللفظ الرمي فرمت النفس ما كان عندها مغيباً بالعبارة إلى إسماع السامعين من غير أن يتعلق به من المتكلم بذلك غيرة، فإن غار عليه لم يجهر به وهمسه فلا يسمعه إلاّ من قصده بالإسماع خاصة، وإنما وقف الغيرة على الشيء لما علم من بعض السامعين أو من كان عدم احترام ما وقعت من أجله الغيرة، فلو عمّ الاحترام من كل شخص في كل موجود لكان الأمر جهراً كله، وأيضاً رحمة بالخلق لأنهم إذا أخفى عنهم لم يلزمهم احترام ما لم يسمعوا فلم يعاقبوا. ومن ذلك الوجود في السجود: [الوافر]

إذا وَافَتْ حَقَائِقُنا اتَّحَدْنَا وفُزْنَا بالعِنَايَةِ بالوُجُودِ
وَحُزْنَا كُلَّ مَكْرُمَةٍ تَبَدَّتْ إلينا منه في حال السُّجُودِ

قال: إنما تطلب الوجوه بالسجود رؤية ربها لأن الوجوه مكان الأعين والأعين محل الأبصار، فطلبه في سجوده ليراه من حيث حقيقته فإن التحت للعبد لأنه السفل، فربما تخيل العبد تنزيه الحق عن التحت أن يكون له نسبة إليه، فشرع له السجود وجعل له فيه القربة، ثم نبهه الشرع على ذلك بحديث الهبوط وهو أنا روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لَوْ دَلَّيْتُمْ بِحَبْلٍ لَهَبَطَ عَلَىٰ اللهِ**» وهي إشارة بديعة في الاعتصام بحبل الله أنه يوصلنا إلى الله، ولهذا قال ابن عطاء لما غاص رجل الجمل في الأرض: جلّ الله، فقال الجمل: جلّ الله لأن رجل الجمل سجد بالغوص في الأرض يطلب ربه، فإن كل أحد إنما يطلب ربه من حقيقته ومن حيث هو، ونسبة التحت والفوق إليه سبحانه على السوا لاتحده الجهات ولا تحصره، يقول الله تعالىٰ: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ**﴾ وهم أمة موسىٰ ﴿**وَٱلْإِنجِيلَ**﴾ وهم أمة عيسىٰ ﴿**وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ**﴾ وهم أهل القرآن وجميع كل ما أنزلت عليه صحيفة ﴿**لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ**﴾ يريد استواءه على العرش والسماء بل كل ما علاه ﴿**وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم**﴾ [المائدة: ٦٦] وهو الذي طلبه رجل الجمل بغوصه. وبقوله ﷺ: «**لَوْ دَلَّيْتُمْ بِحَبْلٍ لَهَبَطَ عَلَىٰ اللهِ**» مع أنه ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ**﴾ [الشورىٰ: ١١] فالنسب إليه على السوا وما كان عند ابن عطاء خبر بذلك فكان الجمل أستاذ ابن عطاء في هذه المسألة فللّه الفوق والتحت، كما له الأمر من قبل ومن بعد، فله نسب مسافات الأمكنة، كما أن له نسب مسافات الأزمنة، وما ثم أسرع حركة من البصر في الحواس زمان لمح البصر زمان تعلّقه بالكواكب الثابتة فما فوقها، وبينهما من البعد في المساحة ما لا يقطع في آلاف من السنين المعلومة عندنا بحركة الأرجل. ومن ذلك الجزاء يشهد بالعدل وترك الفضل: [الطويل]

إذا أنـت سَـاوَيْـتَ الـعَـدالـةَ بـالـجـورِ وفضلتَ أمْرَ الفضل فينا على العَدْلِ
تَـيَـقَّـنْـتَ أن الأمْـرَ بـالـحَـقّ قـائـمٌ وأن لـسـانَ الـحَـقّ فـي قُـبَّـةِ الـفَـضْـلِ

قال: لا يدخل الفضل في الجزاء، وبهذا كان فضلاً، فعطاء الله كله فضل لأن التوفيق منه فضل والعمل له وهو العامل، فالحاصل عن العمل بالموازنة وإن كان جزاء فهو فضل بالأصالة، فالجزاء موازنة للعمل فهو للعمل لا للعامل ولا للعامل به، فإن العامل هو الحق، وما يعود عليه ممّا أعطاه ما وجد له ذلك العطاء، والعمل لا يقبل بذاته ذلك العطاء لنفسه ولا بدّ له من قابل، وأعطاه العمل لمن ظهر به وهو العبد الذي كان محلاً لظهور هذا العمل الإلهي فيه، فهو أيضاً محل للعطاء الإلهيّ لأنه يلتذ به أو يألم إن كان عقوبة، فقد علمت الجزاء والمجازي والمجازى والسلام. ومن ذلك كرم الأصول يدل على عدم الفضول: [الرمل]

كَـــرَمُ الأصْـــل دلـــيـــلٌ وَاضـــحٌ فـي بَـقَـاءِ الـكَـوْنِ مـن مُـوجِـدِهِ
فـــإذا عَـــيَّـــنَـــهُ مُـــوجِـــدُهُ كـان بـالـتـعـيـيـن مـن مَـشْـهَـدِهِ

قال: العاقل العالم من لا شغل له إلاً بما يعنيه، وما ثم إلاً ما يعنيه، يعني إذا أضيف العمل إلى الله، فإذا أضيف إلى المخلوق فلا يخلو إما أن يعتبر فيه التكليف المشروع أو لا يعتبر، فإن لم يعتبر فما اشتغل أحد إلاً بما يعنيه أي بما له به عناية، لأنه اشتغل بما له فيه غرض من تحصيل أو دفع، وإذا اعتبرت التكليف وخرج الاشتغال من المكلف عمّا رسم له الوقت وطلبه منه فقد اشتغل بما لا يعنيه أي بما ليس له به عناية شرعية، ولذلك ورد: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ**» والإسلام حكم شرعي، ولم يقل من حسن فعل المرء تركه ما لا يعنيه فإنه ما ترك إلاً ما يعنيه تركه ولا فعل إلاً ما يعنيه فعله. ومن ذلك لا يرتضي إلاً أهل الرضى: [البسيط]

إنّ الـرَّضِـيَّ الـذي يَـرْضَـى بـنَـقْـلَـتِـهِ فـي كـلّ حَـالٍ إلـى مـا فـيـه مَـرْضَـاتُـه
فـإن تَـعَـدَّى ولـم يَـثْـبُـتْ بـمَـنْـزِلِـهِ فـذاك مـن حَـرُمَـتْ عـلـيـه أقْـوَاتُـه

قال: الرضا ممّن كان لا يكون إلاً بالقليل لمن يعلم أن ثم ما هو أكثر من الحاصل في الوقت، ولا بدّ من الرضا من الطرفين لأن الباقي لا يتناهى، فلا سبيل إلى نيله ولا إلى دخوله في الوجود، فلو حصلت ما عسى أن تحصل فلا بدّ من الرضا ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بما أعطوه من بذل المجهود وغير بذل المجهود ﴿وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩] بما أعطاهم ممّا يقتضي الوجود الجود أكثر من ذلك، لكن العلم والحكمة غالبة ولذلك ﴿يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [الشورى: ٢٧] وإن ارتفع التكليف في الآخرة فما ارتفع ما ينبغي، فما انبغى إلاً ما حصل، فالناس في الآخرة مع ربهم في عبادة ذاتية، وهم في الدنيا في عبادة مشروعة، إلاً من اختصه الله من عباده فأعطاه في الدنيا حال الآخرة كرابعة العدوية. ومن ذلك من جهل المحدث جهل المحدث: [الرمل]

جَـــهْـــلُـــنَـــا بـــالله مـــا قَـــامَ بـــنَـــا دون أن نَـــعْـــرِفَ مـــا نَـــحْـــمِـــلُـــهْ

فـــإذا عَـــرَّفَـــنَـــا الـــحَـــقُّ بـــه عـــنـــدهـــا نَـعْـرِفُ مـــا نَـجْـهَـلُـهْ

قال: قال ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» فمن عجز عن معرفة نفسه عجز عن معرفة ربه، وقد تكون المعرفة بالشيء العجز عن المعرفة به، فيعرف العارف أن هذا المطلوب لا يعرف، والغرض من المعرفة بالشيء أن يميز من غيره، فقد ميّز وتميز من لا يعرف بكونه لا يعرف ممّن يعرف فحصل المقصود وما بقي الشأن إلاَّ في الأمرين إذا كان العجز عن معرفتهما فبأي شيء يتميز كل واحد عن الآخر عجزنا عن معرفة نفوسنا وعجزنا عن معرفة ربنا فما الفارق بين العجزين؟ أو هل نفسك عين ربك كما ورد في الخبر: «كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ» وذكر جميع قواه فقد وقع الالتباس ومالك فارق إلاَّ الافتقار فيقوم معك ما طلبه منك، والافتقار جعلك أن تطلب منه فلم يبق إلاَّ التعريف الإلهي بالفارق إن كان من الممكنات. ومن ذلك المكر نكر: [البسيط]

إنّ الإلٰـه لَـخَـيْـرُ الـمـاكـريـن بـنـا ثُـمَّ اعْـتِـقَـادي بـأن الـمَـكْـرَ كـان لَـنَـا

فـلـو شَـعَـرْتُ بـه مـا كـان يَـمْـكُـرُ بـي فـمـن جـهـالـتـنـا أَتَـى عـلـيـنـا بـنـا

قال: رائحة المكر في قوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤] وما أنكر إلاَّ بما شرع له الإنكار فيه، ولكن غاب عن تزكية الله هذا الذي جاء بما أنكره عليه صاحبه، فهو في الظاهر طعن في المزكى إلى أن يتذكر الناسي، وينتبه الغافل، ويتعلم الجاهل، تمشي أمور وتذهب علوم وتفوت أسرار، وأي مكر أشدّ من النكر؟ وما ثم فاعل إلاَّ الله، فعلى من تنكر؟ فلو أنكرت بالله كما تزعم ما اعتذرت ولا استغفرت ولا طلبت الإقاله، فإنه من تكلم بالله لم يخط طريق الصواب بل هو ممّن أوتي الحكمة وفصل الخطاب. ومن ذلك التراثي في المرائي: [البسيط]

إنَّ الـمِـرَاةَ تُـرِيـنَـا مـا يَـقُـومُ بـنـا مـن الـتَّـغَـيُّـرِ فـيـمـا تـحـمـل الـصُّـوَرُ

لـقـد تَـحَـيَّـرْتُ فـيـمـا قد خُـلِـقْـتُ لـه ومـا لـنـا مـنـزلٌ لـكـن لـنـا سُـوَرُ

قال: يحفظ في رؤية صور التجلي في صور الموجودات، فإن الله ما ضرب لك المثل في الدنيا بتجلي الصور في المرآة من الناظر، ويتجلى ما في المرآة في مرآة غيرها قلت أو كثرت سدى، فاعرف إذا رأيت صورة في مرآة هل هي صورة من مرآة أخرى أم هي صورة لا من مرآة؟ ثم انظر في المرائي واعتدالها والأقوم منها وانظر إلى مرآة وجودك فإن كانت أعدل المرائي ولا تكن فإن الأنبياء عليهم السلام أعدل مرآة منك، ثم لتعلم أن الأنبياء قد فضل بعضهم بعضاً فلا بدّ أن يكون مرائيهم متفاضلة، وأفضل المرائي وأعدلها وأقومها مرآة محمد ﷺ، فتجلى الحق فيها أكمل من كل تجلٍّ يكون، فاجهد أن تنظر إلى الحق المتجلي في مرآة محمد ﷺ لينطبع في مرآتك فترى الحق في صورة محمدية برؤية محمدية، ولا تراه في صورتك كما قال الرجل الذي قال: رأيت الله فأغناني عن رؤية أبي يزيد، فقال له الرجل: لأن ترى أبا يزيد مرة خير لك من أن ترى الله ألف مرة، فلما رآه ذلك المستغني مات فقيل لأبي يزيد خبره فقال أبو يزيد: كان الحق يتجلى له على قدره فلما رآنا تجلّى الحق له على

قدرنا فلم يطق فمات من حينه، والحكاية مشهورة وذلك عين ما أشرنا إليه. ومن ذلك الزهرة لأهل النظرة: [السريع]

مـا زَهْـرَةُ الأرْضِ سـوى فِـتْـنَـةٍ ... تَـعُـمُّ أهْـلَ الأرْضِ أحْـكَـامُـهَـا
وإنّ مـن يُـدْرِكُـهـا فِـتْـنَـةً ... فـذلـك الـمـدركُ عَـلاَّمُـهـا

قال: ما تنعمت الأبصار في أحسن من زهرة الروض: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: ٧] وأحسن زينة عليها رجال الله فاجعلهم منتزهك حتى تكون منهم، فما دمت أرضاً فأنت محل زينة أزهار النوار، وهي دلالات على الثمر الذي هو المقصود من ذلك لأن به تسري الحياة فهو القوت الحسيّ الحيواني، فإن كنت سماء مع بقاء أرضيتك عليك في مقامها وذلك هو الكمال فإنه من رجال الله من يفنى عينها لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٦] فالعارف انتقل من ظهرها إلى بطنها فما فني عنها بل تحقق بها كذلك فليكن، فإذا كنت سماء فأنت محل زينة زهر الأنوار أنوار الكواكب وهي تدل على الحياة المعنوية العلمية.

ومن ذلك قد تكون الفتنة جنة: [السريع]

يَـسْـتَـتِـرُ الـمَـحْـفُـوظُ فـي فِـتْـنَـتِـهْ ... سُـتْـرَةَ مـن يُـحْـفَـظُ فـي جُـنَّـتِـهْ
فـيَـتَّـقـي مـنـهـا سِـهـامَ الـعِـدَى ... كـذلـك الـعـارفُ فـي جَـنَّـتِـهْ

قال: لا شك أن الفتنة جنة فإنها ستر في وقتها عن الأمر الذي تؤول إليه ذاتك، فإنك منظور إليك من جانب الحق بعين الحق في حال الفتنة ما يكون منك ولا تمتحن وتختبر حتى تمكن من نفسك وتجعل قواك لك وتسدل الحجاب بينك وبين ما هي الأمور عليه حتى ترى ما يستخرج منك هذه الفتنة، فإذا أراد الرجل التخلص من هذه الورطة فلينظر إلى الأصل الذي كان عليه قبل الفتنة، وقد أحالك الله عليه أن تفطنت بقوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧] فانظر إلى حالك مع الله إذ لم تكن شيئاً وجودياً ما كنت عليه مع الحق، فلتكن مع الله في شيئية وجودك على ذلك الحكم لا تزد على ذلك شيئاً إلاّ ما اقتضاه الخطاب فقف عنده. ومن ذلك من خان الخيانة خان الأمانة: [السريع]

يـا أيُـهـا الـمَـحْـجُـوبُ فـي عِـزَّتِـهْ ... لا تَـنْـظُـر الـخَـائِـنَ مـن بِـزَّتِـهْ
فـإنّ مَـكْـرَ الـسِّـرِّ فـي خَـلْـقِـهِ ... خِـيَـانَـةٌ مـنـه عـلـى عِـزَّتِـهْ

قال: هذه نكتة أغفلها أهل الله أهل النقد والتمييز، فكيف من ليس له هذا المقام من أهل الله وهو أنك لا تخون الخيانة إلاّ بأداء الأمانة، فأنت خائن من حيث تظن أنك لست بخائن في أدائك الأمانة إلى أهلها، فإن الخيانة تطلب حكمها وحكمها نافذ في كل أحد، فإن الإنسان حامل أمانة بلا شك بنص القرآن، فإن أدّاها فقد خان الخيانة، وإن لم يؤدها فقد خان الأمانة، والخيانة أمانة فأدّها إلى أهلها وتجرّد عنها إن كان لها أهل وجودي، فإن لم يكن لها أهل فما هي أمانة. واعلم أن التخلص من هذا الأمر لا يكون إلاّ حتى يكون مشهودك أنك الحق إذا كان الحق سمعك وبصرك وقواك، فما ثم أمانة تؤدّى لأنك أنت الكل فما ثم خيانة فما خنت ولا أدّيت. ومن ذلك الجنف جنف: [البسيط]

مَنْ مَالَ عن جَنَفِهِ فالفَضْلُ شِيمَتُهُ ... ومَنْ يَمِيلُ إليـنا نحن قِيمَتُهُ
فانْظُرْ إليه إذا مَالَ الركابُ به ... تلقاهُ حُبًّا على خَوْفٍ كَرِيمَتُهُ

قال: تختلف الأحكام باختلاف الألفاظ التي وقع عليها التواطؤ بين المخاطبين، وإن كان المعنى واحداً فالمصرف ليس بواحد، فالجور الميل والعدل ميل، فالميل إلى الباطل جور والميل إلى الحق عدل. وكلاهما ميل، وكذلك الدين الحنيفي ميل إلى الحق، والحيف ميل إلى عدم الحق، فمن حيث أنهما ميل هما سواء وما فرق بينهما إلاَّ الطريق، ولذلك ذكر الله نجدين، ولما كان كل واحد منهما ميلاً ورأى أن الجور ميل إلى الشيطان وكذلك القسط والزيغ والجنف وكل ميل إلى الشيطان وعلم أن الباطل هو العدم وهو يقابل الوجود فما للحق منازع إلاَّ الباطل منعت الغيرة تقرير ذلك فحكمت وقالت في الكل: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فنسب الميل إلى الباطل إليه وأخذه من الباطل فصار حقاً. ومن ذلك في غروب الشمس موت النفس: [الوافر]

غُرُوبُ الشَّمْسِ مَوْتُ النَّفْسِ فانْظُرْ ... إلى نُورٍ قَدْ اُدْرِجَ في التُّرابِ
وذاكَ الرُّوحُ رُوحُ الله فينا ... وعند النفخ يأْخُذُ في الإيابِ
إلى الأَجَلِ الذي منه تَعَدَّى ... فيسرعُ في الإيابِ وفي الذَّهابِ

قال: النفس كالشمس شرقت من الروح المضاف إلى الله بالنفخ وغربت في هذه النشأة فأظلم الجوّ فقيل: جاء الليل وأدبر النهار، فالنفس موتها كونها في هذه النشأة، وحياة هذه النشأة بوجودها فيها، ولا بدّ لهذه الشمس أن تطلع من مغربها، فذلك يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً لأن زمان التكليف ذهب وانقضى في حقها، فطلوع الشمس من مغربها هو حياة النفس وموت هذه النشأة، ولهذا ينقطع عمل الإنسان بالموت لأن الخطاب ما وقع إلاَّ على الجملة، ففي موتها حياتها وفي حياتها موتها، فتداخل أمرها لأنها على صورة موجدها، أين الكبير من المتكبر؟ وأين العلي من المتعالي وهو هو، فإن حكمت عليه المواطن فهو محكوم عليه وفيه ما فيه. ومن ذلك زينة الدنيا رؤية: [الرمل]

إنما النَّاسُ نيامٌ في الدُّنَا ... فإذا ماتوا يقومون هُنَا
والذي تَشْهَدُهُ أعيُنُنا ... هو رُؤْيَا ظَهَرَتْ في نَوْمِنَا

قال الإنسان في الدنيا في رؤيا ولذلك أمر بالاعتبار، فإن الرؤيا قد تعبر في المنام والناس نيام، وإذا ماتوا انتبهوا، فإذا كان بلسان الصادق الحسّ خيالاً والمحسوس متخيلاً فبماذا تقطع الثقة وأنت القائل؟ والقاطع العاقل العالم بأنك في حال اليقظة صاحب حسّ ومحسوس، وإذا نمت صاحب خيال وتخيّل والذي أخذت عنه طريق سعادتك جعلك نائماً في الحال الذي تعتقد أنك فيه صاحب يقظة وانتباه، وإذا كنت في رؤيا في يقظتك في الدنيا فكل ما أنت فيه هو أمر متخيل مطلوب لغيره ما هو في نفسه على ما تراه، فاليقظة والحسّ الصحيح الذي لا خيال فيه في النشأة الآخرة، ولا تقل إذا تحققت هذا أن خوارق العادات خيالات في أعيان الناظرين، اعلم أن الأمر في نفسه كما تراه العين فإنه لا باطن لما تشهده

العين بل هو هو فافهم وعلى الله قصد السبيل. ومن ذلك ليس على الأعرج من حرج: [المتقارب]

إذا شِئْتَ تَعْرف أسْرَارَ مَنْ بَقِي[1] والـذي قَـبْـلَـهُ قـد دَرَجْ
عـلـيـك بـمـا جَـاءَ فـي وَحْـيِـهِ فـلـيـس عـلـى أعْـرَجٍ مِـنْ حَـرَجْ
ولـيـس الـمُـرَادُ سـوى آفَـةٍ تـقـوم بـه مـا يـريـد الـعَـرَجْ

قال: المؤوف لا حرج عليه والعالم كله مؤوف فلا حرج عليه لمن فتح الله عين بصيرته ولهذا قلنا: مآل العالم إلى الرحمة وإن سكنوا النار وكانوا من أهلها ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧] وما ثم إلاَّ هؤلاء فما ثم إلاَّ مؤوف، فقد رفع الله الحرج بالحرج العاثر فيه فإنه ما ثم سواه ولا أنت والمريض المائل إليه لأنه ما ثم وجود يمال إليه إلاَّ هو، والأعمى عن غيره لا عنه لأنه لا يتمكن العمى عنه وما ثم إلاَّ هو، وقد ارتفع الحرج عمّن هذه صفته وما ارتفع الحرج إلاَّ بما هم فيه من الحرج، لأن كل واحد ممّن سميناه متضرّر فحاله يطلب الانفكاك عنه فهو طالب محال من وجه، فالعالم كله أعمى أعرج مريض. ومن ذلك المثل في الظل: [البسيط]

الـمِـثْـلُ فـي الـظِّـلِّ والأنـوارُ تُـظْـهِـرُهُ بـمـا تُـقَـابِـلُـهُ بـه تُـنَـوِّرُهُ
تَـعُـمُّـهُ فـإذا أَتَـتْـهُ عَـنْ جُـنُـبٍ تَـنْـفِـيـهِ وَقْـتـاً وفـي وَقْـتٍ تُـصَـوِّرُهُ

قال: ظل الأشخاص أشكالها فهي أمثالها، وهي ساجدة بسجود أشخاصها، ولولا النور الذي هو بإزاء الأشخاص ما ظهرت الظلال، فما يظهر ظل عن شخص بنور حتى يكون النور محصوراً في جهة من الشخص ويكون الشخص في جهة منه مفروضة فيظهر الظل، وإنما أظهر الله الظلال عن أشخاصها بالأنوار المحصورة ضرب مثال لأنوار العقائد المحصورة فإله كل معتقد محصور في دليله، فأراد الحق منك أن تكون معه كظلك معك من عدم الاعتراض عليه فيما يجريه عليك، والتسليم والتفويض إليه فيما تصرف فيك به، وينبهك أيضاً بذلك أن حركتك عين تحريكه، وأن سكونك كذلك، ما لظل يحرّك الشخص كذلك فلتكن مع الله فإن الأمر كما شاهدته فهو المؤثر فيك، هذا عين الدليل لمن كشف الأمر وعلمه ذوقاً. ومن ذلك من ألحق الشيء بطوره فقد قدره حق قدره: [البسيط]

إنّ الـحَـكِـيـمَ الـذي الأكـوانُ تَـخْـدُمُـهُ لأنـه نَـزَّلَ الأشْـيَـاءَ مَـنَـازِلَـهَـا
يَـبْـدُو إلـى كـل ذي عـيـن بـصُـورَتِـهِ ولا يـقـول بـأن الـحَـقَّ نَـازَلَـهَـا

قال: لا تخرج شيئاً عن حقيقته فإنه لا يخرج، وإن أردت هذا اتصفت بالجهل وعدم المعرفة. وقال: كل من أنزلته منزلته فقد قدرته حق قدره وما بعد ذلك مرمى لرام. وقال: إن كان للشيء جنس فاحكم عليه بحكم جنسه، وإن كان نوعاً فاحكم عليه بما فيه من حكم جنسه وبما فيه ممّا انفصل عنه بنوعيته فهو ذو حكمين، وإن كان شخصاً فاحكم عليه بما فيه

(١) الشطر الأول مختل الوزن.

من حكم جنسه وبما فيه من حكم نوعه واحكم عليه بحقيقة شخصيته فهو ذو أحكام ثلاثة، فكلما قرب الأمر من الأحدية كثرت الأحكام عليه، الحق واحد وأسماؤه لا تحصى كثرة، فلو كان كثيراً لانقسمت الأسماء الذاتية بينهم الجنس كثير حكمه واحد. ومن ذلك: [البسيط]

إنَّ الشَّرِيكَ لَمَوْجُودٌ إذا نَظَرا ... من قَلَّدَ العَقْلَ في التَّعْيين والخَبَرَا
أتى به حاكمٌ في كل نازلةٍ ... من النوازل قَلَّ الأمْرُ أو كَثُرَا

الشرك الخفي والجلي

[نظم: البسيط]

الشِّرْكُ منه جَلِيٌّ لا خَفَاءَ به ... والشِّرْكُ منه خَفِيٌّ أنت تَعْلَمُهُ
يَخْفَى فيُظْهِرُهُ من كان يَحْكُمُهُ ... يَبْدُو فيَسْتُرُهُ من كان يَكْتُمُهُ

قال: الشرك الجلي عمل الصانع بالآلة، والشرك الخفي الاعتماد على الآلة فيما لا يعمل إلاّ بالآلة، فما ثم إلا مشرك فإنه ما ثم إلاّ عالم، وكل شرك يقتضيه العلم ويطلبه الحق فهو حق فليس المقصود إلاّ العلم، فما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون، فكثر العلماء بالله وأبقي طائفة من المؤمنين هم في الشرك ولا يعلمون أنهم فيه فلذلك لم ينسبهم إلى الشرك لعدم علمهم بما هم فيه من الشرك وهم لا يشعرون، وهذا من المكر الإلهيّ الخفي في العالم وهو قوله: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠] وقال: ليس المراد بالشرك هنا أن تجعل مع الله إلهاً آخر ذلك هو الجهل المحض فإنه ما ثم إله آخر بل هو إله واحد عند المشرك وغير المشرك. ومن ذلك الصرف عن الآيات أعظم الآفات: [البسيط]

العَجْزُ صَرْفٌ عن الآيات في النَّظَرِ ... كالمُعْجزات التي في الآي والسُّوَرِ
فانْظُرْ إليها عسى تدري حَقِيقَتَهَا ... فإنما الناسُ في الدنيا على خَطَرِ

قال: كن من الذين صرفوا أنفسهم عن الآيات لا تكن من الذين صرفوا عنها، فإن الذين صرفوا عنها حجبوا بنفوسهم فنسبوا إليها ما ليس لها فعموا عن الآيات فحلّت بهم الآفات فحلت بهم المثلات، والذي انصرف بنفسه عن الآيات لعلمه بأن الدليل يضاد المدلول وما هرب إلاّ من الضد والمقابل، فالناظر في الدليل ما زال فيه فهو هارب ممّا هو فيه حاصل، فعول أهل الكشف والوجود ونظروا إلى المدلول لا من كونه مدلولاً إلاّ من كونه مشهوداً، فنظروا إلى الأشياء وهي تتكوّن عنه بأمره لا بل بذاته بأمره، فالأمر ما قرنه مع الوجود الذاتي إلاّ لمن لا شهود له كشفاً ولا سلم له نظره من المزج، فجاء بالأمر والأمر كلامه وكلامه ذاته. ومن ذلك من توقى ترقى: [البسيط]

نُونُ الوِقَايَةِ تَحْمي فِعْلَها أبداً ... من التَّغَيُّرِ والآفات والضَّرَرِ
فلا تُغَيِّرُهُ ولا تُقَلْقِلُهُ ... عن صُورةٍ هو فيها آخِرَ العُمُرِ

قال: لما كانت الوقايات تحول بين من توقى بها وبين ما يتوقى منه أعطته الترقي والنزاهة عن التأثر وعن حكم التأثير فيه، فترقى إلى صفة الغني عن العالمين لا إلى غير ذلك،

فإن الاشتراك قد وقع بيننا في التأثير في بعض المواطن في قوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِّ﴾ [البقرة: ١٨٦] فإعطاؤه عن سؤال أثر وتأثير، وفي الغنى عن العالمين لا يكون هذا فإن ارتقى هذا الغنيّ المتوقي إلى الغني عن الغنى فلا يكون ذلك إلاً حتى يكون الحق عين ما ينسب إليه من الصفات، ومن صفاته الغنى عن كذا فهو غني عن العالمين لا غني عن نفسه، فعلى هذا الحد يكون الترقي. ومن ذلك عظمت فضائحه من شهدت عليه جوارحه: [السريع]

الشَّخْصُ مَقْصُورٌ على نَفْسِهِ فليس شيءٌ عنه يُخْفِيهِ
يُبْدِيهِ وَقْتاً ثم يُخْفِيه عنه وهذا القَدْرُ يَكْفِيهِ

قال: أخسر الأخسرين شاهد يشهد على نفسه، كما أن أسعد السعداء من شهد لنفسه، فهو في الطرفين مقدّم في السعادة والشقاء ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فهم الذين أشقوا أنفسهم بشهادتهم، وأما من شهدت عليه جوارحه فما تعظم فضيحته من حيث شهادة جوارحه عليه، وإنما تعظم فضيحته من حيث عجزه وجهله بالذب عن نفسه في حال الشهادة، فإنه ما سمّي ذلك النطق شهادة إلاً تجوز، إلاّ أن الجوارح تشهد بالفعل ما تشهد بالحكم فإنها ما تفرّق بين الطاعة المشروعة والمعصية فإنها مطيعة بالذات لا عن أمر، فبقي الحكم لله تعالى فيأخذه ابتداء من غير نطق الجوارح، وهنا يتميز العالم من غيره. ومن ذلك بلوغ الأمنية في الرحمة الخفية: [البسيط]

بُلُوغُ ما يَتَمَنَّى العَبْدُ لَيْسَ لَهْ وإنَّما هو الله الذي خَلَقَهْ
ومن يكونُ بهذا الوَصْفِ فهو فَتًى يَزِيدُ قَدْراً على أمثاله طَبَقَهْ

قال: ألذّ ما يجده الإنسان ما لا يشارك فيه، ولذلك نسب من نسب من الحكماء الابتهاج بالكمال لله لعدم المشارك له في ذلك الكمال، فلا لذة أعظم من عدم المشاركة في الأمر والانفراد به حتى يكون ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وهذه هي الرحمة الخفية، وإنما سميت خفية لعدم المشاركة فإنه ما يعرفها إلاّ صاحبها والذي يعلم السر وأخفى، وعلم الله بها معك لا يمنعها من الخفاء لأن الخفاء إنما هو عن الأكوان لا عن الله، فإن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فالشيء لا يخفى عنه عينه، وهذا هو العجب أن الإنسان لا يعرف نفسه كيف لا يعرف العارف نفسه وقد عرف أنها لا تعرف. ومن ذلك العالم الذي يخشى هو الليل إذا يغشى: [الرمل]

صِفَةُ الخَشْيَةِ نَعْتُ العُلَمَا وهُمُ عند الإلٰهِ الحُكَمَا
والذي يَجْهَلُ ما جِئْتُ به في الذي قد قلتُه في العُلَمَا
لم يَزَلْ إمَّعَةً لا يَهْتَدي مع هذا مع هذا في عَمَى

قال: الغشيان نكاح وهو ستر فهو سر، فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً غطاها بذاته وسترته بنفسها فكان لها لباساً وكانت له لباساً: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] فالعالم من انسحب علمه على كل شيء فغشاه فلم يخرج عن علمه شيء من الأمهات فلبسه كل شيء فهو ثوب كل شيء متى يكون ذلك إذا كان قلبه بيت الحق، فإذا لبسه الحق بكونه

في قلبه ولبسه العبد بكونه جميع قواه والحق هو الجامع وعلمه ليس غير الحق فقد علم كل شيء، وإذا علمه فقد غشيه، وإذا غشيه فقد لبسه، وإذا لبسه انفعل عنه ما ينفعل ويصير ذلك المنفعل أهلاً له أيضاً يغشاه. ومن ذلك الردّة عن الدين شيمة الملحدين: [الرمل]

صَاحِبُ الرِّدَّةِ لا تَحْسَبُهُ عَالِماً بِالأَمْرِ فِيما قد عَلِمْ
بَلْ هو الجامِعُ حَقّاً ولِذا كلُّ ما يَسْمَعُ من قَوْلٍ حُكِمْ
أنَّهُ يَصدُقُ فيما قالَهُ والذي يَعقِلُ هذا لا جَرَمْ

قال: الدين الجزاء فلا يميل عن الجزاء إلى العمل على العبودة وتكون عبادته لذات الحق كما هي عبادته في الآخرة، كان عند الناس ملحداً وعند ربه موحداً فإنه سلم من البواعث المعلولة في عبادة ربه، فهذا هو الإلحاد المحمود، وما سمّي إلحاداً إلاّ لما فيه من الميل عن العمل على الأمر. إلاّ أنه لا بدّ أن يكون من هذه حالته في عبادته أن يشهد ويسمع أمر الحق بتكوين الأعمال فيه التي شرعت له أن يعملها فيراها تتكوّن فيه عن أمر الله على الموافقة لما شرع الله من الأمر والنهي ويسمع أمر الحق بالتكوين، فإن لم تكن هذه صفته فما هو ذلك الرجل الذي بوّبنا عليه أن الردّة عن الدين شيمة الملحدين، فبهذا يعرف نفسه صاحب هذا المقام فلا يأخذه بالقوّة. ومن ذلك اقتحم العقبة من أفرد نفسه بالمرتبة: [البسيط]

لا تَقْتَحِمْ شِدَّةً فالأَمْرُ أيسَرُ مِنْ ظَنٍّ تَظُنُّ فإنَّ الحَقَّ يَسَّرَهُ
إن الوُجُودَ مع الإنسانِ خَيَّرَهُ وبعد تخييره في الأمر حَيَّرَهُ
أماتَهُ الله حَتْفاً ثم أقْبَرَهُ وبعد هذا إذا ما شاءَ أنْشَرَهُ

قال: من قال إني إله من دونه فما جهل إلاّ بقوله من دونه ما جهل بقوله إني إله وحده ولكن بالمجموع فإنه أثبت الغير بقوله من دونه، فإن العبد إذا نطق بالحق وكان الحق نطقه فهو القائل إني إله لا العبد، فلا يحتاج أن يقول من دونه في نطقه بالحق فإن العبد لا يكون رباً ولا سيما في مثل هذا الذوق، فلا رائحة فيه جملة واحدة ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] فقولهم ابن مريم ونعتوه بالبنوّة، ولو قالوا ابن الله كان ذلك كله خطأ وكانوا كافرين، فلو قالوا الله والمسيح أيّاما تدعو كما قال في الرحمن لم يفردوه بالمرتبة ولا أشركوه إنما الله إله واحد. ومن ذلك من ادّعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه: [البسيط]

إن الدَّعِيَّ زَنِيمٌ حيثُ ما كانا وهو العَزِيزُ به فيه وإن هَانَا
الله جَمَّلَهُ الله عَدَّلَهُ الله سَوَّاهُ دونَ الخَلْقِ إنْسَانَا
قد أظْهَرَ الله فيه عِزَّ قُدْرَتِهِ لو لم يكن لم يكن ذاكَ الذي كانا
لو كان لي أمَلٌ في غير ما خُلِقَتْ نَفْسِي له لم أكن في الخَلْقِ مِحْسَانَا

قال: جاء في الخبر النبوّي: **«مَنِ ادَّعَى إِلَىٰ غَيرِ أَبِيهِ أَوِ انْتَمَى إِلَىٰ غَيرِ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ»** أي له البعد وما له سيد إلاّ الله، ولذلك نهى رسول الله ﷺ أن يقول أحدنا عبدي وأمتي، وليقل: غلامي وجاريتي، كما نهى أن نقول لمن له سيادة علينا ربنا، فانظر إلى هذه الغيرة

الإلهية وما تعطيه الحقائق، وكذلك من ادّعى إلى غير أبيه ملعون أي قد بعده عن الأصل الذي تولد عنه، إلاَّ أنه لا يقال ابن إلاَّ لبنوة الصلب وإن جازت بنوة التبني، ولكن قول الله أولى في قوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥] ولا نشك أن الغيرة حكمت أن يقال: «**الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ**» ما لم ينفه صاحب الفراش، فبنوة التبني بالاصطفاء والمرتبة ولفظة الابن هي المنهي عنها، إلاَّ أنه وردت رائحة في التبني في قوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ بل أداة إضراب ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤] وهنا في المصطفى إشكال من هو المصطفى؟ فقد يحتمل أن يريد محل الولد ليظهر فيه الولد بالتوجّه الإلهيّ في الصورة البشرية في عين الرائي كجبريل حين تمثل لمريم بشراً سوياً فقالت: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨] وهنا سرّ أيضاً فابحث عليه، فقال لها جبريل: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ جئتك ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] لما أحصنت فرجها نفخ فيها روحاً من أمره فينسب إليه، فقالت النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠] وقد يريد بالاصطفاء التبني، والله أعلم ما أراد من ذلك هل المجموع أو أحد الأمرين؟ ومن ذلك: [السريع]

مُسْتَمْسِكٌ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى ... هو الإمامُ السَّيِّدُ الأتْقَى
أخْبَرَ عنه الرُّوحُ في وَحْيِهِ ... بأنه المَسْعُودُ لا يَشْقَى

لا يشقى من استمسك بالعروة الوثقى

قال: العروة دائرة لها قطران بالفرض يفصلهما خط متوهم، فالعروة الوثقى أنت وهو من حيث قطريها، فالوجود منقسم بينك وبينه لأنه مقسوم بين رب وعبد، فالقديم الرب والحادث العبد، والوجود أمر جامع لنا: «**قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي**» فهذه عروة لها انفصام من وجه، فإنه لا بدّ أن ينحل نظام التكليف فترتفع هذه الصلاة المنشأة على هذه الهيئة، وتبقى صلاة النشأة الذاتية التي ربطتك به تعالىٰ في حال عدمك ووجودك، فتلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها فاستمسك بها فلا تفرده دونك ولا تشفعه بك بل أنت أنت وهو هو. ومن ذلك: [البسيط]

إنّ الزَّكَاةَ نُمُوٌّ حيث ما كانتْ ... مِثْلُ الذَّكَاةِ التي عَزَّتْ وما هَانَتْ
في كل حالٍ من الأحوال تُبْصِرُها ... قد زَيَّنَتْ عاطلاً منها وما شَانَتْ

قال: الزكاة ربو من زكا يزكو إذا ربا، والربا محرم والزكاة ربا، والذكاة فيما يكون عنه بالتناول الربو في المتناول، والميتة حرام لأنها ما ذكيت فهي مع المذكى كالربا مع الزكاة، فالجامع الأقرب بين الزكاة والذكاة التطهير، لأن الزكاة طهارة بعض الأموال، والذكاة طهارة بعض الحيوان، والجامع الأبعد بينهما ما فيهما من الربو والزيادة لمن تناول ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] أي جعلها تربو وتزكو وما تربو حتى يكون الحق قوتها، قال سهل بن عبد الله: القوت الله حين قيل له: ما القوت؟ فلما قيل له سألناك عن قوت الأشباح فقال: ما

لكم ولها دعوا الديار لبانيها إن شاء عمرها وإن شاء خرّبها، وقد ورد: «**إنَّ الإيمانَ يَرْبُو فِي قَلْبِ المُؤْمِنِ إذا مُدِحَ وَالمُؤْمِنُ لا يَرْبُو إلاَّ بِالمُؤْمِنِ فَإنَّ المُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً**» فإن الحائط لا يعظم ويقوم إلاَّ بضم اللبن بعضها إلى بعض في البنيان، كذلك المؤمن يعظم بالمؤمن، والمؤمن من أسمائه تعالىٰ. ومن ذلك: [المجتث]

الـخَـوْضُ فـي كـلِّ أَمْـرِ — مـن الـوُجُـودِ عَـمَـايَـهْ
إلاَّ إذا كُـنْـتَ فـيـه — ذا عِـزَّةٍ وعِـنَـايَـهْ

الخوض في آلائه عماية

قال: إذا كنت أنت الآية عينها فأنت أقرب شيء إلى من أنت دليل عليه، فإذا خضت في الآية فأنت دال لا دليل فزلت عن كونك آية فبعدت عن المقصود فحجبت فصرت في عماية فلا تخض فيك، وانظر في ذاتك على الكشف حتى ترى بمن هي مرتبطة، فذلك الذي ارتبطت به هو مدلولها وهي آية عليه للأجنبي الخائض فيك ما أنت آية لك وإن كنت آية لك يقول تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨] إشارة حسنة ونصيحة شافية حتى يخوضوا في حديث غيره، فأضاف الآيات إليه، فإن خضت فيها تعديت عنك إلى الجانب الآخر، والشأن في أن تكون أنت وهو أنت له وهو لك لا أن يكون هو لهو فلماذا أوجدك؟ ولا أن تكون أنت لأنت فاعلم. ومن ذلك: [السريع]

إن الـذي يَـسْـكُـنُ تـحـت الـقَـضَـا — فـإنـه عـلامـةٌ فـي الـرِّضَـا
قـد وَسِـعَ الـكُـلَّ جـمـالاً فـمـا — يُـعْـرِضُ عـنـه الـسِّـرُّ لـو أعْـرَضَـا
الـسـكـونُ تـحـت الـقَـضَـا — قـد لا يـكـون عـن الـرِّضَـى

قال: ما كل من سكن تحت قضاء الله يكون راضياً بما قضي عليه، قد يكون الساكن مجبوراً مقهوراً إما لغفله وإما لأمر من خارج، فإذا رفع عنه القهر زال ما كان يدعيه من الرضى، فأخفى الله كذب الكاذب بالقهر في التشبيه بالصادق، فيرى كل واحد من الشخصين قد رضي، والواحد رضي طوعاً والآخر رضي كرهاً ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] ولست أعني بالسماء هذه المشهودة المعلومة فهي إشارة إلى الرفع والأرض إلى الخفض، فأهل السماء يسجدون كرهاً وأهل الأرض يسجدون طوعاً بسبب الأهلية، فقد يكون في السماء من هو من أهل الأرض فيسجد طوعاً، وقد يكون في الأرض من هو من أهل السماء فيسجد كرهاً وهو علم ذوق، فالساجد يعرف بأي صفة سجد؟ فهو أهل لما تعطيه تلك الصفة. وقال: العبد مأمور بالرضى بالقضاء لا بكل مقضي به فاعلم ذلك فإنه دقيق.
ومن ذلك: [الخفيف]

لـم يَـزَلْ فـي ضَـلالَـةٍ وعَـمَـى — مَـن عَـصَـى رَبَّـهُ مـن الـعُـلَـمَـا
فـانـظـروا فـي الـذي أَفُـوهُ بـه — تَـجِـدُوهُ قـالـت بـه الـحُـكَـمَـا

لم يزل في تضليل من عصى الله والرسول

قال: لم يزل في حيرة من عصى الله والرسول، وما ثم إلاّ واحد والرسول حجاب، وقد علمت أنه لا ينطق عن الهوى بل هو لسان حق ظاهر في صورة خلق، فإن رفعه ذمّه الله وإن تركه تركه على مضض، فأعطاه الله دواء من بلاء لهذه العلة وهو قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ثم زاده في الدواء بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] فلما أفرد الأمر في عين الجمع بل العليل من دائه ولذلك قال الخليل: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨] فإن العبد لا بدّ له من خواطر تقتضيها نشأته وبنيته، فمنها ما يوجب له مرضاً فيحتاج إلى دواء، ومنها ما لا مرض فيه وهو الخاطر السليم. ومن ذلك: [الخفيف]

لَـذَّةُ الـوَقْـتِ لـلَّـذي يَـجْـنـي ثَـمَـرَ الـقُـرْبِ عـنـدمـا يَـجْـنـي
فـإذا قـال كـيـف قـلـت لـه لـو دَرَى الـعـالـم الـذي أَغْـنـي
هَـامَ وَجْـداً بـه فـكـيـف أنـا ولـهـذا سَـتَـرْتُـهُ مِـنِّـي

قال الشاعر: أحلى من الأمن عند الخائف الوجل لأن الوارد الذي يعطي الأمن الذي يرد على الخائف يكون الخائف أعظم التذاذاً به ممّن استصحبه الأمن وذلك لتجدد الأمن عليه عقيب الخوف، فجاء على النقيض ممّا كان يأمله وينتظره من وقوع الأمر المخوف منه، فوجد الالتذاذ الذي لا يكون ألذّ منه، فلو فتح الله عين بصيرته ورأى تجدّد نشأته في كل نفس مع جواز عدم التجدد واللحوق بالعدم لكان في لذة دائمة، لكن ما كل أحد يعطى هذه الرتبة بل الإنسان كما قال تعالى في: ﴿لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] وهو في مفهوم العموم النشأة الآخرة، فالجاني هو الذي ينتظر العقوبة، فإن كان مؤمناً فإنه ينتظر إما العقوبة من الله على ما جنى أو العفو والمغفرة، فإذا جاءته المغفرة وجد لها من اللذة ما لا يقدر قدرها إلاّ من ذاقها. ومن ذلك: [البسيط]

من كان في النُّورِ كان النُّورُ يَصْحَبُهُ وظُـلْـمَـةُ الـجَـهْـلِ تُـرْدِيـهِ وتَـسْـحَـبُـهُ
فـكُـنْ بـه لا تَـكُـنْ فـإنـه سَـنَـدٌ أقْـوَى ومـن جـاءه فـي الـحِـيـنِ يُـذْهِـبُـهُ

ولاية النور حبور وولاية الظلمة تبور

قال: بولاية النور يكون الظهور فتبدو له عين الأشياء فتفرق همومه وغمومه، فله في كل منظور إليه تنزه وعلم وفتح لا يكون في الآخر، فتقترن به لذة وسرور على قدر ما كان له من التعطش لطلب ما رآه إن كان معلوماً عنده، قيل ذلك بالقوة أو على قدر رتبة ذلك المنظور في الحسن والطعم، وبولاية الظلمة يهلك في حقه كل ما سترته الظلمة واجتمع عليه همّه فإنه لا يتمكن له أن يكون من نفسه في ظلمة فتقل لذاته، فإن فتح له فيه بسرّ الغيب وعظيم مرتبته على الشهادة كان سرور بالظلمة أتم. ومن ذلك: [البسيط]

إذا مَضَى عـنـك شـيءٌ لا تُـرِدْ خَـلَـفـاً مـنـه فـإن هَـلاكَ الأجْـرِ فـي الـخَـلَـفِ
وقُـلْ لـه بـالـذي تَـحْـوِيـهِ مـن عَـجَـبٍ إن الـمـقـام الـذي أرْجُـوهُ فـي الـتَّـلَـفِ

التلف قد يكون في الخلف

قال: من أعطى مؤدياً أمانة فأخلف الله عليه مثل ما أعطى فقد زاد في حجبه فقد زاد في نصبه، فإنه ما يعطيه الله شيئاً إلاّ ويأمره بحفظه وتقوى الله فيه، ولا سيما في دار التكليف، وإنما قيدناه بهذا القيد لقوله تعالىٰ لسليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩] مع كونه عن السؤال بقوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥] يريد المجموع لأنه ورد أن أصحاب الجد محبوسون لأنهم خرجوا عن أصولهم فإن أصلهم الفقر فما أثنى عليهم إلاّ بالذلة والافتقار لأنهم لو لم يفتقروا لما أعطاهم الحق ما حجبهم به وأتعبهم فيه وأمرهم بأداء ما يجب عليهم فيه من حقه وحق من له استحقاق كالزكاة وغيرها، فما وقفوا مع الأصل وهو فقرهم بل قالوا لما فرض الله عليهم الزكاة في أموالهم هذه أخية الجزية وأين ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٦] وقالوا ما ذكرناه ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧] فلو ثبتوا على ما أعطاهم الحق ولم يطلبوا الزيادة لم يعطهم سوى ما يبقي عليهم الخلق الذي أعطاهم حين أعطى كل شيء خلقه فيحفظ عليه خلقه دائماً، فإياك والافتقار فما حجب الأغنياء سواء لافتقارهم إلى الزيادة فيما في أيديهم وما اقتنعوا. ومن ذلك: [البسيط]

المَقْتُ بالوَقْتِ مَقْرُونٌ فإن فَاتَا فَلْتَحْمَدِ الله شُكْرًا عندما فَاتَا
واعلم بأن له حقاً عليك إذا فُتَّ الذي كان قبل المَقْتِ قد مَاتَا

مقت الوقت

قال: إذا عامل صاحب الوقت وقته بما يجب له فأدّى حقه سلم من المقت فيه، فإذا علق همّه في وقته بما خرج عن وقته فهو في وقته صاحب مقت لشغله بالمعدوم عن الموجود، والأدب لا يكون إلاّ مع الحاضر، حتى أن الغائب إذا تؤدّب معه لا يتأدب معه من حيث هو غائب، وإنما يتأدب مع اسمه إذا ذكر، وإذا ذكر الغائب فقد حضر اسمه في لفظ الذكر له فما وقع الأدب إلاّ مع حاضر، فإن المذكور جليس الذاكر إياه بالذكر، فلا تشغل نفسك بما خرج عن وقتك فتكون ممن مقته الوقت، ومن مقته الوقت فذلك مقت الله فاحذر. ومن ذلك: [السريع]

ما فَرْحَةٌ تَعْقُبُهَا تَرْحَةٌ يَفْرَحُ من يَعْقِلُها هكذا
بها فإن الله أخْبَرَنَا صِدْقاً بما يَعْقُبُها مِنْ أَذَى

الفرح ترح

قال: إذا علم من فرح خاص من شأن النفوس أن تفرح به إن الله لا يحب الفرح بذلك الفرح، وذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] فعلمنا أنه فرح بأمر معين فعاد فرحه بذلك ترحاً فحزن لفرحه على قدر فرحه، فإن كان عظيماً عظم حزنه، إن كان دون

ذلك كان الحزن والترح بحسبه. ثم إن الله أمر عباده أن يفرحوا بفضل الله وبرحمته لا بما يجمعه من المال فإنه يتركه بالموت في الدنيا ولا يقدمه فأمرك بالفرح بالفضل والفضل ما زاد على ذلك، لكنه أيضاً من خلق الفضل فأعطى الفضل خلقه ولم يكن له ظهور إلاّ فيك، فاحمد الله حيث جعلك محلاً لفضله ورحمته، فافرح لأمره إياك بالفرح تجني ثمرة أداء الواجب في الفرح. ومن ذلك: [السريع]

يا ليت من أمْرَضَني مَرضَا ... يُمْرِضُني الحَقُّ إذا أعْرَضَا[1]
وليتَهُ يأتي إليَّ بما ... يُعْقِبُني إتيانُه من رِضَى

أشد الأمراض الإعراض

قال: ما يصحّ الإعراض على الإطلاق فإنه ما ثم إلى أين، وإنما يصحّ الإعراض المقيد ومنه المذموم وهو أشد مرض يقوم بالقلوب. وقال: الإعراض عن الآيات التي نصبها الحق دلائل عليه دليل على عدم الإنصاف واتباع الهوى المردى، وهو علة لا يبرأ منها صاحبها بعد استحكامها حتى يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب فعند ذلك يريد استعمال الدواء فلا ينفع كالتوبة عند طلوع الشمس من مغربها، لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، والإيمان عند حلول البأس وعند الاحتضار والتيقن بالمفارقة. وقال: الإعراض عن الله لا يتصوّر، وكذلك الإعراض عن الخلق مطلقاً لا يتصور فما هو الفارق؟ ومن ذلك: [الطويل]

إذا قَامَتِ الأغراضُ بالنَّفْسِ إنه ... لَتَعْقُبُها الأمراضُ إن كان ذا نَفَسِ
وكلّ كريم لم يَنَلْهَا فإنَّه ... تَحُلُّ به الآلام من حَضْرةِ القُدُسِ
وإن لها في عالم الخَلْقِ صَدْمَةً ... إذا هي حَلَّتْ في الملول وفي العَسَسِ

من محمود الأغراض الإعراض. قال: أعرض عن من تولى عن ذكر الله وهو قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] لأن المتولي عن ذكر الله معرض فأظهر له صفته في إعراضك عنه لعله يتنبه فإنه يأنف من إعراضك عنه لما هو عليه في نفسه من العزّة، فإن إعراضك عنه إذلال في حقه وعدم مبالاة به، وما خالفك إلاّ لتقاومه لا لتعرض عنه، فإن المعرض بالتولي إذا تبعته زاده اتباعك نفوراً وعدم التفات، فإذا أعرضت عنه ووليته ظهرك كما ولاّك ظهره لم يحسّ بأقدام خلفه تهدّى في مشيته وأخذ نفسه وارتأى مع نفسه فيما أعرض عنه وإلتفت وما رآك خلفه فصار يحقق النظر فيك وأنت ذو نور فلا بدّ أن يلوح له من نورك ما يؤدّيه ويدعوه إلى التثبت في أمرك وفيما جئت به فلعله أن يكون من المهتدين، فهذا الإعراض صنعة في الدعاء إلى الله. ومن ذلك: [الطويل]

ألا إنّ ذِكْرَ الذِّكْرِ أمْنٌ مِنَ المَكْرِ ... إذا كان ذاك الذكرُ منّي على ذِكْرِ

---

(١) في البيتين زحافات وعلل لا تجوز (فعلن بدل فاعلن).

فقُلْ للذي قال الدليلُ بفَضْلِهِ ألا إن ذِكْرَ الذِّكْرِ أمْنٌ من المَكْرِ

ذكر الذكر أمن من المكر. قال: ذكر الذكر مثل حمد الحمد، وحمد الحمد أصدق المحامد بلا شك وأوفاها، كذلك ذكر الذكر أنفع الأذكار وأصدقه شهادة للذاكر، فإن الذكر إذا ذكرك فإنه لا يذكرك إلاَّ من مقامه، ومقامه عزيز وأنت في تلك الحالة ذكره فيكون كما هو الحق إذا سميناه ملك الملك، فهذا وراثتك من هذا الاسم الإلهيّ. وقال: إذا تجسدت الصفات وظهرت لها أعيان في الصور كان الذكر أجملها صورة وأعلاها مرتبة فإنه لا شيء أعلى من الذكر، وسبب ذلك أنه ما بأيدينا من الحق إلاَّ الذكر ولذلك قال: «**أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي**» فقد صيّر ذاته ذكره. ومن ذلك: [الطويل]

ألا إنّ نَعْتَ الحَقِّ يَظْهَرُ في الخَلْقِ وقد حُزْتُ فيما قُلْتُهُ قَصَبَ السَّبْقِ
إذا كان حَالَ العَبْدِ هذا فإنّه يَجُودُ بما يَفْنَى عَلَيَّ ولا يُبْقِي

ما تعدى من إذا شهد صفة الحق تصدّى. قال: العارف من ينظر المحال من حيث ظهورها بصفات الحق فيعظم الصفة حيث ما ظهرت إلاَّ إن تخيل المحل أن التعظيم له، فيجب على العالم إذا كان حكيماً أن لا يظهر تعظيم الصفة لما يطرأ على المحل من الأمر الذي يؤدّي إلى هلاكه، فإن فعل ذلك وجب عليه العتب إن لم يحق عليه العذاب، فالإنسان إما أن يلحق المحل بالصفة أو يلحق الصفة بالمحل، فإن ألحق المحل بالصفة عظم المحل بوجه في وقت ومقته بمقت الله في وقت، كالمتكبرين والجبارين الذين ذمّهم الله، وإن ألحق الصفة بالمحل لم يقدر قدرها ولم ينزلها منزلتها فكان من الجاهلين. فإذا كان مشهوده الصفة فلا يبالي ألحق المحل بها أو ألحقها بالمحل فإن التعظيم منه لها مصاحب، وينظر في المحل بحسب الوقت، وحكم الشرع فيه والموطن كأبي دجانة وأمثاله. ومن ذلك: [البسيط]

إن الأَدِلَّةَ أسْتَارٌ وقد سُدِلَتْ من غيرة الحَقّ إسبالاً على الحُرَمِ
فمن يَطُوفُ بها تُغْنِيهِ حالتُه عن الطَّوَافِ ببيت الله في الحَرَمِ

من وقف مع الدليل حرم المدلول. قال: من وقف عند شيء كان له، فقف مع الحق تكن للحق بلا خلق، وإياك أن تقف مع الحق من كونه دليلاً على نفسه، فإنك إن وقفت معه على هذا الحد حرمته لأن الدليل والمدلول لا يجتمعان أبداً، فإن الناظر في الشيء في كونه كذا إنما هو ناظر إلى الحكم لا إلى الشيء من حيث عينه، فيحرم عين ذلك الشيء، ولا تنظر إليه من حيث ما هو مشهود لك فتراه من حيث حكم أنه مشهود فما تراه ولا من حيث أنت تشهده بك أو به، كل ذلك حجاب على عين شهودك إياه في عين شهودك، فقف مع الحق لعينه خاصة فإنك تحوز بذلك أعلى رتبة في العلم به. ومن ذلك من علم أن عمله يرى لم يعبد الورى: [البسيط]

أَخْلِصْ لِرَبِّكَ ما تُبْدِيهِ من عَمَلِ وكُنْ على وَجَلٍ من ذلك العَمَلِ
واعْلَمْ بأنك مسؤولٌ ومُرْتَهَنٌ بما أتَيْتَ به واحْذَرْ من الخَجَلِ

قال: لا بدّ أن يوقفك الحق ويشخص لك أعمالك كلها وهو قد أمرك بالعمل فيرى هل

عملت بما أمرك به من الأعمال وقد أمرتك نفسك بعمل وأمرك الخلق بعمل فتأتي ولك ثلاثة أنواع من العمل ترفع إليك خزائنها، فما كان لله فهو لله مخلص فيزول إضافته إليك، وكذلك ما كان للناس، ولا يبقى لك إلاَّ ما كان لك فيقال لك: هل خلعت على هذه الأعمال كلها حكم الحق عليها فجريت فيها بحكم الحق حتى تكون مؤمناً أو كنت في وقت عملك تشهد أنك آلة يعمل بها خالقك كل عمل ظهر منك أو ما تعدّيت بالعمل غير ذات العمل لما أمرك به من أمرك كان من كان، فأنت عند ذلك بحسب ما يكون الأمر في نفسه والرسول حاضر معك وكل من أمرك حاضر عند ذلك، فإنه في وقت أمره إياك بالعمل قد تعبدك وأنت لمن تعبدك في كل عمل، فتكون في الزمن الواحد في أحوال مختلفة فتكون الرائي المحجوب المعذب المنعم كما يجمع الحق بين الأضداد. ومن ذلك عمل بعلمه من استغفر في ظلمه: [البسيط]

أَسْتَغْفِرُ الله من ظُلْمي ومن زَلَلِي ... فإنني منهما والله في خَجَلِ
إني عجلتُ إلى رَبِّي لأرْضِيَهُ ... من قوله خُلِقَ الإنسانُ من عَجَلِ

قال: الظالم ظالمان ظالم لنفسه وظالم نفسه، فالظالم نفسه طلب منه الاستغفار مع أنه يغفر له وإن لم يستغفر، وإنما أمره الحق بالاستغفار ليقيمه إذا جنى ثمرة ذلك في مقام الإذلال لما له في ذلك من الكسب، فإن الذي يأخذ من جهة الهبة قصير اليد، والذي يأخذ من كسبه طويل اليد فإنه طالب حق ومستحقه، فالرجل من أخذ من كسبه في حال ذلة، ويده قصيرة ما دام في الحياة الدنيا فإنه لا ينفذ في ظلمة الكسب إلى الوهب إلاَّ بنور ساطع قوي من المعرفة الصحيحة التي لا علة فيها ولا تأثير للأكوان، وإن غولط فيتغالط إذا كان أديباً لأنه لا يغالط إلاَّ والمواطن يعطيه فيجري مع الحق فيما أجراه فيه والحق يعلم ما هو فيه. ومن ذلك ما أحاط من شاهد البساط: [الخفيف]

كلّ من يُشَاهِدُ البِسَاطَ تَرَاهُ ... ذا ضَلالٍ وحَيْرَةٍ في البِسَاطِ
فإذا ما سألْتَهُ قال صدقاً ... إنما كان ذلكم في انْبِسَاطي

قال: أهل البساط لا يتعدى طرفهم من هم في بساطه، غير أن البسط كثرة بساط عمل وبساط علم وبساط تجلٍّ وبساط مراقبة، فإن كنت في العمل فما، وإن كنت في العلم فيمن، وإن كنت في التجلي فمن، وإن كنت في المراقبة فلمن، وهكذا في كل بساط يكون، فيقال لك في العمل ما قصدت، وفي العلم من هو معلومك، وفي التجلي من تراه، وفي المراقبة لمن راقبت، فأنت بحسب جوابك عن هذه الأسئلة، فأنت محصور بالخطاب محصور بالجواب، فما تشاهد سوى الحال الخاص بك ما دمت في البساط، فإن أجبت بما يقتضيه الحال كنت حكيماً حكماً، وإن أجبت بالحق لا بك فكنت على قدر اعتقادك في الحق ما هو، وإن أجبت بنفسك أجبت إجابة عبد والمراتب متفاضلة. ومن ذلك علم الاختصاص بالختم الخاص: [البسيط]

إنّي من أصل أجْوادٍ خَضَارِمَةٍ ... من البَهَالِيلِ أهْلِ الجُودِ والرِّفَدِ
ما منهمُ أحَدٌ يسعى لمَفْسَدَةٍ ... ولا يَرَى جُودَهُ يجري إلى أَمَدِ

قال: الختم الخاص هو المحمدي ختم الله به ولاية الأولياء المحمديين أي الذين ورثوا محمداً ﷺ، وعلامته في نفسه أن يعلم قدر ما ورث كل ولي محمدي من محمد ﷺ فيكون هو الجامع علم كل ولي محمدي لله تعالىٰ، وإذا لم يعلم هذا فليس بختم، ألا ترى إلى النبي ﷺ لما ختم به النبيين أوتي جوامع الكلم واندرجت الشرائع كلها في شرعه اندراج أنوار الكواكب في نور الشمس، فيعلم قطعاً أن الكواكب قد ألقت شعاعاتها على الأرض وتمنع الشمس أن تميز ذلك فتجعل النور للشمس خاصة. ومن ذلك المدى الشاسع مانع: [مجزوء الوافر]

إذا بَـلَـغَ الـمـدىٰ الـشَّـاسِـعْ رجـالٌ مـا لـهـم مَـانِـعْ
تـراهـم فـي مـحـاربـهـم عـبـيـداً حـالـه جَـامِـعْ
لـمـا يَـلْـقَـاهُ مـن أَلـم الـبُـعْـدُ عَـنْـهُـمُ قَـاطِـعْ

قال: لما خلق الله الإنسان عجولاً وخلق فيه الطلب ولم يحصل له مطلوبه في أوّل قدم بعد عليه المدى لعجلته فيقف مع طول المدى فيمتنع من حصول الفائدة، فإن الله لا ينال بالطلب، فالعارف يطلب سعادته ما يطلب الله، فإن الحاصل لا يبتغى فإن الله يجل أن يطلب بمسافات الأقدام وبمشاقات الأعمال وبالأفكار، فكما أنه لا يتحيز كذلك لا يتميز، فهو معلوم لنا أنه في كل شيء عين كل شيء، ومجهول التمييز لما نشهده من اختلاف الصور، فما تقول في صورة هو هذا إلاَّ وتحجبك عنها صورة هو عينها تقول فيها هو هذا، وتغيب عنك هويته بمغيب الصورة الذاهبة، فلا تدري على ما تعتمد كالمتحير بالنظر الفكري لا يدري ما يعتقد سواء كلما لاح دليل له لاحت له شبهة فيه، فلا يسلم له دليل من شبهة أبداً لأنه أعظم دليل ونحن شبهته. ومن ذلك منازلة الإمام في الأنام: [الوافر]

مُـنـازَلَـةُ الإمـامِ مـع الأنَـامِ مُـؤَدِّيـةٌ إلـى قَـتْـلِ الـغُـلامِ
فـقـل لـلـمُـنْـكِـرِيـنَ صَـحِـيـحَ قَـوْلـي لـقـد أغْـفَـلْـتُـمُ طَـرْحَ الـلِّـثَـامِ

قال: المالك مملوك بلا شك فإن ملكه يملكه بما يحتاج إليه، فإن الملك فقير إلى أشياء لا بدّ منها لا تحصل له إلاَّ من مالكه فيقيد به مالكه فيكون مملوكاً له إن أراد أن يكون ملكاً، وإلاَّ فهو معزول تعزله المرتبة، لا يمكن أن يكون أحد من المالكين أعظم من الحق وهو ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٩] وقال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ [الرحمٰن: ٣١] وما ثم إلا سماء وأرض، فالسماء تمور والأرض تذهب وذلك لما هو مالك، ولو لم يحفظنا ما حفظ ملكه عليه وزال عنه حكم اسم الملك. ومن ذلك الفرق بين المسيح والمسيح: [الكامل]

عَـجَـباً لـعيسىٰ كيف ماتَ وطالـما قـد كـان يَـنْـشُـرُنـا مـن الأجْـدَاثِ
مـا ذاك إلاَّ كَـوْنُـهُ مُـتَـبَـرِّيـاً مـمّـا رَمَـتْـهُ بـه يَـدُ الأحْـداثِ

قال: عيسىٰ عليه السلام هو المسيح، وكل من مسح أرضه بالمشي فيها والسياحة في نواحيها ليرى آثار ربه فما يراه منها وهو قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الروم: ٩] بأقدامهم وأفكارهم والأرض أيضاً نظرهم في عبوديتهم فإنها تقبل المساحة بما فيها من التفصيل، غير

أنه في كل فصل منها وصل حق فاللّه في كل فصل عين، والمسيح أيضاً من مسحت عينه التي يرى بها نفسه وبقي عليه عينه الذي يرى بها ربه، فإذا لم ير إلاّ الله يقول أنا الله ويصدق فإن عينه التي يرى بها نفسه ذهبت وهو بالنشأة دجال تكذبه النشأة فهو الدجال الصادق، فجمع بين الصدق والكذب، فصدق من حيث ما شاهد، وكذب من حيث ما فاته، فلو علم أن عينه ممسوحة لعلم ما فاته، وادّعى الحق بالحق ولكن جرى الأمر هكذا، فعيسىٰ أحيى الموتى الذين ماله تعمل في موتهم فهو أتم لأنه لا يُحيي إلاّ من أمات، فعلم من أين تؤكل الكتف، والدجال أحيى الميت الذي قتله خاصة. ومن ذلك سما من علم أسماء الأسماء: [الطويل]

إذا كـانـت الأسْـمـاءُ مِـنَّـا تَـدُلُّـنَـا ... عـلـى مـا بـه سـمّـى الإلٰـهُ وُجُـودَهُ
فـمـا عـنـدنـا غَـيْـرُ الأسامي مُـحَـقَّـقٌ ... فـنـحـن وإن كُـنَّـا بـوَجْـهٍ عَـبِـيـدَهُ
حـقـيـقـة مـن سَـمَّـى بـنـا نَـفْـسَـهُ لـنـا ... فـمـن يَـدْرِ مـا قُـلْـنـاه حـاز شُـهُـودَهُ
وَفَـيْـنَـا لـه بـالـعَـهْـد لـمـا تَـحـقَّـقَـتْ ... نُـفُـوسٌ لـنـا تـرعـى لـديـنـا عُـهُـودَهُ
وقـعـتُ عـلـى مـا كـنـت مـنـه أخـافُـهُ ... وقد كنت قبل اليوم أخْشَى شُرُودَهُ
فما يُبْدي[1] منه سوى الخَيْبَةِ التي ... مـلأت بـهـا كـفّـي فـحـقَّـقَ جُـودَهُ
فـمـا مـثـلـه شـيء فـنَـزِّهْ كَـوْنَـهُ ... عـن الـمِـثْـلِ فـاحْـفَـظْ وَعْـدَهُ ووَعِـيـدَهُ

ومن ذلك علم الأسرار والأنوار: [الكامل]

مَـنْ شَـاءَ يَـلْـقَـى الـرُّوحَ فـي الأنْـوَارِ ... فَـلْـيَـتَّـخِـذْ مَـرْقَـى إلـى الأسْـرَارِ
ولْـيَـتَّـكِـلْ فـيـه عـلـى مَـعْـلُـومِـهِ ... فـحـجـابُـهُ الـقَـيُّـومُ بـالأبْـصـارِ

قال: الأنوار شهادة والحق نور ولهذا يشهد ويرى، والأسرار غيب فلها الهو فلا يظهر الهو أبداً، فالحق من حيث الهو لا يشهد وهويته حقيقته، ومن حيث تجليه في الصور يشهد ويرى ولا يرى إلاّ في رتبة الرائي، وهو ما يعطيه استعداده، واستعداده على نوعين: استعداد ذاتي وبه تكون الرؤية العامة، واستعداد عارض وهو ما اكتسبه من العلم بالله وتحلّت به نفسه من نظره العقلي، فيكون التجلي تابعاً لهذا الاستعداد الخاص فيه يقع التفاضل. ومن ذلك دين الأنبياء واحد ما ثم أمر زائد، وإن اختلفت الشرائع فثم أمر جامع: [الكامل]

الـدِّيـنُ عـنـد الأنـبـيـاء وَحِـيـدُ ... ومَـقَـامُـهُ بـيـن الأنَـام شَـدِيـدُ
فـإذا الـرجـالُ تَـفَـطَّـنُـوا لـرَحِـيـلِـهِ ... عـنـهـم وقـامَ لـهـم بـذاكَ شَـهِـيـدُ
جـاؤوا إلـيـه مُـهْـطِـعِـيـنَ لَـعَـلَّـهُ ... يـومـاً بـقـصـدهـم إلـيـه يَـعُـودُ

قال: هو إقامة الدين وأن لا يتفرق فيه، ما خلق الله حلالاً أبغض إليه من الطلاق وهو بيد من أخذ بالساق، فلماذا يقصد إلى البغيض مع هذا التعريض؟ نكاح عقد وعرس شهد، وابتنا ببكر صهيا في لجة عميا، نفوس زوّجت بأبدانها ولم يكن ناكحها غير أعيانها، ثم أنه مع التكدر والانتقاص لات حين مناص، ثم مع هذا يدعو ويجاب إن هذا لشيء عجاب،

(١) البيت مختل الوزن.

وأعجب من ذلك جبال سيرت فكانت سراباً وسماء فتحت، فكانت أبواباً ذات حبك وبروج وأرواح لها فيها نزول وعروج، وما لها من فروج فأين الولوج وأين الخروج؟ وأين النزول وأين العروج؟ هذا موضع الاعتبار فاعتبروا يا أولي الأبصار، والله إن أمراً نحن فيه لمريج وإن زوجاً زوّجنا به لبهيج، سقف مرفوع، ومهاد موضوع، ووتد مفروق ووتد مجموع، ظلمة ونور وبيت معمور، وبحر مسجور ومياه تغور، ومراجل تفور، فار التنور واتضحت الأمور، نجوم مشرقة ورجوم محرقة، شهب ثواقب وشهب ذات ذوائب، كلما نجمت ذهبت، يا ليت شعري ما الذي أنارها؟ وما الذي أوجب شرارها؟ وأخواتها ثوابت لا تزول في طلوع وأفول، ليل عسعس فظهرت كواكبه وصباح تنفس فضحه راكبه، جوار خنس في مجاريها وظبا كنس لتحفظ ما فيها، ليل ونهار، إنجاد وأغوار، إبدار وسرار يا أهل الأفكار، أقسم نجيكم قسماً لا لغو فيه ولا ثنيا أن الذي جاء بهذا كله لصادق يؤمن به لا بل يعلمه الظالم لنفسه، والمقتصد والسابق شخص من الجنس أيّد بروح القدس، قيل له: بلغ فبلغ، وذكر فأبلغ، وقذف بالجو على الباطل فدمغ، فزهق الباطل وتحلّى العاطل، نشأة الآخرة ردّه في الحافرة، كيف يكون التجسد مع التقيد؟ إن كان في نفس الأمر انقلاب العين فقد جهل الكون، وإن كان في النظر فهو من مغالط البصر، فإذا انبهم الأمر وأشكل فما لك إلاَّ أن تتوكل، فأسلم وجهك إلى الله وأنت محسن تكن ممّن استمسك بالعروة الوثقى، فإنه خير لك وأبقى، وكن مع الرعيل الذي خوطب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣] تكن السعيد الذي لا يشقى، فإن نزلت عن هذه الدرجة فانزل إلى الآخرة خير وأبقى، فإنهم وإن كانوا سعداء فإنه لا يستوي المؤمنون الميتون على فرشهم والشهداء، فلكل علم رجال ولكل مقام حال، ولكل بيت أهل ومع كل صعب سهل، وهذا القدر كاف في هذا الباب لمن علم فطاب، وأوتي الحكمة وفصل الخطاب.

انتهى الباب بانتهاء المجلدة الخامسة والثلاثين من هذا الكتاب.

والحمد لله وصلّى الله على محمد رسوله بخط يد منشىء هذا الكتاب.

الباب الموفي ستين وخمسمائة

في وصية حكمية ينتفع بها المريد السالك والواصل ومن وقف عليها إن شاء الله تعالىٰ

[نظم: البسيط]

وَصَّى الإلٰهُ وأوْصَتْ رُسْلُهُ فَلِذَا ... كان التَّأَسِّي بهم من أفْضَلِ العَمَلِ
لولا الوَصِيَّةُ كان الخَلْقُ في عَمَهٍ ... وبالوصيةِ دارَ المُلْكُ في الدُّوَلِ
فاعملْ عليها ولا تُهمِلْ طريقتَها ... إن الوصيَّةَ حُكْمُ الله في الأزَلِ
ذكرتُ قَوْماً بما أوْصَى الإلٰهُ به ... وليس إحداثُ أمْرٍ في الوصية لي
فلم يكن غير ما قالوه أو شَرَعُوا ... من السُّلُوكِ بهم في أقْوَمِ السُّبُلِ
فهَدْيُ أحْمَدَ عَيْنُ الدِّين أجْمَعه ... ومِلَّةُ المصطفى من أنْوَرِ المِلَلِ
لم تَطْمِسِ العَيْنَ بل أعطته قُوَّتَها ... حتى يُقِيمَ الذي فيه من المَيَلِ
وخُذْ بسِرِّكَ عنه من مراكزه ... عُلْواً إلى القمر العالي إلى زُحَلِ
إلى الثوابت لا تَنْزِلْ بساحتها ... وانْهَضْ إلى الدَّرَجِ العالي من الحَمَلِ
ومنه للقَدَمِ الكُرْسِيِّ ثم إلى ... العَرْش المحيط إلى الأشكال والمُثُلِ
إلى الطبيعة للنفس النزيهة للـ ... ـعَقْلِ المُقَيَّدِ بالأعراض والعِلَلِ
إلى العَمَاءِ الذي ما فوقه نَفَسٌ ... منه إلى المنزل المنعوت بالأزلِ
وانظر إلى الجَبَلِ الراسي على الجَبَلِ ... وقد رآه فلم يَبْرَحْ ولم يَزَلِ
لولا العُلُوُّ الذي في السُّفْلِ ما سَفَلَتْ ... وجوهُنا تطلبُ المَرْأى بالمُقَلِ
لذلكم شَرَعَ الله السُّجُودَ لنا ... فنَشْهَدُ الحَقَّ في عُلْوٍ وفي سَفَلِ
هذي وصيَّتُنا إن كنت ذا نَظَرٍ ... فإنها حيلةٌ من أحسن الحِيَلِ
ترى بها كل معلوم بصورته ... على حَقِيقَةِ ما هو لا على البَدَلِ
حتى ترى المَنْظَرَ الأعلى وليس له ... سواك مَجْلَى فلا تَبْرَحْ ولا تَزُلِ
فإن دعاكَ إلى عَيْنِ مَشْرَبِها ... فلا تُجِبْهُ وكُنْ منه على وَجَلِ
إنا أناثٌ لما فينا يُوَلِّدُهُ ... فلْنَحْمَدِ الله ما في الكون من رَجُلِ
إن الرجالَ الذين العُرْفُ عَيْنُهُمُ ... هم الإناثُ وهم نفسي وهم أَمَلي

فمن ذلك وصية قال الله تعالىٰ في الوصية العامة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣] فأمر الحق بإقامة الدين وهو شرع الوقت في كل زمان وملة، وأن يجتمع عليه ولا يتفرق فيه، فإن يد الله مع الجماعة، وإنما يأكل الذئب القاصية وهي البعيدة التي شردت وانفردت عمّا هي الجماعة عليه، وحكمة ذلك أن الله لا يعقل إلهاً إلاّ من حيث أسمائه الحسنى لا من

حيث هو معرّى عن هذه الأسماء الحسنى، فلا بدّ من توحيد عينه وكثرة أسمائه وبالمجموع هو الإله فيد الله وهي القوّة مع الجماعة. أوصى حكيم أولاده عند موته وكانوا جماعة فقال لهم: ائتوني بعصيّ فجمعها وقال لهم: اكسروها وهي مجموعة فلم يقدروا على ذلك ثم فرقها فقال لهم: خذوا واحدة واحدة فاكسروها فكسروها فقال لهم: هكذا أنتم بعدي لن تغلبوا ما اجتمعتم، فإذا تفرقتم تمكن منكم عدوكم فأبادكم، وكذلك القائمون بالدين إذا اجتمعوا على إقامة الدين ولم يتفرقوا فيه لم يقهرهم عدوّ، وكذلك الإنسان في نفسه إذا اجتمع في نفسه على إقامة دين الله لم يغلبه شيطان من الإنس ولا من الجن بما يوسوس به إليه مع مساعدة الإيمان والملك بلمته له.

وصية: إذا عصيت الله تعالىٰ بموضع فلا تبرح من ذلك الموضع حتى تعمل فيه طاعة وتقيم فيه عبادة فكما يشهد عليك إن استشهد يشهد لك، وحينئذ تنتزح عنه، وكذلك ثوبك إن عصيت الله فيه فكن كما ذكرته لك اعبد الله فيه، وكذلك ما يفارقك منك من قص شارب وحلق عانة وقص أظفار وتسريح شعر وتنقية وسخ لا يفارقك شيء من ذلك من بدنك إلاّ وأنت على طهارة وذكر الله عزّ وجلّ فإنه يسأل عنك كيف تركك، وأقل عبادة تقدر عليها عند هذا كله أن تدعو الله في أن يتوب عليك عن أمره تعالىٰ حتى تكون مؤدياً واجباً في امتثالك أمر الله وهو قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ فأمرك أن تدعوه، ثم قال في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ يعني هنا بالعبادة الدعاء أي من يستكبر عن الذلة إليّ والمسكنة، فإن الدعاء سمّاه عبادة والعبادة ذلّة وخضوع ومسكنة ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أي أذلاء، فإذا فعلوا ما أمروا به جازاهم الله بدخول الجنة أعزاء.

ولقد دخلت يوماً الحمام لغسل طرأ عليّ سحراً فلقيت فيه نجم الدين أبا المعالي ابن اللهيب وكان صاحبي فاستدعى بالحلاق يحلق رأسه فصحت به: يا أبا المعالي فقال لي من فوره قبل أن أتكلم: إني على طهارة قد فهمت عنك فتعجبت من حضوره وسرعة فهمه ومراعاته الموطن وقرائن الأحوال وما يعرفه مني في ذلك، فقلت له: بارك الله فيك والله ما صحّت بك إلاّ لتكون على طهارة وذكر عند مفارقة شعرك، فدعا لي ثم حلق رأسه، ومثل هذا قد أغفله الناس، بل يقولون: إذا عصيت الله في موضع فتحول عنه لأنهم يخافون عليك أن تذكرك البقعة بالمعصية فتستحليها فتزيد ذنباً إلى ذنب، فما ذكروا ذلك إلاّ شفقة، ولكن فاتهم علم كبير فأطع الله فيه وحينئذ تتحول عنه فتجمع بين ما قالوه وبين ما وصيتك به، وكلما ذكرت خطيئة أتيتها فتب عنها عقيب ذكرك إياها واستغفر الله منها واذكر الله عندها بحسب ما كانت تلك المعصية، فإن رسول الله ﷺ يقول: «**أتبع السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**» وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤] ولكن يكون لك ميزان في ذلك تعرف به مناسبات السيئات والحسنات التي تزنها وصية حسن الظن بربك على كل حال ولا تسيء الظن به، فإنك لا تدري هل أنت على آخر أنفاسك في كل نفس يخرج منك فتموت فتلقى الله على حسن ظن به لا على سوء ظن، فإنك لا تدري لعل الله يقبضك في ذلك النفس الخارج إليه،

ودع عنك ما قال من قال بسوء الظن في حياتك، وحسن الظن بالله عند موتك، وهذا عند العلماء بالله مجهول فإنهم مع الله بأنفاسهم.

وفيه من الفائدة والعلم بالله أنك وفيت في ذلك الحق حقه، فإن من حق الله عليك الإيمان بقوله: ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] فلعل الله ينشئك في النفس الذي تظن أنه يأتيك نشأة الموت والانقلاب إليه وأنت على سوء ظن بربك فتلقاه على ذلك، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ فيما رواه عن ربه أنه عزّ وجلّ يقول: «**أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي خَيْراً**» وما خصّ وقتاً من وقت، واجعل ظنك بالله علماً بأنه يعفو ويغفر ويتجاوز، وليكن داعيك الإلهي إلى هذا الظن قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] فنهاك وما نهاك عنه يجب عليك الانتهاء عنه، ثم أخبر وخبره صدق لا يدخله نسخ فإنه لو دخله نسخ لكان كذباً والكذب على الله محال فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] وما خصّ ذنباً من ذنب وأكّدها بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ ثم تمّم فقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾ فجاء بالضمير الذي يعود عليه ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] من كونه سبقت رحمته غضبه. وكذلك قال: ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ [الزمر: ٥٣] ولم يعين إسرافاً من إسراف، وجاء بالاسم الناقص الذي يعمّ كل مسرف ثم إضافة العباد إليه لأنهم عباده كما قال الحق عن العبد الصالح عيسىٰ عليه السلام أنه قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] فأضافهم إليه تعالىٰ، وكفى شرفاً شرف الإضافة إلى الله تعالىٰ.

وصية: عليكم بذكر الله في السرّ والعلن وفي أنفسكم وفي الملأ، فإن الله يقول: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] فجعل جواب الذكر من العبد الذكر من الله، وأي ضراء على العبد أضرّ من الذنب؟ وكان يقول ﷺ في حال الضراء: «**الحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**» وفي حال السراء: «**الحَمْدُ لِلَّهِ المُنْعِمِ المُفْضِلِ**» فإنك إذا أشعرت قلبك ذكر الله دائماً في كل حال لا بدّ أن يستنير قلبك بنور الذكر فيرزقك ذلك النور الكشف فإنه بالنور يقع الكشف للأشياء، وإذا جاء الكشف جاء الحياء يصحبه، دليلك على ذلك استحياؤك من جارك وممّن ترى له حقاً وقدراً، ولا شك أن الإيمان يعطيك تعظيم الحق عندك، وكلامنا إنما هو مع المؤمنين، ووصيتنا إنما هي لكل مسلم مؤمن بالله وبما جاء من عنده والله يقول في الخبر المأثور الصحيح عنه الحديث وفيه: «**وأنا معه**» يعني مع العبد حين يذكرني: «**إنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأ ذَكَرْتُهُ في مَلأ خَيْرٍ مِنْهُمْ**». وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وأكبر الذكر ذكر الله على كل حال.

وصية: ثابر على إتيان جميع القرب جهد الاستطاعة في كل زمان وحال، بما يخاطبك به الحق بلسان ذلك الزمان ولسان ذلك الحال، فإنك إن كنت مؤمناً فلن تخلص لك معصية أبداً من غير أن تخالطها طاعة فإنك مؤمن بها أنها معصية، فإن أضفت إلى هذا التخليط استغفاراً وتوبة فطاعة على طاعة وقربة إلى قربة، فيقوى جزء الطاعة التي خلط به العمل السيىء، والإيمان من أقوى القرب وأعظمها عند الله فإنه الأساس ا الذي انبنى عليه جميع

القرب. ومن الإيمان حكمك على الله بما حكم به على نفسه في الخبر الذي صحّ عنه تعالىٰ الذي ذكر فيه: «**وإنْ تَقرَّبَ مِنِّي شِبْراً تَقرَّبْتُ مِنهُ ذِراعاً وَإنْ تَقرَّبَ إليَّ ذِراعاً تَقرَّبْتُ مِنهُ بَاعاً وَإنْ أَتَانِي يَمْشي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**» وسبب هذا التضعيف من الله والأقل من العبد والأضعف، فإن العبد لا بدّ له أن يتثبت من أجل النية بالقربة إلى الله في الفعل وأنه مأمور بأن يزن أفعاله بميزان الشرع فلا بدّ من التثبط فيه، وإن أسرع ووصف بالسرعة فإنما سرعته في إقامة الميزان في فعله ذلك لا في نفس الفعل، فإن إقامة الميزان به تصحّ المعاملة وقرب الله لا يحتاج إلى ميزان، فإن ميزان الحق الموضوع الذي بيده هو الميزان الذي وزنت أنت به ذلك الفعل الذي تطلب به القربة إلى الله، فلا بدّ من هذا نعته أن يكون في قربه منك أقوى وأكثر من قربك منه، فوصف نفسه بأنه يقرب منك في قربك منه ضعف ما قربت منه مثلاً بمثل لأنك على الصورة خلقت، وأقل خلافة لك خلافتك على ذاتك، فأنت خليفته في أرض بدنك ورعيتك جوارحك وقواك الظاهرة والباطنة فعين قربه منك قربك منه وزيادة، وهي ما قال من الذراع والباع والهرولة والشبر إلى الشبر ذراع والذراع إلى الذراع باع، والمشي إذا ضاعفته هرولة فهو في الأول الذي هو قربك منه، وهو في الآخر الذي هو قربه منك، فهو الأوّل والآخر وهذا هو القرب المناسب، فإن القرب الإلهيّ من جميع الخلق غير هذا وهو قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] فما أريد هنا ذلك القرب، وإنما أريد القرب الذي هو جزاء قرب العبد من الله، وليس للعبد قرب من الله إلاّ بالإيمان بما جاء من عند الله بعد الإيمان بالله وبالمبلغ عن الله.

وصية: ألزم نفسك الحديث بعمل الخير وإن لم تفعل، ومهما حدثت نفسك بشرّ فاعزم على ترك ذلك لله إلاّ أن يغلبك القدر السابق والقضاء اللاحق، فإن الله إذا لم يقض عليك بإتيان ذلك الشيء الذي حدثت به نفسك كتبه لك حسنة، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ عن ربه عزّ وجلّ أنه يقول: «**إذا تَحدَّثَ عَبْدِي بِأنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَأنا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً ما لَمْ يَعْمَلْهَا**» وكلمة ما هنا ظرفية، فكل زمان يمر عليه في الحديث بعمل هذه الحسنة وإن لم يعملها فإن الله يكتبها له حسنة واحدة في كل زمان يصحبه الحديث بها فيه بلغت تلك الأزمنة من العدد ما بلغت فله بكل زمان حديث حسنة ولهذا قال: «**ما لَمْ يَعْمَلْهَا**» ثم قال تعالىٰ: «**فإذا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا**» ومن هنا فرض العشر فيما سقت السماء إن علمت، فإن كانت من الحسنات المتعدية التي لها بقاء فإن الأجر يتجدد عليها ما بقيت إلى يوم القيامة كالصدقة الجارية مثل الأوقاف والعلم الذي يبثه في الناس والسنة الحسنة وأمثال ذلك. ثم تمّم نعمه على عباده فقال تعالى: «**وإذا تَحدَّثَ بِأنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَأَنا أَغْفِرُهَا لَهُ ما لَمْ يَعْمَلْهَا**» وما هنا ظرفية كما كانت في الحسنة سواء، والحكم كالحكم في الحديث والجزاء بالغاً ما بلغ، ثم قال: «**فَإذا عَمِلَهَا فَأَنا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا**» فجعل العدل في السيئة والفضل في الحسنة وهو قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وهو الفضل وهو ما زاد على المثل، ثم أخبر تعالىٰ عن الملائكة أنها تقول بحكم الأصل عليها الذي نطقها في حق أبينا آدم بقولها: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا

﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] فما ذكرت إلاَّ مساوينا وما تعرضت للحسن من ذلك، فإن الملأ الأعلى تغلب عليه الغيرة على جناب الله أن يهتضم، وعلمت من هذه النشأة العنصرية أنها لا بدّ أن تخالف ربها لما هي عليه من حقيقتها وذلك عندها بالذوق من ذاتها وإنما هي في نشأتنا أظهر. ولولا أن الملائكة في نشأتها على صورة نشأتنا ما ذكر الله عنهم أنهم يختصمون والخصام ما يكون إلاَّ مع الأضداد، وما ذكر الله عن الملائكة في حقنا أنهم يقولون ذاك عبدك يريد أن يعمل حسنة فانظر قوة هذا الأصل ما أحكمه لمن نظر، ومن هنا تعلم فضل الإنسان إذا ذكر خيراً في أحد وسكت عن شرّه أين تكون درجته مع القصد الجميل من الملائكة فيما ذكروه، ولكن نبهتك على ما نبهتك عليه من ذلك لتعرف نشأتهم وما جبلوا عليه فكل يعمل على شاكلته، كما قال تعالىٰ وأخبر أن الملائكة تقول: ذاك عبدك فلان يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال: ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنه إنما تركها من جرّائي أي من أجلي، فالملائكة المذكورة هنا هم الذين قال الله لنا فيهم: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١] فالمرتبة والتولية أعطتهم أن يتكلموا بما تكلموا به، فلهم كتابة الحسن من غير تعريف بما تقدم الله إليهم به في ذلك، ويتكلمون في السيئة لما يعلمونه من فضل الله وتجاوزه، ولولا ما تكلموا في ذلك ما عرفنا ما هو الأمر فيه عند الله مثل ما يقولونه في مجالس الذكر في الشخص الذي يأتيها إلى حاجته لا لأجل الذكر، فأطلق الله للجميع المغفرة وقال: هم القوم لا يشقى جليسهم فلولا سؤالهم وتعريفهم بهم ما عرفنا حكم الله فيهم، فكلامهم عليهم السلام تعليم ورحمة، وإن كان ظاهره كما يسبق إلى الأفهام القاصرة مع الأصل الذي نبهناك عليه وقد قال الله في الحسنة والسيئة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وأغفر بعد الجزاء لقوم وقبل الجزاء لقوم آخرين، فلا بدّ من المغفرة لكل مسرف على نفسه وإن لم يتب، فمن تحقق بهذه الوصية عرف النسبة بين النشأة الإنسانية والملكية، وأن الأصل واحد، كما أن ربنا واحد وله الأسماء المتقابلة فكان الوجود على صورة الأسماء.

وصية: ثابر على كلمة الإسلام وهي قولك: لا إلٰه إلا الله فإنها أفضل الأذكار بما تحوي عليه من زيادة علم. وقال ﷺ: «**أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله**» فهي كلمة جمعت بين النفي والإثبات والقسمة منحصرة، فلا يعرف ما يحوي عليه هذه الكلمة إلاَّ من عرف وزنها وما تزن، كما ورد في الخبر الذي نذكره في الدلالة عليها، فاعلم أنها كلمة توحيد والتوحيد لا يماثله شيء، إذ لو ماثله شيء ما كان واحداً ولكان اثنين فصاعداً فما ثم ما يزنه فإنه ما يزنه إلاَّ المعادل والمماثل، وما ثم مماثل ولا معادل فذلك هو المانع الذي منع لا إلٰه إلاَّ الله أن تدخل الميزان، فإن العامة من العلماء يرون أن الشرك الذي هو يقابل التوحيد لا يصحّ وجود القول به من العبد مع وجود التوحيد، فالإنسان إما مشرك وإما موحد فلا يزن التوحيد إلاَّ الشرك فلا يجتمعان في ميزان، وعندنا إنما لم يدخل في الميزان لما ورد في الخبر لمن فهمه واعتبره وهو خبر صحيح عن الله يقول الله: «**لَوْ أَنَّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعَ**

وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالأَرضينَ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي فِي كَفَّةٍ وَلا إِلَهَ إِلاَّ الله فِي كَفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لا إِلَهَ إِلاَّ الله» فما ذكر إلاَّ السموات والأرض لأن الميزان ليس له موضع إلاَّ ما تحت مقعر فلك الكواكب الثابتة من السدرة المنتهى التي ينتهي إليها أعمال العباد، ولهذه الأعمال وضع الميزان فلا تتعدى الميزان الموضع الذي لا يتعدّاه الأعمال. ثم قال: وعامرهنّ غيري وما لها عامر إلاَّ الله، فالخبير تكفيه الإشارة وفي لسان العموم من علماء الرسوم يعني بالغير الشريك الذي أثبته المشرك لو كان له اشتراك في الخلق لكانت لا إلٰه إلاَّ الله تميل به في الميزان، لأن لا إلٰه إلاَّ الله الأقوى على كل حال لكون المشرك يرجح جانب الله تعالىٰ على جانب الذي أشرك به فقال فيهم إنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فإذا رفع ميزان الوجود لا ميزان التوحيد دخلت لا إلٰه إلاَّ الله فيه، وقد تدخل في ميزان توحيد العظمة وهو توحيد المشركين فتزنه لا إلٰه إلاَّ الله وتميل به، فإنه إذا لم يكن العامر غير الله فلا تميل وعينه ما ذكره إنما هو الله قال: أين تميل وما ثم إلاَّ واحد في الكفتين، وأما صاحب السجلات فما مالت الكفة إلاَّ بالبطاقة لأنها هي التي حواها الميزان من كون لا إلٰه إلاَّ الله يلفظ بها قائلها فكتبها الملك فهي لا إلٰه إلاَّ الله المكتوبة المخلوقة في النطق، ولو وضعت لكل أحد ما دخل النار من تلفظ بتوحيد، وإنما أراد الله أن يرى فضلها أهل الموقف في صاحب السجلات ولا يراها ولا توضع إلاَّ بعد دخول من شاء الله من الموحدين النار، فإذا لم يبق في الموقف موحد قد قضى الله عليه أن يدخل النار، ثم بعد ذلك يخرج بالشفاعة أو بالعناية الإلهية، عند ذلك يؤتى بصاحب السجلات ولم يبق في الموقف إلاَّ من يدخل الجنة ممّن لا حظ له في النار وهو آخر من يوزن له من الخلق، فإن لا إلٰه إلاَّ الله له البدء والختام، وقد يكون عين بدئها ختامها كصاحب السجلات.

ثم اعلم أن الله ما وضع في العموم إلاَّ أفضل الأشياء وأعمّها منفعة وأثقلها وزناً لأنه يماثل بها أضداداً كثيرة، فلا بدّ أن يكون في ذلك الموضوع في العامة من القوّة ما يقابل به كل ضد، وهذا لا يتفطن له كل عارف من أهل الله إلاَّ الأنبياء الذين شرعوا للناس ما شرعوا، ولا شك أنه قال ﷺ: «**أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أنا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لا إِلٰه إِلاَّ الله**» وقد قال ما أشارت إلى فضله من ادّعى الخصوص من الذكر بكلمة الله الله وهو هو، ولا شك أنه من جملة الأقوال التي لا إلٰه إلاَّ الله أفضل منها عند العلماء بالله، فعليك يا ولي بالذكر الثابت في العموم فإنه الذكر الأقوى، وله النور الأضوى، والمكانة الزلفى، ولا يشعر بذلك إلاَّ من لزمه وعمل به حتى أحكمه، فإن الله ما وسع رحمته إلاَّ للشمول وبلوغ المأمول، وما من أحد إلاَّ وهو يطلب النجاة وإن جهل طريقها، فمن نفى بلا إلٰه عينه أثبت بإلا الله كونه فتنفى عينك حكماً لا علماً، وتوجب كون الحق حكماً وعلماً، والإلٰه من له جميع الأسماء وليست إلاَّ لعين واحدة وهي مسمّى الله عامر السموات والأرض الذي بيده ميزان الرفع والخض، فعليك بلزوم هذا الذكر الذي قرن الله به وبالعلم به السعادة فعم.

وصية: وإياك ومعاداة أهل لا إلٰه إلاَّ الله فإن لها من الله الولاية العامة، فهم أولياء الله

وإن أخطؤوا وجاؤوا بقراب الأرض خطايا لا يشركون بالله لقيهم الله بمثلها مغفرة، ومن ثبتت ولايته فقد حرمت محاربته، ومن حارب الله فقد ذكر الله جزاءه في الدنيا والآخرة، وكل من لم يطلعك الله على عداوته لله فلا تتخذه عدوّاً وأقل أحوالك إذا جهلته أن تهمل أمره، فإذا تحققت أنه عدوّ لله وليس إلاّ المشرك فتبرأ منه كما فعل إبراهيم الخليل عليه السلام في حق أبيه آزر، قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] هذا ميزانك، يقول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ كما فعل إبراهيم الخليل ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] ومتى لا تعلم ذلك فلا تعاد عباد الله بالإمكان ولا بما ظهر على اللسان، والذي ينبغي لك أن تكره فعله لا عينه والعدو لله إنما تكره عينه، ففرق بين من تكره عينه وهو عدوّ الله وبين من تكره فعله وهو المؤمن أو من تجهل خاتمته ممّن ليس بمسلم في الوقت، واحذر قوله تعالىٰ في الصحيح: «**مَنْ عادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ**» فإنه إذا جهل أمره وعاداه فما وفى حق الحق في خلقه فإنه ما يدري علم الله فيه وما بينه الله له حتى يتبرأ منه ويتخذه عدوّاً، وإذا علم حاله الظاهر وإن كان عدوّاً لله في نفس الأمر وأنت لا تعلم فواله لإقامة حق الله ولا تعاده، فإن الاسم الإلهيّ الظاهر يخاصمك عند الله فلا تجعل لله عليك حجة فتهلك ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فعامل عباد الله بالشفقة والرحمة، كما أن الله يرزقهم على كفرهم وشركهم مع علمه بهم، وما رزقهم إلاّ لعلمه بأن الذي هم فيه ما هم فيه بهم بل وهم فيه بهم لما قدر ذكرناه بلسان العموم، فإن الله خالق كل شيء وكفرهم وشركهم مخلوق فيهم وبلسان الخصوص، ما ظهر حكم في موجود إلاّ بما هو عليه في حال العدم في ثبوته الذي علمه الله منه ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ على كل أحد مهما وقع نزاع ومحاجة فيسلم الأمر إليه. واعلم أنك على ما كنت عليه وعمّ برحمتك وشفقتك جميع الحيوان والمخلوقين، ولا تقل هذا نبات وجماد ما عندهم خبر، نعم عندهم أخبار أنت ما عندك خبر فاترك الوجود على ما هو عليه وارحمه برحمة موجده في وجوده، ولا تنظر فيه من حيث ما يقام فيه في الوقت ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣] فيتعين عليك عند ذلك أن تتخذهم أعداء لأمر الله لك بذلك حيث نهاك أن تتخذ عدوّه ولياً تلقي إليه بالمودّة، فإن اضطرك ضعف يقين إلى مداراتهم فدارهم من غير أن تلقي إليهم بمودة ولكن مسالمة لدفع الشرّ عنك، ففوّض الأمر إليه واعتمد في كل حال عليه إلى أن تلقاه.

وصية: وعليك بملازمة ما افترضه الله عليك على الوجه الذي أمرك أن تقوم فيه، فإذا أكملت نشأة فرائضك وإكمالها فرض عليك حينئذ تتفرّغ ما بين الفرضين لنوافل الخيرات كانت ما كانت، ولا تحقر شيئاً من عملك فإن الله ما احتقره حين خلقه وأوجده، فإن الله ما كلفك بأمر إلاّ وله بذلك الأمر اعتناء وعناية حتى كلفك به مع كونك في الرتبة أعظم عنده فإنك محل لوجود ما كلفك به، إذ كان التكليف لا يتعلق إلاّ بأفعال المكلفين، فيتعلق بالمكلف من حيث فعله لا من حيث عينه. واعلم أنك إذا ثابرت على أداء الفرائض فإنك

تقرّبت إلى الله بأحب الأمور المقرّبة إليه، وإذا كنت صاحب هذه الصفة كنت سمع الحق وبصره، فلا يسمع إلاّ بك ولا يبصر إلاّ بك فيد الحق يدك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] وأيديهم من حيث ما هي يد الله هي فوق أيديهم من حيث ما هي أيديهم فإنها المبايعة اسم فاعل والفاعل هو الله فأيديهم يد الله فبأيديهم بايع تعالىٰ وهم المبايعون، والأسباب كلها يد الحق التي لها الاقتدار على إيجاد المسببات، وهذه هي المحبة العظمى التي ما ورد فيها نص جلي كما ورد في النوافل، فإن للمثابرة على النوافل حباً إلهياً منصوصاً عليه يكون الحق سمع العبد وبصره كما كان الأمر بالعكس في حب أداء الفرائض، ففي الفرض عبودية الاضطرار وهي الأصلية، وفي الفرع وهو النفل عبودية الاختيار، فالحق فيها سمعك وبصرك، ويسمّى نفلاً لأنه زائد، كما أنك بالأصالة زائد في الوجود، إذ كان الله ولا أنت ثم كنت، فزاد الوجود الحادث فأنت نفل في وجود الحق فلا بدّ لك من عمل يسمّى نفلاً هو أصلك، ولا بدّ من عمل يسمّى فرضاً وهو أصل الوجود وهو وجود الحق، ففي أداء الفرض أنت له وفي النفل أنت لك، وحبّه إياك من حيث ما أنت له أعظم وأشد من حبّه إياك من حيث ما أنت لك، وقد ورد في الخبر الصحيح عن الله تعالى: «**ما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدٌ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَكُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي بِهِ يَسْمَعُ وَبَصَرَهُ الَّذِي بِهِ يُبْصِرُ وَيَدَهُ الَّتِي بِهَا يَبْطِشُ وَرِجْلَهُ الَّتِي بِهَا يَمْشِي، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَ بِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ عَبْدِيَ المُؤْمِنِ يَكْرَهُ المَوْتَ وَأنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**» فانظر إلى ما تنتجه محبة الله، فثابر على أداء ما يصحّ به وجود هذه المحبة الإلهية، ولا يصح نفل إلاّ بعد تكملة الفرض، وفي النفل عينه فروض ونوافل فبما فيه من الفروض تكمل الفرائض. رد في الصحيح أنَّهُ يَقُولُ تَعالَى: «**انْظُرُوا فِي صَلاةِ عَبْدِي أَتَمَّهَا أَمْ نَقَصَها؟ فَإِنْ كَانَتْ تَامَّةً كُتِبَتْ لَهُ تَامَّةً، وَإِنْ كَانَ انْتَقَصَ مِنْهَا شَيْئاً قالَ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ قالَ الله: أَكْمِلُوا لِعَبْدِي فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ**» ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم، وليست النوافل إلاّ ما لها أصل في الفرائض وما لا أصل له في فرض، فذلك إنشاء عبادة مستقلة يسميها علماء الرسوم بدعة، قال الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧] وسمّاها رسول الله ﷺ سنّة حسنة، والذي سنّها له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ولما لم يكن في قوّة النفل أن يسد مسد الفرض جعل في نفس النفل فروضاً لتجبر الفرائض بالفرائض كصلاة النافلة بحكم الأصل، ثم إنها تشتمل على فرائض من ذكر وركوع وسجود مع كونها في الأصل نافلة، وهذه الأقوال والأفعال فرائض فيها.

وصية: وعليك بمراعاة أقوالك كما تراعي أعمالك فإن أقوالك من جملة عملك، ولهذا قال بعض العلماء: من عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه، واعلم أن الله راعى أقوال عباده، وأن الله عند لسان كل قائل، فما نهاك الله عنه أن تتلفظ به فلا تتلفظ به وإن لم تعتقده فإن الله سائلك عنه، روينا أن الملك لا يكتب على العبد ما يعمله حتى يتكلم به، قال تعالى: ﴿مَّا

﴿يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] يريد الملك الذي يحصي عليك أقوالك. يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار] وأقوالك من أفعالك انظر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾ فنهاك عن القول فإنه كذب الله من قال مثل هذا القول فإن الله قال فيهم: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ [البقرة: ١٥٤] ألا ترى إلى قوله تعالىٰ حيث يقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وقال: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٤٨] وقال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ [النساء: ١١٤] وهو القول، فإذا تكلمت فتكلم بميزان ما شرع الله لك أن تتكلم به، وكان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلاَّ حقاً، فعليك بقول الحق الذي يرضي الله، فما كل حق يقال يرضي الله، فإن النميمة حق والغيبة حق وهي لا ترضي الله، وقد نهيت أن تغتاب، وأن تنم بأحد. ومن مراعاة الله الأقوال ما رويناه في صحيح مسلم عن الله تعالىٰ لما مطرت السماء قال عزّ وجلّ: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وكَافِرٌ، فَمَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَهُوَ كَافِرٌ بي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ**» فراعى أقوال القائلين. وكان أبو هريرة يقول: إذا مطرت السماء مطرنا بنوء الفتح ثم يتلو: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢] ولو كنت تعتقد أن الله هو الذي وضع الأسباب ونصبها وأجرى العادة عندنا بأنه يفعل الأشياء عندها لا بها، ومع هذا كله لا تقل ما نهاك الله عنه أن تقوله وتتلفظ به فإنه كما نهاك عن أمور نهاك عن القول وإن كان حقاً. وانظر ما أحكم قول الله عزّ وجلّ في قوله: مؤمن بي كافر بالكوكب وكافر بي مؤمن بالكوكب، فإنه مهما قال بفضل الله فقد ستر الكوكب حيث لم ينطق باسمه، ومن قال بالكوكب فقد ستر الله، وإن اعتقد أنه الفاعل منزل المطر ولكن لم يتلفظ باسمه فجاء تعالىٰ بلفظ الكفر الذي هو الستر، فإياك والاستمطار بالأنواء أن تتلفظ به فأحرى أن تعتقده، فإن اعتقادك إن كنت مؤمناً أن الله نصبها أدلة عادية وكل دليل عادي يجوز خرق العادة فيه، فاحذر من غوائل العادات ولا تصرفنك عن حدود الله التي حدّ لك فلا تتعداها فإن الله ما حدّها حتى راعاها وذلك في كل شيء، ورد في الخبر الصحيح: «**إِنَّ الرَّجُلَ يَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيُرْفَعُ بِهَا فِي عِلِّيينَ**» فلا تنطق إلاَّ بما يرضي الله لا بما يسخط الله عليك، وذلك لا يتمكن لك إلاَّ بمعرفة ما حدّه لك في نطقك، وهذا باب أغفله الناس. قال رسول الله ﷺ: «**وَهَلْ يُكَبُّ النَّاسُ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟**» وقال الحكيم: لا شيء أحق بسجن من لسان، وقد جعله الله خلف بابين الشفتين والأسنان، ومع هذا يكثر الفضول ويفتح الأبواب.

وصية: وإياك أن تصوّر صورة بيدك من شأنها أن يكون لها روح فإن ذلك أمر يهوّنه الناس على أنفسهم وهو عند الله عظيم، فالمصوّرون أشد الناس عذاباً يوم القيامة، يقال للمصوّر يوم القيامة: أحي ما خلقت أو انفخ فيها روحاً وليس بنافخ. وقد ورد في الصحيح

عن الله تعالى أنه قال: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلقاً كَخَلْقِي فَلْيَخلُقُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخلُقوا حَبَّةً أَوْ لِيَخلُقُوا شَعِيرَةً**» وإن العبد إذا راعى هذا القدر وتركه لما ورد عن الله فيه ولم يزاحم الربوبية في تصوير شيء لا من حيوان ولا من غير حيوان فإنه يطلع على حياة كل صورة في العالم فيراه كله حيواناً ناطقاً يسبح بحمد الله، وإذا سامح نفسه في تصوير النبات وما ليس له روح في الشاهد في نظر البصر في المعتاد فلا يطلع على مثل هذا الكشف أبداً فإنه في نفس الأمر لكل صورة من العالم روح أخذ الله بأبصارنا عن إدراك حياة ما يقول عنه أنه ليس بحيوان وفي الآخرة ينكشف الأمر في العموم ولهذا سمّاها بالدار الحيوان، فما ترى فيها شيئاً إلاّ حياً ناطقاً بخلاف حالك في الدنيا كما روي في الصحيح: «أَنَّ الحَصَىٰ سَبَّحَ فِي كَفِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ» فجعل الناس خرق العادة في تسبيح الحصى وأخطؤوا، وإنما خرق العادة في سمع السامعين ذلك فإنه لم يزل مسبحاً كما أخبر الله إلاّ أن يسبح بتسبيح خاص أو هيئة في النطق خاصة لم يكن الحصى قبل ذلك يسبح به ولا على تلك الكيفية، فحينئذ يكون خرق العادة في الحصى لا في سمع السامع، والذي في سمع السامع كونه سمع نطق من لم تجر العادة أن يسمعه.

وصية: وعليك يا أخي بعيادة المرضى لما فيها من الاعتبار والذكرى، فإن الله خلق الإنسان من ضعف فينبهك النظر إليه في عيادتك على أصلك لتفتقر إلى الله في قوّة يقويك بها على طاعته، وأن الله عند عبده إذا مرض، ألا ترى إلى المريض ماله استغاثة إلاّ بالله ولا ذكر إلاّ الله، فلا يزال الحق بلسانه منطوقاً به وفي قلبه التجاء إليه، فالمريض لا يزال مع الله أي مريض كان ولو تطبب وتناول الأسباب المعتادة لوجود الشفاء عندها، ومع ذلك فلا يغفل عن الله وذلك لحضور الله عنده، وأن الله يوم القيامة يقول: «**يا ابنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ، وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا إِنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ**» الحديث. وهو صحيح. فقوله: لوجدتني عنده هو ذكر المريض ربه في سرّه وعلانيته. وكذلك إذا استطعمك أحد من خلق الله أو استسقاك فأطعمه واسقه إذا كنت موجداً لذلك، فإنه لو لم يكن لك من الشرف والمنزلة إلاّ أن هذا المستطعم والمستسقي قد أنزلك منزلة الحق الذي يطعم عباده ويسقيهم، وهذا نظر قلّ من يعتبره، انظر إلى السائل إذا سأل ويرفع صوته يقول: بالله أعطني فما نطقه الله إلاّ باسمه في هذه الحال، وما رفع صوته إلاّ ليسمعك أنت حتى تعطيه فقد سمّاك بالاسم الله والتجأ إليك برفع الصوت التجاءه إلى الله، ومن أنزلك منزلة سيده فينبغي لك أن لا تحرمه وتبادر إلى إعطائه ما سألك فيه. فإن في هذا الحديث الذي سقناه آنفاً في مرض العبد أن الله يقول: «**يا ابنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يا رَبِّ كَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاناً اسْتَطْعَمَكَ فَلَمْ تُطْعِمْهُ أَمَا لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذٰلِكَ عِنْدِي، يا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قال: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاناً اسْتَسْقَاكَ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذٰلِكَ عِنْدِي**» خرّج هذا الحديث مسلم عن محمد بن حاتم عن بهز عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي رافع عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله

نفسه في هذا الخبر منزلة عبده، فالعبد الحاضر مع الله الذاكر الله في كل حال في مثل هذه الحال يرى الحق أنه الذي استطعمه واستسقاه فيبادر لما طلب الحق منه، فإنه لا يدري يوم القيامة لعله يقام في حال هذا الشخص الذي استطعمه واستسقاه من الحاجة فيكافئه الله على ذلك وهو قوله: «**لَوَجَدْتَ ذٰلِكَ عِنْدِي**» أي تلك الطعمة والشربة كنت أرفعها لك وأربيها حتى تجيء يوم القيامة فأردها عليك أحسن وأطيب وأعظم ممّا كانت، فإن لم تكن لك همة أن ترى هذا الذي استسقاك قد أنزلك منزلة من بيده قضاء حاجته إذ جعلك الله خليفة عنه فلا أقل أن تقضي حاجة هذا السائل بنية التجارة طلباً للربح وتضاعف الحسنة، فكيف إذا وقفت على مثل هذا الخبر ورأيت أن الله هو الذي سألك ما أنت مستخلف فيه فإن الكل لله، وقد أمرك بالإنفاق ممّا استخلفك فيه فقال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: ٧] وعظم الأجر فيه إذا أنفقت، فلا ترد سائلاً ولو بكلمة طيبة والقه طلق الوجه مسروراً به، فإنك إنما تلقى الله، وكان الحسين أو الحسن عليهما السلام إذا سأله السائل سارع إليه بالعطاء ويقول: أهلاً والله وسهلاً بحامل زادي إلى الآخرة لأنه رآه قد حمل عنه فكان له مثل الراحلة، لأن الإنسان إذا أنعم الله عليه نعمة ولم يحمل فضلها غيره فإنه يأتي بها يوم القيامة وهو حاملها حتى يسأل عنها، فلهذا كان الحسن يقول: إن السائل حامل زاده إلى الآخرة فيرفع عنه مؤنة الحمل.

وصية: وإياكم ومظالم العباد فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وظلم العباد أن تمنعهم حقوقهم التي أوجب الله عليك أداءها إليهم، وقد يكون ذلك بالحال فيما تراه عليه من الاضطرار، وأنت قادر واجد لسد خلته ودفع ضرورته، فيتعين عليك أن تعلم أن له بحاله حقاً في مالك، فإن الله ما أطلعك عليه إلاّ لتدفع إليه حقّه وإلاّ فأنت مسؤول، فإن لم يكن لك قدرة بما تسد خلته فاعلم أن الله ما أطلعك على حاله سدى، فاعلم أنه يريد منك أن تعينه بكلمة طيبة عند من تعلم أنه يسد خلته، فإن لم تعمل فلا أقل من دعوة تدعو له ولا يكون هذا إلاّ بعد بذل المجهود واليأس حتى لا يبقى عندك إلاّ الدعاء، ومهما غفلت عن هذا القدر فأنت من جملة من ظلم صاحب هذا الحال، هذا كله إن مات ذلك المحتاج من تلك الحاجة، فإن لم يمت وسدّ خلته غيرك من المؤمنين فقد أسقط أخوك عنك هذه المطالبة من حيث لا يشعر، فإن المؤمن أخ المؤمن لا يسلمه وإن لم ينو المعطي ذلك ولكن هكذا هو في نفس الأمر وكذا يقبله الله، فإذا أعطيت أنت سائلاً بالحال ضرورته فانو في ذلك أن تنوب عن أخيك المؤمن الأوّل الذي حرمه، وتجعل ذلك منه إيثاراً لجنابك عليه بذلك الخير الذي أبقاه من أجلك حتى تصيبه، إذ لو أعطاه اقتنع بما أعطاه ولم تكن تجد أنت ذلك الخير، فبهذه النية عطاء العارفين أصحاب الضرورات السائلين بأحوالهم وأقوالهم ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [الضحىٰ: ١٠] وسواء كان ذلك في الوقت المحسوس أو المعنوي فإن العلم من هذا الباب والإفادة، فإن الضال يطلب الهداية، والجائع يطلب الإطعام، والعاري يطلب الكسوة التي تقيه برد الهواء وحرّه وتستر عورته، والجاني العالم بأنك قادر على مؤاخذته يطلب منك العفو عن جنايته، فأهد الجيران وأطعم الجائع واسق الظمآن واكس العريان، واعلم أنك فقير لما يفتقر إليك فيه

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] ومع هذا يجيب دعاءهم ويقضي حوائجهم ويسألهم أن يسألوه في دفع المضار عنهم وإيصال المنافع إليهم، فأنت أولى أن تعامل عباد الله بمثل هذا لحاجتك إلى الله في هذه الأمور. خرج مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عبد الرحمن بن بهرام الدارمي عن مروان بن محمد الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالىٰ أنه قال: «**يا عِبَادِي إنّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا، يا عِبَادِي كُلّكُمْ ضَالٌّ إلاّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ جائِعٌ إلاّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلاّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ، يا عِبَادِي أَنْتُمْ تُخْطِئُونَ بِاللّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأنا أغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ**» والحق تعالىٰ يعطيكم هذا كله من غير سؤال منك إياه فيه ولكن مع هذا أمرك أن تسأله فيعطيك إجابة لسؤالك ليريك عنايته بك حيث قبل سؤالك، وهذه منزلة أخرى زائدة على ما أعطاك، وإذا كان سؤالك عن أمره وقد علم منك أنك تسأله ولا بدّ من ضرورة أصل ما خلقت عليه من الحاجة والسؤال لتكون في سؤالك مؤدّياً أمراً واجباً فتجزى جزاء من امتثل أمر الله فتزيد خيراً إلى خير، فما أمرك إلاّ رحمة بك وإيصال خير إليك، ولينبهك على أن حاجتك إليه لا إلى غيره، فإنه ما خلقك إلاّ لعبادته أي لتذلّ له، فالذي أوصيك به الوقوف عند أوامر الحق ونواهيه والفهم عنه في ذلك حتى تكون من العلماء بما أراده الحق منك في أمره ونهيه إياك، ومن لم يسأل ربه فقد بخله هذا في حق العموم، فإن فرّطت فيما أوصيتك به فلا تلومن إلاّ نفسك، فإنك إن كنت جاهلاً فقد علمتك وإن كنت ناسياً وغافلاً فقد نبهتك وذكرتك، فإن كنت مؤمناً فإن الذكرى تنفعك، فإني قد امتثلت أمر الله بما ذكرتك به، وانتفاعك بالذكرى شاهد لك بالإيمان، قال الله عزّ وجلّ في حقي وفي حقك ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] فإن لم تنفعك الذكرى فاتهم نفسك في إيمانك فإن الله صادق وقد أخبر بأن الذكرى تنفع المؤمنين. ومن تمام هذا الخبر الإلهيّ الذي أوردناه بعد قوله: «**أغفر لكم**» أن قال: «**يا عِبَادِي إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**» ومعلوم أنه سبحانه لا يتضرر ولا ينتفع فإنه الغنيّ عن العالمين، ولكن لما أنزل نفسه منزلة عبده فيما ذكرناه من الاستطعام والاستسقاء نبهنا بالعجز عن بلوغ الغاية في ضرّ العباد له أو في نفعهم، فمن المحال بلوغ الغاية في ذلك، ولكون الله قد قال في حق قوم ﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ [محمد: ٢٨] وهو في الظاهر ضرر نزّه نفسه عن ذلك، وكذلك من فعل فعلاً يرضي الله به ويفرحه كالتائب في فرح الله بتوبة عبده فكان هذا الخبر كالدواء لما يطرأ من المرض من ذلك في بعض النفوس الضعيفة في العلم بالله التي لا علم لها بما يعطيه قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] ثم من تمام هذا الخبر قوله: «**يا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ما زَادَ ذٰلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ واحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ ما نَقَصَ ذٰلِكَ مِمَّا**

عِنْدِي إلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذَا دَخَلَ فِي البَحْرِ» وهذا كله دواء لما ذكرناه من أمراض النفوس الضعيفة، فاستعمل يا وليّ هذه الأدوية يقول الله: «**إنَّمَا هِيَ أعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاها فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ الله وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذٰلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ**» ومن سأل عن حاجة فقد ذلّ ومن ذلّ لغير الله فقد ضلّ وظلم نفسه ولم يسلك بها طريق هداها، وهذه وصيتي إياك فالزمها ونصيحتي فاعلمها، وما زال الله تعالىٰ يوصي عباده في كتابه وعلى ألسنة رسله، فكل من أوصاك بما في استعماله سعادتك فهو رسول من الله إليك فاشكره عند ربك.

وصية: إذا رأيت عالماً لم يستعمله علمه فاستعمل أنت علمك في أدبك معه حتى توفي العالم حقّه من حيث ما هو عالم، ولا تحجب عن ذلك بحاله السيىء فإن له عند الله درجة علمه، فإن الإنسان يحشر يوم القيامة مع من أحب، ومن تأدّب مع صفة إلهية كسيها يوم القيامة وحشر فيها، وعليك بالقيام بكل ما تعلم أن الله يحبه منك فتبادر إليه فإنك إذا تحليت به على طريق التحبّب إليه تعالىٰ أحبك، وإذا أحبك أسعدك بالعلم به وبتجليه وبدار كرامته فينعمك في بلائك، والذي يحبه تعالىٰ أمور كثيرة، أذكر منها ما تيسر على جهة الوصية والنصيحة، فمن ذلك التجمل لله فإنه عبادة مستقلة ولا سيما في عبادة الصلاة فإنك مأمور به قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١] وقال في معرض الإنكار: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢] وأكثر من هذا البيان في مثل هذا في القرآن فلا يكون، ولا فرق بين زينة الله وزينة الحياة الدنيا إلاَّ بالقصد والنية، وإنما عين الزينة هي هي ما هي ما هي أمر آخر، فالنية روح الأمور، وإنما لامرىء ما نوى، فالهجرة من حيث ما كانت هجرة واحدة العين: «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلَى الله وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلَى الله وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُه إلَى ما هَاجَرَ إلَيْهِ**» وكذلك ورد في الصحيح في بيعة الإمام في الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. وفيه ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلاَّ لدنيا فإن أعطاه منها وفّى وإن لم يعطه منها لم يف، فالأعمال بالنيات وهي أحد أركان بيت الإسلام. وورد في الصحيح في مسلم: أنَّ رَجُلاً قالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: يا رسول الله إني أحبُّ أن يكون نعلي حسناً وثوبي حسناً فقال له رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُ الجَمَالَ**» وقال: «**إنَّ الله أوْلَى مَنْ يُتَجَمَّلُ لَهُ**».

ومن هذا الباب: كون الله تعالىٰ لم يبعث إليه جبريل في أكثر نزوله عليه إلاَّ في صورة دحية وكان أجمل أهل زمانه، وبلغ من أثر جماله في الخلق أنه لما قدم المدينة واستقبله الناس ما رأته امرأة حامل إلاَّ ألقت ما فيه بطنها، فكأن الحق يقول يبشر نبيه ﷺ بإنزال جبريل عليه في صورة دحية: يا محمد ما بيني وبينك إلاَّ صورة الجمال، يخبره تعالىٰ بما له في نفسه سبحانه بالحال، فمن فاته التجمّل لله كما قلناه فقد فاته من الله هذا الحب الخاص المعين، وإذا فاته هذا الحب الخاص المعين فاته من الله ما ينتجه من علم وتجلّ وكرامة في دار السعادة، ومنزلة في كثيب الرؤية وشهود معنويّ علمي روحي في هذه الدار الدنيا في سلوكه

ومشاهده، ولكن كما قلنا ينوي بذلك التجمّل لله لا للزينة والفخر بعرض الدنيا والزهو والعجب والبطر على غيره.

ومن ذلك: الرجوع إلى الله عند الفتنة فإن الله يحب كل مفتن تواب كذا قال رسول الله ﷺ: قال الله عزّ وجلّ: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] والبلاء والفتنة بمعنى واحد وليس إلاّ الاختبار لما هو الإنسان عليه من الدعوى ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي اختبارك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ أي تحيره ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي تبين له طريق نجاته فيها.

وأعظم الفتن النساء والمال والولد والجاه، هذه الأربعة إذا ابتلى الله بها عبداً من عباده أو بواحد منها وقام فيها مقام الحق في نصبها له ورجع إلى الله فيها ولم يقف معها من حيث عينها وأخذها نعمة إلهية أنعم الله عليه بها فردته إليه تعالىٰ وأقامته في مقام حق الشكر الذي أمر الله نبيه عليه السلام موسىٰ به فقال له: «**يَا مُوسَىٰ اشكُرْنِي حَقَّ الشُّكرِ، قال موسىٰ: يا ربِّ وَما حَقُّ الشُّكرِ؟ قال له: يا موسىٰ إذا رَأَيتَ النِّعمَةَ مِنِّي فذلك حَقُّ الشُّكرِ**» ذكره ابن ماجة في سننه عن رسول الله ﷺ. ولما غفر الله لنبيه محمد ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر وبشّره ذلك بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] قام حتى تورمت قدماه شكراً لله تعالىٰ على ذلك فما فتر ولا جنح إلى الراحة، ولما قيل له في ذلك وسئل في الرفق بنفسه قال ﷺ: «**أفلا أكونُ عَبْداً شَكُوراً**» وذلك لما سمع الله يقول: إن الله يحب الشاكرين فإن لم يقم في مقام شكر المنعم فاته من الله هذا الحب الخاص بهذا المقام الذي لا يناله من الله إلاّ الشكور، فإن الله يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وإذا فاته فاته ماله من العلم بالله والتجلي والنعيم الخاص به في دار الكرامة وكثيب الرؤية يوم الزور الأعظم، فإنه لكل حب إلهيّ من صفة خاصة علم وتجلٍ ونعيم ومنزلة لا بدّ من ذلك يمتاز بها صاحب تلك الصفة من غيره.

فأما فتنة النساء فصورة رجوعه إلى الله في محبتهنّ بأن يرى أن الكل أحب بعضه وحنّ إليه فما أحبّ سوى نفسه، لأن المرأة في الأصل خلقت من الرجل من ضلعه القصيرى فينزلها من نفسه منزلة الصورة التي خلق الله الإنسان الكامل عليها وهي صورة الحق فجعلها الحق مجلى له، وإذا كان الشيء مجلى للناظر فلا يرى الناظر في تلك الصورة إلاّ نفسه، فإذا رأى في هذه المرأة نفسه اشتدّ حبه فيها وميله إليها لأنها صورته، وقد تبين لك أن صورته صورة الحق التي أوجده عليها فما رأى إلاّ الحق ولكن بشهوة حب والتذاذ وصلة يفنى فيها فناء حق بحب صدق وقابلها بذاته مقابلة المثلية ولذلك فني فيها فما من جزء فيه إلاّ وهو فيها، والمحبة قد سرت في جميع أجزائه فتعلق كله بها فلذلك فني في مثله الفناء الكلي بخلاف حبّه غير مثله فاتحد بمحبوبه إلى أن قال: «أنا من أهوى ومن أهوى أنا». وقال الآخر في هذا المقام: «أنا الله» فإذا أحببت مثلك شخصاً هذا الحب ردّك إلى الله شهودك فيه هذا الردّ فأنت ممّن أحبه الله وكانت هذه الفتنة فتنة أعطتك المهداة. وأما الطريقة الأخرى في حب النساء

فإنهن محال الانفعال والتكوين لظهور أعيان الأمثال في كل نوع، ولا شك أن الله ما أحب أعيان العالم في حال عدم العالم إلاً لكون تلك الأعيان محل الانفعال، فلما توجه عليها من كونه مريداً قال لها ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] فكانت فظهر ملكه بها في الوجود، وأعطت تلك الأعيان لله حقه في ألوهته فكان إلهاً فعبدته تعالىٰ بجميع الأسماء بالحال، سواء علمت تلك الأسماء أو لم تعلمها، فما بقي اسم لله إلاً والعبد قد قام فيه بصورته وحاله وإن لم يعلم نتيجة ذلك الاسم وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ في دعائه بأسماء الله: «**أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ غَيْبِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ**» يعني من أسمائه أن يعرف عينه حتى يفصله من غيره علماً فإنّ كثيراً من الأمور في الإنسان بالصورة والحال ولا يعلم بها ويعلم الله منه أن ذلك فيه، فإذا أحبّ المرأة لما ذكرناه فقد ردّه حبها إلى الله تعالىٰ فكانت نعمة الفتنة في حقّه فأحبه الله برجعته إليه تعالىٰ في حبّه إياها. وأما تعلقه بامرأة خاصة في ذلك دون غيرها وإن كانت هذه الحقائق التي ذكرناها سارية في كل امرأة فذلك لمناسبة روحانية بين هذين الشخصين في أصل النشأة والمزاج الطبيعي والنظر الروحي، فمنه ما يجري إلى أجل مسمّى ومنه ما يجري إلى غير أجل بل أجله الموت، والتعلق لا يزول كحب النبيّ ﷺ عائشة فإنه كان يحبها أكثر من حبه جميع نسائه، وحبه أبا بكر أيضاً وهو أبوها، فهذه المناسبات الثواني هي التي تعين الأشخاص، والسبب الأوّل هو ما ذكرناه، ولذلك الحب المطلق والسماع المطلق والرؤية المطلقة التي يكون عليها بعض عباد الله ما تختص بشخص في العالم دون شخص، فكل حاضر عنده له محبوب وبه مشغول، ومع هذا لا بد من ميل خاص لبعض الأشخاص لمناسبة خاصة مع هذا الإطلاق لا بدّ من ذلك، فإن نشأة العالم تعطى في آحاده هذا لا بدّ من تقييد، والكامل من يجمع بين التقييد والإطلاق، فالإطلاق مثل قول النبي ﷺ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلاثٌ: النِّسَاءُ**» وما خصّ امرأة من امرأة. ومثل التقييد ما روي من حبه عائشة أكثر من سائر نسائه لنسبة إلهية روحانية قيدته بها دون غيرها مع كونه يحب النساء، فهذا قد ذكرنا من الركن الواحد ما فيه كفاية لمن فهم.

وأما الركن الثاني من بيت الفتن وهو الجاه المعبر عنه بالرياسة، يقول فيه: الطائفة التي لا علم لها منهم آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرياسة، فالعارفون من أصحاب هذا القول ما يقولون ذلك على ما تفهمه العامة من أهل الطريق منهم، وإنما ذلك على ما نبينه من مقصود الكمل من أهل الله بذلك، وذلك أن في نفس الإنسان أموراً كثيرة خبّأها الله فيه وهو ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥] أي ما ظهر منكم وما خفي ممّا لا تعلمونه منكم فيكم، فلا يزال الحق يخرج لعبده من نفسه ممّا أخفاه فيها ما لم يكن يعرف أن ذلك في نفسه، كالشخص الذي يرى منه الطبيب من المرض ما لا يعرفه العليل من نفسه، كذلك ما خبّأه الله في نفوس الخلق، ألا تراه يقول ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وما كل أحد يعرف نفسه مع أن نفسه عينه لا غير ذلك، فلا يزال الحق يخرج للإنسان من نفسه ما خبّأه فيها فيشهده فيعلم من نفسه عند ذلك ما لم يكن يعلمه قبل ذلك،

فقالت الطائفة الكثيرة: آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرياسة فيظهر لهم إذا خرج فيحبون الرياسة بحب غير حب العامة لها فإنهم يحبوها من كونهم على ما قال الله فيهم أنه سمعهم وبصرهم وذكر جميع قواهم وأعضاءهم، فإذا كانوا بهذه المثابة فما أحبوا الرياسة إلاّ بالله إذ التقدم لله على العالم فإنهم عبيده، وما كان الرئيس إلاّ بالمرؤوس وجوداً وتقديراً، فحبّه للمرؤوس أشدّ الحب لأنه المثبت له الرياسة، فلا أحب من الملك في ملكه لأن ملكه المثبت له كونه ملكاً، فهذا معنى آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرياسة لهم فيرونه ويشهدونه ذوقاً لا أنه يخرج من قلوبهم فلا يحبون الرياسة فإنهم إن لم يحبوها فما حصل لهم العلم بها ذوقاً، وهي الصورة التي خلقهم الله عليها في قوله ﷺ: «**إِنَّ الله خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**» في بعض تأويلات هذا الخبر ومحتملاته فاعلم ذلك. والجاه إمضاء الكلمة ولا أمضى كلمة من قوله: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فأعظم الجاه من كان جاهه بالله، فيرى هذا العبد مع بقاء عينه فيعلم عند ذلك أنه المثل الذي لا يماثل فإنه عبد رب والله عزّ وجلّ رب لا عبد فله الجمعية وللحق الانفراد.

وأما الركن الثالث وهو المال، وما سمّي المال بهذا الاسم إلاّ لكونه يمال إليه طبعاً، فاختبر الله به عباده حيث جعل تيسير بعض الأمور بوجوده وعلّق القلوب بمحبة صاحب المال وتعظيمه ولو كان بخيلاً فإن العيون تنظر إليه بعين التعظيم لتوهم النفوس باستغنائه عنهم لما عنده من المال، وربما يكون صاحب المال أشدّ الناس فقراً إليهم في نفسه، ولا يجد في نفسه الاكتفاء ولا القناعة بما عنده فهو يطلب الزيادة ممّا بيده. ولما رأى العالم ميل القلوب إلى رب المال لأجل المال أحبّوا المال فطلب العارفون وجهاً إلهياً يحبون به المال إذ ولا بدّ من حبّه، وهنا موضع الفتنة والابتلاء التي لها الضلالة والمهداة، فأما العارفون فنظروا إلى أمور إلهية منها قوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ﴾ [المزمل: ٢٠] فما خاطب إلاّ أصحاب الجدة فأحبّوا المال ليكونوا من أهل الخطاب فيلتذوا بسماعه حيث كانوا، فإذا أقرضوه رأوا أن الصدقة تقع بيد الرحمن فحصل لهم بالمال وإعطائه مناولة الحق منهم ذلك فكانت لهم وصلة المناولة، وقد شرّف الله آدم بقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥] فمن يعطيه عن سؤاله القرض أتم في الالتذاذ بالشرف ممّن خلقه بيده، فلولا المال ما سمعوا ولا كانوا أهلاً لهذا الخطاب الإلهيّ ولا حصل لهم بالقرض هذا التناول الرباني، فإن ذلك يعمّ الوصلة مع الله، فاختبرهم الله بالمال ثم اختبرهم بالسؤال منه وأنزل الحق نفسه منزلة السائلين من عباده أهل الحاجة أهل الثروة منهم والمال بقوله في الحديث المتقدم في هذا الباب: «**يَا عَبْدِي اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي وَاسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي**» فكان لهم بهذا النظر حب المال فتنة مهداة إلى مثل هذا.

وأما فتنة الولد: فلكونه سرّ أبيه وقطعة من كبده وألصق الأشياء به، فحبه حب الشيء نفسه، ولا شيء أحب إلى الشيء من نفسه، فاختبره الله بنفسه في صورة خارجة عنه سمّاه ولداً ليرى هل يحجبه النظر إليه عمّا كلفه الحق من إقامة الحقوق عليه، يقول رسول الله ﷺ في حق ابنته فاطمة ومكانتها من قلبه المكانة التي لا تجهل: «**لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ**

قَطَعْتُ يَدَهَا» وجلد عمر بن الخطاب ابنه في الزنى فمات ونفسه بذلك طيبة، وجاد ماعز بنفسه والمرأة في إقامة الحدّ عليهما الذي فيه إتلاف نفوسهما وقال في توبتهما رسول الله ﷺ، وأي توبة أعظم من أن جادت بنفسها، والجود بإقامة الحق المكروه على الولد أعظم في البلاء، يقول الله في موت الولد في حق الوالد: «**مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا عِنْدِي جَزَاءٌ إِلاَّ الْجَنَّةَ**» فمن أحكم هذه الأركان التي هي من أعظم الفتن وأكبر المحن وآثر جناب الحق ورعاه فيها فذلك الرجل الذي لا أعظم منه في جنسه.

ومن وصيتي إياك: أنك لا تنام إلاَّ على وتر لأن الإنسان إذا نام قبض الله روحه إليه في الصورة التي يرى نفسه فيها إن رأى رؤيا فإن شاء ردّها إليه إن كان لم ينقض عمره وإن شاء أمسكها إن كان قد جاء أجله، فالاحتياط أن الإنسان الحازم لا ينام إلاَّ على وتر، فإذا نام على وتر نام على حالة وعمل يحبه الله، ورد في الخبر الصحيح: «**إِنَّ الله وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ**» فما أحب إلاَّ نفسه، وأي عناية وقرب أعظم من أن أنزلك منزلة نفسه في حبّه إياك إذا كنت من أهل الوتر في جميع أفعالك التي تطلب العدد والكمية، وقد أمرك الله تعالىٰ على لسان رسوله ﷺ فقال: «**أَوْتِرُوا يَا أَهْلَ القُرْآنِ**» وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته، وكذلك إذا اكتحلت فاكتحل وتراً في كل عين واحدة أو ثلاثة فإن كل عين عضو مستقل بنفسه، وكذلك إذا طعمت فلا تنزع يدك إلاَّ عن وتر، وكذلك شربك الماء في حسواتك إياه اجعله وتراً، وإذا أخذك الفواق اشرب من الماء سبع حسوات فإنه ينقطع عنك، هذا جربته بنفسي، وإذا تنفست في شربك فتنفس ثلاث مرات وأزل القدم عن فيك عند التنفس هكذا أمرك رسول الله ﷺ فإنه أبرأ وأمرأ وأروى. وإذا تكلمت بالكلمة لتفهم السامع فأعدها عليه ثلاث مرّات وتراً حتى تفهم عنك، فهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ، فإني ما أوصيك إلاَّ بما جرت السنّة الإلهية عليه، وهذا هو عين الاتباع الذي أمرك الله تعالىٰ به في القرآن فقال: ﴿**إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١] فهذه محبة الجزاء. وأما محبته الأولى التي ليست جزاء فهي المحبة التي وفقك بها للاتباع، فحبك قد جعله الله بين حبين إلهيين: حب منة وحب جزاء، فصارت المحبة بينك وبين الله وتراً حب المنة وهو الذي أعطاك التوفيق للاتباع، وحبك إياه وحبّه إياك جزاء من كونك اتبعت ما شرعه لك ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ [الأحزاب: ٢١] وبهذه الآية ثبتت عصمة رسول الله ﷺ، فإنه لو لم يكن معصوماً ما صحّ التأسي به، فنحن نتأسى برسول الله ﷺ في جميع حركاته وسكناته وأفعاله وأحواله وأقواله ما لم ينه عن شيء من ذلك على التعيين في كتاب أو سنّة، مثل نكاح الهبة خالصة لك من دون المؤمنين، ومثل وجوب قيام الليل عليه والتهجد فهو ﷺ يقومه فرضاً نحن نقومه تأسياً وندباً فاشتركنا في القيام، يقول أبو هريرة: أوصاني خليلي ﷺ بثلاث فأوتر في وصيته وفيها أن لا أنام إلاَّ على وتر. وورد في الحديث الصحيح: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مِائَةً إِلاَّ وَاحِداً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**» فإن الله وتر يحب الوتر. وقد تقدم في هذا الكتاب في باب سؤالات الترمذي الحكيم وهو آخر أبواب فصل المعارف في حب الله التوابين والمتطهرين والشاكرين

والصابرين والمحسنين وغيرهم ممّا ورد أن الله يحب إتيانه، كما وردت أشياء لا يحبها الله قد ذكرناها في هذا الكتاب فأغنى عن إعادتها.

وصية: عليك بمراقبة الله عزّ وجلّ فيما أخذ منك وفيما أعطاك فإنه تعالىٰ ما أخذ منك إلاّ لتصبر فيحبك فإنه يحب الصابرين، وإذا أحبك عاملك معاملة المحب محبوبه فكان لك حيث تريد إذا اقتضت إرادتك مصلحتك، وإذا لم تقتض إرادتك مصلحتك فعل بحبه إياك معك ما تقتضيه المصلحة في حقك، وإن كنت تكره في الحال فعله معك فإنك تحمد بعد ذلك عاقبة أمرك، فإن الله غير متهم في مصالح عبده إذا أحبه، فميزانك في حبه إياك أن تنظر إلى ما رزقك من الصبر على ما أخذه منك ورزأك فيه من مال أو أهل، أو ما كان ممّا يعزّ عليك فراقه، وما من شيء يزول عنك من المألوفات إلاّ ولك عوض منه عند الله إلاّ الله كما قال بعضهم: [البسيط]

لكُلّ شيء إذا فَارَقْتَهُ عِوَضٌ وليس لله إن فَارَقْتَ من عِوَضِ

فإنه لا مثل له، وكذلك إذا أعطاك وأنعم عليك، ومن جملة ما أنعم به عليك وأعطاك الصبر على ما أخذه منك، فأعطاك لتشكر كما أخذ منك لتصبر، فإنه تعالىٰ يحب الشاكرين، وإذا أحبك حب الشاكرين غفر لك. قال رسول الله ﷺ في رجل رأى غصن شوك في طريق الناس فنحاه: «**فَشَكَرَ الله فِعْلَهُ فَغَفَرَ لَهُ**» فإن الإيمان بضع وسبعون شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريق وهو ما ذكرناه، وأرفعها قول: لا إله إلاّ الله، فالمؤمن الموفق يبحث عن شعب الإيمان فيأتيها كلها، وبحثه عن ذلك من جملة شعب الإيمان، فذلك هو المؤمن الذي حاز الصفة وملأ يديه من الخير، وما شكرك الله بسبب أمر أتيته ممّا شرع لك الإتيان به إلاّ لتزيد في أعمال البرّ، كما أنك إذا شكرته على ما أنعم به عليك زادك من نعمه لقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] ووصف نفسه بأنه يشكر عباده فهو الشكور فزاده كما زادك لشكرك، ومع هذا فاعتقد أن كل شيء عنده بمقدار وكل شيء في الدنيا يجري إلى أجل مسمّى عند الله، فما ثم شيء في العالم إلاّ وهو لله فإن أخذه منك فما أخذه إلاّ إليه، وإن أعطاك فما أعطاك إلاّ منه، فالأمر كله منه وإليه، وكفى بك إذا علمت أن الأمر على ما أعلمتك أن تكون مع الله تشهده في جميع أحوالك من أخذ وعطاء فإنك لن تخلو في نفسك من أخذ وعطاء في كل نفس أوّل ذلك أنفاسك التي بها حياتك، فيأخذ منك نفسك الخارج بما خرج من ذكر بقلب أو لسان، فإن كان خيراً ضاعف لك أجره، وإن كان غير ذلك فمن كرمه وعفوه يغفر لك ذلك ويعطيك نفسك الداخل بما شاءه وهو وارد وقتك، فإن ورد بخير فهو نعمة من الله فقابلها بالشكر، وإن كان غير ذلك ممّا لا يرضي الله فاسأله المغفرة والتجاوز والتوبة، فإنه ما قضى بالذنوب على عباده إلاّ ليستغفروه فيغفر لهم ويتوبوا إليه فيتوب عليهم. وورد في الحديث: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ الله بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَتُوبُونَ فَيَغْفِرُ الله لَهُمْ وَيَتُوبُ عَلَيْهِمْ**» حتى لا يتعطل حكم من الأحكام الإلهية في الدنيا. ورد في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**للَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا انْتَهَى أَجَلُهُ انْقَضَى وَجَاءَ**

غَيْرُهُ» وإنما قال رسول الله ﷺ هذا معرفاً إيانا بما هو الأمر عليه لنسلم الأمر إليه فنرزق درجة التسليم والتفويض مع بذل المجهود فيما يحب منا أن نرجع إليه فيه بحسب الحال إن كان في المخالفة فبالتوبة والاستغفار، وفي الموافقة بالشكر وطلب الإقامة على طاعة الله وطاعة رسوله، ونجد عزاء في نفوسنا بمعرفتنا أن كل شيء عند الله في الدنيا يجري إلى أجل مسمّى، وللصابرين حمد يخصهم وهو الحمد لله على كل حال، وللشاكرين حمد يخصهم وهو الحمد لله المنعم المفضل، كذا كان يحمد رسول الله ﷺ ربّه عزّ وجلّ في حالة السرّاء والضرّاء، والتأسي برسول الله ﷺ في ذلك أولى من أن تستنبط حمداً آخر، فإنه لا أعلى ممّا وضعه العالم المكمل الذي شهد الله له بالعلم به وأكرمه برسالته واختصاصه وأمرنا بالإقتداء به واتباعه، فلا تحدث أمراً ما استطعت فإنك إذا سننت سنّة لم يجىء مثلها عن رسول الله ﷺ وهي حسنة فإن لك أجرها وأجر من عمل بها، وإذا تركت تسنينها اتباعاً لكون رسول الله ﷺ لم يسنّها فإن أجرك في اتباعك ذلك أعني ترك التسنين أعظم من أجرك من حيث ما سننت بكثير، فإن النبيّ ﷺ كان يكره كثرة التكليف على أمته، وكان يكره لهم أن يسألوا في أشياء مخافة أن ينزل عليهم في ذلك ما لا يطيقونه إلاّ بمشقة، ومن سنّ فقد كلف وكان النبيّ ﷺ أولى بذلك ولكن تركه تخفيفاً، فلهذا قلنا: الاتباع في الترك أعظم أجراً من التسنين، فاجعل بالك لما ذكرته لك. ولقد بلغني عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه أنه ما أكل البطيخ فقيل له في ذلك فقال: ما بلغني كيف كان رسول الله ﷺ يأكله، فلما لم تبلغ إليه الكيفية في ذلك تركه، وبمثل هذا ما تقدم علماء هذه الأمّة على سائر علماء الأمم هكذا هكذا وإلاّ فلا لا، فهذا الإمام علم وتحقق معنى قوله تعالى: عن نبيه ﷺ: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] والاشتغال بما سنّ من فعل وقول وحال أكثر من أن نحيط به، فكيف أن نتفرّغ لنسن؟ فلا نكلف الأمة أكثر مما ورد.

وصية: عليك بأداء الأوجب من حق الله وهو أن لا تشرك به شيئاً من الشرك الخفي الذي هو الاعتماد على الأسباب الموضوعة والركون إليها بالقلب والطمأنينة بها وهي سكون القلب إليها وعندها، فإن ذلك من أعظم رزية دينية في المؤمن وهو قوله والله أعلم من باب الإشارة: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] يعني والله أعلم به هذا الشرك الخفي الذي يكون معه الإيمان بوجود الله والنقص في الإيمان بتوحيد الله في الأفعال لا في الألوهة، فإن ذلك هو الشرك الجلي الذي يناقض الإيمان بتوحيد الله في ألوهته لا الإيمان بوجود الله. ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَتَدْرُونَ ما حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ؟ أَنْ يَعْبُدُوهُ لا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً**» فأتى بلفظة شيء وشيء نكرة فدخل فيه الشرك الجلي والخفي. ثم قال: «**أَتَدْرُونَ ما حَقُّهُمْ عَلَى الله إذا فَعَلُوا ذٰلِكَ؟ أَنْ لا يُعَذِّبَهُمْ**» فاجعل بالك من قوله: أن لا يعذبهم فإنهم إذا لم يشركوا بالله شيئاً لم يتعلق لهم خاطر إلا بالله إذ لم يكن لهم توجه إلاّ إلى الله، وإذا أشركوا بالله الشرك الناقض للإسلام أو الشرك الخفي الذي هو النظر إلى الأسباب المعتادة فإن الله قد عذبهم بالاعتماد عليها لأنها معرضة للفقد، ففي

حال وجودها يتعذبون بتوهم فقدها وبما ينقص منها، وإذا فقدوها تعذبوا بفقدها فهم معذبون على كل حال في وجود الأسباب وفقدها، وإذا لم يشركوا بالله شيئاً من الأسباب استراحوا ولم يبالوا بفقدها ولا بوجودها، فإن الذي اعتمدوا عليه وهو الله قادر على إتيان الأمور من حيث لا يحتسبون كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣] ولقد قال في ذلك بعضهم نظماً وهو: [المتقارب]

ومَــنْ يَــتَّــقِ الله يَــجْــعَــلْ لــه كــمــا قــال مــن أمْــرِهِ مَــخْــرَجَــا
ويَــرْزُقْــهُ مــن غــيــر حُــسْــبَــانِــهِ وإن ضَــاقَ أمْــرٌ بــه فَــرَجَــا

فمن علامة التحقق بالتقوى أن يأتي رزقه من حيث لا يحتسب، وإذا أتاه من حيث يحتسب فما تحقق بالتقوى ولا اعتمد على الله، فإن معنى التقوى في بعض وجوهه أن تتخذ الله وقاية من تأثير الأسباب في قلبك باعتمادك عليها والإنسان أبصر بنفسه وهو يعلم من نفسه بمن هو أوثق وبما تسكن إليه نفسه ولا يقول: إن الله أمرني بالسعي على العيال وأوجب عليّ النفقة عليهم فلا بدّ من الكدّ في الأسباب التي جرت العادة أن يرزقهم الله عندها، فهذا لا يناقض ما قلناه، فنحن إنما نهيناك عن الاعتماد عليها بقلبك والسكون عندها ما قلنا لك لا تعمل بها، ولقد نمت عند تقييدي هذا الوجه ثم رجعت إلى نفسي وأنا أنشد بيتين لم أكن أعرفهما قبل ذلك وهما: [السريع]

لا تَــعْــتَــمِــدْ إلاَّ عــلــى الــلَّــهِ فــكُــلُّ أمْــرٍ بــيَــدِ الــلَّــهِ
وهــذه الأســبــابُ حِــجَــابُــهُ فــلا تَــكُــنْ إلاَّ مــع الــلَّــهِ

فانظر في نفسك فإن وجدت أن القلب سكن إليها فاتهم إيمانك واعلم أنك لست ذلك الرجل، وإن وجدت قلبك ساكناً مع الله واستوى عندك حالة فقد السبب المعين وحالة وجوده ولكن مع الفقد يكون ذلك فاعلم أنك ذلك الرجل الذي آمن ولم يشرك بالله شيئاً وإنك من القليل فإن رزقك من حيث لا تحتسب، فذلك بشرى من الله أنك من المتقين، ومن سر هذه الآية أن الله وإن رزقك من السبب المعتاد الذي في خزانتك وتحت حكمك وتصريفك وأنت متق أي قد اتخذت الله وقاية فإنه الواقي إنك مرزوق من حيث لا تحتسب، فإنه ليس في حسبانك أن الله يرزقك، ولا بدّ ممّا بيدك ومن الحاصل عندك، فما رزقك إلاَّ من حيث لا تحتسب، وإن أكلت وارتزقت من ذلك الذي بيدك فاعلم ذلك فإنه معنى دقيق، ولا يشعر به إلاَّ أهل المراقبة الإلهية الذين يراقبون بواطنهم وقلوبهم، فإن الوقاية ليست إلاَّ لله تمنع العبد من أن يصل إلى الأسباب بحكم الاعتماد عليها لاعتماده على الله عزّ وجلّ، وهذا هو معنى قوله: ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢] فهذا مخرج التقوى في هذه الآية وهي وصية الله عبده وإعلامه بما هو الأمر عليه.

وصية: احذر يا وليّ أن تريد علواً في الأرض والزم الخمول، وإن أعلى الله كلمتك فما أعلى إلاَّ الحق، وإن رزقك الرفعة في قلوب الخلق فذلك إليه عزّ وجلّ، والذي يلزمك التواضع والذلّة والانكسار فإنه إنما أنشأك من الأرض فلا تعلو عليها فإنها أمك، ومن تكبرّ

على أمّه فقد عقها وعقوق الوالدين حرام، ثم إنه قد ورد في الحديث أن حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلاَّ وضعه، فإن كنت أنت ذلك الشيء فانتظر وضع الله إياك، وما أخاف على من هذه صفته إلاَّ أن الله تعالىٰ إذا وضعه يضعه في النار، وذلك إذا رفع ذلك الشيء نفسه لا إذا رفعه الله فذلك ليس إليه إلاَّ أنه لا بدّ أن يراقب الله فيما أعطاه من الرفعة في الأرض بولاية وتقدم يخدم من أجله ويغشى بابه ويلزم ركابه فلا يبرح ناظراً في عبوديته وأصله فإنه خلق من ضعف ومن أصل موصوف بأنه ذلول، ويعلم أن تلك الرفعة إنما هي للرتبة والمنصب لا لذاته، فإنه إذا عزل عنها لم يبق له ذلك الوزن الذي كان يتخيله وينتقل ذلك إلى من أقامه الله في تلك المنزلة فالعلوّ للمنزلة لا لذاته، فمن أراد العلوّ في الأرض فقد أراد الولاية فيها وقد قال رسول الله ﷺ في الولاية: «**إِنَّهَا يَوْمَ القِيامَةِ حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ**» فلا تكن من الجاهلين، فالذي أوصيك به أنك لا تريد علوّاً في الأرض، وإن أعطاك الله لا تطلب أنت من الله إلاَّ أن تكون في نفسك صاحب ذلّة ومسكنة وخشوع فإنك لن تحصل ذلك إلاَّ أن يكون الحق مشهوداً لك، وليس مدار الخلق والأكابر إلاَّ على أن يحصل لهم مقام الشهود فإنه الوجود المطلوب.

وصية: وعليك بالاغتسال في كل يوم جمعة واجعله قبل رواحك إلى صلاة الجمعة، وإذا اغتسلت فانو فيه أنك تؤدّي واجباً فإنه قد ورد في الصحيح: «**إِنَّ غُسْلَ الجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**» وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «**حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ**» فيجمع بين الحديثين بغسل الجمعة وذلك أن الله خلق سبعة أيام وهي أيام الجمعة فإذا انقضت جمعة دارت الأيام فهي الجديدة الدائرة فلا تنصرف عنك دورة إلاَّ عن طهارة تحدثها فيها إكراماً لذاتها وتقديساً وتنظيفاً، كما جاء في السواك: «**إِنَّهُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ وَمَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ**» وكذلك الغسل في الأسبوع مطهرة للبدن ومرضاة للرب أي أن العبد فعل فعلاً يرضي الله به من حيث أن الله أمره بذلك فامتثل أمره.

وصية: إياك والمراء في شيء من الدين وهو الجدال فلا يخلو من أحد أمرين: إما أن تكون محقاً أو مبطلاً كما يفعل فقهاء زماننا اليوم في مجالس مناظراتهم ينوون في ذلك تلقيح خواطرهم، فقد يلتزم المناظر في ذلك مذهباً لا يعتقده وقولاً لا يرتضيه وهو يجادل به صاحب الحق الذي يعتقد فيه أنه حق ثم تخدعه النفس في ذلك بأن تقول له: إنما تفعل ذلك لتلقيح الخاطر لا لإقامة الباطل، وما علم أن الله عند لسان كل قائل، وأن العامي إذا سمع مقالته بالباطل وظهوره على صاحب الحق وهو عنده أنه فقيه عمل العامي المقلد على ذلك الباطل لما رأى من ظهوره على صفة الحق وعجز صاحب الحق عن مقاومته فلا يزال الإثم يتعلق به ما دام هذا السامع يعمل بما سمع منه، ولهذا ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ الثابت أنه قال: «**أنا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقّاً وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحاً**» ومنه المراء في الباطل، وكان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلاَّ حقاً.

وصية: وعليك بحسن الأخلاق وإتيان مكارمها وتجنب سفسافها فإن النبي ﷺ يقول: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ**» وأنه ﷺ قد ضمن بيتاً في أعلى الجنة لمن حسن خلقه. ولما كانت الأخلاق الحسنة عبارة عن أن نفعل مع المتخلق معه الذي يصرف أخلاقه معه في معاملته إياه، وعلمنا أن أغراض الخلق متقابلة، وأنه إن أرضى زيداً أسخط عدوّه عمراً ولا بدّ من ذلك، فمن المحال أن يقوم في خلق كريم يرضي جميع الخلائق، ولما رأينا أن الأمر على هذا الحد وأدخل الله نفسه مع عباده في الصحبة كما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال لربه: «**أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ**» وقال: «**وهو معكم أينما كنتم**» وقال: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] وقال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] قلنا: فلا نصرف مكارم الأخلاق إلاَّ في صحبة الله خاصة، فكل ما يرضي الله نأتيه وكل ما لا يرضيه نجتنبه، وسواء كانت المعاملة والخلق ممّا يخصّ جانب الحق أو تتعدى إلى الغير، وأنها إن تعدّت إلى الغير فإنها ممّا يرضي الله، وسواء عندك سخط ذلك الغير أو رضي، فإنه إن كان مؤمناً رضي بما يرضي الله وإن كان عدوّ الله فلا اعتبار له عندنا فإن الله يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] فحسن الخلق إنما هو فيما يرضي الله فلا تصرفه إلاَّ مع الله سواء كان ذلك في الخلق أو فيما يختص بجناب الله، فمن راعى جناب الله انتفع به جميع المؤمنين وأهل الذمة، فإن لله حقاً على كل مؤمن في معاملة كل أحد من خلق الله على الإطلاق من كل صنف من ملك وجان وإنسان وحيوان ونبات وجماد ومؤمن وغير مؤمن، وقد ذكرنا ذلك في رسالة الأخلاق لنا كتبنا بها إلى بعض إخواننا سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وهي جزء لطيف غريب في معناه فيه معاملة جميع الخلق بالخلق الحسن الذي يليق به، وحسن الخلق بحسب أحوال من تصرفها فيه ومعه هذا أمر عام والتفصيل فيه لك بالواقع فانظر فيه فإنه أكثر من أن تحصى آحاده لما في ذلك من التطويل والله الموفق لا رب غيره. وكذلك تجنب سفساف الأخلاق ولا تعرف مكارم الأخلاق من سفسافها إلاَّ حتى تعرف مصارفها، فإذا علمت مصارفها علمت مكارمها وسفسافها وهو علم خفي شريف، فلا يفوتنك علم مصارف الأخلاق فإن ذلك يختلف باختلاف الوجوه.

وصية: وعليك بالهجرة ولا تقم بين أظهر الكفار فإن في ذلك إهانة دين الإسلام وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله، فإن الله ما أمر بالقتال إلاَّ لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وإياك والإقامة أو الدخول تحت ذمّة كافر ما استطعت. واعلم أن المقيم بين أظهر الكفار مع تمكنه من الخروج من بين ظهرانيهم لا حظ له في الإسلام، فإن النبي ﷺ قد تبرأ منه ولا يتبرأ رسول الله ﷺ من مسلم، وقد ثبت عنه أنه ﷺ قال: «**أَنَا بَرِيءٌ مِنْ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ المُشْرِكِينَ**» فما اعتبر له كلمة الإسلام. وقال الله تعالىٰ فيمن مات وهو بين أظهر المشركين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧] قال الله لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ

مَصِيرًا﴾ ولهذا حجرنا في هذا الزمان على الناس زيارة بيت المقدس والإقامة فيه لكونه بيد الكفار، فالولاية لهم والتحكم في المسلمين والمسلمون معهم على أسوأ حال نعوذ بالله من تحكم الأهواء، فالزائرون اليوم البيت المقدس والمقيمون فيه من المسلمين هم من الذين قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] وكذلك فلتهاجر عن كل خلق مذموم شرعاً قد ذمّه الحق في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

وصية: وعليك باستعمال العلم في جميع حركاتك وسكناتك، فإن السخي الكامل السخاء من يسخى بنفسه على العلم، فكان بحكم ما شرع الله له فعلم وعمل وعلم من لم يعلم، وقد أثنى رسول الله ﷺ على من قبل العلم وعمل به وعلمه وذمّ نقيض ذلك فثبت عنه ﷺ أنه قال: «**مَثَلُ ما بَعَثَنِي الله بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ غَيثٍ أَصَابَ أَرْضاً فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ فَنَفَعَ الله بِهِ النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءَ وَلا تُنْبِتُ كَلأً، وَكَذَلِكَ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ الله وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ فَعَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذَلِكَ رأساً مَثَلُ القِيعَانُ الَّتِي لَمْ تُمْسِكْ مَاءَ وَلا أَنْبَتَتْ كَلأً**» فكن يا أخي ممّن علم وعمل وعلم، ولا تكن ممّن علم وترك العمل فيكون كالسراج أو كالشمعة تضيء للناس وتحرق نفسك، فإنك إذا عملت بما علمت جعل الله لك فرقاناً ونوراً وورثك ذلك العمل علماً آخر لم تكن تعلمه من العلم بالله وبما لك فيه منفعة عند الله في آخرتك، فاجهد أن تكون من العلماء العاملين المرشدين.

وصية: وعليك بالتودّد لعباد الله من المؤمنين بإفشاء السلام وإطعام الطعام والسعي في قضاء حوائجهم. واعلم أن المؤمنين أجمعهم جسد واحد كإنسان واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى، كذلك المؤمن إذا أصيب أخوه المؤمن بمصيبة فكأنه هو الذي أصيب بها فيتألم لتألمه، ومتى لم يفعل ذلك المؤمن مع المؤمنين فما ثبتت أخوة الإيمان بينه وبينهم، فإن الله قد واخى بين المؤمنين كما واخى بين أعضاء جسد الإنسان، وبهذا وقع المثل من النبيّ ﷺ في الحديث الثابت وهو قوله ﷺ: «**مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ إذا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالحُمَّى وَالسَّهَرِ**». واعلم أن المؤمن كثير بأخيه، وأن المؤمن لما كان من أسماء الله مع ما ينضاف إلى ذلك من خلقه على الصورة ثبت النسب، والمؤمن أخو المؤمن لا يسلمه ولا يخذله، فمن كان مؤمناً بالله من حيث ما هو الله مؤمن فإنه يصدقه في فعله وقوله وحاله وهذه هي العصمة، فإن الله من كونه مؤمناً يصدقه في ذلك ولا يصدق الله إلاّ الصادق فإن تصديق الكاذب على الله محال فإن الكذب عليه محال وتصديق الكاذب كذب بلا شك، فمن ثبت إيمانه بالله من كون الله مؤمناً فإن هذا العبد لا شك أنه من الصادقين في جميع أموره مع الله لأنه مؤمن بالله مؤمن به أيضاً، فتنبه لما دللتك عليه ووصيتك به في الإيمان بالله من كونه مؤمناً تنتفع، فإني قد أريتك الطريق الموصل إلى نيل ذلك، واعتصم بالله ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] فإن الله على صراط مستقيم وليس إلاّ ما شرعه لعباده.

وصية: لا تكترث لما يصيبك الله به من الرزايا في مالك ومن يعزّ عليك من أهلك ممّا يسمّى في العرف رزية ومصاباً وقل: إنا لله وإنا إليه راجعون عند نزولها بك، وقل فيها كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما أصابتني من مصيبة إلاً رأيت أن لله عليّ فيها ثلاث نعم: النعمة الواحدة حيث لم تكن المصيبة في ديني، والنعمة الثابتة حيث لم يكن ما هو أكبر منها فدفع الله بها ما هو أعظم منها، والنعمة الثالثة ما جعل الله فيها من الأمر بالكفارة لما كنا نتوقاه من سيئات أعمالنا. واعلم أن المؤمن في الدنيا كثير الرزايا لأن الله يحب أن يطهره حتى ينقلب إليه طاهراً مطهراً من دنس المخالفات التي كتب الله عليه في الدنيا أن يقام فيها، فلا يزال المؤمن مرزأ في عموم أحواله، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في ذلك: «**مَثَلُ المُؤمِنِ كَمَثَلِ الخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ تَصْرَعُهَا الرِّيحُ مَرَّةً وَتُعَادِلُهَا أُخرى حَتَّى تَهِيجَ**».

وصية: عليك بتلاوة القرآن وتدبره، وانظر في تلاوتك إلى ما حمد فيه من النعوت والصفات التي وصف الله بها من أحبه من عباده فاتصف بها، وما ذمّ الله في القرآن من النعوت والصفات التي اتصف بها من مقته الله فاجتنبها، فإن الله ما ذكرها لك وأنزلها في كتابه عليك وعرفك بها إلاً لتعمل بذلك، فإذا قرأت القرآن تكن أنت القرآن لما في القرآن، واجتهد أن تحفظه بالعمل كما حفظته بالتلاوة فإنه لا أحد أشدّ عذاباً يوم القيامة من شخص حفظ آية ثم نسيها، كذلك من حفظ آية ثم ترك العمل بها كانت عليه شاهدة يوم القيامة وحسرة، وإنه قد ثبت عن رسول الله ﷺ في أحوال من يقرأ القرآن ومن لا يقرؤه من مؤمن ومنافق فقال ﷺ: «**مَثَلُ المُؤمِنِ الَّذي يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ الأَتْرُجَّةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ**» يعني بها التلاوة والقراءة فإنها أنفاس تخرج، فشبهها بالروائح التي تعطيها الأنفاس وطعمها طيب يعني به الإيمان ولذلك قال: «**ذَاقَ طَعْمَ الإيمان مَنْ رَضِيَ بالله رَبّاً وَبالإِسْلامِ دِيناً وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبياً**» فنسب الطعم للإيمان ثم قال: «**وَمَثَلُ المُؤمِنِ الَّذي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الثَّمَرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ**» مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مؤمن ذو إيمان «**ولاَ رِيحَ لَهَا**» من حيث إنه غير تال في الحال التي لا يكون فيها تالياً وإن كان من حفاظ القرآن. ثم قال: «**وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي يَقرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ**» لأن القرآن طيب وليس سوى أنفاس التالي والقارىء في وقت تلاوته وحال قراءته «**وَطَعْمُهَا مُرٌّ**» لأن النفاق كفر الباطن لأن الحلاوة للإيمان لأنها مستلذة. ثم قال: «**وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي لا يَقرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ وَلا رِيحَ لَهَا**» لأنه غير قارىء في الحال. وعلى هذا المساق كل كلام طيب فيه رضى الله صورته من المؤمن والمنافق صورة القرآن في التمثيل غير أن القرآن منزلته لا تخفى، فإن كلام الله لا يضاهيه شيء من كل كلام مقرب إلى الله فينبغي للذاكر إذا ذكر الله متى ذكره أن يحضر في ذكره ذلك ذكراً من الأذكار الواردة في القرآن، فيذكر الله به ليكون قارئاً في الذكر، وإذا كان قارئاً فيكون حاكياً للذكر الذي ذكر الله به نفسه، وإذا كان كذلك فقد أنزل نفسه فيه منزلة ربه منه وهو قوله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وقوله: إن الله قال على لسان عبده: «**سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ**» ويقال للقارىء يوم القيامة: اقرأ وارق ورقيه في الدنيا في أيام التكليف في قراءته أن يرقى من تلاوته إلى تلاوته بأن يكون الحق هو الذي يتلو

على لسان عبده كما يكون سمعه الذي به يسمع وبصره الذي به يبصر ويديه اللتين بهما يبطش ورجليه اللتين بهما يسعى، كذلك هو لسانه الذي به ينطق ويتكلم، فلا يحمد الله ولا يسبحه ولا يهلله إلاّ بما ورد في القرآن عن استحضار منه، لذلك فيرقى من قراءته بنفسه إلى قراءته بربه، فيكون الحق هو الذي يتلو كتابه فيرتفع يوم القيامة في الآية التي ينتهي إليها في قراءته ويقف عندها إلى الدرجة التي تليق بتلك الآية التي يكون الحق هو التالي لها بلسان هذا العبد عن حضور من العبد التالي لذلك، فإن أفضل الكلام كلام الله الخاص المعروف في العرف.

وصية: وعليك بمجالسة من تنتفع بمجالسته في دينك من علم تشهده منه أو عمل يكون فيه أو خلق حسن يكون عليه، فإن الإنسان إذا جالس من تذكره مجالسته الآخرة فلا بدّ أن يتحلى منها بقدر ما يوفقه الله لذلك، وإذا كان الجليس له هذا التعدي فاتخذ الله جليساً بالذكر والذكر القرآن وهو أعظم الذكر، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] يعني القرآن، وقال: «**أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي**» وقال ﷺ: «**أَهْلُ القُرْآنِ هُمْ أَهْلُ الله وَخَاصَّتُهُ**» وخاصة الملك جلساؤه في أغلب أحوالهم والله له الأخلاق وهي الأسماء الحسنى الإلهية، فمن كان الحق جليسه فهو أنيسه، فلا بدّ أن ينال من مكارم أخلاقه على قدر مدة مجالسته، ومن جلس إلى قوم يذكرون الله فإنّ الله يدخله معهم في رحمته، فهم القوم الذين لا يشقى جليسهم فكيف يشقى من كان الحق جليسه؟ وقد ورد في الحديث الثابت: «**إِنَّ الجَلِيسَ الصَّالِحَ كَصَاحِبِ المِسْكِ إِنْ لَمْ يُصِبْكَ مِنْهُ أَصَابَكَ مِنْ رِيحِهِ، وَالجَلِيسُ السُّوء كَصَاحِبِ الكِيْرِ إِنْ لَمْ يُصِبْكَ مِنْ شَرَرِهِ أَصَابَكَ مِنْ دُخَانِهِ**» وهو أنه من خالط أصحاب الريب ارتيب فيه، وذلك لما غلب على الناس من سوء الظن بالناس لخبث بواطنهم.

وهنا فائدة أنبهك عليها أغفلها الناس وهي تدعو إلى حسن الظن بالناس ليكون محلك طاهراً من السوء، وذلك أنك إذا رأيت من يعاشر الأشرار وهو خير عندك فلا تسيء الظن به لصحبته الأشرار بل حسن الظن بالأشرار لصحبتهم ذلك الخير، واجعل المناسبة في الخير لا في الشرّ فإن الله ما سأل أحداً قط يوم القيامة عن حسن الظن بالخلق ويسأله عن سوء الظن بالخلق، ويكفيك هذا نصحاً إن قبلت ووصية إن قلت بها، والذاكر ربه حياته متصلة دائماً لا تنقطع إلاّ بالموت فهو حيّ وإن مات بحياة هي خير وأتم من حياة المقتول في سبيل الله إلاّ أن يكون المقتول في سبيل الله من الذاكرين فهي حياة الشهيد وحياة الذاكر، فالذاكر حيّ وإن مات، والذي لا يذكر الله ميت وإن كان في الدنيا من الأحياء فإنه حيّ بالحياة الحيوانية وجميع العالم حيّ بحياة الذكر، فمثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت كذا مثله رسول الله ﷺ، وأما ما ادّعيته أن الذاكر أفضل من الشهيد الذي لا يذكر الله فلما صحّ عن رسول الله ﷺ في قوله: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ**» أَوْ كَمَا قَالَ «**بِخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَيَضْرِبُ رِقَابَكُمْ وَتَضْرِبُونَ رِقَابَهُمْ؟ ذِكْرُ الله**» فذكر ضرب الرقاب وهو الشهادة وذكر العبد ربه أفضل من قتل الشهيد، وثبت عنه أن الذاكر حيّ فخرج من ذلك أن حياة الذاكر خير من حياة الشهيد إذاءِ لم يكن ذاكراً ربه عزّ وجلّ.

وصية: وعليك بإقامة حدود الله في نفسك وفيمن تملكه فإنك مسؤول من الله عن ذلك، فإن كنت ذا سلطان تعين عليك إقامة حدود الله فيمن ولاّك الله عليه: «**فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**» وليس سوى إقامة حدود الله فيهم، وأقل الولايات ولايتك على نفسك وجوارحك فأقم فيها حدود الله إلى الخلافة الكبرى فإنك نائب الله على كل حال في نفسك فما فوقها، وقد ورد الحديث الثابت في الذي يقيم حدود الله والواقع فيها؛ فمثلهما رسول الله ﷺ بقوم استهموا على سفينته فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين أسفلها إذا استقوا مَرُّوا على مَنْ فوقهم فقالوا: إنا نَخْرِقُ فِي نصيبنا لا نؤذي مَنْ فوقنا فإن تَرَكُوهُمْ وما أرادوا هَلَكُوا جَمِيعاً. فإذا خطر لك يا وليي خاطر يأمرك بالخير فذلك لمة الملك ثم يأتي بعد ذلك خاطر ينهاك عن ذلك الخير أن تفعله فذلك لمة الشيطان، ولا تعرف الخير والشر إلاّ بتعريف الشرع، وإذا خطر لك خاطر يأمرك بفعل الشرّ فذلك لمة الشيطان، فإذا أعقبه خاطر ينهاك عن فعل ذلك الشرّ فذلك لمة الملك، وأنت السفينة إن انخرقت هلكت وهلك جميع من فيك، فعليك بعلم الشريعة فإنك لن تعلم حدود الله حتى تقوم بها أو تعرف من يقع فيها ممّن قام بها إلاّ أن تعلم علم الشريعة فيتعين عليك طلب علم الشريعة لإقامة حدود الله.

وصية: وعليك بالصدقة فإن الله قد ذكر المتصدقين والمتصدقات وهي فرض ونفل، فالفرض منها يسمّى زكاة والنفل منها يسمّى تطوّعاً، وبالفرض منها يزول عنك اسم البخل، وبصدقة التطوّع منها تنال الدرجات العلى، وتتصف بصفة الكرم والجود والإيثار والسخاء، وإياك والبخل، ثم إنه عليك في مالك حق زائد على الزكاة المفروضة وهو إذا رأيت أخاك المؤمن على حالة الهلاك بحيث إنك إذا لم تعطه من فضل مالك شيئاً هلك هو وعائلته إن كانت له عائلة، فيتعين عليك أن تواسيه إما بالهبة أو بالقرض فلا بدّ من العطاء وذلك العطاء صدقة، حتى أني سمعت بعض علمائنا بإشبيلية يقول في حديث: هل عليّ غيرها؟ يعني في الزكاة المفروضة، قال: لا إلاّ أن تطوّع، قال لي ذلك الفقيه فيجب عليك فاستحسنت ذلك منه رحمه الله، وإنما سمّى الله الإنسان متصدقاً وسمّى ذلك العطاء صدقة فرضاً كان أو نفلاً، لأنه أعطى ذلك عن شدّة لكونه مجبولاً على البخل فإن الله يقول فيه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢١] فقال ﷺ في فضل الصدقة وزمانها: «**أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخَافُ الفَقْرَ وَتَأْمَلُ الحَيَاةَ وَالغِنَى**» يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] أي الناجون لأن الإنسان إذا كان له مال ويأمل الحياة فإنه يخاف أن يفتقر ويذهب ما بيده من المال بطول حياته لنوائب الزمان وأمله بطول حياته، فيؤديه ذلك إلى البخل بما عنده من المال والإمساك عن الصدقة والتوسعة على المحتاجين ممّا آتاه الله من الخير، فهو يكنزه ولا ينفقه ولا يؤدي زكاته حتى يكوى به جنبه وجبينه وظهره كما قال تعالىٰ فيهم: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥] فلهذا العطاء عن شدة سميت صدقة، يقال: رمح صدق أي صلب، وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً في البخيل والمتصدق فقال ﷺ: «**مَثَلُ البَخِيلِ**

وَالمُتَصدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَينِ عَلَيهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ قَدِ اضْطُرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلى تَرَاقِيهِمَا فَجَعَلَ المُتَصَدِّقُ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عَلَيْهِ حَتَّى تجنَّ ثِيَابَهُ وَتَعْفُو أَثَرَهُ وَجَعَلَ البَخِيلُ كُلَّما هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ وَأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا» فإياك والبخل فإنه يرديك ويوردك الموارد المهلكة في الدنيا والآخرة، ولا يجعلك تتكرّم وتتصدّق إلاّ استعمال العلم، فإنك إذا علمت أن رزقك لا يأكله ولا يقتات به ولا يحيى به غيرك، ولو اجتمع أهل السموات والأرض على أن يحولوا بينك وبين رزقك ما أطاقوا، وإذا علمت أن رزق غيرك فيما أنت مالكه لا بدّ أن يصل إليه حتى يتغذى به ويحيى، وأن أهل السموات والأرض لو اجتمعوا على أن يحولوا بينه وبين رزقه الذي هو في ملكك ما أطاقوا، فادفع إليه ماله إذا خطر لك خاطر الصدقة تتصف بالكرم والثناء الجميل، وأنت ما أعطيته إلاّ ما هو له بحق في نفس الأمر عند الله وأنت محمود، فإذا علمت هذا هان عليك إخراج ما بيدك ولحقت بأهل الكرم وكتبت في المتصدقين، إن أخرجت ذلك عن تردّدٍ ومكابدة واتبعته نفسك ورأيت بذلك أن لك فضلاً على من أوصلته تلك الراحة فإياك أن تجهل على أحد كما تحبّ أن لا يجهل عليك، وقد كان رسول الله ﷺ يقول في تعوّذاته: **«وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»** فمن حكم فيك بالعلم فقد أنصفك.

وصية: وعليك بالجهاد الأكبر وهو جهادك هواك فإنه أكبر أعدائك، وهو أقرب الأعداء إليك الذين يلونك فإنه بين جنبيك والله يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣] ولا أكفر عندك من نفسك فإنها في كل نفس تكفر نعمة الله عليها من بعد ما جاءتها، فإنك إذا جاهدت نفسك هذا الجهاد خلص لك الجهاد الآخر في الأعداء الذي إن قتلت فيه كنت من الشهداء الأحياء الذين عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله مستبشرين بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، وقد علمت فضل المجاهد في سبيل الله في حال جهاده حتى يرجع إلى أهله بما اكتسبه من أجر أو غنيمة إنه كالصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صلاة ولا من صيام حتى يرجع المجاهد، وقد علمت بالحديث الصحيح أن الصوم لا مثل له وقد قام الجهاد مقامه ومقام الصلاة، وثبت هذا عن رسول الله ﷺ وهذا في الجهاد الذي فرضه الله تعالى المعين ويعصي الإنسان بتركه لا بدّ من ذلك، ولا يزال العبد العالم الناصح نفسه المستبرىء لدينه في جهاد أبداً لأنه مجبول على خلاف ما دعاه إليه الحق، فإنه بالأصالة متبع هواه الذي هو بمنزلة الإرادة في حق الحق، فيفعل الحق ما يريده فإننا كلنا عبيده، ولا تحجير عليه، ويريد الإنسان أن يفعل ما يهوى وعليه التحجير فما هو مطلق الإرادة، فهذا هو السبب الموجب في كونه لا يزال مجاهداً أبداً، ولذلك طلب أصحاب الهمم أن يلحقوا بدرجات العارفين بالله حتى تكون إرادتهم إرادة الحق أي يريدون جميع ما يريده الحق وهو ما هم الخلق عليه فيريدونه من حيث إن الله أراد إيجاده، ويكرهون منه بكراهة الحق ما كرهه الحق ووصف نفسه بأنه لا يرضاه، فهو يريد ولا يرضاه، ويريده ويكرهه في عين إرادته إن أراد أن يكون مؤمناً وإن لم يكن كذلك، وإلاّ فقد انسلخ من الإيمان نعوذ بالله من ذلك فإنه غاية الحرمان، وهذا هو الحق الممقوت كما نقول في الغيبة أنها الحق المنهي عنه.

وصية: وعليك بإسباغ الوضوء على المكاره وذلك في زمان البرد، واحذر من الالتذاذ باستعمال الماء البارد في زمان الحرّ فتسبغ الوضوء لالتذاذك به في زمان الحرّ، فتتخيل أنك ممّن أسبغ الوضوء عبادة وأنت ما أسبغته إلاّ لوجود الالتذاذ به لما أعطاه الحال والزمان من شدّة الحرّ، فإذا أسبغته في شدّة البرد صار لك عادة. وقال رسول الله ﷺ: «**الخَيْرُ عَادَةٌ**» فاصحب تلك النية في زمان الحرّ فإن غلبتك النفس على الإسباغ بما تجده من اللذة المحسوسة في ذلك فاعلم أن الإلتذاذ هنا إنما وقع بدفع ألم الحرّ وإزالته، فانو في ذلك دفع الألم عن نفسك، ألا ترى قاتل نفسه كيف حرّم الله عليه الجنة؟ فحق النفس على صاحبها أعظم من حق الغير عليه، فكذلك يؤجر في دفع الألم عن نفسه، وأن الله يرفع بإسباغ الوضوء على المكاره درجة العبد ويمحو الله به الخطايا، قال ﷺ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يَمْحُو الله بِهِ الخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى المَكَارِهِ**» فهذا محو الخطايا فإنه تنظيف وتطهير. ثم قال: «**وَكَثْرَةُ الخُطَا إلى المَسَاجِدِ**» فإنه سلوك في صعود ومشي. ثم قال تمام الحديث وهو: «**وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**» والرباط الملازمة من ربطت الشيء وبالانتظار قد ألزم نفسه، فربط الصلاة بالصلاة المنتظرة بمراقبة دخول وقتها ليؤدّيها في وقتها، وأي لزوم أعظم من هذا؟ فإنه يوم واحد مقسم على خمس صلوات ما منها صلاة يؤدّيها فيفرغ منها إلاّ وقد ألزم نفسه مراقبة دخول وقت الأخرى إلى أن يفرغ اليوم ويأتي يوم آخر فلا يزال كذلك فما ثم زمان لا يكون فيه مراقباً لوقت أداء صلاة لذلك آكده بقوله ثلاث مرات. فانظر إلى علم رسول الله ﷺ بالأمور حتى أنزل كل عمل في الدنيا منزلته في الآخرة وعين حكمه وأعطاه حقه، فذكر وضوء ومشياً وانتظاراً، وذكر محواً ورفع درجة ورباطاً ثلاث لثلاث، هذا يدلك على شهوده مواضع الحكم، ومن هنا وأمثاله قال عن نفسه: «أنه أوتي جَوَامِعَ الكَلِمِ».

وصية: وعليك بمراعاة كل مسلم من حيث هو مسلم، وساو بينهم كما سوّى الإسلام بينهم في أعيانهم، ولا تقل هذا ذو سلطان وجاه ومال وكبير وهذا صغير وفقير وحقير، ولا تحقر صغيراً ولا كبيراً في ذمته، واجعل الإسلام كله كالشخص الواحد والمسلمين كالأعضاء لذلك الشخص، وكذلك هو الأمر، فإن الإسلام ماله وجود إلاّ بالمسلمين، كما أن الإنسان ماله وجود إلاّ بأعضائه وجميع قواه الظاهرة والباطنة، وهذا الذي ذكرناه هو الذي راعاه رسول الله ﷺ فيما ثبت عنه من قوله في ذلك: «**المُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ**» وقال: «**المُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إن اشْتَكَى عَيْنَهُ اشْتَكَى كُلُّهُ وَإِنِ اشْتَكَى رَأْسَهُ اشْتَكَى كُلُّهُ**» ومع هذا التمثيل فأنزل كل واحد منزلته كما أنك تعامل كل عضو منك بما يليق به وما خلق له، فتغض بصرك عن أمر لا يعطيه السمع، وتفتح سمعك لشيء لا يعطيه للبصر، وتصرف يدك في أمر لا يكون لرجلك وهكذا جميع قواك، فتنزل كل عضو منك فيما خلق له كذلك، وإن اشترك المسلمون في الإسلام وساويت بينهم فاعط العالم حقّه من التعظيم والإصغاء إلى ما يأتي به، واعط الجاهل حقّه من تذكيرك إياه وتنبيهه على طلب

العلم والسعادة، واعط الغافل حقه بأن توقظه من نوم غفلته بالتذكر لما غفل عنه ممّا هو عـ ـه به غير مستعمل علمه وكذلك الطائع والمخالف، واعط السلطان حقه من السمع والطاعة فيما هو مباح لك فعله وتركه، فيجب عليك بأمره ونهيه أن تسمع له وتطيع، فيعود لأمر السلطـ ونهيه ما كان مباحاً قبل ذلك واجباً أو محظوراً بالحكم المشروع من الله في قوله: ﴿وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] واعط الصغير حقّه من الرفق به والرحمة له والشفقة عليه، واعط الكبير حقه من الشرف والتوقير فإنّ من السنّة رحمة الصغير وتوقير الكبير ومعرفة شرفه، ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لَيسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنا وَيَعرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا**» وفي حديث: «**وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا**» وعليك برحمة الخلق أجمع ومراعاتهم كانوا ما كانوا فإنهم عبيد الله وإن عصوا. وخلق الله وإن فضل بعضهم بعضاً فإنك إذا فعلت ذلك أو جرت فإنه ﷺ قد ذكر أنه في كل ذي كبد رطبة أجر ألا ترى إلى الحديث الوارد في البغي أن بغياً من بغايا بني إسرائيل وهي الزانية مرّت على كلب قد خرج لسانه من العطش وهو على رأس بئر فلما نظرت إلى حاله نزعت خفها وملأته بالماء من البئر وسقت الكلب فشكر الله فعلها فغفر لها بكلب. وأخبرني الحسن الوجيه المدرس بملطية الفارسيّ عن والي ببخارى وكان ظالماً مسرفاً على نفسه فرأى كلباً أجرب في يوم شديد البرد وهو ينتفض من البرد فأمر بعض شاكريته فاحتمل الكلب إلى بيته وجعله في موضع حارّ وأطعمه وسقاه ودفي الكلب فرأى في النوم أو سمع هاتفاً الشك مني يقول له: يا فلان كنت كلباً فوهبناك لكلب فما بقي إلاّ أيام يسيرة ومات فكان له مشهد عظيم لشفقته على كلب وأين المسلم من الكلب؟ فافعل الخير ولا تبال فيمن تفعله تكن أنت أهلاً له، ولتأت كل صفة محمودة من حيث ما هي من مكارم الأخلاق تتحلى بها وكن محلاً لها لشرفها عند الله وثناء الحق عليها، فاطلب الفضائل لأعيانها، واجتنب الرذائل العرفية لأعيانها، واجعل الناس تبعاً لا تقف مع ذمّهم ولا حمدهم إلاّ أنك تقدّم الأولى فالأولى إن أردت أن تكون مع الحكماء المتأدّبين بآداب الله التي شرعها للمؤمنين على ألسنة الرسل عليهم السلام.

واعلم أن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً وما في العالم إلاّ مؤمن لأن ما في العالم إلاّ من هو ساجد لله إلاّ بعض الثقلين من الجنّ والإنس، فإن في الإنسان الواحد منهم كثيراً ممّن يسبح الله ويسجد لله وفيه من لا يسجد لله وهو الذي حق عليه العذاب، انظر في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النساء: ١٣٦] فسمّاهم مؤمنين وأمرهم بالإيمان، فالأوّل عموم الإيمان فإن الله قال في حق قوم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [العنكبوت: ٥٢] والثاني خصوص الإيمان وهو المأمور به، والأوّل إقرار منهم من غير أن يقترن به تكليف بل ذلك عن علم، وأيسره في بني آدم حين أشهدهم علي أنفسهم كما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فخاطبهم بالمؤمنين حين أيه بهم، ثم أمرهم بالإيمان في هذه الحالة الأخرى وما تعرّض للتوحيد المطلق رحمة بهم فإنه القائل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] الشرك

الخفيّ وقد ذكرناه فلذلك قال لهم: ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦] ولم يقل بتوحيد الله، فمن آمن بوجود الله فقد آمن، ومن آمن بتوحيده فما أشرك، فالإيمان إثبات والتوحيد نفي شريك، ومن أسماء الله المؤمن وهو يشدّ من المؤمن المخلوق، قال ﷺ: «**يَرْحَمُ الله أخِي لُوطاً لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ**» وهو الاسم المؤمن، فالمؤمن يشدّ من المؤمن فافهم.

وصية: كن عمري الفعل فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: من خدعنا في الله انخدعنا له، فاحذر يا أخي إذا رأيت أحداً يخدعك في الله وأنت تعلم بخداعه إياك فمن كرم الأخلاق أن تنخدع له ولا توجده أنك عرفت بخداعه وتباله له حتى يغلب على ظنّه أنه قد أثر فيك بخداعه ولا يدري أنك تعلم بذلك، لأنك إذا أقمت في هذه الصفة فقد وفيت الأمر حقه، فإنك ما عاملت إلاّ الصفة التي ظهر لك بها، والإنسان إنما يعامل الناس لصفاتهم لا لأعيانهم، ألا تراه لو كان صادقاً غير مخادع لوجب عليك أن تعامله بما ظهر لك منه وهو ما يسعد إلاّ بصدقه كما أنه يشقى بخداعه ونفاقه فإن المخادع منافق، فلا تفضحه في خداعه وتجاهل له وانصنع له باللون الذي أراده منك أن تنصبغ له به، وادع له وارحمه عسى الله أن ينفعه بك ويجيب فيه صالح دعائك، فإنك إذا فعلت هذا كنت مؤمناً حقاً فإن المؤمن غر كريم لأن خلق الإيمان يعطي المعاملة بالظاهر، والمنافق خب لئيم أي لئيم على نفسه حيث لم يسلك بها طريق نجاتها وسعادتها، كن رداء وقميصاً لأخيك المؤمن وحطه من ورائه واحفظه في نفسه وعرضه وأهله وولده فإنك أخوه بنص الكتاب العزيز، واجعله مرآة ترى فيها نفسك، فكما تزيل عنك كل أذى تكشفه لك المرآة في وجهك كذلك فلتزل عن أخيك المؤمن كل أذى يتأذى به في نفسه فإن نفس الشيء وجهه وحقيقته.

وصية: واحفظ حق الجار والجوار وقدم الأقرب داراً إليك فالأقرب وتفقد جيرانك ممّا أنعم الله به عليك فإنك مسؤول عنهم وادفع عنهم ما يتضرّرون به كان الجيران ما كانوا، وما سميت جاراً له وجاراً لك إلاّ لميلك إليه بالإحسان وميله إليك ودفع الضرر مشتق من جار إذا مال فإن الجور الميل، فمن جعله من الجور الذي هو الميل إلى الباطل والظلم في العرف فهو كمن يسمّى اللديغ سليماً في النقيض، وفي هذا فغلبت حق الجوار كان الجار ما كان كأنه يقول، وإن كان الجار من أهل الجور أي الميل إلى الباطل بشرك أو كفر فلا يمنعنك ذلك منه عن مراعاة حقّه فكيف بالمؤمن؟ فحق الجار إنما هو على الجار، وأعجب ما رويته في ذلك عن بعض شيوخنا فذكر من مناقب بعض الأعراب أن جراداً نزل بفناء بيته فخرجت الأعراب إليه بالعدد ليقتلوه ويأكلوه فقال لهم صاحب البيت: ما تبتغون؟ فقالوا له: نبتغي قتل جارك يريدون الجراد فقال لهم: بعد أن سميتموه جاري فوالله لا أترك لكم سبيلاً إليه وجرّد سيفه يذب عنه مراعاة لحق الجوار. فهذا كما سئل مالك بن أنس عن أكل خنزير البحر فقال: هو حرام فقيل له: إنه سمك من حيوان البحر الذي أحلّ الله أكله لنا فقال لهم مالك: أنتم سميتموه خنزيراً ما قلتم ما تقول في سمك البحر فاهجر ما نهاك الله عنه وقد نهاك عن أذى الجار فاهجر أذاه ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ وَمَا

يُلَقَّىٰهَآ ﴿٣٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤ـ ٣٥] وفيما روينا من الأخبار في سبب نزول هذه الآية أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ من المشركين من فصحاء العرب وقد سمع أن الله قد أنزل عليه قرآناً عجز عن معارضته فصحاء العرب فقال له: يا رسول الله هل فيما أنزل عليك ربك مثل ما قلته؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**وما قلت؟**» فقال الأعرابي: قلت: [الطويل]

وحَيِّ ذوي الأضْغان تَسْبي عُقُولَهُم ... تَحِيَّتُكَ القُرْبَى فقد ترفع النَّفَلْ

وإنْ جَهَرُوا بالقَوْل فاعْفُ تَكَرُّماً ... وإن سَتَرُوا عنك المَلامةَ لم تُبَلْ

فإن الذي يؤذيك منه استماعه ... وإن الذي قد قيل خَلْفَكَ لم يُقَلْ

فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤ـ ٣٥] فقال الأعرابي: هذا والله هو السحر الحلال، والله ما تخيلت ولا كان في علمي أنه يزاد أو يؤتى بأحسن ممّا قلته، أشهد أنك رسول الله، والله ما خرج هذا إلاَّ من ذي أل، فمثل هؤلاء عرفوا إعجاز القرآن، أترى يا وليي يكون هذا الأعرابي فيما وصف به نفسه بأكرم من الله في هذا الخلق في تحمّل الأذى وإظهار البشر والمخالفات عن العقوبة والعفو مع القدرة وتهوين ما يقبح على النفس والتغافل عمّن أراد التستر عنك بما يشينه لو ظهر به، بل والله أكرم منه وأكثر تجاوزاً وعفواً وحلماً وأصدق قيلاً، فإن هذا القول من العربي وإن كان حسناً فما يدرى عند وقوع الفعل ما يكون منه والحق صادق القول بالدليل العقليّ، فما يأمر بمكرمة إلاَّ وهي صفته التي يعامل بها عباده، ولا ينهى عن صفة مذمومة لئيمة إلاَّ وهو أنزه عنها، لا إلٰه إلاَّ هو العزيز الحكيم الغفور الرحيم، انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فنصرة الظالم من حيث ما هو مظلوم، فإن الشيطان ظلمه بما وسوس إليه به في صدره من ظلم غيره فتنصره بأن تعينه على دفع ما ألقى الشيطان عنده من تزيينه ظلم الغير حتى سمّي بظالم، فما نصرته إلاَّ لكونه مظلوماً لمن وسوس في صدره وحال بينه وبين الهدى الذي هو له ملك فابتاعه منه الشيطان بالضلالة فاشترى الضلالة بالهدى فسمّي ظالماً، فإذا أبنت له أنت بنصحك وأفتيته أن هذا البيع مفسوخ لا يجوز شرعاً فلا ينعقد وإن صفقته خاسرة وتجارته بائرة فقد نصرته مع كونه ظالماً فرجع عن ظلمه وتاب وذلك هو فسخ البيع، يقول الله في مثل هؤلاء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦] فإياك أن تخذل من استنصر بك وقد قال مع غناه عنك: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] فطلب منكم أن تنصروه وما هو إلاَّ هذا، ولا تظلمه فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، ومن كان سعيه في ظلمة لا يدري متى يقع في مهواه أو ما يؤذيه في طريقه من هوام يكون في أذاه هلاكه، وأوصيتك لا تحقر أحداً من خلق الله فإن الله ما احتقره حين خلقه: [البسيط]

لا تَحْقِرَنَّ عِبَادَ الله إنّ لهم ... قَدْراً ولو جُمِعَتْ لك المَقَامَاتُ

فلا يكون الله يظهر العناية بإيجاد من أوجده من عدم وتحقره أنت فإن في ذلك تسفيه

من أوجده واحتقاره نعوذ بالله أن نكون من الجاهلين، فإن هذا من أكبر الكبائر، فالكل نعم الله يتغذى بها عباد الله كانوا ما كانوا، قال ﷺ: «**لا تَحْقِرَنَّ إحْدَاكُنَّ ما تُهْدِيهِ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ فَإِنَّ الاحْتِقَارَ جَهْلٌ مَحْضٌ**» ولا تكن لعاناً ولا سباباً ولا سخاباً فإن لعن المؤمن مثل قتله سواء، لقي عيسىٰ عليه السلام خنزيراً فقال له: انج بسلام، فقيل له في ذلك فقال عليه السلام: «**ما أريد أن أعوِّدَ لساني إلاَّ قول الخير**»، كن حديثاً حسناً، وفي ذلك قلت: [الرمل]

إنـمـا الـنـاسُ حـديـثٌ كُـلُّـهُـم ... فـلـتـكُـنْ خَـيْـرَ حَـدِيـثٍ يُـسْـمَـعُ
وإذا شَـاكَـتْـكَ مـنـهـم شَـوْكَـةٌ ... فَـلْـتَـكُـنْ أقْـوَى مِـجَـنٍّ يَـدْفَـعُ
وإذا مـا كـنـتَ فـيـهـم هـكـذا ... أنـت والله إمـامٌ يَـنْـفَـعُ
إنـمـا الـشـمـعـةُ تـؤذي نَـفْـسَـهـا ... وهـي لِـلـنَّـاظِـرِ نُـورٌ يَـسْـطَـعُ
إنـمـا الـلَّـوْمُ الـذي تـعـرفُـهُ ... نـعـمـةٌ فـي يـد شَـخْـصٍ يَـمْـنَـعُ

وصية: إياك والخيلاء، وارفع ثوبك فوق كعبك أو إلى نصف ساقك، روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أُزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلى نِصْفِ سَاقِهِ**» أو كما قال. ولعلي بن أبي طالب في ذلك: [المجتث]

تَـقْـصِـيـرُكَ الـثَّـوْبَ حَـقًّـا ... أنْـقَـى وأبْـقَـى وأتْـقَـى

فأما قوله أنقى فلارتفاعه عن القاذورات التي تكون في الطرق والنجاسات. وأما قوله أبقى فإن الثوب إذا طال حكّ في الأرض بالمشي فيسارع إليه التقطيع فيقل عمر الثوب فإنه يخلق بالعجلة إذا طال بما يصيب الأرض منه. وأما قوله أتقى فإنه مشروع أعني تقصير الثوب إلى نصف الساق، والمتقي من جعل الشرع له وقاية وجنة يتقي به ما يؤذيه من شياطين الإنس والجن وأن الله لا ينظر لمن يجر ثوبه خيلاء، وإياك أن تسأل الناس تكثراً وعندك ما يغنيك في حال سؤلك، فإن المسألة خدوش أو خموش في وجهك يوم القيامة، فإذا اضطررت ولم تقدر على شغل فسل قوتك ولا تتعداه إذا لم يرزقك الله يقيناً وثقة به وكفارة ذلك السؤال عدم تكثرك واقتصارك في المسألة على بلغة وقتك فإن مسألة المؤمن حرق النار، ومعنى ذلك أن المؤمن يجد عند سؤاله مخلوقاً مثله في دفع ضرورته مثل حرق النار في قلبه من الحياء في ذلك حيث لم ينزل مسألته ودفع ضرورته بربه الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي يسخر له هذا المسؤول منه حتى يعطيه، ومن وجد ذلك تعزّزاً وتكبّراً حيث التجأ إلى مخلوق مثله فذلك من شرف همته من حيث لا يشعر، وشرف الهمة أحسن من دناءة الهمة فإن العبد يتعزز على عبد مثله، كما أن فخره وشرفه في فقره إلى سيده وسؤاله في دفع ضروراته وملماته وقضاء مهماته.

وصية: إذا رأيت أنصارياً أو أنصارية وإن كان عدواً لك فلتحبه الحب الشديد، واحذر أن تبغضه فتخرج من الإيمان، فإن النبي ﷺ لقي امرأة من الأنصار في طريقه فقال لها: «**إنَّكُمْ لَمِنْ أَحَبِّ خَلْقِ الله إلَيَّ**» وثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**آيَةُ الإيمانِ حُبُّ الأَنْصَارِ وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ**». واعلم أن كل من نصر دين الله في أي زمان كان فهو من الأنصار وهو

داخل في حكم هذا الحديث. واعلم أن الأنصار لدين الله رجلان: الواحد نصر دين الله ابتداء من نفسه من غير أن يعرف وجوب ذلك عليه، ورجل عرف نصرة الدين عليه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤] فأمرهم بنصرة الله فأدّى واجباً في نصرته فله أجر النصرة وأجر أداء الواجب بما نواه من امتثال أمر الله في ذلك وتعين عليه. ولو كفاه غيره مؤنة ذلك فلا يتأخر عن أمر الله، ونصرة الله قد تكون بما يعطي من العلم المظهر للحق الدافع للباطل فهو جهاد معنوي محسوس فكونه معنوياً لأن الباطن يقبله فإن العلم متعلقه النفس، وأما كونه محسوساً فما يتعلق بذلك من العبارة عنه باللسان أو الكتابة فيحصل للسامع أو الناظر بطريق السمع من المتكلم أو بطريق النظر من الكتابة، وجهاد العدو نصرة محسوسة ما هي معنوية فإنه ما نال العدو من المقاتل له شيئاً في الباطن بردّه عن اعتقاده كما ناله من العالم إذا علمه وأصغى إليه ووفقه الله للقبول وفتح عين فهمه لما يورده عليه العالم في تعليمه وهي أعظم نصرة وهو أعظم أنصاري لله، يقول النبيّ ﷺ: «**لَأَنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**» وقد طلعت الشمس على كل عالم عامل بخير فأنت خير منه إذا نصرت بتعليم العلم دين الله في نفس هذا المخاطب. وعليك بصدق الحديث وأداء الأمانة وصدق الوعد فاجتنب الكذب والخيانة وخلف الوعد، وإذا خاصمت أحداً فلا تفجر عليه فإن علامة المنافق وآيته إذا حدّث كذّب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وإذا خاصم فجر، وأعظم الخيانة أن تحدث أخاك بحديث يرى أنك صادق فيه وأنت على غير ذلك، وإن الإنسان إذا كذب الكذبة تباعد منه الملك ثلاثين ميلاً من نتن ما جاء به، وكذلك الشيطان إذا أمر ابن آدم بالمعصية فعصى تبرأ منه الشيطان خوفاً من الله تعالىٰ، فاعمل على ذوق هذه الروائح المعنوية واستنشاقها، فإن له حجباً على أنفك تمنعك من إدراك أنتن ذلك، فلا يكن الشيطان مع كفره أدرك للأمور وأخوف من الله منك، واعتبر في تبريه من ذلك فإنها خميرة من الله في قلبه إلى زمان ما يظهر حكمها فيه مع كونه مجبولاً على الإغواء كما هو مجبول على التبري والخوف من الله، أخبر الله عنه أنه يقول للإنسان اكفر فإذا كفر يقول الشيطان: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] فما أخذ الشيطان قط يعلمه لشرف علمه وإنما يؤخذ لصدق الحق فيما قاله فيما شرعه فيمن سنّ سنّة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها، فالشيطان يوم القيامة يحمل أثقال غيره فإنه في كل إغواء يتوب عقيبه ثم يشرع في إغواء آخر فيؤخذ بعمل غيره لأنه من وسوسته، والإنسان الذي لا يتوب إذا سنّ سنّة سيئة يحمل ثقلها وأثقال من عمل بها فيكون الشيطان أسعد حالاً منه بكثير، وإياك أن تخلف وعدك ولتخلف إيعادك ولكن سم إخلاف إيعادك تجاوزاً حتى لا تتسمى بأنك مخلف ما أوعدت به من الشر وهذه شبهة المعتزلة وغاب عنها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] وما تواطؤوا عليه أعني الأعراب إذا أوعدت أو وعدت بالشرّ التجاوز عنه وجعلت ذلك من مكارم الأخلاق فعاملهم الحق بما تواطؤوا عليه، فزلت هنا المعتزلة زلّة عظيمة أوقعها في ذلك استحالة الكذب على الله تعالىٰ في خبره، وما علمت أن مثل هذا لا يسمّى كذباً في

العرف الذي نزل به الشرع فحجبهم دليل عقلي عن علم وضع حكمي، وهذا من قصور بعض العقول ووقوفها في كل موطن مع أدلتها ولا ينبغي لها ذلك، ولتنظر إلى المقاصد الشرعية في الخطاب ومن خاطب وبأي لسان خاطب وبأي عرف أوقع المعاملة في تلك الأمة المخصوصة، يقول بعض الأعراب في كرم خلقه: [الطويل]

وإنّي إذا أوْعَدْتُهُ أو وَعَدْتُهُ لَمُخْلِفُ إيعَادي ومُنْجِزُ مَوْعِدي

لكن لا ينبغي أن يقال مخلف بل ينبغي أن يقال إنه عفو متجاوز عن عبده.

وصية: وعليك بالبذاذة فإنها من الإيمان وهي عدم الترفه في الدنيا وقد ورد قوله: «**اخْشَوْشِنُوا**» وهي من صفات الحاج وصفة أهل يوم القيامة فإنهم شعث غبر حفاة فإن ذلك كله أنفى للكبر وأبعد من العجب والزهو والخيلاء والصلف وهي أمور ذمّها الشرع وكرهها وهي مذمومة في العرف عندالناس وعند الله، ولذلك جعل النبيّ ﷺ البذاذة من الإيمان وألحقها بشعبه، فإن النبي ﷺ يقول: «**الإيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً أعْلاهَا لا إله إلاَّ الله وَأَدْنَاهَا إمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**» ولا شك أن الزهو والعجب والكبر أذى في طريق سعادة المؤمن، ولا يماط هذا الأذى إلاَّ بالبذاذة فلهذا جعلها رسول الله ﷺ من الإيمان.

وصية: وعليك بالحياء فإن الله حيي والحياء من الإيمان، والحياء خير كله، وإن الله يستحي من ذي الشيبة يوم القيامة، فإن العبد إذا اتصف بالحياء من الله ترك كل ما لا يرضي الله وما يشينه عند الله تعالىٰ وعند رسول الله ﷺ، والحياء معناه الترك قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ يقول إن الله لا يترك ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ في الصغر لقول من ضلّ بهذا المثل من المشركين الذين تكلموا فيه فإن الله قال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ﴾ أي بهذا المثل ﴿كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] فإنهم حاروا فيه الضلالة الحيرة، ورأوا عزّة الله وجلاله وكبرياءه وحقارة البعوضة في المخلوقات، فاستعظموا جلال الله أن ينزل في ضرب المثل لعباده هذا النزول وذلك لجهلهم بالأمور، فإنه لا فرق بين أعظم المخلوقات وهو العرش المحيط وبين الذرة في الخلق والبعوضة وإخراجها من العدم إلى الوجود، فما هي حقيرة إلاَّ من صغر جسمها إذا أضفته إلى ذي الجسم الكبير، بل الحكمة في البعوضة أتم والقدرة أنفذ، فإن البعوضة على صغرها خلقها الله على صورة الفيل على عظمه، فخلق البعوضة أعظم في الدلالة على قدرة خالقها من الفيل لأهل النظر والاعتبار، ولهذا لم يصف نفسه بالحياء في ذلك لما فيها من الدلالة على تعظيم الحق. ثم إن مواطن الحياء التي في الإنسان كثيرة، فإن الحياء صفة يسري نفعها ممّن قامت به في أكثر الأشياء ولهذا قال: الحياء خير كله والحياء لا يأتي إلاَّ بخير وهو أن لا يفعل الإنسان ما يخجل فيه إذا عرف منه بأنه فعله، وقد علم المؤمن أن الله يعلم ويرى كلما يتحرك فيه العبد فيلزمه الحياء منه لعلمه بذلك، ولإيمانه أنه لا بدّ أن يقرره يوم القيامة على ما عمله فيخجل فيؤدّيه ذلك إلى ترك العمل فيه وذلك هو الحياء، فمن هنا لا يأتي إلاَّ بخير والله أحق أن يستحيى منه.

وصية: وعليك بالنصيحة على الإطلاق فإنها الدين، خرج مسلم في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**» واعلم أن النصاح الخيط والمنصحة الإبرة والناصح الخائط والخائط هو الذي يؤلف أجزاء الثوب حتى يصير قميصاً أو ما كان فينتفع به بتأليفه إياه وما ألفه إلاَّ بنصحه، والناصح في دين الله هو الذي يؤلف بين عباد الله وبين ما فيه سعادتهم عند الله، ويؤلف بين الله وبين خلقه وهو قوله: النصيحة لله، وفيه تنبيه في الشفاعة عند الله إذا رأى العبد الناصح أن الله يريد مؤاخذة العبد على جريمته فيقول لله: يا رب إنك ندبت إلى العفو عبادك وجعلت ذلك من مكارم الأخلاق وهو أولى من جزاء المسيء بما يسؤه، وذكرت للعبد أن أجر العافين عن الناس فيما أساؤوا إليهم فيه ممّا توجهت عليهم به الحقوق على الله، فأنت أحق بهذه الصفة لما أنت عليه من الجود والكرم والامتنان ولا مكره لك، فأنت أهل العفو والتكرّم بالتجاوز عن هذا العبد المسيء المتعدي حدودك عن إساءته وإسبال ذيل الكرم عليه واتصاف الحق بالجود، والعفو عن الجاني أعظم من المؤاخذة على الإساءة، فإن المؤاخذة والعقوبة جزاء وما في الجزاء على الشرّ فضل إلاَّ إذا كان في الدنيا لما في إقامة الحدود من دفع المضرّة العامة، وما في ذلك من المصالح التي تعود على الناس مثل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] وأما في الآخرة فما ثم ما يندفع بجزاء المسيء ما يندفع به في الدنيا فكان العبد إذا قال هذا يوم القيامة أو حيث قاله لله بطريق الشفاعة كأنه ناصح للمقام الإلهيّ في أن يثني عليه إذا عفا عن المسيء بالكرم والطول والفضل فإن في ذلك عين الامتنان، فهذا معنى قوله: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ لِلَّهِ**» أي في حق الله فإنه يسعى في أن يثني على الله إذا عفا بما يكون ثناء حسناً، ولا سيما وقد ورد في الحديث الثابت: «**إِنَّهُ لا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ أَنْ يُمْدَحَ**» فكما أنه مدح في الدنيا بما نصب من الحدود التي درأ بها المضار عن عباده إذا أقامها أئمة المسلمين على المذنبين كذلك يمدح بالعفو والتجاوز في الدار الآخرة لأنه هنالك ما تمشي هذه المصلحة التي نصبت من أجلها إقامة الحدود التي لا يتمكن الشفاعة فيها كحد السارق والزاني وحقوق الله على الإطلاق، وأما ما هو حق للعبد فإن الله قد ندب فيه إلى العفو والتجاوز، فالعفو من وليّ الدمّ أو قبول الدية، فإن المظلوم هو المقتول وقد مات فالطالب قد تقدم كالشاكي الذي يمشي إلى السلطان رافعاً على من ظلمه، فجعل الديّة كالإحسان لوليّ الدم لعل ذلك الشاكي إذا بلغه إحسانه لذوي رحمه يسكت عنه ولا يطالبه عند الله الحكم العدل بشيء من دمه.

وأما النصيحة لرسول الله ﷺ ففي زمانه إذا رأى منه الصاحب أمراً قد قرّر خلافه والإنسان صاحب غفلات فينبه الصاحب رسول الله ﷺ على ذلك حتى يواصل فعله بالقصد فيكون حكماً مشروعاً أو فعله عن نسيان فيرجع عنه، فهذا من النصح لرسول الله ﷺ مثل سهوه في الصلاة فالواجب عليه في الرباعية أن يصليها أربعاً فسلم من اثنتين فقيل له في ذلك فهذه نصيحة لرسول الله ﷺ فرجع وأتم صلاته وسجد سجدتي السهو، وكان ما قد روي في

ذلك وأمثال هذا، ولهذا أمر الله عزّ وجلّ نبيه ﷺ بمشاورة أصحابه فيما لم يوح إليه فيه، فإذا شاورهم تعين عليهم أن ينصحوه فيما شاورهم فيه على قدر علمهم، وما يقتضيه نظرهم في ذلك أنه مصلحة، كنزوله يوم بدر على غير ماء فنصحوه وأمروه أن يكون الماء في حيزه ﷺ ففعل، ونصحه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قتل أسارى بدر حين أشار بذلك. وأما بعد رسول ا لله ﷺ فلم تبق له نصيحة، ولكن إذا كانت هذه اللام لام الأجلية بقيت النصيحة، فهذا قد بيّنا ما في نصيحة رسول الله ﷺ أن المشير الناصح قد جمع بين رسول الله ﷺ وبين الرأي الذي فيه المصلحة، كما يجمع الناصح الذي هو الخائط بالخياطة بين قطعة الكمّ والبدن في الثوب.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين وهم ولاة الأمور منا القائمون بمصالح عباد الله الدينية والحكام وأهل الفتاوى في الدين من العلماء يدخلون في أئمة المسلمين أيضاً، فإن كان الحاكم عالماً كان وإن لم يكن من العلماء بتلك المسألة سأل من يعلم عن الحكم فيها فيتعين على المفتي أن ينصح ويفتيه بما يراه أنه حق عنده ويذكر له دليله على ما أفتاه به فيخلصه عند الله، فهذه هي النصيحة لأئمة المسلمين. ولما لم تفرض العصمة لأئمة المسلمين وعلم أنهم قد يخطؤون ويتبعون أهوائهم تعين على أهل الدين من العلماء بالدين أن ينصحوا أئمة المسلمين ويردوهم عن اتباع أهوائهم في الناس فيؤلفون بين ما هو الدين عليه وبينهم، فمثل هذا هو النصح لأئمة المسلمين فيعود على الناس نفع ذلك.

وأما النصيحة لعامتهم فمعلومة وهي أن يشير عليهم بما لهم فيه المصلحة التي لا تضرّهم في دينهم ولا دنياهم، فإن كان ولا بدّ من ضرر يقوم من ذلك إما في الدين أو في الدنيا فيرجحوا في النصيحة ضرر الدنيا على ضرر الدين فيشيرون عليهم بما يسلم لهم فيه دينهم فإن الله يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقال: دين الله يسر. وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وإن أضرّ بدنياهم ومهما قدروا على دفع الضرر في الدين والدنيا معاً بوجه من الوجوه وعرفوه تعين عليهم في الدين أن ينصحوه في ذلك ويبينوه، والمستفتي بالخيار في ذلك بحسب ما يوفقه الله إليه، والذي أقول به أن النصيحة تعمّ إذ هي عين الدين وهي صفة الناصح فتسري منفعتها في جميع العالم كله من الناصح الذي يستبرىء لدينه ويطلب معالي الأمور فيرى حيواناً قد أضرّ به العطش وقد حاد ذلك الحيوان عن طريق الماء فيتعين عليه أن يردّه إلى طريق الماء ويسقيه إن قدر على ذلك فهذا من النصيحة الدينية، وكذلك لو رأى من ليس على ملة الإسلام يفعل فعلاً من سفساف الأخلاق تعين على الناصح أن يردّه عن ذلك مهما قدر إلى مكارم الأخلاق، وإن لم يقدر عليه تعين عليه أن يبين له عيب ذلك فربما انتفع بتلك النصيحة ذلك الشخص بما له في ذلك من الثناء الحسن، وينتفع بتلك النصيحة من اندفع عنه ضرر هذا الذي أراد أن يضرّه، وإن لم يكن مسلماً ذلك المدفوع عنه فيتعين على صاحب الدين نصح عباد الله مطلقاً، ولهذا يتعين على السلطان أن يدعو عدوّه الكافر إلى الإسلام قبل قتاله، فإن أجاب وإلاّ دعاه إلى الجزية إن كان من أهل كتاب، فإن

أجاب إلى الصلح بما شرط عليه قبل منه يقول الله : ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١] فيبقى على المسلمين إن كانت المنفعة للمسلمين في ذلك فإن أبوا إلاَّ القتال قاتلهم وأمر المسلمين بقتالهم، على أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، إلاَّ أنه من التزم النصح قل أولياؤه فإن الغالب على الناس اتباع الأهواء ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «**ما تَرَكَ الحَقُّ لِعُمَرَ مِنْ صَدِيقٍ**» وكذلك قال أويس القرني : قولك الحق لم يترك لك صديقاً. ولنا في ذلك : [الكامل]

لَـمَّـا لَـزِمْـتُ الـنُّـصْـحَ والـتَّـحْـقِـيـقَـا لـم يَـتْـرُكَـا لـي فـي الـوُجُـودِ صَـدِيـقَـا

ويحتاج الناصح إلى علم كثير من علم الشريعة لأنه العلم العام الذي يعمّ جميع أحوال الناس وعلم زمانه ومكانه، وما ثم إلاَّ الحال والزمان والمكان، وبقي للناصح علم الترجيح إذا تقابلت هذه الأمور فيكون ما يصلح الزمان يفسد الحال أو المكان، وكذلك كل واحد منها فينظر في الترجيح فيفعل بحسب ما يترجح عنده وذلك على قدر إيمانه، مثال ذلك : أن يعلم أن الزمان قد أعطى بحاله في أمرين هما صالحان في حق شخص وضاق الزمان عن فعلهما معاً فيعدل إلى أولاهما فيشير به على المستشير، وكذلك إذا عرف من حال شخص المخالفة واللجاج وأنه إذا دلّه على أمر فيه مصلحته يفعل بخلافه، فمن النصيحة أنه لا ينصحه بل يشير عليه بخلاف ذلك إذا علم أن الأمر محصور بين أن يفعل ذلك أو هذا الذي فيه المصلحة وشأنه المخالفة واللجاج فيشير عليه بما لا ينبغي فيخالفه فيفعل ما ينبغي والأولى عندي تركه، ولقد جرى لي مع أشخاص أظهرنا لهم أن في فعلهم ذلك الخير الذي نريده منهم نكايتنا وهم يريدون نكايتنا فأشرنا عليهم أن لا يفعلوا ذلك ولهم في فعله الخير العظيم لهم فلم يفعلوا وفعلوا ما نهيتهم عنه أن يفعلوه، فهذه نصيحة خفية لا يشعر بها كل أحد، وهذا يسمّى علم السياسة فإنه يسوس بذلك النفوس الجموحة الشاردة عن طريق مصالحها فلذلك قلنا : إن الناصح في دين الله يحتاج إلى علم كثير وعقل وفكر صحيح وروية حسنة واعتدال مزاج وتؤدة، وإن لم تكن فيه هذه الخصال كان الخطأ أسرع إليه من الإصابة، وما في مكارم الأخلاق أدق ولا أخفى ولا أعظم من النصيحة، ولنا فيه جزء سميناه كتاب النصائح ذكرنا فيه ما لا يعوّل عليه وما يعوّل عليه ولكن أكثره فيما لا يعول عليه ممّا يعوّل الناس عليه ولكن لا يعلمون.

وصية : وعليك بمراعاة حالك في الزمان بين الصلاتين : وأنت لا تخلو أبداً أن تكون بين صلاتين فإن الأمر دور والزمان الذي بين الظهر والعصر زمان بين صلاتين، وكذلك بين العصر والمغرب وبين المغرب والعشاء وبين العشاء والصبح وبين الصبح والظهر، ودار الدور وجاء الكور، وإذا خرج وقت صلاة دخل وقت صلاة لأخرى إلاَّ صلاة الصبح فإنه لا يدخل وقت صلاة الظهر بخروج وقت صلاة الصبح بلا خلاف وكذلك العتمة والصبح بخلاف، إلاَّ أنه لا يدخل وقت الظهر إلاَّ بعد خروج وقت الصبح لا بدّ من ذلك، فلا يدخل وقت صلاة حتى يخرج وقت التي قبلها، فالداخلة أبداً على أثر الخارجة، وقد يكون بعد طلوع الشمس

وقت أداء الصبح بوجه إلى أن تزول الشمس فيدخل وقت الظهر وذلك أن الإنسان قد يصلي الركعة الأولى من الصبح مثلاً قبل طلوع الشمس ويقول الشارع فيه إنه أدرك الصبح فتطلع الشمس عليه وقد شرع في الركعة الثانية من الصبح فلو أطالها إلى حد الزوال لجاز وذلك وقتها وهو مؤدّ لها، فما خرج وقت صلاة الصبح في حق هذا حتى دخل وقت الظهر، وهكذا في جميع الصلوات، فإن أوقات هذه الصلوات فيها خلاف بين العلماء، فلهذا ذكرناها تنبيهاً على أن فيها خلافاً، فيجوز على هذا أن تكون صلاة على أثر صلاة ولا لغو بينهما، فقد جعل أن بين الصلاتين زماناً لا صلاة فيه، ذلك الزمان هو زمان اللغو أو تركه، وإنما قلنا زمان اللغو أو تركه للحديث الثابت: «**صَلاةٌ عَلَى أَثَرِ صَلاَةٍ لا لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ**» ويدخل في هذا الحديث صلاة النافلة بعد النافلة والنافلة بعد الفريضة والفريضة بعد النافلة والفريضة بعد الفريضة، واللغو من الكلام هو الساقط لا دخول له في الميزان وهو المباح، فيقول رسول الله ﷺ في الرجل يصلي الصلاة ثم يتبعها بصلاة أخرى ولم يفعل بين هاتين الصلاتين في الزمان الذي لا يكون فيه مصلياً فعلاً مباحاً من قول وعمل، بل كان مشتغلاً بما يدخل الميزان من أمر مندوب إليه من ذكر أو غير ذكر ثم يصلي الصلاة الأخرى فإن ذلك كتاب في عليين لأنه لم يفعل بين الصلاتين لغواً أصلاً وهذا عزيز الوقوع، فإن أحمد أحوال الناس اليوم من يتصرّف في المباح فلا عليه ولا له، والغالب من أحوال الناس التصرّف في المكروه أو المحظور، فلهذا أوصيتك بمراعاة الزمان الذي بين الصلاتين وما رأيت أحداً نبّه عليه إلاّ إن كان، وما وصل إلينا إلاّ رسول الله ﷺ ومنه أخذنا ذلك.

وصية: وعليك بالصلاة المكتوبة حيث ينادى بها مع الجماعة، فإن المساجد ما اتخذت إلاّ لإقامة الصلاة المكتوبة فيها وما ينادى إلاّ إلى الإتيان إليها فإن ذلك سنّة رسول الله ﷺ، والمراد بذلك الاجتماع على إقامة الدين وأن لا نتفرّق فيه، ولهذا اختلف الناس في صلاة الفذ المكتوبة إذا قدر على الجماعة هل تجزيه أم لا؟ ومن ترك سنّة رسول الله ﷺ ضلّ بلا شك لأنه ﷺ ما سنّ إلاّ ما هو المهداة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢] فحافظ على المكتوبة والأرض كلها مسجد، فحيث ما قامت الجماعة من الأرض فما قامت إلاّ في مسجد، ولهذا ينبغي لمن صلّى في جماعة في مسجد بيته أن يؤذن لها وإن كانت الإقامة أذاناً، وإنما سميت إقامة لقيام المصلي إلى الصلاة عند هذا الأذان الخاص ففرّق بين الأذانين بالإقامة والأذان معناه الإعلام وابقوا اسم الأذان على الأول المعلم بدخول الوقت، فالأذان الأوّل للإعلام بدخول الوقت والأذان الثاني الذي هو الإقامة للإعلام بالقيام إلى الصلاة فزاد على الأذان بقوله: قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة.

وصية: وعليك بالمحافظة على صلاة الأوّابين وهي الصلاة في الأوقات المغفول عنها عند العامة وهي ما بين الضحى إلى الزوال، وما بين الظهر والعصر، وما بين المغرب والعشاء الآخرة، والتهجّد وهو أن ينام من أوّل الليل بعد صلاة العشاء الآخرة ثم يقوم إلى الصلاة ثم ينام ثم يقوم إلى الصلاة إلى أن يطلع الفجر فإذا طلع الفجر فاركع ركعتي الفجر ثم اضطجع

على شقك الأيمن من غير نوم ثم قم إلى صلاة الصبح، واجعل وترك ثلاث عشرة ركعة في تهجدك فإن هذا كان وتر رسول الله ﷺ، وأطل الركعتين الأوليين من التهجد ثم اللتين بعدهما أقل منهما في الطول والركعة الأولى من كل ركعتين على قدر الثانية من اللتين تقدمتهما، والركعة الثانية من كل ركعتين على النصف من الركعة الأولى منهما أو قريب من ذلك إلى أن توتر بركعة واحدة إن شئت أن لا تجلس إلاّ في آخر ركعة من وتر صلاتك وهي الإحدى عشر وإن شئت جلست في كل ركعتين، ولا تسلم إلاّ في آخر ركعة مفردة، وإن شئت خمست وسبعت وتسعت كل ذلك مباح لك، ولا تثلث من أجل التشبه بصلاة المغرب، وقد ورد في النهي عن ذلك خبر، وكذلك في الركعة الواحدة وتسمّى البتيراء، فاجتنب مواقع الخلاف ما استطعت واهرب إلى محل الإجماع مع أنه ثبت أنه أوتر بثلاث فإن أوترت بثلاث فلا تجلس إلاّ في آخرها وتسلم حتى تفرّق في الشبه بينها وبين المغرب، وإذا قمت إلى الصلاة بالليل وتوضأت فاركع ركعتين خفيفتين ثم بعدهما اشرع في صلاة الليل كما رسمت لك، وعند قيامك للتهجد امسح عينيك من النوم بيديك ثم اتل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] الآيات بكمالها، ثم قم فتوضأ واستفتح صلاتك بركعتين خفيفتين ثم اشرع في قيام الليل على ما وصفته لك في باب الصلاة من هذا الكتاب وأذكاره فانظره فيه وانظر اعتباره إن شاء الله، وقد ثبت أن صلاة الأوّابين حين ترمض الفصال، واجتنب الصلاة عند الاستواء وبعد العصر حتى تغرب الشمس وبعد الصبح حتى تطلع الشمس، وحافظ على الصلاة في جماعة فإنها تزيد على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة، وحافظ على أربع ركعات في أوّل النهار عند الإشراق كما قال: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨] والسبحة صلاة النافلة بقول عبد الله بن عمر وهو عربي في النافلة في السفر: لو كنت مسبحاً أتممت، ثم صلاة الضحى ثمان ركعات بعد صلاة الإشراق ثم أربع ركعات قبل الظهر وبعد الزوال ثم أربع ركعات بعد صلاة الظهر ثم أربع ركعات قبل صلاة العصر ثم ست ركعات بعد المغرب ثم ثلاث عشرة ركعة وترك من الليل فيها ركعتي الفجر، وتبقى إحدى عشرة ركعة هي صلاة الليل، هذا لا بدّ منه لمن يريد اتباع السنّة والاقتداء، وفي رواية ركعتين قبل المغرب ثم إن زدت فأنت وذلك فإن الصلاة خير موضوع، فمن شاء فليستقلل ومن شاء فليستكثر فإنه يناجي ربه، والحديث مع الله والاستكثار منه أشرف الأحوال، وأما الوصية بالصدقة والصوم فقد تقدم في باب الزكاة وباب الصيام وكذلك الحج من هذا الكتاب.

وصية: وعليك بالورع في المنطق كما تتورّع في المأكل والمشرب، والورع عبارة عن اجتناب الحرام والشبهات، وأما الشبهة فما حاك في صدرك ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ**» قال بعض العلماء من أهل الله: ما رأيت أسهل عليّ من الورع كل ما حاك له في نفسي شيء تركته. وقد ورد في الخبر: «**دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلى مَا لا يُرِيبُكَ**» وورد أيضاً: «**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ المُفْتُونَ**» يعني بالحل وتجد أنت في نفسك وقفة في ذلك

فاجتنبه فهو أولى بك ولا تحرّمه، وعليك بالهدى الصالح وهو هدى الأنبياء وهو اتباع آثارهم الذي أمر رسول الله ﷺ باتباعهم في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] وكذلك السمت الصالح والاقتصاد في أمورك كلها فإن النبي ﷺ قد ثبت عنه أن الهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوّة وتحفظ من العجلة إلاّ في المواطن التي أمرك رسول الله ﷺ بالعجلة فيها والمسارعة إليها مثل الصلاة لأوّل ميقاتها وإكرام الضيف وتجهيز الميت والبكر إذا أدركت بل وكل عمل للآخرة فالمسارعة إليه أولى من التؤدة فيه، واجعل التسويف والتؤدة في أمور الدنيا فإنه ما فاتك من الدنيا ما تندم عليه بل تفرح بفوته، وما فاتك من أمور الآخرة فإنك تندم عليه، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إلاَّ فِي عَمَلِ الآخِرَةِ**» وقد ذكر مسلم أن رسول الله ﷺ قال للأشج أشج عبد القيس: «**إنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله وَرَسُولُهُ**» قالَ: وَمَا هُمَا يا رَسُولَ الله؟ قالَ: «**الحِلْمُ وَالأَنَاةُ**» أراد الحلم عمّن جنى عليك والأناة في أمور الدنيا وأغراض النفس، وإن كان لك عائلة فكدّ عليهم فإن الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وكن خير الرعاة في كل ما استرعاك الله فيه على الإطلاق، فالسلطان راع وكل راع مسؤول عن رعيته ما فعل فيهم هل اتقى الله فيهم أو لم يتق، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، والعبد راع على مال سيده، ولا تغفل عن الصلاة على رسول الله ﷺ إذا ذكرته أو ذكر عندك تأمن من البخل فإنه ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**البَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**» ولو لم يكن في ذلك إلاّ إطلاق البخل عليك وهو من أذم الصفات وأرداها، ومعنى البخيل هنا بخله على نفسه فإنه قد ثبت فيمن صلّى على النبي ﷺ مرة صلّى الله عليه عشراً، فمن ترك الصلاة على النبي ﷺ فقد بخل على نفسه حيث حرمها صلاة الله عليه عشراً إذا صلّى هو واحدة فما زاد.

وصية: الله الله أن تعود في شيء خرجت عنه لله تعالىٰ، ولا تعقد مع الله عقداً ولا عهداً ثم تنقضه بعد ذلك وتحله ولا تفي به ولو تركته لما هو خير منه فإن ذلك من خاطر الشيطان فافعله وافعل الخير الآخر الذي أخطره لك الشيطان حتى لا تفي بالأول، فإن غرضه أن توصف بوصف الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وعليك بصلة الرحم فإنها شجنة من الرحمن وبها وقع النسب بيننا وبين الله، فمن وصل رحمه وصله الله، ومن قطع رحمه قطعه الله، وإذا استشرت في أمر فقد أمّنك المستشير فلا تخنه، فإن كان في نكاح فإن شئت أن تذكر ما تعرفه فيمن سئلت عنه ممّا يكرهه لو سمعه فإن ذلك الذكر ليس بغيبة يتعلق بها ذمّ، فإن كنت من أهل الورع الأشدّاء فيه ويحوك في نفسك شيء من هذا الذكر فلا تذكر ما تعرف فيه من القبيح وقل كلاماً مجملاً مثل أن تقول: ما تصلح لكم مصاهرته من غير تعيين ويكفي هذا القدر من الكلام، فإن كنت تعلم من قرائن الأحوال أن هذا الأمر الذي تذمّه به في نظرك لا يقدح عند القوم الذين يطلبون نكاحه فما خنتهم إذا لم تذكر لهم ما يقبح عندك فإنه ليس بقبيح عندهم وهم مقدمون عليه، وهذا موقوف على معرفة أحوال الناس، ومثل هذا الكلام في

الأسانيد في حديث رسول الله ﷺ كان أحمد بن حنبل يقول ليحيى بن معين: تعال نعتب في الله، والمستشار مؤتمن، وإياك والأكل والشرب في أواني الذهب والفضة، وإياك والجلوس على مائدة يدار عليها الخمر ولا حرام أصلاً، واجتنب لباس الحرير والذهب إن كنت رجلاً وهو حلال للمرأة، وإذا رأيت رؤيا تحزنك واستيقظت فاتفل عن يسارك ثلاث مرات وقل: أعوذ بالله من شرّ ما رأيت، وتحوّل عن جنبك الذي كنت عليه في حال رؤياك إلى الجنب الآخر، ولا تحدث بما رأيت فإنها لا تضرّك، فحافظ على مثل هذا تر برهانه، فإن كثيراً من الناس وإن استعاذوا يتحدثون بما رأوه، وقد ورد أن الرؤيا معلقة من رجل طائر فإذا قالها سقطت لما قيلت له، وعليك باستعمال الطيب فإنه سنّة، واستعمل منه إن كنت ذكراً ما ظهر ريحه وخفي لونه، وإن كنت امرأة فاستعمل منه ما ظهر لونه وخفي ريحه، فإن الحديث النبويّ بهذا ورد، وعليك بالسواك لكل صلاة وعند كل وضوء وعند دخولك إلى بيتك فإنه مطهرة للفم ومرضاة للرب، وقد ورد: «**إنَّ صَلاةً بِسِوَاكٍ تَفْضُلُ سَبْعِينَ صَلاةً بِغَيْرِ سِوَاكٍ**» ذكره ابن زنجويه في كتاب الترغيب في فضائل الأعمال، وإياك واليمين الغموس فإنها تغمس صاحبها في الإثم فإن الناس اختلفوا في كفارتها فمنهم من ألحقها في الكفارة بالأيمان، ومنهم من قال إنها لا كفارة فيها وهي اليمين التي تقطع بها حقاً للغير وجب عليك، وفي هذا فقه عجيب دقيق لمن نظر وتفقه في وجوب الحق متى يكون وبأيّ صفة يكون، وما منعني أن أبينه للناس إلاّ سد الذريعة حتى لا يتأول فيه الجاهل فيجاوز القدر الذي نذكره فيقع في الإثم وهو لا يشعر، فإن الفقهاء أغفلوا هذا الوجه الذي أومأنا إليه وما ذكروه، وإياك والمراء في القرآن فإنه كفر بنص الحديث وهو الخوض فيه بأنه محدث أو قديم أو هل هذا المكتوب في المصاحف والمتلو المتلفظ به عين كلام الله أو ما هو عين كلام الله، فالكلام في مثل هذا والخوض فيه هو الخوض في آيات الله، وهذا هو المراء والجدال في القرآن الداخل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨] فسمّاه حديثاً وليس إلاّ القرآن، فلو أراد آيات غير القرآن لقال فيها بضمير الآية أو الآيات، فليس للذكورية هنا دخول إلاّ إذا أراد آيات القرآن، والقرآن خبر الله والخبر عين الحديث، وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] والذكر الحديث.

وصية: اكظم التثاؤب ما استطعت فإنه من الشيطان، وإياك أن تصوّت فيه فإن ذلك صوت الشيطان، والعطاس في الصلاة من الشيطان أيضاً، وفي غير الصلاة العطاس ليس من الشيطان، وإياك والطرق وهو الضرب بالحصى، قال الشاعر: [الطويل]

لَعَمْرُكَ ما يَدْري الضَّوارِبُ بالحَصَى ... ولا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ ما الله صَانِعُ

وكذلك العيافة والطيرة، وعليك بالفأل والطيرة شرك، وإياك والبصاق في المسجد فإن غفلت فادفنها فذلك كفارتها، وإياك أن تستقبل القبلة ببصاقك ولا بخلائك، ولا تستدبرها أيضاً ببول ولا غائط فإن ذلك من آداب النبوّة، وإذا أردت أن تأكل فاغسل يديك قبل الأكل وبعده، وزد المضمضة منه في الغسل بعده، وعليك بالإحسان إذا ملكت يمينك من جارية

وغلام ولا تكلفهما فوق طاقتهما وإن كلفتهما فأعنهما فإنهما من إخوانكم، وإنما الله ملككم رقابهم، الكل بنو آدم فهم إخوتنا فراع الله فيهم واعلم أنك مسؤول عنهم يوم القيامة، وإذا عاقبت أحدهم على جناية فاعلم أن الله يوم القيامة يوقف العبد وسيده بين يديه ويحاسبه على جنايته وعلى عقوبته على ذلك، فإن خرجت رأساً برأس كان وإن كانت العقوبة أكثر من الجناية اقتصّ للعبد من السيد فتحفظ ولا تزد في العقوبة على ثلاثة أسواط فإن كثرت فإلى عشرة، ولا تزد إلاَّ في إقامة حدّ من حدود الله فذلك حدّ الله لا تتعداه، وإن عفوت عن العبد في جنايته فهو أولى بك وأحوط لك، وإذا جئت إلى بيت قوم فاستأذن ثلاث مرّات فإن أذن لك وإلاَّ فارجع، ولا تنظر في بيت أخيك من حيث لا يعرف بك فإنك إذا نظرت فقد دخلت، وإنما جعل الإذن من أجل البصر، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ [النور: ٢٧] وقال: ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [النور: ٢٨] وثبت في الحديث الاستئذان ثلاث فإن أذن لك وإلاَّ فارجع، وإياك أن تتخذ الجرس في عنق دابتك فإن الملائكة تنفر منه، وقد ورد بذلك الحديث النبويّ وكان بمكة رجل من أهل الكشف يقال له ابن الأسعد من أصحاب الشيخ أبي مدين صحبه ببجاية فكان يوماً بالطواف وهو يشاهد الملائكة تطوف مع الناس فنظر إليهم وإذا هم قد تركوا الطواف وخرجوا من المسجد سراعاً فلم يدر ما سبب ذلك حتى بقيت الكعبة ما عندها ملك، وإذا بالجمال بالأجراس في أعناقها قد دخلت المسجد بالروايا تسقي الناس فلما خرجوا رجعت الملائكة، وقد ثبت أن الجرس مزامير الشيطان، والذي أوصيك به أن تحافظ على أن تشتري نفسك من الله بعتق رقبتك من النار بأن تقول: لا إلٰه إلاَّ الله سبعين ألف مرّة فإن الله يعتق رقبتك بها من النار أو رقبة من تقولها عنه من الناس، ورد في ذلك خبر نبويّ. ولقد أخبرني أبو العباس أحمد بن علي بن ميمون بن أب التوزري عرف بالقسطلاني بمصر قال في هذا الأمر: إن الشيخ أبا الربيع الكفيف المالقي كان على مائدة طعام وكان قد ذكر هذا الذكر وما وهبه لأحد وكان معهم على المائدة شاب صغير من أهل الكشف من الصالحين فعندما مدّ يده إلى الطعام بكى فقال له الحاضرون: ما شأنك تبكي؟ فقال: هذه جهنم أراها وأرى أمي فيها وامتنع من الطعام فأخذ في البكاء، قال الشيخ أبو الربيع: فقلت في نفسي: اللهمّ إنك تعلم أني قد هللت بهذه السبعين ألفاً وقد جعلتها عتق أمّ هذا الصبيّ من النار هذا كله في نفسي، فقال الصبيّ: الحمد لله أرى أمي قد خرجت من النار وما أدري ما سبب خروجها، وجعل الصبيّ يبتهج سروراً وأكل مع الجماعة، قال أبو الربيع: فصحّ عندي هذا الخبر النبويّ بكشف هذا الصبيّ، وصحّ عندي كشف هذا الصبيّ بالخبر، وقد عملت أنا على هذا الحديث ورأيت له بركة في زوجتي لما ماتت.

وعليك بإصلاح ذات البين وهو الفراق فإن الإصلاح بين الناس من الخير المعين في الكتاب، وإذا كان الله قد رغب بل أمر المسلمين إذا جنح الكفار إلى السلم أن يجنحوا لها فأحرى الصلح بين المتهاجرين من المسلمين، وإياك وإفساد ذات البين فإنها الحالقة والبين هنا

هو الوصل، ومعنى قول النبيّ ﷺ الحالقة أنها تحلق الحسنات كما يحلق الحلاق الشعر من الرأس، قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] بالرفع يعني الوصل، والبين في اللسان من الأضداد كالجون، يا وليّ أطعم عبدك ممّا تأكل وألبسه ممّا تلبس وراع قدره وانظر فيما ثبت فيهم من رسول الله ﷺ بقوله: «**إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ الله تَحْتَ أَيْدِيكُمْ**» فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممّا يأكل وليلبسه مما يلبس، واغتنم صحة البدن والفراغ من شغل الدنيا واستعن بهاتين النعمتين اللتين أنعم الله عليك بهما على طاعة الله فإنه ما أصحّ بدنك ولا فرغك من هموم الدنيا إلاّ لطاعته والقيام بحدوده وإلاّ كانت الحجة عليك لله، فاحذر أن يكون الله خصمك، ولتقل في كل يوم عند كل صباح مائة مرّة: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم فإن هذا الذكر لا يبقي عليك ذنباً.

وصية: عليك بحفظ جوارحك فإنه من أرسل جوارحه أتعب قلبه، وذلك أن الإنسان لا يزال في راحة حتى يرسل جوارحه، فربما نظر إلى صورة حسنة تعلق قلبه بها ويكون صاحب تلك الصورة من المنعة بحيث لا يقدر هذا الناظر على الوصول إليها فلا يزال في تعب من حبها يسهر الليل ولا يهنأ له عيش، هذا إذا كان حلالاً فكيف به إن كان أرسله فيما لا يحل له النظر إليه؟ فلهذا أمرنا بتقييد الجوارح، فإن زنىٰ العيون النظر وزنىٰ اللسان النطق بما حرم عليه، وزنى الأذن الاستماع إلى ما حجر عليه، وزنى اليد البطش، وزنى الرجل السعي، وكل جارحة تصرفت فيما حرّم عليها التصرّف فيه فذلك التصرّف منها على هذا الوجه الحرام هو زناها، فاللسان يقول بغضهم هو الذي أوردني الموارد المهلكة، وقال ﷺ: «**وَهَلْ يُكَبُّ النَّاسُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ إلاَّ حَصَائِدَ أَلْسِنَتِهِمْ؟**» قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] يعني بها فتقول اليد: بطش بي في كذا يعني في غير حق فيما حرّم عليه البطش فيه، وتقول الرجل كذلك، واللسان والبصر وجميع الجوارح كذلك ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] خرج مسلم عن محمد بن أبي عمر عن سفيان عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال: قالوا يا رسول الله هل نَرَى رَبَّنا يومَ القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ فَيَلْقَى العَبْدَ فيقول: أي فُلُ، أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى يا رَبِّ، فيقولُ: أَفَظَنَنْتَ أنكَ مُلاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرُسُلِكَ وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ وَيُثْنِي بِخَيْرِ مَا اسْتَطَاعَ فَيَقُولُ ها هنا إِذَنْ قالَ ثم يقالُ لَهُ الآنَ نَبْعَثُ شَاهِداً عَلَيْكَ وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ انْطِقِي فَيَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ وَذٰلِكَ لِيعذرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذٰلِكَ الَّذِي سَخِطَ الله عَلَيْهِ**» وقد ورد في الحديث الثابت في أمر الدنيا: «**إِنَّ السَّاعَةَ لا تَقُومُ حتَّى تُكَلِّمَ الرَّجُلَ بِمَا فَعَلَ أَهْلُهُ فَخِذُهُ وَعَذَبَةُ سَوْطِهِ**» وقد قيل في التفسير: إن الميت الذي أحياه الله في بني إسرائيل في حديث البقرة في قوله: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: ٧٣] قال: ضرب بفخذها وأن الله ما عين ذلك البعض فاتفق أن ضربوه بالفخذ، فاحذر يا أخي يوماً تشهد فيه عليك الجلود

والجوارح، وأنصف من نفسك وعامل جوارحك بما تشكرك به عند الله، ولقد رأينا ذلك عياناً في الدنيا في زمان الأحوال التي كنا فيها أعني نطق الجوارح إذا أراد العبد أن يصرفها فيما لا يجوز شرعاً تقول له الجارحة: يا هذا لا تفعل لا تجبرني على فعل ما حجر عليك فعله فإني شهيد عليك يوم القيامة فاجعلني شاهداً لك لا عليك واصحبني بالمعروف وهو في غفلة لا يسمع، فإذا وقع منه الفعل تقول الجارحة: يا رب قد نهيته كما نهيته فلم يسمع، اللهمّ إني أبرأ إليك ممّا وصل إليه من مخالفتك بي، وعلى كل حال فإرسال الجوارح يؤدي إلى تعب القلب، فإن الله خلقك لك واصطفى منك لنفسه قلبك وذكر أنه يسعه إذا كان مؤمناً تقياً ذا ورع، فإذا شغلته بما تصرّفت فيه جوارحك كنت ممّن غصب الحق فيما ذكر أنه له منك، وأي ظلم أعظم من ظلم الحق؟ فلا تجعل الحق خصمك فإن لله الحجة البالغة كما ذكر عن نفسه وبكل وجه أشهدني الله حجته على خلقه كيف تقوم، وذلك في أن العلم يتبع المعلوم، إن فهمت فأكثر من هذا التصريح ما يكون.

وصية: وعليك بالأذان لكل صلاة أو تقول ما يقول المؤذن إذا أذن، وإذا أذنت فارفع صوتك فإن المؤذن يشهد له يوم القيامة مدى صوته من رطب ويابس، ولو علم الإنسان ما له في الأذان ما تركه قال ﷺ: «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ ما فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يجِدُوا إلاَّ أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ ما فِي التَّهْجِيرِ لاسْتَبَقُوا إلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ ما فِي العَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْواً**» فإن لم يؤذن وسمع الأذان فليقل مثل ما يقول المؤذن سواء، وإن قال ذلك عند كل كلمة إذا فرغ المؤذن منها قالها هذا السامع بحضور وخشوع، ولقد أذنت يوماً فكلما ذكرت كلمة من الأذان كشف الله عن بصري فرأيت ما لها مد البصر من الخير فعاينت خيراً عظيماً لو رآه الناس العقلاء لذهلوا لكل كلمة، وقيل لي هذا الذي رأيت ثواب الأذان، وإنما ارتضينا ووصينا أن يقول السامع مثل ما يقول المؤذن عند فراغ كل كلمة لما رويناه من حديث الترمذيّ عن ابن وكيع عن إسماعيل بن محمد بن جحادة يبلغ به النبيّ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ لا إلَهَ إلاَّ الله والله أَكْبَرُ صَدَّقَهُ رَبُّهُ وَقَالَ لا إلَهَ إلاَّ أَنا وَأَنا أَكْبَرُ. وَإذا قالَ لا إلَهَ إلاَّ الله وَحْدَهُ يقولُ الله لا إلَهَ إلاَّ أَنا وَأَنا وَحْدِي. وإذا قالَ لا إلَهَ إلاَّ الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ قالَ الله لا إلَهَ إلاَّ أنَا وَحْدِي لا شَرِيكَ لِي. وإذا قال لا إلَهَ إلاَّ الله لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ قالَ الله لا إلَهَ إلا أنا لِيَ المُلْكُ وَلِيَ الحَمْدُ. وَإذا قالَ لا إلَهَ إلا الله وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بالله قالَ الله لا إلَه إلاَّ أنَا وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بِي**». قال: وكان يقول: «**مَنْ قَالَهَا فِي مَرَضِهِ لَمْ تَطْعَمْهُ النَّارُ**».

ويكفي العاقل في الأمر بالأذان أمر النبي ﷺ من سمع المؤذن يؤذن أن يقول مثل قوله فهو أذان فما رغبه فيه إلاَّ وله أجره فإنه معلم لذلك نفسه وذاكر ربه بصورة الأذان فما أمره إلاَّ بما له فيه خير كثير، وليؤذن على أكمل الروايات وأكثرها ذكراً، فإن الأجر يكثر بكثرة الذكر. قال تعالى: ﴿وَالذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وقال: ﴿ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١] وقد ورد أن الإنسان إذا كان بأرض فلاة فدخل الوقت وليس معه أحد قام فأذن

فإذا أذن صلّى خلفه من الملائكة كأمثال الجبال، ومن كانت جماعته مثل أولئك يؤمنون على دعائه كيف يشقى، وإنما وصينا بمثل هذا لغفلة الناس عن مثله، فالعاقل من لا يغفل عن فعل ما له فيه الخير الباقي عند الله عزّ وجلّ فإن ذلك من رحمتك بنفسك، فإن الله جعل رحمتك بنفسك أعظم من رحمتك بغيرك، كما جعل أذاك نفسك أعظم في الوزر من أذاك غيرك، قال في قاتل الغير إذا لم يقتل به أمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء أخذه. وقال في القاتل نفسه: حرمت عليه الجنة. وقال ﷺ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمٰنُ**» فمن رحم نفسه يسلك بها سبيل هداها ويحول بينها وبين هواها، فرحمه الله رحمة خاصة خارجة عن الحد والمقدار، فإنه رحم أقرب جار إليه وهي نفسه، ورحم صورة خلقها الله على صورته فجمع بين الحسنيين مراعاة قرب الجوار ومراعاة الصورة، وأي جار سوى نفسه فهو أبعد منها ولذلك أمر الداعي إذا دعا أن يبدأ بنفسه أولاً مراعاة لحقها، والسرّ الآخر أن الداعي لغيره يحصل في نفسه افتقار غيره إليه ويذهل عن افتقاره فربما يدخله زهو وعجب بنفسه لذلك وهو داء عظيم فأمره رسول الله ﷺ أن يبدأ لنفسه بالدعاء فتحصل له صفة الافتقار في حق نفسه فتزيل عنه صفة الافتقار صفة العجب والمنة على الغير، وفي أثر ذلك يدعو للغير على افتقار وطهارة. فلهذا ينبغي للعبد أن يبدأ بنفسه في الدعاء ثم يدعو لغيره فإنه أقرب إلى الإجابة لأنه أخلص في الاضطرار والعبودية، ومثل هذا النظر مغفول عنه لا أحد أعظم من الوالدين وأكبر بعد الرسل حقاً منهما على المؤمن، ومع هذا أمر الداعي أن يقدم في الدعاء نفسه على والديه فقال نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨] وقال الخليل إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ [إبراهيم: ٣٥] فقدم نفسه ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠-٤١] فبدأ بنفسه وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] وإنما أوصيتك بالأذان لما فيه عند الله يوم القيامة، فإن المؤذنين أطول الناس أعناقاً في ذلك اليوم يقول تمتد أعناقهم دون الناس لينظروا ما أثابهم الله به وما أعطاهم من الجزاء على أذانهم هذا إن كان من الطول، فإن كان من الطول الذي هو الفضل والعنق الجماعة فهم أفضل الناس جماعة، ومن رواه بكسر الهمزة فهو أفضلهم سيراً لما يرونه من الخير الذي لهم على الأذان فإن المؤذن يحافظ على الأوقات فهو يسرع إلى الإعلام بدخول وقت الصلاة فإنه مراع ذلك.

وصية: وإن كنت والياً فاقض بالحق بين الناس ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] وسبيل الله هو ما شرعه لعباده في كتبه وعلى ألسنة رسله ﴿ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦] يعني به. والله أعلم يوم الدنيا حيث لم يحاسبوا نفوسهم فيه، فإن النسيان الترك، يقول رسول الله ﷺ: «**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا**» ولقد أشهدني الله في هذا مشهداً عظيماً بإشبيلية سنة ست وثمانين وخمسمائة ويوم الدنيا أيضاً هو يوم الدين أي يوم الجزاء لما فيه من إقامة الحدود ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

[الروم: ٤١] وهذا عين الجزاء وهو أحسن في حق العبد المذنب من جزاء الآخرة، لأن جزاء الدنيا مذكر وهو يوم عمل والآخرة ليست كذلك، ولهذا قال في الدنيا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] يعني إلى الله بالتوبة، فيوم الجزاء أيضاً يوم الدنيا كما هو يوم الآخرة، وهو في يوم الدنيا أنفع، فاقض بالحق فإن الله قد قضى في الدنيا بالحق بما شرعه لعباده وفي الآخرة بما قال، فإن القضاة في الدنيا ثلاث: واحد في الجنة، واثنان في النار. والذي أوصيك به إذا فتح الله عين بصيرتك ورزقك الرجوع إليه المسمّى توبة فانظر أي حالة أنت عليها من الخير لا تزل عنها، إن كنت والياً اثبت على ولايتك، وإن كنت عزباً اثبت على ذلك، وإن كنت ذا زوجة فلا تطلق واثبت على ذلك مع أهلك، واشرع في العمل بتقوى الله في الحالة التي أنت عليها من الخير كانت ما كانت، فإن لله في كل حال باب قربة إليه تعالىٰ، فاقرع ذلك الباب يفتح لك ولا تحرم نفسك خيره، وأقل الأحوال أنك في الحال التي كنت عليها في زمان مخالفتك إذا ثبت عليها عند توبتك تحمدك تلك الحالة فإن فارقتها كانت عليك لا لك فإنها ما رأت منك خيراً، وهذا معنى دقيق لطيف لا ينتبه له كل أحد فإنها لا تشهد لك إلاّ بما رأته منك، فإذا رأت منك خيراً شهدت لك به، ولا يفوتك ما ذكرته لك من نيل ما فيها من الخير المشروع، وأعني بذلك كل حال أنت عليها من المباحات فإن توبتك إنما كان رجوعك عن المخالفات، وإياك أن تتحرّك بحركة إلاّ وأنت تنوي فيها قربة إلى الله، حتى المباح إذا كنت في أمر مباح فانو فيه القربة إلى الله من حيث إيمانك به أنه مباح ولذلك أتيته فتؤجر فيه، ولا بدّ حتى المعصية إذا أتيتها انو المعصية فيها فتؤجر على الإيمان بها أنها معصية، ولذلك لا تخلص معصية المؤمن أبداً من غير أن يخالطها عمل صالح وهو الإيمان بكونها معصية وهم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] فهذا معنى المخالطة، فالعمل الصالح هنا الإيمان بالعمل الآخر السيىء أنه سيىء، وعسى من الله واجبة فترجع عليهم بالرحمة فيغفر لهم تلك المعصية بالإيمان الذي خلطها به، فمتعلق عسى هنا رجوعه سبحانه عليهم بالرحمة لا رجوعهم إليه فإنه ما ذكر لهم توبة كما قال في موضع آخر ثم تاب عليهم ليتوبوا، وهنا جاء بحكم آخر ما فيه ذكر توبتهم بل فيه توبة الله تعالى عليهم. والذي أوصيك به أنك لا تنقل مجلساً ولا تبلغ ذا سلطان حديثاً إلاّ خيراً، خرج الترمذيّ حديثاً عن حذيفة أو غيره أنا الشاكّ أن رجلاً مرّ عليه فقيل له عنه إن هذا يبلغ الأمراء الحديث فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يَدْخلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ**» قال أبو عيسىٰ: والقتات النمام. وإذا حدثك إنسان وتراه يلتفت يميناً وشمالاً يحذر أن يسمع حديثه أحد فاعلم أن ذلك الحديث أمانة أودعك إياه فاحذر أن تخونه في أمانته بأن تحدث بذلك عند أحد فتكون ممّن أدّى الأمانة إلى غير أهلها فتكون من الظالمين. وقد ثبت أن المجالس بالأمانة. وأما وصيتي لك أن لا تبلغ ذا سلطان حديثاً بشر فإن ذلك نميمة قال تعالىٰ في ذمّه: ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١]. ومن الوصايا الحذر من الطعن في الأنساب، فلا تحل بين شخص وبين أبيه صاحب الفراش فإن ذلك كفر بنص الشارع فيه، وعليك بمراعاة الأوقات في الدعاء مثل الدعاء عند

الأذان وعند الحرب وعند افتتاح الصلاة فإن المطلوب من الدعاء إنما هو الإجابة فيما وقع السؤال فيه من الله وأسباب القبول كثيرة وتنحصر في الزمان والمكان والحال، ونفس الكلمة التي تذكر الله بها من الذكر حين تدعوه في مسألته فإنه إذا اقترن واحد من هذه الأربعة بالدعاء أجيب الدعاء، وأقوى هذه الأربعة الاسم ثم الحال. وعليك بمراعاة حق الله وحق الخلق أن توجه لهم عليك حق فإن الله يؤتيك أجرك مرّتين: من حيث ما أدّيته من حقه ومن حيث ما أدّيت من حق من تعين عليك له حق من خلق الله، وإن كانت لك جارية فأدبتها وأحسن أدبها فإن لك في ذلك أجراً عظيماً، ثم إن أعتقتها فلك في العتق الأجر العظيم العام لذاتك، فإن تزوّجت بها فلك أجر آخر أعظم من أنك لو تزوجّت بغيرها. فإذا رأيت غازياً فأعنه بطائفة من مالك، وكذلك المكاتب، وكذلك الناكح يريد بنكاحه عصمة دينه والعفاف، فإنك إذا فعلت ذلك وأعنتهم فإنك نائب الله في عونهم فإن عون هؤلاء حق على الله بنص الخبر، فمن أعانهم فقد أدّى عن الله ما أوجبه الله على نفسه لهم فيكون الله يتولى كرامته بنفسه، فما دام المجاهد في سبيل الله مجاهداً بما أعنته عليه فإنك شريكه في الأجر ولا ينقضه شيء، وكذلك إعانة الناكح حتى أنه لو ولد له ولد فكان صالحاً فإن لك في ولده وفي عقبه أجراً وافراً تجده يوم القيامة عند الله وهو أعظم من المكاتب والمجاهد، فإن النكاح أفضل نوافل الخيرات وأقربه نسبة إلى الفضل الإلهي في إيجاده العالم ويعظم الأجر بعظم النسب.

واعلم أن الإنسان مجبول على الفاقة والحاجة فهو مجبول على السؤال، فإن رزقك الله يقيناً فلا تسأل إلاّ الله تعالىٰ في طلب نفع يعود عليك أو دفع ضرر نزل بك، فإذا سألك أحد بالله لا بقرابة ولا بشيء غير الله عزّ وجلّ فأعطه مسألته بحيث لا يعلم بذلك أحد إلاّ هو خاصة، ولا بدّ لك في مثل هذه الأعطية أن تعرفها له فإنه ينجبر في نفسه ما انكسر منها عند سؤاله، فإذا لم يعلم أن سؤاله نفع انكسر فلا بدّ أن تجيبه إلى مسألته على علم منه، فإن علمت بحاله من غير سؤال منه فمثل هذا تعمل أن تعطيه مسألته بالحال من غير أن يعلم أنك أعطيته فإنه يخجل بلا شك ولا سيما إن كان من أهل المروءات والبيوت وممّن لم تتقدم له عادة بذلك، وفرّق بين الحالتين فإن الفرق بينهما دقيق، فإن السائل الأوّل يخجل إذا لم يعلم أنك أعطيته، والثاني يخجل إذا علم أنك أعطيته، والمقصود رفع الخجل عن صاحب الفاقة وعليك بذكر الله بين الغافلين عن الله بحيث لا يعلمون بك، فتلك خلوة العارف بربه وهو كالمصلي بين النائمين. وإياك ومنع فضل الماء من ذي الحاجة إليه، واحذر من المن في العطاء فإن المن في العطاء يؤذن بجهل المعطي من وجوه: منها رؤيته نفسه بأنه رب النعمة التي أعطى والنعمة إنما هي خلقاً وإيجاداً. والثاني: نسيانه منة الله عليه فيما أعطاه وملكه من نعمه وأحوج هذا الآخر لما في يده. والثالث: نسيانه أن الصدقة التي أعطاها إنما تقع بيد الرحمن والآخر ما يعود عليه من الخير في ذلك فلنفسه أحسن ولنفسه سعى، فكيف له بالمنة على ذلك الآخر أنه ما أوصل إليه إلاّ ما هو له، إذ لو كان رزقه ما أوصله إليه فهو مؤد أمانة من حيث لا يشعر، فجهله بهذه الأمور كلها جعله يمتن بالعطاء على من أوصل إليه راحة

وأبطل عمله فإن الله يقول: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وقال الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]. وإياك أن تتقدم قوماً في الصلاة إماماً وهم يكرهون تقدمك عليهم في صلاة وفي غيرها غير أن هنا دقيقة وهي أن تنظر ما يكرهون منك، فإن كرهوا منك ما كره الشرع منك فهو ذاك، وإن كرهوا منك ما أحبه الشرع منك فلا تبال بكراهتهم فإنهم إذا كرهوا ما أحب الشرع فليسوا بمؤمنين، وإذا لم يكونوا مؤمنين فلا مراعاة لهم، ولتتقدم شاؤوا أم أبوا، فمن ذلك الصلاة إذا كنت أقرأ القوم فأنت أحق بالإمامة بهم أو ذا سلطان فإن الله قدمك عليهم، ومع هذا فينبغي للناصح نفسه أن لا يتصف بصفة يكره منها تقدمه في أمر ديني وليسع في إزالة تلك الصفة عن نفسه ما استطاع، وحافظ على الصلاة لأوّل ميقاتها ولا تؤخرها حتى يخرج وقتها، وإياك أن تتعبد حرّاً وتسترقه بشبهة ولا ترى أن لك فضلاً على أحد ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] وتعبد الحرّ على نوعين: إما أن تأخذ من هو حرّ الأصل فتبيعه، وإما أن تعتق عبداً ولا تمكنه من نفسه وتتصرّف فيه تصرف السيد لعبده وليس لك ذلك إلاّ بإذنه أو إجازته، فإني رأيت كثيراً من الناس من يعتق المملوك ولا يمكنه من كتاب عتقه ويستعبده مع حرّيته، والسيد إذا أعتق عبده ما له عليه حكم إلاّ الولاء، فإذا أعتقت عبداً فلا تستخدمه إلاّ كما تستخدم الحرّ إما برضاه وإما بالإجازة كالحرّ سواء فإنه حرّ. ثبت عن رسول الله ﷺ الوعيد الشديد فيمن تعبد محرّره، وفيمن اعتبد حرّاً، وفيمن باع حرّاً فأكل ثمنه. والذي أوصيك به إذا استأجرت أجيراً واستوفيت منه فأعطه حقه ولا تؤخره.

وصية: إذا كنت جنباً ولم تغتسل فتوضأ إن كان لك ماء وإلاّ فتيمم، وإذا أردت أن تعاود فتوضأ بينهما وضوءاً، وإذا أردت أن تنام وأنت جنب فتوضأ وإن لم تكن جنباً فلا تنم إلاّ على طهارة، وإذا أردت أن تأكل أو تشرب وأنت جنب فتوضأ، وإياك والتضمخ بالخلوق فإن الله لا يقبل صلاة أحد وعلى جسده شيء من خلوق، وثبت أن الملائكة لا تقربه ولا تقرب الجنب إلاّ أن يتوضأ، كما أنه قد ثبت أن الملائكة لا تقرب جيفة الكافر، فإياك أن تنزل نفسك بترك الوضوء في الجنابة منزلة جيفة الكافر في بعد الملك منك فإنهم المطهرون بشهادة الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة] يعني بالكتاب المكنون الذي هو ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس]. وإياك والغدر وهو أن تعطي أحداً عهداً ثم تغدر به فإن رسول الله قبل إسلام المغيرة وما قبل غدرته بصاحبه مع كون صاحبه كافراً فكيف حال من يغدر بمؤمن؟ فإن الله قد أوعد على ذلك الوعد الشديد، وليس من مكارم الأخلاق ولا ممّا أباحته الشريعة. إياك وعقوق الوالدين إن أدركتهما، فأشقى الناس من أدرك والديه ودخل النار قال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤] وقال في الوالدين إذا كان كافرين: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥] وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] ورجح الأم وقدمها في

الإحسان والبرّ على أبيك، ثبت أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: «**مَنْ أَبَرُّ؟ قال له: أمَّكَ، ثم قال له: مَنْ أَبَرُّ؟ قال: أُمَّكَ ثلاث مرات ثم قال في الرابعة: مَنْ أَبَرُّ؟ قالَ: أُمَّكَ ثُمَّ أَبَاكَ**» فقدم الأمّ على الأب في البرّ وهو الإحسان، كما قدم الجار الأقرب على الأبعد، ولكل حق وإن لم يكن لك أمّ وكانت لك خالة فبرّها فإنها بمنزلة الأم فإن النبي ﷺ أوصى ببرّ الخالة. يا أخي وما أوصيتك في هذه الوصية بشيء أستنبطه من نفسي فإني لا أحكم على الله بأمر في حق أحد فما أوصيتك في هذه الوصية إلاّ بما أوصاك به الله تعالىٰ أو رسوله ﷺ إما معيناً فأذكره على التعيين وإما مجملاً فأفصله لك غير ذلك ما أقول به. وإياك يا أخي أن تزكي على الله أحداً فإن الله قد نهاك عن ذلك في قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي أمثالكم ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] ولكن قل أحسبه كذا أو أظنه كذا كما أمرك به رسول الله ﷺ قال: «**وَلاَ أُزَكِّي عَلَىٰ اللهِ أَحَداً**» فإنه من الأدب مع الله عدم التحكم عليه في خلقه إلاّ بتعريفه وإعلامه وما هذا من قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] فإن ذلك تحلية النفس وتطهيرها من مذام الأخلاق إتيان مكارمها.

واعلم أن الإيمان بضع وسبعون شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريق وأعلاها لا إلٰه إلاَّ الله وما بينهما هو على قسمين من الله عمل وترك أي مأمور به ومنهي عنه، فالمنهي عنه هو الذي يتعلق به الترك وهو قوله لا تفعل، والمأمور به هو الذي يتعلق به العمل وهو قوله افعل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] وقال ﷺ: «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**» وأطلق ولم يقيد. وقال في الأمر: «**وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**» فهذا من رحمته بأمته وهو لا ينطق عن الهوى، فهذا من رحمة الله تعالىٰ بعباده، وأمر بما وجب به الإيمان على نوعين: فرض ومندوب، والنهي على قسمين: نهي حظر ونهي كراهة. والفرض على نوعين: فرض كفاية وفرض عين، وكذلك الواجب أقول فيه واجب موسع وواجب مضيق، فالواجب الموسع موسع بالزمان وموسع بالتخيير وهو الواجب المخير مثل كفارة المتمتع وإتيان ما يؤتى من هذا كله وترك ما يترك من هذا كله هو الإيمان الذي فيه سعادة العباد، فالبضع والسبعون من الإيمان هو الفرض منه من عمل وترك، وأما غير الفرض كالمندوبات والمكروهات فيكاد لا ينحصر عند أحد فابحث عليها في الكتاب والسنة. فمن شعب الإيمان: الشهادة بالتوحيد وبالرسالة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والوضوء والغسل من الجنابة والغسل يوم الجمعة والصبر والشكر والورع والحياء والأمان والنصيحة وطاعة أولي الأمر والذكر وكف الأذى وأداء الأمانة ونصرة المظلوم وترك الظلم وترك الاحتقار وترك الغيبة وترك النميمة وترك التجسّس والاستئذان وغض البصر والاعتبار وسماع الأحسن من القول واتباعه والدفع بالتي هي أحسن وترك الجهر بالسوء من القول والكلمة الطيبة وحفظ الفرج وحفظ اللسان والتوبة والتوكل والخشوع وترك اللغو والإشتغال بما يعني وترك ما لا يعني، وحفظ العهد والوفاء بالعقود والتعاون على البر والتقوى وترك التعاون على الإثم والعدوان، والتقوى والبرّ والقنوت والصدق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

وإصلاح ذات البين وترك إفساد ذات البين وخفض الجناح واللين وبرّ الوالدين وترك العقوق والدعاء والرحمة بالخلق وتوقير الكبير ومعرفة شرفه ورحمة الصغير، والقيام بحدود الله وترك دعوى الجاهلية فإن النبيّ ﷺ يقول: «**دَعُوها فَإنّهَا مُنتِنَةٌ**» والتودّد والحب في الله والبغض في الله والتؤدة والحلم والعفاف والبذاذة وترك التدابر وترك التحاسد وترك التباغض وترك التناجش وترك شهادة الزور وترك قول الزور وترك الهمز واللمز والغمز وشهود الجماعات، وإفشاء السلام والتهادي وحسن الخلق والسمت الصالح وحسن العهد وحفظ السرّ والنكاح والإنكاح وحب الفأل وحبّ أهل البيت وترك الطيرة وحبّ النساء وحب الطيب وحب الأنصار، وتعظيم الشعائر وتعظيم حرمات الله، وترك الغش وترك حمل السلاح على المؤمن، وتجهيز الميت والصلاة على الجنائز وعيادة المريض وإماطة الأذى، وأن تحب لكل مؤمن ما تحب لنفسك، وأن يكون الله ورسوله أحب إليك ممّا سواهما، وأن تكره أن تعود في الكفر، وأن تؤمن بملائكة الله وكتبه ورسله وبكل ما جاءت به الرسل من عند الله إلى ما لا يحصى كثرة يأتي إن شاء الله من ذلك في هذه الوصية ما يذكرني الله به ويجريه على خاطري وقلمي، ومن تتبع كتاب الله وحديث رسوله ﷺ يجد ما ذكرناه وزيادة ممّا لم نذكره، وكلما ورد فله أوقات تخصه وأمكنة ومحال وأحوال، والجامع للخير كله في ذلك أن تنوي في جميع ما تعمله أو تتركه القربة إلى الله بذلك العمل أو الترك وإن فاتتك النية فاتك الخير كله فكثير ما بين تارك بنية القربة إلى الله من حيث إن الله أمره بترك ذلك وبين تارك له بغير هذه النية، وكذلك في العمل ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾ [البينة: ٥] والإخلاص هي النية والعبادة عمل وترك، والإخلاص مأمور به شرعاً.

وصية: إذا كنت إمام قوم فدعوت فلا تخصّ نفسك بالدعاء دونهم فإنك إن فعلت ذلك فقد خنتهم، وفيه من مذام الأخلاق بتبخيل الحق وتحجير الرحمة التي وسعت كل شيء وإيثار نفسك على غيرك، وإن الله ما مدح في القرآن إلاّ من آثر على نفسه؛ سمع رسول الله ﷺ رجلاً من الأعراب يقول: اللّهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً، فقال رسول الله ﷺ: «**لَقَدْ حَجَّرَ هٰذَا وَاسِعاً**» يريد قوله تعالىٰ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦] والذي أوصيك به إياك أن تصلي وأنت حاقن حتى تخفف، وإذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة فابدأ بالطعام ثم تصلي بعد ذلك إن كنت ممّن يتناوله بعد الصلاة فحينئذ تفعل ذلك وارغب في دعاء الوالدين ودعاء المسافر، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب، وعليك بالاستحداد وهو حلق العانة وتقليم الأظفار ونتف الإبط وقص الشارب وإعفاء اللحية وردّ السلام وتشميت العاطس وإجابة الداعي وعليك بالعدل في أمورك كلها والمحافظة على عبادة الله، وكسر الشهوتين وتعاهد المساجد للصلاة والبكاء من خشية الله والاعتصام بحبل الله، وعليك بمحاب الله ومراضيه فاتبعها فمنها تعاهد المساجد، وعليك بصيام داود عليه السلام فهو أحب الصيام إلى الله وأفضله وأعدله وهو صيام يوم وفطر يوم وقد ذكرنا ما يختص من الأسرار والفوائد بالصوم في باب الصوم من هذا الكتاب، وكذلك في الطهارة والصلاة والزكاة

والحج فلتنظر هناك، وأحبّ الصلاة إلى الله بالليل صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وذلك هو التهجد، وإن كان لك ولد فسمه عبد الله أو عبد الرحمن وكنه أبا محمد أو سمّه محمداً وكنّه بأبي عبد الله أو أبي عبد الرحمن، وإذا عملت عملاً من الخير فداوم عليه وإن قلّ فهو أفضل فإن الله لا يملّ حتى تملوا، فإن في قطع العمل وعدم المداومة عليه قطع الوصل مع الله، فإن العبد لا يعمل عملاً إلاّ بنية القربة إلى الله وحينئذ يكون عملاً مشروعاً فمتى تركه فقد ترك القربة إلى الله، ومن أراد أنه لا يزال في حال قربة من الله دائماً فعليه بالحضور الدائم مع الله في جميع أفعاله وتروكه، فلا تعمل عملاً إلاّ وهو به مؤمن بما لله فيه من الحكم، ولا يترك عملاً إلاّ وهو مؤمن بما في تركه من الحكم لله، فإذا كان هذا حاله فلا يزال في كل نفس مع الله، وهو الذي يحرّم ما حرّم الله ويحلّ ما أحلّ الله ويكره ما كره الله ويبيح ما أباح الله فهو مع الله في كل حال. واحذر من الإلحاد في آيات الله ومن الإلحاد في حرم الله إن كنت فيه، والإلحاد الميل عن الحق شرعاً ولذلك قال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ [الحج: ٢٥] فذكر الظلم. وعليك بأفضل الصدقات، وأفضل الصدقات ما كان عن ظهر غنى، ومعنى عن ظهر غنى أن تستغني بالله عن ذلك الذي تعطيه وتصدّق به وإن كنت محتاجاً إليه فإن الله مدح قوماً فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] وذلك أنهم لم يؤثروا على أنفسهم مع الخصاصة حتى استغنوا بالله، فإن نزلت عن هذه الدرجة فلتكن صدقتك بحيث أن لا تتبعها نفسك فلتغن أولاً نفسك بأن تطعمها فإذا استغنت عن الفاضل فتصدق بالفضل فإنك ما تصدقت إلاّ بما استغنيت عنه، وتلك هي الصدقة عن ظهر غنى في حق هذا، والأوّل أفضل. وعليك بصيام رجب وشعبان وإن قدرت على صومهما على التمام فافعل فإنه ورد: «**أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ صِيَامُ شَهْرِ اللهِ المُحَرَّمِ**» وهو رجب فإنه يقال له شهر الله هذا الاسم له دون الأشهر كلها، وكان رسول الله ﷺ يكثر صوم شعبان، يقول الراوي: ربما صامه كله وحافظ على صوم سرره ولا يفوتنك إن فاتك صومه. وأفطر السادس عشر من شعبان ولا بدّ حتى تخرج من الخلاف فإنه أولى فإن فطره جائز بلا خلاف وصومه فيه خلاف فإن رسول الله ﷺ قال: «**إذا انْتَصَفَ شَعْبَانُ فَأَمْسِكُوا عَنِ الصَّوْمِ**». وعليك بقول الحق في مجلس من يخاف ويرجى من الملوك ولا يعظم عندك على الحق شيء إلاّ ما أمرك الله بتعظيمه، وعليك بعمل البر في يوم النحر فإنه أعظم الأيام عند الله، ورد في ذلك خبر نبوي كثر فيه من ذكر الله ومن الصدقة، وكل فعل فيه لله رضى وتقدر عليه في هذا اليوم فلا تتخلف عنه فإنه أفضل من يوم عرفة ويوم عاشوراء وفيه خير كما قلنا أعط كل ذي حق حقه حتى الحق أعطه حقه، ولا ترى أن لك على أحد حقاً فتطلبه منه، فانصف من نفسك ولا تطلب النصف من غيرك، واقبل العذر ممّن اعتذر إليك، وإياك والاعتذار فإن فيه سوء الظن منك بمن اعتذرت إليه، فإن علمت أن في اعتذارك إليه خيراً له وصلاحاً في دينه فاعتذر إليه في حقّه من غير سوء ظن به بل قضاء حق له تعين عليك وأحق الحقوق حق الله.

وصية: وعليك بكثرة الدعاء في حال السجود فإنك في أقرب قربة إلى الله لما ثبت من

قوله ﷺ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**» فأكثروا الدعاء ولا قرب أقرب من قرب السجود، ولا دعاء إلاّ في القرب من الله، فإذا دعوت في السجود فادع في دوام الحال الذي أوجب لك القرب المطلوب من الله، فإنك تعلم أنه قريب من خلقه وهو معهم أينما كانوا، والمطلوب أن يكون العبد قريباً من الله وأن يكون مع الله في أي شأن يكون الله فيه، فإن الشؤون لله كالأحوال للخلق بل هي عين أحوال الخلق التي هم فيها، وعليك بصلة أهل ودّ أبيك بعد موته فإن ذلك من أبرّ البرّ، ورد في الحديث: «**إنَّ مِنْ أَبَرِّ البِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ**» وأن ذلك من أحب الأعمال إلى الله وهو الإحسان إليهم، والتودّد بالسلام والخدمة وبما تصل إليه يدك من الراحات والسعي في قضاء حوائجهم، وعليك بالتلطف بالأهل والقرابة، ولا تعامل أحداً من خلق الله إلاّ بأحبّ المعاملة إليه ما لم تسخط الله فإن أرضاه ما يسخط الله فأرض الله. وابدأ بالسلام على من عرفت ومن لم تعرف، فإن عرفت من الذي تلقاه أنه يسلم عليك فاتركه يبدأ بالسلام ثم تردّ عليه فيحصل لك أجر الوجوب، فإن ردّ السلام واجب والابتداء به مندوب إليه، وأحب ما يتقرب به إلى الله ما افترضه على خلقه، وإذا علمت من شخص أنه يكره سلامك عليه وربما تؤديه تلك الكراهة إلى أنه لو سلمت عليه لم يرد عليك فلا تسلم عليه ابتداء إيثاراً له على نفسك وشفقة عليه فإنك تحول بينه وبين وقوعه في المعصية إذا لم يرد عليك السلام، فإنه يترك أمر الله الواجب عليه، ومن الإيمان الشفقة على خلق الله فبهذه النية اترك السلام عليه، وإن علمت من دينه أنه يرد السلام عليك فسلم عليه وإن كره، واجهر بالسلام عليه وابدأ به فإنك تدخل عليه ثواباً برد السلام وتسقط من كراهته فيك بسلامك عليه بقدر إيمانه ونفسه الصالحة إن كان ممّن جبل على خلق حسن، وعليك بالنظر إلى من هو دونك في الدنيا ولا تنظر إلى أهل الثروة والاتساع خوفاً من الفتنة فإن الدنيا حلوة خضرة محبوبة لكل نفس فإن النعيم محبوب للنفوس طبعاً، ولولا النعيم الذي يجده الزاهد في زهده ما زهد والطائع في طاعته ما أطاع، فإن أخوف ما خافه رسول الله ﷺ علينا ما يخرج الله لنا من زهرة الدنيا قال الله تعالىٰ لنبيه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨] زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه، ثم حبّب إليه رزق ربه الذي هو خير وأبقى وهو الحال الذي هو عليه في ذلك الوقت هو رزق ربه الذي رزقه فإنه تعالىٰ لا يتهم في إعطائه الأصلح لعبده، فما أعطاه إلاّ ما هو خير في حقه وأسعد عند الله وإن قلّ فإنه ربما لو أعطاه ما يتمناه لعبد طغى وحال بينه وبين سعادته فإن الدنيا دار فتنة. وإذا كان لأحد عندك دين وقضيته فأحسن القضاء وزده في الوزن وارجح تكن بهذا الفعل من خير عباد الله بإخبار رسول الله ﷺ فهو من السنة وهو الكرم الخفي اللاحق بصدقة السرّ فإن المعطى إياه لا يشعر بأنه صدقة وهو عند الله صدقة سرّ في علانية ويورث ذلك محبة وودّاً في نفس الذي أعطيته وتخفي نعمتك عليه في ذلك، ففي حسن القضاء فوائد جمّة وعليك يا أخي بالذبّ والدفع عن أخيك المؤمن عن عرضه ونفسه وماله وعن عشيرتك بما لا تأثم به عند الله، فلا تبرح من يدك ميزان مراعاة حق الله في جميع تصرّفاتك، ولا تتبع هواك في شيء يسخط الله فإنك لا تجد

صاحباً إلاَّ الله فلا تفرط في حقّه وحقّه أحق الحقوق وأوجبها علينا، كما ثبت حق الله أحق أن يقضى، وإن عزمت على نكاح فاجهد في نكاح القرشيات، وإن قدرت على نكاح من هي من أهل البيت فأعظم وأعظم فإنه قد ثبت أنه خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، وعاشرهن بالمعروف واتق الله فيهن، وأحق الشروط ما استحللت به فروجهن وأحسن إليهن في كل شيء، وإياك أن تعذب ذا روح إذا كان في يدك حتى الأضحية إذا ذبحتها فحد الشفرة وأسرع وأرح ذبيحتك وادفع الألم عن كل من يتألم جهد استطاعتك كان ما كان الألم الحسي من كل حيوان وإنسان ومن النفسي ما تعلم أنه يرضي الله، واعلم أنه ممّا يرضي الله ما أباحه لك أن تفعله. وإذا رأيت أنصارياً من بني النجار فقدمه على غيره من الأنصار مع حبك جميعهم، وعليك بأحسن الحديث وهو كتاب الله فلا تزل تالياً إياه بتدبر وتفكّر عسى الله أن يرزقك الفهم عنه فيما تتلوه، وعلم القرآن تكن نائب الرحمن فإن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن] وهو القرآن فإنه قال فيه: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ وهو القرآن ﴿وَهُدًى وَمَوۡعِظَةٌ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨] فعلم القرآن قبل الإنسان أنه إذا خلق الإنسان لا ينزل إلاَّ عليه وكذلك كان فإنه نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ وهو ينزل على كل قلب تال في حال تلاوته فنزوله لا يبرح دائماً، فعلم الله القرآن كما علم الإنسان القرآن فخيركم من علم القرآن وعلمه واتق شحّ الطبيعة فإن المفلح عند الله من يوق شحّ نفسه، وكن شجاعاً مقداماً على إتيان العزائم التي شرع الله لك أن تأتيها فتكن من أولي العزم، ولا تكن جباناً فإن الله أمرك بالإستعانة به في ذلك، وإذ كان الله المعين فلا تبال فإنه لا يقاومه شيء بل هو القادر على كل شيء فما ثم مع الإعانة الإلهية قوَة تقاوي قوّة الحق فإن الله يقول فيمن سأله الإعانة: «**ولعبدي ما سأل**» في الخبر الصحيح: «**فإذا قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ يقول الله هذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، وإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ إلى آخر السُورَةِ وَهِدَايَتُهُ مِنْ مَعُونَتِهِ يَقُولُ الله: هٰؤُلاَءِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**». وخبره صدق وقد قال: «**وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**» فلا بد من إعانته، ولكن هنا شرط لا يغفل عنه العالم إذا تلى مثل هذا لا يتلوه حكاية فإن ذلك لا ينفعه فيما ذهبنا إليه وفيما أريد له، وإنما الله تعالىٰ ما شرع له أن يقرأ القرآن ويذكره بهذا الذكر إلاَّ ليعلمه كيف يذكره، فيذكره. ذكر طلب واضطرار وافتقار وحضور في طلبه من ربه ما شرع له أن يطلبه، فذلك هو الذي يجيبه الحق إذا سأله، فإن تلى حكاية فما هو سائل وإذا لم يسأل وحكى السؤال فإن الحق لا يجيب من هذه صفته، ولا جزم أن التالين الغالب عليهم الحكاية لأنه لا ثمرة عندهم فهم يقرؤون القرآن بألسنتهم لا يجاوز تراقيهم وقلوبهم لاهية في حال التلاوة وفي حال سماعه.

فإذا رأيت من يقدم على الشدائد في حق الله فاعلم أنه مؤمن صادق، وإذا رأيته قوي العزم في دين الله وفي غير دين الله فيعلم أنه قوي النفس لا قوي الإيمان بالأصالة، فإن المؤمن هو القوي في حق الله خاصة الضعيف في حق الهوى لا يساعد هواه في شيء إذا جاءه الهوى النفسي يطلب منه أن يعينه في أمر ما يريه من الضعف والخوف ما يقطع به يأسه منه فينقمع

الهوى إذ لا يجد معونة من قبول المؤمن عليه فيعصم جوارحه من إمضاء ما دعاه إليه الهوى وسلطانه، فإذا جاءه وارد الإيمان وجد عنده من القوّة والمساعدة بالله ما لا يقاومه شيء. فإن الله هو المعين له، فإن الإنسان خلق هلوعاً من حيث إنسانيته، وأن المؤمن له الشجاعة والإقدام من حيث ما هو مؤمن كما حكي عن بعض الصحابة وأظنه عمرو بن العاص: «أن رسول الله ﷺ أخبره أنه لا بدّ له أن يلي مصر» فحضر في حصار بلد فقال لأصحابه: اجعلوني في كفة المنجنيق وارموا بي إليهم فإذا حصلت عندهم قالت حتى أفتح لكم باب الحصن فقيل له في ذلك فقال: إن رسول الله ﷺ ذكر لي أني ألي مصر وإلى الآن ما وليتها ولا أموت حتى أليها، فهذا من قوّة الإيمان، فإن العادة تعطي في كل إنسان أن شخصاً إذا رمي في كفة المنجنيق أنه يموت فالمؤمن أقوى الناس جأشاً. ومن أسمائه تعالىٰ المؤمن وقد ورد أن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً من كونه مؤمناً، فالمؤمن المخلوق يستعين بالمؤمن الخالق فيشدّ منه ويقوي ما ضعف عنه من كونه مخلوقاً، فإن الله خلقه من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوّة فهي إشارة، وذلك إن كانت قوّة الشباب تفسيراً فهي قوّة الإيمان بما أمر من الإيمان به تنبيهاً فاعلم.

وصية: كن فقيرًا من الله كما أنت فقير إليه فهو مثل قوله ﷺ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**» ومعنى فقرك من الله أن لا يشم منك رائحة من روائح الربوبية بل العبودية المحضة، كما أنه ليس في جناب الحق شيء من العبودية ويستحيل ذلك عليه فهو رب محض فكن أنت عبداً محضاً، فكن مع الله بقيمتك لا بعينك، فإن عينك عليه روائح الربوبية بما خلقك عليه من الصورة بالدعوى وقيمتك ليست كذلك، بهذا أوصاني شيخي وأستاذي أبو العباس العريبي رحمه الله، فلقيمتك التصرف بالحال لا بالدعوى فكن أنت كذلك، فمتى قالت لك نفسك كن غنياً بالله فقد أمرتك بالسيادة فقل لها أنا فقير إلى الله وإلى ما أفقرني الله إليه فإن الله أفقرني إلى الملح أن يكون في عجيني.

وصية: عليك بالرباط فإنه من أفضل أحوال المؤمن، فكل إنسان إذا مات يختم على عمله إلاّ المرابط فإنه ينمى له إلى يوم القيامة ويأمن فتان القبر ثبت هذا عن رسول الله ﷺ والرباط أن يلزم الإنسان نفسه دائماً من غير حد ينتهي إليه أو يجعله في نفسه، فإذا ربط نفسه بهذا الأمر فهو مرابط، والرباط في الخير كله ما يختص به خير من خير فالكل سبيل الله فإن سبيل الله ما شرعه الله لعباده أن يعملوا به، فما يختص بملازمة الثغور فقط ولا بالجهاد فإن رسول الله ﷺ قال في انتظار الصلاة بعد الصلاة: «**إنه رباط**»، والله يقول في كتابه للمؤمنين: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] يعني في ذلك كله أي اجعلوه وقاية تتقوا به هذه العزائم، وذلك معونته في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣] ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فهذا معنى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] أي تكون لكم النجاة من مشقة الصبر والرباط.

وبنبغي لك إذا ناجيت رسول الله ﷺ وذلك زمان قراءتك الأحاديث المروية عنه ﷺ أن

تقدم بين يدي نجواك صدقة أي صدقة كانت فإن ذلك خير لك وأطهر بهذا أمرت، فإن الصدقات التي نصّ الشرع عليها كثيرة ولذلك ورد أنه يصبح على كل سلامي منا صدقة في كل يوم تطلع فيه الشمس، ثم أخبر ﷺ أن كل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل تسبيحة صدقة وكل تحميدة صدقة وأمر بمعروف صدقة ونهي عن منكر صدقة، فانظر حالك عندما تريد قراءة الحديث النبوي فهي التي بقيت في العامة من مناجاة الرسول، فالذي يعين لك حالك عند ذلك من الصدقات تقدمها بين يدي قراءتك الحديث كانت ما كانت، فقد أوسع الله عليك في ذلك فلم يبق لك عذر في التخلف بعد أن أعلمك ﷺ بأنواع الصدقات فقدم منها بين يدي نجواك ما أعطاه حالك بلغ ما بلغ وحينئذٍ تشرع في قراءة الحديث النبوي. وإياك أن تحشر يوم القيامة مع المصوّرين الذين يصوّرون ذوات الأرواح من الحيوانات فإنك إن صورت صورة من صور الحيوانات تبعها روحها من عند الله من حيث لا تشعر بذلك في الدنيا، فإذا كان في الآخرة يجعل الله لكل مصوّر في النار بكل صورة صورة نفساً تعذبه في نار جهنم، فإن الخلق من اختصاص الله فمن نازعه في خلقه فإنه يعذبه بما خلق من ذلك والخلق لله لا إليه إذ لم يكن بإذن الله كخلق عيسىٰ عليه السلام الطير من الطين بإذن الله ونفخ فيه الروح بإذن الله، فلو أذن الله للمصوّر في ذلك لكان طاعة فعل ذلك، فأعلم أن كل نفس بما كسبت رهينة.

وصية: واحذر أن تكفر أحداً من أهل القبلة بذنب فقد ثبت أنه من قال لأخيه كافر فقد باء به أحدهما إن كان كما قال وإلاّ رجعت عليه، ومعنى الرجوع عليه أنه هو الكافر فإنه من كفر مسلماً لإسلامه فهو كافر يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ فقال الله تعالىٰ فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ١٣] والسفيه هو الضعيف الرأي، يقولون إنهم ما آمنوا إلاّ لضعف رأيهم وعقلهم فجاز ذلك عليهم لقول الله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أي هم الذين ضعفت آراؤهم، فحال ذلك الضعف بينهم وبين الإيمان ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣] فتحفظ من الكلام القبيح وهو أن تنسب صفة مذمومة لأخيك المؤمن وإن كانت فيه لا في حضوره ولا في غيبته، فإنك إن واجهته بذلك فقد عيرته، فما تأمن أن يعافيه الله من تلك الصفة ويبتليك بها وقد ورد: «**لا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ بِأَخِيكَ فَيُعَافِيَهُ الله وَيَبْتَلِيَكَ**» وإن كان غائباً فهي غيبة وقد نهاك الله عن الغيبة فإنك إذا ذكرته بأمر هو فيه ممّا يسوءه لو قابلته به فقد اغتبته، وإن نسبت إليه من القبيح ما ليس فيه فذلك البهتان، ولا بدّ أن تجني ثمرة غرسك إلاّ أن يعفو الله بإرضاء الخصم، وأن يعود عليك وبال ما نسبته إلى أخيك المؤمن بما ليس هو عليه، وكذلك خداع المؤمن فلا تكن ممّن يخادع الله فإنك إن اعتقدت ذلك كنت من الجاهلين بالله حيث تخيلت أنك تلبس على الحق وأن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢-٢٣]. وإن خادعت المؤمن فما تخادع إلاّ نفسك كما قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩] في خداعهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فإنهم مؤمنون

أيضاً ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢] فوصفهم بالإيمان بالباطل. وقال في حديث الأنواء فيمن قال مطرنا بنوء كذا إنه كافر بي مؤمن بالكوكب فهذا قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ في خداعهم الذين آمنوا، وأما في خداعهم الله فإن الله هو خادعهم بخداعهم أي هو خداع الله بهم لكونهم اعتقدوا أنهم يخادعون الله، فإياك والجهل فإنه أقبح صفة يتصف بها الإنسان، فإن كنت يا وليّ ذا زوجة فأوصها بل لا تتركها ولا أختاً ولا بنتاً ولا أي امرأة كانت ممّن تحكم عليهم أو تعلم أنها تسمع منك فانصحها كانت من كانت أن لا تستعطر إذا خرجت بطيب يكون له ريح فإنه قد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ**» وقد ورد مقيداً في ذلك: «**أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَصَابَتْ بَخُوراً فَلَا تَشْهَدْ مَعَنَا العِشَاءَ الأَخِيرَةَ**» وذلك لأن الليل آفاته كثيرة والظلمة ساترة وما تدري إذا أصاب الرجل ريحها الطيب في طريق المسجد ما يلقى منه إذا لم يتق الله فلهذا نهاها رسول الله ﷺ عن شهود العشاء الآخرة. وبالجملة فلا ينبغي للمرأة أن تخرج بطيب له رائحة في ليل ولا في نهار.

وإياك والاستهزاء والسخرية بأهل الله استهزاء بدين الله ولا تتخذهم ضحكة فإن وبال ذلك يعود عليك يوم القيامة فيسخر الله منك ويستهزىء بك وهو أن يريك بالفعل ما فعلته أنت هنا أعني في الدنيا بالمؤمن إذا لقيته تقول: أنا معك على طريق الهزء به والسخرية منه، فإذا كان يوم القيامة يجازيك الله عدلاً بقدر ما تراءيت به للمؤمنين من الإقبال عليهم والإيمان بما هم عليه أهل الله عزَّ وجل، وقد رأينا على ذلك جماعة من المدرسين الفقهاء يسخرون بأهل الله المنتمين إلى الله المخبرين عن الله بقلوبهم مايرد عليهم من الله فيها فيأمر من هذه صفته إلى الجنة حتى ينظر إلى ما فيها من الخير فيسرّون كما يسرّ أهل الله في حال استهزائهم بهم ويتخيلون أنهم صادقون فيما يظهرون به إليهم. فإذا وفى الله جزاء عملهم وانفهقت لهم الجنة بخيرها أمر الله بهم أن يصرفوا عنها إلى النار فتصرفهم الملائكة إلى النار فذلك استهزاء الله بهم، كما أن هؤلاء المنافقين لما رجعوا إلى أهليهم قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] وقال: ﴿سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨] ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤] كما كانوا في الدنيا يضحكون من المؤمنين لإيمانهم، وكذلك بعض المؤمنين يضحكون من أهل الله في الدنيا ولا سيما الفقهاء إذا رأوا العامة على الاستقامة يتحدثون بما أنعم الله عليهم في بواطنهم يضحكون منهم ويظهرون لهم القبول عليهم وهم في بواطنهم على خلاف ذلك، فلا أقل يا أخي إذا لم يكن منهم أن تسلم لهم أحوالهم فإنك ما رأيت منهم ما ينكره دين الله ولا ما يرده العلم الصحيح النقلي والعقلي ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٠] هكذا والله رأيت فقهاء الزمان مع أهل الله يتغامزون عليهم ويضحكون منهم ويظهرون القبول عليهم وهم على غير ذلك، فاحذر من هذه الصفة ومن صحبة من هذه صفته لئلا يسرقك الطبع، فما أعظم حسرتهم يوم القيامة فهم ﴿ ٱلَّذِينَ

﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [البقرة: ١٧٥] و﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٨٦] ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

وصية: واحذر يا أخي أن تكون من شرار الناس فيتقي الناس لسانك فإن من شرار الناس الذين يكرمون اتقاء ألسنتهم وأنت أعرف بنفسك في ذلك: أقبل رجل على رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ فيه قبل أن يصل إليه وقد رآه مقبلاً: «**بِئْسَ ابْنُ العَشِيرَةِ**» فَلَمَّا وصل إليه بشَّ في وجهه وضحك له فلما انصرف قالت له عائشة: يا رسول الله قلت فيه ما قلت ثم بشderست في وجهه فقال: «**يا عَائِشَةُ إنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْ أَكْرَمَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ**» فاحذر أن تكون ممّن هذه صفتهم فتكون من شرّ الناس بشهادة رسول الله ﷺ، وإن كانت لك زوجة فإياك إذا أفضيت إليها وكان بينك وبينها ما كان أن تنشر سرها فإن ذلك من الكبائر عند الله فإنه ثبت عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ عِنْدَ الله يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِي يُفضِي إلَى امْرَأَتِهِ وتُفْضِي إلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا**» فذلك من الكبائر. وإياك أن تسبّ أبا أحد أو أمه فيسبّ أباك وأمك فإن ذلك من العقوق، وكذلك إذا جالست مشركاً فلا تسبّ من اتخذه إلهاً مع الله، وإذا جالست من تعرف أنه يقع في الصحابة من الروافض فلا تتعرض ولا تعرض بذكر أحد من الصحابة التي تعلم أن جليسك يقع فيهم بشيء من الثناء عليهم فإن لجاجه بجعله يقع فيهم فتكون أنت قد عرضتهم بذكرك إياهم للوقوع فيهم، يقول الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] ونهى رسول الله ﷺ عن شتم الرجل والديه فقيل له: يا رسول الله وكيف يشتم الرجل والديه؟ فقال ﷺ: «**يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ**» وإن من الكبائر استطالة الرجل في عرض رجل مسلم بغير حق، هذا هو الثابت عن رسول الله ﷺ، وعليك بشهود العتمة والصبح في جماعة فإنه من شهد العشاء في جماعة فكأنما قام نصف ليله، ومن شهد الصبح في جماعة فكأنما قام ليله، وعليك بالشفقة على عباد الله مطلقاً بل على كل حيوان فإنه في كل ذي كبد رطبة أجر عند الله تعالىٰ.

وصية: احذر أن ترجح نظرك على علم الله في خلقه بمن قدمه من الولاة في النظر في أمور المسلمين وإن جاروا فإن لله فيهم سراً لا تعرفه، وأن ما يدفع الله بهم من الشرور ويحصل بهم من المصالح أكثر من جورهم إن جاروا، وهذا كثير ما يقع فيه الناس يرجحون نظرهم على ما فعل الله في خلقه، ويأتيهم الشيطان فيعلق تسفيههم بالذين ولوه ويحول بينهم وبين الصحيح من كون الله ولاهم وينسيهم أمر النبي ﷺ: «**أن لا تُخرجَ يَداً مِنْ طَاعَةٍ وَأَنْ لا تُنَازِعَ الأَمرَ أَهْلَهُ فَيَدْخُلَ عَلَيهِمُ الشَّيطَانُ**» من التأويل في هذه الأحاديث وأمثالها بما يخرجهم بذلك من الإسلام وينسيهم قوله ﷺ: «**فَإنْ جَارُوا فَلَكُمْ وَعَلَيهِمْ وَإنْ عَدَلُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ**» وأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن لو لم يكن في هذه المسألة إلاّ اعتراض الملائكة على الله تعالىٰ في خلافة آدم عليه السلام لكان كافياً، وقد جعل رسول الله ﷺ من تمام الزكاة أن ينقلب المصدق وهو العامل الذي على الزكاة راضياً عنك وإن ظلمك، وهذا باب قد أغفله الناس وقد أغلقوه على أنفسهم فما يرى أحد إلاّ وله في ذلك نصيب ولا يعلم ما فيه عند الله،

وقد رأينا على ذلك براهين من الله كثيرة، ومتى ذممت ولا بدّ فذمّ الصفة بذمّ الله، ولا تذمّ الموصوف بها إن نصحت نفسك، ومتى حمدت فاحمد الصفة والموصوف معاً، فإن الله يحمدك على ذلك.

وصية: أوصيت بها في مبشرة أريتها سمعتها من كلام الله تعالىٰ بلا واسطة في البقعة المباركة التي كلم الله فيها موسىٰ عليه السلام من بلة على قدر الكف كلاماً لا يكيف ولا يشبه كلام مخلوق عين الكلام وهو عين الفهم من السامع، فممّا فهمت منه كن سماء وحي وأرض ينبوع وجبل تسكين فإذا تحركت فلتكن حركة أحياء وسطينة بتحريك عن وحي سماوي ثم وقع في نفسي نظم فكنت أنشد: [مخلع البسيط]

جَعَلْتَ فِيَّ الذي جَعَلْتَا ... وقُلْتَ لي أنت قد عَمِلْتَا
وأنت تدري بأن كَوْني ... ما فيه غير الذي جَعَلْتَا
فكلُّ فِعْلٍ تراه مِنِّي ... أنت إلٰهي الذي فَعَلْتَا

وصية: إذا قلت خيراً ودللت على خير فكن أنت أوّل عامل به والمخاطب بذلك الخير، وانصح نفسك فإنها آكد عليك فإن نظر الخلق إلى فعل الشخص أكثر من نظرهم إلى قوله، والاهتداء بفعله أعظم من الاهتداء بقوله، ولبعضهم في ذلك: [الكامل]

وإذا المَقَالُ مع الفِعَالِ وَزَنْتَهُ ... رجح الفعالُ وخَفَّ كُلُّ مَقَالِ

واجهد أن تكون ممّن يهتدي بهديك فتلحق بالأنبياء ميراثاً فإن رسول الله ﷺ يقول: «**لأَنْ يَهْتَدِيَ بِهُدَاكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيهِ الشَّمْسُ**» يقول الله تعالىٰ في نقصان عقل من هذه صفته ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] فإذا تلى الإنسان القرآن ولا يرعوي إلى شيء منه فإنه من شرار الناس بشهادة رسول الله ﷺ فإن الرجل يقرأ القرآن والقرآن يلعنه ويلعن نفسه فيه يقرأ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] وهو يظلم فيلعن نفسه ويقرأ ﴿لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] وهو يكذب فيلعنه القرآن ويلعن نفسه في تلاوته، ويمرّ بالآية فيها ذمّ الصفة وهو موصوف بها فلا ينتهي عنها، ويمرّ بالآية فيها حمد الصفة فلا يعمل بها ولا يتصف بها فيكون القرآن حجة عليه لا له، قال ﷺ في الثابت عنه القرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعقتها أو موبقها، فإذا كنت يا أخي ممّن يجلس مع الله بترك الأسباب فتحفظ من السؤال فلا تسأل أحداً، وإياك أن تقتدي بهؤلاء أصحاب الزنابل اليوم فإنهم من أدنى الناس همة وأخسّهم قدراً عند الله وأكذبهم على الله، فإما يقين صادق وإما حرفة فيها عزّ نفسك فإن ذلك خير لك عند الله، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لأَنْ يَحْتَزِمَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً مِنْ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلاً**» وفي حديث: «**أعْطاه أو مَنَعَهُ**» فإما يقين صادق وإما شغل موافق.

وصية: عليك بإكرام الضيف فإنه قد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**» فإن كان الضيف مقيماً فثلاثة أيام حقّه عليك وما زاد فصدقة، فإن كان مجتازاً فيوم وليلة جائزته. ولشيخنا أبي مدين في هذه المسألة حكاية عجيبة: كان

رضي الله عنه يقول بترك الأسباب التي يرتزق بها الناس وكان قوي اليقين ويدعو الناس إلى مقامه والاشتغال بالأهم فالأهم من عباد الله، فقيل له في ذلك أي في ترك الأسباب والأكل من الكسب وأنه أفضل من الأكل من غير الكسب، فقال رضي الله عنه: ألستم تعلمون أن الضيف إذا نزل بقوم وجب بالنص عليهم القيام بحقه ثلاثة أيام إذا كان مقيماً؟ فقالوا نعم، فقال: فلو أن الضيف في تلك الأيام يأكل من كسبه أليس كان العار يلحق بالقوم الذين نزل بهم؟ فقالوا نعم، فقال: إن أهل الله رحلوا عن الخلق ونزلوا بالله أضيافاً عنده فهم في ضيافة الله ثلاثة أيام، وإن يوماً عند ربك كألف سنة ممّا تعدّون، فنحن نأخذ ضيافته على قدر أيامه، فإذا كملت لنا ثلاثة أيام من أيام الله من نزلنا عليه ولا نحترف ونأكل من كسبنا عند ذلك يتوجه اللوم وإقامة مثل هذه الحجة علينا. فانظر يا أخي ما أحسن نظر هذا الشيخ وما أعظم موافقته للسنة، فلقد نور الله قلب هذا الشيخ فحق الضيف واجب وهو من شعب الإيمان أعني إكرام الضيف، وكذلك من شعب الإيمان قول الخير أو الصمت عن الشر، يقول الله: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] هذا في النجوى ومخاطبة الناس، وذكر الله أفضل القول، والتلاوة أفضل الذكر.

ومن الإيمان وشعبه اجتناب مجالس الشرب فإنه ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يَقْعُدْ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الخَمْرُ**» وعليك إذا عملت عملاً مشروعاً أن تحسنه فإنه من حسن عمله بلغ أمله، وحسن العمل أن تعمله كما شرع الله لك أن تعمله، وأن ترى الله تعالى في عملك إياه فإن رسول الله ﷺ فسّر الإحسان بما ذكرناه فقال في الثابت عنه: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» وإذا أردت أن تأتي الجمعة فاغتسل لها فإن الغسل وإن كان واجباً عليك يوم الجمعة لمجرد اليوم فإنه قبل الصلاة للصلاة أفضل بلا خلاف، فإذا توضأت كما ذكرت لك في باب الوضوء من هذا الكتاب فامش إلى الجمعة، وعليك السكينة والوقار، ولا تفرق بين اثنين إلاّ أن ترى فرجة فتأوي إليها، وتقرب من الخطيب وأنصت لكلامه إذا خطب، ولا تمسح الحصى فإن مسح الحصى لغو، ولا تقل لمتكلم أنصت والإمام يخطب فإن ذلك من اللغو، وفرغ قلبك لما يأتي به من الذكر فإن المؤمن ينتفع بالذكرى، ولتلبس أحسن ثيابك وتمس من الطيب إن كان معك ولتهجر ما استطعت. وإن أردت الخروج من الخلاف في التهجير فتسعى إليها في أوّل ساعة من النهار تكن من أصحاب البدن وتدنو من الإمام ما استطعت، وإن كان لك أهل فلتجعلهم يغتسلون يوم الجمعة كما اغتسلت، وإن كنت جنباً فاغتسل غسلين: غسل الجنابة وغسل الجمعة فهو أولى، فإن لم تفعل فاغتسل للجنابة فعسى يجزيك عن غسل الجمعة، فإنه قد ثبت: «**مَنْ غَسَلَ وَاغْتَسَلَ وَبَكَّرَ وَابْتَكَرَ**» وعليك بالوضوء على الوضوء فإنه نور على نور، ولقيت على ذلك جماعة من الشيوخ ببلاد المغرب يتوضؤون لكل صلاة فريضة وإن كانوا على طهارة. وأما التيمّم لكل فريضة فالدليل في وجوب ذلك أقوى من قياسه على الوضوء وإليه أذهب فإن نص القرآن في ذلك، ولولا أن رسول الله ﷺ شرع في الوضوء ما شرع من صلاة فريضتين

فصاعداً بوضوء واحد لكان حكم القرآن يقتضي أن يتوضأ لكل صلاة، وبالجملة فهو أحسن بلا خلاف فإن الوضوء عندنا عبادة مستقلة، وإن كان شرطاً في صحة عبادة أخرى فلا يخرجه ذلك عن أن يكون عبادة مستقلة في نفسه مراداً لعينه، وتحفظ أن تؤذي شخصاً قد صلّى الصبح فإنه في ذمّة الله فلا تحقر الله في ذمّته، وما رأيت أحداً يدّعي هذا القدر في معاملته الخلق وقد أغفله الناس، فإنه قد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُو فِي ذِمَّةِ الله»** فإياك أن يتبعك الله بشيء من ذمته، وحافظ كل يوم على صلاة اثنتي عشرة ركعة فإنه قد ثبت الترغيب في ذلك عن رسول الله ﷺ، وحافظ على صلاة العصر فإنه من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله. وإذا قعدت في مسجد أو في مجلسك أو حيث كنت فاقعد على طهارة منتظراً دخول وقت الصلاة، واجعل موضع جلوسك مسجدك فإن الأرض كلها مسجد بالنص، وإن كان في المسجد المعروف في العرف كان أفضل، فإنه من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ مَشَى إلى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله لِيَقْضِي فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ الله كَانَتْ خُطُوَاتُهُ إِحْدَاهُنَّ تَحُطُّ عَنْهُ خَطِيئَةً وَالأُخْرَى تَرْفَعُ لَهُ دَرَجَةً»**، وعليك من قيام الليل بما يزيل عنك اسم الغفلة، وأقل ذلك أن تقوم بعشر آيات فإنك إذا قمت بعشر آيات لم تكتب من الغافلين، هكذا ثبت عن المبلغ ﷺ عن الله، وحافظ في السنة كلها على القيام كل ليلة ولو بما ذكرت لك، ولا تهمل الدعاء في كل ليلة، واجعل من دعائك السؤال في العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة فإنك لا تدري متى تصادف ليلة القدر من سنتك، فإني قد أريتها مراراً في غير شهر رمضان فهي تدور في السنة وأكثر ما يكون في شهر رمضان، وأكثر ما تكون في ليلة وتر من الشهر وقد تكون في شفع، وقد أريتها في ليلة الثامن عشر من الشهر، وقد أريتها في العشر الوسط ومن رمضان، فإن زدت على عشر آيات في قيام الليل فأنت بحسب ما تزيد، فإن زدت إلى المائة كتبت من الذاكرين، وإن زدت إلى ألف آية كتبت من المقسطين. وعليك بصيام ستة أيام من شوال ولتجعلها من ثاني يوم من شوال متتابعات إلى أن تفرغ لتخرج بذلك من الخلاف، وإذا قضيت أيام رمضان من مرض أو سفر فاقضه متتابعاً كما أفطرته متتابعاً تخرج بذلك من الخلاف، فإن شهر رمضان متتابع الأيام في الصوم، وإن قدرت أن تشارك في فطرك صائماً أو تفطر صائماً فافعل فإن لك أجره أي مثل أجره، وعليك إن كنت مجاوراً بمكة بكثرة الطواف فإن طواف كل أسبوع يعدل عتق رقبة، فأعتق ما استطعت تلحق بأصحاب الأموال مع أجر الفقر، واجهد أن ترمي بسهم في سبيل الله، وإن تعلمت الرمي فاحذر أن تنساه فإن نسيان الرمي بعد العلم به من الكبائر عند الله. وكذلك من حفظ آية من القرآن ثم نسيها إما من محفوظه وإما ترك العمل بها فإنه لا يعذب أحد من العالمين يوم القيامة بمثل عذابه لأنه لا مثل للقرآن الذي نسيه، وعليك بتجهيز المجاهد بما أمكنك ولو برغيف إذا لم تكن أنت المجاهد، وأخلف الغزاة في أهلهم بخير تكتب معهم وأنت في أهلك، واحذر إن لم تغز أن لا تحدث نفسك بالغزو فإنك إن لم تغز ولا تحدث نفسك بالغزو كنت على شعبة من نفاق. واجهد في

إعطاء ما يفضل عنك لمعدم ليس ذلك من طعام أو شراب أو لباس أو مركوب، وعليك بتعلم علم الدين إن عملت به عملت على علم أو علمته أحداً من الناس كان ذلك التعليم عملاً من أعمال الخير قد أتيته، واسأل من الله ما تعلم أن فيه خيراً عند الله فإنه إن أعطاك ما سألت وإلاّ أعطاك أجر ما سألت، فإنه قد ثبت عن رسول الله ﷺ ما يؤيد ما ذكرناه وذلك أنه قال: «**مَنْ سَأَلَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ الله مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ**» وعليك بالإحسان إلى كل من تعول وادع إلى خير ما استطعت فإنك لن تدعو إلى خير إلاّ كنت من أهله، ومن أجابك إليه فلك مثل أجره فيما أجابك من ذلك. ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلام سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ لا يَنْقُصُ ذٰلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً**» ولقد بلغني عن الشيخ أبي مدين أنه سنّ لأصحابه ركعتين بعد الفراغ من الطعام يقرأ في الأولى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١] وفي الآخرة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ومشت سنّة في أصحابه. وقد ثبت أنه من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله، وعليك بصلة الأرحام وحافظ على النسب الذي بينك وبين الله فإنه من الأرحام، وعليك بإنظار المعسر إلى ميسرة فإن الله يقول: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] وإن وضعت عنه فهو أعظم لأجرك فإنه قد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ الله فِي ظِلِّهِ**» وأن الله يوم القيامة يتجاوز عمّن يتجاوز عن عباده، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أيضاً أنه قال: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ الله مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَع عَنْهُ**».

واعلم أن من الإيمان أن تسرك حسنتك وتسوءك سيئتك، واحذر من الكبر والغل والرين، واستر عورة أخيك إذا أطلعك الله عليها فإن ذلك يعدل إحياء موؤدة، هكذا ورد النص في ذلك عن رسول الله ﷺ فإن مقادير الثواب لا يدرك بالقياس، وعليك بالسعي في قضاء حوائج الناس، وقد رأينا على ذلك جماعة من الناس يثابرون عليه وهو من أفضل الأعمال، وفرّج عن ذي الكربة كربته، واستر على مسلم إذا رأيته في زلّة يطلب التستر بها ولا تفضحه، وأقل عثرة أخيك المسلم وخذ بيده كلما عثر وأقله بيعته إذا استقالك، فإن ذلك كله مرغب فيه مندوب إليه مأمور به شرعاً، وهو من مكارم الأخلاق، وعليك بالزهد في الدنيا ولباس الخشن فإنه قد ورد: «**أَنَّهُ مَنْ تَرَكَ لُبْسَ ثَوْبِ جَمَالٍ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ كَسَاهُ الله حُلَّةَ الكَرَامَةِ**»وهذا ثابت. وكن من الكاظمين الغيظ إذا قدرت على إنفاذه فإن الله قد أثنى على الكاظمين الغيظ العافين عن الناس. وقال ﷺ: «**مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ مَلأَهُ الله أَمْناً وَإِيماناً**» فمن الإيمان كظم الغيظ، واحم أخاك المؤمن ممّن يريد ضرّه ما استطعت وبما قدرت عليه من ذلك، وإذا نزل بك ضرّ فلا تنزله إلاّ بالله ولا تسأل في كشفه إلاّ الله، وإن قلت بالأسباب فلا يغب الله عن نظرك فيها فإن لله في كل سبب وجهاً، فليكن ذلك الوجه من ذلك السبب مشهوداً لك.

واعلم أنه ما من نبي إلاّ وقد أنذر أمته الدجال، وأن رسول الله ﷺ كان يستعيذ من فتنة الدجال تعليماً لنا أن نستعيذ من ذلك، وفي الاستعاذة من فتنته وجهان: الوجه الواحد

الإستعاذة من فتنته حتى لا تصدّقه في دعواه وأن تعصم منه، ومن أراد أن يعصمه الله من ذلك فليحفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف فإنه يعصم بها من فتنة الدجال. والوجه الآخر أن تعصم من أن يقوم بك من الدعوى ما قام بالدجال فتدعي لنفسك دعوته فإنك مستعد لكل خير وشرّ يقبله الإنسان من حيث ما هو إنسان، وثابر ما استطعت على أن تسأل الله الوسيلة لرسول ﷺ فإنه ﷺ قد سأل منا ذلك، فالمؤمن من أسعفه في سؤاله مع ما يعود عليه في ذلك من الخير، أدناه وجوب الشفاعة له يوم القيامة إن اضطر إليها، وإذا رأيت من يتعمل في تحصيل خير فأعنه على ذلك بما استطعت، ولا تمنع رفدك ممّن استرفدك، وإياك أن تجلد عبدك فوق جنايته، وإن عفوت فهو أحوط لك فإنك عبد الله ولك إساءة تطلب من الله العفو عنك لها فاعف عن عبدك، ولا تأكل وحدك ما استطعت ولو لقمة تجعلها في فم خادمك من الطعام الذي بين يديك إذا لم يجبك إلى الأكل معك، واستغن بالله صدقاً من حالك فإن الله لا بدّ أن يغنيك فإن استغناءك بالله من القرب إلى الله، وقد ثبت: «**أَنَّهُ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَى الله شِبْراً تَقَرَّبَ الله مِنْهُ ذِرَاعاً**» الحديث. وكذلك من يستعف بالله روي أن بعض الصالحين لم يكن له شيء من الدنيا فتزوّج فجاءه ولد وما أصبح عنده شيء فأخذ الولد وخرج ينادي به: هذا جزاء من عصى الله، فقيل له: زنيت؟ فقال لا. وإنما سمعت الله يقول في كتابه العزيز: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣] فعصيت أمر الله وتزوجت وأنا لا أجد نكاحاً فافتضحت فرجع إلى منزله بخير كثير. وإن قدرت على العتق فأعتق رقبة، وإن لم تجد مالاً ويكون لك علم فاهديه رجلاً منافقاً أو كافراً أو رد به مسلماً عن كبيرة فإنك تعتقه بذلك من النار وهو أفضل من عتق رقبة، ومن ملك أحد في الدنيا وفكاك العاني أولى من عتق العبد فإنه عتق وزيادة. واعلم أن الفقير الذي لا يقدر على إحياء أرض ميتة فليحيي أرض بدنه بما يعمل فيها من الطاعة لله تعالىٰ، وليحيي مواضع الغفلة بذكر الله فيها، وليحيي العمل بالإخلاص فيه. وإن أردت أن لا يضرك في يومك سحر ولا سم فلتصبح بسبع تمرات من العجوة أو تسحر بها إن أصبحت صائماً، فإنه كذا ثبت عن رسول الله ﷺ. وعليك بخدمة الفقراء إلى الله ومجالسة المساكين والدعاء للمسلمين بظهر الغيب عموماً وخصوصاً وصحبة الصالحين والتحبّب إليهم وأنو في جميع حركاتك خيراً مشروعاً فإنك لما نويت، وإذا رأيت من أعطاه الله مالاً وفعل فيه خيراً وحرمك الله ذلك المال فلا تحرم نفسك أن تتمنى أن تكون مثله فإن الله يأجرك مثل أجره وزيادة، وإذا جلست مجلساً فاذكر الله فيه ولا بدّ، وإياك أن تحرم الرفق فإنك إن حرمت الرفق فقد حرمت الخير كله. وأجر من استجار بك إلاّ في حدّ من حدود الله فإن كان في حدّ من حدود الخلق فأصلح في ذلك ما استطعت بينه وبين صاحب الحق ولا تسلمه ولو مضى فيه جميع مالك، وإذا رأيت من يستعيذ بالله فأعذه فإن النبيّ ﷺ تزوج امرأة فلما دخل عليها استعاذت بالله منه لشقاوتها فقال: عذت بعظيم الحقي بأهلك فطلقها ولم يقربها وأعاذها. وإذا سألك أحد بالله وأنت قادر على مسألته فأعطه وإن لم تقدر على مسألته فادع له فإنك إذا دعوت له مع عدم القدرة فقد أعطيته ما بلغت إليه يدك من مسألته

فإن الله لا يكلف نفساً إلاّ ما آتاها ، وإذا أسدى إليك أحد معروفاً فلتكافئه على معروفه ولو بالدعاء إذا عجزت عن مكافأته بمثل ما جاءك به ، وإذا أسديت أنت إلى أحد معروفاً فأسقط عنه المكافأة ولتعلمه بذلك ولتظهر له الكراهة إن كافأك حتى تريح خاطره ولا سيما إن كان من أهل الله ، فإن جاءك بمكافأة على ذلك وتعلم منه أنه يعزّ عليه عدم قبولك لذلك فاقبله منه ، وإن علمت منه أنه يفرح بردّك عليه بعد أن وفى هو ما وجب عليه من المكافأة فردّ عليه بسياسة وحسن تلطف ، واجعل لك الحاجة عنده في قبول ما رددت عليه من ذلك حتى يتحقق أنه قد قضى لك حاجة في قبول ما رددت عليه من المكافأة .

وإياك أن تدعي ما ليس لك فإن ذلك ليس من المروءة مع ما فيه من الوزر عند الله ، وإن رميت بشيء مذموم فلا تنتصر لنفسك واسكت ، ولا تتعرض لمن رماك بأنه يكذب ، ولا تقرّ على نفسك بما لم تفعل ممّا نسب إليك هكذا فعل ذو النون مع المتوكل حين سأله عمّا يقول الناس فيه من رميه بالزندقة فقال : يا أمير المؤمنين إن قلت لا أكذبت الناس وإن قلت نعم كذبت على نفسي ، فاستحسن ذلك منه أمير المؤمنين وما قبل فيه قول قائل وردّه مكرماً إلى مصر واعتذر له ، وحكايته في ذلك مشهورة ذكرها الناس . وقد ثبتت الأخبار الصحيحة في إثم من ادّعى ما ليس له أو اقتطع ما لا يجب له من حق الغير ، واحذر في يمينك أن تحلف بملة غير ملة الإسلام أو بالبراءة من الإسلام فإنك إن كنت صادقاً فلن ترجع إلى الإسلام سالماً ، ولتجدد إسلاماً إذا فعلت مثل ذلك ، ومع هذا فلا تحلف إلاّ بالله فإنك إن حلفت بغير الله كنت عاصياً للنهي الوارد في ذلك ، وإن حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك ولتأت الذي هو خير ، وإياك والكذب في الرؤيا أو الكذب على الله أو على رسول الله أو تحدث بحديث ترى أنه كذب فتحدث به ولا تبين عند السامع أنه كذب . واحذر أن تسمع حديث قوم وهم يكرهون أن تسمعه فإنه نوع من التجسّس الذي نهى الله عنه . واحذر أن تخبث امرأة على زوجها أو مملوكاً على سيده . واحذر أن تنام على سطح ماله احتجاز فإن فعلت فقد برئت منك الذمّة . وإياك أن تحب قيام الناس لك وبين يديك تعظيماً وهذا كثير في هذه البلاد أعني العراق وما جاوره ، فما رأيت منهم أحداً يسلم من حب ذلك مع علمهم بما فيه ، وقد جرت لنا معهم في ذلك حكايات مع علمائهم فما ظنك بعامتهم ، وقمت مرّة لأحدهم فقال لي : لا تفعل ، وقال لي : إن النهي قد ورد في ذلك فقلت له : يا فقيه أنت المخاطب بذلك أن لا تحب أن يتمثل الناس بين يديك قياماً ما أنا المخاطب بذلك إني لا أقول لمثلك ، فتعجب من هذا الجواب واستحسنه وكان من علماء الشريعة . وإياك إن تقبل هدية من شفعت فيه شفاعة فإن ذلك من الربا الذي نهى الله عنه بنص رسول الله ﷺ في ذلك ، ولقد جرى لنا مثل هذا في تونس من بلاد أفريقية دعاني كبير من كبرائها يقال له ابن معتب إلى بيته لكرامة استعدّها لي فأجبت الداعي فعندما دخلت بيته وقدم الطعام طلب مني شفاعة عند صاحب البلد وكنت مقبول القول عنده متحكماً فأنعمت له في ذلك وقمت وما أكلت له مطعاماً ولا قبلت منه ما قدمه لنا من الهدايا وقضيت حاجته ورجع إليه ملكه ولم أكن بعد

وقفت على هذا الخبر النبويّ، وإنما فعلت ذلك مروءة وأنفة، وكان عصمة من الله في نفس الأمر وعناية إلهية بنا وإياك أن تشفع عند حاكم في حدّ من حدود الله. كلم ابن عباس في رجل أصاب حدّاً من حدود الله أن يكلم الحاكم فيه فقال ابن عباس: لعنني الله إن شفعت فيه، ولعن الله أخاكم إن قبل الشفاعة فيه، لو أردتم ذلك لجئتموني قبل أن يصل إلى الحاكم وكان سارقاً، ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حُدُودِ الله فَقَدْ ضَادّ الله**» وإياك أن تخاصم في باطل فتسخط الله عليك، وكذلك لا تعن على خصومة بعلم تدفع به حقاً، فإن النبيّ ﷺ يقول فيمن أعان على ذلك: «**إِنَّهُ يَبُوءُ بِغَضَبٍ مِنَ الله**». ولا تقل في مؤمن ما ليس فيه ممّا يشينه عند الناس، وقد ثبت أنه من رمى مسلماً بشيء يريد أن يشينه حبسه الله على جمر جهنم حتى يخرج ممّا قال يعني يتوب، واحذر أن تأكل الدنيا بالدين أو تأكل مال أحد بإخافته فيعطيك اتقاء، وإياك إن تسمع فيسمع الله بك، سمعت شيخنا المحدث الزاهد أبا الحسن يحيى بن الصانع بمدينة سبتة ونحن بمنزله يقول: لأكل الدنيا بالدف والمزمار خير لي من أني آكلها بالدين. وكف لسانك عن اللعنة ما استطعت فإنه من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت عليه اللعنة أي بعد عنه الخير الذي كان له من ذلك الذي لعنه لو لم يلعنه، ولقد روينا عن رجل كان في غزاة فضاع له آلة من آلات دابته فسئل عن الضائع فقال: راح في لعنة الله، ثم إن الرجل استشهد في تلك الغزاة فرآه إنسان في النوم فسأله ما فعل الله به فقال: إن الله وزن لي كل ما عندي حتى روث الفرس وبوله جعله في ميزاني وأثابني به فلم أر في الميزان سرج الدابة الذي كان ضاع لي فقلت يا رب وأين سرج دابتي؟ فقال: هو حيث جعلته في لعنة الله حيث سئلت عنه فحرم خيره فعادت لعنة السرج عليه بهذا المعنى. وكان رسول الله ﷺ في سفر فسمع امرأة تلعن ناقتها فأمر بها فسيبت وقال: «**لا يَصْحَبُنَا مَلْعُونٌ**» فطردت من الركب، قال الراوي: فلقد كنا نراها تطلب أن تلحق بالركب والناس يطردونها فتركناها منقطعة فكانت عقوبة صاحبتها أن بعد عنها خيرها وهو ركوبها فحارت اللعنة عليها فإن اللعنة البعد. واحذر أن تكفر مؤمناً فإن تكفير المؤمن كقتله، ولا تهجر أخاك فوق ثلاث فإذا لقيته بعد ثلاث فابدأه بالسلام تكن خير الشخصين المتهاجرين. ولما هجر الحسن محمد ابن الحنفية أخاه وتهاجرا نفذ إليه محمد بن الحنفية بعد ثلاث فقال: يا أخي يا ابن رسول الله: إن رسول الله ﷺ يقول: «**لا يَهْجُرْ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثٍ يَلْتَقِيانِ فَيَصُدّ هٰذا وَيَصُدّ هٰذا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلام**»وقد فرغت الثلاث فإما أن تأتيني فتبدأني بالسلام فإنك خير مني وإن كنا ابني رجل واحد فأنت سبط رسول الله ﷺ فإن خير الرجلين المتهاجرين من يبدأ بالسلام، وإن لم تفعل جئت إليك فبدأتك بالسلام، فبلغ ذلك الحسن فشكره وركب دابته وقصد إلى منزله فبدأه بالسلام. فانظر ما أحسن هذا كيف آثر على نفسه من هو أفضل منه يرجو بذلك المنزلة والمحبة عند رسول الله ﷺ، فهكذا ينبغي للعاقل أن يحتاط لنفسه ويأتي الأفضل فالأفضل ويعرف الفضل لأهله، وقد ثبت أنه من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه.

وإياك واللعب بالنرد فإن في اللعب بالنرد معصية الله ورسوله، وفي الشطرنج خلاف

وكل ما فيه خلاف فالاحتياط أن تخرج من الخلاف باجتنابه، واجتنب القمار بكل شيء مطلقاً، وكل ما تغفل باللهو به عن أداء فرض من فروض الله عليك أو عن ذكر الله فاجتنبه. دخل بعض أهل الله من العلماء على قوم يلعبون بالشطرنج فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ وإن كان اللعب بالشطرنج حلالاً فالمصوّر له مأثوم إثم المصوّرين. وأخبرني الزكي شيخنا أحمد بن مسعود بن سداد المقري الموصلي بمدينة الموصل سنة إحدى وستمائة قال: رأيت رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله ما تقول في الشطرنج يعني في اللعب به؟ قال ﷺ: حلال، وكان الرائي حنفي المذهب، قال: فقلت والنرد؟ قال: حرام، قال قلت: يا رسول الله ما تقول في الغناء؟ قال: حلال، قلت: فالشبابة؟ قال: حرام، قال قلت: يا رسول الله ادع الله لي فقد مستني الحاجة أو كما قال ممّا هذا معناه، قال ﷺ رزقك الله ألف دينار كل دينار من أربعة دراهم، واستيقظت فدعاني الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله في شغل فلما خرجت من عنده أمر لي بأربعة آلاف درهم فما بتّ إلاّ والدراهم عندي كاملة التي عيّنها لي في دعائه رسول الله ﷺ، قال: فاعتقدت من تلك الساعة تحليل الشطرنج الذي كنت أعتقد تحريمه وتحريم الشبابة وكنت أعتقد النقيض في هذين الشيئين.

وإياك وتصديق الكهان وإن صدقوا، واجتنب ما استطعت الاستمطار بالأنواء وعلم النجوم اجتنبه مطلقاً احتياطاً إلاّ ما يحتاج منه إلى معرفة الأوقات، والوقوف عند قول الشارع هو طريق النجاة وتحصيل السعادة وما ندندن إلاّ على ذلك، واحذر أن تنام وفي يدك دسم أو على ظاهر فمك من أجل الهوام والشياطين، وإياك أن تشاقق على أحد ولا تضارره ولا تكن ذا وجهين تأتي قوماً بوجه وقوماً بوجه، واحذر من الاحتكار لانتظار الغلاء لأمة محمد عليه السلام. ولا تتخذ كلباً إلاّ أن تكون في أمر تطلب الحراسة فيه أو صيد، ولا تغصب مسلماً شيئاً ولا ذميّاً ولا ذا عهد، وإذا ضربت مملوكاً أو مملوكة حدّاً لم يأته أو لطمته في وجهه فأعتقه فإن كفارة فعلك به ذلك عتقه، ولا ترم مملوكك ولا مملوكتك بالزنى من غير علم فإن الله يقيم عليك الحدّ في ذلك يوم القيامة.

واحذر من اتباع الصيد والمداومة عليه ولزوم البادية فإن الصيد يورث الغفلة وسكنى البادية يورث الجفاء، وإياك وصحبة الملوك إلاّ أن تكون مسموع الكلمة عندهم فتنفع مسلماً أو تدفع عن مظلوم أو ترد السلطان عن فعل ما يؤدي إلى الشقاء عند الله، وعليك بالوفاء بالنذر إذا نذرت طاعة فإن نذرت معصية فلا تعص الله وكفر عن ذلك كفارة يمين فإنه أحوط وأرفع للخلاف. وعليك بطاعة أولي الأمر من الناس ممّن ولاّه السلطان أمرك فإن طاعة أولي الأمر واجبة بالنص في كتاب الله، وما لهم أمر يجب علينا امتثال أمرهم فيه إلاّ المباح لا الأمر بالمعاصي، فإن غصبوك فاقبل غصبهم في بعض أحوالك، وإن أمروك بالغصب فلا تغصب ولا تفارق الجماعة ولا تخرج يداً من طاعة فتموت ميتة جاهلية بنص رسول الله ﷺ، ولا تخرج على الأمة ولا تنازع الأمر أهله، وقاتل مع الأعدل من الاثنين، وأوف لذي العهد بعهده ولذي الحق بحقه، ولا تحمل السلاح في الحرم لقتال، وإذا دخلت السوق بسهام فأمسك

على نصالها لا تعقر أحداً وأنت لا تشعر، ولا تمازح أخاك بحمل السلاح عليه وأكرم شعرك وغبّ بترجيله واكتحل وإذا اكتحلت فاكتحل وتراً واشرب مصاً ولا تتنفس في الإناء إذا شربت وأزل الإناء عن فمك، وكل بثلاث أصابع وصغر اللقمة وكثر مضغها ولا تشرع في لقمة أخرى حتى تبتلع الأولى، وسمّ الله عند قطع كل لقمة واحمد الله إذا ابتلعتها واشكره على أنه سوغك إياها.

ولا تجلس في مجلس أحد إذا قام منه بنية الرجوع إليه إلاَّ أن يفارقه ولا يريد الرجوع إليه، وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا قام أحد إليه من مكانه ليجلسه فيه يمتنع عليه ولا يجلس فإن القائم أحق به بنص رسول الله ﷺ، ولا ترد طيباً إذا عرض عليك ولا لبناً ولا وسادة إذا قدم إليك شيء من هذا كله، وإذا أخذت ديناً فأنو قضاءه ولا بدّ فإن الله يقضيه عنك إذا نويت ذلك، واعدل بين نسائك وفي رعيتك إن كنت راعياً تسعد إن شاء الله.

وصية: والذي أوصيك به إن كنت عالماً فحرام عليك أن تعمل بخلاف ما أعطاك دليلك، ويحرم عليك تقليد غيرك مع تمكنك من حصول الدليل، وإن لم تكن لك هذه الدرجة وكنت مقلداً فإياك أن تلتزم مذهباً بعينه بل اعمل كما أمرك الله فإن الله أمرك أن تسأل أهل الذكر إن كنت لا تعلم، وأهل الذكر هم العلماء بالكتاب والسنّة فإن الذكر القرآن بالنص، واطلب رفع الحرج في نازلتك ما استطعت فإن الله يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقال ﷺ: «**دِينُ اللهِ يُسْرٌ**» فأسأل عن الرخصة في المسألة حتى تجدها فإذا وجدتها اعمل بها، وإن قال لك المفتي: هذا حكم الله أو حكم رسول الله في مسألتك فخذ به، وإن قال لك: هذا رأيي فلا تأخذ به وسل غيره، وإن أردت أن تأخذ بالعزائم في نوازلك فافعل ولكن فيما يختص بك ورفع الحرج هو السنّة، وإذا علمت علماً من علوم الشريعة فبلغه من لا يعلمه تكن من حملة العلم لمن لا يعلم، وإياك أن تكتم ما أنزل الله من البينات للناس إذا علمت ذلك، وعليك بالسماحة في بيعك وابتياعك، وإذا اقتضيت فكن سمحاً في اقتضائك، واجتنب الوشم أن تعمله أو تأمر به وكذلك التنميص وهو إزالة الشعر من الوجه بالنماص والنماص هو الذي يسمونه العوام الجفت، وكذلك التفليج فإن رسول الله يقول: «**لَعَنَ اللهُ الوَاشِمَةَ وَالمُسْتَوْشِمَةَ وَالنَّامِصَةَ وَالمُتَنَمِّصَةَ وَالوَاشِرَةَ وَالمُسْتَوْشِرَةَ**» وَهِيَ الَّتِي تفلج أسنانها «وَالوَاصِلَةَ وَالمُسْتَوْصِلَةَ المُغَيِّرَاتِ خَلْقِ اللهِ» وَالوَاصلة هي التي تصل شعرها.

واحذر أن تعير عباد الله بما ابتلاهم الله به في خلقهم وفي خلقهم وما قدر عليهم من المعاصي، وسل الله عزّ وجلّ العافية ما استطعت، وكن على نفسك لا تكن لها إن أردت أن تسعدها عند الله، وإياك وما تستحليه النفس إلاَّ أن يكون معها الشرع في ذلك فهو الميزان، وإياك أن تذبح ذبيحة لغير الله ولا تأكل ممّا أهل لغير الله وما لم يذكر اسم الله عليه فإنه فسق بنص القرآن، ولا يستميلونك أهل الذمّة إلى ما يتبركون به في دينهم فإن ذلك من الأمور المهلكة عند الله، ولقد رأيت بدمشق أكثر نسائها يفعلن ذلك ورجالهن يسامحونهن في ذلك وهو أنهم يأخذون الصبيان الصغار ويحملونهم إلى الكنيسة حتى يبرك القس عليه ويرشونهم

بماء المعمودية بنية التبرك وهذا قرين الكفر بل هو الكفر عينه وما يرتضيه مسلم ولا الإسلام ويقربون القرابين لذلك. واحذر أن تؤوي محدثاً أحدث في دين الله أمراً يبعد عن الله ويردّه الدين مثل هذا الذي ذكرناه وإياك أن تغير حدود الأرض فإن ذلك غصب، وقد لعن رسول الله ﷺ من غير منار الأرض، احذر أن تمثل بحيوان أو تتخذه غرضاً أو يتخذه غيرك ولا تنهاه عنه، وإياك ونكاح البهائم، ولقد كان عندنا رجل صالح قليل العلم قد انقطع في بيته فاشترى حمارة لم تعلم له حاجة إليها فسأله بعض الناس بعد سنين وقال له ما تصنع بهذه الحمارة ومالك حاجة إليها ولا تركبها؟ فقال: يا أخي ما اشتريتها إلاَّ عصمة لديني أنكحها حتى لا أزني فقال له: إن ذلك حرام فبكى وتاب إلى الله من ذلك وقال: والله ما علمت، فعليك بالبحث عن دينك حتى تعلم ما يحل لك أن تأتي منه ممّا لا يحل لك أن تأتيه في تصرفاتك.

وصية: إذا سألت المغفرة وهي طلب الستر فاسأل أن يسترك عن الذنب أن يصيبك فتكون معصوماً أو محفوظاً، وإن كنت صاحب ذنب فاسأله أن يسترك أن يصيبك عقوبة الذنب، وإياك أن تظهر إلى الناس بأمر يعلم الله منك خلافه، فلقد أخبرني الثقة عندي عن الشيخ أبي الربيع الكفيف المالقي كان بمصر يخدمه أبو عبد الله القرشي المبتلي فدخل عليه الشيخ وسمعه يقول في دعائه: اللهمّ يا رب لا تفضح لنا سريرة فصاح فيه الشيخ وقال له: الله يفضحك على رؤوس الأشهاد يا أبا عبد الله ولأي شيء تظهر لله بأمر وللناس بخلافه؟ اصدق مع الله عزّ وجلّ في جميع أحوالك ولا تضمر خلاف ما تظهر، فتاب إلى الله من ذلك ورجع، وليس للمغفرة متعلق إلاَّ أن يسترك من الذنب أو يسترك من العقوبة عليه بقول الله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فما تقدم لا يعاقبك عليه وما تأخر لا يصيبك. وهذا إخبار من الله بعصمته ﷺ: أخبرني سليمان الدنبلي وكان عبداً صالحاً فيما أحسب كثير البكاء وكان له أنس بالله فقعدت معه بمقصورة الدولعي زاوية عائشة بجامع دمشق وجرى بيني وبينه كلام فقال لي: يا أخي لي والله أكثر من خمسين سنة ما حدثتني نفسي بمعصية قط لله الحمد على ذلك، واحذر يا أخي من التنطع في الكلام والتشدق، وإياك أن يستعبدك غير الله من عرض من عروض الدنيا فإنك عبد لمن استعبدك وإياك والتكبر والجبروت وتفقد مصالح ما عندك من الحيوانات من بهيمة وفرس وجمل وهرّة وغير ذلك ولا تغفل عنهم فإنهم خرس وأمانات بأيديكم إذا أنتم حبستموها عن مصالحها، وإياك أن تحدث أخاك بحديث يرى أنك فيه صادق فيصدقك وأنت فيه كاذب، لا تحقر أخاك شيئاً من نعيم الله وإن قلّ، ولا تزدر أحداً من عباد الله، واملك نفسك عند الغضب وعليك بتحمّل الأذى من عباد الله والصبر عليه فليس أحد أصبر على أذى يسمعه من الله إنهم ليدعون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم، فاجعل الحق أمامك وعامل عباده بما عاملهم به. نزل مشرك بإبراهيم الخليل فاستضافه فقال له إبراهيم عليه السلام: حتى تسلم، فقال: يا إبراهيم لا أفعل وانصرف فأوحى الله إليه يا إبراهيم من أجل لقمة يترك دينه ودين آبائه إنه ليشرك بي منذ سبعين سنة وأنا أرزقه فخرج إبراهيم عليه السلام في أثر الرجل فعرض عليه الرجوع فاستخبره عن

ذلك فأخبره بعتب الله له في ذلك فأسلم المشرك وعليك بترتيل القرآن والتغني به وذلك بأن تحبره وتستوفي حروفه، وإياك أن تدعو إلى عصبية بل ادع إلى الله، وإذا كنت في سفر فلا تصم فإن ذلك ليس من البر عند الله تعالىٰ وإن كنت ولا بدّ صاحب لهو فبامرأتك وفرسك وسهامك، واجتنب الاسترقاء والاكتواء والطيرة إن أردت أن تكون من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وعليك بفعل البر في يوم الاثنين ويوم الخميس فإنهما يومان تعرض فيهما الأعمال على الله تعالىٰ، وكان رسول الله ﷺ لا يترك صومهما ويقول: «**إنّي أحِبُّ أنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأنَا صَائِمٌ**» فإن الصوم عبادة تستغرق النهار كله سواء غفل العبد عن عبادة في ذلك اليوم أو لم يغفل فإنه في عبادة صومه بما نواه، وإياك والشحناء فإنه نظير الشرك في عدم المغفرة عند الله. واعلم أن العبد يبعث على ما مات عليه فلا تمت إلاّ وأنت مسلم، إياك وصحبة من تفارقه ولا تصحب إلاّ من لا يفارقك وهو العمل، فاجعل عملك صالحاً فتأنس به وتسر واجعله لك لا عليك، واعلم أن القبر خزانة أعمالك فلا تخزن فيه إلاّ ما إذا دخلت إليه يسرك ما تراه يقول بعضهم: [مجزوء الرجز]

يا مَنْ بدُنْيَاهُ اشْتَغَلْ ... وغَرَّهُ طُولُ الأَمَلْ
ولم يَزَلْ في غَفْلَةٍ ... حتى دَنَا منه الأجَلْ
المَوْتُ يأتي بَغْتَةً ... والقَبْرُ صُنْدُوقُ العَمَلْ

يرجع عن الميت أهله وماله ويبقى معه عمله، أشقى الناس يوم القيامة من أمر بالمعروف ولم يأته ونهى عن المنكر وأتاه، وعليك بكسب الحلال وطيب المطعم وفر بدينك من الفتن إذا وقعت في الناس وظهرت، وإياك والحرص على المال، واحذر أن تسبّ الدهر فإن الله هو الدهر وإن أردت به الزمان فما بيد الزمان شيء بل الأمر بيد الله، لا تقل مالي وهل لك من مالك إلاّ ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت وما بقي بعد ذلك فعليك لا لك، وأنت مسؤول عمّا جمعت من أين جمعت وفيم أنفقت ولم اختزنت؟ لا تتزوّج من النساء إلاّ ذات الدين فإن من أعظم النعم على العبد المرأة الصالحة تعين على الدين، ولا تكفر العشير كن من حملة الدين تكن عدلاً بشهادة الرسول ﷺ فإنه قال: «**يَحْمِلُ هٰذا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ**» ابدأ بالسلام على من هو أكبر منك، وابدأ بالسلام على الماشي إن كنت راكباً وعلى القاعد إن كنت ماشياً، ولقد جرى لي مع بعض الخلفاء رضي الله عنه ذات يوم كنا نمشي ومعنا جماعة وإذا بالخليفة مقبل فتنحينا عن الطريق وقلت لأصحابي من بدأه بالسلام أرذلت به عنده فلما وصل وحاذانا بفرسه انتظر أن نسلم عليه كما جرت عادة الناس في السلام على الخلفاء والملوك فلم نفعل فنظر إلينا وقال: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته بصوت جهير فقلنا له بأجمعنا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقال: جزاكم الله عن الدين خيراً وشكرنا على فعلنا وانصرف، فتعجب الحاضرون. لا تؤمن رجلاً في سلطانه ولا تقعد على تكرمته إلاّ بإذنه ولا تدخل بيته إلاّ بإذنه ولا تجز مقدم دابته إلاّ بإذنه، وليكن إمام القوم أقرؤهم لكتاب الله هذه وصية رسول الله ﷺ.

إذا استيقظت من نومك فامسح النوم من عينيك واذكر الله تحلّ بذلك عقدة واحدة من عقد الشيطان فإنه يعقد على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد فإن توضأت حللت بوضوءك العقدة الثانية فإن صليت حللك العقد كلها. إياك أن تطلب الإمارة فتوكل إليها وعليك بالصباغ واجتنب السواد فيه فإن رسول الله ﷺ أمر به ورغب فيه وأعجبه. واعلم أن القلوب بيد الله بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء، وقلوب الملوك بيد الله كذلك يقبضها عنا إذا شاء ويعطف بها علينا إذا شاء، ليس لهم من الأمر شيء فاعذروهم وادعوا لهم ولا تقعوا فيهم فإنهم نواب الله في عباده وهم من الله بمكان فاتركوا ولاته له تعالىٰ يعاملهم كيف شاء، إن شاء عفا عنهم فيما قصروا فيه وإن شاء عاقبهم فهو أبصر بهم، وعليك بالسمع والطاعة لهم وإن كان عبداً حبشياً مجدع الأطراف.

دخل رجل نصراني مشرك بعض البلاد فبينما هو يمشي وإذا بالناس يهرعون من كل مكان ويقولون هذا السلطان قد أقبل فوقف المشرك ليراه فإذا به أسود كان مملوكاً لبعض الناس وأعتقه مجدّع الأطراف أقبح الناس صورة فلما نظر إليه قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له في ملكه يفعل ما يريد ويحكم ما يشاء فقيل له: ما الذي دعاك إلى الإسلام والتوحيد؟ فقال: سلطنة هذا العبد الأسود فإني رأيت من المحال أن يجتمع اثنان على تولية مثل هذا على الناس والأشراف والعلماء وأرباب الدين فعلمت أن الله واحد يحكم بعلمه في عباده كيف يشاء لا إله إلاّ هو، ورأيت هذا أنا سن تصديق الله تعالىٰ رسوله ﷺ فيما مثل به لنا في قوله: «**وإنْ كَانَ عَبْداً حَبَشِياً مُجَدَّعَ الأطْرَافِ**» فإني جرّبت المخبرين عن الله إذا ضربوا الأمثال بأمر ما فإنه لا بدّ من وقوع ذلك المضروب به المثل، كان أبو يزيد البسطامي يشير عن نفسه أنه قطب الوقت فقيل له يوماً عن بعض الرجال أنه يقال فيه أنه قطب الوقت فقال: الولاة كثيرون وأمير المؤمنين واحد، لو أن رجلاً شقّ العصى وقام ثائراً في هذا الموضع وأشار إلى قلعة معينة وادّعى أنه خليفة قتل ولم يتم له ذلك وبقي أمير المؤمنين أمير المؤمنين فما مرّت الأيام حتى ثار في تلك القلعة ثائر ادّعى الخلافة وقتل وما تمّ له ذلك، فوقع ما ضرب به أبو يزيد المثل عن نفسه، فإياك والوقوع في ولاة أمور المسلمين، وإياك أن تنزل أحداً من الله منزلة لا تعرفها لا بتزكية عند الله فيه ولا بتجريح إلاّ أن تكون على بصيرة من الله تعالىٰ فيه فإن ذلك افتراء على الله ولو صادفت الحق فقد أسأت الأدب، وهذا داء عضال بل حسن الظن به وقل فيما أحسب وأظنّ هو كذا وكذا. ولا تزكي على الله أحداً فهذا رسول الله ﷺ ولا يدري ما يفعل به ولا بنا بل يتبع ما يوحى إليه، فما عرف به من الأمور عرفها وما لم يعرف به من الأمور لم يعرفه، وكان فيه كواحد من الناس، فكم رجل عظيم عند الناس يأتي يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وفكر في يوم القيامة وهوله وما يلقى الناس فيه وهو يوم التنادي يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم تلجؤون إليه، ولقد ثبت أن العرق يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين ذراعاً وأنه ليبلغ أفواه الناس، وعليك بالدعاء أن يعيذك الله من فتنة القبر

ومن فتنة الدجال، ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات، ومن شرّ ما صنعت ومن شرّ ما خلق، وقد أوصيتك بتغطية الإناء فإنه ثبت أن الله في السنة ليلة غير معينة ينزل فيها وباء لا يمرّ بإناء ليس عليه غطاء إلاّ دخل فيه من ذلك الوباء أو سقاء ليس عليه وكاء، وإن للشيطان فتنة فاستعذ بالله منها وراقب قلبك وخواطرك وزنها بميزان الشريعة الموضوع في الأرض لمعرفة الحق فإنك إذا فعلت ذلك كنت في أمورك تجري على الحق، فإن إبليس يضع عرشه على الماء لما علم أن العرش الرحماني على الماء يلبس بذلك على الناس أنه الله كما فعل بابن صياد وقد قال له رسول الله ﷺ: «**ما ترى؟**» قال: أرى عرشاً على البحر، فقال: «**ذلك عَرْشُ إبليس**»، يقول الله تعالىٰ في عرشه وكان عرشه على الماء، ثم قال: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ [هود: ٧] والابتلاء فتنة فإبليس ما له نظر إلاّ في الأوضاع الإلهية الحقيقية فيقيم في الخيال أمثلتها ليقال هي عينها فيغتر بها من نظر إليها وما ثم شيء فإن الله قد أعطاه السلطنة على خيال الإنسان فيخيل إليه ما يشاء، فإذا وضع عرشه على الماء بعث سراياه شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً إلى قلوب بني آدم إلى الكافر ليثبت على كفره وإلى المؤمن ليرجع عن إيمانه وأدناهم من إبليس منزلة أعظمهم فتنة فتعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وصية: ادع الله أن يجعلك من صالحي المؤمنين تكن ولي رسول الله ﷺ وناصره، فإن الله قرن صالح المؤمنين مع نفسه وجبريل والملائكة في نصرة رسول الله ﷺ، وقال رسول الله ﷺ: إنما وليي الله وصالح المؤمنين، وإن كنت والياً فلتساو في إقامة الحدود الشرعية على من تعينت عليه من شريف ووضيع ومن تحبه وتكرهه فإن رسول الله ﷺ ثبت عنه أنه قال: «**إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُقِيمُونَ الحُدُودَ عَلَى الوَضِيعِ وَيَتْرُكُونَ الشَّرِيفَ**» وإياك يا أخي أن تحجر عناية الله عن إماء الله لما سمعت أن للرجال عليهن درجة فتلك درجة الانفعال فإن حوّاء خلقت من آدم فلما انفعلت عنه كان له عليها درجة السبق، فكل أنثى من سبق ماء المرأة ماء الرجل وعلوّه على ماء الرجل، هذا هو الثابت عن رسول الله ﷺ فاعلم ذلك فللرجال عليهنَّ درجة، فإن الحكم لكل أنثى بماء أمها، وهنا سرّ عجيب دقيق روحاني من أجله كان النساء شقائق الرجال فخلقت المرأة من شق الرجل فهو أصلها فله عليها درجة السببية، ولا تقل هذا مخصوص بحواء فكل أنثى كما أخبرتك من مائها أي من سبق مائها وعلوّه على ماء الرجل، وكل ذكر من سبق ماء الرجل وعلوّه على ماء الأنثى وكل خنثى فمن مساواة الماءين وامتزاجهما من غير مسابقة. واحذر من فتنة الدنيا وزينتها وفرق بين زينة الله وزينة الشيطان وزينة الحياة الدنيا إذا جاءت الزينة مهملة غير منسوبة فإنك لا تدري من زينها لك، فانظر ذلك في موضع آخر واتخذه دليلاً على ما انبهم عليك مثل قوله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [النمل: ٤] ومثل قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [فاطر: ٨] ولم يذكر من زيّنه فتستدل على من زيّنه من نفس العمل فزينة الله غير محرّمة وزينة الشيطان محرمة وزينة الدنيا ذات وجهين: وجه إلى الإباحة والندب ووجه إلى التحريم، والحياة الدنيا وطن الابتلاء فجعلها الله حلوة خضرة واستخلف فيها عباده فناظر كيف يعملون فيها بهذا جاء الخبر النبويّ: «**فاتّقِ**

فتنتها وميز زينتها وقل رب زدني علماً» وإذا فجأك أمر تكرهه فاصبر له عندما يفجؤك فذلك هو الصبر المحمود، ولا تتسخط له ابتداء، ثم تنظر بعد ذلك أن الأمر بيد الله وأن ذلك من الله فتصبر عند ذلك فليس ذلك بالصبر المحمود عند الله الذي حرض عليه رسول الله ﷺ: ولقد مرّ رسول الله ﷺ بامرأة وهي تصرخ على ولد لها مات فأمرها أن تحتسبه عند الله وتصبر ولم تعرف أنه رسول الله ﷺ فقالت له: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي، فقيل لها هذا رسول الله ﷺ فجاءت تعتذر إليه ممّا جرى منها فقال لها رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**». ينبّه ﷺ العبد أنه لا يزال حاضراً مع الله أبداً فهو أولى به.

وعليك برحمة الضعيف المستضعف فإنه قد ثبت أن الله ينصر عباده ويرزقهم بضعفائهم، وإذا اقترضت من أحد قرضاً فأحسن الاداء وأرجح إذا وزنت له واشكره على قرضه إياك، وانظر الفضل له ولكل من أحسن إليك أو أهدى لك هدية أو تصدق عليك ولو بالسلام فإن له الفضل عليك بالتقدم، وما عرف مقدار السلام الذي هو التحية إلاّ الصدر الأوّل فإني رويت أنهم كانوا إذا حالت بين الرجلين شجرة وهما يمشيان في الطريق فإذا تركاها والتقيا سلم كل واحد منهما على صاحبه لمعرفته بسرعة تقلب النفوس وما يبادر إليها من الخواطر القبيحة من إلقاء إبليس فيكون السلام بشارة لصاحبه إنه سلم من ذلك وأنه معه على ما افترقا عليه من حسن المودّة، فانظر إلى معرفتهم بالنفوس رضي الله عنهم، ومن قال لك إنه يحبك فلو أحببته ما عسى أن تحبه لن تبلغ درجة تقدمه في حبّه إياك فإن حبك نتيجة عن ذلك الحب المتقدم، وما قلت لك ذلك إلاّ أني رأيت وسمعت من فقراء زماننا من جهالهم لا من علمائهم يرون الفضل لهم على الأغنياء حيث كانوا فقراء لما يأخذونه منهم إذ لولا الفقراء ما صحّ لهم هذا الفضل، وهذا غلط عظيم فإن الثناء على المعطي ما هو من حيث ما وجد من يأخذ منه وإنما هو لقيام صفة الكرم به ووقايته شحّ نفسه سواء وجد من يأخذ منه أو لم يجد، ألا ترى إلى النص الوارد في المتمني مع العدم إذا تمنى ويقول: لو أن لي مالاً فعلت فيه من الخير مثل ما فعل هذا المعطي فأجرهما سواء وزاد عليه بارتفاع الحساب عنه والسؤال، ولهذا قلنا بأن ترى الفضل عليك لمن أعطى بما أعطى فهو أولى بك وأن اليد العليا هي خير من اليد السفلى واليد العليا هي المنفقة واليد السفلى هي السائلة هذا السؤال، ولكن إذا لم تر الله في سؤالها لأن الحق قد سأل عباده في أمره إياهم أن يقرضوه ويذكروه وهنا أشار في التنزّل الإلهيّ إلى عباده.

وصية: إذا قرأت فاتحة الكتاب فصل بسملتها معها في نفس واحد من غير قطع فإني أقول بالله العظيم لقد حدّثني أبو الحسن عن ابن أبي الفتح المعروف والده بالكناري بمدينة الموصل سنة إحدى وستمائة وقال: بالله العظيم لقد سمعت شيخنا أبا الفضل عبد الله بن أحمد بن عبد القاهر الطوسي الخطيب يقول: بالله العظيم لقد سمعت والدي أحمد يقول: بالله العظيم لقد سمعت المبارك بن أحمد بن محمد النيسابوري المقري يقول: بالله العظيم لقد سمعت من لفظ أبي بكر الفضل بن محمد الكاتب الهروي وقال: بالله العظيم لقد حدثنا

أبو بكر محمد بن علي الشاشي الشافعي من لفظه وقال: بالله العظيم لقد حدثني عبد الله المعروف بأبي نصر السرخسي وقال: بالله العظيم لقد حدثنا أبو بكر محمد بن الفضل وقال: بالله العظيم لقد حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن يحيى الوراق الفقيه وقال: بالله العظيم لقد حدثني محمد بن يونس الطويل الفقيه وقال: بالله العظيم لقد حدثني محمد بن الحسن العلوي الزاهد وقال: بالله العظيم لقد حدثني موسىٰ بن عيسىٰ وقال: بالله العظيم لقد حدثني أبو بكر الراجعي وقال: بالله العظيم لقد حدّثني عمار بن موسىٰ البرمكي وقال: بالله العظيم لقد حدثني أنس بن مالك وقال: بالله العظيم لقد حدّثني علي بن أبي طالب وقال: بالله العظيم لقد حدثني أبو بكر الصدّيق وقال: بالله العظيم لقد حدّثني محمد المصطفى ﷺ تسليماً وقال: بالله العظيم لقد حدثني جبريل عليه السلام وقال: بالله العظيم لقد حدّثني ميكائيل عليه السلام وقال: بالله العظيم لقد حدثني إسرافيل عليه السلام وقال: قال الله تعالىٰ لي: يا إسرافيل بعزّتي وجلالي وجودي وكرمي من قرأ بسم الله الرحمٰن الرحيم متصلة بفاتحة الكتاب مرّة واحدة اشهدوا عليّ أني قد غفرت له وقبلت منه الحسنات وتجاوزت عنه السيئات ولا أحرق لسانه بالنار وأجبره من عذاب القبر وعذاب النار وعذاب القيامة والفزع الأكبر ويلقاني قبل الأنبياء والأولياء أجمعين.

وصية: كن غيوراً لله تعالىٰ واحذر من الغيرة الطبيعية الحيوانية أن تستفزك وتلبس عليك نفسك بها وأنا أعطيك في ذلك ميزاناً وذلك أن الذي يغار لله ديناً إنما يغار لانتهاك محارم الله على نفسه وعلى غيره، فكما يغار على أمّه أن يزني بها أحد كذلك يغار على أم غيره أن يزني بها هو، وكذلك البنت والأخت والزوجة والجارية، فإن كل امرأة يزنى بها قد تكون أماً لشخص وبنتاً لآخر وأختاً لآخر وزوجة لآخر وجارية لآخر، وكل واحد منهم لا يريد، أن يزني أحد بأمّه ولا بأخته ولا بابنته ولا بزوجته ولا بجاريته، كما لا يريد هذا الغير أن الذي يزعم أنه يغار لله ديناً فإن فعل شيئاً من هذا وزنى وادّعى الغيرة في الدين أو المروءة فاعلم أنه كاذب في دعواه فإنه ليس بذي دين ولا مروءة، من يكره لنفسه شيئاً ولا يكرهه لغيره فليس بذي غيرة إيمانية، يقول النبيّ ﷺ في سعد والحديث مشهور: «**إِنَّ سَعْداً لَغَيُورٌ وَإِنِّي لَأَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ وَإِنَّ اللهَ أَغْيَرُ مِنِّي وَمِنْ غَيْرَتِهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ**» ولقد مات رسول الله ﷺ وما مسّت يده يد امرأة لا يحلّ له لمسها وهو رسول الله، وما كانت تبايعه النساء إلاّ بالقول وقوله للواحدة قوله للجميع، فاجعل ميزانك في الغيرة للدين هذا، فإن وفيت به فاعلم أنك غيور للدين والمروءة، وإن وجدت خلاف ذلك فتلك غيرة طبيعية حيوانية ليس لله ولا للمروءة فيها دخول حتى تغار منك كما تغار عليك، وقد ثبت: «**مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ**». وإذا أصابتك مصيبة فقل إنا لله وإنا إليه راجعون فلا تنزل ما تجد منها إلاّ بالله ثم قل: اللهم اجبرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها فإنه ثبت عن رسول الله ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا قَالَ هٰذَا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْراً مِنْهَا**» ولقد مات أبو سلمة فقالت امرأته هذا القول وهي تقول: ومن خير من أبي سلمة فأخلفها الله خيراً من أبي سلمة وهو رسول الله ﷺ فتزوّج بها وصارت من

أمهات المؤمنين، ولم يكن أصل هذه العناية الإلهية بها إلاّ هذا القول عندما أصيبت بموت زوجها أبي سلمة. وإذا مات لك ميت فاجهد أن يصلي عليه مائة مسلم، أو أربعون فإنهم شفعاء له عندالله، ثبت في ذلك عن رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ مُسْلِمٍ يُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ المُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ إلاَّ شُفِّعُوا فِيهِ**» وحديث آخر قالَ: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ رَجُلٍ مُسْلمٍ يَمُوتُ يَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أرْبعُونَ رَجُلاً لا يُشْرِكُونَ باللهِ شَيْئاً إلاَّ شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ**» ومعنى لا يشركون بالله شيئاً أي لا يجعلون مع الله إلهاً آخر. وروينا عن بعض العرب أنه مرّ بجنازة يصلي عليها أمة كثيرة من المسلمين فنزل عن دابته وصلّى عليها فقيل له في ذلك فقال: إنها من أهل الجنة فقيل: ومن لك بذلك؟ فقال: وأيّ كريم يأتي إليه جماعة يشفعون عنده في شخص فيرد شفاعتهم لا والله لا يردها أبداً فكيف الله الذي هو أكرم الكرماء وأرحم الرحماء فما دعاهم ليشفعوا فيه إلاّ ويقبل شفاعتهم، إذ الكريم يقبلها وإن لم يدعهم إلى الشفاعة فيه فكيف وقد دعاهم. اعلم أن الله أمرك أن تتقي النار فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [آل عمران: ١٣١] أي اجعل بينك وبينها وقاية حتى لا يصل إليك أذاها يوم القيامة فإنه ثبت أنه ما من أحد إلاّ سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلاّ ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلاّ ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلاّ النار: «**فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**». ولقد وشي ببعض شيوخنا بالمغرب عند السلطان بأمر فيه حتفه وكان أهل البلد قد أجمعوا على ما وشي به وما قيل فيه ممّا يؤدي إلى هلاكه فأمر السلطان نائبه أن يجمع الناس ويحضر هذا الرجل فإن أجمعوا عليه على ما قيل فيه يأمر الوالي أن يقتله وإن قيل غير ذلك خلى سبيله، فجمع الناس لميقات يوم معلوم وعرفوا ما جمعوا له وكلهم على لسان واحد أنه فاسق يجب قتله بلا مخالف، فلما جيء بالرجل مرّ في طريقه بخباز فاقترض منه نصف رغيف فتصدق به من ساعته فلما وصل إلى المحفل وكان الوالي من أكبر أعدائه أقيم في الناس وقيل لهم: ما عندكم في هذا الرجل وما تقولون فيه وسمّوه؟ فما بقي أحد من الناس إلاّ قال هو عدل رضي عن آخرهم، فتعجب الوالي من قولهم خلاف ما كان يعلمه منهم وما كانوا يقولون فيه قبل حضوره فعلم أن الأمر إلهيّ والشيخ يضحك فقال له الوالي: ممّ تضحك؟ فقال: من صدق رسول الله ﷺ تعجباً به وإيماناً والله ما من أحد من هذه الجماعة إلاّ ويعتقد في خلاف ما شهد به وأنت كذلك وكلكم عليّ لا لي، فتذكرت النار ورأيتها أقوى غضباً منكم وتذكرت نصف رغيف ورأيته أكبر من نصف تمرة وسمعت عن رسول الله ﷺ يقول: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**» فاتقيت غضبكم بنصف رغيف فدفعت الأقل من النار بالأكثر من شق تمرة.

وعليك يا أخي بالصدقة فإنها تطفىء غضب الرب ولها ظل يوم القيامة يقي من حرّ الشمس في ذلك الموقف، وأن الرجل يكون يوم القيامة في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس، وما من يوم يصبح فيه العبد إلاّ وملكان ينزلان كذا جاء وثبت عن رسول الله ﷺ يقول أحدهما: اللهمّ أعط منفقاً خلفاً وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩] ويقول الآخر: اللهمّ أعط ممسكاً تلفاً يدعو له بالإنفاق مثل الأوّل المنفق لا يدعو عليه

فإنهم لا يدعون إلاَّ بخير فهم الذي يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] وهم الذين قال الله فيهم أنهم يستغفرون لمن في الأرض فما أراد الملك بالتلف في دعائه إلاَّ الإنفاق، وهذا خلاف ما يتوهمه الناس في تأويل هذا الخبر وليس إلاَّ ما قلناه فإن النبيّ ﷺ يقول في الرجل الذي آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فيتصدق به يميناً وشمالاً فجعل صدقته هلاك المال وهذا معنى تلفه، والإنفاق ليس إلا هلاك المال فإنه من نفقت الدابة إذا هلكت، فالمال المنفوق هو الهالك لأنه هلك عن يد صاحبه ولهذا دعا للمنفق بالخلف وهو العوض لما مرَّ منه مع ادّخار الله له ذلك عنده إلى يوم القيامة إذا قصد به القربة واقترنت بعطائه النية الصالحة.

وصية: احذر أن يراك الله حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك، اجهد أن يكون لك خبية عمل لا يعلم بها إلاَّ الله فإن ذلك أعظم وسيلة لخلوص ذلك العمل من الشوب وقليل من يكون له هذا. وعليك بصيام يوم عرفة ويوم عاشوراء وثابر على عمل الخير في عشر ذي الحجة وفي عشر المحرّم، وإذا قدرت على صوم يوم في سبيل الله بحيث لا يؤثر فيك ضعفاً في بلائك في العدوّ فافعل، وإذا علمت أن النفس تحب أن تمشي في خدمتها فاجهد أن تجعل الملائكة تمشي في خدمتك وتضع أجنحتها لك في طريقك وذلك بأن تكون من طلاب العلم وإن كان بالعمل فهو أولى وأحق وأعظم عند الله وهو قوله: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] وكذلك إذا خرجت تعود مريضاً ممسياً أو مصبحاً أو معاً فأنت إذا خرجت من عنده خرج معك سبعون ألف ملك يستغفرون لك إن كان صباحاً حتى تمسي وإن كان مساء حت تصبح، واجهد أن تقرأ في كل صباح ومساء أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم هو الله الذي لا إله إلاَّ هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا إله إلاَّ هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عمّا يشركون، هو الله الخالق الباريء المصوّر له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، تقرأ ذلك ثلاث مرّات على صورة ما قلناه تتعوذ في كل مرّة بالتعوّذ الذي ذكرناه، وكذلك بعد صلاة المغرب وبعد صلاة الصبح قبل أن تتلكم، وعندما تسلم من الصلاة تقول: اللهم أجرني من النار سبع مرار، وكذلك إذا صليت المغرب بعد أن تسلم، وقبل أن تتكلم تصلي ست ركعات ركعتان منها تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] ست مرّات والمعوّذتين في كل ركعة من الركعتين فإذا سلمت فقل عقيب السلام: اللهم سدّدني بالإيمان واحفظه عليّ في حياتي وعند وفاتي وبعد مماتي، وكذلك تقول في أثر كل صلاة فريضة إذا سلمت منها وقبل الكلام: اللهم إني أقدم إليك بين يدي كل نفس ولمحة ولحظة وطرفة يطرف بها أهل السموات وأهل الأرض وكل شيء هو في علمك كائن أو قد كان، اللهم إني أقدم إليك بين يدي ذلك كله ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ

﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وإياك والإصرار وهو الإقامة على الذنب بل تب إلى الله في كل حال وعلى أثر كل ذنب. ولقد أخبرني بعض الصالحين بمدينة قرطبة من أهلها قال: سمعت أن بمرسية رجلاً عالماً أعرفه ورأيته وحضرت مجلسه سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمرسية وكان هذا العالم مسرفاً على نفسه وما منعني أن أسميه إلاّ خوفي أن يعرف إذا سميته فقال لي ذلك الفقير الصالح: قصدت زيارة هذا العالم فامتنع من الخروج إليّ لراحة كان عليها مع إخوانه فأبيت إلاّ رؤيته فقال: أخبروه بالذي أنا عليه فقلت: لا بدّ لي منه فأمر فدخلت عليه وقد فرغ ما كان بأيديهم من الخمر فقال له بعض الحاضرين: اكتب إلى فلان يبعث إلينا شيئاً من الخمر فقال: لا أفعل أتريدون أن أكون مصراً على معصية الله والله ما أشرب كأساً إذا تناولته إلاّ وأتوب عقيبه إلى الله تعالىٰ ولا أنتظر الكأس الآخر ولا أحدث به نفسي، فإذا وصل الدور إليّ وجاء الساقي بالكأس ليناولني إياه أنظر في نفسي فإن رأيت أن أتناوله منه تناولته وشربته وتبت عقيبه فعسى الله أن يمن عليّ بوقت لا يخطر لي فيه أن أعصي الله، قال الفقير: فتعجبت منه مع إسرافه على نفسه كيف لم يغفل عن مثل هذا ومات رحمه الله.

وصية: إذا صليت فلا ترفع بصرك إلى السماء فإنك لا تدري يرجع إليك بصرك أم لا، وليكن نظرك إلى موضع سجودك أو قبلتك وحافظ على تسوية الصف في الصلاة، وإذا رأيت من برز بصدره عن الصف ردّه إليه، واحذر أن تأتي أمراً إلا عن بصيرة وعلم، ولا تدخل في عمل لا تعرف حكمه عند الله، وأدّ الحقوق في الدنيا فإنه لا بدّ من أدائها فإن أدّيتها هنا شكر الله فعلك وأفلحت، وعليك بمخالفة أهل الكتاب وكل من ليس على دينك ولو كان خيراً فاطلب على ذلك في الشرع فإذا وجدته مجملاً أو معيناً فاعمل به من حيث ما هو مشروع لك تكن مؤمناً، وإذا رأيت ما تنكره ولا تعرفه فسلمه إلى صاحبه ولا تعترض عليه فإن الله ما ألزمك إلاّ بما تعرف حكم الله فيه بحكم الله، ولا تنظر إلى إنكارك فيه مع عدم علمك به فقد يكون ذلك الإنكار من الشيطان وأنت لا تعرف، ورأيت كثيراً من الناس يقعون في مثل هذا، وإياك والاعتداء في الدعاء والطهور فإن ذلك مذموم وليس بعبادة، ومثل الاعتداء في الدعاء أن تدعو بقطيعة رحم وشبه ذلك، والاعتداء في الطهور الاسراف في الماء والزيادة على الثلاث في الوضوء، وإذا توضأت فاعزم أن تجمع بين مسح رجليك وغسلهما فإنه أولى ولا تترك شيئاً من سنن الوضوء فإن من سننه ما فيه خلاف بين وجوبه وعدم وجوبه كالمضمضة والاستنشاق والاستنثار.

وإذا صليت فاسكن في صلاتك ولا تلتفت يميناً وشمالاً ولا تعبث بلحيتك في الصلاة ولا بشيء من ثيابك ولا تشتمل الصماء في الصلاة وليكن ظهرك مستوياً في ركوعك ولا تذبح كما تذبح الحمار، واحذر أن تكون مكاساً وهو العشار أو مدمن خمر أو مصراً على معصية، وإياك والغلول والربا، وعليك بالدعاء بين الأذان والإقامة، وعليك بذكر لفظة الله الله من غير مزيد فإن نتيجة هذا الذكر عظيمة، قلت لبعض الحاضرين مع الله من شيوخنا وكان ذكره الله الله من غير مزيد فقلت له: لم لا تقول لا إله إلاّ الله؟ أطلب ذلك الفائدة منه فقال لي: يا

ولدي أنفاس المتنفس بيد الله ما هي بيدي وكل حرف نفس فنخاف إذا قلت لا أريد لا إله إلاّ الله فربما يكون النفس بلا آخر نفسي فأموت في وحشة النفي، وكلمة الله فيها من الفائدة ما لا يكون في غيرها فإنه ما ثم كلمة تحذف منها حرفاً فحرفاً إلاّ ويختل ما بقي إلاّ هذه الكلمة كلمة الله فلو زال الألف بقي لله كلمة مفيدة، ولو زالت اللام الأولى بقي له وقد قال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١] وقال: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢] فلو زال اللامان والألف بقي الها وهو قولك هو وقد جاء: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ [الإخلاص: ١] وفي غير هذه الكلمة فيما أظن ما تجد غير هذا، وكان رجلاً أميّاً من عامة الناس وكان نظره مثل هذا واعتباره، وعليك بالتباهي في الأمور الدينية وتزيين المصاحف والمساجد، ولا تنظر إلى قول الشارع في ذلك أنه من أشراط الساعة كما يقول من لا علم له فإن رسول الله ﷺ ما ذمّ ذلك، وما كل علامة على قرب الساعة تكون مذمومة، بل ذكر رسول الله ﷺ للساعة أموراً ذمّها وأموراً حمدها وأموراً لا حمد فيها ولا ذمّ. فمن علامات الساعة المذمومة أن يعق الرجل أباه ويبرّ صديقه وارتفاع الأمانة، ومن المحمودة التباهي في المسجد وزخرفتها فإن ذلك من تعظيم شعائر الله وممّا يغيظ الكفار، وممّا ليس بمحمود ولا مذموم كنزول عيسىٰ عليه السلام وطلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة فهذه من علامات الساعة ولا يقترن بها ذمّ ولا حمد لأنها ليست من فعل المكلف، وإنما يتعلق الذمّ والحمد بفعل المكلف، فلا تجعل علامات الساعة من الأمور المذمومة، كما يفعله من لا علم له، ورأيت من القائلين بذلك كثيراً. وحافظ على الصف الأول في الصلاة ما استطعت فإنه قد ثبت لا يزال قوم يتأخرون عن الصف الأول حتى يؤخرهم الله في النار وإذا دعوت الله فلا تستبطىء الإجابة، ولا تقل إن الله ما استجاب لي فإنه الصادق وقد قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فقد أجابك إن كان سمع إيمانك مفتوحاً فقد سمعتهم وإلاّ فاتهم إيمانك بذلك، فإن دعوت بإثم أو قطيعة رحم فإن مثل هذا الدعاء لا يستجيب الله لصاحبه فإنه تعالىٰ قد شرع لنا ما ندعوه فيه وهذا هو الاعتداء في الدعاء، وأن الله يستجيب للعبد ما لم يقل العبد الداعي لم يستجب لي فإنه إذا قال: لم يستجب لي فقد كذب الله في قوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ ومن كذب الله فليس بمؤمن وله الويل مع المكذبين إلاّ أن يتوب. وعليك إذا لم تواصل صومك بتعجيل الفطر وتأخير أكلة السحور، وأما العبد إذا صلّى أقبل الله عليه في صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت أعرض الله عنه، وكان لما التفت إلاّ إذا التفت لأمر مشروع ليقيم بذلك الالتفات أمراً يختص بالصلاة كالتفات أبي بكر لما سبح به عند مجيء رسول الله ﷺ فذلك ما أعرض عن الله. واجتنب دخول المسجد إن كنت جنباً وقراءة القرآن ومس المصحف وكذلك الحائض فإنه أخرج عن الخلاف، وكلما قدرت أن لا تفعل فعلاً إلاّ ما يكون الإجماع عليه فهو أولى ما لم تضطر إليه مثل اجتناب أكل ثمن الكلب وكسب الحجام وحلوان الكاهن ومهر البغي. ولا تقبل صدقة إن كنت ذا غنى أو قادراً على الكسب، وإياك أن تتقدم على قوم إلاّ بإذنهم. ولا تروع مسلماً بما يروعه منك أي شيء كان، وعليك بمجالس الذكر ولا تتصدق إلاّ بطيب أعني بحلال، وإن

كنت مجاوراً بالمدينة فلا يخرجنك منها ما تلقاه من الشدّة فيها من الغلاء واللأواء، ولا ترد أهل المدينة بسوء بل ولا مسلم أصلاً، وإذا أصبت من جهة فاجتنبها. وانظر في محاسن الناس ولا تنظر من إخوانك من المؤمنين إلاّ محاسنهم فإنه ما من مسلم إلاّ وفيه خلق سيىء وخلق حسن، فانظر إلى ما حسن من أخلاقه ودع عنك النظر فيما يسوء من أخلاقه. وإذا صليت فأقم صلبك في الركوع والسجود واشكر الله على قليل النعم كما تشكره على كثيرها، ولا تستقلل من الله شيئاً من نعمه، ولا تكن لعاناً ولا سباباً، وإياك وبغض من ينصر الله ورسوله أو يحب الله ورسوله، ولقد رأيت رسول الله ﷺ سنة تسعين وخمسمائة في المنام بتلمسان وكان قد بلغني عن رجل أنه يقع في الشيخ أبي مدين وكان أبو مدين من أكابر العارفين وكنت أعتقد فيه وكنت فيه على بصيرة فكرهت ذلك الشخص لبغضه في الشيخ أبي مدين، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم تكره فلاناً؟ فقلت: لبغضه في أبي مدين، فقال لي: أليس يحب الله ويحبني؟ فقلت له: بلى يا رسول الله إنه يحب الله ويحبك، فقال لي: فلم بغضته لبغضه أبا مدين وما أحببته لحبه الله ورسوله؟ فقلت له: يا رسول الله من الآن إني والله زللت وغفلت والآن فأنا تائب وهو من أحب الناس إليّ فلقد نبهت ونصحت صلّى الله عليك، فلما استيقظت أخذت معي ثوباً له ثمن كثير أو نفقة لا أدري وركبت وجئت إلى منزله فأخبرته بما جرى فبكى وقبل الهدية وأخذ الرؤيا تنبيهاً من الله فزال عن نفسه كراهته في أبي مدين وأحبه، فأردت أن أعرف سبب كراهته في أبي مدين مع قوله بأن أبا مدين رجل صالح فسألته فقال: كنت معه ببجاية فجاءته ضحايا في عيد الأضحى فقسمها على أصحابه وما أعطاني منها شيئاً فهذا سبب كراهتي فيه ووقوعي والآن قد تبت. فانظر ما أحسن تعليم النبي ﷺ فلقد كان رفيقاً رقيقاً. وإذا استرعاك الله رعية مسلمين أو أهل ذمّة فإياك أن تغشهم ولا تضمر لهم سوءاً وانظر فيما أوجب الله عليك من الحقوق لهم فأدّها إليهم وعاملهم بها ظاهراً وباطناً سرّاً وعلانية، ولا تجعل ذمياً خصمك يوم القيامة، وإذا رأيت من أحد حالة سيئة يطلب أن تستر عليه فيها فاستره ولم لم يرد الستر فاسترها أنت عليه على كل حال، وإذا أكلت طعاماً فلا تأكل أكل الجبارين متكئاً وكل كما يأكل العبد فإنك عبد على مائدة سيدك فتأدّب، وإذا رأيت من يطلب ولاية عمل فلا تسع له في ذلك فإن الولاية مندمة وحسرة في الآخرة وقد أمرك الله بالنصيحة، وإذا رأيت قوماً ولّوا أمرهم امرأة فلا تدخل معهم في ذلك.

وصية: لا تسبق إلى فضيلة إذا وجدت السبيل إليها وانظر في الدنيا نظر الراحل عنها والمطالب بما نال منها، وإذا نكحت فأولم بما قدرت عليه، وإذا نمت أو دخلت بيتك أو أكلت أو شربت أو فعلت فعلاً فسم الله عليه واذكره وتناول بيمينك أمورك كلها إلاّ ما ورد فيه النهي من الشارع أو ما يجري مجرى النهي مثل الاستنجاء ومسك الذكر باليمين أيضاً عند البول والامتخاط فاجعل ذلك كله بيسارك، وإذا أكلت مع جماعة طعاماً واحداً فكل ممّا يليك، وإذا اختلف الطعام فكل من حيث شئت، وقلّل النظر إلى من يأكل معك وصغّر اللقمة وشدّد المضغ وسمّ الله في أول كل لقمة واحمد الله في آخرها إذا ابتلعتها واشكر الله حيث

سوّغكها، ولا تكثر الشره في الأكل وتعاهد المشي إلى المساجد مساجد الجماعات في أوقات الصلوات ولا سيما العتمة والصبح من غير سراج تبشر بالنور التام يوم القيامة، وإذا سمعت من يعطس وحمد الله فشمته، وإن لم يحمد الله فذكره بحمد الله فإذا حمد الله فشمته، فإذا زاد في العطاس على ثلاثة فهو مزكوم فادع الله له في الشفاء، وإياك أن تخون من خانك ولا تعتمد على من اعتدى عليك فإن ذلك أفضل لك عند الله، وأعذر ولا تعتذر فإن اعتذارك يتضمن سوء ظنك بمن اعتذرت له، وابدأ في المعاملة مع الخلق بالأولى فالأولى، وإذا تساوت الأمور وبدأ الله بذكر شيء منها فابدأ بما بدأ الله به كما فعل رسول الله ﷺ في حجته لما أراد أن يسعى بين الصفا والمروة وقف على الصفا وقرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] «**أَبدَأ بما بَدَأ الله به**».

وإذا قمت في عبادة الله فاعمل نشاطك فإذا كسلت فاترك ولا تكن من الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، وإذا صليت وأحد ينظر إليك فانوِ في تحسين صلاتك تعليمه، واخلص لله عبادتك فإنه لو أمرك أن تعبده إلاّ مخلصاً، وافعل ما أوجب الله عليك فعله ولا بدّ سواء كسلت أو كنت نشيطاً، وإنما أمرتك بالترك في النوافل، ولا تعبد الله بكسل، وانتقل إلى نافلة غيرها، ولا تحسن صلاتك في الملأ دون الخلا فإن فعل ذلك من فعله فإن ذلك الفعل استهانة استهان بها ربه كذا ثبت. وإن كنت ممّن يصلح للإمامة فصل خلف الإمام فإنه إن أحدث الإمام في الصلاة استخلفك وإن لم تكن من أهلها فصل يمين الصف أو يساره، وحافظ على الصف الأول، وإذا رأيت فرجة في الصف فسدّها بنفسك فلا حرمة لمن رآها وتركها وتخط رقاب الناس إليها، وسارع إلى الخيرات وكن لها سابقاً ونافس فيها قبل أن يحال بينك وبينها، وإياك أن تتخلى في طريق الناس أو في ظلهم ولا تحت شجرة مثمرة ولا في مجالس الناس، ولا تبل في هوى ولا في حجر ولا في ماء دائم ثم تتوضأ منه أو تغتسل فيه. واتقِ الله في زوجتك وولدك وخادمك وفي جميع من أمرك الله بمعاملته، واحذر فتنة الدنيا والنساء والولد والمال وصحبة السلطان واتقِ الله في البهائم، واجعل من صلاتك في بيتك وعين في بيتك مسجداً لك تتنفل فيه وتصلي فيه فريضتك إن اضطررت إلى ذلك، وأكثر من قراءة القرآن بتدبر إن كنت عالماً فإنه أرفع الأذكار الإلهية، وإن كنت في جماعة يقرؤون القرآن فاقرأ معهم ما اجتمعتم عليه فإن اختلفتم فقم عنهم، وحافظ على قراءة الزهراوين البقرة وآل عمران، وإذا شرعت في قراءة سورة من القرآن فلا تتكلم حتى تختمها فإن ذلك دأب العلماء الصالحين. ولقد حدثني غير واحد بقرطبة عن الفقيه ابن زرب صاحب الخصال أنه كان يقرأ في المصحف سورة من القرآن فمرّ عليه أمير المؤمنين من بني أمية فقيل للخليفة عنه فمسك فرسه وسلّم عليه وسأله فلم يكلمه الشيخ حتى فرغ من السورة ثم كلمه فقال له الخليفة في ذلك فقال: ما كنت لأترك الكلام مع سيدك وأكلمك وأنت عبده هذا ليس من الأدب ثم ضرب له مثلاً به وبعبيده فقال: أرأيت لو كنت في حديث معك وكلمني بعض عبيدك أيحسن مني أن أترك الكلام معك وأقطعه وأكلم عبدك؟ قال لا، قال: فإنك عبد الله فبكى الخليفة.

ولقيت جماعة على ذلك من شيوخنا منهم أبو الحجاج الشبربلي بإشبيلية وكان كثيراً ما يقرأ القرآن في المصحف إذا خلى بنفسه.

وإذا دخلت على مريض أو ميت فاقرأ عنده سورة يس فإنه اتفق لي فيها صورة عجيبة، وعليك بالصلاة في النعال إذا لم يكن بها قذر والمشي فيها، واستوص بطالب العلم خيراً وبالنساء واعتدل في السجود إذا سجدت في الصلاة أو في القراءة، ولا تبسط ذراعيك في سجودك كما يفعل الكلب ولا تكلف نفسك من العمل إلاّ ما تطيقه وتعلم أنك تدوم عليه، وإذا حضرت عند ميت فلقنه لا إله إلاّ الله ولا تسيء الظن به إذا لم يقل ذلك أو يقول لا فإني أعلم أن شخصاً بالمغرب جرى له مثل هذا وكان مشهوراً بالصلاح فلما أفاق قيل له ذلك فقال: ما كنت معكم وإنما جاءني الشياطين في صورة من سلف ودرج من آبائي وإخواني فكانوا يقولون لي: إياك والإسلام مت يهودياً أو نصرانياً فكنت أقول لهم: لا حين سمعتموني أقول لا إلى أن عصمني الله منهم، وإذا كان لك صاحب فعده إن مرض وصل عليه إن مات وشيّع جنازته وإذا شيّعت جنازة فلا تنصرف عن قبره وقف ساعة قدر ما يسأل فإنه يجد لوقوفك أنساً، وإن حملت جنازة فأسرع بها فإن كان خيراً سارعت بها إليه وإن كان شراً حططته عن رقبتك، ولا تذكر مساوىء الموتى، وغطّ الإناء الذي تشرب منه وأطف السراج عند نومك وأغلق بابك إذا أردت النوم فإن الشياطين لا تفتح باباً مغلقاً، واقرأ آية الكرسي عند نومك وسدّد في الأمور وقارب ما استطعت فاعمل الخير ولا تقل إن كان الله كتبني شقياً فأنا شقي وإن كان كتبني سعيداً فأنا سعيد فلا أعمل، فاعلم أنك إذا وفقت لعمل الخير فهو بشرى من الله أنك من السعداء فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأن الله يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل]. وقال ﷺ: «**اعْمَلُوا وَاتَّكِلُوا**» وكل ميسر لما يسّر له فمن خلق للنعيم فسييسره لليسرى ومن خلق للجحيم فسييسره للعسرى، وأنزل كل أحد منزلته تكن عادلاً، واترك حقك لأخيك ما استطعت وأقل عثرات أهل المروءات والهيئات إلاّ في إقامة الحدود المشروعة إن كنت حاكماً ذا سلطان، وإن كنت ذا ثروة وحظ من الدنيا فارتبط فرساً أو جملاً في سبيل الله وامسح بنواصيها وأعجازها وقلّدها ولا تقلدها وتراً ولا جرساً، وجاهد بمالك ونفسك من أشرك بالله واشفع إلاّ في حد إذا بلغ إلى الحاكم، والبس البياض من الثياب فإنه خير لباس المؤمن وأطهره، وأطيبه وكفن الميت فيه، وإذا جاءك سائل في العلم أو غيره فلا تنهره ولا تخيب من جاء يسترفدك ممّا فضلك الله عليه من الرزق وأكثر من زيارة القبور ولا تكثر الجلوس عندها ولا تقبل هجراً بل اجلس ما دمت تعتبر وتذكرك الآخرة، ولا تؤذ أصحاب القبور بالحديث عندها في أمور الدنيا، وبلغ عن رسول الله ﷺ ولو خبراً واحداً أو آية فإنك تحشر بذلك في زمرة العلماء المبلغين، ومر الصبي بالصلاة لسبع سنين واضربه عليها لعشر سنين وفرّق بين الصبيان في المضاجع، وإياك أن تفضي إلى أخيك في الثوب الواحد، وتابع بين الحج والعمرة وإن جاورت بمكة فأكثر من الاعتمار والطواف ولا سيما في

رمضان فإن عمرة في رمضان تعدل حجة، هذا هو الثابت، وأكثر من أكل الزيت والأدهان به، وإذا اشتريت طعاماً فاكتله، واجتنب السبع الموبقات وهي: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلاّ بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

وصية: عليك بكثرة السجود والجماعة وإن قدرت أن تسكن الشام فإن رسول الله ﷺ ثبت عنه أنه قال: **«عَلَيْكُمْ بِالشَّامِ فَإِنَّهَا خِيرَةُ الله مِنْ أَرْضِهِ وَإِلَيْهَا يَجْتَبِي خِيرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ»** وإياك والحديث بالظن فإن الظن أكذب الحديث، إياك والحسد ولا تجلس على الطرقات ولا تدخل على النساء المغنيات، وإذا بعت فلا تكثر من اليمين على سلعتك، وإياك أن تتقلد أمراً من أمور المسلمين فإن ألجئت إلى ذلك ولا بدّ فلا تحكم بين اثنين وأنت غضبان ولا وأنت حاقن ولا جائع ولا أنت مستوفز لأمر لا بدّ لك منه، وأعدل بين رجليك إذا انتعلت أو وضعت إحدى رجليك على الأخرى، واعلم أن جوارحك من رعيتك فاعدل فيها فإن الله أمرك بالعدل فيمن استرعاك، وإن كنت مملوكاً فلا تقل لما لكك ربي وقل سيدي، وإن كان لك مملوك أو مملوكة فلا تقل عبدي ولا أمتي وقل غلامي وجاريتي، ولا تقل لأحد مولاي فإن المولى هو الله، وقد نهيت أن تقول خبثت نفسي وقل لقست نفسي، وإذا طلب مولاي فإن المولى هو الله، وقد نهيت أن تقول خبثت نفسي وقل لقست نفسي، وإذا طلب منك جارك أن يغرز خشبة في جدارك فلا تمنعه ولا تنظر في عورة أحد ولا في بيته إلاّ بإذنه، ولا تصحب إلاّ من تجد في صحبته الزيادة في دينك وإيمانك، وقدم في معروفك كل تقي ولا تعط الفاجر ما يستعين به على فجوره، وإن كانت لك زوجة وضربتها لأمر طرأ منها فلا تجامعها من يومها، وإياك أن تسأل شيئاً سوى الله إلاّ الله في جنته ورؤيته، وأما في شيء من عرض الدنيا فلا، وإن ركبت البحر فلا تركبه إلاّ حاجاً أو معتمراً. ولا تخطب امرأة على خطبة أخيك ولا تسم على سومه حتى يذر، وإن كنت ضيفاً عند قوم فلا تصم إلاّ بإذنهم، وإن كنت في خدمة شيخ فلا تصم ولا تتحرك في شيء إلاّ بإذنه، والمرأة لا تصوم إلاّ بإذن زوجها صوم النافلة أو قضاء شهر رمضان، ولا يأذن في بيت زوجها إلاّ بإذنه إذا كان حاضراً، ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتنكح بعلها، ولا تسافر امرأة فوق ثلاث إلاّ مع ذي محرم، وإذا دعوت في المغفرة فاعزم المسألة ولا تقل اغفر لي إن شئت، واطلب رحمة الله وغفرانه ولا تستكثر شيئاً تسأله من الله فإن الله كبير عنده فوق ما تأمل، وإياك أن تتصرف في مال أخيك إلاّ بإذنه، وإذا أصبحت في كل يوم فقل: اللهم إني تصدقت بعرضي على عبادك، اللهمّ من أذاني أو شتمني أو أغضبني أو فعل معي أمراً يفضي إلى الحكم فيه أشهدك يا رب أني قد أسقطت طلبي عنه في ذلك دنيا وآخرة، وإذا شربت ماء فاشرب قاعداً، ولا تقل يا خيبة الدهر فإن الله هو الدهر، هذا ثابت عن رسول الله ﷺ، وإياك أن تبرز فخذك حتى يرى منك، ولا تنظر إلى فخذ حي ولا ميت، وإياك أن تقعد على قبر ولا تصل وأنت تستقبله أو تستقبل إنساناً في صلاتك ووجهه إليك، ولا تتخذ القبر مسجداً ولا تتمن الموت لضرّ نزل بك بل قل: اللهمّ أحيني ما كانت الحياة

خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون. انتهى السفر السادس والثلاثون من الفتوح المكي.

[السفر السابع والثلاثون]

وصية: لا تكن وصياً ولا رسول قوم ولا سيما بين الملوك ولا شاهداً، واحذر إذا اغتسلت أن تبول في مستحمك بل اعتزل عنه وبل ولا تنذر ما استطعت فإن نذرت فأوف بنذرك فإن رسول الله ﷺ قد شهد بالبخل لمن نذر، وإياك أن تتمنى لقاء العدوّ فإذا لقيته فاثبت ولا تفر، وإياك وسب المؤمنين ولا سيما الصحابة على الخصوص فإنك تؤذي النبي ﷺ في أصحابه، ولا تسبّ الريح فإن الريح من نفس الرحمٰن ولكن سل الله خيرها وخير ما أرسلت به، واستعذ بالله من شرّها وشرّ ما أرسلت به، وإذا لبست ثوباً جديداً فسم الله وقل: اللهمّ أعطني خيره وخير ما صنع له واكفني شرّه وشرّ ما صنع له، ولا تصل إلى النائمين إذا كانوا في قبلتك، وإياك ولباس ما حرّم الشرع عليك لباسه كالحرير والذهب ولا تجلس على الحرير، وإذا لقيت ذمياً فلا تبدأه بالسلام واضطره إلى أضيق الطريق، وانته أن تسمي العنبة الكرم بل قل العنبة والحبلة ولا تقل الكرم فإنه ثبت عن رسول الله ﷺ في ذلك: «**لا تُسَمُّوا العِنَبَ الكَرْمَ فَإنَّ الكَرْمَ الرَّجُلُ المُسْلِمُ**» فلا تقولوا الكرم وقولوا العنب والحبلة، وإياك أن تصر الإبل والغنم إذا أردت بيعها إلاَّ أن تعلم المشتري بأنها مصراة، وإياك أن تحلف بغير الله جملة واحدة. ولا تكفر أحداً من أهل القبلة بذنب إلاَّ من كفره رسول الله ﷺ، وإن كانت لك زوجة تريد الصلاة في مسجد الجماعة فلا تمنعها من ذلك ولكن عرفها أن بيتها خير لها، وأفضل، واحذر أن تدعو على نفسك في غيظ ولا غير غيظ ولا على ولدك ولا على خادمك ولا على مالك، ولا تكره المريض على الطعام، وإياك أن تعذب بالنار أحداً، وإذا أكلت لحماً فانهسه ولا تقطعه بسكين.

وصية: إذا حضر الطعام والصلاة فابدأ بالطعام، وإياك والصلاة وأنت حاقن تدافع الأخبثين، وإذا أمرك من فرض الله عليك طاعته بمعصية فلا تطعه وإياك وما يعتذر منه فما كل من أورثته تكريهاً أوسعته عذراً، واصغ إلى من يحدثك وإن كان نزراً فإن لكل أحد عند نفسه قدراً فإنك تأخذ بقلبه بذلك ويكون لك لا عليك وأن الله قد أمرك بالتحبّب وهذا من التحبّب إلى الناس، وإذا كانت لأحد عندك شهادة لا يعرفها وقد اضطرّ إليها فعرفه بها، وامنح أخاك الفقير منحة ما قدرت عليها فإن أجرها عظيم، وليكن خوفك من الله ورجاؤك فيه بالإيمان على السواء وغلب الرجاء وحسن الظن بالله واطمع في رحمته فإنه ثبت عن رسول الله ﷺ: «**لَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ ما عِنْدَ الله مِنَ الرَّحْمَةِ ما قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ**» وإياك أن تردّ الهدية ولا تحقرها ولو كانت ما كانت، وعليك بالتوبة إلى الله مع الأنفاس، وإذا شاركت أحداً في شيء فلا تخنه، وإذا فعلت فعلاً فحسنه فإن الله كتب الإحسان على كل شيء، وعليك بالتواضع وعدم الفخر على أحد قال علي بن أبي طالب القيرواني في ذلك: [البسيط]

النَّـاسُ مِـن جِـهَـةِ التَّـمْـثـيـلِ أكْـفَـاءُ ... أَبُـوهُـمُ آدمٌ والأمُّ حَـوَّاءُ
فـإن يَـكُـنْ لـهـم مـن أصْـلِـهِـمْ نَـسَـبٌ ... يُـفَـاخِـرُون بـه فـالـطِّـيـنُ والـمَـاءُ
مـا الـفَـضْـلُ إلاَّ لأهـل الـفَـضْـلِ إنَّـهُـمُ ... عـلـى الـهُـدَى لـمـن اسْـتَـهْـدَى أدِلاَّءُ
وقَـدْرُ كـل امـرىءٍ مـا كـان يُـحْـسِـنُـهُ ... والـجـاهـلـون لأهْـلِ الـعِـلْـم أعْـداءُ

لا فخر إلاّ بتقوى الله فإنه نسب الله الذي بينه وبين عباده، وإياك والقيل والقَال فيما لا ينبغي ولا يعني لكن في إيصال الخير خاصة، وإياك وكثرة السؤال إلاّ في البحث عن دينك الذي في علمك به سعادتك ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] وقد علمت أنه ما لأحد حركة ولا سكون ولا دخول ولا خروج إلاّ وللشرع فيها حكم من أحد الأحكام الخمسة، فإذا لم تعلم فاسأل عن كل شيء تكون فيه ما حكم الشرع فيه، واطلب على رفع الحرج ما استطعت وغلب الحرمة وخذ بالعزائم في حق نفسك، وإياك وإضاعة المال وهو إنفاقه في معصية الله ومن إنفاقه في معصية الله إعطاؤه لمن تعلم منه أنه يخرجه فيما لا يرضي الله، فإن لم يعلم ذلك فلا بأس، ولا تفارق أحداً وهو على ما لا يرضي الله وتعتقد فيه أنه باق على ما فارقته عليه لا سبيل إلى ذلك وإنما ذلك في الأحكام المشروعة فإنهم يرون استصحاب الحال المعلومة من الشخص حتى يقوم لهم دليل على زوالها فيستصحبون أيضاً فيما رجع إليه حتى يدله دليل على ذهابه، وإياك أن تكون معنتاً، ولا متعنتاً ولا منفراً ولا معسراً وكن ميسراً ومعلماً ومبشراً وإياك أن تأتي الفواحش الظاهرة والباطن فإن الله أحق من يستحيى منه، ولا تغتر إذا كنت على طريقة غير مرضية بما يملي الله لك فإن الله يقول: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] فاحذر مكر الله بك في ذلك ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وإياك وكل مزيل للعقل مثل شرب الخمر وغيره، وإياك والتصنّع في الكلام، ولا تقرأ القرآن في صلاتك راكعاً ولا في حال سجودك بل قل في ركوعك: سبحان ربي العظيم وبحمده وعظم ربك فيه، وفي سجودك: سبحان ربي الأعلى وبحمده وأدنى القول من ذلك ثلاث مرّات إلى ما فوقها.

وصية: عليك بكثرة الاستغفار ولا سيما بالأسحار في حقك وفي حق غيرك فلله ملائكة يستغفرون لمن في الأرض عموماً، ولله ملائكة يستغفرون للذين آمنوا خصوصاً في كل حال وعند القيام من مجالس تحدثك، وعليك بالصدق في الموضع المشروع لك الصدق فيه ولا تجبن ولا تخف واجتنب الكذب في الموضع المشروع لك اجتنابه، وخف ثلاثة: خف الله وخف نفسك وخف من لا يخاف الله، وإن كنت خطيباً إماماً فقصر الخطبة وأطل صلاة الجمعة فإن ذلك من فقه الرجل، وعليك بالحضور مع الله والنية الصالحة في كل ما تعمله من عمل وعليك بإكرام ذي الشيبة فإن الله يستحيي من ذي الشيبة، وعليك بإكرام حملة القرآن وبإكرام الحاكم العادل، وإياك والدين فإنه فكرة بالليل وذلة بالنهار واحذر أن يقيمك لعبادة ربك شيء من زينة الحياة الدنيا فإنك لمن أقامك ولا لأغراض النفوس فإن الأغراض أمراض حاضرة فإنه ممّا رويناه في مثل ذلك: أن رجلاً من الأبدال كان يمشي في الهواء مع أصحابه

فمروا على روضة خضراء فيها عين خرارة فاشتهى أن يتوضأ من ذلك الماء ويصلي في تلك الروضة فسقط من بين الجماعة وتركوه وانصرفوا وانحط عن رتبتهم بهذا القدر، فانظر في هذا السرّ ما أعجبه فإن فيه معنى دقيقاً، وقد وعظك الله به إن كنت اتعظت، وإن استطعت أن لا تمر عليك ساعة من ليل أو نهار إلاً وأنت داع فيها ربك فافعل. وإذا أدّيت زكاة فانوِ في أدائها أداء حق تدفعه لوكيل صاحب الحق وهو العامل عليها الذي نصّبه الحق، ولا تدفع زكاتك لغير عامل السلطان إلاً بأمر السلطان فتكون أنت عين العامل عليها فلا تبرأ ذمتك إلاً إن فعلت ما ذكرته لك، وإن ظلم العامل أربابها المسؤول عن ذلك لا أنت، وقد دخل على الناس في هذا شبهة لا يعرفونها إلا في الدار الآخرة، واحذر أن تتصدق على شريف من أهل البيت وأنوِ فيما توصله إليهم الهدية لا الصدقة فإنك إن نويت الصدقة عليهم أثمت إلاً أن تعرفهم بذلك فإن أكلوا صدقتك فقد أثموا بأكلها وأثمت أنت حيث أعطيتهم ما لا يجوز لك أن تعطيه إياهم وتخيلت القرب في عين البعد، وإياك أن تخوض في مال الله بغير حق، وإياك أن تنتفي عن أبيك كان من كان، ولا تتبع عورات الناس ولا مثاليهم واشتغل بنفسك وحسن أدب ابنك واسمه، وإن ابتليت بصحبة الزوجة فدارها وتنزل من عقلك إلى عقلها فإن ذلك من كمال عقلك، فعامل كل شخص من حيث هو لا من حيث ما أنت عليه، فإن الغالب على النساء أنهنّ لا يستطعن أن يبلغن مبلغ الرجال الكمل إلاً من جاء النص بكمالهما وهما مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون فإن النص فيهما بالكمال من النبي ﷺ. وعليك بالعدل في الحكم وأطفىء النار إذا فرغت من حاجتك إليها، وعليك باستعمال الحبة السوداء وهو الشونيز فإنها شفاء من كل داء إلاً السام والسام الموت، ولقد ابتلي عندنا رجل من أعيان الناس بالجذام وقال الأطباء بأجمعهم لما أبصروه وقد تمكنت العلة منه: ما لهذا المرض دواء فرآه رجل من أهل الحديث من بني عفير من أهل أيلة يقال له سعد السعود وكان عنده إيمان بالحديث عظيم يقطع به فقال له: يا هذا لم لا تطب نفسك؟ فقال له الرجل: إن الأطباء قالوا: ليس لهذا العلة دواء، فقال: كذبت الأطباء والنبي ﷺ أصدق منهم وقد قال في الحبة السوداء أنها شفاء من كل داء وهذا الداء الذي نزل بك من جملة ذلك ثم قال: علي بالحبة السوداء والعسل فخلط هذا بهذا وطلى بهما بدنه كله ورأسه ووجهه إلى رجليه وألعقه من ذلك وتركه ساعة ثم أنه غسل ذلك عنه فانسلخ من جلده ونبت له جلد آخر ونبت ما كان قد سقط من شعره وبرىء وعاد إلى ما كان عليه في حال عافيته، فتعجب الأطباء والناس من قوّة إيمانه بحديث رسول الله ﷺ، وكان رحمه الله يستعمل الحبة السوداء في كل داء يصيبه حتى في الرمد إذا رمد عينه اكتحل بها فيبرأ من ساعته.

وصية: ادفع عن عرض أخيك المسلم ما استطعت ولا تخذله إذا انتهكت حرمته فإنه ثبت عن رسول الله ﷺ: **«ما مِن امْرِىءٍ مُسْلِمٍ يَخْذِلُ امْرأً مُسْلِماً فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ بِهِ مِنْ عِرْضِهِ إلاً خَذَلَهُ الله فِي مَوْضِعٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ»** وما رأيت أحداً تحقق بمثل هذا في نفسه مثل الشيخ أبي عبد الله الدقاق بمدينة فاس من بلاد المغرب ما اغتاب أحداً قط ولا

اغتيب بحضرته أحد قط وكان هذا عن نفسه وربما كان يقول: لم يكن بعد أبي بكر الصديق صديق مثلي ويذكر هذا وكان نعم السيد، خرج ذكره ومناقبه شيخنا أبو عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي الفاسي الإمام بالمسجد الأزهر بعين الخيل من مدينة فاس في كتاب له سماه المستفاد في ذكر الصالحين من العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد سمعنا هذا الكتاب عليه وبقراءته أظن سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة، إذا لقيت أحداً من المسلمين فصافحه إذا سلمت عليه ولا تنحن له كما تفعله الأعاجم فإن ذلك عادة سوء، وقد ورد أن رسول الله ﷺ قيل له: إذا لقي الرجل الرجل أينحني له؟ قال: «**لا**»، قيل له: أيصافحه؟ قال: «**نعم**». وقد ثبت أنه قال: «**ما مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَتَصَافَحَانِ إلاَّ غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أنْ يَتَفَرَّقَا**».

وأوص أهلك وبناتك ونساء المؤمنين أن لا يخلعن ثيابهن في غير بيوتهن، وإياك أن تبيت ليلة إلاَّ ووصيتك عند رأسك مكتوبة فإنك لا تدري إذا نمت هل تصبح في الأحياء أو في الأموات فإن الله يمسك نفس الذي قضى عليه الموت في النوم إذا هو نام ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى، والتواضع للخلق رفعة عند الله، ولا تكثر مجالسة النساء ولا الصبيان فإنه ينقص من عقلك بقدر ما تنزل إلى عقولهم مع الفتنة التي يخاف منها في مجالسة النساء وأوص نسائك أن لا يخضعن في القول فيطمع الذي في قلبه مرض، وأن يقعدن في بيوتهنّ ويغضضن من أبصارهنّ ولا يبدين زينتهن إلاَّ حيث أمرهن الله، وإياك ودخول الخدام على نسائك فإنهم من أولي الإربة واحجب نساءك عنهم كما تحجبهم عن فحول الذكران فإنهم من الرجال، وكن نعم الجليس للملك القرين الموكل بك واصغ إليه، واحذر من الجليس الثاني الذي هو الشيطان ولا تنصر الشيطان على الملك بقبولك منه ما يأمرك به واخذله واستعن بقبولك من الملك عليه، وأكرم جلساءك من الملائكة الكرام الكاتبين الحافظين عليك فلا تمل عليهم إلاَّ خيراً فإنك لا بدّ لك أن تقرأ ما أمليته عليهم، واحذر من بسط الدنيا عليك إذا بسطها الله أن تتصرف فيها أو تصرفها في غير طاعة الله ولا تعص الله بنعمه، وإن من شكر النعمة أن تطيع الله بها وتستعين بها على طاعة الله، وإياك والتنافس في الدنيا وأقلل منها ما استطعت ومن صحبة أهلها فإن قلوبهم غافلة عن الله بحبها، وإذا غفل القلب عن الله لم ينطق اللسان بذكر الله إلاَّ أن ذكره في يمين لا يكون فيها باراً أو يكون باراً أو فيما لا يجوز أن يذكره فيه ممّا يمقته الله على ذلك الذكر.

وصية: إياك والبطنة فإنها تذهب بالفطنة، وكل لتعيش وعش لتطيع ربك ولا تعش لتأكل ولا تأكل لتسمن فما ملىء وعاء شرّ من بطن ملىء بحلال وعليك بلقيمات يقمن صلبك، وإذا صليت خلف إمام فاقتد به واتبعه فلا تكبر حتى يكبر ولا تركع حتى يركع ولا ترفع حتى يرفع ولا تسجد حتى يسجد وإذا أمن بعد الفراغ من الفاتحة فأمن ولا تختلف عليه، وإذا كنت إماماً فاقتد بأضعف القوم ولا تطيل عليه حتى تكره إليه الصلاة بل خفف في تمام ركوع وسجود، وإذا قرأت آية فانظر أين أنت منها، وإذا سمعت الله يقول: يا أيها الناس أو يا أيها الذي آمنوا فكن أنت المخاطب وافتح له أذن فهمك لما يقول لك في هذا التأيه فكن في

قبول ذلك بحسب ما يقول إن نهاك انته وإن أمرك فافعل منه ما استطعت، فإذا سمعت منه أمراً لا تستطيع فعله فما أنت المأمور به في تلك الحال فاعلم هذا ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ [التغابن: ١٦]. وإذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده فاعتقد أن ذلك القول قاله الله على لسان عبده فقل أنت: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه مباركاً عليه كما يحب ربنا ويرضى ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد، وقل ثلاث مرات في ركوعك: سبحان الله العظيم أو سبحان ربي العظيم وبحمده، وقل في سجودك ثلاث مرات: سبحان ربي الأعلى وبحمده وذلك أدناه، وقد ذهب ابن راهويه إلى أن المصلي إذا لم يقل ذلك ثلاث مرّات في ركوعه وثلاث مرّات في سجوده لم تجزه صلاته، وقد تقدمت إليك بالوصية أن تخرج من الخلاف ما استطعت، وإذا أردت الحج فأحرم بالحج أو قارن بين الحج والعمرة إن كان لك هدي، وإن لم لك هدي فأحرم بعمرة ولا بدّ متمتعاً واخرج من الخلاف إذا فعلت هذا وإن جهلت وأحرمت بالحج وما معك هدي فافسخ وردّها عمرة، هكذا أمر رسول الله ﷺ أصحابه في حجة الوداع أمر بالفسخ لمن لم يكن له هدي.

وإذا حضرت عند مريض أو ميت فلا تقل إلاّ خيراً، وإذا رأيت إناء قد ولغ فيه كلب فبدده ولا تتوضأ بذلك الماء واغسل الإناء سبع مرّات والثامنة بالتراب أو الأولى إن شئت، ولا تدخل يدك في إناء وضوءك إذا قمت من النوم، واجتنب النجاسات أن تمس ثيابك، وإذا بلت فاستنثر من بولك، وإن كنت في سفر وجئت فلا تطرق أهلك ليلاً وابدأ بالمسجد فصل فيه ركعتين وحينئذ تنصرف إلى بيتك، ولا تفجأهم بالقدوم عليهم، وقدم بين يديك من يعرفهم ليلقوك بما يسرّك ويصلحوا من شأنهم ما تكره أن تراهم فيه، وإذا كان بين يديك طعام فوقع فيه ذباب فلا تزل الذباب عنه حتى تغمسه فيه فإن في جناحه الواحد داء وفي الآخر دواء لذلك الداء وهو أبداً يرفع الجناح الذي فيه الدواء، وإذا ضربت فاجتنب ضرب الوجه أو قاتلته، وإذا أحببت أحداً فأعلمه بمحبتك إياه فإنك تجلب بذلك الإعلام محبته إياك فيحبك بلا شك ويرى لك، وإن مات لك ميت تتولى شأنه فأحسن كفنه وتكفينه واجعل في غسله سدراً، وإن قدم إليك طعام في قصعة فكل من جوانبها ولا تأكل من أعلاها. وإذا مشيت إلى الصلاة فبوقار وسكينة من غير كبر، وامش كأنك تنحط في صبب فإن ذلك أنفى للكبر وأسرع لقضاء الحاجة، واحذر أن تصلي وأنت تدفع النوم بل نم فإن ذهب النوم فصل، ولقد كنت ليلة أصلي وأنا أدفع النوم فذهبت لأقرأ فسمعتني أسبّ نفسي بدلاً من القراءة فتركت الصلاة ونمت، ولا تنم قبل صلاة العتمة ولا تتحدث بعدها، وإذا ركعت ركعتي الفجر فاضطجع على شقك الأيمن وحينئذ تصلي الصبح، وإذا قعدت للتشهّد فصل على محمد واستعذ بالله من عذاب القبر وعذاب النار وفتنة المسيح الدجال وفتنة المحيا والممات، واجهد أن لا تترك هذا حتى تخرج من الخلاف بفعلك ما أمرتك به فإني ما أمرتك بأمر تفعله من عباداتك إلاّ لما أعرف في تركه من الخلاف بين العلماء، وأريد أن تأتي العبادة على أتم وجوهها ممّا لا

اختلاف فيه هذا غرضي في هذه الوصية بمثل هذه الأمور فلا تهمل شيئاً ممّا وصيتك به.

وصية: إياك أن تقترف ذنباً وأنت صائم فإنه يبطل صومك فالصوم لله لا لك فلا يراك في عمل هو له على ما لا يرضاه منك فلتكن على أحسن الحالات في صومك، وإن شاتمك أحد أو قاتلك فقل إني صائم فلا تجازه بفعله، وإن كان لك مال فاجهد أن تكون لك صدقة جارية توقفها على الناس لا تخص بها طائفة من طائفة بل على المسلمين الذي تلفظوا بالشهادة أو ولدوا في الإسلام فإن هذه الأوقاف إن لم تكن على حدّ ما ذكرتها لكم وإلاّ أكل الناس حراماً ويكون الواقف هو الذي أساء في حقهم حيث اشترط شرطاً معيناً سوى الإسلام، فإن اشترط ولا بدّ فليشترط من يتظاهر بالخير في أغلب أحواله، وكذلك إن كان لك علم نافع في الدين فبثه في الناس لينتفع به كل سامع إلى يوم القيامة.

يا أخي إذا كان في يدك سيف مصلت فأراد أحد أن يتناوله منك فلا تناوله إياه حتى تغمده، الله الله إذا رأيت أحداً على عمل يكرهه الشرع من المسلمين فاكره عمله ولا تكره المسلم الذي هو العامل وإن كنت صادقاً في كراهيتك عمله فلا تعمل بمثله فإن عملت بمثله وكرهته من غيرك فأنت مراء بما ظهرت به من الكراهة لذلك، وهنا سرّ خفيّ ومكر دقيق يؤديّ إلى ترك تغيّر المنكر، وإذا كنت في سفر وأردت التعريس بالليل فاجتنب الطريق فإن الهوام بالليل تقصد الطريق فربما يؤذيك شيء منها، وقل إذا نزلت منزلاً: أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شرّ ما خلق فإنه لن يضرّك شيء ما دمت في ذلك المنزل، أخبرني صاحبي عبد الله بدر الحبشي الخادم عن الشيخ ربيع بن محمود الحطاب المارديني قال: بتنا ليلة برأس العين في مسجد وبرأس العين عقارب تسمّى الجرارات لا ترفع أدنابها إلاّ عند الضرب وهي قتالة ما ضربت أحداً فعاش فجاء شخص فبات في المسجد وذكر هذه الاستعاذة فضربته العقرب في تلك الليلة فقال للشيخ ربيع حديثه فقال له صحّ الحديث فإن الله قد رفع عنك الموت فإنها ما ضربت أحداً إلاّ مات، وقد رأيت أنا مثل هذا من نفسي لدغتني العقرب مرّة بعد مرّة في وقت واحد فما وجدت لها ألماً، وكنت قد ذكرت هذه الإستعاذة إلاّ أنه كان في حرامي بندقتان وكنت قد سمعت أن البندق بالخاصية يدفع ألم الملسوع فلا أدري هل كان ذلك للبندق أو للدعاء أو لهما معاً إلاّ أنه تورم رحلي وحصل فيه خدر وبقي الورم ثلاثة أيام ولا أجد ألماً البتة، وعليك بالتسمية في كل حال تشرع فيه من أكل وشرب ودخول وخروج وحلّ وترحال وحركة وسكون، وإذا دخلت بيت الله فابدأ برجلك اليمنى، وإذا خرجت فأخرج رجلك اليمنى، وإذا انتقلت فابدأ باليمنى، وإذا خلعت فابدأ باليسرى.

وصية: لا تسارر صاحبك بشيء ومعكما ثالث دونه فإن ذلك يوحشه بلا شك، ومقصود الحق من عباده تألف القلوب والمحبة والتودّد، وأن الله قد جعل الألفة من منة الله على نبيه ﷺ فقال: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] وكذلك لا تتكلم معه بلسان لا يعرفه الثالث فإنه لا فرق بينه وبين المساررة، والتزم الصدق في حديثك أبداً وفي أفعالك تكن أصدق الناس رأياً، وإذا سمعت

صياح الديكة فسل الله من فضله فإنها رأت ملكاً، وإذا سمعت نهيق الحمار فتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم فإن الحمار لا ينهق إلاً إذا رأى شيطاناً، والديك لا يصيح إلاً إذا رأى ملكاً، وقد روينا أن لله ديكاً في السماء إذا صاح وسمعته الديوك في الأرض صاحت لصياحه، كن في كل حال ذاتية حميدة مع الله يرضاها الله منك وعلى عمل صالح ولا سيما إذا كثر الفساد في العامّة فما تدري لعل الله يرسل عليهم عذاباً يعمّ الصالح والطالح فتكون ممّن يحشر على عمل خير كما قبضت عليه يقول الله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]. ولا تشمت عاطساً لم يحمد الله ولكن ذكره أن يحمد الله ثم شمته، وإياك إذا غلبك التثاوب أن تصوّت فيه واكظمه ما استطعت، وإياك أن تمدح أحداً في وجهه فتخجله وإذا مدحك أحد في وجهك فأحث التراب في وجهه برفق وصورة حثو التراب أن تأخذ كفاً من تراب وترمي به بين يديه وتقول له: ما عسى أن يكون من خلق من تراب ومن أنا وما قدري توبخ بذلك نفسك وتعرف المادح بقدرك وقدره هكذا فلنحث التراب في وجوه المداحين، وقد كان شيخنا عبد الحليم الغماد بمدينة سلا إذا رأى شخصاً راكباً ذا إشارة يعظمه الناس وينظرون إليه يقول له ولهم: تراب راكب على تراب ثم ينصرف وينشد: [الكامل]

حَتَّى مَتَى وإلى مَتَى تَتَوَانَى أَتَظُنُّ ذلك كُلَّهُ نِسْيَانَا

وكان الغالب عليه التولّه، وإذا كان لك ولد صغير وجاءت فحمة العشاء فأمسكه عن التصرّف فإن الشياطين تنتشر حينئذ فلا تأمن عليه أن يصيبه لمم فإن الشارع أمر بذلك، وإذا صنع لك خادمك طعاماً وأتاك به فأجلسه معك فإن أبى وتأدّب فأذقه منه ولا بدّ ولو لقمة، وإياك أن تأكل وعين تنظر إليك من غير أن يأكل معك، وإذا سمعت أحداً يوم الجمعة يتكلم والإمام يخطب فلا تقل له أنصت فإن قلت له ذلك فأنت ممّن لغا في جمعته، ولا تعبث بشيء لا بالحصى ولا بغيره والإمام يخطب فإنه لغو، وإذا كنت صائماً وأفطرت فأفطر على تمر إن وجدت فإن لم تجد فعلى حسوات من ماء وليكن ذلك وتراً وعجل بالفطر ثم صلّ بعد ذلك إلاً إن حضر الطعام فإن حضر الطعام فابدأ به قبل الصلاة إن كنت آكلاً ولا بدّ، وإذا حدثك إنسان وتراه يلتفت فحديثه إياك أمانة أودعك إياها فلا تخنه فيه بالإفشاء، وراقب قلبك في الناس فمهما خطر لك تغير في أحد من المؤمنين في قلبك فأزله وظن خيراً وأقم له عذراً فيما تغيرت له وإن حالت بينك وبين الماشي معك شجرة أو جدار ثم تلاقيتما فسلم عليه حتى يعلم أنك على الودّ الذي فارقته عليه.

وصية: عامل كل من تصحبه أو يصحبك بما تعطيه رتبته، فعامل الله بالوفاء لما عاهدته عليه من الإقرار بربوبيته عليك وهو الصاحب بقول رسول الله ﷺ، وعامل الآيات بالنظر فيها، وعامل ما تدركه الحواس منك بالاعتبار، وعامل الرسل بالاقتداء بهم، وعامل الملائكة بالطهارة والذكر، وعامل الشيطان إذا عرفت أنه شيطان من إنس وجان بالمخالفة، وعامل الحفظة بحسن ما تملي عليهم، وعامل من هو أكبر منك بالتوقير ومن هو أصغر منك بالرحمة

ومن هو كفؤك بالتجاوز والإنصاف والإيثار وأن تطالب نفسك بحقه عليها وترك حقك له، وعامل العلماء بالتعظيم، وعامل السفهاء بالحلم، وعامل الجهال بالسياسة، وعامل الأشرار ببسط الوجه وما تتقي به شرهم، وعامل الحيوان بالنظر فيما يحتاجون إليه فإنهم خرس، وعامل الأشجار والأحجار بعدم الفضول، وعامل الأرض بالصلاة عليها، وعامل الموتى بالدعاء لهم وذكر محاسنهم والكف عن مساويهم، وعامل الصوفية أهل الكشف والوجود منهم بالتسليم أصحاب الأحوال، وعامل الإخوان في الله بالبحث عن حركاتهم وسكناتهم فيما ذا يتحركون ويسكنون، وعامل الأولاد بالإحسان، وعامل الزوجة بحسن الخلق، وعامل أهل البيت بالمودّة، وعامل الصلاة بالحضور، وعامل الصوم بالتنزه عن الذنوب، وعامل المناسك بذكر الله والتعظيم، وعامل الزكاة بسرعة الأداء، وعامل التوحيد بالإخلاص، وعامل الأسماء الإلهية بما تعطيه حقيقة كل اسم إلهيّ من الأخلاق فمعاملة الأسماء الإلهية بالتخلق بها، وعامل الدنيا بالرغبة عنها، وعامل الآخرة بالرغبة فيها، وعامل النساء بالحذر من فتنتهن، وعامل المال بالذل، وعامل النار والحدود بالتقوى والرهبة، وعامل الجنة بالرغبة، وعامل الأولياء بما تزيد ولايتهم، وعامل الأعداء بما تكف أذاهم، وعامل الناصح بالقبول، وعامل المحدث بالإصغاء إلى حديثه، وعامل الموجودات كلها بالنصيحة، وعامل الملوك بالسمع والطاعة والأخذ على أيدي الظلمة منهم ما استطعت بطريقة تكتفي بها شرّهم، وإياك وصحبة الملوك فإنك إن أكثرت مخالطة الملك ملّك وإن تركته أذلّك، فخذ واعط إن بليت بصحبتهم، وعامل قارىء القرآن بالإنصاف ما دام تالياً، وعامل القرآن بالتدبر، وعامل الحديث النبوي بالبحث عن صحيحه وسقيمه وعرضه على الأصول فما وافق الأصول فخذ به وإن لم يصحّ الطريق إليه فإن الأصل يعضضه وإذا ناقض الأصول بالكلية فلا تأخذ به وإن صحّ طريقه ما لم تعلم له وجهاً فإن أخبار الآحاد لا تفيد سوى غلبة الظن، وعليك بالسنّة المتواترة وكتاب الله فهما خير مصحوب وخير جليس وإياك والخوض فيما شجر بين الصحابة ولتحبهم كلهم عن آخرهم ولا سبيل إلى تجريح واحد منهم فعنهم نأخذ الدين الذي نعبد الله به وعاملهم بالعدالة في الأخذ عنهم ولا تتهمهم فهم خير القرون.

وعامل بيتك بالصلاة فيه، وعامل مجلسك بذكر الله فيه، وعامل فرقتك من مجلسك بالاستغفار والضابط للصحبة أن تعطي كل ذي حق حقه ولا تترك مطالبة لأحد عليك بحق يتوجه له قبلك، وعامل الجاني عليك بالصفح والعفو، وعامل المسيء بالإحسان، وعامل بصرك بالغض عن محارم الله وسمعك بالاستماع إلى أحسن الحديث والقول ولسانك بالصمت عن السوء من القول وإن كان حقاً لكن كره الشرع أو حرم النطق به، وعامل الذنوب بالخوف، وعامل الحسنات بالرجاء، وعامل الدعاء بالاضطرار، وعامل نداء الحق إياك بالتلبية لما ناداك إليه من عمل أو ترك.

وصايا نبوية: روينا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: وصاني رسول الله ﷺ فقال: يا علي أوصيك بوصية فاحفظها فإنك لا تزال بخير ما حفظت وصيتي. يا

علي: إن للمؤمن ثلاث علامات: الصلاة والصيام والزكاة، وللمتكلف ثلاث علامات يتملق إذا شهد ويغتاب إذا غاب ويشمت بالمصيبة، وللظالم ثلاث علامات يقهر من دونه بالغلبة ومن فوقه بالمعصية ويظاهر الظلمة وللمرائي ثلاث علامات ينشط إذا كان عند الناس ويتكاسل إذا كان وحده ويحب أن يحمد في جميع الأمور، وللمنافق ثلاث علامات: إن حدث كذب وإن وعد أخلف وأن اؤتمن خان. يا علي: وللكسلان ثلاث علامات يتوانى حتى يفرط ويفرط حتى يضيع ويضيع حتى يأثم، وليس ينبغي للعاقل أن يكون شاخصاً إلاَّ في ثلاث: مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم أو خطوة لمعاد. يا علي: إن من اليقين أن لا ترضي أحداً بسخط الله ولا تحمدن أحداً على ما أتاك الله ولا تذمن أحداً على ما لم يؤتكه الله، فإن الرزق لا يجره حرص حريص ولا يصرفه كراهية كاره، وإن الله سبحانه وتعالىٰ جعل الروح والفرج في اليقين والرضى بقسم الله، وجعل الهم والحزن في السخط بقسم الله. يا علي: لا فقر أشدّ من الجهل، ولا مال أجود من العقل، ولا وحدة أوحش من العجب، ولا مظاهرة أوثق من المشاورة، ولا إيمان كاليقين، ولا ورع كالكف، ولا حسن كحسن الخلق، ولا عبادة كالتفكر. يا علي إن لكل شيء آفة، وآفة الحديث الكذب، وآفة العلم النسيان، وآفة العبادة الربا، وآفة الظرف الصلف، وآفة الشجاعة البغي، وآفة السماحة المن، وآفة الجمال الخيلاء، وآفة الحسب الفخر، وآفة الحياء الضعف، وآفة الكرم الفخر، وآفة الفضل البخل، وآفة الجود السرف، وآفة العبادة الكبر، وآفة الدين الهوى. يا علي: إذا أثنى عليك في وجهك فقل: اللهمّ اجعلني خيراً ممّا يقولون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني فيما يقولون تسلم ممّا يقولون. يا علي: إذا أمسيت صائماً فقل عند إفطارك: اللهمّ لك صمت وعلى رزقك أفطرت يكتب لك أجر من صام ذلك اليوم من غير أن ينقص من أجورهم شيء، واعلم أن لكل صائم دعوة مستجابة فإن كان عند أول لقمة يقول: بسم الله الرحمن الرحيم يا واسع المغفرة اغفر لي فإنه من قالها عند فطره غفر له، واعلم أن الصوم جنة من النار. يا علي: لا تستقبل الشمس والقمر واستدبرهما فإن استقبالهما داء واستدبارهما دواء. يا علي: استكثر من قراءة يس فإن في قراءة يس عشر بركات ما قرأها قط جائع إلاَّ شبع، ولا قرأها ظمآن إلاَّ روي، ولا عار إلاَّ اكتسي، ولا مريض إلاَّ برىء، ولا خائف إلاَّ أمن، ولا مسجون إلاَّ فرج، ولا أعزب إلاَّ تزوج، ولا مسافر إلاَّ أعين على سفره، ولا قرأها أحد ضلّت له ضالة إلاَّ وجدها، ولا قرأها على رأس ميت حضر أجله إلاَّ خفف عليه، ومن قرأها صباحاً كان في أمان حتى يمسي، ومن قرأها مساء كان في أمان حتى يصبح.

يا علي: اقرأ حم الدخان في ليلة الجمعة تصبح مغفوراً لك. يا علي: اقرأ آية الكرسي دبر كل صلاة تعط قلوب الشاكرين وثواب الأنبياء وأعمال الأبرار. يا علي: اقرأ سورة الحشر تحشر يوم القيامة آمناً من كل شيء. يا علي: اقرأ تبارك والسجدة ينجياك من أهوال يوم القيامة. يا علي: اقرأ تبارك عند النوم يرجع عنك عذاب القبر ومسائلة منكر ونكير. يا علي: اقرأ قل هو الله أحد على وضوء تنادى يوم القيامة يا مادح الله قم فادخل الجنة. يا علي: اقرأ

سورة البقرة فإن قراءتها بركة وتركها حسرة وهي لا تطيقها البطلة يعني السحرة. يا علي: لا تطيل القعود في الشمس فإنها تثير الداء الدفين وتبلي الثياب وتغيّر اللون. يا علي: أمان لك من الحرق أن تقول: سبحانك ربي لا إله إلاّ أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم. يا علي: أمان لك من الوسواس أن تقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦] يا علي: أمان لك من شرّ كل عاين أن تقول ما شاء الله كان وما لا يشاء لا يكون أشهد أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله. يا علي كل الزيت وادهن بالزيت فإنه من أكل الزيت وادهن بالزيت لم يقربه الشيطان أربعين صباحاً.

يا علي: ابدأ بالملح واختم بالملح فإن الملح شفاء من سبعين داء منها الجنون والجذام والبرص ووجع الحلق ووجع الأضراس ووجع البطن. يا علي: إذا أكلت فقل بسم الله وإذا فرغت فقل الحمد لله فإن حافظيك لا يستريحان يكتبان لك الحسنات حتى تنبذه عنك. يا علي: إذا رأيت الهلال في أوّل الشهر فقل الله أكبر ثلاثاً والحمد لله الذي خلقني وخلقك وقدرك منازل وجعلك آية للعالمين يباهي الله بك الملائكة يقول: يا ملائكتي اشهدوا أني قد أعتقت هذا العبد من النار. يا علي: فإذا نظرت في المرآة فقل: اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي وارزقني. يا علي: وإذا رأيت أسداً واشتدّ بك الأمر فكبّر ثلاثاً وقل الله أكبر وأجل وأعزّ ممّا أخاف وأحذر، اللهم إني أدرأ بك في نحره وأعوذ بك من شرّه فإنك تكفى بإذن الله، وإذا رأيت كلباً يهرّ فقل: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] يا علي: إذا خرجت من منزلك تريد حاجة فاقرأ آية الكرسي فإن حاجتك تقضى إن شاء الله. يا علي: وإذا توضأت فقل: بسم الله والصلاة على رسول الله. يا علي: صلّ من الليل ولو قدر حلب شاة وادع الله سبحانه بالأسحار لا ترد دعوتك فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]. يا علي: غسل الموتى فإنه من غسل ميتاً غفر له سبعون مغفرة لو قسمت مغفرة منها على جميع الخلق لوسعتهم، فقلت: يا رسول الله ما يقول من غسل ميتاً؟ فقال ﷺ يقول: غفرانك يا رحمن حتى يفرغ من الغسل. يا علي: لا تخرج في سفر وحدك فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد. يا علي: إن الرجل إذا سافر وحده غاو والاثنان غاويان والثلاثة نفر. يا علي: إذا سافرت فلا تنزل الأودية فإنها مأوى السباع والحيات. يا علي: لا تردفن ثلاثة على دابة فإن أحدهم ملعون وهو المقدم. يا علي: إذا ولد لك مولود غلام أو جارية فأذن في أذنه اليمين وأقم في أذنه اليسار فإنه لا يضرّه الشيطان. يا علي: لا تأت أهلك ليلة الهلال ولا ليلة النصف فإنه يتخوف على ولدك الخبل، قال علي: ولم يا رسول الله؟ قال: لأن الجن يكثرون غشيان نسائهم ليلة النصف وليلة الهلال، أما رأيت المجنون يصرع ليلة النصف وليلة الهلال؟ يا علي: وإذا نزلت بك شدة فقل: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد عليك أن

تنجيني، وإذا أردت الدخول إلى مدينة أو قرية فقل حين تعاينها: اللهم إني أسألك خير هذه المدينة وخير ما كتبت فيها، وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما كتبت فيها، اللهم ارزقني خيرها وأعذني من شرّها وحببنا إلى أهلها وحبّب صالح أهلها إلينا.

يا علي: إذا نزلت منزلاً فقل: اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين يرزق خيره ويدفع عنك شرّه. يا علي: وإياك والمرائي فإنه لا تعقل حكمته ولا تؤمن فتنته. يا علي: وإياك والدخول إلى الحمام بلا مئزر فإنه ملعون الناظر والمنظور إليه. يا علي: لا تختم بالسبابة والوسطى فإنه من فعل قوم لوط. يا علي: لا تلبس المعصفر ولا تبت في ملحفة حمراء فإنها محتضرة الشيطان. يا علي: لا تقرأ وأنت راكع ولا ساجد. يا علي: إياك والمجادلة فإنها تحبط الأعمال. يا علي: لا تنهر السائل ولو جاءك على فرس وأعطه فإن الصدقة تقع بيد الله قبل أن تقع في يد السائل. يا علي: باكر بالصدقة فإن البلاء لا يتخطى الصدقة. يا علي: عليك بحسن الخلق فإنك تدرك بذلك درجة الصائم القائم. يا علي: إياك والغضب فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم إذا غضب. يا علي: إياك والمزاح فإنه يذهب ببهاء ابن آدم ونشاطه. يا علي: عليك بقراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] فإنها منهاة للفقر، وإياك والربا فإن فيه ست خصال ثلاثة منها في الدنيا وثلاثة في الآخرة، فأما التي في الدنيا تعجل الفناء وتذهب الغنى وتمحق الرزق، وأما التي في الآخرة فسوء الحساب وسخط الرب عز وجل والخلود في النار أو الخلوة شكّ الراوي.

يا علي: وإذا دخلت منزلك فسلّم على أهل بيتك يكثر خير بيتك. يا علي: أحب الفقراء والمساكين يحبك الله. يا علي: لا تنهر المساكين والفقراء فتنهرك الملائكة يوم القيامة. يا علي: عليك بالصدقة فإنها تدفع عنك السوء. يا علي: أنفق وأوسع على عيالك ولا تخش من ذي العرش إقلالاً. يا علي: إذا ركبت دابة فقل: الحمد لله الذي كرمنا وهدانا للإسلام ومنّ علينا بمحمد عليه السلام، الحمد لله الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقبلون. يا علي: لا تغضبن إذا قيل لك اتق الله فيسوءك ذلك يوم القيامة. يا علي: إن الله يعجب من عبده إذا قال: اللهم اغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت، يقول الله: يا ملائكتي عبدي هذا علم أنه لا يغفر الذنوب غيري اشهدوا أني قد غفرت له. يا علي: إذا لبست ثوباً جديداً فقل: بسم الله والحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي واستغني به عن الناس، لم يبلغ الثوب ركبتيك حتى يغفر لك. يا علي: من لبس ثوباً جديداً فكسى فقيراً أو يتيماً عرياناً أو مسكيناً كان في جوار الله وأمنه وحفظه ما دام عليه منه سلك. يا علي: إذا دخلت السوق فقل حين تدخل: بسم الله وبالله أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، يقول الله تعالى: عبدى هذا ذكرني والناس غافلون اشهدوا أني قد غفرت له. يا علي: إن الله يعجب ممّن يذكره في الأسواق إذا دخلت المسجد قل: بسم الله والسلام على رسول الله اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرجت فقل: بسم الله والسلام على رسول الله اللهم افتح لي أبواب فضلك. يا علي: وإذا سمعت المؤذن قل مثله مقالته يكتب لك مثل

أجره. يا علي: وإذا فرغت من وضوئك فقل: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله اللهم اجعلني من التوّابين واجعلني من المتطهرين تخرج من ذنوبك كيوم ولدتك أمك وتفتح لك ثمانية أبواب الجنة يقال ادخل من أيها شئت. يا علي: إذا فرغت من طعامك فقل: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين. يا علي: إذا شربت فقل: الحمد لله الذي سقانا ماء جعله عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا تكتب شاكراً. يا علي: إياك والكذب فإن الكذب يسوّد الوجه ولا يزال الرجل يكذب حتى يسمّى عند الله كاذباً ويصدق حتى يسمّى عند الله صادقاً إن الكذب يجانب الإيمان. يا علي: لا تغتابن أحداً فإن الغيبة تفطر الصائم والذي يغتاب الناس يأكل لحمه يوم القيامة. يا علي: إياك والنميمة ولا يدخل الجنة قتات يعني النمام. يا علي: لا تحلف بالله كاذباً ولا صادقاً. يا علي: لا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم فإن الله لا يرحم ولا يزكي من يحلف بالله كاذباً. يا علي: املك عليك لسانك وعوده الخير فإن العبد يوم القيامة ليس عليه شيء أشدّ من خيفة لسانه. يا علي: إياك واللجاجة فإنها ندامة. يا علي: إياك والحرص فإن الحرص أخرج أباك من الجنة. يا علي: إياك والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. يا علي: ويل لمن يكذب ليضحك الناس ويل له ويل له. يا علي: عليك بالسواك فإنه مطهرة للفم ومرضاة للرب تعالىٰ ومجلاة للأسنان. يا علي: عليك بالتخلّل فإنه ليس شيء أبغض إلى الملائكة أن ترى في أسنان العبد طعاماً.

فقال علي عليه السلام قلت: يا رسول الله أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: ٣٧] ما هؤلاء الكلمات؟ فقال النبيّ ﷺ: إن الله تعالىٰ أهبط آدم عليه السلام بأرض الهند وحواء بجدة والحية بأصبهان وإبليس ببيسان ولم يكن في الجنة أحسن من الحية والطاووس وكان للحية قوائم كقوائم البعير فلما دخل إبليس لعنه الله جوفها أغوى آدم عليه السلام وخدعه فغضب الله تعالىٰ على الحية فألقى عنها قوائمها وقال: جعلت رزقك من التراب وجعلتك تمشين على بطنك لا رحم الله من رحمك، وغضب الله عزّ وجلّ على الطاووس فمسح رجليه لأنه كان دليلاً لإبليس على الشجرة فمكث آدم عليه السلام مائة سنة لا يرفع رأسه إلى السماء يبكي على خطيئته وقد جلس جلسة الحزين فبعث الله جبريل عليه السلام فقال: السلام عليك يا آدم الله عزّ وجلّ يقرئك السلام ويقول لك: ألم أخلقك بيدي وأنفخ فيك من روحي؟ ألم أسجد لك ملائكتي؟ ألم أزوجك حواء أمتي؟ ما هذا البكاء؟ قال: يا جبريل وما يمنعني من البكاء وقد أخرجت من جوار ربي؟ قال له جبريل عليه السلام: يا آدم تكلم بهؤلاء الكلمات فإن الله تعالىٰ غافر ذنبك وقابل توبتك، قال: فما هن؟ قال قل: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد، سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي إنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت وارحمني وأنت خير الراحمين، سبحانك وبحمدك لا إله إلاّ أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم، سبحانك وبحمدك لا إله إلاّ أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي وأنت خير الغافرين، فهؤلاء الكلمات.

يا علي : وأنهاك عن حيات البيوت إلاّ الأفطس والأبتر فإنهما شيطانان . يا علي : وإذا رأيت حية في رحلك فلا تقتلها حتى تخرج عليها ثلاثاً فإن عادت الرابعة فاقتلها . يا علي : وإذا رأيت حية في الطريق فاقتلها فإني قد اشترطت على الجن أن لا يظهروا في صورة الحيات في الطريق فمن فعل خلى بنفسه للقتل . يا علي : أربع خصال من الشقاء : جمود العين ، وقساوة القلب ، وبعد الأمل ، وحب الدنيا . يا علي : أنهاك عن أربع خصال عظام : الحسد والحرص والكذب والغضب . يا علي : ألا أنبئك بشر الناس؟ قال قلت : بلى يا رسول الله ، قال : من سافر وحده ومنع رفده وضرب عبده . ألا أنبئك بشر من هؤلاء جميعاً؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره . يا علي : إذا صليت على جنازة فقل : اللهم هذا عبدك وابن عبدك وابن أمتك ماض فيه حكمك خلقته ولم يكن شيئاً مذكوراً نزل بك وأنت خير منزول به ، اللهم لقّنه حجته وألحقه بنبيه ﷺ وثبّته بالقول الثابت فإنه افتقر إليك واستغنيت عنه ، كان يشهد أن لا إله إلاّ الله فاغفر له وارحمه ولا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده ، اللهم إن كان زاكياً فزكه وإن كان خاطئاً فاغفر له . يا علي : وإذا صليت على جنازة امرأة فقل : اللهم أنت خلقتها وأنت أحييتها وأنت أمتها تعلم سرّها وعلانيتها جئناك شفعاء لك فاغفر لها وارحمها ولا تحرمنا أجرها ولا تفتنا بعدها . وإذا صليت على طفل فقل : اللهم اجعله لوالديه سلفاً واجعله لهما ذخراً واجعله لهما رشداً واجعله لهما نوراً واجعله لهما فرطاً وأعقب والديه الجنة ولا تحرمهما أجره ولا تفتنهما بعده . يا علي : إذا توضأت فقل : اللهم إني أسألك تمام الوضوء وتمام مغفرتك ورضوانك . يا علي : إن العبد المؤمن إذا أتى عليه أربعون سنة أمنه الله من البلايا الثلاثة : الجنون والجذام والبرص ، وإذا أتت عليه ستون سنة فهو في إقبال وبعد الستين في إدبار رزقه الله الإنابة فيما يحب ، وإذا أتت عليه سبعون سنة أحبه أهل السموات وصالحو أهل الأرض ، وإذا أتت عليه ثمانون سنة كتبت له حسناته ومحيت عنه سيئاته ، وإذا أتت عليه تسعون سنة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وإذا أتت عليه مائة سنة كتب الله اسمه في السماء أسير الله في أرضه وكان حبيس الله تعالى . يا علي : احفظ وصيتي إنك على الحق والحق معك .

ومن وصايا الصالحين : قال رجل لذي النون : والله إني لا أحبك ، فقال له ذو النون : إن كنت عرفت الله فحسبك الله وإن كنت لم تعرفه فاطلب من يعرفه حتى يدلك علىٰ الله وتتعلم منه حفظ الحرمة لمولاك . وفي معنى ما قاله ذو النون وأوصى به ما اتفق لنا مع صاحبنا عبد الله ابن الأستاذ المروروري وكان من كبار الصالحين كان له أخ مات فرآه في المنام فقال له : ما فعل الله بك؟ فقال لي : أدخلني الجنة آكل وأشرب وأنكح ، قال له : ليس عن هذا أسألك هل رأيت ربك؟ قال : لا يراه إلاّ من يعرفه ، واستيقظ فركب دابته وجاء إلينا إلى إشبيلية وعرفني بالرؤيا ثم قال لي : قد قصدتك لتعرفني بالله فلازمني حتى عرف الله بالقدر الذي يمكن للمحدث أن يعرفه به من طريق الكشف والشهود لا من طريق الأدلة النظرية رحمه الله . وقال بعضهم : اصحب الذين وصفهم الله في كتابه وهم أهل التقوى الذين هم على

سمت محجته لعلك أن ترقى في ملكوت السموات فتكون للأبرار جليساً وللأخيار في أمن ذلك المقيل أنيساً، وإن كنت على التقوى عازماً فالنجاة النجاة فيما بقي من عمرك. وقال بعض العلماء: تزود من الدنيا للآخرة وطريقها فإن خير الزاد التقوى وسارع إلى الخيرات ونافس في الدرجات قبل فناء العمر وتقارب الأجل والفوت.

وصية: قيل لبعض العلماء: أوصنا فقال: إياكم ومجالسة أقوام يتكلفون بينهم زخرف القول غروراً ويتملقون في الكلام خداعاً وقلوبهم مملوءة غشاً وغلاً ودغلاً وحسداً وكبراً وحرصاً وطمعاً وبغضاً وعداوةً ومكراً وختلاً، دينهم التعصّب، واعتقادهم النفاق، وأعمالهم الرياء، واختيارهم شهوات الدنيا، يتمنون الخلود فيها مع علمهم بأنهم لا سبيل لهم إلى ذلك، يجمعون ما لا يأكلون ويبنون ما لا يسكنون ويؤملون ما لا يدركون ويكسبون الحرام وينفقون في المعاصي ويمنعون المعروف ويركبون المنكر.

وصية: روينا عن يوسف بن الحسين قال: قلت لذي النون في وقت مفارقتي إياه: من أجالس؟ قال: عليك بصحبة من يذكرك الله عزّ وجلّ رؤيته وتقع هيبته على باطنك ويزيد في عملك منطقه ويزهدك في الدنيا عمله ولا يعص الله ما دمت في قربه، يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله، وهو تارك لما يدلك عليه أي هو خال من الفضائل، لأن الرجل قد يكون على عمل من أعمال البرّ يقتضيه حاله، ويدلك بقوله على عمل من أعمال البرّ يقتضيه حالك ولا يقتضيه حاله في الوقت فيريد بقوله بلسان فعله أي أفعاله مستقيمة، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ وما عين براً من بر ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وصية نبوية عيسوية: قال عيسىٰ عليه السلام: يا بني إسرائيل اعلموا أن مثل دنياكم مع آخرتكم كمثل مشرقكم مع مغربكم كلما أقبلتم إلى المشرق بعدتم من المغرب، وكلما أقبلتم إلى المغرب ازددتم من المشرق بعداً، وصاهم بهذا المثل أن يقربوا من الآخرة بالأعمال الصالحة.

وصية: أوصى بعض العلماء قال: إياكم أن تكونوا من قوم يتمردون وفي طغيانهم يعمهون، لا يسمعون النداء ولا يجيبون الدعاء، تراهم مولين مدبرين عن الآخرة معرضين، وعلى الأعقاب ناكصين، وعلى الدنيا مكبين، يتكالبون تكالب الكلاب على الجيف، منهمكين في الشهوات تاركين الصلوات، لا يسمعون الموعظة ولا ينفعهم التذكرة، لا جرم أن من هذه صفته يمهلون قليلاً ويتمتعون يسيراً ثم تجيئهم سكرة الموت بالحق ذلك ما كانوا منه يحيدون شاؤوا أم أبوا، فيفارقون محبوبهم على رغم منهم ويتركون ما جمعوه لغيرهم، يتمتع بمال أحدهم حليل زوجته وامرأة ابنه وبعل ابنته وصاحب ميراثه للوارث المهناة وعليهم الوبال، ثقيل ظهره بأوزاره معذب النفس بما كسبت يداه، يا حسرة عليه إذا قامت على أبنائها القيامة، فاحذروا أن تكونوا من هؤلاء وكونوا من الذين أخذوا من عاجلهم لآجلهم ومن حياتهم لموتهم كما قال ﷺ فيهم: «**صَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَجْسَادٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالمَحَلِّ الأَعْلَى**».

وصية: قال بعض الصالحين يوصي إنساناً: احذر أن تنقطع عنه فتكون مخدوعاً قال له: وكيف يكون ذلك؟ قال: لأن المخدوع من ينظر إلى عطاياه وينقطع عن النظر إليه بالنظر إلى عطاياه، ثم قال: تعلق الناس بالأسباب وتعلق الصديقون بولي الأسباب، ثم قال: علامة تعلقهم بالعطايا طلبهم منه العطايا، ومن علامات تعلق قلب الصديق بولي العطايا انصباب العطايا عليه وشغله عنها به، ثم قال: ليكن اعتمادك على الله في الحال لا على الحال، ثم قال: اعقل فإن هذا من صفوة التوحيد.

وصية نبوية روحية: قال عيسىٰ عليه السلام لبعض أصحابه بوصية: صم عن الدنيا واجعل فطرك الموت وكن كالمداوي جرحه بالدواء خشية أن ينغل عليه، وعليك بكثرة ذكر الموت فإن الموت يأتي إلى المؤمن بخير لا شر بعده وإلى الشرير بشر لا خير بعده.

وصية بتنبيه: قال ذو النون: ثلاث من أعلام الإيمان: اغتمام القلب بمصائب المسلمين، وبذل النصيحة لهم متجرعاً لمرارة ظنونهم، وإرشادهم إلى مصالحهم وإن جهلوه وكرهوه. قال أحمد بن أحمد بن سلمة: أوصاني ذو النون: لا تشغلنك عيوب الناس عن عيب نفسك لست عليهم برقيب، ثم قال: إن أحب عباد الله إلى الله عزّ وجلّ أعقلهم عنه، وإنما يستدل على تمام عقل الرجل وتواضعه في عقله حسن استماعه للمحدث وإن كان به عالماً، وسرعة قبوله للحق وإن جاء ممّن هو دونه، وإقراره على نفسه بالخطأ إذا جاء به.

وصية: أوصى بها راهب عارفاً من المسلمين: اجتاز بعض العارفين في سياحته براهب في صومعة على رأس جبل فوقف به فناداه: يا راهب فأخرج الراهب رأسه من صومعته وقال: من ذا؟ قال: رجل من أبناء جنسك الآدميين، قال: فماذا تريد؟ قال: كيف الطريق إلى الله؟ قال الراهب: في خلاف الهوى، قال: فما خير الزاد؟ قال: التقوى، قال: فلم تبعدت عن الناس وتحصنت في هذه الصومعة؟ قال: مخافة على قلبي من فتنتهم، وحذراً على عقلي الحيرة من سوء عشرتهم، وطلبت راحة نفسي من مقاساة مداراتهم وقبيح فعالهم، وجعلت معاملتي مع ربي فاسترحت منهم، قال: فخبرني يا أحد تباع المسيح كيف وجدتم معاملتكم مع ربكم واصدق القول لي ودع عنك تزويق الكلام وزخرف القول؟ فسكت الراهب ساعة متفكراً ثم قال: شرّ معاملة تكون قال له العارف كيف قال لأنه أمرنا بالكد للأبدان وجهد النفوس وصيام النهار وقيام الليل وترك الشهوات المركوزة في الجبلة ومخالفة الهوى الغالب ومجاهدة العدوّ المسلط والرضى وخشونة العيش والصبر على الشدائد والبلوى، ومع هذه كلها جعل الأجر بالسيئة في الآخرة بعد الموت مع بعد الطريق وكثرة الشكوك والحيرة والخوف من اليأس، فهذه حالتنا في معاملتنا مع ربنا. فأخبرنا عنكم يا معشر تباع أحمد كيف وجدتم معاملتكم مع ربكم؟ قال العارف: خير معاملة وأحسنها، قال الراهب: صف لي ما هي وكيف هي؟ قال العارف: ربنا أعطانا سلفاً كثيراً قبل العمل ومواهب جزيلة لا تحصى فنون أنواعها من النعم والإحسان والإفضال قبل المعاملة، فنحن ليلنا ونهارنا في أنواع نعمه وفنون من آلائه ما بين سالف معتاد وآنف مستفاد، قال له الراهب: فكيف خصصتم بهذه

المعاملة دون غيركم والرب واحد؟ قال العارف: أما النعمة والإفضال والإحسان فعموم للجميع قد غمرتنا كلنا ولكنا خصصنا بحسن الاعتقاد وصحة الرأي والإقرار بالحق والإيمان والتسليم له ووفقنا لمعرفة الحقائق لما أعطينا الانقياد للإيمان والتسليم وصدق المعاملة من محاسبة النفس وملازمة الطريق وتفقد تصاريف الأحوال الطارية من الغيب ومراعاة القلب بما يرد عليه من الخواطر والوحي والإلهام ساعة ساعة، قال الراهب: زدني في البيان فإنها وصية عجيبة ما سمعت بمثلها من أهل هذا الشأن، قال العارف: أزيدك اسمع ما أقوله وافهم ما تسمع واعقل ما تفهم: إن الله جلّ ثناؤه لما خلق الإنسان من طين ولم يك شيئاً مذكوراً ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين نطفة في قرار مكين ثم قلبه حال بعد حال تسعة أشهر إلى أن أخرجه من هناك خلقاً سوياً ببنية صحيحة وصورة تامة وقامة منتصبة وحواس سالمة، ثم زوده من هناك لبناً خالصاً لذيذاً سائغاً للشاربين حولين كاملين، ثم رباه وأنشأه وأنماه يفنون لطفه وغرائب حكمته إلى أن يبلغ أشده واستوى، ثم أتاه حكماً وعلمه ثم أعطاه قلباً زكياً وسمعاً دقيقاً وبصراً حاداً وذوقاً لذيذاً وشماً طيباً ولمساً ليناً ولساناً ناطقاً وعقلاً صحيحاً وفهماً جيداً وذهناً صافياً وتمييزاً وفكراً وروية وإرادة ومشيئة واختياراً وجوارح طائعة ويدين صانعتين ورجلين ساعيتين، ثم علمه الفصاحة والبيان والخط بالقلم والصنائع والحرف والحرث والزراعة والبيع والشراء والتصرّف في المعاش وطلب وجوه المنافع واتخاذ البنيان وطلب العزّ والسلطان، والأمر والنهي والرياسة والتدبير والسياسة، وسخّر له ما في الأرض جميعاً من الحيوان والنبات وخواص المعادن، فغدا متحكماً عليها تحكم الأرباب متصرفاً فيها تصرف الملاك متمتعاً بها إلى حين. ثم إن الله جلّ ثناؤه أراد أن يزيده من فضله وإحسانه وجوده وإنعامه فناً آخر هو أشرف وأجلّ من هذا الذي تقدم ذكره وهو ما أكرم به ملائكته وخالص عباده وأهل جنته من النعيم الأبدي الذي لا يشوبه شيء من النقص ولا من التنغيص إذ كان نعيم الدنيا مشوباً بالبؤس ولذاتها بالآلام وسرورها بالحزن وفرحها بالغم وراحتها بالتعب وعزّها بالذلّ وصفوها بالكدر وغناها بالفقر وصحتها بالسقم، أهلها فيها معذبون في صورة المنعمين، ومغرورون في صورة الواثقين، مهانون في صورة المكرمين، وجلون غير مطمئنين خائفون غير آمنين متردّدون بين المتضادّين، نور وظلمة وليل ونهار وصيف وشتاء وحرّ وبرد ورطب ويابس وعطش وريّ وجوع وشبع ونوم ويقظة وراحة وتعب وشباب وهرم وقوّة وضعف وحياة وموت وما شاكل هذه الأمور التي أهل الدنيا وأبناؤها فيها متردّدون مدفوعون إليها متحيرون فيها، فأراد ربي أيها الراهب أن يخلصهم من هذه الأمور والآلام المشوبة باللذات وينقلهم منها إلى نعيم لا بؤس فيه ولذة لا ألم فيها وسرور بلا حزن وفرح بلا غم وعزّ بلا ذلّ وكرامة بلا هوان وراحة بلا تعب وصفو بلا كدر وأمن بلا خوف وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم وحياة بلا موت وشباب بلا هرم ومودة بين أهلها بلا ريبة، فهم في نور لا يشوبه ظلمة ويقظة بلا نوم وذكر بلا غفلة وعلم بلا جهالة وصداقة بين أهلها بلا عداوة ولا حسد ولا غيبة، إخواناً على سرر متقابلين آمنين مطمئنين أبد الآبدين، ولما لم يمكن الإنسان

أن يكون بهذا المزاج المظلم الخاص الذي هو محل القذورات المتولد من الأركان التي لا تليق بتلك الدار الآخرة والصفات الصافية والأحوال الباقية اقتضت العناية الإلهية بواجب حكمة الباري تعالى أن ينشئه نشأة أخرى كما ذكر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] النشأة الآخرة إنها على غير مثال كما كانت الأولى على غير مثال، فهم في هذه النشأة الآخرة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون وفضلات أطعمتهم وأغذيتهم عرق يخرج من أعراضهم أطيب من ريح المسك، فأين هذه النشأة من تلك وأين هذا المزاج من ذاك المزاج مع كونها نشأة طبيعية معتدلة المزاج متساوية الأمشاج، قال تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] و﴿ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] فبعث الله جلّ ثناؤه لهذا السبب أنبياءه إلى عباده يبشرونهم بها ويدعونهم إليها ويرغبونهم فيها ويدلونهم على طريقها كيما يطلبوها مستعدين قبل الورود عليها، ولكن يسهل عليهم أيضاً مفارقة مألوفات الدنيا من شهواتها ولذاتها وتخف عليهم أيضاً شدائد الدنيا ومصائبها إذ كانوا يرجون بعدها ما يعمرها ويمحو ما قبلها من نعيم الدنيا ويحذرهم فوت نعيمها فإنه من فاتته فقد خسر خسراناً مبيناً قال العارف: فهذا رأينا واعتقادنا يا راهب في معاملتنا مع ربنا الذي قلت لك، وبهذا الاعتقاد طاب عيشنا في الدنيا وسهل علينا الزهد فيها وترك شهواتها واشتدت رغبتنا في الآخرة وزاد حرصنا في طلبها وخفّ علينا كدّ العبادة فلا نحس بها بل نرى ذلك نعمة وكرامة وفخراً وشرفاً إذ جعلنا الله أهلاً أن نذكره فهدى قلوبنا وشرح صدورنا ونوّر أبصارنا لما تعرّف إلينا بكثرة إنعامه وفنون إحسانه، فقال الراهب: جزاك الله خيراً من واعظ ما أبلغه، ومن ذاكر إحسان ما أرفقه، ومن هادي رشد ما أبصره، ومن طبيب رفيق ما أحذقه، ومن أخ ناصح ما أشفقه.

وصية ونصيحة: قال ذون النون: ليس بذي لب من كاس في أمر دنياه، وحمق في أمر آخرته، ولا من سفه في مواطن حلمه وتكبر في مواطن تواضعه ولا من فقد منه الهوى في مواطن طبعه، ولا من غضب من حق إن قيل له ولا من زهد فيما يرغب العاقل في مثله، ولا فيما يزهد الأكياس في مثله، ولا من استقل الكثرة من خالقه عزّ وجلّ واستكثر قليل الشكر من نفسه، ولا من طلب الإنصاف من غيره لنفسه ولم ينصف من نفسه غيره، ولا من نسي الله في مواطن طاعته وذكر الله في مواطن الحاجة إليه ولا جمع العلم فعرف به ثم آثر عليه هواه عند متعلمه، ولا من قلّ منه الحياء من الله على جميل ستره، ولا من أغفل الشكر عن إظهار نعمه، ولا من عجز عن مجاهدة عدوّه لنجاته إذ صبر عدوّه على مجاهدته، ولا من جعل مروءاته لباسه ولم يجعل أدبه ومروءاته وتقواه لباسه، ولا من جعل علمه ومعرفته تظرفاً وتزيناً في مجلسه، ثم قال: استغفر الله إن الكلام كثير وإن لم تقطعه لم ينقطع، وقام وهو يقول: لا تخرجوا من ثلاثة: النظر في دينكم بإيمانكم، والتزوّد لآخرتكم من دنياكم، والاستعانة من ربكم فيما أمركم به ونهاكم عنه.

وصية لقمانية: قال لقمان لابنه: جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله جلّ ثناؤه

يحيي القلوب الميتة بنور العلم كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء، وإياك ومنازعة العلماء فإن الحكمة نزلت من السماء صافية فلما تعلمها الرجال صرفوها إلى هوى نفوسهم.

وصية حكمية: روينا عن ذي النون المصري أنه قال: من نظر في عيوب الناس عمي عن عيوب نفسه، ومن عني بالفردوس والنار شغل عن القيل والقال، ومن هرب من الناس سلم من شرّهم، ومن شكر المزيد زيد له، وقال بعضهم: مثل العالم الراغب في الدنيا الحريص في طلب شهواتها كمثل الطبيب المداوي غيره الممرّض نفسه فلا يرجى منه الصلاح فكيف يشفي غيره.

وصية صحيحة: سئل بعض الأولياء العارفين بالله ما سبب الذنب؟ قال: سببه النظرة ومن النظرة الخطرة فإن تداركت الخطرة بالرجوع إلى الله ذهبت، وإن لم تدركها امتزجت بالوساوس فيتولد منها الشهوة، وكل ذلك بعد باطن لم يظهر على الجوارح فإن تداركت الشهوة وإلاّ تولد منها الطلب فإن تداركت الطلب وإلاّ تولد منه الفعل.

تذكرة تتضمن وصية نبوية: قال عيسىٰ عليه السلام في بعض مواعظه لبني إسرائيل: أيها العلماء وأيها الفقهاء قعدتم على طريق الآخرة فلا أنتم تسيرون فيها فتدخلون الجنة ولا تتركون أحداً يجوزكم إليها، وأن الجاهل أعذر من العالم وليس لواحد منهما عذر. وقال بعض الصالحين: من ترك الشغل بفضول الدنيا فهو زاهد، ومن أنصف في المودّة وقام بحقوق الناس فهو متواضع، ومن كظم الغيظ واحتمل الضيم والتزم الصبر فهو حليم، ومن تمسك بالعدل وترك فضول الكلام وأوجز في المنطق وترك ما لا يعنيه واقتصد في أموره فهو عاقل، ومن تفرّغ إلى الأمور المقرّبة إلى الله وتفرّغ من نكد الدنيا إن لم تأكل مت وإن شبعت كسلت وإن زدت مرضت فهو عابد.

وصية: من رجل صالح ناصح لعباد الله وقد قال له من حضر من أصحابه: أوصنا بوصية لعل الله أن ينفعنا بها، فقال رضي الله عنه، آثروا الله على جميع الأشياء واستعملوا الصدق فيما بينكم وبينه وأحبوه بكل قلوبكم والزموا بابه واشتغلوا به وتوسدوا الموت إذا نمتم واجعلوه نصب أعينكم إذا قمتم، وكونوا كأنكم لا حاجة لكم إلى الدنيا ولا بدّ لكم من الآخرة، واحفظوا ألسنتكم ولتحزنكم ذنوبكم وليكن افتخاركم بربكم وكونوا من خالصي الله تسلموا وسلم منكم الناس فتنالوا غداً مناكم، ثم قال: استغفر الله فإن للكلام حلاوة في الدنيا وما أعظم مؤنته في الآخرة، ثم قال: ليسأل الصادقين عن صدقهم وفي دون ما قلت كفاية.

وصايا نبوية محمدية: أوصى بها رسول الله ﷺ أبا هريرة رضي الله عنه فلنذكر منها ما يّسر الله على قلمي الذي أنشىء به صور الحروف الدالة على المعاني، وفي مثل هذا قلت أخاطب الخادم الذي يقد لي السراج حتى أكتب ما يلقي الله في روعي من الحكم الإلهية والمعارف الربانية: [البسيط]

قِدِ السِّرَاجَ عسى أَحظَى بِرُؤيَتِهِ ... وأَنشِىءِ المَلأَ المَرقُومَ في الوَرَقِ
فما ترى طَبَقاً يَغنُو لخدمته ... إلاّ ويخبرُ بالأحوال عن طَبَقِ

في أحْرُفٍ ما لها حَدٌّ فيَحْصُرُها ... تبدو مَعَانِيهِ للأبصار في نَسَقِ
يُخَطِّطُ القَلَمُ العُلْويُّ صُورَتَها ... على يدي دائماً ما دام بي رَمَقي

قال رسول الله ﷺ: يا أبا هريرة: إذا توضأت فقل: بسم الله والحمد لله فإن حفظتك لا تزال تكتب لك حتى تفرغ من ذلك الوضوء. يا أبا هريرة: إذا أكلت طعاماً فقل بسم الله والحمد لله فإن حفظتك لا تستريح تكتب لك حسنات حتى تنبذه عنك. يا أبا هريرة: إذا غشيت أهلك وما ملكت يمينك فقل بسم الله والحمد لله فإن حفظتك تكتب لك حسنات حتى تغتسل من الجنابة فإذا اغتسلت من الجنابة غفر لك ذنوبك. يا أبا هريرة: فإن كان لك ولد من تلك الوقعة كتب لك حسنات بعدد نفس ذلك الولد وعقبه حتى لا يبقى منه شيء. يا أبا هريرة: إذا ركبت دابة فقل بسم الله والحمد لله تكن من العابدين حتى تنزل من ظهرها. يا أبا هريرة: إذا ركبت السفينة فقل بسم الله والحمد لله تكتب من العابدين حتى تخرج منها. يا أبا هريرة: إذا لبست ثوباً فقل بسم الله والحمد لله تكتب لك عشر حسنات بعدد كل سلك فيه. يا أبا هريرة: لا يهابنك ما ملكت يمينك فإنك إن مت وأنت كذلك كنت عند الله وجيهاً. يا أبا هريرة: لا تهجر امرأتك إلاَّ في بيتها ولا تضربها ولا تشتمها إلاَّ في أمر دينها فإنك إن كنت كذلك مشيت في طرقات الدنيا وأنت عتيق الله من النار. يا أبا هريرة: احمل الأذى عمّن هو أكبر منك وأصغر منك وخير منك وشرّ منك فإنك إن كنت كذلك باهى الله بك الملائكة ومن باهى الله به الملائكة جاء يوم القيامة آمناً من كل سوء. يا أبا هريرة: إن كنت أميراً أو وزير أمير أو داخلاً على أمير أو مشاور أمير فلا تجاوزن سيرتي وسنتي فإنه أيما أمير أو وزير أمير أو داخل على أمير أو مشاور أمير خالف سيرتي وسنتي جاء يوم القيامة تأخذه النار من كل مكان. يا أبا هريرة: عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة قيام ليلها وصيام نهارها. يا أبا هريرة: قل للمؤمنين الذين أصابوا الصغائر والكبائر لا يمت أحد منهم وهو مصرّ عليه فإنه من لقي ربه عزّ وجلّ على ذلك وهو مصرّ عليها فإن عقوبتها يعني الصغيرة كعقوبة من لقي الله على كبيرة وهو مصرّ عليها. يا أبا هريرة: لأن تلقى الله عزّ وجلّ على كبائر قد تبت منها خير لك من أن تلقاه وقد تعلمت آية من كتاب الله عزّ وجلّ ثم تنساها. يا أبا هريرة: لا تلعن الولاة فإن الله أدخل أمة جهنم بلعنتهم ولاتهم. يا أبا هريرة لا تسبن شيئاً إلاَّ الشيطان فإنك إن مت وأنت كذلك صافحتك جميع رسل الله تعالىٰ عزّ وجلّ والمؤمنون حتى تصير إلى الجنة. يا أبا هريرة: لا تسبّ من ظلمك تعط من الأجر أضعافاً. يا أبا هريرة أبشع اليتيم والأرملة وكن لليتيم كالأب الرحيم وللأرملة كالزوج العطوف تعط بكل نفس تنفست في دار الدنيا قصراً في الجنة كل قصر خير من الدنيا وما فيها. يا أبا هريرة: امش في ظلم الليل إلى مساجد الله عزّ وجلّ تعط حسنات بوزن كل شيء وضعت عليه قدمك ممّا تحبّ وتكره إلى الأرض السابعة السفلى. يا أبا هريرة: ليكن مأواك المساجد والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله فإنك إن مت وأنت كذلك كان الله مؤنسك في القبر ويوم القيامة وعلى الصراط ويكلمك في الجنة. يا أبا هريرة: لا تنتهر الفقير فتنتهرك الملائكة يوم القيامة. يا أبا هريرة: لا تغضب إذا قيل لك اتق الله وأنت

قد هممت بسيئة إن تعملها تكن خطيتك عقوبتها النار. يا أبا هريرة: من قيل له اتق الله فغضب جيء به يوم القيامة فيوقف موقفاً لا يبقى ملك إلاّ مرّ به فقال له: أنت الذي قيل له اتق الله فغضب فيسوءه ذلك فاتق مساوىء يوم القيامة أو مساءه الشك من الراوي. يا أبا هريرة: أحسن إلى ما خولك الله فإنه من أساء إلى شيء ممّا خوله الله فإنه يرصده على الصراط فيتعلق به فكم من مؤمن يرد إلى الصراط للقصاص. يا أبا هريرة: على كل مسلم صلاة في جوف الليل ولو قدر حلب شاة ومن صلّى في جوف الليل يريد أن يرضي ربه عزّ وجلّ رضي الله عنه وقضى له حاجته في الدنيا والآخرة فزعم أبو هريرة قال قلت: يا رسول الله في أي الليل الصلاة أفضل؟ قال: وسط الليل. يا أبا هريرة: إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم فافعل تكن من أول المقربين ولا تتخذن أحداً من خلق الله غرضاً فيجعلك الله غرضاً لشرر جهنم يوم القيامة. يا أبا هريرة: إذا ذكرت جهنم فاستجر بالله منها وليبك قلبك منها ونفسك ويقشعر جلدك منها يجرك الله منها. يا أبا هريرة: إذا اشتقت إلى الجنة فاسأل أن يجعل لك فيها نصيباً ومقيلاً وليحن قلبك شوقاً إليها وتدمع عيناك وأنت مؤمن بها إذن يعطيها الله تعالىٰ ولا يردك. يا أبا هريرة: إن شئت أن لا تفارقني يوم القيامة حتى تدخل معي الجنة أحببني حباً لا تنساني، واعلم أنك إن أحببتني لم تترك ثلاثة قلت فوصل إليّ منها، وارض بقسم الله فإنه من خرج من الدنيا وهو راض بقسم الله خرج والله عنه راض، ومن رضي الله عنه فمصيره إلى الجنة. يا أبا هريرة: مر بالمعروف وانهَ عن المنكر قال: كيف آمر بالمعروف وأنهَ عن المنكر؟ قال: علم الناس الخير ولقنهم إياه وإذا رأيت من يعمل بمعاصي الله تعالىٰ لا تخاف سوطه وسيفه فلا يحل أن تجاوزه حتى تقول له اتق الله. يا أبا هريرة: تعلّم القرآن وعلّمه الناس حتى يجيئك الموت وأنت كذلك، وإن كنت كذلك جاءت الملائكة إلى قبرك وصلّوا عليك واستغفروا لك إلى يوم القيامة كما يحجّ المؤمنون إلى بيت الله عزّ وجلّ. يا أبا هريرة: القَ المسلمين بطلاقة وجهك ومصافحة أيديهم بالسلام إن استطعت أن تكون كذلك حيث كنت فإن الملائكة معك سوى حفظتك يستغفرون لك ويصلون عليك، واعلم أنه من خرج من الدنيا والملائكة يستغفرون له غفر الله له. يا أبا هريرة: إن أحببت أن يغشى لك الثناء الحسن في الدنيا والآخرة كف لسانك عن غيبة الناس فإنه من لم يغتب الناس نصره الله في الدنيا والآخرة، أما نصرته في الدنيا فليس أحد يتناوله إلاّ كانت الملائكة تكذبهم عنه، وأما نصرته في الآخرة فعفو الله عن قبيح ما صنع ويتقبل منه أحسن ما عمل. يا أبا هريرة: اغد في سبيل الله يبسط الله لك الرزق. يا أبا هريرة: صل رحمك يأتك الرزق من حيث لا تحتسب واحجج البيت يغفر الله لك ذنوبك التي وافيت بها البلد الحرام. يا أبا هريرة: أعتق الرقاب يعتق الله بكل عضو منه عضواً منك وفيه أضعاف ذلك من الدرجات. يا أبا هريرة: أشبع الجائع يكن لك مثل أجر حسناته وحسنات عقبه وليس عليك من سيئاتهم شيء. يا أبا هريرة: لا تحقرن من المعروف شيئاً تعمله ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقى فإنه من خصال البر والبرّ كله عظيم وصغيره ثوابه الجنة. يا أبا هريرة:

مر أهلك بالصلاة فإن الله تعالىٰ يأتيك بالرزق من حيث لا تحتسب ولا يكن للشيطان في بيتك مدخلاً ولا مسلكاً. يا أبا هريرة: إذا عطس أخوك المسلم فشمته فإنه يكتب لك به عشرون حسنة فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي كيف ذاك؟ قال: إنك حين تقول له يرحمك الله يكتب لك عشر حسنات، وحين يقول لك يهديك الله يكتب لك عشر حسنات. يا أبا هريرة: كن مستغفراً للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات كانوا كلهم شفعاء لك وكان لك مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء. يا أبا هريرة: إن كنت تريد أن تكون عند الله صديقاً فآمن بجميع رسل الله وأنبياء الله وكتبه. يا أبا هريرة: إن كنت تريد أن تحرّم على النار جسدك فقل إذا أصبحت وإذا أمسيت: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له لا إله إلاَّ الله له الملك وله الحمد لا إله إلاَّ الله والله أكبر لا إله إلاَّ الله ولا حول ولا قوّة إلاَّ بالله. يا أبا هريرة: لا يحل لك أن تدخل على من هو في سكرات الموت ولو كان نبياً حتى تلقنه شهادة أن لا إله إلا الله. يا أبا هريرة من لقن مريضاً في سكرات الموت شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فقالها كان له مثل جميع حسناته فإن لم يقلها فله عنق رقبة بقوله لا إله إلا الله. يا أبا هريرة: لقن الموتى شهادة أن لا إله إلاَّ الله رب اغفر لي فإنها تهدم الذنوب هدماً، فقلت: يا رسول الله هذا للموتى فكيف للأحياء؟ فقال: هي أهدم وأهدم قال: فعدده رسول الله ﷺ على أكثر من عشرين مرّة يقول رسول الله ﷺ: أهدم وأهدم. يا أبا هريرة: فإن استطعت أن لا تمطر السماء مطراً إلاَّ صليت عنده ركعتين فإنك تعطى حسنات بعدد كل قطرة نزلت تلك الساعة وعدد كل ورقة أنبت ذلك المطر. يا أبا هريرة: تصدق بالماء فإنه لا يتوضأ أحد إلاَّ كان لك مثل حسناته من غير أن ينقص من حسناته شيء. يا أبا هريرة: أما علمت أن رجلاً غفر له احتشّ حشيشاً فجاءت بهيمة فأكلته. يا أبا هريرة: قل للناس حسناً تفلح يوم القيامة. يا أبا هريرة: عد على المسكين كافراً كان أو مسلماً فإن كان عدت على المسكين الكافر رحمك الله، وأما ثوابك إن عدت على المسكين المسلم فلا أحسن صفته. يا أبا هريرة: إذا كنت في عيال أبيك أو أمك أو ولدك فلا يحل لك أن تتصدق منه إلاَّ بإذنه. يا أبا هريرة: لا يحل لك من مال امرأتك شيء إلاَّ شيء تعطيك من غير أن تسألها وذلك هو قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤] يا أبا هريرة: قل للنساء لا يحل لهن أن يتصدقن من بيوت أزواجهن شيئاً إلاَّ بكل رطب يخفن فساده إذا كان غائباً. يا أبا هريرة: علّم الناس سنتي يكن لك النور الساطع يوم القيامة يغبطك به الأولون والآخرون. يا أبا هريرة: كن مؤذناً وإماماً فإنك إذا رفعت صوتك بالأذان يرفع صوتك حتى يبلغ العرش فلا يمر صوتك على شيء إلاَّ كان لك بعدده عشر حسنات ولك إذا كنت إماماً بعدد من صلّى خلفك ولك مثل صلاتهم لا ينقص من صلاتهم شيء إلاَّ أن تكون إماماً خائناً، قلت: يا رسول الله وكيف الإمام الخائن؟ قال: إذا خصصت نفسك بالدعاء دونهم فقد خنتهم. يا أبا هريرة: لا تضربن في أدب فوق ثلاث فإنك إن زدت فهي قصاص يوم القيامة. يا أبا هريرة: أدّب صغار أهل بيتك بلسانك على الصلاة والطهور فإذا بلغوا عشر سنين فاضرب ولا تجاوز ثلاثاً. يا أبا

هريرة: عليك بابن السبيل فقدمه إلى أهلك أو إلى أهله تشيعك الملائكة إلى الصراط. يا أبا هريرة: جالس الفقراء فإن رحمة الله لا تبعد عنهم طرفة عين. يا أبا هريرة: لا تؤذ المسلمين في طريقهم فإنه من آذى المسلمين في طرقهم ذمّه المسلمون والملائكة جميعاً. يا أبا هريرة: إذا مررت على أذى في الطريق فغطه بالتراب يستر الله عليك يوم القيامة. يا أبا هريرة: إذا أرشدت أعمى فخذ يده اليسرى بيدك اليمنى فإنها صدقة. يا أبا هريرة: من مشى مع أعمى ميلاً يسدده كان له بكل ذراع من الميل حتى يسمعك الله ما يسرّك يوم القيامة. يا أبا هريرة: اسمع الأصمّ الذي يسألك عن خير يسمعك الله ما يسرّك يوم القيامة. يا أبا هريرة: أرشد الضالّ ترشدك الملائكة إلى أحسن المواقف يوم القيامة. يا أبا هريرة: لا ترشد اليهودي إلى كنيسته ولا النصراني إلى بيعته ولا الصابئي إلى صومعته ولا المجوسيّ إلى بيت ناره ولا المشرك إلى بيت وثنه إذن تكتب عليك مثل خطاياه حتى يرجع. يا أبا هريرة: لا ترشد أحداً إلى غير حدود الله فيعمل به إذن يكون عليك مثل ذنبه. يا أبا هريرة: أرشد عباد الله إلى مساجد الله وإلى البلد الحرام وإلى قبري يكن لك مثل أجورهم ولا تنقص من أجورهم شيئاً. يا أبا هريرة: أبلغ النساء أنه ليس عليهن زيارة قبري ولكن عليهن حجّ بيت الله إذا كان معهن محرم وإلاّ فلا. قلت: يا رسول الله وإن كانت امرأة مثل الحشفة؟ قال: وإن كانت امرأة مثل الحشفة. يا أبا هريرة: إن استطعت أن لا يكون لأحد من الظالمين عليك يد ولا لسان فإني أحب لك ذلك. يا أبا هريرة: لا يكن أمير من أمرائك إلاّ أميراً يعدل مثل ما تعدل أنت فإن عدلت أنت وجار هو كنت أنت شريكه في الإثم ولم تكن شريكه في الأجر. يا أبا هريرة: إن كان لك مال وجبت عليه زكاة فزكّه، فإن أصابته آفة وقد زكيته مرّة واحدة فهي مجزئة إلى يوم القيامة. يا أبا هريرة: إذا لقيت اليهودي والنصراني فلا تصافحه وأنت على وضوء فإن فعلت فأعد الوضوء. يا أبا هريرة لا تكنّ اليهودي والمجوسيّ والنصراني ولكن سمّه باسمه فإنك والله تذلّه بذلك، ولا يحل لك أن تكرمه إنما لهم من العهد والذمّة أن لا يؤخذ أموالهم إلاّ بطيب أنفسهم ولا تدخل بيوتهم إلاّ بإذنهم ولا تحل بينهم وبين أطفالهم ولا يخانون في نسائهم فبذلك أمرك لتعرف الملة. يا أبا هريرة: إذا خلوت بيهودي أو نصراني أو مجوسي فلا يحل لك أن تفارقه حتى تدعوه إلى الإسلام. يا أبا هريرة: لا تجادلن أحداً منهم فعسى أن يأتيك بشيء من التنزيل فتكذبه أو تجيء بشيء فيكذبك لا يكون من حديثك إلاّ أن تدعوه إلى الإسلام. وهو قول الله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥] الدعاء إلى الإسلام. يا أبا هريرة: صلّ إماماً كنت أو غير إمام في ثوب واحد إن كان صفيقاً. يا أبا هريرة: أتريد أن يكون أجرك كأجر شهداء بدر؟ انظر رجلاً مسلماً ليس له ثوب يجمع فيه يوم الجمعة فأعره ثوبك أو هبه له. يا أبا هريرة: أتريد أن لا تسمع حسيس النار ولا يقع بك شررها؟ فأغث من استغاث بك حريق كان لص كان سيل كان غريق كان هدم كان. يا أبا هريرة: نفس عن المكروبين والمغمومين تخرج من غم يوم القيامة. يا أبا هريرة امش إلى غريمك بحقه تشيعك الملائكة بالصلاة عليك. يا أبا هريرة: من علم الله منه أنه يريد قضاء دينه رزقه الله من حيث لا

يحتسب وهيّأ له قضاء دينه في حياته أو بعد موته. يا أبا هريرة: من أصاب مالاً حلالاً وأدّى زكاته ثم ورثه عقبه فكل ما ينصع فيه ورثته من الحسنات فله مثل ذلك من غير أن ينقص من أجورهم. يا أبا هريرة: من قذف محصناً أو محصنة حبس يوم القيامة في وادي خبال هناك حتى يخرج أو يجيء ببيان ما قال، قال قلت: يا رسول الله وما وادي خبال؟ قال: وادي خبال وادي في جهنم يسيل فيه قيحهم وما يخرج من أجوافهم. يا أبا هريرة: من مات وعليه دين وترك وفاء ذلك فجحدهم ورثته وليس لهم عليه بينة ولم يعلم الله منه أنه يريد قضاءه فهو قصاص من حسناته يوم القيامة. يا أبا هريرة: المقتول في سبيل الله يغفر له جميع ذنوبه إلاّ ديناً أو قذف محصنة أو محصن. يا أبا هريرة: كل ذنب غم يوم القيامة فرب ذنب له ثارة من الغمّ ورب غم له ثارات ولا ذنب على المسلم أطول ثارات من مظلمة لدم أو مال أو عرض. يا أبا هريرة: من أصاب شيئاً من ذلك فتاب إلى الله عزّ وجلّ قبل موته واستكان وتضرّع وليس عنده إذن تلك المظلمة فإن على الله أن يرضي خصماءه يوم القيامة من عنده بما شاء. يا أبا هريرة: إن ظلمك إنسان فلا تشكه ولا تسمع به الناس وتعرفهم حالته تكون أنت وهو سواء. يا أبا هريرة: من عفا عن مظلمة صغيرة أو كبيرة فأجره على الله ومن كان أجره على الله فهو من المقرّبين الذين يدخلون الجنة مدخلاً. يا أبا هريرة: لا تروّع أحداً من خلق الله عزّ وجلّ فتروعك ملائكة الله في الآخرة يوم القيامة. يا أبا هريرة: أتريد أن تكون عليك رحمة الله حياً وميتاً ومقبوراً ومبعوثاً فقم بالليل وصل وأنت تريد به رضى ربك، ثم مر أهلك يصلون إذا فرغوا يوقظونك فإنه إذا مرّ عليك من الليل ثلاث ساعات ومن النهار ثلاث ساعات وفي بيتك من يعبد الله أعطاك الله مثل ذلك. يا أبا هريرة: صل في زوايا بيتك جميعاً يكون نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجوم في السماء عند أهل الدنيا: يا أبا هريرة: احمل غداك وعشاك إلى أقاربك المحتاجين يكن لك في كل خير يقسمه الله من بين أوليائه وأحبائه في الدنيا والآخرة سهم وافر. يا أبا هريرة: ارحم جميع خلق الله يرحمك الله من النار يوم القيامة، قال: قلت: يا رسول الله إني لأرحم الذباب يكون في الماء، فقال رسول الله ﷺ: رحمك الله رحمك الله رحمك الله. يا أبا هريرة: إذا نزلت بك مصيبة فارضٍ بما أعطاك الله وليعلم الله منك أن ثواب المصيبة أحب إليك من المصيبة يعطيك الله الصلاة والرحمة والهدى. يا أبا هريرة: عَزّ الحزين كما تحب أن تُعزّى، وأذكر ثواب ما أعد الله على المصيبة تعط بكل خطوة خطوت عتق رقبة. يا أبا هريرة: إذا مررت بجمع نساء فلا تسلم عليهنّ فإن بدأنك بالسلام فاردد عليهن. يا أبا هريرة: إذا سلّم المسلم على المسلم فردّ عليه صلت عليه الملائكة سبعين مرّة. يا أبا هريرة: الملائكة تتعجب من المسلم يلقى المسلم فلا يسلم عليه. يا أبا هريرة: تعود التسليم فإنه خصلة من خصال الجنة وهو تحية أهل الجنة، قال ابن شاهين: وهو تحية أهل الجنة يوم القيامة. يا أبا هريرة: أصبح وأمس ولسانك رطب من ذكر الله تصبح وتمسي وليس عليك خطيئة. يا أبا هريرة: إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ. يا أبا هريرة: استر عورة أخيك يكن الله لك ناصراً. يا أبا هريرة: انصر أخاك واستر عليه قبل أن

يرفع إلى السلطان في حد من حدود الله، فإياك أن تباشر له بنفسك ومالك فإنه من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فهو كذا وكذا.

وصية: قال بعض العلماء في وصية أوصى بها: اعلم أنه من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر إلى العواقب نجا، ومن اعتبر أبصر، ومن فهم علم، وفي التواني والإفراط يكون الهلكة، وفي التأني السلامة والبركة، وزارع البر يحصد السرور، والقليل مع القناعة خير من الكثير مع السرف المشرف في الذلّ، والتقوى نجاة والطاعة ملك وحليف الصدق موفق، وصاحب الكذب مخذول وصديق الجاهل تعب ونديم العاقل مغتبط، فإذا جهلت فسل وإذا ندمت فأقلع وإذا غضبت فاحلم، وإن اؤتمنت فاكتم، ومن كافاك بالشكر فقد أدّى إليك الصنيعة، ومن أقرضك الثناء فاقضه الفعل، ومن بدأك ببره شغلك بشكره، فتفهم ما رفد مني إليك واجعله ممثلاً بين عينيك، فإن الذي أفدتك من وصيتي أبلغ في رفدك من عطيتي، وضع الصنائع عند الكرام ذوي الأحساب ولا تضعن معروفك عند اللئام فتضيعه، فإن الكريم يشكر لك ويرصد لك المكافأة، واللئيم يحسب ذلك خوفاً ويؤول أمرك معه إلى المذمة، وقال الشاعر: [الوافر]

إذا أَوْلَيْتَ مَعْرُوفاً لئيماً ... يَعُدّكَ قد قَتَلْتَ له قَتِيلاَ
فكُنْ من ذاك معتذراً إليه ... وقل إني أتيتك مُسْتَقِيلا
فإن تَغْفِرْ فمُجْتَرَمي عظيمٌ ... وإن عاقَبْتَ لم تظلم فَتِيلاَ
وإن أَوْلَيْتَ ذلك ذا وفاءٍ ... فقد أوْدَعْتَهُ شُكْراً طَوِيلا

ومن الوصايا: أوصى بعض العارفين بالله إنساناً فقال: إياك أن تكون في المعرفة مدعياً وتكون بالزهد متحرفاً أو تكون بالعبادة متعلقاً، فقيل له: يرحمك الله فسر لنا ذلك فقال: أما علمت أنك إذا أشرت في المعرفة إلى نفسك بأشياء أنت معرّى عن حقائقها كنت مدعياً، وإذا كنت بالزهد موصوفاً بحالة وبك دون الأحوال كنت محترفاً، وإذا علقت قلبك بالعبادة وظننت أنك تنجو من الله بالعبادة لا بالله في العبادة كنت بالعبادة متعلقاً.

وصية نبوية: قال رسول الله ﷺ في وصيته لأبي هريرة: عليك يا أبا هريرة بطريق أقوام إذا فزع الناس لم يفزعوا، وإذا طلب الناس الأمان من النار لم يخافوا، قال أبو هريرة: من هم يا رسول الله؟ حلّهم وصفهم لي حتى أعرفهم، قال: قوم من أمتي في آخر الزمان يحشرون يوم القيامة محشر الأنبياء إذا نظر إليهم الناس ظنوهم أنبياء ممّا يرون من حالهم حتى أعرفهم أنا فأقول أمتي فتعرف الخلائق أنهم ليسوا أنبياء فيمرّون مثل البرق والريح تغشى أبصار أهل الجمع من أنوارهم، فقلت: يا رسول الله مر لي بمثل عملهم لعلي ألحق بهم، فقال: يا أبا هريرة ركب القوم طريقاً صعباً لحقوا بدرجة الأنبياء، آثروا الجوع بعدما أشبعهم الله، والعري بعدما كساهم، والعطش بعدما أرواهم، تركوا ذلك رجاء ما عند الله، تركوا الحلال مخافة حسابه، صحبوا الدنيا بأبدانهم ولم يشتغلوا بشيء منها، عجبت الملائكة والأنبياء من طاعتهم لربهم، طوبى لهم طوبى لهم، وددت أن الله جمع بيني وبينهم ثم بكى رسول الله ﷺ

شوقاً إليهم ثم قال: إذا أراد الله بأهل الأرض عذاباً فنظر إليهم صرف العذاب عنهم، فعليك يا أبا هريرة بطريقتهم فمن خالف طريقتهم تعب في شدة الحساب.

وصية: كتبت إلى بعض معارفنا بوصية ضمنتها أبياتاً أحرّضه فيها على تكملة إنسانيته وهي: [مجزوء الرمل]

إنْ تَكُنْ رَوْحاً ورَيْحَانَا ... كنت بين الناس إنْسَانَا
إنّما أعطاك صُورَتَهُ ... لتَكُنْ في الخَلْق رَحْمانا
فالذي قد حَازَ صُورَتَهُ ... حَازَ ما يأتي وما كانا
والذي في الغَيْب من عجب ... والذي قد جاءه الآنا
والذي يدعوه خالِقُهُ ... إنما يدعوه مِخْسَانَا

وأوصى بعض الصالحين إنساناً فقال: أكثر مسائلة الحكماء وليكن أوّل شيء تسأل عنه العقل لأن جميع الأشياء لا تدرك إلاً بالعقل، ومتى أردت الخدمة لله فاعقل لمن تخدم ثم اخدم. سأل إبراهيم الأخميمي ذا النون أن يوصيه بوصية يحفظها عنه قال: وتفعل؟ قال إبراهيم قلت: نعم إن شاء الله، فقال: يا إبراهيم احفظ عني خمساً فإن أنت حفظتهنّ لم تبال ماذا أصبت بعدهن، قلت: وما هن رحمك الله؟ قال: عانق الفقر، وتوسد الصبر، وعاد الشهوات، وخالف الهوى، وافزع إلى الله في أمورك كلها، فعند ذلك يورثك الشكر والرضا والخوف والرجاء والصبر، وتورثك هذه الخمسة خمسة، العلم والعمل وأداء الفرائض واجتناب المحارم والوفاء بالعهود، ولن تصل إلى هذه الخمسة إلاً بخمس: علم غزير ومعرفة شافية وحكمة بالغة وبصيرة ناقدة ونفس راهبة، والويل كل الويل لمن يلي بخمس: حرمان وعصيان وخذلان واستحسان النفس بما يسخط الله والإزراء على الناس بما يأتي، وأقبح القبح خمس: قبح الفعال ومساوي الأعمال وثقل الظهور بالأوزار والتجسّس على الناس بما لا يحب الله ومبارزة الله بما يكره، وطوبى ثم طوبى لمن أخلص خمسة: من أخلص علمه وعمله وحبه وبغضه وأخذه وعطاءه وكلامه وصمته وقوله وفعله، واعلم يا إبراهيم أن وجوه الحلال خمسة: تجارة بالصدق، وصناعة بالنصح، وصيد البرّ والبحر، وميراث حلال الأصل، وهدية من موضع ترضاها، فكل الدنيا فضول إلاً خمسة: خبز يشبعك، وماء يرويك، وثوب يسترك، وبيت يكنك، وعلم تستعمله، ويحتاج أيضاً أن يكون معه خمسة أشياء: الإخلاص والنية والتوفيق وموافقة الحق وطيب المطعم والملبس، وخمسة أشياء فيها الراحة: ترك قرناء السوء والزهد في الدنيا والصمت وحلاوة الطاعة إذا غبت عن أعين المخلوقين وترك الازدراء على عباد الله حتى لا تزدري على أحد يعصي الله، وعندها يسقط عنك خمس: المراء والجدال والرياء والتزيّن وحب المنزلة، وخمس فيهن جمع الهم: قطع كل علاقة دون الله، وترك كل لذة فيها حساب، والتبرّم بالصديق والعدوّ، وخفة الحال، وترك الادخار، وخمس يا إبراهيم يتوقعهن العالم: نعمة زائلة، أو بلية نازلة، أو ميتة قاضية، أو فتنة

قاتلة، أو تزل قدم بعد ثبوتها، حسبك يا إبراهيم إن عملت بما علمتك. منظوم لأبي العتاهية في هذا الباب: [مخلع البسيط]

ما أنا إلاَّ لمن يُعَاني ... أرى خليلي كما يَرَاني
لستُ أَرَى ما ملكت طَرْفي ... مكان من لا يرى مكاني
فلي إلى أن أموت رِزْقٌ ... لو جَهِدَ الخَلْقُ ما عَدَاني
فاسْتَغْنِ بالله عن فلان ... وعن فلان وعن فُلانِ
فالمالُ من حِلِّهِ قَوَامٌ ... للعِرْضِ والوَجْهِ واللِّسانِ
والفَقْرُ ذلٌّ عليه بابٌ ... مفتاحُه العجزُ والتَّواني
ورزقُ رَبِّي له وجوهٌ ... هُنَّ من الله في ضَمَانِ
سبحان من لم يَزَلْ عَلِيّاً ... ليس له في العُلُو ثَانِ
قضى على خَلْقه المنايا ... فكلُّ حَيّ سواه فَانِ
يا رَبِّ لم نَبْكِ من زمان ... إلاَّ بكيتُ على زمان

نصيحة عمرية: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فإنما أظهر نفاقاً على نفاق.

موعظة تتضمن وصية ونصيحة نبوية: قال رسول الله ﷺ: طوبى لمن تواضع في غير منقصة، وذلّ في نفسه في غير مسكنة، وأنفق من مال جمعه من غير معصية، وخالط أهل الفقه والحكمة، ورحم أهل الذلّة والمسكنة، طوبى لمن طاب كسبه وصلحت سريرته وكرمت علانيته وعزل عن الناس شرّه، طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله.

وصية الفضيل بن عياض إلى أمير المؤمنين: روينا أن أمير المؤمنين هارون الرشيد حج ومعه الفضل بن الربيع قال: أتاني أمير المؤمنين فخرجت إليه مسرعاً فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ لأتيتك فقال: ويحك قد كان ذلك في نفسي فانظر لي رجلاً أسأله فقلت: ههنا سفيان بن عيينة فقال: امض بنا إليه فأتيناه فقرعت الباب فقال: من ذا؟ فقال: أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ لأتيتك، قال له: خذ لما جئناك له رحمك الله فحدثه ساعة ثم قال له: عليك دين؟ قال: نعم، فقال: اقض دينه، فلما خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً انظر لي رجلاً أسأله أنظر لي رجلاً أسأله، فقلت: ههنا عبد الرزاق فذكر مثل ما جرى له مع سفيان وقال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً أنظر لي رجلاً أسأله فقلت: ههنا الفضيل بن عياض فقال: امش بنا إليه فإذا هو قائم يصلي يتلو آية من القرآن يرددها قال: اقرع الباب فقرعت فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين فقال: ما لي ولأمير المؤمنين، فقلت: سبحان الله أما عليك طاعة؟ فنزل ففتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت فدخلنا فجعلنا نحول عليه بأيدينا فسبقت كف أمير المؤمنين قبلي إليه فقال: يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله عزّ وجلّ، فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام من قلب تقيّ فقال له: خذ لما جئناك له

رحمك الله، فقال له: إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعى سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليّ فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن فطرك منها الموت. وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً ووسطهم عندك أخاً وأصغرهم عندك ولداً، فوقر أباك، واكرم أخاك، وتحنّن على ولدك، وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك وأكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إذا شئت، وإني أقول لك يا هارون: إني أخاف عليك أشد الخوف يوم تزل فيه الأقدام فهل معك رحمك الله من يشير عليك بمثل هذا؟ فبكى هارون بكاء شديداً حتى غشي عليه فقلت له: ارفق بأمير المؤمنين فقال: تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا ثم أفاق فقال له: زدني رحمك الله، فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكى إليه فكتب إليه: يا أخي أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد وإياك أن ينصرف بك من عند الله عزّ وجلّ فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء، فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له: ما أخرجك؟ قال: خلعك قلبي بكتابك لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله عزّ وجلّ، قال: فبكى هارون بكاء شديداً، ثم قال: زدني رحمك الله، فقال: يا أمير المؤمنين إن العباس عمّ المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أمرني على إمارة فقال له: إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل، فبكى هارون بكاء شديداً وقال له: زدني رحمك الله، قال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عزّ وجلّ عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك فإن النبيّ ﷺ قال: من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة، فبكى هارون وقال له: عليك دين؟ قال نعم دين لربي لم يحاسبني عليه فالويل لي إن سألني والويل لي إن ناقشني والويل لي إن لم ألهم حجتي، قال: إنما أعني من دين العباد، قال: إن ربي لم يأمرني بهذا وقد قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨] فقال له: هذه ألف دينار خذها وأنفقها على عيالك وتقوى بها على عبادتك، فقال: سبحان الله أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا سلمك الله ووفقك ثم صمت فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده فلما صرنا على الباب قال لي هارون: إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين. فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت له: يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال فلو قبلت هذا المال لفرجت عنا به، فقال لها: مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه، فلما سمع هارون هذا الكلام قال: ندخل فعسى أن يقبل المال، فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة فجاء هارون فجلس إلى جنبه فجعل يكلمه ولا يجيبه فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت: يا هذا قد آذيت الشيخ هذه الليلة فانصرف رحمك الله فانصرفنا.

وقال رجل لذي النون المصري: دلّني على طريق الصدق والمعرفة فقال: يا أخي أدّ إلى الله صدق حالك التي أنت عليها على موافقة الكتاب والسنّة ولا ترق حيث لا ترق فتزل قدمك فإنه إذا دلّ بك لم تسقط وإذا ارتقيت أنت تسقط، وإياك أن تترك ما تراه يقيناً لما ترجوه شكاً.

وصية مشفق ناصح: ليكن آثر الأشياء عندك وأحبها إليك أحكام ما افترض الله عليك واتقِ ما نهاك عنه فإن ما تعبدك الله به خير لك، وأفضل ممّا تختاره لنفسك من أعمال البر التي لم تجب عليك وأنت ترى أنها أبلغ لك فيما تريد كالذي يؤدّب نفسه بالفقر والتقلل وما أشبه ذلك، إنما ينبغي للعبد أن يراعي أبداً ما وجب عليه من فرض فيحكمه على تمام حدوده وينظر إلى ما نهي عنه فيتقيه على أحكم ما ينبغي، فالذي قطع العباد عن ربهم عزّ وجلّ وقطعهم عن أن يرزقوا حلاوة الإيمان وعن أن يبلغوا حقائق الصدق وحجب قلوبهم من النظر إلى الآخرة وما أعدّ الله فيها لأوليائه وأعدائه حتى يكونوا كأنهم مشاهدون إنما قطعهم تهاونهم عن أحكام ما فرض عليهم في قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم وبطونهم وفروجهم، ولو وقفوا على هذه الأشياء وأحكموها لأدخل عليهم البرّ إدخالاً يعجز أبدانهم وقلوبهم عن حمل ما رزقهم من حسن معونته وفوائد كرامته، ولكن أكثر القرّاء والنساء حقروا محقرات الذنوب وتهاونوا بالقليل منها وممّا فيهم من العيوب فحرموا لذة ثواب الصادقين في العاجل، واستغفر الله ممّا تقول ولا تفعل.

وصية عبد الله المغاور وكان رجلاً كبيراً من أهل لبلة من أعمال إشبيلية بغرب الأندلس: كان سبب رجوعه إلى طريق الله أن الموحدين لما دخلوا لبلة رمت امرأة عليه نفسها وقالت له: احملني إلى إشبيلية وأزلني من أيدي هؤلاء القوم، فأخذها على عنقه وخرج بها فلما خَلا بها وكان من الشطار الأشداء وكانت المرأة ذات جمال فائق فدعته نفسه إلى وقاعها فقال: يا نفسي هي أمانة بيدي ولا أحبّ الخيانة وما هذا وفاء مع صاحبها فأبت عليه نفسه إلاّ الفعل، فلما خاف على نفسه أخذ حجراً وجعل ذكره عليه وهو قائم وأخذ حجراً آخر فقال به عليه فرضخه بين الحجرين فقال: يا نفسي النار ولا العار، فجاء منه واحد زمانه وخرج من حينه يطلب الحج فأقام بالإسكندرية إلى أن مات بها أدركته ولم أجتمع به، فأخبرني أبو الحسن الإشبيلي قال: أوصاني عبد الله المغاور فقال لي: يا أبا الحسن آمرك بخمس وأنهاك عن خمس: آمرك باحتمال أذى الخلق وترك أذى الخلق وإدخال الراحة على الإخوان وأن تكون أذناً لا لساناً أي اسمع أكثر ممّا تتكلم به والخامس أن تكون مع الناس على نفسك. وأنهاك عن معاشرة النساء وحب الدنيا وحب الرياسة وعن الدعوى وعن الوقوع في رجال الله.

وصية حكيم رويناها من حديث ابن مروان المالكيّ: في المجالسة قال: حدثنا ابن أبي الدنيا قال: سمعت محمد بن الحسين يقول: قال حكيم لحكيم: أوصني، فقال: اجعل الله همك واجعل الحزن على قدر ذنبك فكم من حزين وقف به حزنه على سرور الأبد، وكم من فرح نقله فرحه إلى طول الشقاء.

وصية نبوية: رويناها من حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**تُوبُوا إلى الله قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا وَبَادِرُوا بالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا وَصِلوا الَّذِي بَيْنَكُمْ وبَيْنَ رَبِّكُمْ تَسْعَدُوا وَأَكْثِرُوا الصَّدَقَةَ تُرْزَقُوا وَأْمُرُوا بِالمَعْرُوفِ تُخْصِبُوا وَانهَوْا عَنِ المُنْكَرِ تُنْصَرُوا، أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَكيَسَكُمْ أَكْثَرُكُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً وَأَحْزَمَكُمْ أَحْسَنُكُمْ لَهُ اسْتِعْدَاداً، أَلاَ وَإِنَّ مِنْ عَلامَاتِ العَقْلِ التَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ وَالإِنَابَةَ إِلى دَارِ الخُلُودِ وَالتَّزَوُّدَ لِسُكْنَى القُبُورِ وَالتَّأَهُّب لِيَوْمِ النُّشُورِ**»
وأنشد بعضهم: [البسيط]

كُنَّا على ظَهْرِها والدَّهْرُ في مَهَلٍ ... والعَيْشُ يَجْمَعُنا والدارُ والوَطَنُ
فَفَرَّقَ الدهرُ بالتصريف أُلْفَتَنَا ... واليوم يجمعُنا في بطنها الكَفَنُ

وصية: الجرهمي عمرو بن لحي بالحرم: قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] فكان ابن عباس يسكن الطائف لأجل ذلك. وثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**احتِكَارُ الطَّعَامِ بِمَكَّةَ إِلْحَادٌ فِيهِ**» قال الجرهمي يخاطب عمرو بن لحي يوصيه: [مجزوء الكامل]

يا عَمْرُو لا تَظْلِمْ بمـ ... ـكة إنها بَلَدٌ حَرَامْ
سائلْ بعَادٍ أين هُمْ ... وكذاك يُخْتَرَمُ الأَنَامْ
ومن العماليق الذيـ ... ـن لهم بها كان السَّوَامْ

ومن وصايا ذي النون بعض الفتيان: يا فتى خذ لنفسك بسلاح الملامة، واقمعها برد الظلامة، تلبس غداً سرابيل السلامة، وأقصرها في روضة الأمان، وذوّقها مضض فرائض الإيمان، تظفر بنعيم الجنان، وجرّعها كأس الصبر، ووطنها على الفقر، حتى تكون تام الأمر، فقال له الفتى: وأي نفس تقوى على هذا؟ فقال: نفس على الجوع صبرت وفي سربال الظلام خطرت، نفس ابتاعت الآخرة بالدنيا، بلا شرط ولا ثنيا، نفس تدرعت رهبانية القلق، ورعت الدجى إلى واضح الفلق، فما ظنك بنفس في وادي الحنادس سلكت، وهجرت اللذات فملكت، وإلى الآخرة نظرت، وإلى العينا أبصرت، وعن الذنوب أقصرت، وعلى النزر من القوت اقتصرت، ولجيوش الهوى قهرت، وفي ظلام الدياجي زهرت، فهي بقناع الشوق مختمرة، وإلى عزيزها في غلس الدجى مشمرة، قد نبذت المعايش، ورعت الحشايش، هذه نفس خدوم عملت ليوم القدوم، وكل ذلك بتوفيق الحيّ القيوم.

وصية ذي النون أخاه الكفل: قال له: يا أخي كن بالخير موصوفاً ولا تكن للخير وصافاً.

وصية نبوية: حدّثنا بها محمد بن قاسم بمدينة فاس قال: ثنا هبة الله بن مسعود ثنا محمد بن بركات ثنا محمد بن سلامة بن جعفر ثنا هبة الله بن إبراهيم الخولاني نبا علي بن الحسين ابن بندار ثنا إسماعيل بن أحمد بن أبي حازم حدثنا أبي ثنا عمرو بن هاشم ثنا سليمان بن أبي كريمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول

الله ﷺ: «**يا أبا هُرَيْرَةَ أَحْسِنْ مُجاوَرَةَ مَنْ جاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِماً، وَأَحْسِنْ مُصاحَبَةَ مَنْ صاحَبَكَ تَكُنْ مُؤْمِناً، وَاعْمَلْ بِفَرائِضِ الله تَكُنْ عابِداً، وَارْضَ بِقَسْمِ الله تَكُنْ زاهِداً**».

وصية محكمة في موعظة منظومة لأبي العتاهية: [الطويل]

ألا إنّ خَيْرَ الذُّخْرِ خَيْرٌ تُنِيلُهُ ... وشَرُّ كلام القائلين فُضُولُهُ
ألم تَرَ أن المرء في دار بُلْغَةٍ ... إلى غيرها والمَوْتُ فيها سَبِيلُهُ
وأيّ بلاغ يُكْتَفَى بكثيره ... إذا كان لا يكفيك منه قَلِيلُهُ
مضاجعُ سُكّان القبور مضاجع ... يفارق فيهن الخَلِيلَ خَلِيلُهُ
تَزَوَّدْ من الدنيا بزادٍ من التُّقَى ... فكُلٌّ بها ضَيْفٌ وَشِيكٌ رَحِيلُهُ
وخُذْ للمنايا لا أبا لك عُدَّةً ... فإن المنايا من أتت لا تُقِيلُهُ
وما حادثات الدهر إلاّ لغزة ... تَبُتُّ قواها أو لملك تُزِيلُهُ

ومن ذلك أيضاً ممّا ضمنه ديوانه: [الكامل]

عَيْبُ ابْنِ آدم ما عَلِمتُ كَثِيرُ ... ومجيئُه وذهابُهُ تَقْدِيرُ
غَرَّتْكَ نفسُكَ للحياة محبّة ... المَوْتُ حَقٌّ والبقاءُ يَسِيرُ
لا تَغْبِطِ الدُّنْيا فإن جميع ما ... فيها يسيرٌ لو علمت حَقِيرُ
يا سَاكِنَ الدّنيا ألم تَرَ زهرة الـ ... ـدنيا على الأيام كيف تَصِيرُ
سَلْ ما بدا لك أن تنال من الغِنَى ... إن أنت لم تَقْنَعْ فأنت فَقِيرُ
يا جَامِعَ المال الكثير لغيره ... إنّ الصَّغِيرَ من الذُّنُوبِ كَبِيرُ
هل في يَدَيْكَ من الحوادث قوّة ... أو هل عليك من المَنُون خَفِيرُ
ماذا تقول إذا رَحَلْتَ إلى البِلَى ... وإذا خلا بك مُنْكَرٌ ونَكِيرُ

وصية: قال بعضهم: سألت أستاذي من أحادث من الناس وإلى من أسكن؟ فقال: عليك بمحادثة من لا تكتمه ما يعلمه الله منك، واجعل للناس ظاهرك ولله باطنك وعاشرهم بالتي هي أحسن.

وصية: في حكاية عن بعض أهل الولاية قال بعض السياح: كنت جائزاً في بعض سياحاتي في أرض الشام إذ مررت بنهر يقال له نهر الذهب فرأيت في ظهر قرية من قرى ذلك النهر صومعة فيها راهب فناديته: يا راهب أجبني فلم يجبني، فناديته الثانية: يا راهب أجبني فلم يجبني، فناديته الثالثة: يا راهب أجبني أو قال: فناديت الثالثة يا رباني فاطلع فرآني فقال لي: ما حاجتك وما الذي تريد؟ فقلت له: عظة أو وصية أنتفع بها، فقال لي: أو تركت الدنيا؟ قلت: نعم، فقال لي: كل القوت والزم السكوت وعلل النفس فإنك تموت وذكرها الوقوف بين يدي الحيّ الذي لا يموت، ثم قال: [مجزوء الرمل]

لو قَنِعْنَا لكَفَانَا ... مِنْكِ يا دارُ اليَسِيرْ
أنْتِ نُعْماكِ قَلِيلٌ ... وبلاياكِ كَثِيرْ
وقُبُورٌ تتلاشى ... حيث لا تمشي القُبُورْ

يا مُبَهْرِجُ لا تُبَهْرِجْ إنما النَّاقد بَصِيرْ

قال: فتركته وبت ليلتي فلما أصبح عدت إليه وناديت: يا راهب زدني من تلك الحكمة، فقال لي: كل ممّا كسبته يمينك وعرق فيه جبينك فإن ضعف يقينك فسل ربك فإنه يغنيك، ثم قال: [المتقارب]

إذا اقْتَرَبَتْ ساعةٌ يا لها وزُلْزِلَتِ الأرْضُ زِلْزالَهَا
فلا بُدّ من سائلٍ قائلٍ من النّاس يومئذ ما لها
تُحَدِّثُ أخبارها رَبّها ورَبُّك لا شك أوْحَى لها
وتَنْفَطِرُ الأرضُ عن ساعةٍ تُشِيبُ الكهولَ وأطْفالَها
تَرَى الناسَ سَكْرى بلا قَهْوَةٍ ولكن ترى النَّفْسَ ما هالها
ترى النَّفْسَ ما قدمت محضراً ولو ذرةً كان مِثْقَالها
ذنوبي بلائي فما حيلتي إذا كنت في الحَشْرِ حَمَّالَها
يحاسبها ملكٌ قادرٌ فإما عليها وإمَّا لها

قال: فتركته وبت ليلتي، فلما أصبح عدت إليه وناديته: يا راهب زدني من تلك الحكمة، فقال لي: صلّ الفرض واذكر العرض ولا تطلب من أحد الصلة ولا القرض، ثم قال: [الطويل]

متى تَهْجُر الدُّنْيا وتَنْوي لها بُغْضَا وتَرْكُكَ للعصيان حَقّاً متى يُقْضَى
متى يا صَفِيقَ الوَجْهِ تَنْوي بتوبة وعُمْرُك للدنيا يُساقُ بها رَكْضَا
فلا بُدّ بعد الموت أن تَسْكُنَ البِلَى يَرُضُّكَ ثقلُ اللبن تحت الثَّرَى رَضًّا
وتُعْطَى كتاباً فيه كل فضيحةٍ وتَشْهَدُ أهْوالَ القيامة والعَرْضَا
فقُمْ في دَيَاجي اللّيْل لله طائعاً لعلَّ الذي أسْخَطْتَهُ لَعَسَى يَرْضَى

قال: فتركته وبتّ ليلتي، فلما أصبح عدت إليه وناديته: يا راهب زدني من تلك الحكمة، فقال لي: يا هذا شغلتني عن عبادة ربي فقمت إليه مودعاً فقال لي: كل الصبر والزم الفقر، ثم أنشد: [الوافر]

متى تُهْدَى إلى سُبُلِ الرَّشادِ إذا كُنْتَ المُصِرَّ على الفَسَادِ
نَهارَكَ لاعباً تَغْتَرُّ فيه ولَيْلَك لا تَملُّ من الرّقَادِ
فَدَعْ ظُلْمَ العباد فليس شيءٌ أضَرَّ عليك من ظُلْم العِبَادِ
وَهَيِّ الزَّادَ إنك ذو رحيلٍ على السَّفَر البعيد على انْفِرَادِ
تأهَّبْ لِلَّذي لا بدّ منه فإن المَوْتَ ميقاتُ العِبَادِ
يَسُرُّكَ أن تكون زَمِيلَ قَوْمٍ لهم زادٌ وأنت بغَيْر زَادِ

وروينا عن بعض علماء هذا الشأن من أهل الله الناصحين أنفسهم أنه قال: ينبغي لمن علم أن له مقاماً بين يدي الله عزّ وجلّ ليسأله عمّا أسلف في هذه الدار أن لا يؤثر القليل الحقير على الجزيل الكثير، ولا التواني والتقصير على الجد والتشمير، ولا سيما إذا كان ممّن

قد أيّده الله منه بإتقان العلم ولقح عقله بدلالات الفهم، أن لا يتحير في ظلمة الغفلة التي تحير فيها الجاهلون، والعجب كل العجب لأهل هذه الصفة كيف استوحشوا من طاعة الله وأنسوا بغيره وركنوا إلى الدنيا وتقلب حالاتها وكثرة آفاتها ولا زادتهم الدنيا إلاَّ هواناً ولا ازدادوا لها إلاَّ إكراماً، فما مستيقظ من وسنة يخلع وثيق الغل من عنقه ويهتك جلباب الران عن قلبه، وإن من أنصح النصحاء لك يا أخي من حملك من أمرك على المحجة وأمرك بالرحلة ولم يحسن لك سوف وأرجو ولعل ويكون فما رأيت هذه الخصال تورث صاحبها إلاَّ الخسارة والندامة، فكابدوا التسويف بالعزم وبادروا التفريط بالحزم فقد وضح لكم الطريق والله المستعان والمرشد والدليل.

وصية: سئل بعض أهل الله عن أعون ما يجده العبد على تسكين الشهوة فقال: الصيام بالنهار والقيام بالليل وحذف الشهوات والتغافل عنها وترك محادثة النفس يذكرها، فقيل له: فإن الرجل يصوم بالنهار ويقوم بالليل ولا يأكل الشهوات ويجد في نفسه حركة واضطراباً فقال له: ذلك من فرط فضل شهوة مقيمة فيه من الأول فليقطع أسباب المادّة منها جهده ويمسكها عن نفسه بالهموم والأحزان وتسكين سلطانها بذكر الموت وتقريب الأجل وقصر الأمل وما يشغل القلوب، اقطع عن نفسك الشهوات واستقبل مراقبة من هو عليك رقيب والمحافظة على طاعة من هو عليك حسيب، نسأل الله تعالىٰ التوفيق على بلاغ الطريق، والخروج من كل ضيق إنه قوي شفيق.

وصية في ذكرى: قال بعض العلماء: من وثق بالمقادير استراح ومن صحّح استراح، ومن تقرّب قرب، ومن صفّى صفّي له، ومن توكّل وثق، ومن تكلّف ما لا يعنيه ضيّع ما يعينه، وقيل لبعضهم: بم ينال العبد الجنة؟ فقال: بحسن استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله في السرّ والعلانية، وانتظار الموت بالتأهّب له، والمحاسبة لنفسك قبل أن تحاسب، كن عارفاً خائفاً ولا تكن عارفاً واصفاً، لا تكن خصماً لنفسك على ربك تستزيده في رزقك وجاهك، ولكن كن خصماً لربك على نفسك لا تجمع معك عليك ولا تلق أحداً بعين الازدراء والتصغير وإن كان مشركاً خوفاً من عاقبتك فلعلك تسلب المعرفة ويرزقها. وقال ذو النون: تعوّذوا بالله من النبطي، وقيل من القبطي إذا استغرب، وهذه وصية عجيبة مجربة قالها مجرب ولها حكاية. قال ذون النون المصري: رأيت في بربا بموضع يقال له دندره مكتوباً فيها: احذروا العبيد المعتقين والأحداث المتغربين والجند المتعبدين والقبط المستعربين، حدثنا بهذا يونس بن يحيى العباسي القصار تجاه الركن اليماني سنة تسع وتسعين وخمسمائة عن أبي بكر بن عبد الباقي عن أبي الفضل بن أحمد عن أحمد بن عبد الله عن محمد بن إبراهيم قال: سمعت عبد الحكيم بن أحمد بن سلام يقول: سمعت ذا النون يقول الحكاية.

وصية إلهية: حدثنا العماد عبد الله بن الحسن المعروف بابن النحاس قال: حدثني بدر الحزري قال: قال لي علي بن الخطاب الجزري بالجزيرة وكان من الصالحين رأيت الحق

في النوم فقال لي: يا ابن الخطاب تمن قال: فسكت، فقال لي: يا ابن الخطاب تمن قال: فسكت، قال ذلك ثلاثاً ثم قال لي في الرابعة: يا ابن الخطاب أعرض عليك ملكي وملكوتي وأقول لك تمن وتسكت، فقال: قلت يا رب إن نطقت فبك وإن تكلمت فبما تجريه على لساني فما الذي أقول؟ فقال: قل أنت بلسانك فقلت: يا رب قد شرفت أنبياءك بكتب أنزلتها عليهم فشرفني بحديث ليس بيني وبينك فيه واسطة، فقال: يا ابن الخطاب من أحسن إلى من أساء إليه فقد أخلص الله شكراً ومن أساء إلى من أحسن إليه فقد بدل نعمة الله كفراً، قال فقلت: يا رب زدني فقال: يا ابن الخطاب حسبك حسبك.

وصية: بل وصايا إلهية أصدق الوصايا وأنفعها ما ورد في القرآن العزيز من أوامر الحق عباده ونواهيه المنزل من حكيم حميد نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين، فلنذكر منها ما يسره الله على لسان مذكر بذلك القلوب الغافلة وتبركاً بكلام الله تعالىٰ وجلّ، فمن ذلك: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١] ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣] ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] وهنا سر لمن تفكر ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥] ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١] ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤١-٤٣] ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨] ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧] ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠] ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣] ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٨٣] ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ [ابقرة: ٨٤] ﴿آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٩١] ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ٩٣] ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤] ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ [البقرة: ١٠٩] ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠] ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥] ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٣٦] ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤] ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾

[البقرة: ١٤٨] ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠] ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨] ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: ١٦٨] ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٠] ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥] ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة: ١٨٦] ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧] ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ [البقرة: ١٨٨] ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا﴾ [البقرة: ١٩٥] ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦] ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧] ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] ﴿أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٩] ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣] ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة: ١٩١]﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١] ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١] ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٣-٢٢٤] ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩] ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ٢٣١] ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١] ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢] ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] ﴿لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥] ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ [البقرة: ٢٣٦] ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا

شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] ﴿أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧] ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ [البقرة: ٢٧٨] ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

واعلم أن الله تعالى قد ذكر في كتابه كل صفة يحمدها الله وكل صفة يذمّها الله وصية لنا وتعريفاً أن نجتنب ما ذمّ من ذلك، ونتصف بما حمد من ذلك، وقرّر على أمور وبخ بها عباده ونعت كل صاحب صفة بما هو عليه عند الله، فممّا حمد: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] والإيمان بما أنزل على الرسل عليهم السلام والإيقان بالآخرة وقال فيهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي على بيان وتوفيق حيث صدقوا ربهم فيما اخبرهم به مما هو غيب في حقهم﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] الناجون من عذاب الله الباقون في رحمة الله. وممّا ذمّه الكافر والمنافق فالكافر ذو الوجه الواحد الذي أظهر معاندة الله فسواء عليه أعلمه الحق أو لم يعلمه فإنه لا يؤمن بشيء من ذلك لا عقلاً ولا شرعاً، وأخبر أن الله تعالىٰ ختم على قلبه بخاتم الكفر فلا يدخله الإيمان مع علمه به وختم على سمع فهمه وهو الجاهل، فلم يعلم ما أراد الله بما قاله وعلى أبصار عقولهم غشاوة حيث نسبوا ما رأوه من الآيات إلى السحر، وقال في ذي الوجهين وهو المنافق أنه يقول: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٨] وبما جاء من عند الله وهو ليس كذلك وإنما يفعل ذلك خداعاً لله والذين آمنوا وجعل الفساد صلاحاً والصلاح فساداً، والإيمان سفهاً والمؤمنين سفهاء، ويأتي المؤمنين بوجه يرضيهم، ويأتي الكافرين بوجه يرضيهم، فأخبر الله أن هؤلاء هم ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦] وأنهم ﴿صُمٌّ﴾ [البقرة: ١٨] عن سماع ما ذكرهم الله به ﴿بُكْمٌ﴾ [البقرة: ١٨] عن الكلام بالحق ﴿عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨] عن النظر في آيات الله، وأنهم ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]. وممّا ذمّ الله ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧] وقرّر ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] ووبّخ ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] وممّا ذمّ من أعطاه الأنفس فطلب الأدون لقلة علمه ودناءة همته فقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ

﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] يشير إلى أن الصبر مع الله صعب ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ [البقرة: ٦١] وهو ما ذكروه ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١] وهو ما أنزل الله عليهم من المن والسلوى فأشار إلى دناءة همتهم بقوله: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١] لما نزلوا إلى الأدون من الأعلى قيل لهم﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ إنما هي أعمالكم ترد عليكم ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١] لأنهم هبطوا﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١] لأنهم لم يختاروا ما اختار الله لهم وكفروا بالأنبياء وبآيات الله وقتلوا الأنبياء بغير الحق وعصوا واعتدوا وممّا ذمّهم به القساوة فقال بعد تقرير ما أنعم الله به عليهم ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] وإنما كانت أشد قسوة ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] وأنتم ما عندكم في قلوبكم من هذا شيء يذمهم بذلك، وممّا ذمّ من يقول: ﴿مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦] وما يسول له شيطانه هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً من الجاه والرياسة عليهم وما يحصلوه من المال فأخبر الله تعالى أن لهم الويل من الله من أجل ذلك، هذا كله ذكره الله في كتابه لنا لنجتنب مثل هذه الصفات.

وممّا أوصى به عباده ممّا يحمده ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣] فمن يعمل بوصيته ووصف حاله على جهة الذمّ يسمعنا تعالىٰ ما جرى من عباده حتى لا نسلك مسلكهم الذي ذمّهم الله به فقال عقيب هذا القول: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣] ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]: كما قال في حقهم وحق أمثالهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠] وأخبر أن هؤلاء ﴿هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١] وقال: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥] فإنه أخبر عن هؤلاء أنهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦] كما اشتروا أولئك الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، كما اشتروا أمثالهم العذاب بالمغفرة، فتعجب الله من صبرهم على النار بقوله: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] فدلّ على أنهم عرفوا الحق وجحدوا مع اليقين، كما قال في حق من هذه صفته في النمل: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] أنها يعني الآيات براهين على صدقهم فيما أخبروا به عن الله ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وأي آية كانت للعرب معجزة مثل القرآن ولذلك قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ١٧٦] وقال في الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى من

بعد ما بيناه للناس في الكتاب ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] وأنه من سئل عن علم تعين عليه الجواب عنه وهو يعلمه فكتمه وهو ممّا أنزله الله ألجمه الله بلجام من نار ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ١٧٤] أي بكتمانهم لما حصلوه من المال والرياسة بذلك أن ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وأوصى عباده أيضاً فقال لهم: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧] فأخبر أن ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وأوصى ولي الدم أن يعفو ويخلي بين القاتل والمقتول يوم القيامة، وأخبر ﷺ أن حكم القاتل قوداً حكم القاتل اعتداء وهو قوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فقال في صاحب التسعة: أما إن قتله كان مثله فتركه ولم يقتله، فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف من ولي الدم وأداء إليه بإحسان من القاتل إلى ولي الدم ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ١٧٨] أي إن قتله بعد ذلك غدراً وقد رضي بالدية وبما عفا عنه منها ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] وذكر في حق من حضرته الوفاة أن يوصي ممّا له التصرف فيه من ماله وهو الثلث للأقربين وهم الذين لا حظ لهم في الميراث وللوالدين وهو مذهب ابن عباس حتى أنه يعصي عنده من لم يوص لوالديه عند الموت بالمعروف وهو أنه لا يتجاوز ثلث ماله وأخبر أنه ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] وأخبر أنه من بدّله بعد ما سمعه من الموصي أن إثمه على الذين يبدلونه من الأولياء والحكام. وأخبر عن الساعي بالصلح بين الموصي والموصى له أنه لا إثم عليه فهذه كلها وصايا إلهية منصوص عليها، ومنها أيضاً أخبر الحق أنه لا يتبع المتشابه من الكتاب ويتأوله على ما يعطيه نظره إلاَّ من في قلبه زيغ أي ميل عن الحق، وأخبر أنه ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] وأن ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] ومن جعله معطوفاً فيكون الراسخون في العلم من أعلمهم الله بتأويل من أراد بذلك، وأقام الله عذر عباده في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ [آل عمران: ١٤] الآيات. وأخبر عن ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٦-١٧] وهم ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٥] وأخبر سبحانه أن الذين ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١] أن لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ينجيهم من ذلك العذاب، ونهانا أن نتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين في نصرة دينه إلاَّ أن تتقوا منهم تقاة وأنه من فعل ذلك فليس من الله في شيء، وقد حذرنا الله نفسه وقاله ﷺ حين نهانا عن التفكر في ذات الله أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقال الله لنبيه أن يقول لنا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ

تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ [آل عمران: ٣١] وأخبر أنه من اتبع رسول الله فقال: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وصية إلهية: قال الله: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ فَمَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُو لِلَّذِي أَشْرَكَ**».

وصية إلهية: يقول الله عزّ وجلّ: «**إِنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَائِي عِنْدِي لَمُؤْمِنٌ خَفِيفُ الحَاذِ ذُو حَظٍّ مِنْ صَلاةٍ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ وَالعَلانِيَةِ وَكَانَ غَامِضاً فِي النَّاسِ لا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافاً فَصَبَرَ عَلَىٰ ذٰلِكَ**». ثم نقر رسول الله ﷺ عندما قال هذا الحديث عن ربه بيديه ثم قال: «**عُجِّلَتْ مَنِيَّتُهُ وَقَلَّتْ بَوَاكِيهِ وَقَلَّ تُرَاثُهُ**».

وصية في إصلاح ذات البين: قال أنس بن مالك: بينما رسول الله ﷺ جالساً إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: «**رَجُلانِ مِنْ أُمَّتِي جَثَيَا بَيْنَ يَدَي رَبِّ العِزَّةِ تَعَالَىٰ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يا رَبِّ خُذْ لِي بِمَظْلَمَتِي مِنْ أَخِي فَقَالَ: أَعْطِ أَخَاكَ مَظْلَمَتَهُ، قالَ: يا رَبِّ لَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ، قَالَ: يا رَبِّ فَلْيَحْمِلْ عَنِّي مِنْ أَوْزَارِي وفَاضَتْ عَيْنَا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال: إِنَّ ذلك لَيَوْمٌ عَظِيمٌ يَوْمَ يَحْتَاجُ النَّاسُ فِيهِ أَنْ يُحْمَلَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ، قالَ: فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلطَّالِبِ: ارْفَعْ رَأْسَكَ فَانْظُرْ إِلى الجِنَانِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: يا رَبِّ أَرَى مَدَائِنَ مِنْ فِضَّةٍ وَقُصُوراً مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ لِأَيِّ نَبِيٍّ هٰذا؟ لأَيِّ شَهِيدٍ هٰذا؟ قَالَ: هٰذا لِمَنْ أَعْطَانِي الثَّمَنَ، قال: يا رَبِّ وَمَنْ يَمْلِكُ ذٰلِكَ؟ قَالَ: أَنْتَ تَمْلِكُ، قَالَ: بِمَاذَا يا رَبِّ؟ قَالَ: بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ، قَالَ: يا رَبِّ قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ، ثُمَّ قَالَ رسولُ الله ﷺ: اتَّقُوا وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُصْلِحُ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ**».

وصايا إلهية من التوراة: روينا من حديث كعب الأحبار أنه قال: وجدت في التوراة اثنتي عشرة كلمة فكتبتها وعلقتها في عنقي أنظر فيها في كل يوم إعجاباً بها: يا ابن آدم إن رضيت بما قسمت لك أرحت قلبك وبدنك وأنت محمود، وإن لم ترض بما قسمت لك سلطت عليك الدنيا حتى تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم وعزتي وجلالي لا تنال منها إلاّ ما قدرت لك وأنت مذموم يا ابن آدم كل يريدك له وأنا أريدك لك، وأنت تفرّ مني يا ابن آدم ما تنصفني يا ابن آدم، خلقتك من تراب ثم من نطفة ولم يعييني خلقك أفيعييني رغيف أسوقه إليك في حين، يا ابن آدم إني وحقي لك محب فبحقي عليك كن لي محباً، يا ابن آدم خلقتك من أجلي وخلقت الأشياء من أجلك فلا تهتك ما خلقت من أجلي فيما خلقت من أجلك، يا ابن آدم كما لا أطالبك بعمل غد لا تطالبني برزق غد، يا ابن آدم لي عليك فريضة ولك عليّ رزق إن خنتني في فريضتي لم أخنك في رزقك على ما كان منك، يا ابن آدم لا تخافن فوت الرزق ما دامت خزانتي مملوءة وخزانتي مملوءة لا تنفد أبداً، يا ابن آدم لا تخافن من ذي سلطان ما دام سلطاني باقياً وسلطاني باق لا ينفد أبداً، يا ابن آدم لا تأمن مكري حتى تجوز على الصراط.

وصية خليلية في الوجل من الله تعالىٰ: لما قال الله تعالىٰ لإبراهيم الخليل عليه السلام: يا إبراهيم ما هذا الوجل الشديد الذي أراه منك؟ قال: فقال له إبراهيم: يا رب وكيف لا أوجل ولا أكون على وجل وآدم أبي كان محله في القرب منك خلقته بيديك ونفخت فيه من روحك وأمرت الملائكة بالسجود له فبمعصية واحدة أخرجته من جوارك، فأوحى إليه: يا إبراهيم أما علمت أن معصية الحبيب على الحبيب شديدة؟

وصية إلهية بما يحجب عن الله فعله: أوحى الله عزّ وجلّ إلى داود عليه السلام: «**يا دَاوُدُ حَذِّرْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْلَ الشَّهَوَاتِ فَإِنَّ الْقُلُوبَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالشَّهَوَاتِ مَحْجُوبَةٌ عَنِّي**».

وصية إلهية بذكر الله على كل حال: قال موسىٰ عليه السلام: أي رب أبعيد أنت فأناديك أم قريب فأناجيك؟ فقال الله تعالىٰ له: أنا جليس من ذكرني، من ذكرني فأنا معه، قال: فأي العمل أحب إليك يا رب؟ قال: تكثر ذكري على كل حال.

وصية إلهية بقيام الليل: يَقُولُ الله تَعَالَىٰ إذا نَزَلَ فِي الثُّلُثِ البَاقِي مِنَ اللَّيْلِ إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا: «**كَذَبَ مَنِ ادَّعَىٰ مَحَبَّتِي وَنَامَ عَنِّي، أَلَيْسَ كُلُّ مُحِبٍّ يَطْلُبُ الخَلْوَةَ بِحَبِيبِهِ أنا ذا مُطَّلِعٌ عَلَى أَحْبَابِي وَقَدْ مَثَلُونِي بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ وَخَاطَبُونِي عَلَى المُشَاهَدَةِ وَكَلَّمُونِي بِحُضُورِي غَداً أُقِرُّ أَعْيُنَهُمْ فِي جَنَّاتِي**».

وصايا بما كلم الله عزّ وجلّ بها نبيه موسىٰ عليه السلام وذكرى: يا موسىٰ ادن مني واعرف قدري فإني أنا الله، يا موسىٰ أتدري لم كلمتك من بين خلقي واصطفيتك برسالتي وبكلامي دون بني إسرائيل؟ قال لا يا رب، قال: لأني اطلعت على أسرار عبيدي فلم أر قلباً أصفى لمودتي من قلبك، قال موسىٰ: لم خلقتني يا رب ولم أك شيئاً؟ قال: أردت بك خيراً، قال رب منّ عليّ؟ قال: أسكنتك جنتي في جواري مع ملائكتي فتكون هناك منعماً مخلداً ملتذاً فرحاً مسروراً أبد الآبدين، فقال موسىٰ: يا رب فما الذي ينبغي لي أن أعمل؟ قال لا يزال لسانك يكون رطباً من ذكري وقلبك وجلاً من خشيتي وبدنك مشغولاً بخدمتي ولا تأمن مكري ولو ترى رجلك في الجنة، قال موسىٰ: يا رب فلم ابتليتني بفرعون؟ قال: إنما اصطنعتك لنفسي أخاطب بلسانك بني إسرائيل فأسمعهم كلامي وأعلمهم شريعة التوراة وسنّة الدين وطرائق الآخرة، من اتبعك منهم ومن غيرهم كائناً من كان يا موسىٰ، بلغ بني إسرائيل وقل لهم: إني لما خلقت السموات والأرض خلقت لهما أهلاً وسكاناً فأهل سمواتي هم الملائكة وخالص عبادي الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، يا موسىٰ بلّغ عني بني إسرائيل وقل لهم من قبل وصيتي وأوفى بعهدي ولم يعصني رقيته إلى رتبة ملائكتي وأحللته جنتي معهم وجازيتهم بأحسن ما كانوا يعملون، يا موسىٰ قل لبني إسرائيل عني أني لما خلقت الجنّ والإنس والحيوانات ألهمتهم مصالح الحياة الدنيا عرفتهم كيفية التصرّف فيها لطلب منافعها والهرب من مضارها كل ذلك لما جعلت لهم من السمع والبصر والفؤاد والتمييز والشعور أجمع، فهكذا ألهمت أنبيائي ورسلي والخواص من عبادي، وعرفتهم أمر المبدأ والمعاد والنشأة الأخرى وبينت لهم الطريق وكيفية الوصول إليها، يا موسىٰ قل لبني

إسرائيل يقبلون من الأنبياء وصيتي ويعملون بها واضمن عني لهم أني أكفيهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح الدنيا والآخرة جميعاً إذا أوفوا بعهدي أوف بعهدهم كائناً من كان من سائر بني آدم، وألحقتهم بأنبيائي وملائكتي في الدار الآخرة دار القرار، فقال موسىٰ: يا رب لو خلقتنا في الجنة وكفيتنا محن الدنيا ومصائبها وبلاياها أليس كان خيراً لنا؟ قال: يا موسىٰ قد فعلت بأبيكم آدم ما ذكرت ولكن لم يعرف حقها ولم يحفظ وصيتي ولم يوف بعهدي بل عصاني فأخرجته من الجنة فلما تاب وأتاب وعدته أن أردّه إليها وآليت على نفسي أن لا يدخلها أحد من ذريته إلاّ من قبل وصيتي وأوفى بعهدي ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] ولا يدخل جنتي المتكبرين لأني جعلتها للذين ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] يا موسى ادع إلي عبادي وذكرهم بآلائي فإنهم لا يذكرون شيئاً من ذلك إلاّ كان خيراً لهم سالفاً وآنفاً عاجلاً وآجلاً، يا موسىٰ الويل لمن تفوته جنتي ويا حسرة عليه وندامة حين لا ينفعانه، يا موسىٰ خلقت الجنة يوم خلقت السموات والأرض وزينتها بألوان المحاسن وجعلت نعيم أهلها وسرورهم روحاً وريحاناً فلو نظر أهل الدنيا إليها نظرة من بعيد لم تغنهم الحياة الدنيا بعدها، يا موسىٰ هي مذخورة لأوليائي وعبادي الصالحين تحيتهم يوم يلقونه سلام طوبى لهم وحسن مآب.

ومن الوصايا الإلهية: «**يا ابْنَ آدَمَ صَلِّ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ**» خرّجه النسائي. توبيخ إلهي يتضمن وصية يقول الله: «**يا ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هٰذِهِ حَتَّى إذا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ يَدَيْكَ وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ - يَعني صوتاً - ثُمَّ جَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إذا بَلَغَتِ التَّرَاقِي قُلْتَ أَتَصَدَّقُ وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ**».

وصية إلهية بإشفاق: يقول الله: «**يا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إن تَبْذُلِ الفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَإنْ تُمْسِكْهُ شَرٌّ لَكَ، وَلا تُلامُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَىٰ**».

وصية إلهية فيها لطف: حدّثني بها موسىٰ بن محمد القرطي بمكة والضيا عبد الوهاب بن سكينة ببغداد عند اجتماعي به برباطه قال: يقول الله: إذا أحدث عبدي ولم يتوضأ فقد جفاني وإذا توضأ ولم يصل فقد جفاني وإذا صلّى ولم يدعني فقد جفاني، وإذا دعاني ولم أجبه فقد جفوته ولست برب جاف ولست برب جاف ولست برب جاف.

وصية إلهية نافعة في طهارة الجوارح: يقول الله: يا أخا المرسلين ويا أخا المنذرين يعني سيدنا محمداً ﷺ وصية يبلغها إلينا عن ربه عزّ وجلّ أن لا تدخلوا بيتاً من بيوتي إلاّ بقلوب سليمة وألسن صادقة وأيدٍ نقية وفروج طاهرة، ولا تدخلوا بيتاً من بيوتي ولأحد من عبادي عند أحد منهم ظلامة فأي العبيد ما دام قائماً بين يدي يصلي فإني لا أقبل صلاته حتى يردّ تلك الظلامة إلى أهلها فإذا فعل فأكون سمعه الذي يسمع به وأكون بصره الذي يبصر به ويكون من أوليائي وأصفيائي ويكون جاري مع النبيين والصدّيقين والشهداء في الجنة.

وصية إلهية في توبيخ الواثب على الدنيا: قال الله تعالى: «**يا ابْنَ آدَمَ رَهَضَتْكَ الدُّنْيَا ثَلاثَ رَهضاتٍ: الفَقْرَ وَالمَرَضَ وَالمَوْتَ وَمَعَ ذٰلِكَ إنَّكَ لَوَثَّابٌ**».

وصية ملكية بالتواضع: أوحى الله إلى محمد ﷺ وعنده جبريل إن شئت نبياً عبداً وإن شئت نبياً ملكاً فنظر إلى جبريل فأومأ إليه جبريل أن تواضع قال: فقلت نبياً عبداً فلو قلت نبياً ملكاً لسارت معي الجبال ذهباً وفضة.

وصية إلهية بتعظيم الأولياء: يقول الله تعالىٰ: «**مَنْ أَهانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالمُحَارَبَةِ**». وفي رواية: فقد أذنته بحرب. وقال: أحب عبادة عندي النصيحة. وقال تعالىٰ: يا ابن آدم خيري إليك نازل وشرك إليّ صاعد وأنا أتحبب إليك بالنعم وأنت تتبغض إليّ بالمعاصي في كل يوم يأتيني ملك كريم بقبيح فعلك، يا ابن آدم ما تراقبني أما تعلم أنك بعيني، يا ابن آدم في خلواتك وعند حضور شهواتك اذكرني وسلني أن أنزعها من قلبك وأعصمك عن معصيتي وأبغضها إليك وأيسر لك طاعتي وأحببها إليك وأزين ذلك في عينك، يا ابن آدم إنما أمرتك ونهيتك لتستعين بي وتعتصم بحبلي لا أن تعصيني وتتولى عني وأعرض عنك أنا الغني عنك وأنت الفقير إليّ، إنما خلقت الدنيا وسخرتها لك لتستعد للقائي وتتزود منها لئلا تعرض عني وتخلد إلى الأرض. اعلم أن الدار الآخرة خير لك من الدنيا فلا تختر غير ما اخترت لك ولا تكره لقائي فإنه من كره لقائي كرهت لقاءه ومن أحب لقائي أحببت لقاءه.

وصية إلهية برغبة ورهبة رويناها: من حديث بن مسلمة بن وضاح من أهل قرطبة رحمه الله قال: «قال الله لبني إسرائيل رغبناكم في الآخرة فلم ترغبوا، وزهدناكم في الدنيا فلم تزهدوا، وخوّفناكم بالنار فلم تخافوا، وشوقناكم إلى الجنة فلم تشتاقوا، ونحنا عليكم فلم تبكوا بشر القتالين بأن الله سيفاً لا ينام وهو دار جهنم».

ومن وصايا العارفين بالله تعالىٰ: لا تبق بمودة من لا يحبك إلاَّ معصوماً من صحبك ووافقك على ما يحب وخالفك فيما يكره فإنما يصحب هواه ومن صحب هواه فإنما هو طالب راحة الدنيا، يا معشر المريدين من أراد منكم الطريق فليلق العلماء بالجهل والزهاد بالرغبة وأهل المعرفة بالصمت وأوصاني شيخي رحمه الله أول ما دخلت عليه قبل أن أرى وجهه فقال لي وقد قلت له أوصني قبل أن تراني فأحفظ عنك وصيتك فلا تنظر إليّ حتى ترى خلعتك علي، فقال رضي الله عنه، هذه همة شريفة عالية يا ولدي سدّ الباب واقطع الأسباب وجالس الوهاب يكلمك من غير حجاب، فعملت على هذه الوصية حتى رأيت بركتها، ودخلت عليه بعد ذلك فرأى خلعتها عليّ فقال: هكذا هكذا وإلاَّ فلا لا، ثم قال لي: امح ما كتبت وانس ما حفظت واجهل ما علمت وكن هكذا معه على كل حال لا تتحدث معه بما قد علمته فإن في ذلك تضييع الوقت، واطلب المزيد كما أمرك في قوله لنبيه ﷺ يأمره وأمته: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] اطلب الحاجة بلسان الفقر لا بلسان الحكم، يقول الله لأبي يزيد البسطامي تقرب إليّ بالذلة والافتقار، وقال له: اترك نفسك وتعال. أوحى الله تعالىٰ إلى موسىٰ عليه السلام: كن كالطير الوحداني يأكل من رؤوس الأشجار ويشرب من الماء القراح إذا جنه الليل آوى إلى كهف من الكهوف استئناساً بي واستيحاشاً ممّن عصاني، يا موسىٰ آليت

على نفسي أني لا أتم لمدبر من دوني عملاً، يا موسىٰ لأقطعن أمل كل مؤمل أمل غيري ولأقصمن ظهر من استند إلى سواي ولأطيلن وحشة من استأنس بغيري ولأعرضن عمّن أحب حبيباً سواي، يا موسىٰ إن لي عباداً إن ناجوني أصغيت إليهم، وإن نادوني أقبلت عليهم، وإن أقبلوا عليّ أدنيتهم، وإن دنوا مني قربتهم، وإن تقربوا مني اكتنفتهم، وإن والوني واليتهم، وإن صافوني صافيتهم، وإن عملوا لي جازيتهم، هم في حماي وبي يفتخرون، أنا مدبر أمورهم، وأنا سايس قلوبهم، وأنا متولي أحوالهم، لم أجعل لقلوبهم راحة في شيء إلاّ في ذكري، فذكري لأسقامهم شفاء، وعلى قلوبهم ضياء، لا يستأنسون إلاّ بي، ولا يحطون رحال قلوبهم إلاّ عندي، ولا يستقر بهم القرار في الإيواء إلاّ إلي.

حكي في زمان النبوّة الأولى أن بعض من يوحى إليه من المتقدمين فكر في أمر التكليف والبلوى ولم يتجه له وجه الحكمة في ذلك وقد أمره الله بالتفكّر في عبادته فأخذ يناجي ربه في خلوته بسرّه ولسانه فقال: يا رب خلقتني ولم تستأمرني ثم تميتني ولا تستشيرني وأمرتني ونهيتني ولم تخيرني وسلطت عليّ هوىً مردياً وشيطاناً مغوياً وركبت في نفسي شهوات مركوزة وجعلت بين عيني دنيا مزينة ثم خوفتني وزجرتني بوعيد وتهديد وقلت: استقم كما أمرت ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيلي، واحذر الشيطان أن يقربك والدنيا لا تغرّنك، وتجنب شهواتك لا ترديك، وآمالك وأمانيك لا تلهيك، وأوصيك بأبناء جنسك فدارهم ومعيشتك فاطلبها من وجه حلال، فإنك مسؤول عنها إن لم تطلبها، ومسؤول عنها إن طلبتها من غير وجهها، ولا تنس الآخرة كما لم تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض ولا تعرض عن الآخرة فتخسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين، فقد حصلت يا رب بين أمور متضادة وقوى متجاذبة وأحوال متقابلة، فلا أدري كيف أعمل ولا أهتدي أي شيء أصنع، وقد تحيرت في أموري وضللت عن حيلتي، فأدركني يا رب وخذ بيدي ودلني على سبيل نجاتي وإلاّ هلكت، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا عبدي ما أمرتك بشيء تعاونني فيه ولا نهيتك عن شيء كان يضرني إن فعلته، بل إنما أمرتك لتعلم أن لك رباً وإلهاً هو خالقك ورازقك ومعبودك ومنشيك وحافظك وصاحبك وناصرك ومعينك، ولتعلم بأنك محتاج في جميع ما أمرتك إلى معاونتي وتوبتي وهدايتي وتيسيري وعنايتي، ولتعلم أيضاً بأنك محتاج في جميع ما نهيتك عنه إلى عصمتي وحفظي ورعايتي، وأنك إليّ محتاج في جميع تصرفاتك وأحوالك في جميع أوقاتك من أمور دنياك وآخرتك ليلاً ونهاراً، وأنه لا يخفى عليّ من أمورك صغير ولا كبير سرّاً وعلانية، وليتبين لك وتعرف أنك مفتقر ومحتاج إليّ ولا بدّ لك مني، فعند ذلك لا تعرض عني ولا تتشاغل عني ولا تنساني ولا تشتغل بغيري، بل تكون في دائم الأوقات في ذكري، وفي جميع أحوالك وجميع حوائجك تسألني، وفي جميع تصرفاتك تخاطبني، وفي جميع خلواتك تناجيني، وتشاهدني وتراقبني، وتكون منقطعاً إليّ من جميع خلقي ومتصلاً بي دونهم، وتعلم أني معك حيث ما تكن أراك وإن لم ترني، فإذا أردت هذه كلها وتيقنت وبان لك حقيقة ما قلت وصحة ما وصفت تركت

كل شيء وراك، واتصلت إليّ وحدك، فعند ذلك أقربك مني وأوصلك لي وأرفعك عندي وتكون من أوليائي وأصفيائي وأهل جنتي في جواري مع ملائكتي مكرّماً مفضلاً مسروراً فرحاً منعماً ملذذاً آمناً مبقى سرمداً أبداً دائماً. فلا تظن بي يا عبدي ظن السوء ولا تتوهم على غير ما يقتضيه كرمي وجودي، واذكر سالف إنعامي عليك وقديم إحساني إليك وجميل آلائي لديك، إذ خلقتك ولم تك شيئاً مذكوراً خلقاً سوياً، وجعلت لك سمعاً لطيفاً وبصراً حاداً وحواس دراكة وقلباً ذكياً وفهماً ثاقباً وذهناً صافياً وفكراً لطيفاً ولساناً فصيحاً وعقلاً رصيناً، وبنية تامة وصورة حسنة وأعضاء صحيحة وأدوات كاملة وجوارح طائعة، ثم ألهمتك الكلام والمقال، وعرفتك المنافع والمضار، وكيفية التصرّف في الأفعال والصنائع والأعمال، وكشفت الحجب عن بصرك، وفتحت عينيك لتنظر إلى ملكوتي، وترى مجاري الليل والنهار والأفلاك الدوارة والكواكب السيارة، وعلمتك حساب الأوقات والأزمان والشهور والأعوام والأيام، وسخرت لك ما في البر والبحر من المعادن والنبات والحيوان تتصرف فيها تصرف الملاك وتتحكم فيها تحكم الأرباب، فلما رأيتك متعدياً جائراً باغياً خائناً طاغياً متجاوزاً الحد والمقدار، عرفتك الحدود والأحكام والقياس والمقدار والإنصاف والحق والصواب والخير والمعروف والسيرة العادلة ليدوم لك الفضل والنعم ويصرف عنك العذاب والنقم، وعرضتك لما هو خير لك وأفضل وأشرف وأعز وأكرم وألذ وأنعم، ثم أنت تظن بي ظنون السوء وتتوهم على غير الحق. يا عبدي إذا تعذر عليك فعل شيء مما أمرتك به فقل: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم كما قالت حملة العرش لما ثقل عليهم حمله، وإذا أصابتك مصيبة فقل: إنا لله وإنا إليه راجعون كما يقول أهل صفوتي ومودتي، وإذا زلت بك القدم في معصيتي فقل ما قال صفيي آدم وزوجته: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وإذا أشكل عليك أمر وأهمك رأي أو أردت رشداً وقولاً صواباً فقل كما قال خليلي إبراهيم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء]. وإذا أصابتك مصيبة فقل كما أعلمتك فيما أنزله عليك من قول يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦] وإذا جرت منك خطيئة فقل كما قال موسى عليه السلام: ﴿هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥] وإذا صرفت عنك معصية فقل كما قال يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣] وإذا ابتلاك الله ببلية فافعل ما ذكر الله عن داود عليه السلام: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] وإذا رأيت العصاة من خلق الله والخاطئين من عباده ولم تدر ما حكم الله فيهم فقل كما قال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ

ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وإذا استغفرت الله وطلبت عفوه فقل كما قال ويقول محمد ﷺ وأنصاره: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وإذا خفت عواقب الأمور ولم تدر ماذا يختم لك فقل كما يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٨ ـ ٩].

وصية في موعظة: دخل محمد بن واسع على بلال بن أبي بردة في يوم حار وبلال في جيشة وعنده الثلج فقال بلال: يا أبا عبد الله كيف ترى بيتنا هذا؟ قال: إن بيتك لطيب والجنة أطيب منه وذكر النار يلهي عنه قال: ما تقول في القدر؟ قال: جيرانك أهل القبور ففكر فيهم فإن فيهم شغلاً عن القدر، قال: ادع لي، قال: وما تصنع بدعائي وعلى بابك كذا وكذا كل يقول إنك ظلمته يرتفع دعاؤهم قبل دعائي لا تظلم ولا تحتاج إلى دعائي.

ومن كلام الحسن البصري: ما لي أرى رجلاً ولا أرى عقولاً أرى أناساً ولا أرى أنيساً دخلوا ثم خرجوا عرفوا ثم أنكروا. ومن كلامه أيضاً رضي الله عنه: عجباً لقوم أمروا بالزاد ونودي فيهم بالرحيل وحبس أولاهم على أخراهم وهم قعود يلعبون، يا ابن آدم السكين تحد والتنور يسجر والكبش يعلق كفى بالتجارب تأديباً وبتقلب الأيام عظة وبذكر الموت زاجراً عن المعصية، ذهبت الدنيا بحال بالها وبقيت الأيام قلائد في الأعناق، إنكم تسوقون الناس والناس تسوقكم وقد أسرع بخياركم فماذا تنتظرون؟ أتنتظرون المعاينة فكان قد.

ومن كلام عمر بن عبد العزيز: إن لكل سفر زاداً لا محالة، فتزوّدوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى وكونوا كمن عاين ما أعدّ الله من ثوابه وعقابه وترغبوا وترهبوا ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم، فوالله ما يبسط أملاً من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذاك خطفات المنايا، فكم رأيتم ورأينا من كان بالدنيا مغتراً وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله، وإنما يفرح من آمن من الأهوال يوم القيامة فأما من لا يداوي كلماً إلاَّ أصابه جرح من ناحية أخرى نعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي، لقد عنيتم بأمر لو عنت به النجوم لانكدرت، ولو عنيت به الجبال لذابت، ولو عنيت به الأرض لتشققت، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وأنكم صائرون إلى إحداهما.

ومن وصاياه في مواعظه رضي الله عنه: إن الله عزّ وجلّ لم يخلقكم عبثاً ولم يدع شيئاً من أموركم سدى إن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم والقضاء بينكم فخاب وخسر من خرج من رحمة الله عزّ وجلّ، وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض، فاشترى قليلاً بكثر وفانياً بباق وخوفاً بأمن، ألا تروا أنكم في أسلاب الهالكين وسيخلفها بعدكم الباقون كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين، في كل يوم وليلة تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله تعالى قد قضى نحبه وانقضى أجله حتى تقبره في صدع من الأرض في بطن صدع ثم تدعوه غير ممهد ولا موسد،

قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وسكن التراب وواجه الحساب، مرتهناً بعمله فقيراً إلى ما قدم غنياً عمّا ترك، فاتقوا الله قبل نزول الموت، وأيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب ما أعلم عندي، وما يبلغني عن أحد منكم حاجة إلاً أحببت أن أسدّ من حاجته ما قدرت عليه، وما يبلغني أن أحداً منكم لا يسعه ما عندي إلاً وددت أن يمكنني تغييره حتى يستوي عيشنا وعيشه، وأيم الله لو أردت غير ذلك من الغضارة والعيش لكان اللسان مني به ذلولاً عالماً بأسبابه، ولكن سبق من الله كتاب ناطق وسنّة عادلة دلّ فيها على طاعته ونهى فيها عن معصيته، ثم وضع طرف ردائه على وجهه وشهق وبكى الناس.

وصية: وعليك بالاقتداء برسول الله ﷺ في أحواله وأقواله وأفعاله إلاً ما نص عليه أنه مختص به ممّا لا يجوز لنا أن نفعله أو خاطب به أحداً من الناس أن يفعله ونهى غيره عن ذلك. بزق رجل في النيل بحضور ذي النون المصري فقال: تعست يا بغيض تبزق على نعمة الله وكان ذو النون في ذلك الوقت في مشاهدة النعم الإلهية التي أحوجنا إليها فلذلك حكم عليه حاله فنطق بما نطق به. كان شيخنا أبو مدين وقع بينه وبين أبي الحسن بن الدقاق وكان ابن الدقاق ممّن يغشاه ويحضر مجلسه فانقطع عن حضور مجلسه لأجل ذلك فاستدعاه الشيخ أبو مدين وقال له: يا أبا الحسن ما شأنك انقطعت؟ إن شيطاني خاصم شيطانك ونحن على ودّنا كما كنا ما تغيرنا ولا ندخل أنفسنا بينهما فتذكر أبو الحسن وقبل وصية الشيخ واستغفر الله ورجع إلى حضور مجلسه.

وصية بمكاتبة: اعتل رجل من إخوان ذي النون فكتب إليه أن يدعو له فكتب إليه ذو النون: سألتني أن أدعو الله لك أن يزيل عنك النعم. واعلم يا أخي أن العلة مجزاة يأنس بها أهل الصفاء والهمم والضياء في الحياة ذكرك للشفاء ومن لم يعد البلاء نعمة فليس من الحكماء ومن لم يأمن الشفيق على نفسه فقد أمن أهل التهمة على أمره فليكن معك يا أخي حياء يمنعك عن الشكوى والسلام: وقال بعضهم: كتبت إليّ تسألني عن حالي فما عسيت أن أخبرك به حال وأنا من بين خلال موجعات أبكاني منهن أربع: حب عيني للنظر ولساني للفضول وقلبي للرياسة وإجابتي إبليس عدوّ لله فيما يكره الله. وأقلقني منها عين لا تبكي من الذنوب المنتنة وقلب لا يخشع عند نزول الموعظة وعقل وهن فهمه في محبة الدنيا ومعرفة كلما قلبتها وجدتني بالله أجهل وأضناني منها أني عدمت خير خصال الإيمان الحياء وعدمت خير زاد الآخرة التقوى، وفنيت أيامي بمحبة الدنيا وتضييعي قلباً لا أقتني مثله أبداً ووادعه إنسان، فقال له: قل لأبي يزيد إلى متى النوم والراحة وقد جازت القافلة؟ فقال أبو يزيد: قل لأخي ذي النون الرجل من ينام الليل كله ثم يصبح في المنزل قبل القافلة، فقال ذو النون: هنيئاً له هذا كلام لا تبلغه أحوالنا، وكان العلماء يكتب بعضهم إلى بعض بثلاث: من أحسن سريرته أحسن الله علانيته، ومن أصلح آخرته أصلح الله له أمر دنياه، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس.

وكتب رجل إلى عالم: ما الذي أكسبك علمك من ربك وما أفادك في نفسك ودينك؟

فكتب إليه العالم: أثبت العلم الحجة وقطع عمود الشك والشبهة وشغلت أيام عمري بطلبه ولم أدرك منه ما فاتني، فكتب إليه الرجل: العلم نور لصاحبه ودليل على حظه ووسيلة إلى درجات السعداء، فكتب إليه العالم: أبليت إليه في طلبه جد الشباب فأدركني حين علمت الضعف عن العمل به ولو اقتصرت منه على القليل كان لي فيه مرشد إلى السبيل، كان شيخنا أبو عبد الله المجاهد وشيخنا تلميذه أبو عبد الله بن قشوم نائبه في التدريس والإمامة لا يبرح الورق والمداد والقلم معهما يكتبان كل يوم ما قدر لهما من العلم رغبة أن يحشرا غداً عند الله من طلاب العلم.

وصية: دخل رجل على عبد الملك بن مروان ممّن كان يوصف بالفضل والأدب فقال له عبد الملك بن مروان تكلم قال: بما أتكلم وقد علمت أن كل كلام يتكلم به المتكلم وبال عليه إلاّ ما كان لله، فبكى عبد الملك ثم قال: يرحمك الله لم يزل الناس يتواعظون ويتواصون، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إن للناس في القيامة جولة لا ينجو من غصص مرارتها ومعاينة الردى فيها إلاّ من أرضى الله بسخط نفسه، قال: فبكى عبد الملك ثم قال: لا جرم والله لأجعلن هذه الكلمات مثالاً نصب عيني ما عشت أبداً.

وصية مشفق ناصح عند أمير صالح: لما قدم عمر بن هبيرة العراق والياً أرسل إلى الحسن والشعبي فأمر لهما ببيت فكانا فيه شهراً أو نحوه، ثم أن الخصي غدا عليهما ذات يوم فقال: إن الأمير داخل عليكما فجاء عمر متوكئاً على عصا له فسلم ثم جلس معظماً لهما فقال: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إليّ كتباً أعرف أن في إنفاذها الهلك فإن أطعته عصيت وإن عصيته أطعت الله فهل تريا لي في متابعتي إياه فرجاً؟ فقال الحسن للشعبي: يا أبا عمرو أحب الأمير فتكلم الشعبي بكلام يريد به إبقاء وجه عنده فقال ابن هبيرة: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ فقال: أيها الأمير قد قال الشعبي ما قد سمعت قال: ما تقول أنت؟ قال: أقول يا عمرو بن هبيرة يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالىٰ فظ غليظ لا يعصي الله ما أمره فيخرجك من قصرك إلى ضيق قبرك، يا عمرو بن هبيرة إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك ولن يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله إن أطعته وعصيت الله، يا عمرو بن هبيرة لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك فيغلق باب المغفرة دونك، يا عمرو بن هبيرة لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمة كانوا عن الدنيا وهي مقبلة أشدّ إدباراً من إقبالكم عليها وهي مدبرة، يا عمرو بن هبيرة إني أخوّفك مقاماً خوفكه الله فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤] يا عمرو بن هبيرة إن تكن مع الله في طاعته كفاك يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله وكلك الله إليه، فبكى عمرو بن هبيرة وقام بعبرته، فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما فأكثر جائزة الحسن وأنقص جائزة الشعبي فخرج الشعبي إلى المسجد فقال: أيها الناس من استطاع منكم أن يؤثر الله على خلقه فليفعل فو الذي نفسي بيده ما علم الحسن منه شيئاً فجهلته ولكني أردت وجه ابن هبيرة فأقصاني الله منه. قلت: وكتبت إلى عزّ الدين

كيكاوس سلطان بلاد الروم جواب كتاب كتب به إليّ من أنطالية وكنت مقيماً بملطية: [الطويل]

كَتَبْتُ كتابي والدُّمُوعُ تَسِيلُ ... وما لي إلى ما أرْتَضِيهِ سَبيلُ
أريدُ أرى دينَ النبيّ مُحَمَّدٍ ... يُقامُ ودِينَ المُبْطِلِينَ يَزُولُ
فلم أرَ إلاّ الزُّورَ يَعْلُو وأهْلَهُ ... يَعزُّونَ والدّين القويم ذليلُ
فيا عزّ دين الله سَمْعاً لناصحٍ ... شَفِيقٍ فنصاح الملوك قليلُ
وحاذرْ بتأييد الإله بطانةً ... تشيرُ بأمْرٍ ما عليه دليلُ
ليَنْمَى بيتُ المال والبيتُ ساقطٌ ... فجُدْ وتوكَّلْ فالإلهُ كَفِيلُ

وصية بمراقبة الألفاظ المسموعة: بلغني أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة أخذ أقطاع أمير كبير كان أقطعه إياها سليمان بن عبد الملك والوليد بن عبد الملك فلما مات عمر بن عبد العزيز وولي يزيد بن عبد الملك جاء الأمير إليه فقال له: إن أخاك سليمان أمير المؤمنين والوليد أقطعاني شيئاً قطعه عني أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فأريد منك أن ترده علي، فقال: لا أفعل، قال: ولم؟ قال: لأن الحق في ما فعل عمر بن عبد العزيز، قال: وبم ذلك؟ قال: لأن أخوي أحسنا إليك وذكرتهما وما دعوت لهما وعمر بن عبد العزيز أساء إليك وذكرته فترضيت عنه فعلمت أن عمر آثر الله على هواه فيك، وأن سليمان بن عبد الملك والوليد آثرا هواهما على حق الله فوالله لا رأيته مني أبداً. وهذا من أحسن ما يحكى من التفاتات ولاة الأمور.

وصية في موعظة: قال سعيد بن سليمان: كنت بمكة وإلى جانبي عبد الله بن عبد العزيز العمري وقد حجّ هارون الرشيد فقال له إنسان: يا أبا عبد الله هوذا أمير المؤمنين يسعى وقد أخلي له المسعى، قال العمري للرجل: لا جزاك الله عني خيراً كلفتني أمراً كنت عنه غنياً ثم قام فتبعته فأقبل هارون الرشيد من المروة يريد الصفا فصاح به: يا هارون. فلما نظر إليه قال: لبيك يا عمري، قال: ارق الصفا لما رقيته قال: ارم بطرفك إلى البيت، قال هارون: قد فعلت، قال: كم هم؟ قال: ومن يحصيهم؟ قال: فكم في الناس مثلهم؟ قال: خلق لا يحصيهم إلاّ الله، قال: اعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه وأنت وحدك تسأل عنهم كلهم فانظر كيف تكون، قال: فبكى هارون وجلس وجعل يعطونه منديلاً منديلاً للدموع، فقال العمري: وأخرى أقولها، قال: قل يا عم والله إن الرجل ليسرع في ماله فيستحق الحجر عليه فكيف بمن أسرع في مال المسلمين؟ ثم مضى وهارون يبكي، قال البغوي: فبلغني أن هارون الرشيد كان يقول: إني لأحب أن أحجّ كل سنة ما يمنعني إلاّ رجل من ولد عمر يسمعني ما أكره.

وصية نبوية في موعظة إلهية: قال رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ الله تَعالَىٰ: يا ابْنَ آدَمَ كُلُّ يَوْم نَرْزُقُكَ وَأَنْتَ تَحزَنُ وَيَنْقُصُ كُلَّ يَوْم مِنْ عُمرِكَ وَأَنْتَ تَفْرَحُ أنت فِيما يَكْفِيكَ وَتَطْلُبُ مَا يُطْغِيكَ لا بِقَلِيل تَقْنَعُ وَلا بِكَثِيرِ تَشْبَعُ**».

وصية: حجّ أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور فبينما هو يطوف بالبيت ليلاً إذ سمع قائلاً

يقول: اللهمّ إنا نشكوا إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع، فخرج المنصور فجلس ناحية من المسجد ثم أرسل إلى الرجل فصلّى ركعتين ثم استلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة فقال له المنصور: ما الذي سمعتك تذكر؟ قال: إن أمنتني يا أمير المؤمنين أعلمتك بالأمور من أصولها وإلاّ اقتصرت على نفسي ففيها لي شغل شاغل، قال: فأنت آمن على نفسك، فقال: يا أمير المؤمنين إن الله استرعاك أمر عباده وأموالهم فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وأبواباً من الحديد وحراساً معهم سلاح ثم سجنت نفسك منهم وبعثت عمالك في جباية الأموال وجمعها وأمرت أن لا يدخل عليك من الناس إلاّ فلان وفلان ولم تأمر بإيصال المظلوم والملهوف إليك ولا أحد إلاّ وله في هذا المال حق، فلما رآك النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يحجبوا دونك تجني الأموال وتجمعها قالوا: هذا خان الله فما لنا لا نخونه فأتمروا ألا يصل إليك من علم أخبار الناس إلاّ ما أحبوه، ولا يخرج لك عامل إلاّ خونوه عندك وعابوه حتى تسقط منزلته عندك، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم، وكان أوّل من صانعهم عاملك بالهدايا والأموال ليبقوا بذلك عمالك على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والأموال من رعيتك ليصلوا إلى ظلم من دونهم فامتلأت بلاد الله بغياً وفساداً وصار هؤلاء القوم شركاءك وأنت غافل، فإن جاء متظلم حيل بينك وبينه، وإن أراد رفع قضيته إليك وجدك قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك المتظلم وبلغ بطانتك خيره سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث ويدفعه فإذا جهد وخرج ظهر لك وصرخ بين يديك فضرب ضرباً مبرحاً يكون نكالاً لغيره وأنت تنظر فلا تنكر فما بقاء الإسلام على هذا، قال: فبكى المنصور بكاء شديداً وقال: ويحك كيف أحتال لنفسي؟ قال: يا أمير المؤمنين إن للناس أعلاماً يفزعون إليهم في دينهم ويرضون بهم في دنياهم وهم العلماء وأهل الديانة فاجعلهم بطانتك يرشدوك وشاورهم يسددوك، فقال: قد بعثت إليهم فهربوا مني، فقال: خافوا أن تحملهم على طريقتك ولكن افتح بابك وسهّل حجابك وانصر المظلوم واقمع الظالم وخذ الفيء والصدقات على وجوهها وأنا ضامن عنهم أنهم يأتونك ويساعدونك على صلاح الأمة، ثم أذن بالصلاة فقام يصلي وعاد إلى مجلسه ثم طلب الرجل فلم يجده.

وصايا نبوية: رويناها من حديث الهاشمي يبلغ بها النبي ﷺ أنه قال: «**أَيُّهَا النَّاسُ أَقبلُوا عَلَى ما كُلِّفْتُمُوهُ مِنْ إِصْلاحِ آخِرَتِكُمْ وَأَعْرِضُوا عَمَّا ضمنَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ وَلا تَسْتَعْمِلُوا جَوَارِحَ غُذِيَتْ بِنِعْمَتِهِ فِي التَّعَرُّضِ لِسَخَطِهِ بِمَعْصِيَتِهِ وَاجْعَلُوا شُغْلَكُمُ الْتِمَاسَ مَغْفِرَتِهِ وَاصْرِفُوا هِمَمَكُمْ إِلى التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ إِنَّهُ مَنْ بَدَأَ بِنَصِيبِهِ مِنَ الدُّنْيَا فَاتَهُ نَصِيبُهُ مِنَ الآخِرَةِ وَلاَ يُدْرِكُ مِنْهَا ما يُرِيدُ، وَمَنْ بَدَأَ بِنَصِيبِهِ مِنَ الآخِرَةِ وَصَلَ إِلَيْهِ نَصِيبُهُ مِنَ الدُّنْيَا وَأَدْرَكَ مِنَ الآخِرَةِ ما يُرِيدُ**».

وصية منظومة من ذي علم في الاعتذار: [الوافر]

إذا اعْـتَـذَرَ الـصَّـديـقُ إلـيـك يَـوْمـاً ... مـن الـتَّـقْـصِـيـرِ عُـذْرَ أخٍ مُـقِـرِّ
فـصُـنْـهُ عـن عـتـابـك واعْـفُ عـنـه ... فـإن الـعَـفْـوَ شـيـمـةُ كـل حُـرِّ

وصايا إلهية: يقول الله تعالىٰ: يا ابن آدم إذا ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني، أنفق أنفق عليك أنا مع عبدي إذا ذكرني وتحرّكت بي شفتاه لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين، إن خافني في الدنيا لم يخف في الآخرة وإن أمنني في الدنيا لم يأمن في الآخرة، أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي، أنا عند ظنّ عبدي بي وأنا معه إذا دعاني، يقول الله لأهون أهل النار عذاباً لو أن لك ما في الأرض من غنى كنت تفتدي به؟ قال: نعم، قال: فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلاّ الشرك، الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما أدخلته النار إن هذا دين ارتضيته لنفسي لا يصلحه إلاّ السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه، يا موسى: إنك لن تتقرب إليّ بشيء أحب إليّ من الرضى بقضائي، ولن تعمل عملاً أحفظ لحسناتك من النظر في أمورك، يا موسىٰ: لا تتضرّع إلى أهل الدنيا فأسخط عليك ولا تجد بدينك لدنيا فأغلق أبواب رحمتي، يا موسىٰ: قل للؤمنين التائبين أبشروا وقل للمؤمنين المخبتين اجتنبوا وأحسنوا، أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، من رجا غيري لم يعرفني ومن لم يعرفني لم يعبدني ومن لم يعبدني فقد استوجب سخطي ومن خاف غيري حلّت به نقمتي، يا موسىٰ: خف ثلاثة: خفني وخف نفسك وخف من لا يخافني. يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان ولا أبالي. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي. يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة، إذا قال العبد: بسم الله الرحمن الرحيم، يقول الله: ذكرني عبدي، وإذا قال: الحمد لله رب العالمين، يقول الله: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، يقول الله: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: ملك يوم الدين، يقول الله: مجدني عبدي وفوّض إليّ عبدي، وإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، يقول الله: هذه بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، وإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، يقول الله: هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال آمين، يقول الله: قد أجبت. الإخلاص سرّ من أسراري استودعته قلب من أحببت من عبادي، إذا أخذت كريمتي عبدي في الدنيا يعني عينيه لم يكن له جزاء عندي إلاّ الجنة.

قال رسول الله ﷺ: «**يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْمِلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ وَيَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ**»، يقول الله: أبي يفترون أم عليّ يجترئون فبي حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيران، قال رسول الله ﷺ: يجاء يوم القيامة بابن آدم كأنه بدج فيوقف بين يدي الله تعالىٰ فيقول الله أعطيتك وخوّلتك وأنعمت عليك فماذا صنعت؟ فيقول: جمعته وثمرته وتركته أكثر ما كان

فارجعني، فيقول: أرني ما قدمت فيقول: يا رب جمعته وثمرته وتركته أكثر ما كان فارجعني آتك به، فإذا عبد لم يقدّم خيراً فيمضى به إلى النار. يا ابن آدم تفرّغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسدّ فقرك، وإن لا تفعل أملأ يديك شغلاً ولم أسد فقرك. يا ابن آدم لو رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت في طول ما ترجو من أملك وقصرت من حرصك وحيلك وابتغيت الزيادة من عملك وإنما تلقى الندم لو قد زلّت بك القدم وأسلمك الأهل والحشم وانصرف عنك الحبيب وأسلمك القريب فلا أنت إلى أهلك عائد ولا في عملك زائد فاعمل ليوم القيامة يوم الحسرة والندامة. وقال الله: إنما أتقبل الصلاة ممّن تواضع بها لعظمتي ولم يستطل على خلقي ولم يبت مصراً على معصيتي، وقطع نهاره في ذكري، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ورحم المصاب، ذلك نوره كنور الشمس أكلؤه بعزّتي وأستحفظه ملائكتي، أجعل له في الظلمة نوراً وفي الجهالة علماً، ومثله في خلقي كمثل الفردوس في الجنة. يا موسىٰ إني أعلمك خمس كلمات هن عماد الدين ما لم تعلم أن قد زال ملكي فلا تترك طاعتي، وما لم تعلم أن خزائني نفدت فلا تهتم برزقك، وما لم تعلم أن عدوّك قد مات فلا تأمن فاجئته ولا تدع محاربته، وما لم تعلم أني قد غفرت لك فلا تعب المذنبي، وما لم تدخل جنتي فلا تأمن مكري. قال رسول الله ﷺ: قال موسىٰ: يا رب علمني شيئاً أذكرك به وأدعك به، قال: يا موسىٰ قال لا إله إلاّ الله، قال موسىٰ: يا رب كل عبادك يقول هذا، قال قل: لا إله إلاّ الله، قال: لا إله إلاّ أنت إنما أريد شيئاً تخصني به، قال: يا موسىٰ لو أن السموات السبع وعمارهن والأرضين السبع في كفة ولا إلا إلاّ الله في كفة مالت بهن لا إله إلاّ الله، يقول الله لمحمد ﷺ: يا محمد أما يرضيك أنه لا يصلي عليك أحد إلاّ صليت عليه عشراً ولا يسلم عليك أحد إلاّ سلمت عليه عشراً. وقال الله: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، وللمتجالسين فيّ، والمتباذلين فيّ، والمتزاورين فيّ يقول الله عزّ وجلّ، يا دنيا اخدمي من خدمني وأتعبي يا دنيا من خدمك. وقال الله إن عبداً أصححت له جسمه ووسعت عليه في المعيشة تمضي عليه خمسة أيام لا يفرّ إليّ لمحروم.

وقال رسول الله ﷺ «**إن الله سيخلص رجلاً من أمّتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ثم يقول له أتنكر من هذا شيئاً أظلمتك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: فلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندي حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول: أحضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم قال: فيوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء**».

وقال رسول الله ﷺ: «**يُوقَفُونَ ـ يعني الملائكة ـ بَيْنَ يَدَي الله وَيَشْهَدُونَ ـ يَعْنِي لِلْعَبْدِ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ المُخْلِصِ للّهِ ـ فيقولُ الله لَهُمْ: أَنْتُمُ الحَفَظَةُ عَلَى عَمَلِ عَبْدِي وَأَنا الرَّقِيبُ عَلَى ما فِي قَلْبِهِ إنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي بِهٰذا العَمَلِ وَأَرادَ بِهِ غَيْرِي فَعَلَيْهِ لَعْنَتِي**». وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله**

إذَا كَانَ يَوْمُ القِيامَةِ يَنْزِلُ إلى العِبادِ لِيَقْضِي بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جاثِيَةٌ فَأَوَّلُ مَنْ يُدْعَى بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ القُرْآنَ وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله وَرَجُلٌ كَثِيرُ المَالِ فَيَقُولُ الله لِلْقَارِىء: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ ما أَنْزَلْتُهُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فماذا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قال: كنتُ أقومُ به آناءَ اللَّيلِ وَآناءَ النَّهارِ فَيَقُولُ الله لَهُ: كَذَبْتَ وتقولُ الملائكةُ له كذبتَ، ويقولُ الله: إنما قرأتَ لِيقالَ فلانٌ قارىءٌ فقد قيلَ ذلكَ. وَيُؤتى بصاحبِ المَالِ فيقولُ الله لَهُ: أَلَمْ أُوسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدعْكَ تَحْتَاجُ إلى أحدٍ؟ قال: بَلَى يا ربِّ، قالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قالَ كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ فيقولُ الله لَهُ: كذبت، وتقولُ له الملائكة: كذبتَ، ويقول الله لَهُ: بل أردت أن يقالَ فلانٌ جَوَادٌ فَقِيلَ ذلكَ. وَيُؤتى بالَّذِي قُتِلَ في سبيلِ الله فيقولُ الله: فيماذا قُتِلْتَ؟ فيقولُ: أُمِرْتُ بالجهادِ في سبيلك فقاتلتُ حتى قُتِلْتُ، فيقول الله له: كذبتَ، وتقول له الملائكةُ: كذبتَ، ويقولُ الله له: بل أردتَ أن يقالَ فلان جَرِيءٌ فقد قِيلَ ذلك. ثم ضَرَبَ رسول الله ﷺ على ركبة أبي هريرة وقال: يا أبا هريرة أولئكَ الثلاثةُ أوّلَ مَنْ تُسعَّرُ بهمُ النارُ يومَ القيامة» فكان أبو هريرة إذا حدّث بهذاالحديث يغشى عليه. يقول الله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]: [الرمل]

كم تَمَنَّيْتُ فأحْسَنْتُ المَقَالْ ... وفعلتُ الخَيْرَ جَهْراً لِيُقَالْ
فإذا واسَيْتُ يوماً سائلاً ... أطْلُبُ الشُّكرَ عليها لِيُقَالْ
وإذا قَاتَلْتُ يوماً كافراً ... أطْلُبُ الذِّكْرَ عليه لِيُقالْ
وإذا ما صُمْتُ يوماً صائفاً ... أشتكي الجُوعَ عَشِيّاً ليقالْ
وإذا صليتُ والناسُ معي ... أتَأنَّى في صلاتي ليقالْ
وأنا في خُلْوَتي أنْقُرُها ... حيث لا أخْشَى عليها أن يقالْ
عَمَلي عُجْبٌ وصُنْعٌ وريَا ... يا لها من عَثَرَاتٍ لا تُقَالْ
فاهْجُروني واطْرُدُوني عنكمُ ... إن أحمالي وأوزاري ثِقَالْ
نسأَلُ الله تعالىٰ توبة ... خالص الصدق له لا ليقالْ

وصية اعتبار لأحد الأبرار: بلغني أن عمر بن عبد العزيز شيع جنازة فلما انصرفوا تأخر عمر وأصحابه ناحية عن الجنازة فقال له بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين جنازة أنت وليّها تأخرت عنها وتركتها فقال: نعم ناداني القبر من خلفي يا عمر بن عبد العزيز ألا تسألني ما صنعت بالأحبة؟ قلت: بلى، قال: حرقت الأكفان ومزقت الأبدان ومصصت الدم وأكلت اللحم، قال، ألا تسألني ما صنعت بالأوصال؟ قلت بلى قال: نزعت الكفين من الذراعين والذراعين من العضدين والعضدين من الكتفين والوركين من الفخذين والفخذين من الركبتين والركبتين من الساقين والساقين من القدمين ثم بكا عمر ثم قال: ألا إن الدنيا بقاؤها قليل وعزيزها ذليل وغنيها فقير وشابها يهرم وحيّها يموت فلا يغرّنكم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدبارها، فالمغرور من اغترّ بها، أين سكانها الذين بنوا مدائنها وشققوا أنهارها وغرسوا أشجارها وأقاموا فيها أياماً يسيرة غرتهم بصحتهم فاغتروا وبنشاطهم فركبوا المعاصي، إنهم

كانو والله في الدنيا مغبوطين بالأموال على كثرة المنع عليه محسودين على جمعه، ماذا صنع التراب بأبدانهم والرمل بأجسادهم والديدان بعظامهم وأوصالهم؟ كانوا في الدنيا على أسرة ممهدة وفرش منضودة بين خدم يخدمون وأهل يكرمون وجيران يعضدون، فإذا مررت فنادهم إن كنت منادياً ومرّ بعسكرهم وانظر إلى تقارب منازلهم واسأل غنيهم ما بقي من غناه واسأل فقيرهم ما بقي من فقره، واسألهم عن الألسن التي كانوا بها يتكلمون وعن الأعين التي كانوا بها ينظرون، واسألهم عن الجلود الرقيقة والوجوه الحسنة والأجساد الناعمة ما صنع بها الديدان؟ محت الألوان وأكلت اللحمان وعفرت الوجوه ومحت المحاسن وكسرت الفقار وأبانت الأعضاء ومزقت الأشلاء، وأين حجابهم وقبابهم وأين خدمهم وعبيدهم وجمعهم ومكنونهم؟ والله ما فرشوا فراشاً ولا وضعوا هناك متكأ ولا غرسوا لهم شجراً ولا أنزلوهم من اللحد قراراً، أليسوا في منازل الخلوات والفلوات؟ أليس الليل والنهار عليهم سواء؟ أليس هم في مدلهمة ظلماء؟ قد حيل بينهم وبين العمل وفارقوا الأحبة، فكم من ناعم وناعمة أصبحوا ووجوههم بالية، وأجساد لهم من أعناقهم نائية، وأوصالهم متمزقة، وقد سألت الحدقات على الوجنات وامتلأت الأفواه دماً وصديداً، ودّبت دواب الأرض في أجسادهم ففرقت أعضاءهم، ثم لم يلبثوا والله إلاّ يسيراً حتى عادت العظام رميماً قد فارقوا الحدائق وصاروا بعد السعة إلى المضائق، قد تزوّجت نساؤهم وترددت في الطرق أبناؤهم، وتوزعت الورثة ديارهم وتراثهم، فمنهم والله الموسع له في قبره الغض الناضر فيه المتنعم بلذته، يا ساكن القبر غداً ما الذي غرّك من الدنيا هل تعلم أنك تبقى أو تبقى لك، أين دارك الفيحا ونهرك المطرد؟ وأين ثمرتك المحاضرة ينعها؟ وأين رقاق ثيابك؟ وأين طيبك؟ وأين بخورك؟ وأين كسوتك لصيفك وشتائك؟ أما رأيته قد نزل به الأمر فما يدفع عن نفسه دخلاً وهو يرشح عرقاً ويتلمظ عطشاً يتقلب في سكرات الموت وغمراته، جاء الأمر من السماء وجاء غالب القدر والقضاء، جاء من الأمر الأجل ما لا يمتنع منه، هيهات يا مغمض الوالد والأخ والولد وغاسله، يا مكفن الميت وحامله، يا مخليه في القبر وراجعاً عنه، ليت شعري كيف كنت على خشونة الثرى؟ ليت شعري بأي خديك تبدى البلى؟ وأي عينيك إذن سالا؟ يا مجاور الهلكات صرت في محل الموتى، ليت شعري ما الذي يلقاني به ملك الموت عند خروجي من الدنيا وما يأتيني به من رسالة ربي؟ ثم تمثل: [الطويل]

تُسَرُّ بما يَفْنَى وتُشْغَلُ بالمُنَى ... كما اغْتَرَّ باللَّذات في النوم حالمُ
نهارُك يا مَغْرُورُ سهو وغَفْلَةٌ ... ولَيْلُكَ نومٌ والرَّدَى لك لازمُ
وتعمل شيئاً سوف تكرهُ غِبَّهُ ... كذلك في الدنيا تعيش البهائمُ

ثم انصرف فما بقي بعد ذلك إلاّ جمعة، ومات رضي الله عنه. ومن نظمنا في ذلك: [الرمل]

شَابَ فؤادي وشَبَّ الأمَلُ ... ومَضَى العُمْرُ وجاء الأجَلُ
عَسْكَرُ المَوْتَى لنا منتظرٌ ... فإذا صِرْنا إليهم رَحَلوا

لـيت شِعْـري لـيت شِعْـري هـل دَرَوْا — أنَّــنـي بــعــدهــم مــشــتــغــلُ
فــي فـنـون الـلَّـهْـو أفْـنَـى طَـرَبـاً — غــافــلٌ عــمــا لــه أنْــتَـقِــلُ

ولنا في هذا المعنى أيضاً: [الكامل]

ضــمّــتْ لــنــا آرامُــنــا الآرامــا — فـكـأنَّ ذاك الـعـيـش كـان مَـنَـامَـا
يـا واقـفـيـن عـلـى الـقُـبُـورِ تَـعَـجَّـبُـوا — مـن قـائـمـيـن كـيـف صـاروا نِـيَـامَـا
تـحـت الـتـراب مُـوَسّـدِيـن أكُـفّـهـم — قـد عـايـنـوا الـحـسـنـات والأجْـرَامـا
لا يُـوقَـظُـون فـيـخـبـرون بـمـا رَأوْا — لا بـدّ مـن يـوم تـكـون قـيـامَـا

ورأيت على قبر أبياتاً وهي على لسان صاحبه: [الخفيف]

أيــهــا الــنــاسُ كــان لــي أمــلُ — قَــصَّــرَ بــي عــن بــلــوغــه الأجَــلُ
فــلْــيَــتَّــقِ الله رَبَّــهُ رَجُــلٌ — أمْـكَـنَـهُ فـي حـيـاتـه الـعَـمَـلُ
مـا أنـا وحـدي نُـقِـلْـتُ حـيـث تَـرَوْا — كُـلٌّ إلـى مـثـلـه سَـيَـنْـتَـقِـلْ

ورأيت أيضاً مكتوباً على قبر: [الرجز]

يَــا مَــنْ بــدُنْــيَــاهُ اشْــتَــغَــلْ — وغَــــرَّهُ طُــــولُ الأمَـــلْ
ولَــمْ يَــزَلْ فــي غَــفْــلَــةٍ — حَــتَّــى دَنَــا مــنــه الأجَــلْ
الــمَــوْتُ يــأتــي بَــغْــتَــةً — والــقَــبْــرُ صُــنْــدُوقُ الــعَــمَــلْ

ورأيت مكتوباً على قبر أم ابن البسيلي وكان ابنها من أصدقائي وقد علاه وشيّده وأنفق على بنائه مالاً كثيراً، فكتب شخص من أصحابنا أبياتاً عليه لبعضهم يخبر عن صورة الحال وهي: [الوافر]

أرى أهْــلَ الــقُــصُــور إذا تُــوُفُّــوا — بَـنَـوْا تـلـك الـمـقـابـر بـالـصُّـخُـور
أبَــوْا إلاَّ مــبــاهــاةً وفَــخْــراً — عـلـى الـفـقـراء حـتـى فـي الـقُـبُـور
فـإن يَـكُـنِ الـتَّـفَـاضُـلُ فـي ذُراهـا — فـإن الـعَـدْلَ مـنـهـا فـي الـقُـعُـور
لَـعَـمْـرُ أبِـيـهِـمُ لـو أبـرزوهـم — لـمـا عـلـمـوا الـغَـنِـيَّ مـن الـفَـقـيـر
ولا عـرفـوا الـعَـبـيـدَ مـن الـمَـوَالـي — ولا عـرفـوا الإنـاث مـن الـذُّكُـور
ولا الـبَـدَنَ الـمُـلـبَّـسَ ثَـوْبَ صُـوفٍ — ولا الـبَـدَنَ الـمُـنَـعَّـمَ فـي الـحَـرِيـر
إذا مــات هــذا ثُــمَّ هــذا — فـمـا فَـضْـلُ الـغَـنِـيِّ عـلـى الـفَـقِـيـر

وكان على قبر مكتوباً بمدينة سلا منقطع التراب بيتان على لسان صاحب القبر: [مجزوء الكامل]

ولــقــد نَــظَــرْتَ كــمــا نَــظَــرْتُ — ولــقــد نَــظَــرْتُ فــمــا اعْــتَــبَــرْتُ
فــانْــظُــرْ لــنــفــسـك سَــيِّــدي — قـبـل الـحـصـول كـمـا حَـصَـلْـتُ

وصية سنية من ذي همة علية: [البسيط]

لا تَـضْـرَعَـنَّ لـمـخـلُـوقٍ عـلـى طـمَـعٍ — فـإن ذاك مُـضِـرٌّ مـنـك بـالـدِّيـنِ
واسْـتَـرْزِقِ الـلَّـهَ رزقـاً مـن خـزائـنـه — فـإنـمـا هـو بَـيْـنَ الـكـاف والـنُّـونِ

وفي هذا المعنى قال أبو حازم الأعرج لعض الخلفاء وقد سأله الخليفة: ما بالك يا أبا حازم؟ فقال: الرضى عن الله والغنى عن الناس: [البسيط]

للناس مالٌ ولي مالان ما لهما إذا يُحارِسُ أهلَ المال حُرَّاسُ
مالي الرِّضَى بالذي أصبحتُ أملكُهُ وما لي اليأسُ مما يملكُ الناسُ

قال له خاله هشام بن عبد الملك لما ولي البحرين: ما طعامك يا أبا حازم؟ قال: الخبز والزيت، قال: أفلا تسأمهما؟ قال: إذا سأمتهما تركتهما حتى أشتهيتهما.

وصية: إلهية مذكرة ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]: [الطويل]

وما هذه الأيامُ إلاَّ مُعَارة فما استطعت من مَعْرُوفِهِ فتَزَوَّدِ
فإنك لا تَدْري بأية بَلْدَةٍ تموتُ ولا ما يُحْدِثُ الله في غَدِ
يقولون لا تَبعُدْ ومن يَكُ بُعْدُهُ ذراعَينِ من قُرْبِ الأحبَّةِ يَبْعُدِ

وصية من امرأة من ولد حسان بن ثابت: [الطويل]

سَلِ الخَيْرَ أهْلَ الخَيْرِ قُدْماً ولا تَسَلْ فَتَى ذَاقَ طَعْمَ العَيْشِ منذ قُرِيبِ

وصية مجنون عاقل قالها عند خليفة غافل: حجّ هارون الرشيد راجلاً من أجل يمينه حين حنث فقعد يستريح في ظلّ ميل فمرّ به بهلول المجنون وكان في الركب فقال له: يا أمير المؤمنين: [مجزوء الوافر]

هَبِ الدُّنْيَا تُوَاتِيكَا أليس الموتُ يأتِيكَا
ألا يا طالب الدنيا دَع الدُّنيا لشَانيكا
إلى كم تطلب الدنيا وظَلُّ الميل يكفيكا

وصية حكيم في صفة الحميم: قيل لخالد بن صفوان: أيّ الإخوان أحبّ إليك؟ قال: الذي يغفر زلتي ويسدّ خلتي ويقيل علتي. وكتب رجل إلى صديق له: إني وجدت المودة منقطعة ما كانت الحشمة منبسطة وليس يزيل سلطان الحشمة إلاَّ المؤانسة، ولا تقع المؤانسة إلاَّ بالبرّ والملاطفة. بتنا ليلة عند أبي الحسين بن أبي عمرو بن الطفيل بإشبيلية سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وكان كثيراً ما يحتشمني ويلتزم الأدب بحضوري، وبات معنا أبو القاسم الخطيب وأبو بكر بن سام وأبو الحكم بن السراج وكلهم قد منعهم احترام جانبي الإنبساط ولزموا الأدب والسكون، فأردت أعمل الحيلة في مباسطتهم فسألني صاحب المنزل أن يقف على شيء من كلامنا فوجدت طريقاً إلى ما كان في نفسي من مباسطتهم فقلت له: عليك من تصانيفنا بكتاب سميناه الإرشاد في خرق الأدب المعتاد فإن شئت عرضت عليك فصلاً من فصوله فقال لي: أشتهي ذلك، فمددت رجلي في حجره وقلت له: كبسني ففهم عني ما قصدت وفهمت الجماعة فانبسطوا وزال ما كان بهم من الانقباض والوحشة وبتنا بأنعم ليلة في مباسطة دينية. إفصاح بغالب الأحوال ممّن يعدّ من الأبدال: قال الحسن البصري: ما أعطى رجل شيئاً من الدنيا إلاَّ قيل له خذه ومثله من الحرص. وقال: أشدّ الناس صراخاً يوم القيامة

رجل سنّ ضلالة فاتبع عليها، ورجل سيىء الملكة، ورجل فارغ استعان بنعم الله على معاصيه.

وصية: يا وليّ راقب إيمانك وأضف إلى حسن صورته زينة العلم فإذا زينته به ظهر بصورة لم يكن عليها من الحسن، فإذا أعجبك فأضف إليه زينة العمل بالعلم فتزيد حسناً إلى حسن، فإذا تعشقت بصورة العمل لما ترى من حسنها ربما أدّاك ذلك إلى أن تحمل النفس فوق طاقتها فزيّن العمل بالرفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، وقد قيل: ما أضيف شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم، وإذا سبّك إنسان فانظر فيما سبّك به فإن كان ما سبّك به صفة فيك فلا تلمه فما قال إلاّ حقاً وَلِمْ نفسك وأزل عنها تلك الصفة المذمومة واشكره على ما ظهر منه فلقد بالغ في نصحك وإن لم يقصده ولكن الله أنطقه فارع له ذلك، وإن سبّك بما ليس فيك فخذ ذلك منه تذكرة وتحذيراً يحذرك بما ذكره أن تذكره لئلا تتصف به فيما تستقبله من زمانك فقد نصحك على كل حال فإن صدق فيما قال فقل: غفر الله لي ولك وللمسلمين، وإن كذب فيما قال فقل: غفر الله لك فلقد نبهتني على أمر ربما لولا تنبيهك وقعت فيه وأنشده: [الطويل]

هَنِيئاً مَرِيئاً غيرَ داءٍ مُخامِرٍ لِعَزَّةَ من أعراضِنا ما اسْتَحَلَّتِ

كانت لي كلمة مسموعة عند بعض الملوك وهو الملك الظاهر صاحب مدينة حلب رحمه الله غازي ابن الملك الناصر لدين الله صلاح الدين يوسف بن أيوب فرفعت إليه من حوائج الناس في مجلس واحد مائة وثمان عشرة حاجة فقضاها كلها وكان منها أين كلمته في رجل أظهر سرّه وقدح في ملكه وكان من جملة بطانته وعزم على قتله وأوصى به نائبه في القلعة بدر الدين أي دمور أن يخفي أمره حتى لا يصل إلي حديثه فوصلني حديثه فلما كلمته في شأنه طرق وقال: حتى أعرف المولى ذنب هذا المذكور وأنه من الذنوب الذي لا تتجاوز الملوك عن مثله فقلت له: يا هذا تخيلت أن لك همة الملوك وأنك سلطان والله ما أعلم أن في العالم ذنباً يقاوم عفوي وأنا واحد من رعيتك، وكيف يقاوم ذنب رجل عفوك في غير حدّ من حدود الله إنك لدنيّ الهمة، فخجل وسرّحه وعفا عنه وقال لي: جزاك الله خيراً من جليس مثلك من يجالس الملوك، وبعد ذلك المجلس ما رفعت إليه حاجة إلاّ سارع في قضائها لفوره من غير توقف كانت ما كانت.

يا وليّي احبس نفسك عن القليل من الذمّ تأمن كثيره فإن النفس فيها لجاجة، إذا نوزعت صدعت وإذا سكت عنها انقمعت. قال الأحنف ابن قيس في هذا المعنى: من لم يصبر على كلمة أسمع كلمات وربّ غيظ قد تجرّعته مخافة ما هو أشدّ منه. يا وليّي والله ما عاقبت أحداً يجب عليّ أدبه في حال غضبي فإذا ذهبت عني حالة الغضب والغيظ ورأيت المصلحة له في الأدب أدّبته، وأما ما يرجع إليّ فأعفو عنه عن طيب نفس وعدم إقامة على دغل وحقد وأبذل جهدي في إيصال خير إليه، وأسارع إلى قضاء حوائجه، وما أدري أني أقرضت أحداً قرضاً وفي نفسي أني أطلبه منه فلا أطلبه وإن جاء به وأرى حاجتي إليه آخذه منه ولا أعلمه، وإن

علمت أنه ضيق على نفسه فيه أنظرته إلى ميسرة، هذا فيما يختص بنفسي، وحكم العيال حكم الجار الأقرب له حق يطلبه أنا مأمور بإيصاله إليه إذا قدرت عليه. يا وليّي أعلم أن الحاكم لا بدّ إذا أرضى أحد الخصمين أن يسخط الآخر وأنت حاكم والخصمان في مجلس قلبك الملك والشيطان فأرض الملك وأسخط الشيطان فإنه يقول للإنسان: اكفر فإذا كفر قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

واعلم أن الدين أقوى منه وأحصن والعدل أقوى عدة يتخذها الحاكم لقتال من يسخطه من الخصمين فإنه يقاتل هواه فيه ولا سيما إن كان المبطل حميمه وصاحبه، وإذا أردت أن لا تخاف أحداً فلا تخف أحداً تأمن من كل شيء إذا أمن منك كل شيء. مررت في سفري في زمان جاهليتي ومعي والدي وأنا ما بين قرمونة وبلمة من بلاد الأندلس وإذا بقطيع حمر وحش ترعى وكنت مولعاً بصيدها وكان غلماني على بعد مني ففكرت في نفسي وجعلت في قلبي أني لا أوذي واحداً منها بصيد وعندما أبصرها الحصان الذي أنا راكبه هشّ إليها فمسكته عنها ورمحي بيدي إلى أن وصلت إليها ودخلت بينها وربما مرّ سنان الرمح بأسنمة بعضها وهي في المرعى فوالله ما رفعت رؤوسها حتى جزتها ثم أعقبني الغلمان ففرّت الحمر أمامهم وما علمت سبب ذلك إلى أن رجعت إلى هذا الطريق أعني طريق الله فحينئذٍ علمت من نظري في المعاملة ما كان السبب وهو ما ذكرناه فسرى الأمان في نفوسهم الذي كان في نفسي لهم، فكف عن ظلمك واعدل في حكمك ينصرك الحق ويطيعك الخلق وتصفو لك النعم وترتفع عنك التهم، فيطيب عيشك ويسكن جأشك، وملكت القلوب وأمنت محاربة الأعداء وأخفى ودّك في نفسه من أظهر لك العداوة في حسّه لحسد قام به، فهو حبيب في صورة بغيض.

ومن منشور الحكم والوصايا: قال بعضهم: العدل ميزان الباري ولذلك هو مبرّأ من كل زيغ وميل. وقال بعضهم في وصية ملك إذا حسنت سيرته وصلحت سريرته صيّر رعيته جنداً، وإن أوّل العدل أن يبدأ الرجل بنفسه فيلزمها كل خلة زكية وخصلة رضية في مذهب سديد ومكسب حميد، ليسلم عاجلاً ويسعد آجلاً، وإن أوّل الجور أن يعمد إليها فيجنبها الخير ويعوّدها الشرّ، ويكسبها الآثام ويلبسها المذام، ليعظم وزرها ويقبح ذكرها. وقال بعضهم: من بدأ بنفسه فساسها أدرك سياسة الناس، أصلحوا أنفسكم تصلح لكم آخرتكم، أصلح نفسك لنفسك تكن الناس تبعاً لك، أحسن العظات ما بدأت به نفسك وأجريت عليه أمرك، من رضي عن نفسه سخط الناس عليه، من ظلم نفسه كان لغيره أظلم، ومن هدم دينه كان لمجده أهدم، خير الآداب ما حصل لك ثمره وظهر عليك أثره، ومن تعزّز بالله لم يذلّه سلطان، ومن توكل عليه لم يضرّه شيطان، ليكن مرجعك إلى الحق ومنزعك إلى الصدق فالحق أقوى معين والصدق أفضل قرين، ومن لم يرحم الناس منعه الله من رحمته، ومن استطال بسلطانه سلبه الله من قدرته، إن العدل ميزان الله وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزانه ولا تعارضه في سلطانه، استغن عن الناس بخلتين: قلة الطمع وشدّة الورع، من طال كلامه سئم ومن قلّ احترامه شتم.

ودخلت على بعض الصالحين بسبتة على بحر الرقاق وكان قد جرى بيني وبين السلطان من الكلام ما يوجب وحرّ الصدر ويضع من القدر فوصل إليه الخبر فلما أبصرني قال لي: يا أخي ذل من ليس له ظالم يعضده، وضلّ من ليس له عالم يرشده، يا أخي الرفق الرفق، فقلت له: ما دام رأس المال محفوظاً أعني الدين، فقال: صدقت وسكت عني. لا تحاج من يذهلك خوفه ويملكك سيفه فرب حجة تأتي على مهجة وقرصة تؤدي إلى غصة وإياك واللجاج فإنه يوغر القلوب وينتج الحروب. عيّ تسلم به خير من نطق تندم عليه. واقتصر من الكلام بما يقيم حجتك ويملكك حاجتك، وإياك وفضوله فإنه يزل القدم ويورث الندم، عيّ يزري بك خير من براعة تأتي عليك.

وصية نبوية: قال رسول الله ﷺ لرجل يوصيه: «**أَقْلِلْ مِنَ الشَّهَوَاتِ يَسْهُلْ عَلَيكَ الفَقْرُ، وَأَقْلِلْ مِنَ الذُّنُوبِ يَسْهُلْ عَلَيكَ المَوْتُ، وَقَدِّمْ مَالَكَ أَمَامَكَ يَسُرَّكَ اللحاقُ بِهِ، واقنعْ بما أوتِيتَهُ يَخِفّ عليكَ الحسابُ، ولا تتشاغلْ عمّا فُرِضَ عليكَ بما قد ضُمِنَ لك إنه ليس بفائتكَ ما قُسِمَ لكَ، ولستَ بِلاحِقٍ ما زُوِيَ عَنكَ، وَلا تَكُ جَاهِداً فيما يصبحُ نافذاً وَاسْعَ لملكٍ لا زوالَ لهُ في منزلٍ لا انتقالَ عنه**».

ومن الوصايا النبوية أيضاً: قال رسول الله ﷺ: «**ما سَكَنَ حبُّ الدنيا قلبَ عبد إلاّ التاطَ منها بثلاث: شُغْلٍ لا ينفكُّ عناهُ، وَفَقْرٍ لا يُدْرَكُ غناه، وَأَملٍ لا ينال منتهاه، إنَّ الدنيا والآخِرَة طالبتانِ ومطلوبتان، فطالبُ الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكملَ رزقه، وطالبُ الدنيا تطلبه الآخرةُ حتى يأخذَ الموتُ بعنقه، ألا وإنَّ السعيدَ من اختارَ باقيةً يدومُ نعيمها على فانيةٍ لا يَنْفَدُ عذابها، وَقَدِّمْ لما يقدم عليه فيما هو الآن في يديه قبلَ أن يخلفه لمن يسعدُ بإنفاقهِ وَقَدْ شَقِيَ هُوَ بجمعِهِ واحتكارِهِ**».

ومنها أيضاً: قال رسول الله ﷺ: «**كأنّ الموتَ على غيرنا كُتِبَ وَكَأَنَّ الحَقَّ فيها على غيرنا وجَبَ، وَكَأَنَّ الذين نُشَيِّعُ مِنَ الأمواتِ سَفْرٌ، عمّا قليل إلينا راجعون، نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَاثَهُمْ ونأكلُ تراثهم كأنّا مُخَلَّدُونَ بعدهم، نَسِينا كلَّ واعظةٍ وأَمِنَّا كلَّ جائحة، طُوبَى لمن شغلهُ عَيْبُهُ عن عيوبِ النَّاسِ، طُوبَى لمن أنفقَ مالاً اكتسبهُ من غير مَعْصِيَةٍ، وجالسَ أهلَ الفقه والحكمة وخَالطَ أهلَ الذلّة والمسكنة، طُوبَى لمن ذلّتْ نفسُهُ وحسنت خليقتهُ وطابت سريرتهُ وَعَزَلَ عن الناسِ شَرّهُ، طُوبَى لمن أنفقَ الفَضْلَ مِن مالهِ وأمسكَ الفضلَ من قولهِ وَوَسِعَتْهُ السُّنَّةُ ولم تَسْتَهْوِهِ البِدْعَةُ**».

ومن مواعظه ﷺ: قيس بن عاصم المنقري روينا من حديث الهاشمي قال رسول الله ﷺ: «**يا قَيْسُ إنَّ مع العزّ ذلاً، وإنَّ مع الحياة موتاً، وإنَّ مع الدنيا آخرة، وإنَّ لكلِّ شيء حسيباً وعَلَى كلِّ شَيْءٍ رقيباً، وإنَّ لكلِّ حسنةٍ ثواباً ولكلِّ سيئة عقاباً، وإن لكلِّ أجَلٍ كتاباً إنه لا بدّ يا قيسُ مِن قرينٍ يُدْفَنُ معكَ وهو حَيٌّ وتدفنُ معهُ وأنتَ ميتٌ، فإنْ كانَ كريماً أكرمكَ وإن كانَ لئيماً أسلمكَ، ثم لا يحشر إلاّ معكَ ولا تبعث إلاّ معه، ولا تسأل إلاّ عنه، فلا تجعله إلاّ صالحاً، فإنه إن كانَ صالحاً لم تأنسْ إلاّ بهِ وإن كانَ فاحشاً لم تستوحشْ إلاّ منه وَهُوَ فِعْلُكَ**».

ومن وصاياه ﷺ: قال رسول الله ﷺ: **«أيها الناسُ توبوا إلى الله قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وَصِلُوا الَّذِي بَيْنَكُمْ وبينَ رَبِّكُمْ تَسْعَدُوا، وأكثروا الصَّدَقَةَ تُرْزَقُوا، وأمروا بالمعروف تخصبوا، وانْهَوْا عن المنكر تُنْصَرُوا، ويا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّ أَكْيَسَكُمْ أكثرُكُمْ للموتِ ذكراً، وأَحْزَمَكُمْ أحْسَنُكُمْ لَهُ استعداداً، ألا وإنَّ مِنْ علاماتِ العَقْلِ التَّجافِيَ عن دار الغرورِ والإنابةَ إلى دارِ الخلود، والتزوّدَ لسكنى القبور والتأهُّبَ ليوم النُّشُورِ»**.

ومنها أيضاً عنه ﷺ: قال رسول الله ﷺ: **«أيُّهَا النَّاسُ إنَّ لَكُمْ معالمَ فانتهوا إلى مَعَالِمِكُمْ، وإنَّ لكم نهايةً فانتهوا إلى نِهَايَتِكُمْ، إنَّ المؤمنَ بين مَخَافَتَيْنِ: بَيْنَ أجلٍ قد مَضَى لا يَدْرِي ما الله صانعٌ فيه، وبينَ أجلٍ قد بقيَ لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فَلْيَأخُذِ العبدُ لِنفسهِ من نفسهِ ومن دنياهُ لآخرتهِ، ومن الشبيبة قبلَ الكِبَرِ، ومن الحياة قبلَ الموت، فَوَالَّذِي نفسُ محمدٍ بيده ما بعدَ الموتِ مِنْ مستعتبٍ ولا بعدَ الدنيا دارٌ إلاَّ الجنة أو النار»**.

وممّا ورد عنه ﷺ في خصال الإيمان: ما حدثنا به أبو عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميميّ بالمسجد الأزهر بعين الخيل من مدينة فاس سنة إحدى وتسعين وخمسمائة من لفظه وأنا أسمع وأسنده إلى رسول الله ﷺ معنعناً قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يُكمِلُ عَبْدٌ الإيمانَ حَتَّى يَكونَ فِيهِ خَمْسُ خِصالٍ: التَّوكلُ على الله وَالتَّفْويضُ إلى الله، وَالتَّسليمُ لأمْرِ الله، وَالرِّضى بِقضاءِ الله، وَالصَّبرِ على بلاءِ الله، إنَّه مَنْ أَحبَّ وَأَبْغَضَ لله وَأَعْطَى لله وَمَنَعَ لله فَقَد اسْتَكْمَلَ الإيمانَ»**. وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: **«الإِيمانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً أَدْناها إماطةُ الأَذى عَنِ الطَّريقِ وَأَرْفَعُها قَولُ لا إله إلا الله»**.

وصية نبوية محمدية: قال رسول الله ﷺ: **«لا خَيرَ في العيشِ إلاَّ لِعالِمٍ نَاطقٍ أو مُسْتمعٍ واعٍ. يا أيها النَّاسُ إنَّكم في زمان هدنةٍ وإنَّ السَّيْرَ بِكُم سَرِيعٌ، وَقَد رَأَيْتُمُ اللَّيلَ وَالنَّهارَ كَيْفَ يُبْلِيَانِ كُلَّ جديدٍ وَيُقَرِّبانِ كُلَّ بَعيدٍ وَيَأتيانِ بكلِّ مَوْعُودٍ، فَقَالَ لَهُ المِقْدادُ: وما الهدنةُ يا رَسُولَ الله؟ فقال ﷺ: دَارُ بلاءٍ وَانْقطاعٍ، فإذا الْتَبَسَتْ عَلَيكُمُ الأُمورُ كَقِطَعِ اللَّيلِ المُظْلِم فَعَلَيْكُمْ بِالقرآنِ فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَشَاهِدٌ مُصَدَّقٌ، فَمَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إلى الجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَه سَاقَهُ إلى النَّارِ، وَهُوَ أَوْضَحُ دَلِيلٍ إلى خَيرِ سَبِيلٍ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وإنَّ العَبْدَ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِهِ وَحُلُولِ رَمْسِهِ يرى جزاءَ ما أَسْلَفَ وَقِلَّةَ غَنَاءِ مَا خَلَفَ، وَلَعَلَّهُ مِنْ باطلٍ جَمَعَهُ وَمِن حَقٍّ مَنَعَهُ»**.

وصية نبوية بتذكرة: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ العَبْدَ لا يُكْتَبُ فِي المُسْلِمينَ حَتَّى يَسْلَمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ، وَلا يَنَالُ دَرَجَةَ المُؤْمِنِينَ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ ولا يُعَدُّ مِنَ المُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ ما لا بَأْسَ بِهِ حذراً ممّا بِهِ البَأْسُ. أيُّها النَّاسُ إنَّه مَنْ خَافَ البَيَاتَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ فِي السَّيْرِ وَصَلَ، وَإِنَّما تَعْرفونَ عَواقبَ أَعْمَالِكُمْ لَوْ قَدْ طُوِيَتْ صَحائفُ آجالِكُم، إنَّ نِيَّةَ المُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ، وَنِيَّةُ المُنَافِقِ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ»**.

وصية فيها بشرى للمنقطعين إلى الله: قال رسول الله ﷺ: **«مَنِ انْقَطَعَ إلى الله كَفَاهُ كُلَّ مُؤْنَةٍ فِيها، وَمَنِ انْقَطَعَ إلى الدُّنْيَا وَكَلَهُ الله إليها، وَمَنْ حَاوَلَ أمْراً بِمَعْصِيَةِ الله كَانَ أَبْعَدَ لَهُ مِمّا**

رَجا وأَقْرَبَ مِمّا اتَّقى، وَمَنْ طَلَبَ مَحامِدَ النّاسِ بِمَعاصِي الله عادَ حامِدُه مِنْهُم ذامّاً، وَمَنْ أَرْضى النّاسَ بِسَخَطِ الله وَكله الله إليهم، وَمَنْ أَرْضى الله بِسَخَطِ النّاسِ كَفاهُ الله شَرَّهُم، وَمَنْ أَحْسَنَ فِيما بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله كَفاهُ الله ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ النّاسِ، وَمَنْ أَصْلَحَ سَرِيرتَهُ أَصْلَحَ الله عَلانِيَتَهُ، وَمَنْ عَمِلَ لآخِرتِهِ كَفاهُ الله أَمْرَ دُنياهُ».

وصية نبوية خبرية: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ الله عَبْداً تَكَلَّمَ فَغَنِمَ أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ، إنَّ اللِّسانَ أَمْلَكُ شَيْءٍ لِلإِنْسانِ، أَلاَ وَإِنَّ كَلامَ العَبدِ كُلَّهُ عَلَيهِ إلاَّ ذِكْراً لِلَّهِ أو أمراً بِمَعْرُوفٍ أو نَهْياً عَنْ مُنكرٍ أو إِصلاحاً بَيْنَ مُؤْمِنين، فَقالَ لَهُ مُعاذُ بْنُ جَبَلٍ: يا رسولَ الله أَنُؤاخذُ بِما نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قالَ: وَهَلْ يُكَبُّ النّاسُ عَلى مَناخِرِهِمْ في النّارِ إلاّ حصائدُ أَلْسِنَتِهِم؟ فَمَنْ أَرادَ السَّلامةَ فَلْيَحْفَظْ ما جَرى بِهِ لِسانُهُ وَلْيَحْرُسْ ما انْطوى عَلَيهِ جِنانُهُ، وَلْيُحْسِنْ عَمَلَهُ وَلْيُقْصِرْ أَمَلَهُ».

وصية نبوية أيضاً: قال رسول الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا الدُّنْيا فَنِعْمَتْ مَطِيَّةُ المؤمنِ عليها يَبْلُغُ الخَيْرَ وَبِها يَنْجُو مِنَ الشرِّ إذَا قَالَ العَبْدُ لَعَنَ الله الدنيا قالَتِ الدُّنيا: لَعَنَ الله أَعْصانَا لِرَبِّهِ» قلنا من هنا. قال قتادة رضي الله عنه: ما أنصف أحد الدنيا ذمّت بإساءة المسيء فيها ولم تحمد بإحسان المحسن فيها، وفي عكس هذا يقول بعضهم في الدنيا: [الطويل]

إذا امْتَحَنَ الدُّنْيا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ لَهُ عَنْ عَدُوٍّ في ثِيابِ صَدِيقِ

هذا إنما يريد الحياة الدنيا التي لا يقصد بها الآخرة وقد ذمّ الله ذلك.

وصية نبوية: قال رسول الله ﷺ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هاذِمِ اللَّذّاتِ فَإِنَّكم إنْ ذَكَرتُمُوهُ في ضِيقٍ وَسَّعَهُ عليكُمْ وَرَضِيتُم بِهِ فَأُجِرتُم، وَإِنْ ذَكَرتُمُوهُ في غِنًى بَغَّضَهُ إليكم فَجُدْتُمْ بِهِ فَأُثِبْتُم إنَّ المنايا قاطعاتُ الآمالِ وَاللَّيالي مُدْنِياتُ الآجالِ، وإنَّ المرءَ بَيْنَ يَوْمَين: يَوْمٌ قَدْ مَضى أُحْصِيَ فِيهِ عَمَلُهُ فَخُتِمَ عَلَيْهِ، وَيَوْمٌ قَدْ بَقِيَ لا يَدْري لَعَلَّهُ لا يَصِلُ إليه».

وصية بتذكرة: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرِّزقَ مَقْسُومٌ لَنْ يَعْدُوَ امْرُؤٌ ما كُتِبَ لَهُ فَأَجْمِلُوا في الطَّلَبِ، وَإِنَّ العُمُرَ مَحْدُودٌ لَنْ يُجاوِزَ أَحَدٌ ما قُدِرَ لَهُ، فَبادِرُوا قَبْلَ نَفادِ الأَجَلِ، والأعمالُ مُحْصاةٌ لَنْ يُهْمَلَ مِنْها صَغِيرَةٌ ولا كَبِيرَةٌ، فَأَكْثِرُوا مِنْ صَالحِ العَمَلِ، أَيُّها النّاسُ إِنَّ في القُنُوعِ لَسِعَةً وَإِنَّ فِي الاقْتِصادِ لَبُلْغَةً، وَإِنَّ فِي الزُّهْدِ لَراحَةً، وَلِكُلِّ عَمَلٍ جزاءٌ وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ».

وصية بذكرى لبيب واعتبار: قال رسول الله ﷺ: «أَما رَأَيْتَ المَأْخُوذِينَ عَلى الغِرَّةِ المُزْعِجِينَ بَعدَ الطُّمأنينةِ الَّذِينَ أَقامُوا على الشُّبهاتِ وَجَنَحُوا إلى الشَّهواتِ حَتَّى أَتَتْهُمْ رُسُلُ رَبِّهِم فَلا ما كَانُوا أملوا أَدْرَكُوا وَلا إلى ما فَاتَهم رَجِعُوا، قَدِمُوا عَلى ما عَمِلُوا وَنَدِمُوا على ما خَلَّفُوا، وَلَمْ يُغْنِ النَّدَمُ وقد جَفَّ القَلَمُ، فَرَحِمَ الله امرأً قَدَّمَ خَيْراً، وَأَنْفَقَ قَصْداً وَقالَ صِدْقاً وَمَلَكَ دواعِي شَهَوَاتِهِ وَلَمْ تَمْلِكْهُ وَعَصى أَمْرَهُ نَفْسَهُ فَلَمْ تُهْلِكْهُ».

وصية وبيان: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّها الناس: لا تُعْطُوا الحِكْمَةَ غَيْرَ أَهلِها فَتَظْلِموها، وَلا تَمْنَعُوها أَهْلَها فَتَظْلِمُوهم، وَلا تُعاقِبُوا ظَالِماً فَيَبْطُلَ فَضْلُكم، وَلا تُرَاؤوا النّاسَ فَيَحْبَطَ عملكم، ولا تَمْنَعُوا المَوْجُودَ فيقلّ خَيْرُكم، أَيُّها النّاسُ: إنَّ الأَشْياءَ ثَلاثَةٌ: أَمْرٌ اسْتبانَ رُشْدُهُ فَاتَّبِعوه، وَأَمْرٌ اسْتَبانَ غَيُّهُ فَاجْتَنِبُوه، وَأَمْرٌ اخْتَلَفَ عَلَيْكُم فَرُدُّوه إلى الله، أَيُّها النّاسُ: أفلا

أُنبئُكم بِأَمْرَيْنِ خَفِيفٌ مؤنتهما عَظِيمٌ أَجْرُهما لَمْ يُلْقَ الله بِمِثْلِهما : الصَّمْتُ وَحُسْنُ الخُلُقِ» .

وصية نبوية : قال رسول الله ﷺ : إِنَّما يُؤتى النَّاسُ يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ إِحْدَى ثلاثٍ : إما مِنْ شُبهةٍ في الدِّينِ ارتكبُوها ، أَوْ شَهْوةٍ لِلذَّةٍ آثروها ، أَوْ غَضْبةٍ لِحَمِيَّةٍ أَعْمَلوها ، فَإذا لاحتْ لكم شُبْهةٌ فَاجْلُوها بِاليَقِينِ ، وَإِذا عَرَضَتْ لكم شَهْوَةٌ فَاقْمَعُوها بِالزُّهْدِ ، وَإِذا عَنَتْ لكم غَضْبَةٌ فَادْرؤوها بِالعَفْوِ ، إِنَّه يُنادِي مُنادٍ يَوْمَ القِيَامَةِ : مَنْ لَهُ أَجْرٌ على الله فَلْيَقُمْ فَيَقومُ العافونَ عنِ النَّاسِ ، أَلَمْ تَرَ إلى قوله عزّ وجلّ : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى : ٤٠] .

وصية فيها تذكرة غافل : قال رسول الله ﷺ : «يَقُولُ الله تعالىٰ : يَا ابْنَ آدم تُؤتَى كُلَّ يَوْم بِرِزْقِكَ وَأَنْتَ تَحْزَنُ ، وَيَنْقُصُ كُلَّ يَوْم مِنْ عُمْرِكَ وَأَنْتَ تَفْرَحُ ، أَنْتَ فيما يَكْفِيكَ ، وَأَنْتَ تَطْلُبُ ما يُطْغِيكَ لا بِقليلٍ تَقْنعُ وَلا مِنْ كَثيرٍ تَشْبَعُ» .

وصية تحريض على الاتصاف بصفة يحمدها من عباده : قال رسول الله ﷺ وقد قيل له : يا رسول الله من أولياء الله الذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس : ٦٢]؟ فقال : «الَّذِينَ نَظَرُوا إلى باطِنِ الدُّنيا حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إلى ظَاهِرِها ، وَاهتَمُّوا بِأَجَلِ الدُّنيا حِينَ اهْتَمَّ النَّاسُ بِعاجِلِها ، فَأَماتُوا منها ما خَشَوْا أن يُمِيتَهم ، وَتَرَكُوا منها ما عَلِمُوا أَنْ سَيَتْرُكُهُمْ ، فما عَرَضَهُمْ مِنْ نَائِلِها عارِضٌ إِلاَّ رَفَضُوهُ ، ولا خَادَعَهُم مِنْ رِفعَتِها خَادِعٌ إِلاَّ وَضَعُوهُ ، خَلِقَتِ الدُّنيا عِنْدَهم فما يُجَدِّدُونها ، وَخَرِبَتْ بَيْنَهُم فما يُعَمِّرُونها ، وَمَاتَتْ في صُدُورِهم فَمَا يُحْيُونَها بَل يَهْدِمُونها فَيَبْنُونَ بها آخِرَتَهُم وَيَبِيعُونَها فَيَشْتَرونَ بها ما يَبْقَى لَهُمْ ، وَنَظَرُوا إلى أَهْلِها صَرْعَى قد حلّت بهم المثلاتُ فما يَرونَ أَماناً دُونَ ما يَرجونَ ولا خَوفاً دُونَ ما يَحْذَرُونَ» .

وصية أيضاً نبوية : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّما أَنْتم خَلَفُ مَاضِين وَبَقِيَّةُ مُتَقَدِّمين ، كانوا أَكْثَرَ مِنْكُم بَسْطَةً وَأَعْظَمَ سَطْوَةً ، أُزْعِجُوا عنها أَسْكَنَ ما كَانُوا إليها وَغَدَرَتْ بهم أَوْثَق ما كَانُوا بها فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُم قوّةُ عَشِيرةٍ ولا قُبِلَ منهم بَدَلُ فِدْيَةٍ ، فَأَرْحِلُوا أَنْفُسَكُم بِزادٍ مُبْلِغٍ قَبْلَ أَنْ تُؤاخَذُوا على فَجْأَةٍ وَقَدْ غَفَلْتُم عنِ الاستعدادِ ولا يُغْنِي النَدمُ وقد جفّ القَلمُ» .

وصية بموعظة وذكرى : قال رسول الله ﷺ : «كُنْ في الدّنيا كأَنّك غَرِيبٌ أو عابرُ سبيلٍ وَعُدَّ نَفْسَكَ في الموتى ، وَإِذا أَصْبحتَ فَلا تُحدِّثْها بالمساءِ ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فلا تُحَدِّثْها بالصَّبَاحِ ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِسَقَمِكَ ، وَمِنْ شَبَابِكَ لِهَرَمِكَ ، وَمِنْ فَرَاغِكَ لِشُغْلِكَ ، وَمِنْ حَياتِكَ لِوَفاتِكَ ، فَإِنَّكَ لا تَدْرِي ما اسْمُكَ غَداً» .

وصية نبوية نافعة : قال رسول الله ﷺ : «لا يَشْغَلَنَّكُم دُنْياكُمْ عَنْ آخِرَتِكُم ، ولا تُؤثِروا أَهْوَاءَكم على طَاعةِ رَبّكم ، ولا تَجْعَلُوا إِيمانَكُم ذَرِيعةً لِمَعاصِيكُمْ ، وَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُم قَبْلَ أَنْ تُحاسَبُوا ، وَمَهِّدوا لها قَبْلَ أَن تُعَذَّبُوا ، وَتَزَوّدوا للرحيلِ قَبْلَ أن تزعجوا ، فَإِنَّما هو مَوْقِفُ عَدْلٍ وَاقْتِضَاءُ حَقٍّ وَسُؤالٌ عَنْ وَاجِبٍ ، وَلَقَدْ بَلَغَ في الإِعْذارِ مَنْ تَقَدَّمَ في الإِنْذارِ» .

وصية نبوية خبرية بما ينبغي أن يقبل عليه ويعرض عنه : قال رسول الله ﷺ : «يَا أَيها النَّاسُ أَقبلوا على ما كُلِّفْتُمُوهُ مِنْ صلاح آخِرتِكُمْ وَأَعْرِضُوا عمّا ضُمِنَ لَكُم مِنْ أَمْرِ دُنياكم ، وَلا تَسْتَعْمِلوا جَوَارِحاً غُذِيَتْ بِنِعْمَتِهِ في التعرّضِ لِسَخَطِهِ بِمَعْصِيتِهِ ، وَاجْعَلُوا شُغْلَكُمْ بِالْتِماسِ

مَغفرَتِهِ، وَاصْرِفُوا هِممَكُم إلى التقرّب إليه بطاعتِهِ، إنه من بَدَأَ بنَصِيبِهِ مِنَ الدُّنيا فاتَهُ نَصِيبُهُ مِنَ الآخِرَةِ ولا يُدْرِكُ منها ما يُرِيدُ، وَمَنْ بَدَأَ بنصيبه من الآخِرَةِ وَصَلَ إليه نَصِيبُهُ مِنَ الدُّنيا وَأَدْرَكَ مِنَ الآخِرَةِ ما يُرِيدُ».

وصية نبوية فيما ينبغي أن يترك من الفضول: قال رسول الله ﷺ: «إيَّاكُمْ وَفُضُولَ المَطْعَم فإن فُضُولَ المَطْعَم يَسِمُ القَلْبَ بالقَساوةِ وَيُبْطِىءُ بالجوارح عن الطَّاعَةِ وَيُصِمُّ الهِمَمَ عَنْ سَماع المَوْعِظَةِ، وَإيَّاكم وَفُضُولَ النَّظر فإنه يَبْذُرُ الهَوَى وَيُولِّدُ الغَفْلَةَ، وَإِيَّاكَ وَاسْتِشْعارَ الطَّمع فإنه يُشْرِبُ القَلْبَ شِدّة الحرصِ وَيَخْتِمُ على القُلُوبِ بِطابع حُبِّ الدُّنيا فَهُوَ مِفْتَاحُ كُلِّ سَيِّئَةٍ وَسَبَب إحْباطِ كُلِّ حَسَنَةٍ».

وصية نبوية بما يرجى ويتقى: قال رسول الله ﷺ: «إنَّما هُوَ خَيْرٌ يُرْجَى أو شَرٌّ يُتَّقى وَباطِلٌ عُرِفَ فَاجْتُنِبَ وَحَقٌّ تُيُقِّنَ فَطُلِبَ وَآخِرَةٌ أَظَلَّ إِقْبالها فَسُعِيَ لها، وَدُنْيا أَزِفَ نَفادُها فأُعْرِضَ عنها، وَكَيْفَ يَعْمَلُ للآخِرَةِ مَنْ لا يَنْقَطِعُ عَنِ الدُّنيا رَغْبَتُهُ ولا تَنْقَضِي فيها شَهْوَتُهُ؟ إنَّ العَجَبَ كُلَّ العَجَبِ لِمَنْ صَدَّقَ بِدارِ البقاءِ وهو يسعى لِدارِ الفناءِ وَعَرَفَ أَنَّ رِضا الله في طَاعَتِه وَهُوَ يَسْعَى في مُخالَفَتِهِ».

وصية نبوية: قال رسول الله ﷺ: «حَلُّوا أَنْفُسَكُم بالطَّاعَةِ وَأَلْبِسُوهَا قِناعَ المَخافَةِ وَاجْعَلُوا آخِرَتَكُم لأَنْفُسِكُم وَسَعْيَكُم لِمُسْتَقَرّكم وَاعْلَمُوا أَنَّكم عَنْ قَلِيل رَاحِلُونَ وَإلى الله صَائِرُونَ، وَلا يُغْنِي عَنْكُم هنالك إلاَّ صالِحُ عَمَلٍ قَدَّمْتُمُوهُ أَوْ حُسْنُ ثَوابِ حِزْتُمُوهُ، إنَّكم إنَّما تُقْدِمُونَ على ما قدمتم وَتُجازونَ على ما أَسْلَفْتُم، ولا تَخْدَعَنَّكُم زَخارِفُ دُنيا دَنِيَّةٍ عَنْ مراتب جناتٍ عليَّةٍ، فَكَأَن قَدْ كُشِفَ القِناعُ وَارْتَفَعَ الارْتِيابُ، وَلاقَى كُلُّ امْرِىءٍ مستقرّهُ وَعَرَفَ مَثْواهُ وَمَقِيلَهُ».

وصية نبوية في التحذير عن المكر والخداع: قال رسول الله ﷺ: «لا تَكُونُوا مِمَّن خَدَعَتْهُ العَاجِلَةُ وَغَرَّتْهُ الأمنيةُ وَاسْتَهْوَتْهُ الخِدْعَةُ، فَرَكَنَ إلى دارٍ سَرِيعَةِ الزَّوالِ وَشِيكَةِ الانتقالِ، إنَّه لَمْ يَبْقَ مِنْ دُنْيَاكُمْ هٰذِهِ في جَنْبِ ما مَضَى إلاَّ كإناخَةِ راكِبٍ، أو صَرِّ حالِبٍ، فَعلامَ تَعْرِجُونَ وماذا تَنْتَظِرُونَ؟ فَكَأَنكُم وَالله بِمَا قَدْ أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِنَ الدُّنيا كَأَنْ لَمْ يَكُنْ، وَمَا تَصِيرُونَ إلَيهِ مِنَ الآخِرَةِ كَأَنْ لَمْ يَزَلْ، فَخُذُوا الأُهْبَةَ لأُزُوفِ النُّقْلَةِ، وَأَعِدُّوا الزَّادَ لِقُرْبِ الرّحْلَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ امْرِىءٍ عَلَى مَا قَدَّمَ قَادِمٌ وَعَلى مَا خَلَّفَ نَادِمٌ».

وصية نبوية في ذمّ انبساط الأمل ونسيان الأجل: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ بَسِيطُ الأَمَلِ متقدم حُلُولِ الأَجَلِ وَالمَعَادُ مِضْمَارُ العَمَلِ، ومُغْتَبِطٌ بِمَا احْتَقَبَ غَانِمٌ وَمُبْتَئِسٌ بِمَا فَاتَهُ مِنَ العَمَلِ نَادِمٌ، أَيُّهَا النَّاسُ: إنَّ الطَّمَعَ فَقْرٌ وَالبَأْسَ غِنًى وَالقَنَاعَةَ رَاحَةٌ وَالعُزْلَةَ عِبَادَةٌ وَالعَمَلَ كَنْزٌ وَالدُّنْيَا مَعْدنٌ، وَالله مَا يَسُرّنِي مَا مَضَى مِنْ دُنْيَاكُمْ هٰذِهِ بِأَهْداب بُرْدِي هٰذَا وَلَما بَقِيَ مِنهَا أَشْبَهُ بِمَا مَضَى مِنَ المَاءِ بالماء وَكُلٌّ إلى نَفَادٍ وَشِيك وَزَوَالٍ قَرِيب، فَبَادِرُوا أَنْتُم فِي مَهَلِ الأَنْفَاسِ وَجِدَّةِ الأَحْلَاسِ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذ بِالكَظْم وَلا يُغْنِي النَّدَمُ».

وصية نبوية وتعريف: قال رسول الله ﷺ: «تَكُونُ أُمَّتِي فِي الدُّنيا عَلَى ثَلاثَةِ أَطْبَاقٍ أَمَّا

الطَّبَقُ الأَوَّلُ فَلا يَرْغَبُونَ فِي جَمْعِ المَالِ وَادِّخَارِه وَلاَ يَسْعَوْنَ فِي اقْتِنَائِهِ وَاحْتِكَارِهِ إِنَّما رِضَاهُمْ مِنَ الدُّنْيَا سَدّ جَوْعَةٍ وَسَتْرُ عَورَةٍ وَغِنَاهُمْ فِيهَا مَا بَلَغَ الآخِرَةَ فَأُولَئِكَ الذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] وَأَمَّا الطَّبَقُ الثَّانِي: فَيُحِبُّونَ جَمْعَ المَالِ مِنْ أَطْيَبِ سَبِيلِهِ وَصَرْفِهِ فِي أَحْسنِ وُجُوهِهِ يَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَهمْ وَيَبِرُّونَ به إِخوانَهُمْ وَيُواسُونَ بِهِ فُقَرَاءَهُمْ وَلَعَضُّ أَحَدِهِمْ عَلَى الرّصفِ أَسْهَلَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَكْسَبَ دِرهَماً مِنْ غَيرِ حِلّه وَأَنْ يَضَعَهُ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ وَأَن يَمنعَهُ مِن حقِّهِ أَوْ أَنْ يَكُونَ خَازِناً لَهُ إِلَى حِينِ مَوْتِهِ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ إِنْ نُوقِشوا عُذِّبوا وَإِنْ عُفِي عَنْهُمْ سَلِمُوا، وأمّا الطَّبقُ الثَالِثُ: فيُحِبُّونَ جَمعَ المَالِ مِمّا حَلَّ وَحَرُمَ وَمَنْعَهُ مِمّا افترِضَ أَوْ وَجَبَ، إِنْ أَنْفَقُوهُ أنفقوهُ إِسْرَافاً وَبِدَاراً، وَإِنْ أَمْسَكُوهُ أَمسَكُوهُ بُخلاً واحتِكَاراً، أُولَئِكَ الَّذِينَ مَلَكَتِ الدُّنيا أَزِمَّةَ قُلُوبِهِمْ حَتَّى أَوْرَدَتْهُمُ النَّارَ بِذُنُوبِهِمْ».

وصية نبوية في التحذير من ضعف اليقين وما أشبه ذلك: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ ضَعفِ اليقِينِ أَنْ تُرضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ الله وَأَنْ تَحْمدَهُم عَلَى رِزْقِ الله وَأَنْ تَذمّهُم عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ الله، إِنَّ رِزقَ الله لاَ يَجرُّه حِرْصُ حَرِيص وَلا يَرِدّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهِ، إِنَّ الله تَبَارَكَ اسْمُهُ جَعَلَ الرَّوحَ وَالفَرَحَ فِي الرِّضَى وَاليَقِينِ، وَجَعَلَ الهَمَّ وَالحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ، إِنَّكَ لَمْ تَدَعْ شَيْئاً تَقَرُّباً إِلَى الله إِلاَّ أَجْزَلَ لَكَ الثَّوابَ عَلَيهِ، فَاجْعَلْ هَمَّكَ وَسَعْيَكَ لِآخِرةٍ لاَ يَنْفَدُ فِيهَا ثَوابُ المَرْضِي عَنْهُ وَلاَ يَنْقَطِعُ فِيهَا عِقَابُ المَسْخُوطِ عَلَيْهِ».

وصية نبوية تحرض على أخلاق سنية مرضية: قال رسول الله ﷺ: «لَيسَ شَيْءٌ يُبَاعِدُكُم مِنَ النَّارِ إِلاَّ وَقَدْ ذَكَرْتُهُ لَكُمْ، ولاَ شَيْءِ يُقرِّبُكُمْ مِنَ الجَنَّةِ إِلاَّ وَقَدْ دَلَلتُكُم عَلَيهِ، إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّه لَن يَمُوتَ عَبْدٌ حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ وَلاَ يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبوا شَيْئاً مِنْ فَضْلِ الله بِمَعْصِيتِهِ فَإِنَّهُ لاَ يُنَالُ مَا عِنْدَ الله إِلاَّ بِطَاعَتِهِ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ امرىءٍ رِزقاً هُو يأتِيهِ لاَ مَحَالَةَ، فَمَنْ رَضِيَ بِهِ بُورِكَ لَهُ فَوَسِعَهُ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِه لَمْ يُبارَك لَهُ فِيه وَلَم يَسعْهُ، إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الرَّجُلَ كَمَا يَطْلُبُه أَجَلُهُ».

وصية نبوية مفصلة: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيا دَارُ بَلاءٍ وَمَنْزِلُ قُلْعَةٍ وَعَنَاءٍ، قَدْ نُزِعَتْ عَنْهَا نُفُوسُ السُّعَدَاءِ، وَانْتُزِعَتْ بالكُرهِ مِن أَيدِي الأَشْقِيَاءِ، وَأَسْعَدُ النَّاسِ بها أَرْغَبُهُم عَنْهَا وَأَشْقَاهُم بها أَرْغَبُهم فِيها، هي الغَاشَّةُ لِمَن انْتَصَحَهَا، والمُغْوِيَةُ لِمَنْ أَطَاعَهَا، وَالخَائِرةُ لِمَنْ انقَادَ لَهَا، وَالفَائِزُ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا، وَالهَالِكُ مَنْ هَوَى فِيها، طُوبَى لِعَبْدٍ اتَّقَى فِيهَا رَبَّهُ وَنَاصَحَ نَفْسَهُ وَقَدَّمَ تَوبَتَهُ وَأَخَرَ شَهْوَتَهُ مِن قَبْلِ أَنْ تَلْفِظَهُ الدُّنيا إلى الآخرة فَيُصْبِحَ فِي بَطْنِ مُوحِشَة غَبْرَاء مُدْلَهِمَّةٍ ظلماً لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَزِيدَ فِي حَسَنَةٍ وَلاَ يَنْقُصَ مِن سَيئةٍ. ثُمَّ يُنْشَرُ فَيُحْشَرُ إِمَّا إِلى جَنَّةٍ يَدُومُ نَعِيمُهَا أَوْ نَارٍ لاَ يَنْفَكُّ عَذَابُهَا».

وصية نبوية في الأهبة للرحلة: قال رسول الله ﷺ: «شَمرُوا فَإِنَ الأَمرَ جِدٌّ، وَتأَهَّبُوا فَإِنَّ الرَّحِيلَ قَرِيبٌ، وَتزودُوا فَإِنَّ السَّفَرَ بَعِيدٌ، وَخففوا أَثْقَالَكُم فَإِنَّ وَرَاءَكُم عَقَبَةً كَؤُودٌ لاَ يَقْطَعُهَا إِلاَّ المُخَفِّفُونَ. أَيُها النَّاسُ: إِنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَة أُموراً شِدَاداً وَأَهوالاً عِظَاماً وَزَمَاناً صَعْباً، تَتَمَلَّكُ فِيهِ الظَّلَمَةُ وتَتَصدَّرُ فِيهِ الفَسَقَةُ، فَيُضْطَهَدُ الآمِرُونَ بِالمَعْرُوفِ، وَيُضَامُ النَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ،

فَأعِدوا لِذَلِكَ الإِيمَانَ وَعَضُوا عَلَيه بِالنَّواجِذِ، والجؤوا إلى العَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَكْرِهُوا عَلَيْه النُّفُوسَ، وَاصْبِرُوا عَلَى الضَّراءِ تُفْضُوا إِلى النَّعِيمِ الدَّائِم».

وصية نبوية وترغيب: قال رسول الله ﷺ: «ارْغَبْ فِيمَا عِنْدَ الله يُحِبّكَ الله، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبّكَ النَّاس، إنَّ الزَّاهِدَ فِي الدّنيا يَرْبَحُ قَلْبُهُ وَبَدَنُهُ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَة، لَيَجِيئَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ القِيَامَةِ لَهُمْ حَسَنَاتٌ كَأَمْثَالِ الجِبَالِ فَيُؤمَرُ بِهِم إِلى النَّارِ فَقِيلَ: يَا نَبِيّ الله أَيُصَلُّونَ؟ قَالَ: كَانُوا يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَأْخُذُونَ وَهْناً مِنَ اللَّيْلِ لَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا لاحَ لَهُمْ شَيْء مِنَ الدُّنيَا وَثَبُوا عَلَيْه».

وصية نبوية تحرض على صفات سنية: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّها النَّاسُ إنَّ هٰذِهِ الدَّارَ دَارُ التِوَاء لاَ دَارُ اسْتِوَاء، وَمَنْزِلُ تَرَحٍ لاَ مَنْزِلُ فَرَحٍ، فَمَنْ عَرَفَهَا لَمْ يَفْرَحْ لِرَخَاء وَلَمْ يَحْزَنْ لِشَقَاء، أَلاَ وَإنَّ الله خَلَقَ الدُّنيَا دَارَ بَلْوَى وَالآخِرَةَ دَارَ عُقْبَى، فَجَعَلَ بَلْوَى الدُّنيا لِثَوَابِ الآخِرَةِ سَبَباً وَثَوابَ الآخِرَةِ مِنْ بَلْوَى الدّنيَا عِوَضاً، فَيَأْخُذُ لِيُعْطِي وَيَبْتَلِي لِيَجْزِي، وَإِنها لَسرِيعَةُ الذَّهَابِ وَشِيكَةُ الانْقلاب، فاحْذَرُوا حلاوَةَ رضاعها لمرارَةِ فِطَامِها، واهْجُرُوا لذيذ عاجِلها لكَرِيهِ آجِلِها، وَلاَ تَسْعَوا فِي عُمْرَانِ دَارٍ قَدْ قَضَى خرَابَها وَلاَ تُواصِلُوهَا وَقَدْ أَرَادَ الله مِنْكُمُ اجْتِنَابَهَا، فَتَكُونُوا لسُخطِهِ مُتعَرِّضِينَ وَلِعُقُوبَتِهِ مُسْتَحِقِّينَ».

وصية نبوية بما يرضي الله من الأخلاق: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا الله حَقَّ تقَاتِهِ وَاسْعَوْا فِي مَرْضَاتِه، وَأَيْقِنُوا مِنَ الدُّنْيا بِالفَنَاءِ وَمِنَ الآخِرَةِ بِالبَقَاء، وَاعْمَلُوا لِمَا بَعْدَ المَوْت، فَكَأَنَّ الدُّنْيا لَمْ تَكُنْ، وَكَأَنَّ الآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ. أَيّها النَّاسُ إنَّ مَنْ فِي الدّنيا ضَيْفٌ وَمَا فِي يَدِهِ عَارِيَة وَإنّ الضَّيْفَ مُرْتَحِلٌ، وَالعَارِيَةَ مَرْدُودَةٌ، ألا وَإنَّ الدُّنيا عَرَضٌ حاضرٌ، يَأْكُلُ مِنْهَا البرُّ وَالفَاجِرُ، وَالآخِرَةُ وَعْدٌ صَادِقٌ يَحكمُ فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ، فَرَحِمَ الله امْرَأً نَظَرَ لِنَفْسِهِ وَمهّدَ لِرَمْسِهِ، مَا دَامَ رَسَنُهُ مُرْخَى وَحَبْلُهُ عَلَى غَارِبِهِ مُلقَى، قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ أَجَلُهُ فَيَنْقَطِعَ عَمَلُهُ».

وصية أيضاً نبوية: قال رسول الله ﷺ: «إِنّ الدّنيا قَد ارْتَحَلَتْ مُدْبِرَةَ وَالآخِرَة قَدْ تَجَمّلَتْ مُقْبِلَةَ، أَلاَ وَإِنَّكُم فِي يَوم عَمَلٍ لَيسَ فِيهِ حِسَابٌ، وَيُوشكُ أَنْ تَكُونُوا فِي يَوْم حِسَابٍ لَيسَ فِيهِ عَمَلٌ، وَإنَّ الله يُعْطِي الدُّنيا مَنْ يُحِبُّ وَيَبْغُضُ، وَلاَ يُعْطِي الآخِرَةَ إلاَّ مَنْ يُحِبُّ، وَإنَّ لِلدُّنْيا أَبْنَاءَ وَللآخِرَةِ أَبْنَاءَ، فَكُونوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيا، إنَّ شَرّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُم اتِّبَاعُ الهَوَى وَطُولُ الأَمَل، فاتِّبَاعُ الهَوَى يَصْرِفُ بِقُلُوبِكُمْ عَنِ الحَقِّ، وَطُولُ الأَمَلِ يَصْرِفُ هِمَمَكُمْ إِلَى الدُّنيا وَمَا بَعْدَهُمَا لأِحَدِ خَيْرٌ مِنْ دُنْيَا وَلاَ آخِرَة».

وصية نبوية بموعظة تذكر الموت وتؤذن بالرحيل: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ بَيْتٍ إلاَّ وَمَلَكُ المَوتِ يَقِفُ عَلَى بَابِهِ فِي كُلِّ يوم خَمْسَ مَرّاتٍ، فإذَا وَجَدَ الإِنْسَانَ قَدْ نَفَدَ أُكُلُهُ وَجَاءَ أَجَلُهُ أَلْقَى عَلَيهِ غَمَّ المَوتِ فَغَشِيَتْهُ كَرَبَّاته وَغَمَرَتْهُ عكرَاتُه، فَمِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ النَّاشِرَةُ شَعْرَهَا وَالضَّارِبَةُ وَجْهَهَا وَالبَاكِيَةُ لِشَجْوِهَا وَالصَّارِخَةُ بِوَيلِهَا فَيَقُولُ مَلَكُ المَوتِ عَلَيْهِ السَّلام: وَيْلَكُم مِمّ الفَزَعُ وَفِيمَ الجَزَعُ؟ مَا أَذْهَبْتُ لِوَاحِدٍ مِنْكُم رِزْقاً وَلاَ قَرَّبْتُ لَهُ أَجَلاً وَلا أَتَيْتُهُ حَتَّى أُمِرْتُ وَلاَ

قَبَضْتُ رُوحَهُ حَتَّى اَسْتَأْمَرْتُ، وإنَّ لِي فِيكُم عَودَةً ثُمّ عَودَةً ثُمّ عَودَةً حَتَّى لاَ أُبْقِي مِنكُم أَحداً. قال النبيّ ﷺ: فَوالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه لَوْ يَرَونَ مَكَانَهُ وَيَسْمَعُونَ كَلاَمَهُ لَذُهِلُوا عَنْ مَيتِهِم وَلَبَكوا عَلَى نُفُوسِهِم حَتَّى إِذَا حُمِلَ المَيتُ عَلَى نَعْشِهِ رَفرَفَ رُوحُه فَوْقَ النَّعْشِ وَهُو يُنَادِي: يَا أَهْلِي وَيَا وَلَدِي لاَ تَلْعَبَنَّ بِكُم الدُنيا كَمَا لَعِبَتْ بي جَمَعْتُ المَالَ مِنْ حِلِّهِ وَمِنْ غَيرِ حِلِّهِ ثُمَّ خَلَّفْتُه لِغَيرِي فَالمَهْنَاةُ لَهُ والتَّبِعَةُ عَلَيَّ فَاحْذَرُوا مِثْلَ مَا حَلّ بِي».

وصية من زاهد تحوي على فوائد: روينا عن الشبلي أنه قال في وصيته: إن أردت أن تنظر إلى الدنيا بحذافيرها فانظر إلى مزبلة فهي الدنيا، وإذا أردت أن تنظر إلى نفسك فخذ كفاً من تراب فإنك منها خلقت وفيها تعود، ومتى ما أردت أن تنظر ما أنت فانظر إلى ما يخرج منك في دخولك الخلاء، فمن كان حاله كذا فلا يجوز له أن يتطاول أو يتكبر على من هو مثله. وقال بعضهم: من كانت همته ما يدخله في جوفه فقيمته ما يخرج منه. وكتب إبراهيم بن أدهم إلى أخ له: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله من لا تحل معصيته ولا يرجى غيره ولا يدرك الغنى إلاّ به فإنه من استغنى عزّ وشبع وروى وانتقل عندما أبصر قلبه عمّا أبصرت عيناه من زهرة الدنيا فتركها وجانب شبهها، فارض بالحلال الصافي منها أي ما لا بدّ منه من كسرة يشدّ بها صلبه، وثوب يواري به عورته. وأغلظ ما يجده وأخشنه والسلام. وقال رسول الله ﷺ: «**حَسْبُ ابنِ آدمَ لُقَيمَاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ**» وروي أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه جيء إليه قبل الخلافة بحلة بثلاثة ألف درهم فاستحسنها، ثم جيء إليه في خلافته بثوب ليشتريه فيلبسه بثلاثة دراهم فقال: عسى خشن من هذا فإن هذا رقيق. فانظر يا أخي أين هذا من ذاك رضي الله عنه. مثل هذا يلي أمور عباد الله. وكتب ابن السماك إلى أخ له وقد سأله أن يصف له الدنيا: أما بعد فإن الله حفها بالشهوات ثم ملأها آفات مزج حلالها بالرزيات وحرامها بالتبعات فحلالها حساب وحرامها عقاب.

وصية مختار بإجارة من استجار: كتب إلينا أبو حفص عمر بن عبد المجيد من روايته: أن الله تعالىٰ نادي موسىٰ بن عمران: لا تخيب من قصدك، وأجر من استجار بك. قال: فبينما موسىٰ عليه السلام في سياحته إذا بجارح يطرد حمامة فلما رآه الحمام نزل على كتفه مستجيراً به، ونزل الجارح على الكتف الآخر، فلما همّ به الجارح نزل الحمام على كمّه فناداه الجارح بلسان فصيح: يا ابن عمران إني قاصدك فلا تخيبني ولا تحل بيني وبين رزقي، وناداه الحمام: يا ابن عمران إني أنا مستجير بك فأجرني، فقال موسى: ما أسرع ما ابتليت به، ثم مد يده ليقطع من فخذه قطعة للجارح وقاء لهما وحفظاً لما عهد إليه فيهما فقال له: يا ابن عمران أنا رسول ربك أرسلني إليك ليرى صحة ما عهد إليك: [الطويل]

أيا سَامِعاً لَيس السَّمَاعُ بنَافِعٍ إذا أنت لم تَفْعَلْ فما أنت سَامِعُ
إذا كُنْتَ في الدنيا عن الخَيْرِ عاجزاً فما أنت في يوم القيامة صَانِعُ

وكان ابن السماك يقول: لا تشتغل بالرزق المضمون عن العمل المفروض، وكن اليوم مشغولاً بما أنت عليه مسؤول غداً، وإياك والفضول فإن حسابها يطول: [البسيط]

إني عَلِمْتُ وخَيْرُ العِلْم أنفَعُهُ أن الذي هو رِزْقي سوف يأتيني
أَسْعَى له فيُعْيِينِي تَطَلُّبُهُ ولو قعدتُ أتاني لا يُعَيِّيني

وصية تتضمن علامة باقتراب القيامة: قال علي بن أبي طالب: سئل رسول الله ﷺ عن أشراط الساعة فقال: «**إذا رأيت الناسَ قد ضَيَّعوا الحَقّ، وأماتوا الصلاة، وأكثروا القذف، واستحَلّوا الكذبَ، وأخذوا الرشْوة، وشَيَّدوا البنيانَ، وأعْظَمُوا أرباب الأمْوال، واسْتَعْمَلُوا السفهاء واستحلّوا الدماء، فصار الجاهل عندهم ظريفاً والعالم ضعيفاً، والظلم فخراً والمساجد طرقاً، وتكثر الشرط، وحليت المصاحف، وطولت المنارات، وخربت القلوب من الدين، وشربت الخمور، وكثر الطلاق وموت الفجأة، وفشا الفجور وقول البهتان، وحلفوا بغير الله، وائتمن الخائن، وخان الأمين، ولبسوا جلود الضأن على قلوب الذئاب، فعندها قيام الساعة**» هذا حديث حسن.

وصية بالتأهب للموت بموعظة في رؤيا: كان أمير المؤمنين المنصور ذات ليلة نائماً فانتبه مرعوباً ثم عاود النوم فانتبه كذلك فزعاً مرعوباً ثم راجع النوم فانتبه كذلك فقال: يا ربيع قال الربيع قلت: لبيك يا أمير المؤمنين قال: لقد رأيت في منامي عجباً قال: ما رأيت جعلني الله فداك؟ قال: رأيت كأن أتياً أتاني فهينم بشيء لم أفهمه فانتبهت فزعاً ثم عاودت النوم فعاودني يقول ذلك الشيء ثم عاودني بقوله حتى فهمته وحفظته وهو: [الطويل]

كأني بهذا القَصْرِ قد بَادَ أهْلُهُ وعَرَى منه أهْلُهُ ومَنَازِلُهْ
وصار رئيسُ القَوْم من بعد بَهْجَةٍ إلى جَدَثٍ تُبْنَى عليه جَنَادِلُهْ

وما أحسبني يا ربيع إلاَّ قد حانت وفاتي وحضر أجلي، ومالي غير ربي، قم فاجعل لي غسلاً ففعلت فقام فاغتسل وصلَّى ركعتين وقال: أنا عازم على الحج فهيىء لنا آلة الحج فخرجنا وخرج حتى إذا انتهى إلى الكوفة ونزل النجف فأقام أياماً ثم أمر بالرحيل فتقدمت نوابه وجنده وبقيت أنا وهو بالقصر وشاكريته بالباب فقال لي: يا ربيع جئني بفحمة من المطبخ وقال لي: اخرج وكن مع دابتي إلى أن أخرج فلما خرج وركب رجعت إلى المكان أطلب شيئاً فوجدت قد كتب على الحائط بالفحمة: [مجزوء الرجز]

المَرْءُ يَهْوَى أن يعيش وطُولُ عَيْشٍ ما يَضُرُّهْ
تَفْنَى لذاذتُهُ ويبقى بعد حُلْوِ العَيْشِ مُرُّهْ
وتُصَرَّفُ الأيامُ حتى ما يرى شيئاً يَسُرُّهْ
كم شامتٍ بي إن هلكتُ وقائل لله دَرُّهْ

وصية باعتراف عارف في أشرف المواقف: وقف مطرف وبكر بن عبد الله بعرفة والفضيل بن عياض فقال مطرف: اللهم لا تردهم اليوم من أجلي، وقال بكر: ما أشرفه من

موقف وأرضاه لأهله لو لا أني فيهم، ورفع الفضيل رأسه إلى السماء وقد قبض على لحيته وهو يبكي بكاء الثكلى ويقول: واسوأتاه منك وإن عفوت.

تنبيه على الحياء من الله: روينا عن الشيخ عبد الرحمن ابن الأستاذ في كتاب ابن باكويه الشيرازي عن أبي الأديان قال: ما رأيت خائفاً إلاَّ رجلاً واحداً كنت بالموقف فرأيت شاباً مطرقاً منذ وقف الناس إلى أن سقط القرص فقلت: يا هذا أبسط يديك بالدعاء فقال لي: ثم وحشة، فقلت له: هذا يوم العفو من الذنوب، قال: فبسط يده ففي بسطه يديه وقع ميتاً.

وصية نبوية بالصدقة: قال رسول الله ﷺ: **«أَتى سائلٌ امرأةً في فَمِها لُقْمَةٌ فَلَفَظَتْها فَنَاوَلَتْها إِيَّاهُ فَلَمْ تَلْبَثْ أن رُزِقَتْ غُلاماً فَلَمَّا تَرَعْرَعَ جَاءَ ذِئْبٌ فاحْتَمَلَهُ فخرجت تَعْدُو في أَثَرِ الذِئبِ وَهِيَ تَقُولُ: ابني ابني فأمر الله مَلَكاً الْحَقِ الذئبَ فَخُذ الصَّبِيَّ مِنْ فِيهِ وَقُلْ لأُمِّه: إِنَّ الله يُقْرِئكِ السلامَ وَقُلْ: هذه لُقْمَةٌ بِلُقْمَةٍ»**.

وصية بر بحضور مجالس الذكر: قال عمار بن الراهب: رأيت مسكينة الطفاوية في منامي بعد موتها فقلت: مرحباً يا مسكينة مرحباً فقالت: هيهات يا عمار ذهبت المسكنة وجاء الغنى الأكبر، قلت: هيه قالت: ما تسأل عمّن أبيح لها الجنة بحذافيرها تظل فيها حيث تشاء، قال قلت: وبم ذاك؟ قالت: بمجالس الذكر والصبر على الحق، قال عمار: وكانت تحضر معنا مجلس عيسىٰ بن زادان بالإبلة تنحدر من البصرة حتى تأتيه قاصدة قال عمار قلت: يا مسكينة فما فعل عيسىٰ بن زادان رحمه الله؟ قال: فضحكت وقالت: [الخفيف]

قد كُسي حُلَّةَ البَهاء وطافت ... بالأباريق حوله الخُدَّامُ
ثم حُلّي وقيل يا قارىء أقرا ... فلعمري لقد براكَ الصِّيَامُ

وصية: ونصيحة كتبت بها إلى السلطان الغالب بأمر الله كيكاؤس صاحب بلاد الروم بلاد يونان رحمه الله جواب كتاب كتب به إلينا سنة تسع وستمائة: بسم الله الرحمن الرحيم، وصل الاهتمام السلطاني الغالب بأمر الله العزي أدام الله عدل سلطانه إلى والده الداعي له محمد بن العربي فتعين عليه الجواب بالوصية الدينية والنصحية السياسية الإلهية على قدر ما يعطيه الوقت ويحتمله الكتاب إلى أن يقدر الاجتماع ويرتفع الحجاب، فقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«الدِّينُ النَّصِيحَةُ»** قَالُوا: لمن يا رسول الله؟ فقال: **«لله وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمينَ وَعَامَّتِهِمْ»** وأنت يا هذا بلا شك من أئمة المسلمين وقد قلدك الله هذا الأمر وأقامك نائباً في بلاده ومتحكماً بما توفق إليه في عباده، ووضع لك ميزاناً مستقيماً تقيمه فيهم، وأوضح لك محجة بيضاء تمشي بهم عليها وتدعونهم إليها، على هذا الشرط ولاّك وعليه بايعناك، فإن عدلت فلك ولهم وإن جرت فلهم وعليك، فاحذر أن أراك غداً بين أئمة المسلمين من أخسر الناس ﴿أَعْمَٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ـ ١٠٤] ولا يكون شكرك لما أنعم الله به عليك من استواء ملكك بكفران النعم وإظهار المعاصي وتسليط الثواب السوء بقوّة سلطانك على الرعية الضعيفة فإن الله أقوى

منك، فيتحكمون فيهم بالجهالة والأغراض وأنت المسؤول عن ذلك، فيا هذا قد أحسن الله إليك وخلع خلع النيابة عليك، فأنت نائب الله في خلقه وظلّه الممدود في أرضه، فأنصف المظلوم من الظالم، ولا يغرنك أن الله وسع عليك سلطانك وسوى لك البلاد ومهدها مع إقامتك على المخالفة والجور وتعدي الحدود، فإن ذلك الاتساع مع بقائك على مثل هذه
إقامتك على المخالفة والجور وتعدي الحدود، فإن ذلك الاتساع مع بقائك على مثل هذه
الصفات إمهال من الحق لا إهمال، وما بينك وبين أن تقف على أعمالك إلاَّ بلوغ الأجل المسمّى، وتصل إلى الدار التي سافر إليها أباؤك وأجدادك، ولا تكن من النادمين فإن الندم في ذلك الوقت غير نافع، يا هذا ومن أشدّ ما يمرّ على الإسلام والمسلمين وقليل ما هم رفع النواقيس والتظاهر بالكفر وإعلاء كلمة الشرك ببلادك ورفع الشروط التي اشترطها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أهل الذمة من أنهم لا يحدثون في مدينتهم ولا ما حولهم كنيسة ولا ديراً ولا قليه ولا صومعة راهب، ولا يجددون ما خرب منها، ولا يمنعون كنائسهم أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم، ولا يأوون جاسوساً ولا يكتمون غشاً للمسلمين ولا يعلمون أولادهم القرآن ولا يظهرون شركاً ولا يمنعون ذوي قرباتهم من الإسلام إن أرادوه، وأن يوقروا المسلمين وأن يقوموا لهم من مجالسهم إذا أرادوا الجلوس، ولا يتشبهون بالمسلمين في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا يتسمون بأسماء المسلمين ولا يتكنون بكناهم، ولا يركبون سرجاً ولا يتقلدون سيفاً، وأن لا يتخذوا شيئاً من سلاح، ولا ينقشوا خواتيمهم بالعربية، ولا يبيعوا الخمور، وأن يجزوا مقام رؤوسهم وأن يلزموا زيّهم حيث ما كانوا، وأن يشدّوا الزنانير على أوساطهم ولا يظهروا صليباً ولا شيئاً من كتبهم في طريق المسلمين، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم ولا يضربوا بالناقوس إلاّ ضرباً خفياً، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيء من حضرة المسلمين، ولا يخرجوا سعايين، ولا يرفعوا مع أمواتهم أصواتهم، ولا يظهروا النيران معهم، ولا يشتروا من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين، فإن خالفوا شيئاً ممّا شورطوا عليه فلا ذمّة لهم، وقد حلّ للمسلمين منهم ما يحلّ من أهل المعاندة والشقاق، فهذا كتاب الإمام العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تُبْنَى كَنِيسَةٌ فِي الإِسْلامِ وَلا يُجَدَّدُ ما خَرِبَ مِنْهَا**» فتدبر كتابي ترشد إن شاء الله ما لزمت العمل به والسلام. ثم أوقعت له بشعر عملته في الوقت أخاطبه به وهو: [الطويل]

إذا أنْـتَ أعْـزَزْتَ الـهُـدَى وتَـبِـعْـتَـهُ ... فـأنـت لـهـذا الـدِّيـن عِـزٌّ كـمـا تُـدْعَـى
وإن أنـت لـم تَـحْـفَـلْ بـه وأهَـنْـتَـهُ ... فـأنـت مُـذِلُّ الـدِّيـن تَـخْـفُـضُـهُ وَضْـعَـا
فـلا تـأخُـذِ الألـقـابَ زُوراً فـإنـكـم ... لتُسْـأَلُ عنـهـا يـوم يَـجْـمَـعُـكُـمْ جَـمْـعَـا
يـقـال لـعـزّ الـديـن أعْـزَزْتَ دِيـنَـهُ ... ويـسـأل ديـن الله عـن عـزّكـم قَـطْـعـا
فـإن شـهـد الـديـنُ الـعـزيـزُ بـعِـزّكـم ... تَـكُـنْ مـع ديـن الله فـي عـزّهِ شَـفْـعَـا
وإن قـال ديـن الله كـنـت بـمـلـكـه ... ذلـيـلاً وأهـلـي فـي مـيـاديـنـه صَـرْعَـى

وما زلت في سلطانه ذا مهانة وفي زَغمِه بي أنه مُحْسِنٌ صُنْعا
فما حُجَّةُ السلطان إن كان قوله كما قلت فلْيَسْكُبْ لما قلته الدَّمْعَا
وأدِّ من لباب الله إن كنت تَبْتَغي تَجَاوُزَهُ عن ذَنْبك الضَّرْبَ والقَرْعَا
عسى جوده يوماً يجودُ بفتحه فيبرزُ عَفْوُ الله يدفعه دَفْعَا
فيا رَبِّ رِفْقاً بالجميع فيا لها إذا اجتمع الخصمان من وَقْعَةٍ شَنْعَا
فأنت إمامُ المُتقين ورأسُهُم إذا لم تَزَلْ تَجْبُرُ لدين الهدى صَدْعَا
لكم نائب في الأمر أصبح مُلحداً وأضحى لأهل الدين يقطعهم قَطْعا
فما لك لم تَغْلِبْهُ واسمُكَ غالبٌ وما لك لم تَعْزِلْهُ إذا أثر النَّقْعا
فيا أيها السلطان حَقِّقْ نصيحتي لكم وازِعني منكم لما قلتُه سَمْعا
فإني لكم والله أنْصَحُ نَاصِحٍ إذ ودّ الردى عنكم وأمْنَعُهُ مَنْعَا
وأجْلِبُ للسلطان من كل جانبٍ من الدين والدنيا العوارف والنَّفْعَا

والله ينفعني بوصيتي، ويجازيني على نيتي، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وصايا من منثور الحكم وميسور الكلم، ينسب إلى جماعة من العلماء الصالحين: من اكتفى باليسير استغنى عن الكثير، من صحّ دينه صحّ يقينه، من استغنى عن الناس أمن من عوارض الإفلاس، الدين أقوى عصمة والأمن أسنى نعمة، الصبر عند المصائب من أعظم المواهب، عش ما عشت في ظل يقيك وقوت يكفيك، والبخيل حارس نعمة وخازن ورثة، من لزم الطمع عدم الورع، الحسد شرّ عرض والطمع أضرّ غرض، الرضا بالكفاف خير من السعي للأشراف، أفضل الأعمال ما أوجب الشكر وأنفع الأموال ما أعقب الأجر، لا تثق بالدولة فإنها ظل زائل ولا تعتمد على النعمة فإنها ضيف راحل، مالك ما زجى يوميك وتوفر أجره وثوابه عليك، الكريم من كف أذاه والقوي من غلب هواه، من ركب الهوى أدرك العمى، من غالب الحق لان ومن تهاون بالدين هان، المؤمن غرّ كريم والمنافق خب لئيم، إذا ذهب الحياء يحل البلاء، كل إنسان طالب أمنية ومطلوب لمنية، علم لا ينفع كدواء لا ينجع، أحسن العلم ما كان مع العمل، وأحسن الصمت ما كان عن الخطل، اعص الجاهل تسلم وأطع العاقل تغنم، من صبر على شهوته بالغ في مروته، من كثر ابتهاجه بالمواهب اشتدّ انزعاجه للمصائب، من تمسك بالدين عزّ نصره ومن استظهر بالحق ظهر قهره، من استقصر بقاءه وأجله قصر رجاءه وأمله، لا تبت على غير وصية، وإن كنت من جسمك في حصة ومن عمرك في فسحة، فإن الدهر خائن وما هو كائن كائن، لا تخل نفسك من فكرة تزدك حكمة وتفيدك عصمة، من جعل ملكه خادماً لدينه انقاد له كل سلطان، ومن جعل دينه خادماً لملكه طمع فيه كل إنسان، من سلك سبيل الرشاد بلغ كنه المراد، من لزم العافية سلم ومن قبل النصيحة غنم، قلب تأثّر من صادق مؤثر. حدثنا أحمد بن مسعود بن شداد المقري الموصلي بالموصل سنة إحدى وستمائة وكان ثقة قال: حدثنا أبو جعفر بن القاص قال: حدثنا يوسف بن أبي القاسم الديار بكري، حدثنا جمال الإسلام أبو الحسن علي بن أحمد القرشيّ

الهكاريّ، حدثنا أبو الحسن الكرخيّ، حدثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن الفضل النهاوندي قال: سمعت شيخي جعفر بن محمد الخلدي يقول: كنت مع الجنيد رحمه الله في طريق الحجاز حتى صرنا إلى جبل طور سيناء فصعده الجنيد وصعدنا معه فلما وقفنا في الموضع الذي وقف فيه موسى عليه السلام وقعت علينا هيبة المكان وكان معنا قوال فأشار إليه الجنيد أن يقول شيئاً فقال: [الكامل]

وبَدَا له من بَعْدِ ما انْدَمَلَ الهَوَى ... بَرْقٌ تَأَلَّقَ مَوْهِناً لَمَعَانُهُ
يبدو كحاشية الرّدا ودونه ... صَعْبُ الذُّرا متمنّعٌ أركانُهُ
فبدا لينظر كيف لاح فلم يُطقْ ... نظراً إليه وصَدَّهُ سُبْحَانَهُ
فالنار ما اشتملت عليه ضُلُوعُهُ ... والماءُ ما سمحت به أجفَانُهُ

قال: فتواجد الجنيد وتواجدنا فلم يدر أحد منا أفي السماء نحن أو في الأرض؟ وكان بالقرب منا دير فيه راهب فنادى: يا أمة محمد بالله أجيبوني فلم يلتفت إليه أحد لطيب الوقت فنادانا الثانية بدين الحنيفية إلاّ أجبتموني فلم يجبه أحد فنادانا الثالثة بمعبودكم إلاّ أجبتموني فلم يرد عليه أحد جواباً، فلما فترنا من السماع وهمّ الجنيد بالنزول قلنا له: إن هذا الراهب نادانا وأقسم علينا ولم نرد عليه، فقال الجنيد: ارجعوا بنا إليه لعل الله يهديه إلى الإسلام، فناديناه فنزل إلينا وسلم علينا فقال: أيما منكم الأستاذ؟ فقال الجنيد: هؤلاء كلهم سادات وأستاذون، فقال: لا بدّ أن يكون واحد هو أكبركم، فأشاروا إلى الجنيد فقال: أخبرني عن هذا الذي فعلتموه هو مخصوص في دينكم أو معموم؟ فقال: بل مخصوص، فقال الراهب: لأقوام مخصوصين أو معمومين؟ فقال: بل لأقوام مخصوصين، فقال: بأي نية يقومون؟ فقال: بنية الرجاء والفرح بالله تعالىٰ، فقال: بأي نية تسمعون؟ فقال: بنية السماع من الله تعالىٰ، فقال: بأي نية تصيحون؟ فقال: بنية إجابة العبودية الربوبية لما قال الله تعالىٰ للأرواح: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال: فما هذا الصوت؟ قال: نداء أزلي، فقال: بأي نية تقعدون؟ قال: بنية الخوف من الله تعالىٰ، قال: صدقت. ثم قال الراهب للجنيد: مدّ يدك أنا أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله وأسلم الراهب وحسن إسلامه، فقال له الجنيد: بم عرفت أني صادق؟ قال: لأني قرأت في الإنجيل المنزل على المسيح ابن مريم خواص أمة محمد ﷺ يلبسون الخرقة ويأكلون الكسرة ويرضون بالبلغة ويقومون في صفاء أوقاتهم بالله يفرحون وإليه يشتاقون وفيه يتواجدون وإليه يرغبون ومنه يرهبون، فبقي الراهب معنا ثلاثة أيام على الإسلام ثم مات رحمه الله.

وصايا في القول: سمعت محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي الفاسي بمدينة فاس العدل أظن في سنة أربع وتسعين وخمسمائة يقول: تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات كأنما رميت عن قوس واحدة، قال كسرى: أنا على رد ما لم أقل أقوى مني على رد ما قلت. وقال ملك الهند: إذا تكلمت بكلمة ملكتني وإن كنت أملكها. وقال قيصر

ملك الروم: لا أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت. وقال ملك الصين: عاقبة ما قد جرى به القول أشدّ من الندم على ترك القول. قال بعض الشعراء: [الطويل]

لَعَمْرُكَ ما شيءٌ عَلِمْتَ مكانَهُ أَحَقُّ بِسِجْنٍ من لسان مُذَلَّلِ
على فيك ممّا ليس يَعْنِيكَ قَوْلُهُ بقُفْلٍ شديدٍ حيث ما كنت أَقْفِلِ

وقالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: خلال المكارم عشر تكون في الرجل ولا تكون في ابنه، وتكون في العبد ولا يكون في سيده، صدق الحديث، وصدق الناس، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصنائع، والتذمّم للجار، ومراعاة حق الصاحب، وصلة الرحم، وقرى الضيف، وأداء الأمانة، ورأسهن الحياء. وقال بعضهم كتمانك سرك يعقبك السلامة، وإفشاؤك سرك يعقبك الندامة، والصبر على كتمان السرّ أيسر من الندم على إفشائه. في الحكمة: ما أقبح بالإنسان أن يخاف على ما في يده اللصوص فيخفيه ويمكن عدوّه من نفسه بإظهاره ما في قلبه من سرّ نفسه أو سرّ أخيه. جاور معي بمكة أظن سنة تسع وتسعين وخمسمائة رجل من أهل تونس يقال له عبد السلام بن السعرية وكانت عنده جارية اشتراها بمصر في الشدّة التي وقعت بمصر سنة سبع وتسعين وخمسمائة فقال لها: يا جارية أوصيك بأمرين: حفظ السرّ والأمانة، فقالت الجارية: ما تحتاج فإني أعلم أن الشخص إذا كان أميناً شارك الناس في أموالهم، وإذا كان حافظاً للسر شاركهم في عقولهم، فاستحسن هذا الجواب منها فسأل عنها فوجدها حرة قد بيعت في غلاء مصر فأعتقها وسرّحها فرجعت إلى أمها وأخواتها.

وقال معاوية رضي الله عنه: ما أفشيت سرّي إلى أحد إلاّ أعقبني طول الندم وشدّة الأسف، ولا أودعته جوانح صدري إلاّ أكسبني مجداً وذكراً وسناً ورفعة، فقيل له: ولا ابن العاص؟ فقال: ولا ابن العاص، لأن عمرو بن العاص كان صاحب رأي معاوية ومشيره ووزيره. وكان يقول: ما كنت كاتمه من عدوّك فلا تظهر عليه صديقك، يريد والله أعلم معاوية بهذا الكلام ما كان ينشدنا في أكثر مجالسه أبو بكر محمد بن خلف بن صاف اللخمي أستاذي في القراءات بمسجده بقوس الحنية من إشبيلية رحمة الله يوصينا بذلك: [مجزوء الكامل]

احْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً واحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّةْ
فَلَرُبَّما هَجَرَ الصديقُ فكان أعْرَفَ بالمَضَرَّةْ

وكان عمي أخو والدي ينشدني كثيراً للسميسر: [المتقارب]

زَمانٌ يَمُرُّ وعَيْشٌ يَمُرُّ ودَهرٌ يكُرُّ بما لا يَسُرُّ
ونَفْسٌ تذوبُ وهَمٌّ يَنُوبُ ودنيا تُنادي بأن ليس حُرُّ

ومن كلام النبوة في الوصية: من كتم سرّه كانت الخيرة في يده. ومن عرّض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن وضع أمر أخيك على أحسنه. ولا تظنن بكلمة خرجت منه

سواء. وما كافأت من عصى الله فيك بأفضل من أن تطيع الله عزّ وجلّ فيه. وعليك بإخوان الصدق فإنهم زينة عند الرخاء وعصمة عند البلاء.

حكاية تتضمن وصية. حدثني أبو القاسم البجايي بمراكش عن أبي عبد الله الغزال العارف الذي كان بالمرية من أقران أبي مدين وأبي عبد الله الهوازي بتنس وأبي يعزى وأبي شعيب السارية وأبي الفضل اليشكري وأبي النجا وتلك الطبقة، قال أبو عبد الله الغزال: كان يحضر مجلس شيخنا أبي العباس بن العريف الصنهاجي رجل لا يتكلم ولا يسأل ولا يصحب واحداً من الجماعة، فإذا فرغ الشيخ من الكلام خرج فلا نراه قط إلاّ في المجلس خاصة، فوقع في نفسي منه شيء ووقعت منه على هيبة فأحببت أن أتعرف به وأعرف مكانه فتبعته عشية يوم بعد انفصالنا من مجلس الشيخ من حيث لا يشعر بي، فلما كان في بعض سكك المدينة إذا بشخص قد انقض عليه من الهواء برغيف في يده فناوله إياه وانصرف، فجذبته من خلفه فقلت: السلام عليك فعرفني فردّ عليّ السلام فسألته عن ذلك الشخص الذي ناوله الرغيف فتوقف، فلما علم مني أني لا أبرح دون أن يعرفني قال لي: هو ملك الأرزاق يأتي إليّ من عند الله كل يوم بما قدر لي من الرزق حيث كنت من أرض ربي، ولقد لطف الله بي في بدء أمري ودخولي إلى هذا الطريق إذا فرغت نفقتي وبقيت بلا شيء سقط عليّ من الهواء وبين يدي قدر ما أشتري به ما أحتاج إليه من القوت فأنفق منه، فإذا فرغ جاءني مثل ذلك من عند الله لكني ما كنت أري شخصاً، قال تعالىٰ في حق مريم ابنة عمران: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧].

حكاية: حرمة في سلب نعمة: مرَّ زياد بن أمية بالحيرة فنظر إلى دير فقال لخادمه: لمن هذا؟ قال: دير حرقة بنت النعمان بن المنذر، فقال: ميلوا بنا إليه نسمع كلامها، فجاءت فوقفت خلف الباب فكلمها الخادم فقال لها: كلمي الأمير، قالت: أوجز أم أطيل؟ قال: بل أوجزي، قالت: كنا أهل بيت طلعت الشمس علينا وما على الأرض أحد أعزّ منا فما غربت تلك الشمس حتى رحمنا عدوّنا. قال: فأمر لها بأوساق من شعير، فقالت: أطعمتك يد شبعاء جاعت ولا أطعمتك يد جوعاء شبعت، فسرّ زياد بكلامها، فقال لشاعر معه: قيد هذا الكلام لا يدرس يعني أنظمه، فقال: [الطويل]

سَلِ الخَيْرَ أهْلَ الخَيْرِ قُدْماً ولا تَسَلْ ... فَتَى ذَاقَ طَعْمَ الخَيْر مُنْذُ قَرِيبِ

ونظمنا نحن في هذا المعنى: [الطويل]

سَلِ الخَيْرَ أهْلَ الخَيْر إن كُنْتَ سائلاً ... ولا تَسْأَلِ المَعْرُوفَ من مُحْدَثِ المَالِ
فإن اليَدَ الجَوْعَاءَ تَبْخَلُ بالذي ... أصابَتْه من خير على الكاسف البالي
فإن غَلِطَتْ جَادَتْ وتَمْتَنُّ بالذي ... تجودُ به يوماً على الترب الحالي
وإنّ اليَدَ الشَّبْعَاءَ جَادَتْ بما تَجد ... على طِيبِ نَفْسٍ في سُرُورٍ وإقْبَالِ

في الحكمة: ثواب الجود خلفة ومحبة ومكافأة، وثواب البخل حرمان وإتلاف ومذمّة.

وكتب حكيم إلى الإسكندر: اعلم أن الأيام تأتي على كل شيء فتخلفه وتخلق آثاره وتميت الأفعال إلاَّ ما رسخ في قلوب الناس، فأودع قلوبهم محبة أبدية يبقى بها حسن ذكرك وكريم فعالك وشرف آثارك. وفد علينا ونحن بإشبيلية شيخ شاعر يعرف بالسبيتي من قرطبة رحمه الله وكان صاحب الديوان عندنا زكريا بن سنان أديباً حاذقاً فطناً ولم يكن للسبيتي موضع ينزل فيه فكتب إلى صاحب الديوان: [الوافر]

أتَحْفَلُ بالفرزدق والكُمَيْتِ وفي قيد الحيا شعر السُّبَيْتي
يروّعني بشِعْرهِما أناسٌ وجَهْلاً رَوَّعُوا حَيّاً بمَيْتِ
لئن أسْكَنْتَني بيتاً رفيعاً لتسكنُ من ثنائي ألفَ بَيْتِ

فوقع له صاحب الديوان بيتاً نزل فيه واعتذر إليه ووصله بنفقة. قيل لبزرجمهر عندما قدم للقتل تكلم بكلام تذكر به فقال: أي شيء أقول إن الكلام كثير، ولكن إن أمكنك أن تكون حديثاً حسناً فافعل ولنا: [الرمل]

إنما الناسُ حديثٌ كُلُّهم فلْتكُنْ خَيْرَ حَدِيثٍ يُسْمَعُ

خاتمة الباب

وهو خاتمة الكتاب

تعويذات مذكورة وأدعية مشهورة: فمن ذلك ما يقال عند الكرب: لا إله إلاّ الله العظيم الحليم، لا إله إلاّ الله رب العرش العظيم، لا إله إلاّ الله رب السموات والأرض رب العرش الكريم ويقال عند دخول المسجد: اللهم افتح لنا أبواب رحمتك. ويقال عند الخروج منه: اللهم إنا نسألك من فضلك. ويقال عند دخول الخلاء: اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث. وقد روينا أيضاً أنه يقال: أعوذ بالله من الخبيث المخبث الرجس النجس الشيطان الرجيم. ويقال عند الخروج من الخلاء: غفرانك. ويقال عند الجماع: اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا. ويقال عند انقضاء الطعام: الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً غير مكف ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا. ويقال عند العطاس: الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه مباركاً عليه كما يحب ربنا ويرضى. ويقال عند النوم: إذا أخذ الإنسان مضجعه: اللهم: إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رهبة منك ورغبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلاّ إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، اللهمّ باسمك أحيا وباسمك أموت، سبحانك ربي لك وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين. ويقال عند الاستيقاظ من النوم: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور. وإذا أردت النوم فانو أن تلقى ربك، ولتحب النوم لكون لقاء ربك فيه كما تحب الموت فإنه فيه لقاء ربك، فإنه من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] فالنوم موت أصغر، والذي ينتقل إليه بعد الموت هو الذي ينتقل إليه في النوم الحضرة واحدة وهي البرزخ والصورة واحدة واليقظة مثل البعث يوم القيامة، وإنما جعل الله النوم في الدنيا لأهلها وما نرى فيه من الرؤيا وجعل بعده اليقظة كل ذلك ضرب مثال للموت وما يشاهد فيه للرؤيا والبعث لليقظة، فالقيام من المضاجع كالبعث من القبور سواء. ويقال عند الصباح: أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله وحده لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهمّ إني أسألك خير هذا اليوم وخير ما بعده، وأعوذ بك من شرّ هذا اليوم وشرّ ما بعده. ويقال عند المساء: أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهمّ إني أسألك خير هذه الليلة وخير ما بعدها وأعوذ بك من شرّ هذه الليلة وشرّ ما بعدها. ويقال عند القيام من كل مجلس: سبحانك

اللهمّ وبحمدك لا إله إلاّ أنت أستغفرك وأتوب إليك. ويقال عند خاتمة المجالس: اللهمّ أسمعنا خيراً وأطلعنا خيراً ورزقنا الله العافية وأدامها لنا، وجمع الله قلوبنا على التقوى، ووفقنا لما يحبّ ويرضى ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] هذا الدعاء سمعته من رسول الله ﷺ في المنام يدعو به بعد فراغ القارىء عليه من كتاب صحيح البخاري، وذلك سنة تسع وتسعين وخمسمائة بمكة بين باب الحزورة وباب أجياد يقرأه الرجل الصالح محمد بن خالد الصدفي التلمسانيّ وهو الذي كان يقرأ علينا كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي، وسألت رسول الله ﷺ في تلك الرؤيا عن المطلقة بالثلاث في لفظ واحد وهو أن يقول لها: أنت طالق ثلاثاً فقال لي ﷺ: هي ثلاث كما قال لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، فكنت أقول له: يا رسول الله فإن قوماً من أهل العلم يجعلون ذلك طلقة واحدة، فقال ﷺ: هؤلائك حكموا بما وصل إليهم وأصابوا ففهمت من هذا تقرير حكم كل مجتهد وأن كل مجتهد مصيب، فكنت أقول له: يا رسول الله فما أريد في هذه المسألة إلاّ ما تحكم به أنت إذا استفتيت وما لو وقع منك ما كنت تصنع؟ فقال: هي ثلاث كما قال: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠] فرأيت شخصاً قد قدم من آخر الناس ورفع صوته وقال بسوء أدب يخاطب رسول الله ﷺ يقول له: يا هذا بهذا اللفظ لا نحكمك بإمضاء الثلاث ولا بتصويبك حكم أولئك الذين ردّوها إلى واحدة، فاحمرّ وجه رسول الله ﷺ غضباً على ذلك المتكلم ورفع صوته يصيح هي ثلاث كما قال: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠] تستحلون الفروج، فما زال ﷺ يصيح بهذه الكلمات حتى أسمع من كان في الطواف من الناس وذلك المتكلم يذوب ويضمحل حتى ما بقي منه على الأرض شيء فكنت أسأل عنه من هو هذا الذي أغضب رسول الله ﷺ؟ فيقال لي: هو إبليس لعنه الله، واستيقظت وكنت أراه ﷺ في تلك السنة في النوم أيضاً فكنت أقول له: يا رسول الله إن الله يقول في كتابه العزيز: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] والقرء عند العرب من الأضداد يطلقونه ويريدون به الحيض ويطلقونه ويريدون به الطهر وأنت أعرف بما أنزل الله عليك فما أراد الله به هنا الحيض أو الطهر؟ فكان ﷺ يقول لي في الجواب عن ذلك: إذا فرغ قرؤها فأفرغوا عليها الماء وكلوا ممّا رزقكم الله يكني، فكنت أقول: يا رسول الله فإذن هو الحيض، فيقول لي: إذا فرغ قرؤها فأفرغوا عليها الماء وكلوا ممّا رزقكم الله، فكنت أقول له: فإذن هو الحيض يا رسول الله، فيقول لي: إذا فرغ قرؤها فأفرغوا عليها الماء وكلوا ممّا رزقكم الله ثلاث مرات واستيقظت.

ثم نرجع إلى ما كنا بسبيله من الدعاء: اللهمّ اغفر لي خطاياي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير، اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي من كل خير، واجعل الموت راحة لي من

كل شر، اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى ومن العمل ما ترضى، اللهم أبت نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من فتنة القبر وعذاب النار ومن فتنة النار وعذاب القبر، ومن شرّ الغنى، ومن شرّ فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والفزع والبخل وأرذل العمر، ومن فتنة المحيا والممات، اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء وشماتة الأعداء ودرك الشقاء، اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وضلع الدين وغلبة الرجال، اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة، اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وفجأة نقمتك ومن جميع سخطك، اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق ومن سوء الأخلاق، اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة، اللهم إني أعوذ بك من المرض والجنون والجذام ومن سيِّىء الأسقام، اللهم إني أعوذ بك من شرّ القرين ما ظهر منه وما بطن، اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، اللهم إني أعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك لا إله إلاّ أنت أستغفرك، اللهم ربنا وأتوب إليك، اللهم كل ما سألتك فيه ومنه فإني أسألك ذلك كله ولوالدي، وارحمني وأهلي وقرابتي وجيراني ومن حضرني من المسلمين ومن عرفني أو سمع بذكري أو لم يعرفني، ولوالديهم وأبنائهم وإخوانهم وأزواجهم وعشيرتهم وذوي رحمهم، وللمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء والأموات، ومن ظن بي خيراً ومن لم يظن بين خيراً، إنك واهب الخيرات ودافع المضرات، وأنت على كل شيء قدير. اللهم إني قد تصدقت بعرضي ومالي ودمي على عبادك فلا أطالبهم بشيء من ذلك لا في الدنيا ولا في الآخرة وأنت الشاهد علي بذلك، وصلِّ وسلّم على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما صليت وسلمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، وآته الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد، واجزه عنا وعن أمته خيراً، فلقد بلغ ونصح وبذل جهده في ذلك وما قصر ﷺ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٢٦] ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧] ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨] ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: ١٢٨] ربنا وابعث فينا وارث رسولك منا يتلو علينا آياتك ويعلمنا الكتاب والحكمة ويزكينا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩] ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] آتنا ما وعدتنا بيسر منك في عافية حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢] فلا تجعلنا منهم ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ

أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّاۚ﴾ [آل عمران: ١٩٣] وصدقنا وسمعنا بتوفيقك ربنا ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحشر: ١٠] ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣] ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨] الحمد لله ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِىۚ﴾ [إبراهيم: ٤٠] ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠] ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] رب ارحم والدي كما ربياني صغيراً ﴿رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤] رب اجعلني رضيا ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩] ﴿رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥] ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [نوح: ٢٨] ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [الأنبياء: نوح: ٢٨] ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ [نوح: ٢٨] اللهم خذ بأزمة قلوبنا إليك، واجعلنا ممّن توكل في جميع أموره عليك، وعمّنا بالرحمة التي لديك وفي يديك واجعلنا هادين مهدين، غير ضالين ولا مضلين.

انتهى الباب بحمد الله بانتهاء الكتاب على أمكن ما يكون من الإيجاز والاختصار على يدي منشئه، وهو النسخة الثانية من الكتاب بخط يدي، وكان الفراغ من هذا الباب الذي هو خاتمة الكتاب بكرة يوم الأربعاء والعشرين من شهر ربيع الأوّل سنة ست وثلاثين وستمائة، وكتب منشئه بخطه محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الحاتمي وفقه الله.

هذه النسخة سبعة وثلاثون مجلداً وفيها زيادات على النسخة الأولى التي وقفتها على ولدي محمد الكبير الذي أمه فاطمة بنت يونس بن يوسف أمير الحرمين وفقه الله وعلى عقبه وعلى المسلمين بعد ذلك شرقاً وغرباً براً وبحراً، وصلّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المحتويات

دار الكتب العلمية
DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
BEIRUT